شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة *

١ – نهج البلاغة

اجتمع للإمام عليّ بن أبي طالب من صفات الكمال ، ومحمود الشمائل والخلال ، وسناء الحسب وباذخ الشرف ؛ مع الفطرة النقية ، والنفس المرضية ، مالم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال .

(*) مصادر البحث والترجمة :

١ – البداية والنهاية ، لابن كثير – ١٣ : ١٩٨ – ١٩٩ ، (مطبعة السعادة) .

٢ – تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي – الجزء الرابع الورقة ٩ ، (مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .

٣ – الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، لابن الفوطي ص ٣٣٦ ، (طبعة المكتبة العربية ببغداد)

٤ – درة الأسلاك في دولة الأتراك ؛ لابن حبيب الحلبي – وفيات سنة ٦٥٥ ، (مصورة دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ ح) .

٥ – روضات الجنات لمحمد باقر الخوانسارى ٤٠٦ – ٤٠٩ ، (طبع العجم ١٣٠٤ هـ) .

٦ – عقد الجمان العيني – وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية ١٥٨٤ تاريخ) .

٧ – عيون التواريخ لابن شاكر – وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ).

٨ – فوات الوفيات ١ : ٥١٩ – ٥٢٢ (مطبعة السعادة) .

٩ – كشف الظنون ١٢٢٣ ، ١٢٩١ ، ١٥٧٦ ، ١٦١٥ ، ١٩٩١ ، (طبع استانبول ١٩٤٣).

١٠ – ماهو نهج البلاغة ، للسيد هبة الله الشهرستاني ، (مطبعة العرفان بصيدا) .

١١ – مجمع الآداب لابن الفوطي ، (في ذيل الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة – طبعة الحلبي) .

١٢ – نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر ، ليوسف بن يحيي الصنعاني ، الورقة ٢٦٠ – ٢٦٢ (مصورة دار الكتب المصرية ١٣٨٤٩ ح) .

تحدّر من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ؛ فأبوه أبو طالب عظيم المشيَخة من قريش . وجدّه عبد المطلب أمير مكّة وسيّد البطحاء ؛ ثم هو قبل ذلك من هامات بني هاشم وأعيانهم؛ وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ : «مِلح الأرض، وزينة الدنيا ، وحَلْى العالم ، والسَّنام الأضخم ، والـكاهِل الأعظم ؛ ولُباب كلّ جَوْهرٍ كريم ، وسرّ كلّ عنصُر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرِس المبارك ، والنِّصاب الوثيق، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم . . . » [1].

واختصّ بقرابته القريبة من الرّسول عليه السلام ؛ فـكان ابنَ عمّه ، وزوج ابنته، وأحبَّ عِتْرته إليه ، كما كان كاتب وحيه ، وأقربَ الناس إلى فصاحته وبلاغته ، وأحفظهم لقوله وجوامع كَلِمه ؛ أسلم على يديه صبيًّا قبل أن يمسّ قلبه عقيدةٌ سابقة ، أو يخالط عقله شَوْبٌ من شرك موروث ؛ ولازمه فتيًّا يافعا ؛ في غدوّه ورواحه ، وسِلْمه وحربه ؛ حتى تخلّق بأخلاقه ، واتّسم بصفاته ، وفقِه عنه الدين ، وثقف ما نزل به الرّوح الأمين؛ فـكان من أفقه أصحابه وأقضاهم، وأحفظهم وأوعاهم ؛ وأدقهم في الفتيا؛ وأقربهم إلى الصّواب ؛ وحتى قال فيه عمر : لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن . وكانت حياته كلّها مفعمة بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور ؛ فعلى عهد الرسول عليه السلام ناضل المشركين واليهود؛ فـكان فارس الحلبة ومِسْعَر الميدان ، صليب النَّبْع جميع الفُؤاد ؛ وفي أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ؛ لقي فيها مالقيَ من تفرّق الـكلمة واختلاف الجماعة ، وانفصام العُرْوة ؛ ماطوى أضالعه على الهمّ والأسى، ولاع قلبه بالحزن والشّجن ؛ وفي كل مالقيَ من أحداث وأمور، وماصادف من محن وخطوب، بلا الناس وخَبَرهم، وتفطّن لمطاوي نفوسهم، واستشفّ ما وراء مظاهرهم ؛ فـكان العالم المجرّب الحـكيم ، والناقد الصيرفيّ الخبير .

وكان لطيف الحِسّ ، نقيّ الجوهر ، وضاء النفْس ؛ سليمَ الذّوق ، مستقيمَ الرأى ،

---

(1) زهر الآداب ١ : ٥٩ .

حسنَ الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر الخاطر ؛ حوّلا قلّبا ؛ عارفا بمهمّات الأمور إصدارا وإيرادا ؛ بل كان كما وصفه الحسن البصريّ : سهما صائبا من مرامى الله على عدوّه ، وربانىّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يكن بالنئومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ؛ أعطى القرآن عزائمه ، ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام مشرقة ، ذاك على بن أبى طالب .

* * *

كلّ هذه المزايا مجتمعة ، وتلك الصفات متآزرة متناصرة ؛ وما صاحبها من نَفْح إلهىّ ، وإلهام قُدسىّ ، مكّنت للإمام علىّ من وجوه البيان ، وملّكته أعنّة الكلام ، وألهمته أسمى المعانى وأكرمها ، وهيّأت له أشرف المواقف وأعزّها ، فجرتْ على لسانه الخُطب الرائعة ، والرسائل الجامعة ، والوصايا النافعة ، والكلمة يرسلها عفو الخاطر فتغدو حِكْمة ، والحديث يلقيه بلا تمحّل ولا إعنات فيصبح مثلا ؛ فى أداء محكَم ، ومعنى واضح ، ولفظ عذب سائغ ؛ وإذا هذا الكلام يملأ السهل والجبل ، وينتقل فى البدو والحضر ؛ يرويه على كثرته الرواة ، ويحفظه العلماء والدارسون ؛ قال المسعودىّ : والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة ؛ يوردها على البديهة ؛ تداول عنه الناس ذلك قولا وعملا (1) .

ثم ظلّ هكذا محفوظا فى الصدور مرويًّا على الألسنة ، حتى كان عصر التدوين والتأليف ؛ فانتثرت خطبه ورسائله فى كتب التاريخ والسيَر والمغازى والمحاضرات والأدب

---

(1) تاريخ المسعودى ٢ : ٤٣١ .

على الخصوص ، كما انتخبت كلماته ومأثور حكمه فيما وضعوه من أبواب للواعظ والدعاء ؛ وفى كتابَي الغريب لأبى عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة منه الشيء الكثير

وإذ كان لكلام الإمام علىّ طابع خاصّ يميزه عن غيره من الخطباء ، ونهج واضح يخالف غيره من البلغاء والمترسلين ؛ فقد حاول كثير من العلماء والأدباء على مرّ العصور أن يُفردوا لكلامه كتبا خاصة ودواوين مستقلّة ؛ بقىَ بعضها وذهب الكثير منها على الأيام ؛ منهم نصر بن مزاحم صاحب صفين، وأبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ، وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدىّ ، ومحمد بن عمر الواقدىّ ، وأبو الحسن علىّ بن محمد المدائنى ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبو الحسن علىّ بن الحسين المسعودىّ ، وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعىّ ، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد التميمىّ ، ورشيد الدين محمد بن محمد المعروف بالوطواط ، وعزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد ؛ وغيرهم كثيرون .

إلّا أنّ أعظم هذه المحاولات خطرا ، وأعلاها شأنا ، وأحسنها أبوابا ؛ وأبعدها صيتا وشأوا ؛ هو مجموع ما اختاره الشريف الرضىّ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ ؛ فى كتابه « نهج البلاغة » .

بناه على ما أفرده فى كتاب « خصائص الأئمة » من « فصل يتضمّن محاسن مانقل عنه عليه السلام من الكلام القصير فى الحِكَم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة[1] »؛ ثم جعله كتابا « يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه ومتشعّبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب ؛ علما أن ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية مالا يوجد مجتمعا فى كلام ، ولا مجموع الأطراف فى كتاب »[1] .

(١) مقدمة الرضى للنهج .

وأدار اختياره على ثلاثة أقطاب: أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ ؛ وأسماه كتاب « نهج البلاغة » « إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طِلابها ، وفيه حاجة العالم والمتعلم ، وبغية البليغ والزاهد »[1].

ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه سار في الناس ذكره ، وتألق نجمه ؛ أشأم وأعرق ، وأنجد وأتهم ، وأعجب به الناس حيث كان ، وتدارسوه في كل مكان . لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق؛ وما احتواه من جوامع الكلم، ونوابغ الحكم في أسلوب متساوق الأغراض ، محكم السبك، يعد في الذروة العليا من النثر العربيّ الرائع.

***

ولم يذكر الشريف الرضيّ في صدر كتابه المصادر التي رجع إليها ؛ أو الشيوخ الذين نقل عنهم ؛ إلا أنه - كما يبدو من تضاعيف الكتاب - نقل في بعض ما نقل عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، والمقتضب للمبرد ، وكتاب المغازي لسعيد بن يحيى الأمويّ، وكتاب الجمل للواقديّ، والمقامات في مناقب أمير المؤمنين لأبي جعفر الإسكافيّ، وتاريخ ابن جرير الطبريّ، وحكاية أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر ، ورواية اليمانيّ عن أحمد ابن قتيبة؛ وما وجد بخط هشام بن الكلبيّ وخبر ضرار بن حمزة الصدائيّ، ورواية أبي جحيفة، وحكاية ثعلب عن أبي الأعرابيّ[2]؛ ولعله في غير ما نقل عن هؤلاء ، نقل من مصادر أخرى لم يصرح بها .

***

وعلى مرّ العصور والأزمان كانت نسبة ما في كتاب نهج البلاغة إلى الإمام عليّ مثاراً للشك عند العلماء والباحثين ؛ المتقدمين والمتأخرين .

---

(١) مقدمة الرضي للنهج .

(٢) انظر نهج البلاغة ١ : ٣٦ ، ٦٢ ، ٨٩ / ٢ : ٥٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣، ٣٩١

وقد تناول ابن أبي الحديد هذه القضية بالبحث ، فقال :

كثير من أرباب الهوى يقولون : إن كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة ، وربما عزَوْا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن أو غيره ؛ وهؤلاء أعمت العصبيةُ أعينَهم فضلّوا عن النهج الواضح ، وركِبُوا بُنيّاتِ[1] الطريق ، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام .

وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول : لا يخلو إما أن يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعا منحولاً ، أو بعضه .

والأول باطل بالضرورة ؛ لأنا نعلم بالتواتر صحةَ إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدّثون - كلّهم أو جلّهم - والمؤرخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك .

والثاني : يدلّ على ماقلناه ؛ لأنّ من قد أنس بالكلام والخطابة ، وشدا طرَفاً من علم البيان ، وصار له ذوق في هذا الباب ؛ لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد . وإذا وقف على كراس واحدٍ يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط ، فلا بدّ أن يفرق بين الكلامين ، ويميز بين الطريقتين ؛ ألا ترَى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده ؛ لو تصفّحنا ديوانَ أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيرِه لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام نفسه وطريقته ومذهبه في القريض ؛ ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ، لمباينتها لمذهبه في الشعر ! وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس كثيرا

---

(1) بنيات الطريق : هي الطرق الصغار تتشعب من الجادة ؛ وهي الترهات .

لما ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ولا من شعره ، وكذلك غيرهما من الشعراء ؛ ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة .

وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحدا ، ونفَسا واحدا ، وأسلوبا واحدا؛ كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقى الأبعاض فى الماهية ؛ وكالقرآن العزيز ، أوله كوسطه ، وأوسطه كآخره ؛ وكلّ سورة منه ، وكل آية مماثلة فى المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقى الآيات والسوَر .

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولا ، وبعضه صحيحا ، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك بالبرهان الواضح ضلالُ من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرّق على نفسه مالا قِبَل له به ؛ لأنا متى فتحنا هذا الباب ، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا فى هذا النحو ، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول : هذا الخبرُ منحول ؛ وهذا الكلام مصنوع ؛ وكذا مانقل عن أبى بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والآداب وغير ذلك ، وكلّ أمرٍ جعله هذا الطاعن مستَندا له فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله والأئمة الراشدين والصحابة والتابعين والشعراء والمترسلين والخطباء ؛ فلناصرى أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مِثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره ؛ وهذا واضح »[1] .

* * *

(١) شرح نهج البلاغة ١٠ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

٢ — شرح نهج البلاغة

وقد تصدّر لشرح كتاب « نهج البلاغة » كثيرون من العلماء والفضلاء ؛ ذكر السيد هبة الله الشهرستانى[1] أنها تنوف على الخمسين شرحا ؛ ما بين مبسوط ومختصر؛ منهم أبو الحسين البيهقىّ ، والإمام فخر الدين الرازىّ ، والقطب الراوندىّ ، وكمال الدين محمد ميثم البحرانىّ ؛ من المتقدمين ، وحبيب بن محمد بن هاشم الهاشمىّ والشيخ محمد عبده ومحمد نائل المرصفى من المتأخرين .

ولكن أعظم هذه الشروح وأطولها ، وأشملها بالعلوم والآداب والمعارف وأملؤها ؛ هو شرح عزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد المدائنىّ ؛ صنفه برسم خزانة مؤيد الدين أبى طالب محمد بن أحمد العلقمىّ ، وزير المستعصم بالله ، آخر ملوك العباسيين . « كان من فضلاء الشيعة وأعيانهم ببغداد ، مائلا للآداب مقرّبا للأدباء ، وكانت له خزانة كتب فيها عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب »[2] .

شرع فى تأليفه فى غرّة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة ، وأتمّه فى سلخ صفر من سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ فقضى أربع سنين وثمانية أشهر ، وكانت كما يقول : « مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام » ؛ وكسره على عشرين جزءا .

ولما فرغ من تصنيفه أنفذه على يد أخيه موفق الدين أبى المعالى إلى ابن العلقمىّ ، فبعث إليه بمائة دينار وخلعة سنيّة وفرس ؛ فكتب إلى الوزير :

أيا ربَّ العباد رَفَعْتَ ضَبْعِي   وَطُلْتَ بمنكبي وبللتَ ريقي
وزيغَ الأشعريّ كشفت عنّي   فلم أسْلُكْ بُنَيّاتِ الطَّرِيقِ

---

(١) فى كتابه ماهو نهج البلاغة ٨ — ١٠

(٢) الفخرى ٢٩٥ .

أحبَّ الإعتزالَ وناصريهِ ذَوِى الألبابِ والنظَرِ الدَّقِيقِ
فأهلُ العدلِ والتوحيدِ أهْلِي ونعم فريقهمْ أبداً فَرِيقِى
وشرحَ النهجِ لم أدرِكْهُ إلّا بِعَوْنِكَ بعْدَ مَجْهَدَةٍ وَضِيقِ
تمثّلُ إذ بدأْتُ بهِ لِعَيْنِي هُنَاكَ كَذِرْوَةِ الطَّوْدِ السَّحِيقِ
فَتَمَّ بِحُسْنِ عَوْنِكَ وَهْوَ أنْأَى مِنَ العَيُّوقِ أوْ بَيْضِ الأَنُوقِ
بآلِ العلقميِّ وَرَتْ زِنَادِي وَقَامَتْ بَيْنَ أهْلِ الفَضْلِ سُوقِي
فَكَمْ ثَوْبٍ أنِيقٍ نِلْتُ مِنْهُمْ وَنِلْتُ بِهِمْ وَكَمْ طِرْفٍ عَتِيقِ
أدَامَ اللهُ دَوْلَتَهُمْ وأنْحَى عَلَى أعْدَائِهِمْ بِالْخَنْفَقِيقِ[1]

***

وقد ذكر فى صدر كتابه أنه لم يسبقه أحدٌ بشرح النهج سوى سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه ، المعروف بالراوندىّ ؛ وأنه قد تعرض لهذا الشرح فيما ناقضه فيه ، فى مواضعَ يسيرة ، وأعرض عن كثير مما قاله . وقد التزم فى شرحه أن يقسم الكلام فصولا ، فيشرح كلمات كلّ فصل شرحا دقيقا مشتملا على « الغريب والمعانى وعلم البيان ، وماعساه يشتبه ويُشكل من الإعراب والتصريف»[2] ، ثم يُورد « مايطابقه من النظائر والأشباه نثراً ونظماً[2] » ، ثم يستطرد إلى ذكر « مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث ..»[2] ، ويشير إلى مايتطوى عليه هذا الفصل « من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفية[2] » ، ويلوّح « إلى مايستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة»[2] ، ويرصعه بما يشاء « من المواعظ الزّهدية ، والزواجر الدينية والحِكَم النفيسة ، والآداب الخلقية ، المناسبة لِفقَره ، والمشاكلة لدرره[2] » .

ثم ينتقل إلى الفصل الذى يليه ؛ وهكذا .

---

(١) الخنفقيق : الداهية . (٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

وهو بهذا المنهج الذى التزمه ، والطريق الذى سلكه ، قد نقل إلى هذا الكتاب عُصارة ما فى كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسب والمغازى والسير والفقه والجدل والمناظرة وعلوم الكلام ، وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشى والتعاليق ؛ وطرّزه بما اختاره من روائع الخطب ونوابغ الحكم ومصطفى الرسائل ؛ مما نطق به مصاقع الخطباء وبلغاء الكتاب وزعماء القول فى الجاهلية والإسلام ؛ ثم وشّاه بما انتخله من دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين ؛ من فاخر القول وحُرّ الكلام ؛ فى متنوّع فنون الشعر ومذاهبه ، ومختلف أغراضه ومراميه .

وقد ارتفع أسلوبه فى جميع مراحل الكتاب عن الخلل والتعقيد ، وتجافَى عن الركاكة والتعسف والإبهام ، والتزم الأسلوب الرّصين ، والتعبير الفصيح ، واللفظ العربىّ الأصيل ؛ سوى بعض الألفاظ التى تدسّتْ فيما نقله عن المتكلمين وأصحاب المقولات ؛ من نحو قولهم : « المحسوسات » ، و « الكلّ والبعض » ، وقولهم : « الصفات الذاتية والجسمانيات » ، وقولهم : « أما أوّلا فالحال كذا » ؛ ونحو ذلك مما يأباه الفصيح من الألفاظ والسليم من الأساليب ؛ وقد اعتذر عن ذلك المؤلف بقوله : « استهجنّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم ؛ فمن كلّم قوماً كلّمهم باصطلاحهم ، ومن دخل ظَفَارِ حَمّر »[1] .

وما أحسن ما اعتذر به !

وبتلك المزايا المتنوعة للكتاب ، خرجَ « كتابا كاملاً فى فنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُمْتِعاً بمحاسنه ، جليلة فوائده ، شريفة مقاصدُه ، عظيما شأنُه ، عالية منزلته ومكانه »[2] ؛ يرِد شِرْعَتَه العلماء ، وينهل من مورده الباحثون والأدباء .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٣٥٠ .   (٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

٣ — ابن أبى الحديد

ومؤلف هذا الشرح هو عزّ الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبى الحديد المدائنىّ ؛ أحد جهابذة العلماء ، وأثبات المؤرخين ؛ ممن نجم فى العصر العباسى الثانى ؛ أزهى العصور الإسلامية إنتاجا وتأليفا ؛ وأحفلها بالشعراء والكتاب والأدباء والمؤرخين واللغويين وأصحاب المعاجم والموسوعات .

كان فقيها أصوليًّا ؛ وله فى ذلك مصنفات معروفة مشهورة ؛ وكان متكلّما جدليًّا نظّارا ؛ اصطنع مذهب الاعتزال ؛ وعلى أساسه جادل وناظر ، وحاجّ وناقش ؛ وفى شرح النهج وكثير من كتبه آراء منثورة مما ذهب إليه ، وله مع الأشعرىّ والغزالىّ والرازىّ كتب ومواقف .

وكان أديبًا ناقداً ، ثاقب النظر ، خبيرا بمحاسن الكلام ومساوئه ، وكتابه "الفلك الدائر على المثل السائر" دليل على بعد غوره ، ورسوخ قدَمه فى نقد الشعر وفنون البيان .

ثم كان أديبا متضلّعا فى فنون الأدب ، متقنا لعلوم اللسان ، عارفا بأخبار العرب ، مطلعا على لغاتها ، جامعا لخطبها ومنافراتها ، راويا لأشعارها وأمثالها ، حافظا لمُلحها وطُرفها ، قارئا مستوعبا لكلّ ما حوته الكتب والأسفار فى زمانه .

وكان وراء هذا شاعراً عذْب المورد ، مشرق المعنى ، متصرّفا مجيدا ؛ كما كان كاتبا بديع الإنشاء ، حسن الترسّل ، ناصع البيان .

***

ولد بالمدائن فى غرّة ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ؛ ونشأ بها ، وتلقى عن

شيوخها، ودرس المذاهب الكلاميّة فيها ، ثم مال إلى مذهب الاعتزال منها ؛ وكان الغالب على أهل المدائن التشيّع والتطرّف والمغالاة ؛ فسار فى دربهم ، وتقيّل مذهبهم ، ونظم القصائد المعروفة بالعلويّات السبع على طريقتهم ، وفيها غالَى وتشيّع ؛ وذهب به الإسراف فى كثير من أبياتها كلّ مذهب ؛ يقول فى إحداها[1] :

عِلْمُ ٱلْغُيُوبِ إِلَيْهِ غَيْرَ مُدَافَعٍ ... والصُّبْحُ أَبْيَضُ مُسْفِرٌ لَا يُدْفَعُ
وَإِلَيْهِ فِي يَوْمِ ٱلْمَعَادِ حِسَابُنَا ... وَهُوَ ٱلْمَلَاذُ لَنَا غَداً وَٱلْمَفْزَعُ
هَٰذَا ٱعْتِقَادِي قَدْ كَشَفْتُ غِطَاءَهُ ... سَيَضُرُّ مُعْتَقِداً لَهُ أَوْ يَنْفَعُ
يَا مَنْ لَهُ فِي أَرْضِ قَلْبِيَ مَنْزِلٌ ... نِعْمَ ٱلْمَرَادُ ٱلرَّحْبُ والمُتَرَبَّعُ
وتكادُ نَفْسِي أَنْ تَذُوبَ صَبَابَةً ... خلقاً وَطَبعاً لَا كَمَنْ يَتَطَبَّعُ
وَرَأَيْتُ دِينَ الإعتزال وإنَّني ... أهوى لأجلك كُلَّ مَنْ يَتَشَيَّعُ
ولقد علمت بأنه لا بد من ... مَهْدِيِّكُم وَلِيَوْمِهِ أتوقَّعُ
تحميه مِنْ جُند الإله كتائبٌ ... كاليَمِّ أقبل زاخراً يتدفَّعُ
فيها لآل أبي الحديدِ صَوارمٌ ... مشهورة ورماح خَطٍّ شُرَّعُ
وَرِجَالُ مَوْتٍ مُقْدِمُونَ كأنَّهُمْ ... أُسْدُ العرين الرُّبْدُ لا تتكعكعُ
تِلْكَ المنى إما أَغِبْ عَنْها فَلِي ... نَفْسٌ تُنَازِعُنِي وَشَوْقٌ يَنْزِعُ
تا الله لا أنسى الحسين وشِلْوُهُ ... تحت السَّنَابِكِ بالعَراء مُوَزَّعُ
مُتَلَفِّعاً حُمْرَ الثِّياب وفى غدٍ ... بالخُضر من فِرْدَوْسِهِ يتلفعُ
تطأُ السَّنابِكُ صَدْرَهُ وجبينَه ... والأرْضُ تَرجف خيفةً وتَضَعْضَعُ
والشَّمسُ ناشِرَةُ الذَّوَائِبِ ثاكلٌ ... والدَّهْرُ مَشقُوقُ الرِّدَاء مُقَنَّعُ

(1) العلويات السبع ١٦ ، ١٧ .

لَهفِي عَلى تِلكَ الدِّماءِ تُرَاقُ فِي أَيدِي أُمَيَّةَ عَنوَةً وَتُضَيَّعُ
يأبَى أبُو العبَّاسِ أحمدُ إنَّهُ خَيرُ الوَرَى مِن أن يُطِلَّ ويمنعُ[1]
فهو الوليُّ لثأرِها وهُوَ الحمو ل لعبئها إذ كلُّ عودٍ يَضْلَعُ[2]
والدَّهرُ طَوْعٌ والشبيبة غَضَّةٌ والسَّيفُ عَضْبٌ والفُؤادُ مُشَيَّعُ[3]

وحينما انقضت أيام صباه، وطوى رداء شبابه، خفّ إلى بغداد؛ حاضرة الخلافة، وكعبة القصاد، وعشّ العلماء، وكانت خزائنها بالكتب معمورة، ومجالسها بالعلم والأدب مأهولة، فقرأ الكتب واستزاد من العلم، وأوغل فى البحث، ووعى المسائل، ومحّص الحقائق، واختلط بالعلماء من أصحاب المذاهب، ثم جنح إلى الاعتزال؛ وأصبح كما يقول صاحب "نسمة السحر": معتزليًّا جاحظيًّا، فى أكثر شرحه للنهج؛ بعد أن كان شيعيا غاليا.

وفى بغداد أيضاً نال الحظوة عند الخلفاء من العباسيين ومدحهم، وأخذ جوائزهم، ونال عندهم سنيّ المراتب ورفيع المناصب، فكان كاتبا فى دار التشريفات؛ ثم فى الديوان، ثم ناظرا للبيمارستان؛ وأخيرا فوّض إليه أمر خزائن الكتب فى بغداد؛ وفى كلّ هذا كان مرموق الجانب، عزيز المحلّ؛ كريم المنزلة، إلى أن مات.

***

وكان مع اشتغاله بالمناصب، ومماناته للتأليف شاعرا مجيدا؛ ذكره صاحب "نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر"؛ وله ديوان، ذكر ابن شاكر أنه كان معروفاً مشهورا. وقد جال بشعره فى شتى المعانى ومختلف الأغراض، فقال فى المدح والرثاء، والحكم والوصف

(١) هو الخليفة أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله المعروف بالناصر، بويع بالخلافة سنة ٥٧٥، ومات سنة ٦٢٩، وكان يرى رأى الإمامية. الفخرى ٢٨٠

(٢) يقال: دابة مضلع، أى لا تقوى أضلاعها على الحمل. (٣) المشيع: الشجاع.

والغزل، إلا أن الغرضَ الذى غلب عليه واشتهر به هو المناجاة والمخاطبة على مسلك أرباب الطريقة ، أورد فى النهج كثيرا منه ، فمن ذلك قوله :

فَلَا واللهِ ما وَصَلَ ابنُ سِينَا ... وَلَا أَغْنَى ذَكَاءُ أبِى الْحُسَيْنِ (1)
وَلَا رَجَعَا بِشَيْءٍ بَعْدَ بَحْثٍ ... وتدقيقٍ سِوَى خُفَّيْ حُنَيْنِ
لَقَدْ طَوَّفْتُ أَطْلُبُكُمْ ولكنْ ... يَحُولُ الوقتُ بينكُمُ وَبَيْنِي
فَهَلْ بَعْدَ انقِضاءِ الوقتِ أحظَى ... بِوَصْلِكُمُ غَداً وَتَقَرُّ عَيْنِي !
مُنًى عِشْنَا بِهَا زَمَناً وَكَانَتْ ... تُسَوِّفُنَا بِصِدْقٍ أوْ بِمَيْنِ
فإنْ أُكْذَبْ فَذَاكَ ضَيَاعُ دِينِي ... وَإنْ أُجْذَبْ فَذَاكَ حُلُولُ دَيْنِي

وقوله :

وحقِّكَ إن أدخلتنى النارَ قلتُ للـ ... ـذينَ بها قد كنتُ ممن يُحِبُّهُ
وأفنيتُ عُمْرِى فى علومٍ دقيقةٍ ... وما بغيتى إلا رِضاهُ وقُرْبُهُ
هبونى مسيئاً أَوْتَغَ الجهلُ قلبَهُ ... وأوبقهُ بين البريةِ ذنبُهُ (2)
أما يقتضى شرعُ التكرُّمِ عِتقَهُ ... أيَحْسُنُ أن يُنْسَى هَواهُ وحُبُّهُ !
أما كانَ ينوى الحقَّ فيما يقولُهُ ... ألم تنصُرِ التوحيدَ والعدلَ كُتْبُهُ !
أما ردَّ زيغَ ابن الخطيب وشكَّهُ ... وإلحادَه إذ حلَّ فى الدين خطبُهُ
أما قلتمُ : مَنْ كان فينا مجاهداً ... سيُكرَمُ مثواه ويَعْذُبُ شِرْبُهُ
فأيَّ اجتهادٍ فوقَ ما كان صانعاً ... وقد أحرقتْ زُرْقَ الشياطين شُهْبُهُ
فإن تصفحوا نغنمْ وإن تتجرَّموا ... فتعذيبُكُمْ حُلْوُ المذاقةِ عَذْبُهُ
وآيةُ صدقِ الصبِّ أن يَعْذُبَ الأذى ... إذا كان مَنْ يهوى عليه يصبُّهُ

(1) شرح نهج البلاغة ١٦ : ٧٩ ـ ٨٢ .
(2) أوتغ : أهلك .

ونحو هذا من الشعر فى شرح النهج كثير .

ومن طريف ما أورد له صاحب نسمة السحر قوله :

لَوْلَا ثَلَاثٌ لَمْ أَخَفْ صَرْعَتِى ... لَيْسَتْ كَمَا قَالَ فَتَى العبْدِ[1]

أن أنصُرَ التوحيد والعدل فِى ... كلّ مكانٍ باذلاً جُهْدِى

وأنْ أناجى اللهَ مُسْتَمْتِعاً ... بخلوةٍ أحْلَى مِن الشَّهْدِ

وأنْ أتيهَ الدَّهْرَ كِبْراً عَلَى ... كُلِّ لئيمٍ أصْعَرِ الخَدِّ

كذاك لا أهْوَى فتاةً وَلَا ... خَمْراً ولاذا ميعةٍ نَهْدِ

* * *

وقد اضطرب المؤرخون فى تاريخ وفاته ؛ فذكر بعضهم أنه توفى فى سنة ٦٥٥ ؛ ذهب إلى ذلك ابن شاكر فى كتابيه : فوات الوفيات وعيون التواريخ ؛ وكذلك ابن كثير فى التاريخ ، والعينىّ فى عقد الجمان ، وابن حبيب الحلبى فى كتابه درة الأسلاك .

ونقل صاحب كتاب " نسمة السحر " عن الديار بكرىّ أنه توفى قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشر يوما . وكان دخولهم إليها فى العشرين من المحرم سنة ٦٥٦ ؛ على ما ذكره المؤرخون . وقال الذهبى فى سير النبلاء[2] : « إنه توفى فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة » .

(١) يشير بهذا البيت إلى قول طرفة بن العبد فى معلقته :

وَلَوْلَا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِى

فَمِنْهُنَّ سَبْقُ الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ

وَكَرِّى إذا نادَى المضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضَا نَبَّهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَاءِ الْمُعَمَّدِ

(٢) المجلد الثالث عشر ، الورقة ٣١٦ (مصورة دار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ ح) .

وذكر ابن الفُوَطيّ فى كتاب مجمع الألقاب أنه أدرك سقوط بغداد ، وأنه كان ممن خلص من القتل فى دار الوزير مؤيد الدين العلقمىّ مع أخيه موفق الدين ؛ كما ذكر أيضاً فى كتابه الحوادث الجامعة ؛ فى وفيات سنة ٦٥٦ :

« توفى فيها الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمىّ فى جمادى الآخرة ببغداد . . . والقاضى موفق الدين أبو المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى فى جمادى الآخرة ، فرثاه أخوه عز الدين عبد الحميد بقوله :

أأبا المعالى هل سَمِعْتَ تأوّهِى فلقدْ عَهِدْتُكَ فى الحياةِ سميعا
عينى بكتْكَ ولو تطيقُ جوانحِى وجوارحِى أجْرَتْ عليكَ نجيعاً
أنفاً غضبتَ على الزمان فلم تطِع حَبْلًا لأسبابِ الوفاء قطوعاً
ووفيتَ للمولى الوزيرِ فلم تَعِش مِنْ بَعْدِهِ شَهْراً وَلا أُسْبُوعا
وبقيتُ بعدكما فلو كان الردَى بيدِى لفارقْنا الحيــاةَ جميعا

فعاش عز الدين بعد أخيه أربعة عشر يوماً » .

* * *

وله من المصنفات :

١ ـ الاعتبار ؛ على كتاب الذريعة فى أصول الشريعة ، ذكره ابن الفوَطىّ وصاحب روضات الجنات .

٢ ـ انتقاد المستصفى للغزالى ، ذكره ابن الفوَطىّ .

٣ ـ الحواشى على كتاب المفصل فى النحو ، ذكره ابن الفوطىّ .

٤ ـ شرح المحصل للإمام فخر الدين الرازىّ ، وهو يجرى مجرى النقض له ؛ ذكره ابن الفوَطىّ .

٥ ـ شرح مشكلات الغرر لأبي الحسين البصرى فى أصول الكلام ؛ ذكره ابن الفوطى وصاحب روضات الجنات .

٦ ـ ديوان شعره ، ذكره ابن شاكر الكتبى .

٧ ـ زيادات النقضين ، ذكر المؤلف فى الجزء الأول ص ٦١ .

٨ ـ شرح نهج البلاغة ، وهو هذا الكتاب .

٩ ـ شرح الياقوت لابن نوبخت فى الكلام ، ذكره ابن الفوطى وصاحب روضات الجنات .

١٠ ـ العبقرى الحسان ، ذكره صاحب روضات الجنات ، وقال : وهو كتاب غريب الوضع قد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار ، وأودعه شيئاً من إنشائه وترسلاته ومنظوماته .

١١ ـ الفلك الدائر على المثل السائر (١) ؛ ألفه برسم الخليفة المستنصر ؛ بدأ فى تأليفه فى أول ذى الحجة سنة ٦٣٣ ، وفرغ منه فى خمسة عشر يوماً .

١٢ ـ القصائد السبع العلويات (٢) ، ذكر ابن الفوطى أنه نظمها فى صباه وهو بالمدائن سنة ٦١١ .

١٣ ـ المستنصريات ؛ كتبها برسم الخليفة المستنصر ؛ ومنه نسخة بمكتبة السماوى بالنجف .

١٤ ـ نظم فصيح ثعلب ؛ ذكره ابن شاكر وصاحب كشف الظنون .

١٥ ـ نقض المحصول فى علم الأصول للإمام فخر الدين الرازى ؛ ذكره ابن الفوطى وصاحب روضات الجنات وصاحب كشف الظنون .

١٦ ـ الوشاح الذهبى فى العلم الأبى ، ذكره ابن الفوطى .

---

(١) طبع بالهند سنة ١٣٠٩ هـ .　　(٢) طبع النجف سنة ١٣١٧

٤ — تحقيق الكتاب

وحينما شرعت فى تحقيق هذا الكتاب بذلت الجهد الممكن فى الحصول على النسخ التى تعين على تحقيقه ، وقد وقع لى من ذلك ما يأتى :

١ ـ نسخة كاملة تقع فى عشرين جزءا بخطوط معتادة مختلفة ، مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ ويبدو أنها كتبت جميعها فى القرن الحادى عشر والثانى عشر ؛ وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

٢ ـ نسخة كاملة مطبوعة على الحجر فى طهران سنة ١٢٧١ هـ ، ورمزت لها بالحرف (ب) .

٣ ـ نسخة مصورة عن أصلها المخطوطة بالمكتبة الظاهرية ، محفوظ برقم (٧٩٠٤ عام) ، تشتمل على عشرة أجزاء من الكتاب ، مكتوبة بخط دقيق ، مضبوطة بالشكل الكامل ، وعلى حواشيها شروح وتعليقات ؛ جاء فى آخرها : « وقد فرغ من تسويد هذا الكتاب بعون الملك الوهاب ، أقل العباد ؛ محمد حسن الأبهرى الأصفهانى يوم الخميس ، ثالث صفر ، ختم بالخير والظفر ، سنة اثنتين وثمانين بعد الألف ، من الهجرة النبوية المصطفوية » ، وقد رمزت لها بالحرف (ج) [1]

٤ ـ نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٦٨ ـ أدب ، تشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول يشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدات؛ المجلد الأول يشتمل على الأجزاء : السادس والسابع والثامن . والمجلد الثانى يشتمل

(١) ذكرت فى مقدمة الجزء الثانى (من الطبعة الأولى) ، أنى رجعت إلى هذه النسخة من ص ٦٥ ؛ وفى هذه الطبعة رجعت إليها من أول الكتاب .

على الجزأين : التاسع والعاشر ؛ وهذان المجلدان مكتوبان بخط فارسيّ ، بخط محمد مؤمن ، سنة إحدى وأربعين وألف ؛ أما المجلد الثالث فيشتمل على الأجزاء الخمسة الأخيرة ؛ من الجزء السادس عشر إلى الجزء العشرين ؛ تمت كتابتها سنة تسع وتسعين وألف ، بخط محمد مزيد . وقد رمزت لها بالحرف (د)[1] .

كما أنى رجعت فى تحقيق متن نهج البلاغة ـ فوق النسخ التى اعتمدت عليها فى شرحه ـ إلى نسخة منه مخطوطة محفوظة بمكتبة طلعت بدار الكتب برقم ٤٨٤٠ ـ أدب ، وهى نسخة خزائنية كتبت بالقلم النسخ الجيل ، مضبوطة بالشكل الكامل ؛ ومحلاة بالذهب واللازورد ، كتبت برسم « خزانة غياث الحق والدين » ، سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، بخط الحسين بن محمد الحسنى .

***

وقد اقتضانى أيضا تحقيق هذا الكتاب الجامع أن أرجع إلى ما أمكننى الاطلاع عليه من الكتب التى رجع إليها المؤلف ، كتاريخ الطبرى ، والأغانى ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى ، والحيوان والبيان والتبيين والعثمانية للجاحظ ، والشافى للشريف المرتضى ، والمغنى للقاضى عبد الجبار ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وكتاب صفين للمنقرىّ ، والكامل للمبرد ، والأوائل لأبى هلال العسكرى ، ونسب قريش الزبير بن بكار ، والمنتظم لابن الجوزى

---

(١) ذكرت فى مقدمة الطبعة الأولى أنى حصلت على مصورات لأجزاء مختلفة من مكتبة المتحف البريطانى ومكتبة الفاتيكان ؛ وبالرجوع إليها تبين أنها مضطربة يشيع فيها الخطأ والتحريف ، فلم أر ما يدعو إلى الرجوع إليها ؛ كما أن بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة محفوظة برقم ٥٧٦ ـ أدب ، تمت كتابتها فى صبيحة يوم الخميس التاسع من شهر شعبان سنة ١٢٩٢ ، لم أرجع إليها ، إذ ترجح عندى أنها منسوخة عن مطبوعة طهران ؛ أما النسخة المطبوعة فى مصر سنة ١٣٢٩ ، فيبدو أنها طبعت عن مطبوعة طهران أيضا فلم أرجع إليها .

والصحاح للجوهرى، وغيرها من كتب الأدب واللغة والتاريخ ؛ كما أنى رجعت فيما أورده من الشعر إلى دواوين الشعراء والمجموعات المختارة منها . وحاولت أن أضبط الأعلام والنصوص اللغوية والشعرية ضبطاً صحيحاً ؛ وعلقت فى الحواشى ما اقتضاه إيضاح النصّ تعليقاً وسطاً فى غير إسراف ولا تقصير .

كما أنى فصّلت موضوعاته بعناوين وضعتُها بين علامتى الزيادة لتتّضح معالم الكتاب، وتسهل الإحاطة بما فيه .

وسيخرج الكتاب ـ بما أرجو من الله المعونة والتأييد ـ فى عشرين جزءا كما وضعه مؤلفه ؛ أما الفهارس العامة المتنوعة فسأفرد لها جزءا خاصًّا فى آخر الكتاب، والله الموفق للصواب ﴿ ربَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإليك المصير ﴾ (*) .

القاهرة فى { ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ
٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م }

محمد أبو الفضل إبراهيم

(*) هذه مقدمة الطبعة الأولى مع تعديل فى وصف النسخ .

مقدمـــــة الطبعة الثانية

لم تكد تظهر هذه الطبعة من هذا الـكتاب لجميع أجزائه ؛ حتى أقبلت الجمهرة من العلماء والمتأدبين على اقتنائه ، ومدارسة فصوله وأبوابه ، واستيعاب ماحواه من صنوف الآداب وضروب الفنون ، المعارف ؛ حتى نفدت أجزاؤه الأولى فى زمن يسير .

وحينما شرعت فى إعداد الطبعة الثانية ، وجدتها فرصة طيبة لأن أعيد النظر فى تحقيقه ، وأجيل الفـكر لزيادة شرحه وتصحيحه ، وأن أستدرك ما فاتنى من التعليق ، أو جانبنى فيه وجه الصواب ؛ وقد أعاننى على ذلك أمور :

منها أنه تسنّى لى بعد الفراغ من تحقيقه الاطلاع على كثير من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر مما لم يتيسر لى الاطلاع عليه فى الطبعة الأولى ؛ وقد كان عملى فى تحقيق تاريخ الطبرى وظهور معظم أجزائه ؛ مما حقق كثيرا من نصوصه ؛ إذ كان هـذا التاريخ الـكبير من أهم مراجع المؤلف ومصادره ؛ كما أن ماقمت به من تحقيق متن نهج البلاغة ، مراجعا على نسخ خطية أصيلة وشرحه شرحا موجزا ؛ مما قوّم الـكثير من ألفاظه ، وحقق بعض رواياته .

ومنها أن فريقا من العلماء حين وقع إليهم هذا الـكتاب قابلوه بالاهتمام الشديد ، وتناولوه بالنقد النافع النزيه ؛ وقدّروا ما بذل فيه من جهد وعناء ؛ وكانت لهم ملاحظات قيمة كتبوا إلىّ بها ؛ أذكر منهم الأستاذ مكى السيد جاسم ؛ أحد علماء العراق وفضلائها ؛ فقد قرأ الـكتاب جميعه ، وأرسل إلى ملاحظاته على كثير من أجزائه ؛ وقد انتفعت بهذا النقد الـكريم ؛ وأثبتُّ ملاحظاته فى هذه الطبعة .

وأمر آخر؛ هو أنى حينما أتممت تحقيق جميع أجزاء الكتاب، وأخذت فى عمل فهارسه ومعاودة قراءته، اتضحت لى معالمه وطرائقه، وأنست إلى مراجعه ومظانه، وعرفت مواطن الاستدراك والتعقيب، وفطنت إلى مجالات أخرى للتصحيح والتعليق، وتبينت لى الأخطاء المطبعية؛ وأمكن لى أن أعمل الجديد والهام فى هذه الطبعة.

هذا، وقد كان عملى فى إنجاز الكتاب على هذا النحو؛ ثم اشتغالى مرة أخرى بإعادة تحقيقه ـ بعد أن خلت المكتبة العربية من أجزائه الأولى ـ معوقا عن إنجاز الفهارس العامة فى حينها؛ ولكننى دائم العمل فيها، مهتم بإتمامها وإخراجها على الوجه الكامل؛ وستظهر إن شاء الله فى الجزء الحادى والعشرين للطبعتين الأولى والثانية.

ومن الله أطلب هداية وتيسيرا، وعونا وتوفيقا.

القاهرة فى { ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٠ هـ
٨ سبتمبر سنة ١٩٦٠ }

محمد أبو الفضل إبراهيم

نماذج من المخطوطات

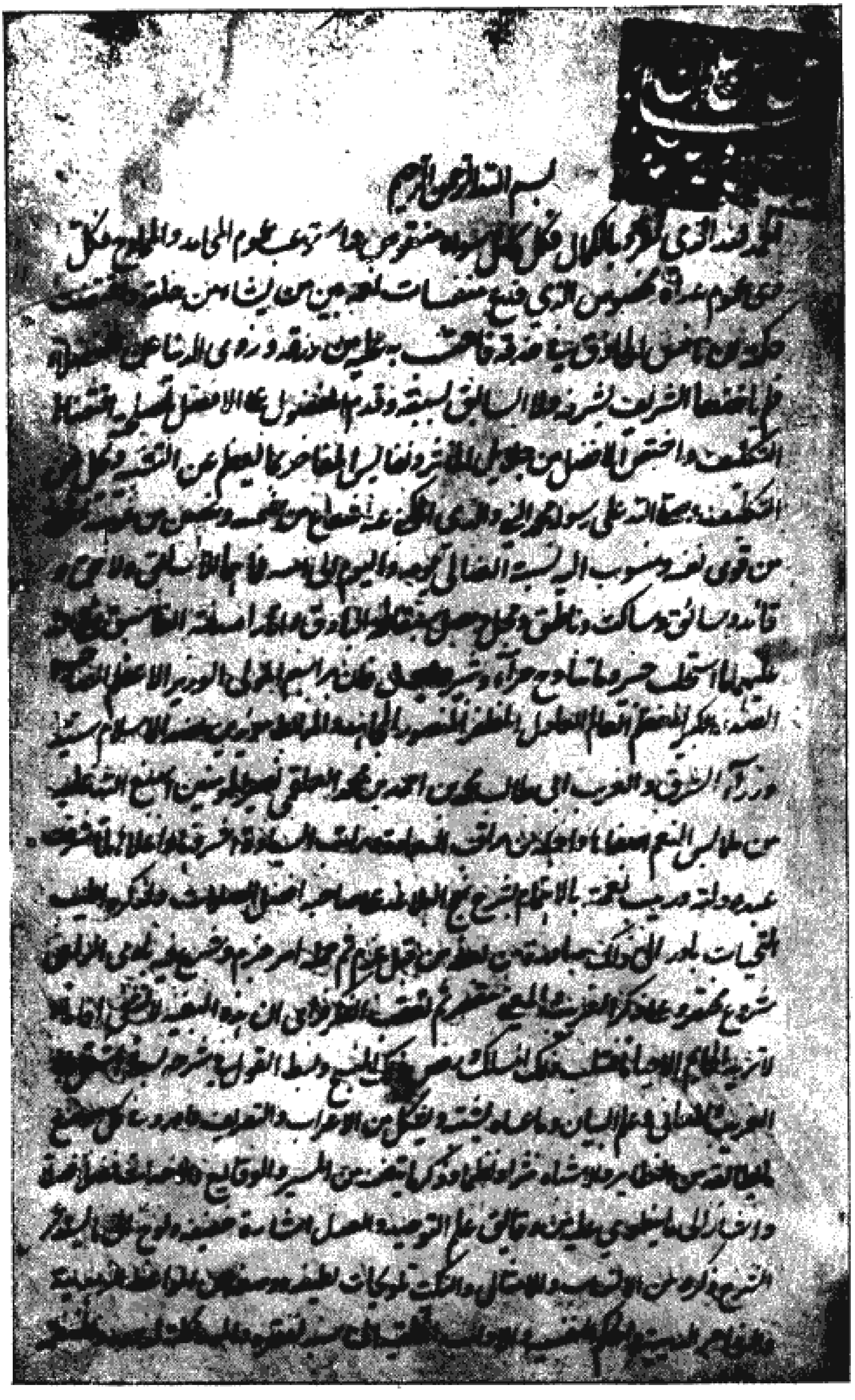
بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الجزء الأول من شرح النهج نسخة « ب »

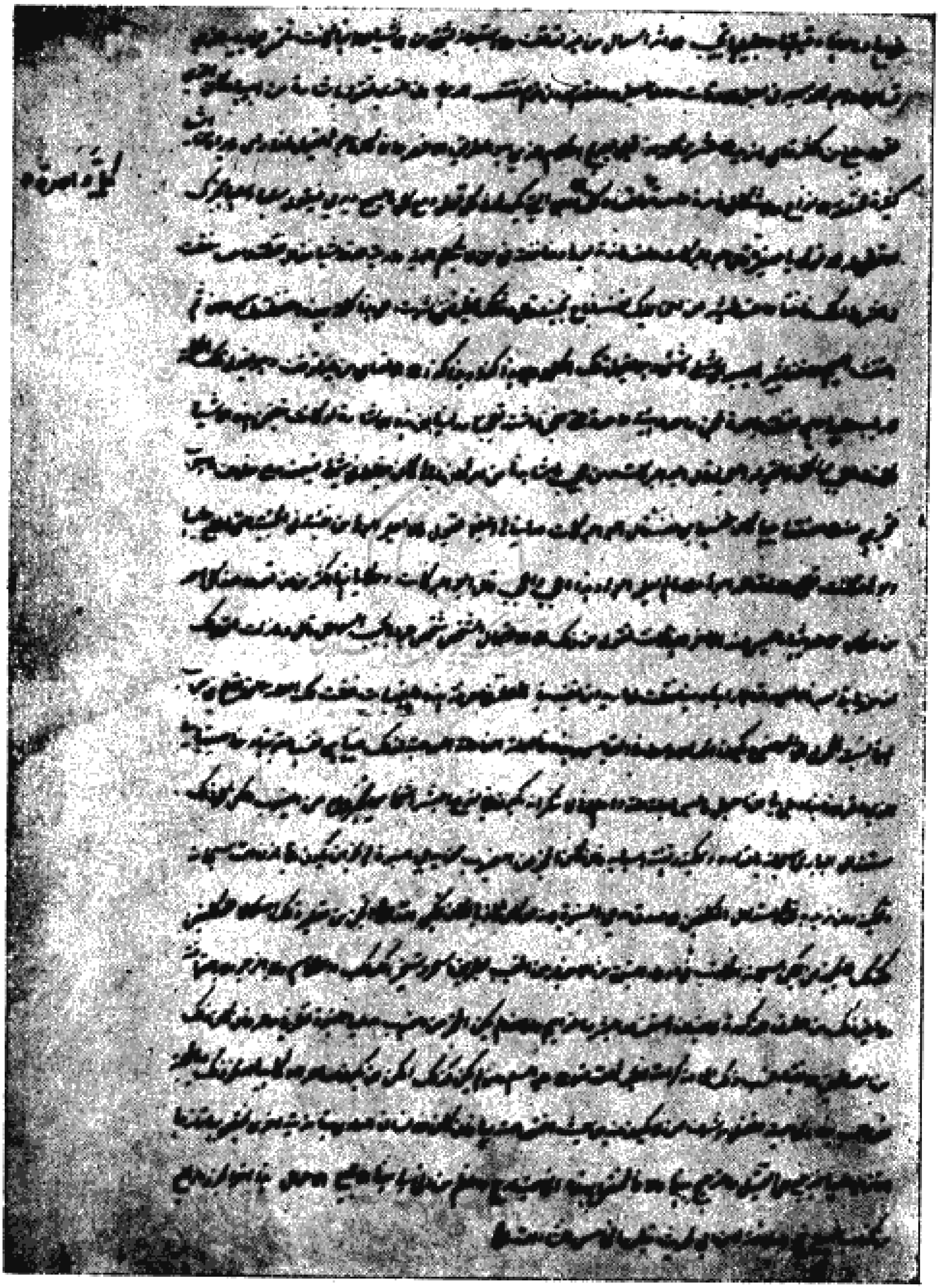

خاتمة الجزء الرابع نسخة « ا »

بسم الله الرحمن الرحيم

الاصل وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج وقيل له ان القوم قد عبروا جسر النهروان مصارعهم
دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة قال الرضي رحمه الله يعني بالنطفة ماء النهر وهي افصح كناية عن الماء و
ان كان كثيرا جما الشرح هذا الخبر من الاخبار التي تكاد تكون متواترة لاشتهاره ونقل الناس كافة له وهو من معجزاته
واخباره المفصلة عن الغيوب والاخبار عن الغيوب على قسمين احدهما الاخبار المجملة ولا اعجاز فيها نحو ان يقول
الرجل لاصحابه انكم ستنصرون على هذه الفئة التي تلقونها غدا فان نصر جعل ذلك حجة له عند اصحابه و
معجزة وان لم ينصر قال لهم تغيرت نياتكم فمنعكم الله نصره ونحو ذلك من القول ولانه قد جرت العادة ان الملوك والرؤساء
تعد اصحابهم بالظفر وتمنيهم الدول فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن غيب يتضمن اعجازا والقسم
الثاني في الاخبار المفصلة عن الغيوب مثل هذا الخبر فانه لا يحتمل التلبيس لتقييده بالعدد المعين في اصحابه وفي الخوارج
ووقوع الامر بعد الحرب بموجبه من غير زيادة ولا نقصان وذلك امر الهي عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله
وعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه والقوة البشرية تقصر عن ادراك مثل هذا ولقد كان له
من هذا الباب ما لم يكن لغيره وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته واحواله المنافية لقوى البشر غلا فيه من غلا حتى
نسب الى ان الجوهر الالهي حل في بدنه كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام وقد اخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك
فقال يهلك فيك رجلان محب غال ومبغض قال وقال له تارة اخرى والذي نفسي بيده لولا اني اشفق ان تقول طوائف
من امتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالا لا تمر بملأ من الناس الا اخذوا التراب من
تحت قدميك للبركة واول من جهر بالغلو في ايامه عبد الله بن سبأ قام اليه وهو يخطب فقال له انت انت وجعل يكررها
فقال له ويلك من انا فقال انت الله فامر باخذه واخذ قوم كانوا على رأيه وروى ابو العباس احمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي
عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن ابيه وعن غيره من مشيخته ان عليا قال يهلك في رجلان محب مطر يضعني غير
موضعي ويمدحني بما ليس في ومبغض مفتر يرميني بما انا منه بريء قال ابو العباس وهذا تاويل الحديث المروي عن النبي

الصفحة الأولى من الجزء الخامس نسخة (أ)

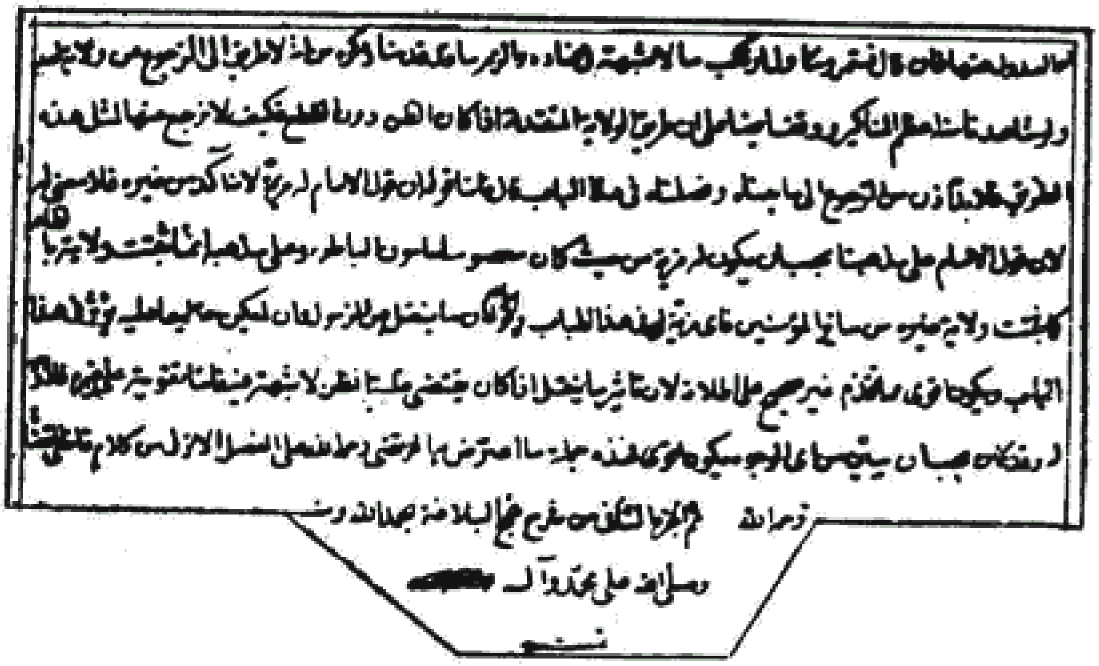

آخر الجزء الثاني من نسخة (ج)

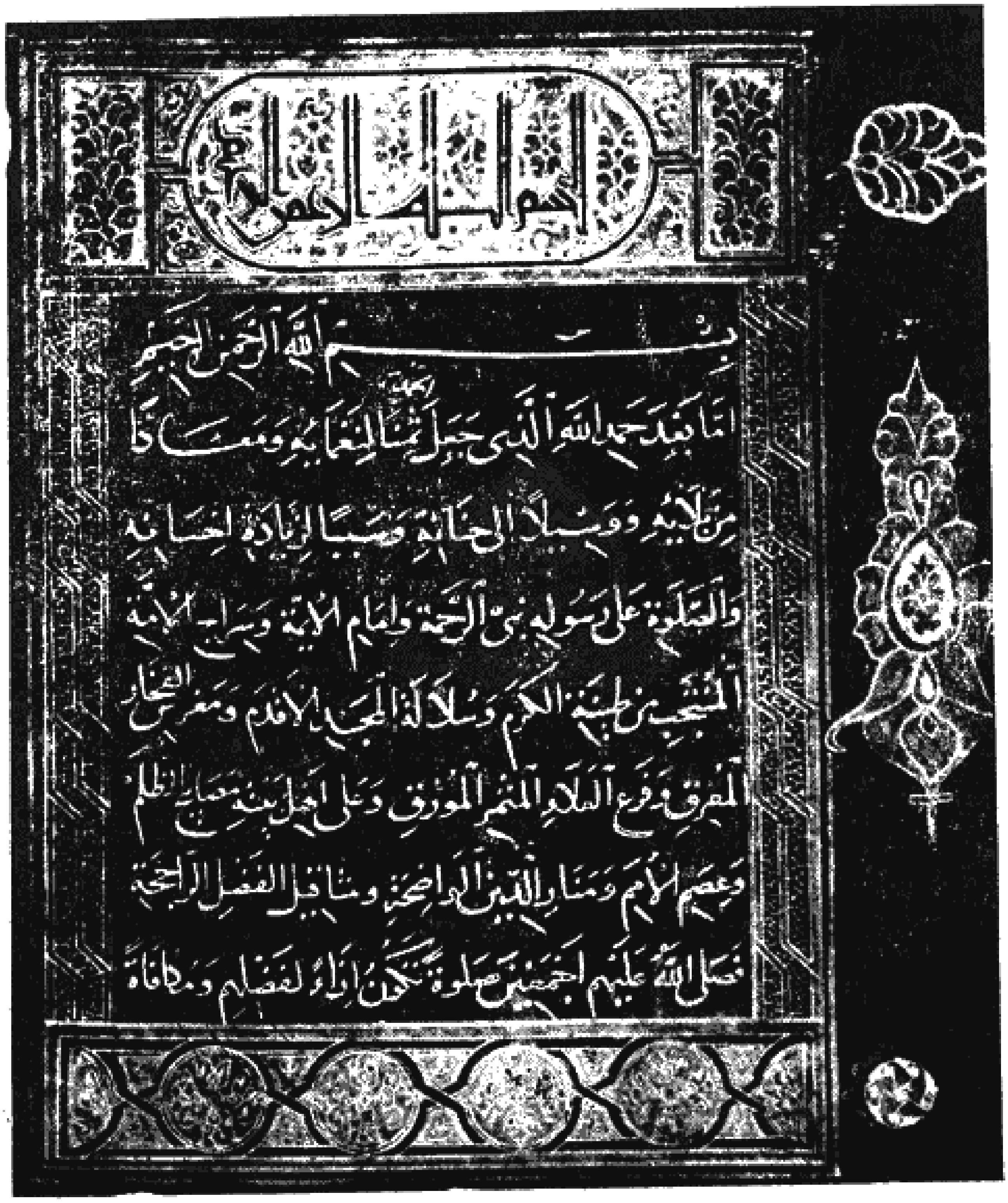
بسم الله الرحمن الرحيم
اما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه ومعاذا
من بلائه ووسيلا الى جنانه وسببا لزيادة احسانه
والصلوة على رسوله نبى الرحمة وامام الائمة وسراج الامة
المنتجب من طينة الكرم وسلالة المجد الاقدم ومغرس الفخار
المعرق وفرع العلاء المثمر المورق وعلى اهل بيته مصابيح الظلم
وعصم الامم ومنار الدين الواضحة ومثاقيل الفضل الراجحة
فصلى الله عليهم اجمعين صلوة تكون ازاء لفضلهم ومكافاة

فاتحة مخطوطة نهج البـلاغة

ومقتربين العزم كما شرطنا اولا على تفصيل اوراق من البياض في آخر كل باب من الابواب
لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد وما عساه ان يظهر لنا بعد الغموض ويقع الينا
بعد الشذوذ وما توفيقنا الا بالله عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل

تم الكتاب في الحضرة
الشريفة المقدسة الغروية
بمشهد مولانا امير المؤمنين
علي بن ابي طالب اخي الرسول و
زوج البتول ووالد الائمة الرسل
صلوات الله عليهم وكتبه وذهّبه
محمد الحسيني في شهور سنة
اثنتين وثمانين وستمائة

خاتمة مخطوطة نهج البـــلاغة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ ـ ٦٥٦)

الجزء الأول

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله [الواحدِ العَدْل][1]. الحمد لله الذى تفرّد بالكمال؛ فكلّ كاملٍ سواه منقوص، واستوعبَ عمومَ المحامد والمادح؛ فكلّ ذى عمومٍ عداه مخصوص؛ الذى وزّع مُنْفِساتِ نِعَمه بين مَنْ يشاء من خَلْقه، واقتضت حكمتُه أن نافسَ الحاذقَ فى حِذْقه فاحتُسِب به عليه من رزقه، وزَوَى[2] الدنيا عن الفضلاء فلم يأخذها الشريفُ بشرفه، ولا السابق بسبْقه. وقدّم المفضولَ على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف، واختصّ الأفضلَ من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظُم عن التشبيه، ويَجِلّ عن التكييف. وصلّى الله على رسوله محمد؛ الذى[3] المكنِىّ عنه شُعاع من شمسه، وغصن من غَرْسه، وقوة من قُوَى نفسه، ومنسوب إليه نسبةَ الغدِ إلى يومه واليوم إلى أمسه؛ فما هما إلّا سابق ولاحق، وقائد وسائق، وساكت وناطق، ومُجَلٍّ ومُصَلٍّ؛ سبقا لمحةَ البارق، وأنارا سُدْفة الغاسق؛ صلّى الله عليهما ما استُخْلِبَ[4] خَبِيرٌ، وتناوح حِراء وثَبِير[5].

وبعد، فإنّ مراسمَ المولى الوزير الأعظم، الصاحب[6]، الصدر الكبير المعظّم العالم العادل المظفّر المنصور المجاهد، المرابط[7]، مؤيّد الدين عضد الإسلام، سيد وزراء الشرق والغرب، أبى طالب[8]

---

(١) تكملة من ب. (٢) زوى الدنيا: نحاها وصرفها. (٣) فى ا: «والذى».

(٤) استخلب، بالبناء للمجهول: قطع. والخبير: النبات، وورد فى حديث طهفة: «ونستخلب الخبير»، قال ابن الأثير: الخبير: النبات والعشب، شبه بخبير الإبل؛ وهو وبرها. النهاية ١: ٢٨٠

(٥) يقال: هما جبلان يتناوحان؛ إذا كانا متقابلين؛ وثبير: جبل شامخ بمكة يقابل حراء؛ وهو أرفع من ثبير. ياقوت ٣: ٢٤٠ (٦) ب: «صاحب». (٧) ا: «والرابط».

(٨) فى الطبعة الأولى: «أبى محمد بن أحمد»، وهو خطأ.

محمد بن أحمد بن محمد العلقمي[1]، نصير أمير المؤمنين ـ أسبغ الله عليه من ملابس النعم أضفاها، وأحلّه من مراقب السعادة ومراتب السيادة أشرفها وأعلاها ـ لما شرّفتْ عبدَ دولته، وربيبَ نعمته بالاهتمام بشرح " نهج البلاغة " ـ على صاحبه أفضل الصلوات، وأذكى أطيب التحيات ـ بادر إلى ذلك مبادرةَ مَنْ بعثه مِن قبلُ عزم، ثم حَثّه[2] أمرٌ جزم، وشرع فيه بادِيَ الرأى شروع مختصِر، وعلى ذكْر الغريب والمعنى مقتصِر؛ ثم تعقّب الفِكر، فرأى أنّ هذه النُّغْبة[3] لاتَشفى أواما، ولاتزيد الحائمَ إلا حِياما، فتنكّبَ ذلك المسلك، ورفض ذلك المنهج، وبسط القول في شرحه بسطاً اشتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان، وما عساه يشتبه ويُشكِل من الإعراب والتصريف، وأورَد في كلّ موضع مايطابقه من النظائر والأشباه، نثراً ونظماً، وذكَر مايتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث فصلا فصلا. وأشار إلى ماينطوى عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة، ولوّح إلى مايستدعى الشرحُ ذكرَهُ من الأنساب والأمثال والنكت تلويحاتٍ لطيفة، ورصّعه من المواعظ الزهدية، والزواجر الدينية، والحِكَم النفسية، والآداب الخلقية، المناسبة لِفقَره، والمشاكلة لِدُرره، والمنتظمة مع معانيه في سِمْط، والمتّسقة مع جواهره في لَطّ[4]، بمايهزأ بشنوف النُّضَار، ويُخجِل قِطَع الرّوض غِبّ القِطار. وأوضحَ ما يومِئ إليه من المسائل الفقهيّة، وبرهن على أنّ كثيراً من فصوله داخل في باب المعجزات المحمدية؛ لاشتمالها على

---

(١) هو مؤيد الدين أبوطالب محمد بن أحمد بن العلقمى البغدادى، وزير المستعصم بالله، الخليفة العباسى. اشتغل فى صباه بالأدب، ففاق فيه، وكتب خطا مليحا، وترسل ترسلا فصيحا، وكان لبيبا كريما، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة، خبيرا بأدوات السياسة، محبا للأدب، مقربا لأهل العلم، اقتنى كتبا كثيرة نفيسة، وصنف الناس له؛ منهم الصغانى، صنف له العباب، وهذا المصنف الذى ألف برسمه، وكان ممدحا، مدحه الشعراء، وانتجعه الفضلاء، وأخباره الطيبة كثيرة وجلية. توفى سنة ٦٥٦. الفخرى ٢٩٥، ٢٩٦. (٢) ب، ج: «حركه». (٣) النغبة فى الأصل: الجرعة من الماء. وفى ا: «البغية»، والأجود ما أثبته من ب. (٤) اللط، بالفتح: القلادة.

الأخبار الغيبية ، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية . وَبَيّن من مقامات العارفين ؛ التى يَرمِز إليها فى كلامه ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يُدرِكه إلا الروحانيون المقرّبون . وكشف عن مَقاصده عليه السلام فى لفظة يرسلها ، ومعضِلةٍ[1] يَكْنِي عنها ، وغامضة يعرّض بها ، وخَفايا يُجمجِم[2] بذكرها ، وهَناتٍ تجيش فى صدره فينفُثُ بها نَفْثةَ المصدور ، ومُرْمِضاتٍ مؤلمات يشكوها فيستريح بشكواها استراحةَ المكروب .

فخرج هذا الكتاب كتاباً كاملاً فى فنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُمتِعاً بمحاسنه ؛ جليلةً فوائدُه ، شريفة مقاصدُه ، عظيماً شانه ، عالية منزلته ومكانه ؛ ولا عجبَ أن يُتقرّب بسيّد الكتُب إلى سيد الملوك ، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب ، وبواحد العصر إلى أوحد الدهر ؛ فالأشياء بأمثالها أليق ، وإلى أشكالها أقرب ؛ وشِبْهُ الشيء إليه منجذِب ، ونحوه دان ومقترب .

ولم يشرحْ هذا الكتاب قبلى ـ فيما أعلمه ـ إلا واحد ؛ وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقُطْب الراوندى[3] ، وكان من فقهاء الإمامية ، ولم يكن من رجال هذا الكتاب ، لاقتصاره مدّةَ عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده ، وأنّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة ، ويخوضَ فى هذه العلوم المتشعبة ! لا جَرَمَ أنّ شرحه لا يخفى حالُه عن الذكىّ ، وجَرَى الوادى فطَمّ على القَرِى[4] . وقد تعرّضتُ فى هذا الشرح لمناقضته

---

(١) كذا فى ج ، وجمجم بالكلام : لم يبينه ، وفى ا ، ب : « يجمجم »

(٢) ا : « معضلة » ، بدون الواو . (٣) هو سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندى ، أحد فقهاء الشيعة ؛ وتصانيفه كثيرة متنوعة ؛ أسمى كتابه فى شرح النهج « منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة » ، وتوفى سنة ٥٧٣ . لسان الميزان ٣ : ٤٨ ، روضات الجنات ٣٠٢ . (٤) جرى الوادى فطم على القرى ، مثل ؛ قال الميدانى فى شرحه : أى جرى سَيل الوادى فطم ، أى دفن ؛ يقال : طم السيل الركية ؛ أى دفنها . والقرى : مجرى الماء فى الروضة ، والجمع أقرية وقريان ، و « على » من صلة المعنى ؛ أى أتى على القرى ؛ يعنى أهلكه بأن دفنه ؛ يضرب عند تجاوز الشيء حده » . مجمع الأمثال ١ : ١٥٩

فى مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها ، وأعرضت عن كثير مما قاله ، [إذ] لم أر فى ذكره ونقضِه كبير فائدة .

***

وأنا قبل أن أشرعَ فى الشرح أذكر أقوالَ أصحابِنا رحمهم الله فى الإمامة والتفضيل والبُغاة والخوارج . ومُتْبِـعٌ ذلك بذكر نسب أمير المؤمنين عليه السلام ، ولمع يسيرة من فضائله ، ثم أثلّث بذكر نسب الرضىّ أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوىّ رحمه الله ، وبعض خصائصه ومناقبه . ثم أشرع فى شرح خطبة " نهج البلاغة " التى هى من كلام الرضىّ أبى الحسن رحمه الله(١) ؛ فإذا انتهيت من ذلك كلّه ابتدأت بعون الله وتوفيقه فى شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً فشيئاً .

ومن الله سبحانه أستمدّ المعونة ، وأستدرّ أسبابَ العصمة ، وأستميح غمائم الرحمة ، وأمترى أخلاف البركة ، وأشيمُ بارق النماء والزيادة ، فما المرجوّ إلا فضلُه ، ولا المـأمول إلا طَوْله ، ولا الوثوق إلا برحمته ، ولا السكون إلا إلى رأفته ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢) .

---

(١) ب : « رضى الله عنه » . (٢) سورة الممتحنة ٤ ، ٥ .

القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة
في الإمامة والتفضيل والبغاة والخوارج

اتفق شيوخُنا كافة رحمهم الله؛ المتقدّمون منهم والمتأخرون، والبصريّون والبغداديون على أنّ بيعةَ أبي بكر الصديق بيْعة صحيحة شرعية، وأنّها لم تكن عن نصّ، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبتَ بالإجماع، وبغير الإجماع كونُه طريقاً إلى الإمامة.

واختلفوا في التفضيل، فقال قدماء البصريين كأبي عثمان عمرو بن عُبيد، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبي معن ثُمامة بن أشرس، وأبي محمد هشام بن عمرو الفُوَطيّ، وأبي يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام، وجماعة غيرهم: إن أبا بكر أفضلُ من عليّ عليه السلام؛ وهؤلاء يجعلون ترتيبَ الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخِلافة.

وقال البغداديّون قاطبة؛ قدماؤهم ومتأخروهم، كأبي سهل بِشْر بن المعتمر، وأبي موسى عيسى بن صبيح، وأبي عبد الله جعفر بن مبشّر، وأبي جعفر الإسكافيّ، وأبي الحسين الخيّاط، وأبي القاسم عبد الله بن محمود البلْخِيّ وتلامذته: إنّ عليّاً عليه السلام أفضلُ من أبي بكر.

وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو عليّ محمد بن عبد الوهاب الجُبّائيّ أخيرا، وكان من قبلُ من المتوقّفين، كان يميل إلى التّفضِيل ولا يصرّح به، وإذا صنّف ذهب إلى الوقف في مصنّفاته. وقال في كثير من تصانيفه: إن صحّ خبرُ الطّائر فعليّ أفضل[1].

---

(1) يشير إلى ما رواه الترمذي في باب المناقب ١٣ : ١٧٠، بسنده عن أنس بن مالك، ولفظه: كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير، فقال: « اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير »، فجاء علي فأكل معه. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا يعرف من حديث السدي إلا من هذا الوجه.

ثم إن قاضيَ القضاة رحمه الله ذكر في شرح " المقالات " لأبي القاسم البلخيّ أنّ أبا عليّ رحمه الله ما مات حتى قال بتفضيل عليّ عليه السلام ، وقال : إنه نقل ذلك عنه سماعاً ؛ ولم يوجد في شيء من مصنفاته . وقال أيضاً : إن أبا عليّ رحمه الله يوم مات استدنى ابنه أبا هاشم إليه ، – وكان قد ضَعُفَ عن رفع الصوت – فألقى إليه أشياء ، من جملتها القولُ بتفضيل عليّ عليه السلام .

وممن ذهب من البصريين إلى تفضيله عليه السلام الشيخ أبو عبد الله الحسين ابن عليّ البصريّ رضي الله عنه ، كان متحقِّقاً بتفضيله ، ومبالغاً في ذلك ، وصنف فيه كتابا مفردا .

وممن ذهب إلى تفضيله عليه السلام من البصريين قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد رحمه الله ؛ ذكر ابن مُتَوَيه عنه في كتاب " الكفاية " في علم الكلام أنه كان من المتوقفين بين عليّ عليه السلام وأبي بكر ، ثم قطع على تفضيل عليّ عليه السلام بكامل المنزلة .

ومن البصريين الذاهبين إلى تفضيله عليه السلام أبو محمد الحسن بن مَتَوَيه صاحب " التذكرة " نصّ في كتاب " الكفاية " على تفضيله عليه السلام على أبي بكر ؛ واحتجّ لذلك ، وأطال في الاحتجاج .

فهذان المذهبان كما عرفت .

وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقّف فيهما ؛ وهو قول أبي حذيفة واصل ابن عطاء ، وأبي الهُذَيْل محمد بن الهُذَيْل العلاّف ؛ من المتقدمين . وهما – وإن ذهبا إلى التوقّف[1] بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر – قاطعان على تفضيله على عثمان .

---

(١) ب : « الوقف » .

ومن الذاهبين إلى الوقف الشيخ أبو هاشم عبد السلام بن أبي عليّ رحمهما الله والشيخ أبو الحسين محمد بن عليّ بن الطيّب البَصريّ رحمه الله.

وأمّا نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون؛ من تفضيله عليه السلام. وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل؛ وهل المراد به الأكثر ثوابًا أو[1] الأجمعُ لمزايا الفضل والخلال الحميدة، وبيّنّا أنه عليه السلام أفضلُ على التفسيرين معا. وليس هذا الكتاب موضوعا لذكر الحِجَاج في ذلك أو في غيره من المباحث الكلاميّة لنذكرَه، ولهذا موضع هو أملَكُ به.

***

وأمّا[2] القول في البغاة عليه[3] والخوارج، فهو على[4] ما أذكره لك:

أما أصحاب الجمل فهم عند أصحابنا هالكون كلّهم إلا عائشة وطلحة والزبير؛ [5]رحمهم الله[5] فإنهم تابوا، ولولا التوبة لَحُكِم لهم بالنار لإصرارهم على البغي.

وأما عسكر الشام بصِفّين فإنهم هالكون كلّهم عند أصحابنا لا يُحْكَم لأحد منهم إلّا بالنار؛ لإصرارهم على البغي وموتهم عليه؛ رؤساؤهم والأتباع جميعاً.

وأما الخوارج فإنّهم مرَقوا عن الدين بالخبر النبويّ المجمَع عليه؛ ولا يختلف أصحابنا في أنهم من أهلِ النار.

وجملة الأمر أنّ أصحابنا يحكمون بالنار لكلّ فاسق مات على فِسْقه؛ ولا ريب في أنّ الباغيَ على الإمام الحقّ والخارجَ عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق؛ وليس هذا مما يخصّون به عليًا عليه السلام، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة الإسلام العدول[6] لكان حكمُهم حكمَ من خرج على عليّ صلوات الله عليه.

وقد برِئ[7] كثير[8] من أصحابنا من قوم من الصحابة أحبطوا ثوابهم؛ كالمغيرة بن شعبة

(١) ب: «أم». (٢) ب، ج: «فأما». (٣) ساقطة من ا.
(٤) ا: «فعلى ما أذكره». (٥-٥) ساقط من ب. (٦) ب، ج: «من أئمة العدل».
(٧) ب: «يرى»، تصحيف. (٨) كذا في ب، ج، وفي ا: «قوم».

وكان شيخنا أبو القاسم البلخى إذا ذكر عنده عبد الله بن الزّبير ، يقول : لا خيرَ فيه . وقال مرة : لايعجبنى صلاته وصومه ؛ وليسا بنافعيْن له مع قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « لا يُبغضك إلا منافق » . وقال أبو عبد الله البصرىّ رحمه الله لما سئل عنه : ما صحّ عندى أنه تاب من يوم الجمل ؛ ولكنه استكثر ممّا كان عليه .

فهذه هى المذاهب والأقوال ؛ أمّا الاستدلال عليها فهو مذكور فى الكتب الموضوعة لهذا الفن .

القول فى نسب أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام
وذكر لُمَع يَسِيرة من فضائله

هو أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ـ واسمه عبدمناف ـ بن عبدالمطلب ـ واسمه شيبة ـ ابن هاشم ـ واسمه عمرو ـ بن عبد مناف بن قصىّ . الغالبُ عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن . وكان ابنه الحسن عليه السلام يدعوه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا الحسين ، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن ، ويدعوَان رسول الله صلى الله عليه وآله أباهما ، فلما تُوُفِّىَ النبىّ صلى الله عليه وآله [1] دعوَاه بأبيهما .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا تراب ، وَجَدَه نائما فى تراب ، قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جَسَدَه ، فجاء حتى جلس عند رأسه ، وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له : اجلس ؛ إنّما أنت أبو تراب [2] . فكانتْ من أحبّ كناه إليه صلوات الله عليه ، وكان يفرح إذا دُعِىَ بهـا ، وكانت تُرَغِّب بنو أمية خطباءها [3]

---

(١) ساقطة من ا .

(٢) رواية الخبر كما فى صحيح البخارى ، فى كتاب فضائل الصحابة ٢ : ٣٠٠ ؛ بسنده عن عبد الله ابن مسلمة : « أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد ، فقال : هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو عليا عند المنبر ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، قال : والله ماسماه إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان له اسم أحب إليه . فاستطعمت الحديث سهلا ، وقلت : ياأبا عباس ، كيف ؟ قال : دخل على على فاطمة ، ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أين ابن عمك؟ قالت : فى المسجد ، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول : اجلس ياأبا تراب ، مرتين » . ولهذا الخبر رواية أخرى ذكرها صاحب الرياض النضرة فى ٢ : ١٥٤ .

(٣) ب ، ج : « فدعت بنوأمية » ، وماأثبته من ا .

أن يسبّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه؛ فكأنّما كسوه بها الحليَ والحلل؛ كما قال الحسن البصريّ رحمه الله .

وكان اسمه الأول الذى سمّته به أمه حَيْدَرة ، باسم أبيها أسد بن هاشم ـ والحيدرة : الأسد ـ فغيّر أبوه اسمه ، وسمّاه عليّاً .

وقيل : إن حيدرةَ اسمٌ كانت قريش تسمّيه به . والقول الأول أصحّ ؛ يدلّ عليه خبرُه (١) يوم برز إليه مَرْحب ، وارتجز عليه فقال :

* أنا الذى سمّتنِىَ أمّى مَرْحبَا (٢) *

فأجابه عليه السلام رجزاً :

* أنا الذى سمّتنِىَ أمّى حَيْدَرَهْ (٣) *

ورجزُهما معا مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره .

وتزعم الشيعة أنه خوطب فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بـ «أمير المؤمنين»، خاطبه بذلك جِلّة المهاجرين والأنصار ، ولم يثبتْ ذلك فى أخبار المحدّثين ؛ إلا أنهم قد رووْا ما يُعطِى هذا المعنى ، وإن لم يكن اللفظَ بعينه، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله له : «أنت يَعْسُوب الدّين والمالُ يعسوب الظَّلَمَة »، وفى رواية أخرى: « هذا يعسوب المؤمنين،

---

(١) الخبر رواه مسلم متصلا بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه ، فى كتاب الجهاد والسير ص ١٤٣٣ - ١٤٤١ ، فى غزوة خيبر .

(٢) رواية مسلم :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى مَرْحَبُ   شَاكِى السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
* إِذَا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ *

(٣) بقيته ، كما رواه مسلم :

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَهْ   أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

والسندرة : مكيال واسع .

وقائد الغرّ المحجّلين » (١) . واليعسوب : ذَكَر النّحل وأميرها . روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانيّ فى " المسند " فى كتابه " فضائل الصحابة "، ورواها أبو نُعَيم الحافظ فى " حلية الأولياء " (٢) .

ودُعِي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بوصيّ رسول الله، لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك ، ولكن يقولون : إنها لم تكن وصيةً بالخلافة ، بل بكثير من المتجددات بعده ، أفضى بها إليه عليه السلام . وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ ، أوّل هاشمية وَلَدَت لهاشميّ، كان عليّ عليه السلام أصغرّ بنيها ، وجعفر أسنّ منه بعشر سنين، وعَقِيل أسنّ منه بعشر سنين ، وطالب أسنّ من عَقِيل بعشر سنين ؛ وفاطمة بنت أسد أمّهم جميعاً .

وأمّ فاطمة بنت أسد فاطمة (٣) بنت هَرِم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص [ابن عامر بن لؤيّ . وأمها حديّة بنت] (٤) وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان ابن محارب بن فهر . [وأمّها فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤيّ. وأمّها سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أهَيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر] (٤). وأمها عاتكة بنت أبى هَمْهَمة ـ واسمه عمرو بن عبد العزّى ـ بن عامر بن عُمَيرة بن وديعة (٥) بن الحارث ابن فِهر ، [وأمّها تُماضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤى] (٤) ، وأمها حبيبة؛ وهى أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم ابن قسيّ ؛ وهو ثقيف. وأمّها فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبع (٦) بن وائلة بن نصر ابن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَين بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان

---

(١) ورواه أيضا الطبرانى فى الكبير ، ونقله صاحب الرياض النضرة ٢ : ١٠٠ ؛ مع اختلاف فى اللفظ.

(٢) حلية الأولياء ١ : ٦٣ ، بسنده عن أنس ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا أنس، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الوصيين » .

(٣) فى مقاتل الطالبيين : « وتعرف بحبي بنت هرم » .

(٤) تكملة من مقاتل الطالبيين .

(٥) مقاتل الطالبيين : « ابن أبى وديعة » .

(٦) كذا فى ب ، وفى ا : « ضبيع » ، وفى مقاتل الطالبيين « صبح » .

ابن مضر . وأمها رَيْطة بنت يسار بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم بن ثقيف . وأمها كلة[1] بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن . وأمها حُبّى بنت الحارث بن النابغة بن عميرة ابن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن . ذكر هذا النسب أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ في كتاب "مقاتل الطالبيين"[2] .

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين ؛ وكانت الحادية عشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظّمها ويدعوها : «أمي» ، وأوصتْ إليه حين حضرتْها الوفاة ، فقَبِل وصيتَها ، وصلّى عليها ، ونزَل في لَحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قيصَه ، فقال له أصحابه : إنّا مارأيناك صنعتَ يارسول الله بأحد ماصنعتَ بها ، فقال : « إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها ، إنما ألبستُها قيصي لتُكسَى من حُلَل الجنة ، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطةُ القبر » .

وفاطمة أوّل امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النّساء .

وأمّ أبي طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . وهي أمّ عبدالله ، والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّ الزبير بن عبدالمطلب ؛ وسائرُ ولد عبد المطلب بَعْدُ لأمهات شتى .

واختُلف في مولد عليّ عليه السلام أين كان ؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة ، والمحدّثون لا يعترفون بذلك ، ويزعمون أنّ المولود في الكعبة حكيم بن حِزام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ .

واختلف في سنّه حين أظهر النبيّ صلى الله عليه وآله الدعوة ، إذْ تكامل له صلوات الله عليه أربعون سنة ، فالأشهرُ من الروايات أنه كان ابنَ عشر . وكثير من أصحابنا المتكلّمين يقولون : إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخيّ وغيره من شيوخنا .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « كلبة بنت قصية » . (٢) في ترجمة جعفر بن أبي طالب ص ٧ .

والأوّلون يقولون : إنّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهؤلاء يقولون : ابن ستّ وستين ، والروايات فى ذلك مختلفة . ومن الناس من يزعم أن سنّه كانت دون العشر ، والأكثر الأظهر خلاف ذلك .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذرىّ وعلىّ بن الحسين الأصفهانىّ أنّ قريشاً أصابتْها أزمة وقَحْط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّيه ؛ حمزة والعباس : « ألا نحمِل ثقَلَ أبى طالب فى هذا المَحْل ! »، فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولَدَه ليكفوه أمرهم ، فقال : دَعُوا لى عَقِيلا وخذوا مَنْ شئتم ـ وكان شديد الحبّ لعَقِيل ـ فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليًّا ، وقال لهم : « قد اخترت ـ من اختاره الله لى عليكم ـ عليًّا » ، قالوا : فكان علىّ عليه السلام فى حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، منذ كان عمره ستّ سنين .

وكان مايُسْدِي إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحسن تربيته ؛ كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبى طالب به ؛ حيث مات عبد المطلب وجعله فى حِجْره . وهذا يطابق قوله عليه السلام : لقد عبدتُ اللهَ قبل أنْ يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين ، وقوله : كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أُذِنَ له فى الإنذار والتبليغ ؛ وذلك لأنه إذا كان عمرُه يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ستّ ؛ فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز ، على أنّ عبادةَ مثله هى التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئا من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثلُ هذا موجود فى الصبيان .

وقُتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بَقِين من شهر رمضان ، سنة أربعين فى

رواية أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ[١] ـ وهي الرواية المشهورة ـ وفي رواية أبي مِخْنف أنّها كانت لإحدى عشرة ليلةً بَقِين من شهر رمضان ، وعليه الشيعةُ في زماننا .

والقول الأول أثبتُ عند المحدّثين ، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هي ليلة بدر ، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل في ليلة بدر ، عليه السلام .

وقبره بالغَرِيّ .

وما يدّعيه أصحاب الحديث ـ من الاختلاف في قبره ، وأنّه حُمِل إلى المدينة ، أو أنه دفِن في رحبة الجامع ، أو عند باب قصر الإمارة ، أو ندّ البعير الذي حُمِل عليه فأخذته الأعراب ـ باطل كلّه ، لا حقيقة له ، وأولاده أعرفُ بقبره ؛ وأولاد كلّ الناس أعرفُ بقبور آبائهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذي زاره بنوه لما قَدِموا العراق ، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيرُه من أكابرهم وأعيانهم .

وروى أبو الفرج في " مقاتل الطالبيين " بإسناد[٢] ذكره هناك أنّ الحسين عليه السلام لما سئل : أين دفنتم أمير المؤمنين ؟ فقال : خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة ، حتى مررنا[٣] به على مسجد الأشعث ، حتى انتهينا به إلى الظَّهْر بجنب الغَرِيّ .

وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد .

فأما فضائله عليه السلام ؛ فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغًا يسمُجُ معه التعرّض لذكرها ، والتصدّي لتفصيلها ؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد : رأيتُني فيما أتعاطَى من وصف فضلك ، كالمخبِر عن ضَوْء النهار الباهر ، والقمرِ الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ؛ فأيقنت أنّي حيث انتهى بيَ القولُ منسوب إلى العَجْز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك .

وما أقولُ في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ، ولم يمكنهم جَحْدُ مناقبه ،

---

(١) نقلها أبو الفرج في مقاتل الطالبين ٤٠ . (٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٢ : « الحسن » .

(٣) كذا في الأصول ومقاتل الطالبيين والأجود : « فررنا » .

ولا كتمانُ فضائله ، فقد علمتَ أنه استولى بنو أميةَ على سلطان الإسلام في شرق الأرضِ وغربها ، واجتهدوا بكلّ حيلة في إطفاء نوره ، والتحريضِ عليه ، ووضع المعايب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعّدوا مادِحِيه ، بل حبسوهم وقتلوهم ، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة ، أو يرفع له ذكرا ، حتى حظَروا أنْ يسمّى أحد باسمه ؛ فما زاده ذلك إلا رفعةَ وسُمُوًّا ؛ وكان كالمسك كلّما سُتِر انتشر عَرْفه ، وكلّما كُتِم تضوّع نَشْرُه ؛ وكالشمس لا تُستَر بالراح ، وكضوْء النهار إن حُجِبت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة .

وما أقول في رجل تُعزَى إليه كلُّ فضيلة ، وتنتهي إليه كل فِرْقة ، وتتجاذبه كلُّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل ويَنبوعها ، وأبو عُذْرِها ، وسابق مضمارها ، ومجلِّي حَلْبتها؛ كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفتَ أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهيّ ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرفَ العلوم ، ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ؛ ومنه ابتدأ ، فإنّ المعتزلة[1] ـ الذين هم أهلُ التوحيد والعدْل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن ـ تلامذتُه وأصحابه ؛ لأنّ كبيرَهم واصل بن عطاء تلميذُ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة[2] ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه عليه السلام . وأما الأشعريّة فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن [إسماعيل بن][3] أبي بشر الأشعريّ ، وهو تلميذ أبي عليّ الجُبّائيّ ، وأبو عليّ أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بأَخَرَة إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم ، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .

***

(١) انظر أمالي المرتضى ١ : ١٤٨ وما بعدها ؛ في كلام للمؤلف عن سند المعتزلة إلى علي عليه السلام .
(٢) هو إمام الكيسانية ؛ وعنه انتقلت البيعة إلى بني العباس . تنقيح المقال ٢ : ٢١٢ .
(٣) من ابن خلكان ١ : ٣٢٦

ومن العلوم علم الفقه ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه فى الإسلام فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه ؛ أما أصحابُ أبى حنيفة كأبى يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبى حنيفة ، وأما الشافعىّ فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبى حنيفة ، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعىّ ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبى حنيفة ؛ وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام ، وينتهى الأمر إلى علىّ عليه السلام . وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأى ، وقرأ ربيعة على عِكْرمة ، وقرأ عِكْرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على علىّ بن أبى طالب[١] ؛ وإن شئت فرددتَ[٢] إليه فقهَ الشافعىّ بقراءته على مالك كان لك ذلك ؛ فهؤلاء الفقهاء الأربعة .

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر . وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس؛ وكلاهما أخذ عن علىّ عليه السلام . أما ابنُ عباس فظاهر ، وأمّا عمر فقد عَرَف كلّ أحدٍ رجوعَه إليه فى كثير من المسائل التى أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقولَه غير مرّة : «لولا علىٌّ لهلك عمر»، وقولَه : «لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن»، وقوله : «لا يُفتيَنّ أحد فى المسجد وعلىّ حاضر» ؛ فقد عُرِف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه .

وقد روت العامة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله : « أقضاكم علىّ »[٣]، والقضاء هو الفقه ؛ فهو إذاً أفقههم . وروى الكلّ أيضاً أنه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً : « اللهمّ اهدِ قلبه وثبّت لسانه » ، قال : فما شككتُ بعدها فى قضاء بين اثنين[٤] ،

(١) ب : « عن على » . (٢) فى الأصول : « رددت » .

(٣) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ١ : ٨٥ عن مسند أبى يعلى بلفظ : « أرأف أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ... » وضعفه .

(٤) رواه أبو داود فى كتاب الأقضية ٣ : ٤٠٩ بسنده عن على ، ولفظه : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا فقلت : يارسول الله ، ترسلنى وأنا حديث السن ، ولا علم لى بالقضاء ! فقال : « إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » ، قال : فما زلت قاضيا — أو ماشككت فى قضاء بعد .

وهو عليه السلام الذى أفتى فى المرأة التى وضعت لستة أشهر ، وهو الذى أفتى فى الحامل الزانية[١] ؛ وهو الذى قال فى المِنْبرِيّة[٢] :صار ثُمُنها تُسْعا . وهذه المسألة لو فكَّر الفرَضِيّ فيه فكراً طويلا لاستُحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنّك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالا !

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخِذَ ، ومنه فُرّع. وإذا رجعتَ إلى كتب التفسير علمتَ صحة ذلك ؛ لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس، وقد علم الناس حالَ ابن عباس فى ملازمته له ، وانقطاعه إليه، وأنّه تلميذُه وخرّيجه. وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك ؟ فقال : كنِسْبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف ؛ وقد عرفتَ أن أربابَ هذا الفنّ فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ وقد صرّح بذلك الشِّبْلىّ ، والجُنَيد ، وسَرِىّ[٣] ، وأبو يزيد البِسْطامىّ ، وأبو محفوظ معروف الكرخىّ ؛ وغيرهم . ويكفيك دَلالة على ذلك الخِرْقة[٤] التى هى شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يُسنِدونها بإسناد متّصل إليه عليه السلام .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره ١٦ : ١٩٣ ؛ عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد ، فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى :﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

(٢) سميت المنبرية ؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر ؛ فأفتى من غير روية ؛ وبيانها أنه سئل فى ابنتين وأبوين وامرأة ؛ فقال : صار ثمنها تسعا ، قال أبو عبيد : أراد أن السهام عالت حتى صار للمرأة التسع ، ولها فى الأصل الثمن ؛ وذلك أن الفريضة لو لم تعل كانت من أربعة وعشرين ، فلما عالت صارت من سبعة وعشرين ، فللابنتين الثلثان : ستة عشر سهما ، وللأبوين السدسان : ثمانية أسهم ، وللمرأة ثلاثة من سبعة وعشرين ؛ وهو التسع ، وكان لها قبل العول ثلاثة من أربعة وعشرين ؛ وهو الثمن . وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٣٩ ، واللسان ١٣ : ٥١٢ ، وحاشية البقرى على متن الرحبية ٣٤

(٣) هو سرى بن المغلس السقطى ؛ خال الجنيد وأستاذه ، وصاحب معروف الكرخى ؛ وأول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال . مات سنة ٢٥١ . (طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨)

(٤) فصل السهروردى فى الباب الثانى عشر من كتابه عوارف المعارف (٤ : ١٩١ وما بعدها — على هامش الإحياء) الكلام فى شرح خرقة المشايخ الصوفية ولبسها .

ومن العلوم علم النحو والعربية ؛ وقد علم الناس كافة أنه هو الذى ابتدعه وأنشأه ، وأملَى على أبى الأسود الدؤلىّ جوامعه وأصوله ، من جملتها : الكلام كلّه ثلاثة أشياء : اسم وفعل وحرف ، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم [١] ، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البشرية لا تفِى بهذا الحصر ، ولا تنهض بهذا الاستنباط .

وإن رجعت إلى الخصائص الخُلُقيّة والفضائل النفسانية والدينية وجدتّه ابن جَلاها وطَلّاع ثناياها [٢]

* * *

وأما الشجاعة فإنه أنسَى الناسَ فيها ذكر مَنْ كان قبله، ومحا اسمَ من يأتى بعده، ومقاماتُه فى الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة ؛ وهو الشجاع الذى مافرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلا قتله ؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى ثانية؛ وفى الحديث : « كانَتْ ضَرَباته وتراً ». ولما دعا معاويةَ إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما ، قال له عمرو : لقد أنصفك ، فقال معاوية : ماغششتنى منذ نصحتنى إلا اليوم ، أتأمرنى بمبارزة أبى الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرِق! أراك طمعت فى إمارة الشام بعدى ! وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابلته ، فأما قتلاه فافتخارُ رهطِهم بأنه عليه السلام قتلهم أظهرُ وأكثر ، قالت أخت عمرو ابن عبد وَدّ ترثيه :

لو كان قاتلُ عمرٍو غيرَ قاتِلِهِ   بكيتُه أبداً مادُمْتُ فى الأبدِ [٣]

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٤٢ ـ ٥٠ (٢) اقتباس من قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا   مَتَى أضَعِ العِمَامَةَ تعرِفُونِى

وابن جلا ، أى الواضح الأمر ؛ وطلاع الثنايا : كناية عن السمو إلى معالى الأمور ، والثنايا فى الأصل : جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل . وانظر اللسان ١٨ : ١٦٥

(٣) من أبيات ذكرها صاحب اللسان ٨ : ٣٩٥ ، وروايته :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ   بكيتُهُ ما أقَامَ الرُّوحُ فى جَسَدِى

لكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ   وَكَانَ يُدْعَى قديماً بيضة البَلَدِ

لـكنَّ قاتِلَهُ مَنْ لا نظـــير له وكان يُدْعَى أبوه بَيْضة البَلَدِ [١]

وانتبه يوماً معاوية ، فرأى عبد الله بن الزُّبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعد ، فقال له عبد الله يداعبه: ياأميرَ المؤمنين، لوشئت أن أفتِكَ بك لفعلت ، فقال: لقد شَجُعت بعدنا يا أبا بكر ! قال: وما الذى تنكره من شجاعتى وقد وقفتُ فى الصف إزاء علىّ بن أبى طالب ! قال : لا جَرَم ، إنّه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيتِ اليمنى فارغةً ، يطلب مَنْ يقتله بها .

وجملة الأمر أنّ كلّ شجاع فى الدنيا إليه ينتهى ، وباسمه ينادى فى مشارق الأرض ومغاربها .

***

وأما القوّة والأيْد فبه يُضرب المثل فيهما؛ قال ابن قتيبة فى "المعارف" : ماصارعَ أحداً قطّ إلا صرَعه [٢]. وهو الذى قلَع باب خَيْبَر، واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه ؛ وهو الذى اقتلع هُبَلَ من أعلى الـكعبة، وكان عظيماً جداً ، وألقاه [٣] إلى الأرض. وهو الذى اقتلع الصخرة العظيمة فى أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها، وأنبط [٤] الماء من تحتها .

***

وأمّا السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة؛ وكان يصوم ويَطْوِى ويُؤْثر بزاده ؛ وفيه أنزل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ [٥] . وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم ؛ فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيـه : ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) بيضة البلد ، يريد على بن أبى طالب ، أى أنه فرد ليس مثله فى الشرف كالبيضة التى هى تريكة وحدها ، ليس معها غيرها ، كذا فسره فى اللسان .

(٢) المعارف ٢١٠ ، وبعدها : « شديد الوثب قوى الضرب » .

(٣) ب : « فألقاه » . (٤) ب ج : « فأنبط » .

(٥) سورة الإنسان ٩ ، ١٠

يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (١) .

وروى عنه أنه كان يَسقِي بيده لنخلِ قوم من يهود المدينة ، حتى مَجَلَت (٢) يده ، ويتصدق بالأُجْرة ، ويشدُّ على بطنه حجَرا .

وقال الشعبيّ وقد ذكره عليه السلام : كان أسخَى الناس ؛ كان على الخُلُق الذى يحبّه الله : السخاء والجود ، ماقال : « لا » لسائل قطّ .

وقال عدوّه ومُبْغضه الذى يجتهد فى وَصْمِه وعيبه معاوية بن أبى سفيان لِمحْفَن (٣) بن أبى محْفَن الضبيّ لما قال له : جئتك مِنْ عند أبخل الناس ، فقال : ويحك ! كيف تقول إنّه أبخل الناس ، لو مَلَك بيتاً من تِبْر وبيتاً من تِبْن لأنفد تِبْره قبل تِبْنِه .

وهو الذى كان يكنُس بيوت الأموال ويصلّى فيها . وهو الذى قال : ياصفراء ، ويابيضاء ، غرّى غيرى ، وهو الذى لم يُخلِّفْ ميراثاً ، وكانت الدنيا كلّها بيده إلّا ما كان من الشام .

* * *

وأما الحلم والصفح فكان أحلمَ الناس عن ذَنب ، وأصفحَهم عن مسيء ؛ وقد ظهر صحّة ماقلناه يومَ الجمل ؛ حيث ظفِر بمرْوان بن الحكم ـ وكان أعدَى الناس له ، وأشدَّهم بغضاً ـ فصفح عنه .

وكان عبد الله بن الزّبير يشتِمه على رءوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوَغْد (٤) اللئيم عليّ بن أبى طالب . وكان عليّ عليه السلام يقول : مازال الزبير

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ، وللمفسرين فى هذه الآية أسباب أخرى للنزول ، ذكرها القرطبى فى التفسير ١٩ : ١٢٨ ، وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ٢٣١

(٢) مجلت يده ، أى ثخن جلده وتعجر وظهر فيه مايشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة ، ومنه حديث فاطمة : أنها شكت إلى على مجل يديها من الطحن . النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٠

(٣) أورده الذهبى فى المشتبه ص ٥٧٣ ، وقال : « وفد على معاوية » .

(٤) فى ب : « الوغب » ، وهما بمعنى .

رجلاً منّا أهلَ البيت حتى شبّ عبد الله ، فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً ، فصفح عنه ، وقال : اذهب فلا أرينّك ؛ لم يزده على ذلك .

وظفِر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة ـ وكان له عدوًّا ـ فأعرض عنه ولم يقلْ له شيئاً .

وقد علمتم ما كان من عائشة فى أمره ، فلما ظفر بها أكرمها ، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهنّ بالعمائم وقلّدهنّ بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به ، وتأفّفت وقالت : هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى . فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهنّ ، وقلن لها : إنما نحن نسوة .

وحاربه أهل البصرة ، وضربُوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفِر بهم رفع السيف عنهم ، ونادَى مناديه فى أقطار العسكر : ألَا لا يُتْبَع[1] مُولٍّ ، ولا يُجهَزُ على جريح ، ولا يُقتَل مستأسر ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيّز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ أثقالَهم ، ولا سبَى ذراريّهم ، ولا غنِم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو ؛ وتقيّل سنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تُنْسَ .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علىّ عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا[2] لهم شِرْبَ الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان ؛ فلما رأى عليه السلام أنه الموتُ لامحالةَ تقدّم بأصحابه ، وحمل على عساكر معاوية حَمَلاتٍ كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع ؛ سقطت منه الرءوس والأيدى ، وملكوا عليهم

(١) ا : « لا يتبع مول » . (٢) كذا فى ا ، وفى ب : « يسوغوا » .

الماء ، وصار أصحاب معاوية فى الفلاة ، لا ماء لهم ، فقال له أصحابه وشيعته : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تَسقِهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدى فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، أفسِحوا لهم عن بعض الشّريعة ، ففى حدّ السيف ما يغنى عن ذلك . فهذه إن نسبْتَها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالا وحسنا ، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلِقْ بمثلها أن تصدر عن مثله عليه السلام !

* * *

وأما الجهاد فى سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيّد المجاهدين ؛ وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ! وقد عرفتَ أنّ أعظمَ غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية فى المشركين بدر الكبرى ؛ قُتِل فيها سبعون من المشركين ، قتَل علىّ نصفَهم ، وقتَل المسلمون والملائكة النصفَ الآخر . وإذا رجعتَ إلى مغازى محمد بن عمر الواقدىّ وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرىّ وغيرهما علمت صحة ذلك ؛ دعْ مَن قتله فى غيرها كأُحُد والخندق وغيرهما ؛ وهذا الفصل لامعنى للإطناب فيه ؛ لأنه من المعلومات الضرورية ، كالعِلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما .

* * *

وأمّا الفصاحةُ فهو عليه السلام إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ؛ وفى كلامه[1] قيل : دون كلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين . ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . وقال ابن نُباته[2] : حفظت من الخطابة كنزاً لايزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علىّ بن أبى طالب .

ولما قال مِحفن بن أبى مِحفن لمعاوية : جئتك من عند أعيَا الناس ، قال له : ويحك !

(١) ب : « وعن كلامه » . (٢) هو عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن إسماعيل الفارق الجذامى.

كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره . ويكفي هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالة على أنه لايجارَى في الفصاحة ، ولايبارَى في البلاغة . وحسبك أنه لم يدوَّنْ لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشْر ولا نصف العُشْر مما دُوِّن له ، وكفاك في هذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ في مدحه في كتاب " البيان والتبيين " وفي غيره من كتبه .

* * *

وأما سجاحة الأخلاق ، وبِشْر الوجه ، وطلاقة المُحيَّا والتبسم ، فهو المضروبُ به المثل فيه ؛ حتى عابه بذلك أعداؤه ؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دُعابة شديدة . وقال عليّ عليه السلام في ذاك : عجبًا لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة ، وأنّي امرؤ تِلْعابة ، أعافِس وأمارِس(١) . وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر ابن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه : لله أبوك لولا دُعابة فيك ! إلا أنّ عمر اقتصر عليها ، وعمرو زاد فيها وسمّجها .

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه : كان فينا كأحدنا ، لِين جانب ، وشدّة تواضع ، وسهولة قِياد ، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه .

وقال معاوية لقيس بن سعد : رحِم الله أبا حسن ؛ فلقد كان هشًّا بشًّا ، ذا فُكاهة . قال قيس : نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزَحُ ويبتسم إلى أصحابه ، وأراك تُسِرّ حَسْواً في ارتِغاء(٢) ، وتعيبه بذلك ! أمَا والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيَبَ من ذي لِبْدتين قد مسّه الطَّوى ؛ تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طَغَامُ أهل الشام .

(١) التلعابة ، بفتح التاء وكسرها : الكثير اللعب والمرح . والمعافسة : الملاعبة أيضا . والممارسة : ملاعبة النساء . والخبر أورده ابن الأثير في النهاية ١ : ١١٧ ، و٣ : ٥٩ ، ١١٠ ، و٤ : ٥٩ ، ٨٩ .
(٢) في المثل : « هو يسر حسوا في ارتغاء » ، يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره . اللسان ١٩ : ٤٦ .

وقد بقىَ هذا الخُلقُ متوارَثاً متناقَلا فى محبِّيه وأوليائه إلى الآن ، كما بقىَ الجفاء والخشونة والوعورة فى الجانب الآخر ، ومَنْ له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك .

***

وأمّا الزهد فى الدنيا فهو سيِّد الزهاد ، وبدَل الأبدال ، وإليه تشدُّ الرحال ، وعنده تُنفَضُ الأحلاس ؛ ما شبِعَ من طعام قطّ . وكان أخشنَ الناس مأكلا وملبساً ؛ قال عبد الله بن أبى رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدّم جِراباً مختوماً ، فوجدنا فيه خبزَ شعير يابساً مرضوضاً ، فقدّم فأكل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فكيف تختمِه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلُتّاه بسمن أو زيت .

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى ، ونعلاه من ليف . وكان يلبَس الكِرْباسَ[١] الغليظ ، فإذا وجد كمّه طويلا قطعه بشَفرة ، ولم يخِطْه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سَدًى لا لُحْمَة له . وكان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو بملح ، فإن ترقّى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل . ولا يأكل اللحم إلّا قليلا ، ويقول : لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان . وكان مع ذلك أشدّ الناس قوّةً وأعظمهم أيْداً ، لا يُنقِصُ[٢] الجوع قوّته ، ولا يخَوّن[٣] الإقلالُ مُنّته . وهو الذى طلّق الدنيا ، وكانت الأموال تُجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرّقها ويمزقها ، ثم يقول :

هـــذا جَنَاىَ وخِيارُه فيهْ إذْ كُلّ جانٍ يدُه إلى فيهْ[٤]

(١) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض ، معرب .

(٢) ب ، ج : « ينقص » .

(٣) يخون : ينقص ، وفى ب : «يخور » ، وماأثبته عن ا ، ج .

(٤) البيت أنشده عمرو بن عدى حينما كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة الأبرش) الكمأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقى إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتى به كما هو ، وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وحديث على ورد مفصلا فى حلية الأولياء ١ : ٨١ .

وأمّا العبادة فكان أعبدَ الناس وأكثرَهم صلاة وصوماً ؛ ومنه تعلّم الناس صلاة الليل ، وملازمة الأوراد وقيام النافلة ؛ وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبْسَطَ له نِطَعٌ بين الصفّين ليلة الهرير ، فيصلى عليه وِرْدَه ، والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيهِ يميناً وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ، ولا يقوم حتى يفرُغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثَفِنَةَ البعير لطول سجوده !

وأنت إذا تأمّلت دعواتِهِ ومناجاتِهِ ، ووقفتَ على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزّته والاستخذاء له ، عرفتَ ماينطوِى عليه من الإخلاص ، وفهمت من أىّ قلبٍ خرجتْ ، وعلى أىّ لسان جرت!

وقيل لعلىّ بن الحسين عليه السلام — وكان الغايةَ فى العبادة : أين عبادتك من عبادة جَدّك ؟ قال : عبادتى عند عبادة جدّى كعبادة جدّى عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه فى هذا الباب ؛ اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أوّلُ مَنْ جَمَعه ؛ نقلوا كلّهم أنّه تأخّر عن بيعة أبى بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة ؛ بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن ؛ فهذا يدلّ على أنه أوّلُ مَن جمع القرآن ؛ لأنه لو كان مجموعاً فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما احتاجَ إلى أن يتشاغل(١) بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله . وإذا رجعتَ إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ؛ كأبى عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبى النَّجود وغيرهما ؛ لأنهم يرجعون إلى أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ القارئ ،

---

(١) ب : « تشاغل » .

وأبو عبد الرحمن كان تلميذه ، وعنه أخذ القرآن ؛ فقد صار هذا الفنّ من الفنون التى تنتهى إليه أيضاً ، مثل كثير مما سبق .

***

وأمّا الرأىُ والتدبير فكان من أسَدِّ الناس رأياً ، وأصحِّهم تدبيراً ؛ وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أنْ يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرْس بما أشار . وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، ولو قبلها لم يحدُث عليه ما حدث . وإنّما قال أعداؤه : لا رأيَ له ؛ لأنه كان متقيِّداً بالشريعة لا يرى خلافَها ، ولا يعمل بما يقتضى الدِّينُ تحريمه . وقد قال عليه السلام : لولا الدينُ والتّقى لـكنتُ أدهى العرب . وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى مايستصلِحُه ويستوفقه ؛ سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن ؛ ولا ريب أنّ مَنْ يعمل بما يؤدّى إليه اجتهاده ، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه ، تـكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب ، ومَن كان بخلاف ذلك تـكون أحواله الدنيوية إلى الانتثار أقرب .

***

وأما السياسةُ فإنه كان شديدَ السياسة ، خشِناً فى ذات الله ، لم يراقب ابنَ عمّه فى عمل كان ولّاه إياه ، ولا راقب أخاه عَقِيلا فى كلام جَبَهه به . وأحرق قوماً بالنار ، ونقض دار مَصْقَلة بن هُبَيرة ودار جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وقطع جماعةً وصلب آخرين .

ومن جملة سياسته فى حروبه أيام خلافته بالجمل وصِفّين والنهروان ، وفى أقلّ القليل منها مقْنَع ، فإنّ كلّ سائس فى الدنيا لم يبلغ فتـكه وبطشه وانتقامه مبلغ العشر مِمّا فعل عليه السلام فى هذه الحروب بيدِه وأعوانه .

فهذه هى خصائص البَشَر ومزاياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعلُه ، والرئيس المقتفَى أثره .

***

وما أقول فى رجل تحبّه أهلُ الذّمة على تـكذيبهم بالنبوّة ، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة ، وتصوِّرُ ملوك الفرنج والروم صورتَه فى بِيَعها وبيوت عباداتها ،

حاملا سيفَه ، مشمّراً لحربه ، وتصوَّر ملوكُ الترك والدَّيلم صورته على أسيافها ؛ كان على سيفِ عَضُد الدولة بن بُوَيْه وسيف أبيه ركن الدولة صورتُه ، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه مَلِكشاه صورته ، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر .

وما أقولُ فى رجل أحبَّ كلُّ واحدٍ أن يتكثَّر به ، وودَّ كلُّ أحدٍ أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه ؛ حتى الفتوّة التى أحسن ماقيل فى حدّها ألّا تستحسنَ من نفسك ماتستقبحه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، وصنّفوا فى ذلك كتبا ، وجعلوا لذلك إسنادا أنهوه إليه ، وقصروه عليه ، وسمَّوْه سيّدَ الفتيان ، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المرويّ ، أنه سُمِع من السماء يوم أحُد :

لا سيفَ إلا ذو الفقا رِ ولا فَتَى إلا على

وما أقول فى رجل أبوه أبو طالب سيّدالبطحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكة،قالوا: قلّ أنْ يسوَّد فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له ، وكانت قريش تسمّيه الشيخ.

وفى حديث عفيف الكندىّ ، لما رأى(١) النبيّ صلى الله عليه وآله يصلّى فى مبدأ الدعوة ، ومعه غلام وامرأة ، قال : فقلت للعباس : أىّ شىء هذا ؟ قال : هذا ابن أخى، يزعم أنّه رسولٌ من الله إلى الناس ، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام ــ وهو ابن أخى أيضاً ــ وهذه الامرأة ، وهى زوجته ــ قال : فقلتُ : ماالذى تقولونه أنتم ؟ قال : ننتظر مايفعل الشيخ ــ يعنى أباطالب. وأبو طالب هو الذى كَفَل رسولَ الله صلى الله عليه وآله صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه من مشركى قريش ، ولقِىَ لأجله عَنَتاً عظيما،وقاسى بلاء شديدا ، وصبرَ على نصره والقيام بأمره . وجاء فى الخبر أنّه لما توفّى أبو طالب أوحِى إليه عليه السلام وقيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك .

وله مع شرف هذه الأبوّة أنّ ابن عمه محمد سيدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين ، الذى قال له رسول صلى الله عليه وآله : «أشبهتَ خَلقى وخُلُقى » ، فمرّ يحجل

(١) الخبر فى أسد الغابة ٣ : ٤١٤ مع اختلاف فى الرواية .

فرحاً ؛ وزوجته سيدة نساء العالمين ، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة ؛ فآباؤه آباء رسول الله ، وأمهاته أمهات رسول الله ، وهو مسوط بلحمه ودمه ، لم يفارقه منذ خلق الله آدم ، إلى أن مات عبدالمطلب بين الأخوين عبد الله وأبي طالب ؛ وأمّهما واحدة ، فكان منهما سيّدا الناس ؛ هذا الأول وهذا التالي ، وهذا المنذر وهذا الهادي !

وما أقول في رجل سَبَق الناس إلى الهدى ، وآمن بالله وعبدَه وكلّ من في الأرض يعبد الحجر ، ويجحد الخالق ؛ لم يسبِقْه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير محمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

ذهب أكثر أهلِ الحديث إلى أنه عليه السلام أوّل الناس اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وآله إيماناً به ، ولم يخالف في ذلك إلا الأقلّون . وقد قال هو عليه السلام : أنا الصدّيق الأكبر ؛ وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس ، وصلّيت قبل صلاتهم . ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك وعلمه واضحاً . وإليه ذهب الواقديّ وابن جرير الطبريّ ، وهو القول الذي رجحه ونصره صاحب كتاب "الاستيعاب"[1] .

ولأنّا إنما نذكر في مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عَنّت بالعَرَض لا بالقصد ؛ وجب أن نختصر ونقتصر ، فلو أردنا شرحَ مناقبه وخصائصه لاحتجْنا إلى كتاب مفرد يماثل حَجْم هذا بل يزيد عليه ، وبالله التوفيق[2] .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر النمري القرطبي ٢ : ٤٥٧ .

(٢) وانظر ترجمته وأخباره أيضا في أسد الغابة ٤ : ١٦ـ ٤٠ ، والاستيعاب ٣ : ١٠٨٩ـ ١١٣٣ والإصابة ٤ : ٢٦٩ ـ ٢٧١ ، وإنباه الرواة ١ : ١٠ ـ ١٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩١ـ ٢٠٧ ، وتاريخ بغداد ١ : ١٣٣ ـ ١٣٨ ، وتاريخ أبي الفدا ١ : ١٨١ ـ ١٨٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨٨ ـ ٩١ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٣٢ ـ ٣٦١ ، و ٨ : ١ ـ ١٣ ، وتذكرة الحفاظ ١ : ١٠ ـ ١٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ٣٤٤ ـ ٣٤٩ ، وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٣٤ ـ ٣٣٩ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ ـ ٨٧ ، والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ ـ ٢٤٩ ، وشذرات الذهب ١ : ٤٩ـ ٥١ ، وصفوة الصفوة ٣ : ١١٩ ـ ١٤٤ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ٣٣٧ / ٣ : ١٩ / ٦ : ١٢ ، وطبقات القراء لابن الجزري ١ : ٥٤٦ ـ ٥٤٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٥ ـ ٥٠ ، والمعارف ٢٠٣ ـ ٢١٨ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ٤١ ـ ٥٠ ، ومعجم الشعراء ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، ومقاتل الطالبيين ٢٤ ـ ٤٥ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١١٩ ـ ١٢٠ .

القول فى نسب الرضى أبى الحسن رحمه الله وذكر طرف من خصائصه ومناقبه

هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام . مولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليلَ القدر ، عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس ودولة بنى بُوَيْه، ولُقّب بالطاهر ذى المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطّاهر الأوحد، وولىَ نقابة الطالبيّين خمس دفعات، ومات وهو متقلّدها بعد أن حالفته الامراض، وذهب بصره ، وتوفِّىَ عن سبع وتسعين سنة ، فإن مولده كان فى سنة أربع وثلثمائة ، وتوفِّىَ سنة أربعمائة . وقد ذكر ابنه الرضىّ أبو الحسن كميّة عمره فى قصيدته التى رثاه بها ، وأولها :

وَسَمَتْكَ حاليةُ الربيعِ المُرْهِمِ ... وسقتْكَ ساقيةُ الغَمَامِ المُرْزِمِ (1)

سَبْعٌ وتسعون اهتبلْنَ لكَ العِدَا ... حتى مَضَوْا وغبرتَ غيرَ مذمَّمِ

لم يلحقوا فِيها بشأوِكَ بَعْدَ مَا ... أمَلُوا فعاقهمُ اعتراضُ الأزْلَمِ (2)

إلا بقايا من غُبارِكَ أصبَحت ... غُصَصاً وأقذاءً لعينٍ أو فَمِ

إن يَتبعوا عَقِبَيْكَ فى طلب العلا ... فالذئب يَعْسِل فى طريق الضَّيْغَمِ (3)

ودفن النقيب أبو أحمد أولا فى داره ، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام .

وهو الذى كان السفيرَ بين الخلفاء وبين الملوك من بنى بُوَيه والأمراء من بنى حَمْدان وغيرهم . وكان مباركَ الغرّة ميمونَ النقيبة ، مَهيباً نبيلا ؛ ماشرع فى إصلاح أمر فاسد

---

(1) ديوانه ، لوحة ١٥٣ .
(2) الأزلم : الدهر .
(3) عسل الذئب : مضى مسرعا واضطرب فى عدوه .

إلا وصَلَح على يديه ، وانتظم بحسن سفارته ، وبركة هِمّته ، وحسنِ تدبيره ووساطته . ولاستعظامِ عَضُد الدولة أمرَه ، وامتلاء صدرِه وعينه به حين قدم العراق ما[1] قبض عليه وحمَله إلى القلعة بفارس ؛ فلم يزل بها إلى أن مات عضد الدولة ، فأطلقه شرفُ الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة ، واستصحبه فى جملته حيث قدم إلى بغداد، وملك الحضرة . ولما توفّى عضد الدولة ببغداد كان عمرُ الرضىّ أبى الحسن أربع عشرة سنة ، فكتب إلى أبيه وهو معتقَل بالقلعة بشيراز :

أبلِغَا عَنّىَ الحسينَ ألوكاً ... أنّ ذا الطود بعدَ عَهدِكَ ساخا[2]

والشّهابَ الذى اصطليتَ لظاه ... عكسَتْ ضوءهُ الخطوبُ فباخا[3]

والفَنيقَ الّذِى تَدَرّع طول الأرضِ خوّى به الرّدَى وأناخا[4]

إن يرِدْ موردَ القذى وهو راضٍ ... فبما يكرع الزلال النُّقاخا[5]

والعُقَاب الشّغواء أهبطها النِّيقُ وقد أرْعَتِ النجوم صِماخا[6]

أعجلتْها المنونُ عنّا ولكن ... خلّفت فى ديارنا أفراخا

وعلى ذاك فالزمانُ بهم عا ... دَ غُلاماً من بعد ما كان شاخا

وأمّ الرضىّ أبى الحسن فاطمة بنت الحسين [بن أحمد][7] بن الحسن الناصر الأصمّ، صاحب الدَّيْلم ، وهو أبو محمد الحسن بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن عمر بن علىّ ابن أبى طالب عليهم السلام . شيخ الطالبيّين وعالمهم وزاهدهم ، وأديبهم وشاعرهم ؛

---

(١) ما هنا مصدرية .

(٢) لوحة ١٨٢ ، والألوك : الرسالة .

(٣) باخ : سكن وفتر .

(٤) الفنيق فى الأصل : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

(٥) النقاخ : البارد العذب الصافى .

(٦) الشغواء من وصف العقاب ؛ قيل لها ذلك لفضل فى منقارها الأعلى على الأسفل . والنيق : حرف من حروف الجبل .

(٧) تكملة من ا ، ج .

ملكَ بلادَ الديلم والجَبَل ، ويلقّب بالناصر للحقّ ، جرتْ له حروب عظيمة مع السامانيّة ، وتوفّى بطَبَرِستان سنة أربع وثلاثمائة ، وسنُّه تسع وسبعون سنة . وانتصب فى منصبه الحسن ابن القاسم بن الحسين الحسَنىّ ؛ ويلقّب بالداعى إلى الحق .

وهى أمّ أخيه أبى القاسم علىّ المرتضى أيضاً .

وحفظ الرضىّ رحمه الله القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة فى مدّة يسيرة ، وعَرَف من الفقه والفرائض طرَفاً قويًّا . وكان رحمه الله عالما أديباً ، وشاعراً مُفْلِقاً ، فصيحَ النظم ، ضخم الألفاظ ، قادراً على القريض ، متصرّفاً فى فنونه ؛ إنْ قَصَد الرِّقَّةَ فى النسيب أتى بالمعجَب المُعجاب ، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ فى المدح وغيره[1] أتى بما لا يُشَقّ فيه غباره ، وإن قصَدَ فى المراثى جاء سابقاً والشعراء منقطعٌ أنفاسها على أثره . وكان مع هذا مترسِّلا ذا كتابة قوية . وكان عفيفاً شريف النفس ، عالىَ الهمّة ، ملتزما[2] بالدّين وقوانينه ، ولم يقبل من أحدٍ صِلة ولا جائزة ، حتى إنّه ردّ صِلات أبيه ؛ وناهيك بذلك شرفَ نفسٍ ، وشدّةَ ظَلَف[3] . فأمّا بنو بُوَيه فإنهم اجتهدوا على قبوله صِلاتِهم فلم يَقْبَل .

وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب . وكان الطائع[4] أكثرَ ميلا إليه من القادر[5] ؛ وكان هو أشدّ حبًّا وأكثر ولاء للطائع منه للقادر ؛ وهو القائل للقادر فى قصيدته التى مدحه بها ، منها :

---

(١) ساقطة من ا

(٢) ب ، ج : « مستلزما » وما أثبته عن ا

(٣) الظلف ، من ظلف نفسه عن الشىء يظلفها ظلفاً : منعها مما إليه تميل .

(٤) هو أبو بكر عبد الكريم الطائع لأمر الله ؛ بويع بالخلافة له سنة ٣٦٣ ؛ ثم خلع ، وقبض عليه الديلم سنة ٣٨١ ، وبويع لأخيه القادر ؛ فحمل إليه الطائع ، وبقى عنده إلى أن توفى سنة ٣٩٣ . الفخرى : ٢٥٤ ، وابن الأثير حوادث ٣٨١ .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، المعروف بالقادر ؛ بويع له بالخلافة بعد خلع أخيه ؛ وتوفى سنة ٤٢٢ . الفخرى ٢٥٤ .

عطفاً أميرَ المؤمنين فإننا ... في دوحةِ العلياءِ لا نتفرّق[1]

مابيننا يوم الفخارِ تفاوتٌ ... أبداً كلانا فى المعالى مُعْرِقُ

إلا الخلافةَ شرّفتكَ فإنّنى[2] ... أنا عاطلٌ منها وأنتَ مطوّقُ

فيقال : إنّ القادر قال له : على رغم أنفِ الشريف !

وذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزىّ فى التاريخ فى وفاة الشيخ أبى إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن محمد الطبرىّ الفقيه المالكىّ ، قال : كان شيخَ الشهود المعدّلين ببغداد ومتقدِّمَهم ، وسمع الحديثَ الكثير ، وكان كريماً مُفْضِلاً على أهل العلم ، قال : وعليه قرأ الشريف الرضىّ رحمه الله القرآن وهو شاب حَدَث [السنّ][3] ، فقال له يوماً : أيها الشريف ، أين مقامك؟ قال : فى دار أبى بباب مُحَوَّل[4] ، فقال : مثلك لا يُقيم بدار أبيه ، قد نحلتُك دارى بالكرخ ، المعروفة بدار البركة . فامتنع الرضىّ من قبولها وقال له : لم أقبلْ من أبى قطّ شيئاً ، فقال : إن حقى عليك أعظمُ من حقّ أبيك عليك ؛ لأنى حفّظتك كتاب الله تعالى . فقبلها[5] .

وكان الرضىّ لعلو همّته تنازِعُه نفسُه[6] إلى أمورٍ عظيمة يجيش بها خاطره ، وينظِمُها فى شعره ، ولا يجد من الدهر[7] عليها مساعدة ، فيذوب كمداً ، ويفنى وجدًا ، حتى توفّيَ ولم يبلغ غرَضاً .

فمن ذلك قوله :

ما أنا للعَلياءِ إنْ لم يكُنْ ... مِنْ وَلَدِى ما كان من والِدِى[8]

ولا مَشَتْ بى الخيلُ إنْ لم أطأْ ... سريرَ هذا الأصيَدِ الماجدِ[9]

---

(١) ديوانه ، لوحة ٤٠ . (٢) الديوان : « ميزتك وإننى » .

(٣) تكملة من ا

(٤) باب محول ، بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو ولام : محلة كبيرة من محال بغداد ؛ كانت متصلة بالكرخ .

(٥) المنتظم (حوادث سنة ٣٩٣) . (٦) ا : « ف » ، وما أثبته عن ب .

(٧) ا : « فى الدهر » ؛ وما أثبته عن ب . (٨) ديوانه ، لوحة ٨٩ .

(٩) ديوانه : « الأغلب الماجد » .

ومنه قوله :

مَتَى تَرَانِي مُشِيحاً فِي أَوَائِلِهِمْ   يَطْفُو بِيَ النَّقْعُ أَحْيَاناً وَيُخْفِينِي (١)

[لَتَنْظُرَنِّي مُشِيحاً فِي أَوَائِلِهَا   يَغِيبُ بِي النَّقْعُ أَحْيَاناً وَيُبْدِينِي] (٢)

لا تَعْرِفُونِيَ إِلا بِالطِّعَانِ وَقَدْ   أَضْحَى لِثَامِي مَعْصُوباً بِعِرْنِينِي (٣)

ومنه قوله يعنى نفسه :

فَوَاعَجَبَا مِمَّا يَظُنُّ مُحَمَّدٌ   وَلِلظَّنِّ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ غَدَّارُ (٤)

يُؤَمِّلُ أَنَّ الْمُلْكَ طَوْعُ يَمِينِهِ (٥)   وَمِنْ دُونِ مَا يَرْجُو الْمُقَدِّرُ أَقْدَارُ

لَئِنْ هُوَ أَعْفَى لِلْخِلَافَةِ لِمَّةً   لَهَا طُرَرٌ فَوْقَ الْجَبِينِ وَإِطْرَارُ

وَرَامَ الْعُلَا بِالشِّعْرِ وَالشِّعْرِ دَائِباً   فَفِي النَّاسِ شُعْرٌ خَامِلُونَ وَشُعَّارُ (٦)

وَإِنِّي أَرَى زَنْداً تَوَارَى قَدْحُهُ   وَيُوشِكُ يَوْماً أَنْ تَكُونَ لَهُ نَارُ

ومنه قوله (٧)

لا هَمَّ قَلْبِي بِرُكُوبِ الْعُلَا   يَوْماً وَلَا بَلَّتْ يَدِي بِالسَّمَاحِ (٨)

---

(١) ديوانه ص ٥٢٢ – (مطبعة نخبة الأخبار) ، من قصيدة يذكر فيها القبض على الطائع لله، ويصف خروجه من الدار سليما ، وأنه حين أحس بالأمر بادر ونزل دجلة ، وتلوم من تلوم من القضاة والأشراف والشهود ، فامتهنوا وأخذت ثيابهم . ومطلعها :

لَوَاعِجُ الشَّوْقِ تُخْطِيهِمْ وَتُصْمِينِي   وَاللَّوْمُ فِي الْحُبِّ يَنْهَاهُمْ وَيُغْرِينِي

وَلَوْ لَقُوا بَعْضَ مَا أَلْقَى نَعِمْتُ بِهِمْ   لَكِنَّهُمْ سَلِمُوا مِمَّا يُعَنِّينِي

(٢) هذا البيت لم يذكر فى الأصول ؛ وهو فى المطبوعة المصرية والديوان .

(٣) الديوان : « إذا » .

(٤) ديوانه ، لوحة ٢١٤ ؛ وروايته : « غرار » ، وفى ا : « بعض المواضع » .

(٥) الديوان : « يقدر أن الملك » .   (٦) شعر : جمع أشعر ، وهو كثير الشعر طويله .

(٧) ديوانه ، لوحة ٨٤، من قصيدة أولها :

نَبَّهْتُهُمْ مِثْلَ عَوَالِي الرِّمَاحْ   إِلَى الْوَغَى قَبْلَ نُمُومِ الصَّبَاحْ

فَوَارِسٌ نَالُوا الْمُنَى بِالْقَنَا   وَصَافَحُوا أَغْرَاضَهُمْ بِالصِّفَاحْ

(٨) الديوان : « ولا بل يدى » .

إنْ لم أنلهـــا باشتراطٍ كما   شئتُ على بيض الظُّبى وَاْقتراح [1]

أفوزُ منهـــا باللُّبـابِ الذي   يُعْيِي الأمانى نَيْلُه والصُّراحْ

فما الذي يُقْعِدُني عن مَدًى   ماهو بالبَسْل ولا باللَّقـــاحْ

يَطْمَحُ من لا مَجْدَ يَسْمُو بِهِ   إنِّى إذاً أعْذَرُ عند الطِّماحْ

أما فتى نال المُنى فاشتفى   أو بطلٌ ذاق الرَّدى فاستراحْ !

وفى هذه القصيدة ماهو أخشَنُ مسًّا ، وأعظم نِكاية ؛ ولكنّا عدلنا عنه وتخطّيناه، كراهية لذكره . وفى شعره الكثير الواسع من هذا النَّمط .

***

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى [2] الكاتب له صديقاً ، وبينهما لُحمة الأدب ووشائجه ، ومراسلات [3] ومكاتبات بالشعر ، فكتب الصابى إلى الرضىّ فى هذا النَّمط :

أبا حَسَنٍ لى فى الرِّجالِ فِراسةٌ   تعوَّدْتُ منها أن تقولَ فتصدُقَا [4]

وَقَدْ خبَّرَتْنِى عَنْكَ أنكَ ماجِدٌ   سَتَرْقَى إلى العلياء أبعَدَ مُرْتَقَى [5]

فوفَّيْتُك التعظيمَ قَبْلَ أوانِه   وقلتُ : أطال الله لِلسَّيد البَقـــا

---

(١) الظبي : جمع ظبة ؛ وهو حد السيف .

(٢) هو أبو إسحاق الصابى ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمى ؛ وكان صابئيا متشددا فى دينه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ؛ ولكنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ ، ويستعمله فى رسائله ؛ ولما مات رثاه الشريف بقصيدته الدالية المشهورة :

أرأيتَ مَنْ حملُوا على الأعوادِ   أرأيتَ كيفَ خبَا ضياءُ النَّادِى

وعابه الناس فى ذلك لكونه شريفا يرثى صابئا ؛ فقال : إنما رثيت فضله . توفى سنة ٣٨٤ . (ابن خلكان ١ : ١٢) .

(٣) ب : « وبينهما مراسلات » .

(٤) ديوان الرضى ، لوحة ١٩٤ .

(٥) الديوان : « من العلياء » .

وأضمرتُ منه لفظة لم أبُحْ بهـا … إلى أن أرى إظهارهـا لِيَ مَطْلَقا
فإن مِتّ أو إن عشتُ فاذكر بِشارتى … وأوجِبْ بهـا حقّاً عليكَ مُحقَّقا
وكن لىَ فى الأولاد والأهلِ حافظاً … إذا ما اطمأنّ الجنبُ فى مَضجَعِ البَقا

فكتب إليه الرضىّ جوابا عن ذلك قصيدةً ، أولها :

سَنَنْتَ لهـذا الرُّمح غَرْباً مُذَلَّقاً … وأجرَيْتَ فى ذَا الهُنْدُوانىّ رَوْنَقا[1]
وَسوّمْتَ ذا الطِّرفَ الجوادَ وإنّما[2] … شَرَعْتَ لَهُ نَهْجاً فَخَبَّ وَأعْنَقـا

وهى قصيدة طويلة ثابتة فى ديوانه ، يَعِدُ فيهانفسَه ، ويَعِدُ الصابئَ أيضاً ببلوغ آماله ، إن ساعد الدهرُ وتمّ المرلم . وهذه الأبياتُ أنكرها الصابى لما شاعتْ ، وقال: إنى عملتها فى أبى الحسن علىّ بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان ، كاتب الطائع؛ وما كان الأمرُ كما ادّعاه؛ ولكنه خاف على نفسه .

* * *

وذكر أبو الحسن الصابى[3] وابنهُ غرس النعمة محمد فى تاريخهما أنّ القادر بالله عقد مجلسا أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسوىّ وابنه أبا القاسم المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء ، وأبرز إليهم أبيات الرضىّ أبى الحسن التى أولها :

مَامُقامِى عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِى … مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنْفٌ حَمِىٌّ[4]
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بى عَنِ الضَّيْـمِ … كما زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِىٌّ
أىُّ عُـذْرٍ له إلى المجد إن ذلّ … غلامٌ فى غِمْـدِهِ المَشْرَفىُّ

---

(١) ديوانه ، لوحة ١٩٤ .
(٢) الطرف : الفرس الأصيل .
(٣) هو هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى ، حفيد أبى إسحاق الصابى . ذكر صاحب كشف الظنون ٢٩٠ أن ثابت بن قرة الصابى كتب تاريخاً من سنة ١٩٠ إلى سنة ٣٦٣ ؛ وذيله ابن أخته هلال ابن محسن الصابى ، وانتهى إلى سنة ٤٤٧ ، وذيله ولده غرس النعمة محمد بن هلال ، ولم يتم .
(٤) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) .

أحمِلُ الضيمَ في بلادِ الأعادي[1] وبمصرَ الخليفـــةُ العَلَوِيُّ
مَنْ أبوه أبي ومولاه مولا يَ إذا ضامني البعيـدُ القَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سيِّـدا النَّا سِ جميعاً : محمـدٌ وعَلِيٌّ

وقال القادر للنقيب أبي أحمد : قل لولدك محمد : أيَّ هوانٍ قد أقام عليه عندنا ! وأيَّ ضيمٍ لَقِيَ من جهتنا ! وأيّ ذلّ أصابه في مملكتنا[2] ! وما الذي يعمل معه صاحبُ مصر لو مضى إليه ؟ أ كان يصنع إليه أكثرَ من صنيعنا[3] ؟ ألم نولِّه النقابة ! ألم نولّه المظالم ! ألم نستخلفه على الحرَمين والحجاز وجعلناه أميرَ الحجيج ! فهل كان يحصُل له من صاحب مصر أكثرُ من هذا ! ما نظنّه كان يكون ـ لو حصل عنده ـ إلا واحداً من أبناء الطالبيِّين بمصر . فقال النقيب أبو أحمد : أمّا هذا الشعر فمما لم نسمعه منه ، ولا رأيناه بخطّه ، ولا يبعد أن يكونَ بعضُ أعدائه نحَلَه إياه ، وعزَاه إليه ، فقال القادر : إن كان كذلك ، فلتكتب الآن محضراً يتضمّن القدْح في أنساب ولاة مصر ، ويكتب محمد خطّه فيه . فكَتَب[4] محضراً بذلك ، شَهِد فيه جميعُ مَنْ حضر المجلس ؛ منهم النقيب أبو أحمد وابنه المرتضَى ، وحُمِل المحضر إلى الرضيّ ليكتب خطّه فيه ، حَمَلَه أبوه وأخوه ، فامتنع من سَطْر[5] خطّه ، وقال : لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر ، وأنكر الشعر ، وكَتَبَ خطّه ، وأقسم فيه أنه ليس بشعره ؛ وأنه لا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يكتب[6] خطّه في المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخافُ دعاةَ المصريين وغِيلتَهم لي ، فإنهم معروفونَ بذلك ، فقال أبوه : ياعجباه ! أتخافُ مَنْ بينك وبينه ستمائة فرسخ ، ولا تخاف مَنْ بينك وبينه مائة ذراع ! وحلف ألّا يكلمه ؛ وكذلك المرتضى ، فعلا ذلك تقيّةً وخوفا من القادر ،

---

(١) الديوان : « ألبس الذل في ديار الأعادي » .
(٢) ب : « في ملكتنا » .
(٣) ب : « ضيعتنا » .
(٤) ب : « فكتب محضر » ، بالبناء للمجهول .
(٥) ب : « تسطير » .
(٦) ب : « يسطر » .

وتسكيناً له . ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره ، وبعد ذلك بأيام صرّفه عن النّقابة ، وولاها محمد بن عمر النّهرسابسيّ (١) .

* * *

وقرأت بخط محمد بن إدريس الحلّيّ الفقيه الإماميّ ، قال : حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسفرَايينيّ الفقيه الشافعيّ ، قال : كنتُ يوماً عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة ، وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن ، فأعظمه وأجلّه ورفع من منزلته ، وخلّى ما كان بيده من الرّقاع والقصص ، وأقبلَ عليه يحادثه إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلك المرتضَى أبو القاسم رحمه الله ؛ فلم يعظّمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الإكرام ، وتشاغَل عنه برقاع يقرؤها ، وتوقيعات يُوقّع بها ، فجلس قليلاً ، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمتُ إليه وقلت له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضَى هو الفقيه المتكلّم صاحب الفنون ، وهو الأمثل والأفضل منهما ؛ وإنما أبو الحسن شاعر . قال : فقال لي : إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة .

قال : وكنت مجمِعاً على الانصراف ، فجاءني أمرٌ لم يكن في الحساب ، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناس واحداً فواحداً ، فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحجّابه ، دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثرُ غلمانه ، ولم يبق عنده غيري قال لخادم : هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام ، وأمرتُك أن تجعلَهما في السَّفَط (٢) الفلانيّ . فأحضرَهما ، فقال : هذا كتاب الرضيّ ، اتصل بي أنه قد ولد له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار ، وقلت له : هذه للقابلة ، فقد جرتِ العادة أن يحمِل الأصدقاء

---

(١) النهرسابسي منسوب إلى نهرسابس ، فوق واسط بيوم (ياقوت) .
(٢) السفط بالتحريك ، كالجوالق .

إلى أخلائهم وذوى مودّتهم مثلَ هذا فى مثل هذه الحال ؛ فردّها وكتب إلىّ هذا الكتاب فاقرأه . قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الرّد ، وفى جملته : إننا أهلَ بيت لا نُطلع على أحوالنا قابلةً غريبة؛ وإنما عجائزنا يتولَّيْن هذا الأمرَ من نسائنا ، ولسن ممّن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صِلَة ؛ قال : فهذا هذا .

وأما المرتضَى فإننا كنا قد وزّعنا وقسّطنا على الأملاك ببادوريا تقسيطاً نصرفه فى حَفْر فُوّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلْكاً للشريف المرتضَى بالناحية المعروفة بالدّاهرية من التقسيط عشرون درهماً ، ثَمَنُها دينار واحد ، قد كتب إلىّ منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب ، فاقرأه . فقرأته ؛ وهو أكثر من مائة سَطْر، يتضمّن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها مايطول شرحه .

قال فخر الملك : فأيُّهما ترى أوْلَى بالتعظيم والتّبجيل؟ هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذى لم يُشْهَرْ إلا بالشعر خاصة، ونفسُه تلك النفس ! فقلت: وفّق الله تعالى سيدَنا الوزير، فما زال موفقاً؛ والله ماوضع سيدنا الوزير الأمرَ إلا فى موضعه، ولا أحلّه إلا فى محلّه . وقمت فانصرفت .

***

وتوفِّىَ الرضىّ رحمه الله فى المحرّم من سنة أربع وأربعمائة ، وحضر الوزير فخرُ الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازتَه والصلاة عليه، ودفن فى داره بمسجد الأنباريّين بالكَرْخ، ومضى أخوه المرتضَى من جزَعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام؛ لأنه لم يستطع أن ينظرَ إلى تابوته ودفنه ، وصلّى عليه فخرُ الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى ، فألزمه بالعود إلى داره .

ومما رثاه به أخوه المرتضى الأبيات المشهورة التي من جملتها[1] :

يالَلرِّجال لِفَجْعَةٍ جذَمَتْ يدى ووددت لو ذهبت علىّ برأسِى[2]
مازلتُ آبَى وِرْدَها حتى أتت[3] فحسوتُها فى بعض ما أنا حاسى
ومَطَلْتُها زمناً فلمّا صمّمت لم يَثْنِها مَطْلِى وطولُ مِكاسى
لله عُمْرك من قصـــير طاهرٍ ولربّ عُمْرٍ طالَ بالأدناس !

***

وحدثنى مختار بن معدّ العلوىّ الموسوىّ رحمه الله ، قال : رأى المفيد أبو عبد الله محمد ابن النعمان الفقيهُ الإمام فى منامه كأنّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت عليه وهو فى مسجده بالكَرْخ ، ومعها ولداها : الحسن والحسين عليهما السلام ، صغيرين ، فسلّمتهما إليه ، وقالت له : علّمهما الفقه . فانتبه متعجّباً من ذلك ، فلما تعالى النهار فى صبيحة تلك الليلة التى رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر ، وحولها جواريها ، وبين يديها ابناها : محمد الرضىّ وعلىّ المرتضى صغيرين ، فقام إليها وسلّم عليها ، فقالت له : أيها الشيخ ، هــذان ولداى قد أحضرتُهما لتعلّمهما الفقه ، فبكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام ، وتولّى تعليمهما الفقه[4] ، وأنعم الله عليهما ، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما فى آفاق الدنيا ؛ وهو باقٍ ما بَقىَ الدهر[5]

(١) ب : « التى من جملة مرثيته » ؛ وما أثبته عن ا .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣١ .
(٣) الديوان : « مازلت أحذر وردها » .
(٤) ساقطة من ب
(٥) وانظر ترجمة الشريف الرضى أيضا فى أخبار المحمدين من الشعراء ٨٨ – ٨٩ ، وإنباه الرواة ٣ : ١١٤ – ١١٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٧ : ٢٨٠ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ – ٢٤٧ ، وتاريخ أبى الفدا ٢ : ١٤٥ ، وتاريخ ابن كثير ١٢ : ٣ – ٤ ، وابن خلكان ٢ : ٢ – ٤ ، ودمية القصر ٧٣ – ٧٥ ، وروضات الجنات ٥٧٣ – ٥٧٩ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٨٢ – ١٨٤ ، وعيون التواريخ (وفيات ٤٠٦) ، ولسان الميزان ٥ : ١٤١ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٨ – ٢٠ ، والمنتظم لابن الجوزى (وفيات ٤٠٦) ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٣٧٤ – ٣٧٩ ، ويتيمة الدهر ٣ : ١١٦ – ١٣٥ . وله أيضا ترجمة فى مقدمة كتابه المجازات النبوية (طبع بغداد) منقولة عن كتاب « تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام » ، بتحقيق السيد حسن صدر الدين .

القول فى شرح خطبة نهج البلاغة

قال الرضىّ رحمه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أمّا بعدَ حَمْدِ[1] الله الّذى جَعَلَ الحمدَ ثمناً لنعمائِه ، ومَعاذاً مِنْ بَلائِه ، ووَسيلًا إلى جِنانِه ، وسَبَباً لزِيادَة إحسانه . والصّلاةُ على رسُوله نبيّ الرّحمة ، وإمام الأئمة ، وَسِراجِ الأمّة ، المنتجَب مِنْ طينة الكَرَم ، وسُلالةِ المجْد الأقدَمِ ، ومَغرِس الفَخار المُعْرِق ، وفَرْع العلاء المُثمر المورِق ؛ وعلى أهل بيته مصابيح الظُّلَم ، وعِصَم الأمَم ، ومَنار الدِّين الوَاضِحَة ، ومثاقيلِ الفَضْل الرّاجِحَة . فصلّى الله عليهم أجمعين ، صَلاةً تكونُ إزاءً لِفَضْلِهِمْ ، ومُكافأةً لِعَمَلِهِمْ ، وكِفاء لطِيب أصْلِهِمْ وفَرْعِهِمْ ، ما أنار[2] فَجْرٌ طالعٌ ، وخَوَى نجْمٌ ساطِعٌ[2] .

***

الشّرح :

اعلم أنى لا أتعرّضُ فى هذا الشرح للكلام فيما قد فرغ منه أئمةُ العربية ، ولا لتفسير ما هو ظاهر مكشوف ؛ كما فعل القُطْب الرّاونديّ ؛ فإنه شَرَع أولا فى تفسير قوله : « أمّا بعد » ، ثم قال : هذا هو فصل الخطاب ، ثم ذكر ما معنى الفصل ، وأطال فيه ، وقسّمه أقساماً ، يشرح ماقد فرَغ له منه ، ثم شرح الشرح . وكذلك أخذ يفسّر قوله : « من بلائِه » ، وقوله : « إلى جِنَانه » ، وقوله : « وسبباً » ، وقوله : « المجد » ، وقوله :

---

(١) ا : « حمداً » .

(٢ ـ ٢) ب : « ما أنار فجر ساطع ، وخوى نجم طالع » . وكذا فى مخطوطة النهج .

« الأقدم » ، وهذا كلّه إطالةٌ وتضييعٌ للزّمان من غير فائدة ؛ ولو أخذنا بشرح[1] مثلِ ذلك لوجب أن نشرح لفظة « أمّا » المفتوحة ، وأنْ نذكر الفصل بينها وبين « إمّا » المكسورة ، ونذكر : هل المكسورة من حروف العطف أولا ؟ ففيه خلاف ، ونذكر هل المفتوحة مركبة أو مفردة ؟ ومهملة أو عاملة ؟ ونفسرّ معنى قول الشاعر :

أبَا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتَ ذا نفرٍ ... فإنّ قومِيَ لَمْ تأكلْهُمُ الضَّبُعُ[2]

بالفتح ؛ ونذكر « بَعْدُ » لم ضُمّت إذا قطعت عن الإضافة ؟ ولِمَ فتحت ها هنا حيث أضيفت ؟ ونخرج عن المعنى الذى قصدناه من موضوع الكتاب إلى فنون أخرى قد أحكمها أربابُها .

ونبتدئُ الآن فنقول : قال لى إمام من أئمة اللغة فى زماننا : هو الفِخار ، بكسر الفاء ، قال : وهذا مما يغلَط فيه الخاصّة فيفتحونها ، وهو غير جائز ، لأنه مصدر « فاخر » ، وفاعَل يجيء مصدره على « فِعال » بالكسر لاغير ، نحو : قاتلت قِتالا ، ونازلت نِزالا ، وخاصمت خِصاماً ، وكافحت كِفاحاً ، وصارعت صِراعاً . وعندى أنّه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة الفاء ، وتكون مصدر « فَخَر » لا مصدر « فاخر » ، فقد جاء مصدر الثلاثىّ ـ إذا كان عينه أو لامه حرف حلق ـ على « فَعال » ، بالفتح ، نحو سَمِع سَماعا ، وذهب ذَهابا ؛ اللهمّ إلا أن يُنقل ذلك عن شيخ أو كتاب موثوق به نقلاً صريحاً ، فتزول الشبهة . والعِصَم : جمع عِصْمة ، وهو ما يعتصم به . والمنار : الأعلام ، واحدها مَنارة ، بفتح الميم . والمثاقيل : جمع مثقال ، وهو مقدار وَزْن الشيء ، تقول : مثقال حبّة ، ومثقال قيراط ، ومثقال دينار ؛ وليس كما تظنه العامة أنه اسم للدينار خاصة ؛ فقوله : « مثاقيل الفضل » ، أى زِنات الفضل ، وهذا من باب الاستعارة . وقوله : « تكون إزاء لفضلهم » ، أى مقابلة له . ومكافأة ، بالهمز ، من كافأته أى جازيته ، وكِفاء ، بالهمز والمد ، أى نظيراً .

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصوب ، وفى باقى الأصول : « لشرح » .
(٢) البيت لعباس بن مرداس السلمى ، وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة ـ (اللسان ٨ : ١٨٣) .

وخوى النجم ، أى سقط . وطينة الكرَم : أصله . وسلالة المجد فرعه . والوَسيل : جمع وسيلة وهو ما يُتقرَّب به ، ولو قال : « وسَبيلا إلى جِنانه » لكان حسنا ، وإنّما قصد الإغراب ؛ على أنا قد قرأناه كذلك فى بعض النسخ . وقوله : « ومكافأة لعملهم » إنْ أراد أن يجعلَه قرينة « لفضلهم » كان مستقبَحاً عند مَنْ يريد البديع ، لأنّ الأولى ساكنة الأوسط ، والأخرى متحركة الأوسط ، وأمّا من لا يقصد البديع كالكلام القديم فليس بمستقبَح . وإن لم يُرِدْ أن يجعلَها قرينة بل جعلها من حشو السجعة الثانية ، وجعل القرينة « وأصلهم » ، فهو جائز ، إلاّ أنّ السجعة الثانية تطول جدًّا . ولو قال عِوَضَ « لعمَلهم » ، « لِفعْلهم » لكان حسناً .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

فإنى كنتُ فى عُنفوان السنّ ، وغضاضة الغُصْن ، ابتدأتُ تأليفَ كتابٍ فى خَصائِصِ الأئمة عليهم السلام ، يَشْتَمِل على مَحاسِنِ أخبارِهِمْ ، وجواهِرِ كلامِهِمْ ، حَدَانى عَلَيْه غرضٌ ذكرتُه فى صَدْرِ الكتاب ، وجعلتُه أمام الكلام . وفرغْتُ من الخصائصِ التى تَخُصّ أميرَ المؤمنين عليًّا ، صلواتُ الله عليه ، وعاقَتْ عن إتمام بقيّة الكتابِ مُحاجزاتُ الأيّام ، ومُماطَلاتُ الزّمان . وكنتُ قد بوّبْتُ ماخرج من ذلك أبواباً ، وفصّلتُه فصولاً ، فجاء فى آخرِها فَصْلٌ يتضمّن محاسنَ ما نُقل عنه عليه السلام ؛ من الكلامِ القصير ، فى المواعِظِ والحِكَمِ والأمثال والآدابِ ؛ دُونَ الخطَبِ الطّويلة ، والكُتبِ المبْسُوطة ؛ فاستحسنَ جماعةٌ من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدّم ذكره ، معجَبين ببدائِعِه ، ومتعجِّبين من نواصِعه ؛ وسألونى عِندَ ذلك أنْ أبدأ بتأليف كتابٍ يحتوى على مُختارِ كلامِ أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فُنونه ، ومتشعِّبات غُصونه ، من خُطَبٍ وكُتبٍ ، ومواعظَ وأدبٍ ؛ علماً أنّ ذلك يتضمّن من عجائب البَلاغةِ ، وغرائبِ الفَصاحَةِ ، وجواهِرِ العربية ، وثواقبِ الكَلِم الدينية والدُّنياوِيَّة ؛ مالا يوجدُ مجتمعاً فى كلامٍ ، ولا مجموعَ الأطراف

فى كتاب ؛ إذْ كانَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلاَم مَشْرَعَ الْفَصَاحَة ومَورِدَها ، ومَنْشَأَ الْبَلاَغَةِ ومَوْلِدها ؛ ومنه عليه السلام ظهرَ مَكْنُونُها ، وعنه أخِذَتْ قوانينُها ، وعلى أمثلتِه حَذَا كلُّ قائِل خطيبٍ ، وبكلامِه استعانَ كلُّ واعظٍ بليغ ؛ ومع ذلك فقد سَبَقَ وقصّروا ، وتقدَّم وتأخروا ؛ لأنَّ كلامَه عليه السلام الكلامُ الذى عليه مَسْحةٌ من العلم الإلٰهىّ ، وفيه عَبقةٌ من الكلام النبوىّ .

* * *

الشَّرْحُ :

عُنْفوان السنّ : أوّلها . ومُحاجزات الأيام : ممانعاتها . ومُماطلات الزمان: مدافعاته. وقوله : «معجَبين» ثم قال : و « متعجِّبين » ، فـ « معجَبين » من قولك : أعجِب فلان برأيه وبنفسه فهو معجَب بهما ، والاسم العُجْب بالضم ؛ ولا يكون ذلك إلا فى المستحسَن، و « متعجِّبين » من قولك : تعجّبت من كذا ، والاسم العَجَب . وقد يكون فى الشىء يُستحسن ويُستقبح ويُتهوّل منه ويستغرب ؛ ومراده هنا التهوّل والاستغراب ؛ ومن ذلك قول أبى تمام :

أبْدَتْ أَسًى إذْ رَأَتْنِي مُخْلِسَ القَصَبِ   وآل ما كان من عُجْبٍ إلى عَجَبِ (١)

يريد أنها كانت معجَبة به أيام الشبيبة لحسنه ؛ فلما شاب انقلب ذلك العُجْب عَجَباً ؛ إما استقباحاً له أو تهوّلاً منه واستغراباً . وفى بعض الروايات : « معجِّبين ببدائعه » ، أى أنهم يعجِّبون غيرهم . والنواصع : الخالصة . وثواقب الكلم : مضيئاتها ؛ ومنه الشهاب الثاقب . وحذا كلّ قائل : اقتفى واتّبع . وقوله : «مَسْحة» يقولون : على فلان مَسْحة من جمال ؛ مثل قولك : شىء ، وكأنه هاهنا يريد ضوءاً وصِقالا . وقوله : « عَبْقة » أى رائحة،

(١) ديوانه ١ : ١١٥ ؛ مطلع قصيدة يمدح فيها الحسن بن سهل . المخلس ، من قولهم : أخلس رأسه إذا صار فيه بياض وسواد . والقصب : جمع قصبة ؛ وهى خصلة من الشعر تجعل كهيئة القصبة الدقيقة . (من شرح الديوان) .

ولو قال عِوض « العلم الإلهىّ » : « الكتاب الإلهىّ » لكان أحسن .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله :

فأجبتُهم إلى الابتداء بذلِكَ ، عالماً بما فيه من عَظِيمِ النَّفْعِ ، وَمَنْشُورِ الذِّكْرِ ، وَمَذْخُورِ الأجْرِ . واعتمدتُ بِهِ أن أبيّن مِنْ عظيم قَدْر أمير المؤمنين عليه السَّلامُ فى هذِهِ الفَضِيلَةَ ، مُضَافةً إلى المحاسِنِ الدَّثِرة ، والفَضائل الجمّة ، وأنّه انفرَدَ ببلوغ غايَتِها عن جَمِيع السَّلَفِ الأوَّلِينَ ، الَّذِينَ إنّما يُؤثَرُ عَنْهُمْ مِنْهَا القليلُ النَّادِرُ ، والشَّاذُ الشارِدُ ؛ فأمّا كلامُه عليه السلام فهو البَحْرُ الَّذى لا يُساجَل ، والجمّ الذى لا يُحافَل ، وأردْتُ أن يسوغَ لِى التمثُّل فى الافتخارِ بِهِ صلواتُ الله عليه بقول الفَرَزْدَق :

أُولئِك آبائى فجِئْنِى بمثلِهِمْ ... إذَا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المَجَامِعُ

* * *

الشَّـرْحُ :

المحاسن الدَّثِرَة : الكثيرة ، مالٌ دَثِر ، أى كثير ، والجمّة مثله . ويؤثر عنهم ، أى يحكى وينقل ، قلته آثراً ، أى حاكياً . ولا يساجَل ، أى لا يكاثَر ، أصلُه من النزع بالسَّجْل ، وهو الدّلو الملىء[1] ، قال :

مَنْ يُسَاجِلْنِى يُسَاجِلْ ماجِداً ... يملأُ الدَّلو إلى عَقْدِ الكَرَبْ[2]

ويروى : « ويساحَل » ، بالحاء ، من ساحل البحر وهو طرَفه ، أى لا يشابه فى بُعْد ساحِله . ولا يحافَل ، أى لا يفاخَر بالكثرة ، أصلُه من الحفْل ، وهو الامتلاء ، والمحافلة : المفاخرة بالامتلاء ، ضرع حافل ، أى ممتلىء .

---

(١) الدلو ، تذكر وتؤنث .

(٢) الفضل بن عباس بن عتبة بن أبى لهب ، اللسان ١٣ : ٣٤٦ ، ونقل عن ابن برى : « أصل المساجلة ، أن يستقى ساقيان فيخرج كل واحد منهما فى سجله مثل مايخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ؛ فضربته العرب أصلا للمفاخرة » .

والفرزدق ، همّام بن غالب بن صعصعة التميمىّ . ومن هذه الأبيات [١] :

ومنّا الّذى اختيرَ الرجالَ سَماحةً ... وجُوداً إذا هبّ الرياحُ الزعازعُ [٢]

ومنّا الّذى أحيا الوئيدَ وغالبٌ ... وعَمْرٌو ؛ ومنّا حاجِبٌ والأقارعُ [٣]

ومنّا الذى قاد الجِيادَ على الوجا [٤] ... بنجْرانَ حتّى صبّحته الترائعُ

ومنّا الذى أعطَى الرّسُولُ عطيّةً ... أسارى تميمٍ والعيونُ هوامعُ

الترائع : الكرام من الخيل . يعنى غزاةَ الأقرع بن حابس قبل الإسلام بنى تَغْلِب بنجْران ، وهو الذى أعطاه الرسولُ يوم حُنَين أسارى تميم ـ

ومنّا غداةَ الرّوْع فرسانُ غارةٍ ... إذا مَنَعَتْ بعد الزّجاج الأشاجِعُ [٥]

ومنّا خطيب لا يعاب وحامِلٌ ... أغرّ إذا التفّتْ عليه المجامعُ [٦]

ـ أى إذا مُدّت الأصابع بعد الزّجاج إتماماً لها ؛ لأنها رماح قصيرة . وحامل ، أى حاملٌ للدّيات ـ

---

(١) من نقيضته لقصيدة جرير التى أولها :

ذَكَرْتُ وِصالَ البِيضِ وَالشَّيْبُ شائِعُ ... وَدارُ الصِّبا مِنْ عَهْدِهِنَّ بَلاقِعُ

وهما فى النقائض ٦٨٠ ـ ٧٠٥ ؛ ويختلف ترتيب القصيدة هنا عن ترتيبها هناك .

(٢) رواية النقائض : « منا الذى اختير » ؛ بحذف الواو ؛ وهو مايسمى بالخرم ؛ فتحذف الفاء من « فعولن » ؛ فى أول البيت من القصيدة . وانظر خبر غالب بن صعصعة أبو الفرزدق ، مع عمير بن قيس الشيبانى وطلبة بن قيس بن عاصم المنقرى فى الأغانى ١٩ : ٥ (طبعة الساسى) .

(٣) الذى أحيا الوئيد ؛ هو جده صعصعة بن ناجية بن عقال ، وغالب أبوه ، وعمرو بن عمرو بن عدس ، والأقارع : الأقرع وفِراس ابنا حابس بن عقال ؛ وانظر أخبار هؤلاء جميعا فى شرح النقائض .

(٤) الوجا : الحفا .

(٥) منعت ، يريد ارتفعت بالسيوف بعد الطعان بالرماح . والأشاجع : عصب ظاهر الكف . وفى الديوان « فتيان غارة » .

(٦) قوله : « خطيب » يعنى شبة بن عقال بن صعصعة . والحامل ، يعنى عبد الله بن الحكيم بن افد من بنى حوى بن سفيان بن مجاشع ، الذى حمل الحمالات يوم المربد حين قتل مسعود بن عمرو العتكى ، وكان يقال له القرين . والأغر من الرجال : المعروف ، كما يعرف الفرس بغرته فى الخيل ؛ يقول : فهو معروف فى الكرم والجود . (من شرح النقائض) .

أولئكَ آبائي فجِئْني بمثلِهِمْ ... إذَا جمعتنا يا جَريرُ المجامعُ
بهم أعتلي ما حَمّلتنيه دارمٌ (١) ... وَأصْرَعُ أقراني الّذِين أصارعُ
أخَذْنا بآفاقِ السّماءِ عليكُمُ ... لنَا قمَراها والنّجُومُ الطّوالعُ (٢)
فَوَاعجبا حتى كُلَيبٌ تَسبُّني ... كأنَّ أباهَا نَهْشَلٌ أو مُجاشعُ!

***

قال الرضيّ رحمه الله:

ورأيت كلامَه عليه السّلَام يدورُ على أقطاب ثلاثة: أولها الخُطَب والأوامِر، وثانيها الكُتُب والرّسائل، وثالثها الحِكَم والمواعظ؛ فأجمعْتُ بتوفيقِ اللهِ سُبحانَه على الابتِدَاء باختيارِ محاسنِ الخطَبِ، ثمّ محاسنِ الكُتُبِ، ثم محاسِن الحِكَم والأدَبِ، مُفْرِداً لكلّ صِنفٍ من ذلك باباً، ومفصّلاً فيه أوراقاً، ليكونَ مقدّمة لاستدراكِ ما عَساهُ يشذّ عنّي عاجِلاً، ويقَعُ إليّ آجلا. وإذا جاء شيءٌ من كلامهِ الخارجِ في أثناء حِوارٍ، أو جوابِ سؤالٍ، أو غرضٍ آخرَ من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتُها، وقرّرْتُ القاعدةَ عليها، نَسَبْتُه إلى ألْيَقِ الأبواب بِهِ، وأشدِّها ملاءمةً لغرَضِهِ. وربّما جاء فيما أختاره من ذلك فصولٌ غيرُ مُتّسقة، ومحاسنُ كَلِمٍ غير مُنتظمة، لأنّي أوردُ النُّكَتَ واللُّمَعَ، ولا أقصِد التّتالِيَ والنّسَقَ.

الشّرح:

قوله: «أجمعت على الابتداء»، أي عزمت. وقال القُطب الراونديّ: تقديره: أجمعتُ عازماً على الابتداء، قال: لأنه لا يقالُ إلا أجمعت الأمرَ، ولا يقال: أجمعت على الأمر، قال سبحانه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ (٣).

(١) النقائض: «ما علتني مجاشع».
(٢) قمراها: الشمس والقمر، فغلب المذكر مع حاجته إلى إقامة البيت.
(٣) سورة يونس ٧١.

هذا الذى ذكره الرَّاوندىّ خلاف نصّ أهل اللغة ؛ قالوا : أجمعتُ الأمرَ ، وعلى الأمر ؛ كلّه جائز ، نصّ صاحب " الصّحاح "[1] على ذلك .

والمحاسن : جمع حَسَن ، على غير قياس ، كما قالوا : الملامح والمذاكر[2] ؛ ومثله المقابح . والحِوار ، بكسر الحاء : مصدر حاورتُه ، أى خاطبته ، والأنحاء : الوجوه والمقاصد . وأشدّها مُلاحمة لغرضه ، أى أشدّها إبصاراً له ونظرا إليه ، من لمحت الشىء ؛ وهذه استعارة . يقال : هذا الكلام يَلمح الكلامَ الفلانىّ ، أي يُشابهه ؛ كأنّ ذلك الكلام يُلمَحُ ويُبصَر من هذا الكلام .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

ومِنْ عجائبه عليه السلام التى انفرد بها ، وأمِنَ المشاركةَ فيها ؛ أنّ كلامَه الواردَ فى الزّهد والمواعظ ، والتّذكير والزّواجر ؛ إذا تأمّله المتأمّل ، وفكّر فيه المُفكّر[3] ، وخلَع من قلبه أنّهُ كلامُ مثلِه ، ممّن عَظُم قدرُه ونفذ أمرُه ، وأحاطَ بالرّقاب مُلكه ، لم يعترضْه الشكّ فى أنّه كلامُ مَنْ لا حظّ له فى غيرِ الزّهادة ، ولا شُغْلَ له بغيرِ العِبادة ، قد قَبَع فى كِسْر بيتٍ ، أو انقطع إلى[4] سَفْح جبلٍ ، لا يَسْمعُ إلا حسّه ، ولا يرى إلا نفسَه ؛ ولا يكادُ يوقِن بأنّه كلامُ مَنْ ينغَمِس فى الحرب ، مُصْلِتاً سيفَه ، فيَقُطُّ الرّقابَ ، ويُجدّلُ الأبطالَ ، ويعودُ به ينطُفُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ؛ وهو مع تلك الحالِ زاهدُ الزّهاد ، وبَدَلُ الأبْدَال . وهذه من فضائله العجيبة ، وخَصائصه اللّطيفة ، التى جَمع بها بين الأضداد ، وألّف بين الأشتات ، وكثيراً ما أذاكرُ الإخوان بها ، وأستخرجُ عَجَبَهم منها ؛ وهى موضع العِبْرَة بها[5] ، والفِكْرَة فيها .

(١) الصحاح ٣ : ١١٩٨
(٢) ب : « المذاكير » ، وما أثبته عن ا .
(٣) ب : « المتفكر » وما أثبته عن ا
(٤) مخطوطة النهج : « فى سفح » .
(٥) كلمة « بها » ساقطة من ب ؛ وهى فى ا

الشّرح:

قَبَعَ القُنفذ يَقْبَع قُبوعاً ، إذا أدخل رأسَه في جلده ، وكذلك الرّجل إذا أدخل رأسه في قميصه ؛ وكلّ مَنِ انزوى في جُحْر أو مكان ضَيِّق فقد قَبَع . وكِسْر البيت : جانب الخِباء . وسفح الجبل : أسفله ، وأصلُه حيث يَسْفَحُ فيه الماء . ويقطّ الرقاب : يقطعها عَرْضاً ـ لا طولا كما قاله الرّاونديّ ـ وإنما ذاك القَدّ ، قددته طولا ، وقططته عرضاً . قال ابن فارس صاحب " الجمل " : قال ابنُ عائشة : كانتْ ضربات عليّ عليه السلام في الحرب أبكاراً ، إن اعتلى قَدّ ، وإن اعترض قَطّ . ويُجدّل الأبطال : يُلقيهم على الجَدالة ، وهي وجهُ الأرض . وينطُف دما : يقطر . والأبدال : قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم ، إذا مات أحدهم أبدَل الله مكانه آخر ، قد وَرَدَ ذلك في كثير من كتب الحديث .

كان أمير المؤمنين عليه السّلامُ ذا أخلاقٍ متضادّة :

فمنها ما قد[1] ذكره الرضيّ رحمه الله ، وهو موضع التّعجّب ؛ لأنّ الغالبَ على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أنْ يكونوا ذَوِي قلوب قاسية ، وفَتْكٍ وتمرّد وجَبَرِيّة ، والغالب على أهل الزهد ورفضِ الدنيا وهِجرانِ ملاذّها والاشتغالِ بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ ، أن يكونوا ذوِي رقّة ولين ، وضَعف قلب ، وخَوَرِ طَبْع ؛ وهاتان حالتان متضادتان ، وقد اجتمعتا له عليه السلام .

ومنها أنّ الغالبَ على ذوى الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوِي أخلاق سَبُعيّة ، وطِباع حوشيّة ؛ وغرائز وحشيّة ، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذَوِي انقباض في الأخلاق ، وعُبوس في الوجوه ، ونِفار من الناس

---

(١) كلمة « قد » ساقطة من ب .

واستيحاش ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجعَ الناس وأعظمَهم إراقة للدم ، وأزهد الناس وأبعدَهم عن ملاذّ الدنيا ، وأكثرَهم وعظاً وتذكيراً بأيّام الله ومَثُلاته ، وأشدَّهم اجتهاداً في العبادة وآداباً لنفسه في المعاملة . وكان مع ذلك ألطفَ العالم أخلاقاً ، وأسفرَهم وجهاً ، وأكثرَهم بِشراً ، وأوفاهم هشاشة ، وأبعدَهم عن انقباض موحِش ، أو خُلُق نافر ، أو تجهّم مباعِد ، أو غِلْظة وفظاظة تَنفِر معهما نفس ، أو يتكدّر معهما قلْب . حتى عِيب بالدُّعابة ؛ ولمّا لم يجدوا فيه مغمزا ولا مطعنا تعلّقوا بها ، واعتمدوا في التنفير عنه عليها .

* وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنكَ عارُها(١) *

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة .

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومَنْ هو من أهلِ بيت السيادة والرياسة أن يكونَ ذا كِبْرٍ وتيهٍ وتعظّم وتغطرُس ؛ خصوصاً إذا أُضيف إلى شرَفِه من جهة النسب شرفُه من جهات أخرى ؛ وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام في مُصاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه ، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسبا بعد ابن عمّه صلوات الله عليه ، وقد حصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة ، قد ذكرنا بعضها ، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير ، وألينَهم عَريكةً ، وأسمحَهم خُلُقا ، وأبعدَهم عن الكِبْر ، وأعرفهم بحقّ ، وكانت حاله هذه في كِلاَ زمانَيْه : زمان خلافته ،

---

(١) « الشكاة توضع موضع العيب والذم » ؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه ؛ فقال ابن الزبير :

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها *

أراد أن تعييره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعار . ومعنى قوله : « ظاهر عنك عارها » ، أي ناب ، أراد أن هذا ليس عارا يلزق به ؛ وأنه يفتخر بذلك ؛ لأنها إنما سميت ذات النطاقين ، لأنه كان لها نطاقان تحمل في أحدهما الزاد إلى أبيها وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وكانت تنتطق بالنطاق الآخر ، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما » . اللسان : (١٩ : ١٧١) ، وديوان الهذليين (١ : ٢١) ، وهذا عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي ، وصدره :

* وعيّرها الواشون أنّي أحبّها *

والزمان الذى قبله ، لم تغيِّره الإمرة ، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة ، وكيف تُحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيسا ! وكيف تُغَيِّر الإمْرة سَجيّته وما برح أميرا لم يستفِدْ بالخلافة شرفا ، ولا اكتسبَ بها زينة ! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؛ ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف " بالمنتظم " : تذاكروا عند أحمد خلافةَ أبى بكر وعلىّ وقالوا فأكثروا ، فرفع رأسه إليهم ، وقال : قد أكثرتم ! إنّ عليًّا لم تزِنْه الخلافة ؛ ولكنه زانها . وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه على أنّ غيرَه ازدان بالخلافة وتَمّمَتْ نقصَه ، وأن عليًّا عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمّ بالخلافة ؛ وكانت الخلافة ذات نقص فى نفسها ، فتمّ نقصها بولايته إياها .

ومنها أنّ الغالب على ذوى الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أنْ يكونوا قليلى الصّفح ، بعيدى العفو ؛ لأن أكبادهم واغرة ، وقلوبهم ملتهبة ، والقوّة الغضبية عندهم شديدة ، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام فى كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح ، ومغالبة هوى النفس ، وقد رأيتَ فعله يوم الجمل ؛ ولقد أحسن مِهْيار فى قوله (1) :

حَتّى إذا دَارَتْ رَحى بَغْيِهِمُ ... عليهمُ وسبقَ السيفُ العَذَلْ
عاذوا بعفوِ ماجـــدٍ معوّدٍ ... للعفو حَمّـــالٍ لهمْ على العِلَلْ
فَنَجَتِ البُقْيَا عليهم مَنْ نجا ... وأكلَ الحديدُ مِنهم مَنْ أكَلْ
أطّتْ بهم أرحامُهمْ فــلم يُطِعْ ... ثائرة الغَيْظ ولم يشفِ الغُلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعاً جواداً قطّ ؛ كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخلَ الناس ، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً ؛ قال له عمر : لو وُلِّيتَها لظلتَ تُلَاطِمُ الناس

---

(1) من قصيدة فى ديوانه ٣ : ١٠٩ — ١١٦ يذكر فيها مناقب الإمام على وما منى به من أعدائه .

في البطحاء على الصاع والمُدّ . وأراد عليّ عليه السلام أن يحجُرَ على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال لنفسه ، فشارك الزُّبيرَ في أمواله وتجاراته ؛ فقال عليه السلام : أما إنّه قد لاذ بملاذ ؛ ولم يحجرُ عليه . وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً ، أمسك عن الإنفاق حتى خلّف من الأموال مالا يأتي عليه الحصر . وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً ، يُضرب به المثل في الشحّ ، وسمى رَشْح الحجر لبخله . وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام في الشّجاعة والسخاء كيف هي ؛ وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

وربّما جاء[1] في أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردّد ، والمعنى المكرّر ؛ والعُذْر في ذلك أنّ رواياتِ كلامه تختلفُ اختلافاً شديداً ؛ فربّما اتّفق الكلامُ المختارُ في روايةٍ فَنُقِلَ على وجهه ، ثم وُجِد بعد ذلك في روايةٍ أخرى موضوعاً غير وضعِه الأوّل ؛ إمّا بزيادة مختارة ، أو بلفظٍ أحسنَ عبارة ؛ فتقتضي الحالُ أن يُعاد ؛ استظهاراً للاختيار ، وغَيْرةً على عقائل الكلام . وربّما بَعُدَ العهد أيضاً بما اختير أوّلا ؛ فأعيد بعضُه سهواً ونسياناً ، لا قصْداً أو اعتماداً . ولا أدّعِي مع ذلك أنني أحيطُ بأقطارِ جميع كلامِه عليه السلام ؛ حتى لايشِذّ عنّي منه شاذّ ، ولا يندّ نادّ ، بل لا أبعِد أن يكون القاصِرُ عنّي فوق الواقع إليّ ، والحاصلُ في رِبْقتي دونَ الخارج من يديّ ؛ وما عليّ إلا بذلُ الجهد ، وبلاغةُ الوسع ، وعلى الله سبحانه نَهْجُ السبيل ، وإرشاد الدليل .

ورأيتُ من بعدُ تسميةَ هذا الكتاب بـ " نهج البلاغة " ؛ إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طِلابَها ، وفيه حاجةُ العالِم والمتعلّم ، وبُغية البليغ والزّاهد ، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التّوحيد والعدل ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شَبَه الخلق ، ماهو بِلال كلّ غُلّة ، وشِفاء كلّ عِلّة ، وجِلاء كلّ شبهة . ومِنَ الله أستمدّ التوفيق والعِصْمة ، وأتنجّزُ التّسديد والمعونة ، وأستعيذه من خطأ الجَنان قبل خطأ

---

(١) ب : « كان » .

اللِّسَانِ ، وَمِنْ زَلَّةِ الكَلِمِ قبل زلّة القَدَمِ ، وهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الشَّرْحُ :

فى أثناء هذا الاختيار : تضاعيفه ، واحدها ثِنى كمِذْق وأمْذاق . والغَيْرة ، بالفتح والكسر خطأ . وعقائل الكلام : كرائمه ، وعَقِيلة الحىّ : كريمته ، وكذلك عقيلة الذَّوْد . والأقطار : الجوانب ، واحدها قُطْر . والنادّ : المنفرد ؛ ندّ البعير يَنِدّ . الرِّبقة : عُروة الحبل يجعل فيها رأس البهيمة . وقوله : « وعلى الله نَهج السبيل » ، أى إبانته وإيضاحه، نهجت له نهجاً . وأما اسم الكتاب فـ« نهج البلاغة » ، والنهج هنا ليس بمصدر ، بل هو اسم للطريق الواضح نفسه . والطِّلاب ، بكسر الطاء : الطلب . والبُغية : ما يُبتغى . وبلال كلّ غُلة ، بكسر الباء : ما يُبَلّ به الصدى ، ومنه قوله : انضحوا الرَّحم ببِلالها ، أىّ صلوها بصلتها وندّوها[1] ، قال أوس :

كأنّى حَلَوْتُ الشِّعر حين مدحتُه صفا صَخرةٍ صَمّاء يَبسٍ بلالُها[2]

وإنما استعاذ من خطأ الجَنان قبل خطأ اللسان ؛ لأنّ خطأ الجنان أعظم وأفحشُ من خطأ اللسان ، ألا ترى أنّ اعتقاد الكُفر بالقلب أعظم عقاباً من أن يكفرُ الإنسان بلسانه وهو غير معتقد للكفر بقلبه ؛ وإنما استعاذ من زَلّة الكَلِم قبل زلّة القَدَم ؛ لأنه أراد زلّة القدم الحقيقية ؛ ولا ريب أنّ زلّة القدم أهونُ وأسهل ؛ لأن العاثر يستقيل من عثرته ، وذا الزّلة تجدُهُ ينهض من صَرعته ؛ وأما الزّلة باللسان فقد لا تستقال عَثرتُها ، ولا يَنهض صريعُها ، وطالما كانت لا شَوَى[3] لها ، قال أبو تمام :

يازَلّةً ماوُقِيتُمْ شَرَّ مَصْرَعِها وزَلّةُ الرأى تُنْسِى زَلّةَ القَدَمِ[4]

---

(١) اللسان—بلل ، وفى الطبعة الأولى«انضجوا» ، تحريف.

(٢) يهجو الحكم بن مروان بن زنباع ، ديوانه ١٠٠ ، واللسان ١٣ : ٦٧ ، ١٨ : ٢١٠ ، وحلا الرجل الشىء يحلوه ، أعطاه إياه ، أى جعل الشعر حلوانا له مثل العطاء .

(٣) لاشوى لها ، أى لابرء لها ، قال الكميت :

أجيبُوا رُقَى الآسى النِّطاسىِّ واحذروا مطفئة الرَّضْفِ الّتى لا شَوَى لهـا

(٤) ديوانه ٣ : ١٩٤ ، وروايته : « ياعثرة ماوقيتم » .

باب
الخطب والأوامر

قال الرضيّ رحمه الله :

باب المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره

ويدخل فى ذلك المختار من كلامه الجارى مجرى الخطب ، فى المقامات المحضورة والمواقف المذكورة ، والخطوب الواردة

الشرح :

المقامات : جمع مَقامة ، وقد تكون المقامة المجلس والنادى الذى يجتمع إليه الناس ، وقد يكون اسماً للجماعة ، والأول أليق هاهنا بقوله : «المحضورة» ، أى التى قد حضرها الناس.

ومنذ الآن نبتدئ بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ونجعل ترجمة الفصل الذى نروم شرحه «الأصل» فإذا أنهيناه قلنا : «الشرح»، فذكرنا ما عندنا فيه، وبالله التوفيق .

***

(١)

الأصْلُ :

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ ، وَلَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ ؛ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ . الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ، وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ، وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ . وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ ؛ فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ .

الشرح :

الذي عليه أكثر الأدباء والمتكلّمين أنّ الحمد والمدح أخوان ، لا فرق بينهما ، تقول : حمدتُ زيداً على إنعامه ، ومدحته على إنعامه ، وحمدته على شجاعته ، ومدحته على شجاعتـه ؛ فهما سواء ، يدخلان فيما كان من فعل الإنسان ، وفيما ليس من فعله ، كما ذكرناه من المثالين . فأمّا الشكر فأخصُّ من المدح ، لأنه لا يكون إلّا على النعمة خاصّـة ؛ ولا يكون إلا صادراً من مُنعَم عليه ، فلا يجوز عندهم أن يقال : شكر زيد عمراً لنعمةٍ أنعمها عمرو على إنسان غير زيد .

إن قيل : الاستعمال خلاف ذلك ؛ لأنهم يقولون : حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير على معروفه عند زيد ، قيل : ذلك إنما يصحّ إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجبَ سرور فلان ، فيكون شكرُ إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخل على قلبه بالإنعام على زيد ، وتـكون لفظة « زيد » التي استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسمّاها كناية لا حقيقة ، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السّرور المذكور ، ومـدحاً باعتبار آخر ، وهو المناداة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه .

ثم إنّ هؤلاء المتـكلمين الّذين حكينا قولهم يزعمون أنّ الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم ، فإن استعمِل شيء من ذلك في الأفعال بالجوارح كان مجازاً . وبقيَ البحث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان ؛ فإنّ الاستعمال لا يساعدهم ، لأن أهلَ الاصطلاح يقولون لمن مدح غيره ، أو شكره رياء وسمعة : إنّه قد مدحه وشكره وإن كان منافقاً عندهم . ونظير هذا الموضع الإيمان ، فإنّ أكثرَ المتـكلّمين لا يُطلقونه على مجرد النطق اللسانيّ ، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبيّ ، فأما

أن يقصروا به عليه كما هُوَ مَذْهَبُ الأشعرية[1] والإمامية[2]، أو تؤخذمنه أمورأخرى وهي فعل الواجب وتجنّب القبيح كما هو مذهب المعتزلة[3]، ولا يخالف جمهورَ المتكلمين في هذه المسألة إلا الكرّامية[4] فإنّ المنافق عندهم يسمى مؤمناً، ونظروا إلى مجرد الظاهر، فجعلوا النطق اللسانيّ وحده إيماناً.

والمِدْحة: هيئة المدح، كالرِّكْبة، هيئة الركوب، والجِلْسة هيئة الجلوس[5]؛ والمعنى مطروق جداً، ومنه في الكتاب العزيز كثير، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[6] وفي الأثر النبويّ: «لا أحصي ثناءعليك أنت كما أثنيتَ على نفسك»، وقال الكتّاب[7] من ذلك مايطول ذكره، فمن جيّد ذلك قول بعضهم: الحمدُ لله على نِعمه التي منها إقدارُنا على الاجتهاد في حَمْدها، وإن عَجَزْنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشّريد:

فما بَلَغَتْ كفُّ امرئٍ متناولٍ   بها المجدَ إلا والذى نِلْتَ أطولُ[8]

---

(١) الأشعرية: هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتسب إلى أبي موسى الأشعري، وهي جماعة الصفاتية، الذين يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية، كالعلم والقدرة والحياة وغيرها. وانظر الكلام عليهم في الملل والنحل للشهرستاني ١: ٨٥ — ٩٤.

(٢) الإمامية: هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي عليه السلام، وهم فرق متعددة ذكرهم الشهرستاني في الملل والنحل ١: ١٤٤ — ١٥٤.

(٣) المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، انظر أيضا الكلام عليهم، وتعداد فرقهم في المصدر السابق ١: ٤٩ — ٧٨.

(٤) الكرامية: هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام؛ عدهم الشهرستاني من جماعة الصفاتية؛ لأنهم كانوا ممن يثبتون الصفات؛ إلا أنهم انتهوا فيها إلى التجسيم والتشبيه، الملل والنحل ١: ٩٩ — ١٠٤

(٥) أ: «كالركبة والجلسة هيئة الركوب والجلوس»

(٦) سورة إبراهيم ٣٤، النحل ١٨

(٧) ب: «في الكتاب»؛ وكلمة «في» مقحمة.

(٨) ديوانها ١٨٤؛ والرواية هناك:

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ أمْرِئٍ مُتَنَاوِلٍ   بِهَا ٱلْمَجْدَ إِلَّا حَيْثُ مَا نِلْتَ أَطْوَلُ
وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً   وَلَا صِفَةً إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

ولا خيَّرَ المثنون فى القول مِدْحةً   وإن أطنبُوا إلا وَمَا فِيكَ أفضلُ

***

ومن مستحسَنِ ماوقفتُ عليه من تعظيم البارئ عزّ جلالُه بلفظ[1] « الحمد » قولُ بعض الفضلاء فى خطبة أرجوزة علمية :

الحمــدُ لله بقَــدْرِ الله   لا قدرِ وُسْعِ العبدِ ذِى التَّنَاهى
والحمــدُ للهِ الّذِى برهانُهُ   أن ليسَ شأنٌ ليس فيه شأنُهُ
والحمد للهِ الذى مَنْ يُنْكِرُهْ   فإنمــا يُنْكِرُ مَنْ يُصَوِّرُهْ

وأما قوله : « الذى لا يدركه » ، فيريد أنّ هِمَم النُّظار وأصحاب الفكر وإن عَلَتْ وبَعُدت فإنها لا تدركه تعالى ، ولا تحيط به ، وهذا حقّ ، لأنّ كلّ متصوَّر فلا بُدّ أن يكون محسوساً ، أو متخيَّلا ، أو موجوداً من فطرة النفْس ، والاستقراء يَشْهد بذلك . مثال المحسوس السَّواد والحموضة ؛ مثال المتخيَّل إنسان يطير ، أو بحر من دمٍ . مثال للموجود من فطرة النّفس تصوّر الألم واللّذة . ولمّا كان البارئ سبحانه خارجاً عن هذا أجمع[2] لم يكن متصوراً .

فأما قوله : « الذى ليس لصفته حد محدود » ، فإنه يعنى بصفته هاهنا كُنْهَهُ وحقيقته يقول : ليس لكنهه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة ؛ لأنه ليس بمركّب ، وكلّ محدود مركب .

ثم قال : « ولا نعت موجود » أى ولا يدرك[3] بالرسم ؛ كما تُدْرَكُ الأشياء برسومها ؛ وهو أن تعرف بلازم من لوازمها ، وصفة من صفاتها .

ثم قال : « ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » ، فيه ، إشارة إلى الردّ على من قال : إنّا

---

(١) ا : « بلفظة » .   (٢) ب : « جميعا » .
(٣) ب : « لايدرك » ، من غير واو .

نعلم كنهَ البارئ سبحانه لا فى هذه الدنيا بل فى الآخرة ؛ فإن القائلين برؤيته فى الآخرة يقولون : إنّا نعرف حينئذ كُنْهَهُ ، فهو عليه السلام ردّ قولهم ، وقال : إنه لا وقتَ أبداً على الإطلاق تُعرَف فيه حقيقته وكُنهه ، لا الآن ولا بعد الآن ؛ وهو الحقّ ، لأنا لو رأيناه فى الآخرة وعرفنا كنهَهُ لتشخّص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين ، ولا يُتصوّر أن يتشخّص هذا التشخص إلا ما يُشار إلى جهته ، ولا جهةَ له سبحانه . وقد شرحت هذا الموضع فى كتابى المعروف بـ « زيادات النقْضَيْن[1] » ، وبينت أنّ الرؤية المنزهة عن الكيفية التى يزعمها أصحاب الأشعرىّ لا بدّ فيها من إثبات الجهة ، وأنها لا تجرى مجرى العلم ؛ لأن العلم لا يُشخِّص المعلوم ، والرؤية تشخّص المرئىّ ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخِّص ذا جهة .

واعلم أن نفىَ الإحاطة مذكور فى الكتاب العزيز فى مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[2] ، ومنها قوله : ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[3] ، وقال بعض الصحابة : العجز عن دَرْك الإدراك إدراك ؛ وقد غلا محمد بن هانئ فقال فى ممدوحه المعزّ أبى تميم معد بن المنصور العلوى :

أتبَعْتُهُ فِكَرِى حتى إذا بلغتْ ... غاياتِها بين تَصْوِيبٍ وَتَصْعِيدِ[4]
رَأَيْتُ موضعَ بُرْهَانٍ يلُوحُ وَمَا ... رأيتُ مَوْضعَ تَكْييفٍ وَتَحْدِيدِ[5]

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ، ولا يليق بالمخلوق .

فأما قوله : « فطر الخلائق ... » إلى آخر الفصل ؛ فهو تقسيم مشتقّ من الكتاب العزيز ، فقوله : « فَطَر الخلائق بقدرته » من قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

---

(١) كذا فى ج ، وفى ب : « النقيضين » وفى ا : « زيادات التقصير » ، ولم أعثر له على ذكر له فى كتب التراجم والفهارس .

(٢) سورة طه ١١٠

(٣) سورة الملك ٤

(٤) ديوانه ٢١٠ .

(٥) الديوان : « برهان بين » .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾[١] ، وقوله : « ونَشَر الرياح برحمته » من قوله : ﴿ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾[٢] .

وقوله : « ووتّد بالصخور مَيدان أرضه » ، من قوله : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾[٣] .

والمَيَدان : التحرّك والتموّج .

* * *

فأما القطب الرّاوندىّ رحمه الله فإنه قال إنه عليه السلام أخبَر عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمَد الله ، وذلك من ظاهر كلامه ، ثم أمرَ غيره من فحوى كلامه أن يحمَد الله ، وأخبرَ عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنّه يجب على المكلّفين ثبوتُهم عليه ما بقُوا ؛ ولو قال : « أحمد الله » لم يعلم منه جميع ذلك . ثم قال : والحمدُ أعمّ من الشكر ؛ والله أخصُّ من الإله . قال : فأما قوله : « الذى لا يبلغ مدحته القائلون » ؛ فإنه أظهرَ العجز عن القيام بواجب مدائحه ، فكيف بمحامده ! والمعنى أنّ الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذى حقّت العبادةُ له فى الأزَل ، واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول النِّعَم التى يستحق بها العبادة .

ولقائل أن يقول : إنّه ليس فى فحوى كلامه أنه أمرَ غيرَه أن يحمد الله ، وليس يُفهم من قول بعض رعيّة الملِك لغيره منهم : العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله . ولا أيضاً فى الكلام ما يدلّ على أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلّفين ثبوتهم عليه ما بقُوا .

ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراوندىّ ! فإنْ زعم أنّ العقل يقتضى ذلك فحق ؛ ولكن

---

(١) سورة الشعراء ٢٤ . (٢) سورة الأعراف ٥٧ ، وهى قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو (الجامع لأحكام القرآن ٧ : ٢٢٩). (٣) سورة النبأ ٧

ليس مستفاداً من الـكلام ، وهو أنه [1] قال : إن ذلك موجود فى الـكلام .

فأما قوله : لو كان قال : أحمدُ الله لم يعلم منه جميع ذلك ؛ فإنه لافرق فى انتفاء دلالة « أحمد الله » على ذلك ودلالة « الحمد لله » ، وهما سواء فى أنّهما لا يدلاّن على شىء من أحوال غير القائل ، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه فى حق غير القائل .

وأما قوله : الله أخصّ من الإله ، فإن أراد فى أصل اللغة ؛ فلا فرق ، بل الله هو الإله وفُخّم بعد حذف الهمزة ، هذا قول كافة البصريين ، وإن أراد أنّ أهلَ الجاهلية كانوا يُطلقون على الأصنام لفظة « الآلهة » ، ولا يسمُّونها « الله » لحق ، وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم ، لا إلى أصل [2] اللغة والاشتقاق ؛ ألا ترى أنّ الدابة فى العرف لا تطلق على القملة ، وإن كانت فى أصل اللغة دابة !

فأما قوله : قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده ! فـكلام يقتضى أنّ المدح غير الحمد ، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما . وأيضاً فإنّ الـكلامَ لا يقتضى العجز عن القيام بالواجب ، لا من المادح ولا من الحامد ؛ ولا فيه تعرّض لذكر الوجوب ، وإنما تَنى أن يبلغ القائلون مدحته ، لم يقل غير ذلك .

وأما قوله : الذى حقت العبادة له فى الأزل واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول النعم ؛ فـكلام ظاهره متناقض ، لأنه إذا كان إنما استحقّها حين خلق الخلق ، فكيف يقال : إنه استحقّها فى الأزل ! وهل يكون فى الأزَل مخلوق ليستحقّ عليه العبادة !

واعلم أنّ المتكلمين لا يُطلقون على البارئ سبحانه أنه معبود فى الأزل أو مستحق للعبادة فى الأزل إلا بالقوة لا بالفعل [3] ، لأنّه ليس فى الأزل مكلّف يعبده تعالى ، ولا أنعم على أحد فى الأزل بنعمة يستحق بها العبادة ، حتى إنهم قالوا فى الأثر الوارد : « ياقديم

---

(١) ب : « وهو إنما » .

(٢) ساقطة من ب .

(٣) ا : « ولا بالفعل » .

الإحسان » : إن معناه أنّ إحسانه متقادِم العهد،لا أنه قديم حقيقة ، كما جاء فى الـكتاب العزيز : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[1] ، أى الذى قد توالت عليه الأزمنة المتطاولة.

***

ثم [2] قال الراوندىّ : والحمد والمدح يكونان بالقول وبالفعل ، والألف واللام فى « القائلون » لتعريف الجنس ، كمثلهما فى الحمد . والبلوغ : المشارَفة ، يقال: بلغتُ المـكان إذا أشرفتَ عليه ؛ وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فـكيف توصل إليه بالفعل ! والإله : مصدر بمعنى المألوه .

ولقائل أن يقول: الذى سمعناه أنّ التعظيمَ يكون بالقول والفعل وبترك القول والفعل، قالوا : فمن قال لغيره: ياعالم فقد عظّمه ومَنْ قام لغيره فقد عظّمه،ومن ترك مدّ رجله بحضرة غيره فقد عظّمه،ومَنْ كفّ غَرْب لسانه عن غيره فقد عظّمه . وكذلك الاستخفاف والإهانة تـكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ماقدمنا ذكره فى التعظيم .

فأما الحمدُ والمدح فلا وجه لـكونهما بالفعل ، وأما قوله : إنّ اللام فى « القائلون » لتعريف الجنس ؛ كما أنهـا فى الحمد كذلك فعجيب ؛ لأنّهـا للاستغراق فى « القائلون » لا شبهة فى ذلك كالمؤمنين والمشركين ، ولا يتمّ المعنى إلا به ؛ لأنّه للمبالغة ،بل الحقّ المحض أنه لا يبلغ مدحته كلّ القائلين بأسرهم.وجَعْل اللاّم للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أراد بالجنس المعهود ، وإن أرادَ الجنسيّة العامة، فلا نزاع بيننا وبينه ، إلا أن قوله : « كما أنها فى الحمد كذلك » يمنع من أن يحمل كلامه على المحمل الصحيح ؛ لأنهـا ليست فى الحمد للاستغراق ، يبيّن ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أنْ يُحمَد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غيره من الناس ، وهذا باطل .

---

(١) سورة يس ٣٩ .
(٢) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرّف بلام الجنس ، والأصل فى مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة ، ولا يفيد الاستغراق ، فإن جاء منه شىء للاستغراق ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1] ، وأهلك الناسَ الدِّرهمُ والدينار ، فمجاز ، والحقيقة ماذكرناه. فأما قوله : البلوغ المشارفة ؛ يقال : بلغتُ المكان إذا أشرفتَ عليه . فالأجود أن يقول : قالوا : بلغتُ المكان ؛ إذا شارفته ؛ وبين قولنا : « شارفته » ، و « أشرفت عليه » فرق.

وأما قوله : « وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل ! » ، فكلام مبنىّ على أنّ الحمد قد يكون بالفعل ، وهو خلاف مايقوله أرباب هذه الصناعة .

وقوله : والإله مصدر بمعنى المألوه كلام طريف ؛ أمّا أوّلا ، فإنه ليس بمصدر ؛ بل هو اسم ، كوِجَار للضبع وسِرار للشهر[2] ؛ وهو اسم جنس كالرّجل والفرس ، يقع على كل معبود بحقّ أو باطل ، ثم غلَب على المعبود بالحقّ ، كالنجم اسم لكلّ كوكب ثم غلب على الثريا ، والسَّنَة : اسم لكل عام ثم غلب على عام القَحْط . وأظنه رحمه الله لما رآه « فِعالا » ظن أنه مصدر كالحِصاد والجِداذ وغيرهما . وأما ثانياً ؛ فلأنّ المألوه صيغة « مفعول » وليست صيغة مصدر إلا فى ألفاظ نادرة ، كقولهم : « ليس له معقول ولا مجلود » ، ولم يسمع « مألوه » فى اللغة ، لأنه قد جاء : ألِهَ الرجل إذا دهِش وتحيّر ؛ وهو فعل لازم لا يبنى منه « مفعول » .

* * *

ثم قال الراوندىّ : وفى قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، بلفظ الإفراد ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يحصى نعماءه العادّون » بلفظ الجمع سرٌّ عجيب ، لأنه تعالى أراد أنّ نعمةً واحدة من نِعَمه لا يمكن العباد عدّ وجوه كونها نعمة ، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أصول نعمه لا تحصى لكثرتها ، فكيف تعدُّ

(١) سورة العصر ١ (٢) السرار : بالفتح والكسر : آخر ليلة من الشهر

وجوه فروع نعمائه ! وكذلك فى كون الآية واردة بلفظة « إن » الشرطية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر ، تحته لطيفة عجيبة ؛ لأنّه سبحانه يريد أنكم إنْ أردتم أن تعدُّوا نِعمه لم تقدروا على حصرها ، وعلىّ عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر ، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصرُ نِعمِه تعالى .

ولقائلٍ أن يقول : الصحيح أنّ المفهوم من قوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ الجنس ؛ كما يقول القائل : أنا لا أجحد إحسانك إلىّ ، وامتنانك علىّ ، ولا يقصد بذلك إحساناً واحداً ، بل جنس الإحسان .

وما ذكره من الفرْق بين كلام البارىْ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غيرُ بيّن ، فإنه لو قال تعالى : وإن تعدوا نعم الله ، وقال عليه السلام : ولا يحصى نعمته العادّون ، لكان كلّ واحد منهما سادًّا مسدّ الآخر .

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة ؛ لأنه لو انعكس الأمر ؛ فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام علىّ عليه السلام بصيغة الشرط ، لكان مناسباً أيضاً ، حسب مناسبته ، والحالُ بعكس ذلك ، اللهم إلاأنّ تكون قرينة السجعة من كلام علىّ عليه السلام تنبو عن لفظة الشرط ، وإلا فتى حَذَفتَ القرينة السجميّةَ عن وهمك لم تجد فرقاً ؛ ونحن نعوذُ بالله من التعسف والتعجرُف[1] الداعى إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة .

* * *

ثم قال الراوندىّ : إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الذى لا يَعُدّ نعمَه الحاسبون » لم تحصل المبالغة التى أرادها بعبارته ؛ لأنّ اشتقاق الحساب من الحِسبان ؛ وهو الظن . قال : وأمّا اشتقاق العدد فمن العدّ ؛ وهو الماء الذى له مادّة ، والإحصاء : الإطاقة ؛ أحصيته ، أى أطقته : فتقدير الكلام : لا يطيق عدّ نعمائه العادّون ؛ ومعنى ذلك

---

(١) التعجرف : ركوب الأمر من غير ترو .

أنّ مدائحه تعالى لا يُشرِف على ذكرها الأنبياء والمرسلون ؛ لأنها أكثرُ من أن تعدّها الملائكةُ المقرّبون ، والكرام الكاتبون .

ولقائل أن يقول : أمّا الحساب فليس مشتقا من الحِسبان بمعنى الظنّ ؛ كما توهّمه ، بل هو أصل برأسه ؛ ألا ترى أنّ أحدهما حَسِبت أحْسَب ، والآخر حَسِبْت أحْسُب وأحسَب بالفتح والضم ؛ وهو من الألفاظ الأربعة التى جاءت شاذة . وأيضاً فإن « حَسِبت » بمعنى ظننت يتعدى إلى مفعولين لايجوز الاقتصارُ على أحدهما ، و « حَسِبت » من العدد يتعدى إلى مفعول واحد . ثم يقال له : وَهَبْ أنّ « الحاسبين » لو قالها مشتقّةً من الظنّ لم تحصل المبالغة ، بل المبالغة كادت تكون أكثر ؛ لأن النعم التى لا يحصرها الظانّ بظنونه أكثر من النعم التى لا يعدّها العالم بعلومه .

وأمّا قوله : العدَد مشتق من العِدّ ؛ وهو الماء الذى له مادّة ، فليس كذلك ، بل هما أصلان . وأيضاً لو كان أحدهما مشتقا من الآخر لوجب أنْ يكون العِدّ مشتقا من العدد ؛ لأن المصادر هى الأصول التى يقع الاشتقاق منها ؛ سواء أكان المشتق فعلا أو اسما[1] ، ألا تراهم قالوا فى كتب الاشتقاق : إنّ الضَّرْب : الرجل الخفيف ؛ مشتق من الضَّرْب ، أى السير[2] فى الأرض للابتغاء ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾[3] ، فجعل الاسم منقولا ومشتقًّا من المصدر .

وأمّا الإحصاء فهو الحصر والعَدّ وليس هو الإطاقة كما ذكر ؛ لا يقال : أحصيت الحجر ، أى أطقت حمله .

وأمّا ما قال إنه معنى الكلمة فطريف ؛ لأنّه عليه السلام لم يذكر الأنبياء ولا

---

(١) كذا عطف بأو بعد همزة التسوية ؛ قال ابن هشام : وقد أولع الفقهاء وغيرهم بأن يقولوا : سواء أكان كذا أو كذا ، والصواب العطف بأم . المغنى ١ : ٣٩ .

(٢) كذا فى ج . (٣) سورة البقرة ٢٧٣ .

الملائكة ، لا مطابقة ولا تضمّناً ولا التزاماً ، وأىّ حاجة إلى هذا التقدير الطريف الذى لا يشعر الكلام به ! ومراده عليه السلام : وهو أنّ نعمه جلّت لكثرتها أنْ يُحْصيها عادّ ما ، هو نفىٌ لمطلق العادّين من غير تعرض لعادّ مخصوص .

* * *

قال الراوندىّ : فأمّا قوله : « لا يدرِكه بُعْد الهمم » ؛ فالإدراك هو الرؤية والنَّيل والإصابة ، ومعنى الكلام : الحمد لله الذى ليس بجسم ولا عَرَض ؛ إذ لو كان أحدَهما لرآه الراءون إذا أصابوه ؛ وإنما خَصّ « بُعْد الهمم » بإسناد نفى الإدراك « وغَوْص الفِطَن » بإسناد نفى النَّيْل لغرض صحيح ؛ وذلك أن الثَّنَوِيّة[(١)] يقولون بقدم النور والظلمة ، ويثبتون النّور جهة العلوّ والظلمة جهة السُّفْل ، ويقولون : إنّ العالم ممتزج منهما ، فردّ عليه السلام عليهم بما معناه : إنّ النور والظلمة جسمان ، والأجسام محدَثة ، والبارئ تعالى قديم .

ولقائل أن يقول : إنه لم يَجْرِ للرؤية ذكر فى الكلام ؛ لأنه عليه السلام لم يقل : الذى لا تدركه العيون ولا الحواسّ ، وإنما قال : « لا يدركه بُعْدُ الهمم » ، وهذا يدلّ على أنه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته .

وأيضاً فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية ، لكان لمحاجّ أن يحاجّه فيقول له : هبْ أنّ الأمر كما تزعم ، ألست تريدُ بيانَ الأمر الذى لأجله خصّص بُعْد الهمم بنفى الإدراك ، وخَصص غَوْصَ الفِطَن بنفى النَّيل ! وقلت : إنما قُسّمَ هذا التقسيم لغرض صحيح ، وما رأيناك أوضحت هذا الغرض ؛ وإنما حكيت مذهب الثَّنَوِيّة ، وليس يدلُّ مذهبهم على وجوب تخصيص بُعْد الهمم بنفى الإدراك دون نفى النَّيْل ، ولا يوجب تخصيص غَوْص الفطن

---

(١) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين ؛ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . الشهرستانى ١ : ٢٢٤ .

بنفى النَّيْل دون نفى الإدراك، وأكثر ما فى حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلهَىِ العالَم: النور والظلمة ، وهما جسمان ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام يقول : لو كان صانع العالم جسما لَرُئِىَ ، وحيث لم يُرَ لم يكن جسما ؛ أىّ شىء فى هذا مما يدلّ على وجوب ذلك التقسيم والتخصيص الذى زعمتَ أنّه إنما خصّصه وقسّمه لغرض صحيح !

* * *

ثم[1] قال الراوندىّ : ويجوز أن يقال:البعدُ والغوص مصدران هاهنا بمعنى الفاعل، كقولهم : فلان عَـدْل ، أى عادل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾[2] ، أى غائرا ، فيـكون المعنى : لا يدركه العالم البعيد الهم فـكيف الجاهل ! ويكون المقصد بذلك الردّ على من قال : إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربّه ليلة الإسراء؛ وإن يونس عليه السلام رأى ربّه ليلة هبوطه إلى قعر البحر.

ولقائل أن يقول : إن المصدر الذى جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة ، لا يجوز القياس عليها ، ولو جاز لما كان المصدر هاهنا بمعنى الفاعل ؛ لأنه مصدر مضاف ، والمصدر المضاف لا يكون بمعنى الفاعل.ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجز أن يُحْمَل كلامه عليه السلام على الردّ على من أثبت أن البارئ سبحانه مرئىّ ؛ لأنه ليس فى الـكلام نفى الرؤية أصلا،وإنما غَرَضُ الـكلام نفى معقوليّته سبحانه،وإن الأفـكار والأنظار لا تحيط بكنهه ، ولا تتعقّل خصوصية ذاته ، جَلَّتْ عظمته !

* * *

ثم قال الراوندىّ : فأما قوله : « الذى ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود » ، فالوقت: تحرّك الفلك ودَوَرانه على وجه،والأجل:

---

(١) كلمة « ثم » ساقطة من ا .

(٢) سورة الملك ٣٠ .

مدّة الشيء ؛ ومعنى الكلام أنّ شكرى لله تعالى متجدّد عند تجدّد كلّ ساعة ، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التى قبلها وهى الثانية ، كما أبدل الثانية من الأولى .

ولقائل أن يقول : الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفَلَك ، لا نفس حركته ، والأجل ليس مطلق الوقت ، ألا تراهم يقولون : جئتك وقتَ العصر ، ولا يقولون : أجَلَ العصر ! والأجَل عندهم هو الوقت الذى يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطُل فيه ، مأخوذ من أجَل الدَّيْن ، وهو الوقت الذى يحلّ قضاؤه فيه .

فأما قوله : ومعنى الكلام أنّ شكرى متجدّد لله تعالى فى كلّ وقت ، ففاسد ، ولا ذِكْرَ فى هذه الألفاظ للشكر ، ولا أعلم من أين خطر هذا للراوندىّ ! وظنّه أن هذه الجمل من باب البدل غلط ، لأنها صفات ، كلّ واحدة منها صفة بعد أخرى ، كما تقول : مررت بزيد العالم ، الظريف ، الشاعر[(١)].

قال الراوندىّ : فأما قوله : « الذى ليس لصفته حدّ » ، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه ، وأصحابنا لا يثبتون لله سبحانه صفة ، كما يثبتها الأشعرية ؛ لكنّهم يجعلونه على حال ، أو يجعلونه متميزاً بذاته ؛ فأمير المؤمنين عليه السلام بظاهر كلامه — وإن أثبت له صفة — إلا أنّ من له أنسٌ بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة . وقد سألنى سائل فقال : هاهنا كلمتان ؛ إحداهما كفر ، والأخرى ليست بكفر ؛ وهما : لله تعالى شريك غير بصير . ليس شريك الله تعالى بصيراً ، فأيهما كلمة الكفر ؟ فقلت له : القضية الثانية ؛ وهى « ليس شريك الله تعالى بصيراً » كفر ؛ لأنها تتضمّن إثباتَ الشريك ، وأمّا الكلمة الأخرى ، فيكون معناها لله شريك غير بصير ؟ بهمزة الاستفهام المقدّرة المحذوفة .

---

(١) من نسخة بحاشية ج : « الفاضل » .

ثم أخذ فى كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى ، ويُبطِل مذهب الأشعريّة بما يقوله المتكلمون من أصحابنا ، وأخذ فى توحيد الصفة : لِمَ جاء وكيف يدلّ نفى الصفة الواحدة على نفى مطلق الصفات ؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام فى الصفة الخامسة التى أثبتها أبو هاشم[١] ؛ ثم خرج إلى مذهب أبى الحسين[٢] ، وأطال جدًّا فيما لا حاجة إليه[٣] .

ولقائل أن يقول : الأمر أسهلُ مما تظنّ ، فإنا قد بيّنا أنّ مراده نفى الإحاطة بكنهه ، وأيضاً يمكن أن يجعل الصفة هاهنا قول الواصف ، فيكون المعنى : لا ينتهى الواصف إلى حدّ إلّا وهو قاصر عن النعت ، لجلالته وعظمته ، جلّت قدرته .

فأما القضيّتان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما ، وهو أن القضيّة الأولى كفر ، لأنها صريحة فى إثبات الشريك ، والثانية لا تقتضى ذلك ، لأنه قد ينفى قول الشريك بصيراً على أحد وجهين ؛ إما لأن هناك شريكا لكنّه غير بصير ؛ لأن الشريك غير موجود ، وإذا لم يكن موجوداً لم يكن بصيرا ؛ فإذا كان هذا الاعتبار الثانى مرادا لم يكن كفرا ، وصار كالأثر المنقول : « كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لا تؤثر هفواته » ؛ أى لم يكن فيه هفوات فتؤثر وتحكى ، «[٤] وليس أنه كان »[٤] المراد فى مجلسه هفوات إلّا أنها لم تؤثر .

***

قال الراوندىّ : فإن قيل : تركيب هذه الجملة يدلّ على أنه تعالى فَطَر الخليقة قبل خَلْق السمٰوات والأرض .

---

(١) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء
(٢) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب البصرى ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء
(٣) ب: « فيه » (٤ – ٤) ب : « وليس المراد أنه قد كانت » .

قلنا : قد اختُلف فى ذلك فقيل : أوّل مايحسن منه تعالى خلقه ذاتا حيّة ، يخلق فيها شهوةً لمدرك تدركه فتلتذّ به ، ولهذا قيل : تقديم خَلْق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح . وقيل : لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا عُلم أنّ علم بعض المكلّفين فيما بعد بخَلْقِه قَبْلَه لطف له .

ولقائل أن يقول : أمّا إلى حيث انتهى به الشرح فليس فى الكلام تركيب يدلّ على أنّه تعالى فطر خَلْقه قبل خَلْق السموٰات والأرض. وإنما قد يُوهم تأمّل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئاً من ذلك ، لما قال : « ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء » ؛ على أنا إذا تأملنا لم نجد فى كلامه عليه السلام مايدلّ على تقديم خَلْق الحيوان ؛ لأنه قبل أنْ يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فَطَر الخلائق . وتارة قال : « أنشأ الخلق » ، ودلّ كلامه أيضاً على أنه نشر الرياح ، وأنه خلق الأرض وهى مضطربة فأرساها بالجبال ؛ كلّ هذا يدلّ عليه كلامه ، وهو مقدّم فى كلامه على فَتْق الهواء والفضاء وخلق السماء ، فأما تقديم خلق الحيوان أو تأخيره فلم يتعرض كلامه عليه السلام له ، فلا معنى لجواب الراوندىّ وذِكْره مايذكره المتكلّمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا !

* * *

الأَصْـلُ :

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ، وكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ ، وكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ . فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ ، وَمَنْ قَرَنَهُ فقدْ ثَنَّاهُ ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فقد جزَّأَهُ ، وَمَنْ جزَّأَهُ فقدْ جهِلَه ،

وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ ، ومن حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ قَالَ : « فِيمَ » فَقَدْ ضَمَّنَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « عَلَامَ » فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إنما قال عليه السلام : « أول الدّين معرفته » ، لأنّ التقليد باطل ، وأوّل الواجبات الدينية المعرفة . ويمكن أن يقول قائل : ألستُم تقولون فى علم الكلام : أول الواجبات النظرُ فى طريق معرفة الله تعالى ؛ وتارة تقولون : القصد إلى النظر ؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام ؟ !

وجوابه أن النظَرَ والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعرَض لا بالذات ؛ لأنهما وُصْلة إلى المعرفة ، والمعرفة هى المقصود بالوجوب ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد : أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفةُ البارى سبحانه ؛ فلا تناقضَ بين كلامه وبين آراء المتكلمين .

وأما قوله : « وكمال معرفته التصديق به » ؛ فلأنّ معرفتَه قد تكون ناقصة ، وقد تكون غير ناقصة ، فالمعرفة الناقصة هى المعرفة بأن للعالَم صانعاً غيرَ العالم ؛ وذلك باعتبار أن الممكنَ لا بدّ له من مؤثر ، فمن علم هذا فقط علِمَ الله تعالى ولكنْ علماً ناقصاً ، وأما المعرفة التى ليست ناقصة فأنْ تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات ، والخارجُ عن كلّ الممكنات ليس بممكن ، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود ؛ فمن علِمَ أنّ للعالم مؤثراً واجبَ الوجود فقد عرفه عرفاناً أكملَ من عرفان أن للعالم مؤثراً فقط ؛ وهذا الأمر الزائد هو المكنىّ عنه بالتصديق به ؛ لأن أخصّ ما يمتاز به البارىْ عن مخلوقاته هو وجوب الوجود .

وأما[1] قوله عليه السلام : « وكمال التصديق به توحيدُه » ، فلأن مَنْ علم أنه تعالى واجبُ الوجود مصدِّق بالبارئ سبحانه ، لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً ، وقد يكون غير ناقص ؛ فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجبُ الوجود فقط ، والتصديق الذى هو أكمل من ذلك وأتمّ هو العلمُ بتوحيده سبحانه ، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين ؛ لأن فرض واجبَيِ الوجود يُفْضِى إلى عموم وجوبِ الوجود لهما وامتياز كلٍّ واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك ؛ وذلك يُفضى إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجِبَيِ الوجود ؛ فمن علم البارئ سبحانه واحداً ، أى لا واجب الوجود إلا هو يكون أكملَ تصديقاً ممن لم يعلم ذلك ؛ وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط .

وأما قوله : « وكمال توحيده الإخلاصُ له » ؛ فالمراد بالإخلاص له ها هنا هو نَفْيُ الجسميّة والعَرَضيّة ولوازمهما عنه ؛ لأن الجسم مركب ، وكل مركب ممكِن ، وواجب الوجود ليس بممكن . وأيضاً فكل عَرَضٍ مفتقِر ، وواجب الوجود غير مفتقر ؛ فواجب الوجود ليس بِعَرَض . وأيضاً فكل جِرْم محدث ، وواجب الوجود ليس بمحدَث ، فواجب[2] الوجود ليس بجرم . وأيضاً فكل حاصل فى الجهة ، إما جِرْم أو عَرَض ، وواجِب الوجود ليس بِجِرْم ولا عرَض ، فلا يكون حاصلا فى جهة ؛ فمن عرف وحدانية البارئ ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً ، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو المخلص فى عِرْفانه جلّ اسمه ، ومعرفته تكون أتمّ وأكمل .

وأما قوله : « وكمالُ الإخلاص له نَفْيُ الصفات عنه » ، فهو تصريحٌ بالتوحيد الذى تذهب إليه المعتزلة ، وهو نفيُ المعانى القديمة[3] التى تُثْبِتها الأشعرية وغيرهم ، قال عليه السلام :

---

(١) ب : « فأما » . (٢) ب : « وواجب » .
(٣) ا : « التقدمية » .

« لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة » ؛ وهذا هو دليل المعتزلة بعينِه،قالوا : لو كان عالماً بمعنى قديم؛لـكان ذلك المعنى إمّاهو أو غيره، أو ليس هو ولا غيره . والأوّل باطل ؛ لأنا نعقل ذاته قبل أن نعقِل أو نتصوّر له علما ؛ والمتصوَّر مُغايِر لما ليس بمتصوَّر . والثالث باطل أيضاً ، لأنّ إثبات شيئين : أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره ، معلوم فسادُه ببديهة العقل،فتعيّن القسم الثانى وهو مُحال ، أما أوّلا فبإجماع أهلِ الملّة ،وأمّا ثانيا فلما سبق من أنّ وجوب الوجود لا يجوز أنْ يكون لشيئين؛ فإذا عرفْتَ هذا فاعرف أنّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاوقد لا يكون ، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده ، وأنه واحد ليس بجسم ولا عَرَض ، ولا [(١)] يصحّ عليه ما يصحّ على الأجسام والأعراض . والإخلاص التامّ هو العلم بأنّه لاتقوم به المعانى القديمة، مضافا إلى تلك العلوم السابقة ؛ وحينئذ تتمّ المعرفة وتـكمل .

ثم أكّد أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه الإشارات الإلهية بقوله : « فمَنْ وَصَف الله سبحانه فقد قَرَنه » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ الموصوفَ يقارن الصفة ، والصفة تقارنه .

قال : « ومن قرنه فقد ثَنّاه » ، وهـذا حقّ ، لأنه قد أثبت قديمين ، وذلك محض التثنية .

قال : «ومن ثنّاه فقد جزّأه» ؛ وهذا حقّ،لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللفظ وفائدته متجزئة ، كإطلاق لفظ « الأسود » على الذات التى حلّها سواد .

قال : « ومن جزّأه فقد جهله » ؛ وهـذا حقّ ، لأنّ الجهل هو اعتقاد الشىء على خلاف ماهو به .

قال : « ومن أشار إليه فقدحَدّه » ؛ وهذا حقّ ، لأنّ كلّ مشارٍ إليه فهو محدود؛

---

(١) ب : « فلا يصح » .

لأنّ المشار إليه لابدّ أن يكون فى جهة مخصوصة ، وكلّ ماهو فى جهة فله حدّ وحدود ؛ أى أقطار وأطراف .

قال : « ومَنْ حدّه فقد عدّه » ، أى جعله من الأشياء المحدثة ، وهذا حقّ ، لأنّ كلّ محدود معدود فى الذوات المحدَثة .

قال : « ومن قال : فِيمَ ؟ فقد ضمّنه » ، وهذا حقّ،لأن مَنْ تصوّر أنه فى شىء فقد جعله إما جسماً مستَقِراً فى مكان ، أو عرَضاً سارياً فى محلّ ، والمكان متضمّن للتّمكن ، والمحلّ متضمّن للعرَض .

قال : « ومن قال : علامَ ؟ فقد أخْلَى منه » ، وهذا حقّ ، لأن مَنْ تصوّر أنه تعالى على العرش ، أو على الكرسىّ ، فقد أخلى منه غير ذلك الموضع . وأصحاب تلك المقالة يمتنِعون من ذلك ؛ ومرادُه عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم ؛ وإلّا فلو قالوا[1] : هب أنا قد أخْلَيْنا منه غير ذلك الموضع ؛ أىّ محذور يلزمنا ؟ فإذا قيل لهم : لو خلا منه موضع دون موضع لكان جسماً ، ولزم حدوثه ، قالوا : لزوم الحدوث والجِسْمية إنّما هو من حصوله فى الجهة لا من خلوّ بعض الجهات عنه ؛ وأنتم إنما احتججتُم علينا بمجرّد خلوّ بعض الجهات منه ، فظهر أنّ توجيه الكلام عليهم إنّما هو إلزام لهم ، لا استدلال على فساد قولهم .

* * *

فأمّا القطب الراوندىّ فإنه قال فى معنى قوله : « نفىُ الصفات عنه » : أى صفات المخلوقين ، قال : لأنه تعالى عالم قادر ، وله بذلك صفات ، فكيف يجوز أن يقال : لاصفة له ! وأيضاً فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفةً أوّلا ، حيث قال : « الذى ليس لصفته حدّ محدود » ، فوجب أنْ يُحمل كلامه على مايتنزّه عن المناقضة .

---

(١) ب : « قال » .

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعدُ فى صفة الملائكة : « إنهم لا يَصِفون الله تعالى بصفات المصنوعين » ، فوجب أن يحمل قوله الآن : « وكمالُ توحيده نفى الصفات عنه » على صفات المخلوقين ، حملاً للمطلق على المقيّد .

ولقائل أن يقول : لو أراد نفيَ صفات المخلوقين عنه لم يستدلّ على ذلك بدليل الغيريّة ، وهو قوله : « لشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف » ، لأن هذا الاستدلال لا ينطبق على دَعْوَى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين ، بل كان ينبغى أن يستدلّ بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعَرَضيّة ، والباريْ ليس بجسم ولا عَرَض ، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعانى القديمة ، وهى المسماة بالصفات فى الاصطلاح القديم[1] ، ولهذا يسمّى أصحاب المعانى بالصفاتية . فأما كونه قادراً وعالما فأصحابها أصحاب الأحوال ، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله : « ليس لصفته حدّ محدود » ، أى لكنهه وحقيقته ، وأما كون الملائكة لا تصف الباريْ بصفات المصنوعين فلا يقتضى أن يُحْمَلَ كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين ، لأجل تقييد ذلك فى ذكر الملائكة ، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيّد ! لا سيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضى ألا يكون المراد صفات المخلوقين .

وقد تكلّف الراونديّ لتطبيق تعليله عليه السلام نَفْىَ الصفات عنه بقوله : « لشهادة كلّ صفة أنها غيرُ الموصوف » ، بكلام عجيب ؛ وأنا أحكى ألفاظه لتعلم ؛ قال : معنى هذا التعليل أنّ الفعل فى الشاهد لا يشابه الفاعل ، والفاعل غيرُ الفعل ؛ لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعل أو معنى الفعل ، كالضّارب والفَهِم ؛ فإن الفهم والضرب كلاهما فعل ، والموصوف بهما فاعل ، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً ؛ فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدَثة كانت معدومة ثم وجدت ، يدلّ على أنها غيرُ الموصوف بأنه خالقها ومدبّرها .

---

(١) ساقطة من ج .

انقضى كلامه . وحكايته تُغْنِي عن الرّد عليه .

ثم قال : « الأوّل » على وزن «أفعل» يستوى فيه المذكر والمؤنث ، إذا لم يكن فيه الألف واللام ، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث « الأُولى » .

وهذا غير صحيح ، لأنه يقال : كلّمت فُضْلاهنّ ، وليس فيه[1] ألف ولام ، وكان ينبغي أن يقول إذا كان منكرا مصحوبا بمن استوى المذكر والمؤنث فى لفظ « أفعل » ، تقول : زيد أفضل من عمرو ، وهند أحسن من دعد .

* * *

الأصْـلُ :

كائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ ، مَع كلِّ شَىْءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ ، وَغَيْرُ كلِّ شَىْءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ ، فَاعِلٌ لا بمَعْنَى الحَرَكاتِ وَالآلَةِ ، بَصِيرٌ ؛ إذْ لا مَنظُورَ إليهِ مِنْ خَلْقِهِ ، مُتَوَحِّدٌ ؛ إذْ لاسكَنَ يستَأنِسُ بِهِ ، وَلا يَستَوْحِشُ لِفَقْدِهِ . أنشَأ الخَلْقَ إنشَاء ، وَابْتَدَأهُ ابتِدَاء ، بِلاَ رَوِيَّةٍ أجَالَها ، ولَا تَجرِبَةٍ اسْتَفَادَها ، وَلَا حَرَكةٍ أحدَثَها ، ولا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطرَبَ فِيها . أحَالَ الأشياءَ لِأوْقاتِها ، ولَاءمَ بيْنَ مُختَلِفَاتِها ، وَغرَّزَ غرَائِزَها ، وَألزَمَها أشبَاحَها ؛ عَالِماً بِهَا قبلَ ابْتِدَائِها ، مُحِيطاً بحُدُودِهَا وَانْتِهائِها ، عارِفاً بِقَرائِنِها وأحْنَائِها .

* * *

الشَّـرْحُ :

قوله عليه السلام : « كائن » ، وإن كان فى الاصطلاح العرفىّ مقولا على ما ينزّه البارىْ عنه ؛ فراده[2] به المفهوم اللغوىّ ؛ وهو اسم فاعل من « كان » ، بمعنى وجد ، كأنّه قال : موجود غير محدَث .

---

(١) ب : « فيهن » .

(٢) ا : « فراد » .

فإن قيل : فقد قال بعده : « موجود لا عن عدَم » فلا يبقى بين الكلمتين فرق .

قيل: بينهما فرق ، ومراده بالموجود لا عن عدم هاهنا وجوب وجوده ونفيُ إمكانه، لأنّ مَنْ أثبت قديماً ممكنا ؛ فإنه وإن نفى حدوثَه الزمانىّ لم ينفِ حدوثَه الذاتىّ ، وأمير المؤمنين عليه السلام نفى عن البارئ تعالى فى الكلمة الأولى الحدوثَ الزمانىّ ،ونفى عنه فى الكلمة الثانية الذاتىّ . وقولنا فى الممكن : إنّه موجود من عدم ، صحيح عند التأمّل ، لا بمعنى أنّ عدمه سابق له زمانا ، بل سابق لوجوده ذاتا ، لأن الممكن يستحقّ من ذاته أنه لا يستحق الوجود من ذاته .

وأما قوله : «مع كلّ شىء لا بمقارنة » ، فمراده بذلك أنّه يعلم الجزئيات والكلّيات، كما قال سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[1] .

وأما[2] قوله : «وغيرُ كلّ شىء لا بمزايلة» فحقّ ، لأنّ الغَيْرين فى الشاهد هما ما زايلَ أحدُهما الآخر وباينه بمكان أو زمان ، والبارئ سبحانه يباين الموجودات مباينة منزّهة عن المكان والزمان ، فصدَق عليه أنّه غير كلّ شىء لا بمزايلة .

وأمّا قوله : «فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة» ، فحقّ ؛ لأن فعله اختراع ،والحكماء يقولون : إبداع ، ومعنى الكلمتين واحد ؛ وهو أنه يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل الواحد منّا ، ولا يوجِد شيئاً من شىء .

وأما قوله : «بصير ؛ إذ لا منظورَ إليه من خَلْقه » ، فهو حقيقةُ مذهب أبى هاشم رحمه الله وأصحابه ، لأنهم يُطلقون عليه فى الأزَل أنّه سميع بصير ، وليس هناك مسموع ولا مُبصَر ، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصَرات إذا وجدت؛

---

(١) سورة المجادلة ٧

(٢) ا : « فأما » .

وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به ، ولا يُطلقون عليه أنه سامع مبصر في الأزَل ، لأنّ السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوّة .

وأما قوله : « متوحّد ، إذْ لا سَكَنَ يستأنس به ، ويستوحش لفقده » ، فـ « إذ » هاهنا ظرف ، ومعنى الكلام أنّ العادة والعرف إطلاق « متوحّد » على من قد كان له من يستأنس بقربه ويستوحش ببعده فانفرد عنه ، والبارئ سبحانه يطلَق عليه أنّه متوحِّد في الأزَل ولا موجود سواه ؛ وإذا صَدَق سَلْب الموجودات كلّها في الأزَل صدق سلبُ ما يؤنس أو يوحِش ؛ فتوحّده سبحانه بخلاف توحّد غيره .

وأما قوله عليه السلام : « أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء » ، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء ؛ كقوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1] . وقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] .

وقوله : « بلا رَوِيّةٍ أجالها » ، فالروية الفكرة ، وأجالها : ردّدها ؛ ومن رواه : « أحالها » بالحاء ، أراد صرفها . وقوله : « ولا تجربةٍ استفادها » ، أي لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصَلت له التجربة التي أعانته على خَلْق هذه الأجسام .

وقوله : « ولا حركة أحدثها » ، فيه ردّ على الكرّاميّة الذين يقولون : إنّه إذا أراد أنْ يخلُق شيئاً مبايناً عنه أحدث في ذاته حادثا ، يسمّى الإحداث ، فوقع ذلك الشيء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً .

وقوله : « ولا همامة نفس اضطرب فيها » ، فيه ردٌّ على المجوس والثَّنَوِيّة القائلين بالهمامة ، ولهم فيها خَبْط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحّة مايقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدّمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلّها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام .

---

(١) سورة فاطر ٣٥ (٢) سورة المائدة ٤٨

وأما قوله : « أحال الأشياء لأوقاتها » ، فمن روَاها : « أحَلّ الأشياء لأوقاتها » ، فمعناه جعل محلّ كلّ شيء ووقته كمحلّ الدين. ومن رواها : « أحال » فهو من قولك: حال في مَتْن فرسه ، أي وثب ، وأحاله غيرُه ، أي أوْثبَه على متن الفرس ؛ عدّاه بالهمزة ، وكأنّه لما أقرّ الأشياء في أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيرَه على فرسه .

وقوله . « ولاءم بين مختلفاتها » ، أي جعل المختلفات ملتئِمات[1] ، كما قرَن النفس الروحانيةَ بالجسد الترابيّ ، جلّت عظمتُه !

وقوله : « وغرّز غرائزها » ، المرويّ بالتشديد ، والغريزة: الطبيعة ، وجَمْعها غرائز ، وقوله : « غرّزها » ، أي جعلها غرائز ، كما قيل : سبحان من ضوّأ الأضواء ! ويجوز أنْ يكونَ من غرزتُ الإبرة بمعنى غرست . وقد رأيناه في بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : « وألزمها أشباحها » ، الضمير المنصوب في « ألزمها » عائد إلى الغرائز ، أي ألزم الغرائز أشباحَها ، أي أشخاصها ، جمع شَبَح ، وهذا حقّ ؛ لأن كلاً مطبوع على غريزة لازمة ، فالشّجاع لا يكون جبانا ، والبخيل لا يكون جوادا ؛ وكذلك كلّ الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : « عالمـاً بها قبل ابتدائها » ، إشارة إلى أنّه عالم بالأشياء فيما لم يزَل .

وقوله : « محيطا بحدودها وانتهائها » أي بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : «عارفاً بقرائنها وأحنائها»، القرائن: جمع قَرُونة[2] ، وهي النفس .والأحناء: الجوانب ، جمع حِنْو ، يقول: إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحَها، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلّقة بها والصادرة عنها .

***

---

(١) ب : « ملتئمة » ، وما أثبته عن ا .

(٢) ومنه قول أوس بن حجر :

فَلاَقَى امرأً من مَيْدَعانَ وَأَسْمَحَتْ قَرُونَتُهُ باليأسِ مِنْهَا فَعَجَّلَا

أي طابت نفسه بتركها .

فأمّا القطب الراونديّ فإنه قال : معنى قوله عليه السلام : « كائن لا عن حَدَث ، موجود لا عن عَدَم » ، أنه لم يزل موجوداً ، ولا يزال موجوداً ، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أوّلا ؛ وهـذا ليس بجيّد ، لأنّ اللفظ لا يدلّ على ذلك ولا فيه تعرّض بالبقاء فيما لا يزال .

وقال أيضاً : قوله عليه السلام : « لا يستوحش » ، كلام مستأنف . ولقائل أن يقول: كيف يكون كلاماً مستأنفاً ، والهاء « في فقده » ترجع إلى « السكن » المذكور أوّلا !

وقال أيضاً : يُقال : ماله في الأمر هِمّة ولا هَمامة ؛ أي لا يهمّ به ، والهمامة : التردّد، كالعزم . ولقائل أن يقول : العزم هو إرادة جازمة حصَلت بعد التردّد ، فبطل قوله : إنّ الهمامة هي نفس التردد كالعزم . وأيضاً فقد بينا مراده عليه السلام بالهمامة ؛ حكى زُرْقان[1] في كتاب "المقالات" ، وأبو عيسى الوراق[2] ، والحسن بن موسى[3] ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلخيّ[4] في كتابه في "المقالات" ، أيضاً عن الثنوية: أنّ النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظُّلمة والإغارة عليها، فخرجت من ذاته قطعة ـ وهي الهمامة المضطربة في نفسه ـ فخالطت الظلمةَ غازية لها ، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه، وخرجت همامة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت همـامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان

---

(١) هو زرقان المتكلم ؛ تلميذ إبراهيم بن سيار النظام ؛ وقد حكى زرقان عن النظام أقوالا في الفرق بين الفرق ٥٠ ـ ٥١ ، وذكره المسعودي في التنبيه والإشراف ٣٤٢ .

(٢) هو أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ؛ كان من نظارى المعتزلة ؛ وله تصانيف على مذهبهم . توفى سنة ٢٤٧ . لسان الميزان ٥ : ٤١٢ .

(٣) هو أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي ؛ من متكلمي الإمامية ؛ وذكره الطوسي في طبقاتهم ؛ عاش في القرن الثالث . لسان الميزان ٢ : ٢٥٨ ، روضات الجنات ٣١ ، تنقيح المقال ١ : ٣١٢ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي الكعبي ؛ شيخ المعتزلة ، وكان على رأس طائفة منهم يقال لهم الكعبية ؛ توفى سنة ٣١٩ . ابن خلكان ١ : ٢٥٢ .

وتتدانيان وهما ممتزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ؛ حتى انبنى منهماهذا العالَمُ المحسوس . ولهم في الهمامة كلام مشهور ؛ وهي لفظة اصطلحوا عليها ، واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهِمّة ، والذي عرفناه الهِمّة والهَمّة ـ بالكسر والفتح ـ والمَهَمّة ، وتقول : لا هَمامِ لي بهذا الأمر ، مبنيّ على الكسر كقَطامِ ، ولكنّها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ ، وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ ، فَأَجْرَى[1] فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ ، وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ ؛ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ . ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا ، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا ، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا ؛ فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ ؛ تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ ، وَسَاجِيَهُ عَلَى[2] مَائِرِهِ ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً ؛ وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً ، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً ؛ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، وَلَا دِسَارٍ يَنْتَظِمُهَا[3] . ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً ، وَقَمَراً مُنِيراً ، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ .

---

(١) ا : « فأماز » ، وكذلك في مخطوطة النهج .

(٢) ا ، ج : « إلى » ، وكذلك في مخطوطة النهج .

(٣) ج : « ينظمها » .

الشرح :

لسائل أن يسأل فيقول : ظاهرُ هذا الكلام أنّه سبحانه خلق الفضاء والسموات بعد خَلْق كلّ شيء ؛ لأنه قد قال قبل : «فَطَرَ الخلائق ،ونشر الرياح ،ووتّد الأرض بالجبال»، ثم عاد فقال : أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء» ، وهو الآن يقول : « ثم أنشأ سبحانه فتْق الأجواء » ، ولفظة « ثمّ » للتراخى !

فالجواب أن قوله[1] : « ثم » هو تعقيب وتراخ ، لا فى مخلوقات البارئ سبحانه، بل فى كلامه عليه السلام ؛ كأنه يقول : ثم أقول الآن بعد قولى المتقدم : إنه تعالى أنشأ فتق الأجواء . ويمكن أن يقال: إن لفظة « ثم » هاهنا تُعطِى معنى الجمع المطلق كالواو ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[2].

***

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل يشتمل على مباحث :

منها : أنّ ظاهرَ لفظه أنّ الفضاء الّذى هو الفراغ الذى يحصل فيه الأجسام خلقَه الله تعالى ولم يكن من قبل ؛ وهذا يقتضى كونَ الفضاء شيئاً ؛ لأن المخلوق لا يكون عدَماً محضاً . وليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام . ومنهم من جعله مجرّداً .

فإن قيل : هذا الكلام يُشعِر بأن خلق الأجسام فى العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن ، وهذا ينافى العقل !

قيل : بل هذا هو محض مذهب الحكماء ، فإنهم يقولون : إنه لا يمكن وجودُ جسم

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فالجواب قوله » .
(٢) سورة طه ٨٢ .

ولا حركةُ جسم خارجَ الفلك الأقصى؛ وليس ذلك إلّا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها، إلّا فى الفضاء .

ومنها : أن البارئ ـ سبحانه ـ خلق فى الفضاء الذى أوجده ماء جمله على متْن الريح، فاستقلّ عليها، وثبت وصارت مكاناً له ، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحاً أخرى سلّطها عليه ، فموّجته تمويجاً شـديداً حتى ارتفع ، فخلق منه السموات . وهـذا أيضاً قد قاله قوم من الحكماء ؛ ومن جملتهم تاليس الإسكندرانىّ ؛ وزعم أنّ الماء أصل كلّ[1] العناصر ؛ لأنّه إذا انجمد صار أرضاً ، وإذا لَطُف صار هواء ، والهواء يستحيل ناراً ؛ لأنّ النار صفوة الهواء .

ويقال : إن فى التوراة فى أول السِّفر الأول كلاماً يناسب هذا ؛ وهو أنّ الله تعالى خلق جوهراً ، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ارتفع من ذلك الماء بخارٌ كالدخان،[2] فخلق منه السمٰوات؛ وظهر على وجه ذلك الماء زَبَد[2]، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال .

ومنها : أنّ السماء الدّنيا مَوْج مكفوف، بخلاف السمٰوات الفوْقانية. وهذا أيضا قول قد ذهب إليه قوم، واستدلُّوا عليه بما نُشاهده[3] من حركة الكواكب المتحيّرة وارتعادها فى مرأى[4] العين واضطرابها؛ قالوا : لأن المتحيّرة متحركة فى أفلاكها ؛ ونحن نشاهدها بالحسّ البَصرىّ ، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفّافة ، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السائر فى الماء ؛ وما ذاك إلا لأنّ السماء الدنيا ماء متموّج ، فارتعاد الكواكب

---

(١) كلمة « كل » ساقطة من ا .
(٢ ـ ٢) ساقط من ا .
(٣) ب : « شاهده » .
(٤) ا : « مرائى » .

المشاهدة حسًّا إنّما هو بحسب ارتفاع أجزاء الفلك الأدنى. قالوا : فأمّا الكواكب الثابتة فإنّا[1] لم نشاهدها كذلك ؛ لأنّها ليست بمتحركة ، وأمّا القمر وإن كان فى السماء الدنيا؛ إلا أنّ فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية؛ وليس بما هو ممتزج كالفلك المثل التحتانىّ. وكذلك القولُ فى الشمس .

ومنها: أنّ الكواكب فى قوله : « ثم زيّنها بزينة الكواكب » أين هى؟ فإن اللفظ محتمِل ، وينبغى أن يتقدّم على ذلك بحثٌ فى أصل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾[2] !

فنقول : إنّ ظاهرَ هذا اللفظ أنّ الكواكبَ فى السماء الدنيا ، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع ؛ فمن دنا منهم لذلك رُجِم بشهاب ؛ وهذا هو الذى يقتضيه ظاهر اللفظ. ومذهب الحكماء أنّ السماء الدنيا ليس فيها إلا القمر وحدَه؛ وعندهم أن الشهبَ المنقضّة هى آثار تظهر فى الفلك الأثيرىّ النارىّ الذى تحت فلك القمر ، والكواكبُ لا ينقضّ منها شىء ، والواجبُ التصديق بما فى ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأنْ يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام على مطابقته، فيكونَ الضميرُ فى قوله: «زينها» راجعاً إلى « سفلاهنّ » ؛ التى قال : « إنها مَوْج مكفوف »، ويكون[3] الضمير فى قوله: « وَأجْرَى فيها » راجعاً إلى جملة السموات ؛ إذا وافقنا الحكماء فى أنّ الشمس فى السماء الرابعة .

ومنها : أنّ ظاهرَ الكلام يقتضى أنّ خلقَ السموات بعد خلق الأرض؛ ألا تراه كيف لم يتعرّضْ فيه لكيفية خلق الأرض أصلا . وهذا قولٌ قد ذهب إليه جماعة من أهل المِلّة،

---

(١) ب ا : « فإنما » .
(٢) سورة الصافات ٦ ، ٧ .
(٣) ا : « فيكون » .

واستدلوا[1] عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[3].

ومنها: أن الهاء في قوله: «فرفعه في هواء منفتق» والهاء في قوله: «فسوّى منه سبعَ سموات» إلى ماذا ترجع؟ فإنّ آخر المذكورات قبلها «الزَّبد». وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زَبَد الماء؟ الحقّ أنّ الضمائرَ ترجع إلى الماء الذي عبّ عبابُه؛ لا إلى الزّبد؛ فإنّ أحداً لم يذهب إلى أنّ السماء مخلوقة من زَبَد الماء؛ وإنما قالوا: إنّها مخلوقة من بُخاره.

ومنها: أنْ يقال إن البارئ سبحانه قادر على خلق الأشياء إبداعاً واختراعاً؛ فما الذى اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب؟ وهلاّ أوجدها إيجاد الماء الذى ابتدعه أوّلا من غير شيء!

فيقال في جواب ذلك على طريق أصحابنا: لعلّ إخبارَه للمكلّفين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم[4]، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلّا والمخبَر عنه مطابق للإخبار.

فهذا حظّ المباحث المعنوية من هذا الفصل.

* * *

ثم نشرع فى تفسير ألفاظه:

أمّا الأجواء فجمع جَوّ، والجوّ هنا الفضاء العالى بين السماء والأرض. والأرجاء:

---

(١) ا: «استدلوا».
(٢) سورة فصلت ٩.
(٣) سورة فصلت ١٠.
(٤) كذا فى ج، وفى ا، ب: «لهم».

الجوانب ، واحدها رَجا مثل عصا . والسكائك : جمع سُكاكة ؛ وهى أعلى الفضاء ، كما قالوا : ذُؤابة وذوائب . والتيّار : الموج . والمتراكم : الذى بعضُه فوق بعض . والزّخّار : الذى يزْخَر ، أي يمتدّ ويرتفع . والريح الزعْزع : الشديدة الهبوب ، وكذلك القاصفة ؛ كأنها تُهلِك الناس بشدّة هبوبها . ومعنى قوله : « فأمرها بردّه » ، أى بمنعه عن الهبوط؛ لأنّ الماء ثقيل ، ومن شأن الثقيل الهُوِىّ . ومعنى قوله : « وسلّطها على شدّه » أى على وثاقه ؛ كأنه سبحانه لما سلّط الريح على منعه من الهبوط؛ فكأنه قد شدّه بها وأوثقه ومنعه من الحركة . ومعنى قوله : « وقرنها إلى حَدّه » ،أى جعلها مكاناً له ؛ أى جعل حدّ الماء المذكور -وهو سطحه الأسفل- مماسا لطح الريح التى تحمله وتُقِلّه . والفتيق: المفتوق المنبسط. والدفيق : المدفوق . واعتقَم مَهَبّها ، أى جعل هُبوبَها عقيما ، والريح العقيم : التى لا تُلقِحُ سحاباً ولا شجراً ؛ وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها ؛ لأنّه سبحانه إنما خلقها لتمويج الماء فقط . وأدام مُرَبّها ، أى ملازمتها ، أربّ بالمكان مثل ألبّ به ، أى لازمه .

ومعنى قوله : « وعصفت به عَصْفَها بالفضاء » ، فيه [١] معنى لطيف ؛ يقول : إنّ الريح إذا عصفت بالفضاء الذى لا أجسام فيه كان عصفُها شديداً لعدم المانع ؛ وهذه الريح عصفت بذلك الماء العظيم عصفاً شديداً ؛ كأنها تعصِفُ فى فضاء لامانع لها فيه من الأجسام.

والساجى : الساكن . والمائر: الذى يذهب ويجىء . وعبّ عُبابه : أى ارتفع أعلاه. ورُكامه : ثَبَجه وهِضَبُه [٢] . والجوّ المنفهق: المفتوح الواسع. والموج المكفوف: الممنوع من السّيَلان . وعَمَدٍ يدْعَمُها : يكون لها دِعامة . والدّسار : واحد الدُّسُر وهي المسامير. والثواقب النَّيِّرة : المشرِقة. وسراجاً مستطيراً ، أى منتشر الضوء ؛ يقال: قد استطار

---

(١) كلمة « فيه » ساقطة من ب .   (٢) ب : « هضبته » .

الفجر ، أى انتشر ضوءه.ورقيم مائر ، أى لوح متحرّك ؛ سُمّى الفلك رقيما تشبيهاً باللوح، لأنه مسطّح .

* * *

فأمّا القطبُ الراوندىّ فقال : إنّه عليه السلام ذكر قبل هذه الكلمات أنه أنشأ حيوانًا له أعضاء وأحناء ، ثم ذكر هاهنا أنّه فتق السماء ، وميّز بعضها عن بعض ، ثم ذكر أنّ بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام ، وهى سبع سمٰوات، وكذلك بين كلّ أرض وأرض ، وهى سبع أيضاً. وروى حديث البقرة التى تحمل المَلَك الحامل للعرش،والصخرة التى تحمل البقرة ، والحوت الذى يحمل الصخرة .

ولقائل أن يقول : إنّه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أنّ الله تعالى خَلق حيوانا ذا أعضاء ، ولا قوله الآن : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾(1) ،الا تراه كيف صرّح عليه السلام بأن البارئ سبحانه خلق الهواء الذى هو الفضاء ، وعبّر عن ذلك بقوله : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، وليس فتقُ الأجواء هو فتق السماء !

فإن قلتَ : فكيف يمكن التطبيقُ بين كلامه عليه السلام وبين الآية ؟

قلتُ : إنه تعالى لما سلّط الريح على الماء فعصفتْ به،حتى جعلته بخاراً وزَبَداً ، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض ؛ كان فاتقا لهما من شىء واحد ، وهو الماء .

فأمّا حديثُ البعد بين السمٰوات وكونه مسيرةَ خمسمائة عام بين كلّ سماء وسماء ، فقد ورد وروداً لم يُوثَق به ؛ وأكثر(2) الناس على خلاف ذلك. وكونُ الأرض سبعا أيضاً

---

(1) سورة الأنبياء ٣٠

(2) ا : « فأكثر » ، وما أثبته عن ا ، ب

خلافُ مايقوله جمهور العقلاء ، وليس فى القرآن العزيز مايدلّ على تعدد الأرض إلاقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [1] ، وقد أوّلوه على الأقاليم السبعة . وحديث الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات فى غالب الظنّ ، والصحيح أنّ الله تعالى يُمْسِك الـكلّ بغير واسطة جسم آخر .

***

ثم قال الراونديّ : السّـكائك : جمعُ سُـكَاك ، وهذا[2] غير جائز ، لأن «فُعالا» لا يجمع على « فعائل » ؛ وإنما هو جمع سُـكَاكة ، ذكر ذلك الجوهريّ [3] .

ثم قال : « وسلّطها على شَدّه » ، الشدّ : العَدْو . ولا يجوز حمل الشدّ هاهنا على العَدْو ؛ لأنه لامعنى له ، والصحيح ماذكرناه .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « جعل سُفلاهنّ موجاً مكفوفا » ، أراد تشبيهَها بالموج لصفائها واعتلائها. فيقال له : إنّ الموجَ ليس بعالٍ ليشبّه به الجسم العالى، وأما صفاؤه فإن كلّ السموات صافية ، فلماذا خَصّ سُفلاهنّ بذلك !

ثم قال : ويمكن أن تكون السماء السُّفْلى قد كانت أوّل ماوجدت موجا ثم عَقَدها . يقال له : والسموات الأُخَر كذلك كانت ، فلماذا خصّ السُّفْلى بذلك !

ثم قال : الريح الأولى غير الريح الثانية ، لأنّ إحداهما معرفة والأخرى نكرة ؛ وهذا مثل قوله : صم اليوم ، صم يوما ، فإنه يقتضى يومين .

يقال له : ليست المغايرة بينهما مستفادة من مجرّد التعريف والتنكير ، لأنه لو كان قال

---

(١) سورة الطلاق ١٢

(٢) ب : « وهو » وما أثبته عن ا

(٣) الصحاح ص ١٥٩١ ، والذى فيه : « والسكاك والسكاكة : الهواء الذى يلاقى أعنان السماء » .

عليه السلام : « وحمله على متن ريح عاصفة وزعزع قاصفة » لكانت الريحان : الأولى والثانية منكّرتين معاً ، وهما متغايرتان ، وإنما علمنا تغايرهما ، لأنَّ إحداهما تحت الماء والأخرى فوقه ، والجسم الواحد لا يكون فى جهتين .

***

الأصْلُ :

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلْعُلَا ، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ ٱلْعُيُونِ ، وَلَا سَهْوُ ٱلْعُقُولِ ، وَلَا فَتْرَةُ ٱلْأَبْدَانِ ، وَلَا غَفْلَةُ ٱلنِّسْيَانِ .

وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ [1] وَأَمْرِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ ، وَٱلسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلثَّابِتَةُ فِى ٱلْأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَٱلْمَارِقَةُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ، وَٱلْخَارِجَةُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ، وَٱلْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ ٱلْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ ٱلْقُدْرَةِ ؛ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ ٱلْمَصْنُوعِينَ ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ .

[القول فى الملائكة وأقسامهم]

الشَّرْحُ :

الملَك عند المعتزلة حيوان نورىّ ؛ فمنه شفّاف عادم اللون كالهواء ، ومنه ملوّن بلون الشمس . والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقُدَر وحياة ؛ كالواحد منّا ، ومكلّفون كالواحد منا ، إلا أنهم معصومون . ولهم فى كيفية تكليفهم كلام ؛ لأنّ التكليف

(١) مخطوطة النهج : « لقضائه » .

مبنيّ على الشهوة .

وفى كيفيّة خَلْق الشهوة فيهم نظر ، وليس هذا الكتاب موضوعاللبحث فى ذلك .

وقد جعلهم عليه السلام فى هذا الفصل أربعة أقسام :

القسم الأول : أرباب العبادة ؛ فمنهم مَنْ هو ساجد أبدا لم يقم من سجوده ليركع ، ومنهم من هو راكع أبدا لم ينتصِب قطّ ، ومنهم الصافّون فى الصلاة بين يدىْ خالقهم لا يتزايلون ، ومنهم المسبّحون الذين لا يملّون التسبيح والتحميد له سبحانه .

والقسم الثانى : السُّفراء بينه تعالى وبين المكلّفين من البشر بتحمّل الوحى الإلهىّ إلى الرسل ، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض .

والقسم الثالث ضربان : أحدهما حَفَظة العباد كالكرام الكاتبين ، وكالملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات ؛ ولولا ذلك لكان العَطَب أكثَرَ من السلامة . وثانيهما سَدَنة الجِنان .

القسم الرابع : حَمَلة العرش .

ويجب أن يكون الضمير فى « دونه » ـ وهو الهاء ـ راجعاً إلى العرش لا إلى البارئ سبحانه . وكذلك الهاء فى قوله : « تحته » . ويجب أن تكون الإشارة بقوله : « وبين مَنْ دونهم » إلى الملائكة الذين دون هؤلاء فى الرتبة .

فأما ألفاظ الفصل فكلها غنيّة عن التفسير إلا يسيراً ، كالسَّدنة جمع سادِن وهو الخادم ، والمارق : الخارج . وتلفّعت بالثوب ، أى التحفت به .

***

وأما(1) القطب الراوندىّ فجعل الأمناء على الوحى وحفَظة العباد وسدَنة الجنان

---

(1) ا : « فأما »

قسما واحدا ، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة . وليس بجيّد ، لأنه قال : « ومنهم الخفقة » ، فلفظة « ومنهم » تقتضي كونَ الأقسام أربعة ؛ لأنه بها فصّل بين الأقسام .

وقال أيضاً : معنى قوله عليه السلام : « لا ينشام نوم العيون » يقتضي أنّ لهم نوما قليلا لا يُغفلهم عن ذكر الله سبحانه ، فأما الباريْ سبحانه فإنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم أصلا ، مع أنه حيٌّ ، وهذه هي المدحة العظمى .

ولقائل أن يقول : لو ناموا قليلا لكانوا زمانَ ذلك النوم ـ وإن قلّ ـ غافلين عن ذكر الله سبحانه ؛ لأنّ الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل .

والصحيح أنّ الملَك لا يجوز عليه النوم ، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب ؛ لأنّ النوم من توابع المِزاج ، والملَك لا مِزاج له . وأما مدحُ الباريْ بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم نخارج عن هذا الباب ، لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية ، لا يجوز تبدّلها ، والملك يجوز أن يخرج عن كونه ملَكا ، بأنْ يُخلق في أجزاء جسمه رُطوبةٌ ويبوسة ، وحرارة وبرودة ، يحصل من اجتماعها مِزاج ، ويتبع ذلك المِزاج النوم . فاستحالة النوم عليه إنما هي ما دام ملَكا ، فهو كقولك : الماء بارد ، أي ما دام ماء ؛ لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم نارا ، فلا يكون باردا ، لأنه ليس حينئذ ماء . والباريْ جلّت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغيّر ، فاستحال عليه النوم استحالةً مطلقة ، مع أنه حيّ ، ومن هذا إنشاء التمدّح . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنّ الله خلق الخلق أربعة أصناف : الملائكة ، والشياطين ، والجنّ ، والإنس . ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء ، فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشياطين والجنّ والإنس ، ثم جعل هؤلاء الثلاثةَ عشرةَ أجزاء ، فتسعة منها الشياطين وجزء واحد الجنّ والإنس ، ثم جعل الجنّ والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة منها الجنّ وجزء واحد الإنس » .

في الحديث الصحيح : إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره ، ثم افتقدها ، فقال : يارسول الله ، إن رجالا كانوا يأتونني لم أر أحسنَ وجوهاً ، ولا أطيب أرواحاً منهم ، ثم انقطعوا . فقال عليه السلام : « أصابك جُرح فكنت تكتمه » ؟ فقال : أجل ، قال : «ثم أظهرتَه» ؟ قال : أجل ، قال : « أمَا لو أقمت على كِتْمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت » ؛ وكان هذا الجرح أصابه في سبيل الله .

وقال سعيد بن المسيّب وغيره : الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون ، والجنّ يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون ، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون ، ولا يموتون حتى يموت إبليس .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله في رواية أبي ذرّ : « إنّي أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط [١] فما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد واضع جبهته لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وماتلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله . واللهلوددت أني كنت شجرة تُعْضَد » [٢] .

قلت : ويُوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبي ذرّ .

واتفق أهلُ الكتب على أنّ رؤساء الملائكة وأعيانَهم أربعة : جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ وهو مَلَك الموت . وقالوا : إن إسرافيلَ صاحب الصُّور وإليه النفخة ، وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر ، وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات ، وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلّها ، وإليه تدبير الرياح ، وهو ينزل إليهم كلهم بما يؤمرون به .

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية ١ : ٣٥ ، وقال : « الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ؛ أي أن كثرة مافيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطّت ؛ وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ؛ وإن لم يكن ثم أطيط ؛ وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة الله تعالى » .

(٢) تعضد : تقطع ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٠٤

وروى أنسُ بن مالك أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ماهؤلاء الذين استثنى بهم فى قوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾؟(١) فقال : « جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ فيقول الله عز وجل لعزرائيل : ياملَكَ الموت ، مَن بقى ؟ وهو سبحانه أعلم ـ فيقول : سبحانك ربّى ذا الجلال والإكرام! بقىَ جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملَكُ الموت ؛ فيقول : ياملك الموت ، خذ نفس إسرافيل ، فيقعُ فى صورته التى خُلق عليها كأعظم مايكون من الأطواد ، ثم يقول : ـ وهو أعلم ـ مَنْ بقىَ ياملَكَ الموت ؟ فيقول : سبحانك ربّى ياذا الجلال والإكرام ! جبرائيل وميكائيل وملَكُ الموت ، فيقول : خذ نفس ميكائيل ، فيقع فى صورته التى خُلِق عليها ، وهى أعظم مايكون من خَلْق إسرافيل بأضعافٍ مضاعفة . ثم يقول سبحانه : ياملَكَ الموت ، مَنْ بقىَ ؟ فيقول : سبحانك ربّى ذا الجلال والإكرام : جبرائيل، وملَكُ الموت ، فيقول تعالى : ياملَكَ الموت ، مت فيموت ، ويبقى جبرائيل – وهو من الله تعالى بالمكان الذى ذكر لكم ـ فيقول الله : ياجبرائيل ، إنه لا بدّ من أن يموت أحدنا ، فيقع جبرائيل ساجدا يخفق بجناحيه ، يقول : سبحانك ربّى وبحمدك ! أنت الدائم القائم الذى لا يموت ؛ وجبرائيل الهالك الميّت الفانى ، فيقبض الله روحَه ، فيقع على ميكائيل وإسرافيل ، وإنّ فَضْل خلقِه على خلقهما كفضل الطَّوْد العظيم على الظَّرِب(٢) من الظِّراب .

وفى الأحاديث الصحيحة أنّ جبرائيل كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وآله على صورة دِحْية الكَلْبِىّ ، وأنّه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم ، وإنه سُمِع ذلك اليوم صوته : أقْدِمْ حَيْزوم(٣) .

---

(١) سوره الزمر ٦٨

(٢) الظرب ككتف : الجبل الصغير .

(٣) الخبر فى اللسان (حزم) ؛ وفيه : « أراد أقدم ياحيزوم ؛ فحذف حرف النداء ، والياء فيه « زائدة » .

والكروبيّون[1] عند أهلِ الملّة سادة الملائكة، كجبرائيل وميكائيل. وعند الفلاسفة أنّ سادة الملائكة هم الروحانيّون — يعنون العقول الفعالة وهى المفارقة للعالم الجسمانىّ المسلوبة التعلّق به، لا بالحلول ولا بالتدبير. وأما الكَرُوبيُّون فدون الروحانيين فى المرتبة وهى أنفس الأفلاك المدبّرة لها، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا.

ثم هى على قسمين: قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر، فالقسم الأشرف ما كان نفسًا ناطقة غير حالّة فى جِرْم الفلك، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا. والقسم الثانى ما كان حالاًّ فى جِرْم الفَلَك، ويجرى ذلك مجرى القُوَى التى فى أبداننا، كالحسّ المشترك والقوة الباصرة.

***

الأصْلُ:

منها فى صفة خلق آدم عليه السلام:

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ، وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ، وَفُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ.

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فتمثّلت[2] إنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ، وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ، مَعْجُونًا بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ،

---

(١) الكروبيون، مخففة الراء — على ماقاله صاحب القاموس —: هم أقرب الملائكة إلى حملة العرش؛ وأصله من الكرب وهو القرب؛ قال أمية:

ملائكة لايفترون عبادةً كَرُوبيّةٌ مِنهمْ ركوعٌ وسُجّدُ

(٢) مخطوطة النهج: « فمثلت ».

(١)وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ(١)، وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبِلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ.

وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾(٢) وَقَبِيلَهُ؛ اعْتَرَتْهُمُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾(٣).

***

الشَّرْحُ:

الحَزْن: ماغلُظ من الأرض. وسَبَخُها: ماملُح منها. وسَنّها بالماء، أى مَلسها، قال:

ثم خاصرتُها إلى القُبّةِ الخضْـ ... ـراء تمشى فى مَرْمرٍ مسنونِ(٤)

أى مملّس. ولاطها، من قولهم: لُطتُ الحوضَ بالطين، أى ملطته وطيّنته به. والبِلّة بفتح الباء، من البَلل. ولَزَبت، بفتح الزاى، أى التصقت وثبتت. فجَبَل منها، أى خلق. والأحناء: الجوانب، جمع حِنْو. وأصلدها: جعلها صَلْدا، أى صُلْبا متينا. وصلصلت: يبست، وهو الصلصال. ويختدمها: يجعلها فى مآربه وأوطاره كالخدَم الذين تستعملهم وتستخدمهم. واستأدَى الملائكة وديعته: طلب منهم أداءها. والخنوع: الخضوع. والشِّقوة، بكسر الشين، وفى الكتاب العزيز: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

(١ ــ ١) تكملة من مخطوطة النهج.

(٢) سورة البقرة ٣٤. (٣) سورة ص ٨٠، ٨١.

(٤) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، من أبيات يشبب فيها برملة بنت معاوية؛ كذا نسبه صاحب اللسان ١٧ : ٨٨؛ ونقل عن ابن برى أنها تروى لأبى دهبل.

شِقْوَتُنَا ﴾ (١) . واستوهَنوا : عدّوه واهنا ضعيفا . والنَّظِرة ، بفتح النون وكسر الظاء : الإمهال والتأخير .

فأما معانى الفصل فظاهرة ، وفيه مع ذلك مباحث :

منها أن يقال : اللام فى قوله : « لوقت معدود » بماذا تتعلق ؟

والجواب ،أنّها تتعلق بمحذوف تقديره: « حتى صلصلت كائنة لوقت »،فيكون الجار والمجرور فى موضع الحال ، ويكون معنى الكلام أنّه أصلّدها حتى يبست وجفّت معدّة لوقت معلوم ، فنفخ حينئذ روحَه فيها . ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله : « لجَبَل » أى جَبَل وخَلَق من الأرض هذه الجثّة لوقت،أى لأجل وقت معلوم ، وهو يوم القيامة.

***

ومنها أن يقال : لماذا قال : « مِنْ حَزْنِ الأرض وسَهْلها ، وعَذْبها وسَبَخها »؟

والجواب ،أن المراد من ذلك أن يكون الإنسانُ مركّبا من طباع مختلفة،وفيه استعداد للخير والشرّ ، والحسْن والقبح .

***

ومنها أن يقال : لماذا أخّر نفخَ الروح فى جثة آدَم مدة طويلة ، فقد قيل : إنه بقىَ طينا تشاهده الملائكة أربعين سنة ، ولا يعلمون ما المراد به ؟

والجواب ، يجوز أن يكون فى ذلك (٢) لطف للملائكة ، لأنهم تذهب ظنونهم فى ذلك (٢) كلّ مذهب ، فصار كإنزال المتشابهات الذى تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها ، وفى ضمن ذلك يكون اللطف . ويجوز أن يكون فى إخبار ذرّيّة آدم بذلك فيا بعد لطف بهم (٣) ، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان المخبَر عنه حقّاً .

---

(١) سورة « المؤمنون » ١٠٦ .
(٢ ـ ٢) ساقط من ا .
(٣) ب : « لهم » .

ومنها أن يقال : ما المعنىّ بقوله : « ثُمَّ نَفَخَ فِيهاَ مِنْ رُوحِهِ » ؟

الجواب ، أنّ النفس لما كانت جوهراً مجرّداً ، لا متحيزة ولا حالّة فى المتحيّز حَسُن لذلك نسبتها إلى البارئ ، لأنها أقرب إلى الانتساب إليه من الجثمانيات (١) . ويمكن أيضاً أن تكونَ لشرفها مضافة إليه ، كما يقال : بيت الله ، للكعبة. وأما النفخ فعبارة عن إفاضة النفس على الجسد ، ولما كان نفخ الريح فى الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه، وكان الإحياء عبارةً عن إفاضة النفس على الجسد، ويستلزم ذلك حلولَ القُوَى والأرواح فى الجثة باطنا وظاهراً ، سُمّى ذلك نفخا مجازا .

* * *

ومنها أن يقال : ما معنى قوله : « معجونا بطينةِ الألوان المختلفة » ؟

الجواب ، أنه عليه السلام قد فَسّر ذلك بقوله : « من الحرّ والبرد ، والبلّة والجمود » ، يعنى الرطوبة واليبوسة ؛ ومراده بذلك المزاج الذى هو كيفية واحدة حاصلة من كيفيات مختلفة، قد انكسر بعضها ببعض. وقوله : « معجونا » صفة « إنسانا » . والألوان المختلفة، يعنى الضروبَ والفنون ، كما تقول (٢) : فى الدار ألوان من الفاكهة .

* * *

ومنها أن يقال : ما المعنىّ بقوله : « واستأدى الملائكة وديعته لديهم » ؟ وكيف كان هذا العهدُ والوصية بينه وبينهم ؟

الجواب ، أن العهد والوصيةَ هو قوله تعالى لهم : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) يقال : جثمان الرجل وجسمانه ، أى جسده .
(٢) ا : « كما يقال » .
(٣) سورة ص ٧١ ، ٧٢ .

ومنها أن يقال : كيف كانت شُبهة إبليس وأصحابه فى التعزّز بخلقة النار ؟

الجواب ، لما كانت النار مشرقة بالذات والأرض مظلمة ، وكانت النار أشبهَ بالنور ، والنور أشبه بالمجردات ، جعل إبليسُ ذلك حجة احتجّ بها فى شَرَف عنصره على عُنصر آدم عليه السلام ، ولأنّ النار أقربُ إلى الفَلَك من الأرض ، وكلّ شىء كان أقربَ إلى الفلك من غيره كان أشرفَ ، والبارئ تعالى لم يعتبر ذلك ، وفَعَل سبحانه مايعلم أنه المصلحة والصواب .

***

ومنها أن يقال : كيف يجوز السجود لغير الله تعالى ؟

والجواب ، أنه قيل: إنّ السجود لم يكن إلا لله تعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قِبلة. ويمكن أن يقالَ : إن السجود لله على وجه العبادة، ولغيره على وجه التكرمة ؛ كما سجد أبو يوسف وإخوته له . ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فى حسن ذلك وقبحه .

***

ومنها أن يقال : كيف جاز على ما تعتقدونه من حكمة البارئ أن يسلّط إبليس على المكلّفين ؛ أليس هذا هو الاستفساد الذى تأبَوْنه وتمنعونه !

والجواب ، أما الشيخ أبو علىّ رحمه الله فيقول : حدُّ المفسدة ماوقع عند الفساد ، ولولاه لم يقع مع تمكّن المكلّف من الفعل فى الحالتين، ومَنْ فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه هذا الحدّ، لأن الله تعالى علم أن كلّ من فسد عند دعائه ، فإنه يفسد ، ولو لم يَدْعُه .

وأما أبو هاشم رحمه الله ، فيحدّ المفسدة[1] بهذا الحدّ أيضا ، ويقول : إن فى الإتيان بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقّةً زائدة على مشقة الإتيان بها،لو لم يدع إبليس إلى

---

(١) ج : « الفساد » .

القبيح ، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافها خارجاً عن الحدّ المذكور ، وداخلا فى حيّز التمكّن الذى لو فرضنا ارتفاعه لما صحّ من المكلّف الإتيان بالفعل ، ونحن قلنا فى الحدّ مع تمكّن المكلّف من الإتيان بالفعل فى الحالين .

***

ومنها أن يقال : كيف جازَ للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى يوم القيامة ! وهذا إغراء بالقبيح ، وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد : أنت لا تموت إلى سنة ، بل إلى شهر أو يوم واحد ، لما فيه من الإغراء بالقبيح ، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد .

والجواب ، أنّ أصحابنا قالوا : إنّ البارئ تعالى لم يقل لإبليس : إنى مُنظِرُكَ إلى يوم القيامة ؛ وإنما قال : ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه ، وكل مكلّف من الإنس والجنّ مُنظَر إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير ، وإذا[1] كان كذلك لم يكن إبليس عالما أنه يبقى لا محالة ، فلم يكن فى ذلك إغراء له[2] بالقبيح .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « وإنجازاً لِلعِدَة » ؟ أليس معنى ذلك أنّه قد كان وَعَده أن يُبقِيَه إلى يوم القيامة !

قلت : إنما وعده الإنظار ، ويمكن أن يكون إلى يوم القيامة وإلى غيره من الأوقات ، ولم يبيّن له ، فهو تعالى أنجز له وعده فى الإنظار المطلق ، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يُخترم إبليس[3] فلا يحصل الإغراء بالقبيح . وهذا الكلام عندنا ضعيف ، ولنا فيه نظر مذكور فى كتبنا الكلاميّة .

***

(١) ا : « فإذا » .
(٢) كلمة « له » ساقطة من ا .
(٣) كلمة « إبليس » ساقطة من ب .

الأصل :

ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً ، وَبِالاغْتِرَارِ نَدَماً .
ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ ؛ فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ .

***

الشرح :

أما الألفاظ فظاهرة ، والمعاني أظهر ، وفيها ما يُسأل عنه .

فمنها أن يقال : الفاء في قوله عليه السلام : « فأهبطه » ، تقتضي أن تكون التوبة على آدم قبل هبوطه من الجنة .

والجواب ، أن ذلك أحد قولَي المفسرين ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾[1] ، فجعل الهبوط بعد قبول التوبة .

ومنها أن يقال : إذا كان تعالى قد طَرَدَ إبليس من[2] الجنة لما أبَى السجود ، فكيف توصّل إلى آدم وهو في الجنة حتى استنزلَه عنها بتحسين أكل الشجرة له !
الجواب ، أنه يجوز أن يكون إنما مُنِع من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام ،

---

(١) سورة طه ١٢١ – ١٢٣
(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « عن الجنة » .

كدخول الملائكة ، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه . وقيل : إنه دخل في جوف الحية ، كما ورد في التفسير .

ومنها أن يقال : كيف اشتبه على آدم الحال في الشجرة المنهيّ عنها فخالف النهى !

الجواب ، أنه قيل له : لا تقربا هذه الشجرة ؛ وأريد بذلك نوع الشجرة ، فحمل آدم النهيَ على الشّخص ، وأكل من شجرة أخرى من نوعها .

ومنها أنْ يقال : هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام ؛ وهو قوله : « فباع اليقين بشكّه ، والعزيمة بوهنه » ، فما قولكم في ذلك ؟

الجواب ، أمّا أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه ، ويقولون : إنها كانت صغيرة ، وعندهم أنّ الصغائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام . وأما الإماميّة فيقولون: إنّ النهيَ كان نهيَ تنزيه لا نهى تحريم ، لأنهم لا يجيزون على الأنبياء الغلط والخطأ ، لا كبيرا ولا صغيرا ، وظواهرُ هذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم .

***

[اختلاف الأقوال في ابتداء خلق البشر]

واعلم أنّ الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان ، فذهب أهلُ الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أنّ مبدأ البشر هو آدم ، الأبُ الأوّل عليه السلام . وأكثر ما في القرآن العزيز من قصّة آدم مطابق لما في التوراة .

وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك :

أما الفلاسفة ، فإنهمْ زعموا أنه لا أوّل لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع .

وأمّا الهند ، فمنْ كان منهم على رأى الفلاسفة فقوله ماذكرناه . ومَن لم يكن منهم

على رأى الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يُثبت آدم ، ويقول : إنّ الله تعالى خلق الأفلاك وخلَق فيها طباعا محرِّكة لها بذاتها ، فلما تحرّكت — وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء — كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفَلَك المتحرّك أسخنَ وألطف ، والبعيدُ أبرد وأكثف . ثم اختلطت العناصِر ، وتكوّنت منها المركّبات ، ومنها تكوّن نوع البشر كما يتكوّن الدود فى الفاكهة واللحم ، والبقّ فى البطائح والمواضع العفنة ، ثم تكوّن بعضُ البشر من بعض بالتوالد ، وصار ذلك قانونا مستمرًّا ، ونُسِيَ التخليق الأول الذى كان بالتولّد[١] . ومن الممكن أن يكون بعضُ البشر فى بعض الأراضى القاصية مخلوقا بالتولُّد[١] ، وإنما انقطع التولّد ، لأنّ الطبيعةَ إذا وجدت للتكوّن طريقا استغنت به عن طريق ثان .

وأما المجوس فلا يعرفون آدم ، ولا نوحا ، ولا ساما ، ولا حاما ، ولا يافث . وأوّلُ متكوّن عندهم من البشر البشرىّ[٢] المسمى « كَيُومَرْث » ، ولقبه « كوشاه » ، أى ملك الجبل ، لأن « كو » هو الجبل بالفَهْلويّة ، وكان هذا البشر فى الجبال . ومنهم من يسميه « كلشاه » أى ملك الطين ، و « كل » اسم الطّين ؛ لأنه لم يكن حينئذ بشر ليملكهم .

وقيل: تفسير « كيومرث »: حىّ ناطقٌ ميت . قالوا : وكان قدرزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأُغمِيَ عليه ، ويزعمون أنّ مبدأ تكوّنه وحدوثه أنّ يَزدان — وهو الصانع الأوّل عندهم — أفكر[٣] فى أمر أهرِمن ، — وهو الشيطان عندهم — فكرةً أوجبت أنْ عرق جبينه ، فمسح العرق ورمى به ، فصار منه كَيومَرث . ولهم خَبْط طويل فى كيفية تكوّن « أهرِمن » من فكرة « يزدان » أو من إعجابه بنفسه ، أو من توحّشه ، وبينهم خلاف فى قِدَم « أهرمن » ، وحدوثه لا يليق شرحه بهذا الموضع[٤] .

---

(١) كذا فى ج ، وفى باقى الأصول : « التوالد » .

(٢) ب : « البشر » .

(٣) أفكر وفكر بالتشديد ، بمعنى .

(٤) انظر الشاهنامة ١٤ .

ثم اختلفوا فى مدة بقاء كَيُومرث فى الوجود ، فقال الأكثرون : ثلاثون سنة . وقال الأقلون : أربعون سنة . وقال قوم منهم : إن كَيُومرث مكث فى الجنة التى فى السماء ثلاثة آلاف سنة ، وهى : ألف الحَمَل ، وألف الثور ، وألف الجوزاء . ثم أُهبط إلى الأرض فكان بها آمنا مطمئنا ثلاثة آلاف سنة أخرى ، وهى : ألف السرطان ، وألف الأسد ، وألف السنبلة .

ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة فى حَرْب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك[١] .

واختلفوا فى كيفيّة هلاكه ، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلا ، فالأكثرون قالوا : إنه قتل ابنا لأهرمن يُسَمَّى خزورَة ، فاستغاث أهرمن منه إلى يزدان ، فلم يجد بدّا من أن يقاصّه به حفظا للعهود التى بينه وبين أهرِمن ، فقتله بابن أهرمن . وقال قوم : بل قتله أهرِمن فى صراع كان بينهما ، قهره فيه أهرِمن ، وعلاه وأكَلَه[١] .

وذكروا فى كيفية ذلك الصراع أن كَيُومرث كان هو القاهر لأهرمن فى بادئ الحال ، وأنه ركبه وجعل يطوف به فى العالم إلى أن سأله أهرمن : أىّ الأشياء أخوف له وأهولها عنده ؟ فقال له : باب جهنم ، فلما بلغ به أهرِمن إليها جمح به حتى سقط من فوقه ، ولم يستمسك ، فعلاه وسأله عن أىّ الجهات يبتدئ به فى الأكل ، فقال : من جهة الرِّجْل لأكون ناظراً إلى حُسْن العالم مدة ما ، فابتدأه أهرِمن فأكله من عند رأسه ، فبلغ إلى موضع الخصىّ وأوعية المنىّ من الصلب ، فقطر من كَيُومرث قطرتا نُطْفة على الأرض ، فنبت منهما رِيباستان[٢] فى جبل بإصْطَخر يعرف بجبل دام داذ ؛ ثم ظهرت على تينك الرِّيباستين الأعضاء البشرية فى أول الشهر التاسع ، وتمت فى آخره ، فتصوّر منهما بَشَران : ذكر وأنثى ، وهما « ميشى » ، « وميشانه » ، وهما بمنزلة آدم وحوّاء عند المِلّيين . ويقال لهما أيضاً : « ملهى » و « ملهيانه » ، ويسمّيهما مجوس خوارزم : « مرد » و « مردانه » ،

---

(١) انظر الشاهنامة ١٤ .

(٢) الريباس ، بالكسر : نبت له عساليج غضة خضراء ، عراض الورق ، طعمها حامض مع قبض ، ينبت فى الجبال ذات الثلوج والبلاد الباردة من غير زرع . المنجد ١٢٣

وزعموا أنهما مكثا خمسين سنة مستغنيين عن الطعام والشراب ، متنعمين غير متأذِّيَيْن بشيء إلى أن ظهر لهما أهرمن فى صورة شيخ كبير ، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها ، وهما يبصرانه شيخا ، فعاد شابا ، فأكلا منها حينئذٍ ، فوقعا فى البلايا والشرور ، وظهر فيهما الحِرْص حتى تزاوجا ، وولد لهما ولد فأكلاه حِرصاً ، ثم ألقى الله تعالى فى قلوبهما رأفةً ، فولد لهما بعد ذلك ستةُ أبطن ؛ كل بطن ذكر وأنثى ، وأسماؤهم فى كتاب أبستا ـ وهو الكتاب الذى جاء به زرادشت ـ معروفة ، ثم كان فى البطن السابع « سيامك » و « فرواك » ، فتزاوجا ، فولد لهما الملك المشهور الذى لم يعرف قبله ملك وهو « أوشَهنج » ، وهو الذى خلف جدّه كيومرث ، وعقد له التاج ، وجلس على السرير ، وبنى مدينتَىْ بابل والسوس .

فهذا ما يذكره المجوس فى مبدأ الخلق .

***

[تصويب الزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم]

وكان فى المسلمين ـ ممّن يرمى بالزندقة ـ مَنْ يذهب إلى تصويب إبليس فى الامتناع من السجود ، ويفضّله على آدم ، وهو بشار بن برد المرعّث [1] ، ومن الشعر المنسوب إليه :

النّارُ مُشْرِقةٌ والأرْضُ مظلمةٌ ... والنّارُ معبودةٌ مذ كانتِ النّارُ [2]

(١) فى اللسان : « سمى بذلك لرعاث كانت له فى صغره فى أذنه » . والرعاث جمع رعثة ، وهى ماعلق فى الأذن من قرط ونحوه . وروى صاحب الأغانى : وإنما سمى المرعث بقوله :

قُلْتُ رِيمٌ مُرَعَّثٌ ... ساحِرُ الطّرفِ والنّظَرْ
لَسْتَ واللهِ نائِلِي ... قُلْتُ أوْ يَغْلِبُ القَدَرْ
أنْتَ إنْ رُمْتَ وَصْلَنا ... فانْجُ ، هَلْ تُدْرِكُ القَمَرْ !

(٢) الأغانى ٣ :

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزّالى الواعظ(١)، أخو أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزّالى الفقيه الشافعيّ ، قاصًا لطيفا وواعظا مفوّها ، وهو من خُراسان من مدينة طُوس ، وقدم إلى بغداد ، ووعظ بها ، وسلك في وعظه مسلكا منكراً ، لأنه كان يتعصب لإبليس ، ويقول : إنه سيّد الموحدين ، وقال يوما على المنبر : من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق ، أُمِر أن يسجد لغير سيّده فأبى :

وَلَسْتُ بضارع إلا إليكُمْ وأما غيرُكم حاشا وَكلاَّ

وقال مرة أخرى : لما قال له موسى : « أرنى » فقال : « لن(٢) » قال : هذا شغلك(٣) ، تصطفى آدم ثم تسوّد وجهه ، وتخرجه من الجنة ، وتدعونى إلى الطّور ، ثم تُشمت بي الأعداء ! هذا عملك بالأحباب(٤) ، فكيف تصنع بالأعداء(٥) !

وقال مرّة أخرى وقد ذكر إبليس على المنبر : لم يدر ذلك المسكينُ أنّ أظافير القضاء إذا حكّت أدْمَتْ ، وأنّ قِسِيّ القدر إذا رَمَتْ أصمت . ثم قال : لسان حال آدم ينشد فى قصته وقصة إبليس :

وَكُنتُ وليلَى فى صُعُودٍ من الهوَى فلمّا توَافَيْنا ثَبَتُّ وَزَلّتِ

وقال مرّة أخرى : التقى موسى وإبليس عند عَقَبة الطور ، فقال موسى : يا إبليس ، لِمَ لم تسجد لآدمَ ؟ فقال : كلاّ ، ما كنت لأسجدَ لبشر ، كيف أوحّده ثم ألتفتُ إلى غيره ! ولكنك أنت يا موسى سألتَ رؤيتَه ثم نظرت إلى الجبل ، فأنا أصدق منك فى التوحيد .

(١) ذكره ابن الجوزى فى الجزء التاسع من المنتظم ص ٢٦٠ ؛ ضمن وفيات سنة ٥٢٠ ، وقال عنه : « الغالب على كلامه التخليط ورواية الأحاديث الموضوعة والحكايات الفارغة والمعانى الفاسدة ؛ وقد علق عنه كثير من ذلك » . وذكره أيضاً ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٢٩٣ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى قصة موسى من سورة الأعراف ١٤٣ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي . . . ﴾ .

(٣) المنتظم : « شأنك » . (٤) المنتظم : « الأخيار » .

(٥) المنتظم ٩ : ٢٦١ .

وكان هـذا النمط فى كلامه ينفق على أهل بغداد ، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير . وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزى فى " التاريخ " أنه قال على المنبر : معاشرَ الناس ، إنى كنتُ دائما أدعوكم إلى الله ، وأنا اليوم أحذركم منه ، والله ماشُدّت الزنانير إلا فى حبّه ، ولا أُدّيت الجِزْية إلا فى عشقه .

وقال أيضا : إن رجلا يهوديا أدخل عليه ليُسْلِم على يده ، فقال له : لا تُسْلِم ، فقال له الناس : كيف تمنعه من الإسلام ! فقال : احملوه إلى أبى حامد ــ يعنى أخاه ــ ليعلمه « لا » [1] : لا المنافقين . ثم قال : ويحكم أتظنون أن قوله : « لا إله إلا الله » منشورُ ولايته ! ذا منشور عزله [2] . وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلوّ والشَّطْح .

ويروى عن أبى يزيد البِسْطامىّ [3] منه كثير .

ومما يتعلّق بما نحن فيه ما رووه عنه من قوله :

فمَنْ آدمُ فى البَيْنِ ومَنْ إبليسُ لولا كا !
فتنتَ الكلَّ والكلَّ مع الفِتْنَةِ يهوا كا

ويقال : أوّل مَنْ قاس إبليس ، فأخطأ فى القياس وهلك بخطئه . ويقال : إنّ أولَ حميّة وعصبية ظهرت عصبيةُ إبليس وحميته .

* * *

[اختلاف الأقوال فى خلق الجنة والنار]

فإن قيل: فما قول شيوخكم فى الجنّة والنار ؟ فإنّ المشهور عنهم أنهما لم يُخلقا وسيخلقان

---

(١) فى المنتظم : « يعنى : لا إله إلا الله » .

(٢) عبارة المنتظم : « أقتلـوا عزله ! » . قال ابن الجوزى بعد أن أورد هذه الحـكايات : « لقـد أدهشنى نفاق هـذا الهذيان فى بغداد وهى دار العلم ، ولقد حضر مجلسه يوسف الهمذانى ، فقال : مدد كلام هذا شيطانى لاربانى ، ذهب دينه والدنيا لاتبقى له » .

(٣) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى ؛ توفى سنة ٢٦١ . طبقات الصوفية للسلمى ٦٧ .

عند قيام الأجسام ، وقد دلّ القرآن العزيز ، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل بأنّ آدم كان فى الجنة وأخرج منها .

قيل : قد اختلف شيوخُنا رحمهم الله فى هذه المسألة ، فمن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول : قد ثبتَ بدليل السمع أن سائر الأجسام تُعدَم ولا يبقى فى الوجود إلا ذات الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ (٢) ، فلما كان « أوّلا » بمعنى أنه لا جسم فى الوجود معه فى الأزل وجب أن يكون « آخرا » ، بمعنى أنه لا يبقى فى الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال ، وبآيات كثيرة أخرى . وإذا كان لا بدّ من عدم سائر الأجسام لم يكنْ فى خَلْق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة ؛ لأنه لا بدّ أن يُفنيهما مع الأجسام التى تفنى يوم القيامة، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى . ويحملون الآيات التى دلّت على كون آدم عليه السلام كان فى الجنة وأخرج منها ، على بستان من بساتين الدنيا . قالوا : والمهبوط لا يدلّ على كونهما فى السماء لجواز أنْ يكون فى الأرض ، إلا أنهما فى موضع مرتفع عن سائر الأرض .

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا : إنهما مخلوقتان الآن ، واعترفوا بأنّ آدم كان فى جنة الجزاء والثواب ، وقالوا : لا يبعد أن يكون فى إخبار المكلَّفين بوجود الجنة والنار لطف لهم فى التكليف ، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقا ، وإنما يكون صدقا إذا كان خَبَره على ما هو عليه .

***

[القول فى آدم والملائكة أيهما أفضل]

فإن قيل : فما الذى يقوله شيوخكم فى آدم والملائكة : أيّهما أفضل ؟

قيل : لا خلافَ بين شيوخنا رحمهم الله أنّ الملائكة أفضلُ من آدم ومن جميع الأنبياء

(١) سورة القصص ٨٨ . (٢) سورة الحديد ٣ .

عليهم السلام ، ولو لم يدلّ على ذلك إلا قوله تعالى فى هذه القصة : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾[1] ، لكفى .

وقد احتجّ أصحابنا أيضا بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] ، وهذا كما تقول : لا يستنكف الوزير أنْ يعظّمنى ويرفع من منزلتى ولا الملك أيضاً . فإن هذا يقتضى كونَ الملك أرفع منزلة من الوزير . وكذلك قوله : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، يقتضى كونهم أرفع منزلة من عيسى .

ومما احتجُّوا به قولُهمْ : إنه تعالى لما ذكر جبريل ومحمداً عليهما السلام فى معرض المدح ، مدح جبريل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمداً عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[3] . فالمديح الأول لجبريل والثانى لمحمد عليهما السلام ، ولا يخفى تفاوتُ ما بين المدحين .

فإن قيل : فهل كان إبليسُ من الملائكة أم من نوع آخر ؟ قيل : قد اختُلف فى ذلك فمن قال : إنه من الملائكة احتجّ بالاستثناء فى قوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[4] ، وقال : إنّ الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل . ومن قال : إنه لم يكنْ منهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[5] .

وأجاب الأولون عن هذا فقالوا : إنّ الملائكة يُطلق عليهم لفظ الجنّ لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين . وقالوا : قد ورد ذلك فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

---

(١) سورة الأعراف ٢٠ .
(٢) سورة النساء ١٧٢ .
(٣) سورة التكوير ١٩ — ٢٤ .
(٤) سورة الحجر ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة الكهف ٥٠ .

وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (١) ، والجنة هاهنا الملائكة ، لأنهم قالوا : إن الملائكة بناتُ الله ، بدليل قوله : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ (٢) ، وكتبُ التفسير تشتمل من هذا على مالا نرى الإطالة بذكره .

***

فأما القطب الراوندي فقال في هذين الفصلين في تفسير ألفاظهما اللغوية : العذْب من الأرض ما يُنبت ، والسَّبَخ : مالا ينبت ؛ وهذا غير صحيح ، لأن السَّبَخ يُنْبِت النخل ، فيلزم أن يكون عَذْباً على تفسيره !

وقال : فجَبَل منها صورة ، أي خلق خلْقا عظيما . ولفظة « جَبَل » في اللغة تدلّ على « خلَق » سواء كان المخلوقُ عظيما أو غير عظيم .

وقال : الوصول : جمع وُصْل ، وهو العضو ، وكلّ شيء اتصل بشيء فما بينهما وُصلة . والفصول : جمع فَصل وهو الشيء المنفصل ، وما عرفنا في كتب اللغة أنّ الوُصل هو العضو ، ولا قيل هذا .

وقوله بعد ذلك : وكلّ شيء اتصل بشيء فما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير . والصحيح أنّ مراده عليه السلام أظهرُ من أن يُتَكَلَّف له هذا التكلُّف، ومراده عليه السلام أنّ تلك الصورة ذاتُ أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد ، وذاتُ أعضاء منفصلة في الحقيقة ، وإن كانت متصلة بروابط خارجة عن ذواتها كاتصال الساعد بالمِرْفق واتصال الساق بالفَخذ .

ثم قال : يقال : استخدمته لنفسي ولغيري ، واختدمتهُ لنفسي خاصّة ، وهذا مما لم أعرفه ، ولعله نقله من كتاب .

---

(١) سورة الصافات ١٥٨ .

(٢) سورة الإسراء ٤٠ .

ثم قال : والإذعان : الانقياد ، والخنوع : الخضوع ؛ وإنما كرّر الخنوع بعد الإذعان لأن الأول يُفيد أنهم أمِروا بالخضوع له في السجود ، والثاني يفيد ثباتَهم على الخضوع لتكرمته أبدا .

ولقائل أن يقول : إنّه لم يكرر لفظة « الخنوع » ، وإنما ذكَر أولا الإذعان ، وهو الانقياد والطاعة ، ومعناه أنهم سجدوا ، ثم ذكر الخنوع الذى معناه الخضوع ، وهو يعطى معنى غيرَ المعنى الأول ،[1] لأنه ليس كلُّ ساجدٍ خاضعا بقلبه ، فقد يكون ساجدا بظاهره دون باطنه . وقول الراونديّ : أفاد بالثاني ثباتَهم على الخضوع له لتكرمته أبدا تفسير لا يدلّ عليه اللفظ ، ولا معنى الكلام .

ثم قال : قبيلُ إبليس نسلُه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾[2] ، وكل جيل من الإنس والجنّ قبيل . والصحيح أنّ قبيلَه نوعه ، كما أن البشر قبيل كل بشريّ ، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا . وقد قيل أيضاً : كلّ جماعة قبيل وإن اختلفوا ، نحو أن يكون بعضهم رُوماً وبعضهم زَنجاً ، وبعضهم عرَبا ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ لا يدلّ على أنهم نسلُه .

وقوله بعد : « وكلُّ جيل من الإنس والجن قَبيل » ينقضُ دعواه أن قبيلَه لا يكون إلا نسله .

ثم تكلّم في المعاني فقال : إن القياس الذى قاسه إبليس كان باطلا ، لأنه ادّعى أن النارَ أشرفُ من الأرض ، والأمر بالعكس ؛ لأنّ كلّ مايدخل إلى النار ينقص ، وكلّ مايدخل التراب يزيد . وهذا عجيب ! فإنّا نرى الحيواناتِ الميتة إذا دُفنت في الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة في الأرض ؛ على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضُها ، وإنّما استحالت إلى صور أخرى .

---

(١) ا : « فإنه » . (٢) سورة الأعراف ٢٧ .

ثم قال : ولما علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح ، علمنا أن آدم كان أفضل من الملائكة فى ذلك الوقت وفيما بعده .

ولقائل أن يقول : أليس قد سَجَد يعقوب ليوسفَ عليه السلام ! أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضلُ من يعقوب ! ولا يقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ (١) ؛ لا يدلّ على سجود الوالدين ؛ فلعلّ الضميرَ يرجع إلى الإخوة خاصة ، لأنّا نقول : هذا الاحتمال مدفوع بقوله : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٢) ، وهو كناية عن الوالدين .

وأيضاً قد بينّا أنّ السجود إنما كان لله سبحانه ، وأنّ آدم كان قِبلة ، والقِبْلة لا تكون أفضلَ من الساجد إليها ، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضلَ من النبيّ عليه السلام !

***

الأصْلُ :

وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ (٣) رُسُلَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ ؛ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ ، وَأَحْدَاثٍ تَتَتَابَعُ عَلَيْهِمْ .

وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ ،

---

(١) سورة يوسف ١٠٠ . (٢) سورة يوسف ٤ .

(٣) مخطوطة النهج : « إليهم » .

أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ ؛ رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

اجتالتْهم الشياطين : أدارتهم ؛ تقولُ : اجتال فلان فلانا ، واجتاله عن كذا وعلى كذا ، أي أداره عليه ، كأنّه يصرِّفه تارة هكذا وتارة هكذا ، يُحسِّن له فعلَه ، ويُغْريه به .

وقال الراونديّ : اجتالتْهم : عَدَلَت بهم ؛ وليس بشيء .

وقوله عليه السلام : « واتَر إليهم أنبياءه » ، أي بعثهم وبين كل نبيَّين فترة ، وهذا مما تغلَط فيه العامة فتظنّه كما ظنّ الراونديّ أنّ المرادَ به المرادفة والمتابعة . والأوصاب : الأمراض . والغابر : الباقي .

* * *

ويُسأل في هذا الفصل عن أشياء :

منها ، عن قوله عليه السلام : « أخَذَ على الوَحْي ميثاقهم » .

والجواب ، أنّ المراد أخَذ على أداء الوحي ميثاقَهم ، وذلك أنّ كلّ رسول أرسِل فمأخوذٌ عليه أداء الرسالة ، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله عليه السلام : « ليستأدُوهم ميثاقَ فِطْرَته » ؟ هل هذا

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .

إشارة إلى مايقوله أهل الحديث فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (١) ؟

والجواب ، أنه لا حاجة فى تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر ، ومرادُه عليه السلام بهذا اللفظ أنّه لمّا كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزةً فى العقول، أرسلَ سبحانه الأنبياء أو بعضهم ، ليؤكدوا (٢) ذلك المركوزَ فى العقول. وهذه هى الفطرةُ المشارُ إليها بقوله عليه السلام : « كلُّ مولود يُولَد على الفطرة » .

ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله : «أو حُجّة لازمة» ؟ هل هو إشارة إلى مايقوله الإمامية ، من أنه لابُدّ فى كلّ زمان من وجود إمام معصوم ؟

الجواب ، أنّهم يفسرون هذه اللفظة بذلك، ويمكن أن يكونَ المرادبها حُجّة العقل.

وأما القطب الراوندىّ ، فقال فى قوله عليه السلام: «واصطفى سبحانه من وَلَده أنبياء»: الولَد يقال على الواحد والجمع، لأنه مصدر فى الأصل ، وليس بصحيح ، لأنّ الماضىَ «فعَل» بالفتح ، والمفتوح لا يأتى مصدرُه بالفتح ، ولكنّ « فَعَلاً » مصدر « فَعِل » بالكسر، كقولك : وَلِهتُ عليه وَلَهاً ، ووَحِمَت المرأةُ وَحَماً .

ثم قال : إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح ، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السِّيَر .

ثم قال : وكلٌّ واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر ، ولا يردعُه عن ذلك قلةعدد أوليائه ، ولا كثرةُ عدد أعدائه ؛ فيقال له: هذا خلاف قولك فى الأئمة المعصومين، فإنّك تجيز عليهم التقيّة وتركَ القيام بالأمر إذا كثُرت أعداؤهم .

وقال فى تفسير قوله عليه السلام : « مِنْ سابق سُمّى له مَنْ بعده ، أو غابرٍ عرّفه

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .　　(٢) ا : « ليؤكد ذلك المركوز » .

مَنْ قبله » : كان من ألطاف الأنبياء المتقدمين وأوصيائهم ، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصياءهم ، فعرّفهم الله تعالى ذلك ، وكان من اللطف بالمتأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوالَ المتقدمين من الأنبياء والأوصياء ، فعرّفهم الله تعالى ذلك أيضاً،فتمّ اللطف لجميعهم.

ولقائل أن يقول:لو كان عليه السلام قال : «أو غابر عرّف من قبله» لكان هذا التفسير مطابقا ، ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك ، وإنما قال : « عرّفه مَنْ قبله » وليس هذا التفسير مطابقا لقوله : « عرّفه ».والصحيح أنّ المراد به:من نبيّ سابق عرّف مَنْ يأتي بعده من الأنبياء،أى عرّفه الله تعالى ذلك، أو نبيّ غابرٍ نصّ عليهْ مَنْ قبله ، وبشّر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام .

***

الأصْلُ :

عَلَىٰ ذَٰلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ ، وَسَلَفَتِ الآباء ، وَخَلَفَتِ الأَبْنَاء ؛ إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ لإِنْجَازِ عِدَتِهِ ، وَإِتْمَامِ(١) نُبُوَّتِهِ ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ، كَرِيماً مِيلَادُهُ؛وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ .

ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَكْرَمَهُ(٢) عَنْ دَارِ الدُّنْيَا ، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَىٰ ؛ فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً،وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا – إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ،

---

(١) مخطوطة النهج : « وتمام » .　　(٢) مخطوطة النهج : « فأكرمه » .

ولا عَلَمٍ قَائِمٍ - كِتَابَ رَبِّكُمْ، مُبَيِّناً [1] حَلاَلَهُ وَحَرَامَهُ، وفَرَائِضَهُ وفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ، ورُخَصَهُ وعَزَائِمَهُ، وخَاصَّهُ وعَامَّهُ، وعِبَرَهُ وأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ، ومُحْكَمَهُ ومُتَشَابِهَهُ؛ مُفَسِّراً جُمَلَهُ، ومُبَيِّناً غَوَامِضَهُ؛ بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، ومُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ، ومَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، ومُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وبَيْنَ وَاجِبٍ لِوَقْتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ. ومُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ. وبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ، ومُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ.

* * *

الشرح :

قوله عليه السلام : « نَسَلَت القرون » ، ولدت . والهاء فى قوله : « لإنجاز عِدَته » راجعة إلى البارئ سبحانه . والهاء فى قوله : « وإتمام نبوّته » ، راجعة إلى محمد صلى الله عليه وآله . وقوله : « مأخوذ على النبيين ميثاقه » ، قيل : لم يكن نبىّ قطُّ إلا وبُشّر ببعث محمد صلى الله عليه وآله ، وأخِذ عليه تعظيمه ؛ وإن كان بعدُ لم يوجد .

فأما قوله : « وأهل الأرض يومئذ مِلَلٌ متفرّقة » ، فإن العلماء يذكرون أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله بُعث والناس أصناف شتى فى أديانهم : يهود ، ونصارى ، ومجوس ، وصابئون ، وعَبَدة أصنام ، وفلاسفة ، وزنادقة .

* * *

[القول فى أديان العرب فى الجاهلية]

فأما الأمة التى بُعِثَ محمد صلى الله عليه وآله فيها فهم العرب ؛ وكانوا أصنافاً شتى ،

(١) ب : « فيكم » .

فنهم معطِّلة ، ومنهم غيرُ معطِّلة .

فأما المعطِّلة منهم ، فبعضُهم أنكر الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾(١) ، فجعلوا الجامعَ لهم الطَّبْع ، والمهلِكَ لهم الدهر . وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعثَ ، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾(٢) . ومنهم مَنْ أقرَّ بالخالق ونوعٍ من الإعادة ، وأنكروا الرُّسلَ وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنها شفعاء عند الله في الآخرة ، وحجّوا لها ، ونحروا لها الهَدْيَ ، وقرَّبوا لها القُرْبان ، وحلَّلوا وحرَّموا ، وهم جمهور العرب ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾(٣) .

فمن نطق شعره بإنكار البعث بعضُهم يرثي قتلى بدر(٤) :

فماذا بالقليبِ قليبِ بدرٍ ... من الفتيانِ والقومِ الكرامِ!(٥)
وماذا بالقليبِ قليبِ بدرٍ ... من الشِّيزَى تُكَلَّلُ بالسَّنامِ(٦)
أيخبرنا ابنُ كبشة أن سنحيا ... وكيفَ حياةُ أصداءٍ وهامِ !
إذا ما الرأسُ زالَ بمنكبيْهِ ... فقد شبعَ الأنيسُ من الطعامِ
أيقتلني إذا ما كنتُ حيًّا ... ويُحييني إذا رمَّتْ عظامي !

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ . (٢) سورة يس ٧٨ . (٣) سورة الفرقان ٧

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٠ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات وعددها ، ونسبها إلى شداد ابن الأسود .

(٥) ابن هشام :

* من القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ *

والقليب : البئر .

(٦) البيت في اللسان ٧ : ٢٣٠ ، ورواه : « يزين بالسنام » ، وقال في شرحه : الشيزى : شجر يتخذ منه الجفان ؛ وأراد بالجفان أربابها الذين كانوا يطعمون فيها ، وقتلوا ببدر وألقوا في القليب ، فهو يرثيهم ، وسمى الجفان شيزى باسم أصلها » .

وكان من العرب مَن يعتقد التناسخ وتنقُّل الأرواح فى الأجساد ، ومن هؤلاء أربابُ الهامة ، التى قال عليه السلام عنهم : « لا عَدْوَى ولا هامة ولا صَفَر »(١) . وقال ذو الأصبع :

يا عَمْرُو إلّا تَدَعْ شَتْمِى ومَنْقَصَتِى أضرِبْكَ حَيْثُ تقُولُ الهامَةُ اسْقُونِى(٢)

وقالوا : إنّ ليلى الأخيليّة لما سلّمت على قبر تَوْبة بن الحُمَيِّر خرج إليها هامة من القبر صائحة ، أفزعت ناقتها ، فوقصت(٣) بها فماتت ، وكان ذلك تصديق قوله :

وَلَوْ أنّ لَيْلَى الأخْيلِيّةَ سَلَّمَتْ عَلَىَّ ودُونِى جَنْدَلٌ وَصَفائِحُ(٤)
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشاشة أو زَقَا إليها صدًى مَنْ جانِبِ القبرِصائِحُ

وكان تَوْبةُ وليلى فى أيام بنى أميّة .

وكانوا فى عبادة الأصنام مختلفين ، فمنهم مَنْ يجعلها مشارِكة للبارئ تعالى ، ويُطلِق عليها لفظة الشّريك ، ومن ذلك قولهم فى التلبية : لبَّيْك اللهمّ لبَّيْك ، لا شريك لك ، إلّا شريكا هو لك ، تملكه وما مَلَك . ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك ، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه ، وهم الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى ﴾(٥) .

وكان فى العرب مشبّهة ومجسِّمة ، منهم أميّة بن أبى الصّلت ، وهو القائل :

مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ جَالسٍ قَدْ حَطّ رِجْ لَيْهِ إلى كُرْسِيِّـــــه المنصوبِ

وكان جمهورهم عَبَدَةَ الأصنام ، فكانَ وَدّ لِكَلْبٍ بدُومة الجندل ، وسُواع لِهُذَيْل ،

---

(١) كانت العرب تزعم أن فى البطن حية يقال لها الصفر ، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه . نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٢٦ .

(٢) من قصيدة مفضلية ، المفضليات ١٦٣ .

(٣) وقصت بها ، أى سقطت عنها فماتت .

(٤) ديوان الحماسة لأبى تمام — بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٧ . والصفائح : الحجارة العراض تكون على القبور .

(٥) سورة الزمر ٣ .

ونَسْر لِحِمْيَر ، ويَغُوث لهمْدَان ، واللّات لثَقِيف بالطائف ، والعُزّى لِـكِنانة وقُريش وبعض بنى سُلَيْم ، ومناة لغَسّان والأوْس والخزرج ، وكان هُبَل لقريش خاصّة على ظهر الـكعبة ، وأساف[1] ونائلة على الصّفا والمرْوة. وكان فى العرب مَنْ يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن ، ومنهم نصارى كبنى تَغْلِب والعِباديّين رهط عَدِىّ بن زيد ، ونصارى نَجْران ، ومنهم مَنْ كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء .

فأمّا الذين ليسوا بمعطِّـلة من العرب فالقليـل منهم ، وهم المتألّهون أصحـابُ الوَرَع[2] والتحرّج عن القبائح ، كعبدِ الله وعبد المطلب وابنه أبى طالب ، وزيد بن عمرو ابن نُفَيل ، وقُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، وعامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ ، وجماعة غير هؤلاء .

وغرضنا من هذا الفَصْل بيان قوله عليه السلام: « بين مشبّه لله بخلقه أو مُلْحِدٍ فى اسمه » إلى غير ذلك ، وقد ظهر بما شرحناه .

***

ثم ذكر عليه السلام أن محمداً صلى الله عليه وآله خَلّف فى الأمة بعده كتاب الله تعالى طريقاً واضحاً ، وعَلَماً قائماً ، والعلم المنار يُهتدى به .

ثم قسّم مابيّنه عليه السلام فى الـكتاب أقساما :

فمنها حلاله وحرامه ؛ فالحلالُ كالنِّـكاح ، والحرام كالزِّنا .

ومنها فضائله وفرائضه ، فالفضائل النوافل ، أى هى فضلة غير واجبة كركعتى الصبح وغيرهما ، والفرائض كفريضة الصبح .

وقال الرّاوندىّ : الفضائل هاهنا : جمع فضيلة ، وهى الدرجة الرفيعة؛ وليس بصحيح، ألا تراه كيف جعل الفرائض فى مقابلتها وقسيما لها ، فدلّ ذلك على أنه أراد النوافل!

---

(١) أساف وإساف ، كسحاب وكتاب .

(٢) ا : « التورع » .

ومنها ناسخه ومنسوخه ، فالناسخ كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾(١) ، والمنسوخ كقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(٢) .

ومنها رُخَصه وعزائمه ، فالرخص كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾(٣) والعزائم كقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٤) .

ومنها خاصّه وعامه ، فالخاص كقوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾(٥) ، والعام كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾(٦) . ويمكن أن يراد بالخاص العمومات التي يُراد بها الخصوص كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٧) ، وبالعام ما ليس مخصوصا ، بل هو على عمومه كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٨) .

ومنها عِبَرُهُ وأمثالُهُ ، فالعبر كقصة أصحاب الفيل ، وكالآيات التي تتضمن النكال والعذاب النازل بأمم الأنبياء من قبل ، والأمثال كقوله : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾(٩) .

ومنها مرسله ومحدوده ، وهو عبارة عن المطلق والمقيّد ، وسمّى المقيد محدوداً وهى لفظة فصيحة جدًا ، كقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾(١٠) ، وقال فى موضع آخر : ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾(١١) .

ومنها محكمه ومتشابهه ، فمحكمه كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾(١٢) ، والمتشابه كقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(١٣) .

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية ، فقال : إنّ منه ما لا يسع أحداً جهله

---

(١) سورة التوبة ٥
(٢) سورة البقرة ٢٥٦ .
(٣) سورة المائدة ٣ .
(٤) سورة محمد ١٩ .
(٥) سورة الأحزاب ٥٠
(٦) سورة البقرة ١١٠
(٧) سورة النمل ٢٣
(٨) سورة البقرة ٢٨٢
(٩) سورة البقرة ١٧
(١٠) سورة المجادلة ٣
(١١) سورة النساء ٩٢
(١٢) سورة الإخلاص ١
(١٣) سورة القيامة ٢٣

ومنه ما يسع الناس جهله ؛ مثال الأول قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾(١) ، ومثال الثانى : ﴿ كهيعص ﴾ ﴿ حم عسق ﴾ .

ثم قال : ومنه ما حكمه مذكور فى الكتاب منسوخ بالسُّنة ، وما حكمه مذكور فى السّنّة منسوخ بالكتاب ؛ مثال الأول قوله تعالى : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾(٢) ؛ نسخ بما سنّه عليه السلام من رجْم الزانى المحصَن . ومثال الثانى صوم يوم عاشوراء، كان واجبا بالسّنّة ثم نسخه صوم شهر رمضان الواجب بنصّ الكتاب .

ثم قال : « وبين واجبٍ بوقته ، وزائل فى مستقبله » ، يريد الواجبات الموقّتة كصلاة الجمعة ، فإنها تجب فى وقت مخصوص ، ويسقط وجوبها فى مستقبل ذلك الوقت .

ثم قال عليه السلام : « ومباين بين محارمه » ، الواجب أن يكون « ومباينٌ » بالرّفع لا بالجرّ ، فإنه ليس معطوفا على ما قبله ، ألا ترى أنّ جميع ما قبله يستدعى الشىء وضدّه ، أو الشىء ونقيضه ؛ وقوله : « ومباين بين محارمه » لا نقيض ولا ضدّ له ، لأنه ليس القرآن العزيز على قسمين : أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين ، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع « مباين » ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . ثم فسّر ما معنى المباينة بين محارمه ، فقال : إنّ محارمَه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة ، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها بالعقاب ، والصغيرة مغفورة ؛ وهذا نصّ مذهب المعتزلة فى الوعيد .

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة ، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال : « وبين مقبول فى أدناه ، وموسّع فى أقصاه » ، كقوله : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾(٣) فإنّ القليل من القرآن مقبول ، والكثير منه موسّع مرخّص فى تركه .

* * *

(١) سورة البقرة ٢٥٥
(٢) سورة النساء ١٥
(٣) سورة المزمل ٢٠

الأصلُ :

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ ، وَيَوْلَهُونَ إِلَيْهِ وَلَهَ الْحَمَامِ . وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ . وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ ، يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ . جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَماً ، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً ، وفَرَضَ حَقَّهُ ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ[1] ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

* * *

الشرح :

الوَله : شدة الوجْد ؛ حتى يكاد العقل يذهب ، ولَهَ الرجل يَوْلَهُ ولَهاً . ومن روى: « يألهون إليه وُلوه الحمام » فسّره بشيء آخر ، وهو: يعكفون عليه عُكوف الحمام. وأصل « أله » عبَد ، ومنه الإله، أي المعبود . ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له بملازمته والانقطاع إليه قيل : أله فلان إلى كذا ، أي عكَف عليه كأنه يعبده . ولا يجوز أن يقال : « يألهون إليه » في هذا الموضع بمعنى « يَوْلَهون » ، وأنّ أصل الهمزة الواو كما فسره الراوندي؛ لأن « فعولا » لا يجوز أن يكون مصدرا من فَعِلت بالكسر ، ولو كان « يألهون » هو « يَوْلَهون » ، كان أصله « أَلِه » بالكسر ، فلم يجز أن يقول : « ولوه الحمام » ، وأما على مافسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكونَ الولوه مصدراً ، لأن « أَلَه » مفتوح ، فصار كقولك : دخل دخولا . وباقي الفصل غنيّ عن التفسير .

---

(١) مخطوطة النهج : « فرض حجه ، وأوجب حقه » .

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

[فصل فى فضل البيت والكعبة]

جاء فى الخبر الصحيح أنّ فى السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضُّراح ، وأنّ هذ البيت تحته على خط مستقيم ، وأنّه المراد بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾(١) ، أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده ، وفى الحديث : إنّ آدم لمـا قضى مناسكه ، وطاف بالبيت لقيتهُ الملائكة ، فقالت : يا آدم ؛ لقد حججنا هـذا البيت قبلَك بألفىْ عام .

قال مجاهـد : إنّ الحاجّ إذا قدموا مكّة استقبلتهم الملائكة ، فسلّموا على ركبان الإبل ، وصافحوا ركبان الحمير ، واعتنقوا المشاة اعتناقاً .

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاجّ ، ويقبّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنّسوا بالذنوب والآثام .

وفى الحديث : « إن الله تعالى قد وَعَد هذا البيت أن يحجّه فى كلّ سنة ستمائةألف ، فإن(٢) نقصوا أتمّهم الله بالملائكة ، وإنّ الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة ، وكلّ مَنْ حجّها متعلّق بأستارها يسعوْن حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها » .

وفى الحديث : « إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلا الوقوفُ بعرفة » . وفيه : « أعظم الناس ذنبا مَنْ وقف بعرَفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له » .

عمر بن ذرّ الهمدانىّ : لما قضَى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودّعا للبيت : مازلنا نحلّ إليك عُرْوة ، ونشدّ إليك أخرى ، ونصعد لك أكمة ، ونهبط أخرى ، وتخفضنا أرض ، وترفعنا أخرى ، حتى أتيناك . فليت شعرى بم يكون مُنصرَفُنا ؟ أبذنب مغفور ، فأعظِمْ بها من نعمة ! أم بعملٍ مردودٍ فأعظم بها من مصيبة ! فيا مَنْ له خرجنا ، وإليـه

---

(١) سورة الطور ٤ (٢) ا : « وإن »

قصدنا ، وبحرمه أنخنا ، ارحم . يامعطىَ الوفد بفنائك ، فقد أتيناك بها معرّاة جاودها ، ذابلةً أسنمتها ، نَقِبَةً(١) أخفافها . وإنّ أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتنفتنا الخيبة . اللهمّ وإن للزائرين حقّا فاجعل حقّنا عليك غفرانَ ذنوبنا، فإنك جواد كريم ، ماجدٌ لاينقصك نائل ، ولا يبخّلك سائل .

ابن جريج : ماظننت أنّ الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبى ربيعة ، حتى كنتُ باليمن، فسمعتُ مُنشداً يُنشد قوله :

بِاللهِ قُولَا لَهُ فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ ... مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ الْمُكْثِ فِي الْيَمَنِ !(٢)

إنْ كنتَ حاولتَ دنيا أوظَفِرْتَ بِهَا(٣) ... فما أَخَذْتَ بِتَرْكِ الحجِّ مِنْ ثَمَنِ !

فحرّكنى ذلك على ترك اليمن ، والخروج إلى مكّة ، فخرجت فحججْت .

سمع أبو حازم امرأة حاجّة ترفُثُ(٤) فى كلامها ، فقال : ياأمة الله ، ألست حاجّة ! ألا تتّقين الله ! فسفرت عن وجه صبيح ، ثم قالت له : أنا من اللواتى قال فيهنّ العرجى(٥) :

أماطَتْ كِسَاءَ الْخَزِّ عَنْ حُرِّ وجهِهَا ... وردّتْ على الخدّينِ بُرْداً مهلهلا

مِنَ اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ... وَلَكِنْ لِيقْتُلْنَ البرىءَ المُغَفَّلَا

فقال أبو حازم : فأنا أسأل الله ألاّ يعذّب هذا الوجه بالنار ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيّب، فقال : رحم الله أبا حازم ! لو كان من عُبّاد(٦) العراق ،لقال لها : اعزُبى ياعدوّة الله ! ولكنّه ظَرْفُ نُسّاك الحجاز(٧) .

---

(١) نقبة ، من نقب البعير ، إذا رقت أخفافه .
(٢) ديوانه ٢٨٤ ، والمعتبة : العتاب . (٣) الديوان : « أو نعمت بها » .
(٤) الرفث : الفحش فى القول . (٥) فى جميع الأصول عمر بن أبى ربيعة ، والصواب أنهما للعرجى؛ وهما من قصيدة فى ديوانه ٧١ — ٧٥ ، مطلعها :

رَأَتْنِي خَضِيبَ الرَّأْسِ شَمَّرْتُ مِئْزَرِي ... وَقَدْ عَهِدَتْنِي أَسْوَدَ الرَّأْسِ مُسْبِلَا

ونسبهما إليه أبو الفرج فى الأغانى ١ : ٤٠٤ (طبعة دار الكتب) .
(٦) الأغانى : « من بعض بغضاء » . (٧) الأغانى : « ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز » .

[فصل فى الكلام على السجع]

واعلم أنّ قوماً من أرباب علم البيان عابوا السَّجْع ، وأدخلوا خطبَ أمير المؤمنين عليه السلام فى جملة ماعابوه ؛ لأنّه يقصِد فيها السجع ، وقالوا : إنّ الخطبَ الخاليةَ من السَّجْع والقرائن والفواصل ، هى خطبُ العرب ، وهى المستحسَنة الخالية من التكلّف ، كخطبة النبيّ صلى الله عليه وآله فى حِجّة[(١)] الوداع ، وهى :

الحمد لله ، نحمَده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا . مَنْ يهدِ الله فلا مضلّ له ومَنْ يُضْلِل الله فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .

أوصِيكم عبادَ الله بتقوى الله ؛ وأحثّكم على العمل بطاعته ، وأستفتح الله بالذى هو خير . أما بعدُ ، أيّها الناس ، اسمعوا منى أبيّن لكم ، فإنّى لا أدرى ، لعلّى لا ألقاكم بعدعامى هذا ، فى موقفى هذا .

أيها الناس ؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوْا ربكم ، كحرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا أهلْ بلّغت ؟ اللهم اشهد .

مَنْ كانتْ عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإنّ ربا الجاهلية موضوع[(٢)] ، وأوّل رِبًا أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأولُ دم أبدأ به دم آدم[(٤)] بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعةغير

---

(١) اللسان : « والحِجة : المرة الواحدة ؛ وهو من الشواذ ؛ لأن القياس بالفتح » .

(٢) الخطبة فى سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٠ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣١ ، والطبرى ٣ : ١٦٨ ، وإعجاز القرآن للباقلانى ١٩٨ ، والعقد ٤ : ٥٧ ، وابن الأثير ٢ : ٢٠٥ .

(٣) يقال : وضعت الدين والجزية عنه ونحوهما ، إذا أسقطته .

(٤) كذا فى ب ، وهو يوافق ماذكره السهيلى ، قال : اسمه آدم ، وكان مسترضعا فى هذيل ، وقيل : اسمه تمام ؛ وكان سبب قتله حرب كانت بين قبائل هذيل ، تقاذفوا فيها بالحجارة ، فأصاب الطفل حجر وهو يحبو بين البيوت . وفى ا « عامر » ، وهو يوافق مافى البيان والتبيين والعقد ؛ وفى الطبرى والباقلانى : « دم ابن ربيعة بن الحارث » .

السِّدانة والسِّقاية[1] . والعَمْد[2] قَوَدٌ ، وشِبْه العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجَر ، فيه مائة بعير ، فمن ازداد فهو من الجاهلية .

أيها النّاس ، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه ، ولكنّه قد رضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك فيما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس ، إنما النّسيء[3] زيادة في الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحِلّونه عاماً ، ويحرّمونه عاماً ، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموٰاتِ وَالأرض ، وإن عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموٰات والأرض ، منها أربعةٌ حُرم ، ثلاثة متواليات وواحد فَرْد : ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب ، الذي بين جُمادى وشعبان ، ألا هلْ بلّغت !

أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهنّ حقًّا ، فعليهنّ ألّا يوطِئن فُرُشَكم غيركم ، ولا يُدْخِلن بيوتَكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ؛ فإن فَعَلْنَ فقد أَذِن[4] لكم أن تهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم كسوتهنّ ورزقهنّ بالمعروف ، فإنما النّساء عندكم عَوانٍ[5] لايملكْن لأنفسهنّ شيئا ، أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصُوا بهنّ خيرا .

---

(١) السدانة : خدمة الكعبة ، بفتح السين وكسرها . والسقاية : ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء .

(٢) القود : القصاص ، أي من قتل متعمدا يقتل .

(٣) النسيء : تأخير حرمة شهر إلى آخر ؛ وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ، فيحلون المحرم ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لاخصوصية الأشهر المعلومة ؛ وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني . وانظر تفسير الألوسي ٣ : ٣٠٥ .

(٤) أذن ، بالفتح : أباح .

(٥) عوان : أسيرات .

أيها النّاس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحلّ لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس .
ألا هل بلغت اللهم اشهد !

ألا لاترْجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض ، فإنّي قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تَضلّوا ؛ كتاب الله ربكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ، إنّ ربّكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلّكم لآدم وآدم من تراب ؛ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى ، ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب .

أيها الناس،إن الله قسّم لكلّ وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز وصية في أكثرَ من الثلث،والولدُ للفراش وللعاهر الحجَر . من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غيرَ مواليه فهو ملعون ، لا يقبل الله منه صرْفا ولا عدلا (١) . والسلام عليكم ورحمة الله عليكم .

* * *

واعلم أنّ السجعَ لو كان عيبا لكان كلام الله سبحانه معيبا لأنه مسجوع ، كلّه ذو فواصلَ وقرائن؛ ويكفي هذا القدر وحده مبطلا لمذهبِ هؤلاء . فأما خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذاتَ سجع ؛ فإنّ أكثر خطبه مسجوع ، كقوله: إنّ مع العزّ ذُلاً ، وإنّ مع الحياة موتا، وإنّ مع الدنيا آخرة ،وإنّ لكل شيء حسابا، ولكلّ حسنة ثوابا ، ولكل سيئة عقابا ، وإنّ على كل شيء رقيبا ، وأنه لابدّ لك من قرين يُدفن معك هو حيّ وأنت ميت ؛ فإنْ كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما أسلمك ، ثم لايحشر إلا معك ،ولا تبعث إلا معه ، ولا تُسأل إلا عنه،فلا تجعله إلا صالحا فإنه إن صَلَح أنست به ، وإن فسد لم تستوحش إلّا منه ، وهو عملك .

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه ، وكذلك خطبه الطّوال كلها . وأما كلامه

(١) أي لايقبل منهم شيء ، وأصل العدل أن يقتل الرجل الرجل ، والصرف : أن ينصرف عن الدم إلى أخذ الدية .

القصير ، فإنّه غير مسجوع،لأنه لا يحتمل السجع، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

فأما قولهم : إنّ السجع يدلّ على التكلّف ، فإنّ المذموم هو التكلّف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ؛ فأمّا التكلّف المستحسن ، فأىّ عيب فيه ! ألا ترى أنّ الشعرَ نفسَه لابدّ فيه من تكلّف إقامة الوزن ؛ وليس لطاعن أن يطعَن فيه بذلك !

واحتجّ عائبو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكِراً عليه: «أسَجْعاً كسجع الكهان!»، ولولا أنّ السجعَ منكَرٌ لما أنكر عليه السلام سجعَ الكهّان وأمثاله. فيقال لهم: إنما أنكر عليه السلام السجع الذى يسجع الكهّان أمثاله، لا السجعَ على الإطلاق ، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر فى الجنين بغُرّة [(١)] ، فقال قائل : أأدِى مَنْ لا شَرِب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ؛ ومثل هذا يُطَلّ [(٢)] ! فأنكر عليه السلام ذلك ، لأنّ الكهان كانوا يحكمون فى الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم: حبة برّ، فى إحليل مُهر . وقولهم: عبد المسيح، على جمل مُشِيح [(٣)]، لرؤيا الموبذان، وارتجاس الإيوان؛ ونحو ذلك من كلامهم. وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيمَ والسحر ، ونَهَى عنها ، فلما سمع كلام ذلك القائل أعاد الإنكار؛ ومراده به تأكيدُ تحريم العمل على أقوال الكهنة. ولو كان عليه السلام قد أنكر السجعَ لما قاله ، وقد بيّنا أنّ كثيراً من كلامه مسجوع ، وذكرنا خطبته .

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبرُ ابن مسعود رحمه الله تعالى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «استحيوا من الله حقّ الحياء» ، فقلنا: إنّا لنستحيي يارسول الله من الله تعالى ، فقال : «ليس ذلك ما أمرتُكم به ، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس

---

(١) الغرة : ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . انظر النهاية لابن الأثير (٣ : ١٥٥) .
(٢) الطل : هدر الدم . (٣) جمل مشيح : جاد مسرع .

وما وعَى ، والبطن وما حوَى ، وتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أولَ قدومه إليها : « أيُّها الناس، أفشوا السلام ، وأطعِموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وعَوّذَ الحسنَ عليهما السلام ، فقال: «أعيذك من الهامّة،والسامّة ، وكلّ عين لامّة»؛ وإنما أراد « ملمّة » ، فقال : « لامّة » لأجل السجع .

وكذلك قوله : «ارجعن مأزورات،غيرَ مأجورات » ؛وإنما هو«موزورات»،بالواو .

— ٢ —

ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين :

صِفّين : اسم الأرض التى كانت فيها الحرب ، والنون فيها أصلية ، ذكرَ ذلك صاحب " الصّحاح "[(١)] ؛ فوزنُها على هذا « فِعّيل » كفسّيق ، وخمّير ، وصِرِّيع ، وظِلّيم ، وضلّيل .

فإن قيل : فاشتقاقه مما ذا يكون ؟

قيل : لو كان اسما لحيوان لأمكن أن يكونَ من صَفَنَ الفرسُ ـ إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر ـ يَصفِن بالكسر ، صُفونا . أو من صَفَنَ القوم ، إذا صفّوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض[(٢)] .

فإن قيل : أيمكنُ أن يُشتقّ من ذلك وهو اسم أرض ؟

قيل : يمكن على تعسّف ، وهو أن تكونَ تلك الأرض لمّا كانت مما تَصفِن فيها الخيل ، أو تصطفّ فيها الأقدام ؛ سميت صِفّين .

فإن قيل : أيمكن أن تكونَ النونُ زائدةً مع الياء ، كما هما فى « غِسْلين » و « عِفْرِين » ؟

قيل : لو جاء فى الأصل « صِفّ » ، بكسر الصاد لأمكن أن تُتَوهّم الزيادة ، كالزيادة

---

(١) الصحاح ، ٢١٥ ؛ أى أنه ذكرها فى مادة «صفن» .

(٢) ا : « عن بعض » .

فى غِسْل ، وهو ما يُغتَسل به ، نحو الخِطْمىّ وغيره ، فقيل : غِسْلين ، لما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم ، وكالزيادة فى عِفْر وهو الخبيث الداهى[1] ، فقيل : عِفْرِين ، لمأسدة بعينها . وقيل : عفريت للداهية ، هكذا ذكروه .

ولقائل أن يقول لهم : أليس قد قالوا للأسد : عَفَرْنَى ، بفتح العين ، وأصله العِفْر ، بالكسر ، فقد بان أنهم لم يراعُوا فى اشتقاقهم وتصريف كلامهم الحركةَ المخصوصة ، وإنّما يراعون الحرف ، ولا كلّ الحروف ، بل الأصلىّ منها ؛ فغير ممتنع على هذا عندنا أن تكون الياء والنون زائدتين فى « صِفِّين » .

وصفّين : اسم غير منصرف للتأنيث والتعريف ، قال[2] :

إنى أدينُ بمـا دَانَ الوصىُّ بِهِ ... يوم الخُرَيْبة مِنْ قَتْل المُحِلّينا[3]

وبالذى دَان يومَ النَّهْرِ دِنتُ بِهِ ... وشارَكَتْ كَفّهُ كَفّى بِصفِّينَا

تلكَ الدِّماء معاً يارَبِّ فى عُنُقى ... ثم اسْقِنى مِثْلَهَا آمِـينَ آمينَا

***

الأصْـلُ :

أحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ ، واسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ . وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ ؛ إنّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ ، وَلَا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ ؛ فإنّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ ، وأفْضَلُ ما خُزِنَ . وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ[4] وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ[4] ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلَاصُهَا ، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا ، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً

---

(١) يقال : رجل داه وداهية ؛ بمعنى .

(٢) هو السيد الحميرى ؛ والأبيات بنسبتها إليه فى الكامل ٧ : ١٧٧ — بشرح المرصفى .

(٣) الخريبة : موضع بالبصرة ؛ كانت عنده وقعة الجمل ؛ ذكره ياقوت ؛ واستشهد بالبيت ، وفى الأصول : « الحريبة » ، بالحاء ؛ تصحيف . وفى الكامل : « يوم النخيلة » .

(٤ — ٤) ، ساقط من ا ، ومخطوطة النهج .

مَا أَبْقَانَا ، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا ؛ فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ ، وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ .

***

الشَّرْحُ :

وأل ، أى نجا ، يئل . والصُّاص : خالص الشىء . والفاقة : الحاجة والفقر . الأهاويل : جمع أهوال ، والأهوال : جمع هَوْل ، فهو جمع الجمع ، كما قالوا : أنعام وأناعيم . وقيل : أهاويل أصله تهاويل ، وهى ما يهولك من شىء ، أى يروعك ، وإن جاز هذا فهو بعيد ، لأن التاء قلّ أن تبدلَ همزة . والعزيمة : النية المقطوع عليها ، ومدحرة الشيطان ، أى تدحَره ، أى تبعده وتطارده .

وقوله عليه السلام : « استتماماً » و « استسلاماً » ، و « استعصاماً » ؛ من لطيف الكناية وبديعها ، فسبحان مَن خصّه بالفضائل التى لا تنتهى ألسنةُ الفصحاء إلى وصفها ، وجعله إمام كلّ ذى علم ، وقدوة كلّ صاحب خصيصة !

وقوله : « فإنه أرجح » ، الهاء عائدة إلى ما دلّ عليه قوله : « أحمده » ، يعنى الحمد ، والفعل يدلّ على المصدر ، وترجع الضمائر إليه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾[1] وهو ضمير البخل الذى دلّ عليه قوله : ﴿ يَبْخَلُونَ[1] ﴾ .

***

[باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه]

وقوله عليه السلام : « وُزِن وخُزِن » ، بلزوم الزاى ، من الباب المسمّى لزوم مالا يلزم ، وهو أحد أنواع البديع ، وذلك أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفا واحدا ؛ هذا

---

(١) سورة آل عمران ١٨٠ ، والآية بتمامها ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ .

فى المنثور ، وأما فى المنظوم فأن تتساوى الحروف التى قبل الروىّ مع كونها ليست بواجبة التساوى ، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة(١) :

بَيْضاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهـــا وأَجَلَّهَا(٢)

حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لصاحِبِى ... ما كَانَ أكثَرَهـــا لنَا وأقلَّهَا

وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّهَا(٣)

ألا تراه كيف قد لَزِم اللام الأولى من اللامين اللَّذَيْن صارا حرفا مشدّدا ! فالثانى منهما هو الروىّ ، واللام الأول الذى قبله الْتزام مالا يلزم ؛ فلو قال فى القصيدة : وصلها ، وقبلها ، وفعلها ، لجاز .

واحترزنا نحن بقولنا : « مع كونها ليست بواجبة التساوى » عن قول الراجز، وهو من شعر الحماسة أيضاً :

وَفَيْشَةٍ لَيْسَتْ كهذِى الفَيْشِ ... قَدْ مُلِئَتْ مِنْ نَزَقٍ وَطَيْشِ(٤)

إذا بَدَتْ قلتَ أمـــيرُ الجيشِ ... مَنْ ذَاقَهَا يعرف طَعْمَ العَيْشِ

فإنّ لزوم الياء قبل حرف الروىّ ليس من هذا الباب ، لأنه لزوم واجب ، ألا ترى أنه لو قال فى هذا الرجز : البطْش والقرْش والعرْش لم يجز ، لأن الرِّدف(٥) لا يجوز أن يكون حرفا خارجا عن حروف العلة . وقد جاء من اللزوم فى الكتاب العزيز مواضع

---

(١) من أبيات أربعة ؛ أولها :

إِنَّ الَّتِى زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

وهى فى الحماسة ــ بشرح المرزوقى ١٢٣٥ ، وأمالى القالى (١ : ١٥٦) من غـير نسبة ، ونقل التبريزى عن أبى رياش أنها لعروة بن أذينة .

(٢) أدقها وأجلها ، أى أتى بها دقيقة العين والأنف والثغر والخصر ، جليلة الساق والفخذ والصدر .

(٣) الحماسة : * شَفَعَ الضَّمِيرُ لَهَا إِلَىَّ فَسَلَّهَا *

(٤) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ٤ : ٣٤٠ .

(٥) الردف عند العروضيين ، هو حرف لين أو مد قبل الروى يتصلان به .

ليست بكثيرة ، فمنها قوله سبحانه : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾(٥) ؛ وقوله : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(٧) ، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصدُه .

ومما ورد منه فى كلام العرب أنّ لَقيط بن زُرارة تزوّج ابنة قيس بن خالد الشيبانىّ فأحبّته ، فلما قُتِل عنها تزوّجت غيره ، فكانت تذكر لقيطا ، فسألها عن حُبِّها له، فقالت: أذكره وقد خرج تارة فى يوم دَجْن ، وقد تطيّب وشرب الخمر ، وطرد بقراً ، فصرع بعضها ، ثم جاءنى وبه نَضْحُ دمٍ وعبير ، فضمّنى ضمّة ، وشمّنى شمّة ، فليتنى كنت مِتُّ ثمّة .

وقد صنع أبو العلاء المعرى كتابا فى اللزوم من نظمه ، فأتى فيه بالجيد والردىء ، وأكثره متكلّف ، ومن جيده قوله :

لَا تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لكَ حَالَةً ... قَلَمُ البَلِيغِ بِغَيْرِ حَظٍّ مِغْزَلُ(٨)
سَكَنَ السِّمَاكَانِ السَّمَاءَ كِلَاهُمَا ... هذا له رمحٌ وهــذا أعزَلُ

***

الأصلُ :

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ ،

---

(١) سورة مريم ٤٤ ، ٤٥
(٢) سورة ق ٢٧ ، ٢٨
(٣) سورة العلق ١ ، ٢
(٤) سورة الطور ١ ، ٢
(٥) سورة الطور ٢٩ ، ٣٠
(٦) سورة الواقعة ٢٨ ، ٢٩
(٧) سورة الأنفال ٣٩ ، ٤٠
(٨) لم يرد البيتان فى نسخ اللزوميات ، ونسبهما إليه ابن خلكان (١ : ٣٣) ، وابن الوردي ، وصاحب مرآة الجنان ، وابن كثير (حوادث ٤٤٩) ، وشذرات الذهب ٣ : ٢٨١ ، وتقديم أبى بكر لابن حجة ٤٣٥ ، وفى ابن خلكان : « لك رتبة » .

وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ ؛ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ ، وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ ، وتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ ، وتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ ، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ ، وضَاقَ الْمَخْرَجُ ، وعَمِيَ الْمَصْدَرُ ؛ فَالْهُدَى خَامِلٌ ، والْعَمَى شَامِلٌ . عُصِيَ الرَّحْمَنُ ، ونُصِرَ الشَّيْطَانُ ، وخُذِلَ الْإِيمَانُ ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ ، وتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ ، ودَرَسَتْ سُبُلُهُ ، وعَفَتْ شُرُكُهُ . أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ ؛ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ ، وقَامَ لِوَاؤُهُ . فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا ، وقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا ، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ ، جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ ، فِي خَيْرِ دَارٍ وشَرِّ جِيرَانٍ ؛ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ ؛ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ ، وجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ .

* * *

الشرح :

قوله عليه السلام : « والعلَمِ المأثور » ، يجوز أن يكون عنَى به القرآن ؛ لأن المأثور المحكيّ ، والعلَم ما يُهتدَى به ، والمتكلّمون يسمون المعجزات أعلاماً . ويجوز أن يريدَ به أحدَ معجزاته غير القرآن ؛ فإنها كثيرة ومأثورة ، ويؤكد هذا قوله بعد : « والكتاب المسطور » ، فدلّ على تغايُرِهما ، ومن يذهب إلى الأول يقول : المراد بهما واحد ، والثانية توكيدُ الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة .

والصادع : الظاهر الجليّ ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾(١) ، أي أظهره ولا تُخفِه .

والمَثُلات ؛ بفتح الميم وضم الثاء : العقوبات ، جمع مَثُلَة ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾(٢) .

وانجذم : انقطع . والسّواري : جمع سارية ، وهي الدِّعامةُ يدعم بها السّقف . والنَّجْر :

---

(١) سورة الحجر ٩٤ (٢) سورة الرعد ٦

الأصل ، ومثله النجّار . وانهارَت : تساقطت . والشُّرُك : الطرائق ، جمع شِراك . والأخفاف للإبل ، والأظلاف للبقر والمعِز .

وقال الراونديّ في تفسير قوله : « خير دار ، وشرّ جيران » : خير دار : الكوفة . وقيل : الشام ؛ لأنها الأرض المقدسة ، وأهلها شرّ جيران ، يعنى أصحابَ معاوية . وعلى التفسير الأول يعنى أصحابه عليه السلام .

قال : وقوله : « نومهم سهود » ، يعنى أصحابَ معاوية لا ينامون طول الليل ، بل يرتّبون أمرَه . وإن كان وصفاً لأصحابه عليه السلام بالكوفة — وهو الأقرب — فالمعنى أنهم خائفون يسهرون ويبكون لقلة موافقتهم إياه ؛ وهذا شكاية منه عليه السلام لهم .

وكحلهم دموع ، أى نفاقاً ، فإنه إذا تمّ نفاقُ المرء مَلَك عينيه .

ولقائل أن يقول : لم يجر فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية ، والكلام كلّه في وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله . ثم لا يخفى ما في هذا التفسير من الركاكة والفجاجة ، وهو أن يريد بقوله : « نومهم سهود » ، أنهم طوال الليل يرتّبون أمر معاوية ، لا ينامون ، وأن يريد بذلك أنّ أصحابه يبكون من خوف معاوية وعساكره ، أو أنّهم يبكون نفاقاً ؛ والأمر أقرب من أن يُتَمحّل له مثل هذا .

ونحن نقول : إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية ، وقوله : « في خير دار » يعنى مكة ، و « شرّ جيران » ، يعنى قريشاً ، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله حين حَكَى بالمدينة حالةً كانت في مبدأ البعثة ، فقال : « كنت في خير دار » و « شرّ جيران » . ثم حكى عليه السلام ما جرى له مع عُقْبة بن أبى مُعَيط ، والحديث مشهور .

وقوله : « نومهم سهود ، وكحلهم دموع » مثل أن يقول : جودهم بخل ، وأمنهم خوف ، أى لو استماحهم محمد عليه السلام النومَ لجادوا عليه بالسهود عوضاً عنه ، ولو استجداهم الكُحْل لكان كحلهم الذى يصلونه به الدموع .

ثم قال : « بأرض عالمها مُلجَم » ، أى من عرف صدق محمد صلى الله عليه وآله وآمن به فى تقيّة وخوف . « وجاهلها مكرَم » ، أى مَنْ جحد نبوّته وكذّبه فى عز ومنعة . وهذا ظاهر .

* * *

الأصل :

ومنها ـ ويعنى آل النبي صلى الله عليه :

هُمْ مَوْضعُ سِرِّهِ ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ ، وَجِبَالُ دِينِهِ . بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ .

الشرح :

اللجأ : ماتلتجئ إليه ، كالوزَر ماتعتصم به . والموئل : ماترجع إليه ؛ يقول : إن أمر النبي صلى الله عليه وآله ـ أى شأنه ـ ملتجئ إليهم ، وعلمه مودَع عندهم ؛ كالثوب يودَع العيْبة . وحُكْمه ـ أى شرعه ـ يرجع ويئول إليهم . وكتبه ـ يعنى القرآن والسنة ـ عندهم ، فهم كالكهوف له ، لاحتوائهم عليه . وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين ؛ أو أنّ الدين ثابت بوجودهم ؛ كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال ، ولولا الجبال لمادتْ بأهلها .

والهاء فى « ظهره » ترجع إلى الدين ، وكذلك الهاء فى « فرائصه » والفرائص : جمع فَريصة ، وهى اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال تُرْعَد من الدابة .

* * *

الأصل :

ومنها فى المنافقين :

زَرَعُوا الفُجُورَ ، وَسَقَوْهُ الغُرُورَ ، وحَصَدُوا الثُّبُورَ ، لَا يُقَاسُ بآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً . هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ ، وَعِمَادُ اليَقِينِ ، إليهم يَفِيءُ الغَالِي ، وبِهِمْ يُلْحَقُ

التَّالِي ، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايَةِ ، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ . الآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

جعل مافعلوه من القبيح بمنزلة زَرْع زرعوه ، ثم سقوْه ، فالذى زرعوه الفجور ، ثم سقوْه بالغرور ؛ والاستعارة واقعة موقعها ، لأن تماديَهم وماسكنت إليه نفوسهم من الإمهال،هو الذى أوجب استمرارهم على القبائح التى واقعوها،فكان ذلك كما يُسقى الزرع، ويربّى بالماء ويستحفظ .

ثم قال : « وحصدوا الثبور » ، أى كانت نتيجة ذلك الزرع والسقى حصادَ ماهو الهلاك والعطب .

وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضىّ رحمه الله ، وإنما هى إشارة إلى مَنْ تغلّب عليه ، وجَحد حقه كمعاوية وغيره . ولعل الرضىّ رحمه الله تعالى عرَف ذلك وكنّى عنه .

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد صلى الله عليه وآله،فقال : « هم أصول الدين،إليهم يفىء الغالى ، وبهم يلحق التالى » ؛ جعلهم كمِقْنب يسير فى فلاة،فالغالى منه أى الفارط المتقدم، الذى قد غلا فى سيره يرجع إلى ذلك المِقْنب إذا خاف عدوًّا ، ومن قد تخلف عن ذلك المِقْنب فصار تاليا له يلتحق به إذا أشفَق من أن يُتخطّف .

ثم ذكر خصائص حق الولاية،والولاية : الإمْرة؛فأما الإماميّة فيقولون:أراد نصّ النبى صلى الله عليه وآله عليه وعلى أولاده.ونحن نقول:لهم خصائص حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق .

ثم قال عليه السلام : « وفيهم الوصية والوراثة »،أما الوصيّة فلا ريبَ عندنا أنّ عليا عليه السلام كان وصىّ رسول الله صلى الله عليه وآله،وإنْ خالف فى ذلك مَنْ هو منسوب

عندنا إلى العناد ، ولسنا نعنى بالوصية النصّ والخلافة ، ولكن أموراً أخرى لعلّها – إذا لُمِحت – أشرفُ وأجلّ .

وأما الوراثة فالإمامية يحملونها على ميراث المال والخلافة ، ونحن نحملها على وراثة العلم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الحق رجع الآن إلى أهله ؛ وهذا يقتضى أن يكونَ فيما قبل فى غير أهله ، ونحن نتأوّل ذلك على غير ماتذكره الإماميّة ، ونقول : إنّه عليه السلام كان أوْلى بالأمر وأحقّ ، لا على وجه النصّ ، بل على وجه الأفضليّة ، فإنه أفضلُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأحقُّ بالخلافة من جميع المسلمين ؛ لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحة ، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام ، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له ، وضغنهم عليه . وجائز لمن كان أولى بشىء فتركه ثم استرجعه أن يقول: « قد رجع الأمر إلى أهله »..

وأما قوله : «وانتقل إلى منتَقَله» ، ففيه مضاف محذوف، تقديره: «إلى موضع منتقله»، والمنتقَل بفتح القاف : مصدر بمعنى الانتقال ، كقولك : لى فى هذا الأمر مضطرَب ، أى اضطراب ، قال :

قَدْ كَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذاتِ الطُّول والعَرْضِ[1]

وتقول : مامعتقدك ؟ أى ما اعتقادك . قد رجع الأمر إلى نصابه ، وإلى الموضع الذى هو على الحقيقة الموضعُ الذى يجب أن يكون انتقالُه إليه .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً » ؟

قيل : لا شبهةَ أن المنعِم أعلى وأشرفُ من المنعَم عليه ، ولا ريب أنّ محمدا صلى الله

---

(١) ديوان الحماسة ١ : ٢٨٧ – بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى خطاب بن المعلى ، واسمه فى التبريزى : « حطان بن المعلى » .

عليه وآله وأهله الأدنَين من بنى هاشم ـ لا سيا علياً عليه السلام ـ أنعموا على الخلق كافة بنعمة لا يقدّر قدرها، وهى الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه ، فمحمد صلى الله عليه وآله وإن كان هَدَى الخلق بالدعوة التى قام بها بلسانه ويده ؛ ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده ، وهو السيّد المتبوع ،والمصطفى المنتجَب الواجب الطاعة ، إلا أنّ لعلىّ عليه السلام من الهداية أيضاً ـ وإن كان ثانياً لأوّل ، ومصلّياً على إثر سابق ـ مالا يُجحد ، ولولم يكن إلا جهادُه بالسيف أولاً وثانياً ، وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى مالم تكن له فاهمة ولا متصوّرة ، لكفى فى وجوب حقّه ، وسبوغ نعمته عليه السلام .

فإن قيل : لا ريب فى أنّ كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه ، فأىّ نعمة له عليهم ؟ قيل : نعمتان : الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون ، فإنّ من أنصفَ علم أنّه لولا سيف علىّ عليه السلام لاصطلم المشركون ؛ من أشار إليه وغيرهم من المسلمين ، وقد علمتَ آثاره فى بدر ، وأُحد ، والخندق ، وخَيبر ، وحنين ؛ وأنّ الشرك فيها فَغَر فاه ، فلولا أن سدّه بسيفه لَالتَهم المسلمين كافة ـ والثانية علومه التى لولاها لَحكِمَ بغير الصواب فى كثير من الأحكام ، وقد اعترف عمر له بذلك ، والخبر مشهور : «لولا علىٌّ لهلك عمر » .

ويمكن أن يخرّج كلامه على وجه آخر ؛ وذلك أنّ العرب تفضّل القبيلة التى[(١)] منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل ، وتفضّل الأدنى منه نسبا ، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة ؛ فإنّ بنى دارم يفتخرون بحاجب وإخوته ، وبزُرارة أبيهم على سائر بنى تميم ، ويسوغ للواحد من أبناء بنى دارم أن يقول : لا يقاسُ ببنى دارم أحد من بنى تميم ، ولا يستوى بهم مَنْ جرت رياستهم عليه أبدا ؛ ويعنى بذلك أنّ واحداً من بنى دارم قد رأس على بنى تميم ؛ فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله رئيسَ الكلّ ،

---

(١) ا : « فيها » .

والمنعِمَ على الكلّ ، جاز لواحد من بنى هاشم ؛ لا سيما مثل علىّ عليه السلام أن يقول هذه الكلمات .

***

واعلم أنّ عليا عليه السلام كان يدّعى التقدّمَ على الكلّ ، والشرف على الكلّ ، والنعمةَ على الكلّ ، بابن عمه صلى الله عليه وآله ، وبنفسه ، وبأبيه أبى طالب ، فإنّ من قرأ علوم السِّيَر عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئا مذكورا .

وليس لقائل أن يقول : كيف يقال هذا فى دِينٍ تكفّل الله تعالى بإظهاره ، سواء كان أبو طالب موجودا أو معدوما ! لأنا نقول : فينبغى على هذا ألّا يُمدح رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا يقال : إنه هدى الناس من الضلالة ، وأنقذهم من الجهالة ، وإنّ له حقا على المسلمين . وإنّه لولاه لمَا عُبِد الله تعالى فى الأرض ، وألا يمدح أبو بكر ، ولا يقال : إن له أثرا فى الإسلام ، وإن عبد الرحمن وسعدا وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين فى الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله لاتّباعه له ، وإنّ له يدا غير مجحودة فى الإنفاق واشتراء المعذّبين وإعتاقهم ، وإنّه لولاه لاستمرت الرِّدّة بعد الوفاة ، وظهرت دعوة مُسيلمة وطُليحة ؛ وإنه لولا عمر لما كانت الفتوح ، ولا جُهّزت الجيوش ، ولا قَوِى أمر الدين بعد ضعفه ، ولا انتشرتْ الدعوةُ بعد خمولها .

فإن قلتم فى كل ذلك : إنّ هؤلاء يُحمدون ويُثنَى عليهم ؛ لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفّقهم لها ، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى ؛ وهؤلاء آلة مستعملة ، ووسائط تجرى الأفعال على أيديها ، فحمدُهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم إنّما هو باعتبار ذلك .

قيل : لكم فى شأن أبى طالب مثله(١) .

***

(١) ا : « قيل لهم » .

واعلم أنّ هذه الكلمات؛ وهى قوله عليه السلام: «الآن إذ رجع الحق إلى أهله...»، إلى آخرها يبعدُ عندى أن تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صِفّين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطربَ الأمر، منتشرَ الحبل؛ بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وماتمّ لمعاويةَ عليه من الاستظهار، وما شاهد فى عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لا تقال فى مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكونَ قيلت فى ابتداء بيْعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضىّ رحمه الله تعالى نقل ماوجد، وحكى ماسمع، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

***

[ماورد فى الوصاية من الشعر]

ومما رويناه من الشعر المقول فى صدر الإسلام المتضمن كونه عليه السلام وصىّ رسول الله قول عبدالله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

وَمنّا علىّ ذاكَ صاحبُ خَيْبَرٍ   وَصَاحِبُ بَدْرٍ يومَ سالتْ كتائبُهْ

وَصىُّ النبىّ المصطفَى وابنُ عَمّه   فَمَنْ ذا يدانِيهِ ومَنْ ذَا يُقَارِبُهْ!

وقال عبد الرحمن بن جُعَيل:

لَعَمْرِى لَقَدْ بايعتُمُ ذا حفيظةٍ   على الدّين، معروفَ العفافِ مُوَفّقَا

عليًّا وصىَّ المصطفَى وابنَ عمّه   وأوّلَ مَنْ صَلّى أخا الدّينِ والتُّقَى

وقال أبو الهيثم بن التَّيِّهان — وكان بدريًّا:

قل للزبيرِ وقلْ لطلحة إننا   نحنُ الذين شعارنا الأنصارُ

نحنُ الذين رأتْ قريشٌ فعلَنا   يوم القَليبِ أولئكَ الكفارُ

كنّا شعارَ نبينّا ودثارَه   يَفْدِيهِ منّا الرُّوح والأبصارُ

إنّ الوصيّ إمامُنا ووليُّنا بَرِحَ الخفاء وباحتِ الأسرار(١)

وقال عمر بن حارثة الأنصارى ، وكان مع محمد بن الحنفيّة يوم الجمل ، وقد لامه أبوه عليه السلام لما أمره بالحملة فتقاعس :

أبا حسنٍ أنت فصل الأمورِ يبيّن بِكَ الحِلُّ والمَحْرمُ
جمعتَ الرجال على رايةٍ بهـا ابنُكَ يوم الوغى مُقْحَمُ
ولم ينكص المرء من خيفةٍ ولكن توالتْ له أسهم
فقال رويدا ولا تَعْجَلُوا فإنّى إذا رشقوا مُقْــدِمُ
فأعجلتـه والفتى مجمعٌ بمـا يكره الوَجِل المحجِمُ
سميّ النبيّ وشبه الوصيّ ورايتُه لونهـا العَنْدَمُ

وقال رجل من الأزد يوم الجمل :

هـذا علىّ وهو الوصىُّ آخاه يومَ النَّجْوَةِ النبىُّ
وقال هذا بعدِىَ الولىُّ وَعاهُ واعٍ ونسِى الشقىُّ

وخرج يوم الجمل غُلام من بنى ضَبّة شاب مُعْلِم(٢) من عسكر عائشة ، وهو يقول:

نَحْنُ بَنِي ضَبّـة أعداء عَلِى ذَاكَ الّذِى يُعْرَفُ قِدْماً بالوصِى
وَفَارِس الخيل على عهد النبى ما أنا عن فضل علىٍّ بالعَمِى
لـكننى أنعى ابنَ عفّانَ التّقِى إنّ الولىَّ طالبٌ ثأرَ الوَلِى

وقال سعيد بن قيس الهمْدانىّ يوم الجمل ـ وكان فى عسكر على عليه السلام :

أيّةُ حَرْبٍ أضرِمَتْ نِيرانُهَا وَكُسِّرَتْ يَوْمَ الوَغَى مُرّانُها(٣)

---

(١) برح الخفاء ، أى ظهر ما كان خافياً وانكشف ، مأخوذ من براح ؛ وهو البارز الظاهر .
(٢) المعلم ، بكسر اللام : الذى علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .
(٣) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحده مرانة .

قُلْ لِلْوَصِيّ أَقْبَلَتْ قَحْطَانُهَا ... فَادْعُ بِهَا تَكْفِيكَهَا هَمْدَانُهَا

* هُمْ بَنُوهَا وَهُمُ إِخْوَانُهَا *

وقال زياد بن لبيد الأنصارىّ يوم الجمل — وكان من أصحاب على عليه السلام :

كَيْفَ تَرَى الأَنْصَارَ فِي يَوْمِ الْكَلَبْ ... إِنَّا أُنَاسٌ لَا نُبَالِي مَنْ عَطِبْ

وَلَا نُبَالِي فِي الوَصِيّ مَنْ غَضِبْ ... وإنّما الأنصار جِدٌّ لا لَعِبْ

هَذَا عَلِيٌّ وابنُ عبد المطّلِبْ ... ننصره اليوم عَلَى مَنْ قَدْ كَذَبْ

* مَنْ يَكْسِبِ البغىَ فبئسما اكْتَسَبْ *

وقال حُجر بن عدىّ الكندىّ فى ذلك اليوم أيضاً :

يَا رَبَّنَا سَلِّمْ لَنَا عَلِيَّا ... سَلِّمْ لَنَا المُبَارَكَ المُضِيَّا

المؤمنَ الموحِّدَ التقيّا ... لا خَطِلَ الرأيِ وَلَا غَوِيَّا

بَلْ هَادِيًا موفّقًا مَهْدِيَّا ... واحْفَظْهُ رَبِّي واحفظِ النَّبِيَّا

فِيهِ فَقَدْ كَانَ لَهُ وليّا ... ثم ارتضاه بعدَهُ وَصِيَّا

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصارىّ، ذو الشهادتين — وكانَ بدريًّا — فى يوم الجمل أيضاً :

ليس بين الأنصار فى جَحْمَةِ الحر ... ب وبين العُداة إلا الطعانُ

وقراع الكُماةِ بالقُضُبِ البيـ ... ـضِ إذا ما تَحَطَّمَ المُرّانُ

فادعها تستجبْ فليس من الخز ... رجِ والأوس ياعلىّ جبانُ

ياوصىّ النبىّ قد أجلت الحر ... بُ الأعادِى وسارَتِ الأظعانُ

وَاسْتَقَامَتْ لَكَ الأُمُورُ سِوى الشّـ ... ـام وفى الشام يظهر الإذعانُ

حَسْبُهُمْ ما رَأَوْا وَحَسْبُكَ مِنّا ... هَكَذَا نَحْنُ حَيْثُ كُنّا وَكَانُوا

وقال خزيمة أيضاً فى يوم الجمل :

أعائشَ خلِّى عَنْ علىٍّ وعَيْبِهِ · بما ليس فيــه إنّما أنتِ والِدَه
وصىّ رسول الله مِنْ دُون أهله · وأنتِ عَلَى ما كانَ مِنْ ذاكَ شاهِدَهْ
وَحَسْبُكِ مِنه بعضُ ماتعلمينَهُ · ويكْفيكِ لو لم تعلمى غيرُ واحدهْ
إذا قِيلَ ماذا عِبْتِ مِنهُ رَمَيْتِهِ · بخذل ابن عفّانٍ وما تلك آبِدَهْ
وَلَيْسَ سَمَاء الله قاطرةً دما · لِذَاكَ وَمَا الأرْضُ الفضاءُ بمائِدَهْ

وقال ابن بديل بن ورقاء الخزاعىّ يوم الجمل أيضاً :

ياقَوْمُ لِلْخُطّةِ العُظْمَى الّتى حَدَثَتْ · حرب الوصىّ وما للحرب مِنْ آسِى
الفاصلُ الحكْمَ بالتقوى إذا ضربتْ · تلك القبائلُ أخماساً لأسْداسِ (١)

وقال عمرو بن أُحَيْحَة يوم الجمل فى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام بعد خطبة عبدالله ابن الزّبير :

حَسَنَ الخــير ياشَبيهَ أبيهِ · قُمْتَ فينا مقام خَــيْر خَطِيبِ
قُمْتَ بالخطبة الّتِى صَدَعَ اللّـ · ـه بِهَا عَنْ أبيكَ أهلَ العيوب
وكشفت القناع فاتّضح الأمْــ · ـر وأصلحْتَ فاسداتِ القُلُوبِ
لستَ كابنِ الزُّبيْرِ لَجْلَجَ فى القَوْ · لِ وَطَأطَا عِنَانَ فَسْلٍ مُرِيبِ
وأبى الله أن يقوم بمـــا قا · مَ به ابنُ الوصِىِّ وابنُ النّجيب
إنّ شخصاً بَيْنَ النّبِىِّ ـ لك الخيــرُ ـ وبين الوصىِّ غَيْرُ مَشُوبِ

---

(١) يقال لمن يظهر شيئا ويريد غيره : ضرب أخماسا لأسداس . والخمس والسدس: من أظماء الإبل ، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد سفرا بعيدا عود إبله أن تشرب خمسا ، ثم سدسا ، حتى إذا أخذت فى السير صبرت عن الماء . (مجمع الأمثال ١ : ٤١٨) .

وقال زَحْرُ بن قيس الجعفيّ يوم الجمل أيضاً :

أَضْرِبُكُمْ حَتَّى تُقِرُّوا لعَلِي   خَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّها بَعْدَ النَّبِي

مَنْ زَانَهُ اللهُ وَسَمَّاه الوَصِي   إن الوَلِيَّ حافظٌ ظَهْرَ الوَلِي

* كما الغويّ تابعٌ أَمْرَ الغَوِي *

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مِخْنف لوط بن يحيى (١) فى كتاب وقعة الجمل . وأبو مِخْنف من المحدِّثين ، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها .

***

ومما رويناه من أشعار صِفِّين التى تتضمن تسميته عليه السلام بالوصيّ ما ذكره نصر ابن مزاحم (٢) بن يسار المِنقريّ فى كتاب صِفِّين ، وهو من رجال الحديث . قال نصر ابن مُزَاحم : قال زَحْر (٣) بن قيس الجعفى :

فَصَلَّى الإلهُ عَلَى أَحْمَدِ   رَسُولِ المَلِيكِ تمامِ النِّعَمْ

رَسُولِ المليكِ وَمِنْ بَعْدِهِ   خليفتنا القائم المدَّعَمْ

عَلِيًّا عَنَيْتُ وصيَّ النبيِّ   نُجالِدُ عَنْهُ غُواةَ الأُمَمْ

قال نصر : ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس (٤) :

أَتانا الرَّسُولُ رَسُولُ الإمام (٥)   فَسُرَّ بمقدَمِهِ المُسْلِمُونا

رَسُولُ الوصيِّ وصيِّ النبيِّ   له السَّبْقُ والفضل فى المؤمنينا

---

(١) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ؛ كان راوية أخبار وصاحب تصانيف فى الفتوح وحروب الإسلام ، توفى سنة ١٥٧ . معجم الأدباء ١٧ : ٤١ ، الفهرست ٩٣ .

(٢) ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ٦ : ١٥٧ ؛ وقال : إنه توفى سنة ٢١٢ .

(٣) زحر ، ضبطه صاحب القاموس بفتح الزاى وسكون الحاء المهملة ؛ والتى فى كتاب صفين ص ٢٢ ، أنها لجرير بن عبد الله البجلى ، ضمن عشرة أبيات .

(٤) كتاب صفين ٢٧ .   (٥) صفين : « رسول على » .

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً :

أتانا الرَّسُولُ رسول الوصيِّ عليٍّ المهـــذَّبُ من هاشِمِ(١)
وزيرُ النـــبيِّ وذو صِهْرِه وَخَـــيْرُ البريَّةِ والعالَمِ(٢)

قال نَصْر بن مُزاحم : من شعر أمير المؤمنين عليه السلام فى صِفِّين :

ياعَجَبا لقَدْ سمِعْتُ مُنْــكَرَا كِذْباً عَلَى الله يُشِيبُ الشَّعَرَا(٣)
ماكانَ يَرْضَى أحْمَدُ لو أخبرا أن يَقرِنُوا وصيَّـــه والأبْتَرَا
شانى الرسولِ واللعينَ الأخْزَرا(٤) إنى إذا الموتُ دَنا وحضرا(٥)
شمَّرْتُ ثوْبِى وَدعوتُ قَنبَرا : قَدِّمْ لِوائى لا تؤخِّرْ حَــذَرَا
لَايَدْفَعُ الحَذارُ ماقدْ قُدِّرَا(٦) لو أن عندِى يابن حَرْبٍ جَعْفَرا
أو حمزةَ القَرْمَ الهُمام الأزْهَرا رأت قريش نَجْمَ ليلٍ ظُهُرا

(١) كتاب صفين ٢٨
(٢) كتاب صفين : « وخير البرية فى العالم » . (٣) كتاب صفين ٤٨ ؛ وبعد هذا البيت :

* يَسْتَرِقُ السَّمعَ وَيَغْشَى الْبَصَرَا *

(٤) كذا فى ا ، وفى كتاب صفين ، وفى ب « الأخورا » ، وبعده هناك :

كِلاهُما فِى جُنْدِهِ قد عَسْكَرَا قَدْ بَاعَ هــذا دِينَهُ فأفْجَرَا
مَنْ ذَا بِدُنْيَا بَيْعُهُ قَدْ خَسِرَا بِمُلْكِ مِصْرٍ أنْ أصابَ الظَّفَرَا

(٥) ا : « وأحضرا » .
(٦) كتاب صفين : « لنْ يدفع » وبعده :

لَمَّا رأيت الْمَوْتَ مَوْتاً أحْمَرَا عَبَّأْتُ هَمْدَانَ وَعَبَّوْا حِمْــيَرَا
حَيٌّ يَمانٍ يُعْظِمُونَ الْخَطَرَا قِرْنٌ إذَا نَاطَحَ قِرْناً كَسَرَا
قُلْ لابنِ حَرْبٍ لَاتَدِبَّ الْخَمَرَا أرْوِدْ قَلِيلاً أُبْدِ مِنْكَ الضَّجَرَا
لَا تَحْسَبَنِّى يَابْنَ حَرْبٍ غَمْرَا وَسَــلْ بِنَا بَدْراً مَعاً وَخَيْبَرَا
كَانَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ جَزَرَا إذْ وَرَدُوا الأمْرَ فَذَمُّوا الصَّدَرَا

وقال جرير بن عبد الله البَجَليّ : كتب بهذا الشعر إلى شُرَحبيل بن السِّمط الكنديّ ، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية :

نَصَحتُكَ يابنَ السِّمطِ لا تتبعِ الهوى … فمالكَ في الدُّنيا من الدِّينِ مِنْ بَدَل[1]

ولاتَكُ كالمُجْرِي إلى شَرِّ غايةٍ … فقد خُرِقَ السِّربالُ واستَنْوَقَ الجمَلْ

مقالُ ابنِ هنـــــدٍ في عليٍّ عضيهةٌ … ولَلَّهُ في صدرِ ابنِ أبي طالبٍ أجَلّ[2]

وما كانَ إلّا لازِماً قعرَ بيتِـــه … إلى أنْ أتى عثمانَ في بيتِه الأجلْ

وصيُّ رسولِ اللهِ مِنْ دُونِ أهلِه … وفارسُه الحامِي بِهِ يُضْرَبُ المثل[3]

وقال النعمان بن عجلان الأنصاري[4] :

كيف التفرُّقُ والوصيُّ إمامُنا … لا كيف إلّا حَيْرَةً وتخاذُلا

لاتغبِنَنَّ عقولَكُم ، لا خيرَ في … مَنْ لم يكن عند البلابل عاقِلا

وذَرُوا معاويةَ الغويَّ وتابعوا … دينَ الوصيّ لتحمَدوه آجِلا[5]

وقال عبد الرحمن بن ذُؤَيب الأسلميّ :

ألا أبلغْ معاويةَ بنَ حربٍ … فمالَكَ لا تَهَشُّ إلى الضِّرابِ[6] !

فإنْ تَسلَمْ وتَبْقَ الدَّهرَ يوماً … نَزُرْكَ بجحفلٍ عَدَدَ التُّرابِ

يقودهمُ الوصيُّ إليكَ حتَّى … يردَّكَ عن ضلالٍ وارتيابِ

وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب :

يا عُصْبَةَ الموتِ صَبْراً لا يهولُكُمُ … جيشُ ابنِ حَرْبٍ فإنّ الحقَّ قد ظَهَرَا[7]

وأيقِنوا أنّ مَن أضحى يُخالفُكم … أضحى شَقِيّاً وأمسى نفسَه خَسِرا

---

(١) كتاب صفين ص ٥٣ ، ٥٤ ، وروايته هناك : « شرحبيل يابن السمط » .

(٢) صفين : « وقال ابن هند » . (٣) صفين : « وفارسه الأولى به » .

(٤) صفين ص ٤١٥ ، وفيه : « النضر بن عجلان » .

(٥) صفين : « تصادفوه عاجلا » . (٦) صفين ٤٣٤

(٧) صفين ٤٣٧ ، وفيه : «ياشرطة الحبر» .

فيـــكم وصيّ رسول الله قائدُكُمْ   وصهرُهُ وكتابُ الله قد نُشِرا

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب(١) :

وصيّ رسول الله من دُونِ أهْــلِهِ   وَفَارِسُهُ إن قيل هَلْ مِنْ مُنَازِلِ !
فَدُونَــكَهُ إنْ كُنْتَ تَبْغِي مهاجِراً   أشمّ كنَصْلِ السَّيْفِ عَيْرَ حَلاحِلِ(٢)

والأشعار التي تتضمن هذه اللفظة كثيرة جدًّا ، ولـكنا ذكرنا منها ها هنا بعض ما قيلَ في هذين الحِزْبين ، فأما ما عداها فإنه يجلّ عن الحصر ، ويعظُم عن الإحصاء والعدّ ، ولولا خوفُ الملالة والإضجار ، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقًا كثيرة .

(١) صفين : ٤٧٤ ، ونسبها إلى الفضل بن عباس .
(٢) عير القوم : سيدهم ؛ والحلاحل بالفتح : جمع حلاحل ، بالضم ، وهو الشجاع .

— ٣ —

ومن خطبة له وهي المعروفة بالشقشقية(١) :

الأصلُ :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابنُ أبي قُحَافَةَ(٢) ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا ؛ يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ ، يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ(٣) حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ، فَصَبَرْتُ وَفِي العَيْنِ قَذًى ، وَفِي الحَلْقِ شَجاً . أَرَى تُرَاثِي نَهْباً .

الشَّرْحُ :

سدلت دونها ثوبا ، أى أرخيتُ ، يقول: ضربتُ بيني وبينها حجاباً ؛ فِعلَ الزاهد فيها ، الراغب عنها . وطويتُ عنها كشحا ، أى قطعتها وصرمتها ؛ وهو مثل ، قالوا : لأن مَنْ كان إلى جانبك الأيمن مائلا فطويت كشحكَ الأيسر فقد مِلْتَ عنه ، والكشح : ما بين الخاصرة والجنب . وعندى أنهم أرادوا غير ذلك ، وهو أنّ من أجاع نفسه فقد طوى كشحه ، كما أنّ مَنْ أكل وشبع فقد ملأ كشحَه ، فكأنه أراد أنى أجعتُ نفسي عنها ، ولم ألقمها . واليد الجذاء بالدال المهملة ، وبالذال المعجمة ، والحاء المهملة مع الذال المعجمة ، كلّه بمعنى المقطوعة . والطَّخية : قطعة من الغيم والسحاب . وقوله : «عمياء» ، تأكيد لظلام الحال واسودادها ؛ يقولون : مفازة عمياء ، أى يعمى فيها الدليل .

(١) مخطوطة النهج : « الشقشقية والمقمصة » .   (٢) مخطوطة النهج : « فلان » .
(٣) مخطوطة النهج : « المؤمن » .

ويكدح : يسعى ويكدّ مع مشقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾[١]
وهاتا ، بمعنى هذه ، « ها » للتنبيه ، و « تا » للإشارة ، ومعنى « تا » ذى ، وهذا أحجى
من كذا أى أليق بالحجا ، وهو العقل .

***

وفى هذا الفصل من باب البديع فى علم البيان عشرة ألفاظ :

أولها : قوله : « لقد تقمّصها » ، أى جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرها للعلم بها ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[٢] ، وكقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[٣] ، وكقول حاتم :

أَمَاوِىَّ ما يُغْنِى الـثَّراءُ عَنِ الفَتَى ... إذَا حَشْرَجَتْ يوماً وَضَاقَ بها الصَّدْرُ[٤]

وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾[٥]
وقول النابغة[٦] :

تَسَرْبَلَ سِرْبَالًا مِنَ النَّصْرِ وارْتَدَى ... عَلَيْهِ بِعَضْبٍ فى الكَرِيهةِ قاصِلِ

الثانية : قوله : « ينحدر عنى السيل » ، يعنى رفعة منزلته عليه السلام ، كأنه فى ذروة جبل أو يفَاع مشرف ، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان ، قال الهذلىّ :

وعَيطاء يَكْثُر فيها الزليـلُ ... وينحدِرُ السَّيْلُ عنها انحدَارا[٧]

الثالثة : قوله عليه السلام : « ولا يرْقَى إلىّ الطير » ، هذه أعظمُ فى الرفعة والعلوّ من التى قبلها ، لأنّ السيل ينحدر عن الرابية والهضبة ، وأما تعذّرُ رقىّ الطير فربما يكون للقِلال الشاهقة جدًّا ، بل ما هو أعلى من قِلال الجبال ، كأنه يقول : إنى لعلوّ منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يرْقى الطير إليها ، قال أبو الطيب :

فوْقَ السَّماء وفوْقَ ما طَلَبُوا ... فإذَا أرادوا غايَةً نَزلُوا[٨]

---

(١) سورة الانشقاق ٦
(٢) سورة ص ٣٢
(٣) سورة الرحمن ٢٦
(٤) ديوانه ١١٨
(٥) سورة الأعراف ٢٦
(٦) كذا فى الأصول ، والصواب أنه لأبى تمام ، كما فى ديوانه ٣ : ٨٢
(٧) عيطاء : مرتفعة . والزليل : الزلل .
(٨) ديوانه ٣ : ٣١٠

وقال حبيب :

مَكَارِمُ لَجّتْ فى عُلُوٍّ كأنما تحاوِلُ ثأراً عِنْدَ بعضِ الكواكِبِ[(١)]

الرابعة : قوله : « سدلت دونها ثوبا » ، قد ذكرناه .

الخامسة : قوله « وطويت عنها كشحا » قد ذكرناه أيضاً .

السادسة : قوله : « أصُولُ بيدٍ جَذّاء » ، قد ذكرناه .

السابعة : قوله : « أصْبِرِ على طَخْيَة عمياء » قد ذكرناه أيضاً .

الثامنة : قوله : « وفى العين قذى » ، أى صبرت على مضض كما يصبر الأرمد .

التاسعة : قوله : « وفى الحلْق شجاً » وهو مايعترض فى الحلق . أى كما يصبر من غُصّ بأمرٍ فهو يكابد الخنق .

العاشرة : قوله : « أرى تُراثى نَهْباً » ، كنى عن الخلافة بالتراث ، وهو الموروث من المال .

***

فأما قوله عليه السلام : « إن محلّى منها محلّ القُطْب من الرحا » ، فليس من هذا النمط الذى نحن فيه ، ولكنه تشبيه محض ، خارج من باب الاستعارة والتوسع ؛ يقول : كما أنّ الرحا لا تدور إلا على القُطْب ، ودورانُها بغير قُطْب لا ثمرة له ولا فائدة فيه ، كذلك نسبتى إلى الخلافة ، فإنها لا تقوم إلا بى ، ولا يدور أمرُها إلّا علىّ .

هكذا فسروه . وعندى أنه أراد أمرا آخر ، وهو أنّى من الخلافة فى الصميم ، وفى وَسَطها وبُحْبُوحَتِها ، كما أن القطب وسط دائرة الرحا ، قال الراجز[(٢)] :

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٧

(٢) هو جرير بن عطية ، ديوانه ٥٢٠ ؛ والأبيات أيضا فى الكامل ٢ : ١١٢ ، ٣ : ١٩١ ، يقولها فى الحكم بن أيوب بن أبى عقيل الثقفى ؛ ابن عم الحجاج ، وكان عامله على البصرة .

على قِلاَصٍ مثل خِيطان السَّلَمْ[١] إذا قَطَعْنَ علماً بَدَا عَلَمْ[٢]

حتى أنخناها إلى باب الحَكَمْ[٣] خليفةِ الحجّاج غير المتَّهمْ

* في سُرّة المجد وبُحْبُوحِ الكَرَمْ[٤] *

وقال أمية بن أبي الصّلت لعبد الله بن جُدْعان :

فحللتَ منها بالبطا حِ وحَلَّ غيرُكَ بالظَّوَاهِرْ[٥]

وأما قوله : « يَهْرَم فيها الكبير ، ويَشيب فيها الصغير » فيمكن أنْ يكونَ من باب الحقائق ، ويمكن أن يكون من باب المجازات والاستعارات ؛ أما الأول فإنه يعنى به طولَ مدة ولاية المتقدّمين عليه ، فإنها مدة يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير .

وأما الثانى فإنه يعنى بذلك صعوبةَ تلك الأيام ؛ حتى إنّ الكبير من الناس يكاد يَهْرَمُ لصعوبتها ، والصغير يشيب من أهوالها ، كقولهم : هذا أمر يَشيب له الوليد ؛ وإن لم يَشِب على الحقيقة .

---

(١) القلاص : جمع قلوص ؛ وهى الناقة الفتية . والخيطان : جمع خوط ؛ وهو الغصن الناعم . والسلم : شجر ، واحدته سلمة .

وبعده فى رواية الديوان :

قَدْ طُوِيَتْ بُطُونُها عَلَى الأَدَمْ بَعْدَ انفضاج البُدْنِ واللحمِ الزِّيَمْ

(٢) بعده فى رواية الديوان :

* فَهُنَّ بَحْثاً كَمُضِلّاتِ الخَدَمْ *

(٣) رواية الديوان :

* حَتّى تناهَيْنَ إلى بابِ الحَكَمْ *

(٤) رواية الديوان :

* فِي ضِئْضِيءِ المجدِ وبُؤْبُؤِ الكرَمْ *

(٥) البطاح : بطن مكة ، والظواهر أعلاها ؛ والبيت فى اللسان ٦ : ١٩٧ منسوب للكميت بهذه الرواية :

فَحَلَلْتَ مُعْتَلَجَ البطا حِ وَحَلَّ غيرك بالظَّواهِرْ

واعلم أنّ فى الـكلام تقديما وتأخيرا ، وتقديره :ولا يرق إلىّ الطير ، فطفقت أرتئى بين كذا وكذا ، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى فسدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ثم «فصبرت وفى العين قذى»؛ إلى آخر القصة ، لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوبا ويطوى عنها كشحا ، ثم يَطفِق يرتئى بين أنْ ينابذهم أو يصبر ؛ ألا ترى أنه إذا سَدَل دونها ثوبا ، وطوى عنها كشحا فقد تركها وصرمها ، ومن يتركْ ويَصرمْ لا يرتئى فى المنابذة ! والتقديم والتأخير طريق لاحب ، وسبيل مَهيع فى لغة العرب ، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا ﴾ ، [1] أى أنزل على عبده الـكتاب قَيِّما ، ولم يجعل له عوجا ، وهذا كثير .

وقوله عليه السلام : « حتى يَلْقى ربَّهْ » بالوقف والإسكان ، كما جاءت به الروايةُ فى قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهْ ﴾ [2] بالوقف أيضاً .

* * *

[نسب أبى بكر ونبذة من أخبار أبيه]

ابن أبى قحافة المشار إليه ، هو أبو بكر ، واسمه القديم عبد الـكعبة ، فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبدَ اللهْ . واختلفوا فى «عَتيق» ، فقيل : كان اسمَه فى الجاهلية،وقيل: بل سماه به رسول الله صلى الله عليه وآله . واسم أبى قُحافة عثمان ، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . وأمه ابنة عمّ أبيه ، وهى أمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد . أسلم أبو قحافة يوم الفتح ، جاء به ابنهُ أبو بكر إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ، وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة [3] البيضاء ، فأسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « غَيِّروا شَيبته » .

---

(١) سورة الكهف ١ ، ٢ (٢) سورة البينة ٨

(٣) أورد الخبر ابن الأثير فى النهاية (١ : ١٢٩) : « أتى بأبى قحافة يوم الفتح وكأن رأسه ثغامة » . وقال : « هو نبت أبيض الزهر والثمر ، يشبه به الشيب . وقيل : هى شجرة تبيض كأنها الثلج » .

وولىَ ابنُه الخلافه وهو حىّ منقطع فى بيته ، مكفوف عاجز عن الحركة ،فسمع ضوضاء الناس ، فقال ، ما الخبر ؟ فقالوا : ولىَ ابنُك الخلافة ، فقال : رضيتْ بنو عبد مناف بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهمّ لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطىَ لما منعتَ .

ولم يل الخلافةَ مَنْ أبوه حىّ إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم[1] الطائع لله ، وَلِىَ الأمرَ وأبوه المطيع حىّ ، خلع نفسَه من الخلافة ، وعهِد بها إلى ابنه . وكان المنصورُ يسمِّى عبدَ الله بن الحسن بن الحسن[2] أبا قُحافة تهكّما به ، لأن ابنَه[3] محمدا ادّعى الخلافة وأبوه حىّ .

ومات أبو بكر وأبو قُحافة حىّ ، فسمِع الأصوات فسأل ، فقيل : مات ابنُك ، فقال : رزء جليل . وتوفّى أبو قحافة فى أيام عمر فى سنة أربع عشرة للهجرة ، وعمره سبع وتسعون سنة ، وهى السّنة التى توفى فيها نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم[4] .

* * *

إن قيل : بيّنوا لنا ماعندكم فى هذا الكلام ؟ أليس صريحُه دالًّا على تظليم القوم ونسبتِهم إلى اغتصاب الأمر ! فما قولُكم فى ذلك ؟ إن حكمتُم عليهم بذلك فقد طعنتُم فيهم ، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم فى المتظلّم المتكلّم عليهم !

قيل : أما الإماميّة من الشيعة فتُجرى هذه الألفاظَ على ظواهرها ، وتذهبُ إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنّه غُصِب حقّه

---

(١) أصيب المطيع لله بالفالج ، ولما قوى عليه وثقل لسانه ،خلع نفسه . وبويع لولده الطائع ؛ وكان ذلك فى سنة ٣٦٤ . الفخرى ص ٢٠٣ (٢) كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، شيخ بنى هاشم فى وقته ، والمقدم فيهم. وانظر أخباره فى مقاتل الطالبيين ص ١٧٩–١٨٥ .

(٣) كان علماء آل أبى طالب يرون فى محمد بن عبد الله بن الحسن أنه النفس الزكية ؛ وكان أفضل أهل بيته فى علمه بكتاب الله وحفظه له ، مع فقهه فى الدين وشجاعته وجوده وبأسه وكل أمر يجمل بمثله . وانظر ترجمته وأخباره فى مقاتل الطالبيين ص ٢٣٢ ـ ٢٩٩

(٤) هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ له صحبة ؛ ، وكان أسن من أسلم من بنى هاشم ؛ حتى من عميه حمزة والعباس . الإصابة ٦ : ٢٠٨

وأما أصحابُنا رحمهم الله ؛ فلهم أن يقولوا : إنه لما كان أميرُ المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ،وعُدِل عنه إلى مَنْ لا يساويه فى فضل ، ولا يوازيه فى جهاد وعِلْم؛ ولا يماثله فى سُؤدد وشرف ـ ساغَ إطلاقُ هـذه الألفاظ ، وإن كان من وُسِم بالخلافة قبله عَدْلاً تقيـا ، وكانت بيعتُه بيعـةً صحيحة ؛ ألا ترى أنّ البلد قد يكون فيه فقيهان ؛ أحدُهما أعلمُ من الآخر بطبقاتٍ كثيرة،فيَجعل السلطان الأنقصَ عِلْماً منهما قاضياً،فيتوجّد الأعلم[1] ويتألّم ، وينفُث أحيانا بالشّـكْوى،ولا يكون ذلك طعناً فى القاضى ولا تفسيقا له، ولا حُـكْماً منه بأنه غير صالح ، بل للعدول عن الأحقّ والأولى!وهذا أمر مركوز فى طباع البشر،ومجبول فى أصل الغريزة والفطرة ؛ فأصحابُنا رحمهم الله،لما أحسنُوا الظنّ بالصحابة ـ وحَمَلوا ماوقع منهم على وجه الصواب ، وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام ، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقطْ ، بل وتُفضى إلى ذهاب النبوّة والملّة ، فعـدَلوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ ، إلى فاضلٍ آخر دونه ، فعقـدوا له ـ احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عمّن يعتقدونه فى الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة ، فتأوّلوها بهذا التأويل ، وحملوها على التألّم للعدول عن الأولى .

وليس هذا بأبْعَد من تأويل الإماميّةقولَه تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[2]، وقولِهم : معنى « عصى » أنه عدَل عن الأولى ، لأنّ الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب ، فلما تركه آدم ، كان تاركا للأفضل والأولى ، فسمى عاصيا باعتبار مخالفة الأولى ، وحملوا « غوَى » على « خاب » لاعلى الغواية بمعنى الضلال . ومعلومأنّ تأويلَ كلام أمير المؤمنين عليـه السلام وحَمْلَه على أنه شكا من تركهم الأولى أحسنُ من حَمْل قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ على أنه ترَك الأولى .

---

(١) ب : « الأعظم » ، والأجود ما أثبته من ا

(٢) سورة طه ١٢١

إن قيل : لا تخلو الصحابة إمّا أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع فى الأفضل أولا لمانع ؛ فإنْ كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى ، فيكون باطلا ، وإن كان لمانع — وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة ، وكَوْن الناس كانوا يبغضون عليا عليه السلام ويحسدونه — فقد كان يجب أن يَعذِرَهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فى العدول عنه ، ويعلم أنّ العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حَسُن منه أن يشكوَهم بعد ذلك؛ ويتوجّد عليهم !

وأيضاً ، فما معنى قوله: « فطفِقْت أرتئى بين أن أصول بيد جَذّاء » ، على ما تأوّلتم به كلامه ؛ فإنّ تارك الأَوْلَى لا يُصال عليه بالحرب !

قيل : يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلِبْ على ظنه ما غَلب على ظنون الصحابة من الشَّغْب وثَوَرَان الفتنة ، والظنونُ تختلف باختلاف الأمارات ، فربّ إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظنّ غيره خلافُه . وأما قوله : «أرتئى بين أن أصول»، فيجوز أن يكون لم يَعْنِ به صِيالَ الحرب، بل صيال الجدَل والمناظرة ؛ يبيّن ذلك أنّه لو كان جادلهم وأظهر ما فى نفسه لهم ، فربّما خَصموه بأن يقولوا له : قد غلب على ظُنوننا أنّ الفساد يعظُم ويتفاقم إن وَليت الأمر ، ولا يجوز مع غَلَبة ظنوننا لذلك أنْ نسلِّم الأمر إليك ، فهو عليه السلام قال : طفقت أرتئى بين أن أذكر لهم فضائلى عليهم ، وأحاجّهم بها، فيجيبونى بهذا الضَّرب من الجواب — الذى تصير حُجّتى به جَذّاء[1] مقطوعة، ولا قدرةَ لى على تشييدها ونصرتها — وبين أنْ أصبِر على ما مُنِيت به ، ودُفِعتُ إليه .

إن قيل : إذا كان عليه السلام لم يغلبْ على ظنّه وجودُ العلة والمانع فيه، وقد استراب الصحابةَ وشكاهم لعدُولهم عن الأفضل الذى لا علّة فيه عنده فقد سلّمتم أنه ظَلَمَ الصحابة ، ونسبهم إلى غصب حقّه ، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمهم لمخالفة النص ؟ وكيف

---

(١) ا : « جدّاء » .

هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النصّ ، ووقعتم فى نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأولى من غير علّة فى الأولى ، ومعلوم أن مخالفة الأولى من غير علة فى الأولى كتارك النصّ ، لأنّ العقد فى كلا الموضعين يكون فاسداً !

قيل : الفرق بين الأمرين ظاهر ، لأنه عليه السلام لو نَسَبهم إلى مخالفة النصّ لوجب وجودُ النصّ ، ولو كان النصُّ موجودا لـكانوا فُسّاقا أو كفارا لمخالفته ، وأمّا إذا نَسَبهم إلى ترك الأولى من غيرِ علّة فى الأولى ، فقد نسبهم إلى أمر يدّعون فيه خلافَ ما يدّعى عليه السلام ، وأحد الأمرين لازم ؛ وهو إما أن يكون ظنهم صحيحا أو غير صحيح ، فإن كان ظنُّهم هو الصحيح فلا كلام فى المسألة ، وإن لم يكن ظنُّهم صحيحا كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور ، ومخالفةُ النصّ [أمرٌ] خارج عن هذا الباب ؛ لأنّ مخالِفَه غير معذور بحال ، فافترق المحلان .

***

[مرض رسول الله وإمرة أسامة بن زيد على الجيش]

لما مرض رسولُ الله صلى الله عليه وآله مرضَ الموت ، دعا أسامةَ بن زيد بن حارثة ، فقال : سرْ إلى مقتَل أبيك[1] ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولّيتُك على هذا الجيش ، وإن أظفرَك الله بالعدوّ ، فأقلل اللّبْث ، وبثّ العيون ، وقدّم الطلائع . فلم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان فى ذلك الجيش ؛ منهم أبو بكر وعُمر ، فتكلّم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلامَ على جِلّة المهاجرين والأنصار ! فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك ، وخرجَ عاصباً رأسه ، فصعِد المنبر وعليه قَطيفة[2] فقال : « أيها الناس ، ما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأمير أسامة ! لئن طعنتم فى تأميرى أسامة ، فقد طعنتم فى تأميرى أباه مِنْ قبله ، وايمُ الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وابنهُ من[3] بعده لخليق بها ،

---

(١) قتل زيد بن حارثة بمؤتة ؛ إحدى قرى البلقاء ؛ وتفصيل الخبر فى الطبرى ، (حوادث السنة الثامنة) . (٢) القطيفة : كساء له أهداب (٣) ا : « وإن ابنه من بعده الخليق بها » .

وإنهما لمن أحبّ الناس إلىّ ؛ فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » . ثم نزل ودخل بيته ، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجُرْف[1] .

وثَقِل[2] رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتدّ مايجده ، فأرسل بعضَ نسائه إلى أسامة وبعض مَنْ كان معه ، يُعلمونهم ذلك ، فدخل أسامة من معسكره ـ والنبيّ صلى الله عليه وآله مغمور ، وهو اليوم الذى لَدّوه[3] فيه ـ فتطأطأ أسامة عليه فقبّله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد أسكت فهو لا يتكلّم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ؛ كالداعى له ، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره ، والتوجّه لما بعثه فيه ، فرجع أسامة إلى عسكره . ثم أرسل نساء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسامة يأمُرْنه بالدخول ، ويقُلْن إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أصبح بارئا ، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين ، الثانى عشر من شهر ربيع الأول فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله مُفيقا ، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ ، وقال : اغدُ على بركة الله ، وجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويكرّر ذلك ، فودّع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج ومعه أبو بكر وعمر ، فلما ركب جاءه رسول أمّ أيمن ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله يموت ، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فانتهوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين زالت الشمس من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين ، وقد مات واللواء مع بُرَيْدة بن الُحصَيب ، فدخل باللّواء فركزه عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مُغْلق ، وعلىّ عليه السلام وبعض بنى هاشم مشتغلون بإعداد جهازه وغَسْله ، فقال العباس لعلىّ ـ وهما فى الدار : امْدُدْ يدَك أبايعْك فيقول الناس : عمّ رسول الله بايع ابنَ عمّ رسول الله ؛ فلا يختلف عليك

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) ثقل ، بالكسر : اشتد مرضه .

(٣) يقال : لد المريض ، بالبناء للمجهول أى دووى باللدود ؛ بالفتح ؛ وهو من الأدوية ما يسقاه المريض فى أحد شق الفم ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ٥٥ ، واللسان ٤ : ٣٩٣

اثنان ، فقال له : أوَ يطمعُ ياعمّ فيهـا طامع غيرى ! قال : ستعلم ؛ فلم يلبثا أنْ جاءتهما الأخبار بأنّ الأنصـار أقعـدتْ سعداً لتُبايعَه ، وأنّ عمر جاء بأبي بكر فبايعَه ، وسبق الأنصارَ بالبَيْعة ، فندم علىٌّ عليه السلام على تفريطه فى أمر البيعة وتقاعده عنها ، وأنشده العباس قول دُرَيد :

أمَرْتُهُمُ أمرِى بمنعرَج اللّـــوَى   فلم يستبينُوا النُّصْحَ إلاّ ضُحَى الغدِ[1]

***

وتزعُم الشيعةُ أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله كان يعلَمُ موته، وأنه سيّر أبا بكر وعمر فى بعث أسامة لتخلُوَ دارُ الهجرة منهما ، فيصفُوَ الأمرُ لعلىّ عليـه السلام ، ويبايعَه من تخلّف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة ، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وبيعة الناس لعلىّ عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعدَ ، لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمـام تلك البَيْعة ، ويُحتاجُ فى نقضها إلى حروب شديدة ، فلم يتمّ له ماقدّر ، وتثاقل أسامة بالجيش أياما ، مع شدّة حثّ رسول الله صلى الله عليه وآله على نفوذه وخروجه بالجيش ، حتى مات صلى الله عليـه وآله وهما بالمدينـة ، فسبقا عليًّا إلى البيعة وجَرى ماجرى .

وهذا عندى غير منقدح ، لأنه إن كان صلى الله عليه وآله يعلم موتَه ، فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيلى الخلافة ، وما يعلمه لا يحترِس منه ؛ وإنما يتمّ هـذا ويصحّ إذا فرضنا أنه عليـه السلام كان يظنّ موتَه ولا يعلمه حقيقة ، ويظنّ أن أبا بكر وعمر يتمالآن على ابن عمه ، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة ، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التوهّم ، ويتطرق هـذا الظنّ ، كالواحد منا له ولدان ؛ يخاف من أحدهما

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوق ٢ : ٨١٤ ، وروايته : « فلم يستبينوا الرشد » .

أن يتغلّب بعد موته على جميع ماله ، ولا يوصِل أخاه إلى شيء من حقه ؛ فإنه قد يخطر له عند مرضه الذى يتخوّف .أن يموتَ فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد فى تجارة يسلمها إليه ، يجعل ذلك طريقا إلى دفع تغلّبه على الولد الآخر .

***

الأصْـلُ :

حَتَّىٰ مَضَىٰ ٱلْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلَىٰ بِهَا إِلَىٰ ٱبْنِ ٱلْخَطَّابِ بَعْدَهُ (١)

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا   وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَاعَجَبا ! بَيْنَاهُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ ،إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ! لَشَدَّ مَاتَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا ! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا ،وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ فِيهَا، وَالِاعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ ٱللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ ٱلْمُدَّةِ ، وَشِدَّةِ ٱلْمِحْنَةِ .

***

الشّـرْحُ :

مضى لسبيله : مات ، والسّبيل الطريق ، وتقديره : مضى على سبيله ، وتجيء اللاّم بمعنى « على » كقوله (٢) :

* فَخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ *

وقوله : « فأدْلَى بها » من قوله تعالى:﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

---

(١) فى مخطوطة النهج : « ثم تمثل بقول الأعشى » . وكذلك فى حواشي ب .

(٢) لجابر بن حنى التغلبي ، وصدره :

* تَنَاوَلَهُ بِالرُّمْحِ ثُمَّ اتَّنَى لَهُ *

من قصيدة له مفضلية ٢٠٨ـ٢١٢ ،والبيت من شواهد المغنى ١ : ٢١٢ ، على وضع اللام موضع «على» .

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ (١) أى تدفعوها إليهم رِشْوَة ، وأصله من أدليت الدلو فى البئر ، أرسلتَها .

فإن قلت : فإنّ أبا بكر إنما دفعها إلى عمر حين مات ، ولا معنى للرِّشوة عند الموت !

قلت : لما كان عليه السلام يرى أنّ العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبّه ذلك بإدلاء الإنسان بمالِه إلى الحاكم ، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه ، فكان ذلك من باب الاستعارة .

***

[عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب]

وابن الخطاب هو أبو حفص عُمَر الفاروق ، وأبوه الخطّاب بن نُفَيْل بن عبد العُزّى ابن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزَاح بن عدىّ بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . وأم عمر حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

لما احتُضر أبو بكر ، قال للكاتب اكتب : هذا ما عهد عبد الله بن عثمان (٢) ، آخِرَ عهده بالدنيا وأوّلَ عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبَرّ فيها الفاجر ، ويُسْلِم فيها الكافر . ثم أغمى عليه فكتب الكاتب : عمر بن الخطاب ، ثم أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ ما كتبت ، فقرأ وذكر اسم عمر ، فقال : أنّى لك هذا ! قال : ما كنت لتعدُوَه ، فقال : أصبت ، ثم قال : أتمّ كتابك ، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب : وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره ، فرأى أنّ هذا الأمر (٣) لا يصلح آخرهُ إلا بما يصلح به أوله (٣) ، ولا يحتمله إلا أفضلُ العرب مقدرة ، وأملَكُهم لنفسه ، وأشدّهم فى حال الشدة ، وأسلسهُم فى حال اللين ، وأعلمهم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزَن لما لم ينزل به ،

---

(١) سورة البقرة ١٨٨ . (٢) عثمان اسم أبى قحافة .

(٣ - ٣) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « لا يصلح آخره إلا بما أوله به صالح » .

ولا يستحى من التعلّم ، ولا يتحيّر عند البديهة . قوىّ على الأمور ، لا يجوز بشىء منها حدّه عدوانا ولا تقصيرا ، يرصدُ لما هوآت عَتاده من الحذر .

فلما فرغ من الكتاب ، دخل عليه قوم من الصحابة ؛ منهم طلحة ، فقال له[1] : ما أنت قائل لربّك غدا ، وقد ولّيتَ علينا فظّاً غليظا ، تفرَق منه النفوس ؛ وتنفضّ عنه القلوب !

فقال أبو بكر : أسندونى ـ وكان مستلقيا ـ فأسندوه ، فقال لطلحة : أبالله تخوّفنى ! إذا قال لى ذلك غدا قلت له : ولّيتُ عليهم خيرَ أهلك .

ويقال[2] : أصدقُ الناس فِراسة ثلاثة : العزيز فى قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾[3] ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها فى موسى : ﴿ يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[4] ، وأبو بكر فى عمر .

وروَى كثير من الناس أنّ أبا بكر لما نزَل به الموت[5] دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال : أخبِرْنى عن عمر ، فقال : إنه أفضلُ من رأيك [فيه[6]] إلا أنّ فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذاك لأنّه يرانى رقيقا ، ولو قد أفضَى الأمرُ إليه لترك كثيرا مما هو عليه ، وقد رمقتُه إذا أنا غضبتُ على رجل أرانى الرّضا عنه ، وإذا لنتُ له أرانى الشدة عليه . ثم دعا عثمان بن عفّان، فقال:أخبِرْنى عن عمر،فقال : سريرتُه خير من علانيته[7] ، وليس فينا مثله.فقال لهما:لاتذكرا مما قلتُ لكما شيئاً،ولو تركتُ عمر لما عدوتُك ياعثمان،والخيرة لك ألّا تلِىَ من أمورهم شيئا ، ولوددت أنى كنت من أموركم خِلْواً ، وكنت فيمن مضى من سَلَفِكم . ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر ، فقال : إنه بلغنى أنّك يا خليفةَ

(١) كلمة « له » ساقطة من ب (٢) ا : « ويقال إنه »
(٣) سورة يوسف ٢١ (٤) سورة القصص ٢٦
(٥) ساقطة من ب (٦) تكملة من تاريخ الطبرى ٣ : ٤٢٨ ، وفى ج : «أفضل من رأيت» .
(٧) ا : « تقصر عن علانيته »

رسول الله استخلفتَ على النـاس عمر ، وقد رأيتَ مايلقى الناس منه وأنت معـه ، فـكيف به إذا خلا بهم ، وأنت غداً لاقٍ ربك ، فيسألك عن رعيتك ! فقال أبو بكر : أجلسونى ، ثم قال : أبالله تخوّفنى ! إذا لقيتُ ربى فسألنى ، قلتُ : استخلفتُ عليهم خَيْرَ أهلك . فقال طلحة : أعمر خـيرُ الناس ياخليفةَ رسول الله ! فاشتدّ غضبه ، وقال : إى والله ، هو خيرهم وأنت شرّهم . أما والله لو ولّيتُك لجعلتَ أنفك فى قفاك ، ولرفعتَ نفسك فوق قدرها، حتى يكون الله هو الذى يضعها ! أتيتنى وقد دلّـكت عينك ، تريد أن تفتننى عن دينى ، وتزيلنى عن رأيى ! قُمْ لا أقام الله رِجْلَيك ! أما والله لئن عِشتُ فُواق ناقة، وبلغنى أنك غمصته فيها، أو ذكرته بسوء ، لألحقنّك بمحمضات قُنّة[1]، حيث كنتم تُسقَون ولا تَرْوَوْن ، وتَرْعَوْن ولا تشبعون ، وأنتم بذلك بَجِحُون[2] راضون ! فقام طلحة فخرج .

***

أحضر أبو بكر عثمان —وهو يجود بنفسه— فأمره أن يكتب عهداً ، وقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد عبد الله بن عثمان[3] إلى المسلمين . أمّا بعد ، ثم أغمى عليه ؛ وكتب عثمان : قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ فقرأه ، فـكبّر أبو بكر ، وسُرّ ، وقال: أراك خِفْتَ أن يختلف الناس إن متّ فى غشيتى! قال : نعم ، قال : جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله . ثم أتمّ العهد ، وأمر أن يُقرأ على الناس فقرئ عليهم . ثم أوصى عمر ، فقال له : إنّ لله حقّاً بالليل لا يقبلُه فى النهار ، وحقّاً فى النهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبلُ نافلة مالم تؤدّ الفريضة ، وإنما ثقلت موازين مَن اتّبع الحق مع ثقله عليه، وإنما خفّت موازين من اتّبع الباطل لخفّته عليه ، إنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدّة ، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنّى فيها على الله ماليس له ، ولئلا

(١) الموضع الذى ترعى فيه الإبل الحمض . وقنة : موضع بعينه .
(٢) البجح : الفرح والسرور . (٣) الطبرى ٣ : ٤٢٩ : « أبو بكر من أبى قحافة » .

يرهب رهبة يلقي فيها بيده، فإن حفظتَ وصيتي ، فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ولستَ معجزَه .

ثم توفي أبو بكر .

***

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه ، فقال: إني لأرجو أن أموت في يومي هذا فلا تُمسِينَّ حتى تندب الناس مع المثنىّ بن حارثة ، وإن تأخرتُ إلى الليل فلا تصبحَنَّ حتى تندب الناس معه، ولا تَشغلنّكم مصيبة عن دينكم ، وقد رأيتني متوفّى رسول الله صلى الله عليه وآله كيف صنعت .

وتوفّيَ أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة .

***

وأما البيت الذي تمثل به عليه السلام ، فإنه للأعشى الكبير ، أعشى قيس. وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جَندل ، من القصيدة التي قالها في منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل ، وأولها :

عَلقَمُ ما أنتَ إلى عامرِ النَّاقضِ الأوْتارِ والوَاترِ(١)

يقول فيها :

وَقدْ أُسلِّي الهمّ إذْ يَعتَرِي بجَسرَةٍ دَوْسَرَةٍ عاقرِ(٢)

زَيَّافَةٍ بالرَّحْلِ خَطَّارَةٍ تُلوِي بِشَرْخَيْ مَيْسَةٍ قاتِرِ(٣)

ـ شرْخا الرَّحل : مقدّمه ومؤخره ، والمَيْس : شجر يتخذ منه الرّحال ، ورحل قاتر: جيّد الوقوع على ظهر البعير ـ

---

(١) ديوانه ١٠٤ ـ ١٠٨ ؛ ويقع هذا البيت الخامس عشر منها ، وأولها :

شَاقَتْكَ مِنْ قَتلَةَ أطلالُها بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلى حاجِرِ

(٢) الجسرة : الناقة السريعة ، والدوسرة : الضخمة . والعاقر : التي لم تحمل ، وفي الديوان : «حين اعترى» .

(٣) الزيافة : المختالة في سيرها . والخطارة : التي تخطر بذنبها نشاطا .

شَتَّانَ ما يَوْمِى عَلَى كُورِها ... وَيومُ حَيَّانَ أخى جابِرِ
أَرْمِى بِهَا الْبَيْدَاءَ إذ هَجَّرتْ ... وأنت بين القَرْوِ والعاصِرِ(١)
فى مِجْدَلٍ شُيِّدَ بُنْيَانُه ... يَزِلُّ عنه ظُفُرُ الطَّائِرِ

تقول : شتّان ما هما ، وشتّان هما ، ولا يجوز: شتّان ما بينهما، إلا على قول ضعيف . وشتّان : أصله شتت ، كوشكان ذا خروجاً ، من وَشُك . وحيّان وجابر ابنا السّمين الحنفيّان ، وكان حيّان صاحبَ شراب ومعاقرة خمر ، وكان نديم الأعشى ، وكان أخوه جابر أصغر سنّاً منه ، فيقال : إن حيّان قال للأعشى : نسبتنِى إلى أخى ؛ وهو أصغرُ سِنّاً منّى ! فقال : إنّ الروىّ اضطرّنى إلى ذلك ، فقال : والله لا نازعتُك كأساً أبدا ماعشت . يقول : شتان يومى وأنا فى الهاجرة والرمضاء ، أسيرُ على كور هذه الناقة ويوم حيّان وهو فى سَكْرة الشراب ، ناعم البال ، مرفّه من الأكدار والمشاقّ . والقَرْو: شبه حوض ، يتّخذ من جِذْع أو من شجر ، يُنْبَذ فيه ، والعاصِر : الذى يعتصر العنب . والمجْدَل : الحِصْن المنيع .

* * *

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بن الربيع فى أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه المأمون : إنما نحن(٢) شعب من أصل ، إن قَوِىَ قوينا ، وإن ضَعُف ضعفنا ؛ وإنّ هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويُقْدِم على الرؤيا ، قد أمكن أهلَ الخسارة واللهو من سمعه ، فهم يمنُّونه الظفر ، ويَعدونه عُقْبَ الأيام ؛ والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباه الذئب ، همّه بطنُه وفرْجه ، لا يفكِّر فى زوال نعمة ، ولا يُرَوِّى فى إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وهو فى اللسان ٢٠ : ٣٤ ، وروايته :

* أَرْمِى بِها البيداء إذ أَعْرَضَتْ *

(٢) الخبر بالتفصيل فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٩٦) .

عن ساقه ، وفوّق إليه أسدَّ سهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ، قد عبّأ له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح وشِفار السيوف، فهو كما قال الشاعر(١) :

لشتّان ما بيني وبين ابن خالدٍ ... أميّة في الرزق الذي الله يقسِم(٢)
يقارع أتراكَ ابن خاقانَ ليلَهُ(٣) ... إلى أن يَرَى الإصباحَ لا يتلعثمُ
وآخذها حمراء كالمسك ريحُها ... لها أرَجٌ مِنْ دَنِّها يتنسّمُ(٤)
فيُصْبِح من طُولِ الطِّرادِ وَجِسْمُهُ ... نحيلٌ وأضحِي في النّعيم أصمّمُ

وأمية المذكور في هذا الشعر ، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص ابن أميّة بن عبد شمس ، كان والي خراسان ، وحارب الترك . والشعر للبَعيث .

* * *

يقول أمير المؤمنين عليه السلام : شتّان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض عليّ من الأمر ومُنِيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة ، وبين يوم عمر حيثُ وليها على قاعدة ممهّدة ، وأركان ثابتة ، وسكون شامل ، فانتظم أمرُه ، واطّرد حاله ، وسكنت أيامه .

قوله عليه السلام : « فياعجبا » أصله « فياعجبي » ، كقولك : يا غلامي ، ثم قلبوا الياء ألفا ، فقالوا : يا عجبا ، كقولهم : يا غلاما ، فإن وقفت وقفت على هاء السكت ، فقلت : يا عجباه ! ويا غلاماه ! قال : العجب منه وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيام حياته ، فيقول : أقيلوني ثم يعقدها عند وفاته لآخر ، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها .

وقال شاعر من شعراء الشّيعة :

حمَلُوها يومَ السّقيفةِ أوزا ... راً تخِفُّ الجبالُ وَهِيَ ثِقالُ

---

(١) الطبرى : « وتمثل بشعر البعيث » .

(٢) الشعر والخبر في تاريخ الطبري وابن الأثير (حوادث سنة ١٩٦) مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات وترتيبها . (٣) كذا في الأصول والطبري ، والوجه ما أثبته من ابن الأثير .

(٤) ابن الأثير : « لها أرج في دنها حين يرسم » وهذا البيت سقط من تاريخ الطبري .

ثم جاءوا من بَعْدِهَا يستقيلو نَ ، وهيهاتَ عثرة لاتقال !

وقد اختلف الرواة فى هذه اللفظة ، فكثير من الناس رواها : « أقيلونى فلست بخيركم » ، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها ، وإنما روى قوله : « وليتكم ولست بخيركم » . واحتجّ بذلك من لم يشترط الأفضليّة فى الإمامة . ومن رواها اعتذر لأبى بكر فقال : إنما قال : أقيلونى ، ليثوّر[1] ما فى نفوس[2] الناس من بيعته ، ويَخْبُرَ ما عندهم من ولايته ، فيعلم مريدهم وكارههم ، ومحبّهم ومبغضهم ؛ فلما رأى النفوسَ إليه ساكنة ، والقلوب لبيعته مذعنة ، استمرّ على إمارته ، وحكَمَ حكم الخلفاء فى رعيته ، ولم يكن مُنْكراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته .

قالوا : وقد جرى مثلُ ذلك لعلىّ عليه السلام ، فإنه قال للناس بعد قتل عثمان : دَعونى والتمسوا غيرى ، فأنا لكم وزيراً خير منى لكم أميرا . وقال لهم : اتركونى ، فأنا كأحدكم ، بل أنا أسْمَعُكم وأطوَعُكُمْ لِمَنْ وليتموه أمركم . فأبوا عليه وبايعوه ، فكرهها أوّلا ، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته .

قالت الإماميّة : هذا غير لازم ، والفرق بين الموضعين ظاهر ، لأنّ علياً عليه السلام لم يقل : إنّى لا أصلح ، ولكنه كره الفتنة ، وأبو بكر قال كلاما معناه : إنى لا أصلح لها ، لقوله : « لست بخيركم » ، ومَنْ نفى عن نفسه صلاحيتَه للإمامة ، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره .

واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنىّ على أنّ الأفضليّة هل هى شرط فى الإمامة أم لا ؟ وقد تكلّمنا فى شرح " الغرر " لشيخنا أبى الحسين[3] رحمه الله تعالى فى هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب .

---

(١) يثور : يبحث . (٢) ا : « قلوب » .
(٣) هو أبو الحسين محمد بن على بن الطيب المتكلم المعتزلى ؛ توفى سنة ٤٣٦ ، وكتابه « غرر الأدلة » . ذكره ابن خلكان ١ : ٤٨٢ .

وقوله عليه السلام : « لشدّ ما تشطّرا ضرعيها » ، شدّ ، أصله « شدد » ، كقولك : حبّ فى « حبّذا » أصله حَبُبَ ، ومعنى « شدّ » صار شديداً جدًّا ، ومعنى « حبّ » صار حبيباً ، قال البحترىّ :

شَدّ ما أغرَيَتْ ظَلُومُ بهَجْرِى ... بَعْدَ وَجْدِى بها وَغُلّةِ صَدْرِى [1]

وللناقة أربعة أخلاف : خِلْفان قادمان وخِلْفان آخران ، وكلّ اثنين منهما شطر . وتَشَطّرا ضَرْعيها اقتسما فائدتَهما ونفعهما . والضمير للخلافة ، وسمّى القادمَيْن معا ضَرْعا ، وسمّى الآخرين معاً ضَرْعا لمّا كانا – لتجاورهما ، ولكونهما لا يُحْلَبَان إلّا معا – كشىء واحد .

قوله عليه السلام : « فجعلها فى حَوْزَة خَشْناء » ، أى فى جهة صعبة المرام ، شديدة الشّكيمة . والكَلْم : الجرح .

وقوله : « يغلُظ » ، من الناس من يقول : كيف قال : « يغلظ كَلْمها » ، والكَلْم لا يوصف بالغِلَظ ! وهذا قلّة فَهْم بالفصاحة ، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغِلَظ ، فقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [2] أى متضاعف ، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كَثُف وجسم ، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة ، فلما كان العذاب – أعاذنا الله منه – متضاعفا ، سُمّىَ غليظا ؛ وكذلك الجرح إذا أمعن وعَمُق ، فكأنّه قد تضاعف وصار جُروحا ، فسمى غليظا .

إن قيل : قد قال عليه السلام « فى حَوْزَةٍ خَشْناء » فوصفها بالخشونة ، فكيف أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال : « يَخْشُنُ مَسُّها » !

قيل : الاعتبار مختلف ؛ لأن مراده بقوله : « فى حوزة خشناء » أى لا يُنال ما عندها ولا يرام ، يقال : إنّ فلانا لخشِن الجانب ووعر الجانب ، ومراده بقوله : « يَخْشُنُ

(١) ديوانه ٢ : ٩٧٠ (طبعة المعارف) .   (٢) سورة هود ٥٨

مَسُّها» ، أى تؤذى وتضرّ وتنكى مَنْ يمسّها ؛ يصف جفاء أخلاق الوالى المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته .

قوله عليه السلام : « ويكثر العِثار فيها ، والاعتذار منها » ، يقول : ليست هذه الجهة جَدَداً مَهْيَعاً ، بل هى كطريق كثير الحجارة ، لا يزال الماشى فيه عاثرا .

وأما « منها » فى قوله عليه السلام : « والاعتذار منها » ، فيمكن أن تكون « مِنْ » على أصلها ، يعنى أنّ عمر كان كثيرا مايحكم بالأمر ثم ينقضه ، ويفتى بالفُتْيا ثم يرجع عنها، ويعتذر مما أفتى به أولا . ويمكن أن تكون « من » هاهنا للتعليل والسّببية ، أى ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها ، قال :

أمِنْ رَسْم دارٍ مَرْبَعٌ وَمصِيفُ لِعَيْنَيْكَ مِنْ ماءِ الشُّؤُونِ وَكِيفُ ! (١)

أى لأجل أنْ رسم المربع والمصيف هذه الدار وكف دمعُ عينيك !

والصَّعْبة من النوق : مالم تُرْكَبْ ولم تُرَضْ ، إنْ أشنَق لها راكبها بالزمام خرم أنفها ، وإن أسلس زمامها تقحّم فى المهالك فألقته فى مَهْواة أو ماء أو نار ، أو نَدّت فلم تقف حتى تُرْدِيَه عنها فَهلك .

وأشنَقَ الرّجلُ ناقته ، إذا كفّها بالزمام ، وهو راكبها ، واللغة المشهورة شنَق ، ثلاثية . وفى الحديث : إنّ طلحة أنشِد قصيدةً فما زال شانقاً راحلته ، حتى كتبت له (٢) .

وأشنَق البعيرُ نفسه ، إذا رفع رأسه ؛ يتعدّى ولا يتعدى ، وأصله من الشِّناق ، وهو خيطٌ يُشَدُّ به فَمُ القِرْبة .

وقال الرضىّ أبو الحسن رحمه الله تعالى : إنما قال عليه السلام : أشنَقَ لها ، ولم يقل: « أشنقها » ، لأنه جعل ذلك فى مقابلة قوله : « أسلس لها » وهذا حسن ، فإنّهم إذا

---

(١) وكيف الدمع : سيلانه .

(٢) الخبر فى الفائق ١ : ٦٧٧ ، وقال فى شرحه : « هو أن يجذب رأسها بزمامها ، حتى يدانى قفاها قادمة الرحل ؛ وقد شنقها وأشنقها » .

قصدوا الازدواج فى الخطابة فعلوا مثل هذا ، قالوا : الغدايا والعشايا ، والأصل الغَدَوات جمع غُدوة . وقال صلى الله عليه وآله : « ارجِعْن مأزورات غير مأجورات » ، وأصله « موزورات » بالواو ، لأنه من الوِزْر .

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى : ومما يشهد على أنّ أشْنَقَ بمعنى « شَنَق » قولُ عدىّ ابن زيد العِبادى :

سَاءهَا مالها تَبَيَّنَ فى الأيْــدِى وإشناقُها إلى الأعناقِ

قلت : « تبيّنَ » فى هذا البيت فعل ماض ، تَبيّن يتبيّن تبيّنا ، واللام فى « لها » تتعلق بـ « تبيّنَ » . يقول : ظهر لها مافى أيدينا فساءها .

وهذا البيت من قصيدة أولها :

لَيْسَ شَىْءٌ عَلَى الْمَنُونِ بِبَاقِ غير وَجْهِ المسبَّحِ الخلاقِ[1]

وقد كان زارته بنيّة له صغيرة اسمها هند ، وهو فى الحبس — حبس النعمان — ويداه مغلولتان إلى عنقه ، فأنكرت ذلك ، وقالت : ماهذا الذى فى يدك وعنقك يا أبت ! وبكت ، فقال هذا الشعر . وقبل هذا البيت :

وَلَقَدْ غَمَّنِى زِيارَةُ ذِى قُرْ بَى صَغِيرٍ لِقُرْبِنَا مُشْتَاقِ

سَاءهَا مَالَها تَبيّنَ فى الأيْــدِى وإشنَاقُهَا إلى الأعْنَاقِ[2]

أى ساءها ماظهر لها من ذلك . ويروى : « ساءها مابنا تبيّن » أى ما بان وظهر ، ويروى « مابنا تبيّنُ » بالرفع على أنّه مضارع .

ويروى « إشنَاقُها » بالرفع عطفا على « ما » ، التى هى بمعنى الذى ، وهى فاعلة . ويروى بالجرّ عطفا على « الأيدى » .

---

(١) الأغانى ٢ : ١١٦ ، اللسان (شنق) .

(٢) بعده فى رواية الأغانى :

فاذهَبِى يا أُمَيْمَ غَيْرَ بَعِيدٍ لا يُوَاتِى العِنَاقُ مَنْ فى الوَثَاقِ

واذهَبِى يا أُمَيْمَ إنْ يشأ اللّـــهُ يُنَفِّسْ مِنْ أزْمِ هذا الخناقِ

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى أيضا : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقة قد شَنَق لها وهي تَقصَعُ بجرّتها .

قلت : الجرّة : مايعلو من الجوف وتجترّه الإبل ، والدِّرّة : مايسفل . وتَقْصَعُ بها : تدفع ، وقد كان للرضيّ رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتجّ بها على جواز « أشنق لها » ، فإن الفعل في الخبر قد عُدِّيَ باللام لا بنفسه .

قوله عليه السلام : « فمُنِيَ النَّاسُ » أي بُلِيَ الناس ، قال :

* مُنِيتُ بِزَمَّرْدَةٍ كالعَصَا * (١)

والخَبْط : السَّيْر على غير جادّة ، والشِّماس : النِّفار . والتلوّن : التبدّل . والاعتراض : السَّيْرُ لا على خط مستقيم ، كأنّه يسير عَرْضا في غضون سيره طولا ، وإنما يفعلُ ذلك البعير الجامح الخابط . وبعيرٌ عُرُضِيّ : يعترض في مسيره ؛ لأنه لم يتمّ رياضته ، وفي فلان عُرُضِيَّة، أي عجْرفة وصُعوبة .

***

[طرف من أخبار عمر بن الخطاب]

وكان عمر بن الخطّاب صعبا ، عظيم الهيْبة شديد السياسة ، لا يُحابِي أحداً ، ولا يراقب شريفا ولا مشروفا . وكان أكابر الصحابة يتحامَوْن ويتفادَوْن من لقائه ؛ كان أبو سفيان ابن حَرْب في مجلس عمر ، وهناك زياد ابن سُمَيّة وكثير من الصحابة ، فتكلّم زياد فأحسن — وهو يومئذ غلام — فقال عليّ عليه السلام — وكان حاضراً — لأبي سفيان وهو إلى جانبه: لله هذا الغلام ، لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه! فقال له أبو سفيان : أما والله لو عرفتَ أباه لعرفت أنه من خير أهلك ، قال : ومَنْ أبوه ؟ قال: أنا وضعتُه والله في رَحِمِ أمِّه، فقال عليّ عليه السلام : فما يمنعُك من استلحاقه؟ قال: أخاف هذا العَيْر(٢) الجالس أن يخرّق عليّ إهابي !

(١) لأبي الغطمش الحنفي؛ ذكره أبو تمام في الحماسة ١٨٨١ — بشرح المرزوقي، ورواه: « بِزِنْمِرْدَةٍ » ، وقال : هو حجز يملأ الكف » ، وبعده :

* ألصّ وأخبثَ مِنْ كِنْدِشٍ *

(٢) عير القوم : سيدهم .

وقيل لابن عباس لما أظهر قوله فى العَوْل[1] بعد موت عمر — ولم يكن قبل يظهره: هلّاقلت هذا وعمرُ حىّ ؟ قال : هِبْته ، وكان امرأً مهابا[2] .

واستدعى عمر امرأة ليسألها عن أمر — وكانت حاملا — فلشدّة هيبته ألقت ما فى بطنها، فأجهضت به جنينا ميتا ، فاستفتى عمر أكابرَ الصحابة فى ذلك ، فقالوا : لا شىء عليكَ ، إنما أنت مؤدِّب ، فقال له علىّ عليه السلام : إن كانوا راقبوك فقد غشّوك ، وإن كان هذا جُهْد رأيهم فقد أخطئوا ؛ عليك غُرّة — يعنى عتق رقبة — فرجع عمرُ والصحابة إلى قوله .

وعمر هو الذى شدّ بَيْعَة أبى بكر ووقَمَ[3] المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لمّا جرّده، ودفع فى صدر المقداد ، ووطئ فى السقيفة سَعْد بن عبادة ، وقال : اقتلوا سعدا ، قتل الله سعدا ! وحطّم أنف الحُباب بن المنذر الذى قال يوم السّقيفة : أنا جُذَيلُها[4] المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجّب . وتوعّد مَنْ لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين ، وأخرجهم منها . ولولاه لم يثبت لأبى بكر أمر ، ولا قامت له قائمة .

وهو الذى ساسَ العمال وأخذ أموالهم فى خلافته ، وذلك من أحسن السياسات .

وروى الزبيرُ بن بكار ، قال : لما قلّد عمر عمرو بن العاص مصر ، بلغه أنه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت[5] ، فكتب إليه ، أما بعد : فقد ظهرَ لى مِنْ مالك ما لم يكن فى رزقك، ولا كان لك مال قبلَ أنْ أستعملَك ، فأنّى لك هذا ! فوالله لو لم يهمّنى فى ذات الله إلّا من اختان فى مال الله ، لكثر همّى ، وانتثر أمرى ، ولقد كان عندى من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منك ، ولكنّى قلّدتك رجاء غنائك ؛ فاكتب إلىّ من أين لك هذا المال ، وعجِّل .

---

(١) عول الفريضة ، وهو أن تزيد سهامها ، فيدخل النقصان على أهل الفرائض .

(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « وكان امرأ مهيبا » .   (٣) وقم البعير : كواه ؛ والمراد أذله .

(٤) الفائق ١ : ١٨٠ ، وبقية الخبر فيه : « منا أمير ومنكم أمير » . الجذيل : تصغير الجذل ، بالكسر ، وهو فى الأصل عود ينصب للجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والمرجب : المدعوم بالرجبة ، وهى خشبة ذات شعبتين ؛ قال الزمخشرى فى تفسيره : « إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل » .

(٥) قولهم : ماله صامت ولا ناطق . فالناطق: الحيوان والصامت: ماسواه .

فكتب إليه عمرو : أمّا بعد، فقد فهمت كتابَ أمير المؤمنين، فأمّا ما ظهر لى من مال، فإنا قدِمْنا بلادا رخيصةَ الأسعار ، كثيرة الغزو ، فجعلنا ما أصابنا فى الفضول التى اتصل بأمير المؤمنين نبؤها ، ووالله لو كانت خيانتُك حلالاً ماخنتُك ؛ وقد ائتمنتَنى ، فإنّ لنا أحسابا إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن خيانتك . وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منّى ، فإذا كان ذاك فوالله مادقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين باباً ، ولا فتحت لك قُفْلا .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنى لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام فى شىء ؛ ولكنّكم معشرَ الأمراء قعدتم على عيون الأموال ، ولن تعدِموا عُذْراً ، وإنما تأكلون النّار ، وتتعجّلون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ، فسلِّمْ إليه شطر مالك .

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاما ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه تقدمة الشرّ ، ولو جئتَنى بطعام الضيف لأكلت ، فنحِّ عنى طعامك ، وأحضِرْ لى مالك ، فأحضره ، فأخذ شطْرَه. فلما رأى عمرو كثرةَ ما أخذ منه، قال : لعن الله زمانا صرتُ فيه عاملا لعمر، والله لقد رأيتُ عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قَطَوانيّة (١) لا تجاوز مأبِض (٢) ركبتيه ، وعلى عنقه حُزْمة حَطب ، والعاص بن وائل فى مُزَرَّرَاتِ الدّيباج . فقال محمد : إيهاً عنك ياعمرو ! فعمرُ والله خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما فى النار ، ولولا الإسلام لألفِيت معتلقاً شاة ، يسرّك غزْرها ، ويسوءك بُكوءها (٣) . قال : صدقت فاكتم علىّ ، قال: أفعل .

* * *

قال الربيع بن زياد الحارثىّ : كنتُ (٤) عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين

---

(١) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة ، تنسب إليه الأكسية .
(٢) المأبض : باطن الركبة .
(٣) يقال : بكأت الناقة بكوءا ؛ إذا قل لبنها .
(٤) الخبر فى الكامل ١ : ١٥٢ ، ١٥٣ .

فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله ، وأنْ يستخلفوا جميعا . فلما قدِمْنا المدينةَ أتيت يَرْفأ حاجب عمر ، فقلت : يا يرفأ، مسترشد وابنُ سبيل ! أىّ الهيآت أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرَى فيها عمّاله ؟ فأومأ إلىّ بالخشونة ، فاتخذت خُفّين مُطارَقين (١) ، ولبست جُبّة صوف ، ولُثْتُ عمامتى على رأسى ، ثم دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه ، فصعّد بصره فينا وصوّب ، فلم تأخذْ عينُه أحدا غيرى ، فدعانى، فقال : مَنْ أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثىّ ، قال : وماتتولّى من أعمالنا ؟ قلت:البحرين ، قال : كم تُرْزَق؟ قلت: ألفا ، قال: كثير ، فما تصنع به ؟ قلت : أتقوّت منه شيئا ، وأعود بباقيه على أقاربَ لى ، فما فضلَ منهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : لا بأس ، ارجع إلى موضعك . فرجعت إلى موضعى من الصفّ ، فصعّد فينا وصوّب ، فلم تقع عينُه إلّا علىّ فدعانى ، فقال : كم سنُّك ؟ قلت : خمس وأربعون، فقال : الآن حيث استحكمت ! ثم دعا بالطعام،وأصحابى حديثٌ عهدهم بلين العيش ، وقد تجوّعت له ، فأتى بخبز يابس وأكسار (٢) بعير ، فجعل أصحابى يعافُون ذلك ، وجعلت آكل فأجيد ، وأنا أنظر إليه ، وهو يلحظنى من بينهم ، ثم سبقتْ منّى كلمة تمنيت لها أنّى سُخْت فى الأرض ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك ، فلو عمدْت إلى طعامٍ ألينَ من هذا ! فزجرنى ، ثم قال : كيف قلت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أن تنظرَ إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتِك إياه بيوم ، ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤْتَى بالخبز لينا ، وباللحم غَريضا . فسكَنَ من غَرْبه ، وقال : أهاهنا غُرْت (٣) ؟ قلت: نعم، فقال : يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صَلائق (٤) وسبائك (٥) وصِنَاب (٦) ، ولكنّى رأيتُ الله نَعَى على قومٍ شهواتهم ، فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ

(١) لبس خفين مطارقين ، أى مطبقين ، واحدا فوق الآخر .

(٢) أكسار الإبل : أعضاؤها ، واحدها كسر ؛ بالفتح والكسر .

(٣) غرت : ذهبت ، وفى الأصول : « غربه » تحريف .

(٤) الصلائق : ماعمل بالنار طبخا وشيا .

(٥) السبائك : ماسبك من الدقيق ونخل فأخذ خالصه ؛ يعنى الحوارى ؛ وكانوا يسمون الرقاق السبائك .

(٦) الصناب : صباغ يؤتدم به .

فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (١) ، ثم أمر أبا موسى بإقرارى ، وأن يستبدل بأصحابى .

***

أسلم عمر بعد جماعة من الناس ، وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلها أسلما سرًّا من عمر ، فدخل إليهما خَبّاب بن الأرَتّ ، يعلّمهما الدِّين خفية ، فوشى بهم واشٍ إلى عمر ، فجاء دارَ أخته ، فتوارى خَبّاب منه داخلَ البيت ، فقال عمر : ماهذه الهينمةُ عندكم ؟ قالت أخته : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : أراكما قد صَبَوْتما ! قال خَتَنُهُ : أرأيت إن كان هو الحقّ ! فوثب عليه عمر فوطِئه وطئًا شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عنه، فنفحها بيده،فدَمِيَ وجهها ، ثم ندِم ورقّ،وجلس واجما ، فخرج إليه خَبّاب فقال : أبشِرْ ياعمر ، فإنى أرجُو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة ، فإنه لم يزل يدعُو منذ الليلة : « اللّهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » .

قال : فانطلق عمرُ متقلّدا سَيْفَه حتى أتى إلى الدار التى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ، وهى الدّار التى فى أصل الصّفا،وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين،فوجِلَ القومُ من عمر إلا حمزة فإنه قال : قد جاءنا عمر ، فإنْ يُرد الله به خيرا يَهْده ، وإنْ يُرِدْ غير ذلك كان قتلُه علينا هيّنا ـ والنبيّ صلى الله عليه وآله داخل الدار يوحَى إليه ـ فسمِع كلامهم،فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : « ماأنت بمنتهٍ ياعمر حتى يُنزِل الله بك من الخِزْى والنّكال ماأنزل بالوليد بن المغيرة . اللهمّ هذا عمر، اللهم أعزّ الإسلام بعمر » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

***

مرّ يوما عمر فى بعض شوارع المدينة فناداه إنسان : ما أراك إلا تستعملُ عمّالك ، وتعهد إليهم العهود،وترى أنّ ذلك قد أجزأك . كلاّ والله، إنك المأخوذ بهم إن لم تتعهّدهم ،

(١) سورة الأحقاف ٢٠ .

قال : ماذاك ؟ قال: عياض بن غَنْم يلبس اللّيِّنَ ، ويأكل الطيّب ، ويفعل كذا وكذا قال : أساع (١) ؟ قال : بل مؤدٍّ ما عليه ، فقال لمحمد بن مسلمة : الحقْ بعياض بن غَنْم فأتنى به كما تجده ؛ فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض — وهو أمير على حِمْص — وإذا عليه بوّاب، فقال له : قل لعياض:على بابك رجل يريد أن يلقاك ، قال : ماتقول؟ قال : قل له ما أقول لك ؛ فقام كالمعجَب فأخبره ، فعرف عياض أنه أمْرٌ حدَث ، فخرج فإذا محمد بن مسلمة ، فأدخله ، فرأى على عياض قيصا رقيقا ، ورداء ليّنا ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أمرنى ألّا أفارقك حتى آتيَه بك كما أجدك . فأقدمه على عمر وأخبره أنّه وجده فى عيش ناعم . فأمر له بعصا وكساء ، وقال : اذهب بهذه الغَنَم ، فأحسن رعيَها ، فقال : الموتُ أهْوَنُ من ذلك ، فقال : كذبت ، ولقد كان تركُ ما كنتَ عليه أهونَ عليك من ذلك . فساق الغنم بعصاه ، والكساء فى عنقه ، فلما بعُد ردّه ، وقال : أرأيت إن رددتُك إلى عملك أتصنع خيراً ؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، لا يبلغُك منّى بعدها ماتكرَهُ . فردّه إلى عمله ، فلم يبلغه عنه بعدها ماينقِمه عليه .

* * *

كان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون الشجرة التى كانت بيعةُ الرضوان تحتَها فيصلّون عندها ، فقال عمر : أراكم أيّها الناس رجعتم إلى العُزّى ! ألا لا أوتَى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلتهُ بالسيف كما يُقتل المرتدّ،ثم أمر بها فقطعت.

* * *

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله،وشاع بين الناس موتُه ، طاف عمر على الناس قائلا : إنه لم يمتْ ، ولكنه غاب عنا كما غاب موسى عن قومه ، وليرجعنّ فليقطّعَنّ أيدىَ رجال وأرجلَهم يزعمون أنّه مات . فجعل لا يمرّ بأحد يقول إنه مات إلا ويخبطه ويتوعّده ، حتى جاء أبو بكر ، فقال:أيها الناس ، مَنْ كان يعبد محمدا فإن محمداًقد مات،

(١) الساعى هنا : الواشى .

ومن كان يعبد ربّ محمد فإنه حيّ لم يمت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾(١) ، قالوا : فو الله لكأنّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . وقال عمر : لما سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أن رسولَ الله قد مات .

* * *

لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته ، كان في عسكره أبو قَتادة الأنصاريّ ، فركب فرسه ، والتحق بأبي بكر ، وحلف ألّا يسيرَ في جيش تحت لواء خالد أبداً ، فقصّ على أبي بكر القصّة ، فقال أبو بكر : لقد فتنتِ الغنائمُ العرب ، وترك خالد ما أمر به ، فقال عمر : إنّ عليك أن تُقيده بمالك ، فسكت أبو بكر ، وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد ، وفي عمامته ثلاثة أسهم ، فلما رآه عمر قال : أرياء ياعدو الله ! عدوتَ على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته ؛ أما والله إن أمكنني الله منك لأرجمنك ، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها ـ وخالد ساكت لا يردّ عليه ، ظنا أنّ ذلكَ عن أمر أبي بكر ورأيه ـ فلما دخل إلى أبي بكر وحدّثه ، صدّقه فيما حكاه وقبل عذره . فكان عمر يحرّض أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن يقتصّ منه بدم مالك ، فقال أبو بكر : إيها ياعمر ! ماهو بأوّل مَنْ أخطأ ، فارفع لسانك عنه . ثم وَدَى مالكا من بيت مال المسلمين .

* * *

لما صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصلح ، وتزوّج ابنة مُجّاعة ابن مُرارة الحنفيّ ، وصل إليه كتاب أبي بكر : لَعَمْرِي يابن أمّ خالد ، إنك لفارغ حتى تزوّج النساء ، وحَوْل حجرتك دماء المسلمين لم تجفّ بعد ... في كلام أغلظ له فيه ، فقال خالد : هذا الكتاب ليس من عمل أبي بكر ، هذا عمل الأُعيسر ـ يعني عمر .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

عزل عمر خالداً عن إمارة حِمص فى سنة سبع عشرة ، وأقامه للناس ، وعقله بعمامته، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال : أعلمنى ، من أين لك هذا المال ؟ وذلك أنه أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف درهم ، فقال: من الأنفال والسُّهمان ، فقال : لا والله ، لا تعمل لى عملا بعد اليوم ، وشاطره ماله ، وكتب إلى الأمصار بعزله ، وقال . إنّ الناس فُتنوا به ، فخفت أن يُوكلوا إليه ، وأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع .

* * *

لما أُسِر الهُرْمزان حُمِل إلى عمر من تُسْتَر إلى المدينة ، ومعه رجال من المسلمين ،منهم الأحنف بن قيس ، وأنس بن مالك ، فأدخلوه المدينة فى هيئته وتاجه وكِسْوته ، فوجدوا عمر نائما فى جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه ، فقال الهُرْمزان : وأين عمر ؟ قالوا : هاهو ذا ؛ قال : أين حرسُه ؟ قالوا : لا حاجبَ له ولا حارس. قال : فينبغى أن يكون هذا نبيًّا ، قالوا : إنه يعمل بعمل الأنبياء . واستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ؟ فقالوا: نعم؛ قال : لا أكلمه أولا يبقى عليه من حِلْيته شىء ، فرمَوْا ماعليه ، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فلما كلمه عمر ، أمر أبا طلحة أن ينتضِىَ سيفه ويقوم على رأسه ، ففعل . ثم قال له : ماعذرُك فى نقض الصلح ونكث العهد ؟ — وقد كان الهرمزان صالح أوّلا ، ثم نقض وغدر — فقال: أخبرك ، قال : قل ، قال : وأنا شديد العطَش ! فاسقنى ثم أخبرك . فأحضِر له ماء ، فلما تناوله جعلَتْ يده ترْعَد ، قال : ماشأنك؟ قال : أخاف أن أمدّ عنقى وأنا أشرب فيقتلنى سيفك . قال : لا بأس عليك حتى تشرب ، فألقى الإناء عن يده ، فقال : مابالك ؟ أعيدوا عليه الماء ، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : إنك قد أمنتَنى ، قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، قال أنس : صدق ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أؤمّن قاتل مجزأة بن ثور والبَراء بن مالك ! والله لتأتينى بالمخرج أو لأعاقبنّك؛ قال: أنت ياأمير المؤمنين قلت : لا بأس عليك حتى تشرب . وقال له ناس من المسلمين

مثل قول أنس ، فقال للهُرمزان : ويحك ! أتخدعُنى ! والله لأقتلنَّك إلا أن تُسْلِم ، ثم أومأ إلى أبى طلحة ، فقال الهرمزان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأمّنه وأنزله المدينة .

***

سأل عمر عمرو بن معد يكرب عن السلاح فقال له: ماتقول فى الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال فالنَّبل؟ قال : رسل المنايا ؛ تخطىء وتُصيب، قال فالدرع ؟ قال : مَشْغلة للفارس ، متعبة للراجل ، وإنها مع ذلك لحِصْن حصين ، قال فالتُّرس ؟ قال : هو المِجَنّ، وعليه تدور الدوائر ، قال: فالسيف ؟ قال: هناك قارعت أمُّك الهبل ، قال : بل أمّك، قال: والحُمّى أضْرَعتنِي لك [(١)] .

***

وأولُ مَنْ ضرب عمر بالدِّرة أمّ فروة بنت أبى قُحافة، مات أبو بكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة ، فنهاهنّ عمر مرارا ، وهنّ يعاوِدْن ، فأخرج أمّ فروة من بينهنّ، وعَلَاها بالدِّرة ، فهربْنَ وتفرّقن .

***

كان يقال : دِرّة عمر أهْيَبُ من سيف الحجّاج . وفى الصحيح : إن نسوةً كنّ عند رسول الله صلى الله عليـه وسلّم قد كثر لَغَطُهُنّ ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له ، فقال لهنّ : ياعُديّات أنفسِهن ، أتهبْنَنِي ولا تهبْنَ رسول الله ! قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظّ .

***

وكان عمر يُفتِي كثيراً بالحُكْم ثم ينقضُه ، ويفتى بضدّه وخلافه ؛ قضى فى الجدّ مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم فى هذه المسألة فقال : مَنْ أراد أن يتقحّم جراثيم جهنم فليقُلْ فى الجدّ برأيه .

---

(١) الحمى أضرعتنى لك ؛ مثل يضرب فى الذل عند الحاجة تنزل ؛ وورد المثل محرفا فى الأصول ، والتصويب من الميدانى ١ : ٢٠٥ ، وعيون الأخبار ١ : ١٣٠ ، والعقد ١ : ٢١٠ .

وقال مرة : لا يبلغني أنّ امرأة تجاوز صداقُها صداقَ نساء النبيّ إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة : ماجعل الله لك ذلك ، إنه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾[1] ، فقال : كلّ الناس أفقهُ من عُمر، حتى ربّات الحجال ! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت ، فاضلتْ إمامكم ففضلته!

***

ومرّ يوما بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاه ، فجَدَح[2] له ماء بعسل فلم يشربه ، وقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فقال له الفتى : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة ، اقرأ ماقبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾[3] ، فقال عمر : كلّ الناس أفقه من عمر !

وقيل : إن عمر كان يَعُسّ بالليل ، فسمع صوتَ رجل وامرأة فى بيت ، فارتاب فتسوّر الحائط ،فوجد امرأة ورجلا ، وعندهما زِق خمر ، فقال : ياعدوّ الله ، أكنت ترى أن الله يستُرك وأنت على معصيته ! قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخطأت فى واحدة فقد أخطأت فى ثلاث؛قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[4] ،وقد تجسّست . وقال:﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[5] وقد تسوّرت ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا ﴾[6] ، وما سلّمت !

وقال : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا محرّمهما،ومعاقِب عليهما : متعة النساء ومتعة الحجّ . وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه منكَراً فله عندنا مخرج وتأويل ، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء فى كتبهم .

***

(١) سورة النساء ٢٠
(٢) جدح : خلط
(٣) سورة الأحقاف ٢٠
(٤) سورة الحجرات ١٢
(٥) سورة البقرة ١٨٩
(٦) سورة النور ٦١

وكان فى أخلاق عمر وألفاظه جَفاء وعُنْجُهية ظاهرة،يحسبه السامع لها أنه أراد بها مالم يكنْ قد أراد،ويتوهَّم من تُحْكَى له أنه قصدبها ظاهراً مالم يقصده،فمنها الكلمة التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله.ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها ! ولكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته ، ولم يتحفظ منها . وكان الأحسنُ أن يقول : « مغمور »أو « مغلوب بالمرض » ، وحاشاهُ أن يعنى بها غير ذلك !

ولجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير ، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابيا يقول فى سنة قَحْط :

رَبَّ العِبادِ مالَنا وَمالَكا قَدْ كُنْتَ تَسقِينا فما بدَا لكا !

* أنزِل عَلَيْنا القَطْرَ لا أبا لكا *

فقال سليمان : أشهد أنه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد ، فأخرجه أحسن مخرَج [1] .

وعلى نحوهذا يُحمل كلامهفى صُلح الحديبيةلما قال للنبى صلى الله عليه وآله : ألم تقُلْ لنا : ستدخلونها ! فى ألفاظ نُكْرَه حكايتها،حتى شكاه النبى صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر ، وحتى قال له أبو بكر : الزَمْ بِغَرْزِه [2] ، فوالله إنه لَرسول الله .

وعمر هو الذى أغلَظ على جَبَلة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة ، بل مفارقة دارالإسلام كلّها ، وعاد مرتدًا داخلا فى دين النصرانية ، لأجل لطمة لَطِمها.وقال جَبَلة بعد ارتداده متندّما على مافعل :

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ مِنْ أجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ !

فَيالَيْتَ أمّى لم تَلِدْنى وَلَيْتَنِى رَجَعْتُ إلى القولِ الّذى قاله عُمَرْ

***

(١) الخبر فى الكامل ٧ : ١٤٥ ـ بشرح المرصفى

(٢) الغرز فى الأصل : ركاب الرحل ، وفى الكلام استعارة ، والمراد هنا : اتبع قوله . وفى اللسان والنهاية : « استمسك بغرزه » ، ورواية ابن هشام : « الزم غرزه » .

الأصْـلُ :

حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ ، جَعَلَهَا فِي سِتَّةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ ؛ فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ ! لَـكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا ، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ ،وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ .

***

الشَّـرْحُ :

اللام فى « يالله » مفتوحة ، واللام فى « ولِلشورى » مكسورة؛لأن الأولى للمدعو، والثانية للمدعو إليه ، قال :

يالَلرِّجال لِيومِ الأربعاء أما ينفكُّ يُحدِث لى بَعْدَالنُّهى طَرَبا[1] !

اللام فى « للرجال » مفتوحة، وفى « ليوم » مكسورة . وأسفَّ الرجل،إذا دخل فى الأمر الدنئ ، أصله من «أسفَّ الطائر » إذا دنا من الأرض فى طيرانه.والضغن : الحقد.

وقوله « مع هنٍ وهنٍ » ،أى مع أمور يكنى عنها ولا يصرِّح بذكرها ، وأكثر مايستعمل ذلك فى الشر ، قال[2] :

* عَلَى هَنَوَاتٍ شَرُّها مُتتابِعُ *

يقول عليه السلام : إنّ عمر لما طُعن جعل الخلافة فى ستّة ، هو عليه السلام أحدهم ، ثم تعجب من ذلك ، فقال : متى اعترض الشك فىّ مع أبى بكر،حتى أقرن بسعد بن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وأمثالهما ! لـكنّى طابت الأمروهو موسوم بالأصاغرمنهم، كما طلبته أولا وهو موسوم بأكابرهم؛أى هو حق فلا أستنكف من طلبه،إن كان المنازع فيه جليل القدر أو صغير المنزلة .

وصغا الرجل بمعنى مال ، الصُّغو : الميل ، بالفتح والـكسر .

---

(١) لعبد الله بن مسلم بن جندب فى الـكامل ٣ : ٢٧٠ من غير نسبة ، وهو أيضا من أبيات له رواها ثعلب فى المجالس ٤٧٤ ، وهى فى معجم البلدان ١ : ١٣٦ .

(٢) البيت فى اللسان (٢٠ : ٢٤٣) من غير نسبة ، وأوله :

* أرَى ابنَ نزارٍ قدْ جَفانى ومَلَّنِى *

[قصة الشُّورى]

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة ، وعلم أنّه ميت ، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده،فأشير عليه بابنه عبدالله ، فقال:لاها الله إذاً ! لايليها رجلان من وَلَدِ الخطاب! حسب عمر ماحُمِّل ! حَسْبُ عمر ما احتقب،لاها الله ! لا أتحملها حيا وميتا ! ثم قال : إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش : على ، وعثمان ،وطلحة ، والزبير، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ وقد رأيتُ أن أجعلَهاشورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستَخلِف فقداستخلف مَنْ هوخير منى ـ يعنى أبا بكر ـ وإن أترُكْ فقد ترَكَ من هو خير منى ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ـ ثم قال : ادعُوهم لى ، فدعوهم ، فدخلوا عليه وهو مُلقًى على فراشه يجود بنفسه .

فنظر إليهم ، فقال : أكلّكم يطمعُ فى الخلافة بعدى ! فوَجَموا ، فقال لهم ثانية ، فأجابه الزُّبير وقال:وما الذى يُبعدنا منها ! وليتَها أنتَ فقمتَ بها،ولسْنا دونك فى قريش ولا فى السابقة ولا فى القرابة .

ـ قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ:والله لولا علمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة ، ولا إن يَنْبِس منه بلفظة ـ

فقال عمر : أفلا أخبرُكم عن أنفسكم ! قال : قل ، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا ، فقال : أما أنت يازبير فوَعِق لَقِس [1] ،مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، يوما إنسان، ويوماشيطان، ولعلها لو أفضتْ إليك ظَلْتَ يومَك تلاطم بالبطْحاءعلى مُدّ من شعير ! أفرأيتَ إن أفضت إليك ! فليت شِعْرى ، مَنْ يكون للناس يومَ تكون شيطانا،ومنْ يكون يومَ تغضب! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة ، وأنت على هذه الصفة .

ثم أقبل على طلحة ـ وكان له مبغضاً منذ قال لأبى بكر يوم وفاته ماقال فى عمر ـ فقال له:أقول أم أسكت ؟ قال : قل،فإنك لاتقول من الخير شيئاً،قال:أما إنى أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أُحُد والبَأْو [2] الذى حدث لك،ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الوعق : الضجر المتبرم ، واللقس : من لايستقيم على وجه .
(٢) البأو : الكبر والفخر . ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « فى طلحة بأواء » .

ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم أُنزِلت آية الحجاب .

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى : الكلمة المذكورة أنّ طلحة لما أُنزلتْ آية الحجاب قال بمحضر مِمَّنْ نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما الذى يغنيه حجابهنّ اليوم ! وسيموت غَدا فننكِحُهُنّ. قال أبو عثمان أيضا : لو قال لعمر قائل:أنت قلت:إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم مات وهو راض عن الستة،فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطا عليك للكلمة التي قلتَها ! لكان قد رماه بمشاقصه[1]، ولكن مَن الذى كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا ، فكيف هذا !

قال : ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال : إنما أنت صاحبُ مِقْنَب[2] من هذه المقانب ، تقاتل به، وصاحب قَنَص وقَوْس وأسهم ، وما زُهْرة[3] والخلافة وأمور الناس!

ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف ، فقال: وأما أنت ياعبد الرحمن ، فلو وُزِن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانُك به ، ولكن ليس يَصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما زهرة وهذا الأمر!

ثم أقبل على علىّ عليه السلام ، فقال : لله أنت لولا دُعابة فيك!أما والله لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح ، والمحجّة البيضاء .

ثم أقبل على عثمان ، فقال : هيهاً إليك ! كأنى بك قد قلدتْك قريش هذا الأمر لحبّها إياك ، فحملتَ بنى أمية وبنى أبى مُعَيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت إليك عصابة من ذُؤْبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً.والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلُنّ . ثم أخذ بناصيته ، فقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولى ؛ فإنه كائن .

ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان فى كتاب " السُّفيانية "[4]، وذكره جماعة غيره فى باب فراسة عمر . وذكر أبو عثمان فى هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال:وَرَوى

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو نصل السهم إذا كان طويلا

(٢) المقنب : جماعة الخيل . (٣) زهرة : قبيلة سعد بن أبى وقاص .

(٤) فى المسعودى ٣ : ٢٠٣ أن الجاحظ ألف كتابا فى نصرة معاوية بن أبى سفيان .

معمر بن سليمان التيمىّ عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس ، قال : سمعت عمرَ ابن الخطاب يقول لأهل الشورى : إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم ، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غَلَبكم على هذا الأمر معاوية بن أبى سفيان . وكان معاوية حينئذ أمير الشام .

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى . ثم قال : ادعوا إلىّ أبا طلحة الأنصارىّ ، فدعَوه له فقال: انظر يا أبا طلحة ، إذا عدتم من حُفْرتى ،فكن فى خمسين رجلا من الأنصار حاملى سيوفكم ، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله ،واجمعهم فى بيت،وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق خمسة وأبَى واحد فاضرب عنقه ، وإن اتفق أربعة وأبَى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة ، فانظر الثلاثة التى فيها عبد الرحمن ، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه ، فإن أصرّت الثلاثة الأخرى على خِلافها فاضرب أعناقها ، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ ، فاضرب أعناق السّتة، ودع المسلمين يختاروا لأنفُسهم .

فلما دُفِن عمر ، جَمَعهم أبو طلحة ، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار ، حاملى سيوفهم ، ثم تكلّم القوم وتنازعوا ، فأوّلُ ما عمل طلحةُ أنّه أشهدَهم على نفسه أنّه قد وهب حقه من الشورى لعثمان ،وذلك لعلمه أنّ الناسَ لا يعدِلون به عليّاً وعثمان ، وأن الخلافة لا تخلُص له وهذان موجودان ، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعافَ جانب علىّ عليه السلام ، بهبَة أمر لا انتفاعَ له به ، ولا تمكُّن له منه .

فقال الزبيرُ فى معارضته : وأنا أشهدكم على نفسى أنّى قد وهبتُ حقّى من الشورى لعلىّ ؛ وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليّاً قد ضَعُف وانخزل بهبَةِ طلحة حقّه لعثمان، دخلته حميّة النّسَب ، لأنه ابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهى صفيّة بنت عبد المطلب ، وأبو طالب خالُه . وإنّما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن علىّ عليه السلام ، باعتبار أنّه

تيميّ ، وابنُ عمّ أبي بكر الصديق ، وقد كان حصلَ في نفوس بني هاشم من بني تَيْم حَنَق شديد لأجل الخلافة ، وكذلك صار في صدور تَيْم على بني هاشم ؛ وهذا أمرٌ مركوز في طبيعة البَشر ، وخصوصا طينة العرب وطباعها ، والتجربة إلى الآن تحقق ذلك ؛ فبقيَ من الستة أربعة .

فقال سعد بن أبي وقاص : وأنا قد وهبتُ حقِّي من الشورى لابن عمّي عبدالرحمن — وذلك لأنّهما من بني زُهْرة ، ولعلم سعد أنّ الأمرَ لا يتمّ له — فلما لم يبقَ إلّا الثلاثة . قال عبدالرحمن لعليّ وعثمان : أيّكما يُخرج نفسَه من الخلافة ، ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين ؟ فلم يتكلّم منهما أحد ، فقال عبد الرحمن : أشهدُكم أنّني قد أخرجتُ نفسي من الخلافة على أنْ أختار أحدَهما ، فأمسكا . فبدأ بعليّ عليه السلام ، وقال له : أبايعك على كتاب الله ، وسنة رسول الله ، وسيرة الشيخين : أبي بكر وعمر . فقال : بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي . فعدل عنه إلى عثمان ، فعرض ذلك عليه ، فقال : نعم ، فعاد إلى عليّ عليه السلام ، فأعاد قوله ؛ فعَل ذلك عبد الرحمن ثلاثا ، فلما رأى أنّ عليا غيرُ راجع عمّا قاله ، وأنّ عثمان يُنعِم له [1] بالإجابة ، صفَق [2] على يد عثمان ، وقال : السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ، فيقال : إن عليا عليه السلام قال له : والله مافعلتَها إلا لأنّك رجوتَ منه مارجا صاحبُكما من صاحبه ، دقّ الله بينكما عِطرَ مَنْشِم [3] .

قيل : ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن ، فلم يكلّم أحدُهما صاحبَه حتى مات عبد الرحمن .

---

(١) أنعم له ؛ إذا قال مجيبا « نعم » .

(٢) يقال : صفق يده بالبيعة وعلى يده صفقا ، أي ضرب بيده على يده .

(٣) قال الأصمعي : منشم ، بكسر الشين : اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : أشأم من عطر منشم ؛ فصار مثلا . صحاح الجوهري ٢٠٤١:٥

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل :

أما قوله عليه السلام : « فصغا رجل منهم لضِغْنه » ، فإنه يعنى طلحة . وقال القطب الراوندىّ : يعنى سعدَ بن أبى وقّاص ؛ لأنّ عليا عليه السلام قتلَ أباه يوم بدر . وهذا خطأ فإن أباه أبو وقّاص ، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤىّ بن غالب ؛ مات فى الجاهلية حَتْفَ أنفِه .

وأما قوله : « ومال الآخرُ لِصهْره » يعنى عبدَ الرحمن مال إلى عثمان ، لأنّ أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبى معيط كانت تحتَه ، وأمّ كلثوم هذه هى أخت عثمان مِن أمّه أرْوَى بنت كُرَيز .

وروى القُطْب الراوندىّ أنّ عمر لما قال : كونوا مع الثّلاثة التى عبد الرحمن فيها، قال ابن عباس لعلىّ عليه السلام : ذهبَ الأمرُ مِنا ، الرجلُ يريد أن يكون الأمر فى عثمان. فقال علىّ عليه السلام : وأنا أعلمُ ذلك ، ولكنّى أدخل معهم فى الشورى ، لأنّ عمر قد أهّلَنى الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك[1] يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ النبوّة والإمامةَ لا يجتمعان فى بيت ، فأنا[2] أدخل فى ذلك لأظهِر للناس مناقضة فعله لروايته .

الذى ذكره[3] الراوندىّ غير معروف ، ولم ينقُلْ عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه، ولكنّه قال لعبد الله بن عباس يوما : ياعبد الله ، ماتقول منع قومكم منكم[4] ؟ قال : لا أعلم ياأمير المؤمنين ، قال : اللهم غفراً ! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتذهبون فى السماء بَذَخاً وشُمَخاً ، لعلكم تقولون : إن أبا بكر أراد الإمْرة عليكم وهَضَمكم ! كلاّ ، لكنّه حضره أمر لم يكن عنده أحزمَ مما فعل ، ولولا رأىُ أبى بكر

(١) كلمة « ذلك » ساقطة من ب.

(٢) ا : « وأنا » . (٣) ب « رواه » .

(٤) كذا فى الأصول ، وربما كانت كلمة « تقول » مقحمة ، أو تكون بمعنى الظن . وفى تاريخ الطبرى : « أتدرى مامنع قومكم منكم » .

فىّ بعد موته لأعاد أمرَكم إليكم ، ولو فعل ماهنأكم مع قومكم ، إنّهم لينظرون إليكم نظر الثَّوْر إلى جازره .

فأما الرواية التى جاءت بأنّ طلحـة لم يكن حاضرا يوم الشورى ، فإن صحّتْ فذُو الضّغْن هو سعد بن أبى وقاص ، لأن أمه حَمْنَة بنت سفيان بن أميـة بن عبد شمس ، والضغينـة التى عنـده على علىّ عليـه السـلام من قِبَل أخواله الذين قتل صناديدَهم ، وتقلّد دماءهم ؛ ولم يُعرفْ أن عليًا عليه السـلام قَتَل أحـداً من بنى زُهْرة لِيُنْسَب الضّغْن إليه .

***

وهذه الرواية هى التى اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ صاحب " التاريخ " قال : لمّا طُعن عمر (١) قيل له: لو استخلفت . [ياأمير المؤمنين!](٢) فقال : [من أستخلف؟](٢) لو كان أبو عبيـدةَ حيًّا لاستخلفتـه (٣) وقلت لربى لو سـألنى : سمعتُ نبيّك يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » (٤) ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا استخلفته ، وقلت لربّى إن سألنى (٥) : سمعتُ نبيّك عليه السلام يقول : « إنّ سالما شديدُ الحبّ لله » ، فقال له رجل : وَلِّ (٦) عبد الله بن عمر ، فقال : قاتلك الله ! واللهِ ما الله أردتَ بهذا الأمر ! [ويحك !](٢) كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته ! لا أرَبَ لعمر فى خلافتكم (٧) ، ماحمِدتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتى ؛ إن تك خيراً فقد أصبنا منه ، وإن تكُ شراً يُصرَف عنّا (٨) . حسبُ آلِ عمر أنْ يحاسبَ منهم [رجل](٢) واحد ، ويُسأل عن أمر أمة محمد .

فخرج الناس من عنده ، ثم راحوا إليه فقالوا له : لو عهدتَ عهدا ! قال : قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتى [لكم (١)] أنْ أولّىَ أمرَكم رجلا هو أحراكم أن يحمِلكم على الحق

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٧ وما بعدها (طبع دار المعارف) مع تصرف واختصار
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى (٣) الطبرى : « استخلفته »
(٤) الطبرى : «أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر » . (٥) الطبرى : « فإن سألنى ربى قلت . . . »
(٦) الطبرى : « إنه أمين هذه الأمة (٧) الطبرى : « أموركم » .
(٨) فى الطبرى : « فحسبنا آل عمر » .

وأشار إلى علىّ عليه السلام ـ فرهقتنى غشية ، فرأيت رجلا يدخل جنّة [قد غرسها][1] فجعل يقطف كلّ غضّة ويانعة ؛ فيضمها إليه ، ويصيرها تحته ، نخفت أن أتحمّلها حيًّا وميتا ، وعلمت أنّ الله غالب أمره عليكم بالرهط الذى قال رسول الله عنهم : إنّهم من أهل الجنة ، ثم ذكر خمسة : عليًّا ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وسعدا .

ـ قال : ولم يذكر فى هذا المجلس طلحة ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة ـ

ثم قال لهم : انهضُوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها ، ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فقال العباس لعلىّ عليه السلام : لا تدخلْ معهم ، وارفع نفسَك عنهم ، قال : إنى أكره الخلاف ، قال : إذنْ ترى ما تكره ، فدخلوا الحجرة فتناجوْا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد ، ففيم هذا اللّغط ! وانتبه عمر ، وسمِع الأصوات ، فقال : ليُصلِّ بالناس صُهيب ، ولا يأتينّ اليوم الرابع من يوم موتى إلا وعليكم أمير ، وليحضر عبدُ الله بن عمر مشيرا وليس له شىء من الأمر ، وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمركم ، وإلا فأرضُوه ، ومَنْ لى برضا طلحة ! فقال سعد : أنا لك به ، ولن يخالف إن شاء الله تعالى .

ثم ذكر وصيّته لأبى طلحة الأنصارىّ وما خصّ به عبد الرحمن بن عوف من كوْن الحق فى الفئة التى هوَ فيها وأمْرَه بقتل من يخالف ، ثم خرج الناسُ فقال علىّ عليه السلام لقوم معه من بنى هاشم : إنْ أطِيعَ فيكم قومُكم من قريش لم تؤمَّروا أبدا .

وقال للعباس : عُدِل بالأمر عنى ياعمّ . قال : وماعلمك ؟ قال : قُرِن بى عثمان . وقال عمر : كونوا مع الأكثر ، فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن ، فسعد لا يخالفُ ابنَ عمه ، وعبدالرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيولِّيها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران مَعِى لم يغْنِيا شيئا . فقال العباس : لم أدفعك إلى شىء إلّا رجعت إلىّ

(١) من الطبرى .

مستأخرا بما أكره ، أشرتُ عليك عند مرض رسول الله صلى الله عليه أنْ تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أنْ تعاجل البَيْعة[١] فأبيت ، وقد أشرتُ عليك حينَ سمّاك عمر فى الشورى اليوم أن ترفَعَ نفسك عنها ، ولا تدخل معهم فيها فأبيت ، فاحفظ عنى واحدة ؛ كلّما عرض عليك القوم الأمر فقل : لا ، إلا أن يولّوك . واعلم أنّ هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرُك ، وايم الله لا تناله إلا بشرّ لا ينفع معه خير . فقال عليه السلام : أما إنّى أعلم أنهم سيولّون عثمان ، وليحدِثنّ البدع والإحداث ، ولئن بقى لأذكرنّك ، وإن قتل أو مات ليتداولُنّها بنو أمية بينهم ، وإن كنت حيًّا لتجدنّى حيث تكرهون ، ثم تمثل :

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرّاقِصاتِ عَشيّةً غَدَوْنَ خِفافا يبتدِرْنَ المحصّبا[٢]
ليجتَلبن رهطُ ابن يعمرَ غدوةً[٣] نجيعاً بنو الشُّدّاخ وِرْداً مُصلّبا

قال : ثم التفتَ فرأى أبا طلحة الأنصاريّ ، فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا تُرَعْ أبا حسن . فلما مات عمر ودُفِن وخَلَوْا بأنفسهم للمشاورة فى الأمر ، وقام أبو طلحة يحجُبهم بباب البيت ، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فحصَبهما سعد وأقامهما ، وقال : إنما تريدان أن تقولا حضَرْنا وكُنّا فى أصحاب الشورى .

فتنافس القومُ فى الأمر وكثُر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحة : أنا كنتُ لأنْ تدافعوها أخوفَ منى عليكم أن تنافسوها ! أما والّذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى وقفت لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم !

قال : ثم إنّ عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبى وقاص : إنى قد كرهتُها ، وسأخلع نفسى منها ، لأنى رأيت الليلة رَوْضَةً خضراء كثيرة العُشْب ، فدخل فحل ما رأيت

(١) الطبرى : « الأمر » . (٢) الطبرى : « فابتدرن » .
(٣) الطبرى : ليختلين رهط ابن يعمر مارثا » ، وابن الأثير ٣ : ٣٦ : « ليختلين رهط ابن يعمر فارسا » .

أكرم منه ، فمرّ كأنه سهم لم يلتفت إلى شىء منها حتى قطعها ، لم يعرّج ، ودخل بعير يتلوه تابع أثره ، حتى خرج منها . ثم دخل فَحْل عبقرىّ يجرّ خِطامه ، ومضى قصد الأولَين ، ثم دخل بعير رابع ، فوقع فى الروضة يرتع ويخضم . ولا والله لا أكون الرابع ؛ وإن أحدا لايقوم مقام أبى بكر وعمر فيرضى الناس عنه .

ثم ذكر خَلْعَ عبد الرحمن نفسَه من الأمر ، على أن يولّيها أفضلهم فى نفسه ، وأن عثمان أجاب إلى ذلك ، وأن عليا عليه السلام سكت ، فلما روجع رضى على موثق أعطاه عبد الرحمن ؛ أن يؤثر الحق ، ولا يتبع الهوى ، ولايخصّ ذا رحم ، ولا يألو الأمة نصحا ، وأن عبد الرحمن ردّد القول بين علىّ وعثمان متلوّما ، وأنه خلا بسعد تارة ، وبالمسوَر بن مخرمة الزهرىّ تارة أخرى ، وأجال فِكْرَه ، وأعمل نظره ، ووقف موقفَ الحائر بينهما . قال : قال علىّ عليه السلام لسعد بن أبى وقاص : يا سعد ، ﴿ اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ، أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وبرَحم عمّى حمزة منك ، ألّاتكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا .

ـ قلت : رحِمُ حمزة من سعد ، هى أنّ أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زُهرة ؛ وهى أيضاً أم المقوّم وحَجْفل ـ واسمه المغيرة ـ والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ هؤلاء الأربعة بَنُو عبد المطلب من هالة ، وهالة هذه هى عمة سعد بن أبى وقاص ؛ فحمزة إذَنْ ابن عمة سعد ؛ وسعد ابن خال حمزة ـ

قال أبو جعفر : فلما أتى اليومُ الثالث جَمَعهم عبد الرحمن ، واجتمع الناس كافة ، فقال عبد الرحمن : أيها الناس ، أشيروا علىّ فى هذين الرجلين . فقال عمّار بن ياسر : إن أردتَ ألّا يختلف الناس ، فبايعْ عليًّا عليه السلام ، فقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعتَ عليا سمعنا وأطعنا . فقال عبد الله بن أبى سَرْح : إن أردتَ ألّا تختلف قريشٌ ،

فبايعْ عثمان . وقال عبدالله بن أبي ربيعة المخزوميّ : صدق ، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا . فشتم عمّارٌ ابنَ أبي سَرْح ، وقال له : متى كنت تنصح الإسلام[1] !

فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية ، وقام عمار ، فقال : أيها الناس ، إن الله أكرمكم بنبيّه ، وأعزّكم بدينه ، فإلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم ! فقال رجل من بني مخزوم : لقد عدَوْتَ طورَك يابن سُمَيّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ! فقال سعد : يا عبدَ الرحمن ، افرُغ من أمرك قبل أن يفتتِن الناس . فحينئذ عرَض عبد الرحمن على عليّ عليه السلام العملَ بسيرة الشيخين ، فقال : بل أجتهد برأيي . فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال : نعم . فقال عليّ عليه السلام : ليس هذا بأوّلِ يوم تظاهرتُم فيه علينا ، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما ولّيتَه الأمرَ إلا ليردّه إليك ، والله كلَّ يوم في شأن .

فقال عبد الرحمن : لا تجعلنّ على نفسك سبيلا يا عليّ - يعني أمرَ عمر أبا طلحة أن يضرب عُنُقَ المخالف - فقام عليّ عليه السلام فخرج ، وقال : سيبلغ الكتابُ أجلَه ، فقال عمّار : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركتَه ، وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون . فقال المقدادُ : تا لله ما رأيتُ مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ، واعجبا لقريش ! لقد تركتْ رجلاً ما أقولُ ولا أعلم أن أحداً أقضَى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ! أما والله لو أجد أعوانا ! فقال عبدالرحمن : اتقِ الله يامقداد ، فإني خائف عليك الفتنة .

وقال عليّ عليه السلام : إني لأعلمُ ما في أنفسهم ؛ إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر في صلاح شأنها ، فتقول : إنْ وَلِيَ الأمرَ بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان في غيرهم فهو متداول في بطون قريش .

قال : وقدِم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان فتلكّأ ساعة ، ثم بايع .

***

(١) الطبري : « المسلمين » .

وروى أبو جعفر رواية أخرى أطالها ، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم ، وذكر كلاما قاله علىّ عليه السلام فى ذلك اليوم ، وهو :

الحمدُ لله الذى اختار محمداً منا نبيًّا ، وابتعثه إلينا رسولا ، فنحنُ أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونجاةٌ لمن طلب ؛ إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه ، وإن نمنعه نركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجالدْنا عليه حتى نموت . لن يسرع أحدقبلى إلى دعوة حقّ وصلة رَحِم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اسمعوا كلامى، وعُوا منطقى ، عسى أن تروْا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنْتَضى فيه السيوف ، وتُخان فيه العهود ؛ حتى لا يكون لكم جماعة ، وحتى يكون بعضُكم أئمةً لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة .

* * *

قلت : وقد ذكر الهروىّ[1] فى كتاب " الجمع بين الغريبين " قوله : « وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل » ، وفسّره على وجهين :

أحدهما : أنّ منْ ركب عَجُز البعير يعانى مشقة ، ويقاسى جهداً ، فكأنّه قال : وإن نمنَعه نصبرْ على المشقة ؛ كما يصبر عليها راكبُ عجُز البعير .

والوجه الثانى أنه أراد : نتبع غيرنا ، كما أنّ راكبَ عجز البعير يكون رَديفا لمن هو أمامه ، فكأنه قال : وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير .

* * *

---

(١) هو أبو عبيد أحمد بن محمد الهروى ، صنف كتابه فى الجمع بين غريب القرآن والحديث .

وقال أبو هلال العسكرىّ فى كتاب "الأوائل" : استجيبت دعوة علىّ عليه السلام فى عثمان وعبد الرحمن ، فما ماتا إلا متهاجرين متعاديين . أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله : قل له : لقد وليتك ماوليتك من أمر الناس ، وإن لى لأمورا ماهى لك : شهدتُ بدرا وما شهدتها ، وشهدتُ بَيْعة الرضوان وما شهدتها ، وفررتَ يوم أُحُد وصبرتُ ؛ فقال عثمان لرسوله : قل له : أمّا يومَ بدْر فإن رسول الله صلى الله عليه ردّنى إلى ابنته لِما بها من المرض ، وقد كنتُ خرجتُ للذى خرجتَ له ، ولقيتهُ عند منصرفه، فبشّرنى بأجرٍ مثل أجوركم ، وأعطانى سهما مثل سهامكم . وأما بَيْعة الرضوان فإنّه صلى الله عليه بعثنى أستأذن قريشا فى دخوله إلى مكة ، فلما قيل له : إنى قُتلت ، بايع المسلمين على الموت لِما سمعه عنى ، وقال : إن كان حيًّا فأنا أبايع عنه ، وصَفَق بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : يسارى خير من يمين عثمان ، فيدُك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه ! وأما صبرُك يوم أُحُد وفِرارى ، فلقد كان ذلك، فأنزل الله تعالى العفوَ عنى فى كتابه ، فعيّرتنى بذنب غفره الله لى ، ونسيت من ذنوبك مالا تدرِى أغفر لك أم لم يغفر !

لما بنى عثمان قصره طَمَار[1] بالزوراء ، وصنع طعاما كثيرا ، ودعا الناس إليه ، كان فيهم عبد الرحمن ، فلما نظر للبناء والطعام قال : يابن عفان ، لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذّب فيك ، وإنى أستعيذ بالله من بيعتك . فغضب عثمان ، وقال : أخرجه عنى ياغلام ، فأخرجوه ، وأمر الناس ألّا يجالسوه ، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابنُ عباس ، كان يأتيه فيتعلّم منه القرآن والفرائض . ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكلّمه فلم يكلّمه حتى مات .

* * *

---

(١) طمار : موضع عند سوق المدينة ، ذكره ياقوت .

الأصل :

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ ؛ إِلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ .

الشرح :

نافجا حِضْنيه: رافعا لهما ، والحِضن: مابين الإبط والكشح ، يقال للمتكبر : جاء نافجاً حِضْنيه ، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاما : جاء نافجا حِضْنيه، ومراده عليه السلام هذا الثانى. والنّثيل : الروث . والمعتَلف : موضع العلف ؛ يريد أنّ همّه الأكل والرجيع ، وهذا من ممِضّ الذم ، وأشدّ من قول الحطيئة الذى قيل : إنه أهجى بيت للعرب :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي (١)

والخضم : أكلٌ بكلّ الفم ، وضدّه القضم ، وهو الأكل بأطراف الأسنان. وقيل: الخضم أكلُ الشىء الرَّطْب ، والقَضمُ أكلُ الشىء اليابس ؛ والمراد على التفسيرين لا يختلف ، وهو أنّهم على قَدَم عظيمة من النَّهَم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه . وقال أبو ذرّ رحمه الله تعالى عن أبنى أمية: يخضَمون ونقضَم ، والموعدالله . والماضى «خَضِم» بالكسر ، ومثله قَضِمْت .

والنِّبتة ، بكسر النون كالنبات، تقول : نَبتَ الرطب نباتا ونِبْتة . وانتكث فتلُه: انتقض ؛ وهذه استعارة . وأجهز عليه عمله : تم قتله . يقال : أجهزتُ على الجريح ، مثل ذفّفتُ، إذا أتممتَ قتلهوكبَتْ به بِطنته ، كبا الجواد، إذا سقط لوجهه . والبِطنة: الإسراف فى الشِّبَع .

* * *

---

(١) ديوانه ٥٤

[نتف من أخبار عثمان بن عفان]

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، كُنْيَته أبو عمرو ، وأمه أرْوَى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس .

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له،وصَحّتْ فيه فِراسة عمر،فإنه أوطأ بني أمية رقابَ الناس ، وولّاهم الوِلايات وأقطعهم القطائع ، وافتُتِحَتْ إفريقيّة في أيامه ، فأخذ الخُمس كلّه فوهبه لمروان ، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحيّ :

أحْلِفُ باللهِ رَبِّ الأنا م ماتَرَكَ اللهُ شَيْئاً سُدَى

ولكِن خلقت لنا فتنة لكي نبتلَى بك أو تبتلي

فإنّ الأمِينَيْنِ قَدْ بَيَّنا مَنَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدَى

فما أخذا درهما غِيلَةً ولا جَعلاَ دِرْهَماً في هَوى

وَأعطيْتَ مَرْوَان خُمْسَ البِلاَدِ فَهَيْهَاتَ سَعْيُكَ مِمَّنْ سَعَى !

الأمينان : أبو بكر وعمر .

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صِلَة ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم .

وأعاد الحكَم بن أبي العاص،بعد أن كان[1] رسول الله صلى الله عليه وآله قد سيّره ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر ؛ وأعطاه مائة ألف درهم .

وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين ، فأقطعه عثمان الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم .

وأقطع مروان فَدَكَ[2] ،وقد كانتْ فاطمةُ عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات الله

(١) كلمة « كان » ساقطة من ب

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ؛ أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحا ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر ، وفتح حصونها ، ولم يبق إلا ثلث ، واشتد بهم الحصار ، راسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن ينزلهم على الجلاء ، وفعل ، وبلغ ذلك أهل فدك ، فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك ؛ فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . معجم البلدان ٦ : ٣٤٣ .

عليه ، تارةً بالميراث ، وتارة بالنِّحلة فدُفِعت عنها .

وحَمى المراعىَ حولَ المدينة كلَّها من مواشى المسلمين كلِّهم إلا عن بنى أميّة .

وأعطى عبدَ الله بن أبى سَرْح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب — وهى من طرابلس الغرب إلى طَنْجة — من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال،فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان ، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ، فوضعها بين يدى عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكى أن وَصَلْتُ رَحِمِى ! قال : لا ، ولكن أبكى لأنى أظنك أنك أخذتَ هذا المال عِوضا عما كنتَ أنفقتَه فى سبيل الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . والله لو أعطيتَ مروان مائة درهم لكان كثيرا ، فقال : ألقِ المفاتيح يابن أرقم ؛ فإنا سنجد غيرك .

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسّمها كلّها فى بنى أميّة . وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة ، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صَرْفه زيد بن أرقم عن خزنه .

وانضمّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون ، كتسيير أبى ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرّبَذة ؛ وضَرْب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه،وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود وردّ المظالم،وكفّ الأيدى العادية ، والانتصاب لسياسة الرعيّة،وختم ذلك ماوجدوه من كتابه إلى معاوية[1] يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعديد أحداثه عليه فقتلوه.

وقد أجاب أصحابُنا عن المطاعن فى عثمانَ بأجوبة مشهورة مذكورة فى كتبهم . والذى نقول نحن : إنّها وإن كانت أحداثا ، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه ،

(١) كذا فى جميع الأصول ؛ ويرى الأستاذ مكى السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذى وجدوه معه موجه إلى عبد الله بن أبى سرح لا إلى معاوية .

وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها ، ولا يعجلوا بقتله ، وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ النّاس من دمه ، وقد صرّح بذلك فى كثير من كلامه ؛ من ذلك قوله عليه السلام : والله ماقتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله .

وصدق صلوات الله عليه .

* * *

الأصْلُ :

فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِب ، حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ ، وَشُقَّ عِطْفَايَ ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ . فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى ، وَفَسَقَ آخَرُونَ ؛ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلاَمَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١) ؛ بَلَى وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا ، وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا .

* * *

الشّرْحُ :

عُرْف الضّبع ثخين ، ويضرب به المثل فى الازدحام . وينثالون : يتتابعون مزدحمين . والحسَنان : الحسن والحسين عليهما السلام . والعِطْفان : الجانبان من المنكب إلى الورك ؛ ويروى « عطافى » ، والعطاف : الرداء وهو أشبه بالحال ؛ إلّا أن الرواية الأولى أشهر ؛ والمعنى خُدش جانباى لشدّة الاصطكاك منهم والزحام .

* * *

وقال القطب الراوندىّ : الحسنان : إبهاما الرجل ؛ وهذا لا أعرفه .

---

(١) سورة القصص ٨٣

وقوله : « كربيضة الغنم » أى كالقِطْعة الرابضة من الغنم ، يصف شِدَّة ازدحامهم حوله ، وجثومَهم بين يديه .

وقال القطب الراوندىّ : يصف بلادَتهم ونقصان عقولهم ؛ لأنّ الغنَم توصف بقلّة الفطنة . وهذا التفسير بعيد وغير مناسب للحال .

فأما الطائفة النّاكثة ، فهم أصحابُ الجمل ، وأما الطائفة القاسطة فأصحاب صِفّين . وسماهم رسول الله صلى الله عليه وآله القاسِطين . وأما الطائفة المارقة فأصحاب النّهْرَوان ؛ وأشرنا نحن بقولنا : سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسطين إلى قوله عليه السلام : « ستقاتلُ بعدى النا كثين ، والقاسطين والمارقين » . وهذا الخبر من دلائل نبوّته صلوات الله عليه ، لإنه إخبار صريح بالغيب ، لا يحتمل التَّمويهَ والتدليس كما تحتمله الأخبار المجمَلة ، وصدَّق قوله عليه السلام : « والمارقين » ، قوله أولا فى الخوارج : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمِيّة » ، وصدق قوله عليه السلام « النا كثين » كونهم نكثوا البيعة بادئَ بدء ، وقد كان عليه السلام يتلو وقت مبايعتهم له : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[1] .

وأما أصحاب صفين ، فإنهم عند أصحابنا رحمهم الله مخلّدون فى النار لفِسْقهم ، فصحّ فيهم قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[2] .

وقوله عليه السلام : « حليت الدنيا فى أعينهم » تقول : حلا الشىء فى فمى يحلُو ، وحلِىَ لعينى يحْلَى . والزبرج : الزينةُ من وَشْيٍ أو غيره ، ويقال : الزبرج : الذهب .

فأما الآية فنحن نذكر بعض ما فيها ، فنقول : إنه تعالى لم يعلّق الوعدَ بترك العلوّ فى الأرض والفساد ، ولكن بترك إرادتهما ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ

---

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الجن ١٥

ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [1] ؛ علّق الوعيد بالركون إليهم والميل معهم ، وهذا شديد في الوعيد .

ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شِراك نعله أحسنَ من شِراك نعل صاحبه فيدخل تحت هذه الآية . ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان يردّدها حتى قُبِض .

* * *

الأَصْلُ :

أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ، وما أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ، وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

فَلَقَ الحبة ، من قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ [2] . والنَّسمة : كلّ ذي رُوح من البشر خاصة .

قوله : « لولا حضور الحاضر » ، يمكن أن يريدَ به لولا حضور البيعة ؛ فإنها بعد عقدها تتعين المحاماة عنها ، ويمكن أن يريد بالحاضر مَنْ حَضَره من الجيش الذين يستعين بهم على الحرب . والكِظّة بكسر الكاف : مايعترى الإنسان من الثِّقل والكَرْب عند الامتلاء من الطعام . والسَّغَب : الجوع . وقولهم : قد ألقى فلان حبل فلان على غاربه ،

---

(1) سورة هود ١١٣ (2) سورة الأنعام ٩٥

أى تركه مهملا يسرح حيث يشاء من غير وازع ولا مانع ؛ والفقهاء يذكرون هذه اللفظة فى كنايات الطلاق . وعَفْطَة عنز : ماتنثره من أنفها ، عفَطت تعفِط بالكسر ؛ وأكثر مايستعمل ذلك فى النعجة ، فأما العنز فالمستعمل الأشهر فيها « النفطة » بالنون ، ويقولون: ماله عافط ولا نافط ، أى نعجة ولا عنز . فإن قيل : أيجوز أن يقال العفطة هاهنا الحَبْقة ؟ فإن ذلك يقال فى العنز خاصة ، عفَطت تعفط . قيل : ذلك جائز ، إلا أن الأحسن والأليق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام التفسير الأول ؛ فإن جلالته وسؤدده تقتضى أن يكون ذاك أراد لا الثانى . فإن صح أنه لا يقال فى العَطْسة عَفْطة إلا للنعجة . قلنا : إنه استعمله فى العنز مجازا .

يقول عليه السلام : لولا وجود مَنْ ينصرنى — لا كما كانت الحال عليها أوّلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنى لم أكن حينئذ واجدا للناصر مع كونى مكلفا ألا أمكّن الظالم من ظلمه — لتركت الخلافة ، ولرفضتها الآن كما رفضتها قبل، ولوجدتم هذه الدنيا عندى أهون من عَطْسة عنز ؛ وهذا إشارة إلى مايقوله أصحابنا من وجوب النهى عن المنكر عند التمكن.

***

الأصْلُ :

قَالُوا : وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا ٱلْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ ، فَنَاوَلَهُ كِتَاباً فَأَقْبَلَ ينظر فِيهِ ؛ فلمّا فرغ من قراءته قَالَ لَهُ ٱبْنُ عباس رضى اللهُ عنهما : يَاأَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، لَوِ اطَّرَدتْ مَقَالَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ! فَقَالَ : هَيْهَاتَ يابن عباس! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ .

قَالَ ابن عباسٍ : فَوَاللهِ مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلَامٍ قطُّ كَأَسَفِى عَلَى هَذَا الْكَلَامِ ألا يَكُونَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمنين بلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ .

***

قوله عليه السلامُ فِي هَٰذِهِ ٱلْخُطْبَةِ : « كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ » يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهَا فِي جَذْبِ ٱلزِّمَامِ وَهِيَ تُنَازِعُهُ رَأْسَهَا خَرَمَ أَنفَهَا ، وَإِنْ أَرْخَى لَهَا شَيْئًا مَعَ صُعُوبَتِهَا تَقَحَّمَتْ بِهِ فَلَمْ يَمْلِكْهَا . يُقَالُ : أَشْنَقَ ٱلنَّاقَةَ إِذَا جَذَبَ رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ فَرَفَعَهُ ، وَشَنَقَهَا أَيْضًا ، ذَكَرَ ذَٰلِكَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ فِي "إِصْلَاحِ ٱلْمَنْطِقِ" . وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « أَشْنَقَ لَهَا » وَلَمْ يَقُلْ « أَشْنَقَهَا » لِأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ : « أَسْلَسَ لَهَا » ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ رَفَعَ لَهَا رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ يعني أَمْسَكَهُ عَلَيْهَا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبَ عَلَى نَاقَةٍ وَقَدْ شَنَقَ لَهَا فَهِيَ تَقْصَعُ بِجِرَّتِهَا .

وَمِنَ ٱلشَّاهِدِ عَلَى أَنَّ « أَشْنَقَ » بِمَعْنَى شَنَقَ قَوْلُ عديٍّ بن زَيْدٍ ٱلعبادِيّ :

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي ٱلْأَيْـ ... ـدِي وَإِشْنَاقُهَا إِلَى ٱلْأَعْنَاقِ

* * *

الشَّرح :

سمّيَ السواد سوادا لخضرته بالزروع والأشجار والنخل ، والعرب تسمي الأخضر أسود، قال سبحانه:﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1] يريد الخضرة . وقوله: « لو اطّردت مقالتك » ، أي أتبعتَ الأوّلَ قولا ثانيا ؛ من قولهم اطّرد النهر ، إذا تتابع جريُه .

وقوله : « من حيث أفضيت » أصل أفضى خرجَ إلى الفضاء ، فكأنه شبّهه عليه السلام حيث سكت عما كان يقوله ، بمن خرج من خباء أو جدار إلى فضاء من الأرض ، وذلك لأنّ النفس والقوى والهمة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب ، فإذا قطع الإنسان وفرغ ، تفرقت وخرجت عن حجر الاجتماع واستراحت .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

والشّقشقة ، بالكسر فيهما : شيء يُخرجه البعير من فيه إذا هاج ، وإذا قالوا للخطيب : ذو شقشقة فإنما شبّهوه بالفحل . والهدير : صوتها .

وأما قول ابن عباس : « ما أسِفتُ على كلام . . » إلى آخره ، فحدثني شيخي أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطيّ[(١)] في سنة ثلاث وستمائة ، قال : قرأتُ على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة ، فلما انتهيتُ إلى هذا الموضع ، قال لي : لو سمعتُ ابن عباس يقول هذا لقلت له : وهل بَقِيَ في نفس ابن عمك أمرٌ لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسف ألّا يكون بلغ من كلامه ما أراد ! والله مارجع عن الأولين ولا عن الآخرين ، ولا بَقِيَ في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال مصدّق : وكان ابن الخشاب صاحبَ دعابة وهزل . قال : فقلت له : أتقول إنها منحولة ! فقال : لا والله ، وإني لأعلم أنها كلامه ، كما أعلم أنك مصدّق . قال : فقلت له : إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضيّ رحمه الله تعالى . فقال : أنَّى للرضيّ ولغير الرضيّ هذا النفَس وهذا الأسلوب ! قد وقفنا على رسائل الرضيّ ، وعرفنا طريقته وفنّه في الكلام المنثور ، ومايقع مع هذا الكلام في خلّ ولا خمر . ثم قال : والله لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كتب صُنِّفت قبل أن يخلق الرضيّ بمائتي سنة ، ولقد وجدتُها مسطورة بخطوط أعرفها ، وأعرف خطوط مَنْ هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيبُ أبو أحمد والد الرضيّ .

قلت : وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخيّ[(٢)]

---

(١) مصدق بن شبيب بن الحسين الصلحي الواسطي ؛ ذكره القفطي في إنباه الرواة (٣ : ٢٧٤) ، وقال إنه قدم بغداد ، وقرأ بها على ابن الخشاب وحبشي بن محمد الضرير ، وعبد الرحمن بن الأنباري وغيرهم ؛ وتوفي ببغداد سنة ٦٠٥

(٢) أبو القاسم البلخي ، ذكره ابن النديم وقال : « كان من أهل بلخ ، يطوف البلاد ويجول الأرض ؛ حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة . . . ورأيت بخطه شيئا كثيرا في علوم كثيرة مسودات ودساتير لم يخرج منها إلى الناس كتاب تام » . الفهرست ٢٩٩ . وابن خلكان ١ : ٢٠٢

إمام البغداديين من المعتزلة ، وكان فى دولة المقتدر قبل أن يُخلق الرضىّ بمدة طويلة . ووجدت أيضاً كثيراً منها فى كتاب أبى جعفر بن قِبَة أحد متكلّمى الإمامية[1] وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب " الإنصاف " . وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبى القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى ، ومات فى ذلك العصر قبل أن يكون الرضىّ رحمه الله تعالى موجودا .

(١) هو أبو جعفر بن محمد بن قبة ؛ من متكلمى الشيعة وحذاقهم ، وله من الكتب كتاب الإنصاف فى الإمامة . الفهرست ١٧٦

(٤)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُمُ الْعَلْيَاءَ [(١)]. وَ بِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ.
وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ؛ وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ!
رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ.
مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ؛ سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ.
أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ؛ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تُمِيهُونَ.
الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ.
عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي، مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ.
لَمْ يُوجِسْ مُوسَى خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ؛ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلَالِ.
الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ.

***

(١) في ا « وتسنمتم ذروة العلياء ».

الشرح :

هذه الكلمات والأمثال ملتقطة من خطبة طويلة منسوبة إليه عليه السلام ، قد زاد[1] فيها قوم أشياء حملتهم عليها أهواؤهم ، لا توافق ألفاظُها طريقته عليه السلام في الخطب ، ولا تناسب فصاحتُها فصاحتَه ، ولا حاجة إلى ذكرها فهي شهيرة . ونحن نشرح هذه الألفاظ ، لأنها كلامُه عليه السلام ، لا يشكّ في ذلك مَنْ له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء والفصحاء في خُطَبهم ورسائلهم ، ولأنّ الرواية لها كثيرة ، ولأن الرضيّ رحمة الله تعالى عليه قد التقطها ونسبها إليه عليه السلام ، وصحّحها وحذف ما عداها .

وأما قوله عليه السلام : « بنا اهتديتم في الظّلماء » ، فيعني بالظلماء الجهالة ، وتَسَنّمتم العلياء : ركبتم سنامها ؛ وهذه استعارة .

قوله : « وبنا انفجرتم عن السّرار » ، أي دخلتم في الفَجْر ، والسّرار : الليلة والليلتان يستتر فيهما القمر في آخر الشهر فلا يظهر . وروى « أفجرتم » ، وهو أفصح وأصحّ ، لأن « انفعل » لا يكون إلا مطاوع « فعل » ، نحو كسرته فانكسر ، وحطمته فانحطم ، إلا ماشذّ من قولهم : أغلقت الباب فانغلق وأزعجته فانزعج . وأيضاً فإنه لا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير ، نحو انكسر وانحطم ؛ ولهذا قالوا : إنّ قولهم : انعدم خطأ ، وأما « أفعل » فيجيء لصيرورة الشيء على حال وأمر ، نحو أغدّ البعير ، أي صار ذا غُدّة ، وأجرَب الرجل ، إذا صار ذا إبلٍ جَرْبى ، وغير ذلك . فأفجرتم ؛ أي صرتم ذوي فجر .

وأما « عن » في قوله : « عن السرار » فهي للمجاوزة على حقيقة معناها الأصليّ ، أي منتقلين عن السرار ومتجاوزين له .

وقوله عليه السلام : « وقر سمع » هذا دعاء على السمع الذي لم يفقه الواعية بالثّقل والصّمَم ، وُقِرَت أُذُنُ زيد ، بضم الواو فهي موقورة ، والوَقْر ، بالفتح : الثّقَل في الأذن ،

---

(١) ب : « رأى » .

وَقِرَتْ أذنُه ـ بفتح الواو وكسر القاف ـ تَوْقَرُ وَقْراً أى صَمّت ، والمصدر فى هذا الموضع جاء بالسكون ، وهو شاذّ ، وقياسه التحريك بالفتح ، نحو وَرِم وَرَماً . والوَاعيـة : الصارخة ، من الوُعاء ، وهو الجَلَبة والأصوات ، والمراد العبر والمواعظ .

قوله : « كيف يُرَاعِي النبأة » ، هـذا مثل آخر ، يقول : كيف يلاحظ ويراعى العِبَر الضعيفةَ مَنْ لم ينتفع بالعِبَر الجليّة الظاهرة ، بل فسد عندها ، وشبّه ذلك بمن أصمّتْهُ الصّيحة القوية ؛ فإنّه محال أن يراعِي بعد ذلك الصوت الضعيف . والنبأة : هى الصوت الخفىّ .

فإن قيل : هذا يخالف قولكم : إنّ الاستفساد لا يجوز على الحكيم سبحانه ، فإنّ كلامه عليه السلام صريح فى أنّ بعض المكلّفين يفسد عند العبر والمواعظ .

قيل : إن لفظة « أفعل » قد تأتى لوجود الشىء على صفة ، نحو أحمدته ، إذا أصبته محموداً . وقالوا : أحْيَيْتُ الأرض ، إذا وجدتها حية النبات [(١)] ، فقوله : « أصمّتْهُ الصيحة » ، ليس معناه أنّ الصيحة كانت علّة لصممه ، بل معناه صادفته أصمّ ، وبهـذا تأول أصحابنا قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [(٢)] .

قوله : « رُبط جَنَان لم يفارقْه الخفَقان » ، هذا مثل آخر ، وهو دعاء لقلب لايزال خائفا من الله يخفق بالثبوت والاستمساك .

قوله : « مازلت أنتظر بكم » ، يقول : كنت مترقباً غدرَكم متفرّسا فيكم الغَرَر ، وهو الغفلة .

وقيل : إنّ هذه الخطبة خطَبها بعد مقتل طلحة والزبير ، مخاطباً بها لهما ولغيرهما من أمثالهما ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر ، بعد قَتْل مَنْ قتل من قريش : « ياعُتْبة بن ربيعة ،

---

(١) ا : « ذات النبات » (٢) سورة الجاثية ٢٣

ياشيبة بن ربيعة ، ياعمرو بن هشام » ، وهم جِيَف منتنة قد جُرّوا إلى القَلِيب .

قوله : « سترنى عنكم » ، هذا يحتمل وجوها ؛ أوضحها أنّ إظهارَكم شعار الإسلام عصمكم منّى مع علمى بنفاقكم ، وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بصِدْق نيّتى . كما يقال : المؤمن يُبْصر بنور الله . ويحتمل أن يريد : سترنى عنكم جلبابُ دينى ، ومنعنِى أن أعرِّفكم نفسى وما أقدر عليه من عَسْفكم ، كما تقول لمن استهان بحقّك : أنت لاتعرفنى ولو شئت لعرّفتُك نفسى .

وفسّر القُطْب الراوندىّ قوله عليه السلام : « وبَصّرنيكمْ صدقُ النية » ، قال : معناه أنّكم إذا صدقتم نياتكم ، ونظرتم بأعين لم تطرَفْ بالحسد والغشّ وأنصفتمونى ، أبصرتم عظيمَ منزلتى .

وهذا ليس بجيّد ، لأنه لو كان هو المراد لقال : وبصّركم إيّاى صدقُ النية ، ولم يقل ذلك ، وإنما قال : « بصّرنيكم » ، فجعل صدقَ النيّة مبصّرا له لالهم . وأيضاً فإنّه حكم بأنّ صدقَ النية هو علّة التبصير ، وأعداؤه لم يكن فيهم صادق النية ، وظاهر الكلام الحكْم والقطع ؛ لا التعليق بالشرط .

قوله : « أقمت لكم على سَنَن الحق » ، يقال : تنحّ عن سَنَن الطريق وسُنن الطريق بفتح السين وضمها ، فالأول مفرد والثانى جمع سُنّة ، وهى جادّة الطريق والواضح منها . وأرض مَضَلّة ومَضِلّة ، بفتح الضاد وكسرها : يضلّ سالكها . وأماهَ الحتفِر يميه ؛ أنبط الماء . يقول : فعلتُ من إرشادكم وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر مايجب على مثلى ، فوقفت لكم على جادّة الحق ومنهجه ؛ حيث طرُق الضلال كثيرة مختلفة من سائر جهاتى ، وأنتم تائهون فيها تلتقون ، ولا دليل لكم ، وتحتفرون لتجِدوا ماء تنقعون به غُلّتكم فلا تظفرون بالماء ، وهذه كلّها استعارات .

قوله : « اليوم أنطق » ، هذا مثلٌ آخر . والعجماء : التي لا نطق لها ، وهذا إشارة إلى الرموز التي تتضمّنها هـذه الخطبة ، يقول : هي خفية غامضة ، وهي مع غموضها جليّة لأولي الألباب ، فـكأنهـا تنطق كما ينطق ذوو الألسنة ، كما قيل : ما الأمور الصامتة الناطقة ؟ فقيـل : الدلائل المخبرة والعبَر الواعظة . وفي الأثر : سل الأرضَ : مَنْ شقَّ أنهارك ، وأخرج ثمارَك ؟ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا .

قوله : « عزبَ رأيُ امرئٍ تخلفَ عنّي » هذا كلام آخر ، عزب ، أي بعد ، والعازب : البعيد . ويحتمل أن يكونَ هذا الكلام إخباراً وأن يكون دعاء ، كما أنّ قوله تعالى : ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [1] يحتمل الأمرين .

قوله : « ما شككْتُ في الحق مذ رأيته » ، هذا كلام آخر ، يقول : معارف ثابتة لا يتطرّق إليها الشكّ والشبهة .

قوله : « لم يوجس موسى » ، هذا كلام شريف جداً ، يقول : إن موسى لما أوجسَ الخيفة ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ [2] ، لم يكن ذلك الخوفُ على نفسه ، وإنما خاف من الفتنة والشُّبْهة الداخلة على المكلّفين عند إلقاء السحرة عصيّهم ، وخُيّل إليه من سحرهم أنّهـا تسعى ، وكذلك أنا لا أخافُ على نفسي من الأعداء الذين نَصَبُوا ليَ الحبائل ، وأرصدوا ليَ المكائد ، وسعّروا عليّ نيران الحرب ؛ وإنما أخاف أن يفتّتن المكلّفون بشُبههم وتمويهاتهم ، فتقوى دولةُ الضلال ، وتغلب كلمة الجهال .

قوله : « اليوم تواقفنا » ، القاف قبل الفاء ، تواقَفَ القوم على الطريق ، أي وقفوا كلّهم عليها ؛ يقول : اليوم اتّضح الحق والباطل ، وعرفناهما نحن وأنتم .

قوله : « مَنْ وثق بماء لم يظمأ » ، الظمأ الذي يكون عند عدم الثقة بالماء ، وليس

---

(١) سورة النساء ٩٠ .　　(٢) سورة طه ٦٧ .

يريد النفيَ المطلق ؛ لأنّ الواثق بالماء قد يظمأ ، ولـكن لا يكون عطشه على حدّ العطش الـكائن عند عدم الماء ، وعدم الوثوق بوجوده ، وهذا كقول أبي الطيب :

وما صَبابَةُ مُشْتاقٍ عَلَى أَمَــلٍ   مِنَ اللِّقاء كَمُشْتاقٍ بِلاَ أَمَلِ(١)

والصائم في شهر رمضان يُصبح جائماً تنازعه نفسه إلى الغِذاء ، وفي أيام الفِطْر لا يجد تلك المنازعة في مثل ذلك الوقت ؛ لأنّ الصائم ممنوع ، والنفس تحرِصُ على طلب مامُنعت منه ؛ يقول : إن وثقتم بي وسكنتم إلى قولي كنتم أبعـدَ عن الضَّلال وأقربَ إلى اليقين وثَلَج النفس ؛ كمن وثِق بأنّ الماء في إداوته ، يكون عن الظمأ وخوف الهلاك من العطش أبعدَ ممّن لم يثقْ بذلك .

---

(١) ديوانه ٣ : ٧٥ .

(٥)

الأصل :

ومن كلام له [1] عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب فى أن [2] يبايعا له بالخلافة :

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ شُقُّوا أَمْوَاجَ ٱلْفِتَنِ بِسُفُنِ ٱلنَّجَاةِ ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ ٱلْمُنَافَرَةِ ، وَضَعُوا تِيجَانَ ٱلْمُفَاخَرَةِ . أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ [3] فَأَرَاحَ . مَاءٌ آجِنٌ ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا . وَمُجْتَنِي ٱلثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَٱلزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ ، فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا : حَرَصَ عَلَى ٱلْمُلْكِ ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا : جَزِعَ مِنَ ٱلْمَوْتِ .

هَيْهَاتَ بَعْدَ ٱللَّتَيَّا وَٱلَّتِي ! وَٱللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ ٱلطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ ، بَلِ ٱنْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَٱضْطَرَبْتُمْ ٱضْطِرَابَ ٱلْأَرْشِيَةِ فِي ٱلطَّوِيِّ ٱلْبَعِيدَةِ [4] .

* * *

الشرح :

المفاخرة : أن يذكر كلّ واحد من الرجلين مفاخرَه وفضائله وقديمه ، ثم يتحاكما إلى ثالث . والماء الآجن : المتغيِّر الفاسد ، أجَنَ الماء ، بفتح الجيم ، يأجِن ويأجُن ، بالكسر والضم . والإيناع : إدراكُ الثمرة . واللُّتيا [5] : تصغير التى ، كما أنّ اللّذيا تصغير الذى . واندمجت : انطويت . والطويّ : البئر المطويّة بالحجارة . يقول : تخلّصوا عن الفتنة وانجُوا منها بالمتاركة والمسالمة والعدول عن المنافرة والمفاخرة .

---

(١) ا : « خطبة » . (٢) ا : « أن يبايعاه » .
(٣) ا : « واستسلم » . (٤) بعد هذه الكلمة فى مخطوطة النهج : « السلام » .
(٥) فى القاموس بفتح اللام المشددة وضمها .

أفلح مَنْ نهض بجناح، أى مات؛ شبّه الميّت المفارقَ للدنيا بطائر نهضَ عن الأرض بجناحه . ويحتمل أن يريد بذلك : أفلح مَن اعتزل هذا العالم ، وساح فى الأرض منقطعا عن تكاليف الدنيا . ويحتمل أيضاً أن يريد : أفلح مَنْ نهض فى طلب الرياسة بناصر ينصره ، وأعوان يجاهدون بين يديه ؛ وعلى التقادير كلّها تنطبق اللفظةُ الثانية ، وهى قوله : « أو استسلم فأراح »[1]، أى أراح نفسه باستسلامه .

ثم قال : الإمْرَة على الناس وخيمة العاقبة ، ذات مشقّة فى العاجلة ، فهى فى عاجلها كالماء الآجن يجدُ شاربه مشقّة ، وفى آجلها كاللقمة التى تحدُثُ عن أكلها الغُصّة . ويَغَصّ مفتوح حرف المضارعة ومفتوح الغين ، أصله : « غَصِصْت » بالكسر . ويحتمل أن يكون الأمران معا للعاجلة ؛ لأن الغَصَص فى أول البلع ، كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث فى أول الشرب . ويجوز ألّا يكون عَنَى الإمْرة المطلقة ؛ بل هى[2] الإمْرة المخصوصة ، يعنى بيعةَ السقيفة .

ثم أخذ فى الاعتذار عن الإمساك وتَرْك المنازعة ، فقال : مجتنِي الثمرة قبل أن تُدْرِك لا ينتفع بما اجتناه ، كمن زرع فى غير أرضه ، ولا ينتفع بذلك الزرع ؛ يريد أنّه ليس هذا الوقت هو الوقت الذى يَسُوغ لى فيه طلب الأمر ، وأنّه لم يَأْنِ بعد .

ثم قال : قد حصَلْت بين حالين ؛ إن قلتُ ، قال الناس : حرَص على المُلْك ، وإن لم أقل ، قالوا : جَزِع من الموت .

قال : هيهات ، استبعادا لظنّهم فيه[3] الجزع. ثم قال : « اللَّتيا والَّتى » ، أى : أبعْدَ اللّتيا والتى أجزع ! أبَعْدَ أن قاسيتُ الأهوال الكبار والصغار ، ومُنِيت بكل داهية عظيمة وصغيرة ! فاللَّتيَّا للصغيرة والَّتى للكبيرة .

---

(١) ا : « واستسلم » .
(٢) ا : « هذه » .
(٣) ساقطة من ا .

ذكر أنّ أنسَه بالموت كأُنسِ الطفل بثدى أمه، وأنّه انطوى على علم هو ممتنع لموجبه من المنازعة، وأنّ ذلك العلم لا يُباح به [1]، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرشية – وهى الحبال – فى البئر البعيدة القعر، وهذا إشارة إلى الوصيّة التى خُصّ بها عليه السلام. إنه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع فى مبدأ الاختلاف عليه.

***

[استطراد بذكر طائفة من الاستعارات]

واعلم أن أحسنَ الاستعارات ما تضمّن مناسبةً بين المستعار والمستعار منه، كهذه الاستعارات، فإنّ قوله عليه السلام: «شُقُّوا أمواجَ الفِتَن بسفُن النجاة» من هذا النوع؛ وذلك لأنّ الفتن قد تتضاعف وتترادف، فحَسُنَ تشبيهها بأمواج البحر المضطربة. ولما كانت السفن الحقيقيّة تنجِّى من أمواج البحر، حَسُن أن يستعار لفظُ السُّفن لما ينجِّى من الفِتن. وكذلك قوله: «وضعوا تيجان المفاخرة»، لأنّ التاج لما كان مما يعظُم به قَدْر الإنسان استعاره لما يتعظّم به الإنسان من الافتخار وذكر القديم وكذلك استعارة النهوض بالجناح لمن اعتزل الناس، كأنه لما نفض يديه عنهم صار كالطائر الذى ينهض من الأرض بجناحيه.

وفى الاستعارات ما هو خارج عن هذا النوع، وهو مستقبح؛ وذلك كقول أبى نواس:

بُحّ صَوْتُ المــــالِ مِمّا ... مِنكَ يَبْــكى وَيَنُوحُ [2]

وكذلك قوله:

مَا لِرجْلِ المــــال أضحتْ ... تَشْتَــكِى مِنكَ الكَلَالَا [3]

(1) ساقطة من ب.

(2) ديوانه ٧٠، وفيه: «يصيح».

(3) ديوانه ١١٩.

وقول أبي تمام :

وكَمْ أحْرَزَتْ مِنكُمْ على قُبْحِ قَدِّها ... صرُوفُ النَّوى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ القَدِّ[1]

وكقوله :

بلَوْنَاكَ ، أمّا كَعْبُ عِرْضِكَ فى العُلا ... فعَالٍ ، ولكن خَدُّ مالِكَ أسْفَلُ[2]

فإنه لا مناسبة بين الرِّجْل والمال ، ولا بين الصوت والمال ، ولا معنى لتصييره للنّوى قدّا ، ولا للعِرْض كعبا ، ولا للمال خدّا .

وقريب منه أيضاً قوله :

لا تَسْقِنِى ماءَ المَلَامِ فإنّنى ... صَبٌّ قدِ اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بُكائِى[3]

ويقال : إن مَخْلَداً الموصلىّ[4] بعث إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلا من ماء الملام ، فقال لصاحبه : قل له يبعث إلىّ بريشة من جَناح الذّلّ لأستخرج بها من القارورة ما أبعثه إليه .

وهذا ظلم من أبى تمام لمخلَد ، وما الأمرانِ سواء ، لأنّ الطائر إذا أعيا وتعب ذلّ وخفض جناحيه ، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلًّا ، ويده جناحه ، فذاك هو الذى حسّن قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾[5] ألا ترى أنه لو قال : واخفِضْ لهما ساق الذّلّ ، أو بطن الذُّلّ لم يكنْ مستحسناً !

* * *

ومن الاستعارة المستحسنة فى الكلام المنثور ، ما اختاره قُدامة بن جعفر فى كتاب " الخراج " نحو قول أبى الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة فى جوابه لأبى الجيش خمارويه

(١) ديوانه ٢ : ١١٠ .

(٢) ديوانه ٣ : ٧٣ .

(٣) ديوانه ١ : ٢٥ .

(٤) هو مخلد بن بكار الموصلى ، وله مع أبى تمام أخبار ومساجلات ، ذكرها الصولى فى كتابه أخبار أبى تمام ٢٣٤ ــ ٢٤٣ .

(٥) سورة الإسراء ٢٤ .

ابن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله، لما كتب بإنفاذ ابنته قَطْر الندى التي تزوّجها المعتضد، وذلك قول ابن ثوابة هذا: وأمّا الوديعةُ فهي بمنزلة ما انتقل من شِمالك إلى يمينك، عنايةً بها وحِياطة لها، ورعايةً لمودتك فيها.

وقال ابنُ ثوابة لمّا كتب هذا الكتاب لأبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد: والله إنّ تسميتي إياها بالوديعة نصفُ البلاغة.

وذكر أحمدُ بن يوسف الكاتب رجلاً خلا بالمأمون، فقال: مازال يفتِلُه في الذِّرْوة والغارِب حتى لفتَه عن رأيه.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصليّ: النبيذ قَيْد الحديث.

وذكر بعضهم رجلا فذمّه، فقال: هو أملس [١] ليسَ فيه مستقرٌّ لخير ولا شر.

ورضيَ بعض الرؤساء عن رجل من موجِدة، ثم أقبل يوبّخه عليها، فقال: إنْ رأيت ألّا تخدش وجهَ رضاك بالتوبيخ فافعل.

وقال بعض الأعراب: خرجنا في ليلةٍ حِندس [٢]، قد ألقتْ على الأرض أكارِعَها، فمحت صورة الأبدان؛ فما كنّا نتعارف إلا بالآذان.

وغزت حنيفة نُميرا، فأتبعتْهم نُميرفأتوا عليهم، فقيل لرجل منهم: كيف صنع قومُك؟ قال: اتّبعوهم والله، وقد أحقَبُوا كل جُمَالِيّة خَيْفَانة [٣]، فما زالوا يخصِفُون آثار المطيّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم، فجعلوا المُرّان [٤] أرشيةَ الموت، فاستقوْا بها أرواحهم.

ومن كلامٍ لعبد الله بن المعتزّ، يصف القلم: يخدُم الإرادَة، ولا يملّ الاستزادة،

---

(١) ا: «إبليس» تحريف. (٢) ليلة حندس: شديدة الظلمة.

(٣) أحقب البعير: وضع له الحقب؛ وهو حبل يشد به الرحل في بطن البعير. والجمالية: الناقة الوثيقة، تشبه بالجمل في خلقتها وشدتها وعظمها. والخيفانة: السريعة، شبهت بالجرادة السريعة.

(٤) حاشية ب: «المران: الرماح...»

ويسكت واقفا ، وينطق سائرا ، على أرضٍ بياضها مظلم ، وسوادُها مضيء .

* * *

فأمّا القطب الراونديّ فقال :قوله عليه السلام : «شُقّوا أمواج الفتن بسفُن النجاة» معناه : كونوا مع أهل البيت لأنّهم سفن النجاة ، لقوله عليه السلام : « مثلُ أهل بيتى كسفينة نوح : مَنْ ركبها نجا ، ومَنْ تخلّف عنها غَرِق » .

ولقائل أن يقول : لا شبهةَ أنّ أهلَ البيت سفُنُ النّجاة ، ولـكنّهم لم يُرادوا هاهنا بهذه اللفظة ؛ لأنّه لو كان ذلك هو المراد ، لـكان قد أمر أبا سفيان والعباس بالسكون مع أهل البيت ، ومرادُه الآن ينقُض ذلك ، لأنّه يأمر بالتقيّة وإظهار اتباع الذين عُقِد لم الأمر ، ويرى أنّ الاستسلام هو المتعيّن ، فالذى ظنّه الراونديّ لا يحتمله الـكلامُ ولا يناسبه .

وقال أيضاً : التعريجُ على الشيء : الإقامة عليه ، يقال : عرّج فلان على المنزل ، إذا حبس نفسه عليه ، فالتقدير : عَرِّجوا على الاستقامة منصرِفين عن المنافرة .

ولقائل أن يقول:التعريج يُعَدّى تارة بـ«عن» وتارة بـ«على» ، فإذاعدّيته بعن أردت التجنّب والرفض،وإذا عدّيته بـ«على» أردت المقام والوقوف ؛ وكلامه عليه السلام معدّى بـ« عن » . قال : « وعرّجوا عن طريق المنافرة ».

وقال أيضاً : « آنس بالموت » أى أسَرُّ به ، وليس بتفسير صحيح ؛ بل هو من الأنس ضدّ الوحشة .

* * *

[اختلاف الرأى فى الخلافة بعد وفاة رسول الله]

لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتغل علىّ عليه السلام بغسله ودفنه ، وبُويع أبو بكر ؛ خلا الزبير وأبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعبّاس وعلىّ عليه

السلام لإجالة الرأى ، وتكلّموا بكلام يقتضى الاستنهاضَ والتهييج ، فقال العباس رضى الله عنه : قد سمعنا قولَكم فلا لِقلّة نستعين بكم ، ولا لِظِنّةٍ نترك آراءكم ، فأمهلونا نراجع الفكر ؛ فإن يكنْ لنا من الإثم مخرج يصرّ بنا وبهم الحقّ صَرِيرَ الجُدْجُد[1] ، ونبسط إلى المجد أكفًا لانقبضها أو نبلغَ المدى، وإن تكنِ الأخرى ، فلا لِقلّة فى العدد ولا لوَهْنٍ فى الأيد ، والله لولا أنّ الإسلام قيّد الفتك،لَدَكْدَكت جنادلَ صخرٍ يسمع اصطكاكها من المحل العلىّ .

فحلّ علىّ عليه السلام حَبْوته ، وقال : الصّبر حلم ، والتقوى دين ، والحجّة محمد ، والطريق الصراط . أيها الناس شُقّوا أمواج الفتن ... الخطبة . ثم نهض فدخل إلى منزله وافترق القوم .

* * *

وقال البَراء بن عازب:لم أزل لبنى هاشم محبًّا،فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خِفتُ أن تمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذنى ماياًخذ الوالهة العَجُول ، مع ما فى نفسى من الحُزْن لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم،فكنت أتردّد إلى بنى هاشم وهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلّم فى الحجرة،وأتفقّد وجوهَ قريش ، فإنّى كذلك إذْ فقدت أبا بكر وعمر ، وإذا قائل يقول : القومُ فى سقيفة بنى ساعدة ، وإذا قائل آخر يقول : قد بُويع أبو بكر ، فلم ألبث ؛ وإذا أنا بأبى بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السّقيفة ، وهم محتجزون بالأُزُر الصنعانيّة لا يمرّون بأحد إلا خبطوه ، وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبى بكر يبايعه ؛ شاء ذلك أو أبى ؛ فأنكرتُ عقلى ، وخرجت أشتدُّ حتى انتهيت إلى بنى هاشم ، والباب مغلق ، فضربت عليهم الباب ضربا عنيفا ، وقلت : قد بايع الناس لأبى بكر بن أبى قُحافة . فقال العباس : تَرِبَتْ أيديكم إلى آخر الدهر ؛ أما إنّى قد أمرتُكم فعصيتُمونى : فمكثتُ أكابِد ما فى نفسى،ورأيت

---

(١) الجدجد : دويبة كالجندب .

فى الليل المِقداد وسلمان وأبا ذَرّ وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التَّيِّهان وحُذَيفة وعمّاراً، وهم يريدون أن يُعيدوا الأمرَ شورى بين المهاجرين.

وبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فأرسلا إلى أبي عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة، فسألاهما عن الرأى، فقال المغيرة: الرأىُ أن تلقوا العباسَ فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمْرة نصيبا، ليقطعوا بذلك ناحية علىّ بن أبي طالب.

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة؛ حتى دَخلوا على العباس، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فحمِد أبو بكر الله وأثنى عليه، وقال:

إنّ الله ابتعث لكم محمدا صلى الله عليه وسلّم نبيًّا، وللمؤمنين وليًّا؛ فمنّ الله عليهم بكونه بين ظَهْرانيهم؛ حتى اختار له ما عنده؛ فخلّى على الناس أمورَهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين، فاختاروني عليهم والياً، ولأمورهم راعياً، فتولّيت ذلك، وما أخاف بعونِ الله وتسديده وَهْناً ولا حَيْرة ولا جُبنا، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب. وما أنفكّ يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامّة المسلمين، يتخذكم لجأ فتكونون حصنه المنيع، وخطبه البديع، فإمّا دخلتم فيما دخل فيه الناس، أو صرفتموهم عمّا مالوا إليه. فقد جئناك، ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا، ولمن بعدك من عقبك، إذ كنت عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكان أهلك، ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم. وعلى رِسْلِكم بنى هاشم؛ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم.

فاعترض كلامه عمر، وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته، فقال: إى والله. وأخرى: إنّا لم نأتكم حاجةً إليكم، ولكنْ كرهنا أن يكونَ الطعنُ فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقمَ الخطب بكم وبهم. فانظروا لأنفسكم ولعامّتهم. ثم سكت.

فتكلم العباس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ الله ابتعث محمداً نبيًّا كما وصفت ووليًّا للمؤمنين ، فمنّ الله به على أمته حتى اختار له ماعنده ، فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين للحقّ ، مائلين عن زَيْغ الهوى ؛ فإن كنت برسول الله طلبت فحقّنا أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ؛ ماتقدّمنا فى أمركم فرَطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نزحنا شحَطا ؛ فإن كان هذا الأمرُ يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين . وما أبعد قولك : إنّهم طعنوا من قولك إنهم مالوا إليك ! وأما مابذلت لنا ، فإن يكنْ حَقّك أعطيتَناه فأمسِكْه عليك ، وإن يكن حقَّ المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ، وإن يكن حقّنا لم نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أروم صرفَك عمّا دخلتَ فيه ، ولكن للحجّة نصيبها من البيان . وأما قولكُ : إن رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله من شجرة نحن أغصانها ، وأنتم جيرانها . وأما قولك ياعمر : إنك تخاف الناس علينا ، فهذا الذى قدمتموه أوّل ذلك ، وبالله المستعان .

* * *

لما اجتمع المهاجرون على بَيْعة أبى بكر ، أقبل أبو سفيان وهو يقول : أما والله إنى لأرَى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ؛ ياآلعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم ! أين المستضعفان؟ أين الأذَلّان ؟ يعنى عليا والعباس . مابالُ هذا الأمر فى أقلّ حيّ من قريش . ثم قال لعليّ : ابسط يدك أبايعك ، فوالله إن شئت لأملأنّها على أبى فصيل — يعنى أبا بكر — خَيْلا ورَجلا . فامتنع عليه عليّ عليه السلام ؛ فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد شعر المتلمّس :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذَلَّانِ، عَيْرُ الْحَيِّ والْوَتِدُ[1]

هذا على الخسفِ مربوط برُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِي لهُ أَحَـدُ[2]

***

قيل لأبي قُحافة يوم ولي الأمرَ ابنُه: قد ولي ابنك الخلافة، فقرأ: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾[3]، ثم قال: لم ولَّوْه؟ قالوا: لسنِّه، قال: أنا أسنّ منه.

نازع أبو سفيان أبا بكر في أمر فأغلظ له أبو بكر، فقال له أبو قحافة: يابنيّ، أتقول هذا لأبي سُفيان شيخِ البطحاء! قال: إن الله تعالى رَفع بالإسلام بيوتا، ووضع بيوتا، فكان ممّا رفع بيتُك يا أبت، ومما وضع بيتُ أبي سفيان.

(١) معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . والعير هنا : الحمار .
(٢) الخسف : النقيصة . والرمة : القطعة من الحبل .
(٣) سورة آل عمران ٢٦ .

(٦)

الأصْـلُ :

ومن كلام له لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يُرْصد لهما القتال :

وَاللهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا ؛ وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ ، وَبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَدًا ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي ؛ فَوَاللهِ مَازِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّي ، مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ[1] مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

يقال : أرصد له بشرّ ، أى أعدّ له وهيأه ؛ وفى الحديث : « إلا أنْ أرصُدَهُ لِدَيْنٍ علىّ »[2] . واللَّدْم : صوت الحجر أو العصا أو غيرهما ، تضرب به الأرض ضربا ليس بشديد.

ولما شرح الراوندىّ هذه اللفظات ، قال : وفى الحديث : « والله لا أكون مثل الضَّبُع تسمعُ اللَّدْم حتى تخرج فتُصاد » ، وقد كان – سامحه الله – وقت تصنيفه الشّرح ينظر فى "صحاح الجوهرىّ"[3] وينقل منها ، فنقل هذا الحديث ظنًّا منه أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس كما ظنّ ، بل الحديث الذى أشار إليه الجوهرىّ هو حديث علىّ عليه السلام الذى نحن بصدد تفسيره .

ويختلها راصدها : يخدعها مترقبها ، ختلتُ فلانا : خدعتَه . ورصدته : ترقبته . ومستأثَرًا علىّ ، أى مستبَدًّا دونى بالأمر ، والاسم الأثَرَة ، وفى الحديث : إنّه صلى الله عليه وآله ،

---

(١) مخطوطة النهج : « مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ غَيْرِي » .

(٢) نقله ابن الأثير فى النهاية (٢ : ٨٢) عن أبى ذر : قال له عليه الصلاة والسلام : « ما أحب عندى مثل أحد ذهبا فأنفقه فى سبيل الله ، وتمسى ثالثة وعندى منه دينار ؛ إلا دينارا أرصده لدين » .

(٣) صحاح الجوهرى ٥ : ٢٠٢٩ .

قال للأنصار : «ستلقون بعدى أثرة ، فإذا كان ذلك فاصبروا حتى تردوا علىّ الحوض»[1] .
والعرب تقول فى رموزها وأمثالها : أحمق من الضبع[2] ؛ ويزعمون أن الصائد يدخل عليها وجارها ، فيقول لها: أطرق أمّ طرّيق ، خامرى أمّ عامر، ويكرر ذلك عليها مراراً . معنى أطرق أمّ طرّيق طأطئى رأسك ، وكناها أمّ طرّيق لكثرة إطراقها ، على « فعّيل » كالقبّيط للناطف ، والعلّيق لنبت . ومعنى « خامرى» الزمى وجارك واستترى فيه ، خامر الرجلُ منزلَه إذا لزمه . قالوا : فتلجأ إلى أقصى مغارها وتتقبّض ، فيقول: أمّ عامر ليست فى وجارها ، أم عامر نائمة ، فتمدّ يديها ورجليها وتستلق ، فيدخل عليها فيوثقها ، وهو يقول لها: أبشرى أمّ عامر بكمّ[3] الرجال، أبشرى أم عامر بشاءٍ هزلى، وجرادٍ عظلى[4] ، أى يركب بعضه بعضا ، فتشدّ عراقيبها فلا تتحرك ، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها ، قال الكميت :

فعلَ المقرّة للمقا لة خامرى ياأمّ عامر[5]

وقال الشنفرى :

لا تقبُرونى إن قبرى محرّمٌ عليكمْ ولكنْ خامرى أمّ عامرِ[6]
إذا مامضى رأسى وفى الرأس أكثرى وغودرَ عندَ الملتقى ثَمّ سائرى[7]
هنالك لا أرجُو حياةً تسرُّنى سجيسَ الليالى مُبسَلا بالجرائرِ[8]

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية (١ : ١٥) ، وقال : « الأثرة ، بفتح الهمزة والثاء الاسم من آثر يؤثر إيثارا ؛ إذا أعطى ؛ أراد أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم فى نصيبه فى الفئ » .
(٢) المثل فى جمهرة الأمثال ١ : ٢٧٦
(٣) كم : جمع كمة ؛ وهى قلفة الذكر ، وفى جمهرة الأمثال : « كمر » ؛ جمع كمرة ؛ وهى رأس الذكر.
(٤) فى اللسان : « تعاظلت الجراد ، إذا تسافدت » وأورد المثل .
(٥) من أبيات فى معانى ابن قتيبة ١ : ٢١٤
(٦) ديوانه ٣٦ (من مجموعة الطرائف الأدبية) ، وفيه : « أبشرى أم عامر »
(٧) ديوانه :

* إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى *

(٨) سجيس الليالى ؛ أى أبدا ؛ ومبسلا ، أى مسلما ؛ كذا فسره صاحب اللسان فى (٧ : ٤٠٨) ، (١٣ : ٥٧) ، واستشهد بالبيت .

أوصاهم ألّا يدفنوه إذا قُتل ، وقال: اجعلونى أُكُلًا للسباع ، كالشىء الذى يرغَبُ به الضبُع فى الخروج ؛ وتقدير الكلام : لا تقبرونى ولكن اجعلونى كالتى يقال لها : خامرِى أمّ عامر ، وهى الضبُع ، فإنها لا تقبَر . ويمكن أن يقالَ أيضا : أراد لا تقبرونى واجعلونى فَريسة للتى يقال لها : خامرى أم عامر ؛ لأنها تأكل الجيفَ وأشلاء القتلى والموتى .

وقال أبو عبيدة : يأتى الصائد فَيضرِب بعقِبه الأرض عند باب مَغارها ضربا خفيفاً ؛ وذلك هو اللَّدْم ، ويقول: خامرى أم عامر ؛ مرارا، بصوت ليس بشديد ، فتنام على ذلك، فيدخل إليها ، فيجعل الحبْل فى عرقوبها ويجرّها فيخرجها . يقول : لا أقعدُ عن الحربِ والانتصار لنفسى وسلطانى ، فيكون حالى مع القوم المشار إليهم حال الضَّبُع مع صائدها ، فأكون قد أسلمتُ نفسى ، فعلَ العاجز الأحمق، ولكنّى أحارب مَنْ عصانى بمن أطاعنى حتى أموت ، ثم عقّب ذلك بقوله: إن الاستئثار علىّ والتغلّب أمر لم يتجدّد الآن؛ ولكنه كان منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

[طلحة والزبير ونسبهما]

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. أبوه ابن عمّ أبى بكر ، وأمه الصّعبة بنت الحضرمىّ ، وكانت قبل أن تكون عند عبيد الله تحت أبى سفيان صخر بن حرب ، فطلقها ثم تبعتْها نفسُه ، فقال فيها شعراً أوله :

وإنّى وصَعْبَـــــةَ فيما أرَى بَعيدانِ والوُدُّ ودٌّ قريبُ

فى أبيات مشهورة. وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحدُ أصحاب الشورى ، وكان له فى الدّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد أثر عظيم ، وشَلّت بعضُ

أصابه يومئذ فوق رسول الله صلى الله عليه وآله بيده من سيوف المشركين، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ : « اليوم أوْجَبَ طلحة الجنة »[1] .

والزّبير هو أبو عبد الله الزُّبَيْر بن العوام بن خُوَيْلِد بن أسد بن عبدالعزى بن قصيّ، أمه صفيّة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو أحد العشرة أيضاً، وأحدُ الستّة، وممن ثبَت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد وأبلى بلاء حسنا، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لكل نبيّ حواريّ وحواريّ الزبير». والحواريّ : الخالصة ، تقول : فلان خالصة فلان ، وخُلْصانه وحواريّه ، أى شديد الاختصاص به والاستخلاص له .

***

[خروج طارق بن شهاب لاستقبال عليّ بن أبي طالب]

خرج طارق بن شهاب الأحمسيّ يستقبل عليا عليه السلام ، وقد صار بالرّبذَة طالبا عائشة وأصحابها، وكان طارق من صحابة عليّ عليه السلام وشيعته، قال : فسألتُ عنه قبل أن ألقاه : ما أقدمه ؟ فقيل : خالفه طلحة والزبير وعائشة فأتوا البصرة ، فقلت في نفسي : إنّها الحرب ! أفأقاتل أمّ المؤمنين ، وحواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله ! إنّ هذا لعظيم ، ثم قلت : أأدَعُ علياً ، وهو أوّلُ المؤمنين إيماناً بالله وابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه ! هذا أعظم . ثم أتيتُه فسلّمتُ عليه ، ثم جلست إليه ، فقصّ عليّ قصة القوم وقصّته ، ثم صلى بنا الظهر ، فلما انفتل جاءه الحسن ابنُه عليهما السلام ، فبكى بين يديه ، قال : مابالك ؟ قال : أبكى لقتلك غداً بمَضْيعة ولا ناصر لك . أما إني أمرتك فعصيتَني ، ثم أمرتُك فعصيتَني . فقال عليه السلام : لا تزال تَخِنُّ خنين[2] الأمَة ! ماالذى أمرتَني به فعصيتُك ! قال : أمرتُك حين أحاط الناس بعثمان أن تعتزل ، فإنّ الناس إذا قتلوه طلبوك أينما كنت حتى يبايعوك ، فلم تفعل. ثم أمرتُك لما قُتل عثمان ألّا توافقهم على

---

(١) أوجب، أى عمل عملا أوجب له الجنة . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٩٤

(٢) الخنين : تردد البكاء حتى يكون فى الصوت غنة . والخبر فى اللسان (خنن) وفى الأصول : « حنين » ، تحريف .

البيعة حتى يجتمعَ الناس ويأتيَك وفودُ العرب فلم تفعل . ثم خالفك هؤلاء القوم، فأمرتُك ألّا تخرج من المدينة ، وأنْ تدَعَهم وشأنهم، فإن اجتمعتْ عليك الأمة فذاك، وإلّا رضيتَ بقضاء الله . فقال عليه السلام : والله لا أكون كالضَّبُع تنام على اللّدْم حتى يدخلَ إليها طالبها فيعلّق الحبل برجلها، ويقول لها : دَبابِ دَبابِ ، حتى يُقطع عُرقُوبها ... وذكر تمام الفصل . فكان طارق بن شهاب يبكي إذا ذكر هذا الحديث .

دَبابِ : اسم الضّبع ، مبني على الكسر كبَرَاحِ اسم للشمس .

(٧)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اتخذُوا الشَّيطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلَاكاً، وَاتخذَهُمْ لَهُ أشرَاكاً، فباضَ وَفرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ ؛ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ ، وَنَطَقَ بِأَلسِنَتِهِمْ ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الخطَلَ ؛ فِعلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيطَانُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ .

***

الشرحُ :

يجوز أن يكون أشراكا جمع شريك ، كشريف وأشراف . ويجوز أن يكون جمع شَرَك ، كجَبَل وأجبال ، والمعنى بالاعتبارين مختلف .

وباض وفرّخ فى صدورهم، استعارة للوسوسة والإغواء ، ومرادُه طولُ مكثه وإقامته عليهم ، لأنّ الطائر لا يبيض ويفرّخ إلا فى الأعشاش التى هى وطنه ومسكنه. ودبّ ودرج فى حُجورهم ، أى ربّوا الباطل كما يربّى الوالدان الولد فى حجورهما . ثم ذكر أنه لشدة اتحاده بهم وامتزاجه صار كمن ينظر بأعينهم ، وينطق بألسنتهم، أى صار الاثنان كالواحد، قال أبو الطيّب :

ما الخِلُّ إلاّ مَنْ أودّ بقلبِه وأرَى بطرْفٍ لا يرَى بِسَوَائِهِ[1]

وقال آخر :

كنّا من المساعدة نحيا بروح واحده

---

(١) ديوانه ١ : ٤

وقال آخر :

جُبِلَتْ نَفسُك في نفسي كما　　تُجبَلُ الخمرَةُ بالماء الزلالِ

فإذا مَسّكَ شيء مَسّني　　فإذا أنتَ أنا في كلّ حالِ

والخطل: القول الفاسد. ويجوز: أشرَكهُ الشيطان في سلطانه، بالهمزة، وشرِكهُ أيضاً؛ بغير الهمزة أفصح.

(٨)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك:

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ؛ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ. فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ، وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

* * *

الشرح:

الوليجة: البطانة، والأمر يُسَرّ ويكتم، قال الله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ (١). كان الزبير يقول: بايعتُ بيدي لا بقلبي؛ وكان يدّعي تارة أنّه أُكرِه، ويدّعي تارة أنه ورّى في البيعة تورية، ونوى دخيلة، وأتى بمعاريض لا تُحمل على ظاهرها، فقال عليه السلام: هذا الكلام إقرارٌ منه بالبيعة وادعاء أمر آخر لم يُقِمْ عليه دليلا، ولم ينصب له برهانا، فإمّا أن يقيم دليلا على فساد البيعة الظاهرة، وأنها غير لازمة له، وإمّا أن يعاود طاعته.

قال عليّ عليه السلام للزّبير يوم بايعه: إنّي لخائف أن تغدر بي وتنكث بيعتي، قال: لا تخافنّ؛ فإنّ ذلك لا يكون مني أبدا، فقال عليه السلام: فلي الله عليك بذلك راعٍ وكفيل. قال: نعم، الله لك عليّ بذلك راعٍ وكفيل.

* * *

[أمر طلحة والزبير مع عليّ بن أبي طالب بعد بيعتهما له]

لما بويع عليّ عليه السلام كتب إلى معاوية: أمّا بعدُ، فإنّ الناس قتلوا عثمان عَنْ غير

---

(١) سورة التوبة ١٦

مشورة منّى ، وبايعونى عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابى فبايع لى ، وأوفِدْ إلىّ أشراف أهل الشام قِبَلك .

فلما قدم رسوله على معاوية ، وقرأ كتابه ، بعث رجلا من بنى عُمَيْس ، وكتب معه كتابا إلى الزبير بن العوام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان :

سلام عليك ، أمّا بعد ، فإنى قد بايعتُ لكَ أهل الشام ، فأجابوا واستوسقوا(١) كما يستوسق الجَلَب ، فدونك الكوفة والبَصْرة ، لا يسبقك إليها ابن أبى طالب ، فإنّه لا شىء بعد هذين المِصْرَيْن ، وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فأظهِرا الطلب بدم عثمان ، وادْعُوَا الناس إلى ذلك ، وليَكُنْ منكما الجِدّ والتشمير ، أظفركما الله ، وخذل مناوِئكما !

فلما وصل هذا الكتابُ إلى الزُّبير سُرّ به ، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه ، فلم يشكّا فى النُّصح لهما من قِبَل معاوية ، وأجمعا عند ذلك على خِلاف علىّ عليه السلام .

***

جاء الزبيرُ وطلحة إلى علىّ عليه السلام بعد البيعة بأيام ، فقالا له : يا أمير المؤمنين ، قد رأيتَ ما كنّا فيه من الجَفْوة فى ولاية عثمان كلّها ، وعلمت رأىَ عثمان كان فى بنى أمية ، وقد ولّاك الله الخلافة مِنْ بعده ، فولِّنا بعضَ أعمالك ، فقال لهما : ارضيا بقَسْم الله لكما ، حتى أرى رأيى ، واعلما أنّى لا أشرك فى أمانتى إلّا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابى ، ومن قد عرفت دخيلَته .

فانصرفا عنه وقد دَخَلهما اليأس ، فاستأذناه فى العمرة .

---

(٢) استوسقوا : استجمعوا وانضموا . وفى نهاية ابن الأثير : « ومنه حديث أحد : استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم ، أى استجمعوا » .

طلب طلحة والزبير من علىّ عليه السلام أن يولّيهما المِصْرين : البصرة والكوفة ، فقال : حتى أنظر . ثم استشار المغيرة بن شعبة ، فقال له : أرى أن تولّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس . فخلا بابن عباس ، وقال : ما تَرَى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة ، وبهما كنوزُ الرجال ، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمتَ ، ولستُ آمنهما إن وليتَهما أنْ يُحْدِثا أمرا . فأخذ علىّ عليه السلام برأى ابن عباس . وقد كان استشار المغيرة أيضا فى أمر معاوية ، فقال له : أرى إقرارَه على الشام ، وأن تبعثَ إليه بعهده إلى أن يسكنَ شَغْبُ الناس ، ولك بعدُ رأيك . فلم يأخذ برأيه .

فقال المغيرة بعد ذلك : والله ما نصحتهُ قبلها ، ولا أنصحه بَعْدَها ما بقيت .

***

دخل الزبير وطلحة على علىّ عليه السلام ، فاستأذناه فى العمرة ، فقال : ما العمرةَ تريدان ؟ فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غيرَ العمرة ، فقال لهما : ما العمرةَ تريدان ، وإنما تريدان الغَدْرة ونكْث البَيْعة ؟ فحلفا بالله ما الخلافَ عليه ولا نكْث بيعةٍ يريدان ، وما رأيهما غير العمرة . قال لهما : فأعِيدا البيعةَ لى ثانية ، فأعاداها بأشدِّ ما يكون من الأيمان والمواثيق ، فأذِن لهما ، فلما خرجا من عنده ، قال لمن كان حاضرا : والله لا ترونهما إلا فى فتنة يقتتلان فيها . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمُرْ بردِّهما عليك ، قال : لِيَقْضِيَ الله أمرا كان مفعولا .

***

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكة لم يلقيا أحدا إلا وقالا له : ليس لعلىّ فى أعناقنا بَيْعة ، وإنما بايعناه مكرَهين . فبلغ عليا عليه السلام قولهما ، فقال : أبعدهما الله وأغربَ[1] دارهما ! أما والله لقد علمتُ أنهما سيقتُلان أنفسهما أخبث مقتل ، ويأتيان مَنْ

---

(١) يقال : أغرب داره : أبعدها .

وردا عليه بأشأم يوم ، والله ما العُمْرةَ يريدان ، ولقد أتيانى بوجهَىْ فاجرين ، ورجعا بوجْهَىْ غادرين ناكثين ، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلا فى كتيبة خَشْناء[1] ، يقتُلان فيها أنفسهما ، فبُعداً لهما وسحقاً !

* * *

وذكر أبو مخنف فى ''كتاب الجمل '' أنّ علياً عليه السلام خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البَصْرة ، فقال : أيها الناس ، إنّ عائشة سارت إلى البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلٌّ منهما يرى الأمرَ له دون صاحبه ، أما طلحةُ فابنُ عمّها ، وأما الزبير فَختَنُها ، والله لو ظفروا بما أرادوا — ولن ينالوا ذلك أبدا — ليضربَنّ أحدُهما عنقَ صاحبه بعد تنازع منهما شديد . والله إنّ راكبةَ الجمل الأحمر ما تقطَع عقبة ولا تحلّ عُقْدة إلا فى معصية الله وسَخَطه ، حتى توردَ نفسها ومَنْ معها موارد الملكة ؛ أى والله ليَقتلَنّ ثلثهم ، وليهربنّ ثلثهم ، وليتوبنّ ثلثهم ، وإنها التى تنبحُها كلاب الحوءب ، وإنّهما ليعلمان أنّهما مخطئان . وربّ عالمٍ قتله جهلُه ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ! فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ! وما لنا إلى عائشة من ذَنْب إلّا أنا أدخلناها فى حَيّزنا . والله لأبقَرنّ الباطل ، حتى يظهر الحقّ من خاصِرته ، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجَها . ثم نزل .

* * *

برز علىّ عليه السلام يوم الجمل ، ونادى بالزُّبير : يا أبا عبد الله ، مرارا ، فخرج الزبير ، فتقاربا حتى اختلفتْ أعناقُ خيلهما ، فقال له علىّ عليه السلام : إنّما دعوتُك لأذكّرك حديثا قاله لِى ولك رسول الله صلى الله عليه ؛ أتذكر يوْم رآك وأنت معتنِق ، فقال لك :

---

(١) كتيبة خشناء ، أى كثيرة السلاح خشنته .

«أتحبه» ؟ قلت : ومالى لا أحبّه وهو أخى وابن خالى ! فقال : «أما إنّك ستحارب وأنت ظالم له» . فاسترجع الزبير ، وقال : أذكرتنى ماأنسانيه الدّهر ، ورجع إلى صفوفه . فقال له عبدالله ابنه : لقد رجعتَ إلينا بغير الوجه الذى فارقتنا به ! فقال : أذكرنى علىّ حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحاربُه أبدا ، وإنى لراجع وتارككم منذ اليوم . فقال له عبد الله : ما أراك إلا جبُنت عن سيوف بنى عبد المطّلب ، إنّها لسُيوف حِداد ، تحملها فتية أنجاد ؛ فقال الزبير : ويلك ! أتهيجُنى على حرْبه ! أما إنى قد حلفت ألا أحاربَه ، قال : كفِّرْ عن يمينك ؛ لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت ، وما كنت جبانا ، فقال الزبير : غلامى مكْحولٌ حرّ كفارة عن يمينى ، ثم أنصلَ(١) سِنان رمحه ، وحمل على عسكر علىّ عليه السلام برُمْح لا سنان له ، فقال على عليه السلام : أفرِجوا له ، فإنه مُحْرَج ، ثم عاد إلى أصحابه ، ثم حمل ثانية ، ثم ثالثة ، ثم قال لابنه : أجبنا ويلك ترى ! فقال : لقد أعذرت .

***

لما أذكر علىّ عليه السلام الزبير بما أذكره به ورجع الزبير ، قال :

نَادَى علىٌّ بأمْر لستُ أُنكِرُه ... وَكَانَ عمر أبيك الخير مُذْحِينِ

فقُلْتُ حسبك من عَذْلٍ أبا حَسَنٍ ... بَعْضُ الذى قلتَ مُنذ اليوم يكفِينِى

تَرْكُ الأمور التى تُخشَى مَغَبّتُها ... والله أمثلُ فى الدّنيا وفى الدين

فَاخترْتُ عارا على نارٍ مؤجّجة ... أنّى يقومُ لَهَا خَلْقٌ مِنَ الطّين !

***

لما خرج علىّ عليه السلام لطلب الزبير خرج حاسرا ، وخرج إليه الزبير دارعاً مُدَجّجا ، فقال للزبير : يا أبا عبدِ الله ، قد لَعَمْرِى أعددْت سلاحا ، وحبذا فهل أعددت عند الله عذرا ؟ فقال الزبير : إنّ مردّنا إلى الله ، قال علىٌّ عليه السلام : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢) ، ثم أذكره الخبر ، فلما كرّ

(١) أنصل سنان رمحه ، أى نزعه . (٢) سورة النور ٢٥

الزبيرُ راجعاً إلى أصحابه نادما واجما ، رجع علىٌّ عليه السلام إلى أصحابه جذِلاً مسرورا ، فقال له أصحابه : ياأميرَ المؤمنين ،تبرز إلى الزبير حاسرا ، وهو شاكٍ(١) فى السلاح ،وأنت تعرف شجاعته ! قال : إنّه ليس بقاتلى ، إنّما يقتلُنى رجل خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلةً فى غير مأقِطِ(٢) حرب ، ولا معركة رجال ، وَيلُمّهُ أشقى البشر ! ليودّنّ أنّ أمه هبِلت به ! أما إنّه وأحمر ثمود لمقرونان فى قَرَن .

***

لمّا انصرف الزبير عن حرْب علىّ عليه السلام مرّ بوادى السباع ، والأحنف بن قيس هناك فى جمع من بنى تميم قد اعتزل الفريقين ، فأخبِر الأحنف بمرور الزُّبير ، فقال رافعاً صوته : ماأصنع بالزبير ! لفّ غارّيْن(٣) من المسلمين ،حتى أخذت السيوفُ منهما مأخذها ، انسلّ وتركهم . أما إنّه لخليق بالقتل ، قتله الله ! فاتبعه عمرو بن جُرْموز ــ وكان فاتكا ــ فلما قرُب منه وقف الزبير ، وقال : ماشأنك ؟ قال : جئت لأسألك عن أمر الناس ، قال الزبير : إنى تركتُهم قياما فى الرّكب ، يضرب بعضُهم وجهَ بعض بالسيف . فسار ابن جُرموز معه ، وكلٌّ واحد منهما يتّقى الآخر . فلما حضرت الصلاة ، قال الزبير : ياهذا ، إنّا نريد أن نصلّىَ .

فقال ابن جرموز : وأنا أريد ذلك ، فقال الزبير : فتؤمّنى وأؤمنك ؟ قال : نعم ، فثنى الزبير رجله ، وأخذ وضوءه . فلما قام إلى الصلاة شد ابن جُرموز عليه فقتله ، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه ، وحثا عليه ترابا يسيرا ، ورجع إلى الأحنف ، فأخبره ، فقال: والله ما أدرى أسأت أم أحسنت ؟ اذهب إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فجاء إلى علىّ عليه السلام ، فقال للآذن : قل له : عمرو بن جُرْموز بالباب ومعه رأسُ الزبير وسيفُه ، فأدخله . وفى كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف ، فقال له : وأنت قتلتَه ؟ قال : نعم ، قال : والله ما كان ابنُ صفيّة جبانا ولا لئيما ، ولكن الحَيْن ومصارع السوء،

(١) يقال : رجل شاكى السلاح ؛ إذا كان ذا شوكة وحد فى سلاحه (٢) المأقط : ساحة القتال .
(٣) الغار هنا : الجيش ، وفى اللسان ٦ : ٣٤ : « جمع بين غارين » .

ثم قال : ناولنى سيفه ، فناوله فهزّه ؛ وقال : سيف طالما جَلّى به الكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال ابنُ جرموز : الجائزة ياأمير المؤمنين ، فقال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « بَشِّر قاتل ابن صفيّة بالنار » ، فخرج ابن جُرْموز خائبا ، وقال :

أتيتُ عليًّا برأس الزّبيرِ أبْغى بِهِ عِنْدَهُ الزُّلفَهْ (١)
فَبَشَّر بالنّارِ يوْمَ الحسابِ فبئسَتْ بِشارةُ ذى التُّحفَهْ
فقلتُ له إنّ قتــل الزّبيْر لولا رضاكَ من الكُلفَهْ
فإنْ ترضَ ذاكَ فمنكَ الرّضا وإلا فَدُونَكَ لى حَلْفَــهْ
وَرَبِّ المحلّين والمحرمينَ وَرَبِّ الجماعةِ والأُلفَهْ
لَسِيّان عِندىَ قتلُ الزبيرِ وضرطة عنزٍ بذى الجُحفَهْ

ثم خرج ابن جُرموز على علىّ عليه السلام مع أهل النهر ، فقتله معهم فيمن قتل.

---

(١) المسعودى ١ : ٣٧٣

(٩)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا ، ومَعَ هٰذَيْنَ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتّى نُوقِعَ ، وَلاَ نُسِيلُ حَتّى نُمْطِرَ .

* * *

الشَّرحُ :

أرعد الرجل وأبرق ، إذا أوعد وتهدّد ، وكان الأصمىّ ينكره ، ويزعم أنه لا يقال إلا رعد وبرق ، ولما احتُجّ عليه ببيت الكميت :

أَرْعِدْ وَأَبْرِقْ يا يزيـــد فما وَعيدُك لى بِضائرْ

قال : الكميتُ قروىّ لا يُحتجّ بقوله[1]

وكلام أميرِ المؤمنين عليه السلام حُجّة دالة على بطلان قول الأصمىّ . والفشَل : الجُبْن والخَوَر .

وقوله : « ولا نسيلُ حتى نُمطر » ، كلة فصيحة ، يقول : إنّ أصحاب الجمل فى وعيدم وإجلابهم بمنزلة مَنْ يدّعى أنه يحدث السيل قبل إحداث المطر ؛ وهذا محال ، لأنّ السّيل إنما يكون من المطر ، فكيف يسبق المطر ! وأمّا نحن فإنا لا ندّعى ذلك ، وإنما نُجْرِى الأمور على حقائقها ، فإنْ كان منّا مطر كان منّا سيل ، وإذا أوقعنا بخصمنا أوعدْنا حينئذ بالإيقاع به غيرَه من خصومنا .

(١) الخبر والبيت فى أمالى القالى ١ : ٩٦

وقوله عليه السلام : « ومع هذين الأمرين الفَشَل » معنًى حسَن ، لأنَّ الغالبَ من الجبناء كثرة الضوضاء والجلَبة يوم الحرب ، كما أنَّ الغالبَ من الشجعان الصمت والسكون .

وسمع أبو طاهر الجَنَّابي[1] ضوضاء عسكر المقتدر بالله ودَبادِبَهم[2] وبُوقاتهم ، وهو في ألف وخمسمائة ، وعسكر المقتدر في عشرين ألفا ، مقدّمهم يوسف بن أبي الساج ، فقال لبعض أصحابه : ما هذا الزَّجَل[3] ؟ قال : فَشَل ، قال : أجَل .

ويقال : إنه ما رُئِيَ جيش كجيش أبي طاهر ، ما كان يسمع لهم صوت ، حتى أنَّ الخيل لم تكن لها حَمْحَمة ، فرشقَ عسكرُ ابن أبي الساج[4] القَرامِطةَ بالسّهام المسمُومة ، فجرح منهم أكثر من خمسمائة إنسان .

وكان أبو طاهر في عمارية له ، فنزل وركب فرسا ، وحمل بنفسه ومعه أصحابه حملة على عسكر ابن أبي الساج ، فكسروه وفلّوه وخلصوا إلى يوسف فأسروه ، وتقطّع عسكره بعد أن أتى بالقتل على كثير منهم ، وكان ذلك في سنة خمس عشرة وثلثمائة .

ومن أمثالهم : الصدقُ ينبي عنك لا الوعيد .

---

(١) هو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ؛ كان أبوه الحسن كبير القرامطة ؛ وقتل سنة ٣٠١ ، قتله خادم له صقلبي ، فتولى ابنه أبو طاهر أمر القرامطة بعده ، بعد أن عجز أخوه سعيد عن الأمر . تاريخ ابن الأثير ٦ : ١٤٧ .

(٢) في اللسان : « الدبادب : صوت كأنه دب ، دب ؛ وهي حكاية الصوت » .

(٣) الزجل : الجلبة ورفع الصوت .

(٤) هو يوسف بن أبي الساج ؛ أحد ولاة الري في عهد المقتدر ؛ وكان استقل عن الخليفة ، ثم عاد إلى طاعته . وانظر طرفا من أخباره في تاريخ ابن الأثير في ٦ : ١٧٥ ، وما بعدها .

(١٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ ؛ وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي ؛ مَا لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَلَا لُبِّسَ عَلَيَّ . وَايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ .

***

الشَّرْحُ :

يمكن أن يَعْنِيَ بالشيطان الشيطانَ الحقيقيَّ ، ويمكن أن يَعْنِيَ به معاوية ، فإن عَنَى معاوية ، فقوله : « قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجْله » كلام جارٍ على حقائقه ، وإن عَنَى به الشيطان ، كان ذلك من باب الاستعارة ؛ ومأخوذاً من قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[1] ، والرَّجْل : جمع راجل ، كالشَّرْب ، جمع شارب ، والرَّكْب : جمع راكب .

قوله : « وإنّ معي لَبَصيرتي » ، يريد أنّ البصيرةَ التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تتغيّر .

وقوله : « ما لبّست » تقسيم جيّد ، لأنّ كل ضالّ عن الهداية ، فإمّا أن يضلّ من تلقاء نفسه ، أو بإضلال غيره له .

وقوله : « لأفرِطَنّ » من رواها بفتح الهمزة ، فأصله « فَرَطَ » ثلاثيّ ، يقال : فَرَطَ

(١) سورة الإسراء ٦٤ .

ز يد القوم أى سبقهم ، ورجل فَرَطٌ : يسبق القوم إلى البئر ، فيهيّئ لهم الأرشية والدِّلاء ، ومنه قوله عليه السلام : « أنا فَرَطُكم على الحوض » ، ويكون تقدير الكلام : وايمُ الله لأفرِطَنّ لهم إلى حوض ، فلما حذف الجارّ عدّى الفعل بنفسه ، فنصب ، كقوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾(١) ، وتكون اللام فى «لهم» إمّا لامَ التعدية ، كقوله: « ويؤمن للمؤمنين » أى ويؤمن المؤمنين ، أو تكون لام التعليل ، أى لأجلهم . ومن رواها « لأُفرِطَنّ » بضم الهمزة ، فهو من أفرط المزادة ، أى ملأها .

والماتح : المستقِي ، متَح يمتَح، بالفتح ، والمايح ، بالياء: الذى ينزل إلى البئر فيملأ الدلو.

وقيل لأبى علىّ رحمه الله : ما الفرق بين الماتح والمايح ؟ فقال : هما كإعجامهما ، يعنى أنّ التاء بنقطتين من فوق ، وكذلك الماتح لأنه المستقى ، فهو فوق البئر ، والياء بنقطتين من تحت ، وكذلك المايح لأنه تحت فى الماء الذى فى البئر يملأ الدلاء . ومعنى قوله : « أنا ماتحه » ، أنا خبير به ، كما يقول مَنْ يدّعى معرفة الدار : أنا بانى هذه الدار ، والكلام استعارة ؛ يقول : لأملأنّ لهم حِياض الحرب التى هى دُرْبَتى وعادتى ، أو لأسبِقنّهم إلى حياض حرب أنا متدرِّب بها ، مجرِّب لها ، إذا وردوها لا يصدُرون عنها . يعنى قتلَهم وإزهاق أنفسهم ، وَمَنْ فرّ منهم لا يعود إليها . ومن هذا اللفظ قول الشاعر :

تَمَخَّضَتُ بِدَلْوِهِ حتّى تَحَسّى ... ذَنُوبَ الشرِّ مَلْأَى أو قُرابا(٢)

***

---

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) البيت فى شرح الحماسة للمرزوقى ٥٣٣ من غير نسبة .

(١١)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لابنه محمد بن الحنفيّة لما أعطاه الراية يوم الجمل :

تَزُولُ الجِبَالُ وَلَا تَزُلْ ، عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ ، أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ ، تِدْ فِي الأَرْضِ قَدَمَكَ ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى القَوْمِ ، وَغُضَّ بَصَرَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ .

الشَّرْحُ :

قوله : « تَزُولُ الجبالُ ولَا تَزُل » ، خبر فيه معنى الشرط، تقديره : إن زالتِ الجبالُ فلا تزُل أنتَ ؛ والمراد المبالغة. في أخبار صِفِّين أنّ بني عُكْلٍ – وكانوا مع أهل الشام – حملوا في يوم من أيام صِفِّين، خرجوا وعقلوا أنفسهم بعمائمهم، وتحالفوا أنّا لا نفِرّ حتى يفِرّ هذا « الحكر » ، بالكاف ، قالوا : لأن عُكْلاً تبدل الجيم كافا .

والناجِذُ: أقصى الأضراس. وتِدْ ، أمر من وتَد قَدَمه في الأرض؛ أي أثبِتْها فيها كالوتِد. ولا تَنَاقُضَ بين قوله : « ارم ببصرك » وقوله : « غُضَّ بَصَرَكَ » ، وذلك لأنه في الأولى أمرَه أن يفتح عينَه ويرفع طَرْفَه، ويحدّق إلى أقاصي القوم ببَصره ؛ فِعْلَ الشجاع المِقدَام غيرِ المكترث ولا المبالي، لأنّ الجبانَ تضعُف نفسه ويخفُق قلبُه فيقصر بصره ، ولا يرتفع طَرْفه ، ولا يمتدّ عنقه ، ويكونُ ناكسَ الرأس ، غضيضَ الطرف . وفي الثانية أمرَه أن يَغُضَّ بصرَه عن بَريق سيوفهم ولمعانِ دروعهم ، لئلا يبرُق بصرُه ، ويدهش ويستشعر خوفا. وتقديرُ الكلام « واحمل » وحذف ذلك للعلم به، فكأنه قال: إذا عزمت على الحملة

وصممت ، فغُضّ حينئذ بصرَك واحمل ، وكن كالمَشْوَاء التى تخبِط ما أمامها ولا تبالى .

وقوله : «عضّ على ناجِذك» ، قالوا:إنّ العاضّ على نواجِذه ينبو السيفُ عن دِماغه؛ لأنّ عظام الرأس تشتدّ وتصلب ؛ وقد جاء فى كلامه عليه السلام هذا مشروحاً فى موضع آخر،وهو قوله:«وعَضّوا على النواجذ،فإنه أنبَى للصوارِم عن الهام» . ويحتمل أن يريد به شِدّة الحَنَق ؛ قالوا : فلان يحرِقُ عَلَيّ الأُرَّم ، يريدون شدة الغيظ ، والحرْق : صريف الأسنان وصوتها ، والأُرّم : الأضراس .

وقوله : « أعِرِ اللهَ جُمجمتك »،معناه ابذُلها فى طاعة الله.ويمكن أن يقال:إن ذلك إشعارٌ له أنّه لا يُقتل فى تلك الحرب،لأنّ العاريّة مردودة،ولو قال له : بِع الله جُمجمتَك، لكان ذلك إشعاراً له بالشهادة فيها .

وأخذ يزيد بن المهلّب هذه اللفظة فخطب أصحابَه بواسط،فقال : إنّى قد أسمع قول الرعاع : جاء مَسْلَمة،وجاء العباس[1] ، وجاء أهل الشام،ومَنْ أهلُ الشام؟والله ماهم إلا تسعة أسياف ، سبعة منها معى ، واثنان علىّ ، وأما مَسلمة فجرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس ابن نسطوس[2]،أتاكم فى برابرة وصقالبة وجَرامقة وجراجمة[3] وأقباط وأنباط وأخلاط ، إنما أقبل إليكم الفلاحون وأوباش كأشلاء اللحم . والله مالَقُوا قطّ كحديدكم وعديدكم ، أعيرونى سواعدَكم ساعة تصفِقون بها خراطيمهم ، فإنما هى غَدْوة أو روْحة ؛ حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين .

من صفات الشجاع قولهم : فلان مغامِر ، وفلانٌ غَشَمْشَم ، أى لا يبصرُ مابين يديه فى الحرب،وذلك لشدة تقحّمه وركوبه المهلكة،وقلّة نظره فى العاقبة ، وهذا هو معنى قوله عليه السلام لمحمد : « غُضّ بصرك » .

---

(١) هما مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، جهزهما يزيد بن عبد الملك لقتال يزيد ابن المهلب . انظر ابن خلكان ، ترجمة يزيد بن المهلب . (٢) إشارة إلى أن أمه كانت أمة رومية نصرانية . (٣) الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام . والجرامقة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام .

[ذكر خبر مقتل حمزة بن عبد المطلب]

وكان حمزة بن عبد المطلب مغامِراً غَشَمْشَماً لا يبصِرُ أمامه ، قال جُبَير بن مُطْعِم ابن عديّ بن نوفل بن عبدمناف لعبده وحشيّ يوم أُحُد : وَيْلَك ! إن عليًّا قتل عمّى طُعَيمة سيّد البطحاء يوم بدر ، فإن قتلتَه اليوم فأنت حُرّ، وإن قتلتَ محمداً فأنت حُرّ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ، فلا أحَد يَعدِل عمّى إلّا هؤلاء . فقال : أمّا محمد فإن أصحابه دونَه ، ولن يُسلِموه ، ولا أرانى أصِلُ إليه، وأما علىّ فرجُلٌ حذِر مَرِس[1]، كثير الالتفات فى الحرب لا أستطيع قتلَه ، ولكن سأقتل لك حمزة ، فإنه رجل لا يُبصِر أمامه فى الحرب ، فوقف لحمزة حتى إذا حاذاه زَرَقه بالحَرْبة كما تَزْرق[2] الحبشة بحرابها ، فقتله .

***

[محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره]

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايتَه إلى محمد ابنه عليهما السلام، وقد استوتِ الصفوف ، وقال له : احمِل ؛ فتوقّف قليلا، فقال له : احمل ، فقال : يا أمير المؤمنين، أما ترى السّهام كأنّها شآبيبُ المطر ! فدفع فى صدره ، فقال : أدركك عِرْق من أمّك ، ثم أخذ الرّاية فهزّها ، ثم قال :

اطعَنْ بهـا طعن أبيك تُحْمَدِ لا خير فى الحرْبِ إذا لم تُوقَدِ
* بالمَشْرفىّ والقَنا المسدّدِ *

ثم حمل وحمل الناس خلْفه ، فطحن عسكر البصرة .

---

(١) رجل مرس : شديد العلاج للأمور .
(٢) زرقه : طعنه .

قيل لمحمد: لِمَ يُغرِّرُ بك أبوك فى الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيْه بيمينه.

كان علىّ عليه السلام يقذِفُ بمحمد فى مهالك الحرب، ويكُفّ حَسنا وحُسينا عنها.

ومن كلامه فى يوم صِفّين: امْلِكُوا عنّى هذين الفتَيَيْن، أخاف أن ينقطِع بهما نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله.

أمّ محمد رضى الله عنه خَوْلة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع ابن ثعلبة بن الدُّوَل بن حَنيفة بن لُجَيم بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل.

واختُلِف فى أمرها، فقال قوم: إنّها سَبِيّة من سبايا الرِّدة، قوتل أهلُها على يد خالد ابن الوليد فى أيام أبى بكر، لمّا منع كثير من العرب الزكاة، وارتدّتْ بنو حنيفة، وادّعتْ نبوّة مُسَيْلِمة، وإن أبا بكر دفعها إلى علىّ عليه السلام من سَهْمه فى المغنم.

وقال قوم، منهم أبو الحسن على بن محمد بن سيف المدائنىّ: هى سبيّة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: بعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا إلى اليمن، فأصاب خَوْلة فى بنى زُبَيْد، وقد ارتدُّوا مع عمرو بن معدى كرب، وكانت زُبَيْد سَبَتْهـا من بنى حَنِيفة فى غارة لهم عليهم، فصارت فى سَهْم علىّ عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنْ ولدتْ منك غلاما فسمِّه باسمى، وكَنِّه بكنيتى، فولدتْ له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً، فكنّاه أبا القاسم.

وقال قوم، وهم المحققون، وقولهم الأظهر: إنّ بنى أسدٍ أغارت على بنى حَنِيفة فى خلافة أبى بكر الصدّيق، فسبوْا خَوْلة بنت جعفر، وقدِموا بها المدينة فباعوها من علىّ عليه السلام،

وبلغ قومَها خَبرُها ، فقدِموا المدينة على علىّ عليه السلام ، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم ، فأعتقها ومهرها وتزوّجها ، فولدت له محمداً ، فكنّاه أبا القاسم .

وهذا القول ، هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذُرى فى كتابه المعروف بـ " تاريخ الأشراف " .

***

لما تقاعس محمد يوم الجمل عن الحملة ، وحمل علىّ عليه السلام بالراية ، فضعضع أركان عسكر الجمل، دفع إليه الراية ، وقال : امحُ الأولى بالأخرى ، وهذه الأنصار معك. وضمّ إليه خُزَيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، فى جَمْع من الأنصار ، كثير منهم من أهل بدر ، فحمل حَملات كثيرة ، أزالَ بها القومَ عن مواقفهم وأبلَى بلاء حسنا . فقال خزيمة بن ثابت لعلىّ عليه السلام : أما إنه لو كان غيرُ محمد اليوم لافتضح ، ولئن كنت خِفْتَ عليه الحين وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خِفْناه عليه ، وإن كنتَ أردتَ أن تعلّمه الطعان فطالما علّمته الرجال . .

وقالت الأنصار : يا أمير المؤمنين ، لولا ماجعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب . فقال علىّ عليه السلام : أين النّجم من الشمس والقمر ! أما إنّه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضلَ صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظلمهما له ، ولا نظلمه ــ لفضلهما عليه ــ حقّه ، فقال علىّ عليه السلام : أين يقع ابنى من ابنَىْ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال خُزَيمة بن ثابت فيه :

محمـــدما فى عُودك اليوم وَصْمَةٌ ... ولا كُنْتَ فى الحرْبِ الضَّرُوس مُعَرِّدا(١)

أبوك الذى لم يركب الخيلَ مثلُه ... علىٌّ ، وسمّاك النبىُّ محمـــدا

فلو كان حقا من أبيك خليفةٌ ... لكنت ، ولكن ذاك مالا يرى بَدَا

---

(١) معرد : منهزم .

وأنت بحمد الله أطولُ غالبٍ[1] لسانًا ، وأنداها بما ملكتْ يدا
وأقربُها من كلّ خيرٍ تريدُه قُرَيشٌ وأوفاها بما قال مَوْعدا
وأطعنُهم صدرَ الكميّ برمحه وأكسامُهُم للهام عضبًا مُهنّدا
سوى أخويكَ السيّدين ، كلاهما إمام الورى والداعيانِ إلى الهدى
أبى اللهُ أن يعطي عدوّك مقعدا من الأرض أوفى الأوج مَرْقًى ومصعدا

(١) غالب : يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك .

(١٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل ، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخى فلانا كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك ،فقال علىّ عليه السلام:

أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَدْ شَهِدَنَا ، وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هٰذَا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ ٱلرِّجَالِ ، وَأَرْحَامِ ٱلنِّسَاءِ ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ ٱلزَّمَانُ ، وَيَقْوَى بِهِمُ ٱلْإِيمَانُ .

* * *

الشَّرْحُ :

يرعَفُ بهم الزمان : يوجِدهم ويخرجهم ، كما يرعف الإنسان بالدم الذى يخرجه من أنفه ، قال الشاعر :

وما رَعَف الزمان بمثل عمرو ولا تَلِدُ النساء له ضريبــا

والمعنى مأخوذ من قول النبىّ صلى الله عليه وآله لعثمان ـ ولم يكن شهد بدرا ،تخلّف على رُقَيّة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا مرضت مرضَ موتها ـ : «لقد كنتَ شاهداً وإن كنت غائبا ، لك أجرك وسهمك» .

* * *

[من أخبار يوم الجمل]

قال الكلبىّ : قلت لأبى صالح : كيف لم يضع علىّ عليه السلام السيفَ فى أهل البصرة يوم الجمل بعد ظفره ؟ قال : سار فيهم بالصفح والمنّ الذى سار به رسول الله صلى الله

عليه وآله فى أهل مكة يوم الفتح ، فإنه أراد أن يستعرضهم بالسيف ، ثم منّ عليهم ، وكان يحب أن يهديَهم الله .

قال فِطْر بن خليفة : مادخلتُ دار الوليد بالكوفة التى فيها القصارُون إلا وذكرت بأصواتهم وقعَ السيوف يومَ الجمل .

حرب بن جَيهان الجُعْفىّ : لقد رأيتُ الرماح يوم الجمل قد أشرعَها الرجال بعضهم فى صدر بعض ، كأنّها آجامُ القصب ، لو شاءت الرجال أن تمشىَ عليها لمشتْ ، ولقد صَدَقونا القتال حتى ماظننت أن ينهزموا ، وما رأيت يوماً قطّ أشبهَ بيوم الجمل من يوم جَلُولاء الوقيعة(١) .

الأصبغ بن نُباتة : لما انهزم أهلُ البصرة ركب علىّ عليه السلام بَغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشَّهْباء؛ وكانت باقية عنده ، وسار فى القتلى يستعرضهم ، فمرّ بكعب بن سور القاضى ، قاضى البصرة ، وهو قتيل ، فقال: أجلسوه ، فأجلس ، فقال له : وَيْلُمِّكَ كعب ابن سور ! لقد كان لك علمٌ لو نَفَعك ! ولكنّ الشيطانَ أضلّك فأزلّك ، فعجّلك إلى النار ، أرسلوه . ثم مر بطلحة بن عبيد الله قتيلا ؛ فقال : أجلسوه ، فأجلِسَ ـ قال أبو مخنف فى كتابه : فقال : وَيْلُمِّكَ طلحة ! لقد كان لك قَدَم لو نفعك ! ولكن الشيطان أضلّك فأزلّك فعجلك إلى النار .

وأما أصحابُنا فيروُون غير ذلك ؛ يروون أنه عليه السلام قال له لما أجلسوه : أعزِزْ علىّ أبا محمد أن أراك معفّرا تحت نجوم السماء وفى بطن هذا الوادى ! أبَعْدَ جهادك فى الله ، وذبّك عن رسول الله صلى الله عليه وآله ! فجاء إليه إنسان فقال : أشهد ياأمير المؤمنين ، لقد مررتُ عليه بعد أن أصابه السهمُ وهو صريع ، فصاح بى ، فقال : مِنْ أصحابِ مَن أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : امدُد يَدَك لأبايع

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان، كانت بها وقعة المسلمين على الفرس سنة ١٦ ؛ وسميت الوقيعة لما أوقع بهم المسلمون (ياقوت) .

لأمير المؤمنين عليه السلام ، فمددت إليه يدى فبايعنى لك . فقال علىّ عليه السلام : أبى الله أن يدخُلَ طلحة الجنةَ إلا وبيعتى فى عنقه .

ثم مرّ بعبد الله بن خلف الخزاعىّ ، وكان عليه السلام قتَله بيده مبارزة ، وكان رئيسَ أهل البصرة ، فقال : أجلسوه ، فأجلِس ، فقال : الويل لك يابن خَلَف ! لقد عانيت أمراً عظيما .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : ومرّ عليه السلام بعبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد ، فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوبُ قريش ، هذا اللّباب المَحضُ من بنى عبد مناف . ثم قال : شفيتُ نفسى ، وقتلتُ معشرى ، إلى الله أشكو عُجَرِى وبُجَرِى[1] ! قتلتُ الصناديدَ من بنى عبد مناف ، وأفلتنى الأعيار[2] من بنى جُمَح . فقال له قائل : لشدّ ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنّه قام عنّى وعنه نسوةٌ لم يقمْن عنك .

***

قال أبو الأسود الدؤلىّ : لما ظهر علىّ عليه السلام يومَ الجمل ، دخل بيت المال بالبصرة فى ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرةَ مافيه ، قال : غُرّى غيرى ... مرارا . ثم نظر إلى المال ، وصعّد فيه بصره وصوّب ، وقال : اقسموه بين أصحابى خمسمائة خمسمائة ، فقسم بينهم ، فلا والذى بعث محمدا بالحق ما نقصَ درهما ولا زاد درهما ، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره ، وكان ستة آلاف ألف درهم ، والناس اثنا عشر ألفا .

---

(١) عجرى وبجرى ، نقل صاحب اللسان (٦ : ٢١٦) عن محمد بن يزيد : « معناه همومى وأحزانى ؛ وقيل : ما أبدى وأخفى ، وكله على المثل » . وقال : « وأصل العجر العروق المنعقدة فى الصدر ، والبجر العروق المنعقدة فى البطن خاصة » .

(٢) الأعيار هنا : جمع عير ؛ وعير القوم : سيدهم ؛ وعليه قول الحارث بن حلزة :

زَعَموا أنّ كلّ مَن ضَرَبَ العَيْـ ... ـرَ موالٍ لنـــا وأنّى الولاء

حَبة العُرَني(١) ، قَسَّم عليّ عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة ، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم ، فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كنتُ شاهداً معك بقلبي ، وإن غاب عنك جسمي ، فأعطني من الفيء شيئا . فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم ، ولم يصب من الفيء شيئا .

* * *

اتفقت الرواة كلها على أنّه عليه السلام قَبض ماوجد في عسكر الجمل من سلاح ودابّة ومملوك ومتاع وعُروض ، فقسّمه بين أصحابه ، وأنهم قالوا له : اقسِمْ بيننا أهلَ البصرة فاجعلهم رقيقا ، فقال : لا ، فقالوا : فكيف تُحِلّ لنا دماءهم وتحرِّم علينا سَبْيَهم ! فقال : كيف يحلّ لكم ذرّية ضعيفة في دار هجرة وإسلام ! أما ما أجْلَب به القومُ في معسكرهم عليكم فهو لكم مَغْنم ، وأما ما وارت الدّور وأُغلِقَتْ عليه الأبواب فهو لأهله ، ولا نصيب لكم في شيء منه ، فلما أكثروا عليه قال : فأقرِعوا على عائشة ، لأدفعها إلى مَنْ تصيبه القُرْعة ! فقالوا : نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! ثم انصرفوا .

---

(١) حبة ، بفتح أوله ، ثم موحدة ثقيلة ، بن جوين العرني ، والكوفي . كان غاليا في التشيع ؛ قال في التهذيب : مات أول ما قدم الحجاج العراق سنة ٧٦ .

(١٣)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أهل البصرة :

كُنْتُمْ جُنْدَ ٱلْمَرْأَةِ ، وَأَتْبَاعَ ٱلْبَهِيمَةِ . رَغَا فَأَجَبْتُمْ ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ . أَخْلَاقُـكُمْ دِقَاقٌ ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ ، وَدِينُـكُمْ نِفَاقٌ ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ ، وَٱلْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ ، وَالشَّاخِصُ عنـكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؛ كَأَنِّى بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ ، قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا ، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهِـا .

وفى رواية :

وَايْمُ ٱللهِ ، لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُـكُمْ ، حَتَّى كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ .

وفى رواية :

كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ .

وفى رواية أخرى :

بِلَادُكُمْ أَنْتَنُ بِلَادِ اللهِ تُرْبَةً ؛ أَقْرَبُهَا مِنَ ٱلْمَاءِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ ؛ وَبِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ ٱلشَّرِّ . ٱلْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ ، وَٱلْخَارِجُ بِعَفْوِ ٱللهِ .

كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى قَرْيَتِـكُمْ هَٰذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا ٱلْمَاءُ ، حَتَّى مَا يُرَى مِنْهَا إِلَّا شُرَفُ ٱلْمَسْجِدِ ؛ كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ .

***

الشرح :

قوله : « وأتباع البهيمة » ، يعنى الجمل ، وكان جمل عائشة راية عسكر البصرة ، قُتِلوا دونه كما تُقتَل الرجال تحت راياتها .

وقوله : « أخلاقكم دقاق » ، يصفهم باللؤم ، وفى الحديث أنّ رجلا قال له : يارسول الله إنى أحبُّ أن أنكح فلانة ، إلا أنّ فى أخلاق أهلها دِقّة ، فقال له : « إيّاك وخَضْراء الدِّمن ، إياك والمرأة الحسناء فى مَنْبت السوء » .

قوله : « وعهدكم شقاق » يصفهم بالغدر ، يقول : عهدكم وذمتكم لا يوثق بها ، بل هى وإن كانت فى الصورة عهدا أو ذمّة ، فإنها فى المعنى خلاف وعداوة .

قوله : « وماؤكم زعاق » ، أى مِلْح ، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تُذَمّ به المدينة ، كما قال :

بلاد بها الحُمَّى وأسْدُ عَرِينَةٍ وفيها المعلّى يعتدِى ويَجُورُ
فإنى لِمَنْ قَدْ حَلَّ فِيها لَرَاحِمٌ وإنى من لم يأتِها لَنَذِيرُ

ولا ذنب لأهلها فى أنّها بلاد الحمىّ والسباع .

ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتَهَن بذنبه ، لأنّه إما أن يشاركهم فى الذنوب أو يراها فلا ينكِرُها ؛ ومذهب أصحابِنا أنّه لا تجوز الإقامة فى دار الفسق ، كما لا تجوز الإقامة فى دار الكفر .

والجؤجؤ : عَظْم الصدر ؛ وجؤجؤ السفينة : صدرها .

فأما إخباره عليه السلام أنّ البَصْرة تغرّق عدا المسجدَ الجامع بها ، فقد رأيتُ مَنْ يذكر أنّ كتب الملاحم تدلّ على أنّ البصرة تَهْلِك بالماء الأسود ينفجر من أرضها ، فتغرق ويبقى مسجدها .

والصحيح أن المخبَر به قد وقع ، فإنّ البصرة غرقت مرتين ؛ مرة فى أيام القادر بالله ، ومرة فى أيام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزا بعضه كجؤجؤ الطائر ، حسَب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام ، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس ، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السّنام ، وخربت دورها ، وغرق كلّ ما فى ضِمْنها ، وهلك كثير من أهلها .

وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة ، يتناقلها خلَفهم عن سلفهم .

***

[من أخبار يوم الجمل أيضاً]

قال أبو الحسن على بن محمد بن سيف المدائنىّ ومحمد بن عمر الواقدىّ : ما حُفِظ رَجَز قطّ أكثر من رَجَز قيل يوم الجمل ، وأكثره لبَنِى ضَبّة والأزْد ، الذين كانوا حول الجمل يُحامون عنه ، ولقد كانت الرءوس تُنْدَر(١) عن الكواهل ، والأيدى تَطِيحُ من المعاصم وأقتاب البطن(٢) تندلق من الأجواف ؛ وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل ؛ حتى لقد صرخ عليه السلام بأعلى صوته : ويلكم اعقِروا الجمل فإنه شيطان! ثم قال : اعقِروه وإلا فنيت العرب . لا يزال السيفُ قائماً وراكعاً حتى يهوِى هذا البعيرُ

---

(١) تندر : تقطع .
(٢) الأقتاب : الأمعاء ؛ واحده قتب ، محركة ، أو بكسر فسكون .

إلى الأرض ، فصمدو له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد ؛ فلمّا برك كانت الهزيمة .

***

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم[1] :

نَحْنُ ـ بنى ضَبّة ـ أصحابُ الجملْ ... نُنازِلُ الموتَ إذا المَوْتُ نَزَلْ

نَنْعَى ابن عفان بأطرافِ الأسَلْ ... رُدّوا علينا شيخنـــا ثُمَّ بَجَلْ[2]

الموت أحْلَى عندنا من العَسَلْ ... لا عار فى الموت إذا حانَ الأجَلْ

إنّ عليـا هو من شرّ البَدَلْ ... إن تعدلوا بشَيْخِنا لا يُعتـدلْ

* أينَ الوِهادُ وشماريخُ القُلَلْ[3] *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام :

نحن قتلنا نَعْثَلًا فيمن قُتِلْ ... أكْثرَ من أكْثرَ فيه أو أقَلّ[4]

أنّى يُرَدّ نَعْثَلٌ وقد قَحَلْ ... نَحْنُ ضَرَبْنَا وَسْطَه حَتّى انجدَلْ[5]

لِحُكْمِهِ حُكْمِ الطواغيتِ الأُوَلْ[6] ... بالنَّى وَجافَى فى العملْ

فأبدل الله بِهِ خيرَ بَدَلْ ... إنى امرؤ مستقدِمٌ غيرُ وَكَلْ

* مشمِّر للحربِ معروف بَطَلْ *

ومن أراجيز أهل البصرة :

يأيهـا الجنـد الصليب الإيمانْ ... قوموا قياماً واستغيثوا الرحمنْ

---

(١) الأبيات فى الطبرى (٤ : ٥١٨) ، منسوبة إلى رجل يدعى الحارث من بنى ضبة ، وفى المسعودى (٢ : ٣٧٥) من غير نسبة ، مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .

(٢) بجل : حسب ؛ كذا فسره صاحب اللسان (١٣ : ٤٨) ، واستشهد بالبيت .

(٣) الشماريخ : رءوس الجبال .

(٤) قال صاحب اللسان : « نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية ؛ قيل : إنه كان يشبه عثمان رضى الله عنه ؛ هذا قول أبى عبد . وشاتمو عثمان رضى الله عنه يسمونه نعثلا ؛ تشبيها بالرجل المصرى لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيبا غير هذا » .

(٥) قحل : مات وجف جلده . وانجدل : سقط ، وفى ج : « انجزل » ، أى انقسم قسمين .

(٦) رواية البيت فى كتاب صفين :

* لمّا حكى حكم الطواغيت الأُوَلْ *

إنى أتانى خَـبرٌ ذو ألوانْ ‏ أنّ عليًّا قتل ابنَ عفانْ

ردُّوا إلينا شيْخَنا كما كانْ ‏ يارب وابعثْ ناصراً لعثمانْ

* يقتُلُهمْ بقوّةٍ وسلطانْ *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة :

أبَتْ سيوفُ مَذْحِجٍ وهَمْدَانْ ‏ بأنْ تَرُدَّ نَعْثَلاً كمَا كَانْ

خلقًا سويًّا بعد خلقِ الرَّحمنْ ‏ وَقدْ قضى بالحُكْمِ حكمِ الشَّيْطَانْ

وفارق الحقَّ ونورَ الفرْقَانْ ‏ فذَاقَ كَأْسَ المَوْتِ شُرْبَ الظَّمآنْ

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل ، قاله أهل البصرة :

يا أمّنا عائشُ لا تُراعى ‏ كلُّ بنيك بطل المِصاعِ[1]

يَنْعَى ابنَ عفان إليكِ ناعِ ‏ كعب بن سور كاشف القِنَاعِ

فارضىْ بنصر السيدِ المطاعِ ‏ والأزدُ فيها كَرَمُ الطِّبَاعِ

ومنه قول بعضهم :

يا أمّنا يكْفيكِ منّا دنوهْ ‏ لن يؤخذ الدهرَ الخطامُ عَنْوَهْ

وحولكِ اليوم رجالٌ شَنْوَهْ ‏ وحىّ هَمْدانَ رِجالُ الْهَبْوَهْ[2]

والمالكيوّن القليلو الكَبْوَهْ ‏ والأزدُ حَىٌّ ليس فيهمْ نَبْوَهْ

قالوا : وخرجَ من أهل البصرة شيخ صَبيحُ الوجه ، نبيل ، عليه جُبّة وَشْيٍ ، يحضّ الناس على الحرب ، ويقول :

يامَعشَرَ الأزْدِ عليكُمْ أمّكُمْ ‏ فإنّها صلاتُكمْ وَصَوْمُكُمْ

والحرْمَةُ العُظْمى الّتى تعمُّكُمْ ‏ فأحضروها جِدَّكُمْ وَحَزْمَكُمْ

---

(١) المصاع : الجلاد والضراب . (٢) الهبوة : الغبرة ؛ يريد مايتناثر فى المعارك من الغبار والتراب ، ومن ملاحظات الأستاذ جاسم : « يلزم أن يكون بدلا من حى همدان اسم آخر إذ لم يوجد فى ذلك العهد من همدان أحد بالبصرة » ، والمثبت ما فى الأصول .

لا يَغلبنَّ سُمُّ العدوِّ سُمَّكُمْ ... إن العدوَّ إن علاكُمْ زَمَّكُمْ
وَخَصَّكم بجَوْرِهِ وَعَمَّكُمْ ... لا تفضحوا اليوم فداكم قومكُمْ

قال المدائنيّ والواقدي : وهذا الرَّجز يصدّق الرواية أن الزبير وطلحة قاما فى الناس ، فقالا : إنّ عليًّا إن يظفر فهو فناؤكم يا أهل البصرة ، فاحموا حقيقتكم ، فإنه لا يُبقى حُرْمة إلا انتهكها ، ولا حريمًا إلا هتكه ، ولا ذرّية إلا قتلها ، ولا ذواتِ خِدْرٍ إلّا سَباهُنّ ، فقاتلوا مقاتلةَ مَنْ يحمى عن حريمه ، ويختار الموت على الفضيحة يراها فى اهله .

وقال أبو مِخْنَف : لم يقل أحد من رُجّاز البصرة قولا كان أحبّ إلى أهل الجمل من قول هذا الشيخ ، استقتل الناس عند قوله ، وثبتوا حول الجمل ؛ وانتدبوا ، فخرج عوف بن قَطَن الضَّبِّيُّ ؛ وهو ينادى : ليس لعثمان ثأر إلا علىّ بن أبى طالب وولده ، فأخذ خِطام الجمل ، وقال :

يا أمُّ يا أمُّ خَلَا منِّى الوَطَنْ ... لا أبتغى القبرَ ولا أبغى الكَفَنْ
من ها هنا محشر عوفِ بن قَطَنْ ... إن فاتنا اليوم علىٌّ فالغَبَنْ
أو فاتَنَا ابناهُ حسين وحسنْ ... إذاً أُمُتْ بطول هَمٍّ وَحَزَنْ

ثم تقدم ، فضرب بسيفه حتى قتل .

وتناول عبد الله بن أَبْزَى خِطام الجمل ، وكان كلّ من أراد الجدّ فى الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدّم إلى الجمل فيأخذ بخِطامه ، ثم شدّ على عسكر علىّ عليه السلام ، وقال :

أضرِبُهُمْ وَلَا أرَى أبا حَسَنْ ... ها إنّ هذا حَزَنٌ مِنَ الحَزَنْ

فشدّ عليه علىّ أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله ، وقال : قد رأيت أبا حسن ، فكيف رأيته ! وترك الرمح فيه .

وأخذت عائشة كفًّا من حصًى ، فحصَبَتْ به أصحابَ علىٍّ عليه السلام ، وصاحت بأعلى صوتها : شاهت الوجوه ! كما صنع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يومَ حُنَين ، فقال لها قائل : وما رميتِ إذْ رَمَيْتِ ولكنّ الشيطان[(١)] رمى . وزحف علىٌّ عليه السلام نحو[(٢)] الجمل بنفسه فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه : حسن وحسين ومحمد عليهم السلام ، ودفَع الراية إلى محمد ، وقال : أقدِم بها حتى تركُزَها فى عين[(٣)] الجمَل ، ولا تقفَنّ دونه . فتقدّم محمد ؛ فرَشَقَتْه السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفَد سهامُهم ، فلم يبق لهم إلّا رَشْقة أو رَشقتان . فأنفذا إليه علىٌّ عليه السلام إليه يستحثّه ، ويأمرُه بالمناجزة ، فلمّا أبطأ عليه جاء بنفسه من خَلْفه ، فوضع يده اليسرى على مَنْكِبه الأيمن ، وقال له : أقدِمْ لا أمّ لك ! فكان محمد رضى الله عنه إذا ذكر ذلك بعدُ يبكى ، ويقول : لكأنّى أجد ريحَ نفَسِه فى قفاى ، والله لا أنسى أبداً . ثم أدركتْ عليًّا عليه السلام رِقّة على ولده ، فتناول الرايةَ منه بيده اليسرى ، وذو الفقار مشهور فى يُمْنَى يدَيه ، ثم حمل فغاص فى عسكر الجمل ، ثم رجع وقد انحنَى سيفُه ، فأقامه بركبته . فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمّار : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . فلم يجب أحداً منهم ولا ردّ إليهم بصرَه ؛ وظل ينحطُ[(٤)] ويزأر زئيرَ الأسد ، حتى فَرِق[(٥)] مَنْ حوله . وتبادروه ؛ وإنّه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر مَنْ حوله ، ولا يردُّ حِوارا ، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده ، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قُدُماً قُدُماً ، والرجال تفرّ من بين يديه ، وتنحاز عنه يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، حتى خَضَبَ الأرضَ بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفُه ، فأقامه بركبته ، فاعصوصَب[(٦)] به أصحابُه ، وناشدوه الله فى نفسه وفى الإسلام ، وقالوا : إنّك إن تُصَبْ يذهب الدين ، فأمسِك ونحن نكفيك . فقال : والله ما أريد بما ترون إلّا وجه الله والدار الآخرة . ثم قال لمحمد ابنه : هكذا تصنع يابن الحنفيّة ، فقال الناس : مَن الذى يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين !

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « ولكن الله » . (٢) ا : « يوم » . (٣) ا : « عجز » .
(٤) ينحط : يزفر . (٥) فرق ، من باب تعب ؛ أى خاف . (٦) اعصوصبوا به : استجمعوا والتفوا حوله

ومن كلماته الفصيحة عليه السلام في يوم الجمل ، مارواه الكلبيّ عن رجل من الأنصار قال : بينا أنا واقف في أوّل الصفوف يوم الجمل ؛ إذ جاء عليّ عليه السلام فانحرفتُ إليه فقال : أين مَثْرَى القوم ؟ فقلت : هاهنا ـ نحو عائشة .

قال الكلبيّ : يريد أينَ عددهُم ؟ وأين جمهورهم وكثرتهم ؟ والمال الثريّ على «فعيل» هو الكثير ، ومنه رجل ثَرْوَان ، وامرأة ثروَى ، وتصغيرها ثُرَيّا . والصدقة مثراة للمال ، أي مكثَّرة له .

***

قال أبو مخنَف : وبعث عليّ عليه السلام إلى الأشتر : أن أحِلْ على ميسرتهمْ ، فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقُتل هلال ؛ قتله الأشتر ؛ فمالت الميسرة إلى عائشةَ فلاذوا بها ، وعظمهم بنو ضَبّة وبنو عَدِيّ ، ثم عطفت الأزْد وضَبّة وناجية وباهلة إلى الجمل ، فأحاطوا به ، واقتتل الناس حوله قتالا شديداً ، وقُتِل كعب بن سور قاضي البصرة ، جاءه سهم[1] غَرْبٌ فقتله وخِطام الجمل في يده ، ثم قُتل عمرو بن يثربيّ الضبيّ[2] ، وكان فارسَ أصحاب الجمل وشجاعَهم ، بعد أن قتل كثيراً من أصحاب علي عليه السلام .

قالوا : كان عَمرو أخذ بخِطام الجمل ، فدفعه إلى ابنه ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه عِلباء بن الهيثم السّدوسيّ ، فقتله عمرو ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه هند بن عمرو الجمليّ[3] فقتله عمرو ، ثم دعا إلى البراز ، فقال زيد بن صُوحان العبدِيّ لعليّ عليه السلام : يا أميرَ المؤمنين ، إني رأيت يدا أشرفت عليّ من السماء وهي تقول : هلمّ إلينا ، وأنا خارج إلى

(١) يقال : أصابه سهم غرب (بفتحتين) وغرب (بفتح فسكون) ، إذا كان لا يدرى من رماه ؛ وقيل : إذا أتاه من حيث لايدري . اللسان ٢ : ١٣٣ .

(٢) عمرو بن يثربي ، كان من رءوس ضبة في الجاهلية ، ثم أسلم ، واستقضاه عثمان على البصرة الإصابة ٥ : ١٢٠ ، والاشتقاق ٤١٣ .

(٣) هو هند بن عمرو الجملي ، نسبة إلى جمل بن سعد العشيرة ، حي من مذحج . الاشتقاق ٤١٣ .

بن يثربى ، فإذا قتلنى فادفنى بدمى ولا تُغسِّلْنِى ، فإنى مخاصم عنـد ربى . ثم خرج فقتله عمرو ، ثم رجع إلى خِطام الجمل مرتجزا يقول :

أردَيْتُ عِلباء وهِنـــدا فى طَلَقْ ثم ابنَ صُوحان خَضيباً فى عَلَقْ[1]

قَدْ سَبَقَ اليومَ لنا ماقد سَبَقْ والوِتْرُ مِنّا فى عدىّ ذى الفَرَقْ

والأشترالفاوىوعمروبنالحَمِقْ[2] والفارس المُعلِم فى الحربِ الحَنِقْ

ذاك الذى فى الحادثات لم يُطَقْ أعنى عليًّا ليتـــه فِينا مِزَقْ

قال : قوله: «والوِتر منا فى عدى» يعنى عدىّ بن حاتم الطائىّ،وكان من أشدّ الناس على عثمانَ ، ومن أشدّهم جهادا مع علىّ عليه السلام . ثم ترك ابنُ يثربىّ الخطام،وخرج يطلب المبارزة ، فاختُلف فى قاتله ، فقال قوم : إن عمّار بن ياسر خرج إليـه والناس يسترجعون له ، لأنه كان أضعفَ مَنْ برز إليه يومئذ . أقصرُهم سيفاً ، وأقصفُهم رمحاً ، وأحمشُهم[3] ساقاً ، حمالة سيفه من نِسْعة[4] الرَّحْل ، وذُباب سيفه[5] قريب من إبطه. فاختلفا ضربتين،فنشب سيف ابن يثربى فى حَجَفَة[6] عمّار ، فضرب به عمّار على رأسه فصرعه، ثم أخذ برجله يسحبه حتى انتهى به إلى علىّ عليه السلام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين،استَبقِنى أجاهد بين يديك ، وأقتل منهم مثل ماقتلتُ مِنكم. فقال له علىّ عليه السلام : أبعد زيد وهند وعلباء أستبقيك ! لاها الله إذاً ! قال : فأدنِنى منك أسارّك ، قال له : أنت متمرّد، وقد أخبرنى رسول الله صـلى الله عليـه وآله بالمتمرّدين ، وذكَرك فيهم . فقـال : أما والله لو وصلتُ إليكَ لعضضتُ أنفَكَ عضّةً أبَنْتُه منك .

فأمر به علىّ عليه السلام فضُرِبَتْ عنقه .

---

(١) الطلق : الشوط ، والعلق : الدم .

(٢) عمرو بن الحمق ، يعرف بالكاهن ، صحب الرسول عليه السلام وشهد المشاهد مع على ، وقتله معاوية بالجزيرة ، وكان رأسه أول رأس صلب فى الإسلام . الاشتقاق ٤٧٤ .

(٣) أحمش الساقين : دقيقهما .

(٤) النسع : سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال ؛ والقطعة منه نسعة .

(٥) الذباب : حد السيف ، أو طرفه المتطرف .

(٦) الحجفة : واحدة الحجف ، وهى الترس من جلد أو خشب .

وقال قوم : إن عمراً لما قَتَل مَنْ قَتل،وأراد أن يخرج لطلب البراز ، قال للأزْد:يامعشر الأزد ، إنّكم قوم لكم حياء وبأس،وإنى قد وَتَرْت القوم ، وهم قاتلىَّ،وهذه أمّكم نَصْرُها دَيْن ، وخِذْلانها عقوق ، ولست أخشى أن أقتل حتى أصرَع،فإن صرعت فاستنقذونى. فقالت له الأزْد : مافى هذا الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشتر ، قال : فإياه أخاف .

قال أبو مِخنف : فقيّضه الله له ، وقد أعْلما جميعا ، فارتجز الأشتر :

إنّى إذا ما الحربُ أبدتْ نابَها وأغلَقَتْ يومَ الوغَى أبوابَها
ومزّقَتْ من حنَقٍ أثوابَهـا كنّا قُدَاماها ولا أذنابَهـــا[1]
ليس العــدوُّ دوننا أصحابَها مَنْ هابهـا اليوم فلن أهابَها

* لا طعنَها أخشى ولا ضِرَابَها *

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه،وحامت عنه الأزد فاستنقذوه،فوثب وهو وقِيذٌ ثقيل[2]، فلم يستطع أن يدفَع عن نفسه ، واستعرضه عبدُ الرحمن بن طود البكرىّ ، فطعنه فصرعه ثانية ، ووثب عليه رجل من سَدوس،فأخذه مسحوبا برجله حتى أتى به عليًّا عليه السلام، فناشده الله وقال : يا أميرَ المؤمنين ، اعفُ عنّى ، فإنّ العرب لم تزل قائلةً عنك : إنك لم تُجْهِزْ على جريح قطّ . فأطلقه،وقال : اذهبْ حيث شئت ، فجاء إلى أصحابه وهو لما به. حضره الموت ، فقالوا له : دمُك عند أىّ الناس ؟ فقال : أما الأشتر فلقيَنى وأنا كالمُهر الأرِن[3] ، فعلا حدُّه حَدّى ، ولقيت رجلا يبتغى له عشرة أمثالى . وأما البكرىّ فلقيَنى ، وأنا لما بى ، وكان يبتغى لى عشرة أمثاله ، وتولّى أسرِى أضعفُ القوم ، وصاحبى الأشتر .

قال أبو مِخنف: فلمّا انكشفت الحرب،شكرت أبنةُ عمرو بن يثربىّ الأزد،وعابت قومها ، فقالت :

---

(١) قدامى الجيش : مقدمه .
(٢) الوقيذ : الجريح المشرف على الموت .
(٣) الأرن : النشيط .

يَا ضَبُّ إنك قد فُجِعتِ بفارسٍ ... حَامى الحقيقةِ قاتلِ الأقرانِ
عمرو بن يثرب الذى فُجعتْ به ... كلَّ القبائل من بنى عدنانِ
لم يَحْمِهِ وسط العَجاجة قومُـــــه ... وَحَنَتْ عليه الأزد ، أزد عُمانِ
فلهمْ علىَّ بذاكَ حادثُ نعمةٍ ... ولحبِّهمْ أحببتُ كلَّ يمانِ
لَوْ كانَ يَدْفَعُ عَنْ مَنيَّةِ هالكٍ ... طولُ الأكُفِّ بذابلِ المُرّانِ
أو معشرٌ وصلوا الخطأ بسيوفهمْ ... وَسطَ العَجَاجَة والحتوفُ دَوانِ
مَا نيلَ عَمْرٌ والحوادث جَمَّـــةٌ ... حتى ينُـــــال النجم والقمرانِ
لو غَــــيرُ الأشترِ نَالَهُ لندبتُهُ ... وبكيتُه ما دامَ هَضْبُ أبانِ (١)
لَـكِنَّه مَنْ لَا يُعابُ بِقَتْــــله ... أسد الأسود وفارسُ الفُرْسَانِ

قال أبو مخنف : وبلغنا أنَّ عبد الرحمن بن طود البكرىّ قال لقومه : أنا والله قتلت عمْرا ، وإنَّ الأشتر كان بَعدِى وأنا أمامه فى الصعاليك ، فطعنت عمرا طعنة لم أحسب أنها تُجعل للأشتر دونى ، وإنَّما الأشتر ذو حظٍّ فى الحرب ، وإنّه ليعلم أنه كان خَلْفى ، ولـكن أبَى الناس إلا أنَّه صاحبه ، ولا أرى أن أكون خصم العامة ، وإنَّ الأشتر لأهْلٌ ألّا ينازَع . فلما بلغ الأشترَ قولُه قال : أما والله لولا أنى أطفأت جَمْرَته عنه ما دنا منه ، وما صاحبه غيرى ، وإنَّ الصَّيد لمن وَقَذه . فقال عبد الرحمن : لا أنازِع فيه ، ما القول إلا ما قاله ، وأنَّى لى أن أخالف الناس !

***

قال : وخرج عبد الله بن خلَف الخزاعىّ ، وهو رئيس البصرة ، وأكثر أهلها مالا وضياعا ، فطلب البِراز ، وسأل ألّا يخرج إليه إلا علىّ عليه السلام ، وارتجز فقال :

أبا ترابٍ أدْنُ مِنى فِتْرا (٢) ... فإنَّنى دانٍ إليك شِــبْرَا
* وإنَّ فى صَدْرِى عليك غِمْرا (٣) *

---

(١) أبان : من أسماء الجبال عندهم .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب «ياباتراب» .
(٣) الغمر : الحقد والعداوة .

فخرج إليه عليّ عليه السلام ، فلم يُمهِله أن ضَرَبه ، ففلق هامته .

***

قالوا : استدار الجملُ كما تدور الرّحا ، وتكاثفت الرجال من حوله ، واشتد رُغاؤه ، واشتدّ زحام الناس عليه ، ونادى الحُتات المجاشعيّ : أيها الناس ، أمّكم أمّكم ! واختلط الناس فضرب بعضُهم بعضا ، وتقصّد أهلُ الكوفَة قصْد الجمل ؛ والرجال دونه كالجبال ، كلّما خفّ قوم جاء أضعافهم . فنادى عليّ عليه السلام : ويحكم ! ارْشُقوا الجمل بالنَّبل ، اعقِروه لعنه الله ! فرُشِق بالسهام ، فلم يبقَ فيه موضع إلا أصابه النَّبل ، وكان مجفَّفاً (١) فتعلَّقت السهام به ، فصار كالقنفذ ، ونادت الأزْد وضَبّة : يالثارات عثمان ! فاتخذوها شعارا ، ونادى أصحاب عليّ عليه السلام : يامحمد ! فاتخذوها شعارا ، واختلط الفريقان ؛ ونادى عليّ عليه السلام بشعار رسول الله صلى الله عليه وآله : يا منصور أمِتْ (٢) . وهذا في اليوم الثاني من أيام الجمل ، فلما دعا بها تزلزلت أقدامُ القوم ، وذلك وقت العصر ، بعد أن كانت الحرب من وقت الفجر .

قال الواقديّ : وقد رُوِيَ أن شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم « حمٓ لا ينصرون . اللهم انصرنا على القوم الناكثين » ثم تحاجز الفريقان ، والقتْل فاشٍ فيهما ، إلّا أنّه في أهل البصرة أكثر ، وأمارات النصر لائحة لعسكر الكوفة ، ثم تواقفوا في اليوم الثالث ، فبرز أوّلَ الناس عبد الله بن الزبير ، ودعا إلى المبارزة ، فبرز إليه الأشتر ، فقالت عائشة : مَنْ برز إلى عبد الله ؟ قالوا : الأشتر ، فقالت : وَاثُكْلَ أسماء ! فضربَ كلٌّ منهما صاحبَه فجرحه ، ثم اعتنقا ، فصرع الأشتر عبدَ الله ، وقعدَ على صدره ، واختلط الفريقان : هؤلاء لينقذوا عبد الله ، وهؤلاء ليُعينوا الأشتر . وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام

---

(١) كان مجففا ، أي ألبس التجفاف ، وهو آلة الحرب توضع على الفرس .

(٢) هو أمر بالموت ، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة ، مع حصول الفرض (النهاية لابن الأثير)

لم يَطْعَم ـ وهذه عادته فى الحرب ـ وكان أيضاً شيخاً عالىَ السنّ ، فجعل عبد الله ينادى :

* اقتلونى ومالِـكا [1] *

فلو قال : « اقتلونى والأشتر » لقتلوهما ، إلا أنّ أكثرَ من كان يمرّ بهما لا يعرفهما؛ لـكثرة مَنْ وقع فى المعركة صَرْعى بعضُهم فوق بعض ، وأفلت ابن الزبير مِنْ تحته ولم يكد ، فذلك قول الأشتر :

أعائشُ لولا أننى كُنتُ طَاوِياً	ثلاثاً لألفيتِ ابنَ أُختِكِ هَالِـكَا
غَـداةَ ينادى والرِّجالُ تحوزهُ	بأضعف صوت : أقتلُونى ومالـكا!
فَلَمْ يعرِفُوه إذ دعاهم وغمُّهُ	خِدَبٌ عليـه فى العَجَاجَة بارِكا [2]
فنجّاه مـــــنّى أكلُه وشبابه	وأنىَ شَيْخٌ لم أكن متماسكا

* * *

وروى أبو مخنف عن الأصبغ بن نُباتة،قال:دخل عمّار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشتر على عائشة بعـد انقضاء أمر الجمـل ، فقالت عائشة : ياعمّار، مَنْ معك؟ قال : الأشتر . فقالت : يامالك ، أنت الذى صنعتَ بابن أختى ما صنعت ؟ قال : نعم ، ولولا أنّى كنت طاويا ثلاثة أيام لأرَحْتُ أمة محمد منه ، فقالت : أما علمتَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلّ دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمـان ، أو زناً بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق »!فقال الأشتر : عَلَى بعض هذه الثلاثة قاتلناه ياأم المؤمنين، وأيمُ الله ماخانني سيفى قبلها ، ولقد أقسمت ألّا يصحبَنى بعدها .

قال أبو مخنف : فنى ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذى ذكرناه :

وَقَالَتْ على أىّ الخصال صرعْتَه	بقتلٍ أتى ، أم رِدَّةٍ لا أبا لَـكَا !
أم المحصَنُ الزّانى الذى حَلّ قتلُه	فقلت لها لابُدّ من بعض ذلـكا

* * *

---

(١) بقيته :

* وأقتلُوا مَالِـكاً مَعِى *

وانظر المسعودى ٢ : ٣٧٦

(٢) الخدب : الضخم .

قال أبو مِخنف : وانتهى الحارث بن زهير الأزدىّ من أصحاب علىّ عليه السلام إلى الجمل ، ورجل [1] آخذ بخِطامه ، لا يدنو منه أحد إلا قتله ، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز، فقال لعائشة :

يا أمَّنا أعقّ أمٍّ نَعْلَمُ [2] والأمّ تغذو وُلْدَها وترحَمُ
أما ترين كم شجاعٍ يُكْلَمُ! وتُختلَى هامته والمعصمُ ! [3]

فاختلف هو والرجل ضربتين ، فكلاهما أثخن صاحبه .

قال جندب بن عبد الله الأزدىّ : فجئت حتى وقفت عليهما وهما يفحصان بأرجلهما حتى ماتا . قال : فأتيتُ عائشة بعد ذلك أسلّم عليها بالمدينة ، فقالت : مَنْ أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قالت : هل شهِدْتَنا يوم البصرة ؟ قلت : نعم ، قالت : مع أىّ الفريقين ؟ قلت : مع علىّ ، قالت : هل سمعتَ مقالة الذى قال :

* يا أمّنا أعقّ أمٍّ نَعْلَمُ *

قلت : نعم ، وأعرفه ، قالت : ومن هو ؟ قلت : ابن عمّ لى ، قالت : ومافعل؟قلت: قُتل عند الجمل ، وقُتل قاتله ، قال : فبكت حتى ظننت والله أنها لا تسكت ، ثم قالت : لوددت والله أنى كنت متّ قبل ذلك اليوم بعشرين سنة .

قالوا : وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بخبّاب بن عمرو الراسبىّ ، فارتجز فقال:

أضربُهُمْ ولَوْ أرى عَليّا عمّمْتُهُ أبيضَ مَشْرَفيّا

* أريح منه مَعْشَراً غويّا *

فصمد عليه الأشتر فقتله .

ثم تقدّم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس وهو

---

(١) هو عمرو بن الأشرف . الطبرى ٥ : ٢١١ .

(٢) ذكر الطبرى رواية أخرى فى هذا الرجز :

* يا أمّنا ياخيرَ أمٍّ نَعْلَمُ *

(٣) تختلى : تقطع .

من أشراف قريش ــ وكان اسم سيفه « ولول » ــ فارتجز ، فقال :

أَنَا ابْنُ عَتَّابٍ وَسَيْفِي وَلْوَلْ   والموتُ دون الْجَمَلِ المجلّلْ(١)

فحمل عليه الأشتر فقتله . ثم خرج عبد الله بن حكيم بن جزام من بنى أسد بن عبد العزّى بن قصىّ ، من أشراف قريش أيضاً ، فارتجز وطلب المبارزة ، فخرج إليه الأشتر فضربه على رأسه فصرعه ، ثم قام فنجا بنفسه .

قالوا : وأخذ خِطام الجمل سبعون من قريش ، قُتلوا كلّهم ، ولم يكن يأخذ بخِطام الجمل أحدٌ إلا سالت نفسه ، أوقطعت يده . وجاءت بنو ناجية فأخذوا بخِطام الجمل ، ولم يكنْ يأخذ الخطامَ أحد إلا سألت عائشة : من هذا ؟ فسألت عنهم ، فقيل : بنو ناجية ؛ فقالت عائشة : صبراً يابنى ناجية ، فإنى أعرف فيكم شمائل قريش . قالوا : وبنو ناجية مطعون فى نسبهم(٢) إلى قريش (٢) ، فقتلوا حولها جميعا .

قال أبو مخنف : وحدثنا إسحاق بن راشد عن عبد الله بن الزبير ، قال : أمسيتُ يوم الجمل وبى سبعة وثلاثون جُرحا ، من ضربة وطعنة ورَمْية ، وما رأيتُ مثلَ يوم الجمل قط ، ما كان الفريقان إلّا كالجبلين لا يزولان .

قال أبو مخنف : وقام رجل إلى علىّ عليه السلام فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أىّ فتنة أعظم من هذه ؟ إن البَدْرِيّة لتمشى بعضها إلى بعض بالسيف ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك ! أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها ! والّذى بعث محمدا بالحق وكرّم وجهه ، ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتَ ، ولا ضَلَلْتُ ولا ضُلَّ بى ، ولا زَلَلْتُ ولازُلَّ بى ، وإنى لَعلى بيِّنة من ربّى ، بيّنها الله لرسوله ، وبيّنها رسوله لى ، وسأُدْعَى يوم القيامة ولا ذَنْب لى ، ولو كان لى ذنب لكفّر عنى ذنوبى ما أنا فيه من قتالهم .

قال أبو مخنف : وحدّثنا مسلم الأعور عن حَبّة العُرَنىّ قال : فلما رأى علىّ عليه السلام

---

(١) ب : « عند الجمل » .   (٢ ــ ٢) ساقط من ب .

أن الموتَ عند الجمل ، وأنه مادام قائماً فالحرب لا تُطفأ ، وضع سيفه على عاتقه ، وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، ومشى نحوه والخطام مع بنى ضَبّة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، واستحرّ القتل فى بنى ضَبّة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخلّص علىّ عليه السلام فى جماعة من النَّخَع وهَمْدان إلى الجمل ، فقال لرجل من النَّخَع اسمه بُجَير : دونك الجمل يا بُجير ، فضرب عَجُز الجمل بسيفه فوقع لجنبه ، وضرب بجرانه الأرض ، وعجّ عجيجا لم يُسمع بأشدّ منه ، فما هو إلا أنْ صُرِع الجمل حتى فرّت الرجال ، كما يطير الجراد فى الريح الشديدة الهبوب ، واحتُملت عائشة بهودجها ، فحُملت إلى دار عبد الله بن خلف ، وأمر علىّ عليه السلام بالجمل أنْ يُحرق ثم يذرّى فى الريح . وقال عليه السلام : لعنه الله من دابّة ! فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ، ثم قرأ : ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾(١) .

---

(١) سورة طه ٩٧ .

(١٤)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك :

أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ . خَفَّتْ عُقُولُكُمْ ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ ؛ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ ، وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ ، وفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ .

***

الشّرْحُ :

الغَرَض : ما يُنصَب ليُرمى بالسهام . والنّابل : ذو النَّبْل . والأُكْلة ، بضم الهمزة : المأكول . وفريسة الأسد : ما يفترسه .

وسَفِه فلان ، بالكسر ، أى صار سفيها ، وسَفُه بالضم أيضا . فإذا قلت : سَفِه فلان رأيَه أو حلمَه أو نفسَه ، لم تقل إلا بالكسر ، لأنّ « فَعُل » بالضم لا يتعدّى . وقولهم : سَفِه فلان نفسَه ، وغَبِن رأيَهُ ، وبَطِر عيشَهُ ، وأَلِمَ بطنَه ، ورفِق حالَه ، ورَشِد أمرَه ، كان الأصل فيه كله : سَفِهَتْ نفسُ زيد فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بالمفعوليّة . هذا مذهب البصريين والكسائىّ من الكوفيين .

وقال الفرّاء : لما حُوّل الفعل إلى الرجل خرج ما بعده مفسّرا ليدلّ على أن السفاهة فيه ، وكان حكمه أن يكون : سَفِه زيدٌ نفسا ، لأنّ المفسّر لا يكون إلّا نكرة ، ولكنه ترك على إضافته ، ونُصِب كنصب النكرة ، تشبيها بها .

ويجوز عند البصريين والكسائىّ تقديمُ المنصوب ، كما يجوز : ضرب غلامَه زيدٌ ، وعند الفرّاء لا يجوز تقديمه ، لأن المفسّر لا يتقدّم (١) .

(١) الصحاح ٦ : ٢٢٣٥

فأمّا قوله : « أرضُكم قريبة من الماء ، بعيدة من السماء » فقدقدّمنا[١] معنى قوله « قريبة من الماء » وذكرنا غرَقها من بحر فارس دَفْعتين ، ومراده عليه السلام بقوله : « قريبة من الماء » ، أى قريبة من الغرَق بالماء . وأما « بعيدة من السماء » ؛ فإنّ أربابَ علم الهيئة وصناعة التّنجيم يذكرون أنّ أبعدَ موضع فى الأرض عن السماء الأُبُلّة[٢] ، وذلك موافق لقوله عليه السلام .

ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدّل النهار والبقاع ، والبلاد تختلف فى ذلك . وقد دلّت الأرصاد والآلات النّجُوميّة على أنّ أبعد موضع فى المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الأُبُلّة ، والأبلّة هى قصبة البصرة .

وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السّلام ، لأنّه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب ، ولا تهتدى إليه ، وهو مخصوص بالمدقّقين من الحكماء . وهذا من أسراره وغرائبه البديعة .

---

(١) ص ٢٥٣ من هذا الجزء .

(٢) الأبلّة بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى ، فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ؛ وهى أقدم من البصرة . مراصد الاطلاع ١ : ١٨ .

(١٥)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان رضى الله عنه :

وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قدْ تُزُوِّجَ بِهِ النساء ، وَمُلِكَ بهِ الْإِماء ؛ لَرَدَدْتُه ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً . وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ ، فَالْجَوْرُ عليهِ أَضْيَقُ .

* * *

الشَّرْحُ :

القطائع : ما يُقطِعه الإمام بعضَ الرعيّة من أرض بيت المال ذاتِ الخراج ، ويُسقِط عنه خراجَه ، ويجعلُ عليه ضريبة يسيرة عوضا عن الخراج . وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى أميّة وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة ، وقد كان عمرُ أقطع قطائع ؛ ولكن لأربابِ الغَناء فى الحرب والآثار المشهورة فى الجهاد ؛ فعلَ ذلك ثمناً عمّا بذلوه من مُهَجِهم فى طاعة الله سبحانه ، وعثمان أقطع القطائع صلةً لرَحِمِه ، وميلا إلى أصحابه ، عن غير عناء فى الحرب ولا أثر .

وهذه الخطبة ذَكَرَها الكلبيّ مرويّةً مرفوعةً إلى أبى صالح ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنّ عليا عليه السلام خَطب فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينة ، فقال :

ألا إنّ كلَّ قطيعةٍ أقطعها عُثْمان ، وكلَّ مال أعطاهُ من مال الله ، فهو مَرْدود فى بيت المال ، فإنّ الحقّ القديم لا يُبطله شىء ، ولو وجدتُه وقد[1] تُزوِّج به النساء ، وفُرِّق فى البلدان ، لرددته إلى حاله[2] ؛ فإنّ فى العدل سعة ، ومَنْ ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق .

---

(١) ب : « قد » .

(٢) ب : « على حاله » .

وتفسيرُ هذا الكلام أنّ الوالِيَ إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره فى العدل ، فهى فى الجوْر أضيق عليه ؛ لأنّ الجائر فى مَظِنّة أن يُمنع ويُصَدّ عن جوره .

***

قال الكلبىّ : ثم أمرعليه السلام بكلّ سلاح وُجِد لعثمان فى داره مما تقوّى به على المسلمين فقبض ، وأمر بقبْضِ نجائب كانت فى داره من إبل الصدقة ، فقبضت ، وأمر بقبض سيفه ودرعه ، وأمَر ألّا يعرض لسلاح وُجد له لم يقاتل به المسلمون ، وبالكفّ عن جميع أمواله التى وجدت فى داره وفى غير داره ، وأمر أن تُرْتجع الأموال التى أجاز بها عثمان حيث أُصيبت أو أُصيب أصحابها .

فبلغ ذلك عَمْرو بن العاص ، وكان بأَيْلة من أرض الشام ، أتاها حيث وثب الناس على عثمان ، فنزلها فكتب إلى معاوية : ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشَرَك ابن أبى طالب من كلّ مال تملكه كما تُقْشَر عن العصا لِحاها .

وقال الوليد بن عُقْبة ــ وهو أخو عثمان من أمه ــ يذكر قبضَ علىّ عليه السلام نجائبَ عثمان وسيفَه وسلاحه (١) :

بَنِى هاشمٍ رُدُّوا سلاح ابنِ أختكُم ... ولَا تنهبُوه لَا تَحِلُّ مناهِبُهْ
بَنِى هاشمٍ كيف المَوادةُ بيننَا ... وعِنْدَ علىٍّ دِرْعُهُ ونَجائِبُهْ !
بَنِى هاشمٍ كيف التَّوَدُّدُ مِنكُمُ ... وبَزُّ ابنِ أَرْوَى فيكُمُ وحَرائبُهْ ! (٢)
بنى هاشم إلّا تردُّوا فإنّنا ... سواء علينا قاتلاه وسالبُه
بنى هاشم إنّا وما كان منكُمُ ... كصَدْعِ الصَّفا لا يَشْعَبُ الصَّدْعَ شاعِبُهْ
قَتَلْتُمْ أخِى كَيْما تَكُونُوا مَكانَهُ ... كما غَدرتْ يوماً بِكِسْرَى مَرازِبُهْ (٣)

---

(١) الأبيات فى المسعودى ٢ : ٣٥٦ ؛ والأغانى ٤ : ١٧٥ (ساسى) ، والكامل ٣ : ٢٨ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

(٢) البز : متاع البيت من الثياب . والحرائب : جمع حريبة ؛ وهو مال الرجل الذى يقوم به أمره ؛ ورواية البيت فى المسعودى :

بَنِى هاشمٍ كيفَ الهَوادَةُ بيننَا ... وسَيفُ ابنِ أرْوَى عِندَكُم وحَرائِبُهْ

(٣) رواية المسعودى :

* غَدَرْتُمْ بهِ كَيْمَا تكُونُوا مَكانَهُ *

فأجابه عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بأبيات طويلة[1] من جملتها:

فَلاَ تَسْأَلُونا سَيْفَكُمْ إِنَّ سَيْفَكُمْ أُضِيعَ وأَلْقاهُ لَدَى الرَّوْعِ صاحِبُهْ
وَشَبَّهْتَهُ كِسرَى وقد كان مثله شبيها بكِسْرى هَدْيُهُ وَضَرَائِبُهْ

أى كان كافرا كما كان كسرى كافرا .

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشعر[2] يقول : لعن الله الوليد ! هو الذى فَرّق بين بنى عبد مناف بهذا الشعر !

(١) نسبها المسعودى وصاحب الأغانى إلى الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب .
(٢) ب : « البيت » .

(١٦)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام لما بويع بالمدينة :

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ . إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ . أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ(١) . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً ، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ ؛ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ ، وأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا ، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا .

وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً ، وَلَا كَذَبْتُ كِذْبَةً ، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ .

أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا ، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ .

أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ .

حَقٌّ وَبَاطِلٌ ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ ؛ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

* * *

(٢) قال الرضيّ عليه السلام(٢) : وأقول : إنّ في هذا الكلام الأدنى من مواقع

(١) كذا في ا ومخطوطة النهج ، وفي ب : « نبيهم » .
(٢ ـ ٢) ساقط من ب

ٱلإِحْسَانَ مَا لا تَبْلُغُهُ مَواقِعُ الاسْتِحْسَانِ . وَإِنَّ حَظَّ العَجَبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَظِّ المُعْجَبِ بِهِ ، وَفِيهِ مَعَ الحَالِ الَّتِي وَصَفْنَا [1] زَوَائِدُ مِنَ الفَصَاحَةِ لَا يَقُومُ بِهَا لِسَانٌ ، وَلَا يَطَّلِعُ فَجَّهَا [2] إِنْسَان ، وَلَا يَعْرِفُ مَا أَقُولُ إِلَّا مَنْ ضَرَبَ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ بِحَقٍّ ، وَجَرَى فِيهَا عَلَى عِرْقٍ ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ ﴾ .

* * *

ومن هذه الخطبة :

شُغِلَ مَنِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ . سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا ، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا ، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى .

ٱلْيَمِينُ وَٱلشِّمَالُ مَضَلَّةٌ ، وَٱلطَّرِيقُ ٱلْوُسْطَى هِيَ ٱلْجَادَّةُ ، عَلَيْهَا بَاقِي [3] ٱلْكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ ٱلسُّنَّةِ ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ ٱلْعَاقِبَةِ .

هَلَكَ مَنِ ٱدَّعَى ، وَخَابَ مَنِ ٱفْتَرَى .

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ عِنْدَ جَهَلَةِ النَّاسِ . وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ .

لَا يَهْلِكُ عَلَى ٱلتَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ ، وَلَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ ؛ فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَٱلتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلَا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَلُمْ لَائِمٌ إِلا نَفْسَهُ .

* * *

(١) مخطوطة النهج : « وصفناه » .

(٢) الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، وطلع الطريق : بلغه .

(٣) مخطوطة النهج : « ماقي الكتاب » .

الشَّرْحُ :

الذِّمّة : العقد والعهد ، يقول : هذا الدَّيْن فى ذمّتى ، كقولك : فى عنقى ؛ وهما كناية عن الالتزام والضمان والتقلّد . والزّعيم : الكفيل ، ومخرج الكلام لهم مخرج الترغيب فى سماع مايقوله ، كما يقول المهتمّ بإيضاح أمر لقوم لهم : أنا المُدْرِكُ المتقلّد بصدق ما أقوله لكم . وصرّحت : كشفت . والعِبَر : جمع عِبْرة ، وهى الموعظة . والمَثُلات : العقوبات . وحَجَزه : منعه .

وقوله : « لَتُبَلْبَلُنَّ » أىْ لَتُخَلْطَنُّ ، تبلبلت الألسن ، أى اختلطت . « ولَتُغَرْبَلُنَّ » ، يجوز أن يكون من الغِرْبال الذى يُغَرْبَلُ به الدّقيق ، ويجوز أن يكون من غَرْبَلْتُ اللحم ، أى قطعته . فإنْ كان الأول كان له معنيان : أحدهما الاختلاط ، كالتَّبَلْبُل ، لأن غربلة الدقيق تخلط بعضَه ببعض . والثانى أن يريدَ بذلك أنه يستخلِصُ الصالح منكم من الفاسد ، ويَتَميّز كما يُتَمَيَّزُ الدقيق عند الغَرْبلة من نُخالته .

وتقول : ما عصيت فلاناً وَشْمة ، أى كلمة . وحصان شَموس : يمنع ظهره ، شَمَسَ الفرسُ ، بالفتح ، وبه شِماس . وأَمِرَ الباطل : كثُر .

وقوله : « لقديماً فعل » ، أى لقديما فعل الباطل ذلك ، ونَسَب الفعل إلى الباطل مجازا . ويجوز أن يكون « فعل » بمعنى « انفعل » كقوله[1] :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرْ *

أى فانجبر . والسِّنْخ : الأصل ، وقوله : « سِنْخ أصل » كقوله[2] :

* إذا حَاصَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّوْمِ . . . *

وفى بعض الروايات : « من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس » ، والتأويل مختلف ، فمراده على الرواية الأولى ـ وهى الصحيحة ـ مَنْ كاشف الحقّ مخاصما له هَلَك ،

---

(١) مطلع أرجوزة للعجاج ، ديوانه ١٥ ، واللسان ٥ : ١٨٥ .

(٢) لتأبط شرا ، والبيت برواية أبى تمام فى الحماسة ـ بشرح المرزوقى ١ : ٩٧ :

إذا خاط عينيه كَرَى النومِ لَمْ يزَلْ ... لَهُ كالِئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ

وهى كلمة جارية مَجْرَى المثل . ومراده على الرواية : الثانية : مَنْ أبدى صفحته لنُصْرَة الحق غَلَبه أهلُ الجهل — لأنّهم العامّة ، وفيهم الكثرة — فهلك .

* * *

وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها ، قد رواها الناس كلّهم ، وفيها زيادات حذفها الرضىّ ، إمّا اختصاراً أو خوفاً من إيحاش السامعين ، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب «البيان والتبيين»[1] على وجهها ، ورواها عن أبى عُبيدة مَعْمَر بن المُثنّى .

قال : أوّل خطبة خطبها أمير المؤمنين علىّ عليه السلام بالمدينة فى خلافته[2] حمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وآله[2] ، ثم قال :

ألا لَا يُرْعِيَنّ[3] مُرْعٍ إلّا على نفسه . شُغِل مَنِ الجنّة والنارُ أمامه[4] . ساعٍ مجتهد [ينجو][5] ، وطالب يرجو ، ومقصّر فى النار[6] ؛ ثلاثة . واثنان : مَلَكٌ طار بجناحَيه ، ونبىّ أخذ اللهُ بيده[7] ؛ لا سادس . هَلَكَ من ادّعى ، ورَدِىَ من اقتحم .[8] اليمين والشّمال مَضَلّة ، والوسْطَى الجادّة[9] ؛ منهج عليه باقى الكتاب والسُّنّة وآثار النبوة . إنّ الله داوَى هذه الأمّة بدواءَيْن : السوْط والسَّيف ؛ لا هَوادة عند الإمام فيهما . استَتِرُوا فى بيُوتكم[10] ، وأصْلِحُوا ذات بينكم[11] ، والتّوْبةُ منْ وَرائكم . من أبْدَى صفحتَه

(١) البيان والتبيين (٢ : ٥٠ — ٥٢) ، ورواها أيضا ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ : ٢٣٦) .

(٢ — ٢) البيان : « أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه » .

(٣) البيان : « أما بعد فلا يرعين » .

(٤) فى البيان : « فإن من أرعى على غير نفسه شغل عن الجنة والنار أمامه » .

(٥) تكملة من البيان والتبيين .

(٦) عند ابن قتيبة فى العيون : « ساع سريع نجا ، وطالب بطىء رجا ، ومقصر فى النار هوى » .

(٧) البيان والعيون : « بيديه » .

(٨) البيان : « فإن اليمين » .

(٩) الجادة : الطريق الواضح .

(١٠) البيان : « استتروا ببيوتكم » ، والعيون : « فاستتروا ببيوتكم » .

(١١) البيان : « وأصلحوا فيما بينكم » .

للحقّ هالك . قد كانت [لكم] (١) أمور [مِلْتُمْ فيها علَيَّ مَيْلَة] (١) لم تكونوا عندي فيها محمودين (٢) [ولا مُصيبين](١) . أما إنّي لو أشاء لقلتُ، عفا الله عمّا سلف .سبق الرّجلان وقام الثالث كالغراب همّتهُ بطْنه. ويحَهُ(٣) لو قُصّ جناحاه ، وقُطع رأسه لكان خيرا له !

انظروا فإن أنكرتم فأنكِروا ، وإنْ عرفتم فآزِروا . حَقٌّ وباطل ، ولكلٍّ أهل. ولئن أَمِرَ الباطلُ لقديماً فعَل ، ولئن(٤) قلّ الحق لرُبّما ولَعَلّ ، وَقلّما أدبر شيء فأقبل(٥) . ولئن رَجَعَتْ إليكم أمورُكم إنكم لَسُعداء ، وإني لأخشى أن تكونوا في فَتْرةٍ ، وما علينا إلّا الاجتهاد.

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : وقال أبو عبيدة : وزاد (٦) فيها في رواية جعفر ابن محمد عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام (٦) :

ألا إنّ أبرار عِتْرتي ، وأطايبَ أُرُومَتي ، أحلم الناس صغارا ، وأعلم الناس كبارا . ألا وإنّا أهل بيت مِنْ علم الله علِمنا ، وبحُكْم الله حَكَمْنا ، ومِنْ قولٍ صادق سَمِعْنا ، فإن تَتّبِعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ، وإنْ لم تفعلوا يُهلككم الله بأيدينا. ومعنا رايةُ الحق؛ مَنْ تبعها لَحِق ، ومَنْ تأخر عنها غَرِق . ألا وبنا يُدْرَكُ تِرَةُ كل مؤمن ، وبنا تخلع رِبْقة الذلّ عن أعناقكم(٧) وبنا فُتِح(٨) لا بكم ، ومنا يُخْتَمُ لا بِكُمْ .

* * *

قوله : « لا يُرْعِيَنّ » أي لا يبقينّ ، أرعيتُ عليه ، أي أبقيت ؛ يقول : مَنْ أبقى على الناس فإنما أبقى على نفسه .والموادة : الرفق والصلح ، وأصله اللينُ .والتهويد: المشي،

---

(١) تكملة من البيان والتبيين .

(٢) البيان : « بمحمودين » .

(٣) البيان : « ياويحه » .

(٤) ب : « وإن » .

(٥) البيان : « ما أدبر شيء فأقبل » .

(٦ ـ ٦) البيان : « وروى فيها جعفر بن محمد » .

(٧) البيان : « من أعناقكم » .

(٨) ا ، البيان : « فتح الله » .

رويدا ، وفي الحديث : «أسرعوا المشيَ في الجنازة ولا تَهوّدوا كما تَهوّد أهل الكتاب ». وآزرتُ زيدا : أعنتَه . التِّرة : والوتر . والرِّبقة : الحبل يُجعل في عنق الشاة . وَرِدِيَ : هلك ، من الرَّدَى ، كقولك : عَمِيَ من العَمَى ، وشجِيَ من الشَّجَى .

وقوله : «شُغِلَ مَنِ الجنة والنار أمامه » ؛ يريدُ به أنّ مَنْ كانت هاتان الداران أمامه لَفِي شُغل عن أمور الدنيا إن كان رشيدا .

وقوله : « ساعٍ مجتهد » إلى قوله : « لا سادس » كلام تقديره : المكلَّفون على خمسة أقسام : ساعٍ مجتهد ، وطالب راجٍ ، ومقصّر هالك . ثم قال : ثلاثة ، أي فهؤلاء ثلاثة أقسام ، وهذا ينظر إلى قوله سبحانه : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ »(١) ، ثم ذكر القسمين : الرابع والخامس ، فقال : « مَلَك طار بجناحيه ، ونبيّ أخذ الله بيده» ؛ يريد عِصْمَة هذين النوعين من القبيح ، ثم قال : « لا سادس » ، أي لم يبق في المكلّفين قسم سادس . وهذا يقتضِي أنّ العِصْمة ليست إلّا للأنبياء والملائكة ، ولو كان الإمام يجب أن يكون معصوما لكان قسما سادسا ، فإذن قد شهد هذا الكلام بصحة ماتقوله المعتزلةُ في نفي اشتراط العصمة في الإمامة ، اللهم إلاّ أنْ يُجعل الإمام المعصوم داخلا في القسم الأول ، وهو الساعي المجتهد . وفيه بُعْد وَضَعْف .

وقوله : « هلكَ مَنِ ادّعى ، وَرَدِيَ مَنِ اقتحَمَ » ، يريد هلكَ من ادّعى وكذب ، لا بدّ من تقدير ذلك ؛ لأنّ الدعوى تعمُّ الصِّدق والكذب ، وكأنه يقول : هلكَ مَنِ ادّعى الإمامة ، وَرَدِي مَن اقتحمها وَوَلَجها عن غير استحقاق ؛ لأنّ كلامه عليه السلام في هذه الخطبة ، كلُّه كنايات عن الإمامة لا عن غيرها .

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

وقوله : « اليمين والشمال »، مثال لأنّ السالكَ الطريق ٱلْمَنْهَجَ اللاحب ناجٍ ، والعادل عنها يميناً وشمالا مُعرَّض للخطر .

ونحو هذا الكلام ماروِى عن عمر، أنّه لما صدر عن مِنًى في السنة التي قتل فيها، كوّمَ كَوْمةً من البَطْحاء [١] فقام عليها ، فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ، قد سُنّت لكم السّنَن ، وفُرضت لكم الفرائض، وتُرِكْتم على الواضحة ، إلّا أن تميلوا بالناس يمينا وشمالا ، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [٢]، ثم قال : ألا إنّهما نجْدا الخير والشرّ ؛ فما جعل نجدَ الشرّ أحبَّ إليكم من نجْد الخير .

***

[من كلام للحجّاج وزياد نسَجَا فيه على منوالِ كلام عليّ]

وقوله : « إن الله داوَى هذه الأمّة بدواءين » كلام شريف ، وعلى منواله نسج الحجّاج وزياد كلامَهما المذكور فيه السوط والسيف . فمن ذلك قول الحجّاج [٣] :

مَنْ أعياه داؤه فعليّ دواؤه ، ومن استبطأ أجلَه فعليّ أن أعجّله ، ومن استثقلَ رأسَه وضعت عنه ثِقْلَهُ ، ومَن استطال ماضيَ عمره قصّرتُ عليه باقيه . إنّ للشيطان طَيْفاً ، وإن للسلطان سيفاً ، فمن سَقِمت سريرتُه ، صحّتْ عقوبته ، ومَنْ وَضَعه ذنبُه ، رفعه صَلْبُه ، ومَنْ لم تسعه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكة ؛ ومَنْ سبقته بادرةُ فمِه ، سَبَق بدنَه سفكُ دمه . إنى لأُنذِر ثم لا أُنظِر ، وأُحذّر ثم لا أعذِر ، وأتوعّد ثم لا أغفر ؛ إنما أفسدكم [٤] ترقيقُ وُلاتكم . ومَنِ استرخى لَبَبُه [٥] ساء أدبُه . إن الحزْمَ والعزْم سَلَباني

(١) البطحاء : التراب السهل مما جرته السيول .
(٢) سورة البلد ٨ ــ ١٠ .
(٣) نهاية الأرب ٧ : ٢٢٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، سرح العيون ١٨٤ .
(٤) في صبح الأعشى : « ترنيق » ، والترنيق : الضعف في الأمر .
(٥) اللبب : مايشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ؛ يريد أن الموادة واللين لما يفسد الرعية .

سوطى ،(١ وجعلا سوطى سيفى ١) ، فقائمُهُ فى يَدِى ، ونِجادُه(٢) فى عُنق ، وذُبابه(٣) قِلادةٌ لِمَنْ عَصَانى. والله لا آمرُ أحداً أن يخرُج من (٤ باب من ٤) أبواب المسجد فيخرجَ من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

ومن ذلك قولُ زياد :

إنما هو زَجْر بالقول ، ثم ضَرْب بالسّوط ، ثم الثالثة التى لا شَوَى(٥) لها . فلا يكونَنّ لسانُ أحدِكم شَفْرَةً(٦) تجرى على أوْداجه(٧) ، وليعلمْ إذا خلا بنفسه أنّى قد حملتُ سيفى بيده ؛ فإن شَهَرَه لم أغمِدْه ، وإن أغمده لم أشهره .

***

وقوله عليه السلام : « كالغراب » يعنى الحِرصَ والجشع ، والغراب يقع على الجيفة، ويقع على التّمرة، ويقع على الحبّة؛ وفى الأمثال : «أجشع من غراب» ، و «أحرص من غراب » .

وقوله : « ويحَهَ لو قُصّ » ، يريد لو كان قُتِل أو مات قبل أن يتلبّس بالخلافة لكان خيرا له من أن يعيش ويدخل فيها . ثم قال لهم : أفكروا فيما قد قلت ، فإن كان منكَرا فأنكِروه ، وإن كان حقًّا فأعينوا عليه .

وقوله : « استتروا فى بيوتكم » نهىٌ لهم عن العصبيّة(٨) والاجتماع والتحزّب، فقد كان قوم بعد قتل عثمان تكلّموا فى قتله من شيعة بنى أمية بالمدينة

(١ — ١) صبح الأعشى : « وأبدلانى به سيفى » . (٢) النجاد : علاقة السيف .
(٣) ذباب السيف : حده . (٤ — ٤) ساقط من ب ، وهو فى ا وصبح الأعشى.
(٥) لاشوى لها ، أى لا خطأ لها ، أو لا براء ؛ ومنه قول الكميت :

أجِيبُوا رُقَى الآسِى النِّطَاسِىِّ وَاحْذَرُوا مُطَلِّقَةَ الرَّضْفِ الَّتِى لَا شَوَى لَهَا

(٦) الشفرة : السكين العظيم ، أو ماعرض من الحديد وحدد .
(٧) الأوداج : عروق العنق .
(٨) ا : « العصبة » .

وأما قوله : « قد كانت أمور لم تكونوا عندى فيها محمودين » ، فمراده أمرُ عثمان وتقديمه فى الخلافة عليه . ومن الناس مَنْ يحمِلُ ذلك على خلافة الشيخين أيضاً . ويبعدُ عندِي أن يكونَ أراده ، لأنّ المدة قد كانت طالتْ ، ولم يَبْقَ مَنْ يعاتبه ليقول : قد كانت أمور لم تكونوا عندى فيها محمودين ، فإنّ هذا الكلام يُشعر بمعاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم . وأمّا بيعة عثمان ، ثمّ ما جرى بينه وبين عثمان من منازعاتٍ طويلة ، وغضب تارة ، وصُلحٍ أخرى ، ومراسلاتٍ خشنة ولطيفة ، وكون الناس بالمدينة كانوا حزبيْن وفئتين : إحداهما معه عليه السلام ، والأخرى مع عثمان ؛ فإنّ[1] صَرْف الكلام إلى ماقلناه بهذا الاعتبار أليق .

ولسنا نمنع من أن يكون فى كلامه عليه السلام الكثير من التوجّد والتألّم لصرْف الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله عنه ؛ وإنما كلامنا الآن فى هذه اللفظات التى فى هذه الخطبة ؛ على أنّ قوله عليه السلام : « سبق الرجُلان » والاقتصار على ذلك فيه كفاية فى انحرافه عنهما .

وأما قوله : « حق وباطل . . . » إلى آخر الفصل ، فمعناه كلّ أمر فهو إمّا حقّ وإمّا باطل ، ولكلّ واحدٍ من هذيْن أهلٌ ، وما زال أهل الباطل أكثرَ من أهل الحق ؛ ولئن كان الحق قليلا لربّما كَثُر ، ولعله ينتصر أهلُه .

ثم قال على سبيل التضجر بنفسه : « وقلّما أدبرَ شىء فأقبل » ، استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر فى قوله :

وَقَالُوا يَعُودُ الماء فى النّهرِ بعد ما ذَوَى نبت جَنْبَيْهِ وَجَفَّ المَشارِعُ
فقلتُ إلى أن يرجع النهرُ جارياً ويُعشب جَنْبَاهُ تموتُ الضفادِعُ

---

(١) ا : « وان » .

ثم قال : « ولئن رجعت عليكم أموركم » أي إن ساعدني الوقت ، وتمكنت من أن أحكم فيكم بحكم الله تعالى ورسوله ، وعادت إليكم أيام شبيهة بأيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيرةٌ مماثلة لسيرته في أصحابه ؛ إنكم لَسُعداء .

ثم قال : « وإني لأخشى أن تكونوا في فترة » ، الفترةُ هي الأزمنة التي بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها ؛ كالفَتْرة التي بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن بينهما نبيّ ، بخلاف المدة التي كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأنه بُعِث فيها أنبياء كثيرون ، فيقول عليه السلام : إنّي لَأَخشى ألّا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم ، فتكونوا كالأمم الذين في أزمنة الفَتْرة لا يرجعون إلى نبيّ يشافههم بالشرائع والأحكام ؛ وكأنه عليه السلام قد كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه .

ثم قال : « وماعلينا إلا الاجتهاد » ، يقول : أنا أعمل مايجب عليّ [(1)] من الاجتهاد [(1)] في القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساء عن المسلمين ، فإنْ تمّ ماأريده فذاك ، وإلا كنت قد أعْذَرْتُ .

وأما التتِمّة المروية عن جعفر بن محمد عليهما السلام فواضحة الألفاظ ، وقوله في آخرها : « وبنا تُختم لا بِكُم » إشارة إلى المهديّ الذي يظهر في آخر الزمان . وأكثر المحدّثين على أنه من وَلَد فاطمة عليها السلام . وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه ، وقد صرّحوا بذكره في كتبهم ، واعترف به شيوخهم ، إلا أنه عندنا لم يُخْلَقْ بعد ، وسيخلق .

وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً .

وروى قاضي القضاة رحمه الله تعالى عن كافِي الكفاة أبي القاسم إسمعيل بن عبّاد

(١ ـ ١) ساقط من ب .

رحمه الله بإسناد متصل بعلى عليه السلام أنه ذكر المهدىّ ، وقال : إنه من ولد الحسين عليه السلام ، وذكر حِليتَه(١) ، فقال رجل : أجْلَى الجبين ، أقنى الأنف ، ضخم البطن ، أزيل(٢) الفَخِذين ، أبلج الثنايا ، بفخذه اليمنى شامة ...

وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة فى كتاب " غريب الحديث " .

(١) الحلية هنا : الصفة .
(٢) الزيل ، بحركة : تباعد ما بين الفخذين ، وهو أزيل .

(١٧)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام فى صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل:

إنَّ أبغَضَ الخَلَائِقِ إلَى اللهِ تعالى رَجُلَانِ:

رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إلَى نَفْسِهِ؛ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هُدَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ.

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوضِعٌ فى جُهَّالِ الأمَّةِ، غَادٍ[١] فِي أغْبَاشِ الفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الهُدْنَةِ، قَدْ سَمَّاهُ أشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً؛ وَلَيْسَ بِهِ. بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ. جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً، ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ. فَإنْ نَزَلَتْ بِهِ إحْدَى المُبْهَمَاتِ؛ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ. فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ العَنْكَبُوتِ، لَا يَدْرِي أصَابَ أمْ أخْطَأَ، فَإنْ أصَابَ خَافَ أنْ يَكُونَ قَدْ أخْطَأَ، وَإنْ أخْطَأَ رَجَا أنْ يَكُونَ قَدْ أصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى العِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ. يُذْرِي الرِّوَايَاتِ إذْرَاءَ الرِّيحِ الهَشِيمَ، لا مَلِيٌّ واللهِ بِإصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، ولا هُوَ أهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إلَيْهِ. لا يَحْسَبُ العِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أنْكَرَهُ، ولا يَرَى أنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وإنْ أظْلَمَ عَلَيْهِ أمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعِجُّ مِنْهُ

(١) ج: «غاد».

ٱلْمَوَارِيثَ إِلى اللهِ مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً ، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً ؛ لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، ولا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً ، ولا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، ولا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، ولا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ .

***

الشَّرْحُ :

وكله إلى نفسه : تركه ونفسه ، وكَلَتُه وكْلا ووُكولا . والجائر : الضّال العادل عن الطريق . وقَمَش جهلا : جمعه . ومُوضِع : مسرع ؛ أوضع البعيرُ : أسرع ، وأوضعه راكبُه ، فهو مُوضِعٌ به ، أى أسرَع به .

وأغباش الفتنة: ظُلَمها ، الواحدة غَبَش ، وأغباش الليل : بقايا ظُلْمته ، ومنه الحديث فى صلاة الصبح : « والنّساء متلفّعات بمُرُوطهِنّ ما يُعْرَفن من الغَبَش » والماء الآجن : الفاسد . وأكْثر ، كقولك : «استكثر» ، ويروى : «اكتنز» ، أى اتخذ العلم كنزا .

والتخليص : التبيين ، وهو والتلخيص متقاربان ، ولعلّهما شىء واحد من المقلوب .

والمبهمات : المشكلات ؛ وإنّما قيل لها مُبْهَمَة ، لأنّها أُبهِمَت عن البيان ، كأنّها أصمِتَتْ فلم يُجْعَلْ عليها دليل ولا إليها سبيل ، أو جُعِل عليها دليل وإليها سبيل ؛ إلا أنّه متعسّر مستصعَب ؛ ولهذا قيل لما لا ينطق من الحيوان : بَهيمة ، وقيل للمصمَت اللّون الذى لا شِيَةَ فيه: بَهيم .

وقوله : « حشواً رثّاً » كلام مخرجه الذمّ ، والرثّ : الخَلَق ، ضدّ الجديد .

وقوله: « حشوا » ، يعنى كثيرا لا فائدة فيه. وعاشٍ: خابطٌ فى ظلام وقوله: « لم يَعضّ » يريد أنه لم يُتقِنْ ولم يُحكم الأمور ، فيكون بمنزلة من يَعضّ بالنّاجذ ، وهو آخر الأضراس وإنما

---

(١) مروطهن : أكسيتهن .

يطلع إذا استحكمت شبيبةُ الإنسان واشتدّتْ مِرّته ؛ ولذلك يدعوه العوامّ ضِرْس الحِلْم[1] ، كأنّ الحِلم يأتى مع طلوعه ، ويَذهب نَزَق الصِّبا ؛ ويقولون : رجلٌ مُنَجَّذ ، أى مجرّب مُحكَم ، كأنه قد عضّ على ناجذه وكَمل عقلُه .

وقوله : « يُذرِى الرّوايات » هكذا أكثر النسخ ، وأكثرالروايات « يُذرِى » من « أذرَى » رباعيا ؛ وقد أوضحه قوله : « إذرَاء الريح » ، يقال : طعنه فأذراه ، أى ألقاه ، وأذريتُ الحَبّ للزرع ، أى ألقيته ، فكأنه يقول : يُلقِى الروايات كما يُلقِى الإنسان الشىء على الأرض ؛ والأجود الأصحّ الرواية الأخرى : « يَذرُو الرِّواياتِ ذَرْوَ الريح المشيم » ، وهكذا ذكر ابن قتيبة فى " غريب الحديث " لمّا ذكر هذه الخطبة عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ ،[2] والهشيم : ما يبس من النَّبت وتفتّت :

قوله : « لا ملىء » ، أى لا قيّم به ، فلان غنىّ ملىء ، أى ثقة بيّن الملأ والملاء ، بالمد . وفى كتاب ابن قتيبة تتمة هذا الكلام : « ولا أهل لما قُرِّظ به » ، قال : أى ليس بمستحِقّ للمدح الذى مُدح به . والذى رواه ابن قتيبة من تمام كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو الصحيح الجيّد ؛ لأنه يُستقبَح فى العربية أن تقول : لا زيدٌ قائم ، حتى تقول : ولا عمرو ؛ أو تقول : ولا قاعد ؛ فقوله عليه السلام : « لا ملىء » أى لا هُوَ ملىء ، وهذا يستدعى « لا » ثانية ، ولا يحسن الاقتصار على الأولى .

وقوله عليه السلام : « اكتتم به » أى كتمه وستره . وقوله : « تصرخُ منه وتَعَجّ » . العجّ : رفع الصوت ؛ وهذا من بابَ الاستعارة .

وفى كثير من النسخ : « إلى الله أشكو » ، فمن روى ذلك وقف على « المواريث » ،

---

(١) الحلم ، بالكسر : الأناة والعقل .

(٢) سورة الكهف ٤٥

ومن روى الرواية الأولى وَقَف على قوله : « إلى الله » ويكون قوله : « من معشر » من تمام صفات ذلك الحاكم ، أى هو من معشرٍ صفتهم كذا .

وأبْوَرَ «أفعل» من البوْر : الفاسد ، بارَ الشيء ، أى فسد ، وبارت السلعة ؛ أى كسدت ولم تنفُق ، وهو المراد هاهنا ، وأصله الفساد أيضا .

إن قيل : بيِّنوا الفرْقَ بين الرَّجُلين اللذيْن أحدُهما وكَلَه الله إلى نفسه ، والآخر رجل قمش جهلًا ؛ فإنّهما فى الظاهر واحد .

قيل : أمّا الرجل الأوّل ، فهو الضالّ فى أصول العقائد ، كالمشبِّه والمجبِر ونحوهما ؛ ألا تراه كيف قال : «مشغوف بكلام بدعة ،ودعاء ضلالة » ،وهذا يُشعر بما قلناه ؛ من أنّ مرادَه به المتكلّم فى أصول الدين ، وهو ضالّ عنِ الحقّ ؛ ولهذا قال : إنّه فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هُدَى مَنْ قبله ، مضلّ لمن يجيء بعده . وأما الرجل الثانى فهو المتفقّه فى فروع الشّرعيات ، وليس بأهل لذلك ، كفقهاء السوء ، ألا تراه كيف يقول : جلس بين الناس قاضيا .

وقال أيضا : « تصرُخ من جور قضائه الدماء ، وتَعجّ منه المواريث » .

فإن قيل : مامعنى قوله فى الرَّجُل الأول : « رَهْن بخطيئته » ؟ قيل : لأنه إن كان ضالًا فى دعوته مُضلًا لمن اتّبعه ، فقد حمل خطاياه وخطاياغيره ، فهو رَهْن بالخطيئتين معا ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) .

إن قيل :مامعنى قوله « عمٍ بمافى عقدالهدنة » ؟ قيل :الهدنة أصلُهافى اللغة السّكون ، يقال : هَدَنَ إذا سكن ، ومعنى الكلام أنّه لايعرف مافى الفتنة من الشّرّ ، ولا مافى السكون والمصالحة (٢) من الخير .

---

(١) سورة العنكبوت ١٣

(٢) ا : « المصلحة » ، تصحيف .

ويروى : « بما فى غَيْب المدنة »، أى فى طيّها وفى ضمنها . ويروى : « غارّ فى أغباش الفتنة » ، أى غافل ذو غِرّة .

وروى : « من جمعٍ » بالتنوين فتكون « ما » على هذا اسما موصولا ، وهى وصلتها فى موضع جَرٍّ لأنها صفة « جمع » ، ومن لم يرو التنوينَ فى « جمع » حذف للموصوف ، تقديره : مِنْ جمع شيء ماقلّ منه خيرٌ مما كَثُر ، فتكون « ما » مصدرية ، وتقدير الكلام : قلّتُه خيرٌ من كثرته ، ويكون موضع ذلك جرا أيضاً بالصفة .

(١٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم اختلاف العلماء فى الفُتيا :

تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِ قوله(١) ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِى اسْتَقْضَاهُمْ ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلٰهُهُمْ وَاحِدٌ ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ .

أَفَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالاخْتِلاَفِ فَأَطَاعُوهُ ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ ! أَمْ أَنزَلَ اللهُ(٢) سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى ! أَمْ أَنزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ ؛ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(٣) ﴾ ، «وَفِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ»(٤) . وَذَكَرَ أَنَّ الكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَنَّهُ لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً(٥) ﴾ .

وَإِنَّ القُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ ، وَلاَ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِهِ .

***

---

(١) كذا فى ا ومخطوطة النهج ، وفى ب « بخلافه » .

(٢) ا : « أم أنزل إليهم » . (٣) سورة الأنعام ٣٨ .

(٤ ــ ٤) فى ب : « وقال : فيه تبيان كل شيء » ؛ والأصوب ما أثبته من ا ، ومخطوطة النهج .

(٥) سورة النساء ٨٢ .

الشرح :

الأنيق : المعجِب ، وآنقنى الشيء ، أى أعجبنى ؛ يقول : لا ينبغى أن يُحمَل جميعُ ما فى الكتاب العزيز على ظاهره ؛ فكم من ظاهرٍ فيه غيرُ مرادٍ ، بل المراد به أمر آخر باطن ؛ والمراد الردّ على أهل الاجتهاد فى الأحكام الشرعية ، وإفسادُ قول من قال : كلّ مجتهد مصيب ، وتلخيص الاحتجاج من خمسة أوجه :

الأوّل : أنّه لمّا كان الإله سبحانه واحدا ، والرسول صلى الله عليه وآله واحدا والكتاب واحدا ، وجب أن يكونَ الحُكْم فى الواقعة واحدا ؛ كالملِك الذى يُرسِل إلى رعيّته رسولا بكتابٍ يأمرهم فيه بأوامرَ يقتضيها مُلكه وإمْرَته ، فإنه لا يجوز أن تتناقض أوامره ، ولو تناقضتْ لنُسِبَ إلى السّفَه والجهل .

الثانى : لا يخلو الاختلافُ الّذِى ذهب إليه المجتهدون ، إمّا أن يكونَ مأمورا به أو منهيًّا عنه ، والأوّل باطل ، لأنه ليس فى الكتاب والسنّة مايمكّن الخصم أن يتعلّق به فى كوْن الاختلاف مأمورا به . والثانى حقّ ، ويلزم منه تحريم الاختلاف .

الثالث : إمّا أن يكونَ دينُ الإسلام ناقصاً أو تامًّا، فإن كان الأول كان الله سبحانه قد استعان بالمكلّفين على إتمام شريعةٍ ناقصة أرسَل بها رسوله ، إمّا استعانةً على سبيل النيابة عنه ، أو على سبيل المشاركة له ، وكلاهما كفر . وإن كان الثانى ؛ فإمّا أن يكون الله تعالى أنزلَ الشرع تامًّا فقصّر الرسولُ عن تبليغه ، أو يكونَ الرسولُ قد أبلغه على تمامه وكماله؛ فإنْ كان الأوّل فهو كُفر أيضا ؛ وإنْ كان الثانى فقدبطَل الاجتهاد ؛ لأنّ الاجتهاد إنما يكون فيما لم يتبين ؛ فأمّا ماقد بُيِّن فلا مجال للاجتهاد فيه .

الرابع : الاستدلالُ بقوله تعالى : ﴿ مَافَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(١) ، وقوله ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

(١) سورة الأنعام ٣٨ .
(٢) سورة النحل ٨٩ . وفى الأصول : وقوله : « فيه تبيان كل شئ » ، والتلاوة ما أثبته .

مُبِينٍ ﴾[١] ، فهذه الآيات دالّة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام ؛ فكلّ ماليس فى الكتاب وجب ألاّ يكون فى الشرع .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[٢] ، فجَعل الاختلافُ دليلًا على أنّه ليس من عند الله ، لكنه من عند الله سبحانه بالأدلّة القاطعة الدّالة على صحة النبوّة ، فوجب ألاّ يكون فيه اختلاف .

واعلم أنّ هذه الوجوه هي الّتي يتعلق بها الإماميّة ونُفاةُ القياس والاجتهادفي الشرعيّات وقد تكلّم عليها أصحابُنا فى كُتُبِهم ، وقالوا : إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يجتهد ويَقيس ، وادّعَوْا إجْمَاعَ الصحابة على صحة الاجتهاد والقياس ، ودفعوا صحّةَ هذاالكلام المنسوب فى هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا : إنّه من رواية الإماميّة، وهو معارَض بما ترويه الزّيْدية عنه وعن أبنائه عليهم السلام فى صحة القياس والاجتهاد، ومخالطة الزيدية لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمخالطة الإمامية لهم ؛ ومعرفتهم بأقوالهم وأحوالهم ومذاهبهم كمعرفة الإماميّة ، لا فرق بين الفئتين فى ذلك . والزيدية قَاطِبَةً جاروديّتها وصالحيّتها[٣] تقول بالقياس والاجتهاد ، وينقلون فى ذلك نصوصاً عن أهل البيت عليهم السلام . وإذا تعارضت الروايتان تساقطتا ، وعدْنا إلى الأدلة المذكورة فى هذه المسألة . وقد تكلّمتُ فى "اعتبار الذريعة" للمرتضى[٤] على احتجاجه فى إبطال القياس والاجتهاد بما ليس هذا موضع ذكره .

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ . (٢) سورة النساء ٨٢ .

(٣) الزيدية : أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وهم أصناف ثلاثة : جارودية ؛ وهم أصحاب أبى الجارود زياد بن أبى زياد ، وسليمانية ؛ وهم أصحاب سليمان بن جرير ، وصالحية؛ وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حى ؛ ومن هؤلاء البترية ؛أصحاب كثير الأبتر . وانظر تفصيل مذهبهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٣٧ – ١٤٣ .

(٤) هو كتاب الذريعة إلى أصول الشريعة ؛ للشريف المرتضى ، شرحه ابن أبى الحديد وسمى شرحه الاعتبار على كتاب الذريعة ؛ فى ثلاثة مجلدات . وانظر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٠ : ٢٦ .

(١٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام ؛ قاله للأشعث بن قيس ، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عليك لا لك ، فخفض إليه بصره عليه السلام ، ثم قال :

وَمَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي ! عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ وَلَعْنَةُ ٱللَّاعِنِينَ ؛ حَائِكٌ ٱبْنُ حَائِكٍ، مُنَافِقٌ ٱبْنُ كَافِرٍ . وَٱللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ ٱلْكُفْرُ مَرَّةً وَٱلْإِسْلَامُ أُخْرَى ، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسَبُكَ . وَإِنَّ ٱمْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ ٱلسَّيْفَ ، وَسَاقَ إِلَيْهِم ٱلْحَتْفَ ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ ٱلْأَقْرَبُ ، وَلَا يَأْمَنَهُ ٱلْأَبْعَدُ .

قال الرضي رحمه الله :

يريدُ عليهِ ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ أُسِرَ في ٱلْكُفْرِ مرَّةً وفي ٱلْإِسْلَامِ مرَّةً .

وأمَّا قَوْلُهُ عليه ٱلسَّلام: «دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ ٱلسَّيْفَ»، فَأَرَادَ به حَدِيثاً كَانَ لِلْأَشْعَثِ مع خالد بن الوليد باليمامةِ ، غرَّ فيهِ قومَهُ ، ومكر بِهِمْ ؛ حتى أَوْقَعَ بهم خالدٌ ، وكان قَوْمُهُ بَعْدَ ذلك يُسَمُّونَهُ عُرْفَ النَّارِ ، وَهُوَ ٱسْمٌ للغادر عندهم .

●●●

الشرح :

خفض إليه بصره : طأطأه . وقوله : « فما فداك » ، لا يريد به الفداء الحقيق ، فإنّ الأشعث فُدِى فى الجاهلية بفداء يضرب به المثل ، فقال : « أغلى فداء من الأشعث » ، وسنذكره ، وإنما يريد : ما دفع عنك الأسر مالُك ولا حسَبك . ويمقته : يبغضه ، والمقت : البُغْض .

***

[الأشعث بن قيس ونسبه وبعض أخباره]

اسم الأشعث معدِى كرب ، وأبوه قيس الأشجّ ـ سمى الأشجّ ؛ لأنه شُجَّ فى بعض حروبهم ـ ابن معدِى كرب بن معاوية بن معدِى كرب بن معاوية بن جبَلة ابن عبد العُزّى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث ابن معاوية بن ثَوْر بن مُرتِّع[1] بن معاوية بن كِندَة بن عُفَير بن عدىّ بن الحارث ابن مرّة بن أُدَد .

وأمّ الأشعث كبشة بنت يزيد بن شُرَحْبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك .

كان الأشعث أبدا أشعثَ الرأس ، فسمِّىَ الأشعث ، وغلب عليه حتى نُسِى اسمه ؛ ولعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يقول أعشى همْدان[2] :

يابنَ الأشجّ قريعِ كِنْـ ... دَةَ لاأبالى فيكَ عَتْبا[3]

(١) مرتع ، كمحدث ، وكمحسن أيضا . القاموس .

(٢) هو أبو مصبح عبد الرحمن بن عبد الله ؛ من أبيات فى ديوان الأعشين ٣١٩ ؛ أولها :

مَنْ مُبلِـغٌ الحجّاج أنّى قَدْ ندبتُ إليـه حرْبا
حرْبًا مُذَكّرَةً عَـوا ... نًا تترُكُ الشُّبّانَ شُهبا

(٣) فى الديوان :

لابنِ الأشجّ قريـع كِنْـ ... دَةَ لا أبيِّنُ فيـه عتْبا

أنتَ الرئيسُ ابنُ الرئيـ ... ـسِ وأنت أعلى النّاسِ كَعْبا[1]

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله قُتَيْـلةَ أخت الأشعث ، فتوفِّيَ قبل أنْ تصل إليه .

فأما الأمر الذى أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه فى الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبيّ فى " جمهرة النسب " ، فقال : إنّ مُرادا لما قتلتْ قيساً الأشجّ ، خرج الأشعث طالبا بثأره[2] ، فخرجت كندة مُتساندين على ثلاثة ألوية : على أحد الألوية كَبْس ابن هانئ بن شُرَحْبيل بن الحارث بن عديّ بن ربيعة بن معاوية الأكرمين — ويعرف هانئ بالمطلِّع ، لأنه كان يغزو فيقول : اطَّلَعْتُ بنى[3] فلان ، فسمّى المُطَلِّع . وعلى أحدها القَشْعَم أبو جبْر[4] بن يزيد الأرقم . وعلى أحدها الأشعث ، فأخطأوا مُرادا ، ولم يقعوا عليهم ، ووقعوا على بنى الحارث بن كعب ، فقتِل كَبْس والقَشْعَم أبو جبْر ، وأسِر الأشعث ، ففُدِى بثلاثة آلاف بعير ، لم يُفْدَ بها عربيّ بعده ولا قبله ، فقال فى ذلك عمرو بن معدى كربَ الزُّبَيدِى :

فكانَ فِداؤهُ ألْفَىْ بَعيرٍ ... وألْفًا من طريفاتٍ وتُلْدِ

وأما الأسر الثانى فى الإسلام ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قَدِمَتْ كندة حُجّاجا قبل الهجرة ، عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسَه عليهم ، كما كان يعرِضُ نفسَه على أحياء العرب ، فدفعه بنو وَليعةَ من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه ، فلما هاجر صلى الله عليه وآله وتمهدت دعوتُه ، وجاءته وفود العرب ، جاءه وفد كِنْدة ، فيهم الأشعث وبنو وَليعة ، فأسلموا ، فأطعم رسول الله صلى الله عليه وآله بنى وَليعة طُعْمَة من صدقات حَضْرَمَوْت ، وكان قد استعمل على حَضْرَموت زياد بن لَبيد البياضيّ الأنصاريّ ، فدفعها زياد إليهم ، فأبَوْا أخذها ، وقالوا : لا ظَهْرَ لنا[5] ، فابعث بها إلى بلادنا على ظَهْرٍ

(١) الديوان : « أعلى القوم » . (٢) ا : « ثأره » .
(٣) اطلع القوم : هجم عليهم . (٤) ا : « القاسم بن جبر » ، وصوابه من ب ، والاشتقاق ٣٦٥
(٥) الظهر : الركاب التى تحمل الأمتعة فى السفر ، سميت بذلك لحملها إياها على ظهورها .

من عندك ، فأبى زياد ، وحدَث بينهم وبين زياد شرّ كاد يكون حربا ، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكتب زياد إليه عليه السلام بشكوم .

وفى هذه الوَقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال لبنى وَليعة : « لَتَنْتَهُنّ يا بنى وليعة ، أو لأبعثنّ عليكم رجلا عَدِيل نفسى ، يقتل مُقاتِلتَكم ، ويَسْبى ذراريّكم » . قال عمر بن الخطاب : فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، وجعلت أنصِب له صدرى رجاء أن يقول : هو هذا ، فأخذ بيد على عليه السلام ، وقال : « هو هذا » .

ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زياد ، فوصلوا إليه بالكتاب وقد تُوُفّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب ، فارتدّت بنو وليعة ، وغَنّتْ بَغاياهم ، وخَضَبْنَ له أيديَهُنّ .

وقال محمد بن حبيب : كان إسلام بنى وَليعة ضعيفا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلَم ذلك منهم . ولما حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله حجّة الوداع ، وانتهى إلى فَم الشِّعب دخل أسامة بن زيد ليبول ، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وآله – وكان أسامةُ أسْوَد أفطَس – فقال بنو وَليعةَ : هذا الحبشىّ حَبَسنا ! فكانت الرّدة فى أنفسهم .

قال أبو جعفر محمد بن جرير : فأمّر[1] أبو بكر زياداً على حَضْرَموت ، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم ، فبايعوه إلا بنى وليعة ، فلما خرج ليقْبِض الصّدقات من بنى عمرو بن معاوية ، أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشَيْطان بن حُجْر – وكانت صَفِيّة[2] نفيسة ، اسمها شذرة – فمنعه الغلام عنها . وقال : خذ غيرَها ، فأبى زياد ذلك ولجّ ، فاستغاث شَيْطان بأخيه العَدّاء بن حُجْر ، فقال لزياد : دَعْها وخذ غيرها ، فأبى زياد ذلك ، وَلَجّ الغلامان فى أخذها ، ولجّ زياد وقال لهما : لا تكونن شذرة عليكما كالبَسُوس ،

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ؛ مع تصرف . (٢) الصفية : الناقة الغزيرة اللبن .

فهتف الغلامان : يا لَعمرو ! أنُضام ونُضطهد ! إنّ الذليل مَنْ أُكِلَ فى داره . وهتفا بمسروق بن معدى كرب ، فقال مسروق لزياد : أطلقها ، فأبى ، فقال مسروق :

يُطْلِقُها شيخٌ بخدَّيْه الشَّيْبْ(١) مُلَمَّعٌ فيه كتَلْميع الثَّوْبْ(٢)

* ماضٍ على الرَّيْبِ إذا كان الرَّيْبْ(٣) *

ثم قام فأطلقها ، فاجتمع إلى زياد بن لَبِيد أصحابُه ، واجتمع بنو وليعة ، وأظهروا أمرَهم ، فبيّتهم زياد وهم غارّون ، فقتل منهم جمعا كثيرا ، ونهب وسبَى ، ولحقَ فَلُّهم بالأشعث بن قيس ، فاستنصروه فقال : لا أنصركم حتى تملِّكونى عليكم . فملّكوه وتوّجوه كما يتوّجُ الملك من قحطان . فخرج إلى زياد فى جَمْعٍ كثيف ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبى أمية وهو على صنعاء أن يسيرَ بمَن معه إلى زياد ، فاستخلَف على صنعاء ، وسار إلى زياد ، فلقوا الأشعث ، فهزموه وقُتِل مسروق ، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر(٤) ، فحاصرهم المسلمون حصارا شديدا حتى ضَعُفوا ، ونزل الأشعث ليلا إلى المهاجر وزياد ، فسألهما الأمانَ على نفسه حتى يقدَما به على أبى بكر فيرى فيه رأيَه ؛ على أن يفتح لهم الحِصْن ويُسْلِم إليهم مَنْ فيه .

وقيل : بل كان فى الأمان عشرة من أهل الأشعث .

فأمّناه وأمضيا شرطَه ، ففتح لهم الحصن ؛ فدخلوه واستنزلوا كلَّ مَنْ فيه ، وأخذوا أسلحتهم ، وقالوا للأشعث : اعزل العشَرَة ، فعزلهم ، فتركوهم وقتلوا الباقين — وكانوا ثمانمائة — وقطعوا أيدى النّساء اللواتى شَمِتْن برسول الله صلى الله عليه وآله ، وحملوا الأشعثَ

---

(١) الطبرى : « بعنمها » . (٢) الطبرى :

* مُلَمَّعٌ كما يُلَمَّعُ الثَّوْبْ *

(٣) لم يرد هذا البيت فى الطبرى .

(٤) كذا ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بالتصغير ، وقال : « حصن باليمن قرب حضرموت » .

إلى أبى بكر مُوثقاً فى الحديد هو والعشرة ، فعفا عنه وعنهم ، وزوّجه أختَه أمّ فروة بنت أبى قُحافة — وكانت عمياء — فولدت للأشعث محمدا وإسماعيل وإسحاق .

وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة ، فما مرّ بذات أربع إلا عقَرها ، وقال للناس : هذه وليمة البِناء ، وثمن كلّ عَقِيرة فى مالى . فدفع أثمانَها إلى أربابها .

قال أبو جعفر محمد بن جرير فى التاريخ : وكان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه ، وسمّاه نساء قومه عُرْفَ النار ، وهو اسم للغادر عندهم[(١)] .

وهذا عندى هو الوجه ، وهو أصحّ مما ذكره الرضىّ رحمه الله تعالى من قوله فى تفسير قول أمير المؤمنين : « وإن امرأ دلّ على قومه السيف » : انه أراد به حديثا كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غَرّ فيه قومه ، ومكر بهم حتى قتلهم ؛ فإنّا لم نعرف فى التواريخ أن الأشعث جرَى له باليمامة مع خالد هذا ولا شبهه ، وأين كِندة واليمامة ! كِندة باليمن ، واليمامة لبنى حنيفة ، ولا أعلم من أين نقل الرضىّ رحمه الله تعالى هذا !

***

فأما الكلام الذى كان أمير المؤمنين عليه السلام قاله على مِنبر الكوفة فاعترضه فيه الأشعث ، فإنّ عليًّا عليه السّلام قام إليه — وهو يخطُب ، ويذكر أمرَ الحكَمَيْن — رجل من أصحابه ، بعد أن انقضى أمرُ الخوارج ، فقال له : نهيتَنا عن الحكومة ثم أمرتَنا بها ، فما ندرى أىّ الأمرين أرْشَد ! فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : هذا جزاء من ترَكَ العُقْدة . وكان مرادُه عليه السلام : هذا جزاؤكم إذْ تركتُم الرأىَ والحزم ، وأصْرَرْتم على إجابة القوم إلى التحكيم ؛ فظنّ الأشعث أنه أراد : هذا جزائى حيثُ تركت الرأى والحزم وحكمت ، لأنّ هذه اللفظة محتملة ؛ ألا ترى أنّ الرئيس

---

(١) الطبرى ٣ : ٣٣٨ ؛ وعبارته : « كلام يمان يسمون به الغادر » .

إذا شَغَب عليه جُنده وطلبوا منه اعتماد أمرٍ ليس بصواب ، فوافقهم تسكينا لشَغَبهم لا استصلاحا لرأيهم ، ثم ندِموا بعد ذلك ، قد يقول : هذا جزاء مَنْ ترك الرأى ، وخالف وجْه الحزم ؛ ويعنى بذلك أصحابَه ؛ وقد يقوله يعنِى به نفسَه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام، إنما عَنَى ما ذكرناه دون ما خَطر للأشعث ، فلما قال له : هذه عليك لا لك ، قال له : وما يدريك ما علىّ مما لى ، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين !

وكان الأشعثُ من المنافقين فى خلافة علىّ عليه السلام،وهو فى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، كما كان عبد الله بن أبىّ بن سَلُول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأسُ النفاق فى زمانه .

وأما قوله عليه السلام للأشعث : « حائك ابن حائك » ، فإن أهل اليمن يعيّرون بالحياكة ؛ وليس هذا مما يَخُصُّ الأشعث .

ومن كلام خالد بن صفوان : ما أقول فى قوم ليس فيهم إلا حائك بُرْد ، أو دابغ جِلد ، أو سائس قِرْد ؛ ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودلّ عليهم هُدْهُد !

(٢٠)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَاقَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ ، لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَلٰكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَاقَدْ عَايَنُوا ؛ وَقَرِيبٌ مَايُطْرَحُ الْحِجَابُ .

وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ ؛ وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ[١] : لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ .

الشّرحُ :

الوَهَل : الخوف ، وهِلَ الرجل يَوْهَل .

و« ما » في قوله : « مايُطْرَحُ » مصدرية ؛ تقديره : « وقريب طَرْح الحجاب » ، يعني رفعه بالموت .

وهذا الكلامُ يدلّ على صِحّة القول بعذاب القبر ، وأصحابنا كلُّهم يذهبون إليه ، وإن شنّع عليهم أعداؤهم من الأشعرية وغيرهم بجحده .

وذكر قاضي القضاة رحمه الله تعالى : أنه لم يعرف[٢] معتزليًّا نفَى عذابَ القبر ، لا من

---

(١) كلمة « لكم » ساقطة من ا .

(٢) ج : « لا يعرف » .

متقدّميهم ولا من متأخّريهم ؛ قال : وإنّما نفاه ضِرار[1] بن عمرو ، لمخالطته لأصحابنا وأخذه عن شيوخنا ، مانُسِب قوله إليهم .

ويمكن أن يقول قائل : هذا الكلام لا يدلّ على صحّة القول بعذاب القبر ؛ لجواز أن يعني بمعاينة من قد مات ، مايشاهده المحتضَر من الحالة الدالّة على السعادة أو الشقاوة، فقد جاء في الخبر : « لا يموت امرُؤ حتى يعلَم مصيره ؛ هل هو إلى الجنّة أم إلى النار » . ويمكن أن يعني به مايعاينه المحتضَر من ملك الموت وهَوْل قدومه . ويمكن أن يعني به ما كان عليه السلام يقوله عن نفسه : إنه لا يموت ميّت حتى يشاهدَه عليه السلام حاضراً عنده . والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقدُه ، وتروى عنه عليه السلام شعراً قاله للحارث الأعور الهَمْدانيّ :

يا حارِ هَمْدانَ مَنْ يَمُتْ يرَنِي ... مِنْ مؤمنٍ أو منافق قُبُلَا
يَعرفُنِي طرفهُ وأعرِفُه ... بِعَيْنِه واسمِه وَمَا فَعَلَا
أقول للنّار وهي توقد للـ ... ـعَرْضِ ذَرِيهِ لَا تَقْرَبِي الرّجُلا
ذَرِيهِ لا تقربِيه إنّ لَهُ ... حَبْلًا بِحَبْلِ الوصيّ مُتّصِلا
وَأَنْتَ ياحار إن تمتْ ترَنِي ... فلا تَخَفْ عَثْرَةً ولا زللا[2]
أسْقِيكَ مِنْ باردٍ على ظمأٍ ... تخـاله في الحلاوةِ العَسَلا

وليس هذا بمنكَر ؛ إن صحّ أنّه عليه السلام قاله عن نفسه ، ففي الكتابِ العزيز مايدلّ على أنّ أهل الكتاب لا يموت منهم ميّت حتى يصدّق بعيسى بن مريم عليه السلام ؛ وذلك قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ

---

(١) ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ، وكان في بدء أمره تلميذا لواصل ابن عطاء المعتزلي ، ثم خالفه في خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١ .

(٢) هذا البيت والذى يليه لم يذكرا في ب .

ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1] ؛ قال كثيرٌ من المفسرين : معنى ذلك أنَّ كلَّ ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتب السالفة إذا احتُضِر رأى المسيح عيسى[2] عنده ، فيصدّق به مَنْ لم يكن فى أوقاتِ التكليف مصدِّقًا به .

وشبيه بقوله عليه السلام : «لو عاينتم ماعاين مَنْ مات قبلكم » قولُ أبى حازم لسليمان ابن عبد الملك فى كلام يعظه به : إنَّ آباءك ابتزّوا هذا الأمر من غير مشورة ، ثم ماتوا ، فلو علمت ماقالوا وما قيل لهم ! فقيل : إنه[3] بكى حتى سقط[3] .

---

(١) سورة النساء ١٥٩ .　　(٢) ساقطة من ب .

(٣ ـ ٣) ا : «إن سليمان بكى حتى سقط» .

(٢١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ الغَايَةَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ .
تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ .

***

قال الرضي رحمه الله :

أقول : إِنَّ هذا الكَلَامَ لَوْ وُزِنَ بَعْدَ كَلَامِ اللهِ سُبْحَانه ، وَبَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكُلِّ كَلَامٍ لَمَالَ بِهِ رَاجِحاً ، وَبَرَّزَ عَلَيْهِ سَابِقاً .
فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَام : « تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا » ، فَمَا سُمِعَ كَلَامٌ أَقَلُّ مِنْهُ مَسْمُوعاً وَلَا أَكْثَرُ مَحْصُولاً ، وَمَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا مِنْ كَلِمَةٍ ! وَأَنْقَعَ نُطْفَتَهَا مِنْ حِكْمَةٍ ! وَقَدْ نَبَّهْنَا فِي كتاب "الخصائص"[١] عَلَى عِظَمِ قَدْرِهَا ، وَشَرَفِ جَوْهَرِهَا .

***

الشرح :

غاية المكلّفين هي الثواب أو العقاب ، فيحتمل أن يكونَ أراد ذلك ، ويحتمل أن يكون أراد بالغاية الموت ، وإنما جعل ذلك أمامنا ، لأنّ الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء ، فهما أمامه ، أي بين يديه .

---

(١) كتاب خصائص الأئمة للشريف الرضي . انظر الذريعة في مصنفات الشيعة ٧ : ١٦٤ .

ثم قال : « وإن وراءكم الساعةَ تحدوكم » أى تسوقكم ، وإنّما جعلها وراءنا ، لأنها إذا وُجِدت ساقت الناس إلى موقف الجزاء كما يسوقُ الراعى الإبل ، فلما كانت سائقةً لنا ، كانت كالشىء يحفِزُ الإنسان من خَلْفه ، ويحرّكه من ورائه ، إلى جهة ما بين يديه .

ولا يجوز أن يقال : إنّما سماها « وراءنا » ، لأنها تكون بعد موتنا وخروجنا من الدنيا ، وذلك أنّ الثوابَ والعقاب هذا شأنُهما ، وقد جعلهما أمامنا .

وأما القطب الراونديّ ، فإنه قال : معنى قوله : « فإنّ الغاية أمامكم » ، يعنى أنّ الجنة والنار خَلْفكم . ومعنى قوله : « وراءكم الساعة » أى قدّامكم .

ولقائل أن يقول : أما الوراء بمعنى القدّام فقد ورَد ، ولكن ماورد « أمام » بمعنى « خلف » ، ولا سمعنا ذلك .

وأما قوله : « تخففوا تلحقوا » ، فأصله الرجل يسعى وهو غير مُثقَل بما يحمله ، يكون أجدَر أن يلحَق الذين سبقوه ، ومثله قوله : « نجا المخففون » .

وقوله عليه السلام : « فإنما ينتَظر بأوّلكم آخركم » ، يريد : إنّما يُنتظر ببعث الذين ماتوا فى أوّل الدهر مجىء مَن[1] يخلقون ويموتون فى آخره ، كأمير يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضُهم ، إنما يعطى الأول منهم إذا انتهى عرْض الأخير .

وهذا كلام فصيح جداً .

والغَوْر : العمق . والنُّطفة : ماصفا من الماء ، وما أنقع هذا الماء ! أى ما أرواه للعطش !

(١) ج : « مجىء الذين يخلقون » .

(٢٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ[1]، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ.

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ؛ فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ؛ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي؛ فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ. وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلَامَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَعِلْمِهِ فِيهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ!

وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثَتُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ، وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ. هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ. وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي.

* * *

(١) ا : « قطابه ».

الشَّرْحُ :

يروى : « دَمَّر » بالتخفيف ، و « دمّر » بالتشديد ، وأصله الحضّ والحثّ، والتشديد دليل على التكثير .

واستجلب جَلَبه ، الجلَب بفتح اللام : مايُجلب ، كما يقال : جَمع جَمْعَه . ويروى : « جُلْبَه » و « جِلْبَه »؛ وهما بمعنًى ، وهو السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه؛أي جمع قوما كالجهام الذي لا نفع فيه . وروى : « ليعودَ الجَوْر إلى قِطابه » ، والقِطاب : مِزاج الخمر بالماء ، أي ليعود الجوْر ممتزجاً بالعدل كما كان . ويجوز أن يعنيَ بالقِطاب قِطاب الجَيْب ، وهو مدخل الرأس فيه ، أي ليعودَ الجوْر إلى لباسه وثوبه .

وقال الراونديّ : قِطابه : أصله ؛ وليس ذلك بمعروف في اللغة .

ورُوِيَ « الباطلَ » بالنصب ؛ على أن يكون « يرجع » متعديا ، تقول : رجعت زيدا إلى كذا ؛ والمعنى : ويردّ الجورُ الباطلَ إلى أوطانه .

وقال الراونديّ : « يعود» أيضاً مثل « يرجع » ، يكون لازما ومتعديا،وأجاز نصب « الجوْر » به ؛ وهذا غير صحيح ؛ لأن « عاد » لم يأت متعديا ، وإنما يعدّى بالهمزة .

والنَّصَف : الذي يُنصِف .

وقال الراونديّ: النَّصَف : النَّصَفة[1]؛والمعنى لايحتمله ؛ لأنه لامعنى لقوله:ولاجَعلوا بيني وبينهم إنصافا ، بل المعنى : لم يجعلوا ذا إنصاف بيني وبينهم .

يرتضعون أمّا قد فَطَمت ، يقول : يطلبون الشيء بعد فواته ؛ لأنّ الأم إذا فطَمت ولدها فقد انقضى إرضاعها .

وقوله : « ياخيبة الداعي» ، هاهنا كالنداء في قوله تعالى:﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾[2]، وقوله : ﴿ يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَافَرَّطْنَا فِيهَا ﴾[3] أي ياخيبة احضرى فهذا أوانك !

(١) كذا في ا ، وفي ب : « النصف » ، والنصفة : العدل .

(٢) سورة يس ٣٠ (٣) سورة الأنعام ٣١ .

وكلامُه فى هذه الخطبة مع أصحاب الجمل ؛ والداعى هو أحدُ الثلاثة: الرجلان والمرأة.

ثم قال على سبيل الاستصغار لهم ، والاستحقار : « مَنْ دَعَا ! وإلى ماذا أجيب ! » أى أحقِرْ بقومٍ دعاهم هذا الداعى ! وأقبِحْ بالأمر الذى أجابوه إليه، فما أفحشه وأرذله !

وقال الراوندىّ : ياخيبة الداعى ؛ تقديره : ياهؤلاء ، فحذف المنادَى ، ثم قال: خَيْبةَ الداعى ؛ أىْ خاب الداعى خيبةً . وهذا ارتكاب ضرورة لا حاجةَ إليها ، وإنما يُحذف المنادَى فى المواضع التى دَلّ الدّليلُ فيها على الحذف ، كقوله :

* يا فَانْظُرَا أيْمَنَ الْوَادِى على إِضَمِ *

وأيضاً ، فإنّ المصدر الذى لا عامل فيه غير جائزٍ حذفُ عامله ؛ وتقدير حذفه تقديرُ مالا دليلَ عليه .

وهَبِلته أمه ، بكسر الباء : ثَكِلته .

وقوله : « لقد كنتُ وما أهدَّد بالحرب » ، معناه : مازلتُ لا أهدَّد بالحرب، والواو زائدة . وهذه كلمة فصيحة كثيرا ماتستعملها العرب . وقد ورد فى القرآن العزيز « كان » بمعنى « مازال » فى قوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[1] ونحو ذلك من الآى ، معنى ذلك: لم يزل الله عليما حكيما. والذى تأوّله المرتضى رحمه الله تعالى فى " تكملة الغرر والدرر "[2] كلام متكلّف ، والوجه الصحيح ما ذكرناه .

***

وهذه الخطبة ليست من خُطَب صِفّين كما ذكره الراوندىّ، بل من خُطَب الجمل، وقد ذكر كثيرا منها أبو مِخنف رحمه الله تعالى، قال : حدّثنا مسافِر بن عفيف بن أبى الأخنس

---

(١) سورة النساء ١٧٠

(٢) تكملة الغرر والدرر ٢ : ٣٠٠ — ٣٠٢

قال : لما رجعتْ رُسُل عليّ عليه السلام من عند طلحة والزّبير وعائشة يُؤذِنُونه بالحرْب ، قام فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلّى على رسوله صلى الله عليه ، ثم قال :

أيُّها النّاس ، إنّى قد راقبتُ هؤلاء القوم كي يرعَوُوا أو يرجِعوا ، ووبّختُهم بنَكْثهم ، وعرّفتهم بَغْيَهُمْ فلم يستحيُوا ، وقد بعثوا إليّ أن أبرُز للطعان ، وأصبر للجِلاد ، وإنما تُمنِّيك نفسك أمانى الباطل ، وتَمِدُك الغرور . ألا هَبِلَتْهم الهَبول ، لقد كنت وما أُهَدَّدُ بالحرب ، ولا أُرَهَّبُ بالضرب ! ولقد أنصفَ القارةَ مَنْ راماها[1] ، فليُرعِدُوا وليُبْرِقوا ، فقد رأوْنى قديماً ، وعرفوا نِكايتى ، فكيف رأوْنى ! أنا أبو الحسن ، الذى فَلَلْتُ حدّ المشركين ، وفرّقتُ جماعتهم ، وبذلك القلب ألقَى عدوّى اليوم ، وإنّى لعلى ما وعدنى ربّى من النصر والتأييد ، وعلى يقين من أمرى ، وفى غير شُبهة من دينى .

أيّها الناس ، إن الموت لا يفوتُه المقيم ، ولا يُعجِزه الهارب ، ليس عن الموت مَحيد ولا محيص ، مَنْ لم يُقتَلْ مات .

إنّ أفضلَ الموت القتل ، والذى نفسُ عليّ بيده لألفُ ضربة بالسيف أهونُ من موتةٍ واحدة على الفراش . اللّهمّ إنّ طلحة نكث بيْعتى ، وألّبَ عَلَى عثمان حتى قتله ، ثم عَضَهَنى[2] به ورمانى .

اللهم فلا تُمهِلْه . اللهمّ إنّ الزبير قطع رَحِمى ، ونكث بَيْعتى ، وظاهَر عليّ عدوّى ، فاكفِنِيه اليوم بما شئت .

ثم نزل .

---

(١) قد أنصف القارة من راماها ؛ مثل ، والقارة : قوم رماة من العرب . وفى اللسان (٦ : ٤٣٦) عن التهذيب : « كانوا رماة الحدق فى الجاهلية ؛ وهم اليوم فى اليمن ينسبون إلى أسد ، والنسبة إليهم قاريّ ، وزعموا أن رجلين التقيا ؛ أحدهما قارى والآخر أسدى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القارى : لقد أنصفتنى ، وأنشد :

قد أنصف القارةَ مَنْ رَامَاهَا   إنّا إذا ما فِئَةٌ نلقاهـــا

* نردّ أُولاها على أُخراها *

ثم انتزع له سهما فشك فؤاده

(٢) عضهه ، أى قال فيه ما لم يكن .

[خطبة علىّ بالمدينة فى أول إمارته]

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أصحابه وعمّاله فى واقعة الجمل، كلّه يدورُ على هذه المعانى التى اشتملت عليها ألفاظُ هذا الفصل؛ فمن ذلك الخطبةُ التى رواها أبو الحسن علىّ بن محمد المدائنىّ، عن عبد الله بن جُنَادة، قال: قدِمْتُ من الحجاز أريد العِراق؛ فى أوّلِ إمارة علىّ عليه السلام، فمررت بمكة، فاعتمرت، ثم قدِمْتُ المدينة، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ نودى: الصّلاة جامعة؛ فاجتمع الناس، وخرج علىّ عليه السلام متقلّداً سيفَه، فشخَصت الأبصارُ نحوه، فحمِدَ الله وصلى على رسوله، صلى الله عليه وآله، ثم قال:

أما بعد، فإنّه لما قَبَض الله نبيّه صلى الله عليه وآله، قلنا: نحن أهلُه وورثته وعِترته، وأولياؤه دون الناس، لا ينازِعُنا سلطانَه أحد، ولا يطمع فى حقّنا طامع؛ إذ انبرى لنا قومُنا فغصبونا سلطان نبيّنا، فصارتِ الإمْرة[1] لغيرنا، وصرنا سوقة؛ يطمع فينا الضعيف؛ ويتعزّز علينا الذليل؛ فبكتِ الأعين منّا لذلك، وخشِنَتِ[2] الصدور، وجزِعت النفوس. وايمُ الله لولا مخافة الفُرْقة بين المسلمين، وأن يعودَ الكفر، ويبورَ الدين، لكنّا على غير ما كنّا لهم عليه، فولىَ الأمْرَ ولاة لم يألوا الناسَ خيرا، ثم استخرجتمونى أيها الناس من بيتى، فبايعتمونى على شَيْنٍ مِنّى لأمرِكم، وفِراسة تَصْدُقنى ما فى قلوب كثير منكم، وبايعنى هذان الرجلان فى أوّل مَنْ بايع، تعلمون ذلك، وقد نكثا وغَدَرا، ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرّقا جماعتكم، ويُلقِيا بأسكم بينكم. اللّهمّ فخذهما بما عمِلا أخذةً رابية[3]،

(١) ا «الإمارة». (٢) كذا فى ج، وخشنت أى أوغرت، ومنه قول عنترة:

* وخشنتَ صَدْرًا جيبُه لك ناصحُ *

وفى ا «خشيت»، والوجه ما أثبته من ا.

(٣) ب: «أخذة واحدة رابية»، وما أثبته عن ا. وأخذة رابية، أى أخذة تزيد على الأخذات، وقال الجوهرى: أى زائدة، كقولك: أربيت، إذا أخذت أكثر مما أعطيت، قال تعالى: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾.

ولا تنعش[١] لهما صَرْعة ، ولا تُقِل لهما عَثْرة ، ولا تمهلهما فُواقا[٢] ، فإنهما يطلبان حقا تركاه، ودماً سفكاه . اللهم إني أقتضيك وعدك ، فإنك قلتَ وقولُك الحقّ : «ثُمَّ بُغِي عليه لينصرنه الله[٣]» اللهمّ فأنجِز لي موعدكَ ، ولا تكِلْني إلى نفسي ، إنك على كلّ شيء قدير .

ثم نزل .

***

[خطبته عند مسيره للبصرة]

وروى الكلبيّ قال : لما أراد عليّ عليه السلام المسيرَ إلى البصرة ، قام فخطب الناس ، فقال بعد أنْ حَمِد الله وصلى على رسوله ، صلى الله عليه :

إنّ الله لما قبض نبيه ، استأثرتْ علينا قريش بالأمر ، ودفعتنا عَنْ حَقّ نحن أحقُّ به من الناس كافّة ، فرأيت أنّ الصّبر على ذلك أفضلُ من تفريق كلمة المسلمين ، وسَفْكِ دمائهم . والنّاس حديثو عهد بالإسلام ، والدين يُمخَضُ مَخْضَ الوطب ، يُفسِدُه أدنى وَهَن، ويعكسه أقلّ خُلْف . فولِيَ الأمرَ قوم لم يألوا في أمرهم اجتهاداً ، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء، والله وليّ تمحيص سيِّئاتهم ، والعفوِ عن هفواتهم . فما بالُ طلحة والزبير ، وليسا من هذا الأمر بسبيل ! لم يصبِرا عليّ حولا ولا شهْرا حتى وَثَبا ومَرَقا، ونازعاني أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلا ، بعد أن بايعا طائعين غيرَ مكرهين ، يرتضعانِ أمّا قد فطَمت ، ويُحْيِيان بِدْعةً قد أميتت . أدمَ عثمان زعما ! والله ما التَّبِعةُ إلا عندهم وفيهم ، وإنّ أعظمَ حُجّتهم لعلَى

---

(١) النعش : الرفع ؛ نعشت فلانا ، إذا جبرته بعد فقر ، وأقلته بعد عثرة .

(٢) الفواق ، بفتح الفاء وضمها : مابين الحلبتين من الوقت ؛ لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرتضعها الفصيل لتدر ثم تحلب ؛ يقال : ما أقام عندنا إلا فواقا ، أي قدر فواق .

(٣) الآية بأكملها في سورة الحج ٦٠ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

أنفسهم ، وأنا راضٍ بحجة الله عليهم وعمله فيهم ، فإنْ فاءا وأنابا فحظَّهما أحرزا ، وأنفَسَهما غنِما ، وأعظِمْ بها غنيمة ! وإنْ أبَيَا أعطيتُهما حدّ السيف ، وكفى به ناصراً لحقّ، وشافياً لباطل .

ثم نزل .

* * *

[خطبته بذى قار]

وروى أبو مِخْنف عن زيد بن صُوحان ، قال : شَهِدتُ عليا عليه السلامِ بذى‌قار[1] ، وهو معتمّ بعمامة سَوْداء ، ملتفّ بساج يخطب ، فقال فى خطبة :

الحمد لله على كلّ أمر وحال ، فى الغُدوّ والآصال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه ، ابتعثه رحمةً للعباد ، وحياة للبلاد ، حين امتلأت الأرض فتنة ، واضطرب حبلُها ، وعُبِد الشيطان فى أكنافها ، واشتمل عدوّ الله إبليسُ على عقائد أهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب ، الذى أطفأ الله به نيرانَها ، وأخمدَ به شرارها ، ونزع به أوتادَها ، وأقام به مَيْلَها ، إمام الهُدى ، والنبيّ المصطفَى ، صلّى الله عليه وآله . فلقدْ صَدَعَ بما أُمِرَ به ، وبلّغ رسالاتِ ربّه ، فأصلَح الله به ذاتَ البيْن ، وآمَن به السُّبُلَ ، وحقَنَ به الدماء ، وألّف به بين ذَوِى الضغائن الواغِرة فى الصدور ، حتى أتاه اليقينُ ، ثم قبَضه الله إليه حَمِيدا . ثم استخلف الناسُ أبا بكر ، فلم يألُ جُهْدَه ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يألُ جُهدَه ، ثم استخلف الناس عثمان ، فنال منكم ونلْتُمْ منه ، حتى إذا كان من أمره ما كان ، أتيتُمونى لتبايعُونى ، لا حاجةَ لى فى ذلك ، ودخلتُ منزلى ، فاستخرجتُمونى فقبَضْتُ يدِى فبسطتموها ، وتداكَكْتُم[2] علىّ ، حتى ظننتُ أنكم قاتلىّ ، وأن بعضكم قاتلُ بعض ، فبايعتمونى وأنا غيرُ مسرور بذلك ولا جَذِل .

---

(١) ذوقار : موضع قريب من البصرة ؛ وهو المكان الذى كانت فيه الحرب بين العرب والفرس .

(٢) تداككتم : تزاحمتم .

وقد علم الله سبحانه أنى كنتُ كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله ، ولقد سمعتهُ يقول : « مامن والٍ يَلِي شيئاً من أمْرِ أمّتى إلا أُتِىَ به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه على رءوسِ الخلائق ، ثم يُنشَر كتابه ، فإن كان عادلاً نجا ، وإن كان جائراً هَوَى » ، حتى اجتمع علىَّ مَلؤُكم ، وبايعنى طلحة والزبير ، وأنا أعرفُ الغَدْرَ فى أوجههما ، والنَّكْث فى أعينهما ، ثم استأذنانى فى العُمْرة ، فأعلمتُهما أن ليس العمرةَ يريدان ، فسارا إلى مكّة واستخفّا عائشة وخدعاها ، وشخص معهما أبناء الطُّلَقاء[1] ، فقدِموا البصرة ، فقتلوا بها المسلمين ، وفعلوا المنكر . ويا عجبًا لاستقامتِهما لأبى بكر وعمر وبَغْيهما علىَّ ! وهما يعلمان أنّى لست دون أحدِهما ، ولو شئت أن أقول لقلت ؛ ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدَعهما فيه ، فكتماه عنّى ، وخرجا يُوهمان الطَّغَام أنّهما يطلبان بدم عثمان ؛ والله ما أنكرا علىَّ منكَرا ، ولا جعلا بينى وبينهم نصَفاً ، وإنَّ دم عثمان لمعصوبٌ بهما ، ومطلوب منهما . ياخَيبة الدّاعى ! إلامَ دعا ! وبماذا أُجيبَ ؟ والله إنّهما لعلَى ضلالةٍ صمّاء ، وجهالة عمياء ، وإنّ الشيطان قد ذَمَّر لهما حِزْبه ، واستجلب منهما خَيْله ورَجْله ، ليعيدَ الجوْرَ إلى أوطانه ، ويرُدَّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه ، فقال : اللهمّ إنّ طلحة والزّبير قطعانى ، وظلمانى ، وألَّبا علىَّ ، ونكثا بيعتى ، فاحلُلْ ماعقدا ، وانكُثْ ما أبرما ، ولا تغفر لهما أبداً ، وأرِهما المساءة فيما عمِلا وأمّلا !

قال أبو مِخْنف : فقام إليه الأشتر فقال :

الحمدلله الذى منّ علينا فأفضَل ، وأحسن إلينا فأجْمَل ، قد سَمِعْنا كلامك ياأمير المؤمنين ، ولقد أصبت ووفِّقت ، وأنت ابن عمّ نبينا وصهره ووصيّه ، وأوّل مصدِّق به ، ومصلٍّ معه ، شهدتَ

---

(١) الطلقاء : هم الذين خلى عنهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ، وأطلقهم فلم يسترقهم ، واحدهم طليق ، فعيل بمعنى مفعول ، وهو الأسير إذا أطلق سبيله .

مشاهدَه كلَّها ، فكان لك الفضلُ فيها على جميع الأمة ، فمن اتّبعك أصاب حظّه ، واستبشرَ بفَلَجِه ، ومَنْ عصاك ، ورغِب عنك ؛ فإلى أمّه الهاوية ! لعمرى يا أمير المؤمنين ما أمرُ طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل ، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه ، وفارقا على غير حدَث أحدثت ، ولا جوْر صنعت ؛ فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان فليُقِيدا من أنفسهما فإنهما أولُ من ألَبَ عليه وأغرَى الناسَ بدمه ، وأُشهِدُ الله ، لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لَنُلْحِقَنّهما بعثمان ، فإنّ سيوفَنا فى عواتقنا ، وقلوبَنا فى صدورنا ، ونحن اليوم كما كنّا أمس . ثم قعد

(٢٣)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ كَقَطْرِ ٱلْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ فَإِنْ [١] رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ ؛ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً ، فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ ٱلْمُسْلِمَ مَالَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ ؛ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ ٱلْمَغْنَمَ ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ . وَكَذَٰلِكَ ٱلْمَرْءُ ٱلْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ؛ إِمَّا دَاعِيَ ٱللهِ فَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لَهُ ، وَإِمَّا رِزْقَ ٱللهِ ؛ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ ؛ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ .

إِنَّ ٱلْمَالَ وَٱلْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا ، وَٱلْعَمَلَ ٱلصَّالِحَ حَرْثُ ٱلْآخِرَةِ ؛ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تعالى لِأَقْوَامٍ ؛ فَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ ٱللهُ إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ . نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ ، وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ ؛ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ ، وَأَعْطَفُهُمْ

---

(١) ب : « فإذا » .

عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إن[1] نَزَلَتْ بِهِ ، وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فى النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِّثُهُ غَيْرَهُ .

ومنها :

أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِى لَا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ . وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ .

وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ .

* * *

قال الرضىّ رحمه الله[2] :

أقولُ : الغَفيرةُ ها هنا الزِّيادةُ وَالكثرةُ ؛ مِنْ قولِهِمْ للجمعِ الكثيرِ : الجَمُّ الغفير ، وَالجمّاء الغَفير . وَيُرْوى : « عفوةً من[3] أهلٍ أوْ مال » ، وَالعَفْوَةُ : الخِيار من الشيء ؛ يقال : أكلتُ عفوةَ الطعام ، أى خِيارَه .

وَما أحْسنَ المعنى الذى أرادهُ عليه السلامُ بقولِه : « ومن يقْبِضْ يدهُ عَنْ عَشِيرتِهِ ... » إلى تمام الكلام ، فإنَّ المُمسِكَ خَيْرَهُ عن عشيرتِهِ ، إنما يُمسِكُ نفعَ يَدٍ واحدةٍ ، فإذا احْتاجَ إلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضطُرَّ إلى مرافدَتِهِمْ ، قعدُوا عن نصرِهِ ، وَتثاقَلوا عن صوْته ؛ فَمُنِعَ تَرافُدَ الأيدى الكثيرةِ وَتناهُضَ الأقدامِ الجَمَّةِ .

* * *

(١) ب : « إذا » .

(٢) ساقطة من ا .

(٣) ا « فى » .

الشرح :

الفالج : الظافر الفائز ، فَلَج يَفْلُج ، بالضم ، وفى المثل : « مَنْ يأتِ الحَكَم وحده يَفْلُج » . والياسر : الذى يلعب بالقداح ، واليَسَر مثله ، والجمع أيسار . وفى الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : كالياسر الفالج ، أى كاللاعب بالقِداح المحظوظ منها ، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف ، كقوله تعالى : ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1] ، وحسّن ذلك هاهنا أنّ اللفظتين صفتان ، وإن كانت إحداهما مرتّبةً على الأخرى .

وقوله : «ليست بتعذير» ، أى لَيست بذات تعذير ، أى تقصير ، فحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ * النَّارِ﴾[2] أى ذى النّار .

وقوله : «هم أعظم الناس حَيْطة» كَبَيْعَة ، أى رعاية وكلاءة ، ويروى : «حِيطة» ، كِنْيبة ، وهى مصدر حاط أى تحنّنا وتعطفا .

والخصاصة : الفقر ، يقول : القضاء والقدر ينزلان من السماء إلى الأرض كقطر المطر ، أى مبثوث فى جميع أقطار الأرض إلى كلّ نفس بما قُسِم لها من زيادة أو نقصان ، فى المال والعمر والجاه والولد وغير ذلك . فإذا رَأَى أحدُكم لأخيه زيادة فى رزق أو عمر أو ولد وغير ذلك ؛ فلا يكونَنّ ذلك له فِتنةً تفضى به إلى الحسد ، فإنّ الإنسان المسلم إذا كان غيرَ مُواقِعٍ لدناءة وقبيح يَستحيي من ذكره بين الناس ، ويخشع إذا قُرِّع به ، ويغرَى لئام الناس بهَتْك ستره به ، كاللاعب بالقِداح ؛ المحظوظ منها ، ينتظر أول فَوْزَة وغلبَة من قِداحه ، تجلب له نفعا ، وتدفع عنه ضرّا ؛ كذلك مَنْ وصفْنا حالَه ، يصبر وينتظر إحدى الحسنيين ؛ إمّا أنْ يدعُوَه الله فيقبضَه إليه ، ويستأثرَ به ، فالذى عند الله خير له . وإما أنْ يُنْسَأ فى أجَله ، فيرزقه اللهُ أهلا ومالا ، فيصبِحَ وقد اجتمع له ذلك مع حَسَبه ودينه ومروءته المحفوظة عليه .

ثم قال : « المال والبنون حرث الدنيا » ، وهو من قوله سبحانه : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ

---

(١) سورة فاطر ٢٧ (٢) سورة البروج ٤ ، ٥

زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[١] ، ومن قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ ﴾[٢] .

قال : وقد يجمعهما الله لأقوام ، فإنّه تعالى قد يرزقُ الرجل الصالح مالاً وبنين ، فتجتمعُ له الدنيا والآخرة .

ثم قال : « فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه » ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿فَاتَّقُونِ﴾[٣] ، وقال : ﴿فَارْهَبُونِ﴾[٤] ، وقال : ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[٥] ، وغير ذلك من آيات التحذير .

ثم قال : ولتكن التقوى منكم أقصى نهايات جهدكم ، لا ذات تقصيركم ، فإنّ العمل القاصر قاصر الثواب ، قاصر المنزلة .

***

[فصل فى ذم الحاسد والحسد]

واعلم أن مصدرَ هذا الكلام النهيُ عن الحسد ، وهو من أقبح الأخلاق المذمومة .

وروى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « ألا لا تعادُوا نعم الله » ، قيل : يا رسول الله ، ومن الذى يعادِى نعم الله ؟ قال : « الذين يحسدون الناس » .

وكان ابن عمر يقول : تعوّذوا بالله من قَدَرٍ وافق إرادةَ حسود .

---

(١) سورة الكهف ٤٦ .

(٢) سورة الشورى ٢٠ .

(٣) سورة البقرة ٤١ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ .

(٤) سورة البقرة ٤٠ . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ .

(٥) سورة المائدة ٤٤ .

قيل لأرسطو : ما بالُ الحسود أشدّ غمّا من المكروب ؟ قال : لأنه يأخذ نصيبَه من غموم الدنيا ، ويضاف إلى ذلك غمّه بسرور الناس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود » .

وقال منصور الفقيه[1] :

مُنَافَسَةُ ٱلْفَتَى فِيمَا يَزُولُ ... عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ
وَمُخْتَارُ ٱلْقَلِيـلِ أَقَلُّ مِنْهُ ... وَكُلُّ فَوائِدِ الدُّنْيَا قَلِيلُ

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام : لله درّ الحسد ! ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتَله .

ومن كلام عثمان بن عفان : يكفيك من انتقامك من الحاسد أنّه يغتمّ وقتَ سرورك .

وقال مالك بن دينار : شهادة القرّاء مقبولة في كلّ شيء إلا شهادة بعضهم على بعض ، فإنّهم أشدّ تحاسدا من السُّوس في الوبَر .

وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ نَشْرَ فَضِيـلَةٍ ... طُوِيَتْ ، أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ[2]
لولا ٱشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ ٱلْعُودِ
لَوْلَا مُحَاذَرَةُ ٱلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ ... للحاسِدِ النُّعْمَى عَلَى ٱلْمَحْسُودِ[3]

وتذاكر قوم من ظرفاء البَصْرة الحسَد ، فقال رجل منهم : إنّ النّاس ربّما حسدوا على الصَّلْب ؛ فأنكروا ذلك ، ثم جاءهم بعد ذلك بأيام ، فقال : إنّ الخليفة قد أمر بصلْبِ

---

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عيسى التميمي أحد فقهاء الشافعية . طبقات السبكي ٢ : ٣١٧ .
(٢) ديوانه ١ : ٤٠٢ (٣) الديوان : « لولا التخوف للعواقب » .

الأحنف(١) بن قيس(١) ، ومالك بن مِسْمَع ، وحَمْدان الحجّام؛ فقالوا: هذا الخبيثُ يُصْلَب مع هذين الرئيسين ! فقال : ألم أقُلْ لكم إنّ الناس يحسُدون على الصَّلب !

وروى أنس بن مالك مرفوعا: «إنّ الحسَد يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطب».

وفى الكتب القديمة : يقول الله عز وجل : الحاسِد عدوّ نعمتى ، متسخّط لفعلى ، غير راضٍ بقسمتى .

وقال الأصمعىّ : رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ مائة وعشرين سنة ، فقلت له : ما أطولَ عمرَك ! فقال : تركتُ الحسدَ فبقيت .

وقال بعضهم : مارأيتُ ظالما أشبهَ بمظلوم من حاسد .

قال الشاعر :

ترَاهُ كأنَّ الله يجدَعُ أنفَه ... وأذنيه إنْ مولاه ثابَ إلى وَفْرِ

وقال آخر :

قُلْ للحسُود إذَا تنفَّس ضِغْنَهُ ... ياظالِماً وَكأنَّهُ مَظْلُومُ !

ومن كلام الحكماء : إيّاك والحسَد ، فإنّه يَبِينُ فيك ولا يَبِين فى المحسود .

ومن كلامهم : من دناءة الحاسِدِ أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب .

وقيل لبعضهم : لزمتَ الباديةَ ، وتركتَ قومَكَ وبلدك ! قال : وهل بقِىَ إلا حاسدُ نِعمة ، أو شامتٌ بمصيبة !

بينا عبد الملك بن صالح يسيرُ مع الرّشيد فى موكبه ، إذ هتف هاتف : ياأمير المؤمنين، طأطئْ من إشرافه ، وقَصِّر من عِنانه ، واشدُدْ من شِكاله ـ وكان عبدُ الملك متّهما

(١) ساقط من ب

عند الرشيد بالطّمع فى الخلافة ـ فقال الرّشيد : مايقول هذا ؟ فقال عبدُ الملك : مقالُ حاسد ودسيسُ حاقدٍ يا أمير المؤمنين . قال : قد صدقت ، نقص القومُ وفضلتَهم ، وتخلفوا وسبقتَهم ؛ حتى برز شأْوُك ، وقصّر عنك غيرُك ، ففى صدورهم جمراتُ التخلُّف ، وحزازاتُ التبلّد . قال عبد الملك : فأضرِمْها ياأمير المؤمنين عليهم بالمزيد .

وقال شاعر :

يَاطَالِبَ ٱلْعَيْشِ فى أَمْنٍ وَفى دَعَةٍ　　مَحْضـاً بِلَا كَدَرٍ ، صَفْواً بِلَا رَنَقِ
خَلِّصْ فُؤَادكَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ　　فَالغِلّ فى القَلْبِ مِثلُ الغُلِّ فى ٱلْعُنُقِ

ومن كلام عبد الله بن المعتز : إذا زال المحسودُ عليه ، علمتَ أنّ الحاسد كان يحسدُ على غير شىء .

ومن كلامه : الحاسدُ مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه .

ومن كلامه : لا راحةَ لحاسد ، ولا حياةَ لحريص .

ومن كلامه : الميت يقلّ الحسدُ له ، ويكثر الكذبُ عليه .

ومن كلامه : ماذلّ قوم حتى ضَعفُوا ، وما ضَعفُوا حتى تفرّقوا ، وما تفرّقوا حتى اختلفوا ، وما اختلفوا حتّى تباغضوا ، وما تباغضوا حتى تحاسدوا ، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض .

وقال الشاعر :

إنْ يَحْسُدُونِى فَإِنِّى غَـيْرُ لَائِمِهِمْ　　قَبْلِى مِنَ النَّاسِ أَهلِ ٱلْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا[1]
فَـدَامَ لِى وَلَهُمْ مَابِى وَمَا بِهِمُ　　وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيظـاً بِمَا يَجِـدُ

(١) من أبيات فى أمالى المرتضى ١ : ٤١٤ ، ونسبها إلى الكميت بن زيد ؛ وهى فى شرح المختار من شعر بشار ٦٧ من غير نسبة ، وعيون الأخبار ٢ : ١١ ، وأمالى القالى ٢ : ١٩٨

ومن كلامهم : ماخلا جَسَدٌ عن حسد .

وحدُّ الحَسَد هو أن تغتاظَ مما رُزِقَه غيرُك ، وتودّ أنه زال عنه وصار إليك . والغبطة : ألّا تغتاظ ولا تودّ زوالَه عنه ؛ وإنما تودّ أن تُرْزَقَ مِثْله ، وليست الغبطة بمذمومة .

وقال الشاعر :

حَسَدُوا الْفَتى إذ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْكُلُّ أعْداءٌ لَهُ وَخُصُومُ (١)
كَضَرائِرِ الْحَسْناءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... - حَسَداً وَبَغْياً - إنَّهُ لَدَمِيمُ

***

[فصل في مدح الصبر وانتظار الفرج]

واعلم أنه عليه السلام بعد أن نهى عن الحَسَد أمر بالصبر وانتظار الفرَج من الله ، إما بموتٍ مريح ، أو بظفرٍ بالمطلوب .

والصبرُ من المقامات الشريفة ، وقد وَرَدتْ فيه آثارٌ كثيرة ، روى عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ الصبر نصفُ الإيمان ، واليقين الإيمان كلّه » .

وقالت عائشة : لو كان الصبر رجلا لكان كريما .

وقال عليّ عليه السلام : الصّبر إمّا صبر على المصيبة ، أو على الطاعة ؛ أو عن المعصية ؛ وهذا القسم الثالث أعْلَى درجةً من القسمين الأوّلَين .

وعنه عليه السلام : الحياء زينة ، والتقوى كرم ، وخير المراكب مركب الصبر .

وعنه عليه السلام : القناعة سيفٌ لا ينبُو ، والصبر مَطِيّةٌ لا تكبو ، وأفضل العدّة الصبرُ على الشدّة .

قال الحسن عليه السلام : جرّبْنا وجرّب المجرّبون ، فلم نرَ شيئا أنفعَ وِجدانا ، ولا أضرّ فِقدانا من الصبر ؛ تُداوَى به الأمور ، ولا يداوى هُوَ بغيره .

---

(١) لأبي الأسود الدؤلي ، ملحق ديوانه ٥١ .

وقال سعيد بن حُميد الكاتب[1] :

لَا تَعْتِبَنَّ عَلَى النَّوَائِبْ ... فَالدَّهْرُ يُرْغِمُ كُلَّ عَاتِبْ
وَاصْبِرْ عَلَى حَدَثَانِهِ ... إِنَّ الأمورَ لها عَوَاقِبْ
كَمْ نِعْمَةٍ مَطْوِيَّةٍ ... لَكَ بَيْنَ أَثْنَاء النَّوَائِبْ[2]
وَمَسَرَّةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ ... مِنْ حَيْثُ تُنْتَظَرُ المَصَائِبْ

ومن كلامهم : الصَّبر مُرّ ، لا يتجرّعه إلا حُرّ .

قال أعرابيّ : كُنْ حُلْوَ الصَّبر عندَ مَرارة النَّازلة .

وقال كسرى لِبُزُرْجِمهر : ماعلامةُ الظفر بالأمور المطلوبة المستصعبة ؟ قال : ملازمة الطّلب ، والمحافظة على الصبر ، وكتمان السر .

وقال الأحنف بن قيس : لست حليماً ؛ إنما أنا صبور ، فأفادني الصبر صِفَتِي بالحلم .

وسئل عليّ عليه السلام : أيّ شيء أقربُ إلى الكفر ؟ قال : ذو فاقة لا صبر له .

ومن كلامه عليه السلام : الصبر يناضِل الحدَثان ، والجزع من أعوان الزمان .

وقال أعشى هَمْدان :

إِنْ نِلْتُ لم أَفْرَحْ بشيءٍ نِلْتُهُ ... وإذا سُبِقْتُ به فلا أَتَلَهَّفُ[3]
وَمَتَى تُصِبْكَ من الحوادثِ نَكْبَةٌ ... فاصْبِرْ فكلّ غَيَابَةٍ تَتَكَشَّفُ

والأمر يذكر بالأمر ، وهذا البيت هو الذى قاله له الحجّاج يوم قتله ، ذكر ذلك أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ فى " الأمالى " ، قال : لمّا أُتِيَ الحجاجُ بأعشى همْدان أسيرا ؛ وقد كان خرج مع ابن الأشعث ، قال له : يابن الخناء ! أنت القائل لِعدوّ الرحمن – يعنى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

---

(١) البيتان : الثالث والرابع فى شرح المختار من شعر بشار ٣١٤ ، من غير نسبة .
(٢) شرح المختار : « كم فرجة » .
(٣) ديوان الأعشين ٣٥ ، مع اختلاف فى الرواية والترتيب .

يابنَ الأشجِّ قريعَ كِنْـ ... ـدةَ لا أبالى فيك عتبا[1]
أنت الرئيسُ ابنُ الرئيـ ... ـسِ ، وأنتَ أعلى الناسِ كعبا[2]
نُبِّئت حجاج بن يو ... سف خرَّ مِنْ زَلَقٍ فتبّا
فانهضْ هُـديت لعلَّهُ ... يجلُو بك الرّحمن كَرْبا[3]
وابعث عطيةَ فى الحرُو ... ب يكبُّهنَّ عليه كبّا

ثم قال : عبد الرحمن خرَّ من زَلَقٍ فتبَّ ، وخسِر وانكبَّ ، وما لقىَ ما أحبَّ . ورفع بها صوته ،واهتزَّ منكِباه ، ودرَّ وَدَجاه[4] ، واحمرّت عيناه ، ولم يبق فى المجلس إلا من هابه ، فقال : أيها الأمير ، وأنا القائل :

أبى اللهُ إلّا أنْ يُتَمّمَ نُورَهُ ... وَيُطْفِئَ نارَ الكافِرينَ فتخمُدا[5]
ويُنزِلَ ذُلًّا بالعراق وأهله ... كما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدا
وما لَبِثَ الحجّاج أنْ سَلَّ سيفَه ... علينا ، فولّى جمعُنا وتبدّدا

فالتفت الحجّاج إلى مَنْ حضر ، فقال : ما تقولون ؟ قالوا : لقد أحسن أيها الأمير ، ومَحا بآخِرِ قوله أولَهُ ، فليسعْه حِلْمُك . فقال : لاها الله ! إنه لم يُرِدْ ماظننتم ،وإنما أراد تحريضَ أصحابه ، ثم قال له : ويلك ! ألست القائل :

إنْ نِلتُ لَمْ أفرَحْ بشىء نِلْتُهُ ... وإذا سُبِقْتُ بهِ فلا أتلهّفُ
وَمَتى تُصِبْكَ مِنَ الحوادِثِ نَكْبَةٌ ... فاصْبِرْ ، فكلُّ غيابةٍ تتكشّفُ

أما والله لتظلمَنَّ عليك غَيابَةٌ لا تنكشف أبدا ، ألست القائل فى عبد الرحمن :

إذا سألتَ المجدَ أين مَحَلُّهُ ... فالمجدُ بَيْنَ محمدٍ وسَعيدِ

---

(١) ديوان الأعشين ٣١٢

(٢) ديوان الأعشين : « أعلى القوم » .

(٣) ديوان الأعشين : « فديت » .

(٤) يقال : در العرق ، إذا امتلأ دما ، والودجان : عرقان فى العنق .

(٥) ديوان الأعشين ٣٢٠ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

بَيْنَ الأَشجِّ وَبَيْنَ قَيْسٍ نَازِلٌ ... بَخٍ بَخٍ لِوالِدِهِ وللمولود(١)

والله لا يُبَخْبِخُ(٢) بعدها أبدا : ياحرسيّ اضرب عُنُقَه .

***

ومما جاء في الصبر قيل للأحنف : إنك شيخٌ ضعيف ، وإنّ الصيام يهُدّك .
فقال : إني أعدّه لشرّ يوم طويل ، وإنّ الصبرَ على طاعة الله أهونُ من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : مَنْ لم يَصْبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات . ربّ غيظٍ قد تجرّعتهُ مخافة ماهو أشدّ منه .

يونس بن عبيد : لو أُمِرْنا بالجزَع لصبرنا .

ابن السّماك : المصيبة واحدة ، فإن جزِع صاحبُها منها صارت اثنتين . يعني : فقدَ المصاب وفقد الثواب .

الحارث بن أسد المحاسبي : لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر .

جابر بن عبد الله : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة » .

وقال العتابيّ :

اصْبِرْ إذا بَدَهَتْكَ نَائِبَةٌ ... مَاعَالَ مُنْقَطِعٌ إلى الصَّبْرِ

الصَّبْرُ أَوْلَى مَااعْتَصَمْتَ بِهِ ... وَلَنِعْمَ حَشْوُ جَوانِحِ الصَّدْرِ

ومن كلام عليّ عليه السلام : الصّبر مفتاح الظّفر ، والتوكّل على الله رسول الفرَج .

ومن كلامه عليه السلام : انتظارُ الفرَج بالصّبرِ عبادة .

أكثم بن صَيْفيّ : الصبرُ على جُرَع الحِمَام أعذب من جنَا النّدَم .

---

(١) ديوان الأعشين ٣٢٣ .

(٢) بخبخ الرجل ؛ إذا قال : بخ بخ ، وفي اللسان : « والله لابخبخت بعدها » .

ومن كلام بعض الزهّاد: واصبر عَلَى عملٍ لا غَناء بك عن ثوابه، واصبرْ عن عَملٍ لا صَبْرَ على عقابكَ به.

وكتب ابنُ العميد: أقرأ في الصَّبْرِ سُوَرا، ولا أقرأ في الجزع آية. وأحفَظُ في التماسك والتجلُّد قصائد، ولا أحفَظُ في التهافُت قافية.

وقال الشاعر:

وَيَوْمٍ كَيَوْمِ الْبَعْثِ مَا فِيهِ حَاكِمٌ ... وَلَا عَاصِمٌ إِلَّا قَنـاً وَدُرُوعُ
حَبَسْتُ بِهِ نَفْسِي عَلَى مَوْقِفِ الرَّدَى ... حِفَاظًا وَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ شُرُوعُ
وَمَا يَسْتَوِي عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ إِنْ عَرَتْ ... صَبُورٌ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَجَزُوعُ

أبو حية النميريّ:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحمودةَ الْأَثَرِ
وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ ... وَاستصحَبَ الصَّبْرَ إلَّا فَازَ بالظَّفَرِ

ووصف الحسنُ البصريّ عليًّا عليه السلام، فقال: كان لا يَجْهَلُ، وإنْ جُهِلَ عَلَيْهِ حَلُمَ. وَلَا يَظْلِمُ، وَإنْ ظُلِمَ غفَر. ولاَ يَبْخَلُ، وإنْ بَخِلَتِ الدُّنيا عليه صبَرَ.

عبد العزيز بن زُرارَةَ الكلابيّ:

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أطْوَاراً عَلَى طُرُقٍ ... شَتَّى فقَاسَيْتُ مِنْهُ الْحُلْوَ وَالْبَشِعَا[1]
كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي ... وَلَا تَخَشَّعْتُ مِن لأوائها جَزَعَا
لَا يَمْلَأُ الْأَمْرُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... وَلَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي إذا وَقَعَا

ومن كلام بعضهم: مَن تَبصَّر تَصبَّر. الصّبْر يفسحُ الفرَجَ، ويفتح المرتَتَج. المحْنة إذا تُلُقِّيت بالرّضا والصّبْر كانت نعمةً دائمة، والنّعمة إذا خلت من الشُّكْر كانت مِحْنَةً لازمة.

---

(١) ديوان المعاني ١ : ٨٨؛ وفي نسبة هذه الأبيات وروايتها خلاف، انظره في حواشي اللآلي ٤١٢.

قيل لأبي مسلم صاحب الدولة . بِمَ أصَبْتَ ما أصَبْتَ ؟ قال : ارْتَدَيْتُ بالصّبر ، واتّزرت بالكِتْمان ، وحالفتُ الحزم ، وخالفتُ الهوى ، ولم أجعل العدوّ صديقاً ، ولا الصديقَ عدوّاً .

منصور النّمَرِيّ في الرّشيد .

وَلَيْسَ لأعْباءِ الأُمُورِ إذَا عَرَتْ بِمُكْتَرِثٍ لَكِنْ لَهُنَّ صَبُورُ

يَرَى ساكِنَ الأطْرافِ باسِطَ وَجْهِهِ يُرِيكَ الهُوَيْنَى والأُمُورُ تَطِيرُ

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أوصيكم بخمس لو ضربْتُم إليهنّ آباطَ الإبل كانت لذلك أهلا : لا يرجُوَنّ أحدُكُمْ إلّا ربّه ، ولا يخافَنّ إلا ذَنْبَه ، ولا يَسْتَحِيَنّ إذا سئلَ عمّا لا يعلم أنْ يقولَ لا أعلم ، ولا يستحيي إذا جهل أمراً أن يتعلّمه . وعليكم بالصّبر ، فإنّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فكما لا خَيْرَ في جَسَدٍ لا رأس له ، لا خيرَ في إيمانٍ لا صَبْرَ معه .

وعنه عليه السلام : لا يعدَم الصبورُ الظفَرَ ، وإن طال به الزمان .

نهشل بن حَرِّيّ :

ويومٍ كأنّ المصطلينَ بحرّهِ وإنْ لم يكنْ جَمراً قيامٌ على جَمْرِ

صَبَرْنا لَهُ حَتّى تجلّى وإنّما تُفَرِّجُ أيامُ الكَرِيهَةِ بِالصَّبْرِ

عليّ عليه السلام : اطرَحْ عنك وارداتِ الهموم بعزائم الصَّبْر وحسن اليقين .

وعنه عليه السلام : وإن كنت جازعاً على ما تفَلّتَ من يديك ، فاجزَعْ على كلّ ما لم يصل إليك !

وفي كتابه عليه السلام الذي كتبه إلى عَقِيل أخيه : ولا تحسبَنّ ابن أمك ـ ولو أسلمه الناس ـ متضرّعا متخشعا ، ولا مقرّاً للضيم واهنا ، ولا سَلِسَ الزمام للقائد ، ولا وطيء الظّهر للراكب ، ولكنّه كما قال أخو بني سُلَيْم :

فإنْ تسألينى كيفَ أنتَ فإنّنى ... صَبُورٌ على رَيْبِ الزّمانِ صَليبُ[1]
يَعِزّ علىّ أن تَرَى بِى كآبةٌ ... فيَشْمَتَ عادٍ أو يُساء حبيبُ

***

[فصل فى الرّياء والنهى عنه]

واعلم أنه عليه السلام، بعد أنْ أمَرَنا بالصّبر ، نهى عن الرّياء فى العمل، والرّياء فى العمل منهىٌّ عنه ، بل العملُ ذو الرّياء ليس بعملٍ على الحقيقة ، لأنّه لم يُقصَدْ به وجه الله تعالى. وأصحابُنا المتكلّمون يقولون : ينبغى أن يعمل المكلّف الواجبَ لأنه واجب ، ويجتنبَ القبيح لأنه قبيح ، ولا يفعل الطاعة ويترك المعصية رغبةً فى الثواب ، وخوفاً من العقابِ؛ فإنّ ذلك يُخرج عَمَلَه من أن يكون طريقاً إلى الثواب ؛ وشبّهوه بالاعتذار فى الشىء ؛ فإنّ مَنْ يعتذِرُ إليك من ذنبٍ خوفاً أن تعاقبه على ذلك الذنب ، لا نَدَماً على القبيح الذى سبق منه ، لا يكون عُذْرُه مقبولا، ولا ذنبه عندك مغفورا. وهذا مقامٌ جليل لا يصِلُ إليه إلا الأفراد من ألوف الألوف .

وقد جاء فى الآثار من النّهى عن الرياء والسمعة كثيرٌ ، روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال : « يُؤتَى فى يوم القيامة بالرّجل قد عَمِل أعمال الخير كالجبال — أو قال : كجبال تِهامة — وله خطيئة واحدة ، فيقال : إنما عَمِلْتَها لِيُقال عنك، فقد قيل؛ وذاك ثوابُك وهذه خطيئتك ، أدخِلوه بها إلى جهنم » .

وقال عليه السلام : « ليست الصلاة قيامَك وقعودَك ، إنّما الصلاة إخلاصُك، وأنْ تُريدَ بها الله وحده » .

وقال حبيب الفارسىّ : لو أنّ الله تعالى أقامنى يوم القيامة وقال : هل تعدّ سجدةً سَجدتَ ليس للشيطان فيها نصيب لم أقدِرْ على ذلك .

(١) مجموعة المعانى ٧٢ ، وهما لصخر بن عمرو السلمى ، والأول من أبيات أربعة فى الأغانى ١٥ : ٧٩

توصّل عبدُ الله بن الزُّبير إلى امرأة عبدالله بن عمر ـ وهى أخت المختار بن أبى عُبيد الثّقفىّ ـ فى أن تُكلّم بعلَها عبدَ الله بن عمر أن يبايعَه . فكلّمته فى ذلك ، وذكرتْ صلاتَه وقيامه وصيامه ، فقال لها : أما رأيتِ البغَلات الشُّهب التى كُنّا نراها تحت معاوية بالحِجْر إذا قدم مكةَ ؟ قالت : بلى ، قال : فإياها يطلب ابنُ الزُّبَيْر بصومه وصلاته !

وفى الخبر المرفوع : « إنّ أخوف ما أخاف على أمّتى الرياء فى العمل ، ألا وإنّ الرياء فى العمل هو الشركُ الخفىّ » :

صَلّى وَصَامَ لأَمْرٍ كان يَطْلُبُهُ ... حَتّى حَوَاهُ فَلَا صَلّى وَلَا صَامَا

***

[فصل فى الاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة]

ثم إنه عليه السلام بعد نهيه عن الرياء وطلب السمعة؛ أمر بالاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة ؛ فإنّ الإنسان لا يَستغنى عنهم وإن كان ذا مال ، وقد قالت الشعراء فى هذا المعنى كثيرا ؛ فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة [1] :

إذَا المَرْءُ لم يَغْضَبْ لَهُ حِين يَغْضَبُ ... فَوَارِسُ إن قِيلَ ارْكَبُوا الموتَ يَرْكَبُوا
ولم يَحْبُه بالنَّصْرِ قَوْمٌ أعِزَّةٌ ... مَقَاحِيمُ فِى الأَمْرِ الّذِى يُتَهَيَّبُ [2]
تَهَضَّمَهُ أدْنَى العُدَاةِ فَلَمْ يَزَلْ ... وإنْ كان عِضًّا بالظُّلامَةِ يُضْرَبُ [3]
فَآخِ لحالِ السِّلْمِ مَنْ شِئْتَ واعْلَمَنْ ... بِأنْ سِوَى مَوْلَاكَ فى الحربِ أجْنَبُ
وَمَوْلَاكَ مَوْلَاكَ الّذِى إنْ دَعَوْتَهُ ... أجَابَكَ طَوْعًا والدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
فَلَا تَخْذُلِ المَوْلَى وإنْ كان ظَالِمًا ... فإنّ بِهِ تُثْأَى الأُمُورُ وتُرْأَبُ [4]

---

(١) فى الحماسة ٢ : ٢١١ : « قراد بن عباد » ، وصححه التبريزى : « قراد بن العيار » ، وقال : « أبوه العيار أحد شياطين العرب » .

(٢) مقاحيم : جمع مقحام ؛ وهو الذى يخوض قحمة الشىء ؛ أى معظمه .

(٣) تهضمه ، أى كسره وأذله . والعض : المنكر الشديد اللسان .

(٤) تثأى : تخرق وتفتق .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أفيقوا بني حزن وأهواؤنا معاً ... وأرحامنا موصولة لم تقضب (١)
لعمري لرهط المرء خير بقية ... عليه وإن عالوا به كل مركب
إذا كنت في قوم وأمك منهم ... لتعزى إليهم في خبيث وطيب
وإن حدثتك النفس أنك قادر ... على ما حوت أيدي الرجال فكذب

ومن شعر الحماسة أيضاً :

لعمرك ما أنصفتني حين سمتني ... هواك مع المولى وأن لا هوى ليا (٢)
إذا ظلم المولى فزعت لظلمه ... تحرّق أحشائي وهرت كلابيا

ومن شعر الحماسة أيضاً :

وما كنت أبغي العم يمشي على شفا ... وإن بلغتني من أذاه الجنادع (٣)
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه ... لترجعه يوماً إلى الرواجع
وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناواة ذي القربى وأن قيل قاطع (٤)

ومن شعر الحماسة أيضاً :

ألا هل أتى الأنصار أن ابن بحدل ... حميداً شفى كلباً فقرت عيونها (٥)
فإنا وكلباً كاليدين متى تقع ... شمالك في الهيجا تعنها يمينها

---

(١) ديوان الحماسة (١ : ٣١٨) بشرح المرزوقي ، ونسبه التبريزي (١ : ٢٩٧) إلى جندل بن عمرو . معا ، أي مجتمعة . والتقضب : القطع ؛ ولم يرد في الحماسة سوى البيت الأول .

(٢) ديوان الحماسة (١ : ٣٠٠) بشرح التبريزي ، ونسبه إلى حريث بن جابر .

(٣) ديوان الحماسة (١ : ٣٨٠) بشرح التبريزي ، ونسبه إلى محمد بن عبد الله الأزدي وروايته : « لا أدفع ابن العم يمشي . . . » ، وشفا الشيء : حرفه . والجنادع : الدواهي .

(٤) يجوز فتح همزة « إن » وكسرها ، وانظر التبريزي .

(٥) ديوان (الحماسة ٢ : ٥٢٢) بشرح المرزوقي وهي هناك أربعة أبيات ؛ هنا الأول والرابع منها ، ونسبها إلى بعض بني جهينة .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أخوكَ أخوكَ مَنْ يَنأى وَتَدْنو ... مَوَدَّتُهُ وإنْ دُعِيَ استَجابا(١)

إذا حارَبْتَ حارَبَ مَنْ تُعادِي ... وَزادَ غَنـــاؤه مِنْكَ اقْتِرابا(٢)

يُواسِي في كَريهَتِـــه وَيَدْنو ... إذا ما مُضْلِعُ الحَـدَثانِ نابَا(٣)

***

[فصل فى حسن الثناء وطيب الأحدوثة]

ثم إنه عليه السلام ذكَر أنّ لسانَ الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خيرا له من المال يورثه غيرَه . ولسانُ الصدق هو أن يُذكَرَ الإنسانُ بالخير، ويُثْنَى عليه به ، قال سبحانه : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾(٤) .

وقد ورد فى هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع ، فمن ذلك قولُ عمر لابنة هَرِم : ما الذى أعطى أبوك زهيراً ؟ قالت : أعطاه مالاً يفنى ، وثيابا تَبلى . قال : لكن ما أعطاكم زُهير لا يُبليه الدّهر ، ولا يُفنيه الزمان .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

إذا أنتَ أعطيتَ الغنى ثُمّ لم تَجُدْ ... بِفَضْلِ الغِنَى أُلْفِيتَ مالَكَ حامدُ(٥)

وقلّ غناء عنك مالٌ جمعتَه ... إذا كان ميراثاً وواراكَ لاحِدُ

وقال يزيد بن المهلّب : المال والحياة أحبُّ شىء إلى الإنسان ، والثناء الحسَنُ أحبّ إلىّ منهما ؛ ولو أنى أعطيتُ مالم يُعْطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يكون لى أُذُنٌ أسمع بها مايقال فىّ غدا وقد مِتُّ كريما .

وحكى أبو عثمان الجاحظ عن إبراهيم السندىّ ، قال : قلت فى أيام ولايتى الكوفة

---

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٢ : ٥٤٢ ، ونسبها إلى ربيعة بن مقروم

(٢) الحماسة : « وزاد سلاحه » .

(٣) لم يذكر هذا البيت فى الحماسة . (٤) سورة الشعراء ٨٤ .

(٥) ديوان الحماسة ٣ : ١١٩٩ بشرح المرزوقى ، من أبيات نسبها إلى محمد بن أبى شحاذ .

لرجل من وجوهها ـ كان لا يجف لِبْدُه ولا يستريح قلبُه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الناس ، وإدخال السرور على قلوبهم ، والرِّفق على ضعفائهم ، وكان عفيفَ الطُّعمة . خبِّرنى عمّا هوّن عليك النَّصَب ، وقوّاكَ على التعب ؟ فقال : قد والله سمعتُ غِناء الأطيار بالأسحار ، على أغصانِ الأشجار ، وسمعتُ خَفْقَ الأوتارِ ، وتجاوُبَ العُودِ والمِزْمار ، فما طربتُ من صوتٍ قطّ طرَبى من ثناء حَسَن على رجل محسِن ، فقلت : لله أبوك ! فلقد مُلئت كرَما .

وقال حاتم :

أماوِىَّ إنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ مِنَ الأرْضِ لا ماءٌ لدىّ ولا خَمْرُ[1]

تَرَىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضَرّنِى[2] وأنّ يدى ممّا بخلتُ به صِفْرُ

أماوِىَّ ما يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ[3]

بعض المحدثين :

مَنِ اشْتَرَى بمالِهِ حُسْنَ الثَّناءِ غُبِنا

أفقرَهُ سماحُهُ وذلك الفقرُ الغِنَى

ومن أمثال الفرس : كلّ ما يؤكل ينتن ، وكلّ ما يُوهَب يأرَج .

وقال أبو الطيّب :

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثّانى وَحاجَتُهُ ما قاتَهُ وَفُضُولُ العَيْشِ أشْغالُ[4]

* * *

[فصل فى مواساة الأهل وصلة الرحم]

ثم إنه عليه السلام بعد أن قرّظ الثناء والذِّكر الجميل ، وفضّله على المال ، أمر بمواساة

(١) ديوانه ١١٨ .
(٢) الديوان : « ما أهلكت » .
(٣) الديوان : « إذا حشرجت نفس » .
(٤) ديوانه ٣ : ٢٨٨ .

الأهل ، وصلة الرحم، وإنْ قلّ ما يواسى به ، فقال : «ألا لا يعدِلَنّ أحدُكم عن القرابة...»، إلى آخر الفصل ، وقد قال الناس فى هذا المعنى فأكثروا .

فمن ذلك قول زهير :

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ (١)

وقال عثمان : إنّ عمر كان يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطيهم ابتغاء وجه الله ، ولن تروا مثل عمر .

أبو هريرة مرفوعا : « الرحِمُ مشتقّة من الرحمن ، والرحمن اسم من أسماء الله العظمى ، قال الله لها : من وصلك وصلتُه ، وَمَنْ قطعك قطعته » .

وفى الحديث المشهور : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقال طَرَفة يهجو إنسانا بأنه يصل الأباعد ويقطع الأقارب :

وأنتَ على الأدنى شَمالٌ عَرِيّةٌ شآمية تَزْوِى الوجـــوه بليلُ (٢)

وأنتَ على الأقصى صَبًا غيرُ قَرّةٍ تَذاءبُ مِنْها مُرْزِعٌ وَمُسِيـلُ (٣)

ومن شعر الحماسة :

لَهُمْ جُلُّ مالى إنْ تَتَـابَعَ لى غِنًى وإنْ قَلَّ مالى لا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا (٤)

وَلا أَحمِـــلُ الحِقْدَ القديمَ عَلَيْهِمُ وليسَ رَئِيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

---

(١) ديوانه ٣٠

(٢) ديوانه ١١٩ . الأدنى : الأقرب . والشمال : ريح غير محمودة . بليل : ريح باردة .

(٣) الأقصى : البعيد . والصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا ، وهى محمودة عندهم . وقرة : باردة .

(٤) للمقنع الكندى ، الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١١٨٠ .

(٢٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَعَمْرِى مَا عَلَىَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ ، وَخَابَطَ الْغَىَّ ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلا إِيهَانٍ . فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ ، وَامْضُوا فِى الذى نَهَجَهُ لَكُمْ ، وقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ ، فَعَلِىٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلًا إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلًا .

* * *

الشرح :

الإدهان : المصانعة والمنافقة ، قال سبحانه : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[1] .

والإيهان : مصدر أوهنتُه ، أى أضعفته ، ويجوز وهنته ، بحذف الهمزة . ونَهَجه : أوضَحه وجعلَه نَهْجاً ، أى طريقا بيّنا . وعصَبه بكم : ناطه بكم وجعله كالعِصابة التى تشدّ بها الرأس . والفلْج : الفوز والظفر .

وقوله : « وخابط الغىّ » كأنه جعله والغىّ متخابِطَيْن ، يخبِط أحدهما فى الآخر ؛ وذلك أشدّ مبالغة من أن تقول : خبَط فى الغىّ ، لأنّ من يَخبِط ويَخبِطه غيره يكون أشدّ اضطرابا ممن يخبِط ولا يخبطه غيرُه . وقوله : « وفِرّوا إلى الله من الله » ، أى اهربوا إلى رحمة الله من عذابه . وقد نظر الفرزدق إلى هذا فقال :

إِلَيْكَ فَرَرْتُ مِنْكَ وَمِنْ زِيَادٍ ... وَلَمْ أَحْسِبْ دَمِى لَكُمْ حَلَالَا[2]

---

(١) سورة القلم ٩ .

(٢) ديوانه ٦٠٨ ، فى مدح سعيد بن العاصى ، وروايته : « ولم أجعل دمى » .

(٢٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد ، وقدم عليه عاملاه على اليمن ، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران ، لمّا غلب عليهما بسر بن أرطاة ، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بِتَثاقُل أصحابه عن الجهاد ، ومخالفتهم له في الرأى ؛ فقال :

مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ اللهُ !

وتمثل بقول الشاعر :

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي ... عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلِ[١]

ثم قال عليه السلام :

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ ، وَإِنِّي وَاللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ ؛ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ .

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي ، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي ، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ

---

(١) الوضر : بقية الدسم فى الإناء .

وأبدِلهُمْ بى شرًّا مِنّى ! اللَّهمَّ مِثْ قُلوبَهُمْ كما يُماثُ المِلحُ فى الماء . أمَا واللهِ لوَدِدْتُ أنّ لى بِكُمْ ألفَ فارسٍ مِنْ بنى فِراسِ بن غَنْمٍ :

هُنالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أتاكَ مِنهُمْ   فَوارِسُ مِثلُ أرْمِيَةِ الحَميمِ (١)

* * *

ثم نزل عليه السلام من المنبر :

قال الرضىّ رحمه الله :

أقولُ : الأرْمِيَةُ جمع رَمِىّ ؛ وهو السحابُ . والحميمُ ها هنا : وقتُ الصَّيفِ ، وإنما خصّ الشاعر سحابَ الصيفِ بالذِّكر لأنه أشدُّ جفولاً ، وأسرعُ خُفُوقاً ، لأنه لا ماء فيه ، وإنما يكون السحابُ ثقيلَ السّيْرِ لامتلائه بالماء ؛ وذلك لا يكون فى الأكثر إلا زمانَ الشتاء ؛ وإنما أراد الشاعر وصفَهُمْ بالسُّرْعةِ إذا دُعُوا ، والإغاثةِ إذا اُستُغِيثُوا ، والدليل على ذلك قوله :

* هنالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أتاكَ مِنهُمْ *

الشَّرْحُ :

تواترت عليه الأخبار ، مثل ترادفَتْ وتواصلت . الناس من يطعَن فى هذا ، ويقول : التواتر لا يكونُ إلا مع فترات بين أوقات الإتيان ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾(٢) ، ليس المراد أنهم مترادفون ، بل بين كلّ نبيّين فترة ، قالوا : وأصل « تترى » من الواو ، واشتقاقها من « الوِتر » ، وهو الفرد : وعدّوا هذا الموضع مما تغلَط فيه الخاصة .

---

(١) البيت فى اللسان (١٩ : ٥٤) ، ونسبه إلى أبى جندب الهذلى ، وروايته : « رجال مثل أرمية الحميم » .

(٢) سورة « المؤمنون » ٤٤ .

[نسب معاوية بن أبي سفيان وذكر بعض أخباره]

ومعاوية هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صَخْر بن حَرْب بن أميّة ابن عَبْد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ .

وأمّه هِند بنت عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ . وهي أم أخيه عُتْبة بن أبي سفيان . فأما يَزيد بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، وعَنْبسة ابن أبي سُفْيان ، وحَنْظلة بن أبي سفيان ، وعمرو بن أبي سُفْيان ؛ فمن أمّهات شتى .

وأبو سفيان هو الذي قادقُرَيشاً في حُرُوبها إلى النّبي صلى الله عليه وآله؛وهو رئيس بني عبد شمس بعد قَتْل عُتْبة بن ربيعة ببَدْر ، ذاك صاحب العِير ، وهذا صاحب النَّفير ، وبهما يضرب المثل ، فيقال للخامل : « لا في العير ولا في النفير » .

وروى الزُّبَيْر بن بَكَّار أنّ عبدالله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيّام عبد الملك ، فقال : لقد هممتُ اليوم يا أخي أن أفتِكَ بالوليد بن عبد الملك،فقال: بئسما هَمَمْتَ به في ابن أمير المؤمنين،ووليّ عهد المسلمين ! فما ذاك ؟ قال:إنّ خيلي مرّت به فعبِثَ بها وأصغرني ، فقال خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الوليد مرّت به خيل ابن عمّه عبد الله ، فعبث بها وأصغره - وكان عبدُ الملك مطرِقاً - ، فرفع رأسه،وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1]،فقال خالد:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾[2] ، فقال عبد الملك : أفي عبدِ الله تكلّمني ! والله لقد دخل أمس عليّ فما أقام لسانه لحنا ! قال

---

(١) سورة النمل ٣٤ (٢) سورة الإسراء ١٦ .

خالد : أفعلى الوليد تعوّل يا أمير المؤمنين ! قال عبد الملك : إن كانَ الوليدُ يلحن فإنّ أخاه سليمان [لا][1] . فقال خالد : وإن كان عبدُ الله يلحَن ، فإنّ أخاه خالدا [لا][1] ، فالتفت الوليدُ إلى خالد وقال له : اسكتْ ويحَكَ ! فوالله ماتُعَدّ فى العير ولا فى النفير ، فقال : اسمع يا أميرَ المؤمنين ، ثم التفت إلى الوليد ، فقال له : وَيْحكَ ! فمن صاحبُ العِير والنَّفير غيرُ جدّى أبى سفيان صاحبِ العير ، وجدّى عُتْبة صاحب النفير ! ولكن لو قلت : غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف ، ورحم الله عثمان » ، لقلنا : صَدَقْتَ[2] .

***

وهذا مِنَ الكلام المستحْسَن ، والألفاظ الفصيحة ، والجوابات المسكتة ؛ وإنما كان أبو سُفْيان صاحبَ العِير ، لأنه هو الذى قدِم بالعيرِ التى رام رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه أن يعترضوها ، وكانت قادمةً من الشام إلى مكة تحمل العِطْر والبَزّ ، فنذِر بهم أبو سفيان ، فضرب وجُوه العِير إلى البحر ، فساحَل[3] بها حتى أنقذها منهم ، وكانتْ وقعة بدر العظمى لأجلها ، لأنّ قريشا أتاهم النذير بحالها ، وبخروج النبى صلى الله عليه وآله بأصحابه من المدينة فى طلبها ، لينفروا ، وكان رئيسُ الجيش النافر لحمايتها عُتْبة بن ربيعة ابن عبد شمس جدّ معاوية لأمه .

وأما « غُنيمات وحُبَيْلات ... » إلى آخر الكلام ، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما طرد الحكَم بن أبى العاص إلى الطائف لأمور نَقَمَها عليه ، أقام بالطّائف فى حُبْلة ابتاعها — وهى الكَرْمة — وكان يرعى غُنَيمات اتخذها ، يشرب من لبنها . فلما وَلِىَ أبو بكر ، شفع إليه عثمان فى أنْ يَرُدَّه ، فلم يفعل ، فلما ولىَ عمر شفَع إليه أيضاً فلم يَفعل ، فلما وَلِىَ هو الأمر ردّه . والحكَم جَدُّ عبد الملك ، فعيّرَم خالد بن يزيد به .

***

وبنو أمية صِنْفان : الأعياص والعنابس ، فالأعياص : العاص ، وأبو العاص ،

(١) من مجمع الأمثال .

(٢) الخبر فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٢ .

(٣) ساحل بها : أتى بها ساحل البحر .

والعِيص ، وأبو العِيص. والعَنَابس : حرب، وأبو حرب، وسفيان ، وأبو سفيان. فبنو مروانَ وعثمان من الأعياص ، ومعاوية وابنه من العَنابسَ؛ ولـكلّ واحد من الصِّنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل ، واختلاف شديد فى تفضيل بعضهم على بعض .

***

وكانت هند تذكر فى مكة بفجور وعُهْر .

وقال الزمخشرى فى كتاب " ربيع الأبرار " : كان معاوية يُعْزَى إلى أربعة : إلى مسافر بن أبى عمرو ، وإلى عُمارة بن الوليد بن المغيرة ، وإلى العباس بن عبد المطلب ، وإلى الصبّاح ؛ مُغَنٍّ كان لعُمارة بن الوليد . قال : وقد كان أبو سفيان دَمِيماً قصيراً ، وكان الصبّاح عَسِيفاً[1] لأبى سفيان ، شابًّا وسيما ، فدعته هند إلى نفسها فغشيها .

وقالوا : إنّ عُتْبة بن أبى سفيان من الصبّاح أيضاً ، وقالوا : إنها كرهت أن تدَعه فى منزلها ، فخرجت إلى أجْياد ، فوضعته هناك . وفى هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل عام الفتح[2] :

لِمَنِ الصَّبِىُّ بجانب البَطْحا ... فى التُّرْبِ مُلقًى غيرَ ذى مَهْدِ
نَجَلَتْ بِهِ بَيْضاءُ آنِسَةٌ ... مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ صَلْتَةُ الْخَدِّ[3]

والذين نزّهوا هندا عن هذا القذف رووا غير هذا . فروى أبو عُبيدة معمر بن المثنّى أن هندا كانت تحت الفاكه بن المغيرة المخزومىّ ، وكان له بيتُ ضيافة يغشاه النّاس ، فيدخلونه من غير إذْن ، فخلا ذلك البيتُ يوما ، فاضطجع فيه الفاكه وهند ، ثم قام الفاكه وترك هندا فى البيت لأمر عرض له ، ثم عاد إلى البيت ، فإذا رجل قد خرج من البيت ، فأقبل إلى هند فركلها برجله ، وقال : مَنِ الّذى كان عندكِ ؟ فقالت : لم يكن عندى

---

(١) العسيف : الأجير . (٢) ديوانه ١٠٧
(٣) نجلت به : ولدته . وصلتة الخد : الصلت : الأملس ؛ وفى الأصول : « صلبة » تصحيف .

أحد ، وإنما كنت نائمة . فقال : الحقِى بأهلك ، فقامت من فورها إلى أهلها ، فتكلم الناس فى ذلك ، فقال لها عُتْبة أبوها : يابنيّة ، إنّ الناس قد أكثروا فى أمرك ، فأخبرينى بقصتك على الصّحة ، فإن كان لكِ ذنب دسستُ إلى الفاكه مَنْ يقتله ، فتنقطع عنك القالة . فحلفتْ أنها لا تعرف لنفسها جُرْما ، وإنه لكاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : إنك قد رميتَ ابنتى بأمر عظيم ، فهل لك أن تحاكِمنى إلى بعض الكهنة ؟ فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عُتْبة فى جماعة من بنى عبد مناف ، وأخرج معه هندا ونسوة معها ، فلما شارفوا بلادَ الكاهن تغيّرت حالُ هند ، وتنكّر أمرها ، واختطف لونُها . فرأى ذلك أبوها ، فقال لها : إنى أرى ما بكِ ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ! فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرُنا ! قالت : يا أبتِ ، إنّ الذى رأيتَ منى ليس لمكروه عندى ، ولكنى أعلم أنكم تأتون بشراً يخطئْ ويصيب ، ولا آمن أن يَسِمِنِى مِيسمًا يكون علىّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإنى سأمتحنه قبل المسألة بأمر . ثم صَفَر بفرس له فأدلى ، ثم أخذ حَبّةَ بُرّ فأدخلها فى إحليله ، وشدّه بسير وتركه ؛ حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال عتبة : إنا قد جئناك لأمر ، وقد خبأتُ لك خبيئا أختبرُك به ، فانظر ما هو؟ فقال : ثمرة فى كَمَرة ، فقال : أبْيَنُ من هذا ، قال : حَبّة بُرّ ، فى إحليل مهر ، قال : صدقت ، انظر الآن فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من واحدة واحدة منهنّ ، ويقول : انهضى ، حتى صار إلى هند ، فضرب على كتفها ، وقال : انهضى غيرَ رَقْحاء ولا زانية ، ولتلدِنّ مَلِكا يقال له معاوية . فوثب إليها الفاكِه ، فأخذها بيده وقال : قومى إلى بيتك ، فجذبت يدَها من يده ، وقالت : إليكَ عنّى ، فو الله لا كان منك ، ولا كان إلا من غيرك ! فتزوجها أبو سفيان بن حرب .

الرقحاء : البغىّ التى تكتسب بالفجور ، والرّقاحة : التجارة .

* * *

وولىَ معاوية اثنتين وأربعين سنة منها اثنتان وعشرون سنة ولىَ فيها إمارَة الشام منذ مات أخوه يزيد بن أبى سفيان ، بعد خمس سنين من خلافة عمر ، إلى أن قتل أمير المؤمنين على عليه السلام فى سنة أربعين . ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات فى سنة ستين .

ومرّ به إنسان وهو غلام يلعب مع الغلمان ، فقال : إنى أظنّ هذا الغلام سيسودُ قومَه ، فقالت هند : ثَكِلتُهُ إن كان لا يسود إلا قومَه !

ولم يزل معاويةُ ذا همّة عالية ، يطلب معالىَ الأمور ، ويرشّح نفسَه للرياسة ، وكان أحدَ كتّاب رسول الله صلى الله عليه وآله . واختُلف فى كتابته له كيف كانَتْ ، فالذى عليه المحققون من أهل السيرة أنّ الوحىَ كان يكتبه علىّ عليه السلام وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وأن حنظلة بن الربيع التيمىّ ومعاوية بن أبى سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل ، ويكتبان حوائجَه بين يديه ، ويكتبان ما يُجْبَى من أموال الصدقات وما يُقْسَم فى أربابها .

وكان معاوية على أسّ[1] الدهر مُبغِضاً لعلى عليه السلام ، شديدَ الانحراف عنه ، وكيف لا يُبغضه وقد قتل أخاه حَنْظلة يوم بدر ، وخالَه الوليد بن عتبة ، وشرِك عمّه فى جده وهو عُتْبة ــ أو فى عمه ، وهو شيبة ، على اختلاف الرواية ــ وقتل من بنى عمه عبد شمس نفراً كثيرا من أعيانهم وأماثلهم ؛ ثم جاءت الطامّة الكبرى واقعة عثمان ، فنسبها كلّها إليه بشبهة إمساكه عنه ، وانضواء كثير من قَتَلته إليه عليه السلام ، فتأكدت البِغْضة، وثارت الأحقاد ، وتذكّرت تلك التِّرات الأولى؛ حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفْضَى إليه .

وقد كان معاوية ، مع عِظَم قَدْرِ علىّ عليه السلام فى النفوس ، واعترافِ العرب بشجاعته ، وأنّه البطل الذى لا يقَامُ له ، يتهدده ــ وعثمان بعدُ حىّ ــ بالحرب والمنابذة ، ويراسله من الشام رسائلَ خشنة ؛ حتى قال له فى وجهه ما رواه أبو هلال العسكرى فى كتاب " الأوائل " ، قال :

---

(١) أس الدهر ؛ بفتح الهمزة أو ضمها أو كسرها : قدم الدهر ووجهه .

قدم معاوية المدينة قدمة أيام عثمان فى أواخر خلافته ، فجلس عثمان يوما للناس ، فاعتذر من أمور نقمت عليه، فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قبِل توبة الكافر، وإنى رددتُ الحكم عمى لأنه تاب، فقبِلت توبته ، ولو كان بينه وبين أبى بكر وعمر من الرّحم ما بينى وبينه لآوياه . فأمّا مانقمتم علىّ أنى أعطيتُ من مال الله ، فإنّ الأمر إلىّ ، أحكم فى هذا المال بما أراه صلاحا للأمة ، وإلا فلماذا كنت خليفة ! فقطع عليه الكلامَ معاوية وقال للمسلمين الحاضرين عنده : أيها المهاجِرون ، قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلّا وقد كان قبل الإسلام مغمورا فى قومه ، تُقطعُ الأمور من دونه، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه،وأبطأعنه أهلُ الشرف والرياسة ، فسُدْتُم بالسّبق لا بغيره؛حتى إنه ليقال اليوم : رهط فلان ، وآل فلان ؛ ولم يكونوا قبلُ شيئاً مذكورا ،وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم؛فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه وإلا خرج منكم ،ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم.

فقال له علىّ عليه السلام : ما أنت وهذا يابن الزّخناء ! فقال معاوية : مهلا يا أبا الحسن عن ذكر أمى ، فما كانت بأخسّ نسائكم ، ولقد صافحها رسول الله صلى الله عليه يوم أسلمتْ ولم يصافح امرأة غيرَها ، أما لو قالها غيرُك ! فنهض علىّ عليه السلام ليخرج مُغضَبا ، فقال عثمان : اجلس ، فقال له : لا أجلس ، فقال : عزمت عليكَ لتجلسنّ ،فأبى وولّى ، فأخذ عثمان طرفَ ردائه فترك الرداء فى يده وخرج ، فأتبعه عثمان بصرَه ، فقال: والله لا تصِلُ إليك ولا إلى أحد من ولدك .

قال أسامة بن زيد : كنتُ حاضرا هذا المجلس ، فعجِبتُ فى نفسى من تألّى عثمان، فذكرته لسعد بن أبى وقاص ، فقال : لا تعجب ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « لا ينالُها علىّ ولا ولده » .

قال أسامة : فإنى فى الغد لَفِى المسجد ، وعلىّ وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين جلوس ؛ إذ جاء معاوية ، فتآمروا بينهم ألّا يوسّعوا له ، فجاء حتى جلس بين أيديهم ،

فقال : أتدرون لماذا جئت ؟ قالوا : لا ، قال : إنى أقسِم بالله إن لم تتركوا شيخَكم يموت على فراشه لا أعطيكم إلا هذا السيف ! ثم قام فخرج .

فقال علىّ عليه السلام : لقد كنت أحسِب أنّ عند هذا شيئا ، فقال له طلحة : وأىّ شىء يكون عنده أعظم مما قال ! قاتله الله ! لقد رَمَى الْغَرَض فأصاب ؛ والله ماسمعتَ يا أبا الحسن كلمةً هى أملأُ لصدرك منها .

ومعاوية مطعون فى دينه عند شيوخنا رحمهم الله ، يُرْمى بالزندقة .

وقد ذكرنا فى نقض «السفيانية» على شيخنا أبى عثمان الجاحظ مارواه أصحابنا فى كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وماتظاهر به من الجبر والإرجاء ؛ ولو لم يكن شىء من ذلك ، لكان فى محاربتِه الإمام مايكفى فى فساد حاله ، لا سيما على قواعد أصحابنا ، وكونهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبة .

[بسر بن أرطاة ونسبه]

وأمّا بُسْر بن أرطاة ، فهو بُسر بن أرطاة — وقيل ابن أبى أرطاة — بن عويمر بن عمران بن الحُلَيس بن سيّار بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

بعثه معاوية إلى اليمن فى جيش كثيف ، وأمره أن يقتل كلّ مَنْ كان فى طاعة علىّ عليه السلام ، فقتل خلقا كثيرا ، وقتل فيمن قتل ابنَىْ عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانا غلامين صغيرين ، فقالت أمهما ترثيهما .

يامَنْ أحسّ بُنَيَّيَّ اللّذَين هُما ... كالدُّرّتين تَشَظّى عنهما الصدَفُ(١)

فى أبيات مشهورة .

---

(١) تشظى : تفرق شظايا . والأبيات فى الكامل ٨ — ١٠٨ — بشرح المرصفى .

[عبيد الله بن العباس وبعض أخباره]

وكان عبيد الله عاملَ علىّ عليه السلام على اليمن ، وهو عبيد الله بن العبّاس ابن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصىّ . أمه وأم إخوته عبد الله وقُثَم ومعبد وعبد الرحمن ، لبابة بنت الحارث بن حَزْن ، من بنى عامر بن صعصعة . ومات عبيد الله بالمدينة ، وكان جوادا ، وأعقب، ومن أولاده : قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ولّاه أبو جعفر المنصور المدينة ، وكان جوادا ممدوحا ، وله يقول ابن المَوْلَى [1] :

يا ناقُ إنْ أدْنَيْتِنِي مِنْ قُثَمْ ... أعْفيتِ مِنْ كُورٍ وَمِنْ رِحْلَةٍ

فِي وَجْهِهِ نورٌ وفى باعِهِ ... طُولٌ وفى العِرْنِينِ مِنْهُ شَمَمْ

ويقال : مارُئِى قبور إخوة أكثر تباعُدا من قبور بنى العباس رحمه الله تعالى : قبر عبدالله بالطائف ، وقبر عبيدالله بالمدينة، وقبر قُثَم بسمرقَنْد ، وقبر عبد الرحمن بالشام، وقبر مَعْبد بإفريقيّة .

***

ثم نعود إلى شرح الخطبة :

الأعاصير : جمع إعصار ، وهى الريح المستديرة على نفسها، قال الله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ [2] .

والوضَرُ : بقيّة الدَّسَم فى الإناء . وقد اطّلع اليمن ، أى غشيَها وغزاها وأغار عليها . وقوله : « سَيُدالون منكم »، أى يَغْلبونكم وتكون لهم الدولة عليكم. وماث زيد الملح فى الماء : أذابه .

وبنو فِراس بن غَنْم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حىٌّ مشهور بالشجاعة ؛ منهم

(١) كذا بهذه النسبة فى نسب قريش ٣٣ ، وهما من أبيات تنسب إلى داود بن سلم ، فى الأغانى ٦ : ٢٠ ، ٩ : ١٦٩ ، وفى الكامل ٢ : ٢٢٩ منسوبة إلى سليمان بن قته .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

علقمة بن فِراس ، وهو جِذْل الطِّعان. ومنهم رَبيعة بن مكدَّم بن حُرْثان بن جَذِيمة بن علقمة بن فِراس، الشجاع المشهور، حامى الظُّعُن حيًّا وميتاً، ولم يحم الحريمَ وهو ميت أحدٌ غيره؛ عرضَ له فُرْسان من بنى سُلَيم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وَحْدَه، فطاعنهم، فرماه نُبَيْشَة بن حبيب بسَهْم أصاب قَلْبه، فنصب رمحه فى الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت فى سَرْجه لم يَزُلْ ولم يمل. وأشار إلى الظعائن بالرَّواح، فسِرْن حتى بَلَغْنَ بيوت الحىّ، وبنو سُلَيم قِيام إزاءه لا يُقْدِمون عليه، ويظنونه حيًّا ؛ حتى قال قائل منهم : إنى لا أراه إلّا ميتا، ولو كان حيًّا لتحرك ؛ إنّه والله لمائل راتب على هيئة واحدة ، لا يرفع يَدَه ، ولا يحرك رأسه . فلم يقدِم أحد منهم على الدنوّ منه ، حتى رموْا فرسَه بسهم ، فشبّ من تحته، فوقع وهو ميت ، وفاتتهم الظعائن .

وقال الشاعر :

لَا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةَ بنُ مُكَدَّمٍ ... وَسَقَى الْغَوَادِى قَبْرَهُ بِذَنُوبِ[1]
نَفَرَتْ قَلُوصِى مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ
لَا تَنْفِرِى يَانَاقُ مِنْــهُ فَإِنَّهُ ... شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
لَوْلَا السِّفَارُ وَبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لتركتُها تَحْبُو عَلَى الْعُرْقُوبِ
نِعْمَ الْفَــتَى أَدَّى نُبَيْشَةُ بَزَّهُ ... يَوْمَ اللِّقَاءِ نُبَيشةُ بنُ حَبيبِ

وقوله عليه السلام : « ماهىَ إلّا الـكوفة » ، أى مامَمْلكَتِى إلا الـكوفة . أقبضها وأبسطها ، أى أتصرّف فيها كما يتصرّف الإنسان فى ثوبه ، يقبضه ويبسطه كما يريد .

ثم قال على طريق صرف الخطاب : « فإن لم تـكونى إلا أنت » ، خرج من الغَيْبة إلى خطاب الحاضر ؛ كقوله تعالى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ . ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، يقول : إن لم يكنْ لى من الدنيا مُلْك إلا مُلْكُ الـكوفةِ ذاتِ الفِتَن ، والآراء المختلفة ، فأبعدها الله !

(١) لحسان بن ثابت ، وقيل هى لضرار بن الخطاب ، وهى فى الأغانى ١٦ : ٥٨ والـكامل ٤ : ٨٩ مع اختلاف فى الرواية .

وشبّه ما كان يحدُث من أهلها من الاختلاف والشّقاق بالأعاصير ؛ لإثارتها التراب وإفسادها الأرض . ثم ذكر عِلّة إدالة أهل الشام من أهل العراق ؛ وهي اجتماعُ كلمتِهم وطاعتهم لصاحبهم ، وأداؤهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم .

***

[أهل العراق وخطب الحجاج فيهم]

وقال أبو عثمان الجاحظ : العِلّة في عِصْيانِ أهلِ العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام أنّ أهلَ العراق أهلُ نظرٍ وذوو فِطَنٍ ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبَحْث يكون الطعن والقَدْح والترجيحُ بين الرجال ، والتمييزُ بين الرؤساء ، وإظهارُ عيوب الأمراء . وأهلُ الشّام ذَوُو بلادةٍ وتقليدٍ وجمود على رأي واحد ؛ لا يرَوْن النظر ، ولا يسألون عن مغيّب الأحوال .

وما زال العراق موصوفاً أهلُه بقلّة الطاعة ، وبالشقاق على أولي الرئاسة

***

ومن كلام الحجّاج (١) :

يا أهلَ العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ! أما والله لأَلْحُوَنَّكُمْ لَحْوَ العصا ، ولأعْصِبَنّكُمْ عَصْبَ السَّلَم ، ولأضرِبَنّكُمْ ضَرْب غرائب الإبل ؛ إنّي أسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يُراد به الترغيب ؛ ولكنّه تكبير الترهيب . ألا إنّها عجاجة تحتها قَصْفٌ (٢) ، يا بني اللَّكيعة (٣) ، وعبيدَ العصا ، وأبناء الإماء ! إنّما مَثَلي وَمَثَلُكم كما قال ابنُ بَرّاقة (٤) :

وَكُنْتُ إذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أنَا فِي ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ! (٥)

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ مع اختلاف في الرواية .

(٢) العجاجة : شدة الغبار ، والقصف : شدة الريح . (٣) اللكيعة : اللئيمة .

(٤) هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه بن شهر بن سهم الهمداني ؛ وبراقة أمه ، ينسب إليها .

(٥) البيتان من قصيدة طويلة له ذكرها القالي في الأمالي ٢ : ١٢٢ ، في خبر له مع حريم المرادي حين أغاز عليه .

مَتَى تَجْمَعِ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ الْمَظَالِمُ

واللهِ لا تَقْرَعُ عصاً عصاً إلا جعلتها كأمسِ الذاهب .

وكانت هذه الخطبة عقيب سماعه تكبيراً مُنكَراً فى شوارع الكوفة ، فأشفق من الفتنة .

* * *

ومما خَطَب به فى ذمّ أهل العراق بعد وقعة دَيْرِ الجماجم [1] :

يا أهلَ العراق، يا أهل الشقاق والنفاق؛ إنّ الشيطان اسْتَبطنَكُم، فخالط اللحم والدم والعَصَب ، والمسامع والأطراف والأعضاء والشَّغاف ؛ ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ ؛ ثم ارتفع فعشّش، ثم باض ففرّخ، فحشاكُمْ نِفاقا وشقاقا، وملأكُمْ غَدْراً وخلافا؛ اتخذتموه دليلا تَتّبعُونه، وقائدا تُطِيعونه، ومؤامَراً تستشيرونه ؛ فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظُكم واقعة، أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم ميثاق ! ألستم أصحابى بالأهواز ؛ حيث رُمْتُم المكْر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أنّ الله يخذُل دينه وخلافته؛ وأنا أرميكم بطرْفى، وأنتم تتسلّلون لِواذاً، وتنهزمون سراعا ! ثم يوم الزاوية [2]، وما يوم الزاوية! بها كان فشَلُكم وتَنازُعكم وتخاذُلكم، وبراءةُ الله منكم ، ونكُولُ وليّكم عنكم ؛ إذْ وَلَّيْتُم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النّوازع إلى أعطانها ؛ لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يَلْوِى الأبُ على بنيه؛ لمّا عضّكم السّلاح ، وقَصَمَتْكُم [3] الرماح . ثم يوم دَيْر الجماجم ، وما يومُ دَيْر الجماجم!

---

(١) وقعة دير الجماجم ، كانت بين الحجاج وابن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ ، وهزم فيها ابن الأشعث . والخطبة فى البيان والتبيين ٢ : ١٣٨ ، والعقد ٤ : ١١٥ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ مع اختلاف فى الرواية.

(٢) الزاوية : موضع قرب البصرة كانت به وقعة بين الحجاج وابن الأشعث قتل فيها خلق كثير ، وذلك سنة ٨٢ . الطبرى (حوادث ٨٢) .

(٣) قصمتكم : كسرتكم وغلبتكم . وفى البيان : « وقصتكم » ، وهما بمعنى .

بها كانت المعارك والملاحم ، بِضَرْبٍ يزيل الهامَ عَنْ مقيله ؛ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله[1]

يا أهلَ العِراق ؛ يا أهلَ الشِّقاق والنِّفاق ! الـكَفَرات بعد الفَجَرات ، والغَدَرات بعد الخَتَرات[2] ، والنَّزْوَة بعد النَّزَوَات ! إن بعثتـكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم[3] وخُنْتُم ، وإن أَمِنْتُم أَرْجَفْتُم ، وإن خِفْتُم نافقتم . لا تذكرون حَسَنة ، ولا تَشْكُرون نعمة .

هل استَخَفَّـكُم ناكث ، أو استَغْوَاكُم غاو ، أو استفزَّكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع إلا اتّبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكّيتموه !

يا أهلَ العِراق ؛ هل شغب شاغب ، أو نعبَ ناعب ، أو زَفَر كاذب[4] ؛ إلّا كُنْتُم أشياعه وأتباعه ، وحماتَه وأنصاره !

يا أهل العراق ؛ ألم تزجرْكم المواعظ ! ألم تُنَبِّهْكم الوقائع ! ألم تردعْكم الحوادث!

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال :

يا أهلَ الشام : إنما أنا لـكم كالظَّلِيم الرامح[5] عن فِراخه ، ينفي عنها القَذَر[6] ويباعد عنها الحجَر ، ويُكِنُّها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرُسها من الذئاب !

يا أهلَ الشام ؛ أنتم الجُنّةُ والرداء ، وأنتم العُدّة والحذاء .

ثم نزل .

* * *

---

(١) أخذه من رجز عمار بن ياسر يوم صفين ؛ وفيه :

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ومقيله : موضعه . وانظر وقعة صفين ٣٦٦ ـ ٣٨٧ .

(٢) الخترات : جمع خترة ، وهي الغدر والخديعة .

(٣) الغل هنا : الخيانة .

(٤) العقد : « زفر زافر » .

(٥) الظليم : ذكر النعام ، والرامح : المدافع .

(٦) البيان والعقد : « المدر » .

ومن خطبة له فى هذا المعنى وقد أراد الحج(١) :

يا أهل الكوفة ؛ إنى أريد الحجّ وقد استخلفتُ عليكم ابنى محمدا ، وأوصيته بخلاف وصية رسول الله صلى الله عليه فى الأنصار ، فإنه أمر أن يقبلَ من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؛ وإنى قد أوصيتهُ ألّا يقبلَ من مُحْسِنكم ، ولا يتجاوزَ عن مُسيئكمْ . ألا وإنّكمْ ستقولون بعدى : لَا أحْسَنَ اللهُ لهُ الصَّحَابة ! ألَا وإنّى مُعجّلٌ لكُم الجواب : لَا أحْسَنَ اللهُ لكُم الخِلَافَةَ !

* * *

ومن خطبة له فى هذا المعنى :

يا أهل الكوفة ؛ إن الفتنة تُلْقَحُ بالنَّجوى(٢) ، وتُنْتَجُ بالشكْوَى ، وتُحْصَدُ بالسَّيفِ ؛ أما والله إن أبغضتمونى لا تضرُّونى ، وإن أحببتمونى لا تنفعونى ! وما أنا بالمستوحِش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ؛ زعمتم أنى ساحر وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾(٣) ، وقد أفلحتُ . وزعمتم أنى أعلَمُ الاسمَ الأكبر ؛ فلِمَ تقاتلون مَنْ يعلم مالا تعلمون !

ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

لَأزواجُكُمْ أطيبُ من المِسْك ، ولَأبناؤُكم آنسُ بالقلب من الولد ؛ وما أنتم إلا كما قال أخو ذُبْيَان :

إذا حاوَلتَ فى أسَدٍ فُجوراً ... فإنّى لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنّى(٤)

هُمُ دِرْعِى الّتِى استلأمْتُ فيها ... إلى يومِ النِّسَارِ وَهُمْ مِجَنِّى(٥)

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢٤٥

(٢) النجوى : المسارّة . (٣) سورة طه ٦٩

(٤) ديوانه ٧٩ (من مجموعة خمسة دواوين) .

(٥) استلأم : لبس اللأمة ؛ وهى الدرع . النسار : ماء لبنى عامر . والمجن : الترس .

ثم قال :

بلْ أنتم يا أهل الشام ؛ كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

* * *

وخطب مرة بعد موت أخيه وابنه قال :

بلغنى أنّكُمْ تقُولُون : يموتُ الحجاج ، ومات الحجاج ! فَمَهْ ! وما كان ماذا ! والله ما أرجو الخيرَ كلَّه إلا بعد الموت ! وما رضِيَ الله البقاء إلّا لأهونِ المخلوقينَ عليه إبليس ؛ ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٢) . ثم قال : يا أهل العراق ؛ أتيتُكُمْ وأنا ذو لِمَّةٍ وافرة أرْفُلُ فيها ؛ فما زال بى شِقَاقُكُمْ وعصيانُكُمْ حتى حَصَّ (٣) شعرى . ثم كشف رأسه وهو أصلع ، وقال :

مَنْ يَكُ ذا لِمَّةٍ يُكَشِّفْهَا   فإنني غيرُ ضَائِرِي زَعَرِي (٤)
لا يمنع المرء أن يسودَ وأنْ   يضرب بالسّيفِ قِلَّةُ الشَّعَرِ

* * *

فأمّا قوله عليه السلام : « اللهمّ أبدِلنى بهمْ خيراً منهم ، وأبدِلهم بى شرًّا مِنّى » ، ولا خيرَ فيهم ولا شرَّ فيه عليه السلام ؛ فإن « أفعل » ها هنا بمنزلته فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٥) ، وبمنزلته فى قوله : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الصافات ١٧١ ـ ١٧٣
(٢) سورة الأعراف ١٤ ، ١٥
(٣) الحص : ذهاب الشعر .
(٤) الزعر : ذهاب أصول الشعر .
(٥) سورة فصلت ٤٠
(٦) سورة الفرقان ١٥ .

ويحتمل أن يكون الذى تمنّاه عليه السلام من إبداله بهم خيراً منهم قوماً صالحين ينصرونه ويوفّقون لطاعته .

ويحتمل أن يريد بذلك ما بعد الموت من مرافقة النبيّ صلى الله عليه وآله .

وقال القطبُ الراوندىّ : بنو فراس بن غَنْم هم الروم . وليس بجيّد ، والصحيح ما ذكرناه .

والبيت المتمثّل به أخيرا لأبى جُنْدَب الهذلى ، وأول الأبيات :

ألا يا أمَّ زِنْبَاعٍ أقِيمِى   صُدُورَ العِيسِ نَحْوَ بنى تَمِيمِ

* * *

وهذه الخطبة ، خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صفين ؛ وانقضاء أمر الحكمين والخوارج ؛ وهى من أواخر خطبه عليه السلام .

* * *

تم الجزء الأول[1] من شرح نهج البلاغة بحمد الله ومنّه ؛ والحمد لله وحده العزيز ؛ وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

---

(١) من تجزئة المؤلف ؛ وهذه خاتمة نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ا : « هذا آخر الجزء الأول ، ويتلوه الجزء الثانى إن شاء الله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

[بعثُ معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى الحجاز واليمن]

فأمّا خبرُ بُسْرِ بن أرطاة العامرىّ ؛ من بنى عامر بن لؤى بن غالب ، وبَعْثُ معاوية له ليُغيرَ على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام ، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال ، فقد ذكر أرباب السِّيَر أنّ الذى هاج معاوية على تسريح بُسْر بن أرطاة ـ ويقال ابن أبى أرطاة ـ إلى الحجاز واليمن ، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان ، يُعْظِمون قتلَه ، لم يكن لهم نظام ولا رأس ، فبايعوا لعلىّ عليه السلام على مافى أنفسهم ؛ وعاملُ علىّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عُبيد الله بن عباس[1] ، وعامله على الجَنَد سعيد بن نِمْران[2] .

فلمّا اختلف الناسُ على علىّ عليه السلام بالعراق ، وقُتِل محمّد بن أبى بكر بمصر ، وكَثُرتْ غاراتُ أهلِ الشام ، تكلّموا ودعوْا إلى الطلب بدم عثمان ، فبلغ ذلك عُبيدَ الله ابن عبّاس ، فأرسل إلى ناسٍ من وُجوههم ، فقال : ما هذا الذى بلغنى عنكم ؟ قالوا : إنّا لم نَزَلْ نُنكر قتل عثمان ، ونرى مُجاهدة مَنْ سَعَى عليه . فحبسهم ، فكتبوا إلى مَن بالجَنَد من أصحابهم ، فثاروا بسعيد بن نِمْران ، فأخرجوه من الجَنَد ، وأظهروا أمرَهم ، وخرج إليهم مَنْ كان بصَنْعاء ، وانضمّ إليهم كلّ مَنْ كان على رأيهم ، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم ؛ إرادةَ أن يمنعوا الصدَقة ، والتقى عُبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران ، ومعهما شيعة علىّ عليه السلام ، فقال ابنُ عباس لابن نِمْران : والله لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا

---

(١) عبيد الله بن العباس ؛ كان أصغر من أخيه عبد الله بسنة ، رأى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، وحفظ عنه . الاستيعاب ٤٠٤ .

(٢) سعيد بن نمران الهمدانى ؛ كان كاتبا لعلى ؛ وأدرك من حياة النبى عليه السلام أعواما . الاستيعاب ٥٤٢ .

لمقاربون ، وإن قاتلناهم لا نعلم على مَنْ تكون الدائرة ؛ فهلُمَّ لنكتبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام[(١] بخبرهم وقدْحهم ، وبمنزلهم الذى هُم به .

فكتبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام[١)] :

أمّا بعدُ ، فإنّا نخبر أميرَ المؤمنين ، أنّ شيعةَ عثمان وثبوا بنا ، وأظهروا أنّ معاوية قد شيّد أمرَه ، واتسق له أكثرُ الناس ، وأنّا سِرْنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومَنْ كان على طاعته ، وأنّ ذلك أحْمَشهم[٢] وألّبهم ، فعبّئوا[٣] لنا ، وتداعَوْا علينا مِن كلّ أَوْب ، ونصرَهم علينا مَنْ لم يكن له رأى فيهم ، إرادةَ أن يمنع حقّ الله للفروضَ عليه ؛ وليس يمنعُنا من مُناجزتهم إلّا انتظارُ أمرِ أمير المؤمنين ، أدام الله عزّه وأيّده ، وقضى له بالأقدار الصالحة فى جميع أموره . والسّلام .

فلمّا وصل كتابهما ، ساء عليًّا عليه السلام وأغضبه ، وكتب إليهما :

من علىّ أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران : سلامٌ الله عليكما ، فإنى أحمَدُ إليكما اللهَ الذى لا إله إلّا هو ؛ أمّا بعد ؛ فإنه أتانى كتابُكما تذكُران فيه خروجَ هذه الخارجة ، وتعظّمان مِن شأنها صغيراً ؛ وتُكثّران من عددها قليلا ؛ وقد علمتُ أنّ نَخْبَ[٤] أفئدتكما ، وصِغرَ أنفسكما ، وشَتات رأيكما ، وسوء تدبيركما ، هو الذى أفسد عليكما مَن لم يكن عليكما فاسدا ، وجرّأ عليكما من كان عن لقائكما جبانًا ، فإذا قدم رسولى عليكما ، فامْضيا إلى القوم حتى تقرءا عليهم كتابى إليهم ، وتدعوَاهم إلى حظهم وتقوى ربّهم ؛ فإن أجابوا حَمِدنا الله وقَبِلناهم ، وإنْ حارَبوا استعنّا بالله عليهم ؛ ونابذناهم على سواء ؛ إن الله لا يحبّ الخائنين .

قالوا : وقال علىّ عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبىّ : ألا ترى إلى ماصنَع قومُك !

(١ ــ ١) ساقط من ا

(٢) أحمشهم : هاجهم وأغضبهم .

(٣) ب : « فتعبوا » .

(٤) النخب : الجبن وضعف القلب .

فقال : إنّ ظنى يا أمير المؤمنين بقومى لحَسَنٌ فى طاعتك ، فإن شئتَ خرجتُ إليهم فكفيتَهم ، وإن شئتَ كتبتَ إليهم فتنظر مايجيبونك . فكتب علىّ عليه السلام إليهم [1] :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين ، إلى من شاقّ وغدَر من أهل الجَنَد وصنعاء .أما بعد، فإنّى أحمَدُ الله الذى لا إله إلا هو ، الذى لا يُعقّب له حكم،ولا يُرَدّ له قضاء، ولا يرِدّ بأسه عن القوم المجرمين .

وقد بلَغنى تجرّؤكم وشقاقُكم وإعراضُكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيْعة ، فسألتُ أهلَ الدّين الخالص ، والورَع الصادق ، واللُّبّ الراجح ، عن بَدْء تحرّكِكم ، وما نويتم به ، وما أحمَشكم له ؛ فحُدّثت عن ذلك بما لم أرَ لكم فى شىء منه عُذْرا مبينا، ولا مقالا جميلا،ولا حُجّة ظاهرة ؛ فإذا أتاكم رسولى فتفرقوا وانصرِفوا إلى رحالكم أعفُ عنكم ، وأصفح عن جاهلكم ، وأحفظْ قاصيَكم ، وأعملْ فيكم بحكم الكتاب ؛ فإن لم تفعلوا ، فاستعدّوا لقدوم جيش جَمّ الفرسان،عظيم الأركان ، يقصد لمن طَغَى وعصَى [2] ، فتُطحَنوا كطحن الرّحا ؛ فن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربّك بظلام للعبيد.

ووجّه الكتاب مع رجل من همْدان ، فقدِم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خيْر ، فقال لهم: إنّى تركتُ أميرَ المؤمنين يريد أن يوجّه إليكم يزيدَ بن قيس الأرحبىّ فى جيش كثيف ، فلم يمنعْه إلا انتظارُ جوابكم.فقالوا : نحن سامعون مطيعون ، إن عزَل عنّا هذين الرجلين : عُبيدَ الله وسعيدا .

فرجع الهَمْدانىّ من عندهم إلى علىّ عليه السلام فأخبره خبر القوم .

قالوا : وكتبتْ تلك العصابة حين جاءها كتاب علىّ عليه السلام إلى معاوية يخبرونه، وكتبوا فى كتابهم :

مُعاوِيَ إلّا تُسرِع السيرَ نحوَنا نبايعْ عليًّا أو يزيدَ اليمانيَا

(١) ساقطة من ب .
(٢) ساقطة من ا

فلما قدِم كتابهم ، دعا بُسْرَ بن أبي أرطاة ـ وكان قاسيَ القلب فظًّا سفَّاكاً للدماء ، لا رأفةَ عنده ولا رحمة ـ فأمرَه أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكّة حتى ينتهيَ إلى اليمن ، وقال له : لا تنزِلْ على بلد أهلُه على طاعةِ علىّ ، إلّا بسطتَ عليهم لسانَك ؛ حتى يرَوْا أنهم لا نجاء لهم ، وأنّك محيط بهم . ثم اكففْ عنهم،وادعُهم إلى البيْعة لى، فمَنْ أبى فاقتلْه ، واقتلْ شيعةَ علىّ حيث كانوا .

***

وروى إبراهيم بن هلال الثقفيّ في كتاب " الغارات " عن يزيد بن جابر الأزديّ ، قال :

سمعت عبد الرحمن بن مَسعدة الفزاريّ يحدّث فى خلافة عبدالملك ، قال : لما دخلتْ سنة أربعين ، تحدّث الناس بالشام أنّ عليًّا عليه السلام يستنفِرُ النّاس بالعراق فلا ينفِرون معه ، وتذاكروا أنْ قد اختلفتْ أهواؤهم ، ووقعت الفُرقة بينهم ، قال:فقمت فى نَفَرٍ من أهل الشام إلى الوليد بن عُقْبة ، فقلنا له : إنّ الناس لا يشكّون فى اختلاف الناس على علىّ عليه السلام بالعراق ، فادخلْ إلى صاحبك فمُرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرّقهم ، أو يصلُحَ لصاحبِهم ماقد فسد عليه من أمره . فقال : بلَى ، لقد قاولته فى ذلك وراجعته وعاتبته ، حتى لقد برِم بى ، واستثقل طَلْعتى ، وايمُ الله على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه مامشَيْتم [1] إلىّ فيه .

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه ، ومقالتنا له ، فأذن لنا ، فدخلْنا عليه ، فقال : ماهذا الخبرُ الذى جاءنى به عنكم الوليد ؟ فقلنا : هذا خبرٌ فى الناس سائر ، فشمِّرْ للحرب ، وناهِض الأعداء ، واحتبِل الفرصة ، واغتنم الغِرّة ، فإنك لا تدرى متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التى هم عليها ؛ وأن تسيرَ إلى عدوّك أعزُّ لك من أن يسيرُوا إليك . واعلم

---

(١) ا : « ماشئتم » .

واللهِ أنّه لولا تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك . فقال لنا : ما أستغنِي عن رأيكم ومشورتكم ، ومتى أحْتَجْ إلى ذلك منكم أدْعُكم . إنّ هؤلاء الذين تذكُرون تفرّقَهم على صاحبهم،واختلافَ أهوائهم،لم يبلغ ذلك عندى بهم أن أكونَ أطمعُ في استئصالِهم واجتياحهم ، وأنْ أسيرَ إليهم مخاطرا بجندى ، لا أدرى علىّ تكونُ الدائرة أم لى ! فإيّاكم واستبطائى ، فإنى آخذُ بهم فى وجهٍ هو أرفقُ بكم ، وأبلغُ فى هَلَكَتِهِم . قد شَنَنْتُ عليهم الغارات من كلّ جانب ؛ فخيلى مرةً بالجزيرة ، ومرةً بالحجاز ؛ وقد فتح الله فيما بين ذلك مصر ، فأعزّ بفتحها ولِيّنا ، وأذلّ به عدوّنا ، فأشرافُ أهل العراق لما يرون من حُسْن صنيع الله لنا ، يأتوننا على قَلَائِصهم فى كلّ الأيام ، وهذا مما يزيدكم الله به وينقصهم ، ويقوّيكم ويُضعفهم ، ويُعِزُّكم ويذلُّهم ؛ فاصبروا ولا تعجلوا ، فإنّى لو رأيت فرصتى لاهتبلتُها .

فخرجنا من عنده ونحن نعرف الفَصْل[1] فيما ذكر ، فجلسنا ناحيةً ، وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسر بن أبى أرطاة ، فبعثه فى ثلاثة آلاف ، وقال : سِرْ حتى تمرّ بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخِفْ مَنْ مررت به ، وانهبْ أموال كلّ مَنْ أصبت له مالا ؛ ممّن لم يكن دخل فى طاعتنا ، فإذا دخلتَ المدينة ، فأرِهم أنّك تريد أنفسَهم ، وأخبرْهم أنه لا براءةَ لهم عندك ولا عذر ؛ حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكففْ عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة ، ولا تعرِضْ فيها لأحد ، وأرْهِب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شُرُداً ؛ حتى تأتى صنعاء والجَنَد ، فإنّ لنا بهما شيعة ، وقد جاءنى كتابهم .

فخرج بُسْر فى ذلك البعث ؛ حتى أتى دير مروان ، فعرضهم فسقط منهم أربعمائة ، فمضى فى ألفين وستمائة ، فقال الوليد بن عُقْبة : أشرْنا على معاوية برأينا أن يسيرَ

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « الفضل » .

إلى الكوفة ، فبعث الجيشَ إلى المدينة ، فمثلُنا ومثَلُه ، كما قال الأول : أرِيها السُّها وتُرِيني القمرَ (١) .

فبلغ ذلك معاوية ، فغضب وقال: والله لقد هممتُ بمساءة هذا الأحمق الذى لا يُحسِن التدبير ، ولا يدرِي سياسة الأمور . ثم كفَّ عنه .

* * *

قلت : الوليد كان لشِدّة بغضه عليًّا عليه السلام القديم التالد ، لا يرى الأناة فى حَرْبه ، ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده ، ولا يشفِى غيظَه ولا يُبرِد حزازاتِ قلبه ؛ إلا باستئصاله نفسِه بالجيوش،وتسييرها إلى دار مُلْكه،وسرير خلافته،وهى الكوفة، وأن يكون معاوية بنفسه هو الذى يسير بالجيوش إليه ؛ ليكونَ ذلك أبلغَ فى هلاك علىّ عليه السلام ، واجتثاث أصل سلطانه . ومعاوية كان يرى غيرَ هذا الرأى ، ويعلم أنّ السيرَ بالجيش للقاء علىّ عليه السلام خَطَر عظيمٌ ؛ فاقتضت المصلحةُ عنده وما يغلِبُ على ظنّه من حُسْن التدبير ، أن يثبُت بمركزه بالشام فى جمهور جَيْشه ، ويسرِّب الغارات على أعمال علىّ عليه السلام وبلاده ، فتجوس خلال الديار وتضعفها، فإذا أضعفتْها أضعفتْ بيْضة ملك علىّ عليه السلام ؛ لأنّ ضعف الأطراف يُوجب ضعف البَيْضة،وإذا أضعِفت البيضةُ كان على بلوغ إرادته ، وللسير حينئذ ـ إن استصوب المسير ـ أقدرَ .

ولا يلام الوليد على مافى نفسه ؛ فإنّ عليًّا عليه السلام قتل أباه عُقْبة بن أبى مُعيط صَبْرًا (٢) يوم بدر ، وسُمّى الفاسقَ (٣) بعد ذلك فى القرآن ، لنزاع وقع بينه وبينه ،

---

(١) السها : كويكب صغير خفى الضوء فى بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم . والمثل فى اللسان ١٩ : ١٣٣ وانظر الميدانى ١ : ٢٩١ .

(٢) القتل صبرا : أن يحبس الإنسان ويرمى به حتى يموت .

(٣) يشير إلى ماذكروه من سبب نزول قوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ . وانظر الإصابة ٦ : ٦٣١ ، وأسباب النزول للواحدى ٢٩١ .

ثم جلده الحدّ فى خلافة عثمان ، وعزله عن الكوفة ، وكان عاملها . وبعض هذا عند العرب أرباب الدين والتقى تستحلّ المحارم ، وتستباح الدماء ، ولا تبقى مراقبة فى شفاء الغيظ لدين ولا لعقاب ولا لثواب ، فكيف الوليد المشتمل على الفسوق والفجور ، مجاهرا بذلك ! وكان من المؤلفة قلوبهم ، مطعونا فى نسبه[1] ، مرميًّا بالإلحاد والزندقة .

***

قال إبراهيم بن هلال : روى عوانة عن الكلبيّ ولوط بن يحيى أن بُسراً لما أسقط مَن أسقط من جيشه ، سار بمن تخلّف معه ، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبلَ أهلِ ذلك الماء فركبوها ، وقادوا خيولهم حتى يردُوا الماء الآخر ، فيردّون تلك الإبل ، ويركبون إبل هؤلاء ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة .

قال : وقد روى أنّ قضاعة استقبلتهم ؛ ينحرُون لهم الجزُر ، حتى دخلوا المدينة قال : فدخلوها ، وعامل علىّ عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصاريّ ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج عنها هاربا ، ودخل بُسْر المدينة ، فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ وتوعدهم ، وقال : شاهت الوجوه ! إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا . . . ﴾[2] الآية ، وقد أوقع الله تعالى ذلك المثلَ بكم وجعلكم أهله ؛ كان بلدُكم مهاجَر النبي صلى الله عليه ومنْزِلَه ، وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده ؛ فلم تشكروا نعمةَ ربّكم ، ولم ترعَوْا حقّ نبيكم ، وقُتِل خليفة الله بين أظهركم ، فكنتم بين قاتلٍ وخاذلٍ ، ومتربّص وشامت ، إن كانت للمؤمنين ، قلتم : ألم نكن معكم ! وإن كان للكافرين نصيب ، قلتم : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من

(١) ا : « دينه » .

(٢) سورة النحل ١١٢ ، وبقيتها : ﴿ رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

المؤمنين ! ثم شتم الأنصار، فقال : يا معشرَ اليهود وأبناء العبيد : بني زُرَيق، وبني النجار، وبني سَلِمة، وبني عبد الأشهل ؛ أما والله لأوقعنّ بكم وقعة تَشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان ؛ أما والله لأدعنّكم أحاديثَ كالأمم السالفة[1].

فتهددهم حتى خاف الناسُ أن يوقِع بهم ، ففزعوا إلى حُويطِب بن عبد العُزّى — ويقال إنه زوج أمّه — فصعِد إليه المنبر ، فناشده ، وقال : عِترتك وأنصار رسول الله ، وليسُوا بقتَلة عثمان ؛ فلم يزل به حتى سكن ، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه . ونزل فأحرقَ دورا كثيرة ، منها دار زُرارة بن حَرون ، أحد بني عمرو بن عوف ، ودار رفاعة ابن رافع الزُّرَقيّ ، ودار أبي أيوب الأنصاريّ . وتفقد جابر بن عبد الله ، فقال : مالي لا أرى جابرا يا بني سلِمة ! لا أمان لكم عندي ، أو تأتوني بجابر ؛ فعاذ جابر بأمّ سلمة رضي الله عنها ، فأرسلت إلى بُسر بن أرطاة ، فقال : لا أؤمّنه حتى يبايع ، فقالت له أم سَلمة : اذهب فبايع ، وقالت لابنها عمر : اذهب فبايع ، فذهبا فبايعاه[2] .

قال إبراهيم : وروى الوليد بن كثير عن وهب بن كَيسان ، قال : سمعت جابر ابن عبد الله الأنصاريّ يقول : لما خِفتُ بُسْراً وتواريت عنه ، قال لقومي : لا أمانَ لكم عندي حتى يحضر جابر ، فأتوني وقالوا : نَنشُدك الله لما انطلقْت معنا فبايعتَ ، فحقنتَ دمك ودماء قومك ؛ فإنك إن لم تفعل قتلتَ مُقاتلينا ، وسبيْت ذرارينا . فاستنظرتُهم الليل ، فلما أمسيت دخلت على أمّ سلمة فأخبرتُها الخبر ، فقالت : يابنيّ ، انطلق فبايع ، احقِنْ دَمك ودماء قومك ؛ فإني قد أمرت ابنَ أخي أن يذهبَ فيبايع ، وإني لأعلم أنها بيعة ضلالة .

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٥ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) في تاريخ الطبري : « فقال لها : ماذا ترين ؟ إني قد خشيت أن أقتل ؛ وهذه بيعة ضلالة ، فقالت : « أرى أن تبايع ، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع ، وأمرت ختني عبد الله بن زمعة .. » .

قال إبراهيم : فأقام بُسْر بالمدينة أياماً ثم قال لهم : إنى قد عفوْت عنكم ؛ وإن لم تكونوا لذلك بأهل ؛ ما قومٌ قتِلَ إمامُهم بين ظَهْرانيهم بأهلٍ أن يكَفّ عنهم العذاب ؛ ولئن نالكم العفو منى فى الدنيا ؛ إنى لأرجو ألّا تنالكم رحمة الله عز وجلّ فى الآخرة ، وقد استخلفتُ عليكم أبا هريرة ؛ فإياكم وخلافه . ثم خرج إلى مكة .

* * *

قال إبراهيم : وروى الوليد بن هشام ، قال : أقبل بُسْر ، فدخل المدينة ، فصعِد مِنْبَرَ الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم قال : يأهل المدينة ، خَضَبتم لِحاكم ، وقتلتم عثمان مخضوبا ، والله لا أدَعُ فى المسجد مخضوبا إلا قتلتهُ ، ثم قال لأصحابه : خذُوا بأبواب المسجد ـ وهو يريد أن يستعرِضهم ـ فقام إليه عبد الله بن الزُّبير وأبو قيس أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فطلبا إليه حتى كفّ عنهم . وخرج إلى مكة ، فلما قرب منها هرب قُثَم ابن العباس ـ وكان عاملَ علىّ عليه السلام ـ ودخلها بُسْر ، فشتم أهلَ مكة وأنّبهم . ثم خرج عنها ، واستعمل عليها شَيْبة بن عثمان .

قال إبراهيم : وقد روى عَوانة عن الكلبى أن بُسْراً لمّا خرج من المدينة إلى مكّة قتل فى طريقه رجالاً ، وأخذ أموالا ، وبلغ أهلَ مكّةَ خبرُه ، فتنحّى عنها عامّةُ أهلها ، وتراضَى الناس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثَم بن العباس عنها ، وخرج إلى بُسر قوم من قريش ، فتلقّوه ، فشتمهم ، ثم قال : أما والله لو تُرِكت ورأيى فيكم لتركتُكم ومافيكم روح تمشى على الأرض . فقالوا : نَنشُدُك الله فى أهلك وعِترتك ! فسكت ثم دخل وطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، ثم خطبهم ، فقال :

الحمدُ لله الذى أعزّ دعوتنا ، وجمع ألفتنا ، وأذلّ[1] عَدُوّنا بالقتل والتشريد ، هذا ابنُ أبى طالب بناحية العراق فى ضَنْك وضِيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بجَريرته ؛

---

(١) ا : « وخذل » .

فتفرّق عنه أصحابُه ناقين عليه ، ووَلِىَ الأمرَ معاويةُ الطالبُ بدم عثمان ؛ فبايِعوا ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا . فبايَعوا .

وتفقدَ سعيدَ بن العاص فطلَبه فلم يجده ، وأقام أياما ثم خطبهم فقال :

يأهلَ مكةَ ، إنى قد صفحت عنكم ، فإياكم والخلاف ، فوالله إنْ فعلتم لأقصِدَنّ منكم إلى التى تُبير الأصل ، وتَحرُب المال ، وتخرِّب الديار .

ثم خرج إلى الطائف ، فكتب إليه المغيرة بن شعبة حين خرج من مكةَ إليها :

أما بعد ، فقد بلغَنى مسيرُك إلى الحجاز ، ونزولُك مكةَ ، وشِدّتُك على المريب ، وعفوُك عن المسىء ، وإكرامُك لأولى النُّهَى ، فحَمِدتُ رأيَك فى ذلك ، فدُمْ على صالحِ ما كنتَ عليه ، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يزيد بالخير أهلَه إلّا خيرا ؛ جعلنا الله وإيّاك من الآمرين بالمعروف ، والقاصدين إلى الحقّ ، والذاكرين الله كثيرا .

قال : ووجّه رجلاً من قريش إلى تَبالة ، وبها قوم من شيعة علىّ عليه السلام ، وأمره بقتلهم . فأخذهم ، وكُلِّمَ فيهم وقيل له : هؤلاء قومُك ، فكُفَّ عنهم حتى نأتيك بكتابٍ من بُسْر بأمانهم ؛ فحبسهم . وخرج منيع الباهلىّ من عندهم إلى بُسر وهو بالطائف يستشفع إليه فيهم ، فتحمّل عليه بقوم من الطائف ، فكلّموه فيهم ، وسألوه الكتاب بإطلاقهم ، فوعدهم ، ومَطَلهم بالكتاب حتى ظن أنه قد قتلهم القرشىّ المبعوث لقتلهم ، وأن كتابه لا يصل إليهم حتى يُقتلوا . ثم كتب لهم ، فأتى مَنيع منزله ، وكان قد نزل على امرأة بالطائف ورَحْله عندها ، فلم يجدها فى منزلها ، فوطِئ على ناقته بردائه ، وركب فسار يومَ الجمعة وليلة السبت لم ينزل عن راحلته قطّ ، فأتاهم ضحوة ، وقد أُخرِج القومُ ليقتلوا ، واستبطئ كتاب بُسرٍ فيهم ، فقدِّم رجل منهم فضربه رجلٌ من أهل الشام ، فانقطع سيفه ، فقال الشاميّون بعضهم لبعض : شمِّسوا سيوفكم حتى تلين فهزّوها . وتبصّر منيع

الباهلي بريقَ السيوف ، فألمع بثوبه ، فقال القوم : هــذا راكب عنده خبر ، فــكفُّوا ، وقام به بعيره فنزل عنه ، وجاء على رجليه يشتدّ فدفع الــكتاب إليهم فأطلقوا . وكان الرجل المقدّم ـ الذي ضرب بالسيف فانــكسر السيف ـ أخاه .

***

قال إبراهيم : وروى عليّ بن مجــاهد ، عن ابن إسحاق أنّ أهلَ مكةَ لما بلغهم ما صنع بُسر ، خافوه وهربوا ، فخرج ابنا عبيد الله بن العباس ؛ وهما سليمان وداود ، وأمهما جُوَيْرِيَة ابنة خالد بن قَرَظ الــكنانية ، وتُــكْنَى أمّ حكيم ، وهم حلفاء بني زُهرة ـ وهما غلامان ـ مع أهل مكة ، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضرميّ ـ وميمون هذا هو أخو العلاء بن الحضرمي ـ وهجم عليهما بسر ، فأخذهما وذبحهما ، فقالت أمهما[١] :

ها منْ أحَسّ بابنيّ اللّذَيْن هما ... كالدرّتين تَشَظّى عنهما الصّدَف[٢]

ها منْ أحس بابنيّ اللّذَيْن هما ... سمعي وقلبي ؛ فقلبي اليومَ مُختطَفُ

ها منْ أحس بابنيّ اللّذَيْن هما ... مُخّ العِظام ، فمُخّي اليومَ مزدهَف[٣]

نُبِّئتُ بسراً وماصدّقتُ مازعموا ... من قولِهِم ومن الإفكِ الذي اقترفوا

أنحَى على وَدَجَيْ ابنيّ مُرهَفةً ... مشحوذةً وكذاكَ الإثمُ يُقترَف[٤]

من دَلّ والهةً حرَّى مُسَلَّبةً[٥] ... على صبيّينِ ضلاّ إذ مضى السلف[٦]

(١) الأبيات في الــكامل ـ بشرح المرصفي ٨ : ١٥٨ ، وهي أيضاً مع الخبر في الأغاني ١٥ : ٤٥ (طبعة الساسي) .

(٢) الــكامل والأغاني : « يامن أحس بني » . ولتشظي : تفرق .

(٣) مزدهف : ذهب به .

(٤) الــكامل : « على ودجي طفل » ، وبعد هذا البيت في رواية الأغاني :

حتّى لَقيتُ رجالاً مِنْ أرومتهِ ... شُمّ الأنوفِ لهم في قومِهِمْ شرفُ

فالآن ألعنُ بسراً حَقّ لَعنَتِهِ ... هَذا لَعَمْرُ أبي بُسْرٍ هُوَ السّرَفُ

(٥) الــكامل : « مفجعة » والأغاني : « مولهة » .

(٦) الــكامل : « على صبيين غابا » ، والأغاني : « إذ غدا السلف » .

وقد روى أن اسمهما قُثَم وعبد الرحمن. ورُوِى أنهما ضلاّ فى أخوالهما من بنى كنانة. وروى أن بُسْراً إنما قتلهما باليمن ، وأنهما ذبحا على دَرَج صنعاء [١] .

* * *

وروى عبد الملك بن نوفل بن مُساحق عن أبيه ، أنّ بُسْراً لما دخل الطائف، وقد كلّمه المغيرة ، قال له : لقد صدقتَنى ونصحتَنى ؛ فبات بها وخرج منها ، وشيّعه المغيرة ساعة ، ثم ودّعه وانصرف عنه، فخرَج حتى مَرّ ببنى كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأمّهما. فلما انتهى بُسْر إليهم ، طلبهما، فدخل رجل من بنى كنانة ـ وكان أبوهما أوصاه بهما ـ فأخذ السيفَ من بيته وخرج ، فقال له بُسْر : ثَكِلتكَ أمّك ! والله ما كنا أردنا قتلك ، فلمَ عرّضت نفسَك للقتل ! قال : أقتلُ دون جارِى أعذَرُ لِى عند الله والناس . ثم شدّ على أصحاب بُسر بالسيف حاسرا ، وهو يرتجز :

آليتُ لا يمنع حافاتِ الدّارْ ولا يموت مصلِتاً دُونَ الجارْ [٢]

* إلّا فتًى أرْوَعُ غير غدّارْ *

فضارب بسيفه حتى قُتل ، ثم قُدّم الغلامان فقتلا. فخرج نسوة من بنى كنانة، فقالت امرأة منهنّ : هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ! والله ما كانوا يقتَلون فى جاهلية ولا إسلام، والله إنّ سلطانا لا يشتدّ إلا بقتل الضَّرَع الضعيف، والشيخ الكبير ، ورفع الرحمة، وقطع الأرحام لَسُلطان سوء ؛ فقال بُسْر : والله لهممتُ أن أضعَ فيكنّ السيف، قالت: والله إنه لأحَبُّ إلىّ إن فعلت !

* * *

قال إبراهيم : وخرج بُسر من الطائف ، فأتى نجْران ، فقتل عبد الله بن عبد المدان وابنه مالكا ـ وكان عبد الله هذا صهرا لعبيد الله بن العباس ـ ثم جمعهم وقام فيهم، وقال:

---

(١) الدرج : الطريق ؛ (٢) المصلت : المجرد سيفه .

يأهلَ نجران ، يامعشرَ النصارى وإخوان القرود : أما والله إنْ بلغنى عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتى تقطع النَّسْل ، وتُهلِكُ الحرث ، وتخرّب الديار !

وتهدّدهم طويلاً ، ثم سار حتى [بلغ] أرْحَب ، فقتل أبا كرِب ـ وكان يتشيّع ـ ويقال : إنه سيّد مَنْ كان بالبادية من همْدان ، فقدمه فقتله .

***

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران ، وقد استخلف عبيدُ الله عليها عَمْرو بن أراكة الثقفيّ ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله ، فقتله بُسْر ، ودخل صنعاء ، فقتل منها قوما ، وأتاه وفدُ مأرِب فقتلهم ، فلم ينجُ منهم إلا رجل واحد ، ورجع إلى قومه ، فقال لهم : « أنعى قتلاَنا ، شيُوخاً وشُبّاناً » .

قال إبراهيم : وهذه الأبيات المشهورة لعبدالله بن أراكة الثقفيّ ، يرثى بها ابنه عمراً[1] :

لَعَمْرِى لقد أرْدَى ابنُ أرْطاةَ فارِساً   بصنعاء كاللَّيث الهِزَبْر أبِى الأجْرِ[2]

تعزّ فإن كان البكا ردّ هالكا   على أحد ، فاجهد بُكاكَ على عمرو[3]

ولا تبكِ مَيْتاً بعـــد مَيْتٍ أجنّه   علىّ وعباسٌ وآلُ أبِى بَكْرِ

قال : وروى نُمَيْر بن وَعْلَة ، عن أبى وَدّاك[4] ، قال : كنتُ عندَ علىّ عليه السلام لما قدم عليه سعيد بن نِمْران الكوفة ، فعتب عليه وعلى عبيد الله ألّا يكونا قاتلا بُسرا ،

(١) الأبيات فى الكامل ـ بشرح المرصفى ٨ : ١٥٧ ، وقبلهما فى روايته :

لَعَمْرِى لَئِنْ أتبَعْتَ عَيْنَكَ ما مَضَى   به الدَّهْرُ أوساقَ الحِمامُ إلى القَبْرِ

لَتَسْتَنْفِـــدَنْ ماءَ الشُّئونِ بأسْرِهِ   وَلَوْ كُنْتَ تَمْرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ

(٢) فى الكامل : « أبى أجر » ، وأجر : جمع جرو ؛ وهو هنا اسم لولد الأسد ؛ ويجمع على أجراء أيضاً .

(٣) رواية الكامل :

تبيّنْ فإنْ كانَ البكا رَدَّ هالــكا   على أهـله فاشْدُدْ بُكاكَ على عمرو

(٤) هو جبر بن نوف الهمدانى ، أبو الوداك ، بفتح الواو وتشديد الدال . التقريب ٤١ .

فقال سعيد : قد والله قاتلت ، ولـكنّ ابن عباس خَذَلنى وأبى أن يقاتل، ولقد خلوتُ به حين دنا منّا بُسْر ، فقلت : إنّ ابنَ عمك لا يرضى منّى ومنك بدون الجِدّ فى قتالهم،قال: لا والله مالنا بهم طاقة ولا يَدَان ، فقمت فى الناس، فحمدت الله ثم قلت : يأهل اليمن ، مَنْ كان فى طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فإلىّ إلىّ. فأجابنى منهم عِصابة،فاستقدمت بهم ، فقاتلت قتالا ضعيفا ، وتفرّق الناس عنّى وانصرفت .

قال: ثم خرج بُسر من صنعاء، فأتى أهل جَيْشَان[1] —وهم شيعة لعلى عليه السلام— فقاتلهم وقاتلوه، فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعا، ثم رجع إلى صنعاء،فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس، لأنّ ابنى عبيدالله بن العباس كانا مستترين فى بيت امرأة من أبنائهم، تعرف بابنة بُزُرْج.

***

وقال الـكلبىّ وأبو مِخْنف: فندب علىّ عليه السلام أصحابَه لبعث سرّية فى إثر بُسْر. فتثاقلوا ، وأجابه جارية بن قُدامة السعدىّ ، فبعثه فى ألفين، فشخَص إلى البصرة،ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدِم اليمن ، وسأل عن بُسر فقيل : أخذ فى بلاد بنى تميم ، فقال : أخذ فى ديار قوم يمنعون أنفسهم . وبلغ بُسرا مسيرُ جارية ، فانحدر إلى اليمامة ، وأغذّ جارية بن قدامة السير ، مايلتفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن . ولا يعرّج على شىء إلا أن يُرْمِلَ[2] بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته، أو يسقط بعير رجل أو تحفَى دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعقِبوه، حتى انتهوا إلى أرض اليمن، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتّبعهم شيعة علىّ عليه السلام، وتداعَتْ عليهم من كلّ جانب ، وأصابوا منهم، وصَمَد[3] نحو بُسْر ، وبسْر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة أخرى، حتى أخرجه من أعمال علىّ عليه السلام كلّها .

فلما فعل به ذلك، أقام جارية بجُرَش نحوا من شهر، حتى استراح وأراحَ أصحابه، ووثب الناس ببُسْر فى طريقه لما انصرف من بين يدى جارية ، لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغَشْمه. وأصاب بنو تميم ثِقْلا من ثقله فى بلاده. وصحبه إلى معاوية ليبايعه على الطاعة ابنُ مَجّاعة

---

(١) جيشان : مخلاف باليمن ، شمال لحج . (٢) يقال : أرمل القوم ؛ إذا نفد زادهم .

(٣) صمد : قصد .

رئيس اليمامة ، فلما وصل بُسر إلى معاوية قال : يا أميرَ المؤمنين ، هذا ابن مجّاعة قد أتيتُك به فاقتله ، فقال معاوية : تركتَه لم تقتله ، ثم جئتنى به فقلت اقتله ! لا لعمرى لا أقتله . ثم بايعه ووصله ، وأعاده إلى قومه .

وقال بُسر : أحمَدُ الله يا أمير المؤمنين أنى سرت فى هذا الجيش أقتل عدوّك ذاهبا جائيا لم يُنْكَب رجل منهم نكبة ، فقال معاوية : اللهُ قد فعل ذلك لا أنت .

وكان الذى قتلَ بسرٌ فى وجهه ذلك ثلاثين ألفا ، وحرّق قوما بالنار ، فقال يزيد ابن مفرّغ :

تَعَلَّقَ مِنْ أَسْمَاءَ مَا قَدْ تَعَلَّقَا ومثلُ الذى لاقَى من الشوق أرّقَا[1]
سقى هَزِمُ الأرعاد منبعج الكُلَى منازلَها من مَسْرُقَانَ فَسُرَّقَا
إلى الشَّرف الأعلى إلى رَامَهُرْمُزٍ إلى قَرَيَاتِ الشَّيخِ من نهر أرْبَقَا
إلى دَشْتِ بارِينٍ إلى الشَّطِّ كلِّه إلى مجمع السُّلّانِ من بطن دَوْرَقَا[2]
إلى حيث يُرْفا من دُجَيْلٍ سفينهُ إلى مجمع النَّهْرين حيثُ تفرّقا
إلى حيث سار المرء بُسرٌ بجيشه فقتّل بُسْرٌ ما استطاع وحرّقا

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : اجتمع عُبيد الله بن العباس وبُسر بن أرطاة يوما عند معاوية بعد صلح الحسَن عليه السلام ، فقال له ابن عباس : أنت أمرتَ اللعين السيِّئ الهَدَمَ أن يقتل ابنىّ ؟ فقال : ما أمرتُه بذلك ، ولوددت أنه لم يكن قتلهما ، فغضب بُسر ونزع سيفه فألقاه وقال لمعاوية : اقبِض سيفَك ، قلّدتنيه وأمرتنى أن أخبِط به الناس ففعلت ، حتى إذا بلغتُ ما أردتَ قلت : لم أهْوَ ولم آمُر ! فقال : خذْ سيفَك إليك ، فلَعَمْرِى

(١) وردت هذه الأبيات فى الأغانى ١٧ : ٦٩ (ساسى) ، ومعجم ما استعجم ٢ : ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ ، ومعجم البلدان ٨ : ٥٢ ؛ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها . (٢) الدشت : الصحراء .

إنك ضعيف مائق حين تُلقِي السيفَ بين يدىْ رجلٍ من بنى عبد مناف ، قد قتلتَ أمسِ ابنيْه .

فقال له عبيد الله : أتحسبنى يامعاويةُ قاتلًا بُسراً بأحد ابنىّ ! هو أحقر وألأم من ذلك ؛ ولكنّى والله لا أرى لى مَقْنعًا ، ولا أدرِك ثأرا إلا أن أصيب بهما يزيدَ وعبد الله .

فتبسّم معاوية وقال : وما ذنبُ معاوية وابنىْ معاوية ! والله ما علمتُ ولا أمرتُ ، ولا رضِيتُ ولا هَوِيت . واحتملها منه لشرفه وسؤدده .

قال : ودعا علىّ عليه السلام على بُسْر فقال : اللهم إنّ بُسْراً باع دينَه بالدنيا ، وانتهك محارمَك ، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثرَ عنده مِمّا عندك . اللّهمّ فلا تُمِتْه حتى تَسْلُبَه عقلَه ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار . اللهمّ ألعن بُسْراً وعمراً ومعاوية ، وليَحُلّ عليهم غضبُك ، ولتنزل بهم نِقْمتك، وليصِبْهم بأسُك ورِجْزُك الذى لا تردّه عن القوم المجرمين .

فلم يلبثْ بُسْرٌ بعد ذلك إلا يسيرا حتى وسوس وذهب عقلُه . فكان يهذِى بالسّيف ، ويقول : أعطونى سيفا أقتلْ به ؛ لا يزال يردد ذلك حتى اتُّخِذ له سيف من خشب ، وكانوا يدنون منه المِرْفقة ، فلا يزال يضرِبُها حتى يُغشى عليه ، فلبث كذلك إلى أن مات .

قلت : كان مُسلم بن عُقْبة ليزيد وما عمِل بالمدينة فى وقعة الحرّة كما كان بُسر لمعاوية وما عمل فى الحجاز واليمن ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوائِلُنَا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مافَعَلُوا(١)

---

(١) قبله :

إنّا وإن كَرُمَتْ أوائلنا   لَسْنا عَلَى الأحْسابِ نَتَّكِلُ

وينسب البيتان للمتوكل الليثى ؛ وهما فى العقد ٣ : ٤١١ .

(٢٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ ، وَفِي شَرِّ دَارٍ ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ . الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ ، وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ .

* * *

الشرح :

يجوز أن يعنى بقوله : « بين حجارة خُشْن ، وحيّات صُمّ » الحقيقةَ لا المجاز ؛ وذلك أنّ الباديةَ بالحجاز ونجد وتهامة وغيرها من أرض العرب ذاتُ حيّاتٍ وحجارة خُشْن ، وقد يعنى بالحجارة الخُشن الجبال أيضاً أو الأصنام ؛ فيكونُ داخلا فى قِسْم الحقيقة إذا فرضناه مُرادا ، ويكون المعنىّ بذلك وصفَ ما كانوا عليه من البؤس وشَظَف العيشة وسوء الاختيار فى العبادة ، فأبدلهم الله تعالى بذلك الرِّيفَ[1] ولين المهاد وعبادةَ من يستحقّ العبادة .

ويجوز أن يعنى به المجاز ، وهو الأحسن ؛ يقال للأعداء حَيّات . والحيّة الصماء أدْهَى من التى ليست بصمّاء ، لأنّها لا تنزجز بالصوت . ويقال للعدوّ أيضا : إنه لحجر خَشِن المسّ ، إذا كان ألدّ الخصام .

والجَشِب من الطعام : الغليظُ الخَشِن .

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب وسعة فى المأكل والمشرب .

وقال أبو البَختريّ وهب بن وهب القاضي : كنتُ عند الرشيد يوما ، واستدعى ماء مبرّداً بالثلج ، فلم يوجد في الخزانة ثلج ، فاعتذر إليه بذلك ، وأحضر إليه ماء غير مثلوج ، فضرب وجهَ الغلام بالكوز ، واستشاط غضبا ، فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمِن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من الغِيَر بالأمس — يعنى زوال دَوْلة بنى أمية — والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزْم ألّا تعوّد نفسَك الترفّه والنعمة ، بل تأكل اللَّيِّن والجشِب ، وتلبس الناعم والخشِن ، وتشرب الحارّ والقارّ ؛ فنفحنى بيده ، وقال : لا والله ، لا أذهب إلى ما تذهب إليه ، بل ألبسُ النعمة ما لبِستْنى ، فإذا نابتْ نوْبة الدّهر عدت إلى نِصاب غير خوّار(١) .

وقوله : « والآثام بكم معصوبة » ، استعارة ، كأنها مشدودة إليهم .

وعنى بقوله : « تسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم » ما كانوا عليه في الجاهلية من الغارات والحروب .

* * *

الأجنل :

ومنها :

فَنَظَرْتُ فإذا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إلّا أَهْلَ بَيْتِي ، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى ، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَى ، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ .

* * *

---

(١) الخوار : الضعيف .

الشرح

الكظم ، بفتح الظاء : مخرج النفَس ، والجمع أكظام . وضنِنْت ، بالكسر : بخلت . وأغضيت على كذا : غضضت طرفى ، والشَّجَى : مايعترض فى الحلق .

***

[حديث السقيفة]

اختلفت الروايات فى قصّة السّقيفة ، فالذى تقوله الشيعة ـ وقد قال قوم من المحدّثين بعضَه ورووا كثيرا منه ـ أنّ عليا عليه السلام امتنع من البَيْعة حتى أخرِج كرْهاً ، وأنّ الزّبيرَ بن العوام امتنع من البَيْعة وقال : لاأبايع إلا عليًّا عليه السلام ، وكذلك أبو سفيان ابن حرب ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس ، والعبّاس بن عبد المطلب وبنوه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وجميعُ بنى هاشم . وقالوا : إنّ الزُّبَير شَهَر سيفَه ، فلما جاء عمر ومعه جماعة من الأنصار وغيرهم ، قال فى جملة ماقال : خُذُوا سيفَ هذا فاضربوا به الحجر . ويقال : إنه أخذ السّيف من يد الزبير فضرب به حَجراً فكسره ، وساقهم كلَّهم بين يديه إلى أبى بكر ، فحملَهم على بيعتِه ولم يتخلف إلا علىّ عليه السلام وحدَه ، فإنّه اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام ، فتحامَوْا إخراجه منه قَسْرًا ، وقامت فاطمة عليها السلام إلى باب البيت فأسمعت مَنْ جاء يطلبُه ، فتفرقوا وعلموا أنّه بمفرده لايضرّ شيئا ، فتركوه .

وقيل : إنهم أخرجوه فيمن أخرج وحمل إلى أبى بكر فبايعه . وقد روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى كثيرا من هذا (١) .

فأمّا حديث التّحريق وماجرى مجراه من الأمور الفظيعة ، وقول مَنْ قال إنّهم أخذوا عليًّا عليه السلام يُقادُ بعمامته والناس حوله ؛ فأمْر بعيدٌ ، والشِّيعة تنفرد به ، على أن جماعة من أهل الحديث قد رووْا نحوه ، وسنذكر ذلك .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٣ ومابعدها .

وقال أبو جعفر : إنّ الأنصار لمّا فاتها ماطلبت من الخلافة ، قالت ـ أو قال بعضها: لا نبايع إلا عليا . وذكر نحو هـذا علىّ بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلىّ فى تاريخه [(١)] .

فأمّا قولُه : « لم يكن لى معين إلا أهل بيتى فضننْتُ بهم عن الموت » فقولٌ مازال علىّ عليـه السلام يقوله ، ولقد قاله عَقِيبَ وفاة رسول الله صلى الله عليـه وآله ، قال : لَوْ وَجدْتُ أربعين ذوى عزم !

ذكر ذلك نصر بن مُزاحم فى كتـاب " صفين " ، وذكره كثير من أرباب السيرة .

وأما الذى يقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم ، فإنّه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر ، ولزِم بيتَه ، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام ، فلما ماتت بايع طوْعاً .

وفى صحيحىْ مسلم والبخارىّ : كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعدُ ، فلما ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه الناس عنه ، وخرَج من بيته فبايع أبا بكر ، وكانت مدةُ بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر [(٢)] .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ ، [(٣)] عن ابن عباس رضى الله عنه، قال : قال لى عبد الرحمن بن عوف ، وقد حَجَجْنا مع عمر [(٣)] : شهدت اليومَ أمير المؤمنين عليه السلام بِمِنًى ، وقال له رجلٌ [(٤)] : إنّى سمعتُ فلانا يقول : لو قد مات عمر لبايعت فلانا ، فقال عمر [(٥)] : إنى لقائم العشيةَ فى الناس أحذِّرهم هؤلاء الرهْطَ الذين يريدون أن

---

(١) الـكامل ٢ : ٢٢٠ ومابعدها .

(٢) صحيح البخارى بسنده عن عائشة فى كتاب المغازى ، وصحيح مسلم بسنده أيضا عن عائشة ، فى كتاب الجهاد والسير .

(٣ـ٣) صدر الخبر فى الطبرى : « عن ابن عباس ، قال : كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف ، قال : فحج عمر وحججنا معه ، قال : فإنى لفى منزل بمنى إذ جاءنى عبد الرحمن بن عوف فقال : شهدت » .

(٤) الطبرى : « وقام إليه رجل فقال » . (٥) الطبرى : « فقال أمير المؤمنين » .

يغتصبوا الناسَ أمرَهم . قال عبد الرحمن : فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الموسمَ يجمع رَعاع الناس وغَوْغاءهم،[١] وهم الذين يقربون من مجلسك ويغلبون عليه،وأخاف أن تقولَ مقالة لا يَعونها ، ولا يحفظونها فيطيروا بها[١]،ولكن أمهِلْ حتى تقدَم المدينة[٢] وتخلص بأصحاب رسول الله ، فتقول [ماقلت متمكِّنا] [٣]، فيسمعوا[٤] مقالتك. فقال : والله لأقومَنّ بها أولَ مَقامٍ أقومُه بالمدينة .

قال ابن عباس :[٥] فلما قدمناها ، هجَّرتُ يوم الجمعة لحديث[٥] عبدالرحمن ، فلما جلس[٦] عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال[٦] بعد أن ذكر الرَّجْم وحدّ الزنا: إنه بلَغنى أنّ قائلا منكم يقول:لو مات أميرُ المؤمنين بايعت فلانا،فلا يغرّنّ امرأ أن يقول : إنّ بيعةَ أبى بكر كانت فَلْتَةً ، فلقد كانت كذلك ؛ ولكن[٧] الله وقى شرّها ، وليس فيكم مَنْ تقَطَّع إليه الأعناقُ كأبى بكر،وإنّه كان من خبَرنا حين توفى رسول الله صلى الله عليه . أن عليّاً والزبير تخلّفا عنا فى بيت فاطمة ومَنْ معهما ، وتخلّفت عنّا الأنصار ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر ، فقلت له:انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار.فانطلقنا نحوهم ، فلقِيَنا رجُلان صالحان من الأنصار قد شهدا بدرا : أحدهما عويم بن ساعدة ، والثانى مَعْن بن عدىّ ، فقالا لنا : ارجعوا فاقضوا أمركم بينكم[٨] ؛ فأتينا الأنصار ، وهم مجتمعون فى سَقيفة

(١ـ١) عبارة الطبرى : « وإنهم الذين يغلبون مجلسك ، وإنى لخائف إن قلت اليوم مقالة ألا يعوها ولا يحفظوها ، ولا يضعوها على مواضعها ، وأن يطيروا بها كل مطير » .

(٢) الطبرى : « دار الهجرة والسنة » .   (٣) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٤) الطبرى : « فيعوا » .

(٥ـ٥) الطبرى : « فلما قدمنا المدينة وجاء يوم الجمعة هجرت للحديث الذى حدثنيه عبد الرحمن فوجدت سعيد بن زيد قد سبقنى بالتهجير ، فجلست » .

(٦ـ٦) عبارة الطبرى : « فوجدت سعيد بن زيد قد سبقنى بالتهجير ، فجلست إلى جنبه عند المنبر ، ركبتى إلى ركبته ، فلما زالت الشمس لم يلبث عمر أن خرج ، فقلت لسعيد وهو مقبل : ليقولن أمير المؤمنين اليوم على هذا المنبر مقالة لم تقل قبله ، فغضب وقال : فأى مقالة يقول لم تقل قبله ! فلما جلس عمر على المنبر أذن المؤذنون ، فلما قضى المؤذن أذانه قام عمر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال ... » .

(٧) الطبرى : « غير أن » .

(٨) بعدها فى الطبرى : « فقلنا والله لنأتينهم » .

بنى ساعدة، وبين أظهرهم رجل مُزَمَّل، فقلت : من هذا ؟ [١] قالوا : سعد بن عبادة وجِع [١].

فقام رجل منهم ، فحمد الله وأثنى عليه، فقال : أما بعدُ ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام وأنتم يامعشر قريش رَهْطُ نبيّنا ، قد دفّت إلينا دافّة من قومكم [٢] ، فإذا أنتم تريدون أن تغصبونا الأمر .

فلما سكت ، [٣] وكنت قد زوّرت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر [٣] ، فلما ذهبت أتكلم ، قال أبو بكر : عَلَى رِسْلك ! فقام فحمد الله وأثنى عليه ، فما ترك شيئا كنت زَوّرت [٤] فى نفسى إلّا جاء به أو بأحسنَ منه ، وقال : يا معشرَ الأنصار ، إنكم لا تَذْكرون فضلا إلّا وأنتم له أهل ، وإنّ العربَ لا تعرف هذا الأمر إلا لقريشٍ ، أوسطِ العرب داراً ونسبا ، وقد رَضيتُ لكم أحدَ هذيْن الرجلين — وأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح — والله ما كرِهْتُ من كلامه غيرَها ؛ إنْ كنتُ لَأُقدَّم فتضربُ عُنقى فيما لا يقرّبنى إلى إثم ؛ أحبّ إلىّ من أن أؤمّر على قوم فيهم أبو بكر .

فلما قضى أبو بكر كلامه ، قامَ رجل [٥] من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُها المحكَّك، وعُذَيقُها المرجَّب [٦] ؛ منا أمير ومنكم أمير .

(١ـ١) عبارة الطبرى « فقلت : ماشأنه ؟ قالوا : وجع » .

(٢) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد .

(٣ـ٣) الطبرى : « قال : فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر ، وقد كنت زورت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر » .

(٤) زورت فى نفسى كلاما ، أى هيأت وأصلحت ، والتزوير : إصلاح الشىء .

(٥) هو الحباب بن المنذر الخزرجى ، ذكره الزمخشرى فى الفائق ١ : ١٨١ ، وأورد كلامه .

(٦) الجذيل فى الأصل : تصغير الجذل ؛ وهو عود ينصب للإبل الجربى تستشفى بالاحتكاك به . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والعذيق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة ؛ وهى خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا كثر وطال حمله ؛ والمعنى أنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل . الفائق ١ : ١٨١ ، ١٨٢ .

وارتفعت الأصوات واللغط ، فلما خفتُ الاختلاف ، قلتُ لأبي بكر : ابسُط يدك أبايعك ، فبَسط يده فبايعتهُ وبايعه الناس ، ثم نزوْنا على سعد بن عبادة ، فقال قائلهم : قتلتم سعدا ! فقلتُ : اقتلوه قتله الله ، وإنّا والله ماوجدنا أمرا هو أقوَى من بيعة أبي بكر ، خشيت إنْ فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدِثوا بعدنا بيعة ، فإما أنْ نبايِعهم على مالا نرضى ، أو نخالفَهم فيكون فساد .

هذا حديث مُتفَق عليه من أهل السِّيَرة ، وقد وردت الروايات فيه بزيادات ؛ روى المدائنيّ قال : لما أخذ أبو بكر بيدِ عمر وأبي عبيدة وقال للناس : قد رضيت لكم أحدَ هذين الرجلين ، قال أبو عبيدة لعمر : امْدُدْ يدَك نبايعك ، فقال عمر : مالك في الإسلام فَهّةٌ [1] غيرها . أتقول هـذا وأبو بكر حاضر ! [2] ثم قال للناس : أيّكم يَطِيب نفساً أن يتقدم قدميْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة ؟ رضيَك رسول الله صلى الله عليه لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا ! ثم مدّ يدَه إلى أبي بكر فبايعه .

وهذه الرواية هي التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله تعالى في كتاب " المغنى " .

وقال الواقديّ في روايته في حكاية كلام عمر : والله لأنْ أقدّم فأنحرَ كما ينُحَر البعير ، أحبُّ إليّ من أن أتقدّم على أبي بكر .

وقال شيخُنا أبو القاسم البلخيّ : قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : إنّ الرجل الذي قال : لو قد مات عمرُ لبايعت فلانا ، عمارُ بن ياسر ، قال : لو قد مات عمر لبايعت عليًّا عليه السلام فهذا القولُ هو الذي هاج عمرَ أنْ خطب بما خطب به .

وقال غيره من أهل الحديث : إنّما كان المعزوم على بيعته لو مات عمر ، طلحة ابن عبيد الله

(١) الفهة : السقطة والجهلة ونحوها .

(٢) في رواية اللسان ـ فهه ـ : « أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين ! » .

فأما حديث الفَلْتة ، فقد كان سبق مِنْ عمر أن قال : إنّ بيعةَ أبى بكر كانت فَلْتة وقى الله شرها ؛ فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه .

وهـذا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف فيه حديث الفَلْتة ؛ ولكنه منسُوق على ماقاله أولا ، ألا تراه يقول : فلا يغرّنّ امرأً أن يقول : إن بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، فلقد كانت كذلك ، فهذا يُشعر بأنه قد كان قال مِنْ قبل : إنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتة .

وقد أكثر الناس فى حـديث الفَلْتة ؛ وذكرها شيوخنا المتكلّمون ، فقال شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : الفلتة ليست الزّلةَ والخطيئة ، بل هى البَغْتة ، وما وقع فجأة من غير رويّة ولا مشاورة ، واستشهد بقول الشاعر :

مَنْ يأمَنِ الحدَثان بَعْـدَ صُبَيْرةَ القرشىّ ماتا(١)
سَبَقَتْ مَنيّتُهُ المَشيبَ وكانَ ميتَتُه افتِلاتا

يعنى بَغتة .

وقال شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : ذكر الرّياشىّ أن العرب تسمّى آخر يوم من شوّال فَلْتَةً ، من حيث إنّ كلّ مَنْ لم يُدرك ثأره فيه فاته ؛ لأنهم كانوا إذا دخلوا فى الأشهر الحُرُم لا يطلبون الثأر ، وذو القعدة من الأشهر الحرم ، فسمّوْا ذلك اليوم فَلْتة ، لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم ، فقد أدركوا ما كان يفوتهم . فأراد عمرُ أنّ بيعة أبى بكر تدارَكها بعد أن كادت تفوت .

وقوله : « وقى الله شرّها » دليل على تصويب البَيْعة ، لأن المراد بذلك أنّ الله تعالى دفع شرّ الاختلاف فيها .

---

(١) البيان فى الكامل ١ : ٣٤٨ .

فأمّا قوله : « فن عاد إلى مثلها فاقتلوه » ؛ فالمراد مَنْ عاد إلى أن يُبايع من غير مُشاورة ولا عدد يُثبت صحة البيعة به ، ولا ضرورة داعية إلى البَيْعة ، ثم بسط يده على المسلمين يدخلهم فى البيعة قهرا ، فاقتلوه (١) .

قال قاضى القضاة رحمه الله تعالى : وهل يشكّ أحدٌ فى تعظيم عمرَ لأبى بكر وطاعته إياه ! ومعلوم ضرورةً من حالِ عمر إعظامُه له ، والقول بإمامته والرّضا بالبيعة والثناء عليه، فكيف يجوز أن يترك مايُعلم ضرورة لقولٍ محتمل ذى وجوه وتأويلات ! وكيف يجوز أن تحمَل هذه اللفظة من عمر على الذمّ والتّخطِئة وسوء القول !

واعلم أنّ هذه اللفظة من عمر مناسِبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جَبَله الله تعالى عليه من غِلَظ الطينة وجفاء الطبيعة ، ولا حيلة له فيها ؛ لأنه مجبُولٌ عليها لا يستطيع تغييرَها، ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطَى أنْ يتلطّف ، وأن يُخرجَ ألفاظه مخارج حسنة لطيفة ، فينزع به الطبع الجاسى ، والغريزة الغليظة ، إلى أمثال هذه اللفظات ، ولا يقصد بها سوءا، ولا يريد بها ذمّا ولا تخطئة ، كما قدّمنا من قبلُ فى اللفظةِ (٢) التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكاللفظات (٣) التى قالها عام الحديبية وغير ذلك ، والله تعالى لا يجازى المكلّف إلا بما نَواه ، ولقد كانت نيتُه من أطهرِ النيّات وأخلصها لله سبحانه وللمسلمين. ومَن أنصف علم أنّ هذا الكلام حقّ ، وأنّه يُغنى عن تأويل شيخنا أبى علىّ .

ونحن من بعدُ نذكر ماقاله المرتضى رحمه الله تعالى فى كتاب " الشافى " (٤) لما تكلم فى هذا الموضع ، قال : أمّا ما ادّعى من العلم الضرورىّ برضا عمر ببيعة أبى بكر وإمامته ، فالمعلوم ضرورةً بلا شبهة أنّه كان راضيا بإمامته ، وليس كلّ مَنْ رضِيَ شيئا

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٤١ . (٢) الجزء الأول ص ١٦١ .
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٦٥ .
(٤) كتاب الشافى فى الإمامة والنقض على كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار ، وقد اختصره أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ ، وطبع الكتاب والمختصر فى العجم سنة ١٣٠١ فى جزأين .

كان متديّنا به ، معتقداً لصوابه ؛ فإنّ كثيراً من الناس يرضون بأشياء من حيث كانت دافعةً لما هو أضرُّ منها ؛ وإن كانوا لا يرونها صواباً ، ولو ملكوا الاختيار لاختاروا غيرَها ، وقد علمنا أنّ معاوية كان راضياً ببيعة يزيد وولاية[1] العهد له من بعده ، ولم يكن متديّناً بذلك ومعتقداً صحته ، وإنما رضيَ عمر ببيعة أبي بكر ، من حيث كانت حاجزةً عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولو ملك الاختيارَ لكان مصير الأمر إليه[2] أسرّ في نفسه ، وأقرّ لعينه . وإن ادّعى أنّ المعلوم ضرورةً تديّنُ عمر بإمامة أبي بكر ، وأنه أولى بالإمامة منه ، فهذا مدفوع أشدّ دفع ، مع أنه قد كان يبدر من عمر[3] في وقتٍ بعد آخر ما يدلّ على ما أوردناه . روى الهيثم[4] بن عديّ من عبد الله بن عياش الهمْداني[5] عن سعيد بن جُبير ، قال : ذُكر أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر ، فقال رجل : كانا والله شمسيْ هذه الأمة ونورَيها ، فقال ابن عمر : وما يُدْرِيك ؟ قال الرجل: أو ليسَ قد ائتلفا ! قال ابن عمر : بل اختلفا لو كنتم تعلمون ! أشهدُ أنّي كنتُ عند أبي يوماً ، وقد أمرني أن أحبس الناس عنه ، فاستأذن عليه عبدُ الرحمن بن أبي بكر فقال عمر : دويبّة سوء ، ولهو خيرٌ من أبيه ، فأوحشني ذلك منه ، فقلت : يا أبت ، عبد الرحمن خير من أبيه ! فقال: ومَنْ ليس بخير من أبيه لا أمّ لك ! ائذن لعبد الرحمن ، فدخل عليه فكلّمه في الحطيئة الشاعر أنْ يرضى عنه ـ وقد كان عمر حبسه في شعر قاله ـ فقال عمر : إنّ في الحطيئة أوَداً[6] فدعْني أقوّمه بطول حبسه ، فألحّ عليه عبد الرحمن وأبَى عمر ،

---

(١) الشافي : « وولايته » . (٢) الشافي : « آثر » .

(٣) الشافي : « منه ـ أعني عمر » .

(٤) هو الهيثم بن عدي الطائي المنبجي الكوفي ؛ كان أخباريا روى عن هشام بن عروة وعبد الله بن عياش ومجالد ؛ قال ابن عدي : إنما هو صاحب أخبار . وقال ابن المديني : هو أوثق من الواقدي ولا أرضاه في شيء . وقال النسائي : متروك الحديث . وقال أبو نعيم : يوجد في حديثه المناكير . توفي سنة ٢٠٦ ـ لسان الميزان ٤ : ٢١٠ .

(٥) في الأصول والشافي : « عباس » ، تصحيف ؛ وهو عبد الله بن عياش بن عبد الله الهمداني الكوفي ؛ كان راوية للأخبار والآداب ؛ ويقع في أخباره المناكير . مات سنة ١٥٨ ، لسان الميزان ٣ : ٣٢٢

(٦) الشافي : « إن الحطيئة لبذيء » .

فخرج عبد الرحمن ،فأقبلَ علىّ أبى وقال : أفى غفلة أنت إلى يومك هذا ممّا كان من تقدّم أحيمِق بنى تيم علىّ وظلمه لى ! فقلت : لاعلمَ لى بمـا كان من ذلك ، قال : يابُنىّ فما عسيت أن تعلم ؟ فقلت : والله لَهُوَ أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم ، قال: إنّ ذلك لـكذلك على رغم أبيك وسُخْطه ، قلت : ياأبت ، أفلا تجلّى عن فعله[1] بموقفٍ فى الناس تُبيِّن ذلك لهم ؟ قال : وكيف لى بذلك مع ماذكرتَ أنّه أحبُّ إلى النـاس من ضيـاء أبصارهم ! إذن يُرْضَخ[2] رأسُ أبيك بالجندل . قال ابنُ عمر : ثم تجاسر والله فجَسر ، فما دارت الجمعة حتى قام خطيباً فى الناس ، فقال : أيّها الناس ؛ إنّ بيعةَ أبى بكر كانت فَلْتة وقى الله شرّها ، فمَنْ دعا كم إلى مثلها فاقتلوه .

وروى الهيثم بن عدىّ ، عن مجالد[3] بن سعيد ، قال : غدوت يوماً إلى الشعبىّ وأنا أريد أن أسأله عن شىء بلغنى عن ابن مسعود أنه كان يقوله ، فأتيتهُ وهو فى مسجد حَيِّـه وفى المسجد قوم ينتظرونه ، فخرج فتعرّفت إليه ، وقلت : أصلحك الله ! كان ابن مسعود يقول : ما كنت محدّثا قوما حديثا لا تبلغُه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، قال : نعم ، كان ابن مسعود يقول ذلك ، وكان ابن عباس يقوله أيضاً ـ وكان عند ابن عباس دفائنُ علم يعطيها أهلَها، ويصرِفها عن غيرهم ـ فبينا نحن كذلك إذ أقبل رجل من الأَزْد ، فجلس إلينا ، فأخذنا فى ذكر أبى بكر وعمر ، فضحك الشعبىّ وقال : لقد كان فى صدر عمر ضِبٌّ[4] على أبى بكر ، فقال الأزدىّ : والله مارأينا ولا سمعنا برجل قطّ كان أسلسَ قياداً لرجل،

---

(١) الشافى : « أفلا تحكى عن فعله » . (٢) الرضخ : كسر الرأس بالحجر .

(٣) هو مجالد بن سعيد بن عمير الهمدانى الكوفى . قال البخارى: كان يحيى بن سعيد يضعفه، وكان ابن مهدى لايروى عنه ، وكان أحمد بن حنبل لايراه شيئا . وقال ابن معين : ضعيف واهى الحديث . مات سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٩ .

(٤) الضب : الحقد والعداوة ؛ وجمعه ضباب ؛ قال الشاعر :

فَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَسُلُّ ضِغْنِى ... وَتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابِى

ولا أقولَنّ فيه بالجليل من عمر فى أبى بكر ، فأقبل علىّ الشعبىّ وقال : هذا مما سألتَ عنه، ثم أقبل على الرّجل وقال : يا أخا الأزْد، فكيف تصنع بالفَلْتَة التى وقى الله شرّها ! أترى عدوًّا يقول فى عدوّ يريد أن يهدم مابنى لنفسه فى الناس أكثر من قول عمر فى أبى بكر ! فقال الرجل : سبحان الله ! أنت تقول ذلك يا أبا عمرو ! فقال الشعبىّ : أنا أقوله، قاله عمر ابن الخطاب على رءوس الأشهاد ، فلُمْه أو دَعْ . فنهض الرجل مُغضَبا وهو يُهَمْهِم فى الكلام بشىء لم أفهمه . قال مجالد : فقلت للشعبىّ : ما أحسب هذا الرجل إلا سينقل عنك هذا الكلام إلى الناس ويَبُثُّه فيهم ! قال : إذَنْ والله لا أحفِلُ به ، وشىء لم يحفِلْ به عمر حين قام على رءوس الأشهاد من المهاجرين والأنصار أحفل به أنا ! أذيعوه أنتم عنى أيضاً مابدا لكُمْ .

وروى شريك بن عبدالله النخعىّ (١) ، عن محمد بن عمرو بن مُرّة عن أبيه، عن عبدالله ابن سلمة ، عن أبى موسى الأشعرىّ ، قال : حججتُ مع عمر ، فلما نزلنا وعُظْم الناس خرجت من رَحْلى أريده ، فلقيَنى المغيرة بن شعبة ، فرافقنى ، ثم قال : أين تريد؟ فقلت: أميرَ المؤمنين ، فهل لكَ ؟ قال : نعم ، فانطلقنا نريد رَحْل عمر، فإنّا لَفِى طريقنا إذ ذكرْنا تولّىَ عمر وقيامَه بما هو فيه ، وحياطتَه على الإسلام ، ونهوضَه بما قِبَله من ذلك ، ثم خرجنا إلى ذكر أبى بكر ، فقلت للمغيرة : يالكَ الخير ! لقد كان أبو بكر مسدَّدا فى عمر، لكأنه ينظر إلى قيامه من بعده ، وجِدِّه واجتهاده وغَنائه فى الإسلام ، فقال المغيرة : لقد كان ذلك ، وإن كان قوم كرهوا ولاية عمر ليزووها عنه، وما كان لهم فى ذلك من حظّ ، فقلت له : لا أبالكَ! ومَنِ القوم الذين كرهوا ذلك لعمر ؟ فقال للمغيرة : لله أنت ! كأنك

---

(١) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى أبو عبد الله الكوفى ؛ قال ابن معين : شريك صدوق ثقة ؛ إلا أنه إذا خالف فغيره أحب إلينا منه . وقال ابن المبارك : شريك أعلم بحديث الكوفيين من الثورى . وقال الجوزجانى : شريك سىء الحفظ مضطرب الحديث مائل . مات سنة ١٧٧ . تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٥ .

لا تعرف هذا الحيّ من قريش وما خُصّوا به من الحسد! فوالله لو كان هذا الحسدُ يُدرَك بحسابٍ لكان لقريش تسعة أعشاره وللناس كلِّهم عشر، فقلت: مه يامغيرة! فإن قريشا بانتْ بفضلها على الناس. فلم نزل في مثل ذلك حتى انتهينا إلى رَحْل عمر فلم نجده، فسألنا عنه فقيل: قد خرج آنفا، فمضينا نقفو أثره حتى دخلْنا المسجد، فإذا عمر يطوف بالبيت. فطفْنا معه، فلما فرغ دخل بيني وبين المغيرة، فتوكأ على المغيرة وقال: مِنْ أينَ جئتما؟ فقلنا: خرجنا نريدك يا أميرَ المؤمنين، فأتينا رَحْلك فقيل لنا: خرج إلى المسجد، فاتّبعناك. فقال: اتبعَكما الخير، ثم نظر المغيرةُ إليّ وتبسم، فرمقَه عمر، فقال: مم تبسَّمْتَ أيها العبد! فقال: مِنْ حديث كنت أنا وأبو موسى فيه آنفا في طريقنا إليك، قال: وما ذاك الحديث؟ فقصَصْنا عليه الخبر حتى بلغنا ذِكْر حَسَد قريش، وذكر مَنْ أراد صرف أبي بكر عن استخلاف عمر، فتنفس الصُّعَداء ثم قال: ثكلتك أمك يامغيرة! وماتسعة أعشار الحسد! بل وتسعةأعشار العشر، وفي النّاس كلِّهم عشر العشر، بل وقريش شركاؤهم أيضا فيه! وسكت مليًّا وهو يتهادى بيننا، ثم قال: ألا أخبركما بأحسد قريش كلها؟ قلنا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: وعليكما ثيابكما؟ قلنا: نعم، قال: وكيف بذلك وأنتما ملبَسان ثيابكما! قلنا يا أمير المؤمنين، وما بالُ الثياب! قال: خوف الإذاعة منها، قلنا له: أتخاف الإذاعة من الثياب أنت، وأنت من ملبِس الثياب أخوف! وما الثياب أردت! قال: هو ذاك، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رَحْله، فخلّى أيدينا من يده، ثم قال: لا تَرِيما، ودخل، فقلت للمغيرة: لا أبالك! لقد عثرنا[1] بكلامنا معه، وما كنّا فيه، وما نراه حبَسنا إلا ليذاكرنا إياها، قال: فإنا لكذلك إذ أخرج إذْنَه إلينا، فقال: ادخلا، فدخلنا فوجدناه مستلقيا على بَرْذَعة بِرَحْل، فلما رآنا تمثل بقول كعب بن زهير:

لَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ ذِي ثِقَةٍ ... أَوْلَى وأفضل ما اسْتَوْدَعْتَ أَسْرَارا[2]

---

(١) كذا في الشافي وهو الصواب، وفي الأصول: «أثرنا».

(٢) ملحق ديوانه ٢٥٧، وغرر الخصائص ١٨١.

صدراً رحيباً وقلباً واسعاً قمِناً ألاّ تخافَ متى أودعتَ إظهارا

فعلمنا أنه يريد أن نضمن له كتمانَ حديثه، فقلت أنا له : يا أميرَ المؤمنين، الزمْنا وخُصّنا وصِلْنا، قال : بماذا يا أخا الأشعرين[1]؟ فقلت: بإفشاء سرّك وأن تشركنا في همّك فنعم المستشاران نحنُ لك ! قال : إنّكما كذلك، فاسألا عمّا بدا لكما، ثم قام إلى الباب ليُغلقه، فإذا الآذن الذي أذن لنا عليه في الحجرة، فقال : امضِ عنّا لا أمّ لك ! فخرج وأغلق الباب خلْفه، ثم أقبل علينا، فجلس معنا، وقال : سَلَا تُخبَرا، قلنا : نريد أن يخبرنا أمير المؤمنين بأحسدِ قريش، الذي لم يأمن ثيابنا على ذكره لنا، فقال : سألتُماعن مُعضِلة ؛ وسأخبركما فليكن عندكما في ذِمّةٍ منيعة وحرزٍ ما بقيت ؛ فإذا متّ فشأنَكما وماشئتما من إظهار أو كتمان . قلنا : فإنّ لك عندنا ذلك . قال أبو موسى : وأنا أقول في نفسي: ما يريد إلا الذين كرهوا استخلاف أبي بكر له كطلحة وغيره، فإنهم قالوا لأبي بكر : أتستخلف علينا فظّاً غليظاً ! وإذا هو يذهبُ إلى غير ما في نفسي، فعاد إلى التنفّس، ثم قال : مَنْ تريانه ؟ قلنا : والله ما ندري إلا ظنّاً ! قال : ومَنْ تظنّان ؟ قلنا : عساك تريد القوم الذين أرادوا أبا بكر على صرْفِ هذا الأمر عنك ؛ قال : كلّا والله ! بل كان أبو بكر أعقّ، وهو الذي سألتماعنه، كان والله أحسدَ قريشٍ كلّها . ثم أطرق طويلا، فنظر المغيرة إليّ ونظرتُ إليه، وأطرقنا مليّاً لإطراقه، وطال السكوت منّا ومنه، حتى ظننا أنه قد ندِم على ما بدا منه . ثم قال: والهفاه على ضئيل بني تيم بن مرة ! لقد تقدّمني ظالما، وخرج إليّ منها آثما، فقال المغيرة : أمّا تقدّمه عليك يا أميرَ المؤمنين ظالماً فقد عرفناه، كيف خرج إليك منها آثما ؟ قال : ذاك لأنه لم يخرج إليّ منها إلا بعد يأس منها، أما والله لو كنت أطعتُ يزيد بن الخطاب وأصحابَه لم يتلمّظ من حلاوتها بشيء أبدا، ولكني قدّمت وأخّرت، وصعّدت وصوّبت، ونقضتُ وأبرمت، فلم أجد إلّا الإغضاء على ما نشب به منها، والتلهّف على نفسي، وأمّلت إنابته ورجوعَه، فوالله ما فعل حتى نغَر[2] بها بَشَماً .

---

(١) في اللسان : «تقول العرب : جاء بك الأشعرون، بحذف ياء النسب» . (٢) نغر ؛ أي امتلأ .

قال المغيرة : فما منعك منها يا أمير المؤمنين ، وقد عرّضك لها يوم السقيفة بدعائك إليها ! ثم أنت الآن تنقِم وتتأسّف . قال : ثكِلَتْك أمّك يامغيرة ! إنى كنت لأعدُّك[1] من دُهاة العرب، كأنك كنت غائبا عمّا هناك ! إنّ الرجل ما كَرنى فما كرته ، وألفانى أحْذَرَ من قطاة ؛ إنه لما رأى شَغَف الناس به ، وإقبالَهم بوجوههم عليه ، أيقن أنهم لا يريدون به بدلا ، فأحبّ لمّا رأى من حرص الناس عليه ، وميلهم إليه أن يعلم ما عندى ، وهل تنازعنى نفسى إليها ؟ وأحبّ أن يبلوَنى بإطماعى فيها ، والتعريض لى بها ، وقد علم وعلمتُ لو قبلتُ ماعرضه علىّ ، لم يجب الناس إلى ذلك ، فألفانى قائما على أخمَصى مستوفزا حذِرا ، ولو أجبتُه إلى قبولها لم يسلّم الناس إلىّ ذلك، واختبأها ضِغنا علىّ فى قلبِهِ ، ولم آمن غائلته ولو بعد حين ؛ مع ما بدا لى من كراهة الناس لى ؛ أما سمعت نداءهم من كلّ ناحية عند عرْضها علىّ : لا نريد سواك يا أبا بكر، أنت لها ! فرددتُها إليه عند ذلك ؛ فلقد رأيته التمع وجههُ لذلك سرورا . ولقد عاتبنى مرّة على كلام بلغَه عنّى، وذلك لما قُدِم عليه بالأشعث أسيرا ، فمنّ عليه وأطلقه ، وزوّجه أخته أم فَرْوة ، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه : ياعدوّ الله ، أكفرت بعد إسلامك ، وارتددت ناكصا على عَقِبيك ! فنظر إلىّ نظرا علمت أنه يريد أن يكلّمنى بكلام فى نفسه ، ثم لقِيَنى بعد ذلك فى سِكَك المدينة ، فقال لى : أنت صاحبُ الكلام يابن الخطاب ؟ فقلت : نعم ياعدوّ الله ؛ ولك عندى شرّ من ذلك ، فقال : بئس الجزاء هذا لى منك ! قلت : وعلام تريد منّى حُسْن الجزاء ؟ قال : لأنفَتى لك من اتّباع هذا الرجل ، والله ماجرّأنى على الخلاف عليه إلا تقدّمه عليك ، وتخلّفك عنها ، ولو كنتَ صاحبَها لما رأيتَ منى خلافا عليكَ . قلت : لقدكان ذلك ، فما تأمر الآن ؟ قال : إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر ، ومضى ومضيت . ولقى الأشعث الزِّبْرقان بن بدر فذكر له ماجرى بينى وبينه، فنقل ذلك إلى أبى بكر؛ فأرسل إلىّ بعتاب مؤلم، فأرسلت إليه: أما والله

(١) ب : « أعدك » .

لتَسكُفنّ أو لأقولنّ كلمة بالغة بي وبك في الناس، تحملها الركبان حيث ساروا، وإن شئت استدمنا مانحن فيه عفوا، فقال: بل نستديمه، وإنها لصائرة إليك بعد أيام، فظننت أنه لا يأتي عليه جمعة حتى يردّها عليّ، فتغافل، والله ماذا كرني بعد ذلك حرفا حتى هلك.

ولقد مَدّ في أمدها عاضًا على نواجذه حتى حضره الموت، وأيس منها فكان منه ما رأيتما، فاكتما ماقلت لكما عن الناس كافة وعن بني هاشم خاصة، وليَكن منكما بحيث أمرتكما. قوما إذا شئتما على بركة الله. فقمنا ونحن نعجب من قوله، فوالله ماأفشينا سرّه حتى هلك[1].

قال المرتضى: وليس في طعن عمرَ على أبي بكر مايؤدّي إلى فساد خلافته، إذْ له أن يُثبِت إمامةَ نفسه بالإجماع، لا بنصّ أبي بكر عليه. وأما الفلتة فإنها وإن كانت محتملةً للبغتة كما قاله أبو عليّ رحمه الله تعالى؛ إلا أن قوله: «وقى الله شرّها» يخصصها بأنّ مخرَجها مخرج الذمّ. وكذلك قوله: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»، وقوله: المراد وقى الله شرّ الاختلاف فيها، عدولٌ عن الظاهر؛ لأنّ الشرّ في الكلام مضاف إليها دون غيرها. وأبعدُ من هذا التأويل قوله: إن المراد مَنْ عاد إلى مثلها من غير ضرورة وأكْرَهَ المسلمين عليها فاقتلوه؛ لأن ما جرى هذا المجرى لايكون مِثلاً لبيعة أبي بكر عندهم؛ لأنّ كلّ ذلك ماجرى فيها على مذاهبهم؛ وقد كان يجب على هذا أن يقول: فمن عاد إلى خلافها فاقتلوه.

وليس له أن يقول: إنما أراد بالمِثل وَجْهاً واحدا، وهو وقوعها من غير مشاورة، لأنّ ذلك إنما تمّ في أبي بكر خاصة بظهور أمره واشتهار فضله. ولأنّهم بادروا إلى العَقْد خوفا من الفتنة؛ وذلك لأنه غير منكر أن يتفق من ظهور فضل غير أبي بكر واشتهار أمره وخوف الفتنة ما اتفق لأبي بكر، فلا يستحقّ قتلا ولا ذمًّا؛ على أنّ قوله: «مِثلها» يقتضي وقوعَها على الوجه الذي وقعت عليه، فكيف يكون ماوقع من غير مشاورة لضرورة داعية وأسباب موجبة مِثلا لما وقع بلا مشاورة، ومن غير ضرورة ولا أسباب! والذي رواه عن أهل اللغة

(١) كتاب الشافي ٢٤١ — ٢٤٤

من أنّ آخر يوم من شوال يسمّى فَلْتة من حيث إنّ من لم يدرك فيه الثأر فإنه قول لا نعرفه ؛ والذى نعرفه أنّهم يسمون الليلة التى ينقضى بهـا آخرُ الأشهر الحُرُم ويتم فلتة ، وهى آخر ليلة من ليالى الشهر ، لأنه ربما رأى الهلالَ قوم لتسع وعشرين ولم يبصره الباقون ، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غارّون(١) ، فلهذا سُمّيت تلك الليلة فَلْتة ؛ على أنّا قد بيّنا أنّ مجموعَ الـكلام يقتضى ما ذكرناه من المعنى ، لو سُلِّم له ما رواه عن أهل اللغة فى احتمال هذه اللفظة .

قال : وقد ذكر صاحب كتاب " العين " أنّ الفلْتة الأمرُ الذى يقع على غير إحـكام ، فقد صحّ أنّها موضوعة فى اللغة لهذا ، وإن جاز ألّا تختصّ به ، بل تـكون لفظة مشتركة .

وبعد ، فلو كان عمر لم يُرِدْ بقوله توهينَ بيعة أبى بكر ؛ بل أراد ما ظنه المخالفون ، لـكان ذلك عائدا عليه بالنقص ؛ لأنّه وضع كلامه فى غير موضعه ، وأراد شيئاً فعبّر عن خلافه ، فليس يَخرج هذا الخبر من أن يكون طعنا على أبى بكر ؛ إلّا بأن يـكون طعنا على عمر(٢) .

* * *

واعلم أنّه لايبعد أن يقال : إنّ الرضا والسخط ، والحبّ والبغْض ، وماشا كل ذلك ، من الأخلاق النفسانية وإن كانت أموراً باطنة ، فإنها قد تُعْلَم ويضطر الحاضرون إلى علمها بقرائنِ أحوال تفيدهم العلم الضرورىّ ؛ كما يُعْلَم خوف الخائف وسرور المبتهج. وقد يكون الإنسان عاشقاً لآخر فيعلم المخالطون لهما ضرورةَ أنه يَعْشَقُه ، لما يشاهدونه من قرائن الأحوال ، وكذلك يُعلم من قرائن أحوال العابدالمجتهد فى العبادة ، وصوم الهواجر وملازمة الأوراد وسهر الليل ، أنه يتدين بذلك . فغيرُ منـكر أن يقول قاضى القضاة رحمه الله

(١) غارّون : غافلون .

(٢) كتاب الشافى ٢٤٤ مع اختصار وتصرف .

تعالى : إنّ المعلوم ضرورةً من حالِ عمر تعظيم أبى بكر ورضاه بخلافته وتدينه بذلك ، فالذى اعترضه رحمه الله تعالى به غيرُ وارد عليه .

وأما الأخبار التى رواها عن عمر فأخبار غريبة ؛ ما رأيناها فى الكتب المدوّنة ، وما وقفنا عليها إلا من كتاب المرتضى ، وكتاب آخر يعرف بكتاب " المسترشد "[1] لمحمد بن جرير الطبرىّ – وليس هو محمد بن جرير صاحب " التاريخ " ، بل هو من رجال الشيعة – وأظنّ أنّ أمه من بنى جرير من مدينة آمُل طَبَرِستان ، وبنو جرير الآمليّون شيعة مستهترون بالتشيّع ، فنسِب إلى أخواله ، ويدلّ على ذلك شعر مرويٌّ له وهو :

بآمُلَ مولِدِى وبنو جَرِيرٍ ... فأخوالى،ويحْكى المرءُ خالَهْ[2]
فَمَنْ يكُ رافضيًّا عن أبيهِ ... فإنى رافضىّ عن كَلَالَهْ

وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التى لا توجد فى الكتب المدونة كيف هى ؟

فأما إنكارُه ما ذكره شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى من أنّ الفلْتة هى آخر يوم من شوال ، وقوله : إنّا لا نعرفه ؛ فليس الأمر كذلك بل هو تفسير صحيح ، ذكره الجوهرىّ فى كتاب " الصحاح " قال : الفلتة آخر ليلة من كل شهر ، ويقال : هى آخر يوم من الشهر الذى بعده الشهر الحرام[3] . وهذا يدل على أن آخر يوم من شوال يسمى فَلْتة ، وكذلك آخر يوم من جمادى الآخرة ؛ وإنّما التفسيرُ الذى ذكره المرتضى غيرُ معروف عند أهل اللغة .

وأما ماذكره من إفساد حَمْلِ الفلتة فى الخبرِ على هذه الوجوه المتأوّلة فجيّد ، إلا أنّ الإنصاف أنّ عمرَ لم يخرِج الكلام مخرج الذمّ لأمر أبى بكر ؛ وإنما أراد باللفظة محض حقيقتها فى اللغة ، ذكر صاحب " الصحاح " أنّ الفلْتةَ الأمر الذى يُعمل فجأة من

(١) كتاب المسترشد فى الإمامة ، طبع فى النجف وفى الأصول : «المستبشر» وهو خطأ ، راجع النجاشى ٢٦٦
(٢) نسبهما ياقوت فى معجم البلدان (١ : ٦٣) إلى أبى بكر الخوارزمى ، وظن أنه قالهما فى خاله الطبرى المؤرخ ؛ وحققه محمد باقر ، وذكر أن الأمر اشتبه على ياقوت . وانظر روضات الجنات ٦٧٣
(٣) الصحاح ١ : ٣٦٠

غير تردد ولا تدبّر ؛ وهكذا كانت بيعة أبى بكر ؛ لأنّ الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين ، وإنما وقعت بغتة لم تمحّصْ فيها الآراء ، ولم يَتناظر فيها الرجال ، وكانت كالشيء المستلَب المنتَهب ، وكان عمر يخاف أن يموت عن غير وصيّة ، أو يُقتل قتلا فيبايعَ أحد من المسلمين بغتة كبيعة أبى بكر ، فخطب بما خطب به ، وقال معتذراً : ألا إنه ليس فيكم مَنْ تُقطع إليه الأعناق كأبى بكر !

وأيضا قول المرتضى : قد يتفق[1] من ظهورِ فضـل غير أبى بكر وخوف الفتنة مثل ما اتفق لأبى بكر ، فلا يستحق القتل ، فإنّ لقائل أن يقول : إنّ عمر لم يخاطب بهذا إلا أهلَ عصره ، وكان هو رحمه الله يذهبُ إلى أنه ليس فيهم كأبى بكر ، ولا من يُحتمل له أن يبايِـع فَلْتة كما احتمِل ذلك لأبى بكر ؛ فإن اتفق أن يكون فى عصرٍ آخر بعد عصره مَنْ يظهر فضله ، ويكون فى زمانه كأبى بكر فى زمانه فهو غيرُ داخل فى نهى عمر وتحريمه .

واعلم أن الشيعة لم تسلِّم لعمر أن بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، قال محمد بن هانئ المغربيّ :

وَلَـكِنّ أمراً كان أُبرِمَ بينهمْ ... وإن قال قوم فَلْتَةٌ غيرُ مُبْرَمِ[2]

وقال آخر :

زعموها فَلْتَةً فاجِئـــةً ... لا وَرَبِّ البيت والرُّكْن المشيدِ

إنمـــا كانتْ أمورا نُسِجَتْ ... بينهم أسبابُهـــا نَسْجَ البُرود

***

وروى أبو جعفر أيضا فى[3] التاريخ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض اجتمعت الأنصار فى سَقِيفة بنى ساعدة ، وأخرجوا سعد بن عبادة ، ليولّوه الخلافة ، وكان

(١) ب : « سبق » ، تحريف صوابه من ج والشاق .	(٢) ديوانه ٦٨٩ (طبع المعارف) .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٨ وما بعدها مع اختصار وتصرف .

مريضا ، فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه ، ثم ترادّوا الكلام فقالوا: فإنْ أبَى المهاجرون ، وقالوا : نحن أولياؤه وعِتْرته ؟ فقال قوم من الأنصار : نقولُ : مِنّا أمير ومنكم أمير ، فقال سعد: فهذا أول الوَهَن ! وسمِع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أبو بكر ، فأرسل إليه أن اخرج إلىّ ، فأرسل: إنى مشغول، فأرسل إليه عمر أن اخرج ، فقد حدث أمر لا بدّ أن تحضُرَه ، فخرج فأعلمه الخبر ، فمضيا مسرعيْن نحوهم ومعهما أبو عُبيدة ، فتكلّم أبو بكر ، فذكر قُرْبَ المهاجرين من رسول الله صلى الله عليه وأنهم أولياؤه وعِتْرته ، ثم قال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نفتاتُ عليكم بمشورة، ولا نقضى دونكم الأمور .

فقام الُحباب بن المنذر بن الجموح فقال :

يامعشرَ الأنصار املِكوا عليكم أمرَكم ؛ فإنّ الناس فى ظلّكم ، ولن يجترئ مجترئٌ على خِلافكم ، ولا يَصدُرُ أحد إلا عن رأيكم . أنتم أهل العِزّة والمَنعة ، وأولو العَدَد والكثرة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس ماتصنعون ، فلا تختلِفوا فتفسد عليكم أمورُكم ، فإن أبى هؤلاء إلا ماسمعتم ؛ فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سَيْفانِ فى غِمْد ، والله لا ترضى العرب أن تؤمِّرَكم ونبيُّها من غيركم ، ولا تمتنع(١) العربُ أن تولّىَ أمرَها مَنْ كانت النبوّة منهم ؛ مَنْ ينازعنا سلطان محمد ، ونحن أولياؤه وعشيرته !

فقال الُحبَاب بن المنذر :

يامعشرَ الأنصار ، املِكوا أيدِيَكم ، ولا تسمعوا مقالةَ هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوْا عليكم فأجلوهم من هذه البلاد ، فأنتم أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدّين ؛ أنا جُذَيْلُها المحكّك ، وعُذَيْقُها المرجّب ،

---

(١) كذا فى ج و تاريخ الطبرى ، وفى ا ، ب : « تمنع » .

أنا أبو شِبْل فى عرِّيسة الأسد ؛ والله إن شئتم لنُعيدنَّها جَذَعة .

فقال عمر : إذن يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشرَ الأنصار ؛ إنكم أولُ مَنْ نصر وآزر ، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر .

فقام بشير بن سعد ، والد النعمان بن بشير فقال : يامعشرَ الأنصار ؛ ألا إنّ محمدا من قريش ، وقومُه أوْلى به ، وايمُ الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر .

فقال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيَّهما شئتم ، فقالا : والله لا نتولّى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه فى الصلاة — وهى أفضلُ الدين — ابسط يدك . فلمّا بسط يدَه ليبايعاه سبَقَهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحُباب بن المنذر : يابَشير ، عَقِقْتَ[١] عقاقِ ! أنفِسْتَ على ابن عمّك الإمارة[٢] !

فقال أسيد بن حُضَير[٣] رئيس الأوس لأصحابه : والله لئنْ لم تبايعوا ليكوننّ للخزرج عليكم الفضيلةُ أبداً . فقاموا فبايعوا أبا بكر .

فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه ، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر مِنْ كلِّ جانب ، ثم حُمِل سعد بن عبادة إلى داره ، فبقى أياما ، وأرسل إليه أبو بكر ليبايع ، فقال : لا والله حتى أرمِيَكم بما فى كنانتى ، وأخضبَ سِنان رمحى ، وأضربَ بسيفى ما أطاعنى ، وأقاتلَكم بأهل بيتى ومن تبعنى ، ولو اجتمع معكم الجنّ والإنسُ ما بايعتكم حتى أعرَض على ربّى .

فقال عمر : لا تدعْه حتى يبايع ، فقال بشير بن سعد : إنه قد لجّ ، وليس بمبايع لكم

---

(١) عقاق : مبنية على الكسر ، مثل حذام وفى الطبرى « عققت عقاق » .

(٢) بعدها كما فى التاريخ : « فقال : لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقا جعله الله لهم » .

(٣) فى الطبرى : « ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش ؛ وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ؛ فقال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير . . . » ثم ذكر كلام أسيد .

حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يُقتلَ معه أهله وطائفة من عشيرته ، ولا يضرّكم تركه ؛ إنما هو رجل واحد ، فتركوه .

وجاءت أسلم فبايعت ، فقويَ بهم جانب أبي بكر ، وبايعه الناس .

* * *

وفى كتب غريب الحديث فى تتمة كلام عمر : فأيما رجل بايع رجلا بغير مشورة من الناس فلا يؤمّر واحد منهما تَغِرّةً أن يقتلا[1] .

قالوا : غرّر تغريرا و تَغِرّة . كما قالوا : حلّل تحليلا وتَحِلّة ، وعلّل تعليلا و تَعِلّة ، وانتصب « تغرّةً » هاهنا لأنه مفعول له ؛ ومعنى الكلام أنه إذا بايع واحد لآخر بغتةً عن غير شورى ، فلا يؤمّر واحد منهما ، لأنهما قد غررا بأنفسهما تَغِرّةً ، وعرّضاها لأن تُقتلا .

* * *

وروى جميع أصحاب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما توفّيَ كان أبو بكر فى منزله[2] بالسُّنْح ، فقام عمر بن الخطاب فقال : مامات رسول الله صلى الله عليه ، ولا يموت حتى يظهر دينهُ على الدّين كله ، وليرجِعَنّ ، فليُقطّعنّ أيدىَ رجال وأرجلهم ممن أرْجَف بموته ، لا أسمع رجلا يقول : مات رسول الله إلا ضربته بسيفى . فجاء أبو بكر وكشَفَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : بأبى وأمى ! طِبْتَ حيًّا وَمَيتاً ، والله لا يذيقك اللهُ الموتتين أبدا ، ثم خرج والناس حول عمر ، وهو يقول لهم : إنه لم يمت ، ويحلف ، فقال له : أيها الحالف ، على رِسْلك ! ثم قال : مَنْ كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[3] ، وقال : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[4] ، قال عمر : فوالله

(١) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٥٦

(٢) السنح ؛ بالضم ثم السكون : إحدى محال المدينة ؛ كان بها منزل أبى بكر ؛ وهى منازل بنى الحارث ابن الخزرج بعوالى المدينة .

(٣) سورة الزمر ٣٠ (٤) سورة آل عمران ١٤٤

ماملـكتُ نفسي حيث سمعتُها أن سقطتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أنّ رسول الله صلى الله عليه قد مات .

وقد تكلّمت الشيعة في هذا الموضع ، وقالوا : إنه بلغ من قلة علمه أنه لم يعلم أن الموتَ يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه أسوة الأنبياء في ذلك ؛ وقال : لما تلا أبو بكر الآيات ، أيقنتُ الآن بوفاته . كأنّي[1] لم أسمع هذه الآية ، فلو كان يحفظ القرآن أو يتفكر فيه ، ماقال ذلك ، ومَنْ هذه حاله لا يجوز أن يكون إماما .

وأجاب قاضي القضاة رحمه الله تعالى في "المغني" عن هذا فقال : إنّ عمر لم يمنع من جواز موته عليه السلام ، ولا نَفَى كونه ممكنا ، ولكنه تأوّل في ذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2]، وقال: كيف يموت ولم يظهر صلوات الله عليه على الدين كلّه ! فقال أبو بكر : إذا ظهر دينُه فقد ظهر هو ، وسيظهر دينُه بعد وفاته .

فحمل عمر قوله تعالى : ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ على تأخّر الموت ، لا على نفيه بالكلية ،قال: ولا يجب فيمن ذَهل عن بعض أحكام القرآن ألّا يحفظَ القرآن ، لأن الأمر لو كان كذلك لوجب ألّا يحفظَ القرآن إلا من عرف جميع أحكامه ؛ على أنّ حفظَ جميع القرآن غير واجب ، ولا يقدح الإخلال به في الفضل[3] .

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب "الشافي" هذا الكلام، فقال: لا يخلو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال والاعتقاد أنّ[4] الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه ، أو يكون منكِرا لموته في

---

(١) الشافي : « وكأني » .
(٢) سورة التوبة ٣٣ .
(٣) نقله المرتضى في الشافي ٢٥٢ ص مع اختلاف في الروايتين .
(٤) ب : « لأن » ، والأصوب ما أثبته من ا .

تلك الحال من حيث لم يظهر على الدين كلّه، فإن كان الأوّل فهو مما لا يجوز خلاف عاقل فيه، والعلم بجواز الموت على جميع البشر ضروريّ . وليس يحتاج فى حصول هذا العلم إلى تلاوة الآيات التى تلاها أبو بكر . وإنْ كان الثانى ، فأوّل ما فيه أنّ هذا الاختلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر عليه من قوله : ﴿ إنّكَ مَيّتٌ ﴾ ، لأن عمر لم ينكر على هذا الوجه جوازَ الموت عليه وصحتَه، وإنما خالف فى وقته . فكان يجب أن يقول لأبى بكر : وأىّ حجة فى هذه الآيات علىّ ! فإنى لم أمنع جوازَ موته ، وإنما منعتُ وقوع موته الآن ، وجوزته فى المستقبل ، والآيات إنما تدل على جواز الموت فَقَطْ ، لا على تخصيصه بحال معينة.

وبعد ، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عُمر من بين سائر الخلق ! ومن أين زعم أنه سيعود فيقطع أيدىَ رجال وأرجلَهم ! وكيف لم يحصل له من اليقين لمّا رأى من الواعية[1] وكآبة الخلق وإغلاق الباب وصُراخ النساء ما يدفع به ذلك الوهْم والشبهة البعيدة، فلم يحتج إلى موقِّف !

وبعد ، فيجب إن كانت هذه شبهته أن يقول فى مرض النبى صلى الله عليه وآله — وقد رأى جزَع أهلِه وخوفهم عليه الموت، وقولَ أسامة صاحب الجيش — : لم أكنْ لأرحَل وأنت هكذا وأسأل عنك الركْب، ياهؤلاء لا تخافوا ولا تجزعوا، ولا تخفْ أنت يا أسامة، فإنّ رسول الله صلى الله عليه لا يموت الآن لأنّه لم يَظْهر على الدين كلّه .

وبعد ، فليس هذا من أحكام الكتاب التى يُعْذَر من لا يعرفها على ما ظنّ المعتذِر له[2] .

***

ونحن نقول : إنّ عمر كان أجلّ قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه فى هذه الواقعة ؛

---

(١) الواعية : الصراخ على الميت . (٢) الشافى ٢٥٢ مع اختصار وتصرف

ولكنه لما علم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، خاف من وقوع فتنة فى الإمامة، وتقلّب أقوام عليها ، إمّا من الأنصار أو غيرهم، وخاف أيضا من حدوث رِدّة ، ورجوع عن الإسلام ، فإنّه كان ضعيفاً بعد لم يتمكّن ، وخاف من تِراتٍ تُشَنّ ، ودماء تراق ، فإنّ أكثرَ العرب كان موتورا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لِقَتل مَنْ قَتَل أصحابُه منهم، وفى مثل ذلك الحال تنتهز الفرصة ، وتُهْتَبَلُ الغِرّة ، فاقتضت المصلحة عنده تسكينَ الناس بأنْ أظهر ما أظهره من كون رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمت ، وأوقع تلك الشبهةَ فى قلوبهم ، فكسر بها شِرّةَ كثير منهم، وظنوها حقًّا ، فثناهم بذلك عن حادث يُحدثونه ، تخيّلا منهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مامات؛ وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه ، وهكذا كان عمر يقول لهم : إنه قد غاب عنكم كما غاب موسى عن قومه ، وليعودَنّ فليقطَّعنّ أيدىَ قوم أرجفوا بموته .

ومثلُ هذا الكلام يقع فى الوهم ، فيصدّ عن كثير من العزم؛ ألا ترى أنّ الملِك إذا مات فى مدينة وقع فيها فى أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكلّ مَنْ فى نفسه حِقْد على آخر بلَغ منه غرضه ، إمّا بقتلٍ أو جرح أو نهب مال ؛ إلى أن تتمهّد قاعدةُ للمِلك الذى يَلِى بعده ؛ فإذا كان فى المدينة وزير حازم الرأى ، كتم موت الملك ، وسجن قوما ممن أرجف نداء بموته، وأقام فيهم السياسة ، وأشاع أن المِلك حىّ، وأنّ أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلزم ذلك الناموس إلى أن يمهّد قاعدة الملك للوالى بعده ؛ وكذلك عمر أظهر ما أظهر حِراسة للدين والدولة ، إلى أن جاء أبو بكر ـ وكان غائبا بالسُّنح، وهو منزل بعيدعن المدينة ـ فلما اجتمع بأبى بكر قوِىَ به جأشُه ، واشتدّ به أزره ، وعَظُم طاعة الناس له وميلهم إليه ، فسكت حينئذٍ عن تلك الدعوى التى كان ادّعاها ، لأنه قد أمِنَ بحضور أبى بكر من خَطْبٍ يحدث ، أو فساد يتجدّد ؛ وكان أبو بكر محبّبا إلى الناس ؛ لا سيّما المهاجرين .

ويجوز عند الشيعة وعند أصحابنا أيضا أن يقول الإنسان كلاما ظاهر الكذب على جهة المعاريض؛ فلا وَصْمَةَ على عمر إذا كان حَلَفَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لم يمُتْ، ولا وَصْمَةَ عليه فى قوله بعد حضور أبى بكر وتلاوة ماتلا : كأنى لم أسمعها ، أو قد تيقنت الآن وفاته صلى الله عليه، لأنه أراد بهذا القول الأخير تشييدَ القول الأول، وكان هو الصواب، وكان من سيِّئ الرأى وقبيحه أن يقولَ : إنّما قلتهُ تسكينا لكم ، ولم أقله عن اعتقاد، فالذى بَدَأ به حَسن وصواب ، والذى ختم به أحسن وأصوب .

***

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " عن عمر بن شبّة، عن محمد بن منصور، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال : كان النبى صلى الله عليه وآله قد بعثَ أبا سفيان ساعيا (١)، فرجع من سِعايته وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلقيَه قوم فسألهم ، فقالوا : مات رسول الله صلى الله عليه ، فقال : مَنْ ولىَ بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قال : أبو فَصِيل ! قالوا : نعم ، قال : فما فعل المستضعفان : علىّ والعباس ! أما والذى نفسى بيده لأرفعنّ لهما من أعضادهما .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وذكر الراوى — وهو جعفر بن سليمان — أنّ أبا سفيانَ قال شيئا آخر لم تحفظه الرواة ؛ فلما قدم المدينة قال : إنّى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ! قال : فكلّم عمرُ أبا بكر ، فقال : إنّ أبا سُفيان قد قَدِم ، وإنا لا نأمن شرّه ، فدَعْ له ماق يده ، فتركه فرضىَ .

وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لما بويع عثمان : كان هذا الأمر فى تَيْم، وأنّى لتَيْم هذا الأمر ! ثم صار إلى عدىّ فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قراره ، فتلقفوها تلقّفَ الكرة .

---

(١) السعاية : مباشرة أعمال الصدقات .

قال أحمد بن عبد العزيز : وحدّثني المغيرة بن محمد المهلّبيّ قال : ذاكرت إسماعيل ابن إسحاق القاضي بهــذا الحديث ، وأنّ أبا سفيان قال لعثمان : بأبي أنت ! أنفق ولا تــكنْ كأبي حجر ، وتداولوها يابني أمية تداول الولدانِ الـكُرة ، فوالله مامن جنّة ولا نار – وكان الزّبير حاضرا ، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزُب ، فقال : يا بنيّ أهاهنا أحد! قال الزبير: نعم والله لا كتمتُها عليك – قال : فقال إسماعيل: هذا باطل. قلت: وكيف ذلك؟ قال : ما أنـكِر هذا من أبي سفيان، ولـكن أنـكِر أن يكون سَمِعه عثمان، ولم يضرب عنقه.

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : جاء أبو سفيان إلى عليّ عليــه السلام ، فقال : وليتم على هذا الأمر أذلّ بيت في قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبي فصيل خيلا ورجلا ، فقال عليّ عليه السلام : طالما غششتَ الإسلام وأهلَه فمــا ضررتَهُم شيئا ! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك ، لولا أنّا رأينا أبا بكر لها أهلا ، لما تركناه .

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : لما بويع لأبي بكر كان الزبير والمقداد يختلفان في جماعة من الناس إلى عليّ وهو في بيت فاطمة، فيتشاورون ويتراجعون أمورهم، فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السلام ، وقال: يابنتَ رسول الله، مامن أحد من الخلق أحبّ إلينا من أبيك ، ومامن أحد أحبّ إلينا منك بعــد أبيك ، وايمُ الله ماذاك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النّفر عندك أنْ آمرَ بتحريق البيت عليهم . فلــا خرج عمر جاءوها ، فقالت : تعلَمون أنّ عمر جاءني ، وحلف لي بالله إن عُدتم لَيحرقنّ عليـكم البيت، وايمُ الله ليمضينّ لما حَلَف له ، فانصرفوا عنا راشدين . فلم يرجعوا إلى بيتها ، وذهبوا فبايعوا لأبي بكر .

***

وروى أحمد – وروى المبرّد في " الـكامل " صدر هذا الخبر[1] – عن عبدالرحمن

(١) والخبر أيضاً في تاريخ الطبري : (٣ : ٢٣٤) وما بعدها .

ابن عوف ، قال : دخلتُ على أبي بكر أعودُه في مرضه الذي مات فيه ، فسلّمت ، وسألته: كيف به ؟ فاستوى جالسا ، فقلت : لقد أصبحتَ بحمد الله بارئا ، فقال : أما إني على ما ترى لوَجِع، وجعلتم لي معشر المهاجرين شغلا مع وجَعِي ، وجعلت لكم عهدا مني من بعدي ، واخترت لكم خيرَكم في نفسي ، فكلّكم وَرِم[1] لذلك أنفُه رجاء أن يكون الأمر له ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ؛ والله لتتّخِذُنّ ستورَ الحرير ونضائد الديباج[2] ، وتألمون ضجائع الصوف الأذربيّ[3]، كأنّ أحدَكم على حَسَك[4] السَّعْدَان . والله لأنْ يقدّم أحدكم فتضربَ عنقه في غير حَدّ خيرٌ له من أن يَسْبَح في غمرة الدنيا ، وإنكم غداً لأوّل ضالّ بالناس يجورون عن الطريق يمينا وشمالا ، ياهاديَ الطريق جُرْتَ ؛ إنما هو البَجْر أو الفَجْر[5]. فقال له عبد الرحمن : لا تُكْثِر على ما بك فيهيضَك[6]، والله ما أردتَ إلا خيرا[7]، وإن صاحبَك لذو خير ؛ وما الناس إلا رجلان : رجل رأى ما رأيت ؛ فلا خلاف عليك منه، ورجل رأى غيرَ ذلك ؛ وإنما يشير عليك برأيه . فسكنَ وسكتَ هُنَيهةً ؛ فقال عبدُ الرحمن : ما أرى بك بأسا والحمد لله ، فلا تأسَ على الدنيا ، فوالله إن علمناك إلا صالحا مصلحا . فقال : أما إني لا آسَى إلا على ثلاث فعلتُهنّ ، ودِدت أني لم أفعلْهنّ ، وثلاث لم أفعلهنّ وددتُ أني فعلتُهنّ، وثلاث ودِدت أني سألت رسول الله صلى الله عليه عنهنّ :

فأما الثلاث التي فعلتُها ووددت أني لم أكن فعلتُها : فودِدْت أني لم أكن كشفتُ

---

(١) ورم أنفه : أي امتلأ من ذلك غضبا .

(٢) نضائد الديباج : واحدتها نضيدة ؛ وهي الوسادة وما ينضد من المتاع .

(٣) الأذربي : منسوب إلى أذربيجان .

(٤) السعدان : نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه .

(٥) قال في الكامل : « وقوله : والله هو الفجر أو البجر ، يقول : إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » .

(٦) يهيضك : أي يعنتك ويؤذيك ؛ وأصله في العظم إذا كسر بعد الجبور ؛ فإنه يكون أشد وجعا .

(٧) هذه آخر رواية المبرد — مع تصرف كثير في العبارة — في الكامل ١ : ٥٤ ، ٥٥ بشرح المرصفي.

عن بيت فاطمة وتركتهُ ولو أُغلِق على حَرْب، ووددْت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمْرَ فى عُنق أحد الرجلين : عمر أو أبى عبيدة ، فكان أميراً وكنت وزيراً ؛ ووددت أنى إذ أتيت بالفُجَاءة[1] لم أكن أحرقته ، وكنت قتلته بالحديد أو أطلقته .

وأما الثلاث التى تركتها ووَدِدْت أنى فعلتها : فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث كنت ضربت عنقَه ، فإنه يخيل إلىّ أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه ؛ ووددت أنى حيث وجّهت خالداً إلى أهل الردّة أقمت بذى القَصّة، فإن ظَفِر المسلمون وإلا كنتُ رِدْءاً لَهُم ، ووددت حيث وجهت خالدا إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطتُ كلتا يدىّ: اليمين والشمال فى سبيل الله .

وأما الثلاث اللواتى وددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه عنهن: فوددت أنى سألته فيمن هذا الأمر ، فكنا لا ننازعه أهلَه ، [ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟][2] ووددت أنى سألته عن ميراث العمّة وابنة الأخت ؛ فإنّ فى نفسى منهما حاجة .

ومن كتاب معاوية المشهور إلى علىّ عليه السلام :

وأعهدك أمس تحملُ قعيدةَ بيتك ليلا على حمار ويَدَاك فى يدى ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق ، فلم تدَع أحدا من أهل بَدْر والسوابقِ إلا دعوتَهم إلى نفسك ، ومشيت إليهم بامرأتك ، وأدليْت إليهم بابنيك ، واستنصرتَهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلا أربعة أو خمسة ؛ ولعَمْرِى لو كنت محقّاً لأجابوك ، ولكنك ادّعيتَ باطلا ، وقلت مالا تعرف ، ورُمْتَ مالا يُدرَك ، ومهما نسيتُ فلا أنسى قولك لأبى سفيان ، لما حرّكك وهيّجك : لو وجدتُ أربعين ذوِى عزم منهم لناهضتُ القوم؛ فما يوم المسلمين منك بواحد ، ولا بغيُك على الخلفاء بطريف ولا مستبدَع .

---

(١) هو إياس بن عبد الله بن عبد ياليل السلمى ، وكان قد استعرض الناس يقتلهم ويأخذ أموالهم ، فأمر أبو بكر بإحراقه . وانظر تفصيل الخبر فى الطبرى ٣ : ٢٣٤ .

(٢) زيادة من الطبرى يقتضيها السياق .

وسنذكر تمام هذا الكتاوب وأوله عند انتهائنا إلى كتب علىّ عليه السلام .

وروى أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهرىّ عن أبى المنذر وهشام بن محمد بن السّائب عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، قال : كان بين العباس وعلىّ مباعدة ، فلقىَ ابنُ عباس عليًّا ، فقال : إن كان لك فى النَّظَر إلى عمك حاجة فَأْته ، وما أراكَ تَلْقاه بعدها . فوجَمَ[1] لها وقال. تقدمْنى واستأذن، فتقدمتُه واستأذنت له، فأَذِن فدخلَ، فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبَه ، وأقبل علىّ عليه السلام على يده ورجله يقبّلهما ، ويقول : ياعمّ ، ارضَ عنى رضىَ الله عنك ، قال : قد رضيتُ عنك .

ثم قال: يابنَ أخى، قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل، ورأيتَ فى عاقبتها ما كرهت؛ وهأنذا أشير عليك برأى رابع ، فإن قبلتَه ؛ وإلّا نالك مانالك ممـا كان قبله . قال : وما ذاك ياعم ؟ قال : أشرتُ عليك فى مرض رسول الله صلى الله عليـه أن تسأله ، فإن كان الأمر فينا أعطاناه، وإن كان فى غيرنا أوصى بنا. فقلت: أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده[1]، فمضت تلك. فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة ، فدعوَناك إلى أن نبايعك، وقلت لك: ابسُط يدك أبايعك، ويبايعك هذا الشيخ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبدمناف ، وإذا بايعك بنو عبدمناف لم يختلف عليك أحد[2] من قريش ، وإذا بايعتْك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب ، فقلتَ : لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه شُغل ، وهذا الأمر فليس نخشى عليه ؛ فلم نَلْبَثْ أن سمعنا التكبيرَ من سقيفة بنى ساعدة ، فقلت : ياعمّ ، ماهذا ؟ قلتُ : ما دعوناك إليه فأبيت ، قلت : سبحان الله ! أو يكون هذا ! قلتُ : نعم . قلتَ : أفلا يردّ ؟ قلتُ لك : وهل رُدّ مثلُ هذا قطّ ! ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر فقلت : لاتُدْخِلْ نفسك فى الشورى ، فإنك إن اعتزلتهم قدّموك ، وإن ساويتَهم تقدّموك ، فدخلتَ معهم فـكان مارأيت .

---

(١) ساقطة من ب .　　(٢) ب : « قرشى » .

ثم أنا الآن أشيرُ عليك برأيٍ رابع ، فإن قبلتَه وإلّا نالك مانالك ممّا كان قبله ؛ إني أرى أنّ هذا الرجل ـ يعني عثمان ـ قد أخذ في أمور ، والله لكأنّي بالعرب قد سارت إليه حتى يُنْحَر في بيته كما يُنْحَرُ الجمل . والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة ألزمك الناس به ؛ وإذا كان ذلك لم تنلْ من الأمر شيئاً إلّا من بعد شرٍ لاخير معه .

قال عبد الله بن عباس : فلما كان يوم الجمل عرَضْتُه ـ وقد قتِل طلحة ، وقد أكثر أهل الكوفة في سبِّه وغمْصه ـ فقال عليّ عليه السلام : أما والله لئن قالوا ذلك ، لقد كان كما قال أخو جُعفيّ[1] :

فَتًى كَانَ يُدْنِيه الْغِنى مِنْ صَدِيقِهِ إذَا ماهُو اسْتَغْنَى ويُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

ثم قال : والله لكأنّ عمّي كان ينظر من وراء سِتْرٍ رَقيق ؛ والله ما نلتُ من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرّ لاخيرَ معه .

* * *

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز ، عن حُباب بن يزيد ، عن جرير بن المغيرة أنّ سَلْمان والزّبير والأنصار كان هواهم أن يُبايعوا عليّاً عليه السلام بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله ، فلمّا بُويع أبو بكر ، قال سلمان : أصبتم الخبْرَةَ وأخطأتم المَعْدِن .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا عليّ بن أبي هاشم ، قال : حدّثنا عمرو بن ثابت ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : قال سلمان يومئذ : أصبتم ذا السنّ منكم ، وأخطأتم أهلَ بيت نبيّكم ؛ لوجعلتموها فيهم مااختلف عليكم اثنان ، ولأكلتموها رغَداً .

قال أبو بكر : وأخبرنا عمر بن شبّة ، قال : حدّثني محمد بن يحيى ، قال : حدثنا غسّان

---

(١) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة الجعفي ، من كلمة له يرثي فيها أخاه لأمه قيس بن سلمة . أمالي القالي ٢ : ٣٣

ابن عبد الحميد ، قال : لمّا أكثر الناس فى تخلّف علىّ عليه السلام عن بيعة أبى بكر ، واشتدّ أبو بكر وعمر عليه فى ذلك ، خرجتْ أم مِسْطح بن أثاثة ، فوقفتْ عند القبر ، وقالت :

كانتْ أمورٌ وأنبـــاء وَهَنْبَثَةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تَكْثُرِ الخُطَبُ[1]

إنّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأرْضِ وَابِلَهـــا ... واختلّ قومُكَ فاشهَدْهُمْ ولا تَغِبِ[2]

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا إبراهيم بن المنذر ، عن ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن أبى الأسود ، قال : غضب رجالٌ من المهاجرين فى بيعة أبى بكر بغير مشورة ، وغضب علىّ والزبير ، فدخَلا بيت فاطمة عليها السلام ، معهما السلاح ، فجاء عمر فى عصابة ؛ منهم أُسَيْد بن حُضَير وسلَمة بن سَلَامة ابن وَقش ـ وهما من بنى عبد الأشهل ـ فصاحت فاطمة عليها السلام ، وناشدَتْهم الله . فأخذوا سيفَىْ علىّ والزبير ، فضربوا بهما الجدار حتى كسروهما ، ثم أخرجهما عمر يَسُوقهما حتى بايعا ، ثم قام أبو بكر فخطب الناس ، واعتذر إليهم ، وقال : إن بيعتى كانت فَلْتَة وقى الله شرّها ، وخشيتُ الفتنة ، وايمُ الله ما حرَصت عليها يوما قطّ ، ولقد قُلِّدت أمرا عظيما مالى به طاقة ولا يدان ، ولوَدِدْتُ أنّ أقوى الناس عليه مكانى . وجعل يعتذر إليهم ، فقبل المهاجرون عذرَه . وقال علىّ والزبير : ما غَضِبْنا إلا فى المشورة ، وإنا لَنَرَى أبا بكر أحقّ الناس بها ؛ إنه لصاحبُ الغار ، وإنا لنعرف له سِنّه ، ولقد أمَره رسول الله صلى الله عليه بالصلاة بالناس وهو حىّ .

قال أبو بكر ـ وقد روى بإسناد آخر ذكره ؛ أنّ ثابت بن قيس بن شَمّاس كان مع الجماعة الذين حضَرُوا مع عمر فى بيت فاطمة عليها السلام ؛ وثابت هذا أخو بنى الحارث ابن الخزرج .

---

(١) الهنبثة ، واحدة الهنابث ؛ وهى الأمور الشداد المختلفة ؛ والبيتان فى اللسان (٣ : ٢٠) ، وذكر أنه جاء فى حديث أن فاطمة قالتهما بعد موت الرسول عليه السلام ؛ وذكر أيضا أنه ورد هذا الشعر فى حديث آخر ؛ قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت صفية تلمع بثوبها وتقول البيتين » .

(٢) اللسان : « فاختل » .

وروى أيضاً أن محمد بن مسلمة كان معهم ، وأن محمدا هو الذى كسر سيف الزبير .

قال أبو بكر : وحدّثنى يعقوب بن شَيبة ، عن أحمد بن أيوب ، عن إبراهيم بن سعد ، عن ابن إسحاق ، عن الزّهرىّ ، عن عبدالله بن عباس ، قال : خرج علىّ عليه السلام على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه فى مرضِه ، فقال له الناس : كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه يا أبا حسن ؟ قال : أصبَح بحمد الله بارئاً ، قال : فأخذ العباس بيد علىّ ، ثم قال : يا علىّ ، أنت عبد العصا بعد ثلاث ؛ أحلِف لقد رأيتُ الموتَ فى وجهه – وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب – فانطلِقْ إلى رسول الله صلى الله عليه فاذكر له هذا الأمر ؛ إن كان فينا أعلَمَنا ، وإن كان فى غيرنا أوصَى بنا . فقال : لاأفعل ، والله إن منعَناه اليوم لايؤتيناه الناسُ بعده ؛ قال : فتوُفِّىَ رسول الله ذلك اليوم .

وقال أبو بكر : حدّثنى المغيرة بن محمد المهلبىّ من حفظه وعمر بن شَبّة من كتابه ، بإسنادٍ رفعه إلى أبى سعيد الخدرىّ ، قال : سمعت البَرَاء بن عازب يقول : لم أزلْ لبنى هاشم محبًّا ، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه تخوّفتُ أن تتمالأ قريشٌ على إخراج هذا الأمر عن بنى هاشم ، فأخذنى ما يأخذ الوَالِهَ العَجُول .

ثم ذكر ماقد ذكرناه نحن فى أول هذا الكتاب[1] فى شرح قوله عليه السلام : « أما والله لقد تقمّصها فلان » ، وزاد فيه فى هذه الرواية : فمكثتُ أكابد ما فى نفسى ، فلما كان بليل ، خرجت إلى المسجد ، فلما صرت فيه تذكّرت أنى كنت أسمعُ همهمة رسول الله صلى الله عليه بالقرآن ، فامتنعتُ من مكانى ، فخرجت إلى الفضاء ، فضاء بنى بيَاضة ، وأجد نفرا يتناجون ، فلما دنوتُ منهم سكتوا ، فانصرفت عنهم ، فعرفونى وما أعرفهم ، فدعونى إليهم فأتيتُهم ، فأجد المقدادَ بنَ الأسود وعبادة بن الصامت ، وسلمان الفارسىّ ، وأبا ذرّ ، وحُذيفة ، وأبا الهيثم بن التيّهان ؛ وإذا حُذيفة يقول لهم : والله ليكونَنّ ما أخبرتُكم

(١) الجزء الأول ص ١٥٩ وما بعدها .

به ، والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ؛ وإذا القوم يريدون أن يُعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال : ائتوا أبيَّ بن كعب ، فقد علم كما علمت . قال : فانطلقنا إلى أبيّ ، فضربنا عليه بابه ؛ حتى صار خلف الباب ، فقال : من أنتم ؟ فكلّمه المقداد ، فقال : ما حاجتكم ؟ فقال له : افتح عليك بابَك ، فإنّ الأمر أعظم من أن يُجْرَى من وراء حجاب ، قال : ماأنا بفاتح بابى ، وقد عرفتُ ماجئتم له ، كأنكم أردتم النظر فى هذا العقد . فقلنا : نعم ، فقال : أفيكم حُذيفة ؟ فقلنا : نعم ، قال : فالقول ماقال ؛ وبالله ما أفتَح[1] عنى بابى حتى يُجْرى على ما هى جارية ، ولَما يكون بعدها شرٌّ منها ، وإلى الله المشتكَى !

قال : وبلغ الخبرُ أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبى عُبيدة والمغيرة بن شُعبة ، فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة : أن تلقَوُا العباس فتجعلوا له فى هذا الأمر نصيبا فيكون له ولعقِبه ، فتقطعوا به من ناحية علىّ ، ويكون لكم حُجّةٌ عند الناس على علىّ ، إذا مال معكم العباس .

فانطلقوا حتى دخلوا على العبّاس فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله . ثم ذكر خطبة أبى بكر وكلام عمر وماأجابهما العباس به ، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب فى الجزء الأول .

وروى أبو بكر ، قال : أخبرنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنا عبدالله بن عمر ، عن حماد بن زيد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، قال : لما تُوُفِّىَ النبى صلى الله عليه اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة ، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عُبيدة ، فقال الحُباب :

---

(١) ب : « مايفتح » .

ابن المنذر : منّا أمير ومنكم أمير ، إنا والله ما ننفس[1] هذا الأمر عليكم أيها الرهط؛ ولكنا نخاف أن يليَه بعدكم مَنْ قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم ؛ فقال عمر بن الخطاب : إذا كان ذلك قمتَ إن استطعت . فتكلّم أبو بكر فقال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، والأمر بيننا نصفان كشِقّ الأبلُمة[2] . فبويع ، وكان أول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان ابن بشير .

فلما اجتمع الناس على أبي بكر ، قَسَم قَسْماً[3] بين نساء المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى امرأة من بني عدىّ بن النجار قَسْمَها مع زيد بن ثابت ، فقالت : ما هذا ؟ قال : قَسْمٌ قسَمه أبو بكر للنساء ، قالت : أتراشونني عن ديني ! والله لا أقبل منه شيئاً فردّته عليه .

قلت : قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوىّ الحسينىّ المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة رحمه الله تعالى في سنة عشر وستمائة من كتاب السّقيفة لأحمد ابن عبد العزيز الجوهرىّ ، قال : لقد صدقتْ فِراسة الحُباب ، فإنّ الذى خافه وقع يوم الحرّة وأُخِذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر . ثم قال لي رحمه الله تعالى : ومن هذا خاف أيضا رسول الله صلى الله عليه وآله على ذُرّيّته وأهله ، فإنه كان عليه السلام قد وَتَر الناس، وعلم أنّه إن مات وترك ابنته وولدها سُوقة ورعيّة تحت أيدي الولاة ، كانوا بعرَض خطر عظيم ، فما زال يقرّر لابن عمه قاعدة الأمر بعده ، حفظاً لدمه ودماء أهل بيته ، فإنّهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقربَ إلى الصِّيانة والعصمة مما إذا كانوا سوقة تحتَ يد وَالٍ من غيرهم ، فلم يساعده القضاء والقدَر ، وكان من الأمر ما كان . ثم أفضى أمر ذرّيّته فيما بعد إلى ما قد علمت .

---

(١) ننفس : نحسد .

(٢) في اللسان : (١٤ : ٣٢٠) وفي حديث السقيفة : « الأمر بيننا وبينكم كقدّ الأبلمة » ، والأبلمة ، بضم الهمزة واللام وفتحهما وكسرهما : خوصة المقل ، وهمزتها زائدة ، يقول : نحن وإياكم في الحكم سواء ، لافضل لأمير على مأمور ، كالخوصة إذا شقت اثنتين متساويتين .

(٣) القسم هنا : العطاء .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : حدّثني يعقوب بن شيبة بإسناد رفعه إلى طلحة ابن مصرّف ، قال: قلت لهذيل بن شُرَحبيل : إن الناس يقولون : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى عليّ عليه السلام ، فقال : أبو بكر يتأمّر على وصيّ رسول الله صلى الله عليه ! ودّ أبو بكر أنّه وجد من رسول الله صلى الله عليه عهداً فخزم أنفه .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان : محمد بن إسماعيل البخاريّ ومسلم بن الحجاج القُشَيريّ في صحيحيهما عن طلحة بن مصرّف ، قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى : أوصى[1] رسول الله صلى الله عليه؟ قال: لا ، قلت : فكيف كُتِب على المسلمين الوصية[2] أو كيف أمِر بالوصية ولم يوص[3] ؟ قال : أوصى بكتاب الله[4] . قال طلحة : ثم قال ابن أوفى : ما كان أبو بكر يتأمّر على وصيّ رسول الله صلى الله عليه ؛ ودّ أبو بكر أنه وَجَد مِنْ رسول الله صلى الله عليه عهداً ، فخزم أنفه بخزامه .

وروى الشيخان في الصحيحين عن عائشة أنه ذُكِر عندها أن رسول الله صلى الله عليه أوصى ، قالت : ومتى أوصى ؟ ومن يقول ذلك ! قيل : إنهم يقولون ، قالت : مَنْ يقوله ؟ لقد دعا بطست ليبول ، وإنه بين سَحْرى ونَحْرى فانخنث[5] ، في صدري فمات وما شَعَرت[6] .

وفي الصحيحين أيضاً ، خرّجاه معاً عن ابن عباس ، أنّه كان يقول : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى ، فقلنا : يابْنَ عباس ، وما يوم الخميس ؟

---

(١) لفظ مسلم : « هل أوصى ؟ » .
(٢) لفظ مسلم : « فلم كتب على المسلمين الوصية ؟ » .
(٣) لفظ مسلم : « أو فلم أمروا بالوصية ؟ » .
(٤) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٦ .
(٥) انخنث : مال وسقط .
(٦) لفظ مسلم ٣ : ١٢٥٧ بسنده عن الأسود بن يزيد : « ذكروا عند عائشة أن عليا كان وصيا ، فقالت : متى أوصى إليه ؟ فقد كنت مسندته إلى صدري ـ أو قالت حجري ـ فدعا بالطست ، فلقد انخنث في حجري ، وما شعرت أنه مات ، فمتى أوصى إليه ؟ » .

قال : اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وَجَعُه ، فقال : ائتونى بكتاب أكتبه لكم[1] لا تضلّوا بعدى أبدا . فتنازعوا ، فقال : إنه لا ينبغى عندى تنازُع ، فقال قائل : ماشأنه ؟ أهَجَر ؟ استفهموه . فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعونى ، والذى أنا فيه خير من الذى أنتم فيه ، ثم أمر بثلاثة أشياء ، فقال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحوما كنت أجيزُهم ؛ وسئل ابن عباس عن الثالثة ، فقال : إمّا ألا يكون تكلّم بها، وإمّا أن يكون قالها فنسيت[2] .

وفى الصحيحين أيضا خرّجاه معا عن ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : لما احتُضِر[3] رسول الله صلى الله عليه وآله، وفى البيت رجالٌ منهم عمر بن الخطاب ؛ قال النبيّ صلى الله عليه : هلمّ أكتبْ لكم كتابا لا تضِلّونَ بعده ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه قدغلب عليه الوجَع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول : قرِّبُوا إليه يكتبْ لكم كتابا لن تضلّوا بعده ، ومنهم من يقول : القولُ ماقاله عمر ؛ فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام، قال لهم : قوموا ، فقاموا، فكان ابن عباس يقول : إن الرزيّة كلّ الرزيّة ماحال بين رسول الله صلى الله عليه وبين أن يكتب لكم[4] ذلك الكتاب[5] .

• • •

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ : وحدثنى أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنى عبد الله بن عمر بن معاذ ، عن ابن عون ، قال : حدثنى رجل من زُرَيق

---

(١) لفظ مسلم : « ائتونى أكتب لكم كتابا » .
(٢) لفظ مسلم : « قال : وسكت عن الثالثة أو قال : فأنسيتها » ، والحديث فى صحيحه ٣ : ١٢٥٧ ـ ١٢٥٨ .
(٣) لفظ مسلم : « حضر » ؛ وهما بمعنى حضره الموت .
(٤) لفظ مسلم : « لهم » .
(٥) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ .

أنّ عمر كان يومئذ ـ قال : يعنى يوم بويع أبو بكر ـ محتجزا[1] يهرول بين يدى أبى بكر ؛ ويقول : ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر . قال : فجاء أبو بكر حتى جلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أمّا بعد ، فإنى وليتكم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسُنّت السنن ، وعلمنا فتعلمنا أنّ أكيس الكيس التقى ، وأحمق الحمق الفجور . وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بالحقّ ، وأضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق . أيها النّاس إنّما أنا متّبع ولست بمبتدع ، إذا أحسنتُ فأعينونى ، وإذا زُغت فقوّمونى .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا أحمد بن معاوية ، قال : حدّثنى النضر بن شُمَيل ، قال : حدثنا محمد بن عمرو ، عن سلمة بن عبد الرحمن ، قال : لما جلس أبو بكر على المِنبر ، كان علىّ عليه السلام والزبير وناسٌ من بنى هاشم فى بيت فاطمة ، فجاء عمر إليهم ، فقال : والّذى نفسى بيده لتخرُجُنّ إلى البيعة أو لأحرقنّ البيت عليكم ! فخرج الزبير مُصلِتاً سيفه ، فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لَبيد . فبدر السيف ، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر : اضرِبْ به الحجر ، فدق به . قال أبو عمرو ابن حماس : فلقد رأيت الحجرَ فيه تلك الضربة ، ويقال : هذه ضربةُ سَيف الزبير ثم قال أبو بكر : دعوهم فسيأتى الله بهم ، قال : فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه .

قال أبو بكر : وقد رُوِى فى رواية أخرى أنّ سعد بن أبى وقّاص ، كان معهم فى بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً ، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليّاً عليه السلام ، فأتاهم عمر ليَحرِق عليهم البيت ، فخرج إليه الزّبير بالسيف ، وخرجت فاطمة عليها السلام تبكى وتصيح ؛ فنُهنِهتْ من الناس ، وقالوا : ليس عندنا معصية ، ولا خلاف فى خير اجتمع عليه الناس ؛ وإنما اجتمعنا لنؤلّف القرآن فى مصحف واحد . ثم بايعوا أبا بكر ، فاستمرّ الأمرُ واطمأنّ الناس .

(١) يقال : احتجز بالإزار إذا شده على وسطه

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : أخبرنا أبو بكر الباهليّ ، قال : حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبيّ ، قال : سأل أبو بكر فقال : أين الزبير ؟ فقيل : عند عليّ وقد تقلّد سيفه ، فقال : قم يا عمر ، قم ياخالد بن الوليد ؛ انطلقا حتى تأتيانى بهما، فانطلقا،فدخل عمر ، وقام خالد على باب البيت من خارج ، فقال عمر للزبير : ماهذا السيف؟ فقال : نبايع عليًّا ، فاخترطه عمر فضرب به حجرا فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه ، وقال : ياخالد دونكه فأمسكه ، ثم قال لعليّ : قم فبايع لأبى بكر ، فتلكأ واحتبس، فأخذ بيده ، وقال : قم، فأبى أن يقومَ ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير فأخرجه ، ورأت فاطمةُ ماصنِع بهما،فقامت على باب الحجرة،وقالت : يا أبا بكر،ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله . قال : فمشى إليها أبو بكر بعد ذلك وشفَع لعمر ، وطلب إليها فرضيت عنه .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، قال : حدثنا محمد بن حاتم،قال : حدثنا الحراميّ ، قال: حدثنا الحسين بن زيد ، عن جعفر بن محمد،عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعليّ وعنده ابنُ عباس بفِناء داره،فسلّم فسألاه : أين تريد ؟ فقال : مالى بيَنْبُع ، قال: عليّ: أفلا نصل جناحَك ونقوم معك ؟ فقال : بلى ، فقال لابن عباس : قم معه ، قال : فشبّك أصابعه فى أصابعى ، ومضى حتى إذا خلّفنا البقيع ، قال : يابن عباس،أما والله إن كان صاحبُك هذا أوْلى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلّا أنّا خفناه على اثنتين . قال ابن عباس : فجاء بمنطق لم أجد بُدًّا معه من مسألته عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ماهما؟ قال : خشيناه على حداثة سِنّه وحبّه بنى عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد ، قال : حدثنا هارون بن عمر ، بإسناد رفعه إلى ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : تفرّق الناس ليلة الجابية [1] عن عمر ، فسار

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، ذكر ياقوت أن عمر خطب فيها خطبته المشهورة .

كلّ واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة في مسيرنا، فحادثته، فشكا إليّ تخلّف عليّ عنه. فقلت: ألم يعتذر إليك؟ قال: بلى، فقلت: هو ما اعتذر به، قال: يابن عباس، إنّ أولَ من رَيَّثَكم عن هذا الأمر أبو بكر؛ إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة، قلت: لم ذاك يا أمير المؤمنين؟ ألم ننِلْهُمْ خيرا؟ قال: بلى، ولكنهم لو فعلوا لكنتم عليهم جَخْفاً جَخْفا[1].

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن الخطاب، قال: حدثنا عليّ بن هشام، مرفوعا إلى عاصم بن عمرو بن قتادة، قال: لقِيَ عليّ عليه السلام عمر، فقال له عليّ عليه السلام: أنشُدك الله، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أمّا صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من عنقي إلى عُنُقك، فقال: جَدَع الله أنف مَنْ يُنقِذك منها! لا ولكن جعلني الله علَما، فإذا قمتُ فمن خالفَني ضَلّ.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، عن هارون بن عمر، عن محمد بن سعيد بن الفضل عن أبيه، عن الحارث بن كعب، عن عبد الله بن أبي أوفَى الخزاعيّ، قال: كان خالد ابن سعيد بن العاص مِنْ عُمّال رسول الله صلى الله عليه على اليمَن، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه جاء المدينة، وقد بايع الناس أبا بكر، فاحتبس عن أبي بكر فلم يبايعه أياما، وقد بايع الناس، وأتى بني هاشم، فقال: أنتم الظهر والبطن، والشّعار دون الدثار[2]، والعصا دون اللّحا[3]، فإذا رضيتم رضينا، وإذا سخطتم سخطنا. حدّثوني إن كنتم قد بايعتمْ هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: على بَرد ورِضاً من جماعتكم؟ قالوا: نعم، قال:

---

(١) جخفاً جخفاً، أي فخراً فخرا وشرفا شرفا. النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٥.
(٢) الشعار: ما يلي شعر الجسد؛ وهو تحت الدثار.
(٣) اللحا: ما على العصا من قشرها، يمد ويقصر؛ وفي خطبة الحجاج: «لألحونكم لحو العصا».

فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم . أما والله يابنى هاشم، إنكم الطوال الشجر الطّيبو[1] الثمر . ثم إنه بايع أبا بكر ، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها ، و ضطغنها عليه عمر ، فلما ولاه أبو بكر الجند الذى استنفر إلى الشام ، قال له عمر : أتولّى خالداً وقد حبسَ عليك بيعته، وقال لبنى هاشم ماقال ، وقد جاء بوَرِق من اليمن وعبيد وحُبْشان ودُروع ورماح ! ما أرى أن تولّيَه ، وما آمن خلافه. فانصرف عنه أبو بكر ؛ وولّى أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان وشُرَحْبيل بن حَسَنة .

***

واعلم أن الآثار والأخبار فى هذا الباب كثيرة جدًّا ، ومَنْ تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نصّ صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك، ولا تتطرق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرسول صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام نصًّا صريحا جليا ليس بنصّ يوم الغدير[2] ، ولا خبر المنزلة[3]، ولا ماشابههما من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها، بل نصّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين ، وأمر المسلمين أن يسلّموا عليه بذلك ، فسلّموا عليه بها، وصرح لهم فى كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ولا ريب أنّ المنصف إذا سمع ماجرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم قطعاً أنه لم يكن هذا النصّ ، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنه قد كان هناك تعريض وتلويح ، وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مبتوت، ولعله صلى الله عليه وآله كان يصدّه عن التصريح بذلك أمرٌ يعلمه ، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى فى ذلك .

فأما امتناع علىّ عليه السلام من البيعة حتى أخرج على الوجه الذى أخرج عليه، فقد

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : «الطيب» .

(٢) هو غدير خم ، موضع بين مكة والمدينة ، نقل المحب الطبرى فى الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) أن الرسول عليه السلام قال يوم غدير خم : «من كنت مولاه فعلى مولاه» .

(٣) يشير إلى حديث : «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى» .

ذكره المحدثون ورواه أهل السير وقد ذكرنا ماقاله الجوهري في هذا الباب؛ وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين ، وقد ذكر غيره من هذا النحو مالا يحصى كثرة .

فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام ، وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدملج وبقي أثره إلى أن ماتت ، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار ، فصاحت : ياأبتاه يارسول الله ! وألقت جنينا ميتا ، وجعل في عنق علي عليه السلام حبل يقاد به وهو يعتل ، وفاطمة خلفه تصرخ وتنادي بالويل والثبور ، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان ، وأن عليا لما أحضر سألوه البيعة فامتنع ، فتهدد بالقتل ، فقال : إذن تقتلون عبدالله وأخا رسول الله ! فقالوا : أما عبدالله فنعم ، وأما أخو رسول الله فلا ، وأنه طعن فيهم في أوجههم بالنفاق ، وسطر صحيفة الغدر التي اجتمعوا عليها ، وبأنهم أرادوا أن ينفروا ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة؛ فكله لا أصل له عند أصحابنا ، ولا يثبته أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله .

***

الأصل :

ومنها :

وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً . فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ ! فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا ، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا ، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا ، وَعَلاَ سَنَاهَا . وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ ، فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ .

***

الشرح :

هذا فصل من كلام يذكر فيه عليه السلام عمرو بن العاص . وقوله : « فلا ظفرت يد البائع » يعني معاوية ، وقوله : « وخزيت أمانة المبتاع » يعني عمرا ، وخزيت ، أي

خسرت وهانت. وفى أكثر النسخ: «فلا ظفرت يد المبايع» بميم المفاعلة، والظاهر ما رويناه.

وفى بعض النسخ «فإنه أحزم للنصر»، من حَزَمْتُ الشىء إذا شددته، كأنه يشدّ النصر ويوثقه، والرواية التى ذكرناها أحسن.

والأهبة: العدّة. وشبّ لظاها استعارة، وأصله صعود طرف النار الأعلى. والسنا بالقصر: الضوء. واستشعروا الصبر: اتخذوه شعارا، والشِّعار: مايلى الجسد من الثياب؛ وهو ألزم الثياب للجسد؛ يقول: لازموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبَه الذى يلى جِلْدَه لا بدّ له منه، وقد يستغنى عن غيره من الثياب.

***

[قدوم عمرو بن العاص على معاوية]

لما نزل علىّ عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البَصْرة، كتب إلى معاوية كتابا يدعوه إلى البَيْعة، أرسل فيه[1] جرير بن عبد الله البَجَلىّ. فقدِم عليه به الشام. فقرأه واغتمّ بما فيه، وذهبت به أفكاره كلّ مذهب، وطاول جريرا بالجواب عن الكتاب، حتى كلّم قوما من أهل الشام فى الطلب بدم عثمان؛ فأجابوه ووثّقوا له، وأحبّ الزيادة فى الاستظهار، فاستشار أخاه عتبة بن أبى سفيان، فقال له: استعِنْ بعمرو بن العاص، فإنّه من قد علمتَ فى دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان فى حياته، وهو لأمرك أشدّ اعتزالا؛ إلا أن يثمّن له دينَه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية:

أما بعد، فإنه كان من أمر علىّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مَرْوان بن الحكم فى نفَر من أهل البصرة[2]، وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعة علىّ، وقد حبستُ نفسى عليك، [3] فأقبلْ أذاكرك أمورا لا تعدَم صلاح مَغَبّتها، إن شاء الله[3]

(١) ساقطة من ب. (٢) فى كتاب صفين: «فى رافضة أهل البصرة».
(٣ ـ ٣) فى صفين: «حتى تأتينى، أقبل أذاكرك أمرا».

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه : عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو ، فقال لهما : ماترياني ؟ فقال عبد الله : أرى أنَّ رسول الله صلى الله عليه قُبِض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده ؛ وقُتِل عثمان وأنت عنه غائب ، فقَرَّ فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تَزيد على[1] أن تكون حاشية لمعاوية ، على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا ، فتستَويا[2] فى عقابها . وقال محمد : أرى أنك شيخُ قريش ، وصاحبُ أمرها ، وإن تصرّم هذا الأمر وأنت فيه غافل[3] تصاغَرَ أمرُك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يدا من أيديها ، طالبا بدم عثمان ، فإنه سيقوم بذلك بنو أميّة[4] .

فقال عمرو : أما أنت ياعبد الله ، فأمرتنى بما هو خير لِى فى دينى ، وأنت يامحمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر . فلما جنَّه الليل رفع صوته وأهله يسمعون[5] ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيْلِى بِالهُمُومِ الطَّوَارِقِ ... وَخَوْفِ التى تجلو وجوهَ العوائِقِ[6]
وإنَّ ابنَ هند سالنى أنْ أزورَه ... وتلكَ التى فِيهـا بناتُ البوائِقِ[7]
أتاه جَرِيرٌ من علىَّ بخُطَّـةٍ ... أمَرَّتْ عليه العيش ذاتِ مضائِقِ
فإنْ نال منِّى ما يؤمِّلُ رَدَّه ... وإن لم ينـلْه ذلَّ ذل المطـابِق[8]
فواللهِ ماأدرِى وَما كُنتُ هَكَذَا ... أكونُ وَمَهْمَا قادَنِى فهو سَابِقِى
أخادِعُه إنَّ الخداعَ دنيَّـةٌ ... أم أعطِيه من نَفْسى نصيحـةَ وامِقِ

(١) فى كتاب صفين والإمامة والسياسة ١٥٨ : « ولا تريد أن تكون » .
(٢) كذا فى ا ، والإمامة والسياسة ، وفى ب . « فتسويا » ، وفى كتاب صفين « أو شك أن تهلك فتشق فيها » .
(٣) فى صفين والإمامة والسياسة : « وأنت غافل » .
(٤) فى الإمامة والسياسة : « فإنك به تستميل بنى أمية » .
(٥) كتاب صفين : « ينظرون » .
(٦) فى صفين : « وخول التى تجلو » ، والعواتق : جمع عاتق ؛ وهى الشابة .
(٧) البوائق : جمع بائقة ؛ وهى الداهية ؛ وفى صفين : « سائلى أن أزوره » .
(٨) المطابقة : المشى فى القيد .

أم أقعد فى بيتى وفى ذاك راحـــةٌ ... لشيخ يخاف الموتَ فى كلِّ شارِقِ[1]
وقد قال عبـــدُ الله قولا تعلَّقت ... بهِ النفس إن لم تقتطِعنى عوائِقِ[2]
وَخَالَفَهُ فيهِ أخوهُ محمـــدٌ ... وإنى لصُلْبُ العود عِندَ الحقائِق[3]

فقال عبد الله : رحل الشيخ[4] . ودعا عمرو غلامه وَرْدان ـ وكان داهيا ماردا ـ فقال : ارحَلْ ياوَرْدان ، ثم قال : احطُطْ يا وردان ، ثم قال : ارحَلْ ياوردان ، احطُط يا وردان . فقال له وردان : خلطت أبا عبد الله ! أما إنك إن شئت أنبأتُك بما فى قلبك ، قال : هات ويحك ! قال : اعتركت الدّنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىّ معه الآخرة فى غير دنيا وفى الآخرة عوض من الدنيا ، ومعاوية معــه الدّنيا بغير آخرة ، وليس فى الدّنيا عِوَضٌ من الآخرة ، وأنت[5] واقف بينهما ، قال : قاتلك الله ! ما أخطأتَ ما فى قلبى ، فما ترى يا وردان ؟ قال : أرى أن تقيم فى بيتك ، فإن ظهر أهلُ الدين عشت فى عَفْو دينهم[6] ، وإن ظهر أهلُ الدنيا لم يستغنُوا عنك . قال : الآن لــا أشهرت العرب سيرى إلى معاوية[7] ! فارتحل وهو يقول :

يا قاتَلَ الله وَرْدانا وَقَدْحَتَــــهُ ... أبدَى لَعَمْرُكَ ما فِى النَّفْسِ وَرْدانُ[8]
لَمّا تَعرَّضَتِ الدُّنْيا عَرَضْتُ لَهَا ... بحِرصِ نَفْسى وفى الأطباع إدْهَانُ[9]
نَفْسٌ تَعِفُّ وأخْرَى الِحْرصُ يَغلِبُها ... والمرء يأكل تِبنًا وَهْــو غَرْثَانُ
أمّا علىٌّ فدِينٌ ليسَ يَشْرَكُهُ ... دُنْيَا ، وذاك له دنيـــا وسُلْطَانُ

---

(١) فى صفين : « أو اقعد » .
(٢) فى صفين : « إن لم يعتلقى » .
(٣) الحقائق : مايجب على المرء حمايته من عرض أو مال .
(٤) فى صفين : « ترحل » .
(٥) فى صفين : « فأنت » .
(٦) عفو دينهم ؛ أى فضل دينهم .
(٧) فى الإمامة والسياسة : « الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاوية » .
(٨) فى صفين : « ومزحته » . (٩) الإدهان : المصانعة .

فاخترتُ من طَمَعي دُنيا عَلَى بَصَرٍ ... وَمَا مَعِي بالَّذِي أخْتَارُ بُرْهَانُ
إنّي لأعرف مافيها وأبصِرُه ... وفيّ أيضا لما أهواه ألوانُ
لكنّ نفسي تحبُّ العيشَ في شَرَفٍ ... وليس يرضى بذلِّ العيشِ إنسَانُ

فسار حتى قدم على معاوية ، وعرّف حاجة معاوية إليه ، فباعده من نفسه ، وكايد كلّ واحد منهما صاحبه .

فقال له معاوية يوم دخل عليه : أباعبد الله ، طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها وِرْد ولا صَدَر ، قال : وماذاك ؟ قال : منها أنّ محمد بن أبي حُذَيفة كَسَر سِجْن مصر فخرج هو وأصحابه ، وهو من آفات هذا الدين . ومنها أنّ قيصر زَحَف بجماعة الرّوم ليغلِبَ على الشام . ومنها أن عليا نزل الكوفة ، وتهيّأ للسير إلينا .

فقال عمرو : ليس كلّ ماذ كرتَ عظيما ؛ أما ابنُ أبي حُذيفة ، فما يتعاظمُك من رجل خرج في أشباهه أن تبعثَ إليه رجلا يقتله أو يأتيك به ، وإنْ قاتل لم يضرّك[1] ! وأما قيصر فأهدِ له الوصائفَ وآنية الذهب والفضة ، وسلْه الموادعة فإنّه إليها سريع . وأمّا عليّ فلا والله يامعاوية مايسوّي العرب[2] بينك وبينه في شيء من الأشياء ، وإنّ له في الحرب لحظًّا ماهو لأحد من قريش ؛ وإنه لصاحبُ ماهو فيه إلا أن تظلمه . هكذا في رواية نصر بن مزاحم عن محمد بن عبيد الله[3] .

* * *

وروى نصر[4] أيضاً عن عمر بن سعد قال : قال معاوية لعمرو : ياأبا عبدالله ، إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين ، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة ، وفرّق

---

(١) في وقعة صفين : « وإن فاتك لايضرك » وفي الإمامة والسياسة : « وإن يقتل فلا يضرك » .
(٢) كذا في ا ، وصفين ، وفي ب : « ما يسوي العربي » .
(٣) وقعة صفين ٣٩ — ٤٠ ، وفي ب : « عبد الله » ، وصوابه من ا .
(٤) وقعة صفين ٤٢ — ٦٢

الجماعة وقطَع الرَّحِم ، فقال عمرو : مَنْ هو ؟ قال : علىّ ، قال : والله يامعاوية ماأنت وعلىّ بحملَىْ (١) بعير ؛ليس لك (٢) هِجْرَتُه ولاسابقته ، ولاصحبته ولاجهاده ، ولافقهه ولاعلمه . (٣) والله إنّ له مع ذلك لَحظًّا فى الحرب ليس لأحد غيره ، ولكنّى قد تعوّدت من الله تعالى إحسانا وبلاء جميلا (٣) ؛ فما تجعل لى إنْ شايعتُك على حربه ، وأنت تعلم مافيه من الغَرر والخطر ؟ قال : حُكْمَك ، فقال : مصر طُعْمة ، فتلكأ عليه معاوية .

قال نصر : وفى حديث غير عمر بن سعد : فقال له معاوية : ياأباعبدِ الله ، إنى أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا ، قال عمرو : دَعْنى عنك ، فقال معاوية : إنى لو شئت أنْ أمنّيك وأخدعك لفعلت ، قال عمرو : لا ، لَعَمْرُ الله مامثلى يُخدع ، لأنا (٤) أكْيَسُ من ذلك ؛ قال معاوية : ادْنُ منى أسارّك ، فدنا منه عمرو ليساره ، فعضّ معاوية أذنه ، وقال : هذه خدعة ! هل ترى فى البيت أحدا ؟ ليس غيرى وغيرك .

* * *

قلت : قال شيخنا أبو القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى : قول عمرو له : « دعْنى عنك » كناية عن الإلحاد ، بل تصريح به ، أى دَعْ هذا الكلام ؛ لا أصل له ، فإنّ اعتقاد الآخرة ، وأنها لاتباع بعرَض الدنيا من الخرافات .

وقال رحمه الله تعالى : وما زال عمرو بن العاص مُلحِداً ، ماتردّد قطُّ فى الإلحاد والزندقة ، وكان معاوية مثله ، ويكفى من تلاعبهما بالإسلام حديث السِّرار المروىّ ، وأن معاوية عضّ أذن عمرو ؛ أين هذا من سيرة عمر ؟ وأين هذا من أخلاق علىّ عليه السلام وشدته فى ذات الله ، وهما مع ذلك يعيبانه بالدّعابة !

(١) فى كتاب صفين : « بعكمى بعير » ، والعكمان : عدلان يشدان على جانبى الهودج .
(٢) فى صفين : « مالك هجرته » .
(٣ — ٣) وقعة صفين : « والله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا » .
(٤) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « لأن » .

قال نصر : فأنشأ عمرو يقول :

مُعَاوِىَ لَاأُعْطِيكَ دِينِى وَلم أَنَلْ ... بِهِ مِنكَ دُنيَا فانظُرنْ كَيفَ تَصنَعُ

[فَإِنْ تُعْطِنِى مِصْراً فأَرْبِـحْ بصفْقَةٍ ... أخذتَ بهـا شيخا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ][1]

وَما الدِّينُ والدنيـا سواء وإنَّنى ... لآخـذ مانعطى وَرَأْسِى مُقَنَّعُ

وَلَـكِنَّنِى أُغضِى الجُفُون وَإِنَّنى ... لَأَخدعُ نفسى ، والمخَـادِعُ يُخْدَعُ

وَأُعطِيك أَمْراً فِيــهِ لِلمُلكِ قُوَّةٌ ... وَأُلْفَى بهِ إن زلّتِ النعـل أَصْرَعُ[2]

وتَمنعُنِى مِصْراً وليست بِرَغْبَــةٍ ... وإنى بِذَا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ

* * *

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : كانت مصر فى نفس عمرو بن العاص ، لأنه هو الذى فتحهـا فى سنة تسعَ عشرةَ من الهجرة فى خلافة عمر ، فـكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره ، وماقد عرفه من أموالها وسعة الدنيا ، لايستعظم أن يجعلها ثمنا من دينه ، وهذا معنى قوله :

* وإنِّى بذا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ *

* * *

قال نصر : فقال له معاوية : ياأبا عبد الله ، أماتعلم أن مصر مثل العراق ! قال: بلى ، ولـكنها إنما تـكون لى إذا كانت لك ، وإنما تـكون لك إذا غلبت عليًّا على العراق .

قال : وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى علىّ عليه السلام .

فلما حضر عُتبة بن أبى سفيـان قال لمـاوية : أما ترضَى أن تشترىَ عَمْراً بمصر

---

(١) هذا البيت زيادة من كتاب صفين ، ولم يرد فى الأصول .

(٢) فى كتاب صفين :

* وأُلْفَى به إن زلّتِ النَّعلُ أصْرَعُ *

إن هي صفت لك ! ليتك لا تُغلَب على الشام . فقال معاوية : ياعتْبة ، بِتْ عندنا الليلة، فلما جنّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية ، وقال :

أيها المانِعُ سَيْفاً لم يُهَزْ　　إنما مِلْتَ عَلَى خَزٍّ وَقَزْ
إنما أنت خروف ماثلٌ　　بين ضَرعَينِ وَصُوفٍ لم يُجزْ
أعطِ عَمراً إن عَمراً تارك　　دينَه اليوم لدنيـــا لم تُحَزْ
يالك الخـيرُ فخذْ مِنْ دَرّهِ　　شَخْبَهُ الأوّلَ وابعُدْ ماغرَزْ
واسْحَبِ الذّيلَ وبادِرْفُوقَها(١)　　وانتهزْها إنّ عمرا يَنْتَهِزْ
أعطـــه مِصراً وزده مثلَها　　إنمـا مصر لمن عزّ فبزْ
وَاتْرُكِ الحِرْصَ عَلَيْهَا ضَلّةً　　وَاشْبُبِ النّارَ لمقرورٍ يَكِزْ(٢)
إنّ مصرا لعلىّ أوْ لَنَا　　يَغلِبُ اليوم عليها مَنْ عَجَزْ

قال : فلما سمع معاويةُ قولَ عتبة ، أرسل إلى عمرو ، فأعطاه مصر ، فقال عمرو : لِيَ الله عليك بذلك شاهد؟ قال : نعم ، لك اللهُ علَيّ بذلك إن فتح الله علينا الكوفة ، فقال عمرو: ﴿ وَاللهُ عَلَى مَانَقُولُ وَكِيلٌ ﴾(٣).

فخرج عمرو من عنـده ، فقال له ابناه : ماصنعتَ ؟ قال : أعطانا مصر طعمة ، قالا: ومامصر فى مُلْك العرب ! قال : لاأشبع الله بطونـكما إن لم تُشبعكما [مصر](٤).

قال : (٥ وكتب معاوية له بمصر كتابه ، وكتب ٥) : « على ألا ينقُضَ شرط طاعةً »، فكتب عمرو : « على ألّا تنقض طاعةٌ شرطا » . فكايد كلٌّ واحد منهما صاحبه .

* * *

قلت : قد ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتابه "الـكامل"

---

(١) الفوق هنا : الطريق الأول .
(٢) الكزاز : داء يأخذ من شدة البرد ، وتعترى منه رعدة .
(٣) سورة القصص ٢٨ .
(٤) من كتاب وقعة صفين .
(٥ .. ٥) فى كتاب وقعة صفين : « فأعطاه إياه ، وكتب له كتابا ، وكتب معاوية » .

ولم يفسره(١)، وتفسيره أنّ معاوية قال للكاتب: «اكتب على ألّا ينقضَ شرطٌ طاعةً»، يريد أخذَ إقرار عمرو له أنه قد بايعه على الطاعة بيعة مطلقة غير مشروطة بشيء، وهذه مكايدة له؛ لأنه لو كتب ذلك لكان لمعاوية أن يرجع فى إعطائه مصر، ولم يكن لعمرو أن يرجع من طاعته، ويحتجّ عليه برجوعه عن إعطائه مصر، لأنّ مقتضى المشارطة المذكورة، أنّ طاعة معاوية واجبة عليه مطلقا، سواء أكانت مصر مسلّمة إليه أم لا.

فلما انتبه عمرو إلى هذه المكيدة منع الكاتب من أن يكتب ذلك، وقال: بل اكتب: «على ألا تنقض طاعةٌ شرطا»، يريد أخذَ إقرار معاوية له بأنه إذا كان أطاعه لا تنقض طاعته إياه ما شارطه عليه من تسليم مصر إليه. وهذا أيضا مكايدة من عمرو لمعاوية، ومنْع له من أن يغدر بما أعطاه من مصر.

قال نصر: وكان لعمرو بن العاص عمٌّ من بنى سهم، أربُّ(٢)، فلما جاء عمرو بالكتاب مسرورا عجب الفتى، وقال: ألا تخبرنى يا عمرو، بأىّ رأى تعيش فى قريش! أعطيتَ دِينَك وتمنّيت دنيا غيرك! أترى أهلَ مصر — وهم قتلة عثمان — يدفعونها إلى معاوية وعلىّ حىّ! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرف الذى قدّمه فى الكتاب؟ فقال عمرو: يابن أخى، إن الأمر لله دون علىّ ومعاوية، فقال الفتى:

ألا ياهندُ أختَ بنى زيادِ ... رُمِى عمرو بداهيةِ البلادِ(٣)
رُمِى عمرو بأعْوَرَ عبشميٍّ ... بعيد القَعْر مخشىِّ الكِيادِ(٤)
لهُ خُدَعٌ يحار العقل منها ... مزخرفةٌ صوائدُ للفؤادِ
فشرّطَ فى الكِتاب عَلَيْهِ حَرْفًا ... يناديه بخُدْعتِهِ المنادِى

---

(١) الكامل ٣ : ٢١٠ — بشرح المرصفى.

(٢) فى كتاب صفين: «وكان مع عمرو ابن عم له، فتى شاب، وكان داهية حليما»، وفى كتاب الإمامة والسياسة ١٦٠ «وكان مع عمرو بن العاص ابن أخ له جاءه من مصر». وهو ما يناسب ما يجىء بعد.

(٣) كتاب صفين: «دهى عمرو».

(٤) يريد أنه يخفى كيده.

وأثبتَ مثله عمرو عليه   كلاَّ المرأين حَيّة بطن وادِ
ألا يا عَمْرُو ما أحرزتَ مِصْراً   ولا ملتَ الغَداةَ إلى الرَّشادِ
أبِعْتَ الدّين بالدنيا خَساراً   فأنت بذاك من شرّ العِبادِ
فلو كنتَ الغداةَ أخذتَ مصرا   ولكن دونها خَرْطُ القتادِ
وفَدتَ إلى معاوية بن حرب   فكنتَ بها كوافد قوم عادِ
وأعطيتَ الذى أعطيت منها   بِطِرْسٍ فيه نَضْحٌ من مدادِ
ألم تعرف أبا حسنٍ عليّاً   وما نالت يداه من الأعادى
عدلتَ به معاوية بنَ حرب   فيا بُعْدَ البياضِ من السّوادِ!
ويا بُعْدَ الأصابع من سُهَيْلٍ   ويا بُعْدَ الصلاح من الفسادِ!
أتأمن أن تدَال على خِدَبٍّ   يحثُّ الخيل بالأسَل الحِدادِ[1]
ينادى بالنِّزال وأنت منه   قريبٌ فانظرَنْ مَنْ ذا تمادى

فقال عمرو: يابن أخى، لو كنتُ عند علىّ لوسعنى، ولكنى الآن عند معاوية[2]. قال الفتى: إنك لو لم تُرِدْ معاوية لم يرِدْك؛ ولكنك تريد دنياه، وهو يريد دينَك. وبلغ معاويةَ قولُ الفتى فطلبه، فهرب فلحق بعلىّ عليه السلام، فحدثه أمره فسُرّ به وقرّبه.

قال: وغضب مروان وقال: ما بالى لا أشترَى [كما اشترِىَ عمرو][3]! فقال معاوية: إنما يُشترى الرجال لك. فلما بلغ عليا عليه السلام ما صنع معاوية قال:

يا عجبا لقد سمعت مُنكرا   كِذْباً على الله يُشِيبُ الشَّعَرا
يسترِقُ السَّمعَ ويُعشِى البصرا   ما كان يَرضى أحدٌ لو أخبرا[4]

(١) الخدب: الضخم. وفى صفين: «أن تراه».
(٢) كذا فى ج وكتاب صفين، وفى ا، ب: «ولكنى الآن عنده».
(٣) تكملة من كتاب صفين.
(٤) صفين: «لو خبرا».

أن يقرنوا وَصِيَّــه والأبترا ... شانِي الرسول واللعينَ الأخزرا (١)
كِلاهُمَا في جُنْدِهِ قَدْ عَسْكَرَا ... قد باع هــذا دِينَه فأفجرا
مَنْ ذا بدُنْيا بيعَــهُ قد خسِرا ... بملك مصر أنْ أصاب الظفرا !
إني إذا الموتُ دنا وحَضَرا ... شمَّرْتُ ثوبِي ودعوت قَنبَرا (٢)
قَدِّمْ لوائِي لا تؤخِّرْ حَــذَرَا ... لا يدفع الحِــذَارُ ماقدْ قُدِّرا
لَمَّا رأيتُ الموتَ مَــوْتًا أحمرا ... عبَّأتُ همْــدان وَعبَّوْا حِمْيَرا
حيٌّ يمَــانٍ يُعْظِمُونَ الخطرا ... قِرْنٌ إذا ناطَحَ قِرْنًا كَسَرَا (٣)
قل لابن حرب لا تدبَّ الخَمَرَا ... أرْوِدْ قَلِيلاً أُبْدِ مِنْكَ الضَّجَرَا (٤)
لا تحسبنِّي يابْنَ هِند غُمَرَا (٥) ... وسَــلْ بِنَا بَدْرًا مَعًا وَخَيْبَرَا
يَوْمَ جَعَلْنَاكُمْ ببدرٍ جَزَرَا (٦) ... لو أنّ عِندى يابنَ هند جعفرا
أو حمزةَ القَرْمَ الهمامَ الأزهرا ... رأت قريش نجم ليــلٍ ظُهُرا

قال نصر : فلما كتب الكتاب (٧) ، قال معاوية لعمرو : ماترى الآن ؟ قال : أمضِ الرأيَ الأول. فبعث مالك بن هبيرة الكنديّ في طلب محمد بن أبي حُذيفة ، فأدركه فقتله ، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه ، ثم قال : ماترى في عليّ ؟ قال : [أرى فيه

---

(١) الأخزر : الذى ينظر بمؤخر عينه .
(٢) قنبر : مولى علي . (٣) يرى الأستاذ جاسم أنها : « قرن » . بالفتح على المجاز .
(٤) الخمر : ما واراك من الشجر والجبال ونحوها ؛ والدبيب : المشى على هينة ؛ يقال للرجل إذا ختل صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر . والإرواد : الإمهال .
(٥) الغمر : من لم يجرب الأمور .
(٦) الجزر : اللحم الذى تأكله السباع ، وفي كتاب صفين .

* كانتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ جَزَرا *

وبعده :

* إذْ وردوا الأمْرَ فَذَمُّوا الصَّدَرا *

(٧) في كتاب صفين : « لمابات عمرو عند معاوية وأصبح أعطاه مصر طعمة له ، وكتب له بها كتابا » .

خيرا] (١)، إنه قد أتاك فى طلب البَيْعة خيرُ أهل العراق، ومن عند خير الناس فى أنفس الناس ؛ ودعواك أهلَ الشام إلى رد هـذه البيعة خطر شديد ، ورأس أهل الشـام شُرَحْبيل بن السِّمط الـكِندىّ ، وهو عدوّ لجرير المرسَل إليك ، فابعث إليه ووطّن له ثقاتك ، فَلْيُفْشُوا فى الناس أنّ عليا قتل عثمان ، وليـكونوا أهل رضا عند شُرَحْبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحبّ ، وإن تعلقتْ بقلب شُرَحبيل لم تخرج منـه بشىء أبدا .

فـكتب إلى شُرَحبيل : إنّ جرير بن عبد الله قَدِم علينا من عند علىّ بن أبى طالب بأمر مفظِع ، فاقْدَم .

ودعا معاوية يزيدَ بن أسد ، وبُسر بن أرطاة ، وعمرو بن سفيان، ومخارق بن الحارث الزّبيدىّ، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد الطائى — وهؤلاء رءوس قحطان واليمن، وكانوا ثقاتِ معاويةَ وخاصته وبنى عمّ شُرَحْبيل بن السِّمط — فأمرهم أن يلقَوْه ويخبروه أنّ عليا قتل عثمان. فلما قدم كتابُ معاوية على شُرَحْبيل وهو بحِمص، استشار أهلَ اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبدالرحمن بن غَنْم الأزدىّ — وهو صاحبُ معاذ بن جبل وخَتَنُه، وكان أفقهَ أهل الشام — فقال : ياشُرَحْبيل بن السِّمط ، إنّ الله لم يَزَلْ يزيدُك خيراً مُنذ هاجرت إلى اليوم، وإنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس ؛ وإنّ الله لا يغيِّر مابقوم حتى يُغيِّرُوا مابأنفسهم. إنه قد أُلقِىَ إلى معاوية أنّ عليا قتل عثمان (٢)، ولهذا يريدك، فإن كان قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار ، وهم الحـكّام على الناس ، وإن لم يكن قتله، فعلامَ تصدّق معاوية عليه ! لا تُهلِكَنّ نفسك وقومك ؛ فإن كرهت أن يذهب بحظّها جرير، فسِرْ إلى علىّ ، فبايعه عن (٣) شامك وقومك فأبى شُرَحْبيل إلا أن يسير إلى معاوية ، فـكتب إليه عياض الثمالى — وكان ناسكا :

---

(١) من كتاب صفين .

(٢) فى كتاب صفين : « إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتل عثمان » .

(٣) صفين : « على شامك وقومك » .

يا شُرْحُ يابن السِّمط إنك بالغٌ ... بودِّ علىٍّ ما تريدُ من الأمْرِ (١)
وَيا شُرْحُ إن الشام شامُك مابها ... سواكَ فَدَعْ عنك المضلّل من فِهْرِ (٢)
فإنّ ابنَ هند ناصبٌ لك خُدْعَةً ... تكونُ علينا مثل راغيةِ البَكْرِ (٣)
فإن نال ما يرجُو بنا كان مُلْكنا ... هنيئاً له ، والحربُ قاصمة الظهرِ
فلا تبْغِيَنْ حَرْبَ العراق فإنّها ... تحرِّم أطهارَ النِّساء من الذُّعْرِ
وإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِئَ الثرى ... من الهاشميين المداريك للوِتْرِ (٤)
له فى رِقابِ النّاسِ عهدٌ وذِمّـةٌ ... كعهدِ أبى حفصٍ وعهد أبى بكرِ
فبايع ولا ترجع على العَقْبِ كافراً ... أعيذك بالله العزيز من الكفر !
ولا تسمَعَنْ قولَ الطّغاة فإنهم ... يريدون أن يلقوك فى لجة البَحْرِ
وَماذَا عَلَيْهِمْ أن تُطاعِنَ دونهمْ ... عليًّا بأطرافِ المثقّفةِ السُّمْرِ
فإن غَلَبُوا كانوا علينـا أئمةً ... وكنا بحمْدِ الله مِنْ وَلَدِ الطُّهْرِ
وإنْ غُلِبُوا لَمْ يَصْلَ بالخطْبِ غيْرُنا ... وكان علىٌّ حَرْبَنَا آخِرَ الدّهْرِ
يهونُ عَلَى عُلْيَا لؤىٍّ بن غالب ... دماء بنى قحطان فى ملكهم تجْرِى
فدعْ عنك عثمان بن عفان إنّما ... لك الخير - لا تدرى بأنك لا تدرى
على أىِّ حال كان مصرعُ جنبه ... فلا تَسْمَعَنْ قولَ الأُعَيْورِ أو عمرو

قال : فلما قدِم شُرَحبيل على معاوية ، أمر الناس أن يتلقَّوْه ويعظّموه ، فلما

---

(١) شرح : مرخم شرحبيل .
(٢) صفين : « فدع عنك المضلل » .
(٣) راغية البكر ، يريد رغاء البكر ، فوضع راغية موضع المصدر ؛ يشير إلى ما كان من رغاء بكر ثمود ، رغا فيهم فأهلكوا ، فضربته العرب مثلا فى الشؤم ، وأكثرت فيه . انظر الكامل للمبرد ١ : ٢٢ - بشرح المرصفى .
(٤) الوتر : الثأر والذحل .

دخل على معاوية ، تكلّم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا شُرَحبيل ، إن جرير ابن عبد الله قدِم علينا يدعونا إلى بَيْعة علىّ ، وعلىّ خير الناس ؛ لولا أنه قتل عثمان بن عفان ؛ وقد حبستُ نفسى عليك ، وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضُوا وأكره ما كرهوا .

فقال شُرَحبيل : أخرجُ فأنظر . فلقيه هؤلاء النفر الموطّئون له ، فكلّهم أخبره(1) أنّ عليا قتل عثمان ، فرجع مغضبا إلى معاوية فقال : يا معاوية ، أبى الناس إلا أنّ عليا قتل عثمان ، والله إن بايعتَ له لنخرجنّك من شامِنا أو لنقتلنّك . فقال معاوية : ما كنتُ لأخالِف عليكم ، ما أنا إلا رجل من أهل الشام . قال : فرُدَّ هذا الرجل إلى صاحبه إذن . فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته فى حرب أهل العراق ، وأن الشام كله مع شرحبيل ، وكتب إلى علىّ عليه السلام ما سنُورده فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

(1) كتاب صفين : « يخبره » .

(٢٧)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ ، فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى ، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ ، وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ ، وَشَمِلَهُ ٱلْبَلَاءُ ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءَةِ ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ ، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلْجِهَادِ ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ .

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ : اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ ؛ فَوَٱللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ ، حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَوْطَانُ .

فَهٰذَا[1] أَخُو غَامِدٍ ، قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلْأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ وَٱلْأُخْرَى ٱلْمُعَاهَدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا ، وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا ، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَٱلِاسْتِرْحَامِ . ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا !

فَيَا عَجَبًا عَجَبًا ! وَٱللهِ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ ، وَيَجْلِبُ ٱلْهَمَّ ، مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ! فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًا ، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى ، يُغَارُ

---

(١) ج مخطوطة النهج : « هذا » .

عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ ، وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى ٱللهُ وَتَرْضَوْنَ !

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ ٱلْحَرِّ قُلْتُمْ : هَٰذِهِ حَمَارَّةُ ٱلْقَيْظِ ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا ٱلْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَٰذِهِ صَبَارَّةُ ٱلْقُرِّ ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا ٱلْبَرْدُ ؛ كُلُّ هَٰذَا فِرَاراً مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْقُرِّ ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْقُرِّ تَفِرُّونَ ؛ فَأَنْتُمْ وَٱللهِ مِنَ ٱلسَّيْفِ أَفَرُّ !

يَا أَشْبَاهَ ٱلرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ! حُلُومُ ٱلْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ ؛ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً ـ وَٱللهِ ـ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً . قَاتَلَكُمُ ٱللهُ ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً ، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ ٱلتَّهْمَامِ أَنْفَاساً ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَٱلْخِذْلَانِ ؛ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ : إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَٰكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . لِلهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مُقَاماً مِنِّي ! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ ٱلْعِشْرِينَ ؛ وَهَأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى ٱلسِّتِّينَ ! وَلَٰكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ !

* * *

الشرح :

هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام ؛ قد ذكرها كثير من الناس ، ورواها أبو العباس المبرّد فى أول « الكامل » ،[1] وأسقط من هذه الرواية ألفاظا وزاد فيها ألفاظا ، وقال فى أولها :

« إنه انتهى إلى علىّ عليه السلام أنّ خيلاً وردت الأنبار لمعاوية ، فقتلوا عاملا له

(١) الكامل ١ : ٢٠ ، ٢١ ؛ يرويها عن عبيد الله بن حفص التيمى المعروف بابن عائشة

يقال له : حسّان بن حسان ، فخرج مغضبا يجرّ رداءه[(١)] ، حتى أتى النُّخيلة[(٢)] ، واتبعه الناسُ ، فرقِيَ رُباوَة[(٣)] من الأرض ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما بعد فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله الذلّ وسيما الخسفِ » .

وقال فى شرح ذلك : قوله : « وسيما الخسفِ » ، هكذا حدّثونا به ، وأظنه « سِيمَ الخسفَ » ، من قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [(٤)] . وقال : [(٥)] فإن نَصرْنا ما سمعناه ، « فسيما الخسف » [(٥)] ، تأويله علامة الخسف ، قال الله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ [(٦)] ، وقال : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [(٧)] ، وسيما مقصور ؛ وفى معناه « سيمياء » ممدود ، قال الشاعر[(٨)] :

غُــلامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يافعا ... لَهُ سِيمياءٌ لا تَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

ونحن نقول : إنّ السماع الذى حكاه أبو العباس غير مرضىّ ، والصحيح ما تضمّنه " نهج البلاغــة " وهو « سِيمَ الخسفَ » فعل ما لم يسمّ فاعله ، و « والخسفَ » منصوب ؛ لأنه مفعول ، وتأويله : أولِيَ الخسفَ وكلِّف إياه ، والخسف : الذلّ والمشقة .

وأيضا فإن فى " نهج البلاغة " لا يمكن أنْ يكون إلا كما اخترناه ؛ لأنه بين أفعال متعددة بُنيت للمفعول به ، وهى : « دُيِّثَ » و « ضُرِبَ » و « أُديل » و « مُنِــعَ » ،

---

(١) فى الـكامل : « ثوبه » .

(٢) النخيلة : اسم موضع خارج الـكوفة .

(٣) الرباوة : اسم لـكل ما ارتفع من الأرض ، كالرباة والربوة والرابية .

(٤) سورة البقرة ٤٩ .

(٥) كذا فى الأصول ، وعبارة الـكامل فيما لدينا من نسخه : « ومعنى قوله : « سيما الخسف » ، تأويله علامة ، هذا أصل هذا » .

(٦) سورة الفتح ٢٩ .

(٧) سورة الرحمن ٤١ .

(٨) فى زيادات الـكامل : « هو ابن عنقاء الفزارى فى عميلة الفزارى » ؛ وذكر بعده :

كأنّ الثريّا عُلّقَتْ فى جَبينِهِ ... وَفى أنْفِهِ الشِّعْرَى وَفى جِيدِهِ القَمَرْ

ولا يمكن أن يكون ما بين هذه الأفعال معطوفا عليها إلا مثلها ، ولا يجوز أن يكون اسما .

وأما قوله عليه السلام : « وهو لباس التقوى » ، فهو لفظة مأخوذة من الكتاب العزيز ، قال الله سبحانه : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾[1] .

والجُنّة : ما يُجْتَنّ به ، أي يستتر ، كالدّرع والحَجَفة[2] .

وتركه رغبة عنه ، أي زهداً فيه ، رغبت عن كذا ، ضدّ رغبت في كذا .

ودُيِّث بالصغار ، أي ذُلِّل ، بعير مُدَيَّث ، أي مُذَلّل ؛ ومنه الدَّيُّوث : الذى لا غيرة له ، كأنّه قد ذُلّل حتى صار كذلك .

والصَّغار : الذل والضيم .

والقَماء ؛ بالمد : مصدر قَمُؤ الرجل قَماء وقَماءة ، أي صار قميئاً ، وهو الصغير الذليل ، فأمّا قَمَأ ، بفتح الميم فمعناه سَمَن ، ومصدره القُمُوء والقموءة .

وروى الراونديّ : « وديِّث بالصغار والقما » ، بالقصر ، وهو غير معروف .

وقوله عليه السلام : « وضُرِب على قلبه بالإسهاب » ، فالإسهاب هاهنا هو ذهاب العقل ؛ ويمكن أن يكون من الإسهاب الذى هو كثرة الكلام ؛ كأنه عوقب بأن يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته .

قوله : « وأديل الحق منه بتضييع الجهاد » ، قد يظنّ ظان[3] أنه يريد عليه السلام : وأُدِيلَ الحق منه بأن أُضيعَ جهادُه ؛ كالباءات المتقدمة ، وهى قوله : « ودُيِّث بالصغار » ، و « ضُرِب على قلبه بالإسهاب » . وليس كما ظنّ ، بل المراد : وأُدِيل الحقّ منه

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ . (٢) الحجفة : ضرب من الترسة ، وقيل : هى من الجلود خاصة .

(٣) ب ، ج : « فلان » ، وما أثبته عن ا .

لأجل تضييعه الجهاد ، فالباء هاهنا للسببية ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾[١].

والنَّصَف : الإنصاف . وعُقْر دارهم ، بالضم : أصل دارهم ، والعُقْر : الأصل ، ومنه العَقَار للنخل ، كأنه أصل المال . وتواكلتم ، من وكلت الأمرَ إليك ووكلته إلىّ ، أى لم يتولّه أحد منّا ، ولكن أحال به كلٌّ واحد على الآخر ، ومنه رجل وُكَل ، أى عاجز يكِلُ أمرَه إلى غيره ، وكذلك وُكَلة .

وتخاذلتم ، من الخِذْلان .

وشُنّت عليكم الغارات : فُرِّقت ، وما كان من ذلك متفرّقا نحو إرسال الماء على الوَجْه دَفْعة بعد دفعة ، فهو بالشين المعجمة ، وما كان إرسالا غيرَ متفرِّق ، فهو بالسين المهملة ؛ ويجوز شَنّ الغارة وأشنّها .

والمسالح: جمع مَسْلحة ، وهى كالثغر والمرقَب ، وفى الحديث: «كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العُذَيب »[٢]. والمعاهِدة : ذاتُ العَهْد ، وهى الذمّيّة . والحِجْل : الخلخال ، ومن هذا قيل للفرس محجّل ، وسُمّى القيد حِجْلا ، لأنه يكون مكان الخلخال . ورُعُثها: شُنُوفها ، جمع رِعاث بكسر الراء ، ورِعاث : جمع رَعْثة ، فالأول مثلُ خِمار وخُمُر ، والثانى مثل جَفْنة وجِفَان . والقُلُب : جمعُ قُلْب ، وهو السوار المصمَت . والاسترجاع ، قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[٣]. والاسترحام : أن تناشدَه الرحم . وانصرفوا وافرين ، أى تامّين ، وَفَرَ الشىء نفسُه أى تَمّ فهو وافر ، ووَفَرْتُ الشىء ، متعدّ ، أى أتممته .

وفى رواية المبرّد« موفورين » ، قال : من الوفر ، أى لم ينَلْ أحدمنهم بأن يُرْزَأ[٤] فى بدن أو مال .

---

(١) سورة الأنعام ١٤٦ .

(٢) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٣) سورة البقرة ١٥٦

(٤) لم يرزأ ؛ من الرزء وهو المصيبة .

وفى رواية المبرد أيضا : « فتوا كَلْمِ وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهريا » ، قال : أى رميتمُ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه ، يقال فى المثل : لا تجعَلْ حاجتى منك بظَهْرٍ ، أى لا تطرحها غيرَ ناظر إليها ، قال الفرزدق :

تَمِيمُ بنَ مُرٍّ لا تكونَنَّ حاجَتِي ... بِظَهْرٍ ولا يَعْيا عَلَيْكَ جَوَابُهَا(١)

والكَلْمُ : الجراح . وفى رواية المبرد أيضا : « مات من دون هذا أسفا » ، والأسف : التحسر . وفى رواية المبرد أيضاً : « من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم » ، أى من تعاونهم وتظاهرهم . وفى رواية المبرد أيضا : « وَفَشَلِكم عن حقكم » ، الفشل : الجبن والنُّكولُ عن الشىء . فقبحا لكم وَتَرَحا ، دعاء بأن ينحّيَهم الله عن الخير ، وأن يخزيهم ويسوءهم .

والغَرَض : الهدف . وحَمَارَّة القيظ ، بتشديد الراء : شدّةُ حَرِّه . وَيُسَبِّخُ عَنّا الحرَّ ، أى يخفّ ، وفى الحديث أنّ عائشة أكثرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئا ، فقال لها النبى صلى الله عليه وآله : « لا تُسَبِّخى عنه بدعائك » .

وصبارّة الشتاء ، بتشديد الراء : شدّة برده ، ولم يرو المبرّد هذه اللفظة ، وروى : « إذا قلتُ لكم اغزُوهم فى الشتاء قلتم هذا أوان قرّ وصِرّ ، وإن قلتُ لكم اغزُوهم فى الصيف قلتم هذه حَمَارّة القيظ أنظِرْنا ينصرمْ عنّا الحر » . الصِّر : شدّة البرد قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾(٢) .

ولم يروِ المبرّد : « حُلوم الأطفال » ، وروى عِوَضها : « ياطَغام الأحلام » ، وقال : الطَّغام : من لا معرفة عنده ، ومنه قولهم : « طغام أهل الشام » .

وربّاتِ الحِجال : النساء ، [والحِجال] جمع حَجَلة ، وهى بيت يزيَّن بالستور والثياب والأسرّة

---

(١) اللسان ٦ : ١٩٥ وروايته : « تميم بن قيس » ، ورواية الديوان ٩٥ :

تَمِيمَ بنَ زَيْدٍ لَا تَهُونَنَّ حاجَتِي ... لَدَيْكَ ، وَلَا يَعْيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

وبهذه الرواية لاشاهد فيه لهذا الموضع .

(٢) سورة آل عمران ١١٧ .

والنَّدَم : الحزن والغيظ . والقَيْح ما يكون فى القُرْحة من صديدها .

وشحنتم : ملأتم .

والنُّغَب : جمع نَغْبة وهى الجَرْعة . والتَّهمام ، بفتح التاء : الهمّ ، وكذلك كلّ « تَفْعال » ، كالترداد ، والتَّكرار ، والتَّجوال ، إلا التِّبيان والتِّلقاء ، فإنهما بالكسر .

وأنفاساً ، أى جَرْعة بعد جَرْعة ، يقال : اكرع فى الإناء نَفَسين أو ثلاثة .

وذَرّفت على الستين ، أى زدت . ورواها المبرد : « نَيّفت » .

وروى المبرّد فى آخرها: فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال : يا أمير المؤمنين، إنى وأخى هذا ، كما قال الله تعالى:﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ (١)،فمرنا بأمرك ،فوالله لننتهينّ إليه ولو حال بيننا وبينه جَمْر الغضا وشوك القتاد . فدعا لهما بخير وقال: وأين تقعان مما أريد ! ثم نزل .

***

[استطراد بذكر كلام لابن نُباتة فى الجهاد]

واعلم أنّ التحريضَ على الجهاد والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثروا ، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فمن جَيّد ذلك ماقاله ابنُ نُباتة (٢) الخطيب : أيها الناس ،إلى كم تَسْمعون الذِّكر فلا تعُون ، وإلى كم تُقرعون بالزَّجرفلا تُقلِعون! كأنّ أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبكم بها استكبارٌ عن الحِفْظ ، وعدوّكم يعمل

(١) سورة المائدة ٢٥ .

(٢) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقى ؛ كان خطيب حلب ، وبها اجتمع مع أبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ؛ فكثرت خطبه فى الجهاد ليحض الناس على نصر سيف الدولة ، توفى سنة ٣٧٤ . ونباتة ، بضم النون وفتح الباء . ابن خلكان ١ : ٢٨٣ — ٢٨٤ .

فى دِيارِكم عَمَلَه ، ويبلغ بتخلُّفكم عن جهاده أمله ، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقّه فخالفتموه ، وهذه البهائمُ تناضلُ عن ذِمارها ، وهذه الطير تموت حَمِيّة دون أوكارها ، بلا كتاب أنزل عليها ، ولا رسولٍ أرسِل إليها . وأنتم أهلُ العقول والأفهام ، وأهلُ الشرائع والأحكام ، تَنِدّون من عدوّكم نَدِيد الإبل ، وتدَّرِعون له مدارع العجز والفَشَل ، وأنتم والله أولى بالغزو إليهم ، وأحرى بالمُغار عليهم ، لأنكم أمناء الله على كتابه ، والمصدّقون بعقابه وثوابه ، خصّكم الله بالنجدة والباس ، وجعلكم خيرَ أمّة أُخرِجَتْ للناس ؛ فأين حَمِيّة الإيمان ؟ وأين بصيرةُ الإيقان ؟ وأين الإشفاق من لهب النيران ؟ وأين الثقة بضمان الرحمن ؟ فقد قال الله عز وجل فى القرآن : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾(١) ؛ فاشترط عليكم التقوى والصبر ، وضَمِن لكم المعونةَ والنصر ؛ أفتتّهِمُونه فى ضَمانه ! أم تشكّون فى عدله وإحسانه ! فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نَقِيّة ، ونفوسٍ أبيّة ، وأعمال رضيّة ، ووجوه مُضِيئة ؛ وخذوا بعزائم التّشمير ، واكشفوا عن رءوسكم عارَ التقصير ، وهَبُوا نفوسَكم لمن هو أملَكُ بها منكم ، ولا تركنوا إلى الجزَع فإنه لا يدفع الموت عنكم ، ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾(٢) . فالجهادَ الجهادَ أيها الموقِنُون ، والظفرَ الظفرَ أيها الصابرون ! والجنة الجنة أيّها الراغبون ! والنارَ النارَ أيها الراهبون ! فإن الجهاد أثبتُ قواعدِ الإيمان ، وأوسعُ أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان ، وإنّ مَنْ ناصح الله لَبَيْنَ منزلتَيْن مرغوبٍ فيهما ، مجمَع على تفضيلهما : إما السعادة بالظّفَر فى العاجل ، وإما الفوز بالشهادة فى الآجل ؛ وأكرمُ المنزلتين إليكم أعظمُهما نعمة

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٦ .

عليكم ، فانصروا الله فإنّ نصرَه حِرْزٌ من المهلكات حريز ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إنّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[1] ﴾ .

هذا آخر خطبة ابن نُباتة ، فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الإنصاف ، تجدها بالنسبة إليها كمخنّث بالنسبة إلى فحل ، أو كسيفٍ من رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد . وانظرْ ما عليها من أثر التوليد وشَيْن التكلّف وفجاجة كثير من الألفاظِ ؛ ألا ترى إلى فجاجة قوله : « كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ » ! وكذلك ليس يخفى نزول قوله : « تنِدُّون من عدوّكم نديد الإبل ، وتدّرعون له مدارع العجز والفشل » .

وفيها كثير من هذا الجنس ، إذا تأمله الخبير عرفه ، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ألا ترى أن قوله عليه السلام : « أما بعد ، فإن الجهادَ باب من أبواب الجنة » ، قد سرقه ابن نُباتة . فقال : « فإنّ الجهاد أثبتُ قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان » ! وقوله عليه السلام : « مِن اجتماع هؤلاء على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم » ، سرقه أيضا ، فقال : « صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندَبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه » . وقوله عليه السلام « قد دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم . . . » إلى آخره ، سرقه أيضا فقال : « كم تسمعون الذِّكر فلا تعُون ! وتقرَّعون بالزجر فلا تقلِعون » ! وقوله عليه السلام « حتى شُنَّتْ عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان » ، سرقه أيضا وقال : « وعدوّكم يعمل في دياركم عمله ، ويبلغ بتخلّفكم عن جهاده أمله » . وأما باقي خطبة ابن نُباتة فسروق من خُطَب لأمير المؤمنين عليه السلام أُخَرَ ، سيأتي ذكرها.

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

واعلم أنى أضرب لك مثلا تتخذه دستورا فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكلام الكتّاب والخطباء بعده كابن نُباتة والصابى وغيرهما! انظر نسبةَ شعر أبى تمام والبحترىّ وأبى نواس ومسلم، إلى شعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى؛ هل إذا تأمّلت أشعار هؤلاء وأشعار هؤلاء، تجد نفسك حاكمةً بتساوى القبيلين أو بتفضيل أبى نواس وأصحابه عليهم؟ ما أظنّ أنّ ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك، ولا يقوله إلا مَنْ لا يعرف علم البيان، وماهية الفصاحة، وكُنهَ البلاغة، وفضيلة المطبوع على المصنوع، ومزيّة المتقدم على المتأخر، فإذا أقررتَ من نفسك بالفرق والفضل، وعرفت فضلَ الفاضل ونقص الناقص، فاعلم أنّ نسبة كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هؤلاء هذه النسبة، بل أظهر، لأنك تجدُ فى شعر امرئ القيس وأصحابه من التّعجرُف والكلام الحُوشِىّ، واللفظ الغريب المستكره شيئا كثيرا؛ ولا تجد من ذلك فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئا، وأكثرُ فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك.

فإن شئت أن تزدادَ استبصارا، فانظر القرآن العزيز ـ واعلم أنّ الناسَ قد اتفقوا على أنه فى أعلى طبقات الفصاحة ـ وتأمّله تأملا شافيا، وانظر إلى ما خُصّ به من مزية الفصاحة والبعد عن التقعير والتقعيب[1] والكلام الوحشىّ الغريب، وانظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام، فإنك تجدُه مشتقًّا من ألفاظه، ومقتَضَبا من معانيه ومذاهبه، ومحذوًّا به حذوَه، ومسلوكا به فى منهاجه، فهو وإن لم يكن نظيرا ولا ندّا، يصلُح أن يقال إنه ليس بعده كلامٌ أفصح منه ولا أجزل، ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل، إلا أن يكونَ كلام ابن عمه عليه السلام، وهذا أمر لا يعلمه إلا مَنْ ثبتت له قدم راسخة فى علم هذه الصناعة، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر، بل ولا لانتقاد الذهب، ولكل صناعة أهل، ولكل عمل رجال.

* * *

ومن خطب ابن نُباتة التى يحرّض فيها على الجهاد:

(١) التقعير: التعمق فى الكلام والتشدق به، ومثله التقعيب.

«ألا وإنّ الجهاد كنزٌ وفّر الله منه أقسامكم، وحِرزٌ طهّر الله به أجسامكم ، وعزٌّ أظهرَ الله به إسلامَكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعا وثُباتٍ[1]، وشُنّوا على أعدائكم الغارات، وتمسكوا بعِصَم الإقدام ومعاقل الثّبات ، وأخلصوا فى جهاد عدوكم حقائق النّيات ، فإنه والله ماغُزِى قوم فى عُقْر دارهم إلا ذَلّوا ، ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلّوا . واعلموا أنّه لا يصلح الجهادُ بغير اجتهاد ، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدّموا مجاهدةَ القلوب ، قبل مشاهدةِ الحروب ، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء ، وبادروا بإصلاح السرائر ؛ فإنها من أنفس العدد والذخائر ، واعتاضوا من حياة لابدّ من فنائها ، بالحياة التى لا ريب فى بقائها ، وكونوا ممن أطاع الله وشمّر فى مرضاته ، وسابِقوا بالجهاد إلى تملك جنّاته ؛ فإن للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحتهُ زحف الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات فى معترك القتال ، ومدخله من مشرعةِ الصوارم والنبال» .

فلينظر الناظر فى هذا الكلام ، فإنه وإن كانَ قد أخذَ من صناعة البديع بنصيب ؛ إلا أنّه فى حضيض الأرض وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى أوْج السماء ، فإنه لا ينكر لزومُه فيه لما لا يلزمه اقتدارا وقوة وكتابة ، نحو قوله : « كنز » فإنّه بإزاء « حرز » و « عز » ، وقوله : «مشاهدة» بإزاء قوله : « مجاهدة » ، « ومغالبة » بإزاء « محاربة» ، و « حدوده » بإزاء « تشييده » ، لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كدار مبنيّة من اللِبن والطين ، مموّهة الجدران بالنقوش والتصاوير ، مزخرفة بالذهب من فوق الجصّ والإسفيداج[2] ، بالقياس إلى دار مبنيّة بالصخر الأصمّ الصّلد، المسبوك بينه عمد الرصاص والنحاس للذاب ، وهى مكشوفة غير مموّهة ولا مزخرفة. فإن بين هاتين الدارين بوْنا بعيدا ، وفرقا عظيما . وانظر قوله : «ماغُزِىَ قوم فى عُقْر دارهم إلا ذلّوا» ، كيف تَصيحُ من بين الخطبة صياحا ، وتنادى على نفسها نداء فصيحا ، وتُعلِم سامعَها أنها ليست من المعدن

(١) ثبات : جماعة بعد جماعة .

(٢) الإسفيداج : رماد الرصاص .

الذى خرج باقى الكلام منه ، ولا من الخاطر الذى صدر ذلك السجع عنه ، ولعمر الله لقد جمّلت الخطبةَ وحسَّنتْها وزانتها ، وما مثلُها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يُتمثّل بها فى رسالة أو خطبة ، فإنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تُزْهِر وتنير ، وتقوم بنفسها وتكتسى الرسالة بها رونقا ، وتكتسب بها ديباجة .

وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التى تكلّفها ليوازنها بها ، وهى قوله : « ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلُّوا » ، فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلّف والغثاثة مايقوِّى عندك صدق ماقلتهُ لك .

على أنّ فى كلام ابن نُباتة فى هذا الفصل ماليس بجيّد ، وهو قوله : « وحرز طهَّر الله به أجسامكم » فإنه لا يقال فى الحرز : إنه يُطهِّر الأجسام ، ولو قال عوض « طهَّر » : حصَّن الله به أجسامكم ، لكان أليق ، لكنه أراد أن يقول : « طهَّر » ليكون بإزاء « وفَّر » وبإزاء « أظهر » ، فأدّاه حبُّ التقابلُ إلى ماليس بجيّد .

[غارة سفيان بن عوف الغامدىّ على الأنبار]

فأما أخو غامد الذى وردتْ خيله الأنبار ، فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدىّ ، وغامد قبيلة من اليمن ، وهى من الأزد ؛ أزد شنوءة . واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وسُمِّى غامدا لأنه كان بين قومه شرّ فأصلحه وتغمّدهم بذلك .

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفىّ[1] فى كتاب " الغارات " ، عن أبى الكنود ، قال : حدّثنى سفيان بن عوف الغامدىّ ، قال : دعانى معاوية ، فقال : إنى باعثك فى جيش كثيف ، ذى أداةٍ وجَلادة ، فالزم لى جانب الفُرات ، حتى تمرّ بهيت[2]

---

(١) إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد الثقفى ؛ من علماء أصبهان ، ذكره أبو نعيم فى تاريخه وقال : كان غاليا فى الرفض ، مات سنة ٢٨٠ هـ . لسان الميزان ١ : ١٠٢ .

(٢) هيت : بلد على الفرات فوق الأنبار .

فتقطعها ، فإن وجدت بها جندا فأغِرْ عليهم ؛ وإلا فامضِ حتى تغير على الأنبار ، فإن لم تجد بها جندا فامضِ حتى توغل فى المدائن ؛ ثم أقبل إلىّ واتق أن تقرب الكوفة . واعلم أنك إن أغرتَ على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة ؛ إنّ هذه الغارات ياسُفيان على أهل العراق تُرَعّبُ قلوبَهم ، وتفرح كلَّ مَنْ له فينا هوًى منهم، وتدعو إلينا كلَّ من خاف الدوائر ؛ فاقتل مَنْ لقيتَه ممن ليس هو على مثل رأيك ، وأخرب كلَّ مامررتَ به من القرى ، واحرب الأموال ، فإنّ حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب .

قال : فخرجتُ من عنده فعسكرت ، وقام معاوية فى الناس فخطبهم ، فقال : أيها الناسُ ، انتدِبوا[1] مع سفيان بن عوف ، فإنّه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة فيه أوْبتكم إن شاء الله . ثم نزل .

قال : فوالذى لا إله غيره مامرَّتْ ثالثة حتى خرجت فى ستة آلاف ، ثم لزمت شاطئَ الفرات ، فأغذَذْتُ السير حتى أمُرَّ بهيت ، فبلغهم أنى قد غشيتهم فقطعوا الفرات ، فمررت بها وما بها عَريب ،[2] كأنها لم تُحْلَلْ قطّ ، فوطئتُها حتى أمرّ بصندوداء[3]، ففرّوا فلم ألق بها أحدا ، فأمضى حتى أفتتحَ الأنبار ، وقد نَذِرُوا بى ، فخرجَ صاحب المسلحة إلىّ ، فوقف لى فلم أقدم عليه حتى أخذت غلمانا من أهل القرية ، فقلت لهم : أخبرونى، كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام ؟ قالوا : عدّة رجال المسلحة خمسمائة ، ولكنهم قد تبدّدُوا ورجعوا إلى الكوفة ؛ ولا ندرى الذى يكون فيها ، قد يكون مائتى رجل؛ فنزلت فكتّبتُ أصحابى كتائب ، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبةً بعد كتيبة فيقاتلهم والله ويصبر لهم ، ويطاردهم ويطاردونه فى الأزقّة ، فلما رأيتُ ذلك أنزلتُ إليهم نحواً من مائتين ،

(١) انتدبوا : خفوا للقتال .

(٢) عريب : أى ما بها أحد .

(٣) صندوداء : قرية كانت فى غربى الفرات فوق الأنبار .

وأتبعتهم الخيل ، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشى ؛ لم يكن شىء حتى تفرقوا ، وقُتِل صاحبهم فى نحوٍ من ثلاثين رجلا ، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال ؛ ثم انصرفت ، فوالله ماغزوتُ غزاةً كانت أسلمَ ولا أقرّ للعيون ، ولا أسرّ للنفوس منها . وبلغنى والله أنها أرعبتِ الناس ، فلما عدت إلى معاوية ؛ حدثته الحديث على وجهه ، فقال : كنتَ عند ظنّى بك ، لاتنزل فى بلد من بلدانى إلا قضيتَ فيه مثل مايقضى فيه أميرُه ، وإن أحببت توليته وليتُك ، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دونى .

قال : فوالله مالبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجالَ أهلِ العراق يأتوننا على الإبل هُرّابا من عسكر علىّ عليه السلام .

قال إبراهيم : كان اسم عامل علىّ عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسّان البكرىّ .

* * *

وروى إبراهيم عن عبدالله بن قيس ، عن حبيب بن عفيف ، قال : كنتُ مع أشرس بن حسّان البكرىّ بالأنبار على مسلحتها ، إذ صبّحنا سفيان بن عوف فى كتائب تلمعُ الأبصارُ منها ، فهالُونا والله ، وعلِمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يَد ، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرّقنا فلم يلقهمْ نصفُنا ، وايمُ الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم ؛ حتى كرهونا ، ثم نزل صاحبنا ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] . ثم قال لنا : مَنْ كان لايريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج عن القرية مادمنا نقاتِلهم ، فإنّ قتالَنا إياهُمْ شاغل لهم عن طلب هارب ، ومن أراد ماعند الله فما عند الله خير للأبرار . ثم نزل فى ثلاثين رجُلاً ، فهممت بالنزول معه ، ثم أبتْ نفسى ، واستقدم هو وأصحابه ، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله ، وانصرفنا نحن منهزمين .

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

قال إبراهيم: وقَدِم[1] عِلجٌ من أهل الأنبار على علىّ عليه السلام ، فأخبره الخبر، فصعِد المنبر فخطب الناس ، وقال :

إنّ أخاكم البكرىّ قد أصيب بالأنبار ،وهو معترّ لايخاف ما كان ،واختار ماعندالله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حتى تلاقُوهم ، فإن أصبتم منهم طرفا أنْكَلتُموهم عن العراق أبدا مابقُوا .

ثم سكت عنهم رَجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم ، فلم ينبِس أحدٌ منهم بكلمة ، فلما رأى صَمْتَهم نزل ، وخرج يمشى راجلا حتى أتى النُّخَيْلة ، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم ، فقالوا : ارجع ياأميرَ المؤمنين ونحن نكفيك ، فقال : ماتَكفونَنى ولا تَكْفُون أنفسكم ! فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله ، فرجع وهو واجم كئيب ، ودعا سعيد بن قيس الهمْدانىّ ،فبعثه من النُّخَيلة فى ثمانية آلاف ، وذلك أنه خُبر أن القوم جاءوا فى جمع كثيف .

فخرج سعيد بن قيس على شاطىء الفُرات فى طلب سفيان بن عوف ؛ حتى إذا بلغ عانات[2] ، سرّح أمامه هانئ بن الخطاب الهمْدانىّ ، فاتّبع آثارهم حتى دخل أدانِىَ أرض قنّسرين وقد فاتوه ، فانصرف .

قال: ولبث علىّ عليه السلام ، تُرى فيه الكآبة والحزن ،حتى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان تلك الأيام عليلا ، فلم يقْوَ على القيام فى الناس بما يريده من القول ، فجلس بباب السُّدّة التى تصل إلى المسجد ، ومعه ابناه حسن وحسين عليهما السلام ، وعبدالله بن جعفر، ودعا سعدا مولاه ، فدفع إليه الكتاب ، وأمره أن يقرأه على الناس ، فقام سعد بحيث يستمع علىّ عليه السلام صوتَه ، ويسمع مايردّ الناس عليه ، ثم قرأ هذه الخطبة التى نحن فى شرحها .

***

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .
(٢) عانات : بلد بين الرقة وهيت قريبة من الأنبار .

وذكر أنّ القائم إليه ، العارض نفسه عليه جندَب بن عفيف الأزدىّ، هو وابن أخ له يقال له : عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف .

قال : ثم أمر الحارث الأعور الهمدانىّ، فنادى فى الناس : أين مَنْ يَشْتَرى نفسَه لربه ويبيع دنياه بآخرته ؟ أصبحوا غداً بالرَّحبة إن شاء الله، ولا يحضُر إلاصادق النّيّة فى السير معنا ، والجهاد لعدوّنا فأصبح وليس بالرّحبة إلادُون ثلاثمائة ، فلما عرضهم، قال : لو كانوا ألفا كان لى فيهم رأى .

وأتاه قوم يعتذرون ، فقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ [1] ، وتخلّف المكذّبون، ومكث أياما باديًا حزنه شديد الكآبة ، ثم جمع الناس فخطبهم فقال : أما بعد ، أيّها الناس، فوالله لأهلُ مصركم فى الأمصار أكثرُ من الأنصار فى العرب، وما كانوا يوم أعطَوا رسول الله صلى الله عليه أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلّغ رسالات ربّه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما، ماهما بأقدَمِ العرب ميلادا ، ولا بأكثرهم عددا . فلما آووا النبى صلى الله عليه وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ، رمتْهم العرب عن قوس واحدة ، فتحالفت عليهم اليهود ، وغزتْهم القبائل قبيلةً بعد قبيلة، فتجرّدُوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من الحِلْف، ونصبوا لأهل نجد وتِهامة وأهل مكّة واليمامة، وأهل الحزْن والسهل، وأقاموا قَناة الدين، وصبروا تحت حَماس الجلاد، حتى دانت العرب لرسول الله صلى الله عليه، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عزّ وجل إليه، وأنتم اليوم فى الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان فى العرب .

فقام إليه رجُل آدمُ طُوال ، فقال : ما أنت بمحمد ، ولا نحن بأولئك الذين

---

(١) سورة التوبة ٩٠ .

ذكرتَ ، فقال عليه السلام: أحسِن سَمْعاً تُحسِنْ إجابة! ثـكلتكم الثواكل ! ماتزيدونني إلا غمّاً ! هل أخبرتكم أنى محمد ، وأنكم الأنصار ! إنما ضربت لكم مثلا ، وإنما أرجو أن تتأسّوا بهم .

ثم قام رجل آخر ، فقال: ما أحوجَ أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النَّهْرَوَان .

ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا ، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته : استبان فَقْدُ الأشتر على أهل العراق ! أشهد لو كان حيًّا لقلّ اللَّغط ، ولعلم كلّ امرئ مايقول .

فقال علىّ عليه السلام : هبلتكم الهوابل ! أنا أوْجَبُ عليكم حقا من الأشتر ؛ وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم ! .

فقام حُجْر بن عدىّ الكندىّ وسعيد بن قيس الهَمْدَانىّ ، فقالا : لايسوءك الله ياأمير المؤمنين ، مُرْنَا بأمرك نتبعه ، فوالله مانعظِم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتِلتْ فى طاعتك . فقال : تجهّزوا للسير إلى عدوّنا .

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه ، قال لهم : أشيروا علىّ برجل صَليب ناصح ، يحشر الناس من السّواد . فقال له سعيد بن قيس : يا أمير المؤمنين ، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب ، معقِل بن قيس التميمى ، قال : نعم .

ثم دعاه فوجهه ، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام .

(٢٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ [1] ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ ، وَغَداً السِّبَاقُ ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ .

أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ ! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ !

أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ ، مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ ؛ فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ . وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ .

أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ ، كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ .

أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا ، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا .

أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى ، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى .

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ؛ وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً .

* * *

---

(١) ا : « على اطلاع » .

قال الرضى رحمه الله :

وَأَقُولُ : إِنَّهُ لَوْ كَانَ كَلامٌ يَأْخُذ بِالأَعْنَاقِ إِلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنيا ، وَيَضْطَرُّ إِلَى عَمَلِ الآخِرَةِ لَكَانَ هَذَا الكَلامَ . وَكَفَى بِهِ قَاطِعاً لِعَلائِقِ الآمال ، وَقَادِحاً زِنَادَ الاتِّعَاظِ وَالازْدِجار . ومن أَعْجَبِهِ قوله عَلَيهِ السَّلَام : « أَلَا وَإِنَّ اليَوْمَ المِضْمَارَ وَغَداً السِّبَاقَ ، وَالسَّبَقَةَ الجَنَّةُ وَالغَايَةُ النَّار » ، فَإِنَّ فِيهِ مَعَ فَخَامَةِ اللَّفظِ ، وَعِظَمِ قَدْرِ المَعْنَى ، وَصَادِقِ التَّمْثِيلِ ، وَوَاقِعِ التَّشْبِيهِ ، سِرًّا عَجِيباً ، وَمَعْنًى لَطِيفاً ، وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ « وَالسَّبَقَةُ الجَنَّةُ وَالغَايَةُ النَّار » ، فَخَالَفَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ لاخْتِلَافِ المَعْنَيَيْنِ ، وَلَمْ يَقُلْ « السَّبَقَةُ النَّارُ » كَمَا قَالَ : « السَّبَقَةُ الجَنَّةُ » لِأَنَّ الاسْتِبَاقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى أَمْرٍ مَحْبُوبٍ وَغَرَضٍ مَطْلُوب ، وَهَذِهِ صِفَةُ الجَنَّةِ ، وَلَيْسَ هذا المَعْنَى موجُوداً فى النَّار ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهَا ! فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَقُولَ : « والسَّبَقَةُ النَّارُ » بلْ قال: « وَالغَايَةُ النَّار » ، لِأَنَّ الغَايَةَ قَدْ يَنْتَهِي إِلَيهَا مَنْ لَا يَسُرُّهُ الانْتِهاء إليها ، وَمَنْ يَسُرُّهُ ذَلِكَ فَصَلَحَ أَنْ يُعَبِّرَ بِهَا عَنِ الأَمْرَيْنِ مَعاً ، فَهِيَ فِي هَذَا المَوْضِعِ كَالمَصِيرِ وَالمَآلِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾(١) ، وَلَا يَجُوزُ فِي هَذَا المَوْضِعِ أَنْ يُقَال : فَإِنَّ « سَبْقَتَكُمْ إِلَى النَّارِ » . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فَبَاطِنُهُ عَجِيب ، وَغَوْرُهُ بَعِيدٌ لَطِيفٌ ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ كَلَامِهِ عَلَيهِ السَّلَام .

* * *

وَفى بَعْضِ النُّسَخِ ، وَقَدْ جَاء فى رِوَايَةٍ أُخْرَى « وَالسُّبْقَةُ الجَنَّةُ(٢) » بضمِّ السّين ، والسُّبْقَةُ عِنْدَهُمْ : اسْمٌ لِمَا يُجْعَلُ لِلسَّابِقِ ، إِذَا سَبَقَ مِنْ مال أَوْ عَرَض ؛ وَالمَعْنَيَان مُتَقَارِبَانِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ جَزَاء عَلَى فِعْلِ الأَمْرِ المَذْمُوم ، وَإِنَّمَا يَكُونُ جَزَاء عَلَى فِعْلِ الأَمْرِ المَحْمُود .

---

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .
(٢) وهى رواية مخطوطة النهج .

الشّرح

آذنت : أعلمت . والمضمار ؛ منصوب ، لأنّه اسم « إنّ » . واليوم ظرف ، وموضعه رفع ، لأنّه خبر « إن » ، وظرف الزمان يجوز أن يكون خبرا عن الحدَث ، والمضمار : وهو الزمان الذى تضمّر فيه الخيل للسباق ، والضّمْر : الهزال وخفة اللّحم . وإعراب قوله : « وغدا السباق » ؛ على هذا الوجه أيضا .

ويجوز الرّفع فى الموضعين على أن تجعلهما خبر « إنّ » بأنفسهما .

وقوله عليه السلام : « ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه » أخذه ابن نُباتة مصالتةً[1] ، فقال فى بعض خطبه : « ألا عاملٌ لنفسه قبل حلول رَمْسِه » .

قوله : « ألا فاعملوا فى الرغبة » ، يقول : لا ريب أنّ أحدَكم إذا مسّه الضُّر من مرض شديد ، أو خوف مُقْلِق ، من عدوّ قاهر ؛ فإنه يكون شديد الإخلاص والعبادة ، وهذه حال من يخاف الغرق فى سفينة تتلاعب بها الأمواج ، فهو عليه السلام أمر بأن يكون المكلّف عاملا أيام عدم الخوف ، مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام هذه العوارض .

قوله : « لم أر كالجنة نام طالبها » ؛ يقول : إنّ مِن أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام ! ومن أعجب العجائب من يوقن بالنار ، كيف لا يهرب منها وينام ! أى لا ينبغى أن ينام طالب هذه ولا الهارب من هذه .

وقد فسر الرضىّ رحمه الله تعالى معنى قوله : « والسبَقة الجنة » .

[نبذ من أقوال الصالحين والحكماء]

ونحن نورد فى هذا الفصل نكتا من مواعظ الصالحين يرحمهم الله، تناسب هذا المأخذ . فما يؤثر عن أبى حازم الأعرج — كان فى أيام بنى أمية — قوله لعمر بن عبد العزيز ،

(١) المصالتة عند الشعراء ، أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى ؛ وهى من أقبح السرقات الشعرية ، من الصلت بمعنى اللص .

وقد قال له : يا أبا حازم ، إنى أخافُ الله مما قد دخلتُ فيه ، فقال : لست أخاف عليك أن تخاف ؛ وإنما أخاف عليك ألاّ تخاف .

وقيل له : كيف يكون الناسُ يوم القيامة ؟ قال : أما العاصى فآبقٌ قُدِم به على مولاه ، وأما المطيع فغائب قَدِم على أهله .

ومن كلامه : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ؛ أما أمسِ فلا يجدون لذته ، ولا أجد شدّتَه ، وأما غدا فإنى وإيام منه على خطر ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون !

ومن كلامه : إذا تتابعتْ عليك نِعَمُ ربك وأنت تعصيه فاحْذَره .

وقال له سليمان بن عبد الملك : عِظْنى ، فقال : عَظّم ربَّك أن يراك حيث نهَاك ، أو يفقِدك حيث أمرك .

وقيل له : ما مالك ؟ قال : شيآن لا عُدْم بى معهما : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس .

ومن كلامه : عجبا لقوم يعملون لدارٍ يَرْحلون عنها كلّ يوم مرحلة ، ويتركون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة !

ومن كلامه : إن عوفينا من شرّ ما أعطانا ، لم يضرّنا فَقْدُ ما زُوِىَ عنا .

ومن كلامه : نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوب ، ونحن لا نتوب حتى نموت .

ولما ثقِلَ عبدُ الملك رأى غسالاً يلوِى بيده ثوبًا ، فقال : وددت أنى كنت غسالا مثل هذا ، أعيش بما أكتسب يوما فيوما ؛ فذكِرَ ذلك لأبى حازم ، فقال : الحمد لله الذى جعلهم عند الموت يتمنّوْن ما نحن فيه ، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه .

* * *

ومن كلام غيره من الصالحين : دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك

فى الكعبة ، فكلمه هشام ، ثم قال له : سَلْ حاجَتك ، قال : معاذ الله أن أسأل فى بيت الله غيرَ الله .

وقيل لرابعة القَيْسِيّة : لو كلّمتِ أهلَكِ أن يشترُوا لك خادما يكفيكِ مؤنة بيتك ! قالت : إنّى لأستحى أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها ، فكيف مَنْ لا يملكها !

وقال بكر بن عبد الله : أطفئوا نارَ الغضب بذكْر نار جهنم .

عامر بن عبد القيس : الدّنيا والدة للموت ، ناقضة للمبْرَم ، مرتجعة للعطية ، وكلّ مَنْ فيها يجرى إلى مالا يدرى ، وكلّ مستقرّ فيها غير راضٍ بها ؛ وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار .

باع عتبة بن عبد الله بن مسعود أرضاً له بثمانين ألفاً ، فتصدّق بهـا ، فقيل له : لو جعلتَ هذا المال أو بعضه ذُخراً لولدك ! قال : بل أجعل هذا المال ذُخراً لى ، وأجعل الله تعالى ذُخراً لولدى .

رأى إياس بن قتادة شيبةً فى لحيته ، فقال : أرى الموت يطلُبنى ، وأرانى لا أفوته . فلزم بيته وترك الاكتساب . فقال له أهله : تموت هُزالا ! قال : لأنْ أموتَ مؤمناً مهزولا أحبُّ إلىّ من أعيش مُنافقا سمينا .

بكر بن عبد الله المزنىّ : ما الدّنيـا ليت شعرى ! أمّا مامَضى منها فحُلْم ، وأما مابقى فأمانىّ !

مُوَرّق العجلىّ : خيْرٌ من المُعْجَبِ بالطاعة ألّا تأتىَ بالطاعة .

ومن كلامه : ضاحِكٌ معترف بذنبه ، خير من باكٍ مُدِلٍّ على ربه .

ومن كلامه : أوحى الله إلى الدنيـا : مَنْ خَدَمنى فاخدُميه ، ومن خَدَمك فاستخدميه .

قيل لرابعة : هل عملتِ عملا ترين أنه يُقبل منك ؟ قالت : إن كان نخوفى أن يُرَدّ علىّ .

نظر حبيب إلى مالك بن دينار ، وهو يقسّم صدقته علانية ، فقال : يا أخى ، إنّ الكنوزَ لتُستَر ، فما بال هذا يُجهَرُ به !

قال عمرو بن عُبيد للمنصور : إن الله أعطاك الدنيا بأسْرِها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هـذا الذى أصبح اليوم فى يدك لو كان مما يبقى على الناس لبقى فى يد مَنْ كان قبلك ، ولم يصر إليك ، فاحـذَرْ ليلة تمخّض بيوم لا ترى بعده إلا يوم القيامة . فبكى المنصور ، وقال : ياأبا عثمان ، سلْ حاجة ، قال : حاجتى ألّا تعطيَنى حتى أسألك ، ولا تدْعنى حتى أجيئك ، قال : إذن لا نلتقى أبدا ، قال : فذاك أريد .

كان يقال : الدّنيا جاهلة ، ومن جَهلها ، أنها لا تعطى أحداً ما يستحقّه ؛ إما أن تزيدَه ، وإما أن تنقُصَه .

قيل لخالد بن صفوان : مَنْ أبلغُ الناس ؟ قال : الحسَن ، لقوله : فضح الموتُ الدنيا.

قيل لبعض الزهاد : كيف سُخْط نفسك على الدنيا ؟ قال : أيقنت أنى خارج منهـا كرها ، فأحببت أن أخرُج منها طوعا .

مرّ إبراهيم بن أدهم بباب أبى جعفر المنصور ، فنظر السلاح والحرس ، فقال : المريب خائف .

قيل لزاهـد : ما أصبرَكَ على الوحدة ! قال ، كلاّ أنا أجالسُ ربّى ، إذا شئت أن يناجيَنى قرأت كتابَه ، وإذا شئت أن أناجيَه صلّيت .

كان يقال : خف الله لقدرته عليك ، واستحِ منه لقربه منك .

قال الرشيد[1] للفُضيل بن عياض : ماأزهدك ! قال : أنت ياهارون أزهَدُ منى ، لأنى زَهِدتُ فى دنيا فانية ، وزهدتَ فى آخرةٍ باقية .

وقال الفُضَيل : يارَبِّ ، إنى لأستحيي أن أقول : توكّلت عليك ؛ لو توكلت عليك ماخفتُ إلّا منك ، ولا رجوتُ إلا إيّاك .

عوتب بعض الزهاد عَلَى كثرة التصدق بماله ، فقال : لو أراد رجل أن ينتقل من دارٍ إلى دارٍ ، ماأظنّه كان يترك فى الدار الأولى شيئا !

قال بعض الملوك لبعض الزهّاد : مالك لاتغشى بابى وأنت عَبْدى ! قال : لو علمتَ أيها الملك ، لعلمتَ أنك عبدُ عبدى ، لأنى أملِك الهوى والهوى يملِكك .

دخل متظلّم على سليمان بن عبد الملك ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، اذكر يوم الأذان ، قال : ومايومُ الأذان ؟ قال : اليوم الذى قال تعالى فيه : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ﴾[2] ، فبكى سليمان وأزال ظلامته .

سئل الفُضَيل بن عياض عن الزّهد ، فقال : يجمعه حرفان فى كتاب الله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[3] .

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرّشيد : مايمرُّ يومٌ من نعيمك إلا ويمرُّ يوم من بؤسى ، وكلاهما إلى نفاد .

قيل لحاتم الأصمّ : علام بنيتَ أمرَك ؟ قال : على أربع خصال : علمتُ أنّ رزقى لايأكله غيرى فلم أهتمّ به ، وعلمت أنّ عملى لايعمله غيرى فأنا مشغول به ، وعلمت أنّ الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى بعين الله فى كلّ حال فاستحييت منه .

---

(١) ب : « قال بعض الملوك » ، وما أثبته من ا ، ج

(٢) سورة الأعراف ٤٤ .

(٣) سورة الحديد ٢٣ .

نظر بعضُ الصالحين إلى رجل يفحُش فى قوله ، فقال : ياهذا إنما تُملى على حافظيك كتابا إلى ربك ، فانظر ماتودعه .

كان يقال : مثلُ الدنيا والآخرة مثل ضَرّتين لبعلٍ واحد ، إنْ أرضى هذه أسخط الأخرى .

قيل لبعضهم : مامَثَلُ الدنيا ؟ قال : هى أقلّ من أن يكون لها مَثَل .

دخل لصّ على بعض الزهاد الصالحين ، فلم يرَ فى داره شيئاً ، فقال له : ياهذا ، أين متاعك ؟ قال : حوّلته إلى الدار الأخرى .

قيل الربيع بن خيثم : ياربيعُ ، ماتراك تذمّ أحدا ! فقال : ما أنا عن نفسى براض ، فأتحوّل من ذمّى إلى ذمّ الناس ؛ إنّ الناس خافوا الله على ذنوب العباد وأمنوه على ذنوبهم .

قال عيسى بن موسى لأبى شيبة القاضى : لم لاتأتينا ؟ قال : إن قرّبتنِى فتنتَنى ، وإنْ أقصيتَنى أحزنْتَنى ، وليس عندى ما أخافك عليه ، ولا عندك ماأرجوك له .

من كلام بعض الزهاد : تأمّل ذا الغنى ، ما أشدّ نَصَبَه ، وأقل رَاحتَه ، وأخسّ من ماله حظَّه ، وأشدّ من الأيام حذره ! هو بين سلطانٍ يتهضّمه ، وعدوٍّ يبغى عليه ، وحقوق تلزمه ، وأكفاء يحسدونه ، وولد يودّ فراقَه ، قد بعث عليه غناه من سلطانه العَنت ، ومن أكفائه الحسَد ، ومن أعدائه البغى ، ومن ذوى الحقوق الذمّ ، ومن الولد الملالة .

ومن كلام سُفيانَ الثورىّ : يابن آدم ، جوارحك سلاح الله عليك ، بأيّها شاء قتلك .

ميمون بن مهران فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) ، قال : إنها لتعزية للمظلوم ، ووعيد للظالم .

---

(١) سورة إبراهيم ٤٢ .

دخل عبد الوارث بن سعيد على مريضٍ يعوده ، فقال له : ما نمتُ منذ أربعين ليلة ، فقال : ياهذا ، أحصيت ليالىَ البلاء ، فهل أحصيت ليالى الرخاء !

بعضُهم : واعجباه لمن يفرح بالدنيا ، فإنما هى عقوبة ذنب !

ابن السّماك : خَفِ الله حتّى كأنّك لم تُطِعْه قط ، وارْجُه حتى كأنك لم تعصه قطّ .

بعضهم : العلماء أطبّاء هذا الخلْق ، والدنيا داء هذا الخلق ؛ فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره !

قيل لمحمد بن واسع : فلان زَاهد ، قال : وما قَدْر الدنيا حتى يُحْمَدَ مَنْ يزهد فيها ؟

رُئِىَ عبد الله بن المبارك واقفا بين مقبرة ومَزْبلة ، فقيل له : ما أوقفك ؟ قال : أنا بين كنزيْن من كنوز الدنيا فيهما عِبْرة : هذا كنز الأموال ، وهذا كنز الرجال .

قيل لبعضهم : أتعبتَ نفسك ؛ فقال : راحتَها أطلب .

دخل الإسكندرُ مدينة فتحها ، فسأل عمّن بقى من أولاد الملوك بها ، فقيل : رجل يسكن المقابر ، فدعا به ، فقال : ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر ؟ فقال : أحببت أن أميّز بين عظام الملوك ، وعظام عبيدهم ، فوجدتّها سواء . فقال : هل لك أن تتّبعنى فأحيىَ شرفك وشرف آبائك ، إن كانت لك همة ! قال : همّتى عظيمة ، قال : وما همتُك ؟ قال : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم معه ، وغِنًى لا فقر معه ، وسرور لا مكروه معه ، فقال : ليس هذا عندى ، قال : فدعْنِى ألتمسه ممن هو عنده .

مات ابنٌ لعمر بن ذرّ ، فقال : لقد شغلنى الحزنُ لك يابنىّ عن الحزن عليك .

كان يقال : مِنْ هَوَان الدنيا على الله ألا يُعْصَى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلّا بتركها .

ومن كلام عبد الله بن شداد : أرى دواعى الموت لاتُقلِع ، وأرى مَنْ مَضَى لايرجع ،

فلا تزهدنّ فى معروف ، فإن الدّهر ذو صروف . كم من راغب قد كان مرغوبا إليه ! والزمانُ ذُو ألوان ، من يصحب الزمان يرَ الهوان ، وإن غُلِبتَ يوما على المال فلا تُغلَبَنّ على الحيلة على كلّ حال ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقلّ ما تكون فى الباطن مآلا .

كان يقال : إن مما يعجّل الله تعالى عقوبتَه : الأمانة تُخان ، والإحسان يُكْفَر ، والرّحم تُقْطَع ، والبغى على الناس .

الربيع بن خيثم : لو كانت الذنوب تفوح روائحُها لم يجلس أحد إلى أحد .

قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ قال : آسفا على أمسى ، كارها ليومى ، متّهما لغدى .

وقيل لآخر : لِمَ تركت الدنيا ؟ قال : أنِفتُ مِنْ قليلها ، وأنِفَ منّى كثيرُها . وهذا كما قال بعضهم ، وقد قيل له : لِمَ لا تقول الشعر ؟ قال . يأبانى جيّده ، وآبى رديئه .

بعض الصالحين : لو أنزل الله تعالى كِتابًا : « إنى معذّب رجلا واحدا » ، خِفْتُ أن أكونه ، أو إنه راحم رجلا واحدا ، لرجوت أن أكونه .

مطرّف بن الشِّخّير : خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحَقْحَقَة[1] . وهذا الكلام قد روى مرفوعا .

يحيى بن معاذ : إنّ لله عليك نعمتين : فى السراء التذكّر ، وفى الضّراء التصبّر ؛ فكن فى السرّاء عبدا شكورا ، وفى الضّرّاء حرّا صبورا .

دخل ابن السماك على الرّشيد ، فقال له : عِظْنى ، ثم دعا بماء ليشربه ، فقال له : ناشدتُك الله ؛ لو منعك الله من شربه ما كنت فاعلا ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكى . قال : فاشربه ، فلما شرب ، قال : ناشدتك الله ! لو منعك الله من خروجه ما كنت فاعلا ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكى ، قال : إنّ مُلْكا يُفْتَدى به شربة ماء ، لخليق ألّا ينافَس عليه .

قال المنصور لعمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى : عِظْنى ، قال : بما رأيتُ أم بما سمعتُ ؟

---

(١) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر .

قال : بما رأيت . قال : رأيتُ عمر بن عبد العزيز ، وقد مات ، فخلف أحد عشراً ابنا ، وبلغتْ تركتهُ سبعة عشر دينارا ، كُفّن منها بخمسة دنانير، واشترِىَ موضع قبره بدينارين، وأصاب كلّ واحد من ولده دون الدينار . ثم رأيتُ هشام بن عبد الملك ، وقد مات وخلّف عشرة ذكور ، فأصاب كلّ واحد من ولده ألف ألف دينار. ورأيت رجلا من ولد عمر بن عبد العزيز ، قد حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله ، ورأيت رجلا من ولد هشام ، يسأل الناس ليتصدقوا عليه .

حسان بن أبى سنان : ما شىء أهونُ من وَرَعٍ ؛ إذا رابك شىء فدعْه .

مورِّق العِجْلىّ : لقد سألت الله حاجة أربعين سنة ، ما قضاها ولا يئست منها ، قيل : وما هى ؟ قال : تَرْكُ ما لا يعنينى .

قَتادة : إنّ الله ليُعطِى العبد على نية الآخرة ما يسأله من الدنيا ، ولا يعطيه على نية الدنيا إلا الدنيا .

من كلام محمد بن واسع : ليس فى النار عذابٌ أشدّ على أهلها من علمهم بأنه ليس لكربهم تنفيس ، ولا لضيقتهم ترفيه ، ولا لعذابهم غاية ؛ وليس فى الجنّة نعيم أبلغُ من علم أهلها بأن ذلك الملك لا يزول عنهم

قال بعض الملوك لبعض الزّهاد : اذمُم لى الدنيا ، قال : أيها الملك ، هى الآخذة لما تُعطِى ، المورِّثة بعد ذلك الندم ، السّالبة ما تكسو ، المورِّثة بعد ذلك الفضوح ، تسدّ بالأراذل مكان الأفاضل ، وبالعجزَة مكان الحَزَمة ، تجد فى كلّ من كلّ خَلَفا ، وترضَى بكلّ من كلّ بدلا ، تُسكِن دارَ كل قَرْنٍ قرنا ، وتُطعِم سُؤْرَ كلّ قوم قوما .

ومن كلام الحجاج — وكان مع غَشْمِه وإلحاده واعظا بليغا مفوّها — خطب فقال : اللهمّ أرنى الغىّ غيّا فأتجنّبَه ، وأرنى الهدى هدًى فأتبعَه ، ولا تكلنى إلى نفسى فأضلّ

ضلالا بعيدا ؛ والله ما أحبّ أن ما مضى من الدنيا بعمامتى هذه ، ولَمَا بقىَ منها أشبه بما مضى من الماء بالماء .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إلى الجمعة ، فجلست قريبا من المِنْبر ، فصَعِد الحجّاج ، فَسَمعته يقول : امرؤ زَوّرَ عمله ، امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ فكّر فيما يقرؤه فى صحيفته ، ويراه فى ميزانه ، امرؤ كان عند قلبه زاجر ، وعند همّه آمر ، امرُؤ أخذ بعنان قلبه ، كما يأخذ الرجل بخِطَام جمله ، فإن قاده إلى طاعة الله تَبِعه ، وإن قاده إلى معصية الله كَفّه ؟ إننا والله ما خلِقنا للفناء ؛ وإنّما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وخطب يوما[(١)] ، فقال : إن الله أمرَنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدنيا ؛ فليتَه كفانا مئونة الآخرة ، وأمرنا بطلب الدنيا . فقال الحَسَنُ : ضالّة المؤمن خرجتْ من قلب المنافق .

ومن الكلام المنسوب إليه — وأكثرُ الناس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام : أيّها الناس ، اقدعوا هذه الأنفس ؛ فإنها أسأل شىء إذا أعطِيَت ، وأبخل لشىء إذا سُئِلَتْ ، فرَحِم الله امرأ جعل لنفسه خِطاما وزماما ، فقادها بخِطامها إلى طاعة الله ، وعَطَفَها بزمامها عن معصية الله ؛ فإنى رأيت الصبر عن محارم الله أيسرَ من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : إن امرأ أتَتْ عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربّه ، ويستغفر من ذنبه ، ويفكّر فى معاده ، لجدير أن يطول حُزْنه ، ويتضاعف أسَفُه . إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ؛ فلا يغرّنّكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهَرُوا طولَ الأمل بقِصَر الأجل .

---

(١) أى الحجاج .

ونقلت من " أمالى " أبى أحمدَ العسكرىّ رحمه الله تعالى ؛ قال : خطب الحجاج يوما ، فقال : أيّها الناس ، قد أصبحتُم فى أجلٍ منقوص ، وعمل محفوظ . ربّ دائب مُضيعٌ وساعٍ لغيره . والموت فى أعقابكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، وممّا فى أيديكم لما بين أيديكم ، فكأن ما قد مضَى من الدّنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ؛ وكلّ ما ترَوْنه فإنّه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوكُ الأولون ! أين الجبابرةُ المتكبّرون ! المحاسبُ الله ، والصّراط منصوب ، وجهنم تَزْفِرُ وتتوقّد ، وأهل الجنة يَنْعَمُون ، هم فى روضة يُحْبَرُون ، جعلنا الله وإيّاكم من الذين ، ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[1] .

قال : فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول : ألا تعجبون من هذا الفاجر ! يرْقَى عَتَبات المِنْبَر فيتكلّم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتِك فتكَ الجبّارين ، يوافق الله فى قوله ، ويخالفه فى فعله !

* * *

[استطراد بلاغى فى الكلام على المقابلة]

وأما ما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من المقابلة بين السَّبْقَة والغاية ، فنكتة جيّدة من علم البيان ؛ ونحن نذكر فيها أبحاثا نافعة ، فنقول :

إمّا أنْ يقابلَ الشىء ضدّه أو ما ليس بضدّه .

فالأول كالسواد والبياض ؛ وهو قسمان :

أحدهما : مقابلة فى اللفظ والمعنى .

(١) سورة الفرقان ٧٣ .

والثانى : مقابلة فى المعنى لا فى اللفظ .

أما الأول ، فكقوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾(١) ، فالضحك ضدّ البكاء ، والقليل ضدّ الكثير . وكذلك قوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(٢) . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم : « خير المالِ عينٌ ساهرة لعين نائمة » . ومن كلام المؤمنين عليه السلام لعثمان : إن الحقّ ثقيلٌ مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ؛ وأنت رجل إن صُدِقْتَ سَخِطت ، وإن كُذِبت رَضيت .

وكذلك قوله عليه السلام لما قالت الخوارج : لا حكمَ إلا لله : « كلمة حق أريد بها باطل » .

وقال الحجاج لسعيد بن جُبَير لما أراد قتله : ما اسمُك؟ فقال : سعيد بنُ جُبَير ، فقال : بل شَقِىّ بن كُسَير .

***

وقال ابن الأثير فى كتابه المسمى بـ " المثل السائر " : إن هذا النوع من المقابلة غيرُ مختصٍ بلغة العرب ، فإنه لما مات قُباذ أحد ملوك الفرس ، قال وزيره : حرّكنا بسكونه .

وفى أول كتاب الفصول لبقراط فى الطبّ : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان(٣) .

قلت : أىّ حاجة به إلى هذا التكلّف ! وهل هذه الدعوى من الأمور التى يجوز أن يعترىَ الشكّ والشبهة فيها ، ليأتىَ بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتجّ بها ! أليس كلّ قبيلة وكلّ أمّة لها لغة تختص بها ! أليس الألفاظ دلالاتٍ على ما فى الأنفس

---

(١) سورة التوبة ٨٢ .
(٢) سورة الحديد ٢٣ .
(٣) المثل السائر ٢ : ٢٨٠ ، من فصل عقده للتناسب بين المعانى .

من المعانى ! فإذا خطر فى النفس كلام يتضمن أمرين ضدين فلا بد لصاحب ذلك الخاطر ـ سواء أ كان عربيا أم فارسيًا أم زنجيًا أم حبشيًا ـ أن ينطق بلفظ يدل على تلك المعانى المتضادة ، وهذا أمر يعمّ العقلاء كلّهم ؛ على أنّ تلك اللفظة التى قالها ، ما قيلت فى موت قُباذ ، وإنّما قيلت فى موت الإسكندر ، لما تكلّمت الحكماء وهم حول تابوته بما تكلّموا به من الحكم

* * *

ومما جاء من هذا القسم من المقابلة فى الكتاب العزيز قوله تعالى فى صفة الواقعة : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾[1] ؛ لأنها تخفض العاصين ، وترفع المطيعين .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[3] .

ومن هذا الباب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفَزَع وتقِلّون عند الطّمع » .

ومما جاء من ذلك فى الشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير :

يَسْتَيْقِظُونَ إلى نَهِيقِ حَمِيرِهِمْ ... وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ[4]

وقال آخر :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِى الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ ... وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِى الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ[5]

(١) سورة الواقعة ٣ .
(٢) سورة الحديد ١٣ .
(٣) سورة المائدة ٥٤ .
(٤) ديوانه : ٤٥ ، وروايته : « إلى نهاق حميرهم » .
(٥) فى المثل السائر ٢ : ٢٨٣ من غير نسبة .

وقال أبو تمام :

ما إنْ ترَى الأحْسابَ بِيضاً وُضَّحاً ... إلّا بحيثُ ترَى المنَايا سُودَا (١)

[وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا](٢) :

شَرَفٌ عَلَى أُولَى الزَّمَانِ وإنَّمَا ... خَلَقُ المَناسِبِ مايكُون جَدِيدَا (٣)

وأما القسم الثانى من القسم الأول ؛ وهو مقابلةُ الشىء بضدِّه بالمعنى لا باللفظ ، فكقول المقنع الكِنْدِىّ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِى إنْ تتَابَعَ لِى غِنًى ... وإنْ قَلَّ مَالِى لَا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا (٤)

فقوله : « إن تتابع لى غنًى » فى قوّة قوله : « إن كَثُر مالى » ، والكثرة ضدّ القلة، فهو إذنْ مقابل بالمعنى لا باللفظ بعينه .

ومن هذا الباب قول البحترىّ :

تَقِيضُ لِى مِنْ حَيْثُ لا أعلَمُ النَّوَى ... وَيَسْرِى إلىّ الشوقُ مِنْ حَيْثُ أعلَمُ (٥)

فقوله : «لا أعلم » ليس ضدًّا لقوله : « أعلم » ؛ لكنّه نقيضٌ له ؛ وفى قوّة قوله: « أجهل » ، والجهل ضدّ العلم .

ومن لطيف ماوقعت المقابلة به من هذا النوع قولُ أبى تمام :

مَهَا الوحْشِ إلّا أنّ هَاتَا أوانِسٌ ... قَنَا الخطِّ إلا أنّ تِلْكَ ذَوَابِلُ (٦)

---

(١) ديوانه ١ : ٤٢٢ .

(٢) تكملة من كتاب المثل السائر .

(٣) ديوانه ١ : ٤١٩ .

(٤) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٢ : ١١٨٠ .

(٥) ديوانه ٢ : ٢٢٩ .

(٦) ديوانه ٣ : ١١٦ ، قال الصولى فى شرحه يقول : «هن كبقر الوحش فى تهاديهن وحسن عيونهن ؛ وهن كقنا الخط فى القد ، إلا أن القنا ذوابل ؛ وهن طراء . وقيل للقنا : ذوابل ؛ لأنها تلين عند الطعن فلا تتكسر » .

فقابل بين « هاتا » وبين « تلك » ، وهي مقابلة معنوية لا لفظية ؛ لأنّ « هاتا » للحاضرة ، و « تلك » للغائبة ، والحضور ضدّ الغيبة .

وأما مقابلة الشيء لما ليس بضدّه ، فإمّا أن يكون مثلاً أو مخالفا .

والأوّل على ضربين : مقابلة المفرد بالمفرد ، ومقابلة الجملة بالجملة .

مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[2] ، هكذا قال نصر الله ابن الأثير[3] .

قال : وهذا مراعى في القرآن الكريم إذا كان جوابا كما تقدم من الآيتين ، وكقوله . ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[4] ، وقوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾[5] .

قال : وقد كان يجوز أن يقول : « من كفر فعليه ذنبه » ، لكنّ الأحسن هو إعادة اللفظ ، فأما إذا كان غير جواب لم تلزم فيه هذه المراعاة اللفظية ، بل قد تقابل اللفظة بلفظة تفيد معناها ؛ وإن لم تكن هي بعينها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[6] ، فقال : « يفعلون » ولم يقل « يعملون » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾[7] ، ولم يقل : « قالوا لا تفزع » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[8] ، ولم يقل : « كنتم تخوضون وتلعبون » .

---

(١) سورة الحشر ١٩ .
(٢) سورة النمل ٥٠ .
(٣) المثل السائر ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨
(٤) سورة الشورى ٤٠ .
(٥) سورة الروم ٤٤ .
(٦) سورة الزمر ٧٠ .
(٧) سورة ص ٢٢ .
(٨) سورة التوبة ٦٥ .

قال : ونحو ذلك من الأبيات الشّعرية قولُ أبي تمام :

بَسَطَ الرَّجاءُ لَنَا بِرَغْمِ نوائبٍ كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصارِعُ الآمالِ (١)

فقال : « الآمال » عوّض « الرجاء » ، قال أبو الطيب :

إنّي لأَعْلَمُ واللّبيبُ خَبِيرُ أنّ الحياةَ ـ وإن حَرَصْتَ ـ غُرُورُ (٢)

فقال : « خبير » ولم يقل : « عليم » .

قال : وإنما حَسُن ذلك ، لأنّه لَيس بجواب ؛ وإنما هو كلام مبتدأ .

قلت : الصّحيح أنّ هذه الآيات، وهي قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وما شابهها ليست من باب المقابلة التي نحن في ذكرها ، وأنّهـا نوع آخر ؛ ولو سُمِّيت : المماثلة أو المكافأة لكان أولى؛ والدليل على ذلك أنّ هذا الرجل حَدّ للمقابلة في أوّل الباب الذي ذُكِر هذا البحث فيه ، فقال : إنّها ضدُّ التجنيس ؛ لأنّ التجنيس أن يكونَ اللفظُ واحداً مختلف المعنى ؛ وهذه لابدّ أن تتضمّن معنيين ضدّين ، وإن كان التضادّ مأخوذا في حدّها ، فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة ، وكانت نوعا آخر .

وأيضاً فإنّ قوله تعـالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ ليس من سِلْك الآيات الأخرى؛ لأنه بالواو والآيات الأخرى، بالفاء ، والفاء جواب، والواو ليست بجواب.

وأيضا ، فإنّا إذا تأملنا القرآن العزيز لم نجد ماذكره هذا الرجل مطّردا ، قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ٭ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ٭ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ٭ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٭ وَهُوَ يَخْشَى ٭ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (٣)، فلم يقل في الثانية : « وأمّا من جاءك يسعى وهو فقير » .

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٭ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٭ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٭ وَأَمَّا مَنْ

(١) ديوانه ٣ : ١٥١ .
(٢) ديوانه ٢ : ١٢٨ .
(٣) سورة عبس ٥ ـ ١٠ .

بَخِلَ وَٱسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾(١)، فقابل بين «أعطى» و«بخل» ولم يقابل بين «اتقى» و«استغنى»، ومثل هذا فى القرآن العزيز كثير؛ وأكثر من الكثير.

وقد بانَ الآنَ أنّ التقسيمَ الأوّل فاسد، وأنه لامقابلة إلا بين الأضداد وما يجرى مجراها.

وأمّا مقابلةُ الجملة بالجملة فى تقابل المماثلين، فإنه إذا كانتْ إحداهما فى معنى الأخرى وقعت المقابلة؛ والأغلب أن تُقابَل الجملةُ الماضية بالماضية، والمستقبَلةُ بالمستقبَلة.

وقد تُقابَل الجملة الماضية بالمستقبلة؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾(٢)، فإنّ هذا تقابل من جهة المعنى؛ لأنّه لو كان من جهة اللفظ لقال: «وإن اهتديت فإنّما أهتدى لها».

ووجه التقابُل المعنوىّ، هو أن كلّ ماعلى النفس فهو بها، أعنى كلّ ماهو عليها وبالٌ وضرر فهو منها وبسببها؛ لأنها الأمّارة بالسوء، وكلّ مالها مما ينفعها فهو بهداية ربّها وتوفيقه لها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾(٣)، فإنه لم يراع التقابُلَ اللفظىّ، ولو راعاه لقال: والنهار ليبصروا فيه، وإنّما المراعاة لجانب المعنى؛ لأنّ معنى «مبصرا» ليبصروا فيه طرق التقلّب فى الحاجات.

وأما مقابلةُ المخالف؛ فهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون بين المقابِل والمقابَل نوع مناسبة وتقابُل، كقول القائل:

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إساءةِ أهْلِ السُّوءِ إحْسَانَا(٤)

---

(١) سورة الليل ٥ — ١٠.
(٢) سورة سبأ ٥٠.
(٣) سورة النمل ٨٦.
(٤) لأنيف بن قريط العنبرى من أبيات فى ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ١: ٢٢.

فقابل الظلم بالمغفرة ، وهي مخالفة له ، ليست مثله ولا ضدّه ، وإنما الظلم ضدّ العدل؛ إلا أنّه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حَسُنت المقابلة بينها وبين الظلم ؛ ونحو هذا قوله تعالى : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(١) ، فإنّ الرحمة ليستْ ضدًّا للشدّة، وإنما ضدّ الشدة اللين ؛ إلا أنه لما كانت الرحمة سبباً للين حَسُنت المقابلة بينها وبين الشدّة .

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا﴾(٢) ، فإنّ المصيبة أخصّ من السيّئة ؛ فالتقابل هاهنا من جهة العموم والخصوص .

الوجه الثاني : ما كان بين المقابِل والمقابَل بُعْد؛وذلك مما لا يحسُن استعماله ، كقول امرأة من العرب لابنها ، وقد تزوج بامرأة غير محمودة :

تَرَبَّصْ بِهَا الأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا ... سَتَرْمِي بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ(٣)

فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلهُهُ ... بِمَذْمُومَةِ الأَخْلَاقِ وَاسِعَةِ الْحِرِ

فـ «مذمومة» ليست في مقابلة «واسعة»، ولو كانت قالت: «بضيّقة الأخلاق»، كانت المقابلة صحيحة ، والشعر مستقيما . وكذلك قول المتنبي :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ !(٤)

فالمقابلة الصحيحة بين المحبّ والمبغض ؛ لا بين المحبّ والمجرم .

قلت : إنّ لقائلٍ أن يقول : هلاّ قلت في هـذا ماقلت في السيئة والمصيبة ! ألستَ القائل : إن التقابلَ حَسَنٌ بين المصيبة والسيئة ، لكنه تقابُل العموم والخصوص ! وهذا الموضع مثله أيضا ، لأنّ كل مبغض لك مجرم إليك ، لأنّ مجرد البغضة جُرْم ، ففيهما عموم وخصوص .

بل لقائل أن يقول : كلّ مُجْرِمٍ مُبْغِض ، وكلُّ مُبْغِض مُجْرِم ، وهذا صحيح مطّرد.

---

(١) سورة الفتح ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ٥٠ .

(٣) من أبيات نسبها أبو تمام في الحماسة بشرح التبريزي (٤ : ٣٤) إلى أم النحيف . والجاحم : النار الشديدة التأجج .

(٤) ديوانه ٤ : ١٤١ .

(٢٩)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُم ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلاَبَ ؛ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاء .

تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ : حِيدِي حَيَادِ ! مَاعَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ ، وَلاَ اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ . أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ ؛ دِفَاعُ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُول .

لاَ يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ ، وَلاَ يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ .

أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ ! وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ ! الْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللهِ بِالسَّهْمِ الأَخْيَب ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .

أَصْبَحْتُ وَاللهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ، وَلاَ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ، وَلاَ أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ .

مَا بَالُكُمْ ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ ؟ مَا طِبُّكُمْ ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ .

أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ ، وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ !

***

الشـرح :

حِيدِي حَيَادِ ، كلمة يقولها الهارب الفارّ ، وهي نظيرة قولهم : « فيحي فَيَاحِ » (١) ،

(١) في اللسان : فياح مثل قطام : اسم للغارة ، وكان يقال للغارة في الجاهليـة : فيحي فياح ، وذلك إذا دفعت الخيل المغيرة فاتسعت .

أى اتّسعى ، وصَمّى صَمامِ ، للداهيـة[1]. وأصلُها من حاد عن الشيء ، أى انحرفَ ، وحَيادِ ، مبنية على الـكسر ، وكذلك ما كان من بابهـا ، نحو قولهم : بَدَارِ ، أى ليأخذْ كلّ واحدٍ قِرْنه . وقولهم : خَراجِ فى لعبة للصبيان ، أى اخرجوا .

والباء فى قوله : « بأضاليل » متعلقة بـ « أعاليل » نفسها ، أى يتعلّلون بالأضاليل التى لاجَدْوى لها .

والسّهم الأفْوَق : المـكسور الفُوق ، وهو مَدْخَل الوتَر . والناصل : الذى لانَصْل فيه ؛ يخاطبهم فيقول لهم : أبدانـكم مجتمعة وأهواؤكم مختلفة ، متكلّمون بما هو فى الشدّة والقوة يُوهِى الجبال الصمّ الصلْبة ، وعند الحرب يظهر أنّ ذلك الـكلام لم يكن له ثمرة.

تقولون فى المجالس كَيتَ وكَيت ، أى سنفعل وسنفعل ، وكَيت وكَيت كناية عن الحديث، كما كُنِىَ بفلان عن العلَم ، ولاتستعمل إلا مكرّرة ، وهما مخففان من «كَيّة» وقد استعمِلتْ على الأصـل ، وهى مبنية على الفتح . وقد رَوَى أئمة العربية فيهـا الضمّ والـكسر أيضا .

فإذا جاء القتال فررتم وقلتم : الفِرارَ الفِرارَ .

ثم أخذ فى الشكوى ، فقال : مَنْ دعاكم لم تعزّ دعوتُه، ومَنْ قاساكم لم يسترِحْ قلبُه. دأبُـكم التعلّل بالأمور الباطلة ، والأمانىّ الـكاذبة . وسألتمونى الإرْجاء وتأخُّر الحرب كمن يمطُل بدينٍ لازم له . والضَّيْم لايدفعه الذليل ، ولا يدرَك الحقّ إلا بالجدّ فيـه والاجتهاد وعدم الانـكماش .

وباقى الفصل ظاهر المعنى .

---

(١) صمى صمام ، أى زيدى .

وقوله : « القوم رجال أمثالكم » مثل قول الشاعر :

قَاتِلوا القومَ يا خُزَاعَ وَلَا يَدْخُلُكُمْ من قتالِهِمْ فَشَلُ
القومُ أمثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ فى الرَّأْسِ لا يُنْشَرون إن قُتِلوا

* * *

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام فى غارة الضحاك بن قيس ، ونحن نقصُّها هنا :

* * *

[غارة الضحاك بن قيس ونتف من أخباره]

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى فى كتاب " الغارات " قال : كانت غارة الضّحاك بن قيس بعد الحكَمَيْن ، وقبل قتال النَّهْرَوَان ، وذلك أنّ معاوية لمّا بلغه أنّ عليًّا عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلًا ، هاله ذلك ، فخرج من دِمَشْق معسكراً ، وبعث إلى كُوَر الشام ، فصاح بها [(١)] : إنّ عليًّا قد سار إليكم . وكتب إليهم نسخة واحدة ، فقرِئَتْ على الناس :

أمّا بعد ، فإنّا كنا كتبنا كتابا بيننا وبين علىّ ، وشرطْنا فيه شروطا ، وحكّمْنا رجُلين يحكُمان علينا وعليه بحُكْم الكتاب لايعدوانه ، وجعلْنا عهدَ الله وميثاقَه على مَنْ نكث العهد ولم يُمْضِ الحكْم ، وإنّ حَكَمِى الذى كنت حكّمْتُهُ أثبتنى ، وإنّ حكَمه خلعه ، وقد أقبل إليكم ظالما ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [(٢)] ، تجهّزوا للحرب بأحسن الجهاز ، وأعدّوا آلة القتال ، وأقبلوا خِفافاً وثقالًا ، يسّرنا الله وإياكم لصالح الأعمال !

---

(١) ب : « فيها » .   (٢) سورة الفتح ١٠ .

فاجتمع إليه الناس من كلّ كُورة [1] وأرادوا المسيرَ إلى صِفّين ، فاستشارهم ، وقال : إنّ عليًّا قد خرج من الكوفة ، وعَهْد العاهد به أنّه فارق النُّخَيْلة [2] .

فقال حبيب بن مسلمة : فإنّى أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذى كنّا فيه ، فإنّه منزل مبارك ، وقد متّعنا الله به وأعطانا من عدوّنا فيه النَّصَف .

وقال عمرو بن العاص : إنى أرى لك أن تسيرَ بالجنود حتى تُوغِلَها فى سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإنّ ذلك أقوى لجندك ، وأذلّ لأهلِ حَرْبك . فقال معاوية : والله إنى لأعرف أنّ الذى تقول كما تقول ، ولكنّ الناس لا يطيقُون ذلك . قال عمرو : إنها أرضٌ رفيقة، فقال معاوية : إنّ جهدَ الناس أن يَبْلُغوا منزلهم الذى كانوا به ـ يعنى صِفّين .

فمكثوا يُجيلون الرأىَ يومين أو ثلاثة ، حتى قدِمت عليهم عيونُهم أن عليًّا اختلف عليه أصحابُه ففارقته منهم فرقةٌ أنكرت أمرَ الحكومة ، وأنه قد رجع عنكم إليهم . فكبّر الناس سُروراً لانصرافه عنهم ، وما ألقى الله عزّ وجل من الخلاف بينهم . فلم يَزَلْ معاوية مُعَسْكِراً فى مكانه ، منتظراً لما يكون من علىٍّ وأصحابه؛ وهل يُقبل بالناس أم لا؟ فما برِح حتى جاء الخبر أن عليًّا قد قتَل أولئك الخوارج ، وأنّه أراد بعد قتلهم أن يُقبل بالناس ، وأنهم استنظروه ودافعوه . فسرّ بذلك هو ومَن قِبَله من الناس .

قال : ورَوى ابنُ أبى سيف [3] ، عن يزيد بن يزيد بن جابر ، عن عبد الرحمن بن مسعدة الفزارىّ ، قال : جاءنا كتاب عُمارة بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط ، وكان بالكوفة مقيما ، ونحن معسكرون مع معاوية ، نتخوف أن يفرُغ علىٌّ من الخوارج ثم يقبل إلينا ، ونحن نقول : إن أقبلَ إلينا كان أفضلُ المكانِ الذى نستقبله به المكانَ الذى لقيناه فيه العام الماضى . فكان فى كتاب عُمارة بن عُقْبة : أما بعد ؛ فإنّ عليًّا خرج عليه قرّاء

---

(١) الكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر ، يجمع اسمها . معجم البلدان ١ : ٣٦ .

(٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة .

(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « سفيان » .

أصحابه ونُسّاكهم ، فخرج إليهم فقتلهم، وقد فسد عليه جندُه وأهلُ مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرّقوا أشدّ الفرقة ، وأحببت إعلامَك لتحمَد الله ، والسلام .

قال عبد الرحمن بن مَسْعدة : فقرأه معاوية على وجه أخيه عُتْبة ، وعلى الوليد ابن عُقْبة ، وعلى أبى الأعور السُّلَمِيّ ؛ ثم نظر إلى أخيه عُتبة وإلى الوليد بن عُقبة ، وقال للوليد : لقد رَضِيَ أخوكَ أن يكونَ لنا عينا . فضحِك الوليد وقال : إنّ فى ذلك أيضاً لَنفعاً .

وروى أبو جعفر الطبريّ ، قال : كان عُمارة مُقيما بالكوفة بعد قَتْل عثمان ، لم يهجْه علىّ عليه السلام ولم يذْعَرْه ، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سرًّا .

ومن شعر الوليد لأخيه عُمارة يحرِّضه :

إنْ يَكُ ظَنّى فى عُمارَةَ صادِقاً ... يَنَمْ ثُمّ لا يطلُبْ بذَحْلٍ ولا وِتْرِ [(١)]
يَبِيتُ وأوتارُ ابن عَفّانَ عِندَهُ ... مُخَيِّمَةٌ بين الخَوَرْنَقِ فالقَصْرِ
تَمشّى رَخِيَّ البال مُستَشْزِرَ القُوَى ... كأنّكَ لَمْ تَسْمَعْ بقتلِ أبى عَمْرِو [(٢)]
ألَا إنّ خيرَ النّاسِ بعد ثلاثةٍ ... قتيلُ التُّجِيبىّ الّذى جاءَ مِنْ مِصْرِ [(٣)]

قال : فأجابه الفضل بن العباس بن عتبة [(٤)] :

أتَطْلُبُ ثأراً لستَ منــه وَلَا لَهُ ... وما لابنِ ذَكْوانَ الصَّفُورىّ والوِتْرِ [(٥)]

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٢٦ ؛ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات . والوتر والذحل : الثأر .
(٢) لم يذكره فى الطبرى ، ومستشزر القوى : مستحكم ، وأصله فى الحبل المفتول .
(٣) التجيبى ؛ هو كنانة بن بشر بن عتاب الرياحى ؛ أحد قتلة عثمان ؛ قال الطبرى : « ضرب كنانة ابن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد ، فخر لجبينه » (٦ : ١٣٢) .
(٤) فى الأصول : « عبد المطلب » ، وهو خطأ .
(٥) الطبرى :

* وأيْنَ ابنُ ذَكْوانَ الصَّفُورِىُّ مِنْ عَمْرِو *

كما افتخرت بنتُ الحمــار بأمّها وتنسى أباها إذ تسامى أولو الفخرِ (١)
ألا إنّ خيرَ النّاس بعــد نبيهمْ وصيُّ النبي المصطفى عند ذِي الذِّكرِ (٢)
وأوّل مَنْ صــلّى وصِنوُ نبيّه وأولُ مَنْ أردَى الغُواةَ لدى بَدْرِ (٣)

أما معنى قوله : « وما لابن ذكوان الصَّفُوريِّ » ، فإنّ الوليدَ ، هو ابن عُقْبة ابن أبي مُعَيط بن أبي عمرو ، واسمه ذَكْوان بن أمية بن عبد شمس . وقد ذكر جماعة من النسابين أنّ ذكوان كان مولًى لأمية بن عبد شمس ، فتبناه وكنّاه أبا عمرو ، فبنُوه مَوالٍ وليسوا من بنى أميّة لِصُلْبه . والصَّفورى : منسوب إلى صَفُّورِيّة ؛ قرية من قرى الروم .

***

قال إبراهيم بن هلال الثقفى : فعند ذلك دعا معاوية الضّحاك بن قيس الفِهْرىّ ، وقال له : سِرْ حتى تمرّ بناحية الكوفة وترتفعَ عنها ما استطعت ، فمَنْ وجدتَه من الأعراب فى طاعة علىّ فأغِرْ عليه ، وإن وجدتَ له مَسْلَحَةً (٤) أو خيلا فأغِرْ عليها ، وإذا أصبحتَ فى بلدة فأمْسِ فى أخرى ، ولا تُقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها قد سُرِّحت إليك لتلقاها فتقاتلها . فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف .

فأقبل الضّحاك ، فنهب الأموال وقتل مَنْ لقِيَ من الأعراب ، حتى مر بالثَّعْلَبيّة (٥)

---

(١) رواية الطبرى :

كَمَا انْتَسَلَتْ بِنْتُ الحِمارِ بأمّها وَتَنْسَى أباها إذ تُسامِى أولى الفَخْرِ

(٢) الطبرى : « بعد محمد » .

(٣) بعده فى الطبرى :

فَلَوْ رَأَتِ الْأَنْصارُ ظُلْمَ ابْنِ عَمِّكُمْ لَكانُوا لَهُ مِنْ ظُلْمِهِ حاضِرِى النَّصْرِ
كَفَى ذاكَ عَيْباً أنْ يُشِيرُوا بِقَتْلِهِ وَأنْ يُسْلِمُوهُ لِلْأَحابِيشِ مِنْ مِصْرِ

(٤) المسلحة هنا : القوم ذوو سلاح .

(٥) الثعلبية : من منازل طريق مكة إلى الكوفة .

فأغار على الحاجّ ، فأخذ أمتعتهم ، ثم أقبل فاقى عمرو بن عميس بن مسعود الهذليّ ، وهو ابن أخي عبدالله بن مسعود ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقتله فى طريق الحاجّ عند القُطْقُطَانة (١) . وقتلَ معه ناسا من أصحابه .

قال :فروى إبراهيم بن مبارك البجَلِيّ عن أبيه ، عن بكر بن عيسى ، عن أبى رَوْق ، قال : حدّثني أبى ، قال : سمعت عليًا عليه السلام ، وقد خرج إلى الناس ، وهو يقول على المِنبر :

يأهلَ الكوفة ، اخرُجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس ، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طَرَف ، اخرجوا فقاتلوا عدوّكم ، وامنعوا حريمَكم إن كنتم فاعلين .

فردّوا عليه ردًّا ضعيفاً ، ورأى منهم عجزاً وفشَلا ، فقال : والله لوددت أنّ لى بكلِّ ثمانية منكم رجلا منهم ! ويحكم اخرجوا معى ، ثم فرّوا عنّى مابدا لكم ؛ فوالله ما أكره لقاء ربِّى على نيّتى وبصيرتى ، وفى ذلك رَوْح لى عظيم ، وفرَج من مناجاتكم ومقاساتكم . ثم نزل .

فخرج يمشى حتى بلغ الغَرِيَّيْنِ ، ثم دعا حُجر بن عدىّ الكِنْدىّ ، فعقَد له على أربعة آلاف .

وروى محمد بن يعقوب الكُلَيْنِيّ ، قال : استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناسَ عَقِيبَ (١) غارة الضحاك بن قيس الفهرىّ على أطراف أعماله ، فتقاعدوا عنه ، فخطبهم فقال : ما عزّتْ دعوةُ مَنْ دعاكم ، ولا استراح قلبُ مَنْ قاساكم . . . الفصل إلى آخره .

***

قال إبراهيم الثقفىّ : فخرج حُجْر بن عدىّ حتى مرّ بالسّماوة — وهى أرض كلب —

---

(١) قال فى المصباح : « وأما عقيب مثال كريم فاسم فاعل من قولهم : عاقبه معاقبة وعقبه تعقيبا ، فهو معاقب ومعقب وعقيب » .

فلقىَ بها امرأ القيس بن عدىّ بن أوْس بن جابر بن كعب بن عُلَيم الكلبىّ ـ وهو أصهارُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ـ فكانوا أدِلاّءه فى الطريق وعلى المياه ، فلم يزل مُغِذًّا فى أثر الضحّاك ، حتى لقيَه بناحية تَدْمُر ، فواقعه فاقتتلوا ساعة ، فقتِل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا ، وقُتِل من أصحاب حُجر رجلان ، وحجز الليل بينهم. فمضى الضّحاك ، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثرا . وكان الضّحاك يقول بعد : أنا ابنُ قيس ، أنا أبو أنيس ! أنا قاتل عمرو بن عُمَيْس .

* * *

قال : وكتب فى أثر هذه الوقعة عَقِيل بن أبى طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام ، حين بلغه خِذْلان أهل الكوفة ، وتقاعدهم به :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام من عَقيل بن أبى طالب . سلام عليك ، فإنّى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنّ الله حارِسُك من كلّ سوء ، وعاصمُك من كلّ مكروه ، وعلى كلّ حال ؛ إنّى قد خرجت إلى مكة معتمرا ، فلقيت عبدَ الله بن سعد بن أبى سَرْح فى نحو من أربعين شابًا من أبناء الطُّلَقاء ، فعرفتُ المنكرَ فى وجوههم ، فقلت : إلى أين يا أبناء الشانئين ! أبمعاوية تلحقون ! عداوة والله منكم قديما غيرُ مستنكَرة ؛ تريدُون بها إطفاء نور الله ، وتبديلَ أمره . فأسمَعنى القومُ وأسمعتُهم ، فلما قدِمتُ مكة ، سمعت أهلَها يتحدثون أنّ الضّحاك بن قيس أغار على الحيرة ، فاحتمل من أموالها ما شاء ، ثم انكفأ راجعاً سالما. فأفٍ لحياة فى دهر جَرّأ عليك الضّحاك ! وما الضحاك ! فَقَعٌ بقَرْقَر[1] ! وقد توهّمت حيث بلغنى ذلك أنّ شيعتك وأنصارك خذلوك فاكتب إلىّ يابن أمى برأيك ، فإن كنتَ الموتَ تريد ، تحمّلت إليك ببنى أخيك ،

---

(١) القرقر : الأرض المستوية ، والفقع : ضرب من أردأ الكمأة ، يقال للرجل الذليل : هو فقع قرقر ؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها .

وولد أبيك ، فعشنا معك ما عشت ، ومتنا معك إذا مت ؛ فوالله ما أحب أن أبقى فى الدنيا بعدك فُوَاقاً .

وأقسم بالأعز الأجل ، إن عيشاً نعيشه بعدك فى الحياة لغير هنىء ولا مرىء ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1] .

***

فكتب إليه عليه السلام : من عبد الله على أمير المؤمنين : إلى عقيل بن أبى طالب . سلام الله عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : كلأنا الله وإياك كلاءة من يخشاه بالغيب ، إنه حميد مجيد . قد وصل إلىّ كتابك مع عبد الرحمن بن عبيد الأزدى ، تذكر فيه أنك لقيت عبد الله بن سعد بن أبى سرح مقبلا من قُدَيْد[2] فى نحو من أربعين فارساً من أبناء الطلقاء ، متوجهين إلى جهة الغرب . وإن ابن أبى سرح طالما كاد الله ورسوله وكتابه ، وصد عن سبيله وبغاها عوجاً ؛ فدع ابن أبى سرح، ودع عنك قريشاً ، وخلهم وتركاضهم فى الضلال ، وتجوالهم فى الشقاق. ألا وإن العرب قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقه ، وجحدوا فضله ، وبادروه العداوة ، ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كل الجهد ، وجروا إليه جيش الأحزاب . اللهم فاجز قريشاً عنى الجوازى[3] ! فقد قطعت رحمى ، وتظاهرت علىّ ، ودفعتنى عن حقى ، وسلبتنى سلطان ابن أمى ، وسلمت ذلك إلى من ليس مثلى فى قرابتى من الرسول ، وسابقتى فى الإسلام إلا أن يدعى مدع ما لا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال.

فأما ما ذكرته من غارة الضحاك على أهل الحيرة ، فهو أقل وأزل من أن يلم بها

---

(١) الفواق : قدر ما بين الحلبتين .
(٢) الأغانى ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ — بيروت .
(٣) الجوازى : جمع جازية ؛ وهى المكافأة على الشىء .

أو يدنو منها؛ ولكنه قد كان أقبل فى جريدة خيل، فأخذ على السماوة، حتى مرّ بواقصة [١] وشَرَاف [٢] والقُطْقُطَانة؛ مما والى ذلك الصُّقع، فوجهت إليه جندا كثيفاً من المسلمين، فلما بلغه ذلك فرّ هاربا، فاتّبعوه فلحقوه ببعض الطريق وقد أمعن، وكان ذلك حين طَفَلَت [٣] الشمس للإياب، فتناوشوا القتال قليلا كلا ولا [٤]، فلم يصبر لوقع المشرفيّة [٥] وولّى هاربا، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلا، ونجا جَرِيضا [٦] بعد ما أخذ منه بالمخنق، فلأْيا بلأْيٍ ما نجا. فأمّا ما سألتنى أنْ أكتبَ لك برأيي فيما أنا فيه، فإنّ رأيي جهادُ المحِلّين حتى ألقى الله، لا يزيدنى كثرةُ الناس معى عِزّة، ولا تفرُّقهم عنّى وَحشة، لأننى محِقّ والله مع المحقّ؛ ووالله ما أكره الموت على الحقّ وما الخيرُ كلّه إلا بعد الموت لمن كان محقًّا.

وأما ما عرضت به من مَسيرك إلىّ ببنيك وبنى أبيك فلا حاجة لى فى ذلك؛ فأقِمْ راشداً محموداً، فوالله ما أحبّ أن تهلِكوا معى إن هلكت، ولا تحسَبَنّ ابنَ أمك — ولو أسلمه الناس — متخشّعا ولا متضرّعا، إنه لكما قال أخو بنى سُلَيْم [٧]:

فإنْ تسأليني كيفَ أنتَ فإنّني ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزمان صَلِيبُ
يعِزّ عَلَيَّ أنْ تُرَى بى كآبةٌ ... فيشمتَ عادٍ أو يُساء حَبِيبُ

* * *

قال إبراهيم بن هلال الثقفىّ: وذكر محمد بن مخنف أنه سمع الضّحاك بن قيس بعد ذلك بزمان يخطُب على مِنبر الكوفة، وقد كان بلَغه أنّ قوما من أهلها يَشْتِمون عثمان

(١) واقصة: منزل فى طريق مكة.
(٢) شراف، بفتح أوله: موضع قريب من واقصة فى طريق مكة أيضاً.
(٣) طفلت الشمس: مالت إلى المغيب.
(٤) قال فى اللسان: العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل قالوا: كان فعله كلا، وربما كرروا فقالوا: كلا ولا (٢٠: ٣٧٥).
(٥) المشرفية: السيوف؛ منسوبة إلى مشارف الشام، قرى من أرض العرب تدنو من الريف.
(٦) جريضا: مجهودا يكاد يقضى.
(٧) هو صخر بن الشريد السلمى.

ويبرءون منه ، قال : فسمعتُه يقول : بلغنى أنّ رجالا منكم ضُلّالا يشتِمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافَنا الصالحين ؛ أما والّذى ليس له نِدٌّ ولا شريك ؛ لئن لم تنتهوا عمّا يبلغُنى عنكم ، لأضَعَنّ فيكم سيف زياد ، ثم لا تجِدونى ضعيف السّوْرة[١] ، ولا كليلَ الشّفْرة. أما إنى لصاحبُكم الّذى أغرتُ على بلادكم ، فكنتُ أوّلَ مَنْ غزاها فى الإسلام ، وشرب من ماء الثّعْلبيّة ومن شاطىء الفرات ، أعاقِبُ مَنْ شِئت ، وأعفو عن شئت ؛ لقد ذعّرتُ المخدّرَاتِ[٢] فى خُدورِهنّ ، وإن كانت المرأة ليبكى ابنُها فلا ترُهِبُه ولا تسكّته إلا بذكر اسمى. فاتّقوا الله يا أهلَ العراق ؛ أنا الضّحاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو بن عُميس!

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : صدقَ الأمير وأحسن القول ، ما أعرَفنا والله بما ذكرت ! ولقد لَقِيناك بغربىّ تَدْمُر ، فوجدناك شجاعا مجرّبا صبورا . ثم جلس وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أوّل ماقَدِم ! وايمُ الله لأذكّرنّه أبغضَ مواطنه إليه. قال . فسكتَ الضحاك قليلا ، وكأنه خَزِىَ واستحيا ، ثم قال : نعم كان ذلك اليوم! فأخذه بكلام ثقيل ، ثم نزل .

قال محمد بن مِخْنف : فقلت لعبد الرحمن بن عبيد ـ أو قيل له : لقد اجترأتَ حين تذكّره هذا اليوم ، وتُخبره أنك كنت فيمن لقيَه ! فقال : لَنْ يُصِيبنا إلّا ما كتبَ الله لنا .

قال : وسأل الضّحاك عبدَ الرحمن بن عبيد حين قدم الكوفة ، فقال : لقد رأيتُ منكم بغربىّ تدْمُر رجلا ما كنت أرى أنّ فى الناس مثلَه ، حمل علينا ، فما كذب حتى ضرب الكتيبة التى أنا فيها ، فلما ذهب ليولّى حملت عليه ، فطعنتهُ ، فوقع ثم قام

---

(١) السورة : الشدة .

(٢) المخدرة : المرأة فى الخدر ؛ وهو ستر يمد فى ناحية البيت .

فلم يضرَّه شيئاً ، ثم لم يلبث أنْ حَمَل علينا فى الكتيبة التى أنا فيها ، فصرع رجلا ثم ذهب لينصرف ، فحملتُ عليه فضربته على رأسه بالسيف ، فخُيِّل إلىّ أنّ سيفى قد ثبت فى عَظْم رأسه فضربنى ؛ فوالله ماصنع سيفهُ شيئاً ، ثم ذهب فظننت أنّه لن يعود ، فوالله ما راعنى إلّاوقد عصب رأسه بعمامة ، ثم أقبل نحونا فقلت: ثكِلَتك أمُّك ! أما نهتك الأوليان عن الإقدام علينا ! قال : إنهما لم تَنْهَيانى ، إنماأحتسب هذا فى سبيل الله . ثم حمل ليطعنَنى ، فطعنتهُ وحمل أصحابهُ علينا ، فانفصلنا ، وحال الليل بيننا ، فقال له عبد الرحمن : هذا يوم شَهده هذا ـ يعنى ربيعة بن ماجد ـ وهو فارس الحىّ ، وما أظنه يخفَى أمرُ هـذا الرجل . فقال له : أتعرفُه ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال : فأرِنى الضربةَ التى برأسك ، فأراه فإذا هى ضَرْبةٌ قدْ برَتِ العظم مُنكَرة ، فقال له : فما رأيُك اليوم ؟ أهو كرأيك يومئذ ! قال : رأيى اليوم رأىُ الجماعة ، قال : فما عليكم من بأس ، أنتم آمنون مالم تُظهِرُوا خلافا ، ولكن العَجَب كيف نجوت من زياد لم يقتلك فيمن قتل ، أو يُسيِّرك فيمن سيَّر ! فقال : أما التسيير فقد سيَّرنى ، وأما القتل فقد عافانا الله منه !

* * *

قال إبراهيم الثّقَفى : وأصاب الضّحاكَ فى هرَبه من حُجْر عطش شديد ، وذلك لأنّ الجمل الذى كان عليه ماؤه ضلّ فعطش ، وخَفَق برأسه خَفْقتين لنُعاسٍ أصابه ، فترك الطريق وانتبه ، وليس معه إلا نفر يسير من أصحابه، وليس منهم أحد معه ماء، فبعث رجالا منهم فى جانب يلتمسون الماء ولا أنيس ، فكان الضحاك بعد ذلك يحكى ، قال : فرأيت جادّة فلزمتها ، فسمعت قائلا يقول :

دَعانِى الهوَى فازْدَدْتُ شوقاً وربَّما دَعانِى الهوَى مِنْ ساعَةٍ فأجيبُ
وَأرّقنِى بعْدَ المنامِ وَرُبَّما أرِقْتُ لسارِى المرْحين يئوب

فإن أكُ قَدْ أَخْبَبْتُكُمْ ورأيتُكُمْ　　فإنى بدارَىْ عامِرٍ لَغَرِيبُ

قال: وأشرف علىّ رجل ، فقلت : ياعبد الله ، اسقنى ماء ، فقال :لاوالله ،حتى تعطيَنى ثمنه ، قلت : وماثمنُهُ ! قال : ديتُك ، قلت : أماتَرَى عليك من الحقّ أن تقْرِىَ الضيف ، فتطعمَهُ وتسقيه ! قال : ربّما فعلنا وربما بخلنا ، قال : فقلت : والله ماأراك فعلت خيراً قطّ، اسقنى ، قال : ماأطيق ،قلت : فإنّى أحسِنُ إليك وأكسوك ، قال :لاوالله لاأنقص شَرْبةً من مائة دينار ، فقلت له : وَيْحَكَ ! اسقِنى ! فقال : وَيْحَكَ ! أعطنى ، قلت : لاوالله ماهى معى ، ولـكنك تسقينى ، ثم تنطلق معى أعطيكها ، قال : لاوالله ، قلت: اسقِنى وأرهَنُكَ فرسى حتى أوفيَكَها ، قال : نعم ،ثم خرج بين يدى واتبعته ، فأشرفنا على أَخْبِيةٍ وناس على ماء فقـال لى : مكانَكَ حتى آتيَكَ . فقلت : بل أجىء معك ، قال : وساءه حيث رأيت الناس والماء ،فذهب يشتدّ حتى دخل بيتا ، ثم جاء بماء فى إناء ،فقال :اشرَبْ،فقلت: لاحاجةَ لى فيه . ثم دنوت من القوم ، فقلت : اسقونى ماء ،فقال شيخ لابنته : اسقيه ، فقامت ابنتُهُ فجاءت بماء ولبن ، فقال ذلك الرجل : نَجّيتك من العطش ، وتذهب بحقى ! والله لاأفارقك حتى أستوفِىَ منك حَقِّى ، فقلت : اجلس حتى أوفِّيَكَ . فجلس : فنزلت فأخذت المـاء واللبن من يد الفتاة ، فشربت واجتمع إلىّ أهلُ الماء ، فقلتَ لم : هـذا ألأم الناس ! فعل بى كذا وكذا ! وهذا الشيخ خيرٌ منه وأسدى ، استسقيتُه فلم يكلّمنى وأمر ابنته فسقتنى ،وهو الآن يُلزمنى بمائة دينار .فشتمه أهل الحىّ ، ووقعوا به ، ولم يكن بأسرع من أن لحِقنى قوم من أصحابى ، فسلّموا علىّ بالإمْرة ، فارتاب الرجل وجزِع ، وذهب يريد أن يقوم ، فقلت : والله لاتبرح حتى أوفِّيَكَ المائة ، فجلس مايدرى ماالذى أريد به ! فلما كثُر جندِى عندى سرّحت إلى ثَقَلى[1] ، فأتيت به ، ثم أمرت بالرجل فجُلِد مائة جلدة ، ودعوتُ الشيخ وابنته فأمرتُ لهما بمائة دينار وكسوتهما ، وكسوت أهلَ الماء

---

(١) الثقل : متاع المسافر .

ثوبا ثوبا ، وحرمته . فقال أهل الماء : كان أيها الأمير أهلا لذلك . وكنتَ لما أتيت من خير أهلا .

فلما رجعتُ إلى معاوية ، وحدثته عجب ، وقال : لقد رأيتَ فى سفرك هذا عجبا .

ويذكر أهلُ النسب أنّ قيسا أبا الضحاك بن قيس كان يبيع عَسْب الفحول(1) فى الجاهلية .

***

ورووا أن عَقيلا رحمه الله تعالى ، قدِم على أمير المؤمنين ، فوجده جالسا فى صحن المسجد بالكوفة ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته — وكان عَقيل قد كُفّ بصره — فقال : وعليك السلام يا أبا يزيد ، ثم التفت إلى ابنه الحسن عليه السلام ، فقال : قم فأنزل عمّك ، فقام فأنزله ، ثم عاد فقال : اذهب فاشترِ لعمّك قميصا جديدا ، ورداء جديدا وإزارا جديدا ونعلا جديدا ، فذهب فاشترى له ، فغدا عَقيل على علىّ عليه السلام فى الثياب ، فقال : السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ، قال : وعليك السلام يا أبا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أراك أصبتَ من الدنيا شيئا ، وإنى لا ترضى نفسى من خلافتك بما رضيتَ به لنفسك ، فقال : يا أبا يزيد ، يخرج عطائى فأدفعه إليك .

فلما ارتحل عن أمير المؤمنين عليه السلام أتى معاويةَ فنُصبت له كراسيّه ، وأجلَس جلساءه حوله ، فلما وَرَدَ عليه أمر له بمائة ألف فقبَضها ، ثم غدا عليه يوما بعد ذلك ، وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، وبيعة الحسن لمعاوية ، وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد ، أخبرنى عن عسكرى وعسكر أخيك ، فقد وردتَ عليهما ، قال : أخبرك ، مررت والله

---

(1) العسب هنا : ماء الفحل .

بعسكر أخى ، فإذا ليلٌ كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلّا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فى القوم ؛ ما رأيتُ إلا مصليا ، ولا سمعت إلا قارئا . ومررت بعسكرك ، فاستقبلنى قومٌ من المنافقين ممن نفر برسول الله ليلة العقبة ، ثم قال : مَنْ هذا عن يمينك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذى اختصم فيه ستة نفر ، فغلب عليه جزّار قريش ! فمن الآخر ؟ قال: الضحاك بن قيس الفِهْرى قال : أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس ؟ فمن هذا الآخر ؟ قال: أبو موسى الأشعرى ، قال : هذا ابنُ السرّاقة ، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره عن نفسه ، قال فيه سوءاً ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء ، فيذهب بذلك غضبُ جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول فىّ ؟ قال : دعنى من هذا ! قال : لتقولنّ ، قال : أتعرف حمامة ؟ قال : ومَنْ حمامة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتُك ، ثم قام فمضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة ، فدعاه ، فقال : مَنْ حمامة ؟ قال : ولى الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمامةُ جدتك أم أبى سفيان ، كانت بَغيًّا فى الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتُكم وزدت عليكم فلا تغضبوا .

(٣٠)

ومن خطبة له عليه السلام فى معنى قتل عثمان .

الأصلُ :

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً ؛ غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى : وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ ؛ اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ ، وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِى الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ .

• • •

الشرحُ :

هذا الكلام بظاهره يقتضى أنّه ما أمر بقتله ، ولا نهى عنه ، فيكون دمُه عنده فى حكم الأمور المباحة التى لا يؤمر بها ، ولا ينهى عنها . غير أنه لا يجوز أن يحمل الكلام على ظاهره ، لما ثبت من عصمة دم عثمان . وأيضاً فقد ثبت فى السِّيَر والأخبار أنه كان عليه السلام ينهى الناس عن قتله ؛ فإذن يجب أن يُحمل لفظ النهى على المنع كما يقال : الأمير ينهى عن نهب أموال الرعيّة ، أى يمنع ، وحينئذ يستقيم الكلام ؛ لأنه عليه السلام ما أمر بقتله ولا منع عن قتله ، وإنما كان ينهى عنه باللسان ولا يمنع عنه باليد .

فإن قيل : فالنهىُ عن المنكر واجب ، فهلّا منعَ مِنْ قتله باليد ؟

قيل : إنما يجب المنع باليد عن المنكر إذا كان حسنا ؛ وإنما يكون الإنكار حسنا

إذا لم يغلب على ظنّ الناهي عن المنكر أن نهيَه لا يؤثر ، فإن غَلب على ظنه أن نهيَه لا يؤثر قَبُح إنكار المنكر ، لأنه إن كان الغرض تعريفَ فاعل القبيح قبحَ ما أقدم عليه ؛ فذلك حاصل من دون الإنكار ؛ وإن كان الغرضُ ألا يقع المنكر ، فذلك غير حاصل ؛ لأنه قد غلب على ظنه أن نهيَه وإنكاره لا يؤثر ؛ ولذلك لا يحسُن من الإنسان الإنكار على أصحاب المآصر[1] ما هم عليه من أخذ المكوس ، لما غلَب على الظن أن الإنكار لا يؤثر ؛ وهذا يقتضي أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام قد غلب على ظنه أن إنكاره لا يؤثر ؛ فلذلك لم ينكِر .

ولأجلِ اشتباه هذا الكلام على السامعين ، قال كعب بن جُعيل ، شاعر أهل الشام الأبيات التي منها[2] :

أرَى الشّام تكرهُ أهلَ العِراقِ ... وأهلُ العِراقِ لهمْ كارِهُونا[3]
وكُلٌّ لصاحِبِه مبغِضٌ ... يَرى كل ما كان من ذاك دِينَا
إذا ماَرمَوْنا رَمَيْناهُمُ ... ودِنّاهُمُ مِثْلَ ما يقْرِضُونا[4]
وَقالُوا : عَلِيٌّ إمامٌ لَنا ... فقلنا : رضِينا ابنَ هِندٍ رَضِينا
وَقالُوا : نَرَى أن تدينُوا لنا ... فقلنا : ألا لا نَرَى أن نَدينا[5]
وَمِنْ دُون ذلك خَرْطُ القَتادِ ... وَطَعْنٌ وَضَرْبٌ يَفُرِ الشُّئونا[6]

---

(١) المآصر : المواضع المعدة لحبس المارة عن المسير لأخذ العشور .

(٢) الأبيات في وقعة صفين ٦٣ ، ٦٤ ، وأورد المبرد في الكامل (٤ — ٢١٢ — بشرح المرصفي) الستة الأبيات الأولى منها ؛ وقال : « وفي آخر هذا الشعر ذم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أمسكنا من ذكره » .

(٣) وقعة صفين « والكامل » : « ملك العراق » .

(٤) دناهم : من الدين ، وهو القرض : ويقرضونا ، حذفت النون من غير ناصب ولا جازم، وهو جائز في العربية ، وانظر خزانة الأدب (٣ : ٥٢٥ — ٥٢٦) .

(٥) هذه رواية ابن أبي الحديد ؛ وهي توافق رواية المبرد ؛ وفي صفين :

وَقُلْنا نَرَى أن تَدِينوا لَنَا ... فقالوا لَنَا : لا نَرَى أنْ نَدينَا

(٦) قال المبرد : « وأحسن الروايتين : يفض الشئونا » .

وَكُلٌّ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ يَرَى غَثَّ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
وَمَا فِي عَلِيٍّ لِمُسْتَعْتِبٍ مَقَالٌ سِوَى ضَمِّهِ المُحْدِثِينَا
وإيثارِهِ اليومَ أهْلَ الذُّنُوبِ وَرَفْعِ القِصَاصِ عَنِ القَاتِلِينَا
إذا سِيلَ عَنْهُ حَذَا شبهةً وَعَمَّى الجوابَ عَلَى السَّائِلِينَا[1]
فليس براضٍ وَلَا ساخِطٍ ولا في النُّهاةِ وَلَا الآمِرِينَا
وَلَا هُوَ سَاءَ وَلَا سَرَّهُ وَلَا بُدَّ مِنْ بَعْضِ ذَا أَنْ يَكُونَا

وهذا شعر خبيث مُنْكَر ، ومقصد عميق ، وما قال هذا الشعر إلاّ بعد أن نُقِل إلى أهل الشام كلامٌ كثيرٌ لأمير المؤمنين عليه السلام في عثمان يجرى هذا المجرى ، نحو قوله : ما سرّنى وَلاَ ساءنى . وقيل له : أرضيتَ بقتله ؟ فقال : لم أرضَ ، فقيل له : أسخِطْتَ قتلَه ؟ فقال : لم أسخط . وقوله تارة : الله قتله وأنا معه ، وقوله تارة أخرى : ما قتلت عثمان ولا مالأتُ في قتله . وقوله تارة أخرى : كنتُ رجلا من المسلمين أوردتُ إذْ أوْرَدُوا ، وأصدرت إذ أصدروا .

ولكل شيء من كلامه إذا صحّ عنه تأويل يعرفه أولو الألباب .

فأمّا قوله : « غير أنّ مَنْ نصره » ، فكلام معناه أنّ خاذليه كانوا خيرا من ناصريه ؛ لأنّ الذين نصروه كان أكثرُهم فُسّاقا ، كمَرْوان بن الحكم وأضرابه ، وخذله المهاجرون والأنصار .

فأما قوله : « وأنا جامع لكم أمره ... » إلى آخر الفصل ؛ فمعناه أنه فَعَل ما لايجوز ، وفعلتم مالا يجوز ، أما هو فاستأثر فأساء الأثَرة ، أى استبدّ بالأمور فأساء في الاستبداد ، وأمّا أنتم فجزِعتم مما فعل أى حزنتم فأسأتم الجزع ، لأنكم قتلتموه ، وقد كان الواجب عليه أن

(١) حذا : أعطى ، وفي صفين : « حدا » ، أى ساق .

يرجع عن استئثاره ، وكان الواجب عليكم ألّا تجملوا جزاءه عمّا أذنب القتل ، بل الخلع والحبس وترتيب غيره فى الإمامة .

ثم قال : ولله حُكم سيحكم به فيه وفيكم .

***

[اضطراب الأمر على عثمان ثم أخبار مقتله]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قتِل .

وأصحّ ماذكر فى ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطّبرى فى " التاريخ "(١) .

وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثا مشهورة نقِمها النّاس عليه ، من تأمير بنى أميّة ، ولا سيّما الفساقُ منهم وأربابُ السّفَه وقلّة الدّين ، وإخراج مال الفىء إليهم ، وماجرى فى أمر عمّار وأبى ذرّ وعبدالله بن مسعود ، وغير ذلك من الأمور التى جرتْ فى أواخر خلافته . ثم اتفق أنّ الوليد بن عُقبة لمّا كان عاملَه على الكوفة وشُهد عليه بشرْب الخمر ، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه ، فقدم سعيد الكوفة ، واستخلص من أهلها قوما يسمُرون عنده ، فقال سعيد يوما : إنّ السواد بستان لقُرَيْش وبنى أمية . فقال الأشتر النّخعىّ : وتزعمُ أنّ السوادَ الذى أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك ! فقال صاحب شُرْطته : أتردّ على الأمير مقالته ! وأغلظ له ، فقال الأشتر لمن كان حوله من النّخَع وغيرهم من أشراف الكوفة : ألا تسمعون ! فوثبوا عليه بحضْرَة سعيد فوطِئُوه وطأ عنيفا ، وجرُّوا برجْله ، فغلُظ ذلك على سعيد ، وأبعد سُمّارَه فلم يأذن بعدُ لهم ، فجعلوا يشتِمون سعيدا فى مجالسهم ، ثم تعدّوا ذلك إلى شتم عثمان ، واجتمع إليهم ناس كثير ، حتى غلُظ أمرُهم ، فكتبَ سعيد إلى عثمان فى أمرهم ، فكتب إليه أن يسيّرَهم إلى الشام ؛ لئلاّ يُفْسِدوا أهلَ الكوفة ، وكتب إلى معاوية وهو والى الشام : إنّ نفرا من أهل الكوفة

(١) فى حوادث سنة ٣٣ ـ ٣٥ ، مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل .

قد همّوا بإثارة الفتنة،وقد سيرتُهم إليك،فانههم ؛ فإن آنستَ منهم رُشْداً فأحسن إليهم، واردُدْهم إلى بلادهم .

فلما قدموا على معاوية ـ وكانوا : الأشتر ، ومالك بن كعب الأرْحَبِيّ ، والأسود بن يزيد النَّخَعِيّ،وعلقمة بن قيس النخعيّ ، وصعصعة بن صُوحان العبديّ،وغيرهم ـ جمَعَهم يوما ، وقال لهم : إنّكم قوم من العَرب، ذوو أسنان وألسِنة،وقد أدركتم بالإسلام شرَفاً، وغلبتم الأمم ، وحويتم مواريثهم ؛ وقد بلغنى أنّكم ذممتم قريشا ، ونقِمتم على الولاة فيها ؛ ولولا قريشٌ لكنتُم أذِلّة ؛ إنّ أئمتكم لكم جُنّة ،فلا تفرّقُوا عن جُنتكم ، إنّ أئمتكم ليَصبرُون لكم على الجوْر ، ويحتملون منكم[1] العِتاب ؛ والله لتنتهُنّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومُكم الخسف،ولا يحمَدكم على الصبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم ، وبعد وفاتكم .

فقال له صعصعة بن صُوحان : أمّا قريش فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنَعها فى الجاهلية ، وإنّ غيرَها من العرب لأكثرُ منها كان وأمنع .

فقال معاوية : إنك لخطيب القوم ، ولا أرى لك عقلا ، وقد عرفتُكم الآن،وعلمتُ أنّ الذى أغراكم قلةُ العقول . أعظِمُ عليكم أمر الإسلام فتذكُرنى الجاهلية ! أخزَى الله قوماً عظّموا أمرَكم ! افقهوا عَنّى ولا أظنكم تفقهون ؛ إنّ قريشا لم تعِزّ فى جاهلية ولا إسلام إلا بالله وحده ؛ لم تكن بأكثرِ العرب ولا أشدِّها ، ولكنّهم كانوا أكرمَهم أحسابا ، وأمحضَهم[2] أنسابا ، وأكملَهم مروءة ؛ ولم يمتنعوا فى الجاهلية ـ والناس يأكل بعضُهم بعضا ـ إلّا بالله ، فبوّأهم حَرَماً آمنا يُتَخَطّفُ الناس مِنْ حوله.هل تعرفون عربا أو عجما ، أو سودا أو حمرا إلا وقد أصابهم الدهر فى بلدهم وحرمهم،إلّا ما كان من قريش؛ فإنه لم يُرِدْهم أحدٌ من النّاس بكيد إلّا جعل الله خدّه الأسفل ؛ حتى أراد الله تعالى أن يستنقِذ مَنْ أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مردّ الآخرة ، فارتضى لذلك خيْرَ

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فيكم » .
(٢) يقال : عربى محض ؛ أى خالص النسب .

خلقه ، ثم ارتضى له أصحابا ، وكان خيارُهم قريشا . ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعلَ هذه الخلافة فيهم ، فلا يصلُح الأمرُ إلا بهم ؛ وقد كان الله يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم ؛ أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه ! أفٍّ لك ولأصحابك ! أما أنتَ ياصعصعة ، فإنّ قريتك شرُّ القرى ؛ أنتَنُها نَبتًا وأعمقُها واديا ، والأمها جيرانا ، وأعرفها بالشر ؛ لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلا سُبّ بها ، نُزّاع الأمم وعبيد فارس وأنت شرّ قومك . أحين أبرزك الإسلام ، وخلطك بالناس ، أقبلت تبغى دينَ الله عوجا ، وتنزع إلى الغواية ! إنه لن يضرّ ذلك قريشا ولا يضعهم ، ولا يمنعهم من تأدية ماعليهم ؛ إنّ الشيطانَ عنكم لَغير غافل ، قد عرَفكم بالشرّ ، فأغرا كم بالناس ، وهو صارعكم ؛ وإنكم لا تُدرِكون بالشرّ أمراً إلا فُتِح عليكم شرّ منه وأخزى . قد أذنتُ لكم فاذهبوا حيث شئتم ، لا ينفع الله بكم أحدا أبدا ولا يضرّه ، ولستم برجال منفعة ولا مضرّة ، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا تُبطِرَنكم النعمة ؛ فإن البطرَ لا يجرّ خيرا . اذهبوا حيث شئتم ، فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم .

وكتب إلى عثمان :

إنه قَدِم علىّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشىء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة ، والله مبتليهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين نخاف نكايتهم ، وليسوا بأكثر ممن له شغب ونكير .

ثم أخرجهم من الشام[(١)] .

***

وروى أبو الحسن المدائنىّ أنه كان لهم مع معاوية بالشام مجالس طالت فيها المحاورات والمخاطبات بينهم ، وأنّ معاوية قال لهم فى جملة ماقاله : إنّ قريشا قد عرفتْ أنّ أبا سفيان

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣٣ – ٣٣٥

كان أكرمَها وابنَ أكرمِها ، إلاّ ماجعل الله لنبيه صلى الله عليه ، فإنّه انتجبه [١] وأكرمه ، ولو أنّ أبا سفيان ولد الناس كلّهم لـكانوا حلماء [٢] .

فقال له صعصعة بن صُوحان : كذبت ! قد ولدهم خيرٌ من أبى سفيان ! مَنْ خَلَقه الله بيده ، ونَفَخ فيه من روحه ، وأمرَ الملائكة فسجدوا له ، فـكان فيهم البرّ والفاجر ، والـكيّس والأحمق .

***

قال : ومن المجالس التى دارت بينهم أن معاوية قال لهم : أيّها القومُ ردُّوا خيرا أو اسكتوا ؛ وتفـكّروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين ، فاطلبوه وأطيعونى .

فقال له صعصعة : لستَ بأهل ذلك ، ولا كرامةَ لك أنْ تُطاع فى معصية الله .

فقال : إنّ أوّلَ كلام ابتدأتُ به أن أمرتُـكم بتقوى الله وطاعة رسوله ، وأنْ تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا .

فقالوا [٣] : بل أمرتَ بالفُرْقة وخلاف ماجاء به النبي صلى الله عليه وآله .

فقال : إن كنتُ فعلتُ فإنى الآن أتوب ، وآمرُكم بتقوى الله وطاعته ، ولزوم الجماعة ، وأنْ توقّروا أئمتَـكم وتُطيعوهم .

فقال صعصعة : إن كنت تبتَ فإنا نأمرُك أن تعتزِل عملك [٤] فإنّ فى المسلمين مَنْ هوأحقُّ به منك ، ممن كان أبوه أحسنَ أثرا فى الإسلام من أبيك ، وهو أحسنُ قدَمًا فى الإسلام منك .

فقال معاوية : إنّ لِى فى الإسلام لَقَدَمًا ، وإن كان غيرى أحسنَ قدَمًا منّى ؛ لـكنّه

---

(١) انتجبه : اصطفاه واختاره ، وفى الطبرى : « انتخبه » .
(٢) عبارة الطبرى : « ولو ولد الناس لم يلد إلا حازما » .
(٣) فى الأصول : « فقال » وصوابه من الطبرى .
(٤) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « أمرك » .

ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منّى ، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك ، فلو كان غيرى أقوى منّى لم يكن عند عمر هَوادة لى ولا لغيرى ، ولم أحدِث [1] ما ينبغى له أن أعتزل على ، فلو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لكتب إلىّ [بخطّ يده] [2] فاعتزلت عمله ؛ فهلا فإنّ فى دون ما أنتم فيه ما يأمرُ فيه الشيطان وينهَى . ولعَمرى لو كانت الأمور تُقضَى على رأيكم وأهوائكم ما استقام الأمر لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ؛ فعاودوا الخيرَ وقولوه ؛ فإنّ الله ذو سَطَوات ؛ وإنى خائف عليكم أن تتَتابعوا إلى مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن. فيُحِلّكم ذلك دارَ الهون فى العاجل والآجل .

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته فقال : مه ! إنّ هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهلُ الشام ما صنعتم بى [وأنا أمامهم] [2] ما ملكتُ أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ؛ فلعَمرِى إنّ صنيعَكم يُشبِه بعضُه بعضاً .

ثم قام من عندهم ، وكتب إلى عثمان فى أمرهم [3] ؛ فكتب إليه أنْ رُدّهم إلى سعيد ابن العاص بالكوفة . فردّهم ، فأطلقوا ألسنتهم فى ذمّه وذمّ عثمان وعيبهما. فكتب إليه عثمان أن يسيّرهم إلى حِمص ، إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فسيّرهم إليها .

***

(١) ب . « ولا حدث » .

(٢) من الطبرى .

(٣) ذكر الطبرى كتاب معاوية إلى عثمان ، وهذا نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قبل القرآن ، فيشبهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ؛ وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم ، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم؛ فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة ، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم ؛ فارددهم إلى مصرهم ؛ فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ، والسلام » .

وروى الواقدى، قال : لما سيِّرَ بالنفر الذين طردهم عثمان عن الكوفة إلى حِمص ـ وهم: الأشتر، وثابت بن قيس الهمدانى ، وكُمَيل بن زياد النَّخَعِىّ ، وزيد بن صُوحان ، وأخوه صعصعة، وجندَب[1] بن زهير الغامدى، وجندب[1] بن كعب الأزدِىّ وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمِق الخزاعى ، وابن الكوَّاء ـ جمعهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، بعدأن أنزلهم أياما ، وفرض لهم طعاما ، ثم قال لهم يابنى الشيْطان ، لا مرحبا بكم ولاأهلا! قد رجع الشيطان محسورا . وأنتم بَعْدُ فى بساط ضلالكم وغَيِّكم ! جزى الله عبد الرحمن إن لم يؤذِكم! يامعشر مَنْ لا أدرى أعرب هم أم عجم ! أتراكم تقولون لى ماقلتم لمعاوية! أنا ابن خالد ابن الوليد ! أنا ابن مَنْ عَجَمَتْه العاجمات ، أنا ابن فاقئ عين الرِّدَّة ! والله يابن صُوحان لأطيرنّ بك طَيْرَة بعيدة المهوَى إن بلغنى أن أحداً ممن معى دق أنفك فأقنعت[2] رأسك.

قال : فأقاموا عنده شهرا ؛ كلما ركب أمشاهم معه ، ويقول لصعصعة : يابن الخطيئة، إنّ مَنْ لم يُصلحه الخيرُ أصلحه الشرّ ؛ مالك لا تقول كما كنتَ تقول لسعيد ومعاوية ! فيقولون : سنتوب إلى الله ، أقِلْنا أقالك الله ! فما زال ذاك دأبه ودأبهم ، حتى قال : تاب الله عليكم . فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم ، ويسأله فيهم ، فردّهم إلى الكوفة .

***

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ رحمه الله تعالى : ثم إنّ سعيد بن العاص قَدِم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته . فلمّا دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصحابة ، فذكروا سعيدا وأعماله ، وذكروا قرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين ، وعابوا أفعالَ عثمان ، فأرسلوا إليه عامرَ بن عبد القيس ـ وكان متألها[3] ، واسم أبيه عبد الله ، وهو من تميم ، ثم من بنى العَنْبَر ـ فدخلَ على عثمان ، فقال له : إنّ ناساً من الصحابة

(١) ا ، ج : « حبيب » ، وما أثبته من ب والطبرى .
(٢) أقنعت رأسك : رفعتها .
(٣) المتأله : المتعبد المتنسك .

اجتمعوا ونظروا فى أعمالك ، فوجدوك قد رَكِبْتَ أمورا عِظاما ، فاتقِ الله وتبْ إليه.

فقال عثمان : انظروا إلى هذا ، تزعم الناس أنه قارئ ، ثم هو يجىء إلىّ فيكلمنى فيما لا يعلمه ! والله ماتدرِى أين الله ! فقال عامر : بَلَى واللهِ إنى لأدْرِى أنّ الله لَبِالمِرصاد(١) .

فأخرجه عثمان ، وأرسل إلى عبد الله بن سعد بن سَرْح ، وإلى معاوية وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر — وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم — فشاورهم ، وقال : إنّ لكلّ أميرٍ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونُصَحائى وأهلُ ثقتى ، وقد صنع الناسُ ماقد رأيتم ، وطلبوا إلىّ أنْ أعزِلَ عُمّالى وأن أرجعَ عن جميع مايكرهون إلى مايحبون ، فاجتهدُوا رأيكم .

فقال عبد الله بن عامر : أرَى لكَ ياأمير المؤمنين أن تَشْغَلَهم عنك بالجهادحتى يَذِلُّوا لك ، ولا تكون همّةُ أحدِهم إلّا فى نفسه ، وما هو فيه من دَبَر دابته(٢) وقَمْل فَرْوته .

وقال سعيد بن العاص : احْسِم عنك الداء ، واقطعْ عنك الذى تخاف ؛ إنّ لكلّ قوم قادة مَتى يَهْلِكوا يتفرّقوا ولا يجتمعْ لهم أمرٌ .

فقال عثمان : إنّ هذا لهو الرأىُ لولا مافيه .

وقال معاوية : أشيرُ عليك أن تأمُرَ أمراء الأجناد ، فيكفِيَكَ كلّ رجل منهم ما قِبَله ، فأنا أكفيكَ أهلَ الشام .

وقال عبد الله بن سعد : إنّ الناسَ أهلُ طَمَع ، فأعطِهمْ مِنْ هذا المال تعطِفْ عليك قلوبهم .

فقال عمرو بن العاص : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنك قد ركِبْتَ الناس(٣) ببنى أمية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدِلْ أو اعتزِل ، فإن أبيتَ فاعزِمْ عزما ، وامضِ قُدُما .

---

(١) فى الطبرى : « فإن ربك بالمرصاد لك ؛ فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبى سفيان . . » .

(٢) الدبرة ، بالتحريك : قرحة الدابة والبعير ، وجمعها دبر ، بفتحتين .

(٣) عبارة الطبرى : « قد ركبت الناس بما يكرهون » .

فقال له عثمان : مالكَ قَمِلَ فَرْوُكَ ! أهذا بجدّ [١] منك !

فسكت عمرو حتى تفرّقوا ، ثم قال : والله يا أميرَ المؤمنين ، لأنتَ أكرمُ عليّ من ذلك ؛ ولكنّي علمت أنّ بالباب مَنْ يبلِّغ الناس قول كلّ رجل مِنّا فأردت أن يبلغهم قولي ، فيثقوا بي ، فأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شرّاً .

فردّ عثمان عُمّاله إلى أعمالهم ، وأمرهم بتجهيز النّاس في البُعوث ، وعزَم على أن يحرِمَهم أعطياتهم ليُطيعوه ، وردّ سعيدَ بن العاص إلى الكوفة، فتلقاه أهلها بالجرَعَة [٢] — وكانوا قد كرِهوا إمارته ، وذمّوا سيرتَه — فقالوا له : ارجع إلى صاحبك ، فلا حاجة لنا فيك . فهمّ بأن يَمضِيَ لوجهه ولا يرجع ، فكثُر الناس عليه ، فقال له قائل : ماهذا ! أتردّ السيلَ عن أدراجه ! والله لا يُسكِّن الغوغاء إلا المَشْرفيّة [٣] ، ويوشِكُ أنْ تُنتضى بعد اليوم ، ثمّ يتمنّوْن ماهم اليوم فيه فلا يردّ عليهم . فارجع إلى المدينة ، فإنّ الكوفة ليست لك بدار .

فرجع إلى عثمان ، فأخبره بما فعلوا . فأنفذَ أبا موسى الأشعريّ أميراً على الكوفة، وكتب إليهم : أما بعد ، فقد أرسلتُ إليكم أبا موسى الأشعريَ أميراً ، وأعفيتُكم من سعيد ، ووالله لأفرِّضنّكم عِرْضي ، ولأبذلَنّ لكم صَبْرِي ، ولأستصلِحَنّكم جهْدي، فلا تَدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصَى اللهُ فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ؛ لأكونَ فيه عندما أحببتُم وكرهتم ؛ حتى لا يكونَ لكم على الله حجة ، والله لَنَصبِرَنّ كما أمِرْنا ، وسيجزي الله الصابرين .

* * *

(١) الطبري : « أهذا الجد منك ! » .

(٢) الجرعة ، بالتحريك — وقيل بسكون الراء : موضع قرب الكوفة ، بين النجف والحيرة .

(٣) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف ، قرى قرب حوران .

قال أبو جعفر : فلمّا دخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين ، تكاتَب أعداء عثمان وبنى أمية فى البلاد ، وحَرّض بعضُهم بعضا عَلَى خَلع عثمانَ عن الخلافة ، وعَزْل عمّاله عن الأمصار ، واتصل ذلك بعثمان ، فكتب إلى أهل الأمصار :

أمّا بعد ، فإنه رُفِع إلىّ أنّ أقواما منكم يَشْتِمهم عمّالى ويضربونهم ، فمنْ أصابه شىء من ذلك فليوافِ الموسمَ بمكة ، فليأخذ بحقّه منّى أو من عمّالى فإنى قد استقدمتُهم ، أو تصدّقوا فإن الله يجزى المتصدقين .

ثم كاتب عمّاله واستقدَمهم ، فلما قَدِموا عليه جَمعهم ، وقال : ماشِكايةُ الناس منكم؟ إنّى لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، ومايُعْصَبُ هذا الأمرُ إلا بى . فقالوا له : والله ماصدَق مَنْ رفَعَ إليك ولا برّ ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا . فقال عثمان : فأشيروا علىّ ، فقال سعيد بن العاص : هذه أمورٌ مصنوعة تُلقَى فى السرّ فيتحدّث بها الناس ، ودواء ذلك السيف .

وقال عبدُ الله بن سعد : خُذْ من النّاس الذى عليهم إذا أعطيتَهم الذى لهم .

وقال معاوية : الرأىُ حسنُ الأدب .

وقال عمرو بن العاص : أرى لك أن تلزَم طريقَ صاحبيْك ، فتلينَ [فى][1] موضع اللين ، وتشتدَّ [فى][1] موضع الشدة .

فقال عثمان : قد سمعتُ ماقلتم ؛ إنّ الأمرَ الذى يُخاف على هذه الأمة كائن لابدّ منه ، وإنّ بابه الذى يُغلَق عليه لَيُفتَحَنّ ؛ فكفكفوهم[2] باللين والمداراة إلا فى حدود الله ، فقد عَلِم الله أنى لم آلُ الناسَ خيرا ، وإنّ رَحا الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها ! سكّنوا النّاسَ وهبوا لهم حقوقَهم[3] ، فإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تدهنوا فيها[4] .

(١) تكملة من الطبرى .
(٢) كفكفوهم : اصرفوهم .
(٣) المداهنة : المصانعة ، وفى الطبرى وج : « فلا تدهنوا » ، والإدهان : المصانعة .
(٤) فى الأصول : « حقوقكم » ، وما أثبته عن الطبرى .

ثم نفرَ فقدِم المدينة ، فدعا عليًا وطلحةَ والزبير ، فحضروا وعنده معاوية ، فسكت عثمان ولم يتكلّم ، وتكلّم معاوية ، فحمِد الله ، وقال :

أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وخِيرتُه من خَلْقه ، وولاةُ أمرِ هذه الأمة ، لايطمع فيه أحدٌ غيرُكم ، اخترتم صاحبَكم عن غير غَلَبة ولا طمع ؛ وقد كَبِر[1] وولّى عمرُه ، فلو انتظرتُم به الهرَم كان قريبا ؛ مع أنى أرجو أن يكونَ أكرمَ على الله أن يبلّغه ذلك ، وقد فَشَتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم ، فما عِبْتم فيه من شىء فهذه يَدى لكم به رَهْنا[2] ، فلا تُطمِعوا النّاسَ فى أمرِكم ؛ فوالله إن أطمَعْتُموهم لارأيتمُ أبدا منها إلا إدبارا .

فقال علىّ عليه السلام : ومالَك وذاكَ لاأمّ لك ! فقال : دعْ أمّى فإنّها ليست بشر أمّهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبىّ صلى الله عليه ، وأجِبْنى عمّا أقول لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أخى ، أنا أخبركم عنّى وعمّا وَلِيت ؛ إن صاحبىّ اللّذيْن كانا قبلى ، ظَلَمَا أنفسَهما ومَنْ كان منهما بسبيل احتسابا . وإنّ رسول الله صلى الله عليه كان يعطى قرَابته ، وأنا فى رهطٍ أهل عَيْلة وقلّة معاش ، فبسطتُ يدى فى شىء من ذلك لما أقومُ به فيه ؛ فإن رأيتُم ذلك خطأ فردّوه ، فأمرى لأمركم تبَع .

قالوا : أصبتَ وأحسنتَ ؛ إنك أعطيت عبدَ الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفا ، وأعطيتَ مَرْوانَ خمسة عشر ألفا ، فاستعِدْها منهما . فاستعادها ، فخرجوا راضين .

* * *

قال أبو جعفر : وقال معاويةُ لعثمان : اخرُج معى إلى الشّام ، فإنّهم على الطاعة

---

(١) الطبرى : « كبرت سنه » .

(٢) كلمة « رهنا » ساقطة من الطبرى .

قبل أن يهجُم عليك ما لا قِبَل لك به ، فقال : لا أبيعُ جوارَ رسول الله صلى الله عليه بشيء ، وإن كان فيه [قطع][1] خيط عنقي . قال : فأبعثُ إليك جُندا من الشام يُقيم معك لنائبة إن نابت [المدينة أو إياك][1] . فقال : لا أضيِّقُ على جيران رسول الله صلى الله عليه ، فقال : والله لَتُغتَالَنَّ ، فقال : حسبي الله ونعم الوكيل .

* * *

قال أبو جعفر : وخرج معاوية من عند عثمان ، فمرّ على نفر من المهاجرين ، فيهم عليّ عليه السلام وطلحة والزبير ، وعلى معاويةَ ثيابُ سفره ، وهو خارج إلى الشام ، فقام عليهم ، فقال : إنكم تعلمون أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه ، حتى بعث الله نبيَّه ، فتفاضلوا بالسّابقة والقِدْمة والجهاد ؛ فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم ، والناسُ لهم تَبَع ، وإن طلبوا الدّنيا بالتغالُب سُلبوا ذلك ، وردّه الله إلى غيرهم ، وإن الله على البَدَل لقادر . وإني قد خلّفت فيكم شيخنا ، فاستوصوا به خيرا وكانفوه ، تكونوا أسعد منه بذلك . ثم ودّعهم ومضى . فقال عليّ عليه السلام : كنت أرى في هذا خيرا . فقال الزبير : والله ما كان أعظمَ قطّ في صدرك وصدورنا منه اليوم .

* * *

قلت : مِنْ هذا اليوم أنشبَ معاوية أظفارَه في الخلافة ؛ لأنه غلب على ظنّه قتلُ عثمان ، ورأى أنّ الشام بيده، وأن أهلَها يطيعونه، وأنّ له حجّة يحتجّ بها عليهم ، ويجعلُها ذريعةً إلى غرضه ؛ وهي قتلُ عثمان إذا قُتِل ، وأنّه ليس في أمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش ، واستمالة العرب ، فبقيَ أمرُه من هذا اليوم على الطّمع في الخلافة . ألا ترى إلى قوله لصعصعة من قبل: إنّه ليس أحدٌ أقوى منّي على الإمارة ، وإن عمر

---

(١) تكملة من الطبري .

استعملَني ورضيَ سيرتي ! أوَ لا ترى إلى قوله للمهاجرين الأولين : إن شرعتم في أخذِها بالتغالُب ، وملتم على هذا الشيخ ، أخرجها الله منكم إلى غيركم وهو على الاستبدالِ قادر ، وإنما كان يعني نفسَه ، وهو يَكْنِي عنها ، ولهذا تربّص[1] بنصرة عثمان لما استنصره ولم يبعث إليه أحدا .

* * *

وروى محمد بن عمر الواقديّ رحمه الله تعالى ، قال : لما أجلَب الناسُ عَلَى عثمان ، وكَثُرت القالة فيه ، خرج ناس من مِصْر ؛ منهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلويّ ، وكنانة ابن بِشر الليثي ، وسُودان بن حُمْران السَّكُونيّ ، وقتيرة بن وهب السَّكْسَكي ؛ وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقيّ ، وكانوا في ألفين . وخرج ناس من الكوفة ، منهم زيد بن صُوحان العبدي ، ومالك الأشتر النَّخعيّ ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم الغامديّ ، في ألفين . وخرج ناسٌ من أهل البصرة ، منهم حُكَيم بن جَبَلة العبديّ ، وجماعة من أمرائهم ، وعليهم حُرقُوص بن زهير السَّعديّ ؛ وذلك في شوال من سنة خمس وثلاثين ، وأظهروا أنهم يُريدون الحج . فلما كانوا من المدينة عَلَى ثلاث ، تقدّم أهلُ البصرة ، فنزلوا ذا خُشُب[2] ـ وكان هواهم في طلحة ـ وتقدم أهلُ الكوفة ، فنزلوا الأعوَص[3] ـ وكان هواهم في الزبير ـ وجاء أهلُ مصر فنزلوا المرْوَة[4] ـ وكان هواهم في عليّ عليه السلام ـ ودخل ناسٌ منهم إلى المدينة يَخْبُرُون ما في قلوب الناس لعثمان ، فلقُوا جماعةً من المهاجرين والأنصار ، ولقُوا أزواج للنبي صلى الله عليه وآله ، وقالوا : إنما نريد الحجّ ، ونستعفِي من عمالنا .

ثم لقيَ جماعة من المصريين علياً عليه السلام ، وهو متقلّد سيفَه عند أحجار الزّيْت[5] ،

---

(١) تربض : قعد ولم ينصره . (٢) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة .
(٣) أعوص : موضع قرب المدينة على أميال منها . (٤) المروة : جبل بمكة ينتهي إليه السعي من الصفا .
(٥) أحجار الزيت : موضع بالمدينة .

صلوا عليه ، وعَرَضوا عليه أمرَهم ، فصاح بهم وطردهم ، وقال : لقد عَلِم الصالحون أن جَيْشَ المرْوَة وذى خُشُب والأعوص مَلعونون على لسانِ محمد صلى الله عليه . فانصرفوا عنه .

وأتى البصريون طلحةَ ؛ فقال لهم مثلَ ذلك ، وأتى الكوفيون الزبيرَ ، فقال لهم مثلَ ذلك . فتفرّقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم .

فلما أمِنَ أهلُ المدينة منهم واطمأنّوا إلى رُجُوعهم لم يشعروا إلّا والتكبيرُ فى نواحى المدينة ، وقد نزلوها ، وأحاطوا بعثمان ، ونادى مناديهم : يأهلَ المدينة ، مَنْ كفَّ يده عن الحرب فهو آمن . فحصَرُوه فى منزله ، إلّا أنّهم لم يمنعوا الناسَ من كلامه ولقائه ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين ، وسألوهم : ما شأنُهم ؟ فقالوا : لا حاجةَ لنا فى هذا الرجل ، لِيَعْتَزِلنا لنُوَلّىَ غيرَه ، لم يزيدوهم على ذلك .

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار ، يستنجدهُم ويأمرُهم بتعجيل الشخوص إليه للمنع عنه ، ويعرّفهم ما النّاس فيه . فخرج أهل الأمصار على الصَّعْب والذَّلول ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهرىَّ ، وبعث عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح معاوية بن حُدَيج ، وخرج من الكوفة القَعْقاع بن عمرو ؛ بعثه أبو موسى .

وقام بالكوفة نفرٌ يحرّضون الناسَ على نَصْر عثمان وإعانة أهل المدينة ، منهم عُقْبة ابن عمر ، وعبد الله بن أبى أوْفى ، وحنظلةُ الكاتب ، وكلّ هؤلاء من الصحابة ، ومن التابعين مَسْروق ، والأسود ، وشُرَيح ، وغيرهم .

وقام بالبصرة عِمران بن الحصين وأنس بن مالك ، وغيرهما من الصحابة . ومن التابعين كعب بن سُور[1] ، وهَرِم بن حَيّان وغيرهما .

---

(١) فى الأصول : « شور » ، وصوابه من الطبرى والقاموس .

وقام بالشام ومصر جماعة من الصحابة والتابعين .

وخَرج عثمان يوم الجمعة ، فصلى بالناس ، وقام على المنبر ، فقال : ياهؤلاء ، الله الله؛ فوالله إنّ أهلَ المدينة يَعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه ، فامحوا الخطأ بالصواب .

فقام محمد بن مَسْلَمة الأنصاريّ ، فقال : نعم أنا أعلم ذلك ، فأقعده حُكَيْم بن جَبَلة. وقام زيد بن ثابت فأقعده قُتَيرة بن وهب . وثار القوم فحصَبُوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صُرِع عن المنبر مغشيا عليه ؛ فأُدخِل دارَه ؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان ؛ منهم سعد بن أبى وَقّاص ، والحسن بن علىّ عليه السلام، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ؛ فأرسل إليهم عثمان : عزمت عليكم أن تنصرفوا ؛ فانصرفوا .

وأقبلَ على وطلحة والزّبير ، فدخلوا على عثمان يعودونه من صَرْعَتِه،ويشكون إليه مايجدُون لأجله ؛ وعند عثمان نفر من بنى أميّة ، منهم مَرْوان بن الحكم ، فقالوا لعلىّ عليه السلام:أهلكتَنا وصنعت هذا الذى صنعت ! والله إن بلغتَ هذا الأمر الذى تريده لتُمِرّنّ عليك الدنيا ؛ فقام مغضَبا ، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم .

***

وروى الواقدىّ ، قال : صلى عثمان بعد ماوثبوا به فى المسجد شهرا كاملا ، ثم منعوه الصلاة ، وصلّى بالناس أميرُهم الغافقىّ .

وروى المدائنىّ ، قال : كان عثمان محصوراً محاطا به ، وهو يصلّى بالناس فى المسجد ، وأهلُ مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خَلْفه ، وهم أدقّ فى عينه من التراب .

***

قال أبو جعفر فى التاريخ : ثم إنّ أهل المدينة تفرّقوا عنه ، ولزِموا بيوتهم، لايخرج أحد منهم إلا بسيفه يمتنع به ؛ فكان حصاره أربعين يوما .

وروى الكلبىّ والواقدىّ والمدائنىّ أنّ محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حُذيفة كانا بمصر يحرّضان الناس على عثمان ، فسار محمد بن أبى بكر مع مَنْ سار إلى عثمان، وأقام محمد بن أبى حذيفة بمصر ، ثم غلَب عليها لما سار عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح عامل عثمان عنها إلى المدينة فى أثر المصريين ، بإذن عثمان له ، فلما كان بأيْلة ، بلغه أنّ المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول ، وأنّ محمد بن أبى حذيفة قد غلب على مصر ، فعاد عبدالله إلى مصر ، فمُنع عنها ، فأتى فلسطين ، فأقام بها حتى قُتِل عثمان .

وروى الكلبىّ،قال : بعث عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح رسولاً من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض مَنْ نهض من مصر إليه،وأنهم قد أظهروا العُمْرة ، وقصدُهم خَلْعُه أو قتله، فخطب عثمان الناس ، وأعلمهم حالهم،وقال : إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عُمُرى، والله إن فارقتُهم ليتمنَّيَنّ كلٌّ منهم أنّ عمرى كان طال عليهم مكان كلّ يوم سَنَة؛ مما يرون من الدماء المسفوكة والإحَن والأثَرة الظاهرة ، والأحكام المغيرة .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرّض على عثمان ويُغرى به ، ولقد خطب عثمان يوما فى أواخر خلافته ، فصاح به عمرو بن العاص : اتق الله ياعثمان ، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نَتُبْ . فناداه عثمان : وإنك هاهنا يابن النابغة ! قَمِلَتْ والله جُبَّتك منذ نزعتُك عن العمل . فنودى من ناحية أخرى : تب إلى الله . ونودى من أخرى مثل ذلك ، فرفع يديْه إلى السماء ، وقال : اللّهمّ إنى أول التائبين . ثم نزل .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص شديدَ التحريض والتأليب على عثمان ، وكان يقول: والله إن كنتُ لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان، فضلا عن الرؤساء والوجوه. فلما سُعِّرَ الشرّ بالمدينة ، خرج إلى منزله بفلسطين ، فبينا هو بقصره ومعه ابناه : عبد الله ومحمد ؛ وعندهم سَلاّمة بن روح الجذامي، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان، فقال: محصور، فقال عمرو : أنا أبو عبدالله! قد يضرط العَيْر والمكواة في النار. ثم مرّ بهم راكب آخر، فسألوه ، فقال : قُتِل عثمان فقال عمرو : أنا أبو عبد الله، إذا نكأتُ قَرْحَةً أدميتُها [1] . فقال سلامة بن روح : يامعشرَ قريش ؛ إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه ، فقال : نعم أردنا أن نخرجَ الحقّ من خاصِرَةِ الباطل ، ليكون الناس في الأمر شَرَعًا سواء .

وروى أبو جعفر ، قال : لما نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتلَ عثمان إن لم ينزع عمّا يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل عليّ عليه السلام، فدخل وقال: يابنَ عمّ ، إنّ قرابتي قريبة ، ولي عليك حقّ ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مُصَبّحِيّ ، ولك عند الناس قَدْر ، وهمْ يسمعون منك ، وأحبُّ أنْ تركب إليهم فتردّهم عنّي ، فإنّ في دخولهم عليّ وهنًا لأمري ، وجُرْأةً عليّ . فقال عليه السلام : عَلَى أي شيء أردّهم ؟ قال : على أنْ أصيرَ إلى ما أشرتَ به ، ورأيتَه لي . فقال عليّ عليه السلام : إني قد كلّمتك مَرّة بعد أخرَى ، فكل ذلك تخرج وتقول ، وتَعِدُ ثم ترجع ! وهذا من فعل مَرْوان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد ؛ فإنك أطعتَهم وعصيتَني ! قال عثمان : فإني أعصيهم وأطيعُك .

فأمر عليّ عليه السلام الناسَ أن يركبوا معه ، فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين

---

(١) الطبري : «حككت قرحة نكأتها» .

والأنصار ، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأبو جَهْم العدوىّ ، وجُبَير بن مُطعِم، وحَكِيم بن حِزام ، ومَرْوان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتّاب ابن أسِيد .

ومن الأنصار أبو أسَيْد الساعدىّ ، وزيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وغيرهم .

فأتوا المصريين فكلموهم ،فكان(١) الذى يكلّمهم علىّ ومحمد بن مَسْلمة، فسمعوا منهما، ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر ، ورجع علىّ عليه السلام حتى دخل على عثمان ، فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناسُ منه ، ليسكتوا إلى مايعدهم به من النزوع(٢) . وقال له : إنّ البلاد قد تمخضَت عليك ، ولا آمن أن يجىء رَكْب من جهة أخرى ، فتقول لى : ياعلىّ ، اركب إليهم ؛ فإن لم أفعل رأيتَنى قد قطعتُ رحمك ، واستخففت بحقك .

فخرج عثمان ، فخطب الخطبة التى نزَع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة ، وقال لهم : أنا أولُ مَن اتعظ ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه ، فمثلى نزع وتاب ؛فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرَوْا رأيهم ، وليذكر كلّ واحدظُلامته ؛ لأكشفها ،وحاجته لأقضيَها ، فوالله لئن ردنى الحقُّ عبداً لأستنّ بسنة العبيد ، ولأذلّنّ ذُلّ العبيد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، والله لأعطِينّكم الرضا ، ولأنَحّيَنّ مرْوَانَ وذويه ، ولا أحتجب عنكم .

فرَقّ الناسُ له وبَكَوْا حتى خَضَلُوا لحاهم ، وبكى هو أيضاً ، فلما نزل وجد مَرْوان وسعيداً(٣) ونفراً من بنى أمية فى منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته؛ ولكنها بلغتْهم؛ فلما جلس ، قال مَرْوان :ياأمير المؤمنين ، أأتكلم أم أسكتُ ؟فقالت نائلةابنةُ الفَرافصة امرأة عثمان : لا بل تسكت ، فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله ؛إنه قدقال مقالة لا ينبغى له

---

(١) ا ، ج : « وكان » . (٢) نزع عن الأمر نزوعاً : انتهى منه . (٣) هو سعيد بن العاص.

أن ينزع عنها . فقال لها مَرْوان : وما أنت وذاك ! والله لقد مات أبوكِ وما يحسن أن يتوضأ ! فقالت : مهلاً يامَرْوان عن ذكر أبي إلا بخير ؛ والله لولا أنّ أباك عمّ عثمان، وأنه ينالُه غمّه وعيبه ، لأخبرتُك مِنْ أمره بما لا أكذب فيه عليه .

فأعرض عنه عثمان ، ثم عاد فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أأتكلّم أم أسكت ؟ فقال : تكلم ، فقال : بأبي أنت وأمّي ! والله لَوَدِدْتُ أنّ مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع ، فكنتُ أوّلَ مَنْ رَضِيَ بها وأعان عليها ؛ ولكنّك قلت ماقلت ، وقد بلغ الحزامُ الطُّبيين ، وجاوز السّيلُ الزُّبَى[1] ، وحين أعطى الخطةَ الذليلةَ الذليل ؛ والله لإقامةٌ على خطيئة تستغفر الله منها ، أجملُ من توبة تُخوَّفُ عليها ، ماز دتَ على أن جرّأت عليك الناس .

فقال عثمان : قد كان من قولي ما كان ، وإنّ الفائت لا يُرَدّ ، ولم آلُ خيرا .

فقال مروان : إنّ الناسَ قد اجتمعوا ببابك أمثالَ الجبال ، قال : ماشأنهم ؟ قال : أنتَ دعوتهم إلى نفسك ، فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل من عُمّالك عنه ، وهذا ماجَنَيْتَ عَلَى خلافتك ، ولو استمسكتَ وصبرتَ كانَ خيراً لك .

قال : فاخرُجْ أنت إلى الناس فكلّمهم فإنّي أستحيي أنْ أكلّمهم وأردّهم .

فخرج مَرْوانُ إلى الناس ، وقد رَكِبَ بعضُهم بعضا ، فقال : ماشأنُكم ؟ قد اجتمعتُم كأنّكم جئتم لنهب ؛ شاهت الوجوه[2] ! أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اعزُبوا عنّا ؛ والله إن رُمْتُمونا لَنُمِرَّنّ عليكم ماحلا ، ولنُحِلّنّ بكم مالا يسركم، ولاتحمدوا فيه غِبّ[3] رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله غيرُ مغلوبين على ما في أيدينا .

---

(١) جاوز الحزام الطبيين ؛ مثل ؛ يقال لمواضع الأخلاف من الناقة أطباء ؛ واحدها طبي ؛ بضم الطاء وكسرها ، فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى في المكروه . ومثله جاوز السيل الزبى ؛ والزبى جمع زبية ؛ وهي مصيدة الأسد ؛ ولا تتخذ إلا في قلة أو هضبة أو رابية .

(٢) شاهت الوجوه : قبحت .

(٣) غب رأيكم ، أي عاقبة رأيكم .

فرجع الناس خائبين يشتمون عثمان ومَرْوان، وأتى بعضُهم عليًا عليه السلام فأخبره الخبر ، فأقبل علىّ عليه السلام عَلَى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزّهرىّ ، فقال : أحَضرتَ خطبة عثمان ؟ قال : نعم ، قال:أحَضرتَ مقالة مروان للناس ؟ قال : نعم، فقال: أى عبادَ الله ، ياللهِ للمسلمين ! إنّى إن قعدتُ فى بيتى ، قال لى : تركتنى وخذلتنى ! وإن تكلّمت فبلّغت له مايريد،جاء مَرْوان فتلعّب به حتى قد صار سِيّقة(١) له ؛ يسوقه حيث يشاء ، بعد كِبَر السنّ وصحبته الرسول صلى الله عليه . وقام مغضباً من فَوْرِه حتى دخل عَلَى عثمان ، فقال له : أما يرضى مَرْوان منك إلّا أن يحرفك عن دينك وعقلك ! فأنتَ معه كجمل الظّعينة، يُقاد حيث يُسارُ به؛والله مامرْوان بذى رأىٍ فى دينه ولاعقله، وإنى لأراه يُورِدك ثم لا يُصْدِرك ، وما أنا عائدٌ بعد مقامى هذا لمعاتبتك ؛ أفسدتَ شرفَك ، وغُلبت عَلَى رأيك . ثم نَهَض .

فدخلت نائلة بنت الفَرافصة ، فقالت : قد سمعتُ قول علىّ لك ، وإنه ليس براجعٍ إليك ولا معاود لك ، وقد أطعتَ مَرْوان يقودُك حيث يشاء . قال : فما أصنعُ ؟ قالت : تتّقِى الله وتتبع سنة صاحبيك،فإنّك متى أطعتَ مَرْوان قتَلَك،وليس لمرْوان عند الناس قَدْر ولا هيبة ولا محبّة ، وإنما تركَكَ الناس لمكانه ، وإنما رجع عنك أهلُ مصر لقول علىّ ؛ فأرسِلْ إليه فاستصلِحْه ؛ فإنّ له عند الناس قَدَما ، وإنّه لا يُعصى .

فأرسل إلى علىّ فلم يأته وقال : قد أعلمتُه أنّى غير عائد .

قال أبو جعفر : فجاء عثمانُ إلى علىّ بمنزله ليلا،فاعتذرَ إليه ، ووعد من نفسه الجميل، وقال : إنى فاعل ، وإنى غير فاعل ؛ فقال له علىّ عليه السلام : أبَعْدَ ماتكلّمت على منبر رسول الله صلى الله عليه ، وأعطيتَ من نفسك ، ثم دخلتَ بيتك ، وخرج مَرْوان

---

(١) سيقة له : أى مسوقاً .

إلى النّاس بشتمهم على بابك ! فخرج عثمان من عنده ، وهو يقول : خذلتنى ياأبا الحسن ! وجرّأت الناس علّى ! فقال علىّ عليه السلام : والله إنى لأكثرُ الناس ذبًّا عنك ؛ ولكنى كلّما جئتُ بشىء أظنه لك رضا ، جاء مرْوان بغيره فسمعت قوله ، وتركتَ قولى .

ولم يغدُ علىّ إلى نصْر عثمان ؛ إلى أن مُنِع الماء لمّا اشتد الحِصار عليه ، فغضب علىّ من ذلك غضبا شديداً ، وقال لطلحة : أدخِلوا عليه الرّوايا ، فكره طلحة ذلك وساءه ، فلم يزل علىّ عليه السلام حتى أدخل الماء إليه .

***

وروى أبو جعفر أيضاً أنّ عليًّا عليه السلام كان فى ماله بخَيْبر لمّا حُصِر عثمان ، فقدم المدينة والناس مجتمعون علَى طلحة ، وكان لطلحةَ فى حصار عثمان أثر ، فلما قدِم علىّ عليه السلام أتاه عثمان ، وقال له : أما بعدُ ؛ فإن لى حقّ الإسلام وحقّ الإخاء والقرابة والصِّهر ، ولو لم يكن من ذلك شىء وكنّا فى جاهلية ، لكان عاراً عَلَى بنى عبد مناف أن يبتزّ بنو تَيْم أمرَهم — يعنى طلحة — فقال له علىّ : أنا أكفيك ، فاذهب أنت .

ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد ، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهى مملوءة من الناس ، فقال له : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى صنعتَ بعثمان ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعد أن مسّ الحزام الطُّبْيَيْن ! فانصرف علىّ عليه السلام حتى أتى بيتَ المال ، فقال : افتحوه ، فلم يجدوا المفاتيح ، فكسَر الباب ، وفرّق ما فيه على النّاس ؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بَقِىَ وحده ، وسُرّ عثمان بذلك ؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّى أردت أمراً فحال الله بينى وبينه ، وقد جئتك تائباً ، فقال : والله ما جئتَ تائباً ولكن جئت مغلوباً ؛ الله حسيبُك ياطلحة !

***

قال أبو جعفر : كان عثمان مستضعفا ، طمع فيه الناس ، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بنى أمية عليه ، وكان ابتداء الجرأة عليه أنّ إبلا من إبل الصّدَقة قُدِم بها عليه ؛ فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبى العاص ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عَوْف ، فأخذها وقسّمها بين الناس وعثمان فى داره ، فكان ذلك أوّل وَهَن دخل على خلافة عثمان .

وقيل : بل كان أول وَهَن دخل عليه ، أن عثمان مرّ بجبلة بن عمرو الساعدىّ ، وهو فى نادى قومه ، وفى يده جامعة ، فسلّم ، فردّ القوم عليه ، فقال جَبَلة : لِمَ تردّون على رَجُل فعل كذا وفعل كذا ؟ ثم قال لعثمان : والله لأطرحنّ هذه الجامعة فى عُنُقك أو لتتركنّ بطانتك هذه الخبيثة ؛ مروان وابن عامر وابن أبى سَرْح ، فمنهم مَنْ نزل القرآن بذمّه ، ومنهم من أباح رسول الله صلى الله عليه دمه .

وقيل : إنه خطب يوما وبيده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها جهجاه الغفارىّ من يده ، وكسرها على ركبته ، فلما تكاثرتْ أحداثه ، وتكاثر طمعُ الناس فيه ، كتب جَمْعٌ من أهل المدينة من الصّحابة وغيرهم إلى مَنْ بالآفاق : إن كنتم تريدون الجهاد ، فهلمّوا إلينا فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه ، فاختلفتْ عليه القلوب ، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث .

* * *

وروى الواقدىّ والمدائنىّ وابن الكلبىّ وغيرهم ، وذكره أبو جعفر فى التاريخ ؛ وذكره غيرُه من جميع المؤرخين : أن عليا عليه السلام لما ردّ المصريّين ، رجعوا بعد ثلاثة أيام ، فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رَصاص ، وقالوا : وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف

بالبُوَيْب[1] على بعير من إبل الصدقة ، ففتشنا متاعه ؛ لأنا استربْنا أمره ، فوجدنا فيه هذه الصحيفة ، مضمونها أمْرُ عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح بجلد عبد الرحمن بن عُدَيس وعمرو بن الحمِق ، وحَلْق رءوسهما ولحاهما وحبسهما ، وصلب قوم آخرين من أهل مصر .

وقيل : إنّ الذى أخذَتْ منه الصحيفة أبو الأعور السلمىّ ، وإنهم لما رأوه وسألوه عن مسيره ، وهل معه كتاب ؟ فقال : لا ، فسألوه : فى أى شىء هو ؟ فتغير كلامه ، فأخذوه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه ، وعادوا إلى المدينة . وجاء الناس إلى علىّ عليه السلام ، وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال ، فقام فجاء إليه فسأله ، فأقسم بالله ما كتبتُه ولا علمتُه ، ولا أمرت به ، فقال محمد بن مسلمة : صدق ، هذا من عَمَلِ مَرْوان ، فقال : لا أدرى — وكان أهل مصر حضورا — فقالوا : أفيجترَأُ عليك ويبعَثُ غلامُك على جمل من إبل الصدقة ؛ وينقش على خاتمك ، ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة ، وأنت لاتدرى ! قال : نعم ، قالوا : إنك إمّا صادق أو كاذب ، فإن كنت كاذبا فقد استحققْتَ الخلع ؛ لما أمرتَ به من قتلنا وعقوبتنا بغير حقّ ، وإن كنتَ صادقا فقد استحققْتَ الخلع ، لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك ، وخبث بطانتك ، ولا ينبغى لنا أن نتركَ هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته ، فاخلع نفسك منه . فقال : لا أنزع قيصا ألبسنيه الله ، ولكنّى أتوب وأنزع ، قالوا : لو كان هذا أوّل ذنب تبت منه لقبلنا ، ولكنّا رأيناك تتوب ثم تعود ، ولسنا بمنصرفينَ حتى نخلعَك أو نقتلك أو تلحق أرواحُنا بالله ، وإن منعك أصحابُك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك . فقال : أمّا أن أبرأ من خلافة الله فالقتلُ أحبُّ إلىّ من ذلك ! وأما قتالُكم مَنْ يمنعُ عَنّى ، فإنى لا آمر أحدا بقتالكم ، فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتَل ، ولو أردتُ قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا

(١) البويب : مدخل أهل الحجاز إلى مصر .

علىّ أو لحقتُ ببعض الأطراف . وكثرت الأصوات واللغط ، فقام علىّ فأخرج أهل مصر معه ، وخرج إلى منزله .

***

قال أبو جعفر : وكتبَ عثمان إلى معاويةَ وابنِ عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ، ويأمر بالعَجَل والبِدار وإرسال الجنود إليه ، فتربّص به معاوية ، فقام فى أهل الشام يزيد ابن أسد القَسْرِى جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق ، فتبِعه خَلْقٌ كثير ، فسار بهم إلى عثمان ، فلما كانوا بوادى القُرَى بلَغهم قتلُ عثمان ، فرجعوا .

وقيل : بل أشخص معاويةُ من الشّام حبيبَ بن مسلمة الفِهرىّ ، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السُّلَمىّ ، فلما وصلوا الرَّبذة[1] ، ونزلت مقدمتهم الموضع المسمى صِرارا[2] بناحية المدينة ، أتاهم قتلُ عثمان ، فرجعوا . وكان عثمان قد استشار نُصحاءه فى أمره ، فأشاروا أن يرسل إلى علىّ عليه السلام ، يطلب إليه أن يردّ الناس ويعطيَهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى تأتيه الأمداد ، فقال : إنهم لا يقبلون التعليل ، وقد كان منى فى المرة الأولى ما كان ، فقال مَرْوان : أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك ، فإنهم قوم قد بغَوْا عليك ، ولا عهد لهم .

فدعا عليا عليه السلام ، وقال له : قد تَرى ما كان من الناس ، ولستُ آمَنُهم على دمى ، فارددْهم عنّى ، فإنى أعطِيهم ما يُريدون من الحق من نفسى ومن غيرى .

فقال علىّ : إن الناسَ إلى عَدْلِك أحوجُ منهم إلى قتلك ، وإنهم لا يرضون إلا

---

(١) الربذة : من قرى المدينة ، على ثلاثة أميال منها ، بها قبر أبى ذر الغفارى .
(٢) صرار : موضع قريب من المدينة ، على طريق العراق .

بالرضا ، وقد كنتَ أعطيتَهم مِنْ قبلُ عهدا فلم تف به ، فلا تغرّر فى هذه المرة ، فإنى معطيهم عنك الحقّ ، قال : أعطِهم فو الله لأَفِيَنّ لهم .

فخرج علىّ عليه السلام إلى الناس ، فقال : إنّكم إنما تطلبون الحقّ وقد أُعطيتموه ، وإنه منصِفكم من نفسه . فسأله الناس أن يستوثقَ لهم ، وقالوا : إنا لا نرضى بقول دون فعل ؛ فدخل عليه فأعلمه ، فقال : اضرب بينى وبين الناس أجلاً ، فإنى لا أقدر على تبديل ما كرهوا فى يوم واحد ، فقال علىّ عليه السلام : أما ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه ، وأما ما غاب فأجلُه وصولُ أمرِك ، قال : نعم ، فأجِّلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . فأجابه إلى ذلك ، وكتب بينه وبين الناس كتابا على ردّ كلّ مظلمة ، وعزل كلّ عامل كرهوه . فكفّ الناس عنه ، وجعل يتأهّب سرًا للقتال ، ويستعدّ بالسلاح ، واتّخذ جُندا ، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئا ثار به الناسُ ، وخرج قوم إلى مَنْ بذى خُشُب من المصريين ، فأعلموهم الحال ، فقدموا المدينة ، وتكاثر الناس عليه ، وطلبوا منه عزْل عماله وردّ مظالمهم ؛ فكان جوابُه لهم : إنى إن كنت أستعمِل مَنْ تريدون لا مَنْ أريد ، فلست إذن فى شىء من الخلافة ، والأمر أمرُكم . فقالوا : والله لتفعلَنّ أو لتُخلعنّ أو لنقتلنك . فأبى عليهم وقال : لا أنزع سِرْبالاً سربلنيه الله . فحصروه وضيّقوا الحصار عليه .

***

وروى أبو جعفر : لما اشتدّ على عثمان الحِصار ، أشرفَ على الناس ، فقال : يأهل المدينة ، أستودِعكم الله وأسأله أن يُحسِن عليكم الخلافة من بعدى . ثم قال : أنشُدكم الله ، هل تعلمون أنكم دعوتُم الله عند مصاب عُمَر أنْ يختار لكم ويجمعكم على خيركم أفتقولون : إن الله لم يستجِبْ لكم ، وهُنتم عليه ، وأنتم أهلُ حقّه وأنصار نبيّه[1] ، أم تقولون : هان على الله

(١) ب : « دينه » .

دينَه فلمْ يبالِ من وَلّى ، والدين لم يتفرق أهله بعد ! أم تقولون : لم يكنْ أخذعن مشورة ، إنمـا كان مكابرة ، فوكل الله الأمة ـ إذ عصَتْه ولم يتشاوروا فى الإمامة ـ إلى أنفسها ! أم تقولون : إن الله لم يَعْلمْ عاقبة أمرى ! فمهلا مهلا ! لا تقتلونى ، وإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة : زانٍ بعد إحصان ، أو كافر بعد إيمان ، أو قاتل نفس بغير حق . أمّا إنكم إن قتلتمونى وضعتم السيف على رقابِكم ثم لا يرفعه الله عنكم أبدا . فقالوا : أما ماذكرت من استخـارة الناس بعد عمر ، فإن كلّ مايصنعه الله الخِيرة ، ولكنّ اللهَ جعلك بليّة ابتلى بها عبادَه ، ولقد كانت لك قَدم وسابقة ، وكنتَ أهلاً للولاية ، ولكن أحدثتَ ماتعلمُه ، ولا نترك اليوم إقامةَ الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا . وأما قولك : لا يحلّ دم إلا بإحدى ثلاث : فإنا نجد فى كتاب الله إباحة دم غير الثلاثة : دم مَنْ سَعَى فى الأرض بالفساد ، ودَم مَنْ بغى ثم قاتل على بغيه ، ودَم مَنْ حال دون شىء من الحقّ ومنعه وقاتل دونه ؛ وقد بغيتَ ومَنَعْت الحقّ ، وحُلْتَ دونه ، وكابرت عليه ، ولم تُقِد من نفسك مَنْ ظلمتَه ، ولا مِنْ عُمّالك ، وقد تمسّكت بالإمارة علينا . والذين يقومون دونك ويمنعونك ، إنما يمنعونك ويقاتلوننا لتسميتك بالإمارة ؛ فلو خلعت نفسَك لانصرفوا عن القتالِ معك .

فسكت عثمانُ ولزم الدّار ، وأمر أهلَ المدينة بالرجوع ، وأقسم عليهم فرجعوا ، إلّا الحسن بن علىّ ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزُّبَير وأشباها لهم ، وكانت مدة الحصار أربعين يوما .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إنّ محاصرِى عثمان أشفقُوا مِنْ وصول أجناد من الشام والبصرة تمنعه ، فحالُوا بَيْن عثمان وبين الناس ، ومنَعُوه كلّ شىء حتى الماء ، فأرسل عثمانُ سِرًّا إلى علىّ عليه السلام ، وإلى أزواج النبىّ صلى الله عليه أنهم قد منَعونا الماء ، فإنْ قدرتُم أنْ

تُوصلوا إليها ماء فافعلوا . فجاء عليّ عليه السلام في الغَلَس وأمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان ، فوقف عليّ عليه السلام على الناس فوعظهم ، وقال : أيها الناس ؛ إنّ الذي تفعلون لايشبهُ أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين ؛ إنّ فارس والروم لتأسِر فتُطعِم وتَسقِي ، فالله الله ! لاتقطعوا الماء عن الرجل ؛ فأغلظوا له وقالوا : لانَعَم ولا نَعْمَة عين[1] . فلما رأى منهم الجِدّ نزعَ عمامته عن رأسه ، ورمى بها إلى دار عثمان ، يُعلِمه أنه قد نهض وعاد .

وأما أمّ حبيبة ـ وكانت مشتملة على إداوة ـ فضربوا وجه بَغلَتها ، فقالت : إنّ وصايا أيتام بني أمية عند هذا الرجل ، فأحببتُ أن أسأله عنها لئلا تَهلِك أموالُ اليتامى ، فشتموها ، وقالوا : أنت كاذبة ، وقطعوا حبل[2] البغلة بالسيف ، فنَفَرَت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : أشرف عثمان عليهم يوما ، فقال : أنشُدُكم الله ، هل تعلمون أنّي اشتريتُ بئر رُومة[3] بمالي ، أستعذب بها ، وجعلت رِشائي فيها كرجل من المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : فلِمَ تمنعوني أنْ أشرَب منها حتى أفطِرَ على ماء البحر ! ثم قال : أنشُدُكم الله ، هل تعلمون أنّي اشتريتُ أرضَ كذا ، فزدتُها في المسجد ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل علمتُم أنّ أحداً مُنِع أن يُصلّيَ فيه قبلي !

---

(١) نعمة العين : قرتها .

(٢) الحبل للدابة : رسنها .

(٣) بئر رومة في عقيق المدينة ، روى عن بشير الأسلمي ، قال : لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكان لرجل من بني غفار بئر يقال لها بئر رومة ، كان يبيع منها القربة بالمد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعنيها بعين في الجنة ، فقال : يارسول الله ، ليس لي ولا لعيالي غيرها ، لا أستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم . . . وتصدق بها كلها . (معجم البلدان ١ : ٤)

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عَيّاش بن أبي رَبيعة المخزوميّ ، قال : دخلتُ على عثمان ، فأخذ بيدي فأسمعني كلامَ مَنْ على بابه من الناس ، فنهم مَنْ يقول : ماتنتظرون به ؟ ومنهم مَنْ يقول : لاتعجلوا ، فعساه ينزِع ويراجع ؛ فبينا نحن إذ مرّ طلحة ، فقام إليه ابنُ عُدَيْس البلَوِيّ ، فناجاه ، ثم رجع ابنُ عُدَيس ، فقال لأصحابه : لاتتركوا أحدا يدخل إلى عثمان ، ولا يخرج من عنده ، قال لى عثمان : هذا ماأمر به طلحة ، اللهمّ اكفِني طَلْحة ، فإنه حَمَل هؤلاء القوم وألّبَهُم علىّ ، والله إني لأرجو أن يكونَ مِنْها صِفْرا ، وأن يُسفَكَ دمه ! قال : فأردت أن أخرج ، فنعوني حتى أمرم محمد بن أبي بكر ، فتركوني أخرج(١).

***

قال أبو جعفر : فلما طال الأمرُ وعلم المصريون أنّهم قد أجرموا إليه جرماً كجُرم القتل، وأنه لافرقَ بَيْن قتله وبين ماأتوْا إليه ، وخافوا على نفوسهم مِنْ تَرْكه حيًّا ، راموا الدخولَ عليه من باب داره ، فأغلقوا الباب ، وما نعهم الحسنُ بن علىّ ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومَرْوان ، وسعيد بن العاص ؛ وجماعة معهم من أبناء الأنصار، فزجَرَهم عثمان ، وقال : أنتم في حِلٍّ من نُصْرتي ، فأبوْا ولم يرجعوا .

وقام رجل من أسْلَمَ يقال له نِيَار بن عياض — وكان من الصّحابة — فنادى عثمان ، وأمره أن يخلَعَ نفسه ، فبينا هو يُناشِده ويسومُه خَلْع نَفْسه ، رماه كَثِير بن الصّلْت الكِنْدِيّ — وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار — بسَهْم فقتله ، فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك : ادفعوا إلينا قاتلَ ابن عياض لنقتله به ، فقال عثمان : لم أكن لأدفعَ إليكم رجلا نَصَرني وأنتم تريدون قتلي ! فثاروا إلى الباب ، فأغلِق دونهم ، فجاءوا بنار فأحرقوه وأحرقوا السَّقِيفة التي عليه ، فقال لمن عنده من أنصاره : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

إلىّ عَهْدًا فأنا صابر عليه ، فأحَرّج على رجل يقاتل دونى ! ثم قال للحسن : إنّ أباكَ الآن لَفِى أمر عظيم مِنْ أجلك ، فاخرج إليه ، أقسمت عليك لمّا خرجت إليه ! فلم يفعل، ووقف محاميا عنه .

وخرج مروان بسيفه يجالد الناس ، فضرَبه رَجل من بنى لَيْث على رقبته ، فأثبته[1] وقطع إحدى عِلْبَاويه[2]، فعاش مَرْوان بعد ذلك أوْقَص[3] ، وقام إليه عُبَيْد بن رفاعة الزُّرَقىّ ليُذَفِّف عليه[4] ، فقامت دونه فاطمة أمّ إبراهيم بن عدىّ ـ وكانت أرضعت مروان وأرضعت له ـ فقالت له : إن كنت تُريد قتلَه فقد قُتِل ، وإن كنت إنّما تريد أن تتلعّب بلحمه فأقبح بذلك ! فتركه، فخلّصته وأدخلته بيتها ، فعرف لها بنوه ذلك بعد ، واستعملوا ابنها إبراهيم ، وكان له منهم خاصة[5] .

وقُتِلَ المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق ، وهو يحامِى عن عثمان بالسيف ، واقتحم القومُ الدّار ، ودخل كثير منهم الدُّور المجاورة لها ، وتسوّروا من دار عمرو بن حزم إليها حتى ملئوها ، وغلب النّاس على عثمان وندبوا رجلا لقتله ، فدخل إليه البيت ، فقال له : اخلعها وندَعك ، فقال : ويحك ! والله ما كشفتُ عن امرأةٍ فى جاهلية ولا إسلام ،ولا تغنّيت[6] ولا تمنّيت ، ولا وضعت يمينى على عَوْرتى مذ بايعت رسول الله ، ولست بخالع قميصا كسانيه الله ، حتى يكرم أهل السعادة ، ويهين أهل الشقاوة .

فخرجَ عنه فقالوا له :ماصنعت ؟ قال : إنّى لم أستحلّ قتله ، فأدخلوا إليه رجلا من الصحابة ، فقال له :لستَ بصاحبى ؛ إن النبىّ صلى الله عليه دَعَا لك أن يحفظك يوم كذا، ولن تَضيع ؛ فرجع عنه .

---

(١) أثبته : جعله ثابتاً فى مكانه لايتحرك من أثر الجراحة .
(٢) علباوان : مثنى علباء ؛ وهى عصب العنق .
(٣) الوقص : قصر العنق .
(٤) يذفف على الجريح : يجهز عليه .
(٥) والخاصة : من تخصه بنفسك .
(٦) تمين الرجل : تأنى ليصيب شيئاً بعينه .

فأدخلوا إليه رجلا من قريش، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا ، فلن تُقارِف دما حراما ، فرجع عنه .

فدخل عليه محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان : ويحك ! أعلى الله تغضب ! هل لي إليك جُرْم إلا أني أخذت حقّ الله منك ؟ فأخذ محمد بلحيته ، وقال : أخزاك الله يا نعثل[1] ! قال : لست بنعثل ، ولكني عثمان وأمير المؤمنين ؛ فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! فقال عثمان : يابن أخي ، دَعْها من يدك ، فما كان أبوك ليقبِض عليها ، فقال : لو علمت ما عملت في حياة أبي لقبض عليها ، والذى أريد بك أشدُّ من قبضي عليها ، فقال : أستنصر الله عليك وأستعين به ، فتركه وخرج .

وقيل : بل طَعن جبينه بِمِشْقَص[2] كان في يده ، فثار سُودان بن حُمْران ، وأبو حرب الغافقيّ وقُتَيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ ، فضربه الغافقيّ بعمود كان في يده ، وضرب المصحف برجله ـ وكان في حجره ـ فنزل بين يديه وسال عليه الدمُ . وجاء سُودان ليضربه بالسيف ، فأكبّتْ عليه امرأته نائلة بنت الفَرافصة[3] الكلْبية ، واتقت السيف بيدها وهي تَصْرخُ ، فنفح أصابعها فأطنّها[4] ، فولّت ، فغمز بعضُهم أوراكها ، وقال : إنّها لكبيرة العجُز ، وضرب سُودان عثمان فقتله .

وقيل : بل قتَلَه كنانة بن بشر التُّجِيبيّ وقيل : بل قتيرة بن وهب . ودخل غلمان عثمان ومواليه ، فضرَب أحدُهم عنقَ سودان فقتله ، فوثب قُتَيرة بن وهب على ذلك الغلام

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية ؛ قيل : إنه كان يشبه عثمان ، قال أبو عبيد : وشاتمو عثمان رضي الله عنه يسمونه نعثلا (اللسان) .

(٢) المشقص ، كمنبر : نصل عريض .

(٣) الفرافصة ؛ قال في اللسان : ليس في العرب من يسمى الفرافصة بالألف واللام غيره ، ونقل ابن برى عن القالي عن ابن الأنباري عن أبيه عن شيوخه ، قال : كل ما في العرب فرافصة ، بضم الفاء إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رضي الله عنه . بفتح الفاء لاغير . تاج العروس ٤ : ٤١٥ .

(٤) أطنها : قطعها .

فقتله ، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله ، ونهبت دار عثمان ، وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال ، وكان فيه غِرارتان دراهم . ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاث منها فإني طعنتهن لله تعالى ، وأما ست منها فلما كان في صدري عليه . وأرادوا قطع رأسه ، فوقعت عليه زوجتاه : نائلة بنت الفرافصة وأم البنين ، ابنة عُيينة بن حصن الفزاري ، فصحن وضربن الوجوه ، فقال ابن عُديس : اتركوه ، وأقبل عمير بن ضابئ البُرجمي فوثب عليه ، فكسر ضلعين من أضلاعه ، وقال له : سجنت أبي حتى مات في السجن ! وكان قتله يوم الثامن عشر من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين . وقيل : بل في أيام التشريق ، وكان عمره ستا وثمانين سنة .

قال أبو جعفر : وبقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن . ثم إن حكيم بن حزام وجُبير بن مُطعِم كلما عليا عليه السلام في أن يأذن في دفنه ففعل ، فلما سمع الناس بذلك قعد له قوم في الطريق بالحجارة ، وخرج به ناس يسير من أهله ، ومعهم الحسن بن علي وابن الزبير ، وأبو جهم بن حُذيفة بين المغرب والعشاء ، فأتوا به حائطا من حيطان المدينة، يعرف بحش كوكب[1] وهو خارج البقيع ، فصلوا عليه . وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ، فأرسل علي عليه السلام ، فمنع من رجم سريره ، وكف الذين راموا منع الصلاة عليه ، ودفن في حش كوكب ، فلما ظهر معاوية على الأمر ، أمر بذلك الحائط فهدم ، وأدخل في البقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره ؛ حتى اتصل بمقابر المسلمين بالبقيع .

وقيل : إن عثمان لم يغسل ، وإنه كفن في ثيابه التي قتل فيها .

---

(١) حش كوكب : موضع بجانب البقيع ، اشتراه عثمان وزاد فيه (مراصد الاطلاع) .

قال أبو جعفر : ورِوِىَ عن عامر الشعبىّ أنه قال : ما قُتِل عمر بن الخطاب حتى ملّته قريش واستطالت خلافته ، وقد كان يعلم فتنتهم، فحصرهم فى المدينة وقال لهم : إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشارُكم فى البلاد . وإن كان الرجل ليَستأذِنه فى الغزو، فيقول: إنّ لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه مايكفيك، وهو خير لك من غزوك اليوم، وخيرٌ لك من الغزو الآخر الدنيا ولا تراك . فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة ، فلما ولىَ عثمان الخلافة خلّى عنهم فانتشروا فى البلاد، وخالطهم الناس ، وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه ، وكان عثمان أحبَّ إلى الرعيّة من عمر .

***

قال أبو جعفر : وكان أولَ منكَر ظهر بالمدينة فى خلافة عثمان حين فاضت الدنيا على العرب والمسلمين طيرانُ الحمام والمسابقة بها ، والرمى عن الجُلاهقات — وهى قسىّ البندق — فاستعمل عثمان عليها رجلا من بنى ليث فى سنة ثمان من خلافته ، فقصّ الطيور وكسر الجُلاهقات .

***

وروى أبو جعفر ، قال : سأل رجل سعيدَ بن المسيّب عن محمد بن أبى حُذيفة: مادعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان يتيما فى حجر عثمان ، وكان والىَ أيتام أهل بيته ومحتمِل كلّهم ، فسأل عثمانَ العمل ، فقال : ⁽¹ يابنىّ لو كنت رِضًا لاستعملتُك ، قال : فأذَنْ لى فأخرج فأطلب الرزق ¹⁾ ، قال: اذهب حيث شئت ، وجهّزه من عنده ، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه ؛ لأنه منعه الإمارة . فقيل له : فعمّار بن ياسر ؟ قال :

(١ — ١) عبارة الطبرى : « يابنى ، لوكنت رضاً ، ثم سألتنى العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك ، قال : فأذن لى ، فلأخرج فلأطلب مايقوتنى » .

كان بينه وبين العباس بن عُتْبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان ، فأورث ذلك تعاديا بين عمّار وعثمان . وقد كان تقاذفا قبلَ ذلك[١] .

قال أبو جعفر : وسئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر : مادعاه إلى ركوب عثمان ؟ فقال : لزمه حقٌّ ، فأخذ عثمان من ظهره ، فغضب ، وغرّه أقوام فطمع؛ لأنه كان من الإسلام بمكان ، وكانت له دالّة ، فصار مذمّما بعد أنْ كان محمّدا ، وكان كعب ابن ذي الحبكة النهديّ يلعب بالنِّيرنجات[٢] بالكوفة ، فكتب عثمان إلى الوليد أن يوجعه ضربا ، فضربه وسيّره إلى دُنباوند[٣] .

وكان ممن خرج إليه وسار إليه ، وحُبس ضابئ بن الحارث البُرْجِيّ ، لأنه هجا قوما فنسبهم إلى أنّ كلبَهُمْ يأتي أمّهم ، فقال لهم :

فأمُّكُمُ لَا تترُكوها وَكلبَكُمْ فإنَّ عُقوقَ الوالدين كبيرُ[٤]

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٩٩ .

(٢) النيرنجات : أخذٌ تشبه السحر ، وليست بحقيقة .

(٣) دنباوند : جبل بنواحي الري ، ويقال له : دباوند .

(٤) ذكر الطبري ٤ : ٤٠٢ أن ضابئ بن الحارث البرجي استعار في زمان الوليد بن عقبة كلبا من قوم من الأنصار ، يدعى قرحان ، لصيد الظباء ؛ فحبسه عنهم ، فنافره الأنصاريون ، واستغاثوا عليه بقومه ، فكاثروه فانتزعوه منه ، وردوه على الأنصار ، فهجاهم وقال في ذلك :

تَجَشَّمَ دُونِي وَفْدُ قرحانَ خُطَّةً تَضِلُّ لَهَا الْوَجْنَاءُ وَهِيَ حَسِيرُ

فَباتُوا شِبَاعًا نَاعِمِينَ كَأَنَّمَا حَبَاهُمْ بِبَيْتِ الْمَرْزُبَانِ أَمِيرُ

فَكَلْبَكُمْ لَاتَتْرُكُوا فَهْوَ أُمُّكُمْ فَإِنَّ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ كَبِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان ، فأرسل إليه ، فعزره وحبسه ، كما كان يصنع بالمسلمين ، فاستثقل ذلك ، فما زال في الحبس حتى مات فيه ، وقال في الفتك يعتذر إلى أصحابه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ وَوَلَّيْتُ الْبُكَاءَ حَلَائِلَهْ

وَقَائِلَةٍ قَدْ مَاتَ فِي السِّجْنِ ضَابِئٌ أَلَا مَنْ لِخَصْمٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُجَادِلُهْ !

وَقَائِلَةٍ لَا يُبْعِدُ اللهُ ضَابِئًا فَنِعْمَ الْفَتَى تَخْلُو بِهِ وَتُحَاوِلُهْ

فاستعدَوْا عليه عثمان ، فحبسه فمات فى السجن ، فلذلك حَقَد ابنه عُمَير عليه وكسر أضلاعه بعد قتله .

***

قال أبو جعفر : وكان لعثمان عَلَى طلْحة بن عُبيد الله خمسون ألفاً، فقال طلحة له يوما: قد تهيأ مالُك فاقبِضْه، فقال : هو لك معونة على مروءتك، فلما حُصِر عثمان ، قال علىّ عليه السلام لطلحة: أنشُدك الله إلا كففْتَ عن عثمان! فقال : لا والله حتى تُعْطِيَ بنوأمية الحقَّ من أنفسها . فكان علىّ عليه السلام يقول : لحا الله ابن الصَّعبة ! أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به مافعل !

***

(٣١)

ومن كلام له عليه السلام لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته [١] :

الأصْـلُ :

لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ : هُوَ الذَّلُولُ ؛ وَلَـكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً ، فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ ، وَأَنْـكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ ؛ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا !

قال الرضي [٢] رحمه الله :

وهو عليه السّلام أوّلُ مَنْ سُمِعت منه هذه الـكلمة ـ أعنى : « فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا » .

***

الشَّـرْحُ :

ليستفيئه إلى طاعته ، أي يسترجعه ؛ فاء ، أي رجع ، ومنه سُمِّيَ الفيء الظلّ بعد الزوال. وجاء في رواية : «فإنك إن تَلْقَهُ تُلْفِهِ» أي تجده ، ألفيتُه على كذا ، أي وجدته.

وعاقصاً قَرْنه ، أي قد عطفه ؛ تَيْس أعقص، أي قد التوى قرناه على أذنيه ، والفعل فيه عَقَص الثور قرنه ، بالفتح . وقال القطب الراوندىّ : عَقِص ؛ بالـكسر ؛ وليس بصحيح ، وإنّما يقال : عَقِص الرجلُ ، بالـكسر ، إذا شحّ وساء خلقه ، فهو عقِص .

وقوله : « يركب الصّعب » ، أي يستهين بالمستصعَب من الأمور ، يصفه بشَراسة

---

(١) ا ، ج بعد هذه الـكلمة : « قال عليه السلام » .

(٢) مخطوطة النهج : « السيد » .

الخُلُق والبَأْو[١] ، وكذلك كان طلحة ، وقد وصَفَه عمر بذلك . ويقال: إنّ طلحة أحدَثَ يومَ أُحُدٍ عنده كِبْراً شديداً لم يكن ، وذاك لأنه أغنَى[٢] في ذلك اليوم ، وأبلى بلاء حسنا .

والعريكةُ هاهنا : الطبيعة ، يقال : فلان لَيِّن العريكة ، إذا كان سَلِساً .

وقال الراونديّ: العريكةُ : بقية السَّنام ؛ ولقد صدق، ولكن ليس هذا موضع ذاك.

وقوله عليه السلام لابن عباس : « قل له يقول لك ابن خالك » لطيف جدا ، وهو من باب الاستمالة والإذكار بالنَّسب والرحِم ، ألا تَرَى أنّ له في القلب من الموقع الدّاعي إلى الانقياد ماليس لقوله : « يقول لك أمير المؤمنين » ! ومن هذا الباب قوله تعالى في ذكر موسى وهارون : ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾[٣] لما رأى هارون غضبَ موسى واحتدامه، شرع معه في الاستمالة والملاطفة، فقال له : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾، وأذكرَه حقّ الأُخوّة ، وذلك أدعَى إلى عَطْفِه عليه من أن يقول له : « ياموسى » ، أو « يأيها النبيّ ».

فأمّا قولُه : « فما عدَا مما بدا » ، فعدَا بمعنى صرَف ؛ قال الشاعر :

وإنّي عَدَاني أن أزُورَكِ مُحكَمٌ مَتَى ما أحرّكْه فيه ساقٌ بِصخَبِ

و « من » هاهنا بمعنى « عن »؛ وقد جاءت في كثير من كلامهم كذلك ، قال ابنُ قتيبة في " أدب الكاتب " : قالوا : حدّثني فلان من فلان، أي عن فلان، ولهيت من كذا ، أي عنه[٤] ؛ ويصير ترتيبُ الكلام وتقديره : فما صرَفك عمّا بدا منك ! أي

---

(١) البأو : الفخر والادعاء .
(٢) أغنى ، أي صرف الأعداء وكفهم .
(٣) سورة الأعراف ١٥٠ .
(٤) أدب الكاتب ص ٥٠٥ مع اختلاف في العبارة .

ظَهر ، والمعنى: ما الّذى صدّك عن طاعتى بعد إظهاركها ! وَحَذْفُ الضمير المفعول المنصوب كثير جدا ، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾[1]، أى أرسلناه، ولابدّ من تقديره ؛ كى لا يبقى الموصولُ بلا عائد .

وقال القطب الراوندىّ: قوله: « فما عَدَا مِمّا بَدَا » له معنيان: أحدهما : ما الّذى منعك مما كان قد بَدَا منك من البَيْعة قبل هذه الحالة ؟ والثانى: ما الّذِى عاقك ؟ ويكون المفعول الثانى لـ« عدا » محذوفا ، يدلّ عليه الكلام ، أى ماعداك ! يريد ما شغلك وما منعك مما كان بَدَا لك مِنْ نُصْرَتى ! من البَدا الذى يبدُو للإنسان . ولقائل أن يقول : ليس فى الوجه الثانى زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة ؛ أما إنه ليس فيه زيادة ، فلأنّه فسّر فى الوجه الأول « عدا » بمعنى منع ، ثم فسّره فى الوجه الثانى بمعنى عاقَ ، وفسر عاق بمنع وشغل ، فصار « عدا » فى الوجه الثانى مِثْلَ « عدا » فى الوجه الأول.

وقوله : « مما كان بدا منك » ، فسّره فى الأول والثانى بتفسير واحد، فلم يبق بين الوجهين تفاوت. وأما الزيادة الفاسدة فظنه أنّ «عدا» يتعدى إلى مفعولين، وأنه قد حذف الثانى، وهذا غير صحيح ، لأنّ « عدا » ليس من الأفعال التى تتعدّى إلى مفعولين بإجماع النحاة، ومن العجَب تفسيره المفعول الثانى المحذوف على زعمه بقوله : أى ماعَداك ، وهذا المفعول المحذوف هاهنا هو مفعول «عدا» الذى لا مفعول لها غيره ، فلا يجوز أن يقال إنه أول ولا ثان .

ثم حكى القطب الراوندىّ حكاية معناها أنّ صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبيدا، [2]ثم ماتت[2]، ثم مات العبيد ولم يخلّفوا وارثا إلّا مواليهم، وطلب علىّ عليه السلام ميراثَ العبيد بحقّ التعصيب ، وطلبه الزبير بحق الإرثِ من أمه . وتحا كما إلى عُمَر ، فقضى عمر بالميراث للزبير .

---

(١) سورة الزخرف ٤٥ .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب .

قال القطب الراوندي رحمه الله تعالى ، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هذا خلافُ الشَّرْع ، لأنّ وَلاءَ مُعتَق المرأة - إذا كانت ميّتة - يكونُ لعَصَبَتِها، وهم العاقلة ، لا لأولادها .

قلت : هذه المسألة مختلَف فيها بين الإمامية ، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمفيد[1] ، يقول : إنّ الولاء لولَدها، ولا يُصحِّح هذا الخبرَ ، ويطعن في راويه؛ وغيرُه من فقهاء الإمامية كأبي جعفر الطوسي[2] ومن قال بقوله يذهبون إلى أنّ الولاء لعصبتها لا لولدها ، ويصحّحون الخبر، ويزعمون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام سكت ولم ينازِع، على قاعدته في التّقيّة ، واستعمال المجامَلة مع القوم .

فأمّا مذاهبُ الفقهاء غير الإماميّة فإنها متفقة على أنّ الولاء للولَد لا للعَصَبة ، كما هو قولُ المفيد رحمه الله تعالى .

وروى جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه عن جَدّه، عليهم السلام ، قال : سألتُ ابنَ عباس رضي الله عنه عن ذلك، فقال : إنّي قد أتيت الزُّبيرَ ، فقلت له، فقال : قل له : إنّي أريد ما تريد - كأنه يقول : الملك - لم يَزِدْنِي على ذلك . فرجعت إلى عليّ عليه السلام فأخبرته .

وروى محمد بن إسحاق والكلبيّ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قلت الكلمة للزُّبير فلم يزدني على أن قال : قُلْ له :

* إنّا مع الخوفِ الشديد لَنطمَعُ *

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادي المعروف بالمفيد ؛ أحد أعيان الشيعة وعلمائهم ؛ انتهت إليه رياسة الإمامية في وقته . وله قريب من مائتي مصنف ؛ وفيها حفظت أقوال الشيعة وآراؤهم وشرحهم وتفصيل مذاهبهم ؛ وعنه تلقى الشريف المرتضى الفقه والتفسير وعلم الكلام ، وتوفى سنة ٤١٣ . روضات الجنات ٥٣٦ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن علي بن محمد الطوسي المشهدي ؛ أحد تلاميذ الشيخ المفيد ، ثم الشريف المرتضى من بعده . وكان إماماً واعظاً ؛ ألف الوسيلة والواسطة والفتاوى على مذهب الشيعة ، وغيرها . توفى سنة ٤٠٦ . روضات الجنات ٥٦٧ .

قال : وسئل ابنُ عباس عمّا يَعنِي بقوله هذا ، فقال:يقول : إنّا على الخوف لنطمع أن نَلِيَ من الأمر ماوليتم .

وقدفسره قوم تفسيراً [١] آخر ، وقالوا:أراد : إنّا مع الخوف من الله لنَطمع أن يُغفر لنا هذا الذنب .

قلت : وعلى كلا التفسيرين لم يحصل جواب المسألة .

***

[من أخبار الزبير وابنه عبد الله]

كان عبدُ الله بن الزبير هو الذى يصلّى بالنّاس فى أيام الجمل ، لأنّ طلحة والزبير تَدافعا الصلاة ، فأمرت عائشة عبدَ الله أن يصلّىَ قطعاً لمنازعتهما ، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة ، تستخلف مَنْ شاءت .

وكان عبدُ الله بن الزُّبير يدّعى أنه أحقُّ بالخلافة من أبيه ومن طلحة ، ويزعم أنّ عثمان يوم الدار أوصى بها إليه .

واختلفت الرواية فى كيفية السّلام على الزبير وطلحة،فرُوِىَ أنه كان يسلِّم على الزبير وحدَه بالإمْرة ، فيقال : السّلام عليك أيّها الأمير ؛ لأن عائشةَ ولّتْه أمْرَ الحرب ورُوِى أنه كان يسلِّم على كلٍّ واحدٍ منهما بذلك .

لما نزل علىّ عليه السلام بالبصرة ووقف جيشُه بإزاء جيش عائشة قال الزبير : والله ما كان أمرٌ قطّ إلا عرفتُ أين أضعُ قَدَمىَ فيه إلا هذا الأمرَ ، فإنى لا أدرى : أمقبِلٌ أنا فيه أم مُدْبِر! فقال له ابنُه عبدُ الله : كلاّ ولكنّك فَرِقْتَ [٢] سيوفَ ابن أبى طالب، وعرفتَ أنّ الموت الناقع تحت راياته .فقال الزبير :مالك أخزاك اللهُ من ولد ! ماأشأمك!

---

(١) كذا فى ا ، ج . وفى ب : « بتفسير » . (٢) فرقت : خفت .

كان أميرُ المؤمنين عليه السلام ، يقول : ما زالَ الزُّبَيْر مِنّا أهلَ البيت ، حتى شبّ ابنُهُ عبدُالله .

برزَ عليّ عليه السلام بينَ الصّفين حاسرا ، وقال : لِيَبْرُزْ إليّ الزبير ، فبرز إليه مُدَجَّجاً ؛ فقيل لعائشة : قد برَزَ الزُّبير إلى عليّ عليه السلام ، فصاحت : وازبيراه ! فقيل لها : لا بأسَ عليه منه ، إنه حاسر والزبير دارع (١) ـ فقال له : ما حملك يا أبا عبدالله على ماصنعت ؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قال : أنت وطلحة ولِيتُماه ، وإنّما تَوْبَتُك من ذلك أن تُقِيدَ به نفسَك وتُسلِّمَها إلى وَرَثته ، ثم قال : نَشَدْتُك الله ! أتذكُر يومَ مررتَ بي ورسول الله صلى الله عليه وسلّم متكىء على يدِك ، وهو جاء من بنى عَمْرو بن عَوْف ، فسلّمَ عَلَيّ وضحِكَ في وجهي ، فضحكتُ إليه ، لم أزِدْهُ على ذلك ، فقلتَ : لايترك ابنُ أبي طالب يارسول الله زَهْوَه ! فقال لك : « مَهْ إنّه ليس بذي زَهْو ، أما إنّك ستقاتله وأنت له ظالم » ! فاسترجَعَ الزبير وقال : لقد كان ذلك ؛ ولكنّ الدهرَ أنسانيه ، ولأنصرِفَنّ عنك ، فرجع ، فأعتقَ عبدَه سرجِس تَحَلُّلاً (٢) من يمين لزمته في القتال ، ثم أتى عائشة ، فقال لها : إني ما وقفت موقِفاً قطّ ، ولا شهدتُ حَرْباً إلا ولي فيه رأيٌ وبصيرة إلا هذه الحرب ، وإني لَعَلَى شَكٍّ من أمري ، وما أكاد أبصِر موضع قدمي . فقالت له : يا أبا عبدالله ، أظنك فَرِقْتَ سيوفَ ابن أبي طالب ؛ إنها والله سيوف حِداد ، مُعَدّة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد ؛ ولئن فَرِقْتَها لقد فرِقَها الرجال قَبْلَك ، قال : كلاّ ، ولكنه ما قلتُ لكِ .

ثم انصرف .

* * *

وروى فَرْوَة بن الحارث التميميّ ، قال : كنتُ فيمن اعتزل عن الحرب بوادي السِّباع (٣) مع الأحنف بن قيس ، وخرج ابنُ عمٍّ لي يقال له الجَوْن ، مع عسكر البصرة ، فنهيتُه ،

(١) الحاسر : من لادرع له ولا جنة ، والدارع : لابس الدرع .

(٢) كذا في ا ، ج ، وفي ب : « محللا » .

(٣) وادي السباع : موضع بين البصرة ومكة .

فقال : لاأرغبُ بنفسِي عَنْ نُصْرَةِ أمّ المؤمنين وحواريّ رسول الله . فخرج معهم ، وإنّي لجالس مع الأحنف ، يستنبيء الأخبار ، إذا بالجون بن قتادة ، ابن عمّي مُقْبِلا ، فقمتُ إليه واعتنقتهُ ، وسألتهُ عن الخبرِ ، فقال : أخبرُكَ العَجَب ، خرجت وأنا لا أريد أن أبرحَ الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين ، فبينا أنا واقف مع الزّبير ، إذ جاءه رجل فقال : أبشِرْ أيّها الأمير ، فإنّ علياً لمّا رأى ما أعدّ الله له من هذا الجَمْع ، نكَصَ على عَقِبَيْه ، وتفرّق عنه أصحابه . وأتاه آخر ، فقال له مثل ذلك ، فقال الزّبير : ويحكُم ! أبو حسن يرجع ! والله لو لم يجدْ إلّا العَرْفج لدبّ إلينا فيه . ثم أقبل رجل آخر ، فقال : أيّها الأمير ، إنّ نفراً من أصحاب عليّ فارقوه ليدخلوا معنا ، منهم عمّار بن ياسر ، فقال الزبير : كلا وربِّ الكعبة ؛ إنّ عمّاراً لايفارقه أبدا ، فقال الرجل : بَلَى والله، مرارا.

فلمّا رأى الزّبير أنّ الرجلَ ليس براجع عن قوله ، بعث معه رجلا آخر ، وقال: اذهَبا فانظرا ، فعادا وقالا : إنّ عمّاراً قد أتاك رسولاً من عند صاحبه ، قال جوْن : فسمعتُ والله الزبير يقول : واانقِطاعَ ظهراه ! واجَدْعَ أنفاه ! واسوادوجهاه ! ويكرّر ذلكَ مِراراً، ثم أخذته رِعْدة شديدة ، فقلت : واللهِ إنّ الزبير ليس بجبَان ، وإنّه لمِنْ فُرْسان قريش المذكورين ، وإنّ لهذا الكلام لشأناً ، ولا أريد أن أشهدَ مشهدَ يقولُ أميرُه هذه المقالة ، فرجعتُ إليكم ؛ فلم يكن إلا قليلٌ حتى مرّ الزبير بنا مُتارِكاً للقوم ، فأتبعه عمير ابن جُرْموز فقتله .

* * *

أكثرُ الروايات على أنّ ابن جُرْموز قتِل مع أصحاب النهر ، وجاء في بعضها أنّه عاش إلى أيّام ولاية مُصْعب بن الزبير العراق، وأنّه لما قدم مصعب البصرة خافه ابن جُرْموز فهرب ، فقال مصعب : لِيَظهر سالما ، وليأخُذ عطاءه موفوراً ، أيظُن أني أقتله بأبي عبدالله وأجعله فداء له ! فكان هذا من الكِبْر المستحسَن .

كان ابن جُرْموز يدعو لدنياه، فقيل له: هلا دعوتَ لآخرتك! فقال: أيِسْتُ من الجنة .

الزبير أوّلُ مَنْ شهرَ سيفَه في سبيل الله ، قيل له في أول الدعوة : قد قُتِل رسول الله ، فخرج وهو غلام يسعى بسيفه مشهوراً .

وروى الزّبير بن بكار في " الموفقيّات[1] " قال : لما سارَ عليّ عليه السلام إلى البصرة ، بعثَ ابن عباس فقال : ائت الزّبير ، فاقرأ عليه السلام ، وقل له : ياأبا عبد الله ، كيف عرفتَنا بالمدينة وأنكرتَنا بالبصرة ! فقال ابنُ عباس : أفلا آتي طلحة ؟ قال : لا ؛ إذاً تجده عاقصاً قَرْنه في حَزْن ، يقول : هذا سهل .

قال : فأتيتُ الزبير ، فوجدته في بيت يتروّح في يوم حارّ وعبد الله ابنه عنده ، فقال : مرحباً بك يابن لُبابة ! أجئت زائراً أم سفيراً ؟ قلت : كلاّ ، إنّ ابن خالِك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ياأبا عبد الله ، كيف عرفتنا بالمدينة ، وأنكرتنا بالبصرة ! فقال :

عَلِقْتُهُمْ أني خُلِقْتُ عُصْبَهْ   قَتَادَةً تعلّقتْ بنُشْبَه[2]

لن أدَعَهم حتى أؤلّف بينهم ! قال : فأردت منه جوابا غيرَ ذلك ، فقال لي ابنه عبد الله : قل له : بيننا وبينك دَمُ خليفة ووصيّة خليفة ، واجتماع اثنين ، وانفرادُ واحد ، وأمّ مبرورة ، ومشاورة العشيرة . قال : فعلمتُ أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب ؛ فرجعت إلى عليّ عليه السلام فأخبرته .

---

(١) كتاب الموفقيات في الأخبار ؛ ألفه الزبير بن بكار للموفق بالله ؛ وكان الزبير بن بكار علامة نسابة أخبارياً ؛ وكتبه في الأنساب عليها الاعتماد . توفي سنة ٢٥٦ . معجم الأدباء ١١ : ١٦١ .

(٢) في اللسان : « وفي حديث الزبير بن العوام لما أقبل نحو البصرة وسئل عن وجهه فقال :

عَلِقْتُهم أني خُلِقْتُ عُصْبَهْ   قَتَادَةً مَلْوِيَّةً بِنُشْبَهْ

قال شمر : وبلغني أن بعض العرب قال :

غَلَبْتُهُمْ إني خُلِقْتُ عُصْبَهْ   قَتَادَةً مَلْوِيَّةً بِنُشْبَهْ

قال : والعصبة نبات يلتوي على الشجر ؛ وهو اللبلاب ، والنشبة من الرجال : الذي إذا علق بشيء لم يكد يفارقه . ويقال للرجل الشديد المراس : قتادة لويت بعصبه ، والمعنى : خلقت عصبة لخصومي ، فوضع العصبة موضع العلقة ، ثم شبه نفسه في فرط تعلقه وتشبثه بهم بالقتادة إذا استظهرت في تعلقها واستمسكت بنشبة ، أي شديد النشوب .

قال الزبير بنُ بكار : هذا الحديث كان يرويه عمّى مصعب ، ثم تركه ، وقال : إنى رأيت جدّى أبا عبد الله الزُّبير بن العوّام فى المنام ، وهو يعتذر من يوم الجمل ، فقلت له : كيف تعتذرُ منه ، وأنت القائل :

عَلقتهمُ أنى خُلِقتُ عُصْبَةً   قتادةَ تعلّقتْ بِنُشبه

لن أدعَهم حتى أؤلف بينهم ! فقال : لم أقله .

***

[استطراد بلاغىّ فى الكلام على الاستدراج]

واعلم أن فى علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج ، يناسب ما يذكره فيه علماء البيان قولَ أمير المؤمنين عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق » !

قالوا : ومن ذلك قولُ الله تعالى حكايةً عن مؤمنِ آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١) ، فإنه أخذ معهم فى الاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : هذا الرجلُ إما أن يكون كاذباً فكذِبُه يعودُ عليه ولا يتعدّاه ، وإمّا أن يكون صادقا فيصيبَكم بعضُ ما يعدُكم به ، ولم يقل : « كلّ ما يَعِدُكم به » مخادعةً لهم وتلطّفا ؛ واستمالةً لقلوبهم كى لا ينفِروا منه لو أغلظ فى القول ، وأظهرَ لهم أنه يهضمه بعضَ حقّه .

وكذلك تقديمُ قِسْم الكذب على قسم الصدق ، كأنه رَشاهم ذلك ، وجعله بِرْطِيلاً (٢) لهم ، ليطمئنّوا إلى نصحه .

---

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) البرطيل هنا : الرشوة .

ومن ذلك قول إبراهيم على ماحكاه تعالى عنه فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا • يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا • يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا • يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[1] ، فطلب منه فى مبدأ الأمر السّبب فى عبادته الصّنم والعلّة فى ذلك ، ونبهه على أنّ عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئا قبيحة ، ثم لم يقل له : إنى قد تبحّرت فى العلوم ، بل قال له : قد حصّل عندى نوعٌ من العلم لم يحصل عندك . وهذا من باب الأدب فى الخطاب ، ثم نبّهه على أنّ الشيطانَ عاصٍ لله ، فلا يجوز اتّباعه ، ثم خوّفه من عذاب الله إن اتّبع الشيطان ، وخاطبه فى جميع ذلك بقوله : ﴿يا أبتِ﴾؛ استعطافا واستدراجا، كقول علىّ عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك » ، فلم يجبْه أبوه إلى ما أراد ، ولا قال له : « يابنىّ » بل قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فخاطبه بالاسم ، وأتاه بهمزة الاستفهام المتضمّنة للإنكار ، ثم توعّده فقال : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ .

قالوا : ومن هذا الباب ماروى أنّ الحسينَ بن علىّ عليهما السلام كلّم معاوية فى أمر ابنه يزيد ، ونهاه عن أن يَعْهَد إليه ، فأبى عليه معاوية حتى أغضب كلٌّ واحد منهما صاحبَه ، فقال الحسين عليه السلام فى غضون كلامه : أبى خيرٌ من أبيه وأمّى خيرٌ من أمّه ، فقال معاوية : يابن أخى ؛ أمّا أمّك فخيرٌ من أمّه ، وكيف تقاس امرأةٌ من كَلْب بابنةِ رسول الله[2] صلى الله عليه ! وأما أبوه فحاكم أباك إلى الله تعالى، فحكَم لأبيه على أبيك .

---

(١) سورة مريم ٤٢ ـ ٤٥ .

(٢) فى المثل السائر : « وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب » .

قالوا : وهـذا من باب الاستدراج اللطيف ، لأن معاوية علم أنه إنْ أجابه بجواب يتضمّن الدعوى لكونه خيراً من علىّ عليه السلام لم يلتفِتْ أحدٌ إليه ، ولم يكن له كلام يتعلق به ، لأن آثارَ علىّ عليه السلام فى الإسلام ، وشرفَه وفضيلته تجِلّ أن يُقاس بها أحدٌ ، فعدَلَ عن ذكرِ ذلك إلى التعلق بما تعلّق به ، فكان الفَلَج له .

ذكر هذا الخبر نصرُ الله بن الأثير فى كتابة المسمى بـ «المثل السائر» فى باب الاستدراج[1] .

وعندى أنّ هذا خارج عن باب الاستدراج ، وأنّه من باب الجوابات الإقناعيّة التى تسمّيها الحكماء الجدَليّات والخطابيات ، وهى أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق ، وكانت ببادئ النظر مُسْكِتةً للخَصْم ، صالحة لمصادمته فى مقام المجادلة .

ومثل ذلك قولُ معاوية لأهل الشام حيث التحق به عقيل بنُ أبى طالب : يأهلَ الشام ، ماظنُّكم برجل لم يصلح لأخيه !

وقوله لأهل الشام : إنّ أبا لهب المذموم فى القرآن باسمه عمّ علىّ بن أبى طالب . فارتاع أهل الشام لذلك ، وشتموا علياً ولَعنوه .

ومن ذلك قول عمر يوم السّقيفة : أيّكُم يَطيبُ نَفْساً أن يتقدّم قدَمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة !

ومن ذلك قول علىّ عليه السلام مجيباً لمن سأله : كم بينَ السماء والأرض؟ فقال : دَعْوة مستجابة .

---

(١) المثل السائر ٢ : ٦٨ ــ ٧١ .

وجوابه أيضاً لمن قال له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال : مسيرة يوم للشمس .

ومن ذلك قول أبي بكر ـ وقد قال له عمر : أَقِدْ خالداً بمالك بن نُوَيْرة ـ : سيف الله فلا أغمِده .

وكقوله ـ وقد أشير عليه أيضاً بأن يُقيد من بعض أمرائه ـ : أنا أُقيد من وَزَعَةِ[1] الله !

ذكر ذلك صاحب " الصحاح " في باب « وزع »[2] .

والجوابات الإقناعية كثيرة ، ولعلّها جمهورُ ما يتداوله النّاس ، ويُسْكِتُ به بعضهم بعضا .

---

(١) الوزعة : جمع وازع ، وهو الذي يتقدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .

(٢) الصحاح ١٢٩٧ .

(٣٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ ، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ[1] ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً ، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً ، لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا . وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ :

مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلَالَةُ حَدِّهِ ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ .

وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ ؛ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ ؛ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ ، وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضاً !

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ ؛ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى .

---

(١) ج : « كنود » .

وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ؛ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا.

فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ، وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ. وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ.

* * *

قال الرضى رحمه الله :

وهذه الخُطْبَةُ رُبَّمَا نسبها مَن لا عِلْمَ له إلى معاوية؛ وَهِيَ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الَّذِى لَا يُشكُّ فيه. وأين الذَّهبُ من الرَّغام! وأين العذْبُ من الأُجاجِ! وقد دَلَّ على ذلك الدَّليلُ الخِرِّيت، ونقدهُ النَّاقِدُ البَصِيرُ، عَمْرُو بن بحرٍ الجاحِظ، فإنَّهُ ذكر هذه الخطبة فى كتاب «البيان والتبيين»[1] وذكَرَ من نَسَبَهَا إلى مُعَاوية. ثمَّ تكلَّم من بعدها بكلام فى معناها، جملته أنه قال: وهذا الكلام بكلام علىٍّ عليه السلامُ

(١) البيان والتبيين ٢: ٥٩ - ٦١؛ عن شعيب بن صفوان؛ وقال: «وزادفيها اليقطرى وغيره»، وقال: «لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له: من بالباب؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك، فقال: ويحك! ولم؟ قال: لاأدرى؛ قال: فوالله مالهم بعدى إلاالذى يسوءهم؛ وأذن للناس فدخلوا». ثم أورد الخطبة بروايته؛ وقال فى آخرها: «وفى هذه الخطبة: - أبقاك الله - ضروب من العجب؛ منها أن الكلام لايشبه السبب الذى من أجلهم دعاهم معاوية، ومنها أن هذا المذهب فى تصنيف الناس، وفى الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أشبه بكلام على رضى الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية، ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد، ولا يذهب مذاهب العباد؛ وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه؛ والله أعلم بأصحاب الأخبار، وبكثير منهم».

أشبهُ وَبمذهبِهِ فى تصنيف النّاسِ وفى الإخبارِ عمّا هُمْ عليهِ من القَهرِ وَالإذلالِ، ومن التقيّةِ والخوفِ أليقُ . قالَ: ومتى وجدنا معاويةَ فى حال من الأحوال يسلُكُ فى كلامه مسلك الزُّهّاد، ومذاهبَ العُبّاد !

* * *

الشَّـرْحُ :

دهر عَنود : جائر، عَنَد عن الطريق ؛ يعنُد بالضم، أى عَدَل وجار . ويمكن أن يكون من عَنَدَ يَعنِد بالكسر ، أى خالف وردّ الحق وهو يعرفه ؛ إلّا أنّ اسم الفاعل المشهور فى ذلك عاند وعَنِيد ؛ وأما عَنُود فهو اسم فاعل ؛ من عَنَد يعنُد بالضم .

قوله: «وزمن شديد»، أى بخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، [1] أى وإنّه لبخيل لأجل حُبّ الخير، والخير: المال، وقد روى : «وزمن كنود» وهو الكفور، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [2] .

والقارعة : الخطب الذى يقرَع، أى يصيب .

قوله: «ونضيض وفره»، أى قلّة ماله، وكان الأصل «ونضاضة وفره» ليكون المصدرُ فى مقابلة المصدر الأول، وهو «كلالة حدّه» ؛ لكنه أخرجه على باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولهم : عليه سَحقُ عمامة ، وجَرْد قطيفة ، وأخلاق ثياب .

قوله : « والمجلِب بخيله ورجله » ، المجلِب : اسم فاعل من أجلَب عليهم ، أى أعان عليهم .

والرَّجْل: جمع راجل ، كالرَّكْب جمع راكب، والشَّرْب جمع شارب؛ وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [3] .

---

(١) سورة العاديات ٨ .

(٢) سورة العاديات ٦ .

(٣) سورة الإسراء ٦٤ وقراءة حفص بكسر الجيم فى « رجلك » ، وباقى القراءات بسكون الجيم . إتحاف فضلاء البشر ٢٨٠ .

وأشرط نفسه ؛ أى هيّأها وأعدّها للفساد فى الأرض .

وأوبق دينه : أهلكه . والحطام : المال ؛ وأصله ما تكسّر من اليَبيس .

ينتهزه : يختلسه .

والمِقْنَب : خيل مابين الثلاثين إلى الأربعين .

ويَفْرَعُه : يعلوه . وطامَن من شخصه ، أى خَفَض . وقارب مِنْ خَطْوه : لم يسرع ومشى رويدا .

وشمّر من ثوبه : قصّره . وزخرف من نفسه : حسّن ونمّق وزين ، والزّخرف : الذهب فى الأصل .

وضُئولة نفسه : حقارتها . والنادّ : المنفرد . والمكموم ، من كممت البعير ، إذا شددتَ فه . والأجاجُ : الملح .

وأفواههم ضامزة ، بالزاى ؛ أى ساكنة ، قال بشر بن أبى خازم :

لقَدْ ضَمَزَتْ بجِرّتها سُلَيْمٌ مخافتنا كما ضَمَزَ الحمارُ (١)

والقرظ : ورَق السَّلَم ، يُدْبَغ به ، وحُثالته : مايسقط منه .

والجلَم : المقصّ تُجَزّ به أوبارُ الإبل . وقراضته : مايقع من قَرْضه وقطعه .

فإن قيل : بَيّنوا لنا تفصيلَ هذه الأقسام الأربعة .

قيل : القسم الأول مَنْ يقعدُ به عن طلب الإمْرة قلة ماله وحقارتُه فى نفسه .

والقسم الثانى : مَنْ يُشَمّر ويطلب الإمارة ويُفسد فى الأرض ويكاشف .

والقسم الثالث : مَنْ يُظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا .

والقسم الرابع : مَنْ لامال له أصلا ، ولا يكاشف ، ويطلب المُلْك ولا يطلب الدّنيا

(١) ديوانه ٧٠ ، واللسان (٧ : ٢٣٢) ، ونسبه إلى ابن مقبل ؛ وقال فى شرحه : « معناه قد خضعت وذلت كما ضمز الحمار ؛ لأن الحمار لا يجتر ؛ وإنما قال : ضمزت بجرتها على جهة المثل ، أى سكتوا فما يتحركون ولا ينطقون » .

بالرياء والناموس ، بل تنقطع أسبابُه كلُّها فيخلُد إلى القنــاعة ، ويتحلّى بحِلْية الزّهادة فى اللّذات الدنيوية ، لا طلبا للدنيا بل عَجْزاً عن الحركة فيها ، وليس بزاهد على الحقيقة .

فإن قيل : فهاهنا قسم خامس ، قد ذكره عليــه السلام ؛ وهم الأبرار الأتقياء الّذين أراقَ دموعَهم خوفُ الآخرة .

قيل : إنّه عليه السلام إنما قال : «إنّ الناس على أربعة أصناف» ، وعَنَى بهم مَنْ عَدَا المتقين ؛ ولهذا قال لما انقضى التقسيم : « وبقى رجال غضّ أبصارَهم ذِكْرُ المرجع » ، فأبان بذلك عن أنّ هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة .

***

[فصل فى ذكر الآيات والأخبار الواردة فى ذم الرياء والشهرة]

واعلم أنّ هذه الخطبة تتضمّن الذمّ لـكثير لمن يَدّعِى الآخرة من أهلِ زماننا ، وهم أهلُ الرّياء والنّفاق ، ولابسُو الصوف والثّياب المرقوعة لغير وجه الله .

وقد وردَ فى ذمّ الرياء شىء كثير ، وقد ذكرنا بعضَ ذلك فيما تقدّم .

ومن الآيات الواردة فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يُرَاءونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

ومنها قوله تعــالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ١٤٢ .
(٢) سورة الكهف ١١٠ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٢) .

ومن الأخبار النبويّة قوله صلى الله عليه وآله ، وقد سأله رجل : يارسولَ الله ، فيم النجاة ؟ فقال : « ألّا تعمَل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وفى الحديث : « مَنْ راءى راءى اللهُ به ، ومَنْ سمّع سمّع اللهُ به » .

وفى الحديث : « إن الله تعالى يقول للملائكة : إنّ هـذا العمل لم يرِدْ صاحبُه به وجهِى ، فاجعلوه فى سجّين » (٣) .

وقال صلى الله عليه وآله : « إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغر » ،قالوا: وما الشركُ الأصغر يارسول الله ؟ قال : «الرياء ، يقول الله تعالى إذا جازى العبادَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم فى الدنيا ، فاطلبوا جزاءكم منهم » .

وفى حديث شدّاد بن أوْس : رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلّم يبكى ، فقلت : يارسولَ الله ، مايبكيك ؟ فقال : « إنّى تخوّفت على أمتى الشرك ، أمَا إنّهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .

ورأى عمرُ رجلًا يتخشّع ، ويُطَأطئْ رقبَته فى مِشْيته ، فقال له : ياصاحبَ الرّقبة ، ارفع رقبَتك ، ليس الخشوع فى الرقاب .

ورأى أبو أمامة رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده ، فقال له : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك !

---

(١) سورة الإنسان ٩ .

(٢) سورة الماعون ٥ ، ٧ .

(٣) سجين : واد فى جهنم .

وقال عليّ عليه السلام : للمرائى أربع علامات : يكسلُ إذا كان وحدَه ، وينْشَطَ إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أُثنِيَ عليه ، وينقُص منه إذا لم يُثْنَ عليه .

وقال رجل لعبادة بن الصّامت : أقاتِل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجهَه ومَحْمَدة النـاس ، قال : لاشىء لك ، فسأله ثلاث مرات ، كلّ ذلك يقول : لاشىء لك ! ثمّ قال فى الثالثة : يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك . . . الحديث .

وضرب عُمر رجلاً بالدِّرَّة ، ثم ظهر له أنّه لم يأتِ جُرْما ، فقـال له : اقتصّ منى ، فقال : بل أدَعُها لله ولك ، قال : ماصنعتَ شيئا ؛ إما أن تدَعها لى فأعرف ذلك لك ، أو تدَعها لله وحده .

وقال الحسن : لقدْ صحبتُ أقواماً ، إنْ كان أحدُهم لتَعَرِضُ له الـكلمة لو نطق بها لنفعتْه ونفعت أصحابه ، مايمنعه منها إلا مخافةُ الشهرة ، وإنْ كان أحدُهم ليمرّ فيرى الأذى على الطريق فما يمنعه أن ينحّيَه إلا مخافة الشهرة .

وقال الفُضَيْل : كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون .

وقال عِـكْرمة : إن الله تعالى يُعطِى العبد على نِيّته مالا يُعطيه على عمله ؛ لأنّ النية لارياء فيها .

وقال الحسن : المرائى يريد أن يَغْلِبَ قَدَرَ الله تعالى ، هو رجل سَوْء ، يريد أن يقول الناس : هـذا صالح ؛ وكيف يقولون وقد حلّ من ربه محلّ الأردئاء (١) ، فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفَه .

وقال قتـادة : إذا راءى العبدُ ، قال الله تعـالى للملائـكته : انظروا إلى عبدِى يستهزئ بى .

وقال الفُضَيْل : مَنْ أراد أنْ ينظُر مُرائيا فلينظر إلىّ .

---

(١) أردئاء : جمع ردىء .

وقال محمد بن المبارك الصُّورىّ : أظهِر السمتَ[1] بالليل ، فإنه أشرفُ من سمتِك بالنهار ؛ فإنّ سَمْت النهار للمخلوقين ، وسَمْت الليل لربّ العالمين .

وقال إبراهيمُ بن أدهَم : ما صدق الله مَنْ أحبّ أن يَشتهر .

ومن الكلام المعزوّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام : إذا كان يومُ صوم أحدكم فَلْيَدْهُنْ رأسه ولحيته ، وليمسَحْ شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه ، فليُخفِ عن شماله ، وإذا صلّى فليُرْخِ سِتْر بابه ، فإنّ الله يَقسِم الثناء كما يَقسِم الرزق .

ومن كلام بعض الصالحين : آخرُ ما يخرج من رُءوس الصدّيقين حبُّ الرياسة .

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : « بحسْب المرء من الشرّ — إلّا مَنْ عَصمه الله من السوء — أن يُشيرَ الناسُ إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ؛ إنّ الله لا ينظر إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وقال علىّ عليه السلام : تَبذّلْ لا تشتهرْ ، ولا ترفعْ شخصَك لتُذكَر بعلم ، واسكتْ واصمت تَسلَم ، تَسُرّ الأبرار ، وتَغيظ الفجار .

وكان خالد بن مَعْدان إذا كثُرت حَلْقته قام مخافة الشهرة .

ورأى طلحة بن مصرّف قوما يمشون معه نحو عشرة ، فقال : فَرَاش نار ، وذِبّان طمع .

وقال سليمان بن حَنْظلة : بينا نحنُ حوالىْ أُبىّ بن كعب نمشى ، إذ رآه عُمر فعلاه بالدِّرة ، وقال له : انظرْ مَنْ حولك ! إنّ الذى أنت فيه ذِلّة للتابع ، فتنة للمتبوع .

وخرج عبدالله بن مسعود من منزله ، فاتبعه قوم ، فالتفت إليهم وقال: عَلامَ تتبعوننى ؟ فوالله لو تعلمون مِنّى ما أُغلِقُ عليه بابى لما تَبِعنى منكم اثنان .

وقال الحسن : خفقُ النعال حولَ الرّجال مما يُثَبِّت عليهم قلوبَ الحمْقى .

---

(١) السمت : حسن المذهب فى الدين .

وروى أنّ رجلا صَحِبَ الحسن فى طَريق ، فلما فارقه قال : أوصنى رَحِمك الله ! قال : إن استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعرَف ، وتَمشِىَ ولا يُمشَى إليك ، وتَسأل ولا تُسأل ، فافعل .

وخرج أيوب السَّختِيانىّ فى سَفَر ، فشيّعه قوم ، فقال : لولا أنّى أعلمُ أنّ الله يعلم مِنْ قلبى أنّى لهذا كاره ، لَخَشِيتُ المقتَ من الله .

وعوتب أيّوب على تطويل قَمِيصه ، فقال : إنّ الشهرة كانت فيما مَضَى فى طوله ، وهى اليومَ فى قِصَره .

وقال بعضهم : كنت مع أبى قلابة ، إذْ دخل رجل عليه كِساء ، فقال : إياكم وهذا الحمار النّاهق — يشير به إلى طالب شهرة .

وقال رجل لبِشر بن الحارث : أوصِنى ، فقال : أخْمِل ذِكْرَك ، وطيِّب مَطْعمك .

وكان حَوْشب يبكى ويقول : بلغ اسمى المسجد الجامع .

وقال بشر : ما أعرِف رجلًا أحبّ أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس .

فهذه الآثار قليل مما ورد عن الصالحين رحمهم الله فى ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة .

***

[فصل فى مدح الخمول والجنوح إلى العزلة]

وقد صرح أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مَدْح الأبرار — وهم القسم الخامس — بمدح الخمول ، فقال : « قد أخملتهم التّقيّة » — يعنى الخوف .

وقد ورد فى الأخبار والآثار شىء كثير فى مَدْح الخمول .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ربّ أشعَثَ أغبرَ ذى طِمرَيْن لا يُؤبَهُ له ،

لو أقسم على الله لأبرّ قَسَمه » . وفى رواية ابن مسعود : « ربّ ذِى طِمْرَين لا يُؤْبَه له ، ولو سأل الجنّة لأعطيها » .

وفى الحديث أيضاً عنه صلى الله عليه وسلّم : « ألا أدلّكم على أهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مستضعَف ، لو أقسم على الله لأبرّه ؛ ألا أدلّكم على أهل النار ؟ كلّ متكبّر جوّاظ »(١) .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « إنّ أهلَ الجنة الشُّعْثُ الغُبْر ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذَنْ لهم ، وإذا خَطَبوا لم يُنْكَحوا ، وإذا قالوا لم يُنْصَتْ لهم ؛ حوائج أحدهم تتلجلجُ فى صدره ، لو قُسِمَ نورهم يوم القيامة على الناس لوسعهم » .

وروى أنّ عمر دخل المسجد ، فإذا بمعاذ بن جَبَل يَبْكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ اليَسيرَ من الرياء لشِرْكٌ ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا ، وإذا حَضَروا لم يُعْرَفوا ، قلوبُهم مصابيح الهدَى ، يَنْجُون من كلّ غبراء مُظْلِمة » .

وقال ابن مسعود : كونوا ينابيعَ العلم ، مصابيح الهُدَى ، أحْلاسَ البيوت . سُرُجَ الليل ، جُدُدَ القلوب ، خُلْقانَ الثياب ، تُعْرَفون عند أهل السماء ، وتَخْفَوْن عند أهل الأرض .

وفى حديث أبى أمامة ، يرفعه : « قال الله تعالى : إنّ أغْبَط أوليائى لَعبدٌ مؤمن ، خفيف الحاذِ(٢) ، ذو حظٍّ من صلاة ، وقد أحسنَ عبادة ربّه ، وأطاعه فى السرّ ، وكان غامضا فى الناس ، لا يُشار إليه بالأصابع » .

وفى الحديث : « السعيد من خَمَلَ صيته ، وقلّ تُراثه ، وسَهلت منيّته ، وقلّت بواكيه » .

---

(١) الجواظ : الجموع المنوع .

(٢) الحاذ والحال واحد ، وأصل الحاذ طريقة المتن ، وهو مايقع عليه اللبد من ظهر الفرس ؛ أى خفيف الظهر من العيال . نهاية ابن الأثير .

وقال الفُضَيل : رُوِى لى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمنّ به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أُخمِل ذكرك !

وكان الخليل بن أحمد يقول فى دعائه : اللّهم اجْعلْنِي عندك من أرْفَع خَلْقك ، واجعلنى عِنْد نفسى من أوْضَع خَلْقك ، واجْعلْنى عِنْدَ الناس من أوْسَطِ خلقك .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما قرّت عينى ليلة قطّ فى الدنيا إلا مرّة ، بتُّ ليلة فى بعض مساجد قُرَى الشام ، وكان بى علّة البطن ، فجرّنى المؤذن بِرِجْلى حتى أخرجنى من المسجد .

وقال الفُضَيْل : إن قدَرْتَ على ألا تُعرف ، فافعل ، وما عليك ألا تعرف ! وما عليك ألاّ يُثْنَى عليك ! وما عليك أن تكونَ مذموما عند الناس ؛ إذا كنت محموداً عند الله تعالى !

***

فإن قيل: فما قولُك فى شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأكابر الفقهاء المجتهدين ؟ قيل : إنّ المذمومَ طلبُ الشهرة ؛ فأمّا وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم ؛ بل لا بُدّ من وجود إنسان يَشتهر أمره ؛ فإنّ بطريقه يَنْصلِح العالم ؛ ومثال ذلك الغرقَى الذين بينهم غريقٌ ضعيف ، الأوْلى به ألاّ يعرفه أحد منهم ، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلِكوا معه ؛ فإن كان بينهم سابح قوىّ مشهور بالقوّة ، فالأولى ألاّ يكون مجهولا ، بل ينبغى أن يُعرف ليتعلّقوا به، فينجُو هو ويتخلّصوا من الغرق بطريقه .

(٣٣)

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة :

الأَصْـلُ :

قال عبد الله بنُ العباس : دخلت على أمير المؤمنين بذى قار وهو يخصف نعله ، فقال لى : ماقيمة هذا النعل ؟ فقلت : لاقيمةَ لها ، فقال : والله لَهِيَ أحبُّ إلىَّ من إمْرَتكم ؛ إلا أن أقيم حقًّا ، أو أدفعَ باطلا ، ثم خرج فخطب الناس فقال :

إِنَّ اللهَ سُبحانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً ؛ فَساقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ .

أما وَاللهِ إِنْ كُنتُ لَفِي سَاقَتِهَا ، حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِها ؛ ما ضعفتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا ؛ فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ .

مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ ! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ ؛ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ . وَاللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً ... وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا[1]
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلِيًّا ، وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا

* * *

(١) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة .

الشرح :

ذو قار : موضع قريبٌ من البَصْرة ، وهو المكان الذى كانت فيه الحربُ بين العرب والفرس ، ونُصِرت العرب على الفرس قبل الإسلام .

ويخصِف نعله ، أى يخرزها .

وبوّأم محلّتهم : أسكنهم منزلهم ، أى ضرب النّاس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه ، ومثله « وبلّغهم منجاتهم » إلّا أن فى هذه الفاصلة ذكر النّجاة مصرّحا به .

فاستقامتْ قناتُهم : استقاموا على الإسلام ، أى كانت قناتهم معوجّة فاستقامت .

واطمأنت صَفاتُهم ؛ كانت متقلقلة متزلزلة ، فاطمأنّت واستقرّت .

وهذه كلّها استعارات .

ثم أقسم أنّه كان فى ساقتها حتى تولّتْ بحذافيرها ؛ الأصل فى « ساقتها » أن يكون جمع سائق كحائِض وحاضة ، وحائك وحاكة ، ثم استعملت لفظة « الساقة » للأخير ، لأن السائق إنما يكون فى آخر الركْب أو الجيش .

وشبّه عليه السلام أمرَ الجاهلية ؛ إمّا بعَجاجة ثائرة ، أو بكتيبة مُقْبلة للحرب ، فقال : إنّى طردتُها فولّت بين يدىّ ، ولم أزل فى ساقتها أنا أطرُدها وهى تنطرد أمامى ؛ حتى تولّتْ بأسْرِها ولم يبق منها شىء ، ما عجزْت عنها ، ولا جَبُنْت منها .

ثم قال : وإنّ مسيرى هذا لِمِثْلِها ، فَلأَنْقُبَنّ الباطل ؛ كأنه جعل الباطل كشىء قد اشتمل على الحق ، واحتوى عليه ، وصار الحقُّ فى طَيّه ، كالشىء الكامن المستتِر فيه ، فأقسم لينقبنّ ذلك الباطل إلى أن يخرُج الحقُّ من جنبه .

وهذا من باب الاستعارة أيضاً .

ثم قال : « لقدْ قاتلتُ قريشاً كافرين ، ولأُقاتلنَّهُم مفتونين » ؛ لأنّ الباغيَ على الإمام مفتون فاسق .

وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا : إنّ أصحاب صِفِّين والجمل ليسوا بكفار ؛ خلافاً للإمامية ، فإنهم يزعمون أنهم كفار .

* * *

[خبر يوم ذى قار]

روى أبو مِخْنف عن الكلبيّ ، عن أبى صالح ، عن زيد بن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلنا مع علىّ عليه السلام ذا قار ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ ! فقال : والله ليأتيَنّي منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا ؛ لا يزيدون ولا ينقصون .

قال ابن عباس : فدخلَني والله من ذلك شكٌّ شديد فى قوله ، وقلت فى نفسى : والله إن قدِمُوا لأَعُدَّنّهم .

قال أبو مِخْنف : فحدث ابن إسحاق ، عن عمه عبد الرحمن بن يسار ، قال : نفَر إلى علىّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة فى البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ؛ أقام علىّ بذِى قار خمسة عشر يوما ، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله .

قال : فلما سار بهم منقلة[1] ، قال ابنُ عباس : واللهِ لأَعُدَّنّهم ، فإن كانوا كما قال ، وإلا أتممتُهم من غيرهم ؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله . قال : فعرضْتُهم فو الله ما وجدتُهم يزيدون رجلا ، ولا ينقصون رجلا ، فقلت : الله أكبر ! صدق الله ورسوله ! ثم سرنا .

قال أبو مِخْنف : ولما بلغ حُذَيفةَ بن اليمان أنّ عليا قد قَدِم ذا قار ، واستنفرَ الناس ، دعا

(١) المنقلة : مرحلة السفر .

أصحابه فوعظهم وذكّرهم الله وزهدهم فى الدنيا ، ورغبهم فى الآخرة ، وقال لهم : الحقُوا بأمير المؤمنين ووصىٍّ سيد المرسلين ، فإنّ من الحقّ أنْ تنصروه ؛ وهذا الحسن ابنهُ وعمّار قد قدما الكوفة يستنفران الناس ، فانفِروا .

قال : فنفر أصحابُ حذيفة إلى أمير المؤمنين ، ومكث حُذَيفة بعد ذلك خمس عشرة ليلة ، وتوفى رحمه الله تعالى .

قال أبو مِخْنف : وقال هاشم بن عُتْبة المِرْقال ، يذكر نفورهم إلى علىّ عليه السلام :

وَسِرْنَا إلى خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا ... عَلَى عِلْمِنَا أنَا إلَى اللهِ نَرْجِعُ
نُوَقِّرُهُ فى فَضْلِهِ ونُجِلّهُ ... وفى الله مانَرْجُو وما نتوقّعُ
وَنَخْصِفُ أخفافَ المطِىّ عَلَى الوجا ... وَفِى الله مانُرْجِى وَفى الله نُوضِعُ
دَلَفْنَا بجَمْعٍ آثرُوا الحقّ والهُدَى ... إلى ذِى تُقًى فى نَصْرِهِ نَتَسَرَّعُ
نُكافحُ عنه والسُّيُوفُ شهيرةٌ ... تصافح أعناقَ الرّجال فتقطعُ

قال أبو مخنف : فلما قدم أهلُ الكوفة على علىّ عليه السلام ، سلّموا عليه ، وقالوا : الحمدُ لله ياأمير المؤمنين الّذى اختصّنا بموازرتك ، وأكرَمنا بنُصرتك ؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين ، فمُرْنا بأمرك .

قال : فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

مرحباً بأهل الكوفة ، بيوتاتِ العرب ووجُوهها ، وأهل الفضل وفرسانها ، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته ؛ ولذلك بعثتُ إليكم واستصرختُكم عند نَقْضِ طلحة والزبير بَيْعتى ، عن غَيْر جَوْرٍ منى ولا حَدَثٍ ؛ ولَعمرى لو لم تنصرُونى ياأهلَ الكوفة ؛ لرجوت أن يكفِيَنِى الله غوغاء الناس ، وطَغَام أهل البصرة ، مع أنّ عامّة مَنْ بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها ، ورغبوا عنها .

فقام رءوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر ، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة .

(٣٤)

ومن خطبة له عليه السلام فى استنفار الناس إلى أهل الشام :

الأصـل :

أُفٍّ لَكُمْ ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ . أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً ، وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً ! إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ؛ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ .

يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حِوَارِي فَتَعْمَهُونَ ؛ فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ . مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ؛ فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ .

لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلَا تَمْتَعِضُونَ ؛ لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ . غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ !

وَايْمُ اللهِ ، إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ ؛ قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ .

وَاللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ؛ يَعْرُقُ لَحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ .

أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ

لَكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ ،وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا،وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا.
وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ .

***

الشرح :

أُفٍّ لكم : كلمة استقذار ومهانة ؛ وفيها لغات . ويرتج : يغلق . والحوار : المحاورة والمخاطبة . وتعمهون ؛ من العمه وهو التحير والتردد ، الماضي عَمِه بالكسر .

وقوله : «دارت أعينكم» من قوله تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (١) ، ومن قوله : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (٢) .

وقلوبكم مألوسة ، من الألْس ، بسكون اللام ، وهو الجنون واختلاط العقل .

قوله : «مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي» كلمة تقال للأبد،تقول:لا أفعله سَجِيسَ اللّيالي ، وسَجيسَ عُجَيْس ، وسَجِيسَ الأوْجَس ،معنى ذلك كله الدهر ، والزمان، وأبدا.

قوله : « ما أنتم بركنٍ يُمَالُ بكم » ، أى لستم بركن يُسْتَند إليكم ، ويُمال على العدوّ بعزّكم وقوّتكم .

قوله : «ولا زوافرُ عزّ »،جمع زافرة،وزافرة الرجل:أنصاره وعشيرته؛ويجوزأن يكون زَوافرِ عِزّ ، أى حوامل عِزّ ، زفرتُ الحِمْلَ أزفره زفرا ، أى حملته .

قوله : «سُعُر نار الحرب» جمع ساعر ، كقولك : قوم كُظُمٌ للغيظ ، جمع كاظم ،

---

(١) سورة محمد ٢٠ .
(٢) سورة الأحزاب ١٩ .

وتمتعضون : تأنفون وتَغْضَبُون. وحَمِس الوَغَى؛ اشتدّ ، وأصلُ الوغَى الصوت والجَلَبة، ثم سُمّيت الحربُ نفسها وَغى ، لما فيها من الأصوات والجَلَبة . واستحرّ الموت، أى اشتدّ.

وقوله : « انفرجتم انفراج الرأس » ، أى كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يَمْنَةً ونصفه شَأمَة . والمشرفيّة : السيوف المنسوبة إلى مَشارِف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، ولا يقال : مشارفىّ ، كما لا يقال : جمافرىّ ، لمن ينسب إلى جعافر .

وفراش الهام : العظام الخفيفة تلى القحْف .

وقال الرّاوندىّ فى تفسير قوله « انفراج الرأس » أراد به انفرجْتُمْ عَنّى رأسا ، أى قطعاً ، وعرّفه بالألف واللام ، وهذا غير صحيح لأنّ « رأسا » لا يعرّف . قال: وله تفسير آخر ؛ أن يكون المعنى انفراج رأس من أدْنى رأسه إلى غيره ، ثم حرّف رأسه عنه .

وهذا أيضا غيرُ صحيح ، لأنه لا خُصوصيّة للرأس فى ذلك ، فإنّ اليدَ والرِّجْل إذا أدنيتَهما من شخص ، ثم حرّفتهما عنه فقد انفرج مابين ذلك العضو وبينه ، فأىّ معنى لتخصيص الرأس بالذِّكْر !

فأما قوله : « أنت فكن ذاك » فإنه إنّما خاطب مَنْ يمكِّن عدوَّه من نفسه كائنا مَنْ كان ؛ غير معيّن ولا مخصّص؛ ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس ، فإنه روى أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم : هلّا فَعَلْتَ فِعْل ابن عفان ! فقال له : « إنّ فعل ابن عفان لمخزاة على مَن لا دين له، ولا وثيقة معه ، إنّ امرأ أمكن عدوّه من نفسه يهشِمُ عظمه ، ويفرى جلده ، لضعيفٌ رأيه مَأفُونٌ عقله . أنت فكن ذاك إن أحببتَ ، فأما أنا فدُون أن أعطِىَ ذاك ضَرْبٌ بالمشرفيّة . . . » الفصل .

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة ، والخطاب عام لكلّ من أمكن من نفسه ، فلا منافاة بينهما .

وقد نظمتُ أنا هذه الألفاظ فى أبيات كتبتها إلى صاحب لى فى ضمن مكتوب اقتضاها ، وهى :

إنّ امرأً أمكنَ من نفسهِ عدوّه يجدعُ آرابهُ[١]
لا يدفعُ الضيمَ ولا ينكرُ الذ لّ ولا يحمى جلبابهُ
لقائلُ الرأى ضعيفُ القوَى قدْ صرم الخذلانُ أسبابهُ
أنت فكن ذاكَ فإنى امرؤ لا يرهبُ الخطبَ إذا نابهُ
إنْ قال دهرٌ لم يُطِع أو شحا له فمٌ أدردَ أنيابهُ[٢]
أو سامه الخسفَ أبى وانتضى دونَ مرام الخسف قرضابهُ[٣]
أخزرُ غضبانُ شديد السطا يقدرُ أنْ يتركَ ما رابهُ

خطبَ أميرُ المؤمنين عليه السّلام بهذه الخطبة ، بعد فراغهِ من أمرِ الخوارج ، وقد كان قام بالنّهروان ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وقال :

أمّا بعد ، فإنّ الله قد أحسنَ نصرَكم ، فتوجّهوا من فورِكم هذا إلى عدوّكم من أهل الشام .

فقاموا إليه ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، نفِدت نبالُنا ، وكلّت سيوفُنا ، وانصلتتْ[٤] أسنّةُ رماحنا ، وعاد أكثرها قِصَداً[٥] . ارجع بنا إلى مِصْرنا ، نستعدّ بأحسن عُدّتنا ؛ ولعلّ أميرَ المؤمنين يزيد فى عَدَدِنا مثل مَنْ هلَكَ منّا ، فإنّه أقوى لنا على عدونا .

---

(١) آرابه : جمع إرب ؛ وهو العضو .
(٢) شحافاه : فتحه . والدرد : سقوط الأسنان .
(٣) القرضاب : السيف .
(٤) انصلتت . انجردت .
(٥) قصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة من القناة أو الرمح .

فكان جوابه عليه السلام : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾[١].

فنكلوا عليه ، وقالوا إن البرد شديد .

فقال : إنهم يجدون البَرْد كما تَجدُون . فنكلوا وأبَوْا ، فقال : أفٍّ لكم إنها سُنّة جرت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾[٢].

فقام منهم ناس فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، الجِراحُ[٣] فاشية في النّاس ــ وكانَ أهلُ النّهرَوان قد أكثروا الجِراح في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام ــ فارجع إلى الكوفة ، فأقم بها أياما ثم اخرج ، خار الله لك !

فرجَع إلى الكُوفة عَنْ غير رضا .

***

[أمر الناس بعد وقعة النّهْروان]

وروى نصر بن مزاحم ، عن عمر بن سعد ، عن نُمير بن وَعْلة ، عن أبي وَدّاك ، قال : لما كره القومُ المسيرَ إلى الشام عَقيب واقعة النهروان ، أقبل بهم أمير المؤمنين ، فأنزلهم النُّخيلة ، وأمرَ الناس أن يَلْزَموا معسكرهم ، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يُقِلّوا زيارةَ النساء وأبنائهم ؛ حتى يسيرَ بهم إلى عَدُوّهم ؛ وكان ذلك هو الرأى لو فعلوه ؛ لكنهم لم يفعلوا ، وأقبلوا يتسللون ويدخُلون الكوفة . فتركوه عليه السلام وما معه من النّاس إلا رجالٌ من وجوههم قليل ، وبَقِيَ المعسكر خاليا ، فلا مَنْ دخل الكوفة خرج إليه ، ولا مَنْ أقام معه صَبَر . فلما رأى ذلك دخل الكوفة .

(١) سورة المائدة ٢١ .

(٢) سورة المائدة ٢٢ .

(٣) الجراح : جمع جراحة .

قال نصر بن مزاحم : خطب الناس بالكوفة ، وهي أولُ خطبة خطبها بعد قدومه من حرب الخوارج ، فقال :

أيّها الناس ؛ استعدُّوا لقتال عدوّ في جهادهم القربةُ إلى الله عزّ وجلّ ، ودَرْكُ الوسيلة عنده ؛ قوم حيارَى عن الحقّ لا يُبصِرونه ، مُوزَعِين[1] بالجوْر والظلم لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب ، نُكُبٌ عن الدِّين ، يَعْمَهُون في الطغيان ، ويتسكّعون في غمرة الضلال ، فأعِدّوا لهمْ ما استطعتُم من قُوّة ومن رباط الخيل ، وتوكّلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا .

قال : فلم ينفِرُوا ولم يُنْشَروا[2] ، فتركهم أياما ، ثم خطبهم ، فقال : أفٍّ لكم ! لقد سئمتُ عتابَكم . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا . . الفصل الذي شرحناه آنفا إلى آخره . وزاد فيه : « أنتم أسودُ الشّرى في الدَّعة ، وثعالبُ روّاغة حين البأس . إنّ أخا الحرْب اليقظان ؛ ألا إنّ المغلوبَ مقهور ومسلوب » .

***

وروى الأعمش عن الحكم بن عتيبة ، عن قيس بن أبي حازم ، قال : سمعتُ عليّاً عليه السلام على مِنبَر الكوفة ، وهو يقول :

يا أبناء المهاجرين ؛ انفروا إلى أئمة الكُفْر ، وبقية الأحزاب ، وأولياء الشيطان . انفِرُوا إلى مَنْ يقاتل على دم حَمّال الخطايا ، فوالله الذي فَلَق الحبّة ، وبرأ النَّسَمة ؛ إنّه ليَحْمِل خطاياهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً .

قلت : هذا قيس بن أبي حازم ؛ وهو الذي روى حديث : « إنّكم لترون ربّكُم يوم القيامة، كما ترون القمرَ ليلة البَدْر لا تُضامون في رؤيته » . وقد طعن مشايخنا المتكلّمون فيه، وقالوا : إنه فاسق ، ولا تُقبَلُ روايته ؛ لأنه قال : إنّي سمعت عليا يخطُب على منبر الكوفة،

(١) يقال : أوزعه بالشيء ؛ إذا أغراه به .

(٢) لم ينشروا : أي لم يتفرقوا .

ويقول : انفِروا إلى بقية الأحزاب ؛ فأبغضتُه ، ودخل بُغْضُه فى قلبى ، ومن يُبْغِضْ عليا عليه السلام لا تُقْبَلْ روايته .

فإن قيل : فما يقول مشايخكم فى قوله عليه السلام : « انفروا إلى مَنْ يُقاتل على دَمِ حَمّال الخطايا » ؟ أليس هذا طَعْنا منه عليه السلام فى عثمان !

قيل : الأشهرُ الأكثرُ فى الرواية صَدْر الحديث ، وأما عَجُز الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة ، وإن صحّ حملناه على أنه أراد به معاوية ؛ وسمّى ناصريه مقاتلين على دمه ، لأنهم يحامون عن دمه ، ومَنْ حامَى عن دَمِ إنسان فقد قاتل عليه .

وروى أبو نُعَيْم الحافظ ، قال : حدّثنا أبو عاصم الثقفىّ ، قال . جاءت امرأة من بنى عَبْس إلى علىّ عليه السلام ، وهو يخطب بهذه الخُطْبة على مِنبَر الكوفة ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ، ثلاثٌ بَلْبَلْنَ القلوبَ عليك ، قال : وما هُنّ ويحك ! قالت : رِضاكَ بالقَضيّة ، وأخذُكَ بالدنيّة ، وجَزَعُك عِند البَليّة . فقال : إنما أنتِ امرأة ، فاذهَبى فاجلسى على ذَيلك ، فقالت : لا والله ما من جلوس إلا تحت ظلال السيوف .

وروى عمرو بن شمر الجُعْفىّ ، عن جابر ، عن رُفَيْع بن فرقد البَجَلىّ ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، يقول :

يأهلَ الكوفة ، لقد ضرَبْتُكم بالدِّرّة التى أعِظُ بها السفهاء فما أراكم تنتهون ولقد ضَرَبْتُكُمْ بالسّياط التى أقيم بها الحدودَ ، فما أراكم تَرْعَوُون ! فلم يبق إلا أنْ أضرِبَكم بسيفى ؛ وإنى لأعلمُ ما يقوّمكم ؛ ولكنى لا أحبُّ أنْ ألِيَ ذلك منكم . واعجبًا لكم ولأهل الشام ! أميرُهم يَعْصِى الله وهم يطيعونه ، وأميرُكم يطيع الله وأنتم تعصُونه ! والله لو ضربتُ خَيْشُومَ المؤمن بسيفى هذا على أن يُبْغِضَنِى ما أبغضنى ؛ ولو سُقْتُ الدنيا بحذافيرها إلى الكافر لما أحبّنى ؛ وذلك أنه قضى ما قضى على لسان النبىّ الأمّىّ أنه لا يُبْغِضُنى

مؤمن ، ولا يُجبَى كافر ؛ وقد خاب مَنْ حَمَل ظلماً . والله لتَصْبِرُنّ يأهل الكوفة على قتال عدوِّكم أو ليُسَلِّطَنّ الله عليكم قوما أنتم أولى بالحق منهم فليعذبُنَّكم ! أفمِنْ قتلة بالسيف تحيدون إلى مَوْتَةٍ على الفراش ! والله لَمَوْتَةٌ على الفِرَاش أشدُّ من ضَرْبة ألف سيف .

قلت : ما أحسن قول أبي العيناء ، وقد قال له المتوكل : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم ! فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وهذا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وهو سيّدُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، يمدح الكوفة وأهلها عقيبَ الانتصار على أصحاب الجمل ، بما قد ذكرنا بعضَه وسنذكر باقيَه ، مَدْحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر ، ويقول للكوفة عند نظره إليها : أهلاً بك وبأهلِك ! ما أرادك جبّارٌ بكيْدٍ إلا قصَمَه الله . ويُثْني عليها وعلى أهلِها حَسَبَ ذمِّه للبَصْرة وعيبه لها ودعائِه عليها وعلى أهلها ، فلما خذَلَه أهلُ الكوفة يومَ التحكيم ، وتقاعدوا عن نَصْرِه على أهل الشام ، وخرجَ منهم الخوارج ، ومَرَقَ منهم المُرّاق ، ثم استنفرَهم بَعْدُ فلم ينفِروا ، واستصرَخهم فلم يُصرِخوا [1] ، ورأى منهم دلائلَ الوَهَن وأمارات الفشل ، انقلبَ ذلك المدح ذمّاً ؛ وذلك الثناء استزادةً وتقريعا وتهجينا .

وهذا أمرٌ مركوز في طبيعة البشر ، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، والقرآن العزيز أيضاً كذلك ، أثنى على الأنصار لمّا نَهَضُوا ، وذَمّهم لما قعدوا في غزاة تبوك ، فقال : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ [2] الآيات ، إلى أن رضي الله عنهم ، فقال : ﴿ وَعَلَى

---

(١) لم يصرخوا : لم يغيثوا .

(٢) سورة التوبة ٨١ .

الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ أى عن رسول الله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾[١] الآية .

***

[مناقب على وذكر طَرَف من أخباره فى عدله وزهده]

روى علىّ بن محمد بن أبى سيف[٢] المدائنىّ عن فُضَيل بن الجعْد ، قال : آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْر المال ، فإنه لم يكنْ يفَضِّلُ شريفاً على مشروف ، ولا عربيًّا على عجَمىّ ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه . وكان معاوية بخلاف ذلك ، فترك الناس عليًّا والتحقوا بمعاوية ؛ فشكا علىّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه ، وفرار بعضهم إلى معاوية ، فقال الأشتر : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة ، ورأىُ الناس واحد ، وقد اختلفوا بعد ، وتعادَوْا وضعفت النيّة ، وقلّ العدد ، وأنت تأخُذُهم بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتُنْصِفُ الوضيع من الشريف ؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ منزلةٍ على الوضيع ، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به ، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف ، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا ، وقلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يجتوى الحقّ ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا ، فإن تبذُلِ المال ياأميرَ المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال ، وتَصْفُ نصيحتُهم لك ، وتستخلِصْ وُدّهم ، صنع الله لك ياأمير المؤمنين! وكبَتَ أعداءك ، وفضّ جمعهم ، وأوهن كيدَهم ، وشتّت أمورَهم ، إنه بما يعملون خبير .

فقال علىّ عليه السلام :

---

(١) سورة التوبة ١١٨ .

(٢) ب : « يوسف » ؛ والصواب ماأثبته من فهرس ابن النديم ١٠٠ ، وانظر ص ٢٠٣ من هذا الجزء

أمّا ماذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول :﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[1] ؛ وأنا من أن أكون مقصّراً فيما ذكرتَ أخوفُ .

وأما ماذكرت من أنّ الحق ثقُل عليهم ففارقونا لذلك ، فقد علم الله أنّهم لم يفارقونا من جَوْر ، ولا لجئوا إذ فارقونا إلى عَدْل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها ؛ وَلَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة : ألِلدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟

وأمّا ماذكرْتَ من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنّه لا يسعُنا أن نؤتيَ امرأً من الفيء أكثرَ من حقّه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وحدَه ،فكثّره بعد القلة ، وأعزّ فئته بعد الذّلّة ، وإنْ يُرِدِ الله أنْ يولّينا هذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه ، ويُسهِّل لنا حَزْنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عزّ وجل رضاً، وأنت من آمنِ الناسِ عندى ، وأنصحِهم لى ، وأوثقِهم فى نفسى إنْ شاء الله .

***

وذكر الشّعبيّ ، قال : دخلت الرَّحبة بالكوفة ـ وأنا غلام ـ فى غلمان ؛ فإذا أنا بعلىّ عليه السلام قائما على صُبرتين[3] من ذهب وفضة ، ومعه مِخْفَقَة ،وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع إلى المال فيقسّمه بين الناس ؛ حتى لم يبق منه شىء ، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا . فرجعت إلى أبى فقلت له : لقد رأيتُ اليوم خَيْرَ النّاس أو أحمق النّاس ، قال : مَنْ هُوَ يابُنَيَّ ، قلت : علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ،رأيته يصنع كذا ، فقصصت عليه ، فبكى ، وقال : يابنىّ ، بل رأيتَ خيرَ الناس .

***

(١) سورة فصلت ٤٦ . (٢) سورة البقرة ٢٤٩ .
(٣) الصبرة ، بالضم : ماجمع من الطعام بلا كيل ولا وزن .

وروى محمد بن فُضَيْل عن هارون بن عنترة ، عن زاذان ، قال : انطلقتُ مع قَنْبَر غلام عليّ عليه السلام ، فإذاهو يقول : قم يأمير المؤمنين ، فقد خَبَأت لك خبيئاً ، قال: وما هو ويحك ! قال : قُمْ معي ، فانطلق به إلى بيته ، وإذا بغرَارة مملوءة من جامَاتٍ ذهباً وفضة ، فقال : يأمير المؤمنين ، رأيتُك لا تتركُ شيئاً إلا قسَمْتَه ، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال ، فقال عليّ عليه السلام : ويحك يا قَنْبر ! لقد أحببتَ أن تُدْخِلَ بيتى ناراً عظيمة . ثم سلّ سيفَه وضربه ضَرَبات كثيرة ، فانتثرتْ من بين إناء مقطوع نصفه ، وآخر ثلثه ، ونحو ذلك ، ثم دعا بالناس ، فقال : اقسموه بالحصَص ، ثم قام إلى بيت المال ، فقسم ماوَجَد فيه ، ثم رأى فى البيت إبَراً وَمَسالّ ، فقال : وَلْتَقْسِموا هذا ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه ـ وقد كان عليّ عليه السلام يأخُذُ من كلّ عامل مما يَعْمَل ـ فضحك ، وقال : لَيُؤْخَذَنّ شرُّه مع خيره .

***

وروى عبدُالرّحمن بن عَجْلان ، قال : كانَ عليّ عليه السلام يَقسم بين النّاسِ الأبزارَ والُحرْف(١) والكمُّون ، وكذا وكذا .

وروى مجمع التيميّ ، قال : كان عليّ عليه السلام يكنس بيتَ المال كلّ جُمعة ، ويصلّى فيه ركعتين ، ويقول : ليشهَدَ لى يوم القيامة .

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُلَيب الجَرْميّ ، عن أبيه ، قال : شهدتُ علياً عليه السلام وقد جاءه مال من الجَبَل ، فقام وقمنا معه ، وجاء الناس يزدحمون ، فأخذ حِبالا فوصلها بيده ، وعقَد بعضَها إلى بعض ، ثم أدارَها حول المال ، وقال : لا أحِلّ لأحَدٍ أن يجاوز هذا الحَبْل ، قال : فقعد الناسُ كلُّهم من وراء الحبل ، ودخل هو ، فقال: أين رءوسُ الأسْبَاع ؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعا ـ فجعلوا يحملون هذه الجُوالق إلى هذه الجُوالق ، وهذا إلى هذا ، حتى استوت القِسْمة سبعة أجزاء ، ووُجد مع المتاع

(١) الحرف ، بالضم : الخردل .

رغيف ، فقال : اكسروه سَبْعَ كِسَر ، وضعوا على كل جزء كِسْرة ، ثم قال :

هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلّ جَانٍ يَدُه إِلَى فِيهِ[1]

ثم أقرع عليها ودفعها إلى رءوس الأسباع ، فجعل كلّ رجل منهم يدعو قومَه فيحملون الجواليق .

***

وروى مُجَمِّع ، عن أبي رَجاء ، قال: أخرج عليّ عليه السلام سيفاً إلى السُّوق، فقال : مَنْ يشتري مِنِّي هذا ؟ فوالذي نفسُ عليّ بيده، لو كان عندي ثمن إزار مابعتُه ، فقلت له: أنا أبيعُك إزاراً وأنسئك ثمنَه إلى عطائك ، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه ، فلما قبض عطاءه دفع إليّ ثمن الإزار .

وروى هارون بن سعيد ، قال : قال عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب لعليّ عليه السلام : يا أميرَ المؤمنين ، لو أمرتَ لي بمعونة أو نفقة ! فوالله ما لي نفقة إلّا أن أبيعَ دابّتي ، فقال : لا والله ما أجدُ لك شيئا إلّا أن تأمُرَ عمّك أن يسرقَ فيعطيَك .

وروى بكر بن عيسى ، قال : كانَ عليّ عليه السلام يقول : يا أهلَ الكوفة ، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان ؛ فأنا خائن فكانتْ نفقتُه تأتيه من غَلّتِه بالمدينة بينبُع ، وكان يُطعم الناسَ منها الخبز واللحم ، ويأكل هو الثّريد بالزيت .

وروى أبو إسحاق الهَمْداني أنّ امرأتين أتتا عليّاً عليه السلام : إحداهما من العرب والأخرى من الموالي ، فسألتاه ، فدفع إليهما دراهمَ وطعاما بالسَّواء ، فقالت إحداهما :

---

(١) البيت أنشده عمرو بن عدي حين كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة بن الأبرش) الكمأة ؛ فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقي إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتي به كما هو وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ وحديث على ورد مفصلا في حلية الأولياء ١ : ٨١ .

إنّى امرأة من العرب،وهذه من العجم ؛ فقال:إنى والله لا أجدُ لبنى إسماعيل فى هذا الفىء فضلا على بنى إسحاق .

وروى معاوية بن عمّار عن جعفر بن محمد عليهما السلام ، قال : ما اعتَلَج على علىّ عليه السلام أمران فى ذات الله ، إلا أخذ بأشدّهما ، ولقد علمتم أنه كان يأكل - يأهل الكوفة - عندكم من ماله بالمدينة ؛ وأنْ كان ليأخذُ السّويق فيجعلُه فى جراب ، ويختم عليه مخافة أن يُزاد عليه من غيره ؛ وَمَنْ كان أزهد فى الدنيا من علىّ عليه السلام !

وروى النَّضر بن منصور ، عن عُقْبة بن علقمة ، قال : دخلتُ على علىّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذتنِى حُموضته، وكِسَرٌ يابسة ، فقلت:يا أمير المؤمنين،أتأكلُ مثل هذا ! فقال لى : يا أبا الجَنُوب ، كان رسول الله يأكل أيْبَس من هـذا ، ويلبَسُ أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإنْ أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألّا ألحق به .

***

وروى عمران بن مسلمة ، عن سُوَيْدِ بن غَفْلة ، قال : دخلت على علىّ عليه السلام بالكوفة ، فإذا بين يديه قَعْب لبن أجدُ ريحه من شدة حموضته ، وفى يده رغيف ، ترى قُشار الشّعير على وجهه وهو يكسره ، ويستعين أحيانا برُكبته ، وإذا جاريتُه فِضّة قائمة عَلَى رأسه ، فقلت : يا فضّة ، أما تتّقون الله فى هـذا الشيخ ! ألا نخلْتم دقيقه ؟ فقالت : إنّا نكره أن نؤْجَر وَيأْثمَ ، نحن قد أخذ علينا ألّا ننخُلَ له دقيقا ماصَحِبْناه - قال : وعلىّ عليه السلام لا يسمع ما تقول - فالتفت إليها فقال : ماتقولين ؟ قالت : سَلْه ، فقال لى : ماقلتَ لها ؟ قال : فقلت إنى قلت لها : لو نَخلْتم دقيقه ! فبكى ، ثم قال : بأبى وأمّى مَنْ لم يشبع ثلاثامتوالية [من] خبز برّ حتى فارق الدنيا ، ولم يَنْخُل دقيقه ! قال : يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله .

وروى يوسف بن يعقوب ، عن صالح بيّاع الأكسية ، أنّ جدّته لقيتْ علياً عليه السلام بالكوفة ، ومعه تمرٌ يحمله ، فسلّمت عليه ، وقالت له : اعطنى يأمير المؤمنين هذا التمر أحمِله عنك إلى بيتك ، فقال : أبو العيال أحقُّ بحمْله ، قالت : ثم قال لى : ألا تأكلين منه ؟ فقلت : لا أريد ، قالت . فانطلق به إلى منزله ثم رجع مُرتدياً بتلك الشّملة ، وفيها قشور التمر ؛ فصلّى بالناس فيها الجمعة .

وروى محمد بن فُضَيْل بن غَزْوَان ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام : كم تتصدّق ! كم تُخرِجُ مالك ! ألا تُمْسِك ! قال : إنى والله لو أعلم أنّ الله تعالى قَبِلَ مِنّى فرضاً واحداً لأمسكت ؛ ولكنى والله ما أدرى ؛ أقبل مِنّى سبحانه شيئاً أم لا !

وروى عَنْبَسة العابد ، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن ، قال : أعتق علىّ عليه السلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفَ مملوك مما مَجَلت[1] يداه ، وعرق جبينه؛ولقد وَلِيَ الخلافةَ ،وأتته الأموال،فما كان حَلْواه إلا التمر،ولا ثيابه إلا الكرابيس .

وروى العوام بن حَوْشب ، عن أبى صادق ، قال : تزوّج علىّ عليه السلام ليلَى بنت مسعود النهشليّة ، فضربت له فى داره حَجَلة ، فجاء فهتكها ، وقال : حَسْبُ أهل علىّ ما هم فيه !

وروى حاتم بن إسمعيل المدنىّ ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : ابتاعَ علىّ عليه السلام فى خلافته قيصا سَمِلًا[2] بأربعة دراهم ، ثم دعا الخيّاط ، فمدّ كُمّ القميص ، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع .

***

وإنما ذكرنا هذه الأخبار والروايات ـ وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل ـ لأن الحال اقتضى ذكرها ، من حيث أردنا أن نبيّن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ

---

(١) مجلت يده : عملت .

(٢) السمل : الخلق من الثياب .

يذهب في خلافته مذهب الملوك الذين يُصانِعون بالأموال ويصرفونها في مصالح ملكهم وملاذّ أنفسهم ، وأنه لم يكنْ من أهل الدنيا ، وإنما كان رجلا متألّهاً صاحب حقّ ، لا يريد بالله ورسوله بدلا .

* * *

وروى عليّ بن محمد بن أبي يوسف المدائنيّ أنّ طائفة من أصحاب عليّ عليه السلام مَشَوْا إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعْطِ هذه الأموال وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل مَنْ تخاف خلافَه من الناس وفِراره ، وإنما قالوا له ذلك لِمَا كان معاوية يَصْنَع في المال ، فقال لهم : أتأمرونّني أن أطلبَ النَّصْر بالجوْر ! لا والله لا أفعلُ ما طلعتْ شمس ، وما لاح في السماء نجْم ، والله لو كان المالُ لي لواسيتُ بينهم ، فكيف وإنما هي أموالُهم ! ثم سكت طويلا واجما ، ثم قال : الأمرُ أسرعُ من ذلك ؛ قالها ثلاثا .

(٣٥)

ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم :

الأصل :

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَإِنْ أَتَى ٱلدَّهْرُ بِٱلْخَطْبِ ٱلْفَادِحِ ، وَٱلْحَدَثِ ٱلْجَلِيلِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ ٱلنَّاصِحِ ٱلشَّفِيقِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُجَرِّبِ ، تُورِثُ ٱلْحَسْرَةَ ، وَتُعْقِبُ ٱلنَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي ؛ لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ ٱلْمُخَالِفِينَ ٱلْجُفَاةِ ، وَٱلْمُنَابِذِينَ ٱلْعُصَاةِ ، حَتَّى ٱرْتَابَ ٱلنَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ ٱلزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ ٱللِّوَى   فَلَمْ تَسْتَبِينُوا ٱلنُّصْحَ إِلَّا ضُحَى ٱلْغَدِ

***

الشرح :

الخطب الفادح : الثقيل . ونخلت لكم ، أى أخلصته ، من نَخَلْتُ الدقيق بالمُنخُل .

وقوله : «الحمد لله وإن أتى الدهر» ، أى أحمده على كلّ حال من السّرّاء والضراء .

وقوله : «لو كان يطاع لقصير أمر» ، فهو قصير صاحب جَذِيمة ، وحديثه مع جذيمة ومع الزّبّاء مشهورٌ ، فضرب المثل لكلّ ناصح يُعصى بقصير .

وقوله : « حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقَدْحه » ، يشير إلى نفسه ؛ يقول : خالفتمونى حتى ظننت أن النصح الذى نصحتكم به غيرُ نصح ، لإطباقكم وإجماعكم على خلافى ؛ وهذا حقّ ؛ لأن ذا الرأى الصواب إذا كثر مخالفوه يَشُكّ فى نفسه .

وأما ضَنّ الزّند بقَدْحه ، فمعناه أنّه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح ، لشدّة مالقيت منكم من الإباء والخلاف والعصيان ؛ وهذا أيضاً حقّ ، لأنّ المشيرَ الناصح إذا اتُّهم واستُغِشّ عَمِيَ قلبُهُ وفسد رأيُه .

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْد بن الصِّمّة ، والأبيات مذكورة فى الحماسة ، وأولها :

نَصَحْتُ لِعارِضٍ وَأَصْحابِ عارِضٍ ... وَرَهْطِ بَنِى السَّوْداء والقومُ شُهَّدى (١)
فقلت لهم ظنّوا بألفىْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ فى الفارسىّ المُسَرَّدِ (٢)
أمرتُهُمُ أمرِى بمنعرَجِ اللِّوَى ... فلم يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلّا ضُحَى الغَدِ (٣)
فلمّا عصَوْنِى كنتُ منهم وقد أرى ... غَوايتَهُم وأننى غيرُ مُهْتَدِ
وَما أنا إلّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّة أَرْشُدِ (٤)

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى (٢ : ٨١٣) . وكان من خبر هذا الشعر أن عبدالله — وهو اسم آخر لعارض وهو أخو دريد — كان أسود إخوته ، فغزا ببنى جشم وبنى نصر ابنى معاوية بن بكر بن هوازن ؛ وغنم مالا عظيما بمنعرج اللوى ؛ فنعه دريد عن اللبث ، وقال : إن غطفان ليست بغافلة عنا ؛ فحلف أنه لايريم حتى يقسم ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . شرح التبريزى (٢ : ٣٠٤) .

(٢) ظنوا : قال المرزوقى : يجوز أن يكون معناه : ظنوا كل ظن قبيح بهم إذا غزوكم فى أرضكم وعقر دياركم . ويجوز أن يكون معنى ظنوا أيقنوا ؛ لأن الظن يستعمل فى اليقين ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ ﴾ . والمدجج : التام السلاح ؛ من الدجة ؛ وهى الظلمة . وسراتهم : خيارهم ؛ وعنى بالفارسى المسرد ، الدروع .

(٣) فى الحماسة ذكر هذا البيت بعد تاليه .

(٤) فى الحماسة : وهل أنا إلا من غزية رهطه .

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عليه السلام بعد خديعة ابن العاص لأبى موسى وافتراقهما ، وقَبلَ وقعة النَّهْرَوان .

***

[قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج]

ويجبُ أن نذكُر فى هذا الفصل أمْرَ التحكيم ؛ كيف كان ، وما الّذى دعا إليه ! فنقول :

إنّ الذى دَعا إليه طَلبُ أهل الشام له ، واعتصامُهم به من سيوفِ أهلِ العراق ؛ فقد كانت أماراتُ القهر والغَلَبة لاحتْ ، ودلائل النّصر والظَفَر وضحت ، فعدلَ أهلُ الشام عن القِراع إلى الخِداع ؛ وكان ذلك برأى عمرو بن العاص .

وهذه الحالُ وقعتْ عَقِيبَ ليلة الهرير(١) ، وهى الليلةُ العظيمة التى يُضرب بها المثل .

ونحن نذكر ماأورده نصر بن مُزاحم فى كتاب صِفِّين فى هذا المعنى ، فهو ثِقة ثَبْت ،صحيح النقل ، غير منسوب إلى هوًى ولا إدْغال ؛ وهو من رجال أصحاب الحديث. قال نصر :

حدّثنا عمرو بن شَمِر ، قال : حدّثنى أبو ضِرار ، قال : حدّثنى عمّار بن ربيعة ،قال : غَلّس علىّ عليه السلام بالناس صلاة الغداة يوم الثلاثاء ، عاشرَ شهر ربيع الأول ، سنة سبع وثلاثين ـ وقيل :عاشر شهر صفر ـ ثم زحف إلى أهلِ الشام بعسكر العراق ،والناسُ على راياتهم وأعلامهم ،وزَحَفَ إليهم أهلُ الشام ،وقد كانت الحرب أكلتِ الفريقين ؛ ولكنّها

(١) من هرير الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع ؛ وهو صوت دون النباح .

فى أهل الشام أشدُّ نِكاية ، وأعظم وَقْعا ، فقد ملُّوا الحربَ ، وكرهوا القتال ، وتضعضعت أركانهم .

قال : فخرج رجلٌ من أهلِ العراق ، على فرس كُمَيْت ذَنوبٍ[١] ، عليه السّلاحُ لا يُرى منه إلا عيناه ؛ وبيده الرُّمح . فجعل يضرب رءوسَ أهلِ العراق بالقناة ، ويقول: سوُّوا صفوفَكم رحمكم الله ! حتى إذا عدّلَ الصّفوف والرايات ، استقبلهم بوجهه ، وولّى أهلَ الشام ظهره ، ثم حمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

الحمدُ لله الّذى جعل فينا ابنَ عمِّ نبيّه ، أقدمَهم هجرة ، وأوّلَهم إسلاما ، سيفٌ من سيوف الله على أعدائه ، فانظروا إذا حَمِيَ الوطِيس[٢] ، وثار القَتام[٣] ، وتكسّر المُرّان[٤] ، وجالت الخيلُ بالأبطال ، فلا أسمعُ إلا غمغمة أو همهمة ؛ فاتبعونى وكونوا فى أثرى .

ثم حمل على أهلِ الشام فكسّر فيهم رمحه ، ثم رجع فإذا هو الأشتر .

قال : وخرج رجلٌ من أهلِ الشام ، فنادَى بين الصّفّين : ياأبا الحسن ، ياعلىّ ، ابرُز إلىّ . فخرج إليه علىّ عليه السلام ، حتى اختلفتْ أعناقُ دابتيْهما بين الصفّين ، فقال: إنّ لك ياعلىّ لَقَدماً فى الإسلام والهجرة[٥] ، فهل لكَ فى أمر أعرِضُه عليك ، يكون فيه حَقْنُ هذه الدماء ، وتأخُّر[٦] هذه الحروب ؛ حتى ترى رأيك؟ قال: وماهو؟ قال : ترجع إلى

---

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب .

(٢) الوطيس فى الأصل : التنور ، أو حفرة تحتفر ويختبز فيها ويشوى . وقيل : الوطيس : شىء يتخذ مثل التنور يختبز فيه ؛ وقيل : هى تنور من حديد وبه شبه حر الحرب . وحمى الوطيس ، مثل يضرب للأمر إذا اشتد . اللسان (٨ : ١٤٢) .

(٣) القتام : الغبار .

(٤) المران : جمع مرانة ؛ وهى الرماح الصلبة اللدنة .

(٥) وقعة صفين : « وهجرة » .

(٦) وقعة صفين : « تأخير » .

عِرَاقِك ، فتخلَّى بينك وبين العراق ، ونرجع نحنُ إلى شامنا فتُخلِّيَ بيننا وبين الشام[1] .

فقال على عليه السلام : [٢] قد عرفتُ ماعرضت ، إن هذه لنصيحةٌ وشفقةٌ [٢] ، ولقد أهمَّنى هذا الأمر وأسهرنى ،وضربتُ أنفه وعينه فلم أجِدْ إلا القتال أو الكفرَ بما أنزل الله على محمد . إن الله تعالى ذِكْرُه لم يرضَ من أوليائه أن يُعْصَى فى الأرض وهم سكوت مُذعنون ؛ لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهوْن عن منكر ؛ فوجدتُ القتالَ أهونَ علىّ من معالجة فى الأغلال فى جهنم .

قال : فرجع الرّجلُ[3] وهو يسترجع ، وزحف النّاس بعضُهم إلى بعض فارتموْا بالنَّبل والحجارة حتى فَنِيتْ ،ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسّرت واندقّت.ثم مشى القومُ بعضُهم إلى بعض بالسيوف وعُمُد الحديد ، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض ؛ لَهو أشدُّ هولاً فى صدور الرجال من الصّواعق ، ومن جبال تِهامَة يدكّ بعضُها بعضا،وانكسفت الشمس بالنَّقع،وثار القَتام والقَسْطل[4] ،وضلّت الألوية والرّايات،وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة، فيأمر كلَّ قبيلة أو كَتيبة من القرّاء بالإقدام على التى تليها[5] ؛ فاجتلدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد ؛ من صلاة الغَداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل ، لم يصلّوا لله صلاةً . فلم يزل الأشتر يفعلُ ذلك حتى أصبح والمعركة خَلْف ظهره ، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم، وتلك الليلة وهى ليلة الهرير المشهورة.وكان الأشترُ فى ميمَنة النـاس وابنُ عباس فى الميسَرة ، وعلىّ عليه السلام فى القَلْب ، والناس يقتتلون .

ثم استمرّ القتالُ من نصف اللّيل الثانى إلى ارتفاع الضُّحى ، والأشتر يقول لأصحابه:

---

(١) صفين : « شامنا » .

(٢ ـ ٢) صفين : « لقد عرفت ، إنما عرضت هذه النصيحة شفقة » .

(٣) صفين « الشامى » .

(٤) القسطل : الغبار .

(٥) كذا فى ج ، وفى ب : « بينها » .

وهو يزحَفُ بهم نحو أهل الشام:ازحَفُوا قِيدَ رمحى هذا ، ويُلقى رمحَه ، فإذا فعلوا ذلك، قال : ازحفوا قَابَ هذا القوس[١] ،فإذا فعلوا ذلك[٢] سألهم مثل ذلك[٢]، حتى ملّ أكثرُ الناس من الإقدام، فلمّا رأى ذلك قال : أعيذكم بالله أن ترْضَعُوا الغنم سائر اليوم .ثم دعا بفرسه،وركَز رايته ـ وكانت مع حيّان بن هوذة النَّخَعِيّ ـ وسار بين الكتائب،وهو يقول: ألا مَنْ يشترِى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر؛ حتى يظهر أو يَلْحَق بالله ! فلا يزالُ الرجلُ من الناس يخرج إليه فيقاتل معه[٣] .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو قال : حدثنى أبو ضرار ، قال : حدّثنى عمّار بن ربيعة ، قال : مرّ بى الأشتر ، فأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذى كان به ، فقام فى أصحابه، فقال : شُدُّوا ـ فِدًا لكم عمّى وخالى ـ شدّة تُرضُون بها الله،وتعزّونَ بها الدين.[٤] إذا أنا حملت فاحملوا[٤] ثم نَزَل ، وضرَب وَجْهَ دابّتِه ، وقال لصاحب رايته : أقْدِم فتقدّم[٥] بها ، ثم شدّ على القوم ، وشدّ معه أصحابُه ، فضرب أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم ، فقاتلوا عند المعسكر قتالا شديدا ، وقُتِل صاحبُ رايتهم ، وأخذ علىّ عليه السلام ـ لما رأى الظفر قد جاء من قِبَله ـ يَمُدّه بالرجال[٦]

* * *

ورَوَى نصر عن رجاله ، قال : لمّا بلغ القومُ إلى ما بلغوا إليه ، قام علىّ عليه السلام خطيبا ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

(١) القاب : مابين المقبض والسية ، والقوس : يذكر ويؤنث .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .

(٣) وقعة صفين ٥٤٠ ـ ٥٤٤ .

(٤ ـ ٤) وقعة صفين : « فإذا شدت فشدوا » .

(٥) صفين : « فأقدم بها »

(٦) وقعة صفين ٥٤٤

أيها الناس ، قد بلغ بكم الأمر وبعدوّكم ماقد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نَفَس ، وإن الأمورَ إذا أقبلت اعتُبِر آخرُها بأوّلها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغْنا منهم مابلغْنا ، وأنا غادٍ عليهم بالغَداة أحاكمهم إلى الله .

قال : فبلغ ذلك معاوية،فدعا عمرو بن العاص ، وقال : ياعمرو ؛ إنما هي الليلة ، حتى يغدُوَ عليّ علينا بالفَيْصَل [١] ؛ فما ترى ؟

قال : إنّ رجالك لا يقومون لرجاله ، ولستَ مِثلَه ، هو يقاتلُك على أمر وأنت تقاتِلُه على غَيْره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهلُ الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم ؛ ولكِن ألقِ إلى القوم أمرا إنْ قَبِلوه اختلفُوا ، وإن ردّوه اختلفوا،ادعُهم إلى كتاب الله حَكَما فيما بينك وبينهم؛فإنك بالغٌ به حاجتك فى القوم ؛ وإنى لم أزل أؤخِّر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه .

فعرف معاوية ذلك وقال له : صدقت [٢] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر عن جابر بن عمير [٣] الأنصاريّ ، قال : والله لكأنّى أسمع عليًّا يوم الهَرير ، وذلك بعد ماطحنت رَحا مَذْحِج ، فيما بينها وبين عَكّ ولَخْم وجُذام والأشعريّين بأمر عظيم تشيبُ منه النواصي ، حتى [٤] استقلّتِ الشمس ، وقام قائم الظهر [٤] ، وعليّ عليه السلام يقول لأصحابه : حَتّى متى نُخَلِّي بين هذين الحيَّيْن ! قد فَنِيا وأنتم وقوف تنظرون ! أما تخافُون مَقْتَ الله ! ثم انفتل [٥] إلى القِبْلة ، ورفع

---

(١) ب : « بالفصل » ، وما أثبته من ا ، ج .

(٢) وقعة صفين ٥٤٠ .

(٣) فى الأصول : « نمير » ، وصوابه من كتاب صفين .

(٤ ـ ٤) صفين : « من حين استقلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة » واستقلت الشمس : ارتفعت .

(٥) ب : « استقبل » ، والصواب ما أثبته من ا ، ج .

يديه إلى الله عزّ وجل، ونادى : ياألله ، يارحمن، يارحيم ، ياواحد ، ياأحد ، ياصمد ! ياألله، يا إله محمد ؛ اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى ، ومُدّت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج ! اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عدوّنا ، وتشتّت أهوائنا ، ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [١] سيروا على بركة الله .

ثم نادى : لا إله إلا الله والله أكبر ، كلمة التقوى .

قال : فلا والذى بعث محمدًا بالحقّ نبيًّا ، ماسمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات والأرض أصاب بيده فى يوم واحد ما أصاب ؛ إنه قتل - فيما ذكر العادّون - زيادة على خمسمائة من أعلام العرب ؛ يخرج بسيفه منحنيا ، فيقول : معذرة إلى الله وإليكم من هذا . لقد هممت أن أفلقه [٢] ؛ ولكن يحجزنى عنه أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقول : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علىّ » . وأنا أقاتل به دونه صلى الله عليه .

قال : فكنا نأخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به فى عرض الصّف ، فلا والله ماليثٌ بأشدّ نكاية منه فى عدوّه ، عليه السلام [٣] .

***

قال نصر : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر، قال : سمعت تميم بن حُذَيْم ، يقول : لما أصبحنا من ليلة الهرير ، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات ، أمام أهل الشام فى وسط الفيلق ،

---

(١) سورة الأعراف ٨٩
(٢) صفين : « أصقله » .
(٣) كتاب صفين ٥٤٥ - ٥٤٦

حيال موقف علي ومعاوية ، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد رُبطت في أطراف الرّماح ، وهي عظام مصاحف العَسكر ، وقد شَدّوا ثلاثة أرماح جميعا ، ورَبطوا عليها مصحف المسجد الأعظم ، يمسكه عشرة رهط .

قال نصر : وقال أبو جعفر وأبو الطفيل : استقبلوا عليا بمائة مصحف ، ووضعوا في كلّ مُجَنّبة(١) مائتي مصحف ، فكان جميعها خمسمائة مصحف .

قال أبو جعفر : ثم قام الطفيل بن أدْهم حيال عليّ عليه السلام ، وقام أبو شريح الجذاميّ حيال الميمنة ، وقام ورقاء بن المعتمر حِيال الميسرة ، ثم نادوا : يامعشَر العرب ، الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنِيتم ! الله الله في دِينكم ! هذا كتابُ الله بيننا وبينكم .

فقال عليّ عليه السلام : اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتابَ يريدون ، فاحْكُمْ بيننا وبينهم إنك أنت الحكَم الحق المبين .

فاختلف أصحاب عليّ عليه السلام في الرأي ؛ فطائفة قالت القتال ، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب ، ولا يحلّ لنا الحرب ، وقد دُعينا إلى حُكْم الكتاب ؛ فعند ذلك بَطَلَت الحرب ووضعت أوزارها(٢) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن عليّ ابن الحسين ، قال : لما كانَ اليوم الأعظم ، قال أصحابُ معاوية : والله لا نَبْرَحُ اليوم العَرْصَة حتّى نموتَ أو يُفتح لنا ، وقال أصحاب عليّ عليه السلام : لانبرَحُ اليوم العَرْصة حتى نموتَ أو يُفتَح لنا ، فبادروا القتال غُدْوَةً في يوم من أيام الشِّعْرَى(٣) طويل، شديد

(١) المجنبة ، بكسر النون المشددة : ميمنة الجيش وميسرته .
(٢) وقعة صفين ٥٤٦ — ٥٤٧ .
(٣) الشعرى : كوكب نير يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر . (اللسان) .

الحرّ فتراموْا حتى فنيت النبال، وتطاعنُوا حتى تقصّفتِ الرماح، ثم نزل القومُ عن خيُولهم، ومشى بعضُهم إلى بعض بالسيوفِ حتى كُسّرتْ جفونُها، وقام الفرْسان فى الرُّكَب، ثم اضطربوا بالسُّيوف وبعَمَدِ الحديد، فلم يَسمع السامعون إلا تغمغُم القوم، وصليلَ الحديد فى الهام، وتكادُمَ الأفواه. وكُسِفتِ الشمس، وثار القتَام، وضلّتِ الألوِية والرايات، ومرّتْ مواقيتُ أربعِ صلوات، مايُسْجَدُ فيهنّ لله إلا تكبيراً، ونادتِ المشيَخةُ فى تلك الغمَرات: يامعشرَ العرب؛ اللهَ اللهَ فى الحُرُماتِ من النّساء والبنات!

قال جابر: فبكى أبو جعفر وهو يحدّثنا بهذا الحديث.

قال نصر: وأقبل الأشترُ على فرسٍ كُمَيتٍ محذُوفٍ، وقد وَضع مِغفرَه على قرَبُوس السَّرْج، وهو ينادى: اصبِروا يامعشرَ المؤمنين، فقد حَمِىَ الوطِيسُ، ورجعتِ الشمسُ من الكسوف، واشتدّ القتال، وأخذتِ السباعُ بعضُها بعضا، فهم كما قال الشاعر(١):

مضَتْ واستَأخرَ القُرَعاءُ عنْها ... وَخلّىَ بَيْنهُمْ إلا الوَرِيعُ(٢)

قال: يقول واحدٌ لصاحبه فى تلك الحال: أىّ رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه: وأىّ نية أعظمُ من هذه ثكِلتْك أمّك وهبِلتك! إنّ رجلا كما ترَى قدسَبَح فى الدّم، وماأضجرته الحرب، وقد غلَتْ هامُ الكُماة من الحرّ، وبلغت القلوبُ الحناجر، وهو كما تراه جزِعا يقول هذه المقالة! اللّهم لا تُبقِنا بعد هذا!

قلت: لله أمّ قامت عن الأشتر! لو أنّ إنسانا يُقسِم أنّ الله تعالى ماخلق فى العرب

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب، من الأصمعية التى مطلعها:

أمِنْ رَيحانَةَ الدّاعِى السَّمِيعُ ... يُؤرِّقُنى وَأصْحابِى هُجُوعُ

وهى فى الأصمعيات ١٩٨ ـ ٢٠٢ وخزانة الأدب ٣: ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

(٢) القرعاء: جمع قريع، وهو المغلوب المهزوم. وفى الخزانة والأصمعيات: «الأوغال» جمع وغل وهو الضعيف. والوريع: الضعيف الذى لاغناء عنده.

ولا فى العجم أشجعَ منه إلا أستاذه عليه السلام لَمَا خشيتُ عليه الإثم ! ولله درّ القائل، وقد سُئِل عن الأشتر : ما أقول فى رجلٍ هزَمَتْ حياته أهلَ الشام ، وهزَم موته أهلَ العراق !

وبحقٍّ ماقال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : كان الأشترُ لى كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه[1] .

***

قال نصر : وروَى الشَّعبيّ عن صَعصعة ، قال : وقد كانَ الأشعثُ بن قيس بَدَر منه قَوْلٌ ليلةَ الهرير ، نقله النّاقلون إلى معاوية ،فاغتنمَه وبَنَى عليه تدبيرَه ؛ وذلك أنّ الأشعث خطب أصحابَه من كندة تلك الليلة ، فقال : الحمدُ لله ، أحمَدُه وأستعينه ، وأؤمِنُ به وأتوكّل عليه ،وأستنصره وأستغفره ، وأستجيرُه وأستهديه، وأستشيره وأستشهدبه؛فإنّ مَنْ هداه[2] الله فلا مضلّ له ، ومن يُضلِل الله فلا هاديَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله صلى الله عليه .

ثم قال : قد رأيتم يامعشرَ المسلمين ماقد كانَ فى يومكم هذا الماضى ، وماقد فَنِىَ فيه من العرب ؛ فوالله لقد بَلَغْتُ من السِّنّ ماشاء الله أن أبلُغَ ، فما رأيت مثلَ هذا اليوم قطّ . ألا فليبلِّغ الشاهدُ الغائب ؛ إنا نحن إن تواقَفْنا غداً ، إنه لفناء العرب وضَيْعة الحُرُمات[3] ! أما والله ما أقولُ هذه المقالة جزَعاً من الحرب ، ولكنّى رجلٌ مُسِنٌّ أخاف على النساء والذرارِىّ غداً إذا فَنِينا ، اللّهم إنّك تعلم أنّى قد نظرتُ لقومى ولأهل دينى فلم آلُ ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأىُ يُخطِىء ويُصيب،

---

(١) وقعة صفين ٥٤٧ ــ ٥٤٩ .

(٢) صفين : « من يهد الله » .

(٣) فى ب : « لفنيت العرب وضيعت الحرمات » وما أثبته عن كتاب صفين .

وإذا قضى الله أمراً أمضاه عَلَى ما أحبّ العباد أو كرهوا، أقولُ قولى هذا وأستغفر الله العظيمَ لى ولكم!

قال الشعبيّ: قال صَعْصَة: فانطلقت عيونُ معاوية إليه بخطبة الأشعث، فقال: أصابَ وربِّ الكعبة! لئنْ نحن التقينا غداً لتَميلنّ على ذَرَارِىّ أهلِ الشام ونسائهم، ولتَميلنّ فارسُ عَلَى ذَرارِىّ أهلِ العراق ونسائهم! إنّما يبصر هذا ذَوُو الأحلام والنُّهى؛ ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحفَ عَلَى أطراف القَنا.

فثار أهل الشام فى سَوَاد الليل ينادون عن قول معاوية وأمْرِه: يأهلَ العِراق، مَنْ لذرارينا إن قتلتمونا! ومَنْ لذرارِيكم إذا قتلناكم! الله اللهَ فى البقية؛ وأصبحُوا وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرّماح، وقد قلّدوها الخيل [والناس على الرايات قد اشتهوا ما دُعوا إليه][1]، ومصحفُ دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال عَلَى رءوس الرِّماح، وهم ينادون: كتاب الله بيننا وبينكم.

وأقبل أبو الأعور السُّلَمىّ على بِرْذَونٍ أبيض، وقد وَضع المصحفَ عَلَى رأسه، ينادى: يأهلَ العِراق، كتاب الله بيننا وبينكم.

قال: فجاء عدىّ بن حاتم الطائىّ، فقال: ياأميرَ المؤمنين، إنه لم يُصَبْ مِنّا عُصْبة إلا وقدْ أصيبَ منهم مثلها[2]، وكلٌّ مقروح؛ ولكنّا أمثلُ بقيةً منهم، وقد جزِع القومُ، وليس بعد الجزَع إلا ما تحبّ، فناجِزْهم[3].

وقام الأشتر، فقال: ياأميرَ المؤمنين؛ إنّ معاوية لا خَلَفَ له من رجاله؛ ولكنْ

---

(١) من كتاب صفين.

(٢) كتاب صفين: «إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق، فإنه لم يصب ...».

(٣) فى كتاب صفين: «فناجز القوم»، والمناجزة فى القتال: المبارزة والمقاتلة؛ وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه، أو يقتل أحدهما.

بحمدِ الله لك الخلف، ولو كان له مثلُ رجالك لم يكن له مثلُ صبرك ولا نصرك، فاقرعِ الحديدَ بالحديد، واستعِنْ بالله الحيد.

ثم قام عمرو بن الحِق، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّا والله ما أجبناك ولا نصرناك على الباطل، ولا أجبنا إلا الله، ولا طلبنا إلا الحقّ، ولو دعانا غيرُك إلى مادعوتنا إليه لاستشرى[1] فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحقُّ مقطعه، وليس لنا معك رأىٌ.

فقام الأشعث بن قيس مُغضباً، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنّا لك اليوم على ما كنّا عليه أمس، وليس آخرُ أمرِنا كأوّله، وما من القوم أحدٌ أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهلِ الشام منّي! فأجب القوم إلى كتاب الله عزّ وجلّ، فإنك أحقُّ بهمنهم، وقد أحبّ الناسُ البقاء، وكرهوا القتال.

فقال علىّ عليه السلام: هذا أمر يُنظر فيه.

فتنادَى الناسُ من كلّ جانب: الموادعة.

فقال علىّ عليه السلام: أيها الناسُ، إنّى أحقُّ مَنْ أجاب إلى كتاب الله، ولكنّ مُعاوية وعمرو بن العاص وابن أبي مُعيط وابن أبى سَرْح وابن مَسْلَمة ليسوا بأصحابِ دين ولا قرآن، إنّى أعرَفُ بهم منكم، صحبتُهم صغارا ورجالا، فكانوا شرَّ صِغار، وشرّ رجال. وَيْحَكم إنها كلمة حقّ يُراد بها باطل! إنّهم مارفعوها؛ أنّهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنّها الخديعة والوَهن والمكيدة! أعيرونى سواعدَكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحقُّ مقطَعه، ولم يبق إلّا أن يُقطَع دابرُ الذين ظلموا.

فجاءه من أصحابه زُهاءَ عشرين ألفا مُقنّعِين فى الحديد، شاكى السلاح، سُيُوفهم على

---

(١) استشرى: اشتد.

عواتقهم ، وقد اسودّت جباههم من السّجود ، يتقدمهم مِسْعَر بن فَدَكِيّ وزيد بن حُصين وعِصابة من القُرّاء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمْرة المؤمنين : يا علىّ ، أجبِ القوم إلى كتاب الله إذْ دُعيت إليه ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابنَ عفان ، فو الله لنفعلنّها إن لم تُجبهم !

فقال لهم : وَيحكم ! أنا أوّلُ مَنْ دعا إلى كتاب الله ، وأوّلُ مَنْ أجاب إليه ؛ وليس يحلّ لى ، ولا يَسَعُنى فى دينى أن أُدْعَى إلى كتاب الله فلا أقبَلَه ، إنى إنما قاتلتُهم ليَدِينوا بحكم القرآن ؛ فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرَهم ، ونقضُوا عهدَه ، ونبذوا كِتابه ، ولكنّى قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم ؛ وأنهم ليس العملَ بالقرآن يريدون . قالوا : فابعَث إلى الأشتر ليأتينّك ، وقد كان الأشتر صبيحةَ ليلة الهرير أشرف على عَسْكر معاوية ليدخله .

***

قال نصر : فحدثنى فُضَيل بن خَدِيج [عن رجل من النَّخَع][1] قال : سأل مصعب [2] إبراهيم بن الأشتر [2] عن الحال كيف كانت ؟ فقال : كنت عند علىّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيَه ، وقد كان الأشتر أشرَف على مُعَسْكر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه علىّ عليه السلام يزيدَ بن هانىء : أن ائتنى ، فأتاه فأبلغه[3] ، فقال الأشتر : ائته فقل له : ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تُزيلَنى عن موقفى ؛

---

(١) من كتاب صفين .
(٢ ـ ٢) ب : « سأل مصعب بن إبراهيم » ، وصوابه من ا ، ج .
(٣) كتاب صفين : « فبلغه » .

إنى قد رجوت[1] الفتح فلا تُعجلْنى . فرجع يزيد بن هانئ إلى علىّ عليه السلام فأخبره ؛ فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرّهج ، وعلت الأصوات من قِبَل الأشتر ، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخِذْلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم لعلىّ : والله ما نراك أمرته إلا بالقتال ! قال : أرأيتمونى ساررت[2] رسولى إليه ! أليس إنما كلّمته على رءوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعثْ إليه فليأتك ؛ وإلا فو الله اعتزلناك ! فقال : وَيحك يا يزيد ! قل له : أقبِلْ إلىّ ، فإن الفتنة قد وقعت . فأتاه فأخبره ، فقال الأشتر : أبرفْع[3] هذه المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : أما والله لقد ظننتُ أنها حينَ رُفِعَتْ ستُوقع خلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن النّابغة[4] ! ثم قال ليزيد بن هانئ : وَيحك ! ألا ترى إلى الفتح ! ألا ترَى إلى ما يلقوْن ! ألا ترَى إلى الذى يصنعُ الله لنا ؟ أينبغى أن ندعَ هذا وننصرف عنه ! فقال له يزيد : أتحبّ أنك ظفِرتَ ها هنا وأنّ أميرَ المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يُفرَجُ عنه ، ويُسْلَم إلى عدوّه ! قال : سُبحان الله ! لا والله لا أحبُّ ذلك ، قال : فإنهم قد قالوا له ، وحلَفوا عليه ، لَتُرْسِلَنّ إلى الأشتر فليأتِيَنّك ، أو لنقتلُنّك بأسيافنا كما قتلْنا عثمان ، أو لَنُسْلِمَنّك إلى عدوّك .

فأقبل الأشترُ حتى انتهى إليهم ، فصاحَ : يأهلَ الذلّ والوهن ، أحِينَ علَوتم القوم ، وظنّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا[5] المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سُنّةَ مَنْ أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ! أمهلونى فُوَاقا[6] فإنى

(١) كتاب صفين : « إنى قد رجوت الله أن يفتح لى » .
(٢) ب : « شاورت » ، وصوابه من ا ، ج ، وكتاب صفين .
(٣) كتاب صفين : « ألرفع » .
(٤) كتاب صفين : « يعنى عمرو بن العاص » .
(٥) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى ٦ : ٢٧ ، وفى كتاب صفين : « ورضوا » .
(٦) الفواق : ما بين الحلبتين ؛ يقال : انتظرتك فواق ناقة .

قد أحسستُ بالفتح ، قالوا : لا نمهلك ، قال : فأمهلونى عَدْوَةَ الفَرَس ؛ فإنى قد طمعتُ فى النصر ، قالوا : إذَنْ ندخلَ معك فى خطيئتك .

قال : فحدِّثونى عنكم ، وقد قُتِل أماثلُكم ، وبقِىَ أراذِلُكم ؛ متى كنتم مُحِقِّين ! أحين كنتم تقتلون أهلَ الشام ! فأنتم الآن حين أمسكتم عن قتالهم مبطلون ! أم أنتم الآن فى إمساككم عن القتال محقون ! فقتلاكم إذَن الذين لا تنكرون فضلهم ، وأنهم خيرٌ منكم فى النّار ، قالوا : دَعْنا منك يا أشتر ، قاتلناهم فى الله وندَعُ قتالهم فى الله ؛ إنّا لسنا نطيعك فاجتَنِبْنا ، فقال : خُدِعتم والله فانخدعتم ، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ؛ يا أصحاب الجباه السود ، كنّا نظنّ صلاتكم زَهادةً فى الدنيا وشوقا إلى لقاء الله ! فلا أرى فرارَكم إلا إلى الدنيا من الموت ؛ ألا قبحاً يا أشباه النِّيب[1] الجلّالة ، ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبدا ، فابعَدُوا كما بعِدَ القومُ الظالمون .

فسَبُّوه وسبّهم ، وضربُوا بسياطِهم وجهَ دابّته ، وضرب بسوطِه وجوه دوابّهم ، وصاح بهم علىّ عليه السلام ، فكفّوا . وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ، احمِل الصفّ على الصفّ تَصْرَع القوم . فتصايحوا : إنّ أمير المؤمنين قد قَبِلَ الحكومة ، ورضِىَ بحكم القرآن . فقال الأشتر : إنْ كان أمير المؤمنين قد قَبِل ورضىَ ، فقد رضيت بما رضى به أمير المؤمنين ، فأقبل الناسُ يقولون : قد رَضِىَ أميرُ المؤمنين ، قد قَبِل أميرُ المؤمنين ، وهو ساكت لا يَبِضّ[2] بكلمة ، مُطرِقٌ إلى الأرض .

ثم قام فسكت النّاس كلهم ، فقال : أيّها النّاس ، إنّ أمرى لم يزَلْ معكم على ما أحبّ إلى أن أخذَتْ منكم الحرب ، وقد والله أخذَتْ منكم وتركَتْ ، وأخذَت من عدوّكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنهَك ، ألا إنى كنتُ أمسِ أميرَ المؤمنين فأصبحت اليوم

(١) النيب . جمع ناب ؛ وهى الناقة المسنة .
(٢) لا يبض بكلمة : لا يتكلم .

مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيًا، وقد أحببتم البقاء، وليس لى أن أحملكم على ما تكرهون. ثم قعد.

قال نصر: ثم تكلّم رؤساء القبائل، فكلٌّ قال مايراه ويهواه، إمّا من الحرب أو من السِّلْم، فقام كُردوس بن هانئ البكرى فقال: أيّها الناس؛ إنّا والله ما تولّينا معاوية منذ تبرّأنا منه، ولا تبرّأنا من علىّ منذ تولّيناه، وإنّ قتلانا لشهداء، وإن أحياءنا لأبرار؛ وإنّ عليا لَعلى بيّنة من ربه، وما أحدث إلا الإنصاف، فمن سلّم له نجا، ومن خالفه هلك.

ثم قام شقيق بن ثور البكرىّ، فقال: أيها الناس، إنا دعونا أهلَ الشام إلى كتاب الله، فردوه علينا، فقاتلناهم عليه؛ وإنهم قد دعونا اليوم إليه[1]؛ فإن رَدَدْناه عليهم حلّ لهم منّا ما حلّ لنا منهم، ولسنا نخاف أن يَحيفَ اللهُ علينا ورسوله، ألا إنّ عليًّا ليس بالراجع الناكس، ولا الشاكّ الواقف؛ وهو اليوم على ما كان عليه أمس؛ وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلّا فى الموادعة[2].

* * *

قال نصر: ثم إنّ أهلَ الشام لما أبطأ عنهم عِلْمُ حالِ أهل العراق: هل أجابوا إلى الموادعة أم لا؟ جَزِعوا فقالوا: يامعاوية، مانرى أهلَ العراق أجابوا إلى مادعوناهم إليه، فأعِدْها جَذَعة[3]، فإنّك قد غَمَرْت بدعائك القوم، وأطمعتَهم فيك.

فدعا معاوية عبدَ الله بن عَمرو بن العاص، فأمَره أنْ يكلّم أهلَ العراق، ويستَعلِم له ماعندهم، فأقبل حتى إذا كان بين الصّفّين نادى: ياأهلَ العراق، أنا عبدُ الله بن

---

(١) كتاب وقعة صفين: «إلى كتاب الله».

(٢) كتاب صفين ٥٦١ – ٥٦٤، ثم ٥٠٣ – ٥٠٤، وتاريخ الطبرى ٦: ٥٧ بسنده عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه.

(٣) أعدها جذعة؛ أى ابدأ بها مرة أخرى. وفى اللسان: «وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جذعة، أى أول ما يبتدأ منها». وفى الأصول «خدعة»، والصواب ما أثبته من كتاب صفين.

عمرو بن العاص ؛ إنه قد كانت بيننا وبينكم أمورٌ للدين أو الدنيا[1] فإن تكن للدين فقد والله أعذَرْنا وأعذرتم ، وإن تكنْ للدنيا فقد والله أسْرَفْنا وأسرفتم ؛ وقد دعونا كم إلى أمرلو دعوتمونا إليه لأجبنا كم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله . فاغتنموا هذه الفُرصة ، عسى أن يعيش فيها المحترِف[2] ويُنْسَى فيها القتيل ؛ فإن بقاء المهلك بعد المالك قليل .

فأجابه سعد بن قيس الهمْدَانيّ ، فقال : أمّا بعدُ يأهل الشام ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامَيْنا فيها على الدين والدنيا ، وسمّيتُموها غَدْراً وسَرَفاً ، وقد دعوتمُونا اليوم إلى ماقاتلنا كم عليه أمس ، ولم يكن ليرجِعَ أهلُ العراق إلى عراقهم ، وأهلُ الشام إلى شامهم ، بأمرٍ أجمل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه ؛ [فالأمر في أيدينا دونكم ؛ وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم][3] .

فقام النّاس إلى على عليه السلام ، فقالوا له : [4] أجبِ القوم إلى المحاكمة ، قال : ونادى إنسان من أهل الشام فى جوف الليل بشعر سمعه الناسُ ، وهو[4] :

رُءوسَ العِرَاقِ أجيبوُا الدُّعَاء فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الشِّدَّهْ
وقَدْ أوْدَتِ الحربُ بالعَالَمِينَ وأهلِ الحفائظِ والنَّجْدَهْ
فَلَسْنَا وَلَسْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ وَلَا المُجْمِعِينَ عَلَى الرِّدَّهْ
وَلَكِنْ أُناسٌ لَقُوا مِثْلَهُمْ لَنَا عِدَّةٌ وَلَكُمْ عِدَّهْ[5]

---

(١) كتاب وقعة صفين : « للدين والدنيا » .
(٢) فى ج : « المحترق » وفى حواشيها : « المزق ، محركة : الدهش من الخوف » .
(٣) تكملة من كتاب صفين .
(٤—٤) فى كتاب صفين : « أجب القوم إلى ما دعوناك إليه ؛ فإنا قد فنينا ، ونادى إنسان من أهل الشام فى سواد الليل بشعر سمعه الناس ، وهو » .
(٥) كتاب وقعة صفين : « ولهم عده » .

[فقاتَلَ كُلٌّ عَلَى وَجْهِهِ يُقَحِّمُهُ الجِدُّ والحِدَّهْ][1]
فَإِنْ تَقْبَلُوهَا فَفِيهَا البَقَاء وَأَمْنُ الفَرِيقَيْنِ وَالبَلْدَهْ
وَإِنْ تَدْفَعُوهَا فَفِيهَا الفَنَاء وَكُلُّ بَلَاءٍ إِلَى مُدَّهْ
فَحَتَّى مَتَى مَخْضُ هَذَا السِّقَاء وَلَابُدَّ أَنْ يَخْرُجَ الزُّبْدَهْ
ثَلاثةُ رَهْطٍ هُمُ أَهْلُهَا وَإِنْ يَسْكُتُوا تَخْمُدِ الوَقْدَهْ
سَعِيدُ بنُ قَيْسٍ وَكَبْشُ العِرَاقِ وذاكَ المُسَوَّدُ مِنْ كِنْدَهْ

قال : فأمّا المسوّد من كِندة ، وهو الأشعث ؛ فإنه لم يرضَ بالسكوت ، بل كان من أعظم الناس قولاً فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة . وأما كبش العِراق ، وهو الأشتر ، فلم يكن يرى إلا الحرب ، ولكنه سكت على مَضَضٍ . وأما سعيد بن قيس ، فكان تارة هكذا وتارة هكذا[2] .

• • •

وذكر ابن ديزيل[3] الهمْدانىّ فى كتاب " صفّين " قال :

خرج عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية، فارتجز فخرج إليه جارية بن قدامة السعدىّ ، فارتجز أيضاً مجيبا له ثم اطّعنا[4] فلم يصنعا شيئا، وانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه، فقال عمرو بن العاص لعبدالرحمن : اقحُم يابن سيفِ الله، فتقدم عبدُ الرحمن بلوائه، وتقدّم أصحابه ، فأقبل علىّ عليه السلام عَلَى الأشتر ، فقال له : قد بلغَ لواء معاوية حيث

---

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) كتاب وقعة صفين : ٥٥١ ـ ٥٥٣ .
(٣) ابن ديزيل ، هو إبراهيم بن الحسين بن على بن مهران بن ديزيل الكسائى الهمذانى ، أحد كبار الحفاظ ومتكلميهم ؛ ذكره ابن حجر فى لسان الميزان (١ : ٤٩) ، وقال : « مات فى آخر يوم من شعبان سنة إحدى وثمانين ومائتين » .
(٤) اطعنا : أى تطاعنا .

ترى ، فدونك القوم . فأخذ الأشتر لواء علىّ عليه السلام ، وقال (١) :

إنّى أنا الأشترُ معروف الشَّتَرْ (٢) إنّى أنا الأفعى العِراقىُّ الذَّكَرْ

لستُ رَبِيعِيًّا ولستُ مِنْ مُضَرْ (٣) لكنّنى مِنْ مَذْحِجَ الشُّمِّ الغُرَرْ

فضارب القومَ حتى ردّهم ، فانتدب (٤) له همام بن قَبِيصة الطائىّ — وكان مع معاوية — فشدّ عليه فى مَذْحِج ، فانتصر عدىُّ بن حاتم الطائىّ للأشتر ، فحمل عليه فى طيّئٍ ، فاشتدّ القتال جِدًّا ، فدعا علىّ ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله فركِبَها ، ثم تعصّب بعمامة رسول الله ، ونادى : أيّها الناس ، مَنْ يَشرى نفسه لله ! إنّ هذا يومٌ له مابعده ، فانتدبَ معه مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفا ؛ فتقدّمهم علىّ عليه السلام ، وقال :

دُبُّوا دبيبَ النَّمْلِ لَا تَفوتُوا وأصْبِحُوا أمرَكُمُ أوْ بِيتُوا (٥)

* حَتّى تَنالُوا الثّأرَ أو تَمُوتوا *

وحمل وحمل الناسُ كلهم حَملةً واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صَفٌّ إلا أزالوه ، حتى أفضَوْا إلى معاوية ، فدعا معاوية بفرسه ليفرّ عليه .

وكان معاوية بعد ذلك يحدّث فيقول : لمّا وضعتُ رجلى فى الرّكاب ، ذكرت قول عَمرِو بنِ الإطنابة (٦) :

أبَتْ لى عِفّتِى وَأبَى بَلَائِى وَأخْذِى الحَمْدَ بالثّمنِ الرّبيحِ

---

(١) الأبيات ذكرها نصر بن مزاحم فى وقعة صفين ٤٥١ ، والمسعودى فى تاريخه ٢ : ٣٩٠ .

(٢) الشتر : انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه .

(٣) رواية المسعودى :

* لَسْتُ مِنَ الحَىِّ رَبِيعٍ أوْ مُضَرْ *

(٤) انتدب له : خف له .

(٥) فى وقعة صفين ٥٠٩ للمنقرى : « وأصبحوا بحربكم » ، وفيما يأتى من شرح النهج (٢٨٦:٢) : « وأصبحوا فى حربكم » .

(٦) الخبر والأبيات فى الكامل (٨ : ٢١٥) — بشرح المرصفى ، وأمالى القالى (١ : ٢٥٨) ، وعيون الأخبار (١ : ١٢٦) ، والإطنابة : اسم أمه ؛ وهو عمرو بن عامر من بنى الحارث بن الخزرج .

وإقْدَامِى عَلَى المــكروهِ نفسى وَضَرْبِى هَامَــةَ البَطَلِ المُشِيحِ (١)
وَقَوْلِى كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجاشَتْ : مَكَانَكِ تُحْمَدِى أَوْ تَسْتَرِيحِى (٢)

فأخرجتُ رِجلى من الرّكاب وأقمت ، ونظرت إلى عمرو فقلت له : اليومَ صَبْرٌ وغداً فَخر ، فقال : صدقت .

قال إبراهيم بن ديزيل : وروى عبدُ الله بن أبى بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ، عن معاوية ، قال : أخذتُ بمعْرَفة فرَسى ، ووضعت رِجْلِى فى الركاب للهرَب ، حتى ذكرت شعرَ ابن الإطنابة ، فعدت إلى مقعدى ، فأصبتُ خير الدُّنيا ، وإنى لَرَاجٍ أنْ أصيب خير الآخرة .

قال إبراهيم بن ديزيل : فكان ذلك يومَ الهرير ، ثم رفعت المصاحف بعده .

وروى إبراهيم ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ربيعة بن لَقيط ، قال : شَهِدْنا صِفّين ، فمطرتِ السّماء علينا دماً عبيطاً .

وقال : وفى حديث اللّيث بن سعد أنْ كانوا ليأخذونه بالصّحاف والآنية . وفى حديث ابن لهيعة : حتى إنّ الصّحاف والآنية لتمتلئُ ونُهَرِيقُها .

قال إبراهيم : وروى عبدُ الرحمن بن زياد ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عمن حدثه ممن حضر صِفّين أنهم مطروا دما عبيطا ، فتلقّاه الناس بالقِصاع والآنية ، وذلك فى يوم الهرير ، وفَزِع أهلُ الشام وهمّوا أن يتفرّقوا ، فقام عمرو بن العاص فيهم فقال : أيّها الناس ، إنما هذه آيةٌ من آيات الله ، فأصلح امرؤٌ ما بينه وبين الله ، ثمّ لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان . فأخذوا فى القتال .

---

(١) فى الكامل : «وإجشامى على المكروه نفسى» ، والمشيح : المقبل على عدوه ، المانع لما وراء ظهره .
(٢) جشأت وجاشت ، أى ارتفعت من الفزع .

قال إبراهيم : وروى أبو عبد الله المكيّ ، قال : حدّثنا سُفيان بن عاصم بن كلَيب الحارثيّ عن أبيه ، قال : أخبرنى ابنُ عباس قال : لقد حدّثنى معاوية أنّه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً له أنثى ، بعيدة البطن من الأرض ، ليهرُب عليها ؛ حتى أتاه آتٍ من أهل العراق ، فقال له : إنّى تركتُ أصحاب علىّ فى مثل ليلة الصَّدَر[1] من مِنًى ، فأقمت ، قال : فقلنا له : فأخبِرْنا مَنْ هو ذلك الرجل ؟ فأبى وقال : لا أخبرُكم مَنْ هو .

***

قال نصر وإبراهيم أيضاً : وكتب معاويةُ إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنّ هذا الأمرَ قد طال بيننا وبينك ، وكلُّ واحدٍ منّا يرى أنه على الحق فيما يطلبُ من صاحبه ، ولن يُعطِىَ واحدٌ منّا الطاعة للآخر ، وقد قُتِلَ فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقِىَ أشدّ مما مضى ؛ وإنّا سوف نُسألُ عن ذلك الموطن ، ولا يحاسَبُ [به][2] غيرى وغيرُك ، وقد دعوتُك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعُذْر ، وبَراءة وصلاح للأمّة ، وحَقْن الدماء ، وألفة للدِّين ، وذهاب للضغائن والفِتَن ، أن نحكِّمَ بينى وبينكم حكَمَيْن مَرضيّيْن ، أحدُهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خيرٌ لى ولك ، وأقطَع لهذه الفِتَن ؛ فاتق الله فيما دُعيت إليه ، وارض بحُكْم القرآن إن كنت من أهله ، والسلام .

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد ، فإنّ أفضل ما شَغَل به المرء نفسه اتّباع ما حَسّن به[3] فعلَه ، واستوجب فضلَه ، وسَلِم من عيبه[3] ،

(١) الصدر : اليوم الرابع من أيام منى .

(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقرى .

(٣-٣) وقعة صفين . « ما يحسن به فعله ، ويستوجب فضله ، ويسلم من عيبه » .

وإنّ البغىَ والزورَ يُزرِيان بالمرء فى دينه ودنياه ، فاحـذر الدنيا ، فإنّه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها ؛ ولقد علمتَ أنّك غـيرُ مدركٍ ماقضى فواته ، وقد رام قومٌ أمراً بغير الحقّ ، وتأوّلوه (١) على الله جلّ وعزّ ، فأكذبَهم ومتّعهم قليلا ، ثم اضطرهم إلى عذابٍ غليظ ، فاحذَرْ يوماً يَغتَبِط فيه مَنْ حَمِد عاقبة عمَله ، ويندَم فيه مَنْ أمكن الشيطانَ من قياده [ولم يحادّه] (٢) ، وغرّته الدنيـا واطمأنّ إليها . ثم إنّك قد دعوتَنى إلى حكم القرآن ، ولقد علمتَ أنّك لستَ من أهلِ القرآن ولا حكمَه تريد ؛ والله المستعان ، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه ، ولسْنَا إياك أجَبْنَا ؛ ومَنْ لم يرضَ بحُكم القرآن فقد ضلّ ضلالا بعيدا (٣) .

فـكتب معاوية إلى علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ عافانا الله وإيّاك ، فقد آنَ لك أن تجيب إلى مافيه صلاحُنا وألفة بيننا ، وقد فعلتُ الذى فعلتُ وأنا أعرفُ حقّى ، ولـكنى اشتريتُ بالعفو صلاحَ الأمة ، ولم أُكثِر فرحا بشىء جاء ولا ذهب ؛ وإنّما أدخلَنى فى هـذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغى والمبغىّ عليـه ، والأمر بالمعروف والنّهى عن المُنـكَر ؛ فدعوتُ إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك ؛ فإنّه لا يجمعُنا وإياك إلا هو ، نحيي ما أحيا القرآن ، ونُميت ما أمات القرآن ، والسـلام (٤) .

* * *

قال نصر : فـكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، يعظه ويُرشده .

---

(١) وقعة صفين : « فتأولوا على الله » .
(٢) تـكملة من وقعة صفين للمنقرى .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٦٥ — ٥٦٦ .
(٤) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ .

أما بعد ؛ فإنّ الدنيا مَشغلة عَنْ غيرِها ، ولن يصيبَ صاحبُها منها شيئاً إلا فتحتْ له حِرْصا يزيدُه فيها رغبة ، ولن يستغنيَ صاحبُها بما نَالَ عمّا لم يبلُغ (١) ، ومِنْ وراء ذلك فراقُ ماجَمع ، والسعيدُ مَنْ وُعظ بغيره ؛ فلا تُحْبِطْ أبا عبد الله أجْرَك ، ولا تُجَارِ معاوية في باطله ، والسلام .

فكتب إليه عمرو الجواب :

أما بعد أقول ، فالذى (٢) فيه صلاحنا وأُلفتُنا الإنابةُ إلى الحق ، وقد جعلْنا القرآن بيننا حكما ، وأجَبْنا إليه، فصبرَ الرّجلُ منّا نفسَه على ماحكم عليه القرآن ، وعَذَره النّاسُ بعد المحاجزة ، والسلام .

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ فإنّ الذى أعجبَك من الدنيا مما نازعتْك إليه نفسُك ، ووثقت به منها لَمُنقلِب عنك ، ومفارقٌ لك ؛ فلا تطمئنّ إلى الدنيا فإنّها غَرّارة ؛ ولو اعتبرتَ بما مضى لحفِظْتَ مابقى ، وانتفعْتَ منها بما وعظت به . والسلام .

فأجابه عمرو :

أما بعد ، فقد أنصفَ مَنْ جعل القرآن إماما ، ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبِرْ أبا حسن ، فإنّا غير مُنيليك إلا ما أنالك القرآن ، والسلام (٣) .

***

قال نصر : وجاء الأشعث إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أرى النّاس إلا قد رَضُوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى مادَعَوْهم إليه من حكم القرآن ؛

---

(١) وقعة صفين : « لم يبلغه » .

(٢) وقعة صفين : « فإن ما فيه صلاحنا » .

(٣) وقعة صفين المنقرى ٥٧٠ ــ ٥٧١ .

فإنْ شِئتَ أتيتُ معاوية فسألتهُ مايريد ، ونظرت ما الذى يسأل ؟ قال : فأتِهِ إن شئت ؛ فأتاه ، فسأله : يامعاوية : لأىّ شىء رفعتم هـذه المصاحف ؟ قال : لنَرْجِـع نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به فيها[1] ، فابعثوا رجلا منكم تَرْضَوْن به ، ونبعث منّا رجلا ، ونأخذ عليهما أن يَعْمَلا بما فى كتاب الله ولا يَعْدُوانه ، ثم نتّبع ما اتفقا عليه . فقال الأشعث : هذا هو الحق .

وانصرف إلى علىّ عليه السلام ، فأخبره ، فبعث علىّ عليـه السلام قُرّاء من أهل العراق ، وبعث معاوية قُرّاء من أهل الشام ، فاجتمعوا بين الصَّفَّين ، ومعهم المصحف ، فنظروا فيه وتدارسوا[2] واجتمعوا على أن يُحْيُوا ما أحيا القرآن ، ويُميتوا ما أمات القرآن ، ورجع كلُّ فريق إلى صاحبه ، فقال أهلُ الشام : إنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص ، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : قد رَضِينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعرىّ ، فقال لهم علىّ عليـه السلام : فإنّى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أولّيَه ، فقـال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعَر بن فَدَكِىّ فى عصابة من القراء : إنّا لا نرضى إلا به ، فإنه قد كان حذّرنا ماوقعنا فيه . فقال علىّ عليـه السلام : فإنه ليس لى برضًا ، وقد فارقنى وخَذّل الناس عنّى ، وهرب منى حتى أمّنتهُ بعد أشهر ، ولـكن هذا ابن عباس أولّيه ذلك . قالوا : والله مانُبالى ، أكنت أنت أو ابن عباس ! ولا نُريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر . قال علىّ عليه السلام : فإنّى أجعلُ الأشتر ، فقال الأشعث : وهل سَعّر الأرض علينا إلا الأشتر ! وهل نحن إلا فى حُـكْم الأشتر ! قال علىّ عليه السلام : وماحكمه ؟ قال : حكمُه أن يضرب بعضُنا بعضاً بالسيف حتّى يكون ما أردتَ وما أراد[3] .

* * *

(١) وقعة صفين : « فى كتابه » . (٢) صفين : « وتدارسوه » .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٢ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ ، قال : لما أرادَ الناس علياً أن يَضَع الحَكَمَيْن ، قال لهم : إنّ معاوية لم يكن لِيَضَعَ لهذا الأمر أحداً هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ؛ وإنّه لا يصلح للقرشيّ إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن العباس فارمُوه به ؛ فإن عمراً لا يَعْقِدُ عُقْدَةً إلّا حلّها عبد الله ، ولا يحلّ عُقدةً إلا عقدها ، ولا يُبرِمُ أمراً إلا نقضه ، ولا يَنْقُضُ أمراً إلا أبرمه ، فقال الأشعث : لا والله ، لا يحكم فينا مُضَرِيّان حتّى تقومَ الساعة ، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مُضَر ، فقال عليّ عليه السلام : إنّي أخافُ أن يُخدَعَ يمنيُّكم ، فإنّ عمراً ليس من الله في شيء إذا كانَ له في أمرٍ هوى . فقال الأشعث : والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدُهما من أهل اليَمن ، أحبُّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ في حكمهما وهما مُضَريّان .

قال : وذكر الشعبيّ أيضاً مثل ذلك[(١)] .

* * *

قال نصر : فقال عليّ عليه السلام : قد أبيْتُم إلّا أبا موسى ! قالوا : نعم ، قال : فاصنَعوا ما شئتم ، فبعثوا إلى أبي موسى — وهو بأرضٍ من أرض الشام يقال لها عُرْض[(٢)] قد اعتزل القتال — فأتاه مولًى له ، فقال : إنّ الناس قد اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال : وقد جعلوك حكماً ، فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر عليّ عليه السلام ، وجاء الأشتر علياً فقال : يا أميرَ المؤمنين ألِزَّني[(٣)] بعمرو بن العاص ، فوالذي لا إله غيره ، لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنّه .

---

(١) وقعة صفين للمنقري ٥٧٣ .

(٢) عرض : بلد بين تدمر ورصافة الشام .

(٣) ألزه به : ألزمه إياه .

وجاء الأحنفُ بن قيس عليا ، فقال: ياأميرَ المؤمنين ، إنّك قد رُميت بحجرَ[1] الأرض؛ ومَنْ حارَبَ الله ورسولَه أنفَ[2] الإسلام ، وإنى قد عجمتُ هـذا الرجل - يعنى أبا موسى - وحلبْتُ أشطرَه ، فوجدته كليلَ الشَّفْرة قريب القَعْر ؛ وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجلٌ يدنُو منهم حتّى يكونَ فى أكفِّهم ، ويتباعدُ منهم حتى يكونَ بمنزلة النَّجْم منهم ،[3] فإن شِئْت أن تجعلَنى حَكَمًا فاجعلنى ، وإنْ شئت أن تجعلَنى ثانياأو ثالثا[3] ،فإنّ عمراً لا يعقد عقدة إلا حلّتُها ، ولا يَحُلّ عقدة إلا عقدتُ لك أشدَّ منها .

فعرَض علىّ عليه السلام ذلك على الناس فأبوْه ، وقالوا : لا يكونُ إلا أباموسى[4] .

***

قال نصر : مال الأحنف إلى على عليه السلام ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنى خيّرتُك يومَ الجمل أن آتيك فيمنْ أطاعنى ، أو أكفّ عنك بنى سعد ، فقلت : كفَّ قومك ، فكفى بكفّك نصيرا ، فأقمتُ بأمرك، وإنّ عبد الله بن قيس[5] رجل قد حلبتُ أشطره، فوجدتُه قريبَ القعر ، كليلَ المُدْية ، وهو رجلٌ يمانٍ وقومه مع معاوية ، وقد رُميتَ بحجَر الأرض ، وبمَنْ حارب الله ورسوله ، وإنّ صاحب القوم مَنْ ينأى حتى يكونَ مع النجم ، ويدنُو حتى يكون فى أكفّهم ، فابعثنى ، فوالله لايحلُّ عنك عقدةً إلاعقدتُ لك أشدَّ منها ، فإن قلت : إنّى لست من أصحاب رسول الله ، فابعثْ رجلاً من أصحاب رسول الله ، وابعثنى معه .

---

(١) فى اللسان ٥ : ٢٣٧ : « ويقال : رمى فلان بحجر الأرض ؛ إذا رمى بداهية من الرجال ؛ وفى حديث الأحنف بن قيس : أنه قال لعلى حين سمى معاوية أحد الحكمين عمرو بن العاص : إنك قد رميت بحجر الأرض . . . » .

(٢) أنف كل شىء : أوله ؛ يقال : سار فى أنف النهار ؛ أى أوله .

(٣-٣) وقعة صفين : « فإن تجعلنى حكما فاجعلنى ، وإن أبيت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانيا أو ثالثا » .

(٤) وقعة صفين ٥٧٤ .

(٥) عبد الله بن قيس هوأبو موسى الأشعرى .

فقال علىّ عليه السلام : إنّ القومَ أتونى بعبد الله بن قيس مُبَرْنَساً ، فقالوا : ابعث هذا ، رَضينا به والله بالغ أمره[1] .

* * *

قال نصر : وروى أنّ ابن الكوّاء ، قام إلى علىّ عليه السلام ، فقال : هذا عبدالله ابن قيس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى عليه وصاحب مَقاسم أبى بكر[2] وعامل عمر ، وقد رضى به القوم ، وعرضْنا عليهم ابنَ عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ظَنُون[3] فى أمرك .

فبلغ ذلك أهلَ الشام ، فبعث أيمن بن خُرَيم الأسدىّ ، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات ، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق :

لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ رَأْىٌ يُعْصَمُونَ بِهِ … مِنَ الضَّلَالِ رَمَوْكُمْ بِابْنِ عَبَّاسِ
لِلّهِ دَرُّ أَبِيهِ أَيُّمَا رَجُلٍ … مَا مِثْلُهُ لِفِصَالِ الْخَطْبِ فِى النَّاسِ !
لَكِنْ رَمَوْكُمْ بِشَيْخٍ مِنْ ذَوِى يَمَنٍ … لَا يَهْتَدِى ضَرْبَ أَخْمَاسٍ لِأَسْدَاسِ[4]
إنْ يَخْلُ عمرو بِهِ يَقْذِفْهُ فى لُجَجٍ … يَهْوِى به النَّجْمُ تَيْسًا بين أتياسِ
أَبْلِغْ لديكَ عليًّا غيرَ عاتبِه[5] … قولَ امرئٍ لا يرى بالحقّ من بَاسِ
ما الأشعرىُّ بمأمونٍ أبا حَسَنٍ … فاعلمْ هُديتَ وليس العجزُ كالرّاسِ
فاصْدِمْ بصاحبك الأدنى زعيمَهُمُ … إنّ ابن عمّكَ عباسٍ هو الآسى

فلما بلغَ الناسَ هذا الشعر ، طارت أهواء قومٍ من أولياء علىّ عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس ، وأبتِ القرّاء إلا أبا موسى[6] .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٥ .
(٢) صاحب المقاسم : الذى يتولى أمر قسمة المغانم ونحوها .
(٣) الظنون : المتهم ، كالظنين .
(٤) وقعة صفين والمسعودى ٢ : ٤١٠ : « لم يدر ما ضرب أخماس » .
(٥) صفين : « عاتبه » .
(٦) وقعة صفين : ٥٧٥ ـ ٥٧٦ .

قال نصر : وكان أيمن بن خُرَيْم رجـلًا عابدا مجتهدا ، وقد كان معاوية جعل له فِلسطين ، على أن يُتابعه ويشايعه على قتال علىّ عليه السلام ، فقال أيمن ، وبعث بها إليه :

وَلَسْتُ مُقَاتِلاً رجلًا يُصَلِّي   على سلطانِ آخَرَ مِنْ قُرَيْشِ
له سلطانُه وَعَلَيَّ إثمِي   معاذَ الله من سفهٍ وَطَيْشِ
أأقتُلُ مُسْلِماً فِي غيْرِ جُرْمٍ   فَلَيْسَ بنافِعِي ماعِشْتُ عَيْشِي !

قال نصر : فلما رضِيَ أهلُ الشام بعمرو ، وأهل العراق بأبى موسى ، أخذوا فى سَطْرِ كتاب الموادعة ، وكانت صورته :

« هذا ما تقاضى عليه علىّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان » . فقال معاوية : بئسَ الرجلُ أنا إن أقررتُ أنه أمير المؤمنين ثمّ قاتلتُه ! وقال عمرو : بل نكتُب اسمه واسم أبيه ؟ إنما هو أميرُكم ، فأما أميرُنا فلا . فلما أعيد إليه الكتابُ أمرَ بمحوِه ، فقال الأحنف : لا تمحُ اسمَ أمير المؤمنين عنك ؛ فإنى أتخوّفُ إن محوتَها ألّا ترجع إليك أبدا ، فلا تمحُها . فقال علىّ عليه السلام : إنّ هذا اليوم كيوم الحُدَيْبِيَة حين كتب الكتّاب عن رسول الله صلى الله عليه : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو ، فقال سُهَيْل : لو أعلم أنّك رسول الله لم أقاتِلْك ، ولم أخالِفْك ، إنى إذاً لظالم لك إن منعتُك أن تطوفَ ببيت الله الحرام وأنت رسوله ؛ ولكن اكتب : « من محمد بن عبد الله » ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه : « يا علىّ ، إنى لرسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، ولن يمحوَ عنّى الرسالة كتابى لهم من محمد بن عبد الله ، فاكتبها وامحُ ما أراد محوه ، أمّا إنّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهَد » .

قال نصر : وقد رُوِى أنّ عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى علىّ عليه السلام ، فطلب منه أن يمحوَ اسمَه من إمْرَةِ المؤمنين فقصّ عليه وعلى مَنْ حضر قِصّةَ صلح الحُدَيْبِيَة ،

قال : إنّ ذلك الكتاب أنا كتبتهُ بيننا وبين المشركين ، واليوم أكتبُه إلى أبنائهم ، كما كان رسول الله صلى الله عليه كتبه إلى آبائهم شِبْها[١] ومِثْلا ، فقال عمرو : سبحان الله ! أتشبِّهنا[٢] بالكفار ، ونحن مسلمون ! فقال عليّ عليه السلام : يابن النابغة ، ومتى لم تكنْ للكافرين وليًّا وللمسلمين عدوًّا ! فقام عمرو ، وقال : والله لا يجمع بيني وبينك مجلسٌ بعد اليوم . فقال عليّ : أمَا والله إنى لأرجو أن يُظهر الله عليك وعلى أصحابك .

وجاءت عِصابة قد وضعتْ سيوفها على عواتقها ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، مُرْنا بما شئتَ ، فقال لهم سهل بن حُنَيف : أيها الناس ، اتَّهموا رأيكم ، فلقد شَهِدْنا صُلْحَ رسول الله صلى الله عليه يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا[٣] .

وزاد إبراهيم بن ديزيل: لقد رأيتُنى يومَ أبى جَنْدَل ــ يعنى الحديبية ــ ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه لرددته ، ثم لم نَرَ فى ذلك الصلح إلا خيرا .

قال نصر : وقد روى أبو إسحاق الشيبانيّ ، قال : قرأتُ كتاب الصلح عند سعيد ابن أبى بُردة فى صحيفة صفراء ، عليها خاتمان : خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها ، على خاتم عليّ عليه السلام : « محمد رسول الله » ، وعلى خاتم معاوية « محمد رسول الله » . وقيل لعليّ عليه السلام ، حين أراد أن يكتب الكتابُ بينه وبين معاوية وأهل الشام : أتُقِرّ أنهم مؤمنون مسلمون ! فقال عليّ عليه السلام : ماأقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ؛ ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ، ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه ، ويسمّى نفسَه بما شاء وأصحابه ، فكتبوا :

هذا ماتقاضَى عليه عليّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى عليّ بن أبى طالب

---

(١) وقعة صفين : « سنة ومثلا » .
(٢) صفين : « شبهتنا بالكفار ونحن مؤمنون » !
(٣) كتاب صفين ٥٨٢ ــ ٥٨٣ .

على أهل العراق ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، إننا ننزل عند حُكم الله تعالى وكتابه ، ولا يجمع بيننا إلا إياه . وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن ، فإن وَجَد الحكمان ذلك فى كتاب الله اتبعاه ، وإن لم يجداه أخذا بالسنّة العادلة غير المفرقة . والحكمان : عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد أخذ الحكمان مِنْ علىّ ومعاوية ومن الجندين أنهما آمنانِ على أنفسهما وأموالهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار ؛ وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عَهْدُ الله أن يعملوا بما يقضيان عليه ؛ مما وافق الكتاب والسُّنّة ، وإن الأمْن والموادعة ووضع السلاح متّفق عليه بين الطائفتين ؛ إلى أن يقع الحكم ، وعلى كلٍّ واحد من الحكمين عَهْدُ الله ، ليَحكُمَنَّ بين الأمة بالحق ، لا بالهوى . وأجَلُ الموادعة سنة كاملة ؛ فإن أحبّ الحكمان أن يعجّلا الحكم عجّلاه ، وإن توُفّىَ أحدُهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً ؛ لا يألو الحقّ والعدل ، وإن تُوُفّىَ أحدُ الأميرين كان نَصْبُ غيره إلى أصحابه ممن يرضَوْن أمره ، ويحمَدُون طريقته . اللهم إنّا نستنصرُك على مَنْ ترك ما فى هذه الصحيفة ، وأراد فيها إلحاداً وظلماً .

قال نصر : هذه رواية محمد بن علىّ بن الحسين والشعبيّ ، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة :

هذا ماتقاضَى عليه ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتُهما فيما تراضيا به من الحُكم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ قضيّة علىّ على أهل العراق ومَنْ كان مِنْ شيعته مِنْ شاهد أو غائب ، وقضيّة معاوية على أهل الشام ومَنْ كان من شيعته مِن شاهد أو غائب ؛ إننا رضينا أن ننزل عند حُكم القرآن فيما حكَم ، وأن نَقِفَ عند أمره فيما أمَرَ ؛ فإنه لايجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلنا كتاب الله سبحانه حَكَمًا بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى

خاتمته ، نحيي ماأحيـا القرآن ، ونميت ماأماته ؛ على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإن عليا وشيعته رضُوا أن يبعثُوا عبدَ الله بن قيس ناظرا ومُحاكما ؛ ورضِيَ معاويةُ وشيعتهأن يبعثوا عمرو بن العاص ناظرا ومحاكما ؛ على أنهم أخذُوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ماأخذ الله على أحد مِن خَلْقه لَيَتّخِذانِ الـكتاب إماما فيما بعثا إليه ، لايعدُوَانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطورا ، ومالم يجداه مسمًّى في الـكتاب ردَّاه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه الجامعة ، لايتعمدان لها خلافا ، ولا يتّبعان هوى ، ولا يدخلان في شبهة ؛ وقد أخذ عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهدَ الله وميثاقه بالرِّضا بما حكما به من كتاب الله وسنّة نبيه ، وليس لهما أن ينقضَا ذلك ولايخالفاه إلى غيره ؛ وأنهما آمنان في حُـكْمهما على دمائهما وأموالهما وأهلها ، مالم يعدُوَا الحق ؛ رضى بذلك راضٍ أوأنـكره مُنْـكِر . وإنّ الأمة أنصارٌ لهما على ماقضَيَا به من العَدْل ، فإن تُوفِّي أحدُ الحـكمين قبل انقضاء الحـكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجـلا ، لايألون عن أهل المَعْدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهـد والميثاق والحـكْم بكتاب الله وسنة رسوله، وله مِثلُ شرط صاحبه ، وإن مات أحـد الأميرَيْن قبل القضاء ، فلشيعته أن يولُّوا مكانه رجلاً يرضون عَدْله . وقد وقعت هذه القضيّة ، ومعها الأمن والتفاوض ، ووضع السلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحـكَمَيْن عهد الله وميثاقه ألّا يألوَا اجتهادا ، ولا يتعمَّدا جَوْراً ، ولايدخلا في شبهة ، ولا يعدوَا حُـكْم الـكتاب ، فإن لم يفعلا برئت الأمة من حُـكْمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة ، وقد وجبت القضيّة على ماقد سُمِّيَ في هـذا الكتاب من مَواقع الشروط على الحـكمين والأميرين والفريقين ، والله أقرب شهيدا ،وأدنى حفيظا . والناس آمنُون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مـدّة الأجل ، والسلاحُ موضوع ، والسُّبل مخلّاة ، والشاهـد والغائب من الفريقين سواء في الأمن ، وللحكَمين أن ينزلا منزلاً عَدْلا بين أهل العراق والشام ، لايحضرهما فيه إلا مَنْ أحبّا عن ملإ منهما وتراضٍ ،

وإنّ المسلمين قد أجّلوا هـذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان ، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وُجِّهاله عجّلاها ، وإن أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما ، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول فى الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهُمْ يَدٌ على مَنْ أراد فيه إلحادا وظُلْمًا ؛ أو حاول له نَقْضاً . وشهد فيه من أصحاب علىّ عشرة ، ومن أصحاب معاوية عشرة ؛ وتاريخ كتابته لليلة بَقِيَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين[١] .

* * *

قال نصر : وحـدثنا عَمرو بن سعيد ، قال : حـدّثنى أبو جَناب ، عن ربيعة الجَرْمىّ ، قال : لما كتبت الصحيفة دُعِىَ لها الأشتر ، ليشهدَ مع الشهود عليه ، فقال: لاصحبتْنى يمينى ولا نفعنى بعدَها الشمال إن كُتِب لى فى هـذه الصحيفـة اسم على صُلْح أو موادعة ، أوَلَسْتُ على بيّنة من أمرى ويقين من ضلالة عَدوّى ! أو لستُمْ قد رأيتم الظّفر إن لم تُجمِعوا على الخَور ! فقـال له رجل [من الناس][٢] : والله ما رأيتُ ظَفَراً ولا خَوَراً ، هلمّ فأشهِدْ على نفسِك ، وأقرِرْ بما كُتِب فى هذه الصحيفة ، فإنّه لارغبة لك عن النـاس . فقال : بلى والله ، إنّ لى لرغبـةً عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة ؛ ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت عندى بخير منهم ، ولا أحرمَ دما .

قال نصر بن مزاحم : الرجلُ هو الأشعث بن قيس ؛ قال : فـكأنما قُصِع[٣] على أنه الجيم ثم قال : ولـكنّى قد رضيتُ بما يرضي به أمير المؤمنين ؛ ودخلتُ فيما دخلَ فيه ، وخرجتُ مما خرجَ منه ، فإنه لايدخلُ إلا فى الهدى والصواب .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٨ ـ ٥٨٦ .

(٢) من صفين .

(٣) القصع : الهلك والضرب . وفى صفين : « الحم » .

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد عن أبي جناب الكلبي عن إسماعيل بن شفيع (١) عن سفيان بن سلمة (٢) ، قال : فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود ، وتراضى الناس خرج الأشعث ، ومعه ناس بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس، ويعرِضُها عليهم ، فمرّ به على صفوف من أهل الشام ، وهم على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضُوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق ، وهُمْ على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضوا به ، حتى مرّ برايات عَنَزة ، وكان مع علىّ عليه السلام من عَنَزة بصفّين أربعة آلاف مجفّف (٣) ، فلما مرّ بهم الأشعث يقرؤه عليهم ، قال فتيان منهم: لاحكم إلا لله ، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما، فقاتلا حتى قتلا على باب رِواق معاوية — فهما أولُ مَنْ حكّم . واسماهما جَعْد ومَعْدان — ثم مرّ بهما على مُراد ، فقال صالح بن شقيق ، وكان من رءوسهم :

ما لعلىٍّ فى الدِّماء قَدْ حَكَمْ ... لو قاتل الأحزابَ يَوْماً ما ظَلَمْ

لا حكم إلا لله ، ولو كره المشركون . ثم مرّ على رايات بنى راسب ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْم إلا لله ، لا نرضى ولا نُحكِّم الرجال فى دين الله . ثم مر على رايات تميم ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لاحُكْم إلا لله ، يقضى بالحق وهو خير الفاصلين . فقال رجل منهم لآخر : أمّا هذا فقد طعن طعنةً نافذة . وخرج عروة بن أُدَيَّة، أخو مرداس بن أديّة التميمىّ ، فقال : أتحكّمون الرجال فى أمر الله لا حُكْم إلا لله! فأين قتلانا يا أشعث ! ثم شدّ بسيفه ليضرب به الأشعث ، فأخطأه ، وضرب عَجُز دابته ضربة خفيفة ؛ فصاح به الناس : أن املك (٤) يدك ، فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه ، فمشى الأحنف إليه ومَعْقل بن قيس ومسْعَر بن فَدَكِىّ ، ورجال من بنى تميم ، فتنصّلوا واعتذروا ، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّى

(١) كتاب صفين . « حميم » بالتصغير .
(٢) كتاب صفين : « عن شقيق به سلمة » .
(٣) المجفف : لابس التجفاف ، وأصله ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة .
(٤) صفين : « أن أمسك » .

عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام ، وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : رضينا ، حتى مَرَرْتُ برايات بنى راسب ، ونَبْذٍ[1] من الناس سوامٍ ، فقالوا : لا نرضى ، لا حُكْمَ إلا لله فَنِلْ[2] بأهل العراق وأهل الشام عليهم حتى نقتلهم . فقال علىّ عليه السلام : هل هى غيرُ رايةٍ أو رايتين ونَبْذٍ من الناس ؟ قال : لا ، قال : فدعْهم .

قال نصر : فظَنّ على عليه السلام أنهم قليلون لا يُعبأ بهم ، فما راعهُ إلا نداء الناس من كلّ جهة ومن كلّ ناحية : لا حُكم إلا لله ! الحكم لله يا علىّ لا لك ! لا نَرْضَى بأن يُحَكِّمَ الرجالُ فى دين الله . إن الله قد أمضى حُكْمَه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حُكْمنا عليهم[3] ، وقد كنّا زَلَلْنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين ، وقد بان لنا زَلَلُنا وخَطَؤنا فرجعنا إلى الله وتُبْنا ، فارجع أنت يا علىّ كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تُبْنا ، وإلا بَرِئْنا منك . فقال علىّ عليه السلام : ويحكم ! أبعدَ الرّضا والميثاق والعهد نرجع ! أليس الله تعالى قد قال : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[4] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾[5] ! فأبى علىٌّ أن يرجع ، وأبت الخوارجُ إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من علىّ عليه السلام وبَرِئ علىّ عليه السلام منهم[6] .

قال نصر : وقام إلى علىّ عليه السلام محمد بن جريش[7] فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ! فوالله إنى لأخاف أن يُورِثَ ذلاً ، فقال علىٌّ عليه

(١) نبذ من الناس ، أى عدد قليل منهم .
(٢) صفين : « فلنحمل » .
(٣) صفين : « أو يدخلوا فى حكمنا عليهم » .
(٤) سورة المائدة ١ .
(٥) سورة النحل ٩١ .
(٦) وقعة صفين ٥٨٩ — ٥٩٠ .
(٧) كتاب صفين : « محرز بن جريش » ؛ وقال : « وكان محرز يدعى مخضخضا ، وذلك أنه أخذ عنزة بصفين ؛ وأخذ معه إداوة من ماء ؛ فإذا وجد رجلا من أصحاب على جريحا سقاه من اللبن ، وإذا وجد رجلا من أصحاب معاوية خضخضه بالعنزة حتى يقتله » .

السلام : أبعد أن كتبناه نقضه ! إنّ هذا لا يَحِلّ (١) .

***

قال نصر ؛ وحدّثنى عمر بن نمير بن وعلة ، عن أبى الودّاك ، قال : لما تداعى النّاس إلى المصاحف ، وكُتِبَتْ صحيفةُ الصلح والتحكيم ، قال علىّ عليه السلام : إنما فعلتُ مافعلتُ لِمَا بدَا فيكم من الخوَر والفشَل عن الحرب (٢) ؛ فجاءت إليه همْدان كأنها ركن حَصِير (٣) فيهم سعيد بن قيس وابنهُ عبد الرحمن ؛ غلام له ذؤابة فقال سعيد : هأنذا وقومى،لا نردّ أمرَك (٤)فقلْ ماشئتَ نعمله ؛ فقال:أمَا لو كان هذا قبل سَطْر الصحيفة (٥) لأزلتُهم عن عسكرهم ، أو تنفردَ سالِفَتى (٦)[قبل ذلك] (٧)،ولكن انصرفوا راشدين ، فلعمرى ما كنت لأعرِّض قبيلة واحدة للناس (٨) .

***

قال نصر : وروى الشعبى أنّ عليًّا عليه السلام ، قال يوم صِفِّين حين أقرّ الناس بالصلح: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا لِيُنيبوا إلى الحقّ،ولا لِيُجيبوا (٩) إلى كلمة سواء حتى يُرْمَوا بالمناسر (١٠) تتبعها العساكر ؛ وحتى يُرْجَمُوا بالكتائب تَقْفُوها الجلائب (١١)،

(١) كتاب صفين ٥٩٦ .

(٢) صفين : « لما بدا فيكم الخور والفشل ـ هما الضعف » .

(٣) وفى صفين : « فجمع سعيد بن قيس قومه ، ثم جاء فى رجراجة من همدان كأنها ركن حصير يعنى جبلا باليمن » .

(٤) صفين . « لا نرادك ولا نرد عليك » .

(٥) صفين : « أما لو كان هذا قبل رفع المصاحف » .

(٦) السالفة : صفحة العنق ؛ وفى حديث الحديبية : « لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى » ، قال فى اللسان : كنى بانفرادها عن الموت ؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت .

(٧) من كتاب صفين .

(٨) كتاب صفين ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٩) صفين : « ليفيئوا » .

(١٠) المناسر : جمع منسر ، بكسر الميم ؛ وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(١١) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش .

وحتى يجرّ ببلادهم الخميسُ يتلوه الخميس[1] ؛ وحتى يدعوا الخيولَ فى نواحى أرضهم ، وبأحناء مساربهم ومسارحهم ؛ وحتى تشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ ؛ وحتى يلقاهم قومٌ صُدُقٌ صُبُرٌ ، لا يزيدُهم هلاكُ مَنْ هَلَكَ مِن قتلاهم وموتاهم فى سبيل الله إلا جدّا فى طاعة الله ، وحرْصاً على لقاء الله ؛ ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأخوالنا وأعمامنا ، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليما ، ومُضِيًّا على أمَضّ الألم ، وجِدًّا على جهاد العدوّ ، والاستقلال بمبارزة الأقران ، ولقد كان الرّجلُ مِنّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تَصَاول الفحْلين ، يتخالسان أنفسهما أيّهما يسقِى صاحبَه كأس المنون ، فمرة لنا من عدوّنا ، ومرة لعدوّنا مِنّا ، فلما رآنا الله صُدُقًا صُبراً أنزل بعدوّنا الكَبْت ، وأنزلَ علينا النّصر ؛ ولعمرى لو كنّا نأتى مثل الّذى أتيتم ماقام الدّين ولا عزّ الإسلام[2] ، [وايمُ اللهِ لتحلبُنّها دماً ، فاحفظوا ما أقول لكم][3] .

***

وروى نصر عن عمرو بن شمِر ، عن فضيل بن خَدِيج ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام لمّا كُتِبت الصحيفة : إنّ الأشتر لم يرضَ بما فى الصحيفة ، ولا يرى إلا قتالَ القوم؛ فقال علىّ عليه السلام : بَلَى إنّ الأشتر ليَرْضَى إذا رضيتُ ، وقدرضيتُ ورضيتم ،ولا يصلحُ الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديلُ بعد الإقرار ؛ إلا أنْ يُعصَى الله أو يتعدّى مافى كتابه. وأمّا الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه ، فليس من أولئك ولا أعرفه[4] على ذلك، وليت فيكم مثلَه اثنين ، بل ليت فيكم مثلَه واحدا ، يرى فى عدوّى مثل رأيه، إذًا لخَفّت مؤنتكم علىّ ، ورجوت أن يستقيم لى بعض أَوَدِكم[5] .

***

---

(١) الخميس : الجيش الجرار ؛ سمى بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق .
(٢) كتاب صفين ٥٩٧ ، ٥٩٨ .
(٣) تكملة من كتاب صفين .
(٤) كتاب صفين : « وليس أعرفه » .
(٥) كتاب صفين ٥٩٨ .

قال نصر : وروى أبو عبد الله زيد الأَوْدِيّ أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أوس ، قاتل مع علىّ عليه السلام يوم صفّين ، فأسَرَه معاويةُ فى أسْرَى كثيرة ، فقال له عمرو بن العاص : اقتُلْهم ، فقال له عمرو بن أوس : لا تقتلنى يامعاوية ، فإنك خالى ، فقامت إليه بنو أَوْد[(١)] فاستوهبوه ، فقال : دَعُوه ، فلعمرى إن كان صادقاً فيما ادّعاه من خئولتى إياه ليستغنِيَنّ عن شفاعتكم ؛ وإلّا فشفاعتكم من ورائه ؛ ثم استدناه ، فقال : من أين أنا خالُك ؟ فوالله مابين بنى عبدشمس وبين أَوْد من مُصاهرة ! قال : فإن أخبرتُك فعرفتَ فهو أمانٌ عندك ؟ قال : نعم ، قال : أليست أمّ حبيبة[(٢)] أختك أمّ المؤمنين ؟ فأنا ابنها وأنت أخوها ، فأنت إذاً خالِى . فقال معاوية : لله أبوه ! أما كان فى هؤلاء الأسْرَى مَنْ يَفطِن إلى هذا غيره ! ثم خلّى سبيله[(٣)] .

* * *

وروى إبراهيم بن الحسين بن علىّ الكسائىّ المعروف بابن ديزيل الهَمْدانىّ ؛ فى «كتاب صفين» ، قال : حدّثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدّثنا عمرو بن محمد ، قال : دعا معاويةُ بن أبى سُفيان عمرو بن العاص ، ليبعثَه حكَمًا ، فجاء وهو متحزّم ، عليه ثيابه وسيفه ، وحوله أخوه وناس من قريش ، فقال له معاوية : ياعمرو ؛ إنّ أهلَ الكوفة أكرهُوا عليًّا على أبى موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضُمّ إليك رجل طويل اللسان ، كليل المُدْية ، وله بعدُ حَظّ من دِين ؛ فإذا قال فدَعْه يقلْ ، ثم قلْ فأوجز ، واقطع المفصِل ، ولا تَلْقه بكلّ رأيك ، واعلم أنّ خَبْء[(٤)] الرأى زيادة فى العقل ، فإنْ خوّفك بأهلِ العراق فخوّفه بأهل الشام ، وإن خوّفك بعلىّ فخوّفه بمعاوية ، وإن

(١) أود : بطن فى قيس عيلان .

(٢) أم حبيبة ؛ هى رملة بنت أبى سفيان .

(٣) كتاب صفين ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

(٤) الخبء : ماخبىء وغاب من الشىء ، وفى ج : « خبىء » وهما سواء .

خوّفك بمصر نخوّفه باليمن ، وإن أتاكَ بالتفصيل فأْتِه بالجمل . فقال له عمرو : يامعاوية ، أنت وعلىّ رجُلا قريش ، ولم تنل في حربك مارجوت ، ولم تأمن ماخفت ، ذكرتَ أنّ لعبد الله دِيناً ، وصاحبُ الدين منصور ، وايمُ الله لأُفنِيَنّ [عليه][1] عِلّه ، ولأستخرجنّ خَبْأه[2] ، ولكن إذا جاءنى بالإيمان والهجرة ومناقب علىّ ، ماعسيتُ أن أقول ! قال : قل ماترى ، فقال عمرو : وهل تدَعُنى وما أرى ! وخرج مُغضَباً كأنه كره أن يُوصَى ثقةً بنفسه ؛ وقال لأصحابه حين خرج : إنما أراد معاوية أن يصغّر أمرَ أبى موسى ، لأنه علم أنى خادعه غدا ، فأحبّ أن يقول : إن عمْراً لم يخدَعْ أريباً ، فقد كدتُه بالخلاف عليه .

وقال فى ذلك :

يُشجِّعُنى معاويةُ بن حربٍ ... كأنّى للحوادثِ مستكينُ
وإنّى عَنْ معاويةٍ غنىّ ... بحمدِ اللهِ واللهُ المعينُ
وهوّن أمرَ عبدِ الله عمداً ... وقال له على ما كان دينُ
فقلتُ له ولم أردُدْ عليه ... مقالتَهُ ولشّاً كى أزينُ
ترى أهلَ العراق يذبّ عنهمْ ... وعَنْ جيرانِهِم رجُلٌ مَهِينٌ !
فلوْ جهِلوه لم يجهَل علىٌّ ... وغثّ القولِ يحمِلُه السَّمِينُ
ولكن خطبه فيهم عظيمٌ ... وفضْلُ المرءِ فيهمْ مُسْتَبِينُ
فإنْ أظفرْ فلم أظفرْ بوَغْدٍ ... وإنْ يَظفرْ فقدقُطِعَ الوَتِينُ

فلما بلغ معاوية شعره ، غضب من ذلك وقال : لولا مسيره لكان لى فيه رأى ! فقال له عبدالرحمن بن أمّ الحكم : أما والله إنّ أمثاله فى قريش لكثير ؛ ولكنك ألزمت نفسك الحاجة إليه ، فألزمها الغَناء عنه ، فقال له معاوية : فأجبه عن شعره ، فقال عبدالرحمن يعيّره بفراره من علىّ يوم صِفّين :

---

(١) تكملة من ج.   (٢) ج : « خبيئة » .

ألا ياعمرو عمرو قبيلِ سَهْمٍ أمِنْ طِبٍّ أصابَكَ ذا الجُنون!
دعِ البغيَ الذى أصبحتَ فِيـه فإنّ البَغْيَ صَاحِبَه لَعِينُ
ألم تَهْرُبْ بنفسِك من علىٍّ بصفِّينٍ وأنت بِهَا ضَنِينُ
حِـذَاراً أنْ تلاقِيَكَ المنـايا وكلّ فتًى سيُـدرِكه المَنـونُ
وَلَسْنـا عَائبين عليك إلّا لقولك إنّنى لا أستَـكِينُ

***

قال نصر: ثم إنّ الناس أقبلوا على قتلاهم فدفنوهم، قال: وقد كان عمر بن الخطاب دعا فى خلافته حابس بن سعد الطائىّ، فقال له: إنّى أريدُ أنْ أولّيَك قضاء حِمْص، فكيف أنت صانع؟ قال: أجتهدُ رأيى وأستشير جلسائى، قال: فانطلقْ إليها. فلم يمش[1] إلا يسيرا حتى رجع، فقال: ياأميرَ المؤمنين، إنّى رأيتُ رؤيا أحببتُ أنْ أقصّها عليك، قال: هاتِها، قال: رأيتُ كأنّ الشمس أقبلتْ من المشرق، ومعها جَمْع عظيم، وكأنّ القمر قد أقبل من المغرب ومعه جَمْع عظيم، فقال له عمر: مع أيِّهما كنت؟ قال: كنتُ مع القمر، قال: كنتَ مع الآية الممحوّة، اذهب فلا والله لا تلِى لى عملا، وردّه. فشهد مع معاوية صِفّين، وكانتْ رايةُ طيِّئٍ معه، فقتِل يومئذ، فمرّ به عدىّ بن حاتم، ومعه ابنه زيد، فرآه قتيلا، فقال له: ياأبتِ[2] هذا والله خالى، قال: نعم، لعنَ الله خالك! فبئس والله المَصرع مصرعه! فوقف زيدٌ وقال: مَنْ قتل هذا الرجل؟ مرارا، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل، طُوالٌ يخضِب، فقال: أنا قتلتُه، فقال له: كيف صنعتَ به؟ فجعل يخبره، فطعنه زيد بالرمح فقتله، وذلك بعد أن وضعت الحربُ أوزارها؛ فحمل عليه عدىّ أبوه يسبّه ويشتِم[3] أمّه، ويقول: يابنَ المائقة، لستُ على دين محمد إن لم أدفعك إليهم، فضرب

---

(١) صفين: «فلم يمض»
(٢) صفين: «ياأبه».
(٣) صفين «ويسب أمه».

زيد فرسَه فلحِق بمعاوية ، فأكرمه وحمله وأدنى مجلسَه ، فرفع عدىٌّ يديه فدعا عليه ، وقال : اللهمّ إنّ زيداً قد فارق المسلمين ، ولحِق بالملحدين (١) ، اللهم فارمِه بسهم من سهامك لا يُشوِى (٢) — [أو قال لايخطىء — فإنّ رَمْيَتَك لا تُنمِى] (٣) ، والله لا أكلّمه من رأسى كلمة أبدا ، ولا يُظِلّني وإياه سقف أبدا . وقال زيد فى قتل البكرىّ :

مَنْ مبلغٌ أبناء طَيِّ بأنّنى ... ثأرتُ بخالى ثُمّ لم أتأثّمِ

تركتُ أخا بكرٍ ينوء بصدْرِهِ ... بصِفّينَ مخضوبَ الجبين من الدّم (٤)

وَذَكّرَنى ثأرِى غَداةَ رأيتُه ... فأوجَرتُه رُمحِى فخَرّ على الفَمِ

لقد غادرَتْ أرماحُ بكرِ بن وائلٍ ... قتيلا عن الأهوال ليس بمُحْجِمِ

قتيلاً يظلّ الحيُّ يُثنون بعدَهُ ... عليه بأيدٍ مِنْ نداه وأنعُمِ

لَقَدْ فُجِعَتْ طيٌّ بحِلْمٍ ونائلٍ ... وصاحبِ غاراتٍ ونَهْبٍ مُقَسّمِ

لقدْ كانَ خالِى ليسَ خالٌ كمثلِه ... دِفاعاً لِضَيْمٍ واحتمالا لمغرَمِ (٥)

* * *

قال نصر : وروَى الشَّعبىّ ، عن زياد بن النَّضْر أنّ عليًّا عليه السلام بعث أربعمائة ، عليهم شُرَيح بن هانئ الحارثىّ ، ومعه عبدالله بن عباس يصلّى بهم ، [وَيَلِي أمورَهم] (٦) ، ومعهم أبو موسى الأشعرىّ ، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة (٧) ، ثم إنهم

(١) صفين : « المحلين »

(٢) أشوى : رمى فأصاب الشوى — وهى الأطراف — ولم يصب المقتل .

(٣) تكملة من كتاب صفين . ويقال : أنمى الصيد ، إذا رماه فأصابه ، ثم ذهب عنه فمات

(٤) صفين . « مخضوب الجيوب »

(٥) صفين ٥٩٩ — ٦٠٠ ، والمغرم : الدية .

(٦) من كتاب صفين .

(٧) فى كتاب صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فكان إذا كتب على بشىء أتاه أهل الكوفة فقالوا : ما الذى كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ فيكتمهم ، فيقولون له : كتمتنا ما كتب به إليك ! إنما كتب فى كذا وكذا . ثم يجىء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يدرى فى أى شىء جاء ، ولا فى أى شىء ذهب ، ولا يسمعون حول صاحبهم لغطا ، فأنب ابن عباس أهل الكوفة بذلك وقال : إذا جاء رسول قلتم بأى شىء جاء ؟ فإن كتمتكم قلتم : لم تكتمنا؟ جاء بكذا وكذا ، فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا ، فليس لكم سر ! » .

خلَوْا بين الحكَمين، فكان رأىُ عبدالله بن قيس [أبو موسى [١]] فى عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وكان يقول : والله إن استطعت لأُحْيِيَنَّ سنة عمر [٢] .

* * *

قال نصر : وفى حديث محمد بن عبيدالله ؛ عن الجرجانىّ قال: لما أراد أبو موسى المسيرَ قام إليه شُرَيْح بن هانئ ، فأخذ بيده ، وقال : يا أبا مُوسى ، إنك قد نُصِبْتَ لأمرٍ عظيم لا يُجْبَرُ صَدْعُه ، ولا تُستقالُ فتنتُه [٣]، ومهما تقُلْ من شىء عليك أو لكَ ، يَثْبتْ حقه وتُرَ صحتُه وإنْ كان باطلا ، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشامِ إن ملكهم علىّ ، وقد كانت منك تَثْبيطة أيامَ الكوفة والجمل، فإن تشفعها بمثلها يكن الظنُّ بك يقينا ، والرجاء منك يأسا ، ثم قال له شريح فى ذلك :

أبا مُوسَى رُميتَ بِشَرِّ خَصْمٍ ... فلا تُضِعِ العِراقَ فدتك نَفْسِى

وأعطِ الحقّ شامَهُمُ وخُذْهُ ... فإنّ اليوم فى مَهَلٍ كأمْسِ

وإنّ غداً يجىء بما عليهِ ... كذاك الدهر من سَعْدٍ ونَحْسِ [٤]

ولا يخدعْك عمرٌو إنّ عمراً ... عدُوّ الله مَطْلَعَ كلّ شمسِ

لهُ خُدَعٌ يحَارُ العقل منها ... مُمَوّهةٌ مُزَخْرَفَةٌ بلَبْسِ

فلا تجْعلْ مُعاويةَ بن حَرْبٍ ... كشَيْخ فى الحوادثِ غَيْرِ نِكْسِ

هداه الله للإسلام فرْداً ... سوى عِرسِ النَّبىّ، وأىّ عِرْسِ! [٥]

فقال أبو موسى : ما ينبغى لقومٍ اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا ، أو أجرَّ إليهم حقا .

* * *

(١) من كتاب صفين .

(٢) كتاب صفين : ٦١٤

(٣) كتاب صفين : « ولا يستقال فتنته » .

(٤) فى صفين : « يدور الأمر » .

(٥) كتاب صفين . « سوى بنت النبى » .

وروى المدائنيّ (١) في "كتاب صِفِّين"، قال : لما أجمعَ أهلُ العراق على طلب أبي موسى، وأحضروه للتحكيم على كُرْهٍ من عليّ عليه السلام، أتاه عبدُ الله بن العباس، وعنده وجوهُ النّاس وأشرافهم، فقال له : يا أبا موسى، إنّ الناس لم يرضَوْا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضلٍ لا تشارَكُ فيه، وما أكثرَ أشباهَك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك؛ ولكنَّ أهلَ العراق أبوْا إلّا أن يكون الحكَم يمانيا، ورأوْا أنّ (٢) معظمَ أهلِ الشام يمانٍ، وايمُ الله، إني لأظنّ ذلك شرًّا لك ولنا؛ فإنه قد ضُمّ إليك داهية العرب، وليس في معاوية خَلّة يستحِقّ بها الخلافة، فإن تقذفْ بحقّك على باطله تدرِكْ حاجتَك منه، وإن يطمع باطلهُ في حقّك يدرِكْ حاجتَه منك. واعلم يا أبا موسى أنّ معاويةَ طليقُ الإسلام، وأنّ أباه رأسُ الأحزاب، وأنّه يدّعي الخلافةَ من غير مشورة ولا بَيْعة، فإنْ زعم لك أنّ عمر وعثمان استعملاه فلقد صدقَ؛ استعمله عمر وهو الوالِي عليه، بمنزلة الطبيب يحميه مايشتهي، ويُوجِرُه ما يكره؛ ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثرَ من استعملا ممّن لم يدّعِ الخلافة. واعلم أنّ لعمرٍو مع كلّ شيء يسرُّك خبيئًا يسوءك؛ ومهما نسيتَ فلا تنسَ أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بَيْعة هدى، وأنّه لم يقاتِلْ إلا العاصين والناكثين.

فقال أبو موسى : رحمك الله ! والله مالي إمامٌ غير عليّ، وإني لواقف عندما رأى، وإنّ حق الله أحبُّ إليّ من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلا بالله.

* * *

وروى البلاذُريّ (٣) في كتاب "أنساب الأشراف"، قال : قيل لعبدالله بن عباس :

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني؛ صاحب التصانيف الكثيرة في السيرة وأخبار القبائل والخلفاء، والفتوح والمغازي وغيرها؛ توفي سنة ٢١٥ الفهرست لابن النديم ١٠٠ – ١٠٤.

(٢) كذا في ب، ج، وفي ا «الآن».

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري؛ صاحب كتاب البلدان، وأنساب الأشراف، توفي سنة ٢٧٩. الفهرست ١١٣، ومعجم الأدباء ٩ : ٨٥

مامنع عليًّا أن يمنك مع عمرو يومَ التحكيم ؟ فقال : منعه حاجزُ القَدر ، ومِحْنة الابتلاء، وقِصَر المدة ؛ أما والله لو كنت، لقعدت على مَدارج أنفاسه، ناقضا ماأبرم، ومبرما مانقَض، أطير إذا أسَفّ، وأسِفّ[1] إذا طار ؛ ولكن قد سبَق قَدَر ، وبَقِيَ أسف ، ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين .

* * *

وذكر البلاذُرىّ أيضا ، قال : قام عمرو بن العاص بالموسم ، فأطرَى معاوية وبنى أميّة ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهِده بصِفّين ويوم أبى موسى ، فقام إليه ابن عباس، فقال : ياعمرو ، إنك بعتَ دينَك من معاوية ، فأعطيتَه مافى يدك ، ومنّاك مافى يد غيره؛ فكان الذى أخذه منك فوق الذى أعطاك ، وكان الّذى أخذتَ منه دون ما أعطيتَه ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى؛فلما صارت مصر فى يدك ، تتبّعك بالنّقض عليك والتعقّب لأمرك ، ثم بالعزل لك ؛ حتى لو أنّ نفسَك فى يدك لأرسلتَها . وذكرت يومك مع أبى موسى،فلا أراك فخَرْت إلا بالغدر،ولا مُنِيت إلّا بالفجور والغِشّ . وذكرت مشاهدك بصِفّين ؛ فوالله ماثقلتْ علينا وطأتك،ولا نكأتْ فينا جرأتك ؛ ولقد كنت فيها طويلَ اللسان،قصير البنان ، آخرَ الحرب إذا أقبلت،وأولها إذا أدبرت. لك يدانِ: يد لاتقبضها عن شرّ ، ويد لا تبسطها إلى خير،ووجهان: وجه مؤنِس ، ووجه مُوحِش ؛ ولَعمرى إنّ مَنْ باع دينه بدنيا غيره لحرِىّ حزنه على ماباع واشترى . أما إنّ لك بيانًا ولكنْ فيكَ خطل ، وإن لك لرأيا ولكن فيك فَشَل؛وإنّ أصغرَ عيبٍ فيك لأعظمُ عيبٍ فى غيرك.

* * *

قال نصر : وكان النجاشىّ الشاعر صديقا لأبى موسى ، فكتب إليه يحذّره من عمرو بن العاص :

يؤمّلُ أهلُ الشام عَمْراً وإنّنِي لآملُ عبدَ الله عندَ الحقائق

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض .

وإنّ أبا موسى سيُدرِكُ حقَّنا إذا ما رمى عَمْراً بإحدى البَوائِقِ (١)
فلله ما يُرْمَى العِراقُ وأهـلُه به منه إن لم يَرْمِهِ بالصَّواعِقِ (٢)

فكتب إليه أبو موسى : إنى لأرجو أن يَنجَلِيَ هـذا الأمرُ ، وأنا فيه على رضا الله سبحانه .

قال نصر : ثم (٣) إن شريح بن هانئ جَهّز أبا موسى جهازا حسنا، وعَظَّم أمرَه فى الناس ليشرُف فى قومه ، فقال الأعور الشَّنِّيُّ فى ذلك يخاطب شُرَيحا :

زَفَفْتَ ابنَ قَيْسٍ زِفَافَ العروسِ شُرَيْحُ إلى دُومـةِ الجَنْدَلِ
وفى زَفِّكَ الأشعرىَّ البـلاءُ وَمَا يُقْضَ مِنْ حَادِثٍ يَنْزِلِ
وما الأشعـرىّ بذى إرْبَةٍ ولا صاحب الخُطَّـةِ الفَيْصَلِ (٤)
ولا آخِذاً حظَّ أهـلِ العراقِ ولو قيـل ها خُذْهُ لم يفعلِ
يحاولُ عَمـراً وعمرٌو له خَدَائِعُ يأتى بهـا من عَلِ (٥)
فإن يحكُما بالهُـدَى يُتْبَعاً وإن يحكما بالهـوى الأميَلِ
يكونا كتَيْسَيْنِ فى قَفْرةٍ أكِيلَىْ نَقِيفٍ من الحنظلِ (٦)

فقال شريح: والله لقد تَعجَّلَتْ رجالٌ مَساءتَنا فى أبى موسى، وطعنوا عليه بأسوإ (٧) الطَّعن ، وظنّوا فيه ما الله عَصَمه (٨) منه ، إن شاء الله .

---

(١) كتاب صفين ٦١٥ : «الصواعق» ، وبعده فيه :

وَحقَّقَهُ حَـتَّى يَدِرَّ وريدُهُ ونحن على ذاكم كأحنق حانِقِ
على أن عمراً لا يُشَقُّ غُبارُهُ إذا ما جَرى بالجَهْدِ أهْلُ السوابِقِ

(٢) صفين : « بالبوائق » . (٣) صفين ٦١٦ .
(٤) صفين : « صاحب الخطبة » . (٥) من علِ ، بياء ساكنة ، لغة فى « على » .
(٦) الحنظل المنقوف : الذى يكسر ليستخرج حبه .
(٧) كتاب صفين : « بسوء الظن »
(٨) صفين : « عاصمه » .

قال : وسار مع عمرو بن العاص شُرَحبيل بن السِّمط فى خَيل عظيمة ؛ حتى إذا أمِن عليه خيل أهل العراق ودّعه ، ثم قال له : يا عمرو ؛ إنك رجلُ قريش ؛ وإنّ معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنك لا تؤتَى مِن عجز ولا مكيدة ، وقد عرفت أنى وطّأتُ هذا الأمرَ لك ولصاحبك ؛ فكنْ عند ظنّى بك . ثم انصرف وانصرف شُرَيح بن هانئ حين أمِنَ خيل أهلِ الشام على أبى موسى ، وودّعه .

وكان آخر مَنْ ودّعَ أبا موسى الأحنفُ بن قيس ، أخذ بيده ، ثم قال له : ياأبا موسى ، اعرف خَطْبَ هذا الأمر ، واعلم أنّ له ما بعده ، وأنك إن أضعت العراق فلا عِراق ؛ اتّق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك ، وإذا لقيت غدا عمرًا فلا تبدأه بالسلام ، فإنها وإن كانت سُنّة إلا أنه ليس من أهلها ، ولا تعطِه يدَك فإنها أمانة ؛ وإيّاك أن يُقعِدك على صَدْر الفراش فإنها خُدعة ، ولا تَلْقَهُ إلا وحده . واحذَرْ أن يكلّمك فى بيت فيه[1] مخدع تُخبأ لك فيه الرجال والشهود . ثم أراد أن يُثَوِّرَ[2] ما فى نفسه لعلىّ ، فقال له : فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلىّ ، فليختر أهلُ العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليَختَرْ أهلُ الشام من قريش العراق من شاءوا .

فقال أبو موسى : قد سمعتُ ما قلتَ ، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علىّ .

فرجع الأحنف إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : أخرَجَ أبو موسى والله زُبْدَةَ سِقائه فى أول مَخضه ؛ لا أُرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكِر خَلْعك . فقال علىّ : الله غالب على أمره[3] .

***

قال نصر : وشاع وفشا أمرُ الأحنف وأبى موسى فى الناس ، فبعث الصَّلَتانُ العبدىّ وهو بالكوفة إلى دُومة الجندل بهذه الأبيات :

---

(١) ا ، ج : « له » .

(٢) يثور : « يختبر » ، وفى ا ، ب : « يبلو » ، وفى صفين : « يبور » وكله بمعنى .

(٣) كتاب صفين ٦١٦ ، ٦١٧ .

لَعَمْرُكَ لا أُلْفى مَدَى الدّهرِ خالعاً ... علياً بقول الأشعرىّ ولا عمرو
فإن يحكما بالحقّ نقبــله منهما ... وإلّا أثرناهـا كراغيةِ البَكْرِ[١]
ولسنا نقولُ الدّهرَ ذاك إليهما ... وفى ذاك لو قلناهُ قاصِمَةُ الظهرِ
ولكن نقول:الأمرُ والنهيُ كله ... إليه ، وفى كَفّيْهِ عاقبةُ الأمرِ
وما اليوم إلا مثل أمسٍ وإنّنا ... لفى وشَلِ الضَّحْضاحِ أو لُجّةِ البَحْرِ[٢]

قال : فلما سمع النّاس قول الصّلَتان شحَذَم ذلك على أبى موسى ، واستبطأه القومُ وظنّوا به الظّنون ، ومكث الرّجُلان بدُومة الجَنْدل لا يقولان شيئا . وكان سعد ابن أبى وقّاص قد اعتزل عليًا ومعاوية ، ونزل على ماء لبنى سُلَيْم بأرض البادية ، يتشوّفُ[٣] الأخبار ـ وكان رجلاً له بأسٌ ورأى ومكان فى قُريش ، ولم يكنْ له هوًى فى علىّ ولا فى معاوية ـ فأقبل راكبٌ يُوضِعُ[٤] من بعيد ، فإذا هو ابنه عمر ، فقال له أبوه : مهيمَ[٥] ؟ فقال : التقى النّاس بصِفّين ، فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانَوْا . ثم حكّموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ؛ وقد حضر ناسٌ من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ومن أهل الشورى، ومن قال له النبىّ صلى الله عليه : « اتقُوا دَعْوَته » ، ولم تدخل فى شىء مما تكره الأمة ، فاحضُر دُومَةَ الجندَل ، فإنّك صاحبها غدا . فقال : مهلاً يا عمر ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « تكون بعدى فِتْنة ، خيرُ الناس فيها التقىّ الخفِىّ » ، وهذا أمر لم أشهد أوّله ، فلا أشهدُ آخرَه ،

(١) الراغية : الرغاء ، والبكر : ولد الناقة ، وفى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٣٥٢ : « راغية البكر ، من أمثال العرب ، وعن أبى عمرو . قولهم : كانت عليهم كراغية البكر ؛ أى استؤصلوا استئصالا ، يعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار » .
(٢) الوشل : المقدار اليسير من الماء .
(٣) يتشوف الأخبار ، أى يتطلع اليها .
(٤) يوضع فى سيره : يسرع .
(٥) مهيم ، أى ما وراءك وما حالك ؟ وهى كلمة استفهام بلغة اليمن .

ولو كنتُ غامساً يدى فى هذا الأمر لغمستُها مع علىّ بن أبى طالب [1] ؛ وقد رأيتَ أباكَ كيف وهب حقّه من الشورى ، وكَرِه الدّخول فى الأمر . فارتحل عمر ، وقد استبان له أمرُ أبيه. [2]

***

قال نصر : وقد كان الأجنادُ [3] أبطأتْ عَلَى معاوية ، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يُعينوه فى حَرْبه : إنّ الحرب قد وضعتْ أوزارَها ، والتقى هذان الرجلان فى دُومةِ الجندل ، فاقدَموا علىّ .

فأتاه عبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهْم بن حُذيفة العَدَوِىّ ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزُّهرىّ ، وعبدالله بن صفوان الجُمحىّ . وأتاه المغيرة ابن شعبة ـ وكان مقيما بالطائف لم يشهد الحرب ـ فقال له : يامغيرة ، ماترى؟ قال : يامعاوية ، لو وَسِعنى أن أنصرَك لنصرتُك ، ولكنْ عَلَىّ أن آتيَك بأمر الرّجلَيْن . فرحل حتى أتى دُومةَ الجندل ، فدخل عَلَى أبى موسى كالزائر له ، فقال : يا أبا موسى ، ماتقول فيمن اعتزل هذا الأمرَ وكره الدماء ؟ قال : أولئك خيرُ [4] النّاس ، خَفّت ظهورُهم من دمائهم ، وخَمصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى عمْراً ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر ، وكَره الدماء ؟ قال : أولئك شِرار الناس ؛ لم يعرفوا حقّاً ، ولم يُنكِروا باطلا . فرجع المغيرةُ إلى معاوية ، فقال له : قد ذُقْتُ الرّجُلَيْن ، أمّا عبد الله

---

(١) فى كتاب وقعة صفين بعد هذه الكلمة : « قد رأيت القوم حلونى على حد السيف فاخترته على النار ؛ فأقم عند أبيك ليلتك هذه . فراجعه حتى طمع فى الشيخ ، فلما جنه الليل رفع صوته ليسمع ابنه ؛ فقال . . . » وذكر أبياتا مطلعها :

دَعَوْتَ أباكَ اليَوْم واللهِ لِلّذِى ... دَعَانِى إليهِ القومُ والأمرُ مُقْبِلُ

(٢) صفين : ٦١٨ ـ ٦٢٠ .

(٣) وقعة صفين : « الأخبار » .

(٤) وقعة صفين : « خيار »

ابن قيس مخالفٌ صاحبَه ، وجاعلُها لرجل لم يشهد هذا الأمر ، وهَوَاه [في][1] عبد الله ابن عمر ،وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي تَعرف،وقد ظَنّ الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لا يرى أنك أحقُّ بهذا الأمر منه[2] .

* * *

قال نصر في حديث عمرو بن شَمِر ، قال : أقبل أبو موسى على عمرو ، فقال : ياعَمْرو ، هل لك في أمرٍ هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضاً ؟ نولّي هذا الأمرَ عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة، ولا هذه الفرقة . قال:وكان عبدُ الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير قريبَيْن يسمعان هذا الكلام ، فقال عمرو : فأين أنت ياأبا موسى عن معاوية ! فأبى عليه أبو موسى ، [قال : وشهدهم عبدالله ابن هشام ، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدويّ والمغيرة ابن شعبة][1]، فقال عمرو : ألستَ تعلم أنّ عثمان قُتِل مظلوماً ؟ قال : بلى ، قال : اشهدوا[3]، ثم قال: فما يمنعُك من معاوية وهو ولي عثمان ،وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾[4]؟ ثم إنّ بيتَ معاوية من قريش ماقد علمتَ ، فإنْ خَشِيتَ أن يقول الناس : ولّى معاوية وليستْ له سابقة ؛ فإنّ لك حجّة ؛ أن تقول : وجدته وليَّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة، الحسَنَ التدبير؛وهو أخو أمّ حَبيبة أم المؤمنين ، وزوج النبي صلى الله عليه ، وقد صحبه ، وهو أحد الصحابة . ثم عرّض له بالسلطان ، فقال له : إن هو وَلِيَ الأمر أكرَمك كرامة لم يكرمْك أحدٌ قطّ مثلها ؛ فقال أبو موسى : اتقِ الله ياعمرو ! أمّا ماذكرت من شرف معاوية ، فإنّ هذا

---

(١) من كتاب صفين .

(٢) وقعة صفين ٦٢٠ ، ٦٢١ .

(٣) ب : « اشهد » .

(٤) سورة الإسراء ٣٣

الأمر ليس على الشّرف يوَلّاه أهله ؛ لوكان عَلَى الشرف كان أحقّ الناس بهـذا الأمر أبرهة بن الصبّاح ؛ إنما هو لأهل الدين والفضل ؛ مع أنّى لو كنت أعطيه أفضلَ قريش شرفًا لأعطيتهُ علىَّ بن أبى طالب . وأمّا قولُك : إنّ معاوية ولىّ عثمان فولّه هذا الأمر ؛ فإنى لم أكن أولّيه إياه لنسبته من عثمان ، وأدَع المهاجرين الأولين ، وأمّا تعريضُك لى بالإمْرة والسلطان ؛ فوالله لو خرج لى من سلطـانه ماوليتهُ ، وما كنت أرْتَشِى فى الله ، ولـكنّك إن شئتَ أحيينا سُنّة عمر بن الخطاب(١) .

قال نصر : وحدّثنى عمر بن سعد عن أبى جناب أنّ أبا موسى قال غير مرّة : والله إن استطعتُ لأحْيِيَنّ اسم عمر بن الخطاب ، قال : فقـال عمرو بن العـاص : إن كنت إنمـا تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فمـا يمنعُك من ابنى عبـد الله ، وأنت تعرفُ فضلَه وصلاحه ! فقال : إنّ ابنَك لَرجُلُ صدق ، ولـكنّك قد غمسته فى هذه الفتنة(٢) .

* * *

قال نصر : وحـدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، عن نافع ، قال : قال أبو موسى لعمرو : ياعمرو ، إن شئت ولّينا هـذا الأمر الطيّب ابن الطيّب ، عبـدَ الله ابن عمر ، فقال له عمرو : ياأبا موسى ، إن هـذا الأمرَ لايصلح له إلا رجـل له ضِرْسٌ يأكل ويُطْعِم ، وإنّ عبد الله ليس هناك .

قال نصر : وقد كان فى أبى موسى غفلة(٣) ، فقال ابنُ الزبير لابن عمر : اذْهب إلى عمرو ابن العاص فارشُه ، فقال ابن عمر : لاوالله لاأرشُو عليها بشىء أبدا ماعشت ، ولـكنّه قال له : إنّ العربَ قدأسندت إليك أمرها بعدماتقارعتْ بالسيوف ، وتطاعَنت بالرماح ، فلاتردّهم فى فتنة ؛ واتّق الله(٤) .

---

(١) وقعة صفين ٦٢٢ ــ ٦٢٣ . (٢) وقعة صفين ٦٢٢ .

(٣) وكذا فى صفين ، وفى الطبرى : « ابن عمر » . (٤) وقعة صفين ٦٢٣ .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أزهر العبسيّ عن النّضر بن صالح ، قال : كنت مع شريح بن هانئ في غزوة سِجِستان ، فحدثني أن عليًّا عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص ، وقال له : قُلْ لعمرو إذا لقيتَه : إنّ عليًّا يقول لك : إنّ أفضلَ الخلق عند الله مَنْ كان العملُ بالحقّ أحبَّ إليه وإن نقصه ، وإنّ أبعد الخلق من الله من كان العملُ بالباطل أحبَّ إليه وإن زاده ؛ والله ياعمرو إنّك لتعلم أين موضعُ الحقّ ، فلِمَ تتجاهل ؟ أ بأنْ أوتيت طمعا يسيرا صرت لله ولأوليائه عدوًّا ! فكأنْ والله ماقد أوتيت قد زال عنك ، فلا تكن للخائنين خصيما ، ولا للظالمين ظهيرا . أما إنّي أعلم أنّ يومَك الذي أنت فيه نادم هو يومُ وفاتك ، وسوف تتمنّى أنك لم تُظْهِر لي[1] عداوة ، ولم تأخذ على حكم الله رِشْوة . قال شريح : فأبلغتُه ذلك يوم لقيتُه ، فتمعّر وجهه[2] وقال : متى[3] كنتُ قابلا مشورة عليّ أو منيبا إلى رأيه ، أو معتدًّا بأمره[3] ! فقلت : وما يمنعُك يابنَ النابغة أن تقبلَ من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورتَه ! لقد كان مَنْ هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه : فقال : إن مِثْلي لا يكلِّم مثلَك، فقلت : بأيّ أبويك ترغَبُ عن كلامي ! بأبيك الوَشيظ[4] أم بأمّك النابغة ! فقام من مكانه وقمت[5] .

* * *

قال نصر : وروى أبو جناب الكلبيّ أن عمرا وأبا موسى لمّا التقيا بدُومة الجَندل ، أخذ عمرو يقدّم أبا موسى في الكلام ، ويقول : إنك صحِبْتَ رسول الله صلى الله عليه قبلي ، وأنت أكبر منّي سِنًّا ، فتكلَّمْ أنت ، ثم أتكلم أنا ، فجعل ذلك سُنّةً وعادة بينهما

(١) صفين : « لمسلم » .
(٢) وقعة صفين : « فتمعر وجه عمرو » . وتمعر : تغير وجهه غيظا .
(٣ ـ ٣) وقعة صفين : « متى كنت أقبل مشورة علي أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ! » .
(٤) الوشيظ : الخسيس والتابع .
(٥) وقعة صفين ٦٢٤

وإنما كان مكرا وخديعة واغترارا له أن يقدّمه ، فيبدأ بخلع علىّ ثم يرى رأيه .

***

وقال ابن ديزيل فى "كتاب صفّين" : أعطاه عمرو صَدْرَ المجلس ، وكان لا يتكلم قبله ، وأعطاه التقدّم فى الصلاة وفى الطعام ، لا يأكل حتى يأكل ، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجلّ الأسماء ، ويقول له : ياصاحبَ رسول الله ؛ حتى اطمأنّ إليه ، وظنّ أنه لا يغشّه .

***

قال نصر : فلما انمخضَتِ الزُّبدة بينهما ، قال له عَمْرو : أخبرنى ما رأيك ياأبا موسى؟ قال : أرى أن أخلع هذين الرجُلَيْن ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون من شاءوا ، فقال عمرو : الرأى والله مارأيت . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلّم أبو موسى ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ رأيِى ورأى عمرو قد اتفق على أمرٍ نرجو أن يُصلح الله به شأنَ هذه الأمة ؛ فقال عمرو : صدق ، ثم قال له : تقدّم ياأبا موسى ؛ فتكلّم ، فقام ليتكلّم ، فدعاه ابن عباس ، فقال له : ويحك ! والله إنى لأظنّه خدَعك ؛ إن كنتُما قد اتفقتُما على أمرٍ فقدّمه قبلَك ليتكلّم به ثم تكلّمْ أنت بعده ؛ فإنه رجل غدّار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرِّضا فيما بينك وبينه ؛ فإذا قمتَ به فى النّاس خالفك — وكان أبو موسى رجلا مُغفّلا — فقال : إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا !

فتقدم أبو موسى ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ إنا قد نظرنا فى أمرِ هذه الأمّة ، فلم نر شيئاً هو أصلحُ لأمرِها ولا ألمّ لشَعَثها من ألّا تتباينَ أمورُها ، وقد أجمع رأيِى ورأىُ صاحبِى على خَلْع علىّ ومعاوية ، وأن يُستقبلَ هذا الأمرُ ، فيكونَ شورى بينَ المسلمين ، يولّون أمورَهم مَنْ أحبّوا ، وإنى قد خلعتُ عليا ومعاوية ؛ فاستقبِلوا

أموركم ، وولُّوا مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص فى مقامه : فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبَه ، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه ، وأثبتُ صاحبى معاوية فى الخلافة ، فإنه ولىّ عثمان ، والطالب بدمِه ، وأحقّ الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : مالك لا وفّقك الله قد غدرت وفجرت ! إنّما مثلك ﴿ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهثْ أَوْ تترُكْهُ يَلْهَثْ ﴾(١) . فقال له عمرو : إنما مثلك ﴿ كمثلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾(٢) .

وحمل شُريح بن هانئ على عمرو فقنّعه بالسوط ، وحمل ابن عمرو على شُريح فقنّعه بالسوط ، وقام الناس فحجزوا بينهما ، فكان شُريح يقول بعد ذلك : ما ندمتُ على شيء ندامتى ألا أكون ضربتُ عمرا بالسيف بدلَ السوط ، أتى الدهر بما أتى به !

والتمس أصحابُ علىّ عليه السلام أبا موسى فركب ناقته ، ولحِق بمكّة . وكان ابن عباس يقول : قبّح الله أبا موسى ! لقد حذّرته وهديتُه إلى الرأى فما عقَل . وكان أبو موسى يقول : لقد حذّرنى ابنُ عباس غَدْرَةَ الفاسق ، ولكنى اطمأننت إليه ، وظننت أنّه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة(٣) .

***

قال نصر : (٤ ورجع عمرٌو إلى منزله من دُومة الجنْدَل ، فكتب إلى معاوية٤) :

أَتَتْكَ الخلافةُ مَزْفُوفَةً هَنِيئاً مريئاً تُقِرُّ العيُونا

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦
(٢) سورة الجمعة ٥
(٣) كتاب صفين ٦٢٧ — ٦٢٩ مع تصرف .
(٤ — ٤) العبارة كما وردت فى كتاب صفين ٦٣٠ : « ولما فعل عمرو مافعل ، واختلط الناس ، رجع إلى منزله ، فجهز راكبا إلى معاوية يخبره بالأمر من أوله إلى آخره ، وكتب فى كتاب على حده » .

تُزَفُّ إليكَ زِفَافَ العروس[1] بأهْوَنَ مِنْ طَعْنِكَ الدَّارِعِينا
وَمَا الأشعَرِيُّ بِصَلْدِ الزِّنَادِ ولا خامِلِ الذِّكْرِ فى الأشعَرِينا
وَلَكِنْ أُتِيحَتْ لهُ حَيَّةٌ يَظَلُّ الشُّجاعُ لَهَا مُسْتَكِينا
فَقَالُوا وقلتُ وَكُنْتُ امْرأً أُجَهْجِهُ بالخَصْمِ حَتَّى يَلِينا[2]
فَخُذْهَا ابنَ هِنْدٍ عَلَى بُعْدِها[3] فَقَدْ دَافَعَ اللهُ ما تَحْذَرُونا
وَقَدْ صَرَفَ اللهُ عَنْ شَامِكُمْ عَدُوًّا مبينا وَحَرْبًا زَبُونا[4]

قال نصر : فقام سعد بن قيس الهَمْدانىّ ، وقال : والله لو اجتمعنا على الهدَى ما زدتمانا على ما نحن الآن عليه ، وما ضلالكما بلازم لنا ، وما رجعتما إلا بما بدأتما به ، وإنّا اليوم لَعلى ما كنا عليه أمس .

وقام كُرْدوس بن هانئ مغضباً ، فقال[5] :

ألَا ليتَ مَنْ يَرْضَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ بعمرو وعبد الله فى لُجَّةِ البَحْرِ
رَضِينَا بِحُكْمِ اللهِ لَاحُكْمَ غَيْرُهُ وبالله رَبًّا والنبىِّ وبالذِّكْرِ
وبالأصْلَعِ الهادِى عَلِىٍّ إمامِنا رَضِينا بِذاكَ الشَّيْخِ فى العُسْرِ واليُسْرِ
رَضِينَا بِهِ حَيًّا ومَيْتًا ، وإنَّهُ إمامُ هُدًى فى الحُكْمِ والنَّهْىِ والأمْرِ
فَمَنْ قَالَ لَا قُلْنَا بَلَى إنَّ أمرَهُ لأفضَلُ ما نُعْطَاهُ فى ليلةِ القَدْرِ
وَما لابنِ هِنْدٍ بَيْعَةٌ فى رِقابِنَا وما بَيْنَنَا غَيْرُ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

---

(١) كتاب صفين « كزف العروس » .
(٢) أجهجه : قال الجوهرى : « جهجهت بالسبع ، صحت به ليكف » .
(٣) كتاب صفين : « على بأسها »
(٤) كتاب صفين : « عدوا شنيا » . وحرب زبون : تزبن الناس ، أى تصدمهم وتدفعهم .
(٥) كتاب صفين ٦٣٠ والعبارة هناك : « وتكلم الناس غير الأشعث بن قيس ، وتكلم كردوس بن هانئ ، فقال : أما والله إنى لأظنك أول راض بهذا الأمر يا أخا ربيعة ، فغضب كردوس فقال » .

وَضربٍ يُزيلُ الهامَ عَنْ مُسْتَقَرِّه ... وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الرِّضا آخِرَ الدَّهْرِ !
أبت لِيَ أشياخُ الأراقمِ سُبَّـةً ... أُسَبُّ بِهـا حَتَّى أُغَيَّبَ فِي القَبْرِ [1]

وتكلّم يزيد بن أسَدٍ القسريّ ـ وهو مِن قوّاد معاوية ـ فقال : يأهل العراق ، اتقوا الله ؛ فإنّ أهونَ ماتردُنا وإيا كم إليه الحرب ما كنّا عليه بالأمس ؛ وهو الفناء ؛ وقد شَخصتِ الأبصارُ إلى الصّلح ، وأشرفَتِ الأنفسُ على الفَناء ، وأصبح كلّ امرئٍ يبكى عَلَى قتيل ؛ مالكم رضيتم بأوّلِ أمرِ صاحبكم وكرهتم آخره ! إنّه ليس لكم وحدَكم الرِّضا .

قال : وقال بعض الأشعريّين لأبى موسى[2] :

أبا موسَى خُدِعتَ وَكُنتَ شَيْخاً ... قَرِيبَ القَعْرِ مَدْهُوشَ الجَنَانِ
رَمَى عمرٌو صَفَاتَكَ يابنَ قَيْسٍ ... بأمْرٍ لا تَنُوءُ بِـهِ اليَـدَانِ
وَقَدْ كُنّا نُجَمْجِمُ عَنْ ظُنُونٍ ... فَصَرَّحَتِ الظُّنُونُ عن العِيـانِ
فَعَضَّ الكَفَّ مِنْ نَدَمٍ وَمـاذَا ... يَرُدُّ عليـكَ عَضُّكَ بالبَنَانِ !

قال : وَشَمِتَ أهلُ الشام بأهلِ العراق . وقال كَعبُ بن جُعَيل شاعرُ معاوية :

كأنّ أبـا موسى عَشِيَّـةَ أذْرُحٍ ... يطوفُ بلقمانَ الحكيمِ يُوَارِبُهْ [3]
وَلَمّا تـلاقَوْا فى تُراثِ محمّـدٍ ... نَمَتْ بابنِ هِنْدٍ فى قُرَيْشٍ مَنَاسِبُهْ [4]
سَعَى بابنِ عَفّانٍ لِيُـدْرِكَ ثَأْرَهُ ... وَأَوْلَى عِبـادِ اللهِ بالثّأرِ طَالِبُهْ

---

(١) الأراقم : أحياء فى تغلب ، والسبة : العار .
(٢) فى كتاب صفين : « فتشاءم عمرو وأبو موسى من ليلته ، فإذا ابن عم لأبى موسى يقول » .
(٣) كتاب صفين ٦٣٠ ومعجم البلدان ١ ـ ١٦٢ ؛ وأذرح : بلد فى أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز ؛ وكان فيها أمر الحكمين فى أحد القولين ، وثانيهما فى دومة الجندل . ويعنى بلقمان الحكيم عمرو بن العاص .
(٤) كتاب صفين وياقوت : « مضاربه » .

وَقَدْ غَشِيَتْنَا فى الزُّبَيْرِ غَضَاضَةٌ ... وَطَلْحَةُ إِذْ قَامَتْ عَلَيْهِ نَوَادِبُهْ

فَرَدَّ ابنُ هِنْدٍ مُلْكَهُ فى نِصَابِهِ ... وَمَنْ غَالَبَ الأَقْدَارَ فَاللهُ غَالِبُهْ

وَمَا لابنِ هِنْدٍ من لؤىّ بن غالبٍ ... نظيرٌ وإنْ جاشَتْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهْ

فَهَذَاكَ مُلْكُ الشَّامِ وافٍ سَنَامُهُ ... وهَذَاكَ مُلْكُ القَوْمِ قدْ جُبَّ غَارِبُهْ

يُحَاوِلُ عَبْدُ اللهِ عَمْراً وإنَّهُ ... لَيَضْرِبُ فى بَحْرٍ عَرِيضٍ مَذَاهِبُهْ

دَحَا دَحْوَةً فى صَدْرِهِ فَهَوَتْ بِهِ ... إلى أَسْفَلِ الجُبِّ الظنونِ كَوَاذِبُهْ(١)

* * *

قال نصر : وكان علىّ عليه السلام لما خدع عمرو أباموسى بالكوفة ، كان قد دخلها منتظراً مايحكم به الحكمان ؛ فلما تمّ على أبى موسى ماتمّ من الحيلة ، غمّ ذلك عليًّا وساءه ، ووَجَم له ، وخطب الناس ، فقال :

« الحمدُ لله وإن أتى الدّهر بالخطب الفادح ، والحدَث الجليل... » الخطبة التى ذكرها الرضىّ رحمه الله تعالى ؛ وهى التى نحن فى شرحها ، وزاد فى آخرها بعد الاستشهاد ببيت دُريد : « ألا إنّ هذين الرّجلين اللّذين اخترتموها قد نبذا حُكم الكتاب ، وأحييا ماأمات ، واتّبع كلّ واحدٍ منهماهواه ، وحَكم بغير حُجّة ولا بيّنة ولا سُنّة ماضية ، واختلفا فيما حكما ، فكلاهما لم يُرْشِد الله . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم كذا » .

---

(١) الظنون : البئر لايدرى أفيها ماء أم لا ، وفى كتاب صفين :

* إلى أسْفَلِ المهوى ظنونٌ كَوَاذِبُهْ *

فرد عليه رجل من أصحاب على فقال :

غَدَرْتُم وَكَانَ الغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً ... فَمَا ضَرَّنَا غَدْرُ اللَّئِيمِ وَصَاحِبُهْ

وَسَمَّيْتُمُ شَرَّ البَرِيَّةِ مُؤْمِناً ... كَذَبْتُمْ فَشَرُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ كَاذِبُهْ

قال نصر : فكان عليّ عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغَدَاة والمغرب ، وفرغ من الصّلاة وسلّم ، قال : اللهمّ العن معاوية ، وعمرا ، وأبا موسى ، وحبيب بن مسلمة ، وعبدَ الرحمن بن خالد ، والضحاكَ بن قيس ، والوليدَ بن عُقْبة ؛ فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا صلّى لعن عليًّا ، وحسنا ، وحسينا ، وابنَ عباس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، والأشتر.

وزاد ابن ديزيل في أصحاب معاوية أبا الأعور السُّلَمِيّ .

***

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا مُوسى كتب من مكّة إلى عليّ عليه السلام : أمّا بعد، فإنّي قد بلغني أنك تلعنُني في الصّلاة ويؤمّن خَلْفَك الجاهلون ، وإنّي أقول كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

وروى ابن ديزيل ، عن وَكِيع ، عن فضل بن مرزوق ، عن عطية ، عن عبد الرحمن ابن حَبيب ، عن عليّ عليه السلام ، أنه قال : « يؤتَى بي وبمعاوية يوم القيامة ، فنجيء ونختصم عند ذي العَرْش ، فأيّنا فَلَج فَلَج أصحابه(٢) » .

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القاريّ ، عن أبيه ، قال : سئِل عليّ عليه السلام عن قَتْلى صفين ، فقال : إنّما الحساب عليّ وعلى معاوية .

ورَوى أيضا عن الأعمش ، عن موسى بن طريف ، عن عَبَايَة(٣) ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، وهو يقول : أنا قسيمُ النار ، هذا لي وهذا لك .

وروى أيضاً عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، دَعْوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مَرَقَتْ منهم مارقة ؛ يقتلهم أَوْلى الطائفتين بالحقّ » .

---

(١) سورة القصص ١٧ (٢) فلج ، أي غلب .

(٣) عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج الأنصاري .

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدّثنا سعيد بن كثير، عن عُفَيْر، قال: حدثنا ابن لَهِيعة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش الصّنعانيّ، قال: جئت إلى أبي سعيد الخدْريّ، وقد عَمِيَ، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتوننا فنخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحبا بك يا حنش المصريّ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: «يخرج ناس يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرُقُون من الدّين كما يمرُق السهم من الرميّة، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئاً، فينظر في قُذَذِه[1] فلا يرى شيئاً؛ سبق الفرثَ والدم، يَصْلَى بقتالهم أوْلى الطائفتين بالله»، فقال حنش: فإن عليًّا صَلِيَ بقتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع عليًّا أن يكون أولى الطائفتين بالله!

* * *

وذكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد: حضرتُ الحكومة، فلمّا كان يوم الفصل جاء عبد الله بن عباس، فقعد إلى جانب أبي موسى وقد نشر أذُنَيْه؛ حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمتُ أن الأمر لا يتمّ لنا مادام هناك؛ وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلّمت ابنَ عباس كلمة استطعمتُه جوابها فلم يجب، فكلّمته أخرى فلم يجب، فكلمته ثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حِوارك الآن، فجبهته، وقلت: يابني هاشم، لا تتركون بأْوكم[2] وكِبْركم أبدا! أما والله لولا مكانُ النبوّة لكان لي ولك شأن. قال: فحمِيَ وغضب، واضطرب فكرُه ورأيُه، وأسمعني كلاما يسوء سماعه، فأعرضتُ عنه، وقمت فقعدت إلى جانب عَمْرو بن العاص، فقلت: قد كفيتك التِّقوالة[3]، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحكم أنت أمرك. قال:

---

(١) القذذ جمع قذة، وهي: ريش السهم. (٢) البأو: التفاخر.
(٣) التقوالة: الكثير القول.

فذهل والله ابن عباس عن الكلام الدائر بين الرّجلين، حتى قام أبو موسى ، فخلع عليًّا.

* * *

وروى الزبير بن بكار في "الموفقيات"، ورواه جميع الناس ممن عُني بنقل الآثار والسِّيَر، عن الحسن البصري، [قال]: أربع خصال كنّ في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهنّ لكانت مُوبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرَها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنَه يزيد؛ سِكّيراً خِمّيرا؛ يلبس الحرير ويَضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفِراش، وللعاهر الحَجَر»، وقتله حُجْر بن عديّ وأصحابه؛ فياويله من حُجْر وأصحاب حُجْر!

وروى في "الموفقيات" أيضاً الخبر الذي رواه المدائنيّ، وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبي موسى، وقوله: إن الناس لم يرتضوك لفضلٍ عندك لم تشارَك فيه.. وذكر في آخره: فقال بعض شعراء قريش:

وَاللهِ ما كَلَّمَ الأقوامَ مِنْ بَشَرٍ بَعْدَ الوَصِيِّ عَلِيٍّ كابنِ عَبّاسِ
أوْصَى ابنَ قَيْسٍ بأمرٍ فيه عصمتُه لو كان فيها أبو موسى مِنَ النّاسِ
إني أخاف عليه مكرَ صاحبِه أرْجُو رَجاءً مَخُوفٍ شِيبَ باليَاسِ

* * *

وذكر الزّبير أيضاً في "الموفّقيات" أن يزيد بن حُجَيّة التيميّ، شهد الجمل وصِفّين ونَهْروان مع عليّ عليه السلام، ثم ولّاه الرّيّ ودَسْتَبَى (١)، فسرق من أموالها، ولحق بمعاوية، وهجا عليًّا وأصحابَه، ومدح معاوية وأصحابه، فدعا عليه عليّ عليه السلام، ورفع أصحابُه أيديَهم فأمّنوا، وكتب إليه رجل من بني عمه كتابا يقبّح إليه

(١) دستبي، بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء والباء المقصورة: كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمدان. ياقوت.

ماصنع ، وكان الكِتاب شعرا ، فكتب يزيد بن حُجَيّة إليه : لو كنتُ أقول شعرا لأجبتُك ، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث ؛ لاترون معهنّ شيئا مما تحبّون ؛ أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ؛ حتى إذا دخلتم بلادَهم ، وطعنتموهم بالرماح ، وأذقتموهم ألم الجِراح ، رفَعوا المصاحفَ فسخِرُوا منكم ، وردّوكم عنهم ؛ فوالله والله لادخلتُموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبدا . والثانية أنّ القوم بعثوا حَكَمًا ، وبعثتم حكما ؛ فأمّا حكَمُهم فأثبتَهم ، وأما حكمُكم فخلعكم ، ورجع صاحبُهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ،ورجعتم متضاغنين. والثالثة أن قرّاءكم وفقهاءكم وفُرسانكم خالفوكم ، فعدوتم عليهم، فقتلتموهم . ثم كتب فى آخر الكتاب بيتين لعفّان بن شُرَحبيل التميمىّ :

أحببتُ أهلَ الشام مِنْ بَيْنِ المَلاَ ... وبكيتُ مِنْ أسفٍ عَلَى عُثمانِ

أرضاً مُقَدَّســـــة وقوماً منهمُ ... أهــــلُ اليقين وتابعو الفُرْقَانِ

وذكر أبوأحمد العسكرى[(1)] فى كتاب "الأمالى" أن سعدَبن أبى وقاص دخل على معاوية عام الجماعة ، فلم يسلِّمْ عليه بإمْرةِ المؤمنين ، فقال له معاوية : لو شئت أن تقولَ فى سلامك غير هذا لقلت،فقال سعد : نحن المؤمنون ولم نؤمِّرك، كأنك قد بهجْتَ[(2)] بما أنت فيه يامعاوية ! والله مايسرّنى ما أنت فيه وأنّى هَرَقْتُ المِحْجمة[(3)] دم. قال : ولكنّى وابن عمّك عليا ياأبا إسحاق قد هَرَقْنا أكثر من محجمة ومحجمتين ، هلمّ فاجلس مَعِى على السرير ، فجلس معه ، فذكر له معاوية اعتزالَه الحرب،يعاتبه ، فقال سعد : إنما كان مثلى ومثلُ الناس كقوم أصابتهم ظُلْمة،فقال واحد منهم لبعيره إخْ ، فأناخ حتى أضاء له الطريق

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى أبو أحمد ؛ أحد أعلام اللغة والأدب ، أخذ عن ابن دريد وطبقته ؛ وصاحب كتاب التصحيف توفى سنة ٣٨٠ : (إنباه الرواة ١ : ٣١٠).

(٢) بهج بالشىء : فرح به . (٣) المحجمة : قارورة الحجام .

فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق[1]، ما في كتاب الله « إلخ » وإنما فيه : ﴿ وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] ؛ فوالله ما قاتلتَ الباغية ولا المبغيّ عليها . فأفحمه .

وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في "كتاب صفين"، قال : فقال سعد: أتأمرني أن أقاتل رجلا قال له رسول الله صلى الله عليه: « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي » ! فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك ؟ قال: فلان وفلان وأمّ سلمة، فقال معاوية : لو كنتُ سمعتُ هذا لما قاتلته .

(١) أبو إسحاق كنية سعد بن أبي وقاص .   (٢) سورة الحجرات ٩

(٣٦)

ومن خطبة له عليه السلام فى تخويف أهل النّهروان :

الأَصْلُ :

فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ .

وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ ؛ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ ؛ وَلَمْ آتِ — لَا أَبَا لَكُمْ — بُجْراً ، وَلَا أَرَدْتُ بِكُمْ ضُرّاً .

***

الشَّرْحُ :

الأهضام : جمع هَضْم ؛ وهو المطمئنّ من الوادى . والغائط : ماسَفَل من الأرض . واحْتَبَلكم المقدار : أوقعكم فى الحِبَالة .

والبُجْر : الداهية والأمر العظيم . ويروى : «هُجْرا» . وهو المستقبَح من القول . ويروى «عُرّا» . والعُرّ : قروح فى مشافر الإبل . ويستعار للداهية .

***

[أخبار الخوارج]

قد تظافرت الأخبار حتى بلغت حدّ التواتر بما وعد الله تعالى قاتِلِي الخوارج من الثوابِ ، على لسان رسوله صلى الله عليه وآله . وفى الصِّحاح المتفق عليها أنّ

رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] بينا هو يَقْسِم قَسْماً جاء رجل من بنى تميم ، يُدْعَى ذا الْخُوَيْصِرة ، فقال : اعدِلْ يامحمد، فقال عليه السلام : «قدعَدَلْتُ»، فقال له ثانية: اعدل يامحمد ، فإنك لم تعدِل ،فقال صلى الله عليه وسلم . « وَيْلَكَ ! ومَنْ يَعْدِل إذا لم أعدل ! »، فقام عمر بن الخطاب ، فقال : يارسولَ الله ، ائذن لى أضربْ عُنُقَه ،فقال :«دَعْه،فسيخرج من ضِئْضِئِ[٢] هـذا قوم يَمْرُقُون[٣] من الدِّين كما يَمْرُق السهم من الرمِيّة ، ينظر أحدُكُمْ إلى نَصْلِهِ[٤] فلا يجدُ شيئاً ، فينظر إلى نَضِيِّه[٥] فلا يجد شيئا ، ثم ينظر إلى القُذَذ[٦] فكذلك ؛ سَبَق الفَرْثَ والدم[٧]،يخرجون على حين فُرْقة من الناس، تُحْتَقَرُ صلاتُكُم فى جَنْب صَلَاتِهم ، وصومُكم عند صومهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقِيَهم. آيتهم[٨] رجلٌ أسود ـ أو قال : أَدْعَج ـ[٩] مُخْدَج[١٠] اليد ، إحدى يديه كأنها ثدىُ امرأة ، أو بَضْعَةٌ تَدَرْدَر[١١] .

وفى بعض الصِّحاح أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأبى بكر ، وقد غاب الرجل

---

(١) أنظر الكامل ٣ : ١٩٠

(٢) ضئضئ هذا، أى من جنس هذا؛ يقال: فلان من ضئضئ صدق، ومن محتد صدق ، وفى مركب صدق .

(٣) قال المبرد : « يقال : مرق السهم من الرمية ؛ إذا نفذ منها ، وأكثر مايكون ذلك ألا يعلق به من دمها شىء » .

(٤) النصل : حديدة السهم والسيف .

(٥) النضى ، على « فعيل » : القدح (بكسر فسكون) ؛ وهو السهم قبل أن ينصل ويريش .

(٦) القذذ : جمع قذة ؛ وهى ريشة السهم .

(٧) الضمير عائد على السهم ؛ والكلام على التشبيه والاستعارة التمثيلية ؛ ضربه صلى الله عليه وسلم مثلا لخروجهم من الدين ، لم يعلق بقلوبهم منه شىء .

(٨) ذكروا أنه حرقوص بن زهير ؛ كان صحابيا أمد به عمر المسلمين الذين نازلوا الأهواز ، ثم كان مع على فى صفين ؛ ثم صار خارجيا عليه ، فقتل. تاج العروس (٤ : ٣٧٩) .

(٩) الدعج : شدة سواد العين مع اتساعها .

(١٠) مخدج اليد ، من أخدجه الله ؛ إذا نقص عضوا منه .

(١١) تدردر ؛ قال ابن الأثير فى النهاية (٢ : ١٩) : « تدردر ؛ أى ترجرج ؛ تجىء وتذهب، والأصل تتدردر ، فحذف إحدى التاءين تخفيفا » .

عن عَيْنِه : قم إلى هذا فاقتله ، فقام ثم عاد وقال : وجدتُه يصلّي ، فقال لعمر مثلَ ذلك ، فعاد وقال : وجدتُه يصلّي ، فقال لعليّ عليه السلام مثل ذلك ، فعاد فقال : لم أجده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو قُتِل هذا لكان أوّلَ فتنة وآخرها ؛ أما إنه سيخرج من ضِئْضِئِ هذا قوم . . . » الحديث .

وفى بعض الصّحاح : « يقتلهم أوْلى الفريقين بالحق » .

وفى مسند أحمد بن حنبل ، عن مسروق ، قال : قالت لى عائشة : إنّك من ولدى ومِنْ أحبِّهم إلىّ ، فهل عندك علم من المُخَدَّج ؟ فقلت : نعم ، قتله علىّ بن أبى طالب على نَهْر يقال لأعلاه تامَرّا[(١)] ولأسفله النّهروان ، بين لَخاقيق وطَرْفاء[(٢)] ، قالت : ابغِنى على ذلك بيّنة ، فأقمت رجالا شهدوا عندها بذلك ، قال : فقلت لها : سألتُك بصاحب القبر ، ما الذى سمعتِ من رسول الله صلى الله عليه فيهم ؟ فقالت : نعم سمعتُه ، يقول : « إنهم شرّ الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربُهم عند الله وسيلة » .

***

وفى " كتاب صِفّين " للواقدىّ عن علىّ عليه السلام : لولا أن تبطَرُوا فتدَعُوا العمل ، لحدّثتُكم بما سبقَ على لسان رسول الله صلى الله عليه لمن قتل هؤلاء .

وفيه : قال علىّ عليه السلام : إذا حدّثتُكم عن رسول الله صلى الله عليه فَلَأنْ أخِرّ من السماء أحبُّ إلىّ من أن أكذِب على رسول الله صلى الله عليه ، وإذا حدّثتُكم فيما بيننا عن نفسى ؛ فإنّ الحرب خُدْعة ؛ وإنما أنا رجل محارب ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يخرج فى آخر الزمان قوم أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، قولهم من خير

---

(١) تامرا ؛ ضبطه ياقوت : « بفتح الميم وتشديد الراء والقصر » ، وقال « نهر واسع يخرج من جبال شهرزور والجبال المجاورة لها » .

(٢) لخاقيق : جمع لخقوق ؛ وهو شق فى الأرض ، والطرفاء : شجر من الحمض ، واحدته طرفاء .

أقوال أهل البرية ، صلاتُهم أكثر من صلاتكم ، وقراءتهم أكثر من قراءتكم ، لايجاوز إيمانُهم تراقيَهم — أو قال : حناجرهم — يمرُقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرميّة ، فاقتلوهم ، فإنّ قتلَهم أجر لمن قتلَهم يوم القيامة » .

***

وفي « كتاب صفين » أيضا للمدائنيّ عن مسروق ، أنّ عائشة قالت له لما عرفت أنّ عليا عليه السلام قتل ذا الثُّدَيّة : لعن الله عمرو بن العاص ! فإنه كتب إليّ يخبرني أنه قتله بالإسكندرية ، ألا إنه ليس يمنعني مافي نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه، يقول : « يقتله خير أمتي من بعدي » .

***

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في « التاريخ » ، أنّ عليًّا عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثيرٌ من الخوارج ، وتخلّف منهم بالنُّخَيلة وغيرها خَلْق كثير لم يدخلوها ، فدخل حُرقوص بن زُهَير السَّعْديّ ، وزُرْعة بن البُرْج الطائيّ — وهما من رءوس الخوارج — على عليّ عليه السلام ، فقال له حُرقوص : تُبْ من خطيئتك ، واخرُج بنا إلى معاوية نجاهده ، فقال له عليّ عليه السلام : إني كنت نهيتُكم عن الحكومة فأبيتم ، ثم الآن تجعلونها ذنبا ! أما إنها ليست بمعصية ، ولكنها عجز من الرأي ، وضَعف في التدبير ، وقد نهيتُكم عنه ، فقال زُرْعة : أما والله لئن لم تَتُبْ من تحكيمك الرجال لأقتلنّك(١) أطلُبُ بذلك وجه الله ورضوانه ، فقال عليّ عليه السلام : بؤسًا لك ما أشقاك ! كأني بك قتيلاً تَسْفِي عليك الرياح ! قال زُرْعة : وَدِدْتُ أنه كان ذلك(٢) .

قال : وخرج عليّ عليه السلام يخطُب الناسَ فصاحوا به من جوانب المسجد :

---

(١) الطبري : « فاتلنك » .

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٧٢ .

لا حُكم إلا لله ، وصاح به رجلٌ [منهم واضع إصبعه فى أذنيه ، فقال][1] : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2] ، فقال له علىّ عليه السلام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[3] .

* * *

وروى ابن ديزيل فى كتاب " صفين " ، قال : كانت الخوارج فى أوّل ما انصرفت عن رايات على عليه السلام تُهدّد الناس قتلا ، قال : فأتت طائفةٌ منهم على النهر إلى جانب قرية ، فخرج منها رجل مذعوراً آخذاً بثيابه ، فأدركوه فقالوا له : رَعبْناك ؟ قال : أجل ؛ فقالوا له : قد عرفناك ، أنت عبد الله بن خبّاب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه ، قال : نعم ، قالوا : فما سمعت من أبيك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه ؟

قال ابن ديزيل : فحدّثهم أنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « إنّ فتنةً جائية ، القاعدُ فيها خير من القائم . . . » الحديث .

وقال غيره : بل حدّثهم : « إنّ طائفة تمرُق من الدين كما يمرُق السّهم من الرميّة ، يقرءون القرآن ، صلاتهم أكثر من صلاتكم ... » الحديث . فضربوا رأسه ، فسال دمُه فى النهر ، ما امذقرّ ، (أى ما اختلط بالماء) ، كأنّه شِراك ، ثم دعَوْا بجارية له حُبْلى فبقرُوا عمّا فى بطنها .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : عزَم علىّ عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحرُورية[4] ، وكان فى أصحابه منجّم فقالَ له : يا أمير المؤمنين ، لا تسر فى هذه الساعة ،

---

(١) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٢) سورة الزمر ٦٥

(٣) سورة الروم ٦٠ والخبر فى الطبرى ٥ : ٧٣

(٤) الحرورية : نسبة إلى حروراء : قرية على ميلين من الكوفة ؛ كان اجتماع الخوارج فيها ، فنسبوا إليها .

وسِرْ على ثلاث ساعات مضيْن من النهار ؛ فإنّك إنْ سرت في هذه الساعة أصابك وأصابكَ أذًى وضُرٌّ شديد ، وإن سرتَ في الساعه التي أمرتُك بها ظَفِرت وظهرت ، وأصبت ما طلبْتَ . فقال له عليّ عليه السلام : أتدرى ما في بَطْن فَرَسى هذه ؛ أذكر هو أم أنثى ؟ قال : إن حسَبتُ عَلِمْت ، فقال عليّ عليه السلام : مَنْ صدّقك بهذا فقد كذّب بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ... ﴾ [1] الآية ، ثم قال عليه السلام :

إن محمدا صلى الله عليه ما كان يدّعى علم ما ادّعيت علمه ؛ أتزعُم أنك تَهْدِى إلى الساعة التي يصيب النفعَ مَنْ سارَ فيها ، وتصرِفُ عن الساعة التي يَحيق السوء بمن سار فيها ! فمَنْ صدّقك بهذا فقد استغنَى عن الاستعانة بالله جلّ ذكره في صَرْف المكروه عنه . وينبغى للموقِن بأمْرِك أن يوليَكَ الحمد دونَ الله جلّ جلاله ، لأنّك بزعمك هدَيْته إلى الساعة التي يُصيب النفعَ مَنْ سار فيها ، وصرفْته عن الساعة التي يَحيق السوء بمَنْ سار فيها ؛ فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضِدًّا ونِدًّا . اللهم لا طيرَ إلا طيرُك ، ولا ضَرّ إلا ضَرّك ، ولا إله غيرك . ثم قال : نُخالف ونسيرُ في الساعة التي نهيتَنا عنها ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها النّاسُ ، إياكم والتعلّم للنّجوم إلّا ما يُهْتَدَى به في ظُلُمات البر والبحر ، إنما المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالكافر ، والكافر في النارِ . أما والله لئن بَلَغنى أنك تعمل بالنّجوم لأخلدنّك السجنَ أبدا ما بقِيتُ ، ولأحرِمنّك العطاء ما كان لى من سلطان .

ثم سار في الساعة التي نهاهُ عنها المنجّم ، فظفِرَ بأهل النّهر وظهر عليهم ، ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرَنا بها المنجّم لقال الناس : سارَ في الساعة التي أمر بها المنجّم فظفِر وظهر ، أما إنه ما كان لمحمد صلى الله عليه منجّم ، ولا لنا من بعده ؛ حتى فتح الله علينا بلاد كِسْرَى وقَيصر . أيها الناس ، توكّلوا على الله وثِقُوا به ، فإنه يكفى ممن سواه .

---

(١) سورة لقمان ٣٤ .

قال : فروى مُسلم الضّبي عن حَبّة العُرَني ، قال : لما انتهينا إليهم رمَوْنا ، فقلنا لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين قد رمَوْنا ، فقال لنا : كُفّوا ، ثم رمونا ، فقال لنا عليه السلام : كُفّوا ، ثم الثالثة ، فقال : الآن طابَ القتالُ ، احملوا عليهم .

وروى أيضا عن قَيْس بن سعد بن عبادة أنّ عليا عليه السلام لما انتهى إليهم ، قال لهم : أقيدونا بدم عبد الله بن خَبّاب ، فقالوا : كُلّنا قتله ، فقال : احملوا عليهم .

***

وذكر أبو هلال العسكريّ في كتابُ " الأوائل " أنّ أول من قال : « لا حُكم إلا لله » ، عُرْوة بن حُدَيْر ، قالها بصِفّين ؛ وقيل : زيد بن عاصم المحاربيّ . قال : وكان أميرُهم أوّلَ ما اعتزلوا ابنَ الكَوّاء ، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبيّ — وكان أحد الخطباء — فقال لهم عند بيعتهم إياه : إيّاكم والرأيَ الفَطير[1] ، والكلام القَضيب[2] ، دعوا الرأي يَغِبّ[3] ، فإن غِبُوبه يكشف للمرء عن فُضّته[4] ، وازدحام الجواب مَضِلّة للصواب ، وليس الرأي بالارتجال ، ولا الحزم بالاقتضاب، فلا تدعونّكم السلامة من خطأ مُوبِق ، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والتماس الربح من جهته . إنّ الرأي ليس بنَهْنَهيّ[5] ، ولا هو ما أعطتك البديهة ، وإنّ خَميرَ الرأي خيرٌ من فطيره ؛ ورب شيء غابُّه خير من طَرِيّه ، وتأخيرُه خير من تقديمه .

***

وذكر المدائنيّ في كتاب " الخوارج " قال : لما خرج عليّ عليه السلام إلى أهل النهر أقبلَ رجل من أصحابه ممن كان على مقدّمته يركض ؛ حتى انتهى إلى عليّ عليه السلام ،

(١) الرأي الفطير : الذي يبدو بديها من غير تروية ، خلاف الخمير .
(٢) الكلام القضيب : المرتجل .
(٣) يغب ، أي يمضي عليه وقت .
(٤) الفضة : العيب .
(٥) النهنهي : نسبة إلى النهنه ، وهو الثوب الرقيق النسج .

فقال : البشرى يا أميرَ المؤمنين ! قال : ما بُشراك ؟ قال : إنّ القوم عَبروا النهر لمّا بلغهم وصولُك ، فأبْشِر ؛ فقد منحك الله أ كتافَهم ؛ فقال له : آلله أنت رأيتَهم قد عبروا ! قال : نعم ، فأحلفه ثلاث مرات ، في كلّها يقول : نعم ، فقال عليّ عليه السلام : والله ما عَبَروه ولن يعبرُوه ؛ وإن مصارعهم لَدُون النطفة ؛ والذى فَلَق الحَبّة ، وبرأ النسمة ، لن يبلغوا الأثلاث ولا قصر بوَازِن ، حتى يقتلَهم الله ، وقد خاب من افترى . قال : ثم أقبل فارس آخر يركُض ، فقال كقول الأول ، فلم يكترث عليّ عليه السلام بقوله ، وجاءت الفرسان تركض ، كلّها تقول مثلَ ذلك ؛ فقام عليّ عليه السلام فجالَ في متن فرَسه . قال : فيقول شابّ من الناس : والله لأكونَنّ قريبا منه ، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سِنانَ هذا الرمح في عينه ؛ أيدّعي علم الغيب ! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كسّروا جفونَ سيوفهم ، وعرقبُوا خيلهم ، وجَثَوْا على رُكَبهم ، وحكّموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زَجل فنزل ذلك الشابّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني كنت شككت فيك آنفا ، وإني تائب إلى الله وإليك ، فاغفر لي ، فقال عليّ عليه السلام : إن الله هو الذي يغفر الذنوب ، فاستغفره .

***

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في "الكامل" قال : لما واقفهم عليّ عليه السلام بالنّهروان ، قال : لا تبدءوهم بقتال حتى يبدءوكم ، فحمل منهم رجل على صفّ عليّ عليه السلام ، فقتل منهم ثلاثة ؛ ثم قال :

أقتلُهم وَلَا أرَى عَلِيَّا ولو بدا أوجرتُه الخَطِّيَّا(١)

فخرج إليه عليّ عليه السلام فضربه ، فقتله ، فلما خالطه سيفُه ، قال : يا حبّذا الرَّوْحة إلى الجنة ! فقال عبد الله بن وهب : والله ما أدري إلى الجنة أم إلى النار ! فقال رجل منهم

(١) أوجرته الخطي : طعنته بالرمح .

من بنى سَعْد: إنما حضرتُ اغترارا بهذا الرجل ـ يعنى عبد الله ـ وأراه قد شكّ واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس، ومال ألفٌ منهم إلى جهة أبى أيوب الأنصارى؛ وكان على ميمنة علىّ عليه السلام، فقال علىّ عليه السلام لأصحابه: احملوا عليهم؛ فوالله لا يُقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة[1]. فحمل عليهم فطحنهم طحنا، قُتِل من أصحابه عليه السلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية[2].

* * *

وذكر أبو العبّاس ـ وذكر غيره أيضا ـ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لما وجّه إليهم عبدَ الله بن عباس ليناظرَهم قال لهم: ماالذى نقمتم على أميرِ المؤمنين؟ قالوا له: قد كان للمؤمنين أميرا، فلما حكّم فى دين الله خَرَج من الإيمان؛ فليَتُبْ بعد إقراره بالكفر نَعُدْ إليه[3]؛ قال ابن عباس: ماينبغى لمؤمن لم يَشُبْ إيمانَه بشكّ أنْ يُقِرّ على نفسه بالكفر، قالوا: إنّه حكّم، قال: إنّ الله أمر بالتحكيم فى قتل صَيْد، فقال: ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[4]، فكيف فى إمامةٍ قد أشكلتْ على المسلمين! فقالوا: إنّه حُكِم عليه فلم يَرْضَ، فقال: إنّ الحكومة كالإمامة، ومتى فَسَق الإمام وَجَبت معصيتُه؛ وكذلك الحكَمان لمّا خالفا نُبِذَتْ أقاويلهما، فقال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاجَ قريش حُجّة عليهم؛ فإنّ هذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[5]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾[6].

قال أبو العباس: ويقالُ: إنّ أولَ مَنْ حكّم عروة بن أُدَيّة ـ وأدية جدّة له جاهلية ـ وهو عروة بن حُدَيْر، أحد بنى ربيعة بن حنظلة. وقال قوم: أولُ من حكّم رجل من بنى

---

(١) فى الكامل: «ولا يفلت».
(٢) الكامل ٣: ١٨٧.
(٣) ب: «نعد له».
(٤) سورة المائدة ٩٥
(٥) سورة الزخرف ٥٨
(٦) سورة مريم ٩٧، والخبر فى الكامل ٣: ١٦٥.

محارب بن خَصَفَة بن قَيْس بن عَيْلان ، يقال له سعيد . ولم يختلفوا في اجتماعهم[1] على عبدالله بن وهب الراسبيّ، وأنه امتنع عليهم، وأومأ إلى غيره فلم يقنعوا إلّا به ، فكان إمام القوم، وكان يُوصف برأي . فأما أولُ سيف سُلّ من سيوف الخوارج فسيف عُروة بن أُدَيّة ، وذاك أنه أقبل على الأشعث ، فقال له : ماهذه الدنيّة يا أشعث ؟ وماهذا التحكيم ؟ أشرطٌ أوثقُ من شَرط الله عزّ وجلّ ! ثم شَهَر عليه السيفَ ، والأشعثُ مولٍّ ؛ فضرب به عَجُز بغلته .

قال أبو العباس : وعروة بن حُدَيْر هذا من النفر الذين نجَوْا من حرب النَّهْروان، فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية ، ثم أُتِيَ به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبي بكر وعمر فقال : خيرا ، فقال له : فما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان وفي أبي تراب ؟ فتولّى عثمانَ ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر ، وفعل في أمر عليّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكّم ثم شهد عليه بالكُفر ، ثم سأله عن معاوية فسبّه سبًّا قبيحاً ، ثم سأله عن نفسه ؛ فقال له: أوّلك لِزِنْيَة[2] وآخرك لِدَعْوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربّك . فأمر به فضُربتْ عنقه ، ثم دعا مولاه فقال له : صفْ لي أمورَه ، قال : أأطنب أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال: ماأتيتُه بطعام بنهار قطّ ، ولافرشت له فراشا بليل قطّ[3] !

قال أبو العباس: وسبب تسميتهم الحرورية أنّ عليا عليه السلام لما ناظرَهم بعدمناظرة ابن عباس إيّاهم ، كان فيما قال لهم : ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لما رفعُوا المصاحف قلت لكم : إنّ هذه مكيدةٌ ووَهْن[4] ، وأنهم لوقصدوا إلى حُكْم المصاحف لأتوني ، وسألوني[5] التحكيم ! أفتعلمون أنّ أحداً كان أكرهَ للتحكيم مني ؟ قالوا : صدقت ، قال : فهل تعلمون أنكم استكرهتُموني على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أنّ حُكْمهما نافذ ماحكَما

---

(١) الكامل : « إجماعهم » .

(٢) لزنية ، يشير إلى ما كان من أبي سفيان في جاهليته من غشيانه أمه سمية .

(٣) الكامل ٣ : ١٧٩ — ١٨١

(٤) ب : « مكيدة وهن » . (٥) الكامل : « ثم سألوني » .

بحكم الله ، فتى خالفناه ، فأنا وأنتم من ذلك برآء ، وأنتم تعلمون أنّ حُكْم الله لايعدُونى؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وكان معهم فى ذلك الوقت ابن الكوّاء[١]، قال : وهذا من قبل أن يذبحوا عبد الله بن خبّاب ، وإنما ذبحوه فى الفُرْقة الثانية بكَسْكر[٢]، فقالوا له : حكّمت فى دين الله برأينا ونحن مقرون بأنّا كنا كفرْنا ، ولكنا الآن تائبون فأقِرّ بمثل ماأقررنا به ، وتُبْ ننهضْ معك إلى الشام ، فقال: أماتعلمون أن الله تعالى قدأمر بالتحكيم فى شِقاق بين الرجل وامرأته ، فقال سبحانه : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب كأرنب يساوى نصف درهم، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ! فقالوا له : فإنّ عَمْراً لما أبى عليك أن تقول فى كتابك : « هذا ما كتبه عبد الله علىّ أمير المؤمنين » محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت : « علىّ بن أبى طالب » ، فقد خلعت نفسك ، فقال : لى فى رسول الله صلى الله عليه أسوةٌ حين أبَى عليه سُهَيل بن عمرو أن يكتب : « هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُهيل بن عمرو » ، وقال له : لوأقررتُ بأنك رسولُ الله ماخالفتُك ، ولكنّى أقدّمك لفضلك ؛فا كتب« محمدبن عبدالله» ،فقال لى :ياعلىّ، امحُ «رسول الله» ، فقلت : يارسول الله ، لا تشجُعُنى نفسى[٣] على محو اسمك من النبوة ، قال :فقفنى عليه ، فمحاه بيده ،ثم قال: « ا كتب محمد بن عبد الله » ، ثم تبسم إلىّ وقال : ياعلىّ ، أما إنك ستسام مثلها فتعطِى، فرجع معه منهم ألفان من حَرُوراء وقد كانوا تجمّعوا بها ، فقال لهم علىّ : مانسمّيكم ؟ ثم قال : أنتم الحَرُورية ، لاجتماعكم بحَرُوراء[٤].

* * *

وروى جميعُ أهل السِّير كافةأنّ عليا عليه السلام لما طَحن القوم طلب ذا الثُّدَيّةطلباً

---

(١) ابن الكواء ، هو عبد الله بن الكواء ؛ من بنى يشكر بن بكر بن وائل .

(٢) كسكر : كورة بين الكوفة والبصرة .

(٣) الكامل : « لا تسخو نفسى » . (٤) الكامل ٣ : ١٨١ ، ١٨٢ .

شديداً ، وقلّب القتلى ظهراً لبطن ، فلم يقدر عليه ، فساءه ذلك ، وجعل يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبْت ، اطلبوا الرجل ، وإنه لفي القوم ؛ فلم يزل يتطلّبه حتى وجده ، وهو رجل مُخدَجُ اليد [1] ، كأنها ثديٌ في صدره .

* * *

وروى إبراهيم بن ديزيل في كتاب " صفين " عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، قال : لما شَجَرهم عليّ عليه السلام بالرّماح ، قال : اطلبوا ذا الثُّدَيّة ، فطلبوه طلبا شديدا ، حتى وجدوه في وَهْدَةٍ من الأرض تحت ناسٍ من القتلى ، فأُتِيَ به ، وإذا رَجُلٌ على ثَدْيه مثل سَبَلات [2] السِّنّور ، فكبّر عليّ عليه السلام ، وكبّر الناس معه سرورا بذلك .

وروى أيضا عن مسلم الضّبيّ عن حَبّة العُرَنيّ ، قال : كان رجلا أسود مُنْتِن الريح ، له ثدي كثدي المرأة ، إذا مُدّت كانت بطول اليد الأخرى ، وإذا تركت اجتمعت وتقلّصتْ ، وصارت كثدي المرأة ، عليها شعرات مثل شوارب الهرّة ، فلما وجدوه قطعوا يده ، ونصبوها على رُمْح . ثم جعل عليّ عليه السلام يُنادِي : صدق الله وبلّغ رسوله ؛ لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غَرَبت الشمس أو كادت .

وروى ابن دِيزيل أيضا ، قال : لما عِيلَ [3] صبرُ عليّ عليه السلام في طلب المخدَج ، قال : ائتوني ببغلة رسول الله صلى الله عليه ، فركبها واتبعه الناس ، فرأى القتلى ، ويقول : اقلبوا ، فيَقلِبون قتيلا عن قتيل ، حتى استخرجوه ، فسجد عليّ عليه السلام .

وروى كثير من الناس أنّه لما دعا بالبغلة ليركبها ، قال : ائتوني بها فإنها هادية ، فوقفتْ به على المخدَج ، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين .

وروى العوّام بن حَوْشب عن أبيه ، عن جدّه يزيد بن رُوَيم ، قال : قال عليّ عليه

---

(١) مخدج اليد ، أي ناقص اليد .

(٢) السبلة : ماعلى الشارب من الشعر ، وجمعه سبلات .

(٣) عيل صبره : أعوزه الصبر .

السلام : يُقتَلُ اليوم أربعة آلاف من الخوارج، أحدهم ذو الثُّدَيَّة ، فلما طُحِن القومُ ورام استخراج ذِي الثُّدَيَّة فأتيمه، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قَصَبة، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه ، وقال : اطرح على كلّ قتيل منهم قَصَبة ، فلم أزل كذلك وأنا بين يديْه ، وهو راكب خَلفي، والناس يتبعونه حتى بَقِيَت في يدي واحدة ، فنظرت إليه وإذا وجهه أربَد ، وإذا هو يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، فإذا خريرُ ماء عند موضع دالية ، فقال : فَتِّش هذا ففتشته ، فإذا قتيل قد صار في الماء ، وإذا رجلُه في يدي ، فجذبتها ، وقلت : هذه رِجْلُ إنسان ، فنزل عن البغلة مسرعا ، فجذب الرِّجْلَ الأخرى ، وجررناه حتى صار عَلَى التراب، فإذا هو المخدَّج ، فكبّر عليّ عليه السلام بأعلى صوته ، ثم سجد ، فكبّر الناس كلهم .

وقد روى كثير من المحدّثين أن النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوما : «إنّ منكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن ، كما قاتلت عَلَى تنزيله » ، فقال أبو بكر : أنا يارسول الله؟ فقال : « لا » ، فقال عمر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا ، بل خاصف النعل » ، وأشار إلى عليّ عليه السلام .

* * *

وقال أبو العباس في " الكامل " : يقال : إنّ أوّلَ مَنْ لَفظ بالحكومة ولم يُشِدْ [1] بها رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرّ ، من بني صَرِيم ، يقال له الحجاج بن عبد الله ، ويعرف بالبُرَك ؛ وهو الذي ضرب آخرا معاوية عَلَى أليته ، يقال : إنّه لما سمع بذكر الحكَمين ، قال : أيحكّم أميرُ المؤمنين الرجالَ في دين الله ! لا حُكْم إلا لله ، فسمعه سامع ، فقال : طعَن والله فأنفذ .

قال أبو العباس : وأول من حكّم بين الصّفين رجلٌ من بني يَشكُر بن بكر

---

(١) لم يشد ، من أشاد به ، إذا رفع صوته .

ابن وائل ، كان من أصحاب علىّ عليه السلام ، فحمل عَلَى رجل منهم فقتله غِيلة ، ثم مرق بين الصَّفّين يُحكِّم ، وحمل عَلَى أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع إلى ناحية علىّ عليه السلام ، فخرج إليه رجل من هَمْدان فقتله ، فقال شاعر هَمْدان :

وَمَا كَانَ أغْنَى اليَشْكُرِىَّ عن الّتِي ... تَصَلَّى بهـا جَمْراً من النَّارِ حَامِياً

غـداة ينادى والرماحُ تَنُوشُهُ ... خلعتُ عليًّا بادئاً ومعـاويا[1]

قال أبو العباس:وقد روى المحدّثون[2] أن رجلا تلا بحضرة علىّ عليه السلام:﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾[3] ، فقال علىّ عليه السلام : أهلُ حَرُوراء منهم .

قال أبو العباس:ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا اختلافَ فيه أنه قاله — وكان يردّده — أنّهم لما ساموه أنه يُقِرّ بالكفر، ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام،فقال: أبعدَ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فى الدين أرجع كافرا ! ثم قال :

ياشاهـدَ اللهِ عَلَيَّ فاشهَدِ ... أَنِّى عَلَى دِينِ النبىِّ أحمـدِ

* مَنْ شكَّ فى الله فإنّى مُهْتَدِ[4] *

وذكر أبو العباس أيضاً فى " الكامل " أن عليًّا عليه السلام فى أولِ خروج القوم عليه ، دعا صعصعة بن صُوحان العبدىّ — وقد كان وجّهه إليهم — وزياد بن النّضر الحارثىّ ، مع عبدالله بن عباس ، فقال لصعصعة : بأىّ القوم رأيتَهم أشدّ إطافة[5]؟ قال: بيزيد بن قيس الأرحبىّ،فركب علىّ عليه السلام إلى حَرُوراء ، فجعل يتخلّلهم حتى صار إلى مَضْرِب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتّكأ على قوسه ، وأقبل

(١) تنوشه : تتناوله .

(٢) فى الكامل : « وجاء فى الحديث » .

(٣) سورة الكهف ١٠٤ .

(٤) الكامل ٣ : ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٥) إطافة ، مصدر أطاف بالشىء ؛ إذا أحاط به .

عَلَى الناس ، فقال : هذا مَقَامُ مَنْ فَلَج [١] فيه فَلَجَ يوم القيامة . ثم كلّمهم وناشدهم ، فقالوا : إنّا أذنبنا ذنبا عظيما بالتّحكيم ، وقد تُبْنا ، فتب إلى الله كما تُبْنا نَعُدْ لك . فقال عليّ [١] عليه السلام : أنا أستغفر الله من كلّ ذنب ، فرجعوا معه وهم ستة آلاف ، فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليًّا عليه السلام رجع عن التحكيم ، ورآه ضلالا ، وقالوا: إنّما ينتظر أميرُ المؤمنين أن يسمَن الكُراع [٢] وتُجْبَى الأموال ، ثم ينهضُ بنا إلى الشام. فأتى الأشعثُ عليًّا عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيتَ الحكومة ضلالا والإقامة عليها كفرا ، فقام عليّ [٣] عليه السلام يخطب ، فقال : مَنْ زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كَذَب ، ومَنْ رآها ضَلالا فقد ضلّ ؛ فخرجت حينئذ الخوارجُ من المسجد فحكّمت [٤] .

***

قلت : كلّ فساد كانَ في خلافة عليّ عليه السلام ، وكلّ اضطراب حَدَث فأصله الأشعث ، ولولا محاقّته [٥] أميرالمؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرّة لم تكن حَرْبُ النّهرَوان ، ولكانَ أميرُ المؤمنين عليه السلام يَنهضُ بهم إلى معاوية ، ويملك الشام ؛ فإنه صلوات الله عليه حَاول أن يَسلُك معهم مسلك التّعريض والمواربة : وفي المَثل النبويّ صلوات الله على قائله : « الحرب خُدْعة » ، وذاك أنّهم قالوا له : تبْ إلى الله

(١ـ١) عبارة الكامل : « من فلج فيه فلج يوم القيامة ؛ أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ! قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ! قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما ، فتب إلى الله منه ، واستغفره نعد إليك ، فقال على . . . » ، والفلج : الظفر والانتصار .

(٢) الكراع : اسم للخيل

(٣) الكامل : « فخطب على الناس » .

(٤) الكامل ٣ : ٢١٠ ـ ٢١٢ .

(٥) المحاقة : أن يقول كل واحد من الطرفين : « أنا أحق » ؛ هذا أصلها ، والمراد المحاجة والمجادلة .

مما فعلت ، كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام ، فقال لهم كلمة مجملة مُرْسَلة يقولها الأنبياء والمعصومون ، وهى قوله : « أستغفر الله من كلّ ذنب » ، فرضُوا بها وعدّوها إجابةً لهم إلى سؤلهم ، وصفَتْ له عليه السلام نيّاتُهم ، واستخلصَ بها ضمائرَهم ، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافا بكفر أو ذنب ، فلم يتركْه الأشعثُ ، وجاء إليه مستفسرا وكاشفا عن الحال ، وهاتكا سِتْر التورية والكناية ، ومُخرجا لها من ظلمة[1] الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسِد التدبير ، ويُوغِر الصدور ، ويعيد الفتنة ؛ ولم يستفسرْه عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دَخَن[2] ، ولا ترقيقا عن صَبُوح[3] ، وألجأه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما فى نفسه ، ولا يترك الكلمة عَلَى احتمالها ، ولا يطويها عَلَى غرّها[4] ، فخطب بما صَدَع به عن صورة ما عنده مجاهرة ، فانتقض ما دبّره ، وعادت الخوارج إلى شُبْهتها الأولى ، وراجعوا التحكيم والمُروق ؛ وهكذا الدول التى تظهر فيها أمارات الانقضاء والزوال ، يُتاحُ لها أمثال الأشعث من أولى الفساد فى الأرض ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[5] .

***

قال أبو العباس : ثم مضى القومُ إلى النّهروان ، وقد كانوا أرادوا المضىّ إلى المدائن ، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا فى طريقهم مُسلما ونصرانيًّا ، فقتلوا المسلمَ لأنّه عندهم كافر ؛ إذ كان على خلاف معتقدهم ، واستوصَوْا بالنصرانىّ ، وقالوا : احفظوا ذمّة نبيّكم[6]

(١) ب : « مظلمة » ، تصحيف ، صوابه من ا ، ج .

(٢) هدنة على دخن مثل ، والهدنة فى الأصل : اللين والسكون ، ويطلق على المصالحة . والدخن : تغير الطعام . وانظر الميدانى ٢ : ٣٨٢ .

(٣) أصل المثل : « عن صبوح ترقق » ، والصبوح : مايشرب صباحا ، وترقيق الكلام تزيينه ، يضرب لمن كنى عن شىء ويريد غيره . وانظر الميدانى ٢ : ٢١ .

(٤) أصل المثل : « طويت الثوب على غره » أى كسره .

(٥) سورة الأحزاب ٦٢ .

(٦) الكامل : ٣٠ : ٢١٢

قال أبو العباس : ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل فى رُفْقة فأحسوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة : إنّ هذا ليس من شأنِكم ، فاعتزلوا ودَعُونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطَب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابُك ؟ فقال : قومٌ مشركون مستجيرون بكم ، ليسمعوا كلامَ الله ، ويفهموا حدوده ، قالوا : قد أجَرْناكم ، قال : فعلّمُونا ، فجعلوا يعلّمُونهم أحكامهم ، ويقول واصل : قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا : فامْضُوا مصاحَبين ، فقد صرتم[1] إخواننا ، فقال : بل تُبْلغُونَنا مأمننا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[2] ، قال : فينظر[3] بعضُهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن[4] .

* * *

قال أبو العباس : ولقِيَهم عبد الله بن خَبّاب فى عنقه مصحف ، على حِمار ، ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له : إنّ هذا الذى فى عُنُقك لَيأمُرنا بقتلك ، فقال لهم : ما أحياه القرآن فأحيُوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجل منهم على رُطَبة سقطت من نَخْلة فوضعها فى فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورُّعا . وعرض لرجل منهم خِنزيرٌ فضربه فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، وأنكَرُوا قتل الخِنزير ، ثم قالوا لابن خَبّاب : حدِّثنا عن أبيك ، فقال : إنى سمعتُ أبى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « ستكون بعدى فتنة

---

(١) الكامل : « فإنكم إخواننا » .

(٢) سورة التوبة ٦ .

(٣) الكامل : « فنظر بعضهم إلى بعض » .

(٤) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بَدَنُه ، يمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، فكنْ عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل» ، قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ فى علىّ قبل التحكيم ، وفى عثمان فى السنين الستّ الأخيرة ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ فى علىّ بعد التحكيم والحكومة ؟ قال : إنّ عليا أعلم بالله وأشدُّ توقّيا على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنّك لست تتّبع الهدى ، إنما تتبعُ الرجال على أسمائهم ، ثم قربوه إلى شاطئ النهر ، فأضجعوه فذبحوه[1] .

قال أبو العباس : وساوَمُوا رجلا نصرانيًّا بنخلة له ، فقال : هى لكم ، فقالوا : ما كنا لنأخذها إلّا بثمن ، فقال : واعجباه ! أتقتلون مثل عبد الله بن خبّاب ، ولا تقبلون جَنَا نخلة إلا بثمن[1] !

***

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنّى ، قال : طُعن واحدٌ من الخوارج يوم النّهروان ، فمشى فى الرمح ، وهو شاهر سيفه ، إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله ، وهو يقرأ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[2] .

وروى أبو عبيدةَ أيضا ، قال : استنطقهم علىّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خبّاب ، فأقرّوا به ، فقال : انفردوا كتائبَ لأسمع قولكم كتيبة كتيبة ، فتكتّبوا كتائبَ ، وأقرّت كلُّ كتيبة بمثل ما أقرّتْ به الأخرى ؛ من قتل ابن خبّاب ، وقالوا : ولنقتلنّك كما قتلناه ؛ فقال علىّ : والله لو أقرّ أهلُ الدنيا كلّهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم ؛ ثم التفت إلى أصحابه ، فقال لهم : شدُّوا عليهم ؛ فأنا أولُ من يشدّ عليهم . وحَمَل

---

(١) الكامل ٣ : ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٢) سورة طه ٨٤ .

بذى الفقار حملةً منكرةً ثلاث مرات ، كلّ حملةٍ يضرب به حتى يعوجَّ متنُه ، ثم يخرج فيسوّيه بركبتيه ، ثم يحمل به حتى أفنام .

وروى محمد بن حبيب ، قال : خَطَب علىّ عليه السلام الخوارج يوم النّهر ، فقال لهم : نحن أهلُ بيت النبوّة ، وموضع الرسالة ، ومختلَف الملائكة ، وعنصر الرحمة ، ومعدِن العلم والحكمة ، نحن أفق الحجاز ، بنا يلحَق البطىء ، وإلينا يرجع التائب ؛ أيها القومُ ، إنى نذيرٌ لكم أن تُصبِحُوا صَرْعى بأضغام هذا الوادى ... إلى آخر الفصل .

(٣٧)

ومن كلام له عليه السلام يجرى مجرى الخطبة :

الأصل :

فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا ، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا ، وَنَطَقْتُ حِينَ تَمْتَعُوا ، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً ، وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً ، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا ، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا .

كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ ؛ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ ، وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ ؛ الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ .

رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ ، وَسَلَّمْنَا لِلهِ أَمْرَهُ . أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ ، فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي ؛ فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي ؛ وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي .

* * *

الشرح :

هذه فصول أربعة ، لا يمتزج بعضها ببعض ، وكل كلام منها ينحو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه بالآخر ؛ وإنما الرضى رحمه الله تعالى التقطها من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر ، قاله بعد وقعة النهروان ، ذكر فيه حاله منذ توفى رسول الله صلى الله

عليه وآله ، وإلى آخر وقت ؛ فجعل الرضيّ رحمه الله تعالى ما التقطه منه سَرْداً ، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصدا واحدا .

***

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله : « واستبددت برهانها » ؛ يذكُر فيه مقاماتِه فى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أيامَ أحداث عثمانَ ، وكَوْن المهاجرين كلّهم لم ينكِروا ولم يُواجهوا عثمانَ بما كان يواجِهُه به وينهاه عنه ؛ فهذا هو معنى قوله : « قمت بالأمر حين فَشِلوا » ، أى قمت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله عنه . والفَشَل : الخوَر والجُبْن .

قال : « ونطقتُ حين تمتعوا » ، يقال : تمتع فلان ؛ إذا تردّد فى كلامه من عِىٍّ أو حَصَر [(١)] .

قوله : « وتطلّعتُ حين تقبّعوا » ، امرأةٌ طُلَعة قُبَعة ، تَطلع ثم تقبع رأسها ، أى تدخله كما يقبعُ القنفذُ ، يدخُل برأسه فى جلده ، وقد تقبّع الرجُل ، أى اختبأ ، وضدّه تطلّع .

قوله : « وكنت أخفضَهم صوتا ، وأعلاهم فَوْتا » يقول : علوتُهم وفُتّهم وشأوتُهم سَبْقا ، وأنا مع ذلك خافِض الصوت ، يشير إلى التواضع ونفى التكبّر .

وقوله : « فطرت بعنانها ، واستبددت برهانها » يقول : سبقتهم ، وهذا الكلامُ استعارة من مُسابقة خَيْل الحلْبة . واستبددت بالرهان ، أى انفردت بالخطَر [(٢)] الذى وقع التراهنُ عليه .

***

الفصل الثانى فيه ذكر حالِه عليه السلام فى الخلافة بعد عثمان ، يقول : كنتُ لمّا وَليتُ الأمر كالجبل لا تحرّكه القواصِف ، يعنى الرياح الشديدة ، ومثله العواصف .

والمهمز : موضع الهمز ؛ وهو العيب ، وكذلك المغمز .

---

(١) ج : « من عى وحصر » .

(٢) الخطر : السبق الذى يترامى عليه فى الرهان .

ثم قال : « الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له، والقوىّ عندى ضعيف حتى آخذ الحق منــه » ؛ هــذا آخر الفصل الثانى ، يقول : الذليل المظلوم أقوم بإعزازه ونَصْره ، وأقوِّى يدَه إلى أن آخذ الحقّ له، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التى كان عليها قبل أن أقومَ بإعزازه ونصره، والقوىّ الظالم أستضعِفه وأقهَرُه وأذلّه إلى أن آخذَ الحقّ منه، ثم يعود إلى الحالة التى كان عليها قَبْل أن أهتضِمَه ، لاستيفاء الحق .

* * *

الفصل الثالث من قوله : « رضينا عن الله قضاءه » ، إلى قوله : « فَلاَ أكونُ أوّلَ مَنْ كذَّب عليه » ؛ هــذا كلامٌ قاله عليــه السلام لمّا تفرّس فى قوم من عَسْكره أنهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبىّ صلى الله عليه وآله من أخبار الملاَحِم والغائبات ، وقد كان شكّ منهم جماعة فى أقواله ؛ ومنهم مَنْ واجهه بالشكّ والتهمة[1] .

[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام علىّ بالأمور الغيبيّة]

روى ابن هلال الثقفىّ فى كتاب " الغارات " عن زكريا بن يحيى العطّار، عن فُضَيل، عن محمد بن علىّ، قال : لما قال علىّ عليه السلام: سَلُونى قبْل أن تفقِدونى، فوالله لا تسألونى عن فئة تُضِلّ مائة، وتَهدِى مائةً إلا أنبأتكم بناعِقتها وسائقتها، قام إليه رجل فقال: أخبِرْنى بما فى رأسى ولِحْيَتى من طاقة شَعْر، فقال له علىّ عليه السلام: والله لقد حدّثنى خليلى أنّ على كلّ طاقة شَعْرٍ من رأسك مَلَكاً يلعنُك ، وأنّ على كلّ طاقة شعر مِنْ لحيتك شيطانا يُغويك ؛ وأنّ فى بيتك سَخْلا يقتلُ ابنَ رسول الله صلى الله عليــه ـ وكان ابنُه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلا يحبو ـ وهو سنان بن أنس النَّخَعِىّ .

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالىّ، عن سويد بن غفلة أنّ عليا عليه السلام ، خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّى مررتُ بوادى

(١) انظر الكلام عن الفصل الرابع ص ٢٩٥ .

القرى ، فوجدتُ خالد بن عُرفطة قد مات ، فاستغفر له ، فقال عليه السلام : والله مامات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حِمار . فقام رجل آخر من تحت المنبر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أنا حبيب بن حِمار ، وإني لك شيعة ومحبّ ، فقال: أنت حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : والله إنك لحبيب بن حمار ؟ فقال : إي والله ! قال : أما والله إنك لحامِلها ولتحمِلنّها ، ولتدخُلَنّ بها من هذا الباب — وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة .

قال ثابت : فوالله مامِتّ حتى رأيتُ ابنَ زياد ، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين ابن عليّ عليه السلام،وجعل خالد بن عُرفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحبَ رايته، فدخل بها من باب الفيل .

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البجليّ ، قال : أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهيّ ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : قال علي عليه السلام على المنبر : ما أحدٌ جرت عليه المواسي إلا وقد أنزل الله فيه قرآنا ؛ فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له : فما أنزل الله تعالى فيك ؟ فقام الناس إليه يضربونه ؛ فقال : دعوه ، أتقرأ سورة هود؟ قال:نعم ، قال:فقرأ عليه السلام:﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾(١) ثم قال : الذي كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه ، والشاهد الذي يتلوه أنا .

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن بكير ، عن حكيم بن جُبير ، قال : خطب عليّ عليه السلام فقال في أثناء خطبته : « أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، لا يقولها أحدٌ قبلي ولا بعدي إلا كذب ؛ ورِثتُ نبيّ الرحمة ، ونكحتُ سيدة نساء هذه الأمة ، وأنا خاتم الوصيين » .

---

(١) سورة هود ١٧ .

فقال رجل من عَبْس : [و] مَنْ لايحسِنُ أن يقول مثل هذا ! فلم يرجع إلى أهله حتى جُنّ وصُرِع ، فسألوهم : هل رأيتم به عَرَضا قبل هذا ؟ قالوا : ما رأينا به قبل هذا عَرَضا.

وروى محمد بن جبلة الخيّاط ، عن عِكْرمة ، عن يزيد الأحمسيّ أنّ عليا عليه السلام كان جالسا فى مسجد الكوفة ، وبين يديه قوم منهم عمرو بن حُرَيث ؛ إذ أقبلت امرأة مختمِرة لا تُعرف ، فوقفت فقالت لعليّ عليه السلام : يامَنْ قتل الرجال ، وسفك الدماء وأيتمَ الصبيان، وأرمل النساء ! فقال عليه السلام : وإنّها لهى هذه السَّلْقَلَقة الجلِعة المَجِعَةُ ، وإنها لهى هذه، شبيهة الرجال والنساء ؛ التى مارأتْ دماً قطّ ؛ قال : فولّت هاربة منكّسة رأسها ، فتبعها عمرو بن حريث ، فلمّا صارت بالرّحبة ، قال لها : والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل ، فادخلِي منزلى حتى أهبَ لك وأكسوَك ، فلما دخلتْ منزله أمر جواريَه بتفتيشها وكشفها ونَزْع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها ، فبكتْ وسألته ألّا يكشفها ؛ وقالت: أنا والله كما قال ؛ لى رَكَب النساء ، وأنثيانِ كأنثى الرجال ؛ ومارأيت دماً قطّ . فتركها وأخرجها. ثم جاء إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فقال : إنّ خليلى رسولَ الله صلى الله عليه أخبرنى بالمتمرّدين علىّ من الرجال والمتمرّدات من النساء إلى أن تقومَ الساعة .

قلت : السَّلْقَلَقة : السَّليطة، وأصله من السَّلْق وهو الذئب، والسَّلْقة : الذئبة. والجَلِعة المَجِعة : البذيئة اللسان . والرّكَب : مَنبِت العانة .

وروى عثمان بن سعيد ، عن شريك بن عبدالله ، قال : لما بلغ عليًّا عايه السلام أنّ الناسَ يتّهمونه فيمايذكرمن تقديم النبيّ صلى الله عليه وآله وتفضيله [إياه] على النّاس، قال: أنشدُ اللهَ مَنْ بَقِيَ ممّن لقى رسول الله صلى الله عليه وسمع مقاله فى يوم غَدِير خُمّ[1] إلّا قام

---

(١) خم : واد بين مكة والمدينة عند الجحفة ، به غدير عرف به .

فشهد بما سمع ، فقام ستة ممن عن يمينه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وستة ممن على شماله من الصحابة أيضاً ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم ، وهو رافع بيدي عليّ عليه السلام : « مَنْ كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه ، اللّهم والِ مَنْ والاه ، وعاد من عاداه ، وانصُر مَنْ نصره ، واخذُل مَنْ خذله ، وأحبّ مَنْ أحبّه ، وأبغِضْ مَنْ أبغضه »[1] .

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التّيمىّ ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، قال: قام أعشى همْدان[2] — وهو غلام يومئذ حَدَث — إلى عليّ عليه السلام ، وهو يخطب ويذكُر الملاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أشبه هذا الحديث بحديث خُرافة ! فقال علي عليه السلام : إنْ كنتَ آثماً فيما قلتَ يا غلام ، فرماك الله بغلام ثَقيف ! ثم سكت ، فقام رجال فقالوا : ومَنْ غلامُ ثَقيف يا أمير المؤمنين؟ قال : غلام يملِك بلدتَكم هذه لا يترك لله حرمةً إلا انتهكها ، يضرب عُنُق هذا الغلام بسيفه ، فقالوا : كم يملكُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين إن بلغها ، قالوا : فيُقتَلُ قتلا أم يموت موتا ؟ قال : بل يموتُ حتْف أنفه بداء البَطْن ، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه .

قال إسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رأيتُ بعيني أعشى باهلة ، وقد أحضر في جملة الأسرى الذين أسِروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدى الحجاج ، فقرّعه ووبّخه ، واستنشده شِعرَه الذى يحرِّض فيه عبدَ الرحمن على الحرب ، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس .

وروى محمد بن على الصوّاف ، عن الحسين بن سفيان ، عن أبيه ، عن شُمير بن سَدير الأزدىّ ، قال : قال عليّ عليه السلام لعمرو بن الحمِق الخزاعىّ : أين نزلت ياعمرو؟ قال:

(١) نقله المحب الطبرى في الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) . وتحدث عن طرقه هناك .
(٢) أعشى همدان ، أسره الحجاج ثم قتله ؛ وانظر الأغانى ٦ : ٥٨ — ٦٢ .

فى قومى ، قال: لا تنزلنّ فيهم، قال : فأنزلُ فى بنى كِنانة جيرانا؟قال : لا ، قال : فأنزل فى ثَقِيف ؟ قال : فما تصنع بالمَعَرّة والجرة ؟ قال : وماهما ؟ قال: عُنُقان من نار ، يخرجان من ظهر الكوفة ، يأتى أحدهما على تميم وبكر بن وائل ؛ فقلّما يُفلِت منه أحدٌ ، ويأتى العنق الآخر ، فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة ، فقلّ منْ يصيبُ منهم،إنما يدخل الدارَ فيحرِق البيتَ والبيتين . قال : فأين أنزِل؟قال : انزِل فى بنى عمرو بن عامر ، من الأزد ـ قال : فقال قوم حضروا هذا الكلام : مانراه إلّا كاهنا يتحدّث بحديث الكَهَنَة ـ فقال : ياعمرو ، إنك المقتول بعدى ؛ وإنّ رأسك لمنقول ؛ وهو أوّلُ رأسٍ ينقَل فى الإسلام ؛ والويل لقاتِلك ! أما إنّك لا تنزِل بقوم إلا أسلموك برُمّتك[1] ؛ إلا هذا الحىّ من بنى عمرو بن عامر من الأزْد ، فإنّهم لن يُسلموك ولن يَخذُلوك ؛ قال : فوالله مامضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحمِق فى خلافة معاوية فى بعض أحياء العرب، خائفا مذعورا ، حتى نزل فى قومه من بنى خُزاعة ، فأسلموه ، فقتِل وحُمِل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام ؛ وهو أوّلُ رأس حُمِل فى الإسلام من بلد إلى بلد .

* * *

وروى إبراهيم بن ميمون الأزدىّ عن حَبّة العرنىّ ، قال : كان جويرية بن مِسهر العبدىّ صالحا ، وكان لعلى بن أبى طالب صديقا ، وكان علىّ يحبُّه، ونظر يوما إليه وهو يسير ، فناداه: ياجويرية،الحقْ بى ، فإنى إذا رأيتُك هَوِيتُك؛ قال إسماعيل بن أبان: فحدّثنى الصبّاح ، عن مسلم عن حَبّة العُرنىّ، قال : سرنا مع على عليه السلام يوما فالتفت فإذا جُويرية خَلْفه بعيدا ، فناداه : ياجُويرية ، الحَقْ بى لا أبالك ! ألا تعلم أنّى أهواك وأحِبّك؟قال : فركَض نحوه،فقال له : إنى محدّثك بأمور فاحفظها،ثم اشتركا فى الحديث سرّا ، فقال له جُويرية : ياأمير المؤمنين ، إنى رجلٌ نسِىّ[2]، فقال له : إنى أعيدُ عليك

---

(١) أسلموك برمتك ، أى أسلموك بجميع ما معك .

(٢) النسى : الكثير النسيان .

الحديثَ لتحفظه ، ثم قال له فى آخر ماحدثه إياه : ياجويرية ، أحبب حبيبنا ما أحبَّنا ، فإذا أبغضنا فأبغِضه ، وأبغِض بغيضنا ما أبغضنا ، فإذا أحبَّنا فأحبَّه .

قال : فكان ناسٌ ممن يشكّ فى أمر علىّ عليه السلام يقولون : أتراه جعل جويرية وصيّه كما يدّعى هو من وصية رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : يقولون ذلك لشدّة اختصاصه له ، حتى دخل على علىّ عليه السلام يوما ، وهو مضطجع ، وعنده قوم من أصحابه ، فناداه جويرية : أيها النائم ، استيقظ ، فلتَضْرِبَنّ على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك ، قال : فتبسّم أميرُ المؤمنين عليه السلام ؛ قال : وأحدّثك ياجويرية بأمرك ؛ أما والذى نفسى بيده لتُعتَلَنَّ[(1)] إلى العُتُلّ الزنيم ، فليقطعنّ يدك ورجلك وليصلبنّك تحت جذع كافر ، قال : فوالله مامضت إلا أيّام على ذلك حتى أخذ زياد جويرية ، فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب جذع ابن مكعبر ، وكان جِذعا طويلا ؛ فصلبه على جِذع قصير إلى جانبه .

وروى إبراهيم فى كتاب " الغارات " ، عن أحمد بن الحسن الميثمىّ ، قال : كان ميثم التمّار مولى علىّ بن أبى طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بنى أسد ، فاشتراه علىّ عليه السلام منها وأعتقه ، وقال له : مااسمك ؟ فقال : سالم ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه أخبرنى أنّ اسمك الذى سماك به أبوك فى العجم « ميثَم » ، فقال : صدق الله ورسوله ، وصدقتَ ياأمير المؤمنين ، فهو والله اسمى ، قال : فارجع إلى اسمك ، ودَعْ سالما ، فنحن نكنيك به ؛ فكناه أبا سالم . قال : وقد كان قد أطلعه علىّ عليه السلام على علم كثير ، وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدّث ببعض ذلك ، فيشكّ فيه قوم من أهل الكوفة ، وينسُبون عليا عليه السلام فى ذلك إلى المخرقة[(2)] والإيهام والتدليس ؛ حتى قال له يوما بمحضَرٍ من خَلْق كثير من أصحابه ، وفيهم الشاكّ والمخلِص : ياميثم ،

---

(١) يقال : عتله عتلا ؛ إذا أخذه بمجامعه وجره جرا عنيفا .
(٢) المخرقة : اختلاق الكذب .

إنك تؤخَـذ بعدى وتُصْلب ، فإذا كان اليوم الثانى ابتدر مُنْخُراك وفك دماً ، حتى تخضب لحيتك ، فإذا كان اليـومُ الثـالث طعِنت بحربة يُقضى عليك ، فانتظر ذلك . والموضع الذى تُصلَب فيه على باب دارعمرو بن حريث ؛ إنك لعاشرعشرةأنت أقصرهم خشبة ، وأقربهم من المطهّرة – يعنى الأرض – ولأرينك النخلة التى تُصلَب على جِذعها ، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين ، وكان ميثم يأتيها ، فيصلّى عندها ، ويقول : بوركتِ مِنْ نخلة لكِ خُلِقتُ ، ولِى نبتِّ ، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علىّ عليه السلام ، حتى قُطِعت ، فكان يرصُد جذعها ، ويتعاهده ويتردّد إليه ، ويبصره ، وكان يَلْقَى عمرو بن حريث ، فيقول له : إنّى مجاورُك فأحسِنْ جوارى ، فلا يعلم عمرو مايريد ، فيقول له : أتريدُ أنْ تشترِىَ دار ابن مسعود ، أم دار ابن حكيم !

قال : وحجّ فى السّنة التى قتل فيها ، فدخل على أمّ سلمة رضى الله عنها ، فقالت له : مَنْ أنت ! قال : عِراقىّ ، فاستنسبته ، فذكر لها أنه مولى علىّ بن أبى طالب ، فقالت : أنت هيثم ، قال : بل أنا مِيثم [1] ، فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يوصى بك عليًا فى جوف الليل ، فسألها عن الحسين بن علىّ ، فقالت : هو فى حائط [2] له ، قال : أخبريه أنّى قد أحببتُ السّلام عليه ، ونحن ملتقُون عندرب العالمين ، إن شاء الله ، ولا أقـدر اليوم على لقـائه ، وأريد الرجوع ، فدعت بطيب فطيّبت لحيته ، فقال لها : أما إنها ستخضب بدم ، فقالت : مَن أنبأك هذا ؟ قال : أنبأنى سيدى ، فبكت أمُّ سلمـة ، وقالت له : إنه ليس بسيّدك وحدك ؛ هو سيّدى وسيد المسلمين ، ثم ودّعته .

---

(١) ميثم ، ضبطه صاحب القاموس بكسر الميم .
(٢) الحائط : البستان .

فقدم الكوفة ، فأُخِذ وأُدخِلَ على عُبيد الله بن زياد . وقيل له : هذا كان من آثرِ الناس عند أبي تراب ، قال : وَيْحكم ! هـذا الأعجميّ ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله : أين ربُّك ؟ قال : بالمرصاد ، قال : قد بلغني اختصاصُ أبي تراب لك ، قال : قد كان بعضُ ذلك ، فما تريد ؟ قال : وإنه ليقال إنّه قد أخبرك بمـا سَيَلْقاك ، قال : نعم ؛ إنّه أخبرني ، (١)قال :ماالذي أخبرك أني صانع بك(١) ؟ قال :أخبرني أنّك تصلُبني عاشر عشرة وأنا أقصرُهم خشبة ، وأقربهم من المطهرة ، قال : لأخالفنّه ، قال : ويحك ! كيف تخالفُه؟ إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر رسول الله عن جبرائيل ، وأخبر جبرائيل عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفتُ الموضع الذي أُصلَب فيه أين هو من الكوفة ؟ وإنّي لأوّل خَلق الله أُلجِم في الإسلام بلجام كما يُلْجَم الخيل . فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثقفيّ ، فقال مِيثم للمختار — وهما في حبس ابن زياد : إنك تُفلِت وتخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام ، فتقتل هذا الجبّار الذي نحن في سجنه(٢) ، وتطأ بقدمك هذه على جَبْهته وخَدَّيه . فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتلَه طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيدالله بن زياد ، يأمره بتخلية سبيله ؛ وذاك أن أخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألتْ بعلَها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع ، فأمضى شفاعته ، وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد ، فوافى البريد ، وقد أخرج ليضرب عنقه ، فأطلق . وأما مِيثم فأخرج بعده لِيُصلَب ؛ وقال عبيد الله : لأُمْضِيَنّ حكْمَ أبي تراب فيه ، فلقيَه رجل ، فقال له : ما كان أغناك عن هـذا يا ميثم ؟ فتبسم ، وقال : لهـا خلقتُ ، ولي غُذِيتُ ؛ فلما رُفِع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث ، فقال عمرو : لقد كان يقول لي : إني مجاورك ، فكان يأمر جاريته كلّ عشية أن تكنُس تحت خشبته وترشّه ، وتجمّر بالمجمر تحتـه ، فجعل ميثم يحدّث بفضائل بني هاشم ، ومخازي

(١ — ١) ساقط من ا

(٢) كذا في ا : ج ، وفي ب : « حبسه » .

بنى أميّة ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هـذا العبد ، فقال : ألجموه ، فألجم ، فكان أول خَلق الله ألجم فى الإسلام . فلما كان فى اليوم الثانى فاضت مُنخراه وفمه دما ، فلما كان فى اليوم الثالث طُعِن بحربة فمات .

وكان قَتْلُ ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام .

قال إبراهيم : وحدّثنى إبراهيم بن العباس النَّهْدِىّ ، حدّثنى مبارك البَجَلىّ ، عن أبى بكر بن عياش ، قال: حدثنى المجالد ، عن الشّعبى ،عن زياد بن النضر الحارثىّ ، قال: كنتُ عند زياد ، وقد أُتِىَ برشيد الهجَرىّ ـ وكان من خَواصّ أصحاب علىّ عليه السلام ـ فقال له زياد :ماقال خليلُك لك إنّا فاعلون بك ؟ قال :تقْطَعُون يدىَ ورِجْلىّ ،وتصلُبونى ، فقال زياد : أمَا واللهِ لأكذّبنّ حديثه ؛ خلّوا سبيلَه ، فلما أراد أن يخرُجَ قال : ردُّوه، لانجد شيئًا أصلحَ مما قال لك صاحبُك ؛ إنك لاتزال تبغى لنا سوءا إن بقيت ؛ اقطعوا يديْه ورجلَيْه ؛ فقطعوا يديه ورجليه ،وهو يتكلّم ، فقال : اصلُبوه خَنْقا فى عُنُقه ، فقال رشيد: قد بقى لِى عندكم شىء ماأراكم فعلتموه ، فقال زياد : اقطعوا لسانَه ، فلما أخرجوا لسانه ليُقطع قال : نفِّسُوا عَنّى أتكلّمْ كلمة واحدة، فنفّسوا عنه ، فقال : هـذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرَنى بقطع لسانى . فقطعوا لسانه وصلبوه .

وروى أبو داود الطَّيَالسىّ، عن سليمان بن رُزَيق ، عن عبد العزيز بن صُهيب،قال: حدثنى أبو العالية ، قال : حدّثنى مزرع[1] صاحبُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: لَيُقبِلَنّ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداء ، خُسِف بهم . قال أبو العالية : فقلت له : إنّك لَتُحدِّثُنِي بالغيب ! فقال : احفَظْ ماأقوله لك ، فإنما حدّثنى به الثّقة علىّ بن أبى طالب . وحدثنى أيضاشيئًا آخر : لَيُؤخَذَنّ رجل فليقتلَنّ ولَيُصْلَبَنّ بين شُرفتين من شُرَف المسجد؛ فقلت له: إنّك لَتُحَدِّثُنِي بالغيب! فقال :احفَظْ ماأقول لك ؛ قال أبو العالية : فوالله ماأتت

---

(١) مزرع ، ذكره صاحب تنقيح المقال ٢ : ٢١٠ ، ولم يزد على ما نقله من خبره هنا

علينا جُمة حتى أخذ مزرع ، فقتل وصُلِب بين شرفتين من شُرَف المسْجد .

قلت : حديث الخسْف بالجيش قد خرّجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يَعُوذ قومٌ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء[(١)] خُسِف بهم » ، فقلت : يارسولَ الله ، لعلّ فيهم المكرَه أو الكاره ، فقال : « يُخْسَف بهم ، ولكن يحشرون » - أو قال : « يُبْعَثون على نياتهم[(٢)] يوم القيامة » .

قال : فسئِل أبو جعفر محمد بن على : أهى بيداء من الأرض ؟ فقال : كَلّا والله إنها بيداء المدينة . أخرج البخارى بعضه وأخرج مسلم الباق[(٣)] .

وروى محمد بن موسى العَنَزِىّ ، قال : كان مالك بن ضَمْرة الرؤاسىّ من أصحاب علىّ عليه السلام ، وممن استبطن من جهته علما كثيرا ، وكان أيضا قد صَحِب أبا ذَرّ ، فأخذ من علمه ، وكان يقول فى أيام بنى أمية : اللهم لا تجعلنى أشقى الثلاثة ، فيقال له : وما الثلاثة ؟ فيقول : رجلٌ يُرمَى من فوق طَمَارٍ[(٤)] ، ورجل تقطعُ يداه ورجلاه ولسانه ويصلب ، ورجل يموت على فراشه . فكان من الناس مَن يهزأ به ، ويقول : هذا من أكاذيب أبى تراب .

قال : وكان الذى رُمِى به من طَمارٍ هانىء بن عُرْوة[(٥)] ، والذى قُطِع وصلب رشيد الهجرىّ ، ومات مالك على فراشه .

* * *

الفصل الرابع وهو من قوله : « فنظرت فى أمرى .. » إلى آخر الكلام ، هذه كلمات

---

(١) البيداء : كل أرض ملساء لاشىء فيها . (٢) لفظ مسلم : « ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته » .

(٣) صحيح مسلم ٤ : ٢٢٠٩ . (٤) طمار ، كقطام : المكان المرتفع .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى معجم البلدان ٦ : ٥٨ أن الذى رمى به من طمار مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، أمر بإلقائه عبيد الله بن زياد ، وأنشد :

فإن كُنْتِ ماتَدْرِينَ ماالموتُ فانظرى ... إلى هانِئٍ فى السُّوقِ وابن عَقيــل

إلى بَطَلٍ قـــد عَفّر السّيفُ وجهَه ... وآخرَ يَهْوِى مِنْ طَمار قتيــل

مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه كان معهودا إليه ألّا ينازِعَ فى الأمر ، ولا يثيرَ فتنة ، بل يطلبه بالرفق ؛ فإن حَصَل له وإلا أمسك .

هكذا كان يقول عليه السلام ، وقوله الحق ، وتأويلُ هذه الكلمات : فنظرت فإذا طاعتِي لرسول الله صلى الله عليه ، أى وجوب طاعتى ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

قد سَبَقَت بيعتى للقوم ؛ أى وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه علىّ ، ووجوب امتثالى أمرَه سابقٌ على بيْعَتى للقوم ، فلا سبيل لى إلى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله أمرَنى بها .

وإذا الميثاق فى عُنُق لغيرى ؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ علىّ الميثاق بترك الشِّقاق والمنازعة ، فلم يحلّ لى أن أتعدّى أمرَه ، أو أخالف نهيَه .

فإن قيل : فهذا تصريح بمذهب الإمامية .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين ؛ لأنهم يزعمون أنه الأفضل والأحقّ بالإمامة ، وأنّه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أنّ الأصلح للمكلّفين من تقديم المفضول عليه ، لكان مَنْ تقدّم عليه هالكا ، فرسول الله صلى الله عليه وآله أخبره أنّ الإمامة حقّه ، وأنه أولى بها من الناس أجمعين ، وأعلمه أنّ فى تقديم غيره وصَبْره على التأخّر عنها مصلحةً للدين راجعة إلى المكلّفين ، وأنّه يجب عليه أن يُمسك عن طلبها ، ويُغْضِي عنها لمن هو دون مَرْتَبته ، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يخرِجه تقدّم مَنْ تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحقّ . وقد صرّح شيخنا أبو القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى بهذا ، وصرّح به تلامذتُه ، وقالوا : لو نازع عَقِيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ سيفه لحكمنا بهلاك كلّ

من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك مَنْ نازعه حين أظهر نفسه، ولكنّه مالك الأمر، وصاحب الخلافة؛ إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق مَنْ ينازعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب علينا القولُ بعدالة مَنْ أغضى له عليها، وحكمه فى ذلك حكُم رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه قد ثبت عنه فى الأخبار الصحيحة أنه قال: «علىّ مع الحقّ، والحق مع علىّ يدور حيثما دار»، وقال له غير مرة: «حربُك حربى وسِلْمك سِلْمى».

وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندى، وبه أقول.

(٣٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصلُ :

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى . وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا[1] الضَّلَالُ ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى .

فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ .

* * *

الشّرحُ :

هذان فصلان ، أحدهما غير ملتئم مع الآخر ، بل مبتور عنه ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطا ، ومراده أن يأتيَ بفصيح كلامِه عليه السلام ، وما يجرِي مجرَى الخطابة والكتابة ، فلهذا يقعُ في الفصل الواحد الكلامُ الذي لا يناسِبُ بعضُه بعضا ؛ وقد قال الرضيّ ذلك في خطبة الكتاب[2] .

* * *

أما الفصل الأول فهو الكلام في الشُّبْهة ، ولماذا سمِّيت شبهة ، قال عليه السلام : « لأنّها تُشْبِه الحقّ » ؛ وهذا هو محضُ ما يقوله المتكلّمون ؛ ولهذا يسمّون ما يحتجّ به أهلُ الحقّ دليلا ، ويسمون ما يحتجّ به أهل الباطل شُبهة .

قال : « فأمّا أولياء الله فضياؤهم في حلّ الشبهة اليقين ، ودليلُهم سَمْتُ الهُدَى » ؛ وهذا حقّ لأنّ من اعتبر مقدّمات الشُّبْهَة ، وراعى الأمور اليقينيّة ، وطلَب المقدّمات المعلومة قطعا ، انحلّت الشُّبْهة ، وظهر له فسادهامِنْ أين هو ؟ ثم قال : « وأما أعداء الله فدعاؤهم

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) الجزء الأول ص ٥٣ .

الضّلال ، ودليلهم العمَى ، وهذا حقّ ؛ لأن المبطِل ينظر فى الشُّبْهة ، لا نظرَ مَنْ راعى الأمور اليقينية ، ويحلّل المقدمات إلى القضايا المعلومة ؛ بل يَغْلِبُ عليه حبّ المذهب ، وعصبية أسلافه ، وإيثار نصره مَنْ قد ألزم بنصرته ، فذاك هو العمى والضلال ، اللّذان أشار أمير المؤمنين إليهما ، فلا تنحلّ الشبهة له ، وتزداد عقيدته فسادا ، وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية الكلامَ فى توليد النظر للعلم ؛ وأنه لا يولّد الجهل .

***

الفصل الثانى ، قوله : « فما ينجُو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطَى البقاء مَنْ أحبّه » ؛ هذا كلام أجنبىّ عمّا تقدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] .

(١) سورة آل عمران ١٥٤
(٢) سورة النساء ٧٨ .
(٣) سورة الأعراف ٣٤ .

(٣٩)

ومن خطبة له عليه السلام

الأصل :

مُنِيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ ، وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ ، لَا أَبَا لَكُمْ ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً ، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً ، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْراً ، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَأْرٌ ، وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ . دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ؛ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السّلام : « مُتَذَائِبٌ » أي مُضطَرِب ؛ من قولهم : تَذَاءبَتِ الرِّيحُ ، أي اضطَرَبَ هُبُوبها ، وَمِنه سُمِّيَ الذِّئبُ ذِئباً لِاضطِرابِ مِشْيَته .

* * *

الشرح :

مُنِيتُ ، أي بُلِيتُ . وتُحمِشُكم : تُغضِبُكم ، أحمشه أي أغضبه . والمستصرِخ : المستنصر . والمتغوِّث : القائل : واغوثاه !

والجرجرة: صوت يردّده البعير فى حنجرته؛ وأكثرُ مايكون ذلك عند الإعياء والتعب. والجمل الأسرّ: الذى بكركرته دَبَرة[1]. والنضو: البعير المهزول. والأدبَر: الذى به دَبَر؛ وهو المعقور من القتب وغيره.

هذا الكلام خطب به أميرُ المؤمنين عليه السلام فى غارة النعمان بن بشير الأنصاريّ على عين التمر[2].

* * *

[أمر النعمان بن بشير مع علىّ ومالك بن كعب الأرحبىّ]

ذكر صاحبُ الغارات أنّ النعمانَ بن بشير قَدِم هو وأبوهريرةَ على علىّ عليه السلام من عند معاوية، بعد أبى مسلم الخولانىّ، يسألانه أن يدفع قتلةَ عثمان إلى معاوية ليُقيدَهم بعثمان؛ لعلّ الحرب أنْ تُطفَأ، ويصطلح الناس؛ وإنما أراد معاويةُ أن يرجعَ مثلُ النعمان وأبى هريرة من عند علىّ عليه السلام إلى الناس، وهمْ لمعاويةَ عاذِرون ولعلىّ لائمون؛ وقد علِم معاوية أنّ عليًّا لا يدفع قتلة عثمان إليه، فأراد أن يكون هذان يشهدان له عند أهل الشام بذلك، وأن يظهر عذره، فقال لهما: ائتيا عليًّا فانشُداه الله، وسَلاه بالله لَمَا دفعَ إلينا قتلةَ عثمان؛ فإنّه قد آواهم ومنعهم؛ ثم لا حربَ بيننا وبينه، فإن أبى فكونوا شهداء الله عليه.

وأقبلا عَلَى الناس فأعلماهم ذلك، فأتيا إلى علىّ عليه السلام، فدخلا عليه، فقال له أبو هريرة: ياأبا حسَن، إنّ الله قد جعل لك فى الإسلام فضلا وشرفا؛ أنتَ ابنُ عمّ محمد رسول الله صلى الله عليه؛ وقد بعثنا إليك ابنُ عمّك معاوية، يسألك أمرا تسكُن به هذه

---

(١) الكركرة، بالكسر: زور البعير. والدبرة: قرحة الدابة.

(٢) عين التمر: بلدة فى طرف البادية؛ على غربى الفرات.

الحرب ، ويُصلح الله تعالى ذاتَ البين ؛ أن تدفع إليه قتلةَ عثمان ابن عمه ، فيقتلَهم به ، ويجمع الله تعالى أمرَك وأمره ، ويصلح بينكم ، وتَسْلَم هذه الأمة من الفتنة والفرقة . ثم تكلّم النعمانُ بنحوٍ من ذلك[1] .

فقال لما : دَعا الكلام فى هذا ؛ حدِّثْنى عنك يانعمان ، أنت أهدى قومِك سبيلا ؟ يعنى الأنصار ، قال : لا ، قال : فكلّ قومِك قد اتبعنى إلّا شُذّاذاً ؛ منهم ثلاثة أو أربعة ؛ أفتكون أنت من الشُذّاذ ! فقال النعمان : أصلحك الله ، إنما جئتُ لأكونَ معك وألزمَك ؛ وقد كان معاويةُ سألنى أن أؤدّىَ هذا الكلام ، ورجوتُ أن يكونَ لى موقف أجتمِع فيه معك ، وطمعتُ أنْ يُجرِيَ اللهُ تعالى بينكما صلحا ؛ فإذا كان غير ذلك رأيك ، فأنا مُلازمك وكائن معك .

فأما أبو هريرةَ فلحِق بالشام ، وأقام النعمانُ عند علىّ عليه السلام ، فأخبرَ أبوهريرة معاويةَ بالخبر ، فأمره أن يُعلِم الناس ، ففعل ، وأقام النعمان بعدَه شهرا ، ثم خرج فارّا من علىّ عليه السلام ، حتى إذا مرّ بعين التمر أخذه مالك بن كعب الأرحبى - وكان عامل علىّ عليه السلام عليها - فأرادَ حبسه ، وقال له : مامرّ بك بيننا[2] ! قال : إنما أنا رسولٌ بلّغتُ رسالةَ صاحبى ، ثم انصرفت ، فحبسه وقال : كما أنتَ ؛ حتى أكتبَ إلى علىّ فيك . فناشده ، وعظّم عليه أن يكتبَ إلى علىّ فيه ، فأرسل النعمانُ إلى قَرَظة بن كعب الأنصارىّ - وهو كاتب عين التمر يجبِى خراجَها لعلىّ عليه السلام - فجاءه مسرعا، فقال لمالك بن كعب : خلّ سبيلَ ابن عمى ؛ يرحمك الله ! فقال : ياقَرَظَة ؛ اتق الله ولاتتكلّم فى هذا ، فإنه لو كان من عُبّاد الأنصار ونُسّاكهم لم يهرُب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين .

فلم يزلْ به يقسِم عليه حتى خلّى سبيلَه ، وقال له : ياهذا ، لك الأمان اليوم والليلة .

---

(١) ب : « هذا » .

(٢) ب : « هاهنا » .

وغدا ، والله إنْ أدركتُكَ بعـدَها لأضربنَّ عنقك ، فخرج مسرعا لا يلوِى على شىء ، وذهبتْ به راحلتهُ ، فلم يدرِ أين يتسكّعُ من الأرض ثلاثة أيام ، لا يعلم أين هو ! فكان النعمان يحدِّث بعـد ذلك ، يقول : والله ما علمتُ أين أنا ، حتّى سمعت قول قائلة تقول وهى تطحَن :

شَرِبْتُ مع الجوزاء كأساً رَوِيَةً [1] وَأخرَى مع الشِّعرى إذا ما استَقَلّتِ
مُعتّقَةً كانت قريشٌ تَصُونُهـــا فلمّا استحلُّوا قتـــلَ عثمانَ حلّتِ

فعلمتُ أنى عند حىّ من أصحاب معاوية ، وإذا الماء لبنى القَيْن ، فعلمت أنى قد انتهيتُ إلى الماء [2] .

ثم قدِم على معاوية فخبّره بما لَقِىَ ، ولم يزل معه مصاحباً ؛ لم يجاهِدْ عليا ، ويتتبّع قتلة عثمان ؛ حتى غزَا الضّحاكُ بنُ قيس أرضَ العراق ؛ ثم انصرف إلى معاوية ؛ وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة : أمَا من رجل أبعثُ به [3] بجريدة خيل ؛ حتى يُغيرَ على شاطئ الفرات ، فإنّ الله يُرعِبُ بها أهلَ العراق ! فقال له النعمان : فابعثنى ؛ فإنّ لى فى قتالهم نيّة وهوًى — وكان النعمان عثمانيا — قال : فانتدب على اسمِ الله ، فانتدَبَ ونَدَبَ معه ألفَىْ رجل ، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات ، وألّا يُغير إلا على مَسْلَحة ، وأن يعجّل الرجوع .

فأقبلَ النعمانُ بن بشير ؛ حتى دنا من عين التَّمْر ، وبها مالك بن كعب الأرحبىّ الذى جرى له معه ما جرى [4] ، ومع مالك ألفُ رجل ؛ وقد أذِن لهم ، فرجعوا إلى الكوفة ، فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها ، فكتب مالك إلى علىّ عليه السلام : أما بعد ؛ فإنّ النعمان ابن بشير ، قد نزَل بى فى جمع كثيف ، فَرَ رأيك ، سدّدك الله تعالى وثبتك . والسلام .

فوصل الكتابُ إلى علىّ عليه السلام ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) ب : « ردية » ، وصوابه من ج . (٢) كذا فى الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها « الأمان » .
(٣) ب : « معه » . (٤) ب : « ماذكرناه » .

اخرجُوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإنّ النعمان بن بشير قد نَزَل به فى جمع من أهل الشام ؛ ليس بالكثير ؛ فانهضوا إلى إخوانكم ، لعلّ اللهَ يقطعُ بكم من الكافرين طرَفا . ثم نزل .

فلم يخرجوا ، فأرسل إلى وُجوههم وكُبَرائهم ، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير ، فلم يصنعوا شيئاً ، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أوْ دونها ، فقام عليه السلام ، فقال : ألا إنى مُنيت بمنْ لا يطيع . . . الفصل الذى شرحناه إلى آخره ، ثم نزل .

فدخل منزله ، فقام عدىّ بن حاتم ، فقال : هذا والله الخِذلان ؛ على هذا بايعنْا أميرَ المؤمنين ! ثم دخلَ إليه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ معى من طيّئ ألفَ رجل لا يعصوننى ؛ فإن شئتَ أن أسير بهم سرتُ . قال : ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس ولكن اخرج إلى النُّخَيلة فعسكر بهم . وفرض علىّ عليه السلام لكلّ رجل سبعمائة ؛ فاجتمع إليه ألفُ فارس ، عدا طيّئا أصحاب عدىّ بن حاتم .

وورد على علىّ عليه السلام الخبرُ بهزيمة النّعمان بن بشير ونُصْرة مالك بن كعب ؛ فقرأ الكتاب على أهل الكوفة ، وحمِد الله وأثنى عليه ، ثم نظر إليهم وقال : هذا بحمْدِ الله وذمّ أكثركم .

* * *

فأما خبرُ مالك بن كعب مع النعمان بن بشير ؛ قال عبدالله بن حوزة الأزدىّ : قال : كنتُ مع مالك بن كعب حين نزل بنا النعمان بن بشير ، وهو فى ألفين ؛ وما نحن إلا مائة فقال لنا : قاتلُوهم فى القرية ، واجعلوا الجدُر فى ظهوركم ، ولا تلقُوا بأيديكم إلى التهلكة ؛ واعلموا أنّ الله تعالى ينصُر العشرة على المائة ، والمائة على الألف ، والقليل على الكثير . ثم قال : إنّ أقرب مَنْ ها هنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قَرَظة بن كعب

ومِخْنَف بن سُلَيم ؛ فاركض إليهما ، فأعلمهما حالنا ، وقل لهما : فلينصُرانا ما استطاعا[1] ، فأقبلتُ أركض ؛ وقد تركتُه وأصحابَه يرمون أصحابَ ابن بشير بالنَّبْل ، فمررت بقَرَظة فاستصرختُه ، فقال : إنّما أنا صاحبُ خراج ؛ وليس عندى من أعينه به . فمضيت إلى مِخْنَف بن سليم ، فأخبرته الخبر ، فسرّح معى عبد الرحمن بن مخنف فى خمسين رجلا ، وقاتل مالكُ بن كعب النعمانَ وأصحابه إلى العصر ، فأتيناه وقد كسّر هو وأصحابُه جفونَ سيوفهم، واستقبلوا الموت[2]، فلو أبطأنا عنهم هلكوا، فما هو إلا أنْ رآنا أهلُ الشام، وقد أقبلْنا عليهم ؛ فأخذوا ينكصون عنهم ويرتفعون ، ورآنا مالكٌ وأصحابه ، فشدّوا عليهم حتى دفعوهم عن القَرْية ، فاستعرضناهم ، فصرعنا منهم رجالًا ثلاثة ، وارتفع القومُ عنا ، وظنّوا أنّ وراءنا مددا ؛ ولو ظنّوا أنه ليس غيرنا لأقبلوا علينا ولأهلكونا، وحال الليل بيننا وبينهم ، فانصرفوا إلى أرضهم . وكتب مالك بن كعب إلى علىّ عليه السلام:

أما بعدُ ، فإنّه نزل بنا النعمان بن بشير فى جَمْع من أهل الشام ، كالظاهر علينا ، وكان عُظْم[3] أصحابى متفرّقين ، وكنّا للذى كان منهم آمنين ؛ فخرجنا إليهم رجالًا مصلِتين[4] ، فقاتلناهم حتى المساء ، واستصرخنا مِخنف بن سُليم، فبعث إلينا رجالًا من شيعة أمير المؤمنين وولده ؛ فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا ؛ فحملنا على عدوّنا وشددنا عليهم ، فأنزل الله علينا نصرَه ، وهزم عدوّه ، وأعزّ جنده . والحمد لله رب العالمين ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

***

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « ما استطاعا » .
(٢) ب : « واستقبلوا للموت » .
(٣) عظم الشىء ؛ أى معظمه .
(٤) يقال : أصلت الرجل السيف ؛ إذا جرده من غمده .

وروى محمد بن فرات الجَرْمِيّ ، عن زيد بن على عليه السلام ، قال : قال علىّ عليه السلام فى هـذه الخطبة : أيها الناس ، إنى دعوتـكم إلى الحقّ فتوليتم عنى ، وضربتكم بالدِّرّة فأعييتمونى ؛ أما إنه سَيليكم بعـدى ولاةٌ لا يرضَوْن عنكم بذلك حتى يعذّبوكم بالسياط وبالحديد ، فأمّا أنا فلا أعذّبكم بهما ؛ إنه من عذّب الناس فى الدّنيا عذّبه الله فى الآخرة ؛ وآية ذلك أن يأتيـكم صاحبُ اليمن ، حتى يحلّ بين أظهركم ؛ فيأخذ العمال وعمال العمال [1] ؛ رجل يقال له يوسف بن عمرو ؛ ويقوم عنـد ذلك رجـل منّا أهلَ البيت ، فانصروه فإنه داعٍ إلى الحق .

قال : وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام .

---

(١) ساقطة من ب .

(٤٠)

ومن كلام له عليه السلام للخوارج لما سمع قولهم: « لا حكم إلا لله » قال:

الأصل:

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِل؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ[1]. وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ.

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال:

حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وقال:

أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا[2] الشَّقِيُّ؛ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ.

***

[اختلاف الرأي في القول بوجوب الإمامة]

الشرح:

هذا نصٌّ صريح منه عليه السلام؛ بأنّ الإمامةَ واجبة؛ وقد اختلف الناس في هذه

(١) ب: « لا إمرة إلا لله » وما أثبته عن ا، ج ومخطوطة النهج.
(٢) ا: « بها ».

المسألة فقال المتكلمون كافّة : الإمامة واجبة ؛ إلّا ما يحكى عن أبى بكر الأصمّ من قدماء أصحابنا أنها غيرُ واجبة ؛ إذا تناصفت الأمة ؛ ولم تتظالم .

وقال المتأخرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمة؛ لأنه إذا كان لا يجوز فى العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم ؛ فقد قال بوجوب الرياسة على كلّ حال ؛ اللّهم إلا أن يقول : إنه يجوز أن تَستقيم أمورُ الناس من دون رئيس ؛ وهذا بعيد أن يقوله ؛ فأما طريق وجوب الإمامة ماهى ؟ فإن مشايخنا البصريّين رحمهم الله يقولون : طريق وجوبها الشرع ، وليس فى العقل ما يدلّ على وجوبها .

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى : إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة ؛ وهو قول الإمامية ، إلا أنّ الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذى توجب الإمامية منه الرياسة ، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرياسة عَلَى المكلّفين ، من حيث كان فى الرياسة مصالح دنيوية ، ودفع مضارّ دنيوية . والإمامية يُوجبون الرياسة عَلَى الله تعالى ، من حيث كان فى الرياسة لُطف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابِق مايقوله أصحابنا ، ألا تراه كيف علّل قوله : « لابدّ للناس من أمير » ، فقال فى تعليله : « يُجمَع به الفىء ، ويقاتَل به العدوّ وتُؤمّن به السُّبل ، ويؤخذ للضعيف من القوىّ » ! وهذه كلّها من مصالح الدنيا .

فإنْ قيل : ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام، فكيفَ يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنّهم يقولون : « لا إمرة » !

قيل : إنهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنّه لاحاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَ الله بن وهب الرّاسبىّ .

* * *

فإن قيل : فسّروا لنا ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام .

قيل : إنّ الألفاظ كلّها ترجع إلى إمرة الفاجر .

قال : يعمل فيها المؤمن ، أى ليست بمانعة للمؤمن من العمل ، لأنه يمكنه أن يصلّى ويصوم ويتصدّق ؛ وإن كان الأمير فاجرا فى نفسه .

ثم قال : « ويستمتع فيها الكافر » أى يتمتّع بمدته ، كما قال سبحانه للكافرين : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [1] .

ويبلّغ الله فيها الأجل،لأنّ إمارة الفاجر كإمارة البرّ،فى أنّ المدة المضروبة فيها تنتهى إلى الأجل المؤقت للإنسان .

ثم قال : « ويجمع به الفىء ، ويُقاتَل به العدو،وتأمن به السبل ، ويُؤخذ به للضعيف من القوىّ » ، وهذا كلّه يمكن حصوله فى إمارة الفاجر القوىّ فى نفسه،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:« إنّ الله ليؤيّد هذا الدّين بالرجُل الفاجر »،وقد اتفقت المعتزلة عَلَى أنّ أمراء بنى أميّة كانوا فُجّاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد . وكان الفىء يُجْمَع بهم ، والبلاد تُفْتَح فى أيامهم ، والثغورُ الإسلامية محصنة مَحُوطة ، والسُّبُل آمنة،والضعيف منصور على القوىّ الظالم ؛ وما ضرّ فجورُهم شيئا فى هذه الأمور. ثم قال عليه السلام : فتكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريحَ برّ بموته،أو يُستراح من فاجر بموته أو عزله .

فأما الرواية الثانية ، فإنّه قد جعل التقىّ يعمل فيها للإمرة البرّة خاصة [2] .

وباقى الكلام غنىّ عن الشرح

* * *

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .
(٢) كذا فى ج ، وهو الوجه ، وفى ب : « يعمل فيها التقى الإمرة خاصة » .

[من أخبار الخوارج أيضاً]

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدّث فى كتاب " صِفّين " ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن خالد بن حميد المصرى ، عن عمر مولى غَفْرة ، قال : لما رجع علىّ عليه السلام من صِفّين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى جَمُّوا(١) ، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حَرُوراء ، فنادَوْا : لا حكمَ إلا لله ولو كره المشركون ؛ ألا إنّ عليًّا ومعاوية أشركا فى حُكم الله .

فأرسل علىّ عليه السلام إليهم عبدَ الله بن عباس ، فنظر فى أمرهم وكلّمهم ، ثم رجع إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : ما رأيت ؟ فقال ابنُ عباس : والله ما أدرِى ما هم ! فقال له علىّ عليه السلام : رأيتهم منافقين ؟ قال : والله ما سيماهُم بسيما المنافقين ؛ إنّ بينَ أعينهم لأثرَ السجود ، وهم يتأولون(٢) القرآن . فقال علىّ عليه السلام : دَعُوهم ما لم يسفِكوا دما ، أو يغصِبوا مالا ، وأرسل إليهم : ما هذا الذى أحدثتم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نخرُجَ نحن وأنت ومَنْ كان معنا بصِفّين ثلاث ليال ، ونتوب إلى الله من أمْرِ الحَكَمين ، ثم نسير إلى معاوية ، فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه . فقال علىّ عليه السلام : فهلا قلتم هذا حين(٣) بعثنا الحَكَمين ، وأخذنا منهم العهد ، وأعطيناهُمُوه ! ألا قلتم هذا حينئذ ! قالوا : كنا قد طالت الحرب علينا ، واشتدّ البأس ، وكثُر الجراح ، وخلا الكُراع والسلاح ، فقال لهم : أفحِين اشتدّ البأس عليكم ، عاهدتم ، فلما وجدتُم الجَمام قلتم: ننقضُ العهد ! إنّ رسول الله كان يفى للمشركين ، أفتأمرُونى بنقضِه !

فمكثوا مكانَهم لا يزالُ الواحد منهم يرجع إلى علىّ عليه السلام ، ولا يزال الآخر

---

(١) الجمام ، بالفتح : الراحة . (٢) ا : « ويتأولون »

(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « حيث » .

يخرج من عند علىّ عليه السلام ، فدخل واحد منهم فى علىّ عليه السلام بالمسجد ، والناس حوله ، فصاح : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون ، فتلفّت الناس ، فنادى : لا حكم إلا لله ولو كره المتلفتون ، فرفع [1] علىّ عليه السلام رأسه إليه ، فقال : لا حكم إلا لله ولو كره أبو حسن . فقال علىّ عليه السلام : إن أبا الحسن [2] لا يكره أن يكون الحكم لله [2] ، ثم قال : حكم الله أنتظر فيكم ، فقال له الناس : هلا ملت يا أمير المؤمنين على هؤلاء فأفنيتهم ! فقال : إنهم لا يفنون ، إنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة .

وروى أنس بن عياض المدنىّ ، قال : حدثنى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن أبيه عن جدّه ، أنّ عليًّا عليه السلام كان يوما يؤمّ الناس ، وهو يجهر بالقراءة ، فجهر ابنُ الكوّاء من خلفه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [3] ، فلما جهر ابنُ الكوّاء وهو خلفه بها سكت علىّ ، فلما أنهاها ابنُ الكوّاء عاد علىّ عليه السلام ، فأتم قراءته ، فلما شرع علىّ عليه السلام فى القراءة أعاد ابن الكوّاء الجهر بتلك الآية ، فسكت علىّ ، فلم يزالا كذلك يسكت هذا ، ويقرأ ذاك مرارا ، حتى قرأ علىّ عليه السلام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [4] ، فسكت ابن الكوّاء ، وعاد عليه السلام إلى قراءته .

---

(١) ب : « فرجع » ، وما أثبته عن ا ، ج .
(٢ ـ ٢) ب : « لا يكره أن يكون الحكم إلا لله » .
(٣) سورة الزمر ٦٥ .
(٤) سورة الروم ٦٠ .

(٤١)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

إنّ[1] الْوَفَاءَ تَوْءَمُ الصِّدْقِ ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ ، وَمَا[2] يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ .

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً ، وَنَسَبَهُم أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ .

مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ .

***

الشرح :

يقال : هذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، وهما توءمان ؛ وإنما جُعل الوفاء توءم الصدق ؛ لأنّ الوفاء صدقٌ في الحقيقة ؛ ألا تَرَى أنه قد عاهد عَلَى أمرٍ وصدق فيه ولم يُخلِف ؛ وكأنهما أعمّ وأخصّ ، وكل وفاء صدق وليس كلّ صدقٍ وفاء ، فإن امتنع من حيث الاصطلاح تسميةُ الوفاء صدقا فلأمرٍ آخر ؛ وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول ، ولا يكون الصدق إلاّ في القول ؛ لأنّه نوع من أنواع الخبر ، والخبر قول .

---

(١) قبلها في مخطوطة النهج : « أيها الناس » .
(٢) ب « ولا » .

ثم قال : « ولا أعلم جُنّة » أى درعا . أوقَى منه ، أى أشدّ وقاية وحفظا ، لأنّ الوفىّ محفوظ من الله ، مشكور بين الناس .

ثم قال : « وما يغدر مَنْ عَلِمَ كيف المرجع » ، أى مَنْ علم الآخرة وطوَى عليها عقيدته ، منعه ذلك أن يغدِر ؛ لأنّ الغدر يُحْبِط الإيمان .

ثمّ ذكر أنّ الناس فى هذا الزمانِ ينسبون أصحاب الغدر إلى الكَيْس ، وهو الفِطْنة والذكاء ، فيقولون لمن يخدَع ويغدِر ، ولأرباب الجريرة والمكْر : هؤلاء أذكياء أكياس ؛ كما كانوا يقولون فى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وينسُبون أرباب ذلك إلى جبن الحيلة وصحّة التدبير .

ثم قال : « ما لهم قاتلَهم الله » ! دعاء عليهم .

ثم قال : قد يَرَى الحوّل القلّبُ وجهَ الحيلة ، ويمنعه عنها نهيُ الله تعالى عنها ، وتحريمه بعد أن قَدَر عليها ، وأمكنه . والحوّل القلّب : الذى قد تحوّل وتقلّب فى الأمور وجرّب ، وحنّكته الخطوب والحوادث .

ثم قال : « وينتهز فُرْصتها » ، أى يبادر إلى افتراصها ويغتنمها . مَنْ لا حريجة له فى الدين ، أى ليس بذى حَرَج ، والتحرّج : التأثّم . والحريجة : التقوى ؛ وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته ، مَلَكَ أهلُ الشام الماء عليه ، والشريعة بصفّين ، وأرادوا قتلَه وقتلَ أهل العراق عطشا ؛ فضاربَهم على الشريعة حتى مَلَكها عليهم ، وطردَهم عنها ، فقال له أهل العراق : اقتُلْهم بسيوف العطش ، وامنعهم الماء ، وخذهم قَبْضاً بالأيدى ؛ فقال : إنّ فى حدّ السيف لغنًى عن ذلك ، وإنى لا أستحلّ منعَهم الماء . فأفْرَجَ لهم عن الماء فوردوه ، ثم قاسمهم الشريعة شَطْرَيْن بينهم وبينه . وكان الأشتر يستأذنه أن يبيِّت[1] معاوية ، فيقول :

---

(١) يقال : بيت العدو ، أى قصده فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، وهو البيات .

إنّ رسول الله صلى الله عليه نهى أن يُبَيِّتَ المشركون ، وتوارث بنوه عليه السلام هذا الخلق الأبيّ .

أراد المضاء أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبدالله[1]

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد وُلِّيَ لأبي جعفر المنصور بعضَ أعمالٍ بفارس ، فقال له : هل عندك مال ؟ قال : لا ، قال : آلله ؟ قال : آلله . قال : خلُّوا سبيله ، فخرج ابن قَحْطبة ،وهو يقول بالفارسة : ليس هذا من رجال أبي جعفر . وقال لعبد الحميد بن لاحق : بلغني أن عندك مالا للظلمة ، يعني آل أبي أيوب الموريانيّ كاتب المنصور ، فقال : مالهم عندي مال ، قال : تُقسِم بالله! قال : نعم ، فقال : إن ظهرَ لهم عندك مال لأعدّنك كذابا[2] .

وأرسل إلى طلحة الندريّ ـ وكان للمنصور عنده مال ـ : بلغنا ؛ أنّ عندك مالا فأتنا به ، فقال : أجل ، إنّ عندي مالا ، فإن أخذتَه مني أغرمنيه أبو جعفر ، فأضرب عنه .

وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة ،وكان القوم أصحابَ دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالإمرة فيها، فلم يستقم لهم ، والدنيا إلى أهلها أميل .

***

(١) هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ دخل البصرة على عهد أبي جعفر المنصور ودعا الناس إلى أخيه محمد بن عبد الله فبايعه كثيرون من أهلها، ثم استولى على الأهواز وواسط ، ولم يزل بها حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام ، فأرسل إليه أبو جعفر قائده عيسى بن موسى ، فخرج إبراهيم لملاقاته ؛ والتقيا عند باخرى وكانت العاقبة لعيسى ، وقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥ ، والمضاء أحد رجاله . مقاتل الطالبيين ٣١٥ وما بعدها ، وتاريخ الطبري (حوادث سنة ١٤٥) .

(٢) مقاتل الطالبيين ٣٣٣ .

[الأخبار والأحاديث والآيات الواردة فى مدح الوفاء وذم الغدر]

ومن الأخبار النبوية المرفوعة فى ذم الغَدْر : « ذمة المسلمين واحدة ، فإن جارت عليهم أمة منهم ، فلا تَخفِروا جوارها ، فإنّ لكل غادر لواء يعرَف به يوم القيامة »[1].

وروى أبو هريرة ، قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يبيع طعاما فسأله: كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأمر أبا هريرة أن يدخِل فيه يدَه ، فأدخلها فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ليس منّا من غشّ » .

قال بعضُ الملوك لرسولٍ وردَ إليه من ملك آخر : أطلِعْنِي على سِرّ صاحبك ، فقال : أيها الملك ، إنّا لا نستحسن الغدر ، وإنه لو حُوِّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قُبْحه ، ولكان سماجة اسمه وبشاعة ذكره ناهيَيْن عنه .

مالك بن دينار : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة .

وقّع جعفر بن يحيى على ظهر كتابٍ كتبه علىّ بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد ، يسعى[2] فيه بالبرامكة ، فدفعه الرشيدُ إلى جعفر ، يمنّ به عليه ، وقال : أجِبْه عنه ، فكتب فى ظاهره : حبّب الله إليك الوفاء يا أخى فقد أبغضتَه ، وبغّض إليك الغدرَ فقد أحببتَه ، إنّى نظرت إلى الأشياء حتى أجدَ لك فيها مشبها فلم أجد ، فرجعت إليك ، فشبّهتك بك ؛ ولقد بلغ من حسن ظنّك بالأيام أنْ أمّلت السلامة مع البغى ، وليس هذا من عاداتها . والسلام .

كان العهد فى عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كَتَبه السفّاح ، فلما طالت أيامُ المنصور ، سامه أن يخلع نفسَه من العهد ، ويقدّم محمداً المهدىّ عليه ، فكتب إليه عيسى :

بَدَتْ لِى أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُها ... أرى ما بدا منهـــا سَيُمطِرُكُمْ دَمَا

---

(١) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ٣٠ عن الحاكم ، مع اختلاف فى الرواية .
(٢) السعى هنا : الوشاية .

وَمَا يعلَمُ العـــالِي مَتَى هبطـــاتُهُ   وإن سار في ريح الغُرورِ مُسَلَّمـــا

أبو هريرة يرفعه : « اللهمّ إني أعوذ بك من الجوع فبئسَ الضّجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة ! » .

وعنه مرفوعا : « المكر والخديعة والخيانة في النار » .

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب ، عند زوال أمره : أرى أن تصير إلى هؤلاء ، فلعلّك أن تنفَعني في مخلفي ، فقال : وكيف لِي بعلْمِ الناس جميعاً أنّ هذا عن رأيك ! إنّهم ليَقولون كلّهم : إني غَدَرْتُ بك ، ثم أنشد :

وغَدْرِي ظاهرٌ لاشكَّ فيه   لمبصره وعذرِي بالمَغِيبِ

فلما ظفر به عبد الله بن عليّ ، قَطّع يديه ورجليه ، ثم ضرب عُنقه .

كان يقال : لايغدِر غادر إلّا لصغر هِمّته عن الوفاء ، واتّضاع قَدْره عن احتمال المكاره في جَنْب نَيْل المكارم .

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : الوفاء لأهل الغدر غَدْر ، والغدرُ بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى .

قلت : هذا إنّما يريد به إذا كان بينهما عَهْد ومُشارطة ، فغدَر أحد الفريقين ، وخاس بشرْطه ، فإنّ للآخر أن يغدر بشرطه أيضاً ولايفي به .

ومن شعر الحماسة ، واسم الشاعر العارق الطائي[1] :

---

(١) واسمه أيضاً قيس بن جروة الطائي ؛ والأبيات في ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٣ : ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ . قال الشارح : « كان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق ورجع منفضا ، فمر بطيّ ـ وكانوا في ذمته ـ بكتاب عقدا كتبه لهم ، وعهداً أحكمه معهم ، فقال زرارة بن عدس له : أبيت اللعن ! أصب من هذا الحي شيئا . قال : ويلك ! إن لهم عقداً لا يجوز لنا تخطيه . فأخذ زرارة يهون أمر العهد عليه ، ويحسن الإيقاع بهم ، فلم يزل يختل له في الذروة والغارب معه لشيء كان في نفسه على طيء ، حتى أصاب أذواداً ونساء ، فهجا عارق عمرو بن هند بأبيات يعصب بها رأسه فيها بالغدر الذى كان منه ، فوقعت الأبيات إلى عمرو بن هند ، فتوعد عارقا وحلف أنه يقتله ، فاتصلت مقالته بعارق ، فقال هذه الأبيات » .

مَنْ مبلغٌ عَمْرو بن هِنْدٍ رسالةً ... إذا استحقبَتْها العيسُ جاءتْ من البُعْدِ[1]

أيوعدُنى والرَّمْلُ بينى وبينَه ... تبيَّنْ رُويدا ماأمامَةُ من هِنْدِ[2]

ومِنْ أجَأ حَوْلى رِعانٌ كأنَّها ... قنابِلُ خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومِنْ وَرْدِ[3]

غدرتَ بأمرٍ كنتَ أنت اجتَرَرْتَنا ... إليه وبئس الشيمةُ الغدر بالعَهْدِ[4]

قال أبو بكر الصديق : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه كُنَّ عليه : البغى والنَّكْث والمكر ؛ قال سبحانه : ﴿ يا أيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أنْفُسِكُمْ ﴾[5]، وقال : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[6]، وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهْلِهِ ﴾[7]

---

(١) استحقبتها : حملتها فى الحقائب .

(٢) أيوعدنى ، الاستفهام على طريق التقريع واستعظام الأمر .

(٣) أجأ : أحد جبلى طيء ، وثانيهما سلمى . والرعان : جمع رعن ؛ وهو أنف يتقدم من الجبل . والقنابل جماعات الخيل ، قال التبريزى : « جعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .

(٤) فى حماسة المرزوقى « اجتذبتنا » . وفى التبريزى : « دعوتنا » .

(٥) سورة يونس ٢٣ .

(٦) سورة الفتح ١٠ .

(٧) سورة فاطر ٤٣ .

(٤٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم اثنتان : اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ .

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا . أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ ؛ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

أقول : الحذَّاء : السَّريعة ، ومن النَّاس من يَرْويه : « جَذَّاء » بالجيم والذَّال ، أى انقطع دَرُّها وَخَيْرُها .

* * *

الشَّرْحُ :

الصُّبابة : بقية الماء فى الإناء . واصطبّها صابُّها ، مثل قولك : أبقاها مُبقيها أو تركها تاركها ؛ ونحو ذلك ، يقول : أخوَف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق ؛ وهذا صحيح لاريب فيه ، لأنّ الهوى يُعمى البصيرة ، وقدقيل :

حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصِمّ ، ولهذا قال بعض الصالحين : رحِمَ اللهُ امرأً أهدى إليّ عيوبي؛ وذلك لأنّ الإنسان يحبُّ نفسَه ، ومن أحبّ شيئاً عَمِيَ عن عيوبه ، فلا يكاد الإنسانُ يلمح عيبَ نفسه ، وقد قيل :

أرى كلَّ إنسانٍ يرى عيبَ غيرِهِ ... ويَعمى عن العيبِ الذي هو فيهِ

فلهذا استعان الصالحون عَلَى معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم ، علماً منهم أنّ هوى النفس لذاتها يُعميها عن أن تُدرِكَ عيبَها ، وما زال الهوى مُردياً قتالا ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾(1) ، وقال صلى الله عليه وآله : « ثلاثٌ مُهلكات : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهوًى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه »(2) .

وأنت إذا تأملت هلاك مَنْ هلك من المتكلمين كالمجبرة والمرجئة، مع ذكائهم وفطنتهم واشتغالهم بالعلوم ، عرفت أنه لا سبب لهلاكهم إلا هوى الأنفس ، وحبّهم الانتصار للمذهب الذي قد ألفوه ، وقد رأسوا بطريقه ، وصارت لهم الأتباع والتلامذة ،وأقبلت الدنيا عليهم، وعدّهم السلاطين علماء ورؤساء ، فيكرهون نقض ذلك كلّه وإبطاله ، ويحبون الانتصار لتلك المذاهب والآراء التي نشئوا عليها، وعرفوا بها ، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه بطريقها، ويخافون عار الانتقال عن المذهب ، وأن يشتفّ بهم الخصوم ويقرّعهم الأعداء ؛ ومن أنصفَ علِمَ أنّ الذي ذكرناه حقّ . وأما طولُ الأمل فينسي الآخرة ؛ وهذا حقّ ،لأن الذهن إذا انصرف إلى الأمل، ومدّ الإنسان في مداه ، فإنه لا يذكر الآخرة ، بل يصير مستغرق الوقت بأحوال الدنيا ، وما يرجو حصوله منها في مستقبل الزمان .

---

(1) سورة النازعات ٤٠ .

(2) كذا أورد الحديث مختصراً ، ونقله السيوطي في الجامع الصغير (١ : ٢٣٦) بهذه الرواية : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ؛ وثلاث درجات ؛ فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ؛ وأما المنجيات . . . » إلى آخر الحديث .

ومن كلام مِسعر بن كِدام : كم مِن مُستقبِل يوما ليس يستكمِله ، ومنتظرٍ غدا ليس من أجَلِه ! ولو رأيتم الأجل ومسيرَه أبغضتم الأملَ وغروره .

وكان يقال : تسويف الأمل غِرار ، وتسويل المحال ضِرار .

ومن الشعر المنسوب إلى علىّ عليه السلام :

غَرَّ جَهُولًا أملُهْ ... يموتُ مَنْ جَا أجلُهْ
وَمَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ ... لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ
وَمَا بقاء آخِرٍ ... قَدْ غَابَ عَنْهُ أَوَّلُهْ
والمرء لا يصحَبُهُ ... فى القَبْرِ إلا عَمَلُهْ

وقال أبو العتاهية :

لا تأمَنِ الموتَ فى لحظٍ وَلَا نَفَسٍ ... ولو تَمَنَّعْتَ بالحُجَّاب والحَرَسِ (١)
واعلَمْ بأنّ سِهَامَ الموتِ قَاصِدَةٌ ... لِكُلِّ مُدَّرِعٍ مِنّا ومُتَّرِسِ
مابالُ دينك تَرْضَى أن تُدَنِّسَهُ ... وَثوبُ لُبْسِكَ مَغسولٌ مِنَ الدَّنَسِ !
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِى عَلَى اليَبَسِ

ومن الحديث المرفوع : « أيها النّاس إنّ الأعمالَ تُطوَى ، والأعمار تَفنى ، والأبدانَ تَبلَى فى الثرى ، وإن الليل والنهار يترا كضَان ترا كُضَ الفرقدين ، يقرّبان كلَّ بعيد ، ويُخْلِقان كل جديد ؛ وفى ذلك ما ألهى عن الأمل ، وأذكرك بحلول الأجل » .

وقال بعض الصالحين : بقاؤك إلى فناء ، وفناؤك إلى بقاء ، فخذ من فنائك الذى لا يبقى ، لبقائك الذى لا يفنى .

وقال بعضهم : اغتنم تنفُّس الأجل ، وإمكان العمل ، واقطع ذِكْرَ المعاذيرِ والعلَل ؛ ودع تسويفَ الأمانى والأمل ؛ فإنك فى نفسٍ معدود ، وعمرٍ محدود ، ليس بممدود .

وقال بعضهم : اعمل عَمل المرتحل ، فإنّ حادىَ الموت يحدُوك ليوم لا يعدوك .

---

(١) ديوانه ١٣٣ .

ثم قال عليه السلام : «ألا إن الدنيا قد أدبرت حذّاء» بالحاء والذال المعجمة ؛ وهى السريعة ، وقطاة حذّاء : خفّ ريشُ ذَنَبها ، وَرَجُل أحذّ ، أى خفيف اليد ، وقد رُوى ، «قد أدبرت جذّاء» بالجيم ؛ أى قد انقطع خَيْرُها ودَرّها .

ثم قال : إن كل ولد سيلْحَق بأمّه يوم القيامة ، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا .

ثم قال : «اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل» ، وهذا من باب المقابلة فى علم البيان[1] .

---

(١) هنا آخر الجزء الثانى فى نسخة ا ، وفيها بعد هذه الكلمة : «تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة»

(٤٣)

ومن كلام له عليه السلام ، وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام ، بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجلىّ :

الأصل :

إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ ٱلشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً ، وَٱلرَّأْيُ مَعَ ٱلْأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا ، وَلَا أَكْرَهُ لَكُمُ ٱلْإِعْدَادَ .

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا ٱلْأَمْرِ وَعَيْنَهُ ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ[1] إِلَّا ٱلْقِتَالَ أَوِ ٱلْكُفْرَ[2] بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ[2] .

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً ، وَأَوْجَدَ ٱلنَّاسَ[3] مَقَالاً فَقَالُوا ، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

* * *

الشرح :

أرْوِدوا ، أى ارفُقوا ، أرْوَد فى السَّير إرواداً ، أى سار برِفْق ، والأناة : التثبّت والتأنّى . ونهيه لهم عن الاستعداد ، وقوله بعد : « ولا أكره لكم الإعداد » غيرُ متناقض ، لأنه كره منهم إظهار الاستعداد والجهر به ، ولم يكره الإعداد فى السّر ، وعلى وجه الخفاء

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا : « فلم أر إلا القتال » ، وفى ج : « فلم أرلى إلا القتال » .
(٢ ــ ٢) كذا فى ب ، وهو ساقط من ا ، ج .
(٣) مخطوطة النهج . « للناس » .

والكتمان ؛ ويمكن أن يقال إنه كره استمداد نفسه ، ولم يكره إعداد أصحابه ؛ وهذان متغايران . وهذا الوجهُ اختاره القطب الراوندىّ .

ولقائل أن يقول : التعليلُ الذى علّل به عليه السلام يقتضى كراهيَة الأمرين معا ، وهو أن يتصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السّلم إلى الحرب ؛ بل ينبغى أن تكونَ كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولَهم وآلات حربهم أوْلَى؛ لأنّ شياع ذلك أعظمُ من شياع استمداده وحده ، لأنه وحدَه يمكن أن يكتم استمداده ، وأما استعداد العساكر العظيمة ، فلا يمكن أن يُكتَمَ ، فيكون اتّصالُه وانتقاله إلى أهل الشام أسرَع ، فيكون إغلاق الشام عن باب خيرٍ إن أرادوه أقرب ؛ والوجه فى الجمع بين اللفظتين ما قدمناه .

وأما قوله عليه السلام : « ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينَه » ، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء فى البحث والتأمّل والفِكر ؛ وإنما خصّ الأنف والعين ، لأنهما صورة الوجه ، والذى يتأمّل من الإنسان إنما هو وجهه .

وأما قوله : « ليس إلّا القِتالُ أو الكفر » فلأنّ النهىَ عن المنكر واجبٌ على الإمام ، ولا يجوز له الإقرار عليه ، فإن تركَه فَسَق ، ووجبَ عزلُه عن الإمامة .

وقوله : «أو الكفر» من باب المبالغة؛ وإنما هو القتال أو الفِسْق ، فسمّى الفِسْق كفرا تغليظا وتشديداً فى الزجر عنه .

وقوله عليه السلام : « أوجد النّاس مقالا » ، أىْ جعلَهم واجدين له [1] .

وقال الراوندىّ : أوجد ها هنا بمعنى «أغضب» . وهذا غير صحيح ، لأنه لا شىء ينصب به « مقالا » إذا كان بمعنى « أغضب » . والوالى المشار إليه عثمان .

---

(١) عبارة ابن ميثم : « أى جعل لهم بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا » .

[ذكر ما أورده القاضى عبد الجبار من دفع ما تعلق به الناس على عثمان من الأحداث]

يجب أن نذكر ها هنا أحداثه ، وما يقوله أصحابنا فى تأويلاتها ، وما تكلّم به المرتضى فى كتاب " الشافى " فى هذا المعنى ، فنقول :

إنّ قاضى[1] القضاة رحمه الله تعالى ، قال فى " المغنى " قبل الكلام فى تفصيل هذه الأحداث كلاما مجملا ، معناه أنّ كل مَنْ تثبت عدالته ووجب تولّيه إمّا على القطع وإمّا على الظاهر فغير جائزٍ أن يُعدَل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمرٍ متيقّن يقتضى العدولَ عنها ، يبيّن ذلك أنّ مَنْ شاهدناه على ما يوجب الظاهر تولّيه وتعظيمه يجب أن يبقَى فيه على هذه الطريقة ، وإن غاب عنّا . وقد عرفنا أنّهُ مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرًا على حالته ، ويجوز أن يكون منتقلا ، ولم يقدح هذا التجويز فى وجوب ما ذكرناه .

ثم قال : فالحدث الذى يُوجِب الانتقال عن التعظيم والتولّى إذا كان من باب محتمَل لم يجز الانتقال لأجله . والأحوال المتقرّرة فى النفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن نتولّاه أقوى فى باب الإمارة من الأمور المتجدّدة ؛ فإنّ مثلَ فرقد السَّبَخى[2] ، ومالك ابن دينار[3] لو شوهدا فى دارٍ فيها منكَر لَقَوِىَ فى الظّنّ حضورها للتغيير والإنكار ؛

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمدانى ، صاحب كتاب «المغنى» فى الجدل ؛ وإمام أهل المعتزلة فى زمانه ، توفى سنة ٤١٥ . طبقات الشافعية ٣ : ٢١٩ .

(٢) السبخى ، بفتح السين والباء الموحدة ، وفى آخرها خاء معجمة : منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، وهو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى ، من زهاد البصرة ، ومات سنة ١٣١ معجم البلدان ٥ : ٢٧ .

(٣) هو أبو يحيى مالك بن دينار ، ؛ وكان من كبار الزهاد والوعاظ ؛ روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين ، توفى سنة ١٣٠ . صفة الصفوة ٣ : ١٩٧ .

أو على وجه الإكراه أو الغلط ؛ ولو كان الحاضر هناك مَنْ عُلِم من حاله الاختلاط بالمنكر لجوّز حضوره للفساد ؛ بل كان ذلك هو الظاهر من حاله .

ثم قال : واعلم أن الكلامَ فيما يُدّعى من الحدَث والتغيّر فيمن ثبت توليه ؛ قد يكونُ من وجهين :

أحدُهما : هل علم بذلك أم لا ؟

والثانى : أنّه مع يقين حصوله : هل هو حَدَثٌ يؤثّر فى العدالة أم لا ؟

ولا فرق بَيْن تجويز ألّا يكون حدث أصلا ، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألّا يكون حدثا .

ثم قال : كلّ محتمل لو أخبر الفاعل أنّه فعله على أحد الوجهين ، وكان يغلِبُ على الظّن صدقه لوجب تصديقه ، فإذا عرف من حاله المتقررة فى النّفوس مايطابق ذلك جرَى مجرى الإقرار ؛ بلْ ربما كان أقوى ؛ ومتى لم نسلك هذه الطريقة فى الأمور المشتبهة لم يصحّ فى أكثر من نتولّاه ونعظّمه أن تسلم حاله عندنا ، فإنّا لو رأينا من يُظَنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق لكان ذلك من باب المحتمل ؛ فإذا كان لو أخبر أنّها أخته أو امرأته اوجب ألا نحول عن توليه ، فكذلك إذا كان قد تقدّم فى النّفوس سترُه وصلاحه ؛ فالواجب أنْ نحمِلَه على هذا الوجه .

ثم قال : وقول الإمام له مزيّة فى هذا الباب ؛ لأنه آكد من غيره ، وأمّا ما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه وإن لم يكن مقطوعا به يؤثّر فى هذا الباب ، ويكون أقوَى مما تقدّم .

ثم قال : وقد طعن الطاعنون فيه بأمور متنوعة مختلفة ؛ ونحن نقدّم على تلك المطاعن كلاما مُجملا ؛ يبين بطلانها على الجملة ، ثم نتكلم عن تفصيلها .

قال : وذلك أنّ شيخنا أبا على[1] رحمه الله تعالى قد قال : لو كانت هذه الأحداث مما تُوجِب طعنا على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذى ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلا يُنصَب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته ؛ فإنه لا خلاف أنّه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه ، أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه ، فلما علمنا أنّ طلبَهم لإقامة إمام إنّما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبلُ والتمكن قائم ، علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث .

قال : وليس لأحدٍ أن يقول : إنّهم لم يتمكّنوا من ذلك ؛ لأنّ المتعالَم من حالهم أنّهم حصروه ومنعوه من التمكّن من نفسه ، ومن التصرّف فى سلطانه ؛ خصوصا والخصوم يدّعون أنّ الجميعَ كانوا على قول واحد فى خَلْعه والبراءة منه .

قال : ومعلوم من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حوصر فيها وقتِل ، بل كانت تحصل من قَبْلُ حالا بعد حال ، فلو كان ذلك يُوجِب الخلع والبراءة لما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه ؛ ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم .

قال : فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصُل البراءة والخلعُ من أول الوقت الذى حصَل منه ما أوجب ذلك ، وألّا ينتظر حصول غيره من الأحداث ، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حدّ إلا وينتظر غيره .

ثم ذكر أنّ إمساكهم عن ذلك إذا تيقّنوا الأحداث منه يُوجب نسبةَ الجميع إلى الخطأ والضلال .ولا يمكنهم أن يقولوا :إنّ علمهم بذلك إنما حصل فى الوقت الذى حُصِر ومُنِع ؛ لأنّ من جملة الأحداث التى يذكرونها ما تقدم عن هذه الحال ؛ بل كلها أو جلّها تقدم هذا الوقت ؛ وإنما يمكنهم أن يتعلّقوا فيما حدث فى هذا الوقت بما يذكرونه من

(١) هو محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، شيخ المعتزلة . توفى سنة ٣٠٣ . شذرات الذهب ٢ : ٢٤١ .

حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سَرْح بالقتل ، وما أوجب كون ذلك حدثا يوجب كونَ غيره حدثا ، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل ؛ واحتمالُ المتقدِّم للتأويل كاحتمال المتأخر .

ثم قال : وبعد ؛ فليس يخلو من أن يدّعوا أنّ طلب الخلع وقع من كلّ الأمة أو من بعضهم ؛ فإن ادّعَوْا ذلك في بعض الأمة ،فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالها بلا خلاف ، لأنّ الخطأ جائز على بعض الأمة ، وإن ادعَوْا في ذلك الإجماع لم يصح ؛ لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومَنْ كان ينصره ، ولا يمكن إخراجه من الإجماع ، بأن يقال : إنه كان على باطل ؛ لأن بالإجماع يتوصّل إلى ذلك ، ولم يثبت.

ثم قال : على أنّ الظاهر من حال الصحابة أنها كانت بين فريقين ؛ أمّا مَنْ نصره، فقد رُوِيَ عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار : ائذن لنا بنصرك. وروى مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ إلا إنه لو ضُيِّق عليهم الأمر في الدفع ماقعدوا ، بل المتعالَم من حالهم ذلك .

ثم ذكر مارُوِيَ من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه ، وأنه لما قُتِل لامَهما عليه السلام على وصول القوم إليه ، ظنا منه أنهما قصّرا .

وذكر أنّ أصحابَ الحديث يروون عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : «ستكونُ فتنة واختلاف ، وإنّ عثمان وأصحابَه يومئذ على الهدى» . ومارُوِيَ عن عائشة من قولها: « قُتِل والله مظلوما » .

قال : ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث في ذلك ؛ لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه ؛ نحو دعواهم أن جميعَ الصحابة كانوا عليه ؛ لأنّ ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد ؛ وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ماثبت من أحواله السليمة ،ووجوب توليه .

قال : ولا يجوز أن يعدل عن تعظيمه وصحة إمامته بأمور محتملة ؛ فلا شيء مما ذكروه إلا ويحتمل الوجه الصحيح .

ثم ذكر أنّ للإمام أن يجتهدَ برأيه في الأمور المنوطة به ، ويعمل فيها على غالب ظنه؛ وقد يكون مصيبا ، وإن أفضتْ إلى عاقبة مذمومة .

فهذه جملة ماذكره قاضي القضاة رحمه الله تعالى في "المغني" من الكلام إجمالا في دفع مايُتعلق به على عثمان من الأحداث[١] .

* * *

[رد المرتضى على ماأورده القاضي عبد الجبار من الدفاع عن عثمان]

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في "الشافي"[٢] ، فقال :

أما قوله : « مَنْ تثبت عدالته ووجب توليه إمّا قطعا أو على الظاهر ؛ فغير جائز أن يُعدل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقَّن » ؛ فغير مسلّم لأن مَنْ نتولاّه على الظاهر ، وثبتت عدالتُه عندنا من جهة غالب الظنّ ، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضي غالبَ الظنّ دون اليقين ؛ ولهذا يؤثّر في جَرْح الشهود وسقوط عدالتهم أقوالُ الجارحين؛ وإن كانت مظنونة غير معلومة . وما يظهر من أنفسهم من الأفعال التي لها ظاهر يُظَنّ معه القبيح بهم حتى نرجعَ عما كنا عليه من القول بعدالتهم ؛ وإن لم يكن كلُّ ذلك متيقّنا ، وإنما يصحّ ماذكره فيمنْ ثبتتْ عدالته على القَطْع ووجب توليه على الباطن؛ فلا يجوز أن يؤثّر في حاله مايقتضي الظنّ ، لأنّ الظنّ لا يقابل العلم ، والدلالة لا تقابل الأمارة .

فإن قال : لم أرِدْ بقولي إلا بأمرٍ متيقّن أن كونه حدثًا متيقّن ؛ وإنما أردت تيقُّنَ وقوع الفعل نفسه .

قلنا : الأمرانِ سواء في تأثير غَلَبَة الظنّ فيهما ، ولهذا يؤثّر في عدالة مَنْ تقدمتْ

(١) نقله المرتضى في الشافي ٢٦٣ ، ٢٦٤ مع تصرف في العبارة .

(٢) كتاب الشافي في الإمامة والرد على كتاب المغني . طبع في العجم سنة ١٣٠١ .

عدالته عندنا على سبيل الظنّ أقوالُ من يخبرنا عنه بارتـكاب القبائح[1] إذا كانوا عدولا، وإن كانتْ أقوالهم لاتقتضِي اليقينَ، بل يحصل عندها غالبُ الظنّ. وكيف لانرجع عن ولاية مَنْ توليناه على الظاهر بوقوع أفعالٍ منه يقتضى ظاهرُها خلافَ الولاية، ونحن إنما قلنا بعدالته فى الأصـل على سبيل الظاهر! ومع التجويز لأن يكون ماوقع منه فى الباطن قبيحا لايستحقّ به التولّى والتعظيم، ألا ترى أنّ مَنْ شاهدْناه يلزمُ مجالسَ العلم، ويكرر تلاوة القرآن، ويدمِنُ الصلاةَ والصيام والحج، يجب أن نتولّاه ونعظّمه على الظاهر وإن جوّزنا أن يكون جميعُ ماوقع منه مع خبث باطنه، وأن غرضه فى فعله القبيح فلم نتولّه إلا على الظاهر. ومع التجويز، فـكيف لانرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطريقة! فأما مَنْ غاب عنّا وتقدمت له أحوال تقتضى الولاية، فيجب أن نستمرّ على ولايته؛ وإن جوزْنا على النية أن يكون منتقِلا عن الأحوال الجميلة التى عهدناها منه؛ إلاأنّ هذا تجويزٌ محض لاظاهر معه يقابل ماتقدّم من الظاهر الجميـل، وهو بخلاف ماذكرناه من مقابلة الظاهر للظاهر، وإن كان فى كلّ واحد من الأمرين تجويز.

قال: وقد أصاب فى قوله: «إنّ مايحتمل لاينتقل[2] له عن التعظيم والتولّى» إن أراد بالاحتمال مالا ظاهر له، وأمّا ماله ظاهر ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره؛ فإنه لايسمّى محتملا. وقد يكون مؤثرا فيما ثبت من التولى على الظاهر على ماذكرناه.

قال: فأما قوله: «إنّ الأحوال المتقررة فى النفوس بالعادات فيمن نتولّاه تؤثّر مالايؤثر غيرها، وتقتضى حَمْل أفعاله على الصحّة والتأوّل له»؛ فلا شك أنّ ماذكره مؤثّر وطريق قوىّ إلى غلبة الظنّ، إلا أنه ليس يقتضى مايتقرّر فى نفوسنا لبعض مَنْ نتولاه على الظاهر أن نتأوّل كلّ مايشاهَد منه من الأفعال التى لها ظاهر قبيح، ونحيل الجميعَ على

(١) الشافى: «قبيح».
(٢) الشافى: «لايجوز أن ينتقل له».

أجمل الوجوه ، وإن كان بخلاف الظاهر ، بل ربما تبين الأمرُ فيما يقع[1] منه من الأفعال التي ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثّر في أحواله المقرّرة ، وترجع بها عن ولايته ؛ ولهذا نجد كثيرا من أهلِ العدّالة المتقرّرة لهم في النفوس ، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لاتثبت له في وقت من الأوقات عدالة ، وإنّما يكون ذلك بما يتوالى منهم ويتكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة .

قال : فأمّا ما استشهد به من أنّ مثل مالك بن دينار لوشاهدناه في دارٍ فيها منكَر لقوِيَ في الظنّ حضورُه لأجل التغيير والإنكار[2]، أو على وجه الإكراه والغلط وأنّ غيره يخالفه في هذا الباب ؛ فصحيح لايخالِف ماذكرناه ؛ لأنّ مثل مالك بن دينار ممّن تناصرتْ أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالا بعدحال ،لايجوز أن يَقدَح فيه فعل له ظاهر قبيح ، بل يجب لما تقدّم مِنْ حاله أن نتأوّل فعله ، ونخرجَه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه. وإنما وجب ذلك لأنّ الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة ، فنجعلُها قاضية على الفعل والفعلين ،ولهذا متى توالت منه الأفعال القبيحة الظاهرة وتكرّرت، قدحت في حاله، وأثرّت في ولايته ، كيف لايكون كذلك وطريق ولايته في الأصل هو الظنّ والظاهر، ولابدّ مِنْ قدح الظاهر في الظاهر ، وتأثير الظن في الظن على بعض الوجوه .

قال : فأما قوله : « فإنّ كلّ محتمل لوأخبرنا عنه وهو مما يغلب على الظنّ صدقه أنه فعله على أحد الوجهين، وجب تصديقُه ، فمتى عرف من حاله المتقرّرة في النفوس مايطابق ذلك ، جَرَى مجرى الإخبار[3] » ؛ فأوّل مافيه أنّ « المحتَمل » هو مالاظاهر له من الأفعال، والذى يكون جواز كونه قبيحا كجواز كونه حسنا ، ومثل هذا الفعل لا يقتضى ولاية

---

(١) الشافى : « فيما يرجع منه » .

(٢) الشافى : « التنكير » .

(٣) الشافى : « الإقرار » .

ولا عداوة ، وإنما يقتضى الولاية ماله من الأفعال ظاهر جميل ، ويقتضى العداوة ماله ظاهر قبيح .

فإن قال : أردتُ بالمحتمَل ماله ظاهر ، لـكنه يجوز أن يكونَ الأمر بخلاف ظاهره .

قيل له : ماذكرتَه لا يسمى محتمَلا ؛ فإنْ كنت عنيتَه فقد وضعت العبارة فى غير موضعها ، ولاشكّ فى أنّه إذا كان ممّن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقُه،وحمل الفعل على خلاف ظاهره ؛ فإنّ الواجب لما تقرّر له فى النفوس أن يُتأوّل له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل ، إلّا أنه متى توالتْ منه الأفعال التى لها ظواهر قبيحة،فلابدّ أن تـكون مؤثّرة فى تصديقه،متَى خُبّرنا بأن غرضَه فى الفعل خلاف ظاهره ، كما تـكون مانعة من الابتداء بالتأوّل .

وضرب له المثل بأنّ من نراه يكلّم امرأة حسناء فى الطريق إذا أخبر أنها أختُه أو امرأته فى أنّ تصديقه واجب،ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامَه لها على أجمل الوجوه ؛ لما تقدم له فى النفوس ـ صحيح،إلّا أنه لابد من مراعاة ماتقدم ذكره،من أنه قد يقوَى الأمر لقوّة الأمارات والظواهر إلى حدٍّ لايجوز معه تصديقه ولا التأول له،ولولا أنّ الأمر قد ينتهى إلى ذلك لما صحّ أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة ، ولامن العداوة إلى خلافها؛ لأنّه لاشىء مما يفعله الفسّاق المتهتـكون إلاويجوز أن يكونَ له باطن بخلاف الظاهر،ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز ؛ يبين صحة ماذكرناه أنّا لو رأينا من يُظَنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق ويداعبها ويضاحِكها لظننّا به الجميل مرة ومرات ، ثم ينتهى الأمر إلى ألّا نظنه . وكذلك لو شاهدناه وبحضرته المنكر ، لحملْنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غيرذلك من الوجوه الجميلة. ثم لابدّ من انتهاء الأمر إلىأن نظنّ به القبيح ولا نصدقه فى كلامه .

قال : ثم نقول [1] له : أخبرنا عمّن شاهدناه من بُعْد وهو مفترِش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرَم ، وأنّ لها فى الحال زوجاً غيره ، وهو ممن تقررت له فى النفوس عدالةٌ متقدّمة ، ماذا يجب أن نظنّ به ؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته ، أم نحمله على أنه غالطومتوهّم أنّ المرأة زوجته،أو على أنه مكرَه على الفعل،أو غير ذلك من الوجوه الجميلة؟

فإن قال : نرجع عن الولاية ، اعترف بخلاف ماقصده فى الـكلام ، وقيل له : أىّ فَرْق بين هذا الفعل وبين جميع ماعددناه من الأفعال وادّعيت أنّ الواجب أن نَعدل عن ظاهرها ؟ وماجواز الجميل فى ذلك إلا كجواز الجميل فى هذا الفعل .

وإن قال : لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته [2] ، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة.

قيل له : أرأيت لو تـكرّر هذا الفعل وتوالى هو وأمثاله حتى نشاهدَه حاضرا فى دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها ، وكلّ هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرَهاً وفى أنه القبيح بعينه غالطا ، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها ؟ فإن قال: نستمرّ ونتأوّل ، ارتـكب مالاشبهة فى فسادِه ، وألزِم ماقد قدّمنا ذكره من أنه لاطريق إلى الرجوع عن ولاية أحد ، ولو شاهدنا منه أعظمَ المناكير . ووقف أيضاً على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظنّ دون القطع،فـكيف لانرجع عنها لمثل هذا الطريق ، فلابدّ إذنْ من الرجوع إلى مابيناه وفصلناه فى هذا الباب .

قال : فأمّا قوله : « إن قول الإمام له مزية ؛ لأنه آكد من غيره » فلا معنى له ؛ لأن قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزية ، من حيث كان معصوما مأمون [3] الباطن،وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين؛فأىّ مزية له فى هذا الباب !

---

(١) ب « ثم يقال » .
(٢) الشافى : « الولاية » .
(٣) الشافى : « معصوما مأمونا باطنه » .

وقوله : « (١) إن ما ينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعا عليه يؤثّر فى هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم » غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن تأثيرَ ما ينقل إذا كان يقتضى غلبةَ الظن لا شبهة فيه ؛ فأما تقويتُه على غيره فلا وجه له ؛ وقد كان يجب أن يبين من أى الوجوه يكون أقوى .

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأوّل من كلام قاضى القضـــاة رحمه الله تعالى .

تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة (٢)

(١) الشافى ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

(٢) هذا نهاية نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ج : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة ، بحمد الله ومنه وصلى الله على محمد وآله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

* وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الثالث

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الكريم .

واعلم أن الذى ذكره المرتضى رحمه الله تعالى ، وأورده على قاضى القضاة[1] جيد ولازم ؛ متى ادعى قاضى القضاة أن العدالة إذا ثبتت ظنا أو قطعا لم يجز العدول عنها والتبرؤ إلا بما يوجب القطع ، ويعلم به علما يقينيا زوالها ؛ فأما إذا ادعى أن المعلوم لا يزول إلا بما يوجب العلم ، فلا يرد عليه ماذكره المرتضى رحمه الله تعالى .

وله أن يقول : قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان ، والإجماع دليل قطعى عند أصحابنا ، وكل من ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التى بها ثبتت إمامته ، لأنه لا يجوز أن تكون إمامته معلومة وشرائطها مظنونة ؛ لأن الموقوف على المظنون مظنون ، فتكون إمامته مظنونة ، وقد فرضناها معلومة ، وهذا خلف ومحال . وإذا كانت عدالته معلومة لم يجز القول بانتفائها وزوالها إلا بأمر معلوم .

والأخبار التى رويت فى أحداثه أخبار آحاد لا تفيد العلم ، فلا يجوز العدول عن المعلوم بها ، فهذا الكلام إذا رتب هذا الترتيب اندفع به ما اعترض به المرتضى رحمه الله تعالى .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٤ من الجزء الثانى ، وما بعدها .

[بقية رد المرتضى على ماأورده القاضى عبد الجبار من الدفاع عن عثمان][*]

فأمّا كلامُ المرتضى رحمه الله تعالى عَلَى الفصل الثانى من كلام قاضى القضاة ، وهو الفصلُ المحكىّ عن شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، فنحن نورده . قال رحمه الله تعالى[١] :

أما قوله : لوكان ماذُكِرَ من الأحداث قادِحاً لوجب من الوقت الذى ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلًا ينصبونه فى الإمامة ، لأنّ ظهورَ الحدَث كموته،فلمّا رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ماأضافوه إليه من الأحداث . فليس بشىء معتمَد ؛ لأنّ تلك الأحداثَ وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته ، وفاسخةً لها ، ومقتضية لأنْ يعقدوا لغيره الإمامة ، [٢]إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نَصْب غيره ،[٢] مع تشبّثه بالأمر ؛ خوفا من الفتنةوالتنازع والتجاذب ، وأرادوا أن يخلعَ نفسَه ،حتى تزولَ الشبهة، وينشَط مَنْ يصلُح للأمر لقبول العَقْد والتكفّل بالأمر . وليس يجرِى ذلك مجرَى موته؛ لأنّ موته يحَسِم الطمع فى استمرار ولايته ، ولاتبقى شبهة فى خلوّ الزمان من إمام . وليس كذلك حَدَثه الذى يَسُوغ فيه التأويل عَلَى بُعْده ، وتبقى معه الشّبهة فى استمرار أمره . وليس نقولُ[٣] : إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسَه ، بل الوجه فى عدولهم ماذكرناه من إرادتهم حَسْمَ[٤] المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة .

(*) تابع لما ورد فى الجزء الثانى ص ٣٢٨ وما بعدها .

(١) الشافى ٢٦٦ وما بعدها ؛ وعبارته فى أول هذا الفصل : « فأما عد الأحداث التى نقمت عليه ، فنحن نتكلم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بمشيئة الله تعالى عند ذكره لذلك ؛ فأما ماحكاه عن أبى على من قوله : لو كان ماذكره من الأحداث قادحا . . . . . » . وانظر ص ٣٦٢ من الجزء الثانى .

(٢ ـ ٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « فإنهم لم يقدموا على نصب غيره . . . » .

(٣) الشافى : « ليس نقول » . (٤) ا : « لحسم » ، وكذلك فى الشافى .

قال : فأمّا قوله : إنه معلوم من حال هـذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حُصِر فيها وقُتِل ؛ بل كانت تقعُ حالاً بعد حال ، فلو كانت توجبُ الخلع والبراءة ، لما تأخّر من المسلمين الإنـكارُ عليه ، ولـكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أَوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ فلا شكّ أنّ الأحداثَ لم تحصُل فى وقت واحد ؛ إلّا أنه غيرُ منكَر أن يكونَ نـكيرُهم إنّما تأخّر لأنهم تأوّلوا ماورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه ؛ حتى زاد الأمرُ وتفاقم ، وبَعُدَ التأويل ، وتعذّر التخريج ، ولم يبق للظنّ الجميل طريق ، فحينئذ أنـكروا ، وهذا مستمرّ عَلَى ماقدّمنا ذكره ، من أنّ العدالة والطريقة الجميلة يُتأوّل لما فى الفعل والأفعال القليلة ، بحسب ماتقدّم من حُسْن الظن به ، ثم ينتهى الأمر [بعد ذلك][1] إلى بُعْدِ التأويل ، والعمل على الظاهر القبيح .

قال : عَلَى أنّ الوجهَ الصحيح فى هذا الباب أنّ أهل الحقّ كانوا معتقدين بخلعه من أول حَدَث ، بل معتقدين أنّ إمامته لم تثبت وقتا من الأوقات ، وإنما منعهم من إظهار مافى نفوسهم ماقدّمناه من أسباب الخوف والتقيّة ؛ لأنّ الاعتذارَ بالوجَل[2] كان عامًّا ، فلما تبيّنَ أمره حالاً بعد حال ، وأعرضت الوجوهُ عنه ، وقلّ العاذرُ له ، قويت الـكلمة فى خلعه . وهذا إنما كان فى آخر الأمر دونَ أوّله ، فليس يقتضى الإمساك عنه إلى الوقت الذى وقع الـكلام فيه نِسْبة الخطأ إلى الجميع ؛ على ماظنه .

قال : فأما دفعهُ بأن تكون الأمّة أجمعت على خلعه بخروجه[3] نفسه وخروج مَنْ كان فى حيّزه عن القوم ، فليس بشىء ، لأنّه إذا ثبتَ أنّ مَنْ عَداه وعَدَا عبيده والرَّهْط من فُجّار أهله وفُسّاقهم ، كمَرْوان ومَنْ جرى مجراه ، كانوا مجمعين على خلعه، فلاشبهة

(١) من كتاب الشافى .

(٢) كذا فى ج ، وفى حاشيتها : « يعنى أكثر الناس يعتذرون بالخوف » ، وفى ا ، ب : « لأن الإعذار بالرجل » ، وفى الشافى : « لأن الاغترار بالرجل » .

(٣) ب : « بإخراجه » .

فى أنّ الحقّ فى غير حَيِّزه ، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب ، وجميعُ الأمة مبطِل ؛ وإنّما يدّعى أنّه على الحق لمن ينازع فى إجماع مَنْ عداه ، فأمّا مع التسليم لذلك ، فليس يبقى شبهة ، وما نجد مخالفينا يعتبرون فى باب الإجماع بإجماع الشذّاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع ، ألا ترى أنّهم لا يحفِلون[1] بخلاف سعدٍ[2] وأهله وولده فى بَيْعة أبى بكر لقلّتهم وكثرة مَنْ بإزائهم ؛ ولذلك لا يعتدّون بخلاف مَن امتنع من بَيْعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ويجعلونَه شاذًّا ؛ لا تأثير بخلافه[3] ، فكيف فارقوا هذه الطريقة فى خَلْع عثمان! وهل هذا إلّا تقلّب وَتَلَوّن !

***

قلت : أما إذا احتجّ أصحابُنا على إمامة أبى بكر بالإجماع ، فاعتراض حُجّتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جَيّد ، وليس يقول أصحابنا فى جوابه : هؤلاء شذّاذ فلا نحفِل بخلافهم ؛ وإنما المعتبر بالكثرة التى بإزائهم . وكيف يقولون هذا ، وحجّتهم الإجماع ولا إجماعَ ! ولكنهم يُجيبون عن ذلك بأنّ سعداً مات فى خلافة عمر ، فلم يبق مَنْ يخالف فى خلافة عمر ، فانعقد الإجماع عليها ، وبايع ولد سعد وأهله من قَبْل ؛ وإذا صَحّت خلافة عمر صَحّت خلافة أبى بكر ؛ لأنها فرع عليها ؛ ومحال أن يصحّ الفرع ، ويكون الأصلُ فاسدا ؛ فهكذا يجيب أصحابُنا عن الاعتراض بخلاف سعد إذا احتجّوا بالإجماع ؛ فأمّا إذا احتجّوا بالاختيار فلا يتوجّه نحوَهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده ؛ لأنّه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماعُ الأمة على الاختيار ؛ وإنما يكفى فيه بَيْعة خمسة من أهل الحلّ والعقد على الترتيب الذى يرتّب أصحابُنا الدّلالة عليه ؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامةُ علىّ عليه السلام ، ولم يُحْفَل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها .

***

(١) يقال : لم يحفل بالأمر ؛ إذا لم يبال به .

(٢) هو سعد بن عبادة الأنصارى ، وانظر حديث السقيفة فى تاريخ الطبرى (حوادث السنة الحادية عشرة).

(٣) ا ، ج : « لا تأثير له » .

قال رحمه الله تعالى : فأمّا قوله : إنّ الصحابة كانت بَيْن فريقين : مَنْ نصره[1] كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ولأنه ماضيّق عليهم الأمر فى الدفع عنه ، فعجيب ، لأنّ الظاهر أنّ أنصاره هم الذين كانوا معه فى الدار ، يقاتلون عنه[2] ، ويدفعون الهاجين عليه .

فأمّا مَنْ كان فى منزله ما أغنى عنه فتيلا ، فلا يُعدّ ناصرا ، وكيف يجوز ممّن أراد نُصرَته ، وكان معتقِداً لصوابه ، وخطأ المطالبين له بالخلع ، أن يتوقّف عن النصرة طلبا لزوال العارض ! وهلْ تُرادُ النّصرة إلّا لدفع العارض ، وبَعْدَ زواله لا حاجة إليها ! وليس يحتاج فى نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها ، بل مَنْ كان معتقدا لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها ، ولا يُحفَل بنهيه عنها ، لأنّ المنكر مماقد تقدّم أمر الله تعالى بالنهى عنه ، فليس يحتاج فى إنكاره إلى أمر غيره .

قال : فأمّا زيد بن ثابت ، فقد رُوِي ميلُه إلى عثمان ، وما يغنى ذلك وبإزائه جميعُ المهاجرين والأنصار ! ولميله إليه سبب معروف ، فإن الواقدى روى فى ‹‹كتاب الدّار›› أنّ مَرْوان بن الحكم لما حُصِرَ عثمان الحصْر الأخير أتى زيدَ بن ثابت فاستصحبَه إلى عائشة ليكلّمها فى هذا الأمر ، فمضيا إليها وهى عازمة على الحجّ ، فكلّماهافى أن تُقيمَ وَتَذُبّ عنه ، فأقبلتْ على زيد بن ثابت ، فقالت : وما منعك يابن ثابت ولك الأشاريف قد اقتطعكها[3] عثمان ، ولك كذا وكذا ، وأعطاك عُثمان من بيت المال عشرة آلاف دينار ! قال زيد : فلم أرْجعْ عليها حرفا واحدا ، وأشارت إلى مروان بالقيام ، فقام مَرْوان وهو يقول :

---

(١) الشافى : « من ينصره » .
(٢) ب : « يقاتلون غيره » .
(٣) الشافى : « قد قطعها » .

حَرَّق قَيْسٌ عَلَيَّ البـلا دَ حتى إذا اضطرمَتْ أجذَما[1]

فنادته عائشة ، وقد خرج من العتبة : يابن الحـكم ، أعلىَّ تُمثّل الأشعار ! قد والله سمعتُ ماقلتَ ، أترانى فى شكٍّ من صاحبك ! والذى نفسي بيده لوددت أنّه الآن فى غِرارة من غرائرى تَخيط عليه ، فألقيه فى البحر الأخضر ، قال زيد بن ثابت : فخرجنا من عندها[2] على اليأس منها[2] .

ورَوى الواقدىّ أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عِصابة من الأنصار ، وهو يدعوهم إلى نُصْرة عثمان . فوقف عليه جَبَلة بن عمرو بن حَبّة المازنىّ ، فقال له : وما يمنعُك يازيدُ أن تذُبَّ عنه ؟ أعطـاك عشرة آلاف دينـار وحدائق من نخل لم ترِثْ عن أبيك مثل حديقة منها .

فأمّا ابنُ عمر فإنّ الواقدىّ روَى أيضا عنه أنه قال : والله ما كانَ فينا إلا خاذلٌ أو قاتل . والأمر على هذا أوضحُ من أن يَخفى .

فأما ماذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسَن والحسين عليهما السلام ، فإنما أنفذهما ــ إنْ كان أنفذَهما ــ ليمنعا من انتهاك حريمه وتعمّد قتله ، ومنع حُرمِه[3] ونسائه من الطعام والشراب ، ولم يُنفذهما ليمنعا من مطالبته بالخلع ، وكيف وهو عليه السلام مصرّح بأنّه يستحقّ بأحداثه الخلع ، والقوم الذين سعَوْا فى ذلك إليه كانوا يغدُون ويروحون ، ومعلوم منه ضرورةً أنه كان مساعِداً على خلعه ونقض أمره ، لا سيّما فى المرة الأخيرة .

فأما ادعاؤه أنّه عليه السـلام لَعَن قَتَلتَه ، فهو يعلم مافى هذا من الروايات المختلفة التى

---

(١) الإجذام : الإقلاع ؛ والبيت للربيع بن زياد ؛ من أبيات فى الحماسة ٢ ــ ٤٨٤ ــ ٤٨٧ ، بشرح المرزوقى . وفى الشطر الأول من البيت زحاف بالخرم ؛ وهو جائز فى أول المتقارب والطويل ، ورواية اللسان : « وحرق » ؛ بلا خرم . وقيس هو ابن زياد العبسى .

(٢ ــ ٢) الشافى : « على الناس » .

(٣) ب : « حريمه » ، وما أثبته من ا ، وكتاب الشافى .

هى أظهر من هذه الرواية ، وإن صحّت فيجوز أن تكونَ محمولة على لَعْن مَنْ قتله متعمِّدا قتلَه ، قاصدا إليه ، فإنّ ذلك لم يكن لهم .

فأما ادّعاؤه أنّ طلحة رجعَ لما ناشده عثمان يوم الدّار ، فظاهرُ البطلان وغير معروف في الرواية ، والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشدُّ من طلحة ، ولا أغلظَ منه .

قال : ولو حكينا من كلامه فيه ماقد رُوى لأفنينا قِطْعة كثيرة من هذا الكتاب ، وقد رُوِي أنّ عثمان كان يقول يوم الدار : اللهم اكفِنى طلحة ، ويكرّر ذلك، علماً بأنه أشدُّ القوم عليه . ورُوِيَ أنّ طلحَة كانَ عليه يومَ الدار دِرْعٌ وهو يُرامى الناس ، ولم ينزِعْ عن القتال حتى قتل الرّجُل(١) .

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «ستكون فتنة ، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى » ، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذّة لا تكون فى مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خَلْعه وخَذْله ، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه ، وبإزاء هذه الرواية مايملأُ الطروس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وغيره ، مما يتضمّن ماتضمّنته .

ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمانُ أولَى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار ، وقد احتجّ عليهم بكلّ غثّ وسمين ، وقبل ذلك لما خُوصم وطولب بأنْ يخلع نفسه ، ولاحتجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره ، وفى علمنا بأنّ شيئا من ذلك لم يكنْ ، دلالة على أنّهـا مصنوعة موضوعة .

فأما مارواه عن عائشة من قولها: « قُتِل واللهِ مظلوما » فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة ، وإخراجها قميصَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تقول : « هذا قميصه لم يَبْلَ ، وقد أبْلَى عثمانُ سنّتَه » ، إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرة .

---

(١) ب : « الرجال » ، وما أثبته عن ا ، ج ، وكتاب الشافى .

فأما مدحُها له وثناؤُها عليه ؛ فإنّمـا كانا عَقيب عِلمها بانتقال الأمر إلى مَن انتقل إليه ، والسببُ فيه معروف ، وقد وقفت عليه ، وقُوبل بين كلامها فيه متقدما ومتأخرا .

فأما قوله : لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد فى ذلك لأنّها فى مقابلة مايدّعونه مما طريقه أيضاً الآحاد ، فواضح البطلان ، لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة — إلّا مَنْ كان فى الدار معه على خلافه ، فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتلٍ مبارز ، وبين متقاعد خاذل — معلومٌ ضرورة لكلّ مَنْ سمع الأخبار ، وكيف يدّعى أنّها من جهة الآحاد حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة ! وهل هذا إلّا مكابرة ظاهرة !

فأمّا قوله : إنا لا نعدل عن ولايته بأمور محتملة ، فقد مضى الكلام فى هذا المعنى ، وقلنا إن المحتمل هو مالا ظاهر له ، ويتجاذبه أمورر محتملة ، فأمّا ماله ظاهر فلا يسمّى محتملا وإن سماه بهذه التسمية ، فقد بينا أنّه مما يُعْدَل من أجله عن الولاية ، وفصّلنا ذلك تفصيلا بيّناً .

وأما قوله : إنّ للإمام أن يجتهد برأيه فى الأمور المنُوطة به ، ويكون مصيبا وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة ، فأوّل مافيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد فى الأحكام ، ولا يجوز أن يعمل فيها إلّا على النصّ ، ثم إذا سلّمنا الاجتهاد ، فلا شكّ أن ههنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد ، حتى يكون مَنْ خبّرنا عنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب[1] ، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ماتعاطاه من الأعذار عن إحداثه[2] على جهة التفصيل .

* * *

قلت : الكلام فى هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون فى الكتب الكلاميّة المبسوطة فى مسألة الإمامة ، وليس هذا موضع ذاك ، ولكن يكفى قاضى القضاة أن يقول:

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى كتاب الشافى : « غير مصدق » .

(٢) الشافى : « فى أحداثه » .

قد ثبت بالإجماع صحة إمامة عثمان ؛ فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خلعه وإباحة قتله ، ولم يجمع المسلمون على ذلك ، لأنه قد كان بالمدينة مَنْ يُنكر ذلك وإنْ قلّوا ، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرُون ذلك ، كالشام والبصرة والحجاز واليمن ومكّة وخراسان ، وكثير من أهل الكوفة ، وهؤلاء مسلمون ، فيجب أن تُعتبر أقوالهم فى الإجماع ، فإذا لم يدخلوا فيمن أجلب عليه لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه ، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأوّل .

* * *

[ذكر المطاعن التى طُعِن بها على عثمان والردّ عليها]

فأمّا الكلام فى المطاعن المفصّلة التى طُعِن بها فيه ، فنحن نذكرها ، ونحكى ما ذكره قاضى القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى [(١)] .

الطعن الأوّل :

قال قاضى القضاة فى " المغنى " : فممّا طُعِن به عليه قولهم : إنّه ولى أمورَ المسلمين مَنْ لا يصلحُ لذلك ولا يؤتمَن عليه ، ومَنْ ظهر منه الفسق والفساد ، ومَنْ لا علمَ عنده ، مراعاةً منه لحرمة القرابة ، وعدولًا عن مراعاة حرمة الدّين والنظر للمسلمين ؛ حتى ظهر ذلك منه وتكرّر ؛ وقد كان عمرُ حذّره من ذلك ؛ حيث وصفه بأنّه كلِفٌ بأقاربه ، وقال له : إذا وُلّيتَ هذا الأمرَ فلا تسلّط بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس . فوقع منه ما حذّره إياه ، وعُوتب فى ذلك فلم ينفع العتبُ ، وذلك نحو استعماله الوليد بن عُقْبة [(٢)] ، وتقليده إياه ،

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أخو عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس . ولاه عثمان الكوفة بعد عزل سعد بن أبى وقاص ؛ ثم عزله عنها بعد أن ثبت عليه شرب الخمر ؛ فى خبر مشهور . الإصابة ٣ : ٦٠١ .

حتى ظهر منه شربُ الخمر ؛ واستعماله سعيد بن العاص (١) حتى ظهرتْ منه الأمور التى عندها أخرجَه أهل الكوفة ، وتوليتُه عبد الله بن أبى سَرْح (٢) ، وعبد الله بن عامر بن كُريز (٣) ؛ حتى رُوِى عنه فى أمر ابن أبى سَرْح أنّه لما تظلّم منه أهلُ مصر وصَرَفه عنهم بمحمد بن أبى بكر ، كاتَبه بأنْ يستمرّ على ولايته، فأبطن خلافَ ماأظهر، فِعل من غرضه خلاف الدين . ويقال : إنه كاتبَه بقتل محمد بن أبى بكر وغيره ممّن يرِد عليه، وظفِر بذلك الكتاب ، ولذلك عَظُم التظلّم من بعد ، وكَثُر الجمع ، وكان سبب الحصار والقتل ؛ حتى كان من أمرِ مَرْوان وتسلّطه عليه وعلى أموره ما قُتل بسببه ؛ وذلك ظاهر لا يمكن دَفْعُه .

قال رحمه الله تعالى:وجوابُنا عن ذلك أن نقول:أمّا ما ذُكِر من تَوْليته مَنْ لايجوز أن يُستعمل،فقد علمنا أنّه لا يمكنُ أنْ يُدّعى أنه حين استعملَهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح؛لأنّ الذى ثبتَ عنهم من الأمور القبيحة حَدَث من بعد،ولا يمتنع كونُهم فى الأوّل مستورين فى الحقيقة أو مستورين عنده ؛ وإنّما كان يجب تخطئته لو استعملهم وهم فى الحال لا يصلحون لذلك .

فإنْ قيل ، فلمّا علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم !

قيل : كذلك فعَل ؛ لأنه إنما استعمل الوليد بن عُقْبة قبل ظهور شرب الخمر عنه

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى . ولاه عثمان الكوفة بعد الوليد ابن عقبة ؛ ثم شكاه أهل الكوفة ؛ لتجبر وغلظة فيه ، وكتبوا إلى عثمان : لا حاجة لنا فى وليدك ولا سعيدك ؛ فعزله . الاستيعاب لابن عبد البر ٦٢١ .

(٢) هو عبدالله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث بن حبيب القرشى العامرى ، أخو عثمان من الرضاعة ؛ كان على الصعيد فى زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ؛ وافتتح إفريقية ، الإصابة ٣ : ٣٠٩ .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى ، ابن خال عثمان بن عفان. عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة وعثمان بن أبى العاص عن فارس ؛ وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر . الاستيعاب لابن عبد البر ٩٣١ .

فلما شُهِد عليه بذلك جَلَده الحدّ وصرَفه . وقد رُوى مثلُه عن عمر ، فإنّه ولّى قُدامة بن مَظْعون بعضَ أعماله، فشهِدوا عليه بشرب الخمر ، أشخصه وجلَده الحدّ ؛ فإذا عُدّ ذلك فى فضائلِ عمر لم يجزْ أن يعدّ ماذكروه فى الوليدِ من معايب عثمان . ويقال : إنّه لما أشخصه أقام عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد اعتذر من عَزْله سعد بن أبى وقّاص بالوليد ؛ بأنّ سعداً شكاه أهلُ الكوفة ، فأدّاه اجتهادُه إلى عزله بالوليد .

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولّى مكانه أبا موسى، وكذلك عبدالله ابن أبى سَرْح عزله وولّى مكانه محمد بن أبى بكر، ولم يظهر له من مَرْوان(١) مايوجب أن يصرِفَه عمّا كان مستعملا فيه، ولو كان ذلك طَعْناً لوجب مثلُه فى كلّ مَنْ ولّى، وقد علمنا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولّى الوليد بن عُقْبة ، فحدث منه ماحدث . وحَدَث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة ، كالقَعقاع بن شور ، لأنه ولاه على مَيْسان فأخذ مالها ولحق بمعاوية، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذْرَبيجان. وولّى أبا موسى الحكَم ، فكان منه ما كان، ولا يجب أن يُعاب أحد بفعل غيره ؛ وإذا لم يلحقه عيب فى ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيما بعده .

وقولهم : إنّه قَسَم أكثر الولايات فى أقاربه، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين، وقد كان عمر حذّره من ذلك، فليس بعيب ؛ لأنّ توليةَ الأقارب كتولية الأباعد، فى أنّه يحسُن إذا كانوا على صفات مخصوصة. ولو قِيلَ إنّ تقديمهم أولى لم يمتنع، إذا كان للولّى لهم أشدّ تمكنا من عزلهم، والاستبدال بهم ، وقد ولّى أمير المؤمنين عليه السلام عبدالله بن العباس البصرة، وعُبيدالله بن العباس اليمن، وقُثَم بن العباس مكّة؛ حتى قال مالك الأشتر عند ذلك :

---

(١) كذا فى ج ، وفى ب والشافى : « فى بابه مروان » .

عَلَى ماذا قتلنا الشيخ أمس ! فيما يُرْوَى ؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدّى ما وجب عليه في اجتهاده .

فأمّا قولهم : إنّه كتب إلى ابن أبي سَرْح حيث ولّى محمد بن أبي بكر بأنّه يقتله ويقتل أصحابه ، فقد أنكرَ ذلك أشدّ إنكار ، حتى حلف عليه ، وبيّن أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته ؛ وكان في جُملة مَنْ خاطبه في ذلك أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فقبِل عذره . وذلك بيّن ؛ لأنّ قول كلّ أحد مقبول في مثل ذلك ، وقد علم أنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، فهو بمنزلة الخبَر الذي يجوز فيه الكذب .

فإن قيل : فقد علم أنّ مروان هو الذي زَوّر الكتاب ، لأنه هو الذي كان يكتب عنه ، فهلّا أقام فيه الحدّ !

قيل : ليس يجب بهذا القدر أن يُقطَع على أنّ مروان هو الذي فعل ذلك ، لأنّه وإن غلب ذلك في الظّنّ ، فلا يجوز أن يحكم به ، وقد كان القوم يسومونَه تسليمَ مروان إليهم ؛ وذلك ظلم ؛ لأنّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدّ على مَنْ يستحقه أو التأديب ، ولا يحلّ له تسليمُه إلى غيره ؛ فقد كان الواجب أن يُثبِتُوا عنده ما يوجب في مروان الحدّ والتأديب ليفعَله به ؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحقّ التعنيف . وقد ذكر الفقهاء في كتبهم أن الأمر بالقتل لا يُوجب قَوَداً ولا دية ولا حدّاً ، فلو ثبت في مَرْوان ما ذكروه لم يستحقّ القتل وإن استحق التعزير ، لكنّه عدل عن تعزيره ؛ لأنّه لم يثبت ؛ وقد يجوز أن يكونَ عثمانُ ظنّ أنّ هذا الفعل فِعْل بعض من يعادي مَرْوان تقبيحاً لأمره ؛ لأن ذلك يجوز ، كما يجوز أن يكون من فعله ؛ ولا يعلَم كيف كان اجتهاده وظنّه ، وبعد فإنّ هذا الحدَث من أجل ما نقَموا عليه ؛ فإن كان شيء من ذلك يُوجب خَلْع عثمان وقتله ؛ فليس إلّا هذا ؛ وقد علمنا أنّ هذا الأمرَ لو ثبت ما كان يُوجب القتل ؛ لأنّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل ؛ سيما قَبل وقوع القتل للمأمور به ؛ فنقول[1] لهم : لو ثبت ذلك على عُثمان أكان يجبُ قتله ! فلا يمكنهم ادّعاء

(١) الشافي « فيقال لهم » .

ذلك ، لأنه بخلاف الدِّين ؛ ولابد أن يقولوا : إنّ قتلَه ظلم ، وكذلك حَبْسُه فى الدار ، ومنعه من الماء ، فقد كان يجب أن يدفع القومُ عن كلّ ذلك ، وأن يقال : إنّ من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئاً .

وفى القول بأنّ الصحابة اجتمعوا على ذلك كلّهم تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك غير جائز ، وقد عُلِم أيضا أنّ المستحقّ للقتل والخلع لايحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشرابَ ، وعُلِم أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يمنعْ أهل الشام من الماء فى صِفِّين ؛ وقد تمكن من منعهم ؛ وكلّ ذلك يدلُّ على كَوْن عثمان مظلوما ، وأنّ ذلك من صُنْع الجهّال ، وأنّ أعيانَ الصحابة كانوا كارهين لذلك . وأيضا فإنّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولّاه العوامُّ من الناس ؛ ولا شبهَة أنّ الذين أقدَموا على قتله كانوا بهذه الصِّفة ؛ وإذا صحّ أن قتله لم يكنْ لهم ، فمنْعُهم والنَّكيرُ عليهم واجب .

وأيضاً فقد عُلِم أنه لم يكن من عثمان مايستحقّ به القتل ؛ من كُفرٍ بعد إيمان ، أوزنا بعد إحصان ، أو قتلِ نفسٍ بغير حقّ ؛ وأنه لو كان منه ما يوجِب القتل لكان الواجبُ أن يتولّاه الإمام ؛ فقتلُه على كلِّ حالٍ منكَر ، وإنكارُ المنكرِ واجب .

وليس لأحدٍ أن يقولَ : إنّه أباح قتلَ نفسه ، من حيث امتنع من دَفْع الظلم عنهم ، لأنّه لم يمتنع من ذلك ؛ بل أنصفهم ، ونظر فى حالهم ، ولأنه لو لم يفعلْ ذلك لم يحلّ لهم قتلُه ، لأنه إنّما يحلّ قتلُ الظالم إذا كان على وجه الدّفع ؛ وللمرويّ أنهم أحرقوا بابه ، وهجموا عليه فى منزله ، وبَعَجُوه بالسيف والمشاقِص[(١)] ، وضربوا يَدَ زوجته لما وقعتْ عليه ، وانتهبوا متاعَ داره ؛ ومِثلُ هذه القِتْلة لا تحلّ فى الكافر والمرتدّ ، فكيف يُظنّ أنّ الصحابة لم ينكِرُوا ذلك ، ولم يعدّوه ظلما ؛ حتى يقال إنّه مستحقٌّ من حيث لم يَدْفع القوم عنه ! وقد تظاهرَ الخبر بما جرَى من تجمّع القوم عليه ، وتوسّط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم ، وأنّه

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

بذل لهم ما أرادوه ، وأعتبهم (١) وأشهدَ على نفسه بذلك ؛ وإن الكتاب الموجودَ بعد ذلك المتضمّن لقتل القوم ، ووقف عليه ـ وممّن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام (٢) ـ لحلفَ أنّه ما كتبه ، ولا أمرَ به ؛ فقال له : فمَنْ تتّهم ؟ قال : ما أتّهم أحدا ، وإنّ للناس لِحِيَلاً .

والرواية ظاهرة أيضا بقوله : إن كنت أخطأتُ أو تعمّدت فإنى تائب ومستغفر ؛ فكيف يجوز والحال هذه أن تُهتَك فيه حرمةُ الإسلام وحرمةُ البلد الحرام ! ولاشبهةَ فى أنّ القتل على وجه الغيلة لايحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لايستحقّه ! ولو لا أنّه كان يمنع من محاربة القوم ظنًّا منه أنّ ذلك يؤدّى إلى القتل الذّريع لكَثُرَ أنصاره .

وقد جاء فى الرواية أن الأنصارَ بدأت بمعونته ونُصرته، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام ، فقال له : قل لأبيك فلتأتنى ؛ فأراد أميرُ المؤمنين عليه السلام المصير إليه ، فمنعَه من ذلك محمّد ابنه ، واستعان بالنّساء عليه ، حتى جاء الصريخ (٣) بقتل عثمان ، فمدّ يده إلى القبلة ، وقال : اللّهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

فإنْ قالوا : إنّهم اعتقدُوا أنه من المفسدين فى الأرضِ ، وأنّه داخل تحت آية المحاربين .

قيل : فقد كان يجب أن يتولّى الإمام هذا الفعل ، لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ، وكيف يُدّعى ذلك ، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم ، حتى رُوِى أنّه قال لعبيده ومواليه ، وقد همّوا بالقتال : مَنْ أغمد سيفه فهو حرّ ! ولقد كان مؤثراً لتكير ذلك الأمر بما لايؤدى إلى إراقة الدماء والفتنة ، ولذلك لم يستعِنْ بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وإن كان لما اشتدّ الأمر ، أعانَه مَنْ أعان ، لأنّ عند ذلك تجب النُّصْرة والمونة ، فحيث

---

(١) أعتبهم : أرضاهم .

(٢) عبارة الشافى : « وذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الكتاب » .

(٣) الصريخ : المستغيث .

كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده وإعانته بالحرب امتنعوا وتوقفوا ، وحيثُ اشتدّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلِب ذلك فى ظنه .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هـذا الـكلام ، فقال[1] : أما قوله : لم يكن عالما بحال الفَسَقَة الذين ولّاهم قبل الولاية ؛ فلا تعويلَ عليه ؛ لأنّه لم يولِّ هؤلاء النفَر إلّا وحالُهم مشهورة فى الخلاعة والمجانة والتجرّم والتهتك ؛ ولم يختلف اثنان فى أنّ الوليد بن عُقبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدّين على استقبال ولايته للـكوفة؛ بل هذه كانت سنتَه والعادةَ المعروفة منه ؛ وكيف يخفَى عَلَى عثمان ـ وهو قريبه ولصيقُه وأخوه لأمّه ـ مِنْ حاله مالا يخفى عَلَى الأجانب الأباعد ! ولهذا قال له سعد بن أبى وقاص ـ فى رواية الواقدىّ ، وقد دخل الـكوفة ـ : ياأبا وهب[2] ، أمير أم زائر ؟ قال : بل أمير ، فقـال سعد : ماأدرى أحَمُقتُ بعدك أم كِستُ[3] بعدى ! قال : ماحَمُقتَ بعدى ولا كِستُ بعدك ، ولـكنّ القوم ملـكوا[4] فاستأثروا ، فقال سعد : ماأراك إلّا صادقا .

وفى رواية أبى مِخنف لوط بن يحيى الأزدىّ أنّ الوليد لما دخل الـكوفة مرّ عَلَى مجلس عمرو بن زُرارة النَّخَعىّ ، فوقف ، فقال عمرو : يامعشرَ بنى أسد ، بئسما استقبلَنا به أخوكم ابنُ عفّان ! أمِنْ عـدله أن ينزِعَ عنّا ابنَ أبى وقاص ، الهيّن الليّن السّهل القريب ، ويبعثَ بَدَله أخاه الوليد ، الأحمق الماجن الفاجر قديما وحـديثا ! واستعظم الناسُ مقدَمه ، وعَزْلَ سعد به ، وقالوا : أراد عثمان كرامةَ أخيه بهوان أمّة محمد صلى الله عليه ! وهذا تحقيقُ ماذكرناه من أنّ حاله كانتْ مشهورة قبل الولاية ، لاريب فيها عنـد أحدٍ ، فـكيف

---

(١) الشافى ص ٢٦٩

(٢) أبو وهب كنية الوليد بن عقبة .

(٣) من الـكيس ، وهو خلاف الحمق .

(٤) كذا فى ج والشافى ، وفى ب : « ولوا » .

يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ا وفي الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ (١) ، فالمؤمن ها هنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ، على ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٢)، والسبب في ذلك أنه كذب عَلَى بني المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وادّعى أنّهم منعوه الصَّدَقَة . ولو قصصْنا مخازيه المتقدّمة ومساويه لطال بها الشرح.

وأما شربُهُ الخمر بالكوفة وسُكْره ، حتى دخل عليه [مَنْ دخل] (٣) وأخذ خاتمه من إصبعه ، وهو لا يعلم ، فظاهر ، وقد سارت به الرّكبان . وكذلك كلامه في الصلاة ، والتفاته إلى مَنْ يقتدي به فيها وهو سكران ، وقوله لهم : أأزيدكم ؟ فقالوا : لا ، قد قضَيْنا صلواتنا ، حتى قال الحطيئة في ذلك :

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ ... أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ (٤)

---

(١) سورة السجدة ١٨ . (٢) سورة الحجرات ٦ .

(٣) تكملة من كتاب الشافي .

(٤) كذا وردت الرواية في الأصول والشافي ؛ وروى صاحب الأغاني ٤ : ١٧٦ (ساسي) بسنده عن مصعب الزبيري ، قال : قال الوليد بن عقبة بعدما جلد : اللهم إنهم شهدوا على بزور ، فلا ترضهم عن أمير ، ولا ترض عنهم أميراً ؛ فقال الحطيئة يكذب عنه :

شهد الحطيئة يومَ يلقى ربَّهُ ... أنّ الوليــدَ أحقُّ بالعُذْرِ
خلعوا عنانَك إذْ جريتَ ولَوْ ... تركوا عنانَك لم تزل تجري
ورأوْا شمائل ماجدٍ أنِفٍ ... يُعطي على الميسورِ والعُسْرِ
فَنُزِعْتَ مكذوباً عليك ولَمْ ... تنزَعْ إلى طمعٍ ولا فقرِ

فقال رجل من بني عجل يرد على الحطيئة :

نادَى وقدْ تمّتْ صلاتُهُمُ ... أأزيدكم – ثَملاً – وما يدْرِي
ليزيدكُمْ خيراً ولو قبلُوا ... لقرَنْتَ بين الشَّفْعِ والوِترِ =

نادَى وقَدْ نَفِدَتْ صلاتُهُمُ ... أأزيدكم ـ ثملاً ـ وما يدرى
ليزيدهمُ خيراً ولَوْ قَبِلُوا ... منه لقـــادهمُ على عشْرِ
فأبوْا أبا وهبٍ ولو فعلوا ... لقرنتَ بين الشَّفعِ والوَتْرِ
حَبَسُوا عِنانَكَ إذ جريت ولو ... خَلَّوْا عِنانَك لم تَزَلْ تجرِى

وقال فيه أيضا :

تَـكَلَّمَ فى الصَّــلاةِ وَزَادَ فِيها ... عَلَانِيَةً وجاهَرَ بالنفـــاق(١)
وَمَجَّ الخمرَ فِى سَنَنِ المصلَّى ... ونادَى والجميعُ إلى افتراق
أزيدكُمُ عَلَى أن تحمدُونى ... فما لـكُمُ ومالىَ مِنْ خَلَاقِ

وأما قوله : إنه جلده الحدّ وعزله ، فبعدَ أيِّ شىء كان ذلك ، ولم يعزله إلّا بعد أن دافع ومانع ، واحتجّ عنه وناضل ! ولو لم يقهرْه أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عزَله ، ولا أمكن من جَلْده . وقد روى الواقدىّ أنّ عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرب الخمر أو عدهم وتهدّدهم .

قال الواقدىّ : ويقال إنه ضربَ بعضَ الشهود أيضاً أسواطاً ، فأتوْا أميرَ المؤمنين عليه السلام ، فشكوْا إليه ، فأتى عثمان ، فقال : عطّلت الحدود ، وضربت قوما شهدوا على أخيك ، فقلَبت الحكْم ، وقد قال لك عمر : لا تحملْ بنى أمية وآل أبى مُعَيط على رقاب الناس ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن تعزله ولا تولّيه شيئا من أمور المسلمين ، وأن تسأل عن الشهود ؛ فإن لم يكونوا أهلَ ظِنّة ولا عداوة ، أقمت على صاحبك الحدّ . وتكلّم فى مثل ذلك طلحة والزّبير وعائشة ، وقالوا أقوالا شديدة ، وأخذته الألسنُ من كلّ جانب ، فحينئذ عزَله ، ومكّن من إقامة الحدّ عليه .

= فأبوْا أبا وهبٍ ولو فعـــلوا ... وصلتْ صلاتَهمُ إلى العشْرِ
وانظر ديوان الحطيئة ٨٥ .

(١) ديوانه ١١٩

وقد روى[1] الواقدىّ أنّ الشهود لما شَهدوا عليه فى وجهه ،وأرادعثمان أن يحدّه ألبسه جُبّة خزّ ، وأدخله بيتا ، فجعل إذا بعث إليه رجلا من قُرَيش ليضرِبه ،قال له الوليد: أنشدُك الله أن تقطَع رحمى وتُغضب أمير المؤمنين ! فلمّا رأى علىّ عليه السلام ذلك ، أخذَ السوطَ ودخل عليه ، فجلده به . فأىّ عذر لعثمان فى عزله وجلده بعد هـذه الممانعة الطويلة ، والمدافعة الشديدة !

وقصّة الوليد – مع الساحر الذى كان يلعبُ بين يديه ، ويغرّ الناس بمكرِه وخديعته ، وأن جُندَب بن عبد الله الأزدىّ امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله ، وقال له : احيِ نفسك إن كنت صادقا ، وأن الوليد أراد أن يقتل جُندبا بالساحر ، حتى أنكر الأزد ذلك عليه ، فحبسه وطال حبسُه حتى هرب من السجن – معروفة مشهورة .

فإن قيل : فقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عُقْبة هذا صَدَقةَ بنى المصْطَلَق ، وولّاه عمر صـدقةَ تَغْلب ، فكيف تدّعون أنّ حاله فى أنّه لا يصلح للولاية ظاهرة !

قلنا : لا جَرَم ، إنه غرّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكَذَب على القوم حتى نزلت فيه الآية التى قدمنا ذكرها ، فعزله . وليس خَطْب ولاية الصدقة مثل خَطْب ولاية الكوفة ، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله :

إذا ماشددتُ الرأس منى بمِشْوَذٍ … فويلَكِ منى تغلبَ ابنةَ وائِل[2]

عزَلَه .

وأما عَزْلُ أمير المؤمنين عليه السلام بعضَ أمرائه لَمـا ظهر من الحدَث كالقَعْقاع ابن شُور وغيره ، وكذلك عَزْلُ عُمر قدامةَ بن مظعون لما شُهِد عليه بشرْب الخمر ، وجَلْده له ؛ فإنه لا يشبِه ماتقدّم ؛ لأن كلّ واحد ممن ذكرناه لم يولّ إلا مَن هو حَسَنُ الظاهر عنده وعند الناس ، غير معروف بالّلعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ماظَهر

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « وروى » .

(٢) اللسان ٥ : ٣١ وروايته : « فنيك » ، والمشوذ : العمامة .

لم يحامِ عنه ولا كذّب الشهودَ عليه وكاّبرهم ، بل عزله مختارا غير مضطرّ ، وكلّ هذا لم يجرِ في أمراء عثمان ، وقد بينّا كيف كان عَزْل الوليد وإقامة الحدّ عليه .

فأمّا أبو موسى فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّه الُحكْم مختاراً ، لكنه غُلِب على رأيه وقُهِر عَلَى أمره ، ولا رأيَ لمقهور .

فأمّا قوله : إن ولايةَ الأقارب كولاية الأباعد ؛ (١ بل الأقارب أولى ١) ؛ من حيث كان التمكّن من عزلهم أشدّ . وذكْر توليةِ أمير المؤمنين عليه السلام (٢ أولادَ العباس رحمه الله تعالى ٢) وغيرَهم ـ فليس بشيء ؛ لأنّ عثمان لم يُنقَمْ عليه توليةُ الأقارب من حيث كانوا أقاربَ ، بل من حيث كانوا أهل بيت الظِّنّة والتهمة ، ولهذا حذّره عمرُ وأشعرَ بأنه يحمِلُهم عَلَى رقاب الناس . وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم يولّ مِنْ أقاربه متّهما ولا ظَنِينا ؛ وحين أحسّ من ابن العباس ببعض الرِّيبة لم يمهلْه ولا احتمله ، وكاتَبه بما هو شائع ظاهر ؛ ولو لم يَجِبْ على عثمان أن يعدِل عن ولاية أقاربه إلا من حيثُ جعل عمر ذلك سببَ عدوله عن النصّ عليه ، وشرط عليه يوم الشورى ألا يحمل أقاربَه عَلَى رقاب الناس ، ولا يؤثِرَهم لمكان القرابة بما لا يُؤْثِرُ به غيرَهم ـ لكان صارفاً قويًّا ، فضلا عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خِصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة .

فأما سعيد بن أبي العاص ؛ فإنّه قال في الكوفة : إنّما السوادُ بستانٌ لقريش،تأخذ منه ماشاءت وتترك،حتى قالوا له : أتجعلُ ما أفاء الله علينا بستانا لك ولقومك ! ونابذوه، وأفضَى الأمر إلى تسييره مَنْ سيّر عن الكوفة ؛ والقصة مشهورة ، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيدا من دخولها ، وتكلّموا فيه وفي عثمان كلاما ظاهرا ، حتى

(١ ـ ١) كذا في الأصول. وفي الشافي : « بل الأباعد أولى أن يقدم الأقارب عليهم » .

(٢ ـ ٢) الشافي : « عبد الله وعبيد الله وقثما بني العباس وغيرهم » .

كادوا يخلعون عثمان ؛ فاضطُرّ حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى ، فلم يصرف سعيداً مختاراً ، بل ماصرفه جُمْلة ؛ وإنما صرّفه أهلُ الكوفة عنهم[1]

فأما قوله : إنه أنكر الكتاب المتضمّن لقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه ، وحلَف على أنّ الكتاب ليس بكتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِل عذره ؛ فأوّل مافيه أنّه حكَى القصّة بخلاف ماجرت عليه ؛ لأنّ جميعَ مَنْ يروِي هذه القصة ذكر أنّه اعترف بالخاتَم والغلام والرّاحلة ، وإنما أنكر أن يكون أمرَ بالكتابة ؛ لأنه روى أنّ القوم لما ظَفِروا بالكتاب قَدِموا المدينة ، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وجماعة الأصحاب ، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم ، وأخبروهم بقصّة الغلام ، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين ، فقال له : أهذا الغلامُ غلامك؟ قال : نعم ، قال : والبعيرُ بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : أفأنت كتبتَ هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله أنّه ماكتب الكتاب ، ولا أمَر به ؛ فقال له : فالخاتم خاتمك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرجُ غلامُك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك ، ولا تعلم به !

وفي رواية أخرى أنّه لما وَاقفَه عليه ، قال عثمان : أما الخطّ فخط كاتبي ، وأما الخاتم فعلَى[2] خاتَمِي ، قال : فمن تتّهم ؟ قال : أتّهمك وأتّهم كاتبي ؛ فخرج أميرُ المؤمنين عليه السلام مغضَباً ، وهو يقول : بل بأمرك ، ولزِم داره ، وبَعُد عن توسّط أمره ، حتى جرى عليه ماجرى .

وأعجبُ الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام : «إنّي أتّهمك» وتظاهرُه بذلك وتلقّيه إياه في وجهه بهذا القول ؛ مع بعده من التّهمة والظِّنّة في كلّ شيء ، وفي أمره خاصة ؛ فإنّ القوم في الدّفعة الأولى أرادوا أن يعجّلوا له ما أخبروه ؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسّطه وأصلحه ، وأشار عليه بأن يقارِبَهم ويعتبهم ؛ حتى انصرفوا عنه ، وهذا

---

(١) ساقطة من ا ، ج ، وهي في ب والشافي .

(٢) ا : « فهو » .

فعل النَّصيح المشفق الحدِب المتحنِّن ، ولو كان عليه السلام ـ وحُوشِيَ من ذلك ـ متَّهما عليه لما كان للتهمة عليه مجال فى أمر الكتاب خاصة ؛ لأنَّ الكِتاب بخطِّ عدوِّه مرْوان[1] ؛ وفى يد غلام عثمان ، ومحمول عَلَى بعيرِه ، ومختوم بخاتَمه ، فأىّ ظن تعلّق بأمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المكان ، لولا العداوةُ وقِلّة الشكر للنعمة !

ولقد قال له المصريون لما جَحَد أن يكون الكتاب كتابَه شيئا لا زيادة عليه فى باب الحجّة ؛ لأنّهم قالوا له : إذا كنتَ ما كتبتَ ولا أمرتَ به ، فأنت ضعيف ؛ من حيثُ تمّ عليك أنْ يَكْتُبَ كاتبُك بما تختِمه بخاتَمك ، ويُنفذه بيد غلامِك وعلى بعيرك بغير أمرك ؛ ومَنْ تمّ عليه ذلك لا يصلُح أن يكون والياً على أمور المسلمين . فاختلِعْ عن الخلافة على كلّ حال .

قال : ولقد كان يجب عَلَى صاحب " المغنى " أن يستحيىَ من قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِلَ عذرَه ؛ وكيف يقبل عذرَ مَنْ يتّهمه ويستغِشُّه ؛ وهو له ناصح ! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف .

وقوله : إنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، ليس بشىء ، لأنه لا يجوز التزويرُ فى الكتاب والغلام والبعير ؛ وهذه الأمور إذا انضاف بعضُها إلى بعض ، بَعُدَ فيها التزويرُ ؛ وقد كان يجب عَلَى كل حال أن يبحثَ عن القِصّة وعَمّن زَوّر الكِتاب ، وأنفذ الرسولَ ، ولا ينام عن ذلك ؛ حتى يَعْرِف من أين دُهِى ؛ وكيف تمّت الحيلة عليه ، فيحترز من مثلها ، ولا يُغضى عن ذلك إغضاء ساترٍ له ، خائف من بحثه وكشفه .

فأما قوله : إنه وإن غلبَ عَلَى الظّن أنّ مرْوان كتب الكتاب ، فإنّ الحكم بالظنّ لا يجوزُ ، وتسليمه إلى القوم على ماسألوه إيّاه ظلم ، لأنّ الحدّ والأدب إذا وجبَ عليه ، فالإمام يُقيمه دونهم ؛ فتعلُّلٌ بما لا يجدِى ، لأنّا لا نعمل إلا على قوله فى أنّه لم يعلم أنّ

(١) الشافى : « بخط عدو الله وعدو رسوله وعدو أمير المؤمنين » .

مرْوان هو الذى كتب الكتاب ، وإنما غلب على ظنّه ؛ أما كان يستحقّ مروان بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتهديد ! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه ، وقوة الأمارات فى أنّه جالب الفتنة وسببُ الفُرقة أن يُبْعِده عنه ، ويطرُده مِن داره ويسلُبَه ما كان يخصّه به من إكرامه ! وما فى هذه الأمور أظهر من أن ينبّه له .

فأما قوله : إنّ الأمر بالقتل لا يوجب قوَداً ولا دِيَةً ، سيّما قبل وقوع القتل المأمور به ، فهب أن ذلك على ما قال ، أما أوجبَ[1] الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طردا ولا إبعادا !

وقوله : لم يثبت ذلك ، قد مضى ما فيه ، وبيّن أنه لم يستعمل فيه مايجبُ استعماله من البحث والكشف ، وتهديدِ المتّهم وطرْده وإبعاده والتبرُّؤ من التهمة بما يُتبرّأ به من مثلها .

فأما قوله : إن قتله ظلم وكذلك حبسُه فى الدار ، ومنعه من الماء ، وأنه لو استحق القتل أوالخلع لا يحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشراب ، وقوله : إن من لم يدفع عن ذلك من الصّحابة يجب أن يكون مخطئا ، وقوله : إنّ قتله لو وجب لم يجُزْ أن يتولاه العوامّ من الناس ، فباطل ، لأنّ الذين قتلوه غيرُ منكَرٍ أن يكونوا تعمّدُوا قتله ، وإنما طالبوه بأنْ يخلَع نفسه لما ظهر لهم من أحداثه ، ويعتزل عن[2] الأمر اعتزالا يتمكنون معه من إقامة غيره ، فلجّ وصمّ على الامتناع ، وأقام على أمرٍ واحد ؛ فقصد القوم بحصْرِه أن يُلْجِئُوه إلى خلع نفسه ، فاعتصم بداره ، واجتمع إليه نفر من أوْباش بنى أميّة ، يدفعون عنه ، ويرمون مَنْ دنا إلى الدار ، فانتهى الأمرُ إلى القتال بتدريج ؛ ثم إلى القتل ؛ ولم يكن القتال ولا القتل مقصوديْن فى الأصل ، وإنما أفضى الأمرُ إليهما على ترتيب ، وجرى ذلك مجرى

---

(١) الشاق : « يوجب »

(٢) ج والشاق : « يعتزل الأمر » .

ظالم غلب إنسانا على رَحْله أو متاعِه ، فالواجبُ على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلِّص مالَه من يده ، ولا يقصدَ إلى إتلافه ولا قتله ، فإنْ أفضى الأمرُ إلى ذلك بلا قصد كان معذورا ، وإنّما خاف القومُ ـ فى التأنى به ، والصبر عليه ، إلى أن يخلع نفسَه ـ من كُتُبِهِ التى طارت فى الآفاق ، يستنصر عليهم ويستقدِم الجيوش إليهم ، ولم يأمنوا أن يَرِدَ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّى ذلك إلى الفتنة الكبرى والبليّة العظمى .

وأما منع الماء والطعام فما فُعِل ذلك إلا تضييقا عليه ؛ ليخرُج ويَحوَج إلى الخلع الواجب عليه . وقد يُستعمل فى الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرَم من ذوى الجنايات ، وتعذّر إقامة الحدّ عليه لمكانِ الحرَم . على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكرمنعَ الماء والطعام ، وأنفذ مَنْ مكّن مَنْ حَمَل ذلك ، لأنّه قد كان فى الدار من الحُرَم والنِّسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منْعه من الطعام والشراب . ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمع عليه والتضافر فيه حكم منع الطعام والشراب فى القُبْحِ والمنكر ، لأنكره أميرُ المؤمنين عليه السلام ، ومنَع منه كما منع من غيره ، فقد رُوى عنه عليه السلام أنّه لما بلَغه أنّ القوم قدْ منعوا الدار من الماء ، قال : لا أرى ذلك ، إنّ فى الدار صبيانا وعِيالا ، لا أرى أن يُقتل هؤلاء عطشا بجُرْم عثمان . فصرّح بالمعنى الذى ذكرناه ، ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلْع ، بل كان مساعدا على ذلك ومشاوَرا فيه .

فأما قوله : إن قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل الدفع ؛ فقد بيّنا أنه لا ينكَر أن يكون قتْله وقع على ذلك[1] الوجه ، لأنه فى تمسّكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها ، فى حكم الظالم لهم ، فمدافعته واجبة .

---

(١) ا : « هذا » .

وأما قصة الكتاب الموجود ؛ فلم يحكِها على الوجه ؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها .

وأما قوله : إنه قال : إنْ كنتُ أخطأتُ أو تعمّدت ؛ فإني تائب مستغفر ؛ فقد أجابهُ القوم عن هذا ، وقالوا : هكذا قلْتَ في المرّة الأولى ؛ وخطبْتَ على المِنبَر بالتوبة والاستغفار ؛ ثم وجدْنا كتابَك بما يقتضي الإصرار على أقبح ماعتبنا منه[1] ؛ فكيفَ نثق بتوبتك واستغفارك !

فأما قوله : إنّ القتل على وجهِ الغِيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فكيف فيمن لا يستحقه ! فقد بينا أنّه لم يكن على سبيل الغِيلة ؛ وأنه لا يمتنع أن يكونَ إنما وقع على سبيل المدافعة .

فأمّا ادعاؤه أنّه منَع من نُصرته ، وأقسم على عبيده بترْك القتال ؛ فقد كان ذلك لعَمْرِي في ابتداء الأمر ظنًّا منه أنّ الأمر يتصلح ؛ والقوم يرجعون عمّا همّوا به ؛ فلما اشتدّ الأمر ، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع ، لم يمنع أحداً من نُصْرته والمحاربة عنه ، وكيف يمنع من ذلك ، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصِرُه ويستصرخه !

والّذي يدلّ على أنّه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الّذي ذكرناه دون غيره ، أنّه لاخلافَ بينأهلِ الرواية في أنّ كتبه تفرّقت في الآفاق يستنصِرُ ويستدعِي الجيوش ؛ فكيف يرغب عن نُصرة الحاضر مَنْ يستدعي نصرة الغائب !

فأما قوله : إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيَه ، حتى منعه ابنه محمد ، فقولٌ بعيد مما جاءت به الرواية جدًّا ، لأنه لا إشكالَ في أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لما واجه عثمان بأنّه يتهمه ويستغشّه ، انصرف مغضَبا عامدا ، على أنه لا يأتيه أبدا ، قائلا فيه ما يستحقّه من الأقوال .

---

(١) ب « فيه » .

فأما قوله فى جواب سؤال مَنْ قال إنهم اعتقدوا فيه أنه من المفسدين فى الأرض؛ وأنّ آية المحاربة تتناوله ، وأنه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه ؛ لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ؛ فطريف ؛ لأنّ الإمام يتولّى مايجرى هذا المجرى إذا كان منصوبا ثابتا ، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولّى ما يجرى مَجْرَى الحدود ؛ ومتى لم يكنْ إمام يقوم بالدّفع عن الدين والذّبّ عن الأمّـة ؛ جاز أن تتولّى الأمّـة ذلك بنفوسها .

قال :وما رأيتُ أعجبَ من ادّعاء مخالفينا أنّ أصحابَ الرّسول صلى الله عليه وآله كانُوا كارهين لماجرى على عثمان ، وأنّهم كانوا يعتقدونه منكرا وظُلما ، وهـذا يجرى عند من تأمّله مجرى دفع الضرورات قبل النظر فى الأخبار ، وسماع ماورد من شَرْح هذه القصّة؛ لأنه معلوم أنّ مايكرهُهُ جميع الصحابة أو أكثرهم فى دار عِزّهم ، وبحيث ينفذُ أمرُهم ونهيهم لا يجوز أن يتمّ . ومعلوم أنّ نفرا من أهل مصر لا يجوز أن يقدَموا المدينة فيغلبوا جميعَ المسلمين على آرائهم ، ويفعلوا بإمامهم مايكرهونه بمرأى منهم ومسمع ، وهذا معلومٌ بُطلانه بالبداهة والضرورات قبل تصفح الأخبار وتأمّلها . وقد روَى الواقدِىّ عن ابن أبى الزّناد ، عن أبى جعفر القارىّ مولى بنى مخزوم ، قال : كان المصريّون الذين حَصَروا عثمان ستمائة ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، وكنانة بن بشر الـكِندىّ ، وعمرو بن الحَمِق الخزاعىّ . والذين قدموا المدينة من الـكوفة مائتين ، عليهم مالك الأشتر النَّخَعىّ. والذين قدِموا من البصرة مائة رجل ، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدىّ ، وكان أصحابُ النبى صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يروْن أنّ الأمر يبلغ به القتل ، ولعمرى لو قام بعضُهم فحثا الترابَ فى وجوه أولئك لا نصرفوا ، وهذه الرواية تضمّنت من عدد القوم الوافدين فى هذا الباب أكثر مما تضمّنه غيرها .

وروى شُعْبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال:قلت له:

كيف لم يمنعْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم عَنْ عثمان ؟ فقال : إنما قتلهُ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله .

ورُوِيَ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ، أنه سُئِل عن مقتل عثمان : هل شَهِده أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال : نعم ، شهده ثمانمائة .

وكيف يقال : إن القوم كانوا كارهين ، وهؤلاء المصريون كانوا يَغْدُون إلى كل واحد منهم ، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه ! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقِدُ الأمرِ لعثمان ، وجالبه إليه ، ومُصَيِّرُه في يده ، يقول ـ على ماروواه الواقديّ ، وقد ذُكِر له عثمانُ في مرضه الذي مات فيه ـ : عاجلوه قبل أن يتمادَى في مُلكه ؛ فبلغ ذلك عثمانَ فبَعث إلى بئرٍ كان عبدالرحمن يَسْقِى منها نَعَمه ، فمنع منها ، ووصّى عبدُ الرحمن ألّا يصلّيَ عليه عثمان ؛ فصلّى عليه الزبير ـ أو سعد بن أبي وقّاص ـ وقد كان حَلَف لما تتابعتْ أحداثُ عثمان ألّا يكلّمَه أبدا .

وروى الواقديّ ، قال : لمّا تُوُفّي أبو ذرّ بالرَّبَذَة[1] تذاكر أميرُ المؤمنين عليه السلام وعبدُالرحمن فعلَ عثمان ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له : هذا عملُك ! فقال عبدُ الرحمن : فإذا شئت فخذ سيفَك وآخذُ سيفي ، إنه خالف ماأعطاني .

فأما محمد بن مسلمة ؛ فإنه أرسلَ إليه عثمانُ يقول له عند قدوم المصريين في الدّفعة الثانية : اردُدْ عنّي ، فقال : لا والله لا أكذبُ اللهَ في سنة مرتين ؛ وإنما عَنَى بذلك أنه كان أحدَ من كلّم المصريين في الدفعة الأولى ، وضمن لهم عن عثمان الرضا .

وفي رواية الواقديّ أنّ محمد بن مسلمة ، كان يموت وعثمان محصور ، فيقال له : عثمان مقتول ، فيقول : هو قتلَ نفسه .

---

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال ؛ قريبة من ذات عرق ؛ على طريق الحجاز ؛ بها قبرأبي ذر الغفاري ـ واسمه جندب بن جنادة ، وقد كان خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ . ياقوت .

فأمّا كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وطلحة والزُّبير وعائشة ، وجميع الصحابة واحدا واحدا ؛ فلو تعاطيْنا ذِكرَه لطال به الشَّرْح ؛ ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصّلة ، وما صرّحوا به من خَلْعه والإجلاب عليه ؛ فعليْه بكتاب الواقديّ[1] ، فقد ذكرَ هو وغيرُه من ذلك مالا زيادة عليه .

* * *

الطعن الثانى :

كونه ردّ الحكَم بن أبى العاص[2] إلى المدينة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله طرَده ، وامتنع أبو بكرٍ من ردّه ، فصار بذلك مخالفاً للسنّة ولسيرة مَنْ تقدّمه ، مدّعيا على رسول الله صلى الله عليه وآله ، عاملا بدعواه من غير بيّنة .

قال قاضى القضاة رحمه الله : وجوابُنا عن ذلك أنّ المروِيّ فى الأخبار أنّه لما عُوتب فى ذلك ذكر أنّه استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم فيه ؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد ، وكذلك روى عنهما ، فكأنهما جعلا ذلك بمنزلة الحقوق التى تختصّ ، فلم يقبلا فيه خبَرَ الواحد ، وأجرياه مَجْرى الشهادة ، فلما صار الأمر إليه حكَم بعلمه ، لأنّ للحاكِم أن يحكُم بعلمه فى هذا الباب وفى غيره عند شيخينا ، ولا يفصلان بين حدّ وحق ، ولا بين أن يكونَ العلم قبل الولاية أو حال الولاية ، ويقولان : إنه أقوى من البيّنة والإقرار .

وقال شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : إنّه لا وجهَ يقطع به على كذب روايته فى إذن

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى ؛ نقل ابن النديم أنه خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا ؛ كل قمطر منها حمل رجلين ؛ وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ؛ وقبل ذلك بيع له كتب بألفى دينار . ثم أورد أسماء كتبه ؛ منها كتاب التاريخ الكبير . توفى سنة ٢٠٧ . الفهرست ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) هو الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس الأموى ، عم عثمان بن عفان ؛ وانظر ترجمته وأخباره فى أسد الغابة ٣ : ٣٤ .

النبيّ صلى الله عليه وسلّم فى ردّه ، ولابدّ من تجويز كونه صادقا ؛ وفى تجويز ذلك كونه معذورا .

فإن قيل : الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة ، وقد كانت التهمة فى ردّ الحكم قوية لقرابته !

قيل : الواجب على غيره ألّا يتّهمه ؛ إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه ؛ لأنه قد نصب منصبا يقتضى زوالَ التهمة عنه،وحَمْل أفعاله على الصحّة،ومتى طرقنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام . وقد قال الشيخ أبو الحسين الخيّاط رحمه الله تعالى : إنه لو لم يكن فى ردّه إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلّم لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد ؛ لأن النفيّ إذا كان صلاحا فى الحال لا يمتنع[(١)] أن يتغيّر حكمه باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفيّ ؛ وإذا كان لأبى بكر أن يستردّ عمرَ من جيش أسامة للحاجة إليه ــ وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنفوذه ــ من حيث تغيرت الحال ، فغير ممتنع مثله فى الحكم .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا،فقال : أمّا دعواه أنّ عثمان ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أذن فى ردّ الحكَم فشىء لم يُسمع إلا من قاضى القضاة ، ولا يُدْرَى من أين نقله ، ولا فى أىّ كتاب وجده ! والذى رواه الناس كلّهم خلاف ذلك ؛ روى الواقدىّ من طرق مختلفة وغيره أنّ الحكَم بن أبى العاص لما قدِم المدينة بعد الفتح، أخرجه النبى صلى الله عليه وسلّم إلى الطائف،وقال : لا تساكنّى فى بلد أبدا ، فجاءه عثمان فكلّمه فأبى ، ثم كان من أبى بكر مثل ذلك ، ثم كان من عمر مثل ذلك ، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه ، فمشى فى ذلك علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن بن عوف

---

(١) ب : « فلا يمتنع » .

وعمّار بن ياسر ؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له : إنك قد أدخلتَ هؤلاء القوم ـ يعنون الحكَم ومن معه ـ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم أخرجهم؛وإنا نذكّرك الله والإسلام ومَعادك ؛ فإن لك معاداً ومُنقلَبا ، وقد أبت ذلك الولاةُ قبلك، ولم يطمع أحد أن يكلّمها فيهم ؛ وهذا شيء نخاف الله فيه عليك . فقال عثمان : إنّ قرابتَهم منّى ماتعلمون ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم حيثُ كلّمته أطمَعنى فى أن يأذن لهم ، وإنما أخرجهم لـكلمةٍ بلغته عن الحكَم ؛ ولم يضرّكم مكانهم شيئا، وفى الناس مَنْ هو شرّ منهم. فقال علىّ عليه السلام : لا أجدُ شرًّا منه ولا منهم،ثم قال : هل تعلم عمر يقول : والله ليحملَنّ بنى أبى مُعيط على رقاب الناس ! والله إن فعل ليقتلُنّه ، فقال عثمان : ما كان منكم أحد ليـكون بينه وبينه من القرابة مابينى وبينه،وينال من المقدرة مانلتُ إلا قد كان سيُدخلُه، وفى الناس مَنْ هو شرّ منه.قال : فغضب علىّ عليه السلام ، وقال : والله لتأتينَا بشرّ مِنْ هذا إن سلِمت ، وسترَى ياعثمان غِبّ ماتفعل ! ثم خرجوا من عنده .

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب "المغنى" لأنّ الرجل لما احتفلَ ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أطمَعه فى ردّه ، ثم صرّح بأنّ رِعايته فيه القرابة هى الموجِبة لردّه ومخالفة الرسول عليه السلام . وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لمّا كلّم أبا بكر وعمر فى ردّ الحكَم أغلظا له وزبَراه ، وقال له عمر : يخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وتأمرنى أن أدخله ! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غيّر عهدَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم،والله لأَنْ أشقّ باثنتين كما تُشقّ الأبلُمة[1] أحبّ إلىّ من أن أخالِف لرسول الله أمرا ، وإياك يابن عفان أن تعاوِدَنى فيه بعد اليوم ؛ وما رأينا

(١) الأبلم : خوص المقل ؛ والمثل : « المـال بينى وبينك شق الأبلمة » مثل يضرب فى المساواة والمشاركة فى الأمر .

عثمان قال فى جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبى بكر وعمر: إنّ عندى عهداً من رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيه، لا أستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً، وكيف تطيب نفس مُسلم موقّر لرسول الله صلى الله عليه وسلّم معظّم له، أنْ يأتىَ إلى عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، مصرّح بعداوته والوقيعة فيه ؛ حتّى بلغ به الأمرُ إلى أنْ كان يحكى مِشْيَته ، طرَدَه رسول الله ، وأبعده ولعنه؛ حتى صار مشهورا بأنه طريدُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فيكرِمه ويردّه إلى حيث أخرج منه ، ويصِلُه بالمال العظيم : إما من مال المسلمين أو مِنْ ماله ! إنّ هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمّل والتعلّل بالتأويل الباطل !

فأمّا قولُ صاحب ” المغنى “ : إنّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهد واحد، وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التى تخص، فأوّل مافيه أنّه لم يشهدْ عندهما بشىء واحد فى باب الحكم على مارواه جميع الناس ؛ ثم ليس هذا من باب الذى يُحتاج فيه إلى الشاهدين ، بل هو بمنزلة كلّ مايقبَلُ فيه أخبارُ الآحاد. وكيف يجوز أن يُجرِىَ أبو بكر وعمر مَجْرَى الحقوق ماليس منها ! وقوله : لابدّ من تجويز كونه صادقا فى روايته ؛ لأنّ القطعَ على كذب روايته لاسبيل إليه ليس بشىء؛ لأنا قد بيّنا أنّه لم يَرْوِ عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذنا، إنما ادّعى أنه أطمَعه فى ذلك . وإذا جوّزنا كونَه صادقا فى هذه الرواية ؛ بل قطعْنا على صدقه لم يكن معذورا .

فأمّا قوله : الواجبُ على غيرِه ألّا يتهِمَه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه ؛ لانتصابه منصباً يُزيل التهمة ؛ فأوّل مافيه أنّ الحاكِم لايجوز أن يحكُم بعلمه مع التّهمة ، والتّهمة قد تكون لها أمارات وعلامات ؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتّهم فى العادة كان مؤثِّرا ؛ ومالم يكنْ كذلك فلا تأثيرَ له ، والحكَم هو عمّ عثمان ، وقريبه ونسيبه ، ومن

قد تكلّم فى ردّه مرة بعد أخرى ، ولوالٍ بعد والٍ ؛ وهذه كلها أسباب التهمة ، فقد كان يجب أنْ يتجنّب الحكم بعلمه فى هذا الباب خاصّة ؛ لتطرّق التهمة إليه .

فأما ماحكاه عن أبى الحسين الخيّاط من أنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله لولم يأذن فى رَدّه لجاز أن يَرُدّه إذا أدّاه اجتهادُه إلى ذلك ؛ لأنّ الأحوالَ قد تتغيّر — فظاهر البطلان ؛ لأن الرّسولَ عليه السلام إذا حَظر شيئا أو أباحه لم يكن لأحدٍ أنْ يجتهدفى إباحة المحظور أو حَظْر المباح ، ومَنْ يجوّز الاجتهادَ فى الشريعة لايُقْدِم على مثلِ هذا ؛لأنه إنما يجوز عندهم فيما لانصّ فيه . ولو سوّغنا الاجتهادَ فى مخالفة ماتناوله النصّ لم يؤمَن أن يؤدّيَ اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة ، بأن تتغير الحال ، وهذا هَدْمٌ للشريعة . فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام فى الأمرين واحد[1] .

* * *

الطعن الثالث :

أنه كان يؤثر أهلَ بيتهِ بالأموال العظيمة التى هى عُدّة المسلمين ، نحو مارُوِى أنّه دفع إلى أربعة أنفسٍ من قريش زوّجهم بناتهِ أربعمائة ألف دينار ، وأعطى مَرْوان مائة ألف عند فتح إفريقيّة ، ويروى خُمْس إفريقيّة ، وغير ذلك ، وهذا بخلاف سيرة مَنْ تقدمه فى القِسْمة على النّاس بقدر الاستحقاق ، وإيثار الأباعد على الأقارب .

قال قاضى القضاة : وجوابُنا عن ذلك أنّ من الظاهر المشهور أنّ عثمانَ كان عظيمَ اليَسار ، كثير المال ، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهلَ بيتهِ من مالهِ ، وإذا احتمل ذلك وجب حملُه على الصحّة .

وقد قال شيخُنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : إنّ الذى رُوِى من دَفْعه إلى ثلاثة نفر من قريش زَوّجهم بناتهِ ؛إلى كلّ واحد منهم مائة ألف دينار ، إنما هو من ماله ، ولارواية

(١) بعدها فى الشافى ١٧٦ : « وقد مضى ما فيه » .

تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال ، ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكونَ أعطاهم من بيت المال ليردّ عِوَضه من ماله ، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك ، كما له أنْ يُقرض غيره .

وقال شيخُنا أبو عليّ أيضاً : إن ماروِيَ من دفعه خُمس إفريقيّة لمّا فُتِحت إلى مروان ؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجه يجب قبوله ؛ وإنما يَرْويه مَنْ يقصد التشنيع . وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن ابن أبي سَرْح لما غزا البحر ، ومعه مَرْوان في الجيش ، ففتَح الله عليهم ، وغنموا غنيمةً عظيمة ، اشترى مَرْوان من ابن أبي سَرْح الخمس بمائة ألف ، وأعطاه أكثرها ؛ ثم قَدِم على عثمان بشيراً بالفَتْح ، وقد كانتْ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش ؛ فرأى عثمان أن يَهَب له مابقيَ عليه من المال ، وللإمام فِعلُ مثل ذلك ، ترغيبا في مثل هذه الأمور .

قال : وهذا الصُّنع كان منه في السَّنَة الأولى من إمامته ، ولم يبرأ أحد منه فيها ، فلا وجهَ للتعلّق بذلك .

وذكر أبو الحسين الخياط أيضا فيما أعطاه أقاربه أنّه وصلهم لحاجتهم ، فلا يمتنع مثلُه في الإمام إذا رآه صلاحا . وذكر في إقطاعه القطائع لبني أميّة ، أنّ الأئمة قد تحصُل في أيديهم الضِّياع لامالكَ لها ، ويعلمون أنّها لابدّ فيها ممّن يقوم بإصلاحها وعمارتها ، ويؤدّي عنها مايجب من الحقّ ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به ، وله أيضا أن يهدّ بعضها على بعض بحسب مايعلم من الصلاح والتألّف ، وطريقُ ذلك الاجتهاد .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أماقوله : يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله ، فالرواية بخلاف ذلك ، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطي من بيت المال

صلةً لرحمه ، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضَّرْب من العذر ، ولا قال : إنّ هذه العطايا من مالى ، فلا اعتراضَ لأحد فيها . روَى الواقدىّ بإسناده عن المِسْوَر بن عُتْبة ، قال : سمعتُ عثمانَ يقول : إنّ أبا بكرٍ وعمر كانا يتأوّلان فى هذا المال ظَلَف(١) أنفسهما وذَوِى أرحامهما ، وإنّى تأوّلتُ فيه صِلَةَ رحمى .

ورُوِى عنه أيضا أنه كان بحضرته زياد بن عبيد ، مولى الحارث بن كَلَدة الثقفىّ ، وقد بعث إليه أبو موسى بمال عظيم من البَصْرة ، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصِّحاف ، فبكى زياد ، فقال: لا تبكِ ، فإنّ عمر كان يمنع أهلَه وذوى قرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى أهلى وولدى وقرابتى ابتغاء وجه الله .

وقد رُوِىَ هذا المعنى عنه من عدة طرق بألفاظ مختلفة .

وروى الواقدىّ أيضا بإسناده ، قال : قَدِمَتْ إبلٌ من إبل الصدقة على عثمان ، فوهَبَها للحارث بن الحكم بن أبى العاص .

وروى أيضا أنّه ولّى الحكم بن أبى العاص صدقاتِ قُضَاعة ، فبلغت ثلاثمائة ألف فوَهَبها له حين أتاه بها .

وروى أبو مِخْنف والواقدىّ أنّ الناس أنكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف ، وكلّمه علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن فى ذلك ، فقال : إن له قرابةً ورَحِما، قالوا : فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذَوُو رحم ؟ فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسِبُ فى إعطاء قرابتى ، قالوا : فهَدْيُهما ـ واللهِ ـ أحبُّ إلينا من هَدْيك .

وروى أبو مِخْنف أنّ عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العِيص بن أمية ، قدم على عثمان من مكة ، ومعه ناس ، فأمر لعبدالله بثلاثمائة ألف ، ولكلّ واحد من القوم بمائة ألف

(١) ظلف نفسه عن الشىء : منعها ، وفى الأصول : « طلاق » ، والصواب ما أثبته من كتاب الشافى.

وصَكّ[1] بذلك على عبد الله بن الأرقم ـ وكان خازنَ بيت المال ـ فاستكثره وردّ الصكّ به . ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتابا ، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفَع المال إلى القوم ، فقال له عثمان : إنما أنت خازن لنا ، فاحملك على ما فعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أرانى خازنَ المسلمين ، وإنما خازنك غلامُك ، والله لا ألِى لك بيتَ المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المِنبر ، ويقال : بل ألقاها إلى عثمان ، فرفعها إلى نائل مولاه .

وروى الواقدىّ ان عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمِل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم فى عَقِيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم ، فلما دخل بها عليه ، قال له : يا أبا محمد ، إن أميرَ المؤمنين أرسل إليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك ذَوو رحم أهلُ حاجة ، ففرّقْ هذا المال فيهم ، واستعنْ به على عيالك ، فقال عبد الله بن الأرقم : مالى إليه حاجة ، وما عملت لأنْ يُثيبَنى عثمان ، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قَدْرُ عملى أنْ أُعطَى ثلاثمائة ألف ، ولئن كان من مال عثمان ما أحبُّ أنْ أرزأه[2] من ماله شيئاً . وما فى هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه ويُنبّه عليه .

فأما قولُه : ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكونَ ذلك على طريق القَرْض ؛ فليس بشىء ؛ لأنّ الروايات أولا تخالف ماذكره ، وقد كان يجبُ لمّا نقم عليه وجوهُ الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال، أنْ يقول لهم : هذا على سبيل القَرْض، وأنا أردّ عِوَضه ، ولا يقول ماتقدم ذكره ، من أنّى أصِلُ به رَحِمِى ؛ على أنّه ليس للإمام أن يقترِض[3] من بيت مال المسلمين إلا ماينصَرف فى مصلحة لهم مهمّة ؛ يعودُ عليهم نفعها ، أو فى سَدّ خَلّة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها ؛ فأمّا أنْ يُقرِض المال ليتّسع به ،

---

(١) صك : كتب ، والصك : الكتاب .
(٢) ماأحب أن أرزأه ، أى ما أحب أن أصيب منه شيئاً .
(٣) أى يقترض هوليعطى ، وأن يدفع عوضه له من ماله ، وانظر س ١ـ٣ من ص ٣٤ من هذا الجزء

ويُمرّح فيه مترَفِي بني أمية وفُسّاقهم فلا أحدَ يجيز ذلك .

فأما قوله حاكيًا عن أبي عليّ : إنّ دَفْعه خمس إفريقيّة إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول ـ فباطل ؛ لأنّ العلم بذلك يجرى مجرى العلم بسائر ماتقدم ، ومَنْ قرأ الأخبار علِم ذلك على وجه لا يعترض فيه شكّ ، كما يعلم نظائره .

روى الواقديّ عن أسامة بن زيد ، عن نافع مولى الزبير ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقيّة ، فأصاب عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح غنائم جليلة ، فأعطى عثمانُ مَرْوان بن الحكم تلك الغنائم . وهذا كما ترى يتضمّن الزيادة على إعطاء الخمس ، ويتجاوزه إلى إعطاء الأصل .

وروى الواقديّ ، عن عبد الله بن جعفر ، عن أم بكر بنت المِسْوَر ، قالت : لما بنى مَرْوانُ داره بالمدينة ، دعا الناس إلى طعامه ، وكان المِسْوَر ممن دعاه ، فقال مروان وهو يحدّثهم : والله ما أنفقتُ في داري هذه من مال المسلمين دِرْهمًا فما فوقه ، فقال المِسْوَر : لو أكلتَ طعامك وسكتَّ كان خيرًا لك . لقد غزوتَ معنا إفريقيّة ، وإنك لأقلّنا مالا ورقيقا وأعوانا ، وأخفّنا ثقَلا ، فأعطاك ابنُ عمّكَ خُمس إفريقيّة ، وعملت على الصدقات، فأخذت أموال المسلمين .

وروى الكلبيّ عن أبيه ، عن أبي مخنف أنّ مروان ابتاعَ خُمس إفريقيّة بمائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار ، وكلّم عثمان ، فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان . وهذا بعينه هو الذى اعترف به أبو الحسين الخياط واعتذر عنه بأنّ قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش ، فرأى عثمان أن يهبَ لمروان ثمَن ما ابتاعه من الخُمس لما جاءه بشيرا بالفتح على سبيل الترغيب . وهذا الاعتذار ليس بشيء ؛ لأنّ الذى رويناه من الأخبار في هذا الباب خالٍ من البشارة ، وإنما يقتضى أنه سأله تَرْكَ ذلك عليه ، فتركه وابتدأ هو بصلتِه، ولو أتى بشيرا بالفتح كما ادّعَوْا لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائدَ نفعُه على المسلمين،

لأنّ تلك البشارة لاتبلغُ إلى أن يستحق البشير بها مائتى ألف درهم ، ولااجتهادَ فى مثل هذا ، ولا فرق بين من جَوّز أن يؤدىَ الاجتهاد إلى مثله ومَنْ جوّز أن يؤدِّىَ الاجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها ، ومن ارتكب ذلك ألزم جوازَ أن يُؤدىَ الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميعَ أموال المسلمين فى الشرق والغرب .

فأمّا قوله : إنه وصَلَ بنى عمّه لحاجتهم ، ورأى فى ذلك صلاحا ؛ فقد بيّنا أن صِلاته لم كانت أكثرَ مما تقتضيه الخلّة والحاجة ، وأنّه كان يصلُ فيهم المياسيرَ . ثم الصلاحُ الذى زعم أنّه رآه : لايخلُو إمّا أن يكون عائداً على المسلمين ، أو على أقاربه ؛ فإن كان على المسلمين فمعلومٌ ضرورةً أنّه لاصلاحَ لأحد من المسلمين فى إعطاء مَرْوان مائتى ألف دينار ، والحكَم بن أبى العاص ثلثمائة ألف درهم ، وابن أَسِيد ثلثمائة ألف درهم ؛ إلى غير ماذكرنا ، بل على المسلمين فى ذلك غاية الضرر . وإن أراد الصَّلاح الراجع إلى الأقارب فليس له أن يُصلح أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين ، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين .

وأما قوله : إنّ القطائعَ التى أقطَعها بنى أميّة ؛ إنمـا أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين ؛ لأنّ تلك الضياع كانت خَرابا لاعامر لها ، فسلّمها إلى من يعمّرها ويؤدّى الحقّ عنه ؛ فأول مافيه أنّه لو كان الأمر على ماذكره ، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصّلة والمعونة لأقاربه لمـا خَفِىَ ذلك على الحاضرين ، ولـكانوا لايعدّون ذلك من مثالبه ، ولا يوافقونه عليه فى جملة ماواقفوه عليه من إحداثه . ثم كان يجب لوفعلوا ذلك أن يكون جوابُه بخلاف ماروى من جوابه ؛ لأنّه كان يجب أن يقول لهم : وأىّ منفعة فى هـذه القطائع عائدة على قرابتى حتى تعدّوا ذلك من جملة صِلاتى لهم ؛ وإيصالى المنافع إليهم ! وإنما جعلتُهم فيها بمنزلة الأكَرة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم ، وما كان

يجب أن يقول ما تقدمت روايته ؛ من أني محتسب في إعطاء قرابتي ، وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمي ، إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذي ذكره .

* * *

الطعن الرابع :

أنه حَمَى الحِمَى عن المسلمين ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلهم سواء في الماء والكلأ .

قال قاضي القضاة : وجوابنا عن ذلك أنه لم يحمِ الكلأ لنفسه ، ولا استأثر به ، لكنه حماه لإبل الصدقة التي منفعتها تعود على المسلمين . وقد رُوي عنه هذا الكلام بعينه ، وأنه قال : إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وليس في الاعتذار ما يزيد عن ذلك .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما أوّلاً فالمرويّ بخلاف ما ذكر ، لأنّ الواقديّ روى بإسناده ،قال : كان عثمان يحمي الرّبَذَة والشرف[1] والبقيع ، فكان لا يدخل الحمى بعيرٌ له ولا فرس ، ولا لبني أُمية حتى كان آخر الزمان ، فكان يحمي الشَّرف لإبله وكانت ألفَ بعير ، ولإبل الحكَم بن أبي العاص ، ويحمي الرّبذة لإبل الصدقة ، ويحمي البَقيع لخيل المسلمين وخيله وخَيْلِ بني أُمية .

قال : على أنه لو كان إنّما حماه لإبل الصدقة لم يكنْ بذلك مصيبا ؛ لأنّ الله تعالى ورسولَه أباحا الكلأ ؛ وجعلاه مشتركاً ؛ فليس لأحدٍ أن يغيّر هذه الإباحة . ولو كان

(١) في معجم البلدان : قال الأصمعي : « الشرف : كبد نجد ؛ وكانت من منازل بني آكل المرار من كندة الملوك وفيها اليوم حمى ضرية ، وفيه الربذة ؛ وهي الحمى الأيمن » .

فى هذا الفعل مُصيبا ، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أنْ يستغفر الله منه ويعتذر ، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب .

***

الطعن الخامس :

أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها ، وذلك مما لا يحلّ فى الدين .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنّه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة ، واستغناء أهل الصدقة ، ففعل ذلك عَلَى سبيل الإقراض ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله مثلَه ، وللإمام فى مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرّى هذا المجرى ؛ لأنّ عند الحاجة ربّما يجوز له أن يقترض(١) من الناس ، فأن يجوز له أن يتناول من مالٍ فى يده ، ليردّ عوّضه من المال الآخر أوْلَى .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إنّ المال الذى جعل الله تعالى له جهة مخصوصة ، لا يجوز أن يُعدَل به عن جهته بالاجتهاد ، ولو كانت المصلحة فى ذلك موقوفة عَلَى الحاجة لشرَطها الله تعالى فى هذا الحُكم ، لأنه سبحانه أعلمُ بالمصالح واختلافها مِنّا ، ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسْط مطلقا .

وأما قوله : إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم فَعَل مثله ، فهى دَعْوَى مجرّدة من برهان ، وقد كان يجب أن يروِى ما ذُكر فى ذلك . وأما ما ذكره من الاقتراض ، فأين كان عثمان عن هذا العذر لمّا وُوقف عليه !

***

الطعن السادس :

أنه ضرب عبدَ الله بن مسعود حتى كَسرَ بعض أضلاعه .

---

(١) كذا فى ج ؛ وهو الصواب ، وفى ب : « يقرض » ، تحريف .

قال قاضي القضاة : قال شيخُنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : لم يثبُتْ عندنا ولا صحّ عندنا ما يقال من طَعْنِ عبد الله عليه ، وإكفاره له ، والذى يصحّ من ذلك أنّ عبد الله كَرِه منه جمعَه الناسَ على قراءة زيد بن ثابت وإحراقَه المصاحف ، وثَقُل ذلك عليه كما يثقُل على الواحد مِنّا تقديمُ غيره عليه .

وقد قيل : إنّ بعضَ موالى عثمان ضربه لمّا سمع منه الوقيعة فى عثمان ، ولو صحّ أنه أمَرَ بضربه لم يكن بأنْ يكون طعناً فى عثمان بأولى من أن يكون طعنًا فى ابن مسعود ؛ لأنّ للإمام تأديبَ غيره ، وليس لغيره الوقيعةُ فيه إلا بعد البيان . وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخيّاط أنّ ابن مسعود إنما عابه لعزْله إياه ؛ وقد رُوِى أنّ عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذرَه ، ولما أحضر إليه عطاءه فى مرضه ، قال ابن مسعود : منعتَنى إياه إذ كان ينفعُنى ، وجئتَنى به عند الموت ! لا أقبله . وأنه وسّط أم حبيبة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ليزيل مافى نفسه فلم يجب ؛ وهذا يوجب ذمّ ابن مسعود إذ لم يقبل الندم ، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب ، لو صحّ ما صحّ ما رووه من ضربه .

***

اعترض المرتضَى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : المعلوم المرويّ خلاف ما ذكره أبو علىّ ، ولا يختلف أهلُ النقل فى طعن ابن مسعود على عثمان ، وقوله فيه أشدّ الأقوال وأعظمها ، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدّعى فيه الضرورة ، وقد رَوَى كلّ مَنْ روَى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طُرُقهم أنّ ابن مسعود كان يقول : ليتنى وعثمان برملِ عالِج[1] يحثو عَلَيّ وأحثو عليه حتى يموتَ الأعجز منى ومنه !

ورووا أنه كان يطعن عليه ، فيقال له : ألا خرجْتَ عليه ، ليخرج معك ! فيقولُ : لأنْ أزاولَ جبلا راسيا أحبُّ إلىّ من أن أزاول مُلْكا مؤجلا .

(١) عالج : رمال بين فيد والقريات ، ينزلها بعض طيء ، متصلة بالثعلبية . مراصد الأطلاع ٢ : ٩١١.

وكان يقول كلَّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلنا : « إنّ أصدقَ القول كتابُ الله، وأحسنَ الهدْى هدْىُ محمد ، وشرّ الأمور محدَثاتها ، وكلّ محدَث بِدْعة ، وكل بِدْعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » . وإنما كان يقول ذلك معرّضا بعثمان ، حتى غضِب الوليد ابن عُقْبة من استمرار تعريضه،ونهاه عن خطبته هذه ، فأبَى أن ينتهىَ،فكتب إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان يستقدِمه عليه .

وروى أنّه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعَجا عن الكوفة خرج الناس معه يشيّعونه ، وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، ارجع ، فوالله لا نوصله إليك أبدا ؛ فإنا لا نأمنه عليك ، فقال : أمر سيكون ، ولا أحبّ أن أكون أوّلَ مَنْ فتحه .

وقد روى عنه أيضا من طرق لا تحصى كثرةً أنه كان يقول : مايَزِنُ عثمانُ عندَ الله جَناح ذباب ، وتَعَاطِى مارُوِىَ عنه فى هذا الباب يطول ، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه ؛ وإنه بلَغ من إصرار عبدالله على مظاهرته بالعداوة أنْ قال لما حضره الموت : مَنْ يتقبّلْ مِنّى وصيةً أوصِيه بها على مافيها ! فسكت القومُ ، وعرفوا الذى يريد ، فأعادها ، فقال عمّار بن ياسر رحمه الله تعالى:أنا أقبلها ، فقال ابن مسعود:ألّا يصلِّىَ علَىّ عثمان ، قال : ذلك لك ، فيقال : إنّه لما دُفِن جاء عثمان منكِرا لذلك،فقال له قائل: إن عماراً وَلِىَ الأمر،فقال لعمّار : ماحملك علَى أنْ لم تؤذِنّى؟فقال : عهِد إلىّ ألّا أوذِنك، فوقف على قبره وأثنى عليه،ثم انصرف وهو يقول:رفعتم والله أيديَكم عن خَيْرِ مَنْ بَقِى، فتمثّل الزبير بقول الشاعر :

لَا أُلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الموتِ تَنْدُبُنِى ... وفى حياتىَ مازَوَّدْتَنِى زَادِى [1]

ولما مَرِض ابنُ مسعود مرضَه الذى مات فيه ، أتاه عثمان عائدا ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : ذنوبى ، قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى ، قال : ألا أدعو لك طبيبا ؟ قال :

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص ، ديوانه ٤٨ .

الطبيبُ أمرضني ، قال : أفلا آمر لك بعطائِك ؟ قال : منعتَنيه وأنا محتاج إليه ، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنه ! قال : يكونُ لولدك ، قال : رزقُهم على الله تعالى ، قال : استغفِرْ لي يا أبا عبد الرحمن ، قال : أسألُ اللهَ أنْ يأخذَ لي منك حقِّي .

قال : وصاحبُ ''المغني'' قد حكَى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذي حكاه من كلامه ، وقال : هذا يوجب ذَمّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر ؛ وهذا منه طَرِيف؛ لأنّ مذهبَه لا يقتضي قبولَ كلِّ عذر ظاهر ، وإنما يجب قبولُ العذر الصادق ، الذي يغلب في الظّن أن الباطن فيه كالظاهر ، فمِن أينَ لصاحب '' المغني '' أنّ اعتذار عثمانَ إلى ابن مسعود كان مستوفيا للشرائط التي يجب معها القبول ! وإذا جازَ ماذكرناه لم يكن عَلَى ابن مسعود لومٌ في الامتناع من قبول عُذْره .

فأما قوله: إن عثمان لم يضربه،وإنما ضَرَبه بعضُ مواليه لما سمع وقيعتَه فيه،فالأمر بخلاف ذلك ، وكلّ مَنْ قرأ الأخبار علم أنّ عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنفِ الوجوه ، وبأمرِه جرى ماجرى عليه، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كَسْر ضلعه، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول : إني لم آمر بذلك ، ولا رضيته من فاعله ، وقد أنكرت عليه فعله .

وفي علمنا بأنّ ذلك لم يكن دليل على ماقلنا ، وقد روى الواقديّ بإسناده وغيرُه أنّ ابن مسعود لما استقدم المدينة،دخلها ليلة جمعة،فلما علم عثمانُ بدخوله ، قال : أيها الناس،إنه قد طرقكم الليلة دُوَيبّة، مَنْ تمشي على طعامه يقيء ويسلح.فقال ابن مسعود : لست كذلك، ولكنني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومَ بدر ، وصاحبُه يوم أُحُد،وصاحبُه يوم بيعة الرضوان،وصاحبُه يوم الخندق،وصاحبُه يوم حُنين . قال : وصاحت عائشة:ياعثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ! فقال عثمان : اسكتي ؛ ثم قال لعبد الله ابن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العزّى بن قصيّ : أخرِجْه إخراجا عنيفا ، فأخذه

ابنُ زمعة ، فاحتمله حتى جاء به باب مسجد ، فضرب به الأرض ، فكسر ضِلَعاً من أضلاعه ، فقال ابن مسعود: قتلنى ابنُ زمعة الكافر بأمر عثمان وفى رواية أخرى إنّ ابنَ زمعة الذى فعل به مافعل كان مولًى لعثمان أسود مُسَدَّماً[1] طُوالا. وفى رواية أخرى: إن فاعل ذلك يَحْمُوم مولى عثمان. وفى رواية، إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبدالله: أنشدك الله، ألا تخرِجَنى من مسجد خليلى صلى الله عليه وسلّم .

قال الرّاوى : فكأنى أنظر إلى حُمُوشة[2] ساقَىْ عبدالله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أُخرج من المسجد، وهو الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم: « لَساقا ابن أمّ عبد أثقلُ فى الميزان يوم القيامة من جبل أُحُد » .

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القُرظىّ أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطا فى دفنِه أبا ذَرّ. وهذه قصة أخرى؛ وذلك أن أبا ذرّ رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرَّبذة، وليس معه إلا امرأته وغلامُه عَهِد إليهما أن غَسِّلانى ثم كفِّنانى، ثم ضعانى على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمرّون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه ، فأعينونا على دَفْنِه ، فلما مات فعلوا ذلك ، وأقبل ابنُ مسعود فى ركب من العراق معتمرين ، فلم يرعْهمُ إلا الجنازة على قارعة الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها ، فقام إليهم العبد، فقال : هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فأعينونا على دفنه ، فانهلّ ابنُ مسعود باكياً ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه ، قال له : « تمشى وحدَك ، وتموت وحدَك ، وتُبعَث وحدَك » ، ثم نزل هو وأصحابه ، فواروه .

قال : فأما قوله إن ذلك ليس بأنْ يكون طعناً فى عثمان بأولى من أنْ يكون طعنا فى ابن مسعود ، فواضح البطلان ، وإنما كان طعناً فى عثمان دون ابن مسعود؛ لأنه لاخلاف

(١) المسدم : الأهوج .
(٢) الحموشة : دقة الساقين .

بين الأمة فى طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وثنائه عليه ، وأنّه مات على الجملة المحمودة منه ، وفى جميع هـذا خلاف بين المسلمين فى عثمان .

فأما قوله : إن ابن مسعود كره جَمْعَ عثمان النّاس على قراءة زيد ، وإحراقَه المصاحف؛ فلا شك أنّ عبد الله كره ذلك ، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وتـكلّموا فيه ، وقد ذكر الرواة كلامَ كل واحد منهم فى ذلك مفصّلا ، وما كره عبدالله من ذلك إلا مكروهاً ، وهو الذى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى حقه: «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد». ورُوِيَ عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال: « قراءة ابن أم عبد هى القراءة الأخيرة »؛ إن رسول الله صلى الله عليه كان يُعرَض عليه القرآن فى كلّ سنة من شهر رمضان ، فلما كان العام الذى توفى فيه عُرِض عليه دفعتين ، فشهد عبد الله ما نُسِخ منه ، وما صحّ فهى القراءة الأخيرة .

ورُوِيَ عن الأعمش ، قال : قال ابن مسعود : لقد أخذتُ القرآن مِنْ فِى رسول الله صلى الله عليه ، سبعين سُورة ، وإن زيد بن ثابت لغُلام فى الـكُتّاب ، له ذؤابة .

فأما حكايتهُ عن أبى الحسين الخياط أنّ ابنَ مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه ، فعبد الله عِندَ كلِّ مَنْ عرفه بخلاف هذه الصورة، وأنه لم يكن ممّنْ يخرج على عثمان ويطعن فى إمامته بأمرٍ يعود إلى منفعة الدنيا ، وإن كان عزلُه بما لاشبهة فيه فى دين ولا أمانة عيبا لاشكّ فيه .

• • •

الطعن السابع :

أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة ، وأحرق المصاحف ، وأبطل مالاشك أنه نزل من القرآن ؛ وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه ، ولو كان ذلك مما يسوغُ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه ، ولفعله أبو بكر وعمر .

قال قاضي القضاة : وجوابُنا عن ذلك أنّ الوجهَ في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصينُ القرآن وضبطه ، وقطع المنازعة والاختلافِ فيه . وقولهم : لوكان ذلك واجباً لفعله الرسول صلى الله عليه وسلّم غيرلازم ؛ لأنّ الإمام إذا فعله صار كأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم فعله ، ولأنّ الأحوالَ في ذلك تختلف ، وقد روى أنّ عمر كان عزم على ذلك فمات دونه . وليس لأحد أن يقول : إن إحراقه المصاحف استخفافٌ بالدين، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صلىّ الله عليه وسلم أن يخرب المسجد الذى بُنِي ضراراً وكفراً ، فغير ممتنع إحراق المصاحف .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه ؛ لأنهم يروُون أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلّها شافٍ كافٍ » ، فهذا الاختلاف عندهم في القرآن مباحٌ مسند عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسّع في الحروف ماهومباح! فلو كان في القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادّعى ؛ لما أباح النبي صلى الله عليه وسلم في الأصل إلا القراءة الواحدة ؛ لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته ، من حيث كان مؤيّدا بالوحي ، موفّقا في كلّ مايأتى ويذَر . وليس له أن يقول : حَدَث من الاختلاف في أيام عثمان مالم يكنْ في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا ماأباحــه ؛ وذلك لأنّ الأمر

لوكان على هذا لوجبَ أن ينهى عن القراءة الحادثة ، والأمر للمبتدع ، ولا يحمله ماأحدث من القراءة على تحريم المتقدّم بلا شبهة .

وقوله : إن الإمام إذا فعل ذلك ؛ فكأنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم فعَلَه تعلّل بالباطل ؛ وكيف يكون كما ادّعى ،وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلّم ، فلوكان سبب الانتشار الزيادة فى القرآن ، وفى قطعه تحصين له ، لكان عليه السلام بالنهى عن هذا الاختلاف أوْلى من غيره ؛ اللهم إلا أن يقال : حدث اختلاف لم يكن ؛ فقد قُلْنا فيه ما كفى .

وأما قوله : إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه ؛ فما سمعناه إلا منه ؛ ولو فعل ذلك أىّ فاعل كان لكان مُنْكَراً .

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لايكون استخفافاً بالدين ، بحمله إياه على تخريب مسجد الضِّرار ، فبيْن الأمرين بَوْنٌ بعيد ؛ لأنّ البنيان إنما يكون مسجدا وبيتا لله تعالى بنية البانى وقصده ، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنيان بأن يكون مسجدا أوْلى من بعض ، ولما كان قصد البانى لذلك الموضع غير القُرْبة والعبادة ، بل خلافُها وضدّها من الفساد والمكيدة . لم يكن فى الحقيقة مسجدا ، وإن سمى بذلك مجازا على ظاهر الأمر ، فهدْمُه لاحرجَ فيه ، وليس كذلك مابين الدَّفّتين ؛ لأنه كلام الله تعالى الموقّر المعظّم ، الذى يجب صيانته عن البِذلة والاستخفاف ، فأىّ نسبة بين الأمرين !

* * *

الطعن الثامن :

أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضرب ، حتى حَدَث به فَتْق ، ولهذا صار أحد مَنْ ظاهر المتظلّمين من أهل الأمصار على قتله ، وكان يقول : قتلناه كافرا .

قال قاضي القضاة : وقد أجاب شيخُنا أبو علي رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال : إنّ ضرب عمار غير ثابت ، ولو ثبت أنّه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه ؛ لأنّ للإمام تأديبَ مَنْ يستحق التأديب . ومما يبعد صحة ذلك أنّ عمارا لا يجوز أن يكفِّره ، ولمّا يقعْ منه مايستوجب به الكفر ؛ لأن الذي يكفَّر به الكافر معلوم ؛ ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيرُه من الصحابة أولى بذلك، ولوجب أن يجتمعوا على خَلْعه، ولوجب أن يكون قتله مباحا لهم ، بل كان يجب أن يقيموا إماما ليقتله على ماقدمناه . وليس لأحدٍ أن يقول : إنما كفَّره عمار من حيث وَثَب على الخلافة ، ولم يكن لها أهلا ؛ لأنّا قد بينّا القولَ في ذلك ؛ ولأنّه كان منصوبا لأبي بكر وعمر على ماتقدّم ، وقد بيّنا أنّ صحة إمامتهما تقتضي صحةَ إمامة عثمان .

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن علي عليهما السلام في أمر عثمان فقال عمار : قتِل عثمان كافرا ، وقال الحسن عليه السلام : قتل مؤمنا ؛ وتعلّق بعضهما ببعض ، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : ماذا تريد من ابن أخيك ؟ فقال : إني قلتُ كذا، وقال كذا ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتكفُر بربٍّ كان يؤمن به عثمان ! فسكت عمّار ؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نُقِمَ عليه ضَرْبه عمارا احتجّ لنفسه، فقال : جاءني[1] سعد وعمّار، فأرسلا إليّ أن ائتنا ، فإنّا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتَها، فأرسلت إليهما : إني مشغول ، فانصرِفا ، فموعدكما يوم كذا ، فانصرف سعد وأبَى عمار أنْ ينصرف ، فأعدت الرسولَ إليه فأبى أن ينصرف ، فتناوله بغير أمري؛ ووالله ماأمرتُ به ولا رضيت ؛ وها أنا ، فليقتصّ مني .

قال : وهذا من أنصفِ قولٍ وأعدله .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما الدفع لضرب عمار ، فهو

(١) كذا في الأصول وكتاب الشافي ٢٧٧ ، ولعل الصواب : « جاء سعد » .

كالإنكار لطلوع الشمس ظهورا وانتشارا ، وكلُّ من قرأ الأخبار ، وتصفّح السِّيَر ، يعلم من هذا الأمر مالا تثنيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعة ؛ وهذا الفعل - أعنى ضربَ عمار - لم تختلف الرواة فيه ؛ وإنما اختلفوا فى سببه ، فروَى عباس بن هشام الكلبيّ عن أبى مِخْنف ، فى إسناده أنه كان فى بيت المال بالمدينة سَفَط فيه حَلى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحَلّى به بعضَ أهله ، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه فى ذلك ، وكلّموه فيه بكلّ كلام شديد ؛ حتى أغضبوه ، فخطب فقال : لنأخذَنّ حاجتنا من هذا الفىء ؛ وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام ! فقال له علىٌّ عليه السلام : إذَنْ تُمنعَ من ذلك ، ويحالَ بينك وبينه ، فقال عمار : أُشهِد اللهَ أنّ أنفِى أوّلُ راغم من ذلك ؛ فقال عثمان : أعلىّ يابن ياسر تجترئ ! خذوه ، فأُخِذ ، ودخل عثمان ، فدعا به فضربه حتى غُشِى عليه ، ثم أخرج فحمل حتى أُتِىَ به منزلَ أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب ، فلما أفاق توضأ وصلى ، وقال : الحمدُ لله ، ليس هذا أول يوم أوذِينا فى الله تعالى ! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ - وكان عمار حليفا لبنى مخزوم - : ياعثمان ، أمّا علىّ فاتقيته ، وأما نحن فاجترأتَ علينا ، وضربتَ أخانا حتى أشفَيْتَ به[1] على التلف ؛ أما والله لئن مات لأقتلَنّ به رجلا من بنى أمية عظيم الشأن ! فقال عثمان : وإنّك لهاهنا يابن القَسْرِيّة ، قال : فإنهما قَسْرِيتانِ - وكانت أم هشام وجدّته قَسْرِيّتين[2] من بَجيلة - فشتمه عثمان ، وأمرَ به فأخرج ، فأتى به أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها ، فإذا هى قد غَضِبت لعمار ، وبلغ عائشة رضى الله تعالى عنها ماصَنَع بعمار ، فغضبتْ أيضا ، وأخرجت شَعَرًا من شَعَر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونعلا من نعاله ، وثوبا من ثيابه ، وقالت : ماأسرع ماتركتُم سُنّة نبيكم ، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يَبْلَ بعد !

---

(١) أشفيت به ، أى جعلته مشرفا على الهلاك . (٢) قسر : بطن فى بجيلة .

وروى آخرون أن السبب في ذلك أنّ عثمان مرّ بقبر جديد، فسأل عنه، فقيل : عبد الله بن مسعود؛ فغضب على عمار لكتمانه إياه موته، إذ كان المتولّي للصلاة عليه، والقيام بشأنه، فعندها وطئ عثمان عمّاراً حتى أصابه الفتق.

وروى آخرون أنّ المقداد وعمّارا وطلحة والزبير وعِدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كتبوا كتاباً عدّدوا فيه أحداث عثمان، وخوّفوه به، وأعلموه أنهم مواثبوه إن لم يقلع، فأخذ عمار الكتاب، فأتاه به. فقرأ منه صدْراً، ثم قال له: أعليّ تقدمُ من بينهم! فقال: لأني أنصحهم لك، قال: كذبت يابن سُمَيّة! فقال: أنا والله ابن سُمَيّة، وابن ياسر! فأمر عثمان غلمانا له، فمدّوا بيديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه ـ وهي في الخفّين ـ على مَذا كيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفا كبيراً فغُشي عليه.

قال: فضربُ عمار عَلَى ماترى غير مختلف فيه بين الرواة، وإنما اختلفوا في سببه، والخبرُ الذي رواه صاحب "المغنى"، وحكاه عن أبي الحسين الخياط مانعرفه، وكتبُ السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره، وقد كان يجب أن يُضيفه إلى الموضع الذي أخذ منه، فإنّ قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة؛ ولو كان صحيحا لكان يجب أن يقول بدل قوله: «هاأنا فليقتصّ مني» ـ إذا كان ما أمرَ بذلك، ولا رضي عنه، وإنما ضربه الغلام الجاني ـ «فليقتصّ منه»، فإنّه أولى وأعدل.

وبعد؛ فلا تنافيَ بين الروايتين لو كان ما رواه معروفا، لأنه يجوز أن يكونَ غلامه ضربه في حال، وضربه هو في حال أخرى، والروايات إذا لم تتعارضْ لم يجز إسقاط شيء منها.

فأما قوله: إنّ عمّارا لا يجوز أن يكفّره، ولم يقع منه مايوجب الكفر؛ فإنّ تكفيرَ عمّار وغير عمّار له معروف، وقد[1] جاءت به الروايات، وقد رُوِي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أنّ عمّارا كان يقول: ثلاثة يشهدون عَلَى عثمان بالكفر وأنا الرابع، وأنا شرّ

(١) ا: «قد».

الأربعة ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1] ، وأنا أشهد أنه قد حَكَم بغير ما أنزل الله .

وروى عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له : بأيّ شيء كفَّرْتم[2] عثمان ؟ فقال : بثلاث : جَعَل المالَ دُولةً بين الأغنياء ، وجَعَل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة مَنْ حارب الله ورسوله ، وعَمِل بغير كتاب الله .

ورُوِىَ عن حُذَيفة أنه كان يقول : ما فى عثمان بحمدالله أشكّ ، لكنى أشكّ فى قاتله ، لا أدرى أكافر قتل كافرا ، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله ؛ وهو أفضلُ المؤمنين إيمانا !

فأمّا ما رَواه من منازعة الحسن عليه السلام عمّاراً فى ذلك ، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فهو أوّلا غيرُ دافع لكَوْن عمار مكفِّرًا له ، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام . ثم إنْ كان الخبر صحيحا فالوجهُ فيه أنّ عمّاراً كان يعلم من لَحْن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وعُدوله عن أن يقضىَ بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقيّة ، فأمسك عمار متابعة لغرضه[3] .

فأما قوله : لا يجوز أن يكفِّره من حيث وثب على الخلافة ، لأنّه كان مصوِّبا لأبى بكر وعمر لما تقدم من كلامه فى ذلك ؛ فإنا لا نسلّم له أن عمّارا كان مصوّبا لهما ، وما تقدّم من كلامه قد تقدّم كلامنا عليه .

فأما قوله عن أبى علىّ : إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله فيه لم يكن طعناً ، لأنّ للإمام تأديبَ من يستحق ذلك ، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب « المغنى » ، أو من حكى كلامه من أبى علىّ وغيره من أن يعتذر — من ضرب عمار ووقذه حتى لحقه من الغَشْى ما تَرَك له الصلاة ، ووطئه بالأقدام امتهانا واستخفافا — بشئ من العذر ،

(١) سورة المائدة ٤٤ .
(٢) ا : « أكفرتم » .
(٣) الشافى : « لما فهم من غرضه » .

فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن رُوِى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : « عمار جِلْدة ما بين العين والأنف ومتى تُنْكأ الجلدة يَدْمَ الأنف » . وروى أنه قال عليه السلام « ما لهم ولعمار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . وروى العوّام بن حَوْشب عن سلمة بن كُهَيل عن علقمة عن خالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله » ؛ وأيّ كلام غليظ سمعه عثمان من عمّار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذى يجاوز مقدار مافرضه الله تعالى فى الحدود ! وإنما كان عمار وغيره أثبتُوا عليه أحداثه ومعايبه أحيانا على ما يظهر من سيئ أفعاله . وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين : إما أن ينزع عمّا يواقف عليه من تلك الأفعال ، أو يبين مِنْ عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر ؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجَره عن ذلك بوعظ أو غيره ، ولا يُقدم على ما يفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحكم به .

* * *

الطعن التاسع :

إقدامه على أبى ذَرّ مع تقدّمه فى الإسلام ، حتى سيّره إلى الرَّبَذة ونفاه ، وقيل : إنه ضَرَبه .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّ الناس اختلفُوا فى أمر أبى ذَرّ رحمه الله تعالى . ورُوِىَ أنه قيل لأبى ذَرّ : عثمانُ أنزلك الرَّبَذة ؟ فقال : لا ؛ بل اخترتُ لنفسى ذلك .

ورُوِى أنّ معاوية كتب يشكوه وهو بالشام ، فكتب عثمان إليه أنْ صِرْ إلى المدينة ، فلما صار إليها قال : ما أخرجك إلى الشام ؟ قال : لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : « إذا بلغتْ عِمارةُ المدينة موضعَ كذا فاخرج عنها » ؛ فلذلك خرجتُ ، فقال : فأيّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام ؟ قال : الرَّبَذة ، فقال : صِرْ إليها .

قال : وإذا تكافأتِ الأخبارُ لم يكن لهم في ذلك حجّة ، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرجه إلى الرَّبذة لصلاح يرجع إلى الدين ، فلا يكون ظلمًا لأبي ذرّ ؛ بل يكون إشفاقًا عليه ، وخوفًا من أن يناله من بعضِ أهل المدينة مكروه. ، فقد رُوِيَ أنه كان يُغلِظ في القول ويخشن الكلام ، فيقول : لم يبقَ أصحابُ محمد على ماعَهد ، ويُنفّر[1] بهذا القول ؛ فرأى إخراجَه أصلحَ لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين ؛ وقد رُوِي أن عمر أخرَج عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خافَ ناحيته ، وقد ندَب اللهُ سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين ، وإلى القول الليّن للكافرين ، وبيّن للرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو استعمل الفظاظة لانفضّوا من حوله ، فلما رأى عثمانُ من خُشونة كلام أبي ذرّ ، وما كان يُورِده مما يخشى منه التنفير فعَل ما فعَل .

قال : وقد رُوِي عن زيد بن وهب ، قال : قلتُ لأبي ذرّ رحمه الله تعالى ، وهو بالرَّبَذة : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : أخبِرُك ؛ إني كنتُ بالشامِ في أيام معاوية ، وقد ذكرت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [2] ، فقال معاوية : هذه في أهلِ الكتاب ، فقلت : هي فيهم وفينا ؛ فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك ، فكتب إليّ أن اقدم عليّ ، فقدمت عليه ؛ فانثال الناسُ إليّ كأنهم لم يعرفوني ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيّرني وقال : انزِلْ حيث شئت ، فنزلت الرَّبذة .

---

(١) ينفر : يصيح .
(٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدّم ، منْ أنّ إخراج أبي ذرّ إلى الرّبذة كان باختياره ، وروى في ذلك خبرا ، قال : وأقلُّ ما في ذلك أنْ تختلف الأخبار فتطرَح ، ويُرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال :

أمّا قول أبي عليّ إنّ الأخبار في سبب خروج أبي ذرّ إلى الرّبَذة متكافئة ، فمعاذ الله أن تتكافأ في ذلك ! بل المعروفُ والظاهر أنّه نفاه أولا إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية ، ثم نفاه من المدينة إلى الرّبَذة. وقد روَى جميعُ أهلِ السِّيَر علَى اختلاف طُرقِهم وأسانيدهم أنّ عثمانَ لما أعطى مَرْوان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث بن الحكَم بن أبي العاص ثلثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، جعل أبو ذرّ يقول : بشِّر الكانزين بعذاب أليم ، ويتلو قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فرفع ذلك مَرْوان إلى عثمان ، فأرسل إلى أبي ذرّ نائلا مولاه : أنِ انتهِ عمّا يبلغني عنك ، فقال : أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعَيْب مَنْ ترك أمر الله ! فوالله لأن أُرضيَ الله بسخَط عثمان أحبّ إليّ وخيرٌ لي من أن أُسخِطَ الله برضاه . فأغضب عثمان ذلك ، وأحفظه فتصابر .

وقال يوما : أيجوز للإمام أن يأخذَ من المال ، فإذا أيسر قضى ؟ فقال كعبُ الأحبار : لا بأس بذلك ، فقال له أبو ذرّ : يابن اليهوديين ، أتعلّمنا ديننا ! فقال عثمان : قد كثر أذاك لِي وتولّعك بأصحابي ، الحقْ بالشام . فأخرجه إليها ، فكان أبو ذرّ يُنكِر على معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية ثلثمائة دينار ؛ فقال أبو ذرّ : إنْ كانتْ هذه

من عطائى الذى حرمتمونيه عام هذا قبلتها ، وإن كانت صلة فلا حاجة لى فيها ، وردها عليه .

وبنى معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذرّ : يا معاوية ، إن كانت هذه من مال الله فهى الخيانة ، وإن كانت من مالك فهو الإسراف .

وكان أبو ذرّ رحمه الله تعالى يقول : والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها ، والله ما هى فى كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرى حقا يطفأ وباطلا يحيا ؛ وصادقا مكذبا ، وأثرة بغير تقى ، وصالحا مستأثرا عليه ؛ فقال حبيب بن مسلمة الفهرىّ لمعاوية : إن أبا ذرّ لمفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله إن كانت لكم حاجة فيه . فكتب معاوية إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد ؛ فاحمل جندبا(١) إلىّ على أغلظ مركب وأوعره ، فوجّه به مع من سار به الليل والنهار ؛ وحمله على شارف(٢) ليس عليها إلا قتب(٣) ، حتى قدم به المدينة ، وقد سقط لحم فخذيه من الجهد ؛ فلما قدم أبو ذرّ المدينة ؛ بعث إليه عثمان أن الحق بأى أرض شئت ، فقال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : فبيت المقدس ؟ قال : لا ، قال : فأحد المصرين(٤) ؟ قال : لا ؛ ولكنى مسيّرك إلى الربذة ، فسيّره إليها ، فلم يزل بها حتى مات .

وفى رواية الواقدىّ أنّ أبا ذرّ لما دخل على عثمان ، قال له : لا أنعم الله بك عينا يا جنيدب ! فقال أبو ذرّ : أنا جنيدب وسمّانى رسول الله صلى الله عليه عبد الله ، فاخترت اسم رسول الله الذى سمّانى به على اسمى ؛ فقال عثمان : أنت الذى تزعم أنا نقول إن يد الله مغلولة ؛ وإن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذرّ : لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم

(١) جندب : اسم أبى ذر الغفارى .
(٢) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .
(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .
(٤) المصران : هما الكوفة والبصرة .

مالَ الله على عباده ؛ ولكنّى أشهدُ لسمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا جعلوا مالَ الله دولًا ، وعبادَ الله خَوَلًا ، ودينَ الله دَخَلا » ، فقال عثمان لمَنْ حضَره : أسمعتموها من نبيّ الله ؟ فقالوا : ماسمعناه ، فقال عثمان : ويلك يا أبا ذرّ ! أتكذِب على رسول الله ! فقال أبو ذرّ لِمَنْ حضَر : أما تظنّون أنى صدقت ! قالوا : لا والله ما ندرِى ، فقال عثمان : ادعُوا لى عليًّا ، فدعى ، فلما جاء قال عثمان لأبى ذرّ : اقصُصْ عليه حديثك فى بنى أبى العاص ، فحدّثه ، فقال عثمان لعلىّ : هل سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال علىّ عليه السلام : لا ، وقد صدق أبو ذرّ ، قال عثمان : بِمَ[1] عرفتَ صِدْقه ؟ قال : لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يقول : « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذى لَهْجة أصدق من أبى ذرّ » ، فقال جميعُ مَنْ حضَر من أصحاب النبى صلى الله عليه : لقد صدق أبو ذرّ ، فقال أبو ذرّ : أحدّثُكم أنى سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه ثم تتّهمونَنى ! ما كنت أظنّ أنى أعيشُ حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه !

وروى الواقدىّ فى خبر آخر بإسناده عن صُهبان مولى الأسلميين ، قال : رأيتُ أبا ذرّ يوم دُخِلَ به على عثمان ، فقال له : أنتَ الذى فعلت وفعلت ! فقال له أبو ذرّ : نصحتُكَ فاستغششتَنِى ، ونصحتُ صاحبك فاستغشّنى ؛ فقال عثمان : كذبت ؛ ولكنك تريد الفتنة وتحبّها ، قد أنغَلْتَ[2] الشامَ علينا ، فقال له أبو ذرّ : اتبعْ سُنّة صاحِبَيْك ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان : مالك وذلك لا أمّ لك ! قال أبو ذرّ : والله ما وجدتُ لى عذرا إلا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر ؛ فغضب عثمان وقال : أشيروا علَىّ فى هذا الشيخ الكذّاب ، إمّا أن أضربَه أو أحبِسه أو أقتله ؛ فإنه قد فرّق جماعة المسلمين ، أو أنفيَه من أرض الإسلام. فتكلّم علىّ عليه السلام ـ وكان حاضرا ـ وقال : أشيرُ عليك

---

(١) الشاق : « كيف » .

(٢) أنغلت الشام : أى أفسدت أهله ؛ وأصله فى الأديم ؛ يقال : أنغل الأديم ؛ إذا أفسده فى الدباغ . وفى الشاق : « قلبت » .

بما قاله مؤمنُ آل فرعون: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [1] ، قال : فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ ، لا أحبّ ذكره ، وأجابه عليه السلام بمثله ، قال : ثمّ إن عثمانَ حظَرَ على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ ، أو يكلموه ؛ فمكثَ كذلك أياماً ، ثم أمرَ أن يؤتَى به ، فلما أُتِيَ به وقف بين يديه، قال : ويحَك ياعثمان ! أما رأيتَ رسول الله صلى الله عليه ورأيتَ أبا بكر وعمر ! هل رأيتَ هـذا هديَهم ! إنك لَتَبْطِشُ بى بَطْشَ جبار ؛ فقال : اخرُج عنّا من بلادنا ، فقال أبو ذرّ:ماأبغض إلىّ جوارك ! فإلى أين أخرج؟قال : حيث شئتَ ، قال : فأخرج إلى الشام أرض الجهاد ؟ قال : إنما جلبتُك من الشام لِما قد أفسدتَها أفأردّك إليها ! قال:أفأخرُج إلى العراق ؟ قال : لا ، قال:ولم ؟ قال : تقدَم على قومٍ أهل شُبَهٍ وطعن فى الأئمة ، قال : أفأخرج إلى مصر ؟ قال : لا ، قال : فإلى أين أخرج ؟ قال: حيث شئت،قال أبو ذَرّ :فهو إذن التعرّب [2] بعد الهجرة ؛ أأخرُج إلى نجد؟فقال عثمان: الشرف الأبعدُ أقصَى فأقصَى ، امض على وجهك هذا ، ولا تعدوَنّ الرّبذة .

فخرج إليها .

وروى الواقدىّ عن مالك بن أبى الرجال،عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤلىّ، قال : كنتُ أحبّ لقاء أبى ذرّ لأسأله عن سبب خُروجه ، فنزلت الرّبَذة ، فقلت له : ألا تخبرنى ؟ أخرجتَ من المدينة طائعا أم أخرجت مكرَها ؟ فقال : كنت فى ثغر من ثغور المسلمين ، أُغْنِى عنهم ، فأخرِجتُ إلى مدينة الرسول عليه السلام ، فقلت : أصحابى ودارُ هجرتى ، فأخرِجت منها إلى ماترى ، ثم قال : بينا أنا ذاتَ ليلة نائم فى المسجد إذ مرّ بى رسول الله صلى الله عليه،فضربنى برِجْله وقال : لا أراك نائما فى المسجد،فقلت : بأبى أنت

(١) سورة غافر ٢٨ .
(٢) التعرب : الإقامة بالبادية .

وأمى ! غلبتنى عينى، فنمتُ فيه ، فقال : كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟فقلت : إذن ألحق بالشام ، فإنها أرض مقدسة، وأرض بقية الإسلام،وأرض الجهاد ؛ فقال : فكيف تصنع إذا أخرجت منها ؟ فقلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ قلت : آخذ سيفى فأضرب به ، فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلّك على خيرٍ من ذلك،انسَقْ معهم حيث ساقوك ، وتسمَعُ وتطيع » ، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع؛ والله ليلقَيَنّ اللهَ عثمان وهو آثم فى جنْبى .

وكان يقول بالرَّبذة : ماترك الحقّ لى صديقا . وكان يقول : فيها رَدَّنِى عثمانُ بعد الهجرة أعرابيا .

والأخبار فى هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها . ومايحمِلُ نفسَه على ادّعاء أنّ أبا ذرّ خرج مختارا إلى الرَّبَذة إلا مكابر . ولسنا ننكر أن يكون ما أورده صاحب كتاب «المغنى» من أنه خرج مختارا قد رُوِىَ ، إلاأنه من الشاذّ النادر . وبإزاء هذه الرواية الفَذّة كلّ الروايات التى تتضمّن خلافها ؛ ومن تصفّح الأخبار عَلِم أنّها غير متكافِئة على ماظنّ صاحب المغنِى ؛ وكيف يجوز خروجُه عن اختيار ! وإنما أشخِص من الشام على الوجه الذى أشخص عليه : من خشونة المركب ، وقُبْح السَّيْر به للموجدة عليه. ثم لما قدِم مُنِع الناس من كلامه، وأغلظ له فى القول؛وكلّ هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الرَّبَذة باختياره . وكيف يظنّ عاقل أنّ أبا ذرّ يختار الرَّبذة منزِلًا مع جَدْبها وقَحْطها وبُعْدها عن الخيرات؛ ولم تكن بمنزِل مثله !

فأما قوله : إنه أشفَق عليه من أن يناله بعضُ أهلِ المدينة بمكروه من حيث كان يُغلِظ لهم القول،فليس بشىء ؛ لأنه لم يكن فى أهل المدينة إلا من كان راضيا بقوله ، عاتبا بمثل عتبه ؛ إلّا أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما فى نفسه، ومخفٍ ماعنده ؛ وما فى أهلِ المدينة إلّا

من رَثَى لأبى ذرّ ممـا حدَث عليـه ، ومن استفظعه ؛ ومَنْ رجع إلى كتب السيرة عرف ماذكرناه .

فأما قوله : إن عمر أخرَج من المدينة نصر بن حجاج،فيابُعْدَ مابين الأمرين!وما كنّا نظن أن أحداً يسوّى بين أبى ذَرّ وهو وَجْهُ الصحابة وعينُهم ، ومَنْ أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه،وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مدَحه من صِدْق اللَّهجَة بما لم يمدحْ به أحداً،وبين نصر بن الحجّاج الحدَث الذى كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه؛ولا حَظّ له فى فَضْلٍ ولا دِين!على أنّ عمر قد ذُمّ بإخراجه نَصْر بن الحجاج من غير ذنب كان منه، فإذا كان مَنْ أخرج نصر بن حجاج مذموما ، فكيف مَنْ أخرج أبا ذرّ !

فأما قوله : إنّ الله تعالى والرسول قد ندَبا إلى خفض الجناح ، ولين القول للمؤمن والكافر ، فهو كما قال ؛ إلا أنّ هـذا أدب كان ينبغى أن يتأدّب به عثمان فى أبى ذرّ ، ولا يقابله بالتكذيب ، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْقه ؛ ولا يسمعه مكروهَ الكلام؛فإنّما نصح له،وأهدى إليه عيوبَه،وعاتبه على مالو نزع عنه لكان خيْراً له فى الدنيا والآخرة .

* * *

الطعن العاشر :

تعطيلُه الحدّ الواجب على عُبَيدالله بن عُمَرَ بن الخطاب ، فإنه قَتَل الهُرْمُزان مُسْلِما فلم يَقُدْه به ، وقد كان أميرُ المؤمنين عليه السلام يطلُبه لذلك .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّه لم يكن للهُرْمزان ولىّ يطلب بدمه ، والإمام ولىّ مَنْ لا ولىّ له ، وللولىّ أن يعفوَ كما له أنْ يقتُل ، وقد رُوِىَ أنّه سأل المسلمين أن يعفُوا عنه ، فأجابوا عنه إلى ذلك .

قال : وإنما أراد عثمانُ بالعفو عنه مايعودُ إلى عزِّ الدين ، لأنّه خاف أن يبلغ العدوّ قتلُه؛ فيقال : قَتَلوا إمامهم وقتلوا ولدَه ولا يعرفون الحـال فى ذلك فيكون فيه شماتة ؛ وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخيّاط : إن عامّة المهاجرين أجمعُوا على أنه لا يُقادبالهرمزان، وقالوا لعثمان : هـذا دم سُفِك فى غير ولايتك ، وليس له ولّى يطالب به ، وأمْرُهُ إلى الإمام ، فاقْبَل منه الدِّية ، فذلك صلاح للمسلمين .

قال : ولم يثبت أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يطلبُه ليقتلَه بالهرْمزان ، لأنّه لا يجوز قتلُ مَنْ عفـا عنه ولىّ المقتول ؛ وإنما كان يطلبه ليضعَ من قدره ، ويصغّر من شأنه .

قال : ويجوز أن يكون مارُوِى عن علىّ عليه السلام من أنه قال : لو كنتُ بَدَل عثمان لقتلته ، يعنى أنه كان يرى ذلك أقوَى فى الاجتهاد ، وأقرب إلى التشدد فى دين الله سبحانه .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الـكلام ، قال :

أما قوله : لم يكن للهرْمزان ولىّ يطلب بدمه ، فالإمام يكون وليّه ، وله أن يعفوَ عنه، كما له أن يقتصّ؛ فليس بمعتمَد ، لأنّ الهرمزان رجلٌ من أهل فارس ، ولم يكن له ولىّ حاضر يطالب بدمه ، وقد كان الواجب أن يبذَل الإنصاف لأوليائه ويؤمّنوا مَتَى حضروا، حتى إنه لو كان له ولىّ يريد المطالبة حضر وطالب . ثم لو لم يكن له ولىّ لم يكنْ عثمان ولىّ دمه ، لأنه قُتِل فى أيام عمر ، فصار عمر ولىّ دمه ، وقد أوصى عمر على ماجاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيدالله إن لم تقم البيِّنة العادلة على الهرْمزان وجُفَينة ،(١) أنهما أمرا أبالؤلؤة غلامَ المغيرة بن شعبة بقتله ، وكانت وصيتهُ بذلك إلى أهل الشورى ، فقال : أيُّكم ولّى هذا الأمر فلْيفعل كذا وكذا مما ذكرناه، فلما مات عُمر ، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء

---

(١) جفينة ؛ كان نصرانيا من أهل الحيرة وكان ظئرا لسعد بن أبي وقاص ؛ أقدمه إلى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم ؛ وليعلم بالمدينة الـكتاب . تاريخ الطبرى ٥ : ٤٢ .

الوصيّة فى عبيد الله بن عمر ، فدافع عن ذلك وعلّلهم ؛ ولو كان هو ولىّ الدم على ما ذكروا لم يكن له أن يعفوَ وأن يُبطِل حدًّا من حدود الله تعالى ، وأىّ شماتة للعدوّ فى إقامة حدّ من حدود الله تعالى ! وإنما الشماتةُ كلُّها من أعداء الإسلام فى تعطيل الحدود . وأىّ حرَج فى الجمع بين قَتْل الإمام وابنه ، حتّى يقال : كُرِه أن ينتشر الخبرُ بأنّ الإمام وابنَه قُتلا ، وإنّما قُتِل أحدُهما ظالما ، والآخر عَدْلا ، أو أحدهما بغير أمرِ الله ، والآخر بأمره سبحانه!

وقد روى زياد بن عبد الله البَكائىّ عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أتى عثمان ؛ بعد ما استخلف ، فكلّمه فى عُبيد الله ولم يكلّمْه أحدٌ غيره ؛ فقال : اقتُلْ هذا الفاسقَ الخبيث الذى قتل أميرا مسلما ؛ فقال عثمان : قَتَلوا أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! وإنما هو رجلٌ من أهل الأرض ؛ فلما أبَى عليه مَرّ عُبيد الله على علىّ عليه السلام ، فقال له : إيهٍ يافاسق! أما والله لئن ظفرتُ بك يوماً من الدهر لأضرِبَنّ عنقَك ؛ فلذلك خرج مع معاوية عليه .

وروى القنّاد ، عن الحسن بن عيسى بن زيد ، عن أبيه ، أنّ المسلمين لما قال عثمان : إنّى قد عفوتُ عن عبيد الله بن عمر ، قالوا : ليس لك أن تعفوَ عنه ، قال : بلى إنه ليس لجُفينة والهُرْمُزان قرابة من أهل الإسلام ؛ وأنا ولىّ أمر المسلمين ، وأنا أولى بهما ، وقد عفوتُ ، فقال علىّ عليه السلام : إنه ليس كما تقول ، إنما أنت فى أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين ؛ إنه قَتَلهما فى إمرة غيرك ، وقد حَكم الوالى الذى قُتِلا فى إمارته بقتله ؛ ولو كان قَتَلهما فى إمارتك لم يكن لك العفو عنه ، فاتق الله ؛ فإنّ الله سائلُك عن هذا ! فلما رأى عثمان أنّ المسلمين قد أبَوْا إلا قتلَ عبيد الله ، أمره فارتحل إلى الكوفة ، وأقطعه بها دارا وأرضا ؛ وهى التى يقال لها : كُوَيْفة[1] ابن عمر ، فعظُم ذلك عند المسلمين وأكبروه ؛ وكثر كلامهم فيه .

---

(١) الكويفة ، ذكرها ياقوت ، فقال : « كويفة ابن عمر منسوبة إلى عبيد الله بن عمر بن الخطاب ؛ نزلها حين قتل بنت أبى لؤلؤة والهرمزان وجفينة العبادى » . معجم البلدان ٧ : ٣٠٤ .

وروِىَ عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: ما أمسى عثمان يوْمَ ولّى حتى نقَموا عليه فى أمر عبيد الله بن عمر؛ حيث لم يقتله بالهرمزان.

فأما قوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتلَه؛ بل ليضَعَ من قَدْره؛ فهو بخلاف ما صرّح به عليه السلام من أنّه إن تمكن ليضربنّ عنقه.

وبعد؛ فإن ولىّ الدم إذا عَفَا عنه على ما ادَّعَوْا لم يكن لأحدٍ أن يستخفّ به، ولا يضعَ من قدرِه كما ليس له أن يقتله.

وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوزُ أن يتوعّده مع عفو الإمام عنه؛ فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثرا؛ وقد بيّنا أنه غير مؤثر.

وأما قوله: يجوز أن يكون عليه السلام رأى أنّ قتله أقوى فى الاجتهاد، وأقربُ إلى التشدد فى دين الله؛ فلا شكّ أنه كذلك، وهذا بناء منه على أنّ كلّ مجتهد مصيب؛ وقد بينا أنّ الأمر بخلاف ذلك؛ وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى قتلَه، فهو الذى لا يسوغُ خلافُه.

* * *

الطعن الحادى عشر

وهو إجمالىّ؛ قالوا: وجدنا أحوالَ الصحابة دالّةً على تصديقهم المطاعِنَ فيه، وبراءتهم منه؛ والدليل على ذلك أنّهم تركوه بعد قتلِه ثلاثة أيام لم يدفنوه، ولا أنكروا على مَنْ أجلب عليه من أهل الأمصار؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه؛ ولكنّهم أعانوا عليه، ولم يمنعوا من حَصْره ولا من مَنْع الماء عنه؛ ولا من قَتْلِه، مع تمكّنهم من خلاف ذلك، وهذا من أقوى الدّلائل على ما قلْناه؛ ولو لم يدلّ على أمره عندهم إلا ما روى عن علىّ عليه السلام أنه قال: الله قتله وأنا معه، وأنّه كان فى أصحابه عليه السلام مَنْ يصرّح بأنّه قتل

عثمان ؛ ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم ، وكان أهلُ الشام يصرّحون بأن مع أمير المؤمنين قتلةَ عثمان ، ويجعلون ذلك مِنْ أوكد الشّبه ، ولا ينكر ذلك عليهم ؛ مع أنّا نعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضد هو وأصحابُه على المنع عنه لما وقع في حقّه ما وقع ؛ فصار كفُّه وكفُّ غيره عن ذلك من أدلّ الدلائل على أنّهم صدّقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث ؛ وأنهم لم يقبلوا منه ما جعله عذرا .

وأجاب قاضى القضاة عن هذا ، فقال :

أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت ، ولو صحّ لكان طعنا على مَنْ لزمه القيامُ به ، وقد قال شيخنا أبو عَلِيّ رحمه الله تعالى : إنّه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام خَوْفًا على الإسلام من الفتنة ، فيؤخروا دفنَه .

قال : وبعيدٌ مع حضورِ قريش وقبائل العرب وسائر بنى أمية ومواليهم أن يُترَك عثمان ولا يُدفَن هذه المدة ، وبعيدٌ أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدّم بدفنه ، ولو مات فى جواره يهودىّ أو نصرانىّ ولم يكن له مَنْ يواريه ماتركه أمير المؤمنين ألّا يدفن ، فكيف يجوز مثل ذلك فى عُثْمان ؛ وقد رُوِىَ أنه دفن فى تلك الليلة ؛ وهذا هو الأولى .

فأمّا التعلّق بأنّ الصحابة لم تنكر على القوم ، ولا دفعت عنه ، فقد سبق القول فى ذلك ؛ والصحيحُ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرّأ من قَتْلِ عثمان ، ولَعَنَ قَتَلته فى البرّ والبحر والسّهل والجبل ؛ وإنما كان يجرى من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز ؛ لأنّا نعلمُ أنّ جميعَ مَنْ كان يقول : نحن قتلناه لم يقتُله ؛ لأن فى الخبر أنّ العدد الكثير كانوا يصرّحون بذلك ؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة ؛ وإنما كانوا يقصدون بهذا القول ؛ أى احسبوا أنّا قتلناه فما لكم ! وذلك أنّ الإمام هو الذى يقوم بأمر القَوَد ، وليس للخارج عليه أنْ يطالب بذلك ؛ ولم يكن لأمير المؤمنين عليه السلام أن يقتلَ قَتَلَتَه لو عرَفهم ببيّنة أو إقرار ، وميّزهم من غيرهم إلا عندَ مطالبة ولىّ الدم ، والذين كانو أولياء

الدّم لم يكونوا يطالبونه ، ولا كانتْ صفتهم صفة مَنْ يطالب ؛ لأنهم كانوا كلّهم أو بعضهم يدّعون أنّ عليا عليه السلام ليس بإمام ، ولا يحلّ لوليّ الدم مع هذا الاعتقاد أنْ يطالب بالقَوَد ، فلذلك لم يقتلهم عليه السلام ؛ هذا لو صَحّ أنه كان يميّزهم ، فكيف وذلك غير صحيح .

فأما ما رُوِيَ عنه من قوله عليه السلام : « قتله الله وأنا معه » ؛ فإنْ صحّ فمعناه مستقيم ؛ يريد أنّ الله أماته وسيميتني وسائر العباد .

ثم قال سائلا نفسه : كيف يقول ذلك وعثمان ماتَ مقتولا من جهة المكلّفين ! وأجاب بأنّه وإن قُتِل ، فالإماتة من قِبَل الله تعالى . ويجوز أنْ يكون ما ناله من الجراح لا يوجِبُ انتفاء الحياة لا محالة ، فإذا مات صَحّت الإماتة على طريق الحقيقة .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال .

أما تضعيفُه أن يكونَ عثمانُ تُرِكَ بعد القَتْل ثلاثة أيام لم يُدْفن ؛ فليس بحجة ؛ لأنّ ذلك قد رَواه جماعةُ الرواة ، وليس يخالف في مثله أحدٌ يعرّف بالرواية ؛ وقد ذكر ذلك الواقديّ وغيره ؛ وروى أنّ أهل المدينة مَنَعُوا الصلاة عليه ، حتى حُمِل بين المغرب والعَتمة ، ولم يشهد جَنازته غير مَرْوان وثلاثة من مواليه ، ولما أحسُّوا بذلك رَمَوْه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذِّكْر ، ولم يقع التمكّن من دَفْنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دَفْنه ، وأمر أهله بتولّي ذلك منه .

فأما قوله : إنّ ذلك إن صحّ كان طعناً على مَنْ لزمه القيامُ بأمره ، فليس الأمرُ على ما ظنه ، بل يكون طعنا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنع أهل المدينة ـ وفيها وجوهُ الصحابة ـ من دَفْنه والصلاة عليه إلا لاعتقادٍ قبيح ؛ أو لأنّ أكثرهم وجُمهورهم يعتقد ذلك ؛ وهذا طعن لا شُبْهَة فيه ؛ واستبعاد صاحب "المغني" لذلك ؛ مع ظهور الرواية به

لا يلتفت إليه ؛ فأما أميرُ المؤمنين عليه السلام واستبعاد صاحب " المغنى " منه ألّا يتقدم بدفنه ؛ فقد بيّنا أنّه تقدم بذلك بعد مما كسةومراوضة. وأعجب من كلِّ شيء قولُ صاحب " المغنى " : إنهم أخّرُوا دفنه تشاغلا بالبَيْعة لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وأيّ شُغل فى البيعة لأمير المؤمنين يمنع من دَفْنه، والدفْن فرضٌ على الكفاية، لو قام به البعضُ وتشاغل الباقون بالبيْعة لجاز ! وليس الدّفْنُ ولا البيعة أيضا مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها.

فأما قوله: إنّه قد رُوِيَ أنّ عثمان دُفِن تلك الليلة، فما نَعرِفُ هذه الرواية ؛ وقد كان يجب أن يُسندها وَ يعزُوَها إلى راويها، أو الكتاب الذى أخذها منه؛ فالذى ظَهر فى الرواية هو ماذكرناه .

فأمّا إحالته على ماتقدّم فى معنى الإنكار من الصّحابة على القوم المجْلِبين على عثمان؛ فقد سبق القول فى ذلك .

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قتل عثمان، ولعنه قتَلَتَه فى البَرّ والبحر، والسهل والجبل؛ فلا شكّ فى أنّه عليه السلام كان بريئاً من قتله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ماقتلتُ عثمان، ولا مالأت فى قتله ؛ والمالأة هى المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام فى أنّه ماقتَل ولا وَازر على القتل .

فأما لعنهُ قَتَلَته[1] فضعيف فى الرواية، وإن كان قد رُوِى؛ فأظهر منه ماروله الواقدىّ، عن الحكَم بن الصَّلْت ، عن محمد بن عمار بن ياسر ، عن أبيه ، قال : رأيتُ عليًّا عليه السلام على مِنبر رسول الله صلى الله عليه وآله حِينَ قُتِل ، وهو يقول : ما أحببتُ قَتله ولا كرهتهُ ، ولا أمرت به ، ولا نهيت عنه .

وقد روى محمد بن سعد، عن عفّان بن جرير بن بشير ، عن أبى جَلْدة ، أنّه سمع عليًّا

(١) ا ، ج : « قتلة عثمان »

عليه السلام، يقول وهو يخطب ، فذكر عثمان ، وقال : والله الذى لا إله إلا هو ؛ ماقتلتهُ ولا مالأتُ على قتله ولا ساءنى[1] .

وروى ابن بشير ، عن عُبيدة السلمانىّ ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام يقول : مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ؛ فإنّ الله قتله وأنا معه . وقد رُوِىَ هذا اللفظ من طُرُق كثيرة .

وقد روى شعبة عن أبى حمزة الضّبعىّ ، قال : قلتُ لابن عباس : إنّ أبى أخبرنى أنه سمع عليًّا ، يقول : ألَا مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ، فإنّ الله قتله وأنا معه ــ فقال : صدق أبوك ؛ هل تدرى ما معنى قوله ! إنما عَنَى : الله قتله وأنا مع الله .

قال : فإن قيل : كيف يصحّ الجمع بين معانى هذه الأخبار ؟

قلنا : لا تنافىَ بينها ، لأنه عليه السلام تبرّأ من مباشرة قتله والمؤازرة عليه ، ثم قال: ما أمرتُ بذلك ولا نهيتُ عنه ؛ يريد أن قاتِليه لم يرجِعُوا إلىّ ، ولم يكن منّى قول فى ذلك بأمر ولا نهى . فأما قوله : « الله قتله وأنا معه » ، فيجوز أن يكون المراد به : الله حكَم بقتله وأوجبه وأنا كذلك ؛ لأنّ من المعلوم أنّ الله تعالى لم يقتله على الحقيقة ، فإضافةُ القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الحُكم والرّضا ؛ وليس يمتنع أنْ يكونَ مِمّا حكم الله تعالى به ، مالم يتولّه بنفسه ، ولا آزر عليه ، ولا شايع فيه .

فإن قال قائل : هذا ينافِى مارُوِى عنه من قوله : « ما أحببت قتلَه ، ولا كرهتهُ »، وكيف يكون مِنْ حُكْم الله وحكمه أن يُقتل وهو لا يحبّ قَتْله !

قلنا : يجوز أن يريد بقوله : «ما أحببت قتله ولا كرهته» أنّ ذلك لم يكن منّى على سبيل التفصيل،ولا خطر لى ببال؛ وإن كان على سبيل الجملة يحبّ قتل مَنْ غلب المسلمين

---

(١) كذا فى ا ، ج ، والشافى ، وفى ب : « ولا سأل » .

على أمورهم، وطالبوه بأن يعتزل، لأنه «مستَوْلٍ عليهم بغير حق[١]» فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهى عنه. ويجوز أنْ يريد أنّني ما أحببتُ قتله ؛ إن كانوا تعمّدوا القتل؛ ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود. ويريد بقوله : « ما كرهتُه » أنّى لم أكرهه على كل حال ، ومن كلّ وجه .

فأما لعنه قتلتَه فقد بيّنّا أنّه ليس بظاهر ظهور ماذكرناه ؛ وإن صحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المحظور من تعمّدٍ له ، وقصدٍ إليه وغير ذلك؛ على أن المتولّىَ للقتل على ماصحّت به الرواية كنانة بن بَشير التُّجِيبيّ ، وسُودان بن حمران المراديّ ؛ وما منهما مَنْ كان غرضُه صحيحا فى القتل ، ولا له أن يقدم عليه ، فهو ملعون به . فأما محمدُ بن أبى بكر ؛ فما تولى قَتْله؛ وإنما رُوِى أنّه لما جثا بين يديه قابضا على لحيته ، قال له : ياابن أخى؛ دَعْ لحيتى ؛ فإن أباك لو كان حيًّا لم يقعدْ منى هذا المَقْعد ؛ فقال محمد : إن أبى لو كان حيًّا ثم يراك تفعل ماتفعل لأنكره عليك ، ثم وجأه[٢] بجماعة قِدَاح كانت فى يده فحزّت فى جِلْده ولم تَقْطَع ، وبادره مَنْ ذكرناه فى قتله بما كان فيه قتلُه .

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام: «قتلَه الله وأنا معه» ؛ على أنّ المراد به؛ الله أماته وسَيُميتنى؛ فبعيد من الصواب، لأن لفظة « أنا » لا تكونُ كناية عن المفعول، وإنما تكون كناية عن الفاعل ؛ ولو أراد ماذكره لكان يقول : « وإياى معه » ؛ وليس له أن يقول : إنّنا نجعل قوله : « وأنا معه » مبتدأ محذوف الخبر ، ويكون تقدير الكلام: « وأنا معه مقتول » ؛ وذلك لأنّ هذا تركٌ للظاهر وإحالة على ماليس فيه ؛ والكلام إذا أمكن حملُه على معنى يستقلّ ظاهرُه به من غير تقدير وحذف كان أوْلَى مما يتعلق بمحذوف؛ على أنّهم إذا جعلوه مبتدأ وقدّروا خبراً لم يكونوا بأنْ يقدِّرُوا مايوافق مذهبهم بأوْلى من تقدير خلافه، ويجعل بدلا من لفظة «المقتول» المحذوفة لفظة «مُعين» أو «ظهير».

(١ — ١) ب : « لأنه مستول عليه بحق » وما أثبته من ا ، ج وكتاب الشافى .

(٢) وجأه : ضربه .

وإذا تكافأ القولان فى التقدير وتعارضا سَقَطا،ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر ؛ على أنّ عثمان مضى مقتولا ، فكيف يقال : إنّ الله تعالى أماتَه ، والقتل كافٍ فى انتفاء الحياة ؛ وليس يحتاج معه إلى نافٍ للحياة يسمى موتا .

وقول صاحب "المغنى" : يجوزأن يكون ماناله من الجراح لايوجب انتفاء الحياة ؛ليس بشىء ؛ لأنّ المروىّ أنه ضُرِب على رأسه بعمود عظيم من حديد ، وأنّ أحدَ قَتلته قال : جلست على صدره فوجأته تسع طعنات،علمت أنه مات فى ثلاث ، ووجأته السّتّ الأُخَر لما كان فى نفسى عليه من الحَنَق .

وبعد : فإذا كان جائزا ، فمِن أين عَلِمَ أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول : إن الله أماته؟وإنّ الحياة لم تَنْتَفِ بما فعله القاتلون[1] ،وإنما انتفت بشىء زاد على فعلهم من قِبَل الله تعالى مِمّا[2] لا يعلمه على سبيل التفصيل إلّا علّامُ الغُيوب سبحانه .

* * *

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين ؛ إجمالًا وتفصيلا :

أما الوجه الإجمالىّ ، فهو أننا لا نُنكر أنّ عثمان أحدَث أحداثا أنكرَها كثيرٌ من المسلمين ، ولكنّا ندّعى مع ذلك أنّها لم تبلغْ درجة الفِسْق ، ولا أحْبطَتْ ثوابَه ، وأنّها من الصغائر التى وقعت مكفَّرة[3] ؛ وذلك لأنّا قد علمنا أنه مغفور له ، وأنه مِنْ أهل الجنة لثلاثة أوجه :

أحدُها : أنّه من أهل بَدْر ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله ا ّلع على أهل بَدْر ، فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم » ؛ ولا يقال : إن عثمانَ لم يشهَدْ بدْراً ؛ لأنا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدْها ، ولكنه تخلّف على رُقَيّة ابنة رسول الله

---

(١) الشافى : « القتلة » ، وفى ب : « القاتلون » تحريف .

(٢) كذا فى ا ، ج والشافى ، وفى ب : « فيما » .

(٣) الصغائر المكفرة : التى يمحى إثمها .

صلى الله عليه وآله بالمدينة لمرضها، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله بسَهمِهِ وأجْره باتفاق سائر الناس .

وثانيها : أنه من أهل بَيْعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١) . ولا يقال : إنه لم يشهد البَيْعة تحت الشجرة ، لأنّا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدها، ولكنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسَله إلى أهل مكة ، ولأجله كانت بيعةُ الرضوان ، حيث أُرْجِفَ (٢) بأن قريشا قتلتْ عثمان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «إن كانوا قَتَلُوه؛لأضرمَنّها عليهم نارا» ؛ ثم جلس تحت الشجرة ، وبايع الناسَ على الموت ، ثم قال : « إن كان عثمان حيا فأنا أبايع عنه »،فصفح بشماله على يمينه ، وقال:«شمالي خير من يمين عثمان» روى ذلك جميعُ أرباب أهل السيرة متفقا عليه .

وثالثها : أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجَنّة .

وإذا كانت الوجوهُ الثلاثة دالّةً على أنه مغفور له،وأنّ الله تعالى قد رَضِيَ عنه؛وهو من أهل الجَنّة،بطل أن يكونَ فاسقا؛لأن الفاسق يخرُج عندنا من الإيمان ، ويُحْبَط (٣) ثوابه، ويُحْكم له بالنار ولا يُغفر له ، ولا يُرضَى عنه ، ولا يرَى الجنة ولايدخلها ، فاقتضتْ هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أنْ يُحْكَم بأنّ كلّ ماوقع منه فهو من باب الصغائر المكفَّرة ، توفيقًا بين هذه الوجوه ، وبين روايات الأحداث المذكورة .

وأما الوجه التفصيليّ فهو مذكور في كتب أصحابنا المطوّلة في الإمامة ؛ فليُطْلَبْ من مَظانّه ، فإنهم قد استقصَوْا في الجواب عن هذه المطاعن استقصاء لامزيد عليه .

---

(١) سورة الفتح ١٨

(٢) يقال : أرجف القوم ؛ إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن على أن يوقعوا الناس في الاضطراب.

(٣) ب ، ج : « ينحبط » ، وما أثبته عن ا .

[بيعة جرير بن عبد الله البَجَلِيّ لعليّ]

فأما خبر جرير بن عبد الله البَجَلِيّ، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلا من "كتاب صِفّين" لنصر بن مُزاحم بن بَشّار المِنقريّ؛ ونذكر حالَ أميرِ المؤمنين عليه السلام، منذ قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل، ومراسلته معاوية وغيره، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك في مبدأ حالهما إلى أن سار عليٌّ عليه السلام إلى صفين.

قال نصر [١]: حدّثني محمد بن عُبيدالله عن الجرجانيّ، قال: لما قَدِم عليّ عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمرِ الجمل، كاتَبَ العمّال، فكتب إلى جرير بن عبدالله البَجليّ مع زَحْر بن قيس الجُعْفيّ ــ وكان جرير عاملا لعثمان على ثغر هَمَذان ــ [٢]:

أما بعد، فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [٣]. وإني أخبرك عن نبإِ [٤] مَنْ سرنا إليه من جُموع طلحة والزبير، عند نكثهم بيعتي [٥]، وماصنعوا بعاملي عثمان ابن حُنَيف. إني نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار؛ حتى إذا كنت بالعُذَيب [٦]، بعثتُ إلى أهل الكوفة الحسنَ بن عليّ، وعبدَ الله بن عباس، وعَمّار بن ياسر، وقيس ابن عبادة، فاستنفرتُهم فأجابوا، فسِرْتُ بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في

---

(١) وقعة صفين للمنقري ص ١٩ وما بعدها.
(٢) همذان؛ بالإعجام: مدينة ببلاد الجبال من فارس.
(٣) سورة الرعد ١١.
(٤) ب: «أنباء».
(٥) كتاب صفين: «بيعتهم».
(٦) العذيب: ماء عن يمين القادسية لبني تميم، بينه وبين القادسية أربعة أميال (مراصد الاطلاع).

الدعاء ، وأقلتُ العثْرة ، وناشدتهم عَهْدَ[١] بيعتهم ؛ فأبوْا إلا قتالى ، فاستعنتُ الله عليهم ، فقتِل مَنْ قتل ، وولّوا مدبرين إلى مصرعم ، وسألونى ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعتُ السيف ، واستعملت عليهم عبدَ الله بن العباس ، وسرتُ إلى الكوفة ؛ وقد بعثت إليك زَحْر بن قيس ، فاسأله عمّا بدا لك . والسلام .

قال : فلما قرأ جريرٌ الكتاب ، قام فقال : أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام ؛ وهو المأمون على الدِّين والدنيا ، وقد كان من أمْرِه وأمر عدوّه ما نَحْمَدُ الله عليه ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جُعِل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقّهم بها . ألا وإنّ البقاء فى الجماعة ، والفَناء فى الفُرقة ، وإنّ عليًا حاملكم على الحق ما استقمتم ؛ فإنْ ملتم أقام ميلَكم .

فقال الناس : سمعا وطاعة ، رضينا رضينا .

فكتب جرير إلى علىّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة .

* * *

قال نصر : وكان[٢] مع علىّ رجل من طيّئ ، ابن أخت لجرير ، فحمّل زَحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير ؛ وهو :

جَريرَ بن عبدِ الله لا تردُدِ الهدَى ... وبايع عليًّا إننى لك ناصِحُ
فإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِئَ الحصا ... سوى أحمدٍ ، والموت غادٍ ورائحُ
وَدَعْ عنك قولَ النّاكثين فإنما ... أولاك ـ أبا عَمْرو ـ كلابٌ نوابحُ[٣]
وبايِعْ إذا بايعتَه بنصيحةٍ ... وَلَا يَكُ مِنْها فى ضَميرك قادِحُ
فإنك إنْ تطلُبْ بها الدين تُعْطَهُ ... وإن تطلب الدنيا فإنك رابحُ[٤]

---

(١) صفين «عقد» .   (٢) صفين : ٢٠ ، ٢١ .

(٣) أبو عمرو ، كنية جرير بن عبد الله البجلى .

(٤) وقعة صفين : «فبيعك رابح» .

وإن قلتَ عثمان بن عفان حقُّــــه   علىّ عظيمٌ والشَّكُورُ مُناصِحُ
فحقٌّ علىّ إذ وَلِيــــكَ كَحَقِّهِ   وشكرك ما أوليتَ فى النَّاسِ صالِحُ
وإن قلت لا أرضى عليًّا إمامَنــا   فدعْ عنك بحراً ضلَّ فيه السوابحُ
أبى الله إلا أنهُ خـــيرُ دَهرِه   وأفضل مَنْ ضُمّتْ عَلَيْهِ الأباطحُ(١)

***

قال نصر : ثم إن جريراً قام فى أهل همَذان خطيبا ، فقال : الحمد لله الذى اختار لنفسه الحمد ، وتولاّه دون خَلْقه ؛ لا شريكَ له فى الحمد ، ولا نظير له فى المجْد ، ولا إله إلا الله وَحْدَه ، الدائم القائم ، إله السماء والأرض ؛ وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالنور الواضح ، والحق الناطق ؛ داعياً إلى الخير ، وقائدا إلى الهُدَى ، ثم قال : أيّها الناس ؛ إنّ عليا قد كتبَ إليكم كتابا لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول ، ولكنْ لا بدّ من ردّ الكلام . إن الناس بايعوا عليا بالمدينة عَنْ غيرِ محاباة له ببيعتهم ؛ لعلمه بكتاب الله وسنن الحق ؛ وإنّ طلحة والزُّبيرَ نقضا بيعتَه على غير محاباة حدثتْ(٢) ، وألّبا عليه الناس ، ثم لم يرضَيا حتى نَصَبا له الحرب ، وأخرجا أمَّ المؤمنين ، فلقيَهما فأعذر فى الدعاء ، وأحسن فى البقيّة ، وحَمَل الناس على ما يعرفون ، فهذا عِيان ما غاب عنكم ؛ وإن سألتم الزيادة زدناكم ، ولا قوة إلا بالله ، ثم قال :

أتانا كِتابُ عَـــلِيّ فَلَمْ   نَرُدَّ الكتاب بأرضِ العجَمْ
وَلَمْ نَعْصِ ما فيهِ لمّا أتى   وَلَمْـــا نُذَمّ وَلَمّا نُلَمْ
وَنحْنُ ولاةٌ على ثَغرِنَا   نَضِيمُ العزيزَ ونَحْمِى الذِّمَمْ
نُساقِيهمُ الموتَ عِندَ اللقاء   بكأسِ المنايا ونَشْفِى القَرَمْ

(١) يريد بهم قريش البطاح ؛ وهم الذين ينزلون بين أخشبي مكة ؛ والأخشبان جبلان بها .
(٢) ب : « على غير حدث » .

فصلّى الإلهُ على أحمدٍ رسولِ المليكِ تمامِ النِّعَمْ (1)

رسولِ المليكِ ومَنْ بعده خليفتِنا القائمِ المدَّعَمْ

عَليًّا عنيتُ وصيَّ النبيِّ نُجالدُ عنه غُواةَ الأُمَمْ

له الفضلُ والسَّبْقُ والمكرماتُ وبيتُ النبوّةِ لا يُهتَضَمْ

قال نصر: فسُرَّ الناسُ بخطبة جرير وشعره.

وقال ابن الأزور القَسْرِيّ في جرير يمدحه بذلك:

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباءُ تَنْمِي لقد جَلَّى بخطبته جريرُ

وقالَ مقالةً جَدَعَتْ رجالاً من الحَيَّيْنِ خطبهمُ كبيرُ

بدا بكَ قبلَ أمته عليٌّ ومُخُّكَ إنْ رَدَدْتَ الحقَّ رِيرُ (2)

أتاكَ بأمرِهِ زَحْرُ بن قيسٍ وزَحْرٌ بالتي حَدَّثْتَ خَبيرُ

فكنتَ لما أتاكَ به سَنِيماً وكدتَ إليه من فرحٍ تطيرُ

فأنت بما سعدتَ به وليٌّ وأنت لما تُعدُّ له نصيرُ

وأحرزتَ الثوابَ ورُبَّ حادٍ حَدَا بالركبِ ليس له بعيرُ (3)

[بيعة الأشعث لعليّ]

قال نصر: (4) وكتب عليٌّ عليه السلام إلى الأشعث — وكان عامل عثمان على أذربيجان —

(1) لم يذكر هذا البيت في كتاب صفين، وذكر موضعه:

طَحَنّاهمُ طَحْنَةً بالقَنا وضَرْبِ سُيوفٍ تُطيرُ اللِّمَمْ

مَضَيْنا يقيناً على ديننا ودينِ النبيِّ مُجَلِّي الظُّلَمْ

أمينِ الإلهِ وبُرهانِهِ خليفتِنا القائمِ المدَّعَمْ

(2) يقال: مخ رير، إذا كان فاسدا.

(3) بعده في كتاب صفين:

لِيَهْنِكَ ما سَبَقْتَ به رجالاً من العلياءِ والفضلِ الكبيرِ

(4) وقعة صفين ٢٤.

عوه إلى البَيعة والطاعة ، وكَتَب جرير بن عبد الله البجليّ إلى الأشعث ، ، يحضه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقبولِ كتابه : أما بعد ؛ فإنى أتتنى بيعة علىّ ، فقبلتها ولم أجِدْ إلى دفعها سبيلا ؛ لأنى نظرتُ فيما غابَ عنّى من أمر عثمان، فلم أجِدْه يلزمنى، وقد شهد المهاجرون والأنصار ؛ فكان أوفقُ أمرهم فيه الوقوف ؛ فاقبَلْ بيعته ؛ فإنك لاتنقلِب إلى خير منه ؛ واعلم أنّ بيعةَ علىّ خيرٌ من مَصَارع أهل البصرة . والسلام .

قال نصر : فقبل الأشعثُ البيعة ، وسمِع وأطاع ، وأقبل جريرٌ سائرا من ثَغر همذان حتى وَرَد علىٌّ عليه السلام الكوفة فبايعه ، ودخل فيما دخل فيه الناس من[1] طاعته ولزوم أمره .

[دعوة علىّ معاويةَ إلى البيعة والطاعة ، وردّ معاوية عليه]

قال نصر :[2] فلما أرادَ علىّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً ، قال له جرير : ابعثنى يا أمير المؤمنين إليه ؛ فإنه لم يزَلْ لى مُسْتخصِا[3] ووُدًّا[4] ، آتيه[5] فأدعوه ؛ على أنْ يسلّم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ، وعاملا من عُمّالك ، ما عمِل بطاعة الله ، واتبع ما فى كتاب الله ، وأدعُو أهلَ الشام إلى طاعتك وولايتك ؛ فجلّهم قومى وأهلُ بلادى ، وقد رجوت ألاّ يعصونى .

فقال له الأشتر : لاتبعثه ولاتصدّقه ؛ فوالله إنى لأظنّ هواهُ هواهم ، ونيّته نيّتهم .

فقال له علىّ عليه السلام : دعْهُ حتى ننظر مايرجع به إلينا . فبعثه على عليه السلام ، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه : إنّ حولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من أهل الرأى والدِّين مَنْ قد رأيت ، وقد اخترتُك عليهم لقولِ رسول الله فيك :

(١) ب : « ن » .
(٢) وقعة صفين المنقرى ٣٢ وما بعدها .
(٣) كذا فى الأصول ، وفى صفين . « مستنصحاً » .
(٤) ودا ، بضم الواو ؛ أى ذا ود ؛ على حذف المضاف .
(٥) كتاب صفين . « تأتيه » .

« إنك من خير ذى يَمَن »(١) ، ائت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبِذْ(٢) إليه وأعلِمْه أنى لا أرضى به أميرا ، وأنّ العامّة لا ترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشامَ ، ونزل بمعاوية ، فلما دخل عليه حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أمّا بعد يامعاوية ، فإنه قداجتمع لابن عمّك أهلُ الحرَمين ، وأهلُ المِصْرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مِصْر ، وأهل العَروض ، والعَروض عُمَان ـ وأهلُ البحرين واليمامة ؛ فلم يبق إلّا هذه الحصون التى أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته غرّقها ، وقد أتيتُك أدعوك إلى مايرشدُك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل . ودفع إليه كتابَ على عليه السلام ، وفيه :

أما بعدُ ؛ فإنّ بيعتى بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على مابُويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدّ ؛ وإنما الشورَى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا عَلَى رجل فسمّوْه(٣) إماما ، كان ذلك لله رضاً ؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبة ردّوه إلى ماخرج منه ، فإن أبَى قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ماتولّى ، ويُصليه جهنّم وساءت مصيرا . وإنّ طلحةَ والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى ، فكان نقضُهما كردّتهما ، فجاهدتُهما على ذلك ، حتى جاء الحقّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون ، فإنّ أحبّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلا أن تتعرّض للبلاء ، فإن تعرّضت له قاتلتُك ، واستعنت بالله عليك . وقد أكثرتَ فى قَتَلةِ عثمان ، فادخُل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكِم القومَ إلىّ أحملك

---

(١) أى من خير أهل اليمن .

(٢) فانبذ إليه ؛ فى اللسان : « المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ؛ ثم أرادا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

(٣) ب : « وسموه » .

وإيام على كتاب الله ؛ فأمّا تلك التى تريدها نُخدعة الصبيّ عن اللبن . ولَعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنّى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطُّلَقاء[١] الذين لا يحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرّض فيهم الشورى . وقد أرسلتُ إليك [وإلى من قِبَلك][٢] جرير بن عبد الله البَجَليّ ، وهو من أهل الإيمان والهِجْرة ، فبايع ، ولا قوة إلا بالله .

* * *

فلما قرأ الكتاب ، قام جرير فخطب ، فقال :

الحمد لله المحمود بالعوائد ، والمأمول منه الزوائد ، المرتجَى منه الثواب ، المستعان على النوائب ؛ أحمَده وأستعينهُ فى الأمور التى تحيّرُ دونهـا الألبـاب ، [وتضمحلّ عندها الأسباب][٢] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلّ شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه تُرْجعون . وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسلَه بعد فَتْرةٍ من الرّسل الماضية ، والقرون الخالية ، [والأبدان البالية ، والجِبِلّة الطاغية][٢] ، فبلّغ الرسالة ، ونصَح للأمة ، وأدّى الحق الذى استودعه الله ، وأمره بأدائه إلى أمته صلى الله عليه وسلّم ، من رسول ومبتَعث ومنتجَب[٣] .

أيّها الناس ؛ إنّ أمرَ عثمان قد أعيا مَنْ شهده ، فكيف بمن غاب عنه ! وإنّ الناسَ بايعوا عليًّا غير واترٍ ولا موتور ؛ وكان طلحة والزبير مِمّن بايعاه ثم نكثا بيعتَه على غير حَدَث ، ألا وإنّ هذا الدين لا يحتمل الفِتَن ؛ [ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن][٢] ، وقد كانتْ بالبصرة أمس روعة ملحمة إن يَشْفَع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس .

---

(١) الطلقاء : جمع طليق ؛ وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ولم يسترقهم .
(٢) تكملة من كتاب صفين .
(٣) المنتجب : المصطفى المختار .

وقد بايعت الأمة[1] عليًا ، ولو ملكنا والله الأمور[2] ، لم نختر لها غيره [ومن خالف هذا استعتب][3] فادخل يامعاوية فيما دخل فيه الناس .

فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزلني ؛ فإن هذا قول لو جاز لم يقم لله دين ،وكان لكل امرئ ما في يديه ؛ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضا .

ثم قعد .

* * *

قال نصر : فقال معاوية : أنظر وتنظر ؛ وأستطلع رأى أهل الشام .

فمضت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادي : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناس صعد المنبر ، ثم قال :

الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركانا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة ؛ جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلهم أرض الشام[4] ، ورضيهم لها ، ورضيها لهم ؛ لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه ، والقوام بأمره ، والذابين عن دينه وحرماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفي سبيل الخيرات أعلاما ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام ،وتباعد بعد القرب . اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة[5] دمائنا ،وإخافة سبلنا . وقد علم الله أنا لا نريد لهم[6] عقابا ، ولا نهتك لهم حجابا ، ولا نوطئهم زلقا ، غير أن الله الحميد كسانا

---

(١) صفين : « العامة » .

(٢) صفين : « أمورنا » .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « فأحلها أهل الشام » .

(٥) صفين : « هراقة دمائنا » ، وهما بمعنى .

(٦) صفين : « لم نرد بهم عقابا » .

من الكرامة ثوْبا لن ننزعه طوْعاً ؛ ما جاوب الصدَى ، وسقط الندى ،وعرف المدَى؛ حملهم على ذلك البغيُ والحسد ، فنستعين الله عليهم . أيها الناس ، قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم ،وأنى لم أقم رجلامنكم على خزاية(١) قط ، وأنى ولىُّ عثمان ، وقد قُتل مظلوما ، والله تعالى يقول :﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾(٢) ، وأنا أحبّ أن تُعلمونى ذاتَ أنفسكم فى قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان ، وبايعوه على ذلك،وأوثقوا له على أن يبذُلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم ؛ حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله .

قال نصر : فلما أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه ، وجَنّه الليل وعنده أهل بيته ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيلِى واعتَرتنِى وَساوِسِى ... لِآتٍ أتى بالتُّرَّهاتِ البَسَابِسِ(٣)
أتانى جريرٌ والحوادث جَمّةٌ ... بتلك التى فيها اجتداعُ المعاطسِ
أكايدُه والسيف بينى وبينَه ... ولستُ لأثوابِ الدنىْ بِلَابِسِ
إنِ الشّامُ أعطتْ طاعةً يمنيةً ... تواصفَها أشياخُها فى المجالسِ
فإنْ يَفعلوا أصدِمْ عليا بجبهَةٍ ... تفتُّ عليه كلَّ رطب ويابس
وإنى لأرجو خير مانال نائلٌ ... وما أنا مِن مُلْكِ العراقِ بآيس(٤)

قلت : الجبهة هاهنا : الخيل ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وآله : « ليس فى الجبْهة صدَقة » ، أى زكاة .

***

---

(١) أقامهم على الخزاية ؛ أى حلهم على أمر يستحيا منه .
(٢) سورة الإسراء ٣٣ .
(٣) البسابس : الأمور الباطلة . والأبيات والخبر فى الكامل ١ : ٣٢٦ .
(٤) الكامل : « بيائس » .

قال نصر : فاستحثه[1] جرير بالبَيْعة ، فقال : يا جرير ؛ إنها ليست بخِلْسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبلِعْنى ريقى [حتى أنظر][2] ، ودعا ثقاته[3] ؛ فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص ، وقال له : إنه مَنْ قد عرفتَ ، وقد اعتزل عثمانَ فى حياته ؛ وهو لأمرِك أشدّ اعتزالا إلا أن يثمّن له دينه[3] .

وقد ذكرنا فيما تقدّم خبر استدعائه عمراً ، وما شَرَط له من ولاية مصر ، واستقدامِه شُرَحبيل بن السِّمط رئيس اليمنيّة وشيخها والمقدّم عليها ، وتدسيس الرجال إليه يُغرونه بعلىّ عليه السلام ، ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان ، حتى ملئوا صدرَه وقلبه حقْداً وتِرَة وإحْنة عَلَى علىّ عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته[4] .

* * *

قال نصر : فحدّثنى محمد بن عُبيد الله عن الجرجانىّ ، قال :

[5] جاء شُرَحْبيل إلى حُصَين بن نُمير ، فقال : ابعث إلى جرير فليأتنا ، فبعث حُصين ابن نمير إلى جرير : أن زُرْنا فعندنا شُرَحبيل ، فاجتمعا عند حصين ، فتكلّم شرحبيل ،

---

(١) وقعة صفين ٤٩ ، ٢٩

(٢) من كتاب وقعة صفين

(٣ — ٣) وقعة صفين : « فقال له عتبة بن أبى سفيان — وكان نظيره — :استعن على هذا الأمر بعمرو ابن العاص ، وأثمن له بدينه ؛ فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان فى حياته ؛ وهو لأمرك أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة » .

(٤) الجزء الثانى فى ص ٦١ وما بعدها .

(٥) صدر هـذا الخبر كما ورد فى كتاب وقعة صفين ٥٢ : « لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ، ودخل على معاوية ؛ فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ياشرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسى عليك ؛ وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى مارضوا ، وأكره ما كرهوا ؛ فقال شرحبيل : أخرج فأنظر ؛ فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطئون له ؛ فكلهم يخبره بأن عليا قتل عثمان بن عفان . فخرج مغضبا إلى معاوية فقال : يامعاوية ؛ أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان ؛ ووالله لئن بايعت لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك . قال معاوية : ما كنت لأخالف عليكم ؛ وما أنا إلا رجل من أهل الشام . قال : فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذا . قال ، فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته فى حرب أهل العراق ؛ وأن الشام كله مع شرحبيل ؛ فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير ... » ؛ وقد نقله المؤلف مختصراً فيما سبق فى الجزء الثانى ص ٥٢ — ٥٣ .

فقال : ياجرير أتيتنا بأمر ملفَّفٍ[1] لِتُلْقِيَنا فى لَهَوَات الأسد ، وأردتَ أن تخلِطَ الشام بالعراق ، وأطْرَيتَ[2] عليًّا ، وهو قاتل عثمان ، والله سائِلك عمَّا قلت يوم القيامة .

فأقبل عليه جريرٌ وقال : يا شُرَحبيل ، أما قولك : إنى جئت بأمر ملفَّفٍ ؛ فكيف يكون ملففاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، وقوتل على رَدِّه طلحة والزبير !

وأمَّا قولك : إنى أُلقيك فى لَهَوات الأسد ، ففى لَهَواتِها أَلقيتَ نفسك .

وأما خلطُ أهلِ الشام بأهلِ العِراق ، فخلطُهُما على حقٍّ خيرٌ مِنْ فُرقتهما على باطل .

وأما قولُك : إنّ عليًّا قتَل عثمان ، فو الله ما فى يديك من ذلك إلا القذف بالغَيْبِ مِنْ مكان بعيد ؛ ولكنكَ مِلْتَ إلى الدنيا ؛ وشىء كان فى نفسك على زمن سعد ابن أبى وقّاص .

فبلَغ ما قالاه إلى معاوية ، فبعث إلى جرير فزجرَه . قال نصر : وكُتِب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه[3] فيه :

شُرَحْبيل يابنَ السِّمْط : لا تَتْبَعِ الهوَى ... فمالَكَ فى الدُّنْيا مِنَ الدِّينِ مِنْ بَدَلْ
وَلَا تَكُ كالمُجْرِى إلى شَرِّ غايَةٍ ... فَقَدْ خُرِّقَ السِّرْبالُ واسْتَنْوَقَ الجمَلْ
وَقُلْ لابن حَرْب : ما لكَ اليومَ خَـلَّةٌ ... تَرومُ بها ما رُمْتَ واقطَع لَهُ الأمل[4]
شُرَحْبيلُ : إنّ الحقّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... فَكُنْ فيه مأمونَ الأديم من النَّغَلْ
وَأَرْوِدْ ولا تُفْرِطْ بشىء نخافُهُ ... عَلَيْكَ ، ولا تَعْجَلْ ، فلا خَيْرَ فِى العَجَلْ[5]

---

(١) أى جلب من هنا وهاهنا .
(٢) صفين : « أطرأت » ، وهما بمعنى : « مدحت » .
(٣) وقعة صفين : « وكتب جرير إلى شرحبيل » .
(٤) وقعة صفين : « مالك اليوم حرمة . . . واقطع » .
(٥) الإرواد : الإمهال ، والفرط : السبق .

مقالُ ابنَ هندٍ فى علىّ عضيهةٌ ··· وَلَلّهُ فِى صَدْرِ بن أبى طالبٍ أجَلّ[1]

وَمَا مِنْ علىّ فى ابن عفانَ سَقْطَةٌ ··· بقولٍ ، ولا مالا عليه ولا قتلْ[2]

وَمَا كَانَ إلّالازمًا قَعْرَ بَيْتِهِ ··· إلى أن أتى عثمانَ فى داره الأجَلْ

فَمَنْ قَال قَوْلًا غيرَ هذا فحسْبُه ··· من الزُّور والبهتان بعضُ الذى احْتَملْ[3]

وصىّ رسول الله مِنْ دونِ أهلِهِ ··· وَمَنْ باسمِه فى فَضْلِهِ يُضرَبُ المثلْ

قال نصر : فلما قرأ شُرَحْبيل الكتاب ذُعِر وفكّر ، وقال :هذه نصيحةٌ لى فى دينى ، ولا والله لاأعجّل فى هذا الأمر بشىء [وفى نفسى منه حاجة][4] ، وكاد[5] يحولُ عن نصر معاوية ويتوقف[5] ، فَلَفّق[6] لهمعاوية الرجالَ يدخلون إليه ويخرجون ، ويعظّمون عنده قتلَ عثمان ، ويرمُون به عليًّا ، ويقيمون الشهادة الباطلة ، والكتبَ المختلقة ؛ حتى أعادوا رأيه ، وشَحَذوا عزمه[7] .

* * *

(١) العضيهة : الإفك والبهتان . وفى ب : « وقال ابن هند » ، والوجه ماأثبته من ج .

(٢) مالا عليه ، أصله : « مالأ » بالهمز ؛ والمالأة : المعاونة . وفى صفين : « ولا جلب عليه » .

(٣) فى صفين :

* من الزّورِ وَالْبُهتَانِ قَوْلُ الّذى احْتَمَلْ *

(٤) من كتاب وقعة صفين .

(٥ ـ ٥) فى وقعة صفين : « واستتر له القوم » .

(٦) كذا فى ج ، وفى ا ، ب ، « فلقوله » تصحيف ، وفى صفين : « فلفف » .

(٧) بقية الخبر فى كتاب كتاب وقعة صفين : « وبلغ ذلك قومه ، فبعث ابن أخت له من بارق ـ وكان يرى رأى على بن أبى طالب ـ فبايعه بعد ، وكان ممن لحق من أهل الشام ، وكان ناسكا ، فقال :

لعمرُ أبى الأشقى ابن هندٍ لقدرَمَى ··· شرَحْبيلَ بالسَّهمِ الذى هو قاتِلُهْ

وَلَفّفَ قومًا يَسْحَبُونَ ذيولَهُمْ ··· جميعًا وأوْلَى الناسِ بالذنبِ فاعِلُهْ

فألفَى عِنيًّا ضعيفًا نخاعُهُ ··· إلى كلّ مايَهْوَوْنَ تُحْدَى رواحِلُهْ

فَطَاطا لَهَا لما رَمَوْه بثِقْلِها ··· ولا يرزقُ التقوى مِنَ اللهِ خاذِلُهْ =

قال نصر : وحدثنا[1] عمر بن سعد بإسناده قال :[2] بعث معاوية إلى شُرَحْبِيل ابن السِّمْط :

إنّه قد كان من إجابتك إلى الحقّ ، وما وقع فيه أجرُك على الله ، وقَبِله عنك صُلَحاء الناس ماعلمت ؛ وإنّ هذا الأمر الذى نحن فيه لايتمّ إلا برضا العامّة ، فسِرْ فى مدائن الشام ، ونادِ فيهم بأنّ عليا قَتَل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه .

فسار شُرَحبيل ، فبدأ بأهل حِمْص ، فقام فيهم خطيبا ـ وكان مأمونا فى أهل الشام ناسكا مُتألّها ، فقال :

أيها الناسُ ، إن عليا قتل عثمان ، فغضِب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه، فلقِيَهم فهزم الجمع ، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام ؛ وهو واضع سيفه على عاتقه ، ثم خائض غمراتِ[3] الموت ، حتى يأتيَكم أو يحدث الله أمرا ، ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فجِدّوا وانهضوا .

فأجابه الناس كلّهم إلا نُسّاكا من أهل حِمْص ؛ فإنهم قالوا له : بيوتُنا قبورنا ومساجدنا ، وأنت أعلم بما ترى .

قال : وجعل شُرَحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها ، لايأتى على قوم إلّا قبلوا

=ليأكل دنيا لابن هندٍ بدينِهِ ألا وابنُ هندٍ قبلَ ذلكَ آكِلُهْ

وقالوا عليٌّ فى ابن عفان خدعةً ودبّتْ إليه بالشنانِ غوائلُهْ

وَلا والّذى أرسَى ثبيراً مكانَهُ لقَدْ كفّ عنهُ كفّهُ ووسائلُهْ

وَمَا كانَ إلا من صحابِ محمّدٍ وَكُلّهُمْ تغلِي عَلَيْهِ مراجِلُهْ

فلما بلغ شرحبيل هذا القول قال : هذا بعيث الشيطان ؛ الآن امتحن الله قلبي ؛ والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتني ؛ فهرب الفتى إلى الكوفة ـ وكان أصله منها ـ وكاد أهل الشام أن يرتابوا .

(١) صفين ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) فى صفين : « محمد بن عبيد الله وعمر بن سعد بإسناده ، قال » .

(٣) صفين : « غمار الموت » .

ما أتاهم به ، فبعث إليه النجاشيّ بن الحارث(١) ـ وكان له صديقا :

شُرَحبيلُ مالِلدِّين فارقتَ ديننا(٢) ... ولكِنْ لبغض المالكيّ جرير
وَشَحْناء دَبّتْ بين سعد وَبَيْنَهُ ... فأصبحتَ كالحادِي بغير بَعير
[وما أنت إذ كانت بجيلة عاتبتْ ... قريشًا فيالله بُعْد نصير](٣)
أتفصِل أمرًا غِبْتَ عنه بشبهةٍ ... وقد حارَ فيه عقلُ كلّ بَصير
بِقَولِ رجالٍ لم يكونوا أئمةً ... ولا للتى لقّوْكها بحضُورِ
[وما قولُ قَومٍ غائبين تقاذفوا ... من الغيب ماذَلّامُ بغرورِ](٣)
وتترك أنّ الناسَ أعطَوْا عهودَهُم ... عليًا على أُنسٍ به وسرورِ
إذا قيل هاتُوا واحدا يقتدى به(٤) ... نظيرًا له لم يُفصِحُوا بنظيرِ
لعلك أن تشقى الغداة بحربه ... فليس الذى قد جئته بصغير

* * *

قال نصر : وحدّثنا(٥) عمر بن سعد عن نمير بن وعلة ، عن الشّعبيّ ، أن شُرَحبيل بن السِّمْط ابن الأسود بن جَبَلة [الكنديّ](٣) دخل على معاوية ، فقال له : أنت عاملُ أمير المؤمنين وابن عمّه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنتَ رجلا تُجاهِد عليا وقتلة عثمان حتى ندرِكَ ثأرنا أو تذهب أرواحُنا استعملناك علينا ؛ وإلّا عزلْناك واستعملنا غيرَك ممن نريد ، ثم جاهَدْنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلِك .

فقال جرير بن عبد الله ـ وكان حاضرا : مهلًا ياشُرَحبيل ؛ فإن الله قد حقَن الدِّماء ، ولَمَّ الشعث ، وجَمَع أمر الأمة ، ودنَا من هذه الأمة سكون ؛ فإياكَ أنْ تُفْسِد بين الناس ،

(١) فى حواشى صفين : « والمعروف فى شعرائهم النجاشى الحارثى ؛ واسمه قيس بن عمرو بن مالك ؛ من بنى الحارث بن كعب ؛ وهو ممن حده أمير المؤمنين على بن أبى طالب لشربه الخمر » .

(٢) وقعة صفين : « أمرنا » .

(٣) من كتاب وقعة صفين .

(٤) وقعة صفين : « تقتدونه » .

(٥) وقعة صفين ٥٧ ، ٥٨ .

وأمسِكْ عن هذا القول قبل أن يشيعَ ويظهر عنك قولٌ لا تستطيع رَدّه ، فقال : لا والله لا أسِرّه أبدا . ثم قام فتكلّم به ، فقال الناس : صدق صدق ! القولُ ما قال ، والرأى ما رأى . فأيِس جرير عند ذلك مِنْ معاوية ومن عوامّ أهل الشام .

***

قال نصر :[1] وحدثنى محمد بن عبيدالله ، عن الجرجانىّ ، قال : كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك فى منزله ، فقال له : ياجرير ؛ إنى قد رأيت رأياً ، قال : هاته، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية ، فإذا حضرتْه الوفاة لم يجعلْ لأحد بعده فى عنق بيعة ، وأسلِّمُ له هذا الأمر ؛ وأكتب إليه بالخلافة . فقال جرير : اكتُب ما أردتَ أكتب معك [2] .

فكتب معاوية بذلك إلى علىّ ، فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير :

أما بعد ، فإنما أراد معاوية ألّا يكون لى فى عنقه بَيْعة ، وأن يختار من أمره ما أحبّ ، وأراد أنْ يُرِيثَك ويُبطئك حتى يذوقَ أهل الشام ؛ وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار علىّ أن أستعملَ معاوية على الشام ، وأنا حينئذ بالمدينة ، فأبيتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلّين عَضُدا ، فإن بايعك الرجل ؛ وإلّا فأقبِل والسلام.

***

قال نصر : وفشا [3] كتابُ معاوية فى العرب ، فبعثَ إليه الوليد بن عُقْبة :

معاوىَ إنّ الشامَ شامُك فاعتصمْ ... بشامِك لا تُدْخِلْ عليكَ الأفاعيا
وحامِ عليهــــم بالصَّوارم والقَنا ... ولا تكُ مَوهونَ الذّراعين وَانِيا[4]
وإنّ علِيًّا ناظرٌ ما تجيبه ... فأهدِ له حَرْبًا تُشيب النّواصيا

(١) وقعة صفين ٥٨ .
(٢) صفين : « اكتب بما أردت وأكتب معك » .
(٣) صفين ٥٩ ، ٦٠ .
(٤) صفين : « بالقنابل . . . عشوش الذراعين »

وإلا فسلمٌ إنَّ في السلمِ راحةً لمن لا يريدُ الحربَ فاخترْ مُعاويا
وإنَّ كتابا يابنَ حربٍ كتبتَه على طمعٍ ، يُزجي إليك الدواهيا
سألتَ عليًا فيــهِ ما لَنْ تنالَه ولَوْ نلتَه لم يَبْقَ إلا لياليا
وَسَوْفَ تَرَى منـه التي ليس بعدها بقاءٌ ، فلا تكثر عليك الأمانيا
أمِثْلَ عليٍّ تعتريه بخُدْعةٍ وقد كان ما جرَّبْتَ من قبل كافيا !

قال : وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضاً يُوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب جواب جرير :

معاويَ إنَّ المُلكَ قد جُبَّ غاربُهُ وأنت بما في كفِّك اليومَ صاحِبُهْ
أتاك كتابٌ من عليٍّ بخُطّةٍ هي الفصلُ فاخترْ سِلْمَهَ أو تُحارِبُهْ
فلا ترجُ عند الواترينَ مَوَدَّةً ولا تأمَنِ اليومَ الذي أنت راهِبُهْ
وحاربْهُ إن حاربتَ حربَ ابنِ حُرَّةٍ وإلّا فسِلْمٌ لا تدبُّ عقارِبُهْ(١)
فإنَّ عليًّا غيرُ ساحبِ ذَيْلِهِ على خُدعةٍ ما سوَّغ الماءَ شارِبُهْ
[وَلاَ قابلٍ ما لا يريدُ وهـذهِ يقوم بها يوماً عليه نوادبه](٢)
فَلاَ تَدَعَنَّ المُلكَ والأمرُ مُقبلٌ وتطلبَ ما أعيَتْ عليكَ مذاهبُهْ(٣)
فإنْ كنتَ تنوي أنْ تُجيبَ كتابَه فقَبَّحَ مُمليـهِ وَقُبِّحَ كاتِبُهْ
وإن كنتَ تنوي أن تردَّ كتابَهُ وأنت بأمرٍ لا محالةَ راكِبُهْ
فألْقِ إلى الحيِّ اليمانينَ كِلْمَةً تنالُ بها الأمرَ الذي أنت طالِبُهْ
تقول : أميرُ المؤمنين أصـابَهُ عدوٌّ ومالاهم عليـه أقارِبُهْ
أفانينُ مِنهُمْ قائلٌ وَمُحَرِّضٌ بلا ترَةٍ كانتْ ، وآخرُ سالِبُهْ

(١) ب : « حزا بن حرة » ، والصواب ما أثبته من ا ، ج وكتاب صفين .
(٢) من كتاب صفين .
(٣) ب : « عليه » ، والصواب ما أثبته من ج وصفين .

وكنتُ أميراً قبلُ بالشامِ فيكمُ ... فحسبي وإياكم من الحق واجبُهْ
فجيئوا ، ومَنْ أرسَى ثَبِيراً مكانَه ... نُدافِع بحراً لا تُرَدّ غوارِبُهْ (١)
فأقلِلْ وأكثِرْ مالها اليوم صاحبٌ ... سواك،فصرِّحْ لستُ ممَّن تُوارِبُهْ

قال نصر : وخرج (٢) جرير يوما يتجسّس الأخبار ؛ فإذا هو بغلام يتغنّى على قَعودله ، هو يقول :

حُكَيمٌ وَعَمّارُ الشَّجَا ومحمدٌ ... وأشترُ والمكشوح جَرُّوا الدّواهيا (٣)
وَقَدْ كَانَ فيهـــا للزُّبيرِ عَجَاجَةٌ ... وصاحبُه الأدنى أثاروا الدواهيا (٤)
فأما علىٌّ فاستجارَ ببيتـــه ... فلا آمرٌ فيهـــا ولم يَكُ ناهيا
فَقُلْ في جَميعِ النّاسِ مَا شِئْتَ بَعْدَهُ ... فلوقلتَ : أخطا الناسُ لم تكُ خاطِيا
وإن قلت : عَمَّ القومُ فيــهِ بِفتنةٍ ... فحسْبُكَ مِنْ ذاكَ الّذِي كانَ كافيا
فقولا لأصحـــابِ النبىّ محمـــدٍ ... وَخُصّا الرجالَ الأقرَبين الأدَانِيا :
أيُقتَلُ عثمان بن عفّان بَيْنَكُمْ ... عَلَى غَـيْرِ شىء ليس إلّا تعاميا
فلا نومَ حتى نستبيحَ حَرِيمَكُمْ ... ونخضِبَ من أهلِ الشّنَآنِ العَواليَا

فقال جرير : يا بن أخي ، مَنْ أنت ؟ فقال : غلام من قريش ، وأصلى من ثقيف ، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق ، قُتِل أبي مع عثمان يوم الدّار . فعجب جريرٌ

---

(١) كذا في ج ، وصفين وفي ا ، ب : « تجيبوا » ؛ والغوارب : أعالي الموج .
(٢) وقعة صفين ٦٠ .
(٣) حكيم بن جبلة بن حصن العبدى ، كان عثمان بعثه إلى السند ؛ ثم نزل البصرة ، وقتل بها يوم الجمل . وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر الصديق ؛ والأشتر : مالك بن الحارث . والمكشوح المرادى ، واسمه هبيرة بن هلال ، ونسبه في بجيلة .
(٤) صفين : « أشاب النواصيا » .

من شعره وقوله ، وكتب بذلك إلى علىّ عليه السلام ، فقال علىّ : والله ما أخطأ الغلام شيئا .

***

قال نصر :[1] وفى حديث صالح بن صَدَقة ، قال : أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى اتّهمه النّاس ، وقال علىّ عليه السلام : قد وقّتُّ لجرير وقتا لا يُقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا ، وأبطأ عَلَى علىّ حتى أيس منه .

قال : وفى حديث محمد وصالح بن صدقة ، قالا : فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك :

إذا أتاكَ كتابى هذا فاحمل معاوية عَلَى الفَصْل ؛ ثم خيّره وخذه بالجواب بين حربٍ مُخزية[2] أو سِلْم مُحْظية ، فإن اختارَ الحربَ فانبذ إليه ، وإن اختار السِّلم فخذ بيعته . والسلام .

قال : فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية ، فأقرأه الكتاب ، وقال له : يامعاوية ، إنّه لا يطبع على قلب إلّا بذنب ، ولا يُشرَح صَدْر إلا بتوبة ، ولا أظنّ قلبَك إلّا مطبوعا عليه ، أراكَ قد وقفت بين الحقّ والباطل ، كأنك تنتظر شيئا فى يد غيرك .

فقال معاوية : ألقاكَ بالفَصْل[3] فى أول مجلس إن شاء الله .

فلما بايع معاوية أهلُ الشام بعد أن ذاقهم ، قال : ياجرير الحق بصاحبك ، وكتب إليه بالحرْب ، وكتب فى أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعَيل :

أرَى الشّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ ... وأهْـــلُ العِراق لهم كارهونا

---

(١) وقعة صفين ٦١ .
(٢) صفين : « مجلية » .
(٣) صفين : « بالفيصل » .

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

* * *

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب "الكامل"(١) : إن عليًّا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية ، قال : والله يا أميرَ المؤمنين ما أدّخِرُك من نُصْرَتى شيئا ، وما أطمع لك فى معاوية . فقال علىّ عليه السلام : إنما قصدى حُجّة أقيمها [عليه] .(٢) فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيعة ، فقال له جرير : إنّ المنافقَ لا يصلّى حتى لا يجدَ مِنَ الصلاة بُدًّا . فقال معاوية : إنها ليست بخُدْعة الصبىّ عن اللّبن ، فأبلغنى ريقى(٣) ، إنه أمر له ما بعده .

قال : وكتب مع جرير إلى علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه إليه : من معاوية بن صَخْر إلى علىّ بن أبى طالب ؛ أما بعد فلعَمْرِى لو بايعك القومُ الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنتَ كأبى بكر وعمر وعثمان ؛ ولكنك أغريْت بعثمان المهاجرين ، وخَذَلت عنه الأنصار ، فأطاعَك الجاهلُ ، وقوِىَ بك الضعيف ، وقد أبى أهلُ الشام إلّا قتالك ؛ حتى تدفعَ إليهم قَتَلَة عثمان ، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين ، ولعمرِى ٤ ليس حُجَجُكَ علىّ كحججك على طلحة ٤ والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعْك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأنّ أهلَ البصرة أطاعوك ولم يُطِعْك أهلُ الشام . فأمّا شرفُك فى الإسلام ، وقرابتُك من النبى صلى الله عليه وموضِعُك من قريش ، فلست أدفعُهُ .

---

(١) الكامل ٣ : ٢٠٩ وما بعدها — بشرح المرصفى ؛ مع تصرف فى الخبر .
(٢) من كتاب الكامل .
(٣) أى أنظرنى بمقدار ما أبلع ريقى .
(٤ — ٤) الكامل : « ما حجتك على كحجتك على طلحة . . . » .

ثم كتب فى آخر الكتاب شعرَ كعب بن جعيل الذى أوله :

أرَى الشّامَ تَكرهُ أهلَ العراقِ   وَأهْلُ العراقِ لَهمْ كارِهُونا

***

قال أبو العباس المبرّد[1] رحمه الله تعالى : [2] فكتب إليه علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه هذا :

من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب[2] :

أما بعد ؛ فإنه أتانى منك كتابُ امرئٍ ليس له بَصَرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ؛ وقاده الضلال فاتّبعه ، زعمتَ أنك إنما أفسد عليك بَيْعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعَمْرِى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ؛ وما كان الله لِيجمَعهم عَلَى الضلال ، ولا ليضربَهم بالعَمَى . وبعد ، فما أنت وعثمان ! إنما أنتَ رجل من بنى أميّة ، وبنو عثمان أوْلَى بمطالبةِ دَمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى عَلَى ذلك ، فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِمِ القومَ إلىّ . وأما تمييزُك بينك وبين طلحة والزبير ، وبين أهل الشام وأهل البَصرة ، فلعمرِى ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء ؛ لأنها بيعة شاملة لا يستثنَى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النَّظَر . وأمّا شَرَفِى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه ، وموضعى من قريش ، فلَعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

قال : ثم دعا النّجاشىَّ ، أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنّ ابنَ جُعَيل شاعرُ أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجِبِ الرّجل . فقال: ياأميرَ المؤمنين، أسمعنى قوله، قال : إذن أسمعك شِعْر شاعر ، ثم أسمعه ، فقال النجاشىُّ يجيبه :

---

(١) فى الكامل ٣ : ٢٢٤ ــ بشرح المرصفى ؛ وذكره المنقرى فى كتاب صفين ٦٤ ، ٦٥ .

(٢ ــ ٢) فى الكامل : فكتب إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر » .

دَعَا يَامُعَاوِىَ مالن يكونا فَقَدْ حَقّق الله ماتحذرونا
أتاكُم علىٌّ بأهلِ العراقِ وأهلِ الحجاز فما تصنعونا![1]
عَلَى كل جَرْدَاء خَيْفَانَةٍ وَأَشْعَثَ نَهْدٍ يَسُرّ الْعُيُونا[2]
عَلَيْهَا فَوَارِسُ مخشيَّةٌ كأسْد الْعَرِين حَمَيْنَ الْعَرِينا
يَرَوْنَ الطِّعَانَ خِلَال الْعَجَاج وَضَربَ الفوارسِ فى النَّقع دِينا[3]
هُمُ هَزَمُوا الجمعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّا كِثينَا
وآلوا يميناً عَلَى حَلْفَةٍ لَنُهْدِى إلى الشام حَرْباً زَبُونا[4]
تُشِيبُ النَّوَاهِدَ قَبْلَ المشِيبِ وتُلْقِي الحوامل مِنْهَا الجَنِينا[5]
فإن تكرهوا الْمُلْكَ مُلْكَ العِرَاقِ فَقَدْ رَضِىَ الْقَوْمُ ماتَكْرَهُونا
فقل للمضلّ مِنْ وَائِلٍ وَمَنْ جَعَلَ الْغَثّ يوماً سَمِينا
جَعَلْتُمْ عَلِيًا وَأَشْيَاعَهُ نَظِيرَ ابنِ هِنْدٍ، أما تَسْتَحُونا!
إلى أفضلِ النّاس بعد الرسول وصِنو الرسولِ مِنَ العالمينا
وَصِهْرِ الرسول وَمَنْ مِثْلُهُ إذا كانَ يومٌ يُشِيب الْقُرُونا!

قلت: أبيات كعب بن جُميل خيرٌ من هذه الأبيات، وأخبث مقصداً وأدهى وأحسن.

وزاد نصر بن مزاحم فى هذه الرسالة بعد قوله: «ولا ليضربهم بالعصى»: «وماألَبْتُ[6] فتلزمنى خطيئة الآمر، ولا قتلت فيجب عَلَىَّ القصاص. وأما قولك إنّ

(١) لم يذكر المبرد فى الكامل سوى البيتين الأولين، وقال: «وبعد هذا ماأمسك عنه».
(٢) الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. والخيفانة: الخفيفة الوثابة. والنهد من الخيل: الجسيم المشرف
(٣) النقع: التراب.
(٤) صفين: «وقالوا». والإيلاء: الحلف.
(٥) صفين: «لتشيب النواهد».
(٦) ما ألبت، أى ماحرضت. وفى صفين: «وما أمرت».

أهل الشام هم الحكام على أهلِ الحجاز ، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل فى الشورى ، أو تحلُّ له الخلافة ، فإنْ زعمتَ ذلك كَذَّبَك المهاجرون والأنصار ؛ وإلا أتيتُك به من قريش الحجاز . وأما وَلُوعك بى فى أمر عثمان ، فما قلت ذلك عن حقِّ العيان ، ولا يقين الخُبر[1] .

وهذه الزيادة التى ذكرها نصر بن مزاحم تقتضى أنه كان فى كتاب معاوية إليه عليه السلام أنّ أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز ؛ وما وجدنا هذا الكلام فى كتابه .

* * *

[أخبار متفرقة]

وروى نصر بن مزاحم ، قال : لما[2] قُتِل عثمانُ ضَرَبت الرُّكبان إلى الشام بقتله ، فبينا معاوية يوماً إذا أقبل رجل متلفِّف ، فكشف عن وجهه ، وقال لمعاوية : ياأميرَ المؤمنين ، أتعرفنى ؟ قال : نعم ؛ أنت الحجاج بن خزيمة بن الصِّمة ، فأين تريد ؟ قال إليك القُربان ، نَعِىّ ابن عفان ، ثم قال :

إن بنى عمِّك عبدِ المطّلِبْ ... هُمْ قتلوا شيخكمُ غيرَ كَذِبْ
وأنت أولَى الناس بالوثْبِ فثِبْ ... واغضَبْ معاوى للإله واحتسِبْ
وَسِرْ بنا سَيْرَ الجرير المتلئبْ ... وانهَضْ بأهل الشام تُرْشَدْ وتُصِبْ
* ثم اهزُزِ الصَّعْدة للشأس الشَّغِبْ[3] *

قال : يعنى عليا عليه السلام .

قلت : المتلئبّ المستقيم المطّرد ، يقال : هذا قياسٌ متلئبّ ، أى مستمرّ مطّرد .

---

(١) الخبر : العلم . (٢) وقعة صفين ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) الصعدة ، بالفتح : القناة المستوية .

ويقال : مكان شأس ، أي غليظ صلب . والشَّغِب : المائج الشر ، ومن رواه : «الشاسى» بالياء فأصله « الشاصى » بالصاد ؛ وهو المرتفع ، يقال : شصا السحابُ إذا ارتفع ، فأبدل الصاد سينا ، ومراده هنا نسبة علىّ عليه السلام إلى التيه والترفع عن الناس .

قال نصر : فقال له معاوية : أفيك مَهَز ؟ فقال : نعم ، فقال أخبِر الناس ، فقال الحجاج : ياأميرَ المؤمنين ـ ولم يخاطَب معاويةُ بـ «أمير المؤمنين» قبلها ـ إني كنتُ فيمَن خرج مع يزيد بن أسدٍ القسريّ ، مغيثا لعثمان ، فقدمتُ أنا وزفر بن الحارث ، فلقينا رجلا زعم أنه مِمّن قتل عثمان ، فقتلْناه ؛ وإنى أخبرك ياأمير المؤمنين أنك لتقوَى على علىّ بدون مايقوَى به عليك ؛ لأنّ معك قوما لايقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ وإن مع علىّ قوما يقولون إذاقال ، ويسألون إذا أمر ؛ فقليلٌ ممّن معك خيرٌ من كثير ممن معه . واعلمْ أنه لا يرضى علىّ إلا بالرضا ، وأنّ رضاه سخَطك ، ولستَ وعلىّ سواء؛ علىّ لا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق .

قال نصر : فضاق معاوية صدرا بما أتاه ، وندِم على خِذلان عثمان(١) وقال :

أتانِىَ أمرٌ فيـــه للنفس غمةٌ ... وَفِيه بـــكاء لِلْعُيُونِ طَوِيلُ
وفيـــــه فناء شاملٌ وخَزَايةٌ ... وفيه اجتداعٌ للأنوف أصِيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وهَدّةٌ(٢) ... تكادُ لها صمُّ الجبالِ تزُولُ
فلله عَيْنا مَنْ رَأى مِثْلَ هالكٍ ... أصيبَ بِلا ذَنْبٍ وذاكَ جَليلُ!
تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ ... فَرِيقانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وخَذُولُ
دَعَاهُمْ فَصَمّوا عنه عِنْدَ دُعَائِهِ ... وَذَاكَ عَلَى مافِي النُّفُوسِ دَلِيلُ
ندِمتُ على ما كان مِن تبعِيَ الهَوَى ... وقَصْرِىَ فيه حَسْرَةٌ وعويلُ(٣)

---

(١) وقعة صفين ٨٨ ، وفيه : « وقال معاوية حين أتاه قتل عثمان » .
(٢) ج : « وهده » .
(٣) قصرى فيه ؛ أي حسبي .

سَأَبغِي أبا عمرٍو بكلِّ مُثقَّفٍ ... وبيضٍ لها في الدَّارِعينَ صَليل[1]
تركتُكَ للقوم الذين هُمُ هُمُ ... شَجاكَ فماذا بعد ذاك أقول؛
فلستُ مقيماً ما حييتُ ببلدةٍ ... أجرّ بها ذَيْلِي وأنت قتيل
فلا نوم حتى تُشجَرَ الخيلُ بالقنا ... وَيُشْفَى من القوم الغُواة غَليلُ[2]
وَنَطْحَنَهُمْ طحنَ الرَّحَا بِثِفالِها ... وَذاكَ بما أسْدَوْا إليك قليل[3]
فأمّا الَّتي فيها مودّةُ بيننا ... فليس إليها ما حَيِيتُ سَبِيل
سأُلقِحُها حَرْباً عَوَاناً مُلِحّةً ... وإنّي بها مِنْ عَامِنا لَكَفِيل

قال نصر: وافتخر الحجّاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية بإمرة المؤمنين.

***

قال نصر:[4] وحدثنا صالح بن صدقة، عن ابن إسحاق، عن خالد الخزاعيّ وغيره ممن لا يُتّهَم، أن عثمان لما قُتِلَ وَأُتِيَ معاوية بكتاب على عليه السلام بعزله عن الشام، صعِد المنبر ونادى في الناس أن يحضرُوا، فحضروا، فخطبهم. فحمِد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: يأهلَ الشام، قد علمتم أنّي خليفةُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان، وقد قتِلَ وأنا ابن عمه ووليّه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾[5] وأنا أحبّ أن تُعلِمُوني ما في نفوسكم من قتل خليفتكم.

---

(١) وقعة صفين: «سأنعى»، وسأبغي. أى سأطلب ثأره؛ وأبو عمرو كنية عثمان.

(٢) تشجر الخيل: تطعن.

(٣) الثفال: جلد يبسط فتوضع فوقه الرحا ليسقط عليه الدقيق. وفى اللسان: «وفى حديث على: وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها، هو من ذلك: والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب؛ إذا كانت مثقلة، ولا تثفل إلا عند الطحن».

(٤) وقعة صفين ٩١.

(٥) سورة الإسراء ٣٣

فقام مُرّة بن كعب(١) ؛ وفى المسجد يومئذ أربعمائة رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله أو نحوها ، فقال : والله لقد قمتُ مقامى هذا ، وإنى لأعلمُ أنّ فيكم مَنْ هو أقدم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه منّى ؛ ولكنّى شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفَ النهار فى يوم شديد الحرّ ، وهو يقول: « لَتَكُونَنّ فتنة حاضرة »، فمرّ رجل مُقَنّع ، فقال رسول الله : وهذا [المقنع](٢) يومئذٍ على الهُدَى ، فقمت فأخذت بمنكبه ، وحَسَرْتُ عن رأسه ؛ فإذا عثمان ، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه ، وقلت: هذا يا رسول الله؟ فقال : نعم :

فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذ ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع فى الخلافة ثم الأمر شورى .

***

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل فى " كتاب صفين " عن أبى بكر بن عبد الله الهذلىّ أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه فى الطلب بدم عثمان ، ويحرّضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة :

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ فإنّك مِنْ أخى ثقةٍ مُليم(٣)

قطعتَ الدهر كالسَّدِمِ المعنَّى تُهدِّرُ فى دمشقَ ولا تريم(٤)

---

(١) وقعة صفين : « كعب بن مرة السلمى » .

(٢) من صفين .

(٣) من أبيات ، فى اللسان ١٥ : ٣٦ ، ٣٧ . ومليم ، من قولهم : ألام الرجل ؛ إذا أتى ما يلام عليه.

(٤) السدم : الفحل غير الكريم يكره أهله أن يضرب فى إبلهم ؛ فيقيد ولا يسرح فى الإبل رغبة عنه ؛ فهو يصول ويهدر ، أى يصيح . والمعنى أصله : « المعنن » من العنة ، فأبدلت إحدى النونين ياء ؛ كما قالوا : تظنى ، وأصله : « تظنن » ، وفى المثل : « كالمهدر فى العنة » . وانظر مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ١٤١ .

فإنك والكتابَ إلى عليّ ... كدابغة وقد حَلِم الأديم[1]
لك الويلاتُ أقحِمها عليهم ... فخير الطالبِ التِّرةِ الغَشُومُ[2]

قال: فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حَجَر:

وَمُستَعجِبٍ مما يرَى مِنْ أناتِنا ... وَلَوْ زَبَنَتْه الحرْب لَمْ يَتَرَمْرَمِ[3]

***

وروى ابن ديزيل قال: لما عَزَم عليّ عليه السلام على المسير إلى الشام، دعا رجلا، فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق، فإذا دخلَ أناخَ راحلته بباب المسجد، ولا يُلْقِي من ثياب سفره شيئا؛ فإن الناس إذا رأوه عليه آثار الغُرْبة سألوه، فليقل لهم: تركتُ علياً قد نَهَدَ[4] إليكم بأهل العراق. فانظر مايكون من أمرهم.

ففعل الرجل ذلك، فاجتمع الناس وسألوه، فقال لهم، فكثروا عليه يسألونه فأرسل

(١) الحلم، بالتحريك: أن يفسد الجلد في العمل ويقع فيه دود فيتثقب؛ تقول منه حلم، بالكسر، والحلمة: دودة تقع في الجلد فتأكله؛ فإذا دبغ وهي موضع الأكل، فبقي رقيقا؛ تقول منه: حلم الأديم؛ ومعنى البيت: أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فساده كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة فثقبته وأفسدته فلا ينتفع به. كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت.

(٢) في اللسان بعد هذا البيت:

فقومُكَ بالمدينةِ قَدْ تردّوْا ... فهم صَرْعَى كأنهمُ الهشيمُ
فلو كنتَ المصابَ وكان حيًّا ... تجرّدَ لا ألفَّ ولا سَئومُ
يهنّيكَ الإمارةَ كل ركب ... من الآفاق سيرهمُ الرسيمُ

وزاد الطبري بعد البيت الثاني من زيادات اللسان:

ولا نِكلٌ عن الأوتارِ حَتَّى ... يبيء بها ولا برِمٌ جَثومُ

وذكر الضبي في الفاخر ٣٠ بعض هذه الأبيات ونسبها إلى مروان بن الحكم.

(٣) ديوانه ٢٧، ومقاييس اللغة ٢: ٣٨٠، ٤: ٢٤٤؛ ولم يترمرم؛ أي ماحرك فاه بالكلام؛ كذا فسره ابن فارس واستشهد بالبيت. وانظر اللسان ١٥: ١٤٧.

(٤) يقال: نهد لعدوه؛ إذا أسرع لقتاله.

إليه معاوية بالأعور السُّلَميّ يسأله ، فأتاه فسأله ، فقال له ، فأتى معاوية فأخبره ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، وقال لهم إنّ عليا قد نَهَدَ إليكم فى أهل العراق ، فما ترون ؟ فضربَ الناس بأذقانهم على صدورهم ؛ لا يتكلّمون ، فقام ذو الكَلاع الحِميَريّ فقال : عليك أمْ رأيُ وعلينا أم فعالُ ؛ وهى لغة حِمْير[1] .

فنزل ، ونادَى فى النّاس بالخروج إلى معسكرهم ، وعاد إلى علىّ عليه السلام ،فأخبره فنادى: الصلاة جامعة ،ثم قام فخطب الناس ، فأخبرهم أنّه قَدِم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أنّ معاوية قد نَهَدَ إلى العراق فى أهل الشام ، فما الرأى ؟

قال : فاضطرب أهل المسجد ؛ هذا يقول : الرأى كذا ، وهذا يقول : الرأى كذا ، وكثُر اللّغط واللّجَب ، فلم يفهمْ علىّ عليه السلام من كلامهم شيئا ، ولم يَدْرِ المصيبَ من المخطئ ، فنزل عن المِنبر ، وهو يقول : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب بها ابن آكلة الأكباد[2] — يعنى معاوية .

* * *

وروى ابن ديزيل عن عُقْبة بن مكرّم ، عن يونس بن بكير ، عن الأعمش ، قال : كان أبو مريم صديقاً لعلىّ عليه السلام، فسمع بما كان فيه علىّ عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه ، فجاءه ، فلم يَرُعْ عليا عليه السلام إلا وهو قائم على رأسه بالعِراق، فقال له : أبامريم، ما جاء بك نحوى ؟ قال : ما جاء بى غيرُك ؛ عهدِى بك لو ولِّيت أمرَ الأمة كفيتَهم ، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف ! فقال : يا أبا مريم ؛ إنى مُنِيتُ بِشرَار خَلْق الله، أريدُهم على الأمر الذي هو الرأى ، فلا يتّبعوننى .

* * *

(١) وهى لغة نقلت عن طيء أيضا ؛ وعليها ورد الحديث : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » . مغنى اللبيب لابن هشام ١ : ٤٨ .

(٢) آكلة الأكباد ؛ هى هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان وأم معاوية .

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر ، عن زيد بن الحباب ، عن علاء بن جرير العنبرىّ ، عن الحكم بن عمير الثمالىّ ـ وكانت أمه بنت أبى سفيان بن حرب ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأصحابه ذات يوم : كيف بك يا أبا بكر إذا وليت ؟ قال : لا يكونُ ذلك أبدا ، قال : فكيف بك يا عمر إذا وليت ؟ (١ فقال : آكل حجَرا ١) ، لقد لقيت إذَنْ شرًّا ، قال : فكيفَ بك يا عثمان إذا وُلّيت ؟ قال : آكلُ وأطعِم وأقسم ولا أظلم ، قال : فكيف بك يا علىّ إذا وليت ؟ قال : آكل القوتَ وأحمى الجمْرة ، وأقسم التمرة ، وأخفى الصور ـ قال : أىّ العورة ـ فقال صلى الله عليه وسلّم : « أما إنكم كلكم سَيَلِى ، وسيرى الله أعمالكم » ، ثم قال : يا معاوية ، كيف بك إذا وليت ؟ قال : الله ورسوله أعلم قال : « أنت رأس الحطم ، ومفتاح الظلم ، حصبا وحقبا ، تتخذ الحسَن قبيحا ، والسيئة حسنة ، يربو فيها الصغير ، ويهرَم فيها الكبير ؛ أجلك يسير ، وظلمك عظيم » .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضا عن عمر بن عون ، عن هشيم ، عن أبى فلج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عبد الله بن مسعود : كيف أنتم إذا لَقِيتكم فتنة يَهرَم فيها الكبير ، ويربُو فيها الصغير ، تجرى بين الناس ، ويتخذونها سُنّة ، فإذا غُيِّرت قيل : هذا مُنكَر !

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا الحسَن بن الرّبيع البَجلىّ ، عن أبى إسحاق الفزارىّ عن حُميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ (٢) . قال : أكرَم الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يريَه فى أمته ما يكره رفعه إليه ، وبَقِيت النّقمة .

(١ ـ ١) فى ا ، ج : « فقال حجرا » ، وفى حاشية ج : « يحتمل أن يكون بسكون الجيم ، بمعنى المنع » .
(٢) سورة الزخرف ٤١ ، ٤٢ .

قال ابن ديزيل : وحدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو[1] بن محمد ،قال: أخبرنا أسباط ، عن السدّى ، عن أبي المِنْهال ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سألتُ ربّي لأمتي ثلاث خلال ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة : سألته ألّا تكفرُ أمتي صَفْقة واحدة فأعطانيها ، وسألته ألّا يعذبهم بما عذّب به الأمم قبلهم فأعطانيها ، وسألته ألّا يجعلَ بأسهم بينهم فمنعنيها » .

* * *

قال ابن ديزيل : وحدّثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسيّ ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن عمار بن زُرَيق ، عن عمّار الدُّهنيّ ، عن سالم بن أبي الجعْد قال : جاء رجلٌ إلى عبدالله بن مسعود ، فقال : إنّ الله تعالى قد آمَنَنَا أن يظلِمنا ، ولم يؤمنّا أن يَفْتِنَنا ، أرأيت إذا أنزلتْ فتنة ، كيف أصنع ؟ فقال : عليك كتابَ الله تعالى ، قال : أفرأيت إن جاء قومٌ كلّهم يدعو إلى كتاب الله تعالى ؟ فقال ابنُ مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا اختلف النّاس كان ابن سُمَيّة مع الحقّ » ، يعني عمّارا .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا[2] ، قال : حدّثنا عليّ بن القاسم ، عن سعيد بن طارق ، عن عثمان بن القاسم ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « ألا أدلّكم على ما إن تساءلتم عليه لم تَهْلِكوا ؟ إنّ وَلِيّكم الله ، وإن إمامكم عليّ بن أبي طالب ، فناصحوه وصدّقوه ، فإن جبريل أخبرني بذلك » .

فإن قلت : هذا نصّ صريح في الإمامة ، فما الذى تصنع المعتزلة بذلك ؟

قلت : يجوز أن يريدَ أنّه إمامهم في الفتاوَى والأحكام الشرعيّة ، لا في الخلافة .

وأيضا فإنا قد شرحنا من قول شيوخنا البغداديين ما محصّله : إنّ الإمامة كانت لعليّ

(١) ب : « عمر » .

(٢) ب : « زكريا بن يحيى » .

عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، وإن أقرّها في غيره وسكتَ عنها تولّيناذلك الغير ، وقلنا بصحة خلافته، وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازِع الأئمة الثلاثة ، ولا جرّد السيف، ولا استنجد بالناس عليهم ؛ فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه ؛ فلذلك تولّيناهم، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح ، ولو حاربَهم وجرّد السيف عليهم ، واستصرخ العرب على حَرْبهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه المعاملة ، من التفسيق والتضليل .

***

قال ابن ديزيل : وحدّثنا عمرو بن الربيع ، قال : حدثنا السّريّ بن شيبان ، عن عبدالكريم ، أنّ عمر بن الخطاب قال لما طُعِن : ياأصحابَ محمد تناصحوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا غَلَبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان .

قلت : إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمُفيد أحد الإمامية قال في بعض كتبه : إنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة وإطماعهما فيها ، لأنّ معاوية كان عامله وأميره على الشام ، وعمرو بن العاص عامله وأميره عَلَى مصر ، وخاف أن يَضْعف عثمان عنها ، وأن تَصير إلى عليّ عليه السلام ، فألقى هذه الكلمةَ إلى الناس لتنقل إليهما — وهما بمصر والشام — فيتغلبا عَلَى هَذَيْن الإقليمين إن أفضَتْ إلى عليّ عليه السلام .

وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يُوجبها الشنآن والحَنَق ، وعمر كان أتقَى لله من أن يخطُر له هذا ، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيرا من الأمور المستقبلة ؛ كما قال عبد الله بن عباس في وصفه : والله ما كان أوس بن حَجَر عَنَى أحدا سواه بقوله :

الألمعيّ الّذِي يظنّ بكَ الظَّنْ ـنَ كأنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعا[1]

***

(١) ديوانه ١٣ .

وروى ابن دِيزيل ، عن عَفَّان بن مسلم ، عن وهب بن خالد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث ، عن مُرة بن كعب ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فتنة فقرّبها ، فمرّ رجل قد تقنّع بثوبه ، فقال عليه السلام : « هذا وأصحابه يومئذ عَلَى الحقّ » ، فقمت إليه فأخذت بمنكبه ، فقلت : هو هذا ؟ فقال : نعم ، فإذا هو عثمان ابن عفان .

قلت : هذا الحديث قد رواه كثير من محقّقي أصحاب الحديث، ورواه محمد بن إسماعيل البخاريّ في " تاريخه الكبير " بعدة روايات . وليس لقائل أن يقول : فهذا الحديث إذا صححتموه كان حُجّة للسُّفيانية ؛ لأنا نقول : الخبرُ يتضمّن أن عثمانَ وأصحابه على الحقّ ، وهذا مذهبنا ، لأنا نذهب إلى أنّ عثمان قتل مظلوما ، وأنه وناصريه يوم الدار عَلَى الحقّ ؛ وأنّ القوم الذين قتلوه لم يكونوا عَلَى الحقّ ؛ فأما معاويةُ وأهل الشام الذين حاربوا عليًّا عليه السلام بصِفّين فليسوا بداخلين في الخبر ؛ ولا في ألفاظ الخبر لفظ عموم يتعلّق به ، ألا ترى أنّه ليس فيه كلّ مَنْ أظهر الانتصار لعثمان في حياته وبعد وفاته فهو عَلَى الحقّ ، وإنّما خلاصته أنه ستقوم فتنة ، يكون عثمان فيها وأصحابه عَلَى الحقّ ، ونحن لا نأبَى ذلك ، بل هو مذهبنا .

***

وروى نصر بن مزاحم في كتاب " صفّين " قال : [1] لما قدم عبيدُ الله بن عمر ابن الخطاب عَلَى معاوية بالشام ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : إنّ الله قد أحيَا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيدالله بن عمر ، وقد رأيتُ أن أقيمه خطيبا يشهد عَلَى عليّ بقتل عثمان ، وينالُ منه ، فقال : الرأيُ ما رأيتَ ، فبعث إليه ، فأتاه ، فقال له معاوية : يابن أخي ، إنّ لك

(١) وقعة صفين ٩٢ — ٩٤

اسمَ أبيك فانظر بملء عينيك ، وانطق بملء فيك ، فأنت المأمون المصدّق ، فاصعدِ المنبر واشتِم عليًّا ، واشهد عليه أنّه قتل عثمان .

فقال : أيها الأمير ، أما شتمهُ ؛ فإن أباه أبو طالب ، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه ! وأمّا بأسُه فهو الشجاع المطرِق ، وأما أيامُه فما قد عرَفت ؛ ولكنى ملزِمُه دمَ عثمان ، فقال عمرو بن العاص : قد وأبيك إذَنْ نكأْت القرْحة .

فلما خرج عبيد الله بن عمر ، قال معاوية : أما والله لولا قتلُه الهُرمزان ، ومخافتُه عليًّا عَلَى نفسه ما أتانا أبدا ؛ ألا ترى إلى تقريظه عليًّا ! فقال عمرو : يا معاوية ، إن لم تَغلب فاخْلُب ، قال : وخرج حديثهما إلى عبيد الله ، فلما قام خطيبا تكلّم بحاجته ، فلما انتهى إلى أمرِ علىّ أمسك ولم يقل شيئا ، فلما نزل بعث إليه معاوية : يابن أخى ؛ إنك بين عِيّ وخيانة ، فبعث إليه : إنى كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أنّ الناس محتملوها عنّى فتركتها .

قال : فهجَره معاوية واستخفّ به وفسّقه ، فقال عبيد الله :

مُعَاوِىَ لم أحْرَضْ بخطْبَةِ خاطبٍ ... ولم أكُ عيًّا فى لُؤَىِّ بن غالبِ[1]
ولكنّنِى زاولتُ نفسا أبيّــةً ... على قَذْفِ شيخٍ بالعراقين غائب
وقذفى عليًّا بابن عفّانَ جهرةً ... كِذابٌ ، وما طِبِّى سَجَايا المُكاذِب[2]
ولكنّه قد قرّب القوم جهدَه ... ودبُّوا حواليْه دبيبَ العقاربِ
فما قالَ : أحْسنتم ولا قد أسأتمُ ... وَأَطْرَقَ إطراق الشُّجاع المواثب

---

(١) لم أحرض : لم أكل ولم أعى . وفى صفين : « لم أخرس » ، أى لم أكذب .
(٢) رواية كتاب صفين :
« يُجدِّعُ بالشّحنا أنوفَ الأقاربِ »

فأمّا ابن عفـــانٍ فأشهدُ أنه   أصيبَ بريئا لابساً ثوبَ تائبِ[1]
وَقَدْ كانَ فيها للزبير عَجَاجَـةٌ   وطلحةُ فيها جاهدٌ غـــير لاعبِ
وَقَدْ أظهرَا مِنْ بَعْدِ ذٰلك تَوْبَةً   فياليت شِعْرِى ما هُما فى العواقب !

قال : فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه ، وقال : حسبى هذا منك .

***

وروى نصر ، عن عبيد الله بن موسى ، قال : سمعتُ سُفيان بن سعيد المعروف بسُفْيان الثورىّ ، يقول : ما أشكّ أنّ طلحة والزبير بايعا عليًّا ، وما نقما عليه جَوْراً فى حُكْم ولا استئثارا بفىْء ؛ وما قاتل عليًّا أحدٌ إلا وعلىٌّ أولى بالحق منه .

وروى نصر بن مُزاحم أنّ عليا عليه السلام قدِم من البصرة فى غُرّة شهر رجب من سنة ست وثلاثين إلى الكوفة ،وأقام بها سبعة عشر شهرا ، تجرى الكتُب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص ، حتى سار إلى الشام .

قال نصر :[2] وقد رُوِى من طريق أبى الكنود وغيرِه أنه قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل ، لاثنتى عشرة ليلة خَلَتْ من شهر رجب سنة ست وثلاثين .

قال نصر : فدخل الكوفةَ ومعه أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم ، فاستقبله أهلُ الكوفة ، وفيهم قرّاؤهم وأشرافُهم ، فدعوْا له بالبَركة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، أين تنزل ؟ أتنزل القصر ؟ قال : لا ، ولكنى أنزل الرّحبة ، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجدَ الأعظم ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم صعِد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه وصلّى على رسوله ، ثم قال :

---

(١) بعده فى كتاب صفين :

حَرَامٌ عَلَى آهالِهِ نَتْفُ شَعْرِهِ   فكيفَ وَقَدْ جازَوْهُ ضَرْبَةَ لَازِبِ

(٢) وقعة صفين ٥ — ٨ .

أما بعد يا أهل الكوفة ؛ فإنّ لكم فى الإسلام فضلا ما لم تبدّلوا وتغيّروا ، دعوتُكم إلى الحق فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم ، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم وبين الله ، فأمّا فى الأحكام والقَسْم فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه . ألا إنّ أخوَف ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتّباعُ الهوَى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ؛ ألا إنّ الدنيا قد ترَحّلَتْ مدبرة ، وإن الآخرة قد ترَحّلت مقبلة ؛ ولكلّ واحدة منهما بنون ؛ فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ؛ الحمد لله الّذِى نَصَر وليّه ، وخَذَل عدوّه ، وأعزّ الصادق المحقّ ، وأذلّ الناكِث المبطل .

عليكم بتقوَى الله وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيّكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلّين المدّعين المقابلين[1] إلينا ؛ يتفضلون بفضلنا ، ويجاحدوننا أمرَنا ، وينازعوننا حقّنا ، ويُباعدوننا عنه ، فقد ذاقُوا وَبَال ما اجترحوا فسوف يلقَوْن غَيّا . ألا إنه قد قَعَدَ عن نصرَتى رجال منكم ؛ وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ ؛ فاهجرُوهم وأسمعوهم ما يكرهون ، حتى يُعتِبُوا[2] ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة .

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعىّ — وكان صاحبَ شُرطته — فقال : والله إنى لأرى الهُجْر وسماع المكروه لهم قليلا ، والله لو أمرتنا لنقتلنّهم . فقال على عليه السلام : سبحان الله يا مالِ ! جُزْتَ المَدَى ، وعَدَوْتَ الحدّ ، فأغرقت[3] فى النّزْع . فقال : يا أمير المؤمنين ، لَبَعْضُ الغَشْم أبلغُ فى أمرٍ يَنُوبُك من مهادنة الأعادى ؛ فقال علىّ عليه السلام : ليس هكذا قضى الله ، يا مالِ ، قال سبحانه : ﴿ النَّفْسَ بالنَّفْسِ ﴾[4] فما بالُ ذِكْرِ الغَشْم !

---

(١) كذا فى ج وصفين ، وفى ا ، ب : « القائلين إلينا » .

(٢) الإعتاب : إعطاء العتبى ، وهى الرضا (٣) ا ، ج : « وأغرقت » .

(٤) سورة المائدة ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ﴾[١] ، والإسراف فى القتل أن تقتل غيرَ قاتلك ، فقد نَهَى الله عنه ، وذاكَ هو الغَشم .

فقام إليه أبو بُرْدة بن عوفٍ الأزدىّ ـ وكان ممّن تخلّف عنه ـ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أرأيت القتلى حول عائشةَ وطلحةَ والزبير ، علام قُتِلوا ؟ ـ أوقال : بم قتلوا ؟ـ فقال علىّ عليه السلام : قُتِلوا بما قَتَلُوا شِيعتى وعُمّالى ، وقتلوا أخا ربيعة العبدىّ فى عِصابة من المسلمين ، قالوا : إنّا لا نَنكُث كما نكثتم ، ولا نَغدِر كما غدرتم ؛ فوثبوا عليهم فقتلوهم ، فسألتهم أنْ يدفعوا إلىّ قَتَلَة إخوانى أقتلهم بهم ، ثم كتابُ الله حَكَمٌ بينى وبينهم ، فأبوْا علىّ ، وقاتلونى ـ وفى أعناقهم بَيْعتى ، ودماء قريب من ألف رجل مِنْ شيعتى ـ فقتلتُهم ، أفى شكّ أنتَ من ذلك ! فقال : قد كنتُ فى شَكّ ، فأمّا الآن فقد عرَفتُ ، واستبان لى خطأ القوم ، وإنك المهتدِى المصيب .

قال نصر : وكان أشياخ الحىّ يذكرون أنه كان عُثمانيًّا ، وقد شَهِد على ذلك صِفّين مع علىّ عليه السلام ، ولكنه بعد ما رجع كان يكاتِبُ معاوية ، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعةً بالفلُّوجة[٢] ، وكان عليه كريما .

قال : ثم إنّ عليًّا عليه السلام تهيّأ لينزل ، وقام رجالٌ ليتكلّموا ، فلما رأوْه نزَل جلسوا وسكتوا .

قال : ونزل علىٌّ عليه السلام بالكوفة على جَعْدة بن هبيرة المخزومىّ .

قلت : جَعْدة ابن أخته أم هانىْ بنت أبى طالب ، كانت تحت هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ ، فأولدها جعدة ، وكان شريفا .

***

(١) سورة الإسراء ٣٣ .

(٢) فى مراصد الاطلاع : الفلوجة الكبرى والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر . قلت : والمشهور هى هذه التى على شاطئ الفرات ، عندها نهر الملك من الجانب الشرقى .

قال نصر : ولما[1] قدم عليٌّ عليه السلام إلى الكوفة نزل على باب المسجد ، فدخلَ فصلّى ، ثم تحوّل فجلس إليه الناس ، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة ، فقال قائل : استأثر الله به ، فقال عليّ عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خَلْقه ؛ إنما أراد الله جلّ ذكره بالموت إعزازَ نفسه ؛ وإذلالَ خَلْقه ، وقرأ : ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[2] ؛ قال نصر : فلما لحقه عليه السلام ثَقَلُه قالوا : أننزِل القصر ؟ فقال : قصر الخبال ، لا تنزلوا فيه[3].

***

قال نصر : ودخل[4] سليمان بن صُرَد الخزاعيّ على عليّ عليه السلام ؛ مرجِعَه[5] من البصرة ، فعاتبه وعَذَله ، وقال له : ارتبتَ وتربّصت وراوغت ؛ وقد كنتَ من أوثقِ الناس في نفسي ، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نُصرتي ؛ فما قَعَدَ بكَ عن أهل بيت نبيّك ؟ وما زهدك في نصرتهم ؟

فقال : ياأمير المؤمنين ، لا تردّنّ الأمور على أعقابها ، ولا تؤنّبني بما مضى منها ، واستبقِ مودّتي تخلصْ لك نصيحتي ؛ فقد بقيت أمورٌ تعرف فيها عدوَّك من وَليّك .

فسكتَ عنه ، وجلس سليمانُ قليلا ، ثم نهض ، فخرج إلى الحسن بن عليّ عليه السلام ؛ وهو قاعد في باب المسجد ، فقال : ألا أعجّبُك من أمير المؤمنين ، وما لقيتُ منه من التوبيخ والتبكيت ؟ فقال الحسن : إنما يعاتَبُ مَنْ تُرجَى مودّته ونصيحتُه ، فقال : لقد وَثَبَتْ أمور ستُشْرَع فيها القَنا ، وتُنتضَى فيها السيوف ، ويحتاجُ فيها إلى أشباهي ، فلا

---

(١) كتاب صفين ٨ .
(٢) سورة البقرة ٢٨ .
(٣) صفين : « لا تنزلونيه » .
(٤) وقعة صفين ٩
(٥) وقعة صفين : « بعد رجعته » .

تستغشّوا عتبي(١) ، ولا تتهموا نصحى .

فقال الحسن : رحمك الله ، ما أنت عندنا بظَنين(٢) .

قال نصر : ودخل عليه سعيد بن قيس الأزديّ ، فسلّم عليه ، فقال : وعليك السلام وإنْ كنتَ من المتربّصين ! قال : حاش لله يا أمير المؤمنين ! فإنى لست من أولئك . فقال : لعلّ الله فعل ذلك .

* * *

قال نصر : وحدثنا(٣) عمر بن سعد ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن مخنف ، قال : دخلتُ مع أبى على عليّ عليه السلام ، مقدَمه(٤) من البصرة ، وهو عام بلغتُ الحُلُم ؛ فإذا بين يديه رجال يؤنّبهم ، ويقول لهم : ما أبطأ بكم عنّى ، وأنتم أشرافُ قومكم ! والله إن كان من ضَعف النيّة وتقصير البصيرة ؛ إنكم لبُور(٥) ، وإن كان من شكّ فى فضلى ومظاهرة علىّ ؛ إنكم لعدوّ .

فقالوا : حاش لله يا أمير المؤمنين ! نحن سِلمُك وحَرْب عدوّك . ثم اعتذر القوم فمنهم من ذَكَر عذرا ، ومنهم من اعتلّ بمرض ؛ ومنهم من ذكر غيبة ؛ فنظرت إليهم فعرفتهم ؛ فإذا عبد(٦) الله المعتمّ العبسيّ ؛ وحنظلة بن الرّبيع التميميّ ؛ وكلاهما كانت له صحبة ؛ وإذا أبو بُرْدة بن عوف الأزديّ ؛ وإذا غريب بن شُرَحبيل الهَمْدانيّ .

قال : ونظر علىّ عليه السلام إلى أبى ، فقال : ولكن مِخنف بن سليم وقومه لم يتخلّفوا ، ولم يكن مَثَلهم كمَثَلِ القوم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ

(١) لاتستغشوا عتبى ؛ أى لاتظنوا عتابى لكم غشا .
(٢) الظنين : المتهم ؛ وأصله : « مظنون » .
(٣) وقعة صفين ١٠
(٤) وقعة صفين : « حين قدم » .
(٥) لبور ؛ أى هالكون ، جمع بلفظ المفرد .
(٦) فى الأصول : « عبيد الله » صوابه من صفين .

أصابتكم مصيبةٌ قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً. ولئن أصابكم فضلٌ من الله ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودّةٌ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ (١).

قال نصر: ثم (٢) إن عليًّا عليه السلام مكث بالكوفة، فقال الشَّنّيّ فى ذلك [شنّ بن عبد القيس] (٣):

قُلْ لِهذا الإمامِ قَدْ خَبَتِ الحرْ ... بُ وتَمَّتْ بذلكَ النَّعماءُ
وفَرَغْنا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَقَضَ العهـ ... ـدَ وبالشامِ حَيَّةٌ صَمَّاءُ
تَنفُثُ السَّمَّ مالِمَنْ نَهَشَتْهُ ... ـ فارمِها قبلَ أن تَعَضَّ ـ شِفاءُ (٤)
إنه والذى يحجُّ له النا ... سُ ومِنْ دونِ بَيْتِهِ البَيْداءُ
لَضَعِيفُ النُّخاعِ إنْ رُمِىَ اليو ... مَ بخيلٍ كأنها أشلاءُ (٥)
تَتَبارَى بكلِّ أصيدَ كالفحْـ ... ـلِ بكفَّيهِ صَعْدةٌ سَمْراءُ (٦)
إنْ تَذَرْهُ فما معاويةُ الدهْـ ... ـرَ بمعطيكَ ما أراكَ تَشاءُ
ولَنَيْلُ السَّماءِ أقربُ مِنْ ذا ... كَ ونجمُ العَيُّوقِ والعَوَّاءُ (٧)
فاعْدُ بالجِدِّ والحديدِ إليهمْ ... ليسَ واللهِ غيرَ ذاكَ دَوَاءُ

---

(١) سورة النساء ٧٢، ٧٣. (٢) كتاب صفين ١١، ١٢.
(٣) تكملة من كتاب وقعة صفين؛ وهو الأعور الشنى، واسمه بشر بن منقذ، أحد بنى شن بن أقصى بن عبد القيس. وانظر المؤتلف والمختلف للآمدى ٣٨
(٤) فى اللسان: «قيل للحية التى لا تجيب الراقى صماء؛ لأن الرقى لا تنفعها».
(٥) أشلاء الإنسان: أعضاؤه، وبعده فى كتاب صفين:

جانحاتٍ تحتَ العجاجِ سِخالاً ... مُجْهَضاتٍ تَخالُها الأشلاءُ

(٦) الصعدة: القناة المستوية التى لا تحتاج إلى التثقيف.
(٧) العيوق: نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها. والعواء: منزل القمر.

قال نصر : وأتمّ علىّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة ، فلما كانت الجمعة خطب الناس ، فقال :

الحمدُ لله الذى أحمده[١] وأستعينه وأستهديه ، وأعوذُ بالله من الضلالة ؛ مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلّ له ، ومَنْ يُضْلِل فلا هادىَ له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، انتجبه لأمره ، واختصّه بنبوّته . أكرمُ خَلْقه عليه ، وأحبّهم إليه ، فبلّغ رسالة ربّه ، ونصح لأمته ، وأدّى الذى عليه .

أوصيكم بتقوى الله ، فإنّ تقوى الله خيرُ ماتَواصَى به عبادُالله ، وأقربُه إلى رضوان الله ، وخيرُه فى عواقب الأمور عند الله ، وبتقوى الله أُمِرْتُم ، وللإحسان والطاعةِ خلقتم ؛ فاحذروا من الله ماحذّركم من نفسه ، فإنه حذّر بأساشديدا ، واخشوا خشية ليست بتعذير[٢] واعملوا فى غير رياء ولا سُمْعة ؛ فإنّه من عمل لغير الله وَكَلَه الله إلى ماعمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولّى الله أجرَه . أشفقوا مِن عذاب الله ؛ فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدًى ؛ قد سمّى آثاركم ، وعلِم أعمالكم ، وكتب آجالكم ؛ فلا تغترّوا بالدنيا فإنّها غرّارة لأهلها ، مغرور مَنْ اغترّ بها ، وإلى فناءماهى ، وإن الآخرة هى دارُ الحيوان لو كانوا يعلمون . أسأل الله منازلَ الشهداء ، ومرافقةَ الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله[٣].

قال نصر : ثم[٤] استعمل على عليه السلام العمّال وفرّقهم فى البلاد ؛ وكتب إلى معاوية مع جَرير بن عبد الله البَجلىّ ماتقدم ذكره .

---

(١) صفين : « إن الحمد لله أحمده » .

(٢) التعذير هنا : الإهمال والتقصير .

(٣) صفين ١٣ .

(٤) كتاب صفين ١٤ ؛ وفيه : « ثم إن عليا أقام بالكوفة واستعمل العمال » .

قال نصر:(١)وقال معاوية لعمرو بن العاص ، أيام كان جريرٌ عنده ينتظر جوابَه: إنّى قد رأيتُ أن نُلقِيَ إلى أهل مكّة وأهلِ المدينة كتاباً، تذكر فيه أمرَ عثمان ؛ فإمّا أن ندرِك به حاجتَنا ، أو نكفَّ القومَ عنا ، فقال له عمرو : إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : رجلٍ راضٍ بعليّ فلا يزيده كتابُك إلا بصيرة فيه ، أو رجلٍ يهوَى عثمان ؛ فلن يزيدَه كتابُك على ماهو عليه ، أو رجلٍ معتزلٍ ، فلست فى نفسه بأوثقَ من عليّ .

قال : علىّ ذاك ، فكتبا :

أما بعد ؛ فإنه مهما غابَ عَنّا من الأمور فلم يغب عنّا أن عليا قتل عثمان ؛ والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه ؛ وإنّما نطلب قتلته ؛ حتى يُدفعوا إلينا ، فنقتُلَهم بكتاب الله عزّ وجلّ ، فإن دفعهم علىّ إلينا كَفَفْنا عنه ؛ وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . فأمّا الخلافة فلسنا نطلُبها ، فأعينونا على أمرِنا هذا ، وانهضوا من ناحيتكم ؛ فإنّ أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمرٍ واحد هاب علىّ ماهو فيه ، والسلام .

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعدُ ، فلعمرى لقد أخطأتُما موضع النُّصرة وتناولتُماها من مكان بعيد ؛ ومازاد الله من شكّ فى هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً ،وما أنتما والمشورة ،وما أنتما والخلافة! أمّا أنتَ يامعاوية فطَليق ، وأما أنت ياعمرو فظَنِين(٢)، الا فكفّا أنفسكما ، فليس لكم فينا ولىّ ولا نصير . والسلام .

قال نصر : وكتب(٣)رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر :

---

(١) كتاب صفين ٧٠ ، ٧١ .
(٢) كتاب صفين : « فظنون » ، والظنين والظنون بمعنى المتهم .
(٣) صفين ٧١ .

مُعاوِىَ إنّ الحقَّ أبلجُ واضحٌ ... وليس بما رَبَّصْتَ أنتَ ولا عَمْرُو
نصبتَ ابن عفانٍ لنا اليوم خُدْعةً ... كما نُصِبَ الشيخان إذ قُضِيَ الأمر[١]

ـ يعنى طلحة والزبير رحمهما الله ـ

فَهذَا كَهذَاكَ البلا حَذْوَ نَعْلِهِ ... سواء كَرَقْرَاقٍ يُغَرُّ به السَّفْرُ[٢]
رَمَيْتُمْ عَلِيًّا بالّذى لَايَضِيرُهُ ... وإنْ عَظُمَتْ فيه المَكيدةُ والمَكْرُ[٣]
وَمَا ذنبُـــه إن نالَ عثمانَ معشرٌ ... أتوه من الأحياء تجمعُهُمْ مِضرُ
فثـــار إليـه المسلمونَ ببيعـةٍ ... علانيةً ما كان فيها لهم قسْرُ
وَبايعهُ الشَّيْخان ثم تحمّلَا ... إلى العُمْرَةِ العُظْمَى وبَاطنُها الغَدْرُ
فكانَ الّذى قد كان مما اقتصاصُه ... يطولُ ؛ فيالله ماأحْدَثَ الدّهْرُ[٤]
وَمَا أنتما والنَّصرَ مِنّا وأنتما ... بَعيثَا حُرُوب مايبوخُ لها جَمْرُ[٥]
وما أنتما لله دَرُّ أبيكُمـا ... وذِكْرَكُما الشُّورَى وقدوَضَحَ الفَجْرُ[٦]

* * *

قال نصر[٧] : وقام عدى بن حاتم الطائىّ إلى علىّ عليه السلام، فقال : ياأميرَ المؤمنين، إن عندى رجلًا لايوازَى[٨] به رجل ، وهو يريد أن يزورَ ابن عمه حابس بن سعد الطائىّ بالشام ، فلو أمرناه أن يلقَى معاوية لعلّه أن يكسره ويكسر أهلَ الشام ، فقال على

(١) كتاب صفين : « إذ زخرف الأمر » .
(٢) الرقراق : مايتراءى للمسافر من رمال الصحراء كأنها الماء .
(٣) كتاب صفين : « لايضره » .
(٤) اقتصاصه : قصه وحكايته ، وفى صفين : « رجيم فيا لله ما أحدث الدهر » .
(٥) يبوخ الجمر : ينطفئ .
(٦) صفين : « وقد فلج الفجر » .
(٧) صفين ٧١ ـ ٧٤ .
(٨) صفين : « لايجارى به » .

عليه السلام : نعم ، فأمَره عدىّ بذلك[1] ـ وكان اسمُ الرجل خُفافَ بن عبدالله .

فقدم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام ـ وحابس سيد طَيّء بها ـ فحدث خُفاف حابسا أنه شهد عثمان بالمدينة ، وسار مع علىّ إلى الكوفة ، وكان لخفاف لسان وهيئة وشِعْر ، فغدا حابس بخُفاف إلى معاوية ، فقال : إنّ هذا ابنُ عمّ لى ، قدم الكوفة مع علىّ ، وشهد عثمان بالمدينة، وهو ثقة. فقال له معاوية : هات ، حدّثنا عن عثمان ، فقال: نعم حصره المكشُوح [وحُكّم فيه حُكيم ، ووليه عمار ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر : عدىّ بن حاتم][2] والأشتر النخعىّ ، وعمرو بن الحمق ، وجدّ فى أمره رَجُلان وطلحة والزّبير ، وأبرأ الناس منه علىّ . قال: ثم مَهْ ، قال : ثم تهافَتَ الناس على علىّ بالبيعة تهافُتَ الفَراش ، حتى ضاعت النعل[3] وسقط الرّداء ، ووُطِئ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له ، ثم تهيّأ للسير ، وخفّ معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد ابن مالك، وعبدالله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستكره أحداً ، واستغنى بمن خفّ معه عمّن ثقُل . ثم سار حتى أتى جبل طيّئ ، فأتته منّا جماعة كان ضاربا بهم الناس ؛ حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرّح رجالا إلى الكوفة يدعونهم؛ فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة ، فإذا هى فى كفّه ، ثم قدم الكوفة فحمل إليه الصبىّ ، ودبّت إليه العجوز ، وخرجت إليه العَرُوس فرحاً به وشوقاً إليه ؛ وتركته وليس له همة إلا الشام .

فذعِر معاوية من قوله ، وقال حابس : أيها الأمير ، لقد أسمعنى شعرا غيّر به حالى فى عثمان ، وعظّم به عليا عندى .

---

(١) صفين : « فره بذلك » .

(٢) مابين العلامتين تكملة من كتاب صفين .

(٣) صفين : « حتى ضلت النعل » .

فقال معاوية : أسمعتيه يا خُفاف ، فأنشده شعراً أوله :

قُلْتُ وَاللَّيلُ سَاقِطُ الأَكْنافِ ... وَلِجَنْبِي عَنِ الفِرَاشِ تَجَافِ

ـ يذكر فيه حال عثمان وقتله ، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره[1] ... ومن جملته :

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ به الدَّهـرُ كما مَرَّ ذاهبُ الأسْلافِ[2]

إنني والذي يَحُجُّ لَهُ النَّا ... سُ على لُحّقِ البُطون عجافِ[3]

تَتَبارَى مثل القِسِيّ من النَّبْـعِ بِشُعْثٍ مثلِ السِّهامِ نحافِ[4]

ارهَبِ اليَوم إن أتاكم عليٌّ ... صيحةً مثل صَيْحَةِ الأحقافِ

إنه الليث غادياً وشُجَـاعٌ ... مُطْرِقٌ نافث بِسُمٍّ زُعافِ[5]

واضعُ السيفِ فوق عاتقه الأ ... مَن يَفْرِي به شئون القِحافِ[6]

سَوَّمَ الخيـلَ ثم قال لقوم ... بايعوه إلى الطعان خِفـافِ[7]

استعدّوا لحربِ طاغية الشا ... م فلبّوه كالبنين اللطـافِ

ثم قالوا أنتَ الجناح لك الرِّيـ ... ـشُ القُدامَى ونحن منه الخوافي[8]

فانظُر اليوم قبل بادرة القو ... م بسلمٍ تَهُمّ أم بخلافِ[9]

قال : فانكسر معاوية ، وقال : ياحابس ، إنى لأظنّ هذا عيناً لعلىّ ، أخرجه عنك لئلا يُفسِد علينا أهل الشام .

---

(١) كلمة غير واضحة فى جميع الأصول .

(٢) القصيدة كاملة فى كتاب صفين ٧٣ ـ ٧٥ .

(٣) اللحق : جمع لاحق ؛ وهو الضامر من الخيل .

(٤) صفين : « مثل الرصاف » .

(٥) الشجاع هنا : الحية .

(٦) القحاف : عظام الجماجم . والشئون : مجتمع قبائل الرأس . وفى صفين : « يفرى » .

(٧) سوم الخيل : أعلمها بعلامة .

(٨) القدامى : الريشات التى تكون فى مقدمة الجناح ، الواحدة قادمة . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . وفى المثل : « ليس القوادم كالخوافى » .

(٩) صفين : « بادية القوم » .

قال نصر : وحدّثنا عطية بن غَنِيّ(١) ، عن زياد بن رستم ، قال :(٢) كتب معاوية إلى عبدالله بن عمر خاصّة ، وإلى سعد بن أبى وقّاص ، وإلى محمد بن مسلمة ، دُونَ كتابه إلى أهل المدينة ، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إلىّ أن يجتمعَ عليه الناس(٣) بعد قتل عثمان منك ، ثم ذكرتُ خَذْلك إياه ، وطعنك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ؛ وقد هوّن ذلك علىّ خلافُك عَلَى علىّ ، ومحا عنك بعضَ ما كان منك ، فأعِنّا ـ رحمك الله ـ عَلَى حقّ هذا الخليفة المظلوم ؛ فإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدُها لك ؛ فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين(٤) .

فأجابه عبد الله بن عمر :

أمّا بعد، فإنّ الرأى الذى أطمعك فىّ، هو الذى صيّرك إلى ما صيّرك إليه . أترُكُ عَلِيًّا فى المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين ، وأتبعك ! وأمّا زعمُك أنى طعنتُ عَلَى علىّ ، فلعمرى ما أنا كعلىّ فى الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونكايته فى المشركين ؛ ولكنّى عهد(٥) إلىّ فى هذا الأمر عهدٌ ، ففزعْتُ فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هُدًى ففضلٌ تركتُه ، وإن كان ضلالًا فشرٌّ نجوت منه ، فأغْنِ عنّا نفسَك ، والسلام(٦) .

---

(١) كذا فى ا ، وصفين ، وفى ب : « غناء » ، وفى ج : « مغنى » .

(٢) كتاب صفين ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) صفين : « الأمة » .

(٤) ذكر فى كتاب صفين أبياتا مطلعها :

أَلا قُلْ لعبدِ اللهِ وَاخْصُصْ مُحَمَّدًا ... وَفَارِسَنَا الْمَأْمُونَ سَعْدَ بْنَ مَالِكِ

(٥) صفين : « ولكن حدث أمر لم يكن من رسول الله إلىّ فيه عهد » .

(٦) فى كتاب صفين : « ثم قال لابن أبى غزية : أجب الرجل ـ وكان أبوه ناسكا ، وكان من أشعر قريش فقال » . . . وذكر أبياتا مطلعها :

مُعَاوِيَ لَا تَرْجُو الَّذِي لَسْتَ نَائِلًا ... وحاولْ نَصِيراً غير سعدِ بن مالك

قال : وكان كتاب معاوية إلى سعد :

أما بعدُ ؛ فإنّ أحقّ الناس بنصر عثمان أهل الشورَى من قريش ؛ الذين أثبتوا حقّه واختاروه على غيره ، وقد نَصَرَه طلحة والزبير ، وهما شريكان فى الأمر ، ونظيراك فى الإسلام ، وخَفّت لذلك أمّ المؤمنين ، فلا تكرهَنّ ما رضُوا ، ولا تردّنّ ما قبلوا ، فإنّا نردّها شورى بين المسلمين(١) .

فأجابه سعد .

أما بعدُ فإن عمر لم يُدخِل فى الشّورى إلّا مَنْ تَحِلّ له الخلافةُ من قريش ؛ فلم يكن أحد منا أحقّ بها من صاحبه إلّا بإجماعنا(٢) عليه ؛ ألَا إن عليًا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ؛ وهذا أمر قد كرِهتُ أولَه ، وكرِهتُ آخره ؛ فأما طلحةُ والزبير فلو لزما بيوتَهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر لأمّ المؤمنين ما أتت . والسلام(٣) .

قال : وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة :

أما بعدُ ، فإنّى لم أكتبْ إليك وأنا أرجو متابعتَك(٤) ؛ ولكنى أردتُ أن أذكّرك النّعمةَ التى خرجتَ منها ، والشكّ الذى صرت إليه ؛ إنك فارسُ الأنصار ، وعُدّة المهاجرين ؛ وقد ادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا لم تستطع إلا أن تمضيَ عليه ؛ وهو أنّه نهاك عن قتال أهل القِبْلة(٥) ، أفلا نهيتَ أهلَ القبلة(٥) عن قتال بعضهم بعضا !

(١) فى كتاب صفين : ٨٣ « وقال شعرا » ؛ وذكر أبياتا أولها :

ألَا يا سعدُ قدْ أظهرْتَ شكًّا ... وشكُّ المرْء فِى الأحْداثِ داء

(٢) كتاب صفين : « بإجماعنا » .

(٣) فى كتاب صفين ٨٤ : « ثم أجابه فى الشعر » ، وذكر أبياتا أولها :

معاوِيَ داؤكَ الدّاءُ العياءُ ... فليسَ لمـا تجيء به دَوَاء

(٤) كتاب صفين : « متابعتك » .

(٥) كتاب صفين : « الصلاة » .

فقد كان عليك أن تكرَه لهم ما كره رسول الله صلى الله عليه ، ألم تر عثمانَ وأهلَ الدار من أهل القبلة (١) ! فأما قومك فقد عَصَوْا الله ، وخذلُوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة . والسلام .

قال : فكتب إليه محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فقد اعتزلَ هذا الأمر مَنْ ليس فى يده من رسول الله صلى الله عليه مثل الذى فى يده ؛ قد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرتُ سيفى ، وجلست فى بيتى ، واتهمت الرأىَ على الدِّين ؛ إذ لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه. وأمّا أنت فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى وإن تنصر عثمان ميّتاً فقد خذلته حيًّا ، والسلام (٢) .

***

[مفارقة جرير بن عبد الله البَجَلىّ لعلىّ]

قد أتينا علَى ما أردنا ذكره من حالِ أمير المؤمنين عليه السلام ، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة ، وما جرَى بينه وبين معاوية من المراسلات ، وماجرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ ؛ وماأجابوه به ؛ ونحن نذكرُ الآن ما جرى لجرير بن عبدالله عند عَوْده إلى أمير المؤمنين من تُهمة الشيعة له بمالأة معاوية عليهم ، ومفارقته جنبةَ أمير المؤمنين .

قال نصر بن مُزاحم :(٣) حدثنا صالح بن صدقة ، بإسناده ، قال : قال لما رجع جريرٌ

---

(١) كتاب صفين : « الصلاة » .
(٢) تتمة الرسالة كما فى كتاب صفين ٨٦ : « فما أخرجنى الله من نعمة ، ولا صيرنى إلى شك ؛ إن كنت أبصرت خلاف ماتحبنى به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك » .
(٣) كتاب صفين ٦٦ – ٦٨ .

إلى عليّ عليه السلام ، كَثُرَ قول الناس في التّهمة لجرير في أمر معاوية ، فاجتمع جريرٌ والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أمَا والله يا أميرَ المؤمنين ، أن لو كنت أرسلتَني إلى معاوية ، لكنتُ خيراً لك من هذا الذي أرخَى خِناقة (١) ، وأقام عنده ؛ حتى لم يدعْ بابا يرجُو فَتْحَه إلّا فتحه ، ولا بابا يخاف أمرَه إلا سدّه .

فقال جرير : لو كنتَ والله أتيتَهم لقتلوك ــ وخوّفه بعمرو ، وذي الكَلاع ، وحَوْشب ــ(٢) وقال : إنهم يزعمون أنك من قَتَلَة عثمان .

فقال الأشتر: والله لو أتيتُهم ياجرير لم يُعيِنى جوابها ، ولم يثقل عليّ تحمّلُها ، ولحملت معاوية على خُطة أُعجِلهُ فيها عن الفِكر .

قال : فائتِهِم إذاً . قال : الآن وقد أفسدتَهم ووقَع بينهم الشرّ !

وروى نصر ، عن عُمير بن وعلة ، عن الشعبي قال :(٣) اجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام ، فقال الأشتر: أليس قد نهيتُك ياأميرَ المؤمنين أن تبعث جريرا ، وأخبرتُك بعداوته وغشّه ! وأقبل الأشتر يشتمه، ويقول : ياأخا بَجِيلة ،إنّ عثمان اشترى منك دينَك بهَمدان(٤)، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشي فوق الأرض؛ إنما أتيتَهم لتتّخِذَ عندهم يداً بمسيرِك إليهم ، ثم رجعتَ إلينا من عندهم ، تهددنا بهم ، وأنت والله منهم ، ولا أرى سعيَك إلا لهم ؛ لئن أطاعني فيك أميرُ المؤمنين ليَحبسنّك وأشباهك في حبس لاتخرجون منه حتى تَستَتِمّ هذه الأمور ، ويُهلك الله الظالمين .

قال جرير : وددت والله أن لَوْ كنتَ مكاني بُعِثتَ ؛ إذن والله لم ترجع .

---

(١) صفين : « من خناقه » .
(٢) صفين : « وحوشب بن ظليم » .
(٣) كتاب صفين ٦٧ ، ٦٨ .
(٤) كذا في ب وصفين ، وفي ج : « بهمذان » .

قال : فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله ، فارقَ عليًّا عليه السلام ، فلحِق بقَرْقِيسياء[١] ولحق به ناس من قَسْر[٢] من قومه ، فلم يشهد صِفِّين من قَسْر غير تسعة عشر رجلا ؛ ولكن شهدها من أَحْمَس[٣] سبعمائة رجل .

قال نصر : وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحَوْشب [وذى الكَلاع][٤] :

لعمرُكَ ياجريرُ لَقولُ عَمْرو ... وصاحبِه معاويَ بالشآم
وذى كَلَعٍ وحَوْشبَ ذى ظَلَيْمٍ ... أخفُّ عَلَيَّ من رِيشِ النعام[٥]
إذَا اجتمعوا عَلَيَّ فخلِّ عنهم ... وعن بازٍ مخالبُه دوامِى
وَلَسْتُ بخائفٍ ماخوَّفُونِى ... وكيف أخاف أحلام النيامِ !
وَهَمُّهمُ الذى حامُوا عليه ... من الدُّنيا ، وهَمِّى ما أمامى[٦]
فإنْ أَسْلَمْ ، أعُمُّهُمْ بحربٍ ... يَشيب لهولِها رأسُ الغلامِ
وإنْ أهلِكْ فقد قدَّمْتُ أمراً ... أفوز بفَلْجِه يَوْمَ الخصامِ[٧]
وقد زادُوا علىَّ وأوْعَدونى ... وَمَنْ ذا ماتَ من خَوْفِ الكلامِ !

* * *

[نسب جرير بن عبد الله البَجَلِيّ وبعض أخباره]

وذكر ابن قتيبة فى " المعارف " ، أنّ جريراً قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) قرقيسياء : بلد بالخابور عند مصبه .
(٢) قسر : رهط جرير بن عبد الله البجلى .
(٣) أحمس : بطن فى بجيلة .
(٤) من كتاب صفين .
(٥) صفين : « من زف النعام » . والزف : صغار ريش النعام .
(٦) ب : « وهمهما » .
(٧) الفلج : الفوز والانتصار .

سنة عشرٍ من الهجرة فى شهر رمضان ، فبايعه وأسلم ، وكان جريرٌ صبيح الوجه جميلا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «كأنّ على وجهه مَسْحةَ ملَك. وكان عمر يقول : جرير يوسف هذه الأمة . وكان طُوالا يفتل فى ذِرْوة البعير من طوله ، وكانت نعله ذراعا، وكان يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلُها إذا أصبح ، فتخرجُ مثلَ لون التّبْر . واعتزل عليًا عليه السلام ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحِيها حتى توفّيَ بالشّراة سنة أربع وخمسين فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة(١) .

***

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبيّ فى " جمهرة الأنساب "، فقال :هو جرير بن عبد الله ابن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلب بن جُشَم بن عُوَيْف بن حرب بن عليّ بن مالك ابن سعد بن بدير بن قَسْر ـ واسمه مالك ـ بن عبقر بن أنمار بن أراش ابن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن زيد بن كَهْلان .

ويذكر أهل السِّيَر أن عليًا عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممّن خرج معه،حيث فارق عليًا عليه السلام ، منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القَسْرى ، كان خَتَنه على ابنته ، وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبى أراكة قديما، ولعله اليوم نُسِى ذلك الاسم.

---

(١) المعارف ٢٩٢ ، وانظر طبقات فقهاء اليمن للجعدى ٤٥ ، ٤٦ .

(٤٤)

ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ إلى معاوية ، وكان قد ابتاع سبْيَ بنى ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام، فقال :

الأصْلُ :

قَبَحَ اللهُ مَصْقَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَهُ .

الشّرْحُ :

خاس به يَخِيس ويخوس : أى غَدَرَ به ، وخاسَ فلان بالعهد : أى نكث .

وقَبَح الله فلانا : أى نحاه عن الخير ، فهو مقبوح .

والتبكيت ، كالتقريع والتعنيف . والوُفور . مصدر وَفَر المال : أى تَمّ ، ويجىء متعدّيا . ويروى «موفوره» ، والموفور : التامّ ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

يامَنْ مَدَحْنَاهُ فأكْذَبَنا ... بِفَعاله وأثابنا خجَلا
بُرداً قشيبا من مدائحنا ... سُرْبِلْتَ فارْدُده لنا سَمَلا[1]
إنّ التجارِب تهتِك المستورَمِنْ ... أبنائها وتُبهْرِجُ الرّجُلا

---

(١) السمل : الثوب البالى .

[نسب بنى ناجية]

فأمّا القول فى نَسَب بنى ناجية ؛ فإنّهم ينسبون أنفسَهم إلى سامة بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . وقريش تدفعُهم عن هذا النسب ، ويسمّونهم بنى ناجية — وهى أمهم — وهى امرأة سامة بن لؤىّ بن غالب ، ويقولون : إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مُغاضِبا لأخيه كعب بن لؤىّ فى مُماظّة[1] كانت بينهما ، فطأطأت ناقتُه رأسَها لتأخذ العُشْب ، فعَلِق بِمِشْفَرِها أفعى ، ثم عطفت على قَتَبها فحكّته به ، فدبّ الأفعى على القَتَب حتى نهش ساق سامة فقتله ، فقال أخوه كعب بن لؤىّ يرثيه[2] :

عينُ جُودى لسامةَ بنَ لُؤَىٍّ ... عَلِقَتْ ساقَ سامةَ الْعَلاقَه[3]

رُبَّ كأسٍ هرَقْتَها ابنَ لُؤَىٍّ ... حَذَرَ الموتِ لم تَكُنْ مُهَرَاقَهْ

قالوا : وكانت معه امرأتُه ناجية ، فلما مات تزوّجتْ رجلا فى البحرين ، فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير ، فلما ترعرع طمِعت أمه أنْ تُلْحِقه بقريش ، فأخبرتْه أنّه ابنُ سامة بن لؤى بن غالب ، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه ، فأخبر كعب ابن لؤى أنه ابن أخيه سامة ، فعرف كعبٌ أمّه ناجية ، فظنّ أنه صادق فى دعواه ، فقبِله ومكث عنده مدة ؛ حتى قَدِم مكة ركبٌ من البحرين ؛ فرأوا الحارث ، فسلّموا عليه ، وحادثوه ، فسألهم كعب بن لؤى : من أين يعرفونه ؟ فقالوا : هذا ابنُ رجلٍ من بلدنا يُعرَف بفلان ، وشرحوا له خبَره ، فنفاه كعب عن مكّة ونفى أمّه ، فرجعا إلى البحرين ، فكانا هناك ، وتزوّج الحارث ، فأعقب هذا العَقِب .

---

(١) المماظة : المخاصمة والمنازعة .

(٢) ويروى أن قائلة هذا الشعر امرأة أزدية كان سامة نزل بزوجها ، فى خبر وأبيات أخرى ذكره صاحب اللسان فى ١٢ : ١٩٥ .

(٣) العلاقة : المنية .

وقال هؤلاء : إنه رُوِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « عَمِّى سامة لم يُعقِب »[1] .

وزعم ابنُ الكلبي أن سامَةَ بن لؤىّ ولَدَ غالب بن سامة ، والحارث بن سامة ـ وأم غالب ابن سامة ناجية ـ ثم هَلَكَ سامة ، فخلف عليها ابنُهُ الحارث بن سامة ، نِـكاحَ مَقْت[2] ، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعقِبا ؛ وإنّ قوما من بنى ناجية بن جَرْم بن ربّان بن عِلَاف ، ادّعوا أنهم بنو سامةَ بن لؤىّ ، وأنّ أمهم ناجية هذه ، ونسبوها هذا النسب ، وانتموْا إلى الحارث بن سامة ، وهم الذين باعهم علىّ عليه السلام على مَصْقلة بن هُبيرة . وهذا هو قول الهيثم بن عدىّ . كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى " كتاب الأغانى الكبير "[3] .

ووجدت أنا فى " جمهرة النسب " لابن الكلبىّ كلاما قد صرّح فيه بأنّ سامة بن لؤىّ أعقَبَ ، فقال : ولَدَ سامة بن لؤىّ الحارثَ ـ وأمه هند بنت تَيم ـ وغالب بن سامة ـ وأمه ناجية بنت جَرْم بن بابّان ، من قُضاعة ، فهلك غالب بعد أبيه ؛ وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فولد الحارث بن سامة لؤيا وعبيدة وربيعة وسعدا ، وأمهم سَلْمى بنت تَيم بن شَيْبان ابن محارب بن فهر وعبد البيت ، وأمه نَاجية بنت جَرْم ، خَلَف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مَقْت ، فهم الذين قتلهم علىّ عليه السلام .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : أما الزّبير بن بكّار ، فإنه أدخلهم فى قريش ؛ وهم قريش العازبة ، قال : وإنما سُمّوا العازبة ؛ لأنهم عَزَبو عن قومهم فنُسِبوا إلى أمهم ناجية بنت جَرْم بن رَبّان بن عِلاف ، وهو أول من اتخذ الرّحال العِلافيّة ، فنسبت إليه ،

(١) بقية الخبر كما فى الأغانى : « وكان بنو ناجية ارتدوا عن الإسلام ، ولما ولى على بن أبى طالب رضى عنه الخلافة دعاهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الردة ، فسباهم واسترقهم ، فاشتراهم مصقلة ابن هبيرة منه ، وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقى على نفسه ، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله إلى معاوية ، فصاروا أحراراً ، ولزمه الثمن ، فشعث على بن أبى طالب شيئا من داره ، وقيل بل هدمها . فلم يدخل مصقلة الكوفة حتى قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

(٢) نكاح المقت : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ؛ وكان يفعل فى الجاهلية وحرمه الإسلام.

(٣) الأغانى ١٠ : ٢٠٥ ـ ٢٠٧ (طبعة الدار) .

واسم ناجية ليلى ؛ وإنمـا سميت ناجية ، لأنها سارت مع سَامَة فى مفازة ، فعطِشت ، فاستسقته ، فقال لها : الماء بين يديك ، وهو يُريها السراب ؛ حتى أتت إلى الماء فشَرِبت ، فسميت ناجية .

قال أبو الفرج : وللزبير بن بكار فى إدخالهم فى قريش مذهب ؛ وهو مخالفة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وميله إليهم ، لإجماعهم على بُغْضه عليه السلام ، حسب المشهور المأثور من مذهب الزُّبير فى ذلك .

***

[نسب علىّ بن الجهم وذكر طائفة من أخباره وشعره]

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤىّ علىّ بن الجهم الشاعر ، وهو علىّ بن الجهم بن بدر بن جَهْم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كَرّاز بن كعب بن جابر بن مالك ابن عُتْبة[1] بن الحارث بن عبدالبيت بن سامة بن لؤىّ بن غالب .

هكذا ينسُب نفسَه ، وكان مبغِضاً لعلىّ عليه السلام ، ينحو نحو مروان بن أبى حفصة فى هجاء الطالبيّين وذمّ الشيعة ، وهو القائل :

وَرَافِضَةٍ تقول بِشِعْبِ رَضْوَى : إمام ، خابَ ذلكَ من إمام ![2]
إمامٌ من له عشرون ألفـا من الأتراك مُشْرَعة السهام !

وقد هجاه أبو عبادة البحترىّ ، فقال فيه .

إذا مَا حُصِّلَتْ عُلْيَا قُرَيْشٍ فَلاَ فِى العِـيرِ أنتَ وَلَا النَّفِيرِ[3]
وَلَوْ أعطـاكَ رَبُّكَ ماتمنّى لزاد الخلقَ فى عِظَمِ الأُيُورِ

(١) فى الأغانى : « عينية » .
(٢) الأغانى ١٠ : ٢٠٥ .
(٣) ديوانه ٢ : ١٠٣٨ (دار المعارف) ، والأغانى ١٠ : ٢٠٦

وما الجهمُ بنُ بدرٍ حين يُعزَى ... من الأقمار ثَمَّ ولا البُدُورِ (١)
عَلامَ هجوتَ مجتهداً عليّاً ... بما لفّقتَ مِنْ كَذِبٍ وَزُورِ !
أَمَالَكَ فِي استكَ الوَجعاءِ شُغلٌ ... يكفُّك عَنْ أذَى أهلِ القبُورِ !

• • •

وسمع أبو العيناء عليَّ بن الجهم يوما يطعُن على أمير المؤمنين ، فقال له: أنا أدرى لم تطعن على أمير المؤمنين ! فقال : أتعنى قِصّة بيْعه أهلي من مصقلة بن هُبيرة ؟ قال : لا ، أنت أوضع من ذلك ؛ ولكنّه عليه السلام قَتَل الفاعل مِنْ قوم لوط ، والمفعول به ، وأنت أسفلهما .

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل (٢) :

ألمْ تَرَ مُظْهِرِينَ عَلَيَّ عَتْبًا (٣) ... وَهُمْ بالأمسِ إخوانُ الصَّفاء
فلمّا أنْ بُليتُ غَدَوْا وَراحُوا (٤) ... عَلَيَّ أشَدَّ أسْباب البَلاءِ
أبتْ أخطارُهم أنْ يَنصُرُونى ... بمالٍ أو بجاهٍ أو بَرَاءِ (٥)
وَخَافُوا أنْ يقال لهمْ : خَذَلْتمْ ... صَدِيقا ، فادَّعَوْا قِدَمَ الجفاءِ
تظافرتِ الروافضُ والنَّصارى ... وأهلُ الإعتزال عَلَى هجائى

---

(١) الديوان والأغانى : « ومارغثاؤك » وفى حواشى الأغانى : « الرغثاء أصلها عصب أو عرق فى الثدى يدر اللبن ؛ واستعملها البحترى هنا فى الأب » .

(٢) من قصيدة طويلة فى ديوانه ٨١ ـ ٨٥ ؛ وفى الأغانى ١٠ : ٢٠٦ ـ ٢٠٨ : « كان على بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبه عند المتوكل ، فحبسه المتوكل ، فقال على بن الجهم فى حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل ، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان . فقال أول ماحبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ؛ أولها قوله :

توكّلْنا على رَبِّ السّماءِ ... وَسَلّمْنا لأسبابِ القَضاءِ

ثم أورد القصيدة .

(٣) الأغانى : « عيبا » ، والديوان : « غشا » .

(٤) الديوان : « بليت بنكبة غدوا وراحوا » .

(٥) الديوان : « براء » ، وقال فى شرحه : الراء : الرأى .

وَعَابُونِى وَمَا ذَنْبِى إِلَيهِمْ   سِوَى عِلْمِى بِأَوْلَادِ الزِّنَاء

يعنى بالروافض : نجاح بن مسلمة[١] ، والنصارى بَخْتيشوع[٢] ، وأهل الاعتزال على[٣] بن يحيى بن المنجّم[٤] .

قال أبو الفَرَج : [٥] وكان علىُّ بنُ الجهم من الحَشْوِيّة[٦] ، شديدَ النَّصْب[٧] عدوًّا للتوحيد والعدْل ؛ فلما سَخِط المتوكّل على أحمد بن أبى دُوَاد وكَفأه[٨] ، شَمِت به علىّ بن الجهم ، فهجاه ، وقال فيه[٩] :

يا أحمـــدُ بنَ أبى دُوَادٍ دعوة   بعثَتْ عليكَ جَنادِلًا وَحَدِيدا[١٠]

ما هــذهِ البِدَعُ التى سميتَها   ـبالجهل منكـالعدْلَ والتوحيدا

أفسَدْتَ أمْرَ الدّين حين وَلِيتَهُ   وَرَمَيْتَه بأبى الوليد وليدا

---

(١) نجاح بن مسلمة ؛ كان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فى عهد المتوكل ؛ فكان جميع العمال يتقونه ؛ وكان المتوكل ربما نادمه ؛ وتوفى منكوباً سنة ٢٤٠ . تاريخ الطبرى (وفيات سنة ٢٤٠).

(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر المتطبب .

(٣) على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، نديم المتوكل وأحد خواصه المتقدمين عنده ؛ توفى سنة ٢٧٥ . ابن خلكان ١ : ٣٥٦ .

(٤) فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٢٠ : « وإنما عنى بالروافض الطاهريين ؛ وبأهل الاعتزال بنى دواد ، وبالنصارى بختيشوع بن جبريل ؛ فإنه كان يعاديه » .

(٥) الأغانى ١٠ : ٢١٧ .

(٦) الحشوية : فرقة من المرجئة يقولون : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ وعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض ، تفسير القرطبى ٤ : ١٦٢ .

(٧) النواصب : قوم يتدينون ببغضة على .   (٨) كفأه ، أى طرده وأبعده .

(٩) ذكر صاحب الأغانى فى هذا الخبر أنه لما حبس المتوكل على بن الجهم ، مدح أحمد بن أبى دواد عدة مدائح ، وسأله أن يقوم بأمره ؛ منها قوله :

يا أحمدُ بنَ أبى دُوَادٍ إنّما   تُدْعى لكلِّ عظيمةٍ يا أحمدُ

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودُونَهُ   خوضُ الرّدى ومخاوفٌ لا تنفَدُ

أنتم بنو عمّ النبىّ محمـــدٍ   أوْلَى بما شرعَ النبىُّ محمدُ

فلم يفعل وقعد عنه ؛ فلما نفى المتوكل أحمد بن أبى دواد شمت به على بن الجهم ، وهجاه بهذه الأبيات

(١٠) ديوانه ١٢٥ ، ١٢٦ .

- أبو الوليد بن أحمد بن أبى دواد ، وكان رثيه قاضيا[1] -

لَا مُحْكَماً جَلْداً ولا مُسْتَطْرَفاً   كَهْلاً ولا مُسْتَحْــدَثاً محْمُودَا[2]
شَرِهاً إذا ذُكِرَ المكارمُ والعُلَا   ذَكَرَ القَلَايَا مُبْدِئاً ومعيـداً[3]
وَيَوَدُّ لو مُسِخَتْ ربيعةُ كُلُّهـا   وَبنُو إيادٍ صَحْفَةً وَثَرِيدَا
وإذا تَرَبَّعَ فى المجالسِ خِلْتَهُ   ضَبُعاً وَخِلْتَ بنى أبيه قُرُودَا
وإذا تبسَّمَ ضاحِـكاً شَبَّهْتَهُ   شَرِقاً تَمَجَّلَ شُرْبَهُ مَرْدُودا
لا أصْبَحَتْ بالخيرِ عَيْنٌ أبصرَتْ   تِلْكَ المنـاخِرَ والثَّنـايا السُّودَا

وقال يهجوه لما فُلِـج[4] :

لَمْ يَبْقَ منكَ سِوَى خيالك لامعاً   فَوْقَ الفِرَاشِ مُمَهَّداً بِوِسَادِ
فرحتْ بمَصْرَعِكَ البَرِيَّةُ كُلُّها   مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِناً بمَعادِ
كَمْ مجلسٍ لله قَدْ عَطَّلْتَهُ   كى لا يُحَـدَّثَ فيه بالإسْنَادِ
وَلَكَمْ مصابيحٍ لنا أطْفَأْتَهـا   حتى تَحِيدَ عن الطريق الهـادى[5]
ولـكم كريمةِ مَعْشَرٍ أرمَلْتَها   ومُحَدِّثٍ أوْثَقْتَ فى الأقيادِ
إنّ الأُسارى فى السُّجون تَفَرَّجُوا   لمـا أتتكَ مَوَاكِبُ العُوَّادِ
وَغَدَا لمصرعك الطبيبُ فلمْ يَجِدْ   لدواء دائكَ حِيلَةَ المرتادِ
فذقِ الهوانَ معجَّلا ومؤجَّـلًا   والله ربُّ العَرْشِ بالمِرْصَـادِ
لا زال فَالِجُكَ الذى بك دائماً   وفُجِعْتَ قبل الموت بالأوْلادِ

---

(١) وكان يتولى المظالم بسرا من رأى ، وعزله المتوكل سنة ٢٣٧ .
(٢) الديوان والأغانى : « لا محكماً جزلا » والجزل هنا : الجيد الرأى .
(٣) القلايا : المقليات ؛ مفرده قلية .
(٤) ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩ ، والأغانى ١٠ : ٢٢٩ .
(٥) الأغانى : « حتى يزول عن الطريق الهادى » .

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب "الأغانى" فى ترجمة مروان بن أبى حفصة(1) الأصغر أنّ علىّ بن الجهم خطب امرأة من قريش، فلم يزوّجوه، وبلغ المتوكلَ ذلك، فسألَ عن السبب، فحدّث بقصة بنى سامة بن لؤىّ، وأن أبا بكر وعمر لم يُدْخِلام فى قريش، وأنّ عثمان أدخلهم فيها، وأنّ علياً عليه السلام أخرجهم منها، فارتدّوا، وأنه قتَل من ارتدّ منهم، وسَبَى بقيّتَهم، فباعهم من مَصْقلة بن هُبيرة، فضحك المتوكل، وبعث إلى علىّ بن الجهم فأحضره، وأخبره بما قال القوم، وكان فيهم مَرْوان بن أبى حفصة المكنّى أبا السمط وهو مَرْوان الأصغر، وكان المتوكّل يغريه بعلىّ بن الجهم، ويضعه على هجائه وثلبه، فيضحك منهما، فقال مروان:

إنّ جَهْماً حين تَنْسُبُه ... لَيْسَ مِنْ عُجْمٍ وَلَا عَرَبِ
لَجَّ فى شَتْمِى بِلَا سَبَبِ ... سارِقٌ للشِّعر والنَّسَبِ
مِنْ أناسٍ يدّعون أبا ... ماله فى النّاس مِنْ عَقِبِ

فغضب علىّ بن الجهم، ولم يجبه، لأنه كان يستحقره، فأومأ إليه المتوكّلُ أن يزيده، فقال:

أأنتم يابْنَ جَهْمٍ مِن قُرَيْشٍ ... وقد باعوكمُ ممّن تُرِيدُ
أترجو أن تكاثِرَنا جِهاراً ... بأصْلِكمُ وقد بيع الجدُودُ

فلم يجبه ابن الجهم، فقال فيه أيضا:

علىّ تعرّضتَ لى ضلّةً ... لجهلك بالشِّعر ياماِئقُ(2)
تَرُومُ قُرَيْشاً وَأنسابها ... وأنتَ لأنسابها سارقُ
فإنْ كان سامةُ جَدّاً لكمْ ... فأمّك منّى إذاً طالِقُ

---

(1) لم أجد هذا الخبر وهذا الشعر فيما طبع من كتاب الأغانى.
(2) المائق: الأحمق.

[نسب مَصقلة بن هبيرة]

فأمّا نَسَبُ مَصْقَلة بن هُبيرة ، فإنّ ابنَ الكلبي ، قد ذكره في " جمهرة النسب " فقال : هو مَصْقَلة بن هُبيرة بن شِبْل بن يثربيّ بن امرئ القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شَيْبان بن ثعلبة بن عُكابة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصَى بن دُعْمِيّ ، بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان .

***

[خبر بني ناجية مع عليّ]

وأما خبر بني ناجية مع أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد ذكره إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب " الغارات " قال :

حدثني محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، قال : حدّثني عمر بن سعد ، عمّن حدثه ممن أدرك أمْرَ بني ناجية ، قال : لما بايع أهلُ البصرة عليًّا بعد الهزيمة ، دخلوا في الطاعة غيرَ بني ناجية ، فإنهم عَسْكَرُوا ، فبعث إليهم عليّ عليه السلام رجلًا من أصحابه في خيل ليقاتِلَهم ، فأتاهم ، فقال : ما بالُكم عسكرتم ، وقد دخل الناس في الطاعة غيركم ! فافترقوا ثلاث فرق : فرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا ، ودخلنا فيما دخل الناس فيه من الفِتْنة ، ونحن نبايع كما بايع الناس ؛ فأمرهم فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فلم نسلم ، وخرجنا مع القوم الذين كانوا خرَجوا ؛ قهرونا فأخرجونا كرْهًا ، فخرجنا معهم فهزِموا ، فنحن ندخل فيما دخل الناس فيه ، ونعطيكم الجزية كما أعطيناهم ؛ فقال : اعتزلوا فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا فلم يُعجبنا الإسلام ، فرجَعْنا إلى النصرانية ، فنحن نعطيكم الجزية كأعطاكم النصارى . فقال لهم : توبوا وارجِعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فقتل مُقاتِلتَهم وسَبَى ذراريّهم ، وقدم بهم على عليّ عليه السلام .

[قصة الخرّيت بن راشد الناجيّ وخروجه على عليّ]

قال ابن هلال الثقفيّ : وروى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن أبي سيف ، عن الحارث ابن كعب الأزديّ ، عن عمّه عبد الله بن قُعَين الأزديّ ، قال : كان[1] الخرّيت بن راشد النّاجيّ ، أحد بني ناجية ، قد شهد مع علي عليه السلام صِفِّين، فجاء إلى عليّ عليه السلام بعد انقضاء صِفّين ، وبعد تحكيم الحكَمين في ثلاثين من أصحابه، يمشي بينهم حتى قام بين يديه ، فقال : لا والله لا أطيعُ أمرَك ، ولا أصلّي خلفَك ، وإني غدا لمفارق لك ؛ فقال له: ثَكِلَتْك أمّك ! إذاً تنقض عهدَك، وتَعصِي رَبّك، ولا تضرّ إلا نفسَك، أخبرْني لم تفعلُ ذلك ! قال: لأنّك حكّمت في الكتاب، وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجِدّ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسَهم ، فأنا عليك رادّ ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .

فقال له عليّ عليه السلام : وَيْحَك ! هلمّ إليّ أدارِسْك وأناظرْك في السُّنن، وأفاتحْك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك ؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبصر ما أنت الآن عنه عَمٍ وبه جاهل ، فقال الخرّيت : فإني غادٍ عليك غداً . فقال عليّ عليه السلام : اغدُ ولا يستهوينّك الشيطان ، ولا يتقحّمَنّ بك رأيُ السوء ، ولا يستخفّنّك الجهلاء الذين لا يعلمون ؛ فوالله إن استرشدتَني واستنصحتني وقبلت مِنّي لأهدينّك سبيل الرشاد .

فخرج الخرّيت من عنده مُنصرفا إلى أهله .

قال عبد الله بن قُعَين : فعجلت في أثره مُسْرِعا ، وكان لي من بني عمّه صديق ، فأردت أن ألْقَى ابنَ عمه في ذلك ، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين ، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه، وأنْ يأمرَه بطاعة أمير المؤمنين ومُناصحته ، ويخبره أنّ ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة .

قال : فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله ـ وقد سبقني ـ فقمت عند باب دار فيها رجال من أصحابه ، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام ، فوالله ما رَجَع

---

(١) وانظر الخبر أيضاً في تاريخ الطبري ٥ : ١١٣ وما بعدها .

ولا ندِم على ماقال لأمير المؤمنين وما رَدّ عليه ، ولكنه قال لهم : ياهؤلاء ، إنّى قد رأيت أنْ أفارِق هذا الرجل ، وقد فارقته على أن أرجع إليه من غدٍ ، ولا أرى إلا المفارقة؛ فقال له أكثرُ أصحابه : لا تفعلْ حتى تأتيَه ، فإن أتاك بأمرٍ تعرفه قبلتَ منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه ! قال لهم : نِعْمَ مارأيتم ؛ قال : فاستأذنت عليهم فأذنوا لِى ، فأقبلت على ابن عمّه — وهو مدرك بن الريّان النّاجىّ، وكان من كُبراء العرب — فقلت له : إن لك علىّ حقًّا لإحسانك ووُدّك وحقّ المسلم على المسلم[1]. إنّ ابن عمك كان منه ماقد ذُكِر لك ، فاخلُ به فاردد عليه رأيَه وعظِّم عليه ما أتى ؛ واعلم أنّى خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته فقال : جزاك الله خيرا من أخٍ ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففى ذلك هلاكه ، وإن اختار مُناصحته والإقامة معه ففى ذلك حظه ورُشده .

قال : فأردت الرجوعَ إلى علىّ عليه السلام ، لأعلِمه الذى كان ؛ ثم اطمأننتُ إلى قول صاحبى، فرجعت إلى منزلى ، فبتّ ثم أصبحت، فلما ارتفعَ النهارُ أتيتُ أمير المؤمنين عليه السلام ، فجلست عنده ساعة ، وأنا أريدُ أنْ أحدِّثه بالذى كان على خَلْوة ، فأطلتُ الجلوسَ ، ولا يزدادُ الناس إلا كثرة ، فدنَوْت منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إلىّ برأسه، فأخبرتُه بما سمعته من الخرِّيت ، وما قلتُ لابن عمه وما ردّ علىّ ، فقال عليه السلام : دَعْه ؛ فإن قَبِل الحقّ ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، فلمَ لا تأخذه الآن فتستوثقَ منه ؟ فقال : إنّا لو فعلنا هذا بكلّ مَنْ يُتّهم من الناس ملأْنا السجون منهم ، ولا أرانى يسعُنى الوثوبُ بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهِروا لى الخلاف .

قال : فسكتُّ عنه وتنحّيت ، فجلستُ مع أصحابى هُنيهة ، فقال لى عليه السلام :

(١) فى الطبرى : « بعد حق المسلم على المسلم » .

اذنُ مِنّى ، فدنوت ، فقال لى مُسِرًّا : اذهب إلى منزل الرجل فاعلَمْ مافعل ؛ فإنه قلّ يومٌ لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة ، فأتيتُ إلى منزله،فإذا ليس فى منزله منهم دَيّار ، فدُرْتُ على أبواب دور أخرى ، كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا مجيب. فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام،فقال لى حين رآنى:أوَطنوا(١) فأقاموا،أم جبنوا فظعنوا ؟ قلت:لا بل ظَعَنوا ، فقال : أبعدَهم الله كما بَعِدت ثمود ! أما والله لو قد أُشْرِعَتْ لهم الأسِنّة ، وصُبّت على هامِهم السيوف ، لقد نَدِموا؛إن الشيطان قد استهواهم وأضلّهم، وهو غداً متبرئ منهم ، ومُخلٍّ عنهم؛ فقام إليه زياد بن خَصَفة ، فقال : يا أميرَ المؤمنين؛ إنّه لو لم يكن من مَضَرّة هؤلاء إلّا فراقُهم إيّانا لم يعظُم فقدُهم علينا ، فإنّهم قَلّما يزيدون فى عددنا لو أقاموا معنا،وقلّما ينقُصون من عددنا بخروجهم منّا،ولكنّا نخاف أن يُفسِدوا علينا جماعة كثيرة ممّن يقدَمون عليهم من أهل طاعتك؛فائذَنْ لى فى اتباعهم حتى أردّهم عليك إن شاء الله .

فقال له عليه السلام : فاخرُج فى آثارهم راشداً ؛ فلما ذهب ليخرج قال له:وهل تدرِى أين توجّه القوم؟قال : لا والله ؛ ولكنّى أخرج فأسأل وأتْبَعُ الأثر،فقال : اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبى موسى ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمرى ؛ فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس فى جماعة ؛ فإنّ عمالى ستكتب إلىّ بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفِين ؛ فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إلى من حَوْلى من عُمّالى فيهم .

فكتب نسخةً واحدة وأخرجها إلى العمال :

من عبدِ الله على أمير المؤمنين إلى من قُرِئ عليه كتابى هذا من العمال ، أمّا بعد،فإن رجالًا لنا عندهم تبعة،خرجوا هُرّابا نظنّهم خرجوا نحو بلادِ البصرة، فاسأل عنهم أهلَ بلادك ، واجعَل عليهم العيون فى كلّ ناحية من أرضك ، ثم اكتب إلىّ بما ينتهى إليك عنهم . والسلام.

(١) وطن بالمكان ، أى أقام ، وانظر تاريخ الطبرى ٥ : ١١٥ .

فخرج زياد بن خَصَفة حتى أتى داره ، وجمع أصحابه فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال: يامعشرَ بكر بن وائل؛ إن أميرَ المؤمنين نَدَبني لأمرٍ من أموره مُهِمّ له، وأمرَني بالانكماش فيه بالعشيرة ؛ حتى آتيَ أمره ؛ وأنتم شيعته وأنصاره ، وأوثق حيّ من أحياء العرب في نفسِه، فانتدِبوا معي الساعة، وعجّلوا . فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلا ، فقال : اكتفينا لا نريد أكثر من هؤلاء ؛ فخرج حتى قطع الجسر ، ثم أتى دير أبي موسى فنزله ، فأقام به بقية يومه ذلك ، ينتظر أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام .

قال إبراهيم بن هلال : فحدّثني محمد بن عبد الله ، عن ابن أبي سيف ، عن أبي الصّلت التيميّ ، عن أبي سعيد ، عن عبد الله بن وأل التَّيميّ ، قال : إنّي لعند أمير المؤمنين؛ إذا فيجٌ[1] قد جاءه يسعى بكتاب من قَرَظة بن كعب بن عمرو الأنصاريّ — وكان أحدَ عماله — فيه :

لعبد الله علي أمير المؤمنين من قَرَظة بن كعب ، سلام عليك ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد :

فإني أخبرُ أميرَ المؤمنين، أنّ خيلا مَرّت من قِبَل الكوفة متوجّهة [نحو نِفّر][2] وأنّ رجلا من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلّى، يقال له : زاذان فروخ ؛ أقبل من عند أخوال له فلقوه ، فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم، قالوا : فما تقول في عليّ ؟ قال: أقول فيه خيرا ؛ أقول : إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيّد البشر ووصيّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم . فقالوا : كفرتَ ياعدوّ الله ! ثم حملت عليه عصابة منهم ، فقطّعوه بأسيافهم، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهوديًّا ، فقالوا له : مادينك ؟ قال : يهوديّ ، فقالوا:

---

(١) الفيج : رسول السلطان على رجله ؛ فارسي معرب « پيك » . تاج العروس ٢ : ٨٩ .
(٢) تكملة من تاريخ الطبري . ونفر : بلدة على نهر النرس .

خَلُّوا سبيلَ هـذا ، لاسبيلَ لـكم عليه ، فأقبل إلينا ذلك الذّمّيّ ، فأخبرنا الخبر ، وقد سألت عنهم ، فلم يخبرني أحد عنهم بشيء ، فليكتبْ إليَّ أمير المؤمنين فيهم برأيٍ أنتهِ إليه ، إن شاء الله .

فـكتب إليه أميرُ المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ؛ فقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر العصابة التي مَرّت بعملك ، فقتلَتِ البَرّ المسلم ، وأمن عندهم المخالف المشرك[1] ؛ وإنّ أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلُّوا ، كالذين حسبوا ألّا تكون فتنة فعَمُوا وصَمُّوا ، فأسمِعْ بهم وأبصِرْ يوم تُخْبَرُ[2] أعمالهم ! فالزم عَملَك وأقبِلْ عَلَى خراجك ؛ فإنّك كما ذكرت في طاعتك ونصيحتك ، والسلام .

قال : فـكتب عليّ عليـه السلام إلى زياد بن خَصَفة ، مع عبد الله بن وأل التيميّ ، كتابا نسخته :

أما بعد ، فقد كنتُ أمرتك أن تنزل دَيْر أبي موسى حتى يأتيك أمري ؛ وذلك أنّي لم أكن علمتُ أين توجّه القوم ، وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية من قُرى السّواد ، فاتّبع آثارهم وسلْ عنهم ؛ فإنّهم قد قتلوا رجلا من أهل السّواد مسلما مُصَلِّيا ، فإذا أنتَ لحقتَ بهم فارددهم إليّ ، فإنْ أبَوْا فناجِزْهم ، واستعِنْ بالله عليهم ؛ فإنّهم قد فارقوا الحقّ ، وسفكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيل . والسلام .

قال عبد الله بن وأل : فأخذتُ الكتاب منه عليه السلام ـ وأنا يومئذ شابّ ـ فمضيت به غيرَ بعيد ثم رجعت إليـه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، ألا أمضى مع زيـاد بن خَصَفة إلى عدوّك ، إذا دفعتُ إليه كتابك ؟ فقال : يابن أخي ، افعل ، فوالله إنّي لأرجو أن تكونَ من أعواني على الحقّ وأنصاري على القوم الظالمين . قال : فوالله ماأحبّ أنّ لي بمقالته

---

(١) الطبري : « الـكافر » .
(٢) كذا في ج والطبري ، وفي ا ، ب : « تحشر » .

تلك حُمْرَ النَّعم ، فقلت له : ياأميرَ المؤمنين ، أنا والله كذلك مِن أولئك ؛ أنا والله حيث تحب .

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب ، وأنا على فَرَس رائع كريم ، وعلىّ السلاح ، فقال لى زياد : يابن أخى، والله مالى عنك من غنًى[1]، وإنى أحبّ أن تكونَ معى فى وجهى هذا، فقلت : إنّى قد استأذنتُ أميرالمؤمنين فى ذلك فأذِن لى، فسُرَّ بذلك ، ثم خرجنا حتّى أتينا الموضعَ الذى كانوا فيه ، فسألنا عنهم ، فقيل : أخذوا نحو المدائن فلحقْناهم ؛ وهم نزول بالمدائن ، وقد أقاموا بها يوما وليلة ، وقد استراحوا وعَلفوا خيولهم ،فهم جامّون مريحون، وأتيناهم وقد تقطّعنا ولغِبنا ونصِبنا ؛ فلما رأَوْنا وثبوا على خيولهم، فاستووا عليها ، فجئنا حتى انتهينا إليهم ؛ فنادى الخِرّيت بن راشد : ياعميان القلوب والأبصار ، أمعَ الله وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين؟فقال له زياد بن خَصَفة :بل مع الله وكتابه وسُنّة رسوله، ومعَ مَن الله ورسوله وكتابه آثرُ عنده من الدنيا ثوابا ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تَفنى لآثرالله عليها . أيّها العُمى الأبصار ، الصمُّ الأسماع !

فقال الخِرّيت : فأخبرونا ماتريدون ؟ فقال له زياد ـ وكان مجرّبا رَفيقا : قد ترى مابِنا من النَّصَب واللّغوب[2]، والذى جئنا له لايصلح فيه الكلام عَلانية على رءوس أصحابك ؛ ولكن تنزلون وننزل ، ثم نخلو جميعا ، فنتذاكر أمرَنا وننظر فيه ؛ فإن رأيتَ فيما جئنا له حظًّا لنفسك قبلتَه ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أردّه عليك .

فقال الخرّيت : انزل، فنزل ، فأقبل إلينا زياد ، فقال: انزلوا عَلَى هذا الماء،فأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ،فنزلنا به ، فما هو إلاأنْ نزلنا فتفرقنا ،فتحلّقنا عشرةوتسعة وثمانيةوسبعة، تضع كلُّ حَلْقة طعامها بين أيديها ، لنأكل ثم نقوم إلى الماء فنشرب

(١) الطبرى : « غناء » .

(٢) الطبرى : « من السغوب واللغوب » .

وقال لنا زياد : علّقوا على خيولكم ، فعلّقنا عليها مخاليها ، ووقف زياد فى خمسة فوارس ؛ أحدهم عبد الله بن وأل بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحّوا ، فنزلوا وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرّقنا وتحلّقنا ، قال : سبحان الله ! أنتم أصحاب حرب ! والله لو أنّ هؤلاء جاءوكم الساعة على هذه الحالة ماأرادوا من غِرّتكم أفضلَ من أعمالكم التى أنتم عليها ؛ عجّلوا ، قوموا إلى خيولكم . فأسرعنا فمّنا من يتوضأ ، ومنا مَنْ يشرب ، ومنا مَنْ يسقى فرسَه ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زيادا ، وإنّ فى يده لَعَرْقًا[1] ينهسُه ، فنهس منه نهستين أو ثلاثة ، ثم أتى بإداوة فيها ماء ،فشرب ثم ألقى العَرْق من يده ،وقال :ياهؤلاء؛ إنا قد لَقِينا العدوّ ، وإنّ القوم لفى عُدّتكم ، ولقد حَزَرتُهم فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر ؛فإنى أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال ؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجزَ الفريقين .

ثم قال : ليأخذْ كلُّ رجل منكم بعنان فرسه ،فإذا دنوتُ منهم وكلّمت صاحبهم،فإن تابَعنى على ماأريد ؛ وإلّا فإذا دعوتكم فاستووا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معاً غيرَ متفرّقين . ثم استقدَم أمامنا وأنا معه ، فسمعتُ رجلًا من القوم يقول : جاءكم القومُ وهم كالّون مُعيون ، وأنتم جامّون[2] مُرِيحون[3] ؛ فتركتُموهم حتى نزَلوا فأكلوا وشربوا، وأراحوا دوابّهم ؛ هذا والله سوء الرأى .

قال : ودعا زيادٌ صاحبَهم الخِرّيت ، فقال له : اعتزلْ ننظر فى أمرنا ، فأقبل إليه فى خمسة نفر ؛ فقلتُ لزياد : أدعو لك ثلاثةَ نفَر من أصحابنا ؛ حتى نَلقاهم فى عَدَدهم ؟ فقال: ادع مَنْ أحببتَ . فدعوت له ثلاثة ؛ فكنا خمسة وهم خمسة .

فقال له زياد: ماالذى نقَمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا ؟ فقال : لم أرضَ

---

(١) العرق بالفتح : العظم بلحمه ، ويقال : نهش اللحم ، أى أخذه بمقدم أسنانه .
(٢) جم ، من الجمام ، وهو الراحة .
(٣) مريحون ؛ من قولهم : أراح فلان : إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء .

صاحبَكم إماما ، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة ، فرأيتُ أنْ أعتزِل ، وأكونَ معَ مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس ؛ فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضاً كنتُ مع الناس .

فقال زياد : ويحكَ ! وهل يجتمع الناس على رجل يُدانى عليًّا عالماً بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام ! فقال الخِرّيت : هو ما أقول لك ، فقال : ففيم قتلتم الرجل المسلم ؟ فقال الخِرّيت : ما أنا قتلته ؛ قتلته طائفة من أصحابى ، قال : فادفعهم إلينا قال : ما إلى ذلك من سبيل ، قال : أو هكذا أنت فاعل ! قال : هو ما تسمع .

قال : فدعوْنا أصحابنا ، ودعا الخِرّيت أصحابَه ، ثم اقتتلنا ؛ فوالله ما رأيت قِتالا مثله منذ خلقنى الله ، لقد تطاعَنّا[1] بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنت ، وعُقِرت[2] عامّة خيلنا وخَيْلهم ، وكَثُرت الجِراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتِل منّا رجلان : مولًى لزياد كانت معه رايتُه يدعى سويدا ، ورجلٌ من الأبناء يدعى واقد بن بكر ، وصُرِع منهم خمسة نَفَر ، وحالَ الليلُ بيننا وبينهم ؛ وقد والله كرِهُونا وكرهناهم ، وهَزُونا وهَزَزْناهم[3] ، وقد جرح زياد وجُرِحْتُ . ثم إنا بِتْنا في جانب وتنحَّوْا ، فمكثُوا ساعة من الليل ثم مضوْا ، فذهبوا وأصبحْنا ، فوجدناهم قد ذهبوا ؛ فوالله ما كرهنا ذلك ؛ فمضينا حتى أتينا البَصْرة ، وبلغنا أنّهم أتوا الأهْواز[4] ، فنزلوا في جانب منها ، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة ، لم يكن لهم من القوّة ما ينهضُون به[5] معهم حين نَهَضوا ؛ فاتبعوهم من بَعْد لحوقهم بالأهواز ، فأقاموا معهم .

قال : وكتَب زياد بن خَصَفَة إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنا لقينا عدوّ الله النّاجىّ وأصحابه بالمدائن ؛ فدعوناهم إلى الهُدَى والحقّ وكلمة

(١) الطبرى : « اطعنا » .

(٢) عقرت الدابة ؛ إذا قطعت قوائمها بالسيف .

(٣) هزونا وهززناهم ؛ أى كرهونا وكرهناهم .

(٤) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .

(٥) الطبرى : « ماينهضهم » .

السواء ؛ فتولّوا عن الحقّ وأخذتهم العزة بالإثم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل ؛ فقصَدُونا وصَمدْنا صَمْدَهم ، فاقتتلنا قتالا شديدا ما بين قائم الظهر إلى أن دَلَكت[1] الشمس ، واستشهد منّا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر ، وخلّوْا لنا المعركة ، وقدفشت فينا وفيهم الجراح . ثم إنّ القوم لمّا أدركوا الليل خرَجوا من تحته متنكّرين إلى أرض الأهواز ؛ وقد بلغنى أنّهم نزلوا من الأهواز جانبا . ونحن بالبصرة نداوِى جِراحنا ، وننتظر أمرَك رحمك الله ؛ والسلام .

فلما أتاه الكتاب ، قرأه على الناس ، فقام إليه معقل بن قَيْس الرِّياحىّ ، فقال : أصلحك الله يا أمير المؤمنين إنّما كان ينبغى أن يكون مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتَهم فى طلبهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحقوهم استأصلوا شأفتهم[2] ، وقطعوا دابرهم ؛ فأمّا أن تلقاهم بأعدادهم ؛ فلعمرى ليصبِرُنّ لهم ، فإنّهم قوم عرَب ، والعُدّة تصبر للعدّة ، فيقاتلون كل القتال .

قال : فقال عليه السلام له : تجهّزْ يا معقِل إليهم ، ونَدَب معه ألفين من أهل الكوفة ، فيهم يزيد بن معقل ، وكتب إلى عبدالله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى :

أمّا بعد ، فابعثْ رجلا من قِبَلِك صَلِيباً شجاعا ، معروفاً بالصلاح فى ألفَىْ رجل من أهل البَصْرة ، فليتْبَع معقل بن قيس ؛ فإذا خرج من أرض البَصْرة ، فهو أميرُ أصحابه حتى يَلْقى معقِلا ؛ فإذا لقيَه فمعقل أميرُ الفريقين ، فليسمع[3] منه وليُطِعْه ولا يخالفه ؛ ومُرْ زياد بن خَصَفة فليُقبِلْ إلينا ، فنعم المرء زياد ؛ ونعم القَبيلُ قبيله ؛ والسلام .

---

(١) دلكت الشمس : اصفرت وجنحت للمغيب .

(٢) الشأفة فى الأصل : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ؛ وإذا قطعت مات صاحبها ؛ وقولهم : استأصل الله شأفته ؛ أى أذهبه كما تذهب القرحة ، ومعناه أزاله من أصله .

(٣) الطبرى : « فليسمع من معقل » .

قال : وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفة :

أمابعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وفهمت ماذكرت به الناجىَ وأصحابه، الذين طَبَع الله على قلوبهم ، وزيّن لهم الشيطانُ أعمالهم ؛ فهم حَيارى عَمُون ، يَحْسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعا ؛ ووصفْتَ مابلغ بك وبهم الأمر ؛ فأما أنت وأصحابك فلله سعيُكم وعليه جزاؤكم ! وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خيرٌ له من الدنيا التى يُقْبِل الجاهلون بأنفسهم عليها ، فـ ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] : وأما عدوّكم الذين لقيتم فحسبُهم خروجهم من الهُدَى ، وارتكاسُهم فى الضّلالة، وردُّهم الحقّ ، وجماحُهم فى التِّيه، فذرْهم ومايفترون، ودَعْهم فى طُغيانهم يعمهون، فأسمِع بهم وأبصر ؛ فكأنك بهم عن قليل بين أسير و قتيل، فأقبِل إلينا أنت وأصحابُك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتم ، وأحسنتم البلاء . والسلام .

قال : ونزل الناجىَ جانبا من الأهواز ، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها ؛ مِمّن أراد كَسْر الخراج ومن اللصوص ، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه .

قال إبراهيم بن هلال : فحدثنا محمد بن عبدالله ، قال : حدثنى ابن أبى سيف ، عن الحارث بن كَعْب ، عن عبدالله بن قُعَين ، قال : كنت أنا وأخى كَعْب بن قُعَين فى ذلك الجيش مع مَعْقل بن قيس ، فلما أراد الخروج أتى أميرَ المؤمنين [2] عليه السلام يودّعه ، فقال : يامعقل بن قيس ؛ اتّقِ الله ما استطعت ؛ فإنّه وصية الله للمؤمنين؛ لا تَبْغِ على أهل القِبْلة ، ولا تَظْلِمْ أهلَ الذِّمة ولا تتكبّر ؛ فإنّ الله لا يحبُّ المتكبِّرين . فقال معقل : الله المستعان ، فقال : خيرُ مستعان .

---

(١) سورة النحل ٩٦ .

(٢) الطبرى : « أقبل إلى على » .

ثم قام فخرَج ، وخرجْنا معه ؛ حتى نزَل الأهواز ، فأقمنا ننتظر بَعْثَ البصرة ، فأبطأ علينا ، فقام مَعْقِل فقال : أيُّها الناس ؛ إنّا قد انتظرنا أهلَ البَصْرة ، وقد أبطئوا علينا ، وليس بنا بحمد الله قِلّة ولا وَحْشة إلى الناس ؛ فسيروا بنا إلى هذا العدوّ القليل الذّليل ؛ فإنى أرجو أن ينصرَكم الله ويُهلكهم . فقام إليه أخى كعب بن قُمَين فقال : أصبتَ إن شاء الله رأينا رأيك ، وإنى لأرجُو أن ينصرنا الله عليهم ؛ وإن كانت الأخرى ؛ فإنّ فى الموت على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا . فقال : سيروا على بركة الله . فسِرْنا ، فوالله ما زال معقل ابن قيس لى ولأخى مُكْرِمًا وادًّا ، ما يعدِلُ بنا أحداً من الجند ، ولا يزال يقول لأخى : كيف قلت : إن فى الموتِ على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا ! صدقت والله وأحسنت ، ووفقت وفقك الله ! قال : فوالله ما سِرْنا يوما ؛ وإذا بفيْج[1] يشتدّ بصحيفة فى يده .

من عبد الله بن عباس إلى مَعْقل بن قيس ، أما بعد ؛ فإنْ أدركَك رسولى بالمكان الذى كنتَ مقيما به ، أو أدركك وقد شَخَصْت منه ؛ فلا تبرحَنّ من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وأنت فيه ، حتى يقدَم عليك بعثُنا الذى وجّهناه إليك ، فقد وجّهت إليك خالد بن معدان الطائىّ ، وهو من أهل الدّين والصلاح والنجدة ، فاسمع منه واعرِف ذلك له إن شاء الله . والسلام .

قال : فقرأه معقِل بن قيس على أصحابه . فسرُّوا به ، وحَمِدوا الله ، وقد كان ذلك الوجه هالَهم . وأقمنا حتى قَدِم علينا خالد بن معدان الطائىّ ، وجاءنا حتى دخَلَ على صاحبنا ، فسلّم عليه بالإمْرة ، واجتمعنا جميعا فى عسكر واحد ، ثم خرجنا إلى الناجىّ وأصحابه ، فأخذوا يرتفعون نحو جِبال رَامَهُرْمُز ، يريدون قلعة حصينة ، وجاءنا أهلُ البلد . فأخبرونا بذلك ، فخرجنا فى آثارهم فلحقناهم ، وقد دنَوْا من الجبل ، فصففنا لهم ، ثم أقبلنا نحوهم ، فجعل مَعْقِل على ميمنته يزيد بن المعقل الأزدىّ ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبىّ ، ووقف

(١) انظر الحاشية ١ ص ١٣١ من هذا الجزء .

الخِرّيت بن راشد الناجيّ بمن معه من العَرب ، فكانوا ميمنة ، وجعلَ أهلَ البلد والعلُوجَ[١] ومَنْ أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة .

قال : وسار فينا مَعْقِل يحرّضنا، ويقول : ياعبادالله ، لا تبدءوا القوم، وغُضُّوا الأبصار، وأقلّوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضَّرْب ، وأبشروا فى قتالهم بالأجرالعظيم، إنما تقاتلون مارقةً مَرَقَتْ وعلُوجا[١] منعوا الخراج ، ولصوصا وأكراداً ، فما تنتظرون ! فإذا حملتُ فشدّوا شِدّة رجل واحد .

قال : فمرّ فى الصفّ يكلّمهم ، يقول هذه المقالة ، حتى إذا مرّ بالناس كلِّهم أقبل فوقف وسط الصفّ فى القَلْب ، ونظرنا إليه مايصنع ، فحرّك رأسه تحريكتين ، ثم حمَل فى الثالثة ؛ وحَمَلْنا معه جميعا ، فوالله ماصَبَرُوا لنا ساعة حتى ولّوا وانهزموا، وقتلنا سبعين عَرَبيًّا من بنى ناجية ، ومن بعضِ من اتّبعه من العرب ، ونحو ثلثمائة من العلُوج والأكراد .

قال كعب : ونظرتُ ، فإذا صديق مدرك بن الرّيان قتيلا ، وخرج الخِرّيت منهزما، حتى لحق بِسيف[٢] من أسياف البحر ؛ وبها جماعةٌ من قومه كثير ، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف علىّ عليه السلام ، ويزّين لهم فِراقه ، ويخبرهم أن الهُدَى فى حربه ومخالفته ، حتى اتّبعه منهم ناس كثير .

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفَتْح ، وكنتُ أنا الذى قَدِم بالكتاب عليه ، وكان فى الكتاب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ، من مَعقل بن قيس . سلام عليك ، فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلّاهو . أما بعدُ، فإنّا لقِينا المارقين ؛ وقد استظهروا علينا بالمشركين ؛

---

(١) العلوج : كفار العجم ؛ واحده علج .
(٢) السيف ، بالكسر : ساحل البحر .

فقتلنا منهم ناساً كثيرا ولم نَعْدُ فيهم سيرتك فلم نقتلْ منهم مُدْبِرا ولا أسيرا ؛ ولم نُذَفِّف[1] منهم على جريح ، وقد نصرك الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فلما قدمتُ بالكتاب على علىّ عليه السلام ، قرأه على أصحابه ، واستشارهم فى الرأى ، فاجتمع رأىُ عامّتهم على قول واحد . قالوا : نرى أنْ تكتُبَ إلى معقل بن قيس ؛ يَتّبع آثارهم ، ولا يزال فى طلبهم حتى يقتلَهم أو ينفيَهم من أرض الإسلام ؛ فإنا لا نأمن أن يُفْسِدوا عليك الناس .

قال : فردّنى إليه ، وكتب معى :

أما بعد ؛ فالحمدُ لله على تأييده أولياءه ، وخَذْله أعداءه ، جزاك الله والمسلمين خيرا ؛ فقد أحسنتم البلاء ، وقضيْتم ما عليكم ، فاسأل عن أخى بنى ناجية ، فإنْ بلَغَك أنه استقرّ فى بلد من البلدان ، فسِرْ إليه حتى تقتله أو تنفيَه ، فإنه لم يزل للمسلمين عدوًّا ، وللفاسقين وليًّا ، والسلام .

قال : فسأل مَعْقل عن مسيره والمكان الذى انتهى إليه ، فنُبِّئْ بمكانه بسيف البحر بفارس ، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة علىّ عليه السلام ، وأفسد مَنْ قِبَله من عبد القيس ، ومَنْ والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صِفّين ، ومنعوها فى ذلك العام أيضا ، فسار إليهم معقِل بن قيس فى ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة ، فأخذوا على أرض فارس ، حتى انتهوْا إلى أسياف البحر ؛ فلما سمع الخِرّيتُ بن راشد بمسيره ، أقبل على من كان معه من أصحابه ، ممّن يرى رأىَ الخوارج ، فأسرّ إليهم : إنى أرى رأيَكم ، وإن عليًّا ما كان ينبغى له أن يُحكّم الرجال فى دين الله ، وقال لمن يرى رأىَ عثمان وأصحابه : إنّا على رأيكم ، وإنّ عثمان قُتِل مظلوما معقولا ؛ وقال لمن منع الصّدَقه :

---

(١) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

شُدّوا أيديَكم على صدقاتكم ، ثم صِلُوا بها أرحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم ؛ فأرضَى كلّ طائفة بضربٍ من القول ؛ وكان فيهم نصارى كثير ، وقد كانوا أسلموا ؛ فلما رأوْا ذلك الاختلاف ، قالوا : والله لَدِيننا الذى خرجنا منه خيرٌ وأهدَى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينُهم عن سفك الدماء ، وإخافة السُّبل ؛ فرجعوا إلى دينهم .

فلقى الخرِّيت أولئك ، فقال : وَيْحكم ! إنه لا يُنجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ولقتالهم ، أتدرون ما حُكْم علىّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟ لا والله لا يسمعُ له قولا ، ولا يَرَى له عذرا ، ولا يَقبل منه توبة ، ولا يدعوه إليها ؛ وإنْ حكمه فيه أن يُضرَب عنقه ساعة يَستمْكِن منه ؛ فما زال حتى خَدَعهم وجاءهم مَنْ كان من بنى ناجية فى تلك الناحية ومن غيرهم ؛ فاجتمع إليه ناس كثير ، وكان مُنْكرا داهيًا .

قال : فلما رجع مَعْقِل ، قرأ على أصحابه كتابا من علىّ عليه السلام فيه :

مِن عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَن قُرِئ عليه كتابى هذا ؛ مِنَ المسلمين والمؤمنين والمارقين والنصارى والمرتدين . سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه ، والبعث بعد الموت وافيا بعهد الله ؛ ولم يكن مِن الخائنين ؛ أما بعدُ فإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ؛ وأنْ أعملَ فيكم بالحقّ وبما أمر الله تعالى فى كتابه ، فمَنْ رجع منكم إلى رَحْله وكفّ يده ، واعتزل هذا المارق[1] الهالك المحارِب[2] ؛ الذى حارب الله ورسوله والمسلمين ، وسعى فى الأرض فسادا ، فله الأمان على ماله ودمِه . وَمَن تابعه على حربِنا والخروج مِن طاعتِنا ، استعنّا بالله عليه ، وجعلناه بيننا وبينه ، وكفى بالله وليًّا . والسلام .

قال : فأخرج معقل رايةَ أمانٍ فنصبها ، وقال : مَنْ أتاها مِنَ الناس فهو آمن إلا الخِرّيت وأصحابه الذين نابذوا أوّل مرة ، فتفرق عن الخِرّيت كلُّ من كان معه مِن غير قومه ، وعَبّأ معقل بن قيس أصحابه ، ثم زحَف بهم نحوه ، وقد حَضَر مع الخِرّيت جميع

(١) ا : « الفاسق » .
(٢) ساقطة من ج .

قومه ! مسلمهم ونَصرانيّهم؛ومانعي الصدقة منهم،فجعل مسلميهم يَمْنة ، والنصارى ومانعي الصدقة يَسْرة ،وجعل يقول لقومه : امنعُوا اليوم حريمَكم،وقاتلوا عن نسائكم وأولادِكم، والله لئن ظهروا عليكم ليقتُلنّكم وليَسْلُبنّكم .

فقال له رجل من قومه : هذا والله ماجرَّته علينا يدُك ولسانُك ، فقال لهم : قاتلوا فقد سبقَ السيفُ العذَل .

قال : وسار معقِل بن قيس يحرّض أصحابَه فيما بين الميمنة والميسرة ، ويقول : أيّها الناس ، ماتدرون ما سِيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ! إنّ الله ساقكم إلى قوم مَنَعُوا الصدقة،وارتدّوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا ؛ إني شهيد لمن قُتِل منكم بالجنة ، ومن عاش بأن الله يُقِرّ عينه بالفتح والغنيمة ؛ ففعل ذلك حتى مَرّ بالناس أجمعين ، ثم وقف في القَلْب برايته ، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزديّ ، وهو في الميمنة ؛ أن احمِلْ عليهم ، فحمل ، فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفَه الذي كان فيه من الميمنة ، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبيّ ، وهو في الميسرة : أن احمِل عليهم ؛ فحمل فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان في الميسرة ، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته : إذا حملتُ فاحملوا جميعا . ثم أجرى فرسَه وضربها ، وحمل أصحابه ، فصبروا لهم ساعة .

ثم إنّ النعمان بن صهبان الراسبيّ بَصُر بالخِرّيت ، فحمل عليه ، فصرّعه عن فرسه ، ثم نزل إليه وقد جرّحه ، فاختلفا بينهما ضربتين ، فقتله النعمان وقُتِل معه في المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقون في الأرض يمينا وشمالا ، وبعث معقِل الخيل إلى رحالهم ، فسبَى[1] من أدرك فيها رجالا ونساء وصبيانا،ثم نظر فيهم ، فمَن كان مسلما خلّاه وأخذ

---

(١) السبي : الأسر .

بيعتَه ، وخلَّى سبيل عيالِه ، ومَنْ كان ارتدّ عن الإسلام عَرَض عليه الرجوعَ إلى الإسلام وإلّا القتل ؛ فأسلموا . فخلّى سبيلَهم،وسبيلَ عيالاتهم ؛ إلا شيخا منهم نصرانيا يقال له : الرماحس (١) بن منصور ؛ فإنه قال : والله مازلت (٢) مصيبا مذ عقلْت ؛ إلا فى خروجى من دينى ؛ دين الصدق ، إلى دينكم ، دين السوء ؛ لا والله لا أدعُ دينى ولا أقربُ دينكم ماحييت .

فقدّمه معقِل فضرب عنقه ، وجمع الناس ، فقال : أدّوا ماعليكم فى هذه السنين من الصَّدَقة ، فأخذ من المسلمين عِقالين،وعَمَد إلى النصارى وعِيالاتهم فاحتملهم معه ، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم ؛ يشيّعونهم، فأمر معقل بردّهم ؛ فلما ذهبوا لينصرفوا،تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضهم إلى بعض .

قال : فلقد رحمتُهم رحمة مارحمتُها أحداً قبلهم ولا بعدهم . وكتب معقل إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد ؛ فإنى أخبر أميرَ المؤمنين عن جُنْده وعن عدوه أنّا دفعنا إلى عدونا بأسْياف البحر ، فوجدْنا بها قبائلَ ذات حَدّ وعدد ؛ وقد جمعوا لنا،فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة، وإلى حُكْم الكتاب والسنة ؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ورفعنا لهم راية أمان ؛ فمالت إلينا طائفة منهم،وثبتت طائفة أخرى،فقبِلْنا أمر التى أقبلت،وصَمَدْنا إلى التى أدبرتْ ، فضرب الله وجوههم ، ونَصَرَنا عليهم ؛ فأما مَنْ كان مسلما ؛ فإنّا مننّا عليه ، وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين،وأخذنا منهم الصدقة التى كانت عليهم؛ وأمّا مَنْ ارتدّ فعرَضْنا عليهم الرجوع إلى الإسلام ؛ وإلا قتلناهم ؛ فرجعوا إلى الإسلام؛غيرَ رجل واحد فقتلناه ؛ وأمّا النصارى ؛ فإنّا سبيْناهم وأقبلنا بهم ؛ ليكونوا نَكالا لمن بعدهم من أهل الذِّمة ، كى لا يمنعوا الجزية ، ولا يجترئوا على قتال أهل القِبْلة ؛ وهم للصَّغار والذلة

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٨ ، وفى الأصول : « الرملحس » ، تحريف .
(٢) وفى الأصول : « ماظلت » ، والصواب ماأثبته من الطبرى .

أهلٌ . رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وعليك الصلاة والسلام ، وأوجب لك جنات النعيم . والسلام .

قال : ثم أقبل بالأسارى حتى مرّ على مَصْقَلة بن هُبيرة الشيبانيّ ، وهو عامل لعليّ عليه السلام على أردَشير خُرّة (١) وهم خمسمائة إنسان ، فبكى إليه النساء والصبيان ، وتصايح الرجال : يا أبا الفضل ، يا حامل الثِّقَل (٢) ، يا مُؤوِى الضعيف ، وفَكاك العصاة ، امنن علينا فاشترِنا وأعتقنا . فقال مصقلة : أقسم بالله لأتصدّقنّ عليهم ، إن الله يجزى المتصدّقين . فبلغ قولُه معقلَ بن قيس ، فقال : والله لو أعلمه قالها توجّعاً لهم وإزراء عليّ لضربتُ عنقه ، وإن كان في ذلك فناء بني تميم وبكر بن وائل .

ثم إن مصقلة بعث ذُهل بن الحارث الذهليّ إلى معقل ، فقال : بِعْني نصارى ناجية ، فقال : أبيعكهم بألف ألف درهم ؛ فأبى عليه ، فلم يزلْ يُراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم ، ودفعهم إليه ، وقال : عجّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال مصقلة : أنا باعث الآن بصَدْرٍ منه ، ثم أتبعك بصَدْرٍ آخر ، ثم كذلك حتى لا يَبْقى منه شيء . وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فأخبره بما كان من الأمر ، فقال له : أحسنتَ وأصبت وَوُفقت .

وانتظر عليّ عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال ، فأبطأ به . وبلغ علياً عليه السلام أنّ مصقلة خلَّى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه في فَكاك أنفسهم بشيء ، فقال : ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة ، ولا أراكم إلا سترونه عَنْ قريب مُبَلْدَحاً (٣) ، ثم كتب إليه :

---

(١) أردشير خرة ، بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وياء ساكنة وراء ، وخاء معجمة مضمومة ، وراء مفتوحة مشددة وهاء : من كورفارس (مراصد الاطلاع) .

(٢) الثقل . متاع الإنسان وحشمه .

(٣) المبلدح : الملقى على الأرض من الضرب .

أما بعد ؛ فإنّ من أعظم الخيانة خيانة[1] الأمة ، وأعظم الغِشّ على أهل المِصر غِشّ الإمام ، وعندك من حَقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إلىّ حين يأتيك رسولى ؛ وإلا فأقبِلْ إلىّ حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى قد تقدّمت إلى رسولى ألّا يدعَك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك ؛ إلا أن تبعث بالمال ، والسلام .

وكان الرسول أبو جُرّة الحنفىّ ، فقال له أبو جُرّة : إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخَصْ معى إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البَصرة ، وكان العمال يحملون المال من كُور البصرة إلى ابن عباس ؛ فيكونُ ابن عباس هو الذى يبعثُ به إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أقبل من البَصرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة ، فأقرّه أياما لم يذكر له شيئاً ، ثم سأله المال ، فأدّى إليه مائتى ألف درهم ، وعَجَز عن الباقى .

قال : فروى ابن أبى سيف ، عن أبى الصَّلت ، عن ذُهل بن الحارث ، قال : دعانى مَصقَلة إلى رَحْله ، فقدّم عشاء فطعمنا منه ، ثم قال : والله إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يسألنى هذا المال ، ووالله ماأقدر عليه ، فقلت له : لو شئت لم يمضِ عليك جُمعة حتى تجمعَ هذا المال ، فقال : ما كنت لأحمّلها قومى ، ولا أطلب فيها إلى أحد .

ثم قال : والله لو أنّ ابن هند مُطالِبى بها ، أو ابن عفّان ، لتركها لى ؛ ألم تر إلى عثمان كيف أعطَى الأشعثَ مائة ألف درهم من خراج أذْرَبيجان فى كل سنة ! فقلت : إنّ هذا لايَرى ذلك الرأى ، وما هو بتارك لك شيئا . فسكت ساعة ، وسكتُّ عنه ؛ فما مكث ليلة واحدة[2] بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية .

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال : ماله ترَحَهُ الله ! فعل فِعْل السّيد وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر ؛ أمَا إنه لو أقام فعجز مازدنا على حَبْسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه،

(١) كلمة « خيانة » ساقطة من ا ، ب ؛ ثابتة فى ج والطبرى .
(٢) الطبرى : « فلا والله ما مكث إلا ليلة واحدة » .

وإن لم نجد له مالًا تركناه . ثم سار عليّ عليه السلام إلى داره فهدمها .

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيبانيّ شيعةً لعلي عليه السلام ، مناصحاً ، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تَغْلِب ، يقال له حُلْوان :

أما بعدُ ؛ فإني كلّمتُ معاوية فيك ، فوعدَكَ الكرامة ، ومَنَّاك الإمارة ، فأقبِل ساعة تلقى رسولي . والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبيّ فسرح به إلى عليّ عليه السلام ، فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده ، فمات . وكتب نعيم إلى [أخيه] مصقلة شعرا لم يردّه عليه[1] :

لا ترمينّ هَـداكَ الله معترضا ... بالظنّ منك فما بالي وحُلْوانا

ذاكَ الحريصُ على مانالَ من طَمَعٍ ... وَهْوَ البعيدُ فَلَا يُورِثْكَ أحزانا[2]

مَاذَا أرَدْتَ إلى إرسالهِ سَفَهـاً ... تَرْجُو سِقَاطَ امرئٍ لم يُلْفَ وَسْنَانَا

عَرَّضْتَـه لِعَلِيٍّ إنه أَسَدٌ ... يَمْشِي العِرَضْنَةَ مِنْ آسَادِ خَفَّانا[3]

قَدْ كُنْتَ فى خَيْرِ مُصْطافٍ وَمُرْتَبَعٍ ... تَحْمِي العِرَاقَ وتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا[4]

حَتَّى تَقَحَّمْتَ أمراً كُنْتَ تَكرهُهُ ... لِلرَّاكِبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلَانَا

لَوْ كُنْتَ أَدَّيْتَ مالَ الله مصطبِرا ... للحقّ زَكَّيتَ أحيانَا ومَوْتَانَا[5]

لَكِنْ لَحِقْتَ بأهلِ الشَّام ملتمِساً ... فَضْلَ ابن هندٍ فَذَاكَ الرأىُ أشجانَا

فاليَوْمَ تقرَعُ سِنَّ العَجْزِ من ندمٍ[6] ... مَاذَا تقولُ وقَدْ كَانَ الذي كانا !

أَصْبَحْتَ تُبْغِضُكَ الأحياء قاطبـةً ... لم يَرْفَعِ اللهُ بالعصْيانِ إنسانا[7]

---

(١) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٠ وما بعدها .

(٢) الطبرى : « فلا يحزنك إذ خانا » .

(٣) العرضنة : البغى فى المشى من النشاط . وخفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٤) الطبرى : « قد كنت فى منظر عن ذا ومستمع » .

(٥) رواية الطبرى :

لَوْ كُنْتَ أَدَّيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُصْطَبِراً ... لِلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانَا وَمَوْتَانَا

(٦) الطبرى : « سن الغرم » .

(٧) الطبرى : « بالبغضاء إنسانا » .

فلما بلغ الكتاب إليه علم أن النصرانيّ قد هلك[1] ، ولم يلبث التغلبيّون إلا قليلا حتى بلغهم هلاكُ صاحبهم ، فأتوا مصقلة ، فقالوا : أنت أهلكت صاحبنا ؛ فإما أن تجيئنا[2] به ، وإما أن تديَهُ ؛ فقال : أما أنْ أجيء[3] به ، فلست أستطيع ذلك ؛ وأما أن أديه فنعم ، فوداه .

قال إبراهيم : وحدثني ابن أبي سيف ، عن عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال: قيل لعليّ عليه السلام حين هرب مَصقلة : اردد الذين سُبُوا ولم تستوف أثمانهم في الرّق ، فقال : ليس ذلك في القضاء بحق ؛ قد عَتَقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم ، وصار مالي ديناً على الذي اشتراهم .

وروى إبراهيم أيضا ، عن إبراهيم بن ميمون ، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التّمار ، عن عمار الدُّهني ، قال : لما هرب مصقلة قال أصحابُ عليّ عليه السلام له : يا أميرَ المؤمنين ، فَيئنا ! قال : إنه قد صار على غَريم من الغرماء ، فاطلبوه .

وقال ظبيان بن عُمارة ، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية :

هلّا صَبَرْتَ للقِرَاعِ ناجيا ... والمرْهَفَاتِ تختَلِي الهَوادِيا[4]
والطَّعْنِ في نُحورِكم تَوَاليا ... وصائباتِ الأسهم القواضيا

وقال ظَبْيان أيضا :

ألا فاصبِرُوا للطعنِ والضَّرْبِ ناجيا ... وللمرهفَات يختلين الهوادِيا
فقَدْ صَبَّ ربُّ الناسِ خِزْياً عَلَيْكُمُ ... وَصَيَّرَكُمْ مِنْ بَعْدِ عِزّ مواليا

---

(١) الطبري : « فلما وقع الكتاب إليه علم أن رسوله قد هلك » .
(٢) الطبري : « تحييه » .
(٣) الطبري : « أحييه » .
(٤) تختلي : تجز ، والهوادي هنا : الأعناق .

تمالَــكمُ بالخَيْلِ جُرْداً عواديا ... أخو ثقة لا يبرح الدهر غازيا
فصبّحكمْ فى رَحْلِكم وخيولكم ... بِضَرْبٍ يُرى منه المدّجّجُ هاويا
فأصبحتمُ من بعد عِزٍّ وكثرةٍ ... عبيدَ العصا لا تمنعون الذّراريا

قال إبراهيم بن هلال : وروى عبد الرحمن بن حبيب ، عن أبيه ، أنه لما بلغ علياً عليه السلام مصابُ بنى ناجية ، وقتلُ صاحبهم، قال : هوتْ أمّه ! ما كان أنقصَ عقله وأجرأه ! إنه جاءنى مرة فقال : إن فى أصحابك رجالًا قد خشيت أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت : إنى لا آخذُ على التّهمة ، ولا أعاقِب على الظّن، ولا أقاتل إلّا مَنْ خالفنى وناصَبنى، وأظهر العداوة لى ؛ ثم لستُ مقاتلَه حتى أدعوَه وأعذِرَ إليه[1]؛ فإن تاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلا الاعتزامَ على حربنا استعنّا بالله عليه ، وناجزناه . فكفَّ عنى ما شاء الله ، ثم جاءنى مرة أخرى ، فقال لى : إنّى قد خشيتُ أن يفسد عليك عبدالله بن وهب وزيد بن حصين الطائىّ ، إنى سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلهما أو توثقهما ، فلا يزالان بمحبسك أبدا . فقلت له : إنّى مستشيرُك فيهما ، فماذا تأمرنى به ؟ قال : إنى آمرك أن تدعوَ بهما فتضرب رقابَهما ، فعلمت أنّه لا ورعَ له ولا عقل . فقلت له : والله ما أظنّ لك ورعا ولا عقلا ، لقد كان ينبغى لك أنْ تعلم أنى لا أقتل مَنْ لم يقاتلنى، ولم يظهر لى عداوته للذى كنت أعلمتُكَه من رأيى ، حيث جئتنى فى المرة الأولى ؛ ولقد كان ينبغى لك — لو أردتُ قتلهم — أن تقول لى : اتق الله ! بم تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحدا، ولم ينابذوك ولم يخرجوا من طاعتك !

* * *

فأمّا ما يقوله الفقهاء فى مثل هذا الشّئ ، فقبل أن نذكر ذلك نقول : إنّ الروايةَ قد

---

(١) أى يكون لى عنده عذر .

اختلفت فى المرتدّين من بنى ناجية ، فالرواية الأولى التى رواها محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر بن مزاحم،تتضمّن أنّ الأمير الذى من قِبَل علىّ عليه السلام قتل مقاتلةالمرتدين منهم بعد امتناعهم من العوْد إلى الإسلام ، وسَبَى ذراريّهم ، فقدم بها على علىّ عليه السلام ؛ فعلى هذه الرواية يكون الذين اشتراهم مَصْقَلة ذرارىّ أهل الرِّدّة .

والرواية الثانية التى رواها محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف،تتضمّن أن معقِل بن قيس،الأمير من قِبَل على عليه السلام لم يقتل من المرتدّين من بنى ناجية إلارجلا واحدا، وأمّا الباقون فرجعوا إلى الإسلام،والاسترقاقُ إنما كان للنصارى الذين ساعدوا فى الحرب وَشَهروا السيف على جيش الإمام ؛ وليسوا مرتدّين ؛ بل نصارى فى الأصل ، وهم الذين اشترام مَصْقلة .

فإن كانت الرواية الأولى هى الصحيحة ففيها إشكال؛لأنّ المرتدّين لايجوز عند الفقهاء استرقاقُهم،ولا أعرف خلافا فى هذه المسألة ، ولا أظنّ الإماميّة أيضا[1] تخالف فيها ؛ وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أنّ المرأة المرتدّة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقُها،وسائر الفقهاء على خلافه ؛ ولم يختلفوا فى أنّ الذكور البالغين من المرتدّين لا يجوز استرقاقُهم ، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدّين من بنى ناجية على هذه الرواية ! على أنى أرى أنّ الرواية المذكورة لم يصرّح فيها باسترقاقهم ، ولا بأنهم بيعوا على مَصْقلة ، لأن لفظ الراوى : «فأبوا ، فقتَل مقاتلتهم وسبى ذراريّهم فقدم بهم على علىّ عليه السلام»؛وليس فى الرواية ذكر استرقاقهم ولابَيْعهم على مصقلة؛بل فيها ماينافى بَيْعهم على مصقلة،وهو قوله: « فقدم بهم على علىّ عليه السلام » ؛ فإنّ مصقلة ابتاعَ السَّبْى من الطريق فى أرْدَشِيرخُرّة قبل قُدومه على علىّ عليه السلام ؛ ولفظ الخبر : « فقدِم بهم على علىّ عليه السلام » .

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال : إذا كان قد قدم بهم على علىّ عليه

---

(١) ساقطة من ج .

السلام ، فمصقلة من اشترى ! ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوما فى الجملة ، فإن الخبر بذلك مشهور جدا يكاد يكون متواترا .

فإن قيل: فما قولُكم فيما إذا ارتدّ البالغون من الرجال والنساء، ثم أولدوا ذرّية صغارا بعد الردّة ؛ هل يجوز استرقاق الأولاد ؟ فإن كان يجوز ، فهلّا حلتم الخبر عليه !

قيل : إذا ارتدّ الزوجان فحملتْ منه فى حال الردّة وأتت بولد كان محكوماً بكفره؛ لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه ؟ فيه للشافعىّ قولان ؛ وأما أبو حنيفة فقال : إنْ ولد فى دار الإسلام لم يجز استرقاقه، وإن وُلِد فى دار الحرب جاز استرقاقُه ، فإن كان استرقاقُ هؤلاء الذرية موافقا لأحد قولَىِ الشافعى ، فلعلّه ذاك .

وأما الرواية الثانية، فإن كانت هى الصحيحة ـ وهو الأولى ـ فالفقه فى المسألة أن الذمّى إذا حارب المسلمين فقد نقضَ عهده ، فصار كالمشركين الذين فى دار الحرب ، فإذا ظَفِر به الإمام جازَ استرقاقُه وبيعُه ؛ وكذلك إذا امتنع من أداء الجزية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء فى أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم، ويجوز استرقاقهم أم لا ؛ وهى أن يزنىَ الذمّى بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه، أو يقطع الطريق على المسلمين ، أو يؤوى[1] للكفار عينا ، أو يدلّ على عورات المسلمين ، أو يقتل مسلما.

فأصحاب الشافعىّ يقولون : إن شرط عليهم فى عَقْد الذّمة الكفّ عن ذلك ، فهل ينقض عهدهم بفعله ؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك فى عقد الذمّة ، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوىّ من أصحاب أبى حَنيفة : ينتقض عهدهم بذلك ، سواء شورطوا عن

---

(١) ب : « يؤدى » ، تحريف .

الكفّ عنه فى عقد الذّمة ، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بنى ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدُهم بحرب المسلمين، فأبيحت دماؤهم، وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين فى دار الحرب ؛ وأما استرقاق أبى بكر بن أبى قُحافة لأهل الرّدة وسَبْيُه ذراريّهم ؛ فإن صحّ كان مخالفا لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدّين ، إلا أن يقولوا إنه لم يَسْبِ المرتدّين ، وإنما سَبَى مَنْ ساعدهم وأعانهم فى الحرب من المشركين الأصليين .

وفى هذا الموضع نظر .

(٤٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ ؛ الذى لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ .

* * *

الشرح :

مُنِي لها الفناء ، أى قُدِّر . والجلاء ، بفتح الجيم : الخروج عن الوطن ، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ (١) .

وحلوة خَضِرة ؛ مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ، وإنّ الله مستخلِفكم فيها فناظر كيف تعملون » .

والكفاف من الرزق : قَدْر القُوت ؛ وهو ما كفّ عن الناس ، أى أغنى .

والبلاغ والبُلْغة من العيش : ما يُتَبَلَّغُ به .

* * *

(١) سورة الحشر ٣ .

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمِلُ على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أحدُهما حَمْد الله والثناء عليه إلى قوله : « ولا تُفْقَدُ له نِعْمَة » ، والفصل الثانى ذكر الدنيا إلى آخر الكلام . وأحدُهما غيرُ مختلط بالآخر ولا مَنْسُوقٍ عليه ؛ ولكنّ الرضيّ رحمه الله تعالى يلتقط كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام التقاطاً، ولا يقفُ مع الكلام المتوالى ؛ لأن غرضَه ذكرُ فصاحتِه عليه السلام لا غير ، ولو أتى بخُطَبِه كلِّها على وجهها لكانت أضعافَ كتابه الذى جَمَعه .

* * *

[فصل بلاغيّ فى الموازنة والسجع]

فأما الفصل الأول ، فشتملٌ من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة ، وذلك « غيرمقنوط » فإنه وازنه فى الفقرة الثانية بقوله : « ولا مخلوّ» . ألا ترى أنّ كلّ واحدة منهما على وزن « مفعول » ، ثم قال فى الفقرة الثالثة : « ولا مأيُوس » ، فجاء بها عَلَى وزن « مفعول » أيضا ؛ ولم يمكنْه فى الفقرة الرابعة ما أمكنه فى الأولى ، فقال : « ولا مستنكَف» فجاء به على وزن « مستفعل » وهو وإن كان خارجاً عن الوزن ؛ فإنه غيرُ خارج عن المفعولية ، لأن « مستفعل » « مفعول » فى الحقيقة ، كقولك : زيد مستحسَن ، ألا ترى أنّ « مستحسنا » من استحسنه ، فهو أيضا غير خارج عن المفعولية .

ثم وازن عليه السلام بين قوله : « لا تبرح » وقوله : « لا تفقد » ، وبين « رحمة » و« نعمة » ؛ فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطّلاوة والصنعة مالا تجده عليه لو قال : « الحمد لله غير مخلوّ من نعمته ، ولا مبعَد من رحمته » لأنّ « مبعد » بوزن « مفعل » ، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول ، بل هو بناء آخر .

وكذلك لو قال : « لا تزول منه رحمة » ، فإنّ « تزول » ليست فى المماثلة والموازنة

لـ « تفقد » كـ « تبرح » ألا ترى أنها معتلة ، وتلك صحيحة ! وكذلك لو قال : « لاتبرح منه رحمة ولا يفقد له إنمام » فإن « إنماما » ليس فى وزن « رحمة » ، والموازنة مطلوبة فى الكلام الذى يقصد فيه الفصاحة ، لأجل الاعتدال الذى هو مطلوب الطبع فى جميع الأشياء . والموازنة أعمّ من السّجع ، لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردها على حرف واحد ، نحو القريب ، والغريب ، والنسيب ، وماأشبه ذلك . وأما الموازنة فنحو القريب والشديد ، والجليل ؛ وما كان على هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحداً ، وكلّ سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ؛ ومثال الموازنة فى الكتاب العزيز : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1] ؛ وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ ثم قال : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾[2] فهذه الموازنة .

ومما جاء من المثال فى الشعر قوله :

بِأَشَدِّهِمْ بَأْسًا عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَأَعَزِّهِمْ فَقْدًا عَلَى الأَصْحَابِ

فقوله : « وأعزهم » بإزاء « أشدهم » ، وقوله : « فقدا » بإزاء « بأسا » .

والموازنة كثيرة فى الكلام وهى فى كتاب الله تعالى أكثر .

***

[نبذ من كلام الحكماء فى مدح القناعة وذم الطمع]

فأما الفصلُ الثانى فيشتمل على التحذير من الدنيا ، وعلى الأمر بالقناعة ، والرضا بالكفاف ؛ فأما التحذيرُ من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه مايحضرنا ؛ وأمّا القناعة فقد وَرَد فيها شىء كثير .

---

(١) سورة الصافات ١١٧ ، ١١٨ . (٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخوين من الأنصار : « لا تيئسا من روح الله ما تهزهزت رءوسكما ، فإنّ أحدكم يولد لا قِشر عليه ، ثم يكسوه الله ويرزقه » .

وعنه صلى الله عليه وسلم — ويُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام — : « القناعة كنز لا ينفد » .

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم : « كفى بالقناعةِ عزّا ؛ وبطيب النفس نعيما » .

ومن كلام عيسى عليه السلام : اتخِذُوا البيوت منازلَ ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بَقْل البريّة ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام . لعمرى لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم ، أفتخافون الضّيْمة إذا انقطعتم إليه !

وفى بعض الكتب الإلهية القديمة : يقول الله تعالى : يابن آدم ، أتخاف أن أقتلك بطاعتى هزْلا ، وأنت تتفتّق بمعصيتى سِمَنًا !

قال أبو وائل : ذهبتُ أنا وصاحب لى إلى سلمان الفارسىّ ، فجلسنا عنده ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز ومِلْح ساذج لا أبزار عليه ، فقال صاحبى : لو كان لنا فى مِلْحنا هذا سَعْتر(١) ! فبعث سلمان بمِطْهَرته ، فرهنها على سعتر ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى قنّعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قنعْتَ بما رزقك لم تكن مِطْهرتى مرهونة !

عباد بن منصور : لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفقهُ من عَمْرو بن عُبَيد وأفصح ؛ ولكنه كان أصبَرهم عن الدينار والدرهم ، فسادَ أهلَ البَصْرة .

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد : لم لا تأخذ مِنّى ؟ فقال : لا يأخذُ أحدٌ من أحدٍ إلّا ذلّ له ؛ وأنا أكره أن أذِلّ لغير الله .

---

(١) السعتر : نبات طيب الرائحة حريف زهره أبيض إلى الغبرة .

كان معاشُ عمرو بن عُبَيد من دارٍ وَرِثَها ، كان يأخذ أجرتَها في كلّ شهر دينارا واحدا فيتبلّغ به .

الخليل بن أحمد : كان الناس يكتسبون الرّغائب بعلمِه ، وهو بين أخصاص البَصْرة ، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلُبها .

وهب بنُ منبّه : أرْمَلتُ مرّة حتى كدت أقنَط ، فأتاني آتٍ في المنام ومعه شبهُ لوزة ، فقال : افضُضْ ، ففضضتُها ، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر : لا ينبغي لمن عقَل عن الله أمره ، وعرف لله عدله ، أن يستبطئ الله في رزقه ، فقنعت وصَبَرت ، ثم أعطاني الله فأكثر .

قيل للحسن عليه السلام : إنّ أبا ذرّ كان يقول : الفقرُ أحبّ إليّ من الغنى ، والسُّقْم أحبّ إليّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرّ ، أما أنا فأقول : من اتّكل إلى حُسْنِ الاختيار من الله لم يتمنّ أنه في غير الحال التي اختارها الله له ، لعمري يابن آدم ، الطير لا تأكل رَغَداً ، ولا تخبأ لغد ، وأنت تأكل رغدا ، وتخبأ لغدٍ ، فالطيرُ أحسنُ ظناً منك بالله عزّ وجلّ .

حَبَس عمر بن عبد العزيز الغَدَاء عن مَسْلَمة ، حتى برّح به الجوع ، ثم دعا بسَوِيق فسقاه ، فلما فرَغ منه لم يقدِرْ على الأكل ، فقال : يا مسلَمة ، إذا كفاك من الدّنيا ما رأيت ، فعلامَ التهافت في النار !

عبد الواحد بن زيد : ما أحسِب شيئا من الأعمال يتقدّم الصبر إلا الرضا والقناعة ، ولا أعلم درجةً أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبّة .

قال ابن شُبْرُمة في محمد بن واسع : لو أنّ إنسانا اكتفى بالتراب لاكتفى به .

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل لعبادِي المتسخّطين لرزق ، إياكم أنْ أغضَب فأبسُط عليكم الدنيا .

كان لبعض الملوك نديم ، فَسَكِر ، ففاتَتْهُ الصلاة ، فجاءت جارية له بجَمْرة نار ، فوضعتْها على رجله، فانتبه مذعورا ، فقالت : إنك لم تصبر على نار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة ، وقعد يبيع البقل ، فدخل عليه الفُضَيل وابن عُيَيْنَة ؛ فإذا تحت رأسه لِبنة ، وليس تحت جَنْبِه حصير ، فقالا له : إنا رَوَيْنا أنه لم يَدَعْ أحدٌ شيئا لله إلا عَوّضه خيرا منه ، فما عوّضك ؟ قال : القناعة والرضا بما أنا فيه .

أصابت داود الطائيّ ضائقة شديدة ، فجاء حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، فقال داود : هي لَعَمْرِي من مال رجل ما أقدّم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه ، ولو كنتُ قابلا من أحدٍ شيئا لقبلتها إعظاما للميت، وإيجاباً للحيّ، ولكني أحبّ أن أعيشَ في عِزّ القناعة .

سفيان الثوريّ : ما أكلتُ طعام أحدٍ قطّ إلا هُنْت عليه .

مِسْعر بن كِدَام : مَنْ صَبَرَ على الخلّ والبَقْل لم يُسْتَعْبَدْ .

فُضَيل: أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله ، ألا تراه كيف يصنع بعَبْدِه ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها ! تطعمه مَرّة خبيصا[1] ، ومرة صَبِراً ، تريد بذلك ما هو أصلح له .

المسيح عليه السلام : أنا الذي كببت الدنيا على وَجْهها ، وقدرتها بقدرها ، ليس لي ولد يموت ، ولا بيت يَخْرَب ؛ وِسادي الحجر ، وفراشي المَدَر ، وسراجي القمر .

أمير المؤمنين عليه السلام : أكل تَمْرَ دَقَل[2] ، ثم شرب عليه ماء ، ومسح بطنه ، وقال : من أدخلته بطنُه النار ، فأبعده الله ، ثم أنشد :

فإنك إنْ أعطيْتَ بطْنَكَ سُؤْلَهُ وَفَرْجَكَ نَالا مُنْتَهى الذَّمِّ أجْمَعا[3]

---

(١) الخبيص : التمر المعمول من السمن والعسل .
(٢) الدقل : أردأ التمر .
(٣) البيت لحاتم الطائي ، ديوانه ١٧ (طبع بيروت).

فى الحديث الصحيح المرفوع: « إن رُوح القُدُس نَفَثَ فى رُوعى أنّه لن تموتَ نفس حتى تستكمل رزقَها ، فأجملوا فى الطَّلَب » .

من كلام الحكماء : من ظفر بالقناعة فقد ظَفِر بالكيمياء الأعظم .

الحسن : الحريص الراغب ، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أجلَه ، مستكمل أُكْلَه ؛ غير مُزداد ولا منتقَصٍ مِمّا قُدِّر له ، فعلام التقحّم فى النار !

ابن مسعود، رفعه : « إنه ليس أحد بأكيَس من أحد ؛ قد كُتِب النصيب والأجل، وقُسِمَتْ المعيشة والعمل ؛ والناس يجرُون منهما إلى منتهًى معلوم » .

المسيح عليه السلام: انظروا إلى طير السماء تغدُو وتروح ، ليس معها شىء من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصُد ؛ والله يرزقهـا ، فإن زعمتم أنكم أوسع بطونا من الطير ؛ فهذه الوحوشَ من البقر والحُمُر ، لا تحرث ولا تحصد ؛ والله يرزقها .

سويد بن غفلة : كان إذا قيل له : قد وَلِى فلان ، يقول : حسبى كِسْرتى ومِلْحى .

وفد عروة[١] بن أذينة على هِشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلّته ، فقال له : ألست القائل :

لقَدْ عَلِمْتُ وما الإشراف من خُلُقِى ... أنّ الّذى هَوَ رِزْقِى سَوْفَ يأتينى[٢]

أسعَى له فيعنِّينى تَطَلُّبُه ... ولو قعدتُ أتانى لا يُعنِّينى

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق ! ثم اشتغل عنه ، فخرج وقعد على ناقته ونَصّها راجعا إلى الحجاز ، فذكره هشام فى الليل ، فسأل عنه فقيل : إنه رَجَع إلى الحجاز ، فتذمّر ونَدِم ، وقال : رجل قال حِكْمة ، ووفد عَلَىّ مستجديا ، فجبهته ،

---

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٥٦ .

(٢) الإشراف . الحرص ، كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

وردتَهُ ! ثم وجّه إليه بألفْ درهم ، فجاء الرسول وهو بالمدينة ،فدفعها إليه ، فقال له : قل لأمير المؤمنين ، كيف رأيت ! سعيتَ فأكديْتَ، وقعدت فى منزلى فأتانى رزق .

عمر بن الخطاب : تعلّمْ أنّ الطمع فقْر ؛ وأن اليأس غنى ، ومن يئس من شىء استغنى عنه .

أهدِى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طائران ، فأكل أحدهما عشيّة ، فلما أصبح طلب غداء ، فأتته بعضُ أزواجه بالطائر الآخر ، فقال : « ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغدٍ ، فإنّ مَنْ خلَقَ الغَدَ خلق رزقه » .

وفى الحديث المرفوع : « قد أفلَح مَنْ رُزِق كفافا وقنّعه الله بما آتاه » .

من حكمة سليمان عليه السلام : قد جرّبنا لِين العَيْش وشِدّته ، فوجدنا أهنأه أدناه .

وهب ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(١) ، قال : القناعة .

بعض حكماء الشعراء :

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا أَعْسَرْتَ يَوْماً ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فى الدَّهْرِ الطَّوِيلِ

وَلَا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْء ... فإنّ الله أولَى بالجميلِ

وإن العُسْر يَتْبَعُهُ يَسَارٌ ... وقِيلُ الله أَصْدَقُ كلّ قِيلِ

وَلَوْ أَنَّ العقول تَجُرُّ رِزْقاً ... لَكَانَ المَالُ عِنْدَ ذَوِى العُقُولِ

عائشة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنْ أردْتِ اللّحوق بى فيكفيك من الدنيا زادُ الراكب ؛ ولا تُخْلِقِى ثوبا حتى ترَقّعيه ؛ وإياك ومجالسة الأغنياء » .

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

يقال : إنّ جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بمفاتيح خزائن الدنيا ، فقال : « لا حاجة لى فيها ، بل جوْعتان وشبْعة » .

وُجِد مكتوبا على صخرة عادِيَة[١] : يابنَ آدم ، لست ببالغ أمَلَك ، ولا سابِقٍ أجلَك ، ولا مغلوبٍ على رزقك ، ولا مرزوق ما ليس لك ، فعلامَ تقتل نفسك !

الحسين بن الضحاك :

يارَوْحُ مَنْ عَظُمَتْ قَنَاعَتُهُ   حَسَمَ المطامعَ مِنْ غَدٍ وَغَدِ[٢]
مَنْ لم يَكُنْ لِلهِ مُتَّهِمًا   لَمْ يُمْسِ مُحتاجًا إلى أَحَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أتدرى لِمَ رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا ، قال : ليعلم العاقلُ أنّ طلبَ الرزق ليس بالاحتيال .

قَنَطَ[٣] يوسف بن يعقوب عليه السلام فى الجبّ لجوعٍ اعتراه ، فأوحى إليه : انظر إلى حائط البئر ، فنظَرَ فانفرج الحائط عن ذَرّةٍ على صخرة ، معها طعامها ، فقيل له : أترانى لا أغفُلُ عن هذه الذّرّة ، وأغفلُ عنك ، وأنت نبىّ ابن نبىّ !

دخل علىّ عليه السلام المسجد ، وقال لرجل : أمسِكْ علىّ بغلتى ، فخلع لجامها ، وذهب به ، فخرج علىّ عليه السلام بعد ما قضَى صلاتَه ، وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُطُلا ، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمين ؛ ليشتريَ بهما لجاما ، فصادف الغلام اللجام المسروق فى السوق ؛ قد باعه الرجل بدرهمين ، فأخذه بالدّرهمين وعاد إلى مولاه ، فقال علىّ عليه السلام : « إنّ العبدَ ليحرِمُ نفسَه الرزق الحلال بترك الصبر ،

---

(١) عادية ، أى قديمة ؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة .

(٢) من أبيات فى الحيوان ٥ : ٤٨٠ ؛ قال الجاحظ : « وهذا شعر رويته له على وجه الدهر ، وزعم حسين بن الضحاك أنه له ، وكان يدعى ماليس له » .

(٣) قنط قنوطا ؛ أى يئس .

ولا يزاد على ما قُدِّر له .

سليمان بن المهاجر البَجَلِيّ :

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجْهِى فَصَانَهُ ... بِهِ اللهُ عَنْ غِشْيَانِ كُلِّ بَخِيلِ

فَلَمْ يَتبذّلنى البخيلُ ولم أقُمْ ... عَلَى بابِهِ يَوْماً مقَامَ ذَلِيلِ

وإنّ قليلا يَستُر الوجهَ أن يُرَى ... إلى النَّاس مبذولاً لَغيرُ قليل

وقف بعض الملوك على سُقراط وهو فى المَشْرَقة[1] ، فقال له : سَلْ حاجتَك ، قال : حاجتى أنْ تُزيل عَنّى ظلَّك ، فقد منعتَنى الرِّفْق[2] بالشمس ؛ فأحضرَ له ذهبا وكسوة ديباج، فقال : إنه لاحاجةَ بسقراط إلى حجارة الأرض ولُعاب الدود ؛ إنما حاجتُه إلى أمر يصحَبُه حيثما توجَّه .

صلّى معروف الكرخىّ خَلْف إمام ؛ فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً : من أين تأكل ؟ قال : اصبِرعلىّ حَتّى أعيدَ ما صليتُه خَلْفك ؛ قال : لماذا ؟ قال : لأنّ مَنْ شكّ فى الرزق شكّ فى الرازق ، قال الشاعر :

وَلَا تُهْلِكَنّ النَّفْسَ وَجْداً وَحَسْرَةً ... عَلَى الشىء أسْدَاهُ لغيرِك قادِرُهْ[3]

ولَا تيْأَسنْ من صالحٍ أن تَنَالَهُ ... وإنْ كان نهباً بَيْنَ أيدٍ تُبَادِرُهْ

فإنّك لا تُعطِى امرأً حَظَّ نَفْسِهِ ... ولا تمنع الشّقِ الذى الغيثُ ناصِرُه

قال عمر بن الخطاب لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : قد مللتُ الناسَ ، وأحببتُ أن ألحقَ بصاحبىّ ، فقال : إن سرّكَ اللُّحوق بهما فقصِّر أملَك ، وكُلْ دون الشِّبَع ، واخصِف النّعلَ[4] وكن كَمِيش[5] الإزار ، مرقوع القميص ، تلحق بهما .

---

(١) المشرقة : موضع قعود فى الشمس فى الشتاء . (٢) الرفق بالشىء : الانتفاع به .

(٣) ا : « سداه لغيرك » ؛ أى أعطاه . (٤) خصف النعل : خرزها بالمخصف .

(٥) يقال : كمش إزاره ؛ إذ قصره وشمره .

وقال بعض شعراء العجم :

غَلَا السِّعْرُ فى بغدادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ وإنِّىَ فى الحالَيْن باللهِ واثِقُ
فَلَسْتُ أخافُ الضِّيقَ واللهُ واسِعٌ غِنَاهُ ، ولا الحِرْمانَ واللهُ رَازِقُ

قيل لعلىٍّ عليه السلام : لو سُدَّ على رَجُلٍ باب بيت وتُرِكَ فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ قال : مِنْ حيث كان يأتيه أجلُهُ .

قال بعض الشعراء :

صَبَرْتُ النفسَ لاأجزَ ع من حادثةِ الدهرِ
رأيتُ الرّزق لايُكْسَ بُ بالعُرْفِ ولا النُّكْرِ
ولا بالسّلفِ الأمْثَ لِ أهلِ الفَضْلِ والذِّكْرِ
وَلَا بالسُّمْرِ اللُّدْنِ ولا بالخُذُمِ البُتْرِ[1]
وَلَا بِالعَقْلِ والدِّينِ وَلَا الجاهِ وَلَا القَدْرِ
وَلَا يُدْرَكُ بالطَّيْشِ وَلَا الجَهْلِ وَلَا الهَذْرِ
وَلَكِنْ قِسَمٌ تَجْرِى بمَا تَدْرِى وَلَا تَدْرِى

جاء فتح بن شَخْرف إلى منزله بعد العِشاء ، فلم يجدْ عندهم مايتعشَّى به ، ولا وَجَدَ دُهْناً للسراج وهم فى الظلمة ، فجلس ليلةً يبكى من الفرح ، ويقول : بأىّ يد قد كانت منّى ، بأىّ طاعةٍ تنعم علىّ بأن أترَكَ على مثل هذه الحال !

لقى هَرِم بن حَيّان أوَيساً القَرَنىّ ، فقال : السلام عليك ياأويسَ بنَ عامر ! فقال : وعليك السّلام ياهَرِم بن حيّان ، فقال هَرِم : أما إنّى عرَفتُك بالصِّفة ، فكيف عرفتنى؟ قال : إنّ أرواح المؤمنين لتُشام كما تشام الخيل ، فيعرف بعضُها بعضا . قال : أوصِنى ،

---

(١) السمر : جمع أسمر ؛ وهو الرمح اللدن اللين . والخذم : جمع خاذم ؛ أى قاطع .

قال : عليك بسِيف البحر ، قال : فن أين المعاش ؟ قال : أفّ لك ! خالطت الشكّ الموعظة ، أتفرّ إلى الله بدينك وتتهمه فى رزقك !

منصور الفقيه :

الموتُ أسهلُ عندِى بين القنا والأسِنّه
والخيلُ تجرِى سِراعاً مقطّعاتِ الأعنّة
مِنْ أن يكون لِنَذْلٍ علَىّ فضلٌ ومِنّه

أعرابىّ :

أتيئس أنْ يقارِنَك النّجاحُ فأين اللهُ والقَدَرُ المُتاحُ[1]

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى ، قال : « إيّاك والطمع ؛ فإنّه فقر حاضر ، وعليك باليأس مِمّا فى أيدِى الناس » .

حكيم : أحسنُ الأحوال حالٌ يَغبِطُكَ بها مَنْ دونك ، ولا يحقِرُك لها مَن فوقك .

أبو العلاء المعرىّ :

فإن كُنتَ تهوَى العيش فابغِ توسّطاً فعندَ التناهى يَقصُر المتطاولُ[2]
تُوَقَّى البدورُ النّقصَ وَهْىَ أهلّةٌ ويُدْرِكها النُّقصان ، وهْىَ كوامِلُ

خالد بن صفوان : كن أحسنَ ماتكون فى الظاهر حالاً ، أقلّ ماتكون فى الباطن مآلا ؛ فإنّ الكريمَ مَنْ كَرُمت عند الحاجة خَلّته[3] ، واللئيم من لؤمت عند الفاقة طعمته .

---

(١) المتاح : المهيأ . (٢) شروح سقط الزند ٥٥٢
(٣) الخلة : الحاجة .

شعر :

وَكَمْ مَلِكٍ جانبتهُ مِنْ كَرَاهَةٍ   لإغلاقِ بابٍ أو لِتَشْدِيدِ حاجِبِ
ولى فى غنًى نفسِى مَرَادٌ ومَذْهَبٌ   إذا أُبْهِمَتْ دُونِى وُجُوهُ المذاهبِ [1]

بعض الحكماء : ينبغى للعاقل أن يكون فى دنياه كالمدعوّ إلى الوليمة، إن أتته صحفة تناولها، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها .

(١) أبهم الأمر : إذا اشتبه .

(٤٦)

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام :

الأصـل :

ٱللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ ٱلْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ ٱلْمَنظَرِ ، فِى ٱلْأَهْلِ وَٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ . ٱللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فى السَّفَرِ ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِى الأَهْلِ ؛ وَلاَ يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لاَ يَكُونُ مُسْتَصْحَباً ، وَالْمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً .

***

قال الرضيّ رحمه الله :

وابتداء هذا الكلام مرويّ عن رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وقد قفّاه أميرُ المؤمنينَ عليه السّلامُ بأبلَغ كلام ، وتمّمَهُ بأحسن تمام ، من قوْله : « ولا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ » ، إلى آخرِ الفصل .

***

الشـرح :

وَعْثَاء السفَرِ : مشقّتُه ، وأصل الوَعْث المكان السّهل الكثير الدّهس ، تَغِيبُ فيه الأقدام ، ويشقّ على مَنْ يمشي فيه ، أوْعَثَ القوم ، أيْ وقعوا فى الوعَث . والكآبة : الحزن . والمنقلَب ، مصدر من انقلب منقلَبا ، أى رَجَع ، وسوء المنظر : قُبْح المرأى .

وصدر الـكلام مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسانيد الصحيحة ، وختَمه أميرُ المؤمنين عليه السلام وتمّمه بقوله : « ولا يجمعهما غيْرُك » ؛ وهو الصحيح ؛ لأنّ مَنْ يُسْتَصْحَبُ لايكون مستخلَفا؛ فإنه مستحيل أنْ يكونَ الشيء الواحد في المكانين مقيما وسائرا ؛ وإنما تصِحّ هذه القضية في الأجسام ؛ لأنّ الجسم الواحد لايكون في جهتين في وقت واحد ؛ فأمّا ما ليس بجسم وهو الباريْ سبحانه؛فإنه في كلّ مكان ؛ لا عَلَى معنى أنّ ذاتَه ليست مكانيّة؛ وإنما المراد علمه وإحاطتُه ونفوذ حكمه وقضائه وقدَره؛ فقد صدق عليه السلام أنّه المستخلَف وأنه المستصحب ؛ وأنّ الأمرَيْن مجتمعان له جلّ اسمه .

وهذا الدعاء دَعَا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضْعِ رجله في الركاب ، من منزله بالكوفة متوجّها إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه ؛ ذكره نَصْر بن مزاحم في كتاب " صفين (١) " ، وذكره غيره أيضا من رواة السيرة .

* * *

[أدعية عليّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية]

قال نصر : لما وَضَع عليّ عليه السلام رِجْلَه في رِكاب دابّته يوم خرج من الكوفة إلى صِفّين ، قال : بسم الله ؛ فلمّا جلس على ظهرها ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ،(٢) اللهمّ إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر... إلى آخر الفصل . وزاد فيه نصر : « ومِنَ الْحَيْرَةِ بعد اليقين » . قال : ثم خرج أمامه الحرّ بن سهم بن طَرِيف ، وهو يرتجز ويقول :

يافَرَسِي سِيرِي وَأُمِّي الشّامَا ... وَقَطِّعِي الْحُزُونَ والأعْلامَا (٣)
وَنَابِذِي مَنْ خالَفَ الإمَامَا ... إني لأرْجُو إنْ لَقِينَا الْعَامَا

(١) كتاب صفين ١٤٩ . (٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤ .
(٣) صفين : « وأقطعي » ، والحزون : جمع حزن ، وهو ضد السهل من الأرض .

جَمْعَ بني أميّةَ الطَّغَامَا[1] أن نقتل العاصِيَ والهُمَاما
* وأنْ نُزيلَ مِنْ رِجالٍ هَاماً *

قال : وقال حبيبُ بن مالك ، وهو على شُرْطَة علىّ عليه السلام ، وهو آخذٌ بعِنان دابّته : ياأمير المؤمنين ، أتخرجُ بالمسلمينَ فُيصيبوا أجْرَ الجهاد بالقتال ، وتخلّفنى بالكوفة لحشرِ الرجال ! فقال عليه السلام : إنهم لَنْ يُصيبوا من الأجر شيئا إلا كنتَ شريكَهم فيه ؛ وأنت هَا هُنا أعظم غَناء عنهم منك لو كُنْتَ معهم . فخرج علىّ عليه السلام ، حتى إذا حَاذَى الكوفة صلّى ركعتين[2] .

قال : وحدّثنا عمرو بن خالد ، عن أبى الحُسين زيد بن علىّ عليه السلام ، عن آبائه : أنّ[3] عليا عليه السلام خرج وهو يريد صِفّين ؛ حتى إذا قطع النَّهْر ، أمر مناديَه، فنادى بالصلاة ؛ فتقدّم فصلّى ركعتين ؛ حتى إذا قضى الصلاة ، أقبلَ على الناس بوجهه ، فقال : أيّها الناس ؛ ألا مَنْ كان مُشَيِّعا أو مقيما فليتمّ الصلاة ؛ فإنا قوم سَفْر ، ألا ومَنْ صَحِبَنا فلا يصومَنّ المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان .

قال نصر : ثم خرج حتى نزل دير أبى موسى — وهو من الكوفة على فرسخين — فصلّى به العصر ، فلما انصرف من الصلاة ، قال : سبحان الله ذى الطَّوْل والنعم ! سبحان الله ذى القدْرة والإفضال ، أسأل الله الرّضا بقضائه ، والعملَ بطاعته، والإنابة إلى أمره؛ إنه سميع الدعاء[3] .

قال نصر : ثم[4] خَرَج عليه السلام حتى نزل على شاطئ نَرْس[5] بين موضع حَمّام أبى بُرْدة وحَمّام عمر، فصلّى بالناس المَغرب ، فلما انصرف، قال : الحمدُ لله الذى يُولجُ

---

(١) الطغام : أوغاد الناس .
(٢) كتاب صفين ١٥٠ : « حتى إذا جاز حد الكوفة » .
(٣) كتاب صفين ١٥٠
(٤) كتاب صفين ١٥١ .
(٥) نرس، بالفتح ثم السكون وآخره سين مهملة : نهر حفره نرسى بن بهرام بنواحى الكوفة ؛ مأخذه من الفرات ، وعليه عدة قرى . (مراصد الاطلاع) .

اللّيل فى النهار ، ويولج النّهار فى الليل ؛ والحمد لله كلما وقب ليل وغسق ؛ والحمدُ لله كلما لاح نجم وخفق .

ثم أقام حتى صلى الغداة ، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبّين(١) ، وفيها نخل طوال إلى جانب البِيعة من وراء النهر ، فلما رآها ، قال : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ . ثم أقحم دابته النهر ، فعبر إلى تلك البِيعة فنزلها ، ومكث قَدْر الغداء .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن مِخْنَف بن سليم(٢) قال : إنّى لأنظر إلى أبى وهو يساير عليًّا عليه السلام ، وعلىّ يقول له : إنّ بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها ، فحرِّك دابّتك لعلّنا نصلّى العصر خارجا منها . فحرّك دابّته ، وحرّك الناس دوابهم فى أثره ؛ فلما جاز جِسْر الفرات(٣) ، نزلَ فصلّى بالناس العَصْر .

قال : حدثنى عمر بن عبدالله بن يعلى بن مرة الثقفىّ ، عن أبيه ، عن عبد خَير ، قال : كنت مع علىّ أسير فى أرض بابل ، قال : وحضرتِ الصلاة صلاة العصر ، قال : فجعلنا لا نأتى مكانا إلا رأيناه أفيَحَ(٤) من الآخر ؛ قال : حتى أتينا على مكانٍ أحسن ما رأينا ؛ وقد كادت الشمسُ أن تغيب . قال : فنزل علىّ عليه السلام ، فنزلت معه ، قال : فدعا الله ، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر . قال : فصليت العصر ، ثم غابت الشمس ، ثم خرج حتى أتى دير كعب ، ثم خرج منه فبات بساباط ، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النُّزُل(٥) والطعام ، فقال : لا ، ليس ذلك لنا عليكم . فلما أصبح وهو بمُظْلِم ساباط(٦) ،

---

(١) قبين ، بالضم ثم الكسر والتشديد ؛ قال صاحب مراصد الاطلاع : « ولاية بالعراق » .

(٢) صفين ١٥١ ، والسند هناك : نصر : عمر ، عن رجل ــ يعنى أبا مخنف ، عن عمه ابن مخنف » .

(٣) صفين : « جسر الصراة » ؛ والصراة من أنهار الفرات .

(٤) أفيح ، من الفيح وهو السعة .

(٥) النزل : طعام الضيف .

(٦) مظلم ساباط ؛ موضع مضاف إلى ساباط التى بقرب المدائن ؛ قليل الضوء : مراصد الاطلاع ١٢٨٦

قرأ : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾[1] .

قال نصر : وبلغ عمرو بن العاص مسيرُه فقال :

لَا تَحْسَبَنِّي يَا عَلِيُّ غَافِلَا لَأُورِدَنَّ الكُوفَةَ القَنَابِلَا[3]

* بِجَمْعِيَ العامَ وَجَمْعِي قَابِلَا *

قال : فبلغ ذلك عليًا عليه السلام ، فقال :

لَأُورِدَنَّ العاصيَ ابنَ العَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي

مُسْتَحْقِبِينَ حَلَقَ الدِّلَاصِ[4] قَدْ جَنَبُوا الخَيْلَ مَعَ القِلَاصِ[5]

* أُسُودَ غِيلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ *

***

[نزول عليّ بكربلاء]

قال نصر : وحدثنا منصور بن سلام التميمي ، قال : حدّثنا حيان التَّيْمِيّ ، عن أبي عبيدة ، عن هرثمة بن سليم ، قال[6] : غزونا مع عَلِيّ عليه السلام صِفّين ، فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا ، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها ، ثم قال : واهاً لكِ يا تُرْبة[7] ! ليحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب .

قال : فلما رجع هَرْثمة من غزاته[8] إلى امرأته جَرْداء بنت سمير — وكانتْ من شيعة عليٍّ عليه السلام — حدّثها هرثمة فيما حدّث ، فقال لها : ألا أعجبُكِ من صديقك أبي حسن !

(١) سورة الشعراء ١٢٨ (٢) صفين ١٠٣

(٣) القنابل : جماعات الخيل والناس .

(٤) مستحقبين : حاملين ، والدلاص : الدروع اللينة .

(٥) يقال : جنب الرجل الفرس إذا قاده إلى جنبه . والقلاص : جمع قلوص ؛ وهي الشابة من الإبل ؛ بمنزلة الجارية من النساء .

(٦) كتاب صفين ١٥٧ . (٧) صفين : « واهاً لك أيتها التربة » .

(٨) صفين : « من غزوته » .

قال : لما نزلنا كَرْبلاء ،وقد أخذ حَفْنَة مِنْ تربتها فشمّها، وقال : « واهالك أيتها التُّربة! ليُحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب » :وماعِلْمه بالغيب ؟فقالت المرأة له :دَعْنا منك أيها الرجل ؛ فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَقُلْ إلا حقًّا .

قال : فلما بَعَثَ عُبيد الله بن زياد البَعْث الذى بَعَثَه إلى الحسين عليه السلام ، كنتُ فى الخيل التى بَعَثَ إليهم ؛ فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، عَرَفْتُ المنزل الذى نَزَلْنا فيه مع علىّ عليه السلام ، والبُقْعة التى رفع إليه من تُرْبتها والقول الذى قاله ، فكرِهْتُ مسيرى ، فأقبلت على فَرَسِى حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلّمت عليه، وحدّثته بالذى سمعت من أبيه فى هذا المنزل ؛ فقال الحسين : أمعنا أم علينا ؟ فقلت : يابنَ رسول الله ، لامعك ولاعليك ؛ تركتُ ولدى وعِيالى[1] أخاف عليهم من ابن زياد ، فقال الحسين عليه السلام : فولِّ هربا حتى لاترى مقتلنا[2]؛ فوالّذى نفس حسين[3] بيده لايرى اليوم مقتلنا أحدٌ ثم لايعيننا[4] إلا دخل النار .

قال : فأقبلتُ فى الأرض أشتدّ هربا ، حتى خَفِىَ علىّ مقتلهم .

* * *

قال نصر : وحدثنا مُصعب ، قال : حدثنا الأجلح بن عبد الله الكِندىّ عن أبى جُحيفة ، قال : جاء[5] عُروة البارقىّ إلى سعد بن وهب ، فسأله فقال : حديث حَدّثتناه[6] عن علىّ بن أبى طالب ، قال : نعم بعثنى مِخنف بن سليم إلى علىّ عند توجّهه إلى صِفّين ، فأتيته بكَرْبَلاء ، فوجدته يُشير بيده ، ويقول: هاهنا ، هاهنا ! فقال له

---

(١) صفين : « تركت أهلى وولدى » .

(٢) صفين : « حتى لاترى لنا مقتلا » .

(٣) صفين : « فو الذى نفس محمد » .

(٤) صفين : « لا يغيثنا » .

(٥) صفين ١٥٨ .

(٦) صفين : « حدثتنيه » .

رجل : وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟فقال : ثَقَل لآل محمد ينزل هاهنا ، فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم ! فقال له الرجل : مامعنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تَقْتلونهم ، وويلٌ لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار .

قال نصر : وقدروى هذا الكلام على وجه آخر،أنه عليه السلام قال : « فويلٌ لكم منهم ، وويل لكم عليهم » ؛ فقال الرجل أمّا « ويلٌ لنا منهم » ، فقد عرفناه ؛ فويل لنا عليهم ، مامعناه ! فقال : تَرَوْنَهم يُقتلون لا تستطيعون نُصْرتهم .

قال نصر : وحدثنا سعيد بن حكيم العبسيّ ، عن الحسن بن كثير ، عن أبيه ، أنّ عليًّا عليه السلام أتى كَرْبلاء ، فوقف بها ، فقيل له : يا أميرَ المؤمنين ، هذه كَرْبَلاء ، قال : « ذات كَرْب وبلاء » ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان ، فقال : هاهنا موضع رِحالهم ، ومُناخ ركابهم ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان آخر ، فقال : هاهنا مَراقُ دمائهم ، ثم مضى إلى ساباط [1] .

* * *

[خروج عليّ لحرب معاوية وما دار بينه وبين أصحابه]

وينبغي أن نذكرهاهنا ابتداء عزمه عَلَى مفارقة الكوفة،والمسير إلى الشام وماخاطب به أصحابه ، وما خاطبوه به ، وما كاتب به العمال وكاتبوه جوابا عن كتبه ؛ وجميع ذلك منقول من كتاب نَصْر بن مزاحم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال : لما أراد عليّ عليه السلام للسيرَ إلى الشام ، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ؛ ثم حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بَعْد ؛ فإنكم ميامين

(١) صفين ١٥٨ .

الرأى ، مَرَاجيح الحِلْم ، مبارَكو الأمر ، ومقاويل بالحقّ؛وقد عَزَمْنا عَلَى المسير إلى عَدُوّنا وعدوّكم ؛ فأشيروا علينا برأيكم .

فقام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فحمِد الله وأثنى عليـه ، وقال : أما بعـدُ يا أمير المؤمنين ؛ فأنا بالقوم جِدّ خَبير ؛ هم لك ولأشياعك أعداء ؛ وهم لمن يَطْلب حَرْثَ الدنيا أولياء ؛ وهم مقاتلوك ومجادلوك [(١)] لا يُبقون جَهْدا ، مشاحّة على الدنيـا ، وضَنًّا بما فى أيديهم منها؛ليس لهم إرْبة غيرها ؛ إلّا مايخدعون به الجهالَ من طلب دم ابن عفّان؛ كذبوا ليس لدمه ينفِرون،ولكنّ الدنيا يطلبون ؛ انهض بنا إليهم؛فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال ؛ وإن أبَوْا إلا الشقاق ؛ فذاك ظَنّى بهم [(٢)] ؛ والله ما أراهم يُبايِعون وقد بَقِىَ فيهم أحد ممّن يُطاع إذا نَهى ؛ ويُسمع إذا أمر [(٣)] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبى الـكَنود أنّ عمار بن ياسر قام فحمِد الله وأثنى عليـه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن استطعت ألّا تُقيم يوما واحدا فافعل ، اشخص بنا قبل استعار نار الفَجَرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادْعُهم إلى حَظِّهم ورشدهم ؛ فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ؛ وإنْ أبَوْا إلّا حربَنا،فوالله إنّ سَفْكَ دمائهم ، والجِدّ فى جهادهم ، لَقُربة عند الله ، وكرامة منه [(٤)] .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، انـكَمِش [(٥)] بنا إلى عدوّنا ولا تعرّج [(٦)] ؛ فوالله لجهادهم أحبُّ إلىّ من جهاد الترك

---

(١) صفين : « يجاهدوك » .
(٢) صفين : « فذلك الظن بهم » .
(٣) كتاب صفين ١٠٣
(٤) صفين : « وهو كرامة منه » .
(٥) الانـكماش : الجد فى السير .
(٦) صفين : « لا تعرد » والتعريد : الفرار .

والروم ؛ لإدهانهم(١) فى دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسوه وضربوه وحرموه وسيّروه ، وفيئنا لهم فى أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين(٢) - قال : يعنى رقيق .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزيمة بن ثابت وأبو أيوب ؛ وغيرهما : لِمَ تقدّمْتَ أشياخَ قومك وبدأتَهم بالكلام ياقيس ؟ فقال : أما إنّى عارف بفضلكم ، معظّم لشأنكم ؛ ولكنّى وجدتُ فى نفسى الضِّغْن الذى فى صدوركم جاش حين ذكرتِ الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض : ليَقُمْ رجلٌ منكم فليُجبْ أميرَ المؤمنين عن جماعتكم ، فقام سهل بن حُنَيف ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن سِلْمٌ لمن سالَمْتَ، وحَرْب لمن حاربت، ورأينا رأيُك ، ونحن(٣) يمينُك، وقد رأينا أن تقوم [بهذا الأمر](٤) فى أهل الكوفة فتأمرَهم بالشُّخوص، وتخبرهم بما صنع لهم فى ذلك من الفضل ، فإنهم أهلُ البلد وهم الناس ؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذى تُريد وتطلب ؛ فأما نحن فليس عليك خلاف مِنّا ، متى دعوتَنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك(٥) .

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى مِخْنف ، عن زكريا بن الحارث ، عن أبى خُشيش ، عن مَعبد ، قال : قام علىّ عليه السلام خطيبا عَلَى مِنْبره ، فكنتُ تحت المنبر، أسمع تحريضه(٦) الناس وأمرَه لهم بالمسير إلى صِفّين لقتال أهل الشام ، فسمعتُه يقول :

---

(١) الإدهان : الغش والخديعة . (٢) القطين : الخدم والأتباع.

(٣) صفين : « ونحن كف يمينك » .

(٤) من صفين

(٥) صفين ١٠٥

(٦) صفين : « حين حرض الناس » .

سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والسُّنَن ، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتَلة المهاجرين والأنصار . فقام رجل من بنى فَزَارة ، فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلَهم لك ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلتهم ! كلاّ ، ها اللهِ [1] إذاً لا نفعل ذلك .

فقام الأشتر ، فقال : مَنْ هذا المارق ! [2]

فهرب الفزاريّ ، واشتدّ الناس عَلَى إثره ، فلحِق فى مكانٍ من السوق تُبَاع فيه البراذين ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتِل ؛ فأتى علىّ عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، قُتِل الرجل ، قال : ومَنْ قتله ؟ قالوا : قتلته هَمْدان ومعهم شَوْب من الناس ، فقال : قتيلُ عِمِّيّة [3] ، لا يُدْرَى مَنْ قتله ! ديته من بيت مال المسلمين ؛ فقال بعض بنى تيم اللات بن ثعلبة [4] :

أعوذُ بربِّى أنْ تكونَ مَنِيَّتى ... كما مَاتَ فى سُوقِ البَرَاذِينِ أرْبَدُ

تَعَاوَرَه هَمْدانُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ ... إذا رُفِعَتْ عنه يدٌ وُضِعَتْ يَدُ

فقام الأشتر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يهدّنك ما رأيت ، ولا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقىّ الخائن ؛ إنّ جميعَ مَنْ ترى من الناس شيعتُك ، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبّون البقاء بعدك ، فإنْ شئت فسِرْ بنا إلى عدوّك ، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطَى البقاء مَنْ أحبّه ، وإنا لَعَلَى بَيِّنة من ربِّنا ؛ وإنّ أنفسَنا لن تَمُوت حتى يأتىَ أجلُها . وكيف لا نقاتلُ قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبتْ عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خَلاقهم بعَرَضٍ من الدنيا يسير !

---

(١) الهاء هنا للتنبيه يقسم بها .

(٢) صفين : « من لهذا أيها الناس » .

(٣) قتيل عمية ، أى ميتة فتنة وجهالة .

(٤) صفين : « فقال علاقة التيمى » .

فقال علىٌّ عليه السلام : الطريق مُشْتَرَك ، والناس فى الحقّ سواء ، ومَنِ اجتهد رأيه فى نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه . ثم نزل فدخل منزله [١] .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثنى أبو زهير العبسىّ ، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتّم العبسىّ وحنظلة بن الربيع التميمىّ ؛ لما أمر علىٌّ عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دَخَلا عليه فى رجال كثير من غَطَفَان وبنى تميم ، فقال له حنظلة : يا أمير المؤمنين ؛ إنا قَدْ مشينا إليك فى نَصِيحة فاقبلها ، ورأينا لك رأيا فلا تردّنّه علينا ، فإنّا نظرنا لك ولمن معك ؛ أقِمْ وكاتِبْ هذا الرجل ، ولا تعجَلْ إلى قتال أهل الشام ؛ فإنا وَاللهِ ما نَدْرِى ولا تدرى لِمَنْ تكون الغَلَبة إذا الْتقينْم ؛ ولا على مَنْ تكونُ الدَّبْرة !

وقال ابن المعتم مثل [٢] قوله ، وتكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامهما ، فحمِد علىٌّ عليه السلام اللهَ وأثنى ، ثم قال :

أما بعدُ فإن الله وارثُ العباد والبلاد ، وربّ السموات السبع ، والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتى المُلْكَ مَنْ يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ مَنْ يشاء ، ويذِلّ من يشاء . أما الدَّبْرة ، فإنّها على الضالّين العاصين ظفِروا أو ظُفِر بهم ؛ وايمُ الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكَراً .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّ هؤلاء واللهِ ما أتَوك بنُصْح ، ولا دخلوا عليك إلا بِغِشّ ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدوّ .

وقال له مالك بن حبيب : إنه بلغنى يا أميرَ المؤمنين أنّ حنظلة هذا يكاتِبُ معاوية ، فادْفَعْه إلينا نحبِسْه حتى تنقضىَ غَزاتك ، وتنصرف .

---

(١) صفين ١٠٢

(٢) صفين : « وقام المعتم فتكلم » .

وقام من بنى عبس قائد بن بكير وعيّاش بن رَبيعة العبْسيّان ، فقالا : ياأميرَ المؤمنين إنّ صاحبَنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحبِسْه أو مَكّنّا من حَبْسه ؛ حتى تنقضيَ غزاتك ثم تنصرف .

فقالا : هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عدُوّكم .

فقال لهما علىّ عليه السلام : الله بينى وبينكم ، وإليه أَكِلُكم ، وبه أستظهرُ عليكم ، اذهبوا حيث شئتم [1] .

قال نصر : وبعث على عليه السلام إلى حَنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب ، — وهو من الصحابة — فقال له : ياحنظلة ، أنت علىّ أم لى ؟ فقال : لا لك ولا عليك ؛ قال : فما تريد ؟ قال: اشخص إلى الرُّها [2] ، فإنه فَرْج من الفروج ، اصمد له حتى ينقضىَ هذا الأمر .

فغضب من قوله خيار بنى عمرو بن تميم وهم رهطه ، فقال : إنكم والله لا تغرّونى من دينى ، دعونى فأنا أعلم منكم ، فقالوا : والله إنْ لم تخرج مع هذا الرجل لا ندعُ فُلانة تخرج معك — لأم ولده — ولا وَلَدَها ، ولئن أردت ذلك لنقتلنّك .

فأعانه ناس من قومه واخترطوا سيوفهم ، فقال : أجّلونى حتى أنظر . ودخل منزله وأغلق بابه ؛ حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية ، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير ، وهرب ابن المعتمّ أيضا ، حتى أتى معاوية فى أحد عشر رجلا من قومه .

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية فى ثلاثة وعشرين رجلا من قومه ؛ لكنّهما لم يقاتلا مع معاوية ، واعتزلا الفريقين جميعا [3] .

---

(١) صفين : ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) الرها : مدنية بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٣) صفين ١٠٩

وقال : وأمر علىّ عليه السلام بهدْم دار حنظلة ، فهدمت ؛ هدَمها عريفهم شبَث بن رِبْعِىّ وبكر بن تميم ؛ فقال حنظلة يهجوهما :

أيا راكباً إمّا عرَضْتَ فبلّغَنْ ‏ ‏ مُغَلْغَلةً عنّى سَراةَ بنى عَمْرو

فأوصيكمُ بالله والبِرّ والتقى ‏ ‏ ولا تنظروا فى النائبات إلى بكْرِ

ولا شَبَثٍ ذى المَنْخَرَيْن كأنه ‏ ‏ أزبّ جِمالٍ قد رغا ليلة النفْر(١)

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبى سفيان :

أبلغْ معاوية بن حَرْب خُطّةً ‏ ‏ ولكل سائلةٍ تَسيلُ قرارُ

لا تقبَلَنّ دَنيّةً ترْضَوْنَها(٢) ‏ ‏ فى الأمر حتى تُقتلَ الأنصارُ

وكما تبوء دماؤُهمْ بدمائِكمْ ‏ ‏ وكما تُهدَّمُ بالدّيار ديار

وترى نساؤهمُ يجُلْنَ حواسِراً ‏ ‏ ولهنّ من ثُكل الرجال جُؤار(٣)

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن أبى المجاهد ، عن المحلّ ابن خليفة ، قال : قام عدىّ بن حاتم الطائىّ بين يدى علىّ عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : (٤) يا أمير المؤمنين ، ما قلتَ إلا بعلم ، ولا دعوتَ إلا إلى حقّ ، ولا أمرتَ إلا برُشْد ؛ ولكنْ إذا رأيت(٥) أن تستأنىَ هؤلاء القوم وتستديمهم ـ حتى تأتيَهم كتبُك ، ويقْدَمَ عليهم رُسُلك ـ فعلت . فإن يقبلوا يُصيبوا رُشْدَهم(٦) ، والعافية أوسعُ لنا ولهم ؛

---

(١) الأزب : الكثير شعر الوجه والعثنون ، وفى صفين :

* أزَبُّ جِمالٍ فى مُلاَحِيةٍ صُفْرِ *

(٢) صفين : « تعطونها » .

(٣) صفين : « ولهن من ثكل الرجال خوار » .

(٤) صفين ١١٠

(٥) صفين : « فإن رأيت » .

(٦) صفين : « فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا » .

وإن يتمادَوْا فى الشّقاق ولا ينزِعوا عن الغىّ فسِرْ إليهم . وقد قدّمنا إليهم بالعذر(١) ، ودَعَوْناهم إلى ما فى أيدينا من الحق ؛ فو الله لهم من الحق أبعد ، وعلى الله أهون ؛ من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لمّا دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوجْناهم بُرَاكاء القتالِ(٢) ؛ حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلَغ الله منهم رضاه .

فقام زيد بن حُصين الطائىّ ــ وكان من أصحاب البرانس(٣) المجتهدين ــ فقال : الحمدُ لله حتى يرضى ، ولا إله إلا الله ربنا ، أما بعد : فو الله إنْ كنّا فى شك من قتال مَنْ خالفنا ، ولا تصلح لنا النيّة فى قتالهم حتى نستديمَهم ونستأنيَهم ــ ما الأعمال إلا فى تبَاب ، ولا السعى إلا فى ضلال ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(٤) ؛ إننا والله ما ارتبنا طرْفة عين فيمن يتبعونه(٥) ، فكيف بأتباعِه القاسية قلوبهم ، القليل من الإسلام حظُّهم ، أعوانِ الظّلَمة وأصحاب الجور والعدوان(٦) ؛ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان .

فقام رجل من طيّئ فقال : يا زيد بن حصين ، أ كلام سيدنا عدىّ بن حاتم تُهجّن(٧) ! فقال : زيد ما أنتم بأعرَف بحقّ عدى منّى ، ولكنى لا أدَعُ القول بالحقّ وإن سَخِط الناس .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين قال(٨) : دخل أبو زينب

---

(١) صفين : « العذر » .

(٢) البراكاء : الابتراك فى الحرب ؛ وهو أن يجثو القوم على ركبهم . ويقال : وجن به ، أى ضرب به الأرض ، وفى صفين : « ناوخناهم » .

(٣) جمع برنس ؛ وهو قلنسوة طويلة كان يلبسها فى صدر الإسلام النساك والزهاد .

(٤) سورة الضحى ١١ .

(٥) صفين : « يتبعون دمه » .

(٦) صفين : « ومسددى أساس الجور والعدوان » .

(٧) فى صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فقال عدى بن حاتم : الطريق مشترك ، والناس فى الحق سواء ؛ فمن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة فقد قضى الذى عليه » .

(٨) صفين ١١٢ : « الحارث بن حصيرة » .

ابن عوف ، عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لئن كنّا على الحق لأنت أهدانا سبيلا، وأعظمُنا فى الخير نصيبا ؛ ولئن كنا على ضلال، إنك لأثقلُنا ظهراً وأعظمنا وِزْراً ؛ قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدوّ ، وقد قطعْنا مابيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرْنا لهم العداوة ؛ نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك ؛ أليس الذى نحن عليه هو الحقّ المبين ، والذى عليه عَدُوُّنا هو الحوْب الكبير !

فقال عليه السلام : بَلَى ، شهدتُ أنك إنْ مضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية فى نصرنا، قد قطعتَ منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت؛ فإنك ولىّ الله، تَسْبَح[1] فى رضوانه ، وتركُض فى طاعته ، فأبشر أبا زينب .

وقال له عمار بن ياسر : اثبُت أبا زينب ، ولا تشكّ فى الأحزاب ، أعداء[2] الله ورسوله .

فقال أبو زينب : ما أحب أن لى شاهدين من هذه الأمة شهدا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أهمنى ـ مكانكما .

قال : وخرج عمار بن ياسر ، وهو يقول :

سِيرُوا إلى الأحْزابِ أعداءِ النبىّ — سِيرُوا فخيرُ النّاس أتباعُ علىْ
هذا أوان طابَ سلُّ المشرَفىّ — وقوْدُنا الخيلَ وَهَزُّ السَّمْهَرِىّ[3]

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى رَوْق ، قال :[4] دخل يزيد بن قَيْس الأرحَبىّ عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ نحن أولو جِهازٍ وعدّة،وأكثر

(١) صفين : « تسبح » .

(٢) صفين : « عدو الله ورسوله » .

(٣) السيوف المشرفية : منسوبة إلى مشارف الشام ؛ قرى من أرض العرب . والسمهرى : الرمح الصلب ، منسوب إلى سمهر زوج ردينة ، وكانا مثقفين للرماح . (٤) صفين ١١٣ .

الناس أهلَ قوّة ، ومَنْ ليس به ضَعْف(١) ولا عِلّة ، فمُرْ منادِيَك ؛ فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنُّخَيْلة ؛ فإنّ أخا الحرب ليس بالسئوم ولا النئوم ، ولا مَنْ إذا أمكنته الفرص أجّلها ، واستشار فيها ؛ ولا مَنْ يؤخِّر عمل الحرب فى اليوم لغدٍ وبعد غدٍ .

فقال زياد بن النَّضر : لقد نصحَ لك يزيدُ بن قيس يا أمير المؤمنين، وقال مايعرف، فتوكّل على الله ، وثِقْ به ، واشخَصْ بنا إلى هذا العدوّ راشداً معاناً ؛ فإن يُرِد اللهُ بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك(٢) إلى مَنْ ليس له مِثْلُ سابقتِك وقدَمِك(٢) ؛ وإلّا يُنيبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هَيِّنا ؛ ونرجو أن يصرعهم الله مصارعَ إخوانهم بالأمس .

ثم قام عبدُ الله بن بُدَيلِ بن وَرْقاء الخُزاعىّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ القوم لو كانوا اللهَ يريدون ، ولله يعملون ، ما خالفونا ؛ ولكنّ القوم إنما يقاتلونا فراراً من الأسوة وحبًّا للأَثَرَة ، وضَنًّا بسلطانهم ، وكرهًا لفراق دنياهم التى فى أيديهم ، وعلى إحَنٍ فى نفوسهم، وعداوة يجدُونها فى صدورهم، لوقائع أوقعتَها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلتَ فيها آباءهم وأعوانهم(٣) .

ثم التفت إلى الناس ، فقال : كيف يُبايع معاوية عليًّا ، وقد قَتَل أخاه حنظلة ، وخالَه الوليد ، وجدّه عُتْبة فى موقف واحد ؛ والله ما أظنّهم يفعلون(٤) ، ولن يستقيموا لكم دون أن تُقْصَفَ فيهم قَنَا المُرّان(٥) ، وتقطع على هامهم السُّيوف ، وتنثر حواجبهم بعَمَد الحديد ، وتكون أمورٌ جمّة بين الفريقين .

---

(١) صفين : « ومن ليس بمضعف » .

(٢-٢) صفين : « إلى من ليس مثلك فى السابقة مع النبى صلى الله عليه وآله والقدم فى الإسلام » .

(٣) صفين : « وإخوانهم » .   (٤) صفين : « ما أظن أن يفعلوا » .

(٥) صفين : « تقصد » ، وهى بمعنى « تقصف » والمران : الرماح اللدنة .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين عن عبد الله بن شَريك ، قال[1] : خرج حُجْر بن عدىّ وعَمْرو بن الحَمِق ، يُظهران البراءة من أهل الشام ؛ فأرسل علىّ عليه السلام إليهما أنْ كُفّا عمّا يبلغنى عنكما ، فأتياه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقّين ؟ قال : بلى ؛ قالا : أو ليسُوا مُبطِلين ؟ قال : بلى ؛ قالا : فلم منعتَنا مِنْ شتمِهم ؟ قال : كرهتُ لكم أن تكونوا لَعّانين شَتّامين تشتِمون وتتبرءون ؛ ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم فقلتم : مِنْ سيرتِهم كذا وكذا ، ومِنْ أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوبَ فى القول ، وأبلغَ فى العذر ؛ وقلتم مكان لعنكم إيّاهم ، وبراءتكم منهم : اللهمّ احقِنْ دماءهم ودماءنا ، وأصلِحْ ذات بينهم وبيننا ، واهْدِهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقّ منهم مَنْ جَهِله ، ويرعوِىَ عن الغىّ والعُدْوان مِنْهم من لَهِج به ـ لكانَ أحبّ إلىّ وخيراً لكم .

فقالا : يا أميرَ المؤمنين ، نقبَلُ عِظتك ، ونتأدّب بأدبك .

قال نصر : وقال له عمرو بن الحَمِق يومئذ : والله يا أميرَ المؤمنين إنّى ما أحببتُك ولا بايعتُك عَلَى قَرابةٍ بينى وبينك ، ولا إرادة مال تُؤتينيه ، ولا التماسِ سلطان ترفع ذِكرى به ؛ ولكننى أحببتك بخصال خمس : أنك ابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصيُّه ، وأبو الذرّية التى بقيَتْ فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأسبقُ الناس إلى الإسلام ، وأعظمُ المهاجرين سَهْمًا فى الجهاد ؛ فلو أنّى كُلّفتُ نقلَ الجبالِ الرّواسى ، ونزحَ البحور الطوامى ؛ حتى يأتىَ علىّ يومى فى أمرٍ أقوّى به وليّك ، وأهينُ عدوك ؛ ما رأيت أنّى قد أدّيت فيه كلّ الذى يحقّ علىّ من حقك .

فقال علىّ عليه السلام : اللهم نوِّرْ قلبه بالتقى ، واهدِه إلى صراطك المستقيم[2] ،

---

(١) صفين ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) صفين : « إلى صراط مستقيم » .

ليتَ أنّ فى جُنْدِى مائة مثلك ، فقال حُجر : إذاً والله يا أميرَ المؤمنين ، صَحّ جندُك، وقلَّ فيهم مَنْ يغشّك .

قال نصر : وقام حُجْر بن عدىّ ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، نحن بنو الحرْب وأهلُها الذين نُلْقِحها ونَنْتِجُها، قد ضارستْنا وضارسناها(١)؛ ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذات عدد ورأى مجرّب ، وبأس محمود ، وأزمّتُنا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرّقت شرّقنا ، وإنْ غرّبت غرّبنا ، وما أمرتنا به من أمرٍ فعلنا . فقال علىّ عليه السلام : أ كلّ قومك يرى مثلَ رأيك ؟ قال : ما رأيتُ منهم إلا حُسْنا ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة . فقال له علىّ عليه السلام خيرا .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، قال : كتب عليه السلام إلى عماله حينئذ يستفزُّهم ، فكتب إلى مخنف بن سليم :

سلامٌ(٢) عليك ؛ فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنّ جهاد مَنْ صَدَف عن الحقّ رغبة عنه ، وعبّ فى نُعاس العَمى والضلال ، اختياراً له ـ فريضةٌ على العارفين . إنّ الله يَرْضَى عمّن أرضاه ، ويسخَط عَلَى من عصاه ، وإنا قد هممنا بالسَّير إلى هؤلاء القوم الذين عَمِلوا فى عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفىْ ، وعطّلوا الحدود ، وأماتوا الحقّ ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين وليجةً من دون المؤمنين ؛ فإذا ولىٌّ لله أعظمَ أحداثَهم أبغضوه وأقصَوْه وحرَموه ، وإذا ظالم ساعدهم عَلَى ظُلْمهم أحبوه ، وأدنَوْه وبرّوه ؛ فقد أصرّوا على الظُّلم ، وأجمعوا على الخلاف ؛ وقديمًا ما صدُّوا عن الحقّ ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين . فإذا أُتيتَ بكتابى هذا ، فاستخلِفْ على عَمَلِك أوثقَ أصحابك فى نفسك ، وأقبِلْ إلينا ، لعلك تَلْقَى معنا هذا العدوّ

---

(١) ضارست الأمور : جربتها .

(٢) كتاب صفين : ١١٦ ، ١١٧ .

المُحِلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع الحقّ ، وتباين الباطل ؛ فإنه لا غَناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه عبيد الله(١) بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مِخْنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع ، واستعمل عَلَى هَمَذان سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع عليّ عليه السلام صفين.

قال نصر : وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى على عليه السلام يذكر له اختلافَ أهل البصرة ، فكتب إليه عليّ عليه السلام : [من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس](٢) :

أما بعدُ ؛ فقد قَدِم عليّ رسولُك ، وقرأتُ كتابَك ، تذكُرُ فيه حالَ أهل البصرة واختلافَهم بعد انصرافى عنهم ، وسأخبرك عن القوم ؛ هم بين مقيمٍ لرغبة يرجوها ، أو خائف مِنْ عُقوبة يخشاها ، فأرْغِب راغبَهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والإحسان إليه؛ واحلُلْ عُقْدة الخوف عن قلوبهم ، وانته إلى أمرى ولا تعدُه ، وأحسِنْ إلى هذا الحيّ من ربيعة وكلّ مَنْ قبلَك فأحسن إليه مااستطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعماله كلّهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم .

قال : فحدثنا عمر بن سعد،عن أبي رَوْق، قال(٣) : قال زياد بن النضر الحارثيّ لعبدالله ابن بُديل : إن يومَنا اليوم عَصَبْصَب(٤) مايصبر عليه إلا كل مشيَّع(٥) القلب ، الصادق

---

(١) صفين : « عبد الله » .

(٢) من صفين .

(٣) صفين ١٢٤ــ١٢٨ .

(٤) العصبصب : الشديد ، وفى صفين : « عصيب » .

(٥) المشيع القلب : القوى الجاد الشجاع .

النّية ، رابط الجأش[1] ؛ وايم الله ماأظنّ ذلك اليوم يبقى منهم ؛ ولا منا إلا الرُّذال[2]

فقال عبد الله بن بُديل : أنا والله أظنّ ذلك . فبلغ كلامُهما عليًّا عليه السلام ، فقال لهما : ليكُنْ هذا الكلام مخزونا فى صُدُوركما لاتظهراه ولا يسمعه منكما سامع ؛ إن الله كتبَ القتلَ على قوم والموتَ على آخرين ، وكلٌّ آتيه منيّتُه كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين فى سبيله ، والمقتولين فى طاعته !

قال نصر : فلما سمع هاشم بن عُتْبة ماقالاه ، أتى عليا عليه السلام ، فقال : سر بنا ياأمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم ، القاسيةقلوبهم ، الذين نَبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ، وعَمِلوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلُّوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستوى بهم[3] الشيطان ، ووعدَهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانيّ ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقَصَدَ بهم قَصْد الرّدَى ، وحبّب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ؛ كرغبتنا فى الآخرة وانتجاز مَوْعد ربنا . وأنت ياأمير المؤمنين أقربُ الناس مِنْ رسول الله صلى الله عليه رحِما ، وأفضلُ الناس سابقة وقدَما ؛ وهم ياأميرَ المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ؛ ولكنْ كُتِب عليهم الشقاء ، ومالتبهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطةلك بالسمع والطاعة ،وقلوبنا منشرحةٌ لك ببذْل النصيحة ، وأنفسُنا تنصرُك عَلَى مَنْ خالفك ، وتولى الأمر دونك جَذِلةً ، والله ماأحبّ أنّ لى ماعلى الأرض مما أقلّت ، ولا ماتحت السماء مما أظلّت ؛ وأنى واليتُ عدوا لك ؛ أو عاديتُ وليا لك !

فقال عليه السلام : اللهمّ ارزقه الشهادة فى سبيلك ، والمرافقة لنبيك[4].

قال نصر : ثم إن عليا عليه السلام صَعِد المنبر فخطب الناس ، ودعاهم إلى الجهاد،فبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

---

(١) الجأش : القلب ؛ وفلان رابط الجأش ؛ أى شجاع لا يضطرب قلبه خوفا .
(٢) الرذال ، والرذيل : ما انتقى جيده وبقى أخسه وأدونه
(٣) صفين : « واستولاهم » .
(٤) كذا فى صفين ، وفى الأصول : « المرافقة »

إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته ، فأنصبوا أنفسكم في أداء حقه ، وتنجّزوا موعوده ، واعلموا أنّ الله جعل أمْراس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ؛ ثم جعل الطاعة حظّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط المجزة[1]، وقد حُمِّلت أمر أسْودِها وأحمرها ، ولاقوة إلا بالله ! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول ماليس له ومالا يدركه معاوية وجنده ، الفئةِ الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويُبرق لهم ببارق تسويفه ، ويدلِّيهم بغروره ؛ وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ؛ فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ماحذّركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ؛ واعلموا أنّ المسلوب مَنْ سُلِب دينَه وأمانَتَه ، والمغرور مَنْ آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفَنّ أحداً منكم تقاعَس عَنّي ، وقال : في غيري كفاية ؛ فإن الذّوْد إلى الذّوْد إبل ، ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وَألّا تغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

قال نصر : ثم قام ابنهُ الحسن بن عليّ عليهما السلام ، فقال :

الحمدُ لله لا إله غيرُه ولا شريك له .

ثم قال : إنّ مما عَظّم الله عليكم من حَقِّه ، وأسبَغ عليكم من نِعمه مالا يحصى ذكره ؛ ولا يؤدّى شكره ، ولا يبلُغه قولٌ ولا صفة ؛ ونحن إنما غضِبنا لله ولكم ؛ إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلا اشتدّ أمرُهم ، واستحكمت عُقْدتهم . فاحتشِدوا في قتال عدوّكم معاوية وجنوده ، ولا تخاذلوا ، فإنّ الخذلان يقطعُ نياط القلوب ؛ وإن الإقدام على الأسِنّة نخوة وعِصْمة ، لم يتمنّع[2] قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العِلّة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

---

(١) صفين : « العجزة » .
(٢) صفين : « لم يمتنع » ، والتمنع والامتناع : العز والقوة .

والصُّلحُ تأخُذُ منه مارضيتَ به والحربُ يكفيكَ من أنفاسها جُرَعُ (١)

ثم قام الحسينُ بن علىّ عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : يأهلَ الكوفة ، أنتم الأحبّة الكرماء ، والشّعار دون الدّثار ، جِدّوا فى إطفاء مادَثَر بينكم ، وتسهيل (٢) ماتوعّر عليكم . ألا إنّ الحربَ شرُّها ذَريع وطعمها فظيع ؛ فمن أخذ لها أُهْبتها ، واستعدّ لها عدّتها ، ولم يألَمْ كلُومَها قبل حلولها ، فذاك صاحبُها ، ومَنْ عاجلها قبل أوانِ فُرْصتها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قَمِنٌ ألّا ينفع قومَه ، وأن يُهلِكَ نفسَه ، نسأل الله بقوته أن يَدْعمكم بالفيئة (٣) ثم نزل .

قال نصر : فأجاب عليًا عليه السلام إلى السير جلُّ الناس ؛ إلا أنّ أصحابَ عبد الله بن مسعود أتوه ، فيهم عُبيدة السّلْمانىّ وأصحابه ، فقالوا له : إنا نخرج معكم ، ولا نترك عسكرَكم ونعسكر على حِدَة ، حتى ننظر فى أمركم وأمر أهلِ الشام ؛ فمن رأيناه أراد مالا يحلّ له أو بدَا لنامنه بَغىٌ كنّا عليه . فقال لهم علىٌّ عليه السلام : مرحبًا وأهلا ؛ هذا هو الفقهُ فى الدين ، والعلم بالسنّة ، مَنْ لم يرضَ بهذا فهو خائن جبار (٤) .

وأتاه آخرُون من أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ منهم الربيع بن خُثَيْم ؛ وهم يومئذ أربعمائة رجل ، فقالوا : يأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قد شككنا فى هذا القتال ؛ على معرفتنا بفضلك ، ولا غَناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمّن يقاتِلُ العدوّ ؛ فولِّنا بعض هذه الثغور نكُنْ (٥) ثم نقاتل عن أهله ؛ فوجّه علىّ عليه السلام بالربيع بن خُثَيم على ثغر الرّىّ ، فكان أولُ لواء عَقَده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خُثَيْم .

* * *

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمى ، الخزانة ٢ : ٨٢
(٢) صفين : « إسهال » .
(٣) صفين : « بالفتنة » .
(٤) صفين : « جائر » .
(٥) صفين : « نكون به » .

قال نصر : وحدثني عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف ابن الأحمر ؛ أن[1] علياعليه السلام لم يبرح النُّخَيلة ، حتى قَدِم عليه ابنُ عباس بأهل البصرة.
قال : وكان كتاب عليّ عليه السلام إلى ابن عباس :

أما بعدُ ، فاشخَصْ إليّ بمَن قِبَلَك من المسلمين والمؤمنين ، وذكِّرهم بلائي عندهم ، وعفوِي عنهم في الحرب ، وأعلِمهم الذي لهم في ذلك من الفَضْل . والسلام .

قال : فلما وصلَ كتابُه إلى ابن عباس بالبصرة ، قام في الناس ، فقرأ عليهم الكتاب ، وحَمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أيها الناس ، استعدُّوا للشُّخُوص إلى إمامكم ، وانفِروا خِفَافا وثقالا ، وجاهِدوا بأموالكم وأنفسكم ؛ فإنكم تقاتلون المحلِّين القاسطين ؛ الذين لا يقرءون القرآن ، ولا يعرِفون حكم الكتاب ، ولا يَدِينون دينَ الحق ؛ مع أميرِ المؤمنين ، وابن عمّ رسول الله ، الآمرِ بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، والصادع بالحقّ ، والقيِّم بالهدى ، والحاكِم بحكم الكتاب ، الذي لا يرتَشِي في الحكم ، ولا يُداهِن الفُجّار ، ولا تأخذُه في الله لومةُ لائم .

فقام إليه الأحنفُ بن قيس ، فقال : نعم والله لنجيبَنّك ، ولنخرجَنّ معك على العُسْر واليسر ، والرضا والكُرْه ، نحتسب في ذلك الأجر ، ونأملُ به من الله العظيم حسنَ الثواب.

وقام خالد بن المعمر السَّدُوسي فقال : سمِعْنا وأطعنا ؛ فمتى استنفرْتَنا نفرْنا ، ومتى دعوتَنا أجبنا .

وقام عمرو بن مرجوم العبدي ، فقال : وفّقَ الله أميرَ المؤمنين ، وجمع له أمرَ المسلمين ،

(١) كتاب صفين ١٣٠ .

ولعن المحلّين القاسطين ،لا يقرءون القرآن ؛ نحن والله عليهم حنقون ، ولهم فى الله مفارقون؛ فمتى أردتَنا صحبك خيلُنا[١] ورجالنا إن شاء الله .

قال : وأجابَ الناسُ إلى المسير ، ونَشطوا وخَفّوا ؛ فاستعمل ابنُ عباس على البَصْرة أبا الأسود الدُّؤَلىّ وخرج حتى قدم على علىّ عليه السلام بالنُّخَيْلة .

* * *

[كتاب محمد بن أبى بكر إلى معاوية وجوابه عليه]

قال نصر : وكتب[٢] محمد بن أبى بكر إلى معاوية :

من محمد[٣] بن أبى بكر إلى الغاوى معاوية بن صخر ، سلامٌ على أهل طاعة الله ممّن هو سِلْمٌ[٤] لأهل ولاية الله . أما بعد فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته،خَلَق خَلقًا بلا عَبَث ولا ضعف فى قوته ؛ لا حاجة به إلى خَلْقهم ، ولكنه خَلَقهم عبيدا ، وجعل منهم شقيا وسعيدا ، وغويًّا ورشيدا ، ثم اختارهم على عِلْمِه ، فاصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فاختصّه برسالته ، واختاره لوحيه ، وائتمنه على أمره ، وبعثه رسولا مصدّقا لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع ؛فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فكان أوّلَ مَنْ أجاب وأناب ، وصدّق [ووافق][٥] فأسلم وسلّم أخوه وابنُ عمّه ـ على بن أبى طالب عليه السلام ، فصدّقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كلّ حميم ، ووقاه كلَّ هَوْل، وواساه بنفسه فى كلِّ خوف ؛ فحارب حَرْبه ،وسالم سِلْمه ؛ فلم يبرَحْ مبتذِلًا لنفسه فى ساعات الأزْل[٦] ، ومقامات الرَّوْع؛ حتى برَّز سابقا

---

(١) صفين : « ورجلنا » (٢) صفين ١٣٢ ـ ١٣٥

(٣) فى صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبى بكر .

(٤) صفين : «مسلم» .

(٥) من صفين

(٦) الأزل : الشدة والضيق .

لا نظير له فى جهاده ، ولا مقاربَ له فى فضله ؛ وقد رأيتُك تساميه وأنت أنت ؛ وهو هو السابق المبرّز فى كلّ خير ؛ أوّلُ النّاس إسلاما ، وأصدق الناس نِيّة ، وأطيبُ الناس ذُرِّيّة ، وأفضلُ الناس زَوْجَة ، وخير الناس ابن عمّ . وأنت اللعينُ ابن اللعين ، لم تَزَلْ أنت وأبوك تَبْغِيان لدين الله الغوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ؛ وتجمعان على ذلك الجموع ، وتَبْذُلان فيه المال ، وتحالفان فى ذلك القبائل ؛ عَلَى هذا مات أبوك ، وعلى ذلك خَلَفْتَه ، والشاهدُ عليك بذلك مَنْ يأوى ويلجأ إليك ؛ من بقيّة الأحزاب ورءوس النفاق والشقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ والشاهد لعلىّ مع فضله وسابقته القديمة أنصارُه الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن ، ففضّلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ؛ فهم معه كتائب وعصائب ؛ يجالدون حولَه بأسيافهم ، ويُهَرِيقون دماءهم دونه ؛ يرون الفضل فى اتّباعه ، والشِّقَاق والعصيان فى خلافه ؛ فكيف — يالك الويل — تعدِلُ نفسك بعلىّ ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأبو ولده ، وأوّلُ النّاسِ له اتباعا ، وآخرهم به عهدا ، يخبرُه بسرّه ، ويُشْرِكه فى أمره ؛ وأنت عدوّه وابن عدوّه ؛ فتمتّع ما استطعتَ بباطلِك ، وليمددك ابن العاص فى غَوايتك ؛ فكأن أجلَك قد انقضى ، وكيدك قد وَهَى ، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنّك إنما تكايد ربّك الذى قد أمِنْتَ كيده ، وأيستَ من رَوحه ، وهُوَ لكَ بالمرْصاد ؛ وأنت منه فى غرور . وبالله وبأهل بيت رسوله عنك الغناء ! والسلام على من اتبع الهدى .

فكتب إليه مُعاوية(١) :

من معاوية بن أبى سفيان ، إلى الزّارى على أبيه محمد بن أبى بكر . سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد ؛ فقد أتانِى كتابُك تذكر فيه ما الله أهلُه فى قدرته وسلطانه ، وما أصفى به نَبيّه ، مع كلام ألّفتَه ووضعته ؛ لرأيك فيه تضعيف ؛ ولأبيك فيه تعنيف ؛ ذكرتَ حقّ

(١) بعدها فى صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ابن أبي طالب وقديمَ سابقته ، وقرابتَه من نبي الله ونصرتَه له ، ومواساته إياه ؛ في كلِّ خوف وهَوْل ؛ واحتجاجَك عليّ ، وفخرك بفضل غيرك لا بفضلك . فاحمد إلهًا صرف ذلك الفضل عنك، وجعله لغيرك ؛ فقد كُنّا وأبوك معنا في حياة نبينا ؛ نرى حقَّ ابنِ أبي طالب لازِما لنا ،وفضله مبرزاً علينا ؛ فلما اختار الله لنبيه ماعنده ، وأتمَّ له ماوَعَده،وأظهر دعوتَه ، وأفلج حُجّتَه ، قبضه الله إليه ، فـكان أبوك وفاروقُه ، أوّل من ابتزّه وخالفه،على ذلك اتّفقا واتسقا[١] ؛ثم دعوَاه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما ،وتلكأ عليهما،فهمّا به الهموم : وأرادا به العظيم ، فبايعهما وسلَّم لهما ، لا يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرّهما،حتى قبضا وانقضى أمرهما . ثم أقاما بعدهما ثالثَهما عثمان بن عفان ، يهتدي بهديهما ،ويسير بسيرتهما، فعبتَه أنت وصاحبُك ، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي ، وبطنتُما وظهرتما[٢] ، وكشفتما له عداوتَـكما وغِلَّـكما ،حتى بلغتما منه مناكما ، فخذ حذرَك يابن أبي بكر، فسترى وبالَ أمرك ، وقِسْ شبرَك بفترك ، تقصُرْ عن أن تساويَ أو توازيَ مَنْ يَزِنُ الجبال حلمه ، ولا تَلِينُ على قَسْرٍ قَناتُه ولا يدرِكُ ذو مَدًى أناتَه ، أبوك مَهّد له مِهادَه ، وبَنَى مُلْكه وشاده ، فإن يكنْ مانحن فيه صوابا فأبوك أوّله ، وإن يكن جوْراً فأبوك أسّه[٣] ونحن شركاؤه ، فبهَدْيِه أخذنا ، وبفعله اقتدينا ، رأينا أباك فَعلَ مافعلَ ، فاحتذينـا مثاله ، واقتدينا بفعاله ، فعِبْ أباك بما بدا لك ، أو دَعْ . والسلام على من أنابَ ،ورجع من غوايته وتاب .

* * *

قال : وأمر عليٌّ عليه السلام الحارث الأعور أن ينادِيَ في الناس:اخرُجوا إلى معسكركم

---

(١) صفين : « واتسقا » .
(٢) صفين : « أظهرتما » .
(٣) صفين : « أسسه » .

بالنُّخَيلة ، فنادى الحارث فى الناس بذلك ، وبعث إلى مالك بن حبيب اليربوعىّ صاحب شرطته ، يأمره أن يحشُر الناس إلى المعسكر ، ودعا عُقبة بن عمرو الأنصارىّ ، فاستخلفه على الكوفة — وكان أصغر أصحاب العَقَبة السبعين ، ثم خرج عليه السلام ، وخرج الناس معه .

قال نصر : ودعا على عليه السلام زياد بن النَّضْر وشريح بن هانئ — وكانا على مَذْحِج والأشعريين — فقال : يازياد ، اتَّقِ الله فى كل مُمْسَى ومُصْبَح ، وخَفْ على نفسِك الدنيا الغَرور ؛ ولا تأمنها على حال . واعلم أنك إن لم تَزَعْها عن كثير مما تحبّ مخافة مكروهه ، سَمَتْ بك الأهواء إلى كثير من الضّرر ، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغى والظلم والعدوان ؛ فإنى قد وليتك هذا الجُنْد ، فلا تستطيلنّ عليهم ؛ إنّ خيرَكم عند الله أتقاكم ؛ تعلّم مِن عالمهم ؛ وعَلّم جاهلهم ، واحلم عن سَفيههم ؛ فإنك إنما تدرك الخير بالحلم وكفّ الأذى والجهل (١) .

فقال زياد : أوْصَيْتَ يا أمير المؤمنين حافظا لوصيّتك ، مؤديا لأرَبك ؛ يرَى الرُّشْد فى نفاذِ أمرك ، والغَيّ فى تضييع عهدك .

فأمرها أن يأخذَا فى طريق واحد ولا يختلفا ، وبعثهما فى اثنى عشر ألفا على مقدّمته ، وكلٌّ واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش ؛ فأخذ شريح يعتزلُ بمن معه من أصحابه على حدَة ، ولا يقرب زيادا ، فكتب زياد إلى على عليه السلام مع مَوْلًى له يقال له شوذب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ؛ من زياد بن النَّضْر :

سلام عليك ؛ فإنى أحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنك ولّيْتنى أمرَ

(١) الجهل هنا : السفاهة والغضب .

الناس ؛ وإن شُرَيْحاً لا يرى لى عليه طاعة ولا حقا؛ وذلك من فعله بى استخفاف بأمرك، وترك لعهدك ، والسلام .

وكتب شريح بن هانئ إلى علىّ عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من شُرَيح بن هانئ ، سلام عليك ؛ فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ؛ فإنّ زياد بن النضر حين أشركتَه فى أمرك ووليّته جنداً من جنودك،طغى واستكبر ، ومال به العُجْب والُخيَلاء والزّهْو إلى مالا يَرْضَى الله تعالى به من القَوْل والفعل ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين عليه السلام أن يعزِلَه عنّا ويبعث مكانه مَنْ يحبّ فليفعل ؛ فإنا له كارهون ، والسلام .

فكتب علىّ عليه السلام إليهما :

من عبد الله على[(١)] أمير المؤمنين إلى زياد بن النَّضْر وشُرَيح بن هانئ . سلامٌ عليكما، فإنّى أحمَد إليكما الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فإنى قد ولّيتُ مقدّمتى زيادَ ابن النضر،وأمّرتُه عليها،وشُرَيح بن هانئ على طائفة منها أمير؛فإن انتهى جمعكما إلى بأس، فزياد بن النَّضْر عَلَى الناس كلِّهم ؛ وإن افترقتما فكلُّ واحدٍ منكما أميرُ الطائفة التى وليناه أمرَها. واعلما أنّ مقدّمة القوم عُيونُهم، وعيونُ المقدّمة طلائعهم، فإذا أنتما خرَجْتُما من بلادكما فلا تسأما من توْجيه الطّلائع ، ومن نَفْضِ الشِّعاب[(٢)] والشّجر والخَمَر[(٣)] فى كلِّ جانب ، كى لا يغترّكما عدوّ ، أو يكون لهم كمين . ولا تسيّرنّ الكتائبَ والقبائل من لَدُنْ الصّباح إلى المساء إلا على تعبئة،فإنْ دهمَكم عدوّ أو غشيَكم مكروه، كنتم قد تقدمتم فى التعبئة ، فإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم فليكنْ معسكرُكم فى قُبُل الأشراف أو سِفاح[(٤)]

(١) صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ... » .

(٢) يقال : نفض المكان ينفضه ؛ إذا نظر جميع ما فيه حتى يعلم منه ؛ ومنه قول زهير :

وتنفض عنها غيبَ كلِّ خميلةٍ ... وتخشى رماةَ الغوث من كلِّ مَرْصَدِ

والشعاب : جمع شعبة ؛ وهى ما انشعب وتفرع من الوادى .

(٣) الخمر : ما وارى الإنسان من شجر ونحوه .

(٤) الأشراف : جمع شرف ؛ وهى الأماكن العالية . وسفاح الجبال : أسافلها .

الجبال وأثناء الأنهار ؛ كيما يكون ذلك لكم رِدْءا ، وتكون مقاتلتكم من وَجْهٍ واحد أو اثنين ؛ واجعلوا رقباءكم[١] فى صياصى الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومناكب الأنهار يرون لكم ، كى لا[٢] يأتيكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن . وإيّاكم والتفرّق ؛ فإذا نزلتم فانزلوا جميعا ، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا ؛ فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفّوا عسكركم بالرماح والتِّرَسة[٣] ، ولتكنْ رماتكم من وراء تِرَسِكم ورماحكم يَلُونهم . وما أقمتم فكذلك فافعلوا كى لا تصابَ لكم غَفْلة ، ولا تُلْفَى لكم غِرّة ، فما قوم يحفّون عسكرَهم برماحهم وتِرَسَتِهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنّهم فى حصون . واحرُسا عسكركما بأنفسكما ، وإيّاكما أن تذوقا نَوْماً حتى تُصْبِحا إلا غِرَارا أو مَضْمضة[٤] . ثم ليكن ذلك شأنَكما ودأبَكما حتى تنتهيا إلى عدوّكما ؛ وليكن كلَّ يوم عندى خبرُكما ورسولٌ مِنْ قِبَلِكما . فإنى — ولا شىء إلا ماشاء الله — حثيثُ السَّيْرِ فى آثارِكما . عليكما فى جَرْيِكما[٥] بالتُّؤَدة ، وإيّاكما والعَجَلة ؛ إلّا أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة ، وإيّاكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما ، إلا أن تُبدآ ، أو يأتيكما أمرى ، إن شاء الله[٦] .

قال نصر :[٧] وكتبَ علىّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد — وكان قد قسّم عسكرَه أسْباعاً ، فجعل عَلَى كل سُبْعٍ أميرا ، فجعل سعد بن مسعود الثقفىّ على قَيْس وعبد القيس ، ومعقِل بن قيس اليربوعىّ على تميم وضَبّة والرِّباب وقريش

---

(١) صفين : «رقباءكم» .

(٢) كذا فى ا ، وفى ب ، ج بحذف «كى» .

(٣) الترسة : جمع ترس ؛ وهو صفحة من الفولاذ مستديرة ، ويجمع على تراس أيضا .

(٤) الغرار : القليل من النوم . وقوله : «مضمضة» ؛ لما جعل للنوم ذوقا ، أمرهم ألا ينالوا منه إلا بألسنتهم ولا يسيغوه ؛ فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٩ : ١٠) ؛ وأورد كلام الإمام .

(٥) صفين : «حربكما» . (٦) صفين ١٣٨ — ١٤٠

(٧) صفين ١٣٢ ، ١٤٠ — ١٤١ .

وكنانة وأسد ، ومِخنف بن سُلَيم عَلَى الأزد وبَجيلة وخَثعم والأنصار وخُزاعة ، وحُجْر ابن عدىّ الكندىّ على كِندة وحَضرموت وقُضاعة ، وزياد بن النَّضر على مَذْحِج والأشعريين ، وسعيدَ بن مُرّة الهَمْدانىّ على هَمْدان ومَنْ معهم من حِمْير ، وعدىّ بن حاتم الطائىّ على طَيّء ؛ تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج ، وتختلف الرايتان : راية مذحِج مع زياد بن النضر ، وراية طَيّئ مع عدىّ بن حاتم ؛ هذه عساكر الكوفة . وأما عساكر البَصْرة فخالد بن معمر السَّدوسىّ على بكر بن وائل ، وعمرو بن مرجوم العبدىّ على عبْد القيس ، وابن شَيمان الأزدىّ[١] على الأزد ، والأحنف على تَميم وضبّة والرِّباب ، وشريك ابن الأعور الحارثىّ على أهل العالية :

أما بعد ، فإنى أبرأ إليكم من مَعَرّة الجنود[٢] [إلّا من جوعة إلى شبعة ، ومن فقر إلى غنًى ، أو عمًى إلى هدًى ؛ فإنّ ذلك عليهم][٣] . فأغْرِبوا[٤] الناس عن الظلم والعُدْوان ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالًا لا يرضى الله بها عنّا فيردّبها علينا وعليكم دعاءنا ؛ فإنه تعالى يقول : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾[٥] .

وإن الله إذا مَقَت قوما من السماء هلكوا فى الأرض ، فلا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة ؛ وأبلُوا فى سبيله ما استوجب عليكم ؛ فإنّ الله قد اصطَنَع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا ، وأن ننصُرَه ما بلغت قوتنا ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى صفين : «صبرة بن شيمان» .

(٢) قوله : « أبرأ إليكم من معرة الجيش » ، نسبه صاحب اللسان هذا القول إلى عمر بن الخطاب ، وقال : « وأما معرة الجيش التى تبرأ منها عمر رضى الله عنه ؛ فهى وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم فى حرمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه » ؛ وفى صفين : « معرة الجيش » .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤) أغربوا الناس ، أى نحوهم ، وفى صفين « فاعزلوا الناس » .

(٥) سورة الفرقان ٧٧

قال : وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذى لهم وعليهم :

أما بعد ؛ فإنّ الله جعلكم فى الحقّ جميعاً سواء ؛ أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، و [بمنزلة] [١] الولد من الوالد ، [الذى لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به ، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم] [١] . فحقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم ، والكفّ عن فيئكم ؛ فإذا فعل معكم ذلك ، وجبَت عليكم طاعته فيما وافق الحقّ ، ونصرتُه والدفع عن سلطان الله ، فإنكم وَزَعة الله فى الأرض ، فكونوا له أعوانا ، ولدينه أنصارا ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحب المفسدين [٢] .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدّثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ ابن نُباتة ، قال : قال علىّ عليه السلام : ما يقول الناس فى هذا القبر ؟ — وفى النُّخَيلة ، وبالنُّخَيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله — فقال الحسن بن علىّ عليهما السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه ، جاء فمات هاهنا ، فقال : كذبوا ؛ لأنا أعلم به منهم ؛ هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بِكْر يعقوب ؛ ثم قال : أهاهنا أحد من مَهَرة [٣] ؟ فأتِىَ بشيخ [كبير] [١] ، فقال : أين منزلُك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل [٤] ؟ قال : أنا قريب منه ، قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبرَ ساحر ، قال : كذبوا ، ذاك قبر هود النبىّ عليه السلام ، وهذا قبر يهودا بن يعقوب . ثم قال

---

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) صفين ١٤١ ، ١٤٢ .
(٣) مهرة : حى من اليمن
(٤) صفين : « أين من الجبل الأحمر » .

عليه السلام : يُحشَر من ظهر الكوفة سبعون ألفا على غُرَّة[1] الشمس ، يدخلون الجنة بغير حساب .

قال نصر : فلما نزَل علىّ عليه السلام النُّخَيْلة متوجّها إلى الشام ، وبلغ معاويةَ خبرُهُ ، وهو يومئذ بدمشق ، قد ألبَس منبر دمشق قيصَ عثمان مختضباً بالدم ، وحول المِنْبر سبعون ألف[2] شيخ يبكون حوله ، لا تجفّ دموعهم عَلَى عثمان ، خطبهم ، وقال :

ياأهل الشام ، قد كنتم تكذّبوننى فى علىّ ، وقد استبان لكم أمرُه ؛ والله ما قتَل خليفتَكم غيرُه . وهوأمرَ بقتله ، وألّب الناس عليه ، وآوى قَتَلَتَهُ ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم . ياأهل الشام ، اللهَ اللهَ فى دم عثمان ! فأنا وليُّه وأحقّ مَنْ طلب بدمه ؛ وقد جعل الله لولىّ المقتول ظلما سلطانا ، فانصروا خليفتَكم المظلوم ، فقد صنع القوم به ما تعلمون ، قتلوه ظُلْماً وبغيا ؛ وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفىءَ إلى أمر الله .

ثم نزل .

قال نصر : فأعطوه الطاعة وانقادوا له ، وجمع إليه أطرافه ، واستعد للقاء علىّ عليه السلام[3] .

---

(١) غرة الشمس : مطلعها .

(٢) كذا فى الأصول وفى كتاب صفين .

(٣) كتاب صفين ١٤٢ ، ١٤٣

(٤٧)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر الكوفة :

الأصلُ

كَأَنِّى بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ ؛ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّى لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللهُ بِشَاغِلٍ أَوْرَمَاهُ[١] بِقَاتِلٍ .

***

الشرحُ :

عُكاظ : اسم سُوق للعرب بناحية مكة ، كانوا يجتمعون بها فى كلّ سنة ، يقيمون شهرا ويتبايعون ويتناشدون شعرا ويتفاخرون ، قال أبو ذُؤَيب :

إذا بُنِيَ القِبابُ عَلَى عُكَاظٍ ... وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الأُلُوفُ[٢]

فلما جاء الإسلام هدم ذلك ؛ وأكثر ما كان يُباع الأديم بها ، فنسب إليها .

والأديم واحد والجمع أُدُم ، كما قالوا : أفيق للجلد الذى لم تَتِمّ دباغته ، وجمعه أُفُق . وقد يجمع أديم على آدِمة ، كما قالوا : رغيف وأرغفة .

والزلازل هاهنا : الأمور المزعجة ، والخطوب المحركة .

---

(١) مخطوطة النهج : « ورماه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ ؛ وفى شرحه « على عكاظ ، يريد بعكاظ ، ويقال : فلان نازل على فلان ، وعلى ضريبة ، أى بها . قام البيع ، يريد : قامت السوق » .

وقوله عليه السلام : « تُمَدِّين مَدَّ الأديم » ، استعارة لما ينالها من العَسْف والخبط .
وقوله : « تُعْرَكِين » ؛ من عَرَكَتِ القومَ الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم .

***

[فصل فى ذكر فضل الكوفة]

وقد جاء فى فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شىء كثير ، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام : نعمت المَدَرة .

وقوله عليه السلام : إنه يُحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفا ، وجوهُهم عَلَى صُورة القمر .

وقوله عليه السلام : هذه مدينتُنا ومَحَلّتنا ، ومقرّ شيعتنا

وقول جعفر بن محمد عليه السلام : اللهم ارْمِ مَنْ رَماها ، وعادِ مَنْ عاداها .

وقوله عليه السلام : تربةٌ تحبّنا ونحبّها .

فأمّا ماهمّ به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ، ودفاع الله تعالى عنها ؛ فكثير .

قال المنصور لجعفر بن محمد عليهما السلام : إنى قد هممتُ أن أبعثَ إلى الكوفة مَنْ ينقضُ منازِلَها ، ويُجَمِّر(١) نخلَها ، ويستصفى أموالها ، ويقتل أهل الرِّيبة منها ؛ فأشِرْ علىّ . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن المرء ليقتدى بسلَفه ، ولك أسلاف ثلاثة : سليمان أُعطِىَ فشكر ، وأيوب ابتُلِىَ فصبر ، ويوسف قَدَر فغفر ؛ فاقتد بأيّهم شئت . فصمت قليلا ، ثم قال : قد غفرت .

---

(١) جمر النخلة ؛ أى قطع جمارها .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزيّ فى كتاب " المنتظم " أن زياداً لما حَصَبَهُ أهلُ الكوفة ، وهو يخطب على المِنبَر ، قطع أيدى ثمانين منهم ، وهمّ أن يخرّب دورَهم ، ويُجَمِّرَ نخلَهم ، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرَّحبة ، يعرضهم على البراءة من عليّ عليه السلام ؛ وعلم أنّهم سيمتنعون ، فيحتجّ بذلك على استئصالهم ، وإخراب بلدهم .

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصاريّ : فإني لَمَعَ نفرٍ من قومى ، والناس يومئذ فى أمرٍ عظيم ؛ إذْ هَوَّمت تهويمةً[1] ، فرأيت شيئا أقبل ، طويل العنق ، مثل عُنُق البعير أهدر أهدل[2] ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا النَّقّاد ذو الرقبة ، بُعِثت إلى صاحب هذا القصر ، فاستيقظت فزعا ، فقلت لأصحابى : هل رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : لا ؛ فأخبرتُهم ، وخرج علينا خارج من القصر ، فقال : انصرفوا ، فإن الأمير يقول لكم : إنى عنكم اليوم مشغول ؛ وإذا بالطاعون قد ضربه ، فكان يقول : إنّى لأجِد فى النِّصف من جسدى حرّ النار حتى مات ، فقال عبد الرحمن بن السائب :

مَا كَانَ مُنْتَهِياً عَمّا أرادَ بِنَا   حَتّى تَنَاوَلَهُ النَّقّادُ ذُو الرَّقَبَهْ
فأثبتَ الشِّقَّ منهُ ضربةٌ عَظُمَتْ   كما تناول ظُلْماً صاحب الرَّحَبَهْ[2]

قلت : قد يظن ظانّ أن قوله : « صاحب الرّحبة » يمكن أن يحتجّ به من قال : إنّ قبر أمير المؤمنين عليه السلام فى رَحَبة المسجد بالكوفة ؛ ولا حجة فى ذلك ، لأنّ أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه فى رَحَبة المسجد ، يحكم بين الناس ، فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار .

---

(١) التهويم : هز الرأس من النعاس .
(٢) يقال : هدر البعير ؛ صوت فى غير شقشقة ، والجمل الأهدل : المسترخى المشفر .

(٤٨)

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام :

الأصْـلُ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ ، وَلَا مُكَافَإِ الإِفْضَالِ . أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي ، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ ، مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

يعني عليه السلام بِالمِلْطاط هاهنا السَّمْتَ الذي أمَرَهم بلزومه ؛ وهو شاطئ الفُرات، ويقال ذلك أيضاً لِشاطِئ البحر ، وأصله ما استوى مِنَ الأرض ؛ ويعني بالنُّطفَة ماء الفُرات ، وهو من غريب العِبارات وعجيبها .

* * *

الشَّـرْحُ :

وقب الليل ؛ أي دخل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾[1] .

وغسق ، أي أظلم . وخفق النجم ، أي غاب .

---

(١) سورة الفلق ٣

ومقدِّمة الجيش ، بكسر الدال : أوله ؛ ومايتقدّم منه على جمهور العسكر ؛ ومقدَّمة لإنسان ، بفتح الدال : صدره .

والمِلْطاط : حافّة الوادى وشَفِيرُه ، وساحل البحر ، قال رؤبة :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالمِلْطَاطِ *

قال الأصمعيّ : يعني به ساحلَ البحر ، وقول ابن مسعود : هـذا المِلطاط طريق بقيّة المؤمنين ، هُرّابا من الدّجّال — يعنى به شاطئ الفرات .

فأما قول الرضيّ رحمه الله تعالى : « الملطاط : السّمْت الذى أمرهم بلزومه وهو شاطئ الفرات ، ويقال ذلك لشاطئ البحر » ، فلا معنى له ؛ لأنه لافرق بين شاطئ الفرات وشاطئ البحر ، وكلاهما أمر واحـد ، وكان الواجب أن يقول : المِلْطاط : السمت فى الأرض ، ويقال أيضاً لشاطئ البحر .

والشِّرْذمة : نفر قليلون .

وموطنين أكناف دجلة ، أى قد جعلوا أكنافها وَطَناً ، أوطنت البُقعة .

والأكناف : الجوانب ، واحدهـا كَنَف . والأمداد : جمع مَدَد ، وهو مايُمَدُّ به الجيش تقوية له .

وهذه الخطبة خطب بها أميرُ المؤمنين عليه السلام وهو بالنُّخَيلة خارجا من الكوفة ومتوجِّها إلى صِفِّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين ؛ ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وزادوا فيها : « وقد أمّرْت على المِصر عُقْبة بن عمرو الأنصاريّ ، ولم آلكم ولا نفسي(١) ؛ فإيّاكم والتخلّف والتربّص ؛ فإنى قد خلّفت مالك بن حبيب اليَربوعيّ ، وأمرته ألّا يترك متخلّفا إلا ألحقه بكم عاجلا ، إن شاء الله »(٢) .

---

(١) يقال : ماألو الشيء ، أى ماأتركه .   (٢) صفين ١٤٨

وروى نصر بن مزاحم عوض قوله : « فأنهِضْهم معكم إلى عَدُوّكم » «فأنهِضهم معكم إلى عدو الله »[١].

قال نصر : فقام إليه مَعْقل بن قيس الرّياحيّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ والله مايتخلّف عنك إلّا ظَنِين ، ولا يتربّصُ بك إلا منافق ، فمُرْ مالكَ بن حبيب فليضرِبْ أعناقَ المتخلّفين . فقال : قد أمَرْتُهُ بأمري ، وليس بمقصّر إن شاء الله[٢].

* * *

[أخبار عليّ في جيشه وهو في طريقه إلى صفين]

قال نصر بن مزاحم : ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بَهُرَسِير[٣]؛ وإذا رجل من أصحابه يقال له حُرّ بن سهم بن طَرِيف ، من بني رَبيعة بن مالك ، ينظر إلى آثار كسرى ؛ ويتمثل بقول الأسود بن يَعْفُر :

جَرَتِ الرِّياحُ على محلّ ديارهم فكأنما كانوا على ميعـادِ[٤]

فقال له عليه السلام : ألا قلت: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾[٥]؛ إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورَّثين ، ولم يشكروا النّعمة ، فسُلِبوا دنياهم بالمعصية . إياكُم وكُفْرَ النّعم ، لاتحلّ بكم النِّقَم ، انزلوا بهذه الفَجْوة[٦].

---

(١) صفين : « إلى أعداء الله » .
(٢) صفين ١٤٨
(٣) بهرسير : بلد قرب المدائن .
(٤) من قصيدة له في المفضليات ٢١٦ — ٢٢٠
(٥) سورة الدخان ٢٥ — ٢٩
(٦) الفجوة : المكان المتسع في الأرض ؛ وفي صفين ١٥٩ « النجوة » ؛ وهو المكان المرتفع .

قال نصر : وحدّثنا[1] عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور عن حَبّة العُرَنيّ ، قال : أمر عليّ عليه السلام الحارث الأعور ؛ فصاح فى أهل المدائن : مَنْ كان من المقاتلة فليوافِ أميرَ المؤمنين عليه السلام صلاةَ العصر. فوافوْه فى تلك الساعة ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ؛ فإنى قد تعجّبت مِنْ تخلّفكم عن دَعْوتكم ، وانقطاعكم عن أهل مِصْركم فى هذه المساكن الظالم أهلها ، الهالك أكثر ساكنيها ، لامعروف يأمرون به ، ولا منكر ينهوْن عنه .

قالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّا ننتظِر أمرَك ، مُرْنا بما أحببت . فسارَ وخلّف عليهم عديّ بن حاتم ، فأقام عليهم ثلاثا ثمّ خرج فى ثمانمائة رجل منهم ، وخلّف ابنه زيدا بعده ، فلَحِقه فى أربعمائة رجل منهم .

وجاء عليّ عليه السلام حتى مَرّ بالأنبار ، فاستقبله بنو خُشْنُوشَكْ[2] ؛ دهاقينها .
ـ قال نصر : الكلمة فارسية ، أصلها « خُشْ » أى الطيب[3] ـ

قال : فلما استقبلوه ، نزلوا عن خيولهم ، ثم جاءوا يشتدّون معه ، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها فى طريقه ، فقال : ماهذه الدّوابّ التى معكم ؟ وماأردتم بهذا الذى صنعتم ؟ قالوا : أمّا هذا الذى صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء ؛ وأمّا هذه البراذين فهدّية لك ، وقد صنعنا للمسلمين طعاما ، وهيّأنا لدوابّكم علفا كثيراً .

فقال عليه السلام : أما هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء ؛ وإنكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا

---

(١) صفين ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢) فى الأصول « خشوش » ، وماأثبته من كتاب صفين .
(٣) العبارة كما فى كتاب صفين : « قال سليمان : خش : طيب . نوشك : راض ، يعنى بنى الطيب الراضى ، بالفارسية » .

له . وأما دوابّكم هذه ؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم ، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا ؛ فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلا بثمن . قالوا : ياأمير المؤمنين ، نحن نقوّمه ثم نقبل ثمنه ، قال : إذاً لا تقوّمونه قيمته ، نحن نكتفى بما هو دونه . قالوا : يا أمير المؤمنين ؛ فإنّ لنا من العرب مواليَ ومعارف ؛ أتمنعنا أن نُهْدِيَ لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا ؟ فقال : كلُّ العرب لكمُ موالٍ ، وليس ينبغى لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم ، وإن غَصَبكم أحد فأعلمونا . قالوا : ياأمير المؤمنين ؛ إنّا نحب أن تُقبَل هديتُنا وكرامتنا . قال : وَيْحَكم ! فنحن أغنى منكم . وتركهم وسار .

قال نصر : وحدثنا[1] عبد العزيز بن سياه ، قال : حدّثنا حبيب بن أبى ثابت ، قال : حدثنا [أبو][2] سعيد التيمىّ المعروف بعَقيصَى ، قال : كُنّا مع علىّ عليه السلام فى مسيره إلى الشام ؛ حتى إذا كُنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد ، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء ، فانطلق بنا علىّ عليه السلام حتى أتى [بنا][2] إلى صخرة ضِرْس[3] فى الأرض؛ كأنّها رُبْضَةُ عنز[4] ؛ فأمرنا فاقتلعناها ، فخرج لنا من تحتها ماء ، فشرب الناس منه ، وارتوَوْا . ثم أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضى قليلا ، قال عليه السلام : أمِنكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلقوا إليه ، فانطلق مِنّا رجالٌ ركبانا ومشاة ، فاقتصصنا الطريق إليه ؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنه فيه ، فطلبناه ، فلم نقدر على شىء ، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى ديرٍ قريب

---

(١) صفين ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) من صفين والقاموس .

(٣) الضرس : الأكمة الخشنة .

(٤) الربضة ، بضم الراء ويقال بكسرها ؛ مقدار جثة العنز إذا ربضت ؛ وفى الأثر : « جاء بثريد كأنه ربضة أرنب » أى جثتها . راجع اللسان .

مِنّا ، فسألنا : أين هذا الماء الذى عندكم ؟ قالوا : ليس قُرْبنا ماء ، فقلنا : بلى إنّا شربنا منه ، قالوا : أنتم شَرِبتم منه ! قلنا : نعم ، فقال صاحب الدَّيْر : والله ما بُنِى هذا الدير إلا بذلك الماء ، وما استخرجه إلّا نبىّ أو وصىّ نبىّ .

قال نصر : ثم مضى عليه السلام ؛ حتى نزل بأرضِ الجزيرة ، فاستقبله بنو تَغْلِب والنَّمِر بن قاسط بجَزُور (١) ، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبىّ : يا يزيد ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : هؤلاء قومُك ؛ من طعامهم فاطْعَم ، ومن شرابهم فاشرب .

قال : ثم سار حتى أتى الرَّقّة ـ وجلّ أهلها عثمانية ، فرّوا من الكوفة إلى معاوية ـ فأغلقوا أبوابَها دونه ، وتحصّنوا ، وكان أميرهم سماك بن مخرمة الأسدىّ فى طاعة معاوية ، وقد كان فارق عليا عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد ، ثم كاتب معاوية ، وأقام بالرَّقّة حتى لِحَق به سبعمائة رجل .

قال نصر : فروى حَبّة أن علياً عليه السلام لما نزل على الرَّقة ، نزل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات ، فنزل راهب هناك من صَوْمعته ، فقال لعلىّ عليه السلام : إنّ عندنا كِتابا تَوارثناه عن آبائنا ، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم ، أعرِضه عليك ؟ قال : نعم ، فقرأ الراهب الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . الذى قضى فيما قضى ، وسَطّر فيما كتب (٢) : أنه باعثٌ فى الأمّيين رسولا منهم ؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمة ، ويدلّهم على سبيل الله ، لا فظٌّ ولا غليظ ؛ ولا صَخّابٌ فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفُو ويصفح ، أمّته الحَمّادون الذين يحمَدون الله على كل نَشَز (٣) ، وفى كل صَعود وهَبوط ، تذِلّ ألسنتهم

---

(١) الجزور : الناقة التى تنحر ؛ وفى صفين : « بالجزيرة » .
(٢) صفين : « فيما سطر » .
(٣) النشز : المكان المرتفع ، كالنشاز .

بالتكبير والتهليل ، والتسبيح ؛ وينصرُه الله على من ناوأه ؛ فإذا توفّاه الله ، اختلفت أمتهُ من بعده ؛ ثم اجتمعت ، فلبثت ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمرّ رجل من أمة بشاطىء هذا الفُرات ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضِي بالحقّ ولا يركس[1] الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرّماد في يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الظمآن[2] . يخاف الله في السرّ ، وينصح له في العلانية ، لا يخاف في الله لومةَ لائم ؛ فمن أدرك ذلك النبيّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة ، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه ؛ فإنّ القتل معه شهادة .

ثم قال له : أنا مصاحبُك ، فلا أفارقُك حتى يصيبَنى ما أصابك . فبكى عليه السلام ، ثم قال : الحمد لله الذى لم أكنْ عنده منسيًّا ، الحمد لله الذى ذكرنى عنده في كُتُب الأبرار .

فمضى الراهب معه ، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أمير المؤمنين ويتعشّى ، حتى أصيب يوم صفين ؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام : اطلبوه ، فلما وجدوه صلّى عليه ودفنه . وقال : هذا مِنّا أهلَ البيت ، واستغفر له مرارا[3] .

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم في كتاب "صفين" عن عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور ، عن حبّة العُرنيّ . ورواه أيضا إبراهيم بن ديزيل الهمدانيّ ، بهذا الإسناد عن حبّة أيضا في كتاب صفين .

* * *

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب ، قال : حدثنى يحيى بن سليمان ، قال : حدثنى يحيى بن عبد الملك بن حُميد بن عتيبة ، عن أبيه ، عن إسماعيل بن رجاء ، عن أبيه ومحمد

(١) الركس : رد الشيء مقلوبا ، وفي صفين : « ولا يرتشى في الحكم » .
(٢) صفين : « الظماء » .
(٣) كتاب صفين لنصر ١٦٤ ، ١٦٥ .

ابن فُضَيل ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبي سَعِيد الخُدرِيّ ، رحمه الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فانقطع شِسْعُ [1] نعلِه ، فألقاها إلى عليّ عليه السلام يُصلحها، ثم قال : « إنّ منكم مَنْ يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلتُ على تنزيله »، فقال أبو بكر الصديق: أنا هو يارسول الله ؟ فقال: لا ، فقال عمر بن الخطاب: أنا هو يارسول الله ؟ قال : « لا ، ولكنه ذَاكُم خَاصفُ النعل » ـ ويَدُ عليّ عليه السلام على نَعْل النبيّ صلى الله عليه وآله يصلحها .

قال أبو سعيد: فأتيتُ عليًّا عليه السلام فبشّرته بذلك فلم يحفِل به ، كأنه شيء قد كان علمه من قبل .

***

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب أيضاً ، عن يحيي بن سليمان ، عن ابن فُضَيل ، عن إبراهيم الهَجَرِيّ ، عن أبي صادق ، قال : قَدِم علينا أبو أيوب الأنصاريّ العِراق ، فأهْدَت له الأزد جُزرا [2] ، فبعثوها معي ، فدخلت إليه فسلّمت عليه ، وقلت له : ياأبا أيوب ، قد كرّمك الله عزّ وجلّ بصحبة نبيه صلّى الله عليه وسلّم ، ونزوله عليك ، فمالِي أراك تستقبل الناس بسيفك ، تقاتلهم هؤلاء مرة وهؤلاء مرة ! قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عَهِد إلينا أن نقاتل مع عليّ الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتلَ معه القاسطين ؛ فهذا وَجْهنا إليهم ـ يعني معاوية وأصحابه ـ وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين، ولم أرهم بعد .

وروى ابن ديزيل أيضا في هذا الكتاب ، عن يحيي، عن يَعْلى بن عُبيد الحنفيّ ، عن إسمعيل السّدىّ ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وهو

---

(١) الشسع : قبال النعل ؛ وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها .
(٢) الجزر : جمع الجزور ؛ وهو مايذبح من الإبل .

فى الحجرة يُوحَى إليه ونحن ننتظره حتى اشتدّ الحرّ ، فجاء على بن أبى طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السلام ؛ فقعدوا فى ظل حائط ينتظرونه ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ، رآهم فأتاهم وَوَقَفْنا نحن مكاننا ، ثم جاء إلينا وهو يظلهم بثوبه ، ممسكا بطرَف الثوب ، وعلىّ ممسِكٌ بطرَفِه الآخر ؛ وهو يقول : « اللهم إنى أحبهم ، فأحبهم ؛ اللهم إنى سِلْم لمن سالمهم ، وحرب لمن حاربهم » قال : فقال ذلك ثلاث مرات .

قال إبراهيم فى الكتاب المذكور : وحدثنا يحيى بن سليمان ، قال : حدثنا ابن فُضَيل ، قال : حدثنا الحسن بن الحكَم النَّخَعىّ ، عن رباح بن الحارث النخعىّ ، قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ قَدِم عليه قوم متلثِّمُون ، فقالوا : السلام عليكَ يامولانا ، فقال لهم : أوَ لستُم قوماً عرَبا ! قالوا : بلى ، ولكنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خُمّ : « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، قال : فلقد رأيتُ عليًّا عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : اشهدوا .

ثم إنّ القومَ مضوْا إلى رحالهم فتبعتُهم ، فقلت لرجل منهم : مَنِ القوم ؟ قالوا : نحنُ رَهْطٌ من الأنصار ، وذاك — يعنون رجلا منهم — أبو أيوب ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فأتيته فصافحته .

* * *

قال نصر : وحدثنى عمر بن سعد ، عن نمير بن وعلة ، عن أبى الوَدّاك ، أنّ[1] عليًّا عليه السلام بعث مِنَ المدائن مَعْقل بن قيس الرياحى ، فى ثلاث آلاف ، وقال له : خُذْ عَلَى

---

(١) كتاب صفين ١٦٥ — ١٦٦

الموصل ، ثم نَصِيبين ، ثم القَنى بالرّقة ، فإنى موافيها . وسكّن الناس وأمِّنْهم ، ولا تقاتل إلا مَنْ قاتلك ، وسِر البَرْدَيْن[1] ، وغَوِّرْ بالناس[2] . أقم الليل ، ورفِّهْ فى السير ، ولا تَسِرْ أوّلَ الليل ؛ فإن الله جعله سكنا ، أرحْ فيه بدنك وجندَك وظهرك ، فإذا كان السَّحَر ، أو حين يتبلج[3] الفجر ، فسر.

فسار حتى أتى الحديثة ـ وهى إذ ذاك منزل الناس ، وإنما بَنَى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان ـ فإذا بكبشين ينتطحان ، ومع معقل بن قيس رجل من خَثْعم يقال له شداد بن أبى ربيعة[4] ـ قتِل بعد ذلك مع الحَرُوريّة ـ فأخذ يقول : إيه ، إيه ! فقال معقِل : ما تقول ؟ فجاء رجلان نحو الكبشين ، فأخذ كلٌّ واحد منهما كبشا وانصرفا ، فقال الخثعمىّ لمعقِل : لا تَغْلِبون ولا تُغْلَبون ؛ فقال معقِل : من أين علمتَ ؟ قال : أما أبصرت الكبشين ، أحدهما مشرِّق والآخر مغرّب ، التقيا فاقتتلا وانتطحا ، فلم يزل كلّ واحد من صاحبه منتصفا ، حتى أتى كلّ واحد منهما صاحبُه فانطلق به ! فقال معقل : أو يكون خيرا مما تقول يا أخا خثعم ! ثم مضى حتى وافى عليًّا عليه السلام بالرّقة .

قال نصر : وقالت طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام له : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومَنْ قِبَله من قومك ، فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عِظَما . فكتب إليهم عليه السلام : [بسم الله الرحمن الرحيم][5] ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قِبَله من قريش :

---

(١) البردان : الغداة والعشى .

(٢) غور بالناس ، أى انزل بهم فى الغائرة ؛ وهى القائلة ؛ أو نصف النهار .

(٣) صفين : « ينبطح » ، وفى ب : « ينبلج » .

(٤) كذا فى صفين ، ا ، ج ، وفى ب : « شرار بن أبى ربيعة » .

(٥) من صفين .

سلام عليكم، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنّ لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرَفوا التأويل ، وفقُهوا فى الدين ، وبيّن الله فضلَهم فى القرآن الحكيم ، وأنتم فى ذلك الزمان أعداء للرسول، تكذّبون[1] بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين ، من ثقفتُم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه؛ حتى أراد الله تعالى إعزازَ دينه ، وإظهارَ أمره ، فدخلت العرب فى الدِّين أفواجا ، وأسلمت له هذه الأمة طوعا وكرها ، فكنتم فيمن دخل فى هذا الدين ؛ إمّا رغبة وإما رهبة ؛ على حين فاز أهل السّبْق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضْلِهم . ولا ينبغى لمن ليست له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ؛ أن ينازعهم الأمرَ الذى هم أهلُه وأوْلَى به ، فيجور[2] ويظلم ، ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدرَه ، ويعدو طورَه ، ويُشْقِى نفسه بالتماس ما ليس بأهله ؛ فإنّ أولى الناس بأمر هذه الأمة قديما وحديثا أقربُها من الرسول ، وأعلمُها بالكتاب ، وأفقهُها فى الدين ، أوّلها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعا ؛ فاتقوا الله الذى إليه ترجعون ، ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

واعلموا أنّ خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ، وأنّ شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهلَ العلم ؛ فإنّ للعالم بعلمه فضلا ، وإن الجاهلَ لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلا . ألا وإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ، وحَقْن دماء هذه الأمة ؛ فإن قبلتم أصبتم رُشْدكم ، واهتديتم لحظّكم ، وإن أبيتم إلا الفرقة وشَقّ عصا هذه الأمة ؛ لم تزدادوا من الله إلا بعدا ، ولا يزداد الربّ عليكم إلا سخطا والسلام .

فكتب إليه معاوية جوابَ هذا الكتاب ، سطرا واحدا : وهو : أما بعد فإنه

(١) ا : « مكذبون » .
(٢) ب وصفين : « يحوب » .

لَيْسَ بيني وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابُ غَيْرَ طَعْنِ الكُلَى وضَرْبِ الرِّقَابِ

فقال عليّ عليه السلام لما أتاه هذا الجواب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١) .

قال نصر : وقال عليّ عليه السلام لأهل الرَّقة : جَسِّروا لي جسراً أعبُر عليه من هذا المكان إلى الشام ؛ فأبَوْا ، وقد كانوا ضمُّوا السفن إليهم ؛ فنهض من عندهم ليعبرَ على جِسْر مَنْبِج ، وخلّف عليهم الأشتر ، فقال : يا أهلَ هذا الحصن ؛ إني أقسم بالله إن مَضَى أمير المؤمنين عليه السلام ولم تجسِّروا له عند مدينتكم حتى يَعْبُرَ منها ؛ لأجرِّدَنَّ فيكم السيف ، فلأقتلَنَّ مقاتِلَكم ، ولأخرِبَنَّ أرضكم ، ولآخذنَّ أموالكم .

فلقِيَ بعضهم بعضاً ، فقالوا : إنّ الأشتر يَفِي بما حلَف عليه ، وإنما خلّفه عليّ عندنا ليأتيَنا بشرّ ، فبعثوا إليه : إنّا ناصبون لكم جِسراً ، فأقبلوا . فأرسل الأشتر إلى عليّ عليه السلام ، فجاء ، ونصبوا له الجسر ، فعبر الأثقال والرجال ، وأمر الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس ؛ حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر ، ثم عبر آخر الناس رجلا .

قال نصر : وازدحمت الخيلُ حين عبَرت ، فسقطت قَلَنْسُوة عبدالله بن أبي الحصين ، فنزل فأخذها ، وركب ، ثم سقطتْ قلنسوة عبدالله بن الحجاج ، فنزل فأخذها ، ثم ركب فقال لصاحبه :

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزَّاجري الطيرَ صادقاً كما زعموا ، أُقتَلْ وشيكا وتُقتَل

فقال عبدالله بن أبي الحصين : ما شيء أحبّ إليّ مما ذكرت ، فقتلا معا يوم صفين(٢) .

---

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) صفين ١٦٩ .

قال نصر : فلما[1] قطع علىّ عليه السلام الفُرات ، دعا زياد بن النضر وشُرَيح بن هانئ فسرّحهما أمامه نحو معاوية ، على حالهما الذى كانا عليه حين خرجا من الكوفة ، فى اثنى عشر ألفا ، وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة مقدّمة له أخذا على شاطئ الفرات من قِبَل البرّ ، مما يلى الكوفة حتى بلغا عانات[2] ، فبلغهم أخذُ علىّ عليه السلام طريقَ الجزيرة ، وعلما أنّ معاوية قد أقبل فى جنود الشام من دمشق لاستقباله ، فقالا : والله ما هذا برأى ، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر ، وما لنا خيرٌ فى أنْ نلقى جموعَ الشام فى قلّة من العدد ، منقطعين عن المدد . فذَهبوا ليعبرُوا من عانات ، فمنعهم أهلُها ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عَبرُوا من هِيت ، ولَحِقُوا عليا عليه السلام بقرية دون قِرْقِيسيا ، فلما لحقوا عليا عليه السلام عجِب ، وقال : مقدّمتى تأتى من ورائى ! فقام له زياد وشُريح ، وأخبراه بالرأى الذى رأيا . فقال : قد أصبتُما رُشْدكما . فلما عَبَرُوا الفرات قدّمهما أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى معاوية ، لقيهما أبو الأعور السُّلَمِىّ فى جنود من أهل الشام ، وهو على مقدّمة معاوية ، فدعواه إلى الدُّخول فى طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ، فبعثوا إلى علىّ عليه السلام : إنّا قد لقينا أبا الأعور السلمىّ بسور الروم فى جند من أهل الشام ، فدعوناه وأصحابه إلى الدخول فى طاعتك ، فأبَى علينا، فمرنا بأمرك .

فأرسل علىٌّ عليه السلام إلى الأشتر ، فقال : يا مال ، إن زيادا وشُريحا أرسلا إلىّ يعلمانِنِى أنهما لقيا أبا الأعور السلمىّ فى جند من أهل الشام بسور الروم ، ونَبَّأنى الرسول أنه تركهم متواقفين؛ فالنَّجاءَ النجاءَ إلى أصحابك ؛ فإذا أتيتهم فأنت عليهم ؛ وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدءوك ، والقهم واسمع منهم، ولا يجرِ منّك شنآنُهم على قتالهم قبل

---

(١) صفين ١٧٠ وما بعدها . (٢) عانات : قرية من قرى الفرات .

دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعلْ على ميمنتك زيادا ، وعلى ميسرتكَ شُرَيحا ، وقِفْ من أصحابك وسَطاً ، ولا تدنُ منهم دنوَّ مَنْ يريد أن يُنشِب الحرب ، ولا تتباعدْ عنهم تباعدَ مَنْ يهاب النـاس ؛ حتى أقدم عليك ؛ فإنى حثيث السير إليك إن شاء الله .

قال : وكتب علىٌّ عليه السلام إليهما ـ وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفىّ ـ : أما بعـد ؛ فإنى قد أمَّرْت عليكما مالـكاً ، فاسمعا له وأطيعا أمره ؛ وهو ممن لا يُخاف رهَقُه ولا سِقاطه[1] ، ولا بُطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ، ولا إسراعُه إلى ما البطء عنه أمثل ؛ وقد أمرتُه بمثل الذى أمرتكما ، ألّا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم ، ويُعذِر إليهم إن شاء الله .

قال : فخرج الأشتر حتى قدِم على القوم ، فاتّبع ما أمره به علىّ عليه السلام ، وكفَّ عن القتال ، فلم يزالوا متواقفين[2] ؛ حتى إذا كان عند المساء ، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة . ثم إن أهلَ الشام انصرفوا ، ثم خرج هاشم بن عُتْبة فى خيل ورجالٍ حَسَنٍ عُدّتها وعددها ، فخرج إليهم أبو الأعور السلمىّ ، فاقتتلوا يومَهم ذلك ، تحمل الخيلُ على الخيل ، والرجالُ على الرجال ، وصبرَ بعضُهم لبعض ؛ ثم انصرفوا . وبـكّر عليهم الأشتر ؛ فقتِل من أهل الشام عبدالله بن المنذر التَّنُوخىّ ، قتله ظَبْيان بن عُمارة التَّميمىّ ، وماهو يومئذ إلا فتى حديث السنّ . وإن كان الشامىّ لفارس أهلِ الشام ، وأخذ الأشتر يقول : ويْحَـكم أرونى أبا الأعور !

ثم إن أبا الأعور دعا النـاس ، فرجعوا نحوه فوقف على تلّ من وراء المـكان الذى كان فيه أوّلَ مرة ، وجاء الأشتر حتى صَفّ أصحابه فى المـكان الذى كان فيه أبو الأعور أوّلَ مرة ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النَّخعىّ . انطلق إلى أبى الأعور ، فادعُه إلى المبارزة ،

---

(١) الرهق : الطيش والنزق . والسقاط : الخطأ . (٢) متواقفين : وقف بعضهم أمام بعض فى الحرب

فقال : إلى مبارزتي أم إلى مبارزتك ؟ فقال : أوَلَوْ أمرتُك بمبارزته فعلت ؟ قال : نعم ؛ والذي لا إله إلا هو ؛ لو أمرتني أن أعترِض صفَّهم بسيفي لفعلتُ حتى أضرِبَه بالسيف .

فقال : يابن أخي، أطال الله بقاءك ! قد واللهِ ازددتُ فيك رغبة ، لا ما أمرتُك بمبارزته ، إنما أمرتُك أنْ تدعوَه لمبارزتي ؛ فإنه لا يبارز - إن كان ذلك من شأنه - إلا ذوي الأسنان والكفاءة والشرف ، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف ؛ ولكنك حديثُ السنّ ، وليس يبارز الأحداث ؛ فاذهب فادعه إلى مبارزتي .

فأتاهم فقال : أنا رسول فأمّنوني ، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور .

قال نصر : فحدثني[1] عمر بن سعد ، عن أبي زهير العبسيّ ، عن صالح بن سنان، عن أبيه ، قال: فقلت له : إن الأشتر يدعوك إلى المبارزة ، قال : فسكت عني طويلا ، ثم قال : إنّ خفة الأشتر وسوء رأيه وهوانَه : دعاه إلى إجلاء عمال عثمان ، وافترائه عليه ، يقبِّح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويُظهر عداوته . ومن خفّة الأشتر وسوء رأيه أنه سار إلى عثمان في داره وقراره ، فقتَلَه فيمن قتله ، وأصبح متّبعاً[2] بدمه ، لا حاجة لي في مبارزته .

فقلت : إنّك قد تكلّمت فاسمع حتى أجيبَك ، فقال : لا حاجةَ لي في جوابك ولا الاستماع منك . اذهب عنّي ؛ وصاح بي أصحابه فانصرفت عنه ، ولو سمع لأسمعتهُ عذرَ صاحبي وحجته .

فرجعت إلى الأشتر ، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة ، فقال : لنفسه نظر .

قال : فتواقفنا ، فإذا هم قد انصرفوا . قال : وصبّحنا عليّ عليه السلام غُدْوةَ سائرا نحو معاوية ، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وَسَعَة المنزل ، وشريعة الماء، مكانٍ

---

(١) كتاب صفين ١٧٣

(٢) صفين : « مبتغي » .

أفيح ؛ وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية ، واسمه سفيان بن عمرو ، وقد جعل على ساقته بُسْر بن أرطــاة العامرىّ ، وعلى الخيل عبيدالله بن عمر بن الخطــاب ، ودفع اللواء إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهرىّ ، وعلى رجّالته من الميمنة يزيد بن زَحْر الضّبىّ ، وعلى الميسرة عبدالله بن عمرو بن العاص ، وعلى الرّجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى خيلِ دمشق الضّحاك بن قيس الفهرىّ ؛ وعلى رَجّالة أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرْز البجلىّ ، وعلى أهل حِمْص ذا الكَلاع ، وعلى أهل فلسطين مَسلمة بن مَخلد ، وكان وصول على عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين .

(٤٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُور ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُور ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ ؛ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ .

سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ ؛ فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ .

لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُود ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُود ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيراً !

* * *

الشرح :

بطنتُ سِرّ فلان ، أى أخفيتُه .

والأعلام : جمع علَم ، وهو المنارُ يهتدى به ؛ ثم جعل لكلّ مادلّ على شىء ؛ فقيل لمعجزات الأنبياء أعلام ، لدلالتها على نبوّتهم . وقوله عليه السلام : « أعلام الظهور » ، أى الأدلة الظاهرة الواضحة .

وقوله فيما بعد : « أعلام الوجود » أى الأدلة الموجودة ، والدلالة هى الوجود نفسه ، وسيأتى شرح ذلك .

وقوله : « وامتنع على عين البصير » ، يقول : إنه سبحانه ليس بمرئىّ بالعين ؛ ومع

ذلك فلا يمكنُ مَنْ لم يرَهُ بعينه أن ينكره ؛ لدلالة كلّ شيء عليه ، بل لدلالته سبحانه على نفسه .

ثم قال : « ولا قلب من أثبته يبصره » ، أى لاسبيل لمن أثبت وجودَه أن يحيطَ علما بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته ؛ أو أراد أنه لا تُعلم حقيقة ذاته ؛ كما قاله قوم من المحققين .

وقد رُوِيَ هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا[1] فى الخطبة : « فلا قلبُ مَنْ لم يرَهُ ينكره ، ولا عينُ مَنْ أثبته تبصره » ، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه .

وقوله عليه السلام: « فلا استعلاؤه باعده » ، أى ليس علوّه ولاقربه كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيّين ، بل هو علوّ وقرب خارج من ذلك ، فليس علوّه يقتضى بعدَه بالمكان عن الأجسام ، ولا قربَه يقتضى مساواته إياها فى الحاجة إلى المكان والجهة .

والباء فى « به » متعلقة بـ « ساواهم » ، معناه : ولا قربُه ساواهم به فى الحاجة إلى المكان؛ أى لم يقتض قربه مماثلته ومساواته إيام فى ذلك .

* * *

[فصول فى العلم الإلهى]

وهذا الفصل يشتمل على عدّة مباحث من العلم الإلٰهى :

أولها : كونه تعالى عالما بالأمور الخفيّة .

والثانى : كونه تعالى مدلولا عليه بالأمور الظاهرة ؛ يعنى أفعاله .

والثالث : أن هويّته تعالى غير معلومة للبشر .

والرابع : نفى تشبيهه بشىء من مخلوقاته .

---

(١) كذا فى جميع الأصول

والخامس : بيان أنّ الجاحد لإثباته مكابر بلسانه ، وعارف به بقلبه .

ونحن نذكر القول فى جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال ، ونحيل فى البرهان على الحقّ من ذلك وبطلان شبَه المخالفين فيه ، على ماهو مذكور فى كتبنا الكلامية ، إذ ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك ، وإنْ كنّا قد لا نخلِى بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجَزة ، وتلويح إلى الشبهة لطيف ؛ فنقول: أمّا

* * *

الفصل الأول

وهو الكلام فى كونه تعالى عالما بالأمور الخفية

فاعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : بطَن خفيّات الأمور » وهذا القدر من الكلام يقتضى كونه تعالى عالما ، يعلَم الأمورَ الخفيّة الباطنة ؛ وهذا منقسم قسمين :

أحدها : أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة .

والثانى : أن يعلم الأمور الخفية المستقبلة .

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين ، فنحمله عليهما معاً . فقد خالف فى كلّ واحدة من المسألتين قوم ؛ فمِنَ الناس مَنْ نَفَى كونه عالما بالمستقبَلات ، ومِنَ الناس مَنْ نَفَى كونَه عالما بالأمور الحاضرة ؛ سواء كانت خفيّة أو ظاهرة ؛ وهذا يقتضينا[1] أن نشرحَ أقوال العقلاء فى هذه المسائل ، فنقول : إنّ الناس فيها عَلَى أقوال :

القول الأول : قولُ جمهور المتكلّمين ، وهو أنّ البارئ سبحانه يعلم كلّ معلوم : الماضى والحاضر والمستقبل ؛ ظاهرها وباطنها ، ومحسوسها وغير محسوسها ؛ فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر ، وما سيكون وما لم يكنْ ، أن لو كان كيف كان يكون، كقوله

---

(١) ب : « يقتضى » .

تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾[1]، فهذا علم بأمرٍ مقدّر على تقدير وقوع أصله الذى قد علم أنه لا يكون .

القول الثانى : قولُ مَن زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبَلة ، وشبّهوه بكونه مدركا ، قالوا : كما أنّه لا يدرك المستقبلات، فكذلك لا يعلم المستقبَلات . وهو قول هِشام ابن الحكم[2] .

القول الثالث : قولُ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة ؛ وهذا القول نقيض القول الثانى ؛ وشبهوه بكونه قادرا ، قالوا : كما أنه لا يقدِر على الموجود ، فكذلك لا يعلم الموجود ؛ونسب ابن الراوندىّ هذا القول إلى معمر بن عبّاد[3]، أحد شيوخنا ، وأصحابُنا يكذّبونه فى ذلك ، ويدفعون الحكاية عنه .

القول الرابع : قول مَنْ زعم أنّه تعالى لا يعلم نفسَه خاصّة ، ويعلم كل ما عدا ذاتِه ، ونسب ابنُ الراوندىّ هذه المقالةَ إلى مَعْمَر أيضا ، وقال: إنه يقول : إن العالم غير المعلوم، والشىء لا يكون غير نفسه؛ وأصحابنا يكذّبون ابن الراوندىّ فى هذه الحكاية ،وينزّهون معمراً عنها .

القول الخامس : قول مَنْ قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يزَلْ عالما بشىء أصلا ؛ وإنما أحدث لنفسه علما علِم به الأشياء ، وهو قول جَهْم بن صفوان[4] .

القول السادس : قول مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كلّ المعلومات على تفاصيلها ؛ وإنما يعلم ذلك إجمالا وهؤلاء يسمون المسترسِليّة ؛ لأنهم يقولون : يسترسِل علمه على المعلومات

---

(١) سورة الأنعام ٢٨

(٢) هو هشام بن الحكم ؛ من متكلمى الشيعة ، وصاحب المقالة فى التشبيه ؛ وإليه تنسب الهشامية ؛ إحدى الفرق الغالية ؛ ذكره الشهرستانى وبسط آراءه فى الملل والنحل ١ : ١٦٤ – ١٦٦

(٣) معمر بن عباد السلمى القدرى ؛ وانظر آراءه فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٦٥ – ٦٧

(٤) جهم بن صفوان ؛ وإليه تنسب الفرقة الجهمية ؛ من الجبرية ؛ ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو ؛ فى آخر ملك بنى أمية ، الشهرستانى ١ : ٧٩ – ٨١ .

إجمالا لا تفصيلا ، وهو مذهب الجُوَيْنِيّ[1] من متكلمى الأشعرية .

القول السابع : قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة ما لم يُفضِ القولُ به إلى محال ؛ وزعموا أن القول بأنه يعلم كلّ شىء يُفضى إلى محال ؛ وهو أنْ يعلم ويعلم أنه يعلم، وهلمّ جرا إلى مالانهاية له ؛ وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع ، وفروع الفروع ولوازمها ولوازم لوازمها إلى ما لا نهاية له . قالوا : ومحـال اجتماع كلّ هذه العلوم غير المتناهية فى الوجود ، وهذا مذهب أبى البركات البغدادىّ صاحب المعتبر[2] .

القول الثامن : قولُ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيّات الجزئية ؛ وإنما يعلم الكلّيات التى لا يجوز عليها التغيير ؛ كالعلم بأنّ كل إنسان حيوان ؛ ويعلم نفسه أيضاً ؛ وهذا مذهب أرسطو وناصرى قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره .

القول التاسع : قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم شيئا أصلا ؛ لا كليا ولا جزئيا ؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصيّة ذاته فقطْ من غير أن يعلمه ؛ كما أنّ المغناطيس يجذب الحديد لقوّة فيه من غير أن يعلم بالجذب ؛ وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة .

فهذا تفصيل المذاهب فى هذه المسألة .

واعلم أن حجّة المتكلمين على كونه عالما بكل شىء ؛ إنما تتّضح بعد إثبات حدوث العالم ،وأنه فعله بالاختيار ؛ فحينئذ لابدّ من كونه عالما ؛ لأنه لولم يكن عالما بشىء أصلا لما صحّ أن يحدث العالم على طريق الاختيار ؛ لأنّ الإحداث على طريق الاختيار ؛ إنما يكون بالغرض والداعى ، وذلك يقتضى كونه عالما ، فإذا ثبت أنّه عالم بشىء أفسدوا حينئذ أن يكون عالما بمعنى اقتضى له العالمية ، أو بأمر خارج عن ذاته ؛ مختارا كان أو غير مختار ؛

---

(١) هو الإمام أبو المعالى عبد الملك بن يوسف الجوينى ، إمام الحرمين ، المتوفى سنة ٤٧٨ . (ابن خلكان) .

(٢) كتاب المعتبر فى الحكمة ، طبع فى حيدر آباد ؛ لأبى البركات على بن ملكا البغدادى، توفى سنة ٥٦٠ وانظر أخبار العلماء للقفطى ٣٤٣ .

فحينئذ ثبت[1] لم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لا لشيء أزيد منها؛ فإذا كان لم ذلك وَجَب أن يكون عالما بكل معلوم ؛ لأنّ الأمر الذى أوجب كونَه عالما بأمر ما ؛ هو ذاته يوجب كونه عالما بغيره من الأمور ؛ لأنّ نسبة ذاته إلى الكلّ نسبة واحدة .

فأمّا الجواب عن شُبه المخالفين فمذكور فى المواضع المختصّة بذلك ، فليطلب من كتبنا الكلامية .

***

الفصــــل الثانى

فى تفسير قوله عليه السلام : « ودلّت عليه أعلام الظهور »

فنقول : إنّ الذى يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين ؛ وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور ؛ أحدهما الوجود والثانى الموجود .

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهى طريقة المدقّقين من الفلاسفة ، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك ، وأنه زائد على ماهيّات الممكنات ، وأنّ وجودَ البارئ لا يصحّ أن يكون زائدا على ماهيّته ، فتكون ماهيّته وجودا ؛ ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود ؛ فلم يبقَ إلّا أن تكون ماهيته هى الوجود نفسه ، وأثبتوا وجوبَ ذلك الوجود ، واستحالةَ تطرّق العدم إليه بوجه ما، فلم يفتقروا فى إثبات البارئ إلى تأمّل أمرٍ غير نفس الوجود .

وأمّا الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه ؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله ، وهى طريقة المتكلمين . قالوا : كلّ ما لم يُعْلَم بالبديهة ولا بالحسّ ؛ فإنما يُعلم بآثاره الصادرة عنه ؛ والبارئ تعالى كذلك ؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعالُه ، فاستدلّوا عليه بالعالَم ، وقالوا تارة : العالم محدَث وكلّ محدَث له محدِث. وقالوا تارة أخرى : العالَم ممكن ، فله مؤثّر .

---

(١) ج : « يثبت » .

وقال ابن سينا : إنّ الطريقة الأولى وهى الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعلى وأشرف ، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته ، واستنبط آيةً من الكتاب العزيز فى هذا المعنى ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

قال ابن سينا : أقول : إنّ هذا حُكْم لقوم ـ يعنى المتكلمين وغيرهم ؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله ؛ وتمام الآية : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

قال : هذا حكمُ الصِّدِّيقين الذين يستشهدون به لا عليه ؛ يعنى الذين استدلوا عليه بنفس الوجود ، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله فى إثباتِ ربوبيته .

***

الفصل الثالث

فى أن هويّته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام : « وامتنعَ عَلَىَ عَيْنِ البصير » ، وقوله : « ولا قلبُ من أثبته يبصره » ، وقوله : « ولم يُطْلع العقولَ على تحديد صفته » ؛ فنقول : إنّ جمهورَ المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله ، ولم يتحاشوا من القول بأنّه تعالى لا يعلم من ذاته إلا مانعلمه نحن منها .

وذهب ضِرار (٢) بن عمرو : أنّ لله تعالى ماهيةً لا يعلمها إلا هو ؛ وهذا هو مذهب

---

(١) سورة فصلت ٥٣

(٢) هو ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ؛ كان فى بدء أمره تلميذاً لواصل ابن عطاء المعتزلى ؛ ثم خالفه فى خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١

الفلاسفة . وقد حُكِيَ عن أبى حنيفة وأصحابه أيضا ؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل .

* * *

الفصــــل الرابع

فى نفى التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام : « بَعُد وقَرُب » ، أى فى حال واحدة ، وذلك يقتضى نفىَ كونه تعالى جسما ؟ وكذلك قوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه باعدَه ، ولا قُرْبه ساواهم فى المكان به » ، فنقول : إنّ مذهبَ جُمهور المتكلمين نفىُ التشبيه ، وهذا القول يتنوّع أنواعا :

النوع الأول : نفى كونه تعالى جسما مركبا ، أو جوهرا فردا غير مركب ، والمراد بالجوهر هاهنا الجِرم والحجم . وهو قول المعتزلة ، وأكثر محققى المتكلّمين من سائر الفرق ، وإليه ذهبت الفلاسفة أيضاً .

وقال قوم من مستضعفى المتكلّمين خلافَ ذلك ، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام ، واختلفت الحكاية عنه ، فروى عنه أنه قال : إنه يشبُر نفسَه سبعة أشبار . وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة السَّبيكة . وروى عنه أنه قال: إنّه على هيئة البِلَّورة الصافية المستوِية الاستدارة من حيث أتيتَها رأيتَها على هيئة واحدة ، وروى عنه أيضاً قال : إنه ذو صورة . وأصحابُه من الشيعة يدفعون اليومَ هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنه لم يزِدْ على قوله : إنه جسم لا كالأجسام ، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته .

وصدّقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه نورا ، لقول الله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾[1] .

وحكيَ عن محمد بن النعمان الأحول، المعروف بشيطان الطاق ، وهشام بن سالم المعروف بالجواليقيّ ، وأبي مالك بن الحضرميّ ، أنه نورٌ على صورة الإنسان ، وأنكروا مع ذلك أنْ يكون جسماً ؛ وهذه مناقضة ظاهرة .

وحُـكِيَ عن علي بن ميثم مثله . وقد حكى عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم .

وحكى عن مقاتل بن سليمان ، وداود الجواربيّ ، ونعيم بن حمّاد المصرى ، أنه فى صورة الإنسان ، وأنه لحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين؛ وهو مع ذلك لا يشبه غيره ، ولا يشبهه غيره ، وافقهم على ذلك جماعة من العامّة ومَنْ لا نظر له .

وحُـكِيَ عن داود الجواربيّ أنه قال : اعفونى من الفرْج واللّحية وسلونى عمّا وراء ذلك . وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من فيه إلى صدره ، وما سوى ذلك مصمت .

وحكى أبو عيسى الوراق أنّ هشام بن سالم الجواليقيّ كان يقول : إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلوة والمجالسة والمحادثة .

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[2] ، فقال: يُقْعَد معه عَلَى سريره ويغلفه بيده .

وقال بعضهم : سألت مُعاذاً العنبريّ ، فقلت : أله وجه ؟ فقال : نعم ؛ حتى عددت

---

(١) — سورة النور ٣٥

(٢) سورة القمر ٥٥

جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن ؛ واستحييت أن أذكر الفرْج ؛ فأومأت بيدى إلى فرْجى ، فقال : نعم ، فقلت أذكر أم أنثى ؟ فقال : ذكر .

ويقال : إنّ ابنَ خزيمة أشكل عليه القولُ فى أنه : أذكر أم أنثى ، فقال له بعض أصحابه : إنّ هذا مذكورٌ فى القرآن ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[1] ، فقال : أفدتَ وأجدت ؛ وأودعه كتابه .

ودخل إنسان على مُعاذ بن معاذ يوم عِيد ، وبين يديه لحم فى طَبيخ سِكْباج ، فسأله عن البارئ تعالى فى جملة ماسأله ، فقال : هو والله مثلُ هذا الذى بين يدىّ ، لحم ودم .

وشهد بعضُ المعتزلة عند معاذ بن معاذ ، فقال له : لقد هممتُ أنْ أسقِطك ؛ لولا أنى سمعتُك تلعن حمّاد بن سلمة ، فقال : أمّا حماد فلم ألعنه ، ولكنى ألعن من يقول : إنه سبحانه ينزِل ليلةَ عرَفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر فى هَوْدج من ذهب ؛ فإن كان حمّاد يروى هذا أو يقوله فعليه لعنة الله . فقال : أخرجوه ، فأخرج .

وقال بعضهم : خرجْنا يوم عيد إلى المصلّى ، فإذا جماعة بين يدى أمير[2] ، والطبول تضرب والأعلام تخفِق فقال واحد مِنْ خلفنا : اللهم لا طَبْلَ إلا طبلُك ! فقيل له : لا تقل هكذا ، فليس لله تعالى طبل ، فبكى ، وقال : أرأيتم هو يجىء وحده ولا يُضرب بين يديه طَبْل ، ولا ينصَب على رأسه عَلَم ، فإذَنْ هو دون الأمير !

وروى بعضهم أنّه تعالى أجْرَى خيلا ، فخلق نفسه من مثلها .

وروى قوم منهم أنه نظر فى المرآة فرأى صورةَ نفسه ، فخلق آدم عليها .

ورووا أنه يضحك حتى تبدو نواجذُه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) ب « أمير المؤمنين » ، والأجود ماأثبته من ا ، ج .

ورووا أنّه أمرد جَعْد قَطَطٌ [1] ، فى رجليه نعلان من ذَهب ، وأنّه فى روضة خضراء عَلَى كرسىّ تحمله الملائـكة .

ورووا أنه يضع رجلاً على رِجْل ، ويستلق فإنّها جِلسة الربّ .

ورووا أنه خَلَق الملائـكة مِنْ زَغَبِ ذراعيـه ، وأنه اشتـكى عينَـه فعـادَتْه الملائـكة ، وأنه يُتصوّر بصورة آدم ، ويحـاسِب الناس فى القيامة ؛ وله حُجّاب من الملائـكة يحجُبونه .

ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال : « رأيت ربّى فى أحسنِ صورة ،فسألته عمّا يختلف فيـه المـلأْ الأعلى ، فوضـع يدَه بين كتِفىّ ، فوجـدت بَرْدَها ، فعلمت ما اختلفوا فيه » .

ورووا أنّه ينزل إلى السماء الدنيا فى نصف شعبان ؛ وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب . وأنه يأتى النـاسَ يوم القيامة ، فيقول : أنا ربُّـكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ؛ فيقول لهم : أتعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا و بينه علامة؛ فيكشف لهم عن ساقه ، وقد تحوّل فى الصورة التى يعرفونها ، فيخرّون له سجدا .

ورووا أنه يأتى فى غَمام ، فوقه هواء ، وتحته هواء .

وكان بِطَبَرِسْتَان قاصّ من المشبّهة ، يقصّ على الناس ، فقال يوما فى قَصَصه : إنّ يوم القيـامة تجىء فاطمة بنت محمد ، معها قميص الحسين ابنهـا تلتمس القِصاص من يزيدَ ابن معاوية ، فإذا رآها الله تعالى مِنْ بعيد ، دعا يزيد وهو بين يديه،فقال له : ادخل تحت قوائم العرش ؛ لا تظفرْ بك فاطمة ، فيدخل [2] ويختبىء ، وتحضر فاطمة ، فتتظلّم وتبكى ، فيقول سبحانه : انظرى يافاطمة إلى قدمى ، ويخرجها إليها ، وبه جُرْح من سهم نمرود ،

---

(١) قطط : قصير .

(٢) ب : « فيدخل يزيد » ، وماأثبته عن ا ، ج

فيقول : هذا جرح نمرود فى قدمى، وقد عفوت عنه ، أفلا تعفين أنت عن يزيد افتقول.
هى : اشهد يارب أنى قد عفوت عنه .

وذهب بعضُ متكلِّمى المجسّمة إلى أن البارئ تعالى مركَّب من أعضاء على حروف المعجم .

وقال بعضهم : إنه ينزل على حمار فى صورة غلام أمرد ، فى رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير .

وقال بعضهم : إنه فى صورة غلام أمرد صبيح الوجه ، عليه كساء أسود ،ملتحف به.

وسمعت أنا فى عصرى هذا مَنْ قال فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ (١) : إنّهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم ، فقال له آخر على سبيل التهكّم به : يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به ! فغضب وقال : هذا إلحاد .

ورووا أنّ النار تزفر وتتغيّظ تغيظا شديدا ، فلا تسكن حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ ، أى حسبى حسبى . ويرفعون هذا الخبر مسندا . وقد ذكر شبيه به فى الصّحاح.

وروى فى الكتب الصّحاح أيضا : « أنّ الله خَلَق آدم على صورته »؛ وقيل :إن فى التوراة نحو ذلك فى السِّفر الأول .

واعلم أنّ أهل التوحيد يتأولون مايحتمل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير مستبعدَة ، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعون ببطلانه ؛ وبأنه موضوع ؛ وللاستقصاء فى هذا المعنى موضعٌ غير هذا الموضع .

وحكى أبو إسحاق النظّام ومحمد بن عيسى برغوث أنّ قوما قالوا : إنّه تعالى الفضاء نفسُه ، وليس بجسم ؛ لأنّ الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء .

---

(١) سورة الزمر ٧٥

وقال بُرْغوث : وطائفة منهم يقولون : هو الفضاء نفسُه ، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه ؛ وليس بذى غاية ولا نهاية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١) .

فأما مَنْ قال : إنّه جسم لا كالأجسام ؛ على معنى أنّه بخلاف العَرَض الذى يستحيل أن يُتوهّم منه فعل ، ونفوْا عنه معنى الجِسْمِيّة ، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنّه شيء لا كالأشياء ، وذات لا كالذوات ؛ فأمْرُهم سهل ؛ لأنّ خلافهم فى العبارة ، وهم : علىّ ابن منصور ، والسكاك ، ويونس بن عبد الرحمن ، والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قُدَماء رجال الشيعة . وقد قال بهذا القول ابن كرّام وأصحابه ؛ قالوا : معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم ، أنّه قائم بذاته لا بغيره .

والمتعصّبون لهشام بن الحكم من الشّيعة فى وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتّجسيم المعنوىّ ؛ وإنما قال إنه جسم لا كالأجسام ، بالمعنى الذى ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما ، وإن كان الحسن بن موسى النّوبختىّ — وهو من فضلاء الشيعة — قد رُوى عنه التجسيم المَحْض فى كتاب " الآراء والديانات " .

* * *

النوع الثانى : نفىُ الأعضاء والجوارح عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وسائر المحققّين من المتكلّمين نفىُ ذلك عنه ، وقد تأوّلوا ماورد فى القرآن العزيز من ذلك ، من نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ (٣) وغير ذلك ، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة فى اللغة العربية .

وأطلقت الكرّامية عليه سبحانه لفظة « اليدين والوجه » ، وقالوا : لا نتجاوز الإطلاق ،

(١) سورة الحج ٧٨
(٢) سورة ص ٧٥ .
(٣) سورة الزمر ٥٦

ولا نفسر ذلك ولا نتأوله ؛ وإنما نقتصر على إطلاق ماورد به النصّ .

وأثبت الأشعرىّ اليدين صفة قائمة بالبارئ سبحانه ؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم.

وقالت المجسّمة : إنّ لله تعالى يدين؛هما عضوان له ، وكذلك الوجه والعين،وأثبتوا له رِجْلين قد فَضَلتا عن عرشه،وساقَين يكشف عنهما يوم القيامة ، وقَدَماً يضعُها فى جهنم فتمتلئ ؛ وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظا ، وحقيقة لا مجازا .

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً ، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط ، ويطلِق ما أطلقه الكتاب والسنّة ، ولا يخوض فى تأويله ؛ ويقف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) ، وأكثر المحصّلين من أصحابه على هذا القول .

***

النوع الثالث : نفى الجهة عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحقّقين من المتكلّمين أنه سبحانه ليس فى جهةٍ ولا مكانٍ؛ وأنّ ذلك من توابع الجسمية أو العرضية اللّاحقة بالجسمية،فإذا انتفى عنه كونُه جسما وكونه عَرَضا لم يكن فى جهة أصلا؛ وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة .

وذهبت الكرّامية والحَشْويّة (٢) إلى أنّ الله تعالى فى جهة فَوْق ، وإليه ذهب هشام ابن الحكم ، وعلىّ بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وهشام بن سالم الجواليقىّ ، وكثير من أهل الحديث .

وذهب محمد بن الهيصَم ، متكلّم الكرّامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات،لا تحلّ شيئا حلول الأعراض، ولا تمازج شيئا ممازجة الأجسام

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) الكرامية : أصحاب محمد بن كرام ؛ والحشوية طائفة من المشبهة ؛ سموا بذلك لأنهم لايتحاشون من إظهار الحشو . راجع شفاء العليل ١٠٥

بل هو مباينٌ للمخلوقين ؛ إلا أنه في جهة فَوْق ، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهَى .

هكذا يحكي المتكلمون عنه، ولم أره في شيء من تصانيفه. وأحالوا ذلك؛ لأنَّ مالا يتناهَى لا يكون محصورا بين حاصرين ؛ وأنا أستبعد عنه هذه الحكاية ؛ لأنه كان أذكى مِنْ أن يذهبَ عليه فساد هذا القول وحقيقةُ مذهب مثبتي المكان أنه سبحانه متمكّن على العرش ، كما يتمكن الملِك على سريره ، فقيل لبعض هؤلاء : أهو أكبرُ من العرش ، أم أصغر ، أم مساوٍ له ؟ فقال : بل أكبر من العرش ، فقيل له : فكيف يحمله ؟ فقال : كما تحمِلُ رجلا الكركيّ جسمَ الكركيّ وجسمه أكبر من رجليه . ومنهم مَنْ يجعلُه مساوياً للعرش في المقدار ، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضُلُ عن العرش ؛ وقد سمعت أنا مَنْ قال منهم : إنه مستوٍ على عرشه كما أنا مستوٍ على هذه الدَّكّة[1] ورجلاه على الكرسيِّ الذي وسع السموات والأرض، والكرسيّ تحت العرش ، كما يجعل اليوم الناس تحت أسرتهم كراسيّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها .

وقال هؤلاء كلُّهم : إنه تعالى ينزل ويصعد حقيقة لا مجازا ، وإنه يتحرك وينزل؛ فمن ذلك نزولُه إلى السماء الدنيا ، كما ورد في الخبر ؛ ومن ذلك إتيانُه ومجيئه ، كما نطَق به الكتاب العزيز في قوله سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3] .

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعا لما ورد في الكتاب والسنة، وقال : لا أقول بمعانيها ، ولا أعتقد حركته الحقيقية ؛ وإنما أرسلها إرسالا كما وردت . وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة .

وقال ابن الهيصم في كتاب " المقالات " : إن أكثر الحشوية يُجيز عليه تعالى العدْوَ والهرولة .

---

(١) الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه .

(٢) سورة البقرة ٢١٠ (٣) سورة الفجر ٢٢

وقال قوم منهم : إنه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان ، ويدور فى السِّكك .

وقال بعض الأشعريّين : إنّ سائلاً سأل السّكّاكَ فقال : إذا أجزتَ عليه الحركة ، فهلا أجزتَ عليه أن يطفر ! فقال :لا يجوز عليه الطّفر ، لأن الطّفر إنما يكون فِرارا من ضدّ ، أو اتصالا بشكل . فقال له : فالحركة أيضاً كذلك ! فلم يأت بفرق .

فأما القول بأنّه تعالى فى كلّ مكان ؛ فإنّ المعتزلةَ يقولون ذلك ، وتريد[1] به أنه وإن لم يكن فى مكان أصلاً ، فإنه عالم بما فى كلّ مكان ، ومدبّر لما فى كلّ مكان ، وكأنه موجود فى جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع .

وقال قوم من قدماء الفلاسفة:إنّ البارئَ تعالى روح شديد فى غاية اللطافة ، وفى غاية القوة ، ينفذُ فى كلّ العالم.وهؤلاء يطلقون عليه أنّه فى كل مكانٍ حقيقة لا تأويلا ؛ ومِن هؤلاء من أوضحَ هذا القول؛ وقال : إنه تعالى سارٍ فى هذا العالم سريَانَ نفسِ الواحد مِنّا فى بدنه ، فكما أنّ كلّ بدن منا له نفس سارية فيه تدبره ، كذلك البارئُ سبحانه هو نفس العالم ، وسارٍ فى كل جزء من العالم ؛ فهو إذاً فى كلّ مكان بهذا الاعتبار ، لأنّ النفس فى كلّ جزء من البدن .

وحكى الحسن بن موسى النوبختيّ عن أهلِ الرّواق من الفلاسفة ؛ أنّ الجوهرَ الإلهيّ سبحانَه رُوح ناريّ عقليّ؛ ليس له صورة ، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأيّ صورة شاء ، ويتشبّه بالكلّ ، وينفذ فى الكلّ بذاته وقوته ؛ لا بعلمه وتدبيره .

* * *

النوع الرابع : نفى كونه عَرَضاً حالاً فى المحلّ ؛ فالذى تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفيُ ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده ، وكونِ كلّ حالّ فى الأجسام ممكنا بل حادثا .

---

(١) ب : « فإن المعتزلة يقولون ذلك ويريدون .. »

وذهبت الحلولية من أهل الملّة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ فى بعض الأجسام دون بعض كما يشاء سبحانه ، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغُلاة فى أمير المؤمنين . ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده ، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه ؛ واتبعهم على هذه المقالة قومٌ من المتصوّفة كالحلاّجية والبِسْطامية وغيرهم .

وذهبت النّسْطُورية (١) من النّصارى إلى حلول الكَلِمة فى بدن عيسى عليه السلام؛ كحلول السّواد فى الجِسْم .

فأما اليعقوبية (٢) من النّصارى ، فلا تثبت الحلول ؛ وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهىّ والجوهر الجسمانى ؛ وهو أشدّ بُعْداً من الحُلول .

***

النوع الخامس : فى نفى كونه تعالى محلاّ لشىء ؛ ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملّة والفلاسفة إلى نفى ذلك ؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه .

وذهبت الكرّامية إلى أن الحوادث تحلّ فى ذاته ، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالاً فى ذاته؛ وهو الإحداث، فحدثَ ذلك الجسم مقارنا لذلك المعنى أو عَقِيبه، قالوا : وذلك المعنى هو قول « كن » وهو المسمى خَلْقا، والخلق غير المخلوق؛ قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٣)، قالوا: لكنّه قد أشهدَنا ذواتها، فدلّ على أنّ خلقها غيرها .

---

(١) النسطورية : أصحاب نسطور الحكيم ؛ ظهر فى زمن المأمون ، وتصرف فى الأناجيل برأيه وانظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٢٠٥ — ٢٠٦

(٢) اليعقوبية أصحاب يعقوب ؛ قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحما ودماً ؛ فصار الإله هو المسيح . . . . الشهرستانى ١ : ٢٠٦ — ٢٠٨

(٣) سورة الكهف ٥١

وصرح ابن الهيصم في كتاب "المقالات" بقيام الحوادث بذات الباري فقال: إنه تعالى إذا أمرَ أو نهى، أو أراد شيئا كان أمرُه ونهيه وإراداته كائنة بعد أنْ لم تكن؛ وهي قائمة به، لأنّ قوله منه يسمع، وكذلك إرادته منه توجد.

قال: وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلا على حدوثه، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقبُ الأضداد التي لايصحّ أن يتعطّل منها، والباري تعالى لاتتعاقب عليه الأضداد.

وذهب أبو البركات البغداديّ صاحب "المعتبر" إلى أن الحوادث تقوم بذات الباريْ سبحانه؛ وأنه لايصحّ إثبات الإلٰهية إلا بذلك. وقال: إنّ المتكلّمين ينزهونه عن ذلك، والتنزيه عن هذا التنزيه، هو الواجب.

وذهب أصحابُنا وأكثر المتكلّمين إلى أنّ ذلك لايصحّ في حق واجب الوجود، وأنّه دليل على إمكان ذاته؛ بل على حدوثها. وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات — يعنون الأحوال لاالمعاني —؛ نحو كونه مدركا بعد أنْ لم يكن. وكقول أبي الحسين: إنه يتجدّد له عالمية بما وجد؛ وكان من قبل عالما بأنه سيوجد؛ وإحدَى هاتين الصفتين غير الأخرى.

وقالوا: إن الصفاتِ والأحوال قيلٌ[1] مفرد عن المعاني، والحالُ إنما هو حلول المعاني في ذاته لاتجدّد الصفات لذاته؛ وللكلام في هذا الباب موضع هو أليَق به.

* * *

النوع السادس: في نفي اتحاده تعالى بغيره؛ ذهب أكثرُ العقلاء إلى استحالة ذلك؛ وذهبت اليعقوبيّة من النصارى إلى أنّ الكلمة اتحدت بعيسى، فصارتْ جوهراً من جوهرين: أحدهما إلهيّ، والآخر جسمانيّ. وقد أجاز الاتحاد في نفس الأمر لافي ذات

---

(١) قيل، أي قول.

الباريُ قومٌ من قدماء الفلاسفة ، منهم فرفريوس . وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أنّ النفس إنما تعقل المعقولات ؛ لاتحادها بالجوهر المفارق المفيض للنفوس على الأبدان؛ وهو المسمى بالعقل الفعّال .

* * *

النوع السابع : في نفي الأعراض الجسمانيّة عنه من التعب والاستراحة، والألم واللّذة، والغمّ والسرور ؛ ونحو ذلك .

وذهبت المعتزلة وأكثر العقلاء من أهل الملّة وغيرهم إلى نفي ذلك؛ والقول باستحالته عليه سبحانه . /

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللّذة عليه ؛ وقالوا : إنّه يلتذ بإدراك ذاته وكماله؛ لأنّ إدراك الكمال هو اللّذة أو سبب اللذة ؛ وهو تعالى أكمل الموجودات ، وإدراكه أكمل الإدراكات ؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالي[1] من الأشعرية .

وحكى ابن الراوندي عن الجاحظ أنّ أحد قدماء المعتزلة - ويعرف بأبي شعيب - كان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ ، والغيرة والأسف ؛ ويذكر في ذلك ماروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لا أحد أغيرُ من الله ، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها » . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[2] ، وقال مقال المتحسّر[3] على الشيء : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾[4] ، وحكي عنه أيضاً أنه يجوّز عليه أن يتعب ويستريح ؛ ويحتج بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾[5] .

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي صاحب الإحياء .

(٢) سورة الزخرف ٥٥

(٣) كذا في ا ، ج ، وفي ب ، ا « حكاية عن المتحسر » .

(٤) سورة يس ٣٠

(٥) سورة ق ٣٨

وهـذه الألفاظ كلّها عند أصحابنا متأوّلة محمولة على محامل صحيحة ؛ تشتمل على شرحها الـكتب المبسوطة .

* * *

النوع الثامن : فى أنّه تعالى ليس بمتلوّن . لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلوّن ؛ وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتجسيم إلى أنّه نور ؛ فإذا أبصرته العيون وأدركته أبصرت شخصا نُورانيًا مضيئا ؛ لم يزيدوا على ذلك ، ولم يصرّحوا بإثبات اللون بهذه العبارة ؛ وإن كان كلّ مضىء ملوّنا .

* * *

النوع التاسع : فى أنه تعالى لايشتهى ولا ينفر ؛ ذهب شيوخنا المتكلّمون إلى أنه سبحانه لايصحّ عليـه الشهوة والنُّفرة ؛ لأنهما إنما يصحّان على مايقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء والنموّ ، والبارىْ سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك ؛ وماعرفتُ لأحدٍ من الناس خلافا فى ذلك ؛ اللهم إلا أنْ يطلق هاتان اللفظتان على مسمّى الإرادة والـكراهيَة ؛ على سبيل المجاز .

* * *

النوع العاشر : فى أنّ البارىْ تعالى غير متناهى الذات قالت المعتزلة : لما كان البارىْ تعالى ليس بجسم ولا جسمانىّ ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادير ؛ يقال : هذا الجسم متناهٍ ، أى ذو طَرَفٍ .

قلنا : إن ذاتَ البارىْ تعالى غيرُ متناهية ؛ لا على معنى أنّ امتداداته غير متناهٍ ؛ فإنه سبحانه ليس بذى امتدادٍ ، بل بمعنى أن الموضوع الذى يصدُق عليه النهاية ليس بمتحقّق فى حقه سبحانه ؛ فقلنا : إن ذاتَه غير متناهية ؛ كما يقول المهندس : إنّ النقطة غير متناهية ؛ لا على معنى أنّ لها امتدادا غير متناهٍ ، فإنها ليست بممتدّة أصلا ؛ بل على معنى أنّ الأمر

الذى تصدُق عليه النهاية ــ وهو الامتداد ــ لا يصدق عليها ؛ فإذن صدق عليها أنها غيرُ متناهية . وهذا قولُ الفلاسفة وأكثر المحققين .

وقالت الكرّامية : البارئُ تعالى ذاتٌ واحدة منفردة عن العالَم قائمة بنفسها ، مباينة للموجودات ، متناهية فى ذاتها ؛ وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها ، وتصرّم بقائها .

وأطلق هِشام بن الحكم وأصحابُه عليه تعالى القولَ بأنه متناهى الذات ؛ غير متناهى القدرة .

وقال الجاحظ : إن لى قوما زعموا أنه تعالى ذاهبٌ فى الجهات الستّ ، التى لا نهايةَ لها .

***

النوع الحادى عشر : فى أنه تعالى لا تصحّ رؤيته . قالت المعتزلة : رؤية البارئ تعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ؛ وإنما يصحّ أن يُرى المقابل ذو الجهة .

وقالت الكرّامية والحنابلة والأشعرّية : تصح رؤيتُه ويُرى فى الآخرة ؛ يراه المؤمنون ؛ ثم اختلفوا ، فقالت الكرّامية والحنابلة : يُرى فى جهة فوق ، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبى[(1)] أنهم أجازوا رؤيته فى الدّنيا ، وملامسته ومصافحته ؛ وزعموا أنّ المخلصين يعانقونه متى شاءوا ، ويسمّون الحبّية .

وحكى شيخنا أبو الحسين فى " التصفّح " عن أيوب السجستانى من المرجئة ، أن البارئَ تعالى تصح رؤيته ولمسه .

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى ، وأن الناس كلّهم كافرهم ومؤمنهم يرونه ؛ ولكن لا يعرفونه .

---

(١) كذا فى ا ، وفى الحاشية نقلا عن القاموس : أحمد بن عبد الله الجبى ، ويقال : الجبابى ، لبيعا الجباب ، محدث ، وفى ب : « الجمى »

وقال مَنْ ترفّع عن هذه الطبقة منهم : لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء ؛ وإنما يرى فى الآخرة بعين خلقت للبقاء .

وقال كثير من هؤلاء : إن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربّه بعينىْ رأسه ليلة المعراج .

ورووا عن كعب الأحبار أن الله تعالى قسّم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليه السلام .

ورووا عن المبارك بن فضالة أنّ الحسن كان يحلف بالله : قد رأى محمدٌ ربه .

وتعلق كثير منهم بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى[1]﴾ ، وقالوا : كلّم موسى عليه السلام مرتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وآله مرتين .

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوالَ الكرّامية ذلك ، وقال : إنّ محمدا صلى الله عليه وآله لم يرَهُ ، ولكنه سوف يراه فى الآخرة .

قال : وإلى هذا القول ذهبتْ عائشة وأبو ذرّ وقتادة ؛ وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود .

واختلف من قال : إنه يُرى فى الآخرة ؛ هل يجوز أن يراه الكافر ؟ فقال أكثرهم : إنّ الكفارَ لا يرونه ؛ لأنّ رؤيته كرامة ، والكافر لا كرامةَ له . وقالت السالمية وبعض الحشوّية : إنّ الكفار يرونه يوم القيامة ؛ وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة ؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم .

فأما الأشعريّ وأصحابه ؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء : إنه يُرى كما يُرى الواحد منّا ، بل قالوا : يُرى ؛ وليس فوقًا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا ولا أماما ولا وراء ؛ ولا يرى كلّه ولا بعضه ؛ ولا هو فى مقابَلة الرائى ولا منحرفًا عنه ؛ ولا تصحّ الإشارة إليه إذا رُئِىَ ،

---

(١) سورة النجم ١٣

وهو[1] مع ذلك يرى ويبصر . وأجازوا أيضا عليه أن تُسمع ذاته ، وأن تشمّ وتذاق وتمس ، لا على طريق الاتصال ، بل تتعلق هذه الإدراكات كلّها بذاته تعلقًا عاريًا عن الاتصال .

وأنكرت الكرّامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحدَه ، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في '' التصفّح '' وألزمهم أحد أمرين ؛ إما نفي الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات ، كما يقوله الأشعرية .

وذهب ضرار بن عمرو ، إلى أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة بحاسّة سادسة لا بهذا البصر . وقيل ذلك عن جماعة غيره .

وقال قوم : يجوز أن يحوّل اللهُ تعالى قوّة القلب إلى العين ، فيُعلم الله تعالى بها ، فيكون ذلك الإدراك علما باعتبار أنه بقوّة القلب ، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ في العيْن .

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله عليه السلام بنفي التشبيه عليها ؛ وسيأتي من كلامه عليه السلام في نفي التشبيه ماهو أشدّ تصريحًا من الألفاظ التي نحن في شرحها .

الفصـــل الخامس

في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام : « فهو الذى تشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذي المجحود » .

لا شبهة في أنّ العلم بافتقار المتغيّر إلى المغيّر ضروريّ ؛ والعلم بأنّ المتغير ليس هو المغيّر

---

(١) ب : « ومع ذلك » .

إما أن يكون ضروريا أو قريبا من الضرورىّ ، فإذاً قد شهدت أعلام الوجود على أنّ الجاحد لإثبات الصانع ؛ إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه ؛ لأنّ العقلاء لايجحدون الأوليات بقلوبهم ، وإن كابروا بألسنتهم ؛ ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفى الصانع سبحانه .

وأمّاالقائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة ،وأنّ الطبيعة هى المدبرّة له، والقائلون بتصادم الأجزاء فى الخلاء الذى لانهاية له ؛ حتى حَصَل منها هذا العالم . والقائلون بأن أصل العالم وأساس بنيته هو النّور والظلمة ، والقائلون بأنّ مبادئ العالم هى الأعداد المجرّدة ،والقائلون بالهَيُولَى القديمة ؛ التى منها حَدَث العالم ،والقائلون بعِشْق النفس للهَيُولَى ؛ حتى تكونت منها هذه الأجسام ؛ فكلّ هؤلاء أثبتوا الصانع ، وإنما اختلفوا فى ماهيته وكيفية فعله .

وقال قاضى القضاة: إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفى الصانع للعالم بالكلّية،ولكن قوما من الورّاقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة ؛ لم يذهب أحد إليها ؛ وهى أنّ العالم قديم لم يزل على هيئته هذه، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ؛ وإنما هو هكذا مازال ، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر .

قال : وأخذ ابن الراوندىّ هذه المقالة فنصرَها فى كتابه المعروف بكتاب " التاج " قال :فأما الفلاسفة القدماء والمتأخّرون ،فلم ينفوا الصانع؛ وإنما نفوْا كونَه فاعلا بالاختيار؛ وتلك مسألة أخرى . قال : والقول بنفِى الصانع قريب من القول بالسَّفْسطة ؛ بل هو هو بعينه ؛ لأنّ من شكّ فى المحسوس أعذر ممّن قال : إن المتحركات تتحرك من غير محرك حرّكها .

وقول قاضى القضاة هذا ، هو محضُ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينُه ، وليس قول الجاحظ هو هذا ، لأنّ الجاحظ يذهب إلى أنّ جميع المعارف والعلوم الإلٰهية ضرورية، ونحن ماادّعينا فى هذا المقام إلاأنّ العلم بإثبات الصانع فقط هو الضرورىّ ، فأين أحدُ القولين من الآخر !

(٥٠)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ ، وَيَتَوَلَّى عليها رِجَالٌ رِجَالًا ؛ عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ ،فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، فَيُمْزَجَانِ ،فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى .

الشَّرْحُ :

المرتاد : الطالب . والضِّغث من الحشيش : القبضة منه ، قال الله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾[1].

يقول عليه السلام : إنّ المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها ،أصلها اتباع الأهواء ، وابتداع[2] الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب،وتحمل العصبيّة والهوى على تولّي أقوام قالوا بها ، على غير وثيقة من الدّين . ومستندُ وقوع هذه الشبهات امتزاجُ الحقّ بالباطل في النّظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات ، فلو أنّ النظر تخلّص مقدماته وترتّب قضاياه من قضايا باطلة ، لكان الواقع عنه هو العلم المحض ، وانقطع عنه ألسن المخالفين ،وكذلك لو كان النظرُ تخلص مقدماته من قضايا صحيحة ،بأن كان كله مبنيًّا

---

(١) سورة ص ٤٤

(٢) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « اتباع » .

على الفساد ، لظهر فسادُه لطلبة الحقّ ، وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الكاذبة .

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ الباريْ تعالى ذاتٌ موجودة، وكلّ موجود يصحّ أن يُرَى ، فإحدى المقدمتين حقّ ، والأخرى باطل ، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس .

ومثال مايكون المقدّمتان جميعا باطلتين ، قول قوم من الباطنية : الباريْ لاموجود ولا معدوم ؛ وكلّ مالا يكون موجودا ولا معدوما يصحّ أن يكون حيا قادرا ، فالباريْ تعالى يصحّ أن يكون حيًّا قادرا ؛ فهاتان المقدمتان جميعا باطلتان . لاجَرَم أنّ هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء !

ومثال ماتكون مقدّماته حقا كلّها: العالَم متغيّر ، وكلّ متغيّر ممكن ؛ فالعالم ممكن، فهذا مما لا خلافَ فيه بين العقلاء .

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام : « فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجُو الّذين سبقتْ لهم من الله الحسنى » ، أليسَ هذا إشعاراً بقول الجبِرة وتلويحا به ؟

قيل : لا إشعار فى ذلك بالجبْر ، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج فى النظر الحقّ بالباطل، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة، تمكّن الشيطان من الإضلال والإغواء، ووسوس إلى المكلّف، وخيّل له النتيجة الباطلة ، وأماله إليها ، وزيّنها عنده، بخلاف ما إذا كانت المقدّمات حقا كلّها ، فإنه لا يقدِر الشيطانُ على أن يخيّل له مايخالف العقل الصريح ؛ ولا يكون له مجال فى تزيين الباطل عنده ، ألا تَرَى أنّ الأوّليات لاسبيل للإنسان إلى جَحْدها وإنكارها ، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك !

ومعنى قوله : « على أوليائه » ،أى على مَنْ عنده استعداد للجهل ، وتمرّن على اتباع الهوى ، وزهد في تحقيق الأمور العقلية على وجهها ،تقليداً للأسلاف ،ومحبّةً لاتباع المذهب المألوف ، فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضلّه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وهم الذين يتّبعون محض العقل ، ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلُكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق[1]، يجتهدون فى البحث عن مقدّمات أنظارهم ، وليس فى هذا الكلام تصريح بالجبْر ، ولا إشعار به على وجه من الوجوه ، وهذا واضح .

وحَمَل الراوندىّ قوله عليه السلام :« فلو أنّ الباطل خَلَص... » إلى آخره ، على أنّ المراد به نفى القياس فى الشرع ، قال :لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق ، فيمتزج المجهول بالمعلوم ، فيلتبس ويُظَنّ لامتزاج بعضه ببعض حقّاً ، وهذا غير مستقيم ، لأن لفظ الخطبة أنّ الحق يمتزج بالباطل ، وأصحاب القياس لا يسلمون أنّ استخراج العلّة من الحكم المعلوم باطل ، بل يقولون إنه حقّ ، وإن الدليلَ الدالّ على ورود العبارة بالقياس ، قد أمّنهم من كونه باطلا .

***

واعلم أنّ هذا الكلامَ الذى قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته ، وإن لم تفسره على ماقدمناه من التفسير ، فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة من أهل الملّة الإسلامية وغيرها ، إنما ضلّ أكثرهم بتقليد الأسلاف ، ومَن يحسنُ الظنّ فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب ، وإنما قلّدهم الأتباع ، لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها، وإقبالهم على العبادة ، وتمسّكهم بالدّين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وشدّتهم فى ذات الله ، وجهادهم فى سبيله ، وقوّتهم فى

---

(١) ا ، ج : « النظر التام » .

مذاهبهم ، وصلابتهم فى عقائدهم ، فاعتقد الأتباع والخلف والقرون التى جاءت بعدهم أنّ هؤلاء يجب اتباعهم ، وتحرُم مخالفتهم ، وأنّ الحق معهم ، وأنّ مخالِفَهُم مبتدع ضالّ ، فقلدوهم فى جميع مانقل إليهم عنهم ، ووقع الضلال والغلط بذلك ، لأنّ الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحقّ الغالب الظاهر المشاهد عِيانا ، أو الحكم الظاهر ، ولولاه لما تروّج الباطل ، ولا كان له قبول أصلا .

(٥١)

ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابَه عليه السلام على شريعة الفرات بصِفّين ومنعوهم من الماء :

الأصْلُ :

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ ، أَوْ رَوُّوا ٱلسُّيُوفَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ ؛ فَٱلْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَٱلْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ .

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ ٱلْغُوَاةِ ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَرَ ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ ٱلْمَنِيَّةِ .

***

الشَّرْحُ :

استطعموكم القِتال، كلمة مجازية ،ومعناها : طلبوا القتال منكم ؛ كأنه جعل القتال شيئا يُستطعم ، أى يُطلب أكله ، وفى الحديث : « إذا استطعمكم الإمام فأطعموه » ، يعنى إمام الصلاة ، أى إذا أُرتِجَ فاستفتحكم فافتحوا عليه . وتقول :فلان يستطعمنى الحديث ؛ أى يستدعيه منّى ويطلبه .

واللُّمَة ، بالتخفيف : جماعة قليلة .

وعمّس عليهم الخبر ؛ يجوز بالتشديد ، ويجوز بالتخفيف ، والتشديد يعطى الكثرة ويفيدها ؛ ومعناه أبهم عليهم الخبر ،وجعله مظلما .ليلٌ عَمَاس ،أى مظلم ، وقد عَمِس الليل نفسه

بالكسر ؛ إذا أظلم وعمّسه غيره ، وعمّست عليه عَمْساً ، إذا أريته أنك لاتعرف الأمر وأنت به عارف .

والأغراض : جمع غَرَض وهو الهدف .

وقوله : « فأقرّوا على مذلّة وتأخير مَحَلّة » ، أى اثبتوا على الذلّ وتأخر المرتبة والمنزلة ، أو فافعلوا كذا وكذا .

ونحو قوله عليه السلام : « فالموت فى حياتكم مقهورين » قول أبى نصر بن نُباتة :

والحسينُ الذى رأى الموت فى العِـزِّ حياة والعيشَ فى الذلّ قتلا

وقال التِّهامىّ :

وَمَنْ فاتَه نَيلُ العُلَا بعُلومِه وَأقلامِه فَليَبْغِها بحُسامِه[1]

فوتُ الفتى فى العزّ مثلُ حياتِه وعِيشتُه فى الذلّ مثلُ حِمامِه

•••

[الأشعار الواردة فى الإباء والأنَف من احتمال الضيم]

والأشعار فى الإباء الأنَف من احتمال الضيْم والذلّ والتّحريض على الحرْب كثيرة ؛ ونحن نذكر منها هاهنا طَرَفاً ؛ فمن ذلك قول عمرو بن برّاقة الهَمْدانىّ :

وَكَيفَ ينامُ اللّيلَ مَنْ جُلُّ مالِه حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ[2]

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لاتأخذُونَها مراغَمَةً مادامَ للسّيفِ قائمُ

وَمَنْ يَطْلُبِ المالَ الممنّع بالقَنا يَعِشْ ماجداً أو تخترمْه الخوارم[3]

---

(١) ديوانه ٣٣

(٢) من أبيات له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ (ساسى) .

(٣) الأغانى : « المخارم » .

ومثله :

ومن يطلبِ المالَ الممنَّع بالقنا　　يَعِشْ ماجِداً أو يُودَ فيما يُمارِسُ

وقال حرب بن مِسْعر :

عَطَفْتُ عَلَيْهِ المُهرَ عطفةَ باسلٍ　　كَمِيٍّ ومَنْ لايَظْلِمِ النّاسَ يُظْلَمِ
فأوجَرْتُهُ لَدْنَ الكُعُوبِ مُثقَّفاً　　نخرَّ صريعاً لليدَيْنِ وللفَمِ

وقال الحارث بن الأرقم :

وَمَاضَاقَ صَدْرِي يَاسُلَيمَى بِسُخْطِكُمْ　　وَلَكِنَّنِي فِي الحَادِثَاتِ صَلِيبُ
تَرُوكٌ لدارِ الخسْفِ والضَيْمِ ، مُنكِرٌ　　بَصِيرٌ بفعلِ المكرُماتِ أريبُ
إذَا سَامَنِي السُّلْطَانُ ذُلًّا أبيتُهُ　　ولم أعطِ خَسْفاً ما أقامَ عَسِيبُ

وقال العباس بن مِرْداس السُّلَمِيّ :

بأبِي فوارسَ لا يَعرَى صَوَاهِلُهَا　　أنْ يقبلُوا الخسْفَ مِنْ مَلْكٍ وإنْ عَظُما
لَاوالسيوفُ بأيْدِينا مُجَرَّدَةً　　لا كانَ مِنَّا غَداةَ الرَّوْعِ مُنْهَزِما

وقال وهب بن الحارث :

لَا تحسبَنِّي كَأقْوَامٍ عَبَثْتَ بِهِمْ　　لن يأنفُوا الذُّلَّ حتى تأنفَ الحُمُرُ
لاتُلقَيَنَّ قَذاةً لستُ فاعلَها　　واحذرْ شَبَاتِي فقِدْماً يَنفَعُ الحَذَرُ
فقدْ عَلِمْتَ بأنِّي غَيْرُ مُهتَضَمٍ　　حَتَّى يلوحَ بِبطنِ الرَّاحَةِ الشَّعَرُ

وقال المسيّب بن عَلَس :

أبْلِغْ ضُبَيعَةَ أنّ البِلا　　دَ فيها لذي قُوَّةٍ مُغضَبُ[1]

---

(١) ديوان الأعشين ٣٤٩ ، مع اختلاف في الرواية

وقدْ يقعـــدُ القومُ فى دارهمْ   إذا لم يُضامُوا وإنْ أجْدَبُوا
ويرتَحِلُ القومُ عِنْــدَ الهوَا   ن عَنْ دارِهِمْ بَعْدَ ما أخصبُوا
وَقَدْ كَانَ سَامَةُ فى قَوْمِـــهِ   لَهُ مَـــطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسامُوهُ خَسْفاً فَلَمْ يَرْضَـــهُ   وَفِى الأرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وقال آخر :

إنّ الهوانَ حِمَارُ القـــوم يَعْرِفُهُ   والحرُّ يُنكِرُهُ والرَّسْلَةُ الأجُدُ[1]
وَلاَ يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ   إلّا الأذَلّان عَيْرُ الحىّ وَالْوَتِدُ[2]
هَذَا عَلَى الخسْفِ مَشْدُودٌ بِرُمّتِهِ   وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يأوِى له أحَدُ[3]
فإنْ أقَمْتُمْ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِـكُم   فإنَّ رَحْـــلِى لَهُ والٍ وَمُعْتَمَدُ
وفى البلاد إذا ما خفتُ بادِرَةً   مكروهةً عن ولاة السُّوءِ مُفْتَقَدُ

وقال بعض بنى أسد :

إنّى امرؤٌ من بنى خُزَيمة لا   أطعمُ خسفاً لناعِبٍ نَعَبا
لستُ بمعــطٍ ظُلامةً أبدا   عُجْماً ولا أتقى بها عَرَبَا

دخل مويلك السَّدوسىّ إلى البصرة يبيع إبلا ، فأخذ عامل الصدقة بعضها ، فخرج إلى البادية وقال :

ناقُ إنّى أرَى المُقَامَ على الضّيْـــم عَظِيماً فى قُبّةِ الإسْلَامِ
قدْ أرانى وَلِى مِن العَامِلِ النّصْـفُ بحدّ السِّنَانِ أوْ بالْحُسَامِ

---

(١) المتلمس ، معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . الرسلة : النـاقة السهلة السير . والأجد : الموثقة الخلق .
(٢) العير ، بفتح العين : الحمار ، وغلب على الوحشى ؛ والمراد به هنا الأهل .
(٣) الرمة : القطعة من الحبل ، وأوى له ، أى رق .

وَوَثِقتَ بالدُّنيا وأنـــتَ ترى جماعتها شتاتا

وَعَزَمتَ وَيكَ عَلى الحيا ةِ وَطولِها عَزماً بتاتا

يا مَنْ رأى أبوَيهِ ـ فيـمَنْ قَدْ رأى ـ كانا فماتا

هل فيهما لكَ عِبــرَةٌ أم خِلتَ أنّ لكَ انفلاتا !

ومن الذى طلب التّفلُّــلت مِن مَنيّتِهِ ففاتا !

كلٌّ تُصبّحُه المنــيّةُ أو تُبَيّتُه بياتا

وله :

أرى الدُّنيا لِمَنْ هِيَ في يديهِ عذاباً ، كُلّما كَثُرت لديهِ[1]

تُهينُ المكرمِينَ لَها بِصُغرٍ وتُكرِمُ كلَّ مَنْ هانَتْ عليهِ

إذا استغنَيتَ عَنْ شيءٍ فَدَعهُ وخُــذْ ما أنتَ محتاجٌ إليهِ

وله :

أَلَمْ تَرَ رَيْبَ الدَّهرِ في كلِّ ساعةٍ لَهُ عارِضٌ فيــه المنيّةُ تَلمعُ[2]

أيا باني الدُّنيا لِغيرِكَ تَبتني ويا جامِعَ الدُّنيــا لغيرِكَ تجمعُ

أرى المرءَ وثّاباً عَلى كلِّ فُرصَةٍ وللمَرءِ يوماً لا محالةَ مَصرَعُ

يُنازِلُ ما لا يَملِكُ الملكَ غيرُهُ متى تنقضي حاجاتُ مَن ليسَ يَشبعُ!

وأيّ امرئٍ في غايةٍ ليس نفسه إلى غايةٍ أخرى سِواها تَطلّعُ !

وله :

سَلِ الأيامَ عَنْ أمَمٍ تقضّتْ ستُخبِرُكَ المعالِمُ والرُّسومُ[3]

---

(١) ديوانه ٢٨٨

(٢) ديوانه ١٤٤

(٣) ديوانه ٢٤٦

وإلا حُساماً يَبهَرُ العَينَ لَمحُـهُ ... كصاعقةٍ فى عارضٍ قد تَبَسَّماَ

* * *

[أباة الضيم وأخبارهم]

سيِّد أهل الإباء ، الذى علَّم الناس الحميَّة والموت تحت ظلال السيوف ، اختياراً له على الدنيَّة ، أبو عبد الله الحسينُ بن علىّ بن أبى طالب عليهما السلام ؛ عُرِض عليه الأمان وأصحابه ، فأنِفَ من الذّلّ ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوعٍ من الهوان ؛ إن لم يقتله ، فاختار الموت على ذلك .

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوىّ البصرىّ ، يقول : كأنّ أبيات أبى تمام فى محمد بن حُميد الطائى[(1)] ما قيلت إلا فى الحسين عليه السلام :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الموتِ سهلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف الضَّيْمَ حتى كأنّه ... هو الكفرُ يوم الرّوعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ
فأثبتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ ... وقال لها : من تحت أخمصك الحَشْرُ
تَرَدّى ثيابَ الموتِ حُمراً فما أتَى ... لهَا الليل إلا وَهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

لما فرّ أصحابُ مصعب عنه ، وتخلّف فى نفر يسير من أصحابه ، كسر جَفْنَ سيفه ، وأنشد :

فإنّ الأُلَى بالطَّفِّ مِنْ آل هاشمٍ ... تأسَّوْا فَسَنُّوا لِلكِرامِ التّأسِّيا[(2)]

فعلم أصحابُه أنّه قد استقتل .

ومن كلام الحُسين عليه السلام يوم الطفّ ، المنقول عنه ، نقله عنه زينُ العابدين علىّ ابنُه عليه السلام : « ألا وإنّ الدعىّ ابن الدعىّ ، قد خيّرنا بين اثنتين : السّلة[(3)]

(١) ديوانه ٣٦٨ — طبع بيروت .
(٢) لسليان بن قتة . الكامل ١ : ١٤ ؛ والطف : من ضاحية الكوفة ؛ كان فيها مقتل الحسين عليه السلام .
(٣) السل : انتزاعك الشىء وإخراجك إياه فى رفق ؛ وعند السلة ؛ أى عند استلال السيوف .

أو الذِّلة، وهيهات مِنّا الذلة ! يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون ، وحجور طابتْ ، وحُجُزٌ طَهُرت[1] ، وأنوفٌ حَمِيّة ، ونفوس أبية » .

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم : « إنّ امرأً أمكن عدوًّا من نفسه ، يعرُق لحمه ، ويفري جِلْده ، ويهشِم عظمه ، لعظيمٌ عجزُه ، ضعيفٌ ما ضُمّت عليه جوانح صدره ؛ فكن أنت ذاك إن شئت ؛ فأما أنا فدون أن أعطِيَ ذلك ضربٌ بالمشرفيّة تطير منه فَراش الهام ، وتطيح السواعد والأقدام » .

* * *

وقال العباس بن مِرداس السُّلَميّ :

مقال امرئٍ يُهدِي إليك نَصيحةً إذا معشرٌ جادوا بعرضِك فابْخَلِ[2]
وإن بَوّءوك منزلا غير طائلٍ[3] غليظاً فلا تنْزِل به وتحوّلِ
ولا تَطْعَمَنْ ما يعلِفونَك إنّهم أتوك على قُرْبانهم بالمُثَمَّلِ[4]
أراك إذاً قد صرتَ للقوم ناضحاً يقال له بالغَرْب أدْبِرْ وأقبِلِ[5]
فخُذْها فليستْ للعزيز بخُطّةٍ وفيها مقامٌ لامرئٍ مُتذلِّلِ

---

(١) الحجز : جمع حجزة ، حيث يثنى طرف الإزار ، كناية عن العفة .

(٢) من أبيات فى الحماسة ٢ : ١١ — بشرح التبريزى ، مطلعها :

أَلا أَبْلِغْ أبا سَلْمَى رَسُولاً يَرُوعُهُ وَلَوْ حَلَّ ذَا سِدْرٍ وأَهْلِي بِعَسْجَلِ

(٣) الحماسة : « مبركا غير طائل » .

(٤) قال التبريزى : المثمل : هو السم الذى قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ ، أى سقوك السم وإن كانوا أقرباءك فلا تغتر بهم وكن ذا أنفة » . وبعده فى رواية التبريزى :

أبعد الإزارِ مُجَسَّداً لكَ شاهِداً أتيتَ به فى الدار لم يتزيَّلِ

(٥) الناضح : البعير الذى يستقى عليه الماء ، قال التبريزى : « يقول : أبعد الإزار مخضوبا بالدم أتيت به فى الدار شاهدا تصالحهم ! فإن فعلت ذلك صرت كالناضح للقوم انقيادا لهم » .

وله أيضا :

فحاربْ فإنْ مولاكَ حارد نَصْرُهُ ... فَفي السَّيْف مولى نصرُهُ لا يحارِدُ[1]

وقال مالكُ بن حَرِيم الهمْدانيّ :

وَكُنتُ إذا قومٌ غَزَوْنِي غزَوْتُهمْ ... فَهلْ أنا في ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ؟[2]

مَتَى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيّ وَصارِماً ... وَأنفاً حَمِيًّا تجتنبْك المظالمُ

وقال رُشَيْد بن رُمَيْض العنزيّ :[3]

باتوا نِياما وابنُ هند لم يَنَمْ ... بَاتَ يُقَاسيها غُلَامٌ كالزُّلَمْ[4]

خَدَلَّجُ السَّاقَيْن خَفَّاقُ القَدَمْ[5] ... قد لَفَّها اللَّيلُ بِسَوّاقٍ حُطَمْ[6]

ليسَ براعِي إبلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بجزّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ[7]

* مَنْ يَلقَنِي يُودِ كَمَا أوْدَتْ إرَمْ *

وقال آخر :

وَلَسْتُ بمبتَاعِ الحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[8]

وَلَمّا رأيتُ الودَّ ليسَ بنافِعِي ... عَمَدْتُ إلى الأمرِ الّذِي كانَ أحزَمَا

***

(١) ديوان الحماسة ٢ : ١٥ — بشرح التبريزى : وحارد نصره ؛ أى امتنع ؛ والمحاردة فى الأصل قلة اللبن ، واستعير هنا .

(٢) من قصيدة له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ وحريم ، ضبطه البكرى فى اللآلى ٧٤٨ « بالحاء والراء المهملتين ، الحاء مفتوحة ، والراء مكسورة » ، وقال : « ومن روى حزيم ،بالزاى فقد صحف » .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٣٣ — بشرح التبريزى ؛ من وصف غارة .

(٤) الزلم : القدح . يقاسيها ، أى يعانى الغارة كيف يوقعها ويدبرها .

(٥) خدلج الساقين : ممتلئهما . خفاق القدم : سريع الخطو ؛ ضراب بها للأرض .

(٦) قد لفها ، أى الإبل ؛ وجعل الفعل لليل على المجاز . والحطم : الذى لا يبقى من السير شيئا ؛ والمعنى أنه جمعها برجل متناهى القوة ، عنيف السوق .

(٧) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم .

(٨) الحصين بن حمام المرى ، المفضليات ٦٠ مع اختلاف فى الرواية .

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب ؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته ؛ لأسباب ليس هذا موضع ذكرها ، فلما أفضَتْ إليه الخلافة ، خلعه يزيد بن المهلّب ، ونزع يده من طاعته ، وعلم أنّه إنْ ظَفِر به قتله وناله من الهوان ما القتل دونه ، فدخل البصرة ومَلَكَها عَنوةً ، وحبس عديّ بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها ، فسرّح إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا ، ويشتمل على ثمانين ألفا من أهل الشام والجزيرة ، وبعث مع الجيش أخاه مَسْلمة بن عبد الملك ، وكان أعرَف الناس بقيادة الجيوش وتدبيرها ، وأيمنَ الناس نَقِيبةً في الحرب ، وضمّ إليه ابنَ أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، فسار يزيد بن المهلّب من البصرة ، فقدِم واسطَ ، فأقام بها أياما ، ثم سار عنها فنزل العَقْر[1] ، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً ، وقدِمَ مسلمة بجيوش الشام ، فلما تراءى العسكران ، وشبّت الحربُ ، أمرَ مسلمة قائدا من قُوّاده أن يحرق الجسور التي كان عَقَدها يزيد بن المهلّب فأحرقها ، فلما رأى أهلُ العراق الدخان قد علا انهزموا ، فقيل ليزيد ابن المهلّب : قد انهزم الناس ، قال : ومِمّ انهزموا ؟ هل كان قتال ينهزم الناس مِنْ مثله ؟ فقيل له : إنّ مسلمة أحرَق الجسور فلم يثبتوا ، فقال : قبحهم الله ! بَقٌّ دُخِّن عليه فطار ! ثم وقف ومعه أصحابه ، فقال : اضربوا وجوهَ المنهزمين ، ففعلوا ذلك حتى كَثُروا عليه ، واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : دعوهم قبّحهم الله ! غنمٌ عَدَا في نواحيها الذئب . وكان يزيد لا يحدّث نفسه بالفرار ، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفيّ بواسط ، فقال له :

فعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريما فإن تَمُتْ … وسيفك مشهور بكفّك تُعْذَرِ

فقال : ما شعرت ، فقال :

---

(١) قال ابن خلكان : « هي عقر بابل ؛ وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء ؛ الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه » .

إن بنى مروان قد بادَ ملـكُهُمْ ... فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعُرِ

فقال : أما هذا فـ..ى . فلما رأى يزيد انهزامَ أصحابه ، نزل عن فرسه ، وكسر جَفْن سيفه واستقتَل ، فأتاه آت فقال : إن أخاك حبيباً قد قُتِل، فزاده ذلك بصيرة فى توطينه نفسه على القتل ؛ وقال : لاخير فى العَيْش بعد حبيب ! والله لقد كنت أبغَضُ الحياةَ بعد الهزيمة ؛ وقد ازددتُ لها بغضا ؛ امضوا قُدُماً . فعلم أصحابه أنه مستميت ، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ، وبَقِيَ معه جماعة خشية ، فهو يتقدم كلما مرّ بخيل كَشَفها ، وهو يقصد مسلمة ابن عبدالملك لايريد غيره ، فلما دنا منه ، أدنَى مسلمةُ فرسَه ليركبَ ، وحالت خيولُ أهل الشام بينهما ، وعطفت على يزيد بن المهلب ؛ فجالدم بالسيف مصلَتا[1] ؛ حتى قتل وحُمِل رأسُه إلى مسلمة ، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب ؛ وكان أخوهما المفضّل بن المهلب ؛ يقاتل أهل الشام فى جهة أخرى ، ولا يعلَمُ بقتل أخويه يزيد ومحمد ؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلب ، وقال له : ماتصنع وقد قتل يزيد ومحمد ، وقبلهما قتل حبيب ، وقد انهزم الناس!

وقد روى أنّه لم يأته بالخبرِ على وجهه ، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل ،فقال له : إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط ، فاقتصّ أثره ، فانحدر المفضّل حينئذ ، فلما علم بقتل إخوته ، حَلَف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبدا : وكانت عين المفضّل قد أصيبت من قبل فى حرب الخوارج ، فقال : فضحنى عبد الملك فضحه الله ! ما عذرى إذا رآنى الناس فقالوا : شيخ أعور مهزوم ، ألا صدقنى فقتلت ! ثم قال :

وَلَاخَيْرَ فِى طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَا ... وَلَا فِى لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدِ

فلما اجتمع مَنْ بقى من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة ، أخرجوا عديّ بن أرطاة أمير البصرة من الحبس ، فقتلوه وحملوا عيالهم فى السفن البحريّة ، ولجّجوا فى البحر ؛ فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثا عليه قائد من قواده ، فأدركهم فى قَنْدَابيل[2] ؛ فحاربهم

---

(١) مصلتا ، أى مجردا من غمده .

(٢) قنداييل : مدينة بالسند .

وحاربوه ، وتقدّم بنو المهلب بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وهم : المفضّل بن المهلّب ، وزياد بن المهلب ، ومروان بن المهلب ،وعبد الملك بن المهلب ، ومعاوية بن يزيد ابن المهلّب،والمنهال بن أبى عُيينة بن المهلب،وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب؛وحملت رءوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك ؛ وفى أذن كلّ واحد منهم رقعة فيها اسمه ، واستؤسر الباقون فى الوقعة ، فحملوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام؛وهم أحدَ عشر رجلا، فلما دخلوا عليه قام كُثيِّر بن أبى جمعة ، فأنشد :

حَلِيمٌ إذا مانَالَ عاقَبَ مُجْمِلاً ... أشدَّ العقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ

فعَفْواً أميرَ المؤمنين وحِسْبَــةً ... فما تَأْتِهِ مِنْ صالِحٍ لك يكتبِ

أساءوا فإن تصفحْ فإنك قادرٌ ... وأفضل حلم حسبةً حلمُ مغضَبِ

فقال يزيد : أطّت [1] بك الرحم يا أبا صخر ! لولا أنهم قدَحوا فى الملك لعفوت عنهم ؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، وبقى منهم صبىّ صغير ، فقال : اقتلونى فلست بصغير ، فقال يزيد بن عبد الملك : انظروا هل أنبت ! فقال : أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمتُ ووطئت النساء فاقتلونى ؛ فلا خيرَ فى العيش بعد أهلى ! فأمر به فقتل .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى : وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبرا ـ وهم أحد عشر مُهَلَّبِيًّا : المعارك وعبد الله والمغيرة والمفضّل والمنجاب ؛ بنو يزيد بن المهلب . ودُرَيد والحجاج وغسان وشبيب والفضل ؛ بنو المفضل بن المهلب لصلبه.والفضل بن قبيصة بن المهلب . قال:ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلّب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب. وعمر بن يزيد بن المهلب ، وعثمان بن المفضّل بن المهلب ، فإنهم لحقوا برِتْبيل [2] ، ثم أومِنُوا بعد ذلك .

* * *

(١) أطت بك الرحم : رقت وحنت .

(٢) رتبيل : من ملوك الترك .

وقال الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

ألا لله بادرةُ الطِّلَابِ وَعزمٌ لا يُرَوَّعُ بالعِتَابِ[1]

وكلّ مشمّر البُرْدَين يهوي هُوِيّ المصلتات إلى الرقابِ

أعاتبهُ عَلَى بُعْدِ التنائي فيعذلني عَلَى قُرْبِ الإيابِ

رأيتُ العجزَ يخضعُ لِلّيالِي ويرضى عن نوائبها الغضابِ

وآمل أنْ تطاوعني اللّيالِي وينشب في المُنَى ظفري ونابي

ولولا صولة الأقدارِ دُونِي هجمْتُ عَلَى المُلاءِ منْ كلّ بابِ

وقال أيضا :

لا يُبْعِدَ الهمومَ إلاغــلامٌ يركبُ الهولَ والحسامُ رديفُ[2]

مايذلّ الزّمانُ بالفقرِ حرّا كيفما كان فالشريفُ شريفُ

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

وَلَسْتُ أضِلُّ في طُرُقِ المعالي وَنارُ العزّ عاليــةُ الشّعاعِ[3]

وَدُونَ المَجْدِ رَأْيٌ مُسْتَطِيلٌ وَبَاعٌ غــيرُ مجبوبِ الذّرَاعِ

وَيُعْجِبُني البِعادُ كأنّ قلبي يحدّث عن عـديّ بن الرّقاعِ

فَرِدْ نهيَ الملاء بلا رقيبٍ وشمّر في الأمورِ بلا نزاعِ

وَلَا تَغْرُرْكَ قَمْقَمَةُ الأعادي فذاك الصّخر خرّ من اليَفَاعِ

وَنَحْنُ أحقّ بالدُّنيا وَلَكِنْ تُخَيّرتِ القطوفُ عَلَى الوسّاعِ[4]

***

(١) ديوانه لوحة ٧٧ ، من قصيدة يفتخر ويمدح فيها آل البيت ويذكر قبورهم ويتشوقها .

(٢) ديوانه ، لوحة ١٨٩ .

(٣) ديوانه ، لوحة ٣٦ من قصيدة يمدح فيها أباه ويهنئه .

(٤) القطوف : الدابة البطيئة السير . والفرس الوساع : الجواد ذو السعة في خطوه .

وقال حارثة بن بدر الغُدانيّ :

أُهـــانُ وأُقصى ثم يَنتصحُونني ... وَمَنْ ذَا الّذِى يُعْطِى نصيحتَه قَسْرًا !
رأيتُ أكفَّ المصلِتين عليكُمُ ... مِلاءً وكفِّى من عطائكمُ صِفْرًا
مَتَى تسألونى مَا عَلَىَّ وَتَمنعُوا الـ ... ـذِى لِىَ ، لاأستطيعُ فى ذلكُمْ صَبْرًا

وقال بعض الخوارج :

تُعيِّرُنى بالحرب عِرْسى وَمَا دَرَتْ ... بأنّى لها فى كل ما أمرَتْ ضِدّ
لَحَا اللهُ قوماً يَقْعُدون وَعندَهم ... سُيُوفٌ ولم يعصب بأيديهمُ قِدّ

وقال الأعشى :

أبالموت خَشَّتْنِى عِبادٌ وإنّما ... رأيتُ منايا القوم يَسْعَى دليلُها(١)
وما مِيتَةٌ إنْ مِتُّها غيرَ عاجزٍ ... بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها

وقال آخر :

فلا أسْمَعنْ فيكم بأمرِ هَضيمةٍ ... وضيمٍ ولا تسمعْ به هامتى بَعْدى
فإنّ السنانَ يَركب المرءُ حَدَّه ... من الضّيم ، أو يعدُو على الأسَدِ الوَرْدِ

ومثله :

إذا أنت لم تُنْصِفْ أخــاكَ وَجَدْتَه ... على طرف الهِجْران إن كانَ يَعْقِلُ(٢)
ويَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أنْ تَضِيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

---

(١) ديوانه ١٢٥ .
(٢) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩ .

وقال آخر :

كرِهُوا الموتَ فاستُبِيح حِمَاهُمْ ... وأقامُوا فعلَ اللئيم الذَّليلِ

أمن الموت تهربون فإنّ الـ ... ـموتَ الذَّليل غيرُ جميلِ

وقال بشامة بن الغدير :

وإنّ الّتي سامَكُم قومُكُمْ ... هُمُ جعلُوها عليكم عُدُولا[1]

أخِزْىُ الحياةِ وكُرْه المات ... فكلاًّ أراهُ طَعَاما وَبيلاَ

فإن لم يكن غيرُ إحداهما ... فسيرُوا إلى الموت سَيْراً جميلا

وَلَا تقْعُدُوا وَبِكُمْ مُنّةٌ ... كَفَى بالحوادث للمرء غُولا

***

قال يزيد بن المهلّب فى حرب جُرجان لأخيه أبى عيينة : ماأحسنُ منظرٍ رأيتَ فى هذه الحرب ؟ قال : سيف بن أبى سَبْرة وبيضته ؛ وكان عبدُ الله بن أبى سَبْرة حَمَل على غلام تركىّ قد أفرج الناس له ، وصدوا عنه لبأسه وشجاعته ، فتضاربا ضَرْبتَيْن ، فقتله ابن أبى سبرة بعد أن ضربه التركىّ فى رأسه ، فنشب سيفُه فى بيضة ابن أبى سَبْرة ، فعاد إلى الصفّ وسيفه مصبوغ بدم التركىّ وسيف التركى ناشب فى بيضته كجزء منها يلمع ، فقال الناس : هذا كوكب الذنب ، وعجبوا من منظره .

وقال هُدْبة بن خَشْرم :

وإنى إذ ماالموتُ لم يكُ دُونَهُ ... قِدَى الشبرِ أحمى الأنفَ أن أتأخَّرا[2]

ولكنّني أُعطِى الحفيظَةَ حقَّها ... فأعرِفُ معروفاً وأنكر منكرا

وقال آخر :

إنى أنا المرء لايُغضِى عَلَى تِرَةٍ ... ولا يقرّ على ضَيْم إذا غُشِيا

(١) مختارات ابن الشجرى ١٦ ، المفضليات ٥٩

(٢) قدى الشبر : قدره ، والبيت فى اللسان (٢٠ : ٣٢) .

ألقى المنيةَ خوفاً أن يقال فتًى   أمسى -وقد ثبت الصفّان- منهزما

وقال آخر :

قَوِّضْ خيامَك والتمسْ بَلَداً   تنأى عن الغاشيك بالظُّلْمِ
أو شُدَّ شدة بَيْهَسٍ فعسَى   أن يتّقوك بصفحة السِّلْمِ (١)

استنصر سبيع بن الخطيم التيميّ من بني تيم اللات بن ثعلبة زيدَ الفوارس الضبيّ فنصره ، فقال :

نَبّهتُ زيداً فلم أفْزَعْ إلى وَكَلٍ   رثّ السلاحِ ولا في الحيّ مغمورِ
سَالَتْ عليهِ شعابُ الحيّ حين دَعَا   أنصارَه بوجوهٍ كالدّنانيرِ

وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

كذبتم وبيت الله نُخلِي محمّداً   ولما نطاعِنْ دونه ونُنَاضلِ (٢)
وَنَنصُره حتى نُصَرَّعَ حوله   ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ

* * *

لما برز عليّ وحمزةُ وعبيدة عليهم السلام يوم بَدْر إلى عُتْبة وشيبة والوليد ، قَتَل عليّ عليه السلام الوليدَ ، وقتل حمزةُ شيبة، على اختلاف في رواية ذلك : هل كان شيبة قِرْنَه أم عتبة ؟ وتجالَد عُبيدة وعُتْبة بسيفيهما، فجرحَ عُبيدةُ عُتْبة في رأسه ، وقطع عُتبة ساق عُبيدة، فكرّ عليّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما ، فاستنقذاه من عُتْبة ، وخبطاه بسيفيهما حتى قتلاه واحتملا صاحبَهما ، فوضعاه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله في العَرِيش ، وهو يجود بنفسه ، وإنّ مُخَّ ساقِهِ لَيَسِيلُ ، فقال : يارسول الله ، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنّى أولى منه بقوله :

---

(١) البيهس : الشجاع .
(٢) ديوانه ١١٠ ، ١١١ مع اختلاف في الرواية

كَذَبْتُم وبيتِ الله نُخلِي مُحَمَّداً ... وَلَمَّا نطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
ونَنصره حتى نصرَّعَ حولَه ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : اللهم أنجِزْ لى ماوعدتَنى ! اللهمّ إن تهلِكْ هذه العصابة لاتُعبد فى الأرض » .

* * *

لما قدم جيش الحرّة إلى المدينة ، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المرىّ ، أباح المدينة ثلاثا ، واستعرض أهلَها بالسيف جَزْراً كما يَجْزُرُ القصّاب الغنم ؛ حتى ساخت الأقدام فى الدّم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين ؛ على أنه عبدقِنّ لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ؛ هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحرّة ، إلا علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام ، فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره ، وأخذ بيعته على أنه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمه ، دفعا له عمّا بايع عليه غيره ، وكان ذلك بوصاةٍ من يزيد بن معاوية له ، فهرب علىّ بن عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كِندة ، فحَموْه من مُسلم بن عقبة ، وقالوا : لايبايع ابنُ أختنا إلا على مابايع عليه ابنُ عمه علىّ بن الحسين ، فأبى مسلم ابن عقبة ذلك ، وقال : إنى لم أفعل مافعلت إلا بوصاةِ أمير المؤمنين ، ولولا ذلك لقتلتُه ، فإن أهل هذا البيت أجْدَرُ بالقتل ، أو لأخذت بيعتَه على ماأخذتُ عليه بيعة غيره . وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يبايعَ ويقول : أنا أبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، وألتزم طاعته ، ولا يقول غير ذلك ؛ فقال علىّ بن عبد الله بن العباس :

أبِى العباسُ رأسُ بنى قصىّ ... وأخوالِى المُلُوكُ بَنُو وَليعَهْ
هُمُ منعوا ذِمارِى يوم جاءت ... كتائبُ مُسْرِفٍ وبَنُو اللَّكِيعَهْ

أراد بنَ التى لا عزّ فيها ... فحالت دونه أيدٍ منيعهْ

مُسرِف كناية عن مُسلم ، وأم علىّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرّح بن معدى كربَ بن وليعة بن شُرَحْبيل بن معاوية بن كِنْدة .

قال الحصُين بن الحِمام :

وَلَسْتُ بمبتاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[1]

تأخرْتُ أستبقى الحياة فلم أجِدْ ... لنفسى حياةً مثلَ أن أتقدّما

فلسنا على الأعقاب تدْمَى كلومُنا ... ولكن على أقدامِنا تقْطُر الدّما

نفلّق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا ، وهمْ كانُوا أعقّ وأظلَما

أبَى لابن سلمى أنه غيرُ خالد ... مُلاقِى المنايا أىّ صَرْفٍ تيمّما

ابن سلمى يعنى نفسه ، وسَلمى أمه .

وقال الطرمّاح بن حكيم :

وَمَا مُنِعَتْ دارٌ ولا عَزّ أهلُها ... مِنَ النّاسِ إلا بالقَنا والقَنابل[2]

وقال آخر :

وإن التى حدثتها فى أنوفنا ... وأعناقنا مِن الإباء كما هِيَا

وقال آخر :

فإنْ تَكُنِ الأيّام فينَا تبدّلَتْ ... ببؤسَى ونُعْمى والحوادِثُ تفعَلُ[3]

فمَا ليَّنَتْ منّا قناةً صَليبَةً ... وَلَا ذَلّلتنا للتى ليس تجملُ

وَلَكِنْ رَحَلْنَاها نُفُوسا كريمة ... تحمّل مالا يستطاع فتحمِلُ

---

(١) المفضليات ٦٨ ، ٦٩

(٢) ديوانه ١٥٩

(٣) لإبراهيم بن كنيف النبهانى ، ديوان الحماسة ١ ـ ٢٥٠ ـ بشرح التبريزى .

وقال آخر :

إذا جانبٌ أعياكَ فاعمِد لجانبٍ فإنك لاقٍ في البلاد مُعوَّلا[1]

وقال أبو النشناش :

إذا المرءُ لم يَسْرَحْ سواماً ولم يُرِحْ سَوَاماً ولم تَعطِفْ عَلَيْهِ أقاربُهْ[2]

فَلَلْمَوتُ خيرٌ للفتى من قُعودِهِ عديماً ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ

ولم أرَ مثل الهمّ ضاجَعَهُ الفتى ولا كَسَوادِ الليل أخفقَ طالبُهْ

فَعِشْ معدِماً أو مُتْ كريماً فإنني أرى الموتَ لاينجُو من الموتِ هارِبُهْ

* * *

وفد يحيى بن عُرْوة بن الزُّبير عَلَى عبد الملك ، فجلس يوما على بابه ينتظر إذنَه ، فجرى ذِكرُ عبدالله بن الزُّبير ، فنال منه حاجب عبد الملك ، فلطَم يحيى وجهَه حتى أدمى أنفه ، فدخل على عبد الملك ودمه يجرى من أنفه ، فقال : مَنْ ضربك ؟ قال : يحيى ابن عُرْوة ، قال : أدخله — وكان عبد الملك متكئا فجلس — فلما دخل قال : ما حملك على ما صنعت بحاجبي ؟ قال : ياأمير المؤمنين، إن عمّى عبدالله كان أحسنَ جواراً لعمتك منك لنا ، والله إن كان لَيُوصى أهلَ ناحيته ألّا يُسْمِعوها قَذَعاً[3] ، ولا يذكروكم عندها إلا بخير ؛ وإن كان ليقولُ لها : مَنْ سبّ أهلك فقد سبّ أهله ، فأنا والله المعَمّ المُخْوِل، تفرّقت العرب بين عمّى وخالى ، فكنت كما قال الأول :

يَدَاهُ أصابَتْ هذهِ حَتْفَ هذهِ فلم تجد الأخرى عليها مُقَدّما

فرجع عبد الملك إلى متّكئه ، ولم يزل يُعرَف منه الزيادة فى إكرام يحيى بعدها .

---

(١) لجابر بن ثعلب الطائى ، ديوان الحماسة ١ : ٢٩٣ — بشرح التبريزى .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٢٠٢ — بشرح التبريزى

(٣) القذع : الفحش .

وأمّ يحيى هذه ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان .

وقال سعيد بن عمرو الحَرَشيّ أمير خراسان :

فلستُ لعامرٍ إنْ لَمْ تَرَوْني ... أمامَ الخَيْلِ أطعَنُ بالعوالي[1]

وأضرِبُ هامةَ الجبّار مِنهمْ ... بماضِي الغَرْب حُودِثَ بالصقالِ[2]

فما أنا في الحروب بمستكينٍ ... ولا أخشى مصاوَلةَ الرجالِ

أبَى لي وَالدي من كلّ ذمّ ... وخالِي حين يُذكَرُ خيرُ خالِ

* * *

قال عبدالله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مُصْعَب : أما بعد ؛ فإنه أتانا من العراق خبرٌ أفرحَنا وأحزنَنا ؛ أتانا خبرُ قتل المصعَب ؛ فأما الذي أحزَنَنا فلوعة يجِدُها الحميم عند فراق حميمه ؛ ثم يرعوي بعدها ذو اللُّبّ إلى حسن الصبر وكرم العزاء .

وأما الذي أفرَحَنا ، فإنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا وله خِيرة ؛ إنا والله مانموت حَبَجًا[3] كما يموت آل أبي العاص ؛ ما نموت إلا قتلاً قَعْصًا[4] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ؛ فإنْ يهلك المصعب ؛ فإن في آل الزبير خَلَفًا .

وخطب مرة أخرى فذكره فقال : لودِدْت والله أنّ الأرض قاءتْنِي عنده حين لفظ غُصّتَه وقضَى نَحْبَه .

شعر :

خُذِيه فَجُرِّيه ضِبَاع وأبْشِري ... بلحمِ امرئٍ لم يَشْهدَ اليومَ ناصرُهُ

---

(١) العوالي : جمع عالية ؛ وهي أعلى القناة .

(٢) غرب السيف : حده ؛ ويقال : حادث السيف ؛ إذا جلاه ؛ وصقال السيف : جلاؤه .

(٣) الحبج : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بطنه سمنا وربما قتله ذلك ؛ وفي اللسان (٣ : ٤٨) . بعد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يعرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة » وفي ج : « جنعا » .

(٤) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أي أصابته ضربة أورمية فات مكانه .

وقال الشدّاخ بن يعمُر الكِنانىّ :

قاتِلُوا القومَ يا خُزَاعَ ولا يَدْخُلْكُمُ مِنْ قِتالِهِمْ فَشَلُ[١]
القوم أمثالكم لهُمْ شَعَرٌ في الرأس لا يُنشرون إنْ قُتلوا

وقال يحيى بن منصور الحنفىّ :

ولما نأتْ عنّا العشيرةُ كلها أنخنا فحالفْنا السيوفَ على الدّهرِ[٢]
فما أسلمتْنا عند يوم كريهةٍ ولا نحن أغضينا الجُفُونَ على وِتْرِ

قيل لرجل شهد يوم الطَّفّ مع عمر بن سعد : ويحك ! أقتلتُم ذريةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال : عَضَضْتَ بالجنْدَل ؛ إنك لو شهدت ما شهِدْنا لفعلت ما فعلنا ، ثارت علينا عِصابة، أيديها فى مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطمُ الفرسان يمينا وشمالا، وتُلْقِي أنفسها على الموت ؛ لاتقبل الأمان ، ولا ترغب فى المال ، ولا يحول حائل بينها و بين الوُرُود على حياض المنية ، أو الاستيلاء على الملك ؛ فلو كففْنا عنها رويدا لأتَتْ على نفوس العسكر بحذافيرها ؛ فما كنا فاعلين لا أمّ لك !

***

السخاء من باب الشجاعة ، والشجاعة من باب السخاء ؛ لأنّ الشجاعة إنفاق العمر وبذله فكانت سخاء ، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عَدِيل المهجة ؛ فكان شجاعة .

أبو تمام فى تفضيل الشجاعة على السخاء :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إنما نفقاتُهُمْ مالٌ وقومٍ يُنْفِقُون نُفُوسا[٣]

***

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ١ : ١٨٩ ـ بشرح التبريزى، والفشل : الجبن والضعف .
(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٣١٠
(٣) ديوانه ٢ : ٢٦٧

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصرىّ رحمه الله تعـالى : أتجد فى النصوص ما يدلّ على تفضيل علىّ عليه السلام ؛ بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه ؛ فإنّ ذاك أمرٌ مفروغ منه ؟ فذكر حديثَ الطائر المشوىّ[1] ؛ وأنّ المحبّة من الله تعالى إرادة الثواب . فقيل له : قد سبقك الشيخُ أبو علىّ رحمه الله تعالى إلى هذا ؛ فهل تجدُ غير ذلك؟ قال : نعم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص ، فكل مَنْ زاد ثباته ؛ زادت المحبة له ؛ ومعلوم أن عليًّا عليه السلام ما فرّ فى زَحْفٍ قطّ ، وفرّ غيرُه فى غير موطن .

* * *

وقال أبو تمام :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أنباء من الكُتُبِ ... فى حَدِّه الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ[2]

بيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصَّحائفِ فى ... مُتونِهِنّ جِلَاء الشَّكِّ والرِّيَبِ[3]

وَالعِلْمُ فى شُهُبِ الأرْمَاحِ لامعةً ... بين الخَمِيسَيْنِ لا فى السَّبْعةِ الشُّهُبِ[4]

وقال أبو الطيب المتنبى :

حَتّى رَجَعْتُ وَأَقْلامى قَوَائِلُ لى: ... المجدُ للسَّيْفِ لَيْسَ المجدُ لِلْقَلَمِ[5]

---

(١) يشير إلى ما رواه الترمذى فى باب المناقب (١٣ : ١٧٠) ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : « كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك ؛ يأكل معى هذا الطير . فجاء على فأكل معه . وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٧

(٢) ديوانه ١ : ٤٥ ؛ من قصيدة يمدح بها المعتصم بالله ؛ ويذكر فتح عمورية ، وكان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية ؛ وراسلته الروم بأنا نجد فى كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا وقت إدراك التين والعنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام فيهـا الثلج والبرد ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة ؛ وهى الحديدة العريضة ؛ ويقال للسيف العريض كذلك .

(٤) يرد على المنجمين ما حكموا به ؛ لأن الظفر كان قبل حكمهم . ويعنى بشهب الأرماح أسنتها ، ويعنى بالسبعة الشهب الطوالع التى أرفعها زحل وأدناها القمر .

(٥) ديوانه ٤ : ١٠٩

اكْتُبْ بِنَا أبداً بعد الكِتاب بِهِ ... فإنما نحن للأسْيافِ كالخدَمِ
أسْمعتنى وَدَوائى ماأشَرْتُ بهِ ... فإنْ غفَلْتُ فدائى قِلّةُ الفَهمِ
مَنِ اقتضَى بسوى الهندىّ حاجتَهُ ... أجاب كلّ سؤالٍ عن «هَلٍ» بِلَمِ

***

قال عطاف بن محمد الألوسىّ :

أمكابدَ الزَّفَرَات مؤصَــدة ... تلتــذّ خوف القطع بالشَّلَلِ
صَرِّفْ همومَكَ تَنْتَدِبْ هِمَمَا ... فالشُّكْرُ يُعقِبُ نشوة الثَّمِلِ
ولِلَيْلةِ الميــلادِ مُفْرِحَةٌ ... تُنسى الحوامِلَ أشهرَ الحَبَلِ
سِرْ فى البِلادِ تخوضها لُجَجاً ... فالدُّرّ ليس يُصابُ فى الوَشَلِ (١)
واجعل لصبْوَتِك الظُّبا سَكَناً ... والدَّور أكواراً على الإبِلِ
والعيشُ والوطن الممهد فى ... غُرَبِ الحُسام وغارِب الجملِ
واشْدُدْ عليْكَ وخُذْ إليك وَدَعْ ... ضَعَةَ الخمول وَفَتْرَةَ الكَسَلِ
وَارْمِ العُداةَ بِكُلّ صائِبَةٍ ... ما الرَّمْىُ مَوْقوفاً على ثُعَلِ (٢)
لاتحْسَبِ النَّكبَات منقصةً ... قدْ يُستجادُ السيفُ بالفَلَلِ

***

وقال عُرْوة بن الورد :

لحَا اللهُ صُعلوكاً إذا جَنّ ليلُهُ ... مُصَافِى المُشَاشِ آلفاً كلّ مَجْزَرِ (٣)

---

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) ثعل : أبو حى من طيىء ؛ اشتهروا بالرمى .

(٣) ديوانه ٩٣ (ضمن دواوين الشعراء الخمسة) . الصعلوك : الفقير ، والمصافى : من المصافاة ؛ وهى الاختيار والملازمة . والمشاش : العظم الممكن مضغه ، والمجزر : موضع نحر الإبل .

يَعُدُّ الغِنَى مِنْ نَفْسه كلَّ ليـــــلَةٍ ... أَصَابَ قِرَاها مِنْ صَدِيق مُيَسَّرِ (١)
يَنَامُ عِشاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِساً ... يَحُتُّ الحَصا مِنْ جَنْبِهِ المتعفِّرِ (٢)
يُعِيــــنُ نِساءَ الحيِّ ما يَستَعِنَّهُ ... وَيُمْسِي طَلِيحاً كالبعيرِ المحَسَّرِ (٣)
ولـكنَّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوْءِ شِهاب القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ ... بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ (٤)
وإنْ قَعَـــدُوا لا يأمنون اقترابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهلِ الغائبِ المتنظَّرِ (٥)
فذلكَ إنْ يَلْقَ المَنِيَّــــةَ يَلْقَهَا ... حَمِيداً وإنْ يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْـدِرِ

***

وقال آخر :

ولستُ بمولى سَوْءَةٍ أُدْعى لها ... فإنَّ لسوآتِ الأمورِ مَوالِيا (٦)
وسِيانِ عِندِي أنْ أمُوتَ وأنْ أرَى ... كبعضِ رجالٍ يُوطِنُونَ المَخازِيا
ولن يجِدَ النَّاسُ الصديقَ ولا العِدا ... أَدِيمِي إذا عَدَّوا أَدِيمَ وَاهِيا
وإنَّ نِجَارِي بابنِ غَنْمٍ مُخَالِفٌ ... نِجارَ لئامٍ فابْغِنِي مِن وَرَائِيا (٧)
وَلَسْتُ بِهَيَّابٍ لِمَنْ لا يَهابُني ... وَلَسْتُ أَرَى للمرءِ ما لا يَرَى لِيَا
إذا المرءُ لم يُحْبِبْكَ إلَّا تَكَرُّهاً ... عِرَاضَ العَلُوقِ لم يَكُنْ ذاكَ باقِيا (٨)

***

(١) الميسر : الذى قد نتج إبله فكثر خيره ؛ يقول : من صفات ذلك الصعلوك أنه إذا أصاب القرى فى كل ليلة من صديق غنى ؛ عد ذلك لنفسه غنى وخيرا .
(٢) يحت الحصا : يفركه ، والناعس : الذى يأتى عليه الصباح وهو ناعس لخموله وانحطاط همته .
(٣) البعير الطليح : المعي ؛ وكذلك المحسر .
(٤) أطل على أعدائه : أوفى عليهم . والمنيح والسفيح والرغد : قداح لا أنصباء لها ، وإنما يكثر بها القداح فهى تجال أبدا ، وتزجر حالا بعد حال ، فشبه الصعلوك به (من شرح التبريزى) .
(٥) الديوان : « فإن بعدوا يأمنون اقترابه » .
(٦) لطرفة الجذعي، ديوان الحماسة بشرح التبريزى ١ : ٣٨٩ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات
(٧) النجار : الأصل .
(٨) العلوق: الناقة التى ترأم ولدها وتلحسه حتى يأنس بها، فإذا أراد ارتضاع اللبن منها ضربته وطردته.

نهار بن توسعة فى يزيد بن المهلب :

وَمَا كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ أميرٍ كما كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ يزيدِ
فأخطأ ظَنُّنَا فيه وَقِدْماً زَهِدْنا فى معاشرة الزَّهيدِ
إذا لم يعطِنا نصَفاً أميرٌ مشينا نحوه مَشْىَ الأسُودِ

* * *

كان هُذْبة اليشكرىّ ـ وهو ابن عمّ شوذب الخارجىّ اليشكُرىّ ـ شجاعا مقداما، وكان ابنُ عمه بِسْطام الملقب شوْذباً الخارج فى خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا فحاربه ، فانكشفت الخوارج ، وثبتَ هُذْبة وأبَى الفرار ، فقاتل حتى قُتل ، فقال أيوب بن خولىّ يرثيه :

فَيَا هُذْبَ لِلْهَيْجا وَيَا هُذْبَ لِلنَّدى وَيَا هُذْبَ لِلْخَصْمِ الألدِّ يُحَارِبُهْ(١)
وَيَا هُذْبَ كَمْ مِنْ مَلْحَمٍ قَدْ أجبتَهُ وَقَدْ أسْلَمَتْهُ لِلرِّمَاحِ كَتَائِبُهْ(٢)
تزَوَّدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفراً وَعَضْباً حُسَاماً لم تخنْك مَضَارِبُهْ(٣)
وَأجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّرَاةِ كَأنَّهُ إذا انْقضَّ وافى الرِّيش حُجْنٌ مَخالِبُهْ(٤)

* * *

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه ترِدُ إلى أبى مسلم بخراسان : إن استطعت ألّا تَدَع بخُرسان أحداً يتكلّم بالعربية إلا وقتلته فافعل ، وأيّما غلام بلغَ خمسة أشبار تتّهمه

---

(١) الأبيات مع ذكر الخبر مفصلا فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٧٦ ـ ١٣٧٨ (طبع أوربا) .
(٢) الملحم : الذى أسر وظفر به أعداؤه ، وفى ج : « ملجم » تصحيف .
(٣) الطبرى : « تزود . . . لم تخنه » .
(٤) أجرد ، من وصف الفرس ، والجرد قصر شعر الجلد فيه ، وهو من الأوصاف المحمودة . السراة : الظهر ، ومحبوك السراة ، أى شديد الخلق . حجن مخالبه ، يريد صقرا ، والحجن . الاعوجاج .

فاقتله ؛ وعليك بمُضَر ؛ فإنهم العدُوّ القريب الدار ، فأبِدْ خَضْرَاءهم(١) ، ولا تدَعْ على الأرض منهم ديّارا .

* * *

قال المتنبيّ :

لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيع مِنَ الأَذَى   حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانِبِه الدَّمُ(٢)

وله :

وَمَنْ عَرَفَ الأيّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا   وَبِالنّاسِ رَوّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ(٣)

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا بِهِ   وَلاَ فِي الرَّدَى الجارِي عَلَيْهِمْ بِآثِمِ

وقال المتنبي أيضا :

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يا نَفْسُ وَاطَّرِحِي   حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ والنَّعَمِ(٤)

إنْ لَمْ أذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سائِلَةً   فَلاَ دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجْدِ والكَرَمِ

* * *

ومن أباة الضيم قُتيبة بن مسلم الباهليّ أمير خراسان وما وراء النهر ؛ لم يصنعْ أحدٌ صنيعه في فتح بلاد الترك ، وكان(٥) الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهْد بعده ، ويجعلَه في ابنه عبد العزيز بن الوليد ، فأجابه إلى ذلك قُتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء ، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك ، وقام سليمان بالأمر بعده — وكان

---

(١) في الأساس : أباد الله خضراءهم ، أي شجرتهم التي تفرعوا منها .

(٢) ديوانه ٤ : ١٢٥

(٣) ديوانه ٤ : ١١٢

(٤) ديوانه ٤ : ٤٣

(٥) الطبري (حوادث سنة ٩١) .

قتيبةُ أشدّ الناس فى أمر سليمان وخلعِه عن العهد ـ علم أنه سيعزِله عن خراسان ويولّيها يزيدَ بن المهلبِ ، لودٍّ كان بينه وبين سليمان ، فكتب قتيبة إليه كتابا يهنئه بالخلافة ، ويذكُر بلاءه، وطاعتَه لعبد الملك وللوليد بعده ، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خُراسان ، وكتب إليه كتابا آخر يذكّره فيه بفتوحه وآثاره ، ونكايتِه فى الترك ، وعِظَم قدره عند ملوكهم ، وهيبة العجم والعرَب له وعِظَم صيته فيهم، ويذمّ آل المهلب ، ويحلف له بالله : لئن استعمل يَزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنّه ، وليملأنّها عليه خيلا ورَجلا، وكتب كتابا ثالثا فيه خَلع سليمان ، وبعث بالكُتُب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به ، وقال له : ادْفَعْ الكتاب الأول إليه ، فإن كان يزيدُ بن المهلب حاضراً عنده ، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادْفع إليه هذا الثانى ، فإن قرَأه وألقاه إليه أيضا فادفع إليه الثالث ؛ وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد ؛ فاحتبس الكتابين الآخرين معك .

فقدِم الرسولُ على سليمان، ودخل عليه وعنده يزيدبن المهلّب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأ وألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتابَ الثانى ، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضا ، فدفع إليه الكتاب الثالث، فقرأه وتغيّر لونه وطواه ، وأمسكه بيده ،وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ، ثم أحضره ليلا ، ودفع إليه جائزته ، وأعطاه عَهْدَقتيبة على خُراسان ، وكان ذلك مكيدةً من سليمان يسكنه لِيَطمئنّ ثم يعزله ، وبعث مع رسوله رسولا ، فلما كان بحُلْوان بلغه خَلْعُ قتيبةسليمان بن عبد الملك، فرجع رسول سليمان إليه، فلما اختلفتِ العربُ على قتيبة حينَ أبدَى صفحته لسليمان ، وخلع رِبقَة الطاعة ، بايعوا وكيعَ بن أبى سود التميميّ على إمارة خراسان ، وكانت أمراء القبائل قد تنكّرتْ لقتيبة لإذلاله إياهم ، واستهانته بهم واستطالته عليهم ، وكرهوا إمارته ، فكانت بيعة وكيع فى أوّل الأمر

سرًّا ، ثم ظهر لقتيبة أمرُه ، فأرسل إليه يدعوه ، فوجده قد طلاَ رِجْلَه بمَغْرة[1] وعلّق في عنقه خَرَزاً ، وعنده رجلان يرْقيان رجلَه ، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي ! فرجع وأخبر قتيبة ، فأعاده إليه ، فقال : قل له ليأتيني محمولا ، قال : لا أستطيع . فقال قتيبة لصاحب شرطته : انطلق إلى وكيع فأتني به ؛ فإن أبَى فاضرِبْ عنقَه، وأتِني برأسه ،ووجّه معه خيلا . فقال وكيع لصاحب الشرطة: البَثْ قليلا تلحق الكتائب، وقام فلبس سلاحه ، ونادى في الناس فأتوه ، فخرّج فتلقاه رجل ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بني أسد ، قال : ما اسمُك ؟ فقال ضِرْغام ، فقال : ابن مَنْ ؟ قال : ابن لَيْث ، فتيمّن به وأعطاه رايته ، وأتاه الناس أرسالا من كل وجه ، فتقدّم بهم ، وهو يقول :

قَرْمٌ إذا حُمِّل مَكْرُوهَةً ... شَدّ الشَّرَاسِيفَ لها والحَزِيمْ[2]

واجتمع إلى قتيبة أهلُه وثقاته ، وأكثرُ العرب ألسنتُهم له وقلوبهم عليه . فأمر قتيبة رجلا فنادى : أين بنو عامر ؟ وقد كان قتيبة جفَاهم في أيام سُلطانه ـ فقال له مجْفر[3] ابن جزء الكلابيّ : نادِهم حيثُ وضعتَهم ، فقال قتيبة : أنشُدُكم الله والرحِم ـ وذلك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان ـ فقال مجفر : أنت قطعتَها، قال : فلكم العُتْبى، فقال مجفر : لا أقالنا الله إذا ، فقال قتيبة :

يا نَفْسُ صَبْراً عَلَى ما كانَ مِنْ أَلَمٍ ... إذْ لم أجِدْ لِفُضُول العيش أقْرانَا

ثم دعا[4] ببرذون له مُدَرّب[5] ليركبه ،فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا. فلما رأى ذلك

---

(١) المغرة : طين أحمر .

(٢) البيت في اللسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة. القرم: السيد . والشراسيف : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . والحزيم : موضع الحزام من الصدر والظهر كله .

(٣) في الطبري : « عصن » .

(٤) في الطبري : « ودعا بعمامة ، وكانت أمه بعثت بها إليه : فاعتم بها ،وكان يعتم بها في الشدائد ، ودعا ببرذون . . . . » .

(٥) المدرب : المؤدب الذي ألف الركوب وعود المشي .

عاد إلى سريره فجلس ، وقال : دعوه ؛ فإنّ هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيان النَّبَطِيّ – وهو يومئذ أمير الموالى ، وعدتهم سبعة آلاف ، وكان واجدا على قُتيبة – فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة : احمل ياحيان ، فقال : لم يأن بعد ، فقال له : ناولنِي قوسَك ، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس . ثم قال حيان لابنه : إذا رأيتَنِى قد حوّلت قلنسوتى ، ومضيتُ نحو عسكر وكيع فمِلْ بمن معك من العجم إلىّ ، فلما حَوّل حيان قلنسُوتَه ومضى نحو عسكر وكيع ، مالت الموالى معه بأسْرها ، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس ، فرماه رجلٌ من بنى ضَبّة فأصاب رأسه ، فحُمِل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فوضَعه على مصلّاه ، وجلس عند رأسه ساعة ، وتهايج الناسُ ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم ، فرماه الغوغاء وأهلُ السوق فقتلوه ، وأشِير على قتيبة بالانصراف ، فقال: الموتُ أهونُ من الفرار . وأحرق وكيع موضعا كانت فيه إبل قُتيبة ودوابّه ، وزحَفَ بمن معه حتى دنا منه، فقاتل دونه رجل من أهله قتالا شديدا ، فقال له قتيبة : انجُ بنفسِك ، فإنّ مثلك يُضَنّ به عن القتل ، قال: بئسما جَزَيتُك به أيها الأمير إذاً ، وقد أطعمتَنِى الجَرْدَق ، وألبستَنِى النَّمرق[1] . وتقدّم الناس حتى بلغوا فُسطاط قتيبة ، فأشار عليه نُصحاؤه بالهرب ، فقال : إذاً لست لمسلم بن عمرو ! ثم خرَج إليهم بسيفِه يجالدهم ، فجرح جراحات كثيرة ، حتى ارتُثَّ[2] وسقط ، فأكبّوا عليه ، فاحتزُّوا رأسه ، وقُتِل معه من اخوته عبد الرحمن ، وعبد الله وصالح ، والحصين ، وعبد الكريم ، ومسلم ؛ وقُتِل معه جماعة من أهلِه وعدّة مَنْ قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلا . وصعد وكيع بن أبى سود المنبر وأنشد :

* مَنْ يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نَيّا كا *[3]

---

(١) الجردق : الرغيف ، معرب فارسيته : « كرده » . والنمرق : الميثرة .
(٢) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من المعركة جريحا وبه رمق .
(٣) مثل ؛ قاله خضر بن شبل الخثعمى ، فى خبر ذكره صاحب مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٥

إنّ قتيبة أراد قتلى ، وأنا قتّال الأقران ، ثم أنشد :

قَدْ جَرّبُونِى ثُمَّ جَرّبُونِى   مِنْ غَلْوَتَيْنِ وَمِنَ الْمِئِينِ
حَتَّى إذا شبْتُ وَشَيّبُونِى   خَلُّوا عِنانى ثم سَيّبُونِى[1]
حَذارِ منى وتنكّبونِى   فإنّنى رامٍ لِمَنْ يَرْمِينى

ثم قال : أنا أبو مطرّف ، يكررها مرارا ، ثم قال :

أنا ابنُ خندِف تنمِيني قبائلُها   للصالِحَات وَعَمّى قَيْسُ عَيْلَانَا

ثم أخذ بلحيته، وقال : إنّى لأقتلنّ ثم لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ ؛ إن مَرْزُبَانَكُمْ[2] هذا ابن الزانية ، قد أغلَى أسعاركم ؛ والله لَئِنْ لم يَصِرْ القفيز[3] بأربعة دراهم لأصلبنّه ، صَلّوا على نبيكم .

ثم نزل وطلبَ رأس قتيبة وخاتَمه، فقيل له : إنّ الأزد أخذته ؛ فخرج مُشْهِراً[4] ، وقال : والله الذى لا إله إلّا هو لا أبرحُ حتى أوتى بالرأس ، أو يذهب رأسى معه ، فقال له الحصَين بن المنذر : يا أبا مطرّف فإنك تؤتَى به . ثم ذهب إلى الأزْد ، فأخذ الرأس وأتاه به ، فسيّره إلى سُليمان بن عبد الملك، فأدخِل عليه ومعه رءوس إخوته وأهله ، وعنده الهُذَيل ابن زُفَر بن الحارث الكلابىّ ، فقال : أساءك هذا يا هذيل؟ قال: لو ساءنى لساء ناسا كثيرا. فقال سليمان : ما أردت هذا كلّه ، وإنما قال سليمان ذلك للهُذيل ، لأنّ قيس عَيْلان تجمع كِلَاباً وباهلة ، قالوا : ما وَلِيَ خُراسان أحدٌ كقُتيبة بن مسلم ؛ ولو كانت باهلة فى الدناءة والضّعة واللؤم إلى أقصى غاية ، لكان لها بقتيبة الفَخر على قبائل العرب .

---

(١) أصله فى الدابة ، يقال : سيب الدابة ، إذا تركها تذهب حيث شاءت ، وفى تاريخ الطبرى :

حتّى إذا شبت وشَيّبُونى   خَلُّوا عِنانى وتَنكّبُونى

وانظر أمالى القالى ١ : ٢٨٦

(٢) المرزبة : رياسة الفرس ، وهو مرزبانهم .

(٣) الطبري : « والله ليصيرن القفيز فى السوق غدا بأربعة » .

(٤) أى مشهرا سيفه .

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة : يامعشرَ العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان منّا ثم مات لجعلناه فى تابوت ، فكنّا نستفتح به إذا غزَوْنا .

وقال الأصبهبذ[1] : يامعشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد بن المهلّب ، لقد جئتم شيئا إدًّا ! فقيل له : أيهما كان أعظمَ عندكم وأهيبَ ؟ قال : لو كان قُتيبة بأقصى حُجْرةٍ[2] فى المغرب ، مكبّلا بالحديد والقيود ، ويزيد معنا فى بلدنا والٍ علينا ، لكان قتيبة أهيَبَ فى صدورنا وأعظم .

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلىّ يرثى قُتيبة :

كأنّ أبا حفص قُتيبة لم يَسِرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولَمْ يَعلُ مِنبَرا
ولم تخفِقِ الرّاياتُ والجيشُ حَوْلَهُ ... صُفوفا ولم يشهد له الناسُ عَسْكَرا
دَعَتْهُ المنايا فاستجابَ لربّه ... ورَاحَ إلى الجنّات عفًّا مُطَهَّرا
فما رُزِئَ الإسلامُ بَعدَ محمّدٍ ... بمثلِ أبى حَفْصٍ ، فَبكّيهِ عَبْهَرَا

عَبْهر : أمّ ولد له .

***

وفى الحديث الصحيح : « إنّ من خَيْرِ النّاسِ رَجُلًا ممسكا بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلّما سمع هَيْعَة[3] طار إليها » .

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أنّ عليك عُيونًا من الله ترعاك وتراك ، فإذا لقيت العدوّ ؛ فاحرِص على الموت تُوهَبْ لك الحياة ، ولا تغسّل الشهداء من دمائهم ؛ فإنّ دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

---

(١) الأصبهبذ فى الديلم : كالأمير فى العرب .
(٢) الحجرة : الناحية .
(٣) الهيعة : الصوت أو الصياح .

عمر : لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم ؛ يريد : ما نزعتم في[1] القوس ، ونزوتم على الخيل .

بعض الخوارج :

وَمَنْ يَخْشَ أظفارَ المَنايا فإننا لَبِسْنا لهنّ السابغاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وإنّ كريهَ الموت عذبٌ مذاقُهُ إذا ما مزجناه بطيبٍ مِنَ الذِّكْرِ

حضّ منصور بن عمّار في قصصه على الغزْو والجهاد ، فطرِحتْ في المجلس صُرّة فيها شيء ، ففُتِحتْ فإذا فيها ضفيرتا امرأة ، وقد كتبت : رأيتك يابن عمّار تحضّ على الجهاد ، ووالله إني لا أملك لنفسي مالا ، ولا أملك سوى ضفيرتيّ هاتين ، وقد ألقيتُهما إليك ، فتالله إلا جعلتَهما قيْدَ فرسِ غازٍ في سبيل الله ، فلعل الله أنْ يرحمني بذلك .

فارتجّ المجلس بالبكاء والضجيج .

* * *

لبعض شعراء العجم :

وَاسَوءتا لامْرِيءٍ شَبيبَتُهُ في عُنفُوَانٍ وَماؤهُ خَضِلُ !
رَاضٍ بِنَزْرِ المعاشِ مُضْطَهَدٍ عَلَى تراثِ الآباءِ يَتّكِلُ
لاَ حَفظَ اللهُ ذاكَ مِنْ رَجُلٍ وَلاَ رَعاهُ ما أطّتِ الإبِلُ
كلاّ وَرَبّي حَتّى تكون فتًى قد نهكتهُ الأسفارُ والرِّحَلُ
مُشَمِّراً يطلبُ الرِّياسةَ أوْ يُضرَبُ يوماً بِهُلْكِهِ المثَلُ
حَتّى مَتى تتبعُ الرِّجالَ وَلاَ تُتبَعُ يوماً ، لأمِّكَ الهَبَلُ !

* * *

---

(١) يقال : نزع في القوس نزعاً ، إذا جذب الوتر بالسهم .

عبد الله بن ثعلبة الأزدي :

فلئن عمرت لأشفين النفس من تلك المساعي
ولأعلمن البطن أن الزاد ليس بمستطاع
أما النهار فقد أرى قومي برقبة يفاع[1]
في قرة هلك وشو ك مثل أنياب الأفاعي[2]
ترد السباع معي فتحسبني السباع من السباع

* * *

مجير الجراد أبو حنبل حارثة بن مر الطائي ، أجار جراداً نزل به ومنع من صيده، حتى طار من أرضه ، فسمي مجير الجراد .

وقال هلال بن معاوية الطائي :

وبالجبلين لنا معقل صعدنا إليه بصم الصعاد
ملكناه في أوليات الزما ن من قبل نوح ومن قبل عاد
ومنا ابن مر أبو حنبل أجار من الناس رجل الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد

* * *

وقال يحيى بن منصور الحنفي :

ولما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فحالفنا السيوف على الدهر[3]
فما أسلمتنا عند يوم كريهة ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

---

(١) اليفاع : التل .
(٢) ما يصيب الإنسان من البرد .
(٣) ديوان الحماسة ٣٢٦ ـ بشرح المرزوقي .

وقال آخر :

أرِقتُ لأرحامٍ أراها قريبةً لحارِ بن كعبٍ لا لجرمٍ وَرَاسِبِ [1]
وإنا نَرَى أقدامَنـا فى نعـالِهمْ وآنُفَنا بين اللِّحَى والحواجبِ
وإقدامَنا يومَ الوَغَى وإباءنا إذا ما أبَيْنا لا نُدِرّ لعاصِبِ

***

حاصرت التُّرك مدينة بَرْذَعة من أعمال أَذْرَبيجان فى أيام هشام بن عبد الملك حصارا شديدا ، واستضعفتها وكادت تملكها ، وتوجّه إليها لمعاونتها سعيد الحَرَشيّ من قِبَل هشام بن عبد الملك فى جُيوش كثيفة ، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا ، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بَرْذعة سِرًّا يعرّفهم وصوله ، ويأمرهم بالصبر خوفا ألّا يدركهم ، فسار الرجلُ ، ولقيَه قومٌ من الترك ، فأخذُوه وسألوه عن حاله ، فكتَمهم فعذّبوه ، فأخبرهم وصدقهم فقالوا : إن فعَلْتَ ما نأمُرك به أطلقناك ، وإلا قتلناك ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : أنت عارف بأصحابك ببرذعة وهم يعرفونك ، فإذا وصلتَ تحت السُّور فنادِهم : إنه ليس خَلْفى مَدَد ، ولا من يكشف ما بِكم ، وإنما بُعثت جاسوسا . فأجابهم إلى ذلك ، فلما صار تحت سورها ، وقف حيث يسمع أهلُها كلامه ، وقال لهم : أتعرفونني؟ قالوا : نعم ، أنت فلان ابن فلان ، قال : فإنّ سعيداً الحَرَشيّ قد وصل إلى مكان كذا فى مائة ألف سيف ؛ وهو يأمرُكم بالصبر وحفظ البلد ، وهو مصبحكم أو ممسيكم ، فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير ، وقتلت الترك ذلك الرجل ، ورحلوا عنهـا ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين .

وقال الراجز :

مَنْ كان ينوِى أهلَه فلا رَجَعْ فَرّ من الموت وفى الموتِ وَقَعْ

---

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٢٨ بشرح المرزوقى ، ونسبها إلى بعض بنى عبس .

أشرف معاوية يوما فرأى عسكر عليّ عليه السلام بِصفّين فهاله ، فقال : مَنْ طلب عظيما خاطر بعظيمته .

وقال الكلحبَة :

إذَا المرْء لم يَغْشَ المكارة أوشكت ... حِبالُ الهوينَى بالفتى أنْ تَقطَّما[1]

***

ومن شعر الحماسة :

أقولُ لها وَقدْ طارَتْ شعَاعاً ... مِنَ الأبطالِ وَيحَكِ لا تُرَاعِي[2]

فإنَّكِ لوْ سَألتِ بَقاء يوْمٍ ... عَلَى الأجلِ الّذى لكِ لم تُطَاعِي

فصبراً فى مجالِ الموتِ صَبْراً ... فمَا نَيْلُ الخلودِ بِمُسْتَطاعِ

وَلا ثَوْبُ البقاء بِثوْبِ عِزٍّ ... فيطوى عَنْ أخى الخنَعِ اليراعِ[3]

سَبيلُ الموتِ غايَةُ كلِّ حيٍّ ... فداعيه لأهلِ الأرض داعِ

وَمَنْ لا يُعتَبَطْ يَسْأم وَيهرَمْ ... وتُسْلِمْهُ المنون إلى انقطاعِ

وما للمرء خَيرٌ فى حياةٍ ... إذا ماعُدَّ مِنْ سَقَطِ المتاعِ

ومنه أيضا :

وفى الشرِّ نجاةٌ حين لاَ يُنْجيك إحْسَانُ

ومنه أيضا :

وَلم نَدْر إنْ جِضْنا عَنِ الموت جَيْضَةً ... كَمِ العمرُ باقٍ والمدى مُتطاوِلُ[5]

---

(١) المفضليات ٣٢

(٢) لقطرى بن الفجاءة . ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٩٦

(٣) أخو الخنع : الذليل . واليراع : الرجل الجبان ؛ كأنه لا قلب له ؛ تشبيها له بالقصبة الجوفاء .

(٤) الفند الزمانى ، ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٢٦

(٥) لجعفر بن علبة الحارثى ، ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٤٨ . جضنا : عدلنا وانحرفنا .

ومنه أيضا :

وَلَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلا ابنُ حُرَّةٍ   يَرَى غَمَراتِ الموتِ ثُمَّ يَزُورُها[١]

ومنه أيضا :

فَلَا تَحْسَبِي أنِّى تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ   لِشَيْءٍ وَلَا أنِّى مِنَ المَوْتِ أَفْرَقُ[٢]
وَلَا أنَّ نَفْسِى يَزْدَهِيها وَعِيدُكُمْ[٣]   وَلَا أنَّنِى بالمَشْى فى القَيْدِ أَخْرَقُ

ومنه أيضا :

سَأَغْسِلُ عَنِّى العارَ بالسَّيْفِ جالِبًا   عَلَىَّ قضاءَ اللهِ مَا كَانَ جالِبا[٤]
وأَذْهَلُ عن دارِى وأَجْعَلُ هَدْمَها   لِعِرْضِىَ مِنْ باقِى المَذَمَّةِ حاجِبا
وَيَصْغُرُ فى عينى تِلادِى إذا انْثَنَتْ   يَمِينِى بإدراكِ الّذى كنتُ طالِبا
فإنْ تَهْدِمُوا بالغَدْرِ دارِى فإنّها   تُراثُ كَريمٍ لَا يُبالِى العَواقِبا
أَخِى عَزَماتٍ لا يُطِيعُ عَلَى الّذى   يَهُمُّ بِهِ مِنْ مُقْطِعِ الأمرِ عاتِبا
إذا هَمَّ أَلْقَى بين عينيهِ عَزْمَهُ   ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانِبا
فَيا لَرِزامٍ رَشِّحُوا بِى مُقَدَّمًا   إلى الموتِ خَوَّاضًا إليه الكَتائِبا
إذا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ   ولَمْ يأتِ ما يأتِى مِنَ الأمْرِ هائِبا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فى أمرِه غيرَ نفسِهِ   وَلَمْ يَرْضَ إلا قائِمَ السيفِ صاحِبا

ومنه أيضاً :

هُما خُطَّتا إمّا إسارٌ وَمِنَّةٌ   وإمّا دَمٌ ، والقتلُ بالحُرِّ أجدرُ[٥]

---

(١) لجعفر بن علبة أيضا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٥٠

(٢) له أيضا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٥٤ . (٣) وفى الشرح: ويروى «وعيدهم» .

(٤) لسعد بن ناشب ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٧٠

(٥) لتأبط شرا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٧٨

ومنه أيضا :

وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسَلولُ(١)
يقصِّر حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهه آجالُهم فتطولُ
وما مات منّا سيدٌ حتفَ أنفِه ... ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ
تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ... وليستْ على غيرِ السُّيوفِ تسيلُ

ومنه أيضا :

لا يرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ ... يومَ الوغى متخوِّفاً لحِمامِ(٢)
فلقدْ أراني للرِّماحِ دريئةً ... مِنْ عَنْ يميني تارةً وأمامي
حتى خضبْتُ بما تحدَّرَ مِنْ دمِي ... أكنافَ سَرْجِي أو عِنانَ لجامِي
ثم انصرفتُ وقدْ أصبتُ ولمْ أُصَبْ ... جَذَعَ البصيرةِ قارِحَ الإقدامِ

ومنه أيضا :

وإنّي لدَى الحربِ الضَّروسِ موكَّلٌ ... بإقدامِ نفْسِي لا أريدُ بقاءَها(٣)
متى يأتِ هذا الموتُ لا تُلْفَ حاجةٌ ... لنفسِيَ إلا قد قضَيْتُ قضاءَها

* * *

كتب عبدُ الحميد بن يحيى عن مَرْوان بن محمد إلى أبي مسلم كتاباً ، حُمِل على جَمَلٍ لِعظَمه وكثرته . وقيل : إنّه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية ، وقد حُمِل على جمل تعظيما لأمره ، وقال لمروان بن محمد : إنْ قرأه خاليا نَخِبَ(٤) قلبه ، وإن قرأه في ملإٍ من

(١) للسموءل ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١١١
(٢) لقطري بن الفجاءة ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١٣٠
(٣) لقيس بن الخطيم ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١٨١
(٤) نخب : جبن .

أصحابه تثبطهم وتخذلهم ، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه ، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان :

مَحَا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحتْ   إليك ليوثُ الغاب من كلِّ جانب[1]
فإن تقدموا نُعمِلْ سيوفاً شحيذةً   يهون عليها العَتْبُ من كلِّ عاتب[2]

ويقال : إنّ أول الكتاب كان : لو أراد الله بالنملة صلاحا ، لما أنبتَ لها جناحا .

وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيّار ، وهو أول كتاب صَدَر عن أبي مُسلم إلى نَصْر ، وذلك حين لبس السواد ، وأعلن بالدّعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة:

أما بعد فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواماً فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِن إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إلا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا ﴾[3]

فلما ورد الكتابُ إلى نصر تعاظمه أمرُه ، وكسر له إحدى عينيه ، وقال : إنّ لهذا الكتاب لأخوات ، وكتب إلى مَرْوان يستصرخه ، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده ، فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس .

* * *

الرّضيُّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

سأمضي لِلَّتي لا عيبَ فيها   وإنْ لم أستفِدْ إلا عناء[4]

---

(١) انتحت : قصدت .
(٢) شحيذة : مسنونة .
(٣) سورة فاطر ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) ديوانه لوحة ٧٥ — ٧٦

وأطْلُبُ غايةً إنْ طوّحَتْ بِي ... أصابَتْ بِي الحِمَامَ أو العَلَاء
نَمَانِي مِنْ أباةِ الضيمِ آبٍ[1] ... أفاضَ علىّ تلك الكِبْرِيَاء
وَمِنَّا كُلّ أغلبَ مُستميتٍ ... إذا أنتَ لَدَدْتَه بالذّلّ قاء[2]
إذَا ماضِيمَ نَمّرَ صَفْحَتَيْه ... وَقَامَ عَلَى بَرَائِنِهِ إباء[3]
ونأبَى أنْ يُنَال النّصْف مِنّا ... وأنْ نُعطى مقارِعَنا السّوَاء
ولَوْ كان العِداء يسوغُ فينا ... لَمَا شُمْنا الورى إلّا العَدَاء

وله :

سَيُعطِيكَ المُهنّد ماتَمنّى ... ويُعطيك المثقفُ ماتشاء[4]
وما ينجي من الغَمَرات إلا ... طِعَانٌ أو ضِرابٌ أو رِماء

* * *

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنيّة واختاروا عليها المنيّة ، عبدُ الله بن الزبير ، تَفرّق عنه — لما حاربه الحجّاج بمكّة ، وحصره في الحَرَم — عامّة أصحابه ، وخرج كثيرٌ منهم إلى الحجّاج في الأمان ؛ حتى حَمْزَة وخُبَيْبٌ ابناه ، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وكانت قد كُفَّ بصرُها ، وهي عجوز كبيرة ، فقال لها : خَذَلني النّاس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلّا من ليس عنده من الدّفْع أكثرُ من ساعة ، والقوم يُعطونني من الدّنيا ماسألتُ ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت يابنيّ أعلمُ بنفسك ، إنْ كنت تعلم أنك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له ، فقد قُتِل أكثرُ أصحابك ، فلا تمكّن من رَقَبتك يتلاعب بها غِلمانُ بني أميّة ، وإن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنت ! أهلكتَ

---

(١) الديوان : « تام » .

(٢) الأغلب : الشجاع ، وأصله في الأسد .

(٣) الصفحتان : جانبا العنق ، ونمرهما : جعلهما يشبهان صفحة النمر .

(٤) ديوانه لوحة ١٧٦

نفسك ، وأهلكت مَنْ قُتِل معك ، وإن كنت قاتلتَ على الحقّ ، فما وهنَ أصحابُك إلا ضعفت ، فليس هذا فعلَ الأحرار ولا أهلِ الدين . وكم خلودك فى الدّنيا ! القتلُ أحسن .

فدنا عبد الله منها فقبّل رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والله ماركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عزّ وجلّ أنْ تُستَحلّ محارمُه ، ولكننى أحببتُ أنْ أعلم رأيك ، فقد زِدْتِنى بصيرة ، فانظرى ياأماه ، إنى مقتول يومى هذا ، فلا يشتدُّ جزَعُك ، وسلِّمى لأمر الله ، فإنّ ابنَك لم يتعمّدْ إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حكم الله ، ولم يظلِمْ مسلماً ولا معاهَدا ، ولا بلغنى ظلمٌ عن عامل من عُمّالى فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شىء عندى آثرَ من رضا الله . اللهمّ إنى لاأقول هذا تزكيةً لنفسى ، أنت أعلم بى ؛ ولكنّى أقوله تعزيةً لأمى لتسلوَ عنّى . فقالت : إنّى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حَسَناً إن تقدمتنى ؛ فاخرج لأنظُرَ إلى ماذا يصير أمرك ! فقال : جزَاكِ الله خيرا ياأمى ! فلا تَدَعى الدّعاء لى حيًّا وميتا . قالت : لاأدَعُه أبدا ، فمن قُتِل على باطلٍ فقد قتلت على حق ، ثم قالت : اللهم ارحمْ طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيبَ فى الظلماء ، وذلك الصوم فى هواجِر مكةَ والمدينة ، وبرّه بأبيه وبى ؛ اللهمّ إنى قد أسلمتُ لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت فيه ، فأَثِبْنى عليه ثوابَ الصابرين .

وقد رُوِىَ فى قصّة عبد الله مع أمّه أسماء رواية أخرى ، أنّه لما دخل عليها وعليه الدِّرْع والمِغْفر — وهى عمياء لاتبصر — وقف فسلّم ، ثم دنا فتناول يدَها فقبّلها ، قالت : هذا ودَاع فلا تَبْعُد ، فقال : نعم ، إنما جئتُ مودِّعا ، إنّى لأرى هذا اليوم آخرَ أيامى من الدنيا ، واعلمى ياأمّى أنى إذا قتلتُ فإنما أنا لحم لايضرُّنى ماصنع بى ، فقالت : صدقت يابنىّ ! أَتِمّ على بصيرتك ، ولا تمكّن ابن أبى عقيل مِنك ، ادنُ منى لأودّعك ، فدنا منها فقبّلته

وعانقته ، فوجدت مسّ الدِّرْع ، فقالت : ماهذا صنع من يريد ماتريد . فقال: إنما لبسته لأشدَّ منك ، قالت : إنه لايشدُّ منى ، ثم انصرف عنها ، وهو يقول :

إنى إذا أعرفُ يوْمِى أصبرُ ... إذْ بعضهم يعرف ثم ينكِرُ

وأقام أهلُ الشام على كل باب من أبواب الحرَم[1] رجالا وقائدا ، فكان لأهل حِمْص الباب الذى يواجه باب الكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بنى شَيْبة ، ولأهل الأردنّ باب الصَّفا ، ولأهل فلسطين باب جُمَح ، ولأهل قِنَّسْرِين باب بنى سَهْم . وخرج ابنُ الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحمل هاهنا ، وكأنه أسد لايُقْدم عليه الرجال ،وأرسلتْ إليه زوجته: أأخرج فأقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

كُتِبَ القَتل والقِتالُ عَلَيْنا ... وعَلَى المُحْصَناتِ جَرُّ الذُّيولِ[2]

فلما كان الليل ، قام يصلّى إلى قريب السَّحَر ثم أغفى محتبيا بحمائل سيفه ، ثم قام فتوضأ وصلّى، وقرأ ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ،ثم قال بعد انقضاء صلاته: مَنْ كان عنّى سائلا فإنى فى الرَّعِيل الأول ، ثم أنشد :

وَلَسْتُ بمبتاعِ الحياةِ بِسُبَّةٍ ... ولا مرتقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[3]

ثم حَمَل حتى بلغ الحَجون ، فرُمِىَ بآجرّة ،فأصابت وجهه فَدَمِى، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ، أنشد :

وَلَسْنا عَلَى الأعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا ... وَلَكِنْ عَلَى أقْدامِنا تَقْطُر الدِّمَا[3]

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم ، واعتوروه بأسيافهم حتى سقط ، وجاء الحجاج

---

(١) كذا فى ج ، وهو الصواب ، وفى ب : « مكة » .
(٢) ينسب إلى عمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٨ .
(٣) للحصين بن الحمام المرى ، من مفضليته ص ٦٤ — ٦٩

فوقف عليه وهو ميت ، ومعه طارق بن عمرو ، فقال : ما ولدت النساء أذكر من هذا ! وبعث برأسه إلى المدينة ، فنُصب بها ، ثم حمل إلى عبد الملك .

* * *

أبو الطيب المتنبي :

أُطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصَّبْرُ !(١)

وأشجعُ مِنِّي كلَّ يوم سَلَامَتِي ... وَمَا ثَبَتَتْ إلا وفي نفسها أمرُ

تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ حَتَّى تركتُها ... تقولُ: أماتَ الموتُ ؟ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟

وَأَقْدَمْتُ إقدَامَ الأتِيِّ كأنَّ لي ... سِوَى مُهْجَتي أو كان لِي عِنْدَهَا وِتْرُ(٢)

ذَرِ النَّفسَ تأخذْ حَظَّها قَبلَ بَيْنِها ... فمفترِقٌ جاران دارهُما العمرُ !

ولا تحسبنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً ... فما المجدُ إلا السَّيفُ والفتكةُ البِكْرُ(٣)

وَتَضْرِيبُ هَامَاتِ الملوكِ وأنْ تُرَى ... لكَ الهبواتُ السُّودُ والعسكرُ المَجْرُ(٤)

وتَرْكُكَ في الدُّنيا دَوِيًّا كأنَّمَا ... تَدَاوَلَ سَمْعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ

* * *

وقال ابن حيوس :

ولستُ كمن أخفى عليه زمانه ... فظلَّ على أحداثه يتعتَّبُ(٥)

تلذُّ له الشكوى وإن لم يُفِدْ بها ... صَلاحاً كما يلتذُّ بالحكِّ أجربُ

ولكنني أحمي ذماري بعزمةٍ ... تنوبُ منابَ السَّيفِ والسَّيفُ مقضَبُ(٦)

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٨

(٢) في الديوان : « إقدام الأتي » ، والأتي : السيل الذي لا يرده شيء .

(٣) القينة : المغنية . والزق : ظرف الخمر . والفتكة البكر : التي لم يسبق إلى مثلها .

(٤) الهبوات : جمع هبوة ؛ وهي الغبرة العظيمة . والمجر : الجيش العظيم .

(٥) ديوانه ١ : ٣٥ .

(٦) المقضب : السيف القطاع .

وليس الفتى مَنْ لم تسم جسمَهُ الظُّبا ... ويُحطَمُ فيهِ مِنْ قنا الخطِّ أكْعُبُ[1]

وله أيضا :

أخفق المترَف الجنوحُ إلى الخفْـ ... ـضِ وفاز المخاطرُ المِقْدَامُ[2]

وإذا ما السُّيوف لم تشهد الحر ... بَ فسيّانِ صارمٌ وكَهَامُ

***

ومن تقبّل مذاهبَ الأسلاف فى إباء الضيم وكراهية الذلّ ، واختار القتلَ على ذلك وأن يموتَ كريما ؛ أبو الحسين زيد بن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، أمه أم ولد ، وكان السببُ فى خروجه وخلعه طاعةَ بنى مروان ، أنه كان يخاصِم عبدَ الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى صدقاتِ علىّ عليه السلام ، هذا يخاصِم عن بنى حسين ، وهذا عن بنى حسن ؛ فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم أمير المدينة ، فأغلظ كلٌّ واحد منهما لصاحبه ، فسُرَّ خالد بن عبد الملك بذلك ، وأعجبه سِبابهما ، وقال لهما حين سكتا : أغدُوَا علىّ ، فلستُ بابن عبد الملك إنْ لم أفصِلْ بينكما غدا ، فباتت المدينة تَغْلِى كالمِرْجل ، فمن قائل يقول : قال زيد كذا ، وقائل يقول : قال عبد الله كذا ، فلما كان الغد جلس خالد فى المسجد ، وجَمَع الناس ؛ فمن بين شامتٍ ، ومغموم ، ودعا بهما وهو يحبّ أن يتشاتما ، فذهب عبدُ الله يتكلّم ، فقال زيد : لا تعجل يا أبا محمد ، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا ، ثم أقبل على خالد ، فقال له : أجمعْتَ ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر ، فقال خالد : أما لهذا السفيه أحدٌ يكلّمه !

فتكلّم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم ، فقال : يابن أبى تراب ، ويابن

---

(١) الديوان : « تسم جسمه » .

(٢) ديوانه ٢ : ٥٦٦

حسين السفيه ! أما ترَى عليك لوالٍ حقا ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطانىّ، فإنّا لانجيب مثلَكَ ، فقال الأنصارىّ : ولِمَ ترغبُ عنى ! فوالله إنّى لخيرٌ منك ، وأبى خير من أبيك ، وأمّى خير من أمك ! فتضاحك زيد ، وقال : يامعشرقريش ؛ هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ! فتكلّم عبدالله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبتَ أيها القحطانىّ ، والله لَهُوَ خيرٌ منك نفسا وأباوأما ومَحْتِداً ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفاً من الحصا ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالَنَا على هذا من صبر ، وقام .

فقام زيد أيضا ، وشخص من فوره إلى هشام بن عبدالملك ، فجعل هِشامٌ لا يأذن له وزيدبرفع إليه القِصص، وكلّمارفع إليه قصة كتب هشام فى أسفلِها : ارجِعْ إلى أرضِك، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبدا . ثم أذن له بعد حَبْسٍ طويل وهشام فى عِلّية له ، فرقىَ زيد إليها ، وقدأمر هشام خادما له أن يتبعه حيث لايراه زيد ،ويسمع ما يقول . فصعد زيد ـ وكان بادنا ـ فوقف فى بعض الدرجة ، فسمعَه الخادم ، وهو يقول : ماأحبّ الحياة إلا مَن ذلّ ! فأخبر الخادم هشاما بذلك ، فلما قعد زيد بين يدى هشام وحدّثه حلَف له على شىء ، فقال هشام :لاأصدّقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه . قال له هشام : إنّه بلغنى أنّك تذكر الخلافة وتتمنّاها ، ولستَ هناك ! لأنّك ابنُ أمة ، فقال زيد : إنّ لك جوابا ، قال : تكلّم ، قال : إنه ليس أحد أوْلَى بالله ، ولا أرفعَ درجة عنده من نبىّ ابتعثه ؛ وهوإسماعيل بن إبراهيم، وهو بن أمة ، قد اختاره الله لنبوّته ، وأخرج منه خير البَشَرِ ، فقال هشام : فما يصنعُ أخوكالبقرة ! فغضب زيد ، حتى كاديخرج من إهابِه، ثم قال : سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة ! لشدّما اختلفتما ! لتخالفنّه فى الآخرة ، كما خالفته فى الدنيا ، فيرد الجنة ، وترد النار .

فقال هشام : خُذُوا بيد هذا الأحق المائق ، فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احملوا هـذا الخائن الأهوج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتني إليه لأجتمع أنا وأنت حَيَّين ، وليموتنّ الأعجل مِنّا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسيّرونه حتى طردُوه عن حدود الشام ، فلما فارقوه عَدَل إلى العراق ، ودخل الكوفة ، وبايعَ لنفسه ، فأعطاه البيعة أكثر أهلها ، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفيّ ، فكان بينهما من الحرب ماهو مذكور في كتب التواريخ . وخذل أهلُ الكوفة زيدا ، وتخلّف معه ممّن تابعه نفر يسير ، وأبلى بنفسه بلاء حسناً وجهادا عظيما ، حتى أتاه سَهْم غربٍ[1] ، فأصاب جانب جَبْهته اليُسرى ، فثبت في دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام .

* * *

عنّف محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام زيداً لما خرج ، وحذّره القتل ، وقال له : إنّ أهل العراق خَذَلوا أباك علياً وحسنا وحسينا عليهم السلام ؟ وإنك مقتول، وإنهم خاذلوك ، فلم يَثْنِ ذلك عَزْمه وتمثّل :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتُوف كأنني ... أصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوف بمعزِلِ[2]
فَأجبتُها إنّ المنيّـة مَنْهَلٌ ... لابُـدَّ أنْ أُسْقَى بِذَاكَ المَنْهَلِ
إن المنيّـــة لو تمثّل مُثِّلَتْ ... مِثْلِي ، إذا نزلوا بضَيْقِ المَنزِلِ[3]
فاقْنَيْ حَيَـاءَكِ لاأبالكِ واعلمي ... أنى امرؤ سأموت إن لم أقتلِ[4]

* * *

(١) سهم غرب ، على الإضافة : لا يدرى راميه .
(٢) لعنترة ، ديوانه ٤٢ ، (من مجموعة العقد الثمين) .
(٣) في الديوان : « ضنك المنزل » .
(٤) اقنى حياءك : الزميه .

العلوىّ البصرىّ صاحب الزّنج يقول :

وإذا تُنَازِعُنِي أقولُ لهـا قَرِى　　مَوْتٌ الملوكِ عَلَى صُمُود المنبَرِ
ماقَدْ قَضَى سَيَكُونُ فاصطبِرِى له　　ولكِ الأمان مِنَ الّذِى لَمْ يُقْدَرِ

وقال أيضا :

إنِّى وقومىَ فى أنسَابِ قَوْمِهِمُ　　كمسجدِ الخيف فى بُحْبُوحة الخيفِ
ماعُلِّق السيفُ مِنّـا بابن عاشرةٍ　　إلا وعزمتُه أمضَى من السّيفِ

بعض الطالبيين :

وإنّا　لتُصْبِحُ　أسيـافُنَا　　إذامَاانتَضَين لِيَوْمِ سَفُوكِ
مَنَابِرُهُنّ　بطونُ　الأكُفّ　　وأغمـادُهُنّ رءوس الملوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه :

وَهُمُ الأسودُ لَدَى العَرِينِ بَسَالَةً　　وَمِنَ الخُشُوعِ كَأنَّهُمْ أحْبَارُ
يَمضُونَ قد كَسَرُوا الجُفُونَ إلى الدعا　　مُتَبَسِّمِينَ وفيهمُ اسْتِبْشَارُ
فـكأنما أعداؤهُمْ أحبـابُهُمْ　　فَرَحاً إذا خَطَرَ القَنَـا الخطَّارُ
يَرِدُون حَوْمَاتِ الحِمَامِ وإنّهـا　　تاللهِ عِنْـدَ نُفُوسِهِمْ لَصِغَـارُ
وَلَقَدْ مَضَوْا وأنا الحبيبُ إليهمُ　　وهُمُ لدىّ أحبّـــــةٌ أبْرَارُ
قَدَرٌ يخلِّفُنِي ويُمْضِيهِمْ به　　يالهفَ كيف يفوتنى المقدار !

وفى الحديث المرفوع « خُلُقان يحبّهما الله : الشجاعة والسخاء » .

***

كان بِشْر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علىّ عليه السلام

ويقول : كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القولُ بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة ، وفى كثير من البصريين .

دخل النضر بن راشد العبدىّ على امرأته فى حرب الترك بخراسان فى ولاية الجنيد ابن عبد الرحمن المرّىّ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف تكونين إذا أُتيتِ بى فى لِبْدٍ قتيلا مُضَرَّجا بالدماء ؟ فشقّت جيبها ، ودعَتْ بالويل ، فقال : حسبك ! لو أعولتْ علىّ كلّ أنثى لعصيتُها شوقا إلى الجنة . ثم خرج فقاتل حتى قُتل ، وحمل إلى امرأته فى لِبْد ودمه يقطر من خلاله .

***

قال أبو الطيب المتنبىّ :

إذَا غَامَرْتَ فى شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ[1]
فطعمُ الموتِ فى أمرٍ حقيرٍ كَطَعْمِ الموتِ فى أمْرٍ عَظِيمِ
يَرَى الجُبَنَاءُ أنّ الجُبْنَ حَزْمٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئيمِ
وكلّ شجاعةٍ فى المرء تُغْنِى ولا مثلَ الشّجَاعةِ فى الحكيمِ

وقال :

إذا لم تجِدْ ما يَبتُرُ الفَقْرَ قاعداً فقمْ واطلبِ الشىءَ الذى يَبْتُرُ العُمْرا[2]

وقال :

أَهُمُّ بشىءٍ والليالى كأنّها تُطَارِدُنى عن كَوْنِه وَأُطارِدُ[3]
وَحِيداً من الخلّانِ فى كلّ بَلْدَةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

***

---

(١) ديوانه ٤ : ١١٩

(٢) ديوانه ٢ : ١١٤

(٣) ديوانه ١ : ٢٧٠

قيل لأبي مسلم في أيام صباه : نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع ، أو تنتظر نزولَ الوحي ؟ قال : لا ، ولكن لي همة عالية ، ونفس تتطلّع إلى معالي الأمور ، مع عيش كعيش الهمَج والرَّعاع ، وحال متناهية في الاتّضاع . قيل : فما الذي يَشفي علّتك ، وَيُرْوِي غُلتك ؟ قال : المُلك ، قيل : فاطلب الملك ، قال : إن المُلك لا يطلب هكذا . قيل : فما تصنع وأنت تذوب حَسَراً[1] ، وتموت كمدا ؟ قال : سأجعل بعض عقلي جَهْلاً ، وأطلب به مالا يطلب إلا بالجهل ، وأحرس بالباقي مالا يحرس إلا بالعقل ، فأعيش بين تدبيرِ ضِدَّيْن ، فإن الخمول أخو العُدْمِ ، والشهرة أخت الكون .

***

قال ابن حيُّوس :

أمواتُهمْ بالذِّكرِ كالأحياء ... وحيُّهمْ فَضْلٌ عَلَى الأحْيَاءِ[2]
نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ المروءةِ وامتطوا ... بالبأسِ ظَهرَ العِزّةِ القَعْسَاءِ
والعزّ لا يَبْقَى لغير معوَّدٍ ... أن يكشف الغماء بالغماء
لا تحْسَبِ الضّراء ضَرّاء إذا ... أفضَتْ بصاحبها إلى السَّرَّاءِ

وقال :

وهي الرياسةُ لا تبوحُ بسرِّها ... إلا لأرْوَعَ لا يُباحُ ذِمارُهُ[3]
يَحْمي حِمَاهُ قَلْبُهُ ولسانُهُ ... وتذودُ عنــه يمينُه ويسارُهُ
لا العذلُ ناهِيه ، ولا الحِرْصُ الذي ... أمَرَ النُّفُوسَ بِشُحِّها أمَّارُهُ
فليعلمِ الساعي ليبلغَ ذَا المدى ... أنّ الطريق كثيرةٌ أخطارُه

***

(١) يقال حسر عليه حسراً وحسرة ، أي تلهف .
(٢) ديوانه ١ : ١٢ ــ ١٩
(٣) ديوانه ١ : ٢٩٨ ــ ٢٩٩

كان ثابت قُطْنة فى حيل عبد الله بن بِسْطام فى فتح شكند من بلاد الترك فى أيام هشام بن عبد الملك ، فاشتدّت شوْكةُ الترك ، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خَلق ، فقال ثابت : والله لاينظرُ إلىّ بنو أميّة غداً مشدوداً فى الحديد ، أطلُب الفداء؛ اللهمّ إنّى كنتُ ضيف ابن بِسْطام البارحة ، فاجعلنى ضيفَك الليلة ، ثم حمل وحمل معه جماعة ، فكسرتْهم الترك ، فرجع أصحابُه وثبت هو ، فَرُمِىَ بِرْذَوْنُه فشبّ ، وضربه فأقدم ، فصرِع ثابت وارْتُثّ ، فقال: اللهم إنك استجبْتَ دعوتى وأنا الآن ضيفك ، فاجْعلْ قِرَاىَ الجنة ؛ فنزل تركىّ فأجهز عليه .

* * *

قال يزيد بن المهلّب لابنه خالد ، وقد أمّره على جيش فى حَرْب جرجان : يابنىّ ، إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغْلَبَنّ على الموت ، وإياك أن أراك غداً عندى مهزوما !

عن النبى صلى الله عليه وسلّم : « الخيرُ فى السَّيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف » ، كما يقال : المنيّة ولا الدنيّة ، والنار ولا العار ، والسيف ولا الحَيْف .

قال سيفُ بن ذى يَزَن لأنوشِرْوان حين أعانه بوَهْرز الديلمىّ ومن معه : أيها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفا ؟ فقال : ياأعرابىّ ، كثيرُ الحطَب يكفيه قليل النار .

* * *

لما حبَس مَرْوان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السَّفاح ، وأخوه أبو جعفر، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام ، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علىّ بن عبد الله بن العباس ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العباس ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، من الحُمَيْمَة من أرض السَّراة ، يطلبون الكوفة ، وقد كان داود بن علىّ بن عبد الله بن العباس وابنُه موسى بن داود بالعراق ، فخرجا يطلبان الشام ، فتلقّاهما أبو العباس وأهلُ بيته بدُومة الجندَل ، فسأله داودُ عن

خروجهم ، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة لِيظهرُوا بها ، ويَدْعُوا إلى البيعة لأبي العباس . فقال : ياأبا العباس ، يظهر أمرك الآن بالكوفة ، ومَرْوان بن محمد شيخ بني أمية بحرّان مُطِلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة شيخ العرب بالعِراق في فُرْسان العرب ! فقال : ياعمّ مَنْ أحبَّ الحياة ذلّ ، ثم تمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن مِتُّها غَيْرَ عاجزٍ   بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفْسَ غُولُها[1]

فقال داود لابنه موسى : صدقَ ابن عمّك ، ارجع بنا معه ، فإمّا أن نهلِك أو نموت كراما .

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحُمَيْمَة يريدون الكوفة : إن ثلاثة عشر رجلا خرجوا من ديارهم وأهليهم يطلبون ماطلبْنا لعظيمةٌ هِمَمُهم ، كبيرة نفوسهم ، شديدة قلوبهم .

* * *

أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبَاراً   تَعِبَتْ في مُرَادِها الأجْسَامُ[2]

وله :

إلى أيِّ حينٍ أنت في زِيِّ مُحْرِمٍ   وَحَتّى مَتى في شِقْوَةٍ وإلى كَمِ[3]
وإلّا تَمُتْ تحتَ السُّيوفِ مكرَّماً   تَمُتْ وتقاسى الذُّلَّ غيرَ مُكَرَّمِ
فثِبْ واثقا بالله وَثْبَةَ ماجِدٍ   يرَى الموْتَ في الهيجا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ

---

(١) ديوانه ١٢٥ .
(٢) ديوانه ٣ : ٣٤٥
(٣) ديوانه ٤ : ٣٢

وقال آخر :

إنْ تَقتلونى فآجالُ الرِّجالِ كما حُدِّثْتُ قتلٌ وما بالقتلِ مِنْ عارِ
وإن سلِمْتُ لوقتٍ بعـده فمَتى وكلّ شىء إلى حـدٍّ ومِقْدارِ

* * *

خطب الحجاجُ ، فشكا سوء طاعة أهل العراق ، فقام إليه جامع المحاربىّ ، فقال : أيها الأمير ، دَعْ ما يباعِدُهم منك إلى ما يقرّبُهم إليك ، والتمس العافية ممّن دونك تُعطَها ممّن فوقك ، فلو أحبّوك لأطاعوك ؛ إنهم ماشنئوك بنسبك ولا لبأوك ،ولـكن لإيقاعك بعدَ وعيدِك ، ووعيدِك بعد وَعْدِك .

فقال الحجاج : ماأرانى أرُدّ بنى اللـكيعة[1] إلى طاعتى إلا بالسيف ، فقال جامع : أيّها الأمير ، إنّ السيف إذا لاقى السيفَ ذهب الخيار ، فقال الحجاج : الخيار يومئذ لله ، قال : أجل ، ولـكنك لاتدرى لمن يجعله الله ، فقال : ياهناه ، إيهاً فإنك من مُحارب ، فقال جامع :

وَلِلحَرْبِ سُمِّينا فـكُنّا محارباً إذا ما القنا أمسى مِنَ الطَّعْنِ أحْمَرا

* * *

ومن الشعر الجيد فى تحسين الإباء والحميّة والتّحريض على النهوض والحرْب وطلب المُلك والرياسة ، قصيدة عُمارة اليمنىّ شاعر المصريين فى فخر الدين توران شاه بن أيوب ، التى يغريه فيها بالنُّهوض إلى اليمن ، والاستيلاء على مُلْـكها ، وصادفت هذه القصيدة محلًّا قابلا ، ومَلَك توران‌شاه اليمن بما هزّت هـذه القصيدة من عطفه ، وحركت من عزمه ، وأولها :

---

(١) اللـكيعة : الأمة اللئيمة .

العِلم مُذ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وَشفرةُ السّيفِ تستغني عَنِ القَلمِ (١)
وَخيرُ خيلكَ إنْ غامرتَ في شرفٍ ... عَزمٌ يفرقُ بين الساقِ والقَدَمِ
إنّ المعـالي عروسٌ غيرُ واصلةٍ ... مالم تخلّق رِداءيها بنضحِ دَمِ
ترى مسامعَ فخرِ الدّينِ تسمعُ ما ... أملاهُ خاطرُ أفكارِي عَلى قلَمِي
فإنْ أصبتُ فلِي حظُّ المصيبِ وإنْ ... أخطأتَ قصْدَكَ فاعذرْنِي وَلا تلُمِ
كم تتركُ البيضَ في الأجفانِ ظامئةً ... إلى الموارِدِ في الأعناقِ والقِمَمِ
ومقلةَ المجدِ نحو العزمِ شاخصةً ... فاتركْ قعودكَ عن إدراكها وَقُمِ
فعمّكَ الملكُ المنصور سوّمها ... من الفُراتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ
واخلُقْ لنفسِكَ أمراً لا تضافُ به ... إلى سواكَ ، وأورِ النارَ في العلَمِ
وانْهَ المشيرينَ إنْ لجّتْ نصيحتُهمْ ... أولا ، فأنم على العُميان بالصَّمَمِ
واعزمْ وَصمّمْ فقد طالتْ وقدْ مُجّتْ ... قضيةٌ لفظتْهـا ألسنُ الأمَمِ
فربَّ أمرٍ يهابُ النّاسُ غايتَهُ ... والأمرُ أهونُ فيهِ مِنْ يدٍ لِفَمِ
فكيفَ إنْ نهضتَ فيما هممْتَ به ... أسْدٌ نسيرُ من الخطّيِّ في أجَمِ
لا يدركُ المجدَ إلّا كلُّ مقتحمٍ ... في مَوْجِ ملتطمٍ أو فوجِ مُضْطَرِمِ
لا ينقضُ الخطوةَ الأولى بثانيةٍ ... ولا يفكّرُ في العُقبى مِنَ النّدمِ
كأنّمـا السّيفُ أفتاهُ بقتلهمُ ... في فتحِ مكّةَ حلَّ القتلَ في الحرمِ
ولم يراعُوا لعثمانٍ ولا عمرٍ ... ولا الحُسَيْنِ ذمامَ الأشهرِ الحُرُمِ
فما ترومُ سوى فتحٍ صوارمُهُ ... يُضحكْنَ في كلِّ يومٍ عابسٍ البُهَمِ
حتى كأنَّ لسانَ السّيفِ في يدِهِ ... يروي الشريعةَ عن عادٍ وعَنْ إرمِ

---

(١) النكت العصرية ٣٥٢ .

هذا ابن تومرتَ قد كانتْ بدايته فيما يقول الورَى لحماً على وَضَمِ
وقد ترقّى إلى أنْ صار طالِعهُ من الكواكب بالأنفاس والكظمِ
وكان أوّلُ هذا الدين مِنْ رجل سعى إلى أن دعَوْهُ سيّدَ الأممِ

ــ كذب ، لم يظهر الدين الحنيف المقدّس على الأديان بسعي البشر؛ بل بالتأييد الإلهي، والسر الرباني ، صلوات الله وسلامه على القائم به ، والمتحمّل له ــ

والبدرُ يبدُو هلالا ثم يكشف بالأ نوارِ ما سترته شَمْلَةُ الظُّلَمِ
والغيثُ فَهْو كما قد قيل أوّله قَطْرٌ وبدء خراب السّد بالعَرِم
تَنْمُو قوى الشيء بالتّدريج إن رزقت لُطفاً ويقوى شرارُ النار بالضَّرَمِ
حاسِبْ ضميرَكَ عن رأي أتاكَ وَقُلْ نصيحة وَرَدَتْ من غيرِ مُتَّهَمِ
أقسمت ما أنتَ مِمّنْ جُلُّ هِمّتِه ما راقَ من نعم أورَقَ مِنْ نِعَمِ
وإنمـــا أنت مرجوٌّ لواحدةٍ يَبني بها الدهر مجداً غيرَ مُنْهَدِمِ
كأنني بالليـــالي وهي هاتِفَةٌ قد صمّ سمع رجال دُونَهَا وعَمِي
وبالملا كلّمـــا لاقتك قائلة أهلا بِمُنْشِرِ آمالٍ مِنَ الرِّمَمِ

***

ومن أباة الضَّيْم الذين اختارُوا القتلَ على الأسر ، والموت على الدنيّــة ، مُصْعب بن الزبير ، كان أميرَ العراقين من قِبَل عبدالله بن الزبير ، وكان قد كسّر جيوش عبد الملك مِرارا ، وأعياهُ أمره ؛ فخرج إليه من الشام بنفسه ، فلِيمَ في ذلك ، وقيل له : إنّك تغرّر بنفسك وخلافتِك ، فقال: إنه لا يقوم لحرب مُصْعَبٍ غيري ؛ هذا أمر يحتاج إلى أن يقومَ به شجاع ذُو رأي ، وربّما بعثت شجاعا ولا رَأْي له ، أو ذا رَأْيٍ ولا شجاعة عنــده ، وأنا بصير بالحرب ، شجاع بالسيف ؛ فلمــا أجمع على الخروج إلى حرب مُصْعب ، جاءته

امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فالتزمته ، وبكت لفراقه ، وبكى جواريها حولها، فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبي جُمْعة[1] ! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول :

إذا همّ بالأعداء لم يَثْنِ عزمَهُ ... حَصانٌ عليها نظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نَهَتْهُ فلمّا لم ترَ النَّهيَ عاقَهُ ... بَكَتْ فبكَى مما عَرَاها قطينُها

فسار عبدُ الملك حتى إذا كان بمَسْكِن من أرض العراق ، وقد دنا منه عَسْكر مصعب ، تقاعد بمُصعب أصحابُهُ وقُوّاده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى : الحقْ بمكة فانج بنفسك ، وأخبر عمّك عبد الله بما صنع أهلُ العراق بى ، ودعنى فإنى مقتول ، فقال : لاتتحدّث نساء قريش أنى فررت عنك ، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار، ولا عار فى القتل ، ثم قاتل دونه حتى قُتِل . وخفّ مَنْ يحامى عن مُصعب من أهل العراق ، وأيقن بالقتل ، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان ، فأعطاه الأمان وولاية العراقين أبدا مادام حيًّا ، وألف ألف درهم صلة ، فأبى وقال : إنّ مثلى لاينصرف عن هذا المكان إلا غالبا أومقتولا ، فشدّ عليه أهل الشام ورموْه بالنَّبْل فأثخنوه ، وطعنه زائدة ابن قيس بن قدامة السعدىّ ، ونادى : ياثارات المختار ! فوقع إلى الأرض ، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظَبْيان ، فاحتزّ رأسه ، وحمله إلى عبد الملك .

لما حُمِل رأسُ مصعب إلى عبد الملك بكى وقال : لقد كان أحبّ الناس إلىّ وأشدّهم مودّة لى ، ولكن الملك عقيم .

كتب مصعب إلى سُكَيْنة بنت الحسين عليه السلام ، وكانت زوجته لما شخص إلى حرب عبد الملك وهى بالكوفة بعد ليال من فراقها :

وكان عزيزًا أن أبيتَ وبينَنا ... حِجابٌ فقد أصبحْتِ مِنِّى عَلَى عَشْرِ

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة .

وأبكاهُمـــا واللهِ للعين فاعلِي ... إذا ازددت مثليها فَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ
وأنكَى لقلبي منهُمـــا اليومَ أنني ... أخاف بألّا نلتقي آخر الدهرِ

ثم أرسل إليها وأشخصها ، فشهدتْ معه حربَ عبد الملك ، فدخل عليها يوم قُتِل ، وقد نزع ثيابه ثم لَبِس غُلالة ، وتوشّح بثوب واحد ، وهو محتضِنٌ سيفه ، فعلمتْ أنه غيرُ راجع ، فصاحت : واحزناه عليك يامصعب ! فالتفت إليها ، وقال : إنّ كل هذا فى قلبك ! قالت : وما أخفى أكثر . قال : لو كنت أعلم هذا لكان لى ولك شأن ، ثم خرج فلم يرجع .

فقال عبد الملك يوما لجلسائه: مَنْ أشجعُ الناس؟ فقالوا: قطرىّ ، شبيب، فلان وفلان، قال عبد الملك : بل رجل جَمَع بين سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وأمَة الحميد بنت عبدالله بن عامر بن كريز ، وقُلابة ابنة زَبّان بن أنيف الكلبيّ سيد العرب، ووليَ العراقين خمس سنين ، فأصاب كذا وكذا ألف درهم ، وأعطِي الأمان على ذلك كلّه وعلى ولايته وماله فأبى ، ومشى بسيفِه إلى الموت حتى قُتِل ، ذاك مصعب بن الزبير ، لا مَنْ قطع الجسور مرة ها هنا ومرة ها هنا !

سُئِل سالم بن عبد الله بن عمر ، أىّ ابنَيِ الزبير أشجع ؟ فقال : كلاهما جاءه الموت ، وهو ينظر إليه .

لما وضِع رأس مصعب بين يدى عبد الملك أنشد :

لقد أرْدَى الفوارسُ يومَ حِسْيٍ ... غُلاماً غيرَ مَنّـــاعِ المتاعِ(1)
ولا فرِحٍ بخيرٍ إنْ أتاه ... ولَا هَلِعٍ من الحَدَثان لاعِ
ولا وقّافةٌ والخيل تَرْدِي ... ولا خالٍ كأُنبوبِ اليَرَاعِ

---

(١) من أبيات نسبها ابن الشجرى فى أماليه ٨٠ إلى طفيلٍ الغنوى .

كان ابن ظبيان ، يقول : ماندِمْتُ على شيء نَدَمي على ألاّ أكونَ لمّا حَمَلت إلى عبـد الملك رأسَ مصعب فسجَد قتلتُهُ في سَجْدَته ، فأكون قد قتلت مَلِكَي العرب في يوم واحد .

قال رجل لعبدالله بن ظَبْيان : بماذا تحتجّ عند الله عزّ وجلّ غداً ، وقد قتلتَ مصعبا؟ قال : إن تُرِكت أحتجّ كنت أخطبَ من صعصعة بن صوحان !

كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن علي عليه السلام ، وكيف كان قتـله ؟ فجعل عروة ابن المغيرة يحدّث عن ذلك ، فقال متمثلا بقول سليمان بن قَتّة :

وإنّ الأُلَى بالطَّفّ من آل هاشمٍ ... تأسَّـــوْا فسَنُّوا للكرام التأسّيَا [1]

قال عُروة : فعلمت أن مصعبا لا يفرّ .

لما كان يوم السَّبَخة ، وعسكر الحجاج بإزاء شَبيب ، قال له الناس : أيها الأمير ، لو تنحّيت عن هذه السَّبخة ، فإنها منتنة الريح ! قال : ماتنحُّونَني — والله — إليه أنتن ؛ وهل ترك مصعب لكريم مَفَرّا ! ثم أنشد قول الكَلْحَبة :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَغْشَ الكَرِيهةَ أوْشَكَتْ ... حِبالُ الهُوَيْنى بالفتى أنْ تَقَطَّمـــا [2]

***

وروى أبو الفرج في كتاب " الأغاني " [3] : خطبة عبدالله بن الزبير في قتل مُصعب برواية هي أتمّ مما ذكرناه نحن فيما تقدم ، قال : لما أتى خبرُ المصعَب إلى مكة ، أضرب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياما ؛ حتى تحدث به جميعُ أهلِ مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَليًّا لا يتكلم ، فنظر الناس إليه ؛ وإن الـكآبة على وجهه لبادية ؛ وإنّ

(١) اللسان ١٨ : ٣٢

(٢) المفضليات ٣٢

(٣) الأغاني ١٧ : ١٦٦ (ساسى) ، عيون الأخبار ٢ : ٢٤٠ مع اختلاف في الروايات .

جبينه ليرشح عرقا، فقال واحد لآخر: ماله لا يتكلم؟ أتراه يهابُ النطق! فوالله إنه لخطيب. فما تراه يهاب؟ قال: أراه يريد أن يذكر قتل المُصعب سيّد العرب، فهو يفظِّع بذلك. فابتدأ فقال: الحمدُ لله الذى له الخلق والأمر، مِلك الدنيا والآخرة، يعِزّ مَنْ يشاء، ويُذِلّ مَنْ يشاء؛ ألا إنّه لا يذِلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا، ولا يعزّ من كان الباطل معه؛ وإن كان ذا عدد وكثرة. ثم قال: أتانا خبرٌ من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرّنا؛ أتانا أن مُصعبا قتل رحمه الله؛ فأما الذى أحزننا من ذلك فأنّ لفراقِ الحميم لَذْعة ولوعة، يجدها حَمِيمُه عند المصيبة، ثم يرعوى ذو الرأى والدِّين إلى جميل الصبر. وأمّا الذى سرّنا منه؛ فأنّ قتلَه كان له شهادة؛ وإن الله جاعلٌ لنا وله فى ذلك الخيرة. ألا إنّ أهلَ العراق باعُوه بأقلّ الأثمان وأخسرِها، وأسلموه إسلام النَّعم المخطَّمة [1] فقتل؛ وإن قُتِل لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه [2]، وكانوا الخيارَ الصالحين؛ وإنّا والله ما نموت حَتْف آنافنا، ما نموت إلا قتلا قتلا، وقَعْصاً [3] قَعْصاً، بين قِصَد [4] الرماح، وتحت ظلالِ السيوف؛ ليس كما تموت بنو مروان [5]؛ والله ما قتِل منهم رجل فى جاهلية ولا إسلام؛ وإنما الدنيا عارِيّة من المِلك القهار الذى لا يزول سلطانه، ولا يَبِيد مُلكه، فإن تقبل الدنيا علىّ لا آخذها أخذ اللئيم البَطِر، وإن تدبِرْ عَنّى لا أبكِي عليها بكاء الخرِف [6] المُهْتَر. ثم نزل.

* * *

(١) المخطمة، من قولهم خطم البعير بالخطام إذا جعله على أنفه، والخطام: ما وضع على أنف البعير ليقتاد به.

(٢) قتل أبوه عبد الله بن الزبير يوم الجمل، قتله عمرو بن جرموز فى صلاته بوادى السباع. وعمه عبد الرحمن بن العوام بن خويلد، قتل يوم اليرموك وأخوه المنذر بن الزبير قتل يوم الحرة.

(٣) القعص: الموت السريع؛ ويقال: مات قعصا؛ أى أصابته ضربة أو رمية فات فى مكانه.

(٤) القصدة: القطعة مما يكسر، وجمعه قصد.

(٥) كذا فى جميع الأصول، ويرى السيد جاسم أنها «بنو أبى العاص».

(٦) الخرف: من فسد عقله من الكبر، وكذلك المهتر.

وقال الطِّرِمّاح بن حَكيم ، وكان يرى رأى الخوارج :

وإنى لَمُقْتادٌ جَـوادِى فقاذِفٌ ... به وبِنفْسى اليوم إحدى المتالفِ (١)

لأكسِبَ مالا أو أَؤوبَ إلى غِنًى ... مِنَ اللهِ يكفينى عِداةَ الخلائفِ (٢)

فيارَبِّ إن حانت وفاتى فلاتكنْ ... على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضْرِ المطارفِ (٣)

ولـكنّ قبرى بطن نَسْرٍ مَقيلُه ... بجوّ السماء فى نسور عوَاكِفِ

وأُمسِى شهيدا ثاوِياً فى عِصابة ... يُصابون فى فجٍّ من الأرض خائفِ

فوارسُ أشتاتٌ يؤلّف بينَهُمْ ... هُدَى الله نزّالُونَ عِندَ المواقِفِ

قال ابن شُبْرُمة : مررت يوماً فى بعض شوارع الكوفة ، فإذا بنعشٍ حوله رجال، وعليه مُطرف خَزّ أخضر ، فسألت عنه فقيل : الطِّرِمّاح ، فعلمت أنّ الله تعالى لم يَستجِبْ له.

* * *

وقال محمد بن هانئ :

ولم أجِــدِ الإنسانَ إلا ابنَ سَعْيِهِ ... فمَنْ كانَ أسْعَى كانَ بالمَجْدِ أجْدَرَا (٤)

وبالهِمّة العلياءِ يَرْقَى إلى العُـــلَا ... فمن كانَ أعلَى هِمّــةً كانَ أظْهَرَا

وَلَمْ يتأخّرْ مَنْ أرادَ تقَــدُّمًا ... ولَمْ يتقدّمْ مَنْ أرادَ تأخُّــرا

الرضىّ الموسوىّ رحمه الله تعالى :

وَمَنْ أخّرَتْهُ نَفْسُهُ ماتَ عاجِزاً ... وَمَنْ قَدّمَتْهُ نَفْسُه ماتَ سَيِّدَا (٥)

---

(١) ديوانه ١٥٥ والأغانى ١٢ : ٤٤ ، والشعر والشعراء ٥٧٠ والقود : تقبض السوق ؛ فهو من أمام .
(٢) الخلائف : جمع خليفة ؛ وهو السلطان .
(٣) الشرجع : النعش . وفى الديوان : « أذا العرش إن حانت » .
(٤) ديوانه ٣٦٢
(٥) ديوانه ١٢٧ (طبعة نخبة الأخبار) .

وله رحمه الله :

مَامُقامِي عَلَى الهَوَانِ وَعِنْدِي ... مِقْـــوَلٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ (١)
وإباء محلق بى عَنِ الضَّيْـــمِ كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِيٌّ

أبو الطيب المتنبي :

تَقُولِينَ مَافِي النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ ... جِدِي مِثْلَ مَنْ أحببته تَجِدِي مِثْلِي (٢)
محبٌّ كَنَى بالبيض عَنْ مُرْهَفَاتِهِ ... وبالْحُسْنِ فى أجسامهن عَنِ الصَّقْلِ (٣)
وبالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القنا غَيْرَ أنني ... جَنَاهَا أحِبَّائِي وأطرافُهَا رُسْـلِي
عَدِمْتُ فؤاداً لم تَبِتْ فيـه فَضْلَةٌ ... لغـيرِ ثنايا الغُرِّ والحَدَقِ النُّجْلِ
تُرِيدِينَ إدراكَ المعـالِي رَخِيصَـةً ... وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

ابن المباركة : الهِمَمُ العَلِيّة ، والمهجُ الأبية ، تقرب المنية ، منك أو الأمنية .

•••

أبو تمام :

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يأوى إذا مَا ... قطفْنَ بِهِ إلى خُلُقٍ وســـاعِ (٤)
يثيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ فَجٍّ ... يَهِيمُ بهـــا عَدِيٌّ بن الرِّقَاعِ (٥)
يَخُوضُ مَعَ السِّبَـاعِ الماء حَتَّى ... لَتَحْسِبُه السِّبَاعُ من السِّبَاعِ (٦)

---

(١) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) .
(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ مع اختلاف فى الرواية .
(٣) البيض : النساء . والمرهفات : السيوف .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٣٦ .
(٥) يشير إلى ما ذكره عدى بن الرقاع فى حمار وأتان :

يتنازعان من الغُبَارِ مُلاءةً ... فى الأرض منشورها ، هما نسجاها
تطوى إذا قرعا بلادا حَزْنَةً ... وإذا أصابا سَنهْـــلَةً نشراها

(٦) رواية الديوان : « أبن مع السباع الماء حتى » .

فَلَبٌ الْعَزْمَ إن حاولتَ يوماً بأنْ تَستطيع غـيْرَ المستطاعِ
فلَمْ تَرْكَبْ كناجيةِ المهارِي وَلَمْ تَرْكبْ همُومَكَ كالزِّمَاعِ

وله أيضا :

إنّ خيْراً مما رأيتُ من الصّفْـــحِ عن النَّائبـــات والإغماضِ (١)
غُرْبةٌ تَقتدِي بغُربة قَيْـــسِ بن زُهَيْرٍ والحارثِ بن مُضاضِ (٢)
غرَضَيْ نَكْبَتَين ما فتئا رأْ يَاً نخافا عليه نَكْثَ انتقاضِ
مَنْ أبَنّ البُيوتَ أصبح في ثَوْ بٍ مِنَ الْعَيْشِ لَيْسَ بالْفضْفَاضِ (٣)
صَلَتَـانٌ أعـداؤه حَيْثُ حَلُّوا فى حديثٍ من ذِكْرِهِ مُسْتَفاضِ (٤)
وَالْفَتى مَنْ تعرّقته اللّيالِي والفيافي ، كالحيّةِ النَّضْنَاضِ (٥)
كلَّ يَوْمٍ له بِصَرْفِ اللّيالِي فتْـكةٌ مِثْلُ فتْـكةِ البَرّاضِ (٦)

وله أيضا :

إنْ تَرَيْني تَرَىْ حُساماً صَقيلاً مَشرَفيّاً مِنَ السُّيُوفِ الحِدَادِ
ثانيَ اللّيْـلِ ثالثَ البيد والسَّيْـ رِ نَديمَ النُّجُومِ تِربَ السُّهادِ

أخذ هذا اللفظ أبو عُبادة البحتريّ فقال :

يا نديميّ بالسّواجِير من شَمْـــس بن عمرو وبُحتر بن عَتود (٧)

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٩

(٢) قيس بن زهير العبسي ؛ بعد حربه ذبيان تنقل فى البلاد؛ وفى آخر عمره لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابنى بدر قتله . والحارث بن مضاض الجرهمى ، كان رئيسا بمكة أيام كان بها قومه ، ويقال : إن خزاعة أجلتهم عنها ؛ وهو القائل :

كأن لم يكن بينَ الحجون إلى الصّفا أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سامِرُ

(٣) يقال : أبن بالموضع إذا أقام به .

(٤) الصلتان : الماضى فى أمره .

(٥) الحية النضناض : التى لا تستقر فى مكان . تعرقته الليالى : أخذت ما عليه من اللحم .

(٦) البراض بن قيس الكنانى ، قتل عروة الرحال فى غير حرب، فجر ذلك حرب الفجار بين قيس وكنانة.

(٧) ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفى الديوان : « ود بن معن »

اطلبا ثالثاً سـواى فإنّى رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ

لستُ بالعاجز الضّعيف ولا القا ئل يوماً إنّ الغِنَى بالجُدود

وإذا استصعبتْ مقادةُ أمرٍ سهّلتْهُ أيدى المهارى القُودِ

***

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى :

ولم أرَ كالرَّجاء اليومَ شيئاً تذِلّ لهُ الجمـاجمُ والرقابُ (١)

وبعضُ العُدْمِ مأْثُرَةٌ وفخرٌ وبعضُ المالِ منقَصةٌ وعابُ

بنانِى والعِنانُ إذا نبَتْ بى رُبا أرضٍ ، ورجْلِى والرِّكابُ

وقدْ عرفتْ توقُّلِىَ الليالى كما عرفتْ توقُّلِىَ العِقابُ (٢)

لأمنعَ جانباً وأُفيدَ عِزّاً وعِزُّ الموتِ ما عزَّ الجنابُ

إذا هوْلٌ دعاكَ فلا تَهَبْهُ فلمْ يبقَ الّذين أبوْا وهابُوا

كُلَيْبٌ عافصَتْهُ يدٌ وأوْدى عُتَيْبَةَ يومَ أقعصَهُ ذُؤابُ (٣)

سَواءٌ مَنْ أقلَّ التُّرْبَ منّا ومَنْ وارَى معالِمَه التُّرابُ

وإنّ مُزايِلَ العيشِ اغتِباطاً مُساوٍ للّذين بقُوا وشابُوا

وأوّلُنا العَناءُ إذا طلعْنا إلى الدنيا ، وآخرُنا الذّهابُ

إلى كمْ ذا التردّد فى الأمانى وكمْ يُلْوِى بناظرِىَ السَّرابُ !

ولا نقْعٌ يُثارُ ولا قتامٌ ولا طعْنٌ يُشَبُّ ولا ضِرابُ

(١) ديوانه لوحة ٧٩.

(٢) التوقل : الصعود . والعقاب : جمع عقبة ؛ وهى المرتقى الصعب فى الجبل ونحوه .

(٣) عافصته : صرعته ، وكليب هو كليب وائل ، وأراد باليد جساس بن مرة الذى قتله . وأودى : هلك . وعتيبة هو ابن الحارث بن شهاب كان فارس بنى تميم قتله ذؤاب بن ربيعة الأسدى . وأقعصه : قتله قتلا سريعاً .

وَلَا خَيلٌ مُعَقَّـدةُ النَّوَاصِي ... يَمُوجُ عَلَى شَكَائِمِهَا اللُّعَابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهِب الحَوَاشِي ... يُصِيبُ مِنَ العَدُوِّ وَلَا يُصَابُ
سَأَخْطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فِصْلاً ... إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أَو خِطَابُ
وآخُذُها وإنْ رَغِمَتْ أُنوفٌ ... مغالبـةً وإنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

* * *

قعد سليمان بن عبدالملك يَعرِض وَيفرِض ، فأقبل فتًى من بنى عبس وَسِيم ، فأعجبه، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابن مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ، فأعرض عنه ، وجعل يَفرِض لمن دونه، فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين لا عدمتَ اسمك ، ولا شَقِيَ اسمٌ يوافق اسمك ! فافرِضْ ، فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضربتَ به قطعت ، وإن أمرتنى أطعتُ ، وسَهْمٌ فى كنانتك ، أشتدّ إن أُرسِلتُ، وأنفُذُ حيث وجّهت . فقال له سليمان ، وهو يَرُوزه [1] ويختبره : ماقولك يافتى ، لو لقيتَ عدوا ؟ قال:أقول : حسبي الله ونعم الوكيل . قال سليمان : أ كنت مكتفياً بهذا لو لقيت عدوك دُونَ ضرب شديد ! قال الفتى : إنما سألتنى يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل فأخبرتك ،ولو سألتنى : ما أنتَ فاعل لأنبأتُك ؛ إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيف حتى يتعقّف ؛ ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصّف ، ولعلمتُ إن أَلِمْتُ فإنهم يألمون ، ولرجوتُ من الله مالا يرجون . فأعجب سليمان به وألحقه فى العطاء بالأشراف ، وتمثّل :

إذا ما اتّقى اللهَ الفتى ثم لم يكنْ ... عَلَى أهلِهِ كَلاًّ فقد كَمَلَ الفَتَى

---

(١) يروزه : يختبره ويجربه .

الدمرّ تحت قوله : « ثم لم يكن على أهله كلاً » ، يقال فى المثل : « لاتكن كلًّا على أهلك فتهلك » .

عديّ بن زيد :

فَهَلْ مِنْ خالدٍ إمّا هَلَكْنا　　وَهلْ بِالْموتِ يالَلنّاسِ عارُ[1]

* * *

الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

إذَا لمْ يَكُنْ إلا الحِسَامُ فإنّنى　　سَأُكْرِمُ نَفْسِي عَنْ مَقَالِ اللّوائمِ[2]

وَألْبَسُها حَمْراء تَضْفُو ذُيُولُهَا　　من الدم بُعْداً عنْ لِبَاسِ المَلاوِمِ

فَمِنْ قَبْلُ مَا اخْتَار ابنُ الأشْعَثِ عَيْشَهُ　　عَلَى شَرَفٍ عَالٍ رفيع الدَّعَائم

فطار ذَمِياً قَدْ تقلّد عارَها　　بِشَرِّ جَنَاحٍ يومَ دَيْرِ الجَمَاجِمِ[3]

وَجَاءَهُمُ يَجْرِى البَرِيدُ بِرَأْسِهِ　　وَلَمْ يغْنِ إيغَـالٌ به فى المَزَائمِ

وَقَدْ حاصَ مِنْ خَوْفِ الرَّدَى كلَ حَيْصَةٍ　　فلم ينجُ والأقدارُ ضَرْبَةُ لَازِمِ[4]

وَهَـذا يَزِيد بنُ المهلّب نافَرَتْ　　به الذلّ أعراقُ الجُدود الأكارِمِ[5]

فقالَ وقَدْ عَنّ الفِرارُ أو الرّدَى :　　لحا اللهُ أخْزَى ذُكْرِةَ فى المَوَاسِمِ

وَمَا غَمَرَاتُ الموتِ إلّا انْغِمَاسَةٌ　　ولا ذِى المنايا غيرُ تهويمِ نائمِ

---

(١) شعراء النصرانية ٤٥٦

(٢) ديوانه لوحة ١١٠

(٣) وقعة دير الجماجم كانت بين الحجاج الثقفى وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، انتهت بقتل ابن الأشعث سنة ٨٣

(٤) حاص ، أى حاد وذهب بعيدا .

(٥) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، من أمراء الدولة الأموية وقوادها ، قتله يزيد بن عبد الملك فى خبر مشهور سنة ١٠٢

رأى أنّ هذا السّيفَ أهونُ محمَلاً ... من العارِ يَبقى وَسْمُه فى الخَاطِمِ
وما قلّدَ البيضَ المباتيرَ عُنْقَهُ ... سوى الخوفِ مِنْ تقليدها بالأداهِمِ
فعافَ الدّنايا وامتطى الموتَ شامخاً ... بمارنِ عِزٍّ لا يذلُّ لِخَاطِمِ
وقد حلقتْ خوفَ الهوان بمُصْعَبٍ ... قوادمُ آباهُ كرامِ القادمِ
على حينَ أعطوهُ الأمانَ فعافَهُ ... وخُيِّرَ فاختارَ الرّدى غيرَ نادمِ
وفى خِدْرِه غرّاء مِنْ آل طلحةٍ ... عَلاقَةُ قلبٍ للنّديم المُخالمِ[1]
تُحبّبُ أيّامَ الحياةِ وإنّها ... لأعذبُ مِنْ طعم الخلودِ لطاعمِ
ففارَقها والمُلكَ لمّا رآهما ... يجُرّانِ إذلالَ النّفوسِ الكرائم
ولمّا ألاحَ الخوفُ فرّانُ من الرّدى ... حذاءَ المخازِى رُمحُ قيسِ بن عاصِمِ
وغادرها شنعاءَ إنْ ذُكِرَتْ لهُ ... مِنَ العارِ طأطا رأسَ خزيانَ واجمِ
كذاك مُنِى بعدَ الفرار أُميّةٌ ... بشقشقةٍ لوثاءَ مِنْ آلِ دارمِ
وسلّ لها سَلّ الحسامِ ابنُ مَعْمَرٍ ... فكرّ على أعقابِ نابٍ بصارمِ
يُرَدِّدُ ذِكرى كلِّ مجدٍ وَغابرٍ ... وألجمَ خوفَ كلّ باغٍ وظالمِ
وهدّدنى الأعداءُ فى المتهدّمِ بجنٍ ... نُهوضى ولمْ تُقطعْ عقودُ تمائمى
وعندىَ يومٌ لو يزيدُ ومسلمٌ ... بدا لهما لاستصغرا يومَ واقمِ
علَى العزْمُتْ لا ميتةً مستكينةً ... تُزيلُ عنِ الدّنيا بِشمّ المراغِمِ
وخاطرْ على الجُلّى خِطارَ ابنِ حُرّةٍ ... وإنْ زاحمَ الأمرُ العظيمُ فزاحمِ

***

(١) هى عائشة بنت طلحة ؛ كانت زوجا لعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ؛ ولما هلك تزوجها مصعب بن الزبير ؛ فقتل عنها ، والخالة : المصادقة والمنازلة .

ومن أباةِ الضَيْم ومُؤثِرِي الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم ، ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبي طالب عليه السلام . لما أحاطتْ عساكر عيسى ابن موسى بمحمد وهو بالمدينة ، قيل له : انجُ بنفسك ، فإنّ لك خَيلاً مُضمَّرة(١) ونجائب سابقة(٢) ، فاقعد عليها ، والتحق بمكة أو باليمن . قال : إنى إذاً لعبد ا وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه ، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل ، أشير عليه بالاستتار ، فقال : إذَنْ يستعرض عيسى أهلَ المدينة بالسيف ، فيكونُ لهم [يوم] كيوم الحرّة ، لا والله لا أحفظُ نفسي بهلاك أهل المدينة ، بل أجعل دمى دون دمائهم . فبذل له عيسى الأمانَ على نفسه وأهله وأمواله ، فأبى ونَهَدَ(٣) إلى الناس بسيْفه ، لا يقاربه أحد إلا قتله ، لا والله ما يبقِي شيئا ؛ وإنّ أشبَه خَلق الله به فيما ذُكِر هو حمزة بن عبد المطلب . ورَمَى بالسّهام ، ودَهَمته الخيل ، فوقف إلى ناحية جدارٍ ، وتحاماه الناس فوجد الموت ، فتحامل على سَيْفه فكسره ؛ فالزيدية تزعم أنه كان سيفَ رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن محمداً عليه السلام ، قال لأخته ذلك اليوم : إنى فى هذا اليوم على قِتال هؤلاء ، فإن زالت الشمس ، وأمطرت السماء فإنى مقتول ، وإن زالت الشمس ولم تُمطر السماء ، وهبّت الريح ، فإنى أظفر بالقوم ، فأجّجى التنّانير ، وهيّئى هذه الكتب — يعنى كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق — فإن زالت الشمس ، ومطرت السماء فاطرَحِى هذه الكتب فى التنانير ، فإن قدرتم على بَدَنى

---

(١) ضمر الخيل ؛ إذا ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن ؛ ثم قلل ماءها وعلفها مدة ؛ ثم ركضها فى الميدان حتى تهزل ؛ ومدة التضمير عند العرب أربعون يوما .

(٢) الخيل السوابق : المجلية فى الجرى .

(٣) يقال نهد لعدوه ؛ إذ برز لقتاله وصمد له .

تخذوه ، وإن لم تقدروا على رأسى تخذوا سائر بدنى ، فأتُوا به ظُلّة بنى بلية[1] على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها ؛ فاحفروا لى حفيرة ، وادفنونى فيها . فمطرت السماء وقت الزوال ؛ وقتل محمد عليه السلام ؛ وكان عندهم مشهوراً أنّ آية قَتل النفس الزكيّة أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة ، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت ! فأمطرت السماء ذلك اليوم ، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتكة ، وأخذ جسده، فحفر له حفيرة فى الموضع الذى حَدّه لهم ، فوقعوا على صخرة فأخرجوها، فإذا فيها مكتوب: « هذا قبر الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام » ، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام: رحم الله أخى ، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن فى هذا الموضع[2] .

***

وروى أبو الفرج ، قال : قَدِم على المنصور قادم، فقال: هَرب محمد ! فقال له : كذبْت ! إنا أهلَ البيت لا نفرّ .

***

وأما إبراهيم عليه السلام ، فروى أبو الفرج عن المفضّل بن محمد الضبىّ ، قال[3] : كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن متوارياً عندى بالبَصْرة ، وكنت أخرُج وأتركه ، فقال لى: إذا خرجتَ ضاق صدرى ، فأخرج إلىّ شيئا من كتبك أتفرّج به ؛ فأخرجت إليه كتباً من الشعر، فاختارَ منها القصائد السبعين التى صدّرْت بها كتاب " المفضليات " ، ثم أتممت عليها باقىَ الكتاب .

فلما خرج خرجت معه ؛ فلما صار بِالمرْبدِ ، مرْبد سليمان بن علىّ ، وقف عليهم ، وآمنهم واستَسْقى ماء ، فأُتِىَ به فشرب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه ،

(١) مقاتل الطالبيين : « بنى نبيه » .
(٢) مقاتل الطالبيين ٢٧١ ، ٢٧٢
(٣) ورد الخبر مختصرا فى مقاتل الطالبيين ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

وقال: هؤلاء والله مِنّا ونحن منهم ؛ لحمنا ودمنا ؛ ولكن آباءهم انتزَوا على أمرنا ، وابتزُّوا حقوقنا ؛ وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مَهْلًا بَنِي عَمِّنَا ظُلَامَتَنَا ... إنَّ بِنَا سَوْرَةً من القَلَقِ[(١)]

لِمثلِكُم تَحْمِلُ السيوفَ وَلَا ... تُغْمَزُ أحسابُنَا مِنَ الرَّقَقِ

إنِّي لَأُنْمِي إذا انتميتُ إلى ... عِزٍّ عزيزٍ وَمَعْشَرٍ صُدُقِ

بِيضٍ سِبَاطٍ كأنَّ أعْيُنَهُمْ ... تُكْحَلُ يومَ الهِيَاجِ بِالْعَلَقِ

فقلت له : ما أجودَ هذه الأبيات وأخلها ! فلِمَنْ هي ؟ فقال : هذه يقولها ضِرار ابن الخطّاب الفِهْرِيّ يومَ عبرَ الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وتمثل بها علىّ ابن أبي طالب يوم صِفّين ، والحسين يوم الطفّ ، وزيد بن علي يوم السَّبَخَة ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان ؛ فتطيّرتُ له من تمثّله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل . ثم سرنا إلى باخَمْرَى ، فلما قرب منها أتاه نعيُ أخيه محمد ، فتغيّر لونه وجَرِض بريقه ، ثم أجهش باكيا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنّ محمداً خرج يطلب مرضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك المتبع المطاع ؛ فاغفر له وارحمه ، وارض عنه ، واجعل ما نقلتَه إليه من الآخرة خيرا مما نقلتَه عنه من الدنيا ؛ ثم انفجر باكيا ثم تمثّل :

أبا المَنازِلِ يا خيرَ الفوارسِ مَنْ ... يُفجَعْ بمثلك في الدّنيا فقد فُجِعا[(٢)]

الله يعلمُ أني لو خشيتُهُمُ ... أو آنس القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا

لم يقتلوك ولم أُسلِم أخي لهمُ ... حتّى نعيش جميعا ، أو نموت معا

قال المفضّل : فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ماظهر من جزَعه ، فقال : إني والله في هذا ، كما قال دُرَيد بن الصِّمّة :

(١) من أبيات في حماسة ابن الشجري ١٦ ، والأغاني ١٧ : ١٨ (ساسي) ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات وعددها وروايتها .

(٢) الأبيات لراسم بن خشرم يرثي هدبة ، الأغاني ٢١ : ١٧٧ .

يقولُ ألا تَبكى أخاكَ وقَدْ أرَى ... مكانَ البُكا،لكن بُنيتُ على الصَّبْرِ [1]
لمقتلِ عبد الله والهالكِ الّذِى ... على الشَّرَف الأعلى قتيلِ أبى بكرِ
وعبد يغوث تحجل الطّيرُ حَوْلَهُ ... وجلّ مصاباً جَثْوُ قبرٍ على قبر
فإمّا ترينا لا تزال دماؤنا ... لدى واترٍ يَسْعَى بها آخرَ الدّهر
فإنّا لَلَحْمُ السَّيف غيرَ نَكيرةٍ ... ونُلْحِمهُ طوراً ، وليس بذى نُكْرِ
يُغار علينا واترين فيُشْتَفَى ... بِنَا إنْ أصِبْنا أو نُغِيرُ على وِتْرِ
بذاك قَسَمْنا الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحنُ على شَطْرِ

قال المفضّل : ثم ظهرت لنا جيوش أبى جعفر مثل الجراد ، فتمثّل إبراهيم عليه السلام قوله :

إن يقتلونىَ لا تُصِبْ أرماحهمْ ... ثأرى ويسعى القوم سَعْياً جاهِدَا
نبئت أنّ بنى جَذِيمة أجمعت ... أمرا تدبّره لتقتلَ خالدَا
أرى الطريق وإن رُصِدْتُ بضيقِه ... وأنازِلُ البطَلَ الكَمِيّ الحارِدا

فقلت له : مَنْ يقول هذا الشعر يابن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر ابن كلاب يوم شِعْب [2] جبَلة ؛ وهذا اليوم الذى لقيَتْ فيه قيس تميما .قال: وأقبلت عساكر أبى جعفر ، فطعن رجلا وطعنه آخر ، فقلت له : أتُباشر القتال بنفسك ! وإنما العسكر منوط بك ؛ فقال : إليك يا أخا بنى ضَبّة ، فإنى لكما قال عُويف القوافي :

ألمّتْ سُعادُ وإلمامُها ... أحاديث نفسٍ وأحلامُها
مُحَجَّبَةٌ من بَنِى مالك ... تَطَاوَلُ فى المجدِ أعلامُها

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٩ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .
(٢) لعامر وحلفائهم من عبس، على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما. الأغانى ١٠ : ٣٣ (ساسى).

وإنّ لنا أصـــلَ جُرثومةٍ   تَرُدُّ الحوادثَ أيامُهـــا
ترد الـكتيبـــة مفلولةً   بها أفْنُها وبها ذامُهـــا

والتحمت الحرب واشتدّت ، فقال : يامفضّل ، احكني بشيء ؛ فذكرت أبياتا للعويفِ القوافي لما كان ذكره هو من شعره ، فأنشدته :

ألا أيُّهـا الناهي فزارةَ بعدَما   أجدّتْ لسيرٍ ، إنّما أنتَ ظالمُ
أبى كلُّ حُرٍّ أن يبيت بوَتْرِه   وتمنع منـه النوم إذ أنت نائمُ
أقول لفتيانٍ كرامٍ تروّحوا   على الجُرْدِ في أفواهِهِنّ الشكائمُ
قفوا وقفةً من يحيَ لا يُخزَ بعدها   ومَنْ يُخْتَرَمْ لا تتبعْهُ اللوائمُ
وهل أنت إن باعدتَ نفسك عنهمُ   لتسلمَ فيما بعـــد ذلك سالمُ

فقال : أعدّ ، وتبينت من وجهه أنه يستقتل ، فانتهبت وقلت : أو غير ذلك ؟ فقال : لا ، بل أعد الأبيات ، فأعدتها ، فتمطّى في ركابيْه فقطعهما ، وحمل فغاب عنّى ؛ وأتاه سهم عائر فقتله ؛ وكان آخر عهدى به عليه السلام .

قلت : في هذا الخبر مايحتاج إلى تفسير ؛ أما قوله (١) :

* إن بنا سورةً من الغَلَقِ *

فالغلق : الضَّجَر وضيق الصدر والحدّة ، يقال : احتدّ فلان فنشب في حِدّته وغلِق. والسَّوْرة : الوثوب ، يقال : إن لغضبه لسورة ، وإنه لسوّار ، أي وثّاب معربد. وسَوْرة الشراب : وثوبه في الرأس ؛ وكذلك سَوْرة السمّ ، وسورة السلطان : سطوته واعتداؤه.

وأما قوله : « لمثلـكم نحمل السيوف » فمعناه أنّ غيركم ليس بكفء لنا لنحمل له السُّيوفَ وإنما نحملها لـكم ، لأنّكم أكفاؤنا ، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة ؛ وإنْ كانت أحسابُنا واحدة ، وهي شريفة لا مغمَز فيها .

---

(١) ص ١٠٩

والرَّقق ، بفتح الراء : الضعف ؛ ومنه قول الشاعر :

* لم تلق في عظمها وَهْناً وَلا رَقَقاً *

وقوله :

* تُكحَل يوم الهيَاج بالعلَقِ *

فالعلَق الدم ؛ يريد أنَّ عيونَهم حُمْر لشدَّة الغيظ والغضب ؛ فكأنها كُحِلَتْ بالدم .

وقوله : « لكن بنيت على الصبر »، أى خُلقت وبنيت بِنْيَة تقتضي الصبر . والشرف الأعلى : العالى، وبنو أبى بكر بن كلاب، من قَيْس عيلان ، ثم أحد بنى عامر بن صعصعة.

وأما قوله[1] :

* إن يَقْتلونىَ لا تُصِب أرماحُهم *

فمعناه أنهم إن قتلونى ثم حاولوا أنْ يصيبوا رجلا آخر مثلى يصلح أن يكون لى نظيرا؛ وأن يجعل دمه بَواء لدمى، وسَعَوا فى ذلك سَعْياً جاهداً ، فإنهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه .

وقوله : « أرمى الطريق ... » البيت ، يقول : أسلك الطريق الضَّيق ، ولو جعل عَلَيَّ فيه الرَّصَد لقتلى .

والحارد : المنفرد فى شجاعته ؛ الذى لا مثل له .

***

[غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة علىّ عليه بعد ذلك]

فأما حديثُ الماء وغَلبُ أصحابِ معاوية على شَرِيعة الفرات بصِفين ، فنحن نذكره من كتاب " صفين " لنصر بن مزاحم .

قال نصر : كان[2] أبو الأعور السُّلمىّ على مقدّمة معاوية ، وكان قد ناوَش مقدّمة

(١) ص ٣١٠ . (٢) ص ١٧٥ ومابعدها .

علىّ عليه السلام وعليها الأشتر النَّخَعِىّ مناوشةً ليست بالعظيمة؛ وقد ذكرنا ذلك فيما سَبَق من هذا الكتاب ، وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً ، فسبق إلى الماء فغلب عليه فى الموضع المعروف بقُناصرين (1) الى جانب صِفّين ، وساق الأشتر يتبعه ، فوجده غالبا على الماء؛ وكان فى أربعة آلاف من مستبصرِى (2) أهل العراق، فصدَموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء ، فأقبل معاوية فى جَميع الفَيْلق بقضّه وقَضِيضه ، فلما رآهم الأشتر انحاز إلى علىّ عليه السلام ، وغلب معاويةُ وأهلُ الشام على الماء ، وحالوا بين أهل العراق وبينه؛ وأقبل علىّ عليه السلام فى جُموعه ، فطلب موضعاً لعسكره ، وأمرَ النّاسَ أن يضعوا أثقالهم؛ وهم أكثر من مائة ألف فارس ، فلما نزلوا تسرّع فوارس من فوارس علىّ عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهام ، ومعاوية بَعْدُ لم ينزل ، فناوشهم أهلُ الشام القتال ، فاقتتلوا هَوِيًّا .

قال نصر : فحدّثنى عمر بن سعد ، عن سعد بن طَرِيف ، عن الأصبغ بن نُباتة : فكتب معاوية إلى على عليه السلام : عافانا الله وإياك .

ما أحسن العدلَ والإنصاف مِنْ عَمَلٍ ... وأقبحَ الطَّيْش ثم النَّفْش فى الرَّجُلِ

وكتب بعده :

ارْبِطْ حِمَارَكَ لا تَنْزِعْ سوِيتَــــه ... إذاً يُرَدَّ وقَيْدُ العَـــيْرِ مَــكْرُوبُ (3)

ليست ترى السَّيدُ زيدًا فى نفوسهمُ ... كما يراه بنـــــو كُوزٍ ومرهوب

إن تسألوا الحقّ نُعْطِ الحقّ سائلَه ... والدِّرْع مُحْقَبَــةٌ والسَّيف مقروبُ

أو تأنفـــــونَ فإنّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ ... لا نطعَم الضيم إنّ السّمّ مشروب (4)

---

(١) قناصرين : موضع بالشام . (القاموس) .

(٢) صفين : « متبصرى أهل العراق » .

(٣) الأبيات لعبد الله بن عنمة الضبي ؛ وهى فى المفضليات ٣٨٢ ؛ مع اختلاف فى الرواية .

(٤) المفضليات : « لا نطعم الذل » .

فأمر عليٌّ عليه السلام أن يُوزِعَ(1) الناس عن القتال ، حتى أخذ أهل الشام مصافهم ثم قال : أيُّها الناس ، إنّ هذا موقفٌ ، مَنْ نَطِفَ(2) فيه نَطِفَ يوم القيامة ، ومن فَلَجَ فيه فلجَ يوم القيامة ، ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين :

لقد أتانا كاشراً عن نابِهِ   يُهَمِّطُ النّاسَ على اعتزابِهِ(3)

* فليأتينا الدَّهْرُ بما أتى بِهِ *

قال نصر : وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه ، أما بعد :

فإنّ لِلْحَرْبِ عُراماً شَرَرا   إنّ عليها قائداً عَشَنْزَرا(4)

يُنْصِفُ مَنْ أحْجَرَ أوْ تَنَمَّرا   عَلَى نواحيها مِزَجًّا زَمْجَرا

* إذا وَنِينَ ساعةً تَغَشْمَرا(5) *

وكتب بعده .

ألَمْ تَرَ قَوْمِي إنْ دَعَاهُمْ أخوهمُ   أجابُوا ، وإنْ يَغْضَبْ على القَوْمِ يَغْضَبُوا

هُمُ حفِظوا غيبي كما كُنْتُ حافظاً   لقومِيَ أُخْرَى مثلهـــا إن يُغَيَّبُوا

بنو الحربِ لم تقعدْ بهم أُمَّهَاتُهُمْ   وآباؤهُمْ آباءُ صِــدْقٍ فأنْجَبُوا

قال : قد تراجع النّاس كلٌّ من الفريقين إلى معسكرهم ، وذهب شبابٌ من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهلُ الشام .

***

قلت : في هذه الألفاظ ماينبغي أن يشرح .

---

(1) يوزع الناس : يكفون . وفي صفين : « توزعوا عن القتال حتى تأخذ أهل المصاف مصافهم » .

(2) نطف : اتهم بريبة .

(3) يهمط الناس : يقهرهم .

(4) العشنزر : الشديد .

(5) تغشمر : تنمر ووثب .

قوله : « فاقتتلوا هَوِيًّا » ، بفتح الهاء ، أى قطعة من الزمان ، وذهب هَوِىٌّ من الليل ، أى فريق منه .

والنَّفْش : كثرة الكلام والدعاوى ، وأصله من نفش الصوف .

والسَّوِيّة : كساء محشوّ بثُمام ونحوه ، كالبرذعة . وكُرِّبَ القَيْد ، إذا ضيّقه على المقيّد ، وقَيْد مكروب ، أى ضيق ؛ يقول : لا تنزع برذعة حمارك عنه واربطه وقيّده ، وإلا أعيد إليك وقيده ضيّق . وهذا مثل ضَرَبه لعلىّ عليه السلام ، يأمره فيه بأن يردَعَ جيشه عن التسرّع والعجلة فى الحرب .

وزيد المذكور فى الشعر ، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد ابن كعب بن بجالة بن ذُهْل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضَبّة بن أدّ بن طابخة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهو المعروف بزيد الخيل ، وكان فارسهم . وبنو السِّيد من ضَبّة أيضا ؛ وهم بنو السِّيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبّة بن أُدّ ابن طابخة . . . إلى آخر النسب ، وبنو السِّيد بنو عم زيد الفوارس ؛ لأنه من بنى ذُهل ابن مالك ، وهؤلاء بنو السِّيد بن مالك ، وبينهم عداوة النسب ؛ يقول : إن بنى السِّيد لا يرون زيدا فى نفوسهم كما تراه أهله الأدْنَوْن منه نَسَباً ، وهم بنو كوز وبنو مرهوب ؛ فأما بنو كوز فإنهم بنو كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ، وأما بنو مَرْهوب ، فإنّهم بنو مَرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجَالة بن ذُهْل بن مالك ؛ يقول : نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة مايعتقده أهله وبنو عمه الأدْنَوْن ؛ والمثل لعلىّ عليه السلام ؛ أى نحن لا نرى فى علىّ مايراه أهلُ العراق من تعظيمه وتبجيله .

وقوله :

* والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيْفُ مَقْرُوب *

أى والدرع بحالها فى حِقابها ، وهو مايشدّ به فى غلافها ، والسيف بحاله أى فى قرابه ،

وهو جَفْنه ؛ يقال : حقبت الدرعَ وقربت السيف ؛ كلاهما ثلاثيان ، يقول : إن سألتم الحق أعطيناكوه من غير حاجة إلى الحرب ؛ بل نجيبكم إليه والدّروع بحالها لم تلبس ، والسيوف فى أجفانها لم تشهر .

وأما إثبات النون فى « تأنفون » فإنّ الأصوب حذفُها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها ؛ ولكنه استأنف ولم يعطف ، كأنه قال : أو كنتم تأنفون ؛ يقول : وإن أَنِفْتم وأبيتم إلا الحرب ؛ فإنا نأنف مثلكم أيضا ، لا نطعم الضيم ولا نقبله . ثم قال : إنّ السمّ مشروب ؛ أى أنّ السمّ قد نشربه ولا نشرب الضيم ؛ أى نختار الموت على الضيم والذلة . ويروى :

وإن أنفتم فإنا معشر أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الضيم إن الضَّيْمَ مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمة الضبىّ ؛ من بنى السِّيد ، ومن جملته :

وقد أَرُوح أمامَ الحىّ يقدُمنى صافِى الأديم كُمَيْت اللّوْن مَنْسُوبُ(١)
مُحَنَّبٌ مثل شاةِ الرَّبْلِ مُحْتَفِزٌ بالقُصْرَيَيْنِ عَلَى أولاه مَصْبُوبُ(٢)
يَبُذّ ملجَمَهُ هادٍ له تَلَعٌ كأنه من جُذوع العين مَشْذُوبُ
فذاك ذُخرى إذا ما خيلهمْ رَكَضَتْ إلى المثوّبِ أوِمَقّاء سُرْحُوبُ(٣)

فأما قوله عليه السلام : « هذا موقفٌ مَنْ نَطِفَ فيه نَطِفَ يوم القيامة » ، أى مَنْ تلطخ

---

(١) من هذه القطعة أبيات ، نسبها أبو عبيدة فى كتاب الخيل إلى يزيد بن عمرو الحنفى .

(٢) المحنب من الخيل : المعطف العظام ، وهو مدح فى الخيل . والربل : نبت . ويحتفز : يجتهد فى مد يديه . والقصريان : ضلعان يليان الترقوتين . وقوله : « على أولاه مصبوب » ، يقول : يجرى على جريه الأول لا يحول عنه ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٧ : ٢٠٣) .

(٣) المقاء من الخيل : الواسعة الأرفاغ . والسرحوب : الطويلة على وجه الأرض ؛ ورواية البيت فى كتاب الخيل .

فذاك عندى إذا ما خيلهمْ رُكِبَتْ إلى المثوب أو شقّاء سُرْحوبُ

فيه بعيب من فِرار أو نـكول عن العدوّ . يقال : نَطِف فلان بالـكسر ؛ إذا تدنس بعيب . ونَطُفَ أيضا إذا فسد ؛ يقول : مَنْ فسدت حاله اليوم فى هذا الجهاد فسدت حاله غدا عند الله .

قوله : « مَنْ فَلَج فيه » بفتح اللام ، أى مَنْ ظهر وفاز ، وكذلك يكون غدا عند الله ، يقال ؛ فَلَج زيدٌ على خصمه ، بالفتح ، يفلُج ، بضمّ اللام ؛ أى ظهرتْ حجته عليه ، وفى المثل : من يأت الحَـكَم وحده يَفلُج .

قوله : « يهمّط الناس » ؛ أى يقهرهم ويخبطهم ، وأصله الأخذ بغير تقدير .

وقوله : « على اعتزابه » أى على بعده عن الإمارة والولاية على الناس . والعُرَام ، بالضم : الشّرَاسة والمَوَج . والعشنزر : الشديد القوىّ .

واحجر : ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم . وتَنَمّر ، أى تنكر حتى صار كالنّمر ؛ يقول : هذا القائد الشديد القوىّ ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنـكّر لهم ، أى ينصف منه ، فحذف حرف الجر كقوله : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَه ﴾ ، أى من قومه . والمِزَجّ ، بكسر الميم : السريع النفوذ ، وأصله الرمح القصير ، كالمِزْراق .

ورجل زمجر ، أى مانع حوزته ، والميم زائدة . ومن رواها « زَمْخَرا » بالخاء ، عنى به المرتفع العالى الشأن ، وجعل الميم زائدة أيضا ، من زَخَر الوادى ، أى علا وارتفع .

وغَشْمَر السيل : أقبل ، والغشمرة : إثبات الأمر بغير تثبيت ، يقول : إذا أبطأنَ ساقهنّ سَوْقًا عنيفا .

والأبيات البائية لربيعة بن مقروم الطائىّ .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن

الأحمر ، قال : لما [1] قدمنا على معاوية وأهلِ الشام بصِفِّين ، وجَدْناهم قد نَزَلُوا منزلاً اختاروه مستويا بساطا واسعاً ، وأخذوا الشَّرِيعة فهى فى أيديهم ؛ وقد صفّ عليها أبو الأعور الخيلَ والرَّجّالة،وقدم الرّامية ومعهم أصحابُ الرّماح والدَّرَق ، وعلى رءوسهم البِيض ، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء ، ففزِعْنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك ، فدعا صَعْصَعَةَ بن صُوحان فقال : ائت معاوية وقلْ له : إنا سِرْنا إليك مسيرَنا هذا وأنا كَرِهٌ لقتالكم [2] قبل الإعذار إليكم ، وإنّك قدّمت خيلك ، فقاتلتنا قبل أنْ نقاتلك ، وبدأتنا بالحرب ؛ ونحن مِمّن رأينا الكَفّ حتى ندعوك ونحتجّ عليك ؛ وهذه أخرَى قد فعلتموها،قد حُلْتُم بين النّاس وبين الماء ؛ فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له ؛ وإنْ كان أحبّ إليك ، أن ندع ماجئنا له ، وندعَ الناس يقتتلون حتى يكونَ الغالب هو الشارب ، فَعَلْنا .

فلما مضى صعصعة برسالته إلى معاوية ، قال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد ابن عُقْبة : امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان ، حَصَرُوه أربعين يوما يمنعونه بَرْد الماء ولين الطعام ، اقتلهم عطشاً ، قتلهم الله !

وقال عمرو بن العاص : خَلّ بين القوم وبين الماء ؛ فإنهم ان يعطشوا وأنت ريّان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم .

فأعاد الوليد مقالتَه .

وقال عبد الله بن سَعيد بن أبى سَرْح — وكان أخا عثمان من الرضاعة — : امنعْهم الماء إلى الليل؛فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعُهم هزيمَتهم ، امنعهم الماء،منعَهم

---

(١) كتاب صفين المنقرى ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) صفين : « وأنا أكره قتالكم » .

الله يوم القيامة ! فقال صعصعة بن صُوحان : إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجَرة الكفرة ، شَرَبة الخمر ؛ ضَرْبك وضَرْب[1] هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة .

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كُفّوا عن الرجل؛ فإنما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف بن أحمر : إن صعصعة لمّا رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية ، وما كان منه وماردّه عليه ؛ قلنا : وماالذى ردّه عليك معاوية ؟ قال : لما أردتُ الانصراف من عنده ، قلت : ماترد علىّ ؟ قال: سيأتيكم رأيي ، قال : فوالله ماراعنا إلا تسوية الرجال والصُّفوف والخيل ؛ فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء ؛ فازدلفنا والله إليهم ، فارتمينا واطّعنّا بالرماح ، واضطربنا بالسيوف ، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء في أيدينا ؛ فقلنا : لاوالله لانسقيهم. فأرسل إلينا علىّ عليه السلام أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى معسكركم ، وخلّوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم .

* * *

وروى نصر بن محمد بن عبد الله ، قال : قام[2] ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السَّكون ، يعرف بالشّليل[3] بن عمر إلى معاوية ، فقال :

اسْمع اليوم مايَقُول الشَّليلُ ... إنّ قولي قولٌ له تأويلُ
امنعِ الماءَ من صحابِ علىٍّ ... أن يذوقوه، فالذّليل ذليلُ
واقتُل القوم مِثلَ ماقُتِل الشيـ ... ـخ صدًى فالقصاصُ أمرٌ جميل[4]
إنّنا والذى تُساق له البُدْ ... نُ هَدَايَا كأنهنّ الفيُول[5]
[لو علىٌّ وصحبه وردوا المـا ... ء لما ذقتموه حتى تقولوا][6]

---

(١) ضربك ، أي مثلك .
(٢) صفين ١٨١ (٣) صفين : « السليل » .
(٤) صفين : « ظما والقصاص أمر جميل » .
(٥) صفين : « هدايا لنحرها تأجيل » .
(٦) تكملة من صفين .

قَدْ رَضِينا بأمرِكُمْ وعلينا بَعْدَ ذاكَ الرِّضا جِلادٌ ثَقِيلُ
فامْنَعِ القوم ماءكُمْ ، ليس لِلقَوْ مِ بقاء وإن يكنْ فقليل

فقال معاوية: أمّا أنت فندرِي ماتقول ـ وهو الرأى ـ ولكنّ عمراً لايدرى .فقال عمرو : خلّ بينهم وبين الماء ؛ فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريّان ، وفى يده أعنّة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنّه الشجاع المُطرق [ومعه أهل العراق وأهل الحجاز](1) ، وقد سمعته أنا مرارا وهو يقول : لو استمكنتُ من أربعين رجلا (2) يعنى فى الأمْر الأول(2) !

***

ورَوَى نَصر ، قال : (3) لما غَلَبَ أهلُ الشام على الفُرات ، فرِحُوا بالغَلبة ، وقال معاوية : ياأهلَ الشام ؛ هذا واللهِ أوّلُ الظَّفَر ، لا سَقَانى اللهُ ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبدا حتى يُقتَلوا بأجمعهم عليه ؛ وتباشر أهلُ الشام ، فقام إلى معاويةَ رجُلٌ من أهل الشام هَمْدانيّ ، ناسِكٌ يتألّه ويكثر العبادة، يعرف بمَعرّيّ بن أقبل ، وكان صديقاً لعمرو ابن العاص وأخا له ، فقال : يامعاوية ، سبحان الله ! لأنْ سبقتُمُ القومَ إلى الفرات فغلبتُموهم عليه ، تمنعونهم الماء ! أمَا والله لوسبقُوكم إليه لسقَوْكُم منه. أليس أعظم ماتنالون من القوم أنْ تمنعوهم الفرات فينزلوا على فُرْضَةٍ أخرى ويجازوكم بما صنعتم ! أما تعلمون أنّ فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ، ومَنْ لاذنب له . هذا والله أول الجوْر ! لقد شجّعتَ الجبان ، ونَصّرْتَ المرتاب ، وحَمّلت من لا يريد قتالك على كتِفَيْك . فأغلظ له معاوية ، وقال لعمرو : اكفِنِى صديقك . فأتاه عمرو فأغلظ له ، فقال الهمدانيّ فى ذلك شعرا :

لعمْر أبى معاويةَ بن حربٍ وعَمْــرٍو ، ما لدائهما دَوَاء

---

(1) تكملة من صفين .

(٢-٢) فى صفين : « فذكر أمراً ؛ يعنى لو أن معى اربعين رجلا يوم فتش البيت ـ يعنى بيت فاطمة »

(3) صفين ١٨٢ .

سِوَى طَعْنٍ يحارُ العقل فيه ... وضربٍ حين تختلطُ الدِّماءُ
ولست بتابعٍ دينَ ابنِ هِنْدٍ ... طَوَالَ الدَّهر ماأَرْسَى حِرَاءُ
لَقَدْ ذهبَ العِتاب فلا عتابٌ ... وَقَدْ ذهبَ الوَلَاءُ فلا وَلَاءُ
وقولى فى حوادث كلّ خَطب[1] : ... على عمرٍو وصاحبه العَفَاءُ
ألا لله دَرُّكَ يابنَ هند ... لَقَدْ بَرِح الخفاء فَلَا خَفَاءُ[2]
أتحمون الفرات على رجالٍ ... وفى أيديهمُ الأسلُ الظِّمَاءُ
وَفى الأعناقِ أسيافٌ حِدَادٌ ... كأنّ القومَ عِنْدَهُمُ نِسَاءُ
أترجُو أنْ يجاورَكُمْ علىٌّ ... بلاَ ماءٍ وللأحزابِ ماءُ
دعاهم دعوةً فأجاب قومٌ ... كجُرْبِ الإبْل خالَطَها الهِنَاءُ

قال : ثم سار الهمدانىّ فى سواد الليل حتى لحق بعلىّ عليه السلام .

***

قال :[3] ومكث أصحابُ على عليه السلام بغير ماء ، واغتمّ علىّ عليه السلام بما فيه أهل العراق :

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجانىّ ، قال : لما اغتم علىّ بما فيه أهلُ العراق من العطش ، خرج ليلا قبل رايات مذحِج ، فإذا رجل ينشد شعرا :

أيمنعُنا القومُ ماءَ الفُراتِ ... وَفينَا الرِّمَاحُ وَفينَا الحَجَفْ[4]
وَفينَا الشَّوازِبُ مِثْلَ الوَشِيجِ ... وَفينَا السُّيُوفُ وَفينَا الزَّغَفْ[5]

---

(١) صفين : « كل أمر » .
(٢) برح الخفاء بكسر الراء وفتحها ، أى ظهر ما كان خافيا .
(٣) صفين ١٨٣ ، ١٨٤
(٤) الحجف : جمع حجفة ؛ وهى الترس من جلود الإبل يطارق بعضها فى بعض .
(٥) الشوازب : الخيل الضامرة ؛ والوشيج فى الأصل : شجر الرماح ؛ ويريد به هنا الرماح ؛ شبهها الخيل فى ضمرها . والزغف : الدروع الواسعة .

وَفِينَا عَلِيٌّ لَهُ سَوْرَةٌ   إِذَا خَوَّفُوهُ الرَّدَى لَمْ يَخَفْ
وَنَحْنُ الَّذِينَ غَدَاةَ الزُّبَيْرِ   وَطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَارَ التَّلَفْ(١)
فَمَا بَالُنَا أَمْسِ أُسْدَ الْعَرِينِ   وَمَا بَالُنَا الْيَوْمَ شَاءَ النَّجَفْ(٢)
فَمَا لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ   سِوَى الشَّامِ خَصْمٌ فَصُكُّوا الْهَدَفْ(٣)
وَثُورُوا عَلَيْهِمْ كَبُزْلِ الْجِمَالِ   دُوَيْنَ الذَّمِيلِ وَفَوْقَ الْقَطَفْ(٤)
فَإِمَّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الْفُرَاتِ   وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْهِ جِيَفْ
وَإِمَّا تَمُوتُوا عَلَى طَاعَةٍ   تُحِلُّ الْجِنَانَ وَتَحْبُو الشَّرَفْ
وَإِلَّا فَأَنْتُمْ عَبِيدُ الْعَصَا   وَعَبْدُ الْعَصَا مُسْتَذَلٌّ نَطِفْ(٥)

قال : فحرك ذلك عليًّا عليه السلام ، ثم مضى إلى رايات كِنْدة ، فإذا إنسانٌ يُنْشِد إلى جانب منزل الأشعث ، وهو يقول :

لَئِنْ لَمْ يُجَلِّ الْأَشْعَثُ الْيَوْمَ كُرْبَةً   مِنَ الْمَوْتِ فِيهَا لِلنُّفُوسِ تَعَنَّتُ(٦)
فَنَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ بِسَيْفِهِ   فَهَبْنَا أُنَاسًا قَبْلَ ذَاكَ فَمُوِّتُوا(٧)
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَجْمَعْ لَنَا الْيَوْمَ أَمْرَنَا   وَتَنْضُ الَّتِي فِيهَا عَلَيْكَ الْمَذَلَّةُ(٨)

---

(١) يشير إلى وقعة الجمل ، والغمار : جمع غمرة ؛ وهي الشدة .

(٢) العرين : مأوى الأسد ، والشاء : جمع شاة ، والنجف : الحلب الجيد حتى ينفض الضرع ، ويقال: انتجفت الغنم ؛ إذا استخرجت أقصى ما في الضرع من لبن ، والبيت من شواهد الكافية ؛ على أن «أسد العرين» و «شاء النجف» حالان ؛ إما على تقدير مثل ؛ وإما على تقديرهما بوصف . وانظر خزانة الأدب للبغدادي ١ : ٥٢٨ ، والمسعودي ٢ : ٣٨٠

(٣) صكوا : اضربوا ، وفي صفين : «سوى اليوم يوم» .

(٤) الذميل والقطف : ضربان من السير . والبازل : البعير الذي انشق نابه بدخوله في التاسعة ، وجمعه بزل . وفي صفين : «فدبوا إليهم» .

(٥) عبيد العصا ؛ أي أذلاء . والنطف : المعيب .

(٦) في المسعودي ٢ : ٣٨٠ «تقلت» .

(٧) صفين والمسعودي : «كانوا موتوا» .

(٨) صفين : «وتلق التي فيها عليك التشتت»

فَمَنْ ذَا الَّذِى تُثْنَى الخَنَاصِرُ بِاسْمِهِ   سِوَاكَ ؛ وَمَنْ هــــذا إليه التَّلفتُ!
وَهَلْ مِنْ بقاء بَعْــــدَ يومٍ وَلَيْلَةٍ   نَظَلّ خُفوتاً وَالْعَدُوّ يُصَوِّتُ![1]
هَلُمّوا إلى مَاء الفُرَاتِ وَدُونَهُ   صُدُورُ العَوَالى وَالصَّفيحُ المشتَّتُ
وَأنتَ امرؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ يَمَنِيَّـــةٍ   وكلّ امرئ من سِنْخِهِ حِين يَنْبُتُ[2]

قال : فلمـا سمع الأشعث قولَ الرجل ، قام فأتى عليا عليـه السلام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أيمنعُنا القوم ماء الفُرات ، وأنت فينا ، والسيوفُ فى أيدينا ! خلّ عنّا وعن القوم ، فوالله لا نرجعُ حتى نَرِدَه أو نموت ؛ وَمُرِ الأشترَ فليعلُ بخَيْله ، ويقفَ حيث تأمره . فقال علىّ عليه السلامُ : ذلك إليكم .

فرجع الأشعثُ فنادَى فى النّاس : مَنْ كان يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا ؛ فإنى ناهض . فأتاه اثنا عشر ألفا من كِنْدة وأفناء قَحْطان ، واضعى سيوفهم على عواتقهم ، فشدّ عليـه سلاحه[3] ونهضَ بهم ؛ حتى كاد يخالط أهل الشام ، وجعل يُلْقِى رمحه ، ويقول لأصحابه : بأبى وأمّى أنتم ! تقدموا إليهم قابَ رُمحِى[4] هذا ؛ فلم يزل ذلك دأبَه ؛ حتى خالط القوم ، وحسر عن رأسه ، ونادى : أنا الأشعث بن قيس ! خلّوا عن المـاء . فنادى أبو الأعور : أما [والله][5] حتى لاتأخذَنا وإياكم السيوفُ . فقال الأشعث :

---

(١) صفين : « عطاشا والعدو يصوت » .
(٢) السنخ : الأصل ، وفى صفين : « من غصنه » .
(٣) صفين : وشد عليه سلاحه ، وهو يقول :

مِيعادُنَا اليومَ بَيَاضُ الصُّبْحِ   هَلْ يَصْلُحُ الزّادُ بِغَيْرِ مِلْحِ !
لالا ، وَلَا أمْرٌ بغيرِ نُصْحِ   دِبُّوا إلى القَوْمِ بِطَعْنٍ سَمْحِ
مثـلِ العَزَالِى بطعانٍ نَفْحِ   لَاصُلْحَ لِلْقَوْمِ ، وَأيْنَ صُلْحِى !
حَسْبِى مِنَ الإقحَامِ قَابُ رُمحِ

(٤) قاب رمحى : قدر رمحى .
(٥) من صفين .

قد والله أظنّها دَنَتْ منّا ومنكم . وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره علىّ ، فبعث إليه الأشعث: أقحِم الخيلَ ؛ فأقحمَها حتى وضعت سنابكَها فى الفرات ، وأخذت أهلَ الشام السيوف ، فولوا مدبرين .

***

قال نصر : [1] وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر ، عن أبى جعفر وزيد بن الحسن ، قال: فنادى الأشعث عمرو بن العاص ، فقال : ويحك يا ابنَ العاص ! خلِّ بيننا وبين الماء ، فوالله لئن لم تفعل لتأخذُنا وإياكم السيوف ؛ فقال عمرو : والله لانخلِّى عنه حتى تأخذَنا السيوف وإياكم ، فيعلمَ ربُّنا: أيّنا أصبرُ اليوم . فترجّل الأشعث والأشتر ، وذَوُو البصائر من أصحاب علىّ عليه السلام ، وترجّل معهما اثنا عشر ألفا، فحملوا على عمرو وأبى الأعور ومَنْ معهما من أهلِ الشام ، فأزالوهم عن الماء ، حتى غمست خيلُ علىّ عليه السلام سنابكَها فى الماء .

قال نصر : فروى عمر بن سعد أنّ عليًّا عليه السلام قال ذلك اليوم : هذا يوم نُصرتم فيه بالحَمِيّة [2].

***

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : [3] سمعت تميمًا الناجىّ يقول : سمعت الأشعث يقول : حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفُرات ، فقلت له : ويحك ياعمرو ! أما والله إن كنتُ لأظنّ لك رأيا ؛ فإذا أنت لاعقلَ لك . أترانا نخلّيك والماء! تَرِبَتْ يداك [4] ! أماعلمتَ أنّا معشر عرب ! ثكلتكَ أمّك وهبلتك ! لقد رُمتَ أمرا عظيما . فقال لى عمرو : أما والله لتعلمَنّ اليومَ أنّا سنَفِى بالعهد ، ونُحْكِم العَقْد ، ونلقاكم

(١) صفين ١٨٧
(٢) صفين ١٨٧
(٣) صفين ١٨٩ ، ١٩٠.
(٤) صفين : « يداك وفك »

بصبر وجِدّ . فنادى به الأشتر : يابنَ العاص ؛أمَا والله لقد نزلنا هذه الفُرْضة ، وإنا لنريد القتال على البصائر والدين ، وما قِتالُنا سائر اليوم إلّا حَميّة .

ثم كبّر الأشتر وكبّرنا معه وحَمَلْنا ، فما ثار الغُبار حتى انهزم أهل الشام .

قالوا : فلَقِيَ عَمْرو بن العاص بعد انقضاء صِفّين الأشعث ، فقال له : ياأخا كِنْدَة ، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء ، ولكن كنت مقهوراً على ذلك الرأى ، فكابرتُك بالتهدّد والوعيد ، والحرب خُدْعة .

قال نصر : ولقد كان من رأى عَمْرو التَّخلِيَةُ بين أهل العراق والماء . ورجع معاوية بأخَرة إلى قوله بعد اختلاط القوم فى الحرب ؛ فإن عَمْراً ـ فيما روينا ـ أرسل إلى معاوية: أنْ خَلِّ بين القوم وبين الماء ، أترى القوم يموتون عطشا وهم ينظرون إلى الماء ! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسرىّ : أن خَلِّ بين القوم وبين الماء ياأبا عبد الله ، فقال يزيد ـ وكان شديدَ العثمانية ـ : كلّا والله لنقتلنّهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين .

***

قال : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر، قال : خطب علىّ عليه السلام يوم الماء فقال: « أمّا بعد ؛ فإنّ القوم قد بَدَءوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغى ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء ، فأقِرّوا على مذلّة وتأخير مهلة ...... » الفصل إلى آخره .

قال نصر :وكان(١) قد بلغَ أهلَ الشامِ أنّ عليًّا عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يَقْسِم بينهم التبر والذهب ـ وهما الأحمران ـ وأنْ يعطِىَ كلاًّ منهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة ، فنادى ذلك اليوم منادى أهل الشام : ياأهل العراق ؛ لماذا نزلتم بعَجاج

---

(١) صفين ١٨٧ ، ١٨٨ .

من الأرض ! نحن أزْدُ شَنُوءة لاأزْدُ عمان ، ياأهلَ العراق :

لاخَمْسَ إلا جَنْدَلُ الأحَرّين⁽¹⁾ والخمسُ قَدْ تُجْشِمُكَ الأمَرّين⁽²⁾

* * *

قال نصر : فحدّثنى عمرو بن شمر ،عن إسماعيل السّدىّ ، عن بكر بن تغلب ، قال : حدّثنى⁽³⁾ مَن سَمع الأشعث يوم الفُرات ـ وقد كان له غَناء عظيم مِنْ أهل العراق ، وقَتَل رجالاً من أهل الشام بيده ، وهو يقول : واللهِ إنْ كنتُ لَـكارِهاً قتال أهلِ الصلاة ، ولـكن معى مَنْ هو أقْدَمُ منّى فى الإســلام ، وأعلم بالـكتاب والسنّة ، فهو الّذى يَسْخَى بنفسه .

* * *

(١) لا خمس ، أراد لا خمسمائة . والجندل : الحجارة والأحرين : جمع حرة ، وهى الحجارة السوداء .

(٢) الأمرين : الشر والأمر العظيم ، وفى اللسان (٥ : ٢٥٢) بعـد شرح كلـة « الأحرين » : أنشد ثعلب لزيد بن عتاهية التيمى ، وكان زيد المذكور لما عظم البلاء بصفين قد انهزم ولحق بالـكوفة ، وكان على رضى الله عنه قد أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة من بيت مال البصرة ، فلما قدم زيد على أهله قالت له ابنته : أين خمس المائة ؟ فقال :

إنّ أباكِ فرّ يوم صِفّينْ لما رأى عكّا والأشعريينْ
وقيس عيلان الهوازنيّينْ وابن نمَيْرٍ فى سراة الـكندييّنْ
وذا الـكلاَع سيّد اليمانينْ وحابساً يستنّ فى الطائيّينْ
قال لنفس السوء: هل تفرّين؟ لاخمس إلا جندل الأحَرّينْ
والخمس قدجشمتك الأمرّينْ جَمْزاً إلى الـكوفة من قنّسْرِينْ

ويروى : « قد تجشمك » ، و « قد يجشمنك » . وقال ابن سيده : معنى « لاخمس » ماورد فى حديث صفين أن معاوية زاد أصحابه يوم صفين خمسمائة ، فلما التقوا بعد ذلك قال أصحاب على رضى الله عنه :

* لاخَمْس إلا جندل الأحَرّين *

أرادوا : لا خمسمائة .

(٣) صفين ١٩١ ـ ١٩٢

قال نصر : وحمل[1] ظَبْيان بن عُمارة التميمىّ على أهل الشام ، وهو يقول :

هَلْ لَكَ ياظَبْيَانُ مِنْ بَقَاء ... فى سَاكِنِى الأرْضِ بِغَيْرِ ماء!

لاَ وإلهِ الأرْضِ والسَّماء ... فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الأعداء

بالسَّيفِ عِنْدَ حَمَسِ الهَيْجَاء[2] ... حَتى يجيبُوكَ إلى السَّوَاء

قال : فضَرَبَهُمْ والله حتى خَلَّوْا له الماء .

***

قال نصر : ودعا[3] الأشتر بالحارث بن همام النَّخَعىّ ، ثم الصُّهبانىّ ، فأعطاه لواءه ، وقال له : ياحارث ،لولا أنى أعلم أنك تصبر عند الموت لأخذت لوائى منك ، ولم أحْبُك بكرامتى ، فقال : والله يامالك لأسُرَّنك أو لأموتَنّ ، فاتبِعنى . ثمّ تقدّم باللواء وارتجز ، فقال :

يَاأخَا الخَيْراتِ ياخيْرَ النَّخَعْ ... وَصَاحِبَ النَّصْر إذا عَمّ الفَزَعْ

وكاشِفَ الخَطْبِ إذا الأمرُ وَقَعْ ... ماأنتَ فى الحَرْبِ العَوانِ بالجَذَعْ[4]

قد جَزِعَ القومُ وعُمُّوا بالجَزَعْ ... وجُرِّعُوا الغيظ وغَصُّوا بالجُرَعْ

إنْ تَسقنا الماء فليست بالبِدَعْ ... أو نعطش اليوم فجُنْد مُقْتَطَعْ

* مَا شِئْتَ خُذْ مِنْها وَمَا شِئْتَ فَدَعْ *

فقال الأشتر : ادْنُ مِنّى ياحارث ؛ فدنا منه فقبّل رأسه ، فقال : لايتْبَعُ رأسَه اليومَ إلا خَيْرٌ ؛ ثم صاح الأشتر فى أصحابه : فدتكمْ نفسى اشُدّوا شِدّة المحرَج الرّاجى للفرَج ، فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، فإذا عضتكم السيوف فليعضّ الرجلُ على نواجذه ، فإنّه أشد لشئون[5] الرأس ؛ ثم استقبلُوا القومَ بِهامِكم .

(١) صفين ١٩٢ .

(٢) الحمس : الشدة فى القتال ، وفى صفين : حمس الوغاء » .

(٣) صفين ١٩٣ ، والمسعودى ٢ : ٣٨٦

(٤) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة ؛ كأنهم جعلوا الأولى بكرا . والجذع : الصغير السن.

(٥) الشئون هنا : جمع شأن ؛ وهو موصل قبائل الرأس .

قال : وكان الأشتر يومئذ على فرس له مَحذوف[1] أدْم ، كأنه حَلَكُ الغُراب ، وقتل بيده مِنْ أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة : صالح بن فيروز العكّىّ ، ومالك بن أدهم السَّلمانىّ ، ورِيَاح بن عَتِيك الغسانىّ ، والأجلح بن منصور الكِنْدىّ — وكان فارس أهل الشام — وإبراهيم بن وضّــاح الجُمَحِىّ ، وزامل بن عبيد الحزامىّ ، ومحمد ابن روضة الجمحىّ .

قال نصر : فأول قتيل قتله الأشتر بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز ، ارتجز على الأشتر وقال له :

يا صَاحِبَ الطِّرْفِ الحصان الأَدْهَمِ أَقْــدِمْ إذا شئتَ عَلَيْنا أقْدِمِ
أنا ابنُ ذى العزِّ وذِى التَّـكرُّمِ سَيِّدُ عَكٍّ كُلُّ عَكٍّ فاعلمِ

قال : وكان صالح مشهوراً بالشدة والبأس ، فارتجز عليه الأشتر ، فقال له :

أنا ابنُ خيرِ مَذْحِجٍ مركبًا وخَيرُها نَفساً وأمّاً وأبَا
آليتُ لا أرجعُ حتى أضرِبَا بسيفِيَ المصقولِ ضَرْباً مُنْجِبا

ثم شدّ عليه فقتله ، فخرج إليه مالك بن أدهم السَّلمانىّ — وهو من مشهوريهم أيضا ، فحَمَلَ على الأشتر بالرمح ، فلما رَهِقَه[2] التوى الأشتر على فرسه ومارَ السنان[3] فأخطأه ، ثم استوى على فرسه ، وشدّ على الشامىّ فقتله طعْناً بالرمح ، ثم قتل بعده رياح بن عقيل[4] وإبراهيم بن وضاح ، ثم برز إليه زامل بن عَقِيل — وكان فارسا — فطعن الأشتر فى موضع الجَوْشن[5] فصرعه عن فرسه ، ولم يصب مقتلا ، وشدّ عليه الأشتر بالسيف راجلا فكشف قوائم فرسه ، وارتجز عليه فقال :

(١) المحذوف : المقطوع الذنب .

(٢) رهقه : غشيه .

(٣) مار السنان : اضطرب .

(٤) صفين : « رياح بن عتيك »

(٥) الجوشن : الصدر .

لَا بُدَّ مِنْ قتلي أو مِنْ قَتْلِكَا   قتلتُ منكم أربعًا من قبلكا[1]

* كلهم كانوا حُمَاةً مِثْلَكَا *

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله ، ثم خرج إليه محمد بن روضة ، فقال ، وهو يضرب فى أهل العراق ضَرْبًا منكرا :

ياسا كِنِى الكوفةِ ياأهلَ الفتَنْ   ياقاتِلى عُثْمانَ ذاكَ المُؤْتمَنْ

أورث قلبى قتله طُولَ الحزَنْ   أضربُكم وَلَا أرَى أبا حَسَنْ !

فشدّ عليه الأشتر فقتله ، وقال :

لايبعِد اللهُ سِوَى عُثْمانَا   وَأنْزَلَ اللهُ بِكُمْ هَوَانا

* وَلَا يُسَلِّى عَنْكُمُ الأحْزَانا[2] *

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكِندى — وكان من شجعان العرب وفُرسانها — وهو على فرَس له اسمه لاحق ، فلما استقبله الأشتر ، كره لقاءه واستحيا أن يرجعَ عنه ، فتضاربا بسيفيهما ، فسبقه الأشتر بالضَّرْبة فقتله ، فقالت أخته ترثيه :

ألا فابْكِى أخا ثِقَةٍ   فقَدْ واللهِ أبْكِينا

لقتلِ الماجد القَمْقا   م لا مِثْلَ له فينا[3]

أتانَا اليومَ مقتلُه   فقد جُزَّتْ نَوَاصِينا

كريمٌ ماجِدُ الجدَّيْ   نِ يَشْفِى مِنْ أعادِينا

شفانا اللهُ من أهل الـ   ـعراقِ فقد أبادُونا

أمَا يخشَوْنَ رَبَّهُمُ   ولَمْ يرعَوْا له دِينا !

---

(١) صفين : « قتلت خمسة »

(٢) بقية الرجز كما فى صفين :

مخالفٌ قَدْ خالَفَ الرَّحْمَانا   نَصَرْتُمُوهُ عابداً شيطــانا

(٣) القمقام : السيد الكثير العطاء .

قال : وبلَغ شعرُها عليًا عليه السلام ، فقال : أما إنهُنّ ليس بمَلْكهنّ ما رأيتم من الجزَع ، أما إنهم قد أضرُّوا بنسائهم ، فتركوهنّ أيامَى حزَانى[1] بائسات . قاتل الله معاوية ! اللهم حمّله آثامهم وأوزَارا وأثقالا مع أثقاله ! اللهم لا تعفُ عنه !

***

قال نصر : وحدثنا[2] عمرو بن شمر، عن جابر ، عن الشعبيّ ، عن الحارث بن أدهم، وعن صعصعة ، قال: أقبل الأشترُ يوم الماء ، فضرب بسيفه جمهورَ أهل الشام حتى كشفهم عن الماء ، وهو يقول :

لَاتَذْكُروا مَاقَدْ مَضَى وَفَاتَا ... وَاللهِ رَبِّى البَاعِثِ الأَمْوَاتَا
مِنْ بَعْدِ ماصاروا كَذَا رُفَاتَا[3] ... لأُورِدَنّ خَيْلِيَ الفُرَاتَا

* شُعْثَ النَّواصِى أو يقالَ ماتا *

قال : وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: لله أبوك! ليست النَّخَع بخير مِنْ كِنْدة ، قدِّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق . فتقدم لواء الأشعث ، وحملت الرجال بعضُها على بعض ، وحمل فى ذلك اليوم أبو الأعور السلمىّ؛ وحمل الأشترُ عليه ، فلم ينتصف أحدُهما من صاحبه ، وحمل شُرحبيل بن السِّمط على الأشعث ، فكانا كذلك ، وحمل حَوْشب ذو ظليم على الأشعث أيضا ، وانفصلا ولم ينلْ أحدهما من صاحبه أمرا ، فما زالوا كذلك حتى انكشفَ أهلُ الشام عن الماء ، وملك أهلُ العراق المشرَعة .

***

قال نصر : فحدّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجانى ، قال : قال[4] عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهلُ العراق الماء : ماظنّك يامعاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتَهم

---

(١) صفين : « خزايا » .
(٢) صفين ٢٠١
(٣) صفين : « صدى فراتا » .
(٤) صفين ٢٠٨

أمس ! أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ! ماأغنى عنك أن تكشف لهم السوءة . فقال معاوية : دع عنك مامضى ، فما ظنّك بعليّ ؟ قال : ظنى أنه لايستحلّ منك مااستحللت منه ، وأنّ الذى جاء له غير الماء . قال : فقال له معاوية قولا أغضبه ، فقال عمرو :

أمرتُك أمراً فسخّفتَــــهُ ... وخالفنى ابن أبى سَرْحَهْ (١)

وأغمضتَ فى الرّأيِ إغماضةً ... ولم ترَ فى الحرب كالفُسْحَهْ

فكيفَ رأيتَ كِباشَ العِراقِ ... ألم ينطحُوا جَمْعَنا نَطْحَهْ !

فإن ينطحونا غداً مثلها ... تَكنْ كالزبيرىّ أو طلْحَهْ

أظنّ لهـا اليومَ مابعدَهـا ... وميعـــاد مابيننا صُبْحَهْ

وإن أخروها لِماَ بَعدَها ... فقد قدّمُوا الخبطَ والنّفْحَهْ

وقدشرب القومُ ماءالفراتِ ... وَقلّدَكَ الأشترَ الفَضْحَهْ

قال نصر : فقال أصحاب علىّ عليه السلام له : امنعهم الماء ياأمير المؤمنين كما منعوك . فقال : لا ، خلّوا بينهم وبينه ، لا أفعل مافعله الجاهلون ، سنعرض عليهم كتابَ الله ، وندعوهم إلى الهدى ، فإن أجابوا ؛ وإلا ففى حدّ السيف مايغنى إن شاء الله .

قال : فوالله ماأمسى الناس حتى رأوا سُقاتهم وسقاةَ أهل الشام وَرواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء ، مايؤذِى إنسانٌ إنسانا .

---

(١) يريد بابن أبى سرحة عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٥٢)(*)

ومن خطبة له عليه السلام ، وقد تقدم مختارها برواية ، ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى ، لتغاير الروايتين :

الأصلُ :

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاء ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاء ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا ، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا ، وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً ، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ ، أَوْ جُرْعَةٌ(١) كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ .

فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ ، وَلاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا(٢) الْأَمَدُ . فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ ؛ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ .

وَبِاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمُ انْمِيَاثاً ، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ ـ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ ـ دَماً ، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا ـ مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ ـ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ ـ وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ ـ أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ .

(*) انظر الخطبة رقم ٢٨ الجزء الثانى ص ٩١

(١) مخطوطة النهج : « وجرعة » .

(٢) كلمة « فيها » ساقطة فى مخطوطة النهج .

الشرح

تصرّمت : انقطعت وفنيت . وآذنت بانقضاء : أعلمَت بذلك ، آذنته بكذا ، أى أعلمه .

وتنكّر معروفها : جُهِل منها ما كان معروفا .

والحذّاء : السريعة الذهاب ، ورحِم حذاء : مقطوعة غير موصولة . ومن رواه «جذّاء» بالجيم ، أراد منقطعة الدَّرّ والخير .

وتحفز بالفناء سكانها : تُعجلهم وتسوقهم . وأمَرّ الشىء : صار مُرّا . وكدر الماء ، بكسر الدال ، ويجوز كدُر بضمها . والمصدر من الأوّل كَدَراً ، ومن الثانى كُدُورة .

والسَّمَلة ، بفتح الميم : البقيّة من الماء تَبقى فى الإناء .

والمَقْلة ، بفتح الميم وتسكين القاف : حصاة القَسْم التى تلقى فى الماء ليعرف قَدْر ما يُسقى كلّ واحد منهم ؛ وذلك عند قلة الماء فى المفاوز ، قال :

قَذَفُوا سَيِّدَهُمْ فى ورطة قَذْفَكَ المَقْلَةَ وَسْطَ المعترك[1]

والتمزّز : تمصّص الشراب قليلا قليلا . والصديان : العطشان .

ولم ينقع : لم يَرْوِ ؛ وهذا يمكنُ أن يكونَ لازما ، ويمكن أن يكون متعدّيا ، تقول : نقع الرجل بالماء ، أى روى وشفى غليله ، ينقع . ونقع الماء الصدىَ ينقع ، أى سكّنه .

فأزمعوا الرحيل ، أى اعزموا عليه ، يقال : أزمعت الأمر ، ولا يجوز أزمعت على الأمر ؛ وأجازه الفرّاء .

قوله : «المقدور على أهلها الزوال» ، أى المكتوب ، قال :

واعلم بأنْ ذَا الجلال قد قَدَرْ فى الصحف الأولى الذى كان سُطِرْ

---

(١) اللسان ١٤ : ١٥٠ ، ونسبه إلى يزيد بن طعمة الخطمى .

أى كتب. والوُلّه المجال : النُّوق الوالهة الفاقدة أولادَها ، الواحدة مجُول، والوَله: ذهاب العقل وفقد التمييز .

وهديل الحمام : صوت نوحه . والجؤار : صوت مرتفع. والمتبتّل : المنقطع عن الدنيا. وانماث القلب ، أى ذاب .

وقوله : « ولو لم تبقوا شيئا من جُهْدكم » اعتراض فى الكلام .

وأنعمه ، منصوب لأنه مفعول « جزت » .

***

وفى هذا الكلام تلويح وإشارة إلى مذهب البغداديّين من أصحابنا فى أنّ الثواب على فعل الطاعة غير واجب ؛ لأنه شكر النعمة، فلا يقتضى وجوبَ ثواب آخر ؛ وهو قوله عليه السلام : « لو انماثت قلوبكم انمياثا .... » ، إلى آخر الفصل .

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك، بل يقولون: إنّ الثواب واجب على الحكيم سبحانه ، لأنه قد كلّفنا ما يشقّ علينا ، وتكليف المشاقّ كإنزال المشاقّ ، فكما اقتضت الآلام والمشاقّ النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا، كذلك تقتضى التكليفات الشاقة ثوابا مستحَقّاً عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها ، قالوا : فأما ما سلف من نعمه علينا فهو تفضّل منه تعالى ، ولا يجوز فى الحكمة أن يتفضّل الحكيم على غيره بأمر من الأمور ، ثم يُلزِمه أفعالا شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضّل ؛ إلا إذا كان فى تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحكيم، فكان ما سلَف من المنافع جاريا مجرى الأجرة ؛ كمن يدفع درهما إلى إنسان ليَخيط له ثوبا، والبارئ تعالى منزّه عن المنافع ؛ ونعمه علينا منزهة أن تجرى مجرى الأجرة على تكليفنا المشاقّ .

وأيضا فقد يتساوى اثنان من الناس فى النعم المنعَم بها عليهما ، ويختلفان فى التكاليف،

فلو كان التكليف لأجل ما مضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها . فإن قيل : فعلى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين ؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين ؛ ولكنه قال : لو عبدتموه بأقصى ماينتهى الجُهْد إليه ماوفّيتم بشكر أنعمه ؛ وهذا حقٌّ غيرُ مختلف فيه، لأنّ نعم البارئ تعالى لاتقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا فى عبادته والخضوع له والإخلاص فى طاعته؛ ولا يقتضى صدق هذه القضية وصحتها صحةَ مذهب البغداديين فى أنّ الثواب على الله تعالى غيرُ واجب؛ لأنّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة .

* * *

[ما قيل من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

فأما ما قاله الناس فى ذمّ الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها وتنكّرها لأهلها ، والشكوى منها، والعتاب لها والموعظة بها، وتصرمها وتقلّبها ، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم :

هىَ الدُّنيَا تَقُولُ بملْءِ فِيهـــا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِى وَفَتْكِى[1]
فلا يغررْكُمُ حُسْنُ ابتسامى ... فَقَوْلِى مُضْحِكٌ والفعل مُبْكِ

وقال آخر :

تنحّ عَنِ الدُّنيَا وَلَا تَطْلُبَنَّهـــا ... وَلَا تَخْطُبَنْ قتالةَ مَنْ تُنَاكِحُ
فَلَيْسَ بِفِى مَرْجُوُّهَا بمَخُوفِهـــا ، ... وَمَكْرُوهُهَا إمّا تأمّلتَ رَاجِحُ
لَقَدْ قال فيهـــا القائلون فأكثرُوا ... وَعِندِى لها وصفٌ لعَمْرُك صالِحُ
سُلافٌ ، قُصَاراها ذُعَافٌ ، ومركبٌ ... شهىّ إذا استلذذته فهو جامِحُ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُه ... ولكنْ له أفعـــالُ سُوء قبائحُ

---

(١) لأبى الفرج الساوى ، معاهد التنصيص ٤ : ٢٤١ .

وقال أبو الطيّب :

آبداً تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا (١)
وهي معشوقة على الغدر لا تحفظ عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنها تخلى
شيم الغانيات فيها ولا أدري لذا أنث اسمها الناس أم لا

وقال آخر :

إنما الدنيا عوار والعواري مستردة (٢)
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

وقال محمد بن هانئ المغربي :

وما الناس إلا ظاعن فمودع وثاو قريح الجفن يبكي لراحل (٣)
فما الدهر إلا كالزمان الذي مضى ولا نحن إلا كالقرون الأوائل
نساق من الدنيا إلى غير دائم ونبكي من الدنيا على غير طائل
فما عاجل نرجوه إلا كآجل ولا آجل نخشاه إلا كعاجل

وقال ابن المظفر المغربي :

دنياك دار غرور ونعمة مستعارة
ودار أكل وشرب ومكسب وتجارة
ورأس مالك نفس نخف عليها الخسارة

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١
(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ١٢٦ من غير نسبة .
(٣) ديوانه ٥٨٧ (طبعة المعارف)

ولا تَبغهَا بأكلٍ وطيب عَرْفٍ وَشَارَهْ
فإنّ مُلْكَ سليما نَ لا يفي بشَرَارَهْ

•••

وقال أبو العتاهية :

ألا إنّما التقوى هِيَ البرُّ والكَرَمْ وَحُبُّكَ للدُّنيا هو الفَقْرُ والعَدَمْ[1]
وَليس عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍ غضاضَةٌ إذا صَحّحَ التَّقْوى وإن حاكَ أو حَجَمْ[2]

وقال أيضاً :

تَعلّقْتَ بآمالِ طوالٍ أيّ آمالِ
وأقبلْتَ على الدُّنيا مُلِحّاً أيّ إقبالِ
أيا هَذا تجهّزْ لِفراقِ الأهل والمال
فلا بدّ مِنَ الموتِ عَلَى حالٍ مِنَ الحالِ

وقال أيضاً :

سَكَنٌ يَبقَى لَهُ سَكَنُ ما بِهذا يُؤذِنُ الزّمَنُ[3]
نَحنُ في دارٍ يُخبّرُنا ببلاها ناطقٌ لَسِنُ
دَارُ سُوءٍ لم يدم فَرَحٌ لامرئٍ فيها وَلَا حَزَنُ
في سبيل الله أنفُسُنا كُلّنا بالموتِ مُرْتَهَنُ
كلّ نفسٍ عِندَ مَوْتتها حَظُّها مِن مالِها الكَفَنُ
إنّ مالَ المرء ليس له مِنهُ إلا ذِكْرُهُ الحَسَنُ

(١) ديوانه ٢٤٣
(٢) ديوانه ٢١٣
(٣) ديوانه ٢٠٢

وقال أيضاً :

أَلا إِنَّنا كُلُّنا بائِدُ ... وأَيُّ بَنِي آدمٍ خالِدُ ! (١)

وَبَدْؤُهُمُ كانَ مِنْ رَبِّهِمْ ... وَكُلٌّ إلى رَبِّهِ عائِدُ

فواعجباً كيف يَعصِي الإِلـ ... ـهَ أَمْ كيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تَدُلُّ على أَنَّه الواحِدُ

وقال الرضي المُوسوي :

يا آمِنَ الأيامِ بادِرْ صَرْفَها ... واعْلَمْ بِأَنَّ الطالبينَ حِثاثُ (٢)

خُذْ مِنْ تُراثِكَ ما استطعتَ فإنَّما ... شُرَكاؤكَ الأيامُ والوُرَّاثُ

لَمْ يَقْضِ حَقَّ المالِ إلَّا مَعْشَرٌ ... نَظَرُوا الزَّمانَ يَعِيثُ فيه فَعاثُوا

تَحنُو على عَيْبِ الغَنِيِّ يَدُ الغِنَى ... وَالفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الفَتَى بَحَّاثُ

المَالُ مالُ المَرْءِ ما بلغَتْ به الشَّهَوَاتُ أو دُفِعَتْ به الأحداثُ

ما كانَ مِنْهُ فاضِلاً عَنْ قُوتِهِ ... فَلْيَعْلَمَنَّ بأَنَّه مِيراثُ

مالي إلى الدنيا الدنيَّةِ حاجةٌ ... فَلْيَخْزَ ساحِرُ كيدِها النَّفَّاثُ

طَلَّقْتُها أَلفاً لأحسِمَ داءَها ... وطلاقُ مَنْ عَزَمَ الطَّلاقَ ثَلاثُ

وَثَبَاتُها مَرْهُوبَةٌ، وَعِدَاتُها ... مَكْذُوبَةٌ ، وحِبالُها أَنكاثُ

أُمُّ المصائبِ لا تَزالُ تَرُوعُنا ... مِنْها ذُكُورُ حَوادِثٍ وإناثُ

إنِّي لأَعْجَبُ للذين تَمَسَّكوا ... بِحبائلِ الدُّنيا ، وَهُنَّ رِثاثُ

كَنَزوا الكُنوزَ وأَعْقَلوا شَهَواتِهِم ... فالأرضُ تَشْبَعُ والبُطونُ غِراثُ

أَتُراهُمُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ التُّقَى ... أَزْوَادُنا ، ودِيارُنا الأجداثُ !

---

(١) ديوانه ٦٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٣ ، وفيه : « يا آمن الأقدار »

وقال آخر :

هـذهِ الدنيا إذا صَرَفَتْ   وَجْهَهـا لم تنفع الحِيَلُ
وإذا ماأقبَلَتْ لِعَمِ   بَصَّرَتْهُ كَيفَ يفتعِلُ
وإذا ما أدبَرَتْ لِذَكِي   غَابَ عَنهُ السَّهلُ والجبَلُ
فَهِيَ كالدُّولابِ دائِرَةٌ   تَرتقِي طَوْراً وَتَستَفِلُ
فِي زَمانٍ صارَ ثَعلَبُهُ   أسَداً واستَذأبَ الحَمَلُ
فالذُّنابَى فيه ناصيـــةٌ   والنَّواصِي خُشَّعٌ ذُلُلُ
فاصْبِرِي يانَفْسُ واحتَمِلِي   إنَّ نَفسَ الحرِّ تَحتَمِلُ

وقال أبو الطيب :

نُعِدُّ المشرَفيَّـةَ والعَوالِي   وتَقتُلُنا المَنونُ بلا قِتالِ[1]
وَنَرتَبِطُ السَّوابِقَ مُقرَباتٍ   وَمايُنجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيالِي[2]
وَمَنْ لَمْ يَعشَقِ الدُّنيا قديماً   وَلَـكِنْ لاسَبِيلَ إلى الوِصالِ!
نصيبُكَ فى حياتك مِن حَبيبٍ   نَصيبُكَ فى منامك مِنْ خَيالِ
رَمانِي الدَّهرُ بالأرزاء حتى   فُؤادِي في غِشـــاءٍ مِنْ نِبالِ
فصِرْتُ إذا أصابَتنِي سِهامٌ   تَـكَسَّرَتِ النِّصالُ عَلَى النِّصالِ
وَهانَ فَمـــا أبالى بالرَّزايا   لأنِّي ما انتَفَعْتُ بِأنْ أبالِي
يُدَفِّنُ بَعضُنا بَعضـــاً وَيَمشِي   أواخِرُنا عَلَى هامِ الأوالِي
وَكَمْ عَينٍ مُقَبَّــــلَةِ النَّواحِي   كَحِيلٍ فى الجنـــادلِ والرمالِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٨ ، المشرفية : السيوف ، والعوالى : الرماح .
(٢) المقربات من الخيل : الكرام التى تربط لكرامتها على أصحابها .

وَمُغْضٍ كانَ لا يُغْضِي لخطبٍ وبالٍ كان يُفكِرُ في الهُزالِ

* * *

وقال أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة في ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة :

مَا زَالَتِ الدُّنيا لنا دارَ أذى ممزوجةَ الصَّفوِ بألوانِ القَذَى [1]

الخيرُ والشرُّ بها أزواجُ لِذا نِتاجٌ ، ولذا نِتاجُ

مَنْ لكَ بالمحضِ وليسَ مَحضُ يَخبُثُ بعضٌ ويَطيبُ بعضُ

لِكلِّ إنسانٍ طبيعتانِ خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدّانِ

والخيرُ والشرُّ إذا ما عُدّا بينهما بَونٌ بعيدٌ جِدّا

إنّكَ لو تَستَنشِقُ الشحيحا وجدتَه أنتنَ شيءٍ ريحا

حَسْبُكَ مِمّا تبتغيهِ القُوتُ ما أكثرَ القُوتَ لِمَن يموتُ !

الفقرُ فيما جاوزَ الكَفافا مَن اتّقى اللهَ رَجا وخافا

هِيَ المقاديرُ فلُمني أو فذَرْ إنْ كنتُ أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ

لِكلِّ ما يؤذي وإنْ قلَّ ألمْ ما أطولَ الليلَ على مَن لم يَنَمْ !

ما انتفعَ المرءُ بمثلِ عقلِهِ وخيرُ ذُخرِ المرءِ حُسنُ فِعلِهِ

إنَّ الفسادَ ضِدُّهُ الصلاحُ وربَّ جِدٍّ جَرَّهُ المِزاحُ

مَنْ جعلَ النمّامَ عَيناً هَلَكا مُبلِغُكَ الشرَّ كباغيهِ لكا

إنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَهْ مَفسَدةٌ للمرءِ أيُّ مَفسَدَهْ

يُغنيكَ مِن كُلِّ قبيحٍ تَركُهُ قد يُوهِنُ الرأيَ الأصيلَ شكُّهُ

ما عيشُ مَنْ آفتُهُ بقاؤُهُ نَغَّصَ عيشاً ناعماً فناؤُهُ [2]

---

(١) ديوانه ٣٤٦ مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

(٢) الديوان : « بقاؤه » ، « فناؤه » .

يارُبَّ مَنْ أسخطنا بِجُهْدِهِ قَدْ سَرَّنا اللهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ

ماتَطلعُ الشمسُ وَلَا تَغيبُ إلّا لأمرٍ شأنُهُ عَجيبُ

لِكلِّ شيء قَدْرٌ وَجَوهَرُ وَأَوسَطٌ وَأَصغَرٌ وَأَكبَرُ

وَكُلُّ شيء لاحقٌ بجوهرِهِ أصغَرُهُ متصلٌ بأكبَرِهِ

مَن لَكَ بِالمَحْضِ وَكُلٌّ مُمتَزِجْ وَساوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنكَ تَختَلِجْ

عجبتُ واستغرقني السُّكوتُ حتى كأنّي حائرٌ مَبهوتُ

إذا قَضى الله فكيف أصنَعُ والصَّمتُ إن ضاقَ الكلامُ أوسَعُ

وقال أيضاً :

كلٌّ عَلَى الدُّنيا لَهُ حِرْصُ والحادِثاتُ لَنا بِها قَرْصُ (١)

وكأنَّ مَنْ وارَوْهُ في جَدَثٍ لم يَبْدُ مِنْهُ لِناظرٍ شَخصُ

يَهْوَى مِن الدّنيا زِيادَتَها وزيادةُ الدُّنيا هِيَ النَّقصُ

لِيَدِ المَنِيّةِ في تَلَطُّفِها عَنْ ذُخْرِ كُلِّ نَفيسَةٍ فَحصُ

وقال أيضاً :

أبلَغَ الدَّهرُ فِي مواعِظِه بَلْ زادَ فِيهِنّ لِي من الإبلاغِ (٢)

أيَّ عَيْشٍ يكونُ أطيبَ من عيشٍ كَفافٍ قوتٍ بِقَدْرِ البَلاغِ

غصبتنيَ الأيّام أهلي ومالي وشبابي وصحتي وفراغي

صاحِبُ البَغْيِ لَيْس يَسْلَمُ مِنْهُ وَعَلَى نَفسِهِ بَغَى كُلُّ باغٍ

رُبَّ ذِي نعمة تعرض مِنها حائلٌ بينَهُ وبَيْنَ للساغ

***

(١) ديوانه ١٣٦ .

(٢) ديوانه ١٦٤ .

وقال ابن المعتز :

حَمداً لِرَبِّى وَذَمًّا للزَّمَانِ فَمَا أَقُلْ فِي هَــذِهِ الدُّنيَا مَسَرَّاتِى !
كفت يَدِى أملِي عن كلِّ مُطَّلَبٍ وَأَغْلَقَتْ بَابَهَا مِنْ دُونِ حاجَاتِى

وله أيضاً :

ألستَ ترى يا صاح ما أعجبَ الدَّهْرَا فَذَمًّا لَهُ ، لَـكِنْ لِلْخَالِقِ الشُّـكْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الموتَ البقاء الَّذِى أرَى فَيَا حَبَّذَا مِنِّى لِمَنْ سَكَنَ الْقَبْرَا
وَسُبْحانَ رَبِّى راضياً بقضــائِهِ وَكَانَ اتقانى الشرَّ يُغْرِى بِيَ الشَّرَا

وله :

قُلْ لدنياك : قد تمـكّنتِ منِّى فافْعَلِي ما أَرَدْتِ أن تفعلِي بي
واخرقى كيف شئت خَرْقَ جهُولٍ إن عندى لك اصطبارَ لَبِيبِ

وقال أبو العلاء المعرّى :

والدهْرُ إبْرَامٌ ونَقْضٌ وَتَفْـ رِيق وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَلَيْلْ (١)
لو قال لى صاحبه سَمِّــــهِ ما جزت عن ناجية أو بديلْ

وقال آخر :

والدَّهرُ لا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ لا بُدَّ أنْ يُدْبِرَ أوْ يُقْبِلاَ

وقال أبو الطيب :

ما لى وللدُّنيا طلابى نجومُها وَمَسْعَاىَ مِنْهَا فى شدوقِ الأَرَاقِمِ (٢)

---

(١) سقط الزند ١٦٩ .

(٢) ديوانه ٤ : ١١١ . الاراقم : الحيات .

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ	فما اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما الأيام إلا كما ترى	رزيّة مالٍ ، أو فِراقُ حَبِيب

الوزير المهلبيّ :

أَلَا مَوْتٌ يُبَاعُ فأَشْتَرِيهِ	فَهَذَا الْعَيْشُ مَالَا خَيْرَ فِيهِ (١)

أَلَا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ	تصدّقَ بالمماتِ عَلَى أخِيهِ

وله :

أشكو إلى الله أحداثاً من الزّمنِ	تبريننى مثل برى القدح بالسّفنِ

لَمْ يَبْقَ بالعيشِ لى إلا مرارته	إذا تذوّقتهُ ، والحلو منه فنِى

لا تحسبنّ نِعَماً سرّتك صحبتُها	إلا مفاتيح أبوابٍ من الحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَلَا أَيُّهَا الدَّهرُ الذى قَدْ مللتُهُ	سألتك إلا ما سَلَبْتَ حياتى

فقد وجلالِ الله حبّبتَ جاهِداً	إلىّ ــ عَلَى كُرْهِ المماتِ ــ مماتى

وله :

أَلَمْ تَرَ أنّ الدّهرَ يَهْدِمُ ما بَنَى	وَيَسْلُبُ ما أعطى وَيفسِدُ ما أسْدَى

فَمَنْ سَرَّهُ ألّا يرَى ما يَسُوءهُ	فَلَا يَتَّخِذْ شيئاً يخافُ لَهُ فَقْدا

البحتريّ :

كأنّ اللّيالى أغرِيَتْ حادِثَاتُها	بِحُبِّ الذى تأبى ، وبغضِ الذى تهْوَى (٢)

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٢

(٢) ديوانه ١ : ١٠

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ لَمْ يَرَ خَفْضَها نعيما ولم يعدُدْ مضرَّتَها بَلْوَى

أبو بكر الخوارزمى :

مَا أَثقَلَ الدَّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهْ
حَـدَّثَنِى عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِبَهْ
لا تَشْـكُرِ الدَّهْرَ لخير سَبَّبَهْ
فإنّه لم يتعمَّـــــدْ بالهِبَهْ
وإنَّمـــا أخطأ فيكَ مَذْهَبَهْ
كالسَّيْلِ قَدْ يَسْقِى مَـكانًا أَخْرَبَهْ
والسُّمِّ يَسْتَشْفِى به مَنْ شَرِبَهْ

وقال آخر :

يَسْعَى الفَتَى فى صَلَاحِ العَيْشِ مُجْتَهِداً والدَّهْرُ مَا عَاشَ فى إفسادِهِ سَاعِى

آخر :

يَغُرُّ الفَتَى مَرُّ الليالى سَلِيمَةً وَهُنَّ بِهِ عَمَّا قَلِيـــلٍ عَوَاثِرُ

آخر :

إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ على أُنَاسٍ كلاكِلَه أناخَ بآخَرِينا
فَقُلْ للشَّامِتِين بِنا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كما لَقِينا

آخر :

قُلْ لِمَنْ أَنْـكَرَ حالاً مُنْـكَرَهْ وَرَأَى مِنْ دَهْرِهِ ماحَيَّرَهْ
لَيْسَ بِالمُنْـكَرِ ما أَنْـكَرْتَهُ كُلُّ مَنْ عَاشَ رَأَى مالَمْ يَرَهْ

ابن الرومى :

سَـكَنَ الزَّمانُ وَتَحْتَ سَـكْنَتِهِ دَفَعٌ مِنَ الحَرَكَاتِ والبَطْشِ

كَالأُفعُوَانِ تَرَاهُ مُنْبَطِحاً بالأرضِ ثمّ يَثُورُ لِلنَّهْشِ

أبو الطيب :

إنَا لَفِي زَمنٍ تَرْكُ القَبِيحِ بِهِ مِنْ أكثرِ النّاسِ إحْسانٌ وإجْمالُ[1]

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثّاني وَحاجَتُهُ ماقَاتَهُ ، وَفُضُولُ العَيْشِ أشْغَالُ

وقال آخر :

جَارَ الزّمَانُ عَلَيْنا فِي تَصَرُّفِهِ وأيُّ حُرٍّ عَلَيْهِ الدّهرُ لَمْ يَجُرِ !

عِنْدِي مِنَ الدّهرِ مالو أن أيْسَرَهُ يُلقَى عَلَى الفلكِ الدّوارِ لم يَدُرِ

آخر :

هذَا الزّمانُ الّذِي كُنّا نُحاذِرُه فِيما يحدّث كَعْبٌ وابنُ مسعودِ

إنْ دَامَ هَذَا ولم تعقب لَهُ غِيَرٌ لَمْ يُبْكَ مَيتٌ ، وَلَمْ يُفْرَحْ بمولودِ

آخر :

يازَمَاناً ألبَسَ الأحْــرَارَ ذُلّاً وَمَهانَهْ

لَسْتَ عِنْدِي بِزَمانٍ إنما أنتَ زَمانَه

أجُنُونٌ ما نَراه مِنْكَ يَبْدُو أمْ مَجَانَهْ !

الرضيّ الموسويّ :

تَأبى اللّيالي أنْ تُدِيمَـا بُؤْساً لِخَلْقٍ أوْ نَعِيما[2]

والمَرْءُ بالإقبال يَبْـ لُغُ وادِعاً خَطَرا جَسِيماً

فإذا انقضَى إقبالُهُ رَجَعَ الشفيعُ لَهُ خَصِيما

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٨٧

(٢) ديوانه لوحة ٩٤

وَهُوَ الزَّمَانُ إِذَا نَبَا ... سَلَبَ الَّذِي أَعْطَى قَدِيمَا
كَالرِّيحِ تَرْجِعُ عَاصِفاً ... مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأَتْ نَسِيمَا

أبو عثمان الخالدي :

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَكْبَرَهَا ... فَمَا أُعَادِي عَلَى أَحْدَاثِهَا الصُّغَرِ
تَزِيدُنِي قَسْوَةَ الأَيَّامِ طِيبَ ثَنًا ... كَأَنَّنِي الْمِسْكُ بَيْنَ الْفِهْرِ وَالْحَجَرِ

السريّ الرفّاء :

تَنَكَّدَ هذَا الدَّهْرُ فِيمَا يَرُومُهُ ... عَلَى أَنَّهُ فِيمَا نُحَاذِرُهُ نَدْبُ (١)
فَسَيْرُ الَّذِي نَرْجُوهُ سَيْرٌ مُقَيَّدٌ ... وَسَيْرُ الَّذِي نَخْشَى غَوَائِلَهُ وَثْبُ

ابن الرومي :

أَلاَ إِنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِبَ جَمَّةً ... وَأَعْجَبُهَا أَلاَّ يَشِيبَ وَلِيدُهَا
إِذَا ذَلَّ فِي الدُّنْيَا الأَعِزَّاءُ وَاكْتَسَتْ ... أَذِلَّتُهَا عِزًّا وَسَادَ مَسُودُهَا
هُنَاكَ فَلاَ جَادَتْ سَمَاءٌ بِصَوْبِهَا ... وَلاَ أَمْرَعَتْ أَرْضٌ، وَلاَ اخْضَرَّ عُودُهَا
أَرَى النَّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ ... عَلَى الأَرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا
وَمَا الْخَسْفُ أَنْ يُلْقَى أَسَافِلُ بَلْدَةٍ ... أَعَالِيَهَا ؛ بَلْ أَنْ يَسُودَ عَبِيدُهَا

السري الرفاء :

لَنَا مِنَ الدَّهْرِ خَصْمٌ لاَ نُطَالِبُهُ ... فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ كَفَّتْ نَوَائِبُهُ (٢) !
يَرْتَدُّ عَنْهُ جَرِيحاً مَنْ يُسَالِمُهُ ... فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ يُحَارِبُهُ !
وَلَوْ أَمِنْتُ الَّذِي تَجْنِي أَرَاقِمُهُ ... عَلَيَّ هَانَ الَّذِي تَجْنِي عَقَارِبُهُ

---

(١) ديوانه ٣٦
(٢) ديوانه ٥٤ ، وفيه : « خصم لا نغالبه » .

أبو فراس بن حمدان :

تَصَفَّحْتُ أحْوالَ الزَّمانِ وَلَمْ يَكُنْ ... إلى غَيْرِ شاكٍ للزَّمانِ وُصُولُ[1]

أكُلَّ خليلٍ هكذا غَيْرُ منصِفٍ ... وكلُّ زمانٍ بالكرام بخيلُ !

ابن الرومىّ :

رَأيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كلَّ وَغْدٍ ... وَيخفِضُ كلَّ ذِي شِيَمٍ شَرِيفَهْ

كَمِثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَىّ ... وَلَا يَنفكّ تَطْفُو فيه جِيفَهْ

أو الميزان يخفِضُ كلَّ وافٍ ... وَيَرْفَعُ كلَّ ذى زِنَةٍ خَفِيفَهْ

ابن نُباتة :

وأصغَرُ عيبٍ فى زَمَانِك أنّه ... به العِلْمُ جَهْلٌ ، والعفافُ فُسُوقُ

وَكَيفَ يُسَرّ المرءُ فيه بمَطْلَبٍ ... وما فيه شىء بالسرور حَقِيقُ !

* * *

أبو العتاهية :

لِتَجذبنِّى يَدُ الدُّنْيَا بِقُوَّتها ... إلى المنايا ، وإنْ نازَعْتُها رَسَنِى[2]

لِلّهِ دُنْيَا أُناسٍ دائبينَ لَهَا ... قد ارْتَعَوْا فى غِياضِ الغَىِّ والفِتَنِ

كسائماتٍ رواعٍ تبتغى سِمَنًا ... وحَتْفُها لَوْ دَرَتْ فِى ذَلِكَ السِّمَنِ

وله أيضا :

أنْساكَ مَحْيَاكَ المَمَاتا ... فطَلَبْتَ فى الدُّنْيَا الثَّبَاتَا[3]

---

(١) ديوانه ٣١٥ (نشرة سامى الدهان) .

(٢) ديوانه ٢٨٨

(٣) ديوانه ٥٣

وقال يزيد بن مفرّغ الحميرى :

لاذعرتُ السّوامَ فى فَلَقِ الصُّبْـ ح مُغيراً وَلَا دُعيتُ يَزِيدَا (١)
يَوْمَ أُعطَى مِنَ الْمَخَافَةِ ضَيْماً والمنايا يَرْصُـــدْنَنى أنْ أحِيدَا (٢)

وقال آخر :

لا تحســـبينى يا أما مة عاجِزاً دَنِساً ثِيَابُهْ
إنى إذا خفتُ الموا نَ مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكابُهْ (٣)

مثله قول عنترة :

ذُلُلٌ رِكَابِى حَيْثُ شئتُ مُشايعى لُبِّى وأحفِزُهُ برأيٍ مُبْرَمِ (٤)

وقال آخر :

أخَشْيَةَ الموتِ دَرّ دَرُّكُمُ أعطيتم القوم فوقَ ما سألوا
إنّا لَعَمْرُ الإله تأبى الذى قالوا ولمَّا تقصَّفُ الأســـلُ
نَقْبَلُ ضَيْماً وَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ما دام مِنّا بِظَهْرِها رَجُـــلُ

وقال آخر :

وَرُبَّ يوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ مُكْرَهَةً فيه لأُكْبِتَ أعـــداء أحَاشِيها
آبى وآنَفُ من أشياء آخُذُها رَثّ القُوى ، وضعيفُ القومِ يُعْطِيها

مثله للشدّاخ :

أبَيْنَا فلا نُعْطِى مليكاً ظُلَامَةً ولا سُوقة إلا الوَشِيجَ المُقَوَّما (٥)

---

(١) السوام : الإبل الراعية .
(٢) يرصدننى : يراقبننى .
(٣) المشيع : الشجاع .
(٤) من المعلقة ٢٠٠ — بشرح التبريزى . ذلل : جمع ذلول ؛ وهو من الإبل وغيرها ضد الصعب ؛ والمشايع : الشجاع ؛ مثل المشيع ؛ كأن قلبه لا يخذله فهو يشيعه . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم .
(٥) يعنى بالوشيج الرمح .

تَرُومُ الخُلْدَ فى دارِ التَّفانى ... وَكَمْ قَدْ رامَ قَبلكَ ما تَرُومُ !
لأمرٍ ما تَصَرَّمَتِ اللَّيالى ... وأمرٍ ما تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ
تَنامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنكَ المَنايا ... تَنَبَّهْ لِلمَنِيَّةِ يا نَؤومُ
إلى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمضِى ... وَعِندَ اللهِ تَجتمعُ الخُصُومُ

• • •

حسبنا الله وحده ، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين .

• • •

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

فهرس الخطب

فهرس الموضوعات

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم .

***

ومنها[1] فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية :

وَمِنْ تَمَامِ الْأُضْحِيَةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا ، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا ، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى الْمَنْسَكِ .

***

قال الرضىّ رحمه الله :

والمَنْسَكُ هاهنا : المَذْبَحُ .

الشَّرْحُ :

الأضحية : مايذبح يوم النحر ، ومايجرى مجراه أيام التشريق من النَّعم . واستشراف أذنها : انتصابها وارتفاعها ، أذن شَرْفاء أى منتصبة .

والعضباء : المكسورة القرن . والتى تجرّ رجلها إلى المَنْسَك ، كناية عن العَرْجاء ، ويجوز المنسِك ، بفتح السين وكسرها .

***

[اختلاف الفقهاء فى حكم الأضحية]

واختلف الفقهاء فى وجوب الأضحية ، فقال أبو حنيفة : هى واجبة على المقيمين من أهل

(١) تتمة الخطبة الثانية والخمسين ؛ الجزء السابق ص ٣٣٣ .

الأمصار ، ويعتبر فى وُجُوبها النصاب ، وبه قال مالك والثورى ؛ إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة .

وقال الشافعى : الأضحيّة سُنّة مؤكدة ، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد .

واختلفوا فى العَمياء ؛ هل تجزئ أم لا ؟ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل يقتضى ذلك ؛ لأنه قال : إذا سَلِمت العين سلمت الأضحية ، فيقتضى أنه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحيّة . ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها .

وحكى عن بعض أهل الظاهر أنه قال : تُجزئ العمياء .

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضى الله تعالى عنه ، أحد فقهاء الشيعة فى كتابه المعروف " بالمقنعة " : إنّ الصادق عليه السلام سُئل عن الرّجل يهْدِى الهدْى أو الأضحية وهى سمينة ، فيصيبها مرض ، أو تفقأ عينها أو تنكسر ، فتبلغ يوم النحر وهى حية، أتجزئ عنه ؟ فقال : نعم .

فأما الأذن ، فقال أحمد : لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى ذلك . وقال سائر الفقهاء : تجزئ إلا أنه مكروه .

وأما العضْباء ، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ ، إلا أنه مكروه ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِى ذلك ، وكذلك الحكم فى الجَلْحاء ، وهى التى لم يخلق لها قَرْن ، والقَصْماء : وهى التى انكسر غلاف قَرْنها ، والشرقاء : وهى التى انثقبتْ أذنها من الكَىّ ، والخرقاء : وهى التى شُقّت أذنها طولا .

وقال مالك : إن كانت العَضْباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ .

وقال أحمد والنّخعى : لا تجوز التضحية بالعَضْباء .

فأما العرجاء التى كنى عنها بقوله : « تجرّ رجلَها إلى المنسَك » ؛ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى أنها تجزئ . وقد نقل أصحاب الشافعىّ عنه فى أحد قوليه أنّ الأضحية إذا كانت مريضة مرضا يسيرا أجزأت .

وقال الماوردىّ من الشافعيّة فى كتابه المعروف بـ « الحاوى » : إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلقةً أجزأت ، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزئ .

(٥٣)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر البيعة : .

الأصلُ :

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ.

الشّرح :

تداكُّوا : ازدحموا . والهِيم : العِطاش . ويوم وِرْدها : يوم شربها الماء . والمثانى : الحِبال ، جمع مَثناة ومِثناة بالفتح والكسر ، وهو الحبل .

وجهاد البُغاة واجب على الإمام ، إذا وجد أنصاراً ، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب ، واستحقّ العقاب .

فإن قيل : إنه عليه السلام قال : « لم يسعنى إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلّم » ؛ فكيف يكون تارك الواجب جاحداً لما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله !

قيل : إنه فى حكم الجاحد ؛ لأنه مخالف وعاصٍ ؛ لاسيما على مذهبنا فى أنّ تارك الواجب يخلَّد فى النار وإن لم يجحد النبوة .

[بيعة علىّ وأمر المتخلفين عنها]

اختلف الناس فى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، فالذى عليه أكثرُ الناس وجمهورُ أربابِ السِّيَر أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعيْن غيرمكرهيْن ، ثم تغيّرت عزائمهما ، وفسدت نيّاتهما ، وغدرَا به .

وقال الزبيريون ، منهم عبدُالله بن مصعب ، والزبير بن بكّار وشيعتهم ومَنْ وافق قولَهم من بنى تَيْم بن مرة ، أرباب العصبيّة لطلحة : إنهما بايعا مكرهيْن ، وإنّ الزبير كان يقول : بايعتُ واللُّجّ على قَفَىّ ، واللُّجّ سيف الأشتر ، وقَفَىّ لغة هُذَلِيّة ؛ إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء ، وأدغموا إحدى الياءين فى الأخرى ؛ فيقولون : قدوافق ذلك هوىّ ، أى هَوَاىَ ، وهذه عصىّ ، أى عصاىَ .

* * *

وذكر صاحبُ(١) كتاب " الأوائل " أنّ الأشتر جاء إلى علىّ عليه السلام حين قتل عثمان ، فقال : قم فبايع الناس ، فقد اجتمعوا لك ، ورغِبُوا فيك ؛ والله لئن نَكَلْتَ عنها لتعصِرَنّ عليها عينيك مرة رابعة ، فجاء حتى دخل بئرسكن ، واجتمع الناس ، وحضر طلحة والزُّبَيْرُ ، لا يشكّان أنّ الأمر شورى ، فقال الأشتر : أتنتظرون أحداً ! قم ياطلحة فبايع ، فتقاعس ، فقال : قم يابن الصَّعْبة — وسلّ سيفه — فقام طلحة يجرّ رجله ؛ حتى بايع ، فقال قائل : أولُ مَنْ بايعه أشلّ ! لايتم أمره ، ثم لا يتمّ ، قال : قم يازبير ، والله لاينازع أحد إلا وضربت قُرْطَه بهذا السيف ، فقام الزبير فبايع ؛ ثم انثال الناسُ عليه فبايعوا .

وقيل : أوّلُ مَنْ بايعه الأشتر ، ألقى خَمِيصَةً كانت عليه ، واخترطَ سيفه ، وجذَب يد علىّ عليه السلام فبايعه وقال للزبير وطلحة : قوما فبايعا ؛ وإلا كنتما الليلة عند عثمان ، فقاما يعثران فى ثيابهما لايرجوان نجاةً ، حتى صَفَقا بأيديهما على يده ، ثم قام بعدهما البصريّون ؛

(١) هو أبو هلال العسكرى .

وأولم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، فبايعوا . وقال له عبد الرحمن :

خُذْهَا إليكَ واحْذَرَنْ أبا حَسَنْ   أنا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ

وقد ذكرنا نحن فى شرح الفصل (١) الذى فيه أن الزبير أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليجة أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة ، أوّلهم طلحة والزبير ، وذكرنا فى ذلك ما يبطل رواية الزبير .

وذكر أبو مِخنف فى كتاب " الجمل " أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لينظروا مَنْ يولّونه أمرَهم ، حتى غصّ المسجدُ بأهله ، فاتفق رأى عمار وأبى الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبى أيوب خالد بن يزيد على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام فى الخلافة ، وكان أشدّهم تهالكا عليه عمّار ، فقال لهم : أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه ، وأنتم على شَرَف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإنّ عليا أولَى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته ، فقالوا : رضينا به حينئذ ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين : أيها الناس ، إنا لن نألوَكم خيرا وأنفسنا إن شاء الله ، وإن عليًّا مَنْ قد علمتم ، وما نعرف مكانَ أحد أحمل لهذا الأمر منه ، ولا أولَى به . فقال الناس بأجمعهم : قد رضينا ، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل . وقاموا كلّهم ، فأتوا عليا عليه السلام ، فاستخرجوه من داره ، وسألوه بَسْط يده ، فقبضها فتداكّوا عليه تداكَّ الإبل الهِيم على وِرْدها ، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضا ؛ فلما رأى منهم ما رأى ، سألهم أن تكونَ بيعتُه فى المسجد ظاهرة للناس . وقال : إن كرهنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر .

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد ، فكان أوّل من بايعه طلحة . فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدىّ : تخوفت ألا يتم له أمرُه ، لأنّ أوّل يد بايعته شلّاء ، ثم بايعه الزبير ،

(١) الجزء الأول ص ٢٣٠ ، الوليجة : الأمر يسر ويكتم .

وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وسعد ابن أبي وقاص ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، وعبدالله بن سلّام .

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر ، فقال له : بايع ، قال : لا أبايع حتى يبايعَ جميعُ الناس ، فقال له عليه السلام : فأعطني حَمِيلا ألّا تبرح ، قال : ولا أعطيك حَمِيلا ، فقال الأشتر : ياأمير المؤمنين ؟ إنّ هذا قد أمِنَ سوطك وسيفك ، فدعْني أضرب عنقَه ، فقال : لست أريد ذلك منه على كُرْه ، خلُّوا سبيله ، فلما انصرف قال أمير المؤمنين : لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق ، وهو فى كِبَره أسوأ خُلُقا .

ثم أتى بسعد بن أبى وقاص ، فقال له بايع ، فقال : ياأبا الحسن خَلّني ، فإذا لم يبق غيرى بايعتُك ، فوالله لا يأتيك مِنَ قِبَلِي أمر تكرهه أبدا ، فقال : صدق ، خلُّوا سبيلَه. ثم بعث إلى محمدبن مسلمة ، فلما أتاه قال له : بايع ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمرَني إذا اختلف الناسُ وصاروا هكذا — وشبّك بين أصابعه — أن أخرج بسيفى فأضرب به عُرض أحد فإذا تقطّع أتيتُ منزلى ، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيَني يد خاطية ، أو منّية قاضية . فقال له عليه السلام : فانطلق إذاً ، فكن كما أُمِرْت به .

ثم بعث إلى أسامة بن زيد ، فلما جاء قال له : بايع ، فقال : إنى مولاك ولا خلافَ منى عليك ، وستأتيك بيعتى إذا سكن الناس . فأمره بالانصراف ، ولم يبعث إلى أحد غيره .

وقيل له : ألا تبعث إلى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن سلام ! فقال : لا حاجةَ لنا فيمن لا حاجةَ له فينا .

فأما أصحابُنا فإنهم يذكرون فى كُتُبهم أنّ هؤلاء الرهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به.

لما ندبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل ، وأنهم لم يتخلفوا عن البَيْعة ، وإنما تخلّفوا عن الحرب .

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى فى كتاب " الغرر " أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار ، قال لهم : ما كلّ مفتون يعاتَب ، أعندكم شكّ فى بيعتى ؟ قالوا : لا ، قال : فإذا بايعتم فقد قاتلتم . وأعفاهم من حضور الحرب .

فإن قيل : رويتم أنه قال : إن كَرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر ، ثم رويتم أنّ جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم .

قيل : إنما مراده عليه السلام أنّه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضتُ يدى عن الأمر ولم أدخل فيه ، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة ، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه ؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة ، وإذا ثبتت لم يجزْ له تركها .

وروى أبو مخنف عن ابن عباس ، قال : لما دخل علىّ عليه السلام المسجدَ ، وجاء الناس ليبايعوه خِفْتُ أن يتكلّم بعض أهل الشنآن لعلىّ عليه السلام ممن قتل أباه أو أخاه ، أو ذا قرابته فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فيزهد علىّ فى الأمر ويتركه ، فكنت أرصُد ذلك وأتخوّفه ، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غيرَ مكرهين .

* * *

لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتخلّف عبد الله بن عمر ، وكلّمه علىّ عليه السلام فى البيعة فامتنع عليه ، أتاه فى اليوم الثانى ، فقال : إنى لك ناصح ، إنّ بيعتك لم يرض بها كلهم ، فلو نظرت لدينك ورددْتَ الأمر شورى بين المسلمين ! فقال علىّ عليه السلام : ويحك ! وهل ما كان عن طلب منى له ! ألم يبلغْك صَنيعُهم ؟ قم عنّى يا أحمق ، ما أنت وهذا الكلام !

فلما خرج أتى عليا فى اليوم الثالث آتٍ ، فقال: إنّ ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك ، فأمر بالبَعْث فى أثره ، فجاءت أمُّ كلثوم ابنته ، فسألته وضرعت إليه فيه، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها ، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن ، وطلبت إليه أن يقبل شفاعتها فى أمره ؛ لأنه ابنُ بعلها . فأجابها وكفَّ عن البَعثة إليه ، وقال : دعوه وما أراده .

(٥٤)

ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين .

الأصل :

أَمَّا قَوْلُكُمْ : أَكُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ ! فَوَاللهِ مَا أُبَالِي ؛ دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ . وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي ، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي ، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا ؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا .

* * *

الشرح :

من رواه : « أكُلَّ ذلك » بالنصب فمفعول فعل مقدر ، أى تفعل كلَّ ذلك ، وكراهية منصوب لأنه مفعول له ومن رواه « أكُلُّ ذلك » بالرفع أجاز فى « كراهية » الرفع والنصب ، أما الرفع فإنه يجعل « كلّ » مبتدأ ، وكراهية خبره ؛ وأما النصب فيجعلها مفعولاً له كما قلنا فى الرواية الأولى ، ويجعل خبر المبتدأ محذوفا ، وتقديره : أكلّ هذا مفعول ! أو تفعله كراهية للموت ! ثم أقسم أنه لا يبالى أتعرّض هو للموت حتى يموت ، أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرّض له .

وعشا إلى النار يَعْشُو : استدلّ عليها ببصر ضعيف ، قال :

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[1]

(١) الحطيئة ، ديوانه ٢٥

وهذا الـكلام استعارة ، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشو ليلا إلى النار ؛ وذلك لأن بصائرَ أهل الشام ضعيفة ؛ فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشُو ببصرٍ ضعيف إلى النار فى الليل ، قال : ذاك أحبّ إلىّ من أن أقتلهم على ضلالهم ، وإن كنتُ لو قتلتهم على هذه الحالة لباءوا بآثامهم ، أى رجعوا ، قال سبحانه: ﴿إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾[1] أى ترجع .

***

[من أخبار يوم صفين]

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة ، رجاء أن يعطفوا إليه ، واستمالة لقلوبهم وإظهارا للمعدلة وحسن السيرة فيهم ، مكث أياما لا يُرسِل إلى معاوية ، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدٌ ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم فى القتال ، وقالوا : ياأميرَ المؤمنين ، خلَّفنا ذرارِيَّنا ونساءنا بالـكوفة ، وجئنا إلى أطراف الشام لنتّخذها وطنا ، ائذن لنا فى القتال ، فإنّ الناس قد قالوا . قال لهم عليه السلام: ماقالوا ؟ فقال منهم قائل : إنّ الناس يظنون أنك تـكرهُ الحرب كراهيةً للموت ، وإن من الناس من يظن أنك فى شكٍّ مِنْ قتال أهلِ الشام . فقال عليه السلام : ومتَى كنتُ كارها للحرب قطّ ! إنّ من العجب حُبِّي لها غلاما ويَفَعا ، وكراهيتى لها شيخا بعد نفادِ العمر وقرب الوقت ! وأما شكّى فى القوم فلو شككت فيهم لشككتُ فى أهل البصرة ، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً ، فما وجدت يسعُنى إلا القتال أو أن أعصىَ الله ورسوله ، ولـكنى أستأني بالقوم ، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة، فإن

---

(١) سورة المائدة ٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى يوم خيبر: لأنْ يهدىَ الله بك رجلا واحداً خير لك مِمّا طلعت عليه الشمس .

* * *

قال نصر بن مزاحم: حدثنا(١) محمد بن عبيدالله عن الجرجانىّ ، قال : فبعث علىّ عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصارىّ، وسعيد بن قَيْس الهَمْدانِىّ وشَبَث ابن الرِّبْعىّ التميمىّ ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه [إلى الله عز وجلّ ، و](٢) إلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله سبحانه . فقال له شَبَث : ياأمير المؤمنين ،ألا تطمِعُه فى سلطان تولّيه إياه ، ومنزلةٍ يكون له بها أثْرَة عندك إن هو بايعك ؟ فقال :ائتوه الآن والقَوْه واحتجّوا عليه ، وانظروا ماراْيُه فى هذا(٣) .

فأتوه فدخلوا عليه ، فحمِد أبو عمرو بن مِحْصَن الله وأثنى عليه، وقال:أمّابعد يامعاوية فإن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله مجازيك بعملك ومحاسبك بما قدّمت يداك ، وإنّى أنشدُك الله ألّا تفرّق جماعةَ هذه الأمة ، وألّا تسفِك دماءها بينها . فقطع معاويةُ عليه الكلامَ وقال : فهلّا أوصيتَ صاحبك ! فقال : سبحان الله ! إنّ صاحبى لايوصَى ، إنّ صاحبى ليس مِثْلَك ، صاحبى أحقّ الناس بهذا الأمر فى الفضلِ والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول . قال معاوية: فتقول ماذا ؟ قال : أدعوكَ إلى تقوى ربّك ، وإجابة ابنِ عمك إلى مايدعُوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخير لك فى عاقبة أمرك . قال : ويُطَلّ دم عثمان ! لا والرحمنِ لا أفعل ذلك أبدا .

---

(١) صفين ٢٠٩ ومابعدها

(٢) تكملة من صفين .

(٣) صفين : « وانظروا ماراْيه — وهذا فى شهر ربيع الآخر — فأتوه » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلم ، فبدره شَبَث بن الرِّبعىّ ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال: يامعاوية ، قد فهمتُ ماردَدْت على ابن مِحْصَن ؛ إنه لا يخفى علينا ماتغرّ وما تطلب ، إنك لا تجدُ شيئا تستغوِى به الناس، ولا شيْئا تستميل به أهواءهم ؛ وتستخلِص به طاعتهم إلا أن قُلْتَ لهم : قُتِل إمامُكم مظلوما ، فهلمُّوا نطلب بدمه ؛ فاستجاب لك سفهاء طَغام رُذَال ، وقد علمنا أنك أبطأتَ عنه بالنصر ، وأحببت له القتل ؛ لهذه المنزلة التى تطلب ؛ وربّ مبتغٍ أمرا ، وطالبٍ[1] له يحولُ اللهُ دونه ، وربّما أوتى المتمنّى أمنيّته،وربما لم يُؤْتَها ، ووالله مَالكَ فى واحدة منهماخير ؛ والله لئن أخطأك ماترجُو إنك لَشرُّ العرب حالا ، ولئن أصبت ماتتمناه لا تصيبُهُ حتّى تستحقّ صَلَى النار ؛ فاتق الله يامعاية ، ودَعْ ما أنتَ عليه ، ولا تنازِع الأمر أهلَه .

فحمِد معاوية الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعد فإنّ أولَ ماعرفتُ به سفهك وخفة حِلمك قطعُك على هذا الحسيب الشريف سيِّد قومه منطقه . ثم عتبتَ بعدُ فيما لا علم لك به ، ولقد كذَبت ولَؤُمت[2] أيها الأعرابىّ الجِلْف الجافى فى كلّ ماوصفت [وذكرت][3] . انصرفوا من عندى فإنّه ليس بينى وبينكم إلا السيف .

وغضب . فخرج القوم وشَبَث يقول : أعلينا تُهوّل بالسيف! أما والله لنعجلَنّه إليك ، [فأتوا عليا عليه السلام ، فأخبروه بالذى كان من قوله ، وذلك فى شهر ربيع الآخر][3] .

قال نصر : وخَرَجَ قراء أهلِ العِراق ، وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صِفّين ثلاثين ألفا .

---

(١) صفين : « وطالبه » .

(٢) صفين : « ولويت » .

(٣) تكملة من صفين .

قال : وعسكر علىّ عليه السلام على الماء ، وعسكر معاوية فوقَه على الماء أيضا ، ومشت القُرّاء فيما بين علىّ عليه السلام ومعاوية ، منهم عَبيدة السَّلْمانىّ ، وعلقمة بن قَيْس النَّخَعِىّ ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد القيس ـ وقد كان فى بعض تلك السواحل ـ فانصرف إلى عسكر على عليه السلام ؛ فدخلوا على معاوية فقالوا : يامعاوية ، ما الذى تطلب؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قالوا : ممّن تطلب بدم عثمان ؟ قال : أطلبه من علىّ ، قالوا : وعلىّ قتله ؟ قال : نعم هو قتله ، وآوى قَتلته ، فانصرفوا من عنده فدخلوا على علىّ عليه السلام ، فقالوا : إن معاوية يَزْعُمُ أنك قتلت عثمان ، قال : اللهمّ لَكَذَب فيما قال ، لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنه إن لم يكن قَتَله بيده فقد أمر ومالأ ، فرجعوا إلى علىّ فقالوا : إن معاوية يزعم أنّك إن لم تكن قتلتَ بيدك ، فقد أمرت ومالأت على قَتل عثمان ، فقال : اللهم لَكَذَب فيما قال ، فرجعوا إلى معاوية ، فقالوا : إنّ عليا يزعم أنّه لم يفعل ، فقال معاوية : إن كان صادقا فليُقِدْنا[1] من قَتلةِ عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعَضُده . فرجعوا إلى علىّ عليه السلام ، فقالوا : إنّ معاويةَ يقول لك : إنْ كنتَ صادقا فادفع إلينا قَتلة عثمان أو مكّنّا منهم ، فقال لهم : إنّ القوم تأوّلوا عليه القرآن ، ووقعت الفرقة ، فقتلوه فى سلطانه ، وليس على ضَرْبِهم قَوَد ؛ فَخصمَ[2] علىّ معاوية .

***

ـ قلت : على ضَرْبهم هاهنا، على مثلهم ؛ يقال : زيدٌ ضَرْب عمرو ومن ضَرْبه ، أى مِثله ومن صِنفه ، ولا أدرى لِمَ عَدَل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام؛ وهو أن يقول: إنّ الذين باشروا قتله بأيديهم كانوا اثنين وهما قُتيرة بن وهب وسُودان ابن حُمران ، وكلاهما قُتل يوم الدار ، قتلهما عبيد عثمان ، والباقون الذين هم جندى وعَضُدى

(١) صفين : « فليمكنا » (٢) خصمه ، أى غلبه بالحجة .

كما تزعمون ، لم يقتلوا بأيديهم ؛ وإنما أغرَوْا به ، وحصروه وأجلبوا عليه، وهَجَمُوا على داره ، كمحمد بن أبي بكر والأشتر وعمرو بن الحمِق وغيرهم ؛ وليس على مثل هؤلاء قَوَد.

قال نصر : فقال لهم معاوية: إنْ كان الأمرُ كما تزعمون ؛ فلِمَ ابتزّ الأمرَ [١] دوننا على غير مشورة منّا ولا ممن هاهنا معنا ؟ فقال عليّ عليه السلام : إنّ الناس تَبَع للمهاجرين والأنصار ، وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولاتهم وأمراء دينهم ، فرضُوا بي وبايعوني، ولست أستحلّ أن أدع ضَرْب [٢] معاوية يحكم بيده على الأمة ويركبهم ويشُقّ عصاهم .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك ، فقال : ليس كما يقول ، فما بالُ مَنْ هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤامَرُوا فيه [٣] !

فانصرفوا إلى عليّ عليه السلام،فأخبروه بقوله ، فقال : وَيْحكم ! هذا للبدريّين دون الصحابة ، ليس في الأرض بَدْرِيّ إلا وقد بايعني وهو معي ، أو قد قام ورَضِيَ ، فلا يغرّنّكم معاوية من أنفسكم ودينكم .

قال نصر : فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر : ربيع الآخر ، وجُمادَيَيْن ؛ وهم مع ذلك يَفْزَعون الفَزْعة فيما بينهما ، فيزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القرّاء بينهم .

قال : فزعوا في ثلاثة أشهر خمسا وثمانين فَزْعة ؛ كلُّ فزعة يزْحَفُ بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال .

قال نصر : وخرَج أبو أمامة الباهليّ وأبو الدرداء ، فدخلا على معاوية ـ وكانا معه ـ فقالا : يامعاوية ، علامَ تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لهو أقدَمُ منك إسلاما [٤]، وأحقّ بهذا

---

(١) صفين : « فاله ابتز الأمر دوننا » ؟

(٢) ضرب معاوية : شبيهه .

(٣) المؤامرة : المشاورة ، وفي صفين : « فيؤامروه » .

(٤) صفين : « سلما » ، وهما بمعنى .

الأمر ؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعلام تقاتله ؟ فقال : أقاتله على دَمِ عثمان، وأنه آوى قَتلته ، فقولوا له : فَلْيُقِدْنا مِنْ قتلته وأنا أوّل من بايعه من أهل الشام.

فانطلقوا إلى علىّ عليه السلام فأخبروه بقول معاوية ، فقال : إنما يطلب الذين ترَوْن، فخرج عشرون ألفا أو أكثر متسربلين الحديد ؛ لايُرى منهم إلا الحدَق ، فقالوا : كُلّنا قتله؛فإن شاءوا فَلْيَرُوموا ذلك منّا.فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهَدا شيئاً من القتال.

قال نصر : حتى إذا كان رجب ، وخَشِى معاوية أن يتابع القرّاء عليًّا عليه السلام ، أخذ فى المكْر ، وأخذ يحتال للقراء لكيما يُحجموا ويكفُّوا حتى ينظروا .

قال : فكتب فى سهم : مِنْ عبد الله الناصح ؛ إنى أخبركم أنّ معاوية يريد أن يفجّر عليكم الفرات فيغرِقكم ، فخذوا حذركم. ثم رمى بالسهم فى عسكر علىّ عليه السلام،فوقع السهم فى يَدِ رجل فقرأه ثم أقرأه صاحبَه، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَنْ أقبل وأدبر، قالوا:هذا أخ لنَا ناصح ؛ كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية ؛ فلم يزل السَّهم يُقرأ ويرتفع حتى رُفع إلى علىّ عليه السلام ؛ وقد بعث معاوية مائتى رجل من العَمَلة إلى عاقول[(١)] من النهر، بأيديهم المرور والزّبُل[(٢)] يحفرون فيها بحيال عسكر علىّ عليه السلام. فقال علىّ عليه السلام : ويحكم ! إن الذى يعالج معاوية لايستقيم له،ولا يقوى عليه ؛ إنما يريد أن يُزِيلكم عن مكانكم ؛ فانتهوا عن ذلك،فقالوا له : لا نَدَعهم والله يحفِرون،فقال علىّ عليه السلام: لاتكونوا ضَعْفى ، ويحكم ! لاتغلبونى على رأيى.فقالوا : والله لنرتحلنّ، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم ؛ فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم مليًّا ، وارتحل علىّ عليه السلام فى أخريات الناس ، وهو يقول :

---

(١) عاقول النهر : ماعوج منه

(٢) المرور : جمع مر ؛ وهو المسحاة . والزبل : جمع زبيل وهو القفة .

فَلَوْ أنى أطِعْتُ عصمتُ قومى ... إلى ركن اليمامة أو شمَامِ (١)
ولكنى متى أبرَمْتُ أمراً ... مُنيتُ بخُلْف آراء الطَّغَامِ

قال : وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علىّ عليه السلام الذى كان فيه، فدعا علىّ عليه السلام الأشتر ، فقال : ألم تغلبنى على رأيى (٢) أنت والأشعث ! فدونكما. فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوى ما أفسدتُ اليوم من ذلك، فجمع كِندة فقال لهم: يا معشر كِندة ، لا تفضحونى اليوم ولا تُخزونى ؛ فإنى إنما أقارع بكم أهل الشام ، فخرجوا معه رجّالة يمشون، وبيده رمح له يلقيه على الأرض، ويقول : امشوا قِيد رمحى هذا، فيمشون، فلم يزل يَقِيس لهم الأرض برمحه ، ويمشون معه رَجّالة حتى لَقِىَ معاويةَ وسط بنى سُلَيْم واقفا على الماء ، وقد جاءه أدانى عسكره، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء ساعة، وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا، وأقبل الأشتر فى خَيْل من أهل العراق ، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب فى ناحية أخرى؛ فانحاز معاوية فى بنى سُلَيم ، فردّ وجوه إبله قدر ثلاثة فراسخ، ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم ، والأشعث يهدِرُ ويقول : أرضيتك يا أمير المؤمنين ! ثم تمثل بقول طَرَفة بن العبد :

فِداء لبَنِى سَعْد عَلَى ... ما أصاب الناس من خَيْرٍ وَشَرْ (٣)
ما أقلَّت قدماى إنَّهم ... نِعمَ الساعون فى الحىّ الشُّطُرْ (٤)
وَلَقَدْ كُنْتُ عليكم عاتباً ... فعقَبْتُم بذَنوب غَيْرِ مُرْ (٥)

---

(١) صفين : « عصيت قومى » . وشمام : جبل لباهلة .
(٢) صفين : « على رأيى » ، والرأى والرأى بمعنى .
(٣) ديوانه ٧٢ وروايته : « لبنى قيس ... من سر وضر »
(٤) الشطر : جمع شطير ؛ وهو الغريب البعيد
(٥) عاتبا : واجدا ، وعقبتم ، أى جدتم عقب ذلك . ومر : نقيض حلو ؛ قال شارح الديوان : « أى عقبتم عتبى عليكم بعطاء حلو » .

كنت فيكم كالمغطِّى رأسَه ... فانجلَى اليوم قِناعى وَخُمُرْ(١)

سادراً أحسب غيِّى رَشَداً ... فتناهيتُ وقد صابت بِقُرْ(٢)

وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين؛ قد غلب الله لك على الماء، فقال علىّ عليه السلام : أنتما كما قال الشاعر :

تلاقينَ قَيْساً وأشياعَــــهُ ... فيُوقد لِلحَـــرْب نَاراً فنَارَا

أخُو الحرب إن لَقِحَتْ بازِلًا ... سَمَا للعلا وأجــــلّ الخِطارا(٣)

قال نصر : فكان كلّ واحدٍ من علىّ ومعاوية يُخرِج الرجلَ الشريفَ فى جماعة، فيقاتل مثله؛ وكانوا يكرهون أن يتزاحفُوا بجميع الفَيْلَق مخافة الاستئصال والهلاك، فاقتتل الناسُ ذَا الحجّة كلّه ، فلما انقضَى تداعوْا إلى أن يكفّ بعضُهم عن بعض إلى أن ينقضىَ المحرّم ؛ لعلّ الله أن يُجرِى صلحا أو إجماعا ، فكفَّ الناس فى المحرّم بعضُهم عن بعض .

* * *

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن أبى المجاهد عن المحلّ بن خليفة ، قال(٤) : لما توادَعُوا فى المحرّم ، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصُّلح ، فأرسل علىّ عليه السلام إلى معاوية عدىّ بن حاتم الطائىّ وشَبَث بن رِبعىّ التميمىّ ويزيد بن قَيْس وزياد ابن خَصَفة ، فلما دخلوا عليه ، حمِد الله تعالَى عدىّ بن حاتم الطائىّ وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّا أتيناك لندعوَك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمّتنا ، ويحقِن به دماء

---

(١) المغطى : اسم فاعل من التغطية . وانجلى : انكشف . وخمر : جمع خمار .
(٢) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ماصنع . وتناهيت ، أى انتهيت من سفهى .
(٣) البعير البازل : الذى طلع فى التاسعة ، والخطار : المخاطرة .
(٤) صفين ٢٢١ ، تاريخ الطبرى ٥ : ٥

المسلمين . ندعُوك إلى أفضلِ الناس سابقة ، وأحسنِهم فى الإسلام آثارا ؛ وقد اجتمع إليه[1] الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رَأَوْا وأتوا ، فلم يبق أحدٌ غيرُك وغيرُ مَنْ معك ؛ فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنك إنما جئت مُهَدِّدا ، ولم تأت مصلحا ! هيهات يا عدىّ ! إنى لابنُ حرب ! ما يُقَعْقَعُ لى بالشِّنان[2] . أما والله إنك من المجلبين على عثمان ، وإنك لَمِنْ قتلته ؛ وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله .

فقال له شَبَث بن رِبعىّ وزياد بن خَصَفة ، وتنازعا كلاما واحدا : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال ؛ دع ما لا ينفعُ من القول والفعل ؛ وأجِبْنا فيما يعمّنا وإياك نفعُه .

وتكلم يزيد بن قيس الأرحبىّ ، فقال : إنا لم نأتِك إلا لنبلّغك ما بعثنا به إليك ، ولِنُؤَدِّى عنك ما سمعنا منك ؛ ولم نَدَعْ أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجّة ، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إن صاحبنا مَن قد عرَفْتَ وعرف المسلمون فضلَه ، ولا أظنه يخفى عليك ؛ إنّ أهلَ الدين والفضل لايعدِلُونك بعلىّ ، ولا يميّلون[3] بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف عليا ؛ فإنا والله ما رأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلِّها منه .

فحمِد الله معاوية وأثنى عليه ؛ وقال : أما بعد ، فإنكم دعوتم إلى الجماعة والطاعة ؛ فأمّا الجماعة التى دعوتُم إليها فنِعِمّا هى ! وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ؛ إنّ صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرِنا وقتَلَتنا ؛ وصاحبكم يزعُم أنه لم يقتُله ؛ فنحن

---

(١) صفين : « اجتمع له الناس » . الطبرى : « استجمع له الناس » .

(٢) الشنان : جمع شن ؛ وهو القربة الخلق ؛ كانوا يحركونها للابل إذا أرادوا حثها على السير ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) التمثيل : الترجيح بين الشيئين .

لا نردّ ذلك عليه أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ! ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؟ فليدفعْهم إلينا فلْنقتلهم به ؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شَبَث بن رِبْعِيّ : أيسرّك بالله يا معاوية أنْ أُمكِنْت من عمار بن ياسر فقتلته ! قال : وما يمنعُني من ذلك ! والله لو أمكنني صاحِبُكم من ابن سُمَيّة ما قتلته بعثمان ؛ ولكني كنت أقتلُه بنائل مولى عثمان !

فقال شَبث : وإلهِ السماء ما عَدَلْتَ معدِلا ، ولا والذى لا إله إلا هو ؛ لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُنْدَرَ الهامُ عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرضُ الفضاء عليك برُحْبها .

فقال معاوية : إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيَق .

ثم رجع القوم عن معاوية ، فبعث إلى زياد بن خَصَفة من بينهم ، فأدخل عليه ، فحمد معاوية الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أخا ربيعة ، فإن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلةَ صاحبنا ، وإنى أسألك النُّصرة بأسرتك وعشيرتك ، ولك علىّ عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أولّيك أىّ المصرين أحببت .

قال أبو المجاهد : فسمعت زياد بن خَصفة يحدّث بهذا الحديث .

قال : فلما قضى معاوية كلامه ، حمِدت الله وأثنيت عليه ، ثم قلت : أما بعدُ ، فإنى لَعَلَى بيّنةٍ من ربى وبما أنعم علَىّ ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، ثم قمت .

فقال معاوية لعمرو بن العاص ــ وكان إلى جانبه ــ : مالهم عضَبهم[1] الله ! ماقلبُهم إلا قلب رجل واحد !

* * *

قال نصر : وحدثنا سليمان بن أبى راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكَنُود ،

---

(١) العضب : القطع ؛ وهو دعاء عند العرب .

قال(١) : بعث معاوية حبيب بن مَسْلمة الفِهْرِىّ إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وبعث معه شُرَحْبيل بن السِّمط ومعن بن يزيد بن الأخنس السُّلَمىّ ، فدخلوا على علىّ عليه السلام فتكلّم حبيب بن مسلمة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعدُ فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًّا ، يعمل بكتاب الله ويُنيب إلى أمر الله ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته . فعدوتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلَة عثمان نقتلهم به ؛ فإن قلت : إنك لم تقتله ، فاعتزل أمرَ الناس ، فيكونَ أمرُهم هذا شورى بينهم ، يولّى الناس أمرَهم مَنْ أجمع عليه رأيهم .

فقال له علىّ : وما أنت لا أمَّ لك والولايةَ والعزلَ والدخول فى هذا الأمر ! اسكت فإنك لست هناك ، ولا بأهلٍ لذاك ! فقام حبيب بن مسلمة وقال : أما والله لتريَنّى حيثُ تكره . فقال له عليه السلام : وما أنتَ ! ولو أجلَبْت بخيلك ورَجِلك . إذهب فصوّب وصعّد ما بدا لك ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت !

فقال شُرَحْبيل بن السِّمط : إنْ كلمتك ، فلعَمْرِى ما كلامى لك إلا نحو كلام صاحبى ، فهل لى عندك جواب غير الجواب الذى أجبتَه به ؟(٢) فقال : نعم ، قال : فقله(٢) ؛ فحمد الله علىّ عليه السلام ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فإنّ الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه فأنقذ به من الضّلالة ، ونَعَش(٣) به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبَضه الله إليه ؛ وقد أدّى ما عليه ؛ فاستخلف النّاس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ؛ فأحسَنا السيرة ، وعدَلا فى الأمّة ؛ ووجَدْنا

---

(١) وقعة صفين ٢٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٧

(٢ـ٢) وقعة صفين : « فقال على عليه السلام : عندى جواب غير الذى أجبته به ، لك ولصاحبك » . وفى الطبرى : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به » .

(٣) الطبرى : « وانتاش به من الهلكة » .

عليهما أن توليا الأمر دوننا ، ونحن آلُ الرسول ، وأحقُّ بالأمر ؛ فغفرنا ذلك لهما ، ثم وَلِيَ أمرَ الناس عثمان ، فعمِل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناسٌ فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمرَهم ، فقالوا لى : بايع ، فأبيتُ عليهم ، فقالوا لى : بايع ، فإنّ الأمة لاترضى إلا بك ، وإنا نخاف إنْ لم تفعلْ أن يفترق الناس ؛ فبايعتُهم فلم يرُعنى إلا شقاق رجلين قد بايعا[1] ، وخلاف معاوية إياى الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلفَ صِدْق فى الإسلام ، طَلِيقٌ ابن طليق ، وحزب من الأحزاب ؛ لم يزَلْ لله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين مكرهين ، فيا عجبا[2] لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ؛ وتدعون آل بيت نبيكم الذين لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ؛ ولاتعدلوا بهم أحدا من الناس ؛ إنى أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم ، وإماتة الباطل ، وإحياء معالم الدين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ولكلّ مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة.

فقال له شُرَحْبيل ومَعْن بن يزيد : أتشهدُ أنّ عثمان قُتِل مظلوما ؟ فقال لهما : إنّى لاأقول ذلك ؛ قالا : فمَنْ لم يشهد أنّ عثمان قتل مظلوما ، فنحن برآء منه ، ثم قاما فانصرفا.

فقال على عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[3].

ثم أقبل على أصحابه ، فقال : لايكن هؤلاء فى ضلالتهم بأوْلَى بالجدّ منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . ثم مكث النّاسُ متوادعين إلى انسلاخ المحرّم ، فلما انسلخ المحرّم واستقبل الناس صَفَرا من سنة سبع وثلاثين ، بعث علىّ عليه السلام نَفَرا من أصحابه ؛ حتى إذا كانوا

---

(١) صفين : « قد بايعانى ».

(٢) صفين : « فعجبنا لكم ». وفى الطبرى : « فلا غرو إلا خلافكم معه ».

(٣) سورة النمل ٨٠ ، ٨١ .

من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت ، قام مَرْثَد بن الحارث الْجُشَمِيّ ، فنادى عند غروب الشمس : يا أهلَ الشام إنّ أميرَ المؤمنين عليا وأصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم : إنا لم نَكُفَّ عَنكم شكاً فى أمركم ؛ ولا إبقاء عليكم ؛ وإنما كَفَفْنا عنكم لخروج المحرّم ، وقد انسلخ ؛ وإنا قد نَبَذْنا إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فتحاجز الناس وثارُوا إلى أمرائهم .

***

قال نصر : فأما[1] رواية عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبى الزبير أنّ نداء مَرْثَد بن الحارث الْجُشَمِيّ ، كانت صورته : يا أهلَ الشام ، ألا إنّ أميرَ المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتُكم واستأنَيْتُ بكم ، لتراجِعوا الحقّ ، وتَتُوبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حقّ ، وإنى قد نبذتُ إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم .

قال نصر : وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتّبان الكتائب ، ويُعبّيان العساكر ، وأوقدُوا النيران ، وجاءوا بالشموع ، وباتَ علىٌّ عليه السلام تلك الليلةَ كلّها ، يعبى الناس ، ويُكتّبُ الكتائب ، ويدور فى الناس ويحرّضهم .

***

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، بإسناده عن عبد الله بن جُندب ، عن أبيه أن[2] عليّا عليه السلام كان يأمرنا فى كل موطن لقينا معه عدوّه ؛ فيقول :

(١) صفين ٢٢٨ (٢) وقعة صفين ٢٢٩ وتاريخ الطبرى ٥ : ١٠ ، ١١

لاتقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ؛ فهيَ حُجَّة أخرى لكم عليهم ؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدبِراً ، ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عَوْرة ، ولا تُمَثِّلوا بقتيل ؛ فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تَهتِكوا سِترا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ؛ ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ماوجدتم فى عسكرهم ، ولا تَهيجوا امرأةً ، وإنْ شَتَمْنَ أعراضكم ، وتناوَلْنَ أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهنّ ضِعاف القوى والأنفس والعقول ؛ولقد كُنّا وإنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وهن مشركات ، وإن كان الرجلُ ليتناول المرأة فى الجاهلية بالمراوة أو الحديد فيعيَّر بها عَقِبه من بعده .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن يزيد ـ يعنى ابن أبى خالد ـ عن أبى صادق ، أنّ علياً[1] عليه السلام حَرّض الناس فى حروبه ، فقال :

عبادَ الله، اتقوا الله وغُضُّوا أبصارَكم، واخفضوا الأصوات، وأقلّوا الكلام، ووطّنوا أنفسكم عَلَى المنازلة والمجاولة والمبارزة والمعانقة ؛ واثبتوا : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] ؛ ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[3]. اللهم ألهِمْهم الصبر ، وأنزِل عليهم النصر ، وأعظِم لهم الأجر .

* * *

قال نصر : وكان[4] ترتيب عسكر علىّ عليه السلام ، بموجب مارواه لنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن محمد بن على ، وزيد بن حسن ، ومحمد بن عبد المطلب : أنه جعل عَلَى الخيل عمّار بن ياسر ، وعلى الرجّالة عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ ، ودفع اللواء

---

(١) وقعة صفين ٢٣٠ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٥

(٣) سورة الأنفال آية ٤٦

(٤) وقعة صفين ٢٣١

إلى هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص الزّهريّ ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس ، وعَلَى الميسرة عبدَ الله بن العباس ، وجعل عَلَى رَجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد الخزاعيّ ، وعَلَى رَجّالة الميسرة الحارث بن مرة العبديّ ، وجعل القَلْبَ مُضَر الكوفة والبصرة ، وجعل عَلَى مَيمنة القلب اليمن وعلى ميسرته ربيعة ، وعقد ألوية القبائل ، فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم؛ وجعلهم رؤساءهم وأمراءهم، وجعل عَلَى قريش وأسد وكنانة عبدَ الله بن عباس، وعَلَى كِندة حُجْر بن عديّ الكنديّ ، وعَلَى بَكْر البصرة الحُصين بن المنذر الرقاشيّ، وعَلَى تميم البصرة الأحنف بن قيس ، وعَلَى خُزاعة عمرو بن الحمِق ، وعَلَى بَكْر الكوفة نُعَيْم بن هُبيرة، وعَلَى سَعْد البصرة ورِبابها جارية بن قُدامة السعديّ ، وعَلَى بَجيلة رفاعة ابن شدّاد ، وعلى ذُهْل الكوفة رُوَيْماً الشيبانيّ ـ أو يزيد بن رُوَيم ـ وعلى عمرو البصرة وحَنظلتها أعْيَن بن ضُبَيْعة ، وعلى قُضاعة وطيّئ عديّ بن حاتم الطائيّ ، وعلى لهازم الكوفة عبدالله بن حَجَل العجليّ، وعلى تميم الكوفة عُمير بن عطارد، وعلى الأزد واليمن جُندَب بن زهير ، وعلى ذُهْل البصرة خالد بن المعمّر السّدوسيّ ، وعلى عَمْرو الكوفة وحَنظلتها شَبَث بن رِبْعيّ ، وعلى هَمْدان سعيد بن قيس ، وعلى لهازم البصرة حُرَيث ابن جابر الجُعفيّ[1]، وعلى سعد الكوفة ورِبابها الطُّفيل أبا صُرَيمة، وعَلَى مَذْحِج الأشتر ابن الحارث النَّخَعِيّ ، وعَلَى عبدالقيس الكوفة صَعْصعة بن صُوحان ، وعَلَى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعَلَى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل البَكّائيّ ، [وعَلَى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشميّ][2] وعَلَى قيس البصرة قبيصة بن شدّاد الهلاليّ ، وعَلَى اللفيف من القواصي القاسم بن حَنْظلة الجُهَنيّ .

وأما معاوية فاستعمل عَلَى الخيل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وعَلَى الرجّالة مسلم ابن عقبة المرّيّ ، وجعل عَلَى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعَلَى الميسرة حبيب

(١) صفين : « الحنق » .

(٢) من صفين .

ابن مسلمة الفهرىّ ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل عَلَى أهل دمشق — وهم القلب — الضحاك بن قيس الفِهرىّ ، وعلى أهل حِمْص — وهم الميمنة — ذا الكَلاع الحِميرىّ ، وعلى أهل قِنّسرين — وهم فى الميمنة أيضاً — زُفَر بن الحارث الكِلابىّ ، وعلى أهل الأردنّ — وهم الميسرة — سفيان بن عمرو أبا الأعور السُّلَمىّ ، وعلى أهل فلسطين — وهم فى الميسرة أيضا — مسلمة بن مَخلَد ، وعلى رجّالة أهل دمشق بُسْر بن أبى أرطاة العامرىّ بن لؤىّ بن غالب ، وعلى رجّالة أهل حِمْص حَوْشبا ذا ظُلَيم ، وعلى رَجّالة قيس طريف بن حابس الألهانىّ ، وعلى رَجّالة الأردن عبد الرحمن بن قيس القَيْنىّ ، وعلى رجّالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدىّ ، وعلى رجّالة قيس دمشق همام بن قَبيصة ؛ وعلى قضاعة حِمْص وإيادها بلال بن أبى هُبيرة الأزدىّ ، [وحاتم بن المعتمر الباهلىّ][1] ، وعلى رجّالة الميمنة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى قُضاعة دمشق حسّان بن بَحْدل الكلبىّ ، وعلى قُضاعة عباد بن يزيد الكلبىّ ، وعلى كِندة دمشق حسان بن حوىّ السّكسكىّ ، وعلى كِندة حِمْص يزيد بن هبيرة السّكونىّ ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَلىّ ، وعلى حِمْيَر وحضرموت اليمان بن غفير ، وعلى قضاعة الأردنّ حبيش بن دُلجة القَيْنىّ ، وعلى كنانة فلسطين شريكا الكنانِىّ ، وعلى مذحِج الأردنّ المخارق بن الحارث الزُّبيدىّ ، وعلى جُذام فلسطين ولخمها ناتل بن قيس الجذامىّ ، وعلى همْدان الأردنّ حمزة بن مالك الهمدانىّ ، وعلى الخثعم حَمَل بن عبد الله الخثعمىّ ، وعلى غسان الأردنّ يزيد بن الحارث ، وعلى جميع القواصى القعقاع بن أبرهة الكَلاعِىّ ؛ أصيب فى المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان .

* * *

قال نصر : فأما رواية الشعبىّ التى رواها عنه إسماعيل بن أبى عُميرة[2] ؛ فإنّ عليا

---

(١) من صفين .

(٢) صفين ٢٣٤ .

عليه السلام بعث على ميمنته عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء الخزاعىّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس ، وعلى خيل الكوفة الأشتر ، وعلى البصرة سهل بن حُنيف ، وعلى رجّالة الكوفة عمّار بن ياسر ، وعلى رجّالة أهل البصرة قيس بن سعد ـ كان قد أقبل من مصر إلى صِفّين ـ وجعل معه هاشم بن عُتبة ، وجعل مسعود بن فدكى التميمىّ على قراء أهل البصرة ؛ وأما قرّاء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيل ، وعمار بن ياسر .

***

قال نصر : وأما(١) ترتيب عسكر الشام ـ فيما رواه لنا عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية ـ فإن معاوية بعث على ميمنته ذا الكَلَاع ، وعلى ميسرته حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهرىّ ، وعلى مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السُّلَمِىّ ، وكان على خَيْل دمشق كلّها عمرو بن العاص ، ومعه خيول أهل الشام بأسرها ، وجعل مسلم بن عُقبة المُرِّىّ على رجالة دمشق ، والضحاك بن قيس على سائر الرجّالة بعد .

***

قال نصر : (٢) وتبَايع رجال من أهل الشام على الموت وتحالفوا عليه وعقّلوا أنفسهم بالعمائم، وكانوا صُفوفاً خمسة [معقّلين](٣)، كانوا يخرجون فيصطفّون أحدَ عشر صفا ، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفّون أحدَ عشر صفا أيضا .

قال نصر : فخرجوا أولَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين ، وهو يوم الأربعاء ، فاقتتلوا ، وعَلَى مَنْ خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة

---

(١) صفين ٢٣٩ .
(٢) صفين ٢٣٩ .
(٣) من صفين .

فاقتتلوا قتالا شديدا جُلَّ النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصفَ بعضُهم من بعض . ثم خرج فى اليوم الثانى هاشم بن عُتْبة فى خَيْل ورجال حَسَنٍ عددها وعُدّتها ؛ فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السُّلَمىّ ، فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمِلُ الخيل على الخيل والرجال على الرجال. ثم انصرفوا وقد صَبَرَ القومُ بعضُهم لبعض ؛ وخرج فى اليوم الثالث عمّار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ؛ فاقتتل الناس كأشدّ قتال كان ، وجعل عمّار يقول : ياأهل الشام ، أتريدون أنْ تنظُروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين . فلما أراد الله أنْ يُظهر دِينَه ، وينصر رسوله أتى إلى النبىّ صلى الله عليه وآله فأسلم ، وهو والله فيما يرى راهبٌ غير راغب . ثم قبض الله رسولَه ، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ؛ ومودّة المجرم ! ألا وإنه معاوية ، فقاتلوه والعنوه ؛ فإنه ممّن يطفئُ نور الله ، ويظاهر أعداء الله .

قال : وكان مع عمّار زيادُ بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل فى الخيل ، فحمل فصبروا[1] له ، وشدّ عمار فى الرّجّالة ، فأزال عمرو بن العاص عن موْقفه ؛ وبارز يومئذ زياد بن النضر أخا له[2] من بنى عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العُقيلىّ ؛ وأمهما هند الزبيدية ؛ فانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالما ، ورجع الناس يومهم ذلك ؛

* * *

قال نصر : وحدثنى[3] أبو عبد الرحمن المسعودىّ قال : حدثنى يونس بن الأرقم ، عمّن حدثه من شيوخ بَكْر بن وائل ؛ قال : كنا مع علىّ عليه السلام بصِفّين ؛ فرفع عمرو ابن العاص شُقّة خميصةٍ سوداء فى رأس رُمْح ؛ فقال ناس : هذا لواء عَقَده له رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فلم يزالُوا يتحدّثون حتى وصل ذلك إلى علىّ عليه السلام ؛ فقال:

---

(١) فى الأصول : « فصبر » ، والصواب ما أثبته من صفين .

(٢) فى الطبرى : « لأمه » .

(٣) صفين ٢٤١ .

أتدرُون ما أمرُ هذا اللواء ! إنّ عدوّ الله عَمْراً أخرج له رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الشُّقّة ، فقال : مَنْ يأخذها بما فيها ؟ فقال عمرو : وما فيها يارسول الله ؟ قال : فيها ألّا تقاتل بها مسلما ، ولاتقرّبها من كافر ؛ فأخذها ؛ فقد والله قرّبها من المشركين ، وقاتل بها اليوم المسلمين ؛ والّذِى فَلَقَ الحَبّة ، وبرأ النَّسَمة ؛ ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسرّوا الكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا أظهروه .

* * *

وروى نصر ، عن أبى عبد الرحمن المسعودىّ ، عن يونس بن الأرقم ، عن عوف ابن عبد الله ، عن عمرو بن هند البَجَلىّ ، عن أبيه ، قال [1] : لما نظر علىّ عليه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام ، قال : والذى فَلَقَ الحبّة ، وبرأ النسمة ؛ ما أسلموا ولكن استسلموا ، وأسرُّوا الكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا ، رجعوا إلى عَدَاوتهم لنا؛ إلا أنّهم لم يتركوا الصلاة .

* * *

وروى نصر ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبى ثابت ،قال : [1] لما كان قتال صِفّين ،قال رجل لعمّار : يا أبا اليقظان ؛ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « قاتلوا الناس حتى يُسلموا ؛ فإذا أسلموا عَصَموا منّى دماءهم وأموالَهم » ؟ قال: بلى ، ولكن والله ما أسلموا ؛ ولكن استسلموا ، وأسرّوا الكفر حتى وَجَدُوا عليه أعوانا .

* * *

وروى نصر ، عن عبد العزيز عن حبيب بن أبى ثابت ، عن منذر الثورىّ ، قال : قال محمد بن الحنفيّة: لما [1] أتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أعلى الوادى،ومن أسفله،

---

(١) صفين ٢٤١ ، ٢٤٢

وملأ الأودية كتائب ـ يعني يوم فتح مكة ـ استسلموا حتى وجدوا أعوانا .

وروى نصر ، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل،عن الحسن ، قال : وحدثنا الحكم أيضا عن عاصم بن أبي النَّجُود ، عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطُب على مِنبَري فاضربوا عنقه » ، قال الحسن : فوالله مافعلوا ولا أفلحوا [1] .

(١) صفين ٢٤٣

(٥٥)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصلُ :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ نَقتُلُ آبَاءنَا وَأَبْنَاءنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ؛ وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ ، وَجِدًّا[1] فِي جِهَادِ العَدُوِّ . وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الفَحْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا ؛ أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ المَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ ، وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ . وَايْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا ، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَمًا !

* * *

الشرح :

لَقَمُ الطريق : الجادّة الواضحة منها . والمَضَض : لذع الألم وبرحاؤه . والتّصاول : أنْ يحمل كلٌّ واحد من القِرنين على صاحبه . والتخالس : التسالُب والانتهاب . والكبت : الإذلال . وجِران البعير : مقدّم عنقه . وتبوّأت المنزل : نزلته . ويقال لمن أسرف فى الأمر : لتحتلبنّ دما ، وأصله الناقة يُفْرَط فى حَلْبها فيحلب الحالب الدم .

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة ؛ وهى :

قوله : «استقرّ الإسلامُ ملقياجِرانه» ،أى ثابتامتمكّنا، كالبعير يلقى جِرانه على الأرض.

وقوله : « متبوِّئاً أوطانه » ، جعله كالجسم المستقرّ فى وطنه ومكانه .

وقوله : « ماقام للدين عمود » ، جعله كالبيت القائم على العُمُد .

وقوله : « ولااخضرّ للإيمان عود » ، جعله كالشّجرة ذات الفروع والأغصان .

فأما قتلهم الأقاربَ فى ذات الله فـكثير ؛ قتلَ علىّ عليه السلام الجمّ الغفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار فى يوم بَدْر وأُحُـد ؛ وهم عشيرته وبنو عمّه ، وقَتَل عمرُ ابن الخطاب يومَ بَدْر خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شيبةَ ابن ربيعة يوم بَدْر ، وهو ابنُ عمه؛ لأنهما ابنا عبدِ مناف ؛ ومثل ذلك كثير مذكور فى كتب السيرة .

وأما كَوْنُ الرجـل منهم وقِرْنه يتصاولان ويتخالسان ؛ فإنّ الحال كذلك كانت ؛ بارز علىّ عليه السلام الوليدَ بن عُقبة ، وبارز طلحةَ بن أبى طلحة ، وبارز عمرو بن عبدوَدّ ؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة ، وبارز كثيرا من الأبطالِ غيرهم وقتلهم ؛ وبارز جماعةٌ من شُجْعان الصحابة جماعةً من المشركين ؛فنهم مَنْ قُتِل ، ومنهم مَنْ قَتَل ، وكتب المغازى تتضمّن تفصيل ذلك .

***

[فتنة عبد الله بن الحضرمىّ بالبصرة]

وهذا الـكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى قصة ابن الحضرمىّ حيث قدم البَصرة من قِبَل معاوية ، واستنهض أميرُ المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة ؛ فتقاعدوا .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى فى كتاب "الغارات" :

حدّثنا محمد بن يوسف ، قال : حدثنا الحسن بن على الزّعفرانىّ ، عن محمد بن عبد الله ابن عثمان ، عن ابن أبى سيف ، عن يزيد بن حارثة الأزدىّ ، عن عمرو بن محصن ، أن معاوية لما أصابَ محمد بن أبى بكر بمصر وظهر عليها ، دعا عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فقال له : سرْ إلى البصرة ؛ فإن جلّ أهلها يروْن رأينا فى عثمان ، ويعظّمون قتلَه ، وقد قُتِلوا فى الطلب بدمِه ، فهم موتورون حَنِقون لما أصابهم ؛ ودُّوا لو يجدون مَنْ يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم فى الطلب بدم عثمان ؛ واحذرْ ربيعة ، وانزل فى مُضَر ، وتودّدِ الأزْد ؛ فإنّ الأزْدَ كلّها معك إلا قليلًا منهم ؛ وإنهم إن شاء الله غيرُ مخالفيك .

فقال عبد الله بن الحضرمىّ له : أنا سهمٌ فى كنانتك ، وأنا مَنْ قد جَرَّبت ، وعدوّ أهل حربك ، وظهيرك على قتلة عثمان ؛ فوجّهنى إليهم متى شئت . فقال : اخرُج غدا إن شاء الله . فودّعه وخرج من عنده .

فلما كان الليل جلس معاوية وأصحابه يتحدّثون ، فقال لهم معاوية : فى أىّ منزل ينزل القمر الليلة ؟ فقالوا : بسعد الذّابح ؛ فكرِه معاوية ذلك ، وأرسل إليه ألّا تبرح حتى يأتيك أمرى . فأقام .

***

ورأى معاوية أن يكتبَ إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر ، عاملُه عليها ، يستطلع رأيه فى ذلك ، فكتب إليه ؛ وقد كان تَسمّى بإمرة المؤمنين بعد يوم صِفّين ، وبعد تحكيم الحكمين :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى قد رأيتُ رأيًا هممتُ بإمضائه ، ولم يخذُلنى عنه

إلا استطلاع رأيك ؛ فإن توافقنى أحمد الله وأمضه ؛ وإن تخالفنى فإنى أستخير الله وأستهديه . إنى نظرتُ فى أمرِ أهل البصرة فوجدتُ معظم أهلها لنا وليًّا ولعلىّ وشيعته عدوًّا؛ وقد أوقع بهم علىّ الوقعة التى علمت ، فأحقاد تلك الدماء ثابتة فى صدورهم لا تبرح ولا تريم ؛ وقد علمتَ أنّ قتلنا ابن أبى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد أطفأتْ نيران أصحاب علىّ فى الآفاق ، ورفعت رءوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد ؛ وقد بلغ مَن كان بالبصرة على مثلِ رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحد ممن يرى رأينا أكثرَ عددا ، ولا أضرَّ خلافًا على علىّ من أولئك ؛ فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فينزل فى مُضَر ويتودّد الأزد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكّرهم وقعة علىّ بهم؛ التى أهلكتْ صالحى إخوانهم وآبائهم وأبنائهم . فقد رجوتُ عند ذلك أن يُفسِدَ على علىّ وشيعته ذلك الفرج من الأرض ؛ ومتى يُؤتَوا من خلفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ، ويبطل كيدهم . فهذا رأيى . فما رأيك ؟ فلا تحبس رسولى إلا قدر مضىّ الساعة التى ينتظرُ فيها جواب كتابى هذا . أرشدنا الله وإياك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

أما بعدُ ، فقد بلغنى رسولُك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيكَ الذى رأيته ، فعجبت له ، وقلت : إنّ الذى ألقاه فى روعِك ، وجعله فى نفسك هو الثائر بابن عفان ، والطالب بدمه ؛ وإنه لم يك منك ولا منّا منذ نهضنا فى هذه الحروب وبادينا أهلها[1] ، ولا رأى الناس رأيا أضرّ على عدوك ، ولا أسرّ لوليّك من هذا الأمر الذى ألهمته ، فامض رأيك مسدّدا ؛ فقد وجّهتَ الصّليب الأريب الناصح غير الظّنين والسلام .

* * *

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « وناديناـ »

فلما جاءه كتاب عمرو دعا ابن الحضرمىّ ـ وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمره بالشخوص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه ـ فقال: يابنَ الحضرمىّ، سرْ على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل فى مُضَر، واحذَرْ ربيعة، وتودّد الأزد، وانْعَ ابن عفان، وذكّرهم الوقعة التى أهلكتهم، ومَنِّ لمن سمع وأطاع دُنيا لا تفنى، وأثَرَة[1] لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده.

فودعه ثم خرج من عنده، وقد دفع إليه كتاباً، وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس.

قال عمرو بن محصن: فكنتُ معه حين خرج، فلما خرجنا سرنا ماشاء الله أن نسير، فسنَحَ لنا ظبى أعْضب[2] عن شمائلنا، فنظرت إليه؛ فوالله لرأيتُ الكراهية فى وجهه؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة فى بنى تميم، فسمعَ بقدُومنا أهلُ البصرة؛ فجاءنا كلّ مَنْ يرى رأى عثمان، فاجتمع إلينا رءوس أهلها؛ فحمد الله ابنُ الحضرمىّ وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ أيها الناس؛ فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفّان، قتله علىّ بن أبى طالب ظُلماً، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَنْ قتله، فجزاكم الله مِنْ أهل مصر خيرا؛ وقد أصيبَ منكم الملأُ الأخيار؛ وقد جاءكم الله بإخوان لكم؛ لهم بأسٌ يُتّقى، وعدد لا يُحصى؛ فَلَقوا عدوّكم الذين قتلوكم؛ فبلغوا الغاية التى أرادوا صابرين، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا، فمالئوهم وساعدوهم، وتذكروا ثأرَكم لتَشفوا صدورَكم من عدوّكم.

فقام إليه الضحاك بن عبدالله الهلالىّ، فقال: قَبّح الله ماجئتنا به، وما دعوتنا إليه! جئتَنا والله بمثل ماجاء به صاحباك طلحة والزبير؛ أتيانا وقد بايعنا عليا، واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم، فدعوَانا إلى الفرقة، وقاما فينا بزُخرف القول؛ حتى ضربْنا بعضَنا ببعض عُدوانا وظُلما؛ فاقتتلنا على ذلك، وايمُ الله، ما سلِمْنا من عظيم وبال

---

(١) فى اللسان: «فلان أثير عند فلان، وذو أثرة، إذا كان خاصا».

(٢) الأعضب: مكسور أحد القرنين؛ وكانوا يتشاءمون منه

ذلك ؛ ونحن الآن مجمون على بَيْعة هذا العبد الصالح الذى أقال العَثْرة ، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا . أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضا ، ليكون معاويةُ أميرا ، وتكون له وزيرا، ونعدل بهذا الأمر عن علىٍّ ! والله لَيومٌ من أيام علىٍّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا فى الدنيا ؛ ما الدنيا باقية .

فقام عبد الله بن خازم السُّلَمِيّ ، فقال للضحاك : اسكت ؛ فلست بأهلٍ أنْ تتكلم فى أمرِ العامة . ثم أقبل على ابن الحضرمىّ ، فقال : نحن يدُك وأنصارك ؛ والقول ماقلت ؛ وقد فهمنا عنك ؛ فادعنا أنى شئت ! فقال الضّحاك لابن خازم : يابن السوداء ؛ والله لايعِزّ من نصرت ، ولا يذِلّ بخذلانك مَنْ خذلت ؛ فتشاتما .

* * *

قال صاحب كتاب الغارات : والضحاك هذا هو الذى يقول :

يأيهذا السائِلى عن نسَبِى ... بين ثقيفٍ وهلال منصِبى

* أمّىَ أسماء وضَحّاكٌ أبى *

قال : وهو القائل فى بنى العباس :

مَا وَلَدَتْ من ناقة لفحلِ ... فى جَبَلٍ نعلمُه وَسَهلِ

كستة مِنْ بَطْنِ أم الفضلِ ... أكْرِمْ بهامن كَهْلَةٍ وكَهلِ

عمّ النبىّ المصطفى ذى الفضلِ ... وخاتم الأنبياء بعد الرُّسْلِ

قال : فقام عبدُ الرحمن بن عمير بن عثمان القرشىّ ثم التيمىّ ، فقال : عباد الله ؛ إنالم ندعكم إلى الاختلاف والفُرْقة ، ولا نريد أنْ تقتتلوا ولاتتنابزوا ؛ ولكنا إنّما ندعوكم إلى أنْ تجمعُوا كلمتكم ، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأنْ تلمُّوا شعثكم

وتُصلِحوا ذاتَ بينكم ؛ فمهلا مهلا ! رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب ، وأطيعوا الذى يقرأ عليكم .

فقضوا كتابَ معاوية وإذا فيه : مِنْ عبدالله معاوية أمير المؤمنين ، إلى من قرئَ كتاب هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة :

سلام عليكم . أما بعدُ ، فإنّ سَفْكَ الدماء بغير حِلّها ، وقتل النفوس التى حرّم الله قتلها هلاكٌ موبق ، وخسران مبين ؛ لا يقبل الله مِمّن سَفَكها صَرْفًا ولا عَدْلا ؛ وقد رأيتم رحمكم الله آثار ابن عفّان وسيرتَه ، وحُبّه العافية ، ومَعْدَلته ، وسَدّه الثغور ، وإعطاءه فى الحقوق ، وإنصافه للمظلوم ، وحُبّه الضعيف ؛ حتى توثّب عليه المتوثبون ؛ وتظاهر عليه الظالمون ، فقتلوه مسلمًا محرما ، ظمآن صائما ، لم يسفِكْ فيهم دما ، ولم يقتُلْ منهم أحدا ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوطٍ ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه ، وإلى قتال مَنْ قتله ؛ فإنا وإياكم على أمرِ هُدًى واضح ، وسبيل مستقيم . إنكم إن جامعتمونا طفئت النائرة ، واجتمعت الكلمة ، واستقام أمرُ هذه الأمة ، وأقرّ الظالمون المتوثبون الذين قتلوا إمامهم بغير حق ، فأخِذُوا بجرائرهم وما قدّمت أيديهم . إنّ لكم أنْ أعمل فيكم بالكتاب ، وأنْ أعطيكم فى السَّنة عطاءيْن ، ولا أحتمل فضلًا من فيئكم عنكم أبدًا . فسارعوا إلى ما تُدْعون إليه رحمكم الله ! وقد بعثتُ إليكم رجلًا من الصالحين ؛ كان من أمناء خليفتكم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يجيب إلى الحق ويعرفه ، ويُنكِر الباطل ويَجْحَده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

قال : فلما قُرِئَ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

قال : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن علىّ ، عن أبى زهير ، عن أبى مِنْقر الشيبانىّ ، قال : قال الأحنف لما قرئَ عليهم كتاب معاوية : أمّا أنا فلا ناقةَ لى فى هذا ولا جَمَل . واعتزل أمرهم ذلك .

وقال عمرو بن مرجوم ، من عبدالقيس : أيّها الناس ، الزموا طاعتَكم ، ولاتنكثُوا بيعتَكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ؛ ولا يكن بعدها لكم بقيّة ؛ ألا إنّى قد نصحتُ لكم ؛ ولكن لا تحبون الناصحين .

***

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبدالله ، عن ابن أبي‌سيف ، عن الأسود بن قيس ، عن ثعلبة بن عبّاد ، أن الذى كان سَدَّدَ لمعاوية رأيه فى تسريح ابن الحضرميّ كتاب كتبه إليه عبّاس بن ضحّاك العبدىّ ، وهو ممن كان يرى رأى عثمان ، ويخالف قومَه فى حبهم عليًّا عليه السلام ونصرتهم إياه ؛ وكان الكتاب :

أما بعد، فقد بلغنا وقعتُك بأهل مصر ؛ الذين بَغَوا على إمامهم ، وقتلوا خليفتَهم طمعاً وبَغْيا ، فقرّت بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ؛ وبردت أفئدة أقوامٍ كانوا القتل عثمان كارهين ، ولعدوّه مفارقين ؛ ولكم موالين ، وبك راضين ؛ فإن رَأيتَ أن تبعثَ إلينا أميراً طيبا ذكيا ذا عَفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْت ؛ فإنى لاأخال الناس إلا مجمعين عليك ؛ وإن ابن عباس غائب عن المصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لا عزمتُ رأيا سوى ما كتب به إلىّ هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ؛ فقد قرأتُ كتابَك ، فعرفت نصيحتَك ، وقَبِلت مشورتك ، رحمك الله وسددك ، اثبُتْ هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنّك بالرجل الذى سألت قد أتاك، وكأنّك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحبيت ؛ والسلام .

***

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله ، قال: حدثنى على بن أبى سيف عن أبى زهير

قال : لما نزل ابن الحضرمىّ فى بنى تميم أرسل إلى الرءوس فأتوه ، فقال لهم : أجيبونى إلى الحقّ ، وانصرونى على هذا الأمر .

قال : وإنّ الأميرّ بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس ، وقدم على علىّ عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبى بكر ، قال : فقام إليه ابن ضحّاك ، فقال : إى والذى له أسعى ، وإياه أخشى ، لننصرنّك بأسيافنا وأيدينا .

وقام المثنى بن مخرمة العبدىّ فقال : لا والذى لا إله إلا هو ، لئن لم ترجع إلى مكانك الذى أقبلت منه لنجاهدنّك بأسيافنا وأيدينا ، ونبالنا وأسنّة رماحنا . نحن نَدَع ابنَ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيد المسلمين ، وندخل فى طاعة حزب من الأحزاب طاغ ! والله لا يكون ذلك أبدا حتى نسيّر كتيبة ، ونفلّق السيوف بالهام .

فأقبل ابنُ الحضرمىّ على صَبْرة بن شَيْمان[1] الأزدىّ فقال : ياصَبْرة ، أنت رأسُ قومك ، وعظيمٌ من عظماء العرب ، وأحد الطّلبة بدم عثمان ، رأينا رأيُك ، ورأيُك رأينا ، وبلاء القوم عندك فى نفسك وعشيرتك ماقد ذقت ورأيت ، فانصرنى وكُنْ من دونى . فقال له : إن أنت أتيتَنى فنزلت فى دارى نصرتُك ومنعتك . فقال : إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرَنى أنْ أنزل فى قومه من مُضَر ، فقال : اتّبع ماأمرَك به .

وانصرف من عنده ، وأقبل الناسُ إلى ابن الحضْرمىّ ، وكثر تَبَعُه ، ففزع لذلك زياد وهالَهُ وهو فى دار الإمارة ، فبعث إلى الحُضَين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع ، فدعاهما ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم أنصارُ أمير المؤمنين وشيعتهُ وثقته ، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم ، فأجيرونى حتى يأتيَنى أمرُ أمير المؤمنين ورأيُه .

فأما مالك بن مسمع ، فقال : هذا أمر فيه نَظَر ، أرجع إلى مَنْ ورائى ، وأنظر وأستشير فى ذلك .

وأمّا الحضين بن المنذر فقال ، نعم ، نحن فاعلون ، ولن نخذُلَك ولن نُسلِمك .

---

(١) ب : « سليمان » ، تحريف .

فلم يَرَ زياد من القوم مايطمئنّ إليه ، فبعث إلى صَبْرة بن شيمان الأزديّ ، فقال : يابن شيمان ، أنت سيدُ قومك ، وأحد عظماء هذا المِصْر ، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم أهله فأنت ذاك ؛ أفلا تجيرنى وتمنعنى ، وتمنع بيتَ مال المسلمين ! فإنما أنا أمين عليه . فقال : بَلى ، إن تحمّلت حتى تنزِل فى دارى منعتُك ، فقال : إنى فاعل .

فارتحل ليلا حتى نزل دار صَبْرة بن شيمان ، وكتب إلى عبد الله بن عباس — ولم يكن معاوية ادّعى زياداً بعد ؛ لأنه إنما ادّعاه بعد وفاة علىّ عليه السلام :

للأمير[1] عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد .

سلام عليك ، أما بعدُ فإنّ عبدَ الله بن عامر بن الحضرمىّ أقبل مِنْ قِبَل معاوية حتى نزل فى بنى تميم ، ونَعى ابنَ عفّان ، ودعا إلى حرب ، فبايَعه جُلُّ أهلِ البصرة، فلما رأيت ذلك استجرتُ بالأزد ، بصَبْرة بن شيمان وقومِه لنفسى ولبيت مال المسلمين، ورحلتُ من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإنّ الأزد معى ، وشيعة أمير المؤمنين مِن فُرسان القبائل تختلف إلىّ وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمىّ ؛ والقصر خالٍ منّا ومنهم ، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، لِيَرى فيه رأيه ، وأعجِل إلىّ بالذى ترى أن يكون منه فيه . والسلام عليك وَرحمة الله وبركاته .

قال : فرفع ذلك ابنُ عباس إلى علىّ عليه السلام ، وشاع فى الناس بالكوفة ما كان من ذلك ، وكانتْ بنو تميم وقيس ، ومَنْ يرى رأى عثمان قد أمرُوا ابن الحضرمىّ أن يسير إلى قصر الإمارة حين خَلّاه زياد ، فلما تهيّأ لذلك ودعا أصحابَه ، ركبت الأزد ، وبعثت إليه وإليهم : إنا والله لا نَدَعكم تأتونَ القصر فتنزلون فيه مَنْ لا نَرْضَى ، ومَنْ نحن له كارهون ؛ حتى يأتىَ رجل لنا ولكم رضا ، فأبى أصحابُ ابن الحضرمىّ إلا أن يسيروا إلى القصر ، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم . فركب الأحنف ، فقال لأصحاب ابنِ الحضرمىّ : إنكم والله

---

(١) ب : « للأمين »

ما أنتم أحقّ بقصر الإمارة من القوم ، وما لكم أن تؤمّروا عليهم مَنْ يكرهونه ، فانصرفوا عنهم : ففعلوا ، ثم جاء إلى الأزد ، فقال : إنه لم يكن ما تكرهون ، ولا يُؤْتَى إلّا ما تُحِبّون ؛ فانصرفوا رحمكم الله ، ففعلوا .

***

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف ، عن الكلبيّ ، أنّ ابن الحضرميّ لما أتى البصرة ، ودخلها نزل في بني تميم في دار سنبيل[1] ، ودعا بني تميم وأخلاط مُضَر ، فقال زياد لأبي الأسود الدؤليّ : أما ترى ما صَغَى[2] أهلُ البصرة إلى معاوية ؛ وما في الأزد لي مطمع ؛ فقال : إن كنتَ تركتهم لم ينصروك ، وإن أصبحت فيهم منعوك .

فخرج زيادٌ من ليلته ، فأتى صَبِرة بن شَيْمان الحُدانيّ الأزديّ ، فأجاره ، وقال له حين أصبح : يا زياد ؛ إنه ليس حسنا بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا ؛ فأعدّ له منبرا وسريرا في مسجد الحُدّان ، وجعل له شُرَطاً ، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحُدّان .

وغلب ابنُ الحضرميّ على ما يليه من البصرة وجَباها ، وأجمعت الأزد على زياد ، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معشر الأزد ، إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي ، وأوْلى الناس بي . وإني لو كنت في بني تميم وابنُ الحضرميّ فيكم لم أطمعْ فيه أبدا وأنتم دونه ، فلا يطمع ابنُ الحضرميّ فيّ وأنتم دوني ، وليس ابنُ آكلةِ الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ؛ وقد أصبحت فيكم مضمونا ، وأمانة مؤدّاة ، وقد رأينا وقعتكم يوم الجمل ، فاصبِروا مع الحقّ صبرَكم مع الباطل ؛ فإنكم لا تُحْمَدون إلا على النجدة ، ولا تُعْذرون على الجبن .

فقام شَيْمان أبو صبرة — ولم يكن شهد يوم الجمل ، وكان غائبا — فقال : يامعشرَ الأزد ،

(١) في الأصول : « سبيل » ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبري ٥ : ١١٢ .
(٢) ب : « صغو أهل البصرة » .

ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على علىّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أنّ إسلامكم له ذلّ ، وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حيٌّ مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ؛ فإن سار القوم بصاحبهم فسيرُوا بصاحبكم ، وإن استمدُّوا معاوية ، فاستمدّوا عليا عليه السلام ، وإن وَادَعُوكم فوادِعُوهم .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : يا معشر الأَزْد ، إنا قلنا يومَ الجمل : نمنع مِصْرنا ، ونطيع أمّنا ، نطلب دم خليفتنا المظلوم ، فجَدَدْنا فى القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِل منا مَنْ لا خير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من علىّ ما نخاف من معاوية، فهَبُوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم أو فأبلِغوه مأمنه .

فقالت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجيروه . فضحك زياد ، وقال : ياصبرة ، أتخشون ألاّ تقوموا لبنى تميم ! فقال صبرة : إن جاءونا بالأحنف جئناهم بأبى صَبْرة ، [1] وإن جاءونا بالحباب جئت أنا ؛ وإن كان فيهم شباب كثير [1] . فقال زياد : إنما كنت مازحا .

فلما رأت بنو تميم أنّ الأزدَ قد قامت دون زياد بعثتْ إليهم : أخرجوا صاحبَكم ونحن نخرج صاحبنا ، فأىّ الأميرين غَلَبَ ــ علىّ أو معاوية ــ دخلنا فى طاعته ، ولا نهلِك عامّتنا .

فبعث إليهم أبو صبرة : إنما كان هذا يُرْجى عندنا قبل أن نجيره ، ولعمرى ما قَتْل زياد وإخراجه إلا سواء ؛ وإنكم لتعلمون أنّا لم نُجِرْه إلا كرما ، فالهوا عن هذا .

***

قال : وروى أبو الكَنود أنّ شَبَث بن رِبعىّ قال لعلىّ عليه السلام : ياأميرالمؤمنين ، ابعث إلى هذا الحىّ من تميم ، فادْعُهم إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلّط عليهم أزْدَعُمان البُعداء البُغضاء ؛ فإن واحدا من قومك خيرٌ لك من عشرة من غيرهم .

(١ــ١) كذا فى الأصول ، وفى العبارة غموض .

فقال له مِخنَف بن سليم الأزدىّ : إن البعيد البغيض ، من عصَى الله وخالف أمير المؤمنين ، وهم قومك ، وإن الحبيب القريب مَنْ أطاع الله ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومى ، واحدُهم خيرٌ لأمير المؤمنين من عشرة من قومك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مه ! تناهوْا أيها الناس، وليردَعْكم الإسلام ووقارُه عن التباغى والتهاذى ، ولتجتمِعْ كلمتكم ، والزَموا دينَ الله الذى لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التى هى قوام الدين ، وحجة الله على الكافرين ؛ واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرّقين ، فألّف بينكم بالإسلام فكثُرتم ، واجتمعتم وتحاببتم . فلا تفرّقوا بعد إذ اجتمعتم ، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم ؛ وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة[1] وقد تداعَوا إلى العشائر والقبائل ؛ فاقصِدوا لهامهم ووجوههم بالسّيف حتى يفزَعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيّه ؛ فأمّا تلك الحميّة من خطَرات الشياطين فانتهوا عنها ، لا أبا لكم تفلحوا وتنجحوا !

ثم إنه عليه السلام دعا أعْيَن بن ضُبَيعة المجاشعىّ ، وقال : يا أعْيَن ، ألم يبلغك أن قومَك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمىّ بالبصرة ، يدْعُون إلى فراق وشقاق ويساعدون الضُّلّال القاسطين علىّ !

فقال : لا تُسَأ يا أمير المؤمنين ، ولا يكن ما تكره . ابعثنى إليهم ؛ فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم ، ونَفْىِ ابن الحضرمىّ من البصرة أو قتله .

قال : فاخرج الساعة .

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة .

---

(١) النائرة : الفتنة .

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات .

* * *

وروى الواقدى أن عليا عليه السلام، استنفرَ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصْرة مَنْ يكفيه أمرَ ابن الحضرمىّ ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بهـا ، فلم يُجِبه أحد ، فخطبهم ، وقال : أليس من العَجَب أن ينصرَنى الأزد ، وتخذُلَنى مضر ! وأعجب من ذلك تقاعدُ تميم الـكوفة بى ، وخلاف تميم البَصْرة علىّ ، وأن أستنجد بطائفة منها ، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد ، فإن أجابت وإلّا فالمنابذة والحرب . فـكأنى أخاطبُ صُماً بُـكماً لا يفقهون حِواراً ، ولا يجيبون نداء ؛ كلُّ هذا جبناً عن البأس، وحُبًّا للحياة ؛ لقد كنا مع رسول الله صـلى الله عليـه وآله نقتُل آباءنا وأبنـاءنا . . . . . . الفصل إلى آخره .

قال : فقام إليه أعين بن ضُبَيعة المجاشعىّ ، فقال : أنا ـ إنْ شاء الله ـ أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطْب، وأتـكفّلُ لك بقتل ابن الحضرمىّ ، أو إخراجه عن البصرة. فأمره بالتَّهَيُّؤِ للشخوص ؛ فشَخص حتى قدم البصرة .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : فلما قدمها دخلَ على زياد وهو بالأَزْد مقيم، فرحّب به وأجلسه إلى جانبه ، فأخبره بما قال له علىّ عليه السلام ، وما رَدّ عليه ، وما الذى عليه رأيه ؛ فإنه إذ يكلّمه جاءه كتاب من علىّ عليه السلام فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد :

سلام عليك ، أما بعـد ؛ فإنى قد بعثت أعْين بن ضُبيعة ، ليفرّق قومَه عن ابن الحضرمىّ ، فارقُبْ ما يكون منه ؛ فإن فعل وبلغ من ذلك مايظنّ به ، وكان فى ذلك تفريق تلك الأوباش فهو مانحبّ ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ،

فانبذْ بمن[1] أطاعك إلى مَنْ عصاك ؛ فجاهدْهم ، فإن ظهرتَ فهو ماظننت ، وإلّا فطاوِلْهم وماطِلْهم ؛ فكأنَّ كتائب المسلمين قد أطلّت عليك ، فقتَلَ الله المفسدين الظالمين ، ونصر المؤمنين المحقّين ، والسلام .

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن ضُبَيعة ، فقال له : إنى لأرجو أن يُكفَى هذا الأمر إن شاء الله . ثم خرج من عنده ؛ فأتى رَحْله ، فجمع إليه رجالا من قومه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ياقوم ،على ماذا تقتلُون أنفسكم ، وتُهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ! وإنى والله ماجئتُكم حتى عَبّيْت إليكم الجنود ؛ فإن تُنيبوا إلى الحقّ يقبل منكم ، ويكفّ عنكم ؛ وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبَوَارُكم .

فقالوا : بل نسمع ونطيع . فقال : انهضوا الآن على بركة الله عزّ وجل . فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمىّ ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمىّ فصافّوه وواقفهم[2] عامة يومه يُناشدهم الله ، ويقول : ياقوم لا تنكثُوا بيْعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ؛ فقد رأيتم وجرّبتم كيفَ صنع الله بكم عند نَكْثكم بيعتكم وخلافِكم . . فكفّوا عنه ، ولم يكن بينه و بينهم قتال ؛ وهم فى ذلك يشتمونه وينالون منه ، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف . فلما أوى إلى رحله تَبعه عشرة نفر يظنّ الناس أنّهم خوارج ، فضربوه بأسيافهم وهو على فراشه ، ولا يظنّ أنّ الذى كان يكون ، فخرج يشتدّ عُرْيانا ، فلحقوه فى الطريق فقتلوه ، فأراد زياد أن يناهضَ ابنَ الحضرمى حين قتل أعين بجماعة مَنْ معه من الأزد وغيرهم من شيعة علىّ عليه السلام ، فأرسل بنو تميم إلى الأزد : والله ماعرضْنا لجاركم إذ أجرتموه ، ولا لمالٍ هُوَ لَهُ ، ولا لأحدٍ ليس على رأينا ؛ فما تريدون

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « من » .
(٢) صافوه ؛ أى وقفوا صفوفا ويقال : واقفه فى الحرب ؛ أى وقف كل منهما مع الآخر .

إلى حَرْبنا وإلى جارنا ! فكأنّ الأزد عند ذلك كَرِهَتْ قتالهم .

فكتب زياد إلى عليّ عليه السلام : أما بعد ياأميرَ المؤمنين ، فإن أعْيَن بن ضُبيعة قدِم علينا مِنْ قِبَلك بجدّ ومناصحة وصدق ويقين ، فجمع إليه مَنْ أطاعه من عشيرته ، فحثهم على الطاعة والجماعة ، وحذّرهم الخلاف والفرقة ، ثم نهض بمَنْ أقبل معه إلى مَنْ أدبر عنه ، فواقفهم عامّة النهار ، فهالَ أهلَ الخلاف تقدُّمُه ، وتصدَّع عن ابن الحضرميّ كثير مِمَّنْ كان يريد نُصرته ، فكان كذلك حتى أمسى ، فأُتي في رَحْله فبيَّتَه نفر من هذه الخارجة المارقة ، فأُصيب رحمه الله تعالى ، فأردتُ أنْ أُناهضَ ابنَ الحضرمي عند ذلك ، فحدث أمرٌ ، قد أمرتُ صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين ، وقد رأيتُ إنْ رأى أميرُ المؤمنين ما رأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قُدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، ومطاع في العشيرة ، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين ، فإنْ يقدُم يفرِّق بينهم بإذن الله . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما جاء الكتاب ، دعا جارية بن قُدامة ، فقال له : يابنَ قدامة ، تمنع الأزد عاملي وبيت مالي ، وتشاقّني مضر وتنابذني ! وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة ، وعرّفها الهدى ، وتداعَوْا إلى المعشر الذينَ حادّوا الله ورسوله ، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه ، حتى علَتْ كلمة الله ، وهلك الكافرون .

فقال : ياأمير المؤمنين ، ابعثني إليهم ، واستَعِنْ بالله عليهم . قال : قد بعثتك إليهم ، واستعنت بالله عليهم .

***

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثني ابنُ أبي السيف ، عن سليمان ابن أبي راشد ، عن كعب بن قُعين ، قال : خرجتُ مع جارية من الكوفة إلى البَصْرة

فى خمسين رجلا من بنى تميم ، ما كان فيهم يمانىٌّ غيرى ، وكنتُ شديدَ التشيُّع ، فقلت لجارية : إن شئتَ كنتُ معك ، وإن شئتَ ملتُ إلى قومى ! فقال : بل معى ؛ فوالله لَوَدِدْت أنّ الطير والبهائم تنصرُنى عليهم ، فضلا عن الإنس .

***

قال : وروى كعب بن قعين أنّ عليًّا عليه السلام كتب مع جارية كتابا ، وقال : اقرأه عَلَى أصحابك ، قال : فمضينا معه ، فلمادخلنا البصرة ، بدأ بزياد ، فرحّب به وأجلَسه إلى جانبه ، وناجاه ساعة وساءلَهُ ، ثم خرج فكان أفضل ماأوصاه به أنْ قال : احذَرْ على نفسك ، واتَّقِ أن تَلْقَى مالَقِيَ صاحبُك القادمُ قَبلَك .

وخرج جارية من عنده ، فقام فى الأزد ، فقال : جزاكم الله من حَيّ خيرا ! ماأعظَم غَناءكم ، وأحسنَ بلاءكم ، وأطوَعكم لأميركم ! لقد عرفتم الحقّ إذ ضيّعه مَنْ أنكره ، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه . ثم قرأ عليهم وعلى مَنْ كان معه من شيعة علىّ عليه السلام وغيرهم — كتابَ على عليه السلام ، فإذا فيه :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَنْ قرئ عليه كتابى هذا من ساكِنى البصرة من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعد فإنّ الله حَليم ذو أناةٍ ، لايَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البيّنة ، ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويرضى بالإنابة ؛ ليكون أعظمَ للحجّة ، وأبلغ فى المعذرة ؛ وقد كان من شقاق جُلّكم أيها الناس مااستحققتم أنْ تعاقَبوا عليه ، فعفوت عن مجرمكم ، ورفعت السَّيف عن مُدْبركم ، وقبلت من مُقْبلكم ، وأخذت بيعتكم ، فإن تَفُوا ببيْعتى ، وتقبلُوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتى ، أعمَلْ

فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق ، وأُقِمْ فيكم سبيل الهدى ، فو الله ما أعلم أنّ واليًا بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلمُ بذلك منّى ، ولا أعمل بقولى . أقول قولى هذا صادقًا ، غيرَ ذامّ لمن مضى ، ولا منتقصًا لأعمالهم ، وإن خَبَطَتْ[1] بكم الأهواء المُرْدِية ، وسَفَهُ الرأى الجائر إلى منابذتى ، تريدون خِلافى ا فها أنا ذا قرّبْتُ جيادى ، ورَحَلْت ركابى ، وايمُ الله لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم لأوقِعَنّ بكم وَقْعَةً ، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلَعْقَةِ لاعق ، وإنى لظانّ ألّا تجعلوا — إن شاء الله — على أنفسكم سبيلا . وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ، ولن أكتبَ إليكم من بعده كتابا ، إن أنتم استغششتم نصيحتى ، ونابذْتُم رسولى ، حتى أكونَ أنا الشّاخص نحوكم ، إن شاء الله تعالى . والسلام .

قال : فلما قرئ الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان ، فقال : سمعنا وأطعنا ، ونحنُ لمنْ حارب أمير المؤمنين حَرْب ، ولمن سالم سِلْم ؛ إن كَفَيْتَ ياجارية قومَك بقومك فذاك ، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك .

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه ، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بنى تميم .

فقام زياد فى الأزد ، فقال :

يا معشر الأزد ، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلما ، فأصبحوا اليوم حربًا ، وإنكم كنتم حَرْبا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتمونى ، حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شُرَطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة ، فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم ، لا أجْبيه اليوم ، فإن لم أجْبه اليوم أجْبِه غدا إن شاء الله . واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس عليًا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله علىّ

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « خبطت » .

ليصدَع أمرَ قومه،والله ماهو بالأمير المطاع،ولو أدرك أمله فى قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لـكان لى تبعاً ، وأنتم الهامةُ العظمى ، والجرة (١) الحامية ، فقدّموه إلى قومه ، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم ذلك .

فقام أبو صبرة شيمان فقال : يازياد ، إنى والله لو شهدتُ قومى يومَ الجمل ، رجوتُ ألا يقاتلوا عليا ، وقد مضى الأمرُ بما فيــه . وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، واللهُ إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسّيء ، والتوبة مع الحقّ ، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعوْنا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولـكنها جماعة دماؤها حرام ، وجرُوحها قصاص ، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ .

فعجب زياد من كلامه ، وقال : ما أظنّ فى الناس مثل هذا .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : إنا والله ما أصِبْنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل ، وإنا لنرجو اليوم أن نُمحّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأمّا أنتَ يازياد ، فوالله ما أدركت أملك فينا ، ولا أدركنا أملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك ، ونحن رادّوك إليها غدا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أوْلَى بك مِنّا ، فإنك إلا تفعل لم تأت مايشبهك (٢) ، وإنا والله نخاف من حرب علىّ فى الآخرة ، مالا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا ، فقدّم هواك وأخّر هوانا ، فنحن معك وطوعك .

ثم قام خنفُر (٣) الحانىّ ، فقال:أيُّها الأمير،إنك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا،سِرْ بنا إلى القوم إن شئت،وايمُ الله مالقينا قوماً (٤) قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا ؛ إلا ما كان أمس .

---

(١) الجرة : كل جماعة انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يخالفوا غيرهم .

(٢) ج : « تشبهه » .

(٣) كذا فى ب ، وفى ج : « حيقن » .

(٤) ب : « يوما » .

قال إبراهيم : فأمّا جارية، فإنّه كلم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباش[1] فناوشوه بعد أنْ شتموه وأسمعوه ، فأرسل إلى زياد والأزْد ، يستصرِخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه ، فسارت الأزْد بزياد ، وخرج إليهم ابنُ الحضرميّ ، وعلى خيله عبد الله بن خازم السُّلميّ ، فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثيّ ـ وكان من شيعة عليّ عليه السلام ، وصديقا لجارية بن قدامة ـ فقال : ألا أقاتل معك عدوّك ؟ فقال : بلى ؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سنبيل السعدى؛ فحصروا ابنَ الحضرميّ وحدَّوه، فأتى رجل من بنى تميم ، ومعه عبد الله بن خازم السلميّ، فجاءت أمه وهى سوداء حبشية اسمها عجلى، فنادته، فأشرف عليها ، فقالت: يا بُنَى ، انزل إلىّ ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت : والله لتنزلنّ أو لأتعرّينّ ، وأهوت بيدها إلى ثيابها[2]، فلما رأى ذلك نزّل ، فذهبت به ، وأحاط جارية وزياد بالدّار ، وقال جارية : علىّ بالنار ، فقالت الأزد : لسنا من الحريق بالنار فى شىء ؛ وهم قومُك وأنت أعلم ، فحرّق جارية الدّار عليهم، فهلك ابنُ الحضرميّ فى سبعين رجلا ؛ أحدهم عبدالرحمن بن عمير بن عثمان القرشى التيمىّ ؛ وسُمّىَ جارية منذ ذلك اليوم محرّقا ؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ؛ ومعه بيت المال، وقالت له : هل بقى علينا مِنْ جوارك شىء ؟ قال : لا ، قالوا : فبرّئنا منه ؟ فقال : نعم ؛ فانصرفوا عنه . وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرميّ بمن نصره وأعانه من الأزْد، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه، منهم من أحرق بالنار ؛ ومنهم من أُلقى عليه جدار ؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ؛ ومنهم من قُتِل بالسيف، وسلم

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة من الناس .
(٢) ا ، ب : « ساقها » .

منهم نفر أنابوا وتابوا ، فصفح عنهم ، وبعداً لمن عصى وغوى ! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصل كتاب زياد قرأه عليّ عليه السلام على الناس ، وكان زياد قد أنفذه مع ظَبْيان بن عُمارة ، فسرّ علي عليه السلام بذلك وسُرّ أصحابه ، وأثنى على جارية وعلى الأزد ، وذمّ البصرة فقال : إنها أول القُرى خرابا ؛ إما غرقا وإما حرقا ؛ حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة . ثم قال لظَبْيان : أين منزلك منها ؟ فقال : مكان كذا ، فقال : عليك بضواحيها .

وقال ابن العرندس الأزديّ يذكر تحريق ابن الحضرميّ ، ويعيِّر تميما بذلك :

رَدَدْنا زيـــاداً إلى دَارِهِ وجار تميم ينادى الشَّجَبْ[1]

لحا الله قوماً شَوَوْا جـــارهم لَعَمْرِى لبئس الشَّواء الشَّصَبْ[2]

ينادى الخناق وأبنـــاءها وقد شَيَّطُوا رأسَها باللَّهَبْ

والخناق لقب قوم بنى تميم .

(١) الشجب : الهلاك

(٢) الشصب : الشاة المسلوخة .

ومن كلام له عليه السلام لأصحابه :

الأصْـلُ :

أما إنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْـكُمْ بَعْدِي رَجلٌ رَحْبُ البُلْعُوم ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يأكُلُ مَا يَجِدُ ، وَيَطْلُبُ مالَا يَجِدُ ، فَاقتُلوه ـ وَلَنْ تقتُلوه . ألَا وَإنَّهُ سَيَأمُرُكُمْ بسبِّي والبَرَاءةِ مِنِّي ؛ فَأمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي ؛ فإنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَـكُمْ نَجاةٌ ، وَأمَّا البَرَاءةُ فَلَا تَتَبَرَّءوا مِنِّي ؛ فإنِي وُلِدْتُ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَسَبَقْتُ إلى الْإيمانِ وَالْهِجْرَةِ .

الشَّـرْحُ :

مُنْدَحِقُ البطن : بارزها ، والدَّحُوق من النوق : التي يخرج رَحِمها عند[1] الولادة. وسيظهر : سيغلب . ورحْب البُلعوم : واسعه .

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عَنَى زيادا ، وكثير منهم يقول : إنّه عَنَى الحجّاج . وقال قوم : إنه عَنَى المغيرة بن شعبة ؛ والأشبه عندى أنه عَنَى معاوية ، لأنه كان موصوفا بالنَّهَم وكثرة الأكل ، وكان بطينا ، يقعُد بطنُه إذا جلس على فَخِذَيه ، وكان معاوية جواداً بالمـال والصِّلات ، وبخيلا على الطعام ؛ يقال : إنه مازح أعرابيًّا على طعامه ، وقد قُدِّم بين يديه خروف ، فأمعن الأعرابىّ فى أكله ، فقال له : ماذنبه إليك ، أنطحك أبوه ؟ فقال الأعرابىّ : وما حُنُوُّك عليه ؟ أأرضعتك أمه !

وقال لأعرابىّ يأكلُ بين يديه ، وقد استعظم أكله : ألا أبغيك سِكِّينا ؟ فقال :

(١) ج : « بعد » .

كلّ امرىء سِكّينُه فى رَأسِه ، فقال : ما اسمُك ؟ قال : لُقَيم ، قال : منها أُتيتَ .

كان معاوية يأكل فيكثر ، ثم يقول : ارفعوا ، فواللّٰه ما شبِعت ولكن مَلِلْت وتعِبت .

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى اللّٰه عليه وآله دَعَا عَلَى معاوية لمّا بعث إليه يستدعيه ، فوجده يأكل ، ثم بعث فوجده يأكل ، فقال : « اللهم لا تُشْبِع بطنه » ، قال الشاعر :

وَصَاحِبٍ لِى بَطْنُهُ كَالْهَاوِيَهْ   كَأَنَّ فِى أَحْشَائِهِ مُعَاوِيَهْ

***

وفى هذا الفصل مسائل :

الأولى : فى تفسير قوله عليه السلام : « فاقتلوه ولن تقتلوه » فنقول : إنه لاتنافىَ بين الأمر بالشىء والإخبار عن أنه لايقع ، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أنّ أبا لهب لايؤمن وأمَره بالإيمان ، وكما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) ، ثم قال : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾(٢) ، وأكثر التكليفات على هذا المِنْهاج .

***

[مسألة كلامية فى الأمر بالشىء مع العلم بأنه لا يقع]

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا فى أنه تعالى قَدْ يأمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عن أنه لايقع ؛ وإنما اختلفوا : هل يصحّ أن يريدَ مايعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عنه أنه لايقع؟ فقال أصحابنا: يصحّ ذلك ، وقال المجبرة : لا يصحّ ؛ لأنّ إرادة مايعلم المريدأنه لايقع قضية متناقضة، لأن تحت قولنا: «أراد» مفهوم أنّ ذلك المراد مما يمكن حصوله ، لأنّ إرادة المحال ممتنعة . وتحت قولنا : « إنه يعلم أنه لا يقع » مفهوم أن ذلك المراد مما لا يمكن حصوله ، لأنا قد

(١) سورة البقرة ٩٥ .   (٢) سورة الجمعة ٧ .

وضعنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصوله مع فرض كونه لا يقع ، فقال لهم أصحابنا : هذا يلزمكم فى الأمر ؛ لأنكم قد أجزتم أنْ يأمرَ بما يعلم أنّه لا يقع ، فقالوا فى الجواب : نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد ، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع ، أو يخبر عن أنه لا يقع ، كان ذلك الأمر أمراً عارياً عن الإرادة ، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع ، وها هنا لا إرادة .

فقيل لهم : هب أنكم ذهبتم إلى أن الأمر قد يَعْرَى من الإرادة مع كونه أمراً ، ألستم تقولون : إن الأمر يدلّ على الطلب ، والطلب شىء آخر غير الإرادة ! وتقولون : إن ذلك الطلب قائم بذات البارئ ، فنحن نُلزمكم فى الطلب القائم بذات البارئ ، الذى لا يجوز أن يَعْرَى[1] الأمر منه ما ألزمتمونا فى الإرادة .

ونقول لكم : كيف يجوز أن يطلب الطالب ما يعلم أنّه لا يقع ! أليس تحت قولنا : طلب مفهوم ؛ أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه ! فالحال فى الطلب كالحال فى الإرادة ، حَذْو النّعل بالنعل . ولنا فى هذا الموضع أبحاث دقيقة ذكرناها فى كتبنا الكلامية .

* * *

[فصل فيما روى من سبّ معاوية وحزبه لعلىّ]

المسألة الثانية : فى قوله عليه السلام : « يأمركم بسبّى والبراءة منى » ، فنقول : إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ علىّ عليه السلام والبراءة منه .

وخطب بذلك على منابر الإسلام ، وصار ذلك سنة فى أيام بنى أمية إلى أنْ قام عمر ابن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله . وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول فى آخر خطبة الجمعة : اللهم إنّ أبا تراب ألْحَد فى دينك ، وصدّ عن سبيلك

---

(١) ا : « يتعرى » .

فالعنه لعنا وبيلا ، وعذبه عذابا أليما . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يُشاربها على المنابر ؛ إلى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم ، فقام إليه إنسان ، فقال: ياأمير المؤمنين ، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب ، فقال : اكفف ، فما لهذا جئنا .

وذكر المبرّد في " الكامل " ، أن خالد بن عبد الله القسريّ لمّا كان أمير العراق في خلافة هشام ، كان يلعن عليّاً عليه السلام على المِنبر ، فيقول : اللهمّ العن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صهر رسول الله صلى عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ! ثم يقبل على الناس ، فيقول هل كَنَّيْت[1] !

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بني أميّة قالوا لمعاوية : ياأمير المؤمنين ، إنّك قد بلغتَ ماأمّلت ، فلو كففت عن لَعْن هذا الرجل ! فقال : لا والله حتى يربوَ عليه الصغير ، ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلا !

وقال أبو عثمان أيضاً : وما كان عبد الملك — مع فَضْله وأناته وسَدَاده ورُجْحانه — ممن يخفى عليه فضلُ عليّ عليه السلام ، وأنّ لعنه على رءوس الأشهاد ، وفي أعطاف الخطب، وعلى صَهَوات المنابر مما يعود عليه نقصه ، ويرجع إليه وهنه ؛ لأنهما جميعا من بني عبد مناف؛ والأصل واحد، والجرثومة منبت لهما ، وشرف عليّ عليه السلام وفضله عائد عليه، ومحسوب له ، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ مافعله الأسلاف ، وأن يقرّر في أنفُس الناس أنّ بني هاشم لاحَظّ لهم في هذا الأمر ، وأنّ سيّدَهم الذي به يصولون ، وبفخره يفخرون ،

---

(١) الكامل ٤١٤ (طبع أوربا) .

هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَنْ ينتمي إليه ويُدْلِي به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح .

وروى أهل السِّيَرة أن الوليد بن عبد الملك فى خلافته ذكر عليا عليه السلام ، فقال : لعنه « اللهِ ـ بالجر ـ كان لص ابن لص » .

فعجب النـاس من لَحْنه فيما لا يلحن فيه أحد ، ومِنْ نسبته عليـا عليه السلام إلى اللصوصيّة وقالوا : ماندرى أيّهما أعجب ! وكان الوليد لحّانا .

وأمر المغيرة بن شعبة ـ وهو يومئذ أمير الكوفة مِنْ قِبَل معاوية ـ حُجْر بن عدىّ أن يقوم فى الناس ، فليلعنّ عليا عليه السلام ، فأبى ذلك ، فتوعده ، فقام فقال : أيّها الناس ، إن أميركم أمرنى أن ألعن عليا فالعنوه فقال أهل الكوفة : لعنه الله ، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد .

وأراد زياد أن يَعْرِض أهلَ الكوفة أجمعين على البراءة من علىّ عليه السلام ولعنه وأن يقتُلَ كلّ من امتنع من ذلك ، ويُخرِّب منزله ، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون ، فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام ، وذلك فى خلافة معاوية .

وكان الحجاج ـ لعنه الله ـ يلعنُ عليًّا عليه السلام ، ويأمر بلعنه . وقال له متعرّض به يوما وهو راكب : أيها الأمير ، إن أهلِى عَقّونى فسمّونى عليا ، فغيِّر اسمى ، وصِلْنى بما أتبلّغ به فإنى فقير . فقال : لِلُطف ماتوصلت به قد سمّيتُك كذا ، ووليتك العمل الفلانىّ فاشْخَصْ إليه .

***

فأما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عُتبة بن مسعود ، فمرّ بى يوما وأنا ألعب مع الصبيان ، ونحن نلعنُ عليًّـا ،

فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وردى، فلما رآنى قام فصلّى وأطالَ فى الصلاة - شِبْه المعرِض عَنّى - حتى أحسست منه بذلك، فلما انفتل من صلاته كَلَح فى وجهى، فقلت له: مابال الشيخ؟ فقال لى: يابنىّ، أنت اللاعن عليًّا منذ اليوم؟ قلت: نعم، قال: فمتى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم! فقلت: يا أبت، وهل كان علىّ من أهل بدر! فقال: ويحك! وهل كانت بدر كلُّها إلا له! فقلت: لا أعود، فقال: اللهَ أنك لاتعود! قلت: نعم فلم ألعنه بعدها. ثم كنتُ أحضر تحت منبر المدينة، وأبى يخطب يوم الجمعة - وهو حينئذ أمير المدينة - فكنت أسمع أبى يمر فى خُطَبه تهدِر شقاشقه، حتى يأتىَ إلى لعن علىّ عليه السلام فيجمْجِمُ، ويعرض له من الفهاهة والحَصَر مالله عالم به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوما: ياأبتِ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم، فما بالِى أراك أفصحَ خطيب يوم حَفْلك، حتى إذا مررت بلعن هذا الرجل، صِرْتَ ألكن عليًّا! فقال: يابنىّ، إنّ مَنْ ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد. فوقرت كلمتُه فى صدرى؛ مع ما كان قاله لى معلمى أيام صِغَرى، فأعطيت الله عهدا؛ لئن كان لى فى هذا الأمر نصيب لأغيِّرنّه، فلما منّ الله علىّ بالخلافة أسقطت ذلك، وجعلت مكانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)، وكتب به إلى الآفاق فصار سنّة.

وقال كثيّر بن عبد الرحمن يمدح عُمَرَ ويذكر قطعه السبّ:

وَليت فلم تشتِم عليــا ولم تُخِفْ بريًّا ولم تَقْبَلْ إساءَةَ مُجْرِمِ (٢)
وكفّرت بالعفو الذنوب مع الّذِى أتيتَ فأضحى راضياً كلُّ مسلِمِ

---

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الأغانى ٩ : ٢٥٨ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية .

ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه ... من الأود البادى ثقاف المقوم
وما زلت تواقا إلى كل غاية ... بلغت بها أعلى العلاء المقدم
فلما أتاك الأمر عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذى يفنى لأن كان بائدا ... وآثرت ما يبقى برأى مصمم

وقال الرضى أبو الحسن رحمه الله تعالى :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ... ـن فتى من أمية لبكيتك (١)
غير أنى أقول إنك قد طبـ ... ـت وإن لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب والقذ ... ف ؛ فلو أمكن الجزاء جزيتك
ولو أنى رأيت قبرك لاستحـ ... ـييت من أن أرى وما حييتك
وقليل أن لو بذلت دماء البـ ... ـدن صرفا على الذرا وسقيتك
دير سمعان : فيك مأوى أبى حفـ ... ـص بودى لو أننى آويتك
دير سمعان ، لا أغبك غيث ... خير ميت من آل مروان ميتك (٢)
أنت بالذكر بين عينى وقلبى ... إن تدانيت منك أو إن نأيتك
وإذا حرك الحشا خاطر منـ ... ـك توهمت أننى قد رأيتك
وعجيب أنى قليت بنى مر ... وان طرا وأننى ما قليتك
قرب العدل منك لما نأى الجو ... ر بهم فاجتويتهم واجتبيتك
فلو أنى ملكت دفعا لما نا ... بك من طارق الردى لفديتك

* * *

(١) ديوانه لوحة ١٢٤
(٢) دير سمعان ، بكسر السين وفتحها ؛ دير بنواحى دمشق عنده قبر عمر بن عبد العزيز (ياقوت)

وروى ابن الكلبيّ ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوما لعبد الله بن هانىء ، وهو رجل من بنى أَوْد — حىّ من قَحْطان — وكان شريفا فى قومه ، قد شهد مع الحجاج مشاهده كلّها ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأتك بعد ! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيّد بنى فزارة : أنْ زَوِّجْ عبد الله بن هانئ بابنتك ، فقال : لا والله ولا كرامة ! فدعا بالسياط ، فلما رأى الشرّ قال : نعم أزوّجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ رئيس اليمانية : زَوِّج ابنتك من عبد الله بن أَوْد ، فقال : ومَنْ أَوْد ! لا والله لا أزوّجه ولا كرامة ! فقال : علىّ بالسيف ، فقال : دَعْنِى حتى أشاور أهلى ، فشاورهم ، فقالوا : زَوِّجْه ولا تعرّض نفسك لهذا الفاسق ، فزوّجه . فقال الحجاج لعبد الله : قد زوّجْتُك بنت سيّد فزارةَ وبنت سيّد همدان ، وعظيم كهلان وما أَوْدٌ هناك ! فقال : لا تقُلْ أصلح الله الأمير ذاك ! فإنّ لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب ، قال : وما هى ؟ قال : ما سُبَّ أمير المؤمنين عبد الملك فى نادٍ لنا قطّ ، قال : منقبة والله ، قال : وشهد مِنّا صِفِّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا ، ماشهد منا مع أبى تراب إلا رجل واحد ، وكان والله ما علمته امرَأ سوء ، قال : منقبة والله ، قال : ومنّا نسوة نَذَرْن : إن قتل الحسين بن على أنْ تنحر كلّ واحدة عشر قلائص ، ففعلن ، قال : منقبة والله ، قال : وما مِنّا رجل عُرِضَ عليه شَتْمُ أبى تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيْه حسنًا وحسينا وأمهما فاطمة ، قال : منقبة والله ، قال : وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة مالنا ، فضحك الحجاج ، وقال : أما هذه يا أبا هانئ فدعها . وكان عبدُ الله دميا شديد الأُدْمة[1] مجدورا ، فى رأسه عَجَر ، مائل الشِّدق ، أحوَل ، قبيح الوجه ؛ شديد الحوَل .

* * *

وكان عبد الله بن الزبير يُبْغض عليا عليه السلام ؛ وينتقِصه وينال من عِرْضه .

---

(١) الأدمة : السمرة .

(٢) عجر ؛ أى نتوء .

وروى عمر بن شبّة وابنُ الكلبيّ والواقديّ وغيرهم من رواة السير، أنه مكث أيام ادّعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلِّي فيها على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقال: لا يمنعني من ذِكْره إلا أن تشمَخَ رجال بآنافها.

وفي رواية محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: أنّ له أُهَيْلَ سوء يُنْغِضون رءوسهم عند ذكره.

وروى سعيد بن جُبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس: ما حديثٌ أسمعه عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تأنيبي وذمّي! فقال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بئس المرء المسلم يَشْبَع ويجوعُ جاره»، فقال ابن الزبير: إني لأ كتُمُ بغضَكم أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة. وذكر تمام الحديث.

وروى عمر بن شبّة أيضا عن سعيد بن جُبير، قال: خطب عبدُالله بن الزبير، فنال من عليّ عليه السلام، فبلغ ذلك محمد بن الحنفيّة، فجاء إليه وهو يخطُب، فوضِع له كرسيّ، فقطع عليه خطبتَه، وقال: يامعشرَ العرب، شاهت الوجوه! أيُنتقصُ عليّ وأنتم حضور! إنّ عليًّا كان يدَ الله على أعداء الله، وصاعقةً من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمروا له الشَّنَف[1] والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وسلّم حيّ بعدُ لم يمت؛ فلما نقله الله إلى جواره، وأحبّ له ما عنده، أظهرتْ له رجال أحقادها، وشفَتْ أضغانها، فمنهم مَن ابتزّ حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذرّيته وناصري دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفِر على أجسادهم؛ والأبدانُ منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذلّ رقابهم، فيكون الله عزّ اسمُه قد عذّبَهم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشفَا صدورَنا منهم؛ إنّه والله ما يشتم عليا إلا كافر يُسِرّ شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوحَ به،

(١) الشنف: البغض، وفي ب: «السيف».

فيكفى بشتم علىّ عليه السلام عنه . أما إنّه قد تخطّت المنيةُ منكم مَن امتدّ عمره ، وسمع قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه : « لا يحبّك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلا منافق ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، فعاد ابنُ الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرتُ بنى الفواطم يتكلّمون ؛ فما بالُ ابن أم حنيفة ! فقال محمد : يابن أمّ رُومان[1] ؛ ومالى لا أتكلم ! وهل فاتنى من الفواطم إلا واحدة ! ولم يفتنى فخرها ؛ لأنّها أمّ أخوىّ. أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بن مخزوم ، جدة رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، كافلة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، والقائمة مقام أمّه ؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركتُ فى بنى أسد بن عبد العزى عظما إلا هشمته ! ثم قام فانصرف.

* * *

[فصل فى ذكر الأحاديث الموضوعة فى ذم على]

وذكر شيخُنا أبو جعفر[2] الإسكافىّ رحمه الله تعالى — وكان من المتحققّين بموالاة علىّ عليه السلام ، والمبالغين فى تفضيله ؛ وإن كان القولُ بالتّفضيل عاما شائعا فى البغداديين من أصحابنا كافة ؛ إلا أنّ أباجعفر أشدّهم فى ذلك قولاً ، وأخلصهم فيه اعتقادا — أنّ معاويةَ وضعَ قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة فى علىّ عليه السلام ، تقتضى الطعنَ فيه والبراءة منه ؛ وجعل لهم على ذلك جُعلا يُرْغَبُ فى مثله ؛ فاختلقوا ما أرضاه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير .

روى الزهرىّ أن عروة بن الزبير حدّثه ، قال : حدثتنى عائشة ، قالت : كنتُ عند

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى ج : « قتيلة » .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى ؛ من متكلمى المعتزلة وأحد أئمتهم ؛ وإليه تنسب الطائفة الإسكافية منهم ؛ وهو بغدادى أصله من سمرقند ؛ قال ابن النديم : كان عجيب الشأن فى العلم والذكاء والصيانة ونبل الهمة والنزاهة ؛ بلغ فى مقدار عمره مالم يبلغه أحد ؛ وكان المعتصم يعظمه . وله مناظرات مع الكرابيسى وغيره. توفى سنة ٢٤٠ ، لسان الميزان ٥ : ٢٢١

رسول الله إذ أقبل العباس وعلىّ ، فقال : ياعائشة ، إن هذين يموتان على غير ملّتى — أو قال دينى .

وروى عبد الرزاق عن معمر ، قال : كان عند الزهرىّ حديثان عن عُروة عن عائشة فى علىّ عليه السلام ؛ فسألتُه عنهما يوما ، فقال : ماتصنع بهما وبحديثهما ! الله أعلم بهما ؛ إنى لأتهمهما فى بنى هاشم .

قال : فأمّا الحديث الأول ؛ فقد ذكرناه ؛ وأما الحديث الثانى فهو أن عُروة زعم أن عائشة حدثته ، قالت : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلّم إذ أقبل العباس وعلىّ ، فقال: « ياعائشة ؛ إن سَرّكِ أن تنظرى إلى رجلين من أهل النار فانظرى إلى هذين قد طلعا»، فنظرت ، فإذا العباس وعلىّ بن أبى طالب .

وأما عمرو بن العاص ، فروى عنه الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما مسنداً متصلا بعمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: « إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء إنما وليّى الله وصالح المؤمنين » .

وأما أبو هريرة ، فروى عنه الحديث الذى معناه أن عليا عليه السلام خطبَ ابنة أبى جهل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فأسخطه ، فخطب على المنبر ، وقال : لاها الله ! لا تجتمع ابنة ولىّ الله وابنة عدو الله أبى جهل ! إنّ فاطمة بَضعة[1] منى يؤذينى مايؤذيها ؛ فإن كان علىّ يريد ابنةَ أبى جهل فليفارق ابنتى ، وليفعل مايريد » ، أو كلاما هذا معناه ، والحديث مشهور من رواية الكرابيسىّ .

قلت : هذا الحديث أيضا مخرج فى صحيحى مسلم والبخارى عن المِسْوَر بن مخرَمة الزهرىّ ؛ وقد ذكره المرتضى فى كتابه « المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة »، وذكر أنه رواية

---

(١) بضعة ، أى قطعة .

حسين الكرابيسي[1] ، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعداوتهم والمناصبة لهم ، فلا تقبل روايته .

ولشياع هذا الخبر وانتشاره ذكره مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام وينحِي عليهم ، ويذمّهم ، وقد بالغ حين ذمّ عليا عليه السلام ونال منه ، وأولها :

سَلَامٌ على جُمْلٍ ، وهَيْهَاتَ مِن جُملِ ... ويا حبّذا جملٌ وإن صَرَمَتْ حَبْلِي

يقول فيها :

علىٌّ أبو كُمْ كان أفضلَ منكمُ ... أباه ذوُو الشورى وكانوا ذَوِى الفَضْلِ

وساء رسولَ الله إذ ساء بنتَه ... بخِطْبته بنتَ اللعين أبي جهلِ

فذمّ رسول الله صهر أبيكمُ ... على مِنْبرٍ بالمنطق الصادع الفَضْلِ

وحكّم فيها حاكمَين أبو كُمُ ... هما خلعاه خَلْعَ ذِى النّعل للنعلِ

وقد باعها من بعده الحسنُ ابنُه ... فقد أبطلت دعواكُمُ الرثّةُ الحبْلِ

وخلّيتُموها وهي في غيرِ أهلها ... وطالبتُموها حين صارتْ إلى أهلِ

وقد رُوِى هذا الخبر على وجوه مختلفة ، وفيه زيادات متفاوتة ؛ فمن الناس من يروى فيه : « مهما ذممنا من صهر فإنا لم نذمّ صهر أبي العاص بن الربيع » ، ومن الناس من يروى فيه : « ألا إن بنى المغيرة أرسلوا إلى علىٍّ ليزوجوه كريمتهم ... » وغير ذلك .

وعندى أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قَدْح ، لأنّ

---

(١) هو أبو علي الحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي البغدادي ؛ صاحب الإمام الشافعي ، وأشهرهم بارتياد مجلسه وأحفظهم لمذهبه ؛ وله تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه . توفي سنة ٢٤٨ . ابن خلكان ١ : ١٤٥

الأمة مجمعة على أنه لو نكح ابنةَ أبي جهل، مضافا إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع؛ فابنةُ أبي جهل المشارُ إليها كانت مسلمة، لأنّ هذه القصة كانت بعد فتح مكة، وإسلامِ أهلها طوعا وكرها، ورواة الخبر موافقون على ذلك؛ فلم يبق إلا أنه إنْ كان هذا الخبر صحيحا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا رأى فاطمة عليها السلام قد غارت، وأدركها مايدرك النساء، عاتب عليا عليه السلام عتابَ الأهل، وكما يستثبت الوالد رأى الولد، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلح زوجته. ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام لخرّف وزيد فيه. ولو تأملت أحوال النبيّ صلى الله عليه وآله مع زوجاته، وما كان يجرى بينه وبينهنّ من الغضب تارة، والصلح أخرى، والسخط تارة والرضا أخرى، حتى بلغ الأمرُ إلى الطلاق مرة، وإلى الإيلاء مرة، وإلى الهَجْر والقطيعة مرة، وتدبرتَ ماورد فى الروايات الصحيحة مما كُنّ يلقينَه عليه السلام به، ويُسْمِعْنه إياه؛ لعلمت أنّ الذى عاب الحسَدة والشانئون علياً عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تَيْنِك الامرأتين من الأحوال والأقوال؛ حتى أنزل فيهما قرآن يُتْلَى فى المحاريب، ويكتَبُ فى المصاحف، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حيا، منابذاً الرسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[1]، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ... ﴾[1] الآيات بتمامها. ثم ضرب لهما مثلا امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعلَيْهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا؛ وتمام الآية معلوم. فهل ماروى فى الخبر من تعصُّب فاطمة على علىّ عليه السلام

---

(١) سورة التحريم ٤، ٥

وغَيْرتها من تعريض بنى المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قُويس إلى هذه الأحوال وغيرها مما كان يجرى إلّا كنسبة التأفيف[1] إلى حرب البسوس! ولكنّ صاحب الهوى والعصبية لا علاج له .

* * *

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبى جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى . قال أبو جعفر : وروى الأعمش ، قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عامَ الجماعة ، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة مَن استقبله من الناس جثاً على ركبتيه ، ثم ضرب صَلعته مرارا، وقال : يا أهل العراق، أتزعمون أنّى أكذب على الله وعلى رسوله ، وأحرق نفسى بالنار! والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنّ لكل نبيّ حَرَماً ، وإنّ حَرَمى بالمدينة ، مابين عَيْر إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ، وأشهد بالله أن عليا أحدث فيها : فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة .

قلت : أمّا قوله: «مابين عَيْر إلى ثور[2] »، فالظاهر أنه غلط من الراوى، لأن ثوراً بمكة وهو جبل يقال له: ثَوْر أطحل، وفيه الغار الذى دخله النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر؛ وإنما قيل : « أطحل » لأن أطحل بن عبد مناف بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر بن نزار ابن عدنان كان يسكنه. وقيل: اسم الجبل أطْحَل، فأضيف « ثور » إليه؛ وهو ثَوْر بن عبد مناف، والصواب : « مابين عَيْر إلى أُحُد »[3].

فأما قول أبى هريرة : «إنّ عليا عليه السلام أحدَث فى المدينة»، فحاش لله ! كان علىّ عليه السلام أتقى لله من ذلك؛ والله لقد نَصَر عثمان نصرا لو كان المحصورُ جعفر بن أبى طالب لم يبذُلْ له إلا مثله .

قال أبو جعفر : وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضىّ الرواية ، ضربه عمر

---

(١) ج : « التأفف » .

(٢) عير : جبل بالحجاز .

(٣) معجم البلدان ٦ : ٢٤٦ : « وهما بالمدينة » .

بالدِّرة، وقال : قد أكثرتَ من الرواية وأحْرِ بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه !

وروى سفيان الثوريّ عن منصور ، عن إبراهيم التيميّ ،قال : كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلّا ما كانَ من ذِكْر جنة أو نار .

وروى أبو أسامة عن الأعمش ، قال : كان إبراهيمُ صحيحَ الحديث ، فكنتُ إذا سمعت الحديث أتيتهُ فعرضتهُ عليه ، فأتيته يوما بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ، فقال : دعني من أبي هريرة ، إنهم كانوا يتركون كثيرا من حديثه .

وقد روى عن عليّ عليه السلام أنه قال : ألَا إنّ أكذبَ الناس – أو قال : أكذب الأحياء – على رسول الله صلى الله عليه وآله أبو هريرة الدَّوْسيّ .

وروى أبو يوسف ، قال:قلت لأبي حنيفة : الخبر يجيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يخالف قياسَنا ماتصنع به؟ قال : إذاجاءت به الرواةالثقاتُ عَمِلْنا به وتركنا الرأي، فقلت : ماتقول في رواية أبي بكر وعمر ؟ فقال : ناهيك بهما ! فقلت : عليّ وعثمان،قال: كذلك ، فلما رآني أعُدّ الصحابة قال : والصحابةُ كلّهم عدول ماعدَا رجالًا ، ثم عدّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك .

وروى سُفيان الثوريّ ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن عمر بن عبد الغفار ، أنّ أبا هريرة لما قدِم الكوفة مع معاوية ، كان يجلس بالعشيّات بباب كِندة ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شابٌّ من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هريرة ، أنشُدُك الله ، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعليّ بن أبي طالب : « اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه » ! فقال : اللهم نعم ، قال : فأشهد بالله ، لقد واليتَ عدوّه ، وعاديت وليّه ! ثم قام عنه .

وروت الرواة أنّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان فى الطريق ، ويلعب معهم ، وكان يخطُب وهو أمير المدينة ، فيقول : الحمد لله الذى جعل الدّين قياما ، وأبا هريرة إماما ؛ يُضحك الناس بذلك . وكان يمشى وهو أمير المدينة فى السُّوق ، فإذا انتهى إلى رجل يمشى أمامه ، ضرب برجليه الأرض ، ويقول : الطريق الطريق ! قد جاء الأمير ! يعنى نفسه .

قلت قد ذكر ابن قتيبة هذا كله فى كتاب " المعارف "[1] فى ترجمة أبى هريرة ، وقوله فيه حجّة لأنه غيرُ متّهم عليه .

***

قال أبو جعفر : وكان المغيرة بن شعبة يلعَنُ عليا عليه السلام لعنا صريحا على منبر الكوفة ، وكان بلغه عن علىّ عليه السلام فى أيام عمر أنه قال : لئن رأيتُ المغيرة لأرجُمَنّه بأحجاره — يعنى واقعة الزنا بالمرأة التى شهد عليه فيها أبو بَكرة ، ونَكَل زياد عن الشهادة — فكان يُبغضه لذاك ولغيره من أحوال اجتمعت فى نفسه .

قال : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزّمَع[2] عند ذكر علىّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : وما يغنى أنه لم يخالف إلى ما نُهى عنه ، وقد أراق مِنْ دماء المسلمين ما أراق !

***

قال : وقد كان فى المحدّثين مَنْ يُبغضه عليه السلام ، ويروى فيه الأحاديثَ المنكرة ؛ منهم حَرِيز بن عثمان ، كان يُبغضه وينتقصه ، ويروى فيه أخبارا مكذوبة . وقد روى

---

(١) المعارف ص ١٢١

(٢) الزمع : الرعدة .

المحدّثون أنّ حَرِيزا رُئِىَ فى المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : كاد يغفر لى لولا بغض علىّ .

قلت : قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب "السقيفة" قال : حدثنى أبو جعفر بن الجنيد ، قال : حدثنى إبراهيم بن الجنيد ، قال : حدثنى محفوظ ابن المفضل بن عمر ، قال : حدثنى أبو البُهلول يوسف بن يعقوب ، قال : حدثنا حمزة ابن حسان ــ وكان مولًى لبنى أمية ، وكان مؤذّنا عشرين سنة ، وحجّ غير حجة ، وأثنى أبو البهلول عليه خيرا ــ قال : حضرت حَرِيز بن عثمان ، وذكّر علىّ بن أبى طالب ، فقال : ذاك الذى أحلّ حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كاد يقع .

قال محفوظ : قلت ليحيى بن صالح الوُحاظىّ : قد رويت عن مشايخ مِنْ نظراء حَرِيز ، فما بالك لم تحمِلْ عن حَرِيز ؟ قال : إنى أتيته فناولَنى كتابا ، فإذا فيه : حدثنى فلان عن فلان أنّ النبى صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة أوصى أن تُقطعَ يدُ علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، فرددت الكتاب ، ولم أستحل أنْ أكتب عنه شيئا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو جعفر ، قال : حدّثنى إبراهيم ، قال : حدّثنى محمد ابن عاصم ، صاحب الخانات ، قال : قال لنا حريز بن عثمان : أنتم يا أهل العراق تحبّون علىّ بن أبى طالب عليه السلام ونحن نُبغضه ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه قتل أجدادى .

قال محمد بن عاصم : وكان حَرِيز بن عثمان نازلًا علينا .

***

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وكان المغيرة بن شعبة صاحبَ دنيا ، يبيع دينه بالقليل النّزر منها ويُرضِى معاوية بذكر علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قال يوما فى مجلس معاوية : إن عليا لم يُنْكِحه رسولُ الله ابنته حبًّا ؛ ولكنه أراد أن يكافىء بذلك إحسان أبى طالب إليه .

قال : وقد صح عندنا أن المغيرة لعنَهَ على منبر العراق مراتٍ لا تحصى ؛ ويروى أنه لما مات ودفنُوه ، أقبل رجل راكب ظَلِيما ، فوقف قريبا منه ثم قال :

أمن رَسْمِ دارٍ من مغـــيرة تعرفُ ... عليها زوانى الإنس والجن تَعزِفُ
فإنْ كنتَ قد لاقيتَ فِرْعَوْنَ بَعْدَنا ... وهامان فاعلم أن ذا العرش منصِفُ

قال : فطلبوه فغاب عنهم ولم يرَوْا أحدا ، فعلموا أنه من الجنّ .

***

قال : فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقلّ من أن يذكر فى الصحابة الذين قد غمصْناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم ؛ لأنه كان مجاهرا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبى العاص ؛ وهما الطّريدان اللعينان ، كان أبوه عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه فى مَشْيِه ، ويغمز عليه عينَه ، ويُدْلِع[1] له لسانه ويتهكم به ، ويتهانَف[2] عليه ؛ هذا وهو فى قبضتِه وتحت يده ، وفى دار دَعْوته بالمدينة ؛ وهو يعلم أنه قادر على قتله أىّ وقت شاء من ليل أو نهار ، فهل يكون هذا إلا من شانىء شديد البِغْضة ، ومستحكم العداوة ؛ حتى أفضى أمرُه إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة ، وسيّره إلى الطائف !

وأما مَرْوان ابنهُ فأخبَثُ عقيدةً ، وأعظم إلحادا وكفرا ؛ وهو الذى خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة ؛ وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال :

ياحبّذا بردُك فى اليدَيْنِ ... وحُمْرَةٌ تجرِى عَلَى الخدّيْنِ
* كأنّما بِتّ بمسجدين *

---

(١) يدلع لسانه : يخرجه .

(٢) التهانف : الضحك مع الاستهزاء .

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبيّ ، وقال : يا محمد ، يوم بيوم بدر . وهذا القول مشتق من الشعر الذى تمثّل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزِّبَعْرَى يوم وصل الرأس إليه . والخبر مشهور (١) .

قلت : هكذا قال شيخنا أبو جعفر ؛ والصحيح أنّ مروان لم يكن أميرَ المدينة يومئذ بل كان أميرَها عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحمَل إليه الرأس ؛ وإنما كتب إليه عُبيد الله بن زياد يبشّره بقتل الحسين عليه السلام ، فقرأ كتابه على المنبر ، وأنشد الرجز المذكور ، وأومأ إلى القبر قائلا : يوم بيوم بَدْر ، فأنكر عليه قوله قومٌ من الأنصار . ذكر ذلك أبو عُبيدة فى كتاب " المثالب " .

قال : وروى الواقدىّ أن معاوية لما عادَ من العراق إلى الشام بعد بيْعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال : أيها الناس ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لى : « إنك ستلِي الخلافة من بعدى ، فاختر الأرض المقدسة ، فإن فيها الأبدال ، وقد اخترتكم ، فالعنوا أبا تراب . فلعنوه ، فلما كان من الغد كتب كتابا ، ثم جمعهم فقرأه عليهم ، وفيه : هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية ، صاحب وحى الله الذى بعثَ محمدا نبيا ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فاصطفى له مِنْ أهله وزيراً كاتبا أمينا ، فكان الوحى ينزلُ على محمد وأنا أكتبه ، وهو لا يعلم ما أكتب ، فلم يكن بينى وبين الله أحدٌ من خَلْقِه . فقال له الحاضرون كلهم : صدقت يا أمير المؤمنين

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ١١٩ : « وقيل : إنه تمثل أيضا والرأس بين يديه بقول عبد الله بن الزبعرى :

لَيْتَ أشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

قَدْ قَتَلْنَا القَرْمَ مِنْ أشْيَاخِهِمْ ... وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فاعْتَدَلْ

والبيتان من قصيدة أنشدها يوم أحد ؛ فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٤ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩ ، ٢٠٠ .

قال أبو جعفر : وقد روى أن معاوية بَذَل لِسَمُرة بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1]، وأنّ الآية الثانية نزلت في ابن مُلجم، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[2]، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك .

قال : وقد صحّ أنّ بني أميّة منعوا من إظهار فضائل عليّ عليه السلام، وعاقبوا [على] ذلك الراوي له؛ حتى إنّ الرجلَ إذا روَى عنه حديثا لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدِّين لا يتجاسرُ على ذكر اسمه ؛ فيقول : عن أبي زينب .

وروى عطاء ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : وددْت أن أتْرَك فأحدِّثَ بفضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوما إلى الليل ؛ وأنّ عُنُقي هذه ضربت بالسيف.

قال : فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطع نقلُها للخوف والتقيّة من بني مروان مع طول المدّة، وشدة العداوة؛ ولولا أنّ لِلّه تعالى في هذا الرجل سرًّا يعلمه مَنْ يعلمه لم يُرْوَ في فضله حديث، ولا عُرِفَتْ له منقبة؛ ألا ترى أنّ رئيس قرية لو سخِط على واحد من أهلها، ومنع النّاسَ أن يذكروه بخير وصلاح لخمل ذكرُه ، ونسي اسمه، وصار وهو موجود معدوما ، وهو حيٌّ ميتا ! هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى في هذا المعنى في كتاب التفضيل .

* * *

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) سورة البقرة ٢٠٧

[فصل فى ذكر المنحرفين عن علىّ]

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أنّ عدة من الصحابة والتابعين والمحدّثين كانوا منحرفين عن علىّ عليه السلام، قائلين فيه السوء، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلا مع الدنيا، وإيثارا للعاجلة؛ فمنهم أنس بن مالك، ناشد علىّ عليه السلام الناسَ فى رَحَبة القصر — أو قال رحبة الجامع بالكوفة — : أيّكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه »؟ فقام اثنا عشر رجلا فشهدوا بها، وأنس بن مالك فى القوم لم يقم، فقال له: يا أنس، ما يمنعك أن تقوم فتشهد، ولقد حضرتَها! فقال: يا أمير المؤمنين، كبرتُ ونسيت، فقال: اللّهم إن كان كاذبا فارمه بها بيضاء لا تواريها العمامة.

قال طلحة بن عمير: فوالله لقد رأيتُ الوَضَح به بعد ذلك أبيض بين عينيه.

وروى عثمان بن مُطرِّف أنّ رجلا سأل أنس بن مالك فى آخر عمره عن علىّ بن أبى طالب، فقال: إنى آليتُ ألّا أكتم حديثا سئلت عنه فى علىّ بعد يوم الرّحبة؛ ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم.

***

وروى أبو إسرائيل عن الحكَم عن أبى سليمان المؤذن، أنّ عليا عليه السلام نَشَد الناس مَنْ سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، يقول: « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه »، فشهد له قوم وأمسك زَيْد بن أرقم، فلم يَشْهَد — وكان يعلمها — فدعا علىّ عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمِىَ، فكان يحدّث الناس بالحديث بعد ما كُفّ بصره.

***

قالوا: وكان الأشعث بن قيس الكندىّ وجرير بن عبد الله البَجَلِىّ يُبغضانه؛ وهدم علىّ عليه السلام دار جرير بن عبد الله.

قال إسمعيل بن جرير: هدم علىّ دارَنا مرتين.

وروى الحارث بن حصين، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبدالله نَعْلَيْن من نعاله، وقال: احتفظ بهما، فإن ذهابَهما ذهاب دينك؛ فلما كان يومُ الجمل ذهبت إحداهما، فلما أرسله عليّ عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى؛ ثم فارق عليا واعتزل الحرب.

* * *

وروى أهل السيرة أنّ الأشعث خطب إلى عليٍّ عليه السلام ابنته، فزَبَرَه، وقال: يابن الحائك، أغرّك ابنُ أبي قحافة!

وروى أبو بكر الهذليّ عن الزّهري، عن عبيدالله بن عديّ بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف، قال: قام الأشعث إلى علي عليه السلام، فقال: إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد إليك عَهْداً لم يعهده إلى غيرك؛ فقال: إنه عهد إليّ ما في قراب سيفي؛ لم يعهد إليّ غير ذلك. فقال الأشعث: هذه إن قلتها فهي عليك لا لك؛ دَعْها ترحل عنك، فقال له: وما علمك بما عليّ مما لي! منافق ابن كافر، حائك ابن حائك! إني لأجد منك بَنّة[1] الغزل. ثم التفت إلى عبيد الله بن عدي بن الخيار، فقال: ياعبيدالله، إنك لتسمع خلافا وترى عجبا، ثم أنشد[2]:

أصبحت هُزْءا لراعي الضأن أتبعُه[3] ماذا يَريبك مني راعيَ الضّأن!

وقد ذكرنا في بعض الروايات المتقدمات أنّ سبب قوله: «هذه عليك لا لك»، أمر آخر، والروايات تختلف.

وروى يحيى بن عيسى الرمليّ، عن الأعمش: أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبّان[4] الكوفة، فمرّ بهما ضبّ يعدو، وهما في ذمّ عليّ عليه السلام، فناداه: يا أبا حِسْل؛ هلم

(١) البنة: الرائحة؛ وأهل اليمن معروفون بالغزل والحياكة.
(٢) البيت لكلاب بن أمية بن الأسكر؛ من أبيات له في ذيل الأمالي ١٨٠
(٣) ج: «أصبحت فردا».
(٤) الجبان في الأصل: الصحراء، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة، وفي ا: «إلى الجبال». انظر مراصد الاطلاع.

يدَك نبايعك بالخلافة ، فبلغ عليًّا عليه السلام قولهما ، فقال : أما إنهما يحشران يوم القيامه وإمامهما ضبّ .

* * *

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفا عنه عليه السلام ، روى شريك ، عن عثمان ابن أبي زُرْعة،عن زيد بن وهب ، قال : تذاكرنا القيام إذا مرّت الجنازة عند عليّ عليه السلام ، فقال أبو مسعود الأنصاريّ : قد كنا نقوم ، فقال عليّ عليه السلام : ذاك وأنتم يومئذ يهود .

وروى شعبة ، عن عبيد بن الحسن ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : حضرتُ عليا عليه السلام،وقد سأله رجل عن امرأة تُوُفّيَ عنها زوجها وهي حامل ، فقال : تتربّصُ أبْعَدَ الأجَلَيْن ، فقال رجل : فإن أبا مسعود يقول : وضعُها انقضاء عدّتها ، فقال عليّ عليه السلام : إن فروجا لا يعلم ؛ فبلغ قوله أبا مسعود ، فقال : بلى ، والله إني لأعلم أنّ الآخر شرّ .

* * *

وروى المنهال،عن نعيم بن دجاجة،قال : كنت جالسا عند علي عليه السلام ، إذ جاء أبو مسعود، فقال عليّ عليه السلام : جاءكم فرّوج ، فجاء فجلس،فقال له عليّ عليه السلام: بلغني أنك تفْتِي الناس ، قال : نعم ، وأخبِرهم أن الآخر شرّ ، قال : فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئا؟قال : نعم ، سمعته يقول : «لا يأتي على الناس سنة مائة وعلى الأرض عين تطرف » ، قال : أخطأت استك الحفرة ، وغلطت في أول ظنك ؛ إنما عَنَى مَنْ حضره يومئذ ، وهل الرخاء إلا بعد المائة !

* * *

وروى جماعة من أهل السِّيَر أن عليا عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار: إنه لكذاب؛ وكان كعب منحرفا عن عليّ عليه السلام. وكان النعمان بن بشير الأنصاريّ منحرفا عنه، وعدوًّا له، وخاض الدماء مع معاوية خوضاً، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله.

وقد روى أنّ عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام، وأنّ عليا سيّره إلى المدائن؛ وذلك أنه كان يقول: إن مات عليّ فلا أدرى ما موته، وإن قتل فعسى أنى إن قتل رجوت له.

ومن الناس من يجعل عمران فى الشيعة.

* * *

وكان سَمُرة بن جندب من شرطة زياد، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن، قال: جاء رجل من أهل خُراسان إلى البصرة، فترك مالًا كان معه فى بيت المال، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلّى ركعتين، فأخذه سَمُرة بن جُنْدَب، واتّهمه برأى الخوارج، فقدّمه فضرب عنقه؛ وهو يومئذ على شُرطة زياد، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال، فقال أبو بكرة[1]: ياسَمُرة، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[2] فقال: أخوك[3] أمرنى بذلك.

وروى الأعمش، عن أبى صالح، قال: قيل لنا: قد قدِم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيناه فإذا هو سَمُرة بن جَنْدَب، وإذا عند إحدى رجليه خَمْر، وعند الأخرى ثَلج، فقلنا: ماهذا؟ قالوا: به النِّقرس، وإذا قوم قد أتوه، فقالوا ياسَمُرة،

---

(١) هو أبو بكرة الثقفى، واسمه نفيع بن مسروح (٢) سورة الأعلى ١٤، ١٥.
(٣) يريد زياد بن أبيه، وكان أخا أبى بكر لأمه سمية.

ماتقول لربك غدا ؟ تؤتى بالرجل فيقال لك : هو من الخوارج فتأمر بقتله ، ثم تؤتى بآخر فيقال لك : ليس الذى قتلته بخارجى ، ذاك فتى وجدناه ماضياً فى حاجته ، فشبّه علينا ، وإنما الخارجىّ هذا ،فتأمر بقتل الثانى افقال سَمُرة: وأىّ بأس فى ذلك ! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة ؛ وإن كان من أهل النار مضى إلى النار !

***

وروى واصل مولى أبى عيينة ، عن جعفر بن محمد بن على -عليه السلام عن آبائه،قال: كان لسمُرة بن جُنْدَب نخل فى بستان رجل من الأنصار ، فكان يؤذيه، فشكا الأنصارىّ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبعث إلى سَمُرة ، فدعاه فقال له : بع نخلك من هذا ، وخذ ثمنه ، قال : لاأفعل ، قال : فخذ نخلا مكان نخلك ، قال : لاأفعل ، قال : فاشترِ منه بستانه ، قال : لاأفعل ، قال : فاترك لى هذا النخل ولك الجنة ، قال : لا أفعل ، فقال صلى الله عليه وسلم للأنصارى : « اذهب فاقطع نخله ، فإنه لاحق له فيه » .

***

وروى شريك قال: أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجْر بن عدى، قال : قدمت المدينة فجلست إلى أبى هريرة ، فقال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ؛ قال : مافعل سَمُرة ابن جندب ؟ قلت :هو حىّ ، قال : ماأحدٌ أحبّ إلىّ طول حياة منه . قلت : ولم ذاك؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى وله ولحذيفة بن اليمان : « آخركم موتا فى النار » ؛ فسبَقنا حذيفة ؛ وأنا الآن أتمنّى أن أسبِقه ، قال : فبقى سَمُرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين .

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام ، قال : كان سَمُرة بن جندب أيام مسير

الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرطة عبيد الله زياد ، وكان يحرِّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله .

* * *

ومن المنحرفين عنه، المبغضين له عبد الله بن الزبير؛ وقد ذكرناه آنفا ؛ كان عليٌّ عليه السلام يقول : مازال الزبير مِنّا أهلَ البيت حتى نشأ ابنُه عبد الله ، فأفسده .

وعبد الله هو الذى حَمَل الزبيرَ على الحرب ؛ وهو الذى زيّن لعائشة مسيرَها إلى البصرة ؛ وكان سبّابا فاحشا ، يُبغض بنى هاشم ، ويلعن ويسبّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وكان علىٌّ عليه السلام يقنُت فى صلاة الفجر وفى صلاة المغرب ، ويلعن معاوية ، وعَمْرًا ، والمغيرة، والوليد بن عقبة ،وأبا الأعور ، والضحاك بن قيس ؛ وبُسْر بن أرطاة ، وحبيب بن مسلمة ، وأبا موسى الأشعرى ، ومَرْوان بن الحكم ؛ وكان هؤلاء يقنُتون[1] عليه ويلعنونه .

* * *

وروى شيخُنا أبو عبد الله البصرىّ المتكلم رحمه الله تعالى ، عن نصر بن عاصم اللّيثى ، عن أبيه ، قال : أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والناس يقولون : نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ! فقلت : ماهذا ؟ قالوا : معاوية قام الساعة ، فأخذ بيد أبى سفيان ، فخرجا من المسجد ،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لعن الله التابع والمتبوع؛ رب يوم لأمّتى من معاوية ذى الأستاه» ، قالوا : يعنى الكبير العَجُز .

وقال : روى العلاء بن حريز القشيرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « لتتخذَنّ يامعاوية البدْعة سنة ، والقبيح حسنا ، أكلُك كثير ، وظلمك عظيم » .

قال : وروى الحارث بن حَصِيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، قال : قال

---

(١) يقنتون عليه ، يدعون عليه .

علىّ عليه السلام : نحن وآل أبي سفيان قوم تعادَوْا في الأمر ، والأمر يعود كما بدا .

قلت : وقد ذكرنا نحن في تلخيص نقض ''السفيانية'' ، مافيه كفاية في هذا الباب.

* * *

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق ، عن جُندب بن عبد الله ، قال: ذُكِر المغيرة بن شُعبة عندَ عليّ عليه السلام وجدّه مع معاوية ، قال : وما المغيرة ! إنما كان إسلامه لفجرةٍ وغَدْرة غدرها بنفرمن قومه فتكَ بهم ؛ وركبها منهم، فهرب منهم ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام ؛ والله مارأى أحدٌ عليه منذ ادّعى الإسلام خُضوعا ولا خشوعا ، ألا وإنه يكون[1] من ثَقِيف فراعنةقبل يوم القيامة يجانبون الحق ،ويسعّرون نيران الحرب ويوازرون الظالمين؛ ألا إن ثقيفا قوم غُدُر ، لا يوفون بعهد، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم؛ ولربّ صالح قد كان منهم .فنهم عروة بن مسعود وأبو عُبيدبن مسعود المستشهد يوم قُسّ النّاطف . وإن الصالح في ثقيف لَغريب .

* * *

قال شيخنا أبو القاسم البلخي : من المعلوم الذى لا ريبَ فيه لاشتهار الخبر به؛ وإطباق الناس عليه ، أنّ الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط كان يُبغِض عليا ويشتِمه ، وأنه هو الذى لَاحَاهُ في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ونابذه ، وقال له : أنا أثبتُ منك جَنانا ، وأحدّ سنَانا ، فقال له عليّ عليه السلام : اسكت يافاسق ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ...﴾[2] الآيات المتلوة ؛ وسمّى الوليد بحسب ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الفاسق ؛ فكان لا يُعرَفُ إلا بالوليد الفاسق .

---

(١) ب : « كائن من ثقيف » .

(٢) سورة السجدة ١٨ .

وهذه الآية من الآيات التى نزل فيها القرآن بموافقة علىّ عليه السلام ، كما نزل فى مواضع بموافقة عمر ؛ وسماه الله تعالى فاسقا فى آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1] ، وسبب نزولها مشهور ؛ وهو كذبه على بنى المصطلق، وادّعاؤه أنّهم منعوا الزكاة وشهروا السيف؛ حتى أمر النبى صلى الله عليه وآله بالتجهز[2] للمسير إليهم؛ فأنزل الله تعالى فى تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية[3] .

وكان الوليد مذموما معيبا عند رسول الله صلى الله عليه وآله يشنؤه ويُعرِض عنه ؛ وكان الوليد يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً ويشنؤه، وأبوه عُقْبة بن أبى مُعيط هو العدوّ الأزرق بمكة ، والذى كان يؤذى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه وأهله ؛ وأخباره فى ذلك مشهورة ، فلما ظفر به يوم بَدْر ضرب عنقَه . وورث ابنُه الوليد الشنآن والبِغضة[4] لمحمد وأهله ؛ فلم يزل عليهما إلى أن مات .

قال الشيخ أبو القاسم : وهو أحد الصبية الذين قال أبو عُقْبة فيهم ، وقد قُدّم ليُضرَب عنقه : مَنْ للصبية يا محمد ؟ فقال : « النار ، اضربوا عنقه » .

قال : وللوليد شعر يقصد فيه الردّ على رسول الله صلى عليه وآله حيث قال : « إن تولوها عليّاً ، تجدوه هاديا مهديا » . قال : وذلك أن عليا عليه السلام لما قتِل قصد بنوه أن يُخْفُوا قبره خوفا من بنى أمية أن يحدِثوا فى قبره حدَثا ، فأوهموا الناس فى موضع قبره تلك الليلة — وهى ليلة دفنه — إيهاماتٍ مختلفة ، فشدُّوا على جمل تابوتا موثَقاً بالحبال، يفوح منه روائح الكافور ، وأخرجوه من الكوفة فى سواد الليل صحبة ثقاتهم ؛ يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام ؛ وأخرجوا بَغْلاً وعليه جِنازة[5] مغطاة؛

(١) سورة الحجرات ٦
(٢) ج : « التجهيز » .
(٣) أسباب النزول ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٤) البغضة : شدة البغض .
(٥) الجنازة ؛ بالكسر ويفتح : الميت .

يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة ، وحفروا حفائر عدّة ، منها بالمسجد ، ومنها برحبة القصر قصر الإمارة ، ومنها في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزوميّ ؛ ومنها في أصل دار عبد الله ابن يزيد القسريّ بحذاء باب الورّاقين مما يلي قبلة المسجد ، ومنها في الكناسة ، ومنها في الثوية ، فعمّى على الناس موضع قبره ؛ ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواصّ المخلصون من أصحابه ؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السّحر في[1] الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان ، فدفنوه على النّجف ، بالموضع المعروف بالغريّ ، بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك ، وعهدٍ كان عهد به إليهم ، وعمِّيَ موضع قبره على الناس ؛ واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافاً شديداً ، وافترقت الأقوال في موضع قبره الشريف وتشعّبت ، وادّعى قوم أنّ جماعة من طيّئ وقعوا على جمل في تلك الليلة ، وقد أضلّه أصحابه ببلادهم ، وعليه صندوق ، فظنّوا فيه مالاً ، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يُطلَبوا به ، فدفنوا الصندوق بما فيه ، ونحروا البعير وأكلوه ، وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم ؛ واعتقدوه حقا ؛ فقال الوليد بن عقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها :

فإن يك قد ضلّ البعــير بحمله ... فما كان مَهْديًّا ولا كان هاديا

وروى الشيخ أبو القاسم البلخيّ أيضاً ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضبيّ ، قال : مرّ ناس بالحسن بن عليّ عليه السلام ، وهم يريدون عيادة الوليد بن عقبة ، وهو في عِلّة له شديدة ، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائدا ، فقال للحسن : أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس ؛ إلّا ما كان بيني وبين أبيك ، فإني لا أتوب منه .

قال شيخنا أبو القاسم البلخيّ : وأكّد بُغضَه له ضربه إياه الحدّ في ولاية عثمان ، وعزله عن الكوفة .

---

(١) ج : « من الليلة » .

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لاريب فيها عند المحدّثين ؛ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا يُبغضك إلا منافق ، ولا يحبّك إلا مؤمن » .

قال : وروى حَبّة العُرَنيّ ، عن عليّ عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل أخذ ميثاق كلّ مؤمن على حُبّي وميثاق كل منافق على بغضي ، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّني .

وروى عبد الكريم بن هلال ، عن أسلم المكيّ ، عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، وهو يقول : لو ضربتُ خياشيمَ المؤمن بالسيف ماأبغضني ولو نثرت[1] على المنافق ذهبا وفضة ما أحبّني ؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبّي ، وميثاق المنافقين ببغضي ، فلا يُبغضني مؤمن ، ولا يحبّني منافق أبدا .

قال الشيخ أبو القاسم البلخيّ : وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة ، قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض عليّ بن أبي طالب .

* * *

ذكر إبراهيم بن هلال صاحب كتاب " الغارات " فيمن فارق عليا عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجَيّة التيميّ ، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وكان عليه السلام قد استعمله على الرّيّ ودَسْتَبَى[2] ، فكسرَ الخوارج ، واحتجن المال لنفسه ، فحبسه عليّ عليه السلام ، وجعل معه سعدا مولاه ، فقرّب يزيد ركائبه ، وسعد نائم ، فالتحق بمعاوية ، وقال :

(١) ج : « صببت » .
(٢) دستبى ، بالفتح ، ثم السكون وفتح التاء : كورة كانت مشتركة بين الري وهمذان .

خادَعْتُ سَعْداً وارْتمَتْ بِي رِكابُنِي ... إلى الشَّامِ واخْتَرْتُ الَّذِي هو أفْضَلُ
وغادرتُ سعدا نائمـــا فى عباءةٍ[1] ... وسعدٌ غـــلامٌ مُسْتَهامٌ مُضَلَّلُ

ثم خرج حتى أتى الرَّقة ، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق عليا عليه السلام ، يبدأ بالرَّقة حتى يستأذِن معاوية فى القدوم عليه ، وكانت الرَّقة والرُّها وقَرْقِيسيا[2] وحرَّان من حَيِّز معاوية ؛ وعليها[3] الضحاك بن قيس ، وكانت هِيت وعَانات ونصيبين ودارا وآمِد وسِنْجار من حَيِّز علىّ عليه السلام ؛ وعليها الأشتر ، وكانا يقتتلان فى كل شهر .

وقال يزيد بن حُجَيّة وهو بالرَّقة يهجو عليا عليه السلام :

يا طولَ لَيْـــلِيَ بالرَّقاتِ لَمْ أَنَمِ ... مِنْ غَيْرِ عِشْقٍ صَبَتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمِ
لــكنْ لذكرِ أمورٍ جَمَّــةٍ طَرَقَتْ ... أخشَى على الأصْلِ مِنْهَا زَلَّةَ القَدَمِ
أخشى عَلِيًّا عليهم أن يــكون لَهُمْ ... مثلَ العَقُورِ الذى عَفَّى عَلَى إِرَمِ

وبعد ذلك ما لا نذكره .

قال إبراهيم بن هلال : وقد كان زياد بن خَصَفة التيمىّ ، قال لعلىٍّ عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجَيّة : ابعثنى يا أمير المؤمنين فى أثره أردّه إليك ؛ فبلغ قوله يزيد بن حُجَيّة ، فقال فى ذلك :

أبلــغ زياداً أننى قد كَفيتُهُ ... أمورِي وَخَلَّيتُ الَّذِي هُوَ عاتِبُهْ
وَبَابٌ شديدٌ مُوثَقٌ قد فتحتهُ ... عليك، وقدأعْيَتْ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهْ
هُبِلْتَ أمَا ترجو غَنائى ومشهدِي ... إذِ الخصم لم يُوجَدْ لَهُ مَنْ يُجاذِبُهْ ![3]

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب « غيابة » .
(٢) قرقيسياء : بلد على الخابور عند مصبه . (٣) فى الأصول : « عليهم » .
(٣) يجاذبه ، أى يحوله عن طريقه .

فأقسمُ لولا أنّ أمّكَ أمُّنا ... وأنك مولًى ما طفقتُ أعاتِبُهْ
وأقسم لو أدركْتَنِي ما رَدَدْتَنِي ... كلانا قد اصطفّت إليه جَلائِبُهْ

قال ابن هلال: وكتب إلى العراق شعرا يذمّ فيه عليا عليه السلام، ويخبره أنّه من أعدائه، فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصلاة: ارفعوا أيديَكم فادعُوا عليه، فدعا عليه وأمّن أصحابُهُ.

قال أبو الصلت التيمىّ: كان دعاؤه عليه: اللهمّ إن يزيد بن حُجَيّة هرب بمالِ المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين، فاكفِنا مكره وكيدَه واجْزِه جزاء الظالمين.

قال: ورفع القومُ أيديَهم يؤمِّنون، وكان فى المسجد عِفاق بن شُرَحْبيل بن أبى رهم التَّيمىّ شيخا كبيرا، وكان يعدّ ممن شهد على حُجْر بن عدىّ حتى قتله معاوية، فقال عِفاق: على مَن يدعو القوم؟ قالوا: على يزيد بن حُجَيّة، فقال: تربَتْ أيديكم! أعَلَى أشرافنا تدعُون! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلِك. وقام زياد بن خَصَفة — وكان من شيعة علىّ عليه السلام — فقال: دعوا لى ابن عمّى، فقال علىّ عليه السلام: دعوا للرّجُل ابن عمّه، فتركه الناس، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد، وجعل يمشى معه يمسح التراب عن وجهه، وعِفاق يقول: والله لا أحبّكم ما سعيت ومشيت، والله لا أحبّكم ما اختلفت الدِّرّة والجِرّة؛ وزياد يقول: ذلك أضرّ لك، ذلك شرٌّ لك.

وقال زياد بن خَصَفة يذكر ضرب الناس عِفاقا:

دعــوت عِفاقا للهُدَى فاستغشّنِي ... وولّى فَرِيًّا قولُه وَهْوَ مُغْضَبُ
ولولا دفاعى عن عِفاقٍ ومشهدِى ... هوت بِعِفاقٍ — عَوْضُ — عَنْقاءُ مُغْرِبُ[1]

---

(١) عوض معناه أبدا. وعنقاء مغرب، قال فى اللسان: «العنقاء المغرب: كلمة لا أصل لها؛ ويقال إنها طائر عظيم لا ترى إلا فى الدهور؛ ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة».

أنبئْه أنّ المدى فى اتّباعنا   فيأبى ، ويُضْرِيه المراء فيشغَبُ[1]
فإن لا يشَايِعْنَا عِفاقٌ فإننا[2]   على الحق ما غنّى الحَمام المطرّبُ
سيُغْنِى الإله عن عِفاق وسَعْيه   إذا بعثت للناس جأواء تُحْرَبُ[3]
قبائل من حَيَّىْ معدّ ومثلُها   يمانية لا تنثني حين تُنْدَبُ[4]
لَهُمْ عَدَدٌ مثلُ التراب وطاعةٌ   تودّ ، وبأس فى الوغى لا يؤنَّبُ

فقال له عِفاق : لو كنتُ شاعرا لأجبتك ؛ ولكنى أخبركم عن ثلاث خصال كنّ منكم ؛ والله ما أرى أن تُصيبوا بعدهن شيئا مما يسرّكم :

أمّا واحدة ، فإنكم سرتُم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم ؛ فلما ظنّ القومُ أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف ، فسخِروا بكم فردّوكم عنهم ، فلا والله لا تدخلونها بمثل ذلك الجِدّ والحدّ والعدد الذى دخلتم به أبدا .

وأما الثانية ، فإنكم بعثتم حَكَماً وبعث القوم حَكَما ؛ فأما حَكَمُكم فخلعكم ، وأمّا حَكَمهم فأثبتهم، فرجع صاحبهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ، ورجعتم متلاعنين متباغضين ؛ فو الله لا يزال القوم فى عَلاء ، ولا تزالون فى سِفال .

وأما الثالثة ، فإنه[5] خالفكم قُرّاؤُكم وفُرسانكم فعدَوْتم عليهم فذبحتموهم بأيديكم ؛ فو الله لا تزالون بعدها متضعضعين[6] .

قال : وكان يمرّ عليهم بعد ، فيقول : اللهم إنى منهم برىء ، ولابن عفان ولىّ ! فيقولون : اللهم إنّا لعلى أولياء ، ومن ابن عفان برآء ، ومنك يا عِفاق !

(١) الشغب : الشر .
(٢) ج : « يتابعنا » .
(٣) كتيبة جأواء : هى التى يعلوها لون السواد لكثرة الدروع .
(٤) تندب : تدعى فتخف للدعوى .
(٥) ج : « فإنكم » .
(٦) تضعضع : خضع وذل .

قال : فأخذ لا يُقلِع ؛ فدعوا رجلا منهم له سجاعة كسجاعة الكهان، فقالوا : ويحك! أما تكفينا بسجعك وخطبك هذا ! فقال : كفيتكم ، فمرّ عِفاق عليهم ، فقال كما كان يقول ، فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتل عِفاقا ، فإنه أمرّ نفاقا ، وأظهر شِقاقا ، وبيّن فراقا ، وتلوّن أخلاقا .

فقال عِفاق : وَيحكم ! من سلّط عليّ هذا ؟ قال : الله بعثني إليك ، وسلّطني عليك لأقطع لسانك ، وأنصِل سِنانك(١) ، وأطرد شيطانك .

قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد ؛ إنما يمرّ على مزَينة .

***

وممن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعتّب الثقفيّ ، شهد مع عليّ عليه السلام صفين ، وكان في أول أمره مع معاوية ؛ ثم صار إلى عليّ عليه السلام ، ثم رجع بعد إلى معاوية ، وكان عليّ عليه السلام يسميه الهجنّع ، والهجنّع : الطويل .

***

ومنهم القعقاع بن شُور ، استعمله عليّ عليه السلام على كَسْكَر ، فنقَم منه أمورا؛ منها أنه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم ؛ فهرب إلى معاوية .

***

ومنهم النجاشيّ الشاعر من بني الحارث بن كعب ، كان شاعرَ أهل العراق بصفّين ، وكان عليّ عليه السلام يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام ، مثل كَعب بن جُعَيل وغيره ، فشرب الخمر بالكوفة ، فحدّه عليّ عليه السلام ، فغضب ولحق بمعاوية ؛ وهجا عليا عليه السلام .

(١) أنصل السنان : جعل له سنا ؛ ونزعه عنه : من الأضداد .

حدث ابن الكلبيّ عن عَوانة ، قال :[1] خرج النجاشيّ فى أول يوم من شهر رمضان، فمرّ بأبى سَمّال الأسديّ، وهو قاعد بفناء داره، فقال له : أين تريد ؟ قال: أردت الكُنَاسة ، فقال : هل لك فى رءوس وأليات قد وُضِعت فى التنُّور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرّأت ؟ قال : وَيْحك ! فى أول يوم من رمضان ! قال : دعنا مما لا نعرف ، قال : ثم مه ، قال : أسقيك من شراب كالوَرْس ، يُطَيِّب النفس ، ويجرى فى العِرْق ، ويزيد فى الطَّرْق ، يهضم الطعام ، ويُسَهِّل للفدْم[2] الكلام ؛ فنزل ؛ فتغدّيا ، ثم أتاه بنبيذ فشرباه، فلما كان آخر النهار علت أصواتهما ، ولهما جارٌ من شيعة علىٍّ عليه السلام ، فأتاه فأخبره بقصّتهما ، فأرسل إليهما قوما فأحاطوا بالدار ، فأما أبو سَمّال فوثب إلى دُور بنى أسد فأفلت ؛ وأخذ النجاشيّ فأتى عليه السلام به ، فلما أصبح أقامه فى سراويل ، فضربه ثمانين ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الحدّ فقد عرفته ، فما هذه العِلاوة[3] ؟ قال : لجراءتك على الله ، وإفطارك فى شهر رمضان . ثم أقامه فى سراويله للناس ، فجعل الصبيان يصيحون به : خَزِىَ النجاشيّ ، خزى النجاشي ! وجعل يقول : كلاّ إنها يمانية وِكاؤها شعر .

قال : ومرّ به هند بن عاصم السّلولىّ ، فطرح عليه مُطرَفا ، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف ؛ حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة ، فمدح بنى سَلُول فقال :

إذا الله حَيّا صالحًا من عباده ... تقيًا فحيّا الله هِنْدَ بْنَ عاصمِ

وكلّ سَلُولِىٍّ إذا ما دعوتَه ... سريع إلى داعى العلا والمكارمِ

هم البيضُ أقداما وديباجُ أوجهٍ ... جلوها إذا اسودّتْ وجوهُ اللّلائمِ

ولا يأكل الكلبُ السّروق نعالَهمْ ... ولا يبتغى المخّ الذى فى الجماجمِ

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٢٨٩ والخزانة ٤ : ٣٦٨

(٢) الفدم : العَيي .

(٣) العلاوة ، بالكسر : كل مازاد عن الشىء

ثم لحق معاوية ، وهجا عليًا عليه السلام ، فقال :

أَلا مَنْ مبلغٌ عَنِّى عَلِيًّا ... بأنّى قَدْ أَمِنتُ فلا أَخَافُ

عَمِدْتُ لمستقرّ الحقّ لمّا ... رأيتُ أمورَكُمْ فيها اختِلافُ

وروى عبد الملك بن قُرَيب الأصمعىّ ، عن ابن أبى الزّناد ، قال : دخل النجاشىّ على معاوية ، وقد أذن للناس عامة ، فقال لحاجبه : ادعُ النجاشىّ ، والنجاشىّ بين يديه ، ولكن اقتحمته عينه ، فقال : هأنذا النجاشىّ بين يديك يا أمير المؤمنين ؛ إنّ الرجال ليست بأجسامها ؛ إنّما لك من الرجل أصغراه : قلبه ولسانه ، قال : ويحك ! أنت القائل[1] :

ونَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ ... أجشّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانى[2]

إذا قلتُ أطراف الرماح تَنُوشُه ... مَرَتْه بِهِ الساقان والقَدَمانِ[3]

ثم ضرب بيده إلى ثَدْيه[4] ، فقال : ويحك ! إنّ مثلى لا تعدُو به الخيل ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنى لم أعْنِك ؛ إنما عنيتُ عُتْبَة .

وروى صاحب كتاب « الغارات » ، أن عليا عليه السلام لما حدّ النجاشىّ غضبت اليمانية لذلك ، وكان أخصّهم به طارق بن عبد الله بن كعب النَّهْدىّ ، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين ، ما كنّا نرى أنّ أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سِيّان فى الجزاء ؛ حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث ،

---

(١) البيتان فى الأغانى ١٣ : ٢٦٠ (طبعة الدار) ، والأول مع الخبر فى الشعر والشعراء ٢١٩

(٢) السابح : الفرس السريع كأنه يسبح بيديه والعلالة هنا بقية جرى الفرس . والأجش الغليظ الصوت فى صهيله ؛ وهو مما يحمد فى الخيل . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٣) مرته : استدرت جريه .

(٤) فى الشعر والشعراء : « ثندوته » ، والثندوة : اللحم الذى حول الثدى .

فأوغرت صدورنا، وشتتت أمورنا، وحملتنا على الجادة[1] التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار . فقال علي عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[2] ؛ يا أخا نهد ، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله ، فأقمنا عليه حدا كان كفارته! إن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] قال : فخرج طارق من عنده ، فلقيه الأشتر ، فقال : ياطارق ؛ أنت القائل لأمير المؤمنين : « أوغرت صدورنا ، وشتتت أمورنا » ؟ قال طارق : نعم، أنا قائلها، قال : والله ماذاك كما قلت ؛ إن صدورنا له لسامعة ، وإن أمورنا له لجامعة . فغضب طارق وقال : ستعلم يا أشتر أنه غير ما قلت ؛ فلما جنه الليل همس[4] هو والنجاشي إلى معاوية، فلما قدما عليه ، دخل آذنه فأخبره بقدومهما ، وعنده وجوه أهل الشام ، منهم عمرو بن مرة الجهني وعمرو بن صيفي وغيرهما ، فلما دخلا نظر إلى طارق ، وقال : مرحبا بالمورق غصنه، والمعرق أصله ، المسود غير المسود ؛ من رجل كانت منه هفوة ونبوة ، باتباعه صاحب الفتنة ، ورأس الضلالة والشبهة ، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رجلها ، ثم أوجف في عشوة ظلمتها وتيه ضلالتها ، واتبعه رجرجة[5] من الناس ، وأشابة[6] من الحثالة لا أفئدة لهم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[7]

فقام طارق ، فقال : يامعاوية إني متكلم فلا يسخطك ، ثم قال : وهو متكئ على سيفه : إن المحمود على كل حال رب علا فوق عباده ، فهم منه بمنظر ومسمع ؛ بعث فيهم

---

(١) الجادة : معظم الطريق ، وأوسطه .
(٢) سورة البقرة ٤٥ .
(٣) سورة المائدة ٨
(٤) الهمس : السير بالليل
(٥) الرجرجة : الجماعة الكثيرة من الناس
(٦) الأشابة : أخلاط الناس
(٧) سورة محمد ٢٤

رسولا منهم ، يتلو كتابا لم يكن من قبله ولا يخطّه بيمينه ؛ إذاً لارتاب المبطلون ؛ فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًّا رحيما ! أما بعد ، فإنّ ما كنا نُوضِع فيما أوْضَعنا فيه بين يدى إمام تقىٍّ عادل ، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ أتقياء مرشدين ، مازالوا مناراً للهدى ، ومعالم للدين ، خلفاً عن سلف مهتدين ، أهل دين لا دنيا ، كلّ الخير فيهم ، واتّبعهم من الناس ملوك وأقيال ، وأهلُ بيوتات وشرَف ، ليسوا بناكثين ولا قاسطين،فلم يكن رغبةُ مَنْ رغب عنهم وعن صحبتهم إلا لمرارة الحقّ حيث جُرِّعُوها ، ولوعورته حيث سلكوها ؛ وغلبت عليهم دنيا مؤثَرة ، وهو متّبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا؛وقد فارق الإسلام قبلنا جَبَلة بن الأيهم فرارا من الضيم،وأنَفا[1] من الذِّلة ، فلا تفخرَنّ يامعاوية ؛ إن شَدَدْنا نحوك الرحال ، وأوْضَعْنا إليك الركاب . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولجميع المسلمين .

فعظُم على معاوية ماسمعه وغضب ، لكنه أمسك[2] ؛ وقال : ياعبد الله ؛ إنا لم نُرِدْ بما قلناه أن نوردَك مَشْرَع ظمأ ، ولا أن نُصدرك عن مَكْرَع رِىّ ؛ ولكنّ القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل ، ثم أجلسه معه على سريره ، ودعا له بمقطّعات وَبُرود فصبّها عليه ؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدّثه حتى قام .

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفىّ الجهنيّان ، فأقبلا عليه بأشدّ العتاب وأمضّه، يلومانه فى خطبته ، وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ماقمت بما سمعتماه حتى خُيّل لى أنّ بطن الأرض خير لى من ظهرها عند سماعى ما أظهرَ من العيب والنقص لمن هو خير منه فى الدنيا والآخرة ، وما زهَتْ به نفسُه ، وملَكَه عجبه ، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقَصهم ، فقمت مقاما أوجب الله علىّ فيه ألّا أقول إلّا حقا ، وأىّ خير فيمن لا ينظر مايصير إليه غدا !

---

(١) ج : « وأنفة من المذلة » .

(٢) ج : « تماسك » .

فبلَغ عليًا عليه السلام قولُه ، فقال : لو قُتِل النهدىّ يومئذ لقتل شهيدا .

وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبى العُريان ـ وكان عُثمانيا ، وكانت امرأته عَلَوِيّة الرأى ، تكتب بأخبار معاوية فى أعنّة الخيل وتدفعُها إلى عسكر علىّ عليه السلام بصِفّين فيدفعونها إليه ـ فقال معاوية بعد التحكيم : ياهيثم ، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعلىّ فى صِفّين أم أهل الشام لى ؟ فقال : أهل العراق قبل أن يُضْرَبوا بالبلاء كانوا أنصَح لصاحبهم ؛ قال : كيف قلت ذلك ؟ قال : لأنّ القوم ناصحوه على الدّين ، وناصَحَك أهل الشام على الدنيا، وأهل الدين أصْبَرُ، وهم أهل بصيرة، وإنما أهل الدنيا أهلُ طمع ؛ ثم والله مالبث أهلُ العراق أنْ نبذُوا الدّين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا ، فالتحقوا بك .

فقال معاوية: فما الذى يمنع الأشعثَ أن يقدَم علينا، فيطلب ماقِبلنا ؟ قال: إن الأشعث يكرِم نفسَه أن يكون رأسا فى الحرب ، وذَنَبًا فى الطمع .

* * *

ومن المفارقين لعلىّ عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبى طالب ؛ قَدِم على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفِدُه (١) ، فعرَض عليه عطاءه ، فقال : إنما أريدُ من بيت المال ، فقال : تقيم إلى يوم الجمعة ، فلما صلَّى عليه السلام الجمعة ، قال له : ماتقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟ قال بئس الرجل ! قال : فإنك أمرتَنِى أن أخونهم وأعطيَك، فلما خرج من عنده شخَص إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم، وقال له : ياأبا يزيد ، أنا خيرلك أم علىّ؟ قال : وجدت عليًا أنظرَ لنفسه منه لى ، ووجدتك أنظر لى منك لنفسك .

وقال معاوية لعَقيل : إنّ فيكم يابنى هاشم لينـًا ، قال : أجل إنّ فينا لينًا من غير

---

(١) يسترفده : يطلب عطاءه .

ضَعف ، وعِزًّا من غير عُنف ، وإن لينَكم يامعاوية غَدْر ، وسلمكم كُفر . فقال معاوية: ولا كلّ هذا ياأبا يزيد .

وقال الوليد بن عُقْبة لعقِيل فى مجلس معاوية : غَلبك أخوك يا أبا يزيد على الثروة ! قال : نعم ، وسبقنى وإياك إلى الجنة ، قال : أما والله إن شِدْقَيْه لمضمومان من دم عثمان ، فقال : وما أنتَ وقريش ! والله ما أنتَ فيها إلا كنطيح التَّيْس . فغضب الوليد وقال : والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا فى قتله لأُرهِقُوا صَعُودا(١) ، وإن أخاك لأشدّ هذه الأمة عذابا ، فقال : صه ! والله إنا لنرغب بعبدٍ من عبيده عن صُحْبة أبيك عُقْبة ابن أبى مُعَيط .

وقال معاوية يوما ـ وعنده عَمْرو بن العاص ، وقد أقبل عَقِيل : لأضحكنّك من عَقيل ، فلما سلّم قال معاوية : مرحبا برجل عمّه أبو لهب ، فقال عَقِيل : وأهلا برجل عمّته : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾(٢) ؛ لأنّ امرأة أبى لهب أمّ جميل بنت حرب ابن أمية .

قال معاوية : ياأبا يزيد ماظنّك بعمك أبى لهب ! قال : إذا دخلت النارَ فَخُذ على يسارك تجدْه مفترشا عمّتك حمالةَ الحطب ؛ أفناكحٌ فى النار خيرٌ أم منكوح ! قال : كلاهما شرّ ، والله .

* * *

وممن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب ، خرج هو وجرير بن عبد الله البَجَليّ من الكوفة إلى قرقيسيا ؛ وقالا : لا نقيمُ ببلدة يُعاب فيها عثمان .

* * *

---

(١) الصعود : العقبة الشاقة .

(٢) المسد : حبل من ليف المقل .

ومن فارقه وائل بن حجر الحضرمىّ ، وخبره مذكور فى قصة بُسْر بن أرطاة .

* * *

وروى صاحب كتاب '' الغارات '' عن إسماعيل بن حكيم، عن أبى مسعود الجريرىّ، قال : كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلون على بُغْض علىّ عليه السلام: مطرِّف بن عبدالله ابن الشِّخِّير ، والعلاء بن زياد ، وعبد الله بن شقيق .

قال صاحب كتاب '' الغارات '' : وكان مطرِّف عابدا ناسكا ؛ وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين : أن عمّار بن ياسر دخل على أبى مسعود وعنده ابن الشِّخِّير ، فذكر عليا بما لايجوز أن يُذكَر به، فقال عمار : يافاسق وإنك لهاهنا ! فقال أبو مسعود: أذكِّرك الله يا أبا اليقظان فى ضَيفى !

قال: وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانيّة، وكانت فى أنفسهم أحقاد يوم الجمل، وكان هو عليه السلام قليل التألّف للناس ، شديدا فى دين الله ، لايبالى مع علمه بالدين ؛ واتباعه الحقّ مَنْ سخط ومَنْ رضِىَ .

قال : وقد روى يونس بن أرقم، عن يزيد بن أرقم، عن أبى ناجية ، مولى أم هانىء ، قال : كنت عندَ علىٍّ عليه السلام، فأتاه رجل عليه زِىُّ السّفر . فقال : يا أمير المؤمنين، إنى أتيتك من بلدة مارأيت لك بها محبًّا ، قال : من أين أتيتَ ؟ قال : من البصرة ، قال : أما إنهم لو يستطيعون أن يحبّونى لأحبونى ؛ إنى وشيعتى فى ميثاق الله لايزاد فينا رجلٌ ولا ينقص إلى يوم القيامة .

* * *

وروى أبو غَسّان البصرىّ ، قال : بَنَى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض علىّ بن أبى طالب والوقيعة فيه : مسجد بنى عدىّ ، ومسجد بنى مجاشع،

ومسجد كان فى الملاّفين على فُرْضَة البصرة ، ومسجد فى الأزد .

***

ومما قيل عنه إنه يبغض عليا عليه السلام ويذمّه ، الحسن بن أبى الحسن البصرىّ أبو سعيد؛ وروى عنه حماد بن سلمة أنه قال: لو كان علىّ يأكل الحَشَف[1] بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه . ورواه عنه أنه كان من المخذّلين عن نصرته .

وروى عنه أنّ عليا عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة ـ وكان ذا وسوسة ـ فصبّ على أعضائه ماء كثيرا ، فقال له : أرَقْتَ ماء كثيرا يا حسن ؛ فقال : ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر ! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم . قال : فلا زلت مسوءاً .

قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات .

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكرونه ويقولون : إنه كان من محبّى علىّ ابن أبى طالب عليه السلام والمعظّمين له .

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدّث فى كتابه المعروف: "الاستيعاب فى معرفة الصحاب" أنّ إنسانا سأل الحسن عن علىّ عليه السلام ، فقال : كان والله سهماً صائبا من مرامِى الله على عَدُوِّه ، وربانىّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لم يكن بالنَّوُمَة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مُونِقة ، ذلك علىّ بن أبى طالب يالُكَع!

وروى الواقدىّ، قال : سئِل الحسنُ عن علىّ عليه السلام ـ وكان يظنّ به الانحراف عنه ، ولم يكن كما يظنّ ـ فقال : ما أقول فيمنْ جَمَع الخصال الأربع : ائتمانه على براءة ،

---

(١) الحشف : أردأ التمر .

وما قال له الرسول في غزاة تبوك ، فلو كان غير النبوّة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبيّ صلى الله عليه وآله : «الثقلان كتاب الله وعترتي» ، وإنه لم يؤمّر عليه أمير قطّ وقد أمّرت الأمراء على غيره .

وروى أبان بن عياش، قال : سألتُ الحسن البصريّ عن عليّ عليه السلام ، فقال: ما أقولُ فيه ! كانت له السابقة ، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصُّحبة والنّجْدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة ، إن عليًّا كان في أمرِه عليًّا ، رحم الله عليًّا ، وصلى عليه! فقلت : يا أبا سعيد، أتقول: «صلّى عليه» لغير النبيّ ! فقال : ترحّمْ على المسلمين إذا ذكروا ، وصلِّ على النبيّ وآله وعلى خير آله . فقلت : أهو خيرٌ مِنْ حمزة وجعفر ؟ قالَ: نعم ، قلت : وخيرٌ من فاطمة وابنيها ؟ قال : نعم ، والله إنه خيرُ آل محمد كلِّهم ، ومَنْ يَشُكّ أنّه خير منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «وأبوهما خير منهما» ! ولم يجرِ عليه اسمُ شِرْك ، ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام : «زوّجتُك خيرَ أمتي» ، فلو كان في أمته خيرٌ منه لاستثناه ، ولقد آخى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بين أصحابه ، فآخى بين عليّ ونفسه ، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرُ الناس نفسا ، وخيرُهم أخا . فقلت : يا أبا سعيد ، فما هذا الذي يقال عنك إنّك قلته في عليّ ؟ فقال : يابن أخي ، أحقِنُ دمي من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لشالَت[1] بي الخُشُب .

***

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ رحمه الله تعالى، ووجدته أيضا في كتاب "الغارات" لإبراهيم بن هلال الثقفي : وقد كان بالكوفة من فقهائها مَنْ يعادي عليا ويُبغضه، مع غلبة التشيّع على الكوفة ، فمنهم مرّةُ الهمدانيّ .

---

(١) ب : «لسالت» .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَين عن فِطر بن خليفة ، قال : سمعت مُرّة يقول : لأَنْ يكون على جملًا يَستَقِي عليه أهلُه خير له مما كان عليه .

وروى إسماعيل بن بَهرام ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عمرو بن مرة ، قال : قيل لمرّة الهَمْدانيّ : كيف تخلّفت عن عليّ ؟ قال[1] : سَبَقَنا بحسناته ، وابتُلينا بسيئاته .

قال إسماعيل بن بَهْرام : وقد روينا عنه أنه قال أشدَّ فُحْشاً من هذا ؛ ولكنا نتورّع عن ذكره .

وروى الفضل بن دُكَين ، عن الحسن بن صالح ، قال : لم يصلِّ أبو صادق على مُرّة الهَمْدانيّ .

قال الفضلُ بن دُكين : وسمعتُ أنّ أبا صادق قال في أيام حياة مُرّة : والله لا يظلّني وإياه سَقْفُ بيتٍ أبدا .

قال : ولما مات لم يحضُره عمرو بن شُرَحبيل ، قال : لا أحضُره لشيء كان في قلبه عَلَى عليّ بن أبي طالب .

قال إبراهيم بن هلال : حدّثنا المسعوديّ ، عن عبدالله بن نُمير بهذا الحديث . قال : ثم كان عبد الله بن نُمير يقول ـ وكذلك أنا ؛ والله لو مات رجلٌ في نفسه[2] شيء عَلَى عليّ عليه السلام لم أحضُرْه ، ولم أصلِّ عليه .

* * *

ومنهم الأسود بن يزيد ومَسروق بن الأجدع ؛ روى سَلَمة بن كُهيل : أنهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقَعان في عليّ عليه السلام ؛ فأمّا الأسود فمات على ذلك ؛ وأما مسروق فلم يمُتْ حتى كانَ لا يصلِّي لله تعالى صلاةً

(١) : ب « فقال » .
(٢) ب « في قلبه » .

إلا صلّى بعدها على علىّ بن أبي طالب عليه السلام ، لحديث سمعه من عائشة في فضله .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكين ، عن عبد السلام بن حَرْب ، عن ليث ابن أبي سُلَيم ، قال : كان مسروق يقول : كان علىّ كحاطب ليل ؛ قال : فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا .

وروى سَلَمة بن كُهَيل ، قال : دخلتُ أنا وزُبيد اليامىّ على امرأةِ مسروق بعد موته ؛ فحدثتنا ، قالت : كان مسروق والأسود بن يزيد يُفْرِطان في سبّ على ابن أبي طالب ، ثم ما مات مسروق حتى سمعتُه يصلّي عليه ، وأما الأسود فمضى لشأنه .

قال : فسألناها : لم ذلك ؟ قالت : شيء سمعه مِنْ عائشة ترْوِيه عن النبيّ صلى الله عليه وآله فيمن أصابَ الخوارج .

وروى أبو نعيم ، عن عمرو بن ثابت ، عن أبي إسحاق ، قال : ثلاثة لا يؤمَنُون على علىّ ابن أبي طالب : مسروق ، ومُرّة ، وشريح .

وروى أنّ الشعبيّ رابعهم .

وروى عن هيثم ، عن مجالد ، عن الشعبيّ ، أنّ مسروقا ندِم على إبطائه عن علىّ ابن أبي طالب عليه السلام .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم التّيمىّ ؛ قال : قال علىّ عليه السلام لشريح ؛ وقد قضى قضيّة نَقَم عليه أمرَها : والله لأنفينّك إلى بَانِقْيَا[1] شهر بن تقضي بين اليهود ، قال : ثم قُتِل علىّ عليه السلام ومضى دهر ؛ فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشُرَيح : ما قال لك أميرُ المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال : إنه قال لي كذا ، قال : فلا والله لا تقعد ، حتى تخرج إلى بانِقْيَا تقضي بين اليهود . فسيّره إليها فقضى بين اليهود شهرين .

* * *

---

(١) بانقيا ، بكسر النون : ناحية من نواحي الكوفة كانت على شواطئ الفرات (مراصد الاطلاع) .

ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة ، كان عُثمانيا يقع في عليّ عليه السلام ، ويقال : إنه كانَ يرى رأيَ الخوارج ، ولم يختلف في أنه خرج معهم ؛ وأنه عاد إلى عليّ عليه السلام مُنيبا مقلِماً .

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، فخرج إلينا عليّ ، فما زال يكلّمنا حتى رجع منا ألفان .

وروى صاحب كتاب "الغارات" ، عن عثمان بن أبي شيبة ، عن الفضل ابن دُكَيْن ، عن سفيان الثوريّ ، قال : سمعت أبا وائل يقول : شهدت صِفّين وبئس الصُّفوف كانت !

قال : وقد روى أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النَّجُود ، قال : كان أبو وائل عثمانيا ، وكان زِرُّ بن حُبَيش عَلَوِيًّا .

***

ومن المبغضين القالين : أبو بُرْدة بن أبي موسى الأشعريّ ، ورِث البِغْضة له ، لا عن كلالة[1] .

وروى عبد الرحمن بن جُندَب، قال : قال أبو بُرْدة لزياد : أشهد أن حُجْر بن عديّ قد كفر بالله كفرة أصْلَع ، قال عبد الرحمن : إنما عَنَى بذلك نِسْبَة الكفر إلى عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ؛ لأنه كان أصلع .

قال : وقد روى عبد الرحمن المسعوديّ ، عن ابن عياش المنتوف، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبي العادية الجُهنيّ قاتل عمار بن ياسر: أأنت قتلتَ عمار بن ياسر ؟ قال : نعم، قال: ناولني يدَك ؛ فقبّلها ، وقال : لا تمسّك النار أبدا .

---

(١) يقال : لم يرثه كلالة ، أي لم يرثه عن عرض بل قرب ؛ يريد أنه ورث البغض عن أبيه أبي موسى الأشعري .

وروى أبو نُعيم عن هشام بن المغيرة ، عن الغضبان بن يَزيد ، قال : رأيت أبا بُردة قال لأبي العادية قاتلِ عمار بن ياسر : مرحبا بأخي ها هنا ! فأجلسه إلى جانبه .

* * *

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ القارئ ؛ روى صاحب كتاب " الغارات " عن عطاء بن السائب ، قال : قال رجل لأبي عبد الرحمن السُّلمي : أنشُدُكَ بالله ، إن سألتُك لتخبرنّي ؟ قال : نعم ، فلما أكّد عليه قال : بالله هل أبغضتَ عليًّا إلا يوم قسم المال في الكوفة فلم يصلك ولأهلَ بيتك منه بشيء ! قال : أما إذ أنشَدْتَني بالله ، فلقد كان كذلك .

قال : وروى أبو عمر الضرير ، عن أبي عوانة ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبي عبد الرحمن السُّلِميّ شيء في أمر علي عليه السلام ؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حيّان ، فقال : هل تَدْرِي ما جَرّأ صاحبَك عَلَى الدماء ؟ يعني عليا ، قال : وما جَرّأه لا أبا لغيرك ! قال : حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأهل بدر : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، أو كلاما هذا معناه .

* * *

وكان عبدالله بن عُكَيْم عُثْمانيا ؛ وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى عَلَوِيًّا ، فروى موسى الجهنيّ ، عن ابنة عبدالله بن عُكَيْم ، قالت : تحدثنا يوما ، فسمعت أبي يقول لعبد الرحمن : أما إن صاحبَك لو صَبَرَ لأتاه الناس .

* * *

وكان سهم بن طريف عثمانيًّا ، وكان عليّ بن ربيعة عَلَوِيًّا ، فضرب أمير الكوفة عَلَى الناس بعثا ، وضرب عَلَى سهم بن طريف معهم ، فقال سهم لعليّ بن ربيعة : اذهب إلى الأمير فَكلِّمْهُ في أمري لِيُعْفِيَني ، فأتى عليّ بن ربيعة الأمير ، فقال : أصلحك الله !

إن سهما أعمى فأعفِه ، قال : قد أعفيتُه ، فلما التقيا قال : قد أخبرت الأميرَ أنك أعمى ؛ وإنما عميت عمى القلب .

* * *

وكان قيس بن أبي حازم يُبْغِض عليًا عليه السلام ؛ روى وكيع ، عن إسماعيل ابن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، قال : أتيت عليا عليه السلام ليكلّم لى عثمان فى حاجة ، فأبى فأبغضتُه .

قلت : وشيوخنا المتكلّمون – رحمهم الله – يُسقِطون روايته عن النبى صلى الله عليه وآله : « إنكم لترونَ ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر » ، ويقولون : إنه كان يُبغِض عليا عليه السلام ؛ فكان فاسقا ، ونقلوا عنه أنه قال : سمعت عليا عليه السلام يخطب على المنبر ، ويقول : « انفروا إلى بقية الأحزاب » ، فدخل بغضُه فى قلبى .

* * *

وكان سعيد بن المسيّب منحرفا عنه عليه السلام ، وجبَهه عُمر بن علىّ عليه السلام فى وجهه بكلام شديد .

روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبى داود الهمدانىّ ، قال : شهدت سعيد ابن المسيّب – وأقبل عمر بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يابن أخى ، ما أراك تكثِر غِشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه كما يفعل إخوتك وبنو أعمامك ! فقال عمر : يابن المسيّب ، أكلما دخلت المسجد أجىء فأشهِدَك ! فقال سعيد : ما أحبّ أن تغضب ، سمعت أباك يقول : إنّ لى من الله مقاما لهو خيرٌ لبنى عبد المطلب ممّا على الأرض من شىء . فقال عمر : وأنا سمعت أبى يقول : ما كلمة حكمة

فى قلب منافق فيخرج من الدنيا ، حتى (١) يتكلم بها . فقال سعيد : يابن أخى ، جعلتنى منافقا ! قال : هو ما أقول لك . ثم انصرف .

***

وكان الزهرىّ من المنحرفين عنه عليه السلام .

وروى جرير بن عبد الحميد ، عن محمد بن شيبة ، قال : شهدتُ مسجد المدينة ، فإذا الزهرىّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران عليا عليه السلام ، فنالا منه ، فبلغ ذلك علىّ ابن الحسين عليه السلام ؛ فجاء حتى وقف عليهما، فقال : أمّا أنتَ ياعُروة ، فإن أبى حاكم أباك إلى الله ، فحكم لأبى على أبيك ؛ وأما أنت يازهرىّ ، فلو كنتَ بمكة لأريتُك كِيرَ أبيك .

وقد روى من طرق كثيرة ، أنّ عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يزهو إلا علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد .

وروى عاصم بن أبى عامر البَجَلىّ ، عن يحيى بن عروة ، قال : كان أبى إذا ذكر عليا نال منه .

وقال لى مرّة : يابنى، والله ما أحجم الناسُ عنه إلا طلبا للدنيا ، لقد بَعَثَ إليه أسامة ابن زيد أن ابعثْ إلىّ بعطائى ، فوالله إنّك لتعلم أنك لو كنتَ فى فم أسد لدخلتُ معك . فكتب إليه : إنّ هذا المال لمن جاهد عليه ؛ ولكنّ لى مالاً بالمدينة فأصِبْ منه ماشئت .

قال يحيى : فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به ، ومن عيبه له وانحرافه عنه .

***

وكان زيد بن ثابت عُثمانيا شديداً فى ذلك ، وكان عمرو بن ثابت عثمانيا ، من أعداء علىّ عليه السلام ومُبغضيه، وعمرو بن ثابت هو الذى روى عن أبى أيوب الأنصارىّ حديثَ : « ستة أيام من شوّال » .

---

(١) ب : « إلا » .

روى عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرَى بالشام ويجمع أهلها ، ويقول : أيها الناس ، إنّ عليا كان رجلا منافقا ، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة ، فالعنوه ، فيلعنه أهلُ تلك القرية ؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك، وكان فى أيام معاوية .

***

وكان مكحولٌ من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحرّ، قال : لقيت مكحولا؛ فإذا هو مطبوع - يعنى مملوءا - بغضا لعلىّ عليه السلام - فلم أزل به حتى لان وسكن .

وروى المحدّثون عن حماد بن زيد ، أنه قال : أرى أن أصحاب علىّ أشدُّ حبًّا له من أصحاب العِجْل لعجلهم . وهذا كلام شنيع .

وروى عن شبابة بن سوّار أنه ذكر عنده ولد علىّ عليه السلام ، وطلبهم الخلافة فقال : والله لا يصِلُون إليها أبدا ، والله مااستقامت لعلىّ ، ولا فرح بها يوما ، فكيف تصير إلى ولده ! هيهات هيهات ! لا والله لايذوقُ طعمَ الخلافة مَنْ رضِيَ بقتل عثمان .

***

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ : كان أهلُ البصرة كلّهم يُبغضونه ، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة ؛ وأما أهلُ مكة فكلّهم كانوا يُبغضونه قاطبةً ، وكانت قريش كلها على خلافه ، وكان جُمهور الخلق مع بنى أميّة عليه .

وروى عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبى بَكْرة ، قال: سمعتُ عليا عليه السلام ، وهو يقول : مالقِىَ أحدٌ من الناس مالقيت ! ثم بكى عليه السلام .

وروى الشعبىُّ ، عن شريح بن هانئ ، قال: قال علىّ عليه السلام : اللهم إنى أستعديك

على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمى ، وأصغوا(١) إنائى ، وصَغَّروا عظيم منزلتى ، وأجمعوا على منازعتى .

وروى جابر عن أبى الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : اللهم إنّى أستعديك على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمى ، وغَصَبُونى حَقّى ، وأجمعوا على منازعتى أمراً كنت أولى به ، ثم قالوا : إنّ من الحق أن نأخذه ، ومن الحق أن نتركه .

وروى المسيّب بن نَجبة الفزارىّ ، قال : قال علىٌّ عليه السلام : من وجدتموه من بنى أميّة فى ماء فغطُّوا على صِماخه ، حتى يدخل الماء فى فيه .

وروى عمرو بن دينار ، عن ابن أبى مُليكة ، عن المِسوَر بن مخرمة ، قال : لقى عبدالرحمن ابن عوف عمرَ بن الخطاب ، فقال : ألم نكن نقرأ من جملة القرآن : قاتلوهم فى آخر الأمر كما قاتلتموهم فى أوله؟ قال : بلى ؛ ولكن ذلك إذا كان الأمراء بنى أمية والوزراء بنى مخزوم!

وروى أبو عمر النّهدىّ ، قال : سمعت علىّ بن الحسين يقول : ما بمكة والمدينة عشرون رجلا يحبُّنا .

وروى سفيان الثورىّ ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَختَرىّ ، قال : أثنى رجلٌ على علىّ بن أبى طالب فى وجهه ـ وكان يُبغضه ـ فقال علىّ : أنا دون ما تقول ، وفوق ما فى نفسك .

وروى أبو غسان النهدىّ ، قال : دخل قوم من الشيعة على علىّ عليه السلام فى الرّحَبة ، وهو على حَصير خَلَق ، فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : حُبّك يا أمير المؤمنين ، قال : أما إنه مَنْ أحبّنى رآنى حيث يحبّ أن يرانى ، ومن أبغضنى رآنى حيث يكره أن يرانى ، ثم قال : ما عَبَد اللهَ أحدٌ قبلى إلا نبيه عليه السلام ؛ ولقد هَجَم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان ، فقال : أو فعلتموها ! ثم قال لى وأنا غلام : وَيْحك ، انصر ابنَ عمك ! وَيْحك لا تخذله ،

---

(١) يقال : أصغى فلان إناء فلان إذا أماله ونقصه حقه . (اللسان) .

وجعل يحثنى على مؤازرته ومكانفته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلا تصلّى أنت معنا ياعمّ ! » فقال : لاأفعل يابن أخى ، لاتعلونى استى . ثم انصرف .

وروى جعفر بن الأحمر ، عن مسلم الأعور ، عن حبة العرنى ، قال : قال علىّ عليه السلام : مَنْ أحبّنى كان معى ؛ أما إنكَ لو صُمْت الدهر كلَّه ، وقمت الليل كله ، ثم قُتِلت بين الصفا والمروة ـ أوقال بين الركن والمقام ـ لما بعثك الله إلا مع هواك بالغا مابلغ ؛ إنْ فى جنة ففى جنة ، وإن فى نار ففى نار .

وروى جابر الجعفىّ ، عن علىّ عليه السلام أنه قال : مَنْ أحبّنا أهلَ البيت فليستعدّ عدة للبلاء .

وروى أبو الأحوص ، عن أبى حيّان عن علىّ عليه السلام : يهلِك فىّ رجلان ، محبّ غالٍ ، ومبغض قالٍ .

وروى حماد بن صالح ، عن أيوب ، عن كهمس ؛ أنّ عليا عليه السلام قال : يهلِك فىّ ثلاثة : اللاعن والمستمع المقرّ ، وحامل الوِزْر ، وهو الملك المترَف ، الذى يُتقرّب إليه بلعنتى ، ويُبرأ عنده من دينى ، ويُنتقص عنده حسبى ؛ وإنما حَسَبى حسب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ودينى دينه . وينجو فىّ ثلاثة : مَنْ أحبنى ، ومَنْ أحبّ محبّى ، ومَنْ عادى عدوى ؛ فمن أشرِب قلبُه بغضى أوَ ألّب على بغضى ؛ أو انتقصنى ؛ فليعلم أنّ الله عدوه وخصمه (1) ؛ والله عدو للكافرين .

وروى محمد بن الصّلت ، عن محمد بن الحنفيّة ، قال : مَنْ أحبّنا نفعه الله بحبّنا ، ولو كان أسيرا بالدَّيْلم .

وروى أبو صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن علىّ عليه السلام ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ فيك لَشَبَهاً من عيسى بن مريم ، أحبّته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التى ليست له ، وأبغضته اليهود حتى بهتَتْ أمّه » .

(1) ج : « وجبريل خصمه » .

وروى صاحب كتاب "الغارات" حديث البراءة على غير الوجه المذكور في كتاب "نهج البلاغة"، قال: أخبرنا يوسف بن كليب المسعودي، عن يحيى بن سليمان العبدي، عن أبي مريم الأنصاري، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: خطب علي عليه السلام على منبر الكوفة، فقال: سيعرض عليكم سبّي، وستذبحون عليه؛ فإن عُرِض عليكم سبّي فسبّوني، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولم يقل: «فلا تبرءوا مني».

وقال أيضا: حدثني أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليه السلام. قال: قال علي عليه السلام: والله لتُذبحنّ على سبّي — وأشار بيده إلى حَلْقه — ثم قال: فإن أمروكم بسبّي فسبّوني؛ وإن أمروكم أن تبرءوا مني فإني على دين محمد صلى الله عليه وآله. ولم ينههم عن إظهار البراءة.

وروى شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كهيل، عن المسيّب بن نَجَبة، قال: بينا علي عليه السلام يخطب إذ قام أعرابي، فصاح: وامظلمتاه! فاستدناه علي عليه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة، وأنا قد ظُلمت عدد المدَر والوبر. قال: وفي رواية عباد بن يعقوب، أنه دعاه فقال له: وَيحك! وأنا والله مظلوم أيضا؛ هاتِ فلندعُ على مَنْ ظلمنا.

وروى سَدِير الصيرفيّ، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: اشتكى علي عليه السلام شَكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبيّ صلى الله عليه وآله، فسألهما: مِنْ أين جئتما؟ قالا: عُدْنا عليًّا، قال: كيف رأيتماه؟ قالا: رأيناه يُخاف عليه مما به، فقال: «كلا إنه لن يموت حتى يُوسَع غدرا وبغيا، وليكوننّ في هذه الأمة عبرة يعتبر به الناس من بعده».

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن الغنوى ، أن علياعليه السلام خطب بالرّحبة ، فقال : أيها الناس ؛ إنكم قدأبيتم إلا أن أقولها ! وربّ السماء والأرض ، إنّ من عهد النبيّ الأميّ إليّ : « إنّ الأمة ستغدر بك بعدى » .

وروى هيثم بن بشير ، عن إسماعيل بن سالم مثله؛ وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه .

وروى أبو جعفر الإسكافى أيضاً أنّ النبي صلى الله عليه وآله دخل عَلَى فاطمة عليها السلام ، فوجد عليًّا نائما ، فذهبت تنبّهه ، فقال : « دعيه فربّ سهرٍ له بعدى طويل ، ورب جفوة لأهل بيتى مِنْ أجله شديدة » فبكت ؛ فقال : « لا تبكى فإنكما معى ، وفى موقف الكرامة عندى » .

وروى الناس كافة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « هذا وليّ وأنا وليّه عاديت مَنْ عاداه ؛ وسالمت من سالمه » ، أو نحو هذا اللفظ .

وروى أيضا محمد بن عبيد الله بن أبى رافع ، عن زيد بن على بن الحسين عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : « عدوك عدوّى وعدوّى عدوّ الله عزّ وجلّ » .

وروى يونس بن حباب ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ بن أبى طالب معنا ، فمررنا بحديقة ، فقال عليّ : يارسول الله ، ألا ترَى ماأحسن هذه الحديقة ! فقال : « إن حديقتك فى الجنّة أحسن منها » ؛ حتى مررْنا بسبع حدائق ، يقول عليّ ماقال ، ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وَقف فوقفنا ، فوضع رأسه عَلَى رأس عليّ وبكى ، فقال عليّ : مايبكيك يارسول الله ؟ قال : « ضغائن فى صدور قوم لا يُبدُونها لك حتى يفقدونى » ،

فقال : يارسول الله ، أفلا أضع سيفى عَلَى عاتقى فأبيدَ خضراءهم ! قال : بل تصبر ، قال : فإن صبرتُ ! قال : تلاقى جهدا ، قال : أفى سلامةٍ من دينى ؟ قال : نعم ، قال : فإذاً لاأبالى .

وروى جابر الجعفىّ ، عن محمد بن علىّ عليه السلام ، قال : قال علىّ عليه السلام : مارأيت منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله رخاء ، لقد أخافتنى قريش صغيرا ، وأنصبتنى كبيراً ؛ حتى قبض الله رسوله ، فكانت الطامّة الكبرى ، والله المستعان على ماتصفون !

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن الأعمش ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : سيظهر عَلَى الناس رجل من أمتى ، عظيم السُّرْم ، واسع البُلعوم ، يأكل ولا يشبع ، يحمل وِزْرَ الثقلين ، يطلب الإمارة يوما ، فإذا أدركتموه فابقروا بطنَه ، قال : وكان فى يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب قد وضع طرفه فى بطن معاوية .

قلت : هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله على عليه السلام فى " نهج البلاغة " ، ومؤكّد لاختيارنا أنّ المراد به معاوية ، دون ماقاله كثير من الناس أنه زياد والمغيرة .

وروى جعفر بن سليمان الضبعىّ ، عن أبى هارون العبدىّ ، عن أبى سعيد الخدرىّ قال : ذكَر رسول الله صلى الله عليه وآله يوما لعلىّ مايلقى بعدَه من العَنت فأطال ، فقال له عليه السلام: أنشدك الله والرَّحمَ يارسول الله لما دعوت الله أن يقبضَنى إليه قبلك! قال : كيف أسأله فى أجلٍ مؤجّل ! قال : يارسول الله ، فعلام أقاتل مَنْ أمرتنى بقتاله ؟ قال : عَلَى الحدَث فى الدين .

وروى الأعمش ، عن عمار الدُّهنىّ ، عن أبى صالح الحنفىّ ، عن علىّ عليه السلام ، قال:

قال لنا يوماً : لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فى المنام ، فشكوت إليه مالقيتُ حتى بكيت ، فقال لى : انظر ، فنظرت فإذا جلاميد ، وإذا رجلان مصفّدان ـ قال الأعمش : هما معاوية وعمرو بن العاص ـ قال : فجعلتُ أرضخُ رءوسهما ثم تعود ، ثم أرضخُ ثم تعود ؛ حتى انتبهت .

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مُرّة ، عن أبى عبدالله بن سلمة ، عن علىّ عليه السلام ، قال : رأيتُ الليلة رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فشكوت إليه ، فقال : هذه جهنّم ، فانظر مَنْ فيها ، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلّقين بأرجلهما منكّسين ، تُرضَخ رءوسهما بالحجارة ـ أو قال : تُشدَخ .

وروى قيس بن الربيع ، عن يحيى بن هانئ المرادىّ ، عن رجل من قومه يقال له زياد ابن فلان ، قال : كنا فى بيتٍ مع علىّ عليه السلام نحن شيعته[(١)] وخواصّه ، فالتفت فلم ينكرْ منّا أحداً ، فقال : إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديَكم ويَسمُلون أعينَكم ، فقال رجلٌ منّا : وأنت حىّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعاذنى الله من ذلك ؛ فالتفتَ فإذا واحدٌ يبكى ، فقال له : يابنَ الحمقاء ، أتريد اللذات فى الدنيا والدرجات فى الآخرة ! إنما وعد الله الصابرين .

وروى زرارة بن أعين عن أبيه ، عن أبى جعفر محمد بن علىّ عليه السلام ، قال : كان علىّ عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزلْ معقّبا إلى أنْ تطلع الشمس ؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ؛ فيعلّمهم الفقه والقرآن ؛ وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك ؛ فقام يوما فمرّ برجل ، فرماه بكلمة هُجْر ـ قال : لم يسمّه محمد بن علىّ عليه السلام ـ فرجع عَوْدَه على بدئه حتى صعِد المنبر ، وأمر فنودىَ : الصلاة جامعة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس ، إنه ليس شىء أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من

---

(١) ب : « نحن وشيعته وخواصه » .

حِلْم إمام وفقهه ؛ ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضررا من جهل إمام وخُرْقه ، ألا وإنه مَنْ لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ ؛ ألا وإنه من أنصَف من نفسه لم يزِدْه الله إلا عزًّا ؛ ألا وإنّ الذلّ في طاعة الله أقربُ إلى الله من التعزّز في معصيته . ثم قال : أين المتكلّم آنفا ؟ فلم يستطع الإنكار ، فقال : هأنذا يا أمير المؤمنين ، فقال : أما إني لو أشاء لقلت ، فقال : إن تعف وتصفح ، فأنت أهل ذلك ؛ قال : قد عفوت وصفحت ؛ فقيل لمحمّد بن عليّ عليه السلام : ماأراد أن يقول ؟ قال : أراد أن ينسبه .

وروى زرارة أيضاً، قال : قيل لجعفر بن محمد عليه السلام : إن قوما هاهنا ينتقصون عليًّا عليه السلام،قال : بمَ ينتقصونه لا أبا لهم ! وهل فيه موضع نقيصة! والله ماعَرَض لعليّ أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلا عمِل بأشدّهما وأشقّهما عليه،ولقد كان يعمل العمل كأنّه قائم بين الجنة والنار،ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له؛وإن كان ليقوم إلى الصلاة ، فإذا قال:وجّهت وجهيَ تغيّر لونه؛حتى يعرف ذلك في وجهه[1]؛ ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده ؛ كلٌّ منهم[2] يعرق فيه جبينه،وتحفى فيه كفّه، ولقد بُشّرَ بعين نَبَعَتْ في ماله مثل عنق الجزور ، فقال : بشّر الوارث بِشرّ ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها،ليصرف الله النار عن وجهه ، ويصرف وجهه عن النار .

وروى القنّاد،عن أبي مريم الأنصاريّ،عن عليّ عليه السلام:لايحبني كافرولا ولد زنا.

وروى جعفر بن زياد،عن أبي هارون العبديّ،عن أبي سعيد الخدريّ،قال : كنا نبور إيماننا بحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فمن أحبّه عرفنا أنه منا .

* * *

---

(١) ج : « لونه » . (٢) ب : « كلهم » .

[فصل فى معنى قول علىّ : « فسبّونى فإنه لى زكاة »]

المسألة الثالثة :

فى معنى قوله عليه السلام : «فسبّونى،فإنه لى زكاة،ولكم نجاة»،فنقول:إنه أباح لهم سبّه عند الإكراه ، لأنّ الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفّظ بكلمة الكفر ؛ فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، والتلفّظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسبّ الإمام .

فأما قوله : « فإنه لى زكاة ولكم نجاة » ؛ فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك ، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين:أحدهما ماورد فى الأخبار النبوية أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة فى حسناته .

والثانى : أن يريد به أن سبّهم لى لاينقص فى الدنيا من قدرى ، بل أزيد به شرفًا وعلوّ قدر،وشياع ذكر ؛ وهكذا كان ، فإن الله تعالى جعل الأسباب التى حاول أعداؤه بها الغضّ منه عللا لانتشار صيته فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نُباتة ، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العلوىّ :

وأبوك الوصىّ أوّلُ من شا دَ منار الهدى وَصامَ وَصلّى
نشرتْه حبله قريش فأعطتْـــهُ إلى صُبْحَة القيامة فَتْلاَ

واحتذيت أنا حذوه ، فقلت لأبى المظفرهبة الله بن موسى الموسوىّ رحمه الله تعالى: فى قصيدة أذكر فيها أباه :

أمّك الدرة التى أنجبت من جَوْهَرِ المجـــدِ راضياً مَرْضِيا
وأبوك الإمامُ موسى كظيم الـــغيظِ حتى بَعِيـــدَهُ مَنْسِيا

وأبوه تاجُ الهُدَى جعفرُ الصا ... دقُ وَحْياً عن الغُيوبِ وَحِيّا
وأبوه محمّدٌ باقرُ العِلْمِ ... مَضَى لَنَا هادِياً مَهْدِيّا
وأبوه السجّادُ أتقى عبادِ الـ ... ـلهِ للهِ مخلصاً ووفيّا
والحسين الذي تخيّر أنْ يَقْـ ... ـضِي عزيزاً ولا يعيشَ دنيّا
وأبوه الوصيّ أولُ مَنْ طا ... فَ وَلبَّى سَبْعاً وساقَ الهديّا
طامَنَتْ مجدَه قريش فأعطتـ ... ـه إلى سِدْرَةِ السَّماءِ رقيّا
أخمَلَتْ صيتَه فطارَ إلى أن ... مَلأَ الأفقَ ضَجَّةً وَدَوِيّا
وأبو طالب كفيلُ أبي القا ... سِمِ كَهْلاً وَيافِعاً وَفَتِيّا
وَلِشَيْخِ البَطْحاءِ تاجُ مَعَدٍّ ... شيبةِ الحمْدِ هل علمت سميّا!
وأبو عمرو العُلا هاشمُ الجو ... دِ ومَنْ مثلُ هاشمٍ بَشَرِيّا!
وأبوه الهمامُ عبدُ مَنافٍ ... قُلْ تقُلْ صادقاً وتُبْدِي بَدِيّا
ثم زيدٌ ـ أعني قصيّ ـ الذي لم ... يكُ عن ذِرْوَةِ العَلاءِ قَصِيّا
نسبٌ إن تلفّع النسبُ المحـ ... ـضُ لِفاعاً كان السليبَ العَرِيّا
وإذا أظلمت مُناسخة الأنـ ... ـساب يوماً كان المُنيرَ الجَلِيّا
يالَهُ مجْدَةً على قِدَمِ الدهـ ... ـرِ وقد يَفْضُلُ العتيقُ الطَّرِيّا

وذكرنا هاهنا ماقبل المعنى ومابعده؛ لأنّ الشعر حديث، والحديث ـ كما قيل ـ يأخذ بعضه برقاب بعض؛ ولأنّ ماقبل المعنى ومابعده مكمّل له، وموضح مقصده.

فإن قلت: أيّ مناسبة بين لفظ «الزكاة» وانتشار الصيت والسّمع؟

قلت: لأنّ الزكاة هي النماء والزيادة؛ ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمي المال المزكى، وانتشار الصيت نماء وزيادة.

***

[فصل فى اختلاف الرأى فى معنى السبّ والبراءة]

المسألة الرابعة :

أن يقال : كيف قال عليه السلام : « فأمّا السبُّ فسُبُّونى فإنه لى زكاة ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تبرءوا منى » ؟ وأىّ فرق بين السبّ والبراءة ؟ وكيف أجاز لهم السبّ ومنَعهم عن التبرّؤ ، والسبّ أفحش من التبرُّؤ !

والجواب ؛ أما الذى يقوله أصحابنا فى ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبّه [١] والتبرّؤ منه ، فى أنّهما حرام وفسق وكبيرة ، وأنّ المكرَه عليهما يجوز له فعلُهما عند خَوْفه على نفسه ، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف .

ويجوز ألّا يفعلهما وإن قتل ، إذا قصد بذلك إعزاز الدين ، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازا للدين ، وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأنّ هذه اللفظة ما وردت فى القرآن العزيز إلا عن المشركين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ [٢] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ . . أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [٣] ، فقد صارت بحسب العرْف الشرعىّ مطلقَة على المشركين خاصّة ؛ فإذَنْ يُحمل هذا النهى على ترْجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبّ ، وإن كان حكمهما واحدا ؛ ألا ترى أنّ إلقاء المصحف فى القذر أفحشُ من إلقاء المصحف فى دَنّ الشراب ؛ وإن كانا جميعا محرّمين ، وكان حكمهما واحداً !

فأما الإمامية فتروى عنه عليه السلام أنه قال : إذا عُرِضتم على البراءة منّا فمُدّوا الأعناق .

ويقولون : إنه [٤] لا يجوز التبرّؤ منه ؛ وإن كان الحالف صادقا ، وإنّ عليه الكفارة .

---

(١) ج : « السب » .
(٢) سورة التوبة ١ .
(٣) سورة التوبة ٣ .
(٤) ساقطة من ا .

ويقولون : إنّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ومن أحد الأئمة عليهم السلام ، حكم واحد .

ويقولون : إنّ الإكراه على السبّ يُبيح إظهاره ؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه ، وأما الإكراه على البراءة ؛ فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبرّؤ ، والأولى أن يستسلم للقتل .

* * *

[فصل فى معنى قول علىّ : « إنى ولدت على الفطرة »]

المسألة الخامسة :

أن يقال : كيف علّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه السلام ، بقوله : « فإنى ولدت على الفطرة » ؛ فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام ، لأن كلّ أحدٍ[1] يولَد على الفطرة ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهوّدانه وينصرانه » .

والجواب ، أنه عليه السلام علّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل ؛ وهى كونه ولد على الفطرة ، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة ؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع ، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولَدْ فى الجاهلية ؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاما مضت من عام الفيل ؛ والنبيّ صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل ؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ؛ وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه السلام فحُكْم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله ؛ فالمولود فيها إذا كان فى حجره وهو المتولّى لتربيته مولود فى أيام كأيام النبوّة ، وليس بمولود فى جاهلية محضة ، ففارقت حالُه حالَ مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته فى الفضل . وقد روى أنّ السّنة التى ولد فيها على

(١) ج : « واحد »

عليه السلام هي السنة التي بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسمع المُتاف من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصا ؛ ولم يخاطَب فيها[1] بشيء . وهذه السَّنَة هي السنة التي ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة في جبل حراء ، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة ، وأنزل عليه الوحي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمّن بتلك السنة وبولادة عَليٍّ عليه السلام فيها ، ويسمّيها سنة الخير وسنة البركة ؛ وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ، ولم يكن مِنْ قبلِها شاهد من ذلك شيئا : « لقد وُلد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » ، وكان كما قال صلوات الله عليه ، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحاميَ عنه وكاشف الغمّاء[2] عن وجهه ؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام ، ورست دعائمه ، وتمهّدت قواعده عليه السلام .

وفي المسألة تفسير آخر ؛ وهو أن يعني بقوله عليه السلام : « فإني ولدتُ على الفطرة » ، أي على الفِطْرة التي لم تتغيّر ولم تحُلْ ، وذلك أن معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفِطْرة » أنّ كلّ مولود فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذي خلقه فيه وبصحّة الحواس والمشاعرِ لأنْ يعلَمَ التوحيد والعدْل ، ولم يجعل فيه مانعا يمنعه عن ذلك ؛ ولكن التربية والعقيدة في الوالدين والإلْف لاعتقادهما وحسن الظنّ فيهما يصدّه عما فُطِر عليه ؛ وأميرُ المؤمنين عليه السلام دون غيره ، وُلِد على الفطرة التي لم تَحُلْ ولم يصدّ عن مقتضاها مانع ؛ لامن جانب الأبوين ولامن جهة غيرهما ، وغيره ولد على الفِطْرة ، ولكنه حال عن مقتضاها ، وزال عن موجبها .

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرة العِصْمة ؛ وأنه منذ ولد لم يواقع قبيحا ؛

---

(١) ج : « منها » .

(٢) ج : « الغم » .

ولا كانَ كافرا طَرْفة عين قطّ ، ولا غلطا ولا غالطا فى شىء من الأشياء المتعلّقة بالدين .
وهذا تفسير الإمامية .

***

[فصل فيما قيل من سبق علىّ إلى الإسلام]

المسألة السادسة :

أن يقال : كيف قال : « وسبقتُ إلى الإيمان » ، وقد قال قوم (١) من الناس : إنّ أبا بكر سَبَقه ، وقال قوم : إن زيد بن حارثة سبَقه ؟

والجواب ، أنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السيرة روَوْا أنه عليه السلام أوّل من أسلم ؛ ونحن نذكر كلام أبى عمر يوسف بن عبد البرّ ، المحدّث فى فى كتابه المعروف "بالاستيعاب".

قال أبو عمر فى ترجمة (٢) على عليه السلام : المروىّ عن سلمان وأبى ذرّ والمقداد وخَبّاب وأبى سعيد الخدرىّ وزيد بن أسلم أن عليا عليه السلام أول من أسلم ؛ وفضّله هؤلاء على غيره .

قال أبو عمر : وقال ابن إسحاق : أوّل من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى عليه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو قول ابن شِهاب ؛ إلا أنه قال : « من الرجال بعد خديجة » .

قال أبو عمر : وحدّثنا أحمد بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الفَضْل ، قال : حدثنا محمد بن جرير ، قال : حدّثنا على بن عبد الله الدِّهقان ، قال : حدّثنا محمد بن صالح ، عن سِماك بن حرب ، عن عِكْرمة ، عن ابن عباس ، قال : لعلىّ عليه السلام أربع خصال ، ليست

(١) ب : « كثير » ، وما أثبته من ج .
(٢) الاستيعاب ١٠٨٩ وما بعدها .

لأحدغيره :هو أوّل عربىّ وعجمىّ صلى مع رسول اللهصلى اللهعليه وآله ،وهو الذى كان معه لواؤه فى كل زَحْف ، وهو الذى صبر معه يوم فرّ عنه غيره ؛ وهو الذى غسّلهوأدخلهقبره.

قال أبو عمر : ورُوِى عن سلمان الفارسىّ أنه قال : أوّل‌هذه الأمةورُوداعلى نبيّهاصلى الله عليه وآله‌الحوضَ ، أولها إسلاما : عَلِىّ بن أبى‌طالب. وقد رُوِى‌هذا الحديث‌مرفوعاً عن سلمان عن النبيّ‌صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « أوّل هذه الأمة وروداً عَلىّ الحوض أوّلُها إسلاما : عَلِىّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : ورفعه أوْلى ، لأن مثله لا يُدْرَك بالرأى .

قال أبو عمر : فأما إسناد المرفوع ؛ فإن‌أحمد بن قاسم ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا بن الحارث بن أبى أسامة ، قال : حدثنى يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا سفيان الثورىّ ، عن‌سلمة بن كُهَيل ،عن‌أبى صادق ،عن‌حَنَش‌بن المعتمِر ،عن‌عُلَيم[1] الـكِندىّ ، عن‌سلمان‌الفارسىّ ، قال :قال رسول اللهصلى الله عليه وآله :«أوّلـكم‌وارداعلَىّ الحوض أوّلُـكم إسلاما ؛ عَلِىٌّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : وروى أبو داود الطيالسىّ ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بَلْج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس أنه قال : أول مَنْ صلى مع النبى صلى الله عليه‌وآله بعدَ خديجة عَلِىٌّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وحدثنا عبد الوارث بن‌سفيان ، قال:حدثنا قاسم بن أصبَغ ،قال:حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، قال :حدثنا الحسن بن حماد، قال : حدثناأبوعوانة،عن‌أبى بَلْج عن عمروو بن ميمون ،عن ابن‌عباس، قال: كان عَلِىٌّ أول من‌آمن من النّاس‌بعدخديجة.

قال أبو عمر : هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد ؛لصحتهوثقة نَقَلَته ؛ وقد عارض[2]

---

(١) فى الأصول : « عكيم » ، وما أثبته عن الاستيعاب .

(٢) ج . « عورض » ، والاستيعاب : « وهو يعارض » .

ماذكرنا في باب أبي بكر الصديق ، عن ابن عباس : والصحيح في أمرِ أبي بكر أنه أول مَنْ أظهر إسلامه، كذلك قاله مجاهد وغيره ، قالوا : ومنعه قومه .

قال أبو عمر : اتفق ابنُ شهاب ،وعبد الله بن محمد بن عَقِيل ، وقتادة ، وابن إسحاق عَلَى أنّ أول من أسلم[(١)] من الرجال عليّ. واتفقوا على أن خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقه فيما جاء به ، ثم عليٌّ بعدها .

وروى عن أبي رافع مثل ذلك .

قال أبو عمر : وحدّثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا عبد السلام بن صالح ، قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراورديّ ، قال : حدثنا عُمر مولى غُفْرة ، قال : سئل محمد بن كعب القرظيّ عن أول مَنْ أسلم :عليٌّ أم أبي بكر ؟ فقال : سبحان الله ! عَليٌّ أوّلهما إسلاما ؛ وإنما شُبِّه على الناس ؛لأنّ عليا أخْفَى إسلامه من أبي طالب ، وأسلم أبو بكر ، فأظهر إسلامه .

قال أبو عمر : ولا شك عندنا أنّ عليا أوّلهما إسلاما ، ذكر عبدالرزاق في جامعه، عن مَعْمر ، عن قتادة ، عن الحسن وغيره قالوا : أول مَنْ أسلم بعد خديجة عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام .

وروى معمر ، عن عثمان الجزريّ ، عن مِقْسَم[(٢)] ، عن ابن عباس، قال : أوّل مَنْ أسلم عَليٌّ بن أبي طالب .

قال أبو عمر : وروى ابنُ فضيل عن الأجْلح ، عن حَبّة بن جوين العُرنيّ ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين .

قال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن حَبّة العرنيّ ، قال : سمعت عليا يقول : أنا أوّل مَنْ صلى مع رسول الله صلى الله عليه .

---

(١) ج : « آمن » .

(٢) هو مقسم بن بجرة . ويقال : نجدة .

قال أبو عمر : وقد روى سالم بن أبي الجعد ، قال : قلت لابن الحنفيّة : أبو بكر كان أولهما إسلاما ؟ قال : لا .

قال أبو عمر : وروى مسلم الملائيّ ، عن أنس بن مالك ، قال : استنبئ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلّى عليّ يوم الثلاثاء .

قال أبو عمر : وقال زيد بن أرقم : أوّلُ مَنْ آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب .

قال : وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه ، ذكرها النسائي وأسلم بن موسى وغيرهما ؛ منها ما حدثنا به عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا عليّ بن الجعد ، قال : حدثنا شعبة ، قال : أخبرني عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا حمزة الأنصاريّ قال : سمعت زيد بن أرقم يقول : أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب .

قال أبو عمر : [وحدثنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، (١)] ، حدثنا أبي ، قال : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، قال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنا يحيى بن أبي الأشعث ، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكنديّ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنت امرأ تاجرا ، فقدِمت الحجّ ، فأتيت العبّاس ابن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة — وكان امرأ تاجرا — فوالله إنّى لعنده بمِنى إذْ خرج رجل من خِباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلّى ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخِباء الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامتْ خلفَه تصلى ، ثم خرج غلام حين راهقَ الحلمُ من ذلك الخباء ، فقام معه يصلّى ، فقلتُ للعباس : ماهذا ياعباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخى ، قلتُ : مَنْ هذه المرأة ؟

(١) من الاستيعاب .

قال : امرأته خـديجة بنت خويلد ، قلت : ماهـذا الفتى ؟ قال : علىّ بن أبى طالب ابن عمه ، قلت : ماهـذا الذى يصنع ؟ قال : يصلّى ، وهو يزعم أنه نبىّ ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابنُ عمه هذا الغلام ؛ وهو يزعم أنه سيفتَح على أمته كنوزَ كسرى وقيصر ، قال : فـكان عُفَيف الـكندىّ يقول ــ وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ـ : لوكان الله رزقنى الإسلام يومئذ كنتُ أكون ثانيا مع علىّ .

قال أبو عمر : وقد ذكرنا هـذا الحديث من طُرق فى باب عفيف الـكندىّ من هذا الـكتاب .

قال أبو عمر : ولقد قال علىّ عليه السلام : صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا ، لا يصلّى معه غيرى إلا خديجة .

فهذه الروايات والأخبار كلّها ، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البرّ فى الـكتاب المذكور ، وهى كما تراها تكاد تـكون إجماعا .

قال أبو عمر : وإنمـا الاختلافُ فى كمّية سنّه عليه السلام يوم أسلَم ، ذكر الحسن ابن علىّ الحلوانىّ فى كتاب " المعرفة " له ، قال : حدّثنا عبد الله بن صالح ، قال : حدثنا الليث ابن سعـد ، عن أبى الأسود محمد بن عبـد الرحمن ، أنه بلغه أنّ عليـا والزبير أسلما وهما ابنا ثمانى سنين . كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة ؛ وذكره أيضا ابنُ أبى خيثمة عن قُتيبة بن سعيد ، عن الليث بن سعد ، عن أبى الأسود ؛ وذكره عمر بن شبّة ، عن الحزامىّ ، عن أبى وهب ، عن الليث ، عن أبى الأسود ، قال الليث : وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة .

قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا قال بقول أبى الأسود هذا .

قال أبو عمر : وروى الحسن بن على الحلوانىّ ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا معمَر ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علىّ وهو ابن خمس عشرة سنة .

قال أبو عمر : وأخبرنا أبو القاسم خلف بن قاسم بن سهل ، قال: حدثنا أبو الحسن علىّ بن محمد بن إسماعيل الطوسىّ ، قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السرّاج ، قال : حدثنا محمد بن مسعود ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن الحسن، قال : أسلم علىّ ـ وهو أول مَنْ أسلم ـ وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ستّ عشرة سنة .

قال أبو عمر: قال ابنُ وضّاح : ومارأيت أحدا قطّ أعلم بالحديث من محمد بن مسعود، ولا بالرأى من سُحنون .

قال أبو عمر : قال ابن إسحاق : أول ذكرٍ آمن[1] بالله ورسوله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين .

قال أبو عمر: والروايات فى مَبلغ سنّه عليه السلام مختلفة ، قيل : أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقيل : ابن اثنتىْ عشرة سنة . وقيل : ابن خمسَ عشرةَ سنة . وقيل : ابن ستّ عشرةَ . وقيل : ابن عشر . وقيل : ابن ثمان .

قال أبو عمر: وذكر عُمر بن شَبّة، عن المدائنىّ ، عن ابن جَعْدة، عن نافع، عن ابن عمر قال : أسلم علىّ وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنة .

قال : وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحزامىّ ، قال: حدثنا محمد بن طلحة، قال : حدثنى جدى إسحاق بن يحيى ، عن طلحة ، قال : كان علىّ بن أبى طالب عليه السلام والزبير ابن العوام وطَلْحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص أعمارا واحدة .

قال : وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا إسماعيل بن علىّ الخطبىّ ، قال : حدّثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنا حُجَيْن أبو عمر ، قال: حدثنا حِبّان، عن معروف، عن أبى معشر ، قال: كان علىّ عليه السلام وطلحة والزبير فى سنٍّ واحدة .

---

(١) ج : « أسلم » .

قال : وروى عبد الرزاق ، عن الحسن وغيره : أنّ أوّلَ مَنْ أسلم بعد خديجة علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ستّ عشرة .

قال أبو عمر : وروى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا شريح بن النعمان ، قال : حدثنا الفُرات بن السائب ، عن ميمون بن مِهران ، عن ابن عمر ، قال : أسلم علىّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال أبو عمر : هذا أصحّ ماقيل فى ذلك والله أعلم .

انتهى حكاية كلام أبى عمر فى كتاب " الاستيعاب " .

* * *

واعلم أنّ شيوخنا المتكلّمين لا يكادُون يختلفون فى أنّ أوّل الناس إسلاما علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ إلا مَنْ عساه خالف فى ذلك من أوائل البصريين ، فأما الذى تقررت المقالةُ عليه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان ، لا تكاد تجد اليوم فى تصانيفهم وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافا فى ذلك .

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مازال يدّعى ذلك لنفسه ، ويفتخر به ، ويجعله فى أفضليّته عَلى غيره ، ويصرّح بذلك ، وقد قال غير مرة : أنا الصدّيق الأكبر ، والفاروق الأوّل ، أسلمت قبل إسلام أبى بكر ، وصلّيت قبل صلاته .

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة فى كتاب " المعارف " (1) وهو غير متّهم فى أمره .

ومن الشعرِ المرويّ عنه عليه السلام فى هذا المعنى الأبيات التى أولها :

محمد النبىّ أخى وصِهرى وحمزة سيّدُ الشهداء عمّى

ومن جملتها :

سبقتكمُ إلى الإسلام طرًّا غلاما ما بلغتُ أوانَ حِلمى

---

(1) المعارف ١٦٧

والأخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة جدا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها ، فلتُطلَبْ من مظانّها .

ومن تأمل كتب السِّيَر والتواريخ عَرَف مِنْ ذلك ماقلناه .

فأمّا الذاهبون إلى أنّ أبا بكر أقدمهما إسلاما فنفر قليلون ؛ ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البرّ أيضا فى كتاب "الاستيعاب" فى ترجمة أبى بكر[1] .

قال أبو عمر : حدثنى خالد بن القاسم ، قال : حدثنا أحمد بن محبوب ، قال: حدثنا محمد ابن عبدوس ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال : حدثنا شيخ لنا ، قال : أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، قال : سألت ابنَ عباس ـ أو سئل : ـ أىّ الناس كان أوّل إسلاما؟ فقال : أما سمعتَ قول حسان بن ثابت :

إذا تذكّرْتَ شجْواًمِن أخِى ثقةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا[2]
خَيرَ البريّة أتقاها وأعدلَها ... بعدَ النبىّ وأوفاها بما حَمَلا
والثانىَ التالىَ المحمودَ مَشْهَدُه ... وأوّلُ الناس منهم صَدّقَ الرسلا

ويُرْوَى أن النبى صلى الله عليه وآله ، قال لحسان : « هل قلت فى أبى بكر شيئا؟» ، قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع :

وثانىَ اثنين فى الغار المنيفِ وَقَدْ ... طاف العدوُّ به إذ صَعّدُوا الجَبَلا

فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « أحسنتَ ياحسان » ؛ وقد روى فيها بيت خامس :

وَكَانَ حِبَّ رسولِ الله قد علمُوا ... مِنَ البريّةِ لم يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

---

(١) كتاب الاستيعاب ص ٩٦٤

(٢) ديوانه ٢٩٩ ، ٣٠٠ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

وقال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النَّخَعِيّ ، قال : أوّل مَنْ أسلم أبو بكر .

قال : وَرَوى الجريريّ ،عن أبي نصر ، قال:قال أبو بكر لعليّ عليه السلام:أنا أسلمت قبلك ؟ في حديث ذكره فلم ينكِرْه عليه .

قال أبو عمر : وقال فيه أبو مِحْجَن الثّقفيّ :

وَسُمِّيتَ صِدِّيقاً وكلُّ مهاجر سواك يسمّى باسمه غير منكَرِ
سبقتَ إلى الإسلامِ واللهُ شاهدٌ وكنتَ جليساً بالعريشِ المُشَهَّرِ
وبالغار إذ سُمِّيت خِلاً وصاحباً وكنت رفيقاً للنبيّ المطهَّرِ

قال أبو عمر : وروينا من وجوه ، عن أبي أمامة الباهليّ ، قال : حدثني عمرو ابن عَبَسة،قال:أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله؛وهو نازل بعُكَاظ،فقلت : يارسولَ الله ، من اتَّبَعك عَلَى هذا الأمر ؟ فقال : حرّ وعبد : أبو بكر وبلال . قال : فأسلمت عند ذلك ، وذكر الحديث .

هذا مجموع ماذكره أبو عمر بن عبد البرّ في هذا الباب في ترجمة أبي بكر ؛ ومعلوم أنّه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التي ذكرها في ترجمة عليّ عليه السلام الدالّة عَلَى سَبْقه؛ ولا ريب أنّ الصحيح ماذكره أبو عمر أنّ عليًا عليه السلام كان هو السابق،وأن أبا بكر هو أوّلُ من أظهر إسلامَه ، فظنّ أن السبق له .

وأما زيد بن حارثة ؛ فإنّ أبا عمر بن عبد البرّ رضي الله تعالى عنه ذكر في كتاب "الاستيعاب" ؛ أيضاً في ترجمة زيد بن حارثة،قال : ذكر معمَر بن شبّة في جامعه عن الزهريّ أنه قال : ماعلمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة [١] .

---

(١) الاستيعاب ٢ ٥٤٢

قال عبد الرزّاق : وما أعلم أحداً ذكره غير الزهريّ .

ولم يذكر صاحب " الاستيعاب " مايدلّ على سبق زيد إلا هذه الرواية؛ واستغربها؛ فدلّ مجموع ماذكرناه أنّ عليا عليه السلام أوّلُ الناس إسلاما، وأن المخالف فى ذلك شاذّ، والشاذّ لا يعتدّ به .

***

[فصل فيما ذكر من سبْق علىّ إلى الهجرة]

المسألة السابعة :

أن يقال: كيف قال : « إنه سبق إلى الهجرة » ومعلوم أنّ جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره ؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر فى صحبة النبىّ صلى الله عليه وآله؛ وتخلف علىّ عليه السلام عنهما[1]، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أياما يردّ الودائع التى كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك ؟

والجواب، أنّه عليه السلام لم يقل : « وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة » ؛ وإنما قال: « وسبقت » فقط ؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للنـاس كافة ؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة ، ولم يهاجر قبلَه أحد إلا نفر يسير جدا .

وأيضا فقد قلنا إنه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور : منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الإيمان ، ومنها سَبْقه إلى الهجرة؛ وهذه الأمور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره ؛ فـكان بمجموعها متميّزا عن كلّ أحد من الناس .

وأيضـاً فإنّ اللام فى « الهجرة » يجوز ألّا تـكون للمعهود السابق ، بل تـكون للجنس، وأميرُ المؤمنين عليه السـلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التى قبل هِجْرة المدينة؛ فإنّ النبىّ صلى الله عليه وآله هاجر عن مكة مرارا يطوف على أحياء العرب ، وينتقل من

---

(١) ج : « عنه » .

أرض قوم إلى غيرها ؛ وكان علي عليه السلام معه دون غيره .

أما هجرته إلى بني شيبان ؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أنّ عليا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر ، وأنّهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوما وعادوا إليها ، لمّا لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوه من النُّصْرَة .

وروى المدائنيّ في كتاب " الأمثال " عن المفضّل الضبيّ ؛ أنّ[1] رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج من مكة يعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى ربيعة ، ومعه عليّ عليه السلام وأبو بكر ، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدّم أبو بكر — وكان نسّابة — فسلّم فردّوا عليه السلام ؛ فقال : ممّن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : أمِنْ هامتها أم من لهازمها ؟[2] قالوا : من هامتها العظمى ، فقال : مِنْ أيّ هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : من ذُهْل الأكبر ، قال : أفنكم عَوْف الذي يقال له : لا حُرّ بوادي عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم بِسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم جسّاس حامِي الذّمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم الحوْفَزان ، قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا ، قال : أفنكم المزدَلِف صاحب العمامة الفَرْدة ؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم أخوالُ الملوك من كِندة ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن ذُهْلا الأكبر ؛ أنتم ذُهْل الأصغر . فقام إليه غلام قد بَقَلَ[3] وجهه ، اسمه دَغْفل ، فقال :

إنّ على سائلنا أنْ نَسْأَلَهْ والعِبْءُ لا تعرِفُه أو تحمِلَهْ

---

(١) الخبر في مجمع الأمثال ١٧ ، ١٨

(٢) فسره صاحب اللسان فقال : « وفي حديث أبي بكر والنسابة : « أمن هامتها أو لهازمها » ؛ أي من أشرافها أنت أو من أوساطها ؛ واللهازم أصول الحنكين ؛ واحدتها لهزمة بالكسر ؛ فاستعارها لوسط النسب والقبيلة » .

(٣) بقل وجهه ؛ أي خرج شعره .

ياهذا ، إنك قد سألتنا فأجبناك ، ولم نكتمك شيئا ، فمَن الرجل ؟ قال : من قريش ، قال : بخٍ بخٍ ! أهل الشرف والرِّياسة ؛ فمِنْ أيّ قريش أنت ؟ قال : من تَيْم بن مرّة ، قال : أمكنتَ والله الرامى من الثُّغْرة[1] ؛ أمِنكم قصيّ بن كِلاَب الذى جَمَع القبائل من فِهْر فكان يدعى مجمِّعا ؟ قال : لا ، قال : أفمنكم هاشم الذى هَشم لقومه الثريدَ ؟[2] قال : لا ، قال : أفمنكم شيبةُ الحمد ، مُطعم طير السَّماء ؟[3] قال : لا ، قال : أفمِن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِنْ أهل النَّدْوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِنْ أهل الرِّفادة[4] أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِن أهل الحِجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِن أهل السِّقاية ؟ قال : لا ، قال : فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هاربا من الغُلام ؛ فقال دَغْفل :

* صادَفَ دَرْءُ السيل دَرْءًا يصدعه[5] *

أما والله لو ثبتّ لأخبرتُك أنك من زَمَعات[6] قريش ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله . وقال عليّ عليه السلام لأبي بكر : لقد وقعتَ يا أبا بكر من الأعرابيّ على باقعة ؛ قال : أجل ؛ إن لكل طامّة طامّة والبلاء موكل بالمنطق ، فذهبت مثلا .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطائف ، فكان معه عليّ عليه السلام وزيد بن

---

(١) فى مجمع الأمثال : « من سفاء الثغرة » .

(٢) بعده فى مجمع الأمثال : « ورجال مكة مسنتون عجاف » .

(٣) بعده فى مجمع الأمثال : « الذى كان فى وجهه قمر يضىء ليل الظلام الداجى » .

(٤) فى اللسان : « الرفادة شيء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية ؛ فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته ، فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام الموسم ، وكانت الرفادة والسقاية لبنى هاشم والسدانة واللواء لبنى عبدالدار ؛ وكان أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف » .

(٥) درأ الوادى بالسيل ، دفعه ؛ وأورد المثل صاحب اللسان وفسره بقوله : « يقال للسيل إذا أتاك من حيث لا تحتسبه : سيل درء ؛ أى يدفع هذا ذاك وذاك هذا » .

(٦) الزمعة فى الأصل : التلعة الصغيرة ، أى لست من أشرافهم . وانظر اللسان (زمع) .

حارثة فى رواية أبى الحسن المدائنى ، ولم يكن معهم أبو بكر . وأما رواية محمد بن إسحاق ؛ فإنه قال : كان معه زيد بن حارثة وَحْدَه ، وغاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن مكة فى هذه الهجرة أربعين يوما ؛ ودخل إليها فى جوار مُطْعِم بن عدىّ .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى بنى عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان ؛ فإنه لم يكن معه إلا علىّ عليه السلام وَحْدَه ؛ وذلك عَقِيب وفاة أبى طالب ؛ أوحِى إليه صلى الله عليه وآله : اخرج منها ؛ فقد مات ناصرُك ، فخرج إلى بنى عامر بن صعصعة ؛ ومعه عَلِىّ عليه السلام وحدَه ، فعرض نفسَه عليهم وسألهم النصر ، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه ؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة ؛ وكانت مدة غيبته فى هذه الهجرة عشرة أيام ؛ وهى أوّل هجرة هاجرها صلى الله عليه وآله بنفسه .

فأما أوّل هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه فهجرةُ الحبشة ؛ هاجر فيها كثيرٌ من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة فى البحر ؛ منهم جعفر بن أبى طالب عليه السلام ؛ فغابوا عنه سنين ؛ ثم قدم عليه منهم مَنْ سلِم وطالت أيامه[1] وكان قدوم جعفر عليه عامَ فتح خَيْبر ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أدرى بأيّهما أنا أسَرّ ؛ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر » !

(١) ج : « مدته » .

(٥٧)

ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج :

الأصل

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ . أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ .

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

قوله عليه السلام : « وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ » ، يُرْوَى على ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها أن يكونَ كما ذكرناهُ : « آبِر » بالرّاء ؛ من قولهم : رَجُلٌ آبِرٌ ؛ للذى يَأْبُرُ النَّخل ، أى يُصْلِحهُ .

ويُرْوَى : « آثِرٌ » بالثّاء ، بثلاث نقطٍ ، يُرَاد به الذى يَأْثِرُ الحديثَ ، أى يرويه ويحكيه ؛ وهو أصحّ الوُجُوه عندِى ، كأنهُ عليهِ السلام قال : لا بَقِيَ منكم مُخْبِرٌ .

ويُرْوَى : « آبِزٌ » بالزّاى المعجمة ، وهو الوَاثِبُ ، والهالِكُ أيضاً يُقَالُ له : آبِزٌ .

* * *

الشرح :

الحاصب : الريح الشديدة التي تُثير الحصباء ؛ وهو صغار الحصى ؛ ويقال لها أيضا حَصِبَةٌ ، قال لَبِيد :

جَرَّتْ عَلَيْهَا إذْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا   أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ(١)

فأما التفسيرات التي فسّر بها الرضيّ رحمه الله تعالى قوله عليه السلام : « آبر » فيمكن أن يزاد فيها ، فيقال : يجوز أن يريد بقوله : « ولا بقي منكم آبِر » أي نَمّام يفسد ذات البين؛ والمئبرة : النميمة ، وأبر فلان ، أي نمّ ،والآبر أيضا : مَنْ يبغي القوم الغوائل خفيةً ، مأخوذ من أبَرْتُ الكلب إذا أطعمتَه الإبرة في الخبز ؛ وفي الحديث : « المؤمن كالكلب المأبور » ؛ ويجوز أنْ يكون أصلُه « هابر » ؛ أي مَنْ يضرب بالسيف فيقطع؛ وأبدلت الهاء همزة، كما قالوا في : « آل »أهل ؛ وإن صحّت الرواية الأخرى « آثر »بالثاء بثلاث نقط ،فيمكن أن يريد به ساجي باطن خُفّ البعير ؛ وكانوا يَسْجُون باطن الخفّ بحديدة ليقتصّ أثره ؛ رجل آثر وبعير مأثور .

وقوله عليه السلام :« فأوبوا شرّ مآب » ، أي ارجعوا شرّ مرجع . والأعقاب:جمع عَقِب بكسر القاف ؛ وهو مؤخّر القدم ، وهذا كله دعاء عليهم ، قال لهم أوّلا : أصابكم حاصِب ، وهذا من دعاء العرب ، قال تميم بن أبي مُقْبل :

فإذَا خَلَتْ من أهْلِهـا وقطينِها   فأصابَها الحصْبـاء والسَّفّانُ

ثم قال لهم ثانيا : « لا بقي منكم مخبر » . ثم قال لهم ثالثا : « ارجعوا شرّ مرجع » ، ثم قال لهم رابعاً :« عودوا على أثر الأعقاب » : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَنُرَدُّ(٢)

---

(١) ديوانه ٣٥٥ البيت أيضاً في اللسان ١ : ٣١٠
(٢) سورة الأنعام ٧١

عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ ؛ والمراد انعكاس حالم ؛وعودهم من العِزّ إلى الذلّ ؛ومن الهداية إلى الضلال .

وقوله عليه السلام : « وأثَرَة يتخذها الظالمون فيكم سنّة » فالأثَرَة ها هنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطّراح جانبهم، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله للأنصار: « ستلقون بعدي أثَرَةً فاصبروا حتى تلقوني » .

[أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم]

واعلم أن الخوارج عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابَه وأنصارَه في الجمل وصِفّين قبل التحكيم؛ وهذه المخاطبة لهم، وهذا الدعاء عليهم؛ وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإنّ الله تعالى سلّط عَلَى الخوارج بعده الذلّ الشامل، والسيف القاطع، والأثرة من السلطان، وما زالت حالُهم تضمحلّ؛ حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جُمهورهم؛ ولقد كان لهمْ من سيف المهلّب بن أبي صفرة وبنِيه الحتْف القاضي، والموت الزؤام.

ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم هاهنا طرفا.

***

[عروة بن حدير]

فمنهم عُروة بن حُدَيْر أحد بني ربيعة بن حنظلة من بني تميم؛ ويعرف بعُرْوة ابن أدَيّة، وأديّة جدة له جاهليّة؛ وكان له أصحاب وأتباع وشيعة، فقتله زياد في خلافة معاوية صبرا.

***

[نجدة بن عويمر الحنفيّ]

ومنهم نجدة بن عُويمر[1] الحنفيّ، كان من رؤسائهم؛ وله مقالة[2] مفردة من مقالة الخوارج

(١) وهو نجدة بن عامر؛ وانظر الكامل ٣ : ١٨٤.
(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١١٠ — ١١٢

وله أتباع وأصحاب ؛ وإليهم أشار الصَّلَتَان العبديّ بقوله[1] :

أرى أمّــةً شهَرَتْ سيفَهـــا وقد زيدَ فى سوطِها الأصبحِيّ[2]

بنجدية أو حَـــرُورِيَّةٍ وأزرق يــدعو إلى أزرقِ

فملّتنا أنّنـــا مسلمونَ على دِينِ صدِّيقنـــا والنّبي

أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبـ ـيرَ مَرُّ الغَدَاةِ وكَرُّ العَشِي

إذا ليـــلة أهْرَمَتْ يومَها أتى بعـــد ذلك يوم فَتِي

نَرُوح ونغـــدو لحاجاتِنـــا وحاجـــةُ مَنْ عاشَ لا تنقضِي

تموت مع المرء حاجاتُـــه وتبـــق له حاجة ما بَقِي

وكان نجدة يصلّى بمكة بحذاء عبدالله بن الزبير فى جمعه [فى كلّ جُمُعَةٍ][3]، وعبدالله يطلب الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحَرَم .

وقال الراعى يخاطب عبد الملك[4] :

إنّى حَلَفْتُ عَلَى يمينٍ برّةٍ لا أكْذبُ اليومَ الخليفةَ قيلاَ

ما إن أتيتُ أبا خُبَيْبٍ وافداً يوماً أريدُ لبيعتى تبـــديلا[5]

ولَمّـا أتيت نُجيدة بن عُوَيْمِرٍ أبغِى الهُدَى فيزيدُنى تضليلا

مِنْ نعمةِ الرحمن لا مِنْ حيلتِي أنّى أعـــدُّ لَهُ عَلَيَّ فُضُولا !

واستولى نَجْدة على اليمامة ، وعظُم أمره ؛ حتى ملك اليمن والطائف وعُمان والبحرين ووادِى تميم وعامر ؛ ثم إن أصحابه نَقَمُوا عليه أحكاماً أحدثَها فى مذهبهم ؛ منها قوله : إنّ

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ٣ : ١٩١ — بشرح التبريزى ومعاهد التنصيص ١ : ٧٣ ، ٧٤ ، والكامل ٦ : ١٠١ — بشرح المرصفى مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .

(٢) السوط الأصبحى : منسوب إلى ذى أصبح الحميرى ؛ وكان أول من اتخذ هذه السياط التى يعاقب عليها السلطان . وانظر الكامل ٢ : ٢٤٦ — بشرح المرصفى

(٣) من كتاب الكامل بشرح المرصفى ٦ : ١٠٢

(٤) من ملحمته فى جمهرة أشعار العرب ١٧٤

(٥) أبو خبيب : كنية ابن الزبير .

المخطىء بعد الاجتهاد معذور ، وإن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ؛ وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهله ؛ إلى أن تقوم عليهم الحجّة ؛ فمن استحلّ محرّما من طريق الاجتهاد فهو معذور ؛ حتى إنّ مَنْ تزوّج أخته أو أمه مستحلًّا لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن ؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه ؛ فاختار لهم أبافُدَيك، أحد بنى قيس بن ثعلبة؛ فجعله رئيسهم . ثم إن أبافُدَيك أنفذ إلى نَجْدة بعدُ مَنْ قتله ، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرّقوا عليه ؛ وقالوا : قتل مظلوما .

***

[المستورد بن سعد التميمىّ]

ومنهم المستورد بن سعد أحد بنى تميم ؛ كان ممن شهد يوم النُّخَيْلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيف علىّ عليه السلام ؛ ثم خرج بعد ذلك بمدّة على المغيرة بن شعبة، وهو والى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان فى جماعة من الخوارج ؛ فوجّه المغيرة إليه معقِل بن قيس الرِّياحىّ ، فلما تواقفا دعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له :علام تقتل الناس بينى وبينك؟ فقال معقل: النَّصَفَ سألت ، فأقسم عليه أصحابُه، فقال : ما كنت لأبىَ عليه؛ فخرج إليه فاختلفا ضربتين ، خرّ كلّ واحد منهما من ضربة صاحِبه قتيلا .

وكان المستورد ناسكا كثير الصلاة ؛ وله آداب وحكم مأثورة[1] .

***

[حوثرة الأسدىّ]

ومنهم حَوْثرة الأسدىّ ، خرج على معاوية فى عام الجماعة فى عِصابة من الخوارج ؛ فبعث إليه معاوية جيشا من أهل الكوفة ، فلما نظر حَوْثرة إليهم ، قال لهم : يا أعداءالله؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه ؛ وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه؛ فلما

(١) الكامل ٥٧٧ (طبعة أوربا) ؛ وأورد من كلامه : إذا أفضيت بسرى إلى صديق فأفشاه لم ألمه؛ لأنى كنت أولى بحفظه . لاتفش إلى أحدسرا وإن كان مخلصا إلاعلى وجه المشاورة . كن أحرص الناس على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك .

فصمت الحرب قتِل حوثرة ، قتله رجل من طيّئ ، وفضّت جموعه(١) .

***

[قريب بن مرة وزحّاف الطائىّ]

ومنهم قُريب بن مرّة الأزدىّ ؛ وزَحّاف الطائىّ ، كانا عابدين مجتهدين من أهل البصرة ، فخرجا فى أيام معاوية فى إمارة زياد؛ واختلف الناس : أيّهما كان الرئيس؟ فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بنى ضُبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه — وكان يقال له رُؤْبة الضُّبَعى — وتنادى الناس ، فخرج رجل من بنى قَطيعة ، من الأزد، وفى يده السّيف ، فناداه الناس من ظهور البيوت الحروريّة : انجُ بنفسك ؛ فنادوْه : لسنا حَرُورية ، نحن الشُّرَط [فوقف](٢) فقتلوه ؛ فبلغ أبا بلال مرداس بن أُديّة خبرُهما ، فقال : قريب ، لاقرّبه الله! وزحّاف لاعفا الله عنه! ركباها عَشْواء مظلمة — يريد اعتراضهما الناس — ثم جعلا لا يمرّان بقبيلة إلا قتَلا مَن وجدا ؛ حتى مرّا على بنى علىّ بن سُود ، من الأزد؛ وكانوا رماة، كان فيهم مائة يُجيدون الرمى ؛ فرموهم رَمْيا شديداً فصاحوا : يا بنى علىّ ، البقيا ، لا رماء بيننا . فقال رجل من بنى علىّ بن سود :

لاشئَ للقوم سِوى السِّهامِ مشحوذةً فى غَلَسِ الظّلامِ

فمرّد عنهم الخوارج(٣)، وخافوا الطلب ، واشتقّوا مقبرة بنى يشكر حتى نفذُوا إلى مُزَيْنَة ينتظرون مَنْ يلحق بهم من مُضَر وغيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحِيَة ، من بنى سُود ، وقبائلُ من مُزَيْنة وغيرها ، فاستقتلت الخوارج ، وحاربت حتى قُتِلت عن آخرها ، وقُتِل قُرَيب وزَحّاف(٤) .

---

(١) الكامل ٥٧٩ (طبع أوربا) .

(٢) من كتاب الكامل

(٣) عردوا ، من التعريد وهو الفرار .

(٤) الكامل ٥٨١ ، ٥٨٢ (طبع أوربا) .

ومنهم أبو بلال مرداس بن أُدَيّة ، وهو أخو عروة بن حُدير الذى ذكرناه أولا ، خرج فى أيام عُبيدالله بن زياد ، وأنفذ إليه ابنُ زياد عباسَ بن أخضر المازنىّ ، فقتله وقتل أصحابه، وحُمل رأسه إلى ابن زياد ، وكان أبو بلال عابدا ناسكا شاعرا، ومن قدماء أصحابنا مَنْ يدّعيه ، لِمَا كان يذهب إليه من العَدْل وإنكار المنكر ، ومن قدماء الشيعة من يدّعيه أيضاً .

* * *

[نافع بن الأزرق الحنفىّ]

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفىّ ، وكان شجاعا مقدما فى فقه الخوارج ، وإليه تنسب الأزارقة، وكان يفتِي بأنّ الدار دار كفر، وأنهم جميعا فى النار، وكلّ مَنْ فيها كافر، إلّا من أظهر إيمانه ، ولا يحلّ للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة ، ولا أن يأكلوا مِنْ ذبائحهم ، ولاأن يناكحوهم ، ولا يتوارث الخارجيّ وغيره ، وهم مثل كفّار العرب وعبَدة الأوثان ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعَد بمنزلتهم، والتقيّة لا تحلّ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾(١)، وقال فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾(٢)، فتفرّق عنه جماعة من الخوارج ؛ منهم نجدة بن عامر ، واحتج نجْدَة بقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ، (٣)فسار نَجْدَة وأصحابه إلى اليمامة، وأضاف نافع إلى مقالته التى(٤) قدّمناها ، استحلاله الغدر بأمانته لمن خالفه ، فكتب نَجْدَة إليه :

---

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) سورة المائدة ٥٤

(٣) سورة غافر ٢٨

(٤) ب : « مقالة » .

أمّا بعدُ ؛ فإنّ عهدى بك وأنت لليتيم كالأبِ الرحيم ، وللضّعيف كالأخ البرّ ، تعاضد قوىّ المسلمين ، وتصنع للأخرق منهم ؛ لا تأخذُك فى الله لومة لائم ؛ ولا ترى معونةَ ظالم ؛ كذلك كنتَ أنت وأصحابك ، أولا[1] تتذكر قولك : لولا أنى أعلم أنّ للإمام العادل مثل أجر رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ! فلما شَرَيْتَ نفسَك فى طاعة رَبّك ابتغاء مرضاته ، وأصبت من الحقّ فَصّه[2] ، وصبرْت على مُرّه ، تجرّدَ لك الشيطان ؛ ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك ؛ وأغواك فغويت ، وأكفرت الذين عذَرهم الله تعالى فى كتابه ، من قعَدةِ المسلمين وضَعَفتهم ، قال الله عزّ وجلّ ، وقوله الحقّ ، ووعده الصدق : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[3] : ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾[4] ثم استحللْتَ قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن قتلهم ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[4] ، وقال سبحانه فى القَعَدة خيرا ، فقال : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5] فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة مَنْ هو دون المجاهدين ، أَوَمَا سمعت قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ ﴾[6] فجعلهم من المؤمنين . [وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم][7] ثم إنك لا تؤدى أمانةً إلى مَنْ خالفك ، والله تعالى قد أمرَ أنْ تؤدّى الأمانات إلى أهلها . فاتق الله فى نفسك ، واتّقِ يوماً لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ فإن الله بالمرصاد ، وحكمُه العدل ، وقولُه الفصل . والسلام[8] .

(١) الكامل : « أما »
(٢) فصه : كنهه
(٣) سورة التوبة ٩١
(٤) سورة الإسراء ١٥
(٥) سورة النساء ٩٥
(٦) سورة النساء ٩٥
(٧) من كتاب الكامل
(٨) الكامل ٦١٢ (طبع أوربا)

فكتب إليه نافع :

أما بعـــد ، أتانى كتابك تعظنى فيه ، وتذكرنى وتنصح لى وتزجرنى ، وتصف ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسألُ الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وعبتَ علىّ مادِنتُ به ، من إكفار القَعَدةِ وقتل الأطفال ، واستحلالِ الأمانةمن المخالفين ، وسأفسر لك إن شاء الله . . .

أما هؤلاء القَعَدةُ ، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه، لأنهم كانو بمكةمقهورين محصورين لايجدون إلى الهرب سبيلا ،ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضح . وقد عرفت ماقال الله تعالى فيمن كان مثلهم ، إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(١) فقال : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾(١)، وقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(٢)، وقال : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾(٣) فخبر بتعذيرهم ،وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣) فانظر إلى أسمائهم وسمائهم .

وأما الأطفـال ، فإن نوحا نبىّ الله كان أعلَم بالله منّى ومنك ، وقد قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾(٤) ، فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك

---

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة التوبة ٨١

(٣) سورة التوبة ٩٠

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

فى قوم نوح ، ولا تقوله فى قومنا[1] ؛ والله تعالى يقول : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾[2] ، وهؤلاء كمشركى العرب ، لا يقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأمّا استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإنّ الله تعالى أحلّ لنا أموالهم ، كما أحلّ دماءهم لنا ، فدماؤهم حلال طِلْق[3] ، وأموالهم فىء للمسلمين ؛ فاتّقِ الله وراجع نفسكَ ، فإنه لا عذرَ لك إلا بالتوبة ؛ ولن يسعَك خِذلانُنا والقعود عنّا وترك مانهجناه لك من مقالتنا ، والسلام على من أقرّ بالحقّ وعمل به[4] .

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكّمة : أما بعد فإنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . إنّكم لتعلمون أنّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، ففيم المقام بين أظهر الكفّار ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد ، فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾[5] ، ولم يجعل لكم فى التخلّف عذرا فى حالٍ من الأحوال ، فقال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[6] وإنما عذر الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، ومَن كانت إقامتُه لِعلّة ، ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : ﴿ لا يستوى القَاعِدُونَ من المؤمنين غَيْرُ أولى الضَّرَرِ والمجاهدُون فى سبيل الله ﴾[7] ، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرّارة مكّارة ، لذّتها نافدة ، ونعيمها بائد ، حُفّت بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرة[8] وأضمرت عَبْرة ، فليس آكلٌ منها أكلةً تسرّه ، ولا شاربٌ منها شربة تؤنقه[9] إلا ودنا بها درجة إلى أجله ، وتباعد بها مسافة من أمله ، وإنما جعلها الله دار المتزوّد منها ، إلى النعيم المُقيم ، والعيش السليم ، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قرارا ، فاتقوا الله وتزوّدوا

(١) الكامل : ولا نكون نقوله فى قومنا » . (٢) سورة القمر ٤٣

(٣) يقال : حل طلق ، أى حلال طيب .

(٤) الكامل المبرد ٦١٣ (طبع أوربا) .

(٥) سورة التوبة ٣٦

(٦) سورة التوبة ٤١ (٧) سورة النساء ٩٥

(٨) الحبرة : النعمة .

(٩) تؤنقه : تعجبه .

فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهدى(١).

فلما أظهر نافعٌ مقالته هذه ، وانفرد عن الخوارج بها ، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس ، ويقتُل الأطفال، ويأخذ الأموال ، ويجبي الخراج ، وفشا عُمّاله بالسواد ، فارتاع لذلك أهلُ البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمِّر عليهم أميراً يحميهم من الخوارج ، ويجاهدَ بهم ؛ فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمّى بَبّة ، فسأله أن يؤمِّر عليهم — وببّة يومئذ أميرُ البصرة من قِبَل ابن الزبير — فأمّر عليهم مسلم بن عبيس بن كُرَيْز ، وكان ديّنا شُجاعا ، فلما خرج بهم من جِسْر البصرة ، أقبل عليهم ، وقال: أيها الناس ، إني ما خرجت لامتيار(٢) ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا السيوف والرماح ، فمن كان شأنه الجهاد ، فلينهضْ ، ومَنْ أحب الحياةَ فليرجع .

فرجع نفرٌ يسير ، ومضى الباقون معه ، فلما صاروا بدُولاب(٣) خرج إليهم نافع وأصحابُه ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسّرت الرماح : وعُقِرت الخيل : وكثُر الجراح والقتل ، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد(٤) ، فقتِل ابنُ عُبَيْس أمير أهل البصرة ، وقتِل نافع بن الأزرق أمير الخوارج : وادّعى قَتْلَه سلامة الباهليّ ، وكان نافع قد استخلف عبيد الله ابن بشير بن الماحُوز السّليطي اليربوعيّ ، واستخلف ابن عُبَيْس الربيع بن عمرو الأجذم الغُدانيّ اليربوعيّ ، فكان الرئيسان من بني يَرْبُوع ، فاقتتلوا بعد قتل ابن عُبيس ونافع قتالا شديدا نَيّفا وعشرين يوما ؛ حتى قال الربيع لأصحابه : إني رأيت البارحة كأنّ يدي

---

(١) الكامل ٦١٥ (طبع أوربا) .
(٢) امتيار : مصدر امتار لأهله ؛ أي جلب لهم الميرة ، والميرة : الطعام .
(٣) دولاب : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .
(٤) العمد ، بفتحتين ، أو بضمتين جمع العمود .

التى أصيبت بكابُل انحطت من السماء ، فاسْتَنْشَلَتْنى(١)، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل. ثم عاودهم القِتال، فقتِل ، فتدافع أهلُ البصرة الراية ، حتى خافوا العَطَب ، إذ لم يكن لهم رئيس . ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحِميرىّ ، فأباها ، فقيل له: ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم ! فقال : إنها مشئومة ، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل ، ثم أخذها فلم يَزَلْ يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبىّ ، وذلك بعد أن اقتتلوا زُهاء شهر ، فاختلفا ضربتين، فخرّا ميّتين(٢).

وقام حارثة بن بدر الغُدانىّ بأمر أهل البصرة بعده ؛ وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشةً خفيفة ؛ ويزجِى الأوقات انتظاراً لقدوم أمير من قبل بِبّة على حرْب الخوارج : وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب: وهى من حُروب الخوارج المشهورة، انتصف فيها الخوارج من المسلمين ، وانتصف المسلمون منهم ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

***

[عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعىّ]

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحُوز اليربوعىّ ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قَتْل نافع بن الأزرق : وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمىّ : ولاه عبدالله بن الزُّبير ذلك ، ولقيه كتابُه بالإمارة وهو يريد الحج ، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا ، فلقيه أهلُ البصرة الذين كانوا فى وجه الأزارقة ، ومعهم حارثة بن بدر الغُدانىّ ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية ، وكان ابن الماحوز حينئذ فى سوق الأهواز، فلما عبر

---

(١) استنشلتنى ؛ قال المبرد : استنشلتنى ؛ أى أخذتنى إليها واستنقذتنى ؛ يقال : استشلاه واشتلاه .
(٢) الكامل ٦١٦ــ ٦١٧ (طبع أوربا) .

عثمان إليهم دُجَيلا ، نهضت إليه الخوارج ، فقال عثمان لحارثة : ماالخوارج إلا ماأرى ؛ فقال حارثة : حسبك بهؤلاء ! قال : لاجَرَم ! لا أتغدّى حتى أناجزهم ، فقال حارثة : إنّ هؤلاء القوم لايقاتلون بالتعسّف ، فأبق على نفسك وجندك ، فقال: أبيتم ياأهلَ العراق إلا جُبْنا ! وأنت ياحارثة ماعلمك بالحرب ! أنت والله بغير هذا أعلم — يُعَرِّض له بالشراب، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب — فغضب حارثة ، فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس، فأجْلَت الحرب عنه قتيلا ، وانهزم الناس ، وأخذ حارثة بن بدر الراية، وصاح بالناس : أنا حارثة بن بدر فثاب إليه قوم فعبر بهم دجيلا، وبلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بنى تميم :

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ   وأعقبنا هــذا الحجازىّ عثمانُ(١)
فأرعد من قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ   وأبرق ، والبرقُ اليمانىّ خَوّانُ(٢)
فَضَحْتَ قريشــا غَثَّها وسمينَها   وقيــل بنو تيم بن مرةَ عُــزلانُ(٣)
فــلولا ابنُ بدرٍ للعراقَيْنِ لم يَقُمْ   بمــا قام فيه للعِراقَيْن إنسانُ
إذا قيل مَنْ حامى الحقيقــة ؟ أومأتْ   إليه مَعَــدٌّ بالأكفّ وقحطانُ

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بعزله ، وولى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومىّ المعروف بالقُباع(٤) البصرة، فقدمها ، فكتبَ إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد ، فأراد توليته ،فقال له رجل من بَكْرِ بن

---

(١) الأبيات فى الكامل ٦٢٥ (طبعة أوربا)

(٢) قال المبرد : قوله : « فأرعد » زعم الأصمعى أنه خطأ . . . وأنه لايقال إلا رعد وبرق . . . وروى غير الأصمعى : أرعدوأبرق على ضعف . وقوله : والبرق اليمانى خوان ، يريد : والبرق اليمانى يخون

(٣) كذا فى الكامل : وفى ا ، ج : « غيلان » ، وفى ب : « غزلان » . وعزلان : جمع أعزل ؛ وهو من لا سلاح معه .

(٤) قال المبرد : « وإنما سمى الحارث بن عبد الله القباع ؛ لأنه ولى البصرة ؛ فغير على الناس مكاييلهم ؛ فنظر إلى مكيال صغير فى مرآة العين ؛ وقد أحاط بدقيق استكثره ؛ فقال : إن مكيالكم هــذا لقباع ؛ والقباع : الذى يخفى أو يخفى مافيه . الكامل ٢ : ٤٣ — بشرح المرصفى .

وائل : إن حارثة ليس بذلك ؛ إنما هو صاحب شراب ، وكان حارثة مستهترا بالشراب ، معاقراً للخمر ؛ وفيه يقول رجل من قومه (١) :

أَلم تَرَ أَنّ حارثةَ بْنَ بَدْرٍ يُصَلّي وهوَ أكفَرُ من حِمَارِ
أَلم تَرَ أَنّ للفتيانِ حَظًّا وحظُّكَ في البغايا والعُقارِ (٢)

فكتب إليه القُباع : تُكْفَى حربَهم إن شاء الله . فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرّق أصحابه عنه وبقى فى خِفٍّ منهم ؛ فأقام بنهر تِيرَى، فعبرت إليه الخوارج، فهرب مَنْ تخلّف معه من أصحابه ؛ وخرج يركض حتى أتى دُجَيلا ، فجلس فى سفينة ، وأتبعه جماعة من أصحابه ؛ فكانوا معه فيها ؛ ووافاه رجلٌ من بنى تميم ، عليه سلاحه والخوارج وراءه ؛ وقد توسّط حارثة دُجَيلا ، فصاح به : ياحارثة ، ليس مثلى بضيع ! فقال للملّاح : قرّب ، فقرّب إلى جُرُف (٣)، ولا فُرْضة هناك ، فطَفَر (٤) بسلاحه فى السفينة، فساخت بالقوم جميعا ، وهلك حارثة (٥) .

***

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب " الأغانى الكبير " أن (٦) حارثة لما عقدوا له الرئاسة ، وسلّموا إليه الراية ، أمرهم بالثّبات ، وقال لهم : إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين ، وللموالى زيادة فريضة ، وندَب الناس ، فالتقوا وليس بأحدٍ منهم طِرْق (٧) قد فشت فيهم الجراحات ، وما تطأ الخيلُ إلّا على القتلى ؛ فبينما كذلك ، إذ أقبل جمعٌ

---

(١) نقل المرصفى فى رغبة الآمل أن البيتين نسبا إلى علقمة بن معبد المازنى .
(٢) العقار : الخمر .
(٣) الجرف : ما أكله السيل من أسفل شق الوادى والنهر .
(٤) طفر : وثب .
(٥) الكامل ٦٢٦ وما بعدها (طبعة أوربا)
(٦) الأغانى ٦ : ١٤٦ وما بعدها (طبعة الدار) . مع اختلاف فى الرواية .
(٧) طرق ، أى قوة .

من الشراة من جهة اليمامة ، ـ يقول المكثّر : إنهم مائتان ، والمُقلّل : إنهم أربعون ـ فاجتمعوا وهم مُريحون مع أصحابهم، فصاروا كَوْكَبَة(١) واحدة ، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزما ، وقال لأصحابه :

كَرْنِبُوا وَدَوْلِبُوا أوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فاذْهَبُوا(٢)

وقال :

أيْرُ الحمار فريضةٌ لعبيدِكُمْ والخصيتَان فريضة الأعراب

قال : كَرنبوا ، أي اطلبوا كرنبَى، وهى قرية قريبة من الأهواز ، ودَوْلبوا : اطلبوا دُولاب ، وهى ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .

قال : فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين ، وتبعتهم الخوارج ، فألقى الناس أنفسهم فى الماء ، فغرق منهم بدُجَيل الأهواز خلق كثير .

***

[الزبير بن علىّ السّليطىّ وظهور أمر المهلّب]

ومنهم الزُّبير بن على السليطىّ التميمى ، كان على(٣) مقدمة ابن الماحوز ، وكان ابن الماحوز يخاطَب بالخلافة ، ويخاطَب الزبير بالإمارة . ووصل الزبير بعد هلاك حارثة ابن بدر ، وهرب أصحابُه إلى البصرة ، فخافه الناس خوفاً شديدا ، وضجّ أهلُ البصرة إلى الأحنف ، فأتى القُباع ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا العدوّ قد غَلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصُرَنا فى بلدنا حتى نموت هُزالا . قال : فسمُّوا إلىّ رجلا يلى الحرب، فقال الأحنف : لا(٣) أرى لها رجلا إلا المهلّب بن أبى صُفرة؛ فقال : أو هذا رأى

---

(١) الكوكبة : الجماعة ، وفى الأغانى « كبكبة » وهما بمعنى .

(٢) الكامل للمبرد ٨ : ١٠ وما بعدها ـ بشرح المرصفى .

(٣) فى الكامل قبل هذه الكلمة : « أن الرأى لايخيل » ، أى لا يشكل ولا يشتبه .

جميع أهـل البصرة ؟ اجتمعوا إلىّ فى غد لأنظر . وجاء الزبير حتى نزل على البصرة، وعقد الجسرَ ليعبُر إليها ، فخرج أكثرُ أهل البَصْرة إليه ، وانضمّ إلى الزبير جميع كُوَر الأهواز وأهلها رغبة ورهبة، فوافاه البصريون فى السُّفُن وعلى الدّوابّ(١) ، فاسودّت بهم الأرض، فقال الزبير لما رآهم: أبى قومُنا إلا كفراً ؛ وقطع الجسر ، وأقام الخوارج بإزائهم، واجتمع الناس عند القُباع ، وخافوا الخوارج خوفا شديدا، وكانوا ثلاث فرق : سمّى قومٌ المهلّب ، وسمّى قوم مالك بن مِسْمع ، وسمّى قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكىّ ، فاختبر القُباعُ ماعند مالك وزياد ، فوجدهما مُتثاقلين عن الحرب ، وعاد إليه مَنْ أشار بهما، وقالوا : قد رجعْنا عن رأينا ؛ ما نرى لها إلا المهلّب ، فوجّه إليه القُباع فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ، قد ترى ماقد رَهِقَنا من هذا العدوّ ، وقد أجمع أهلُ مصرك عليك ؛ وقال له الأحنف : يا أبا سعيد ، إنّا والله ما آثرناك ، ولكنّا لم نَرَ مَنْ يقوم مقامك .

ثم قال القُباع ـ وأومأ إلى الأحنف ـ: إنّ هذا الشيخ لم يسمّك إلا إيثاراً للدّين والبقيا(٢) وكلُّ مَنْ فى مِصْرك مادٌّ عينَه إليك ، راجٍ أن يكشف الله عنـه هذه الغمّة بك ، فقال المهلّب: لاحول ولا قوة إلا بالله، إنّى عند نفسى لدون ماوصفتم، ولست آبى مادعوتم إليه؛ لكنْ لى شروطا أشترطها ؛ قالوا : قل، قال: على أن أنتخب مَنْ أحببت ! قال الأحنف : ذاك لك، قال : ولى إمرة كلّ بلد أغلب عليه ! قالوا : لك ذلك، قال : ولى فىء كلّ بلد أظفر به ! قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ؛ إنما هو فىء للمسلمين ؛ فإنْ سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوّهم ، ولكن لك أن تعطىَ أصحابك من فىء كلّ بلد تغلب عليه ماأحببت ، وتُنفق منه على محاربة عدوّك ؛ فما فضَل عنكم كان للمسلمين ؛ فقال المهلّب : لاحول ولا قوة إلا بالله ! فمنْ لى بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرك ، قال : قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتابا ، ووُضِع على يدى الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الجعفىّ ، وانتخب المهلّب من جميع الأخماس ، فبلغت نُخْبَتُه اثنى عشر ألفا ، ونظروا فى بيت المال،

(١) فى الكامل بعد هذه الكلمة : « ورجالة » .
(٢) كذا فى ج . وفى ا ، ب : « التقى » ، وهى ساقطة من الكامل .

فلم يكن إلا مائتي ألف درهم ، فعجزتْ . فبعث المهلّب إلى التجار ، فقال : إنّ تجاراتِكم منذ حول قد فَسَدت بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم ، فهلمّوا فبايعوني واخرُجوا معي أوفِّكم حقوقَكم . فبايعوه وتاجروه ، فأخذ منهم من المال ما أصلَح به عسكَره ، واتخذ لأصحابه الخفاتين[1] والرّانات المحشوّة بالصوف ؛ ثم نهض — وكان أكثر أصحابه رَجّالة — حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفُن فأصلحت وأحضرت ، فما ارتفع النهار حتى فرَغ منها ، ثم أمر الناس بالعُبور ، وأمّر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشطّ خاضت إليهم الخوارج ، فحاربوهم وحاربهم المغيرة ، ونَضَحهم[2] بالسهام حتى تنحّوْا ، وصار هو وأصحابه على الشطّ ، فحاربوا الخوارج ، فكشفوهم وشَغَلوهم حتى عقد المهلب الجسْر وعبر ، والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم ، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد :

إنّ العراق وأهلَه لم يخبُرُوا ... مثلَ المهلّب في الحروب فسلّموا

أمضى وأيمَن في اللقاء نقيبةً ... وأقلّ تهليلاً إذا ما أحجمُوا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبريّ ، من فرسان تميم وشجعانهم . ومن شعر عطية[3] :

يُدْعى رجالٌ للعَطاء وإنما ... يُدْعَى عطيّة للطِّعان الأجردِ

وقال فيه شاعر من بني تميم :

وما فارسٌ إلّا عطيةُ فَوْقَهُ ... إذا الحربُ أبدَتْ عَنْ نَواجِذِها الفَمَا

به هَزَمَ الله الأزارقَ بَعْدَ مَا ... أباحُوا مِنَ المِصْرَيْنِ حِلاًّ ومَحْرَمَا

فأقام المهلّب أربعين ليلة يَجْبِي الخراج بكُور دَجْلة ، والخوارج بنهر تِيرَى ، والزبير ابن عليّ منفرِد بعسكره عن عسكر ابن الماحُوز ؛ فقضى المهلب التجار ، وأعطى أصحابه ،

---

(١) الخفتان : ثوب من القطن يلبس فوق الدرع . الألفاظ الفارسية ٥٦

(٢) نضحهم : رشقهم ورماهم . (٣) الكامل : « فقال عطية » .

فأسرع الناس إليه رغبة فى مجاهدة العدوّ وطمعا فى الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدىّ وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قُرّة المُزَنىّ ، وكان يقول : لو جاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربتُ الحرورية ، وجاءه أبو عمران الجَوْنى . وكان يروى عن كعب أنّ قتيل[1] الحَرُورية يفضُل قتيل[1] غيرهم بعشرة أبواب .

ثم أتى المهلّب إلى نهر تيرى ، فتنحوّا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلّب يَجْبِى ماحواليه من الكُوَر ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومَنْ فى عسكرهم ؛ وإذا حُشوَة[2] ؛ مابين قَصّاب وحَدّاد وداعر[3] . فخطب المهلب الناس ، وذكر لهم ذلك ؛ وقال: أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم ! ولم يزل مقيما حتى فَهِمهم ، وأحكم أمرهم وقوّى أصحابه ، وكثُرت الفرسان فى عسكره ، وتتامّ[4] أصحابُه عشرين ألفا .

ثم مضى يؤمّ كُوَر الأهواز ، فاستخلف أخاه المبارك بن أبى صُفرة على نهر تيرَى ، وجعل المغيرة على مقدّمته ، فسار حتى قاربهم ، فناوشهم وناوشوه ، فانكشف عن المغيرة بعضُ أصحابه ، وثبت المغيرة نفسُه بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران فى بقية متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل خيل المهلّب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث القُباع كتابا يقول فيه :

أما بعد ؛ فإنا مذ خَرَجْنا نؤمّ العدوّ ، فى نعم من فضل الله متّصلة علينا ، ونِقَمٍ متتابعة عليهم ، نُقْدِم ويحجمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ، إلى أن حَلَلْنا سوقَ الأهواز ، والحمد لله ربّ العالمين ، الذى من عنده النصر ، وهو العزيز الحكيم .

---

(١) ب « فتك » ، وما أثبته من ا ، ج والكامل .

(٢) الحشوة : رذال الناس .

(٣) الداعر : الخبيث المفسد . وفى الكامل : « ما بين قصار وصباغ وداعر وحداد »

(٤) ج : « والتأم » .

فكتب إليه الحارث :

هنيئا لك أخا الأزد الشّرف فى الدنيا والأجر فى الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلّب لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز أما ترونه عرف(١) اسمى وكنيتى واسم أبى !

قالوا : وكان المهلّب يبُثّ الأحراس فى الأمن ، كما يبثّهم فى الخوف ، ويُذْكِى(٢) العيون فى الأمصار كما يُذْكيها فى الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرّز ، ويخوّفهم البيَات(٣) ، وإن بَعُد منه العدوّ ، ويقول(٤) : احذروا أنْ تُكادوا كما تكيدون ، ولا تقولوا : هزمناهم وغلبناهم ، والقوم خائفون وجلون ، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة .

ثم قام فيهم خطيبا ، فقال : أيها النّاس ، قد عرفتُم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قدَرُوا عليكم فتنُوكم فى دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ما قاتلهم عليه أوّلكم علىّ بن أبى طالب ، لقد لقيهم(٥) الصابر المحتسب مسلم بن عُبَيس ، والعَجِل المفرّط عثمان بن عبيد الله ، والمعصىّ المخالف حارثة بن بدر ، فقتَلوا جميعا وقُتِلوا ، فالقوم بجدّ وَجِدّ فإنما هم مَهنتكم وعبيدكم ، وعارٌ عليكم ونقص فى أحسابكم وأديانكم أنْ يغلبكم هؤلاء على فيئكم ، ويطأوا حريمكم .

ثم سار يريدهم وهم بمَناذر(٦) الصغرى ، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحُوز رئيسُ الخوارج رجلا يقال له واقد ، مولًى لآل أبى صُفْرة مِنْ سَبْى الجاهلية ، فى خمسين رجلا ، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تِيرى ، وبها المعارك بن أبى صُفْرة ، فقتلوه وصلبوه ، فنُمِىَ

(١) الكامل : « يعرف » .
(٢) العيون : الجواسيس ؛ وإذكاؤها إرسالها .
(٣) البيات : اسم من « بيت القوم والعدو تبييتا » ؛ أوقع بهم ليلا وهم غارون .
(٤) ج : « فإن بعد منه العدو يقول » .
(٥) الكامل : « لقيهم قبلكم » ، وفى ب « لقيتم » ، وما أثبته من ج
(٦) مناذر الصغرى ، وكذلك مناذر الكبرى : كورتان من كور الأهواز

الخبر إلى المهلّب ، فوجّه ابنَه المغيرة ، فدخل نهر تِيرى ، وقد خرج واقد منها ، فاستنزل عمّه فدفنَه ، وسكن النـــاس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه ، وقد نزل بسُولاف(١) والخوارج بها ، فواقعهم ،وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلّب ، يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحضُّ الناس ويهوّن أمرَ الخوارج ، ويختالُ بين الصَّفّين ، فقال رجل من الخوارج لأصحابه : يامعشر المهاجرين ، هل لـكم فى قِتلة فيهـا الجنّة ! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارسا ، ثم كَبَا به فرسُه ، فقاتلهم راجلا قائما وباركا ، ثم كَثُرت به الجراحات فذبّب بسيفه ، ثم جعل يحثُو فى وجوههم التراب ، والمهلّبُ غيرُ حاضر ، فقُتِلَ ؛ ثم حضر المهلب فأعلم ، فقال للحريش ولعطية العنبرىّ : أسلمتُما سيدَ أهل العراق(٢) ، لم تُعيناه ولم تستنقذاه حَسداً له، لأنه رجل من الموالى ، ووبّخهما .

وحمل رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب فقتله ، فحمل عليه المهلب فطعنه فقتله ، ومال الخوارجُ بأجمعهم على العسكر ، فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلا، وثبت المهلّب وابنه المغيرة يومئذ ، وعرف مكانه .

ويقال : حاص(٣) المهلب يومئذ حَيْصة . ويقول الأزد : بل كان يردّ المنهزمة ويحمى أدبارهم ، وبنو تميم تزعم أنه فرّ ، وقال شاعرهم :

بِسُولافٍ أضَعْتَ دماء قومى ۞ وَطِرْتَ عَلَى مُواشِكَةٍ دَرُورِ(٤)

وقال آخر من بنى تميم :

تبعنا الأعْوَرَ الـكَذّابَ طَوْعاً ۞ يُزَجّى كلَّ أربعة حمـــــــارا(٥)

---

(١) سولاف ، بضم السين : قرية فى غرب دجيل ؛ قرب مناذر الـكبرى .

(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والـكامل : « سيد أهل العسكر » .

(٣) حاص حيصة : جال جولة .

(٤) قال المبرد : مواشكة ، يريد سريعة ، ودرور ، « فعول » ، من در الشىء إذا تتابع .

(٥) يزجى : يسوق .

فيَاندى عَلَى تَرْكِي عَطَـائى مُعايَنَةً واطلُبـُه ضِمَارَا[1]
إذا الرحمن يَسّر لى قُفُولًا فحرّقَ فى قُرَى سولاف نارا

قوله : « الأعور الكذاب » ، يعنى به المهلّب، كانت عينه عارَتْ بسهم أصابها ، وتَسْمّوه الكذّاب ، لأنه كان فقيها ، وكان يتأوّل ماورد فى الأثر من أنّ كلّ كذب يكتَب كذبا إلا ثلاثة : الكذب فى الصلح بين رجلين ، وكذب الرجل لامرأته بوعْد ، وكذب الرجل فى الحرب بتوعّد وتَهدُّد[2] . قالوا : وجاء عنه صلى الله عليه وآله: «إنما أنت رجل فخذّل عَنّا ما استطعت » . وقال : « إنمـا الحرب خُدعـة » ، فـكان المهلّب ربما صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ماضعف ، ويضعّف به من أمر الخوارج ماشتدّ ، وكان حَىّ من الأزد يقال لهم النّدَب ، إذا رأو المهلب رائحا إليهم قالوا : راح ليكذب ، وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتى كلّ الفتى لو كنت تصدقُ ماتقول

فبات المهلب فى ألفين ، فلما أصبح رجع بعضُ المنهزمة ، فصاروا فى أربعة آلاف ، فخطب أصحابه ، فقال : والله مابكم من قلّة ، وماذهب عنكم إلا أهل الجُبْن والضعف والطَّبَع[3] والطمع ، فإن يمسسكم قَرْح فقدْ مَسّ القومَ قَرْح مثله ؛ فسيروا إلى عدوّكم على بركة الله .

فقام إليه الحريش بن هلال ، فقال : أنشدك الله أيها الأمير أنْ تقاتلهم ، إلا أن يقاتلوك ؛ فإن فى أصحابك جِراحا ، وقد أثخنتْهم هذه الجولة .

فقبل منه ، ومضى المهلب فى عشرة فأشرف على عسكر الخوارج ، فلم ير منهم أحدا

---

(١) الضمار : الغائب الذى لا يرتجى . (٢) الكامل : « يتوعد ويتهدد » .
(٣) الطبع فى الأصل : الصدأ يكثر على السيف وغيره ؛ ثم استعير فيا يشبه ذلك من الأوزار والآثام

يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا المنزل ، فارتحل ، فعبر دُجَيلا وصار إلى عاقول[1] لا يؤتى إلا من جهة واحدة ، فأقام به، وأقام الناس ثلاثا مستريحين .

وفى يقوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات :

ألا طرقت من آل مَيَّةَ طارِقَهْ ... عَلَى أنها معشوقة الدلّ عاشِقَهْ[2]

تراءت وأرض السُّوس بينى وبينها ... ورستاق سولافٍ حَمَتْه الأزارقهْ

إذا نحن شئنا صادفتنا عِصابة ... حَرُورِيَّة فيها من الموت بارِقَهْ

أجازت علينا العسكرين كليهما[3] ... فباتت لنا دُون اللِّحافِ معانِقَهْ

فأقام المهلب فى ذلك العاقُول ثلاثة أيام ثم ارتحلَ ، والخوارج بسِلّى وسِلَّبْرَى فنزل قريبا منهم ، فقال ابن الماحُوز لأصحابه : ما تنتظرون بعدوّكم وقد هزمتموم بالأمس ، وكسرتم حدهم ! فقال له واقد مولى أبى صفرة : يا أميرَ المؤمنين ، إنما تفرّق عنهم أهل الضعف والجُبْن ، وبَقِيَ أهل النَّجدة والقوة ، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً[4] هيّناً ، لأنى أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا ، وإن غَلَبوا ذهب الدين . فقال أصحابه : نافَق واقد ، فقال ابن الماحوز : لا تعجلوا على أخيكم ، فإنه إنما قال هذا نظرا لكم .

ثم وجّه الزبير بن علىّ إلى عسكر المهلّب ، لينظرَ ما حالُهم ، فأتاهم فى مائتين فحَزَرهم ورجع . وأمر المهلب أصحابه بالتحارُس ، حتى إذا أصبح ركب إليهم فى تعبئة ، فالتقوا بسِلّى وسِلَّبْرى ، فتصافُّوا ، فخرج من الخوارج مائة فارس ، فركزوا رماحهم بين الصفين ، واتكأوا عليها ، وأخرج إليهم المهلّب أعدادهم ، ففعلوا مثل ما فعلوا ، لا يرعوْن إلا الصلاة ، حتى إذا أمسَوْا رجع كلّ قوم إلى معسكرهم ، ففعلوا هكذا ثلاثة أيام .

---

(١) العاقول : منعطف الوادى .

(٢) ديوانه ١٦٢ .

(٣) فى الكامل : « أجازت إلينا » ، وفى الديوان : « أجازت إلى » .

(٤) « ظفرك » .

ثم إن الخوارج تطاردُوا لهم فى اليوم الثالث ، فحمَل عليهم هؤلاء الفرسان ، فجالوا ساعة ، ثم إنّ رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلّب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم ، كما صنعُوا يوم سُولاف فضعضعُوا الناس ، وفُقِد المهلّب وثبت المغيرة فى جمع أكثرهم أهل عُمَان

ثم نجم (١) المهلّب فى مائة ، وقد انغمسَ كُمّاه (٢) فى الدم ، وعلى رأسه قلنسوَة مربعة فوق المِغفر محشوة قزاً وقد تمزّقتْ ، وإنّ حشوَها ليتطاير وهو يَلْهث ، وذلك فى وقت الظهر ، فلم يزل يحاربُهم حتى أتى الليل ، وكَثُر القتلى فى الفريقين ، فلما كان الغد غاداهم ، وقد كان وجَّه بالأمس رجلا من طاحيةَ بن سود بن مالك بن فَهْم ، من الأزد من ثقاته وأصحابه ، يردُّ المنهزمين ، فرّ به عامر بن مِسْمَع فردّه ، فقال : إنّ الأمير أذن لى فى الانصراف ، فبعث إلى المهلب ، فأعلمه ، فقال : دَعْه فلا حاجة لى فى مثله من أهل الجبن والضعف . ثم غاداهم المهلّب فى ثلاثة آلاف ، وقد تفرّق عنه أكثر الناس ، وقال لأصحابه : ما بكُم من قِلّة ! أيعجز أحدُكم أن يلقى رمحه ثم يتقدم فيأخذه ! ففعل ذلك رجل من كِندة ، واتبعه قوم ؛ ثم قال المهلّب لأصحابه : أعدّوا مخالىَ فيها حجارة ، وارمُوا بها فى وقت الغفلة ، فإنها تصدّ الفارس ، وتصرَعُ الراجل ، ففعلوا . ثم أمر منادياً ينادى فى أصحابه ، يأمرهم بالجدّ والصَّبْر ، ويطمعهم فى العدوّ ، ففعل ذلك حتى مرّ ببنى العدَوّية ، من بنى مالك بن حنظلة ، فنادى فيهم فضربوه ، فدعا المهلّب بسيِّدهم — وهو معاوية بن عمرو — فجعل يركلُه (٣) برجله ، فقال : أصلح الله الأمير ! اعفنى من أمّ كَيْسان — والأزد تسمى الركبة أم كَيْسان — ثم حمل المهلب وحملوا ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فجهد الخوارج ، ونادى مناد منهم : ألا إن للمهلب قد قُتِل .

---

(١) نجم : ظهر .
(٢) الكامل : « كفاه » . (٣) الركل : الضرب بالرجل خاصة .

فركب المهلب بِرْذوناً وَرْداً[١] ، وأقبل يركض بين الصَّفَّين ؛ وإنّ إحدى يديه لفى القَباء ، وما يشعر لها ، وهو يصيح : أنا المهلب ! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنّوا أن أميرهم قد قتل ، وكَلّ الناس مع العصْر ، فصاح المهلّب بابنه المغيرة : تقدّم ؛ ففعل وصاح بذَكْوان مولاه : قدِّم رايتك ؛ ففعل ، فقال له رجل من ولده : إنك تغرِّر بنفسِك ، فزَبره وزجَره ، وصاح : يا بنى سلمة ، آمركم فتعصونى ! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جِلاد ، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحُوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوا لى رجلاً جَلْدا يطوف فى القتلى ، فأشاروا عليه برجل من جرْم ، وقالوا : إنا لم نر قطّ رجلًا أشدّ منه ؛ فجعل يطوف ومعه النيران ، فجعل إذا مرّ بجريح من الخوارج ، قال : كافر وربّ الكعبة ! فأجهز عليه ، وإذا مرّ بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحمْله ، وأقام المهلب بأمرهم بالاحتراس ؛ حتى إذا كان فى نِصْف الليل ، وجّه رجلا من اليَحْمَد[٢] فى عشرة ، فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أرّجان ، فرجع إلى المهلب فأعلمه ، فقال لهم : أنا الساعة أشدّ خوفاً ، احذروا البَيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أنّ المهلب قال لأصحابه يوما : إنّ هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ؛ فإن يكن ذلك فاجعلوا شِعاركم : « حم لا يُنصرون » فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بها .

ويروى أنه كان شِعار أصحاب علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

فلما أصبح القوم غَدَوْا على القتلى ؛ فأصابوا ابن الماحُوز قتيلا ، ففى ذلك يقول رجل من الخوارج :

---

(١) الكامل : « برذونا قصيرا أشهب » .
(٢) اليحمد : بطن من الأزد .

بِسِلّى وسِلَّبْرى مَصَارِع فتيـــةٍ ‏ كِرامٍ وعَقْرَى من كُمَيْتٍ ومن وردِ[١]

وقال آخر :

بِسلى وسِلِبْرى جماجم فتيـــةٍ ‏ كرام وصَرْعى لم توسَّد خدودها[٢]

وقال رجل من موالى المهلّب : لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة ، رميت به رجلا فصرعته ، ثم رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثا ؛ وفى ذلك يقول رجل من الخوارج :

أتانا بأحجار ليَقتلنا بها ‏ وهَل يُقتَلُ الأبطالُ وَيْحَكَ بالحجَرْ !

وقال رجل من أصحاب المهلب فى يوم سِلّى وسِلّبْرَى وقتل ابن الماحوز :

ويوم سِلّى وسِلّبْرى أحاطَ بهم ‏ مِنّا صواعقُ لا تُبْقِى ولا تَذَرُ[٣]

حتى تركنا عُبيد الله مُنْجَدِلا ‏ كما تجدّل جِذْعٌ مالَ مُنْقَعِرُ[٤]

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سِلّى حمل على رجـل من أصحاب المهلب ؛ فطعنه ، فلما خالطه الرّمح صاح : يا أمّتاه ! فصاح به المهلب : لا كثّر الله منك فى المسلمين[٥] ! فضحك الخارجىّ ، وقال :

أمُّكَ خيرٌ لك منّى صاحباً ‏ تَسقيك مَحْضاً وتَعُلّ رائبا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت فى وجهه ، نَكَس[٦] عَلَى

(١) نقل المرصفى عن ابن برى أنه لأبى المقدام بيهس بن صهيب الجنى . وعقرى : جمع عقير ، بمعنى معقور ؛ من عقر الفرس والبعير ، إذا قطع قوائمه .

(٢) سلى وسلبرى ، ضبطهما المبرد بكسر السين ؛ وقال الأخفش بفتحهما ؛ وقال : موضعان بالأهواز .

(٣) قال المبرد : « تقول العرب : صاعقة وصواعق ؛ وهو مذهب أهل الحجاز ؛ وبه نزل القرآن ، وبنو تميم يقولون : صاقعة وصواقع » .

(٤) المنقعر : المنقلع من أصله .

(٥) كذا فى ج ، وفى ب : « مثلك » ، وفى الكامل : « بمثلك المسلمين » .

(٦) نكس : طأطأ .

قَرَبُوس[1] السَّرْج ، وحَمَل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وأثّر في أصحابها ، فتحُوميت الميمنة من أجله ، وكان أشدّ ما تـكونُ الحربُ استعاراً أشَدّ ما يكون تبسما . وكان المهلب يقول : ما شَهِد معي حَرْباً قطّ إلا رأيت البُشْرَى في وجهه !

وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم :

فإنْ تَكُ قَتْلَى يَوْمَ سِلَّى تتابعت ... فكَمْ غادرتْ أسيافُنامِنْ قُمَاقِمِ ![2]

غَدَاةَ نَكُرُّ المشرَفِيَّةَ فِيهِمُ ... بِسُولافَ يومَ المَأزِقِ المُتَلاحِمِ[3]

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة القُباع[4] :

أما بعد ، فإنا لقينا الأزارقة المارقة بحَدّ وجِدّ ، فكانت في الناس جَوْلة ، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظ والصّبر بِنيّات صادقة ، وأبدانٍ شِداد ، وسيوف حِدَاد ، فأعقب الله خيرَ عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريئة[5] رماحنا ، وضرائبَ[6] سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابنَ الماحوز ، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها . والسلام .

فكتب إليه القُباع :

قد قرأت كتابَك يا أخا الأزد ، فرأيتك قد وُهِب[7] لك شرفُ الدنيا وعِزُّها ، وذُخِر لك إن شاء الله ثوابُ الآخرة وأجرُها ، ورأيتُك أوثقَ حصون المسلمين ، وهادّ

---

(١) قربوس السرج : مقدمه ؛ ولـكل سرج قربوسان مقدم ومؤخر .
(٢) القماقم ، بضم أوله : السيد الـكثير الواسع الفضل ؛ كالقمقام .
(٣) المأزق : الموضع الضيق يقتتلون فيه ، والمتلاحم ، من قولهم : شجة متلاحمة ؛ وهي التي تشق اللحم دون العظم ثم تتلاحم فلا يجوز فيها المسبار . والمشرفية : السيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام .
(٤) في الـكامل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . . . » .
(٥) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .
(٦) الضرائب : جمع ضريبة ؛ وهو كل ماضربت بسيفك
(٧) الـكامل : « وهب الله لك . . . وذخر لك . . . » .

أركان المشركين ، وذا الرياسة وأخا السّياسة ، فاستدِمِ الله بشكره ، يتمّ عليك نعمَه . والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا : أنا لك على مافارقتك عليه . فلم يزل يقرأ الكتب وينظر فى تضاعيفها ، ويلتمس كِتاب الأحنف فلا يراه ، فلما لم يرَه ، قال لأصحابه : أما كَتَب أبو بحر ؟ فقال له الرسول : إنّه حمّلنى إليك رسالة ، فأبلغه ، فقال : هذا أحبُّ إلىّ من هذه الكتب .

واجتمعت الخوارج بأرّجان، فبايعوا الزبير بن علىّ، وهو من بنى سَليط بن يربُوع، من رهط ابن الماحُوز، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفا بيّنا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وآله ؛ ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْى ، وإن يصَب منكم أميرُ المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعا الأجذم والحجاج بن رباب [1] وحارثة بن بدر ، وأشجيتُم المهلّب وقتلتم أخاه المُعارك ، والله يقول لإخوانكم المؤمنين : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [2]، فيوم سِلّى كان لكم بلاء وتمحيصا، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونَكالا ، فلا تُغلَبنّ على الشّكر فى حينه ، والصبر فى وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون فى الأرض ، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلّب ، فنفحهم المهلّب نفحة فرجعوا وأكْمَنُوا للمهلّب ـ فى غَمْضٍ [3] من غُموض الأرض بقرُب من عسكره ـ مائة فارس ليغتالوه، فسار المهلّب

---

(١) الكامل : « باب » .
(٢) سورة آل عمران ١٤٠
(٣) الغمض : المطمئن من الأرض

يوما يُطِيف بعسكره ، ويتفقّد سوادَه ، فوقف على جبل ، فقال : إنّ من التدبير لهذه المارقة أنْ تكون قد أكْمَنَتْ في سفح هذا الجبل كمينا؛ فبعث المهلّب عشرة فوارس، فاطّلعوا على المائة ، فلما علموا بهم قطّعوا القنطرة ونجوْا وانكشفت الشمس فصاحوا : يا أعداء الله ، لو قامت القيامة لجددنا ونحن في جهادكم (١) .

ثم يئس الزُّبير من ناحية المهلب ، فضرب إلى ناحية أصبهان ، ثم كرّ راجعا إلى أرّجان ، وقد جمع جموعا؛ وكان المهلَّب يقول : كأني بالزبير وقد جمع لكم؛ فلا ترْهبوهم؛ فتنخبَ (٢) قلوبُكم ، ولا تغفلوا الاحتراسَ فيطمعوا فيكم . فجاءوه من أرّجان ، فلقوه مستعدًّا آخذاً بأفواه الطُّرق ، فحاربهم فظهر عليهم ظهوراً بيّنا ، ففي ذلك يقول رجل من بني يربوع :

سَقَى اللهُ المهلّبَ كلَّ غيثٍ مِنَ الوَسْمِيّ يَنْتَحِرُ انتِحارَا(٣)
فمـا وَهَنَ المهلَّب يومَ جاءتْ عوابسُ خيلهمْ تبغي الغِوارا(٤)

وقال المهلب يومئذ : ما وقفتُ في مضيق من الحرب إلا رأيت أمامي رجالاً من بني الهُجَيم بن عمرو بن تميم يجالِدُون ، وكأنّ لحاهم أذناب العَقاعق(٥) و[كانوا](٦) صبروا معه في غير مواطن .

وقال رجل من أصحاب المهلّب من بني تميم :

---

(١) في الكامل : « لجددنا في جهادكم » .
(٢) تنخب : تضعف ، وفي الكامل : « تخبث » .
(٣) الوسمي : مطر الربيع الأول ، سمي به لأنه يسم الأرض بالنبات ؛ وانتحر الوسمي ، أي انبعق بماء كثير ؛ ومنه قول الراعي :

فَمرّ عَلَى مَنازلها وَألقَى بِهَا الأثقالَ وانتَحرَ انتِحارَا

(٤) الغوار : مصدر غاور العدو مغاورة وغوارا ؛ أغار عليه .
(٥) العقاعق : جمع عقعق ؛ وهو طائر ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب .
(٦) من الكامل .

أَلا يَا مَنْ لِصَبٍّ مُسْتَهَامٍ (١) قَرِيحِ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ الْمَزُونَا (٢)
لِمَـــــانَ على المهلّب ما لَقِينا إذا ما راح مسروراً بَطِينــــا (٣)
يَجُرُّ الســـابِرِيَّ وَنَحْنُ شُعْثٌ كأَنَّ جلودنا كُسِيَتْ طَحِينــــا (٤)

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف ؛ وكان من أنجد فُرسان الخوارج ؛ فطعنه فدقّ صلبه ؛ وقال :

قيس الإكافِ غَدَاةَ الرَّوْعِ يَعْلَمُنِي ثَبْتَ الْمَقامِ إذا لاقيتُ أَقْرَانِي

وقد كان بعض جيش المهلب يوم سِلَّى وسِلَّبْرى صاروا إلى البصرة ، فذكروا أنّ المهلب قد أُصيبَ ، فهمّ أهل البصرة بالنُّقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابُه بظَفَرِه ، فأقام الناس ؛ وتراجع مَنْ كان ذهب منهم ؛ فعند ذلك قال الأحنف : البَصْرة بَصْرة المهلّب . وقدم رجل من كِندة يعرف بابن أرقم ، فنعى ابنَ عمّ له ، وقال : إنى رأيت رجلاً من الخوارج ، وقد مكّن رمحه من صُلبه ، فلم ينشب أنْ قدم المنعىّ سالما ، فقيل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم ، لمّا أحسستُ برمحه بين كتفيّ صِحْت به: البَقِيّة ، فرفعه ، وتلا: ﴿ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) ووجّه المهلّب بعقب هذه الوقعة رجلاً من الأزْد ، برأس عبيدالله بن بشير بن الماحُوز إلى الحارث بن عبدالله ، فلما صار بكَرْبج (٦) دينار لقيته إخوة عبيد الله : حَبيب وعبد الملك وعلىّ بنو بشير بن الماحُوز

---

(١) الكامل : « مستحن » ، من استحنه الشوق إلى وطنه ؛ أى استطربه .

(٢) قال المبرد : المزون : عمان ؛ وهو اسم من أسمائها ، قال الكميت :

فأَمَّا الأَزْدُ أَزْدُ بنى سَعِيدٍ فأَكْرَهُ أن أُسَمِّيَهَا الْمَزُونَا

وقال جرير :

وأَطْفَأْتَ نيرانَ المزونِ وأهلَهَا وَقَدْ حاولوها فِتْنَةً أن تَسَعَّرَا

(٣) البطين : عظيم البطن

(٤) السابرى من الثياب : ما كان رقيقا .

(٥) سورة هود ٨٦

(٦) كربج : موضع قرب سوق الأهواز .

فقالوا : ما الخبر ؟ وهو لا يعرفهم ؛ فقال : قتل الله ابن الماحُوز المارق ، وهذا رأسُه معى ، فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه، ودفنوا رأس أخيهم عُبيد الله ، فلما ولِيَ الحجاج دخل عليه علىّ ابن بشير ، وكان وَسيما جسيما ، فقال : مَنْ هذا ؟ فخبّره ، فقتله ووهب ابنَه الأزهر وابنتَه لأهل الأزدىّ المقتول ، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة ، فوهبوهما لها .

***

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الكامل " [1] : ولم يزل المهلّب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث القُباع ، حتى عُزل وولىَ مصعب بن الزبير ، فكتب إلى المهلّب أن أقدِم علىّ ، واستخلف ابنَك المُغيرة . ففعل بعد أن جمع الناس ، وقال لهم : إنّى قد استخلفتُ المغيرة عليكم ، وهو أبو صغيركم رقّةً ورحمةً ، وابنُ كبيركم طاعةً وبِرًّا وتبجيلا ، وأخو مثله مواساةً ومناصحة ، فلتحسُنْ له طاعتُكم ، وليلِنْ له جانبُكم ، فوالله ما أردتُ صوابًا قطّ إلا سبقنى إليه .

ثم مضى إلى مصعب ، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك إن لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليت [2] ، فشمّر واتّزر [3] ، وجِدّ واجتهد .

ثم شَخَص المصعب إلى المَزار ، فقتل أحمر بن شُمَيط ، ثم أتى الكوفة فقتل المختار ، وقال للمهلب : أشِرْ علىّ برجل أجعله بينى وبين عبد الملك ، فقال له : اذكر واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عُطارد الدارمىّ ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكىّ، أو داود ابن قَحْذَم ، قال : أوْ تكفينى أنت ؟ قال : أكفيك إن شاء الله . فشخص فولّاه الموصل فخرج إليها ؛ وصار مُصعب إلى البصرة لينفِر إلى أخيه بمكة . فشاور الناس فيمن يستكفيه

---

(١) الكامل ٦٤٣ وما بعدها (طبع أوربا) .
(٢) الكامل : « وليتك »
(٣) الكامل : « واتزر »

أمرَ الخوارج ، فقال قوم : وَلِّ عبد الله بن أبي بَكْرة ، وقال قوم : وَلِّ عمر بن عبيدالله بن معمر ، وقال قوم : ليس لهم إلّا المهلّب فاردده إليهم ؛ وبلغت المشورةُ الخوارج فأداروُا الأمر بينهم ، فقال قطريّ بن الفُجاءة المازنيّ — ولم يكن أمّروه عليهم بَعْد — : إن جاءكم عبدالله بن أبي بَكْرة أتاكم سَيّدٌ سَمْح كريم جواد مُضيع لعسكره ، وإن جاءكم عُمر بن عبيد الله أتاكم فارس شُجاع ، بطل جادّ ، يقاتل لدينه ولملكه ، وبطبيعة لم أرَ مثلها لأحد ؛ فقد شهدته في وقائع ؛ فما نُودِيَ في القوم لحربٍ إلا كان أولَ فارس ؛ حتى يَشُدّ على قِرنه ويضربه ؛ وإن رُدّ المهلّب فهو مَنْ قد عرفتموه ، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه إذا أرسلتموه ، ويُرسله إذا مددتموه ، لا يبدؤكم إلا أن تبدءوه ؛ إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبِرّ[1] ، والثعلب الرّواغ ، والبلاء المقيم .

فولّى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، وولّاه فارس ، والخوارجُ بأرّجان يومئذ ، وعليهم الزَّبير بن عليٍّ السَّليطيّ ، فشخص إليهم فقاتلهم ، وألحّ عليهم حتى أخرجهم منها ، فألحقهم بأصبهانَ ، فلما بلغ المهلب أنّ مصعبا ولّى حربَ الخوارج عمرَ بن عبيدالله ، قال : رماهمْ بفارس العرب وفتاها . فجمع الخوارج له ، وأعدّوا واستعدّوا ، ثم أتوا سابور[2] . فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن أبي حَسّان الأزديّ : إنّ المهلب كان يُذكى العيون ، ويخاف البَيات ، ويرتقب الغَفْلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر : اسكُتْ ، خلَع الله قلبَك ! أتراكَ تموتُ قبلَ أجلِك ! وأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيّته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشيء . فأقبل على مالك بن أبي حسان ، فقال : كيف رأيت ؟ فقال : قد سلّم اللهُ ، ولم يكونوا

---

(١) المبر : الغالب ؛ من أبر عليه ؛ إذا غلبه .

(٢) سابور : كورة مشهورة بأرض فارس ، بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً .

يطمعُون فى مثلِهـا من المهلّب ، فقال : أما إنّـكم لو ناصحتُمونى مناصحتَـكم المهلّب ، لرجوت أنْ أنفِيَ هذا العدوّ ، ولـكنّـكم تقولون: قرشىّ حجازىّ ، بعيدُ الدار خيرُه لغيرنا ، فتقاتلون معى تعذيراً (١) . ثم زحف إلى الخوارج من غَد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ ، فتـكاثف الناسُ عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها (٢) ، ثم عبَر ، وتقدّم ابنه عبيدُ الله بن عمر ـ وأمّه من بنى سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب ـ فقاتلهم حتى قُتِل ، فقال قطرىّ للخوارج : لاتقاتلوا عُمَر اليوم ؛ فإنه موتور ، قد قتلتم ابنَه ـ ولم يعلم عمرُ بقتلِ ابنه حتى أفضى إلى القوم ؛ وكان مع ابنه النّعمان بن عباد ـ فصاحَ به عمر : يانعمان ، أين ابنى ؟ قال : احتسِبْه فقد استشهد صابراً مقبلاً غـير مدبر ؛ فقال : إنا لله وإنّا إليهِ رَاجِعون ! ثم حَمَل على الخوارج حملة لم يُرَ مثلُها ، وحمل أصحابُه بحملته ؛ فقتلوا فى وجههم ذلك تسعين رجلا من الخوارج ، وحملَ على قَطَرِىّ فضربَه على جبينه ففلَقه ، وانهزمت الخوارجُ وانتهبها ؛ فلما استقرّوا وراءى مانزلَ بهم ، قال : ألم أشِرْ عليكم بالانصراف ! فجعلوه حينئذ من (٣) وجُوهِهم ؛ حتى خرجوا من فارس ، وتلقّاهم فى ذلك الوقت الفِزْر بن مِهزم العبدىّ ، فسألوه عن خبره ، وأرادوا قتله ، فأقبل على قطرىّ ، وقال: إنى مؤمن مهاجر ؛ فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها ؛ فخلَّوْا عنـه ، ففى ذلك يقول فى كلمة له :

فشدّوا وَثاقى ثم ألجوا خُصُومَتى   إلى قطرىّ ذِى الجبين المفلَّقِ
وحاججْتُهم فى دينهم فحججْتُهُمْ   وما دينهم غيرُ الهوَى والتخلّقِ

ثم رجعوا وتـكاثفوا (٤) ، وعادوا إلى ناحيـة أرّجان ، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ، وكَتب إلى مصعب :

(١) تعذيرا ؛ أى تقاتلون معى من غير تمام أو مبالغة .

(٢) ج : « فأصلحها » .

(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج والكامل بحذف كلمة « من » .

(٤) فى زيادات الأخفش على الكامل : « تكاثفوا ؛ أعان بعضهم بعضا واجتمعوا وصار بعضهم فى كنف بعض » .

أما بعد ، فإنى لقيت الأزارقة ؛ فرزق الله عزّ وجل عُبيدالله بن عمر الشهادة ،ووهب له السعادة ، ورزقنا بعدُ عليهم الظَّفَر ، فتفرقوا شَذَر مَذَر(١) . وبلغنى عنهم عودةٌ فيمَّمْتُهم ؛ وبالله أستعين ؛ وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ، ومُجَّاعة بن سِعْر فالتقوا ، فألحّ عليهم عمر حتى أخرجهم ، وانفرد من أصحابه ، فعمد إلى أربعة عشر رجلا من مَذْكوريهم وشجعانهم ؛ وفى يده عمود ، فجعل لايضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرّعه ، فركض إليه قطرىّ على فرس طِمِرّ(٢) ، وعمر على مُهر ، فاستعلاه قطرىّ بقوة فرسه ؛ حتى كاد يصرعُه ، فبَصُرَ به مجّاعة ، فأسرع إليه ، فصاحت الخوارج : ياأبا نعامة ، إنّ عـدوّ الله قد رَهِقك(٣) . فانحط قطرىّ على قَرَبُوسه وطعنـه مُجّاعة ؛ وعلى قطرىّ دِرْعان فهتـكهما وأسرع السِّنان فى رأس قطرِىّ ، فكشط جلدَه ونجا ، وارتحل القوم إلى أصفهان ، فأقاموا بُرهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصطَخر(٤) ، فأمر مُجّاعة بجبى الخراج أسبوعا ؛ فقال له : كم جبيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هى لك .

وقال يزيد بن الحكم لمجّاعة :

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ فأجَبْتَهُ ... عُمَرٌ وقد نَسِيَ الحياةَ وَضَاعَا(٥)
فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الكَتِيبةِ عَنْ فَتًى ... قد كادَ يُتْرَكُ لَحْمُهُ أوْزَاعا(٦)

قال : ثم عُزِل مُصْعَبُ بن الزُّبير ؛ وولّى عبدُ الله بن الزبير العراقَ ابنه حمزة

(١) شذر ، مذر ؛ بالتحريك فيهما : ذهبوا فى كل وجه ؛ ومذر : إتباع .
(٢) فرس طمر ؛ هو الطويل القوائم الخفيف ، أو هو المستفز للوثب والعدو ؛ والأنثى طمرة .
(٣) رهقك : غشاك .
(٤) إصطخر : بلد من أعيان بلاد فارس .
(٥) المرهق : هو الذى أدرك ليقتل ؛ من أرهق الرجل إذا قتله . و « عمر » فاعل : « دعاك » .
(٦) العادية : الخيل تعدو ، أو الرجال يعدون . وأوزاعا : قطعا .

ابن عبد الله بن الزبير ؛ فمكث قليلا ؛ ثم أعيد مُصعب إلى العراق ، والخوارج بأطراف أصبهان ، والوالى عليها عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ ؛ فأقام الخوارج هناك يجبون شيئا من القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس ؛ فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيدالله : ماأنصفتنا ! أقمتَ بفارس تَجْبِي الخراج ؛ ومثل هذا العدوّ يجتاز بك لاتحاربه ! والله لوقاتلتَ ثم هُزِمت لكان أعذَرَ لك !

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم ؛ وأقبل عمرُ بن عبيدالله يريدهم ، فتنحّى الخوارج إلى السُّوس ، ثم أتوا إلى المدائن ؛ وبسطوا فى القتل ؛ فجعلوا يقتلون النساء والصبيان ؛ حتى أتوا المذار[1] ؛ فقتلوا أحمر طيّئ ؛ وكان شجاعا ، وكان من فرسان عُبيد الله بن الحرّ ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

تَرَكْتُمْ فَتَى الْفِتْيَانِ أَحْمَرَ طَيِّئٍ بِسَابَاطَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ[2]

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادَها ـ وواليها الحارث القُباع ـ تثاقل عن الخروج ، وكان جبانا ؛ فذَمَره[3] إبراهيم بن الأشتر ، ولامه الناس ؛ فخرج متحاملا حتى أتى النُّخيلة ، فى ذلك يقول الشاعر :

إنّ القُباع سارَ سَيْراً نُكْرَا يَسِيرُ يوماً ويُقِيم عَشْرا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ؛ والخوارج يَعيثون ؛ حتى أخذوا امرأة ، فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلها ، فقالت : أتقتلون مَنْ يُنَشَّأ فى الحِلْيَة وهو فى الخصام غير مبين ! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنتْك ، ثم قدموها فقتلوها .

---

(١) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة .

(٢) ساباط : موضع بالمدائن ؛ يقال له : ساباط كسرى .

(٣) ذمره ، أى حضه مع لوم ليجد .

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُباع ، والجسْر معقود بينهم ؛ فقطعه القُباع وهو في ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهي تُقْتل ؛ وتقول : علام تقتلونَني ! فوالله مافسَقْت ، ولا كَفَرت ، ولا زَنَيْت [1] ، والناس يتفلّتون إلى القتال ، والقُباع يمنعهم .

فلما خاف أن يعصُوه أمر عنـد ذاك بقَطْع الجسر ، فأقام بين دَبيرى ودَباها [2] خمسة أيام ، والخوارج بقُرْبه ، وهو يقول للناس في كل يوم : إذا لقيتُم العدوّ غـدا ، فأثْبتوا أقدامَـكم واصبروا ؛فإن أوّل الحرب الترامِي، ثم إشراع الرِّماح ، ثم السلّة [3] ؛ فثكلت رجلا أمُّه فرّ من الزحف !

فقال بعضهم لما أكثر عليهم : أما الصِّفَة فقد سمعناها ، فمتى يقع الفعل ؟

وقال الراجز :

إن القُبَاعَ سَارَ سَيْراً ملْسَا [4] ۔ بَيْنَ دَبَاها ودَبِيرَى خمسا

وأخذ الخوارج حاجتَهم ، وكان شأن القُباع التحصُّنَ منهم ؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ؛ وساروا من فورهم إلى أصبهان ،فبعثَ عتّاب بن وَرْقاء الرياحيّ إلى الزُّبير بن علي : أنا ابنُ عمّك ، ولست أراك تقصد في انصرافك من كلّ حَرْب غيري . فبعث إليه الزبير : إنّ أدنَى الفاسقين وأبعدَهم في الحقّ سواء .

فأقام الخوارجُ يُغَادُونَ عتّاب بن وَرْقاء القتال ويُراوِحُونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا بكبير شيء ؛ فلما كثُر عليهم ذلك انصرفوا ؛ لايمرّون بقرية بين أصبهان والأهواز إلا استباحوها ، وقتلوا مَنْ فيها . وشاوَر المُصعَبُ النّاس فيهم ؛ فأجمع رأيُهم على

---

(١) الكامل : « ارتددت » .

(٢) دبيرى ودباها ، بفتح الدال فيهما : قريتان من نواحي بغداد .

(٣) السلة : استلال السيوف .

(٤) الملس : السير الشديد .

المهلّب، فبلغ الخوارج مُشاوَرتُهم ؛ فقال لهم قَطَرِىّ : إنْ جاءكم عتّاب بن وَرْقاء ؛ فهو فاتِكٌ يطلع فى أول المِقْنَب[1] ولا يظفَر بكثير[2] ، وإن جاءكم عمر بن عُبيدالله ففارس يُقْدِم ؛ إما عليه وإمّا لَهُ ؛ وإن جاءكم المهلّب فرجلٌ لا يُناجِزُكم حتى تُناجزوه ؛ ويأخذُ منكم ولا يُعطيكم ؛ فهو البَلاء اللازِم ، والمكروه الدائم .

وعزم مُصعَب على توجيه المهلّب ، وأن يشخَص هو لحرب عبد الملك . فلما أحسّ به الزُّبير خرج إلى الرَّىّ ـ وبها يزيد بن الحارث بن رويم ـ فحارَبه ثم حصَره ؛ فلما طال عليه الحِصار خرج إليه ؛ فكان الظَّفَرُ للخوارج ، فقتل يزيد الحارث بن بن رُوَيم ؛ ونادى يزيد ابنه حَوْشبا ، ففرّ عنه وعن أمّه لطيفة [وكان علىّ بن أبى طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد ، فقال : عندى جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك ، فسمّاها يزيد لطيفة][3] ، فقتِلت مع بَعْلها[4] يزيد يومئذ . وقال الشاعر :

مواقِفُنا فى كلِّ يوم كَرِيهَةٍ ... أسَرّ وأشْفَى مِنْ مواقِف حَوْشَبِ
دعاه أبوهُ والرِّماح شَوَارِعٌ[5] ... فلم يستجِبْ بل رَاغ تَرْوَاغَ ثَعلَبِ
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أوْذا حَفِيظَةٍ ... رَأى ما رأى فى الموت عِيسى بنُ مُصْعَبِ

وقال آخر :

نَجّى حَلِيلَته وأسْلَمَ شَيْخَهُ ... نَصَبَ الأسِنَّة حَوْشَبُ بْنُ يَزِيدِ[6]

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .
(٢) كذا فى ا ، ج . وفى ب والكامل : « بكبير » .
(٣) تكملة من كتاب الكامل .
(٤) الكامل : « فقتلت معه » .
(٥) كذا فى ا ، ج والكامل ، وفى ب : « تنوشه » .
(٦) نصب الأسنة ؛ أى عاقتها .

قال : ثم[١] انحطّ الزُّبير على أصفهان ، فحصر بهـا عتّاب بن ورقاء سبعة أشهر ، وعتّاب يحاربه فى بعضهنّ ؛ فلما طال به الحِصار قال لأصحابه : ما تنتظرون ! والله ماتُؤتَوْن من قِلّة ؛ وإنكم لَفُرْسان عشائركم ؛ ولقد حاربتموهم مرارا فانتصفتم منهم ؛ وما بَقِيَ مع هذا الحصـار إلا أن تَفْنَى ذخائركم ، فيموتَ أحدكم ، فيـدفِنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجدُ مَنْ يدفنه ؛ فقاتلُوا القوم وبكم قُوّة من قبل أن يَضْعُفَ أحدُكم عن أن يمشيَ إلى قِرْنه .

فلـما أصبح صلّى بهم الصبح ؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون[٢] ، وقد نصبَ لواء لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : مَنْ أراد البقاء فليلْحق بلواء ياسمين ؛ ومن أراد الجهاد فليخرج معى ؛ فخرج فى ألفين وسبعمائة فارس ؛ فلم يشعر بهم الخوارج حتى غَشُوهم ، فقاتلوهم بجدّ لم تر الخوارجُ منهم مثله ؛ فعقروا منهم خَلْقا كثيرا وقُتل الزبير بن علىّ ، وانهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتّاب ، ففى ذلك يقول القائل :

وَيَوْمٌ بجَيٍّ تلافيتَه[٣] وَلَوْلاكَ لاصْطُلِمَ العَسْكرُ[٤]

وقال آخر :

خَرَجْتُ من المدينة مُسْتَميتاً ولم أكُ فى كَتيبةِ ياسَمِينـــا

---

(١) فى الكامل قبل هذا الكلام : « وقال ابن حوشب لبلال بن أبى بردة يعيره بأمه ــ وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يابن حوراء ! فقال بلال ــ وكان جلدا : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة . وزعم الكلبى أن بلالا كان جلدا حيث ابتلى . قال الكلبى : ويعجبنى أن أرى الأسير جلداً . قال: وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف : الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهد ركنك ، وغير حالك ؛ فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفاً بالشريف ، مظهرا للعصبية ؛ فقال له بلال : إنما طال لسانك يا خالد لثلاث معك هن على : الأمر عليك مقبل وهو عنى مدبر ؛ وأنت مطلق وأنا مأسور ، وأنت فى طينتك وأنا فى هذا البلد غريب ــ وإنما جرى إلى هذا لأنه يقال : إن أصل آل الأهتم من الحيرة ، وأنهم أشابة دخلت فى بنى منقر من الروم » .

(٢) غارون : غافلون .

(٣) جى : اسم مدينة كانت ناحية أصبهان ، والبيت لأعشى همدان (ياقوت) .

(٤) اصطلم : أبيد .

أَلَيْسَ مِنَ الفضائل أنّ قومي غدَوْا مستلئمين مجاهدينـــا[(١)]

قال : وتزعم الرواة أنّهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون ، ويحمل بعضُهم على بعض، وربما كانت مُواقَفَة[(٢)] بغير حَرْب ، وربما اشتدّت الحرب بينهم ؛ وكان رجلٌ من أصحاب عتّاب ـ يقـال له : شريح ، ويكنى أبا هُرَيرة ـ إذا تحاجَزَ[(٣)] القومُ مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن عليّ :

يابنَ أبي الماحُوز والأشرارِ كَيفَ تَرَوْنَ يا كِلابَ النّارِ
شــدَّ أبي هُرَيْرَةَ الهرّارِ يَهُرُّكُمْ باللّيــل والنّهارِ
ألم ترَوا جَيًّا على المِضمار تُمْسى من الرّحمن في جِوَارِ

فغاظهم ذلك، فكمَن له عبيدة بن هِلال، فضربه بالسّيف، واحتمله أصحابه ،وظنت الخوارج أنه قد قتل؛ فكانوا إذا توافقوا نادوهم: مافعل الهرّار ؟ فيقولون: مابه من بأس ؛ حتى أبلّ من عِلّته، فخرج إليهم، فقال : يا أعداءالله ، أترون بي بأسا ؟ فصاحوا به:قد كنا نرى أنك قد لحِقت بأمّك الهاوية ، إلى النار الحامية .

***

[قطريّ بن الفُجاءة المازنيّ]

ومنهم قَطَرِيّ بن الفجاءة المازني ، قال أبو العباس[(٤)] :

لما قتِل[(٣)] الزّبير بن عليّ أدارت الخوارجُ أمرَها، فأرادوا توليَةَ عبيدة بن هلال ؛ فقال: أدلّكم على مَنْ هو خيرٌ لكم مني ؟ مَنْ يطاعِن في قُبُل ، ويحمى في دُبُر ؛ عليكم

(١) مستلئمين : لابسين اللأمة ؛ وهي الدرع ، وفي ج : « مستسلمين » .
(٢) الموافقة في الحرب والخصومة : أن يقف كل من الطرفين أمام الآخر .
(٣) ج : « تأخر » .
(٤) الكامل ٦٥٢ وما بعدها (طبعة أوربا) .

بقَطَرِيّ بن الفُجاءة المازنيّ . فبايعوه . وقالوا : ياأمير المؤمنين ؛ امض بنا إلى فارس، فقال: إنّ بفارس عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ ولكن نسير إلى الأهواز ؛ فإن خرج مُصعب من البصرة دخلناها، فأتوا الأهواز ثم ترفّعوا عنها على إيذَج (١) ـ وكان المُصعب قد عَزَم على الخروج إلى باجُميرا (٢) ـ وقال لأصحابه : إنّ قَطَريًّا لمُطلّ علينا ؛ وإن خرجنا عن البصرة دخلها ، فبعث إلى المهلّب فقال : اكفِنا هذا العدوّ ؛ فخرج إليهم المهلّب ؛ فلما أحسّ به قطريّ يمّم نحو كِرْمان ، وأقام المهلّب بالأهواز ، ثم كرّ عليه قَطَريّ ، وقد استعدّ ، وكانت الخوارج في حالاتهم أحسَن عُدّة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب ، وحَصَانة الجُنَن (٣) فحارَبَهُم المهلّب ، فدفعهم فصاروا إلى رَامَهُرْمُز ؛ وكان الحارث بن عُميرة الهمدانيّ قد صار إلى المهلب مراغمًا لعتّاب بن ورقاء، ويقال : إنه لم يُرضِه عن قتله الزبيرَ بن عليّ، وكان الحارث بن عُميرة ، هو الذى قتله وخاض إليه أصحابه ،ففي ذلك يقول أعشى هَمْدان :

إنّ المكارِمَ أكمِلَتْ أسبابُها ... لابن اللّيوثِ الغُرّ مِنْ هَمْدَانِ (٤)

للفارسِ الحامِي الحقيقة مُعلِماً ... زادِ الرِّفاق وفارس الفُرْسان (٥)

(١) إيذج ، بكسر الهمزة وفتح الذال : بلد بين خوزستان وأصبهان .

(٢) باجميرا ، بضم الجيم وفتح الميم وياء ساكنة : موضع دون تكريت .

(٣) الجنن : جمع جنة ؛ وهى الدرع .

(٤) ديوان الأعشين ٣٤٣ ، وروايته : « من قحطان » ، وهى رواية الكامل أيضا .

(٥) ديوان الأعشين والكامل : « زاد الرفاق إلى قرى نجران » ؛ قال المبرد : وتأويله أن الرفقة إذا صحبها أغناها عن التزود ؛ كما قال جرير ـ وأراد ابن له سفرا ، وفى ذلك السفر يحيى بن أبي حفصة ؛ فقال لأبيه : زودني ؛ فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريد وصاحباً ... ألا إن يحيى نعم زاد المسافرِ

فماتُنكِرُ الكوماءُ ضربةَ سيفهِ ... إذا أرملوا أو خَفَّ ما في الغرائرِ

وزاد في الديوان بعد هذا البيت :

حتى تداركَهُمْ أغرُّ سَمَيْدَعٌ ... فحماهُمُ إن الكريمَ يمانِ

الحارث بن عَميرةَ الليث الَّذِى يحمى العراق إلى قُرَى نَجْران[1]

وَدَّ الأزارقُ لو يصابُ بطعنـةٍ ويموتُ مِنْ فرسانهم مائتـــان

قال أبو العباس : وخرج مُصعب إلى باجُمَيْرا ، ثم أتى الخوارج خبرُ مقتله بمَسْكِن ، ولم يأتِ المهلّب وأصحابه، فتواقفوا يوما برامَهُرْمُز على الخندق، فناداهم الخوارج :ماتقولون فى مُصعب؟ قالوا : إمام هدًى ، قالوا : فما تقولون فى عَبْد الملك ؟ قالوا: ضالٌّ مضلٌّ ،فلما كان بعدَ يومين أتى المهلّبَ قتلُ المصعب؛ وأنّ أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك،وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته ؛ فلما تواقفوا ناداهم الخوارج : ماتقولون فى المصعب؟قالوا : لانخبركم ،قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى ، قالوا : يا أعداء الله، بالأمس ضالٌّ مضلٌّ ، واليوم إمام هدى ! يا عبيدَ الدنيا عليكم لعنة الله !

***

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " الأغانى الكبير " ، قال :[2] كان الشُراة والمسلمون فى حرب المهلّب وقطرىّ يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك ، على أمان وسكون ، لا يهيج بعضُهم بعضا ، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، وأبو حُزابة[3] التميمىّ ، فقال عبيدة : يا أبا حُزابة ، إنى أسألك عن أشياء، أفتصدُقنى عنها فى الجواب ؟ قال : نعم ، إن ضمنت لى مثلَ ذلك ، قال : قد فعلت،قال : فسَلْ عمّا بدالك ، قال : ماتقولون فى أئمتكم ؟ قال : يبيحون الدم الحرام، قال :ويحك ! فكيف فعلُهم فى المال ؟ قال : يَجبُونه من غير حلّه ، ويُنفقونه فى غير وجهه ، قال : فكيف فعلُهم فى اليتيم؟ قال : يظلمونه ماله ، ويمنعونه حقّه، ويَنيكون أمّه ، قال:ويحك يا أبا حُزابة ! أمثل هؤلاء تتّبع ! قال : قد أجبتك ، فاسمع سؤالى ، ودع عتابى على رأيى،

(١) الديوان : « إلى قرى كرمان » .
(٢) الأغانى ٦ : ١٤٩ وما بعدها (طبعة الدار) .
(٣) هو الوليد بن حنيفة أحد شعراء الدولة الأموية .

قال : سل ، قال: أىّ الخمر أطيب، خمر السّهل أم خَمْر الجبل ؟ قال : ويحك ! أمثلى يُسألُ عن هذا ! قال : قد أوجبتَ على نفسك أن تجيب ، قال : أمّا إذ أبيت ؛ فإنّ خمر الجبل أقوى وأسكر ، وخمر السهل أحسن وأسلس ، قال : فأىّ الزّوانى أفره ؟ أزوانى رَامَهُرمز ، أم زوانى أرّجان ؟ قال : ويحك ! إنّ مثلى لا يسأل عن هذا ، قال : لا بدّ من الجواب أو تقـدير .

قال: أمّا إذ أبيت فزوانى رَامهُرمز أرقّ أبشارا، وزوانى أرّجان أحسن أبدانا .قال : فأىّ الرجلين اشعر ، جرير أم الفرزدق ؟ قال : عليك وعليهما لعنة الله ، قال : لا بدّ أن تجيب ، قال : أيّهما الذى يقول :

وطوى الطِّرادُ مع القِياد بطونَها ... طَىَّ التِّجار بحضْرَمَوْتَ بُرودا

قال : جرير ، قال : فهو أشعرُهما .

قال أبو الفرج : وقد كان الناسُ تجادلوا فى أمر جرير والفرزدق فى عسكر المهلّب ؛ حتى تواثبوا ، وصاروا إليه محكَّمين له فى ذلك ، فقال : أتريدون أن أحكم بين هذين الكلبين المتهارشين، فيمضغانى ! ما كنت لأحكم بينهما ، ولكنى أدلّكم على مَنْ يحكم بينهما ، ثم يهونُ عليه سِبابهما ، عليكم بالشُّراة ، فاسألوهم إذا تواقفتم ؛ فلما تواقفوا سأل أبو حُزابة عبيدة بن هلال عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب .

***

وروى أبو الفرج أنّ(١) امرأةً من الخوارج كانت مع قطرىّ بن الفُجاءة ، يقال لها أمّ حكيم ، وكانت مِنْ أشجع الناس وأجملهم وجها ، وأحسنهم بالدِّين تمسكا ، وخطبها

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ (طبعة الدار) .

جماعة منهم فردّتهم ولم تجبهم ؛ فأخبر مَنْ شاهدها فى الحرب أنّها كانت تحمل على الناس وترتجز ، فتقول :

أحمِلُ رأساً قد سَئِمتُ حَمْلَهْ وقد مَلِلتُ دَهْنَهُ وغَسْلَهْ

* ألا فتًى يَحْمِلُ عنّى ثِقْلَهْ *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمّهات ؛ فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها .

***

وروى أبو الفرج (١) ، قال : كان عبيدة بن هلال ، إذا تكافّ الناسُ ناداهم : ليخرجْ إلىّ بعضُكم ؛ فيخرج إليه فِتيانٌ من عَسْكر المهلّب ؛ فيقول لهم : أيّما أحبّ إليكم ؟ أقرأ عليكم القرآنَ أم أنشِدكم الشِّعر ؟ فيقولون له : أمّا القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ؛ ولكن تنشدنا ، فيقول : يافَسَقة ؛ قد واللهِ علمت أنّكم تختارون الشعر على القرآن ! ثم لايزال يُنشِدُهم ويستنشدهم حتى يملّوا ويفترقوا .

***

قال أبو العباس (٢) : وولّى خالد بن عبد الله بن أَسِيد فقدم فدخلَ البصرة ، فأرادعزل المهلّب ، فأشير عليه بألّا يفعل ؛ وقيل له : إنّما أمِنَ [أهل] (٣) هذا المِصْر ؛ لأن المهلّب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ؛ فقد تنحّى عمر ، وإن نحّيتَ المهلّب لم تأمَنْ على البصرة . فأبى إلّا عَزْله ، فقدم المهلّب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ؛ فاستصحبه (٤) ، فلما صار بكَرْبَج دينار لقيه قطرىّ ، فمنعه حطّ أثقاله ، وحاربه ثلاثين يوما .

ثم أقام قطرىّ بإزائه ، وخندقَ على نفسه ، فقال المهلّب لخالد : إنّ قَطريًّا ليس

(١) الأغانى ٦ : ١٥١ (طبعة الدار)
(٢) الكامل ٦٠٤ (طبعة أوربا) .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل : «فأشخصه» .

بأحقّ بالخندق منك ، فعبر دُجَيلا إلى شقّ نهر تِيرَى ، واتبعه قطرىّ فصار إلى مدينة نهر تِيرَى ، فبَنَى سورَها ، وخندق عليها ، فقال المهلّب لخالد : خَنْدق على نفسك ، فإنى لاآمنُ البَيات ، فقال : ياأبا سعيد ، الأمر أعجل من ذاك ، فقال المهلّب لبعض ولده : إنى أرَى أمراً ضائعا، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فخندَق المهلّب على نفسه[1] ، وأمر بسفنه ففرّغَتْ ، وأبى خالد أن يفرّغ سفنَه ، فقال المهلّب لفيروز حصين : سِرْ معنا؛ فقال : ياأبا سعيد ، إن الحزم ماتقول ، غير أنى أكره أنْ أفارق أصحابى ، قال : فكن بقُرْبنا ، قال : أمّا هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتبَ إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف ، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ففعل ، فقدِم عليه عبد الرحمن ، فأقام قَطَرِىّ يُنادِيهم القتال ويُراوِحهم أربعين يوما ؛ فقال المهلّب لمولى لأبى عيينة : سِرْ[2] إلى ذلك الناوس ، فبِتْ عليه كلّ ليلة، فمتى أحسست خبَراً للخوارج ، أو حركةً أو صهيلَ خيل، فاعجَل إلينا .

فجاءه ليلة ، فقال : قد تحرّك القومُ ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعدّ قَطَرِىٌّ سفنا فيها حطب وأشعلها ناراً ، وأرسلها على سُفن خالد ، وخرج فى أدبارها حتى خالَطهم ، لايمرُّ برجلٍ إلا قتَلَه ، ولا بدابّة إلا عقَرها ، ولا بفُسطاط إلا هَتَكه ؛ فأمر المهلّب يزيد ابنه ، فخرج فى مائة فارس . فقاتل ، وأبلَى عبدُ الرحمن بن محمد ابن الأشعث يومئذ بلاء حسنا ، وخرج فيروز حصين فى مواليه ؛ فلم يزل يرميهم بالنُّشّاب هو ومن معه ، فأثّر أثراً جميلا ، وصُرِع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصُرِع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ؛ فحامى عنهما أصحابُهما حتى ركبا ، وسقط فيروز حُصين فى

---

(١) كذا فى الأصول ، وهى ساقطة من الكامل .

(٢) كذا فى ب ، وفى ج : « شد » ، وفى الكامل : « انتبذ » ، أى سر إليه منفردا . والناوس فى الأصل : مقابر النصارى .

الخندق ، فأخذ بيده رجل من الأزد ؛ فاستنقذه ؛ فوهب له فيروز عشرة آلاف ، وأصبح عسكر خالد كأنه حرّة سوداء[١] ، فجعل لا يرى إلا قتيلا أو جريحا ؛ فقال للمهلب : يا أبا سعيد ، كدنا نفتضح ! فقال : خَنْدِق على نفسك ؛ فإن لم تفعل عادوا إليك ، فقال : اكفنى أمرَ الخندق ، فجمع له الأخماس[٢] فلم يبق شريف إلا عمل فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحر المَزُونى ، لكان الله قد دمَّر عليكم ـ وكانت الخوارجُ تسمّى المهلّب الساحر ـ ، لأنهم كانوا يدبّرون الأمرَ فيجدون المهلّب قد سبق إلى نقض تدبيرهم .

وقال أعشى همْدان لابن الأشعث، يذكّره بلاء القحطانيّة عنده ؛ فى كلمة طويلة[٣] :

وَيَوْمَ أهوازِكَ لَا تَنْسَهُ ... ليس الثنا والذِّكْرُ بالبائد

ثم مضى قَطَرِىٌّ إلى كِرْمان ؛ وانصرف خالد إلى البصرة ؛ وأقام قطرىّ بِكِرْمان شهراً ، ثم عمد لفارس ، فخرج خالد إلى الأهواز وندَب الناس للرحيل ؛ فجعلوا يطلُبون المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلّب بحظ هذا المِصْر ؛ إنى قد ولّيت أخى قتال الأزارقة . فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلّب على الأهواز فى ثلاثمائة ؛ ومضى عبد العزيز والخوارج بدرا بجِرِد وهو فى ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : يزعم أهلُ البصرة أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلا بالمهلّب ؛ سيعلمون !

قال صقعب[٤] بن يزيد : فلمّا خرج عبد العزيز عن الأهواز ، جاءنى كُرْدُوس ،

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سوداء نخرة ؛ كأنما أحرقت بالنار .
(٢) الأخماس : هم جند البصرة .
(٣) ديوان الأعشين ٣٤ ؛ ومطلعها :

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ عفَا رَسْمُهَا ... بالحضْرِ فالروضة من آمدِ
دارٌ لخَوْدٍ طفلةٍ رُوْدَةٍ ... بانتْ فأمسَى حبْلُها عامدِى

(٤) الكامل : « صعب بن زيد » .

حاجب المهلّب ، فدعانى ، فجئت إلى المهلب وهو فى سطح ، وعليه ثياب هَرَوِيّة ، فقال : ياصَقْعب ؛ أنا ضائع كأنى أنظر إلى هزيمة عبـد العزيز ، وأخشى أن توافيَنى الأزارقة ولا جند معى ، فابعث رجلا من قِبَلك يأتينى بخبرهم سابقا إلىّ به ، فوجّهت رجلاً من قِبَلى يقال له عمران بن فلان ؛ وقلت له : اصحب عسكر عبد العزيز ، واكتب إلىّ بخبر يوم فيوم ؛ فجعلت أورده على المهلّب ، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له الناس : هذا منزل ، فينبغى أن تنزِل فيه أيّها الأمير ؛ حتى نطمئنّ ثم نأخذ أهبّتنا ، فقال : كلاّ ، الأمر قريب ؛ فنزل الناس عن غير أمره ، فلم يستتمّ النزول ؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع فى خمسمائة فارس ؛ كأنهم خَيْط ممدود ، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، واتّبعهم فقال له الناس : لا تتبعهم ؛ فإنّا على غير تعبية ، فأبى ؛ فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عَقَبة ، فاقتحمها وراءهم والناس ينهوْنه ويأبى ، وكان قد جعل على بنى تميم عَبْس بن طَلْق الصَّرِيمىّ الملقّب عَبْس الطِّمان ، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسْمَع ، وعلى شُرْطته رجلا من بنى ضُبَيعة بن ربيعة بن نِزار . فنزلوا عن العَقَبة ، ونزل خلفهم و[كان][1] لهم فى بطن العَقبة كمين ، فلما صاروا من ورائها ؛ خرج عليهم الكَمين ، وعطف سعد الطلائع ، فترجّل عبس بن طلْق ، فقتِل وقتِل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضُّبيعىّ ، صاحب شُرْطة عبدالعزيز ، وانحاز عبدُ العزيز واتّبعهم الخوارج فرسخيْن يقتلونهم كيف شاءوا ، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أمّ حفص بنت المنذر ابن الجارُود امرأته ، فسبَوْا النساء يومئذ ، وأخذُوا أسارَى لا تحصى ، فقذفُوهم فى غار بعد أنْ شدُّوهم وَثاقا ، ثم سدُّوا عليهم بابه ، حتى ماتوا فيه .

وقال بعض مَنْ حضر ذلك اليوم : رأيتُ عبد العزيز ، وإنّ ثلاثين رجلا ليضرِبُونه

---

(١) من الكامل .

بسيوفهم ؛ فما تَحِيكُ في جَنْبه[1] ، ونودى على السَّبْى يومئذ ، فغُولِىَ بأمّ حَفْص ، فبلغ بها رجل سبعين ألفا ، وكان ذلك الرجل من مجوسٍ كانوا أسلموا ، ولحِقوا بالخوارج ، ففرَضوا لكلّ رجل منهم خمسمائة ، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أمّ حفص ، فشقّ ذلك على قَطَرِىّ ، وقال : ما ينبغى لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا ؛ إنّ هذه لِفتْنة ! فوثب عليها أبو الحديد العبدىّ فقتلها ؛ فأُتِىَ به قطرىّ ، فقال : مَهْيم[2] يا أبا الحديد ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ رأيت المؤمنين تزايدوا فى هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة ، فقال قطرىّ : أحسنت ، فقال رجل من الخوارج :

كفانَا فِتْنَةً عَظُمَت وَجَلّتْ ... بحمد الله سيفُ أبى الحديدِ
أهابَ المسلمون بهـا وقالُوا ... على فَرْطِ الهوى هَلْ من مزيدِ ![3]
فزادَ أبو الحديد بنصلِ سَيْفٍ ... رقيقِ الحدِّ فعلَ فتًى رشيدِ

وكان العَلاء بن مطرّف السعدى ابنَ عمّ عمرو القنا ، وكان يحب أن يلقاه فى صدر مبارزة[4] ، فلحقه عمرو القنا يومئذ ؛ وهو منهزم ، فضحك منه وقال متمثّلا :

تمنَّانِى لِيَلْقَانِى لَقِيطٌ ... أعامِ لكَ ابن صعصعة بن سعدِ[5]

ثم صاح به : انج يا أبا المصدّى[6] ، وكان العلاء بن مطرّف قد حمل معه امرأتين :

---

(١) قال المبرد : « يقال : ما أحاك فيه السيف ، وما يحيك فيه ؛ وما حك ذا الأمر فى صدرى ، وما حكى فى صدرى ، وما احتكى فى صدرى . ويقال : حاك الرجل فى مشيته يحيك إذا تبختر » .

(٢) مهيم : حرف استفهام ، معناه : ما الخبر ؟ وما الأمر ؟ فهو دال على ذلك محذوف الخبر .

(٣) أهاب به : أعان .

(٤) الكامل : « فى تلاحم الحروب مبارزة » .

(٥) البيت من شرح سيبويه ١ : ٣٢٩ ، فى باب المنادى ، ونسبه لشريح بن الأحوص ، ونسبه المبرد فى الكامل إلى يزيد بن الصعق وفى شرح الشواهد للأعلم : « الشاهد فى قوله : « لك » ، والمعنى : ياعامر ، دعائى لك ، والمعنى معنى التعجب ؛ كما تقول : يالك فارسا ! ؛ أى ياهذا دعائى لك من فارس ؛ أى أعجب لك فى هذه الحال . . . وكان لقيط بن زرارة التميمى قد توعد الأحوص أبا شريح الكلابى ، وتمنى أن يلقاه فيقتله ؛ فقال هذا متعجبا لقومه من بنى عامر من تمنيه لقتله وتوعده له . . . وأراد عامر ابن صعصعة فرخم » .

(٦) هى كنية عمرو القنا .

إحداها من بنى ضَبّة ، يقال لها أمّ جميل ، والأخرى بنت عمه ؛ يقال لها فلانة بنت عَقِيل فطلّق الضبّيّة ، وحملها أولا ، وتخلص بابنة عمه ، فقال فى ذلك :

ألستُ كريماً إذ أقولُ لفتيتى قِفُوا فاحلُوها قبل بنتِ عَقِيلِ

ولو لم يكن عُودِى نُضاراً لأصبحتْ تَجُرّ على المتنَيْن أمّ جميـــل[1]

قال الصقعب بن يزيد : وبعثنى المهلب لآتيه بالخبر ، فصرت إلى قنطرة أرْبك[2] على فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ؛ فلم أحسّ خبرا ، فسرت مُهَجِّراً[3] إلى أن أمسيت ؛ فلما أمسينا وأظلمْنا ، سمعتُ كلامَ رجل عرفتُه من الجهاضم ، فقلت : ماوراءك ؟ قال : الشرّ ، قلت : فأين عبد العزيز ؟ قال : أمامك ، فلما كان آخر الليل ، إذا أنا بزُهاء خمسين فارسا معهم لواء ، فقلت : لواء مَنْ هذا ؟ قالوا : لواء عبد العزيز ، فتقدّمت إليه ، فسلّمت عليه ، وقلت : أصلح الله الأمير ! لا يكبُرَنّ عليك ما كان ، فإنك كنت فى شرّ جند وأخبثه ، قال لى : أو كنت معنا ؟ قلت : لا ، ولكن كأنى شاهد أمرك ، ثم أقبلت إلى المهلّب وتركته ، فقال لى : ما وراءك ؟ قلت : ما يسرّك ، هُزِم الرجلُ وفُلّ جيشه ، فقال : وَيْحك ! ومايسرّنى من هزيمة رجل من قُرَيش وفَلّ جيشٍ من المسلمين ! قلت : قد كان ذلك ، ساءك أو سرّك ، فوجّه رجلا إلى خالد يخبره بسلامة أخيه . قال الرجل : فلما خبرت خالدا ، قال : كَذَبْتَ ولَوَّمت ، ودخل رجل من قريش فكذّبنى ، فقال لى خالد : والله لقد همتُ أنْ أضرب عنقك ، فقلت : أصلح الله الأمير ! إن كنت كاذبا فاقتلنى ، وإن كنت صادقا فأعطنى مُطْرَف هذا المتكلم ، فقال خالد : لبئس ماأخطرت به دَمَك ! فما برحتُ حتى دخل عليه بعض الفلّ ، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلّب وكساه ، وقدم معه على خالد ، واستخلف المهلّب ابنه حبيبا ، وقال له :

---

(١) الكامل : « تجر على المتنين »

(٢) أربك : قرية بخوزستان .

(٣) مهجرا : وقت الهاجرة .

مجسّس الأخبار ، فإن أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة على نهر تِيرَى . فلما أحسّ حبيب بهم ، دخل البصرة وأعلم خالدا بدخوله ، فغضِب وخاف حبيب منه ، فاستتر فى بنى عامر بن صعصعة ، وتزوّج هناك فى استتاره الهلالية ، وهى أمّ ابنه عبّاد بن حبيب . وقال الشاعر لخالد يُفَيِّل[1] رأيه :

بعثتَ غلاماً من قريشٍ فَروقةً ... وتتركُ ذا الرأى الأصيلَ المهلبا[2]
أبى الذّمّ واختارَ الوفاءَ وأحكمَت ... قُواهُ ، وَقَدْ ساس الأمورَ وَجرّبا

وقال الحارث بن خالد المخزومىّ :

فرّ عبد العزيز إذ رَآه عيسى ... وابنَ داودَ نازلاً قَطَرِيّا[3]
عاهَدَ الله إنْ نجا مِلْمَنايا ... لَيعودنّ بعدَها حُرْمِيّا[4]
يسكُنُ الخلّ[5] والصِّفاح فغوريـ ... ـنا مِرَاراً ومرّةً نجْدِيّا
حيثُ لا يشهد القِتال ولا يسـ ... ـمع يوماً لكَرّ خيلٍ دَوِيّا

وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز ، وقال للمهلب : ماترى أميرَ المؤمنين صانعاً بى ؟ قال : يعزِلُك ، قال : أتراه قاطعاً رَحِمى ! قال : نعم ، قد أتته هزيمةُ أميّة أخيك[6] فعمل — يعنى هرب أميّة من سِجِسْتان — فكتب عبد الملك إلى خالد :

---

(١) يفيل رأيه : يخطئه .

(٢) الفروقة : شديد الفزع .

(٣) فى الكامل :

فرّ عبدُ العزيز لما رأى الأبطـ ... ـالَ فى السَّفح نَازَلُوا قَطَرِيّا

(٤) قال المبرد : العرب تنسب الحرم فيقولون : حِرْمِيّ وَحُرْمِيّ .

(٥) الخل والصفاح وغورين مواضع ، ورواية البيت فى الكامل :

يَسْكُنُ الخلّ والصِّفاحَ فغورا ... نَ وسَلْمًا وتارةً نجـديا

(٦) عبارة الكامل : « أتته هزيعة أمية أخيك من البحرين وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس ! » .

أما بعد ؛ فإني كنت حَدَدْت لك حَدًّا في [أمر][1] المهلّب ؛ فلمّا ملكتَ أمرك، نبذتَ طاعتي وراءك ، واستبدَدْت برأيك[2] ؛ فولّيتَ المهلّبَ الجِبَاية ، وولّيت أخاك حَرْب الأزارقة؛فقَبَح الله هذا رأيا ! أتبعثُ غلاماً غِرًّا لم يجرّب الأمور والحروب للحرب؛ وتترك سيّدا شجاعاً مدبّرا حازما قد مارَس الحروب فَفَلَج[3]؛ فشغلته بالجباية! أما لو كافأتك على قدْر ذنبك لأتاك من نَكِيري مالا بقيّةَ لك معه! ولكن تذكّرتُ رِحمك فكفّتني عنك ؛ وقد جعلت عقوبتَك عَزْلك . والسلام .

قال : وولّى بشر بن مروان الإمارة وهو بالكوفة ؛ وكتب إليه :

أما بعد ؛ فإنّك أخو أمير المؤمنين ؛ يجمعُك وإياه مروان بن الحكم ؛ وإنّ خالدا لا مجتمَع له مع أمير المؤمنين دون أمية،فانظر المهلّب بن أبي صُفْرة ، فولّه حرْب الأزارقة؛ فإنه سيّد بطل مجرّب ، وامدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل ؛ والسلام .

فشقّ على بِشْر ماأمره به في المهلّب؛وقال : والله لأقتلنّه ، فقال له موسى بن نصير: أيها الأمير ؛ إنّ للمهلّب حِفاظا ووفاء وبلاء .

وخرج بِشْر بن مَرْوان يريد البصرة ؛ فكتبَ موسى بن نُصير وعِكْرمة بن رِبْعيّ إلى المهلّب أنْ يتلقاه لقاء لا يعرفه به ؛ فتلقاه المهلّب على بَغْلٍ ، وسلّم عليه في غُمار[4] الناس ؛ فلمّا جلس بِشْر مجلسه،قال : مافعل أميركم المهلّب ؟ قالوا : قد تلقّاك أيّها الأمير، وهو شاكٍ .

فهمّ بِشْر أنْ يولّيَ حربَ الأزارِقة عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ وشدّ عزْمه أسماء

---

(١) من الكامل .

(٢) ج : « فاستبددت » .

(٣) فلج : ظفر وانتصر .

(٤) غمار ، بكسر الغين : جمع غمرة ؛والغمرة : المزدحم . وفي الكامل : « خار الناس » ، وخمار الناس كثرتهم وزحمتهم وجماعتهم .

ابن خارجة ، وقال له : إنما ولّاك أميرُ المؤمنين لترى رأيك ؛ فقال له عِكْرمة بن ربْعى : اكتُب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلّب ، فكتب إليه بذلك ، وأنّ بالبَصْرة مَنْ يغنى غناءه ، ووجّه بالكِتاب مع وفد أوفدهم إليه ، رئيسهُم عبد الله بن حكيم المُجاشعىّ .

فلما قرأ عبدُالملك الكتاب خَلاَ بعبدِ الله ، فقال له : إنّ لك ديناً ورأياً وحزماً ، فمَنْ لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلّب ؛ قال : إنه عليل ، قال : ليست عِلّته بمانعة[1] ، فقال عبد الملك : لقد أراد بِشْر أن يفعل مافعل خالد ؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولىَ المهلّب الحربَ ، فوجّه إليه ، فقال : أنا عليل ، ولا يمكننى الاختلاف ؛ فأمر بِشْر بحمْل الدّواوين إليه ؛ فجعل ينتخب ، فعزم عليه بِشْرٌ بالخروج ؛ فاقتطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ألّا يقيم بَعْد ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم ؛ وصاروا بالفرات ، فخرج المهلّب حتى صار إلى شَهارطاق ؛ فأتاه شيخ من بنى تميم ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ سنِّى ماترَى ، فهَبْنِى لعيالى ، فقال[2] : على أن تقول للأمير إذا خَطَب فحثكم على الجهاد : كيف تحثّنا على الجهاد ؛ وأنت تحبس عنه أشرافنا ، وأهلَ النّجْدة منا ! ففعل الشيخُ ذلك ؛ فقال له بشْر : وما أنت وذاك ! ثم أعطى المهلّبُ رجلاً ألفَ درهم ، على أن يأتىَ بِشراً فيقول له : أيّها الأمير ، أعِنِ[3] المهلّب بالشُّرْطة والمقاتِلة ؛ ففعل الرجل ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ فقال : نصيحةٌ حضرتْنِي للأمير والمسلمين ؛ ولا أعود إلى مثلها ، فأمدّه بِشْر بالشُّرطة والمقاتلة ، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقِد لعبد الرحمن بن مِخْنف على ثمانية آلاف ، من كلّ رُبْع ألفين ، ويوجّه بهم مدداً للمهلّب .

---

(١) الكامل : « بما نعته » .
(٢) ساقطة من ج .
(٣) ب : « أعن » .

فلما أتاه الكتاب ، بعث إلى عبد الرحمن بن مِخْنف الأزدِيّ بعقد [١] له ، واختار من كلّ رُبْع ألفين، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشْر بن جَرِير بن عبدالله البَجَلِيّ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهَمْدانيّ ، وعلى رُبْع كِنْدة محمد ابن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْدِيّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجيّ، فقدموا على بِشْر بن مروان ، فخلا بعبدالرحمن بن مِخْنف ، وقال له : قد عرفتَ رأيِي فيك ، وثقتي بك ، فكن عند ظنّي بك ، وانظر إلى هذا المَزُونِيّ ، فخالفه في أمره، وأفسِدْ عليه رأيه .

فخرج عبدُ الرحمن ، وهو يقول : ما أعجبَ ماطلبَ [٢] مِنّي هذا الغُلام ! يأمرُني أنْ أصغِّر شأنَ [٣] شيخٍ من مشايخ أهلِي ، وسَيِّد من ساداتهم ! فلحِق بالمهلّب .

فلما أحسّ الأزارقة بدنوّ المهلّب منهم انكشفُوا عن الفُرات ، فاتبعهم المهلّب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها، ثم اتبعهم إلى رَامَهُرْمُز فهزمهم عنها، فدخلوا فارسَ ، وأبلَى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاء شديدا ، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة .

فلما صار القومُ إلى فارس ، وجَّه إليهم ابنَه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صالح: أيّها الأمير، إنه ليس لك برأيٍ قتلُ هذه الأكلُب ، ولئن والله قتلْتَهم لتقعدنّ في بيتك، ولكنْ طاولْهم ، وكُلْ بهم. فقال : ليس هذا من الوفاء ، فلم يلبَثْ برَامَهُرْمز إلا شهرا ، حتى أتاه موت بِشْر بن مروان .

فاضطرب الجند على ابن مِخْنف ، فوجَّه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر ، فاستحلفهما ألّا يبرحا، فحلفا له ولم يفِيا، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلون حتى اجتمعوا

---

(١) الكامل : « فعقد » .
(٢) كذا في ا ، ج ، وفي الكامل ، و ب : « طمع » .
(٣) ج : « رأى » .

بسُوق الأهواز ، وأراد أهلُ البصْرة الانسلالَ من المهلّب ، فخطبهم فقال : إنّكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبّون عن مِصركم وأموالكم وحرَمكم .

فأقام منهم قومٌ ، وتسلّل منهم قومٌ كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفةَ بشر بن مروان ، فوجّه مولًى له بكتاب منه إلى مَنْ بالأهواز ، يحلف بالله مجتهداً : لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم ، وانصرفوا عصاةً لا يظفرُ بأحدٍ إلا قتله . فجاءهم مولاه ، فجعل يقرأ عليهم الكتابَ ، ولا يرى في وجوههم قبولاً ، فقال : إني أرى وجوهاً ما القبولُ مِنْ شأنها ، فقال له ابن زَحْر : أيها العبد ، اقرأ ما في الكتاب ، وانصرفْ إلى صاحبك ، فإنك لا تدرى ما في أنفسنا . وجعلوا يستحثّونه بقراءته ، ثم قصدوا قَصْد الكوفة ، فنزلوا النُّخَيلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم في دخول الكوفة ، فأبى ، فدخلوها بغير إذن .

فلم يزل المهلّب ومَنْ معه من قواده وابن مِخْنف ، في عدد قليل ، فلم يلبثُوا أن ولِيَ الحجّاج العراق .

فدخَل الكوفة قبل البَصْرة ؛ وذلك في سنة خمس وسبعين ؛ فخطبهم الخطبة المشهورة[1] ، وتهدّدهم ؛ ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاةُ تفعل بالعُصاة ؟ قالوا : كانت تضرب وتحبس ، فقال : ولكن ليس لهم عندى إلا السيف ؛ إنّ المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لأهلها ، ما قوتل عدوّ ، ولا جُبِيَ فَيْء ، ولا عزّ دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، فقال : قد أجّلتكم ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يتخلف أحدٌ من

---

(١) في الكامل : « وقد ذكرنا الخطبة متقدما » ؛ وهي في الكامل ٢١٧ (طبعة أوربا) .

أصحاب ابن مِخْنَف بعدَها إلا قتلتُه . ثم قال لصاحب حَرَسه ولصاحب شُرْطَته (١) : إذا مضت ثلاثة أيام ، فاشحذا (٢) سيوفَكما . (٣) فجاءه عُمير بن ضابئ [البرجُميّ] (٤) بابنه فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا أنفعُ لكم مِنّي ؛ وهو أشدّ بني تَميم أبدانا (٥)، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جأشا؛ وأنا شيخٌ كبير عليل؛ واستشهد [جُلساءه] (٤)؛ فقال له الحجاج: إنّ عذرك لَواضح ، وإن ضَعفك لَبَيِّن ؛ ولكني أكره أن يجترئ بك الناس عليّ ؛ وبعد ، فأنت ابن ضابئ صاحب عثمان، وأمر به فقتِل (٣) ، فاحتَمل النَّاس ، وإنّ أحدَهم لَيُتْبع بزاده وسلاحه ، ففي ذلك يقول [عبد الله] (٤) بن الزَّبِير الأسديّ (٦):

أقولُ لعبدِ الله يَوْمَ لقيتُهُ ... أرَى الأمر أمْسَى مُنصِباً متشعّبا (٧)

---

(١) الكامل : « شرطه » .

(٢) الكامل : « فاتخذا » .

(٣ـ٣) وفي رواية أخرى للمبرد ٢١٧ : « فوضع للناس أعطياتهم ؛ فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ يرعش كبرا ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إني من الضعف على ماترى ، ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني ؛ فتقبله بدلا مني ؛ فقال الحجاج : نفعل أيها الشيخ ؛ فلما ولى قال له قائل (هو عنبسة بن سعيد الأموي) : أتدري من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا ، قال : هذا عمير بن ضابئ البرجمي الذي يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتني ... تركتُ على عثمان تبكي حلائلُهْ

ودخل هذاالشيخ على عثمان مقتولا؛ فوطئ بطنه ، فكسر ضلعين من أضلاعه . فقال : ردوه ؛ فلما رد قال له الحجاج : أيها الشيخ ؛ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ! إن في قتلك أيها الشيخ لصلاحاًللمسلمين؛ ياحرسي،اضرب عنقه ؛ فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ، ويأمر وليه أن يلحقه بزاده؛ ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير . . . . » الأبيات . وانظر الشعر والشعراء ٣١١ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٤٠ .

(٤) من الكامل .

(٥) الكامل : « أيدا » .

(٦) نقل المرصفي في رغبة الآمل ٤ : ٢٧٠ ؛ أنه في هذه الأبيات يخاطب إبراهيم بن عامر الأسدي ؛ وروى البيت الأول :

أقولُ لإبراهيمَ لَمّا لقيتُهُ ... أرى الأمر أضحى مُنصِبا مُتَشعِّبا

وذكر بعده :

تجهَّزْ وأسرِعِ فالحقِ الجيشَ لا أرَى ... سوى الجيش إلّا في المهالِكِ مَذْهَبا

فما إن أرَى الحجّاجَ يُغمِدُ سَيْفَهُ ... مَدَى الدَّهرِ حَتَّى يَتْرُكَ الطِّفْلَ أشْيَبا

(٧) منصبا : معيبا مجهدا .

تجهز فإما أن تَزُور ابنَ ضابِىءٍ ... عُميراً ، وإمّا أنْ تَزُور المهلبا

هما خُطَّتا خَسْفٍ نجاؤك منهما ... رُكُوبُكَ حَوْلِيّاً مِنَ الثَّلْجِ أشهبا[(١)]

فما إنْ أرَى الحجّاجَ يُغْمِدُ سيفَهُ ... مَدَى الدَّهرِ حتى يترك الطفلَ أشيبا

فأضحى ولو كانَتْ خُراسانُ دُونَهُ ... رآها مَكَانَ السُّوقِ أوْ هي أقْرَبا[(٢)]

وهَرَبَ سَوّارُ بنُ المُضَرِّبِ السَّعْدِي من الحجاج ، وقال :

أقاتِلِيَ الحجّاج إن لم أزُرْ لَهُ ... دَرَابَ وأترُكْ عِندَ هِنْدَ فؤادِيا[(٣)]

في قصيدة مشهورة له .

فخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان أشد عليهم إلحاحا ، وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمّل الناس قبل قدومه . وأتاه رجل من بني يَشْكُر ، وكان شَيْخاً أعور ؛ يجعل على عينه العوراء صُوفة ، فكان يلقّب ذا الكُرْسُفَةِ ، فقال :

(١) نقل المرصفي بعده :

فكائِنْ ترى من مكره الغَزْوِ مُسْمِراً ... تحمَّمَ حِنْوَ السَّرْجِ حتّى تحنّبا

والمسمر : الذي لم ينم ، وتحمم حنو السرج : لزمه ؛ حتى صار كأنه حميم له . وحنو السرج : ماانعطف منه . وتحنب : تقوس .

(٢) الهاء في « دونه » عائدة على المهلب ؛ أي لو كانت خراسان قريبة من موضع غزوه ، والسوق : هو سوق حكمة ؛ موضع بنواحي الكوفة . وأقرب مفعول ثان ؛ على أن « رأى » بمعنى « ظن » ، والضمير المرفوع وضع موضع الضمير المنصوب ، و « أو » بمعنى « بل » ؛ وانظر الكامل ـ بشرح المرصفي ٤ : ٧٩

(٣) دراب ؛ هي درا بجرد ؛ اقتصر على أحد الجزأين : كورة بفارس وروى المبرد في الكامل ٢٨٩ (طبع أوربا) بعد هذا البيت :

فإن كانَ لا يُرْضيكَ حَتّى تَرُدَّني ... إلى قَطَرِيّ ما إخالُكَ راضياً

إذا جاوزتْ دَرْبَ المجيزين ناقتي ... فباسْتِ أبي الحجاج لما ثنانيا

أيرجو بنو مَرْوانَ سمعي وطاعتي ... وقومي تميمٌ والفلاة ورائيا !

أصلح الله الأمير ! إنّ بي فَتَقاً ، وقد عَذَرني بِشر بن مروان ؛ وقد رددت العطاء ، فقال : إنك عندي لصادق ؛ ثم أمر به فضربتْ عنقُه ؛ ففي ذلك يقول كعب الأشقريّ — أو الفرزدق[1] :

لقد ضَرَبَ الحجّاجُ بالمِصرِ ضَرْبَةً تَقَرْقَرَ منها بَطنُ كلِّ عريفِ[2]

* * *

ويُروى عن أبي البئر[3] ، قال : إنّا لنتغدّى معه يوما ، إذ جاءه رجل من بني سُلَيم[4] برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشُدُك الله أيها الأمير في دمي ! فو الله ما قَبَضْتُ ديوانا قطّ ، ولا شهدت عسكرا قطّ ، وإني لحائك ، أُخِذتُ من تحتِ الحفِّ[5] فقال : اضربوا عُنقَه . فلما أحسّ بالسّيف سجَد ، فلحقه السّيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الأكل ، فأقبل علينا ، وقال : مالي أراكم قد صَفِرتْ أيديكم ، واصفرّت وجوهكم ، وحدّ نظرُكم من قتل رجل واحد ! ألا إنّ العاصيَ يجمع خِلالاً ؛ يُخلُّ بمركزه ، ويَعصي أميرَه ، ويغرّ المسلمين ؛ وهو أجيرٌ لهم ؛ وإنما يأخذ الأجرة لِماَ يعمل ، والوالي مخيّر فيه ، إن شاء قتل ، وإن شاء عفا .

ثم كتب إلى المهلب :

أما بعد ، فإن بِشراً استكره نفسَه[6] عليك ، وأراك غِناه[7] عنك ، وأنا أريك حاجتي إليك ، فأرِني الجدّ في قتال عدوك ، ومَنْ خِفْتَه على المعصية مِمن قِبَلك فاقتله ،

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٥٧٠ .
(٢) تقرقر : صوت ، والعريف : النقيب دون الرئيس .
(٣) كذا في ب ، وفي ا ، ج : « عن أبي النسر » ، وفي الكامل : « ابن أبي ميرة » .
(٤) كذا في ب والكامل ، وفي ا ، ج : « من بني تميم » .
(٥) الحف : القصبة التي تجيء وتذهب .
(٦) استكره نفسه : أدارها على الكره منها .
(٧) أي أراك أنه في غنى عنك .

فإنى قاتل مَنْ قِبلى ، ومَنْ كان عندى ممّن هرب عنك ؛ فأعلِمْنى مكانه ؛ فإنى أرى أن آخذ السَّمِىَّ بالسَّمِىّ ، والولىَّ بالولىّ .

فكتب إليه المهلّب :

ليس قِبَلى إلا مطيعٌ ـ وإنّ الناسَ إذا [خافوا العقوبة كبّروا الذّنب ، وإذا] (١) أمِنُوا العقوبة صغّروا الذنب ؛ وإذا يَئسوا من العفو أكفرهم (٢) ذلك ؛ فهب لى هؤلاء الذين سميتَهم عصاة ؛ فإنهم فُرسان أبطال ؛ أرجو أن يقتُلَ الله بهم العدوّ ـ [ونادم على ذنبه] (٣) .

فلما رأى المهلّب كثرةَ الناس عنده قال : اليوم قُوتل هذا العدوّ .

***

ولما رأى ذلك قَطرِىّ ، قال لأصحابه : انهضوا بنا نريد السَّرْدَن (٤) ، فنتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أو تأتى (٥) سابُور ، فتأخذَ منها ما نُريد ، وتصير إلى كِرْمان. فأتوْا سابور ، وخرج المهلب فى آثارهم فأتى أرّجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَن ـ وليست بمدينة ، ولكنها جبال مُحدِقة منيعة ـ فلم يصبْ بها أحداً ، فخرج فعسكر بكازَرُون (٦) ، واستعدّوا لقتاله ، فخندقَ على نفسه ، ووجّه إلى عبد الرحمن

(١) من الكامل .

(٢) أكفرهم : حملهم على الكفر.

(٣) من الكامل و : « نادم » معطوف على « مطيع » .

(٤) السردن : موضع ببلاد فارس إزاء كازرون .

(٥) سابور : كورة بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخا .

(٦) كازرون ، بتقديم الزاى : مدينة من أخصب مدن سابور ؛ وذكر ياقوت أن لها ذكرا فى أخبار الخوارج ؛ وروى النعمان بن عقبة من أصحاب المهلب :

لَيْتَ الحَوَاصِنَ فى الخُدُورِ شَهِدْنَنَا   فَيَرَيْنَ مَنْ وَغَلَ الكتيبةَ أوَّلَا

وَتَرَوْا وكُنّا فى الوَقَارِ كَمِثْلِهِمْ   إذْ لَيْسَ تَسْمَعُ غَيْرَ قَدِّمْ أوْ هَلَا

رعدوا فَأَبْرَقْنَا لَهُمْ بِسُيُوفِنَا   ضَرْباً ترى منهُ السواعِدَ تُخْتَلَى

تركوا الجماجِمَ والرِّماحُ تُجِيلُهَا   فى كازرونَ كما تُجِيلُ الحَنْظَلا

ابن مخنف : خَنْدِق على نفسك . فوجّه إليه : خنادقُنا سيوفُنا ، فوجه المهلّب إليه : إنى لا آمن عليك البَيات ، فقال ابنه جعفر : ذاك أهونُ علينا من ضَرْطة جمل ، فأقبل المهلّب على ابنه المغيرة ، فقال : لم يصيبوا الرأى ، ولم يأخذوا بالوثيقة .

فلما أصبح القومُ عاودوه الحرب ؛ فبعثَ إلى ابن مخنف يستمدّه ، فأمدّه بجماعة؛ جعل عليهم ابنه جعفرا ، فجاءوا وعليهم أقبيةٌ بيض جُدُد ، فأبلَوْا يومئذ حتى عرف مكانهم المهلّب ، وأبلَى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشدّ .

ثم أتى رئيسٌ من الخوارج ، يقال له صالح بن مخراق ، وهو ينتخبُ قوماً من جلّة العَسكر حتى بلغ أربعمائة ، فقال لابنه المغيرة : ما أراه يُعِدّ هؤلاء إلا للبيات[1] .

وانكشفت الخوارج ، والأمر للمهلّب عليهم ، وقد كَثُر فيهم الجراح والقتل، وقد كان الحجّاج يتفقّد العصاة ، ويوجّه الرجال، وكان يحبسهم نهارا ، ويفتح الحبس ليلًا، فيتسلّلُ الرجال إلى ناحية المهلّب ، وكأنّ الحجاج لا يعلم ، فإذا رأى إسراعهم تمثّل :

إنّ لها لسابقًا عَشَنْزَرَا ... إذا وَنَيْنَ وَنْيَةً تَغَشْمَرا[2]

* * *

ثم كتب الحجّاج إلى المهلّب يستحثّه :

أما بعد ، فإنه قد بلغنى أنّك قد أقبلت على جباية الخراج ، وتركتَ قتال العدو ، وإنى ولّيتُك[3] وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المجاشعيّ . وعبّاد بن الحصين الحَبَطيّ ، واخترتك وأنت من أهل عُمان ، ثم رجلٌ من الأزد ؛ فالقهم يوم كذا في مكان كذا ، وإلا أشرعتُ إليك صدر الرمح .

(١) الكامل : « مايعد هؤلاء إلا للبيات » .

(٢) في الكامل : « إذا ونين ونية » ، وفيه « العشنزر : الصلب ، والتغشمر : ركوب الرأس ، والمتغشمر : الجاد على ماخيلت » يريد : ماخيلت نفسه ؛ وهم يحذفون فاعل هذا الفعل.

(٣) يريد أبقيتك على ولايتك .

فشاور المهلّب بنيه ، فقالوا : أيها الأمير (١ ، لا تُغلِظ عليه فى الجواب ١) .

فكتب إليه :

وردَ إلىّ كتابك ، تزعُم أنّى أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومَنْ عجَزَ عن جباية الخراج ، فهو عن قتال العدو أعجز . وزعمتَ أنك وليّتنى ، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعبّاد بن الحصين ، ولو ولّيتهما لكانا مستحِقّين لذلك لفضلهما وغَنائهما وبطشهما . وزعمتَ أنك اخترتَنى وأنا رجلٌ من الأزد ، ولعمرى إنّ شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتها ثلاث قبائل ، لم تستقرّ فى واحدة منهنّ . وزعمتَ أنى إن لم ألقهم يوم كذا فى مكان كذا أشرعتَ إلىّ صدرَ الرمح ، لو فعلتَ لقلبتُ لك ظهر المِجَنّ (٢) . والسلام .

قال : ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عَقِيب هذا الكتاب .

***

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة ، قال لابنه المغيرة : إنى أخاف البَيات على بنى تميم ، فانهض إليهم فكن فيهم ، فأتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ، أيخاف الأميرُ أن يؤتَى من ناحيتنا ! قُلْ له : فليبت آمنا ، فإنا كافوه ما قِبَلنا إن شاء الله .

فلما انتصف الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق فى القوم الذين كان أعدّهم للبيات إلى ناحية بنى تميم ، ومعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

إنّى لَمُذْكٍ للشُّراة نارَها وما نعٌ ممّنْ أتاها دارَها

* وغاسِلٌ بالسيف عنها عارَها *

(١ — ١) الكامل : « إنه أمير ، فلا تغلظ عليه فى الجواب » .

(٢) المجن من السلاح : ما يتقى به .

فوجد بنى تميم أيقاظاً متحارسين ، وخرج إليهم الحريش بن هلال ، وهو يقول :

وَجَدْتُمُونَا وُقُراً أَنجادَا   لا كُشُفاً مِيلاً ولا أَوْغَادَا(١)

ثم حمل على الخوارج، فرجعوا عنه، فاتبعهم ثم صاح بهم : إلى أين يا كلاب النار ! فقالوا : إنما أُعِدّتْ لك ولأصحابك، فقال الحريش: كلّ مملوك لى حُرّ إن لم تدخلوا النّار ، ما دخلها مجوسىٌّ فيما بين سَفَوان(٢) وخُراسان .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكرَ ابن مِخْنف ، فإنه لا خندق عليه ، وقد بَعَث فرسانهم اليوم مع المهلّب ، وقد زعموا أنّا أهونُ عليهم من ضَرْطة جمل . فأتوهم فلم يشعر ابن مِخْنف وأصحابه ، إلا وقد خالطُوهم فى عسكرهم .

وكان ابن مخنف شريفاً، وفيه يقول رجل من بنى عامر لرجل يعاتبه ، ويضرب بابن مخنف المثل :

تَرُوحُ وتَغْدُو كلَّ يوم مُعَظَّماً   كأنك فينا مِخْنفٌ وابن مِخْنَف

فترجّل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم ، حتى قتل وقتل معه سبعون رجلا من القرّاء ، فيهم نفرٌ من أصحاب علىّ بن أبى طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود . وبلغ الخبرُ المهلّبَ وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخْنف عند المهلّب فجاءهم مُغِيثا فقاتل حتى ارتُثّ(٣)، ووجّه المهلّب إليهم ابنه حبيبا ، فكشفهم، ثم جاء المهلّب حتى صلّى على عبد الرحمن بن مِخْنف وأصحابه ، وصار جندُه فى جند المهلّب ، فضمّهم إلى ابنه حبيب ، فعيّرهم البَصريّون ، وسمَّوْا جعفرا خضفة الجمل .

---

(١) فى الكامل : « قوله » : وجدتم وقرا ، جمع وقور ، والنجد : ضد البليد ؛ وهو المتيقظ الذى لا كسل عنده ولا فتور . والأميل ، فيه قولان : قالوا : الذى لا يستقر على الدابة ؛ وقالوا : الذى لا سيف معه . والأكشف: الذى لا ترس معه . والأجم :الذى لا رمح معه ، والحاسر: الذى لا درع عليه. والأعزل: الذى لا يتقوم على ظهر الدابة . والوغد : الضعيف » . وذكر بعده هذا البيت :

هَيْهَاتَ لَا تُلْفُوْنَنَا رُقَادَا   لَا بلْ إذَا صِيحَ بِنَا آسَادَا

(٢) سفوان ، بفتحتين : ماء على قدر مرحلة من مربد البصرة .

(٣) الرثت : الذى يحمل من المعركة جريحا وبه رمق .

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف :

تركتَ أصحابَكُم تَدْمَى نُحُورُهُمُ ... وجئتَ تسعى إلينا خَضْفَةَ الجملِ [١]

فلامَ المهلّب [٢] أهل البصرة ، وقال : بئسما قلتم ؛ والله ما فرّوا ولا جَبُنوا ؛ ولكنهم خالفوا أميرهم ؛ أفلا تذكرون فِرارَكم بدُولابَ عنّي ، وفرارَكم بدارس [٣] عن عثمان [٤] !

***

ووجه الحجّاج البراء بن قبيصة إلى المهلّب يستحثّه في مناجزة القوم ، وكتب إليه : إنك تحبُّ بقاءهم لتأكُلَ بهم ، فقال المهلّب لأصحابه : حرِّكوهم ، فخرج فُرسان من أصحابه ، فخرج إليهم من الخوارج جَمْعٌ كثير ، فاقتتلوا إلى الليل : فقال لهم الخوارج : وَيْلكم ! أما تملُّون ! فقالوا : لا ، حتّى تملُّوا ، فقالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، فقالت الخوارج : ونحن تميم أيضاً ، فلما أمسَوْا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلّب ، وخرج إليهم من الخوارج عشرة ، واحتفر كلُّ واحدٍ منهم حَفيرة ، وأثبت قدميه فيها ، كلّما قُتِل رجل جاء رجل من أصحابه فاجترّه وقام [٥] مكانه حتى أعتموا [٦] ، فقال لهم الخوارج : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، قالوا لهم : وَيْلكم مَنْ أنتم ! قالوا : تميم ، قالوا : ونحن

---

(١) في الكامل : « تركت أصحابنا » ، وفيه : قوله : « خضفة الجمل » ؛ يريد ضرطة الجمل ؛ يقال : خضف البعير ؛ وأنشدني الرياشي لأعرابي يذم رجلا اتخذ وليمة :

إنَّا وَجَدْنَا خَلَفاً بِئْسَ الخَلَفْ ... أغلَقَ عنَّا بابَهُ ثمّ حَلَفْ

لا يُدْخِلُ البوّابُ إلّا من عَرَفْ ... عبدا إذا ما ناء بالحِمْلِ خَضَفْ

(٢) في الكامل : « فلامهم » .

(٣) في الأصول : « بفارس » ، وما أثبته من الكامل . ودارس : موضع ذكره البكري وقال : إنه في ناحية مسرقان . ومسرقان : قرية من أعمال البصرة .

(٤) هو عثمان بن قطن بن عبيد الله ؛ أحد بني الحارث بن كعب ؛ وكان الحجاج بعثه إلى شبيب ؛ فانهزم أصحابه عنه ، وقاتل حتى قتل .

(٥) الكامل : « ووقف » .

(٦) أعتموا : صاروا في العتمة ، وهي ثلث الليل الأول بعد مغيب الشفق .

تميم أيضاً : فرجع البرّاء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له : مَهْيَم ؟[١] قال : رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله .

وكتب المهلّب جواب الحجاج : إنّى منتظر بهم إحدى ثلاث : موتا ذريعا ،[٢] أو جُوعاً مُضِرًّا ، أو اختلافا من أهوائهم .

وكان المهلّب لا يتّكل فى الحراسة على أحد ، كان يتولّى ذلك بنفسه ، ويستعين عليه بولده ، وبمن يحلّ محلهم فى الثقة عنده .

قال أبو حَرْملة العبدىّ يهجو المهلّب ، وكان فى عسكره :

عَدِمْتُكَ يامُهَلّبُ من أميرٍ   أما تَنْدَى يمينُك للفقيرِ !
بِدُولَابٍ أضعتَ دماء قومِى   وَطِرْتَ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دَرُورِ[٣]

فقال له المهلّب : ويحك ! والله إنّى لأقيكم بنفسى وولدى ، قال : جعلنى الله فداء الأمير ! فذاك الذى نَكْره منك ، ما كلُّنا يحبّ الموت . قال : ويحك ! وهل عنه مِنْ محيص ؟ قال : لا ، ولكنا نكره التعجيل ؛ وأنت تقدِم عليه إقداما ، قال المهلّب : وَيلك ! أما سمعت قول الكلحبة اليربوعىّ :

فقلتُ لكأسٍ ألجِميها فإنّما   نَزَلْنا الكَثِيبَ مِنْ زَرُودَ لنفْزَعا[٤]

---

(١) مهيم ، كلمة استفهام معناها : ما الخبر وما الأمر ؟ وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبدالرحمن بن عوف ، وعليه درع خلق ، فقال : مهيم؟ فقال : تزوجت يارسول الله . وفى الكامل : « مه » وهى بمعنى الاستفهام أيضا .

(٢) ذريع : سريع .

(٣) قال المبرد : قوله : « مواشكة » ، يريد سريعة ، ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال : ذميل مواشك ، إذا كان سريعا ، قال ذو الرمة :

إذَا مَا رَمَيْنَا رَمْيَةً فى مَفَازَةٍ   عرَاقِيبَهَا بالشيظمىّ المواشكِ

و « درور » فعول ، من در الشىء ، إذا تتابع .

(٤) كأس : اسم بنته ، والعرب لاتثق بأحد فى خيلها إلا بأولادها ونسائها . والكثيب : القطعة =

فقال : بلى ، قد سمعت ، ولكنّ قولى أحبّ إلىّ منه :

وَلَمّا وقفتمْ غُــــدوةً وعدوّكمْ إلى مهجتى وَلّيتُ أعداءكمْ ظَهْرِى

وطرتُ ولم أحفل ملامَةَ جاهِلٍ يُسَاقِى المنايا بالردينيّة السُّمْرِ (١)

فقال المهلب : بئس حشو الكتيبة أنت والله يا أبا حرملة! إنْ شئت أذِنتُ لكَ فانصرفت إلى أهلك . قال : بل أقيم معك أيها الأمير ، فوهب له المهلب وأعطاه ، فقال يمدحه :

يَرَى حَتْماً عَلَيْــــه أبُو سَعِيدٍ جِـــلادَ القَوْمِ فِي أولَى النَّفِيرِ

إذا نادَى الشُّرَاةُ أبا سعيــــدٍ مَشَى فى رِفْلِ محكَمَة القَتِيرِ (٢)

قال : وكان المهلّب يقول : مايسرّنى أنّ فى عسكرى ألف شجاع مكان بيهس بن صُهيب ، فيقال له : أيها الأمير ، بَيْهس ليس بشجاع ، فيقول : أجل ، ولكنّه سديد الرأى ، محكم العقل ، وذو الرأىِ حذر سئول ، فأنا آمن أن يُغتفَل ، ولو كان مكانه ألف شجاع خِلْت أنهم يَنْشامون (٣) حيث يحتاج إليهم .

قال : ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور ، وبين المهلب وبين الشُّراة عقبة ، فقال المهلّب : مَنْ يكفينا أمرَ هذه العقبة الليلة ؟ فلم يقم أحد ، فلبس المهلّب سلاحه ، وقام إلى العقبة واتّبعه ابنُهُ المغيرة ، فقال رجل من أصحابه : دعانا الأمير إلى ضَبْط العقبة ، والحظّ

= المستطيلة من الرمل ، عدودبة . وزرود : موضع . والفزع : هنا الإغاثة وهو من الأضداد . وقبل هذا البيت :

ونادَى منادى الحىّ أن قد أُتيتمُ وقد شرِبتْ ماء المزادةِ أجمعا

وهما من قصيدة مفضلية وفيها :

أمرتــكمُ أمرى بمنعرج اللّوَى وَلَا أَمْرَ للمعصىّ إلا مُضيّعَا

إذا المرء لم يغشَ الـكريهةَ أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطّعا

(١) الـكامل : « ملامة عاجز » ، الردينية : الرماح ؛ منسوبة إلى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح.

(٢) الرفل بكسر الراء : الذيل ؛ وقد أرفل رفله ؛ أرسل ذيله ، وأما الرفل بفتحها ، فمصدر رفل كنصر : جر ذيله وركضه برجله ، والقتير : رءوس مسامير حلق الدروع.

(٣) ينشامون ، من انشام الشىء دخل فيه واختبأ ، كتشيم ؛ يريد أنهم يكونون بمعزل مخافة أن يغتفلوا.

فى ذلك لنا ، فلم نطِعْه ، ولبس سلاحه واتبعه جماعة من العسكر ، فصاروا إليه ، فإذا المهلّب والمغيرة ولا ثالثَ لهما ، فقالوا : انصرف أيها الأمير ، فنحنُ نكفيك إن شاء الله ، فلما أصبحُوا إذا هم بالشُّراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحملُ وفرسه تزْلق، ويَلقاه مُدركٌ فى جماعةمعه، حتى ردوهم عن العقبة. فلما كان يوم النحْر والمهلّب على المنبر يخطب الناس ، إذ الشُّراة قد أكبّوا [٢]، فقال المهلب : سبحان الله ! أفى مثل هذا اليوم! يامغيرة اكفنيهم؛ فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القُرْدوسيّ[٣] وكان سعد مقدّما فى شجاعته ، وكان الحجاج[٤] إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القُرْدُوسيّ ما عدا[٥] ! فخرج أمام المغيرة ، ومع المغيرة جماعة من فُرسان المهلب، فالتقوا ، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح ، مدِيد القامة ، كريه الوجه، شديد الحَمْلة ، صحيح الفروسيّة ، فأقبل يحمل على الناس ، ويرتجز فيقول :

نحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَــداةَ النَّحْرِ ... بالخيلِ أمثالِ الوشيجِ تجْرِى[٦]

فخرج إليه سعد بن نجد القُرْدُوسيّ ، من الأزد ، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس ، فصُرِع المغيرة يومئذ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستانيّ[٧] وجماعة من الفرسان، حتى ركب وانكشف الناس عند سَقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب ، فقالوا: قُتِل المغيرة ، فأتاه دينار السجستانيّ ، فأخبره بسلامته ، فأعتق كلّ مملوك كان بحضرته.

***

(١) الشراة : الخوارج ؛ قال الجوهرى : سموا بذلك لقولهم : إنا شرينا أنفسنا فى طاعة الله ؛ أى بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة .
(٢) الكامل : « تألبوا » .
(٣) فى الأصول : « الفردوسى » ، تصحيف صوابه من الكامل ، وقردوس : قبيلة من الأزد .
(٤) الكامل : « المهلب » .
(٥) أى ماتجاوز إعجابك إعجابه .
(٦) الوشيج : مانبت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه فى بعض ؛ أو ما صلب فيه .
(٧) الكامل : « السختيانى » .

قال : ووجّه الحجاج الجرّاح بن عبد الله إلى المهلّب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

أما بعد؛ فإنك جَبَيْت الخراج بالعِلل[1] ، وتحصّنت بالخنادق ،وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثر عددا ؛ وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبْنًا ؛ ولكنك اتخذتهم أُكُلاً[2] ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم؛ فناجزْهم وإلاأنكرتَنى ، والسلام.

فقال المهلّب للجرّاح : ياأبا عُقْبة ، والله ماتركتُ حيلة إلا احتلتُها ، ولا مكيدةً إلا أعملتُها ؛ ومالعجبُ من إبطاء النُّصْرَة[3] وتراخى الظَّفَر ؛ ولكنّ العجب أن يكون الرأىُ لمن يملِكهُ دون مَنْ يُبْصره .

ثم ناهضهم ثلاثةَ أيام ، يغاديهم القتال ، فلا يزالون كذلكَ إلى العصر ، وينصرف أصحابُه وبهم قَرْح ، وبالخوارج قَرْح وَقَتْل . فقال له الجرّاح : قد أعذَرْت .

فكتب المهلّب إلى الحجاج :

أتانى كتابك تستبطئنى فى لقاء القوم ؛ على أنك لاتظنُّ بى معصية ولا جُبنا ؛ وقد عاتبتَنى معاتبة الجبان[4] ، وأوعدْتَنِي وعيدَ[5] العاصى ؛ فسلِ الجرّاح . والسلام .

فقال الحجاج للجرّاح : كيف رأيتَ أخاك ؟ قال : والله أيّها الأمير ، مارأيت مثلَه قطّ ، ولا ظننت أنّ أحدا يبقى على مثلِ ماهو عليه ، ولقد شهدتُ أصحابه أياما ثلاثة يَغْدُون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف؛

---

(١) بالعلل ، أى سترته بالعلل .
(٢) الأكل بالضم : اسم للمأكول .
(٣) الكامل : « النصر » .
(٤) أى معاتبتك للجبان .
(٥) فى الأصول : « وعد » ، وما أثبته من الكامل .

ويتخابطون بالعَمَد ؛ ثم يروحون كأنْ لم يصنعُوا شيئا ، رَوَاحَ قومٍ تلك عادتهم وتجارتهم .

فقال الحجّاج : لَشَدّ مامدحته(١) أبا عُقْبة ! فقال : الحقّ أوْلَى .

وكانت رُكُبُ الناس(٢) قديما من الخشب ، فكان الرّجل يضرب ركابه فينقطع ، فإذا أراد الضّربَ أو الطعن لم يكن له معتمَد ؛ فأمر المهلّب بضَرْب(٣) الرُّكُب من الحديد : فهو أول من أمَر بطبعها ؛ وفى ذلك يقول عمران بن عصام العنزىّ :

ضَرَبُوا الدّرَاهِمَ فى إمارَتِهِمْ ... وَضَرَبْتَ لِلْحَدَثَانِ وَالْحَرْبِ

حَلَقاً تَرَى مِنهــا مَرَافِقَهُمْ ... كَمنَاكِبِ الجِمَالَةِ الجُرْبِ(٤)

* * *

قال : وكتبَ الحجّاج إلى عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ ؛ من بنى رياح بن يَرْبوع ـ وهو والى أصفهان ـ يأمره بالمسير إلى المهلّب ، وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مخنف ، فكلُّ بلدٍ يدخلانه من فُتوح أهل البصرة فالمهلّب أميرُ الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتُم بلدا فتحَهُ أهلُ الكوفة(٥) فأنتَ أميرُ الجماعة ، والمهلّب على أهل البصرة .

فقدِم عتّاب فى إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلّب ، وهو بسابور ـ وهى من فتوح أهل البصرة ـ فكان المهلّب أميرَ الناس وعتّاب على أصحاب ابن مخنف، والخوارج بأيديهم كِرْمان ، وهم بإزاء المهلّب بفارس ، يحاربونه من جميع النواحى .

---

(١) كذا فى ب والكامل ، وفى ا ، ج : « وصفته » .

(٢) ركب الناس ، الركب ، بضمتين : جمع ركاب ؛ وهو مايعتمد عليه راكب السرج بقدميه ؛ فأما مايعتمد عليه راكب البعير ؛ فهو الغرز .

(٣) ج : « فضربت » .

(٤) المرافق هنا : معتمدات الأرجل من الحلق ؛ ويريد بمناكب الجمالة الجرب أنها رقيقة الوسط عريضة الطرفين . والجمالة ، مثلثة الجيم مخففة الميم : الطائفة من الجمال .

(٥) الكامل : « فتحه أهل الكوفة » .

قال : ووجّه الحجّاج إلى المهلّب رَجُلَين يستحثّانه لمناجزة القوم : أحدُهما يقال له زياد ابن عبد الرحمن ،من بنى عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبى عَقِيل من رهط الحجاج، فضمّ المهلّب زيادا إلى ابنه حَبيب ، وضمّ الثّقَفِيّ إلى ابنه يزيد ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيبا بالمناجزة ، وغادوا الخوارج . فاقتتلوا أشدّ قتال ؛ فقتِل زياد بن عبد الرحمن العامرىّ ، وفقد الثقفىّ . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ؛ وقد وُجِد الثقفىّ ، فدعا به المهلّب، ودعا بالغداء ، فجعل النَّبل يقع قريبا منهم ويتجاوزهم ، والثقفىّ يَعْجَب من أمر المهلّب ؛ فقال الصَّلتان العبدىّ :

أَلا ياأصبحانِى قبلَ عَوْقِ الْعَوائقِ(١) ... وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مثل الْعَقَائقِ(٢)
غــداةَ حبيبٍ فى الحديد يقودُنا ... يخوض المنـــايا فى ظلال الخوافِقِ
حَرُونٌ إذا ما الحربُ طَار شَرَارُها(٣) ... وَهَاجَ عَجاجُ النَّقْعِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ(٤)
فمَنْ مبلـــغُ الحجّاج أنّ أمينَه ... زياداً أطاحتـــهُ رماحُ الأزارقِ !

فلم يزل عتّاب بن وَرْقاء مع المهلّب ثمانية أشهر حتى ظهر شَبيب بن يزيد ؛ فكتب الحجّاج إلى عتاب يأمُره بالمصير إليه ليوجّهه إلى شَبيب ، وكتب إلى المهلّب يأمره أن يرزُق الجندَ ، فرزَق أهلَ البصرة ، وأبى أن يرزُقَ أهل الكوفة ، فقال له عتّاب : ما أنا ببارحٍ حتى ترْزُق أهلَ الكوفة، فأبى ، فجرتْ بينهما غِلْظة ،فقال له عتاب:قدكان يبلغنى أنّك شجاع ، فرأيتُك جبَانًا ، وكان يبلغنى أنّك جوادٌ ، فرأيتك بخيلا . فقال له المهلّب : يابن اللَّخناء ؛ فقال له عتّاب : لكنك مُعَمّ مُخْول !

(١) اصبحانى ؛ من صبحه إذا سقاه صبوحا من خمر أولبن . والعوائق : جمع عائقة ؛ وهى كل ماصرفك عما تريد .

(٢) فى الكامل : « قوله : وقبل اختراط القوم مثل العقائق ، يعنى السيوف ، والعقائق : جمع عقيقة ، يقال : سيف كأنه عقيقة برق ، أى كأنه لمعة برق ، ويقال : انعق البرق إذا تبسم » .

(٣) حرون ، لقب حبيب ،لأنه كان يحرن فى الحرب فلا يبرح ، وذلك مستعار من قولهم :فرس حرون لاينقاد ، وانظر رغبة الآمل ٤ : ٨٨ .

(٤) الكامل : « البوارق » ، والبوارق : السيوف .

فغضبت بكر بن وائل للمهلّب للحلف ، ووثب نُعَيم بن هُبيرة ، ابن أخى مَصقلة ابن هُبيرة على عتّاب فشتمه ، وقد كان للمهلّب كارهاً للحلف ، فلما رأى نُصرة بكر ابن وائل له سرّه ، واغتبط به، فلم يزل يؤكّده ، وغضبت تميم البَصْرة لعتّاب ، وغضبت أزْدُ الكوفة للمهلّب ؛ فلما رأى ذلك المغيرةُ مشى بين أبيه وبين عتّاب ؛ وقال لعتّاب : يا أبا ورقاء ؛ إنّ الأميرَ يصيرُ إلى كلّ ما تحبّ ،وسأل أباه أن يرزُقَ أهل الكوفة، ففعل فصلَح الأمر ؛ فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يَحْمَدون المغيرة بن المهلّب ، وكان عتاب يقول : إنّى لأعرِف فضله على أبيه .

وقال رجلٌ من الأزد ، من بنى إياد بن سُود :

أَلا أَبْلِـغْ أَبَا وَرْقَاءَ عَنّا ... فَلَوْلَا أننا كُنّا غِضَابا
على الشّيْخ المهلّب إذْ جَفَانا ... لَلَاقَتْ خيلُكم مِنّا ضِرَابا

• • •

قال : وكان المهلّب يقول لبنيه : لا تبدءوا الخوارج بقتال حتى يبدءوكم ، ويَبْغُوا عليكم ، فإنهم إذا بَغَوْا عليكم نُصِرْتُم عليهم .

فشخص عَتّاب إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين ، فوجّهه إلى شبيب فقتله شبيب .

وأقام المهلّب على حربهم ، فلما انقضَى من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وافترقت كلمتهم . وكان سبب اختلافهم أنّ رجلًا حداداً من الأزارقة ، كان يعمل نِصالًا مسمومة، فيُرمَى بها أصحابُ المهلّب ؛ فرُفِع ذلك إلى المهلّب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجّه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرِىّ ، فقال له : ألقِ هذا الكتابَ فى العسكر والدّراهم ، واحذر على نفسك ـ وكان الحدّاد يقال له أبْزَى ـ فمضى الرجل. وكان فى الكتاب : أما بعد ، فإن نصالَك قد وصلت إلىّ ، وقد وجّهتُ إليك بألف درهم فاقبِضْها وزدنا من هذه النّصال .

فوقع الكتاب إلى قَطَرِىّ ، فدعا بأبزَى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم ، فأمر به فَقُتِل . فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلًا على غير ثِقةٍ[1] ولاتبين ! قال قطرىّ: فما حال هذه الألف ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذبا ، ويجوز أن يكون حقًّا ، فقال قَطَرِىّ : إنّ قتلَ رجُلٍ فى صلاح الناس غير منكَر ، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحا ؛ وليس للرعيّة أن تعترض عليه . فتنكّر له عبدُ رَبّه فى جماعة معه ، ولم يفارقوه .

وبلغ ذلك المهلّب فدسّ إليهم رجُلًا نصرانيًّا ؛ جعل له جُعْلًا يُرْغَب فى مثله ؛ وقال له : إذا رأيتَ قَطَرِيًّا فاسجُدْ له ؛ فإذا نهاك فقل : إنّما سجدتُ لك ؛ ففعل ذلك النّصرانىّ ، فقال قطرىّ : إنما السجود لله تعالى ؛ فقال ما سجدتُ إلا لكَ ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عَبَدَكَ من دون الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[2]؛ فقال قطَرىّ: إنّ النصارى قد عبدُوا عيسى بن مريم ؛ فما ضرّ عيسى ذلك شيئا . فقام رجل من الخوارج إلى النّصرانىّ فقتله ، فأنكر قطرىّ ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكارَه .

وبلغ المهلّب ذلك ، فوجّه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : أرأيتم رجُلَيْن خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يَجُزِ المحنة ، ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أمّا الميت فمؤمن من أهل الجنّة ، وأما الذى لم يَجُزِ المِحنة فكافر حتى يُجيز المحنة .

وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيز المحنة ؛ فكثر الاختلاف .

وخرج قطَرىٌّ إلى حدود إصطَخْر ؛ فأقام شهراً ، والقومُ فى اختلافهم . ثم أقبل فقال

(١) ج « وثيقة » .
(٢) سورة الأنبياء ٩٨

لهم صالح بن مخراق : يا قوم ، إنكم أقررتم عين عدوكم ، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم (١) ، فعودوا إلى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا ـ وهو من بنى سعد بن زيدمناة بن تميم ـ فنادى: يأيها المحِلّون (٢) ؛ هل لكم فى الطِّراد فقد طال عهدى به ! ثم قال :

أَلَمْ تَرَ أنا مذْ ثلاثين ليلةً جَدِيبٌ وأعداءُ الكتاب على خَفْضِ (٣)

فتهايج القوم ، وأسرع بعضُهم إلى بعض ؛ وكانت الوقعة ، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلّب ، وصارف وسط الأزارقة، فجعلت الرماح تحطُّه وترفعه، واعتورتْ رأسَه السيوف، وعليه ساعد حديد ، فوضع يده على رأسه ؛ فلم يعمل السيف فيه شيئا ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرِع ، وكان الذى صرّعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل ، وكان يقول يومئذ :

أنا ابن خيرِ قومِه هلالِ شيخٌ على دينِ أبى بلالِ

* وذاكَ دِينى آخرَ الليالى *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنّا نعجب كيف تُصرَع ، والآن نعجب كيف تنجو ! وقال المهلّب لبنيه : إنّ سَرْحَكُم (٤) لغارّ ، ولست آمنهم عليه ، أفوكّلتم به أحدا ؟ قالوا: لا، فلم يستتمّ الكلام حتى أتاه آتٍ ، فقال : إن صالح بن مخراق قد أغارَ على السَّرْح ، فشقّ على المهلّب ، وقال : كل أمرٍ لا أليه بنفسى فهو ضائع ؛ وتذمّر عليهم ؛ فقال له بشر بن المغيرة : أرِحْ نفسك ؛ فإنْ كنتَ إنما تريد مثلك فوالله مايعدِل خيرُنا شِسْعَ (٥) نعلك ،

---

(١) ج : « اختلافكم » .

(٢) المحلون : الذين لايحفظون عهداولا يرعون حرمة ؛ فكأنما أحلوا أعراضهم وأموالهم أن تستباح.

(٣) الخفض . الدعة ولين العيش .

(٤) السرح : المال السائم فى المرعى من الأنعام ؛ وأراد بالغارالذى يطمع الناس فى أخذه حيث لاراعى له يحفظه .

(٥) الشسع : قبال النعل .

فقال : خذوا عليهم الطريق ، فبادر بشر بن المنيرة ، ومدرك والمفضّل ابنا المهلّب؛ فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة يَشُلّ السَّرْح [١] ، وهو يقول :

نحن قمعناكم بشلّ السَّرْحِ ... وقد نكأنا القَرْحَ بعدَ القَرْحِ [٢]

ولحقه المفضّل ومدرك ، فصاح برجل من طيّئ : اكفِنا الأسود؛ فاعتوره الطائيّ وبشر ابن المنيرة فقتلاه ، وأسرا رجلًا من الأزارقة من همْدان ، واستردّا السَّرْح [٣] .

قال : وكان عيّاش الكنديّ شجاعا بئيسا [٤] ،فأبلى يومئذ ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك ، قال المهلّب : لا وألت [٥] نفسُ الجبان بعد عيّاش ! وقال المهلّب : ما رأيت تالله كهؤلاء القومِ ، كلما انتقص [٦] منهم يزيد فيهم !

***

ووجّه الحجاج رجلين إلى المهلّب يستحثّانه بالقتال : أحدهما من كَلْب ، والآخر من سُلَيم ، فقال المهلّب متمثّلا بشعر لأوس بن حجَر :

ومستعجِبٍ مما يرى من أناتنا ... ولو زَبَنَتْهُ الحربُ لم يَتَرَمْرَمِ [٧]

فقال المهلّب ليزيد ابنه : حرّك القوم ، فحرّكهم فتهايجُوا ؛ وذلك في قرية من قرى إصطخر ؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب وطعنه ، فشكّ فخِذه بالسَّرْج ، فقال المهلّب للسُّلَميّ والكلبيّ : كيف يُقاتَل [٨] قوم هذا طعنهم ! وحمل

(١) في الكامل : « يشل السرح » ، أي يطرده .

(٢) في الكامل : « الشل : الطرد . ويقال : نكأت القرحة ، مهموز ، ونكيت العدو غير مهموز؛ من النكاية ، ونكأت القرحة نكأ ؛ قال ابن هرمة :

ولا أراها تزالُ ظالمةً ... تُحْدِثُ لي قرحةً وتنكؤُها

(٣) في الكامل : « وخلى سبيله » .

(٤) البئيس ، من بؤس الرجل يبؤس ؛ إذا اشتدت شجاعته .

(٥) لا وألت ، أي لانجت .

(٦) الكامل : « ينقص » .

(٧) قال المبرد : قوله زبنته ؛ يقول : دفعته . ولم يترمرم : لم يتحرك ؛ يقال : قيل له كذا وكذا فما ترمرم .

(٨) الكامل : « تقاتل » .

يزيد عليهم ؛ وقد جاء الرُّقاد ـ وهو من فرسان المهلب ـ وهو أحد بنى مالك بن ربيعة، على فرس له أدهم ؛ وبه نَيِّف وعشرون جِراحة ، وقد وضع عليها القُطْن ، فلما حمل يزيد ولّى الجمع ، وحَامَى فارسان منهم ؛ فقال يزيد لقيس الخُشَنِىّ ، مولى العتيك : مَنْ لهذين ؟ قال : أنا ، فحمل عليهما ، فعطف عليه أحدهما فطعنه قيس فصرعه ، وحمل عليه الآخر فعانقه ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فصاح قيس الخشنىّ : اقتلونا جميعا ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزُوا بينهما ، فإذا مُعانِق قيس امرأة ، فقام قيس مستحْيِياً، فقال له يزيد : ياأبا بشر ، أمّا أنتَ فبارزتَها على أنّها رجل ، فقال : أرأيت لو قُتِلتُ ، أما كان يقال : قتلته امرأة ! وأبلى يومئذ ابن المنجِب السَّدُوسِىّ ، فقال غلام له يقال له خِلاج: والله لوددنا أنا فَضَضْنا عسكرهم حتى نصيرَ إلى مستقرّهم ، فأستلِب مما هناك جاريتين . فقال له مولاه ابن المنجب : وكيف تمنّيت ويحك اثنتين ! فقال : لأعطيَك إحداهما وآخذ الأخرى ، فقال ابن المنجب :

أخلاجُ إنكَ لَنْ تعانِقَ طَفْلَةً ... شَرِقًا بها الجادِىّ كالتِّمْثالِ (١)

حتّى تلاقىَ فى الكَتِيبة مُعْلِمًا ... عَمْرو القَنا وعبيدة بن هلالِ (٢)

وترى المقعطَّر فى الفَوارِس مقدِماً ... فى عُصْبَةٍ نَشِطُوا عَلَى الضُّلّالِ (٣)

---

(١) قال المبرد : « قوله : طفلة ، يقول : ناعمة ؛ وإذا كسرت الطاء فقلت : طفلة ؛ فهى الصغيرة . والجادى : الزعفران » .

(٢) قال المبرد : « الكتيبة : الجيش ؛ وإنما سمى الجيش كتيبة لانضمام أهله بعضهم إلى بعض ؛ وبهذا سمى الكتاب ؛ ومنه قولهم : كتبت البغلة والناقة ، وكتبت القربة ؛ إذا خرزت ذلك الوضع . والمعلم . الذى قد شهر نفسه بعلامة ؛ إما بعمامة صبيغ ؛ أو بعشهرة ، وإما بغير ذلك . . وعمرو القنا من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبيدة بن هلال من بنى يشكر بن بكر بن وائل . والذى طعن صاحب المهلب فى فخذه فشكها مع السرج من بنى تميم ؛ قال : ولا أدرى : أعمرو هو أم غيره ؟ » .

(٣) فى الكامل : « قسطوا مع الضلال » . قال : والمقعطر : من عبدالقيس ، وقوله : « قسطوا » ، أى جاروا ؛ يقال : قسط يقسط فهو قاسط ؛ إذا جار ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

أو أنْ يعلّك المهلّب غزْوَهُ   وَترى جبالاً قد دنَتْ لجبالِ

قال : وكان بدر بن الهُذيل من أصحاب المهلّب شجاعا ، وكان لحّانة ؛ كان إذا أحسّ بالخوارج ينادى : « يا خيلِ الله ازكَبِى » ؛ وإليه يشير القائل :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى المهلّب حاجَةً   عَرَضَتْ توابعُ دُونَهُ وعَبيدُ[1]

العبــــد كُرْدُسٌ وبَدرٌ مثلُه   وعلاجُ باب الأحمرين شَدِيدُ[2]

قال : وكان بشر بن المغيرة بن أبى صُفرة أبلى يومئذ بلاء حسنا عُرِف مكانه فيه ؛ وكانت بينه وبين المهلّب جَفْوة ، فقال لبنيه : يا بنى عمّ ، إنى قد قصرت عن شَكاةِ العاتب[3] ؛ وجاوزتُ شَكاةَ المستعتِب[4] ؛ حتى كأنى لا موصول ولا محروم ؛ فاجعلوا لى فُرْجَةً أعيش بها ، وهبونى امرأً رجوتم نصره ؛ أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلّموا فيه المهلّب ، فوصله .

وولّى الحجاج كَرْدما فارس، ووجّهه إليها والحرب قائمة ، فقال رجل من أصحاب المهلّب :

وَلَوْ رَآها كَرْدَمٌ لَكَرْدَمَا   كَرْدَمَةَ العَيْرِ أحسّ الضَّيْغَمَا[5]

فكتب المهلّب إلى الحجّاج يسأله أن يتجافَى له عن إصطخر ودَارا بجرد لأرزاق الجند ، ففعل . وقد كان قطرىّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره ؛ وأراد مثل ذلك بمدينة فَسا ، فاشتراها منه آزاذ مَرْد بن الهربذ بمائة ألف درهم

---

(١) قال المبرد : توابع ، أراد به الرجال ؛ فجاز فى الشعر ؛ وإنما رده إلى أصله للضرورة ؛ وما كان من النعوت على « فاعل » بجمعه « فاعلون » ؛ لئلا يلتبس بجمع « فاعلة » ؛ التى هى نعت » .

(٢) قال المبرد : كردوس : رجل من الأزد ؛ وكان حاجب المهلب . وقوله : « وعلاج باب الأحمرين شديد » ؛ العرب تسمى العجم الحمراء .

(٣) العاتب : الساخط .

(٤) المستعتب : الطالب الرضا .

(٥) فى الكامل : « الضيغم : الأسد ، و الكردمة : النفور » .

فلم يهدمها . فواقعه وجهُ المهلّب فهزمه ، فنفاه إلى كِرْمان ، وأتبعه المغيرة ابنه ؛ وقد كان دفع إليه سيفا وجّه به الحجاج إلى المهلّب ، وأقسم عليه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ما تقلده ، فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه ، فسر المهلّب ، وقال : ما يسرُّنى أن يكونَ كنت دفعته إلى غيرك من ولدى ؛ وقال له : اكفِنِى جباية خراج هاتين الكورَتَيْن ، وضم إليه الرُّقاد ، فجعلا يَجْبيان ، ولا يعطيان الجند شيئا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى تميم فى كلمة له :

وَلَوْ عَلِم ابنُ يُوسُفَ ما نُلاقِى ... من الآفاتِ والكُرَبِ الشِّدادِ
لفاضت عينُه جَزَعاً علينـــــا ... وأصلح ما استطاع مِن الفسادِ
ألا قلْ لِلأَمير جُزِيتَ خَيْراً ... أرِحْنــــا مِنْ مُغيرَةَ والرُّقادِ
فمـــا رزق الجنودَ بهم قفيزاً ... وقد سَاسَتْ مطامِيرُ الحَصَادِ[1]

أى وقع فيها السوس[2] .

قال : ثم حاربهم المهلّب بالسِّيرَجان[3] حتى نفاهم عنهـا إلى جِيرَفْت[4] واتبعهم ونزل قريبا منهم .

* * *

ثم اختلفت كلمة الخوارج ، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتُّهم بامرأة رجل نجّار ، رأوه يدخل مرارا إليها بغير إذن ، فأتى قَطَرِيًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدِّين بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ؛ فقالوا : إنّا لا نقارّ على الفاحشة ، فقال:

---

(١) المطامير : جمع مطمورة ؛ وهى حفرة تحت الأرض يوسع أسفلها ؛ تخبأ فيها الحبوب .
(٢) يقال : ساس الطعام وأساس ؛ إذا وقع فيه السوس .
(٣) السيرجان ، بكسر السين وسكون الياء وفتح الراء : مدينة بين كرمان وفارس .
(٤) جيرفت ، بكسر فسكون ففتح راء وسكون فاء : مدينة بكرمان .

نصرفوا، ثم بعث إلى عبيدة ، فأخبره ، وقال له: أنالاأقارّ على الفاحشة، فقال: بَهَتُونى[1] يا أمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم ، فلا تخضعْ خضوع المذنب ، ولا تتطاولْ تطاولُ البرىء ؛فجمع بينهم ، فتكلموا،فقام عبيدة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ... حتى تلا الآيات[2]، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه ؛ وقالوا : استغفر لنا. ففعل ؛ فقال عبدُ ربِّه الصغير مولَى بنى قيس بن ثعلبة:والله لقد خدعكم ، فتابَعَ عبدَ ربِّه منهم ناس كثير ؛ ولم يظهروا ، ولم يجدوا على عبيدة فى إقامة الحدّ ثَبَتاً[3] .

* * *

وكان قَطَرِىّ قد استعملَ رجلا من الدَّهاقين ، فظهرت له أموال كثيرة ، فأتوا قَطَرِيًّا ؛ فقالوا : إنّ عمر بن الخطاب لم يكن يقارّ عمّاله على مثل هذا ؛ فقال قَطَرِىّ :إنّى استعملتُه، وله ضياع وتجارات ،فأوغَرَ ذلك صدورَهم؛ وبلغ المهلّبَ ذلك، فقال : اختلافهم أشدُّ عليهم مِنّى، ثم قالوا لقَطَرِىّ : ألا تخرج بنا إلى عدوّنا ؟ فقال : لا، ثم خرج فقالوا:قد كَذَبَ وارتدّ ، فاتبعوه يوما ، فأحسّ بالشرّ ،ودخل دارا مع جماعةمن أصحابه ،فاجتمعوا عليه وصاحوا: اخرج إلينا يادابّة، فخرج إليهم ، فقال :أرجعتم بَعْدِى كفارا ! قالوا:أولستَ دابة ! قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[4]؛ ولكنّك قد كَفَرْتَ بقولك : « إنا قد رَجَعْنا كفارا »، فتب إلى الله .فشاور عبيدة فى ذلك ،فقال له:إن تبتَ لم يقبلوا منك، فقل : إنّى استفهمت فقلت : « أرجعتم بعدى كفارا؟ »فقال لهم ذلك، فقبلوا منه ، فرجع إلى منزله .

---

(١) بهتونى : قالوا على مالم أفعل .
(٢) سورة النور ١١ ــ ٢٠
(٣) ثبتا ؛ بالتحريك ؛ أى حجة .
(٤) سورة هود ٦ .

[عبد رَبّه الصغير]

ومنهم عبد ربّه الصغير ، أحد موالى قيس بن ثعلبة .

لما[1] اختلفت الخوارج على قطَرِيّ بايعه منهم جمع كثير ، وكان قَطَرِيٌّ قد عزم على أن يبايع للمقعطر العبدىّ ، ويخلع نفسه ، فجعله أمير الجيش فى الحرب قبل أن يعهدَ إليه بالخلافة ، فكرهه القوم وأبوْه ، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه : ابغ لنا غير المقعطَر ، فقال لهم قَطَرِيّ : إنّى أرى طولَ العهد قد غيّركم ، وأنتم بصدد عدوّ ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم ، واستعدّوا للقاء القوم ؛ فقال صالح : إنّ الناس قَبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزِل سعيد بن العاصى عنهم ففعل . ويجب على الإمام أن يُعفِيَ الرعيّة مما كرِهَتْ . فأبى قَطَرِيّ أن يعزل المقعطر ، فقال له القوم : فإنا قد خلعناك وبايعنا عبد ربه الصّغير - وكان عبد ربّه هذا مُعلّمَ كُتّاب ، وكان عبد ربّه الكبير بائع رمان : وكلاهما من موالى قيس ابن ثعلبة - فانفصل إلى عبد ربّه الصغير أكثر من شَطرِهم : وجلُّهم الموالى والعجم ، وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القرّاء ، ثم ندم صالح بن مخراق ، وقال لقَطَرِيّ: هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفِنا من المقعطر ، وسِرْ بنا إلى عدونا وعدوّك ، فأبى قطرىّ إلا المقعطر ، وحمل فتًى من الشُّراة على صالح بن مخراق ، فطعنه فأنفذه ، وأوجرَه الرمح[2] .

فنشبت الحرب بينهم ، فتهايجوا . ثم انحاز كلٌّ قوم إلى صاحبهم ، فلما كان الغد اجتمعوا ، فاقتتلوا ، فأجلَتِ الحرب عن ألفَىْ قتيل ، فلما كان الغد عاودوا الحرب ، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العربَ عن المدينة ، فأقام عبد ربه بها ، وصار قَطَرِيٌّ خارجاً من

---

(١) الكامل ٣ : ٣٩٢ وما بعدها .

(٢) قال المبرد : « ومعنى أوجره الرمح طعنه وترك الرمح فيه ؛ قال عنترة :

وآخرَ منهمُ أجررت رُمحي ... وفى البَجلىِّ معبلةٌ وقيعُ

مدينة جيرفت بإزائهم ، فقال له عبيدة بن هلال : ياأمير المؤمنين ، إن أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك ؛ إلّا أن تخندق على نفسك ؛ فخندَق على باب المدينة وجعل يُناوشهم ، وارتحل المهلّب ، وكان منهم على ليلة، ورسول الحجاج معه يستحثّه ، فقال له : أصلح الله الأمير ! عاجِلْهم قبل أن يصطلحوا ، فقال المهلّب : إنّهم لن يصطلحوا ؛ ولكن دَعْهم فإنهم سيصيرون إلى حال لايفلِحون معها ، ثم دسّ رجلا من أصحابه ، فقال : ائت عسكر قَطَرِيّ ، فقل : إنى لم أزل أرى قَطَرِيًّا يصيب الرأى؛ حتى نزل منزله هذا ، فظهر خطؤه : أيقيم بين المهلّب وعبد ربّه، يغاديه القتال هذا ،ويراوحه هذا ! فنُمِيَ الكلام إلى قَطرىّ، فقال : صدق: تنحّوْا بنا عن هذا الموضع ، فإن اتّبعَنا المهلّبُ قاتلناه ، وإن أقام على عبدربّهُ رأيتم فيه ماتحبّون .

فقال له الصّلت بن مرة : ياأميرَ المؤمنين ، إن كنت إنما تريد الله فأقدِم على القوم ، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلِم أصحابك حتى يستأمنوا ، ثم قال :

قُلْ للمحِلّين قد قرّتْ عيونُكُمُ ... بفرقةِ القومِ والبغضاءِ والهَرَبِ
كنّا أناساً على دينٍ ففرّقَنا ... طولُ الجدالِ وخَلْطُ الجِدّ باللعبِ
ما كان أغنى رجالا قَلّ جيشُهم (١) ... عن الجِدالِ وأغناهم عن الخُطَبِ
إنى لأهونُكُم فى الأرض مضطرَباً ... مالى سوى فرسى والرُّمح من نَشَبِ

ثم قال : أصبح المهلّب يرجو منّا ما كنا نطمع منه فيه .

وارتحل قَطرىّ ، وبلغ ذلك المهلّبَ ، فقال لهُرَيم بن أبى طَحْمة المجاشعىّ : إنى لا آمن أن يكونَ كاذبًا بترك موضعه ، اذهب فتعرّف الخبر ، فمضى الهُرَيم فى اثنى عشر فارسا ، فلم يرَ فى العسكر إلا عبدا وعِلْجا مريضين، فسألهما عن قَطَرِيّ وأصحابه،فقالا:

---

(١) الكامل : « ضل سعيهم » .

مضوا يرتادون غيرهذا المنزل ، فرجع هُزيم إلى المهلّب ، فأخبره ، فارتحل حتى نزلَ خندق قطرىّ ، فجعل يقاتل عبدَ ربّه أحيانابالغداة ، وأحيانا بالعَشِىّ ، فقال رجل من سَدُوس، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائرَ بالعراق شَهِدْنَنَا ورأيْنَنَا بالسَّفح ذى الأجبـــالِ
فنكون أهل الجِدّ من فرساننا(١) والضاربين جماجم الأبطـــالِ

ووجّه المهلّب يزيدَ ابنَه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قَطَرِىّ ، وأنه مقيم على عبد ربّه ، ويسأله أن يوجّه فى أثر قطَرِىّ رجلا جَلْدا . فسرّ بذلك الحجاج سروراً أظهره. ثم كتب إلى المهلّب يستحثّه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب :

أما بعد ؛ فإنّك تتراخَى عن الحرب حتى تأتيَك رُسُلِى فيرجعون بعذرِك ؛ وذلك أنك تُمسِك حتى تَبرأ الجراح، وتُنْسى القتلى ،وتحملَ الـكالّ(٢) ثم تلقاهم ، فتحمل منهم ثقَل مايحتملون منك من وَحْشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدّ لـكان الداء قد حُسِم ، والقَرْن(٣) قد قُصِم ؛ ولعمرى ماأنت والقوم سواء ، لأنّ مِنْ ورائك رجالا ، وأمامك أموالًا ؛ وليس للقوم إلا مانعهـد ، ولا يُدْرَك الوجيفُ(٤) بالدبيب ، ولا الظفر بالتعذير .

فلما ورد عليه الـكتاب ، قال لأصحابه : ياقوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعـة : قطرىّ بن الفجاءة ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبد ربّه الصغير فى خُشار من خُشار(٥) الشيطان ؛ تقتلونهم إن شاء الله تعالى.

---

(١) الـكامل : « أهل الجزء » ؛ والجزء : الغناء والـكفاية فى الحرب .
(٢) الـكامل : « ويجم الناس » .
(٣) قصم القرن ؛ أى كسر ؛ يكنى بذلك عن هلاك القوم .
(٤) الوجيف : ضرب من السير السريع .
(٥) الخشار : الردىء وما لا خير فيه .

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ؛ فكأنما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدّثون فيه ؛ يضحك بعضهم إلى بعض؛فقال عبيد بن موهب للمهلّب : قد بان عذرُك ، فاكتب فإنى مخبرٌ الأمير .

فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى لم أعطِ رُسُلَكَ على قول الحقّ أجرا ، ولم أحتجْ منهم عن المشاهدة إلى تلقينٍ . ذكَرتَ أنى أجِمّ القومَ ؛ ولابُدّ من وقتِ راحة يستريح فيه الغالب ، ويحتال فيه المغلوب . وذكرتَ أنّ فى الجِمام ماينسى القتلى ، وتبرأ [منه] [1] الجراح ، وهيهات أن يُنْسَى مابيننا وبينهم ! تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ[2]، وقُروح لم تتقرّف[3]،ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون مِنّا حالاتٍ ، إن طمعوا حاربوا ، وإن مَلّوا وقفوا ، وإن يئسوا انصرفوا . وعلينا أن نقاتلَهم إذا قاتلوا ، ونتحرّز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ، فإن تركتَنى والرأى ، كان القَرْنُ مقصوما ، والداء بإذن الله محسوما ، وإن أعجلتَنى لم أُطِعْك ولم أعصِك ، وجعلتُ وجْهى إلى بابك ، وأعوذ بالله من سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس .

قال : ولما اشتدّ الحصار على عَبْد ربّه ، قال لأصحابه : لا تفتقِروا إلى مَنْ ذهب عنكم من الرجال ؛ فإنّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صحّ توحيدُه عَزّ بربّه ؛ وقد أراحكم الله من غِلْظة قطَرِيّ ، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال،ووكَلَكم إلى بصائركم ؛ فالقَوْا عدوّكم بصبر ونيّة ؛ وانتقِلوا عن منزلكم هذا ، فمن قُتل منكم قتل شهيدا ، ومن سَلِم من القتل فهو المحروم .

---

(١) من الكامل .
(٢) لم تجن : لم تدفن فى الجنن ؛ وهو القبر
(٣) لم تتقرف : لم تتقشر .

قال : وورد فى ذلك الوقت على المهلّب عبيدُ بن أبى رَبيعة بن أبى الصَّلْت الثقفىّ من عند الحجاج ، يستحثُّه بالقتال، ومعه أمينان ، فقال للمهلّب: خالفتَ وصيّة الأمير، وآثرت المدافعة والمطاولة . فقال له المهلّب : والله ماتركتُ جهدا .

فلما كان العشىّ خرجت الأزارقة ، وقد حملوا حريمهم وأموالهم ، وخِفّ(١) متاعِهم لينتقلوا ؛ فقال المهلّب لأصحابه : الزموا مَصافّكم ، وأشرِعوا (٢) رماحكم ، ودعوهم والذّهاب ؛ فقال له عُبَيْدة بن أبى ربيعة : هذا لعمرى أيسر عليك . فغضب وقال للناس: ردُّوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا فى الناس ؛ وقال لعُبيدة بن أبى ربيعة : كُنْ مع [يزيد، فخذه بالمحاربةِ أشدّ الأخذ؛ وقال لأحد الأمينين : كن مع] (٣) المغيرة، ولاتُرَخِّصْ له فى الفُتور .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى عُقِرت الخيل (٤) ، وصُرِع الفرسان ، وقُتِلت الرَّجّالة(٥) ؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القَدَح (٦) يؤخَذ منها ، والسَّوْط والعَلَف والحشيش (٧) أشدّ قتال .

وسقط رمحٌ لرجل من مُراد ، من الخوارج ، فقاتلوا عليه حتى كَثُر الجراح والقتل؛ وذلك مع المغربِ ، والمرادىّ يرتجز ، ويقول :

اللّيـــلُ ليلٌ فيـه وَيلٌ وَيْلُ ... قَدْ سَالَ بالقوم الشّراةِ السَّيْلُ

* إن جاز للأعداء فينا قَوْلُ *

(١) الخف ، بالكسر : الخفيف ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* يزلّ الغلام الخِفّ عن صهواتها *

(٢) أشرع الرمح : رفعه .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل : « الدواب » .
(٥) الكامل : « الرجال » .
(٦) الكامل « على القدح » .
(٧) الكامل : « والعلق الخسيس » .

فلما عظُم الخطب فى ذلك [1] الرمح بعث المهلّب إلى المغيرة : خَلّ لهم عن الرمح ؛ عليهم لعنة الله ! فخلّوا لهم عنه ، ومضت الخوارج ، فنزلت على أربعة فراسخ من جِيرَفْت ، فدخلها المهلّب ، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع ، وماخلّفوه من دقيق ، وجَمّع عليه هو والثقفىّ والأمينان ، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين لا يشرب منها أحد إلا قوِىَ [2] ، يأتى الرجل بالدلو قد شدّها فى طرف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلُها ، فدام القتال ، وضمّ الثقفىّ إلى ابنه يزيد ، وأحدَ الأمينين إلى المغيرة ، فاقتتل القوم إلى نصف النهار .

وقال المهلّب لأبى علقمة العبدىّ — وكان شجاعاً، وكان عاتياً هازلاً — : أمددنا ياأبا علقمة بخيل اليَحْمَد، وقل لهم : فليعيرُونا جماجمهم ساعة ؛ فقال : أيُّها الأمير ، إن جماجمهم ليست بفخّار فتُعار ، ولا أعناقهم كَرَادِىَ [3] فتنبت .

وقال : لحبيب بن أوس : كُرّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لىَ الأميرُ بغـير علمٍ   تقدَّمْ حين جَدّ به المِرَاسُ
فمالى إن أطعتُك منْ حياةٍ   ومالِىَ غيرَ هـذا الرأس رَاسُ [4]

وقال لمعن بن المغيرة بن أبى صُفْرة: احمِلْ ، فقال : لا، إلّا أنْ تزوِّجَنِى ابنتك أمّ مالك، فقال : قد زوّجتُك ، فحمل على الخوارج فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

لَيْتَ مَنْ يَشْترى الحياة بمـالٍ   مَلَكَة كان عنـدنا فيَرَانا [5]

(١) الكامل : « فيه » .
(٢) الكامل : « على عين لايشرب منها إلا قوى » .
(٣) فى الأصول : « كراث » ، وصوابه من الكامل ؛ قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعذاق النخل كراد ؛ وهو فارسى عرب » .
(٤) فى الكامل : نصب « غير » ، لأنه استثناء مقدم .
(٥) رواية الكامل :

لَيْتَ مَنْ يَشترِى الغداةَ بمال   هلكه اليوم عنـدنا فيَرَانا

نصِلُ الكَرَّ عنـد ذاكَ بطعْنٍ　　إنّ للموتِ عنـدنا ألوانا

قوله : « مَلَكَةً » : أي تزويجا ونكاحا .

قال : ثم جال الناس جولةً عند حَمْلةٍ حَمَلَها عليهم الخوارج ، فالتفت المهلّب ، فقال للمغيرة ابنه : مافعل الأمينُ الذى كان معك ؟ قال : قُتِل وهرب الثقفىّ ، فقال ليزيد : مافعل عُبيد بن أبى ربيعة ؟ قال : لم أره منذ كانت الجولة ، فقال الأمين الآخر للمغيرة : أنت قتلتَ صاحبى ، فلما كان العشىّ رجع الثقفىّ ، فقال رجل من بنى عامر بن صعصعة :

مازلتَ يا ثقفِيّ تخطُبُ بيننـا　　وتَغُمُّنَا بوصيّـةِ الحجّاجِ

حتى إذا ما الموتُ أقبل زاخِراً　　وسَمَا لنَا صِرْفاً بغـيرِ مِزاجِ

ولّيْتَ يا ثقفىُّ غـيرَ مناظِرٍ　　تنساب بين أحزّةٍ وفجاجِ [1]

ليست مقارعةُ الكُماة لدى الوغى　　شُرْبَ المُدامة فى إناء زُجاجِ

فقال المهلّب للأمين الآخر : ينبغى أن تتوجّه مع ابنى حبيب فى ألف رجل ؛ حتى تبيّتوا عسكرهم ، فقال : ماتريد أيها الأمير إلا أن تقتلنى كما فعلت بصاحبى ! فضحك المهلّب، وقال : ذاك إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فكان كلٌّ حذِراً من صاحبه ؛ غير أن الطعام والمُدَّة مع المهلّب ؛ وهو فى زُهاء ثلاثين ألفا ؛ فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم ؛ وهو ينشد :

وإنى لأُغْنِى ذَا الخِمار وصنعتِى　　إذا راحَ أطواء بنِىَّ الأصاغرُ [2]

(١) قال المبرد . « قوله : « بين أحزة » ، هو جمع حزيز ؛ وهو مغلظ ينقاد من الأرض ويغلظ ، والفجاج : الطرق ، واحدها فج .

(٢) قال المبرد ؛ « قوله : « ذو الخمار » ، يعنى فرساً ، وكان ذو الخمار فرس مالك بن نويرة ؛ قال جرير يهجو الفرزدق :

بيربوعٍ فخرتُ وآلِ سَعْدٍ　　فلا مجدى بلغتَ ولا افتخارى

بيربوعٍ فوارسُ كلّ يومٍ　　يوارِى شمسَـه رَهَجُ الغُبارِ

عُتيْبةُ والأحيمرُ وابنُ عمروٍ　　وعتّابٌ وفارسُ ذى الخِمارِ

=

أخَادِعُهُمَ عنه لِيَغْبُقَ دُونَهُمْ وأعْلَمَ غير الظّنّ إنى مغـاوِرُ
كأنّى وأبدانَ السّلاحِ عشيّـة يمرّ بنا فى بَطْنِ فَيْحَانَ طائرُ[1]

فقال له : أتميمى أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحنظلى ؟ قال : نعم ، قال : أيربوعى ؟ قال : نعم ، قال : أمِنْ آل نُويرة ؟ قال : نعم ، أنا ولد مالك بن نويرة ؛ قال : قد عرفتك بالشّعر .

قال أبو العباس : وذُو الخمار فرس مالك بن نويرة .

قال : فـكثوا أياما يتحاربون[2] ودوابُّهم مسرّجة ، ولا خنادقَ لم ؛ حتى ضَعُفَ الفريقان ؛ فلما كان الليلةُ التى قُتِل فى صبيحتها عَبْد رَبِّه ، جمع أصحابه ، فقال : يامعشرَ المهاجرين ؛ إن قَطَرِيًّا وعُبيدةَ هربا طلبا للبقاء ، ولا سبيلَ إلى البقاء ، فالقَوْا عدوَّكم غداً ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يغلِبُنّكم على الموت ؛ فتَلَقَّوْا الرِّماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا يهبْها لكم فى الآخرة .

فلما أصبحوا ، غَادَوُا المهلّب ، فاقتتلوا قتالا شديدا أنسى ما كان قَبْلَه ؛ وقال رجل من الأزد ، من أصحاب المهلّب : مَنْ يُبايِعُنِي على الموت ؟ فبايعه أربعون رجلا من الأزْد ، فصُرِع بعضهم ، وقتِل بعضهم ، وجرح بعضهم .

= وقوله : «أطواء» ؛ يقال : رجل طوى البطن ؛ أى منطو ؛ يخبر أنه كان يؤثر فرسه على ولده فيشبعه وهم جياع ؛ وذلك قوله :

* أخادِعُهمْ عنـه ليغبُق دُونَهمْ *

والغبوق : شرب آخر النهـار ؛ وهو شئ تفتخر به العرب » ، واللهنة : الطعام الذى يتعلل به قبـل الغداء ؛ وفى الكامل :

جزانى دِوائِى ذو الخمار وصَنْعَتِي إذا باتَ أطواءً بَنِيَّ الأصاغِرُ

قال المرصفى : دوائى ، بالـكسر : مصدر دوى الفرس مداواة : سقاه اللبن ، وصنعته الفرس : حسن القيام عليه .

(١) أبدان السلاح : جمع بدن ؛ وهو الدرع القصيرة ، وفيحان : موضع أو واد فى بنى أسد .

(٢) الكامل : « يتحارسون » .

وقال عبدالله بن رزام الحارثيّ للمهلب : احمِلوا ، فقال المهلّب : أعرابيّ مجنون ـ وكان من أهل نجْران ـ فحمل وحْده ؛ فاخترق القوم حتى خرج من ناحية [أخرى] ؛ ثم كرّ ثانية ففعل فَعْلَته الأولى ، وتهايج الناس ، فترجّلت الخوارج ، وعقَروا دوابّهم ، فنادام عمرو القنا ـ ولم يترجّل هو ولا أصحابه (٢) ، وهم زهاء أربعمائة ـ فقال : موتوا على ظهور دوابّكم كراماً ، ولا تعقِرُوها ، فقالوا : إنّا إذا كنّا على الدواب ذكرنا الفِرار ، [فاقتتلوا] (٣) ، ونادى المهلّب بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ! وقال لبنيه : تفرّقوا فى الناس ليروْا وجوهكم ، ونادت الخوارج : ألا إنّ العيال لمنْ غلَب ؛ فصبَر بنو المهلّب ؛ (٤) وقاتل يزيد بين يدى أبيه قتالا شديدا (٤) ، أبلَى فيه ، فقال له أبوه : يابنىّ ، إنى أرى موطناً لا ينجُو فيه إلا مَنْ صَبَر ، وما مرّ بى يوم مثلُ هذا منذ مارستُ الحروب .

وكسرت الخوارجُ أجفانَ سيوفها ، وتجاوَلُوا ، فأجلت جَوْلتُهم عن عبد ربّه مقتولا . فهرب عمرو القنا وأصحابُه ، واستأمن قوم ، وأجلَت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور ، وأمرَ المهلّب أن يُدفَع كلُّ جريح إلى عشيرته ، وظفِرَ بعسكرهم ، فحوى مافيه ، ثم انصرف إلى جِيرَفْت ، فقال : الحمد لله الذى ردّنا إلى الخفضِ والدّعة ، فما كان عيشنا ذلك العيش (٥) .

ثم نظر المهلّب إلى قوم فى عسكرِه ولم يعرفهم ، فقال : ماأشد عادة السلاح (٦) ! ناولُنى دِرْعى ، فلبِسها ، ثم قال : خذوا هؤلاء ؛ فلما صيّرهم إليه ، قال : ما أنتم ؟ قالوا : جئنا لنطلب غِرّتك لنفتك (٧) بك . فأمر بهم فقتلوا .

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « هو وأصحابه » .
(٣) من الكامل .
(٤ ـ ٤) الكامل : « وصبر يزيد بين يدى أبيه ، وقاتل قتالا شديدا » .
(٥) الكامل : « فما كان عيشنا بعيش » .
(٦) وكذا فى الكامل ، ويرى السيد جاسم أن الأنسب : « ماأشد عادة لبس السلاح » .
(٧) الكامل : « لنفتك بك » .

[طُرَفٌ من أخبار المهلب وبنيه]

ووجه كعب بن مَعدان الأشقرىّ[1] ومرة بن بليد الأزدىّ ، فوردا على الحجاج، فلما طلعا عليه ، تقدم كعب فأنشده[2] :

* ياحَفصُ إنّى عَدانى عنكُمُ السّفرُ[3] *

فقال الحجاج : أشاعر أم خطيب ؟ قال : شاعر ؛ فأنشده القصيدة ؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال : خبِّرنى عن بنى المهلّب ، قال : المغيرة سيدُهم وفارسهم ، وكفى بيزيد فارساشجاعا !

(١) الأشقرى : منسوب إلى الأشقر ؛ بطن فى الأزد .

(٢) قصيدة طويلة ؛ يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وجيرفت ، أوردها الطبرى فى تاريخه ٦ : ١٠٤

(٣) وبقيته :

* وقد أرقتُ فآذَى عينىَ السّهرُ *

ومنها :

عُلِّقْتَ ياكعبُ بعدَ الشّيبِ غانيةً ... والشيبُ فيه عن الأهواء مُزْدَجَرُ
أمُمسِكٌ أنت عنْها بالّذِى عَهِدَتْ ... أم حَبْلُها إذ نأتْكَ اليوم منبتِرُ
عُلِّقْتَ خَوْداً بأعلَى الطّفِّ مَنزِلُها ... فى غرفةٍ دونها الأبواب والحجَرُ
دُرْماً مَنَاكِبُها رَيّاً مآكِمُها ... تكاد إذ نَهضَتْ للمشى تَنْبَتِرُ
وَقَدْ تَرَكْتُ بِشَطِّ الزّابيَيْنِ لَهَا ... داراً بها يَسْعَدُ البادون والحَضَرُ
واخترتُ داراً بِهَا حَىٌّ أُسَرُّ بِهِمْ ... مازال فيهمْ لمن تَختارُهُمْ خِيَرُ
لما نبتْ بى بلادى سِرتُ مُنتجِعاً ... وطالب الخيرِ مرتادٌ وَمُنتظِرُ
أبا سعيدٍ فإنى جئتُ مُنتجِعاً ... أرجو نوالَكَ لمّا مَسَّنِى الضّرَرُ
لولا المهلّبُ مازُرْنا بلادَهُمُ ... مادامَتِ الأرض فيها الماء والشّجَرُ
فما من النّاسِ من حَىٍّ عَلِمتُهمُ ... إلّا يُرى فيهمُ من سَيْبِكُمْ أثرُ

وجوادُهم وسَخيُّهم قَبيصة ، ولا يستحيِي الشجاعُ أنْ يفِرّ من مُدْرِك ، وعبدُ الملك سمّ ناقع ، وحَبيب مَوت ذُعاف ، ومحمدليثُ غاب ، وكفاك بالفضل نَجْدة ! فقال له : فكيف خلفتَ جماعة الناس ؟ قال : خلّفتهم بخير ، قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمِنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال : كانوا حُماة السَّرْح فإذا أليلوا ففُرسان البيات،قال: فأيُّهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلْقة المفرَغة ، لا يُدرَى [أين] طرفاها ، قال:فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنا إذا أخذْنا عفوْنا وإذا أخذوا يئسنا منهم ؛ وإذا اجتهدنا واجتهدوا طمِعنا فيهم . قال الحجاج : إنّ العاقبة للمتقين ، فكيف أفلتَكم قطَرِي؟قال: (٢ كدناه وظنّ أن قد كادنا ، بأن صِرْنا منه إلى التي نحبّ٢) . قال : فهلااتبعتموه؟قال: كان حربُ الحاضر آثرَ عندنامن اتباع الفَلّ(٣)،قال : فكيف كان المهلّب لكم وكنتم له ؟ قال : كانَ لنا منه شفقةُ الوالد ، وله منّا برّ الولد ، قال : فكيف كان اغتباطُ الناس به؟ قال : نشا(٤) فيهم الأمن ، وشَمِلهم النَّفَل(٥) ، قال : أكنت أعددت [لى](٦) هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال: هكذا والله تكون الرجال ! المهلب كان أعلمَ بذلك حيث بعثك .

هذه رواية أبى العباس(٧) .

وروى أبو الفرج فى الأغانى(٨) أنّ كعبا لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده قصيدته التى أولها :

---

(١) من الكامل .
(٢ ـ ٢) الكامل : « كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى نحب » .
(٣) الكامل : « كان الحد عندنا آثر من الفل »
(٤) الكامل : « نشا » .
(٥) النفل : الغنيمة .
(٦) من الكامل .
(٧) الكامل ٦٩٥ (طبع أوربا) .
(٨) الأغانى الجزء الرابع عشر ٢٨٤ ـ ٢٨٥ (طبعة الدار) .

يا حَفصُ إنى عدَانى عَنكُمُ السَّفَرُ وقد سهرتُ وآذَى عيـــنىَ السَّهرُ[1]

يذكر فيها حروبَ المهلّب مع الخوارج ، ويصف وقائعه فيهم فى بلد ؛ وهى طويلة ، ومن جملتها[2] :

كنا نهوّن قبل اليوم شأنَهمُ حتى تفاقم أمر كان يُحتقَرُ[3]

لمّا وَهنّا وَقدْ حَــلُّوا بساحَتِنا واستنفرَ الناسُ تاراتٍ فما نَفَرُوا[4]

نادَى امرؤٌ لا خلافٌ فى عشيرتِهِ عنْه ، ولَيْسَ بِهِ عن مثله قِصَرُ

خَبُّوا كمينَهمُ بالسَّفحِ إذْ نزلوا بكازَرُون فما عزُّوا ولا نَصَرُوا[5]

باتَتْ كتائِبنا تَرْدِى مُسوَّمةً حَوْلَ المهلّب حتى نوّر القمرُ[6]

هُناكَ وَلّوْا خَزَايا بَعْدَ ما هزِمُوا وحال دونهمُ الأنهار والجُدُرُ

تأبى علينا حزازاتُ النُّفوس فما نُبْقِى عَلَيْهِمْ ولا يُبقُونَ إن قدَرُوا

فضحك الحجاج ، وقال : إنك لمنصف يا كعب ، ثم قال له : كيف كانتْ حالكم مع عدوّكم ؟ قال : كنّا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم يئسنا[7] منهم ، وإذا لقيناهم بجِدّنا وجِدّهم[8] طمِعْنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلّب ؟ قال : حماة الحريم نهارا ، وفُرسان الليل تيقظا[9] ؛ قال : فأين السّماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان ، قال :

---

(١) عداه عن الأمر : صرفه عنه .

(٢) قال أبو الفرج بعد أن أورد أبياتا منها : « وهى قصيدة طويلة ؛ قد ذكرها الرواة فى الخبر ؛ فتركت ذكرها لطولها ؛ يقول فيها . . . » وأورد الأبيات .

(٣) فى الأغانى قبل هذا البيت :

فَمَا يجاوز باب الجسْر من أحــــدٍ قد عضّتِ الحربُ أهل المصر فانجحروا

(٤) استنفر الناس : استنجدهم .

(٥) فى الطبرى ، « عبوا جنودهم » .

(٦) الكتيبة : جماعة الخيل ، وتردى : تضرب الأرض بحوافرها .

(٧) الأغانى : « فعفوهم تأنيس لهم » .

(٨) الأغانى . « بجهدنا وجهدهم » .

(٩) الأغانى : « أيقاظا » .

صفهم لى رجلا رجلا . قال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، نار ذاكية ، وصعدة[1] عالية . وكفى بيزيدَ فارسا شجاعا ! ليثُ غاب ، وبحرٌ جمّ العُباب . وجوادهم قَبيصة ، ليث المَغار ، وحامى الذِّمار ؛ ولا يستحى الشجاع أن يفرّ من مُدرِك ؛ وكيف لا يفرّ من مدرك ، وكيف لا يفرّ من الموت الحاضر ، والأسد الخادِر[2] ! وعبد الملك سمّ ناقع ، وسيف قاطع ؛ وحبيب الموت الذّعاف[3] ، طود شامخ ، وبحر باذخ[4] ؛ وأبو عيينة البطل الهمام ، والسيفُ الحسام ؛ وكفاك بالمفضّل نجدة ، ليثٌ هدّار وبحر موّاز[5] ! ومحمد ليث غاب ، وحُسام ضِراب . قال : فأيّهم أفضل ؟ قال : هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها[6] ؛ قال : فكيف جماعة الناس ؟ قال : على أحسنِ حال ، أرضاهم العدلُ ، وأغناهم النفَل . قال : فكيف رضاهم بالمهلّب ؟ قال : أحسن رضا ، لا يعدمون [7]منه إشفاق الوالد ، ولا يعدم منهم برّ الولد[7] . وذكر تمام الحديث .

وقال : إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك ؛ فأمر له بعشرين ألفا أخرى .

قال أبو الفرج : وكعب[8] الأشقرىّ من شعراء المهلّب ومادحيه ؛ وهو شاعر مجيد . قال عبد الملك بن مروان للشعراء[9] : تُشبّهوننى مرةً بالأسد ، ومرة بالبازى ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى للمهلب وولده :

بَرَاكَ اللهُ حِينَ بَرَاكَ بَحْراً وَفَجَّرَ مِنْكَ أنْهــاراً غِزَارا

---

(١) ذكت النار : اشتد لهبها ، والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك .

(٢) أسد خادر : مقيم فى عرينه داخل فى الخدر .

(٣) الذعاف : السريع .

(٤) الباذخ : العالى .

(٥) موار : مضطرب .

(٦) فى الأصول : « طرفها » ، وما أثبته من الأغانى .

(٧ – ٧) الأغانى : « وكيف لايكونون كذلك ؛ وهم لايعدمون رضا الوالد ، ولا يعدم منهم بر الولد »

(٨) الأغانى ١٤ : ٢٨٦ ، ٢٨٧

(٩) الأغانى : « كان يقول للشعراء » .

بَنُوكَ السابِقونَ إلى المعالى ... إذا ماأعظمَ النّاسُ الخِطارا[1]
كأنهمُ نجومٌ حَوْلَ بَدْرٍ ... تكمّل إذ تكمّل فاستدارا[2]
مُلوكٌ ينزِلون بكُلِّ ثَغرٍ ... إذا ماالهامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طارا[3]
رِزَانٌ فى الخطوب ترَى عليهم ... من الشّيخِ الشمائل والنّجارا[4]
نجومٌ يُهتدَى بهمُ إذا ما ... أخُو الغَمَرات فى الظلماء حارا[5]

قال أبو الفرج : وهذا الشعر من قصيدة لكعب ، يمدح بها المهلّب ؛ ويذكر الخوارج[6]، ومنها :

سَلُوا أهلَ الأباطحِ مِنْ قُرَيْشٍ ... عن المجدِ المؤثّلِ أيْنَ صارَا[7]

---

(١) الخطار : المراهنة .
(٢) الأغانى :

« درارىٌّ تكمّل فاستدارا »

(٣) الهام : الرؤس .
(٤) فى الأغانى : « رزان فى الأمور » ، والنجار : الحسب والأصل
(٥) فى الأغانى : « أخو الظلماء » .
(٦) ذكر صاحب الأغانى ثلاثة أبيات من أولها ؛ مما فيه غناء :

طَرِبْتُ وَهاجَ لى ذَاكَ ادّكارَا ... بكَسٍّ وقد أطَلْتُ به الحِصَارَا
وكنتُ ألَذُّ بعضَ العَيْشِ حتّى ... كبِرتُ وصارَ لى هَمّى شعارَا
رأيتُ الغانياتِ كَرِهْن وَصْلِي ... وأبْدَيْنَ الصّريمةَ لى جهارَا

(٧) الأغانى ١٤ : ٢٩٥ ؛ وذكر قبلها :

عَرَضْنَ بمَجْلِسِي وكَرِهْنَ وَصْلى ... أوانَ كُسِيتُ من شَمَطٍ عِذارَا
زَرَيْنَ عَلَيَّ حِينَ بَدَا مَشيبى ... وَصارَتْ ساحَتِي للهمّ دارَا
أتانى والحديث له نماء ... مقالة جائرٍ أحْفَى وجارَا

وذكر بعده :

وَمَنْ يحمى الثّغور إذا استحرّتْ ... حروبٌ لايَنون لها غرارَا

لَقَوْمُ الأَزْدِ فى الغمرات أمضَى ... وأوفى ذِمَّةً وأعزُّ جارا(١)
هُمُ قادُوا الجيادَ عَلَى وجاها ... من الأمصار يقذفن المِهارا(٢)
إلَى كِرْمانَ يَحْمِلْنَ المَنايَا ... بكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُوقِدْنَ نارَا(٣)
شَوازِب ما أصبنا الثار حتى ... رددناها مكلّمة مرارا(٤)
غَدَاة تَرَكْنَ مَصْرَعَ عَبْدِ رَبٍّ ... نَثَرْنَ عليه مِنْ رَهَجٍ غُبارا(٥)
ويوم الزَّحْفِ بالأهوازِ ظَلْنَا ... نُرَوِّى منهمُ الأَسَلَ الحِرَارا(٦)
فقرّت أعينٌ كانت حَزِيناً ... قليلًا نومُها إلا غِرارا(٧)
ولولا الشيخُ بالمِصْرَيْنِ يَنْفِى ... عدوّهُمُ لقد نَزَلُوا الدِّيارا(٨)
ولكنْ قارِعَ الأبطال حتّى ... أصابوا الأَمْنَ واحتلّوا القَرَارا(٩)

(١) الأغانى : « لقومى الأزد » .

(٢) الوجى : الحفى ، وذكر بعده :

بكلِّ مَفازةٍ وبكلِّ سَهْبٍ ... بَسابِسَ لايَرَوْنَ لَهَا مَنَارَا

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل .

(٤) مكلمة : مجروحة ، وفى الأغانى : « لم يصبن » ، وبعده :

وَيَشْجُرْنَ العَوالى السُّمْرَ حَتَّى ... تَرَى فيها عن الأَسَلِ ازْوِرارا

(٥) هو عبد ربه الصغير أمير الأزارقة المذكور قبلا ؛ بعد قطرى . وفى الأغانى : « يثرن عليه من رهج عصاراً » ، والعصار هو الغبار .

(٦) الحرار : جمع حران ؛ وهو العطشان .

(٧) حزين ؛ فعيل ، مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، وفى الأغانى : « حديثا » ، وبعده فى الأغانى :

صنائعنا السَّوابغُ والمذاكِى ... ومَنْ بالمِصْرِ يحتلبُ العِشارا
فهنّ يُبِحْنَ كلَّ حِمَى عزيزٍ ... ويحمينَ الحقائقَ والذِّمارا
طُوالاتُ المُتُونِ يَصُنَّ إلّا ... إذا سارَ المهلّبُ حيث سارا

(٨) المصران : البصرة والكوفة . وفى الأغانى : « تركوا الديارا » .

(٩) الأغانى :

« أصابُوا الأَمْنَ واجْتَنَبُوا الفِرَارَا »

إذا وَهَنُوا وحَلَّ بهمْ عَظِيمٌ ... يَدُقّ العظمَ كانَ لهم جُبَارا
وَمُبْهَمَةٍ يحِيدُ الناسُ عنهــا ... تَشُبّ الموت شَــدّ لها إزارا
شهابٌ تنجلى الظلماء عنـــه ... يرَى فى كلّ مُظْلِمَةٍ منــارا[1]
براكَ الله حـــينَ بَرَاكَ بَحْراً ... وفجّر منك أنهــاراً غِزارا

الأبيات المتقدمة .

***

قال أبو الفرج : وحدّثنى[2] محمــد بن خلف وكيع ، بإسناد ذكره ؛ أنّ الحجّاجَ لما كتب إلى المهلّب يأمره بمناجزة الخوارج حينئذ ، ويستبطئه، ويضعّفه ويعجّزه من تأخيره أمرَهم ، ومطاولته لهم ، قال المهلّب لرسوله قل له : إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه، لا لمن يعرفه ؛ فإن كنتَ نصبتَنى لحرب هؤلاء القوم — على أن أدبّرها كما أرى ، فإذا أمكننِى فرصة انتهزتُها ، وإن لم تمكنِّى توقفت — فأنا أدبّر ذلك بما يصلحه ؛ وإن أردت أن أعملَ برأيك وأنا حاضر وأنت غائب — فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعليّ — فابعثْ مَنْ رأيتَ مكانى ؛ وكتب من فوْرِه بذلك إلى عبد الملك ؛ فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج : لا تعارض المهلّب فيما يراه ، ولا تُعجله ودَعْه يدبّر أمره .

قال : وقام كعب الأشقرىّ إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج :

إنّ ابنَ يوسفَ غرّه من أمرِكُمْ ... خَفْضُ المُقام بجانب الأمصارِ[3]
لو شَهِدَ الصَّفّيْن حيثُ تلاقَيَا ... ضاقتْ عليــه رَحِيبَةُ الأقطار
من أرض سابورِ الجنود وخيلُنا ... مثــلُ القداح بَرَيْتَهَا بشِفارِ

---

(١) الأغانى : « فى كل مظلمة » .
(٢) الأغانى ١٤ : ٢٩٠ ، ٢٩٢
(٣) الأغانى : « غره من غزوكم » .

من كلّ صنديدٍ يُرى بلَبانِهِ وَقعُ الظُّباةِ مع القَنا الخطّار[1]
لَرَأى مُعاوَدَة الرِّباعِ غَنيمةً أزمانَ كانَ مخالفَ الإقتار
فدع الحروب لِشيبها وشبابها وعليك كلَّ غريرةٍ مِعطار[2]

فبلغت أبياتُه الحجاج ، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كعبٍ الأشقريّ إليه ؛ فأعلم [المهلب][3] كعبا بذلك، وأوفده إلى عبدالملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبُه منه ؛ فقدم كعب على عبدالملك برسالة المهلّب، فاستنطقه فأعجبه، وأوفدَه إلى الحجاج ؛ وكتب إليه يُقسم عليه أن يصفحَ ، ويعفو عمّا بلغه من شعره ؛ فلما دخلَ قال : إيه يا كعب !

* لَرأى مُعاوَدَة الرِّباع غنيمة *

فقال : أيها الأمير ، والله لودِدْتُ في بعض ماشاهدتُه من تلك الحروب، وما أوردَناه المهلّب[4] من خطرها ، أنْ أنجوَ منها وأ كون حجّاماً أو حائكا ، قال : أولَى لك ! لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما تقول ؛ الحقْ بصاحبك ؛ وردّه إلى المهلب[5] .

***

قال أبو العباس : وكان[6] كتاب المهلّب إلى الحجاج ، الذى بشره فيه بالظفر والنصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم][7] ؛ الحمد لله الكافي بالإسلام فَقْدَ ماسواه ، الحاكم بألّا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطعَ الشكر من عباده ؛ أما بعد :

---

(١) اللبان هنا : الصدر ، والظباة : جمع ظبة ؛ وهى حدالسيف . ورمح خطار : ذو اهتزاز شديد.
(٢) امرأة معطار : اعتادت أن تتعهد نفسها بالطيب وتكثر منه .
(٣) من الأغانى .
(٤) الأغانى : « يوردناه » .
(٥) الأغانى : « من وقته » .
(٦) الكامل ٣ : ٤٠٤ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .
(٧) من الكامل .

فقد كان من أمرنا ما قد بلَغك ، وكُنّا نحنُ وعدوُّنا على حالَين مختلفين ، يسرّنا منهم أكثر مما يسوءنا ، ويسوءهم مِنّا أكثر مما يسرّهم ، على اشتداد شوكتهم ؛ فقد كان عَلا أمرُهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونُوّم به الرّضيع . فانتهزتُ الفرصة منهم فى وقت إمكانها ؛ وأدنَيتُ السّواد من[(١)] السواد ، حتى تعارفت الوجوه ؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجلَه ، فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أمّا بعد ؛ فقد فعل الله بالمسلمين خيْراً ، وأراحهم من بأسِ الجلاد ، وثِقَلِ الجهاد ؛ ولقد كنت أعلم بما قِبَلك ؛ فالحمدُ لله رب العالمين ؛ فإذا وَرَد عليك كتابى فاقسِم فى المجاهدين فيئهم ، ونَفِّل[(٢)] الناس على قدر بلائهم ، وفضِّل مَن رأيت تفضيلَه ؛ وإن كانت بقيَت من القوم بقية فخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمِلْ على كِرمان مَنْ رأيت ، وَولِّ الخيل شَهماً من ولدك ، ولا ترخّص لأحدٍ فى اللحاق بمنزله دون أن تقدَم بهم علىّ ، وعجِّل القدوم إن شاء الله .

فولّى المهلب يزيد ابنه كِرْمان ، وقال له : يا بنىّ ، إنّك اليومَ لست كما كنت ؛ إنما لك من كِرْمان ما فَضَل عن الحجّاج ؛ ولن تحتمل إلا علَى ما احتمل عليه أبوك ، فأحْسِنْ إلى مَنْ تبعك ؛ وإن أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجِّه إلىّ ، وتفضّل على قومك ، [إن شاء الله][(٣)]

---

(١) أى قربت ما بين الفريقين .

(٢) قال المبرد : قوله : « نفل » أى أقسم بينهم ؛ والنفل : العطية التى تفضل ؛ كذا كان الأصل ؛ وإنما تفضل الله عز وجل بالغنائم على عباده ؛ قال لبيد :

إنّ تقوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ   وبإذنِ الله رَيْثى وَعَجَلْ

وقال جل جلاله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ﴾ ، ويقال : نَفَّلْتُكَ كذا وكذا ؛ أى أعطيتك ، ثم صار النفلُ لازما واجبا .   (٣) من الكامل

ثم قدم المهلب على الحجاج ، فأجلسه إلى جانبه ، وأظهر بِرّه وإكرامه ؛ وقال : يا أهل العراق ، أنتم عَبيدُ قِنٌّ للمهلب ؛ ثم قال : أنت والله كما لقيط[1] :

فقلِّدُوا أمرَكُمْ لله درُّكُمُ   رَحْبَ الذِّرَاعِ بأمرِ الحربِ مُضْطَلِعا[2]

لا يطعَمُ النـــومَ إلا رَيْثَ يبعثُه   هَمٌّ يـكاد حشاه يَقْصِمُ الضِّلعا[3]

لا مترَفاً إن رخاء العيش ساعَدَهُ   ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خَشَعا[4]

مازال يحلب هذا الدّهرَ أشطُرَهُ   يـكون متَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا[5]

حتى استمرّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُه   مستحكمَ الرّأي لا قَحْماً وَلا ضَرَعا[6]

وروى أنه قام إليه رجل فقال : أصلح الله الأمير ! والله لـكأنى أسمع الساعة قطَرِيًّا وهو يقول لأصحابه : المهلب والله كما قال لقيط الإياديّ ، ثم أنشد هذا الشعر . فسُرّ الحجاج حتى امتلأ سروراً ؛ فقال المهلب : أما والله ما كنّا أشدّ من عدوّنا ولا أحدّ ، ولـكن دَمَغَ الحقّ الباطل ، وقهرت الجماعة الفتنة ، والعاقبة للمتقين[7] ؛ وكان ما كرهناه من المطاولة خَيراً لنا مما أحببناه من المعاجلة .

---

(١) هو لقيط بن يعمر الإيادى ؛ من قصيدة طويلة ؛ ذكرها ابن الشجرى فى مختاراته ١ ـ ٦ ؛ أنذر فيها قومه من إياد بغزو كسرى ؛ وكان كاتبا فى ديوانه ؛ وأولها :

يا دار عَمْرةَ من محتلها الجرَعا   هاجتْ لى الهمّ والأحزان والوجَعا

تامَتْ فؤادِى بذات الجزع خِرْعبةٌ   مرّتْ تريدُ بذات العذبةِ البِيَعا

(٢) رحب الذراع : يريد واسع الصدر متباعد ما بين المنكبين ، كناية عن قوته وشدة مراسه ، ومضطلعا : أى يحمل الأمر ويقوم عليه .

(٣) ريث يبعثه ، أى مقدار ما يبعثه .

(٤) المترف : المتنعم السادر فى ملاذه .

(٥) يحلب أشطره ؛ أى أنه اختبر ضروب الدهر من خير شر وحلو ومر .

(٦) المريرة من الحبال : ما طال واشتد فتله ؛ واستمرت استحكمت ، والشزر : الفتل إلى فوق ؛ خلاف اليسر ؛ وهو الفتل إلى أيسر ؛ والأول أحكم الفتلين ؛ ضرب ذلك مثلا لاستجماع قوته . والضرع : الصغير الضعيف ، والقحم : آخر سن الشيخ .

(٧) الكامل : « المتقوى » .

فقال الحجاج : صدقت ، اذكر لى القوم الّذين أبلَوْا ، وصف لى بلاءهم ، [فأمر الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج ، فقال لهم المهلب : ماذَخَرَ الله لكم خيرٌ لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله] (١) ، فذكرهم (٢) المهلب على مراتبهم فى البلاء ، وتفاضلهم فى الغَنَاء ، وقدّم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقَبيصة ، والمفضّل ، وعبد الملك ، ومحمدا ، وقال : والله لو واحد يقدمُهم فى البلاء لقدّمتهُ عليهم ، ولولا أنْ أظلِمهم لأخرتُهم. فقال الحجاج : صدقت ، وما أنت أعلم بهم منى ، وإن حضرتَ وغبتُ إنهم لسيوفٌ من سيوف الله . ثم ذكر مَعن بن المغيرة والرّقاد وأشباههما .

فقال الحجاج : مَن الرُّقاد (٣) ؟ فدخل رجل طويل أجنأ (٤) ، فقال المهلب : هذا فارس العرب ، فقال الرُّقاد للحجاج : أيها الأمير ، إنى كنت أقاتِل مَعَ غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرتُ مع مَنْ يُلزِمنى الصبر ، ويجعلنى أسوةَ نفسه وولدِه ، ويجازينى على البلاء ، صرت أنا وأصحابى فُرسانا .

فأمر الحجّاج بتفضيل قوم على قوم على قدر بلائهم ، وزاد ولد المهلّب ألفين ألفين ، وفعل بالرُّقاد وبجماعة شبيها بذلك .

وقال يزيد بن حَبْناء من الأزارقة :

دَعِى اللّوْمَ إنّ العَيْشَ ليس بدائِمٍ ... ولا تعجلى باللّوْم يا أمّ عاصِمِ (٤)
فإنْ عَجِلتْ منك الملامةُ فاسمِعِى ... مقالةَ مَعْنِيّ بحقّك عالِمِ
ولا تعذُلينا فى الهَدِيّة إنما ... تكونُ الهدايا من فُضُول المغانم

---

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « ثم ذكرهم » .
(٣) الكامل : « أين الرقاد » .
(٤) أجنأ ، من الجنأ ، بالتحريك ؛ وهو ميل فى الظهر .
(٤) الكامل ٣ : ٤٠٩ ، ٤١٠

وليس بمُهْدٍ مَنْ يكون نهارُه جِلاداً ، ويُمسى ليلُه غيرَ نائمِ (١)
يُريد ثوابَ الله يوما بطَعْنَةٍ غَمُوسٍ كشِدْقِ العنبرىّ ابنِ سالمِ (٢)
أَبِيتُ وَسِرْبالِى دِلَاصٌ حَصِينَةٌ وَمِغْفَرُها ، والسَّيْفُ فوقَ الحيازِمِ (٣)
حلفتُ برب الواقِفِين عَشِيَّةً لدى عَرَفَاتٍ حَلْفَةَ غيرَ آثِمِ
لقد كانَ فى القوم الذين لقيتُهمْ بِسَابُورَ شغلٌ عن بُزوزِ اللَّطَائِمِ (٤)
تَوَقّدُ فى أيديهمُ زاعِبِيَّةٌ وَمُرْهَفَةٌ تَفْرِى شُؤونَ الجماجِمِ (٥)

وقال المغيرة الحنظلىّ من أصحاب المهلّب :

إنى امرؤٌ كَفَّنِى رَبِّى وأكرَمنِى عن الأمور التى فى غِبِّهَا وَخَمُ (٦)
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما عاشتْ رجالٌ وعاشت قَبلَها أُمَمُ
مَا عَاقَنِى عَنْ قُفُولِ الجُنْدِ إذ قَفَلُوا عِىٌّ بما صَنَعُوا حولِى وَلَا صَمَمُ (٧)
وَلَوْ أردتُ قُفُولًا مَا تجهَّمَنِى إذنُ الأمير ولا الكُتّابُ إذ رَقَمُوا
إنّ المهلّب إن أشتَقْ لرؤيتِهِ أو أمتدحْهُ فإن الناس قد عَلِمُوا
أنهُ الأريبُ الذى تُرْجَى نوافِلُه والمستنيرُ الّذِى تُجْلَى به الظُلَمُ
والقائلُ الفاعِلُ الميمونُ طائره أبو سعيدٍ إذا ماعُدّتِ النِّعَمُ
أزمان كَرْمان إذ غصّ الحديدُ بهم وإذ تَمَنّى رجالٌ أنهمْ هُزِموا

(١) قال المبرد : « يريد يمسى هو فى ليله ، ويكون هو فى نهاره ؛ ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السعة ؛ وفى القرآن : ﴿ بل مَكْرُ الليلِ والنهارِ ﴾ والمعنى : بل مكركم فى الليل والنهار » .

(٢) قال المبرد : قوله غموس ؛ يريد واسعة ، والعنبرى ابن سالم : رجل منهم كان يقال له الأشدق .

(٣) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

(٤) اللطائم ، واحدتها لطيمة ؛ وهى الإبل التى تحمل البز والعطر .

(٥) زاعبية ؛ يعنى الرماح . والزاعبية : منسوبة إلى زاعب ؛ وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح وتفرى : تقد .

(٦) الكامل . « فى رعيها وخم » .

(٧) الكامل . « عى بما صنعوا بجز ولا بكم » .

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلّب :

أبا سعيدٍ جزَاكَ اللهُ صالحةً فقدْ كَفيتَ ولمْ تَعنُفْ على أحَدِ[1]
داويتَ بالحلم أهلَ الجهْل فانقمَعُوا وكنتَ كالوالدِ الحاني على الوَلَدِ

وقال عبيدة بن هلال الخارجيّ يذكر رجلا من أصحابه :

يَهْوِي فترفعُه الرّماحُ كأنّه شِلْوٌ تَنَشَّبَ في مخالبِ ضارِ[2]
يَهْوِي صريعاً والرّماح تَنُوشه إنّ الشُّراة قصيرة الأعمارِ[3]

* * *

[شبيب بن يزيد الشيبانيّ]

ومنهم[4] شبيب بن يزيد الشيبانيّ ؛ وكان في ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرّح ؛ أحد الخوارج الصُّفْرية ؛ وكان ناسكا مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وله أصحاب يقرِئهم القرآن ، ويفقّههم ويقصّ عليهم[5] ؛ ويقدَم الكوفة ، فيقيم بها الشهرَ والشهرين . وكان بأرض الموصل والجزيرة ؛ وكان إذا فرَغ من التّحميد والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله ، ذكر أبا بكر فأثنى عليه ، وثنّى بعمَر ، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه ؛ ثم عليا عليه السلام وتحكيمَه الرجالَ في دين الله ؛ ويتبرّأ من عثمان وعليّ ، ثم

(١) لم تعنف ، من العنف ، وهو الشدة .
(٢) الشلو : العضو .
(٣) الكامل : « فتوىٰ صريعاً » .
(٤) نقل المؤلف أخبار شبيب من تاريخ الطبري ٥ : ٢١٦ وما بعدها ، أحيانا بنصها ، وأحيانا مع تصرف واختصار .
(٥) في الطبري : « فكان قبيصة بن عبد الرحمن حدث أصحابنا أن قصص صالح بن مسرح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ؛ فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ؛ ففعل ؛ وكان قصصه : الحمد لله رب العالمين ، الذي خلق السموات والأرض .... » ؛ ثم أورد نص الكتاب ؛ وآخره : « جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » ؛ وقد أورده المؤلف ملخصا .

يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال ، وقال : تيسّرُوا يا إخوانى للخروج من دَار الفناء إلى دار البقاء ؛ واللّحاق بإخواننا المؤمنين ؛ الذين باعُوا الدنيا بالآخرة ؛ ولا تجزَعُوا من القتل فى الله ، فإنّ القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم ؛ مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ؛ وإن اشتدّ لذلك جزعُكم ؛ ألا فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم ؛ تدخلوا الجنة ... وأشباه هذا من الكلام .

وكان فيمن يحضرُه من أهل الكوفة سُوَيد والبَطِين ؛ فقال يوما لأصحابه : ماذا تنتظرون ؟ ما يَزيد أئمةُ الجوْر إلا عتوّا وعلوّا ، وتباعداً من الحق ، وجراءةً على الرّبّ ؛ فراسِلوا إخوانكم حتى يأتوكم ؛ وننظر فى أمورنا ما نحن صانعون . وأىّ وقت إن خرجنا نحن خارجون .

فبينا هو كذلك إذ أتاه المحلّل بن وائل [1] بكتاب من شبيب بن يزيد ؛ وقد كتب إلى صالح :

أما بعد ؛ فقد [أردت الشخوص ، وقد] [2] كنتَ دعوتَنى إلى أمرٍ أستجيب [3] لك ؛ فإن كان ذلك [4] من شأنك ، فإنّك شيخ المسلمين ، ولم يعدِلْ بك منّا أحد [5] ؛ وإن أردت تأخير ذلك أعلمنى [6] ؛ فإن الآجال غادية ورائحة ؛ ولا آمنُ أن تخترِمَنى المنية ؛ ولمّا أجاهد الظالمين ؛ [فياله غبنا وياله فضلا !] [2] ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه [ورضوانه والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين فى دار السلام] [2] . والسلام عليك .

---

(١) ب : « نائل » ؛ وما أثبته عن ا ، ج والطبرى .

(٢) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٣) الطبرى : « فاستجبت لك » .

(٤) الطبرى : « فإن كان ذلك اليوم » .

(٥) الطبرى : « ولن نعدل بك منا أحدا » .

(٦) الطبرى : « وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمنى » .

فأجابه صالح بجواب جميل ؛ يقول فيه [١] : إنه لم يمنعنى من الخروج ـ مَعَ ما أنا فيه من الاستعداد ـ إلا انتظارك؛فاقْدَم علينا ، ثم اخرج بنا،فإنك ممّن لاتقضى الأمور دونَه؛ والسلام عليك [١] .

فلما ورد كتابهُ على شَبِيب ؛ دعا القرّاء من أصحابه ؛ فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد ، والمحَلّل بن وائل ، والصقر بن حاتم ، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم [٢] ؛ ثم خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح ؛ وهو بداراتِ [٣] أرض الموصل ؛ فبثّ صالح رسله ، وواعدهم بالخروج ؛ فى هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين .

فاجتمع بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا عنده تلك الليلة ؛ فحدّث فَرْوَة بن لَقِيط [٤] ؛ قال : إنى لمعهم تلك الليلة عند صالح [٥] ؛ وكان رأيى استعراض الناس ؛ لِما رأيتُ من المنكر والفساد فى الأرض ، فقمت إليه ، فقلت : يأمير المؤمنين ، كيف ترَى السِّيرَة فى هؤلاء الظلمة ؛ أنقتلهم قبل الدعاء ، أم ندعوهم قبل القتال ؟ فإنى أخبرُك برأيى فيهم قبل أن تخبرنى بذلك ؛ إنا نخرج على قوم طاغين ؛ قد تركوا أمر الله ، أو راضين بذلك،فأرى أن نضعَ السيف ؛ فقال : لا ، بل ندعوهم ؛ ولعمرى لا يجيبُك إلا مَنْ يرى رأيَك ؛ وليقاتلنّك مَنْ يُزْرِى عليك؛والدعاء أقطَعُ لحجتهم ، وأبلغ فى الحجّة عليهم لك . فقلت:

(١ ـ ١) الكتاب كما فى الطبرى : « أمابعد ؛ فقد كان كتابك وخبرك أبطأعنى ؛ حتى أهمنى ذلك ؛ ثم إن أميرا من أمراء المسلمين نبأنى بنبأ مخرجك ومقدمك ؛ فنحمد الله على قضاء ربنا ؛ وقد قدم على رسولك بكتابك ؛ فكل مافيه قد فهمته ، ونحن فى جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعني من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى أحببت ، فإنك ممن لايستغنى عن رأيه ، ولا تقضى دونه الأمور ، والسلام » .

(٢) فى الطبرى : « وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بنى محلم والفضل بن عامر من بنى ذهل بن شيبان » .

(٣) فى حواشى ج : « الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، ومن الرمل مااستدار منه وجمعه دارات ودور » ، وفى الطبرى : « قدم على صالح بدارا » .

(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة بن لقيط » .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى : « قال ـ أى فروة ـ والله إنى لمع شبيب بالمدائن ، إذ حدثنا عن مخرجهم ، قال : لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج ، فكان رأيى استعراض الناس . . . . » إلى آخر الخبر مع اختلاف فى الرواية .

وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به ؟ وماتقول فى دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إن قتلنا وغنمنا فلَنا وإن تجاوزْنا وعفونا فوسّع علينا .

ثم قال صالح (١) لأصحابه ليلتَه (٢) تلك : اتقُوا اللهَ عبادَ الله ، ولا تعجَلُوا إلى قِتالِ أحدٍ من الناس ؛ إلّا أن يكونوا [قوما] (٣) يريدونكم [وينصبون لكم] (٣) ؛ فإنكم إنما خَرَجْتُمْ غضبًا لله حيث انتُهِكَتْ محارمُه ؛ وعُصِى فى الأرض ، (٤) وسُفِكَت الدماء بغيرِ حقّها ، وأُخذت الأموال غَصْبًا (٤) ، فلا تَعيبُوا على قومٍ أعمالا ثم تعملونها (٥) ؛ [فإن كلّ ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون ، وإن عظمكم رجالة] (٣) ، وهذه دوابّ لمحمد بن مروان فى هذا الرُّستاق (٦) ؛ (٧) ، وابدءوا بها فاحملوا عليها راجلَكم ، وتقَوَّوْا بها على عدوّكم (٧) .

فقعلوا ذلك ، وتحصّن منهم أهلُ دارا (٨) .

وبلغ خبرُهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة ، فاستخفّ بأمرهم ؛ وبعث إليهم عديّ بن عميرة فى خمسمائة ، وكان صالح فى مائة وعشرة ؛ فقال عديّ : أصلح الله

---

(١) الخبر فى الطبرى عن أبى مخنف أيضا عن رجل من بنى محلم .
(٢) الطبرى : « ليلة خرج » .
(٣) من الطبرى .
(٤ — ٤) الطبرى : « فسفكت الدماء بغير حلها ، وأخذت الأموال بغير حقها » .
(٥) الطبرى : « تعملون بها » .
(٦) الرستاق — فيما ذكره حمزة بن الحسن — مشتق من « روده فستا » ، وروده : اسم السطر والصف والسماط . وفستا : اسم الحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام . قال ياقوت : « والذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد » معجم البلدان ١ : ٣٧ .
(٧ — ٧) الطبرى : « فابدءوا بها ، فشدوا عليها ، فاحملوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم » .
(٨) الطبرى : « أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار ، وخرج صالح ليلة خرج فى مائة وعشرين ، وقيل : فى مائة وعشرة » .

الأمير ! تبعثُنى إلى رأس الخوارج [منذ عشرين سنة][1]، ومعه رجالٌ سُمّوا لِى [كانوا يبارزوننا][1] ؛ وإنّ الرجل منهم خير من مائة فارس فى خمسمائة ! فقال له : إنى أزيدُك خمسمائة ، فسِرْ إليهم فى ألف فارس .

فسار مِنْ حَرّان فى ألف رجل ؛ وكأنّما يُساقون إلى الموت ـ وكان عدىّ رجلاً ناسكا[2] ـ فلما نزل دَوغان[3] نزل بالناس ، وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّه إليه فقال : إنّ عديًا بعثنى إليك يسألك أن تخرُج عن هـذا البلد ، وتأتِى بلدا آخر فتقاتل أهله ؛ فإنى للقتال كاره ، فقال له صالح : ارجع إليه ، فقل له : إن كنت ترى رأينا، فأرنا من ذلك مانعرف ، ثم نحن مُدْلِجُون[4] عنك، وإن كنت على رأى الجبابرة وأئمة السوء، رَأَيْنا رأينا ، فإمّا بدأنا بك ، وإلا رَحَلْنا إلى غيرك .

فانصرف إليه الرسول ، فأبلغه،فقال له عدىّ : ارجعْ إليه فقل له: إنّى والله لا أرى رأيك ، ولـكنّى أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين[5] .

فقال صالح لأصحابه : اركبوا ، فركبوا ، واحتبس الرجلَ عنده ، ومضى بأصحابه حتى أتى عديًا فى سوق دَوْغَان ؛ وهو قائم يصلِّى الضّحى ، فلم يشعر إلا بالخيل طالعة عليهم ؛ فلما دنا صالح منهم ، رآهم على غـير تعبية[6] ، وقد تنادَوْا ، وبعضُهم يجولُ فى بعض ، فأمرَ شبيبا فحمل عليهم فى كتيبة ، ثم أمرَ سُوَيْداً فحمل فى كتيبة ، فـكانت هزيمتُهم ،

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « يتنسك » .

(٣) دوغان : قرية بين رأس عين ونصيبين ، كانت سوقا لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها مرة فى كل شهر . (مراصد الاطلاع) .

(٤) الدلج والدلجة : السير آخر الليل .

(٥) فى الطبرى بعدها : « فقاتل غيرى » .

(٦) عبأ الجيش للحرب تعبئة : هيأه وجهزه ، يقال بالهمز وبغير الهمز .

وأتى عدىٌّ بدابّته فركبها ، ومضَى على وجهه ، واحتوَى صالح على عسكره وما فيه ، وذهب فَلُّ عدىّ حتى لِحَقُوا بمحمّد بن مروان ، فغضِب ، ثم دعا بخالد بن جَزْء السُّلَمِىّ فبعثه فى ألف وخمسمائة ، ودعا الحارث بن جَعْوَنَة فى ألف وخمسمائة ، وقال لهما : اخرجا إلىّ هذه الخارجةَ القليلة الخبيثة ، وعجِّلا [الخروج ، وأغِذّا السّير](١) فأيّكما سَبَق ، فهو الأمير على صاحبه ، فخرجا وأغذّا (٢) فى السير ، وجعلا يسألان عن صالح ، فقيل لهما : توجّه نحو آمِد(٣) ،فاتّبعاه حتى انتهيا إليه بآمِد ، فنزلا ليلا، وخندقا وهما متساندان ؛ كلٌّ واحدٍ منهما على حِدَتِه ، فوجّه صالح شبيبا إلى الحارث بن جَعْوَنة فى شطْر أصحابه،وتوجّه هو نحو خالدٍ السُّلَمِىّ، فاقتتلوا أشدّ قتال اقتتله قوم،حتى حَجَز بينهم الليل ؛ وقد انتصف بعضُهم من بعض .

فتحدّث بعضُ أصحابِ(٤) صالح ، قال : كنا إذا حَمَلْنا عليهم استقبلَنا رجالُهم بالرماح، ونَضَحنا (٥) رُماتُهم بالنّبل ، وخيلُهم تطاردنا فى خلال ذلك ، فانصرفنا عند الليل ، وقد كَرِهْناهم وكَرِهونا ، فلما رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكِسَر (٦) ، دعانا صالح وقال : ياأخِلاّئى ، ماذا تروْن ؟ فقال شبيب : إنّا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون بخندقهم ، لم نَنَلْ منهم طائلا ، والرأى أن نرْحَل عنهم ، فقال صالح : وأنا أرى ذلك ؛ فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة ، وأرض الموصل،ومَضَوْا حتى قطعوا أرض الدّسْكرة . فلما بلغ ذلك الحجّاج سَرّح عليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف،

---

(١) من الطبرى .
(٢) أغذ فى السير : أسرع فيه .
(٣) آمد ، بكسر الميم : بلد قديم حصين ، تحيط دجلة بأكثره . مراصد الاطلاع .
(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى المحلى قال ... » ، وأورد الخبر باختلاف فى الرواية .
(٥) النضح : الرمى بالنبل .
(٦) الكسرة : القطعة من الخبز ، وجمعه كسر .

فسار وخرج صالح نحو جلُولاء وخانِقِين [1] واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج [2] ، وصالح يومئذ فى تسعين رجلا ، فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة ، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كَرادِيس وهو فى كُردوس [3] ، وشبيب فى مَيْمَنة فى كُرْدُوس ، وسُوَيْدُ بن سُلَيم فى كُرْدُوس فى ميسرته ؛ فى كلّ كُرْدُوس منهم ثلاثون رجلا؛فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سليم ، وثبت صالح فقُتِل ، وضارب شبيب حتى صُرِع عن فرسه ، فوقع بين رجاله ، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح ، فوجَدَه قتيلا فنادى : إلىّ يامعشر المسلمين ! فلاذوا به ، فقال لأصحابه : ليجعلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه ، وليطاعِنْ عدوَّه إذا قدم عليه ؛ حتى ندخل هذا الحِصْن ، ونرى رأينا .

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحِصْن؛وهم سبعون رجلا مع شبيب،وأحاط بهم الحارث بن عميرة مُمسِياً ، وقال لأصحابه : أحرقوا الباب،فإذا صار جَمْراً فدَعوه،فإنهم لايقدرون على الخروج حتى نصبح [4] فنقتلهم ، ففعلوا ذلك بالباب ؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم .

فقال شبيب لأصحابه : ياهؤلاء ، ماتنتظرون ! فوالله إن صَبَّحوكم غُدْوَةً [5] إنه لهلاككم ، فقالوا له : مُرْنا بأمرك ، فقال لهم : [إن الليل أخفى للويل] [6] ؛ بايعونى إن شئتم ، أو بايعوا مَنْ شئتم منكم ، ثم اخرجوا بنا حتى نشُدَّ عليهم فى عسكرهم ، فإنهم آمنون منكم ، وإنى أرجو أنْ ينصرَكم الله عليهم. قالوا : ابسط يدك، فبايعوه ، فلماجاءوا

---

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان ، بينه وبين خانقين سبعة فراسخ ، وخانقين : فى نواحى السواد فى طريق همذان .

(٢) فى الطبرى : « المدبج : من أرض الموصل ، على تخوم ماينها وبين أرض جوخى » .

(٣) الكردوس : القطعة من الخيل ، وجمه كراديس .

(٤) الطبرى : « نصبحهم » .

(٥) صبحوكم : أغاروا عليكم صباحاً .

(٦) من الطبرى .

إلى الباب ، وجدُوه جَمْراً ، فأتوه باللُّبود [١] فبلُّوها بالماء ، ثم ألقوْها عليه وخرجوا ، فلم يشعُر الحارث بن عميرة إلا وشبيب وأصحابه يضربُونهم بالسيوف فى جوف عسكرهم ، فضارب الحارث حتى صُرِع ، واحتمله أصحابه ، وانهزموا وخلَّوا لهم المسكر ومافيه ، ومضَوْا حتى نزلوا المدائن ، وكان ذلك الجيش أولَ جيش هزمه شبيب [٢] .

* * *

[دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج]

ثم ارتفع فى أدانى أرض الموصل [٣] ، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يَجبِى الخراج ، وكان سفيان بن أبى العالية قد أُمِر أن يحارب صاحب طَبَرِسْتان ، فأمر بالقفول نحو شبيب ، وأن يصالح صاحب طَبَرِسْتان ، فصالحه ، فأقبل فى ألف فارس ، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج :

[٤] أما بعد ، فأقِمْ بالدَّسْكرة فيمن معك ، حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة . قاتل صالح بن مسرّح ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزه [٤] .

ففعل سفيان ذلك ، ونزل إلى الدَّسْكرة حتى أتوه ، وخرج مرتحلا فى طلب شبيب ، فارتفع شبيب عنهم ، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم ؛ وقد أكْمَنَ لهم أخاه مَصاداً فى خمسين رجلا ، فى هَضْم [٥] من الأرض ، فلما رأوْا شبيبا جمع أصحابه ، ومضى فى سَفْح من الجبل

---

(١) اللبد : كل شعر أو صوف متلبد ، سمى به للصوق بعضه ببعض ، وجمعه لبود .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وأصيب صالح بن مسرح يوم الثلاث لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته » .

(٣) فى الطبرى بعدها : « وتخوم أرض جوخى » .

(٤ ـ ٤) الكتاب كما فى الطبرى : « أما بعد فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك ، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الهمدانى بن ذى المشعار ، وهو الذى قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر ، ثم سر إلى شبيب حتى تناجزه » .

(٥) الهضم : المكان المطمئن من الأرض ، وفى الطبرى : « هزم من الأرض » ، وهما بمعنى .

مشرقا ، قالوا : هرب عدو الله ، واتبعوه . فقال لهم عَدِيّ بن عميرة الشيبانيّ : أيها الناس؛ لاتعجَلوا عليهم حتى نَضْرِب فى الأرض ونستبرِئها[1]؛ فإن يكونوا كمنوا كينا حَذِرْناه؛ وإلا كان طلبُهم بين أيدينا لن يفوتَنا . فلم يسمعوا منه ، فأسرعوا فى آثارهم .

* * *

فلما رأى شبيب أنّهم قد جازوا الكمين ، عَطَف عليهم ، فحَمَلَ من أمامهم ، وخرج الكَمِين من ورائهم ؛ فلم يقاتل[2] أحد ؛ وإنما كانت الهزيمةُ ، وثبت سُفيان بن أبى العالية فى مائتى رجل ؛ فقاتل[3] قتالا شديدا حتى انتصفَ من شبيب[3] ؛ فقال سويد بن سليم لأصحابه : أمِنكم أحد يعرف أميرَ القوم ابن أبى العالية[4]؟ فقال له شبيب : أنا مِنْ أعرف النّاس به ، أما ترى صاحبَ الفرسِ الأغرّ الذى دونه المرامية ، فإنه هو ،[5] فإن كنتَ تريده فأمهِله قليلا .

ثم قال : ياقَعْنَب ، اخرُج فى عشرين ، فأتِهم من ورائهم . فخرج قَعْنَب فى عشرين فارتفع عليهم ، فلما رأوْه يريد أنْ يأتيَهم من ورائهم ، جعلوا ينتقصون ويتسلّلُون ، وحَمَل سويد بن سُلَيم على سُفْيان بن أبى العالية يطاعِنُه[6] ، فلم تصنع رماحُهما شيئا ، ثم اضطربا بسيفيهما ، ثم اعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه ، فوقعا إلى الأرضِ يعتركان ، ثم تحاجزا ، وحَمَل عليهم شبيب ؛ فانكشف مَنْ كان مع سفيان ؛ ونزل غلام له يقال له غَزْوان عن بِرْذَوْنِه ، وقال لسفيان : اركب يامولاى ، فركب سُفيان ، وأحاط به أصحابُ شبيب ، فقاتل دونه غزوان حتى قُتِل ، وكان معه رايته ، وأقبل سفيان منهزما ؛ حتى انتهى

(١) يقال : استبرأ أرض بنى فلان ، إذا سار فيها وانتهى إلى آخرها . وفى الطبرى : « نسير بها » .
(٢) الطبرى : « فلم يقاتلهم أحد » .
(٣ ـ ٣) الطبرى : « فقاتلهم قتالا شديدا حسنا حتى ظن أنه انتصف من شبيب وأصحابه » .
(٤) فى الطبرى بعدها : « فوالله لئن عرفته لأجهدن نفسى فى قتله » .
(٥) الطبرى : « فإنه ذلك » .
(٦) الطبرى : « فطاعنه » .

إلى بابل مَهْرُوذ ، فنزل بها ؛ وكتب إلى الحجاج[١] ، وكان الحجاجُ أمَرَ سَوْرة ابن أبجر أن يلحَق بسفيان ، فكاتَبَ سورةُ سفيانَ ، وقال له : انتظِرنى ؛ فلم يفعل وتعجّل نحو الخوارج ، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان ، وقرأ كتابه ، قال للناس : مَنْ صنع كما صنع هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن . ثم كتب إليه يعذره[٢] ، ويقول : إذا خَفَّ عليكَ الوَجَع فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك . وكتب إلى سورة بن أبجر :

«[٣] أما بعد يابن أمّ سورة ، فما كنتَ خليقا[٣] أن تجترئ على تركِ عهدى ، وخذلان جُندى ، فإذا أتاكَ كتابى فابعث رجلا مِمّن معك صَلِيبا إلى[٤] المدائن ، فلينتخبْ من جندها خمسمائة رجل ، ثم ليقدم بهم عليك ، [ثم سِرْ بهم][٥] حتى تَلْقَى هذه المارقة ، واحزم أمركَ ، وكِدْ عَدُوّكَ ؛ فإنّ أفضَلَ أمر الحروب حُسْنُ المكيدة . والسلام .

فلما أتى سَوْرَةَ كتابُ الحجاج بعث عدىّ بن عمير إلى المدائن ، وكان بها ألف فارس ، فانتخب منهم خمسمائة ، ثم رحل بهم[٦] حتى قدِم على سَوْرة ببابل مَهْرُوذ .

---

(١) كتابه إلى الحجاج كما فى الطبرى : « أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير أصلحه الله ! إنى اتبعت هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غيبا عنهم ، فحملوا على الناس فهزموهم ، فنزلت فى رجال من أهل الدين والصبر ، فقاتلتهم حتى خررت بين القتلى ، فحملت مرتثا ، فأتى بى بابل مهروذ ، فها أنا بها والجند الذين وجههم الأمير وافوا إلا سورة بن أبجر ، فإنه لم يأتنى ، ولم يشهد معى ، حتى إذا ما نزلت بابل مهروذ أتانى يقول ما لا أعرف ، ويعتذر بغير العذر والسلام » .

(٢) كتاب الحجاج إلى سفيان كما فى الطبرى : « أما بعد ، فقد أحسنت البلاء ، وقضيت الذى عليك ، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورا إلى أهلك . والسلام » .

(٣ ـ ٣) الطبرى : « أما بعد فيابن أم سورة ، ما كنت خليقاً أن تجترئ على » .

(٤) الطبرى : « إلى الخيل التى بالمدائن » .

(٥) من الطبرى .

(٦) عبارة الطبرى : « ثم دخل على عبد الله بن أبى عصيفير ، وهو أمير المدائن إمارته الأولى ، فسلم عليه ، فأجازه بألف درهم ، وحمله على فرس وكساه أثوابا ، ثم إنه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه حتى قدم بهم على سورة . . . »

فخرج بهم فى طلب شبيب ، وخرج شبيب يَجُول فى جُوخى[1] ، وسَوْرة فى طلبه، فجاء شَبيب إلى المدائن فتحصّنَ منه أهلُها فانتهب المدائن الأولى ، وأصاب دوابَّ من دوابّ الجند ، وقتل مَنْ ظَهر له ،ولم يدخل البيوت ، ثم أتى فقيل له : هذا سَوْرة قد أقبل إليك ،فخرج فى أصحابه حتى [انتهى إلى النهروان ، فنزلوا به وتوضئوا وصلوا ، ثم][2] أتوْا مصارع إخوانهم الذين قتلهم علىّ بن أبى طالب ،فاستغفروا لهم ،وتبرءوا من علىّ وأصحابه،وبكوْا فأطالوا البكاء ، ثم عَبَرُوا جسر النهروان ، فنزلوا جانبه الشرقىّ ، وجاء سَوْرة حتى نزل بقطرانا[3] وجاءته عيونه ،فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان ،فدعا سورة رءوس أصحابه، فقال لهم : إنّ الخوارج قلّما يُلقَوْن فى صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا ، وقد حُـدّثت أنهم لايزيدون على مائة رجل ؛ وقد رأيتُ أن أنتخِبكم، وأسير فى ثلاثمائة رجل منكم ، من أقويائـكم وشجعانـكم فأبيتهم [4] فإنهم آيسون من بيَاتـكم [4] ، وإنى والله أرجو أن يصرَعهم الله مَصارع إخوانهم فى النهروان من قَبْل، فقالوا : اصْنَعْ ماأحببت .

فاستعمَل على عسكره حازم بن قُدامة ، وانتخب ثلاثمائةمن شجعان أصحابه ، ثم أقبل بهِمْ حتى قَرُب من النهروان ، وبات وقد أذْ كَى الحرس ، ثم بيّتهم ؛ فلما دنا أصحاب سورةمنهم نَذِروا[5] بهم ؛ فاستوَوْا على خيولهم، وتعبّوْا تَعْبِيَتهم ؛فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه، أصابوهم وقد نذِرُوا ، فحمل عليهم سَوْرة ، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم

---

(١) جوخى ، بالقصر وقد يفتح: نهر عليه كورة واسعة فى سوادبغداد ، بالجانب الشرقى منه الرذان، وهو بين خانقين وخوزستان ، قالوا : ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى ، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم ، حتى صرفت دجلة عنها فخربت ، وأصابهم بعـد ذلك طاعون شيرون فأتى عليهم ، ولم يزل السواد فى إدبار من ذلك الطاعون . مراصد الاطلاع ١ : ٣٥٥

(٢) من الطبرى .

(٣) كذا فى الأصول وفى الطبرى : « قطراثا » .

(٤ ــ ٤) الطبرى : « فآتيهم الآن فإنهم آمنون لبياتـكم » .

(٥) نذروا بهم : علموا بهم . وفى ج : «حذروا » .

حتى تركوا له العَرْصة ، وحمل شبيب ، وجعل يضرب ويقول :

* مَنْ يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نَيْكاً كا[1] *

فرجع[2] سورة مفلولا ، قد هزم فرسانه وأهل القوّة من أصحابه ، وأقبل نحوَ المدائن ، وتبِعه شبيب ؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن ؛ وانتهى شَبيب إليهم ، وقد دخل الناس البيوتَ ، وخرج ابن أبى عصيفير ؛ وهو أمير المدائن يومئذ فى جماعة ، فلقيَهم فى شوارع المدائن ، ورماهم النّاسُ بالنبل والحجارة من فوق البيوت .

ثم سار شبيب إلى تَـكْرِيت[2] ، فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أرْجَف[3] الناس فقالوا : هذا شبيب قد أقبلَ يريد أن يبيِّت أهل المدائن ، فارتحل عامّةُ الجند ، فلحِقوا بالـكوفة ، [4] وإنّ شبيبا بتـكْرِيت ، فلما أتى الحجاج[5] الخبرُ ، قال : قبح الله سَوْرة ! ضيّع العسكرَ وخرج يُبَيِّت الخوارج ؛ والله لأسوءنّه[6] .

(١) بقيته فى الطبرى :

* جَنْدلتانِ اصطَـكّتا اصْطِـكاكا *

(٢ — ٢) الطبرى : « فرجع سورة إلى عسكره ، وقد هزم الفرسان وأهل القوة ، فتحمل بهم حتى أقبل بهم نحو المدائن ، فدفع إليهم وقد تحمل وتعدى الطريق الذى فيه شبيب ، واتبعه شبيب ، وهو يرجو أن يلحقه فيصيب عسكره ، ويصيب بهزيمته أهل العسكر ؛ فأغذ السير فى طلبهم ، فانتهوا إلى المدائن فدخلوها ، وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن فدفع إليهم وقد دخل النـاس ، وخرج ابن أبى عصيفير فى أهل المدائن ، فرماهم بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة ، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن ، فر على كلوذا فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج ، فأخذها ، ثم أخذ يسير فى أرض جوخى ثم مضى نحو تكريت ... » .

(٣) أرجف القوم ، أى خاضوا فى الأخبار السيئة ، وذكر الفتن ، على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء ، وفى القرآن الـكريم : ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ .

(٤) فى الطبرى عن عبد الله بن علقمة الخثعمى : « والله لقد هربوا من المدائن ، وقالوا : نبيت الليلة ، وإن شبيبا لبتـكريت ، ولما أتى الفل على الحجاج ، سرح الجزل بن سعيد بن شرحبيل بن عمرو الـكندى » .

(٥) فى الطبرى : « عن فضيل بن خديج الـكندى : أن الحجاج لما أتاه الفل قال . . . » .

(٦) فى الطبرى : « وكان قد حبسه ثم عفا عنه » .

ثم دعا الحجاج بالجَزْل ؛ وهو عثمان بن سعيد ، فقال له : تيسّر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتَهم فلا تعجل عَجَلَةَ الخرِق النَّزِق (١) ، ولا تحجم إحجام الوانى الفَرِق (٢) ، أفهمت (٣) ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير قد فهمت ؛ قال : فاخرج وعَسْكِرْ بدَيْرِ عبد الرحمن حتى يخرج الناس إليك ، فقال : أصلَحَ الله الأمير ! لا تبعثْ معي أحداً من الجند المهزوم المفلول ، فإنّ الرعبَ قد دخل قلوبَهم ، وقد خشيت ألّا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ ، قال : ذلك لك ؛ ولا أراك إلا قد أحسنْتَ الرأى ، ووُفِّقت ؛ ثم دعا أصحابَ الدواوين ، فقال ؛ اضربوا على النَّاسِ البعث ، وأخرجوا أربعةَ آلاف من الناس ، وعجّلوا ، فجمعت العُرَفاء ، وجلس أصحابُ الدواوين ، وضَرَبوا البعث ، فأخرجوا أربعة آلاف ، فأمرهم باللحاق بالعسكر ؛ ثم نودى فيهم بالرحيل ؛ فارتحلوا ، ونادى منادى الحجاج : أنْ بَرِئت الذِّمّة مِنْ رجل أصبْنَاه من بعث الجَزْل متخلِّفاً .

فمضى بهم الجَزْل ، [وقد قدّم بين يديه عياض بن أبي لينة الكنديّ على مقدمته فخرج] (٤) ؛ حتى أتى المدائن ، فأقام بها ثلاثاً ؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبي عصيفير بفَرَس وبِرْذَوْن وألفى درهم ، ووضع للناس من الحطب (٥) والعلَف ما كفاهم ثلاثة أيام ، وأصاب الناس ما شاءوا من ذلك .

***

ثم إنّ الجَزل خرج بالناس إثْرَ شبيب ، فطلبه فى أرض جُوخَى ، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة ، فيخرج من رُسْتَاق إلى رُسْتاق ، ومن طَسُّوج إلى طَسُّوج [ولا يقيم له] (٤) ،

---

(١) الخرق : الرجل الأحمق ، والنزق : الطائش الخفيف عند الغضب .
(٢) الفرق : الشديد الفزع .
(٣) فى الطبرى بعدها : « لله أنت يا أخا بنى عمرو بن معاوية » .
(٤) من الطبرى .
(٥) الطبرى : « الجزر » .

يريد بذلك أن يفرّق الجزل أصحابَه ، ويتعجّل إليه فيلقاه فى عَدَدٍ يسير على غيرِ تعبية؛ فجعل الجزْل لا يسير إلّا على تَعبِيَة ؛ ولا ينزل إلا خَنْدَق على نفسه وأصحابه ؛ فلما طال ذلك على شبيب ، دعا يوما أصحابه ، وهم مائة وستون رجلا ، هو فى أربعين ، ومصاد أخوه فى أربعين ، وسويد بن سليم فى أربعين ، والمحلّل بن وائل فى أربعين ، وقد أتته عيونه [فأخبرته][1] ، أنّ الجزْل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد[2] . فقال لأخيه وللأمراء الذين ذكرناهم : إنى أريد أن أبيّت الليلة هـذا العسكر ، فأتِهم أنت يامصاد من قِبَل حُلوان[3] ، وسآتيهم أنا من أمامهم من قِبَل الكوفة ، وأْتِهمْ أنت ياسُوَيْد من قِبَلِ المشرق ، وأْتِهمْ أنت يامحلّل ، من قِبل المغرب ، وليَلِجْ كلُّ امرئ منكم على الجانب الذى يحمل عليه ، ولا تقلعوا عنهم حتى يأتيكم أمرى .

قال فروة بن لقيط[4] : وكنتُ أنا فى الأربعين الذين كانوا معه[5] ، فقال لجماعتنا : تيسّرُوا ، وليسِرْ كلُّ امرئٍ منكم مع أميره ، ولينظُر مايأمره به أميره فليتبعْه ، فلما قضمت دوابّنا — وذلك أول ماهدأت العيون — خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا القوم عليهم مَسْلحة بن أبى لينة ، فما هو إلا أن رآهم مصاد أخو شَبيب حتى حمل عليهم فى أربعين رجلا ؛ وكان شبيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتيهم من ورائهم ، كما أمره[5] .

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « بدير يزدجرد » .

(٣) تطلق حلوان على عدة مواضع ، وهى هنا حلوان العراق ، آخر حدود السواد مما يلى العراق ، كانت مدينة عامرة لم يكن بالعراق بعدالبصرة والكوفة ، وواسط بغداد أكبر منها . (مراصدالاطلاع).

(٤) هو راوى الخبر فى الطبرى ، حدثه به عنه أبو مخنف .

(٥ — ٥) النص كما فى الطبرى : « حتى إذا قضمت دوابنا ، وذلك أول الليل ، أول ماهدأت العيون، خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا للقوم مسلحة ، عليهم عياش بن لينة ، فما هو إلا أن انتهينا إليهم، فحمل عليهم مصاد أخو شبيب فى أربعين رجلا — وكان أمام شبيب — وقد كان أراد أن يسبق شبيبا حتى يرتفع عليهم ويأتيهم من ورائه كما أمره » .

فلما لَقِيَ هؤلاء قاتلهم ، فصبروا له ساعة وقاتلوه . ثم إنّا دفعنا إليهم جميعا ، فهزمناهم ، وأخذوا الطريق الأعظم ، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدَجِرد إلا نحو ميل[1] ، فقال لنا شبيب : اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم ؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم ، فأتبعناهم ملظّين[2] بهم ، ملحّين عليهم ، ما نُرفّهُ عنهم وهم منهزمون ، ما لهم همّة إلا عسكرهم .

فنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ، وَرَشَقُوهم[3] بالنّبْل ، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا ، وكان الجزل قد خَنْدَق عليهم وتحرّز ، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم [بدير الخرّارة][4] ، ووضع مسلحة أخرى مما يلي حُلوان .

فلما اجتمعت المسالح ، ورشقوهم بالنبل ، ومنعونا من خَنْدَقهم ، رأى[5] شبيب أنّه لا يصلُ إليهم ، فقال لأصحابه : سيروا ودعوهم ، فلما سار عنهم أخَذَ على طريق حُلوان ؛ حتى كان منهم على سبعة أميال ، قال لأصحابه : انزلوا فأقضموا دوابّكم ، وقيلوا وتروّحوا ، فصلوا ركعتين ، ثم اركبوا . ففعلوا ذلك . ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة ، وقال : سيروا على تعبيتكم التى التى عبأتكم عليها أوّل الليل ، وأطيفوا[6] بعسكرهم كما أمرتكم . فأقبلنا[7] معه ، وقد أدخلَ أهلُ العسكر مسالحهم إليهم ، وأمِنُوا ، فما شعروا حتى سَمِعُوا وقع حوافر الخيل ، فانتهينا إليهم قبيل الصبح ، وأحطْنا بعسكرهم ، وصحنا بهم من كل ناحية ، فقاتلونا ، ورمونا بالنّبْل ؛ فقال شبيب[8] لأخيه مصاد ، وكان يقاتلهم من الجانب

---

(١) الطبرى : « قريب من ميل » .

(٢) ملظين : ملحين .

(٣) الطبرى : « ورشقونا » .

(٤) من الطبرى .

(٥) الطبرى : « ثم أطيفوا بعسكركم » .

(٦) فى الأصول : « نظر » ، والأجود ما أثبته من تاريخ الطبرى .

(٧) الطبرى : « فأقبلوا » . (٨) الطبرى : « ثم أن شبيبا » .

الذى يلى الكوفة : خَلِّ لهم سبيل [طريق] (١) الكوفة ، نخلى لهم ، وقاتلناهم من [تلك] (١) الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح (٢) ، ثم سرنا وتركناهم ، لأنا لم نظفر بهم ، فلما سار شبيب سار الجزل فى أثره يطلبه ، وجعل لا يسيرُ إلا على تعبية وترتيب ، ولا ينزل إلا على خندق ؛ وأما شبيب فضرب فى أرض جُوخَى ، وترك الجزل ، فطال أمرُه على الحجاج ، فكتب إلى الجزل كتاباً قرِئ على الناس وهو :

أما بعد ، فإنى بعثتُك فى فرسان [أهل] (١) المِصْر ووجوه الناس ، وأمرتك باتّباع هذه (٣) المارقة ، وألّا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها (٣) ؛ فجعلتَ (٤) التَّعريس فى القُرى ، والتخييم فى الخنادق ، أهونَ عليك من المضىّ لمناهضتهم ومناجزتهم . [والسلام] (٥) .

قال : فشقّ كتابُ الحجاج على الجزل ، وأرجف الناس بأمره ؛ وقالوا : سيعزله ، فما لَبِث الناس أنْ بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميرا بدله ، وعَهِد إليه : إذا لقى المارقة أن يزحف إليهم ، ولا يناظرهم ، ولا يطاولهم ، ولا يصنع صُنْع الجزل (٦) ، وكان الجزل يومئذ قد انتهى فى طلب شبيب إلى النَّهروان ، وقد لزم عسكره ، وخندق عليهم ؛ فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيبا ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهلَ الكوفة ، إنكم قد عجزتم وَوَهَنتم ، وأغضبْتم عليكم أميرَكم ، أنتم فى طلب هذه الأعاريب العُجْف منذ شهرين ، قد أخربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ؛ وأنتم

---

(١) من الطبرى .
(٢) الطبرى : « حتى أصبحنا » .
(٣ ـ ٣) الطبرى : « المارقة الضالة المضلة ؛ حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها » .
(٤) الطبرى : « فوجدت » .
(٥) فى الطبرى ، بعدها : « فقرئ الكتاب علينا ، ونحن بقطرثا ودير أبى مريم » .
(٦) بعدها فى الطبرى : « واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم حيدان الضبع » .

حَذِرون فى جوف هذه الخنادق لا تُزايلونها إلّا أن يبلغكم أنّهم قد ارتحلوا عنكم ، ونزلوا بلداً سوى بلدكم ؛ اخرجوا على اسم الله إليهم .

ثم خرج وخرج الناس معه[(١)] ، فقال له الجزْل : ماتريد أن تصنع ؟ قال : أقدمُ على شبيب وأصحابه فى هذه الخيل ؛ فقال له الجزل : أقِمْ أنت فى جماعة الناس[(٢)] ، فارسهم وراجلهم[(٣)] ؛ ولا تفرق أصحابك ، ودعنى أُصْحِرُ له[(٤)] ؛ فإن ذلك خيرٌ لك وَشَرٌ لهم[(٣)] .

فقال سعيد : بل تَقِفُ أنت فى الصفّ ، وأنا أُصْحِرُ له ، فقال الجزل : إنى برىء من رأيك هذا ؛ سمع الله ومَنْ حضر من المسلمين ! فقال سعيد : هو رأيى ؛ إن أصبتُ فيه ، فالله وَفّقنى ، وإن أخطأتُ[(٥)] فيه فأنتم برآء .

فوقف الجزل فى صفّ [أهل][(٦)] الكوفة ، وقد [أخرجهم من الخندق و][(٦)] جعل على ميمنتهم عياض بن أبى لينةَ الكِندىّ ، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الراسبىّ[(٧)] ؛ ووقف الجزْل فى جماعتهم ، واستقدم سعيد بن مجالد فخرج [وأخرج][(٦)] الناس معه ؛ وقد أخذ شبيب إلى بَرَاز الروز[(٨)] ، فنزل قَطُفْتَا[(٩)] ، وأمر دِهقانها أن يشوِيَ لهم غنما ، ويعدّ لهم غداء ففعل ، وأغلق مدينة قَطُفْتا ، ولم يفرغ

---

(١) فى الطبرى بعدها : « وجمع إليه خيول أهل العسكر » .

(٢) الطبرى : « الجيش » .

(٣ ـ ٣) عبارة الطبرى : « وأصحر له ، فوالله ليتقدمن عليك ؛ فلا تفرق أصحابك ؛ فإن ذلك شر لهم وخير لك » .

(٤) أصحر القوم ؛ إذا برزوا فى الصحراء ؛ لايواريهم شىء .

(٥) الطبرى : « وإن يكن غير صواب » .

(٦) من الطبرى .

(٧) فى الأصول : « وأبا حميد » ، والصواب ماأثبته من الطبرى .

(٨) براز الروز ، بالزاى ، وألف ولام وراء مضمومة : من طساسيج السواد ببغداد ؛ من الجانب الشرقى من أستان البهقباذ ، كان للمعتضد به أبنية جليلة . (مراصد الاطلاع) .

(٩) قطفتا : محلة غربى بغداد .

الدُّهقان من طَعامه حتى أحاط بها ابن مجالد ، فصعِد الدُّهقان ، ثم نزل ، وقد تغيَّر لونه ، فقال شبيب : ما بالك ؟ قال : قد جاءك جمع عظيم ، قال : أَبَلَغَ[1] شواؤك ؟ قال : لا ، قال : دَعْهُ يبلغ ، ثم أشرف الدُّهقان إشرافة أخرى ، ثم نزل فقال : قد أحاطوا بالجوْسق ، قال : هات شواءك ؛ فجعل يأكل غير مكترِث بهم ولا فَزِع ، فلما فرَغ قال لأصحابه ، قوموا إلى الصلاة ، وقام فتوضأ ، فصلى بأصحابه صلاة الأولى ، ولبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وأخذ عموده الحديد ، ثم قال : أسرِجُوا لى بغلتى ، فقال أخوه : أفى مثل هذا اليوم تركب[2] بغلة ؟ قال: نعم ، أسْرِجوها ، فركبها ، ثم قال : يافلان ، أنت على الميمنة ، وأنت يا فلان على الميسرة ، وأنت يا مَصاد ـ يعنى أخاه ـ على القلب ، وأمر الدُّهقان ففتح الباب فى وجوههم .

فخرج إليهم وهو يحكِّم[3] ، وحمل حملة عظيمة ، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقرى ، حتى صار بينهم وبين الدَّيْر ميل ، وشبيب يصيح : أتاكم الموت الزؤام ! فاثبتوا ، وسعيد يَصيح : يامعشر هَمْدان ، إلىّ إلىّ ، أنا ابن ذى مرّان ! فقال شبيب لمصاد : وَيْحَكَ ! استعرضهم استعراضا ؛ فإنهم قد تقطّعوا ، وإنى حامل على أميرهم ، وأثكلَنِيكَ الله إن لم أثكِلْه ولده ؛ ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود ؛ فسقط[4] ميتا وانهزم أصحابه، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد .

وانتهى قتلُ سعيد إلى الجزْل ، فناداهم : أيها الناس ، إلىّ إلىّ ؛ وصاح عياض ابن أبى لينة : أيها الناس ، إن يكن أميركم هذا القادم هَلك ، فهذا أميركم الميمون النقيبة ، أقبِلوا إليه ؛ فنهم مَنْ أقبل إليه ، ومنهم مَنْ ركب فرسه منهزما ، وقاتل الجزْل يومئذ قتالا شديدا حتى صُرِع ، وحامى عنه خالد بن نَهِيك ، وعياض بن أبى لينة ؛ حتى استنقذاه

(١) الطبرى : « أبلغ الشواء » وبلوغ الشواء : نضجه .
(٢) الطبرى : « تسرج » .
(٣) التحكيم : قول الخوارج : « لاحكم إلا لله » .
(٤) فى الأصول : « ثم سقط » ، والأجود ما أثبته من الطبرى .

مرتثا ، وأقبل النـاس منهزمين حتى دخلوا الكوفة ، وأتى بالجزْل جريحا حتى دخل المدائن ، فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير ـ أصلحه الله ـ أنى خرَجتُ فيمن قِبَلى من الجند الذى وَجّهنى فيه إلى عدوّه ، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلىّ فيهم ورأيه ؛ فكنت أخرجُ إلى المارقين[١] إذا رأيت الفرصة ، وأحبس [الناس][٢] عنهم إذا خشيت الورْطة ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر، وأرفقُ فى التدبير ؛ وقد أرادنى العدوّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ منى غِرّة ، حتى قدم علىّ سعيد بن مجالد ، فأمرتُه بالتؤدة ، ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألّا يقاتلهم إلا فى جماعة النـاس عامّة ، فعصانى وتعجّل إليهم فى الخيل ، فأشهدْتُ الله عليه وأهلَ المِصْرَيْن أنى برِىء من رأيه الذى رأى ، وأنى لا أهوَى الذى صنع ، فمضى فقُتل ، تجاوز الله عنه ! ودَفَع[٣] الناس [إلىّ][٢] فنزلت ودعوتُهم إلى نفسى[٤] ورفعتُ رايتى ، وقاتلت حتى صُرِعت ، فحملنى أصحابى من بين القتلى ، فما أفقت إلّا وأنا عَلَى أيديهم ؛ عَلَى رأس ميلٍ من المعركة ، وأنا اليوم بالمدائن ، وفىّ جِراحات[٥] قد يموتُ الإنسان من دونها ؛ وقد يعافَى من مثلها ؛ فليسأل الأميرُ أصلحَه الله عَنْ نصيحتى له وجُهده ، وعن مكايدتى عدوّه ، وعن موقفى يوم البأس ؛ فإنه سيبين[٦] له عند ذلك أنى صدقتُه ونصحت له . والسلام .

فكتب إليه الحجّاج :

---

(١) الطبرى : « إليهم » .
(٢) من الطبرى
(٣) دفع الناس ، أى جاءوا مرة مجتمعين .
(٤) الطبرى : « ودعوتهم إلى » .
(٥) الطبرى : « جراحة » .
(٦) الطبرى : « يستبين » .

أما بعد ، فقد أتانى كتابُك وقرأته ، (١) وفهمت كلّ ماذكرتَه فيه من أمر سَعيد وأمر نفسِك ، وقد صدَقْتُك فى نصيحتك لأميرك وحَيْطتك على أهل مِصْرك، وشدّتك عَلَى عدُوِّك ، وقد رضيتُ عَجلةَ سعيد وتؤدَتك (١) . فأما عجلته فإنها أفضَتْ به إلى الجنة ، وأما تؤدتك (٢) فإنها مالم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم (٢) ؛ وقد أحسنت وأصبت وأجرت ، وأنتَ عندِى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ؛ وقد أشخصتُ إليك حيّان بن أبجر (٣) الطبيب ليداوِيَك ، ويعالج جراحاتك ؛ وقد بعثتُ إليك بألفىْ درهم نفقةً تصرفها فى حاجتك وما ينوبك (٤) . والسلام .

وبعث عبد الله بن أبى عصيفر والى المدائن إلى الجزْل بألف درهم ؛ وكان يعوده ويتعاهَدُه بالألطاف والهدايا .

وأما شبيب ، فأقبل حتى قطَع دِجلة عند الكَرْخ ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة . وبلغ الحجّاج مكانُه بحمّام أعين ؛ فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن السعدىّ ، فجهزه بألفىْ فارس منتخَبين ، وقال له : اخرُج إلى شبيب فالقَه ولا تَتْبعه ؛ فخرج بالناس بالسَّبَخة (٥) ؛ وبلغه أنّ شبيبا قد أقبل ، فسار نحوه كأنما يُساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجّاج عثمان بن قَطَن ، فعسكر بالناس فى السَّبَخة ، ونادى : ألا برِئت الذِّمّةُ من رجل من هذا الجند ، بات الليلة بالكوفة ؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَن بالسَّبَخة ، فبينا سويد بن عبد الرحمن يسيرُ فى الألفين الذين معه ؛ وهو يعبّيهم ويحرّضهم ؛ إذْ قيل له :

(١ - ١) الطبرى : « وفهمت كل ما ذكرت فيه ، وقد صدقتك فى كل ما وصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك وشدتك على عدوك ، وقد فهمت ماذكرت من أمر سعيد وعجلته إلى عدوه وتؤدتك . »

(٢ - ٢) الطبرى : « فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمكن حزم » .

(٣) ب : « جبار بن الأعين » .

(٤) فى الطبرى بعدها : « فقدم عليه حيان بن أبجر الكنانى ، من بنى فراس ؛ وهم يعالجون الكى وغيره ، فكان يداويه » .

(٥) السبخة : موضع بالبصرة .

قد غشيك شبيب؛ فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه ، وقدّم رايته ؛ فأخبرأنّ شبيبا لما علم بمكانه تركه ، ووجد مخاضَةً(١) فعبر الفرات ؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذى سويد ابن عبد الرحمن به ، ثم قيل : أما تراهم ! فنادى فى أصحابه ، فركبوا فى آثارهم ، فأتى شبيب دارَ الرزق فنزلها ، وقيل له : إنّ أهلَ الكوفة بأجمعهم معسكرون ، فلما بلغهم مكانُ شبيب ، ماجَ الناس بعضُهم إلى بعض ، وجالوا وهمّوا بدخول الكوفة ، حتى قيل: هذا سويد بن عبد الرحمن فى آثارهم قد لحقهم ؛ وهو يقاتلهم فى الخيل ، ومضى شبيب حتى أخذَ عَلَى شاطئ الفرات ، ثم أخذ عَلَى الأنبار ، ثم دخل دَقُوقاء(٢) ، ثم ارتفع إلى أدانى أذرَبيجان .

وخرج الحجاجُ من الكوفة إلى البصرة حيث بَعُدَ شبيب ، واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المغيرة بن شعبة ، فما شعر الناس إلا بكتاب [من](٣) مادارست(٤) ، دِهقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة ، أنّ تاجراً من تجار [الأنبار من](٣) أهل بلادى

---

(١) المخاضة : موضع الخوض فى الماء .

(٢) دقوقاء ، بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة : مدينة بين إربل وبغداد معروفة ؛ قال ياقوت : لها ذكر فى الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدى بن أبى حام الذهلى يرثيهم :

شَبَابٌ أطَاعُوا اللهَ حَتى أحَبَّهُمْ ... وَكُلُّهُمْ شارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ

فَلَمَّا تَبَوَّءُوا من دَقُوقا بِمَنْزِلٍ ... لِميعَادِ إخْوانٍ تَدَاعَوْا فَأجْمَعُوا

دَعَوْا خَصْمَهُمْ بالمحكَماتِ وبَيَّنُوا ... ضلالَتَهُمْ ، واللهُ ذُو العَرْشِ يَسْمَعُ

بِنَفْسِيَ قَتْلَى فى دَقُوقَاءَ غُودِرَتْ ... وَقَدْ قُطِعَتْ مِنْهَا رُءوسٌ وَأذْرُعُ

لِتَبْكِ نِسَاءُ المسلمينَ عليهمُ ... وَفِى دُونِ مالاَقَيْنَ مَبْكَى وَمَجْزَعُ

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ماذ رواسب » .

أتانى يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة فى أول هـذا الشهر المستقبل ، وأحببت إعلامك [ذلك] (١) لترى رأيك ؛ (٢) وإنى لم ألبث بعد ذلك إذ جاءنى اثنان من جيرانى (٢) فحدّثانى أنّ شبيبا قد نزل خانيجار (٣) .

فأخذ عروة كتابه فأدرجه وسرّح به إلى الحجاج إلى البصرة. فلما قرأ الحجاج أقبل جادًّا (٤) إلى الكوفة ، وأقبل شبيب [يسير] (١) حتى انتهى إلى قرية حَرْبَى (٥) على شاطئ دجلة ، فعبرها وقال (٦) لأصحابه : يا هؤلاء ، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة ، وليس دون أخذها شىء إن شاء الله . فسيروا بنا ، فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة ، وكتب عروة إلى الحجاج : إن شبيبا قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فالعجلَ العجلَ .

فطوَى الحجاج المنازلَ مسابقا (٧) لشبيب إلى الكوفة ، فسبقه و نزلها صلاة العصر ، ونزل شبيب السَّبَخة صلاة العشاء الآخرة ، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئا يسيرا ، ثم ركبوا خيولهم ، فدخل شبيب الكوفة فى أصحابه حتى انتهى إلى السوق ، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ، فحدّث جماعة (٨) أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر ، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة ، وأنشد :

---

(١) من الطبرى

(٢ ــ ٢) الطبرى : « ثم لم ألبث إلا ساعة حتى جاءنى جابيان من جباتى » .

(٣) خانيجار : بليدة قريبة من دقوقاء .

(٤) الطبرى : « جوادا » .

(٥) قال ياقوت : « حربى مقصور ، والعامة تتلفظ به ممالا : بليدة فى أقصى دجيل ، بين بغـداد وتكريت مقابل الحظيرة » . . .

(٦) فى الطبرى بعدها : « فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقالوا : حربى ، فقال : حرب يصلى بها عدوكم ، وحرب (بالفتح) تدخلونه بيوتهم ؟ إنما يتطير من يقوف ويعيف . ثم ضرب رايته ، وقال لأصحابه : سيروا ، فأقبل حتى نزل عقرقوفا ، فقال له سويد بن سليم : ياأميرالمؤمنين ؟ لو تحولت بنا من هذه القرية المشئومة الاسم ؟ قال : وقد تطيرت أيضاً ! والله لا أتحول عنها حتى أسير إلى عدوى منها ؛ إنما شؤمها إن شاء الله على عدوكم ، تحملون عليهم فيها فالعقر لهم » .

(٧) « واستبقا إلى الكوفة » .

(٨) الطبرى : « قال أبو المنذر ؟ رأيت ضربة شبيب . . . »

وَكَأَنَّ حَافِرَها بكلِّ ثَنِيَّةٍ فَرَقٌ يكيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُعْدِمُ(١)

(٢ ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع ، ولا يفارقه قومٌ يصلّون٢) فيه ، فقتل منهم جماعة، ومرّ هو بدار حَوْشب ـ وكان هو على شُرْطة الحجاج ـ فوقف على بابه فى جماعة ، فقالوا: إنّ الأمير ـ يعنون الحجاج ـ يدعو حوشبا، وقدأخرج ميمون غلامه بِرْذَونه ليركب ، [فكأنه أنكرم ، فظنوا أنه قد اتهمهم](٣) فأراد أن يدخل إلى صاحبه ، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبُك إليك، فسمع حوشب الكلام ، فأنكر القوم، وذهب لينصرف فعجلوا نحوه ، فأغلق الباب دونه ، فقتلوا غلامه ميمونا ، وأخذوا بِرْذَونه ، ومضوا حتى مرّوا بالجحّاف بن نبيط الشيبانىّ، من رهط حَوْشب. فقال له سويد : انزل إلينا ، فقال : ما تصنع بنزولى! فقال : انزل، إنى لم أقضِك ثمن البَكْرة التى ابتعتها منك بالبادية ، فقال الجحّاف : بئس ساعة القضاء هذه ! وبئس المكان لقضاء الدَّيْن هذا . ويحك ! أماذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم ، وأنت على مَتْن فرسك ! قبح الله ياسُوَيد دينا لا يصلُح ولا يتمّ إلا بقتل الأنفس(٤) وسفك الدماء . ثم مرّوا بمسجد بنى ذُهْل، فلقوا ذهل بن الحارث، وكان يصلّى فى مسجد قومه ، فيطيل الصلاة إلى الليل، فصادفوه منصرفا إلى منزله فقتلوه(٥) ثم خرجوا متوجّهين نحو الردمة(٦)؛ وأمر الحجاج المنادى : يا خيل الله اركبى وأبشرى، وهو فوق باب القصر ؛ وهناك(٧) مصباح مع غلام له قائم .

---

(١) الفرق : مكيال يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا . وفى الطبرى : « كيل يكيل به » ؛ وبعده :

عَبْدٌ دَعِيٌّ مِنْ ثَمُودِ أَصْلُهُ لَا بَلْ يُقَالُ أبو أبيهِمْ يَقْدُمُ

(٢ ـ ٢) الطبرى : « ثم اقتحموا المسجد الأعظم ؛ وكان لايفارقه قوم يصلون فيه » .

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « بقتل ذوى القرابة وسفك دماء هذه الأمة » .

(٥) فى الطبرى : « فشدوا عليه ليقتلوه ؛ فقال : اللهم إنى أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم ؛ اللهم إنى عنهم ضعيف فانتصر لى منهم ؛ فضربوه حتى قتلوه » .

(٦) الطبرى : « الردمة » . (٧) الطبرى : « وثم » .

وكان أوّل مَنْ جاء من النّاس عثمان بن قَطَن ، ومعه مواليه وناس من أهله ، وقال : أعلموا الأميرَ مكانى ، أنا عثمان بن قَطَن ، فليأمرنى بأمره . فناداه الغلام صاحب المصباح : قِفْ مكانك حتى يأتيك أمرُ الأمير ، وجاء الناس من كلّ جانب ، وبات عثمان مكانَه فيمن اجتمع إليه من الناس ؛ حتى أصبح .

وقد كان عبدُ الملك بن مَرْوان بعثَ محمد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتان ، وكتب له عهدَه عليها ، وكتب إلى الحجاج : إذا قدِم عليك محمد بن موسى الكوفة ، فجهِّز معه ألفَىْ رجل ، وعجِّل سَرَاحَه إلى سِجِسْتَان .

فلما قدم الكوفة ، جعل يتجهّز[1] ؛ فقال له أصحابه ونصحاؤه : تعجَّل أيها الرجل إلى عَمَلك ، فإنك لا تدرى ما يحدث ، وعرض أمرُ شبيب حينئذ ودخولُه الكوفة ، فقيل للحجاج : إنّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصِهْره لأمير المؤمنين عبد الملك ، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه ، منعك منه . قال : فما الحيلة ؟ قالوا : أنْ تذكُر له أنّ شبيبا فى طريقه وقد أعياك ، وأنك ترجو أن يريح اللهُ منه على يده ، فيكون له ذكر ذلك وشهرته .

فكتب إليه الحجاج : إنّك عامل على كل بلد مررت به ، وهذا شبيب فى طريقك تجاهده ومَن معه ، ولك أجره وذكره وصيته ، ثم تمضى إلى عملك ؛ فاستجاب له .

وبعث الحجاج بشر بن غالب الأسدىّ فى ألفَىْ رجل ، وزياد بن قدامة فى ألفين ، وأبا الضريس مولى تميم فى ألفٍ من الموالى ، وأعين صاحب حمام أعين مولًى لبشر بن مروان فى ألف ، وجماعة غيرهم ؛ فاجتمعتْ تلك الأمراء فى أسفل الفرات ، وترك شبيب الوجهَ الذى فيه جماعة هؤلاء القُوّاد ، وأخذ نحو القادسيّة ، فوجه الحجاج زَحْر بن قيس

---

(١) الطبرى : « جعل يتحبس فى الجهاز » ، والتحبس : التوقف والتباطؤ .

فى جَريدة خيل ، نُقاوة[1] ، عدتها ألف وثمانمائة فارس ، وقال له : اتبع شبيبا حتى تواقعه حيثما أدركته ؛ فخرج زحْر بن قيس حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[2] ، وبلغ شبيبا مسيرُه إليه فأقبل نحوه ، فالتقيا ، وقد جعل زحْر على ميمنته عبد الله بن كناز ، وكان شجاعا ، وعلى ميسرته عدىّ بن عدىّ بن عُميرة الكندىّ ، وجمع شبيب خيله كلها كبْكَبة[3] واحدة ، ثم اعترض بها الصّفّ يُوجِف[4] وجيفا ، حتى انتهى إلى زحْر بن قيس ، فنزل زَحْر ، فقاتل حتى صُرِع وانهزم أصحابه ، وظن أنه قد قتل .

فلما كان الليل وأصابه البرد ؛ قام يمشى حتى دخل قرية ، فبات بها وحُمِل منها إلى الكوفة ، وبوجهه أربع[5] عشرة ضربة ، فمكث أياما ، ثم أتى الحجّاج ، وعلى وجهه [وجراحه] [6] القُطْن ، فأجلسه معه على السرير[7] . وقال أصحابُ شَبيب لشَبيب ؛

---

(١) نقاوة الشيء : خياره .

(٢) قال ياقوت : « ذكر سيلحين فى الفتوح وغيرها من الشعر يدل على أنها قرب الحيرة ضاربة فى البر قرب القادسية ؛ ولذلك ذكر الشعراء أيام القادسية مع الحيرة والقادسية ؛ فقال سليمان بن غامة حين سير امرأته من اليمامة إلى الكوفة :

فرتْ بِبابِ القَادِسيَّةِ غَدْوَةً ... وراحتها بالسَّيْلَحِين العبـــائرُ
فلما انتهتْ دون الخورنقِ عادَهَا ... وَقَصْرُ بنِى النُّعْمَانِ حيثُ الأواخرُ
إلى أهْلِ مِصْرٍ أصْلَحَ اللهُ حَالَهُ ... بِهِ المُسْلِمُونَ والجُهودُ الأكابرُ
فَصَارَتْ إلى أرضِ الجِهادِ وبَلْدَةٍ ... مُبارَكةٍ والأرضُ فيها مَصَائِرُ
فألقتْ عصَاهَا واستقرَّ بها النَّوَى ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المُسَافِرُ

(٣) الكبكبة : الجماعة من الناس .

(٤) أوجفت الخيل فى السير : سارت سيرا فسيحا واسعا . وفى الطبرى : « فوجف وجيفاً » .

(٥) الطبرى : « وبوجهه بضع عشرة جراحة ؛ من بين ضربة وطعنة » .

(٦) من الطبرى .

(٧) فى الطبرى بعدها : « وقال لمن حوله : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين الناس وهو شهيد ؛ فلينظر إلى هذا » .

وهم يظنون أنّهم قد قتلوا زَحْراً : قد هزمنا جندهم ؛ وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً ؛ فانصرِفْ بنا الآن موفورين[1] . فقال لهم : [2] إنّ قتلَكم هذا الرجل[3] وهزيمتَكم هذا الجند قد أرعب هؤلاء الأمراء[2] ؛ فاقصِدوا بنا قَصْدَهم ؛ فوالله لئن نحن قتلناهم مادون قَتْلِ الحجاج وأخذ الكوفة شيء . فقالوا له : نحن طوعٌ لأمرك ورأيك ، فانقضّ بهم جادّاً[4] ؛ حتى أتى ناحية عين[5] التمر ؛ واستخبَرَ عن القوم ، فعرف اجتماعهم فى رُوذْبار[6] فى أسفل الفرات ، على رأس أربعة وعشرين فرسخا من الكوفة .

وبلغ الحجاجَ مسير شبيب إليهم ، فبعث إليهم[7] : إنْ جَمَعَكم قِتال ، فأميرُ الناس زائدة بن قدامة .

فانتهى[8] إليهم شبيب ، وفيهم سبعة أمراء ، على جماعتهم زائدة بن قدامة ، وقد عَبّى كلّ أمير أصحابه على حِدَة ، وهو واقف فى أصحابه ، فأشرف شبيبٌ على الناس ، وهو على فرس أغرّ كُمَيت[9] ؛ فنظر إلى تعبيتهم ، ثم رجع إلى أصحابه ، وأقبل فى ثلاث كتائب يزحف[10] بها ، حتى إذا دنا من الناس مضتْ كتيبة فيها سويد بن سليم ،

---

(١) الطبرى : وافرين » .

(٢ — ٢) الطبرى : « فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ؛ وهزيمتنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأمراء والجنود التى بعثت فى طلبهم » .

(٣) الطبرى : « مادون الحجاج من شىء وأخذ الكوفة إن شاء الله » .

(٤) الطبرى : « جواداً » .

(٥) فى الطبرى : « نجران الكوفة ناحية عين التمر » . ونجران الكوفة ، على يومين منها ؛ فيابينها وبين واسط « على الطريق ؛ سكنه أهل نجران لما أجلاهم عمر ؛ فسموا الموضع باسمهم . وعين التمر : بلدة فى طرف البادية على غربى الفرات ؛ أكثر نخلها القسب ، ويحمل إلى سائر الأماكن . (مراصد الاطلاع) .

(٦) روذبار ؛ ضبطه صاحب مراصد الاطلاع ، بضم أوله وسكون ثانية وذال معجمة ، وباء موحدة ، وآخره راء ؛ قال : ويطلق على عدة مواضع .

(٧) فى الطبرى : « فبعث إليهم عبد الرحمن بن الغرق ، مولى ابن أبى عقيل ، وكان على الحجاج كريما » .

(٨) الكلام فى الطبرى ، عن أبى مخنف عن عبد الرحمن بن جندب .

(٩) الكميت من الخيل : مابين الأسود والأحمر . والأغر : ما كان بجبهته غرة .

(١٠) فى الطبرى : « يوجفون بها » .

فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة ؛ وفيها زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفتْ بإزاء الميسرة ، وفيها بشر بن غالب الأسديّ ، وجاء شبيب فى كَتِيبة ؛ حتى وقف مُقابل القوم فى القلْب ، فخرج زائدة بن قدامة يسير فى الناس بين الميمنة والميسرة ، يحرِّض الناس ، ويقول : عبادَ الله ؛ إنكم الطَّيِّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ؛ فاصبِروا جعلت لكم الفداء ! إنّما هى حَمْلتان أو ثلاث ؛ ثم هو النصر ليس دونه شىء ؛ ألا تَرَوْنهم والله لا يكونون مائتى رجل ، إنما هم أَكَلَة رأس[1] وهم السُّرّاق المرّاق ؛ إنما جاءوكم ليُهرِيقوا دماءكم ، ويأخذوا فيئكم ؛ فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ؛ وهم قليل وأنتم كثير ؛ وهم أهل فُرْقة وأنتم أهلُ جماعة ، غُضُّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنّة ؛ ولا تحملوا عليهم حتى آمركم .

ثم انصرف إلى موقفه ، فحمل سُوَيد بن سليم على زياد بن عمرو العَتَكىّ ، فكشف صفّه ، وثبت زياد قليلا ثم ارتفع سويد عنهم يسيرا ثم كرّ عليهم ثانية[2] .

فقال فروة بن لَقِيط الخارجىّ[3] : اطّعَنّا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالا شديدا[4] ، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ وإنه لأشدّ العرب قتالا وأشجعهم ؛ وهو واقف لا يعرِض لهم ؛ ثم ارتفعنا عنهم ؛ فإذا هم يتقوّضون ، فقال بعض أصحابنا لبعض : ألا تَرَوْنهم يتقوّضون ! احمِلُوا[5] عليهم ، فأرسل إلينا شَبيب : خَلّوهم لا تحمِلُوا عليهم حتى يخفّوا ، فتركناهم قليلا ، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو ، وإنه ليضرَبُ بالسيوف[6] ، وما من سيف يُضرَبُ به

---

(١) يقولون : هم أكلة رأس ؛ أى هم قليل يشبعهم رأس واحد .

(٢) فى الطبرى بعدها : « فاطعنوا ساعة » .

(٣) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة » .

(٤) فى الطبرى بعدها : « وجعل ينادى : ياخيلى ، ويشد بالسيف ، فيقاتل قتالا شديدا » .

(٥) الطبرى : « احمل عليهم » . (٦) الطبرى : « بالسيف » .

إلّا نبَا عنه ؛ ولقد اعتوره أكثرُ من عشرين سيفا وهو مجفّف ، فما ضرّه شيء منها ، ثم انهزم [١] .

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجِستان عند المغرب؛وهو قائم فى أصحابه؛ فقاتلناه قتالا شديدا ، وصبَر لنا .

ثم إن مصاداً حَمل [٢] على بِشر بن غالب فى الميسرة فصبَر وكرُم وأبلَى، ونزل معه رجال من أهل البَصْرة نحو خمسين،فضاربوا بأسيافهم [٣] حتى قتلوا،ثم انهزم أصحابه؛فشدَدْنا على أبى الضريس فهزمناه ، ثم انتهينا إلى موقف أعين ، ثم شددنا على أعْيَن ؛ فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدامة ، فلما انتهوْا إليه ، نزل ونادى : ياأهلَ الإسلام ، الأرضَ الأرض ! ألا لايكونُون على كفرهم أصبرَ منكم على إيمانكم . فقاتلوا عامّة الليل إلى السَّحَر .

ثم إن شبيباً شدّ على زائدة بن قدامة فى جماعة من أصحابه ، فقتله وقتل رِبْضَةً [٤] حوله من أهل الحفّاظ ، ونادى شبيب فى أصحابه : ارفعوا السيف ، وادعُوهم إلى البيعة، فدعَوْهم عند الفجر إلى البيعة .

قال عبد الرحمن [٥] بن جندب : فكنتُ فيمَنْ تقدّم فبايعه بالخلافة،وهو واقف على

---

(١) فى الطبرى بعدها . « وقد جرح جراحة يسيرة ؛ وذلك عند المساء ، قال : ثم شددنا على عبد الأعلى ابن عبدالله بن عامر ؛ فهزمناه وما قاتلنا كثير قتال ؛ وقد ضارب ساعة ؛ وقد بلغنى أنه كان جرح ثم لحق بزياد بن عمرو فمضيا منهزمين ؛ حتى انتهينا إلى محمد بن موسى . . . » .

(٢) الكلام من هنا فى الطبرى من هشام عن أبى مخنف ، عن عبد الرحمن بن جندب وفروة بن لقيط .

(٣) فى الطبرى بعدها : « حتى قتلوا عن آخرهم ؛ وكان فيهم عروة بن زهير بن ناجذ الأزدى ، وأمه زرارة ؛ امرأة ولدت فى الأزد ، فيقال لهم بنو زرارة ، فلما قتلوه وانهزم أصحابه ، مالوا فشدوا على أبى الضريس » .

(٤) فى الطبرى : « وتركهم ربضة حوله » ، والربضة : كل قوم قتلوا فى موقعة واحدة ؛ وفى الحديث : « الذين قتلوا يوم الجماجم كانوا ربضة واحدة » .

(٥) فى الطبرى بعدها عن أبى مخنف : « وحدثنى عبد الرحمن بن جندب قال : سمعت زائدة بن قدامة ليلتئذ رافعا صوته ، يقول : ياأيها الناس ، اصبروا وصابروا ؛ ياأيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . ثم مابرح يقاتلهم مقبلا غير مدبر حتى قتل » .

فرسٍ أغرّ كُمَيت ؛ وخيله واقفة دونه وكلُّ مَنْ جاء ليبايعه يُنزع سيفه عن عاتقه ؛ ويؤخذ سلاحُه ؛ ثم يدنو من شبيب فيسلِّمُ عليه بإمرة المؤمنين ؛[1] ثم يبايع ؛ فإنا كذلك إذ أضاء الفجر[2] ومحمد بن موسى بن طلحة فى أقصى العسكر مع أصحابه ؛ وكان الحجّاج قد جعَل موقفه آخر الناس ، وزائدة بن قدامة بين يديه ، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلِّها ، فأمر محمد مؤذِّنه فأذّن ؛ فلما سمع شبيب الأذان ، قال : ما هذا ؟ قيل : هذا ابنُ طلحة لم يبرحْ ، قال : ظننتُ أنّ حمقه وخُيَلاءه سيحملانه على هذا ، نحُّوا هؤلاء عنّا ، وانزلوا بنا فلنصلِّ ، فنزلَ وأذّن هو ؛ ثم استقدم فصلّى بأصحابه ، وقرأ : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، و ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ ، ثم سلّم وركب[3] ؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة : إنك امرؤ مخدوع قد اتّقى بك الحجاج للمنيّة ، وأنت لى جارٌ بالكوفة ، ولك حقٌّ فانطلق لما أُمرتَ به ؛ ولك الله ألا أسوءك[4] ؛ فأبى محاربته[5] فأعاد عليه الرسول فأبى إلّا قتاله ؛ فقال له شبيب : كأنى بأصحابك لو التقتْ حلقتا[6] البِطان قد أسلموك ، وصُرِعتَ مصرَعَ أمثالك ؛ فأطِعنى وانصرفْ

---

(١) فى الطبرى : « ثم يخلى سبيله » .

(٢) فى الطبرى : « إذ انفجر الفجر » .

(٣) فى الطبرى : « ثم ركبوا فحمل عليهم ، فانكشفت طائفة من أصحابه ، وثبتت طائفة ؛ قال فروة : فما أنسى قوله ؛ وقد غشيناه وهو يقاتل بسيفه ؛ وهو يقول : ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . قال : وضارب حتى قتل ، فسمعت أصحابى يقولون: إن شبيبا هو الذى قتله . ثم إنا نزلنا فأخذنا ما كان فى العسكر من شىء ، وهرب الذين كانوا بايعوا شبيبا ، فلم يبق منهم أحد . . . » .

(٤) الطبرى : « ولك الله لا آذيتك » .

(٥) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ؛ بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٦) البطان : حزام الرحل أو القتب الذى يلى البطن ، له حلقتان فى كل طرف حلقة ؛ يصعب التقاؤها؛ فإذا التقتا ، بلغ الشد غايته ؛ يريدون أن الشدة بلغت منتهاها ؛ وهو مثل ، ومنه قول أوس :

وَإِذَا الْتَقَتْ حَلْقَتَا الْبِطَانِ بِأَقْوَامٍ وَطَارَتْ نُفُوسُهُمْ جَزَعَا

لشأنك ؛ فإنى أنفسُ بك عن القَتْل ؛ فأبى وخرج بنفسه ؛ ودعا إلى البراز ، فبرز له البَطين ثم قَعْنَب بن سويد ؛ وهو يأبى إلا شبيباً . فقالوا لشبيب : إنّه قد رَغِبَ عنّا إليك ؛ قال : فما ظنُّكم بمَنْ يرغب عن الأشراف ! ثم برز له ، وقال له : أنشدك الله يا محمد فى دمك ، فإنّ لك جواراً ! فأبى إلّا قتاله ، فحمل عليه بعمود الحديد ؛ وكان فيه اثنا عشر رِطْلا ، فهشم رأسَه وبيضةً كانت عليه فقتله ؛ ونزل إليه فكفّنه ودفنه ، وتَتَبّع ما غنم الخوارجُ من عسكره ؛ فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه ، وقال : هو جارِى بالكوفة ؛ ولِى أنْ أهبَ ما غنمت . فقال له أصحابه : ما دون الكوفة الآن أحد يمنعك ؛ فنظر فإذا أصحابه قد فَشَا فيهم الجِراح ؛ فقال : [1]ليس عليكم أكثر مما قد فعلتم[1] .

وخرج بهم على نِفَّر[2] ، ثم خرج بهم نحو بغداد[3] ؛ يطلب خَانيجار[4] . وبلَغ الحجّاج أنّ شَبيباً قد أخذ نحو نِفَّر ؛ فظن أنّه يريدُ المدائن ؛ وهى باب الكوفة ؛ ومَنْ أخَذَ المدائن كان ما فى يديه من أرض الكوفة أكثر ؛ فهالَ ذلك الحجّاج ، وبعثَ إلى عثمان بن قَطَن ، فسرّحه إلى المدائن ، وولّاه مِنْبَرَها والصلاة ومعونة جُوخَى كلّها ، وخراج الأستان ، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحجّاجُ ابنَ أبى عصيفير عن المدائن ، وكان الجزْل مقيماً بِهاَ يُدَاوِى جِراحاته ، وكان ابن أبى عصيفير يعوده ويكرمه ، ويُلْطِفه[5] ، فلما قدِم عثمان بن قَطَن لم يكن يتعاهده ولا يُلْطِفُه بشىء ، فكان الجزل يقول : اللّهم زد ابن أبى عصيفير فَضْلاً وكرما ، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلا .

* * *

(١ ــ ١) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ، بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٢) نفر ، بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتحه وراء : بلدة أو قرية على نهر النرس ، من بلاد الفرس ، عن الخطيب ، فإن كان عنى أنه من بلاد الفرس قديما فجاز ، فأما الآن فهو من نواحى بابل بأرض الكوفة (ياقوت) .

(٣) فى الطبرى : « ثم على الصراة ، ثم على بغداد » .

(٤) بعدها فى الطبرى : « فأقام بها » .

(٥) ألطف فلان فلانا : أكرمه وبره وأتحفه .

ثم إنّ الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال له : انتخب الناس ؛ فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَة ؛ وأخرج من سائر الناس ستة آلاف ، واستحثّه الحجاج على الشخوص ؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن ؛ فلما استتمّوا هناك كتب إليهم الحجاج كتاباً قرئ عليهم :

أما بعدُ فقد اعتدتم عادة الأذِلّاء ، ووليتم الدُّبُر يوم الزَّحْف ؛ دأبَ الكافرين[1] وقد صفحتُ عنكم مَرّةً بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ؛ وإنى أقسم بالله قَسَماً صادقاً لئن عُدْتم لذلك لأوقِعَنَّ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدوّ الذى تنهزمون[2] منه فى بطون الأودية والشِّعاب ، وتستترون منه بأثناء[3] الأنهار وألواذ[4] الجبال ؛ فليخَفْ مَنْ كان له معقولٌ[5] على نفسه ، ولا يجعل عليها سبيلا ، فقد أعْذَرَ مَنْ أنذر . والسلام .

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس حتى مرّ بالمدائن ، فنزل بها يوماً ليشترِيَ أصحابُه منها حوائجهم ؛ ثم نادى فى الناس بالرحيل ؛ وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودّعا ؛ ثم أتى الجَزْل عائداً ، فسأله عن جِرَاحته ، وحادثه ، فقال الجزل : يابن عَمّ ؛ إنّك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحْلاس[6] الخيل ؛ والله لكأنّما خُلِقوا من ضُلوعها ؛ ثم رُبُّوا[7] على ظهورها ؛ ثم هم أسْدُ الأجَم ؛ الفارسُ منهم أشدُّ من مائة ؛ إن لم يَبْدَأ به

---

(١) الطبرى : « وذلك دأب الكافرين » .

(٢) الطبرى : « تهربون » .

(٣) الأثناء : جمع ثنى ، وهو المنعطف .

(٤) الألواذ : جمع لوذ ، وهو جانب الجبل .

(٥) المعقول هنا : العقل ، وهو مصدر من المصادر التى وردت على اسم المفعول ، كالمجهود والميسور ، وفى المثل : « ماله حول ولا معقول » .

(٦) الحلس فى الأصل : كل شىء ولى ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج ، كالمرشحة تكون تحت اللبد . ويقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها واللازمين ظهورها ، على التشبيه بالحلس .

(٧) فى الطبرى : « بنوا » .

بدأ هو ، وإن هُجْهِج[1] أقدَم ؛ وإنى قد قاتلتُهم وبلوتُهم ؛ فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا منّى ؛ وكان لهم الفضل علىّ ، وإذا خندقتُ أو قاتلت فى مَضِيق نلت منهم ماأحبّ ؛ وكانت لى عليهم؛ فلا تلقَهُم وأنت تستطيع إلا وأنت فى تعبية أو خندق ؛ثم ودعه،وقال له: هذه فرسى الفسيفساء خذها فيها لاتجارَى ؛ فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع شَبِيب عنه إلى دَقُوقاء وشهرزور ؛ فخرج عبدُ الرحمن فى طلبه ؛ حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام ، وقال : إنّما هو فى أرض الموصل ؛ فليقاتِل أميرُ الموصل وأهلُها عن بلادهم أو فليدعوا .

وبلغ ذلك الحجّاج ، فكتب إليه :

أما بعدُ فاطلب شبيبا واسلُكْ فى أثره[2] أينَ سلك حتى تدرِكه فتقتله أو تنفِيَه عن الأرض ، فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين ، والجند جندُه . والسلام .

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرجَ فى طلب شبيب ، فكان شبيب يَدَعُه ، حتى إذا دنا منه ليبيّته فيجده قد خندق وحَذِر ، فيمضى ويتركه ، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغ شبيبا أنه قد تحمّل وسار يطلبه كرّ فى الخيل نحوه ، فإذا انتهى إليه وجده قد صَفّ خيلَه ورجّالته المرامية ، فلا يصيبُ له غِرّة ولا غفلة[3] ، فيمضى ويدَعه .

ولما رأى شبيبٌ أنه لايصيب غِرّته، ولايصل إليه، صار يخرج كلّما دنا منه عبدالرحمن، حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخا ،ثم يقيم فى أرض غَلِيظة وَعْرَة، فيجيء عبدُ الرحمن فى ثَقَلِه وخيله، حتى إذا دنا من شبيب ارتحل ، فسار عشرين أوخمسة عشر فرسخا؛فنزل منزلا غَلِيظاً خشنا، ثم يقيم حتى يبلُغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل ، ثم يرتحل، فعذّب العسكر،وَشَقّ عليهم ، وأحْفَى دوابَّهم ، ولَقُوا منه كلّ بلاء .

---

(١) هجهج : صيح به .

(٢) ج : « واسلك أينما سلك » .

(٣) الطبرى : « ولا له علة » .

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه ؛ حتى صار إلى خانِقين وجَلولاء ، ثم أقبل على تامَرّا [1] ، فصار إلى البَتّ [2] ، ونزل على تُخوم الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلايا [3] ، وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بشرقيّ حَوْلايا ، وهم في راذان [4] الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل في عواقيل [5] من النهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها ، وهي تعجبه ، يرى أنها مثل الخندق الحصين .

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أنّ هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ؛ فإن رأيتم أن توادعونا حتى تمضيَ هذه الأيام فعلتم ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ؛ ولم يكن شيء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قَطَن إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإني أخبرُ الأمير أصلحه الله ؛ أنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جُوخَى كلّها عليه خندقا واحدا ، وخلّى شبيبا ، وكسر خراجها ، فهو يأكل أهلها ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

قد فهمتُ ما ذكرت ؛ وقد لَعمري فَعل عبد الرحمن ، فسِرْ إلى الناس ، فأنت أميرُهم ، وعاجل المارِقة حتى تلقاهم ، [فإن الله إن شاء ناصرك عليهم] [6] ، والسلام .

وبعث الحجاج على المدائن مطرِّف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدِم على

---

(١) تامرا ، بفتح الميم وتشديد الراء ، والقصر : نهر كبير تحت بغداد ، شرقيها ، مخرجه من جبال شهرزور . (مراصد الاطلاع) . (٢) البت : قرية من قرى الموصل (الطبرى) .

(٣) حولايا ، بفتح الحاء وسكون الواو وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهروان خربت بخرابه . (مراصد الاطلاع) .

(٤) في الأصول : « ذاذان » تصحيف ، وصوابه من الطبرى ، قال في مراصد الاطلاع : راذان بعد الألف ذال معجمة وآخره نون : راذان الأعلى وراذان الأسفل : كورتان ببغداد تشتمل على قرى كثيرة » .

(٥) العواقيل : جمع عاقول ، وهو منعطف النهر .

(٦) من الطبرى .

عبد الرحمن ومَنْ معه ؛ وهم معسكرون على نهر حولايا ، قريبا من البتّ ؛ وذلك يوم التروية [1] عشاء ؛ فنادى فى الناس ، وهو على تَلْعة [2] : أيها الناس ، اخرجوا إلى عدوّكم. فوثبوا إليه ، وقالوا : ننشدك الله ! هذا المساء قد غُشِينا ، والناس لم يوطّنوا أنفسهم على القتال فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبية ، فجعل يقول : لأناجزنّهم الليلة ، ولتكوننّ الفرصة لى أو لهم ، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فأخذ بعِنان بغلته ، وناشده الله لما نزل ، وقال له عقيل بن شدّاد السلولىّ : إنّ الذى تريدُه من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غدا ، وهو خير لك وللناس ، إنّ هذه ساعة ريح قد اشتدّت مساء ، فانزل ، ثم أبكِرْ بنا غدوة.

فنزل وسَفَت عليه الريح ، وشقّ عليه الغبار ، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجا ، فبنوْا له قُبّة ، فبات فيها ؛ ثم أصبح فخرج بالناس ؛ فاستقبلتْهم ريح شديدة وغَبَرة ، فصاح الناسُ إليه ، وقالوا : ننشدك الله ألّا تخرج بنا فى هذا اليوم ! فإنّ الريح علينا ، فأقام ذلك اليوم.

وكان شبيب يخرج إليهم ، فلما رآهم لا يخرجون إليه أقام ، فلما كان الغد خرج عثمان يعبّى الناس على أرباعهم ، وسألهم : مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم ؟ فقالوا : خالد بن نَهيك بن قيس الكِندىّ على ميسرتنا ، وعَقيل بن شدّاد السلولىّ على ميمنتنا ، فدعاهما وقال لهما : قفا فى مواقفكما التى كنتما بها ، فقد ولّيتُكما المُجنّبتَيْن ، فاثبتا ولا تفرّا ، فوالله لا أزولُ حتى تزُولَ نخيل راذان عن أصولها . فقالا : نحن والله الذى لا إله إلا هو لا نفرّ حتى نظفر أو نقتل ؛ فقال لهما : جزاكما الله خيرا ! ثم أقام حتى صلّى بالناس الغداة ، ثم خرج بالخيل ، فنزل يمشى فى الرّجال ، وخرج شبيب ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلا ، فقطع إليهم النهر ؛ وكان هو فى ميمنة أصحابه ، وجعل على الميسرة سويد بن سليم ، وجعل فى القلب مصادا أخاه وزحفوا ، وكان عثمان بن قطن يقول لأصحابه فيكثر : ﴿ قُلْ لَنْ

---

(١) يوم التروية : الثامن من ذى الحجة .

(٢) التلعة هنا : ماعلا من الجبل ، وفى الطبرى : « على بغلة » .

يَنفَعَكُمُ الفِرارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أوِ القَتْلِ وَإذًا لا تُمَتَّعُونَ إلا قَلِيلاً ﴾ (١) .

ثم قال شبيب لأصحابه : إنى حاملٌ على ميسرتهم ؛ مما يَلِي النهر ؛ فإذا هزمتُها فليحمِلْ صاحبُ ميسرتى على ميمنتهم ، ولا يبرحْ صاحبُ القلب حتى يأتيَه أمرى ، ثم حمل فى ميمنة أصحابه مما يلى النهر على ميسرة عثمان بن قطن ؛ فانهزموا ، ونزل عقيل بن شدّاد مع الفئة من أهل الحفاظ ؛ فقاتل حتى قُتِل ، وقتلوا معه (٢) .

ودخل شبيب عسكرَهم ، وحمل سويد بن سليم فى ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قطَن فهزمها ، وعليها خالد بن نَهِيك الكِنْدىّ ، فنزل خالد ، وقاتل قتالا شديدا ، فحمل عليه شبيب مِنْ ورائه ، فلم يَنْثَنِ حتى علاه بالسيف فقتله ، ومشى عثمان بن قطَن ؛ وقد نزلت معه العُرَفاء والفُرْسان وأشرافُ الناس نحو القلب ، وفيه أخو شَبيب فى نحو من ستين رجلا ، فلمّا دَنا منهم عثمان ، شَدّ عليهم فى الأشراف وأهل الصبر ، فضربهم مَصاد وأصحابه ، حتى فرّقوا بينهم ، وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل ، فما شعَرُوا إلّا والرِّماح فى أكتافهم تَكُبّهم لوجوههم ؛ وعطف عليهم سويد بن سليم أيضًا فى خيله ، وقاتل عثمان فأحسنَ القتال .

ثم إن الخوارجَ شَدّوا عليهم ؛ فأحاطوا بعثمان ، وحمل عليه مَصاد أخو شبيب : فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها ، وسقط ، وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣) ، فقتل وقُتِل معه العُرَفاء ووجوه الناس ، وقُتِل مِنْ كِندة يومئذ مائة وعشرون رجلا ، وقتل مِنْ سائر الناس نحو ألف ، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض ، فعرفه

---

(١) سورة الأحزاب ١٦

(٢) فى الطبرى : وقتل يومئذ مالك بن عبد الله الهمدانى ، ثم المرهبى ، عم عياش بن عبد الله بن عياش المنتوف ، وجعل يومئذ عقيل بن شداد يقول وهو يجالدهم :

لأضربنّ بالحُسامِ الباترِ ضَرْبَ غلامٍ من سَلولٍ صابرِ

(٣) سورة الأحزاب ٣٣

ابن أبي سَبْرة ، فنزل وأركبه ، وصار رديفاً له[1]. وقال له عبدُ الرحمن : نادِ في الناس ، الحقوا بدَيْر ابن أبي مريم ؛ فنادى بذلك ؛ وانطلقا ذاهبين ، وأمر شبيب أصحابَه ، فرفعوا عن الناس السيف ؛ ودعاهم إلى البيعة ، فأتاه مَنْ بَقِيَ من الرجال ، فبايعوه ، وبات عبدُ الرحمن بدير اليَعار ، فأتاه فارسان ليلًا ، فخلا به أحدُهما يناجيه طويلا ، وقام الآخر قريبا منهما ، ثم مَضَيا ولم يعرفا ؛ فتحدّث الناس أن المناجيَ له كان شبيبا ؛ وأنّ الذى كان يرقُبُهما كان مصادا أخاه ؛ واتّهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل .

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل ، فسار حتى أتى دير ابن أبي مريم ؛ فإذا هو بالناس قَبله قد سَبَقوه ، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبَرَ الشعير والقَتّ[2] كأنها القصور ؛ ونحر لهم من الجزور ماشاءوا ، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن ، فقالوا له : إن علم شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة ؛ قد تفرق الناس عنك ، وقُتِل خيارهم ، فالحق أيّها الرجل بالكوفة .

فخرج وخرج معه الناس ؛ حتى دخل الكوفةَ مستترا من الحجاج ، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك .

* * *

ثم إن شبيبا اشتدّ عليه الحرّ وعلى أصحابه ، فأتى ماه بهراذان ، فصيَّف[3] بها ثلاثة أشهر ، وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير ، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم

---

(١) في الطبري : « فقال عبد الرحمن بن محمد : أينا الرديف ؟ قال ابن أبي سبرة : سبحان الله ! أنت الأمير تكون المقدم ، فركب » .

(٢) في الأصول : « القيت » ، وما أثبته من الطبري ، وفيه : « بعضه على بعض » .

(٣) صيف بالمكان : أقام به صيفا ، وفي الطبري : « تصيف » ، وهما بمعنى .

الحجاج بمال وتبعة [١] ، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبدالله بن عوف ، كان قتل دِهْقانين من أهل نهر درقيط ، كانا أساءا إليه ، ولحق بشبيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك ، وله مقام عند الحجاج ، وكلام سَلِم به من القتل ، وهو أنّ الحجاج بعد هلاك شبيب ، أمّن كلّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ ، أو تبعة ، فخرج إليه الحرّ فيمن خرج ، فجاء أهل الدهقانين يستعدُون عليه الحجّاج ، فأحضره ، وقال : ياعدوّ الله ، قتلت رجلين من أهل الخراج ؛ فقال : قد كان أصلحك الله مِنى ماهو أعظم من هذا ، قال : وما هو ؟ قال : خروجى عن الطاعة ، وفراق الجماعة ، ثم إنك أمّنت كلّ من خرج عليك ، وهذا أمانِى وكتابك لى .

فقال الحجاج : قد لَعَمْرِى فعلتُ ، ذلك أولى لك ! وخَلّى سبيله .

ثم لما باخ الحرّ [٢] ، وسكن عن شبيب خرج من ماه نهروان فى نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن ، وعليها المطرّف بن المغيرة بن شعبة ، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة [٣] بن اليمان فكتب ما ذراسب [٤] وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدومه إلى قناطر حذيفة ، فقام الحجاج فى الناس وخطبهم ، وقال :

أيها الناس ، لتقاتِلنّ عن بلادكم وفيئكم ، أو لأبعثنّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ، وأصبر على البلاء [٥] منكم ، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم — يعنى جند الشام .

فقام إليه الناس من كلّ جانب ، يقولون : بل نحن نقاتلهم ، ونُعتِبُ [٦] الأمير ، ليندبْنا إليهم ، فإنّا حيث يسرّه .

---

(١) فى الطبرى : « التباعات » .
(٢) باخ الحر : سكن وفتر . وفى الطبرى : « انفسح » .
(٣) قناطر حذيفة : بسواد بغداد .
(٤) فى الطبرى : « ماذرواسب » .
(٥) الطبرى : « اللأواء » .
(٦) الطبرى : « ونعتب » .

وقام إليه زُهرة بن حَوِيّة ـ وهو يومئذ شيخ كبير لا يَسْتَتِمّ قائما، حتى يؤخذ بيده ـ فقال: أصلح الله الأمير! إنك إنما تبعث الناس متقطعين، فاستنفِر إليهم الناس كافة، وابعث عليهم رجلا متيناً شجاعا مجرّبا، يرى الفِرار هَضْما وعارا، والصبر مجدا وكرما.

فقال الحجاج: فأنت ذاك، فاخرج.

فقال: أصلح الله الأمير! إنّما يصلح لهذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدّرْع، ويهُزّ السيف، ويثبُت على مَتْن الفرس، وأنا لا أطيق ذلك، قد ضعفت وضَعُف بصرى [1] ولـكن ابعثنى مع أميرٍ تعتمده، فأكون فى عسكره، وأشير عليه برأيى [1].

فقال: [2] جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيرا [2]، لقد نصحت وصدَقت، وأنا مخرج الناس كافة، ألا فسيرُوا أيها الناس.

فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون، ولا يدرون مَنْ أميرهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك:

أما بعد، فإنى أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله، أنّ شبيبا قد شارفَ المدائن، وإنما يريدُ الـكوفة، وقد عَجَز أهل العراق عن قِتاله فى مواطنَ كثيرة، فى كلّها تُقتَل أمراؤهم ويُفَلّ خيولهم [3] وأجنادهم؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلىّ جنداً من جند الشام ليقاتلوا عدوّهم، ويأكلوا بلادهم فعل إن شاء الله.

فلما أتى عبدَ الملك كتابُه بعث إليه سفيان بن الأبرد فى أربعة آلاف، وبعث إليه حبيب ابن عبد الرحمن [الحـكَمِىّ] [4] من [5] مذحِج فى ألفين وسَرّحهم نحوه حين أتاه الـكتاب [6].

(١ ـ ١) الطبرى: «ولـكن أخرجنى فى الناس مع الأمير، فإنى إنما أثبت على الراحلة، فأكون مع الأمير فى عسكره، وأشير عليه برأيى».

(٢ ـ ٢) الطبرى: «جزاك الله عن الإسلام وأهله فى أول الإسلام خيرا، وجزاك الله عن الإسلام فى آخر الإسلام خيرا».

(٣) الطبرى: «جنودهم».

(٤) من الطبرى.

(٥) فى الأصول. «ابن»، وما أثبته من الطبرى. (٦) بعدها فى الطبرى: «من الحجاج».

وقد كان الحجّاج بعث إلى عتّاب بن ورقاء الرّياحيّ ليأتيه ، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب ، ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة ، منهم زُهرة بن حَويّة ، وقبيصة بن والق ، فقال : مَنْ ترون أنْ أبعثَ على هذا الجيش ؟ قالوا : رأيك أيها الأمير أفضلُ ؛ قال : إنّى قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة ، فيكون هو الذى يسير بالناس ، فقال زُهرة بن حَويّة : أصلحَ الله الأمير ! رميتَهم بحجَرهم ، لا والله لا يرجعُ إليك حتى يظفرَ أو يقتل .

فقال قبيصة بن والق : وإنّى مشيرٌ عليك أيها الأمير برأى اجتهدته ، نصيحةً لك ولأمير المؤمنين ولعامّة المسلمين ؛ إنّ الناس قد تحدّثوا أنّ جيشاً قد وَصَل إليك من الشام ؛ لأنّ أهل الكوفة قد هُزِموا ، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة ، فكأنّما قلوبهم فى صدور قوم آخرين ، فإنْ رأيتَ أنْ تبعثَ إلى الجيش الذى قد أُمدِدْتَ به من أهل الشام ، فليأخذوا حذرهم ، ولا يبيتوا بمنزل إلا وهم يرون أنهم يبيتون فعلت ، فإن فعلت فإنك إنما تحارب حُوَّلاً قُلَّباً ظَعَّاناً رَحَّالاً مظعاناً(١) ؛ إنّ شبيبا بينا هو فى أرض إذا هو فى أخرى ، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارّون ، فإن يهلكوا يهلك العراق كلّه .

فقال الحجاج : لله أبوك ! ما أحسنَ ما رأيت ! وما أصحّ ما أشرت به ! فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرءوه وقد نزلوا هِيت ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإذا حاذيتم هِيت ، فدَعُوا طريق الفرات والأنبار ، وخذوا على عين التمر ، حتى تقدموا الكوفة ، إن شاء الله(٢) .

فأقبل القوم سِراعا ، وقدم عتّاب بن ورقاء فى الليلة التى قال الحجاج إنه فيها قادم ؛ فأمره الحجّاج ؛ فخرج بالنّاس ، وعسكر بحمّام(٣) أعين ، وأقبل شبيب حتى انتهى

(١) الطبرى : « ظعانا رحالا » .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وخذوا حذركم وعجلوا السير ، والسلام » .

(٣) حمام أعين : موضع بالكوفة ، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبى وقاص .

إلى كَلْوَاذى[1] ، فقطع منها دِجْلة ،وأقبل حتى نزل بَهُرَسِير[2] ،وصار بينه وبين مطرّف ابن المغيرة بن شعبة جسر دجلة ، فقطع مطرّف الجسر ، ورأى رأيا صالحا كادَ به شبيباً ؛ حتى حبسه عن وجهه ، وذلك أنّه بعث إليه : أن ابعثْ إليّ رجالًا من فقهاء أصحابك وقرّائهم ؛ وأظهر له أنّه يريد أن يدارسَهم القرآن، وينظر فيما يدعون إليه ، فإن وجدحقا اتبعه ؛ فبعث إليه شبيب رجالا ؛ فيهم قَعْنب وسويد والمحلّل، ووصّاهم ألّا يدخلوا السفينة حتى يرجع رسولُه من عند مطرّف ، وأرسل إلى مطرّف : أن ابعثْ إليّ من أصحابك ووجوه فُرسانك بعدّة أصحابي ؛ ليكونوا رَهْناً في يدي ، حتى تردّ عليّ أصحابي . فقال مطرّف لرسوله : القه ، وقل له : كيف آمنك الآن على أصحابي ، إذ أبعثهم إليك،وأنت لا تأمنُني على أصحابك ! فأبلغه الرسول ، فقال : قل له : قد علِمت أنا لا نستحلّ الغَدْر في ديننا ، وأنتم قوم غُدُر تستحلّون الغَدْر وتفعلونه . فبعث إليه مطرّف جماعةً من وجوه أصحابه ، فلما صارُوا في يد شبيب ، سرّح إليه أصحابه ، فعبَرُوا إليه في السفينة ، فأتوْه ، فمكثوا أربعة أيام يتناظرون ، ولم يتفقوا على شيء ، فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفا كاده ، وأنه غير متابع له ، تعبّى للمسير ، وجَمع إليه أصحابه، وقال لهم : إنّ هذا الثقفيّ قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام ، وذلك أني هممت أن أخرُج في جريدة من الخيل ، حتى ألْقَى هذا الجيش المقبل من الشام، وأرجُو أن أصادِفَ غِرّتهم قبل أن يحذَرُوا ، وكنت ألقاهم منقطعين عن المِصر ، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ، ولا لهم مِصرٌ كالكوفة يعتصمون به ، وقد جاءني عيون[3] أنّ أوائلَهم قد دخلوا عَيْن التمر ، فهم الآن قدشارفوا الكوفة ، وجاءني أيضا عُيون من نحو عَتّاب[3] أنه نزل بحمام أعْيَن بجماعة أهل الكوفة[4] وأهل البصرة ، فما أقربَ مابيننا وبينهم ! فتيسّرُوا بنا للمسير إلى عتّاب .

---

(١) كلواذى : موضع قرب بغداد .
(٢) بهر سير : من نواحى بغداد قرب المدائن .
(٣) الطبرى . « عيونى » .
(٤) الطبرى : « بجماعة أهل الكوفة المصراة » .

وكان عتاب حينئذ قد أخرج معه خمسين ألفا من المقاتلة، وهدّدهم الحجاج إن هربوا كمادة أهل الكوفة، وتوعّدهم، وعرض شبيب أصحابه بالمدائن، فكانوا ألفَ رجل فخطبهم وقال: يامعشرَ المسلمين، إنّ الله عز وجلّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان، واليوم فأنتم مئون [ومئون] [1]، ألا وإنّى مصلٍّ الظهر، ثمّ سائر بكم إن شاء الله.

فصلّى الظهر، ثم نادى فى النّاس، فتخلّف عنه بعضُهم.

قال فروة بن [2] لقيط: فلما جاز ساباط، ونزلنا معه، قصّ علينا، وذكّرنا بأيام الله، وزهّدنا فى الدنيا، ورغّبنا فى الآخرة. ثم أذن مؤذنه فصلّى بنا العصر، ثم أقبل حتى أشرف على عتّاب بن ورقاء، فلما رأى جيشَ عتاب نزل من ساعته، وأمر مؤذّنه، فأذّن ثم تقدّم، فصلّى بأصحابه صلاةَ المغرب [3]، وخرج عتّاب بالناس كلّهم فعبّأهم، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل.

وجعل على ميمنته محمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمْدانىّ؛ قال له: يابن أخى إنّك شريف، فاصبر وصابر، فقال: أما أنا فوالله لأقاتلنّ ماثَبَت معى إنسان.

وقال لقبيصة بن والق التغلبىّ [4]: اكفنى الميسرة، فقال: [5] أنا شيخ كبير، غايتى أنْ أثبتَ تحت رايتى، أما ترانى لاأستطيع القيام إلّا أن أقام، وأخى نعيم بن عليم ذُو غناء، فابعثه على الميسرة. فبعثه عليها [5]. وبعث حنظلة بن الحارث الرياحىّ ابن عمه، وشيخ

---

(١) من الطبرى.

(٢) راوى الخبر فى الطبرى.

(٣) فى الطبرى: «وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيبانى».

(٤) فى الطبرى: «وكان على ثلث بنى تغلب».

(٥ — ٥) الطبرى: «أناشيخ كبير، كثير منى أن أثبت تحت رايتى، قد انبت منى القيام، ماأستطيع القيام إلا أن أقام، ولكن هذا عبد الله بن الحليس، ونعيم بن عليم التغلبيان، وكان كل واحد منهما على ثلث من أثلاث تغلب، ابعث أيهما أحببت، فأيهما بعثت فابعثن ذا حزم وعزم وغناء، فبعث نعيم بن عليم على ميسرته».

أهل بيته على الرجّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف : صفٌ فيه الرجّالة ومعهم السيوف، وصفٌ هم أصحاب الرماح ؛ وصفٌ فيه المرامية .

ثم سار عَتّاب بين الميمنة والميسرة يمرّ بأهل راية راية، ؛ فيحرّض مَنْ تحتها على الصّبر ؛ ومن كلامه يومئذ : إنّ أعظمَ الناس نصيباً من الجنة الشهداء ؛ وليس الله لأحَدٍ أمقتَ منه لأهل البغي ؛ ألا ترون عدوَّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؛ لا يرى ذلك إلا قربةً لهم ! فهم شرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . فلم يجبه أحد ، فقال : أين القُصّاص يقصّون على الناس ، ويحرّضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يَرْوِى شعر عنترة ، فيحرّك الناس ؟ فلم يجبه أحد ولا ردّ عليه كلمة ؛ فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ والله لكأنى بكم وقد تفرّقتم عن عتاب وتركتموه تسفِي فى استه الريح ؛ ثم أقبل حتى جلس فى القلب ، ومعه زهرة بن حَوِيّة ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وأقبل شبيب فى ستمائة ، وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة ، فقال : إنّه لم يتخلّفْ عَنّى إلا مَنْ لا أحبّ أنْ أراه معى ؛ فبعث سويد بن سليم فى مائتين إلى الميسرة ، وبعث المحلّل بن وائل فى مائتين إلى القلب، ومضى هو فى مائتين إلى الميمنة ؛ وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة ؛ حين أضاء القمر ؛ فناداهم : لمن هذه الرايات ؟ قالوا : رايات همْدان . فقال: رايات طالمَا نَصرَت الحقّ، وطالما نصرت الباطل؛ لها فى كلٍّ[1] نصيبٌ ؛ أنا أبو المدلّه اثبتوا إن شئتم . ثم حمل عليهم ؛ وهم على مسنّاة أمام الخندق ، ففضّهم ، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق .

فجاء شبيب فوقف عليه ، وقال لأصحابه : مَثَل هـذا قولُه تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) بعدها فى الطبرى : « والله لأجاهدنكم عتباً للخير فى جهادكم ، أنتم ربيعة وأنا شبيب ، أنا أبو المدله لا حكم إلا لله »

نَبأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ ، (١)

ثم حمل على الميسرة ففضّها ، وصمد نحو القلب ، وعتّاب جالس على طِنْفِسةٍ ،هو وزهرة ابن حَوِيّة ، فغشيهم شبيب ، فانفضّ الناسُ عن عتاب وتركوه ؛ فقال عتاب : يازُهرة ، هَذَا يومٌ كَثُر فيه العدد ؛ وقلّ فيه الغَناء ، لهفى على خمسمائة فارسٍ من وُجُوه الناس ؛ ألا صابرٌ لعدوه ! ألا مواسٍ بنفسه ! فمضى الناس عَلَى وجوههم ، فلما دنا منه شبيب وَثب إليه فى عصابة قليلة صبرت معه ، فقال له بعضهم : إنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب ؛ وانصفق معه ناس كثير ، فقال :أما إنه قد فرّ قبل اليوم، وما رأيت مثل ذلك الفتى ؛ مايبالى ماصنع ، ثم قاتلهم ساعة ، وهو يقول : مارأيتُ كاليوم قطّ موطنا لم أبلَ بمثله ، أقلّ ناصرا، ولا أكثر هاربا خاذلا ؛ فرآه رجلٌ من بنى تَغلِب من أصحاب شبيب ــ وكان أصاب دما فى قومه ، والتحق بشبيب : فقال : إنى لأظنّ هذا المتكلمَ عتاب ابن ورقاء ، فحمَل عليه فطعنه ؛ فوقع وقُتل ، ووطئت الخيل زُهرة بن حَوِيّة ،فأخذ يذبّب بسيفه ؛ وهو شيخ كبير لايستطيع أن ينهض ؛ فجاءه الفضل بن عامر الشيبانىّ فقتله ، وانتهى إليه شبيب ؛ فوجده صَرِيعا فعرفه ، فقال : مَنْ قتل هذا ؟ قال الفضل : أناقتلته ، فقال شبيب : هذا زَهرة بن حَوِيّة ؛ أما والله لئن كنتَ قُتلتَ عَلَى ضلالةٍ ؛ لربّ يوم من أيام المسلمين قد حَسُن فيه بلاؤك ، وعظم فيه غناؤك ، ولربّ خيلٍ للمشركين هزمتها ، وسَرِيةٍ لهم ذعرتَها ، ومدينةٍ لهم فتحتَها ! ثم كان فى علم الله أن تُقتل ناصراً للظالمين .

وقتل يومئذ وجوهُ العرب من عسكر العراق فى المعركة : واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر ، فقال: ارفعُوا عنهم السيف ، ودعاهم إلى البَيْعة ، فبايعه الناس عامّة من ساعتهم ، واحتوى على جميع مافى العسكر ، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن ؛فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين ، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبىّ ، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما

(١) سورة الأعراف ١٧٥

إلى الكوفة ، فشدُّوا ظهرَ الحجاج ، واستغنى بهِم عن أهل العراق ؛ ووصلته أخبار عَتّاب وعسكره ، فَصَعِدَ المنبر ، فقال : يا أهلَ الكوفة ؛ لا أعزَّ الله مَنْ أراد بكم العزّ ، ولا نَصَر مَنْ أراد منكم النصر ؛ اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا ، والحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، (١ ولا يقاتلنّ معنا إلّا مَنْ لم يشهد قتال عتّاب بن ورقاء ١) .

وخرج شبيب يريد الكوفة ، فانتهى إلى سورا(٢) ، فقال لأصحابه : أيُّكم يأتيني برأس عاملها ، فانتدب إليه قَطِين ، وقَعْنب ، وسويد ، ورجلان من أصحاب شَبِيب ، فكانوا خمسة ، وساروا حتى انتهوا إلى دار الخراج ، والعمال فيها ، فقالوا : أجيبوا الأمير ؛ فقال الناس : أيّ أمير ؟ قالوا : أمير قد خرج من قِبَل الحجاج ، يريد هذا الفاسق شبيبا ، فاغترّ بذلك عامل سُورَاء ، فخرج إليهم ، فلما خالطهم شهَرُوا السيوف ، وحكّموا وخَبَطُوه بها حتى قتلوه ، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مالٍ ؛ ولحقوا بشبيب .

فلما رأى شبيب البدرَ ، قال : أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلمّ يا غلام الحربة ، فخرّق بها البِدر ، وأمر أن تنخَسَ الدوابّ التي كانت البدَر عليها ، فمرّت رائحة ، والمال يتناثر من البِدَر ، حتى وردت الصَّراة ، فقال : إن كان بقيَ شيء فاقذفوه في الماء .

* * *

وقال سفيان بن الأبرد للحجّاج : ابعثني إلى شَبِيب أستقبله قبل أنْ يَرِد الكوفة ، فقال : لا ؛ ما أحبّ أن نفترق حتى ألقاه في جماعتكم ، والكوفة في ظهرنا ؛ وأقبل شبيب حتى نزلَ حَمّام أعين ؛ ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفيّ فوجّهه في ناس لم يكونوا شهدُوا يوم عتاب . فخرج في ألف رجل ؛ حتى انتهى إلى شبيب ليدفعه عن الكوفة ؛ فلما رآه شبيب حَمَل عليه فقتَله ؛ وفلّ أصحابه . فجاءوا حتى دخلوا

(١ – ١) الطبري : « ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء » .
(٢) سورا : كورة قريبة من الفرات .

الكوفة ، وبعث شبيب البَطِين في عَشَرة فوارس يرتادون له منزلا على شاطئ الفرات ، في دار الرزق، فوجّه الحجاج حوشب بن يزيد ، في جمع من أهل الكوفة، فأخذوا بأفواه السكك ، فقاتلهم البطين فلم يَقْوَ عليهم ، فبعث إلى شبيب ، فأمدّه بفوارس من أصحابه، فعقروا فرس حوشب وهزموه ، فنجا بنفسه ، ومضى البَطِين إلى دار الرزق في أصحابه ، ونزل شبيب بها ، ولم يوجّه إليه الحجاج أحداً ، فابتنى مسجدا في أقصى السَّبَخة ، وأقام ثلاثا لم يوجّه إليه الحجاج أحداً ، ولا يخرج إليه من أهل الكوفة ، ولا من أهل الشام أحدٌ، وكانت امرأته غزالة نذرت أن تصلّيَ في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران [1].

***

فجاء شبيبٌ مع امرأته حتى أوفَتْ بنذرها في المسجد ؛ وأشير على الحجاج أن يخرُج بنفسه إليه ، فقال لقتيبة بن مسلم : إنّي خارج ، فاخرج أنت ، فارتدْ لي معسكرا ، فخرج وعاد ؛ فقال : وجدت المَدَى سهلا ، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون ؛ فخرج الحجّاج بنفسه ، ومرّ على مكان فيه كناسة وأقذار ؛ فقال: ألقوا لي هنا بساطا ، فقيل له : إنّ الموضع قَذِر ، فقال : ما تدعوني إليه أقذر ، الأرضُ تحته طيبة ، والسماء فوقه طيبة .

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبي الورد، وعليه تِجْفَاف [2]، وأحاط به غِلْمان كثير ؛ وقيل: هذا الحجاج؛ فحمل عليه شبيب فقتله ؛ وقال: إن يكن الحجاج ، فقد أرحتُ الناس [3] منه ؛ ودلف الحجاج نحوه حينئذ ، وعلى ميمنته مطر بن ناجية ، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء ؛ وهو في زهاء أربعة آلاف ؛ فقيل له : أيها الأمير لا نعرف

---

(١) بعدها في الطبري : « ففعلت » .

(٢) التجفاف : آلة للحرب يلبسها الفارس في الحرب للوقاية ؛ كأنها درع

(٣) الطبري : « أرحتكم » .

شبيها بمكانك ، فتنكّر ، وأخفى مكانه ، وتشبه به مولى آخر للحجاج فى هيئته وزيه ، فحمل عليه شبيب ، فضربه بالعمود فقتله ؛ ويقال إنه قال لما سقط : « أخ » بالخاء المعجمة فقال شبيب : قاتل الله ابن أمّ الحجاج ! اتقى الموت بالعبيد ؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه « أح » بالحاء المهملة .

ثم تشبّه بالحجاج أعيَن صاحب حَمّام أعيَن ، ولبس لبسته ، فحمل عليه شبيب فقتله ، فقال الحجاج : علىّ بالبغل لأركبه ، فأتِىَ ببغل محجّل ؛ وقيل : أيها الأمير ، أصلحك الله ! إنّ الأعاجم كانت تتطيّر أن تركب مثل هذا البغل فى مثل هذا اليوم ؛ فقال : أدنوه منى فإنّه أغر محجّل ؛ وهذا يومٌ أغرّ محجّل ، فركبه ، ثم سار فى الناس يمينا وشمالا ثم قال : اطرحوا لى عَباءة ، فطرِحَتْ له ، فنزل فجلس عليها ، ثم قال : ائتونى بكرسىّ ، فأتِىَ به ، فقام فجلس عليه ، ثم نادى أهلَ الشام ، فقال : ياأهلَ الشام ؛ يا أهلَ السمع والطاعة ، لا يغلِبَنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقّكم ؛ غُضّوا الأبصار ، واجثوا على الرُّكَب ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسِنّة ، فجثوْا على الرُّكَب ، وكأنهم حرّة سوداء .

ومنذ هذا الوقت ركدت ريح شبيب ، وأذِن الله تعالى فى إدبار أمره ، وانقضاء أيامه فأقبل ، حتى إذا دنا من أهل الشام عبّى أصحابَه ثلاثة كراديس ، كَتِيبة معه ، وكَتِيبة مع سُويد بن سُليم وكَتيبة مع المحلّل بن وائل ، وقال لسُوَيد : احمل عليهم فى خيلك ، فحمَل عليهم فثبتوا له حتى إذا غَشِى أطراف أسنتهم ، وثبوا فى وجهه ، فقاتلهم طويلا ، فصبروا له ؛ ثم طاعنوه ؛ قُدُما قُدُما ؛ حتى ألحقوه بأصحابه .

فلما رأى شبيب صبرَهم ، نادى : ياسُويَد ، احمل فى خيلك فى هذه الرايات الأخرى ، لعلّك تزيل أهلها ؛ فتأتِى الحجاجَ من ورائه ، ونحمِل نحن عليه من أمامه . فحمل سويد على تلك الرايات ، وهى بين جدران الكوفة ، فرمى بالحجارة من سطوح البيوت ، ومن أفواه السِّكك ، فانصرف ولم يظفروا .

ورماه عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهام ، وقد كان الحجاج جعله فى ثلاثمائةرامٍ من أهل الشام رِدْءاً له كى لا يؤتى من ورائه ، فصاح شبيب فى أصحابه :

ياأهلَ الإسلام ! إنما شَرَيْتُمْ لله ، ومن يكن شراؤه لله لم يضرّه ما أصابه من ألم وأذى (١) ، لله أبوكم الصبرَ الصبرَ ، شَدّةً كشدّاتكم الكريمة فى مواطنكم المشهورة .

فشدّوا شَدّةً عظيمة ، فلم يزُل أهل الشام عن مراكزهم ، فقال شبيب : الأرضَ ! دبّوا دبيبا تحت تِراسكم ، حتى إذا صارت أسِنّة أصحاب الحجاج فوقها ، فأذلِقوها صُعُداً ، وادخلوا تحتها ، واضرِبُوا سوقهم وأقدامهم ، وهى الهزيمةُ بإذن الله . فأقبلوا يدبّون دبيبا تحت الحجَف : صمْدا صمْدا ، نحو أصحاب الحجاج .

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء : أيّها الأمير ، أنا موتور ، ولا أتّهم فى نصيحتى (٢) ، فأذَنْ لى حتى آتيَهم من ورائهم ، فأغيرَ على معسكرهم وثَقَلهم ، فقال : افعل ذلك (٣) ، فخرج فى جمع من مَواليه وشاكِريته (٤) وبنى عمّه ، حتى صار من ورائهم ، فالتقى بمصاد أخى شبيب فقتله ، وقتَل غَزالةَ امرأةَ شبيب ، وألقى النار فى معسكرهم ، والتفت شبيب والحجّاج ، فشاهدا النار ، فأمّا الحجّاج فكبّر وكبّر أصحابُه ، وأما شبيب ، فوثب هو وكلُّ راجل من أصحابه على خيولهم مرعوبين ، فقال الحجّاج لأصحابه : شُدّوا عليهم ، فقد أتاهم ماأرعبهم ، فشدُّوا عليهم ، فهزموهم ، وتخلّف شبيب فى خاصّة الناس ، حتى خرج من الجسر ، وتبعه خيل الحجّاج ، وغَشِيه النُّعاس ، فجعل يخفق برأسه ، والخيل تطلبه .

قال أصفر الخارجىّ (٥) : كنت معه ذلك اليوم ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، التفتْ

---

(١) الطبرى : « ومن شرى الله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى » .

(٢) الطبرى : « فى نصيحة » .

(٣) الطبرى : « ما بدالك » .

(٤) الشاكرية : جمع شاكرى . وهو الأجير .

(٥) فى الطبرى : « قال هشام : فحدثنى أصفر الخارجى ، قال : حدثنى من كان مع شبيب . . . »

فانظر مَنْ خلفك؛فالتفتَ غير مكترِث ، وجعل[1] يخفِق برأسه . قال : ودنَوْا منا،فقلت: ياأميرَ المؤمنين ، قد دنا القوم منك ، فالتفت والله ثانيـة غـيرَ مكترث بهم ، وجعل يخفِق برأسه ، وبعث الحجاج خيلا تركُض تقول : دعوه يذهب فى حرق الله ، فتركوه وانصرفوا عنه[2] .

ومضى شبيب بأصحابه ، حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا دَيْراً هناك ، وخالد بن عتاب يَقْفُوهم ، فحصرهم فى الدير،فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه نحوا من فرسخين ، حتى ألقَى خالد نفسه فى دجلة هو وأصحابه بخيولهم ، فمرّ به شبيب ، فرآه فى دجلة، ولواؤه فى يده ، فقال : قاتله الله فارسا ، وقاتل فرَسه! فرس هذا أشدُّ الناس قوة ، وفرسه أقوى فرس فى الأرض ، وانصرف،فقيل له بعد انصرافه : إنّ الفارس الذى رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء ، فقال : معرق فى الشجاعة ! لو علمت لأقحمت خَلْفه ، ولو دخل النار .

ثم دخل الحجاج الكوفة بعدهزيمة شبيب ، فصعد المنبر ، وقال:والله ماقُوتل شبيب قطّ قبل اليوم ، ولّى هاربا ، وترك امرأته يُكْسر فى استها القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه فى أثره فى ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وقال : احذر بَيَاته ، وحيثما لقيته فنازله ؛ فإنّ الله تعالى قد فَلّ حَدّه ، وقصم نابه . فخرج حبيب فى أثره ، حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال : أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب ؛ مَنْ جاءنا منكم فهو آمن ، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة فى دين الخوارج ، ممن هزّه[3] القتال . وكرهه ذلك اليوم يجىء فيؤمن . وقبل ذلك كان الحجّاج نادى يوم هُزِم شبيب : من جاءنا فهو آمن ، فتفرّق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه .

---

(١) الطبرى : « ثم أكب يخفق برأسه » .

(٢) الطبرى : « ورجعوا » .

(٣) الطبرى : « هده القتال » .

وبلغ شبيباً منزلُ حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه ؛ فقال يزيد السكسكي[1] : كنت مع أهل الشام بالأنبار ليلةَ جاءنا شبيب ، فبيّتنا ، فلما أمسينا جمعنا حبيب بن عبد الرحمن ، فجعلنا أرباعا ، وجعل على كلِّ رُبْع أميرا ، وقال لنا : ليَحْمِ[2] كلّ رُبْعٍ منكم جانبَه ، فإن قُتِل هذا الربع فلا يُعِنْهم الرُّبْع الآخر ، فإنه بَلَغني أنّ الخوارج منكم قريب؛ فوطّنوا أنفسكم على أنكم مبيّتون فمقاتَلون ، قال : فما زِلنا على تعبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيّتنا ، فشدّ على[3] رُبْعٍ مِنّا فصابرهم طويلا ، فما زالت قدمُ إنسان منهم . ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر، فقاتلهم طويلا فلم يظفر بشيء ، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبعاً رُبعاً ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل[3] ولصِق بنا[4] حتى قلنا : لا يفارقنا ، ثم ترجّل فنازَلَنا راجلا نِزَالا طويلا هو وأصحابه ، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل ، وفُقِئت الأعين ، وكَثُرت القتلى ، فقتلنا منهم نحو ثلاثين ، وقتلوا منّا نحو مائة ، وايمُ الله لو كانوا أكثر من مائتي رجل لأهلكونا ، ثم فارقونا وقد مَلِلْنام ومَلّونا ، وكرهنام وكرهونا ، ولقد رأيتُ الرجل مِنّا يضرب الرجل منهم بالسيف فما يضرّه من الإعياء والضعف ، ولقد رأيتُ الرجل منّا يقاتل جالساً ينفح بسيفه ما يستطيع أن يقومَ من الإعياء والبُهْر . حتى ركب شبيب ، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه : اركبوا ؛ وتوجّه بهم مُنصرِفاً عنا .

فقال فروة بن لقيط الخارجي ــ وكان شهد معه مواطنه كلها ــ قال لنا ليلتئذ ، وقد رأى

(١) في الطبري : « قال أبو مخنف ، فحدثني أبو يزيد السكسكي قال » .
(٢) الطبري : « ليجز كل ربع » .
(٣ ــ ٣) الطبري : « فشد على ربع منا ، عليهم عثمان بن سعيد العذري ، فضاربهم طويلا ، فمازالت قدم الإنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وقد جعل عليهم سعد بن عجل العامري ، فقاتلهم فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وعليهم النعمان بن سعد الحميري ، فما قدر منهم على شيء . ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقيصر الخثعمي ، فقاتلهم طويلا ، فلم يظفر بشيء ، ثم أطاف بنا يحمل علينا ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل » .
(٤) الطبري : « وألز بنا » .

بنا كآبة ظاهرة ، وجراحاتٍ شديدة : ما أشدّ هذا الذى بنا لو كنا نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا فى طاعة الله وثوابه ! فقال أصحابُه : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

قال فَرْوة بن لقيط : وسمعتهُ تلك الليلة يحدِّث سوَيد بن سُلَيم ، ويقول له : لقد قتلت منهم أمسِ رَجُلَين من أشجع[1] الناس ، خرجت عشيّة أمس طليعة لكم ، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلُوا قرية يشترون منها حوائجهم ، فاشترى أحدُهم حاجته ، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه ، فقال لى : أراك لم تشتر عَلَفاً[2] ! فقلت : إنّ لى رُفقاء قد كفونى ذلك ، ثم قلت له : أين تَرَى عَدُوَّنا [هذا نزل][3] ؟ فقال : بلغنى أنه قد نزل قريبا منّا ، وايمُ الله لوَدِدتُ أنى لقيتُ شبيبهم هذا ، قلت : أفتحبّ ذلك ؟ قال : إى والله ، قلت : فخذ حِذْرَك ، فأنا والله شبيب ، وانتضيتُ السيف ، فخرّ والله ميتا [فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات][3] فانصرفت راجعا ، فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهبُ هذه الساعة التى يرجع فيها الناس إلى معسكرهم ؟ فلم أكلّمه ، ومضيت ، فنفرتْ بى فرسى ، وذهبت تتمطّرُ[4] ، فإذا به فى أثَرِى حتى لحقنى ، فعطفت عليه ، وقلت : ما بالك ؟ قال : أظنك والله من عَدُوّنا . قلت : أجل والله ، قال : إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلنى ؛ فحملت عليه وحَمَل علىّ ، فاضطربنا بسَيْفينا ساعة ، فو الله ما فَضلتهُ فى شدّة نفَس ولا إقدام ، إلّا أنّ سيفى كان أقطع من سيفه فقتلته .

* * *

وبلغ شبيبا أنّ جند الشام الذى مع حبيب حلوا معهم حَجَراً ، وحلفوا لا يفرّون حتى يفرّ هذا الحجرُ ، فأراد أن يُكذِّبهم ، فعمَد إلى أربعة أفراس ، وربط فى أذنابها تِرَسَة ،

---

(١) الطبرى : « قتلت منهم أمس رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس » .

(٢) الطبرى : « كأنك لم تشتر علفا » .

(٣) من الطبرى.

(٤) تتمطر : تسرع فى جريها .

فى ذَنَب كل فرس تِرْسين، ثم نَدَب ثمانية نفر من أصحابه ، وغلاما له يقال له حيّان ـ كان شجاعا فاتكا ـ وأمره أن يحمل معه إدَاوةً من ماء ، ثم سار ليلا حتى أتى ناحيةً من عَسْكرِ أهل الشام ، فأمر أصحابه أن يكونوا فى نواحى العسكر الأربع ، وأن يكون مع كلّ رجلين فرس : ثم يلبِسوها الحديد حتى تَجِدَ حرّه ، ثم يخلُّوها فى العسكر ، وواعدهم تَلْعَةً قريبة من العسكر ، وقال : مَنْ نجا منكم ؛ فإن موعدَه التَّلعة ؛ فكرِه أصحابُه الإقدام على ماأمرهم ؛ فنزل بنفسه حتى صَنَع بالخيل ماأمرهم به ؛ حتى دخلتْ فى العسكر ، ودخل هو يتلوها ، ويشدّ خلفها شدًّا محكما ؛ فتفرّقت فى نواحى العسكر ، واضطرب الناس ، فضرب بعضُهم بعضا ، وماجوا ، ونادى حبيبُ بن عبد الرحمن : ويحكم إنها مكيدة ! فالزَموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر ؛ ففعلوا ، وحصل شبيب بينهم ، فلزم الأرضَ معهم ، حتى رآهم قد سكنوا ، وقد أصابَتْه ضربة عمود أوْهَنَتْه .

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم خرج فى غُمارهم ، حتى أتى التَّلعة ، فإذا مولاه حيّان ؛ فقال : أفرغ وَيْحك على رأسى مِنْ هذه الإداوة ! فلمّا مدّ رأسه لِيَصُبّ عليه من الماء همّ حيان بضرب عنقه ؛ وقال لنفسه : لاأجِدُ مكرمة لى ، ولاذِكْراً أرْفَعَ من هذا فى هذه الخلْوة ، وهو أمانى من الحجاج ؛ فأخذته الرِّعْدة حين همّ بما همّ به ؛ فلما أبطأ عليه ، قال له : وَيحك ! ماانتظارُك بحلّها ! ناولنيها ، وتناول السِّكين من مَوْزجه[1] فخرقها به ، ثم ناوله إيّاها ، فأفرغ عليه من الماء ، فكان حيّان بعد ذلك يقول : لقد هممت فأخذَتْنِي الرِّعدة فجبُنت عنه ؛ وما كنتُ أعهد نفسي جبانًا .

***

ثم إنّ الحجاج أخرج الناس إلى شبيب ، وقسّم فيهم أموالًا عظيمة ، وأعطى الجرْحَى وكلّ ذى بلاء ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسيرَ بهم ، فشقّ ذلك على حبيب

---

(١) الموزج : الخف .

ابن عبد الرحمن ، وقال : تبعث سفيان إلى رجل قد فلأته ، وقتلتُ فرسانَه ! وكان شبيب قد أقام بِكَرْمَان حتى جبر، واستراش هو وأصحابه ؛فمضى سفيان بالرِّجال، واستقبله شبيب بدُجيل الأهواز ؛ وعليه جسر معقود ، فعبر إلى سفيان ، فوجده قد نزل بالرجال ،وجعل مهاصر[1] بن صيفيّ على خيله ، وبشر بن حسان[1] الفِهرِيّ عَلَى ميمنته ، وعمر بن هبيرة الفزارى على ميسرته ، وأقبل شبيب فى ثلاثة كراديس ؛ هو فى كَتِيبة ، وسويد بن سليم فى كَتيبة ، وقَعنب فى كَتِيبة ، وخلف المحلّل فى عسكره ؛ فلما حَمَلَ سُوَيد وهو فى ميمنته على ميسرة سُفيان وقَعنب وهو فى ميسرته على ميمنة سفيان ، حَمَــل هو على سفيان ، ثم اضطربوا مليًّا ، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذى كانوا فيه .

فقال يزيد السَّكْسَكى ـ وكان من أصحاب سفيان يومئذ: كَرّ علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرّة ، ولا يزول من صفّنا أحدٌ ، فقال لنا سفيان : لاتحملوا عليهم متفرقين ؛ ولكن لتزحفْ عليهم الرجال زحفا ،ففعلنا ، ومازلنا نطاعِنُهم حتى اضطررناهم الى الجسر ، فقاتلونا عليه أشدّ قتال يكون لقوم قطّ . ثم نزل شبيبٌ ، ونزل معه نحومائة رجل ؛ فما هو إلا أن نزلُوا حتى أوْقفوا بنا من الضَّرْب والطعن شيئا مارأينا مثله قطّ؛ ولا ظنناه يكون ؛ فلما رأى سفيان أنه لايقدر عليهم ، ولا يأمَنُ ظفرهم ، دعا الرّماة فقال: اشْقُوهم بالنَّبل ؛ وذلك عند المساء ، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصفَ النهار ، فرشَقهم أصحابُه ؛ وقد كان سفيان صَفّهم على حِدَة ، وعليهم أمير ، فلما رَشَقُوهم شدُّوا عليهم ، فشدَدْنا نحن ، وشغلناهم عنهم ، فلما رأوا ذلك ركب شبيبٌ وأصحابه ، وكرّوا على أصحاب النَّبل كَرّة شديدة ، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين راميا ، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح ، حتى اختلاط الظلام ، ثم انصرف عنا ، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه:

---

(١) ب : « مضاس » .

ياقوم ، دعوهم لا تَتْبعوهم ؛ ياقوم دَعُوهم لا تَتْبعوهم حتى نُصبِّحَهم . قال : فكففنا عنهم وليس شيء أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنا .

قال فروة بن لقيط الخارجيّ : فلما انتهينا إلى الجسر ، قال شبيب : اعبرُوا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى ، قال : فعبرنا أمامه ، وتخلّف فى آخرنا ، وأقبل يعبُر الجسر ، وتحته حصان جَمُوح ، وبين يديه فرس أنثى ما ذيانة ، فنزا حصانُه عليها وهو على الجسر ؛ فاضطربت الماذيانة ، وزلّ حافر فرس شبيب عن حَرْف السفينة ، فسقط فى الماء ، فسمعناه يقول لما سقط : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ (١) واغتمس (٢) فى المـاء ثم ارتفع فقـال : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (٣) ثم اغتمس فى المـاء ، فلم يرتفع .

هكذا روى أكثرُ الناس . وقال قوم : إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه فى الوقائع التى كان يهزم الجيش فيها ، وكانت بيعتُهم إياه على غير بصيرة ، وقد كان أصاب عشائرهم وساداتهم ؛ فهم منه موتورون ، فلما تخلّف فى أخرَيات الناس يومئذ ، قال بعضهم لبعض : هل لكم أنْ نقطع به الجسر ، فندرك ثأرنا الساعة ! فقالوا : هـذا هو الرأى ، فقطعوا الجسر ، فمالت به السفينة ، ففزِع حصانُه ونفَر ، فسقط فى الماء وغرِق .

والرواية الأولى أشهر ؛ فحدث قومٌ من أصحاب سُفْيان ، قالوا : سمعنا صوتَ الخوارج يقولون : غَرِق أمير المؤمنين ، فعبَرْنا إلى عسكرهم ، فإذا هو ليس فيه صافر (٤) ولا أثر ؛ فنزلْنا فيه ، وطلبنا شَبيبا حتى استخرجناه من الماء ، وعليه الدِّرْع ؛ فيزعم الناس أنهم

---

(١) سورة الأنفال ٤٢
(٢) الطبرى : « ارتمس » ، وهما بمعنى .
(٣) سورة يس ٣٨
(٤) هو مثل ، يقال : « ما بالدار من صافر » أى أحد .

شقوا بطنه وأخرجوا قَلْبَهَ فكان مجتمعا صُلْبا كالصخرة ؛ وأنه كان يضرب به الأرض فينبُو ، ويثب قامة الإنسان .

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدّق أحداً نعاه إليها ، وقد كان قيل لها مرارا إنه قد قتل فلا تقبل ، فلما قيل لها : إنه قد غرق بكتْ ؛ فقيل لها في ذلك ، فقالت : رأيت في المنام حين ولدْتُه أنه خرج من فَرْجى نارٌ ملأت الآفاق ، ثم سقطت في ماء فخمدت ، فعلمت أنه لا يهلِك إلا بالغرق (١) .

* * *

وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله (٢)

---

(١) وفي رواية أخرى ذكرها الطبري : « كان شبيب ينعى لأمه ، فيقال : قتل ، فلا تقبل ، فقيل لها : إنه غرق ، فقبلت وقالت : إني رأيت حين ولدته أنه خرج مني شهاب نار ، فعلمت أنه لا اطفئه إلا الماء » .

(٢) هذا آخر ماورد في نسخة (ج) ، وجاء في آخر نسخة (ب) : « وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة ، ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله تعالى . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الأنبياء وسند الأصفياء محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

فهرس الخطب (*)

(*) وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

(١) وهى تتمة الخطبة الثانية والخمسين ، وأولها فى الجزء الثالث ص ٣٣٢

فهرس الموضوعات (*)

(*) وهى الموضوعات التى وردت أثناء شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين

(٥٨)

الأصلُ :

وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج ، وقيل له : إنّ القوم قد عبروا جسر النَّهْروان :

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ ؛ وَاللهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ ، وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

يَعْنى بالنُّطْفَةِ ماء النَّهْر ، وهِيَ أفصح كناية عنِ الماء وإنْ كانَ كثيراً جَمّاً ، وَقَدْ أشرنا إلى ذلِكَ فيما تقَدَّم عِندَ مُضِيّ ما أشْبَهَهُ .

* * *

الشرحُ :

هذا الخبرُ من الأخبار التى تكاد تكون متواترة ؛ لاشتهاره ونَقْل الناس كافّةً له؛ وهو من معجزاته وأخباره المفصّلة عن الغيوب .

والأخبار على قسمين :

أحدُهما : الأخبار المجمَلة ، ولا إعجازَ فيها : نحو أن يقولَ الرجلُ لأصحابه : إنكم

ستُنْصَرون على هذه الفئة التى تلقونها غدا : فإن نُصِر جعل ذلك حُجّة له عند أصحابه وسمّاها معجزة ، وإن لم ينْصَر ، قال لهم : تغيَّرتْ نياتُكم وشككْتُمْ فى قولى ، فمنعكم الله نصره ؛ ونحو ذلك من القول : ولأنه قد جرت العادةُ أنّ الملوكَ والرؤساء يَعِدُون أصحابَهم بالظفر والنصر، ويُمنُّونهم الدُّوَل ، فلا يدلّ وقوعُ مايقع من ذلك على إخبار عن غَيْبٍ يتضمن إعجازا .

والقسم الثانى : فى الأخبار المفصّلة عن الغيوب، مثل هذا الخبر ، فإنه لايحتمل التلبيس، لتقييده بالعَدَد المعينّ فى أصحابه وفى الخوارج ، ووقوع الأمر بعد الحرب بموجِبه من غير زيادة ولا نقصان ، وذلك أمرٌ إلهىّ عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعرَفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه . والقُوّة البشرية تقصُر عن إدراكِ مثل هذا ، ولقد كان له من هذا الباب مالم يكنْ لغيره .

وبمقتضى ماشاهد الناس من معجزاته وأحواله المنافية لقُوَى البشر ، غلاَ فيه مَنْ غلا ، حتى نُسِب إلى أنّ الجوهرَ الإلهىّ حلّ فى بدنه ، كما قالت النصارى فى عيسى عليه السلام،وقد أخبره النبىّ صلى الله عليه وآله بذلك ، فقال: « يهلِكُ فيك رجلان: محبّ غالٍ ، ومُبغض قالٍ » . وقال له تارة أخرى : « والّذى نفسى بيده ، لولا أنّى أشفِق أن يقول طوائفُ من أمّتى فيك ماقالت النصارى فى ابن مريم ، لقلت اليوم فيك مقالا ، لاتمرّ بملأٍ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » .

●●●

[ذكر الخبر عن ظهور الغلاة]

وأوّلُ مَنْ جَهَر بالغُلوّ في أيامه عبدُ الله بن سَبأ[١] ، قام إليه وهو يخطب ، فقال له : أنتَ أنتَ ! وجعل يكرّرها ، فقال له : وَيْلَكَ ! مَنْ أنا ؟ فقال : أنت الله ؛ فأمر بأخذِه وأخذِ قوم كانوا معه على رأيه .

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله ، عن عمّار الثقفيّ ، عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ ، عن أبيه وعن غيره من مشيخته ؛ أنّ عليا قال : يهلِكُ فيّ رجلان: محبٌّ مُطْرٍ يضعُني غير موضعي ويمدحُني بما ليس فيّ ، ومبغض مفترٍ يرميني بما أنا منه برىء » .

وقال أبو العباس : وهذا تأويل الحديث المرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله فيه ، وهو قوله : « إن فيكَ مَثَلاً من عيسى بن مريم ، أحبّته النصارى فرفعته فوق قدْره ، وأبغضته اليهودُ حتى بهتَتْ أمّه » .

قال أبو العباس : وقد كان عليّ عَثَر على قوم خرجوا من محبّتِه باستحواذ الشيطان عليهم ، إلى أنْ كَفرُوا بربِّهم ، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم ، واتخذوه ربًّا وإلهاً ، وقالوا : أنت خالقُنا ورازقنا ، فاستَتابَهُم وتوَعّدَهم ، فأقاموا على قولهم ، فحفر لهم حَفراً دخّن عليهم فيها طمعا في رجوعهم ، فأبوا ، فحرقهم بالنار ، وقال :

أَلا تَرَوْن قدْ حفرْتُ حَفرا[٢] إنى إذا رأيتُ أمراً مُنْكَرَا
* وقدتُ نارِي وَدَعَوْتُ قَنبرَا *

---

(١) عبد الله بن سبأ : رأس الطائفة السبئية ؛ نقل ابن حجر عن ابن عساكر في تاريخه : « كان أصله من اليمن ؛ وكان يهوديا فأظهر الإسلام ؛ وطاف بالمسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ؛ ويدخل بينهم الشر ؛ ودخل دمشق لذلك » . وانظر لسان الميزان ٣ : ٢٨٩ – ٢٩٠ .

(٢) الحفر ، بالسكون ويحرك : البئر الواسعة .

وروى أصحابنا في كتب المقالات أنه لما حرّقهم صاحوا إليه : الآن ظهر لنا ظهوراً بيّنا أنك أنت الإله ؟ لأنّ ابن عمك الذي أرسلته قال : « لا يعذّب بالنار إلا ربُّ النار » .

وروى أبو العباس ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المِصّيصي[1] عن عليّ بن محمد النوفليّ ، عن أبيه ومشيخته ، أنّ علياً مرّ بهم وهم يأكلون في شهر رمضان نهارا ، فقال : أسَفْر أم مرضى ؟ قالوا : ولا واحدة منهما ، قال : أفمِنْ أهل الكتاب أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فما بالُ الأكل في شهر رمضان نهارا ! قالوا : أنت أنت ! لم يزيدوه على ذلك، ففهِم مُرادَهم ، فنزل عن فرَسِه ، فألصق خدّه بالتراب ، ثم قال : وَيْلَكم ! إنّما أنا عبدٌ من عبيد الله ؛ فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام، فأبوْا ،فدعاهم مرارا ، فأقاموا على أمرهم،فنهض عنهم ، ثم قال : شُدّوهم وَثاقا ، وعليّ بالفعَلة والنار والحطب ، ثم أمرَ بحفر بئرين، لحفرتا ؛ فجعل إحداهما سَرَباً[2] ، والأخرى مكشوفة ، وألقى الحطَب في المكشوفة ، وفتح بينهما فَتحًا ، وألقى النار في الحطب ، فدخّن عليهم ، وجعل يهتف بهم ، ويناشدهم: ارجعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فأمر بالحطب والنار ، وألقى عليهم ، فاحترقوا ، فقال الشاعر :

لِتَرْمِ بيَ المنيةُ حَيْثُ شاءتْ ... إذا لَمْ تَرْمِ بي في الحُفرتَيْنِ
إذا ما حَشّتا حطباً بنـــارٍ[3] ... فذاكَ الموتُ نَقْدًا غَـيْرَ دَيْنِ

قال : فلم يبرحْ واقفا عليهم حتى صاروا حُمَماً .

قال أبو العباس : ثم إن جماعة من أصحاب عليّ ؛ منهم عبد الله بن عباس ، شفَعوا في عبد الله بن سَبَأ خاصة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ،إنه قد تابَ فاعفُ عنه،فأطلقه بعد أن اشترط عليه ألّا يقيمَ بالكوفة ، فقال : أين أذهب ؟ قال : المدائن ، فنفاه إلى المدائن ،

---

(١) المصيصي ، بكسر الميم والصاد المشددة وسكون الياء : منسوب إلى المصيصة : مدينة على ساحل البحر
(٢) السرب ، بفتحتين : الحفير تحت الأرض .
(٣) حش النار ؛ أي أوقدها .

فلما قُتِل أميرُ المؤمنين عليه السلام أظهر مقالته ، وصارت له طائفة وفِرْقة يصدّقونه ويتّبعونه . وقال لما بلغه قتلُ عليّ : والله لو جئتمونا بدِماغه في سبعين صُرّة ، لعلمنا أنّه لم يمت ، ولا يموت حتى يسوق العربَ بعصاه . فلما بلغ ابنَ عباس ذلك ، قال : لو علمنا أنه يرجع لما تزوّجْنا نساءه ، ولا قَسَمْنا ميراثه .

قال أصحاب المقالات : واجتمع إلى عبد الله بن سبأ بالمدائن جماعة على هذا القول ؛ منهم عبد الله بن صَبْرة الهمْدانيّ ، وعبد الله بن عَمرو بن حرب الكِنْديّ ، وآخرون غيرهما ؛ وتفاقم أمرُهم .

وشاع بين الناس قولهم ، وصار لهم دعوة يدعُون إليها ، وشبهة يرجعون إليها ، وهي ما ظهر وشاع بين الناس ، من إخباره بالمغيّبات حالاً بعد حال ، فقالوا : إن ذلك لا يمكن أن يكون إلّا من الله تعالى ، أو ممّنْ حلّتْ ذاتُ الإله في جَسَدِه ، ولَعَمْرِي إنه لا يقدر على ذلك إلا بإقدار الله تعالى إياه عليه ، ولكن لا يلزم من إقداره إياه عليه أن يكون هوَ الإله ، أو تكون ذات الإله حالّة فيه . وتعلق بعضهم بشبهة ضعيفة ، نحو قول عمر — وقد فقأ عليّ عينَ إنسان ألحدَ في الحرم — : ما أقول في يدِ الله ؛ فقأتْ عيناً في حرم الله ! ونحو قول عليّ : والله ما قلعتُ بابَ خيبر بقوّة جسدانية ، بل بقوة إلهية ، ونحو قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا إله إلّا الله وحدَه ، صدق وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزاب وحده » ، والذي هزم الأحزاب هو عليّ بن أبي طالب ، لأنه قتل بارعَهم[٢] وفارسَهم عَمْراً لما اقتحموا الخندق ، فأصبحوا صبيحة تلك الليلة هاربين مفلولين ، من غير حربٍ سوى قتل فارسهم . وقد أومأ بعضُ شعراء الإمامية إلى هذه المقالة ، فجعلها من فضائله ، وذلك قوله :

إذا كُنْتُمُ ممن يرومُ لحـــاقَهُ ... فهلاّ برزْتمْ نحوَ عَمْرو وَمَرْحَبِ[١]

(١) عمرو بن ود ، ومرحب اليهودي ؛ قتل علي أولهما يوم الخندق ، وثانيهما يوم خيبر ؛ وخبرهما مشهور معروف . (٢) ج : «شجاعهم» .

وكيف فررتمْ يوم أُحْـــدٍ وَخَيْبَرٍ — وبوم حُنَيْنٍ مَهْرَباً بَعْدَ مَهْرَبِ

أَلَم تشهدوا يوم الإخاء وبيعـــة الـــغدير وكلٌّ حُضَّرٌ غير غُيَّبِ (١)

فكَيْفَ غدا صِنْوُ النُّفيل وَنجـــه — أميراً على صِنْوِ النبيِّ المرجَّبِ !

وَكَيْفَ علاَ مِنْ لا يطا ثوب أحمدٍ — عَلَى مَنْ عَلَا مِنْ أحمدٍ فوق مِنكَبِ

إمامُ هُدًى رُدَّتْ له الشمسُ جَهْرَةً — فصلَّى أداءً عَصْرَهُ بَعْدَ مَغْرِبِ (٢)

وَمِنْ قَبْلِهِ أفنَى سليمانُ خَيْـــلَهُ — رَجاءً فلمْ يبلغْ بِهَـــا نَيْل مَطْلَبِ (٣)

يجلُّ عن الأفهام كُنْهُ صفـــاتِهِ — ويرجع عنها الذِّهْنُ رَجْعَةَ أخْيَبِ

فليسَ بيانُ القول عنهُ بِـــكاشِفٍ — غِطاء ، ولا فصلُ الخطاب بمعرِبِ

وحقٌّ لقـــبرٍ ضَمَّ أعضاءَ حَيْدَرٍ — وغُودِرَ مِنْهُ في صَفِيحٍ مُغَيَّبِ (٤)

---

(١) هو غدير خم : موضع بين مكة والمدينة ؛ روى صاحب الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) : عن البراء ابن عازب ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فنزلنا بغدير خم ، فنودي فينا : الصلاة جامعة ، فأوى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فصلى الظهر وأخذ بيد على ، وقال : ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ بيد على وقال : « اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه » . قال : فلقيه عمر بعد ذلك ، فقـال : هنيئـا لك يابن أبى طالب ، أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

(٢) قال الشريف المرتضى فى أماليه (٢ : ٣٤٠) : « هو خبر عن رد الشمس له عليه السلام فى حياة النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنه روى أن النبي صلى الله عليه وآله كان نائما ، ورأسه فى حجر أمير المؤمنين عليه السلام ، فلما حان وقت صلاة العصر ، كره أن ينهض لأدائها ، فينزعج النبي صلى الله عليه وآله من نومه ، فلما مضى وقتها وانتبه النبي عليه السلام دعا الله تعالى بردها له ، فردها ، فصلى عليه السلام الصلاة فى وقتها » ؛ ثم أورد بيت السيد الحميرى :

رُدَّتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لَمَّا فَاتَهُ — وَقْتُ الصَّلاةِ وَقَدْ دَنَتْ لِلْمَغْرِبِ

(٣) يشير إلى مارواه بعض المفسرين لقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ : إن سليمان عرض عليه خيل جياد — فى وقت العصر — فألهاه ذلك عن صلاة العصر ؛ فغضب لذلك ، وطلب من الله أن يرد عليه الشمس بعد غروبها ليصلى العصر حاضرا ؛ فردت ، ثم غضب على الخيل التى كانت سببا فى فوت الصلاة فقطع أعناقهم وسوقها » .

(٤) الصفيح : الحجر الرقيق تسقف به القبور .

بـكونُ ثَرَاهُ سِرٌّ قُدْسٍ مُمَنَّعٍ ... وَحَصْبَاؤُهُ مِنْ نُورِ وَحْيٍ مُحَجَّبِ
وتغشاه من نور الإله غمامــة ... تُغَادِيه من قُدْس الجَلالِ بصيِّبِ
وتنقضّ أسرابُ النُّجُومِ عوَاكِفاً ... عَلَى حُجْرَتَيْهِ كوكبٌ بَعْدَ كَوْكَبِ
فلولاكَ لم ينجُ ابن مَتّى ولاخَبَا ... سَعِيرٌ لإبراهيم بعـد تَلَهُّبِ
ولافلق البحرَ ابنُ عمرانَ بالعَصَا ... ولافرّتِ الأحزابُ عَنْ أهْلِ يَثْرِبِ
وَلَا قُبِلَتْ من عابدٍ صَلَوَاتُهُ ... وَلَاغَفَرَ الرَّحْمٰنُ زَلَّةَ مُذْنِبِ
ولم يغلُ فيك المسلمونَ جهالةً ... ولـكن لسرٍّ فى عُلاكَ مُغَيَّبِ

وقالوا أيضاً : إنَّ بـكريّاً وشيعيّاً تجادلا ، واحتكما إلى بعض أهل الذّمّة ؛ ممن لاهوى له مع أحد الرجلين فى التفضيل ، فأنشدهما :

كَمْ بَيْنَ مَنْ شَكَّ فى عقيدتِهِ ... وَبَيْنَ مَنْ قيـــــلَ إنه اللهُ !

***

[طرق الإخبار عن الغيوب]

فأما الإخبار عن الغيوب ، فلمعترض أن يقول : قد يقع الإخبار عن الغيوب من طريق النُّجُوم ؛ فإنّ المنجّمين قد اتفقوا على أن شـكلاً من أشـكال الطالع إذا وقع لمولود ، اقتضى أن يكون صاحبُهُ متمكناً من الإخبار عن الغيوب .

(١وقد يقع الإخبار عن الغيوب من الـكُهّان ، كما يحكى عن سَطِيح ، وشِقّ ، وسَواد ابن قارب وغيرهم١) .

(١ ـ ١) ساقط من ب وشق بن أنمار بن نزار ، وسطيح بن مازن بن غسان ، وسواد بن قارب الدوسى ؛ وأخبارهم فى الكهانة معروفة فى كتب الأدب والتاريخ .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأصحاب زَجْر الطير والبهائم ، كما يحكى عن بنى لِهْب فى الجاهلية[١] .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب للقافَة ، كما يحكى عن بنى مُدْلِج[٢] .

وقد يخبر أرباب النّيرنجات[٣] وأرباب السّحر والطّلّسمات بالمغيبات . وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأرباب النفس الناطقة القوية الصافية ، التى تتصل مادتها الرُّوحانيّة على ما تقوله الفلاسفة . وقد يقع الإخبار عن الغيوب بطريق المنامات الصادقة ؛ على ما رآه أكثرُ الناس ، وقد وردت الشريعة نصًّا به .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بأمرٍ صناعيّ يشبه الطبيعيّ ، كما رأيناه عن أبى البيان وابنه .

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بواسطة إعلام ذلك الغيب إنساناً آخرَ ، لنفسه بنفس ذلك المخبر اتحاد أو كالاتحاد ، وذلك كما يحكى أبو البَرَكات بن ملكا الطبيب فى كتاب " المعتبر "[٤] قال : والمرأة العمياء التى رأيناها ببغداد ؛ وتكرّرت مشاهدتُنا لها منذ مدة مديدة ، قدْرها ما يقارب ثلاثين سنة ؛ وهى على ذلك إلى الآن نعرض عليها الخبايا ، فتدلّ عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها ، وأعدادها ؛ غريبها ومألوفها ؛ دقيقها

---

(١) الزجر : الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم وبنو لهب : حى فى الأزد ؛ كانوا أزجر العرب .

(٢) القيافة قسمان : قيافة الأثر ؛ ويقال لها العيافة ؛ وقيافة البشر ؛ أما العيافة فهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى المقابلة للأثر ؛ حتى لقد روى أن بعضهم كان يفرق بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . أما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب والولادة وسائر أحوالها وأخلاقهما وكان بنو مدلج ، وهم بطن فى كنانة ، من أعلم العرب فى قيافة البشر .

(٣) فى القاموس : « النيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر ، وليس به » .

(٤) هو كتاب المعتبر فى المنطق ؛ لأبى البركات هبة الله بن ملكا البغدادى ، المتوفى سنة ٥٤٧ ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

وجليلها ، تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشيء من الأشياء ، إلا أنها كانت تلتمس أن ترى الذى يُسأل عنه أبوها ، أو يسمعه فى بعض الأوقات دون بعض ، وعند قوم دون قوم ، فيتصور فى أمرها أن الذى تقوله بإشارة من أبيها ؛ وكان الذى تقوله يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلة ؛ إذا قيل بصريح الكلام الذى هو الطريق الأخصر ، وإنما كان أبوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأنواع والأشكال فى مدة واحدة كلة واحدة ، وأقصاه كلتان ؛ وهى التى يكررها فى كل قول ومع كل ما يسمع ، ويرى : سلها وسلها تخبرك ، أو قولى له ، أو قولى يا صغيرة .

قال أبو البركات : ولقد عاندته يوما وحاققته فى ألا يتكلم ابتة ، وأريته عدة أشياء ، فقال لفظة واحدة ، فقلت له : الشرط أملك[1] ؛ فاغتاظ واحتد طيشه عن أن يملك نفسه ، فباح بخبيثته ، قال : ومثلك يظن أنى أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة ! فاسمع الآن ، ثم التفت إليها ، وأخذ يشير بإصبعه إلى شيء ، وهو يقول تلك الكلمة ، وهى تقول : هذا كذا وهذا كذا ؛ على الاتصال من غير توقف ، وهو يقول تلك الكلمة ، لا زيادة عليها ، وهى لفظة واحدة ، بلحن واحد ، وهيئة واحدة ، حتى ضجرنا ، واشتد تعجبنا ، ورأينا أن هذه الإشارة ، لو كانت تتضمن هذه الأشياء لكانت أعجب من كل ما تقوله العمياء .

قال أبو البركات : ومن عجيب ما شاهدناه من أمرها ، أن أباها كان يغلط فى شيء يعتقده على خلاف ما هو به ، فتخبر هى عنه على معتقد أبيها ؛ كأن نفسها هى نفسه .

قال أبو البركات : ورأيناها تقول ما لا يعلمه أبوها من خبيئة فى الخبيئة التى اطلع عليها أبوها ، فكانت تطلع على ما قد علمه أبوها ، وعلى ما لم يعلمه أبوها ، وهذا أعجب وأعجب .

---

(١) من المثل : الشرط أملك ؛ عليك أم لك ؛ أى أن الشرط يملك صاحبه فى إلزامه إياه الشروط ؛ إن كان له أو عليه .

قال أبو البركات : وحكاياتها أكثرُ من أن تُعَدّ ، وعند كلّ أحد من الناس من حديثها ما ليس عند الآخر ، لأنها كانت تقول من ذلك على الاتصال لشخص شخص جواباً بحسب السؤال .

قال : وما زلت أقولُ : إنّ من يأتى بعدنا لا يصدّق ما رأيناه منها ؛ فإن قلت لى : أريد أن تفيدَنى العلّة فى معرفة المغيّبات هذه ؟ قلت : تلك العلة التى تصلح فى جواب « لِمَ » فى نسبة المحمول إلى الموضوع تكون الحدّ الأوسط فى القياس وهذه ، فالعلّة الفاعلة الموجبة لذلك فيها هى نفسها بقوّتها وخاصتها، فما الذى أقوله فى هذا ! وهلْ لى أن أجعل ما ليس بعلة عِلّة !

***

واعلم أنّا لا ننكر أن يكونَ فى نوع البشر أشخاصٌ يخبرون عن الغيوب ، ولكن كلّ ذلك مستند إلى البارئ سبحانه بإقداره وتمكينه وتهيئة أسبابه ، فإن كان المخبِر عن الغيوب ممّن يدعى النبوة لم يَجُزْ أن يكون ذلك إلا بإذن الله سبحانه وتمكينه ، وأن يريد به تعالى استدلالَ المكلّفين على صدق مُدّعِي النبوّة، لأنه لو كان كاذباً لكان يجوز أن يمكن الله تعالى الجنّ من تعليمه ذلك إضلالا للمكلّفين ، وكذلك لا يجوز أن يمكّن سبحانه الكاذب فى ادعاء النبوّة من الإخبار عن الغيب بطريق السحر وتسخير الكواكب ، والطّلسمات ، ولا بالزّجْر ، ولا بالقيافة ، ولا بغير ذلك من الطرق المذكورة ، لما فيه من استفساد البشر وإغوائهم .

وأما إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدّعياً للنبوّة ، نُظر فى حاله ، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نُسِب ذلك إلى أنه كرامةٍ أظهرها الله تعالى على يدهِ ، إبانة له وتمييزا

من غيره ، كما في حق عليّ عليه السلام ، وإن لم يكن كذلك أمكنَ أن يكونَ ساحرا أو كاهنا ، أو نحو ذلك .

وبالجملة فصاحب هذه الخاصيّة أفضلُ وأشرف ممن لا تكون فيه ، من حيث اختصاصُه بها ، فإن كان للإنسان العارى منها مزية أخرى يختص بها توازيها ، أو تزيد عليها ، فترجع إلى التمييل[(١)] والترجيح بينهما ، وإلا فالمختصّ بهذه الخاصية أرجَحُ وأعظمُ من الخالى منها على جميع الأحوال .

(١) ب : « التمثيل » ، والصواب ما أثبته من ج .

(٥٩)

الأصل :

وقال لما قتل الخوارج وقيل له : يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم :

كَلَّا وَاللهِ ؛ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ ، وَكُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ .

الشرح :

نجم : ظهر وطلع .

قرارات النساء : كناية لطيفة عن الأرحام .

***

ومن الكنايات اللطيفة الجارية هذا المجرى قوله تعالى : ﴿ أَوْلَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [١]، يعنى الجماع .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ [٢] .

وقوله : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ [٣] ، يعنى الفروج .

---

(١) سورة النساء ٤٣ ، المائدة ٦

(٢) سورة ص ٢٣ ، والنعجة هنا كناية عن المرأة ، كما كنوا عنها بالشاة أيضا ، ومنه قول عنترة :

يَا شَاةَ مَاقَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ   حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

(٣) سورة فصلت ٢٠

وقول رسول الله صلى الله عليه وآله للحادى : « يا أنجشة ، رفقاً بالقوارير » (١).
يعني النساء .

* * *

[الكناية والرموز والتعريض مع ذكر مثل منها]

والكناية إبدال لفظة ـ يُستحَى من ذكرها ، أو يستهجن ذِكْرُها ، أو يُتطيّر بها ، و يقتضي الحال رَفْضَها لأمرٍ من الأمور ـ بلفظة ليس فيها ذلك المانع ؛ ومن هذا الباب قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليها بعدَ ما نامَ أهلُها ... سُموَّ حَبابِ الماءِ حالًا على حالِ (٢)
فقالَتْ لكَ الويلاتُ إنكَ فاضِحِي ... ألستَ ترى السُّمّارَ والناسَ أحوالي (٣)
فلمّا تنازَعْنا الحديثَ وأسمحَتْ ... هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذي شماريخَ مَيّالِ (٤)
فصِرْنا إلى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُنا ... ورُضْتُ فذَلَّتْ صَعْبةً أيَّ إذلالِ (٥)

قوله : « فصرنا إلى الحسنى » كناية عن الرَّفث ومقدّمات الجماع .

* * *

وقال ابنُ قتيبة : تمازحَ (٦) معاوية والأحنف ؛ فما رُئِيَ مازحان أوقر منهما ، قال

(١) أنجشة الأسود الحادى ، كان حبشيا يكنى أبا مارية ، وكان حسن الصوت بالحداء . . . وعن أنس قال : كان أنجشة يحدو بالنساء ، وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ، فإذا اعتقب الإبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير » .

(٢) ديوانه ٣١ ، ٣٢ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات . وحباب الماء : طرائقه . وقوله : « حالا بعد حال » ، أي شيئا بعد شيء .

(٣) الديوان : « فقالت : سباك الله » .

(٤) تنازعنا الحديث ، أي حدثتها وحدثتني ، وأصله من النزع بالدلو ، وهو جذبها . وأسمحت : انقادت وسهلت بعد صعوبتها وامتناعها . وهصرت ، أي جذبت ، وشبه شعرها بشماريخ النخل لتداخله وغزارته .

(٥) رق كلامنا ، أي صرنا إلى الصبا والغزل فلم ترفع أصواتنا لئلا يشعر بنا . ورضت فذلت ، أي ليّنتها بالكلام ، كما يراض البعير بالسير .

(٦) الخبر في عيون الأخبار ٢ : ٢٠٣ ، وروى بيتين ، والثالث في اللسان (١٦ : ٢٠) ، ونسب الأبيات إلى يزيد بن عمرو بن الصعق ، وهي أيضا في الكامل ١ : ٩٨ (طبعة أوربا) ، ونسبها لأبي مهوش الفقعسي ، ونقل عن دعبل أنها لأبي المهوش الأسدى

معاوية : ياأبا بَحْر ، ما الشيء الملفّفُ في البِجاد ؟ فقال : السخينةُ [١] ياأمير المؤمنين ، وإنما كَنَى معاوية عَنْ رَمْى بنى تميم بالنَّهَم وحُبِّ الأكل ، بقول القائل :

إذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ

بِخُبزٍ أو بتمرٍ أو بِسَمْنٍ ... أو الشيء الملفّفِ فِي البِجَادِ [٢]

تَرَاهُ يَطُوفُ فى الآفاقِ حِرْصاً ... ليأكلَ رأسَ لُقْمَانَ بن عادِ

وأراد الشاعر وَطْبَ اللبن ، فقال الأحنف : « هو السخينة ياأمير المؤمنين » ؛ لأنّ قريشا كانت تعيَّر بأكلِ السخينة قبل الإسلام ؛ لأنّ أكثرَ زمانها كان زمان قَحْطٍ ، والسخينة مايُسَخَّن بالنار ويُذَرّ عليه دقيق ؛ وغلب ذلك على قريش حتى سميت سخينة ، قال حسّان :

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنّ مغالب الغَــلّابِ [٣]

فعبّر كل واحد من معاوية والأحنف عمّا أراده بلفظ غير مستهجَن ولا مستقبح ، وعلِم كلٌّ واحد منهما مرادَ صاحبه ، ولم يفهم الحاضرون مادار بينهما ؛ وهذا من باب التعريض ، وهو قريب من الكناية .

* * *

ومن كنايات الكتاب العزيز أيضا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوها ﴾ [٤] ، كنى بذلك عن مناكح النساء .

ومنها قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [٥] ، كنى عن مواقع النسل بمواقع الحرْث .

(١) السخينة : طعام يتخذ من دقيق وسمن ، وكانت قريش تكثر من أكلها ، فعيرت بها حتى سموا سخينة.
(٢) البجاد : كساء مخطط ، من أكسية الأعراب .
(٣) وكذا فى الاقتضاب ٤٦ ، والصواب أن البيت لكعب بن مالك الأنصارى ؛ من قصيدة له فى سيرة ابن هشام ٣ : ٢٨٥ — ٢٨٩ .
(٤) سورة الأحزاب ٣٣
(٥) سورة البقرة ٢٢٣

ومما ورد فى الأخبار النبويّة فى هذا الباب ، الخبر الذى فيه : إن المرأة قالت للرجل القاعد منها مَقْعد القابلة : لا يحلّ لك أن تفضّ الخاتَم إلّا بحقّه ، فقام عنها وتركها .

وقد أخذ الصاحب بن عباد هذه اللفظة ؛ فقال لأبى العلاء الأسدىّ الأصفهانىّ ، وقد دخل بزوجةٍ له بكْر :

قُلْ لِي عَلَى الْجُمْرَةِ يَا أَبَا الْعَلَا ... فَهَلْ فَتَحْتَ الْمَوْضِعَ الْمُقْفَلَا ! (١)

وَهَلْ فَضَضْتَ الْكِيسَ عَنْ خَتْمِهِ ... وَهَلْ كَحَلْتَ النَّاظِرَ الْأَحْوَلَا !

وأنشد الفرزدق فى سليمان بن عبد الملك شعرا قال فيه :

دَفَعْنَ إِلَىَّ لَمْ يُطْمَثْنَ قَبْلِي ... وَهُنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ (٢)

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ

فاستنكر سليمان ذلك ـ وكان غيورا جدا ـ وقال له : قد أقررت بالزنا ، فلأجلدنّك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنى شاعر ؛ وإن الله يقول فى الشعراء : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، وقد قلتُ ما لم أفعل (٣) ، قال سليمان : نجوت بها .

ومن الأخبار النّبوية أيضا ، قولُه عليه السلام فى الشهادة على الزنا ، « حتى تشاهد المِيلَ (٤) فى المُكْحُلة » .

---

(١) الكناية والتعريض للثعالبى ١٣

(٢) ديوانه ٨٣٦ ، وفيه : « يمدح هشام بن عبد الملك » بقصيدة مطلعها :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا ... نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

والخبر أيضا فى كنايات الجرجانى ٢١ .

(٣) زاد الجرجانى بعدها : « ثم أنشأ يقول :

لَقَدْ شَهِدَتْ لِي فِي الطَّوَاسِينِ آيَةٌ ... أَقَامَ بِهَا عُذْرِي الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ

يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَإِنَّنِي ... مِنَ الْقَوْمِ قَوَّالٌ لِمَا لَسْتُ أَفْعَلُ

(٤) الميل : الحديدة التى يكتحل بها .

ومنها قوله عليه السلام للمرأة التي استفتته في الذي استخلت له ولم يستطع جماعها : « لا ، حتّى تذوقي عُسَيلَتَهُ ويذُوقَ عُسَيلَتَكِ » .

ومنها قول المرأة التي شكت إلى عائشة زوجها أنه يُطمح بصرَه إلى غيرها : « إني عزمتُ على أن أقيّد الجمل » ؛ إشارة إلى رَبْطه .

ومنها قول عمر : يا رسول الله ، هلكت ، قال : « وَمَا أهلَكَكَ ؟ » قال : حوّلتُ رَحْلي ؛ فقال عليه السلام : « أقبل وأدبرْ واتّقِ الحيْضة » ، ففهم صلى الله عليه وآله ما أراد .

ورأى عبد الله بن سلاّم على إنسان ثوباً معصفرا ، فقال : لو أن ثوبك في تَنّور أهلك لكان خيرا لك ؛ فذهب الرجلُ فأحرق ثوبه في تَنّور أهله ؛ وظنّ أنه أراد الظاهر ؛ ولم يرد ابن سلاّم ذلك ؛ وإنما أراد : لو صُرِف ثمنُه في دقيق يخبزه في تنّور أهله .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله : « إياكُم وخضْراء الدِّمَن » والدِّمَن : جمع دِمْنة ، وهي المزبلة فيها البَعَر تُنبت نباتا أخضر ، وكنى بذلك عن المرأة الحسناء في منبت السوء .

ومن ذلك قولهم : « إياك وعقيلة الملح » ، لأن الدُّرّة تكون في الماء الملح ، ومرادهم النهي عن المرأة الحسناء وأهلها أهل سوء .

ومن ذلك قولهم : « لبس له جلد النَّمِرِ » ، و « قلب له ظهرَ المِجنّ[1] » .

وقال أبو نواس :

لاَ أذودُ الطَّيرَ عَنْ شجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ المرّ من ثَمَرِهْ[2]

---

(١) لبس له جلد النمر ، مثل يضرب في إظهار العداوة وكشفها ، وقلب له ظهر المجن ، مثل أيضا يضرب لمن كان مع صاحبه على مودة ، ثم حال عن العهد . وانظر الميداني ٢ : ١٠١ ، ١٨٠ .

(٢) من قصيدة يمدح فيها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور ، ومطلعها :

أيُّها المنتابُ مِنْ عُفُرِهْ لَسْتَ مِنْ لَيْـلِي ولا سَمَرِهْ

ديوانه ٦٦ .

وقد فسّر قومٌ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مرُّوا بِاللَّغوِ مَرُّوا كِراما ﴾[١] فقالوا : أراد : وإذا عبّروا عن اللفظ بما يقبُح ذكرُه كَنَوْا عنه ، فسمى التعبير عن الشئ مُرورا به ، وسمّى الكناية عنه كرما .

ومن ذلك أنّ بنتَ أعرابية صرخت ، وقالت : لسعتْنِى العقرب ، فقالت أمّها: أين؟ فقالت : موضع لا يضع الرّاق فيه أنفه ؛ كَنَت بذلك عن السوءة .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[٢] ؛ قال كثير من المفسرين: هو كناية عن الغائط ، لأنه يكون من الطعام ، فكنى عنه ، إذا هو منه مسبّب ، كما كنوا عن السِّمَة بالنار فقالوا : ما نار تلك ؟ أى ما سمتها ؟ ومنه قول الشاعر[٣] :

قد وَسَمُوا آبالَهُمْ بالنارِ[٤] والنّارُ قَدْ تَشْفِى من الأُوارِ[٥]

وهذا من أبيات المعانى ، يقول : هم أهل عزّ ومَنَعة ، فسقى راعيهم إبلَهم بالسّمات التى على الإبل ؛ وعلم المزاحمون له فى الماء أنه لا طاقة لهم بمنازعتهم عليه لعزّهم ، فكانت السِّمات سبباً لسقيها . والأوار : العطش ؛ فكنى سبحانه بقوله : ﴿ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ عن إتيان الغائط ؛ لما كان أكل الطعام سبباً له ؛ كما كَنَى الشاعر بالنّار عن السِّمَة ؛ لمّا كانت النار سبب السِّمَة .

(١) سورة الفرقان ٧٢
(٢) سورة المائدة ٧٥
(٣) الرجز فى اللسان ٧ : ١٠٢ ، والمقاييس ١ : ٤٠ من غير نسبة .
(٤) رواية البيت فى المقاييس :

* قَدْ شَرِبَتْ آبالُهُمْ بالنَّارِ *

وروايته فى اللسان :

* حتى سَقَوْا آبالَهُمْ بالنّارِ *

وقال فى شرحه : « أى سقوا إبلهم بالسمة ، أى إذا نظروا فى سمة صاحبه عرف صاحبه فسقى وقدم على غيره لشرف أرباب تلك السمة ، وخلوا لها الماء » .
(٥) وروى هذا البيت أيضا فى اللسان ٥ : ٩٥ .

ومن هذا الباب قوله سبحانه :﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛(١) كَنَى بالإفضاء عن الجماع .

ومن الأحاديث النبوية : « مَنْ كَشَفَ قناعَ امرأة ، وَجَبَ عليه مهرُها » ، كَنَى عن الدخول بها بكشف القناع ؛ لأنه يكشف فى تلك الحالة غالبا .

والعرب تقول فى الكناية عن العِفّة : ما وضعت مومسة عنده قناعا .

ومن حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصيب من رءوس نسائه وهو صائم ؛ كنت بذلك عن القُبْلة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ ﴾ ،(٢) كَنَى بذلك عن الجماع والمخالطة .

وقال النابغة الجعدىّ :

إذا ما الضَّجيعُ ثَنَى عِطْفَها ... تثنّتْ فكانَتْ عليهِ لباسا(٣)

وقد كنَت العرب عن المرأة بالريحان ، وبالسَّرْحة ؛ قال ابن الرقيّات :

لا أَشَمُّ الرَّيْحانَ إلّا بِعَيْنِي ... كَرَمًا إنّما تَشَمُّ الكِلَابُ(٤)

أى أقنع من النساء بالنظر ؛ ولا أرتكب منهنّ محرما .

وقال حُميد بن ثور الهلالىّ :

أَبَى اللهُ إلّا أنّ سَرْحَةَ مالِكٍ ... عَلَى كلّ أفنانِ العِضاهِ تَرُوقُ(٥)

فياطيبَ رَيَّاها وَبَرْدَ ظِلَالِهَا ... إذا حانَ مِنْ حامِى النَّهارِ وَدِيقُ

(١) سورة النساء ٢١
(٢) سورة البقرة ١٨٧
(٣) ديوانه ٨١ ومقاييس اللغة ٥ : ٢٣٠ ، وروايتهما : « ثنى جيدها » . وهو فى اللسان ٧ : ٨٧
(٤) ديوانه ٨٥
(٥) ديوانه ٤٠ .

وَهَل أنا إن علّلت نفسى بِسَرْحَــةٍ مِن السَّرْحِ مَسْـدُودٌ عَلَيَّ طَرِيقُ !

والسَّرْحة : الشجرة .

وقال أعرابىّ ، وكنَى عن امرأتين :

أيا نخلتىْ أوْدٍ إذا كانَ فِيكُمَا جَنًى فانظُرا مَنْ تُطْعِمَان جَنَا كُمَا ! (١)

ويانخلتىْ أوْدٍ إذَا هبَّتِ الصَّبـــا وأمسيتُ مقروراً ذكرتُ ذرَا كُمَا

* * *

ومن الأخبار النبويّة قوله عليه السلام: « مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر فلا يسقينَّ ماءه زرع غيره » ؛ أراد النّهى عن نكاح الحبائل ؛ لأنّه إذا وطئها فقد سَقَى ماءه زرع غيره .

وقال صلى الله عليه وآله لخوّات بن جُبير (٢) : « ما فَعَلَ جَمَلُك ياخَوّات »؟ يمازحه، فقال : قيّده الإسلام يارسول الله ؛ لأن خوّاتاً فى الجاهلية كان يغشى البيوت ، ويقول : شَرَدَ جملى وأنا أطلبه ؛ وإنّما يطلب النساء والخلوة بهنّ ؛ وخوّات هذا هو صاحب ذات النِّحْيَيْن (٣) .

ومن كنايات القرآن العزيز قوله تعالى:﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ (٤) ؛ كنَى بذلك عن الزنا ، لأنّ الرجل يكون فى تلك الحال بين يدي المرأة ورجليها .

ومنه فى الحديث : « إذا قعَد الرجُل بين شُعَبها الأربع » .

---

(١) أود : موضع بالبادية .

(٢) خوات ابن جبير بن النعمان بن أمية الأنصارى الصحابى ، أبوعبدالله ، وقيل : أبوصالح ، أحد فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مات سنة ٤٠ . تاج العروس ١ : ٥٤٣ .

(٣) هى امرأة من تيم الله بن ثعلبة ؛ كانت تبيع السمن فى الجاهلية ؛ وهى موضع المثل : أشغل من ذات النحيين ، وانظر الميدانى ١ : ٣٧٦ .

(٤) سورة الممتحنة ١٢ .

وقد فسّر قوم قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحطب﴾[1]؛عن النميمة،والعرب تقولُ لمن ينِمّ ويَشِي : يُوقِد بين النّاس الحطَبَ الرَّطْب .

وقال الشاعر يذكر امرأة :

مِنَ البِيضِ لم تُصْطَدْ على خَتْلِ لَامَةٍ ... ولم تمشِ بَيْنَ النّاسِ بالحَطَبِ الرَّطْبِ[2]

أى لم تؤخذ على أمرٍ تلام عليه ، ولم تُفسِد بين الحىّ بالكذب والنميمة .

***

ومما ورد نظير ممازحة معاوية[3] والأحنف من التعريضات أنّ أبا غسّان المِسْمَعيّ مرّ بأبي غِفَار السّدوسيّ ، فقال : ياغِفَار ؛ مافعل الدِّرْهَمان ؟ فقال ؛ لحقا بالدرهم ؛ أراد بالدِّرهمين قول الأخطل :

فإنْ تَبْخَلْ سَدُوسُ بدِرْهَمَيْها ... فإنّ الريحَ طَيِّبَةٌ قَبُولُ[4]

وأراد الآخر قول بشّار :

وَفِي جَحْدَرٍ لؤمٌ ، وفى آلِ مِسْمَعٍ ... صَلاحٌ ولٰكِنْ دِرْهَمُ القومِ كَوْكَبُ[5]

***

وكان محمد بن عِقَال المجاشعيّ عند يزيد بن مَزْيد الشيبانيّ ، وعنده سيوفٌ تُعرَض عليه ؛ فدفع سيفا منها إلى يد محمد ، فقال : كيف ترى هذا السيف ؟ فقال : نحن أبصر بالتّمر منّا بالسيوف ، أراد يزيد قول جرير فى الفرزدق :

بسَيْفِ أبى رَغْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ... ضربتَ ولم تضربْ بسيفِ ابنِ ظَالِمِ[6]

ضربتَ به عنـد الإمام فأُرْعِشَتْ ... يَدَاك ، وقالوا : مُحْدَثٌ غيرُ صارِمِ

---

(١) سورة اللهب ٤

(٢) البيت فى اللسان ١ : ٣١٣ ، من غير نسبة .   (٣) ص ١٥ ، ١٦ .

(٤) ديوانه ١٢٦

(٥) ديوانه ١ : ٣٠٣

(٦) ديوانه ٥٦٣ .

وأراد محمد قول مَروان بن أبي حفصة :

لقد أفسدت أسنان بكر بن وائل ... من التَّمر مالو أصلحته لَمَارَها

***

وقال محمد بن عمير بن عطاء التميمي لشريك النميري ، وعلى يده صقر : ليس في الجوارح أحبّ إليّ من البازي ؛ فقال شريك : إذا كان يصيد القطا ، أراد محمد قول جرير :

أنا البازي المطِلُّ على نُمَيْرٍ ... أُتيحَ من السَّماء لها انْصِبَابَا(١)

وأراد شريك قول الطِرِمّاح :

تميمٌ بطرْقِ اللؤمِ أهدَى من القطا ... ولو سلكتْ سُبْلَ المكارمِ ضلَّتِ(٢)

***

ودخل عبد الله بن ثعلبة المحاربي على عبد الملك بن يزيد الهلالي ؛ وهو يومئذ والي أرمينِيَة ، فقال له : ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب ! منعونا النَّوم بضوضائهم ولَغَطهم ؛ فقال عبدالله بن ثعلبة : إنّهم - أصلح الله الأمير - أضلّوا الليلة برقعا ، فكانوا يطلبونه .

أراد عبد الملك قولَ الشاعر :

تَـكِشُّ بلا شيء شيوخُ محارِبٍ ... وماخلتُها كانتْ تَرِيش ولا تَبْرِي(٣)

ضفادع في ظلماء ليلٍ تجاوبت ... فدلَّ عليها صوتُها حيّةَ البحرِ

وأراد عبد الله قول القائل :

لِكُلِّ هلاليّ من اللؤم بُرْقُعٌ ... ولابن يزيد بُرْقُعٌ وجِـلالُ(٤)

---

(١) ديوانه ٧٢ .

(٢) الشعر والخبر في اللآلي ٨٦٣ ، وكنايات الجرجاني ٧٢

(٣) للأخطل ، ديوانه ١٣٢ ، تـكش : تصوت ، وفي الديوان : «تنق»

(٤) الشعر والخبر في كنايات الجرجاني ٧٢

وروى أبو بكر بن دُريد فى كتاب " الأمالى " عن أبى حاتم ، عن العُتبىّ ، عن أبيه ؛ أنه عُرِض على معاوية فرس ، وعنده عبد الرحمن[1] بن الحكم بن أبى العاص ؛ فقال : كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرّف ؟ قال أراه أجشّ هزيما ، قال معاوية : أجل ، لكنه لا يطّلع على الكنائن ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما استوجبتُ منك هذا الجواب كلّه ، قال : قد عوّضتك عنه عشرين ألفا .

قال أبو بكر بن دريد : أراد عبد الرحمن التعريض بمعاوية بما قاله النجاشى فى أيام صِفّين :

وَنَجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذُو عُلَالَةٍ   أجشُّ هَزِيمٌ والرّماح دوانى[2]
إذا قلت أطراف الرماح تَنُوشُه   مَرَتْه له السّاقان والقَدَمَانِ[3]

فلم يحتمل معاوية منه هذا المَزاح ؛ وقال : لكنه لا يطّلع على الكنائن ؛ لأن عبد الرحمن كان يُتّهم بنساء إخوته[4].

***

وروى ابن دريد أيضا فى كتاب " الأمالى " عن أبى حاتم النَّخَعىّ ، أنّ النجاشىّ دخل على معاوية ، فقال له : كيف قلت : « ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ » ، وقد علمت أنّ الخيل لا تجرى بمثلى[5] فرارا ؟ قال : إنما عنيت عتبة أخاك ـ وعُتبة جالس ـ فلم يقل معاوية ولا عُتبة شيئا .

***

(١) ب : « عبد الله » ، والصواب من ا ، ج ، وجمهرة الأمثال ١١٠
(٢) السابح : الفرس السريع ، كأنه يسبح ، والعلالة : البقية من السير . والأجش : الغليظ الصوت من الإنسان والخيل والرعد وغيره . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .
(٣) مرته : استدرت جريه .
(٤) الخبر برواية أخرى فى الأغانى ١٣ : ٢٦٠ .   (٥) ب : « بى » .

وورد إلى البصرة[١] غلام من بنى فَقْعَس ، كان يجلس فى المِرْبد[٢] ، فينشد شعرا . ويجمع الناس إليه ؛ فذُكر ذلك للفرزدق ، فقال : لأسوءنّه ، فجاء إليه ، فسمع شيئا من شعره ، فحسده عليه ، فقال : ممّنْ أنت ؟ قال : من بنى فَقْعَس ، قال : كيف تركت القنَان[٣] ؟ فقال : مقابل لَصافِ[٤] ؛ فقال : ياغلام ، هل أنجدَتْ أمك ؟ قال : بل أنجد أبى .

قال أبو العباس المبرّد : أراد الفرزدق قول الشاعر[٥] :

ضَمِنَ القَنَانُ لِفَقْعَسٍ سوآتِها ... إن القَنَانَ لِفَقْعَسٍ لمعمَّرُ[٦]

والقَنَان جبل فى بلاد فَقْعَس ؛ يريد أن هذا الجبل يستر سوآتهم ، وأراد الغلام قول أبى المهوِّش[٧] :

وإذا يَسُرُّكَ من تميم خَصْلَةٌ ... فلَما يَسُوءك مِنْ تَميمٍ أكثرُ[٨]
أكلت أُسَيْدٌ والهُجَيْمُ ودارِمٌ ... أيْرَ الحمار وخُصيتيه العَنْبَرُ
قد كنتُ أحسِبُهم أسودَ خَفِيَّةٍ ... فإذا لَصَافِ يبيض فيه الحُمَّر

ولَصَاف : جبل فى بلاد بنى تميم ، وأراد بقوله : « هل أنجدَتْ أمك » ، أى إن كانت

(١) الخبر فى أمالى القالى ٢ : ٢٣٦ وكنايات الجرجانى ٧٣ وخزانة الأدب ٣ : ٨٠ واللآلى للبكرى ٨٠٩ مع اختلاف الرواية .
(٢) المربد ، يطلق على مواضع ؛ والمراد هنا مربد البصرة ؛ قال ياقوت : « من أشهر محالها ؛ وكان يكون سوق الإبل فيه قديما ؛ ثم صار محلة عظيمة ؛ سكنها الناس ؛ وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء
(٣) فى الأصول : « القيان » تصحيف ؛ والقنان : موضع ذكره ياقوت ، وقال : « هو جبل فيه ماء يدعى العسيلة ؛ وهو لبنى أسد ؛ ولذلك قيل . . . . » ، وأورد البيت .
(٤) رواية الخزانة : « تبيض فيه الحمر » .
(٥) هو نهشل بن حرى ؛ يهجو بنى فقعس ، كما ذكره ياقوت (لصاف) .
(٦) قال ياقوت : « معمر ، أى ملجأ » .
(٧) من أبيات تسعة ذكرها صاحب الخزانة ٣ : ٨٤ نقلا عن ضالة الأديب ، وهى أيضا فى الوحشيات ٢١٨
(٨) فى الجرجانى والبكرى والخزانة : « خصلة » .

أنجدتْ فقد أصابها أبى ، فخرجتَ تشبهنى ؛ فقال : بل أنجد أبى ؛ يريد بل أبى أصاب أمّك فوجدها بغيًّا .

***

قال عبد الله بن سوّار : كنا على مائدة إسحاق بن عيسى بن علىّ الهاشمىّ ؛ فأتينا بحريرة قد عملت بالسكر والسمن والدقيق ؛ فقال معدّ[1] بن غَيْلان العبْدىّ : ياحبذا السخينة ! ما أكلت ـ أيها الأمير ـ سَخينةً ألذّ من هذه ؛ فقال : إلّا أنها تولِّد الرياح فى الجوف كثيرا ؛ فقال : إنّ المعايب لاتذكر على الخوان .

أراد مَعدّ ما كانت العرب تعيّر به قريشا فى الجاهلية من أكل السَّخينة[2]، وقد قدّمنا ذكره ، وأراد إسحاق بن عيسى مايعيّر به عبد القيس من الفَسْو ؛ قال الشاعر :

وَعَبْد القَيْس مُصْفَرٌّ لحاهـــا ... كأنّ فساءها قِطَعُ الضَّبـابِ

***

وكان سِنان[3] بن أحمس النُّميرىّ يساير الأمير عمر بن هبيرة الفزارىّ ، وهو على بغلة له ، فتقدمت البغلة على فرس الأمير ، فقال : اغضض[4] بغلتك ياسنان ؛ فقال : أيها الأمير ؛ إنها مكتوبة ؛ فضحك الأمير .

أراد عمر بن هبيرة قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَــيرٍ ... فلا كَعْبـــاً بلغتَ وَلَا كِلابَا

وأراد سنان قولَ ابن دارة[5] :

لاتأمَنَنّ فَزَارِيًّا خَـــلَوْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِك واكْتُبْهَا بأسْيـارِ

(١) فى كنايات الجرجانى « معدل » .
(٢) الخبر فى الكنايات للجرجانى ٧٢
(٣) فى الاقتضاب : « شريك بن عبد الله النميرى » .
(٤) فى الاقتضاب : « غض من لجام بغلتك » .
(٥) فى الأصول : « الأخطل » ، وهو خطأ ، والبيت لسالم بن دارة ، من أبيات أوردها صاحب الخزانة : ١ : ٥٥٧ ؛ وانظر الجرجانى ٧٤ ، والفاضل ٥٤ ، والسهيلى ٢ : ٢٨٨ ، وزهر الآداب ٢١ ، والاقتضاب ٥٥ .

وكانت فَزارة تعيَّر بإتيان الإبل ؛ ولذلك قال الفرزدق يهجو عمر بن هبيرة هذا ، ويخاطب يزيد بن عبد الملك (١) .

أمير المؤمنين وأنت برٌّ تقيٌّ لَسْتَ بالجشِع الحريصِ (٢)
أأطعمتَ العِرَاق وَرَافِدَيْه فزاريًا أحَذَّ يدَ القميصِ (٣)
تَفَنَّقَ بالعراقِ أبو المثنَّى وَعَلَّمَ قومَه أكلَ الخبيصِ (٤)
ولم يكُ قبلَها راعِيَ مخاضٍ لتأمنه على وَرِكَيْ قَلُوصِ (٥)

الرافدان : دِجْلة والفُرات ، وأحذّ يد القميصِ ، كناية عن السرقة والخيانة. وتفنّق: تنعَّم وسمن ، وجارية فنُق ؛ أى سمينة .

والبيت الآخر كناية عن إتيان الإبل الذى كانوا يُعيّرون به (٦) .

وروى أبو عُبيدة عن عبد الله بن عبد الأعلى قال : كنا نتغدّى مع الأمير عمر بن هبيرة . فأحضر طباخُه جامَ خَبِيص ، فكرهه للبيت المذكور السابق ، إلا أنّ جلَده أدركه ، فقال : ضمه ياغلام ، قاتل الله الفرزدق ، لقد جعلنى أرى الخبيص فأستحى منه (٧) !.

* * *

قال المبرّد : وقد يسير البيت فى واحد ؛ ويرى أثره عليه أبدا ، كقول أبى العتاهية

---

(١) ديوانه ٤٨٧ ، الكامل ٤٧٩ (طبع أوربا) ، الفاضل ١١١ ، كنايات الجرجانى ٧٤ ، الحيوان ٥ : ١٩٧ ، الشعراء لابن قتيبة ٣٤

(٢) الديوان والحيوان : « بالوالى الحريص » .

(٣) الأحذ : السريع اليد الخفيفها . قال ابن قتيبة : « يريد أنه خفيف اليد بالخيانة ، فاضطرته القافية لذكر القميص » .

(٤) فى الحيوان « تفتق » ، من قولهم : تفتقت خواصر الغنم من البقل ، إذا اتسعت من كثرة الرعى . والخبيص : ضرب من الحلوى المطبوخة .

(٥) المخاض : الحوامل من النوق ؛ والقلوص : الشابة من الإبل .

(٦) كنايات الجرجانى ٧٤

(٧) كنايات الجرجانى ٧٥ .

فى عبد الله بن معن بن زائدة :

فما تَصْنَعُ بالسَّيفِ إذا لم تكُ قتّالا [١]
فَكَسِّرْ حِلْيةَ السَّيْفِ وصُغْها لكَ خلخالا

وكان [٢] عبد الله بن معن إذا تقلّد السيفَ ورأى مَنْ يرمُقه بان أثرُه عليه ؛ فظهر الخجل منه .

***

ومثل ذلك مايحكى أنّ جريرا قال : والله لقد قلتُ فى بنى تَغْلِب بيتاً لو طُعِنُوا بعدَها بالرّماح فى أستاههم ماحَكُّوها ؛ وهو :

والتَّغْلَبىّ إذا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى حَكّ استَه وتمثّل الأمثالا [٣]

***

وحكى أبو عبيدة عن يونس ، قال : قال عبدالملك بن مَرْوان يوما ؛ وعنده رجال: هل تعلمون أهلَ بيت قيل فيهم شعر، وَدُّوا لو أنهم افتدوْا منه بأموالهم؟ فقال أسماء بن خارجة الفَزارِيّ : نحن ياأمير المؤمنين ؛ قال : وماهو ؟ قال : قول الحارث بن ظالم المرّىّ :

وَما قومى بثعلبة بن سعدٍ ولا بفَزَارةَ الشُّعْر الرقابا

فوالله ياأميرَ المؤمنين ؛ إنى لألبَس العمامة الصفيقة ؛ فيخيَّل لِى أن شعر قفاىَ قد بدا منها .

---

(١) ديوانه ٣٣٤ ، والخبر والبيتان فى كنايات الجرجانى ٧٥ ، وقبلهما :

لقد بُلِّغْتُ ماقالا فما باليتُ ماقالا
ولو كانَ من الأُسْدِ لما هال ولا صالا

(٢) الجرجانى : « قال : فكان » .
(٣) الخبر فى كنايات الجرجانى ٧٥ .

وقال هانئ بن قبيصة النميري : نحن يا أمير المؤمنين ؛ قال وما هو ؟ قال قول جرير :

فغضّ الطّرفَ إنكَ مِنْ نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا[1]

كان النميريّ يا أمير المؤمنين إذا قيل له : ممّن أنت ؟ قال : من نُمير، فصار يقول بعد هذا البيت : « من عامر بن صعصعة »[2] .

ومثل ذلك ما يروى أنّ النجاشيّ لما هجا بنى العَجْلان بقوله[3] :

إذا اللهُ عادَى أهلَ لؤمٍ ورِقّةٍ فعادى بني العَجْلان رهطَ ابن مُقبِل[4]

قُبَيِّلةٌ لا يغدِرُون بذِمّـــةٍ ولا يَظلِمُون النّاسَ حَبّةَ خردلِ

ولا يَرِدُون الماءَ إلّا عشيّــةً إذا صدَرَ الوُرّادُ عن كلِّ منهلِ

وما سُمِّيَ العَجْلان إلا لقولِهِ : خذ القَعْبَ فاحلُبْ أيها العبدُ واعجَلِ[5]

فكان الرّجل منهم إذا سُئل عن نسبه يقول : من بنى كعب ، وترك أن يقول : « عجلانيّ » .

* * *

وكان عبد الملك بن عمير القاضي ، يقول : والله إنّ التّنحنُحَ والسعال ليأخذني وأنا في الخلاء فأردّه حياء من قول القائل :

إذَا ذَاتُ دَلٍّ كلّمته لحاجةٍ فهمّ بأن يقضي تنحنحَ أو سَعَلْ

* * *

(١) ديوانه ٧٥

(٢) كنايات الجرجاني ٧٥ ، والعمدة لابن رشيق ١ : ٧٥ .

(٣) الأبيات في العمدة لابن رشيق ١ : ٢٧ ، كنايات الجرجاني ٧٥ ، مختارات ابن الشجري ١٣١ ، الشعر والشعراء ٢٩٠ ، الخزانة ١ : ١١٣ ، مع خبر مذكور ، بمختلف رواية .

(٤) ابن مقبل، هو تميم بن أبي بن مقبل ، قال الجمحي في الطبقات ١٢٥ : « تميم بن أبي بن مقبل ، شاعر خنذيذ مغلب ، غلبه النجاشي » ولم يكن إليه في الشعر ، وقد قهره في الهجاء فقال :

* إذا الله عادَى أهلَ لؤمٍ ودِقّةٍ *

(٥) القعب : القدح الضخم الغليظ الجافي .

ومن التعريضات اللطيفة ، ما رُوِى أن المفضّل بن محمد الضبى بعث بأضحيةٍ هزيلٍ إلى شاعر ، فلما لقيَه سأله عنها ، فقال : كانت قليلة الدم ، فضحِك المفضّل ، وقال : مهلا يا أبا فلان ؛ أراد الشاعر قول القائل :

وَلَوْ ذُبِحَ الضَّبِيّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ من اللؤم للضبيّ لحمًا ولا دَمَا(١)

***

وروى ابن الأعرابىّ فى الأمالى قال : رأى عقال بن شبّة بن عقال المجاشعىّ على أصبع ابن عنبس وَضَحا ، فقال : ماهذا البياض على إصبعك يا أبا الجرّاح ؟ فقال : سَلْح النعامة يابن أخى ؛ أراد قول جرير :

فضحَ العشيرةَ يومَ يسلَح قائما سَلْحَ النعامة شَبَّةُ بنُ عقالِ(٢)

وكان شبّة بن عقال قد برَز يوم الطُّوانة(٣) مع العبّاس بن الوليد بن عبد الملك إلى رجل من الروم ؛ فحمل عليه الرومىّ ، فنكص وأحدث ؛ فبلغ ذلك جريرا باليمامة ، فقال فيه ذلك(٤).

***

ولقى الفرزدق مخنثا يحمِلُ قُماشه(٥) ، كأنه يتحوّل من دار إلى دار ؛ فقال : أين راحت عمّتُنا ؟ فقال : قد نفاها الأغرّ يا أبا فراس ؛ يريد قول جرير فى الفرزدق :

نفاكَ الأغرّ ابنُ عبد العزيز وَحَقُّكَ تُنْفَى من المسجدِ(٦)

---

(١) كنايات الجرجانى ٧٧

(٢) ديوانه ٤٧١

(٣) الطوانة ؛ بضم أوله، وبعد الألف نون : بلد بثغور المصيصة.

(٤) كنايات الجرجانى ٧٧

(٥) قماش البيت : متاعه .

(٦) ديوانه ١٢٨

وذلك أن الفرزدق وَرَد المدينة ، والأمير عليها عمر بن عبد العزيز ، فأكرمه حمزة بن عبدالله بن الزبير وأعطاه ، وقعد عنه عبدالله بن عمرو بن عثمان، وقصّر به ، فمدح الفرزدقُ حمزة بن عبدالله ، وهجا عبدالله ، فقال :

مَا أنتُمُ مِنْ هاشِمٍ في سِرِّها فاذْهَبْ إليكَ ولا بَنِي العَوّامِ[1]
قومٌ لهمْ شرفُ البطـاحِ وأنتمُ وَضَرُ البلاطِ موطّئوا الأقدامِ

فلما تناشد الناس ذلك ، بعث إليه عمر بن عبد العزيز ، فأمره أن يخرج عن المدينة ، وقال له : إن وجدتك فيها بعد ثلاث عاقبتُك ، فقال الفرزدق : ما أراني إلا كثمود حين قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ[2] ﴾ ؛ فقال جرير يهجوه :

نفاكَ الأغرُّ ابنُ عبدُ العزيزِ وَحَقُّكَ تنفَى من المسجدِ[3]
وَسَمّيتَ نفسَكَ أشقَى ثمودَ فقالوا ضللتَ ولم تهتدِ
وقد أُجِّلُوا حين حلّ العذابُ ثلاثَ ليـالٍ إلى الموعدِ
وَجَـدْنا الفرزدقَ بالموسِمَيْنِ خبيثَ المداخِلِ والمشهدِ

***

وحكى أبو عبيدة ، قال : بينا نحن على أشراف الكوفة وقوف ؛ إذ جاء أسماء بن خارجة الفزاريّ فوقف ؛ وأقبل ابن مكعبر الضبيّ فوقف متنحيًا عنه ؛ فأخذ أسماء خاتمًا كان في يده ، فصّه فيروز أزرق ، فدفعه إلى غلامه ، وأشار إليه أن يدفعه إلى ابن مكعبر؛ فأخذ ابن مكعبر شِسْع نعله ؛ فربطه بالخاتم ، وأعاده إلى أسماء ؛ فتمازحا ولم يَفْهَمْ أحدٌ من الناس ما أرادا ، أراد أسماء بن خارجة قول الشاعر :

لقد زَرِقَتْ عيناكَ يابْنَ مكعبَرٍ كذا كلّ ضَبِّيٍّ من اللؤمِ أزرقُ

---

(١) ديوانه ٧٧٢ ، وروايته : « في مثل أسرة هاشم »
(٢) سورة هود ٦٥ (٣) ديوانه ١٢٨

وأراد ابن مكمبر قول الشاعر :

لا تأمَنَنَّ فزاريًا خَلَوْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بأسيارِ[1]

وكانت فزارة تعيّر بإتيان الإبل ؛ وعيّرت أيضا بأكل جُرْدَان الحمار ؛ لأن رجلا منهم كان في سفر فجاع ، فاستطعم قوماً فدفعوا إليه جُرْدان الحمار ، فشواه وأكله ، فأكثرت الشعراء ذكرهم بذلك ؛ وقال الفرزدق :[2]

جَهِّزْ إذا كنتَ مُرْتاداً ومنتجِعاً ... إلى فزارة عَيْراً تحمل الكَمَرَا[3]

إنَّ الفزاريَّ لَوْ يَعْمَى فيطعِمُه ... أيْرَ الحمارِ طبيبٌ أبرأ البَصَرَا

إنَّ الفزاريَّ لا يشفيه مِنْ قَرَمٍ ... أطايبُ العَيْرِ حتى يَنْهشَ الذَّكَرا

وفي كتب الأمثال أنه اصطحب ثلاثة : فزاريّ وتغلبي ومُرِيّ ـ وكان اسم التغلبيّ مرقة ـ فصادوا حمارا ، وغاب عنهما الفزاريّ لحاجة ، فقالوا : نخبأ له جُرْدَانه، نضحك منه؛ وأكلوا سائره ؛ فلما جاء دفعا إليه الجردان ؛ وقالا : هذا نصيبك ، فنهسه فإذا هو صلب ، فعرف أنهم عرّضوا له بما تُعاب به فزارة ؛ فاستلّ سيفه ، وقال : لتأكلانِه ؛ ودفعه إلى مَرْقة ، فأبى أن يأكله ، فضربه فقتله ، فقال المرّيّ : طاح مِرْقة ؛ قال : وأنت إن لم تلقمه ! فأكله[4].

وذكر أبو عبيدة أنّ إنسانا قال لمالك بن أسماء بن خارجه الفزازيّ : اقضِ ديني أيها الأمير ؛ فإنّ عليّ دينا ؛ قال : مالك عندي إلا ماضرب به الحمار بطنه، فقال له عبيد بن أبي مِحْجَن :

(١) اللآلى ٨٦٢ ، وكنايات الجرجانى ٧٩ .

(٢) ديوانه ٢٨٤ .

(٣) فى الديوان : « جهز فإنك ممتار ومبتعث » .

(٤) الخبر فى اللآلى ٨٦٠ ، وكنايات الجرجانى ٧٦ .

بارك الله لكم يابنى فَزارة فى أيْر الحمار ؛ إن جُعْتم أكلتموه ؛ وإن أصابكم غُرْم قضيتموه به .

ويحكى أن بنى فزارة وبنى هلال بن عامر بن صعصعة تنافرُوا إلى أنس بن مدرك الخثعميّ ؛ وتراضَوْا به ، فقالت بنو هلال : أكلتم يابنى فَزارة أيْر الحمار ، فقالت بنوفزارة : وأنتم مَدَرْتُم[1] الحوض بسلحكم ؛ فقضى أنَس لبنى فَزارة على بنى هلال ؛ فأخذ الفَزاريّون منهم مائة بعير كانوا تخاطروا عليها ؛ وفى مادر يقول الشاعر :

لقَدْ جَلّلتْ خِزياً هلالُ بن عامرٍ ... بنى عامرٍ طُرًّا بسلْحةِ مادِرِ[2]

فأفٍّ لكُمْ لاتذكروا الفَخْرَ بعدها ... بنِى عامرٍ ، أنتم شرارُ المعاشرِ[3]

***

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتاب " الكامل " أن قتيبة بن مسلم لما فتح سَمَرْقَنْد ؛ أفضى إلى أثاث لم يُرَ مثله ، وآلات لم يسمع مثلها ؛ فأراد أن يُرِىَ الناسَ عظيمَ مافتح الله عليه ، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم ؛ فأمر بدارٍ ففُرِشت ، وفى صحنها قدورٌ يُرتقى إليها بالسلالم ؛ فإذا بالحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلة الرَّقاشىّ قد أقبل ؛ والناس جلوسٌ على مراتبهم — والحُضَيْن شيخ كبير — فلمّا رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة : ائذن لى فى معاتبته ، قال : لا تُرِدْه ، فإنه خبيث الجواب ، فأبى عبدُ الله إلاأنْ يأذن له — وكان عبد الله يُضَعَّف[4] ، وكان قد تسوّر حائطا إلى امرأة قبل ذلك — فأقبل على الحُضين ، فقال : أمِنَ الباب دخلت ياأباساسان ؟ قال : أجل ؛ أسنّ عمّك عن تسوّر

(١) مدرتم الحوض ؛ أى سلحتم فيه .

(٢) فى اللسان : « وفى المثل : « ألأم من مادر » ؛ وهو جد بنى هلال بن عامر » . وفى الصحاح : « هو رجل من هلال بن عامر بن صعصعة ؛ لأنه سقى إبله ، فبقى فى أسفل الحوض ماء ، فسلح فيه ؛ ومدر به حوضه ، بخلا أن يشرب من فضله » .

(٣) كنايات الجرجانى ٧٦ ، ٧٧ ، والبيتان أيضا فى اللسان ٧ : ٨

(٤) يضعف ؛ أى يوصف بالضعف لقلة عقله .

الحيطان ؛ قال : أرأيتَ هذه القدور ؟ قال : هى أعظم من ألّا تُرَى ؛ قال : ما أحسب بكرَ ابن وائل رأى مثلها ، قال : أجل ، ولا عَيْلان؛ ولو رآها سُمِّيَ شَبْعان ؛ ولم يسمَّ عَيْلان ، فقال عبد الله : أتعرف يا أبا ساسان الذى يقول :

عَزَلْنا وأمَّرْنا وبَكْرُ بن وائلٍ   تجُرُّ خُصاها تبتغِى من تحـــالفُ[1]

فقال : أعرفه ، وأعرف الذى يقول :

فأدَى الغُرْم مَنْ نَادى مشيرا   ومَنْ كانَتْ له أسْرَى كلابِ
وخَيْبَةُ مَنْ يخيب على غَنِيٍّ   وباهِـــلةَ بن أعصر والرِّبابِ[2]

فقال : أتعرف الذى يقول :

كأنَّ فِقاحَ الأزْد حَوْلَ ابن مِسْمَعٍ   وقد عَرِقَتْ أفواهُ بكر بن وائلِ

قال : نعم وأعرف الذى يقول :

قوم قتيبـــةُ أمُّهمْ وأبوهمُ   لولا قتيبـة أصبَحُوا فى مجهلِ

قال : أما الشعر فأرَاكَ ترويه ؛ فهل تقرأ من القرآن شيئا ؛ قال : نعم ؛ أقرأ الأكثر الأطيب[3] : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[4].

---

(١) فى رغبة الكامل للمرصفى ٦ : ١١٧ : رواية غيره : « نزعنا وولينا » ؛ وبعده :

وَمَا مات بكرىٌّ من الدّهرِ ليلةً   فيصبحُ إلّا وَهْوَ للذلِّ عارِفُ

وهذا الشعر لحارثة بن بدر الغدانى ؛ قاله يوم رضى أهل البصرة أن يولوا عليهم بعد موت معاوية بن يزيد ابن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمى ؛ حتى يجتمع الناس على إمام ، وكان عبيدالله بن زياد الوالى عليهم قد طلب الإمارة لنفسه ، فلم يرضوا به ، فلما رأى الغدر منهم هرب هو وأخوه ، فلجأ إلى دار مسعود ابن عمر الأزدى ، وقد استخف بكر بن وائل مالك بن مسمع الجحدرى ، فجمع وأعد وطلب من الأزد المحالفة على نصرة عبيد الله بن زياد ؛ ورده إلى دار الإمارة فلم ينجح » .

(٢) فى زيادات الكامل . « أى ياخيبة من يخيب » . والرباب : قبائل ، والبيتان لزيد الخيل ذكرهما ابن قتيبة فى الشعراء ٢٤٦ ، وفيه وفى الكامل : « الركاب » بدل « الرباب » .

(٣) الكامل : « الأغلب » .

(٤) سورة الإنسان آية : ١

فأغضبه ؛ فقال : والله لقد بلغنى أنّ امرأة الحُضَيْنِ حُمِلَتْ إليه وهى حُبْلى من غيره ؛ قال: فما تحرك الشيخ عن هيئته الأولى ، بل قال على رِسْلِه[1]: وما يكون ! تلد لاما على فِراشِى ؛ فيقال: فلان ابن الحُضَين ؛ كما يقال: عبد الله بن مسلم ؛ فأقبل قتيبة على عبدالله؛ وقال له : لايبعِد الله غيرك[2].

وغرضنا من هذه الحكاية الأدبية المستحسنة قول الحُضَيْن تعريضا بفاحشة عبدالله: « أجلْ ؛ أسنّ عمّك عن تسوّر الحيطان » .

***

ويحكى أن أبا العيناء أهدَى إلى أبى علىٍّ البصير — وقدولد لهمولود — حَجَرا ، يذهب فى ذلك إلى قوله عليه السلام: « الولدللفراش، وللعاهر الحجَر »، فاستخرج أبو علىٍّ ذلك بفطنته وذكائه ؛ ثم ولد بعدأيام لأبى العيناء مولود ؛ فقال له : فى أىّ وقت وُلِدلك ؟ قال :وقت السَّحَر، فقال: اطَّرد قياسُه ،وخرج فى الوقت الذى يخرج فيه أمثاله — يعنى السُّؤال — يعرّض بأن أبا العيناء شحّاذ ، وأن ولده خرج يشبهه[3].

***

ومن التّعريضات والرموز بالفعل دون القول ما ذكره مؤرّج بن عمرو السّدوسىّ فى كتاب " الأمثال " أن الأحوص بن جعفر الكلابىّ ، أتاه آتٍ من قومه، فقال: إن رجلا لانعرفه جاءنا، فلما دنا منّا حيث نراه ، نزل عن راحلته ، فعلّق على شجرة وَطْبًا من لبن، ووضع فى بعض أغصانها حَنْظَلة ، ووضع صُرّة من تراب ، وحُزْمة من شوك ، ثم أثار راحلته ، فاستوى عليها وذهب — وكان أيام حرب تميم وقيس عَيْلان — فنظر الأحوص فى ذلك ، فعىّ به ،فقال : أرسلوا إلى قيس بن زهير ،فأتوا قيسا ، فجاءوا به إليه ، فقال له : ألم تك أخبرتنى أنه لايرِد

---

(١) على رسله : أى على مهله وتؤدته .

(٢) الكامل ٢ : ١٣ ، ١٤ .

(٣) كنايات الجرجانى ٧٩

عليك أمرٌ إلا عرفتَ مافيه مالم تر نواصيَ الخيل ! قال : ماخبرُك؟ فأعلمه ، فقال : «قد بَيّن الصبح لذى عينين » ، هذا رجل قد أُخِذَتْ عليه العهود ألا يكلّمكم ، ولا يرسل إليكم، وإنه قد جاء فأنذركم . أما الحنظلة ، فإنه يخبركم أنه قد أتاكم بنو حنظلة ، وأما الصُّرّة من التراب ، فإنه يزعُم أنّهم عدد كثير ، وأما الشوك فيخبركم أنّ لهم شَوْكة، وأما الوطْب فإنه يدلّكم على قُرْب القوم وبعدهم ؛ فذوقوه ، فإن كان حُلْواً حليبا فالقوم قريب ، وإن كان قارصا[1] فالقوم بعيد ،وإن كان المَسِيخ[2] لاحلوا ولا حامضا فالقوم لاقريب ولا بعيد. فقاموا إلى الوَطْب فوجدوه حليبا ، فبادروا الاستعداد ، وغشيَتْهم الخيل فوجدتهم مستعدين[3] .

ومن الكنايات، [4]بل الرّموز الدقيقة[4] ، ماحِكَيَ أنّ قتيبة بن مسلم دخل على الحجاج وبين يديه كتاب قد وَرَد إليه من عبد الملك، وهو يقرؤه ، ولا يعلم معناه ، وهو مفكّر، فقال : ماالذى أحزن الأمير ؟ قال : كتاب وَرَد من أمير المؤمنين ، لاأعلم معناه ، فقال : إنْ رأى الأميرُ إعلامِي به ! فناوله إياه ، وفيه : « أمابعدُ ، فإنك سالم ، والسلام » . فقال قتيبة : مالى إن استخرجتُ لك ما أراد به ؟ قال : ولاية خراسان ، قال : إنه مايسرّك أيها الأمير ، ويقرُّ عينك ، إنما أراد قول الشاعر :

يُدِيرُونَنِي عَنْ سالِمٍ وأديرهُمْ   وَجِلْدَةُ بَيْنَ العين والأنف سالم[5]

أى أنت عندى مثل سالم عند هذا الشاعر ؛ فولّاه خراسان[6] .

حكى الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " قال : خطب الوليد بن عبد الملك فقال:

---

(١) القارص : اللبن الحامض .
(٢) المسيخ : الذى لاطعم له .
(٣) كنايات الجرجانى ٨٠
(٤ — ٤) ساقط من ا ، ج
(٥) البيت فى اللسان ١٥ : ١٩١ ، ونسبه إلى عبد الله بن عمر ، يقوله فى ابنه سالم .
(٦) كنايات الجرجانى ٨٢

« أمير المؤمنين عبدُ الملك قال : إن الحجّاج جلدة ما بين عيني وأنفي ، ألا وإني أقول : إن الحجّاج جلدة وجهي كله »[1] .

وعلى ذكر هذا البيت، حُكي أنّ رجلا كان يسقي جلساءه شرابا صِرْفا غير ممزوج؛ وكان يحتاج إلى المَزْج لقوّته ؛ فجعل يغنّي لهم :

يُديرونَني عَنْ سالمٍ وأديرهُمْ   وجِلدة بين العَيْن والأنف سالم[2]

فقال له واحد منهم : ياأبا فلان،لو نقلت «ما» من غنائك إلى شرابك، لصلَح غِناؤنا ونبيذنا جميعا[3] .

ويشبه حكاية قتيبة والحجاج كتابُ عبد الملك إلى الحجاج ، جوابا عن كتاب كتبه إليه يغلِظ فيه أمرَ الخوارج ، ويذكر فيه حال قَطَرِيّ وغيره وشدة شوكتهم؛ فكتب إليه عبد الملك : « أوصيك بما أوصَى به البكريّ زيدا ؛ والسلام » .

فلم يفهم الحجاج ما أراد عبد الملك ، فاستعلم ذلك من كثير من العلماء بأخبار العرب فلم يعلموه ، فقال : مَنْ جاءني بتفسيره فله عشرة آلاف درهم ؛ وورد رجل من أهل الحجاز يتظلّم من بعض العمال ، فقال له قائل : أتعلم ماأوصَى به البكريّ زيدا ؟ قال : نعم أعلمه ، فقيل له : فأت الأمير ؛ فأخبِرْه ولك عشرة آلاف درهم ،فدخل عليه فسأله ،فقال: نعم أيها الأمير ، إنه يعني قوله :

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهمْ   يرون المنايا دون قتلِك أو قتلي[4]

فإنْ وضعوا حربا فضعها،وإن أبوْا   فَعُرْضَةُ نارِ الحرب مثلك أومثلِي

وإن رفعوا الحرْبَ العوانَ التي ترى   فشُبّ وقود النار بالحطَب الجَزْل

فقال الحجاج : أصاب أمير المؤمنين فيما أوصاني؛ وأصاب البكريّ فيما أوصى به زيدا ؛ وأصبت أيها الأعرابي ؛ ودفع إليه الدّراهم .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٩٢

(٢) كذا في الأصول وكتاب الكنايات ؛ ويبدو أن الأصوب زيادة كلمة « ما » بعد كلمة « وجلدة » على سبيل الخطأ ؛ ليكون الخبر مفهوماً .

(٣) كنايات الجرجاني ٨٢ .

(٤) الأبيات لموسى بن جابر ، حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ٣٣٦ ، والترترة : العجلة .

وكتب إلى المهلّب : إنّ أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرىّ زيدا ؛ وأنا أوصيك بذلك ؛ وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه .

فنظر المهلب فى وصية الحارث بن كعب، فإذا فيها: يابنىّ كونوا جميعا، ولا تكونوا شيَعا فتفرّقوا ، وبزّوا قبل أن تُبَزّوا . الموت فى قوّة وعزّ ،خير من الحياة فى ذلّ وعجز . فقال المهلّب : صدق البكرىّ وأصاب ، وصدق الحارث وأصاب .

***

واعلم أنّ كثيرا مما ذكرناه داخلٌ فى باب التعريض ؛ وخارج عن باب الكناية ؛ وإنما ذكرناه لمشابهة الكناية ، وكونهما كالنوعين تحت جنس عام؛ وسنذكر كلاماً كليًّا فيهما إذا انتهينا إلى آخر الفصل إن شاء الله .

ومن الكنايات قول أبى نواس :

وَناظِرَةٍ إلىَّ من النقابِ تلاحِظُنى بطَرْفٍ مستراب[1]

كَشَفْتُ قِناعها فإذا عجوزٌ مُمَوّهَةُ المفارِق بالخِضاب

فما زالت تجشّمِنى طويلا وتأخذ فى أحاديث التَصابِى

تحاولُ أنْ يقومَ أبو زيادٍ ودون قيامه شَيْبُ الغراب

أتت بجرابها تكتال فيهِ فقامت وهى فارغةُ الجراب

والكناية فى البيت الأخير وهى ظاهرة .

ومنها قول أبى تمام :

مالِى رأيتُ ترابَكمْ بئسَ الثَرَى مالِى أرَى أطْوادَكم تتهدّم[2]

---

(١) المثل السائر ٢ : ٢٠٧

(٢) ديوانه ٣ : ١٩٩ ؛ وديوانه :

[illegible]

فكنى بـ « بئس الثرى » عن تنكُّرِ ذات بينهم ؛ وبـ « تهدّم الأطواد » عن خِفة حلومهم وطيش عقولهم .

ومنها قول أبي الطيب :

وَشَرٌّ ماقَنَصَتْه راحَتِي قَنَصٌ   شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ[(١)]

كَنَى بذلك عن سيف الدولة ؛ وأنه يساوى بينه وبين غيره من أراذل الشعراء وخامليهم في الصلة والقرب .

***

وقال الأقيشر لرجل : ماأراد الشاعر بقوله[(٢)] :

ولقد غدوت بِمُشْرِفٍ يافوخُهُ   مثل المراوة ماؤه يتفصَّدُ[(٣)]

أرِنٍ يسيل من المراح لُعابُهُ   وبكاد جلد إهَابِهِ يتقدَّدُ[(٤)]

قال : إنه يصف فرساً ؛ فقال : حملك الله على مثله ، وهذان البيتان من لطيف الكناية ورشيقها ؛ وإنما عَنَى العضو .

وقريب من هذه الكناية قول سَعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، وهو غلام يختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ولد هشام بن عبد الملك ، وقد جمشه[(٥)] عبد الصمد فأغضبه ، فدخل إلى هشام ، فقال له :

إنه واللهِ لولا أنتَ لم   يَنْجُ مِنّي سالماً عبدُ الصمدْ

---

(١) ــ ديوانه ٣ : ٣٧٣ .

(٢) الخبر والبيتان ومعهما ثالث في كنايات الجرجاني ٢٠ ؛ وفيه : « وحكى ابن دريد قال : وقف أعرابي على أبي عبيدة فقال : مايعني الشاعر بقوله ... إلى آخر ؛ الخبر » وهما أيضا في شرح التبريزى على الحماسة ٤ : ٣٥٦ .

(٣) رواية التبريزى : « عسر المكرة » .

(٤) أرن ، أى نشيط ، ورواية التبريزى : « مرح يمج » ؛ وذكر بعده :

حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مَشَقَّ ثَنِيَّةٍ   طَوْراً أغُورُ بِهِ وَطَوْراً أُنْجِدُ

(٥) الجمش : الملاعبة والمغازلة

قال هشام : ولِمَ ذلك ؟ قال :

إنهُ قدْ رَامَ مِنِّى خُطَّةً لم يَرُمْها قبلَه مِنِّى أحـــد

قال هشام : وما هى ؟ ويحك ! قال :

رَامَ جَهْلاً بى وجــهلا بِأبى يُدْخِلُ الأفعى إلى بيت الأسدْ

فضحك هشام ، وقال : لو ضربتَه لم أنـكِرْ عليك[1] .

ومن هذا الباب قول أبى نواس :

إذا ما كنتَ جارَ أبى حُسَيْنٍ فَنَمْ ويَدَاكَ فِى طَرَفِ السِّلَاحِ[2]

فإنَّ له نســـاء سارقاتٍ ـ إذا مابِنَّ ـ أطراف الرِّمَاحِ

سرقن وقد نزلتُ عليه عضوى فلم أظفر به حتّى الصبـــاح

فجـــاء وقد تَخَدَّشَ جانباه يَئِنُّ إلى من ألمِ الجـــراحِ

والـكناية فى قوله : « أطراف الرماح » ، وفى قوله : « فى طرف السلاح » .

* * *

ومن الـكناية الحسنة قول الفرزدق يرْثِى امرأته ، وقد ماتت بجُمْعٍ[3] :

وجفنِ سلاحٍ قد رزئتُ فلم أنُحْ عليه ، ولم أبعث عليه البواكِيَا[4]

وفى جوفه من دارمٍ ذُو حفيظةٍ لَوَ انَّ المنايا أخطأته ليـــاليا[5]

---

(١) الأغانى ٨ : ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢) المثل السائر ٢ : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) بجمع ، أى ماتت وولدها فى بطنها .

(٤) ديوانه ٨٩٤ ؛ وروايته : « وغمد سلاح » .

(٥) الديوان :

* لَوْ أنَّ اللَّيَالِى أنسأته لَيَالِيَا *

أخذه الرضيّ رحمه الله تعالى فقال يرثى امرأة :

إن لم تَكُنْ نصلا فغِمْدُ نُصُولِ   غالَتْهُ أحداثُ الزمانِ بغَولِ[1]
أو لم تَكُنْ بأبى شُبول ضيغم   تَدْمَى أظـــافرُه فأمّ شُبُولِ

ومن الكنايات ما يروى أنّ رجلا من خواصّ كسرى أحبّ الملكُ امرأته ، فكان يختلف إليها سرًّا وتختلف إليه ، فعلم بذلك ، فهجرها وترك فراشها ، فأخبرتْ كسرى ، فقال له يوما : بلغنى أنّ لك عيناً عذبة ، وأنك لا تشرب منها ! فقال : بلغنى أيّها الملك أنّ الأسد يَرِدُها فخفتهُ ، فتركتها له ؛ فاستحسن ذلك منه ووصله .

* * *

ومن الكنايات الحسنة قول حاتم :

وما تشتكينى جارَتى غير أنّنى   إذا غاب عنها بَعْلُها لا أزُورها[2]
سيبلغها خيرِى ويرجع بعلُها   إليها ، ولم يُسْبَلْ علىّ ستورُها[3]

فكنّى بإسبال الستر عن الفعل ؛ لأنه يقع عنده غالبا .

فأما قول عمر : « مَنْ أرخى سترا أو أغلق بابا فقد وجب عليه المهر » . فيمكن أن يُكْنَى بذلك عن الجماع نفسه ؛ ويمكن أن يُكْنَى به عن الخلوة فقطْ ؛ وهو مذهب أبى حنيفة ؛ وهو الظاهر من اللفظ لأمرين : أحدهما قوله : « أغلق بابا » فإنه لو أراد الكناية لم يحسن الترديد بـ « أو » ، وثانيهما أنه قد كان مقررا عندهم أنّ الجماع نفسه يُوجب كمال المهر ؛ فلم يكن به حاجة إلى ذكر ذلك .

ويشبه قولَ حاتم فى الكناية المقدّم ذكرها قولُ بَشّار بن بشر[4] :

---

(١) ديوانه لوحة ١٤٩ ؛ مطلع قصيدة يعزى فيها أبا سعد بن خلف عن أخته .

(٢) ديوانه ١١٠

(٣) الديوان : « ولم يقصر على » .

(٤) هو بشار بن بشر المجاشعى ؛ حماسة ابن الشجرى ١٣٥ ، والأبيات أيضا فى أمالى المرتضى ١ : ٣٢٩ ونسبها إلى هلال بن خثعم ، مع اختلاف فى الرواية ، وترتيب الأبيات .

وإنى لَعَفٌّ عَنْ زِيارَةِ جارَتى … وإنى لمشنُوءٌ إلىّ اغتيابُهــــا
وَلَمْ أَكُ طَلَّابا أحاديثَ سِرِّها … ولا عالماً من أىّ حَوْكٍ ثيابُها[1]
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكُنْ لَهَا … زَءوراً ولم تنبَحْ عَلَىّ كلابُها[2]

وقال الأخطل فى ضدّ ذلك يهجو رجلا ويرميه بالزنا :

سَبَنْتَى يظَلُّ الكَلْبُ يمضَغُ ثَوْبَهُ … لَهُ فى ديارِ الغانياتِ طَرِيقُ[3]

السَّبنتى : النَّمِر ؛ يريد أنه جرىء وقح ، وأنّ الكلب لأنسه به وكثرة اختلافه إلى جاراته يعرفه ، ويمضغ ثوبه ، يطلب ما يطعمه ، والعفيف ينكره الكلب ولا يأنس به ؛ ثم أكّد ذلك بأنه قد صار له بكثرة تردّده إلى ديار النساء طريق معروف .

* * *

ومن جيّد الكناية عن العفّة قول عَقِيل بن عُلَّفة المرّىّ[4] :

وَلَسْتُ بسائلٍ جارَاتِ بيتى … أغيّابٌ رجالُكِ أم شُهُودُ[5]

---

(١) رواية المرتضى :

* وَمَا أَنَا بالدَّارِي أحَادِيثَ بيتِهَا *

وذكر بعده :

وَإِنَّ قِرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مِلْؤُهُ … وَيَكْفِيكَ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ اجْتِنَابُهَا

وزاد ابن الشجرى بعده :

إِذَا سُدَّ بَابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ … فَذَرْهَا لِأُخْرَى لَيِّنٍ لَكَ بَابُهَا

(٢) ابن الشجرى : « لم تأنس إلى كلابها » ، ويقال : رجل زوّار وزءور ، كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٣) ديوانه ٢٦٧ ، وروايته : «له فى معان الغانيات » ، وفى شرحه : «المعان : منزل القوم وعلمهم» . وفيه أيضا : « السبنتى : الذئب » .

(٤) من أبيات فى حماسة أبى تمام ـ بشرح التبريزى ١ : ٣٧٧ ، واللآلى ١٨٠ ، والخزانة ٤ : ١٢ ، وكنايات الجرجانى ١٠ ، وفى الأصول وكتاب الجرجانى « عقيل بن علقمة » ، وهو خطأ .

(٥) قال التبريزى : « ويجوز أن يكون عرض بقذف الذى يهجوه ، كما يقول من لم تجر عادته بلزوم الأسواق لمن هو متعود المبايعة والمشاراة : لست أعاشر المنادين ولا أبخس إذا وزنت ، أى أنك باسامع تتحر بذلك » .

وَلَا مُلْقٍ لِذِي الْوَدَعَاتِ سَوْطِي ... أَلاعِبُهُ وَرِيبتَـــــهُ أُرِيد (١)

* * *

ومن جيّد ذلك ومختاره قولُ مسكين الدارميّ :

نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ ... وإليه قبلي تَنْزِلُ الْقِدْرُ (٢)

ما ضرّ جاراً لِي أجاوِرُه ... ألّا يكون لبابِهِ سِتْرُ

أعمى إذا ما جارتي بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوارِيَ جارتي الخِدْرُ (٣)

* * *

والعرب تكْني عن الفَرْج بالإزار ؛ فتقول : هو عفيف الإزار ، وبالذيل ؛ فتقول : هو طاهر الذّيل ؛ وإنما كنوْا بهما ؛ لأنّ الذيل والإزار لابدّ من رفعهما عند الفعل ؛ وقد كنوْا بالإزار عن الزوجة في قول الشاعر :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بِشْرٍ رَسُولاً ... فِداً لكَ من أخِي ثِقَةٍ إزارِي (٤)

يريد به زوجتي ؛ أو كنّى بالإزار ها هنا عن نفسه .

وقال زُهير :

---

(١) يعني بذي الودعات الطفل ، لأنهم يعلقون عليه الودع .

(٢) الأبيات في معجم الأدباء ١١ : ١٣١ ، ١٣٢ ، وأمالي المرتضى ١ : ٤٣ ، ٤٤ ، وكنايات الجرجاني ١٠ .

(٣) معجم الأدباء : « أغضي » ، وذكر بعده :

ويصمّ عمّا كان بينهما ... سَمْعِي وَمَا بِي غيرُهُ وَقْرُ

(٤) البيت مع آخر في كنايات الثعالبي ٣ ، ذكرها في خبر ، قال : « وأما الكناية بالقلوص ، فكما كتب رجل من مغزى كان فيه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصيه بنسائه :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا حَفْصٍ رَسُولاً ... فِداً لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ إِزَارِي

قَلائِصَنَا هَدَاكَ اللهُ إِنَّا ... شُغِلْنَا عَنْكُمُ زَمَنَ الْحِصَارِ

الحافِظُونَ ذِمَامَ عَهْدِهِمُ   والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ(١)
السِّتْرُ دون الفاحشات ولا   يلقاكَ دون الخيرِ مِنْ سُتُرِ

***

ويقولون فى الكناية عن العفيف : ما وضعتْ مُومسة عنده قِناعا ؛ ولا رفع عن مومسة ذيلا .

وقد أحسن ابنُ طباطبا فى قوله :

فَطَرِبْتُ طَرْبَةَ فاسقٍ متهتِّكٍ   وَعَفَفْتُ عِفَّةَ نَاسِكٍ متحرِّجِ(٢)
الله يعلمُ كيفَ كانت عِفَّتِي   ما بين خَلخالٍ هُنَاكَ ودُمْلُجِ

ومن الكناية عن العفّة قولُ ابن ميّادة :

وَمَانِلْتُ مِنْهَا مُحَرَّمًا غَيْرَ أَنَّنِي   أُقَبِّلُ بَسَّامًا من الثَّغْرِ أَفْلَجَا(٣)
وأَلْثِمُ فاها آخــذاً بقرونها   وأتركُ حاجاتِ النُّفوس تحرُّجا

فكنى عن الفعل نفسه بحاجات النفوس ، كما كنى أبو نواس عنه بذلك العمل فى قوله :

مَرَّ بِنَا وَالعُيُونُ تَرْمُقُهُ   تَجْرَحُ مِنْهُ مواضِعَ القُبَلِ

(١) كذا نسب المؤلف البيتين لزهير ، والثانى فى ديوانه ٩٥ ، من قصيدته التى يمدح فيها هرم بن سنان ، ومطلعها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ   أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرِ

وليس منها البيت الأول ، وهو فى الكامل ٤٩٥ ، واللآلى ٥٤٨ من أبيات للخرنق أخت طرفة ، بهذه الرواية ، وفى وخزانة الأدب ٤ : ٣٠١ وكنايات الجرجانى ١١ ، والكتاب بهذه الرواية :

النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ   والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ

(٢) كنايات الجرجانى ١٠
(٣) كنايات الجرجانى ١١

أفرغَ فى قالب الجمال فما   يصلح إلا لذلك العَمَلِ

وكما كنى عنه ابن المعتزّ بقوله :

وَزَارَنِى فِى ظَلامِ اللَّيلِ مُسْتَتِراً   يستعجلُ الخطوَ من خَوفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضَحُه   مثل القُلامة قد قُصَّتْ من الظُّفُرِ
فقمت أفرش خَدِّى فى الطريق لَهُ   ذُلًّا وأسحبُ أذيَالِى على الأثرِ
فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ   فظُنَّ خَيراً ولا تسأل عن الخبرِ

***

ومما تطيّروا من ذكره، فكنَوْا عنه قولُهم: «مات»، فإنهم عبّروا عنه بعبارات مختلفة داخلة فى باب الكناية، نحو قولهم : «لعق إصبعه» . وقالوا : «اصفرّت أنامله» لأن اصفرار الأنامل من صفات الموتى، قال الشاعر[1]:

فَقَرِّبَانِى   بأبِى   أنتُمَا   مِنْ وَطَنِى قَبلَ اصفِرار البنانْ
وَقَبلَ   مَنعاىَ   إلى   نِسوَةٍ   منزلها   حَرّان   والرَّقتان[2]

وقال لَبيد :

وَكُلّ أناسٍ سَوفَ تَدْخلُ بينهمْ   دُوَيْهِيَةٌ   تصفرُّ   منها   الأنامِلُ[3]

يعنى الموت .

ويقولون فى الكناية عنه: صَكّ لفلانٍ على أبى يحيى، وأبو يحيى كنية الموت، كُنِىَ عنه بضده، كما كنوا عن الأسود بالأبيض، وقال الخوارزمىّ :

سريعةُ موتِ العاشقين كأنّما   يَغارُ عليهمْ مِنْ هَواهَا أبُو يحيى[4]

---

(١) هو عوف بن محلم الخزاعى، من قصيدة يمدح فيها عبد الله من طاهر وأباه، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٤٣ ، ١٤٤ وأولها :

يَابْنَ الّذِى دَانَ له المَشرقان   وألبَسَ الأمنَ به المغربانْ
إن الثمانين — وبلغتها —   قدأحوجَتْ سَمعى إلى ترجُمان

(٢) كنايات الجرجانى ٤٩ وفيها : «والرقان» .
(٣) ديوانه ٢ : ٢٨
(٤) كنايات الجرجانى ٤٩ ، وثمار القلوب ١٩٧ .

وكنى رسول الله صلى الله عليه وآله عنه بهاذم[1] اللذات ، فقال : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » .

وقال أبو العتاهية :

رأيتُ المنايا قُسِّمَتْ بينَ أنفسٍ ... ونفسي سيأتي بينهنَّ نصيبُها[2]
فياهاذِمَ اللَّذاتِ مامِنْكَ مَهْرَبٌ ... تحاذِرُ نفسي مِنْكَ ما سَيُصيبُها

وقالوا : حلّقت به العنقاء ، وحلّقت به عنقاء مُغرِب ، قال :

فلولا دِفاعِي اليومَ عنك لحلّقتْ ... بِشِلْوِكَ بَيْنَ القَوْمِ عَنْقاءُ مُغْرِبُ[3]

وقالوا فيه : زَلّ الشِّراكُ عن قدمه ، قال :

لا يسلمون العداة جارَهُمُ ... حتى يَزِلَّ الشِّراكُ عن قَدَمِه[4]

أي حتى يموت ، فيستغني عن لبس النعل .

فأما قولهم : « زلّت نعله » فيكنّى به تارة عن غَلَطه وخطئه ، وتارة عن سوء حاله واختلال أمره بالفقر ، وهذا المعنى الأخير أراده الشاعر بقوله :

سَأَشْكُرُ عَمْراً ماتراخَتْ مَنِيَّتِي ... أياديَ لَمْ تُمْنَنْ وإن هِيَ جَلَّتِ[5]

---

(١) هاذم ، بالذال ؛ أي قاطع .

(٢) ديوانه ٣٥ ، وكنايات الجرجاني ٤٩

(٣) كنايات الجرجاني ٥٠ ، وروايته :

إذا ما ابنُ عبدِ اللهِ خلّى مكانَهُ ... فقدْ حلّقتْ بالحقِّ عنقاءُ مُغْرِبُ

(٤) كنايات الجرجاني ٥٠

(٥) معجم الشعراء للمرزباني ٣٥٩ ؛ ونسبها إلى محمد بن سعد الكاتب التميمي ، أمالي القالي ١ : ٤٠ ، ونسبها لبعض الأعراب : وقال أبو عبيد البكري في اللآلي : الشعر لأبي الأسود الدؤلي ؛ وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص ؛ فبينا هو يحدثه إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق ؛ فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب فقال هذا الشعر . وذكر علي بن الحسين أن الشعر لعبد الله ابن الزبير الأسدي ؛ وأنه أتى عمرو بن أبان ؛ فسأله فقال لوكيله : اقترض لنا مالا ؛ فقال : مايعطينا التجار ؛ فقال : أربحهم ؛ فاقترض ثمانية آلاف باثني عشر ألفا ؛ فهو أول من تين (أي استقرض بالربا ، من العينة) ؛ فقال فيه ابن الزبير ... وذكر الأبيات : اللآلي ١٦٦ . وقيل : الشعر لإبراهيم بن العباس الصولي ؛ مجموعة المعاني ٦٦ ، ابن خلكان : ٧ ٢٤٧ . والأبيات أيضا في حماسة أبي تمام – بشرح المرزوقي ٤ : ١٥٨٩ من غير نسبة.

فَتًى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقِه ... ولا مظهرِ الشكوى إذَا النَّعل زَلّتِ
رأى خَلَّتي من حيث يخفى مكانُها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ

ويقولون فيه : شَالَتْ نعامتُهُ ، قال :

ياليتَ أُمِّيَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُها ... أَيْمَا إلى جَنَّةٍ أَيْمَا إلى نارِ[1]
ليست بِشَبْعَى ولو أوردْتُهاهَجَراً ... ولا بِرَيّا وَلَوْ حَلّتْ بذِي قَارِ

أي لا يشبعُها كثرة التمْر ولو نزلت هَجَر ـ وهَجَر كثيرة النخل ـ ولا تروى ولو نزلت ذا قار ، وهو موضع كثير الماء .

قال ابن دريد : والنعامة خطّ باطنِ القدم في هذه الكناية .

ويقال أيضا للقوم قد تفرّقوا بجلاء عن منازلهم : شالتْ نعامتُهم ، وذلك لأنّ النعامة خفيفة الطيران عن وجه الأرض ، كأنهم خَفّوا عن منزلهم .

وقال ابن السكّيت : يقال لمن يغضب ثم يسكنُ : شالت نعامتُه ثم وقعت .

وقالوا أيضا في الكناية عن الموت : مضى لسبيله ، واستأثر الله به ، ونقله إلى جواره ، ودُعِي فأجاب ، وقضى نحبَه ، والنَّحْب : النذر ، كأنهم رأوْا أنّ الموت لمّا كان حتما في الأعناق كان نذرا .

وقالوا في الدعاء عليه: اقتضاه الله بذنبه؛ إشارة إلى هذا ؛ وقالوا : ضَحَا ظلّه ، ومعناه صار ظله شمسا ؛ وإذا صار الظل شمسا فقد عدم صاحبه .

ويقولون أيضا : خلّى فلان مكانه ؛ وأنشد ثعلب للعتبيّ في السريّ بن عبدالله :

كأنّ الذي يأتي السريَّ لحاجةٍ ... أباحَ إليه بالّذي جاء يطلبُ[2]
إذا ما ابنُ عبد الله خَلّى مكانه ... فقد حلّقت بالجودِ عَنْقاء مُغْرِبُ

---

(١) كنايات الجرجاني ٥٠ ؛ والبيت الأول من شواهد المغني ١ : ٥٣ (المطبعة الشرقية ١٣٢٨)؛ وفي حاشية الأمير : « هو لرجل من بني عبد القيس ؛ يقال له سعد ؛ كان عاقا لأمه ، وكانت بارة به » .

(٢) كنايات الجرجاني ٥٠

وقال دُريد بن الصِّمّة :

فإن يكُ عبدُ الله خلَّى مكانَه   فما كانَ وَقّافاً ولا طائشَ اليدِ[1]

وكثير ممّن لا يفهم يعتقد أنه أراد بقوله : « خلّى مكانه » فرّ ، ولو كان كذلك لكان هجاء .

ويقولون : وقع فى حِياضِ غُتَيمٍ ، وهو اسم للموت[2] .

ويقولون : طار من ماله الثّمين ؛ يريدون الثُّمُن ، يقال: ثُمْن وثمين ، وسُبْع وسبيع ، وذلك لأنّ الميّت ترث زوجته من ماله الثمن غالبا ، قال الشاعر يذكر جودَه بماله ويخاطب امرأته :

فلا وأبيكِ لا أولى عَلَيْها   لتمنع طالباً منها اليمين[3]

فإنى لست منكِ ولستِ منّى   إذا ما طار من مالى الثمين

أى إذا مت ، فأخذتِ ثُمنَكِ من تركتى .

وقالوا : لحق باللطيف الخبير ، قال :

وَمِنَ النّاس مَنْ يُحِبّك حُبّاً   ظاهِرَ الوُدِّ ليس بالتقصيرِ[4]

فإذا ما سألتَهُ رُبْعَ فَلْسٍ   ألحق الوُدَّ باللطيف الخبيرِ

وقال أبو العلاء :

لا تَسَلْ عَنْ عِداكَ أين استقرُّوا   لَحِقَ القومُ باللطيف الخبير[5]

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٠ .

(٢) كنايات الجرجانى ٥٠ .

(٣) كنايات الجرجانى ٥٠ .

(٤) كنايات الجرجانى ٤٨ ؛ وقال : هذان ينسبان لدعبل ؛ بعد البيت الأول :

وَإذا ما خَبَرْتَهُ شَهِدَ الطَّرْ   فُ على حُبّه بما فى الضميرِ

وَإذا ما بَحَثْتُ قُلْتُ : كهذا   ثِقَةٌ لِى وَرأسُ مالٍ كبيرِ

(٥) سقط الزند ٢٣٤ ، وكنايات الجرجانى ٤٨ .

ويقولون : قَرِضَ رباطَه(١) ؛ أى كاد يموت جهدا وعطشا .

وقالوا فى الدعاء عليه : لا عُدّ مِنْ نفره ؛ أى إذا عُدّ قومُه ؛ فلا عُدّ معهم ، وإنما يكون كذلك إذا مات ، قال امرؤ القيس :

فَهْوَ لَا تَنْمِي رَمِيَّــتُهُ ... مَالَهُ لا عُدَّ مِنْ نَفَرِهْ(٢)

وهذا إنما يريدبه وصفَه ؛ والتعجّب منه ؛ لا أنّه يدعو عليه حقيقة؛ كما تقول لمن يجيد الطعن : شَلّتْ يَدُه ؛ ما أحذقه !

* * *

وقالوا فى الكناية عن الدّفن : أضلُّوه وأضلّوا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٣) ؛ أى إذا دُفنّا فى الأرض .

وقال المخبّل السعدىّ :

أَضَلَّتْ بنو قَيْس بن سعدٍ عَمِيدَهَا ... وَسَيِّدَها فى الدَّهْر قَيْسَ بْنَ عاصِمِ(٤)

* * *

ويقولون للمقتول : رَكِب الأشقر ، كناية عن الدم ، وإليه أشار الحارث بن هشام المخزومىّ فى شعره ، الذى يعتذر به عن فراره يوم بَدْر عن أخيه أبى جهل بن هشام حين قتل :

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَــالَهُمْ ... حَتّى عَلَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ(٥)

(١) الرباط هنا : القلب .

(٢) ديوانه ١٢٥ ؛ وفى شرحه : قوله : « فهو لا تنمى رميته » ؛ أى لا تنهض بالسهم وتغيب عنه ، بل تسقط مكانها لإصابته مقتلها ، يقال : نمت الرمية وأنماها الرامى ، إذا مضت بالسهم فغابت به . . . . وقوله : « لا عد من نفره » دعاء عليه على وجه التعجب .

(٣) سورة السجدة ١٠

(٤) اللسان ١٣ : ٤١٩ ، ورواه : « وفارسها » .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٨٥ .

وعلمت أنى إن أقاتلْ واحداً أقتلْ ولا يضرُرْ عدُوّى مَشْهدِى (١)

فصدتُ عنهم والأحبةُ فيهمُ طمعاً لهم بعقاب يوم مرصدِ (٢)

أراد بدم أشقر ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه كناية عنه ؛ والعرب تقيم الصفة مقام الموصوف كثيرا ، كقوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (٣) ، أى على سفينة ذات ألواح ، وكقول عنترة :

* تمكو فريصته كشدق الأعلم (٤) *

أى كشدق الإنسان الأعلم ، أو البعير الأعلم .

ويقولون : ترك فلان بجعجاع ؛ أى قتيل ، قال أبو قيس بن الأسلت :

مَنْ يَذُقِ الحَرْبَ يجدْ طعمها مُرًّا وتتركه بجعجاعِ (٥)

أى تتركه قتيلا مخلّى بالفضاء .

***

ومما كنوا عنه قولهم للمقيَّد : هو محمول على الأدهم ؛ والأدهم : القيد ، قال الشاعر :

أوعدنى بالسجن والأداهمِ رجلي ورجلي شثنةُ المناسمِ

وقال الحجاج للغضبان بن القبعثرى : لأحملنك على الأدهم ، فتجاهل عليه ؛ وقال : مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب (٦) .

---

(١) ابن هشام : « ولا يبكى عدوى » .

(٢) ابن هشام : « مفسد » .

(٣) سورة القمر ١٣

(٤) من المعلقة ١٩٢ ـ بشرح التبريزى ، وصدره :

* وحليل غانية تركت مجدلا *

الحليل : الزوج . والغانية : التى استغنت بزوجها ، أو بحسنها ، وقيل : هى الشابة . وتمكو : تصفر . والفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والإنسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

(٥) جهرة أشعار العرب ١٢٦ . والجعجاع : المكان الذى ينشف فيه الماء .

(٦) كنايات الجرجانى ٢٤

وقد كنوا عن القَيْد أيضاً بالأسمر ، أنشد ابن عرفة لبعضهم :

فما وَجْدُ صُعلوك بصنعاء موثَقٍ بساقيه من سُمْرِ القيود كُبُولُ
قليلُ الموالِي مُسْلَمٌ بجريرةٍ له بعد نَوْماتِ العيون غَليلُ
يقول له البوّاب أنت معذّبٌ غَدَاةَ غدٍ أو رائحٌ فقتيلُ
بأكثرَ مِنْ وجدي بكم يوم رَاعَنِي فراقُ حبيب ما إليه سبيلُ

وهذا من لطيف شعر العرب وتشبيهها .

***

ومن كناياتهم عنه : ركِبَ رَدْعَه ، وأصله في السهم يُرمى به فيرتدع نصلُه فيه ، يقال: ارتدع السهم، إذا رجع النصل في السِّنْخ متجاوزا ، فقولهم : ركبَ رَدْعه ، أي وَقَصَ فدخل عنقه في صَدْره ، قال الشاعر وهو من شعر الحماسة[1] :

تقولُ وَصَكَّتْ صَدْرَها بيمينها أبَعْلِيَ هـذا بالرَّحا المُتقاعِسُ[2]!
فقلتُ لها لا تعجَلِي وتبيَّنِي بلاءَ إذا التفَّتْ علَى الفوارسُ
ألستُ أردُّ القِرنَ يَرْكَبُ رَدْعَه وفيه سِنانٌ ذُو غِرارينِ يابسُ[3]
لَعمرُ أبيكِ الخَيْرِ إنى لَخَادِمٌ لضيفي وإنى إنْ ركبتُ لفارسُ

وأنشد الجاحظ في كتاب '' البيان والتبيين '' لبعض الخوارج[4] :

وَمُسَوَّمٍ للموتِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ بَيْنَ الأسِنَّةِ وَالقَنَا الخَطَّارِ
يَدْنُو وترفعُه الرِّمَاحُ كأنَّهُ شِلْوٌ تنشَّبَ في مخالبِ ضَارِي

---

(١) الكامل ١ : ١٤٢ — بشرح المرصفي ، قال : « ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابي من سعد ابن زيد مناة بن تميم ، وكان مملكا ، فنزل به أضياف ، فقام إلى الرحا فطحن لهم ، فرت به زوجه في نسوة ، فقالت لهن : هذا بعلى ! فأعلم بذلك فقال . . . . » ، وذكر الأبيات : وقد نسب أبو تمام هذه الأبيات إلى المذلول بن كعب العنبري ؛ وانظر الحماسة — بشرح المرزوق ٦٩٠ .

(٢) المتقاعس : الذي يخرج صدره ويدخل ظهره .

(٣) الغرار : الحد .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٤٠٦ ، قال : « وذكر أبو العيزار جماعة من الخوارج بالأدب والخطب فقال » .

فَثَوَى صَرِيماً والرماحُ تَنُوشُهُ إنَّ الشُّرَاةَ قَصيرةُ الأعمارِ (١)

***

وقد تطيّرت العرب من لفظة البَرَص، فكَنَوْا عنه بالوَضَح، فقالوا: جذيمة الوضّاح، يريدون الأبرص، وكُني عنه بالأبرش أيضا، وكلُّ أبيض عند العرب وَضّاح، ويسمّون اللبن وَضَحاً، يقولون: ما أكثر الوَضَح عند بنى فلان (٢)!

***

ومما تفاءلوا به قولهم للفلاة التي يُظَنّ فيها الهلاك: مَفَازة، اشتقاقا من الفَوْز وهو النجاة، وقال بعض المحدَثين:

أحبَّ الفأل حين رأى كَثِيراً أبوهُ عن اقتناء المجدِ عاجزْ (٣)
فسمّاه لِقِلَّتِهِ كَثيراً كتلقيب المهالكِ بالمفاوِزْ

فأما من قال: إن المفازة «مفعلة» من فَوّز الرجل، أى هلك، فإنه يُخرج هذه اللفظة من باب الكنايات.

ومن هذا تسميتهم اللديغ سَليما، قال:

كأنى من تذَكُّرِ ما ألاقى إذا ما أظلم الليل البهيمُ (٤)
سليمٌ ملَّ منه أقربُوه وأسلمه المجاور والحميمُ

---

(١) ثوى: هلك. تنوشه: تأخذه وتتناوله، وفى البيان والتبيين بعده:

أُدْبَاءُ إمّا جئتهمْ خطَبَاءُ ضمناءُ كلَّ كتيبةٍ جرّارِ

(٢) كنايات الجرجانى ٥٣
(٣) كنايات الجرجانى ٥٣
(٤) كنايات الجرجانى ٥٣، ونسبهما إلى بقيلة، وذكر قبله:

أرِقْتُ وَنَامَ عَنّى مَنْ يَلُومُ وَلَكِنْ لَمْ أَنَمْ أَنَا وَالهُمُومُ

وقال أبو تمام فى الشيب[1] :

شُعْلَةٌ فى المفارقِ استودَعَتْنِى ... فى صَميمِ الأحشاء ثُكْلاً صَمِيماً[2]

تستثيرُ الهمومُ ما اكْتَنّ منها ... صُعُدا وهى تستثيرُ الهُموما

دِقّةٌ فى الحياةِ تُدْعَى جَلالًا ... مِثْلما سُمِّىَ اللّديغُ سَلِيما

غُرّة بُهْمَةٌ ألا إنّما كُنْـ ... ـتُ أغرَّ أيامَ كنتُ بهيما

حَلّمتنِى – زعمتمُ – وأرانى ... قبل هذا التَّحْلِيم كُنتُ حَليما

ومن هذا قولهم للأعور : ممتَّع ، كأنهم أرادوا أنه قد مُتِّع ببقاء إحدى عينيْه ؛ ولم يُحْرَمْ ضوءهما معا[3] .

***

ومن كناياتهم على العكس قولهم للأسود : ياأبا البيضاء ؛ وللأسود أيضا : يا كافور ، وللأبيض : ياأبا الجون ؛ وللأقرع : ياأبا الجعد .

وسمّوا الغراب أعور لحدّة بصره ، قال ابن مَيّادة :

ألا طرقَتْنا أمّ عمرو ودُونَها ... فَيافٍ من البَيْدَاء يَعْشى غُرابُها

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٣ ، من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

إنّ عَهْداً لوْ تَعْلَمَانِ ذميما ... أنْ تنَامَا عن ليلتى أو تنيماَ

(٢) قال شارح الديوان : « الشعلة : تحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من شعلة النار ، والآخر أن يكون من شعلة الفرس ، يقال : فرس أشعل ، إذا كان فى ذنبه بياض . وقال : « شعلة فى المفارق » ، فصنع بذلك ، لأن الشعلة جرت عادتها أن تكون فى الأذناب ، وهى هنا فى المفارق ، فهى مخالفة لتلك . وصميم كل شىء : خالصه » .

(٣) الجرجانى ٥٣ ، وروى فى ذلك بيتين :

ولُقّبْتُ بالكافِى عمًى وجَهالَةً ... وإن كانَ أمرُ العجزِ عندكَ أوقَمَا

كما سُمِّىَ الأعمَى بَصِيراً وسمِّى اللـ ... ـديغُ سَليماً ، والمخلّ ممتَّعـا

خَصّ الغراب بذلك لحدّة نظره ؛ أى فكيف غيره !

***

ومما جاء فى تحسين اللفظ ماروِى أنّ المنصورَ كان فى بستان دارِه والربيع بين يديه، فقال له : ماهذه الشجرة ؟ فقال : « وِفاق » يا أمير المؤمنين ؛ وكانت شجرة خِلَاف ، فاستحسن منه ذلك .

ومثل هذا استحسان الرشيد قولَ عبدالملك بن صالح ، وقد أهدى إليه باكورَة فاكهة فى أطباق خيْزُران : بعثتُ إلى أمير المؤمنين فى أطباق قُضْبانٍ تحمل من جَنَايا باكورة بستانه ماراج وأينع ؛ فقال الرشيد لمن حضر :ما أحسن ما كنى عن اسم أمّنا !

ويقال : إن عبد الملك سبق بهذه الكناية ، وإن المهادىَ قال لابن دأب ، وفى يده عصا : ماجنسُ هذه ؟ فقال : من أصول القنا ــ يعنى الخيزران ، والخيزران أمّ المهادى والرشيد معا .

وشبيه بذلك مايقال : إن الحسنَ بن سهل كان فى يده ضِغْثٌ من أطراف الأراك ، فسأله المأمون عنه : ماهذه ؟ فقال : « محاسنك » يا أمير المؤمنين ، تجنُّبا لأن يقول : « مساوئك » ؛ وهذا لطيف .

ومن الكنايات اللطيفة أنّ عبد الملك بعث الشعبىّ إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر يومئذ ، لِيَسْبُرَ أخلاقه وسياسته ، ويعود إليه فيخبره بحاله ، فلما عاد سأله فقال : وجدتُه أحوجَ الناس إلى بقائك يا أمير المؤمنين ؛ وكان عبد العزيز يُضَعَّف .

ومن الألفاظ التى جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وآله من باب الكنايات قوله صلى الله عليه وآله : « بُعِثتُ إلى الأسود والأحمر » ، يريد إلى العرب والعجم ، فكَنى عن العرب بالسُّود وعن العجم بالحمر ، والعرب تسمى العجمىّ أحمر ، لأنّ الشقرة تغلب عليه .

قال ابن قتيبة : خطب إلى عَقِيل بن علفة المرّى ابنتَه هشامُ بن إسمعيل المخزوىّ ـ وكان والىَ المدينة ، وخال هشام بن عبدالملك ـ فردّه ، لأنه كان أبيض شديد البياض ـ وكان عَقِيل أعرابيا جافيا غيورا مفرِط الغَيْرة ـ وقال :

رَدَدْتُ صحيفةَ القرشىّ لمّا أبت أعراقُه إلا احمرارا

فردّه ، لأنه توسّم فيه أن بعضَ أعراقه ينزع إلى العجم ، لما رأى من بياض لونه وشُقرته[1] .

ومنه قول جرير يذكر العجم :

يُسَمُّونَنا الأعرابَ والعَرَبُ اسْمُنا وأسماؤهم فينا رقابُ المزاوِدِ[2]

وإنّما يسمونهم رقاب المزاود ، لأنها حمراء .

* * *

ومن كناياتهم تعبيرهم عن المفاخرة بالمساجلة ، وأصلها من السَّجْل ؛ وهى الدّلو الملىء ، كان الرجلان يستقيان ، فأيّهما غلب صاحبَه كان الفوز والفخر له ، قال الفضلُ بن العباس ابن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب :

وَأنا الأخضَرُ مَنْ يَعرِفُنِى أخضَرُ الجِلْدَةِ مِنْ بَيْتِ العَرَبْ[3]

مَنْ يساجلْنى يُساجِلْ ماجِداً يملأ الدَّلو إلى عَقْدِ الكَرَبْ[4]

برسولِ الله وابنَىْ عمّه وبعباس بن عبد المطلب

ويقال : إنّ الفرزدق مرّ بالفضل وهو ينشد : « مَنْ يساجلنى » ، فقال : أنا أساجلك .

---

(١) عيون الأخبار ٤ : ١٢

(٢) كذا ذكره المؤلف ، ولم أجده فى ديوانه ؛ وفى عيون الأخبار (٤ : ١٢) نسبه لرجل من الأعراب .

(٣) الخبر فى الكامل ١ : ١٩٣ ؛ والأبيات فى ستة مع الخبر ، فى الأغانى ٦ : ١٧٢ وهى فى كنايات الجرجانى ٥١ .

(٤) الكرب : حبل يشد على عراق الدلو .

ونزع ثيابه ، فقال الفضل : «برسول الله وابن عمه» ، فلبس الفرزدق ثيابه، وقال: أعضَّ الله مَنْ يساجلك بما نفَتِ المواسى من بَظْر أمه ؛ ورواها أبو بكر بن دريد : «بما أبقت المواسى» .

وقد نزل القرآن العزيز على مخرج كلام العرب فى المساجلة ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ [١] ، الذَّنُوب : الدَّلو ، والمراد ماذكرناه .

وقال المبرّد : المراد بقوله : «وأنا الأخضر» ، أى الأسمر والأسود ، والعرب كانت تفتخر بالسمرة والسواد ، وكانت تكره الحُمرة والشقرة ؛ وتقول : إنهما من ألوان العجم .

وقال ابن دُرَيد : مراده أن يبقى ربيعٌ أبدا مخصِب ، كثير الخير، لأنّ الخِصْب مع الخضرة ، وقال الشاعر :

قومٌ إذا اخضرّت نعالهمُ   يتناهَقُون تناهُقَ الحُمرِ [٢]

أى إذا أعشبت الأرض اخضرّت نعالهم من وطئهم إياها، فأغار بعضُهم على بعض ، والتناهق هاهنا : أصواتهم حين ينادُون للغارة ، ويدعو بعضهم بعضا ، ونظير هذا البيت قول الآخر :

قومٌ إذا نَبَتَ الربيعُ لَهُمْ   نبتَت عداوتُهمْ مع البَقْلِ [٣]

أى إذا أخصبوا وشبعوا غزا بعضهم بعضا . ومثله قول الآخر :

يابن هشام أهلكَ النَّاسَ اللَّبَنْ   فكلُّهمْ يغدو بسيف وَقَرَنْ [٤]

أى تسفهوا لما رأوا من كثرة اللبن والخصب ، فأفسدوا فى الأرض ، وأغار بعضهم على بعض . والقرَن : الجعْبة .

---

(١) سورة الذاريات ٥٩ .
(٢) كنايات الجرجانى ٥٢ .
(٣) كنايات الجرجانى ٥٢ .
(٤) كنايات الجرجانى ٥٢ .

وقيل لبعضهم : متى يُخاف من شرّ بنى فلان ؟ فقال : إذا ألبنوا .

***

ومن الكنايات الداخلة فى باب الإيماء قول الشاعر :

فَتًى لايرى قَدَّ القميص بخَصرهِ ولكنّما يُوهِى القميص عَواتِقُه[1]

لما كان سلامة القميص من الخرق فى موضع الخَصْر تابعاً لدقة الخَصْر ، ووهْنُه فى فى الكاهل تابعا لعظم الكاهل، ذكر ما دلّ بهما على دقة خَصر هذا الممدوح وعظَم كاهله :

ومنه قول مسلم بن الوليد :

فَرْعَاء فى فَرْعِها لَيلٌ عَلَى قمرٍ عَلَى قَضيبٍ على حِقْفِ النَّقا الدَّهِسِ[2]

كأنّ قلبى وشاحاها إذا خطرتْ وقَلْبَها قُلْبُها فى الصَّمْت والخَرَسِ

تجرى محبّتُها فى قَلْب عاشقها مجرى السّلامة فى أعضاء منتكسِ

فلما كان قلق الوشاح تابعا لدقة الخَصْر ذكره دالاًّ به عليه .

ومن هذا الباب قول القائل :

إذا غَرَّدَ المُكّاء فى غَيْرِ روضة فويلٌ لأهل الشاء والحُمُراتِ[3]

أومأ بذلك إلى الجدْب ؛ لأن المُكّاء يألف الرياض ، فإذا أجدبت الأرض سقط فى غير روضة وغرّد ، فالويل حينئذ لأهل الشاء والحُمُر .

ومنه قول القائل :

لعمرى لنعم الحىّ حىّ بنى كعبٍ إذا جُعِل الخَلخال فى موضِع القُلْبِ

---

(١) كنايات الجرجانى ٥٢ ، وفيه : « كواهله » .

(٢) ملحق ديوانه ٢٠ ، وكنايات الجرجانى ٥٢ ، والحقف ، بالكسر : المعوج من الرمل . والدهس : لون يعلوه أدنى سواد .

(٣) المكاء : طائر أبيض نحو القبرة ، يكون بالحجاز ؛ وله صفير .

القُلْب: السوار؛ يقول: نعم الحىّ هؤلاء إذا ريع الناس وخافوا، حتى إنّ المرأة لشدّة خوفها تلبَس الخلخال مكانَ السوار؛ فاختصر الكلام اختصارا شديدا.

ومنه قول الأفوه الأودىّ:

إنّ بَنِى أوْدٍ هُمُ مـــــــامُ للحرْب أو للجدْب عامَ الشُّمُوسِ[1]

أشار إلى الجدب وقلّة السحب والمطر، أى الأيام التى كلّها أيام شمس وصحو؛ لاغيم فيها ولا مطر.

فقد ذكرنا من الكنايات والتعريضات وما يدخل فى ذلك ويجرى مجراه من باب الإيماء والرَّمز قطعة صالحة، وسنذكر شيئا آخر من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى؛ إذا مررنا فى شرح كلامه عليه السلام بما يقتضيه ويستدعيه.

(١) ديوانه ١٦ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية).

[حقيقة الكناية والتعريض والفرق بينهما]

وقد كنا وعدنا أن نذكر كلاما كليًّا فى حقيقة الكناية والتعريض ، والفرق بينهما ، فنقول :

الكناية قسم من أقسام المجاز ؛ وهو إبدال لفظة عَرَض فى النطق بها مانع بلفظةٍ لا مانعَ عن النطق بها ، كقوله عليه السلام : « قوارات النساء » ؛ لمّا وجد الناس قد تواضعوا على استهجان لفظة « أرْحام النساء » .

وأما التّعريض فقد يكون بغير اللفظ كدفع أسماء بن خارجة الفَصّ الفيروز الأزرق من يده إلى ابن مكعبَر الضّبّى إذ كان أزرق ؛ بقول الشاعر :

• كذا كل ضَبِّىٍّ من اللؤم أزرقُ[1] •

فالتعريض إذاً هو التنبيه بفعل أو لفظ على معنى اقتضت الحال العدول عن التصريح به .

وأنا أحكى ها هنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزرىّ فى كتابه المسمى " بالمثل السائر " فى الكناية والتعريض[2] ، وأذكر ما عندى فيه ؛ قال :

خلط أربابُ هذه الصناعة الكناية بالتعريض ، ولم يفصلوا بينهما ، فقال ابن سنان[3] : إن قولَ امرئ القيس :

فصِرْنا إلَى الحُسنَى ورَقَّ كلامُنا ورُضْت فذلَّتْ صعبة أىَّ إذلالِ[4]

---

(١) صدره :

• لَقَدْ زرِقَتْ عيناكَ يابن مُكَعْبَرٍ •

واظر ص٣١ من هذا الجزء

(٢) المثل السائر ٢ : ١٩١ وما بعدها ؛ مع تصرف فى العبارات .

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٢٦ (٤) ديوانه ٣٢ .

من باب الكناية [١] ، والصحيح أنه من باب التعريض .

قال : وقد قال الغانمي والعسكري وابن حمدون وغيرهم نحوَ ذلك ، ومزجوا أحدَ القسمين بالآخر .

قال : وقد حدّ قوم الكناية ، فقالوا : هي اللفظ الدالّ على الشيء بغير الوضع الحقيقيّ ؛ بوصفٍ جامع بين الكناية والمكنيّ عنه ، كاللمس والجماع ، فإن الجماعَ اسم لموضوع حقيقيّ ، واللمس كناية عنه ، وبينهما وصف جامع ، إذ الجماع لمسٌ وزيادة ، فكان دالاً عليه بالوضع المجازي .

قال : وهذا الحدّ فاسد ؛ لأنه يجوز أن يكون حدًّا للتشبيه والمشبَّه، فإنّ التشبيه هو اللفظ الدالّ على الوضع الحقيقيّ الجامع بين المشبَّه والمشبَّه به في صفة من الأوصاف ؛ ألا ترى إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظًا دالاً على غير الوضع الحقيقيّ ؛ بوصف جامع بين زيد والأسد ؛ وذلك الوصف هو الشجاعة [٢] .

قال : وأمّا [٣] أصحابُ أصول الفقه ، فقالوا في حدّ الكناية : إنها اللفظ المحتمل ؛ ومعناه أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى ، وعلى خلافه .

وهذا منقوض بالألفاظ المفردة المشتركة ، وبكثير من الأقوال المركبة المحتملة للشيء وخلافه ؛ وليست بكنايات .

قال : وعندي أنّ الكنايات لا بدّ أنْ يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز ؛ ومتى أفردت جاز حملها على الجانبين معا ؛ ألا ترى أنّ اللمس في قوله سبحانه : ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [٤]

---

(١) في المثل السائر : « وهذا مثل ضربه للكناية عن المباضعة » .

(٢) في المثل السائر بعدها: « ومن هنا وقع الغلط لمن أشرت إليه في الذي ذكرته في هذه الكناية » .

(٣) المثل السائر : « علماء » .

(٤) سورة النساء : ٤٣ .

يجوز حمله على الحقيقة والمجاز ؛ وكلٌّ منهما يصح به المعنى ولا يختل[1] ولهذا قال الشافعىّ : إن ملامسة المرأة تنقض الوضوء والطهارة[1] .

وذهب غيرُه إلى أنّ المراد باللمس فى الآية الجماع؛ وهو الكناية المجازية ؛ فكلّ موضع يَرِدُ فيه الكناية ، فسبيله هذا السبيل ؛ وليس التشبيه بهذه الصورة ولا غيره من أقسام المجاز ؛ لأنه لايجوز حملُه إلا على جانب المجاز خاصة؛ ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى ؛ ألاترى أنا إذا قلنا: زيد أسد لم يصحّ أن يحمل إلا على الجهة المجازية ؛ وهى التشبيه بالأسد فى شجاعته ، ولايجوز حمله على الجهة الحقيقية، لأنّ «زيدا» لا يكون سَبُعا ذا أنياب ومخالبَ ، فقد صار إذَنْ حدّ الكناية أنها اللفظ الدالّ على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ؛ بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز .

قال : والدليل على ذلك أنّ الكناية فى أصل الوضع أنْ تتكلّم بشىء وتريد غيره، يقال : كَنَيْتُ بكذا عن كذا ، فهى تدلّ على ما تكلّمت به ، وعلى ما أردته من غيره فلا يخلو[2] إمّا أن يكونَ فى لفظ تجاذبه[3] جانبا حقيقة وحقيقة ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ لا يتجاذبه أمر . وليس لنا قسم رابع[3] .

والثانى باطل، لأن ذاك هو اللفظ المشترك ، فإن أطلق من غير قرينة مخصصة كان مبهما غير مفهوم ، وإن كان معه قرينة صار مخصّصا لشىء بعينه ، والكناية أنّ تتكلّم بشىء وتريد غيره ، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة ، لأنه يختصّ بشىء واحد بعينه ، ولا يتعدّاه إلى غيره ، والثالث باطل أيضا ، لأنّ المجاز لا بد له من حقيقة ينقل عنها لأنه فرع عليها .

(١ ـ ١) المثل السائر : « ولهذا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد ؛ فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ؛ وذلك هو الحقيقة فى اللمس » .

(٢) المثل السائر : « وعلى هذا فلا تخلو » .

(٣ ـ ٣) المثل السائر : « تجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا : حقيقة وحقيقة ، وليس لنا قسم رابع » .

وذلك اللفظ الدالّ على المجاز ، إما أنْ يكونَ للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها شركة في الدلالة عليه ، كأن اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثة أشياء : أحدها الحقيقة ، والآخران المجازان .

وهذا مخالف لأصل الوضع ، لأن أصل الوضع أن تتكلّم بشيء وأنت تريد غيره ، وها هنا يكون قد تكلّمت بشيء وأنت تريد شيئين غيرين ، وإن لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة ، كان ذلك مخالفاً لأصل الوضع أيضاً ، إذ أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريدُ غيره ، فيكون الذي تكلّمت به دالّا على غيره ، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة في الدلالة ، لم يكن الذي تكلّمت به ، وهذا محال ، فثبت إذن أنّ الكناية هي أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز .

قال : وهذا مما لم يسبقني إليه أحد .

* * *

ثم قال : قد يأتي من الكلام ما يجوزُ أن يكون كناية ، ويجوز أن يكون استعارة ، ويختلف ذلك باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده . كقول نصر بن سيّار [في أبياته المشهورة التي يحرض بها على بني أميّة عند خروج أبي مسلم](1) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ(2)

فَإِنَّ النَّارَ بِالزَّنْدَيْنِ تُورِي ... وَإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ(3)

---

(١) من المثل السائر .

(٢) الأبيات في الأخبار الطوال ٣٤٠

(٣) الأخبار الطوال :

* وإن الشر مبدؤه الكلام *

أقول من التعجب : لَيْتَ شعرى ءَأَيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نيـــام ؟[1]

فالبيت الأول لو ورد بمفرده لـكان كناية ، لأنه لا يجوز حملُه على جانبي الحقيقة والمجاز[2] ؛ فإذا نظرنا إلى الأبيات بجملتها ؛ كان البيت الأول المذكور استعارة لا كناية .

* * *

ثم أخذ فى الفرق بين الـكناية والتعريض ، فقال : التّعريض هُو اللفظ الدالّ على الشىء من طريق المفهوم ؛ لا بالوضع الحقيقىّ ولا بالمجازىّ ؛ فإنّك إذا قلت لمن تتوقع معروفه وصِلَته بغير طلب : أنا محتاج ولا شىء فى يدى ، وأنا عريانٌ والبرد قد آذانى ؛ فإن هذا وأشباهَه تعريضٌ بالطلب ، وليس اللفظ موضوعا للطلب ، لا حقيقة ولا مجازا ؛ وإنما يدلّ عليه من طريق المفهوم بخلاف قوله : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾[3] . وعلى هذا ورد تفسير التعريض فى خِطبة النكاح ، كقولك للمرأة : أنت جميلة ، أو إنّك خلية وأنا عزَب . فإن هذا وشبهه لا يدلّ على طلب النكاح بالحقيقة ولا بالمجاز ، والتعريض أخْفَى من الـكناية ، لأنّ دلالة الـكناية وَضْعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم المركّب ، وليست وضعية ؛ وإنما يسمى التعريض تعريضا ؛ لأنّ المعنى فيه يُفْهم من عُرْض اللفظ المفهوم ، أى من جانبه .

* * *

(١) الأخبار الطوال : « أقول » ؛ وبعده فى المثل السائر :

فَإِنْ هَبُّوا فَذَاكَ بَقَاءُ مُلْكٍ وَإِنْ رَقَدُوا فَإِنِّى لَا أُلَامُ

وبعده فى الأخبار الطوال :

فَإِنْ يَكُ أَصْبَحُوا وَثَوَوْا نِيَامًا فَقُلْ قُومُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

(٢) فى المثل السائر بعد هذه الـكلمة : « أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد ؛ وأنه سيضطرم ؛ وأما المجـاز فإنه أراد أن هنـاك ابتداء شر كامن ، ومثـله بوميض جمر من خلل الرماد » .

(٣) فى المثل السائر : « بخلاف دلالة اللمس على الجماع » .

قال : واعلم أنّ الكناية تشتمل على اللفظ المفرد ، واللفظ المركّب ؛ فتأتى على هذا مرّة ، وعلى هذا أخرى ؛ وأمّا التعريض فإنه يختصّ باللفظ المركب ، ولا يأتى فى اللفظ المفرد ألبتّة ، لأنه لا يُفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، بل من جهة التلويح والإشارة ، وهذا أمر لا يستقلّ به اللفظ المفرد ، ويحتاج فى الدلالة عليه إلى اللفظ المركب .

قال : فقد ظهر فيما قلنا فى البيت الذى ذكره ابن سنان مثال الكناية ، ومثال التعريض هو بيت امرئ[1] القيس ؛ لأن غَرض الشاعر منه أن يذكر الجماع ؛ إلا أنه لم يذكره بل ذكر كلاما آخر ، ففهم الجماع من عرضه ، لأنّ المصير إلى الحسنى ورقّة الكلام لا يدلان على الجماع ، لا حقيقة ولا مجازا .

ثم ذكر أن من باب الكناية قوله سبحانه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ... [2] ﴾ الآية .

قال : كَنَى بالماء عن العِلم ، وبالأودية عن القُلوب ، وبالزّبد عن الضلال .

قال : وقد تحقق ما اخترعناه وقدرناه من هذه الآية ؛ لأنه يجوز حملها على جانب الحقيقة ، كما يجوز حملها على جانب المجاز .

قال : وقد أخطأ القرّاء حيث زعم أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ[3] ﴾ كناية عن أمر النبيّ صلى الله عليه وآله ، وأنه كَنى عنه بالجبال .

قال : ووجه الخطأ أنّه لا يجوز أن يتجاذَب اللفظَ ها هنا جانبا الحقيقة والمجاز ؛ لأنّ مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال الحقيقية ، فالآية إذاً من باب المجاز لا من باب الكناية .

---

(١) هو بيت امرىء القيس :

فصِرْنا إلَى الْحُسْنى وَرَقّ كَلامُنا ... وَرُضْتُ فَذَلّتْ صَعْبَةً أيّ إذْلالِ

(٢) سورة الرعد ١٧ .

(٣) سورة إبراهيم ٤٦ .

قال : ومن الكنايات المستحسنة قوله عليه السلام للحادى بالنساء : « يا أنجشة رِفقا بالقوارير » .

وقول امرأة لرجل قعد منها مقعد القابلة : لا يحلُّ لكَ أنْ تَفضَّ الخاتم إلا بحقّه .

وقول بُدَيْل بن ورقاء الخزاعيّ لرسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ قريشا قدنزلت على ماء الحُدَيبِيَة معها العُوذ المطافيل ، وأنّهم صادوك عن البيت .

قال : فهذه كناية عن النساء والصبيان ، لأنّ العُوذَ المطافيل : الإبل الحديثات النّتاج ومعها أولادها .

ومن الكناية ما ورد فى شهادة الزنا ، أن يُشهد عليه برؤية الميل فى المكحلة .

ومنها قول عمر لرسول الله صلى الله عليه وآله : هلكتُ يا رسول الله ، قال : « وما أهلكك ؟ » ، قال : حوّلت رحلى البارحة[1]. قال : أشار بذلك إلى الإتيان[2] فى غير المأتى .

ومنها قول ابن سلّام لمن رأى عليه ثوبا معصفرا : « لو أنّ ثوبك فى تنور أهلك لكان خيرا لك » .

* * *

قال : ومن الكنايات المستقبحة قول الرضىّ يرثى امرأة :

* إن لم تكن نَصْلا فغِمدُ نُصُولِ *

لأن الوهم يسبق فى هذا الموضع إلى ما يقبح ، وإنما سرقه من قول الفرزدق فى امرأته وقد ماتت بجُمْع :

وَجَفْنِ سِلَاحٍ قَدْ رُزِئْتُ فلم أَنُحْ عَلَيْه ، ولم أبعثْ عليه البواكيَا[3]

(١) فى المثل السائر بعدها : « فقال له النبى صلى الله عليه وسلم » : أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة .
(٢) فى ا ، ج : « إتيان » .
(٣) ديوانه ٨٨٤ ، وانظر ص ٤٠ من هذا الجزء .

وفى جوفهِ من دارمٍ ذُو حفيظة لَوَ أنَّ المنـايا أخطـأته لياليـا

فأخذه الرضىّ فأفسده ولم يحسِن تصريفَه .

قال : فأمّا أمثلة التعريض فكثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[1] ، فقوله : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ تعريضٌ بأنّهم أحقّ بالنبوّة ، وأنّ الله تعالى لو أراد أنْ يجعلَها فى واحد من البَشَر لجعلها فيهم ؛ فقالوا : هبْ أنّك واحد من الملإ وموازِيهم فى المنزلة ، فما جعلك أحقّ بالنبوّة منهم ! ألا ترَى إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ .

هذه خلاصة ما ذكره ابن الأثير فى هذا الباب .

واعلم أنا قد تكلّمنا عليه فى كثير من هذا الموضع فى كتابنا الذى أفردناه للنقض عليه ؛ وهو الكتاب المسمّى بـ «الفلك الدائر على المثل السائر» فقلنا[2] أولا : إنه اختار حدّ الكناية وشرَع يبرهِنُ على[3] التحديد ، والحدود لا يبرهَن عليها ؛ ولا هِيَ مِنْ باب الدّعاوى التى تحتاج إلى الأدِلّة ؛ لأنّ مَنْ وَضَع لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لا يحتاج إلى دليل ، كمَنْ وضع لفظ الجدار للحائط لا يحتاج إلى دليل .

ثم يقال له : لمَ قلت : إنّه لا بدّ من أنْ يتردّد لفظ الكناية بين محملْ حقيقةٍ ومجاز ؟ ولم لا يتردّد بين مجازيْن ؟ وما استدللتَ به على ذلك لا معنى له . . .

أما أولاً ؛ فلأنّك أردت أن تقول : إمّا أنْ تكون للّفظة الدالّة على المجازيْن شركة فى الدلالة على الحقيقة ، أولا يكون لها فى الدلالة على الحقيقة شركة ؛ لأنّ كلامك هكذا يقتضى ، ولا ينتظم إلا إذا قلت هكذا فلم تقله ، وقلت : إمّا أن يكون للحقيقة شركة فى

(١) سورة هود ٢٧ .
(٢) الفلك الدائر ١٧٠ وما بعدها ، مع اختلاف فى العبارة .
(٣) ا ، ج : «عن» .

اللفظ الدالّ على المجازين ؛ وهذا قلب للكلام الصحيح وعكس له .

وأمّا ثانيا فلم قلتَ : إنه لا يكون للفظة الدالّة على المجازين شَرِكة فى الدلالة على الحقيقة التى هى أصل لها ؛ فأما قولك هذا فيقتضِى أن يكون الإنسان متكلّما بشىء وهو يريد شيئين غيره ؛ وأصلُ الوَضع أن يتكلم بشىء وهو يريد غيره ؛ فليس معنى قولهم : الكناية أن تتكلّم بشىء وأنت تريد غيره ؛ أنكَ تريد شيئا واحدا غيره ؛ كلّا ليس هذا هو المقصود ، بل المقصود أنْ تتكلّم بشىء وأنت تريد ماهو مغاير له ؛ وإن أردت[1] شيئاً واحدا[1] أو شيئين أو ثلاثة أشياء أو مازاد ؛ فقد أردت ماهو مغاير له ؛ لأنّ كلّ مغاير لما دلّ عليه ظاهر لفظك فليس فى لفظه غير ما يقتضى الوحدة والإفراد .

وأما ثالثا فلم لا يجوز أن يكون للفظ الدال على المجازين شركة فى الدلالة على الحقيقة أصلا ، بل يدلّ على المجازين فقط ! فأمّا قولك إذا خرجت الحقيقة عن أن يكون لها فى ذلك، شركة لم يكن الذى تكلّمت به دالّا على ما تكلّمت به وهو محال ؛ ومرادك بهذا الكلام المقلوب أنه إذا خرجت اللفظة عن أن يكون لها شركة فى الدّلالة على الحقيقة التى هى موضوعة لها فى الأصل لم يكنْ ماتكلم به الإنسانُ دالاً على ماتكلّم به وهو حقيقة ؛ ولا دالا أيضاً على ماتكلّم به وهو مجاز ؛ لأنه إذا لم يدلّ على الحقيقة، وهى الأصل؛ لم يجز أن يدلّ على المجاز الذى هو الفرع ؛ لأنّ انتفاء الدلالة على الأصل ؛ يوجب انتفاء الدلالة على الفرع ؛ وهكذا يجب أن يتأولَ استدلاله ؛ وإلّا لم يكن له معنى محصّل ؛ لأن اللفظ هو الدال على مفهوماته ؛ وليس المفهوم دالّا على اللفظ، ولا له شركة فى الدلالة عليه ؛ ولا على مفهوم آخر يعترض اللفظ بتقدير انتقال اللفظ ؛ اللّهمّ إلا أنْ يكون دلالة عقلية ؛ وكلامُنا فى الألفاظ ودلالتها[2] .

(١ — ١) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .

(٢) ا : « وأدلتها » .

فإذا أصلحنا كلامه على ماينبغى ، قلنا له فى الاعتراض عليه : لم قلتَ إنه إذا خرج اللفظُ عن أن يكون له شركة فى الدّلالة على الحقيقة ؛ لم يكن ماتكلّم به الإنسان دالًّا على ماتكلم به ؟ ولم لا يجوزُ أن يكون للحقيقة مجازان قد كثر استعمالهما حتى نسيتْ تلك الحقيقة ؛ فإذا تكلّم الإنسان بذلك اللفظ كان دالًّا به على أحد ذَينِك المجازين ، ولا يكون له تعرُّضٌ بتلك الحقيقة ، فلا يكون الذى تكلم به غير دالٍّ على ماتكلم به ؛ لأن حقيقة تلك اللفظة قد صارتْ ملغاة منسية؛ فلا يكون عدمُ إرادتها موجبا أنْ يكون اللفظ الذى يتكلم به المتكلم غير دالٍّ على ماتكلم به ؛ لأنها قد خرجت بترك الاستعمال ؛ عن أنْ تكون هى ماتكلم به المتكلم .

ثم يقال : إنك منعت أن يكون قولنا: «زيدأسد» . كناية ، وقلت:لأنه لا يجوز أن يحمل أحد هذا اللفظ على أن « زيدا » هو السبع ذو الأنياب والمخالب ؛ ومنعت من قول القرّاء إن الجبال فى قوله : ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ كناية عن دعوة محمد صلى الله عليه وآله وشريعته؛ لأنّ أحداً لا يعتقد ولا يتصوّر أنّ مكرَ البشر يزيل الجبال الحقيقية عن أماكنها ، ومنعتَ مِنْ قول مَنْ قال إن قول الشاعر :

* وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ[1] *

من باب الكناية ، لأنّ أحداً لا يتصوّر أنّ الحقائب — وهى جمادات — تُثنى وتشكر .

وقلت : لا بدّ أن يصحّ حمل لفظ الكناية على محلّى الحقيقة والمجاز ، ثم قلت: إنّ

---

(١) لنصيب ؛ من أبيات يمدح فيها سليمان بن عبد الملك وصدره :

* فعَاجُوا فَأَثْنَوا بِالَّذِى أَنْتَ أَهْلُهُ *

البيان والتبيين ١ : ٨٢ .

قول عبد الله بن سلّام لصاحب الثوب المعصفر : « لو أنك جعلتَ ثوبك فى تنّور أهلك » كناية ، وقول الرضىّ فى امرأة ماتت :

* إنْ لَمْ تَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نُصُولِ *

كناية ، وإن كانت مستقبحة ، وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « يا أنجشة رفقا بالقوارير » ؛وهو يحدو بالنساء كناية؛ فهل يجيزُ عاقل قطاً أو يتصوّر فى الأذهان أن تكونَ المرأة غِمْداً لسيف ! وهل « يحِيل[1] أحد » قطّ قوله للحادى« رفقابالقوارير » على أنه يمكن أن يكون نهاه عن العُنف بالزُّجاج ؛ أو يحمل أحدٌ قطّ قول ابن سلّام على أنه أراد إحراق الثوب بالنار ، أو يحمل قطّ أحدٌ قوله : « المِيل فى المكحلة » على حقيقتها ، أو يحمل قطّ أحد قوله : « لا يحل لكَ فضّ الخاتم » على حقيقته ! وهل يشكّ عاقل قطّ فى أنّ هذه الألفاظ ليست دائرة بين المحملين دَوَرَان اللبس والجامع وللصالحة ، وهذه مناقضة ظاهرة، ولا جوابَ عنها إلّا بإخراج هذه المواضع من باب الكناية ، أو بحذف ذلك الشرط الذى اشترطته فى حدّ الكناية .

***

فأمّا ما ذكره حكايةً عن غيره فى حَدّ الكناية بأنّها اللّفظ الدالّ على الشىء بغير الوضع الحقيقىّ ؛ بوصف جامع بين الكناية والمكنىّ عنه ، وقوله : هذا الحدّ هو حدّ التشبيه؛ فلا يجوز أنْ يكونَ حدّ الكناية .

فلقائل أن يقول : إذا قلنا : زيد أسد ، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقىّ ، وذلك المدلول هو بعينه الوصف المشترك بين المشبّه والمشبّه به ؛ ألا ترى أنّ المدلولَ هو الشجاعة ؛ وهى المشترك بين زيد والأسد ؛ وأصحاب الحدّ قالوا فى حَدّهم : الكناية هى اللّفظ الدالّ على الشىء بغير الوضع الحقيقى ؛ باعتبار وصف جامع بينهما ؛ فجعلوا المدلولَ أمراً

---

(١) ب : « يحمل قط » .

والوصف الجامع أمراً آخر باعتباره وقت الدلالة ، ألّا ترى أنّ لفظ ﴿ لَامَسْتُمُ ﴾ يدلّ على الجماع الذى لم يوضع لفظ ﴿ لَامَسْتُمُ ﴾ له ، وإنما يدلّ عليه باعتبار أمر آخر ؛ هو كون اللامسة مقدّمة الجماع ومفضيةً إليه ! فقد تغاير إذن حدّ التشبيه[1] وحدُّ الكناية، ولم يكن أحدُهما هو الآخر .

***

فأما قوله : إن الكناية قد تكون بالمفردات والتعريض لا يكون بالمفردات ، فدعوى ؛ وذلك أنّ اللفظ المفرد لاينتظِمُ منه فائدة ، وإنما تفيد الجملة المركبة من مبتدأ وخبر ، أو من فعل وفاعل ؛ والكناية والتعريض فى هذا الباب سواء ؛ وأقلّ مايمكن أن يفيد فى الكناية قولك : لامست هندا ، وكذلك أقلّ مايمكن أن يفيد فى التعريض : « أنا عزب » ، كما قد ذكره هو فى أمثلة التعريض . فإن قال : أردت أنه قد يقال : اللّمس يصلح أن يُكْنَى به عن الجماع ، واللمس لفظ مفرد ، قيل له : وقد يقال: التعزّب يصلح أن يعرّض به فى طلب النكاح .

***

فأمّا قوله : إن بيت نصر بن سيّار ، إذا نظر إليه لمفرده صَلَح أن يكون كنايةً، وإنّما يخرِجه عن كونه كناية ضمُّ الأبيات التى بعدَه إليه ، ويدخله فى باب الاستعارة ، فلزم عليه أن يخرج قول عمر : « حوّلت رَحْلِي » عن باب الكناية بما انضمّ إليه من قوله : « هلكت » ؛ وبما أجابه رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله : « أقبِلْ وأدبِرْ واتق الدُّبر والحَيْضة » ؛ وبقرينة الحال . وكان يجب ألّا تُذكر هذه اللفظة فى أمثلة الكنايات .

فأما بيت امرئ القيس فلا وجه لإسقاطه من باب الكناية وإدخاله فى باب

(١) ا ، ج « هو والكناية » .

التعريض ؛ إلا فيما اعتمد عليه ؛ من أنّ من شرط الكناية أن يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز . وقد بيّنا بطلان اشتراط ذلك ؛ فبطل مايتفرّع عليه .

وأما قول بُدَيل بن ورقاء : « معها العُوذُ المَطَافيل » فإنه ليس بكناية عن النساء والأولاد كما زعم ؛ بل أراد به الإبل ونتاجها ؛ فإنّ كتب السِّيَر كلّها متفقة على أن قُريشا لم يخرج معها في سنة الحديبيَة نساؤها وأولادها ، ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله قوماً أحضروا معهم نساءهم وأولادهم ؛ إلا هَوازِن يوم حُنَين ، وإذا لم يكن لهذا الوجه حقيقة ولا وجود ؛ فقد بطل حمل اللفظ عليه .

فأما ما زَرَى به على الرضيّ رحمه الله تعالى من قوله :

* إن لم تكنْ نَصْلًا فغِمْدُ نُصُولِ *

وقوله : هذا مما يسبق الوهم فيه إلى ما يستقبح واستحسانه شعرَ الفرزدق وقوله : إن الرضيّ أخذه منه فأساء الأخذ ، فالوَهْم الذي يسبق إلى بيت الرضيّ يسبق مثله إلى بيت الفرزدق ؛ لأنّه قد جعل هذه المرأة جَفْن السلاح ؛ فإن كان الوَهْمُ يسبق هناك إلى قبيح فهاهنا أيضا يسبق إلى مثله .

وأما الآية التي مثّل بها على التعريض ؛ فإنه قال : إن قوله تعالى : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه ، ولم يبين ذلك ؛ وإنما قال : فحوى الكلام أنّهم قالوا له : هب أنك واحد من الملأ وموازيهم في المنزلة ، فما جَعَلك أحقّ بالنبوة منهم؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾! وهذا الكلام لا يقتضي ما ادّعاه أولا من التعريض ؛ لأنه ادّعى أن قوله : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه ؛ وما قرّره به يقتضي مساواته لهم ، ولا يقتضي كونَهُم أحقّ بالنبوة منه، فبطل دعوى الأحقّية ، التي زعم أنّ التعريض إنما كان[1] بها .

***

---

(١) ا : « يكون » .

فأما قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾، وقوله: إن هذا من باب الكناية وأنه تعالى كنى به عن العلم والضلال وقلوب البشر، فبعيد، والحكيم سبحانه لا يجوز أن يخاطب قوماً بلغتهم؛ فيعمى عليهم، وأن يصطلح هو نفسه على ألفاظ لا يفهمون المراد بها، وإنما يعلمها هو وحده؛ ألا ترى أنه لا يجوز أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[1] على أنه أراد أنا زينا رءوس البشر بالحواس الباطنة والظاهرة المجعولة فيها؛ وجعلناها بالقوى الفكرية والخيالية المركبة فى الدماغ راجمة وطاردة للشُّبَه المضلّة؛ وإنّ مَنْ حمل كلام الحكيم سبحانه على ذلك فقد نسبه إلى الإلغاز والتعمية؛ وذلك يقدح فى حكمته تعالى. والمراد بالآية المقدم ذكرُها ظاهرُها، والمتكلف لحملها على غيرها سخيفُ العقل؛ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾[2]؛ أفترى الحكيم سبحانه يقول: إن الذهب والفضة زبداً مثل الجهل والضلال! ويبين ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾[2]؛ فضرب سبحانه الماء الذى يبقى فى الأرض فينتفع[3] به الناس، والزَّبد الذى يعلو فوقَ الماء فيذهب جفاء مثلاً للحق والباطل، كما صرّح به سبحانه فقال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾[2]؛ ولو كانت هذه الآية من باب الكنايات — وقد كنى سبحانه بالأودية عن القلوب، وبالماء الذى أنزله من السماء عن العلم، وبالزّبد عن الضلال — لما جعل تعالى هذه الألفاظ أمثالا، فإن الكناية خارجة عن باب المثل، ولهذا لا تقول إن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ من باب المثل، ولهذا أفرد هذا الرجل فى كتابه باباً آخر غير باب الكناية، سمّاه باب المثل، وجعلهما قسمين متغايرين فى علم البيان، والأمر فى هذا

---

(١) سورة الملك ٥

(٢) سورة الرعد ١٧

(٣) ا: «لينفع».

للموضع واضح ، ولكنّ هذا الرجل كان يحبّ هذه الترّهات ، ويُذهِب وقته فيها ، وقد استقصينا فى مناقضته والردّ عليه فى كتابنا الذى أشرنا إليه .

***

فأما قوله عليه السلام : « كلَّمَا نَجَمَ منهم قَرْنٌ قطع » ، فاستعارة حسنة ، يريد : كلّما ظهر منهم قوم استؤصلوا ، فعبّر عن ذلك بلفظة « قَرْن » كما يقطع قَرْن الشّاة إذا نجم ؛ وقد صح إخبارُه عليه السلام عنهم أنّهم لم يهلكوا بأجمعهم فى وقعة النّهروان ، وأنّها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد ، وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنه سيكون آخرهم لصوصاً سَلّابين ؛ فإن دعوة الخوارج اضمحلّت ، ورجالها فنيت ، حتى أفضى الأمرُ إلى أن صارَ خَلَفُهم قُطّاع طريق ، متظاهرين بالفسوق والفساد فى الأرض .

[مقتل الوليد بن طريف الخارجيّ ورثاء أخته له]

فمن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيبانيّ[1] . فى أيام الرّشيد بن المهديّ ، فأشخص إليه يَزيد بن مزيد الشيبانيّ فقتله ، وحمل رأسه إلى الرشيد ، وقالت أخته ترثيه ، وتذكر أنّه كان من أهلِ التُّقَى والدين ، على قاعدة شعراء الخوارج ، ولم يكن الوليد كما زعمت :

أَيَا شَجرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقًا ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ[2]
فَتًى لايحبّ الزادَ إلّا مِنَ التُّقَى ... ولا المالَ إلا مِنْ قَنًا وسيوفِ

(١) انظر ترجمة الوليد بن طريف فى ابن خلكان ٢ : ١٧٩

(٢) هى الفارعة بنت الوليد ؛ من قصيدة طويلة ؛ نقلها ابن خلكان فى ترجمة الوليد ، وقال : « وكان للوليد المذكور أخت تسمى الفارعة ـ وقيل فاطمة ـ تجيد الشعر وتسلك سبيل الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر ، فرثت الفارعة أخاها بقصيدة أجادت فيها ؛ وهى قليلة الوجود ؛ ولم أجد فى مجاميع كتب الأدب إلا بعضها ؛ حتى إن أبا على القالى لم يذكر منها فى أماليه سوى أربعة أبيات ، فاتفق أنى ظفرت بها كاملة فأثبتها لغرابتها وحسنها ؛ وهى هذه » . وأورد القصيدة ومنها أبيات فى أمالى القالى ٢ : ٢٨٤ ، واللآلى ٩١٣ ، وشرح شواهد المغنى ٥٥ .

ولا الذُّخْرَ إلا كلَّ جرداء شَطْبَةٍ ... وكلَّ رقيق الشَّفْرَتَيْن خفيفِ (١)
فَقَدْنَاكَ فقدانَ الربيع وليتنا ... فَدَيْنَاكَ من سَادَاتِنــا بألوفِ

وقال مُسلم بن الوليد يمدح يزيد بن مزيد، ويذكر قتله الوليد :

والمارقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفْتَ لَهُ ... بعارضٍ للمنايا مُسْبِلٍ هَطِلِ (٢)
لو أن شيئاً بَكَى مما أطاف به ... فاز الوليد بِقِدْحِ النَّاضِلِ الخَصِلِ (٣)
ما كان جمعُهُم لَمَّا لقيتَهُمُ ... إلا كرِجْلِ جَرادٍ ريح مُنْجَفِلِ (٤)
فاسلم يزيدُ فما في الملك من أَوَدٍ ... إذا سلمت، ولا في الدين من خَلَلِ

***

[خروج ابن عمرو الخثعمىّ وأمره مع محمد بن يوسف الطائىّ]

ثم خرج فى أيام المتوكل ابنُ عمرو الخثعمىّ بالجزيرة فقطَع الطريق، وأخاف السبيل وتسمّى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائىّ الثغرىّ الصامِتىّ؛ فقتل كثيراً من أصحابه، وأسرَ كثيراً منهم ونجا بنفسه هارباً، فمدحه أبو عُبادة البحترىّ، وذكر ذلك فقال :

كُنَّا نُكَفِّرُ من أميَّةَ عُصْبَةً ... طَلَبُوا الخِلافَةَ فَجْرَةً وفُسُوقَا (٥)
وَنَلومُ طلحــةَ والزبير كليهما ... وَنُعَنِّفُ الصِّدِّيقَ وَالفَارُوقَا
ونقول : تيمٌ أقربت وعَدِيُّها ... أمراً بعيداً حيثُ كانَ سَحِيقا
وهمُ قريشُ الأبطحونَ إذا انتموا ... طابُوا أُصُولًا فى العُلاَ وَعُرُوقا

(١) الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . والشطبة : السبطة اللحم .
(٢) ديوانه ١٨ ، وفيه : « بعسكر للمنايا » .
(٣) الخصل : المصيب . (٤) الديوان : « كثل نعام » .
(٥) ديوانه ٢ : ١٤٥ ؛ من قصيدة أولها :
أأفَاقَ صَبٌّ مِن هوًى فَأُفِيقَا ... أمْ خَانَ عَهْدًا أمْ أطَاعَ شَفِيقَا

حتّى غدَتْ جُشَمُ بن بكر تبتغِي ... إرثَ النبيِّ وتدّعِيــــه حُقُوقا
جاءوا براعيهمْ ليتّخـــذوا به ... عمْداً إلى قطع الطريق طريقـا
عَقَدُوا عمامَته برأس قنــاتِهِ ... ورأوْه برّاً فاستحــال عقُوقا
وأقامَ يُنفِذ فى الجزيرة حكمَه ... ويظنُّ وَعْدَ الكاذبين صدوقا
حتى إذا ما الحيّةُ الذكرانـكَفى ... من أرزَنٍ حَرباً يمجُّ حَريقاً(١)
غضبان يلقى الشمس منه بهامةٍ ... يُعشِى العيون تألقاً وبُرُوقا
أوْفَى عليه فظلّ من دَهش يظن البرّ بحراً والفضاءَ مَضيقـــا
غـــدرت أمانيه به وتمزّقتْ ... عَنْـــه غيابةُ سُكرِهِ تمزيقاً
طلعتْ جيادُك من رُبا الجوديّ قد ... حُمّلْنَ من دَفْع المنون وُسُوقا
فدعا فريقاً من سُيوفِك حتفَهمْ ... وشدَدْتَ فى عِقْدِ الحديد فريقا
ومضى ابن عَمْرِو قد أساء بعمرِهِ ... ظنّا يمزّق مهرَه تمزيقـــا
فاجتاز دِجـــلة خائضاً وكأنّها ... قعْبٌ على باب الكُحَيل أريقا
لو خاضها عِمْليق أو عوج إذاً ... ماجوّزت عُوجاً ولا عمليقـــا
لولا اضطرابُ الخوف فى أحشائهِ ... رسب العُباب به فمات غريقا
لو نفّسته الخيـــلُ لفتة ناظرٍ ... ملأ البــلادَ زلازلا وفتُوقا
لثَنَى صُدُورالخيل تكشف كُرْبَةً ... ولَوَى رماحَ الخطّ تفرج ضيقا(٢)
ولبكرت بكْرٌ وراحت تغْلِبٌ ... فى نصر دَعْوَته إليــه طُرُوقا
حتى يعودَ الذئب ليثاً ضيغماً ... والغصن ساقاً والقرارة نِيقاً

(١) أرزن : موضع ، والحرب : الغضبان .
(٢) رواية الديوان :
لثَنَى صُدُورَ السُّمْرِ تــكْشِفُ كُرْبَةً ... وَلَوَى رُءوسَ الْخَيْلِ تفرج ضيقا

هَيْهَاتَ مارس فيلقا متيقّظاً   قَلِقاً إذا سكن البليد رَشِيقا
مستسلفاً جعل الغَبُوق صَبُوحَه   وَمُرَى صبوح غدٍ فكان غَبُوقا

وهذه القصيدة من ناصع شعر البحترى ومختاره .

***

[ذكر جماعة ممن كان يرى رأى الخوارج]

وقد خرج بعد هذين جماعة من الخوارج بأعمال كِرْمان وجماعة أخرى من أهل عُمان لا نباهة لهم، وقد ذكرهم أبو إسحق الصابى فى الكتاب " التاجى "[1] وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم؛ وإنما وَكْدُهم وقصدهم إخافة السبيل، والفساد فى الأرض، واكتساب الأموال من غير حِلِّها. ولا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرهم. ومن المشهورين برأى الخوارج الذين تمّ بهم صدق قول أمير المؤمنين عليه السلام : إنّهم نُطَف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء؛ عِكْرمة مولى ابن عباس ، ومالك بن أنس الأصبحىّ الفقيه، يروى عنه أنه كان يذكر عليا عليه السلام وعثمان وطلحة والزبير ، فيقول : والله ما اقتتلوا إلّا على الثريد الأعْفَر .

ومنهم المنذر بن الجارود العبدىّ ، ومنهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج .

وروى أنّ الحجاج أُتِىَ بامرأة من الخوارج وبحضرته مولاه يزيد بن أبى مسلم؛ وكان يستسرّ برأى الخوارج ، فكلّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد : الأمير ـ ويلك ـ يكلّمك ! فقالت : بل الويل لك أيها الفاسق الردىء! والردىء عند الخوارج هو الذى يعلم الحقّ من قولهم ويكتمه .

ومنهم صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق .

وممن ينسب إلى هذا الرأى من السلف جابر بن زيد وعمرو بن دينار ومجاهد .

وممن ينسب إليه بعد هذه الطبقة أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمىّ ، يقال : إنه كان يرى رأى الصُّفْرية .

---

(١) كتاب التاجى فى أخبار دولة بنى بويه ، ذكره ابن النديم .

ومنهم اليمان بن رباب ، وكان على رأى البيهسيّة[1] ، وعبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل ، وهؤلاء إباضيّة[2] .

وقد نسب إلى هــذا المذهب أيضاً من قبل أبو هارون العبدىّ ، وأبو الشعثاء ، وإسماعيل بن سميع ، وهبيرة بن بريم .

وزعم ابن قتيبة أن ابن هبيرة كان من غُلاة الشِّيعة .

ونُسِب أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد إلى رأى الخوارج لإطنابه فى كتابه المعروف بـ " الـكامل " فى ذكرهم وظهور الميلِ منه إليهم .

(١) البيهسية : أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر ؛ كان الحجاج طلبه فى أيام الوليد فهرب إلى المدينة ؛ فطلبه بها عثمان بن حيان ، فظفر به وحبسه ؛ وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ؛ ففعل به ذلك . وبقية أخباره وأقواله فى الشهرستانى ١١٣ .

(٢) الإباضية : أصحاب عبدالله بن إباض ؛ خرج فى أيام مروان ؛ وانظر أخباره وأقواله فى الشهرستانى ١ : ١٢١ .

(٦٠)

الأصل :

وقال عليه السلام فى الخوارج :

لَا تُقَاتِلُوا ٱلْخَوَارِجَ بَعْدِى ؛ فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ ٱلْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طلبَ ٱلْبَاطِلَ فَأدْرَكهُ .

قال الرضىّ رحمه الله :

يَعْنى معاويةَ وأصحابه .

***

الشرح :

مرادهُ أن الخوارج ضلّوا بشبهة دخلت عليهم ؛ وكانوا يطلبون الحقّ ؛ ولهم فى الجملة تمسُّك بالدين ، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها ، وإن أخطئوا فيها ؛ وأما معاوية فلم يكنْ يطلبُ الحقّ ؛ وإنما كان ذا باطل ، لا يحامى عن اعتقاد قد بناه على شبهة ، وأحواله كانت تدلّ على ذلك ؛ فإنه لم يكن من أرباب الدين ، ولا ظهر عنه نُسُك ؛ ولا صلاحُ حال ، وكان مترَفاً يُذهِب مالَ الفىء فى مآربه ؛ وتمهيد مُلكه ، ويصانع به عن سلطانه ؛ وكانت أحوالهُ كلها مؤذنةً بانسلاخه عن العدالة ، وإصراره على الباطل ؛ وإذا كان كذلك لم يجُزْ أن ينصُر المسلمون سلطانه ، ويحارَبُ الخوارج عليه وإن كانوا أهل ضلال ؛ لأنهمّ أحسن حالا منه ؛ فإنهم كانوا ينهوْن عن المنكر ، ويروْن الخروج على أئمة الجور واجبا .

وعندأصحابنا أنّ الخروجَ على أئمة الجورواجبٌ ،وعند أصحابنا أيضاأنّ الفاسق المتغلب

بغير شبهة يعتمد عليها لا يجوز أن ينصر على مَنْ يخرج عليه ممن ينتمي إلى الدين ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ بل يجب أن ينصر الخارجون عليه وإن كانوا ضالِّين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلتْ عليهم ، لأنهم أعدَلُ منه ، وأقربُ إلى الحقّ ، ولا ريب في تلزّم الخوارج بالدين ، كما لا ريبَ في أنّ معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك .

عود إلى أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم(*)

ذكر أبو العباس المبرد فى الكتاب " الكامل " أنّ عُرْوة بن أُدَيّة أحد بنى ربيعة بن حنظلة ـ ويقال إنه أول من حَكَّم ـ حضر حرب النَّهْروان ، ونجا فيها فيمن نجا ، فلم يزل باقياً مدة من خلافة معاوية ، ثم أُخِذَ فأُتى به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبى بكر وعمر ، فقال خيراً ، فقال له : فما تقول فى عثمان وفى أبى تراب ؛ فتولّى عثمان ست سنين من خلافته ، ثم شهد عليه بالكفر ، وفعلُ فى أمر علىّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكَّم ثم شهد عليه بالكفر . ثم سأله عن معاوية فسبّه سبًّا قبيحا ، ثم سأله عن نفسه ، فقال : أوّلك لريبة ، وآخرك لِدَعوة ، وأنتَ بعدُ عاصٍ ربك . فأمر فضربت عنقه ، ثم دعا مولاه ، فقال : صف لى أمورَه ، فقال : أأطنِبُ أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال : ما أتيتهُ بطعام فى نهار قطّ ولا فرشتُ له فِراشاً فى ليل قطّ(١) .

***

قال : وحُدِّثت أنّ واصلَ بن عطاء أبا حُذَيفة أقبل فى رُفقة ، فأحسُّوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة: إنّ هذا ليس من شأنِكم فاعتزلوا، ودَعونى وإيّاهم ـ وقد كانوا قد أشرفُوا على العطب ـ فقالوا : شأنَك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما(٢) أنت وأصحابك ؟ قال : قوم مُشركون مُستَجيرون بكم ، ليسمَعُوا كلام الله ، ويفهموا حدوده ، فقالوا : قد أجَرْناكم قال : فعلِّمُونا ؛ فجعلوا يعلّمونهم أحكامهم ؛ وواصل يقول : قد قَبِلت أنا ومن معى ، قالوا : فامضوا مُصاحَبين فإنكم إخواننا ، فقال : ليس ذاكَ إليكم ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾(٣) .

(*) انظر ماسلف من أخبارهم فى الجزء الرابع .

(١) الكامل ٣ : ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) ا : « من » .

(٣) سورة التوبة ٦ .

فأبلغونا مأمننا . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا: ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم، حتى أبلغوهم المأمن[(١)].

* * *

وقال أبو العباس : أُتِيَ[(٢)] عبدُ الملك بن مرْوان برجل من الخوارج، فبحَثه فرأى منه ماشاء[(٣)] فهما وعلما ، ثم بحثه [(٤)] فرأى منه ماشاء أدباً وذهناً [(٤)] ، فرغِب فيه ،فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرآه مستبصرا محقِّقا ، فزاده فى الاستدعاء ، فقال : تغنيك الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ وسمعتُ ، فاسمع أقل ، قال : قل ، فجعل يبسُط من قول الخوارج ويزيِّن له من مذهبهم بلسان طلق ؛ وألفاظ بيِّنة ، ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته[(٥)] وفضله : لقد كاد يوقَع فى خاطرى أنّ الجنة إنّما خلقت لهم ، وأنّى أوْلى العباد بالجهاد معهم ؛ ثم رجعت إلى ماثبّت الله عليّ من الحجّة ، وقرّر فى قلبى من الحقّ ،فقلت [له][(٦)] : الدنيا والآخرة لله، وقد سلّطنا الله فى الدنيا ، ومكّن لنا فيها، وأراك لست تجيبنا إلى مانقول ؛ والله لأقتلنّك إن لم تطع . فأنا فى ذلك ؛ إذ دُخِل عليّ بابنى مرْوان .

قال أبو العباس : وكان مرْوان أخا يزيد بن عبد الملك لأمّه ، [أمّهما][(٦)] عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان أبيًّا عزيزَ النفس ، فدُخل به على أبيه فى هذا الوقت باكيًا

---

(١) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) ا ، ج : « أتى رجل » .
(٣) ب : « مما شاء » .
(٤ — ٤) ساقط من ب .
(٥) ا ، ج : « على معرفة وفضل » .
(٦) من الكامل .

لضرب المؤدّب إياه ، فشقّ ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجيّ وقال : [له] [١] : دَعْه يبكِ ؛ فإنه أرحبُ لشدقه ، وأصحّ لدِماغه ، وأذهَبُ لصوته ، وأحْرَى ألّا تأبى عليه عينُه إذا حضرتْه طاعة [٢] واستدعى عَبْرَتها .

فأعجب ذلك من قوله عبدَ الملك ، وقال له متعجّبا : أما يشغَلُك ما أنت فيه ويعرضك عن هذا ؟ فقال : ماينبغى أن يشغل المؤمنَ عن قول الحقّ شىء ، فأمر بحبسه ، وصفح عن قتله ، وقال بَعْدُ معتذراً إليه : لولا أن تُفْسِدَ بألفاظك أكثرَ رعيّتى ماحبستك ، ثم قال عبد الملك : لقد شكّكنى ووهّمنى حتّى مالت بى عصمة الله ؛ وغير بعيد أن يستهوِيَ مَنْ بَعْدى [٣] .

***

[مرداس بن حُدَير]

قال أبو العباس : وكان من المجتهدين [٤] من الخوارج البَلْجاء ، وهى امرأة من بنى حَرَام ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .

وكان مرداس بن حُدَير أبو بلال ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة ناسكا ، تعظّمه الخوارج ، وكان كثيرَ الصواب فى لفظه مجتهدا ، فلقيه غَيْلان بن خَرَشَةَ الضّبى ، فقال : ياأبا بلال ، إنّى سمعت الأمير البارحة - يعنى عبيد الله بن زياد - يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ ، فمضى إليها أبو بلال فقال : إن الله قد وسّع على المؤمنين فى التقيّة [٥] فاستترى ؛ فإن هذا

---

(١) من الكامل

(٢) ب : « طاعة الله »

(٣) الكامل ٢ : ٢٣١ ، ٢٣٢

(٤) الكامل : « المجتهدات » ، وكلاهما صواب

(٥) التقية : حفظ النفس بما يستطاع من المكروه .

المُسرِفَ على نفسه الجبّار العنيد قد ذكركِ، قالت : إنْ يأخذ نى فهو أشق به ؛ فأمّا أنا فما أحبّ أن يعنَت إنسان بسببى[1] ؛ فوجّه إليها عبيد الله بن زياد ، فأُتِى بها فقطع يديْها ورجليها ، ورمى بها فى السوق ، فمرّ بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ماهذا ؟قالوا: البلجاء ، فعرّج إليهـا فنظر ثم عضّ على لحيته ، وقال لنفسه : لهـذه أطيبُ نفسا من بقيّة الدنيا منك يامرداس .

قال : ثم إن عبيد الله أخذ مِرْدَاساً فحبسه ،[2] فرأى صاحب السجن منه شدّة اجتهاده، وحلاوة منطقه ، فقال له : إنّى أرى لك مذهبا حسنا[2] ، وإنى لأحِبّ أن أولِيَكَ معروفا ، أفرأيتك إن تركتُك تنصرف ليلًا إلى بيتك أتدَّلِجُ[3] إلىّ ؟ قال : نعم ،فكان يفعل ذلك به[2] .

ولجّ عبيد الله فى حَبْس الخوارج وقتلهم ، وكُلّم فى بعضهم فأبَى وقال : أقمعُ[4] النفاق قبل أن ينجُم ؛ لَكلامُ هؤلاء أسرعُ إلى القلوب من النّار إلى اليراع[5].

فلما كان ذاتَ يوم قَتَل رجل من الخوارج رجلًا من الشُّرْطة ، فقال ابن زياد : ماأدرِى ماأصنع بهؤلاء ! كلما أمرتُ رجلا بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله ،لأقتلنّ مَنْ فى حبسِى منهم . وأخرج السّجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل ، فأتى مرداسا الخبر ، فلما كان فى السَّحَر ، تهيّأ للرجوع إلى السجن ، فقال له أهله: اتق الله فى نفسِك ؛ فإنك إذارجعتَ قُتِلتَ ، فأبى وقال : والله ما كنتُ لألقى الله غادرا ؛ فرجع إلى السجان ، فقال : إنّى قد علمت ماعَزَم عليه صاحبُك ، قال : أعلمت ، ثم جئت[6] !

* * *

(١) ب : « ق ».
(٢ ــ ٢) ا ، ج : « فرأى منه الحباس مذهبا حسنا »
(٣) تدلج : تسير أول الليل .
(٤) كذا فى الكامل ؛ وفى الأصول كلة غير واضحة .
(٥) اليراع : القصب ، واحدته يراعة .
(٦) الكامل : « ورجعت » .

قال أبو العباس : ويروَى أنّ مرداسا مَرّ بأعرابىّ يَهْنأ[1] بعيرا له ، فهرِج[2] البعير ، فسقط مرداس مغشيًّا عليه ، فظنّ الأعرابىّ أنه صُرِع ، فقرأ فى أذنه ، فلما أفاق قال له الأعرابىّ : إنى قرأت فى أذُنك ، فقال مِرْداس : ليس بِى ماخفتَه عَلَىّ ، ولكنّى رأيت بعيراً هَرِج من القَطِران ، فذكرت به قَطِران جهنم ، فأصابنى مارأيت ، فقال الأعرابىّ : لاجَرَم ! والله لاأفارقك أبدا .

قال أبو العباس : وكان مِرْداس قد شَهِدَ مع علىّ عليه السلام صِفِّين ، ثم أنكر التحكيم ، وشهد النَّهْروان ؛ ونجا فيمن نجا ؛ ثم حبسه ابنُ زياد ؛ كما ذكرناه ، وخرج مِنْ حبسه ، فرأى جِدّ ابن زياد فى طلب الشُّراة ،فعزم على الخروج ؛ فقال لأصحابه : إنه والله مايسَعُنا المقام مع هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامُهم ، مجانِبين للعدل ، مفارقين للقصد[3] ؛ والله إنّ الصبر على هذا لعظيم ، وإنّ تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم ، ولكنا ننتبذ عنهم ، ولا نجرّد سيفا ، ولا نقاتل إلا مَنْ قاتلنا . فاجتمع إليه أصحابُه زُهاء ثلاثين رَجُلا ، منهم حُرَيْث بن حَجَل وكَهْمس بن طَلْق الصَّرِيمىّ ، وأرادوا أن يولّوا أمرَهم حُرَيثا فأبى ، فولّوا أمرَهم مِرْداسا ، فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصارىّ ـ وكان له صديقا ـ فقال : ياأخى ، أين تريد ؟ قال : أريد أن أهربَ بدينى ودين أصحابى مِنْ أحكام هؤلاء الجَوَرة ، فقال : أعلِم بكم أحد ؟ قال : لا، قال: فارجع؛ قال: أوتخاف علىّ نُكْرا[4]؟ قال: نعم ،وأن يؤتى بك .قال : لاتخف؛ فإنى لاأجرّد سيفا، ولا أخيف أحدا ، ولا أقاتل إلّا مَنْ قاتلنى .

ثم مضى حتى نزل آسَك ، وهى مابين رامَهُرمز وأرّجان ، فمرّ به مالٌ يُحمل إلى ابن

---

(١) هنأ البعير ، طلاه بالهناء،والهناء: القطران .
(٢) هرج : تحير وسدر من حرارة القطران .
(٣) الكامل: «الفصل» ؛ وهوقول الحق
(٤) ا ، ج : «نكيرا» ، وفى الكامل : « مكروها » .

زياد ، وقد قارَب أصحابه الأربعين ، فحطّ ذلك المال ، وأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ، وردّ الباقى على الرُّسل ، وقال : قولوا لصاحبكم : إنا قبضنا أعطياتنا ، فقال بعض أصحابه: علام نَدَع الباقى ؟ فقال : إنهم يقيمون هــذا الفىء ؛ كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم على الصلاة .

قال أبو العباس : ولأبى بلال مرداس فى الخروج أشعار ، اخترت منها قوله :

أبعدَ ابنِ وَهْبٍ ذِى النَّزاهة والتُّقى ... ومَنْ خاضَ فى تلكَ الحُرُوبِ المهالِكا[1]

أُحبّ بقاءً أو أُرجِّى سَلَامَةً ... وقد قتَلُوا زيدَ بن حِصْنٍ وَمَالِكا

فياربِّ سَلِّمْ نيَّتِي وَبَصِيرتى ... وهبْ لِى التُّقى حتى أُلاقِى أولائكا

* * *

قال أبو العباس : ثم إنّ عُبيد الله بن زياد ، نَدَبَ جيشاً إلى خُراسان ، فحكى بعضُ مَنْ كان فى ذلك الجيش،قال : مررنا بآسك،فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رَجُلاً، فصاح بنا أبو بلال : أقاصدون لقتالنا أنتم ؟ قال : وكنت أنا وأخى قد دخلنا زَرْباً[2] ، فوقف أخى ببابه ، فقال:السلام عليكم ، فقال مِرْداس : وعليكم السلام،ثم قال لأخى:أجئتم لقتالنا؟ قال : لا ، إنما نريد خُراسان ، قال : فأبلغوا مَنْ لقيتم أنا لم نخرج لنفسد فى الأرض ، ولا لنروِّع أحداً،ولكن هرباً من الظلم . ولسنا نقاتل إلا مَنْ يقاتلنا ، ولا نأخذ من الفىء إلا أعطياتنا، ثم قال : أنُدِب لنا[3] أحد ؟ قلنا : نعم ، أسلم بن زُرْعة الكلابىّ ، قال:فمتى ترونَه يصل إلينا ؟ قلنا : يوم كذا وكذا ، فقال أبو بلال : حَسْبنا الله ونعم الوكيل !

قال أبو العباس:وجَهّز عبيد الله بن زياد أسلم بن زُرْعة فى أسرع مدّة ، ووجّهه إليهم

---

(١) يريد عبيد الله بن وهب الراسبى ؛ أحد بنى راسب ؛ بطن من الأزد ؛ زعيم الخوارج فى مبدأ أمرهم .

(٢) الزرب : مكمن يحتفره الصائد يتوارى فيه ليختل الصيد .

(٣) الكامل : « إلينا » .

فى ألفين ، وقد تتامّ أصحابُ مرداس أربعين رجلا ، فلما صار أسلم إليهم صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم ، فإنا لا نُريد فساداً[١] فى الأرض ، ولا نحتجر فيئاً ، فما الذى تريد؟ قال: أريد أن أردّكم إلى ابن زياد ، قال: إذن يقتلنا، قال : وإن قتلكم ! قال: تشركه فى دمائنا، قال : إنى أدين بأنه محقٌّ وأنتم مبطلون ؛ فصاح به حُريث بن حَجَل : أهو محقٌّ ، وهو يطيع الفَجرة ، وهو أحدهم ؛ ويقتل بالظِّنّة ويخصّ بالفئ ، ويجور فى الحكم ! أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة برآء ؛ وأنا أحد قتلته ، وقد وضعتُ فى بطنه دراهم كانت معه .

ثم حملوا على أسلم حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قِتال ، وكاد يأسره مَعْبَد أحد الخوارج ،فلما عاد إلى ابن زياد غَضِب عليه غضباً شديداً،وقال وَيلك ! أتمضى فى ألفين ، فتنهزم بهم من حملة أربعين ! فكان أسْلَمُ يقول : لأن يذمّنى ابن زيادٍ وأنا حيٌّ ، أحبُّ إلى أن يمدحنى وأنا ميت .

وكان إذا خرج إلى السوق،أو مَرّ بصبيان صاحوا به:أبو بلال وراءك!وربما صاحوا به : يامعبد خذه،حتى شكا إلى ابن زياد ، فأمر الشُّرَط أن يكفُّوا الناس عنه ، ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك ، من بنى تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج :

فلما أصبَحُوا صَلَّوْا وقامُوا ... إلى الجُرْد العتاقِ مُسَوّمِيناَ[٢]

فَلَمّا استَجمَعُوا حَمَلُوا عليهم ... فَظَلّ ذوو الجَعائلِ يُقتَلُونا[٣]

بقِيّةَ يومِهِمْ حتى أتاهُمْ ... سوادُ الليل فيه يُرَاوِغُونا

يقولُ نَصِيرُهُمْ لَمّا أتاهُمْ ... فإنّ القومَ ولَّوْا هارِبيناَ

ألفاً مؤمنٍ فيكم زَعَمْتُمْ ... ويهزمُكم بآسك أربَعُونا!

---

(١) الكامل « لانريد قتالا » ، ب : « لانريد فساداً فى الأرض » .

(٢) الجرد : جمع أجرد ؛ وهو من الخيل القصير الشعر ، والعتاق : النجائب ؛ الواحد عتيق . مسومين: معلمين بعلامة الحرب .

(٣) الجعائل : جمع جعيلة أو جعالة ؛ وهى ما يأخذه العامل من الأجرة .

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غيرَ شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

* * *

قال أبو العباس : أما قول حُريث بن حَجْل : « أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة برآء وأنا أحد قتلته » ، فابن سعاد هو المثلَّم بن مسروح[١] الباهلي ، وسعاد اسم أمّه؛ وكان من خبره أنه ذُكر لعبيد الله بن زياد رجل من سَدوس ، يقال له خالد بن عبّاد ، أو ابن عُبادة، وكان من نُساك الخوارج، فوجّه إليه فأخذه، فأتاه رجل من آل ثور[٢] فكذّب عنه وقال: هو صهري وفي ضِمْنِي ، فخلّى عنه ، فلم يزل الرجل يتفقّده حتى تغيّب ، فأتى ابن زياد فأخبره؛ فلم يزل يبعث إلى خالد بن عبّاد حتى ظفر به ، فأخذه ، فقال : أين كنت في غيبتك هذه؟ قال : كنتُ عند قوم يذكرون الله ويسبّحونه ، ويذكرون أئمة الجوْر ، فيتبرءون منهم. قال : ادللني عليهم، قال: إذن يَسْعَدُوا وتشقى؛ ولم أكن لأروِّعهم؛ قال : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فقال : خيراً ، قال : فما تقول في عثمان وفي معاوية ، أتتولاهما ؟ فقال : إن كانا وليَّيْنِ لله فلست معاديهما ؛ فأراغه مراراً ليرجع عن قوله فلم يفعل ، فعزم على قتله ، فأمر بإخراجه إلى رَحْبة تعرف برَحبة الرَّسي[٣] وقتله بها ، فجعل الشُّرطة يتفادون من قتله ويروغون عنه توقّيا لأنه كان متقشِّفاً[٤] عليه أثر العبادة ، حتى أتى المثلّم بن مسروح[١] الباهلي ، وكان من الشُّرطة ، فتقدم فقتله ، فائتمر به الخوارج أن يقتلوه ؛ وكان مغرَماً باللِّقاح[٥] يتبعها ، فيشتريها من مظانّها ، وهم في تفقّده ، فدسّوا إليه رجلا في هيئة الفِتْيان عليه رَدْع[٦]

---

(١) ب : « مشرح » .
(٢) ثور : هو كندة .
(٣) الكامل : « الزينبي » .
(٤) الكامل : « شاسفا » والشاسف : المهزول .
(٥) اللقاح : النوق ، واحدتها لقحة ؛ وهي الحلوب .
(٦) ردع الزعفران : اللطخ به .

زعفران ، فلقيه بالمِرْبد[١] وهو يسأل عن لِقْحة صفِيّ[٢]، فقال له الفتى : إن كنت تبتغي[٣] فعندي ما يغنيك عن غيره ، فامض معي . فمضى المثلّم معه على فرسه ، يمشي الفتى أمامه حتى أتى به بني سَعْد ، فدخل داراً ، وقال له : أدخل عليّ فرسَك ؛ فلما دخل وتوغّل في الدار أغلَق الباب ، وثارت به الخوارج ، فاعتوره حُرَيث بن حَجْل وكَهْمس بن طَلْق الصَّرِيمي ، فقتلاه ، وجعلا دراهم كانت معه في بطْنه ، ودفناه في ناحية الدار ، وحكّا آثار الدم وخلّيا فرسه في الليل ، فأصيب في الغد في المِرْبد وتجسّس عنه الباهليّون ؛ فلم يروا له أثراً ، فاتهموا بني سَدُوس به ، فاستعدَوْا عليهم السّلطان ، وجعل السّدوسيّة يحلفون ؛ فتحامل ابن زياد مع الباهليين ، فأخذ من السّدوسيّين أربع ديات ، وقال : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء الخوارج! كلما أمرت بقتل رجل اغتالوا قاتله . فلم يعلم بمكان المثلّم حتى خرج مرداس وأصحابه ، فلما واقفهم ابن زُرْعة الكلابي صاح بهم حُرَيث ، وقال : أهاهنا من باهلة أحد؟ قالوا : نعم ، قال : يا أعداء الله ، أخذتم للمثلم[٤] من بني سَدُوس أربع ديات ؛ وأنا قتلته ، وجعلت دراهم كانت معه في بطنه ، وهو في موضع كذا مدفون ، فلما انهزم ابن زُرْعة وأصحابُه صاروا إلى الدار ، فأصابوا أشلاءه[٥] ؛ ففي ذلك يقول أبو الأسود :

وآلَيْتُ لا أغدو إلى ربّ لِقْحَةٍ ... أساوِمُه حتى يئوبَ المثلَّمُ[٦]

(١) المربد : كل مكان حبست فيه الإبل ومنه مربد البصرة .
(٢) الصفي : الغزيرة اللبن .
(٣) الكامل : « تبلغ » .
(٤) الكامل : « بالمثلم » .
(٥) الكامل ٣ : ٢٧٤ .
(٦) بعده كما في رغبة الآمل :

وَقَالَ لَهُ كَوْمَاء حَمْرَاء جَلْدَةٌ ... وَقَارَبَهُ فِي السَّوْمِ وَالْقَتْلَ يَكْتُمُ
فَأَصْبَحَ قَدْ عُمّي عَلَى النَّاسِ أَمْرُهُ ... وَقَدْ بَاتَ يَجْرِي فَوْقَ أَثْوَابِهِ الدَّمُ
وَقَدْ كَانَ فِيمَا كَانَ مِنْهُ بِمَعْزِلٍ ... وَلَكِنَّ حَيْنَ الْمَرْءِ لِلْمَرْءِ مُسْلِمُ

قال أبو العباس : فأما[1] ما كان من مِرْداس ، فإنّ عبيد الله بن زياد نَدَب إليه الناس ، فاختار عَبّاد بن أخضر المازنيّ ـ وليس بابن أخضر ؛ بل هو عَبّاد بن علقمة المازنيّ وكان أخضر زوْج أمه ؛ وغلَب عليه ـ فوجّهه إلى مرداس وأصحابه في أربعة آلاف فارس ، وكانت الخوارج قد تنحّتْ من موضعها ، بدر ابجراد من أرض فارس ؛ فصار إليهم عبّاد ، فكان التقاؤهم في يوم جمعة ، فناداه أبو بلال : اخرج إليّ يا عبّاد ، فإني أريد أن أحاورَك ، فخرج إليه ، فقال : ما الذي تبغي ؟ قال : أنْ آخذ بأقفيتكم فأردّكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد ، قال : أو غير ذلك ؟ أن نرجع ؛ فإنا لا نخيفُ سبيلا ، ولا نذْعَرُ مسلماً ، ولا نحارب إلا مَنْ يحاربنا ، ولا نجبي إلا ما حَمَيْنا . فقال عَبّاد : الأمر ماقلت لك ، فقال له حُرَيث بن حَجْل : أتحاول أنْ تردّ فئة من المسلمين إلى جبّار عنيد ضالّ ! فقال لهم : أنتم أولَى بالضلال منه ، وما من ذاك من بدّ .

قال : وقدم القعقاع بن عطية الباهليّ من خراسان ، يريد الحج ، فلما رأى الجمعين قال : ما هذا ؟ قالوا : الشُّراة ؛ فحمل عليهم ونَشِبَت الحرب بينهم ؛ فأخذت الخوارج القعقاع أسيراً ؛ فأتوْا به أبا بلال ، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال : ما أنا من أعدائك ؛ إنما قدمت للحجّ ، فحملت وغُرِرْت ؛ فأطلقه ، فرجع إلى عباد وأصلح مِنْ شأنه ، وحمل على الخوارج ثانية ، وهو يقول :

أُقَاتِلُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيَّ بَعْثٌ   نَشَاطاً ليسَ هَذا بالنشاطِ
أَكُرُّ على الحروريِّين مُهْرِي   لأحمِلَهم على وَضَحِ الصِّراط

فحمل عليه حُرَيث بن حَجْل السدوسيّ وكَهْمَسُ بن طَلْق الصَّريميّ ، فأسراه وقتلاه ، ولم يأتيا به أبا بلال . ولم يزل القوم يجتلِدُون حتى جاء وقت صلاة الجمعة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ، هذا وقتُ الصلاة ، فوادعونا حتى نصلّي وتصلوا ، قالوا : لك ذاك ، فرمى القوم

(١) الكامل ٣ : ٢٠٣ وما بعدها

أجمعون بأسلحتهم ، وعمدوا للصلاة ، فأسرع عباد ومَنْ معه وقَضَوْا صلاتهم ، والحرورية مبطئون ، فيهم ما بين راكع وساجد ، وقائم فى الصلاة وقاعد ، حتى مالَ عليهم عَبّاد ومن معه ، فقتلوهم جميعاً ؛ وأُتِىَ برأس أبى بلال .

قال : ويرى الشُّراة أنّ مرداسا أبا بلال لما عَقَد على أصحابه ، وعزم على الخروج رفع يديْه ، فقال : اللهم إن كان ما نحن فيه حقًّا فأرنا آية ، فرجف البيت .

وقال آخرون : فارتفع السقف .

ويقال : إنّ رجلا من الخوارج ذكر ذلك لأبى العالية الرياحىّ ؛ يعجّبه من الآية ، ويرغّبه فى مذهب القوم ، فقال أبو العالية : كاد الخسف ينزِل بهم ، ثم أدركتهم نظرة من الله .

قال : فلما فرغ عَبادٌ من الجماعة أقبل بهم فصلب رءوسهم ، وفيهم داود بن شبيب ، وكان ناسكا ، وفيهم حبيبة البكرىّ من عبد القيس ؛ وكان مجتهدا ؛ ويروى عنه أنه قال : لما عزمت على الخروج فكّرت فى بناتى ، فقلت ذات ليلة : لأمسكنّ عن نفقتهنّ حتى أنظر ؛ فلما كان فى جوف الليل استسقت بنيّةٌ لى ، فقالت : يا أبت اسقنى ، فلم أجبها ، وأعادت ، فقامت أختٌ لها فسقتها ، فعلمت أنّ الله عز وجلّ غير مضيّعهنّ ، فأتممت عزمى .

وكان فى القوم كَهْمس ، وكان من أبرّ الناس بأمّه ؛ فقال لها : يا أمه ؛ لولا مكانك لخرجتُ ، فقالت : يا بنىّ ، وهبتك لله

ففى مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الخطىّ :

ألا فى الله لا فى النّاس سَالتْ ... بداوُدٍ وإخوته الجُذُوع
مَضَوْا قَتْلاً وتمزيقاً وَصَلْباً ... تحُومُ عليهمُ طَيْرٌ وُقُوعُ
إذا ما الليلُ أظلَم كابَدُوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ رُكوعُ
أطار الخوفُ نومَهمُ فقاموا ... وأهلُ الأرض فى الدنيا هُجُوع

وقال عمران بن حِطّان :

ياعين بَكّى لمرادسٍ ومصرعِه ... يارب مرادس اجعلنى كمرادسِ
تركتنى هائما أبكى لمرزئة[1] ... فى منزلٍ موحشٍ من بعد إيناسِ
أنكرتُ بعدك مَن قد كنت أعرفه ... ما الناسُ بعدك يامرادسُ بالناس
إمّا شربت بكأسٍ دار أوّلها ... على القرون فذاقوا جرعة الكاسِ
فكلّ مَنْ لم يذقها شارباً عجلاً ... يُسْقَى بأنفاس وِرْدٍ بعد أنفاسِ

وقال أيضاً :

لقدْ زادَ الحياة إلىّ بغضاً ... وحُبّاً للخروج أبو بلالِ[2]
أحاذِر أن أموتَ على فراشى ... وأرجو الموت تحت ذُرا العوالى[3]
فمن يكُ همّه الدنيا فإنّى ... لها ـ والله ربّ البيت ـ قالِ

***

[عمران بن حِطّان]

وقال أبو العباس : وعمران هذا ، أحدُ بنى عمرو بن يسار بن ذهل بن ثعلبة بن عُكابة ابن صَعْب بن علىّ بن بَكر بن وائل ، وكان رأس القَعَد من الصُّفْرية وفقيههم وخطيبهم وشاعرهم ؛ وشعره هذا بخلاف شعر أبى خالد القَنانىّ وكان من قَعَد الخوارج أيضا . وقد كان كتب قطرىّ بن الفجاءة المازنىّ يلومه على القُعود :

(١) الكامل : « لمرزئة » .
(٢) الأبيات فى الكامل ٣ : ١٦٨
(٣) فى الكامل بعده :

وَلَوْ أنّى عَلِمتُ بِأنّ حَتْفِى ... كحَتْفِ أبى بِلَالٍ لَمْ أبَالِ

أبا خالدٍ أيقنْ فلستَ بخــــالدٍ ... وما جَعَلَ الرحمنُ عـذْراً لقاعدِ

أتزعم أنّ الخارجيّ على الهُدَى ... وأنت مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدِ !

فكتب إليه أبو خالد :

لقـــدْ زادَ الحياةَ إليّ حُبًّا ... بناتِي إنّهنّ من الضِّعــــافِ[1]

أحاذِرُ أن يرَيْنَ الفقرَ بعدى ... وأن يَشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صــافِ

وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِيَ الجوارى ... فتنبو العينُ عن كرمٍ عِجافِ

ولولا ذاكَ قد سوَّمْتُ مُهْرِى ... وفى الرَّحمن للضعفــــاء كافِ

* * *

وقال أبو العباس : ومما حدثنى به[2] العباس بن أبى الفرج الرياشىّ ، عن محمد بن سلام أنّ عمران بن حِطّان لما طَرَدَهُ الحجّاج ، جعل يتنقّل فى القبائل ، وكان إذا نزل بحىّ انتسب نسبا يقرب منهم ، ففى ذلك يقول :

نزلْنا فى بنى سعدِ بن زيدٍ ... وفى عكٍّ وعامر عَوْبثــان[3]

وفى لخمٍ وفى أُدَدِ بن عمرو ... وفى بكرٍ وحىّ بنى الغُدَانِ

ثم خرج حتى لقى رَوْح بن زِنْبَاع الجذامىّ ، وكان رَوْح يَقْرِى الأضياف، وكان مسايراً لعبد الملك بن مروان ؛ أثيرا[4] عنده . وقال ابن عبد الملك فيه : مَنْ أُعطِىَ مثل ما أُعطِىَ أبو زُرْعة ! أُعطِىَ فقه الحجاز ودهاء أهل العراق وطاعة أهل الشام .

وانتمى عمران إليه أنّه من الأزد ، فكان رَوْح لا يسمع شعرا نادراً ، ولا حديثا غريبا

---

(١) الكامل ٣ : ١٦٧ .

(٢) الكامل ٣ : ١٦٨ وما بعدها .

(٣) عوبثان بن زاهر بن مراد ؛ جد بداء بن عامر (القاموس)

(٤) أثيرا : مكرما ؛ من آثره : إذا أكرمه .

عند عبد الملك ، فيسأل عنه عمران إلا عرفه وزاد فيه . فقال رَوْح لعبد الملك : إنّ لى ضَيفاً ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شعراً إلا عرفه وزاد فيه ؛ فقال : أخبِرْنى ببعض أخباره، فأخبره وأنشده ؛ فقال : إنّ اللغة لغة عدنانية ، ولا أحسبه إلا عِمْران بن حِطّان ؛ حتى تذاكروا ليلةً البيتين اللذين أولهما : «ياضربة(١) . . . » .

فلم يدر عبد الملك لمن هما ، فرجع رَوْح فسأل عمران عنهما ، فقال : هذا الشعر لعِمْران ابن حِطّان يمدح عبدالرحمن بن ملجم . فرجع رَوْح إليه فأخبره، فقال: ضيفك عمران بن حِطّان؛ فاذهب فجئنى به ؛ فرجع إليه فقال : أمير المؤمنين قد أحبّ أن يراك ، فقال له عمران : قد أردتُ أن أسألك ذاك فاستحييتُ منك، فاذهب فإنّى بالأثر؛ فرجع روح إلى عبدالملك فخبّره، فقال : أما إنك سترجع فلا تجده ، فرجع فوجد عمران قد احتمل ، وخلّف رقعة فيها :

يا رَوْحُ كَمْ مِنْ أخى مَثْوًى نزلْتُ به ... قد ظَنّ ظنّك مِنْ لَخْمٍ وَغَسّانِ
حَتّى إذا خفتُهُ زايلتُ منزلَهُ ... من بعدِ ما قيل عِمْران بن حِطّانِ
قد كنتُ جارَكَ حولاً لا يروّعُنِى ... فيه طوارقُ مِنْ إنْسٍ ولا جانِ
حتى أرَدْتَ بِىَ العظْمَى فأدركَنِى ... ما أدْرَكَ النّاسَ من خوف ابن مَرْوانِ
فاعذِرْ أخاك ابنَ زنباع فإنّ له ... فى الحادثاتِ هناتٍ ذَاتَ ألوانِ
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ ... وإن لقيتُ مَعَدِّيًّا فَعَدْنانى

---

(١) البيتان كما أوردها فى الكامل :

يا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بهـا ... إلاّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إنّى لأذكره حيناً فأحسبُهُ ... أوفَى البريّةِ عندَ اللّهِ ميزانَا

وفى زيادات الكامل : « قلبه الفقيه الطبرى فقال :

يا ضَرْبَةً مِنْ شَقِيٍّ مَا أَرَادَ بهـا ... إلاّ لِيَهْدِمَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ بُنْيَانَا
إنّى لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَلْعَنُـــــهُ ... إيهًا وَأَلْعَنُ عِمْرانَ بنَ حطّانَا =

لوْ كُنْتُ مُسْتَغفِراً يَوْماً لِطَاغِيةٍ كُنْتَ الْمُقَدَّمَ فِي سِرِّي وإعْلاَنِي

لَـكِنْ أَبَتْ ذَاكَ آيَاتٌ مُطَهَّرَةٌ عِنْدَ التِّلاَوَةِ فِي طَهَ وَعِمْرَانِ

ثم ارتحل ؛ حتى نزل بزُفَر بن الحارث أحـد بنى عَمْرو بن كلاب ؛ فانتسب له أوزاعياً (١) ، وكان عمران يطيل الصلاة ؛ فـكان غِلمان بنى عامر يضحكون منه ، فأتاه رجل ممن كان عند رَوْح ، فسلّم عليه ، فدعاه زفر فقال له : مَنْ هذا ؟ فقال : رجل من الأزد ، رأيته ضيفاً لروْح بن زنباع ؛ فقال له زفر : ياهذا ، أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ! إن كنت خائفاً أمّنّاك ، وإن كنت فقيراً جَبَرْناك ، فلما أمسى خلّف فى منزله رقعـة ، وهرب فوجدوا فيها :

إنّ التى أصْبَحَتْ يَعْيَا بهـــا زُفَرُ أعْيَتْ عَياه على رَوْحِ بن زِنْبَاعِ (٢)

مازالَ يسألني حَوْلًا لأخــبِرَهُ والنَّاسُ مابَيْنَ مَخْــدُوعٍ وخَدّاعِ

حتّى إذا انقطعتْ مِــنِّى وسائلُه كَفَّ السُّؤال ولم يُولعْ بإهلاعِ

فاكْفُفْ لسانَكَ عن لومِي وَمَسْأَلَتِي ماذا تريدُ إلى شيْخٍ بلا راعِ ! (٣)

فاكْفُفْ كَما كَفّ عنّي إنني رجـلٌ إما صميمٌ وإما فقْعَــــةُ القَاعِ

= وقال محمد بن أحمد الطيب يرد على عمران بن حطان :

يَاضَرْبَةً مِنْ غَـدُورٍ صارَ ضَارِبُهَا أشْقَى البرِيَّةِ عِنْـــدَ اللهِ إنْسَانَا

إِذَا تَفَـكَّرْتُ فِيــهِ ظَلْتُ أَلْعَنُهُ وَأَلْعَنُ الْـكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَا

(١) أوزاعى : منسوب إلى أوزاع ؛ أبى بطن من همدان .

(٢) فى الـكامل : « قال أبو العباس : أنشدنيه الرياشى :

* أعْيَا عَيَاهَا على رَوْحِ بْنِ زِنْبَاعِ *

وأنـكره كما أنـكرناه ؛ لأنه قصر الممدود ؛ وذلك فى الشعر جائز ؛ ولا يجوز مد المقصور .

(٣) فى الـكامل : « إلى شيخ لأوزاع » ؛ والبيت فى ترتيب الـكامل ورد بعد تاليه .

أمّا الصَّلاة فإنّى غيرُ تارِكها ... كلُّ امرئٍ للذى يُعْنَى بِهِ ساعِ
أكْرِمْ بروحِ بنِ زنباعٍ وأسرتِهِ ... قومٌ دعا أوّليهِمْ للعُلا داعِ
جاورتُهُمْ سَنَةً ممّا أُسَرُّ به ... عِرْضِى صَحِيحٌ ونومِى غيرُ تَهْجاعِ
فاعملْ فإنّكَ مَنْعِيٌّ بواحدةٍ ... حَسْبُ اللبيبِ بهذا الشَّيبِ من دَاعِ(١)

ثمّ ارتحل حتى أتى عُمان ؛ فوجدهم يعظّمون أمر أبى بلال ، ويظهر(٢) فيهم ، فأظهر أمرَه فيهم ، فبلغ ذلك الحجاج ، فكتب فيه إلى أهل عُمان ؛ فهرب حتى أتى قوما من الأزد فى سَواد الكوفة ، فنزل بهم ، فلم يزل عندهم حتى مات ، وفى نزوله فيهم يقول :

نَزَلْنَا بحمدِ اللهِ فى خَيْرِ منزلٍ ... نُسَرُّ بما فيهِ من الإنسِ والخَفَرْ(٣)
نَزَلْنَا بقومٍ يجمعُ اللهُ شَمْلَهُمْ ... وليسَ لهم دَعْوَى سِوَى المجدِ يُعْتَصَرْ
مِنَ الأزدِ إنَّ الأزدَ أكرمُ أسْوةٍ(٤) ... يمانيةٌ طابُوا إذا انتسبَ البشرْ(٥)
فأصبحتُ فيهم آمنًا لا كمعشرٍ ... أتونِى فقالوا : من ربيعةَ أو مُضَرْ
أم الحىُّ قحطانٍ فتلكم سفاهةٌ(٦) ... كما قال لى رَوْحٌ وصاحبُه زُفَرْ
وما منهُما إلّا يسرُّ بنسبةٍ(٧) ... تُقرِّبُنِى منهُ وإن كان ذا نفَرْ(٨)
فنحنُ عبادُ اللهِ ، واللهُ واحدٌ ... وأوْلَى عبادِ اللهِ باللهِ مَنْ شَكَرْ

* * *

(١) فى الأصول : « من داع » ، وما أثبته من الكامل .
(٢) الكامل : « ويظهرونه » .
(٣) الإنس ، بكسر الهمزة مصافاة المودة .
(٤) الكامل : « أكرم معشر » .
(٥) الكامل : « إذا نسب » .
(٦) الكامل . ب : « ولكن سفاهة »
(٧) بنسبة ؛ أى بانتساب .
(٨) ذو نفر ؛ أى من ذى العزة والمنعة .

قال أبو العباس : ومن الخوارج مَنْ مَشى فى الرمح وهو فى صدره خارجا من ظهره؛ حتى خالط طاعِنَهُ فضربه بالسيف فقتله ؛وهو يقول :﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[1] .

ومنهم الذى سأل عليه عليه السلام يوم النَّهروان المبارزة فى قوله :

أطعنهم ولا أرى عليًّـــا ولو بدا أَوْجرتُهُ الخطِّيا[2]

فخرجَ إليه علىٌّ فضربَه بالسيف فقتله ؛ فلما خالطه السيف قال : « ياحبذا الرَّوحة إلى الجنة »[3] .

ومنهم ابن ملجم ، وقطع الحسن بن علىّ يديه ورجليه وهو فى ذلك يذكر الله، ثم عمد إلى لسانه فقطعه فجزع ؛ فقيل له فى ذلك قال : أحببتُ ألّا يزال لسانى رَطْبا من ذكر الله .

ومنهم القوم الذين وثب رجل منهم على رُطَبة[4] سقطت من نخلة، فوضعها فى فيه ، فلفظها تورعاً .

ومنهم أبو بلال مرادس ، الذى ينحِلُه من الفِرق لتقشّفه وتصرّمه وصحة عبادته ، وصلابة نيّته .

أما المعتزلة فتنتحله وتقول : إنّه خرج منكِراً لجور السلطان ، داعيا إلى الحق ،وإنه من أهل العَدْل ، ويحتجون لذلك بقوله لزياد ، وقد كان قال فى خُطبته على المنبر : والله لآخذنّ المحسن بالمسىء،والحاضرَ بالغائب ،والصحيح بالسقيم ؛ فقام إليه مرداس فقال : قد سَمِعْنا ماقلت أيها الإنسان ؛ وما هكذا قال الله تعالى لنبيه إبراهيم ؛ إذ يقول :

---

(١) سورة طه : ٨٤

(٢) أو جرته الخطيا ؛ أى طعنته بالرمح فى فيه ، او صدره .

(٣) الخبر بتفصيل أوسع فى الكامل ٥٤٣ (٤) الرطبة : نضيج البسر قبل أن يتمر .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (١) ، ثم خرج عليه عَقِيب هذا اليوم .

وأما الشّيعة فتنتحله ؛ وتزعم أنه كتب إلى الحسين بن علىّ : إنّى والله لستُ من الخوارج ؛ ولا أرى رأيهم ، وإنّى على دين أبيك إبراهيم .

***

[المستورِد السعدىّ]

ومنهم المستورِد ؛ أحد بنى سعد بن زيد بن مَناة ؛ كان ناسكاً مجتهداً ؛ وهو أحدُ من ترأّسَ على الخوارج فى أيّام علىّ ، وله الخطبة المشهورة التى أولها : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدْل تخفِق راياته ، وتلمَعُ معالِمُه ، فبلّغنا عن ربّه ، ونصح لأمّته ؛ حتى قبضه الله تعالى مخيّراً مُختارا .

ونجا يوم النُّخَيلة من سَيْف علىّ ؛ فخرج بعد مدّة على المُغيرة بن شعبة ــ وهو والى الكوفة ــ فبارزَه معقِل بن قيس الرِّياحىّ ، فاختلفا ضربتين ، فخرّ كلّ واحد منهما ميتا .

ومن كلام المستورد : لو ملكتُ الدنيا بحذافيرها ، ثم دُعِيت إلى أنْ أستفيدَ بها خطيئة ما فعلت .

ومن كلامه : إذا أفضيتُ بسرّى إلى صديقى فأفشاه لم ألُمْه ؛ لأنّى كنت أوْلى بحفظه .

ومن كلامه : كن أحرصَ على حفظ سرّك منك على حقْن دمك .

وكان يقول : أوّلُ ما يدلّ على عيب (٢) عائب الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب إلا مَعِيب .

---

(١) سورة النجم ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) الكامل : « عليه » .

وكان يقول : المالُ غير باقٍ عليك ، فاشترِ به من الحمد والأجر ما يبقى عليك [1] .

***

[حوثرة الأسديّ]

قال أبو العباس [2] : وخَرج من الخوارج على معاوية بعد قَتل عليّ حوثرة الأسديّ ، وحابس الطائيّ ، خرجا في جَمعهما ، فصارا إلى مواضع أصحاب النُّخَيْلة [2] ، ومعاوية يومئذ بالكوفة قد دخلها في عام الجماعة [3] ، وقد نزل الحسنُ بن عليّ ، وخرج يريد المدينة ، فوجّه إليه معاويةُ ـ وقد تجاوز في طريقه ـ يسأله أنْ يكونَ المتولّيَ لمحاربة الخوارج ؛ فكان جوابُ الحسن : والله لقد كَفَفْتُ عنكَ لحقْنِ دماء المسلمين ؛ وما أحسب ذاك يَسَعُني ؛ أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أوْلَى بالقتال منهم !

قلت : هذا موافق لقول أبيه : « لا تقاتِلوا الخوارجَ بعدى ، فليس مَنْ طلب الحقّ فأخطأه ، مثلَ مَنْ طلب الباطل فأدركه » ، وهو الحقّ الذى لا يُعْدَلُ عنه وبه يقول أصحابنا ؛ فإنّ الخوارج عندهم أعذرُ من معاوية ، وأقلُّ ضلالاً ، ومعاوية أوْلَى بأن يحارَب منهم .

قال أبو العباس : فلما رجع الجواب إلى معاوية أرسل إلى حوثرة الأسديّ أباه ، وقال له : اذهب فا كفِني أمرَ ابنك ، فصار إليه أبوه ، فدعاه إلى الرجوع فأبى ، فأراده [4] فصمّم ، فقال : يا بنيّ ، أجيئُك بابنِك ؛ فلعلّك تراه فتحنّ إليه ! فقال : ياأبت ؛ أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلّب فيها على كُعوب الرمح ؛ أشوقُ منّي إلى ابني !

---

(١) الكامل ٣ : ٢٣٨ ، ٢٣٩

(٢ ـ ٢) الكامل : « فأول من خرج بعد قتل على عليه السلام حوثرة الأسدي ؛ فإنه كان متنحيا بالبندنيجين ؛ فكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يتولى أمر الخوارج حتى يسير إليه بجمعه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاوية فأجابه ؛ فرجعا إلى موضع أصحاب النخيلة » .

(٣) الكامل : « بعد أن بايعه الحسن والحسين » .

(٤) الكامل : « فأداره » .

فرجع إلى معاوية فأخبره فقال: يا أبا حوثرة ، لقدعتا بحق هذا جدًّا . ثم وجه إليه جيشاً أكثره أهل الكوفة ، فلما نظر إليهم حوثرة ، قال لهم : يا أعداء الله ؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه ! فخرج إليه أبوه ، فدعاه إلى البراز ، فقال : يا أبتِ ؛ لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك مذهب ، ثم حمل على القوم وهو يقول :

أكْرُرْ عَلَى هذِي الجمُوعِ حَوْثَرَهْ فعن قليــــلٍ ماتَنَالُ المغفرهْ

فحمل عليه رجل من طيّئ فقتله ، فلما رأى أثر السجود قد لوّح جبهته ندم على قتله[1].

[الرُّهَيْن المرادىّ]

وقال الرُّهَيْن المرادىّ أحد فقهاء الخوارج ونسّاكها[2] :

يانفسُ قَدْ طَالَ فى الدُّنيا مُرَاوغَتِى لاتأمَنِنَّ لصَرْفِ الدَّهْرِ تنغيصــا

إنى لبــائعُ مايَفْنَى لباقيــةٍ إنْ لم يعُقْنِى رَجاءُ العيش تربيصاً[3]

وأســألُ الله بيعَ النفس محتسِباً حتى الاقِىَ فى الفِرْدَوْسِ حُرقوصــا

وابن المنيحِ ومِرْدَاســاً وإخوتَه إذْ فارقوا هــذه الدُّنيا خماصيصا

•••

قال أبو العباس : وأكثرُهم لم يكنْ يبالِى بالقتل ، وشيمتُهم استعذابُ الموت ، والاستهانة بالمنيّة .

ومنهم المازِنىُّ بالأمراء ؛ وقد قُدّم إلى السيف؛ ولّى زياد شيبانَ بن عبدالله الأشعرىّ ـ صاحب مقبُرة بنى شيبان ـ بابَ عثمان ومايليه بالبصرة، فجدّ فى طلب الخوارج، وأخافهم ، فلم

(١) الكامل ٣ : ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) فى الكامل : « وكان رجلا من مراد ؛ وكان لايرى القعود عن الحرب ، وكان فى الدهاء والمعرفة والشعر والفقه بقول الخوارج بمنزلة عمران بن حطان ، وكان عمران بن حطان فى وقته شاعر قعد الصفرية ورئيسهم وفقيههم » .

(٣) التربيص : الانتظار ؛ وهو تمييز محول عن الفاعل ؛ أى لم يعوقنى الأمل فى الحياة .

يزَلْ على ذلك حتى أتاه ليلةً وهو متّكِئٌ بباب داره رجلان من الخوارج، فضرباه بأسيافهما فقتلاه ، فأُتِيَ زياد بعد ذلك برجل من الخوارج ، فقال: اذهبوا به فاقتلوه متّكئاً كما قتل شيبان متّكئاً ، فصاح به الخارجيّ : ياعدلاه ! يهزأ به(١) .

* * *

[عبّاد بن أخضر المازنىّ]

قال : وأما عبّاد بن أخضر قاتل أبى بلال مرداس بن أُدَيّة ـ وقد ذكرنا قصّته ـ فإنه لم يزلْ بعد قتله مرداساً محموداً فى المِصْر موصوفاً بما كان منه ؛ حتى ائتمر جماعة من الخوارج أن يقتلوه ، فذمَرَ(٢) بعضُهم بعضاً على ذلك ، فجلسوا له يوم جُمعة بعد أن أقبَلَ على بغلته، وابنُه رديفه ؛ فقام إليه رجلٌ منهم فقال له : أسألك [عن](٣) مسألة؟ قال :قل ، قال: رأيتَ رجلا قتَل رجلا بغير حقّ ، وللقاتل جاه وقَدْر وناحية من السلطان ؛ ولم يُعْدِ عليه السلطانَ لجوره ؛ أولىّ ذلك المقتول أن يقتل(٤) القاتل إن قدر عليه ؟ فقال: بل يرفعه إلى السلطان. قال : إنّ السلطان لا يُعدِي عليه لمكانه منه ، ولعظَم جاهه عنده ، قال :أخاف عليه إن فتك به [فتك به السلطان](٥) . قال : دعْ ماتخافه من السلطان ، أيلحقه تَبِعة(٦) فيما بينه وبين الله ؟ قال: لا؛ فحكّم هو وأصحابُه ثم خبَطوه(٧) بأسيافهم ، ورمى عبّاد بابنه فنجا، وتنادى الناس: قُتِل عبّاد ،فاجتمعوا فأخذوا أفواه الطُّرق ـ وكان مقتل [عبّاد فى سكّة](٧) بنى مازن عند مَسْجِد بنى كُلَيب بن يَرْبوع ،فجاء معبد بن أخضر، أخو عبادٍ ـ وهو معبد

(١) الكامل ٣ : ٢٦٣ .
(٢) الذمر : اللوم .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل : « أن يفتك » .
(٥) من الكامل .
(٦) التبعة : مايلحقه من الإثم .
(٧) الكامل : « وخبطوه » .

ابن علقمة؛ وأخضر زوج أمهما ـ فى جماعة من بنى مازن، وصاحوا بالناس : دعونا وثأرنا، فأحجم الناس، فتقدم المازنيون، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً ، لم يفلت منهم أحد إلا عبيدة بن هلال ، فإنه خرّق خصًّا ونفذ فيه ، فنى ذلك يقول الفرزدق :

لَقَدْ أَدْرَكَ الأَوتارَ غَيْرُ ذميمةٍ   إذا ذُمَّ طُلَّابُ التِّراتِ الأخاضرُ
هُمُ جَرَّدُوا الأسيافَ يَوْمَ ابنِ أخضرٍ   فنالُوا الّتِي مافَوْقَها نَالَ ثائرُ
أقادُوا به أُسْداً لَهَا فى اقتحامِها   ـ إذَا بَرَزَتْ نحو الحُروب ـ بصائرُ (١)

ثم هجا كُليب بن يَرْبوع ؛ رهط جرير بن الخطَفى ، لأنه قُتِل بحضرة مسجدهم ولم ينصروه ؛ فقال فى كلمته هذه :

كَفِعْلِ كُلَيْبٍ إذ أخَلَّتْ بجارِها   ونصرُ اللئيم مُغْنِمٌ وهو حاضرُ
وما لِكليبٍ حين تُذكر أوّلٌ   وما لكُلَيْبٍ حين تُذكرُ آخرُ

قال : وكان مقتل عَبّاد بن أخضر وعُبيدالله بن زياد بالكوفة ، وخليفته على البصرة عُبيد الله بن أبى بَكْرة، فكتب إليه يأمره ألّا يدع أحداً يُعرف بهذا الرأى إلا حبسه، فجدّ فى طلب مَنْ تغيّب عنه ، وجعل يتبعهم ويأخذهم ، فإذا شفع إليه أحد منهم كفله ، إلى أن يقدَم به على ابن زياد، حتى أتوه بِعُرْوة بن أُدَيّة فأطلقه، وقال : أنا كفيلُك؛ فلما قدم ابن زياد أخذَ مَنْ فى الحبس، فقتلهم جميعاً ، وطلب الكفلاء بمن كَفلوا به ، فكلّ مَنْ جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجىّ ، ومن لم يأت بمن كَفل به منهم قتَله .

ثم قال لابن أبى بَكْرة : هات عُروة بن أُدَيّة ، قال : لا أقدر عليه ، قال : إذاً والله أقتلك ؛ فإنك كفيله . فلم يزل يطلبُه حتى دُلّ عليه فى سَرَب (٢) العلاء بن سويّة المِنقرىّ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فقرأ عليه كتابه (٣) فقال : إنّا قد أصبناه فى شَرْب

---

(١) أقادوا به أسداً : قتلوهم به .
(٢) السرب : الطريق أو المسلك .
(٣) الكامل : « الكتاب »

المَلاء، فتهانف (١) به عبيدالله (٢) وقال: صحّفت ولؤمت، إنما هو «في سَرَب الملاء»، ولوددت أنه كان ممّن شرب (٣) النبيذ. فلما أقيم عروة بين يديه، قال: لم جهّزتَ (٤) أخاك عليّ! يعني أبا بلال، فقال: والله لقد كنتُ به ضنينا، وكان لي عِزًّا، ولقد أردت له ماأريد لنفسي، فعزم عزماً فمضى عليه، وما أحبّ لنفسي إلا المقام وترك الخروج. فقال له: أفأنت على رأيه؟ قال: كلّنا نعبد ربًّا واحداً، قال: أما والله لأمثّلنّ بك، قال: اختر لنفسك من القِصاص ماشئت؛ فأمر به فقطعوا يديه ورجليه؛ ثم قال له: كيف ترى؟ قال: أفسدْتَ عليّ دنياي، وأفسدتُ عليك آخرتك؛ فأمر به فصُلِب على باب داره (٥).

* * *

[أبو الوازع الراسبيّ]

قال أبو العباس: وكان أبو الوازع الراسبيّ من مجتهدي الخوارج ونُسّاكها، وكان يذمّ نفسه ويلومها على القعود، وكان شاعرا، وكان يفعل ذلك بأصحابه، فأتى نافعَ بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه، يصف لهم جَوْرَ السلطان وفساد العامة، وكان نافع ذا لسان عَضْب واحتجاج وصَبْر على المنازعة، فأتاه أبو الوازع، فقال له: يانافع، إنك

---

(١) قال المبرد: فتهانف؛ حقيقته تضاحك به ضحك هزء وسخرية؛ قال عمر بن ربيعة:

فتهانفنَ وقـــــدْ قُلْنَ لَهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّْ

(٢) في الكامل بعدها: «وكان كثير المحاورة، عاشقا للكلام الجيد؛ مستحسنا للصواب منه، لايزال يبحث عن عذره؛ فإذاسمع الكلمة الجيدة عرج عليها. ويروى أنه قال في عقب مقتل الحسين بن علي عليه السلام لزينب بنت علي رحمها الله، وكانت أسن من حمل إليه منهن، وقد كلمته فأفصحت وأبلغت، وأخذت من الحجة حاجتها؛ فقال لها: لئن تكوني بلغت من الحجة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً؛ فقالت: ماللنساء والشعر، وكان هذا ألكن يرتضخ لغة فارسية، وقال لرجل مرة واتهمه برأي الخوارج: أهروري منذ اليوم».

(٣) الكامل: «ممن يشرب النبيذ».

(٤) العبارة في الكامل: «فلما أقيم عروة بن أدية بين يديه؛ حاوره، وقد اختلف الناس في خبره؛ وأصحه عندنا أنه قال له: جهزت أخاك علي».

(٥) الكامل ٣: ٢٥٦ ــ ٢٥٩

أُعْطِيتَ لسانا صارما ، وقَلْبا كليلا ، فلوَدِدْت أنّ صرامةَ لسانك كانت لقلبك ، وكلالَ قلبك كان للسانك ؛ أتحضّ على الحقّ وتقعد عنه ! وتقبّح الباطل وتقيم عليه ! فقال نافع : يا أبا الوازع ؛ إنما ننتظر الفرص ؛ إلى أن تجمع من أصحابك من تَنْكِي به عدوّك ، فقال أبو الوازع :

لِسانُكَ لا تَنْكِي بهِ القومَ إنما ... تنالُ بكفيْكَ النَّجاةَ من الكَرْبِ

فجاهِدْ أناساً حاربُوا اللهَ واصطبِرْ ... عَسَى اللهُ أن يُجزِى غَوِىّ بنى حرب(١)

يعنى معاوية . ثم قال : والله لا ألومُك ونفسى ألوم ، ولأغدُوَنّ غَدْوة لا أنثنى بعدها أبدا . ثم مضى فاشترى سيفا ، وأتى صَيْقَلاً(٢) كان يذمّ الخوارج ، ويدلّ على عَوراتِهم ، فشاوره فى السيف ، فحمِده ، ثم [قال](٣) : اشحذه ، فشحذه حتى إذا رضيَه ، خَبَط به الصَّيْقَل فقتله ، وحمل على الناس فهربوا منه ، حتى أتى مقبرة بنى يشكر ، فدفع عليه رجل حائط ستره فشدَخه ، وأمر ابن زياد بصلبه(٤) .

***

[عمران بن الحارث الراسبىّ]

قال أبو العباس : ومن نُسّاكهم الذين قُتِلوا فى الحرب عمران بن الحارث الراسبىّ ، قُتِل يوم دُولاب ، التقى هو والحجاج بن باب الحِميرىّ — وكان الأمير يومئذ على أهل البصرة ، وصاحب رايتهم — فاختلفا ضربتين فخرّا ميتين ، فقالت أمّ عمران ترثيه :

اللهُ أيّد عِمْـــرانا وطهّرهُ ... وكان عمرانُ يدْعُو اللهَ فى السَّحَرِ

---

(١) فى الكامل : « يخزى » .

(٢) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها .

(٣) من الكامل

(٤) الكامل ٣ : ٢٧٦ ، ٢٧٧

يدعُوه سِرًّا وإعلانا ليرزُقَه   شهادةً بيدىْ مِلحَادةٍ غُـــدَرِ
وَلَّى صَحَابتهُ عن حرِّ مَلْحَمَةٍ   وَشَدَّ عمرانُ كالضِّرغامةِ الذَّكَرِ (١)

***

قال : وممّن قتل من رؤسائهم يوم دولاب نافع بن الأزرق - وكان خليفتهم - خاطبوه بإمْرة المؤمنين ، فقال رجل منهم يرثيه :

شَمِتَ ابنُ بَدْرٍ والحوادِثُ جَمَّةٌ   والجائرون بنافعِ بن الأزرقِ (٢)
والموتُ حَتْمٌ لا محالةَ وَاقِـعٌ   مَنْ لا يصبحْهُ نهاراً يَطرُقِ (٣)
فلئِنْ أميرَ المؤمنين أصابَهُ   رَيْبُ المَنُونِ فَمَنْ يُصِبهُ يَغْلَقِ (٤)

وقال قَطَرِىّ بن الفُجَاءة يذكر يوم دَوْلاب (٥) :

لَعَمْرُكَ إنِّى فى الحَياةِ لَزَاهِدٌ   وَفى العَيشِ مَالم ألقَ أمَّ حَكِيمِ (٦)
مِنَ الخَفِرَاتِ البيض لم يُرَ مِثلُها   شِفَاءٌ لِذى بثٍّ وَلا لِسَقِيمِ

(١) الكامل ٣ : ٢٩٦

(٢) الأغانى ٦ : ١٤٧   (٣) طرقه يطرقه ، إذا أتاه ليلا .

(٤) يغلق : لاينجو ؛ وأصله من قولهم: غلق الرهن فى يد المرتهن ، إذا لم يقدر على فكاكه واستخلاصه.

(٥) دولاب ، بفتح أوله وآخره باء موحدة ، وأكثر المحدثين يروونه بالضم ، وقد روى بالفتح فى عدة مواضع ، ودولاب هنا : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ ، كانت بها وقعة بين أهل البصرة وأميرهم مسلم بن عنبس بن كريز ؛ قتل فيها نافع بن الأزرق (ياقوت) .

(٦) الأغانى ٦ : ١٤٨ (طبعة الدار) ، معجم البلدان ٤ : ١٠٤ وأم حكيم : امرأة من الخوارج ؛ وكانت من أشجع الناس ، كانت تحمل على الناس وترتجز :

أحمِلُ رَأساً قد سَئِمتُ حَمْلَهُ   وَقد مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهُ
* ألَا فَتًى يَحْمِلُ عَنِّى ثِقلَه *

وكانوا يفدونها بالآباء والأمهات ، وكانت من أجمل النساء وجها ، وأحسنهم بدينهم تمسكا . (رغبة الآمل ٧ : ٢٤٧) .

لعمركَ إنى يومَ ألطِم وجهَها ... عَلَى نائباتِ الدَّهْرِ جِدُّ لئيمِ (١)
فلو شهدتْنا يومَ دُولَابَ شاهَدَتْ ... طِعانَ فتًى فى الحربِ غيرِ ذَميمِ (٢)
غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بكرُ بن وائلٍ (٣) ... وَعُجْنَا صُدورَ الخيلِ نحوَ تميمِ (٤)
وكان بعبدِ القيسِ أوَّلُ جِدِّنا ... وأحلافِها مِنْ يَحْصُبٍ وسَليمِ
وظَلَّتْ شيوخُ الأزْدِ فى حَوْمَةِ الوَغَى ... تَعُومُ فمن مستنزَلٍ وهزيمِ (٥)
فلم أرَ يوماً كانَ أكثرَ مُقْعَصاً ... يمجُّ دماً من فائظٍ وكليمِ (٦)
وضاربةٍ خدًّا كريماً على فتًى ... أغرَّ نجيبِ الأمهاتِ كريمِ

---

(١) فى ياقوت بعد هذا البيت :

إذا قُلْتُ : يَصْبُو القلبُ أو يَنْتَهِى المُنَى ... أبَى القَلْبُ إلا حُبَّ أمِّ حَكيمِ
مُنَعَّمَةٌ صَفْرَاء حُلْوٌ دَلالُها ... أبِيتُ بها بعدَ الهُدُوِّ أهيمُ
قَطُوفُ الخُطَا مَخْطُوطَةُ المَتْنِ زانَها ... مع الحُسْنِ خَلْقٌ فى الجمالِ عَميمُ

(٢) قال المبرد : قوله : « ولو شهدتنا يوم دولاب » ، فلم يصرف « دولاب » ؛ فإنما ذاك لأنه أراد البلدة ، ودولاب : أعجمى معرب » .

(٣) فى الأصول : « فى الماء » ؛ وصوابه من الكامل والأغانى وياقوت . قال المبرد : « وقوله : غداة طفت علماء بكر بن « وائل » ، وهو يريد : « على الماء » ؛ فإن العرب إذا التقت فى مثل هذا الموضع لامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف ، لأن ما بقى دليل على ما حذف ؛ فيقولون : « علماء بنو فلان » ، كما قال الفرزدق :

وَمَا سُبِقَ القَيْسِىُّ مِنْ ضعفِ حِيلَةٍ ... وَلَكِنْ طَفَتْ عَلْمَاءِ قُلْفَةُ خالِدِ

(٤) رواية هذا البيت وتاليه فى الأغانى :

غَدَاةَ طَفَتْ عَلْماءِ بكرُ بن وائلٍ ... وَأَلَّافُها من حِمْيَرٍ وَسَليمِ
ومالَ الحِجازيُّونَ نحوَ بِلادِهِمْ ... وَعُجْنَا صُدُورَ الخيلِ نحوَ تميمِ

(٥) يقال : استنزل فلان ؛ إذا حط عن قدره . الشطر الثانى فى الكامل وياقوت :

* تَعُومُ وَظِلْنَا فى الجِلادِ نَعُومُ *

(٦) مقعصا ، من أقعصه برعه ؛ إذا طعنه فمات مكانه ، وفائظ ، من فاظ يفوظ ويفيظ : مات .

أصيبَ بدُولابٍ ولم تكُ مَوْطِناً   له أرضُ دولابٍ وأرضُ حَمِيمِ (١)
فلو شهدتْنا يوم ذاك وخيلُنا   تُبيح الكفار كلَّ حَرِيمِ
رأتْ فتيةً باعوا الإلهَ نفوسَهُم   بجنّاتِ عَدْنٍ عنده ونعيمِ

* * *

[عبد الله بن يحيى طالب الحق]

ومن رؤساء الخوارج وكبارهم عبد الله بن يحيى الكندىّ الملقّب طالب الحق، وصاحبه المختار بن عوْف الأزدىّ صاحب وقعة قُدَيد (٢) ؛ ونحن نذكر ماذكره أبو الفرج الأصفهانىّ من قصتهما فى كتاب " الأغانى " (٣) مختصرا محذوفا منه مالا حاجة بنا فى هذا الموضع إليه .

قال أبو الفرج : كان عبد الله بن يحيى من حضرَ موت ، وكان مجتهدا عابدا ، وكان يقول قبل أن يخرج : لقينى رجلٌ فأطال النظرَ إلىّ وقال : ممّ أنت ؟ قلت : من كِندة، فقال : من أيّهم ؟ فقلت : من بنى شيطان ، فقال : والله لتَملكنّ وتبلغنّ وادِىَ (٤) القُرَى ؛ وذلك بعد أنْ تَذهب إحدى عينيك ؛ وقد ذهبت وأنا أتخوّف ما قال ، وأستخير الله .

فرأى باليمن جَوْرا ظاهرا ، وعَسْفا شديدا ، وسيرة فى الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا يحلّ لنا المقام على ماترَى ؛ ولا الصبرَ عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضيّة بالبصرة وغيرها ، يشاورهم فى الخروج ، فكتبوا إليه : إن استطعت ألّا تقيم يوما واحدا فافعل ؛

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى الكامل والأغانى وياقوت : « دير حميم » ، وهو موضع بالأهواز .
(٢) قديد : موضع قرب مكة .
(٣) الأغانى ٢٠ : ٩٧ وما بعدها ساسى ، و ٢٣ : ١١١ (بيروت) وما بعدها ملخصا متصرفا .
(٤) وادى القرى : بين المدينة والشام .

فإنّ المبادرة بالعمل الصالح أفضلُ ؛ ولستَ تدرِى متى يأتى أجلُك ؛ ولله بَقيّة خَيْرِ من عباده ؛ يبعثهم إذا شاء بنصر دينه ، ويختصّ بالشهادة منهم مَنْ يشاء .

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدىّ وبلج بن عُقْبة المسعودىّ فى رجال من الإباضيّة ، فقدموا عليه حضرموت فحرّضوه على الخروج ، وأتوه بكتب أصحابه يُوصونه ويُوصون أصحابَه: إذا خرجتم فلا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا بسيرتهم ؛ فقد علمتم أنّ الذى أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم .

فدعا عبدُ الله أصحابه فبايعوه، وقصدوا دار الإمارة ؛ وعلى حضرموت يومئذ إبراهيم ابن جَبَلة بن مخرمة الكندىّ فأخذه ، فحبسه يوما ثم أطلقه ، فأتى صنعاء ، وأقام عبدالله بحضرموت ، وكثر جمعه ، وسمّوه « طالبَ الحق » .

وكتب إلى مَنْ كان من أصحابه بصنعاء : إنى قادم عليكم ؛ ثم استخلف على حَضْرموت عبدَالله بن سعيد الحضْرمىّ، وتوجّه إلى صنعاء — وذلك فى سنة تسع وعشرين[1] ومائة — فى ألفين، والعامل على صنعاء يومئذ القاسم بن عمرو أخو يوسف بن عمرو الثّقَفىّ ؛ فجرَت بينه وبين عبدالله بن يحيى حروب ومناوشات ، كانت الدّولة فيها والنصرة لعبدالله بن يحيى ؛ فدخل إلى صنعاء ، وجَمع مافيها من الخزائن والأموال فأحرزها .

فلما استولى على بلاد اليمن خَطب، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، وذكّر وحذّر ؛ ثم قال : إنا ندعوكم أيّها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيّه، وإجابة مَنْ دعا إليهما. الإسلام ديننُا، ومحمد نبيُّنا، والكعبة قبلتُنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالا لانبتغى به بدلًا ، ولانشترى به ثمنا، وحرّمنا الحرام، ونبذناه وراء ظُهورنا؛ ولا حول ولاقوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعوّل ؛ مَنْ زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شَرِب الخمر فهو كافر؛ ومن شكّ فى أنه كافر فهو كافر. ندعوكم إلى فرائض بيّنات؛ وآياتٍ محكمات؛

(١) كذا فى الأغانى .

وآثار نَقْتدِى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، وعَدْل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الربّ واليقين بالوعْد والوعِيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والمعاداة لأعداء الله. أيُّها الناس، إنّ مِنْ رحمة الله أن جَعَل فى كلّ فَتْرة بقايا من أهل العلم، يدعُون مَنْ ضَلّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم فى جنب الله؛ ويُقتلون على الحقّ فى سالف الأيام، شهداء فما نسيَهم ربُّهم؛ وما كان ربك نسيّا. أوصيكم بتقوى الله وحُسْن القيام على ما وُكّلتم بالقيام عليه؛ وقابلوا الله حُسْنا فى أمره وزجره أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

قال: وأقام عبدُ الله بن يحيى بصنعاء أشهُرا، يحسِنُ السِّيرة فى الناس، ويُلين جانبَه لهم، ويكفّ الأذَى عنهم؛ وكثر جمعُه؛ وأتته الشُّراة مِنْ كلّ جانب؛ فلمّا كان فى وقت الحج وجّه أبا حمزة المختار بن عوف، وبلْج بن عُقْبة، وأبرهة بن الصّباح إلى مكة؛ والأمير عليهم أبو حمزة فى ألف؛ وأمره أن يقيم بمكة إذا صدر الناس، ويوجّه بَلْجا إلى الشام، فأقبل المختار إلى مكة يوم التّروِية؛ وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبدالملك فى خلافة مَرْوان بن محمد بن مروان، وأمّ عبدالواحد بنت عبدالله بن خالد بن أسِيد، فكره عبدُالواحد قتالَهم، وفزِع النّاس منهم حين رأوْهم، وقد طلعوا عليهم بعَرفة، ومعهم أعلام سُود فى رءوس الرّماح؛ وقالوا لهم: مالكم وماحالكم؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرّى منهم، فراسلهم عبدُالواحد فى ألّا يعطّلوا على الناس حَجّهم. فقال أبو حمزة: نحن بحجّنا أضنّ، وعليه أشحّ؛ فصالحهم على أنّهم جميعا آمنون بعضهم من بعض؛ حتى ينفِر النّاس النّفْر الأخير؛ وأصبحوا من الغد، ووقفوا[1] بحيال عبدالواحد بعرَفة، ودفع عبد الواحد بالنّاس؛ فلما كانُوا بمِنًى؛ قيل لعبدالواحد: قد أخطأت فيهم؛ ولو حملت عليهم الحاجّ ما كانوا إلّا أُكْلة رأس[2].

(١) الأغانى: «فوقفوا».
(٢) أكلة رأس، أى عددهم قليل يكفيهم رأس واحد.

وبعث عبد الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص العُمَريّ ، وربيعة بن عبد الرحمن ؛ ورجالاً أمثالهم ؛ فلما قَرُبُوا من أبي حمزة أخذتْهم مَسالِحه[1] فأدخلوا على أبي حَمْزة ، فوجدوه جالسا ؛ وعليه إزار قَطَرِيّ[2] قد ربطه بحوره في قفاه ، فلما دنوا ؛ تقدّم إليه عبد الله بن الحسن العلويّ ، ومحمد بن عبد الله العثمانيّ ؛ فنسبهما[3] ، فلمّا انتسبا له عَبَس في وجوههما ،وأظهر الكراهِيَة لهما ، ثم تقدّم إليه بعدهما البَكريّ والعمريّ فنسبهما فانتسبا له ، فهشّ إليهما وتبسّم في وجوههما ، وقال : والله ما خرجْنا إلا لنسير سيرة أبويكما ، فقال له عبد الله ابن حَسن : والله ما جئناك لتفاخر بين آبائنا ؛ ولكنّ الأميرَ بعثنا إليك برسالة ، وهذا ربيعة يخبركها ، فلما أخبره ربيعة ، قال له : إنّ الأمير يخاف نَقْضَ العهد ؛ قال : معاذ الله أن ننقض العهد ، أو نخيس[4] به ! والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه ؛ ولكن إلى أن تنقضيَ المدنة بيننا وبينكم .

فخرجوا من عنده ، فأبلغوا عبد الواحد ، فلما كان النّفر الأخير ، نَفَرَ عبد الواحد وخلّى مكةَ لأبي حمزة ؛ فدخل بغير قتال ، فقال بعضُ الشعراء يهجو عبد الواحد[5] :

زارَ الحجيجَ عصابةٌ قد خالَفُوا ... دينَ الإله ففرّ عبدُ الواحدِ
تركَ الإمارة والمواسمَ هاربًا ... ومضى يُخبِّط كالبعير الشاردِ
فلو أنّ[6] والده تخيّر أمّهُ ... لصفَت خلائقه بعرق الوالد

(١) المسالح : جمع مسلحة ؛ وهي هنا : القوم يحملون السلاح .
(٢) في الأغاني : « قطواني » .
(٣) نسبهما : أي سألهما أن ينتسبا .
(٤) خاس بالعهد : أي غدر ونكث .
(٥) في الأغاني : « قال هارون : وأنشدني يعقوب بن طلحة الليثي أبياتا هجا بها عبد الواحد لشاعر لم يحفل باسمه » .
(٦) الأغاني : « لو كان والده »

ثم مضى عبدُ الواحد حتى دخل المدينة ودعا بالديوان ، فضَرَب على الناس البَعْث ، وزادهم فى العطاء عشرة عشرة ؛ واستعمل على الجيش عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان فخرجوا ، فلقيتْهم جُزُر منحورة ؛ فتشاءم الناس بها ؛ فلما كانوا بالعقيق[١] عَلِق لواء عبد العزيز بسَمُرة[٢] فانكسر الرمح ؛ فتشاءموا بذلك أيضا .

ثم ساروا حتى نزلوا قُدَيْداً ، فنزل بها قوم معتزلون ؛ ليسوا بأصحاب حرب ؛ وأكثرهم تجار أغمار ؛ قد خرجوا فى المصبّغات والثياب الناعمة واللهو ، لا يظنون أن للخوارج شوْكة ، ولا يشكّون فى أنهم فى أيديهم .

وقال رجل منهم من قريش : لو شاء أهلُ الطائف لكفوْنا أمرَ هؤلاء ؛ ولكنهم داهنوا فى دين الله ؛ والله لنظفرَنّ ولنسيرنّ إلى أهل الطائف فلنسبِيَنّهم ؛ ثم قال : مَنْ يشترى مِنّى من سَبْى أهلِ الطائف ؟

قال أبو الفرج : فكانَ هذا الرَّجُل أوّلَ المنهزمين ؛ فلما وصل المدينة ؛ ودخل دارَه ؛ أراد أن يقول لجاريته : أغلقِ الباب ؛ قال لها : « غاق باق » دهشا ، فلقّبه أهلُ المدينة بعد ذلك « غاق باق » ؛ ولم تفهم الجارية قوله ، حتى أومأ إليها بيده ، فأغلقت الباب .

قال : وكان عبد العزيز يعرِض الجيش بذى الُحلَيفة[٣] ، فمرّ به أمية بن عنبَسة بن سعيد بن العاص ، فرحّب به وضحك إليه ، ثم مرّ به عُمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلّمه ؛ ولم يلتفت إليه ، فقال له عمران بن عبد الله بن مطيع ــ وكان ابن خالته ، أمّاهما ابنتا عبد الله بن خالد بن أسيد ــ : سبحان الله ! مرّ بك شيخ من شيوخ قريش ؛ فلم تنظر

---

(١) عقيق المدينة ، قيل : هما عقيقان : الأكبر مما يلى الحرة إلى قصر المراجل ؛ والأصغر ماسفل عن قصر المراجل . (مراصد الاطلاع)

(٢) السمرة : شجرة العضاه .

(٣) ذو الحليفة : موضع من تهامة بين حاذاة وذات عرق

إليه ولم تـكلّمه ، ومرّ بك غلام من بنى أميّة فضحكتَ إليه ولاطفته ! أما والله لو التقى الجمعان لعلمت أيّهما أصبر !

قال : فـكان أمية بن عنبة أوّلَ مَن انهزم وركب فرسَه ومضى ، وقال لغلامه : ياعجيب ، أما والله لئن أحرزت(١) هذه الأكلب من بنى الشُّراة إنى لعاجز .

وأما عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقاتل يومئذ حتى قتل ، وكان يحمِل ويتمثّل :

وإنى إذا ضَنَّ الأميرُ بإذنه على الإذنِ من نفسى إذاشئتُ قادرُ

والشعر للأغرّ بن حماد اليشكرىّ (٢).

قال : فلما بلغ أبا حمزة إقبالُ أهل المدينة إليه ، استخلفَ على مكةَ أبرهة بن الصبّاح، وشخص إليهم ، وعلى مقدمته بلج بن عُقبة .

فلما كان فى الليلة التى وافاهم فى صبيحتها ، وأهل المدينة نزول بقُدَيْد ، قال لأصحابه: إنـكم ملاقُو القوم غداً ،وأميرهم فيا بلغنى ابنُ عثمان ،أوّل مَنْ خالف سُنّة الخلفاء وبدّل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد وضح الصُّبح لذى عينين ، فأكثِروا ذكرَ الله وتلاوةَ القرآن ،ووطّنُوا أنفسكم على الموت . وصبّحهم غداة الخميس لتسع خلوْن من صفر سنة ثلاثين ومائة .

قال أبو الفرج : وقال عبد العزيز لغُلامه فى تلك الليلة : ابغنا عَلَفًا ، قال : هو غال، فقال : ويحك البوا كى علينا غدا أغلى،وأرسل أبو حمزة إليهم بلج بن عقبة ليدعوَهم،فأتاهم فى ثلاثين را كبا فذكّرهم الله ، وسألهم أن يكفُّوا عنهم،وقال لهم : خلُّوا سبيلنا إلى الشام،لنسير

---

(١) كذا فى ب ،وفى ج : « لواجتورت نفسى » ، وفى الأغانى : « أجرزت نفسى » .
(٢) فى شرح ديوان الحماسة المرزوق ٤٧٣ : الشعر ينسب إلى عبد الله بن سبرة الجرشى »

إلى مَنْ ظلمكم ، وجار فى الحكم عليكم ، ولا تجعلُوا حدّنا بكم ، فإنا لا نريد قتالكم ، فشتمهم أهلُ المدينة ، وقالوا : ياأعداء الله ، أنحن نخلّيكم ، ونترككم[1] تفسدون فى الأرض !

فقالت الخوارج : ياأعداء الله ، أنحن نفسد فى الأرض ! إنّما خرجنا لنكفّ الفساد ، ونقاتل مَنْ قاتلنا منكم ، واستأثر بالفىء ! فانظروا لأنفسكم ، واخلعوا مَنْ لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لاطاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق ، فادْخُلوا فى السِّلْم ، وعاونوا أهل الحقّ .

فناداه عبد العزيز : ماتقول فى عثمان ؟ قال : قد برئ منه المسلمون قَبْلى ، وأنا متّبع آثارهم ، ومقتدٍ بهم ، قال : ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينكم إلا السيف ، فرجع إلى أبى حمزة فأخبره ، فقال : كُفّوا عنهم ، ولا تقاتلوهم حتى يبدءوكم بالقتال ، فواقفُوهم ولم يقاتلوهم ، فرمى رجلٌ مِنْ أهل المدينة بسَهْم فى عسكر أبى حمزة ، فجرح منهم رجلا ، فقال أبو حمزة : شأنكم الآن فقد حلّ قتالُهم ، فحملوا عليهم ، فثبتَ بعضُهم لبعض ، وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع ، ثم انكشف أهلُ المدينة ، فلم يتبعوهم ، وكان على عامّتهم صخر بن الجهم[2] بن حذيفة العدوىّ ، فكبّر وكبّر الناس معه ، فقاتلوا قليلا ، ثم انهزموا فلم يُبعِدوا حتى كبّر ثانية ، فثبت معه ناس وقاتلوا ، ثم انهزموا هزيمة لم يَبْق بعدها منهم باقية . فقال علىّ بن الحصين لأبى حمزة : اتبع آثار القوم ، أودعنى أتبعهم ، فأقتُل المدبر ، وأذَفِّف[3] على الجريح ، فإن هؤلاء شرٌّ علينا من أهل الشام ، ولو قد جاءك أهلُ الشام غداً لرأيتَ مِنْ هؤلاء ماتكره ، قال : لاأفعل ، ولا أخالف سيرة أسلافنا .

وأخذ جماعةً منهم أسرى ، وأراد إطلاقهم ، فمنعه علىّ بن الحصين ، وقال : إن لكلّ

---

(١) الأغانى : « وندعكم » .   (٢) الأغانى : « ضمير بن صخر » .
(٣) يذفف على الجريح : يقضى عليه .

زمان سيرة ، وهؤلاء لم يؤمَّروا وهم هراب ؛ وإنما أُمِروا وهم يقاتلون ؛ ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرُمْ قتلهم، فهكذا الآن (١ ؛ قتلُهم حلال. ودَعا بهم ١) ؛ فكان إذا رأى رجلاً من قريش قتله ؛ وإذا رأى رجلا من الأنصار أطلقه .

قال أبو الفرج: وذلك لأن قريشاً كانوا أكثرَ الجيش، وبهمْ كانت الشوكة. وأتى محمد بن عبد العزيز بن عمرو بن عثمان ، فنسبه ، فقال : أنا رجل من الأنصار ، فسأل الأنصار فأقرت بذلك ، فأطلقه؛ فلما ولّى قال :والله إني لأعلم أنه قرشيّ، ولكن قد أطلقتهُ.

قال : وقد بلغت قتلَى قُدَيْد ألفين ومائتين وثلاثين رجلًا ؛ منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجلا ، ومن الأنصار ثمانون رجلا ، ومن الموالي وسائر الناس ألف وسبعمائة رجل .

قال : وكان في قتلَى قريش من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي أربعون رجلا .

قال : وقُتِل يومئذ أميّة بن عبدالله بن عمرو بن عثمان ، خرج مقنّعاً، فلم يكلّمْ أحداً ، وقاتل حتى قتِل ؛ ودخل بَلْج المدينة بغير حرب، فدخلوا في طاعته، وكفّ عنهم، ورجع إلى مُلْكه ، وكان على شُرْطَته أبو بكر بن عبد الله بن عمر ، من آل سراقة ، فكان أهل المدينة ، يقولون : لعن الله السُّراقيّ ، ولعن الله بَلْجاً العراقيّ . وقالت نائحة أهل المدينة [تبكيهم] (٢) :

ما للزَّمانِ وما لِيَهْ ... أفنَتْ قُدَيْدُ رجاليَهْ
فلأبكيَنّ سريرةً ... ولأبكيَنّ علانيَهْ
ولأبكينَّ على قُدَيْـ ... ـدَ بسوء ما أولانيَهْ (٣)
ولأعْوِيَنَّ إذا خَلَوْ ... تُ مع الكلاب العاويَهْ

* * *

(١ – ١) ساقط من ج
(٢) من الأغاني
(٣) في الأغاني : « أبلانيه » .

[أبو حمزة الشارى]

قال أبو الفرج: ولما سار عبدُ الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام، وخلّف المدينة لبلج، أقبلَ أبو حمزة من مكة حتى دخلها، فرقِيَ المنبر، فحمِد الله وقال: ياأهلَ المدينة، سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء فأسأتم لعمرى والله القولَ فيهم، وسألناكم: هلْ يَقتلون بالظنّ؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلّون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، فانشدُوا الله وحدَه أن يَتنحّوْا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم؛ فقلتم: لا نفعل، فقلنا لكم: تعالَوْا نحن وأنتم نلقاهم؛ فإن نظهر نحن وأنتم[1] يأت مَن يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيّه، ويعدِل فى أحكامكم، ويحملكم على سنة نبيكم، فأبيتم وقاتلتمونا، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم يا أهلَ المدينة! مررتُ بكم فى زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة فى ثمارِكم، فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم، فكتب بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم، فزاد الغنىّ غنًى، والفقير فقرا[2]. وقلتم: جزاه الله خيرا، فلا جزاه خيراً ولا جزاكم!

* * *

قال أبو الفرج. فأما خطبتا أبى حمزة المشهورتان اللتان خطب بهما فى المدينة؛ فإن أحداهما قوله:

تعلَمُون[3] ياأهلَ المدينة، أنّا لم نخرج من ديارِنا وأموالنا أشَراً ولا بطراً، ولا عبثا ولا لهوا؛ ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيلَ منا؛ ولكنّا لما رأينا مصابيح الحق قد أطفِئَتْ؛ ومعالم العدْل قد عُطِّلَتْ، وعُنِّفَ القائم[4] بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرضُ بما رحُبت، وسمعنا داعياً[5] يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعى الله، ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾[6].

(١) فى الأصول: «فإن يظهروا يأت»، وما أثبته من الأغانى ٩ : ١٠٧.
(٢) فى الأصول: «فرد الغنى غنياً، والفقير فقيراً»، وما أثبته من الأغانى.
(٣) الأغانى: «تعلموا».
(٤) الأغانى: «القائل»
(٥) يريد بالداعى عبد الله بن يحيى.
(٦) سورة الأحقاف ٣٢.

فأقبلنا من قبائلَ شتّى ، النفرُ[١] منّا على البعير الواحد ، وعليه زادُهم ، يتعاورون لحافاً واحداً ؛ قليلون مستضعفون في الأرض ، فآوانا اللهُ وأيدّنا بنصره ، وأصبحنا ـ والله المحمود ـ من أهل فضله ونعمته[٢] . ثم لقينا رجالكم بقُدَيْد ؛ فدعوناهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، فدعَوْنا إلى طاعة الشيطان ، وحُكم مَرْوان ؛ فشتّان ـ لعمر الله ـ ما بين الغيّ والرشد ! ثم أقبلوا يزفّون[٣] ويهرعون ؛ قد ضرب الشيطان فيهم بجِرّانه[٤] ، وصدّق عليهم إبليس ظنّه ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائب ؛ بكل مهنّدٍ ذى رَوْنق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم ، بضربٍ يرتاب منه المبطلون .

وايمُ الله يا أهلَ المدينة ؛ إن تنصروا مَرْوان وآلَ مروان فيسحِتَكم[٥] الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا ، ويَشْفِ صدور قومٍ مؤمنين .

يا أهل المدينة ، الناس منّا ونحن منهم ، إلا مشركاً عابد وثن ، أو كافراً من أهل الكتاب ؛ أو إماماً جائرا .

يا أهل المدينة ؛ مَنْ يزعم أن الله تعالى كلّف نفساً فوق طاقتها ، وسألها عمّا لم يؤتها فهو لنا حَرْب .

يا أهل المدينة ، أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله فى كتابه على القوىّ والضعيف ؛ فجاء تاسع ليس له منها سَهْم ، فأخذها جميعا لنفسه ؛ مكابرا محاربا لربه ، ماتقولون فيه ، وفيمن عاونه على فعله ؟

يا أهل المدينة ، بلغنى أنكم تنتقِصُون أصحابى ، قلتم : هم شبابٌ أحداث ، وأعراب جُفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا شبابا

(١) النفر : جماعة الرجال ؛ من ثلاثة إلى عشرة .
(٢) الأغانى : « وأصبحنا ـ والله حميد ـ بنعمته إخواناً » .
(٣) يزفون : يسرعون ؛ وأصله فى الظليم .
(٤) جران البعير : مقدم عنقه .
(٥) يسحتكم : يستأصلكم .

أحداثا ! نعم والله إنّ أصحابى لَشباب مكتهلون(١) فى شَبَابهم ؛ غضيضة عن الشرّ أعينُهم، ثقيلة عن الباطل أقدامُهم(٢) ؛ قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لاتموت أبداً ؛ قد خلطوا كَلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، محنيّة أصلابُهم على أجزاء القرآن ؛ كلّما مرّوا بآية خوف شهِقوا خوفا من النار ، وكلّما مرّوا بآية رجاء شهِقوا شوقاً إلى الجنة ، وإذا نظروا إلى السيوف وقد انتُضِيَتْ ، وإلى الرماح وقد أُشرِعَتْ ، وإلى السهام وقد فُوِّقَت ، وأرعِدت الكتيبة بصواعق الموت ـ استخفّوا وعيدها عند وعيد الله ، وانغمسوا فيها . فطوبى لهم وحسن مآب ! فكم من عينٍ فى منقارِ طائر طالما بكى بها صاحبُها من خَشْية الله ! وكَمْ من يدٍ قد أُبِينتْ عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجداً فى طاعة الله ! أقول قولى هــذا وأستغفر الله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب .

• • •

وأما الخطبة الثانية ، فقوله :

ياأهل المدينة، مالى رأيت رَسْمَ الدين فيكم عافياً، وآثاره دارسة لاتقبلون [عليه](٣) عظة، ولا تفقهون من أهله حُجّة ، قد بليت فيكم جِدّته ، وانطمسَتْ عنكم سُنّته ، ترون معروفه منكراً، والمنكرَ من غيره معروفا ، فإذا انكشفتْ لكم العِبَر ، وأوضحت لكم النُذُر ، عَمِيَتْ عنها أبصاركم ، وصَمّت عنها آذانكم ، ساهين فى غمرة ، لاهين فى غَفْلة ، تنبسِط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنقبض عن الحقّ إذا ذُكِر ، مستوحشة من العلم ، مستأنسة بالجهل ، كلّما وردت عليها موعظة زادتها عن الحقّ نفوراً ، تحملون قلوباً فى صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة ؛ فهى لاتلين بكتاب الله ؛ الذى لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله !

---

(١) مكتهلون : أى قد أحرزوا رزانة الكهول .

(٢) ج : « أرجلهم » .

(٣) من الأغانى

يا أهلَ المدينة ، إنه لا تُغنِي عنكم صحّةُ أبدانكم إذا سَقِمت قلوبكم ، قد جعل الله لكلّ شيء سببا غالبا عليه ؛ لينقاد إليه مطيع أمره ، فجعل القلوب غالبة على الأبدان ، فإذا مالت القلوبُ مَيْلاً كانت الأبدان لها تبعا ، وإنّ القلوب لاتلينُ لأهلها إلا بصحتها ، ولا يصححها إلا المعرفة بالله ؛ وقوة النية ونفاذ البصيرة ؛ ولو استشعرت تقوى الله قلوبُكم ، لاستُعمِلت فى طاعة الله أبدانُكم .

يا أهل المدينة ؛ داركم دارُ الهجرة ، ومثوى الرسول صلى الله عليه وسلّم ، لما نَبَتْ به دارُه ، وضاق به قراره ، وآذاه الأعداء وتجهّمته ، فنقله الله إليكم ؛ بل إلى قومٍ لعمرى لم يكونوا أمثالكم ، متوازرين مع الحقّ على الباطل ، مختارين الآجل على العاجل ؛ يصبرُون للضّراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله وجاهدوا فى سبيله ، وآزروا[1] رسوله صلى الله عليه وسلّم ، واتبعوا النّور الذى أنزل معه ؛ وآثروا الله على أنفسهم ؛ ولو كان بهم خصاصة ، فقال الله تعالى لهم ولأمثالهم ، ولمن اهتدى بهديهم : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] . وأنتم أبناؤهم ومَنْ بقى من خلفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم ، أو تأخذوا بسنّتهم ، عُمْى القلوب صمّ الآذان . اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدَى ، وأسهاكم[3] عن مواعظ القرآن ، لا تزجركم[3] فتنزجرُون ، ولا تعظكم فتتعظون ؛ ولا توقظكم فتستيقظون ، لبئس الخلَفُ أنتم من قوم مَضَوْا قبلكم ! ماسرتُم سيرتَهم ، ولا حفظتم وصيتَهم ، ولا احتذيتم مثالهم ؛ لو شُقّت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجِبُوا كيف صُرِف العذاب عنكم ! ألا ترَوْن إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أضيعت ؛ حتى تداولها بنو مَرْوان ؛ أهل بيت اللعنة ، وطرداء رسول الله ، وقوم [من][4] الطُّلَقاء ، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان ! فأكلوا مال الله أكلا ، وتلعّبوا بدين الله لعبا ؛ واتخذا عباد الله عبيداً ، يورِّثُ الأكبرُ منهم ذلك الأصغر ؛ فيالها

(١) الأغانى : « وآووا » . (٢) سورة الحشر ٩ والتغابن ١٦ .
(٣ ـ ٣) الأغانى : « وأسهاكم ، فلا مواعظ القرآن تزجركم » .
(٤) من ج .

أمّةَ ما أضعفها وأضيعها ! ومضوا على ذلك مِنْ سيِّىء أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، فالعنوهم لعنهم الله لعنا ؛ [كما يستحقونه] (١) .

ولقد ولىَ منهم عمر بن عبدالعزيز فاجتهد ولم يكَدْ ، وعجز عن الذى أظهر ، حتى مضى لسبيله . قال : ولم يذكره بخير ولا بشرّ . ثم قال : وولىَ بعده يزيد بن عبدالملك ، غلام سفيهٌ ضعيف ، غير مأمون على شىء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشدَّه ، ولم يؤنَسْ رشده ، وقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٢) وأمرُ أمة محمد صلى الله عليه وأحكامها وفروجها ودمائها أعظمُ عند الله من مال اليتيم ؛ وإن كان عند الله عظيما ، غلام مأبُونٌ فى فرْجه وبطنه ، يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس بُرْدَين قد حيكا من غير حلّهما ، وصرفت أثمانهما فى غير وجهها ، بعد أن ضُرِبت فيهما الأبشار (٣) ، وحُلِقَتْ فيهما الأشعار ؛ استحلّ ما لم يحلّه الله لعبد صالح ، ولا لنبيّ مرسل ؛ فأجلس حَبَابة عن يمينه ، وسلّامة عن يساره ، يغنّيانه بمزامير الشيطان ، ويشرب الخمر الصُّراح ، المحرّمة نصًّا بعينها ؛ حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت روحَه ولحمه ودمه ؛ وغلبت سَوْرَتها على عقله ، مزّق بُرْدَيه ، ثم التفت إليهما ، فقال : أتأذنان لى بأن أطير ! (٤) نعم فطِرْ إلى النّار ، طِرْ إلى لعنة الله ، طِرْ إلى حيث لا يردّك الله (٤) .

ثم ذكر بنى أميّة وأعمالَهم ، فقال : أصابوا إمْرة ضائعة ، وقوماً طَغاماً جهّالًا لا يقومُون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضَّلالة والهدى ؛ ويرون أنّ بنى أمية أربابٌ لهم ؛ فملكوا الأمر ، وتسلّطوا فيه تسلُّطَ ربوبية ، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكُمون بالهوى ، ويقتلُون على الغَضَب ويأخذون بالظَّنّ ، ويعطِّلون الحدود بالشفاعات ، ويؤمّنون الخوَنة ، ويعصُون ذوى

---

(١) من ب . (٢) سورة النساء ٦

(٣) الأبشار : جمع بشر ؛ وهو جمع بشرة ؛ ظاهر الجلد ؛ أى ضرب الناس فى جباية الأموال .

(٤ — ٤) الأغانى : « نعم فطر إلى النار ، إلى لعنة الله وناره حيث لا يردك الله » .

الأمانة ، ويتناولون الصَّدقة من غير فرضها ؛ ويضعونها غير موضعها ؛ فتلك الفِرْقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوهم لعنهم الله .

قال : ثم ذكر شيعة آل أبي طالب ، فقال : وأما إخواننا من الشّيعة ـ وليسوا[1] بإخواننا في الدّين ؛ لكني سمعت الله يقول : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[2] ـ فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وآثرت الفرقة على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفِقْه ، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب ؛ قد قلدوا أمورَهم أهواءهم ، وجعلوا دينَهم العصبيّة لحزب لزموه وأطاعوه ، في جميع ما يقوله لهم : غيًّا كان أو رشداً ، ضلالةً كان أو هدى ؛ ينتظرون الدُّوَل في رَجْعة الموتى ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما في بيته[3] ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ؛ ينقمون المعاصيَ على أهلها ، ويعملون بها ولا يعلمون المخرج منها ، جفاة في دينهم ، قليلة عقولهم ، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينَهم ؛ وزعموا أنّ موالاتهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

فأيّ الفرَق يا أهل المدينة تتبعون ؛ أم بأيّ مذاهبهم تقتدُون ! ولقد بلغني مقالكم في أصحابي وما عبتموه من حداثة أسنانهم ، ويحكم ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلا أحداثا ! نعم إنهم لشباب مكتهلون[4] في شبابهم ، غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة في الباطل أرجلهم ، أنضاء[5] عبادة ، قد نظر الله إليهم في جَوْف الليل ، محنيّة أصلابهم على أجزاء القرآن كلّما مرّ أحدُهم بآية فيها ذكرُ الجنة بكى شوقا ، وكلّما مرّ بآية فيها ذكر النار شهق خَوْفا ؛ كأنّ زفير جهنم بين أُذُنيه ؛ قد أكلتِ الأرضُ جباههم ورُكَبهم ،

(١) كذا في ا ، ب ، وفي ج : « فليسوا » .
(٢) سورة الحجرات ١٣
(٣) وفي رواية الأغاني : « لايعلم أحدهم ما في داخل بيته » .
(٤) ج : « يتكهلون » .
(٥) أنضاء : جمع نضو ؛ وهو المهزول .

ووصلوا كَلال ليلهم بكَلال نهارهم ؛ مصفرّة ألوانهم ، ناحلة أبدانهم ؛ من طول القيام ؛ وكثرة الصيام ، يُوفون بعهد الله ، منجِزون لوعد الله ، قد شرَوْا أنفسهم في طاعة الله ؛ حتى إذا التقت الكتيبتان[١] ؛ وأبرقت سيوفُهما ، وفوّقت[٢] سهامهما ، وأشرِعَتْ[٣] رماحهما ، لقوا شَبَا[٤] الأسنة وزِجَاج السهام[٥] وظُبَى السيوف ، بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم فمضى الشابُّ منهم قُدُما ، حتى اختلفتْ رجلاه على عُنُق فرسه ؛ واختضبت محاسنُ وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ[٦] جبينه بالتراب والثرى ، وانحطّت عليه الطير من السماء ، ومزّقته سباع الأرض ؛ فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله ! وكم من وجهٍ رقيق ؛ وجبينٍ عتيق[٧] قد فلِق بعَمَد الحديد .

ثم بكى فقال : آه ، آه ! على فراق الإخوان ، رحمة الله تعالى على تلك الأبدان ؛ اللهم أدخل أرواحها الجنان !

***

قال أبو الفرج : وسار أبو حمزة ، وخلَّف بالمدينة المفضّل الأزديّ في جماعة من أصحابه ، وبعث مروان بن محمد عبدَ الملك بن عطية السعديّ في أربعة آلاف من أهل الشام ؛ فيهم فرسان عسكره ووجوههم لحرب أبي حمزة وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأمر ابنَ عطية بالجدّ في المسير ، وأعطى كلَّ رجل من الجيش مائة دينار ، وفرسا عربيا ، وبغلا لثقله ، فخرج ابن عطية حتى إذا كان بالمعلّى . فكان رجل من أهل وادي القرى ، يقال له العلاء

---

(١) ج : « الفئتان » .
(٢) فوق السهم : جعل له فوقاً ؛ وهو موضع الوتر من السهم ؛ أي أعدت للرمي .
(٣) أشرعت : سددت .
(٤) شبا : جمع شباة ؛ وهي حد كل شيء .
(٥) الزجاج : جمع زج ؛ وهو نصل السهم . وفي الأغاني : « وشائك السهام » .
(٦) عفر : أصابه العفر ؛ وهو التراب .
(٧) عتيق : كريم .

ابن أفلح أبى الغيث ؛ يقول : لقيَنى فى ذلك اليوم وأنا غـلام رجـلٌ من أصحاب ابن عطية ؛ فقال لى : ما اسمُك ياغلام ؟ فقلت:العلاء ، فقال : ابنُ مَنْ ؟ قلت:ابن أفلح، قال : أعربىّ أم مولى ؟ فقلت : مولى ، قال : مولى مَنْ ؟ قلت : مولى أبى الغيث ، قال: فأين نحن ؟ قلت : بالمعلّى ؛ قال : فأين نحن غداً ؟ قلت : بغالب[1] ؛ قال : فأركبنى حتى أردفنى خَلْفه؛ومضى حتى أدخلنى على ابن عطية،وقال له: أيها الأمير ، سلِ الغلام مااسمه؟ فسأل وأنا أردّ عليه القول ؛ فسرّ بذلك ، ووهب لى دراهم .

قال أبو الفرج:وقدم أبو حمزة،وأمامه بَلْج بن عقبة فى ستمائة رجل ؛ ليقاتل عبدالملك ابن عطية ، فلقيَه بوادى القرى،لأيام خَلَت من جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة،فتواقفوا، ودعاهم بَلْج إلى الكتاب والسنة ، وذكّر بنى أمية وظُلْمهم ، فشتمه أهلُ الشام،وقالوا : يا أعداء الله ، أنتم أحقُّ بهذا ممن ذكرتم.فحمل بَلْج وأصحابه عليهم ، وانكشفت طائفة من أهل الشام ، وثبت ابنُ عطية فى عُصْبة صبروا معه ، فناداهم : ياأهل الشام ؛ ياأهل الحفاظ ! ناضِلوا عن دينكم وأميرِكم ،[2] واصبروا وقاتلوا قتالا شديداً[2]،فقتل بلْج وأكثرُ أصحابه ، وانحازت قطعة من أصحابه نحو المائة إلى جبل اعتصموا به ، فقاتلهم ابنُ عطية ثلاثة أيام ؛ فقتل منهم سبعين رجلا ، ونجا منهم ثلاثون .

فرجعوا إلى أبى حمزة وهو بالمدينة،وقد اغتمّوا وجزعوا من ذلك الخبر ، وقالوا : فررنا من الزّحف ، فقال لهم أبو حمزة : لا تجزعوا فإنا لكم فئة[3] ، وإلىّ تحيزتم .

وخرج أبو حمزة إلى مكة،فدعا عمر بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب أهل المدينة إلى قتال المفضل ، خليفة أبى حمزة على المدينة ، فلم يجد أحداً[4]، لأن القتل قد كان أسرع فى الناس،وخرج وجوه أهل البلد عنه[5]،فاجتمع إلى عمر البربر والزّنوج وأهل السوق والعبيد،

---

(١) غالب : موضع بالحجاز .

(٢ — ٢) الأغانى : « فذكروا وصبروا صبرا حسنا » .

(٣) الفئة : الجماعة المتظاهرة التى يرجع بعضها إلى بعض فى التعاضد .

(٤) الأغانى : « كثير أحد » .

(٥) كذا فى الأغانى ، وفى ب : « وجوه أهل البدعة » .

فقاتل بهم الشّراة، فقتل المفضّل وعامة أصحابه،وهرب الباقون ، فلم يبق منهم أحد،فقال في ذلك سُهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبي العاص :

ليت مرْوان رآنا   يوم الاثنين عشيّهْ
إذ غسلنا العارَ عنّا   وانتضينا المَشْرَفيّهْ

قال : فلما قدم ابن عطية أتاه عمر بن عبدالرحمن ، فقال له : أصلحك الله ! إنى جمعت قَضّي وقَضِيضي ، فقاتلتُ هؤلاء الشُّراة فلقّبه أهل المدينة : قَضّي وقَضِيضِي » .

قال أبو الفرج،وأقام ابن عطية بالمدينة شهرا ، وأبو حمزة مقيم بمكة ، ثم توجّه إليه، فقال عليّ بن الحصين العبديّ لأبي حمزة : إنى كنتُ أشرت عليك يوم قُدَيد وقبله أن تقتُل الأسرى فلم تفعل ؛ حتى قتلوا المفضّل وأصحابنا المقيمين معه بالمدينة ، وأنا أشير عليك الآن أن تضع السيف في أهل مكة ، فإنهم كَفَرة فَجَرة ، ولو قد قدم ابن عطية لكانوا أشدّ عليك من أهل المدينة،فقال : لا أرى ذلك؛لأنهم قد دخلوا في الطاعة،وأقرّوا بالحكم، ووجب لهم حقّ الولاية .

فقال : إنهم سيغدرون ، فقال : ﴿ وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [1] .

وقدم ابن عطيّة مكة فصيّر أصحابه فرقتين ، ولقيَ الخوارج من وجهين ، فكان هو بإزاء أبي حمزة في أسفل مكة ، وجعل طائفة أخرى بالأبطح بإزاء أبرهة بن الصباح،فقتل أبرهة ؛ كمنَ له ابن هبار وهو على خيل دمشق،فقتله عند بئر ميمون،والتقى ابن عطية بأبي حمزة ، فخرج أهلُ مكة بأجمعهم مع ابن عطية ، وتكاثر الناس على أبي حمزة ، فقتل على فم الشِّعب ، وقتلت معه امرأته وهي ترتجز :

أنا الجديعاء وبنتُ الأعْلَمْ   مَنْ سالَ عن اسْمِي فاسْمِي مَرْيمْ [2]

---

(١) سورة الفتح ١٠ .
(٢) الأغاني : « الجبيداء » .

* بعثُ سوارَى بعضب مِخْذَمِ (١) *

وقتلت الخوارج قتلاً ذريعا ، وأسِرَ منهم أربعمائة ؛ فقال لهم ابن عطية : وَيْلَكم ! ما دعاكم إلى الخروج مع هذا ؟ فقالوا : ضمن لنا « الكنّة » ، يريدون « الجنة » (٢) ، فقتلهم كلهم ، وصلب أبا حمزة وأبرهة بن الصبّاح (٣) على شِعْب الخَيف ، ودخل علىّ بنُ الحصين داراً من دور قريش ، فأحدق أهل الشام بها فأحرقوها ، فرمى بنفسه عليهم وقاتل ؛ فأسِر وقُتِل وصلب مع أبى حمزة ، فلم يزالوا مصلوبين حتى أفضى الأمرُ إلى بنى هاشم (٤) ، فأنزلوا فى خلافة أبى العباس .

* * *

قال أبو الفرج : وذكر ابن الماجشون أنّ ابن عطيّة لما التقى بأبى حمزة ، قال أبو حمزة لأصحابه : لا تقاتلُوهم حتى تختبرُوهم ، فصاحوا فقالوا : يا أهل الشام ، ماتقولون فى القرآن ؟ [والعمل به (٥)] ؟ فقال ابن عطية : نضعه فى جَوْف الجُوالق ، قالوا : فما تقولون فى اليتيم ؟ قالوا : نأكل ماله ونفجر بأمّه ؛ فى أشياء بلغنى أنهم سئلوا عنها ؛ فلما سمعوا كلامَهم قاتلوهم حتى أمسَوْا ، فصاحت الشُّراة : ويحك يابن عطية ! إنّ الله جلّ وعزّ قد جعل الليل سكنا فاسكن ونسكن ؛ فأبى وقاتلهم حتى أفناهم .

قال : ولما خرج أبو حمزة من المدينة خطَب ، فقال : يا أهلَ المدينة ؛ إنا خارجون لحرب مروان ، فإنْ نظهرْ عليه نعدِلْ فى أحكامكم ، ونحملْكم على سنَّة نبيكم ؛ وإن يكُنْ ما تمنيتم لنا ، فسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون .

---

(١) مخذم : قاطع .

(٢) بعدها فى الأغانى : « وهى لغتهم » .

(٣) فى الأغانى : « ورجلين من أصحابهم » .

(٤) فى الأغانى : « إلى بنى العباس » .

(٥) من الأغانى .

قال : وقد كان اتبعه على رأيه قومٌ من أهل المدينة وبايعوه ، منهم بشكست[1] النحويّ ، فلما جاءهم قتله وثب الناس على أصحابه فقتلوهم ؛ وكان ممن قتلوه بشكُسْت النحويّ ، طلبوه فرقِيَ في درجة دارٍ ؛ فلحقوه فأنزلوه ، وقتلوه وهو يصيح : ياعباد الله ، فيم تقتلونني ! فقيل فيه :

لقد كان بشكُسْت عبدُ العزيزِ   منَ أهلِ القراءة والمَسْجِدِ
فبعداً لبشكست عبد العزيز   وأما القُرآنُ فــلا تَبْعَدِ

* * *

قال أبو الفرج : وحدَّثني بعضُ أصحابنا أنه رأى رجلاً واقفا على سَطْحٍ يرمى بالحجارة قوم أبي حمزة بمكة ، فقيل له : ويلك ! أتدرى من ترمى مع اختلاط الناس ؟ فقال : والله ما أبالى مَنْ رميت ، إنما يقع حَجَرى في شامٍ أو شار[2] ؛ والله ما أبالى أيهما قتلت .

* * *

قال أبو الفرج : وخرج ابنُ عطية إلى الطائف ، وأتى قتلُ أبي حمزة إلى عبد الله ابن يحيى طالب الحق ؛ وهو بصنعاء ، فأقبل في أصحابه يريد حرب ابنِ عطية ، فشخص ابن عطية إليه ، والتقوْا ، فقتل بين الفريقين جمعٌ كثير ؛ وترجّل عبدُ الله بن يحيى في ألف رجل ، فقاتلوا حتى قُتِلوا كلُّهم ؛ وقتل عبد الله بن يحيى ؛ وبعث بنُ عطية رأسَه إلى مروان بن محمد ؛ وقال أبو صخر الهذليّ ، يذكر ذلك :

قَتَلْنا عُبَيْدا والَّذِي يكتني الكُنَى   أبا حَمزة القارِى المصلّى اليمانيا[3]
وأبرهة الكنديّ خاضت رماحُنا   وبَلْجاً منحناه السُّيوف المَوَاضِيا

---

(١) هو عبد العزيز القارىء الملقب بشكست المدنى النحوى الشاعر ؛ أخذ من أهل المدينة ؛ وكان يذهب مذهب الشراة ، ويكتم ذلك ، فلما ظهر أبو حمزة خرج معه . إنباه الرواة ٢ : ١٨٣ .

(٢) الأغانى : « إنما هو شام أو شار » .

(٣) أوردها صاحب الأغانى ؛ وفيه : « قتلنا دعيما . . . الغاوى المضل »

وما تركت أسيافنا منذ جُرِّدَتْ ... لمرْوان جَبّارا على الأرض عاصيا

وقال عمرو بن الحصين العنبرى ، يرثى أبا حمزة وغيره من الشُّراة ، وهذه القصيدة من مختار شعر العرب :

هَبّتْ قُبَيْلَ تبلّجِ الفَجْرِ ... هِنْدٌ تقــولُ ودمعُها يَجْرِى[1]

إذْ أبْصَرَتْ عَيْنِى وأدْمُعُهَا ... تنهلُّ واكِفَةً على النَّحْرِ :

أنّى اعتراكَ وَكُنْتَ عَهدِى لَا ... سَرِب الدُّموعِ وَكُنْتَ ذَا صَبْرِ !

أقذًى بعينِك لا يفارقها ... أم عائرٌ ، أم مالهـا تَذْرِى !

أم ذِكْرُ إخوانٍ فُجِعْتَ بِهِمْ ... سَلَكُوا سَبِيلَهُمُ عَلَى قَدْرِ

فأجبتُها بلْ ذِكْرُ مَصْرَعِهِمْ ... لا غيره عبراتُها تَجْرِى

يارَبِّ أسلِكْنِى سَبِيلَهُمُ ... ذَا العرشِ ، واشْدُدْ بالتُّقَى أزْرِى

فى فِتْيَةٍ صبروا نفوسَهُمُ[2] ... للمَشرفِيَّةِ والقنَا السُّمْرِ

تاللهِ مافى الدَّهْرِ مِثْلُهُمُ ... حتّى أكونَ رَهِينَةَ القَبْرِ[3]

أوفَى بذمَّتِهِمْ إذا عَقَــدُوا ... وأعفُّ عِنْدَ العُسْرِ واليُسْرِ

متأهِّبُونَ لــكلِّ صالِحَةٍ ... ناهُونَ مَنْ لَاقَوْا عن النُّــكْرِ[4]

صُمُتٌ إذا حَضَرُوا مَجالِسَهُمْ ... من غــير ما عِيٍّ بهم يُزْرِى[5]

إلّا تجيئهُمُ فإنَّهُمُ ... رُجُفُ القلوبِ بحضرةِ الذِّكْرِ[6]

---

(١) أبيات منها فى معجم الشعراء ٤٨ .

(٢) معجم الشعراء : « شرطوا » .

(٣) الأغانى : « تالله ألقى الدهرمثلهم » .

(٤) الأغانى : « متأملين » .

(٥) الأغانى :

صُمُتٌ إذا احتضروا مجالِسَهُمْ ... وزنٌ لقــولِ خطيبِهِمْ وَقْرُ

(٦) الأغانى : « إلا تجيبهم » .

مُتأوِّهُونَ كأنَّ جَمْرَ غَضاً ... للموتِ بين ضُلُوعِهِمْ يَسْرِي (١)

فهمُ كأنَّ بهم جَوًى مرضٌ ... أوْ مَسَّهم طَرَفٌ من السِّحر

لا ليلُهم ليلٌ فيلبسهم ... فيه غواشي النَّوم بالسُّكْرِ

إلا كَرًى خَلَسًا وآونة ... حذر العقاب فهُمْ على ذُعْرِ

كَمْ مِنْ أخٍ لكَ قدْ فُجِعْتَ به ... قوّام ليلتِه إلى الفَجْرِ

متأوِّهاً يتلُو قَوارِعَ مِنْ ... آي الكِتاب مُفَزَّع الصَّدْرِ (٢)

ظمآن وَقْدَة كلِّ هاجِرةٍ ... ترّاكَ لذَّتِه عَلَى قدْرِ

رَفّاضَ ما تَهْوَى النُّفُوسُ إذا ... رُغَبُ النفوس دَعَتْ إلى المِزْرِ (٣)

وَمُبرّأ مِنْ كلِّ سَيِّئةٍ ... عفّ الهوى ذَامِرَة شَزْرِ (٤)

والمصطلى بالحرب يُوقِدها ... بحُسامه في فِتْيَةٍ زُهْرِ (٥)

يختاضها بأفلَّ ذي شُطَبٍ ... عضب المضارِب ظاهر الأثْرِ (٦)

لا شيء يَلْقاه أسرّ له ... مِنْ طَعْنَةٍ في ثُغْرَةِ النَّحْرِ

منهارة منه تجيش بما ... كانَتْ عوامِلُ جوْفِه تجْرِي (٧)

---

(١) الأغانى : « للموت بين ضلوعهم » ، وبعده :

تلقاهُمُ إلاَّ كأنَّهُمُ ... لخشوعِهِم صَدَروا عن الحشْرِ

(٢) فى الأصول : « مفرح » ؛ وما أثبته من الأغانى ؛ وفيه بعده :

نَصِبٌ تجيشُ بناتُ مُهْجَتِهِ ... من خوف جيشِ مشاشةِ القِدْرِ

(٣) فى الأغانى : « تراك ما تهوى » ، والمزر : النبيذ من الشعير أو الحنطة .

(٤) هذا البيت لم يذكر فى الأغانى .

(٥) الأغانى :

والمصطلي بالحرْبِ يُسْعِرُها ... بغبارِها وبفتية سُمْرِ

(٦) الأثر : جوهر السيف ، وفى الأغانى : « يجتاحها ... قاطع البتر » .

(٧) الأغانى : « منهرة » .

خليلُك المختارُ أذكِ به ... من معتدٍ في الله أو مُسرى !
خواضُ غَمرَةٍ كلّ متلفَةٍ ... في الله تحت العِثْيَرِ الكدرِ
نزال ذي النّجَوات مختضباً ... بنجيعه بالطّعْنَةِ الشّزْرِ (١)
وابن الحصين وَهَلْ لَهُ شَبَهٌ ... في العُرْفِ أنّى كان والنُّكْرِ
بشهامةٍ لم تُحْنَ أضلعُه (٢) ... لذوى أحِزّتِهِ على غَدْرِ
طلق اللسان بكلّ مُحْكَمَةٍ ... رآب صدع العظم ذى الكسرِ
لم ينفكِكْ في جوفه حَزَنٌ ... تَغلِي حَرَارَتُهُ وَتَسْتَشْرِي
ترقى وآونة يخفّضُها ... بتنفّسِ الصُّعَداءِ والزَّفْرِ
ومخالطى بَلْجٌ وخالصتي ... سَهْم العدوّ وجابر الكسرِ (٣)
نِكْلُ الخصوم إذا هُمُ شغبوا ... وسداد ثَلمَةِ عورة الثّغْرِ (٤)
والخائض الغمرات يخطر في ... وَسَطِ الأعادى أيّما خَطْرِ
بمشطَّبٍ أو غيرِ ذي شُطَبٍ ... هامَ العدا بذُبابِهِ يَفْرِى
وأخيك أبرهة الهجان أخى الـ ... ـحربِ العَوانِ ومُوقد الجمرِ
والضاربِ الأخدودَ ليسَ لها ... حَدٌّ يُنَهْنِهُها عن السَّحْرِ (٥)
وولىِّ حُكْمِهِمُ فُجِعْتُ به ... عمرو، فوا كبدى على عمرو!
قَوّال مُحْكَمَةٍ وذو فَهَمٍ ... عَفُّ الهوى متثبّتُ الأمرِ
ومسيّبٍ فاذكر وصيّتَه ... لا تنس إمّا كنتَ ذا ذِكْرِ

---

(١) النجوات : جمع نجوة ؛ وهو ما ارتفع عن الأرض .
(٢) الأغانى : « بسامة » .
(٣) الأغانى : « سم العدو » .
(٤) يقال : رجل نِكل ، أى تنكل به أعداؤه .
(٥) كذا فى الأغانى : « والسحر : الرئة . والأخدود : الضربة التى خدت الجلد ، أى شقته » .

فكلاهما قد كان مختشعا(١) ... لله ذا تقوى وذا برّ
في مخبتين ولم أسمّهم ... كانوا ندى وهم أولو نصر
وهم مساعر في الوغى رجح ... وخيار من يمشي على العفر(٢)
حتى وفوا لله حيث لقوا ... بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجات أنفسهم ... وعداتهم بقواضب بتر
وأسنة أثبتن في لدن ... خطية بأكفهم زهر
تحت العجاج وفوقهم خرق ... يخفقن من سود ومن حمر
فتوقدت نيران حربهم ... ما بين أعلى البيت والحجر
وتصرعت عنهم فوارسهم ... لم يغمضوا عينا على وتر
صرعى تخاوية بيوتهم ... وخوامع بجسومهم تفري(٣)

•••

قال أبو الفرج : وأقام ابنُ عطيّة بحضرموت بعد ظفره بالخوارج حتى أتاه كتاب مَروان ، يأمرُه بالتّعجيل إلى مكة ، فيحجّ بالناس ، فشخص إلى مكة متعجّلا مُخِفًّا في تسعة عشر فارسا ، وندم مَروان على ما كتبه ، وقال : قتلت ابن عطية ؛ وسوف يخرج متعجّلا مخِفًّا من اليمن ليلحق الحجّ فيقتله الخوارج ، فكان كما قال ؛ صادفه في طريقه جماعةُ متلففة ، فمن كان منهم إباضيا قال : ما ننتظر أن ندرك ثأر إخواننا ، ومَن لم يكن منهم إباضياً ظنّ أنه إباضيّ منهزم من ابن عطية ، فصمد له سعيد وجُمانة ابنا الأخنس

(١) الأغاني : « مختسبا »
(٢) مساعر : جمع مسعر ؛ وهو الشجاع موقد الحرب ؛ كأنه آلة في إيقادها . والعفر : التراب .
(٣) الخوامع : الضباع : وفي الأغاني : « لخاجلة تنوبهم » والخاجلة يراد بها الطير .

الكنديّان فى جماعة من قومهما ، وكانوا على رأى الخوارج،فعطف ابنُ عطيّة على سعيد فضربه بالسيف ، وطعنه جُمانة فصرّعه ؛ فنزل إليه سعيد ، فقعد على صدره ، فقال له ابنُ عطيّة : هل لك فى أن تكون أكرَم العرب أسيراً ؟ فقال سعيد : ياعدوّ الله ، أتظنّ الله يمهلك ! أوَتطمع فى الحياة؛وقد قتلتَ طالب الحق وأبا حمزة وبَلْجًا وأبرهة ! فذبحه.وقتِل أصحابُه أجمعون .

فهذا يسير مما هو معلوم من حال هذه الطائفة فى خُشونتها فى الدّين ، وتلزُّمها بناموسه ؛ وإن كانتْ فى أصل العقيدة على ضلال ؛ وهكذا قال النبى صلى الله عليه وآله عنهم : « تُستَحقَر صلاةُ أحدِكم فى جَنْب صلاتهم ، وصيامُ أحدكم فى جنب صيامهم » ؛ ومعلومٌ أنّ معاوية ومَنْ بعده من بنى أميّة لم تكن هذه الطريقة طريقَتَهم ؛ ولا هذه السنّة سنتهم ؛ وأنهم كانوا أهلَ دنيا وأصحابَ لعب ولهو وانغماس فى اللذات ، وقلة مبالاة بالدين ؛ ومنهم مَنْ هو مرمىٌّ بالزندقة والإلحاد .

***

[أخبار متفرقة عن معاوية]

وقد طعَن كثير من أصحابنا فى دين معاوية ، ولم يقتصروا على تفسيقه ، وقالوا عنه إنه كان ملحِداً لا يعتقد النبوّة ، ونقلوا عنه فى فلتات كلامه وسقطات ألفاظه مايدلّ على ذلك .

وروى الزبير بن بكار فى " الموفقيات " ــ وهو غيرمتَّهم على معاوية ، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة ، لما هو معلوم من حاله من مجانَبة علىّ عليه السلام ، والانحراف عنه ــ :

قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة : دخلت مع أبى عَلَى معاوية ، وكان أبى يأتيه ، فيتحدّث معه ، ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاوية وعقلَه ، ويعجَبُ بما يرى منه ، إذ جاء ذاتَ ليلة ، فأمسك عن العَشاء ، ورأيته مغتمًّا فانتظرته ساعة ، وظننت أنه لأمرٍ حدث

فيناء،فقلت:مالى أراك مغتماً منذ الليلة ؟ فقال: يا بنىّ ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وماذاك ؟ قال:قلت له وقد خلوتُ به: إنك قد بلغتَ سناً ياأمير المؤمنين،فلو أظهرت عدلا، و بسطت خيرا فإنك[1] قد كبرت؛ ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم،فوصلت أرحامهم فوالله ماعندهم اليومَ شيء تخافه ، وإنّ ذلك مما يَبقى لك ذكره وثوابه ! فقال : هيهات هيهات ! أىّ ذِكْر أرجو بقاءه ! مَلَك أخو تَيْم فعدَل ، وفعل مافعل ، فما عدا أن هَلَك حتى هلك ذكرُه؛ إلا أن يقول قائل : أبو بكر ؛ ثم ملك أخو عدىّ،فاجتهد وشمّر عشر سنين؛فما عدا أن هلك حتى هلَك ذكرُه؛ إلا أن يقول قائل : عمر ؛ وإنّ ابنَ أبى كبشةَ ليُصاح به كلّ يوم خمس مرات : « أشهد أنّ محمداً رسول الله » ، فأىّ عمل يبقى ؟ وأىّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك ! لا والله إلّا دَفْنا دفناً .

***

وأما أفعاله المجانِبة للعدالة الظاهرة من لُبْسه الحرير ، وشربه فى آنية الذهب والفضة ؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدَّرْداء ، فقال له : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول: « إنّ الشارب فيهما ليُجرْجِر فى جوفه نار جهنم » ، وقال معاوية : أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً ، فقال أبو الدرداء : مَنْ عذيرى من معاوية ! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وهو يخبرنى عن رأيه ! لا أساكنك بأرضٍ أبداً .

نقل هذا الخبرَ المحدّثون والفقهاء فى كتبهم فى باب الاحتجاج على أنّ خبر الواحد معمول به فى الشرع ؛ وهذا الخبر يقدَح فى عدالته ، كما يقدح أيضاً فى عقيدته ، لأنّ مَنْ قال فى مقابلة خبَر قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أمّا أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفىء ، وضربه مَنْ لاحدّ عليه ، وإسقاط الحدّ عمّن يستحقّ إقامةَ الحدّ عليه ، وحكمه

(١) ساقطة من ب ، وهى فى ا ، ج .

برأيه فى الرَّعيّة وفى دين الله ، واستلحاقه زيادا ؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الولَدُ للفراش وللعاهر الحَجَر » ، وقتله حُجْر بنَ عدىّ وأصحابه ولم يجب عليهم القتل ، ومهانته لأبى ذرّ الغِفارى وَجبْهُهُ وشتمه وإشخاصه إلى المدينة على قَتَب بعير وطاء لإنكاره عليه ، ولعنه عليًّا وحسنا وحسينا وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام ، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد ، مع ظهور فسقه وشُرْبِهِ المسكر جهاراً ، ولعبه بالنّرد ، ونومه بين القيان المغنّيات ، واصطباحه معهنّ ، ولعبه بالطنبور بينهنّ ، وتطريقه بنى أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته ، حتى أفضَتْ إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، المفتضحين الفاسقين : صاحب حَبابة وسلّامة ؛ والآخر رامى المصحف بالسّهام وصاحب الأشعار فى الزندقة والإلحاد .

ولا ريب أن الخوارج إنما برئ أهلُ الدين والحقّ منهم ، لأنهم فارقوا عليًّا وبرئوا منه ، وماعدا ذلك من عقائدهم ، نحو القول بتخليد الفاسق فى النار ، والقول بالخروج على أمراء الجوْر ؛ وغير ذلك من أقاويلهم ؛ فإن أصحابنا يقولون بها ، ويذهبون إليها ، فلم يبق مايقتضى البراءة منهم إلا براءتهم من علىّ ؛ وقد كان معاوية يلعنهُ على رءوس الأشهاد وعلى المنابر فى الجمع والأعياد ، فى المدينة ومكة وفى سائر مدن الإسلام ؛ فقد شارك الخوارج فى الأمر المكروه منهم ؛ وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزّم بقوانين الشريعة ، والاجتهاد فى العبادة ، وإنكار المنكَرات ، وكانوا أحقّ بأن يُنْصَرُوا عليه مِنْ أن يُنْصَر عليهم ، فوضح بذلك قولُ أمير المؤمنين : « لاتقاتلوا الخوارج بعدى » ، يعنى فى مُلْك معاوية .

ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ عبد الله بن الزُّبير استنصَر على يزيد بن معاوية بالخوارج ، واستدعاهم إلى ملكه ، فقال فيه الشاعر :

يابنَ الزبير أتهوَى فتية قَتَلوا ظلما أباك ولما تُنزع الشّكَكُ[1]

ضَحَّوْا بعثمان يوم النَّحْر ضاحيةً يا طيبَ ذاك الدم الزاكى الذى سفكوا !

فقال ابن الزبير : لو شايعنى الترك والدَّيْلم على محاربة بنى أمية لشايعتُهم وانتصرت بهم .

(١) الشكك : جمع شكة ؛ وهى السلاح .

(٦١)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لمّا خُوّف من الغِيلة :

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّةً حَصِينَةً ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي انْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي ؛ فَحِينَئِذٍ لَا يَطِيشُ السَّهْمُ ، وَلَا يَبْرَأُ الْكَلْمُ .

•••

الشّـرْحُ :

الغِيـلة : القتل على غير علم ولا شعور . والجُنّة : الدِّرع وما يُجَنّ به ؛ أي يستتر من تُرْس وغيره. وطاش السهم ؛ إذا صَدَف عن الغرض . والكَلْم : الجرح ؛ ويعني بالجُنّة هاهنا الأجل ، وعلى هذا المعنى الشعر المنسوب إليه عليه السلام :

من أيّ يومَيَّ مِنَ الموتِ أفِرّ ... أيومَ لم يُقْدَرَ أم يوم قُدِرْ[1]

فيوم لا يقدَر لا أرهَبُه ... ويوم قد قُدّر لا يغني الحَذَرْ

ومنه قول صاحب الزِّنْج :

وإذا تُنازعني أقولُ لها قِرِي ... موتٌ يُرِيحكِ أو صعود المنبرِ

ما قد قضى سيكونُ فاصطَبِري له ... ولكِ الأمانُ من الذي لم يُقْدَرِ

ومثله :

قَدْ عَلِم المستأخِرُون في الوَهَلْ ... أنّ الفرار لا يزيد في الأجلْ

والأصل في هذا كله قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾[2] .

---

(١) البيت في اللسان ٦ : ٣٨٣ ، وانظر هناك توجيه نصب « يقدر » . ، وهو أيضا من أبيات في أنساب الأشراف ١ : ١٣ ، نسبها إلى الحارث بن نمر التنوخي . (٢) سورة آل عمران ١٤٥

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٢) ، وفى القرآن العزيز كثيرٌ من ذلك .

• • •

[اختلاف الناس فى الآجال]

واختلف الناس فى الآجال ، فقالت الفلاسفة والأطباء : لا أجلَ مضروب لأحدٍ من الحيوان كلّه من البشر ولا من غيرهم . والموت عندهم على ضربين : قَسْرىّ وطبيعىّ :

فالقَسْرِىّ الموت بعارض ؛ إمّا من خارج الجسد كالمتردّى والغريق والمقتول ؛ ونحو ذلك ، أو من داخل الجسدِ كما يعرض من الأمراض القاتلة ؛ مثل السُّلّ والاستسقاء والسِّرسام ، ونحو ذلك .

والموت الطبيعىّ مايكون بوقوف القوّة الغاذية التى تورّد على البدن عوّض مايتحلّل منه ؛ وهذه القوّة المستخدِمة للقوى الأربع : الجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ؛ والهاضمة. والبدن لا يزال فى التحلّل دائما من الحركات الخارجية ، ومن الأفكار والهموم وملاقاة الشمس والريح ، والعوارض الطارئة ، ومن الجوع والعطش. والقوة الغاذيةّ تورّد على البدن عوّض الأجزاء المتحلّلة ، فتصرفها فى الغذاء المتناول ، واستخدام القوى الأربع المذكورة .

ومنتهى بقاء هذه القوّة فى الأعمّ الأغلب للإنسان مائة وعشرون سنة ، وقد رأيت فى كتب بعض الحكماء أنها تبقى مائة وستين سنة ؛ ولا يصدّق هؤلاء بما يروى من بقاء المعمَّرين ؛ فأما أهل الملل فيصدّقون بذلك .

---

(١) سورة الأعراف ٣٤ .
(٢) سورة الأنعام ٦١ .

واختلف المتكلمون فى الآجال ؛ فقالت المعتزلة : ينبغى أوّلاً أنْ نحقق مفهوم قولنا : « أجل » ليكون البحث فى التصديق بعد تحقق التصور ؛ فالأجل عندنا هو الوقت الذى يعلم الله أنّ حياةَ ذلك الإنسان أو الحيوان تبطل فيه ، كما أنّ أجل الدّين هو الوقت الذى يحلّ فيه ؛ فإذا سألنا سائل فقال : هل للنّاس آجالٌ مضروبة ؟ قلنا له : ماتعنى بذلك ؟ أتريد : هل يعلم الله تعالى الأوقات التى تبطل فيها حياة الناس ؟ أم تريد بذلك أنه : هل يراد بطلان حياة كلّ حىّ فى الوقت الذى بطلت حياتُه فيه ؟

فإن قال : عَنَيْتَ الأول ، قيل له : نعم للناس آجال مضروبة بمعنى معلومة ؛ فإنّ الله تعالى عالم بكلّ شىء .

وإن قال : عَنَيْتُ الثانى ؛ قيل : لا يجوز عندنا إطلاق القول بذلك ؛ لأنه قد تبطل حياة نبىّ أو ولىّ بقتل ظالم ؛ والبارىْ تعالى لا يريدُ عندنا ذلك .

فإن قيل : فهل تقولون : إن كلّ حيوان يموت وتبطل حياتُه بأجله ؟ قيل : نعم ، لأنّ الله قد علم الوقت الذى تبطل حياتُه فيه ، فليس تبطل حياته إلا فى ذلك الوقت ، لا لأنّ العلم ساق إلى ذلك ، بل إنما تبطل حياته بالأمر الذى اقتضى بطلانه ، والبارىْ تعالى يعلمُ الأشياء على ماهى عليه ؛ فإنْ بطلت حياته بقتل ظالم فذلك ظُلم وجَوْر ، وإن بطلتْ حياته من قِبَل الله تعالى فذلك حكمة وصواب . وقد يكون ذلك لطفاً لبعض المكلّفين .

واختلف الناسُ : لو لم يقتل القاتل المقتول ؛ هل كان يجوز أن يبقيَه الله تعالى ؟ فقطع الشيخ أبو الهذيل على موته لو لم يقتله القاتل ؛ وإليه ذهب الكرّاميّة ؛ قال محمد بن الهيصم : مذهبُنا أنّ الله تعالى قد أجّل لكلّ نفس أجلاً لن ينقضىَ عمره دون بلوغه ، ولا يتأخر عنه ؛ ومعنى الأجل هو الوقت الذى علم الله أنّ الإنسان يموت فيه ، وكتب ذلك فى اللوح المحفوظ ، وليس يجوز أن يكونَ الله تعالى قد أجّل له أجلاً ؛ ثم يقتل قبل بلوغه أو يخترم دونه ؛ ولا أن

يتأخرها أجَلَ له؛ ليس على معنى أنّ القاتل مضطر إلى قتله[١]؛ حتى لا يمكنه الامتناع منه؛ بل هو قادر على أن يمتنع من قَتْله؛ ولكنه لا يمتنع منه، إذ كان المعلوم أنه يقتله لأجله بعينه؛ وكتب ذلك عليه.

ولو توهمنا في التقدير، أنه يمتنع من قتله، لكان الإنسان يموتُ لأجل ذلك، لأنهما أمران مؤجّلان بأجلٍ واحد؛ فأحدهما قتل القاتل إياه، والثاني تصرّم مدة عمره وحلول الموت به؛ فلو قدرنا امتناعَ القاتل من قتله، لكان لا يجب بذلك ألّا يقع المؤجل الثاني الذي هو حلول الموت به، بل كان يجب أن يموت بأجله.

قال: وبيان ذلك من كتاب الله توبيخه المنافقين على قولهم: ﴿ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا[٢] ﴾، فقال تعالى لهم: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣]، فدلّ على أنهم لو تجنّبوا مصارع القتل لم يكونوا ليدرءوا بذلك الموت عن أنفسهم.

وقالت الأشعرية والجَهْميّة والجبْريّة كافّة: إنها آجالٌ مضروبة محدودة، وإذا أجّل الأجل؛ وكان في المعلوم أنّ بعض الناس يقتله، وجَب وقوع القتل منه لا محالة، وليس بقدر القاتل على الامتناع من قَتْله؛ وتقدير انتفاء القتل ليقال: كيف كانت تكون الحال، تقدير أمرٍ محال، كتقديرِ عَدَمِ القديم وإثبات الشريك، وتقدير الأمور المستحيلة لَغْو وخُلْف من القول.

وقال قومٌ من أصحابنا البَغداديين رحمهم الله بالقطع على حياته لو لم يقتله القاتل؛ وهذا عكس مذهب أبي الهُذَيل ومن وافقه، وقالوا: لو كان المقتول يموتُ في ذلك الوقت لو لم يقتله القاتل لما كان القاتل مسيئا إليه؛ إذ لم يفوّتْ عليه حياة لو لم يبطلها لبقيتْ، ولما استحقّ

(١) ب: « على قتله »، وما أثبته من ا، ج.
(٢) سورة آل عمران ١٥٦.
(٣) سورة آل عمران ١٦٨.

القودَ ، ولكان ذابح الشاة بغير إذن مالكها قد أحسن إلى مالكها ؛ لأنه لو لم يذبحها لماتت ؛ فلم يكن ينتفع بلحمها .

قالوا : والذى احتجّ به من كونهما مؤجّلين بأجل واحد فلو قدّرنا انتفاء أحد الأمرين فى ذلك الوقت لم يجب انتفاء الآخر ، ليس بشىء ، لأنّ أحدّهما علة الآخر ، فإذا قدّرنا انتفاء العلّة ؛ وجب أن ينتفىَ فى ذلك التقدير انتفاء المعلول ؛ فالعلة قتل القاتل ، والمعلول بطلان الحياة ، وإنما كان يستمرّ ويصلح ماذكروه ؛ لو لم يكن بين الأمرين علية العليّة والمعلوليّة .

قالوا : والآية التى تعلّقوا فيها لا تدلّ على قولهم ؛ لأنه تعالى لم ينكر ذلك القول إنكار حاكم بأنهم لو لم يقتلوا لماتوا ، بل قال : كلّ حىّ ميّت ، أى لابد من الموت ، إما معجّلا وإمّا مؤجّلا .

قالوا : فإذا قال لنا قائل: إذا قلتم إنه يبقى لو لم يقتله القاتل؛ألستم تكونون قد قلتم: إن القاتل قد قطع عليه أجلَه ؟

قلنا له : إنما يكون قاطعاً عليه أجله لو قتله قبل الوقت الذى علم الله تعالى أنّ حياته تبطل فيه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن الوقت الذى علم الله تعالى أنّ حياته تبطُل فيه هو الوقت الذى قتله فيه القاتل ؛ ولم يقتله القاتل قبل ذلك ؛ فيكون قد قطَع عليه أجله .

قالوا : فإذا قال لنا : فهل تقولون إنه قطع عليه عمره ؟

قلنا له : إنّ الزمان الذى كان يعيش فيه لو لم يقتله القاتل لايسمّى عمرا إلاعلى طريق المجاز ؛ باعتبار التقدير؛ولسنا نطلق ذلك إلامقيداً ؛ لئلا يُوهم، وإنما قلنا : إنا نقطع على أنه لو لم يقتَل لم يمت ، ولا نُطلق غير ذلك .

***

وقال قدماء الشيعة : الآجال تزيد وتنقص ، ومعنى الأجل ، الوقت الذى علم الله تعالى أنّ الإنسان يموت فيه إن لم يقتَل قبل ذلك ، أو لم يفعل فعلا يستحقّ به الزيادة والنقصان فى عمره .

قالوا : وربما يُقتَل الإنسان الذى ضُرِبَ[1] له من الأجل خمسون سنة . وهو ابن عشرين سنة ، وربما يفعل من الأفعال ما يستحقّ به الزيادة فيبلغ مائة سنة ، أو يستحقّ به النقيصة فيموت وهو ابن ثلاثين سنة .

قالوا : فمّا يقتضى الزيادة ؛ صلة الرحم ، ومما يقتضى النقيصة الزنا وعقوق الوالدين ، وتعلّقوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[2] .

وربما قال قوم منهم : إنّ الله تعالى يضرب الأجل لزيد خمسين سنة أو ما يشاء ، فيرجع عن ذلك فيما بعد ، ويجعله أربعين أو ثلاثين ، أو ما يشاء ، ويبنونه على قولهم فى البداء .

وقال أصحابنا : هذا يوجب أن يكونَ الله تعالى قد أجّل الآجال على التخمين دون التحقيق ؛ حيث أجّلَ لزيد خمسين ؛ فقتِل لعشرين ، وأفسدوا أن يعلم الله تعالى الشيء[3] بشرط ؛ وأن يبدوَ له فيما يقضيه ويقدره ؛ بما هو مشهور فى كتبهم .

وقالوا فى الآية : إنّ المرادَ بها أن ينقص سبحانه بعضَ الناس عن مقدار أجل المعمّر ؛ بأن يكون انتقصَ منه عمرا ، ليس أنه ينقص من عمر ذلك المعمّر .

فأما مشايخنا أبو عليّ وأبو هاشم فتوقّفا فى هذه المسألة ، وشكّا فى حياة المقتول وموته ؛ وقالا : لا يجوز أن يبقى لو لم يُقتل ، ويجوز أن يموت ، قالا : لأن حياته وموته مقدوران لله عزّ وجلّ ، وليس فى العقل ما يدلّ على قبح واحد منهما ؛ ولا فى الشرع ما يدل على حصول واحد منهما ، فوجب الشكّ فيهما ؛ إذ لا دليل يدلّ على واحد منهما .

---

(١) ب : « صرف » ، تحريف وصوابه من ج . (٢) سورة فاطر ١١
(٣) ساقطة من ب .

قالوا : فأما احتجاج القاطعين على موتِه ، فقد ظهر فسادُه بما حُكى من الجواب عنه .

قالوا : ومما يدلّ على بطلانه من الكتاب العزيز قولُه تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1] ، فحكم سبحانه بأنّ إثباته القصاص مما يزجر القاتل عن القتل ، فتدوم حياة المقتول ، فلو كان المقتول يموت لو لم يقتله القاتل ما كان فى إثبات القصاص حياة .

قالوا : وأما احتجاجُ البغداديين على القَطْع على حياته بمـا حُـكى عنهم ، فلا حُجّة فيه ؛ أمّا إلزام القاتل القَوَد والغرامة فلأنّا غير قاطعين على موت المقتول لو لم يقتل ، بل يجوز أن يبقى ويغلب ذلك على ظنوننا ؛ لأن الظاهرَ من حال الحيوان الصحيح ألّا يموت فى ساعته ، ولا بعد ساعته وساعات ، فنحن نلزم القاتل القوَد والغرامة ، لأنّ الظاهر أنه أبطل ما لو لم يبطله لبقى .

وأيضا فوت المقتول لو لم يقتله القاتل لا يخرج القاتل من كونه مسيئا ؛ لأنه هو الذى تولّى إبطال الحياة ؛ ألا ترى أنّ زيدا لو قتل عمرا لكان مسيئا إليه ؛ وإن كان المعلوم أنّه لو لم يقتله لقتله خالد فى ذلك الوقت !

وأيضا فلو لم يقتل القاتل المقتول ولم يذبح الشاة حتى ماتا ، لكان يستحقّ المقتول ومالك الشاة من الأعواض على البارئ سبحانه أكثر مما يستحقّانه على القاتل والذابح ، فقد أساء القاتل والذابح حيث فوّتا على المقتول ومالك الشاة زيادة الأعواض .

فأمّا شيخنا أبو الحسين فاختار الشكّ أيضا فى الأمرين إلا فى صورة واحدة ، فإنه قطع فيها على دوام الحياة ، وهى أنّ الظالم قد يَقتل فى الوقت الواحد الألوفَ الكثيرة فى المكان الواحد ، ولم تجر العادة بموت مثلهم فى حالة واحدة فى المكان الواحد ؛ واتفاق ذلك نقضُ العادة ، وذلك لا يجوز .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ .

قال[١] الشيخ : ليس يمتنع أن يقال فى مثل هؤلاء إنه يقطع على أنّ جميعهم ما كانوا يموتون فى ذلك المكان فى ذلك الوقت لو لم يقتلهم القاتل ، إن كان الوقت وقتا لا يجوز انتقاض العادات فيه ، ولكن يجوز أن يموتَ بعضُهم دون بعض ، لأنه ليس فى موت الواحد والاثنين فى وقت واحد فى مكان واحد نقض عادة ، ولا يمتنع هذا الفرض من موتهم بأجمعهم فى زمان نبيّ من الأنبياء .

وقد ذكرت فى كتبى المبسوطة فى علم الكلام فى هذا الباب ماليس هذا الشرح موضوعاً لاستقصائه .

---

(١) ج : « وقال رحمه الله » .

(٦٢)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا إِنَّ الدُّنيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا . ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ ، وَأَقَامُوا فِيهِ ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي العُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ .

الشَّـرْحُ :

تقدير الكلام : أنّ الدُّنيا دارٌ لا يُسلَم من عقاب ذنوبها إلا فيها ؛ وهذا حقّ ؛ لأن العِقاب المستحقّ[1] ، إنما يَسقُط بأحد أمرين : إما بثوابٍ على طاعاتٍ تفضُل على ذلك العقاب المستَحقّ ، أو بتوبةٍ كاملة الشروط .

وكلا الأمرين لا يصحّ من المكلّفين إيقاعهُ إلّا في الدنيا ؛ فإنّ الآخرة ليست دارَ تكليف ، ليصحّ من الإنسان فيها عمل الطاعة والتوبة عن المعصية السالفة ؛ فقد ثبت إذاً أن الدنيا دارٌ لا يسلم مِنْها إلا فيها .

إن قيل : بَيِّنُوا أن الآخرةَ ليست بدار تكليف .

قيل : قد بَيَّن الشيوخُ ذلك بوجهين :

أحدُهما : الإجماعُ على المنع مِنْ تجويز استحقاق ثواب أو عقاب في الآخرة .

والثاني : أن الثوابَ يجب أن يكون خالصاً من المشاقّ ؛ والتكليف يستلزم المشقّة ؛ لأنها شرطٌ في صحته ؛ فبطل أن يجوز استحقاق ثواب في الآخرة للمكلّفين المُثابين في الآخرة

(١) ج : « لأن عقاب الذنوب ».

لأجلِ تكاليفهم فى الآخرة ؛ وأما المعاقَبون فلو كانوا مكلَّفين لجاز وقوع التوبة منهم ، وسقوط العقاب بها ؛ وهذا معلومٌ فساده ضرورةً من دين الرسول عليه السلام .

وهاهنا اعتراضان :

أحدُهما : أن يقال: فما قولكم فى قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ ﴾[1] ؛ وهذا أمر وخطاب لأهل الجنة ، والأمر تكليف ؟

والثانى : أنّ الإجماع حاصل على أنّ أهل الجنة يشكرون الله تعالى، والشكر عبادة وذلك يستدعى استحقاق الثواب !

والجواب عن الأول أن قوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ عند شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ليس بأمرٍ على الحقيقة؛ وإن كانت له صورته ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾[2] .

وأما الشيخ أبو هاشم فعنده أن قوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أمر، لكنه زائد فى سرور أهل الجنة؛ إذا علموا أن الله تعالى أرادَ منهم الأكل وأمرَهم به؛ ولكنه ليس بتكليف؛ لأنّ الأمرَ إنما يكون تكليفاً إذا انضمّت إليه المشقة .

وأما الجوابُ عن الثانى ؛ فإنّ الشكر الذى بالقلب رجوعه إلى الاعتقادات ؛ والله تعالى يفعل فى أهل الجنة المعارف كلّها ، فلا وجوب إذاً عليهم ؛ وأما الشكر باللسان فيجوز أن يكون لهم فيه لذة ، فيكون بذلك غير منافٍ للثواب الحاصل لهم .

وبهذا الوجه نجيب عن قول من يقول : أليس زبانية النار يعالجون أهلَ العذاب فى جهنم، أعاذنا الله منها ؟ وهل هذا إلا محض تكليف ! لأنا نقول إنه يجوز أن يكونَ للزبانية فى ذلك لذّة عظيمة ، فلا يثبت التكليف معها ؛ كما لا يكون الإنسان مكلفًا فى الدنيا بما يخلص إليه شهوته ؛ ولا مشقة عليه فيه .

---

(١) سورة الحاقة ٢٤

(٢) سورة الإسراء ٥٠

إن قيل : هذا الجواب ينبىْ على أنّ معارف أهلِ الآخرة ضرورية ؛ لأنكم أجبتم عن مسألة الشكر ، بأنّ الله تعالى يفعل المعارف فى أهل الجنة،فدلّوا على ذلك ؛ بل يجب عليكم أن تدلوا أولًا على أنّ أهلَ الآخرة يعرفون الله تعالى .

قيل : أمّا الدليل على أنّهم يعرفونه تعالى ؛ فإن المثاب لابدّ أن يعلَم وصولَ الثواب إليه على الوجه الذى استحقّه ، ولا يصحّ ذلك إلا مع المعرفة بالله تعالى ، ليعلم أن مافعله به هو الذى لمستحقه ، والقول فى المعاقب كالقول فى المثاب .

وأيضا فإنّ من شرط الثواب مقارنة التعظيم والتبجيل له من فاعل الثواب،لأن تعظيم غير فاعل الثواب لا يؤثّر ، والتعظيم لا يُعلم إلا مع العلم بالقَصْد إلى التعظيم ؛ ويستحيل أن يعلموا قَصْدَه تعالى؛ولا يعلموه ؛ والقول فى العقاب وكون الاستحقاق والإهانة تقارنه تجرى هذا المجرى .

فأمّا بيان أنّ هذه المعرفة ضرورية،فلأنّها لو كانت من فعلهم ؛ لكانت إمّا أن تقع عن نظر يتحرّون فيه،أو يلجئون إليه، أو عن تذكّر نظر ، أو بأن يلجئوا إلى نفس المعرفة من غير تقدم نظر ؛ والأول باطل ، لأنّ ذلك تكليف وفيه مشقّة ، وقد بينا سقوط التكليف فى الآخرة . ولا يجوز أن يلجئوا إلى النظر لأنهم لو ألجئوا إلى النظر لكان ألجأم إلى المعرفة أولى ، وإلجاؤهم إلى المعرفة يمنع من إلجائهم إلى النظر ؛ ولا يجوز وقوعها عند تذكّر النظر ؛ لأنّ المتذكّر للنظر تعرض له الشبَه ، ويلزمه دفعها ؛ وفى ذلك عوْد الأمر إلى التكليف ؛ وليس معاينة الآيات بمانع عن وقوع الشبه ، كما لم تمنع معاينة المعجزات والإعلام عن وقوعها ؛ ولا يجوز أن يكونَ الإلجاء إلى المعرفة ؛ لأنّ الإلجاء إلى أفعال القلوب لا يصحّ إلا من الله تعالى ؛ فيجب أن يكونَ الملجَأ إلى المعرفة عارفاً بهذه القضية ؛ وفى ذلك استغناؤه بتقدم هذه المعرفة على الإلجاء إليها .

إن قيل : إذا قلتم إنّهم مضطرون إلى المعارف ، فهل تقولون إنهم مضطرون إلى الأفعال ؟

قيل : لا ؛ لأنه تعالى قال : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[١] ؛ ولأنّ مَنْ تدبّر ترغيبات القرآن فى الجنّة والثواب ، علم قطعا أنّ أهلَ الجنة غير مضطرين إلى أفعالهم ، كما يضطر المرتعش إلى الرعشة .

إن قيل : فإذا كانوا غير مضطرين ، فلِمَ يمتنعُون من وقوع القبيح منهم ؟

قيل : لأنّ الله تعالى قد خلَق فيهم علما بأنّهم متى حاولوا القبيح منعوا منه ؛ وهذا يمنع من الإقدام على القبيح بطريق الإلجاء .

ويمكن أيضاً أنْ يعلمهم استغناءهم بالحسَن عن القبيح ؛ مع ما فى القبيح من المضرّة ، فيكونون ملجئين إلى ألّا يفعلوا القبيح .

***

فأما قوله عليه السلام : « ولا يُنْجَى بشىء كَانَ لها » فمعناه أنّ أفعال المكلّف التى يفعلها لأغراضه الدنيوية ليست طريقا إلى النجاة فى الآخرة ، كمن ينفق ماله رئاء الناس ؛ وليست طرقُ النجاة إلا بأفعال البرّ التى يقصد فيها وجه الله تعالى لا غير ، وقد أوضح عليه السلام ذلك بقوله : « فما أخذُوه منها لهـا أخرجوا منه ، وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه » .

فمثال الأول من يكتسب الأموال ويدخرها للّذّة ، ومثال الثانى من يكسبها لينفقها فى سبيل الخيرات والمعروف .

ثم قال عليه السلام : « وإنّها عند ذوى العقول كفىء الظلّ ... » إلى آخر الفصل ؛ وإنما قال : « كفىء الظلّ » لأن العرب تضيف الشىء إلى نفسه ، قال تأبّط شرّاً :

إذَا حَاصَ عَيْنَيْهِ كَرَى النوم لم يَزَلْ … لَهُ كَالِئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ[٢]

---

(١) سورة الواقعة ٢٠

(٢) حماسة أبى تمام — بشرح التبريزى ١ : ٩٤ . حاص : خاط ؛ ويروى : « إذا خاط عينيه » . والكرى : النوم الخفيف . والشيحان : الحازم ؛ مثل الشائح والمشيح . والفاتك : الذى يفاجىء غيره بمكروه أو قتل .

ويمكن أن يقال : الظلّ أعمّ من الفيء ، لأنّ الفيء لايكون إلا بعد الزوال ، وكلّ فيء ظلٌّ ، وليس كلّ ظلّ فيئاً ، فلما كان فيهما تغايرٌ معنويٌّ بهذا الاعتبار صحّت الإضافة .

والسابغ : التامّ . وقَلَص ، أى انقبض .

وقوله عليه السلام : « بينا تراه » ، أصل « بينا » « بين » ، فأشبعت الفتحة ، فصارت « بينا » على وزن « فَعْلى » ثم تقول « بينما » فتزيد « ما » ؛ والمعنى واحد ؛ تقول بينا نحن نرقبه أتانا ، أى بين أوقاتِ رقْبتنا إياه أتانا ، والجمل تضاف إليها أسماء الزمان ، كقولك : أتيتك زمنَ الحجاج أمير ؛ ثم حذفت المضاف الذى هو « أوقات » وولى الظرف الذى هو بين الجملة التى أقيمت مقام المضاف إليه ، كقوله ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ[1] ﴾ .

وكان الأصمعىّ يخفض بـ « بينا » إذا صلح فى موضعه « بين » ، وينشد بيت أبى ذؤيب ، بالجرّ :

بَيْنَا تعنقُهِ الكُماة وروغِهِ ... يوماً أتيحَ له جَرِىءٌ سَلْفَعُ[2]

وغيره يرفع ما بعد « بينا » و « بينما » على الابتداء والخبر ، وينشد هذا البيت على الرفع .

وهذا المعنى متداول ، قال الشاعر :

ألا إنّما الدُّنيا كظلِّ غمامةٍ ... أظلّتْ يسيراً ثم خَفّت فولّتِ

وقال آخر :

ظِلُّ الغَمام ، وأحلامُ المنام ، فما ... تدوم يوماً لمخلوقٍ على حالِ

---

(١) سورة يوسف ٨٢ .
(٢) ديوان الهذليين ١ : ١٨ . السلفع : الجرىء الصدر .

(٦٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاتَّقُوا[١] اللّٰهَ عِبَادَ اللّٰهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا ؛ فَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ؛ وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى ، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ .

وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ . وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ ؛ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ . وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ .

فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً ، فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ ؛ نَصَحَ نَفْسَهُ ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ ؛ يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا ، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا ، إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا .

فَيَالَهَا حَسْرَةً عَلَى ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً ، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ ! نَسْأَلُ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ ، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ .

***

---

(١) ا : « واتقوا » .

الشرح :

بادروا آجالكم بأعمالكم ، أى سابقوها وعاجِلوها . البِدار : العجلة ، وابتاعوا الآخرة الباقيةَ بالدنيا الفانية الزائلة .

وقوله : « فقد جُدّ بكم » أى حثِثتم على الرحيل ؛ يقال : جَدّ الرحيل ، وقد جُدّ بفلان ، إذا أزعج وحُثّ على الرحيل .

واستعدّوا للموت ، يمكن أن يكون بمعنى « أعدّوا » ، فقد جاء « استفعل » بمعنى « أفعل » كقولهم : استجاب له ، أى أجابه .

ويمكن أن يكون بمعنى الطّلَب ؛ كما تقول : استطعم ، أى طلب الطعام ، فيكون بالاعتبار الأول ، كأنّه قال : أعدّوا للموت عُدّة ، وبمعنى الاعتبار الثانى كأنه قال : اطلبوا للموت عُدّة .

وأظلّكم : قربُ منكم ، كأنّه ألقى عليهم ظلّه ، وهذا من باب الاستعارة .

والعبَث : اللعب ، أو مالا غرض فيه ، أو مالا غرضَ صحيح فيه .

وقوله : « ولم يترككم سُدًى » ، أى مهمَلين .

وقوله : « أن ينزل به » موضعُه رفع لأنّه بدلٌ من « الموت » ، والغائب المشار إليه هو الموت . ويحدوه الجديدان : يسوقه الليل والنهار ، وقيل : الغائب هنا هو الإنسان يَسُوقه الجديدان إلى الدار التى هى داره الحقيقية ، وهى الآخرة ؛ وهو فى الدنيا غائب على الحقيقة عن داره التى خلق لها ؛ والأول أظهر .

وقوله : « فتزوّدوا فى الدنيا من الدنيا » كلامٌ فصيح ؛ لأنّ الأمر الذى به يتمكّن المكلّف من إحراز نفسه فى الآخرة ؛ إنما هو يكتسبه فى الدنيا منها ، وهو التقوى والإخلاص والإيمان .

والفاء فى قوله : « فاتّقَى عبد ربَّه » لبيان ماهيّة الأمر الذى يحرزُ الإنسان به نفسه

ولتفصيل أقسامه وأنواعه ، كما تقول : فعل اليوم فلان أفعالاً جميلة ؛ فأعطى فلانا، وصفح عن فلان ، وفعل كذا . وقد روى : « اتق عبد ربه » بلا فاء ، بتقدير « هلا » ، ومعناه التحضيض .

وقد روى : «ليسوّفها» بكسر الواو وفتحها ؛ والضمير فى الرواية الأولى يرجع إلى نفسه، وقد تقدم ذكرها قبلُ بكلمات يسيرة . ويجوز أن يعنى به : ليسوّف التوبة ، كأنه جعلها مخاطبة يقول لها : سوف أوقعك ؛ والتسويف أن يقول فى نفسه : سوف أفعل ؛ وأكثر مايستعمل الوعد الذى لا تجاز له . ومن روى بفتح الواو جعله فعل ما لم يسمّ فاعله، وتقديره: ويمنّيه الشيطان التوبة ، أى يجعلها فى أمنيته ليكون مسوّفا إياها ؛ أى يعدّ من المسوّفين المخدوعين .

وقوله : «فيالَها حسرة » ، يجوز أن يكون نادى الحسرة، وفتحة اللام على أصل نداء المدعو ؛ كقولك : يالَلرجال؛ ويكون المعنى :هذا وقتك[1] أيتها الحسرة فاحضرى.ويجوز أن يكون المدعو غير الحسرة ، كأنه قال: ياللرجال لِلحسرةِ! فتكون لامها مكسورة نحو الأصل لأنها المدعو إليه[1]، إلا أنها لما كانت للضمير فتحت، أى أدعوكم أيها الرجال لتقضوا العجب من هذه الحسرة .

* * *

[عظة للحسن البصرىّ]

وهذا الكلام من مواعظ أمير المؤمنين البالغة ؛ ونحوه من كلام الحسن البصرىّ ذكره شيخنا أبو عثمان فى " البيان والتبيين " [2] :

(١ ـ ١) ساقط من ا ، ب ، وأثبته من ج .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٢ ، ١٣٣

ابنَ آدم ؛ بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبِعْ آخرتَك بدنياك فتخسرَهما جميعا، وإذا رأيت النَّاس فى الخير فنافِسْهم فيه ،[1] وإذا رأيتَهم فى الشرّ فلا تغبِطْهم عليه. البقاء[2] ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمّتكم آخر الأمم وأنتم آخرُ أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون[3] المعاينة ! فكأنْ قدْ . هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحاليْها[4] وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق. فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! ألَا إنّه لا أمّةَ بعد أمتكم ، ولا نبيّ بعد نبيّكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقُون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظَرُ بأوّلكم أن يلحق آخركم . مَنْ رأى محمدا صلوات الله وسلامه عليه ، فقد رآه غاديًا رائحًا[5] ، لم يضع لَبِنَةً على لَبِنة ، ولا قَصَبة على قصبة ؛ رُفِع له عَلَم فسما إليه، فالوحىَ الوحىَ، النجاء النجاء ! على ماذا تعرّجون ! [6] ذهب أماثلكم وأنتم ترْذُلون[7] كلّ يوم ، فما تنتظرون[6] !

إن الله بعث محمدًا على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل إليه كتابَه ؛ وكان صَفْوتَه من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعًا ينظرُ إليه أهلُ الأرض، فآتاه فيها قوتًا وبُلْغة، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[8]، فرَكَن أقوامٌ إلى غير عيشته ، وسخطُوا ما رضىَ له ربُّه ، فأبعدهم وأسحقهم .

يا بن آدَم ، طإ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرُك ؛ واعلم أنّك لم تَزَلْ فى هَدْم عمرك منذ سقطت من بطن أمّك ؛ رحم الله امرأ نظر فتفكّر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر

---

(١) البيان : « فنافسهم فيه » .
(٢) البيان : « الثواء » .
(٣) ب : « فلا تنتظرون المعاينة » ، وما أثبته من ج والبيان والتبيين .
(٤) بحاليها ؛ أى حالتى الخير والشر .
(٥) أى فى كسب الضرورى من العيش .
(٦ ـ ٦) البيان . « أتيتم ورب الكعبة ؛ قد أسرع بخياركم ؛ وأنتم كل يوم ترذلون فماذا تنتظرون » .
(٧) ترذلون : تصيرون رذلاء .
(٨) سورة الأحزاب ٢١

فأبصر ، وأبصر فاقصر ؛ فقد أبصر أقوامٌ ولم يقصّروا ، ثم هلكوا فلم يُدرِكوا ماطلبُوا، ولا رجعوا إلى مافارقوا .

يابن آدم، اذكر قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾، عدَل والله عليك مَنْ جعلك حسيبَ نفسك.

خذُوا صفوة الدنيا ، ودعوا كَدَرها ، ودَعُوا مايريبكم إلى مالا يريبكم ؛ ظهر الجفاء وقلّت العلماء ، وعفَت السّنّة ، وشاعت البدعة . لقد صحبتُ أقواماً ما كانت صحبتهم إلاقرّة عين لكلّ مسلم ،وجِلَاء الصدور ؛ ولقد رأيت أقواماً كانوا من حَسناتهم أن تُردّعليهم، أشفقَ منكم من سيئاتكم أن تعذّبوا عليها ، وكانوا مما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرّم عليكم منها .

مالى أسمع حِسيساً ولا أرى أنيساً ! ذهبَ النّاس ، وبقى النّسناس[1] . لو تكاشفتم ماتدافنتم . تهاديتُم الأطباق، ولم تتهادَوْا النصائح . أعدّوا الجواب ؛ فإنكم مسئولون . إنّ المؤمن من لايأخذ دينه عن رأيه ؛ ولكن عن ربّه[2] . ألا إنّ الحقّ قد أجهدَ أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، [وما يصبر عليه إلّا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ،فمَن حمدالدنيا ذمّ الآخرة][3] ، ولا يكره لقاء الله إلا مقيم على مايسخطه . إن الإيمان ليس بالتمنّى ولا بالتشهىّ ، ولكن ماوقَر فى القلوب وصدّقته الأعمال .

وهذا كلام حسن وموعظة بالغة ؛إلا أنّه فى الجزالة والفصاحةدون كلام أمير المؤمنين عليه السلام بطبقات .

* * *

---

(١) النسناس : خلق على صورة الناس .
(٢) البيان : « أخذه من قبل ربه » .
(٣) من كتاب البيان والتبيين .

[من خطب عمر بن عبد العزيز]

ومن خطب عمر بن عبد العزيز :

إن لكلّ سفرٍ زاداً لامحالة ، فتزوّدوا لسفركم من الدّنيا إلى الآخرة ؛ فكونوا كمن عاين ما أعدّ الله تعالى من ثوابه وعقابه ،فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولنّ عليكم الأمر فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوّكم، فإنه والله مابُسِط أمَلُ مَنْ لايَدْرِى لعلّه لايصبح بعد إمسائه، ولايمسي بعدإصباحه ، وربما كانت بين ذلك خَطَفات[1] المنايا . فكم رأينا وأنتم مَنْ كان بالدنيا مغترًّا فأصبح فى حبائل خطوبها ومناياها أسيراً ! وإنماتقرُّ عين من وَثِقَ بالنّجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ أمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما مَنْ لا يبرأ من كَلْمٍ إلاأصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله أنْ أخبِرَكم بما أنهى عنه نفسى ؛ فتخيبَ صفقتى، وتظهر عورتى ،وتبدوَ مسكنتى ،فى يوم يبدُو فيه الغنىّ والفقير؛والموازين منصوبة، والجوارح ناطقة . لقد عنيتم بأمرٍ لو عنيت به النّجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ،وأنكم صائرون إلى أحدهما ![2]

ومن خطب عمر بن عبد العزيز :

أيها الناس : [إنكم][3] لم تخلقوا عبثا ،ولم تتركوا سدًى، وإن لكم معاداً يبين[4] الله لكم فيه الحكم والفصل بينكم ، تخاب وخسر مَنْ خرج من رحمة الله التى وَسِعَتْ كلّ شىء ، وحُرِم الجنّة[5] التى عَرْضها السموات والأرض .

---

(١) العقد : « خطرات »

(٢) العقد لابن عبد ربه ٤ : ٩٢

(٣) من البيان والتبيين والعقد .

(٤) البيان والعقد : « يحكم »

(٥) العقد : « جنة »

واعلموا أنّ الأمان لمن خاف الله ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا [١] بباقٍ . ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيُخَلِّفها [٢] بعدكم الباقون ؛ حتى تردّ إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كلّ يوم تشيّعون غاديا ورائحا إلى الله عزّ وجلّ ، قد قضى نحبَه ، وبلغ أجلَه ، تغيّبونه في صَدْع من الأرض ثم تدَعونه غير ممهّد ولا موسَّد ، قد صرم الأسباب [٣] ، وفارق الأحباب ، وواجَه الحساب ، وصار في التراب ، غنيًّا عمّا ترك ، فقيرا إلى ما قدم [٤] .

***

[من خطب ابن نباتة]

ومن خطب ابن نباتة الجيّدة في ذكر الموت :

أيّها الناس ، ما أسلس قيادَ من كان الموت جريره ، وأبعد سداد من كان هواه أميرَه ! وأسرع فطام من كانت الدنيا ظِئْره ، وأمنع جَنَاب من أضحت التقوى ظهيره ! فاتقوا الله عباد الله حَقّ تقواه ، وراقبوه مراقبة مَن يعلم أنه يراه ، وتأهّبوا لوثَبات المنون ؛ فإنّها كامنة في الحركات والسكون ؛ بينما ترى المرء مسروراً بشبابه ، مغروراً بإعجابه ، مغموراً بسعة اكتسابه ؛ مستوراً عمّا خُلِق له لما يغرَى به ، إذ أسعَرت فيه الأسقام شهابَها ، وكدّرت له الأيام شرابَها ، وحوّمت عليه المنيّة عُقابها ، وأعلقَت فيه ظُفْرها ونابَها ، فسرَتْ فيه أوجاعُه ، وتنكّرت عليه طباعه ، وأظلّ رحيلُه ووداعه ؛ وقلّ عنه منعه ودفاعه ، فأصبح ذا بصرٍ حائر ، وقلب طائر ، ونَفَس غابر ، في قعاب هلاك دائر ؛ قد أيقن بمفارقة أهله ووطنه ، وأذعن بانتزاع رُوحه عن بدنه ؛ حتى إذا تحقّق منه اليأس ، وحلّ به المحذور والبأس ، أومأ إلى خاصّ [٥] عوّاده ، موصياً لهم بأصاغر أولاده ، جَزَعا عليهم من ظفر أعدائه وحسّاده

---

(١) البيان : « وفانيا » .

(٢) العقد والبيان : « وسيخلفها » .

(٣) البيان والعقد : « قد خلع الأسباب » .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١٢٠ ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ٩٥ .

(٥) ب : « حاضر » ، وما أثبته عن ا ، ج .

والنفس بالسّياق بجذب، والموت بالفراق يقرب، والعيون لهول مصرعه تَسْكب؛ والحمامة عليه تعدّد وتندب؛ حتى تجلّى له مَلَكُ الموت من حُجُبه، فقضى فيه قضاء أمر ربّه، ففاقه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وزُوِّد من مالِه كفنا، وحصر فى الأرض بعمله مرتهنا؛ وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قُرْب المكان، مقيما بين قوم كانوا فزالوا، وحوت عليهم الحادثات فحالوا؛ لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مُرّة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرّة، وآلى عليهم الدهر أليّة برّة، ألّا يجعل لهم الدنيا كرّة، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرّة، ولم يُعَدُّوا فى الأحياء مرّة، أسكتهم الذى أنطقهم، وأبادهم الذى خلقهم وسيوجدهم كما خلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم، يوم يُعيد الله العالمين خلقا جديدا، ويجعل الله الظالمين لنار جهنم وقودا: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران ٣٠

(٦٤)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا ، فَيَكُونَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً ، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً ؛ كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيف ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ ؛ وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا ، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ غَيْرُ بَاطِنٍ ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ .

لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ ، وَلا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلا شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ ، وَلا ضِدٍّ مُنَافِرٍ ، وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ ، لَمْ يَحْلُلْ فى الْأَشْيَاءِ فَيُقَالَ : هُوَ فِيهَا كَائِنٌ ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ : هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ .

لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ ، وَلَا تَدْبِيرُ مَاذَرَأَ ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ ، الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ ، الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ .

• • •

الشّـرح :

يَصَمّ ، بفتح الصاد ، لأنّ الماضى « صَمِمْتَ » يا زيد ، والصَّمَم : فساد حاسّة السمع ، ويُصِمّه بكسرها ؛ يحدث الصَّمَم عنده ، وأصممت زيداً .

والنِّدّ : المِثْل والنظير . والمثاور : المواثب . والشريك المكاثر : المفتخر بالكثرة . والضدّ المنافر : المحاكم في الحسب ، نافرت زيدا فنفَرْته ، أي غلبته . ومربوبون : مملوكون وداخرون : ذليلون خاضعون .

ولم يَنْأَ : لم يبعُد . ولم يؤده : لم يتعبه . وذَرَأ : خَلَق . وَوَلَجت عليه الشبهة ، بفتح اللام ، أي دخلت . والمرهوب : المخوف .

فأما قوله : « الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أوّلا قبل أن يكون آخرا » ، فيمكن تفسيرُه على وجهين :

أحدُها : أنّ معنى كونه أولا أنه لم يزَلْ موجودا ، ولا شيء من الأشياء بموجود[1] أصلا ؛ ومعنى كونه آخرا أنه باقٍ لا يزال ، وكلّ شيء من الأشياء يُعدَم عدَماً محْضاً حسب عدمه فيما مضى ، وذاته سبحانه ذاتٌ يجب لها اجتماعُ استحقاق هذين الاعتبارين معا في كلّ حال ، فلا حال قطّ إلا ويصدق على ذاته أنه[2] يجب كونها مستحقّة للأوليّة والآخرية بالاعتبار المذكور استحقاقا ذاتيا ضروريا ، وذلك الاستحقاق ليس على وجه وصف الترتيب ؛ بل مع خلاف غيره من الموجودات الجسمانية ؛ فإنّ غيره مما يبقى زمانَيْن فصاعدا إذا نسبناه إلى ما يبقى دون زمان بقائه لم يكن استحقاقه الأوليّة والأخريّة بالنسبة إليه على هذا الوصف ؛ بل إنّما يكون استحقاقاً بالكليّة ؛ بأن يكون استحقاقا قريبا ، فيكون إنما يصدُق عليه أحدُها ، لأنّ الآخر لم يصدق عليه ؛ أو يكونا معاً يصدقان عليه مجتمعين غير مرتّبين ؛ لكن ليس ذلك لذات الموصوف بالأوليّة والآخرية ، بل إنما ذلك الاستحقاق لأمرٍ خارج عن ذاته .

الوجه الثانى : أن يريدَ بهذا الكلام أنّه تعالى لا يجوز أن يكون موردا للصفات المتعاقبة ؛ على مايذهب إليه قوم من أهل التوحيد ؛ قالوا : لأنّه واجبٌ لذاته ، والواجب لذاته

(١) ا ، ب : « موجود » . (٢) ساقطة من ب .

واجب من جميع جهاته ؛ إذ لو فرضنا جواز اتصافه بأمر جديد ثبوتى أو سلبى لقلنا : إن ذاته لاتكفى فى تحققه ، ولو قلنا ذلك لقلنا إن حصول ذلك الأمر ، أو سلبه عنه ، يتوقف على حصول أمر خارج عن ذاته ؛ أو على عدم أمر خارج عن ذاته؛ فتكون ذاته لامحالة متوقفة على حضور ذلك الحصول أو السلب ، والمتوقف على المتوقف على الغير متوقف على الغير ، وكل متوقف على الغير ممكن ، والواجب لايكون ممكنا . فيكون معنى الكلام على هذا التفسير نفى كونه تعالى ذا صفة ، بكونه أولا وآخرا ، بل إنما المرجع بذلك إلى إضافات لاوجود لها فى الأعيان ، ولا يكون ذلك من أحوال ذاته الراجعة إليها كالعالمية ونحوها، لأن تلك أحوال ثابتة ،ونحن إنما ننفى عنه بهذه الحجة[1] الأحوال المتعاقبة .

وأما قوله : « أو يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا » ، فإن للباطن والظاهر تفسيرا على وجهين :

أحدهما : أنه ظاهر بمعنى أن أدلة وجوده وأعلام ثبوته وإلهيته جلية واضحة ،ومعنى كونه باطنا أنه غير مدرك بالحواس الظاهرة ، بل بقوة أخرى باطنة ؛ وهى القوة العقلية .

وثانيهما : أنا نعنى بالظاهر الغالب ؛ يقال : ظهر فلان على بنى[2] فلان ، أى غلبهم ، ومعنى الباطن العالم ، يقال : بطنت سر فلان ، أى علمته ، والقول فى نفيه عنه سبحانه أن يكون ظاهرا قبل كونه باطنا ، كالقول فيما تقدم من نفيه عنه سبحانه كونه أولا قبل كونه آخرا .

وأما قوله: « كل مسمى بالوحدة غيره قليل »، فلأن الواحد أقل العدد ، ومعنى كونه واحداً يباين ذلك ، لأن معنى كونه واحدا إما نفى الثانى فى الإلهية ، أو كونه يستحيل عليها الانقسام ، وعلى كلا التفسيرين يسلب عنها مفهوم القلة .

هذا إذا فسرنا كلامه على التفسير الحقيقى ، وإن فسرناه على قاعدة البلاغة وصناعة

---

(١) ب : « بجهد » ، تحريف .
(٢) ج : « أبناء » .

الخطابة ، كان ظاهرا ، لأن الناس يستحقرون القليل لقلّته ، ويستعظمون الكثير لكثرته، قال الشاعر .

تجمّعتمُ مِن كلّ أوبٍ ووجهةٍ ... عَلَى واحدٍ لازلتمُ قِرْنَ واحدِ

وأما قوله: « وكلُّ عزيز غيره ذليل » فهو حقّ ، لأن غيره من الملوك وإن كان عزيزا فهو ذليل فى قبضة القضاء والقدر ، وهذا هو تفسير قوله : « وكلّ قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك » .

وأما قوله : « وكلّ عالم غيره متعلم » فهو حقّ ، لأنه سبحانه مفيضُ العلوم على النفوس، فهو المعلّم الأوّل ، جلّت قدرته .

وأما قوله: « وكلُّ قادرٍ غيره يقدر ويعجز » فهو حقّ ، لأنه تعالى قادر لذاته ، ويستحيل عليه العجز ، وغيره قادر لأمر خارج عن ذاته ، إما لقدرة، كما قاله قوم ، أو لبنية وتركيب كما قاله قوم آخرون ، والعجز على مَنْ عداه غير ممتنع ، وعليه مستحيل .

وأما قوله عليه السلام : « وكلُّ سميع غيره يَصَمّ عن لطيف الأصوات ، ويصمّه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها » فحقّ ، لأن كلّ ذى سمع من الأجسام يضعُف سمعه عن إدراك خَفِىّ الأصوات، ويتأثر من شديدها وقويها، لأنّه يسمع[1] بآلة جسمانية ، والآلة الجسمانية ذات قوة متناهية واقفة عند حدّ محدود ، والبارى تعالى بخلاف ذلك .

• • •

واعلم أنّ أصحابنا اختلفوا فى كونه تعالى مدرِكاً للمسموعات والمبصرات ، فقال شيخنا أبو على وأبو هاشم وأصحابهما: إنّ كونه مدركا صفة زائدة على كونه عالما ، وقالا: إنّا نصف البارى تعالى ــ فيا لم يزل ــ بأنّه سميع بصير ، ولا نِصفُه بأنه سامع مبصر ، ومعنى كونه سامعاً مبصراً أنّه مدرِك للمسموعات والمبصرات .

(١) ب : « لا يسمع » ، تحريف .

وقال شيخنا أبو القاسم وأبو الحسين وأصحابهما: إنّ معنى كونه تعالى مُدْرِكاً، هو أنه عالم بالمدرَكات؛ ولا صفة له زائدة على صفته بكونه عالما؛ وهذا البحث مشروح فى كتبى الكلامية لتقرير الطريقين وفى "شرح الغرر[1]" وغيرهما.

والقول فى شرح قوله: « وكلّ بصير غيره يعمى عن خفىّ الألوان، ولطيف الأجسام»، كالقول فيما تقدّم فى إدراك السّمع.

وأما قوله: « وكلُّ ظاهرٍ غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر » فحقّ، لأن كلّ ظاهر غيره على التفسير الأول فليس بباطن كالشمس والقمر وغيرهما من الألوان الظاهرة، فإنّها ليست إنّما تدرَك بالقوة العقليّة؛ بل بالحواسّ الظاهرة، وأمّا هو سبحانه فإنّه أظهرُ وجوداً من الشمس، لكنّ ذلك الظهور لم يمكن إدراكه بالقُوى الحاسة الظاهرة، بل بأمرٍ آخر، إمّا خفىٌّ فى باطن هذا الجسد، أو مفارق ليس فى الجسد ولا فى جهة أخرى غير جهة الجسد.

وأما على التفسير الثانى؛ فلأنّ كلّ مَلِكٍ ظاهر على رعيّته أو على خصومه وقاهر لهم، ليس بعالم ببواطنهم، وليس مطّلعا على سرائرهم، والبارئ تعالى بخلاف ذلك؛ وإذا فهمتَ شرح القضيّة الأولى، فهمت شرح الثانية، وهى قوله: « وكلّ باطن غيره غير ظاهر ».

* * *

[اختلاف الأقوال فى خلق العالم]

فأما قوله: « لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانه» إلى قوله: « عباد داخرون »، فاعلم أنّ

---

(١) هو شرح مشكلات الغرر لأبى الحسين البصرى.

الناس اختلفوا فى كيفية خلقه تعالى للعالم ماهى ؟ على أقوال :

القول الأول : قول الفلاسفة :

قال محمد بن زكريا الرازىّ عن[1] أرسطاطاليس : إنّه زعم أن العالم كان عن البارئ تعالى ، لأنّ جوهرَه وذاته جوهر وذات مسخرة للمعدوم أن يكون مسخرا موجودا .

قال : وزعم ابن قيس أنّ علة وجود العالم وجود البارئ .

قال : وعلى كلاَ القولين يكون العالم قديما ؛ أما على قول أرسطو فلأنّ جوهر ذات البارئ لما كان قديما لم يزَل،وجب أن يكون أثرها ومعلولها قديما.وأمّا على قول ابن قيس فلأنّ البارئ موجود لم يزل ؛ لأن وجوده من لوازم ذاته،فوجب أن يكون فيضُه وأثرُه أيضا لم يزل هكذا .

قال ابن زكريا: فأمّا الذى يقول أصحاب أرسطاطاليس الآن فى زماننا ، فهوأنّ العالم لم يجب عن الله سبحانه عن قصد ولا غرض ، لأنّ كلّ مَنْ فعل فعلا لغرض كان حصول ذلك الغرض له أولى من لا حصوله ، فيكون كاملا لحصول ذلك الغرض ، وواجب الوجود لا يجوز أن يكون كاملاً بأمر خارج عن ذاته ، لأنّ الكامل لامن ذاته ناقص من ذاته .

قالوا : لكن تمثُّل نظام العالم فى علم واجب الوجود ، يقتضى فيضَ ذلك النظام منه ، قالوا : وهذا معنى قول الحكماء الأوائل : إنّ علمه تعالى فعلىّ لا انفعالى ؛ وإن العلم على قسمين :

أحدهما : مايكون المعلوم سبباً له ، والثانى مايكون هو سبب المعلوم ؛ مثالُ الأول أنْ نشاهد صورة فنعلمها ، ومثال الثانى أن يتصوّر الصائغ أو النجار أو البنّاء كيفيّة العمل فيوقعه فى الخارج على حسب ماتصوّره .

(١) ب : « على » .

قالوا : وعلمه تعالى من القسم الثانى ، وهذا هو المعنى المعبّر عنه بالعناية، وهو إحاطة علم الأول الحقّ سبحانه بالكلّ وبالواجب أن يكون عليه الكلّ ، حتى يكون على أحسن النظام ، وبأنّ ذلك واجب عن إحاطته فيكون الموجود وِفق المعلوم من غير انبعاث قصد وطلب عن الأول الحقّ سبحانه ، فعلمُه تعالى بكيفية الصواب فى ترتيب الكلّ هو المنبع لفيضان الوجود فى الكل .

القول الثانى : قولٌ حكاه أبو القاسم البلخىّ عن قدماء الفلاسفة ، وإليه كان يذهب محمد بن زكريا الرازى من المتأخرين .

وهو أنّ علة خلق البارئ للعالم تنبيه النفس على أنّ ماتراه من الهيولَى وتريده غير ممكنٌ لترفُضَ محبّتها إياها وعشقها لها ، وتعود إلى عالمها الأول غير مشتاقة إلى هذا العالم .

واعلم أن هذا القول هو القول المحكىّ عن الحرنانية(١) أصحاب القدماء الخمسة ، وحقيقة مذهبهم إثبات قدماء خمسة : اثنان منهم حيّان فاعلان ؛ وهما البارئ تعالى والنفس ، ومرادهم بالنّفس ذات هى مبدأ لسائر النفوس التى فى العالم كالأرواح البشرية ، والقوى النباتية والنفوس الفلكيّة ، ويسمّون هذه الذات النفسَ الكليّة . وواحد من الخمسة منفعل غير حىّ ؛ وهو الهيولَى ، واثنان لا حيّان ولا فاعلان ولا منفعلان ، وهما الدّهر والفضاء . قالوا : والبارئ تعالى هو مبدأ العلوم والمنفَعلات ، وهو قائم العلم والحكمة، كما أنّ النفس مبد الأرواح والنفوس؛ فالعلوم والمنفَعلات تفيض من البارئ سبحانه فيضَ النور عن قرص الشمس، والنفوس والأرواح تفيض عن النفس الكليّة فيضَ النور عن القرص ، إلا أنّ النفوس جاهلة لا تعرف الأشياء إلا على أحد(٢) وجهين : إمّا أن يفيض فيض البارئ تعالى عليها تعقّلاً وإدراكاً ، وإما أن تمارس غيرها وتمازجَه ، فتعرف ماتعرف باعتبار الممارسة والمخالطة معرفة ناقصة ، وكان البارئ تعالى فى الأزل عالما بأنّ النفس تميل إلى التعلّق بالهيولى

(١) الحرنانية : جماعة من الصابئة قالوا : إن الصانع المعبود واحد وكثير . . . وانظر الملل والنحل للشهرستانى ٢ : ٥٨ .
(٢) ساقطة من ب .

وتعشقها ، وتطلب اللذة الجسمانية ، وتكره مفارقة الأجسام ، وتنسى نفسها ، ولما كان الباريْ سبحانه قائمَ العلم والحكمة ، اقتضت حكمتُه تركّب الهيولى لما تعلّقت النفس بها ضروبا مختلفة من التراكيب ، فجعل منها أفلاكاً وعناصر وحيوانات ونباتات ، فأفاضَ على النفوس تعقّلا وشعوراً جعله سبباً لتذكُّرِها عالمها الأول ، ومعرفتها أنّها مادامت في هذا العالم مخالطة للهيولى لم تنفكّ عن الآلام ، فيصير ذلك مقتضيا شوقها إلى عالمها الأوّل الذى لما فيه اللذات الخالية عن الآلام ، ورفضها هذا العالم الذى هو سبب أذاها ومضرّتها .

* * *

القول الثالث : قول المجوس : إنّ الغرَضَ من خلق العالم أن يتحصّن الخالق جلّ اسمُه من العدوّ ، وأنْ يجعلَ العالم شبكةً له ليوقع العدوّ فيه ، ويجعله فى ربْطٍ ووِثاق ، والعدوّ عندهم هو الشيطان ، وبعضُهم يعتقِد قِدَمَه ، وبعضُهم حدوثه .

قال قوم منهم : إن الباريْ تعالى استوحش ، ففكّر فكرةً رديئة ، فتولّد منها الشيطان .

وقال آخرون : بل شكّ شكاً رديئاً ، فتولّد الشيطان من شكّه .

وقال آخرون : بل تولّد من عفونة رديئة قديمة ، وزعموا أنّ الشيطان حارب الباريْ سبحانه ، وكان فى الظلم لم يزل بمعزل عن سلطان الباريْ سبحانه ، فلم يزل يزحفُ حتى رأى النور ، فوثب وثبةً عظيمة ، فصار فى سلطان الله تعالى فى النور ، وأدخل معه الآفات والبلايا والسرور ، فبنى الله سبحانه هذه الأفلاك والأرض والعناصر شبكةً له ، وهو فيها محبوس ، لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه الأوّل ، وصار فى[1] الظُّلمة ، فهو أبداً يضطرب ويرمى الآفات على خلق الله سبحانه ، فمن أحياه الله رماه الشيطان بالموت ، ومن أصحّه رماه الشيطان بالسّقم ، ومن سرّه رماه بالحزن والكآبة ، فلا يزال كذلك ، وكلّ يوم ينتقص[2] سلطانه وقوّته ، لأن الله تعالى يحتالُ له كلّ يوم ، ويضعفه إلى أن تذهب قوّته كلها ،

(١) ج : « والظلمة » . (٢) ج : « ينقص » .

وتجمد وتصير جماداً لا حراك به ؛ فيضمه الله تعالى حينئذ فى الجوّ ، والجوّ عندهم هو الظلمة ؛ ولا منتهى له ؛ فيصير فى الجوّ جماداً جامداً هوائيًّا ، ويجمع الله تعالى أهلَ الأديان فيعذِّبهم بقدر مايطهّرهم ، ويصفّيهم من طاعة الشيطان ، ويغسلهم من الأدناس ، ثم يدخلهم الجنّة ؛ وهى جنة لا أكلَ فيها ولا شرب ولا تمتع ، ولكنها موضع لذة وسرور .

* * *

القول الرابع : قول المانوية :

وهو أن النّور لا نهاية له من جِهَة فوق ، وأمّا من جهة تحت فله نهاية ، والظلمة لانهاية لها من جهة أسفل ، وأما مِنْ جهة فوق فلها نهاية ، وكان النور والظلمة هكذا قبل خلْق العالم وبينهما فُرْجة ، وأنّ بعضَ أجزاء النور اقتحم تلك الفُرْجة لينظر إلى الظلمة ، فأسرَته[1] الظلمة ، فأقبل عالم كثير من النور ، فحارب الظلَمة ليستخلص المأسورين من تلك الأجزاء ، وطالت الحرب ، واختلط كثير من أجزاء النور بكثير من أجزاء الظلمة ، فاقتضت حكمةُ نور الأنوار – وهو البارى سبحانه عندهم – أن عمِل الأرضَ من لحوم القتلى ، والجبال من عظامهم ، والبحار من صديدهم ودمائهم ، والسماء من جُلودهم ، وخلق الشمس والقمر وسيّرهما ؛ لاستقصاء مافى هذا العالم من أجزاء النور المختلطة بأجزاء الظلمة ، وجعل حول هذا العالم خندقاً خارج الفَلَك الأعلى ، يطرح فيه الظلام المستقصَى ، فهو لايزال يزيد ويتضاعف ويكثر فى هذا الخندق ، وهو ظلام صِرْف قد استقصى نورَه . وأما النور المستخلص فيلحق بعد الاستقصاء بعالم الأنوار من فوق ، فلا تزال الأفلاكُ متحركة ، والعالم مستمراً إلى أن يتمّ استقصاء النور الممتزج ؛ وحينئذ يبقى من النور الممتزج شىء يسير ، فينعقد بالظلمة ؛ لا تقدر النيران على استقصائه ، فعند ذلك تسقط الأجسام العالية – وهى الأفلاك – على الأجسام السافلة – وهى الأرضون – وتثور نار ، وتضطرم فى تلك الأسافل

---

(١) : ج « فأشرقت » تصحيف .

وهى المسّماة بجهنّم ، ويكون الاضطرام مقدار ألف وأربعمائة سنة ، فتحلّل بتلك النار تلك الأجزاء المنعقدة من النور ، الممتزجة بأجزاء الظلمة التى عجز الشمس والقمر عن استقصائها ، فيرتفع إلى عالم الأنوار ، ويبطل العـالم حينئذ ؛ ويعود النور كلّه إلى حاله الأولى قبل الامتزاج ؛ فكذلك الظلمة .

***

القول الخامس : قول متكلّمى الإسلام .

وهو على وجوه :

أوّلها قول جمهور أصحـابنا : إن الله تعالى إنما خلَق العالم للإحسان إليهم والإنعام على الحيوان ؛ لأن خلقه حيًّا نعمة عليه ، لأنّ حقيقة النعمة موجودة فيه ، وذلك أنّ النعمة هى المنفعة المفعولة للإحسان ، ووجود الجسم حيًّا منفعة مفعولة للإحسان؛ أما بيانُ كون ذلك منفعة ؛ فلأنّ المنفعةَ هى اللذة والسرور ودفع المضارّ المخوِّفة ؛ وما أدّى إلى ذلك وصحّحه ، ألا ترى أنّ مَنْ أشرَفَ على أن يهوِيَ من جبل ؛ فمنعه بعضُ الناس من ذلك ؛ فإنه يكون منعماً عليه ، ومَنْ سَرّ غيره بأمر ، وأوصل إليه لذة ، يكون قد أنعم عليه ، ومَنْ دفع إلى غيره مالًا يكونُ قد أنعم عليه ، لأنه قد مكّنه بدفعه إليه من الانتفاع ، وصحّحه له . ولا ريب أنّ وجودَنا أحياء يصحّحُ لنا اللذات ، ويمكّننا منها ، لأنّا لو لم نـكن أحياء لم يصحّ ذلك فينا . قالوا : وإنما قُلنا إنّ هذه المنفعة مفعولة للإحسان ، لأنّها إما أن تـكون مفعولة لا لغرض أو لغرض ، والأوّل باطل ، لأن ما يُفعل لا لغرض عبثٌ ، والبارئ سبحانه لا يصحّ أن تـكون أفعاله عبثاً ، لأنه حكيم .

وأما الثانى ؛ فإمّا أن يكون ذلك الغرض عائداً عليه سبحانه بنفع أو دفع ضرر ، أو يعود على غيره . والأوّل باطل ؛ لأنه غنى لذاته ؛ يستحيل عليه المنافع والمضارّ ؛ ولا يجوز أن يفعله لمضرّة يوصّلها إلى غيره ؛ لأنّ القصدَ إلى الإضرار بالحيوان من غير استحقاق ولا منفعة يوصَل إليها بالمضرّة قبيح ، تعالى الله عنه ! فثبت أنّه سبحانه إنما خلق الحيوانَ

لنفسه ، وأما غيرُ الحيوان فلو لم يفعله لينفعَ به الحيوان ، لكان خَلْقه عبثا ، والباريْ تعالى لا يجوز عليه العبث ؛ فإذاً جميعُ ما فى العالم إنما خلقه لينفعَ به الحيوان .

فهذا هو الكلامُ فى علة خَلْق العالم عندهم ؛ وأما الكلام فى وجه حُسْن تكليف الإنسان ؛ فذاك مقام آخر لسنا الآن فى بيانه ولا الحاجة داعية إليه .

وثانيها : قول قوم من أصحابنا البغداديين : إنه خلَق الخلْق ؛ ليُظهرَ به لأرباب العقول صفاتِه الحميدة ، وقدرتَه على كلّ ممكن ، وعلمَه بكلّ معلوم ؛ وما يستحقّه من الثناء والحمد. قالوا : وقد ورد الخبر أنه تعالى قال : « كنتُ كنزا لا أعرَف ، فأحببت أن أعرَف » ؛ وهذا القول ليس بعيدا .

وثالثها: للمجبِرة :إنه خلق الخلْق لا لغرض أصلا ؛ ولا يقال(١) :لم كان كلّ شىء لعلة، ولا علة لفعله ؛ ومذهب الأشعرىّ وأصحابه أن إرادته القديمة تعلّقت بإيجاد العالم فى الحال التى وجد فيها لذاتها ؛ ولا لغرض ولا لداع ؛ وما كان يجوز ألا يوجد العالم حيث وُجد، لأن الإرادة القديمة ، لايجوز أنْ تتقلّب وتتغير حقيقتها ؛ وكذلك القول عندهم فى أجزاء العالم المجدّدة من الحركات والسكنات ، والأجسام وسائر الأعراض .

ورابعها : قولٍ بعضِ المتكلّمين : إنّ الباريْ تعالى إنما فعل العالم لأنه ملتذٌّ بأنْ يفعل ، وأجاز أربابُ هذا القول عليه اللّذة والسرور والابتهاج . قالوا : والباريْ — سبحانه — وإن كان قبل أن يخلق العالم ملتذًّا بكونه قادرا على خَلْق العالم — إلّا أن لذة الفعل أقوى من لذة القدرة على الفعل ؛ كأن يلتذّ بأنه قادر على أن يكتُبَ خطا مستحسنا ، أو يبنيَ بيتا محكما ، فإنه إذا أخرج تلك الصناعةَ من القوّة إلى الفعل ، كانت لذته أتمّ وأعظم . قالوا : ولم يثبت بالدليل العقلىّ استحالة اللّذة عليه ؛ وقد ورد فى الآثار النبوية أنّ الله تعالى يُسَرّ ؛ واتفقت الفلاسفة على أنه ملتذّ بذاته وكماله .

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا : « قالوا » .

وعندى فى هذا القولِ نظر ؛ ولى فى اللذة والألم رسالة مفردة ؛ وأما قوله : «لم يحلُل فى الأشياء، فيقال : لا هو فيها كائن ولا منها مباين »، فينبغى أن يحمَل على أنّه أراد أنه لم ينأ عن الأشياء نأياً مكانيا فيقال : هو بائن بالمكان ، هكذا ينبغى أن يكون مراده ؛ لأنّه لا يجوز إطلاقُ القول بأنّه ليس ببائن عن الأشياء ؛ وكيف والمجرّد بالضرورة بائن عن ذى الوضع ؛ ولكنها بينونة بالذات لا بالجهة ، والمسلمون كلُّهم متفقون على أنّه تعالى يستحيلُ أن يحلّ فى شىء إلا مَن اعتزَى إلى الإسلام من الحلوليّة ، كالذين قالوا بحلوله فى علىّ وولده ، وكالذين قالوا بحلُوله فى أشخاص يعتقدون فيها إظهاره كالحلّاجيّة وغيرهم ؛ والدليلُ على استحالةِ حلُوله سبحانه فى الأجسام ؛ أنّه لو صح أن يحُلّ فيها لم يعقل منفردا بنفسه أبدا ؛ كما أنّ السواد لا يعقل كونه غير حالٍّ فى الجسم ؛ لأنه لو يعقل غير حالّ فى الجسم لم يكن سواداً ، ولا يجوز أن يكون الله تعالى حالًّا أبدا ؛ ولا أن يلاقِىَ الجسم ؛ إذ ذلك يستلزم قدمَ الأجسام ؛ وقد ثبت أنها حادثة .

* * *

فأمّا قولُه : « لم يؤدْهُ خَلْق ما ابتدأ » إلى قوله : « عمّا خَلَق » فهو حقّ ، لأنه تعالى قادر لِذاته ، والقادر لذاته لا يتعب ولا يعجَز ؛ لأنه ليس بجسم ؛ ولا قادر بقدرة يقف مقدورها عند حَدّ وغاية ؛ بل إنما يقدر على شىء لأنه تعالى ذات مخصوصة ، يجب لها أن تقدر على الممكنات ؛ فيكون كلّ ممكن داخلا تحت هذه القضيّة الكلية ؛ والذات التى تكون هكذا لا تعجَز ولا تقف مقدوراتها عند حَدٍّ وغاية أصلا ؛ ويستحيل عليها التعب ، لأنها ليستْ ذات أعضاء وأجزاء .

وأما قوله : « ولا وَلَجتْ عليه شُبْهة » إلى قوله : « وأمر مُبْرَم » فحقّ ؛ لأنه تعالى عالم لذاته ؛ أى إنما عَلِم ما علمه لا بمعنى أن يتعلّق بمعلوم دون معلوم ؛ بل إنما علم أىّ شىء أشرت إليه ، لأنه ذات مخصوصة ؛ ونسبة تلك الذات إلى غير ذلك الشىء المشار إليه ،

كنسبتها إلى المشار إليه ، فكانت عالمة بكلّ معلوم ؛ واستحال دخول الشبهة عليها فيما يقضيه ويقدّره .

وأما قوله : «المأمول مع النّقم،المرهوب مع النعم» ؛فمعنى لطيف،وإليه وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٣) ، وقوله سبحانه : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤) وإليه نظر الشاعر في قوله :

مَنْ عَاشَ لَاقَى مَا يَسُو ءُ مِنَ الأُمورِ وَمَا يَسُرّ
وَلربَّ حتفٍ فوقَه ذَهبٌ وياقوتٌ ودُرّ

وقال البحتري :

يَسُرُّكَ الشَّيءُ قَدْ يَسُوءُ وَكَمْ نَوَّهَ يَوْمًا بِخَامِلٍ لَقَبُهْ
لَا يَيْئَسِ المرءُ أن ينجِّيَهُ مَا يَحْسِبُ النّاسُ أنه عطبُهْ

وقال آخر :

رُبَّ غَمٍّ يَدِبُّ تَحْتَ سُرُورٍ وَسُرُورٍ يَأْتِي مِنَ الْمَحْذُورِ

وقال سعيد بن حُميد :

كم نعمةٍ مطويّةٍ لَكَ بَيْنَ أثناءِ النوائبْ (٥)

---

(١) سورة الأعراف ٧٩ .
(٢) سورة الأعراف ١٨٢ .
(٣) سورة الشرح ٦٥ .
(٤) سورة النساء ١٩ .
(٥) شرح المختار من شعر بشار ص ٣١٤ ، من غير نسبة .

وَمَسرةٍ قَدْ أقبلَتْ مِنْ حَيثُ تُنتظرُ المصائبْ

وقال آخر :

أنتظِرُ الرَّوحَ وأسبابَهُ أيئسَ ما كنتُ من الرَّوحِ

وقال آخر :

رُبَّمَا تَجزَعُ النُّفوسُ مِنَ الأمـــرِ لَهُ فَرْجَـــةٌ كحلِّ العِقَالِ (١)

وقال آخر :

العسْرُ أكرِمُه ليسرٍ بعـــدَهُ ولأجلِ عَيْنٍ ألفُ عَيْنٍ تُـكْرَمُ

والمرء يكرهُ يومَهُ ولعـــلَّه يأتيه فيـــهِ سَعَادَةٌ لا تُعْلَمُ

وقال الحلّاج :

وَلَرُبَّمـــا هَاجَ الـكبـيرَ من الأمور لك الصغيرُ

ولرُبَّ أمرٍ قـــد تضيـ ـقُ به الصُّدور ولا يصيرُ

وقال آخر :

ياراقِدَ الليـــل مسروراً بأوّله إنّ الحوادث قَدْ يَطْرُقْنَ أسحارَا

وقال آخر :

كم مرَّةٍ حُفَّت بك المكارِهْ خارَ لَكَ اللهُ وَأنتَ كارِهْ

ومن شعري الذي أناجي به الباريْ سبحانه في خلَواتي ، وهو فنّ أطويه وأكتمه عن النـاس ؛ وإنمـا ذكرتُ بعضَه في هـذا الموضع ، لأنّ المعنى ساق إليـه ، والحديث ذو شجون :

يَامَنْ جَفَانِي فَوَجْدِي بَعْدَهُ عَدَمُ هَبْنِي أسأتُ فَأيْنَ العَفْوُ وَالـكَرَمُ !

---

(١) لأمية بن أبي الصلت ، اللسان ٣ : ١٦٦ .

أنا المرابطُ دونَ الناس فاجفُ وَصِلْ … واقبَلْ وَعاقِبْ وحاسِبْ لَسْتُ أنهزمُ

إنّ المحبَّ إذا صحّتْ محبّتُهُ … فما لوقعِ المواضِي عِنْدَهُ ألمُ

وَحَقِّ فضلِكَ ما استنبأتُ مِنْ نِعَمٍ … تسري إلىّ وإنْ حلّتْ بِيَ النِّقَمُ

ولا أمِنتُ نكالًا منك أرهَبُهُ … وإنْ ترادفَتِ الآلاءُ والنِّعَمُ

حاشاكَ تُعرِضُ عمّنْ في حشاشتِهِ … نارٌ لحبِّكَ طُولَ الدهرِ تضطرمُ

ألم تقل إنّ مَنْ يدنو إلىّ قَدْرَ الذْ … راعِ أدنو له باعًا وأبتسمُ[1]

والله والله لو عاقبتَني حُقُبًا … بالنّارِ تأكلُني حطمًا وتلتهمُ

ما حُلْتُ عن حبِّكَ الباقي فليس على … حالٍ بمنصرمٍ، والدهرُ منصرمُ

(١) كذا ورد البيت مضطرب الوزن في الأصول.

(٦٥)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين:

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ ! اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ . وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا . وَالْحَظُوا الْخَزْرَ ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا ، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ . فَعَاوِدُوا الْكَرَّ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ . وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً ، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ ، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً ، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً .

فَصَمْداً صَمْداً ! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ؛ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ .

الشرح :

قوله : « استَشْعِروا الخشية » ، أى اجعلوا الخوفَ من الله تعالى من شعاركم ؛ والشِّعار من الثياب : مايكون دون الدِّثار ، وهو يلِي الجلد ؛ وهو ألصق ثياب الجسد ؛ وهذه استعارة حَسَنة ، والمراد بذلك أمرُهم بملازمة الخشية والتقوى ، كما أنّ الجلد يلازم الشِّعار.

قوله : « وتجَلْبَبُوا السكينة » أى اجعلوا السَّكِينة والحلم والوقار جِلْبابا لكم، والجلباب الثوب المشتمِل على البدن .

قوله : « وعضُّوا على النواجذ » جمع ناجذ ، وهو أقصى الأضراس ، وللإنسان أربعة نواجذ فى كلّ شقّ ، والنواجذ بعد الأرحاء ، ويسمّى النّاجِذ ضِرْس الحلم، لأنّه ينبت بعد البلوغ و كمال العقل ، ويقال : إن العاضّ على نواجذه ينبُو السيف عن هامته نبوًّا ما، وهذا مما يساعد التعليلُ الطبيعى عليه ، وذلك أنه إذا عضّ على نواجذه تصلّبت الأعصاب والعَضَلات المتصلة بدماغه ، وزال عنها الاسترخاء ، فكانت على مقاومة السيف أقْدَر ، وكان تأثيرُ السيفِ فيها أقلّ .

وقوله : « فإنّه أنْبَى » ، الضمير راجع إلى المصدر الذى دلّ الفعل عليه ، تقديره: فإنّ العَضّ أنبَى؛ كقولهم : مَنْ فعل خيرا كان له خيرا ، أى كان فعله خيرا ، وأنبَى « أفعل » ، من نبا السيفُ ، إذا لم يقطع .

قال الراوندىّ : هذا كلام ليس على حقيقته ، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرِّعْدة عليه، إلى أن قال: ذلك أشدّ إبعاداً لسيف العدوّ عن هامتكم.

قوله : « وأكْمِلوا اللأْمة » ، اللأمة ، بالهمزة : الدِّرع، والهمزة ساكنة على « فَعْلة » ، مثل ألتأمة للصوت ، وإكمالها أن يزاد عليها البَيْضة والسواعد ونحوها ؛ ويجوز أن يعبّر باللّأمة عن جميع أداة الحرب ، كالدِّرع والرمح والسيف ، يريد : أكملوا السلاحَ الذى تحاربون العدوّ به .

قوله : « وقلقلوا السيوف فى أغمادها قبل سَلّها »، يوم الحرب ؛ لئلّا يدومَ مكثها فى الأجفان فتلحج[١] فيها فيستصعب[٢] سلّها وقت الحاجة إليها .

وقوله : « والحظُوا الخزْر » ، الخزْر أن ينظرُ الإنسان بعينه ، وكأنه ينظر بمؤخِرها وهى أمارة الغضب ، والذى أعرفه « الخزَر » بالتحريك ، قال الشاعر :

---

(١) لحج السيف لحجا : نشب فى الغمد ولم يخرج .

(٢) ج : « فيسهل » .

إذا تَحَازَرْتُ وَمَا بِى مِنْ خَزَرْ ثُمَّ كسرتُ العَيْنَ وما بِى مِنْ عَوَرْ
أَلْفَيْتَنِى أَلْوَى بعيد المستمرّ أَحْمِلُ ماحُمِّلْتُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرّْ

فإن كان قد جاء مسكّناً فتسكينه جائز للسجعة الثانية ، وهى قوله . «واطعنوا الشَّزْر» .
والطعن شَزْراً ، هو الطَّعْن عن اليمين والشمال ، ولا يسمّى الطعن تجاه الإنسان شَزْرا . وأكثر ماتستعمل لفظة « الشَّزْر » فى الطعن ، لما كان عن اليمين خاصة ، وكذلك إدارة الرحا . وخَزْرا وشزرا ، صفتان لمصدرين محذوفين ،تقديره :الحظوا لحظا خزْرا ،واطعُنوا طَعْناً شزراً ، وعينُ « اطعُنوا » مضمومة ، يقال : طعنت بالرمح أطعُن ، بالضم ،وطعنت فى نسبه أطعَن ، بالفتح ، أى قدحت ، قال :

يَطُوفُ بِى عَكَبٌ فى مَعَدّ ويطعَنُ بالصُّمْلَةِ فى قَفَيَا(١)

قوله : « نافحوا بالظبا » أى ضاربوا نَفْحة بالسيف، أى ضربة ، ونفحتِ الناقة برجلها ، أى ضربت . والظُّبا : جمع ظُبَة ، وهى طَرَف السيف .
قوله : « وصلوا السيوف بالخطا » مثل قول الشاعر :

إذا قصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُهَا خُطانا إلى أعدائِنا فنُضارِبِ(٢)

قالوا : بكسر « نضارب » لأنه معطوف على موضع جزاء الشرط ، الذى هو « إذا » .
وقال آخر :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطْونا يوما ونلحقها إذا لَمْ تَلْحَقِ(٣)

وأنشدنى شيخنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله العُكْبَرىّ ، ولم يسمّ قائله ،ووجدته بعدُ لنابغة بنى الحارث بن كعب :

إن تسألى عنّا سُمَىَّ فإنه يسمُو إلى قُحَمِ العلا أدنانا(٤)

---

(١) هو المنخل اليشكرى ؛ وعكب اللخمى ، صاحب سجن النعمان بن المنذر . اللسان ٢ : ١١٨
(٢) الخزانة ٣ : ٢٤ ، ونسبه إلى الأخنس بن شهاب ، الأشباه والنظائر ١ : ١٢٠ ، ونسبه إلى قيس ابن الخطيم .
(٣) الكامل للمبرد ١ : ١١٤ ، ونسبه إلى كعب بن مالك .
(٤) المختلف والمؤتلف للآمدى ١٩١

وتبيتُ جارتُنا حَصاناً عَفَّةً ترضى ويأخذ حقَّه مولانا
ونقوم إنْ رَقَ المنون بسُخرةٍ لوصاة والدِنا الّذى أوصانا
ألّا نفرّ إذا الكتيبة أقبلت حتّى تدور رحاهُمُ ورحانا
ونَعيشُ فى أحلامِنا أشياخُنا مُرْداً وما وَصَلَ الوجوه لِحانا
وإذا السُّيوف قصرن طوّلها لنا حتّى تنــاول ما نريدُ خُطانا

وقال حُميد بن ثور الهلالى :

إلى أنْ نَزَلْنا بالفضاء وما لَنا به مَعْقِلٌ إلا الرِّماح الشَّواجِرُ[(١)]
وَوَصْلُ الخُطا بالسَّيف والسَّيفِ بالخُطا إذا ظَنَّ أنّ المرء ذا السَّيف قاصِرُ[(٢)]

وهذه الأبيات من قطعة لحميد جيدة ، ومن جملتها :

قَضَى الله فى بعض المكاره لِلفتَى برشدٍ وَفِى بَعْضِ الْهَوَى ما يُحاذِرُ
ألمْ تَعلَمِى أنّى إذا الإلْفُ قادَنِى إلى الجوْر لا أنقادُ ، والإلفُ جائرُ[(٣)]
وقد كنتُ فِى بَعْضِ الصَّبَاوة أتّقى أموراً وأخْشَى أن تَدُور الدَّوائرُ
وأعــلَمُ أنى إن تَغطَّيْتُ مَرَّةً من الدَّهر مكشوفٌ غِطائى فناظِرُ

ومن المعنى الذى نحن فى ذكره ، ماروى أنّ رجلا من الأزد ، رفع إلى المهلّب سَيفاً له فقال : ياعمّ ، كيف ترى سيفى هذا ؟ فقال : إنه لجيّد لولا أنه قصير ؛ قال : أطوّله ياعمّ بخطوتى ؛ فقال : والله يابن أخى ، إن المشى إلى الصّين أو إلى أذرَبيجان على أنياب الأفاعى أسهل من تلك الخُطوة ؛ ولم يقل المهلّب ذلك جبناً ، بل قال ماتوجبه الصورة إذ كانت

---

(١) ديوانه ٨٧ ـ ٨٩ ، من قصيدة مطلعها :

عَفَا مِنْ سُلَيْمَى ذو سَدِيرٍ فَغَابرُ فَحَرْسٌ فأعلامُ الدَّخولِ الصَّوادِرِ

(٢) الديوان والخزانة ٣ : ٢٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٦ : « أن السيف ذو السيف » .

(٣) رواية الديوان :

* سِوَى القَصْدِ لا أنقاد ، والإلف جائر *

تلك الخطوة قريبة للموت ، قال أبو سعد [1] المخزوىّ فى هذا المعنى :

رُبَّ نارٍ رفعتها ودُجى اللَّيــــل على الأرضِ مُسْبِلُ الطَّيْلَسان
وأمُونٍ نحرتُهــــا لضيوفٍ وألوف نقدتُهُنَّ لجـــــانى [2]
وحروبٍ شهدتها جامع القلـــب فلم تنكر الكُماة مكانى
وإذا ما الحسام كان قصيراً طوَّلَتْه إلى العـــدوّ بنانِى

من الناس من يرويها فى ديوانه « لجانى » بالجيم ؛ أى حملت الحالة عنه ، ومنهم من يرويها بالحاء ، يعنى الخمّار .

ومن المعنى المذكور أوّلاً قولُ بعض الشعراء ، يمدح صخر بن عمرو بن الشريد الأسلمىّ :

إنّ ابنَ عمرو بن الشَّريــــدِ له نِجَـــارٌ لا يرامُ
وحِجاً إذا عُـدِمَ الحجا ونَدًى إذا بَخِـلَ الغمامُ
يصِــلُ الحسامَ بخطوِهِ فى الرَّوع إن قَصُرَ الحسامُ

ومثله قول الراجز :

يخطُو إذا ماقصر العضْبُ الذَّكَرْ خطواً تَرَى منـه المنايا تبتدرْ

ومثله :

وإنا لَقَوْمٌ ما نَرَى القتلَ سُبَّةً إذا مارأته عامِرٌ وسَـــلُولُ [3]
يقصِّر ذِكْرُ الموتِ آجالَنَا لنا وتَــكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتطُولُ

ومنها :

وإن قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خُطَانا إلى أعدائنــــا فتطولُ

---

(١) فى الأصول : « أبو سعيد » ، والصواب ما أثبته ، وانظر المرشح ٣٤٧ ، واللآلى ٥٧٨ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٩٥ .

(٢) الأمون : الناقة الموثقة الخلق .

(٣) للسموءل ؛ ديوان الحماسة ١ : ١٢٢ — بشرح التبريزى .

ومثله قول وَدّاك بن ثميل المازنىّ :

مقاديمُ وَصّالون فى الرَّوع خَطْوَهُمْ بِكلِّ رقيق الشّفْرَتين يمانِى[١]
إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دَعاهُمُ لأيّةِ حَرْبٍ أم بِأىّ مكان

وقال آخر :

إذا الكُماة تنحَّوْا أن يصيبَهُمُ حَدّ السُّيوف وَصَلْنَاها بأيْدِينا[٢]

وقال آخر :

وَصَلْنا الرِّقاق المرهفاتِ بخطونا على الهَوْل حتى أمكنتنا المضاربُ[٣]

وقال بعض الرجاز :

الطّاعِنُون فى النّحورِ والكُلَى والواصِلُون للسيوف بالخُطا[٤]

قوله عليه السلام : « واعلموا أنكم بعين الله » أى يراكم ويعلم أعمالكم ، والباء ها هنا كالباء فى قوله : « أنت بمرأى منى ومسمع » .

قوله : « فعاودوا الكرّ » أى إذا كررتم على العدوّ كرّة فلا تقتصروا عليها ، بل كرّوا كرّة أخرى بعدها ، ثم قال لهم : « واستحيوا من الفرار ، فإنه عار فى الأعقاب » ، أى فى الأولاد ، فإنّ الأبناء يعيّرون بفرار الآباء . ويجوز أن يريد بالأعقاب جمع عَقِب ؛ وهو العاقبة وما يؤول إليه الأمر ، قال سبحانه : ﴿ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[٥] ، أى خير عاقبة ، فيعنى على هذا الوجه أنّ الفرار عارٌ فى عاقبة أمركم ، وما يتحدّث به الناس فى مستقبل الزمان عنكم .

ثم قال : « ونار يوم الحساب » ، لأن الفِرار من الزحف ذنب عظيم ، وهو عند

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ١٢٤ ، الأشباه والنظائر ١ : ١٢٠ .
(٢) من أبيات فى الحماسة ١ : ١٠٠ ــ بشرح المرزوقى ، ونسبها لبشامة بن جزء النهشلى .
(٣) الخزانة ٣ : ٢٤ ، ونسبه لرجل من بنى تميم ، وكذلك فى البيان والتبيين ٣ : ٢٦ .
(٤) الخزانة ٣ : ٢٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٦ ؛ من غير نسبة .
(٥) سورة الكهف ٤٤

أصحابنا المعتزلة من الكبائر ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾(١) ، والجهاد بين يدى الإمام ، كالجهاد بين يدى الرسول عليه السلام .

قوله عليه السلام : « وطِيبُوا عن أنفسكم نَفْساً » ، لمّا نصب « نفساً » على التمييز وحّدَه ، لأن التمييز لا يكون إلّا واحداً ، وإن كان فى معنى الجمع ، تقول : انعموا بالا ، ولا تضيقوا ذَرْعاً » وأبقى « الأنفس » على جمعها لَمَا لم يكُنْ به حاجة إلى توحيدها ، يقول : وطِّنُوا أنفسكم على الموت ولا تكرهوه ، وهوّنوه عليكم ، تقول : طِبْتُ عن مالى نَفْساً ، إذا هوّنت ذهابه .

وقوله : « وامشُوا إلى الموت مَشْياً سُجُحا » ؛ أى سهلا ، والسجاحة : السهولة ، يقال(٢) : فى أخلاق فلان سَجاحة ، ومن رواه « سمحا » أراد سهلا أيضاً .

والسّواد الأعظم ، يعنى به جُمهور أهلِ الشام .

قوله : « والرّواق المطنَّب » ، يريد به مضرب معاوية ذا الأطناب ، وكان معاوية فى مضرب عليه قُبّة عالية ، وحَوْلَه صناديد أهل الشام . وثبَجه : وَسَطه ، وثبج الإنسان : ما بين كاهله إلى ظهره .

والكِسْر : جانب الخِباء . وقوله : « فإنّ الشيطان كامنٌ فى كِسْره » ، يحتمل وجهين ؛ أحدُهما : أن يعنىَ به الشيطان الحقيقىّ ، وهو إبليس ، والثانى : أن يعنىَ به معاوية . والثانى هو الأظهر للقرينة التى تؤيده ، وهى قوله : « قد قدّم للوثبة يداً ، وأخّر للنكوص رجلا » ، أى إن جبنتم وثَب ، وإن شجعتم نَكَص ، أى تأخر وفرّ ؛ ومَنْ حمله على الوجه الأوّل جعله من باب المجاز ، أى أن إبليس كالإنسان الذى يعتوره دواعٍ مختلفة بحسب المتجدّدات ، فإن أنتم صدقتم عدوّكم القتال فرّ عنكم بفرار عدوكم ، وإن تخاذلتم وتواكلتم طمِع فيكم بطمعه ، وأقدم عليكم بإقدامه .

(١) سورة الأنفال ٨ (٢) ب : « تقول » .

وقوله عليه السلام : « فصَمْداً صمْداً » أى اصمدوا صمداً ، صمداً ، صمدت لفلان أى قصدت له .

وقوله : « حتى ينجلىَ لكم عمودُ الحق » ، أى يسطع نورُه وضوءه ، وهذا من باب الاستعارة . والواو فى قوله : « وأنتم الأعلوْن » واو الحال .

ولن يَتِرَكم أعمالكم ، أى لن ينقصكم ، وهاهنا مضافٌ محذوف تقديره : جزاء أعمالكم ، وهو من كلام الله تعالى رَصّع به خطبتَه ، عليه السلام .

وهذا الكلام خطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام فى اليوم الذى كانت عشيّته ليلة الهرير فى كثير من الروايات .

وفى رواية نصر[1] بن مزاحم أنّه خطَب به فى أوّل أيام اللقاء والحرب بصِفّين، وذلك فى صفر من سنة سبع وثلاثين .

***

[من أخبار يوم صفين]

قال نصر: كان علىّ عليه السلام يركب بغلةً له يستلذّها[2] ،قبل أن يلتقى الفئتان بصِفّين ، فلما حضرت الحرب وبات تلك الليلة يعبّى الكتائب حتى أصبح قال : ائتونى بفرس ، فأتِىَ بفرس له ذَنُوب[3] أدهم ، يُقاد بشَطَنَيْن[4]، يبحث الأرض بيديه جميعاً ، له حَمْحَمة

(١) فى كتاب وقعة صفين ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) وقعة صفين : « بغلا له يستلذه » .

(٣) الذنوب : الوافر الذنب .

(٤) فى اللسان ١٧ : ١٠٣ : « الشطن : الحبل ، وقيل : الحبل الطويل الشديدالفتل يستقى به وتشد به الخيل . . . وفى حديث البراء : وعنده فرس مربوطة بشطنين . . . وإنما شده بشطنين لقوته وشدته » .

وصهيل، فركبه ، وقال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ، لاحولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر الجعفي ، قال : كان علي عليه السلام إذا سار إلى قتال ، ذكر اسم الله قبل[١] أن يركب ، كان يقول : الحمدُ لله على نِعَمِه علينا وفضله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾[٢] ثم يستقبل القبلة ، ويرفع يديه إلى السماء ويقول : اللهم إليك نُقِلت الأقدام ، وأُتعبتِ الأبدان ، وأفضَتِ القلوب ، ورُفعت الأيدي ، وشَخَصت الأبصار : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[٣] ، ثم يقول: سيروا على بركة الله ، ثم يقول: الله أكبر، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر ، يا الله يا أحد يا صمد ، يارب محمد ، اكفف عنا بأس[٤] الظالمين : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال : وكانت هذه الكلمات شعاره بصفين .

***

قال : وروى سعد بن طريف ، عن الأصبغ بن نُباتة ، قال : ما كان عليّ عليه السلام في قتال إلا نادى : يا كهيعص .

قال نصر : وحدثنا قيس بن الربيع ، عن عبد الواحد بن حسّان العِجْلي ، عمن حدثه أنه سمع عليا عليه السلام يقول يوم لقائه أهل الشام بصفين : اللهمّ إليك رُفعت الأبصار ، وبُسطت الأيدي ، ونقلت الأقدام ، ودعت الألسن ، وأفضت القلوب ، وتُحُوكم إليك في الأعمال ، فاحكم بيننا وبينهم بالحقّ ، وأنتَ خير الفاتحين . اللّهم إنا نشكو إليك غَيْبَة

(١) ج . « حين » .

(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف ٨٩

(٤) ج : « شر » .

نبينا ، وقلّة عددنا ، وكثرة عدوّنا ، وتشتّت أهوائنا ، وشدّة الزمان ، وظهور الفِتن ، فأعنّا على ذلك بفتح منك تعجله ، ونصر تعزّ به سلطان الحق وتظهره[1] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن سلّام بن سويد ، عن علىّ عليه السلام فى قوله : « وألزمهم كلمة التقوى » ، قال : هى لا إله إلا الله ، وفى قوله : « الله أكبر » قال : هى آية النصر .

قال سلّام : كانت شعارَه عليه السلام يقولها فى الحرب ، ثم يحمِل فيوردُ — والله — مَن اتّبعه ومن حادّه حياض الموت .

قال نصر : وحدّثنا[1] عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن بن جُندب ، عن أبيه قال : لما كان غداة الخميس لسبع خَلَوْن من صفَر من سنة سبع وثلاثين ، صلى علىٌّ عليه السلام الغداة فغلّس ، ما رأيتُ علياً غلّس بالغَداة أشدَّ من تغليسه يومئذ . وخرج بالناس إلى أهل الشام ، فزحف نحوهم ، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم ، فإذا رأوْه قد زَحَف استقبلوه بزحوفهم .

قال نصر : فحدثنى[1] عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : لما خرجَ علىٌّ عليه السلام إليهم غداة ذلك اليوم فاستقبلوه ، رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم ربَّ هذا السقف المحفوظ المكفوف ، الذى جعلته مُحيطا بالليل والنهار ، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ، ومنازل الكواكب والنجوم ، وجعلت سكّانه [سِبطًا][2] من الملائكة لا يسأمون العبادة ؛ وربَّ هذه الأرض التى جعلتَها قرارا للأنام والهوامّ والأنعام ، ومالا يحصى مما يُرى ومما لا يُرى ؛ من خَلْقِك العظيم ؛ وربَّ الفُلْك التى تجرى فى البحر المحيط[3] بما ينفع الناسَ ؛ وربَّ السحاب المسخَّرِ بين السماء والأرض ؛ وربَّ البحر

---

(١) صفين ٢٥٩ — ٢٦٢ . (٢) تكملة من صفين ، والسبط : الأمة .
(٣) ساقطة من ج .

المسجور، المحيط بالعالمين ؛ ورَبَّ الجبال الرواسى التى جعلتها للأرض أوتادا ،وللخلق متاعاً؛ إن أظهرتَنا على عدوِّنا ، فجنِّبنا البغى ، وسدِّدنا للحق . وإن أظهرتَهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصم بقيّة أصحابى من الفتنة .

قال : فلما رأوه قد أقبل تقدّموا إليه بزحوفهم(١) ، وكان على ميمنته يومئذ عبد الله ابن بُدَيل بن وَرْقاء الخزاعىّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وقرّاء العراق مع ثلاثة نفر : عمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عُبادة ، وعبد الله بن بُدَيل ؛ والناس على راياتهم ومراكزهم ، وعلىّ عليه السلام فى القلب فى أهل المدينة ، جمهورهم الأنصار ، ومعه من خُزاعة ومن كنانة عدد حسن .

قال نصر: وكان علىّ عليه السلام رجلا(٢) رَبْعة ، أدعَج العينين ؛ كأن وجهه القمر ليلة البدر حسنا ، ضخم البطن، عريض المَسْرُبة(٣) ، شَثْن الكفين ، ضخم الكسور(٤) ،كأنّ عنقه إبريقُ فضة ؛ أصلع(٥) من خلفه شعر خفيف(٥) ، لمنكبه مُشاش(٦) كمشاش الأسد الضارى، إذا مشى تكفّأ(٧) ومارَ به جسدُه ،ولظهره سنام كسنام الثور لا يبين عَضدُه من ساعده(٨) قد أُدْمِجَت إدماجا ، لم يمسك بذراع رجل قطّ إلا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس ؛ (٩)ولونه إلى سمرة مّا ، وهو أذلف الأنف(٩) ، إذا مشى إلى الحرب هَرْوَل ، قد أيّده الله تعالى فى حُروبه بالنصر والظفَر .

---

(١) صفين : « خرجوا إليه بزحوفهم » .

(٢) فى صفين : « دحداحا » ؛ والدحداح : القصير .

(٣) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن .

(٤) شثن : غليظ ، والكسور : الأعضاء .

(٥ ـ ٥) صفين : « أصلع ، ليس فى شعره إلا خفاف من خلفه » ، والخفاف ، بالضم : الخفيف .

(٦) المشاش بالضم : رؤوس العظام ؛ مثل المنكبين والمرفقين والركبتين .

(٧) تكفأ : تمايل . والمور : التحرك والمجىء والذهاب .

(٨) العضد : مابين المرفق فى الكتف ؛ يذكر ويؤنث .

(٩ ـ ٩) صفين : « وهو إلى السمرة ، أذلف الأنف » ، والذلف : قصر الأنف وصغره .

قال نصر : ورفع معاوية قبّة عظيمة ، وألقى عليها الكرابيس[١] ، وجلس تحتها .

* * *

قال نصر[٢] : وقد كان لهم قبل هذا اليوم أيام ثلاثة ، وهى الرابع من صفر هذا ، واليوم الخامس ، واليوم السادس ، كانت فيها مناوشات وقتال ، ليس بذلك الكثير ، فأما اليوم الرابع ، فإنّ محمد بن الحنفيّة عليه السلام ، خرج فى جَمْع من أهل العراق ، فأخرج إليه معاويةُ عبيدَ الله بن عمر بن الخطاب فى جَمْع من أهل الشام ، فاقتتلوا . ثم إن عبيد الله بن عمر أرسلَ إلى محمد بن الحنفيّة : أن اخرجُ إلىّ أبارزْك ، فقال : نعم ، ثم خرج إليه ، فبصُر بهما علىّ عليه السلام ، فقال : مَنْ هذان المتبارزان ؟ قيل : محمد بن الحنفيّة وعبيد الله بن عمر ، فحرّك دابته ، ثم دعا محمدا إليه ، فجاءه فقال : أمسِك دابتى ، فأمسكها ، فمشى راجلا بيده سيفُه نحو عبيد الله ، وقال له : أنا أبارزُك ، فهلم إلىّ ، فقال عبيد الله : لا حاجةَ بى[٣] إلى مبارزتك ، قال : بلى ، فهلم إلىّ ، قال : لا أبارزُك ، ثم رجع إلى صَفّه ، فرجع علىٌّ عليه السلام ، فقال ابنُ الحنفيّة : يا أبتِ لم منعتَنى من مبارزته ؟ فو الله لو تركتنى لرجوتُ أن أقتله ! قال : يا بنىّ ، لو بارزته أنا لقتلتهُ ، ولو بارزته أنت لرجوتُ لك أن تقتله ، وما كنتُ آمنُ أن يقتلك ، فقال : يا أبتِ أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدوّ الله ! والله لو أبوه يسألُك المبارزة لرغبتُ بك عنه ، فقال : يا بنىّ لا تذكر أباه ، ولا تقُلْ فيه إلا خيرا ، رحِمَ الله أباه !

* * *

قال نصر[٤] : وأما اليوم الخامس ، فإنه خرج فيه عبدُ الله بن العباس ، فخرج إليه الوليد بن عُقبة ، فأكثر منْ سبّ بنى عبد المطلب[٥] ، وقال : يا بن عباس : قطعتم

---

(١) الكرابيس : ضرب من الثياب ؛ فارسى معرب .

(٢) وقعة صفين ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٣) ج : « لى » .

(٤) وقعة صفين ٢٤٩ .

(٥) صفين : « فأخذ الوليد يسب بنى عبد المطلب »

أرحامكم ، وقتلتم إمامكم ، فكيف رأيتم صُنع الله بكم ! لم تُدْرِكوا ما طلبتم ؛ ولم تدرِكوا ما أمّلتم ، والله — إن شاء — مُهلِككم ، وناصرنا عليكم . فأرسل إليه عبد الله ابن العباس : أنِ ابرُزْ إلىّ ، فأبى أن يفعل ؛ وقاتل ابنُ عباس ذلك اليوم قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وكلٌّ غير غالب .

• • •

قال نصر : وخرج[1] فى ذلك اليوم شَمِر بن أبرهة بن الصباح الحِميرىّ ، فلحِق بعلىّ عليه السلام فى ناس من قراء أهل الشام ، ففتّ ذلك فى عَضُد معاوية وعمرو بن العاص ، وقال عمرو : يا معاوية ، إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رَجُلاً له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ، ورحِم ماسة ، وقدمٌ فى الإسلام لا يعتدّ أحد بمثله ، وحدّة فى الحرب لم تكنْ لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقُرّائهم وأشرافهم وقدمائهم فى الإسلام ؛ ولهم فى النفوس مهابة ، فبادر بأهل الشام مخاشن الأوعار ، ومضايق الغِياض ، واحمِلْهم على الجَهْد ، وائتهم من باب الطمع قبل أن ترفّهم فيحدث عندهم طولُ المقام مللاً ، فتظهر فيهم كآبة الخِذلان . ومهما نسيتَ فلا تنسَ أنك على باطل ؛ وأن عليًّا على حقّ ، فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك .

فقام معاوية فى أهل الشام خطيبا ، فقال :

أيها الناس : أعيرونا جماجمكم وأنفسكم ، لا تقتتلوا[2] ولا تتجادلوا ؛ فإن اليومَ يوم خِطَارٍ ، ويوم حقيقة وحفاظ ، إنكم أهل حق ، وبأيديكم حُجّة ، إنما تقاتلون مَنْ نكث البيعة ، وسَفَك الدم الحرام ؛ فليس له فى السماء عاذِر[3] .

قدّموا أصحاب السلاح المستلئمة ، وأخّروا الحاسر ، واحملوا بأجمعكم ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه[4] ، وإنما هو ظالم ومظلوم .

---

(١) صفين : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) صفين : « لاتفشلوا ولا تخاذلوا » .

(٣) فى صفين بعد هذا الكلام : « ثم صعد عمرو بن العاص مرقاتين من المنبر ؛ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ قدموا المستلئمة . . . » ؛ فكأنهما خطبتان ؛ الأولى لمعاوية ، والثانية لعمرو .

(٤) ج : « مبلغه » .

قال نصر : وخطب علي عليه السلام أصحابه فيما حدثنا به عمر بن سعد ، عن أبي يحيى ، عن محمد بن طلحة ، عن أبي سنان ، عن أبيه قال : كأني أنظر إليه متوكئا على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده ، فهم يلونه ، كأنه أحب أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما[1] بعد ، فإن الخيلاء من التجبر[1] ، وإن النخوة من التكبر ، وإن الشيطان عدو حاضر ، يعدكم الباطل ؛ ألا إن المسلم أخو المسلم ، فلا تنابذوا ولا تخاذلوا . ألا إن شرائع الدين واحدة ، وسبله قاصدة ، من أخذ بها لحق ، ومن فارقها محق ، ومن تركها مرق . ليس المسلم بالخائن إذا ائتمن ، ولا بالمخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق . نحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا القصد[2] ، ومنا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ، وفينا حملة الكتاب . ألا إنا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله ، وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره ، وابتغاء مرضاته ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان ، وتوفير الفيء على أهله[3] ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي ، أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما ، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولم أعصه في أمر ، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائص ، بنجدة[4] أكرمني الله سبحانه بها ، وله الحمد . ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفي حجري ، ولقد وليت غسله بيدي وحدي ، تقلبه الملائكة المقربون معي . وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ، إلا ما شاء الله .

(١ — ١) صفين : « أيها الناس ، اسمعوا مقالتي ، وعوا كلامي ، فإن الخيلاء من التجبر » .
(٢) كذا في ا ، ج وصفين : وفي ب : « الفضل » .
(٣) صفين : « لأهله » .
(٤) صفين : « نجدة » .

قال أبو سنان الأسلمىّ : فأشهد لقد سمعت عمّار بن ياسر، يقول للناس: أمّا أمير المؤمنين فقد أعلمكم أنّ الأمة لم تستقم عليه أولا ، وأنها لن تستقيم عليه آخرا .

قال : ثم تفرّق الناس ، وقد نفذت أبصارهم فى قتال عدوهم ، فتأهبوا واستعدّوا[١] .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب[٢] أنّ عليا عليه السلام، قال فى هذه الليلة : حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ! ثم قام فى الناس فقال: الحمدُ لله الذى لا يُبرَم ما نقض ، ولا ينقَض ما أبرم ، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع[٣] البشر فى شىء من أمره ، ولا جَحَد المفضول ذا الفضل فضلَه . وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، حتى لفّت بيننا فى هذا الموضع ، ونحن مِنْ ربِّنا بمرأى ومسمع ، ولو شاء لعجّل النقمة، ولكان منه النصر ، حتى يكذّب الله الظالم، ويعلم الحقّ أين مصيره . ولكنه جَعَل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٤] . ألا إنكم لاقو العدوّ غدا إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصّبْر والنصر ، والقوْم بالجِدّ والحزم ، وكونوا صادقين .

قال : فوثب الناس إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم يصلحونها ، وخرج عليه السلام فعبّى الناس ليلته تلك كلّها حتى أصبح ، وعقد الألوية، وأمّر الأمراء ، وكتّب الكتائب، وبعث إلى أهل الشام مناديا نادى[٥] فيهم : اغدُوا على مصافّكم. فضجّ أهلُ الشام فى معسكرهم، واجتمعوا إلى معاوية فعبّى خيله ، وعقد ألويته، وأمّر أمراءه ، وكتّب كتائبه ، وأحاط به أهل حِمْص فى راياتهم، وعليهم أبو الأعور السُّلَمىّ، وأهل الأردنّ فى راياتهم، عليهم عمرو بن العاص، وأهل قِنّسرين وعليهم زُفر بن الحارث الكلابىّ ، وأهل دمشق ــ وهم القلب ــ

(١) صفين ص ٢٥١ ، ٢٥٢
(٢) صفين : « يزيد بن وهب »
(٣) صفين : « ولا تنازعت الأمة » .
(٤) سورة النجم ٣١ .
(٥) ج : « ينادى » .

وعليهم الضحاك بن قيس الفِهْرِيّ، فأطافوا كلهم بمعاوية ، وكان أهل الشام أكثر من أهل العراق بالضِّعف ، وسار أبو الأعور وعمرو بن العاص ومَنْ معهما ؛ حتى وقفا بحيال أهل العراق ، فنظرا إليهم ،واستقلّا جمعهم ، وطمِعا فيهم ، ونُصب لمعاوية منبر ؛ فقعد عليه في قبة ضربها ، ألقى عليها الثياب والأرائك ، وأحاط به أهلُ يمنٍ ، وقال : لا يقربَنّ هذا المنبر أحد لا تعرفونه إلا قتلتموه كائنا مَنْ كان[١] .

قال نصر : وأرسل عمرو إلى معاوية : قد عرفت ما بيننا من العهد والعَقْد : فاعصِبْ برأسي هذا الأمر ، وأرسِل إلى أبي الأعور فنحّه عني ، ودعني والقوم؛ فأرسل معاوية إلى أبي الأعور أنّ لأبي عبد الله رأيا وتجرِبة ليست لي ولا لك ، وقد ولّيته أعنّة الخيل ، فسِرْ أنت حتى تقف بخيلك على تلّ كذا ودعه والقوم .

فسار أبو الأعور، وبقي عمرو بن العاص فيمن معه واقفا بإزاء عسكر العراق ،فنادى عمرو ابنيه : عبد الله ومحمدا ، فقال لهما : قدّما هؤلاء الدُّرّع ، وأخّرا هؤلاء الحُسّر ؛ وأقيما الصّفّ قَصّ الشارب ؛ فإن هؤلاء قد جاءوا بخطة قد بلغت السماء .

فمشيا برايتهما، فعدّلا الصفوف ، وسار بينهما عمرو فأحسن الصفّ ثانية ،ثم حمل قيسا وكليبا وكنانة على الخيول ، ورجّل سائر الناس[٢] .

***

قال نصر : وبات[٣] كعب بن جعيل التغلبيّ، شاعر أهل الشام تلك الليلة يرتجز وينشد:

أصبحتِ الأمّــة في أمرٍ عَجَبْ والمُلكُ مجموعٌ غــدًا لمن غَلَبْ[١]
أقولُ قولًا صادقا غيرَ كَذِبْ إنّ غــدا يهلِكُ أعلامُ العَرَبْ
غــداً نُلاقِي ربّنــا فنحتسِبْ غَـداً يصيرون رماداً قَدْ ذَهَبْ

(١) صفين : ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٢) صفين ٢٥٤ .
(٣) صفين ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

بعد الجمال والحياء والحسبْ ... يارب لاتُشْمِتْ بنا ولاتُصِبْ

* مَنْ خَلَعَ الأنداد طُرًّا والصُّلُبْ *

* * *

قال نصر : وقال[1] معاوية : مَنْ فى ميسرة أهل العراق ؟ فقيل : ربيعة ، فلم يجد فى الشام ربيعة ، فجاء بحِمْيَر ، فجعلها بإزاء ربيعة على قرعة أقرعها بين حِمْيَر وعَكّ ، فقال ذو الكَلاع الحِميرىّ : باستك مِنْ سَهْمٍ [لم تَبْغِ الضِّراب][2] ! كأنه أنِف عن أن تكون حِمير بإزاء ربيعة ، فبلغ ذلك جُحدرا[3] الحنفىّ ، فحلف بالله إن عاينه ليقتلنّه أو ليموتنّ دونه ، فجاءت حمير حتى وقفت بإزاء ربيعة ، وجعل السَّكاسك والسَّكون بإزاء كندة ، وعليهما الأشعث بن قيس ، وجعل بإزاء هَمْدَان العراق الأزد ، وبإزاء مذحِج العراق عَكًّا .

وقال راجز من أهل الشام :

ويل لأمّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكٍّ ... وأمهم قائمة تُبَكِّى

نَصُكّهم بالسيف أىَّ صَكٍّ ... فلا رجالَ كرجالِ عكٍّ

قال : وطرحت عكٌّ حَجَرا بين أيديهم ، وقالوا : لانفرّ حتى يفرّ هذا الحَكَر (بالكاف) — وعَكٌّ تقلب الجيم كافا — وصفَّ القلب خمسة صفوف ، وفعل أهل العراق أيضا مثل ذلك ، ونادى عمرو بن العاص بأعلى صوته :

يأيّها الجند الصليبُ الإيمان[4] ... قوموا قيامًا واستعينوا الرحمٰن

إنى أتانى خبرٌ ذو ألوان[5] ... أنّ عليا قتل ابنَ عفّان

* رُدّوا علينا شيخَنا كما كان *

---

(١) صفين ص ٢٠٥ — ٢٠٨

(٢) من صفين

(٣) صفين : « المنتدف الحنفى » .

(٤) ج : « العظيم الإيمان » .

(٥) صفين « خبر فأشجان » .

فردّ عليه أهل العراق وقالوا :

أبتْ سيوف مذحِـجٍ وهَمْدَانْ ... بأنْ تردَّ نعثَـــلاً كما كانْ[١]

خَلْقا جديداً مثلَ خَلْق الرَّحْمن ... ذلك شأنٌ قد مَضى وذا شـــأنْ

ثم نادى عمرو بن العاص ثانية برفع صوته[٢] :

ردّوا علينا شيخَنا ثم بَجَلْ[٣] ... أو لا تكونُوا جَزَراً من الأسَلْ[٤]

فردّ عليه أهل العراق :

كيف نردّ نعثلاً وقد قَحَلْ[٥] ! ... نحن ضربنا رأسَه حتى انجفَلْ[٦]

وأبدلَ الله به خيرَ بَدَلْ ... أعلمَ بالدّين وأزكى بالعَمَـــلْ[٧]

وقال إبراهيم بن أوس بن عبيدة من أهل الشام :

لله درّ كتائب جاءتكمُ ... تبكي فوارسُها على عثمانِ

تسعون ألفاً ليس فيهم قاسطٌ[٨] ... يتلون كلَّ مفصَّلٍ ومثانِ

يَسَلُون حقّ الله لا يعدُونه ... وعجيبكم للمُلك والسلطانِ

فأتوا ببيّنة على ماجئتمُ ... أو لا فحسبكمُ من العُـــدْوانِ

وأتوا بما يمحو قصاص خليفةٍ[٩] ... لله ، ليس بكاذب خوّانِ

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية وكان عثمان إذا نيل منه وعيب ؛ شبه بهذا الرجل المصري لطول لحيته . اللسان ١٤ : ١٣٩

(٢) صفين : « وصاح رجل من أهل الشام » .

(٣) بجل ، بمعنى حسب .

(٤) الجزر : قطع اللحم تأكله السباع .

(٥) قحل ؛ أي مات وجف جلده .

(٦) انجفل : سقط وانقلب .

(٧) صفين :

• أقدم الحربِ وأنكى البطلْ •

(٨) صفين : « سبعون ألفاً » . ج : « ليس منهم » .

(٩) صفين : « فأتوا »

قال نصر : وبات علىٌّ عليه السلام ليلتَه يعبّى الناس حتى إذا أصبح زحف بهم ، وخرج إليه معاوية فى أهل الشام لجعل يقول : مَنْ هذه القبيلة ؟ ومَنْ هذه القبيلة ؟ يعنى قبائل أهل الشام ،فيسمُّوْن له حتى إذا عرفهم ، وعرَف مراكزهم[1] قال للأزد : اكفونى الأزد ، وقال لخثم : اكفونى خثعما ، وأمر كلَّ قبيلة من العراق أن تكفيَه أختها من أهل الشام ، إلا قبيلة ليس منهم بالعراق إلا القليل مثل بَجِيلة ، فإن لَخمًا كانت بإزائها . ثم تناهضَ القوم يوم الأربعاء سادس صفر واقتتلوا إلى آخر نهارهم ، وانصرفوا عند المساء ، وكلٌّ غير غالب .

قال نصر : فأمّا اليوم السابع فكان القتال فيه شديدا ، والخطب عظيما؛ وكان عبدالله ابن بُديل الخزاعىّ على ميمنة العراق ، فزحف نحو حبيب بن مسلمة ، وهو على ميسرة أهل الشام ؛ فلم يزل يحُوزه ويكشف خيله حتى اضطرّهم إلى قُبّة معاوية وقت الظهر .

* * *

قال نصر : فحدّثنا[2] عمر بن سعد ، قال : حدّثنا مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أنّ عبد الله بن بُدَيل قام فى أصحابه فخطبهم فقال : ألا إنّ معاوية ادّعى ما ليس له ، ونازع الأمر أهلَه ومن ليس مثله ؛ وجادل بالباطل ليُدحِض به الحقّ ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وزيّن لهم الضّلالة ، وزرَع فى قلوبهم حُبّ الفتنة ، ولبّس عليهم الأمور ، وزادهم رِجْسًا إلى رجسهم ، وأنتم ـ والله ـ على نور وبرهان [مبين][3] قاتلوا الطغاة[4] الجفاة ، قاتلوهم ولا تخشوْهم ، وكيف تخشوْنهم ، وفى أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبين[5] : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

---

(١) ج : « سوادهم » .
(٢) وقعة صفين ٢٦٣ .
(٣) من صفين .
(٤) صفين « الطغام » .
(٥) صفين : « ظاهر مبرور » .

وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، لقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والله (٢) ماهُمْ فى هذه بأزكى، ولا أتقى، ولا أبرّ ؛ انهضوا (٣) إلى عدوّ الله وعَدُوّكم (٤) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد، قال : حدّثني عبدالرحمن ، عن أبى عمرو، عن أبيه، أنّ عليا عليه السلام خطب فى ليلة هذا اليوم ، فقال: معاشرَ المسلمين ؛ استشعِرُوا الخشْية، وتجلْببُوا السكينة، وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنبَى للسيوف عن الهام ... »، الفصل بطوله إلى آخره ؛ وهو المذكور فى الكتاب .

وروى نصر أيضا بالإسناد المذكور أنّ عليا عليه السلام خطب ذلك اليوم ، وقال : أيّها الناس ؛ إنّ الله تعالى ذِكْره ، قد دلّكم على تجارة تُنجيكم من العذاب ، وتُشفى بكم على الخير : إيمانٌ بالله ورسوله ، وجهاد فى سبيله؛ وجعلَ ثوابه مغفرة الذنوب ، ومساكن طيبة فى جناتِ عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبر ؛ وأخبركم بالّذى يحبّ فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (٥) ؛ فسوّوا صفوفَكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع ، وأخّروا الحاسر، وَعَضّوا على الأضراس ؛ فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأربط للجأش؛ وأسكن للقلوب . وأميتوا الأصوات ؛ فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوَقار، والتَوُوا فى أطراف الرماح، فإنه أمْوَر (٦) للأسنّة، ورايتَكم فلا تُميلوها ولا تُزيلوها، ولا تجعلوها إلّا بأيدِي شجعانِكم المانعى الذِّمار ، والصُّبُر عند نزول الحقائق، أهلِ الحفاظ،

---

(١) سورة التوبة ٣ ، ٤

(٢) صفين : « وقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم مرة ، وهذه ثانية » .

(٣) صفين : « قوموا » .

(٤) صفين ٢٦٣ ، ٢٦٤ .   (٥) سورة الصف ٤

(٦) أمور ؛ من المور وهو الاضطراب ؛ وفى الطبرى : « أصول للأسنة »

الذين يحفّون برايتكم ويكتنفونها(١)،يصير بون خلفها وأمامها،ولا تضيّعوها . أجزأ كلّ امرئٍ [وَقَذَ (٢)] قِرْنه ، وواسى أخاه بنفسه، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه، فيجمع عليه قِرْنه وقِرْن أخيه،فيكسب بذلك من الإثم(٣)،ويأتى بهدناءة،أنَّى هذا،وكيف يكون هكذا !(٤) هذا يقاتل اثنين ، وهـذا ممسك يدَه ، قد خلّى قِرْنه إلى أخيه ، هارباً منه ، أو قائما ينظر إليه ! من يفعل هـذا يمقته الله ، فلا تعرّضوا لِمَقْت الله ، فإنما مردّكم إلى الله ، قال الله تعالى لقوم عابهم: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٥) ؛ وايمُ الله لئن فررتم من سيفِ العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة ، استعينوا بالصّدق والصبر ؛ فإنه بعد الصبر ينزل النصر(٦) .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن الشعبيّ ، عن مالك بن قُدامة الأرحبيّ ، قال : قام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بقُناصِرين فقال : الحمد لله الذى هَدَانا لدينه ، وأورثنا كتابه ، وامتنّ علينا بنبيه ، فجعله رحمةً للعالمين ، وسيداً للمرسلين، وقائدا للمؤمنين ، وخاتماً للنبيين ؛ وحُجّة الله العظيم على الماضين والغابرين ؛ ثم كان فيما قضى الله وقدّره ـ وله الحمدُ على ماأحببنا وكرهنا ـ أن ضمّنا وعدوّنا بقُناصرين، فلا يجمُل بنا اليوم الحياص(٧) وليس هـذا بأوانِ انصراف ، ولات حين مناص ؛ وقد خصّنا الله منه برحمة لانستطيع أداء شكرها ، ولا نقدر قدرها؛إن أصحاب محمد المصطفَيْن الأخيار معنا،

---

(١) صفين : « يكتنفونها » .

(٢) تكملة من صفين .

(٣) صفين : « اللائمة » .

(٤) صفين . « وأنى لا يكون هذا هكذا » .

(٥) سورة الأحزاب ١٦ .

(٦) صفين ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٧) صفين : « فلا يحمد بنا اليوم الحياص » ، والحياص : الفرار والهرب .

وفى حَيِّز ، فو الله الذى هو بالعباد بصير ؛ أن لو كان قائدُنا رجلا مجدَّعاً ، إلّا أنّ معنا من البدريّين سبعين رجلا لكان ينبغى لنا أن تحسن بصائرنا ، وتطيب أنفسنا ؛ فكيف وإنما رئيسنا ابن عمّ نبيّنا ، بدرىٌّ صِدْق ، صلّى صغيرا ، وجاهد مع نبيكم كثيرا ، ومعاوية طَلِيق من وِثاق الإسار [وابن طليق][1] . الا إنه أغوَى جفاة فأوردهم النار ، وأوردهم العار ، والله محِلّ بهم الذلّ والصَّغار . ألا إنكم ستلقون عدوّكم غدا ، فعليكم بتقوى الله ؛ من الجدّ والحزم ، والصِّدق والصبر ؛ فإن الله مع الصابرين . ألا إنكم تفوزون بقتلهم ، ويشقَوْن بقتلكم ؛ والله لا يَقتلُ رجلٌ منكم رجلًا منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدنٍ ، وأدخل المقتول نارا تَلظّى ﴿ لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مبلِسون ﴾[2] عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه ؛ وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه ؛ وأستغفرِ الله العظيم لى ولكم وللمؤمنين .

ثم قال الشعبىّ : ولقد صدَّق فعلُه ما قال فى خطبته[3] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبى جعفر وزيد بن الحسن ، قالا : طلبَ معاويةُ إلى عمرو بن العاص أن يسوِّى صفوفَ أهل الشام ، فقال له عمرو : عَلَى أنّ لى حُكْمِى إن قَتَل الله ابن أبى طالب ، واستوثقت لك البلاد ! فقال : أليس حُكْمك فى مصر ! قال : وهل مصر تكون عِوَضاً عن الجنّة ، وقتل ابن أبى طالب ثمناً لعذاب النار الذى ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[2] ﴾ ! فقال معاوية : إنّ لك حكمَك أبا عبد الله إن قتِلَ ابن أبى طالب . رُوَيداً لا يسمع أهل الشام كلامك . فقام عمرو

(١) من صفين
(٢) سورة الزخرف ٧٥ .
(٣) صفين ٢٦٦ ، ٢٦٧

فقال : معاشرَ أهل الشام ؛ سوُّوا صفوفكم قصّ الشارب ، وأعيرونا[١] جماجكم ساعة ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه ، فلم يبق إلا ظالم أو مظلوم .

***

قال نصر : وأقبل أبو الهيثم بن التّيهان وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بدريًّا نقيبا عقبيًّا ؛ يسوِّى صفوف أهل العراق ، ويقول : يا معشرَ أهل العراق[٢] ، إنه ليس بينكم وبين الفتح فى العاجل ، والجنة فى الآجل إلاَّ ساعة من النهار ؛ فأرْسُوا أقدامكم ، وسوُّوا صفوفكم ، وأعيروا ربَّكم جماجمكم ، استعينوا بالله إلهكم ؛ وجاهدوا عدوَّ الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم ! واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[٣] .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الفضل بن أدهم ، عن أبيه أنّ الأشتر قام يخطب الناس بقناصرين ، وهو يومئذ على فرسٍ أدهم ، مثل حَلَك الغراب ، فقال :

الحمد لله الذى خلق السموات العُلى ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾[٤] ، أحمده على حُسن البلاء ، وتظاهر النعماء حمداً كثيراً ، بُكْرةً وأصيلا ، مَنْ هداه الله فقد اهتدى ، ومن يُضلِلْ فقد غوَى ، أرسل محمد بالصواب والهدى ؛ فأظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم . ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدّر أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض ، فلفَّت بيننا وبين عدوّ الله وعدوّنا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنّه وفضله ، قريرةٌ أعيننا ، طيّبة أنفسنا ، نرجو بقتالهم حسنَ الثواب ، والأمنَ من العقاب ؛ معنا ابن عمّ نبينا ، وسيفٌ من سيوف الله علىّ بن أبى طالب ؛ صلّى مع رسول الله ، لم يسبقه إلى الصلاة

(١) صفين : « وأعيروا ربكم جماجمكم » . (٢) ج : « يامعشر المسلمين » .
(٣) صفين ٢٦٧ . (٤) سورة طه ٥ ، ٦ .

ذَكَر حتى كان شيخا ، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ؛ فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل ، وعَفاف قديم ؛ فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجدّ ، واعلموا أنكم على الحقّ ، وأنّ القوم على الباطل؛إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البَدْرِيِّين،قريب من مائة بدرىّ،سوى مَنْ حولكم من أصحاب محمد،أكثر مامعكم(١) رايات قد كانت مع رسول الله ، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فما(٢) يشكّ فى قتال هؤلاء إلا ميّت القلب ؛ أنتم على إحدى الحسنيَيْن ؛ إمّا الفتح وإمّا الشهادة ، عَصَمنا الله وإياكم بما عَصَم به من أطاعه واتقاه ؛ وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ؛ وأستغفر الله لى ولكم(٣) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر،عن جابر ، عن الشعبىّ، عن صعصعة بن صُوحان، عن زامل بن عمرو الجُذَامىّ ؛ قال : طلب معاوية إلى ذى الكَلاع أن يخطب الناس ويحرّضهم على قتال علىّ عليه السلام ومَنْ معه من أهل العراق ، فعقَد فرسه ؛ وكان من أعظم أصحاب معاوية خطرا ، وخطب الناس ، فقال :

الحمد لله حمدا كثيرا،ناميا واضحاً منيرا ، بكرة وأصيلا، أحمده وأستعينه،وأومن به، وأتوكّل عليه،وكفى بالله وكيلا ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ؛ أرسله بالفرقان إماما،وبالهدى ودين الحقّ ، حين ظهرت المعاصى، ودَرَست الطاعة ، وامتلأت الأرضُ جَوْراً وضلالة ؛ واضطرمت الدنيا نيرانا وفتنة ، ووَرَكَ(٤) عدوّ الله إبليس ، على أن يكون قد عبد فى أكنافها ، واستولَى على جميع أهلها؛ فكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى أطفأ الله به نيرانها،ونزع به أوتادها ؛ وأوهَن به

---

(١) ج : « يعلم » .

(٢) فى الأصول : « من » وصوابه من صفين .

(٣) صفين ٢٦٧ ، ٢٦٨

(٤) ورك : أقام .

قُوَى إبليس وآيسه مما كان قد طمع فيه من ظفره بهم، وأظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ، ثم كان من قضاء الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا بصفّين ؛ وإنّا لنعلم أنّ فيهم قوماً قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ذات شأن وخطر عظيم ؛ ولكنى ضربت الأمر ظهراً وبطنا ، فلم أر يَسَعُنِي أن يُهدَرَ دمُ عثمان صهر نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، الذى جَهّز جيش العُسْرة ، وألحَقَ فى مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بيتا،وبنى سقاية ؛ بايع له نبيّ الله بيده ليمنى على اليسرى؛واختصّه بكريمتيه:أم كلثوم ورقية : فإن كان قد أذنب ذنبا فقد أذنبَ مَنْ هو خير منه ، قال الله سبحانه لنبيه : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(١)؛وقتل موسى نفسا ، ثم استغفر الله فغفر له ؛ وقد أذنب نوح ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم ، ثم استغفر الله فغفر له،ولم يبرّ أحدُكم من الذنوب؛وإنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبى طالب سابقة حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن لم يكن مالأعلى قتل عثمان فلقد خذَله،وإنّه لأخُوه فى دينه وابنُ عمه وسِلْفُه وابن عمّته،ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامَكُم ،وبلادكم وبيضتكم ؛ وإنّما عامّتهم بين قاتل وخاذل،فاستعينوا بالله واصبروا ، فلقد ابتليتم ـ أيتها الأمة ـ ولقد رأيت فى منامى فى ليلتى هذه،لكأنّا وأهل العراق اعتورْنا مصحفا نضربُه بسيوفنا ؛ ونحن فى ذلك جميعا نتادى : ويحكم الله ! ومع أنّا والله لانفارقُ العَرْصة حتى نموت؛فعليكم بتقوى الله؛ولتكن النيّات لله ، فإنى سمعت عمر بن الخطاب يقول:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما يُبْعث المقتتلون على النّيّات » ؛ أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ؛ وأعزّ لنا ولكم النصر ؛ وكان لنا ولكم فى كلّ أمر ، وأستغفر الله لى ولكم(٢) .

* * *

(١) سورة الفتح ٢

(٢) صفين ٢٦٩ ، ٢٧٠

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن ابن عامر [1] ، عن صَعْصعة العبدىّ ، عن أبرهة ابن الصباح ، قال : قام يزيد بن أسد البَجَلىّ فى أهل الشام يخطُب الناس بصِفّين ، وعليه قَباء من خزّ ، وعمامة سَوْداء ، آخذا بقائم سيفه ، واضعاً نَصْل [2] السّيف فى الأرض ، متوكّئاً عليه . قال صعصعة : فذكر لى أبرهة أنّه كان يومئذ من أجمل العرب وأكرمها وأبلغها ، فقال :

الحمدُ لله الواحدِ الفَرْد ؛ ذى الطَّوْل والجلال ، العزيز الجبّار ، الحكيم الغفار ، الكبير المتعال ؛ ذى العطاء والفعال ، والسّخاء والنوال ، والبهاء والجمال ، والمنّ [3] والإفضال ، مالك اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلال ؛ أحمدُه على حُسْن البلاء ؛ وتظاهُرِ النعماء ، وفى كلّ حالٍ من شدة أو رخاء . أحمدُه على نِعمه التؤام ، وآلائه العِظام ، حَمْداً يستنير [4] بالليل والنهار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، كلمة النّجاة فى الحياة ؛ وعند الوفاة ؛ وفيها الخلاص يوم القِصاص ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، النبىّ المصطفى ، وإمامُ الهدى ؛ صلى الله عليه وسلم . ثم كان من قضاء [5] الله أنْ جَمَعنا وأهلَ ديننا فى هذه الرُّقعة من الأرض ، والله يعلم أنى كنتُ كارهاً لذلك ولكنهم لم يبلعونا ريقَنا ، ولم يتركونا نرتادُ لأنفسنا ، وننظرُ لمعادنا ؛ حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفى حَريمنا وبَيْضتنا . وقد علمنا أن فى القوم أحلاماً وطَغَاماً ، ولسنا نأمَنُ من طغامهم على ذرارينا ونسائنا ؛ ولقد كنّا نحبّ ألّا نقاتل أهلَ ديننا ، فأخرجُونا حتى صارت الأمور إلى أنْ قاتلناهم غداً حميّة [6] فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين !

(١) هو عامر بن شراحيل الشعبي .
(٢) صفين : « نعل السيف » .
(٣) ج : « والمنّ » .
(٤) صفين : « قد استنار » .
(٥) صفين : « بما قضى » .
(٦) صفين : « كراهية » .

أما والذى بعثَ محمداً بالرسالة ، لوددْت أنى مِتّ منذ سنة ؛ ولكنّ الله إذا أرادَ أمراً لم يستطع العبادُ ردَّه ، فنستعين بالله العظيم ، وأستغفر الله لى ولكم[١] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن أبى رَوْق الهمْدانىّ أن يزيد بن قيس الارحبىّ ، حرّض أهلَ العراق بصِفّين يومئذ ، فقال . إن المسلم [السليم][٢] مَنْ سَلِم دينُه ورأيه ، وإنّ هؤلاء القوم ـ والله ـ ما إنْ يقاتلوننا على إقامة دين رأوْنا ضيّعناه ، ولا على إحياء حق رأوْنا أمتْناه ؛ ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ، ليكونوا فيها جبابرةً وملوكا ؛ ولو ظهرُوا عليكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ـ إذاً لو ليَكم[٣] مثلُ سعيد والوليد وعبد الله[٤] بن عامر السّفيه ، يحدّث أحدُهم فى مجلسه بذَيْت وذَيْت[٥] ، ويأخذُ مال الله ويقول : لا إثم علىّ فيه ؛ كأنما أعطِى تراثَه من أبيه ، كيفَ ! إنما هو مالُ الله ، أفاءه علينا بأسيافِنا ورماحنا ؛ قاتلوا عبادَ الله القومَ الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا تأخذكم فيهم[٦] لومة لائم ؛ إنهم إن يظهروا عليكم يُفسدوا عليكم دينَكم ودنياكم ؛ وهمْ مَنْ قد عرفتم وجرّبتم ؛ والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شرًّا ؛ وأستغفر الله العظيم لى ولكم[٧] .

* * *

قال نصر : وارتجز عمْرو بن العاص ؛ وأرسل بها إلى علىّ :

---

(١) صفين ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

(٢) من صفين .

(٣) صفين : « ألزموكم » .

(٤) سعيد بن العاص والى عثمان على الكوفة بعد الوليد بن عقبة ؛ ووالى معاوية على المدينة . والوليد ابن عقبة ، أخو عثمان لأمه ؛ ولاه عثمان على الكوفة ثم عزله عنها لشربه الخمر . وعبد الله بن عامر بن كريز ابن خال عثمان ، والى عثمان ومعاوية على البصرة .

(٥) ذيت وذيت ؛ كناية عن الحديث ؛ مثل : « كيت وكيت » .

(٦) صفين : « فى جهادهم » . وفى ج : « فيه » .

(٧) صفين ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

لا تأمَنَنّا بعدها أبا حَسَنْ ... إنا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ[١]

ويروى : * خُذْها إليك واعلَنْ أبا حَسَنْ *

لتصبحنْ مثلها أم لُبُنْ[٢] ... طاحِنَةً تدقكمْ دَقَّ الحَفَنْ[٣]

قال : فأجابه شاعر من شعراء أهل العراق :

ألا احذرُوا فى حربكم أبا حسَنْ ... ليثاً أبا شِبْلَيْن محذُور فَطِنْ

يدقكمْ دَقَّ المهارِيسِ الطَّحُنْ[٤] ... لتُغْبَنُنْ ياجاهلا أىَّ غبَنْ

* حتى تعَضّ الكفَّ أو تقرَع سِنْ[٥] *

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الشعبى أن أول فارسَين التقيا فى هذا اليوم ــ وهو اليوم السابع من صَفَر ، وكان من الأيام العظيمة فى صِفّين ، ذا أهوال شديدة ــ حُجْر الخير وحُجْر الشرّ ؛ أما حُجْر الخير فهو حُجْر بن عدىّ ، صاحب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وأما حُجْر الشرّ فابن عمه ؛ كلاهما من كِنْدة ، وكان من أصحاب[٦] معاوية ، فاطّعنا برمحيهما ، وخرج رجلٌ من بنى أسَد ؛ يقال له خزيمة ، من عسكر معاوية ، فضرَب حُجْر بن عدىّ ضربةً برمحه ، فحمَل أصحابُ علىّ عليه السلام فقتلوا خزيمة الأسدىّ ، ونجا حُجْر الشرّ هاربا ، فالتحق بصفّ معاوية . ثم برز حُجْر الشرّ

(١) إمرار الرسن : إحكام فتله ، وفى صفين : « نمر الحرب » .
(٢) اللبن : جمع لبون ؛ وهى ذات اللبن من الإبل .
(٣) الحفن : جمع حفنة ؛ وهى ملء الكفين من الشىء اليابس .
(٤) المهاريس : جمع مهراس ؛ وهو حجر مستطيل منقور يهرس به الحب .
(٥) بعده فى صفين ٢٧٤ :

* ندامةً أن فاتكمْ عدُّ السُّنَنْ *

(٦) صفين : « وكان مع معاوية » .

ثانية ، فبرز إليه الحكَم بن أزهر من أهل العراق ؛ فقتله حُجْر الشرّ ؛ فخرج إليه رفاعة ابن ظالم الحميرىّ ، من صفّ العراق فقتله ، وعاد إلى أصحابه يقول : الحمد لله الذى قُتل حُجْر الشرّ بالحكَم بن أزهر .

ثم إن عليا عليه السلام دعا أصحابه إلى أنْ يذهب واحد منهم بمصحَفٍ كان فى يده إلى أهل الشام، فقال : مَنْ يذهب إليهم ، فيدعوهم إلى مافى هذا المصحف ؟فسكت الناس؛ وأقبل فتًى اسمه سعيد ؛ فقال : أنا صاحبُه ؛ فأعادالقول ثانية ، فسكت الناس ،وتقدم الفتى، فقال : أنا صاحبه ، فسلّمه إليه فقبضه بيده ؛ ثم أتاهم فأنشدهم(١) الله ، ودعاهم إلى مافيه فقتلوه ؛ فقال علىّ عليه السلام لعبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ : احمِلْ عليهم الآن . فحمَل عليهم بمن معه من أهل الميمنة ، وعليه يومئذ سَيْفان ودرعان ؛ فجعل يضرب بسيفه قُدُما ، ويقول :

لَمْ يَبْقَ غيرُ الصَّبْرِ والتَّوكُّلْ ... والتُّرسِ والرمحِ وسيفٍ مِقْصَلْ(٢)

ثم التمشّى فى الرَّعيلِ الأوّلْ ... مَشْىَ الجمالِ فى حياضِ المنهلْ(٣)

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية ؛ والذين بايعوه إلى الموت ، فأمرهم أن يصمُدوا لعبد الله بن بُدَيل ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفِهْرىّ وهو فى الميسرة ، أن يحملَ عليه بجميع مَنْ معه ، واختلط النّاس ، واضطرم الفيلقان ؛ ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام ؛ وأقبل عبدُ الله بن بُدَيل يضرب الناس بسيفه قُدُماً ؛ حتى أزال معاوية عن موْقفه وجعل ينادى : ياثاراتِ عثمان ! وإنما يعنى أخًا له قد قتل ؛ وظن معاوية وأصحابُه أنه يعنى عثمان بن عفان ؛ وتراجع معاوية عن مكانه القَهْقَرَى كثيراً وأشفق على نفسه ؛ وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية ، وثالثة ، يستنجده ويستصرخه ، ويحمل حبيب حملةً

---

(١) ج : « ناشدهم » .

(٢) فى الأصول : « مصقل » وما أثبته من صفين .

(٣) بعده فى صفين :

* والله يَقْضِى مايشا وَيفْعَلْ *

شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق ، فكشفها حتى لم يبق مع ابن بُديل إلا نحو مائة إنسان من القرّاء ، فاستند بعضهم إلى بعض ، يحمُون أنفسهم ، ولجج ابن بديل فى النّاس وصمم على قتل معاوية ، وجعل يطلُب موقفه ، ويصمد نحوه ؛ حتى انتهى إليه ؛ ومع معاوية عبد الله بن عامر واقفاً، فنادى معاوية فى الناس[1] : وَيْلَكُم الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح . فرضَخَه الناس بالصَّخر والحجارة ، حتى أثخنُوه فسقط ، فأقبلوا عليه بسيوفهم، فقتلوه .

وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه ؛ فأمّا عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه ، وترحّم عليه ؛ وكان له أخا صديقاً من قبلُ ، فقال معاوية : اكشف عن وجهه فقال : لا والله لا يُمثّل به وفىّ روح ! فقال معاوية : اكشف عن وجهه فإنا لا نمثّل به ؛ قد وهبناه لك . فكشف ابن عامر عن وجهه ، فقال معاوية : هذا كبْش القوم وربّ الكعبة ، اللهم أظفِرْنى بالأشتر النخعى والأشعث الكندىّ ! والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر[2] :

أخُو الحَرْب إن عَضّت به الحربُ عَضّها ... وإن شمّرَتْ عن ساقِها الحربُ شمّرَا
ويحمِى إذا ما الموتُ كان لقاؤه ... قِدَى الشِّبْر يحمى الأنفَ أن يتأخّرا[3]
كليثٍ هِزَبْرٍ كان يحمى ذِمَارَهُ ... رمَتْه المنايا قَصْدَها فتقطّرا[4]

ثم قال : إنّ نساء خُزاعة لو قدرت على أنْ تقاتلنى فَضْلا عن رجالها ، لفعلت[5] .

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمرو[6] ، عن أبى رَوْق ، قال : استعلى أهلُ الشام عند قتل ابن بُديل على أهل العراق يومئذ ، وانكشف أهلُ العراق من قِبَل الميمنة ، وأجفَلوا إجفالًا[7]

(١) ا ، ب ، صفين : « بالناس » ، وما أثبته من ج .
(٢) هو حاتم الطائى ، ديوانه ١٢١ .
(٣) قدى الشبر : قدره .
(٤) تقطر : خر صريعاً .
(٥) صفين ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
(٦) هو عمرو بن شمر .
(٧) صفين : « وانجفل الناس عليهم » .

شديداً ، فأمر علىّ عليه السلام سَهل بن حُنَيف ، فاستقدم مَن كان معه ، ليرفُد الميمنة ويُعَضّدها ، فاستقبلهم جموعُ أهل الشام فى خَيْلٍ عظيمة ، فحملتْ عليهم ، فألحقتهم بالميمنة ، وكانت ميمنةُ أهلِ العراق متصلةً بموقف علىّ عليه السلام فى القَلْب فى أهل اليمن ، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علىّ عليه السلام ، فانصرف يمشى نحو الميسرة ، فانكشف مُضَر عن الميسرة أيضاً ، فلم يبق مع علىّ عليه السلام من أهل العراق إلا ربيعة وحدها فى الميسرة(١) .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو ، قال: حدثنا مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : لقد مَرّ علىّ عليه السلام يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة ، ومعه ربيعة وحدها ، وإنّى لأرى النَّبل يمرّ بين عاتقه ومَنكِبيه ، وما من بنيه إلا مَن يقيه بنفسه ، فيكره علىّ عليه السلام ذلك ، فيتقدّم عليه ، ويحول بينه وبين أهل الشام ويأخذه بيده إذا فعل ذلك ، فيلقيه من ورائه ، ويبصر به أحمر مولى بنى أمية ، وكان شجاعاً ، وقال علىّ عليه السلام : وربِّ الكعبة ، قتلنى الله إن لم أقتلك ! فأقبل نحوه ، فخرج إليه كَيْسان مولى علىّ عليه السلام ، فاختلفا ضربتين ، فقتله أحمر ، وخالط عليًّا ليضربَه بالسيف ؛ وينتهزه علىّ ، فتقع يده فى جَيْب دِرْعه ، فجذبه عن فرسه ، فحمله على عاتقه ؛ فوالله لكأنّى أنظرُ إلى رِجلَىْ أحمر تختلفان على عُنق علىّ ، ثم ضرب به الأرض ، فكسر مَنكِبه وعَضُديْه ، وشدّ ابنا علىّ : حسين ومحمد فضرباه بأسيافهما حتى برَد ، فكأنّى أنظر إلى علىّ قائماً ، وشبلاه يضربان الرّجل حتى إذا أتيا عليه ، أقبلا على أبيهما ، والحسن قائم معه ، فقال له علىّ : يابنىّ ؛ مامنعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟ فقال : كَفَيانى ياأمير المؤمنين .

---

(١) صفين ٢٨٠ .

قال : ثم إنّ أهل الشام دنَوْا منه يريدونه ؛ والله ما يزيدُه قربهم منه ودنوّهم إليه سرعة فى مشيته ؛ فقال له الحسن : ما ضرّك لو أسرعت حتى تنتهىَ إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك ؟ قال : يعنى ربيعة الميسرة — فقال علىّ : يا بنىّ إنّ لأبيك يوماً لن يعدُوَه ولا يبطئ به عنه السعْى ، ولا يقرّبه إليه الوقوف ؛ إن أباك لا يبالى[1] ؛ إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن أبى إسحاق قال : خرج علىّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين ، وفى يده عَنَزة[3] ، فمرّ على سعيد بن قيس الهمْدانىّ ، فقال له سعد : أما تخشى يا أمير المؤمنين أنْ يغتالك أحدٌ وأنت قُرْب عَدوّك ؟ فقال علىّ عليه السلام : إنّه ليس من أحد إلا وعليه من الله حَفَظة يحفظونه من أن يتردّى فى قَليب[4] ، أو يخرّ عليه حائط ، أو تصيبه آفة ؛ فإذا جاء القَدَر خَلَّوا بينه وبينه[5] .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن فُضَيل بن خَديج ، قال : لما انهزمتْ ميمنةُ العراق يومئذ أقبلَ علىّ عليه السلام نحو الميسرة يركض ؛ يستثيب[6] الناس ويستوقفهم ، ويأمرُهم بالرجوع نحو الفَزَع ، فمرّ بالأشتر ، فقال : يامالك ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ائت هؤلاء القَوم ، فقل لهم : أين فِراركم من الموت الذى لن تُعجزوه ، إلى الحياة التى لاتَبقَى لكم ! فمضى الأشتر ، فاستقبل الناس منهزمين ، فقال لهم الكلمات ، وناداهم : إلىّ أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، يكرّرها ، فلم يَلْوِ أحدٌ منهم عليه ، وظنّ أنّ

---

(١) صفين : « ما يبالى وقع عليه الموت » .
(٢) صفين ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٣) العنزة : رمح صغير فى أسفله زج .
(٤) القليب : البئر العادية القديمة .
(٥) صفين ٢٨٢ .
(٦) يستثيب الناس : يسترجعهم .

« الأشتر » أعرفُ فى الناس من « مالك بن الحارث » ، فجعل ينادى : ألا أيها الناس ، فأنا الأشتر ؛ فانقلبَ نحوه طائفةٌ ، وذهبت عنه طائفة ؛ فقال : عَضَضْتُمْ بِهَنِ أبيكم ! ما أقبح والله ما فعلتم(١) اليوم ! أيّها الناس ، غُضّوا الأبصار ، وعَضّوا على النواجذ ، واستقبلوا القوم بهامِكم وشدُّوا عليهم شدّة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم ، حَنَقاً على عدوّهم . قد وطّنُوا على الموت أنفسَهم كى لا يُسبقوا بثأر . إنّ هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم ، ليطفئوا السُّنّة ، ويحيُوا البِدْعة ، ويُدخلوكم فى أمرٍ(٢) قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة ، فطِيبوا عبادَ الله نفساً بدمائكم دون دينكم ؛ فإنّ الفِرار فيه سَلْبُ العِزّ والغَلَبة على الفىء ، وذلّ المحيا والممات ، وعارُ الدنيا والآخرة ، وسَخَط الله وأليم عقابه .

ثم قال : أيّها الناس ، أخلصوا إلىّ مَذحِجاً ، فاجتمعت(٣) إليه مذحِج فقال لهم : عَضَضْتُم بِصُمّ الجندل ! والله ما أرضيتم اليوم ربّكم ، ولا نصحتم له فى عَدُوّه ، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات ، وفِتيان الصباح ، وفرسان الطِّراد ، وحُتوف الأقران ، ومذحِج الطِّعان ؛ الذين لم يكونوا سُبِقوا بثأرهم ، ولم تُطَلّ دماؤهم ، ولم يعرفوا فى موطنٍ من المواطن بخسفٍ ! وأنتم سادة مِصْركم(٤) ، وأعزّ حَىّ فى قومكم ؛ وما تفعلُوا فى هذا اليوم فهو مأثُورٌ بعد اليوم ؛ فاتقوا مأثُور الحديث فى غدٍ ، واصدقوا عدوّكم اللقاء ؛ فإنّ الله مع الصابرين ؛ والذى نفس مالكٍ بيده ما من هؤلاء — وأشارَ بيده إلى أهلِ الشام — رجلٌ على مثل جَناح البعوضة من دين الله ، لله أنتم ! ما أحسنتم اليوم القِراع ، احْبِسوا سوادَ وجهى يرجعْ فيه دمى ، عليكم هذا السواد الأعظم ، فإن الله لو قد فَضّه تبعه من بجانبيه كما يتْبَع السيل مقدّمه .

(١) صفين : « ما قاتلتم اليوم » وفى الطبرى : « ما قاتلتم منذ اليوم » .
(٢) ج : « دين » . (٣) الطبرى : « فأقبلت إليه مذحج » .
(٤) صفين : « وأنتم أحد أهل مصركم » .

فقالوا : خذ بنا حيث أحببتَ ، فصمَد بهم نحو عُظْمِهم واستقبله أشباهُهم من هَمْدان ؛ وهم نحو ثمانمائة مقاتل قد انهزموا آخرَ الناس ، وكانوا قد صبَروا فى ميمنة علىّ عليه السلام ؛ حتى قُتِل منهم مائة وثمانون رجلا ، وأصيب منهم أحدَ عشر رئيسا ، كلما قتِل منهم رئيس أخذ الراية آخر ، وهم بنو شُرَيح الهمْدانيون وغيرهم من رؤساء العشيرة ، فأوّل مَنْ أصيب منهم كُريب بن شريح ، وشرحبيل بن شريح ، ومرثد بن شريح ، وهبيرة بن شريح ، وهريم[1] بن شريح ، وشِمر بن شُريح ، وشَمِر بن شريح ، قتل هؤلاء الإخوة الستّة فى وقت واحد .

ثم أخذ الراية سفيان بن زيد ، ثم كرب بن زيد ، ثم عبد[2] بن زيد ، فقُتِل هؤلاء الإخوة الثلاثة أيضا ، ثم أخذ الراية عمير بن بشر ، ثم أخوه الحارث بن بشر ، فقتلا جميعا ، ثم أخذ الراية أبو القلوص وهب بن كُريب ، فقال له رجل من قومه : انصرف يرحمك الله بهذه الراية ، ترَحها الله فقد قُتِل الناس حَوْلها ، فلا تقتل نفسَك ، ولا مَنْ بقى معك . فانصرفوا وهم يقولون : ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا على الموت ، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نظفر أو نقتل ، فمرّوا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر : أنا أحالفكم وأعاقِدكم على ألّا نرجع أبدا ؛ حتى نظفَر أو نهلِك ، فوقفوا معه على هذه النيّة والعزيمة ، فهذا معنى قول كَعْب بن جُعَيل :

* وهمدان زُرْقٌ تبتغِى مَنْ تحالفُ *

قال : وزحف الأشترُ نحو الميمنة ، وثاب إليه أناس تراجَعُوا من أهل الصبر[3] والوفاء

---

(١) الطبرى : « يريم » .
(٢) كذا فى صفين وتاريخ الطبرى .
(٣) صفين : « من أهل البصيرة » .

والحياء ، فأخذ لا يصمدُ لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه ورده ،[1] فإنه لكذلك إذا مرّ بزياد بن النضر مستلحِما ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، هذا والله الفعل الكريم إلىّ ، وقد كان هو وأصحابه فى ميمنة العراق ، فتقدم فرفع رايتَه لهم ، فصبروا وقاتل حتى صُرِع[1] ، ثم لم يلبث الأشتر إلا يسيرا كَلَا شىء حتى مَرّ بهم[2] يزيد بن قيس الأرحبىّ[3] مستلحِما أيضاً محمولا ، فقال الأشتر : مَنْ هذا ؟ قالوا : يزيد بن قيس ، لما صُرِع زياد بن النضر دَفَع رايتَه لأهل الميمنة ، فقاتل تحتها حتى صُرِع ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، هذا والله الفعل الكريم ، ألا يستحيى الرجلُ أن ينصرف لا يَقْتُل [ولم يُقْتَل][3] ولم يُشْفَ به على القتل[4] !

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو عن الحارث بن الصبّاح[5] ، قال : كان بيدِ الأشتر يومئذ صفيحة له يمانية ، إذا طأطأها خِلْت فيها ماء ينصبّ ، وإذا رفعها يكاد يُغْشِى البصرَ شُعاعها ؛ ومرّ يضرب الناس بها قُدُما ، ويقول :

* الغَمَرات ثُم ينْجَلينا[6] *

(١ ـ ١) ا صفين : « فإنه لكذلك إذ مر بزياد بن النضر يحمل إلى العسكر ، فقال : من هذا ؟ قيل : زياد بن النضر ، استلحم هو وأصحابه فى الميمنة ، فتقدم زياد ؟ فرفع لأهل الميمنة رايته ؟ فقاتل حتى صرع » .

(٢) صفين : « حتى مروا بيزيد بن قيس محمولا » .

(٣) من صفين ، وفى الطبرى : « لا يقتل ولا يقتل ، ولا يشفى به على القتل » .

(٤) صفين ٢٨٢ ـ ٢٨٦ ، والطبرى ٥ : ١٩ ـ ٢٢ .

(٥) صفين والطبرى : « الحر بن الصباح » .

(٦) هو مثـل ؛ رواه العسكرى فى الأمثال ١٥٠ ، وقال : الغمرات : الشدائد ؛ يقول : اصبر فى الشدائد فإنها تنجلى وتذهب ، ويبقى حسن أثرك فى الصبر عليها ؛ وهو قول الراجز :

الغمرات ثم يَنْجَلِينْ   عَنّا وَيَنْزِلْن بآخرِينْ

* شدائدُ يتبعهنّ لِينْ *

وفى مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٥٨ : المثل للأغلب العجلى ، ورواه : « الغمرات ثم ينجلين »

قال : فيصر به الحارث بن جُمْهان الجعفيّ ، والأشتر مقنّع فى الحديد فلم يعرفه ، فدنا منه ، وقال له : جزاك الله منذ اليوم عن أمير المؤمنين وعن جماعة المسلمين خيرا. فعرفه الأشتر فقال : يابن جُمهان ، أمثلك يتخلّف اليوم عن مثل موطنى هذا ! فتأمله ابن جُمْهان فعرفه — وكان الأشترُ من أعظمِ الرجال وأطولهم ؛ إلا أن فى لحيته خِفّة قليلة — فقال له : جعلت فداك ! لا والله ما علمتُ مكانَك حتى الساعة ، ولا والله لا أفارقك حتى أموتَ .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن الحارث بن الصبّاح، قال : رأى الأشترُ يومئذ مُنقذا وحِميرا ابنى قَيس اليقظيان[1] فقال منقذ لحِمير : ماف العرب رجلٌ مثل هذا! إن كان ماأرى من قتاله على نية[2] ! فقال له حِمير : وهل النيّة إلا ما ترى ! قال : إنّى أخافُ أن يكون يحاول مُلْكا[3] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن فُضَيل بن خَدِيج ، عن مولى الأشتر قال : لما اجتمع مع الأشتر عُظْمُ من كان انهزم من الميمنه ، حرّضهم ، فقال لهم :

عَضّوا[4] على النَّواجِذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامِكم؛ فإن الفِرارَ من الزّحف [فيه] ذهابُ العزّ ، والغلبة على الفئ ، وذلّ المحيا والممات ؛ وعار الدنيا والآخرة[5] .

---

(١) الطبرى : « الناعطيان » .

(٢) صفين . « على نيته » .

(٣) صفين ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، الطبرى ٦ : ٢٢ .

(٤) من صفين .

(٥ — ٥) الخطبة كما وردت فى تاريخ الطبرى : « عضوا على النواجذ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامكم ، وشدوا شدة قوم موتورين ، ثأراً بآبائهم وإخوانهم حناقاً على عدوهم ، قد وطنوا على الموت أنفسهم ؛ كيلا يسبقوا بوتر ، ولا يلحقوا فى الدنيا عاراً ؛ وايم الله ما وتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم ؛ وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليميتوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويعيدوكم فى ضلالة ، قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم ، دون دينكم؛ فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ؛ وإن الفرار من الزحف فيه السلب للعز والغلبة على الفىء ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة » .

ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشفهم، فألحقهم بمضارب معاوية؛ وذلك بين العصر والمغرب .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أنّ عليا عليه السلام لما رأى ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافّها، وكشفت مَنْ بإزائها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم ، أقبلَ حتى انتهى إليهم ، فقال :

إني قد رأيت جَوْلتكم وانحيازَكم من صفوفكم ، يحُوزكم[1] الجفاة الطغاة[2] ، وأعراب أهل الشام ، وأنتم لهاميم العرب ، والسَّنام الأعظم ، وعُمّار الليل بتلاوة القرآن؛ وأهلُ دعوة الحقّ إذ ضلّ الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجَب على المولّي يوم الزّحف دُبُره ، وكنتم فيما أرى من الهالكين؛ ولقد هوّن على بعضَ وجدي ، وشفَى بعضَ لاعج[3] نفسي ، أني رأيتكم بأخَرَة ، حُزْتموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم ، تحُسّونهم[4] بالسيوف ، يركب أولُهم آخرَهم ، كالإبل المطرودة الهِيم[5] ، فالآن فاصبروا ، نزلت عليكم السكينة وثبتكم الله باليقين ؛ وليعلم المنهزم أنّه يُسخط ربّه ، ويوبق نفسَه ؛ وفي الفرار موجِدة الله عليه ، والذلّ اللازم له ، وفساد العيش . وإن الفارّ لا يزيد الفِرارُ في عُمره ، ولا يرضِي ربّه ، فموت الرجل محقّاً قبل إتيان هذه الخِصال ، خير من الرضا بالتلبّس بها ، والإصرار عليها .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا أبو علقمة الخثعميّ ، أن عبدالله بن حنش الخثعميّ ، رأس خثعم الشام ، أرسل إلى أبي كعب الخثعميّ رأس خثعم العراق : إن شئت تواقفنا فلم نقتتل ، فإن ظهر صاحبُكم كنّا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا، ولا يقتل

---

(١) يحوزكم : ينحيكم عن مراكزكم .

(٢) صفين : « الطغام » .

(٣) صفين : « أحاح نفسي » ، والأحاح . اشتداد الحزن والغيظ .

(٤) صفين : « تحوزونهم » .

(٥) الهيم : العطاش .

بعضُنا بعضا ، فأبى أبو كعب ذلك . فلما التقتْ خثعم وخثعم ، وزحف الناس بعضهم إلى بعض ،قال عبدالله بن حنش لقومه :يامعشر خَثْعم ! إنا قد عرضنا على قومنامن أهل العراق الموادَعة ؛ صِلَةً لأرحامها ، وحفظا لحقها ، فأبوا إلا قتالَنا ، وقد بدأونا بالقطيعة، فكُفُّوا أيديَكم عنهم حِفْظاً لحقهم أبدا ما كَفُّوا عنكم؛فإن قاتلوكم فقاتِلُوهم. فخرج رجل من أصحابه فقال : إنّهم قد ردّوا عليك رأيك،وأقبلوا إليك يقاتلونك ، ثم برز. فنادى رجل : ياأهل العراق . فغضب عبد الله بن حنش،قال : اللهم قَيِّض له وهبَ بن مسعود — يعني رجلا من خثعم الكوفة ، كان شجاعا يعرفونه فى الجاهلية ، لم يبارزه رجل قطّ إلا قتله — فخرج إليه وهب بن مسعود فقتله، ثم اضطربوا ساعة،واقتتلوا أشدّ قتال؛ فجعل أبو كعب يقول لأصحابه؛يامعشرَ خثعم :خَدِّموا،أي اضرِبوا موضع الخَدَمة؛وهى الخلخال؛يعني اضربوهم فى سُوقهم ؛ فناداه عبد الله بن حنش : ياأبا كعب ، الكُلُّ قومك فأنصف ، قال : إى والله وأعْظِم . واشتدّ قتالهم ، فحمل شِمر بن عبد الله الخثعمىّ ، من خثعم الشام، على أبى كعب ، فطعَنه فقتله ، ثم انصرف يبكى ، ويقول : يرحمك الله أبا كعب ! لقد قتلتُك فى طاعة قوم أنت أمسّ بى رحِماً منهم ، وأحبُّ إلىّ منهم نفساً ؛ ولكنى والله لا أدرى ما أقول ؛ ولاأرى الشيطان إلاقد فَتَننا ، ولاأرى قريشا إلاوقد لَعِبت بنا ! قال :ووثبَ كعب بن أبى كعب إلى راية أبيه ، فأخذها ففقئت عينه وصرع ؛ ثم أخذها شريح بن مالك الخثعمىّ ، فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلا ،وأصيب من خَثْعم الشام مثلُهم ، ثم ردّها شريح بن مالك بعد ذلك إلى كعب بن أبى كعب(١)

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنا عبد السلام بن عبدالله بن جابر ، أن رايةَ بَجيلة فى صِفِّين مع أهل العراق كانت فى أحمس مع أبى شداد ، قيس بن المكشوح بن

(١) صفين ٢٩١ .

هلال بن الحارث بن عمرو بن عوف[١] بن عامر بن علىّ بن أسلم بن أحمس بن الغوث بن أنمار . قالت له بَجيلة : خذ رايتنا ، فقال: غيرى خيرٌ لكم مِنّى ، قالوا : لانريدُ غيرك ، قال : فوالله لئن أعطيتُمونيها لاأنتهى بكم دونَ صاحب الترس المذهَّب ، قالوا : وكان على رأس معاوية رجلٌ قائم معه تُرْس مُذهَّب ، يستره من الشمس ، فقالوا: اصنع ماشئت ، فأخذَها ثم زَحَف بها[٢] ، وهم حوله يضربون الناس ، حتى انتهى إلى صاحب التُّرس المذهب ، وهو فى خَيْلٍ عظيمةٍ من أصحاب معاوية ، وكان عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، فاقتتل الناسُ هناك قتالا شديدا ، وشدّ أبو شدّاد بسيفه نحو صاحب التُّرس ، فتعرّض له رومىّ من دونه لمعاوية ، فضرب قدم أبى شَدّاد فقطعها ، وضرب أبو شداد ذلك الرومىّ فقتله ، وأسرعت إليه الأسنّة ، فقتِل فأخذ الراية بعده عبد الله بن قَلَع الأحمسىّ ، وارتجز وقال :

لايُبعِدِ الله أبا شدادِ ... حيث أجابَ دَعْوة المنادِى
وشدّ بالسيف على الأعادِى ... نِعْمَ الفتى كان لدَى الطِّرادِ

* وفى طعان الخيل والجلادِ *

ثم قاتل حتى قتل ، فأخذها بعده أخوه عبد الرحمن بن قَلَع ، فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها عفيف بن إياس الأحمسىّ ، فلم تزل بيده حتى تحاجز الناس[٣] .

***

(١) صفين : « عمرو بن عامر » ، الطبرى : « عمرو بن جابر » .
(٢) فى صفين : ثم زحف وهو يقول :

إنّ عَليًّا ذو أناة صارمُ ... جَلْدٌ إذا ماحَضَر العزائمُ
لما رأى ماتفعَل الأشائمُ ... قامَ له الذِّرْوَة والأكارمُ

* الأشيبان : مالكٌ وهاشمِ *

(٣) صفين ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، الطبرى ٥ : ٢٥ ، ٢٦ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا عبد السلام ، قال : قُتِل يومئذ من بنى أحمس حازم بن أبى حازم ، أخو قيس بن أبى حازم ، ونعيم بن شهيد بن التَّغْلَبيّة [1] ، فأتى نَمِيمُ ، ابن عمه نعيم بن الحارث بن التغلبيّة [1] معاوية — وكان من أصحابه — فقال : إن هذا القتيل ابنُ عمى ؛ فهبه لى أدفنه ، فقال : لا تدفنوهم ؛ فليسوا لذلك بأهل ، والله ماقدرنا على دَفْن عثمان بينهم إلا سرًّا ، قال [2] : والله لتأذَنّ لى فى دفنه أو لألحقَنّ بهم ولأدعنّك، قال : ويحك ! ترى أشياخ العرب لانُواريهم ، وأنت تسألنى فى دَفْن ابن عمك ! ادفنه إن شئت ، أودعه [3]. فأتاه فدفنه [4].

* * *

قال نصر : وحدثنا عَمْرو ، قال : حدثنا أبو زهير العبسىّ ، عن النضر بن صالح،أنّ راية غطفان العراق كانت مع عَيّاش بن شريك بن حارثة بن جُندَب بن زيد بن خلَف ابن رواحة ،فخرج رجلٌ من آل ذى الكَلاع ، فسأل المبارزة ، فبرز إليه قائد بن بكير العبسىّ ، فبارزه فشدّ عليه الكَلاعىّ ، فأوْهَطه [5] ، فقال أبو سُلَيم عَيّاش بن شريك لقومه [6] : إنى مبارزٌ هذا الرجل ، فإن أصِبْت فرأسكم الأسود بن حبيب بن جُمانة ابن قيس بن زهير ، فإن أصِيب فرأسكم هَرِم بن شتير بن عمرو بن جُندَب ، فإن أصِيب فرأسكم عبدالله بن ضرار ،من بنى حنظلة بن رواحة. ثم مشى نحو الكَلاعى فلحقه هرم بن شتير فأخذ بظهره،وقال : ليَسَكْ رحم ،لاتبرُزْ إلى هذا الطُّوال، فقال: هبلتك الهَبول [7] ! وهل هو إلا الموت! قال : وهل الفرار إلا منه ! قال: وهل منه بدّ ! والله لأقتلنّه ، أو لَيُلحقَنّى

(١) صفين والطبرى : « ابن الغلبة » .
(٢) ج : « فقال » .
(٣) الطبرى : « أودع » .
(٤) صفين ٢٩٣ ، الطبرى ٥ : ٢٦ .
(٥) أوهطه : صرعه .
(٦) صفين : « فخرج إليه عباس بن شريك أبو سليم فقال لقومه » .
(٧) الهبول ، بفتح الهاء : التى لا يبقى لها ولد .

بقائد بن بكير . فبرز له ومعه حَجَفة من جُلود الإبل فدنا منه ؛ فإذا الحديد مُفرغ على[1] الكلاعيّ لا يبين من نحره إلا مثل شِراك النعل من عنقه بين بَيضته ودرعه ، فضربه الكلاعيّ ، فقطع جحفتَهُ إلا نحواً من شِبْر ، فضَرَبه عيّاش على ذلك الموضع ؛ فقطع نخاعه ، فقتله ، وخرج ابنُ الكلاعيّ ثائراً بأبيه ، فقتله بُكير بن وائل[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ؛ عن الصَّلت بن زُهير النهديّ أنّ راية بني نَهْد بالعراق أخذها مسروق بن الهيثم بن سلمة فقتل ، ثم أخذها صخر بن سُمَيّ فارتُثّ[3] ، ثم أخذها على بن عمير ، فقاتل حتى ارتُثّ . ثم أخذها عبد الله بن كعب فقتِل ، ثم أخذها سلمة بن خُذَيم بن جرثومة ، فارتُثّ وصرع ، ثم أخذها عبد الله بن عمرو بن كبشة ، فارتُثّ ، ثم أخذها أبو مُسبّح بن عمرو فقتل ، ثم أخذها عبد الله بن النزّال فقتِل ، ثم أخذها ابن أخيه عبد الرحمن بن زهير ، فقتِل ، ثم أخذها مولاه مخارق فقتل ؛ حتى صارت إلى عبد الرحمن بن مِخنَف الأزدي[4] .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو : قال : حدثنا الصَّلت بن زهير ، قال : حدثني عبد الرحمن بن مِخنف ، قال : صرع يزيد بن المغفّل إلى جنبي ، فقتلتُ قاتلَه وقمت على رأسه ، ثم صُرِع أبو زينب بن عروة ، فقتلتُ قاتلَه ، وقمت على رأسه وجاءني سفيان بن عوف ، فقال : أقتلتم يزيد بن المغفل ؟ فقلت : إي والله

(١) صفين : « فنظر عياش بن شريك ؛ فإذا الحديد عليه مفرغ لا يرى منه عورة » .
(٢) صفين ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(٣) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من الحرب جريحاً ولم يقتل .
(٤) صفين ٢٩٥ .

إنه لَهذا الذى ترانى قائماً على رأسه ، قال : ومَنْ أنت حيّاك الله ! قلت : أنا عبد الرحمن ابن مِخنف ، فقال : الشريف الكريم ! حيّاك الله ومرحبا بك يابن عمّ ! أفلا تدفعه إلىّ ، فأنا عمّه سفيان بن عوف بن المغفل ! فقلت : مرحبا بك ، أما الآن فنحن أحقّ به منك ، ولسنا بدافعيه إليك ؛ وأمّا ما عدا ذلك فلَعَمْرِى أنت عمّه ووارثه[1] .

***

قال نصر : حدثنا عمرو ، قال : حدّثنا الحارث بن حصَين ، عن أشياخ الأزد ، أنّ مِخنف بن سُلَيم ، خطب لما نُدِبَتْ أزدُ العراق إلى قتال أزد الشام ، فقال :

الحمد لله ، والصلاة على محمد رسوله ، ثم قال : إنّ من الخطب الجليل ، والبلاء العظيم ، أنّا صُرِفنا إلى قومنا ، وصُرِفوا إلينا ؛ والله ما هى إلا أيدينا نقطعُها بأيدينا ، وما هى إلا أجنحتنا نحذفُها بأسيافنا ، فإن نحن لم نفعل لم نُنَاصِح صاحبَنا ، ولم نواس جماعتَنا ، وإن نحن فعلنا ، فعزّنا آلمنا[2] ، ونارَنا أخمدنا .

وقال جُندَب بن زهير الأزدىّ : والله لو كنا آباءهم وَلَدْناهم ، أو كانوا آباءنا وَلَدُونا ، ثم خرجوا عن جماعتنا ، وطَعَنُوا على إمامنا ، ووازروا الظالمين الحاكمين بغير الحقّ على أهل مِلّتنا[3] ودينِنا — ما افترقنا بعد أن اجتمعنا ، حتى يرجعوا عمّا هم عليه ، ويدخلوا فيما ندعوهم إليه ، أو تكثر القتلى بيننا وبينهم .

فقال مخنف : [أعزَّ بك الله فى التيه !][4] ؛ والله ماعلمتك صغيراً ولا إلا كبيراً مشئوماً ، والله ما ميّلنا[5] فى الرأى بين أمرين قط أيّهما نأتى وأيّهما ندع فى جاهلية ولا إسلام

(١) صفين ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٢) صفين : « أبحنا » .
(٣) صفين : « وذمتنا » .
(٤) من صفين .
(٥) التمييل : الترجيح .

إلا اختارت أعسرها وأنكدها . اللهم أن تعافينا أحب إلىّ من أن تبتلينا ، اللهم أعط كلّ رجل منا ما سألك .

فتقدم جُندب بن زهير ، فبارز أزديا من أزد الشام ، فقتله الشامى[1] .

• • •

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن الحارث بن حُصين ، عن أشياخ الحىّ ، أن عتبة بن جويرة[2] قال يوم صفّين لأهله وأصحابه : ألا إنّ مرعَى الدنيا قد أصبح هَشِيا ، وأصبح شجرها خَصِيدا ، وجديدها سَمَلا ، وحلوها مُرًّا . ألا وإنّى أنبئكم نبأ امرئٍ صادق ، أنى قد سئمت الدنيا ، وعزفتْ نفسى عنها ، ولقد كنت أتمنّى الشهادة ، وأتعرض لها فى كلّ حين ، فأبى الله إلا أنْ يُبَلِّغَنى هذا اليوم ؛ ألا وإنّى متعرّض ساعتى هذه لها ، وقد طمعتُ ألا أحرَمها ، فما تنتظرون عباد الله من جهاد أعداء الله ؟ أخوفَ الموت القادم عليكم ، الذاهب بنفوسكم ! أو من ضَرْبة كفّ أو جبين بالسيف ! أتستبدلون الدنيا بالنظر إلى وجه الله ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى دار القرار ! ما هذا بالرأى السديد .

ثم قال : يا إخوتاه ، إنى قد بعتُ هذه الدار بالدار التى أمامها ، وهذا وجهى إليها ، لا يبرح الله وجوهَكم ، ولا يقطع أرحامكم .

فتبعه أخواه عبد الله وعوف ، فقالا : لا نطلب ورقَ[3] العيش دونك ، قبح الله الدنيا بعدك ! اللهم إنّا نحتسبُ أنفسنا عندك .

فاستقدَموا جميعا ، وقاتلوا حتى قتلوا[4] .

• • •

---

(١) صفين ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الطبرى ٥ : ٢٦ ، ٢٧

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « جوير » ، وفى صفين : « جويرية » ، وفى الطبرى : « عتبة بن حديد النمرى »

(٣) صفين والطبرى : « رزق الدنيا » .

(٤) صفين ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، الطبرى ٥ : ٢٧ ، ٢٨ .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدّثنى رجل من آل الصَّلْت بن خارجة ، أن تميما لما ذهبت لتُهزَم ذلك اليوم ، ناداهم مالك بن حَرِيّ النهشلىّ : ضاع الضِّراب اليوم ، والذى أنا لهُ عبدٌ[1] يابنى تميم ! فقالوا : ألاترَى الناس قد انهزموا ! فقال : ويحكم ! أفراراً واعتذاراً ! ثم نادى بالأحساب ، فجعل يكررها ، فقال له قوم منهم : أتنادى بنداء الجاهلية ! إنّ هذا لايحِلّ ، فقال : الفرار وَيْلَكم أقبح ، إنْ لم تقاتلوا على الدين واليقين فقاتلوا على الأحساب . ثم جعل يقاتل ويرتجز ، فيقول :

إنّ تميما أخلفَتْ عنك ابن مُرّْ وقد أراهم وهمُ الحىّ الصُّبُرْ

● فإن يفرّوا أو يخيموا لاأفرّْ[2] ●

فقتل مالك ذلك اليوم . وقال أخوه نهشل بن حرىّ التميمى يرثيه :

تطاولَ هذا اللّيلُ ما كادَ ينجلِى كَلَيْلِ التّمامِ مايريدُ انصِرَاما
وبتّ بذكرَى مالكٍ بكآبةٍ أؤرّق من بَعْدِ العشاء نِياما
أبَى جَزَعِى فى مالكٍ غيرَ ذكرِه فلا تعذليني إن جَزِعْت أماما
فأبكى أخى مادام صوتُ حمامةٍ يؤرّق من وادى البِطاحِ حَماما
وأبعث أنواحاً عليه بسُحْرة وتذرِفُ عيناىَ الدّموعَ سِجَاما
وأدعو سَرَاةَ الحىّ تبكى لمالكٍ وأبعث نَوْحاً يلتدِمْنَ قيَاما
يقلن : ثوَى ربُّ السماحة والحجا وذو عِزّةٍ يأبَى بها أن يُضَاما
وفارسُ خيل لاتُنَازَلُ خيلُه إذا اضطرمت نار العدوّ ضِراما
وأحيا عن الفحشاء من ذات كِلّة يرى مايهاب الصالحون حَراما

---

(١) ا ، ج : « عبده » .
(٢) عام : فر ونكص .

وأجرأ من ليث بخفّان مخـــدرٍ ... وأمضى إذا رام الرجال صداما(١)

وقال أيضا يرثيه :

بَكّي الفتى الأبيضَ البهلول سُنّتُهُ ... عندَ النِّداء ، فلا نِكْساً ولا وَرَعا(٢)

بَكّي على مالكٍ الأضياف إذْ نَزَلُوا ... حينَ الشتاء وَعزّ الرِّسْلُ فانقطعا(٣)

ولم يجِدْ لِقِرام غَـــيْرَ مُرْبِعَةٍ ... مِنَ العِشَــار تُزَجّى تحتَها رُبَعَا(٤)

أهوَى لها السيفَ صَلْتاً وَهْي رَائِمَةٌ ... فأوهن السيفُ عظمَ الساق فانجذعا

فجاءهمْ بعـــدَ رِفْدِ الناس أطيبُها ... وأشبعتْ منهُمُ من نام واضطجعا(٥)

يافارسَ الرَّوْعِ يوم الرَّوْعِ قد علمُوا ... وصاحبَ العزم لانِكْسا ولا طبِعا(٦)

ومدرِكَ التَّبْلِ فى الأعـــداء يطلبُه ... وإن طلبت بتَبْلٍ عنـــده مَنَعا(٧)

قالوا : أخُوكَ أتى الناعى بمصرَعِه ... فانشقّ قلبى غـــداة القول فانصَدَعا

ثم ارعوَى القلبُ شيئاً بعد طَرْبَتِه ... والنفس تَعلم أنْ قد أثبِتَتْ وَجَعا(٨)

***

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : حدثنى يونس بن أبى إسحاق ، قال : قال لنا أدهم

---

(١) وبعده فى صفين :

فلا تَرْجُوَنْ ذا أمّةٍ بَعْدَ مالكٍ ... ولا جازراً للمنشـــآتِ غُلَاما

وقل لهم لا يرحلوا الأدْمَ بعده ... ولا يرفعوا نحو الجيـــاد لجاما

(٢) السنة : الوجه . والورع : الجبان ، وفى صفين « أبكى » ، فى هذا البيت وتاليه .

(٣) الرسل بالكسر : اللبن.

(٤) تزجى : تسوق . والربع ، بضم ففتح : ما ولد من الإبل فى الربيع .

(٥) صفين : « وقد كفى منهم من غاب واضطجعا » .

(٦) النكس : المقصر عن النجدة .

(٧) التبل : الثأر والذحل ، والطبع : الدنىء الخلق .

(٨) الطربة : المرة من الطرب ؛ وهو هنا الحزن ؛ ويطلق أيضاً على السرور . والخبر والشعر فى صفين ٢٩٩ ـ ٣٠٢

ابن محرز الباهلىّ ، ونحن معه بأذرُح[١] : هل رأى أحدٌ منكم شمِرَ بن ذى الجوْشَن ؟ فقال عبد الله بن كُبار النهدىّ وسعيد بن حازم البَلوىّ[٢] : نحن رأيناه ، قال : فهل رأيتما ضربةً بوجهه ؟ قالا : نعم ، قال : أنا والله ضربته تلك الضربةَ بصِفّين[٣] .

قال نصر : وحدثنا عمرو ، قال : قد كان خرج أدهم بن محرِز من أصحاب معاوية إلى شَمِر بن ذِى الجوشَن فى هذا اليوم ، فاختلفا ضربتَيْن ، فضربه أدهم على جبينه ، فأسرع فيه السيفُ حتى خالط العظم ، وضربه شمِر ، فلم يصنع شيئا ، فرجع إلى عسكره ، فشرب ماء وأخذ رُمحا ، ثم أقبل وهو يقول :

إنّى زعيمٌ لأخى باهِـــلَهْ ... بطعنةٍ إن لم أمتْ عاجلَهْ[٤]

وضربةٍ تحتَ الوَغَى فاصِلَهْ[٥] ... شبيهةٍ بالقتـــلِ أو قاتِلَهْ

ثم حمل على أدهم وهو يعرِف وجهه ــ وأدهم ثابت له لم ينصرف ــ فطعنه ، فوقع عن فرسه ، وحال أصحابُه دونه ، فانصرف شمِر وقال : هذه بتلك[٦] .

قال نصر : وخرج سُويد بن قيس بن يزيد الأرحبىّ من عسكر معاوية يسأل المبارزة ، فخرج إليه من عسكر العراق أبو العمرّطة قيس بن عمرو بن عمير بن يزيد ؛ وهو ابن عمّ سويد ، وكان كلٌّ منهما لا يعرف صاحبَه ، فلما تقاربا تعارفا ، وتواقفا وتساءلا ؛ ودعا كلٌّ واحد منهما صاحبَه إلى دينه[٧] ؛ فقال أبو العمرّطة : أمّا أنا فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ لئن استطعت لأضربنّ بسيفى هذه القبة البيضاء ــ يعنى القبّة التى كان فيها معاوية ــ ثم انصرف كلّ واحد منهما إلى أصحابه[٨] .

(١) أذرح : بلد فى أطراف الشام .
(٢) صفين : « السلولى » .   (٣) صفين ٣٠٣ .
(٤) الطبرى : « إن لم أصب » .
(٥) الطبرى : « أو ضربة تحت القنا والوغى » .
(٦) صفين ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، الطبرى ٦ : ٢٨
(٧) صفين : « إلى ما هو عليه » .
(٨) صفين ٣٠٤

قال نصر : ثم خرج رجل من عسكر الشام من أزْد شنوءة ، يسأل المبارزة ، فخرج إليه رجل من أهل العراق ، فقتله الأزدىّ ، فخرج إليه الأشتر ؛ فما ألبثه أن قتَله ، فقال قائل : كان هذا ريحاً فصارت إعصارا .

قال نصر : وقال رجل من أصحاب علىّ عليه السلام : أما والله لأحملنّ على معاوية حتى أقتله ، فركب فرساً ، ثم ضربه حتى قام على سنابكه ؛ ثم دفعه فلم ينهنهه شىء عن الوقوف على رأس معاوية ، فهرب معاوية ، ودخل خِباء ، فنزل الرجلُ عن فرسه ودخل عليه ، فخرج معاوية مِنْ جانب الخباء الآخر ، فخرج الرجلُ فى أثره ، فاستصرخ معاوية بالناس ، فأحاطوا به وحالوا بينهما ؛ فقال معاوية : ويحكم ! إنّ السيوف لم يؤذَنْ لها فى هذا ، ولولا ذلك لم يصِلْ إليكم ، فعليكم بالحجارة ، فرضَخُوه بالحجارة حتى همد . فعاد معاوية إلى مجلسه .

قال نصر : وحمل رجلٌ من أصحاب علىّ عليه السلام يدعى أبا أيوب ـ وليس بأبى أيوب الأنصارى ـ على صفّ أهل الشام ، ثم رجع فوافق رجلاً من أهل الشام صادرا ، قد حمل على صفّ أهل العراق ، ثم رجع فاختلفا ضربتين ، فنفحه أبو أيوب بالسيف ، فأبانَ عنقه ، فثبت رأسُه على جسده كما هو ؛ وكذّب الناس أن يكون هو ضربه ، فأرابهم ذلك ؛ حتى إذا أدخلته فرسه فى صفّ أهل الشام ندَر رأسه ، ووقع ميتا ، فقال على عليه السلام : والله لأنا من ثبات رأس الرجل أشدُّ تعجبا من الضربة ؛ وإن كان إليها ينتهى وصفُ الواصفين [(١)] .

وجاء أبو أيوب فوقف بين يدى علىّ عليه السلام ، فقال له : أنت والله كما قال الشاعر :

وَعَلَّمَنا الضربَ آباؤنا ونحن نعلِّمُ أيضا بَنِينا

قال نصر : فلما انقضى هذا اليوم بما فيه ، أصبحوا فى اليوم الثامن من صفّين [(٢)] ، والفيلقان متقابلان ؛ فخرج رجلٌ من أهل الشام فسأل المبارزة ، فخرج إليه رجل من أهل العراق ،

(١) ج : « الواصف » ، وصفين : « وصف الضارب » .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « صفر » .

فاقتتلا بين الصفّين قتالاً شديدا . ثم إن العراقيّ اعتنقه فوقعا جميعا ، وغار الفرسان . ثم إن العراقيّ قهره ، فجلس على صدره ، وكشف المِغفر عنه ؛ يريد ذبحه ؛ فإذا هو أخوه لأبيه وأمّه ، فصاح به أصحاب عليّ عليه السلام : ويحك أجهِزْ عليه ! قال : إنه أخي ، قالوا: فاتركه ، قال : لا والله حتى يأذن أمير المؤمنين ؛ فأُخبِرَ عليٌّ عليه السلام بذلك ، فأرسل إليه أن دَعْه ، فتركه ، فقام فعاد إلى صفّ معاوية[1] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عبيد الله ، عن الجرجانيّ ، قال : كان فارسَ معاوية الذي يُعِدّه لكلّ مبارز ولكلّ عظيم ، حُرَيث مولاه ، وكان يلبَس سلاح معاوية متشبّها به فإذا قاتل قال الناس : ذاك معاوية . وإنّ معاوية دعاه ، فقال له : يا حُرَيث ، اتّقِ عليها وضَعْ رمحك حيث شئت . فأتاه عمرو بن العاص ، فقال : يا حريث ، إنك والله لو كنتَ قرشيا لأحبَّ لك معاويه أن تقتلَ عليا ، ولكن كره أن يكون لك حظُّها ؛ فإن رأيتَ فرصة فاقتحِمْ . قال : وخرج عليّ عليه السلام فى هذا اليوم أمام الخيل . فحمل عليه حُرَيث[2] .

* * *

قال نصر : فحدّثني عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : برز حُرَيث مولى معاوية هذا اليوم ؛ وكان شديداً أيّداً[3] ذا بأس لا يرام ؛ فصاح : يا عليّ ، هل لك فى المبارزة ؟ فأقدِم أبا حسن إن شئت ، فأقبل عليٌّ عليه السلام ، وهو يقول :

أنا عليٌّ وابنُ عبد المطّلِبْ　　نحنُ لعمرُ الله أولَى بالكُتُبْ

---

(١) صفين ٣٠٧ ، ٣٠٨
(٢) صفين ٣٠٨ ، ٣٠٩
(٣) ساقطة من ا ، ب .

مِنّا النبيُّ المصطفى غَيْرَ كَذِبْ   أهلُ اللواء والمقام والحجُبْ

* نحن نصرْناه على كلّ العَرب[١] *

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة ، فقطعه نصفين[٢].

* * *

قال نصر : فحدثنا محمد بن عبيد الله ، قال : حدثنى الجرجانىّ ، قال : جزِع معاوية على حُريث جَزَعاً شديدا ، وعاتب عمرا فى إغرائه إياه بعلىّ عليه السلام ، وقال فى ذلك شعرا :

حُرَيْثُ ألم تعلَمْ وجهلُك ضائرُ   بأنّ عليًّا للفوارس قاهرُ

وأنّ عليا لم يبارزه فارسٌ   من الناس إلا أقصدَتْه الأظافرُ

أمرتُك أمراً حازما فعصيتنى   فجَدُّك إذ لم تقبل النُّصْحَ عاثرُ

ودَلّاكَ عمرو والحوادثُ جَمّةٌ   غُروراً، وما جرّت عليك المقادرُ

وظَنّ حريثٌ أن عمرا نصيحُه   وقد يُهلِكُ الإنسانَ من لا يحاذرُ[٣]

قال نصر : فلما قتل حُريث برز عمرو بن الحصين السَّكْسَكِى ، فنادى : يا أبا حسن ، هَلُمّ إلى المبارزة ، فأومأ عليه السلام إلى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ ، فبارزه فضربه بالسيف فقتله[٤].

---

(١) بعده فى صفين :

يأيُّها العبدُ الغريرُ المنتدِبْ   اثبتْ لنا يأيُّها الكلبُ الكَلِبْ

(٢) صفين ٣٠٩

(٣) بعده فى صفين ٣١٠ :

أيركبُ عمرٌو رأسَه خوفَ سيفهِ   ويَصْلِي حُرَيْثاً ؟ إنّهُ لَفُرَافِرُ

والفرافر : الأحمق .

(٤) صفين ٣٠٩ ، ٣١٠ .

وقال نصر : وكان لهمْدَان بلاء عظيم فى نصرة علىّ عليه السلام فى صِفِّين ، ومن الشعر الذى لا يشكّ أن قائله علىّ عليه السلام لكثرة الرواة له :

دعوتُ فلبّانى من القوم عصبةٌ ... فوارسُ من هَمْدان غيرُ لئام[1]
فوارسُ مِن هَمْدانَ ليسُوا بعُزّلٍ ... غَدَاةَ الوَغَى من شاكرٍ وشِبام[2]
بكلّ رُدَينيٍّ وعضْبٍ تخالُه ... إذا اختلف الأقوام شَعْلَ ضِرَام
لهمْدان أخلاقٌ كرام تزينهمْ ... وبأس إذا لاقَوْا وحَدُّ خصامِ[3]
وجدٌّ وصدقٌ فى الحروب ونجدةٌ ... وقول إذا قالُوا بغير أثامِ
متَى تأتهمْ فى دارِهمْ تستضيفهمْ ... تَبِتْ ناعماً فى خِدْمةٍ وطعامِ
جَزى الله هَمْدَان الجِنانَ فإنها ... سِمام العِدَا فى كلّ يوم زحامِ
فلو كنتُ بوابًا على بابِ جنّةٍ ... لقلتُ لهمْدَان ادخلوا بسلامِ

***

قال نصر : فحدثنى عمرو بن شمر ، قال : ثم قام علىّ عليه السلام بين الصّفين ، ونادى : يامعاوية ، يكررها ؛ فقال معاوية : سَلُوه ماشأنه ؟ قال : أحِبّ أن يظهر لى فأكلّمه كلمة واحدة . فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، فلما قارباه ، لم يلتفت إلى عمرو ، وقال لمعاوية : ويحك ! علام يقتتل[4] الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ! ابرز إلىّ ، فأيّنا قتل صاحبَه فالأمر له . فالتفت معاوية إلى عمرو ، فقال : ماترى ياأبا عبد الله ؟ قال : قد أنصفك الرجل ، واعلم أنك إن نَكَلْت عنه لم يزل سُبّةً عليك وعلى عَقِبك مابقىَ على ظهر الأرض عربىّ . فقال معاوية : يابنَ العاص ؛ ليس مثلى يُخْدَعُ عن نفسه ، والله مابارز ابنَ أبى طالب شجاع قطّ إلا وسقى الأرض من دمه ؛ ثم انصرف معاوية راجعا حتى انتهى إلى

(١) صفين ٣٠٦٠١ .
(٢) شاكر وشبام : بطنان فى همدان .
(٣) صفين : « أخلاق ودين يزينهم » ، والحد : الحدة .
(٤) ب : « يقتل » .

آخر الصفوف وعمرو معه ، فلما رأى علىٌّ عليه السلام ذلك ضحك ، وعاد إلى موقفه.

قال نصر : وفى حديث الجرجانى أنّ معاويةَ قال لعمرو : ويحك ما أحمقك! أتدعونى إلى مبارزته ، ودونى عكٌّ وجُذام والأشعرون[1] !

***

قال نصر : قال : وحقَدها معاوية على عَمْرو باطنا ، وقال له ظاهرا : ما أظنك قلت ماقلتَه يا أبا عبد الله إلا مازحا ! فلما جلس معاوية مجلسه ، أقبل عمرو يمشى حتى جلس إلى جانبه ، فقال معاوية :

يا عمرُو إنك قد قَشَرْتَ لِىَ الْعَصا ... برضاك لى وَسْطَ العجاج برازِى

يا عمرو إنكَ قد أشرْتَ بظنَّةٍ ... حَسْبُ المبارز خطفة من بازى[2]

ولقد ظننتكَ قلتَ مزحةَ مازحٍ[3] ... والهزل يحمله مقالُ الهازى

فإذا الذى مَنَّتكَ نفسُكَ خاليا ... قتلى ، جزاكَ بما نويت الجازى

ولقد كشفتَ قناعها مذمومةً ... ولقد لبستَ بها ثياب الخازى

فقال عمرو : أيها الرجل ، أتجبن عن خصمك ، وتتهم نصيحك ! وقال مجيبا له :

معاوىَ إنْ نَكَلْتَ عن البِرازِ ... وخِفْتَ فإنها أمّ المخازِى[4]

معاوىَ ما اجترمتُ إليك ذنباً ... ولا أنا فى الذى حدَّثْتُ خازِى[5]

---

(١) صفين ٣١١ ، ٣١٢

(٢) فى صفين ٣١٣ :

يا عمرو إنكَ قد أشرتَ بِظنّةٍ ... إنّ المبارزَ كالجدىِّ النّازِى

ماللملوكِ وللبِرازِ وإنما ... حَتْفُ المبارِزِ خَطْفَةٌ لِلْبازِى !

(٣) صفين :

* ولقد أعدتَ فقلتَ مزحةُ مازحٍ *

(٤) صفين :

* لكَ الوَيلاتُ فانظرْ فِى المخازِى *

(٥) صفين « فى التى حدثت بخازى » ، بتخفيف الدال فى « حدثت »

وما ذنبي بأنْ نادَى عَلِيٌّ وَكَبْشُ القَوْمِ يُدْعَى للبِرازِ !
ولو بارزتَه بارزتَ ليثاً حديدَ النّابِ يخطف كلَّ بازي
وَتَزْعُمُ أنني أضمرتُ غِشّاً جَزانِي بالَّذِي أضْمَرْتُ جازي

* * *

وروى ابن قتيبة فى كتابه المسمى " عيون الأخبار " (١) قال : قال أبو الأغرّ التميميّ : بينا أنا واقف بصِفّين ، مَرّ بي العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، مكفّرا بالسّلاح ، وعيناه تبصّان من تحت المِغفر ، كأنهما عينا أرقم ، وبيده صفيحة يمانية يقلّبها ، وهو على فَرَس له صَعْب ؛ فبينا هو يمغثه (٢) ، ويليّن من عريكته ؛ هتف به هاتف من أهلِ الشام ؛ يعرّف بعرار بن أدهم : ياعباس ، هلّم إلى البراز ! قال العباس : فالنزول إذاً فإنه إياسٌ من القفول ؛ فنزل الشاميّ ، وهو يقول :

إن تَرْكَبُوا فرُكوبُ الخيلِ عادَتُنا أو تنزلون فإنا مَعْشَرٌ نُزُلُ (٣)

وثنى العباس رجلَه ، وهو يقول :

ويصدّ عنك مَخِيلَةَ الرّجُل الـعرِّيض موضِحة عن العظمِ
بحُسام سيفك أو لسانِك ، والـكَلِمُ الأصيل كأرْغَبِ الكلم

ثم عَصَبَ فَضَلاتِ دِرْعه فى حُجْزَته (٤) ، ودفع فرسه (٥) إلى غلام له أسود ؛ يقال له أسلم ،

---

(١) عيون الأخبار ، بروايته عن أبي سولة التميمي ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي الأغر .
(٢) المغث : الضرب الخفيف ، وفى عيون الأخبار : « يمنعه » .
(٣) لأعشى قيس ؛ ديوانه ٤٨ ، والرواية هناك :

* قالوا الركوبُ فقلنا تلكَ عادَتُنا *

(٤) الحجزة : معقد الإزار .
(٥) عيون الأخبار : « قوسه » .

كأنى والله أنظر إلى فلافل شعره ، ثم دَلَف كلٌّ واحد منهما إلى صاحبه ، فذكرت قول أبى ذؤيب :

فتنازَلا وتواقفَتْ خَيْلاَهُمَا وكِلاهما بطل اللّقاء مُخَدَّعُ[1]

وكفت الناس أعنّةَ خيولهم ينظرون ما يكون من الرجلين ؛ فتكافحا بسيفيهما مَلِيًّا من نهارهما ؛ لا يصل واحدٌ منهما إلى صاحبه لكمال لأمته ؛ إلى أن لحظ العباس وَهْنًا فى درع الشامىّ ؛ فأهوى إليه بيده ، فهتكه إلى ثُنْدُوَته[2] ، ثم عاد لمجاولته ، وقد أصحر له[3] مفتّق الدرع ، فضربه العباس ضَرْبَةً انتظم بها جوانحَ صدره، فخرّ الشامىّ لوجهه ؛ وكبّر الناسُ تكبيرة ارتجّت لها الأرض من تحتهم ، وسما[4] العباس فى الناس ؛ فإذا قائل يقول : من ورائى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾[5]، فالتفتُّ فإذا أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال لى : يا أبا الأغرّ ، مَن المنازل لعدوّنا ؟ قلت : هذا ابن أخيكم ، هذا العباس بن ربيعة ، فقال : وإنه لهو ! ياعباس ألم أنهك ، وابن عباس ، أن تخِلّا بمراكزكما ؛ وأن تباشرا حربا ! قال : إنّ ذلك كان ؛ قال : فما عَدَا ممّا بدا ! قال : يا أمير المؤمنين ، أفأُدعَى إلى البراز فلا أجيب ! قال : نعم طاعة إمامك أولى من إجابة عدوّك ؛ ثم تغيّظ واستطَار حتى قلت : الساعة الساعة . ثم سكن وتطامن ؛ ورفع يديه مبتهِلا ، فقال : اللّهمّ اشكر للعباس مَقامه ، واغفر ذنبه ؛ إنى قد غفرتُ له ، فاغفر له . قال : ولَهِفَ معاوية على عرار ، وقال : متى ينتطح فحل لمثله أيُطَلّ دمه ! لاها الله إذاً ! ألا رجلٌ يشرِى نفسه لله ؛ يطلُب بدم عرار ! فانتدَب له رجلان من لَخْمٍ

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٨ ، ومخدع : مجرب ؛ أى قد خدع مرة بعد أخرى حتى فهم وحذر .
(٢) الثندوة للرجل ، بمثل الثدى للمرأة .
(٣) أصحر له : برز له فى العراء ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء .
(٤) العيون : « الشام » . (٥) سورة التوبة ١٤ ، ١٥ .

فقال لها : اذهبا، فأيكما قتل العباس برازًا فله كذا ، فأتياه ، فدعواه للبراز ؛ فقال: إن لى سيدا أريد أن أؤامره . فأتى عليا عليه السلام ، فأخبره الخبر ، فقال علىّ عليه السلام ، والله لودّ معاوية أنه ما بقِيَ من بنى هاشم نافخ ضَرمة إلا طُعِن فى بطنه ، إطفاء لنور الله : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) ؛ أما والله ليملكنهم مِنا رجال ورجال يسومونهم الخسف ؛ حتى يحتفروا الآبار ؛ ويتكففوا الناس ؛ ويتوكلوا على المساحى ؛ ثم قال : يا عباس ؛ ناقِلنِي سلاحَك بسلاحى ، فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد اللخميّين ؛ فما شكّا أنه هو ، فقالا : أذن لك صاحبك ، فحرج أن يقول : نعم ، فقال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢) ، فبرز إليه أحدهما ؛ فكأنما اختطفه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول ، ثم أقبل وهو يقول : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) ثم قال : يا عباس ، خذ سلاحك وهات سلاحى ، فإن عاد لك أحد فعدْ إلىّ .

قال: فنُمِيَ الخبرُ إلى معاوية ؛ فقال: قبح الله اللجاج إنه لقعود ما ركبتُه قطّ إلا خذلت. فقال عمرو بن العاص: المخذول والله اللخميّان لا أنت! فقال : اسكت أيها الرجل؛ وليست هذه من ساعاتك ، قال : وإن لم يكن فرحم الله اللخميّين وما أراه يفعل ! قال : فإنّ ذاك والله أخسرُ لصفقتك ، وأضيَق لحجرتك .

قال : قد علمت ذاك ؛ ولولا مصر لركبتُ المنجاة منها ، قال : هى أعمتك ، ولولاها ألفيت بصيراً (٤) .

***

(١) سورة التوبة ٣٣
(٢) سورة الحج ٣٩
(٣) سورة البقرة ١٩٤
(٤) عيون الأخبار ١ : ١٧٩ – ١٨١

قال نصر بن مزاحم : وحدثنا عمرو ، قال : حدثني فضيل بن خَدِيج ، قال : خرج رجلٌ من أهل الشام يدعُو إلى المبارزة ، فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكنديّ [ثم الطُّمَحيّ] [١] ، فتجاوَلا ساعة . ثم إنّ عبد الرحمن حَمَل على الشاميّ ، فطعنه في نُقْرَةِ [٢] نحره فصرَعه ؛ ثم نزل إليه فسلبه دِرْعه وسلاحه ؛ فإذا هو عبدٌ أسود ؛ فقال: إنا لله ! أخطرت نفسي بعبد أسود ! قال: وخرج رَجُلٌ من عَكّ ، فسأل البراز ، فخرج إليه قيس بن فهران [٣] الكنديّ ، فلما لبثه أن طعنه فقتله ، وقال :

لقد علمتْ عَكٌّ بصِفّين أننا ... إذا ما تلاقَى الخيلُ نطعنُها شَزْرَا [٤]

ونحمــــل رايات القتال بحقّها ... فنُوردها بِيضًا ونُصْدِرُها حُمْرَا

قال : وحمل عبدالله بن الطفيل البكائيّ على صفوف أهل الشام ، فلما انصرف حَمَل عليه رجل من بني تميم يقال له قيس بن فهد الحنظليّ اليربوعيّ [٥] ، فوضع الرمحَ بين كتفيْ عبدالله ، فاعترضه يزيد بن معاوية البكائيّ ، ابن عم عبدالله بن الطفيل ، فوضع الرمحَ بين كتفي التميميّ ، وقال : والله لئن طعنته لأطعننّك ، فقال : عليك عهدُ الله لئن رفعتُ السنان عن ظهر صاحبك لترفعنّه عن ظهري ! قال : نعم ، لك العهد والميثاق بذلك . فرفع السنان عن ظَهْر عبد الله ، فرفع يزيد السنان عن التميميّ ، فوقف التميمي ، وقال ليزيد : ممّن أنت ؟ قال : من بني عامر ، قال : جعلني الله فداكم ! أينما لقينا كم كراما . أما والله إني لآخرُ أحد عشر رجلا من بني تميم قتلتموهم اليوم [٦] .

قال نصر : فبعد ذلك بدهرٍ عتب يزيد على عبدالله بن الطفيل ، فأذكره ما صنع معه يوم صفين ، فقال :

---

(١) تكملة من صفين .

(٢) الطبري : « ثغرة نحره » ، وهما بمعنى .

(٣) في الطبري : « ابن فهد » .

(٤) صفين ٣٠٤ ، الطبري ٥ : ٣٠

(٥) صفين : « ابن نهد » ، والطبري : « ابن قرة » .

(٦) تاريخ الطبري ٥ : ٢٩

ألم ترنِى حاميتُ عَنك مُناصحاً　　بصِفّين إذ خَـلّاكَ كلُّ حميمِ
ونهنهتُ عنك الحنظلىّ وقد أتى　　على سابحٍ ذى مَيْعَة وهزِيمِ (١)

قال نصر: وخرج ابن مقيدة الحمار الأسدى ـ وكان ذا بأس وشجاعة، وهو من فُرسان الشام ـ فطلب البراز ، فقام المقطع العامرىّ ، وكان شيخاً كبيراً ، فقال على عليه السلام له : اقعد ، فقال : يأمير المؤمنين لاتردّنى ، إمّا أن تَقتُلَنى فأتعجلَ الجنة وأستريح من الحياة الدنيا فى الـكِبَر والهرم ، أو أقتله فأريحك منه .

وقال له عليـه السلام : مااسمك ؟ فقال : المقطَّع ، قال : مامعنى ذلك ؟ قال : كنت أدْعى هشيما، فأصابتنى جِراحة منسكرة، فدعيت المقطع منها ؛ فقال له عليه السلام : اخرج إليه ، وأقدم عليه ؛ اللهم انصر المقطّع على ابن مقيدة الحمار ؛ فحمل على ابن مقيدة الحمار ، فأدهشه لشدّة الحملة ، فهرب وهو يتبعه ، حتى مرّ بمضرِب (٢) معاوية حيث يراه والمقطّع على أثره ؛ فجاوزا معاوية بكثير ؛ فلما رجع المقطّع ورجع ابن مقيدة الحمار ، ناداه معاوية : لقـد شَمّس (٣) بك العراقىّ ، قال : أما إنه قد فعل أيهـا الأمير ؛ ثم عاد المقطع ، فوقف فى موقفه .

قال نصر : فلما كان عامُ الجماعة ، وبايع الناس معاوية ، سأل عن المقطع العامرىّ ؛ حتى أدخل عليه ؛ وهو شيخ كبير ، فلما رآه قال : آه ؛ لولا أنك على مثل هذه الحال لما أفلتّ منى ؛ قال : نشدتك الله إلّا قتلتَنى وأرحتَنى من بؤس الحياة ؛ وأدنيتنى إلى لقاء الله ، قال : إنى لا أقتلك ؛ وإنّ بى إليك لحاجة،قال : ماهى ؟ قال : أحبّ أن تواخيَنى، قال : إنّا وإياكم ، افترقنا فى الله ، فلا نجتمع حتى يحكُمَ الله بيننا فى الآخرة .

---

(١) ميعة الفرس : نشاطه ؛ يقال : « الفرس فى ميعة جريه » . والهزيم هنا : صوت جرى الفرس .
(٢) المضرب : الفسطاط العظيم .
(٣) شمس : عجل .

قال : فزوِّجني ابنتك،قال : قد منعتُك ماهو أهون عليَّ من ذلك ، قال : فاقبلْ مِنّي صلة ، قال : لا حاجة لي فيما قِبَلك .

قال : فخرج من عنده ولم يقبل منه شيئا [(1)] .

قال نصر : ثم التقى الناس،فاقتتلوا قتالا شديدا، وحاربت طَيِّئ مع أمير المؤمنين عليه السلام حربا عظيما ، وتداعَتْ وارتجزت، فقتل منها أبطال كثيرون، وفقئت عينُ بشر بن العوس الطائيّ ـ وكان من رجال طيئْ وفرسانها ـ فكان يذكر بعد ذلك أيام صِفّين ، فيقول : وددت أني كنت قُتِلت يومئذ ، ووددت أن عيني هذه الصحيحة فقئت أيضا ، وقال :

ألا لَيْتَ عَيْنِي هَذِهِ مثلُ هذِهِ ... ولم أمشِ بَيْنَ النـاس إلا بقائِدِ
وياليتَ رِجْلِي ثم طَنّتْ بنصفِها [(2)] ... وياليتَ كَفِّي ثم طاحتْ بساعِدِي
وياليتني لم أبقَ بعـد مطرِّفٍ ... وسعد وبعـد المستنير بنِ خالدِ
فوارسُ لم تَغْذُ الحواضن مثلَهمْ ... إذا هي أبدت عن خِدَام الخرائد [(3)]

***

قال نصر : وأبلتْ محارب يومئذ مع أميرِ المؤمنين عليه السلام بلاء حسناً،وكان عنتر ابن عبيد بن خالد بن المحاربيّ أشجعَ الناس يومئذ ، فلما رأى أصحابَه متفرقين ، ناداهم : يامعشرَ قيس ، أطاعة الشيطان أبرّ عندكم من طاعة الرحمن ! ألَا إنّ الفرار فيه معصية الله وسخطه ، وإن الصبر فيه طاعة الله ورضوانه،أفتختارون سخط الله على رضوانه،ومعصيته على طاعته ! ألا إنما الراحةُ بعد الموت لمن مات محتسباً لنفسه ، ثم يرتجز فيقول :

لا وألَتْ نفسُ امرئٍ ولّى الدُّبُرْ ... أنا الذي لا أنثني ولا أفِرّ

---

(١) صفين ٣١٥ ـ ٣١٧

(٢) طنت : قطعت وسقطت .

(٣) الخدام : السيقان ؟ واحده خدمة ، والحواضن : الأمهات . والشعر والخبر في صفين ٣١٧ .

* وَلَا يُرَى مع المازبل الْغُدُرْ *

وقاتل حتى ارتُثّ .

قال نصر : وقاتلت النَّخَع مع علىّ عليه السلام ذلك اليوم قتالاً شديداً ، وقطِعت رجلُ علقمة بن قيس النَّخَعىّ ، وقتِل أخوه أبىّ بن قيس ، فكان علقمة يقول بعد: ما أحِبّ أن رجلى أصحُّ ما كانت؛ لما أرجو بها من حسن الثواب . وكان يقول : لقد كنتُ أحِبّ أن أبصر أخى فى نومى ؛ فرأيته ، فقلت له : ياأخى ، ما الذى قدِمتَ عليه ؟ فقال لى: التقينا نحن وأهل الشام بين يدى الله سبحانه ، فاحتججنا عنده ، فحجَجْناهم . فما سررت بشىء منذ عقَلْت سرورى بتلك الرؤيا [1] .

* * *

قال نصر :وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن سويد بن حبّة البصرىّ [2] ، عن الحُضَين بن المنذر الرّقاشىّ ، قال : إنّ ناسا أتوا عليا عليه السلام قبل الوقْعة فى هذا اليوم ؛ فقالوا له :إنّا لا نرى خالد بن المعمر السّدوسىّ إلا قد كاتب معاوية ، وقد خشينا أنْ يلتحق به ويبايعه ؛ فبعث إليه علىٌّ عليه السلام وإلى رجال من أشراف ربيعة ؛ فجمعهم ، فحمد الله وأثنى عليه، وقال : يامعشرَ ربيعة ، أنتم أنصارى ومجيبُو دعوتى ؛ ومِنْ أوْثَق أحياء العرب فى نفسى ؛ وقد بلَغنى أنّ معاويةَ قد كاتب صاحبَكم هذا ؛ وهو خالد بن المعمّر ، وقد أتيتُ به وجمعتكم لأشهِدَكم عليه ، وتسمعُوا منّى ومنه .

ثم أقبل عليه فقال : ياخالد بن المعمّر ، إن كان مابلَغنى عنك حقًّا ؛ فإنى أشهِدُ مَنْ حَضَرَنى من المسلمين أنك آمن ؛ حتى تلحق بالعراق ، أو بالحجاز ، أو بأرض لاسلطان لمعاوية فيها ، وإن كنتَ مكذوبا عليك ، فأبِرّ صدورَنا بأيْمانٍ نطمئنّ إليها ؛ فحلف له

(١) صفين ٣٢٢ ، الطبرى ٦ : ٣٢

(٢) صفين « النضرى » .

خالد بالله ما فعل ، وقال رجال منّا كثير : والله ياأمير المؤمنين لو نعلم أنه فعل لقتلناه .

وقال شقيق بن ثور [السدوسيّ]: ما وفق الله خالد بن المعمّر حين ينصر معاوية وأهلَ الشام على عليّ وأهل العراق وربيعة . فقال له زياد بن خَصَفة : ياأمير المؤمنين، استوثِقْ من ابن المعمّر بالأيمان ، لا يغدِرْ بك ؛ فاستوثق منه . ثم انصرفوا .

فلما تصافّ الناس فى هذا اليوم ، وحمل بعضُهم على بعض ، تضعضعت ميمنةُ أهلِ العراق ، فجاءنا عليّ عليه السلام ومعه بنُوه ؛ حتى انتهى إلينا ، فنادى بصوت عال جهير : لمن هذه الرايات ؟ فقلنا : رايات ربيعة ، فقال : بل هى راياتُ الله عَصم الله أهلها، وصبّرهم وثبّت أقدامهم ؛ ثم قال لى وأنا حامل رايةَ ربيعة يومئذ : يافتى ، ألا تُدنِى رايتَك هذه ذراعاً ؟ فقلت : بلى ، والله وعشرة أذرع ، ثم ملت بها هكذا ، فأدنيتُها ، فقال لى: حسبك مكانك(١) .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدثنى يزيد بن أبى الصلت التيميّ ، قال : سمعت أشياخَ الحيّ من بنى تيم بن ثعلبة يقولون : كانت راية ربيعة كلّها : كوفيتِها وبصريتها ، مع خالد بن المعمّر ، السدوسيّ من ربيعة البصرة ، ثم نافسه فى الراية شقيق بن ثور ؛ من بكر ابن وائل من أهل الكوفة، فاصطلحا على أن يولّيا الراية لُحضَين بن المنذر الرقاشيّ، وهو من أهل البصرة أيضاً ، وقالوا : هذا فتى له حَسَبٌ ، نُعطيه الراية إلى أن نرى رأينا؛ وكان الُحضَين يومئذ شاباً حَدَث السنّ .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، قال : أقبل الحضَين بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف براية ربيعة ، وكانت حمراء ، فأعجب عليا عليه السلام زحفه وثباته ، فقال :

---

(١) صفين ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٣٢ .

لِمَنْ رايةٌ حمراء يخفِقُ ظِلُّهـا إذا قيلَ قَدِّمها حُضَيْنُ تقدَّما
ويدنُو بها في الصَّفِّ حتى يُزيرَها[1] حِمامَ المنايا تقطرُ الموت والدما[2]
تراهُ إذا ما كان يومُ عظيمةٍ أبَى فيه إلا عزّةً وتكرُّما
جزَى الله قوماً صابرُوا في لقائِهمْ لدَى الناس حرًّا ما أعفَّ وأكرما!
وأحزمَ صَبْرًا يوم يُدْعى إلى الوغَى إذا كان أصواتُ الكماة تغمغُما
ربيعةَ أعنِي، إنهم أهل نجدةٍ وبأس إذا لاقوْا خَمِيساً عَرَمْرَما[3]
وقد صبرت عكٌّ ولخمٌ وحِميَرٌ لمذحِجَ حتّى لم يفارقْ دمٌ دمَا
ونادت جُذامٌ: يالَ مذحِجَ ويحكم[4]! جزَى الله شرًّا أيّنا كانَ أظلما
أما تتقون الله في حُرُمَاتِكُمْ وما قرّب الرحمنُ منها[5] وعظَّما!
أذقْنا ابن حرْب طعنَنا وضِرَابَنا بأسيافِنا حتّى تولَّى وأحجَما
وفرّ ينادى الزِّبرقَان وظالماً ونادى كَلاعاً والكُريبَ وأنعما
وعمرا وسُفيانا وجهْماً ومالكا وحَوْشَبَ والغاوى شُرَيحاً وأظلَما
وكرز بن تَبْهانٍ وعمرو بن جَحْدَرٍ وصَبَّاحا القينيّ يدعو وأسلما[6]

قلت: هكذا روى نَصْر بن مزاحم، وسائر الرواة رَوَوْا له عليه السلام الأبيات الستة الأولى، ورووا باقى الأبيات، من قوله: «وقد صبرتْ عكٌّ» للحضَين بن المنذر صاحب الراية[7].

قال نصر: وأقبل ذو الكَلاع في حمير ومن لفّ لفّها، ومعهم عبيد الله بن عمر

---

(١) صفين: «حتى يديرها».
(٢) الطبرى: «حياض المنايا».
(٣) الخميس: الجيش.
(٤) صفين: «ويلكم».
(٥) ب: «فيها».
(٦) صفين: «وكرز بن نبهان».
(٧) صفين ٣٢٥، ٣٢٦، وتاريخ الطبرى ٥: ٣٧، ٣٨

ابن الخطاب فى أربعة آلاف من قُرّاء أهل الشام، وذو الكَلاع فى حِمْير فى الميمنة، وعبيدالله فى القرّاء فى الميسرة ، فحملوا على ربيعة ـ وهم فى مَيْسرة أهل العراق؛ وفيهم عبيدالله بن العباس ـ حملة شديدة ، فتضعضعت رايات ربيعة .

ثم إنّ أهلَ الشام انصرفوا فلم يمكثوا[1] إلا قليلا ؛ حتى كَرّوا ثانية وعبيد الله بن عمر فى أوائلهم ؛ يقول : يا أهل الشام ، هذا الحىّ من العراق قتلة عثمان بن عفان وأنصار علىّ ابن أبى طالب ؛ ولئن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم من عثمان ، وهلَك علىّ وأهل العراق . فشدّوا على الناس شدّةً عظيمة ، فثبتت لهم ربيعة ، وصبرت صبراً حسناً ، إلا قليلا من الضعفاء .

فأما أهل الرايات وذَوُو البصائر منهم والحفّاظ، فثبتوا وقاتلوا قتالاً شديداً . وأما خالد ابن المعمّر ؛ فإنّه لما رأى بعض أصحابه قد انصرفوا انصرف معهم ، فلما رأى أهلَ الرايات ثابتين صابرين رجع إليهم وصاح بمن انهزم ؛ وأمرهم بالرجوع ؛ فكان من يتهمه من قومه ، يقول: إنه فَرّ، فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا ؛ وقال هو : لما رأيتُ رجالا مِنّا قد انهزمُوا، رأيت أنْ أستقبلَهم ثم أردَّهم إلى الحرب ؛ فجاء بأمر مشتبه[2] .

قال نصر : وكان فى جملة ربيعة من عَنَزة وحدها أربعة آلاف مُجَفَّف[3] .

قلت : لاريب عند علماء السيرة أن خالد بن المعمّر كان له باطن سوء مع معاوية، وأنه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على علىّ عليه السلام ؛ ذكر ذلك الكلبى[4] والواقدىّ وغيرهما . ويدلّ على باطنه هذا أنّه لما استظهرت ربيعةُ على معاوية وعلى صفوف أهل الشام فى اليوم الثانى من هذا أرسل معاوية إلى خالد بن المعمّر : أنْ كُفَّ عنى ولك إمارة خراسان

(١) ج : « لم يلبثوا » .
(٢) صفين ٣٢٧ ، ٣٢٨
(٣) المجفف : من يلبس التجفاف ؛ وهو ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه السهام .
(٤) ج : « ابن الكلبى » .

ما بقيت . فكفّ عنه ، فرجع بربيعة ، وقد شارفوا أخذه من مضربه ، وسيأتى ذكر ذلك .

* * *

قال نصر : فلما رجع خالد بن المعمّر واستوت صفوف ربيعة كما كانت ، خطبهم فقال :

يا معشرَ ربيعة : إنّ الله تعالى قد أتى بكلّ رجل منكم من منبِته ومسقط رأسه ، فجمعكم فى هذا المكان جَمعاً لم تجتمِعوا مثلَه قطّ منذ أفرشكم الله الأرض؛ وإنكم إن تمسِكوا أيديَكم ، وتنكلوا عن عدوّكم وتحولوا عن مصافّكم ، لا يرضى الربّ فعلَكم ولا تعدموا معيّرًا يقول : فضحت ربيعة الذّمار ، وخاموا[1] عن القتال ، وأُتِيَت من قبلهم العرب؛ فإياكم أن يتشاءم بكم اليوم المسلمون . وإنكم إن تمضوا مقدمين وتصبروا محتسبين ؛ فإنّ الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سجيّة ، فاصبروا ونيّتكم صادقة تؤجروا ، فإنّ ثوابَ مَنْ نوى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامة الآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

فقام إليه رجل من ربيعة ، وقال : قد ضاعَ والله أمرُ ربيعة حين جعلتْ أمرَها إليك؛ تأمرنا ألّا نحول ولا نزول ؛ حتى نقتل أنفسنا ، ونسفك دماءنا !

فقام إليه رجال من قومه ، فتناولوه بقسيِّهم ، ولكزُوه بأيديهم؛ وقالوا لخالد بن المعمّر : أخرجوا هذا من بينكم ، فإنّ هذا إن بَقِىَ فيكم ضرّكم ، وإن خرج منكم لم ينقصْكم عدداً ؛ هذا الذى لا ينقص العددَ ، ولا يملأُ البَلَد . ترّحك[2] الله من خطيب قوم ! لقد جنّبك الخير . قبح الله ما جئت به !

---

(١) خاموا : جبنوا .
(٢) صفين : « برحك »

قال نصر : واشتدّ القتال بين ربيعة وحمير وعبيدالله بن عمر حتى كثرت القتلى، وجعل عبيـدالله يحمل ويقول : أنا الطيب ابن الطيب ؛ فتقول له ربيعـة : بل أنت الخبيث ابن الطيب .

ثم خرج نحو خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علىّ عليه السلام على رءوسهم البَيض ؛ وهم غائصون فى الحديد ، لا يُرَى منهم إلا الحدَق ؛ وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم فى العدّة ، فاقتتلوا بين الصَّفّين ، والناس وقوف تحت راياتهم ؛ فلم يرجع مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء مخبر ؛ لا عراقىّ ولا شامىّ ، قتلوا جميعا بين الصفين[1] .

***

قال نصر : وحدثنـا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن تميم ، قال : نادى منادى[2] أهل الشام : ألا إن معنا الطيب ابن الطيب ، عبيد الله بن عمر ، فنادى منادى أهل العراق بل هو الخبيث ابن الطيب ؛ ونادى منادى أهل العراق : ألا إن معنا الطيب ابن الطيب محمد بن أبى بكر ، فنادى منادى أهل الشام : بل الخبيث ابن الطيب .

قال نصر : وكان بصِفّين تلٌّ تلقى عليه جماجمُ الرِّجال ، فـكان يدعى تلّ الجماجم، فقال عُقْبة بن مسلم الرُّقاشى من أهل الشام :

وَلَمْ أرَ فُرسانًا أشدَّ حفيظة[3] ... وأمنعَ مِنّا يومَ تَلِّ الجماجِم
غداة غدا أهلُ العراق كأنهمْ ... نعامٌ تلَاقَى فى فِجاجِ المخارِم
إذا قلتُ قدوَلَّوْا تثوب كتيبةٌ[4] ... مُلَمْلَمةٌ فى البيض شُمْطٌ المَقادِم[5]
وقالوا لنا : هـذا علىٌّ فبايعوا ... فقلنا : صه بلْ بالسُّيوف الصوارِم[6]

(١) صفين ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
(٢) ساقطة من ب .
(٣) صفين : « أشد بديهة » .
(٤) صفين : « أنابت كتيبة » .
(٥) ململمة : مجتمعة .
(٦) صفين : « فقلنا ألا لا » .

وقال شَبَث بن رِبْعِىّ التميمىّ :

وقفنا لديهم يوم صِفِّين بالقَنَا ... لَدُنْ غَدْوَةً حتَّى هَوَتْ لغروبِ

وولّى ابن حربٍ والرماح تَنُوشُه ... وقد أرضت الأسيافُ كلَّ غضوبِ

نجالدهم طوراً وطوراً نشلّهم ... على كلِّ مَحْبُوكِ السَّراةِ شَبُوبِ (١)

فلم أرَ فرساناً أشــدَّ حفيظةً ... إذا غشى الآفاقَ رَهْجٌ جَنُوبِ (٢)

أكرَّ وأحمى بالمطاريف والقَنَا ... وكلَّ حديدِ الشَّفْرَتَيْن قضوبِ (٣)

قال نصر : ثم ذهب هذا اليوم بما فيه ، فأصبحوا فى اليوم التاسع من صفر ، وقد خطب معاوية أهل الشام وحرّضهم ، فقال :

إنّه قد نَزَلَ بكم من الأمر ما تَرَوْن ، وحضركم ما حضركم ، فإذا نَهَدْتُم إليهم إن شاء الله ، فقدِّموا الدّارع ، وأخِّروا الحاسر ، وصُفّوا الخيل وأجنبوها ، وكونوا كقَصِّ الشارب ، وأعيرونا جماجمكم ساعة ؛ فإنما هو ظالم أو مظلوم ؛ وقد بلغ الحق مقطعه (٤) .

* * *

قال نصر : وروى الشَّعبىّ ، قال : قام معاوية فخطَب الناس بصِفِّين فى هذا اليوم ؛ فقال :

الحمد لله الذى دَنَا فى عُلُوِّه ؛ وعَلَا فى دُنُوِّه ، وظهر وبَطن ؛ وارتفع فوق كلّ ذى

---

(١) نشلهم : نطردهم ؛ وفى صفين : « نصدهم » . والسراة : الظهر . ومحبوك السراة : مدمجها . وبعده فى صفين :

بكلِّ أسيل كالقراط إذا بدتْ ... لوائحها بين الكماةِ ، لعوبِ

نجالد غسّاناً وَتَشقى بحربنا ... جذامٌ ووِتْرُ العبدِ غير طلوبِ

(٢) كذا فى ب ، وفى صفين : « نقع جنوب » ، والرهج : الغبار .

(٣) ب : « عضوب » .

(٤) صفين ٣٣٢ ، ٣٣٣

منظر ؛ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن[1] ، يقضي فيفصل ، ويقدّر فيغفر ، ويفعل مايشاء ؛ إذا أراد أمراً أمضاه ، وإذا عزم على شيء قضاه ؛ لا يؤامر أحداً فيما يملك ؛ ولا يُسألُ عمّا يفعل وهم يُسألون ؛ والحمدُ لله ربّ العالمين ؛ على ماأحببنا وكرهنا. وقدكان فيما قضاه الله أنْ ساقتنا المقادير إلى هذه البُقعة من الأرض ، ولفّ بيننا وبين أهل العراق ، فنحن من الله بمنظرٍ ؛ وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] .

انظروا ياأهلَ الشام ، إنكم غداً[3] تلقونَ أهلَ العراق ؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تكونوا قوماً طلبتم ماعند الله في قتال قوم بغَوْا عليكم ، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بَيْضتكم ؛ وإمّا أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيّكم ؛ وإمّا أن تكونوا قوما تذُبّون عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ؛ أسأل الله لنا ولكم النصرَ ؛ وأنْ يفتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ؛ وهو خير الفاتحين .

فقام ذو الكَلاع ، فقال :

يامعاوية ، إنا نحنُ الصُّبُرُ الكِرام ، لا نَنْثني عِند الخِصَام ، بنو الملوكِ العِظَام ، ذوي النُّهى والأحلام ، لا يقربون لآثام .

فقال معاوية : صدقت[4] .

***

---

(١) صفين : « وارتفع فوق كل منظر أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا » .
(٢) سورة البقرة ٢٥٣
(٣) صفين : « إنما تلقون » .
(٤) صفين ٢٢٣ ، ٢٢٤

قال نصر : وكانت التعبية فى هذا اليوم كالتعبية فى الذى قَبْله ، وحملَ عبيدُ الله بن عمر فى قرّاء أهلِ الشام ، ومعه ذو الكَلاع فى حِمْير على ربيعة ، وهى فى ميسرة علىّ عليه السلام ، فقاتلوا قتالا شديدا ، فأتى زياد بن خَصَفة إلى عَبْد القيس ، فقال لهم : لا بَكْر بن وائلٍ بعد اليوم ! إن ذا الكَلاع وعُبيد الله أبادَا رَبيعة ، فانهضوا لهم وإلا هلكوا . فركبت عبدُ القيس ، وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدّتْ أزْرَ الميسرة ، فعظم القتال ، فقتل ذو الكَلاع الحِميرىّ ، قتله رجل من بكْر بن وائل ، اسمه خِنْدف ، وتضعضعت أركان حمير ، وثبتت بعد قتل ذى الكَلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر ؛ وأرسل عبيد الله إلى الحسن بن علىٍّ عليه السلام : إنّ لى إليك حاجةً فالقَنى ، فلقيه الحسن عليه السلام ، فقال له عبيد الله : إنّ أباك قد وَتَرَ قريشا أولا وآخرا ، وقد شنِئه الناسُ ، فهل لك فى خَلْعه ، وأنّ تتولى أنت هذا الأمر ! فقال : كلاّ والله ؛ لا يكون ذلك. ثم قال : يابن الخطاب ، والله لكأنى أنظرُ إليك مقتولا فى يومك أو غدك . أما إن الشيطان قد زَيّن لك وخَدَعك ؛ حتى أخرجك مخلقا بالخَلوق ، تَرى نساء أهلِ الشام موقفك ، وسيصرعُك الله ، ويبطحك لوجهك قتيلا !

قال نصر : فو الله ما كانَ إلا بياضُ ذلك اليوم حتى قُتل عبيد الله ؛ وهو فى كتيبة رَقْطاء ، وكانت تدعى الخضرية ؛ كانوا أربعة آلاف ؛ عليهم ثياب خُضْر ، فمرّ الحسن عليه السلام ؛ فإذا رجلٌ متوسّد برجل قتيل ؛ قد ركز رمحَه فى عينه ، وربط فرسَه برجله ؛ فقال الحسن عليه السلام لمن معه : انظُروا مَنْ هذا ؟ فإذا رجلٌ من هَمْدان ، وإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، قد قتله الهمدانىّ فى أوّل الليل ؛ وبات عليه حتى أصبح .

قال نصر : وقد اختلف الرواة فى قاتل عُبيد الله ؛ فقالت هَمْدان : نحن قتلناه ؛ قتله هانئْ بن الخطاب الهمْدانىّ ، وركز رمحه فى عينه ... وذكر الحديث . وقالت حضرموت : نحن قتلناه ، قتله مالك بن عمرو الحضرمىّ . وقالت بكر بن وائل : نحن قتلناه ، قتله محرز

ابن الصَّحصح من بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وأخذ سيفه الوشاح .

فلما كان عامُ الجماعة طلب معاوية السيف من ربيعة الكوفة ، فقالوا : إنما قتله رجلٌ من ربيعة البصرة يقال له محرز بن الصَّحصح ، فبعث إليه معاوية ، فأخذ السيف منه[1] .

قال نصر : وقد روى أن قاتله حُرَيث بن جابر الحنفىّ ، وكان رئيس بنى حَنِيفة يوم صِفّين مع علىّ عليه السلام ، حمل عبيد الله بن عمر على صَفّ بنى حنيفة ، وهو يقول :

أنا عُبيد الله ينميني عُمَرْ   خَيْرُ قريش مَنْ مَضَى ومَنْ غَبَرْ
إلا رسول الله والشيخ الأغَرّ   قد أبطأت عن نصر عثمانٍ مُضَرْ
والربَعِيّون فلا أُسْقُوا المطَرْ   وسارَعَ الحىّ اليمانون الغُرَرْ
• والخير فى النّاس قديماً يُبتدَرْ •

فحمل عليه حُرَيث بن جابر الحنفىّ ، وقال :

قَدْ سارَعَتْ فى نَصْرِها رَبيعَهْ   فى الحقّ والحقّ لها شَرِيعَهْ
فاكفُفْ فلستَ تاركَ الوقيعهْ   فى العُصْبة السامعة المطيعَهْ
• حتى تذوقَ كأسَها الفَظِيعَهْ •

وطعنه فصرعه .

قال نصر : فقال كعب بن جُعَيل التغلبىّ يرثى عبيد الله ، وكان كعبٌ شاعر أهل الشام :

ألا إنما تبكى العيونُ لفارسٍ   بصِفّين أجْلَتْ خَيْلُه وهو واقفُ
تبَدّلَ مِنْ أسماء أسيافَ وائلٍ   وأىّ فتى لو أخطأتْهُ المتالفُ !

---

(١) صفين : ٣٣٥ ـ ٣٣٧

تركتمْ عبيد الله فى القاع مُسْلَماً يمجّ دماء ، والعرُوق نوازِف [1]

ينوء وتغشاهُ شآبيبُ من دمٍ كالاحَ فى جَيْبِ القميصِ الكفائفُ

دعاهنّ فاستَسْمَعْن من أينَ صوته فأقبلن شتّى والعيونُ ذوارِفُ

تُحَلِّلْنَ عنه زرّ دِرْعٍ حصينة ويُنكِرُ منه بعد ذاك معارِفُ [2]

وقرّت تميم سعدها ورِبابُهــــا وخالفت الخضراء فيمن يخالف

وقد صبرت حولَ ابن عمّ محمد لدى الموت شهباء المناكب شارِفُ

بمرْجٍ ترى الرايات فيـه كأنّها إذا اجنحت للطّعن طيْرٌ عواكفُ [3]

فما برِحُوا حتى رأى الله صبرهمْ وحتّى أسرّت بالأكفّ المصاحفُ

جزى الله قتلانا بصِفّين خَيْرَ ما أثيب عباد غادرتْها المواقف [4]

قلت : هذا الشعر نظمه كعب بن جُعَيل بعد رفع المصاحف وتحكيم الحكمين يذكر فيه مامضى لهم من الحرب على عادة شعراء العرب ، والضمير فى قوله :

* دعاهنّ فاستسمعن من أين صوته *

يرجع إلى نساء عبيد الله ،وكانت تحته أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة التميمىّ وبحرية بنت هانئ بن قبيصة الشيبانىّ ، وكان عبيد الله قد أخرجهما معه إلى الحرب ذلك اليوم لينظرا إلى قتاله ،فوقفتا راجلتين؛وإلى أسماء بنت عطارد ، أشار كعب بن جُعَيل بقوله:

* تبدّل من أسماء أسيافَ وائل *

والشعر يدلّ على أن ربيعة قتلته ، لا همدان ولا حضرموت .

ويدلّ أيضا على ذلك مارواه إبراهيم بن ديزيل الهمدانىّ فى كتاب صفين:قال شدّت

---

(١) ب : « تركن عبيد الله » . وفى ج : « العروق » .

(٢) هذا البيت وتاليه لم يذكرا فى صفين

(٣) صفين : « اجنحت » ، أى مالت

(٤) صفين : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

ربيعة الكوفة ، وعليها زياد بن خَصَفة على عبيد الله بن عمر ذلك اليوم؛ وكان معاوية قد أقْرَع بين الناس ، فخرج سهم عبيد الله بن عمر على رَبيعة فقتلته ، فلما ضُرِب فُسطاط زياد بن خَصَفة بقى طُنُب من الأطناب لم يجدوا له وَتِداً ، فشدّوه برِجْل عبيدالله بن عمر ، وكان ناحية فجرّوه ، حتى ربطوا الطُّنب برجله ، وأقبلت امرأتاه حتى وقفتا عليه ، فبكتا عليه وصاحتا ، فخرج زياد بن خَصَفة فقيل له : هذه بَحرية ابنة هانئ بن قبيصة الشيبانىّ ابنة عمك ، فقال لها : ماحاجتُك يابنة أخي ؟ قالت : تدفع زوجي إليّ ، فقال : نعم خذيه ، فجيء ببغل فحملته عليه ، فذكروا أن يديه ورجليه خطّتا بالأرض عَنْ ظهر البغل .

***

قال نصر : ومما رثى به كعبُ بن جُعيل عُبيدَ الله بن عمر قولُه :

يقولُ عبيدُ الله لمـــا بَدَتْ له سَحَابةُ موتٍ تقطُر الحَتْفَ والدّما
ألا يالقومى فاصبرُوا إنّ صبرَكُمْ أعفُّ وأحجى عِفّةً وتكرُّما
فلما تدانى القوم خرّ مُجَدّلًا صريعاً تلاقى التربَ كفّيه والفَما
وَخَلّف أطفالًا يتامى أذلّةً وعِرْساً عليه تَسكُب الدمعَ أيّما[1]
حَلالًا لهـا الخطّاب لا يمنعنّهم وقد كان يحمِى غَيْرةً أن تُكلّما

وقال الصَّلَتان العبدىّ يذكر مقتل عبيد الله ، وأنّ حريث بن جابر الحنفىّ قتله :

ألا ياعُبيدَ الله مازلتَ مُولَعاً ببكرٍ لها تُهْدِى القرى والتّهددا[2]
وَكُنتَ سَفيهاً قَدْ تعوّدْتَ عادَةً وكلُّ أمرئٍ جارٍ عَلى ماتعوّدا
فأصبحتَ مسلوباً على شرّ آلة صريعَ القنا تحت العجاجة مُفْرداً

(١) صفين : « وخلف عرساً » .

(٢) صفين : « تهدى الخنا » ؛ والخنا : الباطل . وبعده :

كأنّ حماة الحىّ من بكرِ بن وائلٍ بذى الرِّمث أُسْدٌ قد تبوّأنَ غرقدا

تشقّ عليك جيبها ابنة هانىء ... مُسَلَّبة تبدى الشجا والتلدّدا[1]

وكانت ترى ذا الأمر قبل عِيانه ... ولـكنّ حكم الله أهدى لك الرّدَى

وقالت عبيدَ الله لا تأتِ وائلاً ... فقُلتُ لها لا تعجلى وانظرى غدا

فقد جاء ماقــــد مسّها فتسلّبَت ... عليك ، وأمسى الجيب مُنها مقدّدا

حباكَ أخو الهيجا حُريث بن جابر ... بجياشةٍ تحكى بهـا النهر مزبدا[2]

كأنّ حماة الحىّ بكر بن وائل ... بذى الرِّمْث أسدٌ قد تبوأن غَرْقدا

قال نصر : فأما ذو الـكَلاع فقد ذكرنا مقتله ، وأنّ قاتله خندف البكرى[3] .

* * *

وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : لما حَمل ذو الـكَلاع ذلك اليوم بالفَيْلق العظيم من حِمْير على صفوف أهل العراق ، ناداه أبو شجاع الحميرىّ ـ وكان من ذوى البصائر مع علىّ عليه السلام ـ فقال : يامعشر حِمْير ، تبّت أيديكم ! أترون معاوية خيرا من علىّ عليه السلام ! أضلّ الله سعيكم . ثم أنت ياذا الـكَلاع قد كنّا نرى أن لك نيّةً فى الدين ، فقال ذو الـكَلاع : إيهاً يا أبا شجاع ! والله إنّى لأعلم مامعاوية بأفضلَ من علىّ عليه السلام ولـكنى أقاتلُ على دم عثمان ، قال : فأصيب ذو الـكَلاع حينئذ ، قتله خِنْدف بن بكر البكرىّ فى المعركة[4] .

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا الحارث بن حصيرة أن ابن ذى الـكَلاع ،

---

(١) صفين : « تشق عليك الجيب » . والتلدد : التفلت حيرة وأسفا

(٢) صفين :

* بجياشة تحـكِى المدير المندّدا *

(٣) صفين ٣٣٧ ، ٣٣٨

(٤) صفين ٣٤٠

أرسل إلى الأشعث بن قيس رسولًا يسأله أن يسلِم إليه جثة أبيه ، فقال الأشعث : إنى أخاف أن يتهمنى أميرُ المؤمنين فى أمره ، فاطلبه من سعيد بن قيس فهو فى الميمنة ، فذهب إلى معاوية فاستأذنه أن يدخل إلى عسكر علىّ عليه السلام ، يطلب أباه بين القتلى ، فقال له : إنّ عليا قد منع أن يدخل أحدٌ منا إلى معسكره ، يخاف أن يُفسِد عليه جنده ، فخرج ابن ذى الكلاع ، فأرسل إلى سعيد بن قيس الهمدانىّ يستأذِنه فى ذلك ، فقال سعيد : إنّا لا نمنعك من دخول العسكر ؛ إنّ أمير المؤمنين لا يبالى مَنْ دخل منكم إلى معسكره ؛ فادخل ، فدخل من قبل الميمنة ، فطاف فلم يجدْه ، ثم أتى الميسرة فطاف فلم يجدْه ، ثم وجده وقد ربطت رجله بطُنُب من أطناب بعض فساطيط العسكر ؛ فجاء فوقف على باب الفسطاط ، فقال : السّلام عليكم يا أهل البيت ؛ فقيل له : وعليك السلام ؛ فقال: أتأذنون لنا فى طُنُب من أطناب فُسْطاطِكم ؟ ومعه عبد أسودُ لم يكن معه غيره . فقالوا : قد أذنّا لكم ، وقالوا له : معذرة إلى الله وإليكم ؛ أما إنه لولا بغيُه علينا [1] ماصنعنا به ماترون ؛ فنزل ابنهُ إليه ، فوجده قد انتفخ ـ وكان من أعظم الناس خَلْقا ـ فلم يطق احتماله ، فقال : هل من فتى معوان ؟ فخرج إليه خِندف البكرىّ ؛ فقال : تنحوّا عنه ؛ فقال ابنه : ومَنْ الذى يحمله إذا تنحينا عنه ؟ قال : يحملُه قاتله . فاحتمله خِندف حتى رمى به على ظهر بغل ، ثم شدّه بالحبال ، فانطلقا به [2] .

قال نصر : وقال معاوية لما قتِل ذو الكلاع : لأنا أشدُّ فرَحًا بقتل ذى الكلاع منّى بفتح مصر لو فتحتُها . قال : لأن ذا الكلاع كان يحجُر على معاوية فى أشياء كان يأمرُ بها .

قال نصر : فلما قتل ذو الكلاع ، اشتدّت الحرب وشدّت عكّ ولَخْمٌ وجُذام ، والأشعريون من أهل الشام على مذحِج من أهل العراق ، جعلهم معاوية بإزائهم، ونادى منادى عكّ :

---

(١) ب : « على على » .

(٢) صفين : « فانطلقوا »

وبلٌ لأمّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكٍّ   لَنتْرُكَنْ أمّهم تُبَكّى
نقتلهم بالطّعْنِ ثم الصَّكِّ   بكل قِرْنٍ باسلٍ مِصَكٍّ
* فَلا رجالَ كرجالِ عكٍّ[1] *

فنادى منادى مَذْحج : يالَمَذْحِج ! خَدّموا – أى اضربوا السُّوقَ مواضع الخَدَمة ، وهى الخلاخيل – فاعترضت مذحج سوقَ القوم ، فكان فيه بوار عامّتهم ؛ ونادى منادى جذام حين طحنت رحا القوم ؛ وخاضت الخيل والرجال فى الدماء .

الله الله فى جذام ، ألا تذكرون الأرحام ، أفنيتم لخمًا الكرام ، والأشعرين وآل ذى حمام ! أين النُّهى والأحلام ! هذى النساء تبكى الأعلام .

ونادى منادى عكّ :

يا عكّ أين المفرّ ، اليوم تعلم ما الخبر ، لأنكم قومٌ صُبُر ، كونوا كمجتمع المدَر ، لا تشمتن بكم مُضَر ، حتى يحولَ ذا الخبر .

ونادى منادى الأشعريين :

يا مذحج ، مَنْ للنساء غدا إذا أفناكم الرَّدَى ؛ الله الله فى الحرمات ؛ أما تذكرون نساءكم والبنات ؛ أما تذكرون فارس والروم والأتراك ؛ لقد أذن الله فيكم بالملاك[2] !

قال : والقومُ ينحرُ بعضُهم بعضاً ويتكادَمون بالأفواه .

***

قال نصر : وحدّثنى عمرو بن الزبير : لقد سمعت الحُضَين بن المنذر ، يقول : أعطانى

(١) صفين ٣٤٠
(٢) صفين ٣٤٠

علىّ عليه السلام ذلك اليوم راية ربيعة ، وقال : باسم الله سِرْ ياحضَين ، واعلم أنه لاتخفِق على رأسك رايةٌ مثلها أبداً ، هذه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فجاء أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلىّ إلى الحضَين ، وقال : هل لك أن تعطينَى الراية أحملُها لك ، فيكون لك ذكرُها ، ويكون لى أجرُها ! فقال الحُضَين : وماغناى ياعمّ عن أجرها مع ذِكرها ! قال : إنه لا غنى بك عن ذلك ، ولكن أعِرْهَا عمّك ساعة ، فما أسرع ما ترجع إليك ! قال الحضَين : فقلت : إنه قد استقتل ، وإنه يريد أن يموت مجاهداً ، فقلت له : خذها فأخذها ، ثم قال لأصحابه : إن عملَ الجنة كُرْه كله وثقيل ، وإن عمل النار خِفٌّ كله وخبيث ، إنّ الجنةَ لايدخلها إلا الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره ، وليس شىء مما افترض الله على العباد أشدّ من الجهاد ، هو أفضلُ الأعمال ثواباً عند الله ، فإذا رأيتمونى قد شددتُ فشدّوا ، ويحكم ! أما تشتاقون إلى الجنة ! أما تحبّون أن يغفر الله لكم ! فشدّ وشدوا معه ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، فقتل أبو عرفاء رحمه الله تعالى ، وشدت ربيعة بعده شدّة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها . وقال مجزأة ابن ثور :

أضربُهمْ ولا أرى معاويهْ ... الأبرجَ العين العظيم الحاويهْ[1]

هوتْ به فى النّار أمّ هاويهْ ... جاوره فيها كلابٌ عاويهْ

أغوى طَغَاماً لاهدته هاديهْ

قال نصر : وكان حُريث بن جابر يومئذ نازلاً بين الصّفّين فى قبّة له حمراء ، يسقى أهلَ العراق اللبن والماء والسّويق ، ويطعمهم اللحم والثريد ، فمن شاء أكل ، ومن شاء شرب ، ففى ذلك يقول شاعرهم :

فلو كانَ بالدّهْنا حُريث بن جابر ... لأصبح بحراً بالمفـــازة جاريا

(١) البرج بفتحتين : سعة العين ؛ والحاوية : المعى .

قلت : هذا حُرَيث بن جابر ؛ هو الذى كتب معاوية إلى زياد فى أمره بعد عام الجماعة ـ وحريث عامل لزياد على همذان ـ أما بعد ؛ فاعزِلْ حريث بن جابر عن عمله ؛ فما ذكرت مواقفه بصفّين إلا كانت حزازةٌ فى صدرى . فكتب إليه زياد : خفّض عليك يا أمير المؤمنين ، فإن حريثا قد بلغ من الشّرف مبلغا لاتزيده الولاية ، ولا ينقصه العزل .

قال نصر : فاضطربَ النّاسُ يومئذ بالسيوف حتى تقطّعت وتكسرت ؛ وصارت كالمناجل؛ وتطاعنوا بالرّماح حتى تقصّفت[1] وتناثرت أسنّتُها، ثم جثَوْا على الركب فتحاثوا بالتراب ، يحثُو بعضهم التراب فى وجه بعض؛ ثم تعانقوا وتكادَموا بالأفواه ، ثم تراموْا بالصخر والحجارة . ثم تحاجزُوا ، فكان الرّجلُ من أهل العراق يمرّ على أهل الشام ، فيقول : كيف آخذ إلى رايات بنى فلان ؟ فيقولون: ها هنا لا هداك الله ، ويمرّ الرجل من أهل الشام على أهل العراق، فيقول: كيف آخذ إلى راية بنى فلان؟ فيقولون :هاهنا لا حفظك الله ولا عافاك[2] .

قال نصر : وقال معاوية لعمرو بن العاص : أما ترَى يا أبا عبدالله إلى ما قدْ دفعنا ؛ كيف ترى أهل العراق غدا صانعين ! إنا لبِمعرض خطر عظيم . فقال له : إن أصبحتْ غدا ربيعة وهم متعطّفون حوْل علىّ عليه السلام تعطّف الإبل حول فحلها ، لقيت منهم جِلادا صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التى لا يُتعزّى[3] لها . فقال معاوية : أيجوز أنك تخوفنا يا أبا عبدالله ! قال: إنك سألتنى فأجبتك. فلما أصبحوا فى اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدِقة بعلىّ عليه السلام إحداقَ بياض العين بسوادها[4] .

* * *

(١) ا ، ج : « تقصدت » ، وفى صفين : « تكسرت » .
(٢) صفين ٣٤٢ ، ٣٤٣
(٣) ا : « يعرض » .
(٤) صفين ٣٤٤ .

قال نصر : فحدّثنى عمرو ، قال : لما أصبح علىّ عليه السلام هذا اليوم ، جاء فوقف بين رايات ربيعة ، فقال عتاب بن لقيط البكرىّ ، من بنى قيس بن ثعلبة : يا معشرَ ربيعة ، حامُوا عن علىّ منذ اليوم ؛ فإنْ أصيبَ فيكم افتضحتُمْ ، ألا ترونَه قائما تحت راياتكم ؟ وقال لم شقيق بن ثور : يا معشرَ ربيعة ، ليس لكم عُذر عند العرب إن وُصل إلى علىّ وفيكم رجل حىّ ؛ فامنعوه اليوم ، واصدقوا عدوّكم اللقاء ؛ فإنه حمد الحياة تكسبونه . فتعاهدت ربيعة وتحالفتْ بالأيمان العظيمة منها ؛ تبايعَ سبعة آلاف ، على ألّا ينظر رجلٌ منهم خلفه حتى يردوا سُرادق معاوية ، فقاتلوا ذلك اليوم قتالا شديدا لم يكنْ قبله مثله ، وأقبلوا نحو سرادق معاوية ، فلما نظر إليهم قد أقبلوا قال :

إذا قلتُ قد ولّتْ ربيعة أقبلَتْ … كتائبُ منها كالجبالِ تُجالدُ

ثم قال لعمرو : يا عمرو ، ما ترى ؟ قال : أرى ألّا تحنَثَ أخوالى اليوم . فقام معاوية وخلّى لهم سرادقه ورحْلَه وخرج فارًّا عنه ؛ لائذا ببعض مضارب العسكر[1] فى أخرَيات الناس فدخله ، وانتهبت ربيعة سرادقه ورَحْله ؛ وبعث إلى خالد بن المعمّر : إنّكَ قد ظفرت ؛ ولك إمرة خراسان إن لم تُتمّ . فقطع خالد القتال ولم يتمّه ، وقال لربيعة : قد برّت أيمانكم فحسبكم ؛ فلمّا كان عام الجماعة ، وبايع النّاسُ معاوية ، أمّره معاوية على خُراسان ، وبعثه إليها ، فمات قبل أن يبلغَها[2] .

* * *

قال نصر فى حديث عمرو بن سَعْد : إنّ عليا عليه السلام صلّى بهم هذا اليوم صلاةَ الغداة ، ثم زحف بهم ؛ فلما أبصروه قد خرج استقبلوه بزُحوفهم ، فاقتتلوا قتالا شديدا . ثم إنّ خيل أهلِ الشام حملت على خيل أهل العراق ، فاقتطعوا من أصحاب علىٍّ عليه السلام ألفَ رجل أو أكثر ، فأحاطوا بهم ، وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم ، فنادى

(١) ب : « أهل الشام » ، وما أثبته من ا ، ب ، صفين .
(٢) صفين ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، وهناك : « فمات قبل أن يصل إليها » .

عليّ عليه السلام يومئذ : ألا رجلٌ يشرى نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته ! فأتاه رجلٌ من جُعْف يقال له عبد العزيز بن الحارث، على فَرَس أدم، كأنه غراب مقنّع فى الحديد، لا يُرى منه إلا عيناه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، مُرْنى بأمرك ، فوالله لاتأمرنى بشىء إلا صنعته ، فقال علىٌّ عليه السلام :

سمحتَ بأمرٍ لايطاق حفيظةً وصدقا وإخوانُ الوفاء قليلُ

جزَاك إلهُ النّاسِ خيراً فإنّه لعمرُك فضلٌ ماهناك جزيلُ(١)

ياأبا الحارث ، شدّ الله ركنك ، احمل على أهل الشام ، حتى تأتىَ أصحابك فتقولَ لهم : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ؛ ويقول لكم : هلّلوا وكبّروا من ناحيتكم، ونهلّل نحن ونكبّر من هاهنا، واحملوا من جانبكم، ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام. فضرب الجعفىّ فرسه ؛ حتى إذا أقامه على أطراف سنابكه، حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علىّ عليه السلام، فطاعنهم ساعة ، وقاتلهم ، فأفرَجوا له حتى خَلَص إلى أصحابه ؛ فلما رأوْه استبشرُوا به وفرِحُوا ، وقالوا : مافعل أمير المؤمنين ؟ قال : صالح ، يقرئكم السلام ويقول لكم : هلّلوا وكبروا واحملوا حملة شديدة من جانبكم ، ونهلّل نحن ونكبّر ونحمل من جانبنا . ففعلوا ماأمرهم به ، وهلّلوا وكبّروا ، وهلّل علىٌّ عليه السلام وكبّر هو وأصحابه، وحمل على أهل الشام وحملوا هُمْ من وَسَط أهل الشام ، فانفرج القومُ عنهم وخرجوا ؛ وما أصيب منهم رجلٌ واحد ؛ ولقد قُتِل من فُرْسان الشام يومئذ زهاء سبعمائة إنسان .

قال علىّ عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس اليوم غناء ؟ فقالوا : أنتَ ياأمير المؤمنين ، فقال : كلّا ، ولكنه الجعفىّ .

---

(١) صفين :

* يداك بفضلٍ ماهناك جزيلِ *

وعلى هذه الرواية يكون فى البيت إقواء .

قال نصر : وكان علىٌّ عليه السلام لا يعدِل بربيعة أحدًا من النّاس ، فشقّ ذلك على مُضَر ، وأظهروا لهم القبيح، وأبدوْا ذات أنفسهم ، فقال الحُضَيْن بن المنذر الرقاشى شعراً أغضبهم به ، من جملته[1] :

أرَى مُضَرًا صارتْ ربيعةُ دونَها شِعَارَ أميرِ المؤمنين ، وذا الفضلُ

فأبدَوْا لنا مما تُجِنّ صدورهمْ هو السوء والبغضاء والحِقْد والغِلُّ[2]

فأبلُوا بلانا أو أقِرّوا بفضْلِنا ولن تلحقونا الدّهْرَ ما حنّت الإبلُ

فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانىّ ، وعمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميمىّ ، وقبيصة بن جابر الأسدى ،وعبد الله بن الطّفيل العامرىّ ؛ فى وجوه قبائلهم ،فأتوا علياعليه السلام؛فتكلم أبو الطفَيل ، فقال: إنا والله ياأميرَالمؤمنين مانحسُدُ[3] قوماً خصّهم الله منك بخير ؛ وإنّ هذا الحيّ من ربيعة قد ظنّوا أنّهم أوْلَى بك مِنّا ، فأعفهم عن القتال أياماً ، واجعل لكلّ امرئ منّا يوماً يقاتل فيه ؛ فإنا إذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا .

فقال علىّ عليه السلام : نعم أعطيكم ماطلبتم ، وأمر ربيعة أن تكفّ عن القتال ،وكانت بإزاء اليمن من صُفوف أهل الشام ، فغدَا أبو الطفيل عامر بن واثلة فى قومه من كنانة ، وهم جماعةٌ عظيمة ، فتقدّم أمام الخيل ، ويقول : طاعِنوا وضاربوا . ثم حمل ، وارتجز فقال :

قَدْ ضَارَبَتْ فِي حَرْبِها كِنَانَهْ[4] واللهُ يجزيها بِهِ جِنانَهْ

من أفْرغَ الصَّبْرُ عليه زانَهْ أو غَلب الجُبْنُ عليه شَانَهْ

أو كفَرَ اللهَ فقد أهانَهْ غداً يَعَضّ مَنْ عَصَى بنانَهْ

---

(١) صفين : « فيه »

(٢) الرواية فى صفين :

فأبدوْا إلينا ماتجِنُّ صُدورهُمْ عَلَيْنا من البَغْضا وذاك له أصلُ

(٣) ب : « نجد » ، تصحيف ، وصوابه فى ج وصفين .

(٤) صفين : « فقد صابرت » .

فاقتتلوا قتالا شديداً ؛ ثم انصرف أبو الطفيل إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنك أنبأتنا أنّ أشرفَ القتل الشهادة ، وأحظى الأمر الصبر ، وقد والله صبرنا حتى أصِبنا ، فقتيلنُا شهيد، وحيُّنا سعيد[1] ، فليطلُب مَنْ بقى ثأر مَن مضى ؛ فإنا وإن كنّا قد ذهب صَفوُنا ، وبقى كدَرُنا ، فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى ، ويقيناً لا تزحمه الشبهة . فأثنى علىّ عليه السلام عليه خيرا .

ثم غدَا فى اليوم الثانى عمير بن عطارد بجماعة من بنى تميم - وهو يومئذ سيّد مُضَر الكوفة - فقال ياقوم ، إنى أتبع آثار أبى الطفيل ، فاتبعوا آثار كنانة ، ثم قدّم رايته وارتجز فقال :

قَدْ ضَارَبَتْ فِي حَرْبِهَا تَمِيمُ ... إنّ تميماً خطبهـا عظيم[2]
لهـا حديثٌ ولها قديمُ ... إنّ الكريمَ نسْلُه كريمُ
دين قويم وهوًى سليم ... إن لم تزرهم رايتى فـلوموا[3]

ثم طعن برايته حتى خضَبها ، وقاتل أصحابه قتالاً شديداً حتى أمسَوْا ، وانصرف عمير إلى علىّ عليه السلام ، وعليه سلاحه ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، قد كان ظنّى بالناس حسنا ، وقد رأيتُ منهم فوقَ ظنّى بهم ؛ قاتلوا من كلّ جهة ، وبلغوا من عدوهم جهدَ عدوهم ، وهم لهم إن شاء الله .

ثم غـدا فى اليوم الثالث قَبيصة بن جابر الأسَدىّ فى بنى أسد ، وقال لأصحابه : يابنى أسد ، أمّا أنا فلا أقصِّر دون صاحبىّ ، وأمّا أنتم فذاك إليكم، ثم تقدّم برايته ، وقال :

قَدْ حَافَظَتْ فى حربها بنو أسَدْ ... مامثلُها تحتَ العَجاج من أحَدْ

---

(١) صفين : « ثائر » .
(٢) ب : « حظها » ؛ وما أثبته من ا ، ج ، وصفين .
(٣) صفين : « إن لم تزرهم » .

أقربُ منْ يُمْنٍ وأنأى من نَكَدْ ... كأنّنا ركننا ثَبيرٍ أو أُحُــــــدْ

لسنا بأوباشٍ ولا بيضِ البــــلدْ ... لكنّنا المحّة منْ ولد معـــــدْ(١)

فقاتل القوم إلى أن دخل الليلُ، ثم انصرفوا.

ثم غدا فى اليوم الرابع عبدالله بن الطُّفيل العامرىّ فى جماعة هوازن، فحاربهم حتى الليل ثم انصرفوا.

قال نصر: فانتصفوا المضرية من الربعيّة، وظهر أثرها وعرف بلاؤها، وقال أبو الطُّفيل:

وحَامَتْ كِنانة فى حَرْبِهــــا ... وحامت تميم وحَامَتْ أســــدْ

وَحَامَتْ هَوَازِنُ يَوْمَ اللّقــا ... فَمَا خامَ مِنّا وَمِنْهُمْ أَحَــدْ

لقينا الفوارس يوم الخميـــس ... والعيدِ والسّبت ثم الأحَـدْ

لقينَا قبــــائل أنسابِهمْ ... إلى حَضْرَموت وأهــل الجَنَدْ(٢)

فأمدادُهم خلف آذانِهِمْ ... وليس لنــا من سوانا مَدَدْ

فلمـا تنـادوْا بآبائهمْ ... دَعَوْنـاَ مَعَدًّا ونعم المَعَدّ

فظلنـا نُفَلّق هاماتِهِمْ ... ولم نَكُ فيهـا ببيض البَلَدْ

وَنعمَ الفوارسُ يومَ اللقـا ... فقلّ فى عديدٍ، وقُلّ فى عَدَدْ

وقل فى طِعـانٍ كفَرْغ الدلاء ... وَضَرْبٍ عظيم كنارِ الوَقَدْ(٣)

ولـكن عَصفْنـاَ بهم عَصْفَةً ... وفى الحرب يُمْنٌ وفيهـا نَكَدْ

طَحَنّا الفوارسَ وَسْطَ العَجاجِ ... وَسُقْنا الزعانفَ سَوْقَ النَّقَدْ(٤)

---

(١) المحة: الشيء الخالص، وبعده فى صفين.

كنتَ تَرانا فى العجاج كالأسَدْ ... ياليتَ رُوحِي قد نأى عن الجسَدْ

(٢) الجند: إحدى الولايات بأرض اليمن.

(٣) الفرغ: جمع فراغ؛ وهو مصب الدلو؛ وسكنت الراء لضرورة الشعر.

(٤) الزعانف: الجماعات؛ والنقد هنا: الغنم

وقلنا عليٌّ لنا والدٌ ونحنُ له طاعــــةً كالولدْ(١)

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، عن الأشعث بن سُوَيد ، عن كَرْدوس ، قال : كتب عُقْبة بن مسعود عاملُ عليّ على الكوفة إلى سليمان بن صُرَد الخزاعيّ ؛ وهو مع عليّ بصِفِّين :

أما بعد ؛ فإنهم ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾(٢)؛ فعليكَ بالجهاد والصَّبْر مع أمير المؤمنين . والسلام (٣) .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن سعد وعمرو بن شَمِر ، عن جابر عن أبي جعفر ؛قال: قام عليٌّ عليه السلام فخطب الناس بصِفِّين ، فقال :

الحمدُ لله عَلَى نِعَمِهِ الفاضِلةِ على جَميعِ مَنْ خَلَق؛ من البَرّ والفاجر،وعلى حُجَجه البالغة عَلَى خَلْقِه مَنْ أطاعه فيهم ومَنْ عصاه ؛ إن يرحَمْ(٤) فبفضله ومَنّه ، وإن عذَّب فبما كسبت أيديهم ؛ وإن الله ليسَ بظلاَّم للعبيد .

أحمَدُه على حُسْنِ البلاء ، وتظاهر النَّعماء ؛ وأستعينه على مانابنا من أمرِ الدنيا والآخرة ؛ وأتوكّل عليه وكفى بالله وكيلا . ثم إني أشهد (٥) أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ؛ أرسلَه بالهدى ودين الحقّ ؛ ارتضاه لذلك، وكان أهله؛واصطفاه لتبليغ رسالته،وجعلَه رحمةً منه على خَلْقِه ؛ فكان علمُه(٦) فيه رءوفاً

(١) صفين ٣٥٢ ، ٣٥٤
(٢) سورة الكهف ٢٠
(٣) صفين ٣٥٤ : « والسلام عليك » .
(٤) صفين : « رحم » .
(٥) صفين : « وأشهد » .
(٦) صفين : « كعلمه »

رحياً ، أكرم خلق الله حسباً ، وأجلهم[1] منظراً ، وأسخاهم نفساً، وأبرّهم لوالد، وأوصلهم لرحم؛ وأفضلهم علما ، وأثقلهم حِلْما، وأوفاهم لعهد ، وآمنهم على عَقْد ؛ لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قطّ ، بل كان يظلم فينفر ، ويقدِر فيصفح ؛ حتى مضى صلى الله عليه وسلّم مطيعا لله ، صابراً على ما أصابه ، مجاهداً فى الله حقّ جهاده ؛ حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلّم ، فكان ذهابُه أعظمَ المصيبة على أهل الأرض: البرّ والفاجر ؛ ثم تركَ فيكم كتابَ الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته؛ وقد عهِد إلىّ رسولُ الله عهداً فلستُ أحيدُ عنه؛ وقد حَضَرتُم عَدُوّكم ، وعلمتُم أنّ[2] رئيسهم منافق ، يدعوهم إلى النار ؛ وابن عمّ نبيكم معكم ؛ وبين أظهركم ؛ يدعوكم إلى الجنّة وإلى طاعة ربّكم ، والعملِ بسنّة نبيكم ؛ ولا سواء مَنْ صلّى قبلَ كلّ ذَكَر ؛ لم يسبقنى بصلاةٍ مع رسول الله أحدٌ ، وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليق [وابن طليق][3]. والله إنّا على الحقّ وإنهم على الباطل ؛ فلا[4] يجتمعُنّ على باطلهم وتتفرقوا عن حقّكم[4] حتى يغلِبَ باطلُهم حقّكم ؛ ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[5] ، فإن لم تفعلوا يعذّبهم بأيدى غيركم .

فقام[6] أصحابُه ، فقالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ انهَضْ بنا إلى عَدُوّنا وعدوّك إذا شئت ؛ فوالله ما نريدُ بك بدلًا ؛ بل نموت معَك ، ونحيا معك . فقال لهم : والّذِى نفسى بيده ، لنظَرَ إلىّ النبى صلى الله وسلّم، أضربُ بين[7] يديه بسيفِى هذا، فقال: « لا سيف إلا ذُو الفقار ولا فتى إلا علىّ » ، وقال لى: « ياعلىّ ، أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبىّ بعدى،

---

(١) صفين : « وأجله » ، وكذلك سائر الضمائر إلى : « وآمنهم على عقد » .

(٢) صفين : « من رئيسهم » .

(٣) من صفين

(٤ — ٤) صفين : « فلا يكونن القوم على باطلهم اجتمعوا عليه ، وتفرقون عن حقكم » .

(٥) سورة التوبة ١٤

(٦) صفين : « فأجابه أصحابه » .

(٧) صفين : « قدامه » .

وموتك وحياتك يا علىّ معى » ؛ والله ما كَذَب ولا كُذِبْتُ ، ولا ضلّ ولا ضللت، ولا ضلّ بى ، ولا نسِيت ما عهِدَ إلىّ ، وإنّى على بيّنة من رَبى وعلى الطريق الواضح ؛ ألقطه لَقْطًا .

ثم نهض إلى القوم ؛ فاقتتلوا مِنْ حين طلعتِ الشمس حتى غاب الشفق الأحمر ، وما كانت صلاة القوم فى ذلك اليوم إلا تكبيراً[1] .

* * *

قال : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، عن الشعبىّ ، عن صعصعة بن صُوحان ، قال : برَزَ فى بعض أيام صفّين رجل من حِمْيَر ، من آل ذِى يَزَن ، اسمه كُرَيب[2] بن الصباح ، ليس فى الشام يومئذ رجلٌ أشهر بالبأس والنّجْدة منه ، فنادَى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه المرتفع بن الوضّاح الزبيدىّ ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يُبارز ؟ فخرج إليه الحارث ابن الجلاح ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه عابد[3] بن مسروق الهمْدانىّ فقتله ، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ؛ وقام عليها بغياً واعتداء ، ونادى : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه علىّ ، وناداه : ويحك يا كُرَيب ! إنى أحذِّرك الله وبأسَه ونِقْمته ، وأدعوك إلى سنّة الله وسنّة رسوله ، ويحك ! لا يُدخِلَنّك معاوية النّار ؛ فكان جوابُه له أن قال : ما أكثرَ ما قد سمعت مِنْك هذه المقالة ! ولا حاجة لنا فيها ، أقدِمْ إذا شئت ؛ مَنْ يشترى سيفى وهذا أثره ؟ فقال علىّ : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضَرْبَةً خَرّ منها قتيلا يُشحَط[4] فى دمه ، ثم نادى : مَنْ يبرز ؟ فبرز إليه الحارث ابن وداعة الحِميرىّ ، فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبرُز ؟ فبرز إليه المطاع بن مطّلب العنسىّ[5] ،

(١) صفين ٣٥٥ ، ٣٥٦
(٢) فى الأصول : « كريث » ، وما أثبته من صفين .
(٣) صفين : « عائذ »
(٤) يشحط ، بالبناء للمجهول : يتضرج بالدم ؛ وفى صفين : « يتشحط » .
(٥) صفين : « القينى » .

فقتله ، ثم نادى : مَنْ يبرز ؟ فلم يبرز إليه أحدٌ ، فنادى : [يا معشر المسلمين](١) ، ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾(٢) ، ويحك يا معاوية ! هلُمَّ إلىَّ فبارزْنى ؛ ولا يُقتَلَنَّ الناسُ فيما بيننا . فقال عمرو بن العاص : اغتنِمْه منتهزا ؛ قد قَتَل ثلاثة من(٣) أبطال العرب وإنى أطمعُ أن يُظفِرَك الله به ، فقال معاوية : والله لَن تريد إلا أن أُقتَلَ فتصيبَ الخلافة بعدى ؛ اذهب ، إليك عنّى ، فليس مثلى يُخدَع(٤) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ، قال : حدّثنا خالد بن عبد الواحد الجريرى(٥) قال : حدّثنى مَنْ سمع عمرو بن العاص قبل الوقعة العظمى بصِفّين ، وهو يحرّض أهل الشام ؛ وقد كان منحنياً على قوس ، فقال :

الحمدُ لله العظيم فى شأنِه ؛ القوىِّ فى سلطانه ، العلىِّ فى مكانه ، الواضح فى بُرْهانِه ، أحمَده على حُسْن البلاء ، وتظاهر النعماء ؛ فى كلِّ رزيةٍ(٦) من بلاء ، أو شِدّةٍ أو رخاء ؛ وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ ثم إنّا نحتسِب عندَ الله ربِّ العالمين ما أصبحَ فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من اشتعال نيرانها ، واضطراب حبْلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإنالله وإنا إليه راجعون ؛ والحمد لله ربِّ العالمين ! أوَ لَا تعلمون أنّ صلاتَنا وصلاتَهم ، وصيامَنا وصيامَهم ، وحجّنا وحجّهم ، وقتلنا وقتلاهم ،

(١) من صفين .
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) ساقطة من ب
٤ صفين ٣٠٦ ـ ٣٠٨
[(٥) صف]ين : « الجزرى » ، وفى ج : « الحريرى » .
(٦) صفين : « لزبة » .

ودينَنا ودينَهم واحد؛ ولكنّ الأهواء مختلفة[1]؛ اللهم أصلِحْ هذه الأمة بما أصلحتَ به أوّلها ، واحفظ[2] فيما بينها ؛ مع أن القوم قدوَطئُوا بلادكُم ، وبَغوْا عليكم ، فجِدّوا في قتالِ عَدُوّكم ، واستعينوا بالله ربِّكم ؛ وحافظوا على حُرماتكم . ثم جلس .

قال نصر : وخطب عبدالله بن العباس أهلَ العراق ، يومئذ فقال :

الحمدُ لله ربِّ العالمين ؛ الذي دَحا تحتَنا سَبْعا ، وسَمَك[3] دوقنا سَبْعا ، وخلَق فيما بينهن خَلْقاً ؛ وأنزل لنا مِنهُنّ رزقاً ، ثم جعل كلَّ شيء قدراً يبلى ويفنى غير وجهه الحيِّ القيوم ، الذي يحيا ويبقى . إن الله تعالى بعث أنبياء ورُسُلاً ؛ فجعلهم حججاً على عباده،عُذْراً أوْ نُذرا ، لايطاع إلا بعلمه وإذنه ، يمنّ بالطاعة على مَنْ يشاء من عباده ، ثم يُثيب عليها ، ويُعصَى بعلم منه ، فيعفو ويغفر بحلمه ، لا يقدَرُ قدرُه، ولا يَبْلُغ شيء مكانه ، أحصى كلّ شيء عددا، وأحاط بكلِّ شيء علما . وأشهد أن لاإله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأشهدُ أنّ محمدا عبده ورسوله ، إمامُ الهدى ، والنبيّ المصطفى ؛ وقد ساقنا قَدَرُ الله إلى ما ترون ، حتى كان مما اضطرب من حَبْلِ هذه الأمة ، وانتشر من أمرِها ، أنّ معاوية بن أبي سفيان[4] ، وَجَدَ مِنْ طغام الناس أعوانا، على عليّ ابن عم رسول الله وصهره، وأوّل ذَكَرٍ صلّى معه ، بَدْرِيّ، قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّ مشاهده التي فيها الفضلُ [5]ومعاوية مشركٌ ، كان يعبد الأصنام ، والذي مَلَكَ المُلْكَ وحدَه ، وبان به وكان أهله[5] ، لقد قاتَل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله ، وهو يقول : صدَق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كَذَب الله ورسوله ، فعليكم بتقوى الله ، والجِدّ والحزْم والصبر ، والله إنّا لَنعلمُ

(١) صفين : « منشتتة »
(٢) صفين : « واحفظ فيما بنيها » .
(٣) سمك : رفع .
(٤) صفين : « ابن آكلة الأكباد » .
(٥ـ٥) صفين : « ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام ، واعلموا والله الذي ملك الملك وحده ، فبان به وكان أهله » .

إنّكم لَعلَى حقّ ، وإنّ القومَ لَعلَى باطل ، فلا يكونَنّ أوْلَى بالجِدّ على باطلهم منكم فى حقّكم،وإنّا لنعلمُ أنّ الله سيعذّبُهم بأيديكم أو بأيدى غيركم ، اللهم أعِنّا ولا تخذُلْنا ؛ وانصرنا على عَدُوّنا ، ولا تحل [1] عنّا ؛ وافتح بيننا وبين قومنا بالحقّ ، وأنت خير الفاتحين [2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو ؛ قال : حدّثنا عبد الرحمن بن جُندب ، عن جندب بن عبدالله ، قال : قام عمّار يوم صفين ، فقال : انهضُوا [3] مَعِى عبادَ الله ، إلى قوم يزعمون أنّهم يطلبُون بدم ظالم ؛ إنما قتله الصالحون المنكِرون للعُدْوان ، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو دَرَس هذا الدين : لِمَ قتلتموه ؟ فقلنا : لإحداثه ، فقالوا إنه لم يُحدِث شيئا؛ وذلك لأنه مكّنهم من الدنيا ، فهم يأكلونها ويرْعَوْنها ، ولا يبالون لو انهدمت [4] الجبال . والله ماأظنّهم يطلبُون بدم [5]، ولكنّ القوم ذاقُوا الدنيا فاستحلّوها [6]،واستمرءوها ، وعلِموا أنّ صاحبَ الحق لو وليَهم لحال بينهم وبين مايأكلون ويرعوْن منها .

إنّ القوم لم يكُنْ لهم سابقة فى الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية،فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قُتِل إمامُنا مظلوما : ليكونوا بذلك جبابرةً وملوكا ؛ تلك مكيدة قد بلغوا بها ماترون ، ولولاها مابايعهم من النّاس رجل [7] ؛اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت،وإن تجعل

---

(١) صفين : « ولا تخل عنا » .

(٢) صفين ٣٥٩ ، ٣٦٠

(٣) صفين : « امضوا » .

(٤) صفين : « لو انهدت » .

(٥) صفين : « بدمه » .

(٦) صفين : « فاستحلوها » .

(٧) صفين : « رجلان » .

لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم .

ثم مضى ، ومضى معه أصحابه،فدنا من عمرو بن العاص،فقال : ياعمرو ، بعت دينَك بمصر ، فتبًّا لك ! وطالما بَغَيْتَ للإسلام عِوَجا [١] .

ثم قال : اللهم إنّك تعلم أنّى لو أعلم أنّ رضاك فى أنْ أقذِف بنفسى فى هذا البحْر لفعلت . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلمُ أنّ رضاك أنْ أضع ظُبَة سيفى فى بطْنى ثم أنحنِى عليه حتى يخرج من ظَهْرى لفعلت ؛ اللهم إنى أعلم مما علّمتنى أنى لا أعمل عملًا صالحًا هذا اليوم ، هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلته [٢] .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو بن سعيد ، عن الشعبىّ ،قال : نادى عمّار عبدَالله بن عمرو ابن العاص ، فقال له : بعتَ دينك بالدنيا من عدوّ الله ، وعدوّ الإسلام معاوية ، وطلبت هوَى أبيكَ الفاسق ، فقال : لا ، ولكنّى أطلبُ بدم عثمان الشهيد المظلوم، قال : كلّا ، أشهد على علمى فيك أنك أصبحتَ لاتطلبُ بشىء من فعلك وجهَ الله،وأنك إن لم تُقتل

---

(١) فى صفين بعدها : ثم حمل عمار وهو يقول :

صَدَقَ اللهُ وَهوَ لِلصِّدْقِ أهلٌ ... وتعالى رَبّى وكانَ جليلا
رَبِّ عَجِّــل شهادَةً لى بقتلٍ ... فى الذى قد أحبّ قتلًا جميلا
مقبلًا غــير مدبرٍ إنّ لِلقتــلِ عَلَى كلِّ ميتــةٍ تفضيلَا
إنّهُمْ عِنْدَ رَبهمْ فى جنــانٍ ... يَشْرَبُون الرّحيق والسَّلْسَبيلَا
مِنْ شرابِ الأبرار خالطه المسكُ وكأسًا مزاجُهـــا زنجبيلَا

(٢) صفين ٣٦١ ـ ٣٦٣

اليوم فستموت غدا ، فانظر إذا أعطى الله العباد على نيّاتهم ، ما نيّتك !

* * *

وروى ابن ديزيل فى كتاب صِفّين، عن صيف الضّبىّ ، قال: سمعت الصّعب بن حكيم ابن شريك بن نملة المحاربىّ يروى عن أبيه عن جدّه شريك، قال : كان النّاس من أهلِ العراق وأهل الشام يقتتلون أيام صِفّين، ويتزايلون ، فلا يستطيع الرجلُ أن يرجعَ إلى مكانه حتى يُسْفِر الغبار عنه ، فاقتتلوا يوماً ، وتزايلوا وأسْفَر الغبار ، فإذا علىٌّ تحت رايتِنا — يعنى بنى محارب — فقال : هل من ماء ؟ فأتيتُه بإداوة فخنثتُها له ليشرب، فقال : لا إنّا نُهينا أن نشربَ من أفواه الأسقية . ثم علّق سيفه وإنه لمخضّب بالدم من ظُبته إلى قائمه ، فصببت له على يديه فغسلهما حتى أنقاهما ، ثم شرب بيديه حتى إذا رَوِى رفع رأسه ، ثم قال : أين مضر ؟ فقلت : أنت فيهم ياأمير المؤمنين ، فقال : مَنْ أنتم بارك الله فيكم؟ فقلنا: نحن بنو محارب ، فعرفَ موقفَه ، ثم رجع إلى موضعه .

قلت : خنثتُ الإداوة، إذا ثنيتَ فاها إلى خارج ، وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن اختِناث الأسقية، لأنّ رجلا اختنثَ سِقاء فشرِب ، فدخل إلى جوفه حيّة كانت فى السقاء .

قال ابن ديزيل : وروى إسماعيل بن أبى أويس ، قال : حدّثنى عبدالملك بن قُدامة ابن إبراهيم بن حاطب الجمحىّ، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه ، عن جدّه عبدالله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بك ياعبد الله إذا بقيتَ فى حُثالة من الناس، قد مَرَجت عهودهم ومواثيقهم ، وكانوا هكذا ؟ وخالف بين أصابعه. فقلت : تأمرنى بأمرك يارسول الله ، قال : تأخذُ مما تعرف، وتدع ماتنكر، وتعمل بخاصّة نفسك ، وتدع الناس وهوامّ أمرهم .

قال: فلما كان يوم صفين، قال له أبوه عمرو بن العاص: ياعبدالله ، اخرُج فقاتل، فقال:

يا أبتاه ، أتأمرنى أن أخرج فأقاتل ، وقد سمعت ما سمعت يوم عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عهد ! فقال : أنشُدُك الله يا عبد الله ، ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخذ بيدك ، فوضعها فى يدى ، فقال : أطع أباك ! فقال : اللهمّ بلى؛ قال : فإنى أعزِم عليك أن تخرُج فتقاتل ؛ فخرج عبد الله بن عمرو فقاتل يومئذ متقلّداً سيفين . قال : وإن من شعر عبد الله بن عمرو بعد ذلك يذكر عليا بصفين :

فلو شهدتْ جُملُ مقامِى ومشهدِى بصفّين يوماً شابَ منها الذوائبُ
عَشِيّةَ جا أهلُ العراق كأنهمْ سحابُ ربيعٍ رفّعته الجنائبُ
إذا قلت قد ولّت سِرَاعاً بدتْ لنا كتائبُ مُنهم وارجحنّتْ كتائبُ
وجئنامُ فرادَى كأنّ صفوفنا من البحر مدٌّ موجه متراكب (١)
فدارتْ رَحَانا واستدارَتْ رحاهُمُ سَرَاةَ النهار ماتولّى المناكبُ
فقالوا لنا : إنّا نرى أن تُبايعوا فقلنا بلى إنا نرى أن تضاربوا

***

وروى ابن ديزيل ، عن يحيى بن سليمان الجعفىّ ، قال : حدثنا مسهر بن عبد الملك ابن سلع الهمدانىّ ، قال : حدثنى أبى عن عبد خير الهمدانىّ ، قال : كنت أنا وعبدُ خير فى سفَر ، قلت : يا أبا عمارة ، حدِّثنى عن بعض ما كنتم فيه بصِفّين ، فقال لى : يابن أخى ، وما سؤالك ؟ قلت : أحببتُ أن أسمع منك شيئاً ، فقال : يابن أخى ؛ إنا كنا نصلّى الفجر ، فنصف ويصفّ أهل الشام ، ونُشرع الرماح إليهم ويشرعون بها نحونا ، أما لو دخلتَ تحتها لأظلّتك ؛ والله يابن أخى ، إنا كنا لنقِف ويقفُون فى الحرب لانفتر ولا يفترون ، حتى نصلّىَ

---

(١) كذا ورد هذا البيت وما بعده فى الأصول .

العشاء الآخرة ؛ مايعرف الرجلُ منا طولَ ذلك اليوم مَن عن يمينه ولا مَن عن يساره، من شدّة الظلمة والنقْع إلا بقَرْع الحديد بعضه على بعض ، فيبرزُ منه شُعاع كشعاع الشمس ، فيعرف الرجلُ مَنْ عن يمينه ومَنْ عن يساره ؛ حتى إذا صلينا العشاء الآخرة جرّرنا قتلانا إلينا فتوسّدْناهُمْ حتى نصبح ، وجرّوا قتلاهم فتوسدوهم حتى يُصبحوا . قال : قلت له ياأبا عمارة ، هذا والله الصّبر .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : كان عمرو بن العاص إذا مرّ عليه رجلٌ من أصحاب علىّ فسأل عنه ، فأخبر به ، فقال : يرى علىّ ومعاوية أنهما بريئان من دم هذا .

قال ابن ديزيل : وروى ابنُ وهب ، عن مالك بن أنس ، قال : جلس عمرو ابن العاص بصِفِّين فى رواق ـ وكان أهلُ العراق يدفنون قتلاهم ، وأهل الشام يحملون قتلاهم فى العَباء والأكسية يحملونهم فيها إلى مدافنهم ـ فكلّما مُرّ عليه برجل ، قال : مَنْ هذا ؟ فيقال : فلان ، فقال عمرو : كم مِنْ رجل أحسنَ فى الله ، عظيم الحال لم ينجُ من قتله فلان وفلان ! قال : يعنى عليا ومعاوية .

قلت : ليت شعرى ! لِمَ برّأ نفسَه ، وكان رأساً فى الفتنة ! بل لولاه لم تكن؛ ولكن الله تعالى أنطقَه بهذا الكلام وأشباهه ؛ ليظهر بذلك شكّه ، وأنه لم يكن على بصيرة من أمره .

* * *

وروى نصر بن مزاحم ، قال : حدثنى يحيى بن يعلى ، قال : حدثنى صباح المُزَنىّ ، عن الحارث بن حصن ، عن زيد بن أبى رجاء ، عن أسماء بن حكيم الفزارىّ ، قال : كنا بصِفّين مع علىّ ، تحت راية عمّار بن ياسر ، ارتفاع الضحى ، وقد استظلَلْنا برداء أحمر ؛ إذْ أقبلَ رجل يستقرِى الصفّ حتى انتهى إلينا ، فقال : أيّكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار : أنا عمّار ، قال : أبو اليقظان ؟ قال : نعم ، قال : إنّ لى إليك حاجةً أفأنطقُ بها

سرا أو علانية ؟ قال : اخترْ لنفسك ، أيّهما شئت ، قال : لا بل علانية ، قال : فانطق ، قال : إنّي خرجتُ من أهلي مستبصراً في الحقّ الذي نحن عليه ؛ لا أشكّ في ضلالة هؤلاء القوم ، وأنّهم على الباطل ، فلم أزلْ على ذلك مستبصرا ، حتى ليلتي هذه ، فإني رأيتُ في منامي مناديا تقدّم ، فأذّن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونادى[1] بالصّلاة ، ونادى مناديهم مثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة ؛ فصلّينا صلاة واحدةً ، وتلونا كتاباً واحدا ، ودعونا دعوةً واحدة ، فأدركني الشكّ في ليلتي هذه ، فبتّ بليلة لا يعلمها إلا الله تعالى ، حتى أصبحتُ ، فأتيتُ أميرَ المؤمنين ، فذكرت ذلك له فقال : هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت : لا ، فالقه ، فانظر ماذا يقول لك عمار فاتّبعه ، فجئتُك لذلك ؛ فقال عمار : تعرف صاحبَ الراية السوداء المقابلة[2] لي ! فإنّها راية عمرو ابن العاص ، قاتلتُها مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم ثلاث مرات ، وهذه الرابعة فما هيَ بخيرهن ، ولا أبرّهن ؛ بل هي شرّهن وأفجرهُنّ . أشهدْت بدرا وأحداً ويوم[3] حُنين ، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها ؟ قال : لا ، قال : فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين ، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب ، فهل ترى هذا العسكر ومَنْ فيه ! والله لوددت أن جميعَ مَنْ فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا ، مفارقا للذي نحن عليه كانوا خَلْقاً واحدا ، فقطّعته وذبحته . والله لدماؤهم جميعاً أحلّ مِنْ دم عصفور ، أفترى دم عصفور حراما ؟ قال : لا بل حلال ؛ قال : فإنهم حلال كذلك ، أتراني بيّنت لك ؟ قال : قد بيّنتَ لي ، قال : فاختر أيّ ذلك أحببت .

---

(١) صفين : « فنادى » .
(٢) صفين : « المقابلي » .
(٣) صفين : « وخيلنا » .

فانصرف الرجلُ، فدعاه عمّار ثم قال : أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم[1] حتى يرتاب المبطلون منكم ، فيقولوا : لو لم يكونوا على حقّ ما أظهروا علينا ؛ والله ماهم من الحقّ على مايقذى عين ذباب ؛ والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سَعَفات هَجَر[2] لعلمنا أنّا على حقّ ، وأنّهم على باطل[3].

***

قال نصر : وحدّثنا يحيى بن يعلَى، عن الأصبغ بن نباتة، قال : جاء رجلٌ إلى علىّ، فقال : ياأمير المؤمنين ، هؤلاء القوم الذين نقاتلهم ؛ الدعوة واحدة ، والرسول واحد ، والصلاة واحدة ، والحجّ واحد فماذا نسميهم ؟ قال : سمّهم بما سماهم الله فى كتابه ، قال : ما كلّ مافى الكتاب أعلمه ، قال : أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾[4] ! فلما وقع الاختلاف ، كنّا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبىّ وبالحقّ ، فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا ، وشاء الله قتالهم ؛ فقاتلهم بمشيئته وإرادته .

***

هذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة والحمد لله وحده[5]

---

(١) صفين : « أما إنهم سيضربوننا بأسيافهم » .

(٢) إنما خص هجر ؛ لتباعده فى المسافة ؛ ولأنها موصوفة بكثرة النخيل . انظر اللسان ١١ : ٥٢

(٣) صفين ٣٦٣ ، ٣٦٤ . وبقية حديث عمار هناك : « وايم الله لايكون سلماسالما أبداً ؛ حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ؛ وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق ؛ وأن قتلاهم فى الجنة وموتاهم ولاينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم فى الجنة ؛ وأن موتى أعدائهم وقتلاهم فى النار ؛ وكان أحياؤهم على الباطل » .

(٤) سورة البقرة ٢٥٣

(٥) هذه خاتمة الجزء كما فى ا ، وفى ب : « وهذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ، ويتلوه الجزء السادس إن شاء الله تعالى الله وتقدس » . وفى ج : « وهذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ويتلوه الجزء السادس إن شاء الله تعالى » .

فهرس الموضوعات [1]

صفحة

(١) وهى الموضوعات التى وردت أثناء شرح نهج البلاغة .
(٢) انظر ماسلف من أخبارهم فى الجزء الرابع .

فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السادس

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

(٦٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في معنى الأنصار :

قالوا : لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال عليه السلام : ماقالت الأنصار ؟ قالوا : قالت : منّا أمير ومنكم أمير ؛ قال عليه السلام :

فَهَلاَّ احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ !

قَالُوا : وَمَا فِي هذَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَوْ كَانَتِ الإِمَامَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ . ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فَمَاذَا[1] قَالَتْ قُرَيْشٌ ؟

قَالُوا : احْتَجَّتْ بِأَنَّهَا شَجَرَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

---

(١) مخطوطة النهج : « وماذا » .

أَحْتَجُّوا بِالشجرَةِ ، وَأَضاعُوا الثَّمرَةَ !

***

الشَّـرْحُ :

قد ذكرنا فيما تقدّم طرفاً من أخبار السقيفة ؛ فأمّا هذا الخبر الوارد في الوصية بالأنصار ؛ فهو خبر صحيح، أخرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاريّ ومسلم بن الحجاج القُشَيْرِيّ في مسنديهما ، عن أنس بن مالك ، قال : مرّ أبو بكر والعباس رضى الله تعالى عنهما بمجلسٍ من الأنصار ، في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقالا : مايبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا محاسنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك ؛ فخرج صلى الله عليه وسلم وقد عَصَبَ على رأسه حاشية بُرْدَة[١] ، فصعد المِنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال: « أوصيكم بالأنصار ، فإنّهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي ، وقد قضوا الذى عليهم ؛ وبَقِيَ الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »[٢] .

فأما كيفية الاحتجاج على الأنصار ، فقد ذكرها عليّ عليه السلام ؛ وهي أنّه لو كان ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ ممن يجعل الإمامة فيهم ؛ لأوصى إليهم ، ولم يوصِ بهم .

وإلى هذا نَظَر عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو المسمى بالأشْدَق ؛ فإنّ أباه لما مات خَلّفه غلاماً ، فدخل إلى معاوية فقال : إلى مَنْ أوْصى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبى أوصَى إلىّ ولم يوصِ بي ؛ فاستحسن معاوية منه ذلك ؛ فقال : إنّ هذا الغلام لأشدَق ، فسُمّي الأشْدَق[٣] .

فأما قول أمير المؤمنين : « احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة » ؛ فكلام قد تكرّر منه

---

(١) البخارى : « برد » .

(٢) صحيح البخارى ٢ : ٣١٢ ، صحيح مسلم ١٩٤٩ .

(٣) الأشدق : البليغ .

عليه السلام أمثاله ؛ نحو قوله : « إذا احتجّ عليهم المهاجرون بالقُرْب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قائمة ؛ فإن فَلَجَتْ حُجّتهم كانت لنا دونهم ؛ وإلّا فالأنصار على دعوتهم » .

ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر : « وأما قولك : نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم جيرانها ؛ ونحن أغصانها » :

* * *

[يوم السقيفة]

ونحن نذكر خبر السَّقيفة[1] ؛ روى أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهريّ في كتاب " السقيفة " قال :

أخبرني أحمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا أحمد بن سيّار ، قال : حدّثنا سعيد بن كَثِير ابن عُفَير الأنصاريّ أن النبيّ صلى الله عليه وآله لما قُبِض ، اجتمعتْ الأنصار في سَقيفة بني ساعدة ، فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبِض ، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس ـ أو لبعض بنيه : إنّي لا أستطيعُ أن أُسمِعَ الناسَ كلامي لمرضِي ؛ ولكن تلقّ مني قولِي فأسْمِعهم . فكان سعد يتكلّم ، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمِع قومَه ؛ فكان من قوله بعد حمد الله والثناء عليه أنْ قال :

إنّ لكم سابقةً إلى الدين ، وفضيلةً في الإسلام ليستْ لقبيلة من العرب . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبِثَ في قومه بضعَ عشرةَ سنة ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلْع الأوثان ؛ فما آمن به من قومه إلا قليل ، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ،

---

(١) انظر أخبار السقيفة أيضاً في الجزء الأول ٢١ ـ ٦١ .

ولا يُعزّوا دينَه ، ولا يدفعوا عنه عِـداه ؛ حتى أراد الله بكم خيرَ الفضيلة ، وساق إليكم الـكرامة ، وخصّـكم بدينه ، ورزقـكم الإيمان به وبرسوله ، والإعزازَ لدينه ، والجهادَ لأعدائه ؛ فـكنتم أشدَّ الناس على مَنْ تخلّف عنه منـكم ، وأثقله على عَدُوِّه من غيركم ؛ حتى استقاموا لأمر الله طوْعاً وكرها،وأعطَى البعيدُ المَقَادَةَ صاغراً داخراً[1]، حتى أنجز الله لنبيّـكم الوعد ، ودانت لأسيافِـكم العربُ.ثم توفّاه الله تعالى وهو عنـكم راضٍ ؛ وبكم قريرُ عَيْن ؛ فشُدّوا يديـكم بهذا الأمر ، فإنّـكم أحقُّ الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعا : أنْ وُفّقْتَ فى الرأى،وأصبت فى القول ، ولن نعدُوَ ماأمرت. نولّيك هذا الأمر ، فأنت لنا مقنَع ، ولصالح المؤمنين رضاً .

ثم إنّهم ترادّوا الـكلام بينهم ، فقالوا : إن أبتْ مُهاجِرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وأصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأوّلون ؛ ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلامَ تُنازعوننا هذا الأمر من بعده ! فقالت طائفة منهم : إذاً نقول : مِنّا أمير ومنـكم أمير ، لن نَرْضى بدون هـذا منهم أبدا ، لنا فى الإيواء والنصرة مالهم فى الهجرة، ولنا فى كتاب الله مالهم ، فليسوا يعدُّون شيئاً إلا ونعدّ مثله ، وليس مِنْ رأينا الاستئثارُ عليهم ، فمنّا أمير ومنهم أمير .

فقال سعد بن عبادة : هذا أول الوَهَن !

وأتى الخبرُ عمرَ ، فأتى منزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوجَد أبا بكرٍ فى الدار وعلياًفى جِهاز رسول الله صلى الله عليه وآله ــ وكان الذىأتاه بالخبر مَعْن بن عدىّ ــ فأخذ بيد عمر ، وقال : قم ، فقال عمر: إنّى عنك مشغول ، فقال : إنّه لابدّ من قيام ،فقام معه، فقال له : إنّ هـذا الحىّ من الأنصار قد اجتمعُوا فى سَقِيفة بنى ساعدة ، معهم سعد بن عُبادة ، يدورون حوْله ، ويقولون : أنت المرجّى ، ونجلك المرجّى . وثَمّ أناسٌ من

(١) كذا فى ج ، والداخر : « الذليل » ، وفى ب : « داحضا » .

أشرافهم ، وقد خُشِيت الفتنة ، فانظر ياعمر ماذا ترى ! واذكر لإخوتك من المهاجرين ، واختاروا لأنفسكم ، فإنى أنظر إلى باب فتنة قد فتح الساعة إلّا أن يُغلقهُ الله . ففزع عمر أشدّ الفزَع ، حتى أتى أبا بكر ، فأخذ بيده ، فقال : قم ، فقال أبو بكر : إنّى عنك مشغول . فقال عمر : لا بدّ من قيام ؛ وسنرجع إن شاء الله .

فقام أبو بكر مع عمر ، فحدّثه الحديث ، ففزِع أبو بكر أشدّ الفزع ،وخرجا مسرعَين إلى سقيفة بنى ساعدة ؛ وفيها رجالٌ من أشراف الأنصار ؛ ومعهم سعد بن عبادة وهو مريض بين أظهرهم ، فأراد عمر أن يتكلّم ويمهّدَ لأبى بكر ؛ وقال : خشِيتُ أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام ؛ فلما نَبَس[1] عمر ، كفّه أبو بكر وقال : عَلَى رِسْلك ؛ فتلقّ الكلامَ ثم تكلّمْ بعد كلامى بما بدالك . فتشهد أبو بكر ، ثم قال :

إنّ الله جل ثناؤه بعثَ محمدا بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى مادعانا إليه ، وكنّا ـ معاشرَ المسلمين المهاجرين ـ أوّلَ الناس إسلاما، والنّاس لنا فى ذلك تبَع ؛ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوسطُ العرب أنسابا ، ليس من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ؛ وأنتم أنصار الله ، وأنتم نصرتُم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أنتم وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فى الدين ؛ وفيما كنّا فيه من خير ؛ فأنتم أحبُّ الناس إلينا ،وأكرمُهم علينا ، وأحقّ الناس بالرضا بقضاء الله ، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين، وأحقّ الناس ألّا تحسدوهم ، فأنتم المؤثِرون على أنفسهم حين الخصاصة ، وأحقُّ الناس ألّا يكون انتقاض هذا الدين واختلاطه على أيديكم ، وأنا أدعوكم إلى أبى عبيدة وعمر ؛ فكلاهما قد رضِيتُ لهذا الأمر ، وكلاهما أراه له أهلا .

---

(١) نبس : أى تكلم .

فقال عمر وأبو عبيدة : ماينبغى لأحدٍ من الناس أن يكونَ فوقك ، أنت صاحبُ الغار ، ثانى اثنين ، وأمرك رسول الله بالصلاة ، فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر .

فقال الأنصار :

والله ما نحسدكم على خيرٍ ساقه الله إليكم ، ولا أحدَ أحبّ إلينا ولا أرضى عِنْدنا منكم ، ولكنّا نشفق فيما بعد هذا اليوم ، ونحذر أن يغلبَ على هذا الأمر مَنْ ليس مِنّا ولا منكم ؛ فلو جعلتم اليوم رجُلًا منكم بايعْنا ورضينا ــ على أنّه إذا هلك اخترناواحداً من الأنصار ؛ فإذا هَلَك كان آخر من المهاجرين أبداً مابقيت هذه الأمة ــ كان ذلك أجدر أن نَعْدِل[1] فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ،فيشفِق الأنصارىّ أن يزيغ فيقبض عليه القرشىّ ، ويشفق القرشىّ أن يزيغَ فيقبض عليه الأنصارىّ .

فقام أبو بكر فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما بُعث عظم على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم ، فخالفوه وشاقّوه ، وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصَّبْر معه على شِدّة أذى قومه ، ولم يستوحشوا لكثرةعدوّهم ؛ فهمْ أول مَنْ عَبَد الله فى الأرض ، وهم أوّلُ مَنْ آمن برسول الله ، وهم أولياؤه وعِتْرته ، وأحقّ الناس بالأمر بعده ، لاينازعهم فيه إلا ظالم ؛وليس أحدٌ بعد المهاجرين فضلاوقدَما فى الإسلام مثلكم ؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نفتات دونكم بمشورة ، ولا نقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح ، فقال :

يامعشر الأنصار؛ املِكوا عليكم أيديَكم ؛ إنما الناس فى فيئكم وظلّكم ؛ولن يجترىء مجترىءٌ على خِلافكم ،ولا يصدر الناس إلّا عن أمركم ، أنتم أهل الإيواء والنُّصْرة، وإليكم كانت الهجرة ، وأنتم أصحاب الدّاروالإيمان ؛ والله ماعبِد اللهُ علانيةً إلاعندكم وفى بلادكم،

(١) كذا فى ج ، وفى ب : « العدل » .

ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم ، ولا عُرِف الإيمان إلا من أسيافكم ، فاملِكوا عليكم أمرَكم ، فإن أبى هؤلاء فمنّا أميرٌ ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سَيْفان في غِمْد ؛ إنّ العرب لا ترضى أن تؤمِّرَكم ونبيُّها من غيركم ، وليس تمتنع العرب أن تولّيَ أمرَها مَنْ كانت النبوّة فيهم ؛ وأولو الأمر منهم ، لنا بذلك الحجة الظاهرة على مَنْ خالفنا ، والسلطان المبين على مَنْ نازعنا ، مَنْ ذا يخاصِمُنا في سلطان محمد وميراثه ؛ ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلاّ مُدْلٍ بباطل ، أو متجانفٌ لإثم ، أو متورّط في هَلَكة !

فقامَ الُحباب ، وقال :

يا معشر الأنصار ، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر ، فإن أبوْا عليكم ما أعطيتموهم فأجلُوهم عن بلادكم ، وتولَّوْا هذا الأمر عليهم ، فأنتم أوْلَى الناس بهذا الأمر ، إنّه دانَ لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له . أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيقُها المرجَّب[1] ، إن شئتم لنعيدنَّها جَذعة[2] ، والله لا يردّ أحدٌ عليّ ما أقول إلا حطَمتُ أنفه بالسَّيف .

قال : فلما رأى بشير بن سعد الخزرجيّ ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمير سعد بن عبادة — وكان حاسداً له ، وكان من سادة الخزرج — قام فقال :

أيها الأنصار ، إنّا وإنْ كنّا ذوِي سابقة ، فإنّا لم نُرِدْ بجهادنا وإسلامنا إلا رضا ربِّنا وطاعة نبيّنا ، ولا ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغِي به عِوَضاً

(١) قال الزمخشري في الفائق ١ : ١٨١ : « الجذل : عود ينصب للابل الجربى تحتك به فتستشفي . والمحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملساً . والعذق ؛ بالفتح : النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة ؛ وهي خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا طال وكثر حمله . والمعنى : إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيراً في مثل هذه الحادثة ، وأنا في كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها ، وفي أمثالها ومصادرها ، كالنخلة الكثيرة الحمل . ثم رمى بالرأى الصائب عنده ، فقال : منا أمير ومنكم أمير » .

(٢) قال في اللسان : « إن شئتم أعدناها جذعة ، أى أول ما يبتدأ فيها » .

من الدّنيا ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم رجلٌ من قريش ؛ وقومه أحقُّ بميراثِ أمره ، وايمُ الله لايرانى الله أنازعهم هذا الأمر ؛ فاتّقوا اللهَ ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم .

فقام أبو بكر، وقال : هذا عمر وأبو عُبيدة ، بايعوا أيّهما شئتم ؛ فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك ؛ وأنت أفضلُ المهاجرين ، وثانى اثنين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصلاة ؛ والصّلاةُ أفضلُ الدّين . ابسُط يدكَ نبايعْك .

فلما بَسط يَده ، وذهبا يبايعانه ، سبقهما بشير بن سعد ، فبايَعه ، فناداه الحُباب ابن المنذر : يا بشير ، عَقّتك عَقاقِ(١) ؛ والله ما اضطرك إلى هـذا الأمر إلّا الحسدُ لابن عمّك .

ولما رأت الأوس أنّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع ، قام أُسَيد بن حُضَير ـ وهو رئيس الأوس ـ فبايَع حسدا لسعد أيضا، ومنافسةً له أن يلىَ الأمرَ، فبايعت الأوس كلّها لمّـا بايع أُسَيد ، وحمِل سعد بن عبادة وهو مريض ، فأدخِل إلى منزله ، فامتنع من البَيْعة فى ذلك اليوم وفيما بعده ، وأراد عمر أن يُكرِهه عليها ، فأشير عليه ألّا يفعل ، وأنه لا يبايع حتى يُقتل ، وأنه لا يُقتل حتى يقتَـل أهلُه ، ولا يقتَل أهلُه حتى يقتَلَ الخزرج ؛ وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها .

وفسد الأمر فتركوه ، فـكانَ لا يصلّى بصلاتِهم ، ولا يجمّع بجماعتهم ، ولا يقضِى بقضائهم ؛ ولو وجد أعوانا لضاربَهم ، فلم يزلْ كذلك حتى مات أبو بكر ، ثم لقِيَ عمرَ فى خلافته ؛ وهو على فرس ، وعمر على بعير ، فقال له عمر : هيهات ياسعد ! فقال سعد : هيهات يا عمر ! فقال : أنت صاحب مَنْ أنت صاحبه ؟ قال : نعم أنا ذاك ؛ ثم قال لعمر : والله ما جاوَرنى أحدٌ هوأبغضُ إلىّ جواراً منك ، قال عمر : فإنه مَنْ كَرِه جوار رجل انتقل عنه ؛ فقال سعد : إنّى لأرجو أن أخلّيَها لك عاجلا إلى جوار مَنْ هو أحبُّ إلىّ

---

(١) ج : « ياعقاق » .

جواراً منك ومن أصحابك ؛ فلم يلبث سعدٌ بعد ذلك إلا قليلا حتى خرج إلى الشام، فمات بحُوران ولم يبايع لأحدٍ ؛ لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما .

قال : وكثر الناسُ على أبي بكر ، فبايعه معظمُ المسلمين في ذلك اليوم ؛ واجتمعت بنو هاشم إلى بيت عليّ بن أبي طالب ، ومعهم الزبير ، وكان يعدّ نفسه رجلا من بني هاشم ؛ كان عليّ يقول : مازال الزُّبير مِنّا أهلَ البيت ؛ حتى نشأ بَنُوه ، فصرفُوه عنّا .

واجتمعتْ بنو أميّة إلى عثمان بن عفّان ، واجتمعت بنو زَهْرة إلى سعد وعبد الرحمن ؛ فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة ، فقال : مالي أراكم ملتاثِين ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ؛ فقد بايع له الناس ، وبايعه الأنصار . فقام عثمان ومن معه ، وقام سعد وعبد الرحمن ومَنْ معهما ، فبايعوا أبا بكر .

وذهب عمر ومعه عِصابة إلى بيت فاطمة ، منهم أسيد بن حُضير وسلمَة بن أسلم ، فقال لم : انطلقوا فبايِعوا ، فأبوْا عليه ؛ وخرج إليهم الزُّبير بسيفه ، فقال عمر : عليكم الكلْب ، فوثب عليه سلمَة بن أسلم ، فأخذَ السيفَ من يدِه فضرب به الجدار ، ثم انطلقوا به وبعليّ ومعهما بنو هاشم ، وعليّ يقول : أنا عبدُ الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حتى انتهوْا به إلى أبي بكر ، فقيل له : بايعْ ، فقال : أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أوْلى بالبيعةِ لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتُم عليهم بالقرابة من رسول الله ، فأعطوكم المقادَة ، وسلَّموا إليكم الإمارة ، وأنا أحتجُّ عليكم بمثل مااحتججتُم به على الأنصار . فأنصفونا إن كنتم تخافُون الله من أنفسِكم ، واعرِفوا لنَا من الأمر مثل ماعرفت الأنصار لكم ، وإلّا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال عمر : إنّك لستَ متروكاً حتى تبايع . فقال له عليّ : احلب ياعمر حلباً لك شطرُه ! اشدُدْ[1] له اليوم أمرَه ليردّ عليك غداً ! ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه . فقال له أبو بكر :

---

(١) ب : « شدّ » .

فإن لم تبايعنى لم أكرهك ، فقال له أبو عبيدة: ياأبا الحسن ، إنك حديثُ السنّ ، وهؤلاء مَشْيَخة قريش قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالًا له ؛ واضطلاعاً به ، فسلّم له هذا الأمر وارضَ به ، فإنك إن تعش وَيَطُلْ عمرك فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ؛ فى فضلِك وقرابتِك ، وسابقتِك وجهادِك .

فقال علىّ : يامعشرَ المهاجرين ، اللهَ اللهَ ! لاتُخرِجوا سلطانَ محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهلَه عن مقامه فى الناس وحقّه ، فوالله يامعشرَ المهاجرين ، لَنحنُ ـ أهلَ البيت ـ أحقُّ بهذا الأمر منكم. أما كان منّا القارئُ لكتابِ الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بالسنّة ، المضطلع بأمر الرعية ! والله إنه لفينا ، فلاتتبعوا الهوى ، فتزدادوا من الحقّ بعدا .

فقال بشير بن سعد : لو كان هذا الكلامُ سمعتْهُ منك الأنصار ياعلىّ قبل بيعتهم لأبى بكر ، مااختلف عليك اثنان ، ولكنّهم قد بايعوا .

وانصرف علىّ إلى منزله ، ولم يبايع ، ولزم بيتَه حتى ماتت فاطمة فبايَع .

* * *

قلت :هذا الحديثُ يدلُّ على بُطلان مايُدّعَى من النصّ على أمير المؤمنين وغيره ،لأنه لوكان هناك نصٌّ صريح لاحتجّ به ولم يجرِ للنصّ ذكر ، وإنّما كان الاحتجاج منه ومن أبى بكر ومن الأنصار بالسوابق والفضائل والقرب ، فلو كان هناك نصٌّ على أمير المؤمنين أو على أبى بكر ، لاحتجّ به أبو بكر أيضاً على الأنصار ، ولاحتجّ به أميرُ المؤمنين على أبى بكر ، فإنّ هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة ،يدلّ على أنه قد كان كاشفهم وهَتَك القِناع بينه وبينهم ، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدّى عليه وظلمه ، وتمنّع من طاعتهم ،

وأسمَعَهم من الـكلام أشدّه وأغلظه ! فلو كان هناك نص لذكره، أو ذكره بعض مَنْ كان من شيعته وحزبه ؛ لأنّه لا عِطر بعد عَرُوس .

وهذا أيضاً يدلّ على أنّ الخبرَ المرويّ في أبي بكر في صحيحي البخاري ومسلم غيرُ صحيح ؛ وهو ماروى من قوله عليه السلام لعائشة في مرضه : « ادعي لي أباك ، حتى أكتب لأبي بكر كتاباً ؛ فإني أخافُ أن يقول قائل ، أو يتمنى متمَنٍّ ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .

وهذا هو نص مذهب المعتزلة .

* * *

وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ أيضاً : حدّثنا أحمد وقال : حدثنا ابن عُفير ، قال: حدّثنا أبو عوف عبد الله بن عبد الرحمن ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ رضى الله عنهما ، أنّ عليًا حَمَل فاطمة على حمار ، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار ؛ يسألهم النصرة ، وتسألهم فاطمة الانتصار له ، فكانوا يقولون : يابنتَ رسول الله ، قدمضت بيعتُنا لهذا الرجل؛ لوكان ابنُ عمّك سبق إلينا أبا بكر ما عَدَلْنا به ؛ فقال عليّ : أكنت أترك رسولَ الله ميّتاً في بيته لا أجهّزه ، وأخرجُ إلى الناس أنازعهم في سلطانه !

وقالت فاطمة : ماصنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له ، وصنعوا ماالله حسْبُهم عليه .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وحدثنا أحمد ، قال : حدثني سعيد بن كثير ، قال : حدثني ابن لَهِيعة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمامات وأبو ذرّ غائب ، وقدم وقد وُلّيَ أبو بكر ، فقال : أصبتم قِناعه ، وتركتم قرابه ؛ لوجعلتم هذا الأمر في أهلِ بيت نبيّكم لما اختلف عليكم اثنان .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب ، قال : لما توفيَ النبيّ صلى الله عليه وآله ، وجرى في السقيفة ما جرى تمثل عليّ :

وأصبح أقوام يقولونَ ما اشتهوْا ويطعنون لمّا غالَ زيداً غوائلُهْ

[قصيدة أبي القاسم المغربيّ وتعصبه للأنصار على قريش]

وحدثني أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلَويّ نقيب البصرة ؛ قال : لما قدم أبو القاسم عليّ بن الحسين المغربيّ من مصر إلى بغداد ، استكتبه شرفُ الدولة أبو عليّ بن بويه ، وهو يومئذ سلطان الحضرة ، وأمير الأمراء بها ، والقادر خليفة ، ففسدت الحالُ بينه وبين القادر ؛ واتفق لأبي القاسم المغربيّ أعداء سوء أوحشوا القادر منه ، وأوهموه أنّه مع شرف الدولة في القبض عليه وخلعه من الخلافة ، فأطلق لسانَه في ذكره بالقبيح . وأوْصلَ القول فيه ، والشكوى منه ، ونسبه إلى الرفض وسبّ السلف ، وإلى كفران النعمة ، وأنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه .

قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى : فأما الرفض فنعم ؛ وأما إحسان الحاكم إليه فلا كان الحاكم ! قتَل أباه وعمّه وأخا من إخوته ، وأفلت منه أبو القاسم بخديعة الدين ، ولو ظفر به لألحقه بهم .

قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربيّ ، ينسب في الأزد ، ويتعصّب لقحطان على عدنان ، وللأنصار على قريش ، وكان غاليا في ذلك مع تشيّعه ، وكان أديباً فاضلا شاعراً مترسّلا ، وكثير الفنون عالما ، وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط ، فاتّفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطّه شبه مجموع ؛ قد جمع من خطّه وشعره وكلامه مسود ، أتحفه به بعض مَنْ كان يشنأ أبا القاسم ، ويريد كيده ، فوجد القادر في ذلك المجموع قصيدة من شعره ، فيها تعصّب شديد للأنصار على المهاجرين ، حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة ؛ لإفراط غلوّه

وفيها تصريح بالرَّفض مع ذلك ،فوجدها القادر تمرةَ[1] الغراب ،وأبرزها إلى ديوان الخلافة، فقرئ المجموع والقصيدة بمحضَرٍ من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمعدّلين والفقهاء،ويشهد أكثرهم أنه خطّه ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه،وأمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك ، فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جَرى ، اتصل الخبر بأبي القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة ، فهرب ليلًا ، ومعه بعضُ غلمانه ، وجارية كان يهواها ويتحظّاها ، ومضى إلى البَطِيحة ، ثم منها إلى الموصل ، ثم إلى الشام ،ومات في طريقه، فأوصى أن تُحمَلَ جثته إلى مشهد عليّ ، فحملت في تابوت ، ومعها خفراء العرب حتى دفن بالمشهد بالقرب منه عليه السلام[2] .

وكنت برهةً أسأل النقيبَ أبا جعفر عن القصيدة ، وهو يدافعني بها ، حتى أملاها عليّ بعد حين ، وقد أوردت هاهنا بعضها ؛ لأني لم أستجِزْ ولم أستحلّ إيرادها على وجهها، فمن جملتها ــ وهو يذكر في أولها رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول : إنه لولا الأنصار لم تستقمْ لدعوته دعامة ، ولا أرست له قاعدة ، في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها :

نحنُ الَّذين بنا استجارَ فلم يَضِعْ ... فينا ، وأصبحَ في أعزّ جِوارِ
بسيوفنا أمست سخينةُ برّكا ... في بَدْرِها كنحائرِ الجزّارِ[3]
ولنحنُ في أُحُدٍ سمَحْنا دونه ... بنفوسنا للموت خوفَ العارِ
فنجا بمهجته ، فلولا ذبُّنا ... عنه تنشّب في مخالب ضارِ
وحَمِيّة السَّعْدين بل بحماية الـ ... ـدّين يوم الجحفلِ الجرّارِ
في الخندق المشهور إذ ألقى بها ... بيدٍ ، ورام دفاعها بِبَوارِ
قالا : معاذ الله إن هضيمةً ... لم نعطِها في سالف الأعصارِ

(١) يقال إذا أصاب الرجل عند صاحبه أفضل مايريد من الخير والمنصب : وجد تمرة الغراب ، وذلك لأن الغراب إنما يجني من التمر أجوده . ثمار القلوب ٣٦٦

(٢ـ٢) ج « بالغريّ » .

(٣) سخينة : لقب قريش ، وفي ا ، ج : « تركا » .

ماعندنا إلا السيوف ، وأقبلا   نحو الحتوف بها بَدَارِ بَدَارِ
ولنا بيوم حنينَ آثارٌ متى   تذكرْ فهنّ كرائمُ الآثارِ
لما تصدع جمعُه فغدا بنا   مستصرِخاً بعقيرةٍ وجُؤارِ
عطفت عليه كماتُنا ، فتحصّنتْ   منّا جموعُ هوازنٍ بفرارِ
وفدَتْه من أبناء قَيْلة عُصْبةٌ   شَرْوَى النقير وجِنّة البقّارِ
أفنحنُ أولى بالخلافة بعدَهُ   أم عبد تيم حاملُو الأوزارِ !
ماالأمر إلا أمرُنا وبسعدِنا   زُفّتْ عَرُوسُ الملك غير نوارِ !
لكنما حسدُ النفوس وشحُّها   وتذكّر الأذحالِ والأوتارِ
أفضى إلى هَرْجٍ وَمَرْجٍ فانبرَتْ   عشواء خابطةً بغير نَهارِ
وتداولتْها أربعٌ لولا أبو   حَسَنٍ لقلتُ لؤمت من إسْتارِ(1)
من عاجزٍ ضَرِعٍ ،ومن ذي غِلظة   جافٍ ، ومن ذي لوثة خوّارِ(2)
ثم ارتدى المحرومُ فضلَ رِدائها   فغلت مراجل إحنةٍ ونِفارِ
فتأكّلت تلك الجُذَى، وتلمّظتْ   تلك الظُّبا ، ورقا أجيجُ النارِ
تالله لو ألقوْا إليه زمامَها   لمشى بهم سُجُحاً بغير عِثارِ(3)
ولو انّها حلّت بساحةِ مجده   بادي بدَا سكنت بدارِ قَرارِ
هو كالنبي فضيلةً ، لكنّ ذا   من حظّه كاسٍ ، وهذا عارِ
والفضلُ ليس بنافعٍ أربابَه   إلا بمسعدةٍ من الأقدارِ
ثم امتطاها عبدُ شمس فاغتدَتْ   هزؤا ، وَبُدِّلَ رِبحُها بخسارِ
وتنقّلت في عصبةٍ أمويّة   ليسوا بأطهارٍ ولا أبرارِ

---

(١) الإستار ، بالكسر : أربعة في العدد .
(٢) الضرع : الضعيف .
(٣) ج : « تبار » .

مابين مأفونٍ إلى مُتَزَنْدِقٍ ومُداهِنٍ ومضاعَفٍ وحِمَارِ

فهذه الأبيات، هى نظيفُ القصيدة، التقطناها وحذفنا الفاحش، وفى الملتقط المذكور أيضا مالا يَجُوز ، وهو قوله : « نحن الذين بنا استجار » ، وقوله : « ألقى بها بيدٍ » ، وقوله : « فنجا بمهجته . . . » البيت . وقوله عن أبى بكر : « عبد تيم » ، وقوله : « لولا علىّ لقلت فى الأربعة إنهم إستار لؤم » ، وذكره الثلاثة رضى الله عنهم بما ذكرهم ونسبهم إليه . وقوله : « إن عليا كالنبى فى الفضيلة » ، وقوله : « إنّ النبوّة حظّ أعطيه وحُرِمه علىّ عليه السلام » .

فأما قوله فى بنى أمية: « مابين مأفون . . . » البيت ، فمأخوذ من قول عبد الملك بن مرْوان ، وقد خطب فذكر الخلفاء من بنى أميّة قبله ، فقال : إنّى والله لستُ بالخليفة المستضعَف ، ولا بالخليفة المداهِن، ولا بالخليفة المأفون؛ عَنَى بالمستضعَف عثمان ، وبالمداهن معاويةَ ، وبالمأفون يزيدَ بن معاوية ، فزاد هذا الشاعر فيهم اثنين : وهما المتزندِق ، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، والحِمار وهو مرْوان بن محمد بن مروان .

***

[أمر المهاجرين والأنصار بعد بيعة أبى بكر]

وروى الزبير بن بكار فى ''الموفقيّات'' قال: لما بايع بشير بن سعد أبا بكر ، وازدحَم الناس على أبى بكر فبايعوه ، مَرّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الذى فيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فوقف وأنشد :

بَنِى هاشمٍ لاتطمِعُوا النّاس فيكمُ ولا سيّما تيم بن مرّة أو عـــدِىّ
فما الأمرُ إلا فيكمُ وإليكمُ وليس لها إلّا أبو حسنٍ علىّ

أبا حَسَنٍ فاشدُدْ بها كفَّ حازمٍ   فإنّك بالأمر الذى يُرْتجى ملىّ
وأىّ امرئٍ يرمى قصيًّا ورأيها   منيعُ الحِمى والناس من غالبٍ قصىّ !

فقال علىّ لأبى سفيان : إنّك تريدُ أمراً لسْنَا من أصحابه ، وقد عهد إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً فأنا عليه ؛ فتركه أبو سفيان وعَدَل إلى العبّاس بن عبد المطلب فى منزله ، فقال : ياأبا الفضْل[1] ، أنت أحقّ بميراث ابن أخيك ، امدد يدك لأبايعك ، فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتى إياك . فضحِك العباس ، وقال : ياأبا سفيان ، يدفعها علىّ ويطلبها العباس ! فرجع أبو سفيان خائبا .

قال الزبير : وذكر محمد بن إسحاق أنّ الأوس تزعم أنّ أوّل مَنْ بايع أبا بكر بشير ابن سعد ، وتزعم الخزرج أن أول مَنْ بايع أُسَيْد بن حُضير .

قلت : بشير بن سعد خزرجىّ وأسيد بن حضير أوْسِىّ ، وإنما تدافَع الفريقان الرّوايتين تفادياً عن سعد بن عبادة ، وكراهية كلّ حىّ منهما أن يكونَ نقضُ أمره جاء من جهة صاحبه ؛ فالخزرج هُمْ أهله وقرابته ، لايقرّون أن بشير بن سعد هو أول مَنْ بايع أبا بكر وأبطل أمرَ سعد بن عبادة ، ويُحيلون بذلك على أسيد بن حضير ؛ لأنه من الأوْس أعداء الخزرج . وأمّا الأوس فتكره أيضاً أن يُنْسَب أسيد إلى أنه أول مَنْ نَقَضَ أمر سعد بن عبادة ، كى لا يرمُوه بالحسَد للخزْرج ؛ لأن سعد بن عُبادة خَزْرجىّ ، فيحيلون بانتقاض أمره على قبيلته — وهم الخزرج — ويقولون : إنّ أول مَنْ بايع أبا بكر ونَقَض دعوة سَعد بن عبادة بشيرُ بن سعد . وكان بشيرٌ أعْوَر .

والذى ثبت عندى أنّ أوّلَ مَنْ بايعه عمر ، ثم بشير بن سعد ، ثم أُسَيْد بن حُضَير ، ثم أبو عبيدة بن الجرّاح ، ثم سالم مولى أبى حُذَيفة .

---

(١) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « أنت لها » .

قال الزبير : وقد كان مالأ أبا بكر وعمر على نقض أمر سعد وإفساد حاله رجلان من الأنصار ممّن شهد بدرا ، وهما عُوَيم بن ساعدة ومعن بن عدىّ .

قلت : كان هذان الرجلان ذوَيْ حُبٍّ لأبى بكر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله واتفق مع ذلك بغض وشحناء ؛ كانت[1] بينهما وبين سعد بن عبادة ، ولها سبب مذكور فى كتاب " القبائل " لأبى عبيدة معمر بن المثنىّ ، فليُطلب من هناك .

وعُوَيم بن ساعدة ، هو القائل لمّا نصب الأنصار سعدا : يامعشرَ الخزرج ؛ إن كان هذا الأمر فيكم دونَ قريش فعرِّفونا ذلك وبرهِنُوا حتى نبايِعَكم عليه ؛ وإن كان لهم دونَكم ، فسلِّموا إليهم ؛ فو الله ما هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرَّفْنا أنّ أبا بكر خليفة حين أمرَه أن يصلّىَ بالناس ؛ فشتَمه الأنصار وأخرجوه ؛ فانطلق مسرعا حتى التحقَ بأبى بكر ، فشحَذَ عزمه على طلب الخلافة .

ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار فى " الموفقيات " .

وذكر المدائنىّ والواقدىّ أنّ معن بن عدىّ اتفق هو وعُوَيم بن ساعدة على تحريض أبى بكر وعمر على طلب الأمر وصَرْفه عن الأنصار . قالا : وكان معن بن عدىّ يشخصهما إشخاصا ، ويسوقهما سَوْقًا عنيفا إلى السقيفة ، مبادرةً إلى الأمر قبل فواته .

* * *

قال الزبير بن بكار : فلمّا بُويع أبو بكر ، أقبلت الجماعة التى بايعتْه تزفّه زفًّا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان آخرُ النهار ، افترقوا إلى منازلهم ، فاجتمع قومٌ من الأنصار وقوم من المهاجرين ، فتعاتبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يامعشرَ الأنصار ، إنّكم وإن كنتمْ أولِى فضلٍ ونصْر وسابقة ؛ ولكن ليس فيكم مثل أبى بكر ولا عمر ولا علىّ ولا أبى عبيدة . فقال زيد بن أرقم : إنا لا ننكر فضلَ مَنْ ذَكرتَ

---

(١) ج : « كانا » .

يا عبد الرحمن ؛ وإنّ مِنّا لسيّد الأنصار سعد بن عبادة ، ومَنْ أمر الله رسوله أن يقرئه السلام ، وأن يأخذ عنه القرآن أُبَيّ بن كعب ، ومَنْ يجيء يوم القيامة إمام العلماء مُعاذ بن جبل ، ومن أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين خُزيمة ابن ثابت ؛ وإنّا لنعلم أنّ ممّن سمّيتَ من قريش مَنْ لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ؛ عليّ بن أبي طالب .

قال الزّبير : فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال :

أيها الناس ؛ إني وليت أمرَكم ولستُ بخيركم ، فإذا أحسنت فأعينوني ؛ وإن أسأت فقوِّموني ؛ إنّ لي شيطاناً يعتريني ؛ فإيّاكم وإيّاي إذا غضبت ؛ لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم . الصّدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضّعيف منكم قويّ حتى أردّ إليه حقّه ، والقويّ ضعيف حتى آخذ الحق منه . إنّه لا يدَع قومٌ الجهادَ إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع في قوم الفاحشة إلا عمّهم البلاء ؛ أطيعوني ما أطعتُ الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

قال ابن أبي عبرة القرشيّ :

شكراً لمن هو بالثّناء حقيقُ ذهب اللّجاجُ وبُويع الصّدّيقُ
مِنْ بعد ما زَلّتْ بسعدٍ نعلُه ورجا رجاء دونَهُ العيُّوقُ
حفّتْ به الأنصارُ عاصبَ رأسِه فأتاهمُ الصّدّيقُ والفاروقُ
وأبو عبيدةَ والذين إليهمُ نفس المؤمّل للقاء تتوقُ(1)
كنّا نقول : لها عليّ والرضا عُمَرٌ وأَوْلاهمْ بذاك عتيق
فدعتْ قريش باسمه فأجابها إنّ المنوّه باسمه الموثوقُ

(1) ب : « تسوق » .

قل للالى طلبوا الخلافة زَلّةً   لم يَخطُ مثل خطاهُمُ مخلوقُ
إنّ الخلافة فى قريش مالكم   فيها ـ وربِّ محمد ـ مَعْرُوقُ

***

وروى الزبير بن بكار، قال: روى محمد بن إسحاق أنّ أبا بكر لما بُويع افتخرت تَيم بن مرة ـ قال: وكان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكّون أنّ عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله، صلى الله عليه وآله ـ فقال الفضل بن العباس: يامعشرَ قريش، وخصوصا يابنى تَيْم، إنّـكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوّة، ونحن أهلُها دونَـكم، ولو طلبنا هذا الأمرَ الذى نحنُ أهلُه لـكانت كراهةُ الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا؛ حسداً منهم لنا، وحِقْداً علينا، وإنّا لنعلم أنّ عند صاحبنا عَهْداً هو ينتهى إليه.

وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعرا:

ما كنتُ أحسِبُ أنّ الأمر منصرفٌ   عن هاشمٍ ثمّ منْهـا عن أبى حَسَنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتكمْ   وأعلمَ الناس بالقرآن والسّنَنِ
وأقربَ الناس عهداً بالنبيّ ومَنْ   جبريلُ عَوْنٌ له فى الغسْلِ والـكَفَنِ
مافيه مافيهمُ لا يَمترونَ به   وليس فى القوم مافيه من الحسن
ماذا الذى رَدّهُمْ عنه فنعلَمه   ها إنّ ذا غَبْنُنَا من أعظم الغبَنِ!

قال الزّبير. فبعث إليه علىّ فنهاه وأمرَه ألا يعود، وقال: سلامة الدّين أحبّ إلينا من غيره.

قال الزبير : وكان خالدُ بن الوليد شيعةً لأبي بكر ، ومن المنحرفين عن عليّ ، فقام خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إنّا رُمينا في بدء هذا الدين بأمر ثَقُل علينا — والله — محمله ، وصعُب علينا مُرتقاه ؛ وكنّا كأنّا فيه على أوتار ؛ ثم والله مالبثنا أن خفّ علينا ثقله ، وذلّ لنا صَعْبه ، وعجِبْنا ممن شكّ فيه بعد عَجَبِنا ممن آمن به ؛ حتى أُمِرنا بما كنا نَنْهَى عنه ، ونُهينا عمّا كنا نأمر به ؛ ولا والله ماسُبقنا إليه بالعقول ؛ ولكنه التوفيق . ألا وإنّ الوحي لم ينقطع حتى أحكم ؛ ولم يذهب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنستبدل بعده نبيّاً ؛ ولا بعد الوحي وحياً ؛ ونحن اليوم أكثر منّا أمسِ ، ونحن أمسِ خيرٌ منّا اليوم ؛ مَن دَخَلَ في هذا الدين كان ثوابه على حَسَب عمله ، ومَنْ تركه رددناه إليه ، وإنه والله ماصاحب الأمر — يعني أبا بكر — بالمسئول عنه ، ولا المختلَف فيه ، ولا الخفيّ الشخص ، ولا المغموز القَناة .

فعجب الناس من كلامه . ومدحه حَزْن بن أبي وهب المخزوميّ ؛ وهو الذي سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله « سهلاً » ، وهو جدّ سعيد بن المسيّب الفقيه ، وقال :

وَقَامَتْ رِجَالٌ مِن قُرَيْشٍ كثيرةٌ ... فلم يَكُ منهم في الرِّجَالِ كخالدِ
ترقّى فلم يزلَقْ به صدرُ نعله ... وكفّ فلم يعرض لتلك الأوابدِ
فجاء بها غرّاء كالبدرِ ضوءها ... فسمّيتُها في الحسن أمّ القلائدِ
أخالدُ لا تعدم لؤيُّ بن غالبٍ ... قيامك فيها عند قَذْفِ الجلامدِ
كساكَ الوليدُ بن المغيرة مجدَه ... وَعلّمك الأشياخُ ضَرْبَ القَماحِدِ[1]
تقارع في الإسلام عن صُلْبِ دينه ... وفي الشركِ عن أحسابِ جدٍّ ووالدِ

---

(١) القماحد : جمع قمحدوة ؛ وهي الهنة الناشزة فوق القفا .

وكنتَ لمخزوم بن يقظة جُنّةً ... يعدّك فيها ماجداً وابنَ ماجدِ
إذا ماسماً فى حَرْبِها ألفُ فارسٍ ... عَدَلْت بألفٍ عند تلك الشدائدِ
ومن يكُ فى الحرب المثيرة واحداً ... فما أنت فى الحربِ العَوانِ بواحدِ
إذا ناب أمرٌ فى قريشٍ مخلِّجٌ ... تشيب له رُؤسُ العذارى النواهدِ (١)
توليتَ منه ما يُخافُ وإن تَغِبْ ... يقولوا جميعاً : حَظُّنا غير شاهدِ

قال الزّبير : وحدّثنا محمد بن موسى الأنصاريّ المعروف بابن مَخرمة ، قال : حدّثنى إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف الزهرىّ ، قال : لما بُويع أبو بكر واستقرّ أمرُهُ ، نَدِم قوم كثير من الأنصار على بيْعته ، ولام بعضُهم بعضاً ، وذكروا علىّ ابن أبى طالب ، وهتفوا باسمه ؛ وإنّه فى داره لم يخرجْ إليهم ، وجزع لذلك المهاجرون ، وكثُر فى ذلك الكلام .

وكان أشدّ قريش على الأنصار نفرٌ فيهم ؛ وهم سهيل بن عمرو ؛ أحد بنى عامر ابن لؤىّ ، والحارث بن هشام ، وعِكْرمة بن أبى جهل المخزوميّان ؛ وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبىّ صلى الله عليه وآله ، ثم دخلوا فى الإسلام ، وكلُّهم موتورٌ قد وَتَرَهُ الأنصار . أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بَدْر ، وأمّا الحارث ابن هشام ، فضربه عروة بن عمرو ، فجرحه يوم بَدْر ؛ وهو فارٌّ عن أخيه . وأمّا عِكْرمة ابن أبى جهل ، فقتل أباه ابنا عَفْراء ، وسَلَبه دِرْعه يوم بدر زيادُ بن لبيد ، وفى أنفسهم ذلك .

فلما اعتزلت الأنصار تجمّع هؤلاء ، فقام سهيل بن عمرو فقال : يامعشرَ قريش ؛ إنّ هؤلاء القوم قد سمّاهم الله الأنصار ، وأثنى عليهم فى القرآن ؛ فلهم بذلك حَظٌّ عظيم ؛ وشأن غالب ؛ وقد دَعَوْا إلى أنفسهم وإلى علىّ بن أبى طالب ؛ وعلىّ

(١) رؤس : جمع رأس ، مثل رءوس .

فى بيته لو شاء لردّهم ؛ فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته ؛ فإنْ أجابوكم وإلا قاتلوهم ؛ فو الله إنى لأرجُو الله أن ينصرَكم عليهم كما نُصِرتم بهم .

ثم قام الحارث بن هشام ، فقال : إن تكن الأنصارُ تبوأتِ الدار والإيمان مِنْ قبل ، ونقلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دورهم من دورنا ، فآووْا ونصروا ، ثم ما رَضُوا حتى قاسمونا الأموال (١) ، وكَفوْنا العمل ؛ فإنّهم قد لَهِجُوا بأمرٍ إن ثبتوا عليه ، فإنّهم قد خرجوا مما وُسِموا به ؛ وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السّيف ؛ وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأوْلَى بهم والمظنون معهم .

ثم قام عِكْرمة بن أبى جهل ، فقال : والله لولا قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » ، ما أنكرْنا إمْرة الأنصار ، ولكانوا لها أهلًا ، ولكنه قولٌ لاشكّ فيه ولاخيار ، وقد عجِلت الأنصار علينا ، والله ما قبضنا عليهم الأمرَ ولا أخرجناهم من الشورى ؛ وإنّ الذى هم فيه من فَلَتات الأمور ونَزَغات الشيطان ، وما لا يبلغه المُنى ، ولا يحمله الأمل . أعذِروا إلى القوم ، فإنْ أبوْا فقاتلوهم ؛ فوالله لو لم يبقَ من قريش كلّها إلا رجل واحد لصيّر الله هذا الأمر فيه .

قال : وحضر أبو سفيان بن حرب ، فقال :

يامعشرَ قريش ، إنه ليس للأنصار أن يتفضّلوا على الناس حتى يُقرّوا بفضلنا عليهم ، فإن تفضّلوا فحَسْبنا حيث انتهى بها ، وإلا فحَسْبُهم حيث انتهى بهم . وايمُ الله لئن بَطِروا المعيشة ، وكَفَروا النعمة ، لنضربنّهم على الإسلام كما ضربوا عليه ، فأما علىّ بن أبى طالب فأهل والله أن يُسوَّد على قريش ، وتطيعه الأنصار .

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :

يامعشرَ الأنصار ، إنما يكبرُ عليكم هذا القول لو قاله أهلُ الدين من قريش ؛ فأمّا إذا كان من أهل الدنيا ، لاسيما من أقوام كلّهم موتور ؛ فلا يكبُرَنّ عليكم ؛ إنما الرأى

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « الأمور » .

والقول مع الأخيار المهاجرين ؛ فإن تكلّمت رجال قريش ؛ والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ؛ فعند ذلك قولوا ماأحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

تَنَادَى سُهيلٌ وابنُ حَرْبٍ وحارثٌ　　وعِكْرِمةُ الشَّانِي لَنا ابن أبي جَهْلِ

قتلنا أباهُ وانتزعْنَا سِــــلاحَهُ　　فأصْبَحَ بالبطحَا أذلَّ مِنَ النَّمْلِ

فأمّا سهيــــلٌ فاحتواهُ ابن دخشم　　أسيراً ذليــــلا لا يُمِرُّ ولا يُحْلِي

وصخر بن حرب قد قتلنـــا رجالَه　　غَـــداةَ لِوَا بَدْرٍ فمِرْجَلُه يَغْلِي

وراكضنا تحتَ العجاجة حارثٌ　　على ظهر جَرْداء كباسِقةِ النَّخْلِ

يقبِّلهـــا طَوْراً وطورا يَحُثُّها　　ويعدِلها بالنَّفس والمـــالِ والأهْلِ

أولئك رهطٌ من قريش تبايَعُوا　　على خُطَّةٍ ليست من الخطط الفُضْلِ

وأعجبُ منهم قابِلو ذاكَ منهمُ　　كأنا اشتملْنا من قُرَيْشٍ على ذَحْلِ

وكلّهمُ ثانٍ عن الحقِّ عِطْفَه　　يقول اقتلوا الأنصار، يابئس مِن فِعْلِ!

نصرنا وآوينـــا النبيَّ ولم نخف　　صروفَ الليالى والبلاء عَلَى رَجْلِ

بذلنا لهمْ أنصـــاف مال أكفِّنا　　كقسمة أيسارِ الجَزُور من الفَضْـلِ

ومن بعد ذاك المال أنصاف دُورنا　　وكنّا أناساً لا نعيَّرُ بالبُخْـــــلِ

ونحمِى ذمار الحيّ فهر بن مالك　　ونوقد نارَ الحرْبِ بالحَطَب الجَزْلِ

فكان جزاء الفضــل منّا عليهمُ　　جهالتهم حمقاً وما ذاك بالعــدْلِ

فبلغ شعرُ حسان قريشاً ، فغضبوا وأمروا ابن أبى عَزّة شاعرهم أن يجيبه ، فقال :

معشرَ الأنصارِ خافوا ربّكمْ　　واستجيروا الله من شرِّ الفِتَنْ

إننى أرهب حَرْباً لاقحاً　　يَشرَق المُرضَعُ فيهــا باللَّبَنْ

جرّها سعد وســعدٌ فِتْنَةٌ　　ليت سعدَ بن عبادٍ لم يكُنْ

خلف برهوتٍ خفيا شخصُه[1]　　بين بُصرى ذى رُعينٍ وَجَدَنْ

(١) برهوت : واد باليمن .

ليس ماقدّر سعد كائناً ... ماجرى البحر وما دام حَضَنْ[1]
ليس بالقاطع مِنّا شعرةً ... كيف يُرجى خير أمرٍ لم يَحِنْ!
ليس بالمدرِك منها أبداً ... غير أضغاثِ أمانيّ الوسَنْ

* * *

قال الزُّبير : لمّا اجتمع جمهور الناس لأبي بكر أكرمت قريش معن بن عديّ وعويم ابن ساعدة ؛ وكان لهما فضلٌ قديم في الإسلام ؛ فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوْهما، فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيّرُوهما بانطلاقِهما إلى المهاجرين ، وأكبروا فعلهما في ذلك ؛ فتكلم معن ، فقال :

يامعشرَ الأنصار . إنّ الذي أراد الله بكم خيرٌ مما أردتم بأنفسكم ، وقد كان منكم أمرٌ عظيم البلاء ، وصغّرته العاقبة ؛ فلوْ كان لكم على قريش مالقريش عليكم ، ثم أردتموهم لِما أرادوكم به لم آمَنْ عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم ؛ فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه .

قلت . قوله : «وقد كان منكم أمر عظيم البلاء ، وصغرته العاقبة» يعني عاقبة الكفّ والإمساك ؛ يقول : قد كان منكم أمر عظيم ؛ وهو دعوى الخلافة لأنفسكم ؛ وإنما جعل البلاء معظّما له ، لأنه لو لم يتعقّبه الإمساك ؛ لأحدث فتنة عظيمة ؛ وإنما صغّره سكونُهم ورجوعهم إلى بيعة المهاجرين .

وقوله : « وكان لكم على قريش ... » إلى آخر الكلام، معناه : لو كان لكم الفضل على قريش كفضل قريش عليكم، وادّعت قريش الخلافة لها، ثم أردتم منهم الرجوع عن دعواهم، وجرت بينكم وبينهم من المنازعة مثلُ هذه المنازعة التي جرت الآن بينكم لم آمن عليهم منكم أن تقتلوهم ؛ وتُقْدِموا على سفك دمائهم ؛ ولم يحصل لي من سكون النفس إلى

(١) حضن : جبل بأعلى نجد .

حلمكم عنهم وصبركم عليهم مثل ما أنا آمن عليكم منهم ، فإنهم صبروا وحلموا ، ولم يقدموا على استباحة حربكم والدخول فى دمائكم .

***

قال الزبير : ثم تكلم عُويم بن ساعدة ، فقال : يا معشر الأنصار ؛ إنّ من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يُرِدْ بكم ما أردتم بأنفسكم ، فاحمدوا الله على حسن البلاء ، وطول العافية ، وصرف هذه البليّة عنكم ، وقد نظرت فى أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانىّ والحسد ؛ واحذروا النقَم ؛ فوددت أنّ اللهَ صيّر إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار ؛ فأغلظوا لهما ، وفحشوا عليهما ، وانبرى لهما فروة بن عمرو ، فقال : أنسيتما قولكما لقريش : « إنا قد خلّفنا وراءنا قوماً قد حلّت دماؤهم بفتنتهم » ! هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى ؛ قد تُصرَفُ الحيّة عن وَجهها وسمّها فى[1] نابها . فقال معن فى ذلك :

وقالتْ لِىَ الأنصارُ إنّك لم تُصِبْ ... فقلت : أمالِى فى الكلامِ نَصيبُ !

فقالوا : بلَى قل ما بدا لك راشداً ... فقلت ومثلى بالجواب طبيبُ

تركتُكمُ والله لمّا رأيتكمْ ... تُيوساً لها بالحرّتين نَبيب[2]

تنادُون بالأمر الذى النجم دُونَهُ ... ألا كلّ شىء ما سواهُ قَريبُ

فقلتُ لكمْ قولَ الشفيق عليكمُ ... وللقلبِ من خَوْف البلاء وَجيبُ

دعُوا الرَّكضَ واثنوا من أعنّة بَغْيكمْ ... ودِبّوا فسيْرُ القاصدين دَبيبُ

وخلّوا قريشاً والأمورَ وبايعوا ... لمن بايعوه تَرْشُدُوا وتُصيبُوا

---

(١) ج : « فيها » .

(٢) النبيب : صياح التيس عند الهياج ؛ ومنه قول عمر لوفد أهل الكوفة حين شكوا سعداً إليه : « ليكلمنى بعضكم ولا تنبوا عندى نبيب التيوس » .

أراكم أخذتم حقكم بأكفكم   وما الناس إلا مخطئ ومصيب
فلما أبيتم زلت عنكم إليهم   وكنت كأنى يوم ذاك غريب
فإن كان هذا الأمر ذنبي إليكم   فلى فيكم بعد الذنوب ذنوب
فلا تبعثوا منى الكلام فإننى   إذا شئت يوماً شاعر وخطيب
وإنى لحلو تعترينى مرارة   وملح أجاج تارة وشروب(١)
لكل امرئ عندى الذى هو أهله   أفانين شتى والرجال ضروب

وقال عويم بن ساعدة فى ذلك :

وقالت لى الأنصار أضعاف قولهم   لمن ، وذاك القول جهل من الجهل
فقلت : دعونى لا أبا لأبيكم   فإنى أخوكم صاحب الخطر الفصل(٢)
أنا صاحب القول الذى تعرفونه   أقطع أنفاس الرجال على مهل
فإن تسكتوا أسكت وفى الصمت راحة   وإن تنطقوا أصمت مقالتكم تبلى
وما لمت نفسى فى الخلاف عليكم   وإن كنتم مستجمعين على عذلى
أريد بذاك الله لا شيء غيره   وما عند رب الناس من درج الفضل
وما لى رحم فى قريش قريبة   ولا دارها دارى ولا أصلها أصلى
ولكنهم قوم علينا أئمة   أدين لهم ما أنفذت قدمى نعلى
وكان أحق الناس أن تقنعوا به   ويحتملوا من جاء فى قوله مثلى
لأنى أخف الناس فيما يسركم   وفيما يسوء لا أمر ولا أحلى

قال فروة بن عمر — وكان ممن تخلف عن بيعة أبى بكر ، وكان ممن جاهد مع

---

(١) الأجاج : الماء الملح شديد الملوحة . والشروب : الماء دون العذب يصلح للشرب مع بعض كراهة .
(٢) ب : « الخطة الفصل » .

رسول الله، وقاد فَرَسَين في سبيل الله؛ وكان يتصدّق من نخله بألف وَسْق في كلّ عام؛ وكان سيّداً؛ وهو من أصحاب عليّ؛ وممّن شهد معه يوم الجمل. قال: فذكر معناً وعويماً، وعاتبهما على قولها: « خلّفنا وراءنا قوما قد حلّت دماؤهم بفتنتهم »:

ألا قُلْ لمنٍ إذَا جئته … وذاك الذى شيخه ساعِدَهْ
بأنّ للقـــال الذى قلتما … خفيفٌ علينا سوى، واحِدَهْ
مقالكُمُ: إنّ مَنْ خَلّفنا … مِراضٌ قلوبهمُ فاسدَهْ
حـــلال الدماء على فتنةٍ … فيابئسما رَبّتِ الوالدَهْ!
فَلَمْ تأخذا قَدْر أثمانها … ولم تستفيدا بهـــا فائدَهْ
لقـــد كذّب اللهُ ماقلتُمَا … وقد يكْذب الرّائدُ الواعِدَهْ [1]

***

قال الزبير: ثم إنّ الأنصار أصلحوا بين هذين الرّجلين وبين أصحابهما؛ ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط [2] من المهاجرين؛ وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة؛ فاتّفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفَر كان فيه، فجاء إليهم، فأفاضُوا في ذكر يوم السّقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص: والله لقد دفع الله عنّا من الأنصار عظيمة، ولَما دفع الله عنهم أعظم، كادوا والله أن يحلّوا حبلَ الإسلام كما قاتلوا عليه، ويخرِجُوا منه مَنْ أدخلوا فيه، والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الأئمة من قريش »، ثم ادّعَوْها لقد هَلكُوا وأهلَكوا، وإن كانوا لم يسمعوها فما هم كالمهاجرين، ولا — كأبى بكر، ولا المدينة

---

(١) يقال: سحاب واعد؛ أى الذى يعد بالمطر؛ ومؤنثه « واعدة ».
(٢) الأخلاط: القوم المختلطون.

كـكة، ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة؛ فلم يجبه أحد، وانصرف إلى منزله وقد ظفر، فقال:

ألا قلْ لأوسٍ إذا جئتَها ... وقلْ كلَّما جئتَ للخزرجِ
تمنيتمُ الملكَ في يثربٍ ... فأنزلتِ القِدْرَ لم تنضجِ
وأخدجتمُ الأمرَ قبل التمام ... وأعجِبْ بذا المعجَل المخدَجِ (١)
تريدون نَتْجَ الحِيال العشا ... رَ ولم تلقحوه فلم يُنتَجِ
عجِبْتُ لسعدٍ وأصحابِه ... ولو لم يهيجوه لم يَهتَجِ
رجا الخزرجيّ رجاءَ السّرابِ ... وقد يخلف المرءَ ما يرتجي
فكان كمُنْحٍ على كفِّه ... بكفٍّ يقطّعها أهوجِ

فلما بلغ الأنصارَ مقالته وشعره، بعثوا إليه لسانَهم وشاعرهم النعمان بن العجلان — وكان رجلاً أحمر قصيراً، تزدريه العيون، وكان سيّداً فخماً — فأتى عمراً وهو في جماعة من قريش، فقال: والله يا عمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم، وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه؛ إنْ كان النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: «الأئمة من قريش»، فقد قال: «لو سلَك النّاس شِعْباً، وسلك الأنصار شِعْباً، لسلكتُ شِعب الأنصار»، والله ما أخرجناكم من الأمر إذ قلنا: منّا أمير ومنكم أمير، وأمّا مَنْ ذكرتَ، فأبو بكر لَعَمْري خير من سَعْد، لكنّ سعداً في الأنصار أطوعُ من أبي بكر في قريش، فأمّا المهاجرُون والأنصار، فلا فرقَ بينهم أبداً، ولكنك يابن العاص، وترْتَ بني عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه، ووترتَ بني مخزوم بإهلاكِ عُمارة ابن الوليد. ثم انصرف فقال:

---

(١) يقال: أخدج الأمر؟ إذا لم يحكمه، والمخدج: الناقص.

فقُلْ لقريش نحنُ أصحابُ مكّةٍ   وَيَوْمَ حُنَين والفوارسُ فى بَدْر
وأصحاب أُحْدٍ والنَّضير وَخَيْبرٍ   ونحن رجعنا من قُرَيْـظةَ بالذِّكْر
ويوم بأرض الشام أدخِل جعفر   وزيد وعبد الله فى عَلَقٍ يَجْرِى (١)
وفى كلِّ يوم ينكر الـكلبُ أهلَه   نطاعنُ فيه بالمثقفةِ السُّمْرِ
ونضربُ فى نَقْع العجاجَةِ أرْؤُساً   ببيض كأمثال البروق إذا تَسْرِى
نَصَرْنا وآوينـا النبيَّ ولم نخفْ   صروفَ الليالى والعظيمَ من الأمْرِ
وقلنا لقوم هاجروا قبلُ: مَرْحباً   وأهلاً وسهلا ، قد أمنتمْ من الفقرِ
نقاسمكمْ أموالنـا وبيوتنـا   كقسمة أيسار الجزورِ على الشَّطْرِ
ونكفيكمُ الأمرَ الذى تكرهونَهُ   وكنَّا أناساً نُذْهِبُ العسر باليُسْرِ
وقلتم: حرامٌ نصب سعد ونصبكمْ   عتيقَ بن عثمان ـ حلالٌ ـ أبا بكرِ
وأهلٌ أبو بكر لها خير قائمٍ   وإن عليًّا كان أخلَقَ بالأمْرِ
وكان هواناً فى علىٍّ وإنه   لأهلٌ لها يا عمرو من حيثُ لا تدرى
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى   وينهى عن الفحشاء والبغْىِ والنُّكْرِ
وصىُّ النبىِّ المصطفى وابنُ عمِّه   وقاتِلُ فرسان الضَّلالة والـكُفرِ
وهذا بحمدِ الله يَهدِى من العَمَى   ويفتح آذاناً ثقُلْنَ من الوَقْرِ
نَجِىُّ رسول الله فى الغار وحدَه   وصاحبُه الصِّدِّيقُ فى سالِفِ الدَّهْرِ
فلولا اتّقاء الله لم تذهبوا بها   ولـكن هذا الخير أجمع للصَّبرِ
ولم نَرْضَ إلّا بالرِّضَا ولربمـا   ضربنا بأيدينا إلى أسفل القِدْرِ

فلما انتهى شعر النعمان وكلامُه إلى قريش ، غضب كثير منها ، وألفى ذلك قدومُ خالد ابن سعيد بن العاص من اليمن وكان رسول الله استعمله عليها ، وكان له ولأخيه أثر قديم

---

(١) العلق : الدم ، وفى ا ، ب : « فى طلق » وما أثبته من ج والاستيعاب .

عظيم فى الإسلام ؛ وهما مِنْ أوّل من أسلم من قريش ؛ ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار، وشتمَ عمرو بن العاص ، وقال : يامعشرَ قريش ؛ إنّ عمراً دخل فى الإسلام حين لم يجدْ بدّاً من الدخول فيه ، فلما لم يستطِعْ أن يكيدَه بيده كاده بلسانه ، وإنّ مِنْ كيده الإسلام تفريقَه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربْناهم للدّين ولا للدنيا ؛ لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا ؛ وما بذلنا دماءنا لله فيهم ؛ وقاسمونا ديارَهم وأموالهم ، ومافعلنا مثل ذلك بهم ، وآثرونا على الفقْر، وحرمناهم على الغنى ، ولقد وصّى رسولُ الله بهم ، وعزّاهم عن جَفْوة السلطان ؛ فأعوذ بالله أن أكونَ وإياكم الخلَف المضيّع ، والسلطان الجانى !

قلت : هذا خالد بن سعيد بن العاص ؛ هو الذى امتنع من بيعة أبى بكر ، وقال : لا أبايع إلا عليّاً ، وقد ذكرنا خبره فيما تقدم .

وأما قوله فى الأنصار : « وعزّاهم عن جَفْوة السُّلطان » فإشارة إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « ستَلْقَوْن بعدى أثَرَةً ، فاصبروا حتى تقدَمُوا علىّ الحوض » ؛ وهذا الخبر هو الذى يكفُر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به ، وذلك أنّ النعمان بن بشير الأنصاريّ جاء فى جماعة من الأنصار إلى معاوية ، فشكَوْا إليه فقرَهم ، وقالوا : لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قولِه لنا : « ستلقوْن بعدى أثرةً » ، فقد لقيناها . قال معاوية : فماذا قال لكم ؟ قالوا : قال لنا « فاصْبِروا حتى تردوا علىّ الحوض » ، قال : فافعلوا ماأمركم به عساكم تلاقُونه غدا عند الحوض كما أخبركم ؛ وحرمهم ولم يعطِهمْ شيئا .

قال الزّبير : وقال خالد بن سعيد بن العاص فى ذلك :

تفوّه عمرو بالذى لا نُريدُه ... وصرّح للأنصار عن شَنْأةِ البُغْضِ

فإن تكُنِ الأنصار زَلّتْ فإننا ... نُقيلُ ولا نجزيهمُ بالقَرْضِ

فلا تقطعنْ ياعمرو ما كانَ بيننا ... ولا تحملنْ ياعمرو بعضاً على بعضِ
أتنسى لهم ياعمرو ما كان منهمُ ... ليالىَ جئناهم من النّفل والفرْضِ
وقِسْمَتَنا الأموال كاللحم بالمُدَى ... وقسمتَنا الأوطان كلٌّ به يقضى
ليالىَ كُلُّ الناس بالكفر جَهْرة ... ثِقالٌ علينا ، مجمعونَ على البُغضِ
فساوَوْا وآوَوْا وانتهينَا إلى المُنَى ... وقَرَّ قَرارَانَا من الأمن والخفضِ (١)

***

قال الزُّبير: ثم إنّ رجالّا من سفهاء قريش ومثيرى الفِتَن منهم ،اجتمعوا إلى عمرو بن العاص ، فقالوا له : إنّك لسانُ قريش ورجُلها فى الجاهليّة والإسلام ، فلا تَدَعِ الأنصار وما قالت ؛ وأكثروا عليه من ذلك ، فراح إلى المسجد ، وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فتكلم وقال: إنّ الأنصار تَرَى لنفسها ماليس لها ، وايمُ الله لوددت أنّ الله خلّى عنّا وعنهم ، وقضى فيهم وفينابما أحبّ ، ولنحنُ الذين أفسدْنا على أنفسنا أحرزناهم عن كلّ مكروه ، وقدّمناهم إلى كلّ محبوب؛ حتى أمنوا المخوف؛ فلما جاز لهم ذلك صَغَّروا حقنا ، ولم يراعُوا ماأعظمنا من حقوقهم .

ثم التفت فرأى الفضلَ بن العباس بن عبدالمطلب ، وندم على قوله ، للخئولة التى بين ولَد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأنّ الأنصار كانت تُعظِّم عليًّا ، وتهتِف باسمه حينئذ ، فقال الفضل : ياعمرو، إنّه ليس لنا أن نكتُم ماسمعنامنك ، وليس لنا أن نجيبَك ؛وأبو الحسن شاهد بالمدينة ؛ إلا أن يأمرنا فنفعل .

ثم رجع الفضلُ إلى علىّ فحدّثه . فغضب وشتم عمرا . وقال : آذى الله ورسوله ؛ ثم قام فأتى المسجد ، فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلّم مغضَبا ، فقال :

يامعشرَ قريش ، إن حبّ الأنصار إيمان ، وبغضهم نفاق ، وقد قضَوْا ماعليهم ،

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « ووقر أمرانا » .

وبقي ما عليكم ؛ واذكروا أنّ الله رغب لنبيكم عن مكّة ، فنقله إلى المدينة . وكره له قريشا؛ فنقله إلى الأنصار ، ثم قدِمْنا عليهم دارَهم ، فقاسمونا الأموال ، وكفَوْنا العمل ، فصرْنا منهم بَيْن بذل الغنيّ وإيثار الفقير ، ثم حاربَنا الناس فوقونا بأنفسهم ؛ وقد أنزل الله تعالى فيهم آيةً من القرآن، جمع لهم فيها بين خمس نِعَم، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، ألا وإنّ عمرو بن العاص قد قام مقاما آذى فيه الميّت والحيّ، ساء به الواتر وسرّ به الموتور؛ فاستحقّ من المستمع الجواب ، ومن الغائب المقت ؛ وإنه مَنْ أحبّ الله ورسوله أحبّ الأنصار ، فليكفُف عمرو عنّا نفسه .

قال الزبير : فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص ، فقالوا : أيها الرجل ؛ أمّا إذا غضب عليّ فاكففْ .

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصاريّ يخاطب قريشا :

أيالَ قُرَيْش أصلِحُوا ذات بيننا ... وبينكُمُ قد طالَ حَبْلُ التماحكِ[2]

فلاَ خَيْرَ فيكُمْ بعدَنا فارفقُوا بنا ... ولا خيرَ فينا بعد فِهر بن مالكِ

كِلانَا على الأعداء كفٌّ طويلة ... إذا كان يومٌ فيه جَبُّ الحوَارِكِ[3]

فلا تذكرُوا ما كان مِنّا ومنكمُ ... ففي ذِكْرِ ماقد كان مَشْيُ التّسَاوُكِ[4]

قال الزّبير : وقال عليّ للفضل : يافضل ، انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم ، فقال الفَضل :

قلتَ ياعمرُو مقالاً فاحشا ... إن تَعُد ياعمرو والله فلكْ

---

(١) سورة الحشر ٩

(٢) التماحك : اللجاج.

(٣) كناية عن الشدة ؛ والحارك : عظم في الظهر .

(٤) التساوك : المشي الضعيف .

إنما الأنصار سيفٌ قاطعٌ مَنْ تُصِبْه ظُبَةُ السَّيفِ هلَكْ(١)
وسيوفٌ قاطع مَضْرَبُها وسهام الله فى يوم الحلَكْ
نصرُوا الدين وآوَوْا أهلَه منزل رَحْبٌ ورِزْقٌ مُشْتَرَكْ
وإذا الحرب تلظَّتْ نارُها بركوا فيها إذا الموت بَرَكْ

ودخل الفضل على علىّ فأسمعه شعره ، ففرح به ، وقال وَرِيَتْ بك زنادى يافضل ؛ أنت شاعر قريش وفتاها ، فأظهر شِعْرَك وابعث به إلى الأنصار ؛ فلما بلغ ذلك الأنصار، قالت : لا أحد يجيبُ إلّا حسّان الحسام ؛ فبعثوا إلى حسان بن ثابت ، فعرضوا عليه شعر الفضل ، فقال : كيف أصنع بجوابه ! إنْ لم أتحرّ قوافيَه فضحنى ، فرويدا حتى أقفُوَ أثره فى القوافى ؛ فقال له خُزَيمة بن ثابت : اذكر عليا وآله يكفِك عن كلّ شىء ، فقال :

جزى الله عنّا والجزاء بكَفّه أبا حسنٍ عنّا ومَنْ كأبى حسَنْ
سبقتَ قريشا بالذى أنت أهلُه فصدرُك مشروح ، وقلبك ممتحَنْ
تمنّتْ رجالٌ من قريش أعِزّةٌ مكانَك ، هيهاتَ الُهزالُ من السِّمَنْ!
وأنتَ من الإسلام فى كلّ موطن بمنزلة الدَّلْوِ البَطِينِ من الرَّسَنْ
غضبتَ لنا إذ قام عمرٌو بخطبة أمات بها التقوى وأحيا بها الإحَنْ
فكنتَ المرجّى من لؤىّ بن غالب لما كان منهم ، والّذى كانَ لم يكُنْ
حفظت رسول الله فينا وعهدَه إليك ومَنْ أولى به منك مَنْ ومَنْ!
ألستَ أخاه فى الهدى ووصيَّهُ وأعلمَ منهم بالكتابِ وبالسُّنَنْ
فحقّك مادامت بنجْدٍ وشيجةٌ عظيم علينا ثم بعـــد على اليمنْ

قال الزّبير : وبعثت الأنصار بهذا الشعر إلى علىّ بن أبى طالب ، فخرج إلى المسجد،

---

(١) ظبة السيف : حده

وقال لمن به من قريش وغيرهم . يامعشرَ قريش ، إن الله جعلَ الأنصار أنصارا ، فأثنى عليهم فى الكتاب ، فلا خيرَ فيكم بعدهم ؛ إنّه لا يزال سفيه من سفهاء قريش وَتَره الإسلام ، ودفعه عن الحقّ ، وأطفأ شرفه وفضّل غيره عليه ؛ يقوم مقاما فاحشا فيذكر الأنصار ؛ فاتقوا الله وارعَوْا حقّهم ، فوالله لو زالوا لزلتُ معهم ؛ لأنّ رسول الله قال لهم : « أزولُ معكم حيثما زُلتم » ؛ فقال المسلمون جميعا : رحمك الله يا أبا الحسن ! قلت قولا صادقا .

قال الزبير : وترك عمرو بن العاص المدينة ، وخرج عنها حتى رضىَ عنه علىّ والمهاجرون . قال الزبير : ثم إنّ الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط ـ وكان يبغض الأنصار ، لأنهم أسرُوا أباه يوم بَدْر ، وَضربوا عنقه بين يدىْ رسول الله ـ قام يشتم الأنصار ، وذكرهم بالهُجْر ، فقال : إن الأنصار لترى لها من الحقّ علينا مالا نراه ، والله لئن كانوا آوَوا لقد عزُّوا بنا ، ولئن كانوا آسوا لقد مَنُّوا علينا ، والله مانستطيع مودّتهم ؛ لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلّنا بمكة ، وعزّنا بالمدينة ، ولا ينفكون يعيّرون موتانا ، ويغيظون أحياءنا ، فإن أجبناهم قالوا : غضبت قريش على غاربها ، ولكن قد هوّن علىّ ذلك منهم حرْصُهم على الدين أمس ، واعتذارهم من الذنب اليوم ، ثم قال :

تباذَختِ الأنصار فِى الناس باسْمِهاَ(١) ... ونسبتُهـــا فى الأزْد عَمْرو بن عامرِ
وقالوا : لَنـــا حقٌّ عظيم ومِنّةٌ ... على كلِّ بادٍ من مَعَـــدّ وحاضرِ
فإن يكُ للأنصار فضلٌ فلم تنلْ ... بحرمته الأنصار فضلَ المـــهاجرِ
وإن تكن الأنصار آوتْ وقاسمَتْ ... معايشها مَنْ جاء قسمــــةَ جازرِ
فقد أفسدت ما كان منهـا بمنّـهـا ... وما ذاك فعلُ الأكرمين الأكابرِ
إذا قال حسانٌ وكعب قصيـــدةً ... بشتم قريش غُنِّيَتْ فى المعـــاشرِ
وسارَ بها الرُّكْبان فى كلّ وجهـةٍ ... وأعملَ فيهـــــا كلُّ خُفٍّ وحافرِ

(١) ج : « تفاخرت الأنصار » .

فهذا لنا من كلِّ صاحب خطبة　　يقومُ بها منكم ومِنْ كلِّ شاعرِ
وأهلٌ بأن يُهجَوْا بكلِّ قصيدةٍ　　وأهلٌ بأن يُرْمَوْا بنبل فواقرِ

قال : ففشا شعره فى الناس ، فغضبت الأنصار ، وغضب لها من قريش قومٌ ، منهم ضرار بن الخطاب الفهرىّ ، وزيد بن الخطاب ، ويزيد بن أبى سفيان ، فبعثوا إلى الوليد فجاء .

فتكلّم زيد بن الخطاب ، فقال : يابن عُقبة بن أبى معَيط ، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا ، لأحببتَ الأنصار ، ولكنّك من الجفاة فى الإسلام البطاء عنه ، الذين دخلوا فيه بعد أنْ ظهر أمرُ الله وهم كارهون؛ إنّا نعلم أنا أتيناهم ونحن فقراء ، فأغنونا، ثم أصبنا الغنى فكفّوا عنا . ولم يرزءونا شيئاً . فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة وعزها بالمدينة ، فكذلك كنا ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ (١) ، فنصرنا الله تعالى بهم ، وآوانا إلى مدينتهم .

وأما غضبك لقريش فإنا لا ننصر كافراً ، ولا نوادّ ملحِداً ولا فاسقاً؛ ولقد قلت وقالوا، فقطعك الخطيب ، وألجمك الشاعر .

وأمّا ذكرك الذى كان بالأمس ، فدَعِ المهاجرين والأنصار ؛ فإنك لستَ من ألسنتهم فى الرّضا ، ولا نحن من أيديهم فى الغضب .

وتكلّم يزيد بن أبى سفيان ، فقال : يابن عُقْبة ،الأنصار أحقُّ بالغضب لقتلَى أُحُد ، فاكفف لسانك ، فإنّ مَنْ قتله الحقّ لا يغضب له

وتكلّم ضرار بن الخطاب ، فقال : أما والله لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) سورة الأنفال ٢٦ .

« الأئمة من قريش » لقلنا : الأئمة من الأنصار ، ولكن جاء أمر غلب الرأى ، فاقمع شِرّتك أيها الرجل ؛ ولا تكن امرأ سَوْء ، فإن الله لم يفرّق بين الأنصار والمهاجرين فى الدنيا، وكذلك الله لا يفرّق بينهم فى الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت مغضباً من كلام الوليد بن عُقْبة وشعره ، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش ، فقال : يامعشرَ قريش ، إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كفارَكم ، وحمايتُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإن كنتم تنقمون مِنّا مِنّة كانت بالأمس ؛ فقد كفى الله شرّها ، فما لنا وما لكم ؛ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبنُ ، ولا من جوابكم العِىّ . إنا لحىّ فَعَال ومقال ؛ ولكنا قلنا : إنها حرب ؛ أولها عار وآخرها ذلّ ؛ فأغضينا عليها عيوننا، وسحبنا ذيولَنا ، حتى نَرَى وتَرَوْا ، فإن قلتم قلنا ، وإن سكتم سكتنا .

فلم يجبْه أحدٌ من قريش ، ثم سكت كلٌّ من الفريقين عن صاحبه ، ورضِىَ القوم أجمعون ، وقطعوا الخلاف والعصبية .

انتهى ماذكره الزبير بن بكار فى " الموفقيات " ونعود الآن إلى ذكر ما أورده أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " .

***

قال أبو بكر : حدّثنى أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن بحر بن آدم عن رجاله ، عن سالم بن عبيد ، قال : لما تُوُفِّىَ رَسول الله وقالت الأنصار : مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ؛ أخذ عمر بيد أبى بكر ، وقال سَيْفَان فى غِمْد واحد ! إذاً لا يصلحان . ثم قال : مَنْ له هذه الثلاثُ : ﴿ ثانِىَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فى الْغارِ ﴾ مَنْ هُما ؟ ﴿ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِه لاَ تَحْزَنْ ﴾ ، مَنْ صاحبه ؟ ﴿ إنَّ الله مَعَنَا ﴾[1] مَعَ مَنْ ؟ ثم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه ، فبايعه الناس أحسَنَ بيعة ، وأجملها .

---

(١) سورة التوبة ٤٠ .

قال أبو بكر : حدّثنا أحمد بن عبد الجبار العُطاردىّ ، عن أبى بكر بن عيّاش ، عن زيد بن عبد الله ، قال : إنّ الله تعالى نظر فى قلوب العباد ، فوجدَ قَلْبَ محمد عليه الصلاة والسلام خَيْرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب الأمم بعدَ قلبه ، فوجد قلوبَ أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون عن دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأى المسلمون سيئاً فهو عند الله سيّئ .

قال أبو بكر بن عياش : وقد رأى المسلمون أن يولّوا أبا بكر بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكانت ولايته حسنة .

قال أبو بكر : وحدثنا يعقوب بن شيبة ، قال : لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الأنصار : « مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ » ، قال عمر : أيّها الناس ، أيّكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصّلاة ! رضيك الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا !

***

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنى زيد بن يحيى الأنماطىّ ، قال : حدثنا صخر بن جُويرية ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، قال : أخذ أبو بكر بيد عمر ويد رَجل من المهاجرين ـ يرونه أبا عبيدة ـ حتى انطلقوا إلى الأنصار ، وقد اجتمعوا عند سَعْد فى سقيفة بنى ساعدة ، فقال عمر : قلت لأبى بكر : دعنى أتكلّم ، وخشيت جِدّ أبى بكر ـ وكان ذَا جِدّ ـ فقال أبو بكر لا ، بل أنا أتكلّم ، فما هو والله إلا أن انتهينا إليهم ، فما كان فى نفسى شىء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه ، فقال لهم :

يا معشرَ الأنصار ، ماينكِرُ حقّكم مسلم ؛ إنا والله ما أصبنا خيراً قطّ إلا شرَكتمونا

فيه ، لقد آويتم ونصرتم ، وآزرتم وواسيتُم ؛ ولكن قد علمتم أنّ العرب لا تقِرّ ولا تطيع إلا لامرئٍ من قريش ، هم رهط النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أوسطُ العرب وشيجةَ رحِمٍ ، وأوسط الناس داراً ، وأعربُ الناس ألسنا ، وأصبحُ الناس أوجها ؛ وقد عرفتم بلاء ابن الخطاب فى الإسلام وقدمه ، هلمّ فلنبايعْه .

قال عمر : بل إياك نبايع ، قال عمر : فكنتُ أوّل الناس مدّ يده إلى أبى بكر فبايعه ، إلّا رجلا من الأنصار أدخل يده بين يدى ويد أبى بكر فبايعه قبلى . ووطئ الناس فراش سعد ، فقيل : قتلتم سعداً . فقال عمر : قتل الله سعداً ! فوثب رجل من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُها المحكّك وعذَيقُها المرجّب . فأخِذ ووطئ فى بطنِه ودسّوا فى فيه[1] التراب .

***

قال أبو بكر : وحدّثنى يعقوب ، عن محمد بن جعفر ، عن محمد بن إسماعيل ، عن مختار التمار ؛ عن عيسى بن زيد ، قال : لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى علىّ ، فقال : أغلبكم على هذا الأمر أذلّ بيت من قريش وأقلّها ! أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبى فَصِيل خيلا ورجلا ؛ ولأسدّنّها عليه من أقطارها ، فقال علىّ : يا أبا سفيان ، طالما كدْت الإسلام وأهلَه ، فما ضرتَهم شيئاً ؛ أمسك عليك؛ فإنا رأينا أبا بكر لها أهلاً .

قال أبو بكر : وحدّثنا يعقوب ، عن رجاله ، قال : لمّا بُويع أبو بكر تخلّف علىّ فلم يبايع ، فقيل لأبى بكر : إنه كره إمارتك[2] ، فبعث إليه : أ كرِهت إمارتى ؟ قال : لا ، ولكن القرآن خشيت أن يُزاد فيه ، فحلفتُ ألا أرتدىَ رِداء حتى أجمعه ؛ اللهمّ إلا إلى صلاة الجمعة .

---

(١) ج : « فمه » .
(٢) ج : « إمرتك » .

فقال أبو بكر : لقد أحسنت ، قال : فكتبه عليه الصلاة والسلام كما أنزل ، بناسخة ومنسوخه .

* * *

قال أبو بكر : حدثنا يعقوب ، عن أبي النضر ، عن محمد بن راشد ، عن مكحول ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل ، فقدم بعد ما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بايع الناس أبا بكر ، فدعاه إلى البيعة ، فأبى ، فقال عمر : دَعْني وإياه ، فمنعه أبو بكر حتى مضت عليه سنة ، ثم مرّ به أبو بكر وهو جالس على بابه فناداه خالد . يا أبا بكر ؛ هل لك في البيعة ؟ قال : نعم ، قال : فادْنُ ، فدنا منه ، فبايعه خالد وهو قاعد على بابه .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن يحيى ابن عمر ، قال . حدثني أبو جعفر الباقر ، قال جاء أعرابي إلى أبي بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أوصني ، فقال : لا تَأَمَّرْ على اثنين . ثم إن الأعرابي شخص إلى الرَّبَذَةِ ، فبلغه بعد ذلك وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عن أمر الناس : مَنْ وليَه ؟ فقيل : أبو بكر ؛ فقدِم الأعرابيّ إلى المدينة ، فقال لأبي بكر : ألستَ أمرتني ألا أتأمّر على اثنين ؟ قال : بلىَ ، قال : فما بالُك ؟ فقال أبو بكر : لم أجد لها أحداً غيري أحقّ منّي .

قال : ثم رفع أبو جعفر الباقرُ يدَيه وخفّضهما ، فقال : صدق ، صدق .

قال أبو بكر : وقد رُوي هذا الخبر برواية أتمّ من هذه الرواية : حدثنا يعقوب بن شيبة ، قال : حدّثنا يحيى بن حمّاد ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن سليمانَ الأعمش ، عن سُلَيمان بن ميسرة ، عن طارق بن شهاب ، عن رافع بن أبي رافع الطائيّ ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً ، فأمّر عليهم عمرو بن العاص ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وأمرهم

أن يستنفِرُوا مَنْ مرّوا به ، فمرُّوا علينا فاستنفرونا ، فنفرنا معهم في غزاةِ ذات السلاسل — وهي التي تفخر بها أهل الشام ، فيقولون : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو ابن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر — قال : فقلت ؛ والله لأختارنّ في هذه الغزاة لنفسي رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أستهديه ، فإني لستُ أستطيع إتيانَ المدينة ؛ فاخترتُ أبا بكر ولم آل ؛ وكان له كِساء فَدَكيّ يَخِلّه[1] عليه إذا رَكِب ، ويلبسه إذا نزل ؛ وهو الذي عيّرته به هوزان بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا لا نبايعُ ذا الخِلال ، قال : فلما قضينا غزاتنا ، قلت له : يا أبا بكر . إني قد صحبتكُ وإنّ لي عليك حقا ، فعلّمني شيئا أنتفع به ؛ فقال : قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لي : تعبدُ الله لا تشركُ بهِ شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتحجُّ البيت ، وتصوم شهرَ رمضانَ ، ولا تتأمّر على رجلين ، فقلت : أما العبادات فقد عرفتها ؛ أرأيت نهيك لي عن الإمارة ! وهل يصيب الناسَ الخير والشر إلا بالإمارة ! فقال : إنك استجهدتَني فجهدت لك ، إنّ الناس دخلوا في الإسلام طوعا وكرها فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله وعواد الله وفي ذمة الله ، فَمنْ يظلم منكم إنما يحقِر ربه ، والله إنّ أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره ، فيظلُّ عضله بأساً بجاره ، واللهُ منْ وراء جاره ، قال : فلم يلبث إلا قليلا حتى أتتنا وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُ : من استخلف بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قلت أصاحبي الذي كان ينهاني عن الإمارة ! فشددتُ على راحلتي ، فأتيت المدينة ، فجعلت أطلب خَلْوَتَه ، حتى قدرت عليها ، فقلت أتعرفني ؟ أنا فلان ابن فلان ، أتعرف وصية أوصيتَني بها ؟ قال : نعم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيتُ أن يفتتنوا ، وإنّ أصحابي حمّلونيها ، فما زال يعتذر إليّ حتى عذرته ، وصار من أمري بعد أن صرت عريفا .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، عن رجاله ، عن الشعبيّ ، قال : قام الحسن ابن عليّ عليه السلام إلى أبي بكر وهو يخطُب على المنبر فقال له : انزل عن منبر أبي ، فقال ؛

(١) يخله عليه ، أي يجمع بين طرفي الكساء بخلال من عود أو حديد .

أبو بكر : صدقت ؛ والله إنّه لمنبر أبيك لا منبر أبي ، فبعث عليّ إلى أبي بكر ؛ إنه غلام حدَثٌ ، وإنا لم نأمره ، فقال أبو بكر : صدقت ، إنا لم نتهمك .

قال أبو بكر : وروى أبو زيد،عن حباب بن يزيد،عن جرير،عن المغيرة أنّ سلْمان والزبير وبعضَ الأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ، فلما بويع أبو بكر،قال سلْمانُ للصحابة:أصبتم الخير؛ولكن أخطأتم المعدِن.قال : وفي رواية أخرى : أصبتم ذا السنّ منكم،ولكنكم أخطأتم أهلَ بيت نبيّكم.أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رَغَداً .

قلت : هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلْمان أنه قال : « كرديد ونكرديد »،تفسره الشيعة ، فتقول : أراد أسلمتم وما أسلمتم ، ويفسره أصحابنا فيقولون معناه : أخطأتم وأصبتم .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ، قال : حدثنا غسّان ابن عبد الحميد ، قال : لما أكثر في تخلّف عليّ عن البيعة،واشتدّ أبو بكر وعمر في ذلك، خرجت أم مِسْطح بن أثاثة، فوقفت عند قبر النبي صلى الله عليه وآله ونادته : يارسول الله !

قَدْ كان بعدك أنباء وهَيْنَمةٌ ... لو كنتَ شاهِدَها لم تكثرِ الخطَبُ[1]

إنا فقدناك فَقْدَ الأرض وابلها ... فاختلّ قومك،فاشهدهم ولا تَغِبِ

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وسمعت أبا زيد عمر بن شبّة يحدّث رجلا بحديث لم أحفظ إسنادَه ، قال : مرّ المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر ، وهما جالسان على باب النبي حين قُبِض،فقال : مايقعدكما ؟ قالا : ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه ـ يعنيان عليا ـ فقال : أتريدُون أن تنظروا حَبَل الحَبَلة[2] من أهلِ هذا البيت ! وسّعُوها في قريش تتّسع .

(١) الهينمة : الصوت الخفي . وفي اللسان ـ ونسب البيتين إلى فاطمة . « وهنبثة » والهنبثة : الاختلاط في القول .

(٢) الحبلة في الأصل : الكرْم ؛ قيل : معناه حمل الكرْمة قبل أن تبلغ ؛ ولعله كناية عن صغر سن عليّ .

قال : فقاما إلى سَقِيفة بنى ساعدة ، أو كلاما هذا معناه .

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو جعفر محمد بن عبدالملك الواسطىّ، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهرىّ، عن أنس بن مالك ، قال: لما مرض رسول الله مرضه الذى مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال بعد مرتين : يابلال، قد أبلغتَ ؛ فمن شاء فليصلّ بالناس ، ومن شاء فليدعْ .

قال : ورُفعت الستور عن رسول الله، فنظرنا إليه كأنّه ورقة بيضاء، وعليه خَمِيصة(١) له ، فرجع إليه بلال فقال : مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس ، قال : فما رأيناه بعد ذلك عليه السلام .

وقال أبو بكر : وحدّثنى أبو الحسن علىّ بن سليمان النوفلىّ ، قال : سمعتُ أبيًا يقول : ذكر سعد بن عبادة يوما عليا بعد يوم السقيفة، فذكر أمراً من أمره نسيه أبو الحسن، يوجب ولايته ، فقال له ابنه قيس بن سعد : أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام فى علىّ بن أبى طالب، ثم تطلب الخلافة ، ويقول أصحابُك : منّا أمير ومنكم أمير ! لا كلمتك والله من رأسى بعد هذا كلمة أبدا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو الحسن على بن سليمان النوفلىّ ، قال : حدثنى أبى، قال : حدّثنى شريك بن عبد الله ، عن إسماعيل بن خالد ، عن زيد بن علىّ بن الحسين ، عن أبيه، عن جدّه ، قال: قال علىّ : كنت مع الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة له فى المحبوب والمكروه، فلما عزّ الإسلام، وكَثُر أهله ، قال: ياعلىّ ؛ زد فيها: «على أن تمنعوا رسولَ الله وأهلَ بيته مما تمنعون منه أنفسكم وذراريكم » ، قال: فحملها على ظهور القوم ، فوفَى بها مَنْ وَفَى ، وهلك مَنْ هَلَكَ .

قلت : هذا يطابق ما رواهُ أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن

(١) الخميصة : كساء أسود مربع ؛ له علمان .

جعفر بن محمد عليه السلام وقف مستترا فى خِفْية ، يشاهد المحامل التى حُمِل عليها عبد الله ابن الحسن وأهلُه فى القيود والحديد من المدينة إلى العراق ، فلما مرُّوا به بكى ، وقال : ماوفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بايَعهم على أن يمنعوا محمدا وأبناءه وأهله وذريته مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأهلهم وذراريّهم ، فلم يفوا . اللهمّ اشدد وطأتك على الأنصار .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدثنا أحمد بن الحكم ، قال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ليث بن سعد ، قال : تخلّف علىّ عن بيعة أبى بكر ، فأخرِج مُلَبّباً[1] يُمْضَى به رَكْضاً ؛ وهو يقول: معاشرَ المسلمين، علامَ تُضرب عنق رجل من المسلمين ، لم يتخلّفْ لخلاف ، وإنما تخلَّف لحاجة ! فما مرّ بمجلس من المجالس إلا يقال له : انطلق فبايع .

قال أبو بكر : وحدّثنا علىّ بن جرير الطائى ، قال : حدثنا ابنُ فضل ، عن الأجلح، عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد ، قال : سمعت عليًّا يقول : أما وربِّ السماء والأرض ، ثلاثا ؛ إنه لعهد النبىّ الأمى إلىّ : « لتغدرَنّ بك الأمّة من بعدى » .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة بإسناد رفعه إلى ابن عباس ، قال : إنّى لأماشى عمر فى سكّة من سكك المدينة ، يده فى يدى ، فقال : يابن عباس ، ماأظنّ صاحبَك إلا مظلوما ، فقلت فى نفسى : والله لايسبقُنى بها ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، فارددْ إليه ظلامتَه . فانتزع يدَه من يدى ، ثم مرّ يهمهِم ساعة ثم وقف . فلحقته فقال لى : يابن عباس ؛ ماأظنّ القوم منعهم من صاحبك إلا أنّهم استصغروه ؛ فقلت فى نفسى : هذه شرّ من الأولى ؛ فقلت : والله مااستصغره الله حين أمرَه أن يأخذ سورة براءة من أبى بكر .

***

---

(١) يقال : لبب فلان فلاناً : أخذ بتلبيبه ، أى جمع ثيابه عند صدره ونحره ثم جره .

[ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر]

فأما ما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين[١] من كيفية المبايعة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك؛ و بإسناد إلى عائشة : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبي صلى الله عليه وآله ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك ، وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنا معشر الأنبياء لا نورث؛ ما تركناه صدقة ، إنما يأكل آل محمد من هذا المال » ؛ وإني والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته. فهجرته فاطمةُ ولم تكلّمه في ذلك حتى ماتت. فدفنها علي ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر . وكان لعلي وجه[٢] من الناس في حياة فاطمة . فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوهُ الناس عن علي[٣]، فمكثت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت. فقال رجل للزهري وهو الراوي لهذا الخبر عن عائشة : فلم يبايعه علي ستة أشهر ! قال: ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي . فلما رأى ذلك ضرع إلى مبايعة أبي بكر ، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأت[٤] معك أحد ، وكره أن يأتيه عمر لما عرف من شدته ، فقال عمر: لا تأتهم وحدك ، فقال أبو بكر : والله لآتينّهم وحدي ، وما عسى أن يصنعوا بي ! فانطلق أبو بكر حتى دخل عَلَى علي ، وقد جمعَ بني هاشم عنده ؛ فقام علي . فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنه لم يمنعنا أنْ نبايعك يا أبا بكر إنكارٌ لفضلك ، ولا منافسةٌ لخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقا ، فاستبددتم به علينا . وذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وحقه ، فلم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر ، فلما صمت علي تشهّد أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه . ثم قال: أما بعد

(١) صحيح البخاري ٢ : ١٨٦ ، ومسلم ٣ : ١٣٨٠ مع اختلاف في لفظ الحديث .

(٢) مسلم : « وجهة » .

(٣) مسلم : « استنكر علي وجوه الناس » .

(٤) مسلم : « ولا يأتنا » .

فوالله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله أحب إلىّ أن أصلها من قرابتي، وإني والله ما آلوكم من هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم إلا الخير؛ ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا نورَث ما تركناه صدقة؛ وإنما يأكل آل محمد في هذا المال»، وإني والله لا أترك أمرًا صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا صنعتُه إن شاء الله، قال علي: موعدك العشيّة للبيعة، فلما صلّى أبو بكر الظهر، أقبل على الناس ثم عذَر عليًّا[1] ببعض ما اعتذر به، ثم قام عليّ فعظم من حقّ أبي بكر، وذكر فضلَه وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه، فأقبل الناس إلى عليّ، فقالوا: أصبتَ وأحسنت، وكان عليّ قريبًا إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف.

* * *

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، قال: حدثنا ابن وهب، عن ابن لَهيعة، عن أبي الأسود؛ قال: غضب رجال من المهاجرين في بَيْعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب عليّ والزبير، فدخلا بيتَ فاطمة، معهما السلاح، فجاء عمر في عِصابة، فيهم أُسَيد بن حُضَير، وسلمة بن سلامة بن قُرَيش؛ وهما من بني عَبْد الأشهل، فاقتحما الدّار، فصاحت فاطمة وناشدتْهما الله، فأخذوا سيفيْهما، فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما، فأخرجهما عمر يسوقُهما حتى بايعا.

ثم قام أبو بكر، فخطب الناسَ، فاعتذر إليهم، وقال: إنّ بيعتي كانت فَلْتة وقَى الله شرّها، وخشِيت الفتنة، وايمُ الله ما حرصت عليها يومًا قطّ، ولا سألتها الله في سرّ ولا علانية قطّ، ولقد قُلِّدتُ أمرًا عظيمًا مالي به طاقة، ولا يَدان، ولقد وددت أنّ أقوى الناس عليه مكاني.

---

(١) مسلم: «وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة، وعذره الذي اعتذر إليه».

فقبِل المهاجرون ، وقال عليّ والزبير : ما غضِبْنا إلا فى المشورة ، وإنّا لنرى أبا بكر أحقّ الناس بها ، إنّه لصاحبُ الغار، وثانى اثنين، وإنا لنعرفُ له سِنه ،ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالصّلاة وهو حيّ .

قال أبو بكر : وذكر ابنُ شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أخا بنى الحارث من الخزرج ، كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة .

قال : وروى سعد بن إبراهيم أنّ عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم ، وأنّ محمد بن مسلمة كان معهم ، وأنّه هو الذى كسر سيفَ الزبير .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد عمر بن شبّة ، عن رجاله ، قال : جاء عمر إلى بيت فاطمة فى رجال من الأنصار ونفر قليل من المهاجرين، فقال : والّذِى نفسى بيده لتخرجَنّ إلى البيعة أولأحرِقنّ البيت عليكم. فخرج إليه الزبير مصلتا بالسيف، فاعتنقه زياد بن لَبيد الأنصاريّ ورجل آخر ، فندَرَ[1] السيفُ من يده ، فضرب به عمر الحجر فكسره ، ثم أخرجَهُم بتلابيبهم يساقون سَوْقاً عنيفاً ؛ حتى بايعوا أبا بكر .

قال أبو زيد : وروى النضْر بن شُمَيل، قال : حُمِل سيف الزبير لما نَدَر من يده إلى أبى بكر وهو على المنبر يخطب ، فقال : اضربوا به الحجر ، قال أبو عمرو بن حماس : ولقد رأيت الحجَر وفيه تلك الضربة ، والناس يقولون : هذا أثر ضربة سيف الزبير .

قال أبو بكر : وأخبرنى أبو بكر الباهليّ ، عن إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبيّ ، قال: قال أبو بكر : ياعمر، أين خالد بن الوليد ؟ قال : هو هذا ، فقال: انطلقا إليهما ـ يعنى عليا والزبير ـ فأْتيانى بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج ، فقال عمر للزبير : ما هذا السيف؟ قال : أعددته لأبايع عليّاً، قال : وكان فى البيت ناس كثير ؛منهم المقداد بن الأسود وجمهور الهاشميين ، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة فى البيت

(١) ندر : سقط .

فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير ، فأقامه ثم دفعه فأخرجه ، وقال : ياخالد ، دونك هذا ، فأمسكه خالد - وكان خارجَ[1] البيت مع خالد جَمْعٌ كثير من الناس، أرسلهم أبو بكر رِدْءا لهما - ثم دخل عمر فقال لعلىّ : قم فبايع ، فتلكأ واحتبس[2] ، فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقومَ ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير ، ثم أمسكهما خالد ، وساقهما عمر ومَن معه سَوْقاً عنيفاً ، واجتمع الناس ينظرون ، وامتلأت شوارع المدينة بالرجال ، ورأت فاطمة ماصنع عمر ، فصرخت وولولت ، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميّات وغيرهن ؛ فخرجت إلى باب حجرتها ، ونادت : ياأبا بكر ، ما أسرع ماأغرتم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله .

قال : فلما بايع علىّ والزبير ؛ وهدأت تلك الفورة ، مشى إليها أبو بكر بعدذلك فشفع لعمر ، وطلب إليها فرضيَت عنه .

قال أبو بكر : وحدّثنى المؤمل بن جعفر ، قال : حدثنى محمد بن ميمون ، قال: حدثنى داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب عليه السلام ونحن راجعون من الحجّ فى جماعة ، فسألناه عن مسائلَ ، وكنت أحدَ مَنْ سأله ، فسألته عن أبى بكر وعمر ، فقال : أجيبك بما أجاب به جَدّى عبد الله ابن الحسن ، فإنه سئل عنهما ، فقال : كانت أمّنا صِدّيقة ، ابنة نبىّ مرسل ، وماتت وهى غضبى على قوم ، فنحن غِضاب لغضبها .

قلت : قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيّين من أهل الحجاز ؛ أنشدنيه النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد العَلوىّ قال : أنشدنى هذا الشاعر لنفسه - وذهب عنى أنا اسمه - قال :

يا أبا حفص الهوينَى وما كنـــت مليًّا بذاك لولا الحمـــامُ

(١) ب : « فى خارج البيت » .

(٢) احتبس : توقف .

أتموتُ البتولُ غَضْبَى ونَرضى ما كذا يصنعُ البنون الكرامُ !

يخاطب عمر ويقول له: مهلا ورُوَيدا[1] يا عمر ، أى ارفق واتَّئِدْ ولا تعنُف بنا. وما كنت مليًّا، أى وما كنت أهلا لأن تخاطَب بهذا وتستعطف ، ولا كنتَ قادرا على ولوج دار[2] فاطمة على ذلك الوجه الذى ولجتها عليه ، لولا أنَّ أباها الذى كان بيتها يحترم ويصان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن يطمع . ثم قال : أتموت أمّنا وهى غضبى ونرضى نحن ! إذاً لسنا بكرام ، فإنّ الولد الكريم يرضى لرضا أبيه وأمه ويغضب لغضبهما .

والصحيح عندى أنّها ماتت وهى واجِدة على أبى بكر وعمرَ ، وأنها أوصتْ ألا يصلّيا عليها ؛ وذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما ، وكان الأولى بهما إكرامَها واحترامَ منزلها لكنّهما خافا الفرقة ، وأشفقا من الفتنة، ففعلا ما هو الأصلحُ بحسب ظنّهما ؛ وكانا من الدين وقوة اليقين بمكان مكين ، لا شكّ فى ذلك ، والأمور الماضية يتعذّر الوقوف على عِلَلها وأسبابها ، ولا يَعلَم حقائقَها إلا مَنْ قد شاهدها ولابسها ، بل لعلّ الحاضرين المشاهدين لها يعلمون باطن الأمر ؛ فلا يجوز العدولُ عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى ؛ والله ولىّ المغفِرة والعفو ؛ فإنّ هذا لو ثبت أنّه خطأ لم يكن كبيرة ، بل كان من باب الصغائر التى لا تقتضى التبرّؤ ، ولا توجب زوال التولّى .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا محمد بن حاتم ، عن رجاله، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعلىّ ، وأنا معه بفِناء داره فسلّم عليه ، فقال له علىّ : أين تريد ؟ قال : البقيع ، قال : أفلا[3] تصل صاحبك، ويقوم معك[3] ؟ قال : بلى، فقال لى علىّ : قم معه ، فقمت فمشيتُ إلى جانبه ، فشبك أصابعه فى أصابعى ، ومشينا قليلا ، حتى إذا خلّفنا البقيع قال لى : يابن عباس ، أما والله إنّ صاحبَك هذا لأوْلَى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلّا أنّا خفناه على اثنين؛ قال ابن عباس : فجاء بكلام لم أجد بدًّا من

(١) ب : « رويدا » . (٢) ج : « بيت » .
(٣-٣) ب : « تصل جناحك وتقوم معك » .

مسألته عنه ، فقلت : ما هما يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : خِفْناه على حداثة سنِّه ، وحبّه بنى عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد ، قال : حدّثنى محمد بن عباد ، قال : حدّثنى أخى سعيد بن عباد ، عن الليث بن سعد ، عن رجاله ، عن أبى بكر الصديق أنّه قال : ليتنى لم أكشفْ بيتَ فاطمة ، ولو اعلن علىّ الحرب !

قال أبو بكر : وحدّثنا الحسن بن الربيع ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرىّ ، عن علىّ بن عبد الله بن العباس عن أبيه ، قال : لما حضرتْ رسولَ الله صلى الله عليه وآله الوفاة ، وفى البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ائتونى بدواةٍ وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدى ، فقال عمر كلمة معناها أنّ الوَجَع قد غلَب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : عندنا القرآن حسبُنا كتاب الله ؛ فاختلف مَنْ فى البيت واختصموا ، فمِن قائل يقول : القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومِنْ قائل يقول : القول ما قال عمر ، فلما أكثَرُوا اللّغط واللغو والاختلاف ، غضِب رسول الله ، فقال : « قوموا ؛ إنه لا ينبغى لنبىّ أن يختلف عنده هكذا » ، فقاموا ، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك اليوم ؛ فكان ابن عباس يقول : إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله ــ يعنى الاختلاف واللغط .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخارىّ ، ومسلم بن الحجاج القشيرىّ فى صحيحيهما[1] ، واتفق المحدّثون كافة[2] على روايته .

* * *

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ، عن رجاله ، عن جابر بن عبدالله ، قال : قال رسول الله

(١) صحيح مسلم : ١٢٥٩ (٢) ب : « جميعا » .

صلى الله عليه وآله : إنْ تولَّوها أبا بكر تجدُوه ضعيفا فى بَدَنه ، قويًّا فى أمر الله ، وإن تولَّوها عمر تجدوه قويًّا فى بدنه قويا فى أمر الله ، وإن تولَّوها عليا ـ وما أراكم فاعلين ـ تجدوه هاديا مهديًّا ، يحملكم على المحجّة البيضاء ، والصراط المستقيم .

قال أبو بكر : وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، عن أحمد بن سيّار ، عن سعيد بن كثير الأنصارىّ ، عن رجاله ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرض موتِهِ أمّر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جِلّةُ المهاجرين والأنصار ؛ منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير ، وأمَرَه أن يُغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد ، وأن يغزو وادِىَ فلسطين . فتثاقل أسامةُ وتثاقل الجيش بتثاقُلِه ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرضه يثقُل ويخِفّ ، ويؤكد القول فى تنفيذ ذلك البعث ؛ حتى قال له أسامة : بأبى أنت وأمى ! أتأذن لى أن أمكُث أياما حتى يَشفِيَكَ الله تعالى ! فقال : اخرج وسِرْ على بركة الله ، فقال : يارسول الله ، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفى قلبى قَرْحة منك ، فقال : سر على النصر والعافية ، فقال : يارسول الله ، إنى أكره أن أسأل عنك الركبان ، فقال : انفُذ[1] لما أمرتُك به ، ثم أغمى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقام أسامة فتجهّز للخروج ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وآله سأل عن أسامة والبعث ، فأخبِر أنهم يتجهّزون ، فجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله مَنْ تخلّف عنه » ، وكرر[2] ذلك ، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه ، حتى إذا كان بالجُرْف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين ؛ ومن الأنصار أُسَيد بن حُضَير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه ، فجاءه رسولُ أمّ أيمن ، يقول له : ادخل فإنّ رسول الله يموت ، فقام من فوره ، فدخلَ المدينة واللواء معه ، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ، ورسول الله قد مات فى تلك الساعة .

قال : فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير .

---

(١) انفذ : أى امض لوجهك .   (٢) ج : « وتكرر » .

(٦٧)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما قلد محمد بن أبى بكر مصر فملكت عليه وقتل :

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ ؛ وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ ، وَلَا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ ، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَىَّ حَبِيباً ، وَكَانَ لِي رَبِيباً .

* * *

[ذكر محمد بن أبى بكر وذكر ولده]

الشَّرْحُ :

أمّ محمد بن أبى بكر أسماء بنت عُمَيْس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خَثْعم ؛ كانت تحتَ جعفر بن أبى طالب، وهاجرتْ معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبدَالله ابن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مُؤْتة ، فخلَفَ عليها أبو بكر الصدّيق ، فأولدها محمداً ، ثم مات عنها ، فخلَفَ عليها علىّ بن أبى طالب ؛ وكان محمد ربيبه وخرِّيجَه ، وجارياً عنده مجْرَى أولادِه، رضَع الولاء والتشيّع مذ زمن الصِّبا ، فنشأ عليه ؛ فلم يكن يعرف له أباً غير علىّ ، ولا يعتقد لأحدٍ فضيلة غيره ؛ حتى قال علىّ عليه السلام : محمد ابنى من صلب أبى بكر ؛ وكان يكْنَى أبا القاسم فى قول ابن قتيبة (١) . وقال غيرُه : بل كان يكْنَى أبا عبد الرحمن .

---

(١) فى المعارف ص ١٧٥ .

وكان محمد من نُسّاك قريش ؛ وكان ممن أعان على عثمان فى يوم الدّار ؛ واختلف : هل باشر قتلَ عثمان أم لا ! ومن ولد محمد: القاسم بن محمد بن أبى بكر فقيه الحجاز وفاضلها؛ ومن ولد القاسم : عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ؛ كان من فضلاء قريش ويكنَى أبا محمد؛ ومن ولد القاسم أيضاً أم فَرْوَة ، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن علىّ ، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام ؛ وإلى أم فَرْوة أشار الرضىّ أبو الحسن بقوله :

يفاخرُنا قَوْمٌ بمَنْ لم نلدهمُ ... بتيمٍ إذا عُدّ السوابق أوْ عَدِى[1]
وَيَنْسَوْنَ مَنْ لو قدّمُوه لَقَدّمُوا ... عِذارَ جوادٍ فى الجيادِ مُقَلَّدِ
فَتًى هاشمٍ بعد النبىّ وباعُهَا ... لِمَرْمَى عُلًا أو نيلِ مجد وسودَدِ
ولولا علىّ ماعلَوْا سَرَوَاتِها ... ولا جَعْجَعُوا فيها بمرعًى وَمَوْرِدِ
أخذنا عليكم بالنبىّ وفاطمٍ ... طلاعَ المساعى مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدِ
وَطُلْنا بِسِبْطَىْ أحمدٍ ووصيِّه ... رقابَ الورى مِنْ مُتْهِمِينَ ومُنْجِدِ
وحُزْنا عَتِيقاً وهو غايةُ فَخْرِكمْ ... بمولد بِنت القاسم بن محمدِ
فَجَدٌّ نَبِىٌّ ثم جَدٌّ خليفةٌ ... فأكرم بجدَّيْنا : عتيقٍ وأحمدِ
وَمَا افتخرَتْ بعدَ النبىّ بغيرِه ... يدٌ صَفَقَتْ يَوْمَ البِياع على يَدِ

قوله :

* ولولا علىّ ماعلَوْا سَرَوَاتِها . . . * البيت

ينظر فيه إلى قول المأمون فى أبيات يمدح فيها عليًا ، أولها :

ألامُ على حُبّى الوصىّ أبا الحسنْ ... وذلك عندى من أعاجيبِ ذا الزّمَنْ

والبيت المنظور إليه منها قوله :

---

(١) ديوانه لوحة ٩١ .

وَلَوْلَاهُ ماعُدَّتْ لهــاشم إمْرَةٌ   وكان مدى الأيام يعصَى ويُخْتَهَن

***

[هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ونسبه]

وأمّا هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة ابن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب ، فعمّه سعد بن أبي وقاص ، أحدُ العشرة ، وأبوه عُتبة بن أبي وقّاص ، الذى كسر رَبَاعيَةَ[1] رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد ، وكلَمَ شفتيه وشجّ وجهه ، فجعل يمسح الدمَ عن وجهه ، ويقول : « كيف يُفلِح قوم خضبوا وجهَ نبيّهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ! » ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [2] .

وقال حسان بن ثابت فى ذلك اليوم :

إذا الله حَيَّا معشراً بفعالِهِمْ   ونصرِهِمُ الرحمــنَ ربَّ المشارقِ[3]

فهــدّك ربّى ياعتيبَ بن مالك   ولقّاك قبل الموت إحدَى الصواعِقِ[4]

بَسطْتَ يميناً للنبىّ محمّــدٍ[5]   فدمّيت فاه قُطِّعَتْ بالبــوارقِ[6]

فهلّا ذكرتَ الله والمنزلَ الّذِى[7]   تصير إليه عند إحدَى الصعائقِ

فَمَنْ عاذِرِى من عبد عُذْرَةَ بعدما   هَوَى فى دَجُوجِىّ شديد المضايق ![8]

---

(١) الرباعية : السن التى بين الثنية والناب .

(٢) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٣) ديوانه ٢٩١ .

(٤) الديوان : « فأخزاك ربى » .

(٥) الديوان : « للنبى برمية » .   (٦) البوارق : السيوف .

(٧) الديوان : « فهلا خشيت الله » .

(٨) لم يذكر فى الديوان .

وأورثَ عارا فى الحيـاة لأهــــلِهِ   وفى النـار يوم البعث أمّ البَوائق (١)

وإنما قال ، « عبد عُذْرَة » لأنّ عتبة بن أبى وقاص وإخوتَه وأقاربَه فى نسبهم كلام، ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عُذْرة ، وأنهم أدعياء فى قريش ؛ ولهم خبر معروف ، وقصة مذكورة فى كتب النسب .

وتنازَع عبدُ الله بن مسعود وسعد بن أبى وقّاص فى أيام عثمان فى أمرٍ فاختصما ، فقال سعد لعبد الله : اسكُت ياعبدَ هذيل ، فقال له عبدُ الله : اسكُتْ ياعبد عُذْرة .

وهاشم بن عتبة هو المِرْقال ، سمى المرقال ، لأنه كان يُرْقِل فى الحرب إرقالا؛ وهو من شِيعة علىّ ، وسنفصّل (٢) مقتلَه ، إذا انتهينا إلى فصل من كلامه يتضمّن ذكر صِفّين .

* * *

فأما قوله : « لما خَلّى لهم العرْصة » فيعنى عَرْصة مصر ؛ وقد كان محمد رحمه الله تعالى : لما ضاق عليه الأمر ، ترك لهم مصر وظنّ أنه بالفرار ينجو بنفسه ، فلم ينجُ وأخِذ وقُتِل .

وقوله : « ولا أنهزَهم الفُرصَة » ، أى ولا جعلهم للفرصة منتهزين . والهمزة للتعدية، يقال : أنهزت الفرصة ، إذا أنهزتُها غيرى .

* * *

ونحن نذكر فى هذا الموضع ابتداء أمرِ الذين ولّاهم علىّ عليه السلام مصر ، إلى أن ننتهى إلى كيفية ملك معاوية لها وقتل محمد بن أبى بكر ؛ وننقل ذلك من كتاب إبراهيم ابن سعد بن هلال الثقفى ، وهو كتاب " الغارات " .

---

(١) رواية الديوان :

لقَدْ كانَ حَرْبًا فى الْحَياةِ لِقَوْمِهِ   وفى البَعْثِ بعدَ الموْتِ إحْدَى البَوائقِ

(٢) ا : « وسنذكر » .

[ولاية قيس بن سعد على مصر ثم عزله]

قال إبراهيم : حدّثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثّقفيّ ، قال : حدّثني عليّ بن محمد بن أبي سيف ، عن الكلبيّ ، أنّ محمد بن أبي حُذيفة بن عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، هو الذي حرّض المصريين على قتل عثمان وندّبهم إليه ، وكان حينئذ بمصر ، فلما ساروا إلى عثمان وحَصَرُوه ، وثب هو بمصر على عامل عثمان عليها ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرْح ، أحد بني عامر بن لؤيّ ، فطرده عنها ، وصلّى بالناس ؛ فخرج ابنُ أبي سَرْح من مصر ، ونزل على تخوم أرضها مما يلي فِلسطين ، وانتظر مايكون من أمر عثمان ، فطلَع عليه راكب ، فقال له : ياعبد الله ، ماوراءك ؟ ماخبرُ الناس بالمدينة ؟ قال: قتل المسلمون عثمان، فقال ابنُ أبي سَرْح : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! ثم صنعوا ماذا ياعبد الله ؟ قال : بايعوا ابن عمّ رسول الله عليّ بن أبي طالب ، فقال ثانية : إنا لله وإنا إليه راجعون ! فقال الرجل : أرَى أنّ ولايةَ عليّ عدلَتْ عندك قتل عثمان ! قال : أجلْ ، فنظر إليه متأمّلا له فعرفه ، فقال أظنّك عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، أمير مصر ! قال : أجل ، قال : إن كانتْ لك في الحياة حاجة فالنّجاء النّجاء ؛ فإنّ رأيَ عليّ فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ؛ وهذا أمير تقدّم بعدي عليكم . قال : ومَن الأمير ؟ قال : قيس بن سعد بن عبادة . فقال ابنُ أبي سَرْح : (١ أبعَدَ الله ١) ابن أبي حذيفة ! فإنّه بَغَى على ابن عمّه ، وسعى عليه ، وقد كان كفَلَه وربّاه ، وأحسن إليه ، وأمِنَ جواره ؛ فجهّز الرجال إليه حتى قُتِل ، ووثب على عامله .

وخرج ابن أبي سَرْح حتى قدِم على معاوية بدمشق .

قال إبراهيم : وكان قيس بن سعد بن عبادة من شيعة عليّ ومناصحيه [٢] ؛ فلما وليَ الخلافة ، قال له : سرْ إلى مصر فقد ولّيتُكها ، واخرج إلى ظاهر المدينة، واجمع ثقاتك ومَنْ

(١ ــ ١) ساقط من ب .

(٢) ج : « وناصحيه » .

أحببت أن يصحبك حتى تأتى مصر ومعك جند ، فإن ذلك أرعبُ لعدوّك؛ وأعزّ لوليّك. فإذا أنت قدمتَها إن شاء الله ، فأحسِن إلى المحسِن ، واشتدّ[1] على المريب، وارفُقْ بالعامّة والخاصّة فالرفق يُمْن .

فقال قيس : رحمك الله ياأمير المؤمنين ! قد فهمتُ ماذكرتَ ، فأمّا الجندُ فإنى أدعُه لك ، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريباً منك ،وإن أردت بعثهم إلى وجْهٍ من وجوهك كان لك عُدّة ، ولكنّى أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتى؛ وأمّاما أوصيتَنى به من الرفق والإحسان فالله تعالى هو المستعانُ على ذلك .

قال : فخرج قيسٌ فى سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر ، فصعِد المنبر ، وأمر بكتاب معه يُقرَأ على الناس ، فيه :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بلغه كتابى هذا من المسلمين . سلام عليكم؛فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو .

أمابعد ؛فإنّ الله بحسن صنعه وقدَرِه وتدبيره ،اختارَ الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به أنبياءه إلى عباده ؛ فكان مما أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمة وخصّهم به من الفضل أن بعث محمدا صلى الله عليه وسلّم إليهم ، فعلّمهم الكتاب والحكمة والسّنة والفرائض وأدّبهم لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيلا يتفرّقوا ، وزكّاهم لكيما يتطهّروا ؛ فلماقضى من ذلك ماعليه ، قبضه الله إليه ، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه . ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحيْن ، فعملا بالكتاب والسّنة وأحييا السِّيرة ؛ولم يعدُوَا السنة. ثم تُوُفّيا رحمهما الله ، فولّى بعدهما والٍ أحدَث أحداثا ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثمّ نقَموا فغيّروا ثم جاءونى فبايعونى ، وأنا أستهدِى الله الهدَى ، وأستعينه على التقوى . ألا وإنّ لكم علينا العملَ بكتاب الله وسنة رسوله والقيام بحقّه ، والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان على ماتصفون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) ب : « واشدد » .

وقد بعثتُ لكم قيسَ بن سعد الأنصارى أميراً ، فوازِروه وأعِينوه على الحقّ ،وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدّة على مُرِيبكم، والرّفق بعوامّكم وخواصّكم؛ وهو ممّنْ أرضَى هَدْيَه، وأرجو صلاحَه ونصحه . نسأل الله لنا ولكم عملا زاكيا، وثوابا جزيلا ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه عبدالله بن أبى رافع فى صفر سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : فلما فرغ من قراءة الكتاب ،قام قيس خطيباً فحمدالله وأثنى عليه،وقال: الحمدُ لله الذى جاء بالحقّ، وأمات الباطل، وكَبَت الظالمين . أيّها الناس ؛ إنّا بايعنا خَيْرَ من نعلم من بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله ؛ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن نحن لم نعمل بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا ، واستقامت مصر وأعمالها لقيس،وبعث عليها عماله ؛ إلاّ أنّ قريةً منها قد أعظمَ أهلُها قتل عثمان ، وبها رجل من بنى كنانة يقال له يزيد بن الحارث،فبعث إلى قيس : إنّا لا نأتيك فابعث عُمّالك ، فالأرض أرضُك ؛ ولكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس .

ووثب محمد بن مسلَمة بن مخلَّد بن صامت الأنصارىّ فنعَى عثمان ، ودعا إلى الطلب بدمه ؛ فأرسل إليه قيس : ويحك ! أعلىّ تَثِب ! والله ما أحبّ أن لى ملك الشام ومصر وأنى قتلتك! فاحقِنْ دمك. فأرسل إليه مسلَمة: إنى كافٌّ عنك مادمتَ أنتَ والى مصر .

وكان قيس بن سعد ذا رأيٍ وحَزْم، فبعث إلى الذين اعتزلوا : إنى لا أكرِهكم على البيْعة ، ولكنى أدعُكم وأكفّ عنكم . فهادنهم وهادَن مسلمة بن مخلَّد ، وجبَى الخراج؛ وليس أحد ينازعه .

***

قال إبراهيم : وخرج علىّ عليه السلام إلى الجمل ؛ وقيس على مصر ، ورجع من البصرة إلى الكوفة ، وهو بمكانه ، فكان أثقلَ خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشام ، ومخافةَ أن يقبِلَ علىّ بأهل العراق ، ويقبِلَ إليه قيس بأهل مصر ؛ فيقع بينهما. فكتب معاوية إلى قيس ، وعلىّ يومئذ بالكوفة قبل أن يسيرَ إلى صِفّين :

من معاوية بن أبي سُفيان إلى قيس بن سعد . سلام عليك ، فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد؛ فإنكم إن كنتم نقِمتم على عثمان فى أثَرةٍ رأيتموها، أو ضربة سوط ضرَبها، أو فى شتمه رجلا ، أو تسييره واحداً ، أو فى استعماله الفتيانَ من أهله ـ فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون، أنّ دمه لم يحلّ لكم بذلك ؛ فقد ركبتمْ عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئا إدًّا ، فتب ياقيس إلى ربّك، إن كنت من المجلبين على عثمان؛ إن كانت التوبة قبل الموت تغنى شيئا. وأمّا صاحبُكَ فقد استيقنّا أنه أغرى الناس بقتله، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلَم من دمِه عُظْم قومك ، فإن استطعتَ ياقيس أن تكونَ ممّن يطلب بدم عثمان فافعل ، وتابِعْنا على علىّ فى أمرنا . هذا ولك سلطان العِراقين إنْ أنا ظفرتُ مابقيت؛ ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز مادام لى سلطان ، وسلْنى عن غير هذا مما تحبّ ، فإنك لاتسألنى شيئا إلّا أتيتهُ ؛ واكتب إلىّ رأيك فيما كتبتُ إليك .

فلما جاء إليه كتابُ معاوية أحبّ أن يدافعه ، ولا يبدى له أمرَه ، ولا يعجّل له حربه ، فكتب إليه :

أما بعدُ؛ فقد وصل إلىّ كتابُك، وفهمتُ الذى ذكرتَ من أمر عثمانَ؛ وذلك أمرٌ لم أقاربْه. وذكرتَ أنّ صاحبي هو الذى أغرَى الناسَ بعثمان ودسّهم إليه حتى قتلوه ؛ وهذا أمرٌ لم أطّلع عليه . وذكرت لى أنّ عُظْم عشيرتى لم تسلَمْ من دم عثمان ؛ فلعمرى إنّ أولى

الناس كان فى أمره عشيرتى ، وأمّا ماسألتنى من مبايعتك على الطلب بدمه ، وما عرضته علىّ فقد فهمته ، وهذا أمرٌ لى نظر فيه وفِكْر ، وليس هذا مما يُعجَل إلى مثله ، وأنا كافٌّ عنك ؛ وليس يأتيك من قِبَلِى شىء تكرهُه ؛ حتى ترى ونرى ، إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : فلما قرأ معاوية كتابه لم يرهُ إلا مقاربًا مباعدا ، ولم يأمن أن يكونَ له فى ذلك مخادعا مكايداً ، فكتب إليه :

أمّا بعد ، فقد قرأتُ كتابك ؛ فلم أرك تدنو فأعُدَّك سِلْما . ولم أرك تتباعد فأعُدَّك حربا ، أراك كحبل الجَرُور ؛ وليس مثلى يصانَع بالخداع ، ولا يُخدَع بالمكايد ، ومعه عدد الرجال وأعِنّة الخيل ، فإن قبلتَ الذى عرضتَ عليك فلك ما أعطيتُك ؛ وإنْ أنت لم تفعل ملأتُ مصر عليك خَيْلًا ورَجْلا . والسلام .

فلما قرأ قيس كتابه ، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة ، أظهر له ما فى نفسه ، فكتَب إليه :

من قيس بن سعد ؛ إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد ، فالعجبُ من استسقاطك رأيى ، والطمع فى أنْ تسومنى - لا أبا لغيرك - الخروجَ من طاعة أوْلى الناس بالأمر ؛ وأقولهم بالحقّ ، وأهداهم سبيلا ، وأقربِهِمْ من رسول الله وسيلةً . وتأمرُنى بالدخول فى طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر ؛ وأقولهم بالزّور . وأضلّهم سبيلا ، وأدناهم من رسول الله وسيلة ؛ ولديك قوم ضالّون مضلّون . طواغيت من طواغيت إبليس . وأمّا قولُك إنّك تملأ علىّ مصرَ خَيْلا ورَجْلا ؛ فلئن لم أشغلْك عن ذلك حتى يكون منك ، إنّك لذو جِدّ . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ قيس ؛ أيسَ وثَقُل مكانه عليه ، وكان[1] أن يكون مكانه غيره أحبَّ إليه ، لما يعلم من قوته وتأبيه[2] ونجدته ، واشتداد أمره على معاوية ؛ فأظهرَ للناس أنّ

(١) ج : « ورأى » .
(٢) ج : « وبأسه » .

قيساً قد بايعكم ، فادعوا الله له . وقرأ عليهم كتابه الذى لان فيه وقاربه ، واختلق كتابا نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام :

للأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد :

أما بعد ؛ إنّ قَتْلَ عثمان كان حدثاً فى الإسلام عظيما ؛ وقد نظرتُ لنفسى ودينى ، فلم أر يسعُنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرِماً برًّا تقياً ، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا ، ونسأله العصمةَ لديننا . ألا وإنى قد ألقيت إليكم بالسّلام ، وأجبتُك إلى قتال قَتَلَة إمام الهدى المظلوم ؛ فاطلب منّى ما أحببتَ من الأموال والرجال أعجّله إليك إن شاء الله. والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته .

قال : فشاع فى الشام كلّها أنّ قيساً صالح معاوية ، وأتت عيونُ علىّ بن أبى طالب إليه بذلك ، فأعظمه وأكبره وتعجّب له ، ودعا ابنيه حسناً وحسيناً وابنه محمدا وعبد الله ابن جعفر ، فأعلمهم بذلك ، وقال : ما رأيكم ؟ فقال عبد الله بن جعفر : ياأمير المؤمنين ، دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبك . أعزلْ قيساً عن مصر . قال علىّ : والله إنى غيرُ مصدّق بهذا على قيس . فقال عبد الله : اعزِله يا أمير المؤمنين ، فإن كان ما قد قيل حقا فلا يعتزلْ لك أن عزلتَه ؛ قال : وإنهم لكذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد ، فيه :

أمّا بعد ، فإنى أخبرُ يا أمير المؤمنين ـ أكرمك الله وأعزّك ـ إنّ قِبَلى رجالا معتزلين سألونى أن أكفّ عنهم وأدَعَهم على حالهم حتى يستقيمَ أمرُ الناس فنرى ويرون ، وقد رأيتُ أن أكفّ عنهم ولا أعجّل بحربهم ، وأنْ أتألفهم فيما بين ذلك ؛ لعلّ الله أن يقبل بقلوبهم ، ويفرّقهم عن ضلالتهم إن شاء الله . والسلام

فقال عبد الله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنك إن أطعتَه فى تركهم واعتزالِهم استشرى الأمرُ وتفاقت الفتنة ، وقعدَ عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ، ولكن مُرْه بقتالهم . فكتب إليه :

أما بعد ؛ فسِرْ إلى القوم الذين ذكرت ، فإنْ دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم ، والسلام .

قال : فلما أتى هذا الكتاب قيساً فقرأه لم يتمالك أن كتبَ إلى عليّ :

أما بعدُ يا أمير المؤمنين ، تأمُرني بقتال قوم كافّين عنك ، ولم يمدّوا يداً للفتنة ، ولا أرصدوا لها ، فأطعنى يا أمير المؤمنين ، وكُفّ عنهم ، فإنّ الرأيَ تركهم ، والسلام .

فلمّا أتاه هذا الكتاب ، قال عبدُ الله بن جعفر : يا أميرَ المؤمنين ، ابعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفِك أمرها ، واعزِل قيساً ؛ فوالله لبلغني أن قيسا يقول : إنّ سلطانا لا يتمّ إلا بقتل مسلمة بن مخلّد لسلطان سوء ؛ والله ما أحبّ أنّ لي سلطان الشام مع سلطان مصر ، وأنّي قتلت ابنَ مخلّد . وكان عبدالله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه ؛ وكان يحبّ أن يكونَ له إمرة وسلطان ؛ فاستعمل عليّ عليه السلام محمّد بن أبي بكر على مصر ، لمحبّته له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه ؛ وكتب معه كتابا إلى أهل مصر ، فسار حتى قَدِمها ، فقال له قيس : مابالُ أمير المؤمنين ! ماغيّره ! أدخَلَ أحدٌ بيني وبينه ! قال : لا وهذا السلطان سلطانك . — وكان بينهما نسب ، كان تحت قيس قُرَيبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق ، فكان قيس زوجَ عمته — فقال قيس : لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله عليّ عنها ، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة ولم يمض إلى عليّ بالكوفة .

قال إبراهيم : وكان قيسٌ مع شجاعته ونجدَتِه جواداً مفضالا ؛ فحدثني عليّ بن محمد ابن أبي سيف ، عن هاشم ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : لما خرج قيس بن سعد من مصر ، فمرّ بأهلِ بيت من بَلْقَيْن ، فنزل بمائهم ، فنحرَ له صاحبُ المنزل جزورا وأتاه بها ، فلما كان الغد نحر له أخرى ، ثم حبستْهم السماء اليوم الثالث ، فنحر لهم ثالثة ، ثم إنّ السماء أقلعَتْ

فلما أراد قيسٌ أن يرتحلِ ، وضع عشرين ثوبا من ثياب مصر ، وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل ؛ وقال لها : إذا جاء صاحبك ، فادفعى هذه إليه ، ثم رحل ؛ فما أتتْ عليه إلا ساعةحتى لَحِقه الرجل صاحب المنزل على فَرَس ،ومعه رمح،والثياب والدراهم بين يديه، فقال : ياهؤلاء خذوا ثيابَكم ودراهمكم فقال قيس : انصرف أيها الرجل ، فإنّا لم نكنْ لنأخذها ؛ قال : والله لتأخذنّها ، فقال قيس : لله أبوك ! ألم تكرِمْنا وتحسنْ ضيافتنا فكافأناك ! فليس بهذا بأس ؛ فقال الرجل : إنّا لا نأخذ لِقِرَى الأضياف ثمنا ؛ والله لا آخذها أبدا . فقال قيس : أمّا إذ أبى ألّا يأخذَها فخذوها(1) ؛ فوالله مافضلنى رجل من العرب غيره .

قال إبراهيم :وقال أبو المنذر:مَرّ قيس فى طريقه برجل من َبلِيّ،يقال له: الأسود ابن فلان،فأكرمه،فلما أراد قيس أن يرتحِل وضع عند امرأته ثيابا ودراهم،فلما جاء الرجل دفعته إليه ، فلحقه فقال: ما أنا بائع ضيافتى ؛ والله لتأخُذَنّ هذا أو لأنفِذَنّ الرمحَ بين جنبيك! فقال قيس : ويحكم خذوه !

قال إبراهيم : ثم أقبلَ قيس حتى قدِم المدينة ، فجاءه حَسّانُ بن ثابت شامتاً به — وكان عثمانيا — فقال له : نَزَعك علىّ بن أبى طالب ، وقد قتلت عثمان ، فبقى عليك الإثم، ولم يحسِنْ لك الشكر ! فزجره قيس وقال : ياأعمَى القلب ، ياأعمى البصر ، والله لولا ألقى بين رهطى ورهطك حَرْبًا لضربت عنقك . ثم أخرجه من عنده .

قال إبراهيم : ثم إنّ قيساً وسهل بن حُنيف ، خرجا حتى قدِما على علىّ الكوفة ، فخبّره قيس الخبر وما كان بمصر فصدّقه . وشهد مع علىّ صِفين هو وسهل بن حنيف

قال إبراهيم : وكان قيس طُوالا أطول الناس وأمدّهم قامة ، وكان (2) سِناطا أصلع شيخا شجاعا مجرّبا مناصحا لعلىّ ولولده ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

---

(1) ساقطة من ب .

(2) السناط : الذى لا لحية له .

قال إبراهيم : حدّثنى أبو غسّان ، قال : أخبرنى علىّ بن أبى سيف ، قال : كان قيس بن سعد مع أبى بكر وعمر فى سفَر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان ينفِق عليهما وعلى غيرهما ويُفضِل . فقال له أبو بكر : إنّ هذا لا يقوم به مالُ أبيك فأمسِك يدك . فلمّا قدموا من سفرهم قال سعد بن عبادة لأبى بكر : أردت أن تبخِّل ابنى ! إنا لقومٌ لا نستطيع البخل .

قال : وكان قيس بن سعد يقول فى دعائه : اللهم ارزقنى حَمْداً ومجداً وشكراً ، فإنه لاحَمْدَ إلا بفَعال ، ولا مجد إلا بمال . اللهمّ وسّع علىّ فإنّ القليل لايسعنى ولا أسعه .

***

[ولاية محمد بن أبى بكر على مصر وأخبار مقتله]

قال إبراهيم : وكان عهد علىّ إلى محمد بن أبى بكر الذى قرئ بمصر :

هذا ما عَهِد عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبى بكر حين ولّاه مصر ؛ أمرَه بتقوى الله فى السرّ والعلانية ، وخوف الله تعالى فى المَغيب والمشهد ، وأمرَه باللّين على المسلم ، والغِلظ على الفاجر ، وبالعدلِ على أهل الذمّة ، وبالإنصاف للمظلوم ، وبالشدّة على الظالم ، وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطاع ؛ والله يجزى المحسنين . وأمره أنْ يدعُوَ مَنْ قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة ؛ فإنّ لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يُقْدَر قدرُه ولا يعرَف كنهُه . وأمره أن يجبِيَ خَراج الأرض على ما كانت تُجبَى عليه من قبلُ ، ولا ينتقِص ولا يبتدع ، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل ؛ وإن تكُنْ لهم حاجة يواسِ بينهم فى مجلسه ووجهه ؛ ليكون القريب والبعيد عنده عَلَى سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ ، وأن يقوم بالقِسْط ، ولايتبع الهوى ، ولا يخاف [فى الله[1]] لومة لائم ؛ فإن الله مع مَنِ اتّقاه وآثر طاعته على مَنْ سواه .

---

(١) من ا ، ج .

وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله لغرّة شهر رمضان سنة ست وثلاثين .

قال إبراهيم : ثم قام محمد بن أبي بكر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختُلِف فيه من الحقّ ، وبصّرنا وإياكم كثيراً مما عَمِيَ عنه الجاهلون . ألا وإنّ أمير المؤمنين ولّاني أموركم ، وعَهِد إليّ بما سمعتم ، وأوصاني بكثير منه مشافهة ، ولنْ آلوكم خيراً ما استطعت ؛ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن يكن ما ترون من آثاري وأعمالي طاعة لله وتقوى ، فاحمَدوا الله على ما كان من ذلك ؛ فإنه هو الهادي إليه ؛ فإن رأيتم من ذلك عملا بغير الحقّ ، فارفعوه إليّ ، وعاتبوني عليه ، فإني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون . وفقنا الله وإياكم لصالح العمل .

قال إبراهيم : وحدّثني يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد الأسديّ ، عن الحسن بن إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب عليّ عليه السلام إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتابا يخاطبهم به[1] ، ويخاطب محمدا أيضا فيه :

أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله في سرّ أمركم وعلانيته ؛ وعلى أيّ حالٍ كنتم عليها ؛ وليعلم المرء منكم أنّ الدنيا دارُ بلاء وفناء ، والآخرة دار جزاء وبقاء ؛ فمن استطاع أن يؤثِرَ مايبقى على مايفنى فليفعل ؛ فإنّ الآخرة تبقى ، والدنيا تفنى . رزقنا الله وإياكم بَصَراً لما بصرنا وفهماً لما فهمنا ؛ حتى لا نقصر عما أمَرَنا ، ولا نتعدّى إلى ما نهانا . واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجا إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن عرَض لك أمران : أحدُهما للآخرة والآخر للدنيا ، فابدأ بأمر الآخرة ، ولتعظُمْ رغبتُك في الخير ، ولتحسُن فيه نيتك ، فإنّ الله عزّ وجلّ يعطى العبد على قَدْرِ نيته ؛ وإذا أحبّ الخير وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تبُوك : إنّ بالمدينة لأقواماً ماسِرتُم من مسير ، ولاهبطتم من وادٍ إلا

(١) ب : « فيه » ، وما أثبته من ا ، ج .

كانوا معكم؛ ماحبَسهم إلّا المرض ــ يقول : كانت لهم نيّة ــ ثم اعلم يا محمد أنى قد ولّيتك أعظم أجنادى أهل مصر ، وولّيتك ما ولّيتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أنْ تخافَ فيه على نفسك ، وتحذَر فيه على دينك ؛ ولو كان ساعة من نهارٍ . فإن استطعت ألا تُسخِط ربّك لرضا أحدٍ من خلقه فافعل، فإنّ فى الله خَلَفاً من غيره ، وليس فى شىء خلفٌ منه، فاشتدّ على الظالم ، وإنْ لأهل الخير ، وقرّبْهم إليك ، واجعلهم بطانتَك وإخوانك . والسلام .

قال إبراهيم : حدّثنى يحيى بن صالح ، عن مالك بن خالد ، عن الحسن بن إبراهيم ، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، قال : كتب علىّ إلى محمد بن أبى بكر وأهل مصر :

أما بعد، فإنّى أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون ، فأنتم به رهن، وإليه صائرون ، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [١] . وقال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [٢] . وقال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٣] .

فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصّغير من أعمالكم والكبير ؛ فإن يعذّب فنحن الظالمون ، وإنْ يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين . واعلموا أنّ أقربَ ما يكون العبد إلى الرّحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته فى التوبة ، فعليكم بتقوى الله عزّ وجلّ؛ فإنّها تجمع من الخير مالا يجمع غيرها، ويُدْرَك بها من الخير مالا يدرَك بغيرها خير الدنيا وخير الآخرة ؛ يقول الله سبحانه: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [٤] .

واعلموا عبادَ الله أنّ المؤمنين المتّقين قد ذهبُوا بعاجل الخيرِ وآجلِه، شرَكوا أهلَ الدنيا فى دنيام

---

(١) سورة المدثر ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة الحجر ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) سورة النحل ٣٠ .

ولم يشاركهم أهلُ الدنيا فى آخرتهم ؛ يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾(١) ؛ سكنوا الدنيا بأفضل ماسكِنت، وأكلوها بأفضل ما أُكِلت، شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم، فأكلوا من أفضل ما يأكلون، وشربوا من أفضل مايشربون، ويلبسون من أفضل مايلبسون ، ويسكنون من أفضل مايسكنون ، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا مع أنهم غداً من جيران الله عزّ وجلّ، يتمنّون عليه، لا يردّ لَهُم دعوة، ولا ينقص لهم لذة . أما فى هذا مايشتاق إليه مَنْ كان له عقل !

واعلموا ـ عباد الله ـ أنكم إذا اتقيتم ربكم، وحفظتم نبيكم فى أهل بيته، فقد عبدتموه بأفضلِ ماعُبِد، وذكرتموه بأفضل ماذكر، وشكرتموه بأفضل ماشكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضَلِ الجهاد ؛ وإنْ كان غيرُكم أطولَ صلاة منكم ، وأكثر صياماً، إذا كنتم أتقى لله وأنصحَ لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخشع. واحذَرُوا عبادَ الله الموت ونزوله ، وخذولهُ، فإنه يدخل بأمر عظيم ؛ خيرٍ لا يكون معه شرّ أبداً، أو شرٍّ لا يكون معه خير أبداً. وليس أحد من الناس يفارق روحُه جسده، حتى يعلم إلى أيّ المنزلتين يصير ؛ إلى الجنّة أم إلى النار ! أعدوّ هو لله أم وليّ له ! فإنْ كان وليا فُتِحت له أبواب الجنة، وشرع له طريقها ، ونظر إلى ماأعدّ الله عزّ وجل لأوليائه فيها ؛ فرغ من كلّ شغل ، ووضع عنه كل ثِقْل ؛ وإن كان عدوًّا فتحت له أبوابُ النار ، وسهل له طريقها ، ونظر إلى ما أعدّ الله فيها لأهلها. واستقبل كل مكروه، وفارق كلّ سرور، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(٢) .

واعلموا عبادَ الله أنّ الموت ليس منه فوْت ، فاحذروه وأعِدُّوا له عُدّته ، فإنكم

---

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) سورة النحل ٢٨ ، ٢٩ .

طُرَداء للموت ؛ إن قمتم أخذكم ، وإن هربتم أدركَكم ؛ وهو ألزم لكم من ظِلّكم ، معقودٌ بنواصيكم ، والدُّنيا تطوَى من خَلْفِكم ؛ فأكثروا ذِكْرَ الموتِ عند ما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات ، فإنه كَفَى بالموت واعظا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أكثِرُوا ذكرَ الموت فإنه هاذم اللذات[1]» .

واعلموا عبادَ الله أنّ ما بعد الموت أشدّ من الموت ؛ لمن لم يغفر الله له ويرحمه. واحذروا القَبْرَ وضمّته وضيقه وظلمته ؛ فإنه الذى يتكلّم كلّ يوم : أنا بيت التراب ، وأنا بيت الغربة ، وأنا بيت الدود . والقبر روضة من رياض الجنة . أو حفرة من حفر النار . إنّ المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحبا وأهلا ؛ قد كنت ممّن أحبّ أن تمشىَ على ظهرى ، فإذْ وليتك فستعلم كيف صنعى بك ! فيتسع له مدّ بصره . وإذا دُفِن الكافر قالت له الأرض : لا مرحبا ولا أهلا ؛ قد كنت ممن أبغِضُ أن تمشىَ على ظهرى ، فإذ وليتك فستعلم كيفَ صنعى بك ! فتنضمّ عليه حتى تلتقىَ أضلاعه .

واعلموا أن المعيشة الضّنك التى قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2] هى عذابُ القبر ، فإنه يسلط على الكافر فى قبره حياتٍ عظام تنهش لحمه حتى يبعث ، لو أن تنّيناً منها نفخ الأرض ما أنبت الزرع أبدا .

اعلموا عبادَ الله أنّ أنفسكم وأجسادَكم الرقيقة الناعمة التى يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا ، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسكم وأجسادكم ممّا لا طاقةَ لكم به ، ولا صبرَ لكم عليه ؛ فتعملوا بما أحبّ الله سبحانه وتتركوا ما كَرِهَ ؛ فافعلوا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله !

واعلموا ـ عباد الله ـ أنّ ما بعد القبر أشدُّ من القبر ؛ يومٌ يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه

(١) هاذم : قاطع ، وبقية الحديث : «فإنه لا يكون فى كثير إلا قلله ، ولا فى قليل إلا أجزله» ، نقله فى الجامع الصغير ١ : ٩٠ .
(٢) سورة طه ١٢٤ .

الكبير ؛ وتذهلُ كلّ مرضعة عما أرضعت . واحذروا يوماً عبوسا قمطريرا ، كان شرّه مستطيرا . أما إنّ شرّ ذلك اليوم وفزعه استطار حتى فزِعت منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب ، والسبع الشداد ، والجبال الأوتاد ، والأرضون المهاد . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، وتغيّرت فكانت وَرْدَةً كالدّهان ، وكانت الجبال سرابا ، بعد ما كانت صُمّا صلابا ؛ يقول الله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾(١) . فكيف بمن يعصيه بالسّمع والبصر ، واللسان واليد ، والفرج والبطن ؛ إن لم يغفر الله ويرحم !

واعلموا — عباد الله — أنّ مابعد ذلك اليوم أشدّ وأدهى ؛ نارٌ قعرُها بعيد ، وحرّها شديد ، وعذابها جديد ، ومقامِعُها حديد ، وشرابها صديد ، لا يفتر عذابها ، ولا يموت ساكِنها ؛ دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمة ، ولا يُسْمَع فيها دعوة ؛ ومع هذا رحمة الله التي وَسِعَتْ كلّ شيء ، لا تعجز عن العباد ، وجنّة عرْضها كعرْض السماء والأرض ، خير لا يكون بعده شرّ أبدا ، وشهوة لا تنفد أبدا ، ولذة لا تفنى أبدا ، وجمع لا يتفرّق أبدا . قومٌ قد جاوَرُوا الرحمن ، وقام بين أيديهم الغِلْمان ، بصحافٍ من ذهب فيها الفاكهة والريحان . وإنّ أهل الجنة يزورون الجبّار سبحانه في كلّ جمعة ، فيكون أقربُهم منه على منابرَ من نور ، والذين يلونهم على منابر من ياقوت ؛ والذين يلونهم على منابر من مِسْك ، فبيناهم كذلك ينظرون الله جلّ جلاله ، وينظر الله في وجوههم ؛ إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطِرُ عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ومع هذا ما هو أفضل منه ، رضوان الله الأكبر .

أما إنّا لو لم نخوّف إلا ببعض ما خوّفنا به لكنّا محقوقين أنْ يشتدّ خوفُنا مما لا طاقة

---

(١) سورة الزمر ٦٨ .

لنا به ، ولا صبرَ لقوتنا عليه ؛ وأن يشتدّ شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولا بدّ لنا منه ؛ فإن استطعتم عباد الله أن يشتدّ خوفُكم من ربّكم فافعلوا ؛ فإنّ العبد إنما تكون طاعته على قَدْرِ خوفه ؛ وإنّ أحسنَ الناس لله طاعة ، أشدُّهم له خوفا .

وانظر يا محمد صلاتَك كيف تصلّيها ؛ فإنما أنت إمامٌ ينبغى لك أن تتمّها وأنْ تخففها وأن تصلّيها لوقتها ، فإنه ليس من إمام يصلى بقوم فيكون فى صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثمُ ذلك عليه ، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً .

واعلم أنّ كلّ شىء من عملك يتبع صلاتك ، فمَنْ ضيّع الصلاة فهو لغيرها أشدُّ تضييعا . ووضوءك من تمام الصلاة ، فأت به على وجهه ؛ فالوضوء نصف الإيمان . أسأل الله الذى يَرَى ولا يُرَى وهو بالمنظر الأعلى ، أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فإن استطعتم يا أهلَ مصر ، أن تصدّق أقوالُكم أفعالَكم ، وأن يتوافق سِرُّكم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتُكم قلوبَكم فافعلوا . عصمنا الله وإياكم بالهدى ، وسلك بنا وبكم المحجّة الوسطى . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند . وتأمّلوا واعلموا أنّه لا سوى إمام الهدى وإمام الردى ، ووصىّ النبىّ وعدوّ النبىّ ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا ؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأمّا المشرك فيخزيه الله بشِرْكه ؛ ولكنّى أخاف عليهم كلَّ منافق اللسان ؛ يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » .

واعلم يا محمد أنّ أفضلَ الفقه الورع فى دين الله ، والعمل بطاعته ، فعليك بالتقوى فى سِرّ أمرك وعلانيته ، أوصيك بسبعٍ هنّ جوامع الإسلام : اخشَ الله ولا تخشَ الناس فى الله ؛ وخيرُ القولِ ما صدّقه العمل ؛ ولا تقضِ فى أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقضَ

أمرُكَ وتزيغَ عن الحق . وأحبَّ لعامة رعيَّتك ماتحبّه لنفسك ، واكره لهم ماتكره لنفسك. وأصلِحْ أحوال رعيّتك ، وخض الغمراتِ إلى الحق ، ولا تخف لَوْمَةَ لائم . وانصح لمن استشارَك ، واجعل نفسَك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم . جعل الله خلتنا وودنا خلّة المتقين وود المخلصين ، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان إخوانا على سرر متقابلين. إن شاء الله.

قال إبراهيم بن سعد الثقفيّ : فحدثني عبدالله بن محمد بن عثمان ، عن عليّ بن محمد بن أبي سيف ، عن أصحابه ، أنّ عليًّا لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب ، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه ، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله ، أخذ كتبه أجمع ، فبعث بها إلى معاوية ، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه ، فقال الوليد بن عُقْبة ، وهو عند معاوية ، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق ، فقال معاوية : مه ؛ لا رأيَ لك ! فقال الوليد : أفمِنَ الرأي أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم[1] منها ! قال معاوية : ويحك ! أتأمرني أن أحرِق علماً مثل هذا ! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكَم . فقال الوليد : إنْ كنتَ تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله ! فقال : لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه . ثم سكت هُنَيهة ، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إن هذه من كتب عليّ بن أبي طالب ؛ ولكن نقول : هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد ، فنحن ننظر فيها ، ونأخذ منها .

قال : فلم تزلْ تلك الكتب في خزائن بني أميّة ؛ حتى وليَ[2] عمر بن عبد العزيز ، فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

* * *

قلت : الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظرُ فيه ويعجب منه ،

---

(١) ج : « تعلم » .
(٢) ج : « تولى » .

ويفتى به ويقضى بقضاياه وأحكامه هوعهد علىّ عليه السلام إلى الأشتر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة ؛ وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشترَ ومات قبل وصوله إلى مصر ؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه ، وحقيق من مثله أن يقتنى فى خزائن الملوك .

قال إبراهيم : فلمّا بلغ عليًّا عليه السلام أنّ ذلك الكتاب صارَ إلى معاوية ، اشتدّ عليه حُزنا .

وحدثنى بكر بن بكار ، عن قيس بن الربيع ، عن ميسرة بن حبيب ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن سلَمة ، قال : صلّى بنا علىّ عليه السلام ، فلما انصرف قال :

لَقَدْ عـثرتُ عَثْرَةً لاأعتذرْ سَوْفَ أكيسُ بعدها وأستمِرّْ[1]

* وأجمعُ الأمرَ الشَّتِيتَ المنتشِرْ[2] *

فقلنا : مابالك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : إنى استعملتُ محمد بن أبى بكر على مصر ؛ فكتب إلىّ أنه لاعلم لى بالسنّة، فكتبت إليه كتابا فيه أدب وسنّة ، فقتل وأخذ الكتاب.

قال إبراهيم : فحدّثنى عبد الله محمد ؛ عن ابن أبى سيف المدائنىّ ، قال : فلم يلبث محمد ابن أبى بكر شهرا كاملًا حتى بعث إلى أولئك المعتزلين الذين كان قيس بن سعد موادعاً لهم ، فقال : ياهؤلاء ، إما أن تدخلوُا فى طاعتنا ، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا . فبعثوا إليه: إنا لانفعل ، فدعْنا حتى ننظر إلى مايصير إليه أمرُ الناس ، فلا تَعجل علينا . فأبى عليهم، فامتنعوا منه وأخذوا حذرَهم . ثم كانت وقعة صِفين ؛ وهم لمحمد هائبون ؛ فلما أتاهم خبرُ معاوية وأهل الشام ، ثم صار الأمر إلى الحكومة ، وأنّ عليا وأهل العراق قد قفلوا عن معاوية والشام إلى عراقهم ، اجترءوا على محمد بن أبى بكر ، وأظهروا المنابذة له . فلما رأى محمدٌ ذلك بعثَ إليهم ابن جمْهان البلوىّ ومعه يزيد بن الحارث الكنانى فقاتلاهم ،

---

(١) كاس يكيس وأكيس ، من الكيس ؛ وهو ضد الحمق . واستمر ، أى أقوى واشتد .
(٢) المنتشر : المتفرق .

فقتلوهما . ثم بعث إليهم رجلا من كَلْب فقتلوه أيضا . وخرج معاوية بن حُدَيج من السكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان ، فأجابه القوم وناس كثير آخرون ، وفسدت مصر على محمد ابن أبي بكر ؛ فبلغ عليا توثُّبهم عليه ، فقال ما أرى لمصر إلا أحد الرجلين : صاحبنا الذى عزلنا بالأمس – يعنى قيس بن سعد بن عبادة – أو مالك بن الحارث الأشتر . وكان علىّ حين رجع عن صفين ، ردّ الأشتر إلى عمله بالجزيرة ، وقال لقيس بن سعد : أقم أنتَ معى على شُرْطَتى حتى نفرُغ من أمر هذه الحكومة، ثم اخرج إلى أذر بيجان ، فكان قيس مقيما على شُرْطته، فلما أن انقضى أمر الحكومة كتب علىّ إلى الأشتر، وهو يومئذ بنصيبين:

أمّا بعد، فإنك ممّن أستظهر به على إقامة الدين ، وأقمعُ به نخوة الأثيم، وأسُدُّ به الثغر المخُوف . وقد كنت ولّيتُ محمد بن أبي بكر مصرَ ، فخرجَتْ عليه خوارجُ ، وهو غلام حدَث السنّ ، ليس بذى تجرِبَةٍ للحروب، فاقدم[1] علىّ لننظر فيما ينبغى . واستخلِفْ على عملك أهلَ الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام .

فأقبل الأشتر إلى علىّ ، واستخلَف على عمله شبيب بن عامر الأزدىّ – وهو جدّ الكِرْمانىّ الذى كان بخُراسان صاحب نصر بن سيّار – فلما دخل الأشتر على علىّ حدّثه حديثَ مصر وخبّره خبرَ أهلها ، وقال له : ليس لها غيرُك ، فاخرج إليها رحمك الله ،فإنى لا أوصيك اكتفاء برأيك ؛ واستعِنْ بالله على ما أهمّك ، واخلِط الشدّة باللين ، وارفق ما كان الرّفق أبلغَ ، واعتزم على الشدّة حين لا يُغنى عنك إلا الشدّة .

فخرج الأشترُ من عنده ،فأتى برحْلِه وأتت معاويةَ عيونُه فأخبروه بولاية الأشترمصر، فعظُم ذلك عليه ، وقد كان طمع فى مصر ، فعلم أنّ الأشتر إن قدم عليها كان أشدّ عليه من محمد بن أبي بكر ، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به ، وقال له إنّ الأشترَ قد وليَ مصر ، فإن كفيتنيه لم آخذْ منك خراجا ما بقيتُ وبقيتَ ؛ فاحتلْ فى هلاكه ما قدرتَ عليه .

(١) يقال : اقدم الرجل البلد يقدمه ، من باب تعب

فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القُلْزُم[1] حيث تُرْكَبُ السفن من مصر إلى الحجاز ، فأقام به ، فقال له ذلك الرجل ، وكان ذلك المكان مكانه : أيها الأمير ؛ هذا منزل فيه طعام وعَلَف ، وأنا رجلٌ من أهل الخراج ، فأقم واسترحْ ، وأتاه بالطعام حتى إذ طَعِم سقاه شَرْبة عسل ؛ قد جعل فيها سُمًّا ، فلمّا شربها مات .

قال إبراهيم : وقد كان أميرُ المؤمنين كتبَ على يد الأشتر كتاباً إلى أهل مصر ؛ روى ذلك الشعبيّ عن صَعْصعة بن صُوحان :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بمصر من المسلمين :

سلامُ الله عليكم ، فإنّي أحمد الله إليكم ، الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنّي قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله ، لا ينام أيّام الخوف ، ولا ينكِلُ عن الأعداء حِذارَ الدّوائر . لا ناكِلٌ من قدَم ، ولا واهٍ في عزم ، من أشدّ عباد الله بأساً ، وأكرمهم حَسَباً ، أضرّ على الفُجّار من حريق النار ، وأبعدُ الناس من دَنَسٍ أو عارٍ ، وهو مالك بن الحارث الأشتر ، حسام صارمٌ ، لا نابي الضّريبة ، ولا كليلُ الحدّ ، حليم في السّلْم ، رَزِينٌ في الحرب ، ذو رأي أصيل ، وصبر جميل . فاسمعوا له وأطيعوا أمرَه ، فإنْ أمرَكم بالنَّفْر فانفِروا ، وإنْ أمرَكم أن تقيموا فأقيموا ، فإنه لا يُقدِمُ ولا يحجِمُ إلّا بأمري . وقد آثرتُكم به على نفسي ؛ نصيحةً لكم ، وشدّة شكيمة[2] على عدوّكم . عصمكم الله بالهدى ، وثبّتكم بالتقوى ، ووفقنا وإياكم لما يحب ويرضى . والسلام عليكم ورحمة الله .

قال إبراهيم : وروى جابر عن الشعبيّ قال : هلك الأشتر حين أتى عَقبة أَفِيق[3] .

قال إبراهيم : وحدثنا وطبة بن العَلَاء بن المِنهال الغنويّ ، عن أبيه ، عن عاصم

---

(١) القلزم : مدينة بمصر على رأس الخليج المضاف إليها ، وأطلالها الآن قرب مدينة السويس .
(٢) الشكيمة : الأنفة والانتصار من الظلم .
(٣) أفيق ، بالفتح ثم الكسر : قرية من حوران .

ابن كليب ، عن أبيه ، أن عليًا لما بعث الأشتر إلى مصر واليًا عليها ، وبلغ معاوية خبره ، بعث رسولًا يتبع الأشتر إلى مصر ، وأمره باغتياله ؛ فحمل معه مِزْوَدَيْن فيهما شراب ، وصحب الأشتر ، فاستسقى الأشترُ يومًا فسقاه من أحدهما ، ثم استسقى يومًا آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سمٌّ فشربه ، فمالت عنقه . وطُلِب الرجل ففاتهم .

قال إبراهيم : وحدّثنا محرز بن هشام ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضّبى ؛ أنّ معاوية دسّ للأشتر مولًى لآل عمر ، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضلَ علىّ وبنى هاشم ؛ حتى اطمأنّ إليه ، واستأنس به ، فقدِم الأشتر يومًا ثَقَله[1] أو تقدّم ثَقَلَه ، فاستسقى ماء ، فقال له مولى آل عمر[2] : وهل لك فى شربة سَويق ؟ فسقاه شربة سويق فيها سمّ فمات. وقد كان معاوية قال لأهل الشام لما دسّ إليه مولى آل عمر : ادعُوا على الأشتر ، فدعَوا عليه ؛ فلما بلغه موتُه قال : ألا ترون كيف استُجيب لكم !

قال إبراهيم : قد رُوِى من بعض الوجوه أنّ الأشتر قُتِل بمصر بعد قتال شديد . والصحيح أنه سُقِى سمًّا فمات قبل أن يبلغ مِصْر .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن علىّ بن محمد بن أبى سيف المدائنىّ ، أنّ معاوية أقبل يقول لأهل الشام : أيّها الناس ، إنّ عليًا قد وجّه الأشتر إلى مصر ، فادعُوا الله أن يكفيكموه ؛ فكانوا يدعُون عليه فى دُبُر كلّ صلاة ، وأقبل الذى سقاه السمّ إلى معاوية ، فأخبره بهلاك الأشتر ، فقام معاوية فى الناس خطيبًا ، فقال :

أمّا بعدُ ، فإنه كان لعلىّ بن أبى طالب يدان يمينان ، فقُطِعت إحداهما يوم صِفّين وهو عمّار بن ياسر ، وقد قُطِعت الأخرى اليوم ؛ وهو مالك الأشتر .

(١) الثقل : زاد المسافر .
(٢) ب : « مولى عمر »

قال إبراهيم : فلما بلغ علياً موتُ الأشتر ، قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون ! والحمد لله ربّ العالمين! اللهمّ إنّى أحتسبه عندك ؛ فإنّ موته من مصائب الدهر. ثم قال: رحم الله مالكا؛ فلقد وفّى بعهده ؛ وقضى نحبَه ، ولقِيَ ربّه ؛ مع أنا قد وطّنا أنفسنا أن نصبِرَ على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها من أعظم المصيبات .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن هشام المرادىّ ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن مغيرة الضبي ، قال : لم يزلْ أمرُ علىّ شديداً حتى مات الأشتر ، وكان الأشتر بالكوفة أسودَ من الأحنف بالبصرة .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله ، عن ابن أبى سيف المدائنىّ ، عن جماعة من أشياخ النَّخَع ، قالوا : دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موتُ الأشتر ، فوجدناه يتلهّف ويتأسف عليه ، ثم قال : لله دَرّ مالك ! وما مالك ! لو كان من جبل لكان فِنْدًا[1] ، ولو كان من حَجَرٍ لكان صَلْدًا ، أما والله ليهدّنّ موتُك عالَماً ، وليفرحنّ عالَماً ، على مثل مالكٍ فلتبكِ البواكى ! وهل مرجُوٌّ كمالك ! وهل موجود كمالك !

قال علقمة بن قيس النَّخَعىّ : فما زال علىّ يتلهّف ويتأسفُ ؛ حتى ظننا أنّه المصاب به دوننا ، وعُرِف ذلك فى وجهه أياماً .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنىّ، قال :حدثنا مولًى للأشتر، قال: لما هلك الأشتر أصيبَ[2] فى ثقله رسالةُ علىّ إلى أهل مصر :

من عبدالله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذْ عُصِىَ فى الأرض ، وضَرَب الجوْرُ برواقه على البرّ والفاجر ، فلا حقٌّ يُستراح إليه ، ولا منكرٌ يُتناهى عنه . سلام عليكم ؛ فإنّى أحمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

---

(١) الفند : الجبل العظيم .
(٢) أصيب : أى وجد .

أمّا بعد، فقد وجّهتُ إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكل من الأعداء حِذارَ الدوائر ، أشدّ على الكافرين من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مَذْحِج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة[1] ، ولا كليلُ الحدّ ؛ فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا ، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تُحجِمُوا فأحجموا ؛ فإنه لا يقدِم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي ، لنصيحته وشدة شكيمته على عدوّه ، عصمكم الله بالحق ، وثبّتكم بالتقوى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنيّ ، عن رجاله ، أن محمد بن أبي بكر لما بلغه أن عليا قد وجّه الأشتر إلى مصر ، شقّ عليه ، فكتب عليه السلام إليه عند مَهلِك الأشتر :

أما بعد ، فقد بلغَني موجِدتُك من تسريح الأشتر إلى عملك ، ولم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد ، ولا استزادة[2] لك مني في الجدّ ، ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك لوليتك ما هو أيسرُ مؤنة عليك ، وأعجب ولاية إليك ؛ إلا أن الرجل الذي ولّيته مصر، كان رجلاً لنا مناصحاً ؛ وهو على عدوّنا شديد ، فرحمة الله عليه ، فقد استكمل أيامه ، ولاقى حِمَامه؛ ونحن عنه راضون ؛ فرضيَ الله عنه، وضاعفَ له الثّواب ، وأحسنَ له المآب. فأصحِر[3] لعدوّك وشمّر للحرب، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة؛ وأكثر ذكرَ الله والاستعانة به ، والخوفَ منه ، يكفِكَ ما أهمّك ، ويُعنْك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته ؛ والسلام .

قال : فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه :

---

(١) الضريبة : السيف وحده .
(٢) ج : « استرادة » ، بالراء ، أي رغبة .
(٣) أصحر لعدوك ؛ أي ابرز له في الصحراء .

إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر :

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فقد انتهى إلىّ كتابُ أمير المؤمنين وفهمته ؛ وعرفتُ ما فيه، وليس أحدٌ من الناس أشدَّ على عدوّ أمير المؤمنين، ولا أرأفَ وأرقّ لوليّه منّي . وقد خرجتُ فعسكرت، وأمّنتُ الناسَ ؛ إلّا مَنْ نَصَبَ لنا حربًا ، وأظهر لنا خِلافًا ، وأنا أتبع أمرَ أمير المؤمنين ، وحافظ ولاجيء إليه وقائم به ، والله المستعان على كلّ حالٍ ، والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم : فحدّث محمد بن عبدالله بن عثمان، عن ابن سيف المدائنيّ، عن أبي جَهضم الأزديّ أنّ أهلَ الشام لما انصرفوا عن صِفّين ، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان، فلمّا انصرفا وتفرّقا ، وبايع أهلُ الشام معاوية بالخلافة لم يزدد معاوية إلّا قوّة ؛ واختلف أهلُ العراق على عليّ بن أبي طالب فلم يكن هَمّ معاوية إلا مِصْر ؛ وقد كان لأهلها هائبًا لقربهم منه، وشدّتهم على مَنْ كان عَلَى رأيِ عثمان ، وقد كان علم أن بها قومًا قد ساءهم قتلُ عثمان ، وخالفوا عليًّا ؛ مع أنّه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب عليّ، لوفور خَراجها ، فدعا عليّ مَنْ كان معه من قريش ؛ وهم عمرو بن العاص السهميّ، وحبيب ابن مَسلمة الفهريّ وبُسْر بن أبي أرطاة العامريّ، والضّحاك بن قَيس الفِهريّ، وعبدالرحمن ابن خالد بن الوليد المخزوميّ . ودعا من غير قريش نحو شُرَحْبيل بن السِّمط الحِميريّ، وأبي الأعور السُّلَميّ ؛ وحمزة بن مالك الهَمْدانيّ، فقال : أتدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنّي دعوتكم لأمر هُوَ لي مُهِمّ ؛ وأرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد أعانَ عليه، فقال له القوم ـ أو من قال له منهم ـ : إنّ الله لم يُطْلِعْ على غيبه أحدا، ولسنا ندري ما تريد ! فقال عمرو بن العاص : أرى والله أن أمْرَ هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمّك[1]،

---

(١) ج : « همك » .

مدعوتنا تسألنا عن رأينا في ذلك، فإن كنت قبلت دعوتنا، وله بجمعتنا، فاعزم واصرم، ونعم الرأي ما رأيت؛ إن في افتتاحها عزك وعز أصحابك، وذل عدوك، وكبت أهل الخلاف عليك.

ـ قال معاوية : أهمك ما أهمك يابن العاص ! وذلك أن عمراً كان بايع معاوية على قتال علي، وأن مصر له طعمة ما بقي ـ فأقبل معاوية على أصحابه، وقال : إن هذا ـ يعني ابن العاص ـ قد ظن وحقق ظنه ، قالوا : ولكنا لا ندري، ولعل أبا عبد الله قد أصاب ؛ فقال عمرو : وأنا أبو عبد الله ، إن أفضل الظنون ما شابه اليقين .

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم ! ولقد جاءوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلون بيضتكم ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكفاكم مؤنتهم ، وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم . ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ؛ يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم دم بعض؛ والله إني لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر ؛ وقد رأيت أن أحاول حرب مصر ، فماذا ترون ؟

فقال عمرو بن العاص : قد أخبرتك عما سألت ، وأشرت عليك بما سمعت .

فقال معاوية : ماترون ؟ فقالوا : نرى مارأى عمرو بن العاص . فقال معاوية : إن عمراً قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغي أن نصنع !

قال عمرو : فإني مشير عليك بما تصنع ، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً ، عليهم رجل صارم ، تأمنه وتثق به ؛ فيأتي مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظاهره على من كان من عدونا ، فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يعز نصرك ، ويظهر فلجك .

فقال معاوية : هل عندك شيء غير هـذا نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هـذا ؟

قال : ما أعلمه .

قال معاوية : فإنّ رأيي غيرُ هذا ؛ أرى أن نكاتب مَنْ كان بها من شيعتنا ، ومَنْ كان بها من عدوّنا : فأما شيعتنا فنأمرُهم بالثبات على أمرهم ونُمَنِّيهم قدومَنا عليهم ؛ وأمّا مَنْ كان بها منْ عدوّنا فندعوهم إلى صلحنا ، ونمنّيهم شكرَنا ، ونخوّفهم حربنا ، فإن صلَح لنا ماقبَلهم من غير حرب ولاقتال ، فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربُهم من وراء ذلك . إنّك يابنَ العاص لَامْرُؤٌ[1] بورك لك في العَجلة ، وبورك لي في التؤده .

قال عمرو : فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصيرُ إلّا إلى الحرب .

قال : فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلَّد الأنصاريّ ، وإلى معاوية بن حُدَيج الكِنْدِيّ ، وكانا قد خالفا عليا :

أما بعد ؛ فإن الله عزّ وجلّ قد ابتعثكما لأمرٍ عظيم ؛ أعظَمَ به أجرَكما ورفع درجتكما ومرتبتكما في المسلمين . طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله ، إذ تُرِك حكم الكتاب ، وجاهدتما أهلَ الظلم والعدوان ، فأبشرا برضوان الله ، وعاجلا نصرة أولياء الله ؛ والمواساة لكما في دار الدنيا وسلطاننا ؛ حتى ينتهيَ ذلك إلى مايرضيكما ، ويؤدّى[2] به حقكما . فالزما أمرَكما ، وجاهدا عدوّكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ؛ فكأنَّ الجيش قد أظلّ عليكما ، فاندفع كلُّ ماتكرهان ، ودام كلُّ ماتهويان ؛ والسلام عليكما ورحمة الله .

وبعث بالكتاب مع مولى له يقال له سُبَيع ، فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر ،

---

(١) ساقطة من ا ، ب .

(٢) ا ، ج : « ويوفى » .

ومحمد بن أبى بكر يومئذ أميرُها قد ناصبه هؤلاء النفر الحرب ؛ وهم هائبون الإقدام عليه؛

فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلّد ، فقرأه فقال : الق به معاوية بن حُدَيج ، ثم القنى به حتى أجيب عنى وعنه . فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إياه ، ثم قال له إنّ مسلمة قد أمرنى أن أردّ الكتاب إليه لكى يجيبَ عنك وعنه . قال :قل له فليفعل !فأتى مسلمة بالكتاب . فكتب الجواب عنه وعن معاوية بن حُدَيج : أما بعدُ ، فإن هذا الأمر الذى قد ندبْنا له أنفسنا ، وابتغيا الله به على عدوّنا ، أمرٌ نرجو به ثواب ربّنا ،والنصرَ على مَنْ خالفنا ، وتعجيل النقمة على مَنْ سعى على إمامنا ، وطأطأ الركض فى مهادنا ،ونحن بهذه الأرض قد نفينا مَن كان بها من أهل البَغى ، وأنهضنا مَنْ كان بها من أهل القسط والعدل وقد ذكرت موازرتك فى سلطانك وذات يدك ؛ وبالله إنه لا من أجلِ مالٍ نهضنا،ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب أو يرينا ما تمنّينا ، فإنّ الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يثوبهما الله جميعاً عالماً من خلقه ، كما قال فى كتابه : ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) عجّل لنا بخيلك ورَجْلك؛ فإن عدوّنا قد كان علينا جريئاً (٢) ، وكنّا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ، فإنْ يأتنا مددٌ من قِبَلك يفتح الله عليك ؛ ولا قوة إلا بالله ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال : فجاء هذا الكتاب معاويةَ وهو يومئذ بفلسطين ، فدعا النفر الذين سمّيناهم من قريش وغيرهم ، وأقرأهم الكتاب ، وقال لهم : ماذا ترون؟ قالوا: نرى أن تبعثَ إليهم جيشاً من قِبَلك فأنت مفتتحها إن شاء الله ، بإذن الله .

قال معاوية : فتجهزْ إليها يا أبا عبد الله ــ يعنى عمرو بن العاص ــ فبعثه فى ستة آلاف

---

(١) سورة آل عمران ١٤٨ .

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « حربا » .

فخرج بسير ، وخرج معه معاوية يودّعه ، فقال له معاوية عند وَدَاعه إياه : أوصيك بتقوى الله ياعمرو ، وبالرفق فإنّه يُمْنٌ ، وبالتؤدة فإنّ العجلة من الشيطان ، وبأن تقبلَ من أقبل، وتعفوَ عمّن أدبر ، أنظِرْه فإن تاب وأناب قبلتَ منه ، وإن أبى فإنّ السطوة بعد المعرفة أبلغُ فى الحجة ، وأحسن فى العاقبة . وادع الناسَ إلى الصلح والجماعة ، فإنْ أنت ظَفِرت فليكن أنصارُك أبرّ الناس عندك، وكلّ الناس فأولِ حُسْناً .

قال : فسار عمرو فى الجيش حتى دنا من مصر ، فاجتمعت إليه العثمانيّة ، فأقام وكتب إلى محمد بن أبى بكر :

أما بعد ، فتنحّ عنى بدمك يابنَ أبى بكر ، فإنى لا أحبّ أن يصيبَك منّى ظُفر ، وإنّ الناسَ بهذه البلاد قد اجتمعُوا على خلافك ورفض أمرك ، وندِمُوا على اتباعك ، وهم مسلموك لو قد التقت حَلْقَتا البِطان ، فاخرج منها فإنى لك من الناصحين . والسلام .

قال : وبعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتابَ معاوية إليه ؛ وهو :

أما بعد ؛ فإنّ غبّ[1] الظلم والبغى عظيم الوبال ، وإنّ سفكَ الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النِّقْمة فى الدنيا والتَّبِعة الموبقة فى الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظمَ على عثمان بغياً، ولا أسوأ له عيباً ، ولا أشدّ عليه خلافاً منك ؛ سعيتَ عليه فى الساعين ، وساعدت عليه مع المساعدين، وسفكت دمَه مع السافكين، ثم تظنّ أنى نائم عنك ، فتأتى بلدة فتأمن فيها وجلّ أهلها أنصارى ؛ يرون رأيى ، ويرفُضون قولك ، ويستصرخونِى عليك . وقد بعثت إليك قوماً حِناقاً عليك ، يسفكون دمك، ويتقرّبون إلى الله عزّ وجلّ بجهادك ؛ وقد أعطوا الله عهداً ليقتُلُنّك ؛ ولو لم يكن منهم إليك ماقالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدى غيرهم من أوليائه ؛ وأنا أحذّرك وأنذرك ؛ فإنّ الله مُقِيد منك، ومقتصٌّ لوليه وخليفته بظلمك له ، وبعيك عليه

---

(١) غبّ الظلم : عاقبته .

ووقيعتك فيه ، وعداوتك يوم الدّار عليه ، تطعن بمشاقصك[1] فيما بين أحشائه وأوداجه؛ ومع هذا فإني أكره قتلك ، ولا أحبُّ أن أتولّى ذلك منك ؛ ولن يسلّمك الله من النقمة أين كنت أبداً ، فتنحّ وانجُ بنفسك . والسلام .

قال : فطوى محمد بن أبي بكر كتابيهما ، وبعث بهما إلى عليّ عليه السلام ، وكتب إليه :

أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإن العاصيَ ابن العاص ، قد نزل أدانِيَ مصر ، واجتمع إليه مِنْ أهل البلد مَنْ كان يرى رأيَهم ؛ وهو في جيش جرّار ، وقد رأيتُ ممّن قبلي بعض الفشل ، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالأموال والرجال ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه عليّ :

أما بعد ، فقد أتاني رسولك بكتابك ؛ تذكر أنّ ابنَ العاص قد نزل في جيش جرّار ، وأنّ مَنْ كان على مثل رأيه قد خرج إليه . وخروجُ مَنْ كان يرى رأيَه خيرٌ لك من إقامته عندك . وذكرتَ أنك قد رأيت ممّن قبلك فشلًا ، فلا تفشل وإن فشلوا؛ حصّن قريتك ، واضمُمْ إليك شيعتك ، وأذكِ الحرَس في عسكرك ، واندب إلى القوم كنانة ابن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس ، وأنا نادبٌ إليك الناس على الصّعْب والذلول . فاصبِرْ لعدوّك وامضِ على بصيرتك ، وقاتلهم على نيّتك ، وجاهدهم محتسباً لله سبحانه ؛ وإن كانت فئتُك أقلّ الفئتين ؛ فإن الله تعالى يُعينُ القليل ويخذُل الكثير . وقد قرأتُ كتابَيِ الفاجرين المتحابّين على المعصية ، والمتلائمَيْن على الضلالة ، والمرتشيَيْن على الحكومة ، والمتكبّرين على أهل الدين ؛ الذين استمتعوا بخلاقهم ؛ كما استمتع الذين من

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

قبلهم بخلائقهم ، فلا يضرنّك إرداعها وإبراقهما ، وأجبهما إن كنت لم تجبهما بماهما أهله، فإنك تجد مقالا ماشئت . والسلام .

قال : فكتب محمد بن أبى بكر إلى معاوية جواب كتابه :

أما بعد ؛ فقد أتانى كتابُك تذكر من أمرِ عثمان أمراً لاأعتذر إليك منه ، وتأمرنى بالتنحّى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوّفنى بالحرْب كأنك علىّ شفيق ؛ وأنا أرجو أن تكونَ الدائرة عليكم ، وأنْ يُهلِككم الله فى الوقعة، وأن ينزل بكم الذلّ ، وأن تولّوا الدُّبُر ؛فإن يكن لكم الأمر فى الدنيا فكم وكم لَعَمْرِى من ظالم قدنصرتم وكَمْ من مؤمن قد قتلتم ومثّلتم به ! وإلى الله المصير ، وإليه تردّ الأمور ؛ وهو أرحم الراحمين ؛ والله المستعانُ على ما تصفون .

قال : وكتب محمد بن أبى بكر إلى عمرو بن العاص جوابَ كتابه :

أما بعد ،فهمت كتابك، وعلمت ماذكرت؛زعمت أنك تكره أن يصيبَنى منك ظُفر، فأشهد بالله إنك لمن المبطلين .وزعمت أنك ناصح لى ، وأقسم إنك عندى ظنين. وقدزعمت أن أهلَ البلد قدرفضونى ، وندِموا على اتباعى ؛فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم؛ وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل،وتوكلت على الله العزيز الرحيم، ربّ العرش العظيم.

* * *

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنىّ ، قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قَصْد مصر ، فقام محمد بن أبى بكر فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ يامعاشرَ المؤمنين ،فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرْمة ، ويغشَوْن [1] الضلالة ، ويستطيلون بالجبرّية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ، فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرُجْ إلى هؤلاء القوم فليجاهدْهم فى الله . انتدِبوا [2] رحمكم الله مع

(١) ب : « أرض الضلالة » .

(٢) انتدبوا : أى خفوا .

كنانة بن بشر . ثم ندب معه نحو ألفي رجل ، وتخلف محمد في ألفين ، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدّمة محمد ، فلما دنا عمرو من كنانة سرّح إليه الكتائب ؛ كتيبة بعد كتيبة ، فلم تأته من كتائب الشام كتيبة إلا شدّ عليها بمن معه فيضربها حتى يُلحقها بعمرو ، ففعل ذلك مرارا . فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حُدَيج الكندي ، فأتاه في مثل الدَّهْم [1] . فلما رأى كنانة ذلك الجيش ، نزل عن فرسه ؛ ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه ، وهو يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ [2] . فلم يزل يضاربهم بالسيف حتى استشهد رحمه الله .

قال إبراهيم : حدثنا محمد بن عبد الله ، عن المدائنيّ ، عن محمد بن يوسف ، أنّ عمرو ابن العاص لما قتل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر ، وقد تفرّق عنه أصحابه ؛ فخرج محمد متمهّلا ، فمضى في طريقه حتى انتهى إلى خَرِبة [3] ، فأوى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفُسطاط ، وخرج معاوية بن حُدَيج في طلب محمد ، حتى انتهى إلى عُلُوج [4] على قارعة الطريق ، فسألهم : هل مرّ بهم أحد ينكرونه ؟ قالوا : لا ، قال أحدهم : إني دخلت تلك الخرِبة ، فإذا أنا برجل جالس . قال ابن حُدَيج : هو هو وربّ الكعبة ، فانطلقوا يركضون ، حتى دخلوا على محمد ، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشا ، فأقبلوا به نحو الفُسْطاط .

قال : ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص ، وكان في جُنْدِه ، فقال : لا والله لا يُقتَلُ أخي صبرا ، ابعث إلى معاوية بن حُدَيج فانْهَهُ ، فأرسل عمرو ابن العاص : أن ائتني بمحمد ، فقال معاوية : أقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمي ، وأخلّي عن محمد !

---

(١) الدهم : العدد الكثير .

(٢) سورة آل عمران ١٤٥ .

(٣) الخربة : موضع الخراب .

(٤) علوج : جمع علج ؛ وهو الرجل من كفار العجم .

هيهات ! ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (١). فقال محمد: اسقونى قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حُدَيج: لاسقانى الله إن سقيتُك قطرة أبدا! إنكم منعتمُ عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما ، فسقاه الله من الرّحيق المختوم؛ والله لأقتلنك يابن أبى بكر وأنت ظمآن ، ويسقيك الله من الحميم والغِسْلين ، فقال له محمد : يابن اليهودية النّساجة ؛ ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان ، إنما ذلك إلى الله يسقى أولياءه ويظمئُ أعداءه ؛ وهم أنت وقرناؤك ومَنْ تولاك وتوليته؛ والله لو كان سيفى فى يدى ما بلغتم منى ما بلغتم . فقال له معاوية بن حُدَيج : أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك جوْفَ هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار . قال : إن فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذاك بأولياء الله ، وايمُ الله إنى لأرجو أن يجعل الله هذه النار التى تخوّفنى بها برداً وسلاما ، كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه ، وإنى لأرجو أن يُحْرِقَكَ الله وإمامك معاوية ، وهذا - وأشار إلى عمرو بن العاص - بنارٍ تلظّى ، كلّما خَبَتْ زادها الله عليكم سعيرا .فقال له معاوية بن حديج : إنى لاأقتلك ظلما ، إنما أقتلك بعثمان بن عفان، قال محمد : وما أنت وعثمان! رجل عمل بالجوْر ، وبدّل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٤) ؛ فنقِمْنا (٥) عليه أشياء عمِلها ، فأردنا أن يَخلع من الخلافة عَلَناً ، فلم يفعل ، فقتله مَنْ قتله من الناس .

---

(١) سورة القمر ٤٣ .

(٢) سورة المائدة ٤٤ .

(٣) سورة المائدة ٤٥ .

(٤) سورة المائدة ٤٧ .

(٥) نقم عليه ، بكسر القاف : أنكر أمره .

فغضب معاوية بن حُدَيج ، فقدّمه فضرب عنقه ، ثم ألقاه فى جَوْف حمار وأحرقه بالنار .

فلما بلغَ ذلك عائشة جَزِعت عليه جزعا شديدا ، وقنتَتْ فى دُبُر كل صلاة تدعو على معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حُديج ، وقبضت عيالَ محمد أخيها وولده إليها ، فكان القاسم بن محمد من عيالها .

قال : وكان ابن حُدَيج ملعونًا خبيثا يسبّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

قال إبراهيم : وحدثنى عمرو بن حماد بن طلحة القنّاد ، عن علىّ بن هاشم ، عن أبيه ، عن داود بن أبى عوف ، قال : دخلَ معاوية بن حُدَيج على الحسن بن علىّ فى مسجد المدينة ، فقال له الحسن : ويلك يامعاوية ! أنت الذى تسب أميرَ المؤمنين عليا عليه السلام ؟ أما والله لئن رأيته يوم القيامة — وما أظنك تراه — لترينّه كاشفا عن ساق ، يضرب وجوه أمثالك عن الحوض ضَرْبَ غرائب الإبل .

قال إبراهيم : وحدثنى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن المدائنىّ ، عن عبد الملك بن عُمير ، عن عبد الله بن شدّاد ، قال : حلفَتْ عائشة لاتأكل شواء[1] أبدا بعد قتل محمد ، فلم تأكُلْ شِواء حتى لحقت بالله ، وماعثرت قطّ إلا قالت: تَعِسَ معاوية بن أبى سفيان[2] وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن حُديج !

قال إبراهيم : وقد روى هاشم أن أسماء بنت عُمَيْس ، لما جاءها نعىُ[2] محمد ابنها وما صُنِع به ، قامت إلى مسجدها ، وكَظَمت غيظها حتى تشخّبت[3] دما .

قال إبراهيم : وروى ابن عائشة التيمىّ عن رجاله عن كثير النوّاء ، أن أبا بكر خرَج

---

(١) الشواء ، بالكسر والضم : ما شوى من اللحم وغيره .

(٢) نعاه له : أخبره بموته .

(٣) يقال : تشخب دماً : أى انفجر عرقه بالدم .

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله فى غَزاة ، فرأت أسماء بنت عُمَيس وهى تحته ؛ كأنّ أبا بكر مخضَّب بالحناء رأسَه ولحيته ، وعليـه ثياب بيض ، فجاءت إلى عائشة فأخبرتْها ، فقالت : إنْ صدقت رؤياكِ فقد قُتِل أبو بكر ، إن خضابه الدم ، وإن ثيابه أكفانه ، ثم بكت ، فدخل النبىّ صـلى الله عليـه وآله وهى كذلك ، فقال : ماأبكاها ؟ فقالوا : يارسولَ الله ، ماأبكاها أحد ، ولـكنّ أسماء ذكرتْ رؤيا رأتْها لأبى بكر ، فأخبِر النبىّ صلى الله عليه وآله ، فقال : «ليس كما عبّرت عائشة؛ ولـكن يرجع أبو بكر صالحاً، فيلقى أسماء ، فتحمل منه بغلام ، فتسمّيه محمدا ، يجعله الله غيظاً على الـكافرين والمنافقين » .

قال : فـكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

قال إبراهيم : حدّثنا محمد بن عبدالله ، عن المدائنىّ ، قال : فـكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبى سفيان عند قتل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر : أما بعد ، فإنا لقينا محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى جموع من أهلِ مصر ، فدعوناهم إلى الـكتاب والسنّة ، فعصوا الحق ، فتهوّلوا [١] فى الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله جلّ وعزّ عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحَنا [٢] أكتافهم ؛ فقتِل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بِشر ، والحمد لله رب العالمين .

قال إبراهيم : وحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن المدائنىّ ، عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين ، عن حبيب بن عبد الله ، قال : والله إنّى لعند علىّ جالسٌ إذ جاءه عبد الله بن معين وكعب بن عبدالله مِنْ قِبَل محمد بن أبى بكر يستصرِخانه قبل الوقعة؛ فقام علىّ فنادى فى الناس : الصلاة جامعة [٣] ؛ فاجتمع الناس فصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى

---

(١) المتهول : المتحير ، وفى ب : « فهولوا » .
(٢) ج : « وأثخنا أكتافهم » .
(٣) ساقطة من ج .

عليه ؛ وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصلّى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ، فهذا صريخُ[1] محمد بن أبى بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابنُ النابغة عدوّ الله وعدوّ مَنْ والاه ، ووليّ مَنْ عادى الله ، فلا يكونَنّ أهلُ الضلال إلى باطلهم ، والركون إلى سبيل الطاغوت أشدّ اجتماعا على باطلهم وضلالتهم منكم على حقّكم . فكأنكم بهم وقد بدءوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنّصر عبادَ الله ؛ إنّ مصر أعظم من الشام وخيرٌ أهلا ، فلا تُغلَبوا على مصر ؛ فإنّ بقاء مصر فى أيديكم عِزٌّ لكم ، وكبتٌ لعدوّكم ، اخرجوا إلى الجرَعة ـ قال : والجرَعة[2] بين الحيرة والكوفة ـ لنتوافى هناك كلّنا غدا إن شاء الله .

قال : فلما كان الغد ، خرج يمشى ، فنزلها بُكرة ، فأقام بها حتى انتصف النهارُ ، فلم يوافِه مائة رجل ، فرجع . فلمّا كان العشيّ بعث إلى الأشراف فجمعهم ، فدخلوا عليه القصر ، وهو كئيب حزين ، فقال : الحمدُ لله على ماقضَى مِنْ أمرٍ ، وقدّر من فعل ، وابتلانى بكم أيّتها الفرقة التى لا تطيع إذا أمرتُها ، ولا تجيب إذا دعوتُها . لا أبا لغيركم ! ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم ؟ الموت خيرٌ من الذلّ فى هذه الدنيا لغير الحقّ ؛ والله إن جاءنى الموت ـ وليأتينّى ـ لتجدُنّنى لصحبتكم جِدَّ قالٍ .

ألا دين يجمعُكم ! ألا حميّة تغضبكم ! ألا تسمعون بعدوّكم ينتقص بلادَكم ، ويشنّ الغارة عليكم ! أوليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطَّغام الظلمة ، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ، ويجيبونه فى السنة المرة والمرتين والثلاث ، إلى أىّ وجه شاء ، ثم أنا أدعوكم ـ وأنتم أولو النُّهى وبقيّة الناس ـ تختلفون وتفترِقون عنّى ، وتعصوننى وتخالفون علىّ !

---

(١) الصريخ هنا : المستغيث .

(٢) فى الأصول : « الجزعة » تصحيف .

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبيّ ، فقال يا أميرَ المؤمنين ، اندب الناس معي ؛ فإنه لا عِطْرَ بعد عَروس [1] ، وإن الأجر لا يأتي إلا بالكُرْه . ثم التفت إلى الناس وقال : اتقوا الله ، وأجيبوا دعوةَ إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوَّكم ، إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين .

فأمر عليٌّ سعداً مولاه أن يناديَ : ألا سيرُوا مع مالك بن كعب إلى مصر ، وكان وجهاً مكروها ، فلم يجتمعوا إليه شهرا ، فلما اجتمعَ له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك ابن كعب ، فعسكَرَ بظاهر الكوفة ، وخرج معه عليّ ، فنظر فإذا جميع مَنْ خرج نحو من ألفين ، فقال عليّ : سيرُوا ، والله ما أنتم ! ما إخالكم تدرِكون القوم حتى ينقضيَ أمرُهم !

فخرج مالك بهم وسار خمس ليال ، وقدم الحجاج بن غُزِيّة الأنصاريّ على عليّ ، وقدِم عليه عبد الرحمن بن المسيّب الفَزاريّ من الشام ؛ فأمّا الفَزاريّ ، فكان عيناً لعليّ عليه السلام ، لا ينام ، وأما الأنصاريّ فكان مع محمد بن أبي بكر ؛ فحدثه الأنصاري بما عاين وشاهد ، وأخبره بهلاك محمد ، وأخبره الفزاريّ أنه لم يخرج من الشام حتى قَدِمت البشرى من قِبَل عمرو بن العاص ، يتبع بعضُها بعضاً بفتح مصر ، وقتل محمد ابن أبي بكر ، وحتى أذَّن معاوية بقتله على المنبر وقال : يا أميرَ المؤمنين ، ما رأيتُ يوماً قطُّ سروراً مثل سرور رأيته بالشام حين أتاهم قَتْلُ محمد بن أبي بكر ، فقال عليّ : أما إنّ حزننا على قتله ، على قدر سرورهم به ؛ لا بل يزيدُ أضعافا .

قال : فسرّح عليٌّ عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب ، فردّه [2] من الطريق

قال : وحزن عليّ على محمد بن أبي بكر حتى رُئِي ذلك فيه ، وتبيَّن في وجهه ، وقام في الناس خطيبا ، فحمد الله . وأثنى عليه ، ثم قال : ألا وإنّ مصر قد افتتحها الفَجَرة

---

(١) لا عطر بعد عروس ، مثل يضرب في ذم ادخار الشيء وقت الحاجة ، وانظر مورد المثل في الميداني ٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) ب : « فطرده » .

أولياء الجوْر والظلم ، الذين صَدُّوا عن سبيل الله ، وبغَوا الإسلام عِوَجاً . ألا وإنّ محمد ابن أبى بكر قد استُشهدَ رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه . أما والله لَقَدْ كان - ماعلمت - ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحبُّ سَمْت المؤمن ؛ إنى والله لا ألومُ نفسى على تقصير ولا عجز ؛ وإنّى بمقاساة الحرب لِجدُّ بَصير ، إنى لَأُقدِمُ على الحرب ، وأعرِف وَجْه الحزم ، وأقوم بالرأى المصيب ، فأستصرخُكم معلنا ، وأناديكم مستغيثاً ؛ فلا تسمعون لى قولا ، ولا تُطيعون لى أمرا ؛ حتى تصيرَ الأمور إلى عواقب المساءة. وأنتم القومُ لا يدرَك بكم الثأرُ ؛ ولا تنقضُ بكم الأوتار ؛ دعوتُكم إلى غياث إخوانكم منذُ بضع وخمسين ليلة ؛ فجرجرتُمْ [1] علىّ جَرْجرة الجمل الأسرّ [2] ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقُلَ من لا نيَّة له فى الجهاد ، ولا رأىَ له فى الاكتساب للأجر ، ثم خرج إلىّ منكم جُنيْد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . فأفٍّ لكم ! ثم نزل فدخل رَحْله .

قال إبراهيم : فحدّثنا محمد بن عبد الله ؛ عن المدائنىّ ؛ قال : كتب علىّ إلى عبد الله ابن عباس وهو على البصرة :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام ، إلى عبد الله بن عباس : سلام عليك ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فإن مصر قد افتتحت ، وقد استُشهد محمد بن أبى بكر ، فعند الله عزّ وجلّ نحتسبه [3] . وقد كنت كتبتُ إلى الناس ، وتقدّمت إليهم فى بدء الأمر ، وأمرتُهم بإغاثته

---

(١) ب : « خرجتم » صوابه فى ج . والجرجرة : تردد هدير الفحل .
(٢) الجمل الأسر ؛ السرر : وجع يأخذ البعير فى كركرته .
(٣) ج : « احتسابه » .

قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، وعوْداً وبدءا ، فمنهم الآتى كارها، ومنهم المتعلل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلا . أسأل الله أن يجعلَ لى منهم فَرَجاً، وأن يُريحنى منهم عاجلا ؛ فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوّى فى الشهادة ، وتوطينى نفسى عند ذلك، لأحببت ألّا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا . عزم الله لنا ولك على تقواه وهداه ، إنه على كل شىء قدير . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فكتب إليه عبدالله بن عباس :

لعبد الله على أمير المؤمنين من عبدالله بن عباس . سلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ؛ فقد بلغنى كتابُكَ تذكر فيه افتتاحَ مصر وهلاكَ محمد بن أبى بكر ، وأنك سألتَ الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التى ابتُليت بها فرجا ومخرجا ، وأنا أسأل الله أن يُعلِيَ كلمتك ، وأن يغشّيك بالملائكة عاجلا . واعلم أن الله صانعٌ لك ، ومعزٌّ دعوتك ، وكابتٌ عدوك . وأخبرُك يا أمير المؤمنينَ أن الناسَ ربما تباطئوا ثم نشِطوا ؛ فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومَنّهم، واستعنْ بالله عليهم . كفاك الله الهمّ ! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال إبراهيم: وروى عن المدائنىّ ؛ أن عبدالله بن عباس قَدِم من البصرة على علىّ ، فعزّاه عن محمد بن أبى بكر .

وروى المدائنىّ أنّ عليا قال : رحِم الله محمدا كان غلاما حَدَثا ، لقد كنت أردت أن أُوَلّيَ المِرْقال(١) هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله لو وليَها لما خلَّى لابن العاص وأعوانه العَرْصة ، ولا قُتِل إلا وسيفه فى يده ، بلا ذمّ لمحمد ، فلقد اجهد نفسه فقضى ما عليه .

(١) المرقال : لقب هاشم بن عتبة الزهرى ؛ لأن علياً عليه السلام دفع إليه الراية يوم صفين ؛ فكان يرقل بها إرقالا ، والإرقال : ضرب من العدو .

قال المدائني : وقيل لعليّ عليه السلام : لقد جزعتَ على محمد بن أبي بكر يا أميرَ المؤمنين . فقال : وما يمنعني ! إنّه كان لي ربيبا ، وكان لِبَنِيّ أخا ، وكنت له والدا . أعدُّه ولدا .

***

[خطبة للامام عليّ بعد مقتل محمد بن أبي بكر]

وروى إبراهيم ، عن رجاله ، عن عبد الرحمن بن جندَب ، عن أبيه ، قال : خطب عليّ عليه السلام بعد فتح مصر ، وقتل محمد بن أبي بكر ، فقال :

أما بعد ، فإنّ الله بعثَ محمداً نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وشهيداً على هذهِ الأمّة ؛ وأنتمْ معاشرَ العرب يومئذ على شرِّ دِينٍ ، وفي شرِّ دارٍ ، مُنيخونَ على حجارةٍ خُشُنٍ ، وحيّات صُمٍّ ، وشَوْكٍ مَبثوث في البلاد ، تشربُونَ الماءَ الخبيث ، وتأكلونَ الطعامَ الخبيثَ ؛ تسفِكُونَ دِماءَكُمْ ، وتقتلونَ أولادَكُمْ ، وتقطَعُونَ أرحامَكُمْ ؛ وتأكلونَ أموالَكُمْ بينَكُم بالباطلِ . سُبُلكُم خائفة ، والأصنام فيكم منصُوبة ، ولا يؤمنُ أكثرُهُمْ باللهِ إلّا وهمْ مُشرِكُونَ .

فمنّ اللهُ — عزّ وجلّ — عليكم بمحمد ، فبعثَهُ إليكُمْ رسُولاً مِنْ أنفُسِكُمْ ، فعلّمَكُم الكتابَ والحِكمةَ ، والفرائضَ والسُّنَنَ ، وأمرَكُمْ بصِلةِ أرحامِكُمْ وحَقْنِ دِمائِكُمْ وصلاحِ ذَاتِ البَيْنِ ، وأنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها ، وأنْ توفُوا بالعهدِ ؛ ولا تنقضُوا الأيمانَ بعدَ توكيدِها ، وأنْ تعاطفوا وتبارّوا وتراحمُوا . ونهاكُمْ عنِ التّناهُبِ والتّظالُمِ والتّحاسُدِ والتّباغِي والتّقاذُفِ ، وعن شُربِ الخمرِ وبخْسِ المِكْيالِ ، ونقصِ المِيزانِ . وتقدّم إليكم فيما يُتلَى عليكم : ألّا تزنُوا ولا تربُوا ، ولا تأكُلوا أموالَ

الْيَتَامَى ظُلْمًا ، وأَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وكلُّ خيرٍ يُدْنِى إلى الجنةِ ، ويُبَاعِدُ عَنِ النَّارِ أَمَرَكُمْ بهِ ، وَكُلُّ شَرٍّ يُدْنِى إلى النَّارِ وَيُبَاعِدُ عنِ الْجَنَّةِ نَهَاكُمْ عنهُ .

فلما استكْمَلَ مُدَّته ، توَفَّاهُ اللهُ إِلَيْهِ سَعِيداً حَمِيداً،فيالَها مُصيبةً خَصَّتِ الأقربِينَ، وعَمَّتِ المسلِمِينَ ! ما أُصيبوا قبلها بِمثلها ، ولَنْ يُعاينُوا بعدَها أختَها . فلما مضَى لسبيلِهِ صلى الله عليه وسلّم ، تنازع المسلمون الأمرَ بَعْدَهُ،فوالله ما كانَ يُلقَى فى روعى،ولا يَخطُرُ عَلَى بالى أنَّ العَرَبَ تَعدِلُ هذا الأمرَ بَعْدَ محمدٍ عن أهلِ بيتِهِ ، وَلَا أنهُمْ مُنحُّوهُ عَنِّى من بعده . فما رَاعَنِى إِلَّا انْثِيَالُ الناسِ على أبى بكرٍ ، وإجْفَالُهُمْ [1] إليهِ لِيُبَايِعُوهُ ، فأمْسَكْتُ يَدِى ، ورأيتُ أنِّى أحق بمقَامِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فى الناسِ مِمَّنْ تولَّى الأمرَ من بَعْدِهِ ، فلبثتُ بذلك ماشاء اللهُ حتى رأيتُ راجعةً من الناس رجعتْ عن الإسلام ، يدعونَ إلى مَحْقِ دين الله وملة محمد صلى الله عليه ، فخشيتُ إن لم أنصر الإسلامَ وأهلَهُ أن أرى فيه ثَلْمًا وهدماً يكونُ المصاب بهما عَلَىَّ أعظم من فوات وِلَايةِ أُمورِكُمْ ، التى إنما هىَ مَتاعُ أيام قلائل ، ثم يزولُ ما كانَ منها كما يزولُ السرابُ ، وكما يتقشَّعُ السَّحاب ، فمشيتُ عندَ ذلكَ إلى أبى بكرٍ فبايعتهُ ؛ ونهضتُ فى تلكَ الأحداث ، حتى زَاغَ الباطلُ وَزَهَقَ ، وكانتْ كلمةُ اللهِ هىَ الْعُلْيَا ، وَلَوْ كَرِهَ الكافرونَ .

فتولى أبو بكر تلك الأمورَ ، فيسَّرَ وسَدَّدَ ، وقارَبَ واقتصَدَ ، وصَحِبْتُه مُنَاصِحًا، وأطعتهُ فيما أطاعَ اللهَ فيهِ جاهداً، وما طمِعتُ أن لوْ حَدَثَ به حادث وأنا حىٌّ أن يُرَدَّ إلىَّ الأمرُ الَّذِى نازعتهُ فيه طَمَعَ مُستيقنٍ ،ولا يئستُ مِنْهُ يأسَ مَنْ لا يرجوهُ،ولولا خاصَّة ما كان بَيْنَهُ وبين عمر ، لظننتُ أنه لا يَدْفعُهَا عنِّى ؛ فلما احتُضِر بَعثَ إلى عُمر فولَّاه فسمِعْنَا وأطعنا وناصحنا .

---

(١) أجفل الناس وانجفلوا : أى ذهبوا مسرعين .

وتولى عمر الأمرَ ، فكانَ مرضيَّ السيرة ، ميمونَ النقيبة ؛ حتى إذا احتُضِر ، فقلت في نفسي : لن يَعْدِلَها عنّي ؛ ليس بدافعها عني[1] ، فجعلَني سادسَ ستة ؛ فما كانوا لولاية أحدٍ منهم أشدَّ كراهة لولايتي عليهم ؛ كانوا يَسْمعونَ عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لِجَاجَ أبي بكر ، وأقول : يامعشرَ قريش ، إنا ـ أهلَ البيت ـ أحقُّ بهذا الأمر منكم ما كانَ فينا مَنْ يقرأ القرآن ، ويعرفُ السُّنة ، ويدين بدين الحقّ . فخشيَ القوم ـ إن أنا وَليتُ عليهم ـ ألاَّ يكون لهم من الأمر نصيب ما بَقُوا ، فأجمعوا إجماعاً واحدا ، فصرفُوا الولاية إلى عثمان ، وأخرجوني منها ؛ رجاء أنْ ينالُوها ، ويتداولُوها إذ يئسوا أن ينالُوا بها مِنْ قِبَلي ؛ ثم قالوا : هَلمّ فَبايعْ وإلا جاهدناك ؛ فبايعت مستكرَهاً ، وصبرت محتَسِباً ، فقال قائلُهم : يابنَ أبي طالب ، إنك على هذا الأمر لحريصٌ ؛ فقلت أنتُم أحرصُ مني وأبعد ؛ أيّنا أحرَصُ ؟ أنا الذي طلبتُ ميراثي وحَقّي الذي جعلني الله ورسوله أوْلَى به ، أم أنتم إذ تضربُون وَجْهي دُونه ، وتحولون بيني وبينه ! فبهتوا ، والله لا يهدِي القوم الظالمين.

اللهم إني أستعديك على قُريش ، فإنهم قطعوا رَحِمي ، وأضاعوا إيايَ ، وصغّروا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعَتي حقاً كنت أوْلَى به منهم ، فَسلبونِيه ثم قالوا : ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه ، وفي الحق أن تمنعه ؛ فاصبر كمدا ، أومت أسِفا حَنِقاً .

فنظرتُ فإذا ليسَ معي رافد ولا ذابّ ولا ناصر ولا ساعد إلا أهلُ بيتي ، فضننْت بهم عن المنية ، وأغضيتُ على القذى ، وتجرّعت ريقي على الشّجَى ؛ وصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الغيظ على أمرّ من العلقم ، وآلم للقلب مِنْ حَزّ الشِّفَار ، حتى إذا نقِمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ؛ ثم جئتموني لتبايعوني ، فأبيتُ عليكم ، وأمسكت يدِي فنازعتموني ودافعتموني ، وبسطتم يدِي فكففتُها ، ومددتموها فقبَضتُها ، وازدحمتم عليّ حتى ظننت أنّ بعضكم قاتل بعضكم أو أنكم قاتِليّ . فقلتم : بايِعنا لا نجدُ غيرَك ، ولا نرضى إلا بك ، بايِعنا

(١) ب : « ليس بدافعي عنها » .

لا نفترق ولا نختلف كلمتُنا. فبايعتُكم ودعوتُ الناسَ إلى بيعتى ، فمن بايع طوعاً قبلتُه ؛ ومن أبَى لم أُكْرِهْهُ وتركته .

فبايَعنى فيمَن بايعنى طلحةُ والزبير ؛ ولو أبَيَا ما أكرهتُهما ، كما لم أُكرِهْ غيرَهما ؛ فما لبثا إلا يسيراً حتى بلغنى أنهما خرجا مِنْ مَكَّةَ متوجهيْن إلى البصرة ؛ فى جيش ما منهم رجلٌ إلّا قد أعطانى الطاعة ، وسمح لى بالبيعة؛ فقدماً على عاملى وخُزّان بيت مالى وعلى أهل مصرى الذين كلهم على بيعتى وفى طاعتى ، فشتّتوا كلمتَهم ، وأفسدوا جماعتَهم ، ثم وثبوا على شِيعتى من المسلمين ، فقتلُوا طائفةً منهم غدراً، وطائفةً صَبْرًا [1]. ومنهم طائفة غضِبوا لله ولِى ، فشَهَرُوا سيوفَهم وضربوا بها ؛ حتى لَقُوا الله عزّ وجلّ صادقين ؛ فوالله لو لم يصيبُوا منهم إلّا رجلًا واحداً متعمِّدين لقتله لحلّ لى به قتلُ ذلك الجيش بأسره، فدَعْ ما أنّهم قد قتَلُوا من المسلمين أكثرَ من العدّة التى دخلُوا بها عليهم؛ وقد أدَالَ الله منهم، فبعداً للقوم الظالمين !

ثم إنى نظرتُ فى أمر أهل الشام ، فإذا أعرابٌ أحزاب وأهلُ طمع جفاة طغاة ، يجتمعُون من كلّ أوْب ؛ من كان ينبغى أن يؤدَّب وأنْ يولّى عليه، ويؤخذ على يده ؛ ليسوا من الأنصار ولا المهاجرين ولا التّابعين بإحسان . فسِرْتُ إليهم ، فدعوتُهم إلى الطاعة والجماعة ، فأبوْا إلّا شقاقاً وفراقاً ، ونهضوا فى وجوه المسلمين ينضَحُونهم بالنَّبل ، ويشْجُرونهم [2] بالرماح ؛ فهناك نهدْتُ [3] إليهم بالمسلمين فقاتلتهم ، فلما عضَّهم السلاح . ووجَدُوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف يدعونَكم إلى ما فيها ؛ فأنبأتكم أنهُمْ ليسوا بأهل دين ولا قرآن ، وأنهم رفعوها مكيدةً وخديعة ووهْناً وضعفاً ، فامضوا على حقّكم وقتالكم. فأبيتم علىّ وقلتم : اقبَلْ منهم ؛ فإنْ أجابوا إلى ما فى الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من

---

(١) صبرا ، أى حبسا .

(٢) يشجرونهم بالرمح : يطعنونهم .

(٣) نهد للقتال : نهض .

الحقّ، وإنْ أَبَوْا كان أعظمَ لحجّتنا عليهم. فقبلتُ منهم، وكففتُ عنهم؛ إذ وَنَيتم وأبيتم؛ فكان الصُّلح بينكم وبينهم على رجلين، يُحْيِيان ما أحيا القرآن، ويُمِيتان ما أمات القرآن؛ فاختلف رأيُهما، وتفرّق حكمهما، ونَبَذا ما في القرآن، وخالفا ما في الكتاب؛ فجنّبهما الله السّداد، ودَلّاهما في الضّلالة، فانحرفتْ فِرقةٌ منّا فتركناهم ما تركونا؛ حتى إذا عَثَوْا[1] في الأرض يقتلون ويفسدون، أتيناهم فقلنا: ادْفَعُوا إلينا قتَلةَ إخواننا، ثم كتابُ الله بيننا وبينكم. قالوا: كلّنا قتلهم؛ وكلّنا استحلّ دماءهم. وشدّت علينا خيلُهم ورجالُهم، فصرعَهم الله مصارعَ الظالمين.

فلما كان ذلك من شأنِهم أمرتُكم أن تمضُوا من فَوْرِكم ذلك إلى عدوّكم، فقلتم: كَلّتْ سيوفُنا، وَنَفِدَتْ نبالُنا، ونَصَلت أسنّة رماحنا، وعاد أكثرها قِصَدًا[2]، فارجع بنا إلى مصرنا لنستعدّ بأحسن عُدّتنا، فإذا رجعتَ زدتَ في مقاتلتنا عدّةَ مَنْ هَلَكَ منّا وفارقنا؛ فإنّ ذلك أقوى لنا على عدوّنا. فأقبلتُ بكم، حتى إذا أطْلَلْتُم على الكوفة أمرتُكم أن تنزلوا بالنُّخَيلة، وأن تلزَمُوا معسكرَكم، وأن تَضُمّوا قَوَاصِيَكم، وأن توطّنُوا على الجهاد أنفسَكم، ولا تكثِرُوا زيارة أبنائكم ونسائكم، فإن أهلَ الحربِ المصابرُوها، وأهلَ التشميرِ فيها الذين لا ينقادُون من سَهر ليلهم ولا ظَمَإِ نهارهم، ولا خَمص بطونهم، ولا نَصَب أبدانهم، فنزلت طائفةٌ منكم معي معذِرَة، ودخلت طائفة منكم المِصْرَ عاصية؛ فلا مَنْ بقِيَ منكم صَبَرَ وثَبَت، ولا مَنْ دخل المِصْرَ عاد ورَجَعَ؛ فنظرتُ إلى معسكري، وليس فيه خمسون رجلا؛ فلما رأيتُ ما أتيتم، دخلت إليكم فلم أقدِرْ على أن تخرجوا معي إلى يومنا هذا، فما تنتظرون! أما تَرَوْن أطرافَكم قد انتُقِصَتْ، وإلى مصر قد فتحت، وإلى شيعتي بها قد قتلت؛ وإلى مسالحكم تُعْرَى، وإلى بلادكم تُغْزَى! وأنتم ذَوُو عدد كثير،

---

(١) عثى: أفسد، مثل عاث.

(٢) القصد: جمع قصدة؛ وهي القطعة المتكسرة.

وشَوْكة وبأس شديد ؛ فما بالُكم ! لله أنتم من أين تؤتَون ! وما لكم تُؤفَكون ! وأنَّى تُسْحَرُون !

ولو أنكم عَزَمتم وأجمتم لم تراموا ؛ إلا أنّ القوم تَراجَعُوا وتناشبوا وتناصحوا، وأنتم قد وَنَيتُم وتغاششتُم وافترقتم، ما إن أنتم إن ألممتُم عندي على هذا بسُعداء (١)؛ فانتبهوا بأجمعكم، وأجمِعوا على حَقكم، وتجرّدُوا لحرب عدُوّكم ؛ وقد أبدتِ الرّغوةُ عن الصّريح، وبيّن الصُّبحُ لذِي عينين؛ إنما تقاتلون الطُّلقاء، وأبناء الطُّلَقاء، وأولى الجفاء، ومَنْ أسلمَ كرها؛ وكان لرسول الله صلى الله عليه أنفَ (٢) الإسلام كلّه حربا ؛ أعداء الله والسنّة والقرآن، وأهل البدَع والأحداث؛ ومن كان بوائقه تُتّقَى، وكان عن الإسلام منحرفا، أكَلَة الرّشا، وعَبَدة الدنيا ؛ لقد أُنهِيَ إلىّ أنّ ابنَ النابغة لم يبايعْ معاويةَ حتى أعطاه، وشرط له أن يؤتيَه ما هي أعظم مما في يده من سلطانه. ألا صَفِرَتْ يدُ هذا البائع دينَه بالدنيا، وخزِيَتْ أمانة هذا المشترى نُصْرةَ فاسِق غادر بأموالِ المسلمين ؛ وإنّ فيهم مَنْ قد شرِبَ فيكم الخمرَ وجُلِد الحدّ ؛ يُعرَف بالفساد في الدين، والفعل السيّء ؛ وإنّ فيهم مَنْ لم يُسلم حتى رُضِخ له رَضِيخة (٣).

فهؤلاء قادة القوم ؛ ومَنْ تركتُ ذكر مساوئه مِنْ قادتهم مِثلُ من ذكرت منهم ؛ بل هو شرّ، ويودُّ هؤلاء الذين ذكرت لو وُلُّوا عليكم فأظهرُوا فيكم الكُفر والفساد والفجور والتسلُّط بجبريّة؛ واتبعوا الهوَى وحكَمُوا بغير الحقّ. ولأنتُمْ — عَلَى ما كانَ فيكم مِنْ تواكُلٍ وتخاذُلٍ — خيرٌ منهم وأهدى سبيلا؛ فيكم العلماء والفقهاء، والنُّجَباء والحكماء، وحَمَلة الكتاب والمتهجِّدُون بالأسحار، وعُمّار المساجد بتلاوة القرآن؛ أفلا تسخَطُون وتهتمّون أن ينازعَكم الولايةَ عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم !

(١) كذا في ب، وهي ساقطة من ا، ج

(٢) أنف كل شيء : أوله .

(٣) الرضيخة : العطية القليلة .

فاسمعوا قولى ، وأطيعوا أمرى ؛ فوالله لئن أطعتمونى لا تغوون ، وإن عصيتمونى لا ترشدون ؛ خذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها ؛ فقد شبت نارها ، وعلا سناها وتجرد لكم فيها الفاسقون ، كى يعذبوا عباد الله ، ويطفئوا نور الله. ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى فى الجد فى غيهم وضلالتهم من أهل البر والزهادة والإخبات فى حقهم وطاعة ربهم؛ إنى والله لو لقيتهم فرداً وهم ملء الأرض؛ ما باليت ولا استوحشت ؛ وإنى من ضلالتهم التى هم فيها ، والهدى الذى نحن عليه ، لعلى ثقة وبينة ، ويقين وبصيرة ؛ وإنى إلى لقاء ربى لمشتاق ، ولحسن ثوابه لمنتظر ؛ ولكن أسفاً يعترينى ، وحزنا يخامرنى ، أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، والفاسقين حزبا . وايم الله لولا ذلك لما أكثرت تأنيبكم وتحريضكم ، ولتركتكم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسى؛ متى حم لى لقاؤهم. فوالله إنى لعلى الحق ، وإنى للشهادة لمحب، فانفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف، وتبوءوا بالذل ، ويكن نصيبكم الخسران . [إن](١) أخا الحرب اليقظان، ومن ضعف أودى ، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين .

اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى ، وزهدنا وإياهم فى الدنيا ، واجعل الآخرة خيرا لنا ولهم من الأولى .

***

[خبر مقتل محمد بن أبى حذيفة]

قال إبراهيم : وحدثنى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن المدائنى ، أن محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أصيب لما فتح عمرو بن العاص مصر ، فبعث به

(١) تكملة يقتضيها السياق .

إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ بفلسطين ، فحبسه معاوية في سجن له ، فمكث فيه غير كثير ، ثم هرب ـ وكان ابن خال معاوية ـ فأرى معاويةُ الناسَ أنه كره انفلاتَه من السجن؛ وكان يحبّ أن ينجوَ ، فقال لأهل الشام: مَنْ يطلبه ؟ فقال رجل من خثعم ـ يقال له عبيد الله ابن عمرو بن ظلام، وكان شجاعا وكان عثمانيا: أنا أطلبه ،فخرج في خيل فلحقه بحُوّارين[1] ، وقد دخل بغارٍ هناك، فجاءت حُمُرٌ فدخلته ، فلما رأت الرجل في الغار فزِعت ونفَرت؛فقال حمّارون كانوا قريبا من الغار : إنّ لهذه الحُمُر لشأنا ، ما نفّرها من هذا الغار إلا أمر ؛فذهبوا ينظرون ؛فإذا هم به ؛ فخرجوا به؛ فوافاهم عبد الله بن عمرو بن ظلام؛ فسألهم ووصفَه لهم فقالوا: ما هو هذا ؛ فجاء حتى استخرجه، وكره أن يصيرَ به إلى معاوية فيخلِّيَ سبيله ، فضرب عنقه. رحمه الله تعالى .

(١) حوارين ، من قرى حلب ، أو حصن بناحية حمص (مراصد الاطلاع) .

(٦٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أصحابه :

كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ ، وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسَرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِى جُحْرِهَا ، وَالضَّبُعِ فِى وِجَارِهَا .

الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ ، وَمَنْ رُمِىَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِىَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ .

إِنَّكُمْ وَاللهِ لَكَثِيرٌ فِى الْبَاحَاتِ ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ ، وَإِنِّى لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ ، وَلَكِنِّى وَاللهِ لَا أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِى .

أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ ، وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ .

***

الشرح :

البِكَار : جمع بَكْر ، وهو الفتىُّ من الإبل . والعَمِدَة : التى قد انشدَخَتْ أسنمتها من داخل وظاهرها صحيح ؛ وذلك لكثرة ركوبها .

والثياب المتداعية: الأسمال التى قد أخلقت ؛ وإنما سُمِّيت متداعية ، لأن بعضها يتخرق فيدعو بعضَها إلى مثل حاله .

وحِيصت : خيطت ، والحوْص : الخياطة . وتهتّكت : تخرّقت .

وأطلّ عليكم ، أى أشرف ، وروى : « أظلّ » بالظاء المعجمة ، والمعنى واحد .

ومَنسر : قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير ، والأفصح « مِنْسر » بكسر الميم وفتح السين ، ويجوز « مَنْسِر » بفتح الميم وكسر السين .

وانجحر : استتر فى بيته ، أجحرتُ الضبّ ، إذا ألجأته إلى جُحْره فانجحر .

والضبّة : أنثى الضِّباب ، وإنما أوقع التشبيه على الضبّة مبالغة فى وصفهم بالجبن والفرار ؛ لأن الأنثى أجبنُ وأذل من الذكر . والوِجار : بيت الضبع .

والسهم الأفوق : الناصل المكسور الفُوق ، المنزوع النّصل ، والفُوق : موضع الوَتَر من السهم ؛ يقال نَصَل السّهم إذا خرج منه النّصْل فهو ناصل ؛ وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده .

والباحات : جمع باحة ، وهى ساحة الدار . والأَوَد : العوج ، أَوِد الشىء بكسر الواو يأوَد أَوَدا ؛ أى اعوجّ ، وتأوّد ، أى تعوج . وأضرع الله خدودكم : أذلّ وجوهكم . ضَرَع الرجل ذلّ وأضرعه غيره ، ومنه المثل : « الحمّى أضرعته لك »[1] .

وأتعس جدودكم ، أى أحال حظوظكم وسعودكم وأهلكها فجعلها إدباراً ونحسا . والتَّعَس : الهلاك . وأصله الكبّ ؛ وهو ضد الانتعاش . تَعَس الرجل ، بفتح العين يتعَس تَعْسا . يقول : كم أداريكم كما يدارِى راكب البعير بعيرَه المنفضخ السنام ، وكما يدارى لابس الثوب السَّمَل ثوبَهُ للتداعِى ، الذى كلّما خِيط منه جانب تمزّق جانب .

ثم ذكر خُبْثهم وذلّهم ، وقلّة انتصار مَنْ ينتصِر بهم ، وأنهم كثير فى الصورة ، قليل فى المعنى . ثم قال : إنى عالم بما يصلحكم ؛ يقول : إنما يصلحكم فى السياسة السيفُ ؛ وَصَدَق ! فإن كثيراً لا يصلُح إلا عليه . كما فعل الحجّاج بالجيش الذى تقاعد بالمهلّب ،

---

(١) الميدانى ١ : ٢٠٥ ، يضرب فى الذل عند الحاجة تنزل .

فإنه نادى مناديه : مَنْ وجدناه بعد ثالثة لم يلتحق بالمهلّب فقد حلّ لنا دمه ؛ ثم قتل عُمير بن ضابئ وغيره ؛ فخرج الناس يُهْرَعون إلى المهلّب .

وأميرُ المؤمنين لم يكُنْ ليستحلّ من دماء أصحابه ما يستحلّه مَنْ يريد الدنيا وسياسة الملك وانتظام الدولة ، قال عليه السلام : « لكنى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى » ، أى بإفساد دينى عند الله تعالى .

فإن قلت : أليستْ نُصرة الإمام واجبةً عليهم ؟ فلمَ لايقتلهم إذْ أخلّوا بهذا الواجب ؟

قلت : ليس كلّ إخلال بواجب يكون عقوبته القتل ، كمن أخلّ بالحج . وأيضا فإنه كان يعلم أن عاقبةَ القتل فسادٌ عليه واضطرابهم ؛ فلو أسرع فى قتلهم لشغَبُوا عليه شغبا يُفضِى إلى أن يقتلوه ويقتلوا أولادَه ، أو يسلموه ويسلموهم إلى معاوية ؛ ومتى علم هذا أو غلب على ظنه لم يَجُزْ له أن يسومَهم بالقتل الذى يُفضِى إلى هذه المفسدة ، فلو سامَهم بالقتل والحال هذه ؛ لكان آثماً عند الله تعالى ، ومواقعا للقبيح ؛ وفى ذلك إفساد دينه كما قال : « لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل ... » إلى آخر الفصل ؛ فكأنه قال : لاتعتقدون الصواب والحقّ كما تعتقدون الخطأ والباطل ؛ أى اعتقادكم الحقّ قليل ، واعتقادكم الباطل كثير ؛ فعبّر عن الاعتقاد العام بالمعرفة الخاصة ؛ وهى نوع تحت جنسه مجازا .

ثم قال : ولا تسرعون فى نقض الباطل سرعتكم فى نقض الحقّ وهدمه .

* * *

[طائفة من الأشعار الواردة فى ذمّ الجبن]

واعلم أن الهجاء بالجبن والذل الفَرَق كثير جدا ، ونظير قوله : « إنكم لكثير فى الباحات ، قليل تحت الرايات » قول معدان الطائىّ :

فأمّا الَّذِى يُحْصِيهِمُ فَمُكَثِّرٌ ... وَأَمّا الَّذى يُطْرِيهِمُ فمُقَلِّلُ(١)

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٣

ونحو قول قراد بن حَنَش ، وهو من شعر الحماسة (١) :

وأنتمْ سماءٌ يُعْجِبُ النّاسَ رِزُّها ... بآبدةٍ تُنْحِي شَدِيدٍ وَئِيدُها (٢)

تُقَطِّعُ أطنابَ البيوتِ بحاصبٍ ... وأكذبُ شيءٍ بَرْقُها ورُعُودُها (٣)

فَوَيْلُمِّها خيلاً بهاءً وشارةً ... إذا لاقتِ الأعداءَ لولا صدُودُها !

ومن شعر الحماسة في هذا المعنى :

لَقَدْ كَانَ فيكم لَوْ وفيتمْ بجارِكُمْ ... لِحَىً وَرِقَابٌ عَرْدَةٌ وَمَنَاخِرُ (٤)

من الصُّهْبِ أثناءٌ وجُذْعاً كأنّها ... عذارَى عليها شارةٌ وَمَعَاجِرُ (٥)

ومن الهجاء بالجبن والفرار ، قولُ بعض بني طيءٍ يهجو حاتماً ، وهو من شعر الحماسة أيضاً (٦) :

لعمرِي وَمَا عَمْرِي علىّ بهيّنٍ ... لَبِئْسَ الفتى المدعُوّ بالليل حاتِمُ

غَداةَ أتى كالثوْرِ أُحْرِجَ فاتّقى ... بجبهته أقتالَهُ وهو قائِمُ (٧)

كأنّ بصحراء المُرَيْطِ نعامةً ... تبادرُها جنحَ الظلامِ نعائِمُ

أعارَتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِيَ لُبِّهَا ... وقد جُرِّدَتْ بيضُ المُتُونِ صوارِمُ

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقي ٣ : ١٤٣١ ؛ من أبيات أربعة أولها :

لَقَوْمِيَ أرْعَى لِلْعُلا مِنْ عِصَابَةٍ ... من الناسِ ياحارِ بْنَ عَمْرٍو تَسودُها

(٢) رزها : صوتها ، أى صوت رعدها . والآبدة : الغريبة . وتنحى : تعتمد .

(٣) الحاصب : الريح تجيء بالحصباء .

(٤) من أبيات لمنصور بن مسجاح الضبي؛حماسة أبي تمام ـ بشرح التبريزى ٤ : ٢٥ . عردة:غلاظ.

(٥) يريد من الإبل الصهب ، والصهبة : حمرة يعلوها بياض. وأثناء : جمع ثنى ؛ وهو من الإبل مايلق ثنيته ؛ وذلك فى السنة الثالثة والجذع : جمع جذع ؛ وهو ما قبل الثنى . والمعجر : ثوب أصغر من الرداء تلبسه المرأة . وفى التبريزى : « ومعاصر »

(٦) ليزيد بن قنافة . ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٦٤

(٧) غداة أتى كالثور؛يعنى حاتما ، وأحرج:ضيق عليه وأخرج من عادته، والأقتال:الأقران والأعداء ، واحده قتل .

ونظير المعنى الأول أيضاً قول بعضهم من شعر الحماسة :

كأيِّنْ بسعدٍ إن سعداً كثيرةٌ ولا ترجُ من سعدٍ وفاء ولا نَصْرَا[١]
يروعك من سعدِ بن عمرٍو جُسُومُها وتزهد فيها حين تقتلها خُبْرَا

ومنه قول عُوَيف القوافي :

وما أُمُّكم تحت الخوافق والقنا بثَكْلَى ولا زهراء من نسوة زُهْرِ[٢]
ألستمْ أقلَّ الناس عند لوائهمْ وأكثرَهمْ عند الذَّبيحة والقِدْرِ

وممّن حسّن الجبن والفرار بعضُ الشعراء في قوله :

أضحت تُشجِّعُني هندٌ وقد علمتْ أنَّ الشجاعة مقرونٌ بها العَطَبُ[٣]
لا والَّذى حجَّت الأنصارُ كعبتَهُ مايشتهى الموتَ عندى من له أَرَبُ
للحرب قومٌ أضلَّ الله سعيَهُمُ إذا دعتهمْ إلى حوماتِها وثَبُوا
وَلَسْتُ منهم ولا أهوَى فعالَهُمُ لا القتلُ يعجبنى منها ولا السَّلَبُ

ومن هذا قول أيمن بن خُرَيم الأسدى :

إنَّ للفتنة مَيْطاً بيِّناً ووريد المَيْطِ منها يَعْتَدِلْ[٤]
فإذا كان عطاء فابتدِرْ وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ
إنما يُسْعِرُها جُهَّالُها حطب النار فدَعْها تشتعلْ

وممن عرف بالجبن أميّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد ، عيّره عبد الملك بن مروان فقال :

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٩١ ، من غير نسبة ، وبعده :

ولا تدعُ سعداً للقراعِ وخَلِّها إذا أمنت ونعتَها البلد القَفْرَا

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ٩٩

(٣) عيون الأخبار ٤ : ١٦٤ ، من غير نسبة ، العقد ١ : ١٦٦

(٤) عيون الأخبار ١ : ١٦٤ ، العقد ١ : ١٦٧ . والميط : الصخب والشدة .

إذا صوّتَ العصفورُ طار فؤادُه   وليثٌ حديد الناب عند الثرائدِ (١)

وقال آخر :

يطيرُ فؤادُه مِنْ نَبْحِ كَلْبٍ   ويكفيه من الزَّجر الصفيرُ

وقال آخر :

ولو أنها عصفورة لحسبْتَها   مُسَوَّمَةً تدعو عُبيدا وأَزْنَمَا (٢)

***

[أخبار الجبناء وذكر نوادرهم]

ومن أخبار الجبناء مارواه ابن قتيبة فى كتاب " عيون الأخبار " قال : رأى عمرَ ابن العاص معاوية يوماً فضحِك ، وقال: مِمَّ تضحكُ يا أمير المؤمنين ، أضحكَ الله سنَّك ! قال: أضحكُ من حُضُور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب ؛ والله لقد وجدته منّانا [كريما] (٣) ولو شاء أن يقتلك لقتلك ؛ فقال عمرو : يا أميرَ المؤمنين ، أما والله إنّى لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحولَّتْ عيناك ، وانتفخ سَحْرُك ، وبدا منك ما أكره ذكره لك ؛ فمن نفسك فاضحك أو فدَعْ (٤) .

***

قال ابن قتيبة : وقدم الحجاجُ على الوليد بن عبد الملك ، وعليه دِرْعٌ وعمامة سوداء وقوسٌ عربية وكنانة ، فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد ـ وهى تحته يومئذ : مَنْ هذا الأعرابىّ المستلئم فى السلاح عندك على خلوة ، وأنت فى غُلالة ؟

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٦ ، العقد ١ : ١٦٨/
(٢) هو العوام بن شوذب الشيبانى ، عيون الأخبار ١ : ١٦٦ والبيت من شواهد المغنى ٢ : ١٩٦
(٣) من عيون الأخبار .
(٤) عيون الأخبار ٤ : ١٦٩

فأرسَلَ إليها الوليد : إنه الحجّاج ، فأعادت عليه الرسول : والله لأن يَخلوَ بك مَلَكُ الموت أحبُّ إليّ من أن يخلوَ بك الحجاج ! فضحك وأخبر الحجاج بقولها وهو يمازحه ، فقال الحجاج : ياأمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة رَيْحانة وليست بقَهْرمانة ؛ فلا تطلِعْها على سرّك ، ومكايدة عدوّك .

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، حاجتى إليك اليوم أن تأمرَه غدا أن يأتينى مستلِمًا ، ففعل ذلك ، وأتاها الحجاج فحجَبَتْه ثم أدخلته ، ولم تأذن له فى القُعود ، فلم يزل قائما ، ثم قالت : إيهٍ ياحجاجُ ! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابنَ الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أنّ الله علِم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة الحرام ، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين أوّل مولود فى الإسلام ؛ وأما نهيُك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذّاته وأوطاره ؛ فإنْ كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقّه بالقبول منك ! وإن كنّ ينفرِجْنَ عن مثله ، فهو غير قابل لقولك .أما والله لو نفضَ نساءُ أمير المؤمنين الطيبَ من غدائرهنّ فبِعنَه فى أعطية أهل الشام حين كنت فى أضيَق من القرن ، قد أظلتك الرّماح ، وأثخنك الكفاح ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم ؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ؛ قاتل الله القائل حين ينظر إليك وسِنان غزالة [١] بين كتفيك :

أسَدٌ علىّ وفى الحرُوب نعامةٌ ... رَبْدَاء تنفِر من صَفيرِ الصّافرِ

هلا برزتَ إلى غزالة فى الوغى ... أم كان قلبك فى جَناحَىْ طائرِ!

ثم قالت لجواريها : أخرجْنَه ، فأخرج [٢] :

***

(١) غزالة : امرأة شبيب الخارجى .

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٩ ، ١٧٠

ومن طريف حكايات الجبناء ماذكره ابن قتيبة أيضاً فى الكتاب المذكور ؛ قال كان بالبصرة شيخٌ من بنى نهشل بن دارم ، يقال له عروة بن مرثَد ، ويكنى أبا الأعزّ ، ينزل فى بنى أخت له من الأزْد فى سكّة بنى مازن ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم فى شهر رمضان ، وخرج النساء يصلّين فى مسجدهم ، ولم يبق فى الدار إلا إماء ، فدخل كلب يتعسّس ، فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله ، وانصفق الباب عليه ، فسمع بعضُ الإماء الحركة ، فظنوا أنه لصٌّ دخل الدار ، فذهبت إحداهنّ إلى أبى الأعزّ ، فأخبرته ، فقال أبو الأعزّ : إلام يبتغى اللصّ عندنا ! وأخذ عصاه ، وجاء حتى وقف بباب البيت ، وقال : إيه يافلان ! أما والله إنّى بك لعارف ، فهل أنت من لصوص بنى مازن ! شربت حامضاً خَبيثاً ، حتى إذا دارت فى رأسك منّتكَ نفسُكَ الأمانىّ ، وقلت : أطرُقُ دور بنى عمرو ، والرجال خلُوف ، والنساء يصلِّين فى مسجدهنّ ، فأسرقهم . سوءةً لك ! والله مايفعل هذا ولد الأحرار ! وايمُ الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هتفة مشئومة يلتقى فيها الحيّان : عمرو وحنظلة ، وتجىء سعد عدد الحصى ، وتَسيل عليك الرجال ، من هنا وهنا ، ولئن فعلتُ لتكونَنّ أشأمَ مولود !

فلما رأى أنّه لا يجيبُه ، أخذه باللين ، فقال : اخرج - بأبى أنت - مستورا ، والله ماأراك تعرِفُنى . ولو عرفتنى لقنعت بقولى ، واطمأننت إلى ابن أختى البارّ الوَصول ، أنا - فديتك - أبو الأعزّ النهشلى ! وأنا خال القوم ، وجِلْدة بين أعينهم ؛ لا يعصوننى ، ولا تضارّا الليلة وأنت فى ذمتى ، وعندى قوصَرّتان[1] ، أهداها إلىّ ابنُ أختى البارّ الوصول ، فخذ إحداها ، فانبذها حلالًا من الله ورسوله .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت أبو الأعزّ وثب يريد المخرَج ، فتهانف[2] أبو الأعزّ ، ثم تضاحك ، وقال : ياألأم الناس وأوضعهم ! ألا أرانى لك منذ الليلة

---

(١) القوصرة ، مخفف ومثقل : وعاء يرفع فيه التمر من البوارى . (٢) التهانف : الضحك والاستهزاء

فى وادٍ وأنت لى فى واد آخر ، أقبلت السوداء والبيضاء ، فتصيح وتطرق؛فإذا سكتَ عنك وثبتَ تريد الخروج ! والله لتخرجنَّ أو لألجنَّ عليك البيت .

فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء. فقالت : أعرابىٌّ مجنون والله ، ما أرى فى البيت شيئاً ، فدفعت الباب فخرج الكلب شاردا ، وحاد عنه أبو الأعزّ ساقطا على قفاه ، شائلة رجلاه ؛ وقال : تالله ما رأيت كالليلة هذه ! ما أراه إلا كلبا ، ولو علمت بحاله لولجت عليه[1]

ونظير هذه الحكاية حكاية أبى حيّة النميرىّ ، وكان جبانا ، قيل : كان لأبى حيّة سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق ، كان يسميه لُعاب المنيّة ، فحكَى عنه بعضُ جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة ، وقد انتضاه وهو واقفٌ بباب بيت فى داره ، وقد سمع فيه حِسًّا ، وهو يقول : أيها المغترّ بنا ، المجترىء علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ! خيرٌ قليلٌ وسيف صقيل ؛ لعاب المنيّة الذى سمعتَ به ، مشهورة صولته ، ولا تخاف نبوته. اخرج بالعفو عنك ؛ لا أدخل بالعقوبة عليك ؛ إنى والله إن أدعُ قيسا تملأْ الفضاء عليك خيلا ورجلا . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيبها ؛ والله ما أنت ببعيد من تابعها ، والرسوب فى تيار لجّتها !

قال : وهبت ريحٌ ففتحتِ الباب ؛ فخرج كلب يشتدّ ، فلبِط بأبى حية واربدّ ، وشغر برجليه ، وتبادرت إليه نساء الحى ، فقلن : ياأبا حيّة ، لتفرخ روعتُك؛ إنما هو كلب ؛ فجلس وهو : يقول الحمد لله الذى مسخك كلبا ، وكفانى حربا[2] !

* * *

وخرج مغيرة بن سعيد العِجْلىّ فى ثلاثين رجلا بظهر الكوفة ، فطمطموا[3] ، وخالد بن عبد الله القسرىّ أمير العراق ، يخطب على المنبر فعرِق ، واضطرب وتحيّر ، وجعل يقول : اطعِمُونى ماء ، فهجاه ابن نوفل فقال :

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١٦٨ ، ١٦٩

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٦٨

(٣) الطمطمة : تتابع الأصوات واختلافها .

أخالدُ لاجزاك الله خيراً ... وأيرى فى حِرامك من أميرِ (١)
تروم الفخر فى أعراب قَسْرٍ ... كأنك من سَراة بنى جَريرِ
جرير من ذوى يمنٍ أصيلٌ ... كريم الأصل ذُو خَطرٍ كبيرِ
وأمّك عِلجَةٌ وأبوك وغدٌ ... وما الأذناب عَدْلٌ للصدور !
وكنت لَدَى المغيرة عَبْدَ سَوْءٍ ... تبولُ من المخافة للزئيرِ
لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشيخٍ ... كبير السنّ ليس بذى ضَريرِ (٢)
صرخت من المخافة : أطعمونى ... شراباً ثمّ بُلْتَ على السريرِ

وقال آخر يعيره بذلك :

بلّ المنابرَ من خوف ومن دَهَشٍ ... واستطعم الماء لما جدّ فى الهرَبِ (٣)

ومن كلام ابن المقفع فى ذم الجبن : الجبن مقتلة ، والحرص محرَمة ؛ فانظر فيما رأيت وسمعت : مَنْ قُتل فى الحرب مقبلاً أكثر أم مَنْ قتل مدبرا ! وانظر مَنْ يطلب إليك بالإجمال والتكرّم أحقّ أن تَسخوَ نفسُك له بالمطيّة ، أم من يطلب ذلك بالشَّرَهِ والحِرص !

---

(١) من أبيات وردت متفرقة فى البيان والتبيين ٣ : ٢٦٧/٤ : ٢٠٥ ، والحيوان ٢ : ٢٦٧/٤ : ٣٢٢ / ٧ : ٢٠

(٢) أورد المرزبانى هذا البيت فى الموشح ٢٣٥ ، وعده شاهداً على ماق الشعر من التناقض ، قال : فلفظة « ضرير » إنما تستعمل — وهى تصريف من الضر — فى الأكثر الذى لا بصر له ، وقول هذا الشاعر فى هذا الشيخ: إنه ذو بصر وأنه ضرير تناقض من جهة القنية والعدم؛ وذلك أنه كأنه يقول: إن له بصراً ولا بصر له ؛ فهو بصير أعمى .

(٣) البيت أيضاً ليحي بن نوفل ، ذكره الجاحظ فى البيان ١ : ١٢٢ ، وأورد بعده :

وَأَلْحَنُ النَّاسِ كلُّ النَّاسِ قاطبةً ... وكانَ يُولَعُ بالتَّشْديقِ فى الخُطَبِ

(٦٩)

الأصل :

وقال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه :

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : يَارَسُولَ اللهِ ! مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ ! فَقَالَ : أُدْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ : أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي .

قال الرضيّ رحمه الله :

يَعْنِي بالأَوَد الاعوجاج ، وباللَّدَد الخِصام ، وهذا من أفصح الكلام .

* * *

الشرح :

قوله : « ملكتني عيني » من فصيح الكلام ، يريد غلبني النوم .

قوله : « فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله » ، يريد مرّ بي كما تسنَحُ الظِّباء والطير يمرّ بك ، ويعترض لك .

وذا هاهنا بمعنى « الذي » كقوله تعالى : ﴿ مَاذَا تَرَى ﴾[1] ؛ أي ما الذي ترى ، يقول : قلت له : ما الذي لقيتُهُ من أمتك؟ وما هاهنا استفهامية كأيّ ، ويقال ذلك فيما يستعظم أمره ، كقوله سبحانه : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾[2] . و « شرًّا » هاهنا لا يدلّ على أنّ فيه شرًّا ، كقوله : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾[3] لا يدلّ على أنّ في النار خيراً .

---

(١) سورة الصافات ١٠٢ . (٢) سورة القارعة ١ ، ٢ (٣) سورة الفرقان ١٥ .

[خبر مقتل الإمام عليّ كرم الله وجهه]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع مقتله عليه السلام؛ وأصحّ ماورد فى ذلك ماذكره أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " (١) .

قال أبو الفرج علىّ بن الحسين - بعدَ أسانيد ذكرها مختلفة متفرّقة، تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه : إنّ نَفَراً من الخوارج اجتمعوا بمكّة فتذاكروا أمرَ المسلمين، فعابوهم وعابوا أعمالهم عليهم، وذكروا أهل النّهروان، فترحّموا عليهم، وقال بعضهم لبعض : لو أنّا شَرَيْنا أنفسَنا لله عزّ وجلّ فأتينا أئمةَ الضّلال، وطلبنا غِرّتَهم، وأرحْنا منهم العباد والبلاد، وثأرنا بإخواننا الشّهداء بالنهروان !

فتعاقدوا عند انقضاء الحجّ ، فقال عبد الرحمن بن ملجَم : أنا أكفيكُمْ عليًّا، وقال واحد: أنا أكفيكم معاوية، وقال الثالث: أنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاقدوا وتواثقوا على الوفاء ، وألّا ينكِل أحد منهم عن صاحبه الذى يتوجّه إليه ولا عن قتله ، واتّعدوا لشَهْر رمضان ، فى الليلة التى قتَل فيها ابنُ ملجم عليًّا .

قال أبو الفرج : قال أبو مخنف: قال أبو زهير العبسىّ: الرجلان الآخران البُرَك بن عبدالله التميمىّ، وهو صاحب معاوية، وعمرو بن بكر التميمىّ، وهو صاحب عمرو بن العاص.

قال : فأما صاحبُ معاوية فإنّه قصده ، فلما وقعت عينُه عليه ضربه ، فوقعت ضربته على أليته ، وأخِذ فجاء الطبيب إليه؛ فنظر إلى الضربة فقال: إنّ السيفَ مسموم؛ فاخترْ إمّا أن أحمِيَ لك حديدةً فأجعلَها فى الضربة [فتبرأ] (٢) ، وإما أن أسقيَك دواء فتبرأ وينقطع نسلُك. فقال: أمّا النار فلا أطيقُها، وأما النسل ففى يزيد وعبدالله ماتقرّ عينى، وحسبى بهما. فسقاه الدواء فعوفى وعالج جُرحَه حتى التأم ، ولم يولَد له بعد ذلك .

(١) مقاتل الطالبيين ص ٢٩ وما بعدها .
(٢) من مقاتل الطالبيين .

وقال له البُرَك بن عبدالله : إنّ لك عندى بشارةً ؛ قال : وماهى ؟ فأخبره خبرَ صاحبه؛ وقال له: إنّ عليا قُتل فى هذه الليلة فاحتبسْنى عندك،فإن قتِل فأنت ولىّ ماتراه فى أمرى، وإن لم يقتَل أعطيتك العهود والمواثيق أنْ أمضِىَ إليه فأقتلَه ، ثم أعود إليك فأضع يدى فى يدك ، حتى تحكم فىّ بما ترى. فحبسه عنده ، فلما أتى الخبرُ أنّ عليا قُتِل فى تلك الليلة خلّى سبيله .

هذه رواية إسماعيل بن راشد . وقال غيره من الرواة : بل قتله من وقته .

وأما صاحبُ عمرو بن العاص ، فإنه وافاه فى تلك الليلة ، وقد وجد علّة فأخذ دواء، واستخلَف رجلاً يصلّى بالناس، يقال له خارجة بن أبى حبيبة،أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فخرج للصلاة،فشدّ عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته[1]،وأخِذَ الرجل،فأُتِىَ به عمرو بن العاص فقتله،ودخل من غد إلى خارجة وهو يجودُ بنفسه؛فقال:أما والله ياأبا عبدالله ما أراد غيرك.

قال عمرو : ولكنّ الله أراد خارجة .

وأما ابن مُلجَم فإنه قتَل عليًا تلك الليلة .

قال أبو الفرج : وحدثنى محمد بن الحسن الأشناندانىّ وغيره،قال : أخبرنى علىّ بن المنذر الطريقىّ ، قال: حدثنا ابنُ فُضيل ، قال : حدثنا فِطْر[2]، عن أبى الطُّفَيل،قال : جمع علىّ عليه السلامُ الناسَ للبيْعة ، فجاء عبدالرحمن بن ملجَم فردّه علىّ مرتين أو ثلاثا ، ثم مد يدَه فبايعه،فقال له علىّ:مايحبس أشقاها ! فوالذى نفسى بيده لتَخضِبَنّ هذه من هذه، ثم أنشد :

اشْدُدْ حيازيمك للموْ ت فإنّ الموت لاقيكا
ولا تجزع من المو ت إذَا حلّ بواديكا

قال أبو الفرج :

(١) أثبته : أى جرحه .
(٢) فى الأصول : « فطن » ، تصحيف ، صوابه من مقاتل الطالبيين ؛ وهو فطر بن خليفة المخزومى، ذكره صاحب التهذيب فيمن روى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة .

وقد روى لنا من طرق غير هذه ، أن علياً أعطى الناس ، فلما بلغ ابنَ ملجمٍ أعطاه ، وقال له :

أريــــدُ حياتَهُ ويُريدُ قتلى   عذيرَكَ من خليلِك من مُرَادِ[1]

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد بن عيسى العِجْلىّ بإسناد ذكره فى الكتاب ، إلى أبى زهير العبسىّ ، قال : كان ابن ملجَم من مُراد وعدادُه فى كِندة ، فأقبلَ حتى قدم الكوفة ، فلقى بها أصحابه وكتمهم أمره ، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابه عليه بمكة مِنْ قتل أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر ، وزار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بنى تيم الرّباب ، فصادف عنده قَطَام بنت الأخضر ، من بنى تيم الرّباب ـ وكان علىّ قتل أخاها وأباها بالنهروان ، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها ـ فلما رآها شُغِف بها ، واشتدّ إعجابه فخطبها ، فقالت له : ما الذى تُسَمِّى لى من الصداق ؟ فقال : احتكمِى مابدَا لك ، فقالت : أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفا وخادما ، وأن تقتلَ علىّ بن أبى طالب . فقال لها : لك جميعُ ما سألتِ ، وأما قتلُ علىّ فأنَّى لى بذلك ! قالت : تلتمس غِرّته ، فإن أنت قتلتَه شفيتَ نفسى ؛ وهنَأك العيش معى ؛ وإن قُتِلْت فما عند الله خير لك من الدنيا ، فقال لها : أما والله ما أقدمنى هذا المصرَ ، وقد كنت هاربا منه لآمن أهلَه ، إلا ما سألتِنى من قتل علىّ .

قالت له : فأنا طالبة لك بعض مَنْ يساعدك على هذا ويقوِّيك ، ثم بعثت إلى وردان ابن مجالد ، أحد بنى تَيم الرّباب ، فخبّرته الخبر ، وسألته معاونة ابن مُلْجَم ، فتحمَّل لها ذلك ، وخرج ابن مُلْجَم ، فأتى رجلاً من أشْجع ، يقال له شَبِيب بن بَجَرة ، وقال له : ياشبيب ؛ هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : تساعِدُنى على قتل علىّ ـ وكان شبيبٌ على رأى الخوارج ـ فقال له : هبِلَتْك الهَبُول[2] ! لقد جئتَ شيئا إدًّا ! وكيف تقدِر ويحك على ذلك ! قال ابن ملجم : نكمن له فى المسجِد الأعظم ؟

---

(١) البيت لعمرو بن معديكرب ، اللآلى ١٣٨ ، وروايته هناك : « أريد حباءه » .
(٢) الهبل : الثكل ، والهبول : المرأة الثكول .

فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به ، وشفينا أنفسنا منه ، وأدركنا ثأرنا . فلم يزل به حتى أجابه .

فأقبل به حتى دخلا على قَطَامِ ، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم ، قد ضُرِبت لها قبة ، فقالا لها : قد أجمع رأينا على قتلِ هذا الرجل ، قالت لهما : فإذا أردتما ذلك فالقيانى فى هذا الموضع . فانصرفا من عندها ، فلبثا أياماً ثم أتياها ، ومعهما وردان بن مجالد ، الذى كلَّفَتْه مساعدةَ ابن مُلْجَم ؛ وذلك فى ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين .

قال أبو الفرج : هكذا فى رواية ابن مخنف ، وفى رواية(١) أبى عبد الرحمن السُّلَمىّ أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، فقال لها ابن ملجَم : هذه الليلة هى التى وعدتُ فيها صاحبىّ وعدَانى أن يقتلَ كلٌّ واحدٍ منا صاحبَه الذى يتوجَّه إليه .

قلت : إنما تواعدُوا بمكة : عبد الرحمن ، والبُرَك ، وعَمْرو ؛ على هذه الليلة ؛ لأنهم يعتقدون أن قتل ولاة الجوْر قُربة إلى الله ، وأحرَى القُربات ما تُقُرِّب به فى الأوقات الشريفة المباركة .

ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة ، يُرجَى أن تكون ليلة القَدْر ، عيّنوها لفعل ما يعتقدونه قُربةً إلى الله ؛ فليَعْجَب المتعجِّب من العقائد ، كيف تسرِى فى القلوب ، وتغلب على العقول ، حتى يرتكب الناسُ عظائمَ الأمور ، وأهوال الخطوب لأجلها !

(٢)قال أبو الفرج : فدعت لهم بحرير فعصبتْ به صدورَهم ، وتقلدوا سيوفهم ، ومضَوْا فجلسوا مقابل السُّدّة التى كان يخرج منها على عليه السلام إلى الصلاة(٢) .

***

(١) ا ، ج ومقاتل الطالبيين: « حديث » .

(٢ ـ ٢) ساقط من ب ، وهو فى ا ، و ج ومقاتل الطالبيين .

قال أبو الفرج : وقد كان ابن ملجم أتى الأشعثَ بن قيس فى هذه الليلة ، فخلا به فى بعض نواحى المسجد ، ومرّ بهما حُجْر بن عدىّ ، فسمع الأشعثَ وهو يقول لابن ملجم : النَّجاءَ النَّجاء بحاجتك ! فقد فضحَك الصبح ، قال له حُجْر : قتلتَه يا أعور ! وخرج مبادراً إلى علىّ(١) ، وقد سبقه ابنُ ملجَم فضربه(٢) ، فأقبل حُجْر والناس يقولون : قُتِل أمير المؤمنين

قال أبو الفرج : وللأشعث بن قيس فى انحرافِه عن أمير المؤمنين أخبارٌ يطول شرحها ، منها حديثٌ حدّثنيه محمد بن الحسين الأشناندانىّ ، قال : حدثنى إسماعيل بن موسى : قال : حدثنا علىّ بن مسهر ، عن الأجلح ، عن موسى بن أبى النعمان قال : جاء الأشعثُ إلى علىّ يستأذِن عليه ، فردّه قَنبَر ، فأدْمَى الأشعثُ أنفه ، فخرج علىّ وهو يقول : مالى ولك يا أشعث ! أما والله لو بعبد ثقيف تمرّست لاقشعرّتْ شعيراتك ! قيل : يا أمير المؤمنين ، ومَنْ عبد ثقيف ؟ قال : غلامٌ لهم لا يبقِى أهلَ بيتٍ من العرب إلا أدخلهم ذلاًّ ، قيل : يا أمير المؤمنين ، كم يَلِى ـ أو كم يمكث ؟ قال : عشرين ، إن بلغها .

قال أبو الفرج : وحدّثنى محمد بن الحسين أيضا بإسناد ذكره ، أنّ الأشعث دخل عَلَى علىّ فكلمه فأغلظ علىّ له ، فعرّض له الأشعث ؛ أنه سيفتك به ، فقال له علىّ : أبالموتِ تخوّفنى أو تهدّدنى ! فوالله ما أبالِى وقعتُ علَى الموتِ أو وقعَ الموتُ علىّ !

قال أبو الفرج : قال أبو مِخْنف : فحدّثنى أبى ، عن عبد الله بن محمد الأزدىّ ، قال : إنّى لأصلِّى تلك الليلةَ فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المِصر ، كانوا يصلّون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ؛ إذ نظرتُ إلى رجالٍ يصلّون قريبا من السُّدّة قياما وقعودا ، وركوعا وسجودا ، ما يسأمون ؛ إذ خرج عليهم علىّ بن أبى طالب الفجر ، فأقبل ينادى : الصلاة الصلاة ! فرأيتُ بريقَ السيف ، وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله يا علىّ لا لك ،

---

(١) بعدها فى مقاتل الطالبيين : « وأسرج دابته » .
(٢) فى مقاتل الطالبيين : « فضرب علياً » .

ثم رأيت بريقَ سيف آخر ، وسمعت صوتَ عليٍّ عليه السلام ، يقول : لا يفوتنّكم الرجل.

قال أبو الفرج : فأما بريقُ السيف الأول ، فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه ، ووقعت ضربته فى الطّاق ، وأما بريق السيف الثانى ، فإنه ابن ملجم، ضرَبه فأثبت الضربة فى وسط رأسه ، وشدّ الناس عليهما من كلّ ناحية ، حتى أخذوهما [1].

قال أبو مخنف : فهمْدان تذكُر أنّ رجلا منهم ، يكنى أبا أدماء أخذ ابنَ ملجم . وقال غيرهم : بل أخذَهُ المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ، طرحَ عليه قطيفة ثم صرَعه ، وأخذ السيف من يده وجاء به .

قال : وأما شبيب بن بجرة فإنه خرج هاربا ، فأخذه رجلٌ فصرَعه ، وجلس على صدره ، [2]وأخذ السيف من يده ليقتله، فرأى الناسَ يقصدون نحوه ، فخشىَ أن يعجلوا عليه، فوثب عن صدره [2] ، وخلّاه وطرح السيف عن يده ؛ وأمّا شبيب بن بجرة ففاته ، فخرج هاربا حتى دخلَ منزله ، فدخل عليه ابن عمٍّ له ، [3]فرآه يحلّ الحرير عن صدره ، فقال له[3] : ماهذا ؟ لعلّك قتلت أمير المؤمنين ! فأراد أن يقول: لا، فقال : نعم ، فمضى ابنُ عمّه فاشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله .

قال أبو مخنف : فحدّثنى أبى ، عن عبد الله بن محمد الأزدىّ ، قال : أُدخِلَ ابنُ ملجم على علىّ عليه السلام ، ودخلتُ عليه فيمن دخَل ، فسمعت عليا يقول : النّفس بالنفس ؛ إن أنا متّ فاقتلوه كما قتلنى ، وإن سَلِمْتُ رأيت فيه رأيى ؛ فقال ابن ملجم : ولقد اشتريتُه بألف ـ يعنى السيف ـ ، وسمّمْته بألف ، فإن خاننى فأبعده الله ! قال : فنادته أمّ كلثوم : ياعدوّ الله ، قتلتَ أمير المؤمنين ! قال إنما قتلت أباك ، قالت : ياعدوّ الله ؛ إنى لأرجو

---

(١) مقاتل الطالبيين : « عليه من كل ناحية حتى أخذوه » .

(٢ ـ ٢) ساقط من ا ، ج ، وهو فى مقاتل الطالبيين .

(٣ ـ ٣) ساقط من ا ، ب ، وهو فى مقاتل الطالبيين .

ألا يكون عليه بأس ، قال : فأراك إنما تبكين عليًّا إذًا والله لقد ضربتُه ضربة لو قسِمَت بين أهل الأرض لأهلكتهم .

قال أبو الفرج : وأخرج ابن ملجم من بين يديه ، وهو يقول (١) :

نَحْنُ ضَرَبْنَا يا بنةَ الخيرِ إذ طَغَى ... أبا حسنٍ مأمومةً فتفطّرا (٢)
ونحن حَلَلْنَا ملكه من نظامِه ... بضربةِ سيفٍ إذ علا وتَجَبَّرا
ونحن كرامٌ في الصَّباحِ أعزةٌ ... إذا المرء بالموتِ ارتدى وتأزرا

قال : وانصرفَ النّاسُ من صلاة الصبح ، فأحدَقُوا بابن ملجم ، ينهشُون لحمه بأسنانهم كأنّهم السباع ، ويقولون : ياعدوّ الله ، ماذا صنَعت ! أهلكت أمةَ محمد ، وقتلت خيرَ الناس ! وإنه لصامت ما ينطِق .

قال أبو الفرج: وروى أبو مِخْنَف، عن أبي الطُّفَيل، أنّ صعصعة بن صُوحان، استأذَنَ على عليّ عليه السلام، وقد أتاه عائدًا لما ضربه ابن ملجم - فلم يكن عليه إذْنٌ - فقال صعصعة للآذن : قلْ له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حيًّا وميتا ، فلقد كان الله في صدرك عظيما ، ولقد كنت بذات الله عليما . فأبلغه الآذِنُ مقالتَه، فقال : قل له: وأنت يرحمك الله ،فلقد كنتَ خفيف المؤنة ، كثير المعونة .

قال أبو الفرج : ثم جُمع له أطباء الكوفة ، فلم يكن منهم أحدٌ أعلم بجُرحه من أثير بن عمرو بن هانئ السَّكونيّ - وكان متطبِّبا صاحب كرسيّ يعالج الجراحات، وكان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد ابن الوليد أصابهم في عين التمر فسباهم - فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارّة ، فاستخرج منها عِرْقًا ، وأدخله في الجرح ، ثم نفخه ، ثم

---

(١) الأبيات في المؤتلف والمختلف للآمدي ٢٨٥ ، ونسبها إلى ابن ميناس . قال : وميناس أمه .
(٢) المأمومة : الشجة تبلغ أم الرأس .

استخرجه ، وإذا عليه بياض الدِّماغ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اعهَد عهدَك ؛ فإنّ عدوّ الله قد وصلتْ ضربتُه إلى أمّ رأسك . فدعا عليٌّ عليه السلام عندذلك بدواة وصحيفة، وكتب وصيّته : هذا ما أوصى به أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب ؛ أوصى بأنه يشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدّين كله ولو كره المشركون ؛ صلوات الله وبركاته عليه ؛ إن صلاتي ونُسُكِي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين ، لاشريك له، وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . أوصيك ياحسن وجميعَ ولدى وأهل بيتى ومَنْ بلغه كتابى هذا بتقوى الله ربّنا وربكم ، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ، فإنى سمعتُ رسول الله يقول : « صلاح ذات البين أفضلُ من عامة الصلاة والصيام ، وإن المبيرة حالقة الدين إفساد ذات البين ، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم . انظروا إلى ذوى أرحامكم فصِلُوها يهوّن الله عليكم الحساب . واللهَ اللهَ فى الأيتام فلا تُغِبّنّ أفواههم بجفوتكم . والله الله فى جيرانكم ، فإنها وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فما زال يُوصينا بهم حتى ظننّا أنه سيورّثهم الله ؛ واللهَ اللهَ فى القرآن فلا يسبقنّكم بالعمل به غيرُكم . والله الله فى الصلاة ، فإنها عماد دينكم . والله الله فى صيام شهر رمضان فإنه جُنّة من النار . واللهَ اللهَ فى الجهاد بأموالكم وأنفسكم ، والله الله فى زكاة أموالكم ، فإنها تطفئْ غضب ربكم ، والله الله فى أهل بيت نبيكم فلا يظلَمُنّ بين أظهركم ، والله الله فى أصحاب نبيّكم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصَى بهم . والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم . والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال : « أوصيكم بالضّعيفين ؛ فيما ملكت أيمانكم » ، ثم الصلاةَ الصلاةَ لا تخافوا فى الله لومة لائم يكفكم مَنْ بغى عليكم ، ومن أرادكم بسوء . قولُوا للناس حسنا ، كما أمركم الله به ، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر فيتولّى ذلك غيرُكم ، وتدعون فلا يستجابُ لكم . عليكم بالتواضُع والتباذل والتبارّ ، وإياكم والتقاطُع والتفرّق

والتدابر ، تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيَّه ؛ أستودعكم الله خير مستودَع ، وعليكم سلام الله ورحمته .

قلت : قوله : « والله الله في الأيتام ، فلا تغبّرنّ أفواههم بجفوتكم » يحتمل تفسيرين : أحدُهما لا تجيعوهم ؛ فإن الجائع يخلُف فمه ، وتتغيّر نكهته . والثاني : لا تحوجوهُم إلى تكرار الطلب والسؤال ، فإنّ السائل ينضبُ ريقه وتتشقَّف لهواته ، ويتغيّر ريح فمه .

وقوله حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم » ، يعني به الحيوان الناطق والحيوان الأعجم .

قال أبو الفرج : وحدثني أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ بإسناد ذكره في الكتاب ، عن أبي عبد الرحمن السلميّ ، قال : قال لي الحسن بن عليّ عليه السلام : خرجتُ وأبي يصلّي في المسجد ، فقال لي : يابنيّ إني بتّ الليلة أوقظ أهلي ، لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع[1] عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، فملكتني عيناي ، فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : يارسول الله ؛ ماذا لقيت من أمّتك من الأوَد[2] واللَّدد ! فقال لي : ادعُ عليهم ؛ فقلت : اللهم أبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي مَنْ هو شرٌّ مني » .

قال الحسن عليه السلام : وجاء ابنُ أبي السّاج ، فآذنه بالصلاة ؛ فخرج فخرجت خَلْفه ، فاعتوره الرجلان ، فأمّا أحدُهما فوقعت ضربته في الطّاق ، وأما الآخر فأثبتها في رأسه .

قال أبو الفرج : قال : حدثني أحمد بن عيسى ، قال : حدّثنا الحسين بن نصر ، قال :

---

(١) مقاتل الطالبيين : « لسبع عشرة » .
(٢) في مقاتل الطالبيين : قال أبو الفرج : الأود : العوج ، واللدد : الخصومات .

حدثنا زيد بن المعدّل ، عن يحيى بن شعيب ، عن أبى مِخنف ، عن فُضَيل بن خـديج ، عن الأسود الـكندىّ والأجلح ؛ قالا ، توفّى علىّ عليه السلام وهو ابن أربع وستين سنة فى عام أربعين من الهجرة ، ليلة لإحدى وعشرين ليلة الأحد مضت من شهر رمضان ، وولِىَ غُسلَه ابنُه الحسن وعبد الله بن العباس ، وكُفِّنَ فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وصلّى عليه ابنُه الحسن ، فـكبّر عليه خمسَ تـكبيرات ، ودُفِن بالرَّحَبة ، مما يلِى أبوابَ كِندة عند صلاة الصبح .

هذه رواية أبى مخنف .

قال أبو الفرج : وحـدّثنى أحمد بن سعيد ، قال : حدثنا يحيى بن الحسن العلوىّ ، قال : حدّثنا يعقوب بن زيد ، عن ابن أبى عُمَير ، عن الحسن بن على الخلال ، عن جدّه ، قال : قلت للحسين(١) بن علىّ عليه السلام : أين دفنتم أمير المؤمنين عليه السلام ؟ قال : خرجنا به ليلا من منزله حتى مَرَرْنا به على منزل الأشعث بن قيس ، ثم خرجنا به إلى الظهر بجنب الغرِىّ .

قلت : وهذه الرواية هى الحقّ وعليها العمل ؛ وقد قلنا فيما تقدّم أن أبناء الناسِ أعرفُ بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذى بالغرىّ ، هو الذى كان بنو علىّ يزورونه قديمًا وحديثًا ؛ ويقولون : هذا قبر أبينا ، لا يشكّ أحد فى ذلك من الشّيعة ، ولا من غيرهم ؛ أعنى بنى علىّ من ظهر الحسن والحسين وغيرهما من سلالته ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، ما زاروا ولا وقفوا إلّا على هذا القبر بعينه .

* * *

وقد روى أبو الفرَج عبد الرحمن بن على بن الجوزىّ فى تاريخه المعروف " بالمنتظم "(٢) وفاة

---

(١) مقاتل الطالبيين : « الحسن » .

(٢) المنتظم ٩ : ١٨٩ .

أبى الغنائم محمد بن على بن ميمون النَّرسىّ (١) المعروف بأبىّ (٢) ، لجودة قراءته قال :

توفى أبو الغنائم هذا فى سنة عشر وخمسمائة ، وكان محدّثاً من أهل الكوفة ثقة حافظاً، وكان من قُوَّام الليل ومن أهل السنّة ، وكان يقول : مابالكوفة مَنْ هو على مذهب أهل السنّة وأصحاب الحديث غيرى ؛ وكان يقول : مات بالكوفة ثلاثمائة صحابىّ ليس قبر أحد منهم معروفا إلا قبر أمير المؤمنين ، وهو هذا القبر الذى يزوره الناس الآن ؛ جاء جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد بن علىّ بن الحسين عليهم السلام إليه ، فزاراه، ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً ، وإنما كان به سَرْح عِضاه ، حتى جاء محمد بن زيد الداعى صاحب الديلم، فأظهر القبر (٣) .

وسألت بعضَ من أثق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عمّا ذكره الخطيب أبو بكر فى تاريخه ، أنّ قوما يقولون : إنّ هذا القبر الذى تزورُه الشيعة إلى جانب الغرىّ هو قبر المغيرة بن شعبة ، فقال : غلطوا فى ذلك ، قبر المغيرة وقبر زياد بالثوية (٤) من أرض الكوفة، ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا. وأنشدنى قولَ الشاعر يرثى زيادا، وقد ذكره أبو تمام فى الحماسة :

صَلّى الإلٰه على قبرٍ وَطَهّرَهُ عند الثوية يَسفِى فوقَه المورُ (٥)

زَفّت إليه قريشٌ نعشَ سيِّدها فالحلم والجودُ فيه اليوم مَقْبُور (٦)

أبا المغيرة والدنيا مفجّعةٌ وإنّ من غَرّتِ الدنيا لمَغْرُور

---

(١) فى الأصول : « الرسىّ » ، وما أثبته عن المنتظم والنجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ .

(٢) أبىّ بن كعب بن قيس سيد القراء .

(٣) فى الأصول : « القيمة » ، وما أثبته من المنتظم .

(٤) الثوية : موضع قريب من الكوفة .

(٥) الأبيات فى الكامل للمبرد ١ : ٢١٧ ، ونسبها إلى حارثة بن بدر ؛ وهى أيضاً فى معجم البلدان ٣ : ٢٨ بهذه النسبة . والمور : التراب ؛ يريد أن الريح تسفيه بالتراب .

(٦) قال المبرد : قوله : « نعش سيدها » يريد موضعه من النسب ؛ لأنه نسبه إلى أبى سفيان ؛ وكان رئيس قريش قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم » .

قـــد كان عندك للمعروف معرفةٌ وكان عنـــــدك للمنكور تنكيرُ
وكنت تُغْشَى وتعطى المَالَ مِنْ سَعَةٍ فاليوم قبرُك أضحى وهو مهجُورُ
والنَّاسُ بعدَكَ قـــد خَفَّتْ حُلُومُهُمُ كأنما نُفِخَتْ فيــه الأعاصيرُ [1]

وسألت قطبَ الدين نقيب الطالبيين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسيّ رحمه الله تعالى عن ذلك ، فقال : صدَق من أخبرك ؛ نحن وأهلها كافّة نعرف مقابر ثقيف إلى الثَّوِيَّة ، وهى إلى اليوم معروفة ، وقبر المغيرة فيها ، إلا أنها لا تعرف ، وقد ابتلعها السَّبَخُ وَزَبَدُ الأرض وفورانُها ، فطمِسَت واختلط بعضها ببعض .

ثم قال : إن شئت أن تتحقّق أنّ قبر المغيرة فى مقابر ثقيف فانظر إلى كتاب الأغانى [2] لأبى الفرج على بن الحسين ، والمحْ ما قاله فى ترجمة المغيرة ، وأنه مدفونٌ فى مقابر ثقيف ، ويكفيك قولُ أبى الفرج ، فإنه الناقد البصير ، والطبيب الخبير ؛ فتصفَّحْتُ ترجمةَ المغيرة فى الكتاب المذكور ، فوجدت الأمر كما قاله النقيب .

***

قال أبو الفرج : كان مصقلةُ بن هبيرة الشيبانى قد لَاحَى المغيرةَ فى شىء كان بينهما منازعة ، فضرعَ له المغيرة وتواضع فى كلامه ، حتى طمع فيه مصقلة ، فاستعلى عليه وشتمه ، وقال : إنّى لأعرفُ شَبَهى فى عروة ابنك ، فأشهد المغيرة على قوله هذا شهوداً ، ثم قدمه إلى شُرَيح القاضى ، فأقام عليه البيِّنة ، فضربه شريح الحدّ وآلى مصقلة ألّا يقيم ببلدة فيها المغيرة ، فلم يدخل الكوفة ، حتى مات المغيرة ، فدخلها ، فتلقاه قومُه فسلّموا عليه ، فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر ثقيف ، فأرشدوه إليها ، فجعل قومٌ من مواليه

---

(١) قال المبرد : « قوله : كأنما نفخت فيه الأعاصير ؛ هذا مثل ؛ وإنما يريد خفة الحلوم . والإعصار ـ فيما ذكر أبو عبيدة ـ ريح تهب بشدة فيما بين السماء والأرض » . هذا ولم أجد الأبيات فى الحماسة .

(٢) انظر الأغانى ١٦ : ٧٩ـ١٠١ .

يلتقطونَ الحجارة ، فقال لهم : ماهذا ؟ فقالوا : نظنّ أنك تريد أن ترجُم قبر المغيرة ،فقال: ألقوا ماقى أيديكم، فانطلق حتى وقف على قبره، ثم قال : والله لقد كنتَ ـ ماعلمت ـ نافعا لصديقك ، ضارًّا لعدوك ، ومامثلك إلا كما قال مهلهل فى كليب أخيه :

إنّ تحتَ الأحجار حَزْماً وعَزْماً وَخصِيماً ألدّ ذا مِغْــــلاقِ[1]

حيّــةٌ فى الوِجار أرْبد لَا يَنــ فعُ منــه السليمَ نفثةُ راقِ

* * *

قال أبو الفرج : فأما ابن ملجم ، فإن الحسن بن علىّ بعد دفنه أمير المؤمنين دَعَا به وأمر بضرب عنقه ، فقال له : إن رأيت أن تأخذ علىّ العهود أن أرجعَ إليك حتى أضعَ يدى فى يدك ، بعد أن أمضىَ إلى الشام ، فأنظر ماصنع صاحبى بمعاوية ، فإن كان قتله وإلا قتلتُه ثم عدت إليك حتى تحكُم فىّ حكمك . فقال : هيهات ، والله لاتشربُ الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار ، ثم ضرب عنقه ، واستوهبت أم الهيثم بنت الأسود النَخَعية جثّتَه منه، فوهبها لها ، فأحرقتها بالنار .

وقال ابن أبى مياس الفزارىّ ، وهو من الخوارج :

فلَمْ أرَ مَهراً ساقَهُ ذُو سماحة كمهر قَطامٍ من غَنىّ ومُعْدِمِ

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقَيْنَةٌ وضربُ علىّ بالحسام المصمّمِ

فلا مهرَ أغلى من علىّ وإن غلا ولافَتْكَ إلادُون فَتْكِ ابن ملجم

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[2]:

وَهزّ علىٌّ بالعراقين لحيــةً مصيبتُهَا جلّت عَلَى كل مُسْلمِ

وقال سيأتِيها من الله نازلٌ ويخضِبُها أشقىَ البَرية بالدم

فعاجَلَهُ بالسيف شَلّتْ يمينُه لشؤم قَطَام عند ذاك ابن مُلْجَم

---

(١) الأغانى ١٦ : ٩٢ ، والمغلاق : اللسان البليغ

(٢) الأبيات فى الاستيعاب ٤٧٢ ، ونسبها ، إلى بكر بن حماد .

فياضربةً من خاسرٍ ضَلَّ سعيُه   تَبَوَّأ منها مقعداً فى جهنمِ
ففاز أميرُ المؤمنين بحظه   وإن طرقت إحدى الليالى بمعظم
ألا إنما الدنيا بلاء وفتنة   حلاوتُها شيبتْ بصابٍ وعلقم

قال أبو الفرج: وأنشدنى عمى الحسن بن محمد، قال: أنشدنى محمد بن سعد، لبعض بنى عبد المطلب، يرثى عليا، ولم يذكر اسمه:

ياقبرَ سيدنا المجنَّ سماحةً   صلَّى الإلهُ عليك ياقبرُ
ماضرَّ قبراً أنت ساكنُهُ   ألاَّ يحلَّ بأرضه القطرُ
فليندينَّ سماحُ كفِّك بالثَّرى   وليورقنَّ بجنبك الصَّخرُ
والله لوبك لم أجِدْ أحداً[1]   إلا قتلت، لفاتنِى الوترُ

---

(١) فى حاشية ج: «لم أدعْ أحداً».

— ٧٠ —

الأصل

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أهل العراق :

أمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قَيِّمُهَا ، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا ، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا .

أَمَا وَاللهِ مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِيَارًا ؛ وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقًا . وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ : عَلِيٌّ[١] يَكْذِبُ ، قَاتَلَكُمُ اللهُ تَعَالَى ! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ ! أَعَلَى اللهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ[٢] بِهِ !

كَلَّا وَاللهِ ؛ لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا ، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا ، وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ : وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ !

* * *

الشرح :

أملصت الحامل: ألقت ولدها سقاطا وقيّمها: بعلها . وتأيّمها: خلوّها عن الأزواج؛ يقول: لما شارفتم استئصالَ أهل الشام ، وظهرت أمارات الظفر لكم ، ودلائل الفتح ، نكصتم وجنحتم إلى السِّلْم والإجابة إلى التحكيم عند رفع المصاحف ؛ فكنتم كالمرأة الحامل لما أتمت أشهرَ حَمْلِها ألقت ولدها إلقاء غير طبيعيّ ؛ نحو أن تلقيَه لسقطة أو ضربة أو عارض يقتضى أن تلقيَه هالكا .

ثم لم يكتف لهم بذلك ، حتى قال: «ومات بعلُها، وطال تأيّمها ، وورثها أبعدها» ، أى لم يكن لها ولد وهو أقربُ المخلفين إلى الميت ، ولم يكن لها بَعْلٌ فورثها الأباعد عنها ،

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج : « صدّقه »

كالسافلين من بنى عمّ ، وكالمولاة تموت من غير ولد ولا من يجرى مجراه ، فيرثها مولاها ولا نَسب بينها وبينه .

ثم أقسم أنه لم يأتهم اختيارا ، ولكنّ المقاديرَ ساقته إليهم سَوْقاً ، يعنى اضطرارا . وصدقَ عليه السلام ، لأنه لولا يوم الجمل لم يحتجْ إلى الخروج من المدينة إلى العراق ، وإنما استنجَد بأهل الكوفة على أهل البصرة ، اضطراراً إليهم ، لأنه لم يكن جيشُه الحجازىّ وافياً بأهل البصرة الذين أصفقوا على حَرْبه ونَكْث بيعته ، ولم يكن خروجه عن المدينة — وهى دار الهجرة — ومفارقته لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقبرِ فاطمة عن إيثارٍ ومحبّة؛ ولكنّ الأحوال تحكم وتسوقُ الناس إلى مالا يختارونه ابتداء .

وقد روى هذا الكلام على وجه آخر : «ماأتيتكم اختياراً ، ولا جئت إليكم شوقاً» بالشين المعجمة .

ثم قال : « بلغنى أنكم تقولون: يكذب»؛ وكان كثيرا مايخبر عن الملاحم والكائنات ويومئ إلى أمور أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول المنافقون من أصحابه : يكذب كما كان المنافقون الأوّلون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون عنه: يكذب.

***

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن الأعمش ، عن رجاله ، قال : خطب على عليه السلام ، فقال :

والله لو أمرتُكم فجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدّثتكم من غُدوة إلى أن تغيب الشمس ؛ لاأخبرتُكم إلا حقّا؛ ثم لتخرُجنّ فلتزعُمنّ أنى أكذَبُ الناس وأفجرُهم.

وقد روى صاحب هذا الكتاب وغيره من الرواة أنه قال :

إن أمرَنا صعب مستصعَب، لايحمله إلا ملك مقرّب، أو نبيّ مرسل، أوعبدٌ امتحن الله قلبَه للإيمان .

وهذا الـكلام منه كلام عارفٍ عالم بأنّ فى الناس مَنْ لا يصدّقه فيا[1] يقول ؛ وهذا أمر مركوز فى الجبلّة البشرية ، وهو استبعاد الأمور الغريبة ، وتـكذيب الإخبار بها . وإذا تأمّلتَ أحواله فى خلافته كلّها وجدتّها هى مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله فى حياته ؛ كأنها نسخة منتسَخة منها ، فى حربه وسِلْمه ، وسيرته وأخلاقه ، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره ؛ وإذا أردت أن تعلم ذلك علما واضحا ، فاقرأ سورة « براءة » ففيها الجمّ الغفير من المعنَى الذى أشرنا إليه .

***

[ذكر مطاعن النَّظّام على الإمام علىّ والردّ عليه]

واعلم أن[2] النظّام لما تكلّم فى كتاب " النُّكت " ، وانتصر لـكون الإجماع ليس بحجّة ، اضطر إلى ذكر عيوب الصحابة ، فذكر لـكلٍّ منهم عيبا ، ووجّه إلى كلّ واحد منهم طعنا ، وقال فى علىّ : إنه لما حارب الخوارج يوم النّهروان ، كان يرفعُ رأسَه إلى السماء تارة ينظر إليها ، ثم يُطرِق إلى الأرض فينظر إليها تارة أخرى ، يُوهِم أصحابَه أنه يُوحَى إليه ، ثم يقول : « ما كذبت ولا كُذِبت » ، فلما فرغ من قتالهم وأُدِيل عليهم ، ووضعت الحرب أوزارها ، قال الحسن ابنه : ياأميرَ المؤمنين ، أكانَ رسول الله صلى الله عليه وآله تقدّم إليك فى أمر هؤلاء بشىء ؟ فقال : لا ، ولـكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَنى بكلّ حقٍّ ، ومن الحقّ أن أقاتلَ النا كثين والقاسطين والمارقين .

قال النّظام[1] : وقولُه : « ما كذَبت ولا كُذِبت » ، ورفعه رأسه أحيانا إلى السماء وإطراقه إلى الأرض إيهام ؛ إما لنزول الوحى عليه ، أو لأنه قد أُوصِىَ من قَبل فى شأن الخوارج بأمرٍ . ثم هو يقول : ما أُوصِىَ فيهم على خصوصيّتهم بأمر ؛ وإنما أُوصِىَ بكلّ الحق ، وقتالهم من الحق .

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « كما » . (٢) هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصرى أبو إسحاق النظام ، أحد أئمة المعتزلة ؛ ذكره ابن حجر فى لسان الميزان ١ : ٦٧ ، وقال إنه « مات فى خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين » .

وهذا عجيب طريف .

فنقول : إن النظام أخطأ عندنا فى تعريضه بهذا الرجل خطأ قبيحاً ، وقال قولًا منكرا ؛ نستغفر الله له من عقابه ، ونسأله عفوه عنه ؛ وليست الرواية التى رواها عن الحسن وسؤالِه لأبيه وجوابه له ، بصحيحة ولا معروفة ، والمشهور المعروف المنقولُ نقلًا يكاد يبلغ درجةَ المتواتر من الأخبار ، ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم ، وقوله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام : « إنَّك مقاتلهم وقاتلهم ، وإن المخدَّج[1] ذا الثُّدَيَّة منهم ؛ وإنك ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين » ؛ فجعلهم أصنافا ثلاثة حسب ماوقعت الحال عليه . وهذا من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، وإخباره عن الغيوب المفصّلة . فما أعلمُ من أىّ كتابٍ نَقَل النظّام هذه الرواية ، ولا عن أىّ مُحَدِّث رواها ؛ ولقد كان رحمه الله تعالى بعيداً عن معرفة الأخبار والسِّيَر منصباً فكره ، مجهدا نفسه فى الأمور النظرية الدقيقة ، كمسألة الجزء . ومداخلة الأجسام وغيرها ، ولم يكن الحديث والسِّيَرُ من فنونه ولا مِن علومه ؛ ولا ريب أنه سمعها ممن لا يوثَق بقوله ، فنقلها كما سمعها .

فأما كونه عليه السلام كان ينظر تارةً إلى السماء ، وتارةً إلى الأرض . وقوله : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، فصحيح وموثوق بنقله ، لاستقامته وشهرته وكثرة رواته ؛ والوجه فى ذلك أنه استبطأ وجود المخدَّج حيث طلبه فى جملة القتلى ، فلما طال الزمان . وأشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدّمه إليهم من الأخبار قَلِق واهتمّ . وجعل يكرر قوله : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » أى ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا كذَبنى رسول الله صلى الله عليه وآله فيما أخبرنى به .

فأمّا رفعُه رأسَه إلى السماء تارةً . وإطراقُه إلى الأرض أخرى ؛ فإنّه حيث كان يرفع

---

(١) المخدج : الناقص اليد .

رأسه، كان يدعُو ويتضرّع إلى الله فى تعجيل الظَّفَرِ بالخَدَع ؛ وحيث يطرِق كان يغلبُه الهمّ والفكر فيُطرق .

ثم حين يقول : « ما كَذَبت ولا كُذِبت » ، كيف ينتظر نزول الوحى ، فإنّ من نزل عليه الوحى لا يحتاج أن يُسند الخبر إلى غيره ، ويقول : ما كَذَبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما طعن به النظّام عليه[1] أنه عليه السلام قال : إذَا حدّثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كما حدّثتكم ، فوالله لأن أخِرّ من السماء أحبُّ إلىّ من أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا سمعتمونى أحدّثكم فيما بينى وبينكم ؛ فإنما الحرب خدعة » .

قال النظّام : هذا يجرِى مجرى التّدليس فى الحديث ، ولو لم يحدّثهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالمعاريض ؛ وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك .

فنقول فى الجواب : إنّ النظّام قد وَهِم وانعكس عليه مقصد أمير المؤمنين؛ وذلك أنه عليه السلام[1] لشدة ورعه أراد أن يفصّل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه، وبين ما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لأنّ الضرورة ربّما تدعوه إلى استعماله للمعاريض، لا سيما فى الحرب المبنيّة على الخديعة والرأى ؛ فقال لهم : كلّما أقول لكم قال لِى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلموا أنه سليمٌ من المعاريض ، خالٍ من الرّمز والكناية ، لأنى لا أستجيز ولا أستحلّ أن أعَمّىَ أو ألغزَ فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما حدّثتكم به عن نفسى ، فربّما أستعمل فيه المعاريض ؛ لأنّ الحرب خُدْعة .

---

(١) ا ، ج : « رضى الله عنه » .

وهذا كلام رجل قد استعمل التقوى والوَرَع فى جميع أموره ، وبلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وإجلال قدره واحترام حديثه ألّا يرويَه إلّا بألفاظه لا بمعانيه، ولا بأمرٍ يقتضى فيه إلباساً وتعميةً ، ولو كان مضطرا إلى ذلك ؛ ترجيحاً للجانب الذى على جانب مصلحته فى خاصّ نفسه . فأمّا إذا هو قال كلاما يبتدئ به من نفسه ، فإنه قد يستعمِلُ فيه المعاريضَ إذا اقتضتِ الحكمةُ والتدبير ذلك ؛ فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله باتفاق الرواةِ كافّةً إذا أراد أن يغزُوَ وجهاً ورّى عنه بغيره ، ولمّا خرج عليه السلام من المدينة لفتح مكةَ ، قال لأصحابه كلاما يقتضى أنه يقصِد بنى بكر بن عبد مناة من كنانة ، فلم يعلمُوا حقيقة حالِه حتى شارفَ مكةَ . وقال حين هاجَر وصحِبَه أبو بكر الصّديق لأعرابىّ لقيهما : منْ أينَ أنت ؟ وممن أنت ؟ فلما انتسبَ لهما ، قال له الأعرابىّ : أمّا أنا فقد أطلعتُكُما طِلْعَ أمرِى ؛ فممن أنت ؟ فقال : من ماء ، لم يزده على ذلك ؛ فجعل الأعرابىّ يفكّر ، ويقول : من أىّ ماء ؟ من ماء بنى فلان ، من ماء بنى فلان ؟ فتركه ولم يفسّر له ؛ وإنما أراد عليه السلام أنه مخلوقٌ من نطفة .

فأما قول النّظام : « لو لم يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالمعاريضِ لما اعتذرَ من ذلك » ؛ فليس فى كلامه اعتذار ؛ ولكنه نفى أن يُدْخِلَ المعاريض فى روايته؛ وأجازها فيما يبتدئُ به عن نفسه ؛ وليس يتضمّن هذا اعتذارا . وقوله : « لأنْ أخِرّ من السماء » يدلّ على أنّه مافعل ذلك ولا يفعله .

***

ثم قال : « عَلَى مَنْ أكذِب؟» يقول : كيف أكذب على الله وأنا أوّل المؤمنين به ؟ وكيف أكذب على رسول الله وأنا أول المصدّقين به ! أخرجه مخرج الاستبعاد لدعواهم وزعمهم.

فإن قلت : كيف يمكنُ أن يكونَ للمكلّف الذى هو من أتباع الرسول كاذبا على الله إلا بواسطة إخبارِه عن الرسول ؛ لأنه لا وصلةَ ولا واسطة بينه وبين الله تعالى إلا الرسول؛

وإذا لم يمكن كَذِبُه على الله إلا بكذبه على الرسول لم يَبْق لتقسيم الكذب وقوله : « أفأنا أكذب على الله أو على رسوله ؟ » معنى [(١)] .

قلت : يمكن أن يكذِب الكاذب على الله دون أن يكونَ كاذبًا على الرسول ؛ وإن كان من أتباع الرسول ؛ نحو أن يقول : كنت مع الرسول صلى الله عليه وآله ليلةً في مقبرة فأحيا الله تعالى فلانا الميت ؛ فقام وقال كذا . أو يقول : كنت معه يوم كذا ؛ فسمعت مناديًا يناديه من السماء : افعل كذا ، أو نحو ذلك من الإخبار بأمورٍ لا تستند إلى حديث الرسول .

* * *

ثم قال عليه السلام [(٢)] : « كلّا والله » ، أي لا والله . وقيل : إن « كلّا » بمعنى « حقًّا » وإنه إثبات .

قال : « ولكنها لهجة غِبْتُم عنها » ، اللهجة ، بفتح الجيم ؛ وهي آلة النطق ؛ يقال له : هو فصيح اللهجة ، وصادق اللهجة . ويمكن أن يعني بها لهجة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول : « شهدت وغبتم » . ويمكن أن يعني بها لهجته هو ؛ فيقول : إنها لهجة غبتم عن منافعها ، وأعدمتم أنفسكم ثمن مناصحتها .

ثم قال : « ويلمّه » الضمير راجع إلى مادلّ عليه معنى الكلام من العلم ؛ لأنّه لما ذكر اللُّهجة وشهودَه إياها وغُيُوبتهم عنها دلّ ذلك على علمٍ له خصّه به الرسول عليه السلام . فقال : « ويلمّه » ، وهذه كلمة تقال للتعجّب والاستعظام ؛ يقال : « ويلمّه فارساً ! » وتكتب موصولة كما هي بهذه الصورة ، وأصله « ويل أمّه » مرادهم التعظيم والمدح ، وإن كان اللفظ موضوعا لضدّ ذلك ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « فاظفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك » ، وكقولهم للرجل يصفونه ويقرّظونه : « لا أبا له » .

وقال الحسن البصريّ ؛ وهو يذكر عليًّا عليه السلام ، ويصف كونه على الحقّ

---

(١) ساقطة من ا ، ب وهي في ج

(٢) ج : « رضي الله عنه » .

فى جميع أموره ؛ حتى قال: « فلما شارف الظَّفرَ وافق على التحكيم ، ومالَكَ فى التحكيم والحقّ فى يديك ، لا أبا لك ! » .

قال أبو العباس المبرّد : هى[1] كلمة فيها جفاء وخشونة ؛ كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمرَه ، قال : ولما أنشِدَ سليمانُ بن عبد الملك قول بعض الأعراب :

رَبُّ العِبادِ مالَنَـا ومالَـكا قد كنتَ تسقِينا فما بَدَا لَـكا

* أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبا لَـكا *

قال : أشهدُ أنه لا أبَ له ولا صاحبةَ ولا ولد ، فأخرجها أحسن مخرج .

ثم قال عليه السلام : « كيْلًا بغير ثمن لو كان له وعاء » ، انتصب « كيلا » لأنه مصدر فى موضع الحال ، ويمكن أن ينتصب على التمييز ، كقولهم : لله دره فارسا ! يقول : أنا أكِيلُ لكم العلم والحكمة كيْلا ولا أطلب لذلك ثمنا لو وجدت وعاء ! أى حاملا للعلم ؛ وهذا مثل قوله عليه السلام : ها إنّ بين جنبيّ علما جمّا لو أجِد له حَمَلَةً !

ثم ختم الفصلَ بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ؛ وهو أحسن ما خُتِمَ هذا الكلام به .

[خطبة الإمام علىّ بعد يوم النَّهْرَوَان]

وروى المدائنىّ فى كتاب « صِفّين » ، قال : خطب علىّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النَّهروان ، فذكر طَرَفاً من الملاحم ، قال :

إذا كثُرَتْ فيكم الأخلاطُ ، واستولَتِ الأنباطُ ؛ دنَا خَرابُ العراق ؛ ذاك إذا بُنيَتْ مدينة ذات أثْلٍ وأنهار . فإذا غلت فيها الأسْعار ، وشُيِّدَ فيها البنيانُ ، وحَكم فيها الفُسّاق ، واشتدَّ البَلاءُ ، وتفَاخَر الغوغاء ؛ دنَا خُسوف البَيْدَاء ، وطاب الهَرَبُ والجلاء .

وستكونُ قبلَ الجلاء أمورٌ يشيبُ منها الصَّغير ، ويَعْطَبُ الكبير ، ويخرَس الفصيح

---

(١) الكامل ص ٣ : ٢١٦

وَ ينهتَ الأيبِ؛ يعاجَلون بالسيف صَلْتا، وقد كانوا قبل ذلك في غضارة من عَيْشهم يَمْرحُون. فيالَها مصيبة حينئذ ! من البلاء العقيم، والبُكاء الطويل، والويل والعويل، وشدّةِ الصَّريخ؛ في ذلك أمرُ الله - وَهُوَ كائن، وقتا - بريج[1]. فيابنَ حُرّة[2] الإماء، متى تَنْتَظِرُ ! أبشِرْ بنصرٍ قريبٍ مِنْ رَبٍّ رحيم. ألا فويلٌ للمتكبِّرين؛ عند حصاد الحاصدين، وقتل الفاسِقين. عصاة ذي العرش العظيم ؛ فبأبي وأمّي من عدة قليلة ! أسماؤهم في الأرض مجهولة . قد دنا حينئذ ظهورُهم ، ولو شئت لأخبرتُكم بما يأتي ويكون مِنْ حَوادث دَهْرِكُمْ ونوائب زمانكم ، وبلايا أيامكم ، وغَمَرَات ساعاتكم ، ولكنّه أفضيه إلى مَنْ أفضيه إليه ، مخافة عليكم ، ونظرا لكم ؛ علما مني بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل ؛ ذلك عند تمرّد الأشرار، وطاعة أولي الخسار. ذاك أوانُ الحَتْفِ والدمار، ذاك إدبار أمركم، وانقطاع أصلكم وتشتُّتِ ألفتكم ؛ وإنما يكون ذلك عند ظُهور العصيان ، وانتشار الفُسوق ؛ حيثُ يكون الضربُ بالسَّيفِ أهونَ على المؤمنين من اكتساب درهمٍ حلال ؛ حينَ لا تُنالُ المعيشَةُ إلّا بمعصية الله في سمائه ، حينَ تَسْكَرُونَ من غير شراب ، وتحلفون من غير اضطرار ، وتظلمون مِنْ غير منفعة ، وتكذبون من غير إحراج . تتفكّهون بالفسوق ، وتبادرون بالمعصية . قولُكم البهتان ، وحديثكم الزور ، وأعمالكم الغرور ؛ فعندَ ذلك لا تأمنون البيَات ، فياله من بياتٍ ما أشدّ ظلمته ! ومن صائح ما أفظع صوته ! ذلك بيات لا يَنْجي صاحِبُه ؛ فعند ذلك تُقتلون ، وبأنواع البلاء تُضرَبُون ، وبالسَّيف تحصَدُون ، وإلى النار تصيرون ، ويعضّكم البلاء كما يعضّ الغاربَ القَتَبُ[3] . ياعجبا كلَّ العجب ، بين جُمادَى ورَجَب ! من جمع أشتاتٍ ، وحصْدِ نبات ، ومن أصوات بعدها أصوات .

ثم قال : سبق القضاء .. سبق القضاء !

---

(١) كذا وردت العبارة في الأصول ، وفيها غموض .

(٢) كذا في ب ، وفي ج : « خرت الإماء » ، وفي ا كلمة غير واضحة .

(٣) الغارب هنا : كاهل البعير . والقتب : رحل صغير على قدر السنام ؛ والكلام هنا جار على المثل .

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه: أشهدُ أنه كاذب على الله ورسوله! قال الكوفيّ: وما يُدريك؟ قال: فوالله ما نزل عليّ من المنبر حتى فُلِج الرجل، فحُمِل إلى منزله في شِقّ محمل، فمات من ليلته.

***

[من خطب الإمام عليّ أيضاً]

وروى المدائنيّ أيضا، قال: خطب عليّ عليه السلام[1]، فقال: لو كُسِرَتْ لي الوِسادة لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهلِ الفرقان بفرقانهم، وما مِنْ آية في كتاب الله أُنزلتْ في سهلٍ أو جبل إلا وأنا عالم مَتَى أُنزلت، وفيمن أُنزلت.

فقال رجل من القُعود تحت مِنبره: يالله وللدّعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله ربّ العالمين!

قال المدائنيّ: فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه!

***

وروى المدائني أيضاً، قال: خطب عليّ عليه السلام[1]، فذكر الملاحم، فقال: سلوني قبل أن تفقِدوني، أما والله لَتَشْغَرَنّ الفتنة الصّماء برجلِها، وتطأ في خِطامها. يالها من فِتنة[2] شُبّت نارها بالحطب الجزْل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية ويلَها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا استدارَ الفلَك، وقلتم: مات أو هلك، بأيّ واد سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذبا!

***

وروى صاحب كتاب "الغارات" عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث،

---

(١) ح: «رضي الله عنه».

(٢) ج: «فتنة» تصحيف.

قال : سمعت عليًا يقول على المنبر : ما أحدٌ جَرَتْ عليه المواسِى إلّا وقد أنزل الله فيه قرآنا ؛ فقام إليه رجل ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، فما أنزل الله تعالى فيك ؟ قال : يريد تـكذيبه . فقام الناس إليه يلـكزونه فى صدره وجنبه ، فقال : دعوه ، أقرأت سورة هود ؟ قال نعم، قال: أقرأت قوله سبحانه :﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾[1] قال: نعم ، قال :صاحب البينة محمد ،والتالى الشاهد أنا .

(١) سورة هود ١٧

(٧١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام علّم فيها الناس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله :

اللَّهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَاتِهَا[1] شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا؛ اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ. الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ. كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ، غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ. مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ؛ حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ وَالْآثَامِ[2]. وَأَقَامَ بِمُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ وَنَيِّرَاتِ الْأَحْكَامِ؛ فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ، وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ.

اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ؛ وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ.

اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَاجْزِهِ مِنِ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ؛ مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ.

اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ.

* * *

(١) مخطوطة النهج : « فطرتها »

(٢) مخطوطة النهج : « بالأثم » .

الشرح :

دَحَوْتُ الرَّغيف دَحْواً : بسطته ؛ والمدحُوّات هنا : الأرضون .

فإن قلت : قد ثبت أنّ الأرض كُرِيّة ؛ فكيف تكون بسيطة، والبسيط هو المسطّح، والكُرِيّ لا يكون مسطحا ؟

قلت : الأرض بجملتها شكل كرة ؛ وذلك لا يمنع أن تكون كلّ قطعة منها مبسوطة تصلح لأن تكون مستقرا ومجالا للبشر وغيرهم من الحيوان ؛ فإنّ المراد بانبساطها هاهنا ليس هو السطح الحقيقيّ الذي لا يوجد في الكرة، بل كون كلّ قطعة منها صالحة لأن يتصرّف عليها الحيوان لا يعنى به غير ذلك .

وداحي المدحُوّات، ينتصب لأنه منادى مضاف، تقديره : ياباسط الأرضين المبسوطات.

قوله : « وداعم المسموكات » ، أي حافظ السموات المرفوعات ؛ دعمتُ الشيء إذا حفظته من الهُوِيّ بدِعامة ، والمسموك : المرفوع ، قال :

إنّ الذي سَمَكَ السّماءَ بَنَى لَنَا ... بيتا دعائمه أعزُّ وأطولُ[1]

ويجوز أن يكون عنَى بكونها مسموكة كونَها ثخينة . وسُمْك الجسم هو البعد الذي يعبّر عنه المتكلّمون بالعمق وهو قسيم الطول والعرض، ولا شيء أعظم ثخنا من الأفلاك.

فإن قلتَ : كيف قال : إنه تعالى دعمَ السموات وهي بغير عَمد ؟

قلت : إذا كان حافظاً لها من الهويّ بقدرته وقوّته فقد صدق عليه كونُه داعماً لها ؛ لأن قوته الحافظة تجرى مجرى الدعامة .

قوله : « وجابل القلوب » أي خالقها ، والجَبْل الخلق ، وجِبِلّة الإنسان : خِلْقته، وفِطَراتها: بكسر الفاء وفتح الطاء : جمع فِطْرة ، ويجوز كسر الطاء ، كما قالوا في سِدْرة : سِدَرات وسِدِرات ، والفِطْرة : الحالة التي يفطِر الله عليها الإنسان ، أي يخلقه عليها خاليا من الآراء

(١) البيت مطلع قصيدة للفرزدق ، ديوانه ٧١٤

والديانات والعقائد والأهوية ؛ وهي مايقتضيه محض العقل ؛ وإنما يختار الإنسان بسوء نظره ما يُفضِي به إلى الشقوة ؛ وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ مولود يُولَدُ على الفطرة ، فإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » .

قوله : « شقيّها وسعيدها » بَدَل من القلوب ، وتقدير الكلام : وجابل الشقيّ من القلوب والسعيد على مافُطِرت عليه .

والنوامى : الزوائد . والخاتم لما سبق ؛ أى لما سبق من المِلَل . والفاتح لما انغلق من أمر الجاهلية . والمعلن الحقّ بالحقّ ، أى المظهر للحقّ الذى هو خلاف الباطل بالحقّ ، أى بالحرب والخصومة ؛ يقال: حاقّ فلان فلانا فحقّه ، أى خاصمه فخصمه . ويقال: مافيه حقّ أى خصومة .

قوله : « والدافع جيشات الأباطيل » ، جمع جَيْشة ، من جاشت القدر إذا ارتفع غَلَيانُها .

والأباطيل : جمع باطل على غير قياس ؛ والمراد أنه قامع مانجم من الباطل .

والدامغ : المهلك ، من دَمَغه أى شجّه حتى بلغ الدماغ ؛ ومع ذلك يكون الهلاك .

والصوْلات : جمع صوْلة وهى السطوة . والأضاليل : جمع ضلال على غير قياس .

قوله . « كما حُمّل » ، أى لأجل أنه حمل ، والعرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل ، قال الشاعر :

فقلتُ له أبا المِلْحَاء خُذْها كما أوسعتَنا بَغْياً وَعَدْوَا

أى هذه الضربة لبغيك علينا ، وتعدّيك .

وقوله : « كما حمّل » يعنى حَمَل أعباء الرسالة . فاضطلع ، أى نهض بها قويًّا ؛ فرس ضَليع أى قوىّ ؛ وهى الضلاعة ، أى القوة .

مستوفزا ، أى غير بطىء ، بل يحثّ نفسه ويُجْهدها فى رضا الله سبحانه ، والوفز: العَجَلة، والمستوفز : المستعجل .

غير نَاكلٍ عن قُدُم ، أى غير جبان ولا متأخر عن إقدام ، والقدام : المتقدّم ؛ يقال مَضَى قُدُما أى تقدّم وسار ولم يعرّج .

قوله : « ولا واهٍ فى عزم » ؛ وَهَى ، أى ضعف ، والواهى : الضعيف .

واعياً لوحيك ، أى فاهما ، وَعَيْتُ الحديث ، أى فهِمته وَعَقَلْته .

ماضيا على نفاذ أمرك ؛ فى الـكلام حذف تقديره : ماضيا مصرًّا على نفاذ أمرك ، كقوله تعالى : ﴿ فى تسع آيات إلى فِرْعَوْنَ ﴾(١)، ولم يقل : « مرسَلا » لأنّ الـكلام يدلّ بعضُه على بعض .

وقوله : « حتى أوْرَى قبسَ القابس » ؛ يقال : ورى الزَّنْدُ ، يَرِى ؛ أى خرج ناره ، وأوريته أنا . والقَبَس : شعلة من النار ؛ والمراد بالقَبَس هاهنا نور الحق ، والقابس : الذى يطلب النار ، يقال : قَبَسْت منه نارا ، وأقبسنى نارا ؛ أى أعطانيها .

وقال الراوندىّ : أقبست الرجل علما ، وقبسته نارا ؛ أعطيته ؛ فإن كنتَ طلبتَها له قلت : أقبسته نارا .

وقال الـكِسائىّ : أقبسته نارا وعلما سواء ؛ قال : ويجوز « قَبَسْته » بغير همزة فيهما .

قوله : « وأضاء الطريق للخابط » ، أى جعل الطريق للخابط مضيئة ، والخابط : الذى يسيرُ ليلا على غيرِ جادّة واضحة .

وهذه الألفاظ كلها استعارات ومجازات .

وخَوْضات الفتن : جمع خَوْضَة ؛ وهى المرّة الواحدة ، من خُضْتُ الماء والوحل ، أخوضهما ، وتقدير الـكلام : وهديتْ به القلوبُ إلى الأعلام الموضحة بعد أن خاضَتْ فى الفتن أطوارا . والأعلام . جمع عَلَم ، وهو مايستدلّ به على الطريق ، كالمنارة ونحوها . والموضِحة : التى توضح للناس الأمور وتـكشفها . [والنيّرات](٢) : ذوات النور .

قوله : « فهو أمينك المأمون » أى أمينُك على وحيك ، والمأمون من ألقاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال كعب بن زهير :

---

(١) سورة النمل ١٢

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

سَقَاكَ أبو بكر بكأسٍ رَوِيَّةٍ وأنهلكَ المأمونُ منها وعلَّكا[١]

وخازن علمك ، المخزون بالجرّ صفة « علمك » والعلم الإلهى المخزون : هو ما أطلع الله تعالى عليه ورسوله من الأمور الخفيّة التى لاتتعلّق بالأحكام الشرعية كالملاحم وأحكام الآخرة وغير ذلك ، لأنّ الأمور الشرعية لا يجوزُ أن تكون مخزونة عن المكلّفين .

وقوله : « وشهيدُك يوم الدّين » ، أى شاهدك ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[٢] .

والبعيث : المبعوث « فعيل » بمعنى « مفعول » كقتيل وجريح وصريع . ومَفْسَحاً مصدر ، أى وسِّع له مفسحا .

وقوله : « فى ظلك » يمكن أن يكون مجازاً ، كقولهم : فلان يشملُنى بظلّه ، أى بإحسانه وبرّه ، ويمكن أن يكون حقيقة ، ويعنى به الظلّ الممدود الذى ذكره الله تعالى ، فقال : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾[٣] .

وقوله : « وأعل على بناء البانين بناءه » ، أى أجعل منزلته فى دار الثواب أعلى المنازل . وأتمم له نوره ، من قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾[٤] . وقد روى أنه تُطفأ سائر الأنوار إلا نور محمد صلى الله عليه وآله ، ثم يعطى المخلصون[٥] من أصحابه أنواراً يسيرة يبصرون بها مواطىء الأقدام ، فيدعُون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها . ثم إن الله تعالى يتمّ نور محمد صلى الله عليه وآله ، فيستطيلُ حتى يملأ الآفاق ، فذلك هو إتمام نوره صلى الله عليه وآله .

قوله : « من ابتعاثك له » ، أى فى الآخرة .

مقبول الشهادة ، أى مصدّقا فيما يشهد به على أمته وعلى غيرها من الأمم .

---

(١) ديوانه ٣ ، وروايته : « شربت مع المأمون » ، وقال فى شرحه : « وكانت قريش تسمى النبى صلى الله عليه وسلم المأمون الأمين » .

(٢) سورة النساء ٤١

(٣) سورة الواقعة ٣٠ ، ٣١

(٤) سورة التحريم ٨

(٥) ج « المكلفون » .

وقوله: «ذا منطق عَدْل»، أي عادل، وهو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل؛ كقولك: رجل فِطْر وصَوْم، أي مفطر وصائم.

وقوله: «وخطبة فصل» أي يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ (1)، أي فاصل يفصل بين الحقّ والباطل؛ وهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى فى الكتاب، فقال: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ (2)، وهو الذى يشار إليه فى الدّعوات فى قولهم: «اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة، والدّرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود».

قوله: «فى بَرْد العيش»؛ تقول العرب: عيش بارد ومعيشة باردة، أى لا حَرْب فيها ولا نزاع، لأنّ البَرْد والسكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة.

وقرار النعمة، أى مستقرّها، يقال: هذا قرار السّيل، أى مستقرّه. ومن أمثالهم: «لكلّ سائلة قرار».

ومُنَى الشهوات: ما تتعلّق به الشهوات من الأمانى. وأهواء اللذات: ما تهواه النفوس وتستلذّه.

والرخاء، المصدر من قولك: رجل رخى البال فهو بيّن الرخاء، أى واسع الحال.

والدّعة: السكون والطمأنينة، وأصلها الواو.

ومنتهى الطمأنينة. غايتها التى ليس بعدها غاية.

والتُّحَف: جمع تحفة؛ وهى ما يكرَم به الإنسان من البِرّ واللُّطف، ويجوز فتح الحاء.

* * *

[معنى الصلاة على النبىّ والخلاف فى جواز الصلاة على غيره]

فإن قلت: ما معنى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله، التى قال الله تعالى فيها:

---

(1) سورة الطارق ١٣، ١٤.

(2) سورة الإسراء ٧٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(١).

قلت: الصلاة من الله تعالى هي الإكرام والتبجيل ورفع المنزلة، والصلاة منّا على النبي صلى الله عليه وآله هي الدعاء له بذلك، فقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾(٢) أي هو الذي يرفع منازلكم في الآخرة، وقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي يدعون لكم بذلك.

وقيل: جُعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنّهم فاعلون التعظيم للمؤمن ورفع المنزلة، ونظيره قوله: «حيّاك الله» أي أحياك الله وأبقاك، وحيّيتك أي دعوت لك بأن يحييك، لأنك لاعتمادك على إجابة دعوتك ووثوقك بذلك، كأنك تحييه وتبقيه على الحقيقة، وهكذا القول في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾.

وقد اختلف في الصلاة على النبيّ صلّى الله عليه وآله: هل هي واجبةٌ أم لا؟

فمن الناس من لم يَقُلْ بوجوبها، وجعل الأمر في هذه الآية للنَّدْب ومنهم من قال: إنّها واجبة.

واختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلّما جرى ذكره، وفي الحديث: «مَنْ ذُكِرْتُ عندَه فلم يصلِّ عليّ دخل النار وأبعده الله»؛ ومنهم من قال: تجبُ في كلّ مجلس مرّة واحدة، وإن تكرر ذكرُه. ومنهم مَنْ أوجبها في العمر مرة واحدة؛ وكذلك قال في إظهار الشهادتين.

واختُلِف أيضا في وجوبها في الصلاة المفروضة، فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها. وروى عن إبراهيم النَّخَعيّ أنهم كانوا يكتفون — يعني الصحابة — عنها بالتشهّد، وهو: «السّلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته»، وأوجبها الشافعيّ وأصحابه. واختلف أصحابه في وجوب الصلاة على آل محمّد صلى الله عليه وآله، فالأكثرون على أنها واجبة، وأنها شرط في صحة الصلاة.

---

(١) سورة الأحزاب ٥٦

(٢) سورة الأحزاب ٤٣

فإن قلت : فما تقول فى الصلاة على الصّحابة والصالحين من المسلمين ؟

قلت : القياس جواز الصلاة على كلّ مؤمن ، لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[١] ، وقوله : ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾[٢] ؛ ولكنّ العلماء قالوا : إذا ذُكِرَ أحدٌ من المسلمين تبعاً للنبيّ عليه السلام فلا كلام فى جواز ذلك ؛ وأما إذا أفردوا أو ذُكِرَ أحد منهم ؛ فأكثر الناس كَرِهوا الصلاة عليه ؛ لأنّ ذلك شعارُ رسول الله فلا يشركه فيه غيره .

وأما أصحابنا من البغداديين فلهم اصطلاح آخر ؛ وهو أنهم يكرَهون إذا ذكروا عليًّا عليه السلام أن يقولوا : « صلّى الله عليه » ولا يكرهون أن يقولوا : « صلواتُ الله عليه » ، وجعلوا اللفظة الأولى مختصّة بالرّسول صلى الله عليه وآله ، وجعلوا اللفظة الثانية مشتركةً فيما بينهما عليهما السلام ، ولم يطلقوا لفظ الصلاة على أحدٍ من المسلمين إلّا على علىّ وحده .

---

(١) سورة التوبة ١٠٣

(٢) سورة البقرة ١٥٧

— ٧٢ —

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة .

قالوا : أَخِذَ مَرْوان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسنَ والحسينَ عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فكلّماه فيه فخلّى سبيله ، فقالا له : يبايعك يا أمير المؤمنين.

قال عليه السلام :

أَوَلَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ ! لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ ؛ إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ ، لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ ، وَهُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ ، وَسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ.

* * *

الشرح :

قد رُوِى هذا الخبر من طرق كثيرة ، ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب "نهج البلاغة" ، وهى قوله عليه السلام فى مروان : « يحملُ راية ضلالة بعد ما يَشِيبُ صُدْغاه، وإنّ له إمْرة . . . » إلى آخر الكلام .

وقوله : « فاستشفع الحسنَ والحسينَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام » ، هو الوجه ، يقال : استشفعتُ فلاناً إلى فلان ؛ أى سألته أن يشفَع لى إليه ، وتشفّعت إلى فلان فى فلان فشفّعنى فيه تشفيعاً. وقول الناس : « استشفعتُ بفلان إلى فلان » بالباء ليس بذلك الجيّد.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أو لم يبايعنى بعد قتل عثمان ! » أى وَقَدْ غدر ؛ وهكذا لو بايعنى الآن .

ومعنى قوله : « إنها كفٌّ يهودية » أى غادرة ، واليهود تنسب إلى الغدر والخبث ، وقال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ (١) .

والسَّبَّة : الاست ، بفتح السين ، سبّه يسبّه أى طعنه فى الموضع ؛ ومعنى الكلام محمولٌ على وجهين :

أحدهما : أن يكون ذكر السَّبَّة إهانة له وغلظة عليه ، والعرب تسلك مثل ذلك فى خُطبها وكلامها ؛ قال المتوكل لأبى العيناء : إلى مَتَى تمدحُ الناس وتذمّهم ؟ فقال : ماأحسنوا وأساءوا ؛ ثم قال : ياأمير المؤمنين ؛ إنّ الله تعالى رَضِيَ عن واحد فمدحه ، وسخِط على آخر فهجاه وهجا أمّه ؛ قال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٢)، وقال: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (٣) ؛ والزّنيم ولد الزنا (٤) .

الوجه الثانى : أن يريدَ بالكلام حقيقةً لامجازاً ؛ وذلك لأنّ الغادرَ من العرب كان إذا عَزَم على الغَدْر بعد عَهْدٍ قد عاهده أو عَقْدٍ قد عقده ، حَبَقَ استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد ؛ وسُخرية وتهكّما .

والإمْرة : الولاية ، بكسر الهمزة . وقوله : « كَلَعْقَةِ الكلب أنفَه » ، يريد قِصَر المدّة ، وكذلك كانت مدّة خلافة مَرْوان ، فإنّه ولِيَ تسعة أشهر .

والأكبُش : الأربعة بنو عبد الملك : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ؛ ولم يَلِ الخلافَةَ من بنى أميّة ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء .

وكلّ الناس فسّروا الأكبُشَ الأربعة بمَنْ ذكرناه ؛ وعندى أنّه يجوز أن يعنى به

---

(١) سورة المائدة ٨٢

(٢) سورة ص ٣٠ ، ٤٤

(٣) سورة القلم ١٣

(٢) العتل : الشديد .

بنى مَرْوان لصُلبه ؛ وهم: عبد الملك ، وعبدالعزيز ، وبِشْر ، ومحمد ؛ وكانوا كِباشاً أبطالًا أنجاداً ، أما عبد الملك فَوَلِيَ الخلافة ، وأما بِشْر فَوَلِيَ العراق ، وأمّا محمدفوَلِيَ الجزيرة ، وأما عبد العزيز فَوَلِيَ مصر ، ولكلٍّ منهم آثار مشهورة . وهذ التفسير أَوْلى ؛ لأن الوليد وإخوته أبناء ابنه ، وهؤلاء بنوه لصُلبه .

ويقال لليوم الشديد : يوم أحمر ، وللسَّنَة ذاتِ الجدْب : سَنة حَمْراء .

وكلّ ماأخبر به أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الكلام وَقَع كما أخبر به ؛ وكذلك . قوله : « يحمل راية ضلالة بعد مايشيب صُدغاه » ، فإنه ولِيَ الخلافة وهوابن خمسة وستين فى أعدل الروايات .

***

[مروان بن الحكم ونسبه وأخباره]

ونحنُ ذاكرون فى هذا الموضع نَسَبَه ، وجُمَلًا من أمره وولايته الخلافة ؛ ووفاته على سبيل الاختصار :

هو مَرْوان بن الحكَم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ، وأمّه آمنة بنت عَلْقمة بن صفوان بن أميّة الكِنانىّ . يُكنَى أبا عبد الملك ، ولِدَ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ منذ سنة اثنتيْن من الهجرة ، وقيل عام الخندق ، وقيل يوم أُحُد ؛ وقيل غير ذلك . وقال قومٌ : بل ولد بمكة ، وقيل : ولد بالطائف . ذكر ذلك كلّه أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " (١) .

قال أبو عُمَر : وممّن قال بولادته يومَ أحُد مالك بن أنس ، وعلى قوله يكونُ

(١) الاستيعاب ١٣٨٧ ــ ١٣٩٠ (طبعة نهضة مصر)

رسول الله صلى الله عليه وآله قد تُوُفِّيَ ، وعمره ثمان سنين أو نحوها .

وقيل : إنه لما نُفِيَ مع أبيه إلى الطائف كان طفلا لا يعقل، وإنه لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الحكَم أبوه قد طرده رسول الله عن المدينة ، وسيّره إلى الطائف ؛ فلم يزَلْ بها حتى وَلِيَ عثمان ، فردّه إلى المدينة ، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان، وتوفِّيَ ، فاستكتبه عثمان وضمّه إليه ، فاستولَى عليه إلى أن قتِل .

والحكَم بن أبي العاص[1] هو عمّ عثمان بن عفان، كان من مُسلمة الفتح، ومن المؤلّفة قلوبُهم ، وتوفِّيَ الحكَم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور .

واختلِف في السبب الموجِب لنفي رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقيل : إنه كان يتحيّل ويستخفي ويتسمّع[2] ما يُسِرُّه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أكابر الصحابة في مُشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين ، ويُفشي ذلك عنه ، حتى ظهر ذلك عنه[3] .

وقيل كان يتجسّس على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عند نسائه ، ويسترِقُ السّمع ، ويُصغِي إلى ما يجرى هناك مما لا يجوز الاطّلاع عليه ، ثم يحدّث به المنافقين على طريق الاستهزاء .

وقيل : كان يحكِيه في بعض مِشْيَته وبعض حركاته ، فقد قيل: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا مشى يتكفّأ[4] ، وكان الحكَم بن أبي العاص يحكِيه ، وكان شانئاً له مبغضاً حاسداً ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فرآه يمشي خلفه يحكيه في مِشيته ؛

---

(١) الاستيعاب ٣٥٩ ، ٣٦٠

(٢) كذا في الاستيعاب ، وفي الأصول : « يسمع » .

(٣) ج : « منه » .

(٤) قال ابن الأثير في النهاية ٤ : ٢٤ في صفة مشيه عليه الصلاة والسلام : « كان إذا مشى تكفّى تكفِّياً ؛ أي تمايل إلى قدام ؛ هكذا روى غير مهموز ، والأصل الهمز ، وبعضهم يرويه مهموزا لأنه مصدر تفعّل . . . . » .

فقال له : كذلك فلتكُنْ ياحكم . فكان الحكم مُختلجا برتعش من[١] يومئذ ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ؛ فقال لعبد الرحمن بن الحكم يهجوه :

إنّ اللّعين أبوكَ فارمِ عِظامَهُ إن ترمِ ترمِ مخلّجاً مجنونا
يمشي خميصَ البطنِ مِن عملِ التُّقى ويظلُّ مِنْ عملِ الخبيث بَطِينا

قال صاحب الاستيعاب : أما قول عبد الرحمن بن حسان « إنّ اللّعين أبوك » فإنه روى عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خَيْثَمة وغيره ، أنّها قالت لمروان إذْ قال في أخيها عبد الرحمن أنه أنزل فيه : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[٢] : أما أنت يامروان فأشهد أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لَعن أباكَ وأنت في صُلْبه[٣] .

وروى صاحب كتاب « الاستيعاب » بإسناد ذكره عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يدخل عليكم رجل لَعِين » ، قال عبد الله : وكنتُ قد رأيتُ أبي[٤] يلبس ثيابه ليقبِل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم أزل مشفِقاً أن يكون أوّل مَنْ يدخل ، فدخل الحكم بن أبي العاص .

قال صاحب « الاستيعاب » : ونظر عليّ عليه السلام يوما إلى مَرْوان ، فقال له : « ويل لك ، وويل لأمة محمد منك ومن بنيكَ[٥] إذا شاب صُدغاك ! » . وكان مَرْوان يدعَى

---

(١) الخبر في النهاية لابن الأثير ١ : ٣١٠ عن عبد الرحمن بن أبي بكر : « أن الحكم بن أبي العاص ابن أبي أمية أبا مروان ، كان يجلس خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات أي كان يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبي صلى الله عليه وسلم فبقي يرتعد ويضطرب إلى أن مات » .

(٢) سورة الأحقاف ١٧

(٣) الاستيعاب : « تركت » .

(٤) الاستيعاب : « عمراً » .

(٥) ج : « بيتك » .

خَيط باطل ؛ قيل : لأنه كان طويلا مضطربا .

وضرِب يوم الدار على قفاه فخرّ لفِيه [١] فلما بُويع له بالخلافة ، قال فيه أخوه عبدُ الرحمن بن الحكم ـ وكان ماجنا شاعرا [مُحْسِنا] [٢] ؛ وكان لا يَرَى رأى مروان :

فوالله ما أدرِى وإنّى لسائلٌ ... حليلةَ مَضرُوبِ القفا كيف تَصنَعُ

لحا الله قوماً أمّرُوا خيطَ باطلٍ ... علَى الناس يُعطى مايشاء ويَمنَعُ

وقيل : إنما قال له أخوه عبد الرحمن ذلك حينَ ولّاه معاوية إمْرةَ المدينة ، وكان كثيرا مايهجوه ؛ ومن شعره فيه :

وهبتُ نصيبِي مِنْك يامَرْوَ كلَّهُ ... لعمرٍو ومروانَ الطويلِ وخالدِ

ورب ابن أمٍّ زائد غير ناقصٍ ... وأنت ابنُ أمٍّ ناقصٌ غيرُ زائدِ

وقال مالك بن الرَّيْب يهجو مَرْوان بن الحكم :

لعمرُكَ مامَرْوَان يقضى أمورَنا [٣] ... ولكنّ مايقضى لنا بنت جَعْفَرِ

فياليتَها كانَتْ علَيْنا أميرةً ... وليتك يامرْوان أمسيْتَ ذا حِرِ

ومن شعر أخيه عبد الرحمن فيه :

ألَا مَنْ يُبْلِغَنْ مَرْوَانَ عَنّى [٤] ... رَسُولًا والرَّسُولُ من البَيَانِ

بأنك لَنْ ترى طَرْداً لِحُرٍّ ... كإلصاقٍ به بعضَ الهَوَانِ [٥]

وهل حُدِّثْتَ قبلِي عن كريمٍ ... معينٍ فى الحوادث أو مُعانِ

يقيمُ بدار مضيعةٍ إذا لمْ ... يكن حيران أو خَفِقَ الجَنَانِ

---

(١) الاستيعاب : « فجرى لفيه » .

(٢) من الاستيعاب .

(٣) فى الأصول : « يا مروان » والصواب ما أثبته من الاستيعاب .

(٤) الاستيعاب : « من مبلغ » .

(٥) ورد البيت محرفا فى الأصول ، وما أثبته من الاستيعاب .

فلا تقذف بى الرَّجَوَيْنِ إنى ... أقلّ القوم مَنْ يُغْنِى مكانى[1]
سأ كفيك الذى استكفيتَ منّى ... بأمرٍ لا تُخالجه اليدانِ
فلو أنّا بمنزلةٍ جَرَيْنـــا ... جَرَيْتَ وأنتَ مُضطرب العِنانِ
ولولا أنّ أمّ أبيك أمّى ... وأنْ من قد هجـاك فقد هَجَانى
لقـــد جاهرتُ بالبَغضاء إنّى ... إلى أمرِ الجهارة والعِـــلانِ

ولما صار أمر الخلافة إلى معاوية ، ولّى مرْوانَ المدينة ، ثم جمع له إلى المدينة مكّة والطائف ، ثم عزله وولّى سعيدَ بن العاص ، فلما مات يزيد بن معاوية ، وولِىَ ابنُه أبوليلى معاوية بن يزيد فى سنة أربع وستين ، عاش فى الخلافة أربعين يوما ومات ، فقالت له أمّه أم خالد بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : اجعل الخلافةَ من بعدك لأخيك ، فأبى وقال : لايكونُ لِى مُرُّها ولـكم حُلوها ، فوثب مروان عليها ، وأنشد :

إنّى أرى فتنةً تَغلِى مراجِلُها ... والملك بعـد أبى ليلَى لمنْ غَلَبا

* * *

وذكر أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانى فى كتاب " الأغانى " : أن[2] معاوية لما عَزل مَرْوان بن الحكم عن إمْرَة المدينة والحجاز ، وولّى مكانه سعيد بن العاص ، وجّه مَرْوان أخاه عبد الرحمن بن الحكَم أمامه إلى معاوية ، وقال له : القَهْ قبلى فعاتِبْه لى واستصْلِحه .

قال أبو الفرج : وقد رُوِى أنّ عبدَ الرحمن كان بدمشق يومئذ ، فلما بلغه خبرُ عَزْلِ مَرْوَان وقدومه إلى الشام ، خرج وتلقّاه ، وقال له : أقِمْ حتّى أدخلَ إلى أخيك[3] ، فإن كان عَزَلك عن مَوْجِدة دخلتَ إليه منفردا ، وإن كان عن غير مَوْجِدة دخلتَ إليه مع الناس

(١) الرجا : ناحية البئر من أعلاها ، إلى أسفلها ، وتثنيته رجوان ، (على البناء للمجهول) ورمى به الرجوان ، أى استهين به ، فكأنه رمى به هناك ، أى طرح فى المهالك .
(٢) الأغانى ١٣ : ٢٠٩ وما بعدها (طبعة الدار) .
(٣) الأغانى : « الرجل » .

فأقام مَرْوان ومضى عبد الرحمن ، فلما قدم على معاوية دخل إليه وهو يَمَشّى الناس ، فأنشده :

أتتكَ العيسُ تَنفُخُ فى بُرَاها تكشَّفُ عن مناكِبها القُطُوعُ[١]
بأبيضَ مِنْ أميَّةَ مَضْرَحِيٍّ كأن جبينَه سَيْفٌ صنيعُ[٢]

فقال له معاوية : أزائراً جئت أم مفاخرا مكابرا ؟ فقال : أىَّ ذلك شئت ! فقال : ماأشاء من ذلك شيئا ؛ وأراد معاوية أن يقطعه عن كلامه الذى عَنّ له ، فقال له : على أىّ ظهر جئتنا ؟ فقال : على فرسٍ ، قال : ما صفته ؟ قال : أجشّ هَزِيم ـ يعرِّض بقول النّجاشىّ فى معاوية يوم صِفِّين :

وَنَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ أجشُّ هزيمٌ والرماح دَوَانِ[٣]
إذا قلت أطرافُ الرِماح تنالُه مَرَتْهُ له السّاقان والقَدَمان[٤]

فغضِب معاوية ، وقال : إلّا أنه لا يركبُه صاحبُه فى الظُّلَم إلى الرِّيَب ؛ ولا هو ممن يتسوّر على جَاراتِه ، ولا يتوثّب بعد هَجْمة الناس على كنائنه[٥] ـ وكان عبد الرحمن يُتّهم بذلك فى امرأة أخيه ـ فخجل عبدُ الرحمن ، وقال : ياأميرَ المؤمنين ، ماحَمَلك على عَزْل ابن عمّك؟ ألخيانةٍ أوجبَتْ ذلك ، أم لرأىٍ رأيتَه وتدبيرٍ استصلحته ؟ قال : بل لتدبير استصلحته ، قال : فلا بأس بذلك. فخرج من عنده فلقىَ أخاه مَرْوان ، فأخبره بما دارَ بينه وبين معاوية ، فاستشاط غيظا وقال لعبد الرحمن : قَبحك الله ، ما أضعفك! عَرَّضت للرجل بما أغضبه ، حتى إذا انتصر[٦]

---

(١) العيس : النوق البيض ، يخالط بياضها شقرة . والبرى : جمع برة ، بضم ففتح ، وهى حلقة تجعل فى أنف البعير : والقطوع : جمع قطع ، بالكسر ؛ وهو الطنفسة تكون تحت الرحل .

(٢) المضرحى : السيد الكريم ، والصنيع : السيف المجرب المجلو .

(٣) السابح : الفرس السريع . والعلالة : البقية من السير والأجش : الغليظ الصوت من الإنسان ومن الخيل ومن الرعد . والهزيم : الفرس الشديد الصوت .

(٤) مرته : استدرت جريه . وفى الأغانى : « إذا خلت » .

(٥) كنائن : جمع كنة ؛ امرأة الأخ أو الابن .

(٦) الأغانى : « انتصف » .

منك أحجمت عنه . ثم لبس حُلته ، وركب فرسَه ، وتقلّد سيفَه ، ودخلَ على مُعاويةَ ، فقال له حين رآه وتبيّن الغضبَ في وجْهِه : مَرْحَباً بأبي عبد الملك ! لقد زرتَنا عند اشتياق مِنّا إليك ، فقال : [لا](١) هاالله ، مازرتُك لذلك ولا قدِمتُ عليك فألفيتُك إلا عاقًّا قاطعا ؛ والله ماأنصفتَنا ولا جزيتَنا جزاءنا، لقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص ، والصِّهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، والخلافة منهم(٢) ، فوصلوكم يابني حَرْب وشرّفوكم وولّوْكم ، فما عزلُوكم ولا آثروا عليكم ؛ حتى إذا وليتم وأفضى الأمرُ إليكم أبيتم إلا أثَرَة وسوء صنيعة وقبيح قطيعة ، فرويدا رويدا ! فقد بلغ بنو الحكم وبنو بنيه نَيّفًا وعشرين ،وإنما هي أيام قلائل حتى يكملوا أربعين ،ثم يَعلم امرُؤ مايكون منهم حينئذ ؛ ثم هم للجزاء بالحسنى والسوء بالمرصاد .

قال أبو الفرج : هذا رمز إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلا ، اتخذوا مال الله دُوَلا وعباد الله خَوَلا » ، فكان بنو أبي العاص يذكرون أنهم سيلُون أمْرَ الأمة إذا بلغوا هذه العدّة .

قال أبو الفرج : فقال له معاوية : مهلاً أبا عبد الملك ، إنّي لم أعزِلْك عن خيانة ، وإنّما عزلتُك لثلاثةٍ لو لم يكن منهنّ إلا واحدة لأوجبتُ عَزْلَك : إحداهُنّ أني أمرتُك على عبد الله بن عامر ، وبينكما ما بينكما ، فلن تستطيع أن تشتفِيَ منه ، والثانية كراهيتُك لإمْرة زياد ، والثالثة أنّ ابنتي رَمْلة استعدَتْك على زوجها عمرو بن عثمان ، فلم تُعْدِها . فقال مروان : أمّا ابن عامر فإنّي لاأنتصر منه في سلطاني ، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه ، وأما كراهتي لإمْرَة زياد فإنّ سائرَ بني أمية كرهوه ؛ وجعل الله لنا في ذلك الكره خيرا كثيرا . وأما استعداء رملة على عمرو ؛ فوالله إنه ليأتي عليّ سنة أو أكثر

---

(١) من الأغاني ، وها هنا للتنبيه وبعدها حرف قسم محذوف (انظر المغني ١ : ٣٤٩) .
(٢) الأغاني : « فيهم » .

وعندى بنت عثمان ، فما أكشف لها ثوباً - يعرّض بأنّ رملة إنما تستعدى على عمرو بن عثمان طلب النكاح - فغضب معاوية ، فقال: يابن الوَزَغ[1] ؛ لستَ هناك! فقال مروان: هو ما قلت لك؛ وإنى الآن لأبو عشرة، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة ، وقد كاد ولد أبى[2] أن يكملوا العِدّة - يعنى أربعين ؛ ولو قد بلغوها لعلمت أين تقع منى . فانخزَل[3] معاوية ، وقال :

فإن أكُ فى شِرَارِكُمُ قليلاً فإنّى فى خيارِكُمُ كثيرُ[4]

بغاثُ الطّير أكثرُها فِراخاً وأمّ الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ[5]

ثم استخذَى معاوية فى يد مروان[6] وخضع ، وقال : [لك][7] العتبىَ ، وأنا رادك إلى عملك . فوثب مروان ، وقال : كلاّ وعيشك لا رأيتنى عائدا ! وخرج .

فقال الأحنف لمعاوية : ما رأيت قطّ لك سَقْطَةً مثلها ! ما هذا الخضوع لمروان ! وأىّ شىء يكون منه ومن بنى أبيه إذا بلغوا أربعين؟ وما الذى تخشاه منهم ؟ فقال : ادنُ منّى أخبرك ذلك ، فدنا الأحنف منه ، فقال [له][7] : إنّ الحكَم بنَ أبى العاص كان أحدَ مَنْ قَدِم مع [أختى][7] أم حبيبة لما زُفّت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو يتولّى نقلها إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحِدّ النظر إليه ، فلما خرج من عنده ، قيل : يارسول الله ، لقد أحدَدْتَ النّظر إلى الحكم ! فقال : ابن المخزوميّة ، ذاك رجل إذا بلغ بنو[8] أبيه ثلاثين أو أربعين ، ملكوا الأمر من بعدى ، فوالله لقد تلقّاها مروان من عين صافية . فقال الأحنف : رويداً يا أمير المؤمنين ؛ لا يسمعْ هذا منك أحد ؛ فإنك تَضَعُ من قَدْرِك وقَدْرِ ولدك بعدك ؛ وإنْ يقضِ الله أمراً يكن . فقال :

---

(١) الوزغ : جمع وزغة ، سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .

(٢) الأغانى : « ولد » . (٣) انخزل ، أى تراجع .

(٤) البيتان من مقطوعة للعباس بن مرداس - حماسة أبى تمام - بشرح المرزوقى ٣ : ١٤٥٣ ؛ ونسب صاحب اللسان فى (قلت) البيت الثانى إلى كثير عزة .

(٥) المقلات : مفعال ، من القلت ، وهو الهلاك . والنزور : القليلة .

(٦) الأغانى : « فى يد مروان » .

(٧) من الأغانى .

(٨) الأغانى : « ولد » .

معاوية : اكتُمها يا أبا بحر علىّ إذاً ؛ فقد لَعَمْرُك [1] صدقتَ ونصحت .

***

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " مفاخرة هاشم وعبد شمس " ، أنّ مَرْوان كان يُضعّف ، وأنه كان ينشد يوم مرْج راهط والرءوس تُنْدَر عن كواهلها :

وما ضَرّهمْ غير حَيْنِ النُّفو ... س أىّ غلامى قريش غَلَبْ !

قال : وهذا حُمْق شديد ، وضعف عظيم ؛ قال : وإنما سادَ مرْوان وذُكِر بابنه عبد الملك ، كما ساد بنوه ؛ ولم يكن فى نفسه هناك .

***

فأمّا خلافة مروان ، فذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ [2] أن عبد الله بن الزبير لما أخرج بنى أميّة عن الحجاز إلى الشام فى خلافة يزيد بن معاوية ، خرجوا وفيهم مَرْوان ، وابنه عبد الملك ، ولم تَطُلْ مدّة يزيد ، فتوفِّىَ ، ومات ابنُه بعده بأيام يسيرة . وكان من رَأى مَرْوان أن يدخل إلى ابن الزّبير بمكةَ فيبايعه بالخلافة ، فقدِمَ عبيدُ الله بن زياد ، وقد أخرجه أهلُ البصرة عنها بعد وفاة يزيد : فاجتمع هو وبنو أميّة ؛ وأخبروه بما قد أجمع عليه مروان ، فجاء إليه ، وقال : استحييت لك يا أبا عبد الملك ، فما يريد ! أنتَ كبير قريش وسيّدها تصنع ما تصنع ، وتشخص إلى أبى خُبَيْبٍ فتبايعه بالخلافة ! فقال مَرْوان : مافات شىء بعد ؛ فقام مَرْوان ، واجتمع إليه بنو أميّة ومواليهم وعُبَيد الله بن زياد وكثير من أهل اليمن وكثير من كَلْب ، فقدم دمشق وعليها الضّحاك ابن قيس الفِهرِىّ ، قد بايعه النّاس على أنْ يُصَلّىَ بهم ، ويقيمَ لهم أمرَهم ، حتى يجتمع

---

(١) الأغانى : « لعمرى » .

(٢) تاريخ الطبرى ٥ : ٥٣٠ وما بعدها ؛ مع تصرف واختصار .

الناس على إمام ، وكان هوى الضحاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايع له بعد ، وكان زفر ابن الحارث الكلابي بقنسرين يخطب لابن الزبير ، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص يخطب لابن الزبير ، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين يهوى هوى بني أمية ، ثم من بينهم بني حرب ، لأنه كان عاملاً لمعاوية ، ثم ليزيد بن معاوية من بعده ، وكان حسان بن مالك مُطاعاً في قومه ، عظيما عندهم ؛ فخرج عن فِلَسْطين يريد الأُردُنّ ، واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع الجذامي ، فوثب عليه بعد شُخوص حسّان بن مالك وناتل[1] بن قيس الجُذامي أيضا ، فأخرجه عن فلسطين ، وخطب لابن الزبير ، وكان له فيه هوًى ، فاستوثقت الشام كلها لابن الزبير ، ماعدَا الأردنّ ؛ فإنّ حسان بن مالك الكلبي كان يهوى هَوَى بني أميّة ، ويدعو إليهم ؛ فقام في أهل الأردن فخطبهم ؛ وقال لهم : ماشهادتُكم على ابن الزبير وقَتْلَى المدينة بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أنّ ابن الزبير كان منافقا ؛ وأن قَتْلَى أهل المدينة بالحرّة في النار ، قال : فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد بن معاوية كان مؤمناً ، وكان قتلانا بالحرّة في الجنة ، قال : وأنا أشهد أنه إن كان دين يزيد ابن معاوية وهو حيّ حقا ، إنه اليوم لَعَلَى حقّ هو وشيعته ، وإن كان ابن الزبير يومئذ هو وشيعتُه على باطل ؛ إنه اليوم وشيعته على باطل ؛ قالوا : صدقت ، نحن نبايعك على أن نقاتلَ معك مَنْ خالفك من الناس وأطاع ابن الزبير ، على أن تجنّبَنا ولاية هذين الغلامين ابني يزيد بن معاوية ، وهما خالد وعبد الله ، فإنهما حديثة أسنانُهما ونحن نكرهُ أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبيّ !

قال : وقد كان الضحاك بن قيس يُوالي ابنَ الزبير باطنا ، ويهوى هواه ، ويمنعه إظهارَ ذلك بدمشق والبيعةَ له أنّ بني أمية وكَلْباً كانوا بحضرته ، وكلب أخوالُ يزيد

(١) في الأصول : « ناتل » ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبري .

ابن معاوية وبنيه ، ويطلبون الإمْرَة لهم ، فكان الضّحاك يعمل فى ذلك سرًّا ، وبلغ حسان ابن مالك بن بحْدَل ما أجمع عليه الضّحاك ، فكتب إليه كتابا يعظّم فيه حقّ بنى أمية ، ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بنى أمية عنده وصنيعهم إليه ، ويدعوه إلى بيعتهم وطاعتهم ويذكر ابنَ الزبير ويقع فيه ويشتِمه ، ويذكر أنّه منافق قد خلع خليفتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس ؛ ثم دعا رجلا من كلْب يقال له ناغضة ، فسرّح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس ، وكتب حسّانُ نسخة ذلك الكتاب ، ودفعه إلى ناغضة ، وقال له : إنْ قرأ الضحاك كتابى على الناس ، وإلا فقم أنت واقرأ هذا الكتاب عليهم ، وكتب حسان إلى بنى أمية يأمرهم أن يحضُروا ذلك ، فقدم ناغضة بالكتاب على الضّحاك ، فدفعه إليه ، ودفع كتابَ بنى أميّة إليهم سراً .

فلما كان يوم الجمعة ، وصَعِد الضّحاك على المنبر ، وقدم إليه ناغضة ، فقال : أصلح الله الأمير ! ادعُ بكتاب حسّان فاقرأه على الناس ، فقال له الضحّاك : اجلس ، فجلس ثم قام ثانية فتكلّم مثل ذلك ، فقال له : اجلس ، فجلس ثم قام ثالثة وكان كالثانية والأولى ، فلما رآه ناغضة لا يقرأ الكتاب أخرج الكتاب الذى معه ، فقرأه على الناس . فقام الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ، فصدق حسّان ، وكذّب ابنَ الزّبير وشتَمه ، وقام يزيد بن أبى النمس الغسّانى ، فصدّق مقالة حسان وكتابه ، وشتَم ابن الزبير ، وقام سُفيان بن أبرد الكلبيّ ، فصدّق مقالة حسان وشتَم ابنَ الزّبير ، وقام عمر بن يزيد الحكَمِيّ ، فشتَم حسان ، وأثنى على ابن الزبير ، فاضطرب الناسُ ، ونزل الضّحاك بن قيس ، فأمر بالوليد بن عُتْبة ، وسفيان ابن الأبرد ، ويزيد بن أبى النّمس الذين كانوا صدّقوا حسان ، وشتموا ابنَ الزبير . فحبسوا ، وجال الناس بعضُهم فى بعض ، ووثبت كلْب على عمر بن يزيد الحكَمىّ فضربوه ؛ وخرّقوا ثيابه . وقد كان قام خالد بن يزيد بن معاوية فصعِد مِرْقاتين [1] من المنبر ؛ وهو يومئذ غلام . والضحاك بن قيس فوق المنبر ، فتكلّم بكلام أوْجَز فيه ، لم يُسْمع بمثله ، ثم نزل .

---

(١) المرقاة : الدرجة فى السلم .

فلما دخل الضحاك بن قيس دارَه ، جاءت كلْب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرد الكلبيّ ، وجاءت غسان ؛ فأخرجوا يزيد بن أبي النّمس ؛ وقال الوليد بن عُتْبة : لو كنتُ من كلب أو غسّان ؛ لأخرجت ؛ فجاء ابنا يزيد بن معاوية : خالد وعبد الله ؛ ومعهما أخوالُهما من كَلْب ، فأخرجوه من السجن .

ثم إنّ الضّحاك بن قيس خرج إلى مسجد دمشق ، فجلس فيه ؛ وذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه ، فقام إليه سنان من كلْب ومعه عصا ؛ فضربه بها ؛ والناس جلوس حَلَقاً متقلِّدِي السيوف . فقام بعضُهم إلى بعض في المسجد ؛ فاقتتلوا ، فكانت قيس عَيْلان قاطبةً تدعو إلى ابن الزبير ومعهما الضحاك ، وكلْب تدعو إلى بني أميـة ، ثم إلى خالد بن يزيد ، فتيعصبون له ، فدخل الضحاك دارَ الإمارة ، وأصبح النـاس ، فلم يخرج الضّحاك إلى صلاة الفجر .

فلما ارتفع النهارُ بعث إلى بني أميّة، فدخلوا عليه، فاعتذر إليهم ، وذكر حسنَ بلائهم عنده ، وأنه ليس يهوَى شيئاً يكرهونه، ثم قال : تـكتبون إلى حسّان ونـكتب ، ويسير حسان من الأردنّ حتى ينزل الجابية[1] ونسير نحن وأنتم حتى نوافيَه بها ؛ فيجتمع رأيُ الناس على رجل منكم ! فرضيتْ بذلك بنو أميّة ، وكتبوا إلى حسّان وهو بالأردنّ وكتب إليه الضحاك يأمره بالموافاة في الجابية ، وأخذ الناس في الجهاز للرحيل .

وخرج الضحاك بن قيس من دمشق ، وخرج الناس وخرجت بنو أمية ، وتوجّهت الراياتُ يريدون الجابية ، فجاء ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السُّلَميّ إلى الضحاك ؛ فقال : دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك؛ ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابيّ من كَلْب لتستخلفَ ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية ! فقال الضّحاك : فما الرأي؟ قال: الرأيُ أن

---

(١) الجابية ، بكسر الباء وياء خفيفة : من أعمال دمشق .

نظهر ما كنّا نُسرّ ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير ، ونقاتل عليها . فقال الضحاك بمَنْ معه من الناس ، واعتزل من بنى أمية ومن معهم من قبائل اليمن فنزل مَرْج راهط .

قال أبو جعفر : واختلف فى أى وقت كانت الوقعة بمرج راهط فقال الواقدىّ : كانت فى سنة خمس وستين . وقال غيره : فى سنة أربع وستين .

قال أبو جعفر : وسارتْ بنو أميّة ولفيفها حتى وافَوْا حسان بالجابية ، فصلّى بهم أربعين يوماً ، والناس يتشاورون ، وكتب الضحاك بن قيس من مرج راهط إلى النُّعمان بن بشير الأنصارىّ ، وهو على حِمْص يستنجده ؛ وإلى زُفَر بن الحارث وهو فى قِنّسرين ، وإلى ناتل[1] ابن قيس وهو على فِلَسْطين ليستمدّهم ؛ وكلُّهم على طاعة ابن الزبير ، فأمدوه ، فاجتمعت الأجناد إليه بمَرْج راهط ، وأما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة ، فأما مالك ابن هبيرة السكونىّ ، فكان يهوَى هوَى يزيد بن معاوية ، ويحبّ أن تكونَ الخلافةُ فى ولده ، وأما حصين بن نُمير السَّكونىّ[2] ؛ فكان يهوى هَوَى بنى أميّة ؛ ويحبّ أن تكون الخلافة لمرْوان بن الحكم ؛ فقال مالك بن هبيرة للحصين بن نمير : هلم فلْنبايعْ لهذا الغلام الذى نحن ولدنا أباه ؛ وهو ابن أختنا ؛ فقد عرفت منزلتنا التى كانت من أبيه ؛ إنك إن تبايعه يحملك غدا على رقاب العرب — يعنى خالد بن يزيد — فقال الحصين : لا لعمر الله ؛ لا يأتينا العرب بشيخ ؛ ونأتيها بصبىّ ! فقال مالك : أظنّ هَوَاك فى مَرْوان ! والله إن استخلفتَ مروان ليحسدنك على سَوْطك وشِرَاك نعلك ، وظلّ شجرة تستظلّ بها . إنّ مروان أبو عشرة ، وأخو عشرة وعمّ عشرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم ، ولكن عليكم بابن أختكم خالد بن يزيد فقال الحصين : إنّى رأيتُ فى المنام قِنديلا معلقاً من السماء ، وإنه جاء كلّ من يمدّ عنقه إلى الخلافة ليتناوله ، فلم يصل إليه . وجاء مروان فتناوله ، والله لنستخلفنّه .

(١) فى الأصول : « نائل » وصوابه من تاريخ الطبرى .
(٢) فى الأصول : « السلولى » ، وما أثبته من تاريخ الطبرى .

فلما اجتمع رأيهم على بيعته ، واستمالوا حسان بن بحدل إليها ، قام رَوْح بن زِنباع الجذاميّ ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، فقال :

أيها الناس ؛ إنكم تذكرون لهذا الأمر عبدَ الله بن عمر بن الخطاب ، وتذكرون صحبتَه لرسول الله صلى الله عليه ، وقدَمه فى الإسلام ، وهو كما تذكرون ؛ لكنه رجل ضعيف ، وليس صاحبُ أمة محمد بالضعيف ؛ وأما عبد الله بن الزُّبير ومايذكر الناس من أمره ، وأنّ أباه حواريّ رسول الله صلى الله عليه ، وأمّه أسماء بنت أبى بكر ذات النِّطاقين ؛ فهو لعمرى كما تذكرون ، ولكنه منافق قد خلع خليفتين : يزيد وأباه معاوية ، وسَفَك الدماء ، وشقّ عصا المسلمين ؛ وليس صاحبُ أمة محمد صلى الله عليه بالمنافق ؛ وأمّا مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صَدْعٌ قطّ إلا كان مَرْوان ممن يشعَب ذلك الصَّدْع ، وهو الذى قاتَل عن عثمان بن عفان يوم الدّار ، والذى قاتل علىّ بن أبى طالب يوم الجمل ؛ وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ، ويستشبّوا[1] الصغير — يعنى بالكبير مروان ، وبالصغير خالد بن يزيد .

فاجتمع رأيُ الناس على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ؛ ثم لعمرو بن سعيد ابن العاص بعدهما ؛ على أن تكونَ فى أيام خلافة مروان إمْرَة دمشق لعمرو بن سعيد ، وإمْرَة حِمْص لخالد بن يزيد . فلما استقرّ الأمر على ذلك ، دعا حسان بن بَحْدَل خالد بن يزيد ؛ فقال : يابن أختى ؛ إنّ الناس قد أبوْك لحداثة سِنّك ، وإنى والله ماأريدُ هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك ؛ وماأبايع مَرْوان إلانظراً لكم ، فقال خالد : بل عجزت عنّا ، فقال: لا والله لم أعجزْ عنك ؛ ولكن الرأى لك مارأيت .

ثم إن حسّان دعا مرْوان بن الحكم ، فقال له : يامروان ، إنّ الناس كلّهم لا يرضون

---

(١) فى الأصول : « ويسلموا » وما أثبته من تاريخ الطبرى .

بك ، فما ترى ؟ فقال مروان : إن يردِ الله أن يعطينيها لم يمنعنيها أحدٌ من خلقه ؛ وإن يرد أن يمنعنيها لا يعطينيها أحدٌ من خلقه ، فقال حسان : صدقت .

ثم صعِد حسان المنبر ،فقال : أيها الناس ؛ إني مستخلِف في غدٍ أحدَكم إن شاءالله؛ فاجتمع الناس بُكرةَ الغد ينتظرون ، فصعِد حسان المنبر ، وبايع لمروان ، وبايع الناس ؛ وسار من الجابية حتى نزل بمرْج راهط ؛ حيث الضَّحَّاك بن قيس نازل ، فجعل مَرْوَانُ على ميمنته عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ؛ وجعل الضحّاكُ على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العتكيّ ، وعلى ميسرته ثور بن معن السُّلَميّ ؛ وكان يزيد ابن أبي النِّمس الغسّانيّ بدمشق ، لم يشهد الجابية ، وكان مريضا ؛ فلما حصل الضّحاك بمرْج راهط[1] ، ثار بأهل دمشق في عبيده وأهله ،فغلَب عليها ، وأخرج عامل الضحّاك منها؛ وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان ، وأمدّه من دمشق بالرّجال والمال والسلاح؛ فكان ذلك أولَ فتح فُتِح لمروان .

ثم وقعت الحرب بين مَرْوان والضحاك ؛فاقتتلوا بمرْج راهط عشرين ليلة؛ فهزِم أصحابُ الضحاك وقتلوا ؛ وقتل أشراف الناس من أهل الشام ؛ وقتِلت قيسٌ مقتلة لم تقتل مثلها في موطن قطّ ، وقتل ثور بن معن السُّلَميّ الذي ردّ الضحاك عن رأيه .

قال أبو جعفر : ورِويَ أن بشير بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم ،وأنه كان ينشد :

إن على الرئيس حقًّا حقَّا ... أن يخضب الصَّعْدَة أو يندقّا

وصُرِع ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان [2]ثم استنقذ[2].

قال : ومرّ مروان برجل من محارب وهو في نفرٍ يسير من أصحاب مروان ، فقال له :

---

(١) مرج راهط : موضع في الغوطة من دمشق ؛ بها الواقعة المشهورة بين قيس وكلب .
(٢ـ٢) لم يذكر في الطبري .

لو انضممتَ إلى أصحابك رحمك الله ! فإنى أراك فى قِلّة ، فقال : إن مَعنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مددا أضعاف مَنْ تأمرنا بالانضمام إليهم ؛ قال : فضحك مروان وسُرّ بذلك ، وقال للناس ممن كان حوله : ألا تسمعون !

قال أبو جعفر : وكان قاتل الضحاك رجلاً من كلب ، يقال له زَحْنة بن عبد الله ، فلما قتله وأحضِرَ الرأس إلى مروان ، ظهرت عليه كآبة ، وقال : الآن حين كَبِرَتْ سِنّى ، ودَقّ عظمى ، وصرت فى مثل ظِمْء(١) الحمار ؛ أقبلتُ أضرِب الكتائب بعضها ببعض !

قال أبو جعفر : وروى أنّ مروان أنشد لما بويع ودعا إلى نفسه :

لما رأيتُ الأمرَ أمراً نَهْبا ... سَيّرت غسّان لهمْ وكلْبا
والسَّكْسَكِيّين رجالا غُلْبا ... وطيِّئا تأباه إلّا ضَرْبا
والقَيْنَ تمشى فى الحديد نُكْبا ... ومن تنوخَ مُشْمَخِراً صَعْبا
لا يملكون الملكَ إلا غَصْبا(٢) ... وإنْ دَنَتْ قيس فقل لا قُرْبا

قال أبو جعفر : وخرج الناس منهزمين بعد قتل الضحاك ؛ فانتهى أهلُ حِمْص إلى حِمْص ؛ وعليها النّعمان بن بشير ، فلما عرف الخبر خرج هاربا ومعه ثَقَلَه وولده ، وتحيّر ليلته كلّها ، وأصبح وهو بباب مدينة حمص ، فرآه أهلُ حِمْص فقتلوه ، وخرج زفر بن الحارث الكلابىّ من قنّسرين هاربا ، فلحق بقرقيسياء ؛ وعليها عياض بن أسْلم الجرشىّ(٣) فلم يمكّنه من دُخولها ، فحلف له زفر بالطلاق والعتاق أنّه إذا دخل حَمّامها خرج منها ، وقال له : إنّ لى حاجةً إلى دخول الحمام ، فلما دخلها لم يدخل حَمّامها وأقام بها ، وأخرج عياضا

(١) أى لم يبق من عمرى غير وقت قصير ، والظِمْء فى الأصل : ما بين الشربتين ، ويقال : إنه ليس شىء من الدواب أقصر ظِمأ من الحمار .
(٢) الطبرى : « لا يأخذون الملك » .
(٣) فى الطبرى : « وهو ابن أسلم بن كعب بن مالك » .

منها ، وتحصّن فيها ، وثابَتْ إليه قيس عَيلان ؛ وخرج ناتل بن قيس الجذاميّ من فلسطين هاربا ؛ فالتحق بابن الزبير بمكة ، وأطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له ، واستعمل عليهم عُمّاله ، ففي ذلك يقول زفر بن الحارث :

أرِيني سِلَاحِي لَا أبَا لَكِ إنّنِي ... أرَى الحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إلّا تَمادِيا (١)

أتانيَ عَنْ مَرْوانَ بالغيْبِ أنّه ... مُرِيقٌ دمي ، أو قاطعٌ من لسانيا

وفي العِيس منجاةٌ ، وفي الأرض مَهْرَبٌ ... إذا نحن رفّعْنا لهنّ المبانيا (٢)

فقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثّرى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيا

أتذهب كَلْبٌ لم تَنلها رماحُنا ... وتترك قتْلى راهطٍ هِيَ ماهيا

لعمري لقد أبقتْ وقيعةُ راهطٍ ... لحسّان صَدْعا بيننا متنائياً

أيذهب ابن عمرو وابن معن تتابعاً ... ومَقتَلِ هَمّامٍ أُمَنّى الأمانيا !

وَلَمْ تُرَ مِنّي نبوةٌ قَبْلَ هذِهِ ... فراري وتَرْكي صاحِبَيّ ورائيا

أيذهب يومٌ واحد إنْ أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا !

فلا صُلْحَ حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقنا ... وتثأر من نسوانِ كَلْبٍ نِسائيا (٣)

وقال زُفَر بن الحارث أيضا ، وهو من شعر الحماسة :

أفي اللهِ أمّا بحْدَلٌ وابن بَحْدَلٍ ... فيحيا وأمّا ابنُ الزّبَيْرِ فيقتَلُ (٤) !

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لا تقتلونَهُ ... وَلَمّا يكن يومٌ أغرُّ محجّلُ

(١) الأبيات في معجم البلدان ٤ : ٢١٦ ، والأغاني ١٧ : ١١١ (ساسي) ، مع اختلاف في الرواية بينها وبين رواية الطبري .

(٢) في الطبري : « المثانيا » ، بعده :

فَلَا تحسبوني إن تغيّبتُ غافلاً ... ولا تفرحوا إن جئتُكُمْ بلقائيا

(٣) النحط : صوت الخيل من الإعياء ، بعده في الطبري :

ألا ليتَ شعري هَلْ تُصيبَنّ غارةٌ ... تَنُوخاً وحَيّيْ طَيّئٍ من شِفائيا

(٤) ديوان الحماسة — بشرح المرزوق ٢ : ٦٤٩ .

وَلَمَّا يكنْ للمشرفيّة فوقَكمْ شعاعٌ كقرن الشّمس حينَ ترَجّلُ(١)

***

وأما وفاة مروان ، والسبب فيهـا أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ماقدّمنا ذكره ، فلما استوثق له الأمرُ ، أحبّ أن يبايع لعبد الملك وعبدالعزيز ابنيه ، فاستشار فى ذلك ، فأشير عليه أن يتزوّج أم خالد بن يزيد ، وهى ابنة أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغّر شأنه فلا يرشّح للخلافة ، فتزوجها . ثم قال لخالد يوما فى كلام دار بينهما والمجلس غاصّ بأهله: اسكت يابن الرطبة(٢)، فقال خالد: أنت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قام باكيا من مجلسه ـ وكان غلاما حينئذ ـ فدخل على أمّه ، فأخبرها ، فقالت له : لا يعرفنّ ذلك فيك ، واسكت فأنا أكفيك أمرَه. فلما دخل عليها مروان ، قال لها: ماقال لك خالد ؟ قالت : وماعساه يقول؟ قال : ألم يشكُنِي إليك؟ قالت : إنّ خالداً أشدّ إعظاماً لك من أن يشتكيَك، فصدّقها . ثم مكثت أياما ، فنام عندها وقد واعدت جواريَها ،وقُمْنَ إليه ، فجعلن الوسائد والبراذع عليه، وجلسن عليه حتى خَنَقْنَهُ ،وذلك بدمشق فى شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فى قول الواقدىّ .

وأما هشام بن محمد الكلبىّ ، فقال: ابن إحدى وثمانين سنة ، وقال : كان ابن إحدى وثمانين، عاش فى الخلافة تسعة أشهر. وقيل عشرة أشهر، وكان فى أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حُكْماً ، وأشد تلطفا وتسلّطا منه فى أيام خلافته ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان وقتله .

وقد قال قوم : إن الضّحاك بن قيس لما نزل مَرْج راهط لم يَدْعُ إلى ابن الزّبير ، وإنما دعا إلى نفسه . وبويع بالخلافة ، وكان قرشيا . والأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير .

---

(١) قرن الشمس : أول ما ظهر منها . الترجل : هو الترجل ، والترجل : قبل انتصاف النهار .

(٢) الطبرى : «يا ابن الرطبة الاست» .

(٧٣)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عثمان :

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً ، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ .

***

الشّـرْحُ :

نافست فى الشيء مُنافسةً ونِفاساً ، إذا رغبت فيه على وجه المباراة فى الكرم ، وتنافسوا فيه ، أى رغبوا .

والزّخرف : الذهب ، ثم شبه به كل مموّه مزوّر ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [١] والمزخرف : المزيّن .

والزِّبرج : الزينة من وشيٍ أو جوهر ، ونحو ذلك . ويقال : الزبرج الذهب أيضاً .

يقول لأهل الشورى: إنكم تعلمون أنّى أحقّ بالخلافة من غيرى، وتعدلون عنّى . ثم أقسم لَيُسْلِمَنّ وليتركَنّ المخالفة لهم، إذا كان فى تسليمه ونزوله عن حقّه سلامةُ أمور المسلمين، ولم يكن الجورُ والحيفُ إلا عليه خاصة، وهذا كلام مثله عليه السلام، لأنه إذا علم أو غلب على ظنه أنه إن نازَع وحارَب دخل على الإسلام وَهَن وَثَلْم لم يختَرْ له المنازعة ، وإن كان

---

(١) سورة يونس ٢٤ .

يطلب بالمنازعة ماهو حقّ ؛ وإن عَلِم أو غلَب على ظنّه بالإمساك عن طلب حقّه أنما يدخل الثلم والوَهَن عليه خاصة ، ويسلم الإسلامُ من الفتنة ، وَجَب عليه أنْ يُغضِيَ ويصبر على ما أتوْا إليه من أخذ حقّه ، وكفّ يده ؛ حراسة للإسلام من الفتنة .

فإن قلت : فهلّا سلّم إلى معاوية وإلى أصحاب الجمل، وأغضَى على اغتصاب حَقّه حفظاً للإسلام من الفتنة ؟

قلت : إنّ الجورَ الداخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشام ، لم يكن مقصوراً عليه خاصّة؛ بل كان يعمّ الإسلام والمسلمين جميعاً؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلُح لرياسة الأمة وتحمّل أعباء الخلافة ، فلم يكن الشّرط الذى اشترطه متحقّقاً ، وهو قوله : « ولم يكن فيه جَوْر إلّا عليّ خاصة » .

وهذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أنّ خلافة عثمان كانت تتضمّن جَوْراً على المسلمين والإسلام، وإنما كانت تتضمن جَوْراً عليه خاصّة، وأنها وقعت على جهة مخالفة الأَوْلى؛ لا على جهة الفساد الكلّيّ والبطلان الأصليّ؛ وهذا محضُ مذهب أصحابنا.

***

[كلام لعليّ قبل المبايعة لعثمان]

ونحن نذكر في هذا الموضع ما استفاض في الروايات من مناشدتِه أصحابَ الشورى، وتعديده فضائله وخصائصه التي بان بها منهم ومن غيرهم. قد رَوَى الناس ذلك فأكثروا؛ والذى صحّ عندنا أنه لم يكن الأمرُ كما رُوِي من تلك التعديدات الطويلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبدُ الرحمن والحاضرون عثمانَ ، وتلكّأ هو عليه السلام عن البيعة : إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه، وإن نمنَعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السُّرى؛ في كلام قد ذكره أهل السيرة؛ وقد أوردنا بعضَه فيما تقدم، ثم قال لهم : أنشدكم الله ! أفيكم أحَدٌ آخَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين نفسه ؛ حيث آخَى بينَ بعض المسلمين وبعضٍ غيري ؟

فقالوا: لا ؛ فقال: أفيكم أحدٌ ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ كنت مولاه فهذا مولاه » غيري؟ فقالوا : لا ، فقال: أفيكم أحد؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي » غيري؟ قالوا : لا ، قال : أفيكم من اؤتمن على سورة براءة ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله إنه لا يؤدي عَنّي إلا أنا أو رجل مِنّي غيري؟ قالوا : لا، قال: ألا تعلمون أنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرّوا عنه في مأقِط[1] الحرب في غير موطن، وما فررت قطّ ؟ قالوا : بلى ، قال : ألا تعلمون أني أوّل الناس إسلاما ؟ قالوا : بلى . قال : فأيُّنا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً ؟ قالوا : أنت . فقطع عليه عبدُ الرحمن بن عوف كلامه ، وقال : ياعليّ ؛ قد أبَى الناس إلا على عثمان ، فلا تجعلنّ على نفسك سبيلا ، ثم قال : ياأبا طلحة ، ما الذى أمرك به عمر؟ قال : أن أقتُل مَنْ شقّ عصا الجماعة ، فقال عبد الرحمن لعليّ : بايع إذن ؛ وإلا كنت متّبعاً غيرَ سبيل المؤمنين ، وأنفذْنا فيك ما أُمِرْنا به . فقال : « لقد علمتم أني أحقُّ بها من غيري ، والله لأسْلِمن . . . » الفصل إلى آخره ، ثم مدّ يده فبايع .

---

(١) المأقط : موضع القتال .

(٧٤)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما بلغه اتهام بنى أمية له بالمشاركة فى دم عثمان :

أَوَ لَمْ يَنْهَ بَنِى أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِى عَنْ قَرْفِى ! أَوَ مَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِى عَنْ تُهَمَتِى ! وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِى .

أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ ، وَعَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ ، وبِمَا فِى الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

القَرْف : العيب ؛ قرفته بكذا أى عبته . ووزع : كفّ وردع ؛ ومنه قوله: «لابدّ للناس من وَزَعة » ، جمع وازع ، أى من رؤساء وأمراء . والتُّهَمة ، بفتح الهاء ؛ هى اللغة الفصيحة ؛ وأصل التاء فيه واو .

والحجيج ، كالخصيم : ذو الحجاج والخصومة . يقول عليه السلام : أما كان فى عِلْم بنى أميّة بحالى مانهاها عن قَرْفى بدم عثمان ! وحاله التى أشار إليها ؛ وذكر أنّ عِلْمَهم بها يقتضى ألا يقرِفوه بذلك ؛ هى منزلته فى الدِّين التى لا منزلة أعلى منها ، ومانطق به الكتاب الصادق من طهارته وطهارة بنيه وزوجته ؛ فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[1] . وقول النبيّ صلى الله عليه وآله : « أنتَ منى بمنزلة هارون من موسى » ، وذلك يقتضى عصمتَه عن الدّم الحرام ؛

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

كما أنّ هارون معصوم عن مثل ذلك . وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله صلى الله عليه وآله فى أمره التى يضطرّ معها الحاضرون لها والشاهدون إيّاها إلى أن مثله لايجوز أن يسعى فى إراقةِ دم أمير مسلم ، لم يُحْدِث حدثاً يستوجب به إحلالَ دمه .

وهذا الكلامُ صحيح معقول ؛ وذاك أنّا نَرَى مَن يُظهر ناموس الدين ، ويواظب على نوافل العبادات ، ونشاهد مِنْ وَرَعِه وتقواه ما يتقرّر معه فى نفوسنا استشعارَه الدين ، واعتقاده إياه ، فيصرفنا ذلك عن قَرْفه بالعيوب الفاحشة ، ونستبعد مع ذلك طَعْنَ مَنْ يطعن فيه ، ونُنْكِرُه ونأباه ونكذّبه ؛ فكيف ساغ لأعداء أمير المؤمنين عليه السلام ؛ مع علمهم بمنزلته العالية فى الدين ، التى لم يصل إليها أحد من المسلمين ، أن يُطلِقوا ألسنَتهم فيه ، وينسُبوه إلى قتْل عثمان أو الممالأة عليه ؛ لاسيما وقد اتّصل بهم ، وثَبَتَ عندهم ؛ أنه كان من أنصاره لا من المجلِبين عليه ، وأنه كان أحسنَ الجماعة فيه قولا وفعلا .

ثم قال : « ألم تَزَع الجهال وتردعُهم سابقتى عن تهمتى » ! وهذا الكلام تأكيد للقول الأوّل .

ثم قال : إن الذى وعظهم الله تعالى به فى القرآن من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغُ من وعظى لهم ، لأنه لاعظةَ أبلغُ من عظة القرآن .

ثم قال : « أنا حَجِيج المارقين ، وخَصِيم المرتابين » ، يعنى يوم القيامة ؛ روى عنه عليه السلام أنه قال : « أنا أوّلُ من يَجْثُو للحكومة بين يدِى الله تعالى » ، وقد رُوِىَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك مرفوعا فى قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾[1] وأنه صلى الله عليه وآله سئل عنها، فقال : « علىّ وحمزة وعُبيدة ، وعُتْبة وشَيْبة والوليد » ، وكانت حادثتُهم أوّلَ حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك ، وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عُتْبة ، قتله علىّ عليه السلام ، ضربه على رأسه فبدرَتْ عيناه على وجنته ،

---

(١) سورة الحج ١٩ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله فيه وفى أصحابه ماقال ، وكان على عليه السلام يكثر من قوله : « أنا حجيج المارقين » ، ويشير إلى هذا المعنى .

ثم أشار إلى ذلك بقوله : « على كتاب الله تعرض الأمثال » ، يريد قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ﴾ .

ثم قال : « وبما فى الصدور تجازى العباد » إن كنت قتلتُ عثمان أو مالأت عليه ؛ فإنّ الله تعالى سيجازيني بذلك ، وإلا فسوف يجازِي بالعقوبة والعذاب من اتّهمنى به ، ونسبه إلىّ .

وهذا الكلام يدلّ على مايقوله أصحابنا من تبرّؤ أمير المؤمنين عليه السلام من دم عثمان ، وفيه ردّ وإبطال لما يزعمه الإمامية ، من كونه رضىً به وأباحه ؛ وليس يقول أصحابنا إنّه عليه السلام لم يكن ساخطا أفعال عثمان ، ولكنهم يقولون : إنه وإن سخطها وكرهها وأنكرها لم يكن مُبيحا لدمه ، ولا ممالئا على قتله ، ولا يلزم من إنكار أفعال الإنسان إحلال دمه ، فقد لا يبلغ الفعل فى القبح إلى أن يستحلّ به الدم ؛ كما فى كثير من المناهى .

(٧٥)

الأصْـلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى ، وَدُعِيَ إلى رَشَادٍ فَدَنَا ، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا . رَاقَبَ رَبَّهُ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ ، قَدَّمَ خَالِصاً ، وَعَمِلَ صَالِحاً . اكْتَسَبَ مَذْخُوراً ، وَاجْتَنَبَ مَحْذُوراً . رَمَى غَرَضاً ، وَأَحْرَزَ عِوَضاً . كَابَرَ هَوَاهُ ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ . جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ ، وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ . رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ . لَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ . اغْتَنَمَ الْمَهَلَ ، وَبَادَرَ الأَجَلَ ، وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ .

***

الشَّرْحُ

الحُكْم هاهنا: الحِكْمة ، قال سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1] ، ووعى: حفظ، وعيتُ الحديث أعيه وعيا، وأذُنٌ واعيةٌ ، أى حافظة . ودنا : قَرُب . والحُجزة : معقِد الإزار ؛ وأخذ فلان بحجزة فلان إذا اعتصم به ولجأ إليه .

ثم حذف عليه السلام الواو فى اللفظات الأخر فلم يقل : « وراقب ربه » ، ولا « وقدّم خالصا » ، وكذلك إلى آخر اللفظات ؛ وهذا نوع من الفصاحة كثير فى استعمالهم .

واكتسب ، بمعنى كسب ، يقال : كسبت الشىء واكتسبته بمعنى .

والغَرَض : ما يرمَى بالسهام ، يقول : رحِم الله امرأ رمى غَرَضاً ، أى قصد الحقّ كمن يرمى غرضا يقصده ، لا من يرمى فى عمياء لا يقصد شيئاً بعينه .

---

(١) سورة مريم ١٢ .

والعوض المحرَز ها هنا : هو الثواب .

وقوله : « كابر هواه » أى غالبه . وروى « كاثر » بالثاء المنقوطة بالثلاث ؛ أى غالب هواه بكثرة عقله ، يقال : كاثرناهم فكثرناهم ، أى غلبناهم بالكثرة .

وقوله : « وكَذَّب مُنَاه » أى أمنيَّته . والطريقة الغرّاء : البيضاء . والمَهل : النظر والتُّؤَدة .

(٧٦)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ تَفْوِيقاً ، وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ .

***

قال الرضيّ رحمه الله : وَيُرْوَى « التُّرَابَ الْوَذِمَةَ » ، وهو على القَلْب .

وقوله عليه السلام : « لَيُفَوِّقُونَنِي » أى يُعطوننى من المال قليلا كفُواق الناقة ، وهو الحلبة الواحدةُ من لبنها .

وَالْوِذَامُ التَّرِبَةُ : جمعُ وَذَمَةٍ ، وهى الحُزَّة من الكَرِش أو الكَبِد تقع فى التُّراب فتنفض .

***

الشَّرْحُ :

اعلم أنّ أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانىّ فى كتاب " الأغانى "[1] بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش ، قال: بعثنى سعيد بن العاص ــ وهو يومئذ أمير الكوفة من قِبَل عثمان ــ بهدايا إلى المدينة ، وبعث معى هدية إلى علىّ عليه السلام وكتب إليه : إنى لم أبعثْ إلى أحدٍ أكثر مما بعثت به إليك ، إلا إلى أمير المؤمنين[2] . فلما أتيت عليا عليه السلام وقرأ كتابه[3] ، قال : « لشدّ ما يحظر علىّ بنو أمية تراثَ محمد صلى الله عليه وسلم ! أما والله لئن وليتُها لأنفضنّها نَفْضَ القَصّاب التراب الوذِمة » .

(١) الأغانى ١٢ : ١٤٤ (طبعة دار الكتب) .
(٢) الأغانى : « إلا شيئاً فى خزائن أمير المؤمنين » .
(٣) الأغانى : « فأخبرته » .

قال أبو الفرج : وهذا خطأ ؛ إنما هو « الوِذام التَّرِبة » .

قال : وقد حدثني [1] بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ عن أبي زيد عمر بن شبّة، بإسناد ذكره في الكتاب ، أنّ سعيد بن العاص حيث كان أميرَ الكوفة ، بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بصِلَة ، فقال عليّ عليه السلام : والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة ؛ والله لئن بقيت لأنفضنّها نَفْض القصّاب الوِذام التَرِبة .

(١) الخبر في الأغاني : « عن أبي زيد عن عبد الله بن محمد بن حكيم الطائي عن السدي عن أبيه » .

(٧٧)

الأصلُ

ومن كلمات كان عليه السلام يدعو بها :

اللهمّ اغفِرْ لِي مَا أنتَ أعلَمُ بِهِ مِنّي ؛ فإنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالمَغفِرَةِ . اللَّهمَّ اغفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي ، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي .

اللَّهمَّ اغفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلبِي . اللَّهمَّ اغفِرْ لِي رَمَزَاتِ الألحَاظِ ، وَسَقَطَاتِ الألفاظِ وَسَهَوَاتِ الجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ .

* * *

الشّرحُ

وأيتُ ، أى وعدت ، والوأى الوعد . ورمزات الألحاظ : الإشارة بها . والألحاظ : جمع لَحْظ ، بفتح اللام ، وهو مُؤخَر العين . وسقَطات الألفاظ : لغوها ، وسهوات الجنان : غَفلاته ، والجَنان : القلبُ . وهَفَوات اللسان : زلاّته .

وفى هذا الموضع يقال : مافائدةُ الدعاء عندكم ـ والقديم تعالى إنّما يغفِر الصغائر ؛ لأنها تقع مكفّرة ، فلا حاجة إلى الدعاء بغفرانها ، ولا يؤثّر الدعاء أيضا فى أفعال البارى سبحانه لأنه إنما يفعلُ بحسَب المصالح ويرزق المال والولد وغير ذلك ، ويصرف المرض والجدب وغيرهما بحسب ما يعلمه من المصلحة ؛ فلا تأثير للدعاء فى شىء من ذلك ؟

والجواب ؛ أنه لايمتنع أن يحسن الدعاء بما يعلم أنّ القديم يفعله لامحالة ، ويكون وجه حُسْنه ، صدوره عن المكلّف على سبيل الانقطاع إلى الخالق سبحانه .

ويجوز أيضا أن يكونَ فى الدعاء نفسِه مصلحة ولطف للمكَلَّف ؛ لقد حَسُن منا الاستغفار للمؤمنين ، والصلاة على الأنبياء والملائكة .

وأيضا فليس كلّ أفعال البارئ سبحانه واجبةً عليه ، بل معظمها ما يصدر على وجه الإحسان والتفضّل ، فيجوز أن يفعله ، ويجوز ألّا يفعله .

فإن قلت : فهل يُسَمّى فعلُ الواجب الذى لا بدّ للقديم – تعالى – من فعله إجابةً لدعاء المكلف ؟

قلت : لا ؛ وإنّما يسمّى إجابة إذا فعل سبحانه ما يجوز أن يفعلَه ، ويجوز ألّا يفعله كالتفضّل . وأيضا فإنّ اللطف والمصلحة قد يكون لطفا ومصلحة فى كلّ حال ، وقد يكون لطفاً عند الدعاء ، ولولا الدعاء لم يكن لطفاً ؛ وليس بممتنع فى القِسْمِ الثانى أن يسمّى إجابة للدعاء ؛ لأنّ للدعاء على كلّ حال تأثيراً فى فعله .

فإن قيل : أيجوز أن يدعو النبيّ صلى الله عليه وآله بدعاء فلا يستجاب له ؟

قيل : إن مِنْ شَرْط حسن الدعاء أن يعلم الداعى حُسْنَ ما طلبه بالدعاء ؛ وإنما يَعلمُ حسنَه ؛ بألّا يكون فيه وجه قبح ظاهر ، وماغاب عنه من وجوه القبح ؛ نحو كونِه مفسدة يجب أن يشترطه فى دعائه ، ويطلب مايطلبه بشرط ألّا يكون مفسدة . وإن لم يظهرْ هذا الشرط فى دعائه وجب أن يُضمِره فى نفسه ، فمَتى سأل النبيّ ربَّه تعالى أمراً فلم يفعله لم يجز أن يقال : إنه ما أجيبت دعوتُه؛ لأنه يكون قد سأل بشرط ألا يكون مفسدة ؛ فإذا لم يقع ما يطلبه ، فلأنّ المطلوب قد علم الله فيه من المفسدة ما لم يعلمه النبيّ صلّى الله عليه وآله ؛ فلا يقال : إنه ما أجيب دعاؤه ؛ لأن دعاءه كان مشروطا ؛ وإنما يصدُق قولنا ما أجيب دعاؤه على مَنْ طلب أمرا طلباً مطلقاً غير مشروط فلم يقع ، والنبي صلى الله عليه وآله لا يتحقّق ذلك فى حقه .

---

(١) ا : « غاية » .

[من أدعية رسول الله المأثورة]

ونحن نذكر فى هذا الموضع جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركتها ، ولينتفع قارى الكتاب بها :

كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح أن يقول :

« أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكن فيهما لله عزّ وجلّ وحدَه لاشريك له . اللهم اجعل أوّلَ يومِى هذا صلاحاً ، وأوسطَه فلاحا ، وآخره نجاحا . اللهم إنى أسألُكَ خيرَ الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتنا ما تبلّغنا به رحمتك ؛ ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا . اللهم متّعنا بأسماعِنا وأبصارِنا ، واجعلها الوارث مِنّا ، وانصرنا على مَنْ ظلمنا ، ولاتجعل مصيبتَنافى ديننا ، ولاتجعل الدُّنيا أكبرَ همّنا ، ولا مَبْلَغَ علمنا ، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمنا » .

[من أدعية الصحيفة]

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يدعُو به زينُ العابدين علىّ بن الحسين عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

يامَنْ يرحَمُ من لا يرحمُه العباد ، ويا مَن يقبل من لا تقبلُه البلاد ، ويا مَنْ لايحتقِر أهلَ الحاجة إليه ؛ يا من لا يجبَه بالردّ أهلَ الإلحاح إليه . يامَنْ لا يخفَى عليـــه صغيرُ ما يُتحَف به ، ولا يضيع يسيرُ ما يعملُ له . يا مَنْ يشكُر على القليل ، ويجازِى بالجليل . يا مَنْ يدنو إلى مَنْ دنا منه . يا من يَدْعُو إلى نفسه مَنْ أدبر عنه . يا مَنْ لا يغيِّر النعمة ، ولايبادِر بالنَّقمة . يا مَنْ يثمِّر الحسنَة حتى ينمّيها ، ويتجاوزعن السيئة حتى يعفّيها ؛ انصرفت

دون مَدَى كرمِك الحاجات ، وامتلأت بيعضِ جودك أوعيةُ الطلبات ، وتفسّخت دون بلوغ نعتك الصّفات . فلك العلوّ الأعلى فوق كل عالٍ ، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال ؛ كلّ جليل عندك حقير ، وكلّ شريفٍ فى جَنْب شرفك صغير ، خاب الوافدون على غيرك ، وخَسِر المتعرّضون إلا لك ، وضاع الملمّون إلا بك ، وأجدب المنتجعون إلا من انتجعَ فضلك ، لأنك ذو غاية قريبة من الراغبين ، وذو مجدٍ مباح للسائلين ؛ لا يَخيبُ لديك الآملون ، ولا يخفِق من عطائك المتعرّضون ، ولا يشقى بنقمتك المستغفرون ؛ رزقُك مبسوط لمَنْ عصاك ، وحلمُك معرّض لمن ناواك ، وعادتك الإحسان إلى المسيئين ، وسنّتك الإبقاء على المعتدين ، حتى لقد غرّتهم أناتك عن النزوع ، وصدّهم إمهالك عن الرجوع ، وإنما تأنّيت بهم ليَفيئوا إلى أمرك ، وأمهلتهم ثقةً بدوَام مُلْكك ، فمن كان من أهل السعادة ختمتَ له بها ، ومَنْ كان من أهل الشّقاوة خذلته لها .

كلهم صائر إلى رحمتك ، وأمورُهم آيلة إلى أمرك ؛ لم يَهِنْ على طول مدّتهم سلطانُك ، ولم تدحَضْ لترك معاجلتهم حججُك[1] ؛ حجّتك قائمة ، وسلطانك ثابت ، فالويل الدائم لمن جنحَ عنك ، والخيبةُ الخاذِلة لمن خاب أمله منك ، والشقاء الأشقى لمن اغترّ بك . ما أكثر تقلبه فى عذابك ، وما أعظم تردّده فى عقابك ، وما أبعدَ غايته من الفرج ، وما أثبطه من سهولة المخرج ! عدلاً من قضائك لا تجور فيه ، وإنصافاً من حكمك لا تحيفُ عليه ؛ قد ظاهرتَ الحجج ، وأزلتَ الأعذار ، وتقدّمت بالوعيد ، وتلطّفت فى الترغيب ؛ وضربت الأمثال ، وأطلتْ الإمهال ، وأخّرت وأنت تستطيع المعاجلة ، وتأنّيت وأنت ملىء بالمبادرة .

لم تك أناتُك عجزاً ، ولا حِلْمك وَهْنا ، ولا إمساكُك لِعلّة ، ولا انتظارك لمداراة ، بل لتكونَ حجّتك الأبلغ ، وكرمك الأكمل ، وإحسانك الأوفى ، ونعمتك الأتمّ .

(١) ج : « برهانك » .

كلّ ذلك كان ولم يزل ، وهو كائن لا يزول . نعمتك أجلّ من أن توصف بكلّها ، ومجدك أرفعُ من أن يحدّ بكنهه ، وإحسانك أكبرُ من أن يشكر على أقله ، فقد أقصرتُ ساكتا عن تحميدك ، وتهيّبتُ ممسكا عن تمجيدك ، لا رغبةً يا إلهى عنك بل عجزا ، ولا زهدا فيما عندك بل تقصيرا ، وها أنذا يا إلهى أؤمّل بالوفادة ، وأسألك حسنَ الرِّفادة ، فاسمع ندائى ، واستجب دعائى ؛ ولا تختم عَملِى بخيبتى ، ولا تجبهنى بالردّ فى مسألتى ، وأكرم من عندك منصرَفى ؛ إنك غير ضائق عمّا تريد ، ولا عاجز عمّا تشاء ؛ وأنت على كل شىء قدير .

***

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة أيضا :

اللهمّ يامَنْ برحمتِه يستغيث المذنبون ، ويامَنْ إلى إحسانه يفزَعُ المضطرون ، ويامَنْ لخيفَتِه ينتحب الخاطئون ؛ يا أنسَ كلّ مستوحِشٍ غريب ، يافرج كلّ مكروب حريب . ياعونَ كلّ مخذول فريد ، ياعاضدَ كلّ محتاج طريد ؛ أنت الذى وَسِعْتَ كلّ شىء رحمة وعلما ، وأنتَ الذى جعلتَ لكلّ مخلوق فى نعمتك سَهْمًا ، وأنت الذى عفوُه أعلَى من عقابه ، وأنت الذى رحمتُه أمام غضَبِه ؛ وأنت الذى إعطاؤه أكبَرُ من منعه ، وأنتَ الذى وَسِع الخلائق كلّهم بعفوه ، وأنت الّذى لا يرغبُ فى غنى مَنْ أعطاه . وأنت الذى لا يفرّط فى عقاب من عصاه .

وأنا ياسيّدى عبدُك الذى أمرتَه بالدعاء فقال : لبَّيْك وسعْدَيْك ! وأنا ياسيدى عبدُكَ الذى أوقرَتِ الخطايا ظهره ، وأنا الذى أفنَتِ (١) الذنوبُ عمرَه ، وأنا الذى بجهله عصاك ؛ ولم يكن أهلا منه لذلك ؛ فهل أنتَ يامولاى راحمٌ من دعاك فاجتهد فى الدعاء ، أم أنت غافرٌ لمن بكى لك ، فأسرع فى البكاء ، أم أنت متجاوزٌ عمّن عفّر لك وجهَه ، متذلّلا ، أم أنت مغْنٍ من شكا إليك فقره متوكّلا !

---

(١) ج : « وأفنت الذنوب عمره » .

اللهم فلا تخيِّب مَنْ لا يجدمعطياً غيرَك ، ولا تخذُل من لا يستغنى عنك بأحدٍ دونك .
اللهم لا تُعرِضْ عَنّى وقد أقبلت عليك ، ولا تحرمْنى وقد رغبتُ إليك ، ولا تجبَهنى بالردّ وقد انتصبتُ بين يديك .أنت الذى وصفتَ نفسَك بالرّحمة ، وأنت الذى سمّيتَ نفسك بالعفو ، فارحمْنِى واعف عَنّى ؛ فقــد ترَى ياسيّدى فيضَ دموعى من خيفَتِك ، ووجيبَ قلبِى من خشيتك ، وانتفاضَ جوارحى من هيبتك ، كلُّ ذلك حياء منك بسوء عَمَلِى ، وخجلاً منك لـكثرة ذنوبى؛ قد كَلّ لسانِى عن مناجاتك ، وخمدصوتى عن الدعاء إليك!

ياإلهى ، فـكَمْ من عيبٍ سترتَه علىّ فلم تفضحْنى ، وكَمْ من ذنبٍ غطّيتَ عليه فلم تشهرْ بى ! وكَمْ من عائبةٍ ألممتُ بها فلم تهتِكْ عنّى سترَها ، ولم تقلّدنى مكروه شنارها، ولم تبد علىّ محرّمات سوآتها . فمن يلتمسُ معايبى من جيرتى وحَسَدَةِ نعمتك عندى ،ثم لم ينهنى ذلك حتى صرتُ إلى أسوإ ماعهدتَ مِنّى ! فمن أجهلُ مِنّى ياسيدى برشدِك ! ومَنْ أغفلُ مِنّى عن حظّه منك! ومَنْ أبعد مِنّى من استصلاح نفسه حين أنفقت ماأجريتَ علىّ من رزقك فيما نهيتَنى عنه مِن معصيتك ! ومَنْ أبعدُ غورْاً فى الباطل ، وأشدّ إقداماً عَلَى السوء منّى حين أقِفُ بين دعوتك ودعوة الشيطان ،فاتّبع دعوته على غير عَمى عن المعرفة به، ولا نسيانٍ من حفظى له ؛ وأنا حينئـذ موقِنٌ أنّ منتهَى دعوتك الجنّـة ، ومنتهى دعوته النار !

سُبحانَك فما أعجب ماأشهد به على نفسى ،وأعدّدُه من مكنون أمرى ! وأعجبُ مِنْ ذلك أناتُك عَنِّى ، وإبطاؤك عن معاجَلتى ؛ وليس ذلك من كرمى عليك ، بل تأنّياً منك بى وتفضّلًا منك علىّ ؛ لأن ارتدعَ عن خطئِى ، ولأنّ عفوكَ أحبُّ إليك من عقوبتى .
بل أنا ياإلهى أكثرُ ذنوباً، وأقبح آثارا ،وأشنع أفعالا ،وأشدّ فى الباطل تهوّرا ،وأضعف عند طاعتك تيقّظا ،وأغفل لوعيدك انتباها؛ مِنْ أنْ أحصِىَ لك عيوبى ، وأقدر على تعديد

ذنوبى ؛ وإنما أوبّخ بهـذا نفسى طمعاً فى رأفتك التى بها إصلاح أمر المذنبين ، ورجاء لعصمتك التى بها فَـكاك رقاب الخاطئين . اللهمّ وهذه رقبتى قد أرقّتها الذنوب فأعتِقها بعفوك ؛ وقدأثقلتْها الخطايا فخفّف عنها بمنّك . اللهمّ إنى لوبكيت حتى تسقط أشفارُ عينى ؛ وانتحبْتُ حتى ينقطع صوتى ، وقمتُ لك حتى تنتشرَ قدماىَ ، وركعتُ لك حتى ينجذِع صُلْبى ، وسجدْتُ لك حتى تتفقّأ حَدَقتَاى ، وأكلْتُ التراب طولَ عمرى ، وشربتُ ماء الرماد آخر دهرى ؛ وذكرتُك فى خلال ذلك حتى يكلّ لسانى ؛ ثم لم أرفع طرفى إلى آفاق السماء استحياءً منك ؛ لما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتى ؛ فإن كنتَ تغفرُ لى حين أستوجب مغفرتك ، وتعفو عنى حين أستحقّ عفوك ؛ فإنّ ذلك غـير واجب لى بالاستحقاق ، ولا أنا أهلٌ له على الاستيجاب ؛ إذ كان جزائى منك من[1] أوّل ما عصيتُك النار ؛ فإن تعذّبنى فإنك غير ظالم .

إلهى فإن تغمّدْتَنى بسترك فلم تفضحنى ، وأمهلتَنى بكرمك فلم تعاجِلْنى ، وحلُمتَ عنى بتفضّلك فلم تغيّر نعمك علىّ ، ولم تـكدّر معروفك عندى ، فارحم طول تضرّعى ، وشدّة مسكنتى ، وسوء موقفى .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد ، وأنقذنى من المعاصى ، واستعملنى بالطاعة ، وارزقنى حسنَ الإنابة ، وطهّرنى بالتوبة ، وأيّدنى بالعصمة ، واستصلِحْنى بالعافية ، وارزقنى حلاوة المغفرة ، واجعلنى طليقَ عفوك ، واكتب لى أماناً من سَخَطك ، وبشّرْنى بذلك فى العاجل دون الآجل[2] ؛ بشرَى أعرفها ، وعرّفنى له علامةً أتبيّنها ؛ إن ذلك لا يضيقُ عليك فى وُجْدك ، ولا يتكاءدك فى قدرتك ، وأنت على كلّ شىء قدير .

* * *

ومن أدعيته عليه السلام ؛ وهو من أدعية الصحيفة :

---

(١) ب : « فى » . (٢) ب : « والعاجل » .

اللهم ياذا الملك المتأبّد بالخلود والسلطان ، الممتنع بغير جنود ، والمعزّ الباقي على مرّ الدهور ؛ عزّ سلطانك عزّاً لا حدّ له ولا منتهى لآخره ، واستعلى ملكك علوّاً سقطت الأشياء دونَ بلوغ أمده،ولا يبلغ أدنى مااستأثرت به من ذلك نعوتُ أقصى نعت الناعتين ضلّت فيك الصفات ، وتفسّخت دونك النعوت ، وحارت فى كبريائك لطائف الأوهام.

كذلك أنت الله فى أوّليتك ، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول ، وكذلك أنت الله فى آخريتك ؛ وكذلك أنت ثابت لا تحُول .

وأنا العبد الضعيف عملاً ، الجسيم أملا ، خرجتْ من يدىّ أسبابُ الوصلات إلى رحمتك ، وتقطّعت عنّى عِصَمُ الآمال إلا ماأنا معتصم به من عفوك.قلّ عندى ماأعتدّ به من طاعتك، وكثُر عندى ما أبوء به من معصيتك ؛ ولن يفوتك[1] عفوٌ عن عبدك وإن أساء ؛ فاعف عنّى .

اللهم قد أشرف على كلّ خطايا الأعمال علمُك،وانكشف كلّ مستورعند خُبْرِك؛ فلا ينطوى عنك دقائق الأمور ، ولايعزُب عنك خفايا السرائر[2]؛وقد هربتُ إليك من صغائر ذنوب موبقة ، وكبائر أعمال مردية ، فلا شفيعَ يشفع لى إليك ، ولاخفير يؤمننى منك ، ولا حصن يحجبنى عنك ، ولا ملاذ ألجأ إليه غيرك .

هذا مقامُ العائذ بك ، ومحلّ المعترف لك ، فلا يضيقَنّ عنّى فضلُك ، ولا يقصُرَنّ دونى عفوك ، ولا أكون أخيبَ عبادك التائبين ، ولا أقنط وفودك الآملين ؛ واغفر لى إنك خير الغافرين .

اللهمّ إنك أمرتنى فتَفَات ، ونهيتَنى فرَكبت ، وهذا مقام من استحيا لنفسه منك، وسخِط عليها ورضىَ عنك؛وتلقّاك بنفس خاشعةٍ،وعين خاضعة،وظهرٍ مثقَل من الخطايا، واقفا بين الرغبة إليك والرهبة منك ؛ وأنت أوْلَى مَنْ رجاه ، وأحقُّ مَنْ خشيَه واتقاه؛

---

(١) ج : « يفوتك » .
(٢) ج : « خفايا الأعمال » .

فأعطني يارب ما رجوتُ ، وأمنّي ماحَـذَرت ، وعـدْ عليّ بفضلك ورحمتك ؛ إنك أكرمُ المسئولين .

اللهمّ وإذْ سترتَني بعفوك ، وتغمّدْتَـني بفضلك فى دار الفناء،فأجِرْني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد ؛ من الملائـكة المقربين ، والرسل المـكرّمين ، والشهداء الصالحين ؛ مِنْ جارٍ كنتُ أكاتمه سيِّئاتى،ومن ذى رحِمٍ كنت أحتشِم منه لسريراتى؛ لم أثق بهم فى السّتْر(١) عليّ،ووثقت بك فى المغفرة لى،وأنت أولى مَنْ وُثِق به،وأعطى مَنْ رُغِب إليه ، وأرأف من استرحِم ؛ فارحمنى .

اللهم إنى أعوذُ بك مِنْ نار تغلّظتَ بهـا على مَنْ عصاك ، وأوعدْت بها من ضادّك وناوَاك ، وصدَف عن رضاك . ومن نارٍ نورها ظلمة،وهيّنُها صعب ، وقريبها بعيد.ومِنْ نارٍ يأكل بعضُها بعضاً ، ويصول بعضها على بعض؛ ومن نارٍ تَذَرُ العظام رميماً ، وتسقى أهلَها حميا ، ومن نارٍ لاتبقى على من تضرّع ، ولا ترحم مَنِ استعطفهـا ، ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لهـا ، واستبتل إليها ، تلقى سكانَها بأحرّ مالديها من أليم النَّكال ، وشديد الوبال .

اللهم بك أعوذ من عقاربها الفاغرة أفواهَها،وحيّاتها الناهشة بأنيابها،وشرابها الذى يقطّع الأمعاء ، ويذيب الأحشاء ؛ وأستهديك لما باعد عنها ، وأنقذ منها ، فأجرنى بفضل رحمتك ؛ وأقِلْنى عثرَتى بحسن إقالتك ، ولا تخذُلنى ياخير المجيرين .

اللهم صلّ على محمد وآل محمد إذا ذُكِر الأبرار،وصلّ على محمد وآل محمد ما اختلف الليل والنهار ، صلاةً لا ينقطع مددها ، ولا يحصى عددُها ، صلاة تشحن الهواء ، وتملأ الأرض والسماء .

صلّ اللهم عليه وعليهم حتى ترضى ، وصلّ عليه وعليهم بعد الرّضا صلاةً لاحدّ لها، ولا منتهى ؛ يا أرحم الراحمين !

* * *

(١) ب : « السرّ » وما أثبته من ج .

ومن دعائه عليه السلام ، وهو من أدعية الصحيفة :

اللهمّ إني أعوذ بك من هَيَجان الحرص وسَوْرة الغضب ، وغلبة الحسد وضعف الصبر ، وقلة القناعة ، وشكَاسة الخُلق ، وإلحاح الشهوة ، وملكة الحميّة ، ومتابعة الهوى ، ومخالفة الهدى وسِنَة الغفلة ، وتعاطي الكُلْفَة ، وإيثار الباطل على الحقّ ، والإصرار على المأثم ، والاستكثار من المعصية ، والإقلال من الطاعة ، ومباهاة المكثرين ، والإزراء على المقلّين ، وسوء الولاية على مَنْ تحت أيدينا ، وترك الشُّكر لمن اصطنع العارفة عندنا ، وأن نعضّد ظالماً ، أو نخذل ملهوفاً ، أو نروم ما ليس لنا بحقّ ، أو نقول بغير علم ، ونعوذ بك أن نتطوِيَ على غِشّ لأحد ، وأن نُعجَب بأموالنا وأعمالنا ، وأن نمدّ في آمالنا . ونعوذ بك من سوء السريرة ، واحتقار الصغيرة ، وأن يستحوذَ علينا الشيطان ، أو ينكبنا الزمان ؛ أو يتهضّمنا السلطان ، ونعوذ بك من حبّ الإسراف ، وفقدان الكفاف ، ومن شماتة الأعداء ، والفقر إلى الأصدقاء ، ومن عيشة في شدّة ، أو موت على غير عُدّة .

ونعوذ اللهمّ بك من الحسرة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، ومن سوء المآب ، وحرمان الثواب ، وحلول العقاب .

اللهم أعذنا من كلّ ذلك برحمتك وَمَنِّك وجودك ، إنك على كل شيء قدير .

* * *

ومن دعائه عليه السلام وتحميده ، وذكره النبيّ صلى الله عليه وآله ، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً :

الحمد لله بكلّ ما حمده أدنى ملائكته إليه ، وأكرمُ خلقه عليه ، وأرضى حامديه لديه ؛ حمداً يفضل سائرَ الحمد ، كفضل ربّنا — جلّ جلاله — على جميع خَلقه .

ثم له الحمد مكانَ كلّ نعمة له علينا ، وعلى جميع عباده الماضين والباقين ، عَدَد ما أحاط به علمه ، ومن جميع الأشياء أضعافاً مضاعفة ، أبداً سرمداً إلى يوم القيامة ، وإلى ما لا نهاية له

من بعد القيامة ؛ حمداً لا غايةَ لحدّه ، ولا حساب لعدّه ، ولا مبلغَ لأعداده ، ولا انقطاع لآماده ؛ حمداً يكون وُصْلَةً إلى طاعته ، وسبباً إلى رضوانه ، وذريعةً إلى مغفرته ، وطريقاً إلى جنّته ، وخفيراً من نقمته وأمْناً من غَضَبِه ، وظهيراً على طاعته ، وحاجزاً عن معصيته ؛ وعوناً على تأدية حقه ووظائفه ؛ حمداً نسعَدُ به في السعداء من أوليائه ، وننتظم به في نظام الشهداء بسيوف أعدائه .

والحمد لله الذي منّ علينا بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله دون الأمم الماضية ، والقرون السالفة ؛ لقدرته التي لاتعجزُ عن شيء وإن عَظُم ، ولا يفوتها شيء وإن لَطُف .

اللّهم فصلّ على محمد أمينك على وحيك ، ونجيّك من خَلْقك ، وصفيّك من عبادك . إمام الرحمة وقائد الخير ، ومفتاح البرَكة ؛ كما نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للمكروه بدَنه ، وكاشف في الدعاء إليك حامّته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطَع في نُصرة دينك رَحِمَهُ ، وأقصى الأدنَين على عنودهم عنك ، وقرّب الأقصَين على استجابتهم لك ؛ ووالَى فيك الأبعدين ، وعاند فيك الأقربين ، وأداب[1] نفسه في تبليغ رسالتك ، وأتعبها في الدعاء إلى ملّتك ، وشغَلها بالنصح لأهل دعوتك ، وهاجر إلى بلاد الغربة ومحلّ النأى عن موطن رحله ، وموضع رجْله ، ومسقط رأسه ، ومأنَس نفسه ؛ إرادة منه لإعزاز دينك ، واستنصاراً على أهل الكفر بك ؛ حتى استتبّ له ما حاول في أعدائك ، واستتمّ له ما دبّر في أوليائك ، فنهد إلى المشركين بك ، مستفتحاً بعونك ، ومتقوياً على ضعفه بنصرك ، فغزاهم في عُقْر ديارهم ، وهجم عليهم في بُحبوحة قرارهم ؛ حتى ظهر أمرُك ، وعلَتْ كلمتك ؛ وقد كره المشركون .

اللهم فارفعه — بما كَدَح فيك — إلى الدرجة العليا من جنّتك ؛ حتى لا يساوَى في منزلة ، ولا يُكافأ في مرتبة ، ولا يوازيه لديك ملَك مقرّب ، ولا نبيّ مرسَل ، وعرّفه في أمته من

(١) ج : « وأدّب » .

حين الشفاعة أجلّ ماوعدته ؛ يانافذ المِدّة ، يا وافىَ القول ، يا مبدّل السيئات بأضعافها من الحسنات ؛ إنك ذو الفضل العظيم .

***

[من الأدعية المأثورة عن عيسى عليه السلام]

ومن الأدعية المروية عن عيسى بن مريم عليهما السلام :

اللهم أنت إله مَنْ فى السماء ، وإله من فى الأرض ، لا إله فيهما غيرك ، وأنت حكيم مَنْ فى السماء ، وحكيم من فى الأرض ؛ لا حكيم فيهما غيرك ؛ وأنت مَلِك من فى السماء ، وملك من فى الأرض ، لا ملك فيهما غيرك ؛ قدرتك فى السماء كقدرتك فى الأرض ، وسلطانك فى السماء كسلطانك فى الأرض ؛ أسألك باسمك الكريم ، ووجهك المنير ، وملكك القديم أن تفعل بى كذا وكذا .

***

[من الأدعية المأثورة عن بعض الصالحين]

وكان بعض الصالحين يدعو فيقول :

اللهم لا تدخلنا النارَ بعد أن أسكنت قلوبَنا توحيدك ، وإنى لأرجو ألا تفعل ؛ وإن فعلت لتجمعنّ بيننا وبين قوم عاديْنَاهم فيك .

ومن دعاء بعضهم :

اللهمّ إنك لم تشرِكْ فى خلقنا غيرَك ، فلا تشرك فى الإحسان إلينا غيرَك ؛ اللهمّ لا ربّ لنا غيرك ؛ فلا تجعل حاجتَنا عند غيرك . اللهم إنّا لا نعبُد غيرك ، فلا تسلّط علينا غيرَك .

قام أعرابىّ على قبرِ رسول الله صلى الله عليه وآله فقال :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! قلت فقبلنا ، وتلوتَ فوعَيْنا ، ثم ظلمنا أنفسنا ، وقرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا[1] ﴾ . اللهم إنا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك ونسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا ، فاغفر لنا وتُبْ علينا .

فيقال : إن إنساناً حضر ذلك الدعاء ، فرأى تلك الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فى منامه يقول له : أبلغ الأعرابىّ أنّ الله قد غفر له .

ومن أدعية بعض الصالحين :

اللهمّ إنى لم آتِكَ بعمل صالح قدّمتُه ، ولا شفاعة مخلوق رجوتُه ؛ أتيتُك مقرًّا بالظلم والإساءة على نفسى ؛ أتيتك بلا حجّة ، أتيتك أرجو عظيمَ عفوك الذى عدتَ به على الخاطئين ؛ ثم لم يمنعك عكوفُهم على عظيم الجُرْم أن جُدْت لهم بالمغفرة ، فياصاحب العفو العظيم اغفرِ الذنب العظيم ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وروى أنّ عليًّا عليه السلام اعتمر ، فرأى رجلامتعلقًا بأستار الكعبة ، وهو يقول : يامَنْ لايشغَلُه سمع عن سمع ؛ يامن لاتغلّطه[2] المسائل ولايبرمه إلحاح الملحّين ؛ أذقْنى بَرْدَ عفوك ، وحلاوة مغفرتك ؛ وعذوبة عافيتك ؛ والفوزَ بالجنّة ، والنجاة من النار .

فقال علىٌّ عليه السلام : والذى نفسِى بيده إن قالها وعليه مثل السموات والأرض من الذنوب قولا مخلصا ليغفرنّ له .

ودعا أعرابىٌّ عند الملتزَم ، فقال :

اللّهم إن لك على حقوقا فتصدّقْ بها علىّ ، وإنّ للناس قبلى تَبِعاتٍ فتحمّلها عنى ؛ وقد أوجَبتَ لكلّ ضيفٍ قرًى وأنا ضيفُك الليلة ، فاجعل قِرايَ الجنة .

---

(١) سورة النساء ٦٤ .

(٢) ب : « تغلطه » ، وما أثبته من ج .

ودعا بعض الأعراب أيضاً ، وقد خرج حاجّا ، فقال : اللّهم إليك خرجْتُ ؛ وما عندك طلبت ، فلا تحرمني خيرَ ماعندك ، لشرِّ ماعندي ؛ اللهم إن كنتَ لم ترحَمْ تعبي ونصَبي ؛ فإنّها لمصيبة أصِبْتُ بها ، فلا تحرمْني أجرَ المصاب على المصيبة .

ودعا بعضهم فقال : اللّهمّ إنك سترتَ علينا في الدنيا ذنوبا كثيرة ؛ ونحن إلى سترها في الآخرة أحوَج ؛ فاغفر لنا .

ومن دعاء بعضهم : اللّهمّ اجعل الموتَ خيرَ غائب ننتظره ، واجعل القبرَ خيرَ بيت نعمره ؛ واجعل مابعدَه خيراً لنا منه . اللهمّ إليك عجّت الأصوات بصنوف اللغات تسألكُ الحاجات ، وحاجتي إليك أن تذكرني عند طول البِلَى ، إذا نسيني أهلُ الدنيا .

وقال بعضهم : كنتُ أدعو الله بعد وفاة مالك بن دينار أن أراه في منامي ، فرأيته بعد سنة ، فقلت : ياأبا يحيى ، علمني كيف أدعو ؟ قال : قل : اللّهم يسّر الجواز ، وسهل المجاز .

وقال الشعبيّ : حسدتُ عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعُو به على المنبر ؛ يقول : اللهمّ إن ذنوبي كثيرة جلّت أن توصَف ، وهي صغيرة في جَنْب عفوك ، فاعفُ عني .

ومن دعاء بعض الزهاد : اللهمّ إنّي أعوذ بك من أهل يُلهيني ، ومن هوًى يُردِيني ، ومن عمل يُخزيني ، ومن صاحب يُغويني ، ومن جارٍ يؤذيني ؛ ومن غِنًى يُطغيني ، ومن فقرٍ ينسّيني . اللهمّ اجعلنا نستحييك ونتقيك ، ونخافك ونخشاك ، ونرجوك ونطيعك في السرّ والعلانية . اللهمّ استرنا بالمعافاة والغنى ؛ أستعين الله على أموري ، وأستغفر الله لذنُوبي ، وأعوذ بك من شرّ نفسي .

ويروى أنّ رجلا أعمى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فشكا إليه ذهابَ بصره ، فقال صلى الله عليه وآله له : قل : يا سبّوح يا قدّوس ، يا نور الأنوار ، يا نورَ السموات والأرض ، يا أوّل الأولين ، ويا آخر الآخرين ، ويا أرحم الراحمين ، أسألك

أنْ تغفرَ لي الذنوب التي تغيِّر النعم، والذنوب التي تنزِل النقم، والذنوب التي تهتك العِصَم، والذنوب التي توجب البلاء، والذنوب التي تقطع الرجاء، والذنوب التي تحبس الدعاء، والذنوب التي تكشف الغطاء، والذنوب التي تعجّل الفناء، والذنوب التي تظلِم الهواء، وأسألك باسمك العظيم، ووجهك الكريم، أن تردّ عليّ بصري.

فدعا بذلك فردّ عليه بصره.

ومن الآثار المنقولة، أن الله تعالى غضب على أمة فأنزل عليهم العذاب، وكان فيهم ثلاثة صالحون، فخرجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه، فقام أحدهم فقال: اللهمّ إنك أمرتنا أن نعتق أرقاءنا ونحن أرقاؤك؛ فاعتِقنا، ثم جلس. وقام الثاني فقال: اللّهمّ إنك أمرتنا أن نعفوَ عمّن ظلمنا، وقد ظلَمنا أنفسنا فاعفُ عنّا، ثم جلس. وقام الثالث فقال: اللهمّ إنا على ثقة أنك لم تخلق خلقا أوسعَ من مغفرتك، فاجعل لنا في سعتها نصيباً؛ فرفع عنهم العذاب.

قيل لسفيان بن عُيينة: ماحديث رويته عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل دعاء أعطيته أنا والنبيون قبلي: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير»، كأنهم لم يروهُ دعاء! فقال: ماتنكرون من هذا! ثم روى لهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ تشاغل بالثناء على الله، أعطاه الله فوق رغبة السائلين». ثم قال: هذا أمية بن أبي الصَّلْت يقول لابن جُدْعان:

أأذكرُ حاجتي أمْ قد كفاني حَيَاؤك؟ إنّ شيمتَك الحياء[1]
إذا أثنى عليـــــك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاء

وقال: هذا مخلوق يقول لمخلوق، فما ظنّكم برب العالمين!

---

(١) شعراء النصرانية ٢٠٠.

ومن دعائه صلى الله عليه وآله : « اللهمّ إنّى أعوذُ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلا لك » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهمّ ارزقني عينين هطّالتين تسقيان القلوبَ مذروفَ الدموع ، قبل أن يكون الدمع دماً ، وقرع الضِّرْس نَدَماً » .

ومن دعائه عليه السلام : « اللهمّ طهّر لسانى من الكذب ، وقلبي من النفاق ، وعملى من الرياء ، وبصرى من الخيانة ، فإنك تعلم خائنَةَ الأعين وماتخفى الصدور » .

ومما رواه أنس بن مالك . « لاتعجَزُوا عن الدعاء فإنّه لن يهلِكَ مع الدعاء أحد » .

ومن رواية جابر بن عبد الله : « لقد بارك الله للرجل فى الحاجة بكثرة الدعاء فيها ، أُعْطِيَها أومُنِعَها » .

أبوهريرة يرفعه : « اللهمّ أصْلِح لى فى دينى الذى هوعِصْمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشِى ، وأصلِحْ لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كلّ خير ، والموت راحة لى مِن كلّ شرّ » .

قيل لأعرابىّ : أتحسِنُ أن تدعوَ ربّك ؟ فقال : نعم ، ثم دعا فقال : اللهمّ إنّك مننْتَ علينا بالإسلام من غير أن نسألَك ، فلا تحرمْنَا الجنّة ونحن نسألك .

سُمِعَتْ أعرابية تقول فى دعائها : ياعريضَ الجَفْنة ، ياأبا المكارم ، ياأبيض الوجه ؛ فزجرها رجل ، فقالت : دعونِى أصف ربى بما يستحقّه .

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول فى سجوده آخر الليل : إلهى عَظُمَ الذّنبُ من عبدك ، فليحسُن العفوُ من عندك .

ذُكِرَ عند بعض الصالحين رجُلٌ قد أصابه بلاء عظيم ؛ وهو يدعو فتبطىء عنه الإجابة ، فقال : بلغنى أنّ الله تعالى يقول : كيف أرحم المبتلَى من شىء أرحمه به !

قال طاوس : إنى لفى الحِجْر ليلةً إذ دخل علىّ بن الحسين عليه السلام ، فقلت : رجل صالح من أهلِ بيتٍ صالح ؛ لأسمعنّ دعاءه ! فسمعتُه يقول فى أثناء دعائه : عَبْدُكَ بفنائك ، سائلك بفنائك ، مسكينك بفنائك . فما دعوت بهنّ فى كُرْب إلا وفرّج عنى .

عمر بن ذرّ : اللهم إن كنّا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضَها إليك ؛ وهو الإشراك ، وإن كنّا قصّرنا عن بعض طاعتك ، فقد تمسكنا منها بأحبّها إليك ، وهو شهادة أن لا إله إلا أنت ، وأنّ رسلك جاءت بالحقّ من عندك .

أعرابىّ : اللهمّ إنّا نبات نعمتِك ، فلا تجعلْنا حصائدَ نقمتك .

بعضهم : اللهمّ إن كنتَ قد بلّغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء ، فبلّغنيها بالعافية .

حجّ أعرابىّ ، فكان لا يستغفر إذا صلّى كما يستغفر الناس،فقيل له ، فقال : كما أنّ تركى الاستغفار مع ما أعلم من عَفْوِ الله ورحمته ضعف ، فكذلك استغفارى مع ما أعلم من إصرارى لؤم .

لما صافّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرُهم ، سأل عن محمد بن واسع ، فقيل : هو فى أقصى الميمنة جانحاعلى سِيَة[1] قوسه ،مبصبصاً بإصبَعه نحو السماء ،فقال قتيبة: لتلك الأصبع الفارورة ، أحبّ إلىّ من مائة ألف سيف شهير ، ورمح طَرِير[2] .

سمع مطرّف بن الشِّخّير صيحة الناس بالدعاء ، فقال : لقد هممتُ أن أحلِف أن الله غفر لهم ، ثم ذكرت أنى فيهم فكففت .

كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول : الحمد لله الذى جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا .

الحسن البصرىّ : مَنْ دخل المقبرة فقال : اللهمّ ربّ الأرواح العالية ، والأجساد البالية،

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .   (٢) رمح طرير : محدد .

والعظام النَّخِرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك ؛ أدخِلْ عليهم رَوْحاً منك وسلاماً منّي ؛ كتب الله له بعدد مَنْ ولد ـ منذ زمن آدم إلى أن تقومَ الساعة ـ حسنات .

عليّ عليه السلام : الدّعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموٰات والأرض .

قيل : إنّ فيما أنزله الله تعالى من الكتب القديمة : إن الله يبتلي العبد وهو يحبّه ؛ ليسمعَ دعاءه وتضرُّعَه .

أبو هريرة : اطلبُوا الخيرَ دهرَكم كلَّه ، وتعرّضوا لنفحَاتٍ مِنْ رحمة الله تعالى ، فإنّ لله تعالى نفحاتٍ من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوا الله أن يسترَ عوارتِكم ، ويؤمّن روعاتكم .

صلّى رجل إلى جَنْب عبد الله بن المبارك ، فلما سلّم الإمام سلّم وقام عجِلا ، فجذب عبدُ الله بثوبه ، وقال : أمالك إلى ربِّك حاجة !

قيل لعمر بن عبد العزيز : جزاك الله عن الإسلام خيرا ! فقال : لا ، بل جزى الله الإسلام عنّي خيرا .

عليّ عليه السلام : الداعي بغير عملٍ كالرامي بغير وَتَر .

كان الزهريّ إذا فرغ من الحديث تلاه ، فدعا : اللهمّ إنّي أسألُك خيرَ ما أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شرّ ما أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة .

كان زبيد اليّاميّ يستتبع الصبيان إلى المسجد ، وفي كُمّه الجوْز ، ويقول : مَن يتبعني منكم فأعطيه خمس جوزات ؟ فإذا دخلوا المسجد ، قال ارفعوا أيديكم وقولوا : اللهمّ اغفر لزبيد ، فإذا دَعَوْا قال : اللهم استجِبْ لهم ، فإنهم لم يذنبوا .

عليّ عليه السلام : جعلَ في يديك مفاتيح خزائنه بما أذِنَ لك فيه من مسألته ، فمتى شئتَ استفتحتَ بالدعاء أبوابَ نعمته ، واستمطرت شآبيبَ رحمته ، فلا يقنِطنّك إبطاء

إجابته ، فإن العطيةَ على قدر النية ، وربما أُخِّرت عنك الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزلَ لعطاء الآمل ؛ وربما سألت الشيء فلا تؤتاه ، وأوتيتَ خيراً منه ، أو صُرِف عنك بما هو لك خير . واعلم أنه رُبّ أمرٍ قد طلبتَ ؛ فيه هلاكُ دينك لو أوتيتَه .

ومن الدعاء المرفوع : اللهمّ مَنْ أراد بنا سوءاً فأحِطْ به ذلك السوء كإحاطة القلائد بترائب الولائد ، وأرسخه على هامته كرسوخ السِّجِّيل[1] على قِمَ أصحاب الفيل .

سمع عمر رجلا يقول فى دعائه : اللهم اجعلنى من الأقلِّين ! فقال : ما أردتَ بهذا ؟ قال : قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[3] ، فقال : عليكم من الدعاء بما عُرِف .

قال سعيد بن المسيِّب : مرّ بى صِلَة بن أشيم ؛ فقلت له : ادع لى ، فقال : رغّبك الله فيما يبقَى ، وزهّدك فيما يفنَى ، ووهب لك اليقين الذى لا تسكُنُ النفوس إلا إليه ، ولا تعوّل إلا عليه .

كان علىّ بن عيسى بن ماهان صاحبَ خراسان ، وفى أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقيَه فى الطريق ، وسلّم عليه علىّ ، فأعرض عنه ولم يردّ عليه ، فوقف علىّ ، ورفع يديه وأسبل عينيه ، وقال : اللهمّ إنّ هذا الرجل يتقرّب إليك ببغضِى ، وأنا أتقرّب إليك بحبّه ، فإن كنت غفرتَ له ببغضِى ، فاغفرْ لى بحبّه ، يا كريم ! ثم سار .

قال الأصمعىّ : سمعتُ أعرابيا يدعو ويقول : اللّهمّ إن كان رزقى فى السماء فأنزله ، وإن كان فى الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقرّبه ، وإن كان قريبا فيسرّه ، وإن كان قليلا فكثّره ، وإن كان كثيرا فبارك لى فيه .

---

(١) السجيل : حجارة من مدر .
(٢) سورة هود ٤٠ — (٣) سورة سبأ ١٣

من دعاء عمرو بن عُبَيْد (١) ؛ اللهمّ أغْنِنِي بالافتقار إليك ، ولا تُفقِرْنى بالاستغناء عنك ؛ اللهم أعنّى عَلَى الدنيا بالقَناعة ؛ وعلى الدين بالعصمة .

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلًا يظلمه ، فقال له : إذا صلّيت الركعتين بعد المغرب ، فاسجد وقل : ياشديدَ القوى ، ياشديد المِحَال ، ياعزيز ، أذللتَ لعزّك جميعَ مَنْ خلقت ، فصلّ على محمد وآل محمد ، واكفِنى مؤنة فلان بما شئت . فدعا بها فلم يرعْهُ إلا الواعية (٢) بالليل . فسأل ، فقيل : مات فلان فجأة .

قال موسى عليه السلام : ياربّ إنك لتعطِينِي أكثر من أملِي ، قال : لأنك تكثِر من قول: ماشاء الله ؛ لا قوة إلا بالله.

كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة : يامحسن ، قد جاءك المسىء ، وقد أمرت المحسن أن يتجاوزَ عن المسىء ، فتجاوزْ عن قبيح ماعندى بجميل ماعندك . اللهمّ ارزقنى عَمَلَ الخائفين وخوف العاملين ؛ حتى أنعم بترك (٣) التنعّم طمعا فيما وعدت ، وخوفا مما أوعدت .

ومن الأدعية الجامعة : اللهمّ أغنِنِي بالعلم ، وزيّنّى بالحلم ، وجمّلنى بالعافية ، وكرّمنى بالتقوى.

أحمد بن يوسف كاتب المأمون ؛ إذا دخل عليه حيّاه بتحيّة أبرويز الملك : عشتَ الدهر ، ونِلت المنى ، وجُنّبت طاعة النساء .

ومن الدعاء المروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « اللهمّ اغفر لى ذنوبى وخطاياى كلّها . اللهم أنعِشنى وأجبُرْنِى وانصرنى واهدنى لِصالح الأعمال والأخلاق ؛

---

(١) فى الأصول : « عبيدة » تحريف .
(٢) الواعية : الصراخ .
(٣) فى الأصول : « منزلة » ، تحريف .

إنه لايهدى لصالحها ، ولا يصرف عن سيئها إلا أنت . اللهمّ إنى أسألك الثباتَ فى الأمر، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكرَ نعمتك وحسنَ عبادتك ، وأسألك قلباً سليما، ولسانا صادقا ، وأسألك من خير ماتعلم ؛ وأعوذ بك من شرّ ماتعلم، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب .

***

[آداب الدعاء]

قالوا : ومن آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات الشريفة ، كما بين الأذان والإقامة ، وكوقت السجود ووقت السَّحر ؛ ويستحبّ أن يدعُوَ مستقبل القبلة رافعاً يديه ؛ لماروى سلمان عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ ربّكم كريم يستحى من عَبْدِهِ إذا رفع إليه يديه أن يردّهما صِفْراً » ، ويستحبّ أن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ، فإنّ ذلك قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

ويكره أن يرفَع بصرَه إلى السماء ، لقوله عليه السلام : « لَينتهينّ أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو لتُخطفنّ أبصارُهم » ، وقد رُخّص فى ذلك للصديقين والأئمة العادلين

ويستحبّ أن يخفض صوته ، لقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾(1). وقد روى أن عمر سمع رجلا يجهر بالدعاء ، فقال : لكن زكريا نادى ربه نداء خفيًّا .

ويكره أن يتكلّف(2) الكلام المسجوع ، ويستحبّ الإتيان بالمطبوع منه ، لقوله صلى الله عليه وآله : « إيّاكم والسجع فى الدعاء ، بحسْبِ أحدكم أن يقول : اللهمّ إنى أسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول أو عمل » .

---

(1) سورة الأعراف ٥٥ .

(2) فى ب : « يتكلم » ، وما أثبته عن ا ، ج .

وقيل فى الوصية الصالحة : ادعُ ربَّك بلسان الذّلة والاحتقار ، لا بلسان الفصاحة والتشدّق .

وقال سفيان بن عُيينة : لا يمنعنّ أحدَكم من الدعاء ما يعلَمُه من نفسه ، فإنّ الله تعالى أجابَ دعاء شرّ خلقه إبليس حيث قال : ﴿ أَنظِرْنِي ﴾(١).

النبىّ صلى الله عليه وآله : « إذا سأل أحدُكم ربه مسألة [فتعرّف الإجابة](٢)، فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . ومَنْ أبطأ عنه شىء من ذاك فليقل : الحمد لله على كل حال » .

ومن الآداب أن يَفْتتح بالذِّكر وألاّ يَبتدئ بالمسألة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يدعو يقول : « سبحان ربِّيَ العلىّ الوهاب » .

أبو سليمان الدارانىّ : مَنْ أراد أن يسأل الله تعالى حاجتَه فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم يسألُ حاجتَه ، ثم يختم بالصّلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنّ الله تعالى يقبَلُ الصلاتين ، وهو أكرم من أن يَدَع ما بينهما .

ومن دعاء علىّ عليه السلام : « اللّهمّ صنْ وجهى باليسار ، ولا تبذل جاهى بالإقتار ، فأسترزقَ طالبى رزقك ، وأستعطِفَ شرار خلقك ، وأبتلى بحمْد مَنْ أعطانى ، وأفتتنَ بذمّ مَنْ منعنى ، وأنت من وراء ذلك كلّه ولىّ الإعطاء والمنع ، إنك على كل شىء قدير » .

ومن دعاء الحسن رحمه الله تعالى : « اللهمّ إنى أعوذُ بك من قَلْب يعرِف ، ولسان يصِف ، وأعمال تخالف » .

ومن دعاء أهل البيتِ عليهم السلام ، وفيه رائحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى نحن فى شرحه : اللّهم إنى أستغفرُك لما تبتُ منه إليك ثم عدت فيه ، وأستغفرك

---

(١) سورة الأعراف ١٤ .

(٢) من ج .

لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك ، وأستغفرك للنعم التي أنعمتَ بها عليّ ، فتقوّيتُ على معصيتك ، وأستغفرك من كل ذنب تمكّنتُ منه بعافيتك ، ونالته يدي بفضل نعمتك ، وانبسطتُ إليه بسعة رزقك ، واحتجبتُ فيه عن الناس بسترك ، واتّكلت فيه على أكرم عفوك . اللهمّ إني أعوذ بك أن أقولَ حقًّا ليس فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيء يَشينني عندك ، وأعوذ بك أن أكونَ عِبْرةً لأحد من خلقك ، وأن يكون أحدٌ من خلقك أسعدَ بما علّمتني مني ، وأعوذ بك أن أستعينَ بمعصية لك على ضُرّ يصيبني .

كان أبو مسلم الخولانيّ إذا أهمّه أمر قال : يامالكَ يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين .

ومن دعاء عليّ عليه السلام : اللهمّ إن تَهتُ عن مسألتي وأعميتُ عن طلبتي ، فدلّني على مصالحي ، وخُذْ بقلبي إلى مَراشدي . اللهم احمِلني على عفوك ، ولا تحمِلني على عدلك .

(٧٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج ، وقد قال له : إن سرت يا أمير المؤمنين فى هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم ، فقال عليه السلام :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ، وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ! فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ . وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ ؛ لِأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ ، وَأَمِنَ الضُّرَّ .

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ ؛ الْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ ؛ سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ .

* * *

الشرح :

حاق به الضر، أى أحاط به؛ قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[1] .

ويوليك الحمد ، مضارع « أولاك »؛ وأولاك معدًّى بالهمزة من « وَلِيَ »، يقال : ولِيَ

---

(١) سورة فاطر ٤٣ .

الشىء ولايةً وأوليته ذلك؛أى جعلته والياً له ومتسلّطاً عليه.والكاهن : واحد الكُهّان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات .

***

[القول فى أحكام النجوم]

واعلم أنّ الناس قد اختلفوا فى أحكام النجوم ، فأنكرها جمهورُ المسلمين والمحقّقون من الحكماء ؛ ونحن نتكلم هاهنا فى ذلك ونبحث فيه بحثَين : بحثا كلاميا ، وبحثا حُكْمِيًّا.

أمّا البحثُ الكلامىّ ؛ هو أن يقال : إمّا أن يذهب المنجمون إلى أنّ النجوم مؤثرة ، أو أمارات .

والوجه الأول ينقسم قسمين : أحدها أنْ يقال : إنها تفعل بالاختيار ، والثانى أن تفعلَ بالإيجاب .

والقول بأنّها تفعل بالاختيار باطل ؛ لأنّ المختار لا بدّ أن يكونَ قادراً حيًّا، والإجماع من المسلمين حاصلٌ علىأنّ الكواكب ليستْ حيّة ولاقادرة ، والإجماع حجّة،وقد بَيّن المتكلّمون أيضا أنّ مِنْ شرط الحياة الرطوبة، وأن تكون الحرارة على قَدْر مخصوص ؛ متى أفرط امتنع حلول الحياة فى ذلك الجسم ؛ فإنّ النار على صرافتها يستحيل أن تكون حَيّة ؛ وأن تحلّها الحياة لعدم الرطوبة وإفراط الحرارة فيها واليبس،والشّمسُ أشدُّ حرارةً من النار ؛ لأنّها على بُعْدِها تؤثّر ماتؤثره النّار على قُرْبِها ؛ وذلك دليل على أنّ حرارتها أضعافُ حرارة النار ؛ وبينوا أيضا أنّها لو كانت حيّة قادرة لم يَجزْ أن تفعلَ فى غيرها ابتداء ؛ لأنّ القادر بقدرة لا يصحّ منه الاختراع ؛وإنما يفعل فى غيرِه على سبيل التوليد ؛ ولا بدّ من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه،والكواكب غير مماسّة لنا ، فلا وُصلة بينها وبيننا ؛ فيستحيل أنْ تكون فاعلة فينا .

فإن ادّعى مدّعٍ أنّ الوصلة هى الهواء ، فمن ذلك أجوبة :

أحدُها : أنّ الهواء لا يجوز أن يكون وصلة وآلةً فى الحركات الشديدة وحمل الأثقال، لاسيما إذا لم يتموّج .

والثانى : أنه كان يجب أن نحسّ بذلك، ونعلم أنّ الهواء يحرّكنا ويصرّفنا ؛ كما نعلم فى الجسم إذا حرّكنا وصرّفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة .

والثالث : أنّ فى الأفعال الحادثة فينا مالا يجوز أن يفعل بآلة، ولا يتولّد عن سبب؛ كالإرادات والاعتقادات ونحوها .

وقد دلّل أصحابنا أيضا على إبطال كون الكواكب فاعلةً للأفعال فينا ، بأنّ ذلك يقتضى سقوط الأمر والنهى ، والمدح والذم ، ويلزمهم مايلزم المجبِرة ، وهذا الوجهُ يبطل كونَ الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب ، كما يبطل كونَها فاعلة بالاختيار .

وأما القول بأنها أمارات على مايحدُث ويتجدّد ؛ فيمكن أن يُنصر بأن يقال : لم لا يجوزُ أن يكون الله تعالى أجْرَى العادة، بأن يفعل أفعالا مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر .

والكلام على ذلك بأن يقالَ : هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضى ذلك؛ فإنّ هذا مما لا يعلم بالعقل .

فإن قالوا : نعلم بالتجربة .

قيل لهم : التجربة إنما تكون حُجّةً إذا استمرّت واطّردت ؛ وأنتم خطؤكم فيما تحكون به أكثرُ من صوابكم، فهلّا نسبتمُ الصّواب الذى يقع منكم إلى الاتفاق والتخمين! فقد رأينا من أصحاب الزّرَق[1] والتخمين مَنْ يصيب أكثرَ مما يصيب المنجّم، وهو من غير أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة ومتى قلتم : إنما أخطأ المنجّم لغلطه فى تسيير الكواكب ؛

---

(١) الزرق : التفرس .

قيل لكم: ولم لا يكون سبب الإصابة اتفاقاً؟ وإنما يصحّ لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع، هو غير إصابة المنجّم.

فأما إذا كان دليل صحة الأحكام الإصابة، فهلّا كان دليلُ فسادها الخطأ، فما أحدُهما إلا فى مقابلة صاحبه!

ومما قيل على أصحاب الأحكام، إن قيل لهم فى شىء بعينه: خذوا الطّالع واحكموا، أيؤخذ أم يترك؟ فإن حكموا بأحدهما خولفوا، وفُعِل خلاف ما أخبروا به؛ وهذه المسألة قد أعضل عليهم جوابها.

وقال بعض المتكلّمين لبعض المنجّمين: أخبِرْنى، لو فرضنا جادّة مسلُوكة، وطريقاً يمشى فيها الناس نهاراً وليلًا؛ وفى تلك المحجّة آبار متقاربة، وبين بعضها وبعض طريق يحتاجُ سالكه إلى تأمّل وتوقّف؛ حتى يتخلّص من السقوط فى بعض تلك الآبار؛ هل يجوز أن تكون سلامة مَنْ يمشى بهذا الطريق من العميان كسلامة من يمشى فيه من البُصَراء، والمفروض أنّ الطريق لا يخلو طَرْفةَ عين من مشاة فيها عميان ومبصرون؟ وهل يجوز أن يكون عَطَبُ البُصَرَاء مقاربا لعطَب العميان؟

فقال المنجّم: هذا مما لا يجوزُ، بل الواجب أن تكون سلامةُ البصراء أكثرَ من سلامة العميان.

فقال المتكلّم: فقد بطل قولكم؛ لأن مسألتنا نظير هذه الصورة، فإن مثال البُصَراء هُم الذين يعرفون أحكامَ النجوم، ويميّزون مَساعدها من مَناحسها، ويتوقّوْن بهذه المعرفة مضارّ الوقت والحركات ويتخطّوْنَها ويعتمدون منافعَها ويقصدونها؛ ومثال العميان كلّ من لا يحسِنُ علم النجوم؛ ولا يقولون به من أهل العلم والعامة، وهم أضعاف أضعاف عدد المنجمين.

ومثال الطريق الذى فيه الآبار ، الزمان الذى مضى ومرّ على الخلق أجمعين ، ومثال آباره مصائبه ومِحَنُه .

وقد كان يجب ـ لو صحّ علم أحكام النجوم ـ أن سلامة المنجّمين أكثرُ ، ومصائبهم أقلّ ؛ لأنهم يتوقّون المحن ويتخطوْنها لعلمهم بها قبل كونها ، وأن تكون مِحَنُ المعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفَر وأظهر ؛ حتى تكون سلامة كلّ واحد منهم هى الطريقة الغريبة ؛ والمعلومُ خلاف ذلك ، فإنّ السلامة والمحن فى الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوته .

* * *

وأما البحث الحُكَمِىّ فى هذا الموضع ؛ فهو أنّ الحادث فى عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص فى البرج المخصوص ؛ إمّا أن يكون المقتضِى له مجرّد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرج ، أو حلول ذلك الكوكب فى ذلك البرج . فالأولان باطلان ؛ وإلّا لوَجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث ، والثالث باطل أيضاً ؛ لأنه إمّا أن يكون ذلك البرج مساوِياً لغيره من البروج فى الماهيّة ، أو مخالفاً . والأول يقتضى حدوثَ ذلك الحادث حالَ ما كان ذلك الكوكب حالّاً فى غيره من البروج ؛ لأنّ حكم الشىء حكم مثله ، والثانى يقتضى كونَ كُرَة البروج متخالفة الأجزاء فى أنفسها ؛ ويلزم فى ذلك كونها مركّبة ، وقد قامت الدلالة على أنه لا شىء من الأفلاك بمركّب .

وقد اعتُرِض على هذا الدليل بوجهين :

أحدهما : أنّه لِمَ لا يجوز أن تختلف أفعالُ الكواكب المتحيّرة عند حلولها فى البُروج ، لا لاختلاف البروج فى نفسها ، بل لاختلاف مافى تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطبائع !

الوجه الثانى : لم لا يجوزُ أن يقال : الفلَكُ التاسع مكوكَب بكواكب صغار لا نراها

لغاية بعدها عنا ، فإذا تحرّكت فى كرات تداويرها سامتَتْ مواضعَ مخصوصة من كُرة الكواكب الثابتة ؛ وهى فلك البروج ، فاختلفت آثار الكواكب المتحيّرة عند حلولها فى البروج ، باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة ؟ ولِمَ لا يجوزُ إثبات كرة بين الكرة الثامنة ، وبين الفلك الأطلس المدبّر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب ، وتكون تلك الكرةُ المتوسّطة بينهما بطيئة الحركة بحيث لا تفِي أعمارنا بالوقوف على حركتها ؛ وهى مكوكبة بتلك الكواكب الصغار المختلفة الطبائع ؟

وأجيب عن الأول ، بأنّه لو كان الأمر كما ذُكِر ، لوجب أن تختلف بيوتُ الكواكب وإشرافها وحدودها عند حركة الثوابت بحركة فَلَكها ، حتى إنها تتقدّم على مواضعها فى كلّ مائة سنة على رأى المتقدمين ، أو فى كلّ ست وستين سنة على رأى المتأخرين درجة واحدة ؛ لكنّ ليس الأمرُ كذلك ، فإنّ شرف القمر ، كما أنه فى زماننا فى درجة الثالثة من الثور ، فكذلك كان عند الذين كانوا قبلنا بألف سنة وبألفى سنة .

وأما الوجه الثانى فلا جواب عنه .

* * *

واعلم أنّ الفلاسفة قد عوّلَتْ فى إبطال القول بأحكام النجوم على وجهٍ واحد ، وهو أن مبنى هذا العلم على التجربة ، ولم توجد التجربة فيما يدّعيه أربابُ علم النجوم ، فإنّ ها هنا أمورا لا تتكرر إلا فى الأعمار المتطاولة مثل الأدوار والألوف التى زعم أبو معشرٍ أنها هى الأصل فى هذا العلم ، ومثل مماسّة جُرْم زُحَل للكرة المكوكبة ، ومثل انطباق معدّل النهار على دائرة فَلَك البروج ، فإنهم يزعمون أنّ ذلك يقتضى حدوثَ طوفان الماء وإحاطتَه بالأرض من جميع الجوانب ، مع أن هذه الأمور لا توجد إلّا فى ألوف الألوف من السنين ؛ فكيف تصحّ أمثالُ هذه الأمور بالتجربة !

وأيضاً ، فإنّا إذا رأينا حادِثاً حدَث عند حلول كوكب مخصوص فى برج مخصوص

فكيف نعلم استنادَ حدوثه إلى ذلك الحلول ! فإنّ فى الفلك كواكبَ لاتحصى ، فما الذى خصّص حدوثَ ذلك الحدوث بحلول ذلك الكوكب فى ذلك البرج لاغيره ! وبتقدير أن يكون لحلوله تأثير فى ذلك ، فلا يمكن الجزم قبل حلوله بأنه إذا حلّ فى البرج المذكور لابدّ أن يحدث ذلك الحادث ، لجواز أن يوجدمايبطل تأثيره ؛ نحو أن يحلّ كوكب آخر فى برج آخر ، فيدفع تأثيرَه ، ويبطل عمله ؛ أو لعلّ المادة الأرضيّة لاتكون مستعدّة لقبول تلك الصورة ، وحدوث الحادث ، كمايتوقّف على حصول الفاعل يتوقفّ على حصول القابل ، وإذا وقع الشكّ فى هذه الأمور بطل القولُ بالجزم بعلم أحكام النجوم ؛ وهذه الحجّة جيّدة إن كان المنجّمون يطلبون القطع فى علمهم .

فأما إن كانوا يطلبون الظنّ فإن هذه الحجة لاتفسد قولهم .

***

فأما أبو البركات بن مَلكا البغدادى صاحب كتاب " المعتبر " فإنه أبطلَ أحكام النجوم من وجه وأثبته من وجه .

قال : أما مَنْ يريد تطبيقَ علم أحكام النجوم على قاعدة العلم الطبيعى فإنّه لاسبيلَ له إلى ذلك ؛ فإنّا لانتعلّق من أقوالهم إلا بأحكام يحكُمون بها من غير دليل ؛ نحو القول بحرّ الكواكب وبردها أو رطوبتها ، ويبوستها واعتدالها ، كقولهم : إنّ زُحَل بارد يابس ، والمشترى معتدل ؛ والاعتدال خير والإفراط شرّ ، وينتجون من ذلك أنّ الخيرَ يوجب سعادة ، والشرّ يوجب مَنْحَسَة ، وما جانَس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجه مقدّماتهم فى أنظارهم ؛ وإنما الذى أنتجته هو أنّ الأجرام السماوية فعّالة فيماتحويه وتشتمل عليه وتتحرك حوله فعلا على الإطلاق غير محدود بوقت ؛ ولا مقدّر بتقدير ، والقائلون بالأحكام ادّعَوْا حصولَ علمهم بذلك ؛ من توقيف وتجربة لايطابق نظر الطبيعى .

وإذا قلت بقول الطبيعى بحسب أنظاره أنّ المشترى سَعْد ، والمريخ نحس ، أو أنّ زحل

بارد يابس ، والمريخ حارّ يابس ؛ والحارّ والبارد من الملموسات ؛ ومادلّ على هذا المسّ وما استدل عليه بلمس كتأثيره فيما يلمسه ؛ فإنّ ذلك لم يظهر للحسّ فى غير الشمس ، حيث تسخّن الأرض بشعاعها ؛ ولو كان فى السمائيات شيء من طبائع الأضداد ؛ لكان الأوْلى أن تكون كلّها حارّة ؛ لأنّ كواكبها كلّها منيرة .

ومتى يقول الطبيعى بتقطيع الفلك وتقسيمه إلى أجزاء ، كما قسّمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودَرَج ودقائق؛ وذلك جائز للمتوهّم ، كجواز غيره ، وليس بواجب فى الوجود ولا حاصل ، فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب فى أحكامهم، وكان الأصلُ فيه على زعمهم حركةَ الشمس والأيام والشهور ، فصّلوا منهـا قسمة وهمية ، وجعلوها كالحاصلة الوجودية المثمرة بحدود وخطوط ، كأنّ الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطّت فى السماء خطوطا ، وأقامت فيها جُدُراً أو حدوداً، أو غيرت فى أجزائها طباعا تغييرا يبقى ، فيتقى به القسمة إلى تلك الدَّرَج والدقائق، مع جواز الشمس عنها ، وليس فى جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب ، والكواكب تتحرك عن أمكنتها ، فبقيت الأمكنة على التشابه ، فبماذا تتميز بروجه ودرَجه ، ويبقى اختلافها بعد حركة المتحرك فى تمتها ؟ وكيف يقيس الطبيعىّ على هذه الأصول، وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاما؟ وكيف له أن يقول بالحدود ويجعل خمسَ درجات من بُرْج الكوكب وستّاً لآخر ، وأربعا لآخر ، ويختلف فيها البابليون والمصريون ، وجعلوا أربابَ البيوت كأنّها مُلاك ، والبيوت كأنها أملاك تثبت لأربابها بصكوك وأحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر !

وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شكّلوها بشكل الأسد ، ثم انقلبت عن مواضعها وبقى الموضع أسداً وجعلوا الأسد للشمس . وقد ذهبتْ منه الكواكبُ التى كأنّ بها أسدا كأن ذلك الملك بيت للشمس ، مع انتقال الساكن وكذلك السّرطان للقمر .

***

ومن الدقائق فى العلم النجومىّ الدرجات المدارة والغريبّة والمظلمة والنيّرة والزائدة فى السعادة ودرجات الآثار ؛ من جهة أنها أجزاء الفلك ؛ إن قطعوها وما انقطعت ؛ ومع انتقال ما ينتقل من الكواكب إليها وعنها ، ثم أنتجوا من ذلك نتائج أنظارهم ؛ من أعداد الدرج وأقسام الفلك ، فقالوا : إنّ الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سُدْس من الفلك ، ولا ينظر إليه من خمسين ولا من سبعين ، وقد كان قبل الستين بعشر دَرَج ، وهو أقرب من ستين ، وبعدها بعشر دَرَج ، وهو أبعد من ستين لا ينظر .

فليت شعرى ماهذا النظر ! أترى الكواكب تظهر للكوكب ثم تحتجب عنه ، ثم شعاعه يختلط بشعاعه عند حدّ لا يختلط به قبله ولا بعده !

وكذلك التربيع ، من الرُّبع الذى هو تسعون درجة ، والتثليث ، من الثلث الذى هو مائة وعشرون درجة ، فلم لا يكون التخميس والتسبيع والتعشير على هذا القياس ! ثم يقولون: الحَمَل حارّ يابس نارىّ ، والثور بارد يابس أرضِىّ ، والجوزاء حارّ رطب هوائىّ ، والسرطان بارد رطب مائىّ ! ما قال الطبيعى هذا قطّ ، ولا يقول به .

وإذا احتجُّوا وقاسوا كانت مبادئ قياساتهم الحمل بُرْج ينقلب ؛ لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع ، والثور برج ثابت ؛ لأنّ الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعيّته .

والحقّ أنه لا ينقلب الحمل ولا يثبت الثور ؛ بل هما على حالهما فى كلّ وقت . ثم كيف يبقَى دهرَه منقلبا مع خروج الشمس منه وحلولها فيه ! أتراها تخلف فيه أثرا أو تحيل منه طباعا ؛ وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجدّدَها ! ولم لا يقول قائل : إن السَّرطان حارّ يابس ، لأن الشمس إذا نزلتْ فيه يشتدّ حرّ الزمان ؛ وما يجانس هذا مما لا يلزم ؛ لاهو ولا ضدّه ؛ فليس فى الفَلَك اختلاف يعرفه الطبيعىّ ، إلا بما فيه من الكواكب ، وهو فى نفسه

واحد متشابه الجوهر والطبع ؛ ولكنها أقوالٌ قال بها قائل فقبلها قائل ، ونقلهـا ناقل ، فحسُن فيها ظنّ السامع ، واغترّ بها مَنْ لاخِبْرة له ولا قدرة له على النظر .

ثم حَكَم بها الحاكمون بجيد ورديء ، وسلب وإيجاب ، وبتّ وتجوز ، فصادف بعضُه موافقة الوجود فصدّق ، فيعتبر به المعتبرون، ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذّبوه؛ بل عذروا وقالوا : إنما هو منجّمٌ ؛ وليس بنبيّ حتى يصدق فى كلّ مايقول ؛ واعتذرُوا له بأنّ العلم أوسعُ من أن يحيط به أحد ، ولو أحاط به أحدٌ لصدق فى كلّ شيء ! ولعمرالله أنه لوأحاط به علما صادقا لصدّق ، والشأن فى أن يحيطَ به على الحقيقـة ، لا أن يفرِض فرضا ، ويتوهم وهما ، فينقله إلى الوجود وينسب إليه ، ويقيس عليه .

قال : والذى يصحّ من هذا العلم ويلتفتُ إليه العقلاء ؛ هى أشياء غير هذه الخرافات التى لاأصل لها ؛ فما حصل توقيف أو تجربة حقيقة كالقرانات والمقابلة ، فإنها أيضـاً من جملة الاتصالات ؛ كالمقارنة من جهة أن تلك غاية القُرْب ؛ وهـذه غاية البعـد ؛ ونحومرّ كوكب من المتحيرة ، تحت كوكب من الثابتـة ، ونحوه مايعرض للمتحيِّرة من رجوع واستقامة وارتفاع فى شمال ، وانخفاض فى جنوب ، وأمثال ذلك .

فهذا كلام ابن ملـكا كما تراه يبطلُ هذا الفنّ من وجه ، ويقول به من وجه .

***

وقد وقفت لأبى جعفر محمد بن الحسين الصنعانىّ المعروف بالخازن ، صاحب كتاب "زيج الصفائح" على كلام فى هذا الباب مختصر له سماه "كتاب العالمين" أنا ذاكرهُ فى هـذا الموضع على وجهه . لأنه كلامٌ لابأس به ، قال : إنّ بعضَ المصدّقين بأحـكام النجوم وكلّ المـكذّبين بها ، قد زاغوا عن طريق الحقّ والصواب فيها . فإنّ الـكثيرمن المصدّقين بها قد أدخلوا فيها ماليس منها ، وادّعَوْا مالم يمكن إدراكه بها ، حتى كَثُرفيها خطؤهم ، وظهر كذبهم ، وصار ذلك سبباً لتـكذيب أكثر الناس بهذا العلم .

فأما المكذّبون به فقد بلغوا من إنكار صحيحه وردّ ظاهره إلى أن قالوا : إنه لا يصحّ منه شيء أصلًا ، ونسبوا أهله إلى الرزق والاحتيال والخداع والتمويه ، فلذلك رأينا أن نبتدئ بتبيين صحّة هذه الصناعة ، ليظهر فسادُ قول المكذّبين لها بأسرها ، ثم نبيّن ما يمكن إدراكه بها ليبطل دعوى المدّعين فيها ما يمتنع وجودُه بها .

أما الوجوه التى بها تصحّ صناعة الأحكام فهى كثيرة ، منها ما يظهر لجميع الناس من قِبَل الشمس ، فإنّ حدوث الصيف والشتاء وما يعرِض فيهما من الحرّ والبرد والأمطار والرياح ونبات الأرض ، وخروج وقت الأشجار وحملها الثمار ، وحركة الحيوان إلى النسل والتوالد وغير ذلك ، مما يشاكلُه من الأحوال ، إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنوّ الشمس من سَمْت الرءوس فى ناحية الشمال ، وتباعدها منه إلى ناحية الجنوب ، وبفضل قوّة الشمس على قوة القمر ، وقُوَى سائر الكواكب ظهر ماقلنا لجميع الناس .

وقد ظهر لهم أيضاً من قِبَل الشمس فى تغيير الهواء كلّ يوم ؛ عند طلوعها ، وعند توسّطها السماء ، وعند غروبها مالا خفاء به من الآثار .

ومن هذه الوجوه ما يظهر للفلّاحين والملّاحين بأدنى تفقّد للأشياء التى تحدث . فإنّهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التى يؤثّرها القمر وأنوار الكواكب الثابتة ، كالمدّ والجزر ، وحركات الرياح والأمطار وأوقاتها عند الحدوث ، وما يوافق من أوقات الزراعات ومالا يوافق ، وأوقات اللّقاح والنتاج .

وقد يظهر من آثار القمر فى الحيوان الذى يتوالد فى الماء والرّطوبات ماهو مشهور لا ينكر .

ومنها جهات أخرى يعرفها المنجّمون فقط على حَسَب فضل علمهم ، ودقّة نظرهم فى هذا

العِلم . وإذ قد وصفنا على سبيل الإجمال مايوجب حقيقة هذا العلم ، فإنّا نصف مايمكن إدراكه به أو لايمكن ، فنقول : لما كانت تغيرات الهواء ، إنّما تحدث بحسب أحوال الشمس والقمر والكواكب المتحيرة والثابتة ، صارت معرفة هذه التغيّرات قد تدرك من النجوم مع سائر مايتبعُها من الرياح والسحاب والأمطار والثلج والبرد والرعد والبرق ؛ لأنّ الأشياء التى تلى الأرض وتصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها ، كانت الأعراض العامية التى تعرض فى هذه الأشياء تابعةً لتلك الآثار ؛ مثل كثرة مياه الأنهار وقلتها ، وكثرة الثمار وقلتها وكثرة خِصْب الحيوان وقلته ، والجدوبة والقحط ، والوباء والأمراض التى تحدث فى الأجناس والأنواع ، أو فى جنس دون جنسٍ ، أوفى نوع دون نوع ، وسائر مايشاكل ذلك من الأحداث .

ولما كانت أخلاقُ النفس تابعةً لمزاج البدن ، وكانت الأحداث التى ذكرناها مغيّرة لمزاج البدَن ، صارت أيضاً مغيِّرة للأخلاق ، ولأنّ المزاج الأول الأصلىّ هو الغالب على الإنسان فى الأمر الأكثر ، وكان المزاج الأصلىّ هو الذى طُبِع عليه الإنسان فى وقت كونه فى الرَّحِم ، وفى وقت مولده وخروجه إلى جوّ العالم ـ صار وقت السكون ووقت المولد أدلّ الأشياء على مِزاج الإنسان ، وعلى أحواله التابعة للمزاج ، مثل خِلقة البدن ، وخَلق النفس والمرض والصحّة ، وسائر مايتبع ذلك ، فهذه الأشياء ومايشبِهُها من الأمور التى لاتشارك شيئاً من الأفعال الإرادية فيه مما يمكن معرفتُه بالنجوم ، وأما الأشياء التى تشارك الأمور الإرادية بعضَ المشاركة ، فقد يمكن أن يصدقُ فيها هذا العلم على الأمر الأكثر ، وإذا لم يستعمل فيه الإرادة جَرَى على ماتقود إليه الطبيعة .

على أنه قد يعرض الخطأ والغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة ، بعضها يختصّ بهذه الصناعة دون غيرها ، وبعضها يعمُّها وغيرها من الصنائع .

فأمّا ما يعمّ فهو من قصور طبيعة الناس فى معرفة الصنائع أيًّا كانت عن بلوغ الغاية فيها ، حتى لا يبقى وراءها غاية أخرى، فكثرة الخطأ وقلّته على حَسَب تقصير واحد واحد من الناس .

وأما ما يخصّ هـذه الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته ، مما لا يمكنه أن يعلم كثيراً منه إلا بالحدْس والتخمين ، فضلاً عن لُطف الاستنباط وحسن القياس، ومما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الفَلَك ، ومما يحدث فى كل واحد من تلك الأحوال ، فإنّ كل واحد منها له فعل خاص ، ثم يؤلف تلك الأحوال بعضَها مع بعض على كثرة فنونها واختلافاتها، ليحصلَ من جميع ذلك قوّة واحدة ، وفعلٌ واحد ، يكون عنه الحادث فى هذا العالم ، وذلك أمر عسير ، فمتى أغفل من ذلك شىء كان الخطأ الواقع بحسبِ الشىء الذى سها عنه وترك استعماله .

ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغى أن يعلم الحال التى عليها يُوافى فى تلك القوة الواحدة الأشياء التى تعرض فيها تلك الأحداث ، كأنه مثلا إذا دل ما فى الفلك على حدوث حَرّ ، وكانت الأشياء التى يعرِض فيها ما يعرِض قد مَرّ بها قبل ذلك حَرّ ، لحميت وسخنت أثّر ذلك فيها أثراً قويًّا ، فإن كان قد مرّ بها برْد قبل ذلك ، أثّر ذلك فيها أثراً ضعيفاً ، وهذا شىء يحتاج إليه فى جميع الأحداث التى تعمل فى غيرها مما يناسب هذه المعرفة .

وأما الأحداثُ التى تخصّ ناحيةً ناحية ، أو قوماً قوماً ، أو جنساً جنساً ، أو مولوداً واحداً من النّاس؛ فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضاً أحوالُ البلاد والعادات ، والأغذية والأوباء وسائر ما يشبِه ذلك ، مما له فيه أثر وشركة ، مثل ما يفعل الطبيب فى المعالجة ، وفى تقدمة المعرفة ، ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلّها ينبغى أن ينظَر فى الأمر الذى قد استدلّ على حدوثه ، هل هو مما يمكن أن يرد أو يتلافى بما يبطله أو بغيره من جهة

الطبّ والحيل أم لا ؟ كأنه مثلا استدلّ على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحمّ منها ، فينبغي أن يحكم بأنه يحمّ إن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد ، فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور منازلها ، وأجراها مجاريها .

ثم إن كان الحادث قويًا لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا ، فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا ، فإنّ الأمر يحدث لا محالة ، وما قوى وشمل الناس فإنّه لا يمكن دفعه ولا فسخه، وإن أمكنَ فإنما يمكنُ فى بعض الناس دون بعض .

وأما أكثرهم فإنه يجرى أمره على ما قد شمل وعمّ ، فقد يعمّ الناسَ حرّ الصيف، وإن كان بعضُهم يحتال فى صرفه بالأشياء التى تبرد وتنفى الحرّ .

فهذه جملة ما ينبغى أن يعلم ويعمل عليه أمور هذه الصناعة .

***

قلت : هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان وغيره من الحيوان لا مدخلَ لعلم أحكام النجوم فيه ، فعلى هذا لا يصحّ قولُ من يقول منهم لزيد مثلا : إنك تتزوّج أو تشترى فرساً ، أو تقتل عدوًا أو تسافر إلى بلد ونحو ذلك ، وهو أكثر ما يقولونه ويحكمون به .

وأما الأمور الكلّيّة الحادثة لا بإرادة الحيوان واختياره ، فقد يكون لكلامهم فيه وجهٌ من الطريق التى ذكرها ، وهى تعلّق كثيرٍ من الأحداث بحركة الشمس والقمر ، إلا أن المعلومَ ضرورة من دين رسول الله صلى الله عليه وآله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها والنهى والزجر عن تصديق المنجّمين ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين فى هذا الفصل : « فمن صدقك بهذا فقد كذّب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله » . ثم أردف

ذلك وأكده بقوله : كان يجب أن يحمد المنجم دون البارى تعالى ؛ لأن المنجم هو الذى هدى الإنسان إلى الساعة التى ينجح فيها، وصدّه عن الساعة التى يخفق ويُكدِى فيها فهو المحسن إليه إذاً ، والمحسن يستحقّ الحمد والشكر، وليس للبارئ سبحانه إلى الإنسان فى هذا الإحسان المخصوص ؛ فوجب ألّا يستحقّ الحمد على ظَفَر الإنسان بطلبه؛ لكنّ القول بذلك والتزامه كفر محْض.

(٧٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل فى ذمّ النساء :

مَعَاشِرَ النَّاسِ ؛ إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الإِيمَانِ ، نَوَاقِصُ الحُظُوظِ ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ. فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْهُنَّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ .

فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ .

* * *

الشرح :

جَعَل عليه السلام نقصانَ الصّلاة نقصاناً فى الإيمان ، وهذا هو قولُ أصحابِنا : إنّ الأعمالَ من الإيمان ، وإنّ المقرّ بالتوحيد والنبوّة ، وهو تارك للعمل ليس بمؤمن .

وقوله عليه السلام « ولا تطيعوهنّ فى المعروف » ، ليس بنهى عن فعل المعروف ؛ وإنما هو نهى عن طاعتهنّ؛ أى لاتفعلوه لأجل أمرهنّ لكم به ؛ بل افعلوه لأنه معروف، والكلام ينحو نحو المثل المشهور : «لا تعط العبد كُراعا فيأخذ ذراعا» .

وهذا الفصل كلّه رمز إلى عائشة،ولا يختلفُ أصحابنا فى أنها أخطأت فيما فعلتْ ثم تابت وماتت تائبة ، وأنّها من أهل الجنة .

قال كلّ من صنف فى السير والأخبار : إن عائشة كانتْ من أشدّ الناس على عثمان ؛ حتى إنها أخرجتْ ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنصبته فى منزلها ، وكانت تقول للداخلين إليها : هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَبْلَ ، وعثمان قد أبلى سنّته .

قالوا : أولُ مَنْ سمى عثمان نعثلا عائشة ؛ والنعثل : الكثير شعر اللحية والجسد ، وكانت تقول : اقتلوا نعثلا ، قتل الله نعثلا !

وروى المدائنىّ فى كتاب " الجمل " ، قال : لما قتِل عثمان ، كانت عائشة بمكّة ، وبلغ قتلُه إليها وهى بشَراف ، فلم تشكّ فى أنّ طلحة هو صاحب الأمر ، وقالت : بُعْداً لنعثل وسحقا ! إيهٍ ذا الإصبع ! إيه أبا شِبْل ! إيه يابن عمّ ؛ لكأنى أنظرُ إلى إصبعه وهو يبايَع له : حثُّوا الإبل ودعدعوها(1) .

قال : وقد كان طلحةُ حين قتل عثمان أخذ مفاتيحَ بيت المال ، وأخذ نجائبَ كانت لعثمان فى داره ، ثم فسد أمرُه ، فدفعها إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

[أخبار عائشة فى خروجها من مكة إلى البصرة بعد مقتل عثمان]

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدىّ فى كتابه : إنّ عائشة لما بلغها قتلُ عثمان وهى بمكّة ، أقبلتْ مسرعة ، وهى تقول : إيه ذا الإصبع ! لله أبوك ! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفؤاً . فلما انتهت إلى شَراف استقبلها عبيد بن أبى سلمة الليثىّ ، فقالت له : ماعندك ؟ قال : قُتِل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارتْ بهم الأمور إلى خير محَارٍ ؛ بايعوا عليا ، فقالت : لودِدْتُ أنّ السماء انطبقتْ على الأرض إن تمّ هذا ، وَيْحك ! انظر ماتقول ! قال : هو ماقلتُ لك يا أمّ المؤمنين ، فولولت ، فقال لها : ما شأنُك يا أمّ المؤمنين !

---

(1) الدعدعة : الزجر .

والله ما أعرف بين لابتيها أحدا أولَى بها منه ولا أحقّ ؛ ولا أرَى له نظيرا فى جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟ قال : فما ردّت عليه جوابا .

قال : وقد رُوِى من طرق مختلفة أنّ عائشة لما بلغها قتلُ عثمان وهى بمكّة ، قالت : أبعده الله ! ذلك بما قدّمت يداه ، وما الله بظلام للعبيد .

قال : وقد رَوَى قيس بن أبى حازم أنه حج فى العام الذى قُتِل فيه عثمان وكان مع عائشة لما بلغها قتله ، فتحمّل إلى المدينة ، قال : فسمعها تقول فى بعض الطريق : إيه ذا الإصبع ! وإذا ذكرت عثمان قالت : أبعده الله ! حتى أتاها خبرُ بيعة علىّ ، فقالت : لودِدْتُ أنّ هذه وقعت على هذه ، ثم أمرت بردّ ركائبها إلى مكّة فردّت معها ، ورأيتها فى سيرها إلى مكّة تخاطب نفسها ، كأنها تخاطبُ أحدا : قتلوا ابن عفان مظلوما ، فقلت لها : يا أمّ المؤمنين ، ألمْ أسمعْك آنفا تقولين : أبعده الله ، وقد رأيتك قبلُ أشدّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولا ! فقالت : لقد كان ذلك ، ولكنى نظرت فى أمره ، فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفِضّة البيضاء أتوه صائما محرِماً فى شهر حرام فقتلوه .

قال : وروى من طرق أخرى أنها قالت لما بلغها قتله أبعده الله ! قتله ذنبُه ، وأقاده الله بعمله ! يا معشرَ قريش لا يسومنّكم قتلَ عثمان ، كما سامَ أحمرُ ثمود قومَه ، إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر ذو الإصبع ، فلما جاءت الأخبار ببيعة علىّ عليه السلام ، قالت : تعِسُوا تعِسُوا ! لا يردُّون الأمر فى تَيم أبدا .

كتب طلحة والزبير إلى عائشة وهى بمكّة كتابا : أن خَذِّلِى النّاس عن بيعة علىّ ، وأظهرى الطلب بدم عثمان ، وحملا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلما قرأت الكتاب كاشفتْ وأظهرت الطلب بدم عثمان ؛ وكانت أمّ سلمَة رضى الله عنها بمكّة فى ذلك العام ؛ فلما رأتْ صنع عائشة ، قابلتْها بنقيض ذلك ، وأظهرت موالاةَ علىّ عليه السلام ونصرته على مقتضى العداوة المركوزة فى طباع الضّرتين .

قال أبو مخنف : جاءت عائشةُ إلى أمّ سلمة تخادِعها على الخروج للطّلب بدم عثمان ، فقالت لها : يا بنتَ أبي أمية ، أنتِ أوّلُ مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتِ كبيرة أمّهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يَقسم لنا من بيتِك، وكان جبريل أكثرَ ما يكون في منزلك ، فقالت أم سلَمة : لأمرٍ ما قلت هذه المقالة ، فقالت عائشة : إنّ عبدالله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام، وقد عزمتُ على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحةُ ، فاخرجي معنا ، لعلّ الله أن يصلِح هذا الأمر على أيدينا وبنا ، فقالت أمّ سلمة : إنّكِ كنت بالأمس تحرّضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبثَ القول ، وما كان اسمُه عندك إلا نَعْثَلاً ، وإنّك لتعرفين منزلة عليّ بن أبي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، أفأذكّرك ؟ قالت : نعم ، قالت : أتذكرين يومَ أقبل عليه السلام ونحن معه ؛ حتى إذا هبط من قُدَيد ذات الشمال ، خلا بعليّ يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمي عليهما ، فنهيتك فعصيتني ، فهجمتِ عليهما ، فما لبثتِ أن رجعتِ باكية ، فقلت : ماشأنك ؟ فقالت : إني هجمتُ عليهما وهما يتناجيان فقلت لعليّ : ليس لي من رسول الله إلا يومٌ من تسعة أيام ، أفما تدعني يابن أبي طالب ويومي ! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وهو غضبان محمرّ الوجه ، فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبغضُه أحدٌ من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمةً ساقطة ! قالت عائشة : نعم أذكر ذلك .

قالت : وأذكّرك أيضا ، كنت أنا وأنتِ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت تغسلين رأسَه ، وأنا أحِيسُ له حيْساً ، وكان الحيس(١) يعجبه ، فرفع رأسه ، وقال : « ياليت شعري ، أيتُكنّ صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحُها كلاب الحوءب ، فتكون ناكبةً

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن ويدلك حتى تمتزج ثم يندر نواه .

عن الصراط ! » فرفعت يدى من الحيس ، فقلت : أعوذُ بالله وبرسوله من ذلك ، ثم ضربَ على ظهرك ، وقال : « إياك أن تكونيها » ثم قال : يا بنت أبي أمية ؛ إياك أن تكونيها يا حُمَيراء ، أما أنا فقد أنذرتك » ، قالت عائشة : نعم أذكر هذا .

قالت : وأذكرك أيضا كنتُ أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفر له ، وكان علىّ يتعاهد نَعْلَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخصِفها[1] ، ويتعاهد أثوابه فيغسلها ، فنَقِبت[2] له نعلٌ ، فأخذها يومئذ يخصِفها ، وقعد فى ظلّ سَمُرة ، وجاء أبوك ومعه عمر ، فاستأذنا عليه ، فقمنا إلى الحجاب ، ودخلا يحادثانه فيما أراد ، ثم قالا : يا رسول الله إنا لا ندرِى قدر ما تصحبنا ، فلو أعلمتنا مَنْ يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا ؟ فقال لهما : أما إنى قد أرى مكانه ، ولو فعلت لتفرّقتم عنه . كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران ، فسكتا ثم خرجا ، فلما خرجْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلتِ له ، وكنتِ أجرأ عليه منا : مَنْ كنتَ يارسول الله ، مستخلفا عليهم؟ فقال : خاصف النّعل ، فظرنا فلم نر أحدا إلا عليا ، فقلت : يا رسول الله ، ما أرى إلّا عليًّا ، فقال : هو ذاك ، فقالت عائشة : نعم أذكر ذلك ، فقالت : فأىّ خروج تخرجين بعد هذا ؟ فقالت : إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله ، فقالت : أنت ورأيك ، فانصرفت عائشة عنها ، وكتبتْ أمّ سلمة بما قالت وقيل لها إلى علىّ عليه السلام .

فإن قلت : فهذا نصٌّ صريح فى إمامة علىّ عليه السلام ، فما تصنعُ أنت وأصحابك المعتزلة به ؟

قلت : كلاّ إنه ليس بنصّ كما ظننت ، لأنه صلى الله عليه وآله لم يقل : قد استخلفته ، وإنما قال : « لو قد استخلفتُ أحداً لاستخلفته » ، وذلك لا يقتضى حصول الاستخلاف ؛

---

(١) خصف النعل : خرزها .

(٢) نقبت النعل : ثقبت .

ويجوز أنْ تكونَ مصلحةُ المكلَّفين متعلقة بالنصّ عليه لوكان النبيّ صلى الله عليه وآله مأموراً بأنْ ينصّ على إمام بعينه من بعده، وأن يكون من مصلحتهم أن يختارُوا لأنفسهم من شاءوا إذا تركهم النبي صلى الله عليه وآله وآراءهم ولم يعين أحدا.

* * *

وروى هشام بن محمد الكلبي في كتاب "الجمل" أن أمّ سلمة كتبت إلى عليّ عليه السلام من مكة: أما بعد، فإنّ طلحة والزبير وأشياعَهم أشياع الضلالة، يريدون أن يخرجُوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كُرَيز؛ ويذكرون أنّ عثمان قُتل مظلوما، وأنهم يطلبون بدمه؛ والله كافيهم بحوْله وقوته؛ ولولا مانهانا الله عنه من الخروج، وأمرَنا به من لزوم البيت لم أدَع الخروجَ إليك، والنُّصرة لك؛ ولكنّي باعثة نحوك ابني، عَدْل [1] نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوصِ به ياأمير المؤمنين خيرا.

قال: فلما قدم عمر على عليّ عليه السلام أكرمه، ولم يزل مقيما معه حتى شهد مشاهده كلّها، ووجّهه أميرا على البحرين. وقال لابن عمّ له: بلغني أن عمر يقول الشعر، فابعث إليّ من شعره، فبعث إليه بأبيات له أولها:

جزتْك أميرَ المؤمنين قرابةٌ ... رفعتَ بها ذكرى جزاء موفَّرا

فعجب عليّ عليه السلام من شعره واستحسنه.

* * *

ومن الكلام المشهور الذى قيل: إن أمّ سلَمة رحمها الله، كتبتْ به إلى عائشة: إنكِ جُنّة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمّته، وإن الحجابَ دونك لمضروب على حُرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحِيه، وسكّن عُقَيْراك فلا تُصْحريها، لو أذكرتُكِ قولةً مِنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفينَها لنهشتِ بها نَهْش الرّقشاء المطرِقة. ما كنت

(١) عدل نفسي: مثلها.

قائلة لرسول الله صلى الله عليه وآله لو لقيك ناصّة قَلُوص قَعُودك من مَنْهَل إلى منهل قد تركت عُهَيداه ، وهتكت ستره ، إنّ عمود الدين لايقومُ بالنساء ، وصَدْعه لا يُرأب بهن ، حُماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض ، اجعلى قاعدة البيت قبرك حتى تلقينه ، وأنت على ذلك .

فقالت عائشة : ماأعرفَنى بنصحك ، وأقبلنى لوعْظك ! وليس الأمر حيث تذهبين ؛ ما أنا بعميّة عن رأيك ، فإن أُقِمْ ففى غير حرج ، وإن أخرج ففى إصلاح بين فئتين من المسلمين .

وقد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة فى كتابه المصنف فى " غريب الحديث " فى باب أم سلمة ، على ما أورده عليك ، قال :

لما أرادت عائشة الخروجَ إلى البصرة ، أتتها أم سلمة ، فقالت لها : إنك سُدّة بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبين أمته ، وحجابك مضروب على حُرْمته ، قد جمع القرآن ذَيلك فلا تَنْدَحيه ، وسكّن عُقَيراك فلا تُصْحِريها ، الله من وراء هذه الأمة ، لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يعهد إليك عَهْداً عُلْت عُلْت ؛ بل قد نهاك عن الفَرْطة فى البلاد ؛ إنّ عمود الإسلام لا يُثابُ بالنساء إن مال ، ولا يُرأبُ بهنّ إن صُدع ، حُماديات النساء غَضّ الأطراف وخَفَر الأعراض وقِصَر الوهازة ؛ ما كنتِ قائلة لو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عارضك ببعض الفلوات ، ناصّة قَلُوصاً من منهل إلى آخر ، إنّ بعين الله مَهْواك ، وعلى رسوله تَرِدين ؛ وقد وَجّهت سِدَافته ـ ويروى سجافته ـ وتركت عُهَيْدَاه . لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس لاستحييت أنْ ألقى محمدا صلى الله عليه وسلّم هاتكة حجابا ، وقد ضربه علىّ ، اجعلِي حِصْنَك بيتك ، ووقاعةَ الستر قبرك ؛ حتى تلقَيْنه ، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله

بالرقبة ، وأنْصَر ما تـكون للدين ماحلت عنه . لو ذكّرتك قولّا تعرفينه لنهشت به نَهْشَ الرَّقشاء المطرِقة .

فقالت عائشة: ماأقبلَني لوعظك اوليس الأمر كا تظنّين، ولنِعْمَ المسيرُ مسير فزعتْ فيه إليّ فئتان متناجزتان ـ أو قالت متناحرتان ـ إن أقعد ففي غير حرج ، وإن أخرج فإلى مالا بدّ لي من الازدياد منه .

تفسير غريب هذا الخبر

السُّدّة : الباب ؛ ومنه حديث رسول الله صلى الله عليـه وآله أنه ذكر أول مَنْ يردُ عليـه الحوض ، فقال : الشُّعْث رءوسا ، الدُّنس ثيابا ، الذين لا تفتح لهم السُّدد ، ولا ينكحون المتنعمات ؛ وأرادت أمّ سلَمَة أنكِ بابٌ بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين النـاس ، فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دُخل على رسول الله صلى الله عليـه وآله في حرَمه وحوزته ، واستبيح ماحماه ، تقول : فلاتـكوني أنت سببَ ذلك بالخروج الذي لا يجب عليك ، فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك. وهذا مثلُ قول نعمان بن مُقرّن للمسلمين في غزاة نَهاوَند : ألاوإنـكم باب بين المسلمين والمشركين ، إن كُسِر ذلك الباب دُخل عليهم منه .

وقولها : « قد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه » ، أي لا تفتحيه ولا توسّعيه بالحركة والخروج ؛ يقال : ندحتُ الشيء إذا وسّعتَه ، ومنه يقال : فلان في مَندوحة عن كذا،أي في سعة ؛ تريد قول الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾(١) . ومن روى « تبدحيه » بالباء فإنه من البَدَاح وهو المتسع من الأرض ؛ وهو معنى الأول .

وسكن عُقَيْرَاك ، من عُقْر الدار وهو أصلها ؛ أهل الحجاز يضمّون العين ؛ وأهل نجد يفتحونها . وعُقَيْرَ اسم مبنيٌّ من ذلك على صيغة التصغير ؛ ومثله مما جاء مصغراً « الثريّا » و« الحُميّا » وهو سوْرة الشراب. قال ابن قتيبة : ولم أسمع بـ« بعُقيرا » إلافي هذا الحديث.

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

قولها : « فلا تُصْحرِيها » ، أى لاتبْرِزيها وتجعليها بالصحراء ، يقال : أصْحَر ، كما يقال : أنجد وأسْهَل وأحزَنَ .

وقولها : « الله من وراء هذه الأمة » ، أى محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم ، كقوله تعالى : ﴿ واللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (١) .

قولها : « لو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم » الجواب محذوف ، أى لفعل ولَعَهِد ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴾ (٢) ، أى لكان هذا القرآن .

قولها : « عُلْتِ عُلْت » ؛ أى جرْت فى هذا الخروج ، وعدلت عن الجواب ، والعول : الميل والجور ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (٣) ـ ومن الناس من يرويه « عِلْتِ عِلْتِ » بكسر العين ، أى ذهبت فى البلاد وأبعدت السير ، يقال : عال فلان فى البلاد ، أى ذهب وأبعد ؛ ومنه قيل للذئب : عيال .

قولها : « عن الفَرْطة فى البلاد » ، أى عن السفر والشخوص ، من الفَرْط وهو السَّبْق والتقدّم ، ورجل فارط : أتى الماء ، أى سابق .

قولها : « لايُثْأَب بالنساء » ، أى لا يردّ بهن إن مال إلى استوائه ؛ من قولك : ثاب فلان إلى كذا ، أى عاد إليه .

قولها : « ولا يرأب بهنّ إن صَدِع » أى لا يسدّ بهنّ ، ولا يجمع ، والصَّدْع : الشقّ ، ويروى : « إن صَدَع » بفتح الصاد والدال أجْرَوه مجرى قولهم : جبرت العظم فجبر .

قولها : « حمادَيات النساء » يقال : حُمَادَاك أن تفعل كذا مثل « قُصاراك أن تفعل كذا » أى جهدك وغايتك .

---

(١) سورة البروج ٢٠ .
(٢) سورة الرعد ٣١ .
(٣) سورة النساء ٣ .

وغض الأطراف؛ جمعها، وخَفَرَ الأعراض، الخفَر: الحياء، والأعراض، جمع عِرْض وهو الجسد، يقال: فلان طيّب العِرْض، أى طيب ريح البدن؛ ومن رواه «الإعراض» بكسر الهمزة جعله مصدرا؛ من أعرضَ عن كذا.

قولها: و«قِصَر الوِهازة»، قال ابن قتيبة: سألت عَنْ هذا فقال لى مَنْ سألته: سألتُ عنه أعرابيًّا فصيحا فقال: الوِهَازة: الخطوة، يقال للرجل: إنه لمتوهّز ومتوهّر، إذا وطىء وطئًا ثقيلا.

قولها: «ناصّة قلوصا»، أى رافعة لها فى السير، والنصّ: الرفع، ومنه يقال: حديث مَنصوص، أى مرفوع، والقَلُوص من النوق: الشابّة وهى بمنزلة الفتاة من النساء.

والمنهل: الماء ترده الإبل.

قولها: «إنّ بعين الله مَهْواك»، أى إن الله يرى سيرَك وحركتك، والهُوِيّ: الانحدار فى السير من النّجد إلى الغَوْر.

قولها: «وعلى رسوله تَرِدين»، أى تقدمين فى القيامة.

قولها: «وقد وجّهت سِدَافته»، السِّدافة: الحجاب والستر، هى من أسْدَفَ الليل إذا ستر بظلمته، كأنه أرخى ستورا من الظلام، ويروى بفتح السين، وكذلك القول فى سَجافته؛ إنه يروى بكسر السين وفتحها، والسِّدافة والسِّجافة بمعنى.

ووجّهت، أى نظمتها بالخرز، والوجيهة: خرزة معروفة، وعادة العرب أن تنظم على المحمل خرزات إذا كان للنساء.

قولها: «وتركت عُهَيْداه»، لفظة مصغّرة مأخوذة من العَهْد، مشابهة لما سلف من قولها: «عُقَيراك» و «حماديات النساء».

قولها: «ووِقاعة السّتر» أى موقِعه على الأرض إذا أرسلته، وهى الموقعة أيضا، وموقعة الطائر.

قولها : « حتى تلقيْنه وأنت على تلك » ، أى على تلك الحال ، فحذف .

قولها: «أطوع ماتسكونين لله إذا لزمته» ، أطوع :مبتدأ،وإذا لزمته: خبرالمبتدأ،والضمير فى لزمته راجع إلى العهد والأمر الذى أمرْتُ به .

قولها : « لَنَهَشتْ به نَهْش الرقشاء المطرِقة » ، أى لعضّك ونهشك ما أذكّره لك وأذكّرك به كما تنهشك أفعى رقشاء ، والرّقش فى ظهرها ، هو النقط، والجرادَة أيضــا رقشاء ، قال النابغة :

فبتّ كأنّى ســـاورتْنِى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السُّمُّ ناقعُ[1]

والأفعى يوصف بالإطراق ؛ وكذلك الأسد والنمر والرجل الشجاع ؛ وكان معاوية يقول فى علىّ عليه السلام : الشجاع المطرِق ، وقال الشاعر وذكر أفعى :

أصمّ أعمى مايجيب الرُّقَى من طول إطراق وإسبــاتِ[2]

قولها: « فئتان متناجزتان » ،أى تسرع كلّ واحدة منهما إلى نفوس الأخرى،ومن رواه « متناحرتان » أراد الحربَ وطَعْن النحور بالأسنة ، ورشقها بالسهام .

وفزعت إلى فلان فى كذا ، أى لذْتُ به والتجأت إليه .

وقولها : « إن أقعد ففى غير حَرَج » أى فى غير إثم ، وقولها : «فإن أخرج فإلى مالا بدّ لى من الازدياد منه » ، كلام مَن يعتقِد الفضيلة فى الخروج ، أو يعرف موقع الخطإ ويصرّ عليه.

***

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيرا أيِّداً يحمل هَوْدَجها ، فجاءهم يعلَى بن أمية ببعيره المسمى عَسْكراً ، وكان عظيم الخَلْق شديداً ، فلما رأتهَ أعجبها ، وأنشأ الجمّال يحدّثها بقوته وشدته ، ويقول فى أثناء كلامه : « عسكر » ، فلما سمعت هــذه اللفظة ، استرجعتْ ، وقالت: ردّوه لاحاجة لى فيه ، وذكرت حيث سئلت أن رسول الله

---

(١) ديوانه : ٥١

(٢) اللسان ٢ : ٣٤٣ ، من غير نسبة .

صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم ، ونهاها عن ركوبه ، وأمرَتْ أن يطلب لها غيرُه فلم يوجد لها مايشبهه ، فغيّر لها بجلال غير جِلاله ، وقيل لها : قد أصبْنالك أعظم منه خَلْقا ، وأشدّ قوة ، وأتِيَتْ به فرضيت .

قال أبو مخنف : وأرسلت إلى حَفْصة تسألها الخروجَ والمسير معها[1] ، فبلغ ذلك عبدَالله ابن عمر ، فأتى أختَه فعزم عليها ، فأقامت وحطّتِ الرّحال بعد ماهمّت .

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهي بمكّة ، أما بعد : فإنّكِ ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أمرك أن تقرّى في بيتك ، فإنْ فعلتِ فهو خيرٌ لك ، فإن أبيتِ إلاّ أن تأخذى مِنْسأتك ، وتُلْقى جلبابك ، وتبدى للناس شعيراتك ، قاتلتُك حتى أردّك إلى بيتك ، والموضع الذى يرضاه لك ربّك .

فكتبت إليه في الجواب : أما بعد ، فإنك أولُ العرب شَبّ الفتنة ، ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة ، وسعى فى قتل الخليفة ، وقد علمتَ أنك لن تُعجزَ الله حتّى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم ، وقد جاءنى كتابُك ، وفهمت مافيه ؛ وسيكفينيك الله ؛ وكلّ من أصبح مماثلا لك فى ضلالك وغيّك ، إن شاء الله .

وقال أبو مِخْنف : لما انتهت عائشةُ فى مسيرها إلى الحوأب ، وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة ، نبحتْها الكلاب ؛ حتى نفرت صِعاب إبلها ، فقال قائل من أصحابها : ألا ترون ، ما أكثر كلاب الحوأب ، وما أشد نُباحها ! فأمسكت زمام بعيرها ، وقالت : وإنها لكلاب الحوأب ! ردّونى ردّونى ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول ... وذكرت الخبر ، فقال لها قائل : مهلًا يرحمك الله ! فقد جُزْنا ماء الحوأب ؛ فقالت : فهل من شاهد ؟ فلفّقوا لها خمسين أعرابيا ، جعلوا لهم جُعْلا ، فحلفوا لها[1] : إن هذا ليس بماء الحوأب ، فسارت لوجهها .

لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حَفَر[2] أبى موسى قريبا من البصرة ، أرسل

(١) ساقطة من ب .

(٢) ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بالفتح ثم السكون ، وقال : على جادّة البصرة إلى مكة .

عثمان بن حُنيف ـ وهو يومئذ عامل عليّ عليه السلام على البَصرة ـ إلى القوم أبا الأسود الدؤليّ يعلَم له[1] علمهم، فجاء حتّى دخلَ على عائشة ، فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان، قال : إنه ليسَ بالبَصرة مِنْ قتَلة عثمان أحدٌ ، قالت : صدقت؛ ولكنّهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهضُ أهلَ البصرة لقتاله . أنغضب لكم من سَوْط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ! فقال لها: ماأنت مِن السَّوْط والسيف! إنما أنت حَبِيس رسول الله صلى الله عليه وآله ، أمرَكِ أن تَقَرِّى فى بيتك ، وتتلى كتاب ربك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنّ الطلب بالدماء ؛ وإن عليًّا لأوْلى بعثمان منك ، وأمسُّ رحما ؛ فإنهما ابنا عبد مناف ، فقالت : لست بمنصرفة حتى أمضِيَ لما قدمتُ لهُ ، أفتظنّ يا أبا الأسود أنّ أحداً يقدمُ على قتالى ! قال : أما والله لتقاتلنّ قتالا أهونه الشديد .

ثم قام فأتى الزبير ، فقال . يا أبا عبد الله ، عهدالناس بك ، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك ، تقول : لا أحدَ أوْلى بهذا الأمر من ابن أبى طالب ؛ وأين هذا المقام من ذاك ! فذكر له دمَ عثمان ، قال : أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا ! قال : فانطلقْ إلى طلحة فاسمع مايقول ، فذهب إلى طلحة ، فوجده سادِراً فى غَيّه ، مصِرًّا على الحرب والفتنة ، فرجع إلى عثمان بن حُنيف ، فقال : إنها الحرب ، فتأهّبْ لها !

لما نزل عليّ عليه السلام بالبَصرة ، كتبت[2] عائشة إلى زيد بن صُوحان العبديّ :

من عائشة بنت أبى بكر الصديق زَوج النبى صلى الله عليه وسلّم إلى ابنها الخالص زيد ابن صُوحان؛ أمابعدُ فأقِمْ فى بيتك ،وخذِّل الناسَ عن عليّ ، وليبلغْنِي عنك ماأحبّ ؛فإنك أوثق أهلى عندى ، والسلام .

فكتب إليها : من زيد بن صُوحان إلى عائشة بنت أبى بكر ؛ أمّابعدُ فإن الله أمَرَكِ بأمرٍ وأمرَنا بأمرٍ ؛ أمرَكِ أن تَقَرِّى فى بيتك ، وأمرَنا أن نجاهدَ ، وقد أتانى كتابُكِ ،

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « لهم » .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « فكتبت » .

فأمرتنى أنْ أصنعَ خِلاف ماأمرَنى الله،فأكون قدصنعتُ ماأمرَكَ الله به،وصنعتِ ماأمرنى الله به ، فأمرُكِ عندى غير مطاع ، وكتابك غير مجاب ، والسلام .

روى هـذين الكتابين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ، عن شيخنا أبى سعيد الحسن البصرىّ .

* * *

وركبت عائشة يوم الحرب الجملَ المسمّى عسكرا فى هَوْدج ، قد ألبس الرّفوف ، ثم ألبِس جلود النّمِر ، ثم ألبِس فوق ذلك دروع الحديد .

الشعبىّ ، عن مسلم بن أبى بَكْرة،عن أبيه أبى بَكْرة،قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، تقلّدتُ سيفى ، وأنا أريد نصرَهما ، فدخلت على عائشة ، وإذا هى تأمر وتنهى،وإذا الأمر أمرُها،فذكرتُ حديثاً كنت سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « لن يفلح قومٌ تدبّر أمرَهم امرأة » ، فانصرفت واعتزلتهم .

وقد رُوِىَ هذا الخبر على صورة أخرى : « إنّ قوما يخرجُون بعدى فى فئة ، رأسها امرأة ، لا يفلحون أبداً » .

كان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره .

* * *

خطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافّهم للحرب ، فقالت :

أما بعد فإنا كنا نقَمْنا على عثمان ضربَ السوط،وإمْرة الفتيان،ومَرْتَع السحابة المحميّة؛ ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبَكم، فلما مُصْتُموه[١] كما يُماص الثوب الرّحِيض[٢]،عَدَوْتم عليه، فارتكبتم منه دماً حراما ، وايمُ الله إن كان لأحصنَكم فَرْجا ، وأتقاكم لله .

* * *

(١) الموص : الغسل ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بكلام عائشة .
(٢) الرحيض : المغسول ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ١ : ٧٢

خطب علي عليه السلام لما تواقف الجمعان ، فقال :

لا تقاتِلوا القومَ حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد الله على حُجّة؛ وكفّكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تُجهِزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعُوا مُدْبراً ، ولا تكشِفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سِتْراً ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا ، ولا تَهيجوا امرأة بأذًى ، وإن شتمْنَ أعراضكم وسبَبْنَ أمراءكم وصلحاءكم؛ فإنّهن ضعاف القوى[١] ، والأنفس والعقول؛ لقد كنّا نؤمَر بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركات، وإن كان الرجل ليتناولُ المرأة بالهراوة والجريدة، فيعيَّر بها وعقِبه من بعده .

* * *

قُتِل بنو ضَبّة حول الجمل فلم يبقَ فيهم إلا مَنْ لا نفع عنده ، وأخذَت الأزد بخِطامه، فقالت عائشة : مَنْ أنتم ؟ قالوا : الأزد ، قالت : صبراً ، فإنما يصبر الأحرار؛ مازلت أرى النّصر مع بنى ضَبّة ؛ فلما فقدتُهم أنكرتُه . فحرّضت الأزْد بذلك ؛ فقاتلوا قتالا شديدا ، ورُمِي الجملُ بالنَّبل حتى صارت القبة عليه كهيئة القنفذ .

* * *

قال عليّ عليه السلام : لما فنِيَ الناس على خِطام الجمل، وقطعت الأيدى، وسالت النفوس: ادعُوا لى الأشتر وعمّارا ، فجاءا ، فقال : اذهبا فاعقِرا هذا الجمل ؛ فإن الحرْب لا يبوخ[٢] ضِرامها مادام حَيًّا ؛ إنهم قد اتخذوه قبلة ، فذهبا ومعهما فتيانِ من مُراد ، يعرَف أحدهما بعمر بن عبد الله ، فما زالا يضربان الناسَ حتى خَلَصا إليه، فضربه المُرادىّ عَلَى عرقوبَيْه ، فأقعى وله رُغاء ، ثم وقع لجنبه ، وفرّ الناسِ من حوله ، فنادى عليّ عليه السلام : اقطعوا

---

(١) في ب : « القوم » ، وما أثبته من ا .

(٢) لا يبوخ : لا يخمد .

أنساع الهودج ، ثم قال لمحمد بن أبى بكر : اكفنى أختك ، فحملها محمد حتى أنزلها دار عبد الله بن خلف الخزاعىّ .

* * *

بعث علىٌّ عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة ، قال : فأتيتُها[1] ، فدخلت عليها ، فلم يوضع لى شىء أجلس عليه ، فتناولت وسادة كانت فى رَحْلها ، فقعدت عليها ، فقالت : يابن عباس ، أخطأت السنّة ، قعدت على وسادتنا فى بيتنا بغير إذننا ! فقلت : ليسَ هذا بيتُكِ الذى أمَرك الله أن تقرّى فيه ، ولو كان بيتَك ما قعدتُ على وِسادتك إلا بإذنك ، ثم قلت : إن أمير المؤمنين أرسلَنى إليك يأمُرك بالرحيل إلى المدينة ، فقالت : وأين أمير المؤمنين ! ذاك عمر ، فقلت : عمر وعلىّ ، قالت : أبيت ! قلت : أما والله ما كان أبوك إلا قصيرَ المدّة ، عظيم المشقة ، قليل المنفعة ، ظاهر الشؤم بيّن النّكد ، وما عسى أن يكون أبوك ! والله ما كان أمرُك إلا كحَلب شاة حتى صرت لاتأمرين ولا تنهين ، ولاتأخذين ولاتعطين ، وما كنتِ إلا كما قال أخو بنى أسد :

ما زال إهداء الصغائر بيننا نثّ الحديث وكثرة الألقابِ[2]

حتى تَركت كأن صوتَك بينهم فى كلّ نائبـة طنينُ ذبابِ

قال : فبكت حتى سُمع نحيبُها من وراء الحجاب ، ثم قالت : إنى معجِّلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله تعالى ، والله ما من بلدٍ أبغضَ إلىّ من بلد أنتم فيه ، قلت : ولم ذاك ! فو الله لقد جعلناكِ للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك صِدّيقا ، قالت : يابن عباس ، أتمنّ علىّ برسول الله ؟ قلت : مالى لا أمنّ عليك بمَنْ لو كان منك لمننتِ به علىّ !

ثم أتيت عليا عليه السلام فأخبرته بقولها وقولى ، فسرّ بذلك ، وقال لى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] ؛ وفى رواية : أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك.

---

(١) ب « فلقيتها » ، وما أثبته من ا .

(٢) البيتان فى ثمار القلوب ٥٠٣ ، ونسبهما إلى حضرمى بن عامر ، وهما أيضاً فى الحيوان ٣ : ٣١٥

(٣) سورة آل عمران ٣٤ .

(٨٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ ؛ فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ ؛ وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ .

الشرح :

فسّر عليه السلام لفظ الزّهادة ، وهى الزّهد ، بثلاثة أمور وهى : قصر الأمل ، وشكر النعمة ، والورَع عن المحارم ، فقال : لا يسمّى الزّاهد زاهداً حتى يستكمل هذه الأمور الثلاثة ، ثم قال : « فإن عزب ذلك عنكم » ، أى بَعُدَ ، فأمران من الثلاثة لابدّ منهما ؛ وهما الورع وشكر النعم ، جعلهما آكد وأهمّ من قصر الأمل .

واعلم أنّ الزهد فى العُرْف المشهور هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها ، لكنه لما كانت الأمور الثلاثة طريقاً موطئة إلى ذلك أطلق عليه السلام لفظ الزهد عليها على وجه المجاز .

وقوله : « فقد أعذر الله إليكم » أى بالغ ؛ يقال : أعذَر فلان فى الأمر أى بالغ فيه ، ويقال : ضُرِب فلان فأعذر ، أى أشرف على الهلاك ؛ وأصل اللفظة من العذر ؛ يريد أنه

قد أوضحَ لكم بالحجج النيّرة المشرقة مايجب اجتنابُه، ومايجب فعله ؛ فإن خالفتم استوجبتمُ العقوبة ؛ فكان له فى تعذيبكم العذر .

***

[الآثار والأخبار الواردة فى الزهد]

والآثار الواردة فى الزهد كثيرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلح الزاهد فى الدنيا ، حَظِىَ بعزّ العاجلة وبثواب الآخرة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « من أصبحت الدنيا همّه وسَدَمه، نزع الله الغنى من قلبه وصيّر الفقر بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له ، ومن أصبحت الآخرة همّه وسَدَمه ، نزع الله الفقر عن قلبه ، وصيّر الغنى بين عينيه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » .

وقال عليه السلام للضحّاك بن سفيان : ماطعامُك ؟ قال : اللحم واللبن ، قال : ثم يصـــير إلى ماذا ؟ قال : إلى ماعلمت ، قال : فإن الله ضرب مايخرج من ابن آدم مثلا للدنيا .

وكان الفُضَيْل بن عِياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أرِيَكم الدنيا ، فيجىء بهم إلى المزبلة ، فيقول : انظروا إلى عنبهم وغنمهم ودَجاجهم وبطّهم ! صار إلى ماترون .

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها.

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾(1) قال : إذا دخل النّور القلبَ انفسح، فذلك شرح الصدر، قيل: أفلذلك علامة يعرف بها ؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعدادِ للموت قبل نزوله .

قالوا : أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء : اتخذِ الدّنيا ظِئْراً ، واتخذ الآخرة أمًّا .

الشعبيّ : ما أعلم لنا والدنيا مثلا إلا قول كُثَيّر :

أسيئِي بنا أو أحسِني لا ملومةً　　لَدَيْنَا ولا مقليّــــة إن تَقَلّتِ (2)

بعض الصالحين : المستغنى عن الدّنيا بالدّنيا ، كالمطفِئ النارَ بالتبن .

وفى بعض الـكتب القديمة الإلهية : قال الله للدنيا : مَنْ خدَمنى فاخدميه ، ومن خدَمكِ فاستخدِميه .

دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم ، وعليه مدرعة من صُوف ، فقال : ماهذه ؟ فسكت ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : أكره أن أقولَ زهـداً فأزكّيَ نفسى ، أو فقرا فأشكوَ ربى .

قيل فى صفة الدنيا والآخرة : هما كضَرتين إن أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى.

قيل لمحمد بن واسع: إنك لترضَى بالدُّون، قال : إنّما رضيَ بالدُّون مَنْ رضيَ بالدنيا .

خطب أعرابيٌّ كان عاملاً لجعفر بن سليمان على ضَرِيّة يوم جُمعة خطبـةً لم يُسمعْ أوجَز منها ولا أفصح ، فقال : إنّ الدنيـا دارُ بلاغ ، وإنّ الآخرةَ دار قرار ؛ فخذُوا من ممرّكم لمُستقرّكم ، ولا تهتِـكوا أستارَكم عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرِجُوا من الدنيا قلوبَـكم قبل أن تخرُج منها أبدانُـكم ؛ ففيها جئتم ، ولغيرها خُلقتم ؛ إنّ المرء إذا هلك قال الناس : ماترك؟ وقالت الملائـكة: ماقدّم ؟ فلِلّه آثاركم ! قدّموا بعضاً يكن لـكم،

---

(1) سورة الأنعام ١٢٥ .

(2) من قصيدته التائية المشهورة ؛ فى أمالى القالى ٢ : ١٠٧ — ١١٠ .

ولا تؤخِّروا كُلًّا فيكون عليكم ؛ أقول قولى هذا ؛ وأستغفر الله ، والمدعوُّ له الخليفة ، ثم الأمير جعفر . ونزل .

أبو حازم الأعرج : الدُّنيا كلُّها غموم ، فما كان فيها سرورا فهو ربْح .

محمد بن الحنفيّة : مَنْ عزّت عليه نفسُه هانتْ عليه الدنيا .

قيل لعلىّ بن الحسين عليه السلام : مَنْ أعظمُ الناس خَطَراً ؟ قال : مَنْ لم يرَ الدنيا لنفسه خطراً .

قال المسيح عليه السلام لأصحابه : حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم ، قالوا له : كيف ذلك ؟ قال : لا يسلم صاحبه من البغى والكبر ؛ قيل : فإن سَلِم منهما ؟ قال : يشغلُه إصلاحه عن ذكر الله .

أشرف أبو الدرداء على أهلِ دمشق؛ فقال: ياأهلَ دمشق، تبنونَ مالا تسكنون، وتجمعون مالا تأكلون ، وتأملُون مالا تدركون ! أينَ مَنْ كان قبلَكم؟ بنوْا شديداً ، وأمّلوا بعيداً، وجمعوا كثيراً ، فأصبحتْ مساكنهم قبوراً ، وجمْعُهم بوراً ، وأملُهم غروراً .

قال المأمون : لو سئلت الدُّنيا عن نَفسها لم تسطعْ أن تصفَ نفسها بأحسنَ من قول الشاعر :

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ   لَهُ عن عَدُوٍّ فى ثيابِ صديقِ (١)

وقال رجل : يارسولَ الله ، كيف لى أن أعلم أمرى ؟ قال : « إذا أردتَ شيئاً من أمور الدنيا فعسُر عليك ؛ فاعلم أنك بخير ، وإذا أردتَ شيئاً من أمر الدنيا فيسُر لك ؛ فاعلم أنه شرٌّ لك » .

قال رجل ليونس بن عبيد : إنّ فلانا يعمل بعمل الحسن البصرىّ ، فقال : والله ماأعرف أحداً يقول بقوله ، فكيفَ يعمل بعمله ؟ قيل : فصفْه لنا ، قال : كان إذا أقبَل

(١) لأبى نواس . ديوانه ١٩٢ .

فكأنه أقبل مِنْ دفنِ حبيب ، وإذا جلس فكأنه أسيرٌ أجلِس لضرْب عنقه ، وإذا ذكرتِ النار فكأنّها لم تخلق إلّا له .

وقال بعض الصالحين لرجل : يافلان، هلْ أنت على حالٍ أنتَ فيها مستعدٌّ للموت ؟ قال : لا ، قال : فهل أنت عالم بأنك تنتقل إلى حال ترضى به ؟ قال : لا ، قال : أفتعلم بعد الموت داراً فيها مستعتَب[1]؟ قال : لا ، قال : أفتأمن الموت أن يأتيك صباحاً أو مساء ؟ قال : لا ، قال : أفيرضى بهذه الحال عاقل !

وقال أبو الدّرداء : أضحكتني ثلاثٌ ، وأبكتني ثلاث : أضحكني مؤمّل الدنيا والموت يطلبه ، وغافلٌ وليس بمغفول عنه ، وضاحكٌ ملء فيه لايدري أراضٍ عنه الله أمْ ساخطٌ ! وأبكاني فراقُ محمد وحزبه ، وأبكاني هولُ الموت ، وأبكاني هولُ الموقف ، يومَ تبدُو السرائر حين لاأدري أيؤخذ بي إلى جنّة أم إلى نار !

وكان عبد الله بن صغير يقول :أتضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قد خرجت من عندالقصّار!

وكان يقال : مَنْ أتى الذنبَ ضاحكاً دخل النار باكياً .

وكان مالك بن دينار يقول: وددت أنْ رزقي في حصاة أمصّها حتى أبول، فلقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييتُ من ربّي .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لايبلغ العبدُ أن يكونَ من المتّقين حتى يدَعَ ماليس به بأس حذراً عمّا به البأس » .

وقال المسيح عليه السلام : بحقٍّ أقول لكم ؛ إنّ مَنْ طلب الفِرْدَوس ، فخبْز الشعير ، والنوم على المزابل مع الكلاب ، له كثير .

وأوصى ابن محرز رجلًا فقال : إن استطعتَ أن تعرِف ولا تعرَف ،وتسأل ولا تُسأل ، وتمشي ولا يُمشى إليك ، فافعل .

---

(١) مستعتب : رضا .

وقال علىّ عليه السلام : طوبَى لمن عَرَف الناس ولم يعرفوه ، تعجّلتْ له منيّتُه، وقلّ تراثه ، وفقد باكياته .

وكان يقال : فى الجوع ثلاث خصالٍ : حياةٌ للقلب ، ومذلّة للنفس ، ويورث العقل الدقيق [من المعانى] (١) .

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أريدُ أن تقبل منى دراهم، قال: إن كنت غنيًا قبلتُها منك ، وإن كنتَ فقيرا لم أقبلْها ، قال : فإنى غنى ، قال : كم تملك ؟ قال ألفى درهم ، قال : أفيسرُّك أن تكون أربعة آلاف ؟ قال : نعم ، قال : لست بغنىّ ودراهمك لا أقبلها .

وكان أبو حازم الأعرج إذا نظَر إلى الفاكهة فى السوق ، قال : موعدكِ الجنة إن شاء الله تعالى .

ومرّ أبو حازم بالقصابين ، فقال له رجل منهم : يا أبا حازم ؛ هذا سَمِين فاشتر منه ، قال : ليس عندى دراهم ، قال: أنا أنظِرُك ، قال: وأفكّر ساعة ، ثم قال : أنا أنظِرُ نفسى .

نزل الحجّاج فى يوم حارّ على بعض المياه ، ودعا بالغَدَاء وقال لحاجبه : انظر مَنْ يتغدّى معى ، واجهدْ ألّا يكون من أهل الدنيا ، فرأى الحاجبُ أعرابيًا نائما ، عليه شملة من شَعْر ، فضربه برجله ، وقال: أجب الأمير ، فأتاه، فدعاه الحجّاج إلى الأكل ،فقال: دعانى مَنْ هو خيرٌ من الأمير فأجبته ؛ قال : مَنْ هو ؟ قال: الله ، دعانى إلى الصوم فصمت ؛ قال : أفى هذا اليوم الحارّ ؟ قال : نار جهنّم أشدُّ حرًّا ، قال : أفطِر وتصومُ غدا ، قال : إن ضمنتَ لى البقاء إلى غد ، قال : ليس ذلك إلىّ ، قال : فكيف أدَعُ عاجلًا لآجل لا تقدر عليه ! قال : إنه طعام طيِّب ، قال : إنك لم تطيّبه ولا الخبّاز ، ولكنّ العافية طيّبته لك .

وقال شبيب : كنّا سنة فى طريق مكّة ، فجاء أعرابىّ فى يوم صائفٍ شديد الحرّ ،

---

(١) بالأصول غموض ، ولعل الصواب ما أثبته أو قريب منه .

ومعه جارية سوداء ، وصحيفة ؛ فقال : أفيكم كاتب ؟ قلنا : نعم ، وحضر غداؤنا،فقلنا له : لو دخلتَ فأصبت من طعامنا! قال : إنّى صائم ، قلنا : الحرّ وشدته ، وجفاء البادية ،فقال: إنّ الدنيا كانت ولم أكنْ فيها ، وستكون ولا أكونُ فيها ، وما أحبّ أن أغبن أيامى، ثم نبذ إلينا الصحيفة ، فقال للكاتب: اكتُب ولا تَزِدْ على ما أمليه عليك : هذا ما أعتق عبدالله بن عقيل الكلبيّ ، أعتق جاريةً له سوداء اسمها لؤلؤة ، ابتغاء وجهِ الله وجواز العقبة ، وإنه لا سبيلَ له عليها إلا سبيل الولاء ، والمنّة لله علينا وعليها واحدة .

قال الأصمعيّ : فحدّثت بذلك الرشيد ، فأمر أن يعتق عنه ألف نسمة ، ويكتب لهم هذا الكتاب .

وقال خالد بن صفوان : بتُّ ليلتى هذه أتمنّى ، فكبست البحر الأخضر بالذهب الأحمر ، فإذا الذى يلقانى من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران [1] .

ورأى رجلٌ رجلا من ولد معاوية يعمل على بعير له ، فقال : هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا ! قال : رحمك الله يابن أخى ، ما فقدنا إلا الفضول .

وقال الحسن : يابن آدم ، إنما أنت أيام مجموعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضُك .

قال يونس الكاتب : لو قيل بيت دريد فى زاهدٍ كان به جديرا :

قليلُ التّشكّى للمصيبات ذاكرٌ من اليوم أعقابَ الأحاديث فى غد [2]

وقال الحسن : ما أطال عبد الأملَ إلّا أساء العمل .

وقال رجل للفُضَيل بن عياض : ما أعجب الأشياء ؟ قال : قلبٌ عرف الله ثم عصاه .

قال وكيع : ما أحسنتُ قطّ إلى أحد ، ولا أسأت إليه ، قيل : كيف ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [3] .

---

(١) الطمر : الثوب الخلق .

(٢) من كلمة له فى ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٨ يرثى أخاه عبد الله .

(٣) سورة الإسراء ٧ .

وقال الحسن لرجل : إن استطعتَ ألا تسيء إلى أحدٍ ممن تحبّه فافعل ، قال الرجل : ياأبا سعيد [١] ، أوَ يسيء المرء إلى مَنْ يحبّه ؟ قال : نعم ، نفسُك أحبُّ النفوس إليك ، فإذا عصيتَ الله فقد أسأتَ إليها .

وكان مالك بن دينار إذا منَع نفسَه شيئاً من الشهوات ، قال : اصبرى ، فوالله مامنعكُ [٢] إلا لكرامتك علىّ .

قام رسول الله صلى الله عليه وآله الليل ، حتى تورّمت قدماه ، فقيل له : يارسول الله ، أتفعل هذا ، وقد غفرَ الله ماتقدّم مِنْ ذنبك وماتأخر ؟ قال : « أفلا أكونُ عبداشكورا ! » .

وقال عبد الله بن مسعود : لايكونَنّ أحدكم جيفة ليله ، قُطْرُبَ [٣] نهاره .

وكان يقال . مَنْ كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار .

وكان مالك بن دينار يقول فى قَصصه : ما أشد فطام الكبر ! وينشدُ :

أتروضُ عِرْسك بعد ماهرِمَتْ ! ومن العناء رياضةُ الهَرِم

وقال آخر :

إن كنت تؤمن بالقيامَة واجترأتَ على الخطيّهْ
فلقدْ هلكتَ وإن جَحَدْتَ فذاكَ أعظمُ للبليّهْ

---

(١) كنية الحسن البصرى . (٢) ج : « ما منعتك » .
(٣) القطرب : دويبة لا تستريح نهارها سعياً .

(٨١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في صفة الدنيا :

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ ، أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ! فى حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ .

مَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ .

* * *

قال الرضيّ رحمه الله :

أقول: وإذا تأمّل المتأمّل قوله عليه السلام: «ومَن أبصر بها بصّرته» ،وَجد تحته من المعنى العجيب ، والغرض البعيد ، مالا يبلغ غايته ولا يدرك غوره ، لاسيّما إذا قرن إليه قوله : « وَمَنْ أبصَرَ إليها أعمته » ، فإنه يجد الفرق بين «أبصرَ بها» و«أبصرَ إليها» وَاضِحًا نيّراً، وعجيباً باهراً .

الشرح :

العناء : التعب . وساعاها : جاراها سعياً . وواتته : طاوعته .

ونظر الرضيّ إلى قوله . « أولها عناء وآخرها فناء » ، فقال .

وأوّلُنا العناءُ إذا طلَعْنَا ... إلى الدنيا وآخرُنا الذهابُ (١)

---

(١) ديوانه ١ : ١٠١ .

ونظر إلى قوله عليه السلام « فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب » بعضُ الشعراء ، فقال :

الدهر يومان فيومٌ مضَى   عنك بمـا فيه ويومٌ جديدْ
حلالُ يوميك حسابٌ وفى   حرام يَوْمَيكَ عذابٌ شديدْ
تجمعُ ما يأكله وارثٌ   وأنت فى القبر وحيدٌ فريدْ
إنى لغيرى واعظٌ تاركٌ   نفسى وقولى من فعالى بعيدْ
حـــــلاوةُ الدنيا ولَذَّاتُها   تـكلّف العاقلَ ما لا يريدْ

ومن المعنى أيضا قول بعضهم :

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ تُفضِى إلىَ نَدَمٍ   وَفى المحارِمِ مِنْهَا الغم مَنْزُورُ

ونظر الحسن البصرىّ إلى قوله عليه السلام : « من استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقرَ فيها حزن » ، فقال ، وقد جاءه إنسان يبشّره بمولود له ذكَر : ليهنك الفارس يا أبا سعيد ، فقال : بل الراجِل ! ثم قال : لا مرحباً بمن إنْ كان غنياً فتنَنِى ، وإن كان فقيراً أحزننى ، وإن عاش كدَّنى ، وإن مات هدَّنى ، ثم لا أرضى بسعيِى له سعيا ، ولا بكدحِى له كدحا ؛ حتى أهتمّ بمـا يصيبه بعد موتى ، وأنا فى حالٍ لا ينالُنى بمساءته حزْن ، ولا بسروره جَذَل .

ونظر ابن المعتزّ إلى قوله عليه السلام : « مَنْ ساعاها فاتته ، ومن قعد عنها واتته » فقال : الدنيا كظلّك ، كلّما طلبته زاد منك بعدا .

ونظرتُ إلى قوله عليه السلام : « ومَنْ أبصر بها بصرته ، ومن أبصر إليها أعمته » ، فقلت :

دُنْيَاكَ مثلُ الشّمْسِ تُدنى إليْـ   ـك الضوء لـكن دعوة الْمُهْلِكْ
إن أنت أبصرتَ إلى نورِها   تَعْشَ ، وإن تبصرْ به تدركْ

فإن قلت : المسموع : أبصرت زيدا ، ولم يسمع أبصرت إلى زيد ، قلت : يجوز أن يكون قوله عليه السلام : « ومن أبصر إليها » ، أىْ ومن أبصر متوجها إليها ، كقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾[1] ولم يقل « مرسلا » ؛ ويجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله « نظر إليها » لما كان مثله ، كما قالوا فى « دخلت البيت » ، « ودخلت إلى البيت » أجروه مجرى « ولجت إلى البيت » لمّا كان نظيره .

(١) سورة النمل ١٢ .

(٨٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ؛ وتسمى بالغراء ؛ وهي من الخطب العجيبة :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ ؛ مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ . أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلًا بَادِيًا ، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيبًا هَادِيًا ، وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِرًا قَادِرًا ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيًا نَاصِرًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؛ أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ .

* * *

الشرح :

الحوْل:القوّة .والطّول : الإفضال ، والمانح : المعطى. والأزْل، بفتح الهمزة : الضيق والحبس.والعواطف : جمع عاطفةوهي مايعطفك على الغير ، ويدنيهمِنْ معروفك، والسوابغ: التوامّ الكوامل ؛ سبغَ الظلُّ ؛ إذا عمّ وشمل .

و« أولا » هاهنامنصوب على الظرفية؛ كأنهقال :قبل كلّ شيء . والأوّل نقيض الآخر أصله « أوْءل »على «أفعل » مهموز الوسط ،قلبتالهمزة واوا وأدغم، يدلّ على ذلكقولهم: « هذا أوّلُ منك »والإتيان بحرف الجرّ دليل على أنه« أفعل »، كقولهم :هذا أفضلمنك؛ وجمعه على أوائل وأوالٍ أيضا على القلب .وقال قوم: أصله « ووّل »على « فوْعل »فقلبت الواوالأولى همزة؛ وإنما لم يجمع على « ووالٍ »لاستثقالهم اجتماع الواوين وبينهما ألف الجمع.

(١) ب : « أوال » تصحيف

وإذا جعلت « الأول » صفةً لم تصرفه ، تقول: لقيته عاماً أوّل ، لاجتماع وزن الفعل، وتقول: ما رأيته مذ عامٌ أوّلُ ، كلاهما بغير تنوين ؛ فمن رفع جعله صفة لعام ؛ كأنه قال : أوّل من عامنا ، ومَنْ نصب جعله كالظرف، كأنه قال : مذ عام قبل عامنا . فإن قلت : « ابدأ بهذا أوّلُ » ، ضممته على الغاية .

والإنهاء : الإبلاغ ، أنهيتُ إليه الخبرَ فانتهى ؛ أي بلغ ؛ والمعنى أنّ الله تعالى أعذر إلى خلقه وأنذرهم ؛ فإعذارُه إليهم أنْ عرّفهم بالحجج العقليّة والسمعية أنّهم إنْ عصوْه استحقّوا العقاب؛ فأوضح عذرَه لهم في عقوبته إيّاهم على عصيانه . وإنذاره لهم : تخويفه إيّاهم من عقابه. وقد نظر البحتريّ إلى معنى قوله عليه السلام : « علا بحوله، ودنا بطوله »، فقال:

دَنَوْتَ تَوَاضُعاً وَعَلَوْتَ قَدْراً ... فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وَارْتِفَاعُ[1]
كَذَاكَ الشمس تبعدُ أنْ تُسَامَى ... وَيَدْنُو النُّورُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

***

وفي هذا الفصل ضروب من البديع ؛ فمنها أنّ « دنا » في مقابلة « علا » لفظاً ومعنى؛ وكذلك « حوله » و « طوله » .

فإن قلت : لاريبَ في تقابل « دنا » و « علا » من حيث المعنى واللفظ؛ وأما « حوله » و « طوله » فإنهما يتناسبان لفظاً ؛ وليسا متقابلين معنى ، لأنهما ليسا ضدّين ، كما في العلوّ والدنوّ .

قلت : بل فيهما معنى التضادّ ، لأنّ الحول هو القوّة ، وهي مشعرة بالسَّطْوة والقهر، ومنه منشأ الانتقام ، والطَّوْل : الإفضال والتكرّم ، وهو نقيض الانتقام والبطش .

فإن قلت : أنت وأصحابك لا تقولون إنّ الله تعالى قادرٌ بقدرة ، وهو عندكم قادر

---

(١) ديوانه ١ : ٨٢ ، يمدح إبراهيم بن المدبر .

لذاته ، فكيف تتأوّلون قوله عليه السلام : « الذى علا بحوْله » ؟ أليس فى هذا إثبات قدرة له زائدة على ذاته ، وهذا يخالف مذهبكم !

قلت : إنّ أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم : إنّ لله قوة وقدرة وحولا ، وحاش لله أنْ يذهب ذاهبٌ منهم إلى منع ذلك ! ولكنّهم يطلقونه ويعنُون به حقيقتَه العرفيّة ، وهى كون الله تعالى قويًّا قادراً ، كما نقول نحن والمخالف : إن لله وجوداً وبقاء وقِدماً ، ولا نعنى بذلك أنّ وجوده أو بقاءه أو قدمه معانٍ زائدة على نفسه ، لكنا نعنى كلّنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجودا أو باقيا أو قديما ، وهذا هو العُرْف المستعمَل فى قول الناس: « لا قوة لى على ذلك » و « لا قدرة لى على فلان » لا يعنون نفىَ المعنى ، بل يعنون كونَ الإنسان قادرا قويا على ذلك .

ومنها أن « مانحا » فى وزن « كاشف » و « غنيمة » بإزاء « عظيمة » فى اللفظ ، وضدها فى المعنى ؛ وكذلك « فضل » و « أزل » .

ومنها أن « عواطف » بإزاء « سوابغ » و « نِعَمه » بإزاء « كرمه » .

ومنها ــ وهو ألطف ما يَستعمله أرباب هذه الصناعة : أنّه جعل « قريبا هاديا » ، مع قوله: « أستهديه » ؛ لأن الدليل القريب منك أجدرُ بأن يهديَك من البعيد النازح ، ولم يجعله مع قوله : « وأستعينه » ؛ وجعل مع الاستعانة « قاهرا قادرا » لأنّ القادر القاهر يليقُ أن يستعانَ ويستنجَد به ؛ ولم يجعله قادرا قاهرا مع التوكّل عليه ، وجعل مع التوكل « كافيا ناصرا » ؛ لأنّ الكافىَ الناصر أهلٌ لأنْ يتوكّل عليه .

وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام التى فات بها البلغاء ، وأخرس الفصحاء .

***

الأصْـلُ :

أوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لـكم الْأَمْثَالَ ، وَوَقَّتَ لَـكُمُ الآجَالَ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وَأَرْفَغَ لَـكُمُ المَعَاشَ ، وَأَحَاطَ بِـكُمُ الْإِحْصَاء ، وَأَرْصَدَ لَـكُمُ الْجَزَاء ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِـغِ ، وَالرِّفَـدِ الرَّوَافِـغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَـجِ الْبَوَالِـغِ ؛ فَأَحْصَاكُمْ عَدَدًا، وَوَظَّفَ لَـكُمْ مُدَدًا ، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ، وَدَارِ عِبْرَةٍ ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا .

***

الشَّـرْحُ :

وقّت وأقّت بمعنى ؛ أى جعل الآجال لوقتٍ مقدّر .

والرياش والرِّيش واحد ، وهو اللباس ، قال تعالى : ﴿ يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾[1] .
وقرئ « ورياشا » ، ويقال: الرياش: الخِصب والغنى ، ومنه ارتاش فلان، حَسُنت حاله، ويكون لفظ « ألبسكم » مجازا إن فُسّر بذلك .

وأرفغَ لـكم المعاش ؛ أى جعله رفيغا ، أى واسعاً مخصِباً ؛ يقال: رفُغ ـ بالضم ـ عيشُه رَفاغة ، اتسع ، فهو رافغ ورفيغ ، وترفّغ الرجل، وهو فى رفاغيَة من العيش ، مخففا ، مثل « رَفَاهِيَة » و « ثمانية » .

وقوله : « وأحاط بكم الإحصاء » ، يمكن أنْ ينصَب الإحصاء على أنّه مصدر فيه اللام ، والعامل فيه غير لفظه ، كقوله: « يعجبه السّخون » ، ثم قال : « حبًّا[2] » ، وليس

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ .
(٢) أصله قول الراجز ، وأورده صاحب اللسان فى (سخن) :

يُعْجِبُهُ السَّخِينُ وَالمَصِيدُ وَالتَّمْرُ حُبًّا مَالَهُ مَزِيدُ

دخول اللام بمانع من ذلك ؛ تقول : ضربتُه الضربة ، كما تقول : ضربته ضربا . ويجوز أن ينصب بأنّه مفعول به ، ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما: أن يكون من «حَاط» ثلاثيا ، تقول: حاط فلان كرْمَه ،أى جعل عليه حائطا، فكأنه جعل الإحصاء والعدّ كالحائط الدار عليهم؛ لأنّهم لا يبعدون منه ولا يخرجون عنه.

والثانى :أن يكونَ من حاط الحمارُ عانتَه يحُوطها ؛ بالواو أى جمعها ؛ فأدخل الهمزة؛ كأنه جعل الإحصاء يحوطهم ويجمعهم ؛ تقول : ضربتُ زيداً وأضربته أى جعلته ذا ضَرْب ، فلذلك كأنه جعل عليه السلام الإحصاء ذا تحويط عليهم بالاعتبار الأول ، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثانى .

ويمكن فيه وجه آخر ، وهو أن يكون الإحصاء مفعولا له ويكون فى الكلام محذوف تقديره: وأحاط بكم حفظته وملائكته للإحصاء ودخول اللام فى المفعول له كثير ، كقوله:

* والهَوْلَ مِن تَهوّلِ الهُبُورِ[1] *

قوله : « وأرصد » يعنى أعدّ ، وفى الحديث : « إلّا أن أرصُدَه لدَين علىّ » .

وآثَرَكم، من الإيثار، وأصله أن تقدّم غيرَك على نفسك فى منفعة أنت قادرٌ على الاختصاص بها وهو فى هذا الموضع مجاز مستحسَن .

والرِّفَد: جمع رِفْدَة ، مثل كِسْرة وكِسَر ، وفِدْرة وفِدَر . والرِّفدة والرِّفْد واحد ، وهى العطيّة والصِّلَة ورَفدت فلانا رَفْداً بالفتح ، والمضارع أرفِده بكسر الفاء ، ويجوز « أرفدته » بالهمزة .

والروافغ : الواسعة . والحجج البوالغ : الظاهرة المبينة، قال سبحانه : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[2] .

---

(١) للعجاج وقد ورد البيت عرفا فى الأصول ، وصوابه من الديوان ٤٨

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

ووظّف لسكم مدداً ، أى قدّر ، ومنه وظيفة الطعام .

وقرار خِبْرة بكسر الخاء ، أى دار بلاء واختبار ، تقول : خبرت زيدا أخبره خُبْرة، بالضم فيهما ، وخِبْرة بالكسر إذا بلوته واختبرته ، ومنه قولهم : صغّر الخُبْرُ الخبرَ .

ودار عِبْرة أى دار اعتبار واتّعاظ ، والضمير فى « فيها » و «عليها » ليس واحدا ، فإنّه فى « فيها » يرجع إلى الدار ، وفى « عليها » يرجع إلى النعم والرّفْدِ ، ويجوز أن يكون الضمير فى « عليها » عائدا إلى الدار على حذف المضاف ، أى على سكانها .

***

الأصْلُ :

فَإنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا ، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا ، يُونِقُ مَنْظَرُهَا ، وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا . غُرُورٌ حَائِلٌ ، وَضَوْءٌ آفِلٌ ، وَظِلٌّ زَائِلٌ ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ ، حَتَّى إذَا أَنِسَ نَافِرُهَا ، وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا ، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا ، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا ، وَأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ ، قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ ، وَمُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ .

وَكَذَلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ ؛ لَا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً ، وَلَا يَرْعَوِى الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً ، يَحْتَذُونَ مِثَالاً ، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً ، إِلَى غَايَةِ الِانْتِهَاءِ ، وَصَيُّورِ الْفَنَاءِ .

***

الشَّرْحُ :

يقال : عيش رنِق ، بكسر النون ، أى كدِر ، وماء رنْق بالتسكين ، أى كدر والرّنَق بفتح النون مصدر قولك : « رنِق الماء » بالكسر ورنّقته أنا ترنيقا ، أى كدّرته والرواية

المشهورة فى هذا الفصل «رنِق مشربُها» بالكسر أقامه مقام قولهم : «عيش رَنِق» ، ومن رواه « رَنْق مشربها » بالسكون — وهم الأقلون — أجرى اللفظ على حقيقته .

ويقال : مشرع رَدِغ : ذو طين ووحَل ، روى « الرَّدَغة » بالتحريك ، ويجوز تسكين الدال ؛ والجمع رِداغ ورَدْغ[1] .

ويونق منظرُها : يعجب الناظر ؛ آنقنِي الشيء أعجبني . ويُوبق مخبرها : يُهلك ، وَبَق الرجلُ يبِق وبُوقا ، هلك ؛ والموْبِق « مفعِل » منه كالموعد « مَفْعل » ، من وعَد يعِد ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾[2] . وقد جاء وَبِق يبِق ، بالكسر فيهما ، وهو نادر ، كورِثَ يرِث ، وجاء أيضا وبق يوبق وبقاً .

والغُرور ، بضم الغين : ما يغترّ به من متاع الدنيا ، والغَرور ، بالفتح : الشيطان .

والحائل : الزائل ، والآفل : الغائب ، أفل غاب يأفُلُ ويأفِل أفولا .

والسِّناد : دِعامة يُستَد بها السقف . وناكرها : فاعل ، من نكرت كذا ، أى أنكرته .

وقمِصت بأرجلها ، قمَصَ الفرسُ وغيره يقمِص ويقمُص قَمْصا وقِماصا ، أى استنّ ؛ وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معا ، ويعجن برجْليه ، وفى المثل المضروب لمن ذلّ بعد عزة : « ما لِعَيْرٍ من قِماص » .

وجمع فقال : « بأرجلها » وإنما للدابة رجلان ، إمّا لأنّ المثنى قد يطلق عليه صيغة الجمع ؛ كما فى قولهم : امرأة ذات أوراك ومآكم ؛ وهما وَرِكان ، وإمّا لأنه أجرى اليدين والرجلين مجرى واحد ، فسماها كلّها أرجلا . ومن رواه « بالحاء » فهو جمع رَحْل الناقة .

وأقصدت : قتلت مكانها من غير تأخير .

---

(١) وردع ، كخدم أيضاً .

(٢) سورة الكهف ٥٢

والأوهاق : جمع وَهَق بالتحريك ، وهو الحبل ، وقد يسكن مثل نَهْر ونَهَر . وأعلقتُ المرء الأَوْهَاق : جعلتَ الأوهاق عالقة به . والضنك : الضيق .

والمضجع : المصدر أو المكان ، والفعل ضَجَع الرجل جنبه بالأرض، بالفتح ، يضجَع ضجوعا وضجْما ، فهو ضاجع ؛ ومثله أضجع .

والمرجِع : مصدر رَجَع ، ومنه؛ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾؛[1] وهو شاذّ ، لأن المصادر من فَعَل يفعِل بكسر العين ؛ إنما يكون بالفتح .

قوله : «ومعاينة المحلّ» ،أى الموضع الذى يحُلُّ به المكلَّف بعد الموت؛ ولا بدّ لكلّ مكلف أن يعلم عَقِيب الموت مصيره ؛ إما إلى جنة وإما إلى نار .

وقوله : « ثواب العمل » يريد جزاء العمل ، ومراده الجزاء الأعمُّ الشامل للسعادة والشقاوة ، لا الجزاء الأخصّ الذى هو جزاء الطاعة، وسمى الأعمّ ثوابا على أصل الحقيقة اللغوية ؛ لأنّ الثواب فى اللغة الجزاء ؛ يقال: قد أثاب فلان الشاعرَ لقصيدة كذا ،أى جازاه

وقوله : « وكذلك الخلف يعقِب السلف» الخلَف المتأخرون ، والسلَف المتقدمون؛ وعقْب هاهنا بالتسكين؛ وهو بمعنى بَعْد، جئت بعقْب فلان أى بعده ، وأصله جَرْى الفرس بعد جَرْيه ، يقال: لهذا الفرس عَقْب حسن. وقال ابن السكيت : يقال. جئت فى عُقْب شهر كذا ، بالضم ، إذا جئت بعد ما يمضى كلّه، وجئت فى عَقِب ، بكسر القاف إذا جئت وقد بقيت منه بقية . وقد روى : « يَعقُب السلف » ، أى يتبع .

وقوله : « لا تُقلع المنية »، أى لا تكفّ ، والاخترام: إذهاب الأنفس واستئصالها.

---

(١) سورة الأنعام ١٦٤

وارعوى : كفّ عن الأمر وأمسك ، وأصل فعله الماضي رَعَى يرعو ، أي كفّ عن الأمر ، وفلان حسن الرِّعوة والرَّعوة والرُّعْوَة والرَّعوى والارعواء . والاجترام ، افتعال من الجرم ، وهو الذنب ، ومثله الجريمة ، يقال : جَرَم وأجْرَم بمعنى .

قوله : «يحتذون مثالا » أي يقتدون ، وأصله من « حذوت النعل بالنعل حَذْواً » ، إذا قدّرت كلّ واحدة على صاحبها .

قوله: «ويمضون أرسالا»، بفتح الهمزة، جمع رَسَل، بفتح السين، وهو القطيع من الإبل أو الغنم ، يقال : جاءت الخيل أرسالا ، أي قطيعا قطيعا .

وصَيّور الأمر : آخره وما يؤول إليه .

* * *

الأصل :

حَتّى إِذَا تَصَرَّمَتِ ٱلْأُمُورُ ، وَتَقَضَّتِ ٱلدُّهُورُ ، وَأَزِفَ ٱلنُّشُورُ ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ ٱلْقُبُورِ ، وَأَوْكَارِ ٱلطُّيُورِ ، وَأَوْجِرَةِ ٱلسِّبَاعِ ، وَمَطَارِحِ ٱلْمَهَالِكِ ؛ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلًا صُمُوتاً ، قِيَاماً صُفُوفاً ، يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ ٱلدَّاعِي ؛ عَلَيْهِمْ لَبُوسُ ٱلِاسْتِكَانَةِ ، وَضَرَعُ ٱلِاسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ . قَدْ ضَلَّتِ ٱلْحِيَلُ ، وَانْقَطَعَ ٱلْأَمَلُ ، وَهَوَتِ ٱلْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً ، وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً ، وَأَلْجَمَ ٱلْعَرَقُ ، وَعَظُمَ ٱلشَّفَقُ ، وَأُرْعِدَتِ ٱلْأَسْمَاعُ ، لِزَبْرَةِ ٱلدَّاعِي إِلَى فَصْلِ ٱلْخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ ٱلْجَزَاءِ ، وَنَكَالِ ٱلْعِقَابِ ، وَنَوَالِ ٱلثَّوَابِ .

* * *

الشرح

تصرّمت الأمور: تقطّعت، ومثله «تقضّت الدهور». وأزف: قَرُب ودَنا، يأزف أزفا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ (١) أى القيامة، الفاعل «آزف».

والضرائح: جمع ضريح وهو الشقّ فى وسَط القبر. واللّحْد: ما كان فى جانب القبر، وضرحت ضَرْحا، إذا حفرت الضريح.

والأوكار: جمع وَكْر بفتح الواو، وهو عشّ الطائر، وجمع الكثرة وُكور، ووكَر الطائر يكِرُ وَكْرا، أى دخل وَكْره، والوَكْن بالفتح مثل الوكر، أى العُشّ.

وأوجِرَة السّباع: جمع وِجار بكسر الواو، ويجوز فتحها، وهو بيت السَّبُع والضبُع ونحوهما.

مهطعين: مسرعين. والرّعيل: القطعة من الخيل.

قوله عليه السلام: «ينفذهم البصَر ويُسمعهم الداعى»، أى هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك البارئ سبحانه، وهم مع هذه الكثرة أيضا لا يبقى منهم أحد إلّا إذا دعا داعى الموت سمع دعاءه ونداءه.

واللَّبوس، بفتح اللام: ما يلبس، قال:

البَسْ لِكُلّ حالة لَبُوسَها إما نعيمَها وإما بوسَها (٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ (٣) يعنى الدُّروع.

والاستكانة: الخضوع. والضَّرع: الخشوع والضعف، ضَرَع الرجل يضرَع، وأضرعه غيره.

وكاظمتُه: ساكتَه، كظَم يكظِم كُظوما أى سكتَ، وقوم كُظَّم، أى ساكتون.

---

(١) سورة النجم ٥٧.

(٢) أنشده ابن السكيت لبيهس الفزارى، فى خبر ذكره صاحب اللسان فى ٨ : ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء ٨١.

ومهينمة: ذات هَيْنَمة، وهى الصوت الخفىّ . وألجم العرقُ: صار لجاما ، وفى الحديث «إنّ العرق لَيَجْرى منهم حتى إنّ منهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من يبلغ صَدْره ، ومنهم من يبلغ عنقه ، ومنهم من يُلْجمه ، وهم أعظمهم مشقّةً » .

وقال لى قائل : ماأرى لقوله عليه السلام: «المؤذّنون أطولُ الناس أعناقا يوم القيامة» ، كثير فائدة ، لأنّ طولَ العنق جدا ليس مما يرغب فى مثله، فذكرت له الخبر الوارد فى العَرَق وقلتُ: إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إلجام العرق أبعَد، فظهرت فائدة الخبر. ويروى « وأنجم العرق » ، أى كثر ودام .

والشَّفَق والشفقة، بمعنى، وهو الاسم من الإشفاق، وهو الخوف والحذر، قال الشاعر:

تَهْوَى حَيَاتِى وأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً ... والموتُ أكرم نَزّالٍ على الحُرَمِ [1]

وأرعدت الأسماع : عرتها الرِّعدة . وزَبْرة الداعى : صدته ، ولا يقال الصوت زَبْرة إلا إذا خالطه زجر وانتهار ، زبرتُه أزبُره ، بالضم .

وقوله : « إلى فصل الخطاب »، إلى هاهنا يتعلّق بالداعى. وفصل الخطاب: بتّ الحكومة التى بين الله وبين عباده فى الموقف، رزقنا الله المسامحة فيها بمنه! وإنما خص الأسماع بالرعدة، لأنها تحدُث من صوت الملك الذى يدعو النّاس إلى محاسبته .

والمقايضة : المعاوضة ، قايضت زيداً بالمتاع ، وهما قيِّضان ، كما قالوا : بيِّعان .

فإن قلت : كيف يصحّ ما ذكره المسلمون من حَشْر الأجساد ! وكيف يمكن ما أشارَ إليه عليه السلام من جَمْع الأجزاء البدنية من أوكار الطيور وأوجرة السباع ، ومعلوم أنه قد يأكلُ الإنسانَ سَبُع ، ويأكل ذلك السبُعَ إنسان آخر ، ويأكل هذا الإنسانَ طائر ، ثم يأكل الطائرَ إنسان آخر، والمأكول يصير أجزاء من أجزاء بدن الآكل ،فإذا حشرت

---

(١) لإسحاق بن خلف ، من أبيات له فى ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٢٧٥ .

الحيوانات كلها على ما تزعم المعتزلة ، فتلك الأجزاء المفروضة ، إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان ، أو بنية السبع ، أو منهما معا ، فإنْ كان الأول وجب ألّا يحشر السبع ، وإن كان الثانى وجبَ ألّا يحشر الإنسان ، والثالث محال عقلا ، لأنّ الجزء الواحد لا يكون فى موضعين .

قلت : إن فى بدن كلِّ إنسان وكلِّ حيوان أجزاء أصلية وأجزاء زائدة ، فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصير أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها ، والأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها ، بل يحرسها الله تعالى من الاستحالة والتغيير ، وإذا كان كذلك ، أمكن الحشر بأن تعادَ الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول ، ولا فساد فى استحالة الأجزاء الزائدة ، لأنه لا يجب حشرُها ، لأنّها ليست أصل بنْية المكلّف ، فاندفع الإشكال . وأما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملّة ، فلا يلزمه الجواب عن السؤال ، لأنه يقول : إنّ الأنفس إذا أزف يوم القيامة ، خلقت لها أبدان غير الأبدان الأولى ، لأن المكلف المطيع والعاصى المستحق للثواب والعقاب عندهم ، هو النفس ، وأما البدن فآلة لها تستعمله استعمال الكاتب للقلم ، والنجار للفأس .

***

الأصْلُ

عِبادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً ، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً ، وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً ، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً ؛ وَكَائِنُونَ رُفَاتاً ، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً ، وَمَدِينُونَ جَزَاءً ، وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً . قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ ، وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتَبِ ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ ، وَخُلُّوا لِمِضْمارِ الْجِيَادِ ، وَرَوِيَّةِ الارْتِيَادِ ، وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ ، فِي مُدَّةِ الأَجَلِ ، وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ .

***

الشرح :

مربوبون : مملوكون . والاقتسار : الغَلَبة والقهر .

والاحتضار : حضور الملائكة عند الميت؛ وهو حينئذ محتضَر، وكانت العرب تقول: لبن محتضَر : أى فاسد ذو آفة؛ يعنون أنّ الجنّ حضرته ؛ يقال: الابن محتضَر فغطِّ إناءك.

والأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر ؛ واجتدث الرجل ؛ اتخذ جَدَثاً ، ويقال : « جَدَف » بالفاء .

والرُّفات : الحُطام ؛ تقول منه رَفَتَ الشىء فهو مرفوت .

ومدينون ، أى مجزيّون . والدِّين : الجزاء ؛ ومنه ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (١) .

ومميَّزون حسابا ، من قوله تعالى: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢)، ومن قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ (٣)؛ كأنّ قوله: « ومبعوثون أفرادا »، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ (٤) وأصل التمييز على الفصل والتبيين .

قوله : « قد أمهلوا فى طلب المخرج » ، أى أنظِروا لِيفيئوا إلى الطاعة ويخلصوا التوبة، لأنّ إخلاصَ التوبة هو المخرج الذى مَنْ سلكه خرج من رِبْقة المعصية. ومثله قوله: « وهُدُوا سبيل المَنهج » ، والمنهج : الطريق الواضح .

والمستعتَب : المسترضَى ؛ استعتبت زيدا إذا استرضيته عنّى ؛ فأنا مستعتِب له ، وهو مستعتَب . وأعتبنى ، أى أرضانى، وإنما ضرب المثل بمهل المستعتَب، لأنّ مَنْ يُطلب رضاه فى مجرى العادة لا يُرهَق بالتماس الرضا منه ؛ وإنما يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه .

والسُّدَف : جمع سُدْفة ؛ هى القطعة من الليل المظلم، هذا فى لغة أهل نجد ؛ وأما غيرهم

(١) سورة الفاتحة ٣
(٢) سورة يس ٥٩
(٣) سورة الواقعة ٧
(٤) سورة الأنعام ٩٤

فيجمل السدْفة الضوء ، وهذا اللفظ من الأضداد، وكذلك السَّدَف، بفتح السين والدال. وقد قيل : السُّدفة: اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار، والسَّدَف: الصبح وإقباله ، وأسدف الليل ، أظلم ؛ وأسدف الصبح أضاء ، يقال: أسدِف الباب ، أى افتحه حتى يضيء البيت؛ وفى لغة هوازن «أسدفوا» ؛ أى أسرجوا، من السراج. والرِّيَب : الشبهة ، جمع رِيبة .

والمضمار : الموضع الذى تضمَّر فيه الخيل ، والمِضْمار أيضا المدة التى تضمَّر فيها . والتضمير :أن تعلفَ الفرس حتى يسمَن؛ ثم تردّه إلى قوته الأولى؛ وذلك فى أربعين يوما، وقد يطلَق التَّضْمير على نقيض ذلك ؛ وهو التجويع حتى يهزل ويخفّ لحمُه. ضَمَر الفرسُ بالفتح، يضمُر بالضم، ضمورا، وجاء «ضَمُر الفرس» بالضم، وأضمرته أنا، وضمَّرته فاضطمر هو، ولؤلؤ مضطمر : فى وسطه بعض الانضمام. رجل لطيف الجسم ، ضمِير البطن، وناقة ضامر وضامرة أيضاً . يقول : مكَّنهم الحكيم سبحانه وخلاَّهم وأعمالهم ، كما تمكَّن الخيل التى تستبق فى المِضْمار ليعلم أيُّها أسبق .

والرويّة : الفكْرة، والارتياد: الطلب، ارتاد فلان الكلأ يرتاده ارتيادا : طلبه، ومثله راد الكلأ يروده رَوْداً ورِياداً ؛ وفى الحديث: « إذا بال أحدُكم فليرتدْ لبوله »، أى فليطلب مكانا ليِّنا أو منحدرا ، والرائد: الذى يرسله القوم فى طلب الكلأ ؛ وفى المثل : « الرائد لا يكذب أهله » . والأناة : التؤدة والانتظار ، مثل القناة .

وتأنّى فى الأمر: ترفّق، واستأنى فلان بفلان، أى انتظر به، وجاء الأناء ، بالفتح والمدّ، على « فَعَال » قال الحطيئة :

وآنَيْتُ العَشاءَ إلى سُهَيْلٍ أو الشِّعْرى فطال بىَ الأناء (١)

والمقتبِس : متعلِّم العلم هاهنا، ولا بدّ له من أناة ومَهَل ليبلغَ حاجته، فضرب مثلا، وجاء

---

(١) ديوانه ٢٥

فى بعض الروايات: « ومقبوضون اختضارا » بالخاء المعجمة؛ وهو موت الشاب غضًّا أخضر، أى مات شابا، وكان فتيان يقولون لشيخ: أجززت يا أبا فلان، فيقول: أى بنىّ، وتختضرون! أجزّ الحشيش: آن أن يجزّ، ومنه قيل للشيخ كاد يموت: قد أجزّ، والرواية الأولى أحسن، لأنها أعمّ.

وفى رواية « لمضمار الخيار »، أى للمضمار الذى يستبق فيه الأبرار الأتقياء إلى رضوان الله سبحانه.

* * *

الأصْـلُ :

فَيَالَهَا أَمْثَالًا صَائِبَةً ، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً ، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوبًا زَاكِيَةً ، وَأَسْمَاعًا وَاعِيَةً ، وَآرَاءً عَازِمَةً ، وَأَلْبَابًا حَازِمَةً !

فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ ، وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ ، وَرَاجَعَ فَتَابَ ، وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى ، وَأُرِيَ فَرَأَى ، فَأَسْرَعَ طَالِبًا ، وَنَجَا هَارِبًا ؛ فَأَفَادَ ذَخِيرَةً ، وَأَطَابَ سَرِيرَةً ، وَعَمَّرَ مَعَادًا ، وَاسْتَظْهَرَ زَادًا ، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ ، وَوَجْهِ سَبِيلِهِ ، وَحَالِ حَاجَتِهِ ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ .

* * *

الشّـرْحُ :

صائبة : غير عادلة عن الصواب ، صاب السهم يصوب صَوْبَةً ، أى قصد ولم يجُز ،

وصاب السهمُ القرطاسَ يَصِيبه صَيْبًا لغة فى « أصابه » ، وفى المثل : مع الخواطئ سهم صائب .

وشافية : تبرِئ من مرض الجهل والهوى . والقلوب الزاكية : الطاهرة ، والأسماع الواعية : الحافظة . والآراء العازمة : ذات العزم . والألباب : العقول ، والحازمة : ذات الحَزْم ، والحزم : ضبط الرجُلِ أمرَه .

وخشع الرجل ، أى خضع . واقترف : اكتسب ، ومثله قرَف يقرِف بالكسر ، يقال : هو يقرِفُ لعياله ، أى يكسب .

ووجِل الرجل خاف ، وَجَلاً ، بفتح الجيم ، ومستقبله يَوْجَل وياجَل وييجَ وييجَل ، بكسر الياء المضارعة .

وبادر : سارع . وعُبِّر : أى أرِىَ العِبَر مرارا كثيرة ، لأنّ التشديد هاهنا دليل التكثير . فاعتبر ، أى فاتّعظ . والزَّجْر : النهى والمنع ، زُجِر أى منع ، وازدجر مطاوع ازدجر ؛ اللفظ فيهما واحد ؛ تقول : ازدجرت زيدا عن كذا فازدجر هو ، وهذا غريب ؛ وإنما جاء مطاوع ازدجر فى « زجر » لأنّهما كالشئ الواحد ؛ وفى بعض الروايات « ازدُجر فازدجر » ، فلا يحتاج مع هذه الرواية إلى تأويل .

وأناب الرجل إلى الله ، أى أقبل وتاب . واقتدى بزيد ؛ فعل مثله فعله ، واحتذى مثله .

قوله عليه السلام : « فأفاد ذخِيرة » ، أى فاستفاد ؛ وهو من الأضداد ، أفدت المال زيدا أعطيته إياه ؛ وأفدت أنا مالا ؛ أى استفدته واكتسبته .

قوله عليه السلام : « فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له » . نصب « جهة » بفعل مقدر ، تقديره : « واقصدوا جهة ما خلقكم له » يعنى العبادة ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . فحذف الفعل ، واستغنى عنه بقوله : « فاتقوا الله » لأنّ التقوى

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

ملازمة لقصد المكلّف العبادة ، فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره .

والكُنْهُ : الغاية والنهاية ؛ تقول : أعرفه كُنْهَ المعرفة ؛ أى نهايتها .

ثم قال عليه السلام : « واستحقّوا منه ما أعدّ لكم » ، أى اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذى أعدّه لكم إن أطعتم .

والباء فى « بالتنجّز » متعلق بـ « استحقوا » ويقال : فلان يتنجّز الحاجة ، أى يستنجحها ويطلب تعجّلها ، والناجز : العاجل ؛ يقال : « ناجزاً بناجز » ؛ كقولك : « يداً بيد » أى تعجيلا بتعجيل ؛ والتنجّز من المكلّفين بصدق ميعاد القديم سبحانه ؛ وهو مواظبتهم على فعل الواجب ، وتجنّب القبيح . و « والحذر » مجرور بالعطف على « التنجّز » ؛ لا على « الصدق » ؛ لأنه لا معنى له .

***

الأصْلُ :

ومنها :

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَاعَنَاهَا ، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلَاءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا ، مُلَائِمَةً لِأَحْنَائِهَا ، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا ؛ وَمُدَدِ عُمُرِهَا ، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا ، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فِى مُجَلِّلَاتِ نِعَمِهِ ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ .

وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِهِمْ ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ . أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الْآمَالِ ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الْآجَالِ ، لَمْ يَمْهَدُوا فِى سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِى أُنُفِ الْأَوَانِ .

***

الشرح :

قوله : « لتعى ما عناها » ، أى لتحفظ وتفهم ما أهمّها ؛ ومنه الأثر المرفوع : « مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

ولتجلو ، أى لتكشف .

وعن ها هنا زائدة ؛ ويجوز أن تكون بمعنى « بَعْد » كما قال :

* لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيَالِ[1] *

أى بعد حِيال ، فيكون قد حذف المفعول ، وحذفه جائز ، لأنه فضلة ؛ ويكون التقدير : لتجلوَ الأذى بعد عشاها ، والعشا ، مقصور : مصدر عَشِيَ ، بكسر الشين ، يَعْشَى ؛ فهو عَشٍ ، إذا أبصر نهارا ولم يبصر ليلا .

والأشلاء : جمع شِلْو ، وهو العضو .

فإن قلت : فأىّ معنى فى قوله : أعضاء تجمع أعضاءها ؟ وكيف يجمع الشىء نفسه ؟ قلت : أراد عليه السلام بالأشلاء هاهنا الأعضاء الظاهرة ، وبالأعضاء الجوارح الباطنة ؛ ولا ريب أنّ الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة وتضمها . والملائمة : الموافقة . والأحناء : الجوانب والجهات . ووجه الموافقة والملاءمة أنّ كون اليد فى الجانب أوْلَى من كونها فى الرأس أو فى أسفل القدم ؛ لأنّها إذا كانت فى الجانب كان البطش وتناول ما يراد ودَفْع ما يؤذى أسهل ؛ وكذلك القول فى جعل العين فى الموضع الذى جعلت به ، لأنّها كدَيْدَبَان السفينة البحرية ، ولو جعلت فى أمّ الرأس لم ينتفع بها هذا الحدّ من الانتفاع الآن ؛ وإذا تأمّلت سائر أدواتِ الجسد وأعضائه وجدتّها كذلك .

---

(١) للحارث بن عباد ؛ وأوله :

* قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّى *

ثم قال: «فى تركيب صورها»، كأنه قال: مركبة أو مصورة، فأتى بلفظة «فى» كما تقول: ركب بسلاحه وفى سلاحه، أى متسلحا.

وقوله: «بأرفاقها»، أى بمنافعها جمع رِفق، بكسر الراء، مثل حِمل وأحمال، وأرفقت فلانا، أى نفعته. والمِرفق من الأمر: ما ارتفقت به وانتفعت، ويروى: «بأرماقها»، والرّمَق: بقية الروح.

ورائدة: طالبة. ومجلّلات النعم، تجلّل الناسَ، أى تعمّهم؛ من قولهم: «سحاب مجلّل» أى يطبّق الأرض، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: أنا فى سابغ ظلّك وعميم فضلك، كأنه قال: فى نعمه المجلّلة؛ وكذلك القول فى موجبات مِننه، أى فى مننه التى توجب الشُّكر.

وفى ها هنا متعلقة بمحذوف، والموضع نصب على الحال.

ثم قال: «وحواجز عافيته»، الحواجز: الموانع، أى فى عافية تحجز وتمنع عنكم المضارّ. ويروى «وحواجز بَلِيّته»، وقد فسر قوله: «حواجز عافيته»؛ على أن يراد به ما يحجز العافية ويمنعها عن الزوال والعدم.

قوله عليه السلام: «من مستمتَع خَلاقهم»، الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾[2]، وتقدير الكلام: خلّف لكم عِبَراً من القرون السالفة، منها تمتّعهم بنصيبهم من الدنيا ثمّ فناؤهم، ومنها فسحة خناقهم[3] وطول إمهالهم، ثم كانت عاقبتهم الملكة.

وأرهقتهم المنايا: أدركتهم مسرعة.

---

(١) سورة البقرة ٢٠٠ (٢) سورة التوبة ٦٩

(٣) الخناق، بالفتح: حبل يختنق به.

والمرهَق : الذى أدرك ليقتل . وشذّبهم عنها : قطعهم وفرقهم؛ من تشذيب الشجرة؛ وهو تقشيرها .

وتخرّمت زيدا المنية : استأصلته واقتطعته .

ثم قال : « لم يمهدوا فى سلامة الأبدان »، أى لم يمهدوا لأنفسهم ؛ من تمهيد الأمور وهو تسويتها وإصلاحها .

وأنف الأوان: أوله، يقال: روضة أنُفٌ لم ترْعَ قبل، وكأس أنُف : لم يُشْرَب بها قَبْلُ .

***

الأصْـلُ :

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ ، وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ ، وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَنَاءِ ، مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ ، وَأُزُوفِ الِانْتِقَالِ ، وَعَلَزِ الْقَلَقِ ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ، وَتَلَفُّتِ الِاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالْأَقْرِبَاءِ ، وَالْأَعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ ، فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقَارِبُ ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِيناً ، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً ، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ ، وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ ، وَمَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا ، وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا ، وَالْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا ، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لَا تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّءِ زَلَلِهَا .

***

الشرح :

البَضَاضة : مصدر، من بَضَضت يارجُل ، بضِضت ، بالفتح والكسر بضاضةً وبضُوضة ، ورجل بَضّ ، أى ممتلئ البدن رقيق الجلد ، وامرأة بَضّة .

وحوانى الهرم : جمع حانية ؛ وهى العلّة التى تَحْنِى شِطَاط [1] الجسد ، وتميله عن الاستقامة .

والهرَم : الكبَر . والغضارة : طيب العيش ، ومنه المثل : أباد الله غضراءهم ، أى خيرهم وخِصْبهم .

وآونة الفناء جمع أوَان ؛ وهو الحِين ، كزمان وأزمنة ، وفلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك : تارات ، أى يصنعه مراراً ويدَعه مراراً .

والزِّيال : مصدر زايله مزايلة وزيالاً ، أى فارقه .

والأزوف : مصدر أزِف ، أى دنا .

والعَلَز : قلق وخِفّة وهلع يصيب الإنسان ، وقد عَلِز بالكسر ، وبات عَلِزاً ، أى وجعا قلقا . والمضض : الوجع ، أمضَّنِي الجرح ومَضَّنى ؛ لغتان ، وقد مَضِضْت يا رجل ، بالكسر .

والغُصَص : جمع غُصّة ، وهى الشجا ، والغَصَص بالفتح : مصدر قولك غَصِصت يا رجل تَغَصّ بالطعام ، فأنت غاصٌ وغصّان ، وأغصصتُه أنا .

والجريض : الرِّيق يغصّ به ؛ جَرَض بريقه بالفتح ، يَجْرِض بالكسر ، مثل كَسَر يكسِر ؛ وهو أن يبلع ريقه على همّ وحزن بالجهد . والجريض : الغُصّة ، وفى المثل : « حال

---

(١) الشطاط ، بالفتح والكسر : الطول واعتدال القوام .

الجريض دون القريض » ؛ وفلان يجرَض بنفسه إذا كان يموت ، وأجرضه الله بريقه أغصّه .

والحَفَدَة : الأعوان والخدم ، وقيل : ولد الولد ، واحدهم حافد ؛ والباء فى « بنُصرة الحَفدة » متعلّق بالاستعانة ؛ يقول : إن الميّت عند نزول الأمر به يتلفّت مستغيثاً بنصرة أهله وولده ، أى يستنصِر يستصرخ بهم .

والنّواحب : جمع ناحبة ، وهى الرافعة صوتها بالبكاء ، ويروى : « النوادب » .

والهوامّ : جمع هامّة ؛ وهى مايخاف ضرره من الأحناش ؛ كالعقارب والعناكب ونحوها والنواهك : جمع ناهكة وهى ما ينهَك البدن ، أى يبليه .

وعفَتْ : دَرَست ، ويروى بالتشديد . وشَحِبة : هالكة ، والشَّحَب : الهلاك ، شحِب الرجل بالكسر ، يَشْحَب ، وجاء شَحَب ، بالفتح يشحُبُ بالضم ؛ أى هلك ؛ وشَحَبه الله يشحُبه ، يتعدّى ولا يتعدى .

ونَخِرَة : بالية . والأعباء : الأثقال ، واحدها عِبْء .

وقال : « موقنة بغيب أنبائها » ، لأنّ الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنة أو نار .

ثم قال : إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة فى العمل الصالح ، ولا يطلب منها التوبة من العمل القبيح ؛ لأن التكليف قد بطل .

***

الأصْلُ :

أَوَ لَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءِ ، وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرِبَاءِ ، تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ ؛ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا،

سالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا ، كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا ، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا .

* * *

الشرح :

القِدّة ، بالدال المهملة وبكسر القاف : الطريقة ، ويقال لكل فِرْقة من الناس إذا كانت ذات هَوًى على حدة : قِدّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾(١) ، ومن رواه : « ويركبون قُذّتهم » بالذال المعجمة وضم القاف أراد الواحدة من قُذذ السهم ؛ وهى ريشه، يقال : حذوَ القُذّة بالقُذّة، ويكون معنى : « وتركبون قُذّتهم »؛ تقتفون آثارهم وتُشابهون بهم فى أفعالهم .

ثم قال : وتطئون جادّتهم ؛ وهذه لفظة فصيحة جداً .

ثم ذكر قساوة القلوب وضلالها عن رشدها ، وقال : « كأنّ المعنىّ سواها » ؛ هذا مثل قول النبىّ صلى الله عليه وآله : « كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب ، وكأنّ الحقّ فيها على غيرنا وجب » .

* * *

الأصل :

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ ؛ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ ، وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ ،

---

(١) سورة الجن ١١ .

وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ؛ ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى ، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ .

قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً ، وَقَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَرُبَّمَا نَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ .

فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً ، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً ! وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً ! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً !

***

الشرح :

وقال أصحابنا رحمهم الله تعالى : الصراط الوارد ذكره في الكتاب العزيز؛ هو الطريق لأهل الجنة إلى الجنة ، ولأهل النار إلى النار بعد المحاسبة ، قالوا : لأنّ أهلَ الجنة ممرّهم على باب النار ، فمن كان من أهل النار عُدِل به إليها ، وقذف فيها ، ومَنْ كان من أهل الجنة مَرّ بالنار مرورا نجا منها إلى الجنة ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾(1)؛ لأنّ ورودها هو القرب منها ، والدنوّ إليها ، وقد دلّ القرآن على سُور مضروب بين مكان النار وبين الموضع الذي يجتازون منه إلى الجنة في قوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾(2).

---

(1) سورة مريم ١٩ (2) سورة الحديد ١٣

قالوا: ولا يصحّ ماروى فى بعض الأخبار أن الصراط أدقّ من الشّعر وأحدّ من السيف، وأنّ المؤمن يقطعه كرور البرق الخاطف ، والكافر يمشي عليه حَبْواً ، وأنّه ينتفض بالذين عليه حتى تتزايل مفاصلُهم . قالوا :لأنّ مثل ذلك لايكون طريقاً للماشي ،ولا يتمكّنُ من المشى عليه ؛ ولو أمكن لم يصحّ التكليف فى الآخرة ، ليؤمر العُقلاء بالمرور عليه على وجه التعبّد .

ثم سأل أصحابنا أنفسهم ، فقالوا : أىّ فائدة فى عمل هذا السّور ؟ وأىّ فائدة فى كون الطريق الذى هو الصراط منتهياً إلى باب النار منفرجاً منها إلى الجنة ؟ ألستمْ تعللون أفعال البارئْ تعالى بالمصالح ، والآخرة ليست دارَ تكليف ليفعل فيها هذه الأفعال للمصالح !

وأجابوا بأنّ شعورَ المكلّفين فى الدنيا بهذه الأشياء مصالحلهم ، وألطاف فى الواجبات العقليّة ، فإذا أعْلِم المكلفون بها وجب إيقاعُها على حسب ماوعِدوا وأخبِروا به ، لأنّ الله صادق لاخُلْف فى أخباره .

وعندى أنه لايمتنع أن يكونَ الصراط على ماوردت به الأخبار ، ولا مانع من ذلك قولهم : لايكون طريقاً للماشي ، ولا يتمكن من المشى عليه مسلم ، ولكنْ لم لايجوزُ أن يكونَ فى جعله على هذا الوجه والإخبار عن كيفيته هذه مصلحة المكلّفين فى الدنيا ؟وليس عدم تمكُّن الإنسان من المشى عليه بمانع من إيقاعه على هذا الوجه ،لأنّ المراد من هذا وأمثاله هو التخويف والزجر .

وأما قولهم : الآخرة ليست دار تكليف، فلقائل أن يقول لهم : لم قلتمْ :إنّه تكليف؟ ولم لايجوز أن يكونَ المكلّفونَ مضطرين إلى سلوكه اضطراراً ؟ فالمؤمن يخلُق الله فيه الثبات والسكينة ، والحركة السريعة فينجُو ويسلم ، والكافر يخلق فيه ضدّ ذلك فيهوى ويعطب ولا مانع من ذلك .

يقال : مكان دَحْض ودَحَض ، بالتحريك ، أى زَلَق ، وأدحضتُه أنا أزلقتُه فدَحَض هو .

والأهاويل : الأمور المفزعة . وتارات أهواله ، كقوله : دفَعات أهواله ؛ وإنما جعل أهواله تاراتٍ ؛ لأنّ الأمور الهائلة إذا استمرّت لم تكن فى الإزعاج والترويع ، كانتكون إذا طرأت تارة ، وسكنت تارة .

وأنصب الخوف بدنه : أتعب ؛ والنَّصَب : التعب . والتهجّد هنا : صلاة الليل، وأصلُه : السهر ؛ وقد جاء التهجّد بمعنى النوم أيضا ؛ وهو من الأضداد .

الغِرار : قلّة النوم ؛ وأصله قلّة لبن الناقة ؛ ويقال : غارت الناقة تغار غِرارا قل لَبَنُها.

فإن قلت : كيف توصف قِلّةُ النوم بالسهر ؛ وإنما يوصف بالسَّهَر الإنسان نفسه ؟

قلت : هذا من مجازات كلامهم ؛ كقولهم ليل ساهر ، وليل نائم .

والهواجر : جمع هاجِرة ؛ وهى نصف النهار عند اشتداد الحرّ ، يقال : قد هَجّر النهار، وأتينا أهلنا مُهجِّرِينَ ، أى سائرين فى الهاجِرة .

وظَلَف : منع ، وظلِفت نفسُ فلان ، بالكسر عن كذا ؛ أى كفّتْ .

وأوْجَف : أسرع ، كأنّه جعل الذّكْر لشدّة تحريكه اللسان مُوجفا به ، كما توجِف الناقة براكبها ، والوجِيف : ضرْب من السَّيْر .

ثم قال : « وقدم الخوف لأمانه » ، اللام هاهنا لام التعليل ، أى قدّم خوفه ليأمن.

والخالج : الأمور المختلجة ، أى الجاذبة ، خَلَجه واختلجه ، أى جذَبه .

وأقصد المسالك : أقومها . وطريق قاصد ، أى مستقيم .

وفتله عن كذا ، أى ردّه وصرفه ، وهو قلب « لفت » .

ويروى : « قد عبَرَ مَعْبر العاجلة حميدا ، وقدم زاد الآجلة سعيدا » .

وأكش : أسرع، ومثله انكمش ورجل كِمش أى سريع ، وقد كَمُشَ بالضم كماشة فهو كَمِش وكيش ، وكمّشته تكميشا : أعجلته .

قوله : « ورغب فى طلب ، وذهب عن هرب »، أى ورغب فيما يطلب مثله، وفرّ مما يهرب من مثله ، فأقام المصدر مقام ذى المصدر .

ونظر قُدُما أمامه ، أى ونظر ما بين يديه مقـدما لم يَنثَنِ ولم يعرّج ، والدال مضمومة ها هنا .

قال الشاعر يذمّ امرأة :

تمضى إذا زُجِرَتْ عَنْ سوأةٍ قُدُماً كأنها هَدَمٌ فى الجفرِ منقاضُ[(١)]

ومن رواه بالتسكين ، جاز أن يعنى به هذا ويكون قد خفف ، كما قالوا : حُلْم وحُلُم . وجاز أن يجعله مصدرا ، من قَدَمَ الرجل بالفتح ، يقدَم قَدْما، أى تقدم ، قال الله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾[(٢)]، أى يتقدمهم إلى ورودها ؛ كأنه قال : «ونظرَ بين يديه متقدماً لغيره وسابقا إياه إلى ذلك » . والبـاء فى « بالجنـة » و « بالنـار » و « بالله » و « بالكتاب » زائدة ، والتقدير : كفى الله ، وكفى الكتاب !

***

(١) الهدم بالتحريك : ما تهـدم من نواحي البئر فسقط فى جوفها . والجفر : البئر الواسعة لم تطو . والبيت أنشده ابن السيراف عن ابن دريد مع أبيات هى :

قد رابنى مِنكِ يا أسماء إعراضُ فدام منّا لكم مقتٌ وإبغـاضُ
إن تبغضينى فـــا أحببتُ غانيةً يروضُها من لِئامِ النّاسِ روّاضُ
تمضى إذا زُجِرَتْ عن سوأة قُدُماً كأنها هَدَمٌ فى الجفرِ منقاضُ
قُلْ للغوانى أما فيكُنّ فاتكةٌ تعلو اللئيمَ بضربٍ فيـه إمحاضُ

وانظر اللسان ١٠ : ٢٧٠ .

(٢) سورة هود ٩٨ .

الأصل :

أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر ، واحتجَّ بما نهج ، وحذَّركم عدوًّا نفذ في الصدور خفيًّا ، ونفث في الآذان نجيًّا ؛ فأضلَّ وأردى ، ووعد فمنَّى ، وزيَّن سيئات الجرائم ، وهوَّن موبقات العظائم ، حتى إذا استدرج قرينته ، واستغلق رهينته ؛ أنكر مازيَّن ، واستعظم ما هوَّن ، وحذَّر ما أمَّن .

* * *

الشرح

« أعذر بما أنذر » ، ما هاهنا مصدرية ، أي أعذر بإنذاره . ويجوز أن تكون بمعنى « الذي » .

والعدوّ المذكور : الشيطان .

وقوله : « نفذ في الصدور » و « نفث في الآذان » كلام صحيح بديع . وفي قوله : « نفذ في الصدور » ، مناسبة لقوله صلى الله عليه وآله : « الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم » ، والنجيّ : الذي يسارُّه ، والجمع الأنجية ، قال .

* إنِّي إذا ما القومُ كانُوا أنجِيَهْ (١) *

وقد يكون النجيّ جماعة مثل الصديق ، قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (٢) ، أي متناجين .

القرينة هاهنا : الإنسان الذي قارنه الشيطان ، ولفظه لفظ التأنيث ؛ وهو مذكّر ، أراد القرين ، قال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (٣) ، ويجوز أن يكون أراد بالقرينة النفس ، ويكون

---

(١) بعده :

واضطربَ القومُ اضطرابَ الأرشيَهْ هُناكَ أوصيني ولا تُوصِي بِيَهْ

والرجز لسحيم بن وثيل اليربوعي . اللسان ٢٠ : ١٧٩

(٢) سورة يوسف ٨٠ (٣) سورة الزخرف ٣٨ .

الضمير عائداً إلى غير مذكور لفظا لما دلّ المعنى عليه ؛ لأن قوله : « فأضل وأردى ، ووعد فمنّى » معناه أضلّ الإنسان وأردى ، ووعده فمنّى ، فالمفعول محذوف لفظا ؛ وإليه رجع الضمير على هذا الوجه ؛ ويقال : غَلِق الرّهن إذا لم يفتكّه الراهن في الوقت المشروط ، فاستحقه المرتهن .

وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . . ﴾ الآية[1] .

* * *

الأصلُ

ومنها في صفة خلق الإنسان :

أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ ؛ نُطْفَةً دِهَاقاً ، وَعَلَقَةً مِحَاقاً ، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً وَيَافِعاً ؛ ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِسَاناً لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً ؛ حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ ؛ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً ، وَخَبَطَ سَادِراً ؛ مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ ؛ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ؛ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً ، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً ؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً ، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً ، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً .

دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ ، فَظَلَّ سَادِراً ، وَبَاتَ سَاهِراً ، فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ ؛ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ ،

---

(١) سورة إبراهيم ٢٢

وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً ، وَلَا دِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً ؛ وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ .

ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً ، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ؛ ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ ، رَجِيعَ وَصَبٍ ، وَنِضْوَ سَقَمٍ ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ ، وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ ؛ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ ؛ وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ ؛ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ ، وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ .

وَأَعْظَمُ مَاهُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ الْحَمِيمِ ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ ؛ لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ ، وَلَا سِنَةٌ مُسْلِيَةٌ ؛ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ ؛ إِنَّا بِاللهِ عَائِذُونَ !

* * *

الشَّرْحُ :

أم هنا إما استفهامية على حقيقتها ؛ كأنه قال : أعظكم وأذكركم بحال الشيطان وإغوائه ، أم بحال الإنسان منذ ابتدأ وجوده إلى حين مماته ، وإما أنْ تكون منقطعة بمعنى « بل » كأنه قال : عادلا وتاركا لما وعظهم به ؛ بل أتلو عليكم نبأ هذا الإنسان الذي حاله كذا .

الشُّغُف بالغين المعجمة : جمع شَغاف ، بفتح الشين ، وأصله غلاف القلب ، يقال : شغفه الحبّ ، أي بلغ شغافه ، وقرئ : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[1] .

والدّهاق : المملوءة ، ويروى « دفاقا » من دَفَقت الماء أي صببته .

قال : « وعلقة محاقا » ، المحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر ، وسميت محاقا لأنّ القمر يمتحق فيهنّ ، أي يخفى وتبطل صورته ، وإنما جعل العلقة محاقا ها هنا ، لأنها لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد ؛ فكانت ممحوّة ممحوقة .

(١) سورة يوسف ٣٠

واليافع : الغلام المرتفع ، أيفَع وهو يافع ؛ وهذا من النوادر . وغلام يَفَع ويَفَعة وغلمان أيفاع ويَفَعة أيضا .

قوله : «وخَبَط سادرا » ؛ خَبَط البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض، ومشى لا يتوقى شيئا. والسادر : المتحيّر ، والسادر أيضا : الذى لا يهتمّ ولا يبالى ما صنع ، والموضع يحتمل كلا التفسيرين .

والماتح : الذى يستقى الماء من البئر وهو على رأسها . والمائح : الذى نزل البئر إذا قلّ ماؤها ، فيملأ الدلاء . وسُئِل بعض أئمة اللغة عن الفرق بين الماتح والمائح ، فقال : اعتبرْ نقطَتى الإعجام ، فالأعلى للأعلى ، والأدنى للأدنى .

والغَرْب : الدلو العظيمة . والكَدْح : شدّة السعى والحركة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ (١) .

قوله : « وبَدَوات » ، أى ما يخطر له من آرائه التى تختلف فيها دواعيه ، فتقدم وتحجم، ومات غريرا ، أى شابا ، ويمكن أن يُراد به أنه غيرُ مجرّب للأمور .

والهفوة : الزّلة ، هفا يهفو . لم يُفِدْ عوضا ، أى لم يكتسب .

وغُبَّر جاحة : بقاياه ، قال أبو كبير الهذلىّ :

وَمُبَرَّإٍ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ (٢)

والجماح الشِّرّة وارتكاب الهوى . وسَنَن مِرَاحه ، السَّنَن : الطريقة ، والمِرَاح : شدّة الفرح والنشاط .

قوله : « فظلّ سادراً » ، السادر هاهنا غير السادر الأول ، لأنه هاهنا المغمى عليه كأنه

---

(١) سورة الانشقاق ٦

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٨٤ والمغيل ، من الغيل ؛ وهو أن تغشى المرأة وهى ترضع ؛ فذلك اللبن الغيل .

سكران ؛ وأصله من سدر البعير من شدة الحرّ وكثرة الطّلاء بالقَطِران ، فيكون كالنائم لايحسّ ، ومراده عليه السلام هاهنا أنّه بَدَأ بِهِ المرض . ولادِمة للصدر : ضاربة له ، والتِدام النساء : ضربهنّ الصدور عندالنياحة . سكرة مُلهِثة : تجعل الإنسان لاهثاً لشدّتها لهث يَلهثُ لهثاناً ولهاثا ، ويروى « ملهية » بالياء ، أي تُلهى الإنسان وتشغله .

والـكارثة « فاعلة » من كرثه الغم يكرُثه بالضمّ ، أى اشتدّ عليه وبلغ منـــه غاية المشقة .

الجذبة : جذب الملك الرّوح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر لِيُسَجّى . والسَّوْقة : من سياق الرُّوح عند الموت . والمُبلِس : الذى يَيئس من رحمة الله ، ومنه سُمّى إبليس . والإبلاس أيضا : الانـكسار والحزن . والسِّلِس : السَّهل المقادة . والأعواد خشب الجنازة ، ورَجيع وَصِب : الرَّجيع المعْى الـكالّ . والوصِب : الوجع ، وصِب الرجل يوْصَب ، فهو واصب ، وأوصبه الله فهو مُوصب . والموصّب بالتشديد : الـكثير الأوجاع . والنِّضو : المهزيل . وحشَدة الإخوان : جمع حاشد ؛ وهو المتأهّب المستعدّ . ودار غربته : قبره . وكذلك منقطَع زورته ، لأنّ الزيارة تنقطع عنده .

ومفرد وَحْشته نحو ذلك ، لانفراده بعمله ، واستيحاش الناس منه ؛ حتى إذا انصرف المشيِّع وهو الخارج مع جنازته ، أقعِد فى حفرته . هذا تصريحٌ بعذاب القبر ، وسنذكر مايصلح ذكره فى هذا الموضع .

والنجىّ : المناجى . ونُزول الحميم وتَصْلية الجحيم ، من الألفاظ الشريفة القرآنية(١) .

ثم نفى عليه السلام أن يكون فى العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة ، أو سكون يزيح عنه الألم أى يزيله ، أو أنّ الإنسان يجد فى نفسه قوة تحجز بينه وبين الألم ، أى تمنع ويموت موتاً ناجزاً معجّلا ، فيستريح ، أو ينام فيسلو وقتَ نومه عمّا أصابه من الألم فى اليقظة كما فى دار الدنيا .

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الواقعة : ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ .

ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، وهذا فى ظاهره متناقض ، لأنه نفى الموتَ مطلقاً، ثم قال : « بين أطوار الموتات » ، والجواب أنه أراد بالموتات الآلام العظيمة ؛ فسمّاها موتات ؛ لأنّ العرب تسمّى المشقة العظيمة موتا ، كما قال :

* إنّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْيَاءِ(١) *

ويقولون : الفقر الموت الأحمر ، واستعمالهم مثل ذلك كثير جدا .

ثم قال : « إنّا بالله عائذون » ؛ عُذْت بفلان واستعذت به ؛ أى التجأت إليه .

* * *

[فصل فى ذكر القبر وسؤال منكَر ونَكِير]

واعلم أنّ لقاضى القضاة فى كتاب " طبقات المعتزلة " فى باب « القبر وسؤال منكر ونكير » ؛ كلاما أنا أورد هاهنا بعضه ، قال رحمه الله تعالى :

إنّ عذابَ القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو ، ولما كان ضرارٌ من أصحاب واصل بن عطاء ، ظنّ كثيرٌ من الناس أنّ ذلك مما أنكرته المعتزلة ؛ وليس الأمر كذلك ؛ بل المعتزلة رجلان : أحدهما يجوّز عَذَاب القبر ، ولا يقطع به ؛ وهم الأقلون ، والآخر يقطع على ذلك ؛ وهم أكثر أصحابنا لظهور الأخبار الواردة فيه ؛ وإنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة إنهم يعذبون وهم موتى ، لأنّ العقل يمنَعُ من ذلك ؛ وإذا كان الإنسان مع قُرْب العهد بموته ؛ ولمّا يدفن يعلمون أنّه لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك ، ولا يألم ولا يلتذّ ، فكيف يجوز عليه ذلك وهو ميت فى قبره ! وما رُوِى من أنّ الموتى يسمعون لا يصحّ إلا أن يُرادبه أنّ الله تعالى أحياهم ، وقوّى حاسة سمعهم ، فسمعوا وهم أحياء .

---

(١) صدره :

* لَيْسَ مَنْ مَاتَ فاستراحَ بميْتٍ *

من أبيات قالها ابن الرعلاء الغسانى فى يوم عين أباغ . الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ : ٣٢٦

قال رحمه الله تعالى : وأنكر أيضاً مشايخنا أن يكونَ عذابُ القبر دائماً فى كلِّ حال، لأنَّ الأخبار إنما وردت بذلك فى الجملة، فالذى يقال به هو قدر ماتقتضيه الأخبار دون مازاد عليه مما لادليلَ عليه ، ولذلك لسنا نوقِّت فى التعذيب وقتا ، وإن كان الأقرب فى الأخبار أنَّها الأوقات المقارنة للدفن ، وإن كان لانعنيها بأعيانها .

هكذا قال قاضى القضاة ، والذى أعرفه أنا من مذهب كثير من شيُوخنا قبْل قاضى القضاة أنَّ الأغلبَ أن يكونَ عذاب القبر بين النَّفْختَيْن .

ثم إن قاضىَ القضاة سأل نفسه ، فقال : إذا كانت الآخرة هى وقت المجازاة ، فكيف يعذَّب فى القبر فى أيام الدنيا ؟

وأجاب بأن القليل من العقاب المستحَقّ قد يجوز أن يجعلَه الله فى الدنيا لبعض المصالح، كما فعل فى تعجيل إقامة الحدود على من يستحقّها، فلا يمتنع منه تعالى أنْ يفعل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار .

ثم سأل نفسه ، فقال : إذا كان بالموت قد زالَ عنه التكليف ، فكيف يقولون يكون ذلك من مصالحه !

وأجاب بأنَّا لم نقل : إنَّ ذلك من مصالحه وهو ميِّت ؛ وإنما نقول إنه مصلحة أنْ نعلم فى الدنيا ذلك من حال الموتى ؛ لأنه إذا تصوّر أنه مات عُوجل بضرب من العقاب فى القبر ، كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصى . وقد يجوز أن يكون ذلك لطفاً للملائكة الذين يتولّون هذا التعذيب .

* * *

فأمّا القول فى منكَر ونكير ، فإنه سأل نفسَه رحمه الله تعالى ، وقال : كيف يجوز أن يسمَّوْا بأسماء الذمّ ، وعندكم أن الملائكة أفضلُ من الأنبياء ؟

وأجاب ، فقال : إنّ التسمية إذا كانت لقباً لم يقع بها ذمّ ، لأنّ الذمّ إنما يقع لفائدة الاسم ، والألقاب كالإشارات لا فائدة تحتها ؛ ولذا يلقب الرجل المسلم بظالم وكلب ونحو ذلك ؛ فيجوز أن يكون هذان الاسمان من باب الألقاب ، ويجوز أنْ يسمّيا بذلك من حيث يهجُمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى عقله على وجه ينكره ويرتاع منه ، فسمّيا منكرا ونكيرا .

قال : وقد روى فى المساءلة فى القبر أخبار كثيرة وكلّ ذلك مما لا قبحَ فيه ، بل يجوز أن يكون من مصالح المكلّفين فلا يصحّ المنع عنه .

وجملة الأمر أنّ كلّ ماثبت من ذلك بالتواتر والإجماع، وليس بمستحيل فى القدرة، ولا قبيح فى الحكمة يجب القول به ، وما عداه مما وردت به آثار وأخبار آحاد يجب أن يجوّز ؛ ويقال : إنه مظنون ليس بمعلوم ، إذا لم يمنع منه الدليل .

* * *

الأصْـلُ :

عِبَادَ اللهِ ، أَيْنَ الذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا ، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا ، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا ، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا ! أُمْهِلُوا طَوِيلاً ، وَمُنِحُوا جَمِيلاً ، وَحُذِّرُوا أَلِيماً ، وَوُعِدُوا جَسِيماً .

احْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوَرِّطَةَ ، وَالْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ . أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ ! فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ، أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ !

وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، قِيدُ قَدِّهِ ؛ متعفراً عَلَى خَدِّهِ .

الْآنَ عِبَادَ اللهِ ، وَالْخِنَاقُ مُهْمَلٌ ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ ، فِي فَيْنَةِ الْإِرْشَادِ ، وَرَاحَةِ

الأَجْسادِ ، وَبَاحَةِ الاحْتِشادِ ، وَمَهَلِ البَقِيَّةِ ، وأُنُفِ المَشِيَّةِ ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ ، وَانْفِسَاحِ الحَوْبَةِ ، قَبْلَ الضَّنْكِ وَالمَضِيقِ ، وَالرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ ، وَقَبْلَ قُدُومِ الغَائِبِ المُنْتَظَرِ ، وَأَخْذَةِ العَزِيزِ المُقْتَدِرِ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

وفي الخبرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا خطب بِهذِهِ الخُطْبَةِ اقْشَعَرَّتْ لَهَا الجُلُودُ، وَبَكَتِ العُيُونُ ، وَرَجَفَتِ القُلُوبُ ؛ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّى هَذِهِ الخُطْبَةَ الغَرَّاء .

* * *

الشرح :

نَعِم الرجل يَنْعَم ضِدّ قولك : « بَئِس »، وجاء شاذا نَعِم يَنعِم بالكسر. وأنظروا: أمهلوا. والذنوب المورِّطة : التي تُلقِي أصحابَها في الورطة ؛ وهي المهلاك ؛ قال رؤبة (1) :

* فأصْبَحُوا في ورطة الأَوْرَاطِ (2) *

وأصله أرض مطمئنّة لاطريق فيها ، وقد أورطت زيدا وورّطته توريطا فتورّط. ثم قال عليه السلام: «أولى الأبصار والأسماع»، ناداهم نداء ثانيا بعد النداء الذى فى أول الفصل، وهو قوله : « عباد الله » ؛ فقال: يامَنْ منحهم الله أبصارا وأسماعا، وأعطاهم عافية، ومتّعهم متاعاً هل من مناص ؛ وهو الملجأ والمفرّ؛ يقالُ : ناصَ عن قِرْنه مناصاً ، أىْ فرّ وراوغ، قال سبحانه : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (3) .

---

(1) قبله :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بالملطاطِ *

(2) اللسان ١٠ : ٣٠٤

(3) سورة ص ٣

والمحار : المرجع ، من حارَ يحور أى رجع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ (١) .

ويؤفكون : يقلبون ، أفكه يأفكه عن كذا ، قلبه عنه إلى غيره ، ومثله « يُصْرَفون » .

وقِيد قدِّه : مقدار قدّه ، يقال : قرب منه قِيدَ رمح وقادَ رُمْح ، والمراد هاهنا هو القبر ، لأنه بمقدار قامة الإنسان .

والمُنْعفِرُ : الذى قد لامس العَفَر ، وهو التراب .

ثم قال عليه السلام : « الآن والخناق مُهْمَل » ؛ تقديره : اعملوا الآن وأنتم مخلَّوْنَ متمكِّنون لم يعقد الحبل فى أعناقكم ، ولم تقبض أرواحكم .

والرَّوح يُذكَّر ويؤنث . والفَيْنة : الوقت ، ويروى « وفَيْنة الارتياد » ؛ وهو الطَّلب .

وأُنفُ المشيّة : أول أوقات الإرادة والاختيار .

قوله : « وانفساح الحَوْبة » ، أى سعة وقت الحاجة ، والحَوْبَة : الحاجة والأَرَب ، قال الفرزدق :

فَهَبْ لِى خُنَيساً واتَّخِذْ فيه مِنَّةً ... لحَوْبَةِ أُمٍّ ما يَسُوغُ شَرَابُهَا (٢)

والغائب المنتظر ؛ هو الموت .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : حدّثنى ثُمامة ، قال : سمعتُ جعفر بن يحيى — وكان من أبلغ الناس وأفصحهم — يقول : الكتابة (٣) ضمّ اللفظة إلى أختها ، ألم تسمعوا قول شاعر لشاعر ؛ وقد تفاخرا : أنا أشعرُ منك لأنّى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابنَ عمّه ! ثم قال : وناهيك حسنا بقول علىّ بن أبى طالب عليه السلام : « هل من مناص أو خلاص ، أو معاذ أو ملاذ ، أو فرار أو محار ! » .

---

(١) سورة الانشقاق ١٤

(٢) ديوانه ١ : ٩٤ . الحوبة : الحاجة ، وخنيس : فتى كان بالجيش فى السند ، بجر — والتجمير : أن يترك فى البعث ولا يرد — وكانت أمه امرأة من الشام ؛ تشفعت بالفرزدق فى شأنه ، فكتب إلى العامل أبياتاً ، ومنها هذا البيت ؛ والخبر مذكور فى الديوان .

(٣) ب : « بضم » ، وما أثبته من ا .

قال أبو عثمان : وكانَ جعفر يُعجب أيضا بقول عليّ عليه السلام : أين من جدّ واجتهد، وجَمع واحتشد ، وبَنى فشيّد ، وفرش فمهّد [1] ، وزخرف فنجّد ، قال :ألا ترى أن كلّ لفظة منها آخذةٌ بعُنقِ قرينتها ، جاذبة إياها إلى نفسها ، دالّةٌ عليها بذاتها!

قال أبو عثمان : فكان جعفر يسمّيه فصيح قريش .

***

واعلم أننا لا يتخالجنا الشكّ في أنه عليه السلام أفصحُ من كلّ ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين ،إلّا من كلام الله سبحانه ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله؛وذلك لأنّ فضيلةَ الخطيب والكاتب في خطابته وكتابته تعتمِد على أمرين ؛ هما : مفردات الألفاظ ومركّباتها .

أما المفردات فأنْ تكون سهلةً سلِسةً غيرَ وحشيّة ولا معقّدة ، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك؛فأما المركّبات فحُسْنُ المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام ، واشتماله على الصفات التي باعتبارها فُضِّل بعضُ الكلام على بعض، وتلك الصفات هي الصناعة التي سمّاها المتأخرون البديع ، من المقابلة،والمطابقة ، وحسن التقسيم ،وردّ آخر الكلام على صَدْره ، والترصيع، والتسهيم ، والتوشيح ، والمماثلة ،والاستعارة ،ولطافة استعمال المجاز ،والموازنة ، والتكافؤ، والتّسميط والمشاكلة .

ولا شبهةَ أن هذه الصفات كلّها موجودة في خُطَبه وكتبه ، مبثوثة متفرقة في فرُش كلامه عليه السلام ، وليس يوجد هذان الأمران في كلامِ أحد غيرِه فإن كان قد تعمّلها وأفكّر فيها، وأعمَل رويتَه في رَصْفها [2] ونثرها ، فلقد أتى بالعجب العُجاب ، ووجبَ

---

(١) ب : « ومهد » .
(٢) ب : « في « صنعها » .

أن يكون إمام الناس كلّهم فى ذلك ؛ لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداء ، وفاضت على لسانه مرتجلة ، وجاش بها طبْعه بديهة ، من غير رويّة ولا اعمال ، فاعجب وأعجب !

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلّياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره . وبحقّ ماقال معاوية لمحقن الضبّى ، لمّا قال له : جئتك من عند أعيا الناس : يابن اللخناء ، ألعلىّ [1] تقول هذا ؟ وهل سنّ الفصاحة لقريش غيره !

واعلم أن تكلّف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب ، وصاحبه منسوب إلى السّفه ، وليس جاحد الأمور المعلومة علما ضروريا بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها .

(١) ب : « لعلى » .

(٨٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر عمرو بن العاص :

عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً ، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ ، أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً ، وَنَطَقَ آثِمًا . أَمَا ـ وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبَّتَهُ .

أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ . وَإِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً ، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً .

***

الشرح :

الدّعابة : المُزاح ، دَعَب الرجل ، بالفتح . ورجل تِلْعابة ، بكسر التاء : كثير اللعب ، والتَّلْعاب ، بالفتح : مصدر « لعب » .

والمعافسة : المعالجة والمصارعة ، ومنه الحديث : « عافَسْنا النساء »[١] . والممارسة نحوه .

يقول عليه السلام : إن عمراً يقدح فىَّ عند أهل الشام بالدُّعابة واللعب ، وأنى كثير

(١) النهاية لابن الأثير فى حديث حنظلة الأسدى وروايته : « فإذا رجعنا عافسنا الأزواج » ٣٠ : ١١٠

المازحة ، حتى أنى ألاعب النساء وأغازلهنّ ، فعلَ المترَف الفارغ القلب، الذى تنقضى(١) أوقاته بملاذّ نفسه .

ويُلحِف: يلحّ فى السؤال ؛ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾(٢)؛ومنه المثل: « ليس للملحِف مِثل الردّ » .

والإلّ : العهد ، ولمّا اختلف اللفظان حَسُن التقسيم بهما ، وإن كان المعنى واحداً.

ومعنى قوله : « ما لم تأخذ السيوف مآخذها » ؛ أى ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط الرءوس ، أى هو ملىء بالتحريض والإغراء قبل أن تلتحِم الحرب ، فإذا التحمت واشتدّت فلا يمكث ، وفعل فَعلته التى فعل .

والسَّبَّة : الاست ، وسبّه يَسُبُّهُ : طعنه فى السَّبَّة .

ويجوز رفع « أكبر » ونصبه ، فإن رفعتَ فهو الاسم ، وإن نصبتَ فهو الخبر .

والأتيّة: العطية، والإيتاء: الإعطاء . ورضَخ له رضخاً : أعطاه عطاء بالكثير، وهى الرَّضيخة ؛ لما يعطَى .

***

[نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره]

ونحن نذكر طرفا من نسب عمرو بن العاص وأخباره إلى حين وفاته إن شاء الله .

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤىّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر . يكنى أبا عبدالله ، ويقال : أبو محمد .

---

(١) ب : « تنقضى » .

(٢) سورة البقرة ٢٧٣ .

أبوه العاص بن وائل ، أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله ، والمكاشفين له بالعداوة والأذى ، وفيه وفى أصحابه أنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[1] .

ويلقب العاصُ بن وائل فى الإسلام بالأبتر ، لأنه قال لقريش : سيموتُ هذا الأبتر غداً ، فينقطع ذكرُه ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن له صلّى الله عليه وآله ولدٌ ذكر يُعقِبُ منه ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[2] .

وكان عمرو أحد مَنْ يؤذى رسولَ الله صلى الله وآله بمكّة ، ويشتِمه ويضع فى طريقه الحجارة ؛ لأنّه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة ، وكان عمرو يجعل له الحجارة فى مسلكه ليعثُرَ بها . وهو أحدُ القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرجت مهاجرة من مكّة إلى المدينة ، فروّعوها وقرّعوا هَوْدَجها بكعوب الرماح ، حتى أجهضت جنيناً ميّتاً من أبى العاص بن الربيع بعلها ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، نال منه وشقّ عليه مشقّة شديدة ولعنهم . روى ذلك الواقدىّ .

وروى الواقدىّ أيضاً وغيره من أهل الحديث ؛ أنّ عمرو بن العاص هجا رسولَ الله صلى الله عليه وآله هِجاء كثيرا ، كان يعلّمه صبيانَ مكة ، فيُنشدونه ويَصيحون برسول الله إذا مرّ بهم ، رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلّى بالحِجْر : « اللهمّ إنّ عمرو بن العاص هَجانى ، ولستُ بشاعر ؛ فالعنْه بعدد ما هجانى » .

وروى أهل الحديث أنّ النّضر بن الحارث وعُقْبة بن أبى مُعَيط وعمرو بن العاص ، عهدوا إلى سَلَى[3] جملٍ فرفعوه بينهم ووضعوه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فسال عليه ، فصبر ولم يرفعْ رأسه ، وبكى فى سجوده ودعا عليهم ،

---

(١) سورة الحجر ٩٥ . (٢) سورة الكوثر ٣ .

(٣) السلى : جلدة فيها الولد من الناس والمواشى .

فجاءت ابنتُه فاطمة عليها السلام وهى باكية ، فاحتضنت ذلك السَّلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكى ، فرفع رأسه صلى الله عليه وآله ؛ وقال : «اللهمّ عليك بقريش»، قالها ثلاثاً؛ثم قال رافعاً صوته : «إنّى مظلوم فانتصِر» ؛ قالها ثلاثا ، ثم قام فدخل منزله؛ وذلك بعد وفاة عمّه أبى طالب بشهرين .

ولشدّة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، أرسله أهلُ مكّة إلى النّجاشىّ ليزهِّدَه فى الدّين،وليطرد عن بلاده مهاجِرَة الحبشة،وليقتل جعفر بن أبى طالب عنده ، إن أمكنه قتلُه ، فكان منه فى أمر جعفر هناك ماهو مذكور مشهور فى السِّيَر، وسنذكر بعضه .

فأمّا النابغة فقد ذكر الزمخشرىّ فى "كتاب ربيع الأبرار" قال : كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمَةً لرجل من عَنَزة ، فسُبِيت ، فاشتراها عبد الله بن جُدْعان التيمىّ بمكة ، فكانت بَغِيًّا ، ثم أعتقها ، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب،وأمَيّة بن خلَف الُجمحىّ ، وهشام بن المغيرة المخزومىّ،وأبو سفيان بن حَرْب،والعاص بن وائل السّهمىّ، فى طُهْرٍ واحد ؛ فولدت عَمْراً،فادّعاه كلُّهم ، فحكّمَتْ أمّه فيه، فقالت:هو من العاص بن وائل،وذاك لأن العاص بن وائل كان يُنفق عليها كثيراً،قالوا : وكان أشبه بأبى سفيان؛ وفى ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فى عمرو بن العاص :

أبوكَ أبو سفيانَ لاشكَّ قد بَدَتْ   لنا فيك منه بيِّناتُ الشّمائلِ

***

وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب "الاستيعاب" [١] : كان اسمها سلمى ــ وتلقّبت بالنابغة ــ بنت حَرْملة [٢] من بنى جلّان بن عَنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ،

---

(١) الاستيعاب ص ٤٣٤ .
٢) الاستيعاب : «سبية بنى جلان» .

أصابها سِباء ، فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش ، فأولدها عمراً .

قال أبو عمر : يقال إنه جُعِل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمراً وهو على المنبر: مَنْ أمّه ؟ فسأله،فقال : أمّي سلمى بنت حرملة؛تُلَقَّب بالنابغة،من بنى عَنَزة ثم أحد بنى جِلاّن وأصابتها رماح[1] العرب فبيعت بعُكاظ،فاشتراها الفاكه بن المغيرة،ثم اشتراها منه عبدالله ابن جُدْعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل،فولدت فأنجبت، فإن كان جُعِل لك شيء فخذ

* * *

وقال المبرّد فى كتاب " الكامل "[2] : اسمُها ليلى . وذكر هذا الخبر وقال : إنّها لم تكن فى موضع مَرْضِيّ ،قال المبرّد:وقال المنذر بن الجارود مرة لعمرو بن العاص :أيّ رجل أنت لولا أن أمك أمّك ! فقال : إنى أحمد الله إليك ، لقد فكّرت البارحة[3] فيها فأقبلت أنقُلها فى قبائل العرب[4]ممن أحبّ أن تكون[4] منها ، فما خطرت لى عَبْدالقيس على بال !

وقال المبرّد : ودخل عمرو بن العاص مكة؛فرأى قوما من قريش قد جلسوا حَلْقة ، فلما رأوه رَمَقُوه بأبصارهم ، فعدل إليهم فقال : أحسِبكم كنتم فى شيء من ذكرى ؟قالوا: أجل ؛ كنا نمثّل بينك وبين أخيك هشام بن العاص، أيّكما أفضل ؟ فقال عمرو:إن لهشام علىّ أربعة :أمه بنت هشام بن المغيرة ، وأمّى مَن قد عرفتم ؛ وكان أحبّ إلى أبيه منى ، وقد علمتم معرفة الوالد بولده ، وأسلَمَ قَبْلِى ، واستشهد وبقيت .

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " الأنساب " أن عمْرا اختصم فيه يوم

---

(١) الاستيعاب « رماح » .

(٢) الكامل ٤ : ٧٩ .

(٣) الكامل : « فى هذا » .

(٤ - ٤) ليس فى نسخة الكامل المطبوعة .

ولادته رجلان : أبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل ؛ فقيل : لِتَحْكم أمّه ؛ فقالت أمّه : إنه من العاص بن وائل ؛ فقال أبو سفيان : أما إنى لا أشك أنى وضعته فى رَحِم أمه ، فأبت إلا العاص .

فقيل لها : أبو سفيان أشرف نسباً ؛ فقالت : إن العاص بن وائل كثير النفقة علىّ وأبو سفيان شَحِيح .

ففى ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو بن العاص حيث هجاه مكافئاً له عن هجاء رسول الله صلى الله عليه وآله :

أبوكَ أبو سفيان لاشكّ قد بَدَتْ … لنا فيك منه بيّنَاتُ الدلائلِ
فَفَاخِرْ به إمّا فَخَرْتَ ولا تكن … تفاخرُ بالعاص الهجين بن وائل
وإن التى فى ذاك ياعمرو حُكِّمَتْ … فقالت رجاء عند ذاك لنائل
مِنَ العاص عمرٌو تخبر الناس كلّما … تجمَّعَتِ الأقوامُ عندَ المحافلِ

[مفاخرة بين الحسن بن علىّ ورجالات من قريش]

وروى الزبير بن بكار فى كتاب "المفاخرات" ؛ قال : اجتمع عند معاوية عمرو ابن العاص ، والوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط ، وعُتْبة بن أبى سفيان بن حرب ، والمغيرة ابن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علىّ عليه السلام قوارصُ ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إن الحسن قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصُدِّق ، وأمر فأُطيع ، وخَفَقَتْ له النعال ، وإنّ ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا .

قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا : ابعث عليه فليحضُر لنَسُبّه ونَسُبّ أباه ، ونعيِّره ونوبخه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئا ، من ذلك .

قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ؛ قالوا : عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلنّ ؛ فقال : ويحكم لا تفعلوا ! فو الله ما رأيته قط جالسا عندي إلا خفت مقامه وعيبه لي ، قالوا : ابعث إليه على كلّ حال ؛ قال : إن بعثت إليه لأنصفنّه منكم .

فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يُرْبِي قولُه على قولنا !

قال معاوية : أما إني إن بعثت إليه لآمرنّه أن يتكلّم بلسانه كلّه ، قالوا : مُرْه بذلك .

قال : أما إذ عصيتموني ، وبعثتم إليه وأبيتم إلا ذلك فلا تُمرِضوا[1] له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيتٍ لا يعيبهم العائب ، ولا يُلْصَق بهم العار ؛ ولكن اقذفوه بحجَرِه ؛ تقولون له : إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء مِن قبله .

فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله ، فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك .

قال : مَنْ عنده ؟ فسماهم له ؛ فقال الحسن عليه السلام : ما لهم خرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم قال : يا جارية ، ابغيني[2] ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ بك في نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئتَ وأنى شئت ، بحَوْلٍ منك وقوة ، يا أرحم الراحمين !

ثم قام ، فلما دخل على معاوية ، أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد القوم ، وخطروا خَطَران الفحول ، بغْيًا في أنفسهم وعُلُوًّا ، ثم قال : يا أبا محمد ؛ إن هؤلاء بعثوا إليك وعَصَوْني .

فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدّار دارُك ، والإذنُ فيها إليك ، والله إن كنتَ أجبتَهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحيي لك من الفُحْش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف ؛ فأيهما تُقَرِّر ، وأيهما تنكر ؟ أما إني

---

(١) فلا تمرضوا له ؛ أي لا تجعلوا قولكم مريضاً .

(٢) ابغيني ثيابي ، أي أعينيني على إحضارها .

لو علمتُ بمكانهم جئتُ معي بمثلهم من بني عبد المطّلب ، وما لي أن أكون مستوحشا معك ولا منهم ! إن وليّيَ الله ، وهو يتولّى الصالحين .

فقال معاوية : يا هذا ، إني كرهتُ أن أدعوَك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النَّصَف ومنّي ، وإنما دَعَوْناك لنقرِّرَك أن عثمان قُتل مظلوما ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجِبْهم ، ولا تمنعك وَحْدتك واجتماعُهم أن تتكلم بكلّ لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص ، فحمِد الله وصلى على رسوله ، ثم ذكر عليًّا عليه السلام، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال : إنه شتم أبا بكر وكره خلافته ، وامتنع مِنْ بيعته ، ثم بايعه مكرَهاً ، وشَرَك في دم عمر ، وقتلَ عثمان ظلماً . وادّعى من الخلافة ما ليس له .

ثم ذكر الفتنة يعيِّره بها، وأضاف إليه مساوي(١) ؛ وقال: إنكم يابني عبدالمطلب لم يكن الله ليعطيَكم الملك على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرّم الله من الدماء ، وحِرْصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحلّ . ثم إنك يا حسن ، تحدّث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقلُ ذلك ولا لُبّه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلَك ، وتركك أحمقَ قريش ، يُسخر منك ويُهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ! وإنما دعوناك لنسبّك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرّد الله به وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن تردّ علينا وتكذّبنا؟ فإن كنت ترى أنّا كذبنا في شيء فاردُده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

ثم تكلم الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط ، فقال: يابني هاشم، إنكم كنتم أخوال عثمان؛ فنِعم الولد كان لكم ؛ فعرف حقكم ، وكنتم أصهاره فنعم الصِّهر كان لكم، بكرمكم فكنتم

(١) ج : « وعيره » .

أول من حسده ، فقتله أبوك ظلما ، لا عذرَ له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه، وأنزلكم منزلتكم ! والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية، وإن معاوية خيرٌ لك من نفسك .

ثم تكلم عُتبة بن أبى سفيان، فقال : ياحسن، كان أبوك شرّ قريش لقريش، أسفكها لدمائها ، وأقطعها لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحيّ ويعيب الميت ، وإنك ممّن قتل عثمان ، ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زَنْدِها قادحا ، ولا فى ميزانها راجحا ، وإنكم يابنى هاشم قتلتم عثمان ، وإنّ فى الحق أن نقتلك وأخاك به ؛ فأما أبوك فقد كفانا الله أمرَه وأقادَ منه ، وأما أنت ، فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان .

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشتم عليا، وقال : والله ماأعيبه فى قضية يخون، ولافى حكم يميل ، ولكنه قتل عثمان . ثم سكتوا .

فتكلم الحسن بن علىّ عليه السلام ؛ فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : أما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتمونى ولكنك شتمتنى ، فحشاً ألِفته ؛ وسوء رأى عُرِفتَ به ، وخُلُقاً سيئا ثبتٌ عليه ، وبغياً علينا ؛ عداوةً منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية ، واسمعوا فلأقولنّ فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم .

أنشدُكم الله أيها الرهط ، أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم ، صلّى القبلتين كلتيهما وأنت يامعاوية بهما كافر ؛ تراها ضلالة ، وتعبد اللات والعزى غواية !

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما : بيعة الفتح وبيعة الرضوان ، وأنت يا معاوية بإحداها كافر ، وبالأخرى ناكث !

وأنشدُكم الله هل تعلمون أنه أولُ الناس إيمانا ، وأنك يا معاوية وأباك

من المؤلفة قلوبهم تُسِرّون الكفر ، وتظهرون الإسلام ، وتُستمالون بالأموال !

وأنشدُكم الله، ألستم تعلمون أنه كان صاحبَ رايةِ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بَدْر، وأنّ رايةَ المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ، ثم لقيَكم يوم أُحُد ويوم الأحزاب ، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعَك ومع أبيك رايةُ الشّرك ؛ وفي كلّ ذلك يفتح الله ويُفلِج حُجّتَه ، وينصر دعوتَه ، ويصدّق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلّها عنه راضٍ ، وعليك وعلى أبيك ساخط ! وأنشُدك الله يامعاوية ، أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت تسوقُه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقال : « اللهمّ العن الراكب والقائد والسائق ! » .

أتنسى يامعاوية الشعر الذي كتبتَه إلى أبيك لما همّ أن يُسلم ، تنهاه عن ذلك :

يا صخر لا تُسْلِمنْ يوماً فتفضَحَنا ... بعد الذين ببَدْرٍ أصبحُوا فِرَقا
خالي وعمّي وعمّ الأمّ ثالثهمْ ... وحنظلُ الخير قد أهدى لنا الأرَقا
لا تَرْكَنَنّ إلى أمرٍ تكلّفنا ... والرّاقصات به في مكّةَ الخُرُقا
فالموتُ أهونُ من قول العِداة : لقدْ ... حادَ ابنُ حربٍ عن العُزّى إذاً فَرِقا[1]

والله لَمَا أخفيتُ من أمرك أكبرُ مما أبديتُ .

وأنشدكم الله أيها الرهط ؛ أتعلمون أن علياً حرّم الشهواتِ على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزِل فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ﴾[2] ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكابرَ أصحابه إلى بني قُرَيظة فنزلوا من حِصنهم فهُزِموا ، فبعث علياً بالراية ، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خَيْبَر مثلها !

---

(١) فرق ، كفرح : فزع واضطرب . (٢) سورة المائدة ٨٧ .

ثم قال : يامعاوية أظنك لاتعلم أنى أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد أن يكتب كتابا إلى بنى خزيمة ، فبعث إليك [ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل ، فدعا عليك الرسول بجوعك][1] ونهمك إلى أن تموت.

وأنتم أيها الرهط : نشدتكم الله ، ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان فى سبعة مواطن لاتستطيعون ردها :

أولها: يوم لقى رسول الله صلى الله عليه وآله خارجا من مكة إلى الطائف ، يدعو ثقيفا إلى الدين ، فوقع به وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده ، وهم أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه .

والثانية يوم العير ؛ إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهى جائية من الشام، فطردها أبو سفيان ، وساحل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت وقعة بدر لأجلها .

والثالثة يوم أحد ، حيث وقف تحت الجبل ، ورسول الله صلى الله عليه وآله فى أعلاه ، وهو ينادى : اعل هبل ! مرارا ، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ، ولعنه المسلمون .

والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود ، فلعنه رسول الله وابتهل .

والخامسة يوم جاء أبو سفيان فى قريش فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد الحرام « والهدى معكوفا أن يبلغ محله » ذلك يوم الحديبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أباسفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال : «ملعونون كلهم ، وليس فيهم من يؤمن » ، فقيل : يارسول الله ، أفما يرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال : « لا تصيب اللعنة أحدا من الأتباع ، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد » .

(١) زيادة يقتضيها السياق ، أخذت عن قصة جاءت فى ترجمة معاوية فى أسد الغابة ٤ : ٣٨٦ نقلها عن صحيح مسلم .

والسادسة يوم الجمل الأحمر .

والسابعة يومَ وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى العَقَبة ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثنى عشر رجلا ،منهم أبو سفيان .

فهذالك يامعاوية؛ وأما أنت يابنَ العاص؛ فإنّ أمرَك مشترَك، وضعتْك أمك مجهولا؛ من عُهر وسِفاح ، فيك أربعة من قريش ، فغلب عليك جَزّارُها ، ألأمُهُمْ حَسبا،وأخبثُهم منصِباً ؛ ثم قام أبوك فقال : أنا شانىء محمدٍ الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل .

وقاتلتَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى جميع المشاهد ، وهجوتَه وآذيته بمكّة وكِدته كيدَكَ كلَّه ، وكنتَ من أشدّ النّاس له تكذيبا وعداوةً .

ثم خرجتَ تريدالنّجاشىّ مع أصحاب السفينة ، لتأتِىَ بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك مارجَوْتَ ورجَعك الله خائبا ، وأكذَبَك واشياً ،جعلت حدَّك على صاحبك عُمارة بن الوليد ، فوشَيْت به إلى النجاشىّ ، حسدًا لما ارتكبَ مع حليلتك ، ففضحك الله وفضحَ صاحبك .

فأنت عدوّ بنى هاشم فى الجاهليّة والإسلام . ثم إنك تعلم وكلّ هؤلاء الرّهط يعلمُون أنّك هجوتَ رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشّعر ، فقال رسول الله صلى عليه وآله : «اللهمّ إنى لاأقول الشّعر ولا ينبغى لى، اللّهمّ العنه بكل حرفٍ ألف لعنة »؛فعليك إذاً من الله مالا يحصَى من اللعن .

وأما ماذكرتَ من أمر عثمان ، فأنت سعَّرت عليه الدّنيا نارا ،ثم لحقت بفلسطين، فلمّا أتاك قتلُه ، قلت: أنا أبو عبد الله إذا نكأْتُ قَرْحة أدميتُها . ثم حبستَ نفسك إلى معاوية ، وبعتَ دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بُغض ، ولا نعاتبك على ودّ ، وبالله

مانصرت عثمان حيًّا ولا غضبت له مقتولا ، ويحك يابن العاص ! ألستَ القائل فى بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشىّ :

تقول ابنتى أين هذا الرحيل … وما السَّيْرُ منّى بمستنكر
فقلت : ذرينى فإنى امرؤٌ … أريدُ النجاشىَّ فى جعفرِ
لأكْوِيَهُ عنده كيَّةً … أقيمُ بها نخوةَ الأصعَرِ
وشانئُ أحمدَ من بينهمْ … وأقولُهم فيه بالمنكرِ
وأجرى إلى عتبةٍ جاهداً … ولو كانَ كالذَّهبِ الأحمر
ولا أنثنى عن بَنِى هاشمٍ … وماالسطعتُ فى الغَيبِ والمَحضَرِ
فإنْ قَبِلَ العَتْبَ منّى لهُ … وإلا لَوَيْتُ له مِشْفَرِى

فهذا جوابك ، هل سمعته !

وأما أنت ياوليد ؛ فوالله ماألومك على بغض علىّ ، وقد جلدك ثمانين فى الخمر ، وقتل أباك بين يدىْ رسول الله صبرا ، وأنت الذى سماه الله الفاسق ، وسمّى عليا المؤمن ، حيث تفاخرتما فقلتَ له : اسكت ياعلىّ ، فأنا أشجع منك جنانا ، وأطول منك لسانا ، فقال لك علىّ : اسكتْ ، ياوليد فأنامؤمن وأنت فاسق ؛ فأنزل الله تعالى فى موافقة قوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾(١) ، ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضا : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾(٢) .

ويحك ياوليد ! مَهمَا نسيتَ ، فلا تنسَ قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله والكتاب عزيزٌ … فى علىّ وفى الوليد قرَانَا

---

(١) سورة السجدة ١٨ .
(٢) سورة الحجرات ٦ .

فتبوّا الوليـــد إذ ذاك فِسْقاً وعلىٌّ مبـــوّأٌ إيمانا
ليس من كان مؤمنا ـ عَمْرَكَ الله ـ كَمَنْ كان فاسقا خَـــوّانا
سوف يُدْعَى الوليد بعد قليل وعلىٌّ إلى الحساب عِيانا
فعلىٌّ يُجـــزى بذاك جِناناً ووليـــدٌ يُجزى بذاك هَوانا
رُبَّ جَـــدٍّ لِعُقْبَة بن أبانٍ لابس فى بلادنا تُبّانا (١)

وما أنت وقريش ؟ إنما أنت عِلْج من أهل صَفّورية ، وأقسم بالله لأنت أكبر فى الميلاد ، وأسنّ ممّن تدعى إليه .

وأما أنت ياعتبة ؛ فوالله ماأنت بحصيف فأجيبك ، ولا عاقل فأحاوِرَك وأعاتبك ، وما عندك خير يُرْجَى ، ولا شرّ يتقى ، وما عقلك وعقل أمَتِك إلاسواء ، ومايضرّ عليًّا لو سبَبْتَه على رءوس الأشهاد !

وأما وعيدك إيّاى بالقتل ، فهلّا قتلت اللحيانىّ إذ وجدته على فراشك ! أماتستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

ياللرجال وحادثِ الأزمان ولَسُبّـــةٍ تُخزى أبا سفيانِ
نُبِّئْتُ عتبةَ خانه فى عِرْسِه جِبْسٌ لئيمُ الأصـل من لِحْيانِ

وبعدَ هذا ، ماأربأ بنفسي عن ذكره لفحشه؛فكيف يخاف أحدٌ سيفَك ، ولم تقتلْ فاضحَك ! وكيف ألومك على بغض علىٍّ ،وقد قتلَ خالكَ الوليد مبارزةً يوم بدْر،وشَرِكَ حمزةَ فى قتل جدّك عتبة ، وأوْحَدَك من أخيك حنظلة فى مقام واحد !

وأما أنت يامغيرة ؛ فلم تكن بخليقٍ أن تقع فى هذا وشِبْهه،وإنما مَثَلُكَ مَثَلُ البعوضة إذ قالت للنخلة : استمسكى ؛ فإنى طائرة عنك ، فقالت النخلة : وهل علمتُ بكِ واقعة علىّ فأعلم بكِ طائرةً عنى !

(١) التبان : سراويل صغيرة (معرب : تنبان بالفارسية) يكون للملاحين .

والله مانشمر بعداوتك إيانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها، ولا يشق علينا كلامك، وإن حدّ الله في الزّنا لثابت عليك، ولقد درأ عمرُ عنك حقا؛ اللهُ سائله عنه!

ولقد سألتَ رسول الله صلى الله عليه وآله: هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فقال: «لا بأس بذلك يامغيرة مالم ينو الزنا»، لعلمه بأنكَ زانٍ.

وأما فخركم علينا بالإمارة: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (١).

ثم قام الحسن فنفضَ ثوبه، وانصرف؛ فتعلّق عمرو بن العاص بثوبه، وقال: ياأمير المؤمنين، قد شهدتَ قوله فيّ وقذفَه أمّي بالزنا، وأنا مطالب له بحدّ القذف.

فقال معاوية: خلّ عنه لا جزاك الله خيراً. فتركه.

فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممّن لاتطاق عارضتُه، ونهيتكم أن تسبّوه فعصيتموني، والله ماقام حتى أظلم عليّ البيت، قوموا عنّي، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم، وعدولكم عن رأي النّاصح المشفق؛ والله المستعان.

[عمرو بن العاص ومعاوية]

وروى الشّعبيّ، قال: دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة، وقد كان بلغ معاويةَ عنه ماكرِهَهُ، فكره قضاءها وتشاغل، فقال عمرو: يامعاوية؛ إنّ السخاء فِطنة، واللؤمَ تغافل، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين. فقال معاوية: ياعمرو؛ بماذا تستحقّ منّا قضاء الحوائج العظام؟ فغضب عمرو وقال: بأعظم حقّ وأوجبه، إذ كنتَ في بحر عجّاج، فلولا عمرو لغرقتَ في أقلّ مائه وأرقّه، ولكنّي دفعتُك فيه دفعةً فصرتَ في وسطه، ثم دفعتك فيه أخرى فصرت في أعلى المواضع منه، فمضى حكمُك، ونفذ أمرُك، وانطلق

---

(١) سورة الإسراء ١٦.

لسانُك بعد تلجلجِه ، وأضاء وجهك بعد ظلمتِه ، وطمستُ لك الشمسَ بالعِهن المنفوش ، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمّة .

فتناوم معاوية ، وأطبق جفنيه مليًّا ، فخرج عمرو ، فاستوى معاوية جالساً وقال لجلسائه : أرأيتم ماخرج من فم ذلك الرجل ؟ ما عليه لو عرّض ؛ ففي التعريض ما يكفي ! ولكنه جَبهني (١) بكلامه ، ورماني بسموم سِهامه .

فقال بعض جلسائه : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن الحوائج لتُقضى على ثلاث خصال : إمّا أن يكون السائلُ لقضاء الحاجة مستحقًّا فتُقضى له بحقّه ، وإمّا أن يكون السائل لئيماً فيصونَ الشريف نفسَه عن لسانه فيقضِيَ حاجته ، وإمّا أن يكون المسئول كريماً فيقضيَها لكرمه ؛ صغُرتْ أو كبرتْ .

فقال معاوية : لله أبوك ! ماأحسن مانطقت ! وبعث إلى عمرو فأخبره ، وقضى حاجته ووصله بصِلَة جليلة ، فلما أخذها ولّى منصرفاً . فقال معاوية : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٢) فسمعها عمرو ، فالتفت إليه مغضباً وقال : والله يامعاوية ، لا أزال آخذ منك قهراً ، ولا أطيع لك أمراً ، وأحفِر لك بئراً عميقاً ، إذا وقعت فيه لم تدرَك إلا رميماً (٣) . فضحك معاوية ، فقال : ماأريدك ياأباعبدالله بالكلمة ، وإنما كانت آية تلوتها من كتاب الله عرَضتْ بقلبي ، فاصنع ماشئت .

[عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص في مجلس معاوية]

وروى المدائنيّ قال : بينا معاوية يوما جالسا عنده عمرو بن العاص ، إذ قال الآذن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسُوءنّه اليوم ، فقال معاوية : لاتفعل ياأبا عبد الله ، فإنك لاتنتصف منه ، ولعلّك أن تُظهِرَ لنا من منقبته ماهو خفيّ عنّا ، وما لا نحبُّ أن نعلمَه منه .

(١) جبهه : لقيه بما يكره من الكلام . (٢) سورة التوبة ٥٨ .
(٣) الرميم : البالي من العظام .

وغشيهم عبدالله بن جعفر ؛ فأدناه معاوية وقرّبه ، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية، فنال من عليّ عليه السلام جِهاراً غير ساتر له ، وثَلبه ثلباً قبيحاً .

فالتمع لونُ عبد الله بن جعفر واعتراه أفْكَل حتى أرْعِدت خصائله [1] ، ثم نزل عن السرير كالفَنِيق [2] ، فقال عمرو : مَهْ يا أبا جعفر ! فقال له عبد الله : مه لا أمّ لك ! ثم قال :

أظنّ الحِلْمَ دلّ عليّ قومى ... وقد يُسْتَجْهَلُ الرجلُ الحليمُ [3]

ثم حَسَر عن ذراعيه ، وقال : يامعاوية ، حتّامَ نتجرّع غيظَك ؟ وإلى كم الصبرُ على مكروه قولك، وسيّئ أدبك ،وذميم أخلاقك ! هَبِلتْكَ الهَبُول [4] ! أمايزجرك ذِمام المجالَسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن لك حُرْمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ! أما والله لو عَطَفَتْكَ أواصرُ الأرحام ، أو حاميْتَ على سهمك من الإسلام ، ما أرعَيْت بنى الإماء المُتْك [5] ، والعَبيد الصُّكّ أعراضَ قومك .

ومايجهل موضعَ الصَّفْوة [6] إلا أهل الجفوة ، وإنك لَتعرف وشائظ [7] قريش وصَبوة غرائزها ، فلا يدعونك تصويبُ مافرّط من خطئك فى سفك دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التمادى فيما قد وضح لك الصواب فى خلافه . فاقصِدْ لمنهج الحقّ ، فقدطال عَمَهُك [8] عن سبيل الرُّشد ، وخبطُك فى بحور ظلمة الغىّ .

---

(١) الأفكل : الرعدة ، والخصائل : كل لحمة فيها عصب .

(٢) الفنيق : الفحل الكريم الذى لا يؤذى لكرامته .

(٣) من أبيات لقيس بن زهير ، وقوله : « يستجهل الرجل الحليم » أى إذا أحرج الحليم ، فقد يتكلف مالا يكون معهوداً فى طبعه .

(٤) الهبول ، بالفتح : المرأة الثكول .

(٥) المتك : جمع متكاء ؛ وهى الجارية البظراء وهو مما يسب به . والرجل الأصك : المضطرب الرجلين ، وجمع الأصك صكّ .

(٦) صفوة القوم : خيارهم .

(٧) يقال : هو وشيظة فى قومه ، وجمعه وشائظ ، أى حشو فيهم . (٨) ب : « عماك » .

فإن أبيت ألّا تتابعنا فى قبح اختيارك لنفسك ، فأعفنا من سوء القالة فينا إذا ضمّنا وإياك الندىّ ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ؛ والله حسيبك ، فو الله لولا ماجعل الله لنا فى يديك لما أتيناك .

ثم قال : إنك إن كلفتنى ما لم أطِقْ ساءك ما سرّك منّى من خُلُق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ، أقسمت عليك لتجلسنّ ، لعن الله مَنْ أخرج ضَبّ صَدْرك من وجاره ؛ محمولٌ لك ما قلت ، ولك عندنا ما أمّلت ، فلو لم يكن محمدك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافعَيْنِ لك إلينا ، وأنت ابنُ ذى الجناحين وسيّد بنى هاشم .

فقال عبد الله : كلاّ ، بل سيّد بنى هاشم حسن وحسين ، لاينازعهما فى ذلك أحد .

فقال : أبا جعفر ، أقسمت عليك لمّا ذكرت حاجة لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت ، ولو ذهبتْ بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا المجلس فلا ، ثم انصرف .

فأتبعه معاوية بصرَه ، وقال : والله لكأنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، مشيُه وخُلُقه وخَلْقه ، وإنه لمن مِشْكاتِه ، ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو ، فقال : أبا عبد الله ، ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك ، قال : أظنّك تقول : إنه هابَ جوابك ؛ لا والله ، ولكنّه ازدَراك واستَحْقرك ، ولم يرك للكلام أهلاً ، أما رأيتَ إقبالَه علىّ دونك ذاهبا بنفسه عنك !

فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددتُه لجوابه ؟ قال معاوية : اذهب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جوابٍ سائرَ اليوم .

ونهض معاوية وتفرّق الناس .

***

[عبد الله بن العباس ورجالات قريش فى مجلس معاوية]

وروى المدائنى أيضاً قال : وَفَد عبد الله بن عباس على معاوية مرّة ، فقال معاوية لابنه يزيد ، ولزياد بن سُمية ، وعتبة بن أبى سفيان ، ومَرْوان بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس ، وما كان شَجَر بيننا وبينه وبين ابن عمّه ، ولقد كان نَصَبه للتحكيم فدُفع عنه ، فحرّكوه على الكلام لنبلُغَ حقيقة صفته ، ونقِفَ على كُنْه معرفته ، ونعرف ما صُرِف عنا من شَبَا حَدّه ، وزُوِىَ عنّا من دهاء رأيه ، فربما وُصِف المرء بغير ما هو فيه ، وأُعطِىَ من النعت والاسم ما لا يستحقه .

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس ، فلما دخل واستقرّ به المجلس ، ابتدأه ابن أبى سفيان فقال : يابن عباس ، ما منع علياً أن يوجِّه بك حَكَما ؟ فقال : أما والله لو فعل لقرن عزماً بصَعْبة من الإبل ، يوجع كفّه[1] مراسُها ، ولأذهلتُ عقله ، وأجرضته بريقه ، وقدحت فى سويداء قلبه ، فلم يبرم أمراً ، ولم ينقض تراباً ، إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن أنكأه أدميت قواه ، وإن أدَمِه فصمت عراه ، بغَرْب مِقْوَل لا يُفَلّ حدُّه ، وأصالة رأى كتاح الأجل لاوَزَر منه ، أصدع به أديمَه ، وأفلّ به شَبا حَدّه ، وأشحَذُ به عزائم المتقين ، وأزيح به شُبَه الشاكين .

فقال عمرو بن العاص : هذا والله يا أمير المؤمنين نجومُ أوّل الشرّ ، وأفولُ آخرِ الخير ، وفى حَسْمِه قطع مادّته ، فبادرْه بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، واردَع بالتنكيل به غيرَه ، وشرِّد به مَنْ خَلْفَه .

فقال ابن عباس : يا بنَ النابغة ؛ ضلّ والله عقلُك ، وسَفِهَ حِلْمك ، ونطق الشيطانُ على لسانك ؛ هلاّ توليتَ ذلك بنفسك يوم صِفّين حين دُعيتَ نَزالِ[2] ، وتكافح الأبطال ،

(١) ا : « كفيه » . (٢) نزال هنا بمعنى النازلة .

وكثرت الجراح ، وتقصّفتِ الرّماح ، وبرزتَ إلى أمير المؤمنين مصاولا ، فانكفأ نحوك بالسيف حاملا ؛ فلما رأيت الكواشرَ من الموت ؛ أعددت حيلةَ السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، فمنحته ــ رجاء النجاة ــ عورتك ، وكشفت له ــ خوف بأسه ــ سوأتك ، حـذَراً أن يصطلمك بِسَطْوَته ، ويلتهمك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسّنْت له التعرُّض لمكافحته ، رجاء أن تكتفي مؤنته ، وتعدم صورته ، فعلم غِلَّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلعك ، وعرَفَ مقرَّ سهمِك في غَرَضك .

فاكفف غَرْب لسانِك ، واقمَع عوراء لفظك ؛ فإنك لمن أسدٍ خادِرٍ[1] ، وبحر زاخر ، إن تبرّزت للأسد افترسَك ؛ وإن عُمتَ في البحرِ قمسك[2] .

فقال مرْوان بن الحكم : يابن عباس إنّك لتصرف أنيابك ، وتُوري نارك ، كأنك ترجو الغلَبة وتؤمّل العافية ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصرِ أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدَرُه ، ولعمرى لئن سَطَا بِكُمْ ليأخذَنّ بعضَ حقّه منكم ، ولئن عَفَا عن جرائركم فقديماً مانُسب إلى ذلك .

فقال ابن عباس : وإنك لتقول ذلك ياعدوّ الله ، وطريد رسول الله ، والمباح دمه ، والداخل بين عثمان ورعيّته ، بما حملهم على قطع أوداجه ، وركوب أثباجه ! أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره .

وأما قولك لى : « إنك لتصرف أنيابك ، وتورى نارك » ؛ فسَلْ معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهرير ، كيف ثباتنا للمَثُلات ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدقُ جلادنا عند المصاوَلة ، وصبرُنا

---

(١) أسد خادر : مقيم فى خدره .

(٢) قمسك : غمسك ، وفى « ا » : « غمسك » .

على اللأواء والمطاولة، ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهفة؛ ومباشرتُنا بنحورنا حدّ الأسنّة، هل خِمنا(١) عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مُهجنا المتالف؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود، ولا يومٌ مشهودٌ، ولا أثر معدود، وإنهما شهدا مالو شهدتَ لأقلقك؛ فاربَعْ على ظَلْعِك، ولا تتعرّض لما ليس لك، فإنك كالمغروز فى صَفَدٍ، لا يهبط برجل، ولا يرْقى بيد.

فقال زياد: يابن عباس، إنى لأعلم مامنع حسَنا وحسينا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ماسوّلت لهما أنفسهما، وغرّهما به مَنْ هو عند البأساء سلّمهما، وايم الله لو وَليتُهما لأدأبا فى الرّحلة إلى أمير المؤمنين أنفسَهما، ولقلّ بمكانهما لبثُهما.

فقال ابن عباس: إذن والله يقصرُ دونهما باعُك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رُمتَ ذلك لوجدت من دونهما فئة صُدُقا، صُبُرا على البلاء، لا يخيمون عن اللقاء، فلعَركوك بكلا كلهم، ووَطِئوك بمناسمهم، وأوجروك مُشَقَ رماحهم، وشِفار سيوفهم ووخز أسنتهم، حتى تشهد بسوء ماأتيت، وتتبيّن ضياع الحزم فيما جنيت. فحذارِ حذارِ من سوء النية فتكافأ برد الأُمنيّة، وتكون سببا لفساد هذين الحيّين بعد صلاحهما، وسعياً فى اختلافهما بعد ائتلافهما، حيث لا يضرّهما إبساسُك، ولا يغنى عنهما إيناسك.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم: لله دَرُّ ابن مُلجم! فقد بلغ الأمل، وأمِن الوجل، وأحدّ الشفرة وألانَ المُهرَة، وأدرك الثار، ونَفَى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورقى الدرجة القصوى.

فقال ابن عباس: أما والله: لقد كَرع كأسَ حتفه بيده، وعجّل اللهُ إلى النار بروحه،

---

(١) خمنا: ضعفنا.

ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحته لخالطه الفحل القَطِم (١) والسيف الخَذِم (٢)، ولألقمه صابا، وسقاه سماً ، وألحقه بالوليد وعُتبة وحنظلة ، فكلّهم كان أشدّ منه شكيمة ، وأمضى عزيمة ، ففرَى بالسيف هامَهم ، ورمّلهم (٣) بدمائهم ؛ وقَرى الذئاب أشلاءهم، وفرّق بينهم وبين أحبائهم : ﴿ أولئك حَصَبُ جهنم هم لها واردونَ ﴾ (٤) ، و ﴿ هَلْ تُحِسّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزا (٥) ﴾ ، ولا غرْو إن ختِل، ولا وصمَةَ إن قُتل؛ فإنّا لكما قال دُرَيد ابن الصِّمّة :

فإنا لَلَحْمُ السيف غيرَ مكرَّهٍ ... ونلحِمه طوراً وليس بذِي نُكرِ (٦)

يُغار علينا واترين فيُشتفَى ... بنا إن أُصبنا ، أو نُغير على وِترِ

فقال المغيرة بن شُعبة : أما والله لقد أشرتُ على عليّ بالنصيحة فآثر رأيه ، ومضى على غُلَوائه ، فكانت العاقبة عليه لا له ، وإني لأحسب أن خلَفه يقتدون بمنهجه .

فقال ابن عباس : كان والله أميرُ المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي، ومعاقد الحزم، وتصريف الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعنّف عليه، قال سبحانه: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ (٧) ؛ ولقد وقفك على ذِكْر مبين ، وآية متلوّة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

---

(١) القطم : الفحل الصئول .

(٢) الخذم : القاطع . (٣) رملهم : لطخهم .

(٤) سورة الأنبياء ٩٨ . (٥) سورة مريم ٩٨ .

(٦) من كلمة له في الأغاني ١٠ : ٥ (طبعة الدار) ، وفي الأغاني :

* غير نكيرةٍ ... ونلحمه حينا *

ولحمه : أي أطعمه اللحم .

(٧) سورة المجادلة ٢٢ .

عَضُداً ﴾ (١) ، وهل كان يسوغ له أن يحكم فى دماء المسلمين وفَىْء المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موثوق به فى نفسه؟ هيهات هيهات ! هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبطن خلاف ما يظهر إلا للتقيّة ، ولات حين تَقِيّة ! مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار ، يمضى كالسيف المصلَت فى أمر الله ، مؤثرًا لطاعة ربّه ، والتقوى على آراء أهل الدنيا .

فقال يزيد بن معاوية : يابن عباس ، إنك لتنطق بلسان طَلْق يُنْبِئُ عن مكنون قلب حُرِق ، فاطوِ ما أنتَ عليه كَشْحاً ، فقد محا ضوء حقنا ظلمةَ باطلكم .

فقال ابن عباس : مهلًا يزيد ، فوالله ما صفَتِ القلوبُ لكم منذ تكدّرت بالعداوة (٢) عليكم ، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم مذ نأت بالبغضاء عَنْكم ، لا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تدُل (٣) الأيام نستقض ما سُدّ عنا ، ونسترجع ما ابتُزّ منا ، كيلًا بكيل، ووزْنا بوزن ، وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًّا لنا، ووكيلا على المعتدين علينا .

فقال معاوية : إنّ فى نفسى منكم لحزازاتٍ يا بَنى هاشم ، وإنى لخليقٌ أن أدرك فيكم الثار ، وأنفى العار ، فإن دماءنا قِبَلكم ، وظلامتنا فيكم .

فقال ابن عباس : والله إن رُمْتَ ذلك يامعاوية لتثيرَنّ عليك أُسْدا مُخدِرة (٤)، وأفاعىَ مطرقة ، لا يفثؤها كثرة السلاح ، ولا يعضّها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قدُمًا قدُمًا مَن ناوأهم ، يهون عليهم نُباح الكلاب وعُواء الذئاب ،

---

(١) سورة الكهف ٥١ . (٢) ساقطة من ب .

(٣) يقال: دالت الأيام ، أى دارت، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

(٤) الأسد الخادر والمخدر : المقيم فى الخدر ؛ وهو العرين .

لا يُفاتون بوِتر ، ولا يُسبَقون إلى كريم ذِكر، قد وَطَّنُو على الموت أنفسَهم، وسَمَتْ بهم إلى العَلياء هِمَمُهم ؛ كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهدوا الهِيَاج فَلَا ضربٌ يُنَهْنِهُهمْ ولا زَجْرُ
وكأنَّهم آساد غِيِنَـــةَ قَدْ غَرِثَتْ وبلَّ متونَها القطرُ (١)

فلتَكونَنَّ منهم بحيث أعددتَ ليلةَ الهرير للهرب فرسَك، وكان أكبر همِّك سلامة حُشاشةِ نفسك ، ولولا طغامٌ من أهل الشام وقَوْك بأنفسهم ، وبذلوا دونك مُهَجَهم ، حتى إذا ذاقوا وَخز الشِّفار، وأيقنوا بحلول الدَّمار، رفعوا المصاحف مستجيرين بها، وعائذين بعِصْمَتها ـ لكنتَ شِلْواً (٢) مطروحا بالعَراء ، تَسْفِي عليك رياحُها ، ويعتورك ذُبابها .

وما أقول هذا أريد صرفَك عن عَزِيمَتك ، ولا إزالتَك عن معقود نيّتك ، لكنَّ الرَّحِم التي تعطف عليك ، والأوامر التي توجب صرفَ النصيحة إليك .

فقال معاوية : لله درّك يابن عباس ! ماتكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيلٍ ، ورأى أصيلٍ! وبالله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددُهم، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم .

ثم نهض ، فقام ابن عباس وانصرف .

* * *

وروى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فى أماليه ، أن عمرو بن العاص قال لعُتبة ابن أبي سفيان يوم الحكَمين: أما ترى ابنَ عباس قد فتح عينيْه ، ونشَر أذنيه، ولو قدر أن يتكلّمَ بهما فعل ، وإن غَفْلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهى ساعتنا الطُّولى فاكفنيه .

قال عتبة : بجهدى .

---

(١) الغينة : الأشجار الملتفة فى الجبال وفى السهول بلا ماء ؛ فإذا كانت بماء فهى الغيضة . والغينة أيضاً : موضع باليمن . (٢) الشلو : العضو من أعضاء اللحم .

قال : فقمت فقعدت إلى جانبه ، فلما أخذ القومُ فى الـكلام أقبلت عليه بالحديث ، فقرَع يدىَ ، وقال : ليست ساعة حديث ؛ قال : فأظهرتُ غضبا ، وقلت : يابن عباس، إن ثقتَك بأحلامنا أسرعتْ بك إلى أعراضنا،وقد والله تقدّم من قَبلُ العذر ، وكثُر مِنّا الصبر ؛ ثم أقذعتهُ فجاش لى مِرْجله وارتفعت أصواتنا،فجاء القوم فأخذوا بأيدينا فنحّوْه عنى ونحّوْنى عنــه ، فجئت فقرُبت من عمرو بن العاص ، فرمانى بمؤخر عينيــه وقال : ماصنعت؟فقلت : كفيتك التّقوالة،فحمْحَم كما يُحمحِم الفرس للشعير . قال:وفات ابن عباس أوّل الـكلام ، فـكره أن يتكلّم فى آخره .

وقد ذكرنا نحن هذا الخبر فيما تقدم فى أخبار صِفّين على وجه آخر غير هذا الوجه .

***

[عُمارة بن الوليد وعمرو بن العاص فى الحبشة]

فأما خبر عُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ،أخى خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص فقد ذكره ابن إسحق فى كتاب " المغازى " قال :

كان عُمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بن وائل، بعد مَبْعَث رسول الله صلى الله عليه وآله ، خرجا إلى أرض الحبشة على شِرْكهما ، وكلاهما كان شاعراً عارِماً فاتِـكاً . وكان عُمارة بن الوليد رجلا جميلا وَسيماً تهواه النساء ، صاحبَ محادثة لهنّ ؛ فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته ، حتى إذا صاروا فى البحر لياليَ، أصابا من خَمْرٍ معهما ، فلما انتشى عمارة قال لامرأة عمرو بن العاص : قبّلينى ، فقال لها عمرو : قبّلى ابنَ عمك،فقبّلته فهَوِيَها عُمارة،وجعل يراودها عن نفسها،فامتنعتْ منه.ثم إن عمراً جلس على مِنجاف[1]

---

(١) المنجاف : سكان السفينة .

السفينة يبول ، فدفعه عمارة فى البحر فلما وقع عمرو سبَح ، حتى أخذ بمِجاف السفينة ، فقال له عُمارة : أما والله لو علمتُ أنك سابحٌ ماطرحتُك ، ولكننى كنتُ أظنّ أنك لاتحسِنُ السباحة ، فضغِن عمرو عليه فى نفسه ، وعلم أنّه كان أراد قتله ؛ ومضيَا على وجههما ذلك ؛ حتى قدِما أرضَ الحبشة ؛ فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل ؛ أن اخلَعنى وتبرّأ من جريرتى إلى بنى المغيرة وسائر بنى مخزوم ، وخشِىَ على أبيه أن يُتْبَع بجريرته . فلما قدِم الكتابُ على العاص بن وائل ، مشى إلى رجال بنى المغيرة وبنى مخزوم ، فقال : إن هذين الرّجُلين قد خرجا حيث علمتم ، وكلاهما فاتك صاحبُ شرّ ، غيرُ مأمونَيْن على أنفسهما ، ولا أدرى مايكون منهما ! وإنّى أبرأ إليكم من عمرو وجريرته ، فقد خلعتُه . فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم : وأنتَ تخاف عمراً على عُمارة ! ونحن فقد خلعنا عُمارة وتبرأنا إليك من جريرته ، فخلِّ بين الرجلين . قال : قد فعلتُ ، فخلعوهما وبرئ كلّ قوم من صاحبهم ومايجرى منه .

قال : فلما اطمأنّا بأرض الحبشة ؛ لم يلبثْ عُمارة بن الوليد أن دَبّ لامرأة النجاشىّ ـ وكان جميلًا صَبيحا وسيما ـ فأدخلته ، فاختلف إليها ، وجعل إذا رجع من مَدخله ذلك يخبر عمراً بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لاأصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ؛ فلما أكثر عليه عُمارة بما كان يخبره ـ وكان عمرو قد علم صدقَه ، وعرف أنه دخل عليها ، ورأى من حاله وهيئته وماتصنع المرأة به إذا كان معها ، وبيتوتيه عندها ؛ حتى يأتى إليه مع السَّحَر ماعرف به ذلك ، وكانا فى منزلٍ واحد ؛ ولكنه كان يريد أن يأتيَه بشىء لايستطاع دفعه ، إن هو رفع شأنه إلى النجاشىّ ـ فقال له فى بعض

مايتذاكران من أمرها : إنْ كنتَ صادقا فقلْ لهـا : فلتدهنْك بدُهن النجاشيّ الذى لايدّهن به غيره ، فإنى أعرفه ، وائتنى بشىء منه حتى أصدّقك ، قال : أفعل .

فجاء فى بعض مايدخل إليها ، فسألها ذلك ، فدّهنته منه ، وأعطته شيئا فى قارورة ، فلما شمّه عمرو عَرَفه ، فقال : أشهد أنك قد صدَقت ! لقـد أصبتَ شيئا ماأصابَ أحـد من العرب مثلَه قطّ ، [ونلت من][1] امرأة الملك [شيئا][1] ماسمعنا بمثل هذا . وكانوا أهلَ جاهلية وشبانا ، وذلك فى أنفسهم فضْلٌ لمن أصابه وقَدَر عليه .

ثم سكت عنه[2] حتى اطمأنّ ، ودخل على النجاشيّ[2] ، فقال : أيّها الملك ؛ إن معى سفيهاً من سفهاء قريش ، وقد خشيتُ أن يعرّنى[3] عندك أمرُه ، وأردت أن أُعلمك بشأنه ، وألّا أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قـد دخل على بعض نسـائك فأكثَر . وهـذا دُهنك قد أعطتْه وادّهن به .

فلما شمّ النجاشيّ الدُّهن ، قال : صدقت ، هذا دُهنى الذى لايكون إلا عند نسائى ، فلما أثبت أمرَه ، دعا بعُمارة ، ودعا نسوةً أُخَرَ ، فجرّدُوه من ثيابه ، ثم أمرهنّ أن ينفُخن فى إحليله ، ثم خلى سبيله .

فخرج هاربا فى الوحش ، فلم يزلْ فى أرض الحبشة ، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ، فخرج إليه رجالٌ من بنى المغيرة ، منهم عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ــ وكان اسم عبدالله قبل أن يُسلم بجيرا ، فلما أسلم ، سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله ــ فرصدوه على ماء بأرض الحبشة ، كان يرِدُه مع الوحش ، فزعموا أنه أقبل فى حُمر من حُمُر الوحش ليرد معها ، فلـما وجد ريح الإنس ، هرب منـه ، حتى إذا أجهده العطش ، ورد فشرِب حتى تملّأ ، وخرجُوا فى طلبه .

(١) تكملة من الأغانى .
(٢ــ٢) الأغانى : « حتى إذا اطمأن دخل على النجاشى » .
(٣) عره : لطخه بالعيب ، وفى ا : « يغيرنى » ، وما أثبته عن الأغانى .

قال عبد الله بن أبى ربيعة : فسبقتُ إليه فالتزمته ، فجعل يقول : أرسلنى ، إنى أموت إن أمسكتنى . قال عبد الله : فضبطته(١) فمات فى يدى مكانه ، فواروه ثم انصرفوا .

وكان شعرُه ــ فيما يزعمون ــ قد غطّى كلّ شىء منه ؛ فقال عمرو بن العاص ، يذكر ما كان صنع به وما أراد من امرأته :

تعلّمْ عُمارَ أنّ من شرّ سُنّةٍ ... على المرء أن يُدْعَى ابنُ عمٍ له ابْنَمَا
أَأَنْ كنتَ ذا بُرْدَيْن أحوَى مُرَجَّلا ... فلستَ براعٍ لابن عمك مَحرَمَا
إذا المرء لم يترك طعاما يحبُّه ... ولم ينهَ قلباً غاويا حيثُ يمّما
قضى وَطَرًا منهُ يَسِيرا وأصبحتْ ... إذا ذكرت أمثالُهَا تملأ الفمَا(٢)

***

[أمر عمرو بن العاص مع جعفر بن أبى طالب فى الحبشة]

وأما خبر عمرو بن العاص فى شخوصه إلى الحبشة ، ليكيد جعفر بن أبى طالب والمهاجرين من المؤمنين عند النجاشىّ(٣) ، فقد رواه كلّ من صنف فى السيرة ؛ قال محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " قال :

حدّثنى محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرىّ ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن ، ابن الحارث بن هشام المخزومىّ ، عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت :

لما نزلنا بأرض الحبشة جاورْنا بها خيرَ جارٍ ، النجاشىّ ، أمِنّا(٤) على ديننا ، وعبدْنا الله لانُؤْذَى كما كنا نُؤْذَى بمكة ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا

(١) فى الأغانى : « فضغطته » .
(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٥٧ ــ ٥٩ (طبعة الدار)
(٣) النجاشىّ ، وبتخفيفها .
(٤) فى الأصول « أمننا » وما أثبته من السيرة .

بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فى أمرنا رجلين منهم جَلْدين ، وأن يُهدُوا للنّجاشيّ هدايا مما يُستطرَف من متاع مكّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منه الأَدَم ؛ فجمعوا أدَماً كثيرا ، ولم يتركوا من بَطَارقته بِطْريقا إلا أهـدَوْا إليه هديّة . ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزوميّ وعمرو بن العاص بن وائل السهميّ ، وأمروهما أمرَهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كلّ بِطريق هديته ، قبل أن تُـكلّما النجاشيّ فيهم .

ثم قَدِما إلى النجاشيّ ، ونحن عنده فى خيرِ دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته ، قبلَ أن يكلّما النجاشيّ ، ثم قالا للبطارقة :

إنه قد فرّ[1] إلى بلد الملك منّا غِلمانٌ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحنُ ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك أشرافُ قومهم لنردّهم إليهم ، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يُسْلِمَهم إلينا ولا يـكلّمهم ، فإن قومَهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قرّبا[2] هدايا للملك إليه فقَبِلها منهم ، ثم كلّماه ، فقالا له :

أيها الملك ، قد فرّ إلى بلادك منّا غِلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدينٍ ابتدعُوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ؛ وقد بعثَنا فيهم إليك أشرافُ قومِنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّهم عليهم ؛ فهمْ أعلى بهم عَيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم .

قالت أم سلَمة : ولم يكن شىء أبغضَ إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النجاشيّ كلامهم .

فقالت بطارقة الملك وخواصّه حوله : صدقا أيها الملك ، قومُهم أعلَى بهم عينا ، وأعلم

---

(١) السيرة : « ضوى » ، أى أوى . (٢) السيرة : « قدما » .

بما عابوا عليهم فليسلمهم الملك إليهما ، ليردّاهم [1] إلى بلادهم وقومهم .

فغضب الملك وقال : لا ها الله ! إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا أخفر [2] قوما جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على سواى ،حتى أدعوهم وأسألهم عمّا يقول هذان فى أمرهم،فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم منهم، وأحسنتُ جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه؟قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وآله كائنا [فى ذلك] [3] ماهو كائن ، فلمّا جاءوه ، وقد دعا النجاشىُّ أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم :ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ،ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ قالت أم سلمة : وكان الذى كلّمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك إنا كنّا قوما فى جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوىُّ منّا الضعيف . فكنّا على ذلك حتى بعث الله عزّ وجلّ علينا رسولا منّا ،نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحم ، وحسن التجاور ، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن سائر الفواحش ؛وقول الزور،وأكل مال اليتيم،وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا ، وبالصلاة وبالزكاة والصيام .

---

(١) السيرة : « فليردهم » .

(٢) فى السيرة : « ولا يكاد قوم » .

(٣) من السيرة .

قالت[1] : فعدّد عليه أمورَ الإسلام كلَّها، فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حَرّم علينا، وأحْلَلنا ما أحَلّ لنا، فعدَا علينا قومُنا فعذّبونا، وفتنُونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأصنام والأوثان عن عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث؛ فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغِبنا في جوارك، ورجونا ألّا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشيّ : فهل معك مما جاء به صاحبكم عن الله شيء؟ فقال جعفر : نعم. فقال اقرأه علىّ، فقرأ عليه صدْراً من «كهيعص»، فبكى حتى اخضلّت لحيتُه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم[2]. ثم قال النجاشيّ : والله إن هذا والذى جاء به عيسى لَيخرج من مشكاةٍ واحدة، والله لا أُسلمكم إليهم.

قالت أمّ سلمة : فلمّا خرج القوم من عنده، قال عمرو بن العاص[3] : والله لأعيبُهم غداً عنده بما يستأصل به خَضْراءهم[3]؛ فقال له عبدالله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرَّجُلَيْن: لاتفعلْ، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفوا؛ قال : والله لأخبرنّه غداً أنهم يقولون فى عيسى بن مريم إنه عبدٌ. ثم غَدا عليه من الغد، فقال : أيها الملك، إنّ هؤلاء يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيما؛ فأرسِلْ إليهم فسَلْهم عمّا يقولون فيه؛ فأرسل إليهم.

قالت أم سلمة : فما نزل بنا مثلُها. واجتمع المسلمون، وقال بعضهم لبعض : ماتقولون فى عيسى إذا سألكم عنه؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه والله ماقال عزّ وجلّ، وما جاء به نبينا عليه السلام، كائنا فى ذلك ماهو كائن.

فلمّا دخلوا عليه قال لهم : ماتقولون فى عيسى بن مريم؟ فقال جعفر : نقول إنه عبدالله

(١) فى الأصول : «قال»، وما أثبته من السيرة.

(٢) السيرة : «أخضلوا مصاحفهم».

(٣ ـ ٣) السيرة : «والله لآتينه غدا عنه بما أستأصل به خضراءهم، أى جماعتهم».

ورسوله وروحُه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتُول .

قالت : فضرب النجاشيّ بيديه على الأرض، وأخذ منها عوداً ، وقال : ماعدا عيسى ابن مريم ماقال هذا العود .

قالت : فقد كانت بطارقته تناخرت حوله ، حين قال جعفر ماقال،فقال لهم النجاشيّ: وإن تناخرتم !

ثم قال للمسلمين:اذهبوا فأنتمُ « سيومٌ » بأرضي،أى آمنون،مَنْ سبَّكم غرِم،ثم مَنْ سبَّكم غرم ، ثم مَنْ سبَّكم غرم ، ما أحِب أن لى دَبْراً[1] ذهباً وأنّى آذيتُ رجلامنكم۔ والدّبر بلسان الحبشة : الجبل ــ ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى فيها ؛ فوالله ماأخذ الله منى الرّشوة حتى ردّنى إلى مُلكى . فآخذ الرّشوة فيه ، وما أطاع الناسَ فىّ أفأطيعهم فيه !

قالت : فخرج الرجلان من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ماجاءا به ، وأقمنا عنده فى خير[2] دار مع خير جار ، فوالله إنّا لعلى ذلك ؛ إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه فى ملكه .

قالت أمّ سلمة : فوالله ما أصابنا خوفٌ وحزن قطّ كان أشدّ من خوف وحزنٍ نزل بنا أن يظهرَ ذلك الرجل على النجاشيّ ، فيأتى رَجل لا يعرفُ من حقّنا ما كان يعرف منه .

قالت : وسار إليه النجاشيُّ وبينهما عرْض النّيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله:مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وَقعةالقوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزّبير بن العوام: أنا ــ وكان من أحدَث المسلمين[3] سِنًّا ــ فنفخوا له قربة فجعلناها تحت صدره ، ثم سَبَح

(١) فى الأصول : « دبنا » ، والصواب من السيرة .

(٢) السيرة : « بخير » .

(٣) السيرة : « القوم » .

عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها يلتق القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله للنجاشيّ بالظهور على عدوّه والتمكين له فى بلاده ، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير يسعى ويلوّح بثوبه ويقول : ألا أبشروا ، فقد ظهر النجاشيّ وأهلك الله عدوّه .

قالت : فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة مثلها قطّ ، ورجع النجاشيّ ، وقد أهلك الله عدوّه وتمكّن ومكّن له فى بلاده ، واستوثق له أمر الحبشة ، فكنّا عنده فى خير منزلٍ ودار إلى أن رجعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة (1) .

* * *

وروى عن عبد الله بن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : لقد كاد عمرو بن العاص عمّنا جعفرا بأرض الحبشة عند النجاشيّ ، وعند كثير من رعيّته بأنواع الكيد ردّها الله تعالى عنه بلطفه ؛ رماه بالقتل والسّرَق والزّنا فلم يلصق به شىء من تلك العيوب ، لما شاهده القوم من طهارته وعبادته ، ونُسُكه وسيما النبوّة عليه ، فلما نبا مموّله عن صفاته ، هيّأ له سُمًّا قذفه إليه فى طعام ، فأرسل الله هرًّا كفأ تلك الصّحفة ، وقد مدّ يده نحوه ثم مات لوقته ، وقد أكل منها . فتبين لجعفر كيدُه وغائلته فلم يأكل بعدها عنده ، ومازال ابن الجزّار عدُوًّا لنا أهلَ البيت .

* * *

[أمر عمرو بن العاص فى صفين]

وأمّا خبر عمرو فى صِفّين واتقائه حملة علىّ عليه السلام ، بطرحه نفسه على الأرض وإبداء سوأته : فقد ذكره كلّ من صنف فى السِّيَر كتابا ، وخصوصاً الكتب الموضوعة لصِفّين .

(1) الخبر فى سيرة بن هشام ١ : ٢١١ — ٢١٣ (على هامش الروض الأنف) .

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين ، قال :

حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عبدالله بن أبي عمرو ، وعن عبد الرحمن بن حاطب ، قال[1] : كان عمرو بن العاص عدوا للحارث بن نضر الخثعمي[2] ، وكان من أصحاب علي عليه السلام ، وكان علي عليه السلام قد تهيبته فرسان الشام ، وملأ قلوبهم بشجاعته ، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه .وكان عمرو قلما جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نضر الخثعمي وعابه ، فقال الحارث :

ليس عمرو بتاركٍ ذكرَه الحا — رث بالسوء أو يلاق عليّا[3]
واضعُ السيف فوق منكبه الأيـ — من لا يحسب الفوارس شيّا
ليتَ عمرا يلقاه في حَوْمة النَّقـ — ـع وقد أمست السيوف عِصِيّاً[4]
حيث يدعو للحرب حامية القو — مِ إذا كان بالبِراز مَلِيّا[5]
فالقه إن أردت مكرُمة الدهـ — ـر أو الموت كلّ ذاك عليّا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمرا ، فأقسم بالله ليلقين عليًا ولو مات ألف موتة. فلما اختلطت الصفوف لقيه فحمل عليه برمحه ، فتقدم علي عليه السلام وهو مخترط سيفاً

---

(١) صفين ٤٨١ وما بعدها .
(٢) صفين : « الجشمي » .
(٣) صفين :

ليس عمروٌ بتاركٍ ذكره الحرْ — بَ مدى الدهر أو يلاق عليـا

(٤) صفين : « صارت السيوف » .
(٥) بعده في صفين :

فوق شهبٍ مثلِ السحوق من النَّخْـ — ـلِ ينادي المبارزين إليّا
ثمّ يا عَمْرُ تستريح من الفخـ — ـر وتَلْقَى به فتًى هاشميـا

السحوق من النخل : الطويلة ؛ شبه بها الخيل .

معتقلٌ رمحا ، فلما رهقه همز فرسَه ليعلوَ عليه ، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه؛ كاشفا عورته ، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستدبِراً له ، فعدّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدُده ، وضرب بها المثل .

* * *

قال نصر: وحدثني محمد بن إسحاق ، قال : اجتمع[1] عند معاوية في بعض ليالي صِفِّين عمرو بن العاص ، وعُتبة بن أبي سفيان ، والوليد بن عُقبة ، ومروان بن الحكم ، وعبدالله ابن عامر ، وابن طلحة الطَّلحات الخزاعيّ ، فقال عتبة : إن أمرَنا وأمرَ عليّ بن أبي طالب لَعجَب ! ما فينا إلا موتور مُجتاح[2] .

أمّا أنا فقتل جَدّي عُتبة بن ربيعة ، وأخي حنظلة ، وشرِكَ في دم عمّي شيبة يوم بدر. وأما أنتَ يا وليد ، فقتلَ أباك صَبْراً ، وأما أنت يابن عامر ، فصرع أباك وسلب عمك . وأما أنت يابن طلحة ، فقتل أباك يوم الجمل ، وأيتمَ إخوتك . وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر :

وأفلتهنّ عِلباءٌ جَريضاً ... وَلَوْ أدركْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ[3]

فقال : معاوية هذا الإقرار فأين الغُيُر[4] ؟ قال مَرْوان: وأيّ غُيُر تريد ؟ قال: أريد أن تشجُروه بالرماح. قال: والله يامعاوية ما أراك إلا هاذيا أو هازئا، وما أرانا إلا ثقّلنا عليك، فقال ابن عُقبة .

يقول لنا معاويةُ بن حَرْب ... أما فيكمْ لِوَاتركم طَلُوبُ
يَشُدُّ على أبي حسَن عليّ ... بأسْمَر لا تُهجِّنه الكعوبُ

(١) صفين ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) صفين : « عاج » .

(٣) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٨ ، وعلباء قاتل والدامرئ القيس ، والجريض : الذي يؤخذ بريقه . وصفر وطابه ، كناية عن القتل .

(٤) الغير : جمع غيور ،والغيرة : الحمية .

فيهتِكَ مَجمع اللَّبَّاتِ مِنهُ ... ونقعُ الحرب مطَّرِدٌ يؤوبُ
فقلت له : أتلعب يابن هندٍ ... كأنك بيننا رجلٌ غريبُ !
أتُغرِينا بحيَّةِ بطنِ وادٍ ... إذا نهشَتْ ، فليس لها طبيبُ[1]
وما ضَبعٌ يدِبُّ ببطن وادٍ ... أتيح له به أسَدٌ مَهيبُ
بأضعف حيلةً مِنَّا إذا ما ... لقيناه ولُقياهُ عجيبُ
سوى عمرو وَقَتْه خُصْيتاهُ ... وكان لقلبه مِنهُ وَجيبُ
كأنَّ القومَ لما عاينوه ... خِلال النقْع ، ليس لهم قلوبُ
لعمر أبي معاويةَ بن حربٍ ... وما ظَنِّي ستلحقُه العيوبُ
لقد ناداه في الهيجا علىٌّ ... فأسمَعه ولكنْ لا يُجيبُ

فغضب عمرو ، وقال : إن كان الوليد صادقا فليلْقَ عليًّا ، أو فليقِفْ حيث يسمع صوته .

وقال عمرو :

يذكِّرُنى الوليد دُعَا علىٍّ ... ونُطقُ المرء يملؤه الوعيدُ
متى تذكرْ مشاهدَه قريش ... يَطِرْ من خوفه القلب الشديدُ
فأما فى اللقاء فأين منهُ ... معاويةُ بن حرب والوليدُ !
وعيَّرَنى الوليد لقاء ليث ... إذا ما شدَّ هابته الأسودُ[2]
لقيتُ ولست أجهلُه عليًّا ... وقد بُلَّتْ من العَلَقِ اللُّبودُ
فأطعنُه ويطعنُنى خِلاسا ... وماذا بعد طعنته أريدُ !
فرُمْها منه يابن أبى مُعَيطٍ ... وأنت الفارس البطل النَّجيدُ
وأُقسِمُ لو سمعتَ ندا علىٍّ ... لطار القلب وانتفخ الوريدُ

---

(١) صفين : « أتأمرنا » .

(٢) صفين : « إذا ما زار » أى زأر .

ولو لاقيتَه شُقَّت جيُوبٌ عليك ، ولُطِّمت فيك الخدودُ

***

وذكر أبو عمر بن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب " فى باب بُسْر بن أرطاة قال [1] :

كان بُسْر من الأبطال الطغاة ، وكان مع معاوية بصِفّين ، فأمره أن يلقى عليًّا عليه السلام فى القتال ، وقال له : إنى سمعتك تتمنّى لقاءه ، فلو أظفرك الله به وصرعتَه حصَلْتَ على الدنيا والآخرة [2] ، ولم يزل يشجّعه ويمنّيه حتى رأى عليا فى الحرب ، فقصده ، والتقيا فصرعه علىّ عليه السلام ، [3] وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو ابن العاص فى كشف السوأة [3] .

قال أبو عمر : وذكر ابن الكلبى فى كتابه فى أخبار صِفّين ، أن بُسْر بن أرطاة بارَزَ عليًّا يوم صِفّين ، فطعنه علىٌّ عليه السلام فصرَعه ، فانكشف له ، فكفّ عنه ، كما عرض له مثل [4] ذلك مع عمرو بن العاص .

قال : وللشعراء فيهما أشعار مذكورة فى موضعها من ذلك الكتاب ؛ منها فيما ذكر ابن الكلبى والمدائنىّ قول الحارث بن نضر الخثعمى [5] — وكان عدوّا لعمرو بن العاص وبُسْر بن أرطاة :

أفى كلّ يوم فارسٌ لك ينتهى وعورته وسْطَ العجاجَةِ باديَهْ

يكفُّ لهـا عنه علىٌّ سِنانه ويَضحك منها فى الخلاء معاويَهْ

---

(١) الاستيعاب ١٦٤ وما بعدها .

(٢) الاستيعاب : « دنيا وآخرة » .

(٣ – ٣) الاستيعاب : « وعرض على كرم الله وجهه مثل ما عرض فيما ذكر مع عمرو بن العاص »

(٤) الاستيعاب : « فيما ذكر » .

(٥) الاستيعاب : « السهمى » .

بدَتْ أمسِ من عمرو فقنّع رأسه ... وعورة بُسْر مثلها حذو حاذيَهْ
فقولا لعمرو ثم بُسْرٍ : ألاَ انظُرَا ... لنفسكما : لاتَلْقَيا الليثَ ثانيهْ
ولا تحمـدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتـا والله للنفس واقيـهْ
ولولاهما لم تنجُوَا من سنـانـه ... وتلك بما فيها إلى العَوْد ناهيـهْ
متى تلقيا الخيل المغيرة صُبْحَةً ... وفيها علىٌّ فاترُكا الخيلَ ناحيهْ
وكُونا بعيداً حيث لايبلغ القنـا ... نُحورَكما ، إنّ التجارِبَ كافيـهْ

***

وروى الواقدىّ قال : قال معاوية يوما بعداستقرار الخلافة له لعمرو بن العاص : ياأبا عبد الله ، لاأراك إلاويغلِبُنى الضحك ؛ قال: بماذا ؟ قال : أذكر يوم حمل عليك أبو تراب فى صِفّين ، فأزريت نفسك فَرَقاً من شَبا سنانه ، وكشفت سوأتك له ؛ فقال عمرو : أنا منك أشدّ ضحكا ؛ إنى لأذكرُ يومَ دعاك إلى البراز فانتفخ سَحْرُك ، وربا لسانُك فى فك ، وغَصِصْتَ بريقك ، وارتعدَتْ فرائصُك،وبدا منك ما أكره ذِكْرَه لك ؛ فقال معاوية : لم يكن هذا كلّه ، وكيف يكون ودونى عَكّ والأشعريون! قال : إنك لتعلم أن الذى وصفتُ دون ما أصابك ، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقِطُ[1] الحرب ! فقال : ياأبا عبد الله ، خُضْ بنا الهزل إلى الجِدّ، إن الجبْن والفرار من علىّ لا عار على أحدٍ فيهما .

***

---

(١) المأقط : موضع القتال .

[خبر إسلام عمرو بن العاص]

فأما القول فى إسلام عمرو بن العاص ، فقد ذكره محمد بن إسحاق فى كتاب "المغازى" قال :

حدثنى زيد بن أبى حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن أبى أوس الثقفى، عن حبيب ابن أبى أوس ، قال : حدثنى عمرو بن العاص من فيه ، قال :

لما انصرفنا [مع الأحزاب][1] من الخندق، جمعتُ رجالا من قُريش كانوا يرون رأيى، ويسمعون منّى، فقلت لهم: والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًا مُنكرا، وإنى قد رأيت رأيا، فما ترون فيه ؟ فقالوا: ما رأيت ؟ فقلت: أرى أن نَلْحق بالنجاشىّ، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشىّ ، فأنْ نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدىْ محمد ، فإن ظهر قومُنا فنحن مَن قد عرفوا، [فلن يأتنا منهم إلا خير][1]. قالوا : إنّ هذا الرأىُ ، فقلت : فاجمعوا ما نُهدِى له ـ وكان أحبُّ[2] ما يأتيه من أرضنا الأدَم[3] ـ فجمعنا له أدَماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه ، فوالله إنا لعندَه، إذ قدم عمرو بن أمية الضَّمْرِىّ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعثه إليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه.

قال : فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلتُ على النجاشىّ فسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أنى قد أجزأت[4] عنها حين قتلت رسول محمد، قال : فدخلتُ عليه فسجدت له فقال: مرحباً بصديق

---

(١) من سيرة ابن هشام .
(٢) السيرة : « ما يهدى إليه » .
(٣) الأدم : الجلود ، جمع أديم .
(٤) أجزأت عنها : قمت مقامها .

أهديتَ إليّ من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت لك أدَمًا كثيراً ، ثم قرّبته إليه ،فأعجبه واشتهاه ،ثم قلت له : أيّها الملك ،إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطنيه لأقتلَه ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلوانشقّت لى الأرض لدخلتُ فيها فرَقاً منه ، ثم قلت : أيّها الملك ، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتُكه ، فقال : أتسألنى أن أعطيَك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟ فقلت: أيّها الملك ، أكذلك هو ؟ فقال : إى، والله ! أطِعْنى ويحك واتبعه ،فإنه والله لعلَى حقّ ، وليظهرَنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت:فبايِعْنى له على الإسلام ، فبَسط يده،فبايعتُه على الإسلام ،وخرجتُ عامدا لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما قدمت المدينة جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله،وقد أسلم خالد ابن الوليد ، وقد كان صحِبَنى فى الطريق إليه ، فقلتُ : يارسول الله ، أبايعك على أن تغفرَ لى ماتقدم من ذنبى ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال : بايعْ ياعمرو ؛ فإن الإسلام يجبّ ماقبله ، وإن الهجرة تجبّ ماقبلها ، فبايعته وأسلمت [1] .

وذكر أبو عمر فى " الاستيعاب " : أنّ إسلامه كان سنة ثمانٍ ، وأنه قدِم وخالد ابن الوليدوعثمان بن طلحةالمدينة ، فلما رآهم رسولُ الله،قال : رمتْكم مكّة بأفلاذ كَبِدها.

قال : وقد قيل إنه أسلم بين الحديبيَة وخيبر، والقول الأول أصحّ [2] .

[بعث رسول الله عمرا إلى ذات السلاسل]

قال أبو عمر : وبعث رسولُ الله عمراً إلى ذات السّلاسل من بلاد قُضاعة فى ثلثمائة، وكانت أمّ العاص بن وائل من بَلِيّ ،فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عمراً إلى أرض بلِيّ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٧ (مطبعة حجازى) . (٢) الاستيعاب ١١٨٥ وما بعدها .

وعُذْرة ، يتألّفهم بذلك ويدعُوهم إلى الإسلام،فسارَ حتى إذا كان على ماء أرض جُذام ، يقال له:السلاسل ـ وقد سمّيت تلك الغزاة ذات السَّلاَسل ـ خاف، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يستنجدُ ، فأمدّه بجيش فيه مائتا فارس ، فيه أهلُ الشرَف والسوابق من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر،وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قَدِموا على عمرو ، قال عمرو : أنا أميرُكم وإنما أنتم مدَدِى ، فقال أبو عبيدة : بل أنا أمير مَنْ معى وأنت أمير من معك ، فأبى عمرو ذلك ، فقال أبو عبيدة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلىّ فقال : إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا ولا تختلفا ، فإن خالفتَنى أطعتك ، قال عمرو : فإنى أخالفك ، فسلّم إليه أبو عبيدة، وصلى خلفه فى الجيش كله ، وكان أميرا عليهم، وكانوا خمسمائة .

***

[ولايات عمرو فى عهد الرسول والخلفاء]

قال أبو عمر : ثم ولاه رسول الله صلى الله عليه وآله عُمان ، فلم يزل عليها حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية ، وكان عمر بن الخطاب ولّاه بعد مَوْت يزيد بن أبى سفيان فِلَسْطين والأردنّ ، وولّى معاوية دمشق وبعلبكّ والبلقاء ، وولى سعيدَ بن عامر بن خذيم حِمْص . ثم جمع الشام كلّها لمعاوية ، وكتب إلى عمرو ابن العاص أن يسيرَ إلى مصر، فسار إليها فافتتحها ،فلم يزل عليها واليا حتى مات عمر فأمّره عثمان عليها أربع سنين ونحوها ، ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن سعد العامرىّ .

قال أبو عمر : ثم إن عمرو بن العاص ادّعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذى كان عاهدهم ، فعمِد إليها، فحارب أهلها وافتتحها ، وقتل المقاتلة وسَبى الذرّية ، فنقم ذلك عليه عثمان ، ولم يصحّ عنده نقضُهم العهدَ ، فأمر بردّ السَّبْى الذى سُبوا من القُرى إلى مواضعهم ، وعزل عمرا عن مصر ، وولى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح العامرىّ

مصر بدله ؟ فكان ذلك بدوُّ الشر بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفّان ، فلمّا بدا بينهما من الشرّ ما بدا ، اعتزل عمرو فى ناحية فلسطين بأهله ، وكان يأتى المدينة أحيانا ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية بالشام ، بعثه إلى مصر بعد تحكيم الحكمَيْن فافتتحها ، فلم يزل بها إلى أن مات أميرا عليها ، فى سنة ثلاث وأربعين ، وقيل سنة اثنتين وأربعين ، وقيل سنة ثمان وأربعين ، وقيل سنة إحدى وخمسين .

قال أبو عمر : والصحيح أنه مات فى سنة ثلاث وأربعين ، ومات يوم عيد الفِطْر من هذه السنة وعمره تسعون سنة ، ودفن بالمقطَّم من ناحية السَّفح ، وصلّى عليه ابنه عبدالله ، ثم رجع فصلّى بالناس صلاةَ العيد ، فولاه معاوية مكانه ، ثم عزله وولى مكانه أخاه عُتْبة ابن أبى سفيان .

قال أبو عمر : وكان عمرو بن العاص من فُرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية ، مذكوراً فيهم بذلك ، وكان شاعرا حسن الشعر ، وأحد الدُّهاة المتقدمين فى الرأى والذكاء ، وكان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلا فى رأيه وعقله ، قال : أشهد أنّ خالقك وخالق عمرو واحد ؛ يريد خالق الأضداد[1] .

* * *

[نُبذ من كلام عمرو بن العاص]

ونقلت أنا من كتب متفرِّقة كلمات حِكْمية تُنسب إلى عمرو بن العاص ، استحسنتُها وأوردتها ، لأنى لا أجحد أفاضل فضلَه ، وإن كان دينُه عندى غيرَ مرضىّ .

فمن كلامه : ثلاث لا أملّهنّ : جليسى ما فهِم عنى ، وثوبى ما سترنى ، ودابتى ما حملتْ رَحْلى .

---

(١) انظر أخبار عمرو بن العاص فى الاستيعاب ص ١١٨٤ وما بعدها .

وقال لعبد الله بن عباس بصِفّين : إن هذا الأمرَ الذى نحن وأنتم (١ فيه ،ليس بأوّل أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر مِنّا ومنكم ماترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياة ولا صبرا ، ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ؛ ولكنا ١) نقول : ليتها لم تكن كانت ! فافعل فيما بقىَ بغير مامضى ، فإنك رأسُ هذا الأمر بعد علىّ ، وإنما هو آمر مطاع ، ومأمور مطيع ، ومبارز مأمون ، وأنت هو .

ولمّا نصب معاوية قميصَ عثمان على المنبر ، وبكى أهل الشام حوله ، قال : قد هممتُ أن أدعَه على المنبر ، فقال له عمرو : إنه ليس بقميص يوسف ، إنه إن طال نظرهم إليه ، وبحثوا عن السبب وقفوا على مالا تحبّ أن يقفوا عليه ، ولكن لذّعهم بالنظر إليه فى الأوقات .

وقال : ماوضعت سرّى عند أحد فأفشاه فلُمْتُه ، لأنى أحقّ باللوم منه إذ كنتُ أضيَقَ به صدرا منه .

وقال: ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشرّ ، لكن العاقل من يعرف خير الشرّين.

وقال عمر بن الخطاب لجلسائه يوما وعمرو فيهم : ما أحسنُ الأشياء ؟ فقال كلٌّ منهم ماعنده ؟ فقال : ماتقول أنت ياعمرو ؟ فقال :

* الغمراتُ ثمّ ينجلينا (٢) *

وقال لعائشة :لوددت أنك قتلتِ يوم الجمل ، قالت: ولِمَ لاأبالك ؟! قال: كنت تموتين بأجَلِك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبرَ التشنيع على علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

وقال لبنيه ، يابَنِىّ ، اطلبوا العلم ، فإن استغنيتم كان جَمالا ، وإن افتقرتم كان مالا .

ومن كلامه : أميرٌ عادل خيرٌ من مطر وَابل ، وأسدٌ حطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم ، وزلّة الرِّجل عَظمٌ يجبَر ، وزلّة اللسان لاتُبقِى ولاتذَر . واستراح مَنْ لاعقل له .

(١ـ١) ساقط من ب ، ج ، وأثبته من ا .

(٢) البيت من رجز للأغلب العجلى ؛ جمهرة الأمثال ١٥٠

وكتب إليه عمر يسأله عن البحر ، فكتب إليه : خَلْق عظيم يركبه خَلْق ضعيف . دُود على عود ، بين غرق ونَزَق .

وقال لعثمان وهو يخطب على المنبر : ياعثمان ، إنك قد ركبتَ بهذه الأمة نهاية من الأمر ، وزغت فزاغوا ، فاعتدِل أو اعتزِل .

ومن كلامه : استوحِش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ؛ فإنّ الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع .

وقال : تُجمع العجز إلى التوانى فنتج بينهما الندامة ، وجُمع الجبن إلى الكسل فنتَجَ بينهما الحرمان .

* * *

وروى عبدالله بن عباس ، قال : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتُضِر ، فقلت : ياأبا عبدالله؛ كنت تقول : أشتهى أنّى أرى عاقلا يموت حتى أسأله كيف تجد ، فماذا تجد ؟ قال: أجد السماء كأنها مطبِقة على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنما أتنفس من خرق إبرة ، ثم قال: اللهم خُذْ منّى حتى ترْضَى ، ثم رفع يده ،فقال :اللهم أمرتَ فعصينا،ونهيت فركبنا؛فلا برىء فأعتذر ، ولا قوىّ فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ؛ فجعل يرددها حتى فاض.

وقد روى أبو عمر بن عبدالبرّ هذا الخبر فى كتاب " الاستيعاب " ،قال:لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، قال: اللهمّ أمرتَنى فلم أئتمر،وزجرتَنى فلم أنزجر. ووضع يده فى موضع الغلّ ، ثم قال : اللهمّ لاقَوِىّ فأنتصر ؛ ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبرٌ بل مستغفر ،لاإله إلا أنت ؛ فلم يزل يرددها حتى مات .

قال أبو عمر : وحدثنى خلف بن قاسم ، قال : حدثنى الحسن بن رشيق ، قال : حدثنا الطحاوىّ ، قال : حدثنا المُزنىّ ، قال : سمعت الشافعىّ يقول : دخل ابنُ عباس على عمرو ابن العاص فى مرضه ، فسلّم عليه ، فقال : كيف أصبحت ياأبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدتُ من دينى كثيرا ؛ فلوكان الذى أصلحتُ هو الذى

أفسدت ، والذى أفسدت هو الذى أصلحت ، لَفُزت . ولو كان ينفعنى أنْ أطلبَ طلبتُ، ولو كان ينجيني أن أهرُب ، هربت فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض ، لا أرق بيدين ، ولا أهبط برجلين ، فعظنى بعظةٍ أنتفع بها يابن أخى ، فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله ، صار ابنُ أخيك أخاك ، ولا تشاء أن تَبكَى إلا بَكيت[1]، كيف يؤمر برحيلٍ من هو مقيم ! فقال عمرو على حينها : من حين ابن بضع وثمانين تقْنِطنى من رحمة ربى! اللهمّ إنّ ابن عباس يُقنطنى من رحمتك ، فخذمنّى حتى ترضى؛ فقال ابن عباس : هيهات أبا عبد الله! أخذتَ جديدا وتُعطى خَلَقا ؛ قال عمرو : مالى ولك يابن عباس ! ماأُرسل كلمة إلا أرسلتَ نقيضها[2] .

***

وروى أبو عمر فى كتاب " الاستيعاب " أيضا عن رجال قد ذكرهم وعدّدهم أنّ عمْراً لما حضرته الوفاة ، قال له ابنه عبد الله وقد رآه يبكى : لِمَ تبكى ؟ أجزَعاً من الموت؟ قال : لا والله ، ولكن لما بعده . فقال له : لقد كنت على خيرٍ ، فجعل يُذكّرُهُ صحبةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفتوحه بالشام ، فقال له عمرو : تركتَ أفضل من ذلك شهادةَ أن لا إله إلا الله ، إنى كنت على ثلاثة أطباق ، ليس منها طبَق إلا عرفتُ نفسى فيه ، كنت أولَ أمرى كافرا ، فكنت أشدّ الناس على رسول الله صلى الله عليه ، فلو مِتّ حينئذ وجبتْ لى النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه ، كنت أشدّ الناس حياء منه ، فما ملأتُ منه عينى قطّ ، فلو متّ يومئذ قال الناس : هنيئا لعمرو! أسلم وكان على خير ، ومات على خير أحواله ، فسرّحوا له بالجنة؛ ثم تلبّثتُ بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدرى

---

(١) الاستيعاب : « أن تبكى إلا بكيت » .

(٢) الاستيعاب ١١٨٩ .

أعليّ أم لى ؟ فإذا مت فلا تبكينّ عليّ باكية ، ولا يتبعنى نائح ، ولا تقرّبوا من قبرى نار ، وشُدّوا عليّ إزارى ، فإنى مخاصَم ، وشنوا عليّ التراب شنًّا ؛ فإنّ جنبي الأيمن ليس بأحقّ من جنبي الأيسر ، ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجرا ، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قَدْرَ نحر جزور وتقطيعها ؛ أستأنس بكم [1]

***

فإن قلت : فما الذى يقوله أصحابك المعتزلة فى عمرو بن العاص ؟ قلت : إنهم يحكمون على كلّ من شهد صِفِّين ، بما يحكم به على الباغى الخارج على الإمام العادل ، ومذهبهم فى صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم .

فإن قلت : أليس فى هذه الأخبار ما يدل على توبته ؛ نحو قوله : « ولا مستكبر بل مستغفر » وقوله : « اللهمّ خذمنى حتى ترضى » وقوله : « أمرتَ فعصيت ، ونهيت فركبت » . وهذا اعتراف وندم ، وهو معنى التوبة ؟ قلت : إن قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ﴾ [2] يمنع من كون هذا توبة ، وشروط التوبة وأركانها معلومة ، وليس هذا الاعتراف والتأسّف منها فى شىء .

وقال شيخُنا أبو عبد الله : أوّلُ مَنْ قال بالإرجاء المحْض معاوية وعمرو بن العاص ، كانا يزعُمان أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية ، ولذلك قال معاوية لمن قال له : حاربتَ من تعلَم ، وارتكبتَ ما تعلَم ، فقال : وثقتُ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [3] .

---

(١) الاستيعاب ١١٩٠
(٢) سورة النساء ١٨ .
(٣) سورة الزمر ٥٣ .

وإلى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابنه : تركتَ أفضلَ من ذلك ؛ شهادةَ أن لا إله إلا الله .

***

[فصل في شرح ما نسب إلى عليّ من الدعابة]

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاص في عليّ عليه السلام لأهل الشام : «إن فيه دُعابة»، يروم أن يعيبه بذلك عندهم ؛ فأصل ذلك كلمة قالها عمر فتلقفها ، حتى جعلها أعداؤه عيبا له وطعنا عليه

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في كتاب " الأمالي " :

كان عبدالله بن عباس عند عمر ، فتنفّس عمر نَفَساً عاليا ، قال ابن عباس : حتى ظننت أن أضلاعه قد انفرجَتْ ، فقلت له : ما أخرجَ هذا النَّفَس منك يا أمير المؤمنين إلا همٌّ شديدٌ . قال : إي والله يا ابن عباس ، إني فكّرت فلم أدرِ فيمن أجعلُ هذا الأمر بعدى . ثم قال: لعلك ترى صاحبَك لها أهلا ؟ قلت : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه! قال : صدقتَ ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة ؛ قلت : فأين أنت من طلحة ؟ قال : هو ذو البأو [(١)] بإصبعه المقطوعة . قلت : فعبدالرحمن ؟ قال : رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتَمه في يد امرأته . قلت : فالزبير ؟ قال شَكِس لَقِس [(٢)]، يلاطم في البقيع في صاعٍ من بُرّ . قلت : فسعد بن أبي وقاص ؟ قال: صاحب مِقْنَبٍ [(٣)] وسلاح ؛ قلت: فعثمان، قال: أوْه أوْه ؛ مرارا . ثم قال : والله لئن وليها ليحملنَّ بني أبي مُعَيط على رقاب الناس ، ثم لتنهضنّ إليه العرب فتقتله . ثم قال : يا ابن عباس ، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف العُقْدة ، قليل الغِرّة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ؛ يكون شديدا من غير عُنف ، ليّنا من

---

(١) البأو : الكبر والفخر ؛ وفي اللسان : روى الفقهاء : « في طلحة بأواء » .
(٢) الشكس : الصعب الخلق ، واللقس السيء .
(٣) المقنب : جماعة الخيل .

غير ضعف ، جوادا من غير سَرَف ، مُمسكا من غير وكَف[1] . قال ابن عباس : وكانت هذه صفات عمر ، ثم أقبل علىّ فقال : إنّ أحرَاهم أن يحملهم على كتاب ربهم وسنّة نبيهم لصاحبُك ، والله لئن وليَها ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم .

* * *

واعلم أن الرجل ذا الخلق المخصوص لا يرى الفضيلةَ إلا في ذلك الخُلق ، ألا ترَى أنّ الرجل يبخلُ فيعتقد أنّ الفضيلةَ في الإمساك والبخيل يعيب أهلَ السّماح والجود، وينسبهم إلى التبذير وإضاعة الحزم ، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبُهم إلى ضيق النّفْس وسوء الظنّ وحب المال ، والجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها خرَقا وتغريرا بالنفس ، كما قال المتنبي :

* يرى الجبناء أنّ الجبنَ حزمٌ[2] *

والشجاع يعيب الجبانَ وينسُبه إلى الضعف ، ويعتقد أنّ الجبن ذلّ ومهانة ! وهكذا القول في جميع الأخلاق والسجايا المقتسمة بين نوع الإنسان . ولمّا كان عمر شديد الغِلْظَة وَعْر الجانب ، خشِن الملمس دائم العبوس ، كان يعتقد أنّ ذلك هو الفضيلة وأن خِلافه نقص، ولو كان سهلا طلْقا مطبوعا على البشاشة وسماحة الخُلق ، لكان يعتقد أنّ ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص ، حتى لو قدّرنا أن خُلقَه حاصل لعليّ عليه السلام ، وخُلقَ عليّ حاصل له، لقال في عليّ : « لولا شراسة فيه » .

فهو غير ملوم عندي فيما قاله ، ولا منسوب إلى أنه أراد الغضّ من عليّ ، والقدح

---

(١) الوكف : العيب .

(٢) ديوانه ٢٣٩ وبقيته :

* وَتِلْكَ خَدِيعةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ *

فيه ، ولكنه أخبر عن خُلقه، ظانّاً أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة ،العظيم الوعورة . وبمقتضى ما كان يظنّه من هذا المعنى ، تمّم خلافة أبى بكر بمشاركته إياه فى جميع تدابيراته وسياسته وسائر أحواله ، لرفقٍ وسهولة كانت فى أخلاق أبى بكر ، وبمقتضى هذا الخلُق المتمكّن عنده ، كان يشير على رسول الله صلى الله عليه وآله فى مقامات كثيرة ، وخطوب متعددة ، بقتل قوم كان يرى قتلَهم ، وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله يرَى استبقاءهم واستصلاحَهم ، فلم يقبلْ عليه السلام مشورتَه على هذا الخلُق .

وأما إشارته عليه يوم بدر بقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفِداء ، فكان الصواب مع عمر ونزل القرآن بموافقته ، فلما كان فى اليوم الثانى وهو يوم الحديبيَة أشار بالحرب ، وكرِه الصلح ، فنزل القرآنُ بضدّ ذلك ، فليس كلّ وقت يصلح تجريد السيف ، ولا كلّ وقت يصلح إغماده ، والسياسة لا تجرى على منهاج واحدٍ ولا تلزم نظاما واحدا .

وجملة الأمر أنه رضى الله عنه لم يقصِدْ عيبَ علىّ عليه السلام ، ولا كان عنده معيباً ، ولا منقوصاً؛ ألا ترَى أنه قال فى آخر الخبر : «إنّ أحْرَاهم إن وَليَها أن يحملهم على كتابِ الله وسنّة رسوله لِصاحبُك» ، ثم أكّد ذلك بأن قال : «إن وَليَهم ليحملنّهم على المحجّة[١] البيضاء والصراط المستقيم» ، فلو كان أطلَق تلك اللفظة ، وعنَى بها ما حملها عليه الخصوم ، لم يقل فى خاتمة كلامه ما قاله .

وأنت إذا تأمّلت حالَ علىّ عليه السلام فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدتَه بعيداً عن أن يُنسبَ إلى الدُّعابة والمُزاح ، لأنه لم ينقَل عنه شىء من ذلك أصلا ؛ لا فى كتب الشيعة ولا فى كتب المحدّثين ، وكذلك إذا تأمّلت حالة[٢] فى أيام الخليفتين أبى بكر وعمر ، لم تجدْ فى كتب السيرة حديثا واحدا يمكن أن يتعلّق به متعلق فى دُعابته ومُزاحه ، فكيف يُظنّ

---

(١) المحجة : الطريق ؛ والطريق تذكر وتؤنث . (٢) ج : « حالته » .

بعمر أنه نَسَبه إلى أمر لم ينقله عنه ناقل ، ولا ندّد به صديق ولا عدوّ ؛ وإنما أراد سهولة خُلُقِه لا غَيْر ، وظنّ أن ذلك مما يُفْضى به إلى ضعف إنْ ولىَ أمر الأمّة ، لاعتقاده أنّ قِوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة ، بناء على ما قد ألفتْه نفسه ، وطبعَتْ عليه سجيّتهُ ، والحال فى أيام عثمان ، وأيّام ولايته عليه السلام الأمرَ كالحال فيما تقدم ، فى أنه لم يظهر منه دُعابة ، ولا مُزاح يسمّى الإنسان لأجله ذا دُعابة ولعب . ومن تأمّل كتب السِّيَر عرف صِدْق هذا القول ، وعرف أن عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصِدْ بها العيب فجعلها عيباً ، وزاد عليها أنه كثيرُ اللعب ، يعافِس النساء ويمارسهنّ ، وأنه صاحب هزْل .

ولعمر الله لقد كان أبعدَ الناس من ذلك ، وأىّ وقت كان يتّسع لعلىّ عليه السلام حتى يكون فيه على هذه الصفات ؟ فإن أزمانه كلّها فى العبادة والصلاة ، والذّكر والفتاوى والعلم ، واختلاف الناس إليه فى الأحكام وتفسير القرآن ، ونهاره كلّه أو معظمه مشغول بالصوْم ، وليله كله أو معظمه مشغول بالصلاة . هذا فى أيام سِلْمه ، فأما أيام حربه فبالسيف الشهير ، والسِّنان الطرير(١) ، وركوب الخيل ، وقوْد الجيش ، ومباشرة الحروب .

ولقد صدق عليه السلام فى قوله : « إننى ليمنعنى من اللعب ذكرُ الموت » ، ولكنّ الرجل الشريف النبيل ، الذى لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يَعُدّوا عليه وَصْمة ، لا بدّ أن يحتالوا ويبذلوا جهدهم فى تحصيل أمرٍ ما وإن ضعف ، يجعلونه عذراً لأنفسهم فى ذمّه ، ويتوسّلون به إلى أتباعهم فى تحسينهم لهم مفارقته ، والانحراف عنه ، وما زال المشركون والمنافقون يصنعون لرسول الله صلى الله عليه وآله الموضوعات ، ينسبون إليه ماقد برّأه الله عنه من العيوب والمطاعن ، فى حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا ، ومايزيدُه الله سبحانه إلا رفعة وعلوّا ، فغيرُ منكَر أن يعيب عليًّا عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه ، بما إذا تأمله المتأمل ، علم أنهم باعتمادهم عليه وتعلُّقهم به ، قد اجتهدوا

---

(١) سنان طرير : أى محدد .

فى مدحه والثناء عليه ، لأنهم لو وجدوا عيباً غير ذلك لذكروه ، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده فى أن يُثنىَ أعداؤه وشانِئوه عليه من حيث لا يعلمون ، لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقاً ألطفَ من هذه الطريق التى أسلكهم الله تعالى فيها ، وهداهم إلى مناهجها ، فظنُّوا أنهم يغضون منه ؛ وإنما أعلوا شأنه ، ويضعون من قدره ، وإنما رفعوا منزلته ومكانه .

* * *

[أقوال وحكايات فى المزاح]

ونحن نذكر من بعد ، ما جاء فى الأحاديث الصحاح والآثار المستفيضة ، المتفَق على نقلها مزاحَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتابعين له ، ليُعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشَّرْعية لم يكن قبيحا .

فأول ذلك ماروواه الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنى أمزح ، ولا أقول إلا حقًّا »

وقيل لسفيان الثورىّ : المزاح هُجْنة ؟ فقال : بل هو سنة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنى أمزح ولا أقول إلا الحق »

وجاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لامرأة من الأنصار : « الحقى زوجك فإنّ فى عينه بياضا » ، فسعتْ نحوه مرعوبة ، فقال لها : ما دهاك ؟ فأخبرته ، فقال : نعمْ إنّ فى عينى بياضاً لا لسوء ، فخفّضى عليك . فهذا من مُزاح رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأتت عجوز من الأنصار إليه عليه السلام ، فسألته أن يدعوا الله تعالى لها بالجنة ، فقال : « إن الجنة لاتدخلها العجُز » فصاحت ، فتبسم عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا[1] ﴾ .

---

(١) سورة الواقعة ٣٥

وفى الخبر أيضا : أن امرأة استحملته ، فقال : « إنا حاملوكِ إن شاء الله تعالى على ولد الناقة » ، فجعلت تقول : يارسول الله : وما أصنع بولد الناقة ؟ وهل يستطيع أن يحملنى ! وهو يبتسم ويقول : « لا أحملك إلّا عليه » ، حتى قال لها أخيرا : « وهل يلد الإبل إلا النوق » !

وفى الخبر أنه عليه السلام مَرّ ببلال وهو نائم فضربه برجله ، وقال : أنائمةٌ أمّ عمرو ؟ فقام بلال مرعوبا ، فضرب بيده إلى مذاكيره ، فقال له : مابالك ؟ قال: ظننت أنى تحوّلت امرأة . قيل : فلم يمزح رسول الله بعد هذه .

وفى الخبر أيضا أن نُغَرا [١] كان لصبىٍّ من صبيان الأنصار ، فطار من يده ، فبكى الغلام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ به فيقول: « ياأبا عمير ، مافعل النُّغَير » ؟ والغلام يبكى .

وكان يمازح ابنىْ بنته مُزاحا مشهورا ، وكان يأخذ الحسين عليه السلام ، فيجعله على بطنه ، وهو عليه السلام نائم على ظهره ويقول له : حُزُقّة حُزُقّة ، تَرَقّ عين بَقّة [٢] .

وفى الحديث الصحيح المتفق عليه : أنه مرّ على أصحاب الدِّرَكْلة وهم يلعبون ويرقصون ، فقال : جِدّوا يابنى أرْفَدَة ، حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فُسحة .

قال أهل اللغة : الدِّرَكْلة ، بكسر الدال والكاف: لعبة للحبش فيها ترقص. وبنو أرْفَدَة: جنس من الحبش يرقصون .

وجاء فى الخبر أنه سابَق عائشة فسبقته ، ثم سابقها فسبقها فقال : هذه بتلك .

وفى الخبر أيضا أن أصحاب الزفافة وهم الراقصون ، كانوا يقمَعون [٣] باب حجرة عائشة، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة ، فيخرج هو عليه السلام من ورائها مستترا بها .

وكان نعيمان [٤] ، وهو من أهل بدر ، أوْلَعَ الناس بالمُزاح عند رسول الله صلى الله عليه

---

(١) النغر : صغار العصافير . وانظر اللسان .

(٢) الحزقة : الضعيف الذى يقارب خطوه من ضعف . وعين بقة كناية عن صغر العين وانظر اللسان ١١ : ٣٣٠

(٣) يقمعون : يضربون . (٤) هو نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث ؛ كذا نسبه وترجم له وذكر طائفة من أخباره فى الإصابة ٤ : ٥٤٠

وكان يكثر الضحك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يدخل الجنة وهو يضحك » .

وخرج نُعيمان هو وسويبط بن عبد العزّى[١] وأبو بكر الصديق ، فى تجارة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بعامين ، وكان سُويبط على الزاد ، فكان نُعَيمان يستطعمه فيقول: حتى يجيء أبو بكر ؛ فمرّ بركب من نجْران ،فباعه نُعَيمان منهم على أنه عبدٌ له بمشر قلائص ، وقال لهم : إنه ذولسان ولهجة ، وعساه يقول لكم : أنا حرّ ؛ فقالوا : لا عليك . وجاءوا إليه فوضعوا عمامته فى عنقه ، وذهبوا به ، فلما جاء أبو بكر أُخبر بذلك ، فرده وأعاد القلائص إليهم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه من ذلك سَنَة[٢] .

وروى أن أعرابياً باع نُعَيمانَ عكّة[٣] عسل ، فاشتراها منه ، فجاء بها إلى بيت عائشة فى يومها وقال : خذوها، فظنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهداها إليه، ومضى نُعَيمان، فنزل الأعرابىّ على الباب ، فلما طال قعوده نادى : ياهؤلاء ، إما أن تعطونا ثمن العسل أو تردّوه علينا ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بالقصة ، وأعطى الأعرابىّ الثمن، وقال لنُعَيمان :ماحملك على مافعلت ؟قال :رأيتُك يارسولَ الله ؛ تحبّ العسل ، ورأيت العُكّة مع الأعرابىّ . فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينكِر عليه .

وسئل النَّخَعىّ : هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون ؟فقال : نعم والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى .

وجاء فى الخبر أن يحيى عليه السلام لقى عيسى عليه السلام ، وعيسى متبسّم ، فقال يحيى عليه السلام : مالى أراك لاهياً كأنك آمن ! فقال عليه السلام : مالى أراك عابساً

---

(١) فى الإصابة ٢ : ٩٦ ، ٩٧ : « سويبط بن حرملة ، قال : ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق وعروة فيمن هاجر إلى الحبشة »   (٢) الخبر فى الإصابة ٢ : ٩٧ .

(٣) العكة : زق السمن أو العسل .

كأنك آيس ؟ فقالا : لا نبرح حتى ينزل علينا الوحى، فأوحى الله إليهما: أحبُّكما إلىّ الطلقُ البسّام ، أحسنُـكما ظناً بى .

وروى عن كبراء الصحابة رضى الله تعالى عنهم أنهم كانوا يتمازحون ويتناشدون الأشعار ، فإذا خاضوا فى الدين ، انقلبت حماليقهم ، وصاروا فى صور أخرى .

وروى أن عبدالله بن عمر قال لجاريته : خلقنى خالق الخير ، وخلقك خالق الشر . فبكت ، فقال : لا عليك ، فإن الله تعالى هو خالق الخير وهو خالق الشر .

قلت : يعنى بالشرّ المرض والغلاء ونحوهما .

وكان ابن سيرين ينشد :

نُبِّئتُ أن فتـاة كنتُ أخطبُـا عُرقوبها مثلُ شهر الصوم فى الطولِ [1]

ثم يضحك حتى يسيل لعابه .

وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب ، فوجده مستلقيا على مِرفقةٍ له، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى ، منشداً بصوت عال :

وكيف ثَوائِى بالمدينـة بعـدما قَضَى وطراً منها جميلُ بن معمرِا

فلما دخل عبد الرحمن وجلس ، قال : يا أبا محمد ، إنّا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

وكان سعيد بن المسيّب ينشد :

لقد أصبحتْ عِرْس الفرزدق جامحـاً ولو رضيت رمح استه لاستقرّتِ [2]

ويضحك حتى يستغرق .

وكان يقال : لا بأس بقليل المُزاح يخرج منه الرجل عن حَدّ العبوس .

---

(١) زهر الآداب ١٦٥ ، من غير نسبة .

(٢) لجرير ، ديوانه ٨٨

ومن كلام بعض الأدباء : ونحن نحمد الله إليك، فإن عُقْدة الإسلام فى قلوبنا صحيحة، وأواخِيه عندنا ثابتة ، وقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم ، وأن يَشُوبوا يقيننَا بشكّهم ، فعَصِم الله منهم، وحال توفيقه دونهم ، ولنا بعدُ مذهب فى الدُّعابة جميل، لا يشوبه أذى ولا قذَى ، يخرج بنا إلى الأنس من العُبوس ، وإلى الاسترسال من القُطوب ، ويلحقنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن لُبسة الرياء ، وأنفِوا من التشوّف بالتصنّع .

وقال ابن جُرَيج : سألت عطاء عن القراءة على ألحان الغناء والحُداء، فقال لى: لا بأس بذلك؛ حدثنى عبيد الله بن عمر الليثىّ ، أنه كان لداود النبىّ عليه السلام مِعْزَفَة ، قد يضرب بها إذا قرأ الزبور ، فتجتمع إليه الطير والوحش ، فيبكى ويُبكى مَنْ حوله .

وقال جابر بن عبدالله الجُعفى : رأيت الشعبىّ يقول لخياط يمازحه : عندنا حُبٌّ مكسور وأحب أن تخيطه ؛ فقال الخياط : أحضر لى خيوطاً من ريح لأخيطه لك .

وسئل الشعبىّ : هل يجوز أن يؤكل الجِنّى لو ظُفر به ؟ فقال: ليتنا نخرج منه كَفافا[1] لا لنا ولا علينا .

وسأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان، فقال : توفى البارحة ، أما شعرت ؟ فخرج يسترجع ، فلما رأى ابن سيرين جزعه ، قرأ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [2] .

وكان زيد بن ثابت من أفكه الناس فى بيته وأرفثهم، وقد أباح الله تعالى الرّفث إلى النساء ، فقال: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ

(١) الكفاف : المثل .

(٢) سورة الزمر ٤٢ .

وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[1]. وقال أهـلُ اللغة : الرَّفَث : القول الفاحش تخاطَب به المرأة حال الجماع .

ومرّ بالشعبيّ حمّال على ظهره دَنّ خَلّ ،فوضع الدَّنّ وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشعبيّ : ذلك نكاح ماشهدناه .

وقال عِكْرمة : خَتَن ابنُ عباس بنِيه فأرسلني ، فدعوت اللّعّابين فلعبوا ، فأعطاهم أربعة دراهم .

وتقدّم رجلان إلى شُريح في خُصومة ، فأقرّ أحدُهما بما ادُّعِيَ عليه وهو لايدرى ، فقَضَى شُريح عليه ، فقال : أصلحك الله ! أتقضى علىّ بغَيْر بينة ؟ قال : بلى ، شهد عندى ثقة . قال : ومَنْ هو ؟ قال : ابنُ أخت خالتك .

وجاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله مرّ بصُهيب وهو أرمد يأكل تمراً ،فنهاه، فقال : إنما آكله عن جانب العين الصحيحة يارسول الله ، فضحك منه ولم ينـكِر عليه .

وفي الخبر أنّه صلى الله عليه وآله مرّ بحسان بن ثابت ، وقد رشّ[2] أطماره ، وعنده جارية تغنيه :

هـل علىّ ويحـكما إن لهوتُ من حَرَجِ

فقال صلى الله عليه وآله : « لاحَرَجَ إن شاء الله » .

وقيل : إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت في أيام معاوية : لوغنّتك فلانة جاريتى صوت كذا لم تدرِكْ ركابك ،فقال : ياأبا جعفر، ﴿ فَـكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) رش أطماره : غسلها

(٣) سورة الحج .

وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب : مرّ بى عمر وأنا وعاصم نغنّى غناء النَّصْب[1] ، فوقف وقال : أعيدا علىّ ، فأعدنا عليه ، وقلنا : أينا أحسن صنعة ياأمير المؤمنين ؟ فقال : مَثَلُكما كحمارى العِبادِىّ ، قيل له : أىّ حماريك شرّ ؟ فقال : هذا ثم هذا. فقلت: ياأميرَ المؤمنين ، أنا الأول من الحمارين ؟ فقال : أنت الثانى منهما .

ومرّ نعيمان وهو بَدْرِىّ بمخرمة بن نوفل فى خلافة عثمان ، وقد كُفّ بصره ، فقال: ألا يقودنى رجل حتى أبول ؟ فأخذ نعيمان بيده حتى صار به إلى مؤخر المسجد ، وقال : هاهنا فَبُلْ ، فبال، فصاح به النّاس ، فقال : مَنْ قادنى ؟ قيل : نعيمان ، قال : لله علىّ أن أضرِبَه بعصاى هذه . فبلغ نعيمان فأتاه ، فقال : بلغنى أنك أقسمت لتضربنّ نعيمان فهل لك فيه ! قال : نعم . قال : قم ، فقام معه حتى وافَى به عثمان بن عفان وهو يصلى ،فقال : دونك الرجل ،فجمع مخرَمة يديه فى العصا وضربه بها ، فصاح الناس : ويلك، أمير المؤمنين! قال : من قادنى ! قالوا : نعيمان ، قال : ومالى ولنعيمان ! لاأعرض له أبدا !

وكان طُويس يتغنّى فى عُرس ، فدخل النعمان بن بشير الأنصارى العرس وطويس يغنيهم :

أجَدَّ بعَمْرة هجرانُها ... وتسخط أم شاننا شانُها[2]

فأشاروا إليه بالسكوت ، فقال النعمان : دعوه إنه لم يقل بأسا ، إنما قال :

وعمْرةُ مِنْ سروات النّسا ... تنفحُ بالمسك أرْدانُها

وعَمْرة هذه أمّ النعمان ؛ وفيها قيل هذا النسيب .

وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين اللعب بالنرد والشّطْرَنج، ومنهم من روى عنهم شربَ النبيذ وسماع الغناء المطرب .

---

(١) النصب : غناء يشبه الحداء ؛ إلا أنه أرق .

(٢) البيتان لقيس بن الخطيم ، ديوانه ٧ ، ٨

فأمّا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسِّيَر ، لم تجد أحداً من خَلْقِ الله عدوًّا ولا صديقا ،روى عنه شيئا من هذا الفنّ ؛ لا قولا ولا فعلا ،ولم يكن جِدّ أعظم من جِدِّه ، ولا وقار أتمّ من وقاره ، وما هَزَل قطّ ولا لعِب ، ولا فارق الحقّ والناموس الدينيّ سرًّا ولا جهرا ؛ وكيف يكون هازلا ومن كلامه المشهور عنه : « ما مزح امرؤ مزْحة إلا ومجّ معها من عقله مجّة »! ولكنه خُلِق على سَجِيّةٍ لطيفة، وأخلاق سهلة ، ووجه طلْقٍ ،وقول حَسَن، وبِشْر ظاهر ،وذلك من فضائله عليه السلام ، وخصائصه التى منحه الله بشرفها ، واختصه بمزيّتها ، وإنما كانت غلظته وفظاظته فعلا لا قولا،وضربا بالسيف لا جَبْها بالقول ، وطَعْنا بالسنان لا عَضْها باللسان [1] ؛ كما قال الشاعر :

وتسفَه أيدينا ويحلُم رأيُنا ونشتِمُ بالأفعال ، لا بالتكلّم

***

[نبذ وأقوال فى حسن الخلق ومدحه]

فأمّا سوء الخلق فلم يكن من سجاياه ، فقد قال النبى صلى الله عليه وآله : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البُخْلُ وسوء الخلق » . وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [2]، وقال أيضا : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [3] .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ما الشؤم ! فقال : سوء الخلق .

وصحب جابر رجلًا فى طريق مكة ، فآذاه سوء خُلُقه ، فقال جابر : إنى لأرحمه ، نحن نفارقه ويبقى معه سوء خُلقه !

---

(١) يقال : جبهت فلانا ؛ إذا خاطبته بما يكره . والعضه : الرمى بالكذب والبهتان

(٢) سورة القلم ٤

(٣) سورة آل عمران ١٥٩

وقيل لعبد الله بن جعفر: كيف تجاورُ بنى زُهرة وفى أخلاقهم زَعارة (١)؟ قال: لايكون لى قِبَلهم شىء إلا تركتُه، ولا يطلبون منى شيئا إلا أعطيتهم.

وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال: «ألا أنبئكم بشرّ الناس»؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: «مَنْ نزل وحده، ومنع رِفْده، وضرب عبده»، ثم قال: «ألا أنبئكم بشرّ من ذلك»؟ قالوا: بلى، قال: «مَنْ لم يُقِل عثرة، ولا يقبل معذرة».

وقال إبراهيم بن عباس الصولىّ: لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله بمحاسن الخلق كلّها لرجحت، قوله: «إنكم لن تَسَعُوا (٢) الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم».

وفى الخبر المرفوع: «حُسن الخلق زمام من رحمة الله فى أنف صاحبه، والزّمام بيد الملَك، والملك يجرُّه إلى الخير، والخير يجرّه إلى الجنة؛ وسوء الخلق زمام من عذاب الله فى أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجرّه إلى الشرّ، والشرّ يجرّه إلى النار».

وروى الحسن بن علىّ عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله: «إن الرّجُل يدرك بحسن خلقه دَرَجة الصائم القائم، وإنه ليُكتب جبارا ولا يملك إلا أهله».

وروى أبو موسى الأشعرىّ، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يمشى وامرأةٌ بين يديه، فقلت: الطريقَ لرسول الله صلى الله عليه! فقالت: «الطريق معرَّض؛ إن شاء أخذ يمينا وإن شاء أخذ شمالا. فقال صلى الله عليه وآله: «دعوها فإنها جبّارة (٣)».

وقال بعض السلف: الحسَن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسّيّئ الخلق أجنبىّ عند أهله.

ومن كلام الأحنف: ألا أخبرُكم بالمحْمَدة بلا مذمّة؟ الخلق السّجيح، والكفّ عن القبيح. ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ الخلق الدنئ واللسان البذئ».

(١) الزعارة، وتشدد الراء: شراسة الخلق.

(٢) فى الأصول: «لن تشبعوا» تصحيف؛ ولفظ الحديث فى الجامع الصغير ١: ١٧٥: «إنكم لاتسعون الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

(٣) جبارة، أى مستكبرة عاتية. وانظر النهاية ١: ١٤٢

وفى الحديث المرفوع : « أول ما يوضع فى الميزان الخلُق الحسن » .

وجاء مرفوعا أيضاً : « المؤمن هيّن ليّن كالجمل الأنِف[1] ؛ إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » .

وجاء مرفوعا أيضا : « ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منّى مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون . ألا أخبركم بأبغضِكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : الثرثارون المتفيهقون » .

أبو رجاء العُطاردىّ : من سرّه أن يكون مؤمنا حقا ، فليكن أذلّ من قعُود ؛ كلّ من مرّ به ادّعاه .

فُضَيل بن عياض : لأن يصحَبنى فاجر حَسَنُ الخلُق ، أحب إلىّ من أن يصحبنى عابد سَيِّئُ الخلق ، لأنّ الفاسق إذا حَسُن خلقه خفّ على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقهُ ، ثقُل على الناس ومَقَتُوه .

دخل فَرْقَد ومحمد بن واسع على رجل يعودانه ، فجرى ذكر العنف والرّفق ، فروى فَرْقد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قيل له : عَلَى من حُرّمت النار يارسول الله ؟ قال : « على الهيّن الليّن السّهل القريب » ؛ فلم يجد محمد بن واسع بياضاً يكتب ذلك فيه ، فكتبه على ساقه .

عبد الله بن الدارانىّ : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسْوة القلب .

عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم باب رِفْق » .

وعنها ، عنه صلى الله عليه وآله : « من أعُطِىَ حظّه من الرّفق أعطِىَ حظّه من خير الدنيا والآخرة » .

---

(١) يريد سهل القادة ؛ وأصله أن البعير إذا اشتكى من البرة توضع فى أنفه يقال له : بعير أنف .

جرير بن عبد الله البَجَليّ رفعه « إنّ الله ليُعطى على الرفق ما لا يعطى على الخُرْق ، فإذا أحبّ الله عبدا أعطاه الرفق » . وكان يقال : « ما دخل الرِّفق فى شىء إلا زانه » .

أبو عَوْن الأنصاريّ : ما تكلّم الإنسان بكلمةٍ عنيفة إلا وإلى جانبها كلمة ألْيَن منها تجرى مجراها .

سئلتْ عائشة عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فقالت : كان خلقُه القرآن : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ[1] ﴾ .

وسئل ابنُ المبارك عن حُسْن الخلق ، فقال : بسْط الوجه ، وكفّ الأذى ، وبذْلُ الندى .

ابن عباس : إنّ الخُلُقَ الحسَن يُذِيب الخطايا كما تُذِيب الشمس الجليد ، وإنّ الخلُقَ السّيّئ يفسِد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل .

علىّ عليه السلام : ما من شىء فى الميزان أثقل من خُلُقٍ حسَن .

وعنه عليه السلام : عنوان صحيفة المؤمن حُسْنُ خلقه .

وعنه عليه السلام مرفوعاً : عليكم بحسْنِ الخلُق ؛ فإنه فى الجنّة ، وإياكم وسوء الخلق فإنّه فى النار .

قال المنصور لأخيه أبى العباس فى بنى حسن لما أزمَعُوا الخروج عليه : آنِسْهُم يا أميرَ المؤمنين بالإحسان ، فإن استوحشوا فالشرُّ يصلح ما يعجز عنه الخير ، ولا تَدَعْ محمدا يمرَحُ فى أعنّة العقوق . فقال أبو العباس : يا أبا جعفر ؟ إنه من شدّد نفّر ، ومن لان ألّف ، والتغافل من سجايا الكرام .

[فصل فى ذكر أسباب الغلظة والفظاظة]

ونحن نذكر بعدُ كلاماً كلّيا فى سبب الغلظة والفظاظة ، وهو الخلق المنافى للخلق الذى كان عليه أمير المؤمنين ، فنقول :

---

(١) سورة الأعراف ١٩٩

إنه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسمانى ، وقد يكون لأمر راجع إلى النفس :
فأمّا الأول ؛ فإنما يكون من غَلَبة الأخلاط السوداوّية وترمّدها ، وعدم صفاء الدّم وكثرة كدرته وعكَره، فإذا غلظ الدم وثخُن غلظ الرُّوح النفسانىّ وثخن أيضا ، لأنه متولدّ من الدم ، فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب الفِطْرة ، من الاستيحاش والنّبوة عن الناس وعدم الاستئناس والبشاشة ، وصار صاحبُه ذا جفاء وأخلاق غليظة ، ويشبه أن يكون هذا سببا ماديًّا ، فإنّ الذى يقوى فى نفسى أن النفوس إن صحّت وثبتت مختلفةٌ بالذات .

وأما الراجع إلى النفس فأن يجتمع عندها أسقاط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة ، نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوافرة ، وينضاف إليها تصوُّر الكمال فى ذاتها وتوهم النقصان فى غيرها، فيعتقد أنّ حركات غيره واقعة على غير الصّواب ، وأن الصواب ما توهمه .
وينضاف إلى ذلك قلّة أدب النفس وعدم الضبط لها واستحقارها للغير ؛ ويقلّ التوقير له، وينضاف إلى ذلك لجاجٌ ، وضيق فى النفس، وحدّة واستشاطة وقلة صبر عليه ، فيتولّد من مجموع هذه الأمور خُلُق دنىء؛ وهو الغلظة والفظاظة ، والوعورة والبادرة المكروهة ،وعدم حبّة الناس، ولقاؤهم بالأذى ، وقلّة المراقبة لهم ، واستعمال القَهْر فى جميع الأمور ، وتناول الأمر من السماء ؛ وهو قادر على أن يتناوله من الأرض .

وهذا الخلق خارجٌ عن الاعتدال ، وداخل فى حَيِّز الجوْر؛ ولا ينبغى أن يسمّى بأسماء المدح ، وأعنى بذلك أن قوماً يسمُّون هذا النوع من العنْف والخلق الوعر رجوليّة ، وشدةً وشكيمة، ويذهبون به مذهبَ قوة النفس وشجاعتها؛ الذى هو بالحقيقة مدح . وشتّان بين الخلقين ،فإنّ صاحبَ هذا الخلق الذى ذممناه تصدُر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه ؛على الأقربِ فالأقرب من معامليه، حتى ينتهىَ إلى عبيده وحرمه؛ فيكون عليهم سوط عذاب ، لا يقيلُهم عثْرة ، ولا يرحم لهم عَبْرة ، وإن كانوا برآء الذنوب ، غير مجرمين ولا مكتسبِى سوء ، بل يتجرّم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقا إليهم،

حتى يبسُط يده ولسانه ، وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على ردّه عن أنفسهم ، بل يُذعنون له ويقرُّون بذنوب لم يقترفوها ؛ استكفافا لعاديته وتسكينا لغَضبه ، وهو فى ذلك يستمرئ على طريقته لا يكفّ يدا ولا لسانا .

وأصل هذا الخلق الذى ذكرناه أنه مركّب من قوى مختلفة من شدة القوة الغضبية ، فهى الحاملة لصاحب هذا الخق على ما يصدُر عنه من البادرة المكروهة والجُبْه والقِحة ؛ وقد رأينا وشاهدنا من تشتدّ القوة الغضبية فيه ، فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التى لا تعقل ، وإلى الأوانى التى لا تحسّ ، وربما قام إلى الحِمار وإلى البرذَوْن فضربهما ولكمهما ، وربّما كسر الآنية لشدة غَضبه ، وربما عَضّ القُفل إذا تعسّر عليه ، وربما كسر القلم إذا تعلقت به شعرة من الدواة واجتهد فى إزالتها فلم تزل .

ويحكَى عن بعض ملوك اليونان المتقدّمين ؛ أنه كان يغضب على البحر إذا هاج واضطرب ، وتأخّرت سفنه عن النفوذ فيه ؛ فيقسم بمعبودِه ليطمّنه وليطرحنّ الجبال فيه حتى يصيرَ أرضا ، ويقف بنفسه على البحر ، ويهدده بذلك ، ويزجُره زجرا عنيفا ، حتى تدرّ أوداجُه ويشتدّ احمرار وجهه ؛ ومنهم من لا يسكن غضبُه حتى يصَبّ عليه ماء بارد أو حتى يبول ؛ ولهذا ورد فى الشريعة ، الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة ويصلّىَ .

وكان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكُن غضبُه ؛ حتى يعضّ يده عضًا شديدا حتى يُدميها .

***

وذكر الزبير بن بكار فى " الموفقيات " أن سرّية جاءت لعبد الرحمن أو لعبيد الله

ابن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، ألا تعذُرنى من أبى عيسى ؟ قال : ومَنْ أبو عيسى ؟ قالت : ابنك عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد تكنّى بأبى عيسى! ثم دعاه فقال : إيهاً ! اكتنيت بأبى عيسى ! فحذر وفزِع ، وأخذ يده فعضّها ؛ ثم ضربه ، وقال: ويلك ! وهل لعيسى أب؟ أتدرى ما كُنَى العرب ! أبو سلمة ، أبو حنظلة ، أبو عرفطة أبو مرّة . . .

قال الزبير : وكان عمر إذا غضِب على بعض أهله لم يَسكن غضبُه حتى يعضّ يده عضا شديدا . وكان عبد الله بن الزبير كذلك ، ولقوة هذا الخلُق عنده أضمر عبد الله بن عباس فى خلافته إبطال القول بالعول[1] وأظهره بعده ، فقيل له : هلا قلت هـذا فى أيام عمر ! فقال : هِبْته ، وكان أميرا مهيباً .

ولذلك قال أيضاً أبو سفيان فى استلحاق زياد :أخاف من هذا العَيْر الجالس أن يخرِق علىّ إهابىَ ؛ فإذا هابه أبو سفيان ، وهو من بنى عبد مناف فى المنزلة التى تعلم ، وحوله بنو عبد شمس ، وهم جمرة قريش ، فما ظنك بمن هو دونه !

وقد علمتَ حال جبلة بن الأيهم وارتدادَه عن الإسلام لتهدّده له ووعيده إياه أن يضربه بالدِّرّة ، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان وليّاً مصافيا ، ومنحرفا عن غيره قاليا ، والشأن الذى كان بينه وبين طلحة حتى همّ أن يوقِع به ، وحتّى همّ طلحة أن يجاهرَه ، وطلحة هو الذى قال لأبى بكر عند موته : ماذا تقول لربك وقد وليّتَ فينا فظًّا غليظا ! وهو القائل له : ياخليفةَ رسول الله؛ إنا كنّا لانحتمل شراسته وأنت حىّ تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة !

واعلم أنا لانريد بهذا القول ذمّه رضى الله عنه ؛ وكيف نذمّه وهو أوْلى الناس بالمدح

---

(١) العول : ارتفاع الحساب فى الفرائض . انظر اللسان .

والتعظيم ؛ ليُمْن نقيبته وبركة خلافته ، وكثرة الفتوح فى أيامه، وانتظام أمور الإسلام على يده اولـكنا أردنا أن نشرح حال العنف والرفق، وحال سعة الخلق وضيِقه ، وحال البشاشة والعبوس ، وحال الطلاقة والوعورة ،فنذكر كل واحدمنها ذكرا كليّاً، لانخصّ به إنسانا بعينه .فأما عمر فإنه وإن كان وعرأ شديدا خشنا، فقدرزق من التوفيق والعناية الإلهية ونُجْح المساعى، وطاعة الرعية ونفوذ الحـكم ، وقوة الدين وحسن النية وصحة الرأى ، مايُربى محاسنه ومحامده على ما فى ذلك الخلق من نقص ، وليس الـكامل المطلق إلا الله تعالى وحده .

فأما حديث الرَّضِيخة وماجعل معاوية لعمرو بن العاص من جعالة على مبايعته ونصرته ، فقد تقدم ذكره فى أخبار صفين المشروحة فى هذا الـكتاب من قبل .

(٨٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ ، لَا تَقَعُ الأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ ، وَلَا تُعْقَدُ القُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ ؛ وَلَا تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الأَبْصَارُ وَالقُلُوبُ .

الشرح

فى هذا الفصل على قصره ثمانى مسائل من مسائل التوحيد :

الأولى : أنه لاثانىَ له سبحانه فى الإلهية .

والثانية : أنه قديم لا أوّل له . فإن قلت : ليس يدلّ كلامه على القدم ، لأنه قال : « الأوّل لاشىء قبله » فيوهم كونه غير قديم بأن يكون محدثا وليس قبله شىء ، لأنه محدَث عن عدم والعدم ليس بشىء ! قلت : إذا كان محدَثا كان له محدِث ؛ فكان ذلك المحدث قبله ، فثبت أنه متى صدق أنه ليس شىء قبله صدق كونه قديما .

والثالثة : أنه أبدىّ لا انتهاء ولا انقضاء لذاته .

والرابعة : نفى الصفات عنه ــ أعنى المعانى .

والخامسة : نفى كونه مكيّفا ؛ لأن كيف إنما يُسأل بها عن ذوى الهيئات والأشكال وهو منزّه عنها .

والسادسة : أنه غير متبعّض لأنه ليس بجسم ولا عَرَض .

والسابعة : أنه لا يُرى ولا يدرَك.

والثامنة : أن ماهيّته غير معلومة ، وهو مذهب الحكماء وكثير من المتكلّمين من أصحابنا وغيرهم .

وأدلّةُ هذه المسائل مشروحة فى كتبنا الكلامية .

واعلم أنّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهيّة ، ما عرِفت إلا من كلام هذا الرجل ، وأنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمّن شيئا من ذلك أصلا ؛ ولا كانوا يتصورونه ، ولو تصوّروه لذكروه . وهذه الفضيلة عندى أعظم فضائله عليه السلام .

***

الأصْلُ :

ومنها :

فَاتَّعِظُوا عِبَادَ ٱللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ ، وَٱعْتَبِرُوا بِالآيِ السَّوَاطِعِ ، وَٱزْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ ٱلْبَوَالِغِ ، وَٱنْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَٱلْمَوَاعِظِ ، فَكَأَنْ [1] قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ ٱلْمَنِيَّةِ ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَائِقُ ٱلْأُمْنِيَّةِ ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ ٱلْأُمُورِ ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى ٱلْوِرْدِ ٱلْمَوْرُودِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ؛ سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا ؛ وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا .

***

الشّرْحُ

العِبَر : جمع عِبْرة ، وهى مايعتبر به أىّ يتعظ . والآى : جمع آية ، ويجوز أن يريدَ

---

(١) مخطوطة النهج « وكأن » .

بها آى القرآن ، ويجوز أن يريدَ بها آيات الله فى خلقه ، وفى غرائب الحوادث فى العالم .

والسواطع : المشرقة المنيرة .

والنُّذُر : جمع نذير ؛ وهو المخوِّف ، والأحسن أن يكون النُّذر ها هنا هى الإنذارات نفسها ، لأنه قد وصف ذلك بالبوالغ ، وفواعل لا تكون فى الأكثر إلا صفة المؤنث .

ومُفظِعاتِ الأمور : شدائدها الشنيعة ، أفظعَ الأمرُ فهو مُفظِع ، ويجوز فظُع الأمر بالضم فظاعة فهو فظيع ، وأُفظِع الرجل على ما لم يسمَّ فاعله ، أى نزل به ذلك .

وقوله : « والسياقة إلى الورد المورود » ؛ يعنى الموت . وقوله : «سائِقٌ وَشَهِيدٌ» ؛ وقد فسّر عليه السلام ذلك وقال : « سائق يسوقها إلى محشَرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها » ؛ وقد قال بعض المفسرين : إن الآية لا تقتضى كونهما اثنين ، بل من الجائز أن يكون ملكا واحداً جامعاً بين الأمرين ، كأنه قال : « وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها ويشهد عليها » . وكلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضاً ، لأنه لم يقل أحدهما ؛ لكن الأظهر فى الأخبار والآثار أنهما ملكان .

فإن قلت : إذا كان تعالى عالما بكلّ شىء فأىّ حاجة إلى الملائكة التى تكتب الأعمال ، كما قال سبحانه : ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[1] ؛ وإذا كان تعالى أعدل العادلين فأىّ حاجة إلى ملك يشهد على المكلّف يوم القيامة ؟ وإذا كان قادراً لذاته ، فأىّ حاجة إلى ملَك يسوق المكلف إلى المحشر ؟ قلت : يجوز أن يكونَ فى تقرير مثل ذلك فى أنفس المكلّفين فى الدنيا ألطافٌ ومصالح لهم فى أديانهم ، فيخاطبهم الله تعالى به

---

(١) سورة الزخرف ٨٠

لوجوب اللّطف فى حكمته ، وإذا خاطبهم به وجب فعله فى الآخرة ؛ لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه .

***

الأَصْلُ :

ومنها فى صفة الجنة :

دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ ، وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا ، وَلَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلَا يَهْرَمُ خَالِدُهَا ، وَلَا يَبْأَسُ سَاكِنُهَا .

***

الشَّرْحُ :

الدّرَجات : جمع درجة ، وهى الطّبقات والمراتب ، ويقال لها : درجات فى الجنة ودرَكات فى النّار ، وإنما تفاضَلَتْ وتفاوتت بحسب الأعمال ، ولا يجوز أن يقع ذلك تفضُّلاً ؛ لأن التفضّل بالثّواب قبيح .

فإن قلت : فما قولُك فى الُحور والولدان والأطفال والمجانين ؟ قلت : يكون الواصل إليهم نعياً ولذة لا شبهة فى ذلك ، ولكن لا ثواب لهم ولا ينالونه ، والثوابأمرٌ أخصّ من المنافع والنعيم ، لأنّه منافع يقترن بها التعظيم والتبجيل ، وهذا الأمرُ الأخصّ لايحسن إيصاله إلّا إلى أربابِ العمل .

وقوله : « لا ينقطع نعيمها ولا يظعن مقيمها » قولٌ متفق عليه بين أهل المّلة ، إلا ما يحكى عن أبى الهذيل ؛ أنّ حركات أهل الجنة تنتهى إلى سكون دائم . وقد نزّهه قوم من أصحابنا عن هذا القول وأكذبوا رواته ، ومَنْ أثبته منهم عنه زعم أنه لم يقل بانقطاع النعيم، لكن بانقطاع الحركة مع دوام النعيم ، وإنما حمله على ذلك أنه لما استدلّ على أن

الحركة الماضية يستحيل ألّا يكون لها أوّل ، عورض بالحركات المستقبلة لأهل الجنة والنار ، فالتزم أنها متناهية ، وإنما استُبعد هذا عنه ؛ لأنه كان أجلّ قدراً من أن يذهب عليه الفرق بين الصورتين .

ويبأس : مضارع بَئِسَ ، وجاء فيه « يَبئِس » بالكسر ، وهو شاذّ كشذوذ « يحسِب » و يئِم ، ومعنى « يبأس » : يصيبه البؤس وهو الشقاء .

(٨٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ؛ وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ.

فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَاسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى؛ وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلَا عَمًى، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ؛ وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً؛ حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، وَأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

* * *

الشرح :

السرائر : جمع سَرِيرة، وهو ما يكتم من السِّرّ.

وخَبَرَ الضمائر، بفتح الباء: امتحنها وابتلاها، ومن رواه بكسر الباء أراد «علم»، والاسم

الُخبْر ، بضم الخاء وهو العلم . والضمائر : جمع ضمير ، وهو ماتضمره وتكنّه فى نفسك .

وفى قوله : « له الإحاطة بكلّ شىء » ؛ وقد بينها ثلاث مسائل فى التوحيد :

إحداهنّ : أنه تعالى عالم بكلّ المعلومات .

والثانية : أنه لاشريك له ، وإذا ثبت كونه عالماً بكلّ شىء كان فى ضمن ذلك نفى الشريك ، لأن الشريك لا يكون مغلوباً .

والثالثة : أنه قادر على كلّ ما يصح تعلق قادريته تعالى به .

وأدلة هذه المسائل مذكورة فى الكتب الكلاميّة .

وقوله : « فليعمل العامل منكم إلى قوله » : « وليتزوّد من دار ظعنه لدار إقامته » مأخوذٌ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله فى خطبته المشهورة وهى : « أيها الناس ؛ إنّ لكم معالمَ فانتهُوا إلى معالمكم وإن لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مَضى لا يدرِى ما الله صانعٌ به ، وأجلٍ قد بقىَ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومِنْ دنياه لآخرته ، ومن الشّبيبة قبل الهَرَم ، ومن الحياة قبل الموت ؛ فو الذى نفس محمد بيده ؛ ما بعدَ الموت من مستعتَب ، وما بعدَ الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

والمَهل : المهلة والتؤدة . والإرهاق : مصدر أرهق ، تقول : أرهقه قِرنه فى الحرب إرهاقاً إذا غشيَه ليقتله ، وزيد مرهَق ؛ قال الشاعر :

تَندَى أكفّهمُ وفى أبياتهمْ ثِقَةُ المجاور والمضافِ المرهَقِ[1]

وفى متنفّسه ، أى فى سَعة وقته ؛ يقال : أنت فى نفَس من أمرك ، أى فى سَعة .

(١) الكميت ؛ اللسان ٣ : ٤٢١ .

والكَظَم بفتحهما : مخرج النَّفَس ، والجمع أكظام . ويجوز ظعْنه وظعَنه ، بتحريك العين وتسكينها ، وقرئ بهما : ﴿ يوم ظعنكم[1] ﴾ ﴿ وظعَنكم ﴾ .

ونصب « اللهَ اللهَ » على الإغراء ، وهو أن تقدّر فعلا ينصب المفعول به ؛ أى اتقوا الله ، وجعلِ تكرير اللفظ نائباً عن الفعل المقدّر ودليلا عليه .

استحفظكم من كتابه : جعلكم حَفَظَة له ؛ جمع حافظ .

السُّدَى : المهمَل ، ويجوز سَدى بالفتح ، أسديت الإبل : أهملتها . وقوله : « قد سمّى آثاركم » يفسّر بتفسيرين : أحدهما : قد بيّن لكم أعمالكم خيرها وشرها ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[2] ﴾ ؛ والثانى : قد أعلى مآثركم ، أى رفع منازلكم إن أطعتم ، ويكون سمّى بمعنى أسْمَى ، كما كان فى الوجه الأول بمعنى أبان وأوضح .

والتِّبْيان، بكسر التاء : مصدر ، وهو شاذ ؛ لأن المصادر إنما تجئ على « التَّفعال » بفتحها مثل التَّذكار والتَّكرار ، ولم يأت بالكسر إلا حرفان وهما : التِّبْيان والتِّلْقاء .

وقوله : « حتى أكمل له ولكم دينه » من قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى[3] ﴾ .

وقوله : « الذى رضى لنفسه » من قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾[4] ؛ لأنه إذا ارتضى لهم فقد ارتضاه لنفسه ، أى ارتضى أن ينسب إليه ، فيقال : هذا دين الحق . « وأنهى إليكم » : عرّفكم وأعلمكم .

ومحابّه : جمع محبة ، ومكارهه : جمع مَكرهة ، وهى ما تكره ، وفى هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة ويكره المعصية ، وهو خلاف قول الجبرة .

(١) سورة النحل ٨٠ .
(٢) سورة البلد ١٠ .
(٣) سورة المائدة ٣ .
(٤) سورة النور ٥٥ .

والأوامر : جمع آمِر ، وأنكره قوم وقالوا : هاهنا جمع «أمر» ، كالأحاوِص جمع أحوص ، والأحامِر جمع أحمر . يعني الكلام الآمر لهم بالطاعات وهو القرآن .

والنّواهي : جمع ناهِية ، كالسّواري جمع سارِية ، والغوادي جمع غادية ، يعني الآيات الناهية لهم عن المعاصي ، ويضعُف أن يكون الأوامر والنواهي جمع أمر ونهي ، لأن «فَعْلاً» لا يجمع على أفاعل وفواعل ، وإن كان قال ذلك بعض الشواذّ من أهل الأدب .

وقوله : «وألقى إليكم المعذِرة» كلام فصيح ، وهو من قوله تعالى : ﴿ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾[1] .

وقدّم إليكم بالوعيد ، وأنذركم بين يدي عذاب شديد ، أي أمامه وقبله ، مأخوذ أيضاً من القرآن . ومعنى قوله : « بين يدي عذاب شديد » ، أي أمامه وقبله ؛ لأن ما بين يديك متقدم لك .

* * *

الأصْـلُ :

فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ ؛ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ ، وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ ؛ فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ .

عِبَادَ اللهِ : إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ ؛ وَالْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ ، وَالْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ .

(١) سورة النساء ٩٠ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ .

جَانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ . الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ ، وَالْكَاذِبُ عَلَى شَرَفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ .

وَلَا تَحَاسَدُوا ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ، وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ . فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ ؛ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ .

* * *

الشرح

قوله : « فاستدركوا بقيّة أيامكم » ؛ يقال : « استدركت مافات وتداركت مافات » ، بمعنى « واصبروا لها أنفسكم » : مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾(١) ؛ يقال : « صبر فلان نفسه على كذا » ، أى حبَسها عليه . يتعدّى فينصب ؛ قال عنترة :

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً ترسو إذا نفس الجبان تَطلّعُ(٢)

أى حبست نفسا عارفة . وفى الحديث النبوىّ فى رجل أمسك رجلا وقتله الآخر، فقال عليه السلام : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر » ، أى احبسوا الذى أمسكه حتى يموت .

والضمير فى « فإنها قليل » عائد إلى الأيام التى أمرهم باستدراكها . يقول : إن هذه الأيام التى قد بقيَت من أعماركم قليلة ، بالنسبة والإضافة إلى الأيام التى تغفلون فيها عن الموعظة .

---

(١) سورة الأنعام ٥٢ .
(٢) يذكر حرباً كان فيها . اللسان ٦ : ١٠٧ .

وقوله : « فإنها قليل » فأخبر عن المؤنث بصيغة المذكر ، إنما معناه فإنها شيء قليلٌ بحذف الموصوف ؛ كقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [1] أى قَبيلا رفيقا .

ثم قال : « ولا تُرَخِّصوا » ؛ نَهَى عن الأخذ برُخَص المذاهب ؛ وذلك لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلّد كلاً من أئمة الاجتهاد فيما خفّ وسَهُل من الأحكام الشرعية . أولا تُساهلوا أنفسكم فى ترك تشديد المعصية ، ولا تسامحوها وترخّصوا إليها فى ارتكاب الصغائر والمحقّرات من الذنوب ، فتهجُم بكم على الكبائر ، لأنّ من مَرَن على أمر تدرّج من صغيره إلى كبيره .

والمداهنة : النفاق والمصانعة ، والإدهان مثله ؛ قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [2] .

قوله: « إنّ أنصحَ الناس لنفسه أطوعُهم لربه » ، لأنه قد صانها عن العقاب ، وأوجب لها الثواب ؛ وذلك غاية ما يمكن من نصيحتِها ونفعها .

قوله: « وإن أغشّ الناس لنفسه أعصاهم لربه » ؛ لأنه ألقاها فى الهلاك الدائم، وذلك أقصى ما يمكن من غِشّها والإضرار بها .

ثم قال : « والمغبونُ من غبَن نفسه » ، أى أحقّ الناس أن يسمّى مغبونا مَنْ غبَن نفسه ، يقال : غبنتُه فى البيع غبْنا ، بالتسكين ، أى خدعتُه ، وقد غُبِن فهو مغبون ، وغبِن الرجل رأيه بالكسر غبَنا بالتحريك فهو غَبين ، أى ضعيف الرأى ، وفيه غَبَانة . ولفظ الخبَر يدلّ على أنه من باب غَبْن البيع والشراء ، لأنه قال : « والمغبون » ولم يقل : « والغبين » .

والمغبوط : الذى يُتمنّى مثلُ حاله ، والذى يتمنى زوالَ حاله وانتقالها هو الحاسد ،

(١) سورة النساء ٦٩ .
(٢) سورة القلم ٩ .

والحسد مذموم ، والغبطة غير مذمومة ، يقال : غَبَطته بما نَال ، أغبطه غبطا وغِبْطة فاغتبط هو ؛ كقولك منعته فامتنع ، وحبسته فاحتبس ، قال الشاعر :

وبينا المرء فى الأحياء مغتبِطٌ إذ صار فى الرَّمْس تعفُوه الأعاصير[1]

هكذا أنشدوه بكسر الباء ، وقالوا فيه : مغتبَط ، أى مغبوط .

قوله : « والسعيد من وُعظ بغيره » مثَل من الأمثال النبوية .

وقد ذكرنا فيما تقدم ،ماجاء فى ذم الرياء وتفسير كونه شِرْكا .

وقوله عليه السلام: « مَنْسَاة للإيمان » ؛ أى داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله ،والإيمان الاعتقاد والعمل .

ومحضرة للشيطان : موضع حضوره ؛ كقولك : مَسْبَعة ، أى موضع السباع . ومَفْعاة ، أى موضع الأفاعى .

ثم نهى عن الكذب وقال : « إنه مجانب للإيمان » وكذا ورد فى الخبر المرفوع .

وشَفا منجاة ؛ أى حَرْف نجاة وخَلَاص؛ وشفا الشىء حرفه ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾[2] ؛ وأشفى على الشىء وأشرف عليه بمعنًى ؛ وأكثرمايقال ذلك فى المكروه ،يقال : أشفى المريض على الموت ، وقد استعمله هاهنا فى غير المكروه.

والشَّرَف : المكان العالى ، بفتح الشين ، وأشرفْت عليه ، أى اطّلعت من فوق .

والمَهْواة : موضع السقوط . والمهانة : الحقارة .

ثم نهى عن الحسَد وقال : «إنه يأكلُ الإيمان كما تأكل النار الحطب» ،وقدوردهذا الكلام فى الأخبار المرفوعة ؛ وقد تقدّم منا كلام فى الحسد، وذكرنا كثيرا مما جاءفيه.

---

(١) من أبيات فى اللسان (دهر) ، ونسبها إلى عثير بن لبيد العذرى ، وانظر نزهة الألبا ص ٢٧
(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

ثم نهى عن المباغضة وقال : « إنها الحالقة » ، أى المستأصِلة التى تأتى على القوم ، كالحلق للشعر .

ثم نهى عن الأمل وطُوله وقال : « إنه يورث العقل سهوا ، وينسى الذكر » . ثم أمر بإكذاب الأمل ، ونهى عن الاعتماد عليه ، والسكون إليه ، فإنه من باب الغرور .

وقد ذكرنا فى الأمل وطوله نكتاً نافعة فيما تقدم ، ويجب أن نذكر ماجاء فى النهى عن الكذب .

* * *

[فصل فى ذم الكذب وحقارة الكذابين]

جاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملك منه مَسيرة ميل ، من نتن ماجاء به » .

وعنه عليه السلام : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذِب ويتحرّى الكذب ، فيُكتب عند الله كاذبا ؛ وعليكم بالصدق ، فإن الصِّدق يَهدى إلى البِرّ ، وإن البِرّ ليهدى إلى الجنة ، وإن الرجلَ ليصدُق ويتحرّى الصدق ، فيُكتب عند الله صادقا » .

وروى أنّ رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله : أنا يارسول الله أستسِرّ بخلال أربع : الزنا ، وشرب الخمر ، والسرَق ، والكذب ، فأيّتهنّ شئتَ تركتُها لك ؛ قال دع الكذب ؛ فلما وَلّى همّ بالزنا ، فقال : يسألنى فإن جحدت نقضت ماجعلت له ، وإن أقررت حُدِدت ، ثم همّ بالسَّرق ، ثم بِشُرب الخمر ، ففكّر فى مثل ذلك ، فرجع إليه فقال : قد أخذتَ علىّ السبيل كلّه ، فقد تركتهنّ أجمع .

قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله : يابنىّ أنت أفقهُ منى ، وأنا أعقل منك ،

وإن هذا الرجل يُدْنِيك - يعنى عمر بن الخطاب - فاحفظ عنّى ثلاثاً : لاتُفْشِيَنّ له سرًّا، ولا تغتابَنّ عنده أحداً ، ولا يطّلِعَنّ منك على كِذْبةٍ . قال عبد الله : فكانت هذه الثلاث أحبّ إلىّ من ثلاث بَدَرات ياقوتاً .

قال الواثق لأحمد بن أبى دُوَاد رحمه الله تعالى : كان ابنُ الزّيات عندى ، فذكَرَك بكلّ قبيح ، قال : الحمد لله الذى أحوَجه إلى الكذب علىّ ، ونزّهنى عن الصدق فى أمره .

وكان يقال : أمران لايكاد أحدُهما ينفكّ من الكذب : كثرةُ المواعيد وشدة الاعتذار .

ومن الحِكَم القديمة : إنّما فَضْل الناطق على الأخرس بالنطق ،وزَيْن المنطق الصدق، فالكاذب شرٌّ من الأخرس .

قال الرشيد للفضل بن الربيع فى كلام جرى بينهما : كذبتَ، فقال : ياأمير المؤمنين؛ وَجْه الكذوب لايقابلك ، ولسانه لايحاورك .

قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[(١)]؛ هى فى الكذابين ، فالويل لكلّ كاذب إلى يوم القيامة .

ومن كلام بعض الصالحين : لولم أترك الكذب تأثُّماً لتركته تكرُّماً .

أبو حيان : الكذب شعارٌ خَلَق ، وموردٌ رَنَق[(٢)] ، وأدب سيّئ ، وعادة فاحشة ، وقلّ مَن استرسل معه إلا ألِفَه، وقلّ من ألفه إلا أتلفه ،والصدق ملبس بهىّ ،ومنهل غذىّ، وشُعاع منبثّ ،وقلّ مَن اعتاده ومرنَ عليه إلا صحبتْهُ السكينة ،وأيّده التوفيق ، وخدمتْه القلوب بالمحبّة ، ولحظتْه العيون بالمهابة .

---

(١) سورة الأنبياء ١٨ .
(٢) الرنق ، بفتح النون وإسكانها وكسرها : الكدر .

ابن السَّماك : لاأدرى ، أُوجَر على ترك الكذب أم لا ! لأنى أتركه أنَفَةً .

يحيى بن خالد : رأيتُ شِرّيب خمرٍ نَزَع ، ولصًّا أقلع ، وصاحبَ فواحش ارتدع ، ولم أر كاذبا رَجَع .

قالوا فى تفسير هذا : إن المولع بالكذب لايكاد يصبر عنه ، فقد عوتب إنسان عليه، فقال لمعاتبه : يابن أخى ، لو تغرغَرْت به لما صبرت عنه .

وقيل لكاذب معروف بالكذب : أصدقت قطّ ؟ قال: لولا أنى أخاف أن أصدُق لقلت : لا !

وجاء فى بعض الأخبار المرفوعة : قيل له : يارسولَ الله ، أيكون المؤمن جبانا ؟قال: نعم ، قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل أفيكون كاذبا ؟ قال : لا .

وقال ابنُ عباس : الحدَث حدَثان : حدث من فيك ، وحدث من فرْجك .

وقال بعضهم : من أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون ؛ أخذه شاعر فقال :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ[1]

وكان يقال : خذوا عن أهل الشرف ، فإنهم قلّما يكذبون .

وقال بعض الصالحين : لو صحِبَنى رجل ، فقال لى: اشترطْ علىّ خَصْلَةً واحدة لاتزيد عليها ، لقلت : لاتكذب .

وكان يقال : خَصْلتان لايجتمعان : الكذب والمروءة .

كان يقال : مِنْ شرف الصدق أنّ صاحبَه يُصدَّق على عدوّه ، ومن دناءة الكذب أنّ صاحبَه يكذَّب وإن كان صادقا .

---

(١) العقد ٢ : ٤٤٤ من غير نسبة ، وبعده :

مَقَالَةُ السُّوءِ إلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنحَدِرٍ إلَى سَائِلِ

ومثل هـذا قولهم : منْ عُرِف بالصدق جاز كِذبُه ، ومن عُرِف بالـكذب لم يَجُزْ صدقه .

وجاء فى الخبر المرفوع : « إن فى المعاريض لمندوحةً عن الـكذب » .

وقال ابن سِيرين : الـكلام أوسع من أن يكذب ظريفٌ .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾[1]لم ينسَ ،ولـكنه من معاريض الـكلام ، وكذلك قالوا فى قول إبراهيم : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[2] .

وقال العُتْبِيّ: إنى لأصدُق فى صغارِ مايضرّنى ، فـكيف لاأصدق فى كبار ماينفعنى !

وقال بعض الشعراء :

لايـكذبُ المرء إلّا منْ مهـانَتِه ... أوعادةِ السُّوء أو من قلّة الأدبِ
لَمَضُّ جيفةِ كلْبٍ خيرُ رائحـةٍ ... مِن كِذبة المرء فى جِدّ وفى لعبِ

شهد أعرابيّ عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبتَ ، فقال :الـكاذب واللهِ المتزمّل فى ثيابك ؛ فقال معاوية : هذا جزاء من عَجِل .

وقال معاوية يوما للأحنف ـ وحدّثه حديثـا ، أتـكذب ؟ فقال له الأحنف : والله ما كذبت منذ علمتُ أنّ الـكذب يشين أهله .

ودخل عبدُ الله بن الزُّبير يوماً على معاوية فقال له : اسمع أبياتاً قلتُها ـ وكان واجداً على معاوية ـ فقال : هات ، فأنشده :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاكَ وجَـدْتَه ... عَلَى طَرَفِ الهجران إن كان يعقـلُ
ويركب حدّ السيف من أن تَضيمه ... إذا لم يـكن عن شفرة السيف مِزْحَلُ

فقال معاوية : لقد شعرتَ بعدنا ياأبا بكر ؛ ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه مَعْنُ

---

(١) سورة الـكهف ٧٣ .
(٢) سورة الصافات ٨٩ .

ابن أوس المزنىّ ، فقال : أقلت بعدنا شيئا ؟ قال نعم ، وأنشده :

لَعَمْرُكَ لا أدرِى وإنى لأوْجَلُ   عَلَى أيِّنَا تَعْدُو المَنِيَّـةُ أوّلُ (١)

حتى صار إلى الأبيات التى أنشدها ابن الزبير ، فقال معاوية : يا أبا بكر ، أما ذَكرتَ آنفا أن هذا الشعر لك ؟ فقال : أنا أصلحتُ المعانى وهو ألَّف [الشعر] (٢) . وبعدُ ، فهو ظِئْرى (٣) وما قال من شىء فهوَ لى .

وكان عبدالله بن الزبير مُسْتَرضَعًا فى مُزَيْنة (٤) .

وروى أبو العباس المبرّد فى " الـكامل " أن عمرَ بن عبد العزيز كَتَب فى إشخاص إياس بن معاوية المزنىّ ، وعدىّ بن أرطاة الفَزارىّ أمير البصرة وقاضيها إليه ، فصار عدىٌّ إلى إياس ، وقدّر أنّه يمزّنه (٥) عند عمر بن عبد العزيز ويُثْنِى عليه ، فقال له : يا أبا واثلة ، إن لنا حقًّا ورحِمًا ، فقال إياس : أعَلَى الـكذب تريدنى ! والله ما يسرنىّ أنْ كذبتُ كذبة؟ يغفرها الله لى ، ولا يطلع عليها هذا ـ وأومأ إلى ابنه ـ ولِى ماطلعت عليه الشمس (٦) !

وروى أبو العباس أيضا : أن عمرو بن معديكرب الزُّبيدىّ كان معروفا بالـكذب. وقيل لخلف الأحمر ـ وكان مولًى لهم وشديد التعصب لليمن : أكان عمرو بن معديكرب يكذب ؟ قال : يكذب فى المقال ويصدق فى الفعال (٧) .

---

(١) ديوانه ٥٧ .

(٢) من الـكامل .

(٣) الـكامل « وهو بعد ظئرى » .

(٤) الخبر فى الـكامل ٢ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٥) فى الأصول : « يقرظه » ، وما أثبته من الـكامل . وفى زيادات أبى الحسن الأخفش : التمزين . المدح ، ولم أسمع هذه اللفظة إلا من أبى العباس ، وهى عندى مشتقة من المازن . وهو بيض النمل ؛ وبهذا سميت مازن ؛ كأنه أراد منه أن يكبره . ويروى : « يكثره » . وفى زيادات الـكامل أيضاً : قال الشيخ : قوله : « أن يمزنه عند الخليفة ؛ أى كأنه يجعله سيد مزينة ؛ لأنه كان مزينياً » .

(٦) الـكامل ٢ : ٢١٢ .

(٧) الـكامل ٢ : ٢٠٨ .

قال أبو العباس : فروِى لنا أن أهل الكوفة الأشراف ، كانوا يظهرون بالكُنَاسة[1] فيركبون على دوابهم حتى تطرُدَهم[2] الشمس ، فوقف عمرو بن معديكرب الزُّبيدىّ ، وخالد بن الصقعب النَّهدىّ ـ وعمرو لا يعرفه، إنما يسمع باسمه ـ فأقبل عمرو يحدثه، فقال: أغرْنا مرّة على بنى نَهْد، فخرجوا مسترعِفين بخالد بن الصقعب ، فحملتُ عليه ، فطعنته فأذريتهُ[3] ثم مِلْت عليه بالصَّمْصَامة[4] ، فأخذت رأسه ، فقال خالد بن الصقعب : حِلًّا أبا ثور، إن قتيلك هو المحدِّث ؛ فقال عمرو : ياهذا إذا حُدِّثت فاستمِع، فإنما نتحدّث بمثل ما تستمِع لنُرهِب به هذه المعدِّيَّة .

قوله : « مسترعِفين » أى مقدمين له . وقوله : « حِلًّا أبا ثور » أى استثن ، يقال: حلف ولم يتحلّل ، أى لم يستثن . والمعدِّية : مضرُ وربيعة وإياد ، بنو معدّ بن عدنان ، وهم أعداء اليمن فى المفاخرة والتكاثُر .

---

(١) الكناسة : محلة بالكوفة .

(٢) الكامل : « إلى أن يطردهم حر الشمس » .

(٣) أذريته : صرعته وألقيته عن فرسه .

(٤) الصمصامة : السيف الصارم لا ينثنى ؛ وهو اسم عمرو بن معديكرب .

(٨٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

عِبَادَ اللهِ؛ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ.

نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ، سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً.

قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى عَنِ الْهُمُومِ، إِلَّا هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى.

قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَاسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَا بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ؛ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ.

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ؛ يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ.

قَدْ أَخْلَصَ لِلهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ

نَفْسَهُ الْعَدْلَ ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ .

يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا ، وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا ، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ .

* * *

الشرح :

استشعر الحزن : جعله كالشعار ، وهو ما يلي الجسد من الثياب . وتجلبب الخوف : جعله جلباباً ، أى ثوباً .

زهر مصباح الهدى : أضاء . وأعدّ القِرَى ليومه ، أى أعدّ ما قدمه من الطاعات قِرًى لضيف الموتِ النازل به . والفُرات : العذب .

وقوله : « فشرب نَهَلاً » ؛ يجوز أن يكون أراد بقوله : « نَهَلاً » المصدرَ، من نَهِلَ يَنْهَلُ نَهَلاً ، أى شرب حتى رَوِىَ ، ويجوز أن يريد بالنَّهَل الشرب الأول خاصة ، ويريد أنه اكتفى بما شربه أولا ، فلم يحتج إلى العَلَل .

وطريق جَدَدٌ : لا عثار فيه لقوة أرضه . وقطع غِماره ؛ يقال : بحر غَمْر ، أى كثير الماء ، وبحار غِمار . واستمسك من العرا بأوثقها ؛ أى من العقود الوثيقة ، قال تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾(١) .

ونصب نفسه لله ، أى أقامها .

كشّاف عَشَوات : جمع عُشْوة وعَشْوة وعِشْوة ، بالحركات الثلاث ، وهى الأمر الملتبس ؛ يقال : أوطأنى عَشْوة .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

والمعضِلات : جمع معضلة وهى الشدائد والأمور التى لا يهتدى لوجهها .

دليل فلوات ، أى يُهتدى به كما يَهتدى الركب فى الفلاة بدليلهم .

أمّها : قصدها . ومظنّة الشىء : حيث يُظنّ وجوده . والثَّقَل . متاع المسافر وحَشَمه .

[فصل فى العبّاد والزهّاد والعارفين وأحوالهم]

واعلم : أنّ هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمَهم ، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى .

والعِرفان درجة حالٍ رفيعة شريفة جدًّا ، مناسبة للنبوّة ، ويختصّ الله تعالى بها مَنْ يقرّبه إليه من خلقه .

والأولياء على طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : حالُ العابد ، وهو صاحبُ الصلاة الكثيرة ، والصوْم الدائم ، والحجّ والصدقة .

والطبقة الثانية : حال الزاهد ، وهو المعرِضُ عن ملاذّ الدنيا وطيّباتها ؛ تقنِعه الكِسرة ، وتستُره الخِرْقة ، لا مالَ ولا زوجة ولا ولد .

والطبقة الثالثة : حال العارف ، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه ، والبارئ سبحانه متمثّلٌ فى نفسه تمثُّلَ المعشوق فى ذات العاشق ؛ وهو أرفع الطبقات ، وبعده الزاهد .

وأما العابد فهو أدونُها ، وذلك لأنّ العابد مُعامل كالتاجر ، يعبُد ليثاب ، ويُتعب نفسه ليرتاح ؛ فهو يعطى من نفسه شيئا ويطلب ثمنه وعِوَضه ، وقد يكون العابد غنيًّا موسرا ، كثير المال والولد ، فليست حاله من أحوال الكمال .

وأما الزاهد ، فإنه احتقرَ الدنيا وعروضها وقَيْناتها ، فخلصت نفسه من دناءة المطامع

وصار عزيزاً مَلِكا ، لا سلطان عليه لنفسه ولا لغيره ، فاستراح من الذلّ والهوان ، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت ، فكان أقرب إلى السلامة والنجاة من العابد الغنيّ الموسر .

وأمّا العارف فإنّه بالحال التى وصفناها ، ويستلزم مع وجودها أن يكون زاهدا ، لأنه لا يتصوّر العِرْفان مع تعلّق النفس بملاذّ الدنيا وشهواتها . نعم قد يحصلُ بعضُ العرفان لبعض العلماء الفضلاء ، مع تعلّقهم بشهوات الدنيا ، ولكنّهم لا يكونون كاملين فى أحوالهم ، وإنما تحصُل الحالة الكاملة لمن رَفَضَ الدنيا وتخلّى عنها ، وتستلزم الحالة المذكورة أيضا أن يكونَ عابدا عبادةً ما ، وليس يشترط فى حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة ، بل الإكثارُ من العبادة حجاب كما قيل ؛ ولكنْ لا بدّ من القيام بالفرائض وشيء يسير من النوافل .

***

واعلم : أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه ، وبالحكمة المودعة فى نظام العالم ، لاسيا الأفلاك والكواكب ، وتركيب طبقات العناصر ، والأحكام وفى تركيب الأبدان الإنسانية .

فمن حصل له ذلك ، فهو العارف ؛ وإن[1] لم يحصل له ذلك ، فهو ناقص العرفان ، وإن انضمّ إلى ذلك استشعارُه جلال الله تعالى وعظمته ، ورياضة النفس والمجاهدة ، والصبر والرضا والتوكل ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حصل له بعد ذلك الحبّ والوجْد ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، فإن حَصَل له بعد ذلك الإعراضُ عن كلّ شيء سوى الله ، وأن يصيرَ مسلوبا عن الموجودات كلها ، فلا يشعر إلا بنفسه وبالله تعالى ، فقد ارتفع طبقة أخرى ، وهى أرفع الطبقات .

(١) ب : « فإن » .

وهناك طبقة أخرى يذكرونها ، وهى أن يسلب عن نفسه أيضا ، فلا يكون له شعور بها أصلا ، وإنما يكون شاعرا بالقيّوم الأوّل سبحانَه لاغير ، وهذه درجةُ الاتّحاد ، بأن تصير الذّاتان ذاتاً واحدة .

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخّرين أيضا ، وهومقام صعب ، لاتثبت العقول لتصوُّره واكتناهه .

***

واعلم أن هذه الصفات والشروط والنعوت التى ذكرها فى شرح حال العارف ، إنما يعنى بها نفسَه عليه السلام ؛وهو من الكلام الذى له ظاهروباطن ؛فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق، وباطنه أن يشرح حال عارف معيّن ، وهو نفسه عليه السلام .وسيأتى فى آخر الخطبة مايدلّ على ذلك .

ونحن نذكر الصفات التى أشار عليه السلام إليها واحدة واحدة :

فأوّلها : أن يكون عبداً أعانه الله على نفسه ، ومعنى ذلك أن يخصّه بألطاف ، يختار عندها الحَسَن ويتجنّب القبيح ، فكأنه أقام النفس فى مقام العدوّ ، وأقامُ الألطافَ مقام المعونة التى يعدّه اللهسبحانه بها ، فيكسِر عادية العدوّ المذكور ؛ وبهذا الاعتبار سمى قومٌ من المتكلمين اللطف عَوْناً .

وثانيها : أن يستشعر الحزن ، أى يحزن على الأيام الماضية، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضعاف ماا كتسبه .

وثالثها : أن يتجلببَ الخوف ، أى يخاف من الإعراض عنه ،بأن يصدر عنه مايمحوه من جريدة المخلِصين .

ورابعها : أن يُعِدّ القِرَى لضيف المنيّة ، وذلك بإقامة وظائف العبادة .

وخامسها : أن يقرّب على نفسه البعيد ، وذلك بأن يمثّل الموت بين عينيه صباحا ومساء ، وألّا يطيل الأمل .

وسادسها : أن يهوّن عليه الشدائد ؛ وذلك باحتمال كُلَف المجاهدة ورياضة النفس على عمل المشاقّ .

وسابعها : أن يكون قد نظر فأبصر ، وذلك بترتيب المقدّمات المطابقة لمتعلّقاتها ترتيبا صحيحا ، لتنتج العلم اليقينيّ .

وثامنها : أن يذكر الله تعالى فيستكثرَ من ذكره ، لأنّ ذكره سبحانه والإكثار منه ، يقتضي سكونَ النفس وطُمأنينتها ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

وتاسعها: أن يرتوِيَ من حبّ الله تعالى ، وهو العذب الفُرات ، الذي سهل موارده على من انتخبه الله ، وجعله أهلاً للوصول إليه ، فشرب منه ونَهَل ، وسلك طريقاً لا عثار فيه ولا وَعْث .

وعاشرها: أن يخلَعَ سرابيلَ الشهوات، لأن الشهوات تصدِئ مرآة العقل ،فلا تنطبع المعقولات فيها كما ينبغي ، وكذلك الغضب .

وحادي عشرها : أن يتخلّى من الهموم كلّها ، لأنها تزبّدات وقواطع عن المطلوب ، إلا همّاً واحداً وهو همّه بمولاه ، الذي لذّته وسروره الاهتمام به ، والتفرد بمناجاته ومطالعة أنوار عِزّته ، فحينئذ يخرج عن صفة أهل العمى ، ومن مشاركة أهل الهوى ، لأنه قد امتاز عنهم بهذه المرتبة والخاصيّة التي حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى ، ومِغلاقا لباب الضلال والردى ، قد أبصر طريق الهدى ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره .

---

(١) سورة الرعد ٢٨ .

وثانى عشرها : أن ينصِبَ نفسَه لله فى أرفع الأمور ، وهو الخلوة به ، ومقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره ، حتى تتكيّف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراق ، فهذا أرفع الأمور وأجلّها وأعظمها ، وقد رَمَزَ فى هذا الفصل ، ومزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر ، وهو فقه النفس فى الدين ، والأمور الشرعية النافعة للناس فى دنياهم وأخراهم؛ أمّا فى دنياهم فلردع المفسِد وكفّ الظالم ، وأما فى أخراهم فللفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية. فقال : « فى إصدار كلّ وارد عليه » ؛أى فى فُتيا كلّ مستفتٍ له ، وهداية كلّ مسترشِد له فى الدين ؛ ثم قال : «وتصيير كلّ فرع إلى أصله ». ويمكن أن يحتجّ بهذا من قال بالقياس، ويمكن أن يقال : إنه لم يُرِد ذلك ، بل أراد تخريج الفروع العقلية ، وردّها إلى أصولها؛ كما يتكلف أصحابنا القول فى بيان حكمة القديم تعالى ، فى الآلام وذبح الحيوانات ، ردًّا له إلى أصل العدل ، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح .

وثالث عشرها : أن يكون مصباحا لظلمات الضلال ، كشّافا لعشوات الشُّبَه ، مفتاحا لمبهمات الشُّكوك المستغلقة ، دفّاعا لمعضلات الاحتجاجات العقلية الدقيقة الغامضة ، دليلا فى فلوات الأنظار الصعبة المشتبهة ، ولم يكن فى أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أحد بهذه الصفة إلا هو .

ورابع عشرها :أن يقول مخاطبا لغيره فيُفهمه ما خاطبه به ، وأن يسكت فيَسلم، وذلك لأنه ليس كل قائل مُفهما ، ولا كل ساكت سالما .

وخامس عشرها : أن يكونَ قد أخلصَ لله فاستخلَصه الله ، والإخلاص لله مقام عظيم جدًّا ، وهو ينزّه الأفعال عن الرّياء ، وألّا يمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه؛ ولهذا كان بعض الصالحين يُصبِح من طول العبادة نَصِبًا قشِفا ، فيكتحلُ ويدّهن ؛ ليُذهِبَ بذلك أثر العبادة عنه .

وقوله : « فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه »، معادن دينه: الذين يُقتبس الدين منهم، كمعادن الذهب والفضة ، وهى الأرضون التى يلتقط ذلك منها ، وأوتاد أرضه: هم الذين لولاهم لمادَت الأرض وارتجّت بأهلها، وهذا من باب الاستعارة الفصيحة ، وأهل هذا العلم يقولون : أوتاد الأرض جماعة من الصالحين ، ولهم فى الأوتاد والأبدال والأقطاب كلامٌ مشهور فى كتبهم .

وسادس عشرها : أن يكون قد ألزَم نفسه العدل ، والعدالة : مَلَـكة تصدُر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقا لا تخلّقاً .

وأقسام العدالة ثلاثة ، هى الأصول وما عداها من الفضائل فروع عليها :

الأولى الشجاعة ، ويدخل فيها السخاء لأنه شجاعة وتهوين للمال ، كما أنّ الشجاعة الأصلية تهوين للنفس، فالشجاع فى الحرب جواد بنفسه، والجواد بالمال شجاع فى إنفاقه، ولهذا قال الطائى :

أيقنتُ أنّ من السّماح شجاعةً ... تُدمِى، وأنّ من الشجاعة جودَا[1]

والثانية : الفقه ، ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة .

والثالثة : الحكمة ، وهى أشرفها .

ولم تحصل العدالة الكاملة لأحدٍ من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا لهذا الرجل ، ومن أنصف عَلِم صحة ذلك ، فإن شجاعته وجوده ، وعفّته وقناعته وزهده ، يُضرب بها الأمثال .

وأما الحكمة والبحث فى الأمور الإلهيّة ، فلم يكن من فنّ أحد من العرب ، ولا نقل فى جهادِ أكابرهم وأصاغرهم شىء من ذلك أصلا ، وهذا فنٌّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به ؛ وأوّل من خاض فيه من العرب علىّ عليه السلام ، ولهذا

---

(١) أبو تمام ، ديوانه ١ : ٤٢٣ .

تجدُ المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثةً عنه فى فرش كلامه وخطبه ، ولا تجدُ كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمةً واحدة من ذلك ، ولا يتصوّرونه ، ولو فُهِّموه لم يفهموه ، وأنّى للعرب ذلك !

ولهذا انتسب المتكلّمون الذين لججوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسمّوه أستاذَهم ورئيسهم ، واجتذبته كلُّ فرقة من الفرَق إلى نفسها ؛ ألا ترَى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبى هاشم بن محمد بن الحنفيّة ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علىّ عليه السلام !

فأما الشِّيعة من الإمامية والزّيديّة والكيسانيّة ، فانتماؤهم إليه ظاهر .

وأما الأشعرية فإنهم بأخَرَةٍ ينتمون إليه أيضا ، لأنّ أبا الحسن الأشعرىّ تلميذ شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، وأبو علىّ تلميذ أبى يعقوب الشحّام ، وأبو يعقوب تلميذ أبى الهُذَيل ، وأبو الهُذَيل تلميذ أبى عثمان الطويل ، وأبو عثمان الطّويل تلميذ واصل بن عطاء ، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى علىّ عليه السلام .

وأما الكرّامية فإن ابن الهيصم ذكر فى كتاب " المقالات " أنّ أصلَ مقالتهم وعقيدتهم تنتهى إلى علىّ عليه السلام من طريقين :

أحدهما : بأنهم يُسندون اعتقادَهم عن شيخ بعد شيخ ، إلى أن ينتهى إلى سُفيان الثّورىّ ، ثم قال : وسفيان الثورىّ من الزيديّة ، ثم سأل نفسه فقال : إذا كان شيخكم الأكبر الذى تنتمون إليه كان زيديًّا ، فما بالكم لا تكونون زيديّة ؟ وأجاب بأن سُفيان الثورىّ رحمه الله تعالى ، وإن اشتهر عنه الزّيدية ، إلا أنّ تزيّده إنما كان عبارة عن موالاة أهل البيت ، وإنكار ما كان بنو أميّة عليه من الظلم ، وإجلال زيد بن علىّ وتعظيمه ، وتصويبه فى أحكامه وأحواله ، ولم ينقل عن سفيان الثورىّ أنّه طعن فى أحد من الصحابة .

الطريق الثانى : أنه عدّ مشايخهم واحداً فواحدا ، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب علىّ ، كميلة بن كُهَيل ، وحَبّة العُرَنىّ ، وسالم بن الجعد ، والفضل بن دُكين ، وشعبة ، والأعمش ، وعلقمة وهُبيرة بن مريم ، وأبى إسحاق الشّعبىّ ، وغيرهم ، ثم قال : وهؤلاء أخذوا العلم من علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فهو رئيس الجماعة — يعنى أصحابه — وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه .

وأما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضا ، مع طعنهم فيه ، لأنهم كانوا أصحابه ، وعنه مَرَقوا ، بعد أن تعلّموا عنه واقتبسوا منه ، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصِفّين ، ولكنّ الشيطان رانَ على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم .

ثم إنه عليه السلام ذكر حال هذا العارف العادل فقال : « أوّل عدله نفى الهوى عن نفسه » ، وذلك لأنّ من يأمر ولا يأتمر ، وينهى ولا ينتهى ، لا تؤثر عظته ، ولا ينفع إرشاده . ثم شرح ذلك فقال : « يصف الحق ويعمل به » . ثم قال : « لا يدع للخير غاية إلا أمّها ، ولا مَظِنّةً إلا قصدها » ؛ وذلك لأن الخير قرّته وسروره وراحته ، فمتى وجد إليه طريقا سلكها ، ثم قال : « قد أمكن الكتاب — يعنى القرآن — من زمامه » ، أى قد أطاع الأوامر الإلهية ، فالقرآن قائده وإمامه ، يحلّ حيث حلّ ، وينزل حيث نزل .

• • •

الأصل :

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ ، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ — وَفِيهَا وَقَعَ — وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ — وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ — فَالصُّورَةُ

صُورَةُ إِنسَانٍ ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ ، لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ ، وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ! وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ ، وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ ؛ وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ ! فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ ؛ وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ ، فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَهُوَ أَنَا . أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ ، وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي ، وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي ، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي .

فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ ، وَلَا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ .

* * *

الشرح :

الجهائل : جمع جهالة ؛ كما قالوا : علاقة وعلائق . والأضاليل : الضلال ، جمعٌ لا واحد له من لفظه .

وقوله : « وقد حمل الكتاب على آرائه » ، يعني قد فسّر الكتاب وتأوّله على مُقتضى هواه وقد أوضح ذلك بقوله : « وعطف الحقّ على أهوائه » .

وقوله : « يؤمِن الناس من العظائم » ، فيه تأكيد لمذهب أصحابنا فى الوعيد ، وتضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظائم الذنوب ، و يُمنّونهم العفوَ ؛ مع الإصرار وترك التّوْبة . وجاء فى الخبرالمرفوع المشهور : « الكيِّس مَنْ دانَ نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبَع نفسَه هواها ، وتمنَّى على الله » .

وقوله : « يقول أقف عند الشبهات » ؛ يعنى أنّ هذا المدّعِيَ للعلم يقول لنفسه وللناس : أنا واقف عند أدْنَى شبهة تحرُّجا وتورُّعاً ؛ كما قال صلى الله عليه وآله : « دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك » .

ثم قال : « وفى الشبهات وَقَع » ، أى بجهله ؛ لأنّ مَنْ لا يعلم الشبهة ما هى ، كيف يقفُ عندها ، ويتحرّج من الورْطة فيها ، وهو لا يأمن من كونها غير شبهة على الحقيقة !

وقوله : « اعتزل البِدَع ، وبينها اضطجع » ؛ إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة والحَشْوِيّة الذين رفضوا النَّظر العقلىّ ، وقالوا : نعتزل البدع .

وقوله : « فالصورة صورة إنسان ... » وما بعده ، فراده بالحيوان ها هنا الحيوان الأخرس كالحمار والثور ، وليس يريد العموم ، لأنّ الإنسان داخل فى الحيوان ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إنْ هُمْ إلَّا كالأنْعام بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلاً[1] ﴾ .

وقال الشاعر :

وكائِنْ ترَى مِنْ صامِتٍ لكَ مُعْجَبٍ ... زيادتُه أوْ نَقْصُه فى التَّكلُّمِ[2]

لسانُ الفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُه ... فلمْ يبقَ إلَّا صُورة اللَّحْمِ والدمِ

---

(١) سورة الفرقان ٤٤ .

(٢) البيتان ينسبان إلى زهير ، ملحق ديوانه ص ١٩٢ (من مجموعة العقد الثمين) .

قوله : « وذلك ميّت الأحياء » كلمة فصيحة ، وقد أخذها شاعر فقال :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[1]

إلّا أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد لجهله ، والشاعر أراد لبؤسه .

وتُؤفكُون : تقلبون وتصرَفُون .

والأعلام : المعجزات هاهنا ؛ جمع عَلَم ، وأصله الجبل أو الراية والمنارة ، تنصَب في الفلاة ليهتدَى بها .

وقوله : « فأيْنَ يُتاه بكم ! » أي أين يذهب بكم في التيه ! ويقال : أرضٌ تيْهاء يتحيّر سالكها . وتَعمَهُون : تتحيّرون وتَضلّون .

وعِتْرَة رسول الله صلى الله عليه وآله : أهله الأدْنَوْن ونسله ؛ وليس بصحيح قول مَنْ قال : إنّهم رهطُه وإن بعدوا ؛ وإنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده : « نحن عِتْرة رسول الله صلى الله عليه وبيضته التي فَقِئتْ عنه » ؛ على طريق المجاز ؛ لأنهم بالنسبة إلى الأنصار عِتْرَة له لا في الحقيقة ؛ ألا تَرَى أنّ العدنانيّ يفاخر القحطاني ؛ فيقول له : أنا ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ليس يعني أنه ابنُ عمّه على الحقيقة ، بل هو بالإضافة إلى القحطانيّ كأنه ابن عمه ؛ وإنما استعمل ذلك ونطق به مجازا. فإن قدّر مقدّر أنه على طريق حذف المضافات ؛ أي ابن ابن عمّ أب الأب ؛ إلى عدد كثير في البنين والآباء ، فكذلك أراد أبو بكر أنهم عِتْرة أجداده ، على طريق حذف المضاف . وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وآله عِتْرَتَه مَنْ هي ، لما قال : « إني تارك فيكم الثَّقَلَيْن » ، فقال : « عِتْرتي أهل بيتي » ، وبيّن في مقام آخر مَن أهلُ بيته حيث طرح عليهم كساء . وقال حين نزلت : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ

---

(١) لابن الرعناء الضبابي ، الكامل لابن الأثير ٣٢٦ .

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1] : « اللهم هؤلاء أهلُ بيتى فأذهب الرجس عنهم ».

فإن قلت : فمَنْ هى العِتْرة التى عناها أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الكلام ؟

قلت : نفسه وولداه ؛ والأصلُ فى الحقيقة نفسه ،لأنّ ولديه تابعان له ؛ ونسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع الشمس المشرقة ، وقد نبّه النبى صلى الله عليه وآله على ذلك بقوله : « وأبوكما خير منكما » .

وقوله : « وهم أزمّة الحقّ » : جمع زمام ؛ كأنه جعل الحقّ دائراً معهم حيثما داروا ، وذاهباً معهم حيثما ذهبوا ، كما أن الناقة طَوْع زمامها ، وقد نبّه الرسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْق هذه القضية بقوله : « وأدِر الحقّ معه حيث دار » .

وقوله : « وألسنة الصّدق » من الألفاظ الشريفة القرآنية ، قال الله تعالى :﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[2] ،لما كان لا يصدُر عنهم حكم ولا قول إلا وهو موافق للحقّ ؛ والصواب جعلَهم كأنهم ألسِنَةُ صِدْقٍ لا يصدر عنها قول كاذب أصلا ؛ بل هى كالمطبوعة على الصدق .

وقوله : « فأنزلوهم منازل القرآن » تحته سرٌّ عظيم ؛ وذلك أنّه أمر المكلَّفين بأنْ يُجْروا العِتْرة فى إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مَجْرَى القرآن .

فإن قلت : فهذا القول منه يُشعِرُ بأنّ العِتْرة معصومة ، فما قول أصحابكم فى ذلك ؟

قلت : نصّ أبو محمد بن متّويه؛ رحمه الله تعالى فى كتاب " الكفاية " على أنّ عليا عليه السلام معصوم ، وإنْ لم يكُنْ واجبَ العصمة ، ولا العصمة شرط فى الإمامة ؛ لكن أدلّة النصوص قد دلّتْ على عِصْمَتِه ؛ والقطع على باطنه ومغيبه ، وأنّ ذلك أمرٌ اختصّ

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٢) سورة الشعراء ٨٤ .

هو به دون غيره من الصحابة ؛ والفرق ظاهرٌ بين قولنا : « زيد معصوم ، وبين قولنا : « زيد واجب العصمة » ، لأنّه إمام ؛ ومِنْ شرط الإمام أن يكون معصوماً ، فالاعتبار الأول مذهبنا ، والاعتبار الثاني مذهب الإمامية .

ثم قال : « ورِدوهم وِرْد الهِيم العطاش » ، أي كونوا ذوي حِرْصٍ وانكماش على أخذ العلم والدين منهم ، كحِرْص الهِيم الظماء على وُرود الماء .

ثم قال : « أيُّها الناس خذوها عن خاتم النبيين » إلى قوله : « وليس ببالٍ » هذا الموضع يحتاج إلى تلطّف في الشرح ، لأنّ لقائلٍ أنْ يقولَ : ظاهر هذا الكلام متناقض ، لأنه قال : « يموت مَنْ مات منا وليس بميت » ، وهذا كما تقول : يتحرك المتحرك وليس بمتحرك ، وكذلك قوله : ويبلى مَنْ بَلِيَ منا ، وليس ببال » ، ألا ترى أنّه سلْب وإيجاب لشيء واحد ! فإن قلتم : أراد بقاء النفس بعد موت الجسد ، كما قاله الأوائل وقوم من المتكلمين ، قيل لكم : فلا اختصاص للنبيّ ولا لعليّ بذلك ؛ بل هذه قضيّة عامة في جميع البشر ، والكلام خرَج مخرج التمدّح والفخر .

فنقول في الجواب :

إنّ هذا يُمكن أن يحمَل على وجهين :

أحدُهما : أن يكونَ النبي صلى الله عليه وآله وعليٌّ ومَنْ يتلوهُما من أطايب العِترة أحياء بأبدانهم التي كانت في الدنيا بأعيانها ؛ قدْ رَفعهم الله تعالى إلى ملكوت سماواته ؛ وعلى هذا لو قدرنا أن محتفِراً احتفر تلك الأجداث الطاهرة عقب دَفْنهم لم يجد الأبدان في الأرض ؛ وقد روي في الخبر النبويّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك ؛ وهو قوله : « إنّ الأرض لم تُسلَّط عليّ ، وأنها لا تأكل لي لحماً ولا تشرب لي دماً » نعم يبقى الإشكال في قوله : « ويبلى مَنْ بَلِيَ منا وليس ببالٍ » ؛ فإنه إنْ صَحّ هذا التفسير في الكلام الأول ؛ وهو قوله : « يموت

مَنْ مات منّا وليس بميت » ؛ فليس يصحّ في القضية الثانية ، وهي حديث البلاء ، لأنّها تقتضي أنّ الأبدانَ تَبلى وذاك الإنسان لم يبلَ ، فأحوَج هذا الإشكال إلى تقدير فاعل محذوف ؛ فيكون تقدير الكلام : يموت مَنْ مات حال موته وليس بميت فيما بعد ذلك من الأحوال والأوقات ، وَيبلَى كفن مَنْ بَلِيَ منّا وليس هو ببال ؛ فحذف المضاف كقوله : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾[1] ، أي وإلى أهل مدين ؛ ولما كان الكَفَنُ كالجزء من الميت لاشتماله عليه عَبّر بأحدهما عن الآخر للمجاورة والاشتمال ، كما عبّروا عن المطَر بالسماء ، وعن الخارج المخصوص بالغائط ، وعن الخمر بالكأس . ويجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾[2] ؛ و ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[3] . وقول حاتم : « إذا حَشْرَجَتْ[4] » وحذف الفاعل كثير .

والوجه الثاني أنّ أكثر المتكلّمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحيّ الفعّال أجزاء أصلية في هذه البنية المشاهدة ؛ وهي أقلّ ما يمكن أن تأتلف منه البنية التي معها يصحّ كون الحيّ حيًّا ، وجعلوا الخطاب متوجّها نحوها ، والتكاليف وارداً عليها ، وما عداها من الأجزاء ؛ فهي فاضلة ليست داخلة في حقيقة الإنسان ؛ وإذا صحّ ذلك جاز أن ينتزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأنبياء والأوصياء ، فيرفعها إليه بعد أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها في الدار الأولى ؛ كما قاله مَنْ ذهب إلى قيامة الأنفس والأبدان معاً ، فتنعم عنده وتلتذّ بضروب اللذات الجسمانية ، ويكون هذا مخصوصاً بهذه الشجرة

---

(١) سورة الأعراف ٨٥

(٢) سورة ص ٣٢ .

(٣) سورة الواقعة ٨٣ .

(٤) من قول حاتم :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ديوانه ١١٨ (من مجموعة خمسة دواوين) .

المباركة دون غيرها ؛ ولا عجب فقد ورد في حقّ الشهداء نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١) .

وعلى الوجه الأول لو أنّ محتفراً احتفر أجداثهم لوجدَ الأبدان فيها ؛ وإن لم يعلم أنّ أصول تلك البُنى قد انتزعت منها ونقلت إلى الرفيقِ الأعلى ؛ وهذا الوجه لايحتاج إلى تقدير ماقدّرناه أولا من الحذف ؛ لأنّ الجسد يَبْلَى في القبر إلاقدْر ماانتزع منه ونقِل إلى مَحلّ القُدْس ؛ وكذلك أيضاً يصدُق على الجسد أنّه ميت ؛ وإن كان أصل بنيته لم يمُتْ؛ وقد ورد في الخبر الصحيح : « أنّ أرواحَ الشهداء من المؤمنين في حواصل طيور خُضْر تدور في أفناء الجنان ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » ، فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنُّك بموالي الشُّهدَاء وساداتهم !

فإن قلت : فهل يجوز أن يُتأوّل كلامُه ، فيقال : لعلّه أراد بقاء الذِّكر والصيت؟

قلت إنه لبعيدٌ ، لأنّ غيرَهم يشركُهم في ذلك ؛ ولأنّه أخرج الكلام مخرَج المستغرب المستعظم له .

فإن قلت : فهل يمكن أن يقال : إن الضمير يعود إلى النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنه قد ذكره في قوله : « خاتم النبيين » فيكون التقدير :أنه يموت مَنْ مات منّاوالنبي صلى الله عليه وآله ليس بميت ، ويبلى مَنْ بَلى منا والنبي ليس ببال .

قلت : هذا أبعدُ من الأول ، لأنه لو أراد ذلك لقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لاتُبليه الأرض ، وإنه الآن حيّ ؛ ولم يأت بهذا الكلام الموهِم ؛ ولأنه في سياق تعظيم العِتْرة وتبجيل أمرها ؛ وفخره بنفسه وتمدّحه بخصائصه ومزاياه ؛ فلا يجوز أن يدخل في غضون ذلك ماليس منه .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ .

فإن قلت : فهل هذا الكلام منه أم قاله مرفوعا ؟ قلت : بل ذكَره مرفوعا ، ألا تراه قال : « خذوها عن خاتم النبيين » . ثم نعود إلى التفسير فنقول : إنّه لما قال لهم ذلك علم أنه قال قولا عجيباً ؛ وذكر أمراً غريباً ، وعلم أنهم ينكرون ذلك ويعجبون منه ، فقال لهم : فلا تقولوا مالا تعرفون ؛ أى لاتكذِّبوا أخبارى ؛ ولا تكذِّبوا أخبار رسول الله لكم بهذا فتقولون مالا تعلمون صِحّته ، ثم قال : فإن أكثر الحق فى الأمور العجيبة التى تنكرُونها كإحياء الموتى فى القيامة ، وكالصراط والميزان والنار والجنةوسائر أحوال الآخرة ؛ هذا إن كان خاطَب مَنْ لايعتقد الإسلام ؛ فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعنى بذلك أنّ أكثرهم كانوا مرجئة ومشبّهة ومُجبِرة ؛ ومن يعتقد أفضليةَ غيره عليه ، ومن يعتقد أنه شَرِكَ فى دم عثمان ، ومن يعتقد أنّ معاوية صاحب حُجّة فى حربه ؛ أو شبهة يمكن أن يتعلّق بها متعلق ؛ ومن يعتقد أنّه أخطأ فى التحكيم ؛ إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التى كان أكثرهم عليها .

ثم قال : « واعذروا مَنْ لاحجةلكم عليه وهوأنا » يقول : قد عَدَلْتُ فيكم، وأحسنت السيرة وأقمتكم على المحجّة البيضاء ، حتى لم يبق لأحد منكم حُجّةٌ يحتجّ بها علىّ ، ثم شرح ذلك ،فقال : « عملت فيكم بالثَّقَل الأكبر » ، يعنى الكتاب و« خلّفت فيكم الأصغر » يعنى ولدَهُ ؛ لأنهمابقية الثَّقَل الأصغر ؛ فجاز أن يطلق عليهمابعد ذهاب مَنْ ذهب منه أنهما الثقل الأصغر ؛ وإنما سمى النبى صلى الله عليه وآله الكتاب ، والعِترة الثقلين لأن الثَّقَل فى اللغة متاع المسافر وَحَشَمُه ؛ فكأنه صلى عليه وآله لمّا شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذى ينتقل من مَنْزِلٍ إلى منزل ؛ وجعل الكتاب والعِترة كمتاعه وحَشَمه ؛ لأنهما أخصّ الأشياء به .

قوله : « وركزت فيكم راية الإيمان » ، أى غرزتها وأثبتها ؛ وهذا من باب الاستعارة . .

وكذلك قوله : « ووقفتكم على حدود الحلال والحرام » من باب الاستعارة أيضاً ، مأخوذ من حُدود الدار وهي الجهات الفاصلة بينها وبين غيرها .

قوله : « وألبستكم العافية منْ عَدْلِي » استعارة فصيحة ، وأفصح منها قوله : « وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي » ، أي جعلته لكم فراشا ، وفرَش هاهنا : متعدٍّ إلى مفعولين ، يقال : فرشته كذا ، أي أوسعته إياه .

ثم نهاهم أن يستعملوا الرأي فيما ذكره لهم من خصائص العِترة وعجائب ما منحها الله تعالى ، فقال : إنّ أمرنا أمر صعب لا تهتدي إليه العقول ، ولا تدرك الأبصار قعرَهُ ، ولا تتغلغل الأفكار إليه . والتغلغل : الدخول ، من تغلغل الماء بين الشجر ، إذا تخللها ودخل بين أصولها .

* * *

الأصْلُ :

ومنها :

حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا ؛ وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ؛ وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا . وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ ؛ بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً .

* * *

الشّرْحُ :

معقولة : محبوسة بعقال كما تعقل الناقة . وتمنحهم : تعطيهم ، والمنح : العطاء ، منحَ يمنَح بالفتح ، والاسم المِنْحَة بالكسر ، واستمنحت زيدا : طلبت مِنْحَته .

والدَّرّ في الأصل : اللّبَن ، جعل الدنيا كناقة معقولة عليهم تمنحهم لبنها ، ثم استعمل

الدَّرّ فى كل خير ونفع ، فقيل : لا دَرَّ درّه ! أى لا كَثُرَ خيره ، ويقال فى المدح : لله درّه ! أى عمله .

ومجة من لذيذ العيش ، مصدر مَجَّ الشراب مِنْ فِيه ، أى رمى به وقَذَفه ، ويقال : امجّتْ نقطة من القلم ، أى ترشَّشَتْ ، وشيخ ماجّ ، أى كبير يمجّ الريق ، ولا يستطيع حبسه لكبره .

ويتطعّمُونها ؛ أى يذوقونها . وبُرْهة ، أى مدة من الزمان فيها طول . والفظت الشىء من فى ، ألفظه لفظا : رميتُه ، وذلك الشىء اللُّفاظة واللُّفاظ ؛ أى بلفظونها كلَّها لا يبقى منها شىء معهم .

* * *

وهذه الخطبة طويلة ، وقد حذف الرضىّ رحمه الله تعالى منها كثيرا ، ومن جملتها :

أما والذِى فَلَقَ الحبَّة ، وبرأ النَّسمة ، لا يرون الّذى ينتظرون حتى يهلِكَ المتمنُّون . ويَضْمَحِلّ المحلُّون ، ويتثبّت المؤمنون ، وقليلٌ ما يكون ؛ والله والله لا تَرَوْن الذى تنتظرون حتى لا تدْعُون الله إلا إشارةً بأيدِيكُمْ وإيماضاً بحواجبكم ، وحتى لا تملِكُون من الأرض إلّا مواضعَ أقدامكم ، وحتى يكونَ موضعُ سلاحكم على ظهورِكم ؛ فيومئذٍ لا ينصرنى إلا الله بملائكته ، ومَن كُتبَ عَلَى قَلْبِه الإيمان ، والّذِى نَفْسُ عَلِىّ بيدِه لاتقوم عصابةٌ تطلب لِى أولغيرِى حقًّا ، أوتدفع عنا ضَيْماً إلا صَرَعتهم البليّةُ ، حتى تقوم عصابةٌ شهدت مع محمد صلى الله عليه وآله بَدْراً ، لا يودَى قتيلُهم ، ولا يداوَى جريحُهم ، ولا ينعَشُ صريعُهم . قال المفسرون : هم الملائكة .

ومنها :

لقد دعوتُكُم إلى الحقّ وتوانَيْتُمْ ، وضربتُكم بالدِّرّةِ فما استقمتم ، وستَلِيكم

بَعْدِي وُلاة يعذِّبُونكم بالسِّيَاط والحديد ، وسيأتيكم غُلاما ثقيفٍ : أخفش وجُعْبوب ؛ يقتلان ويَظْلِمان ، وقليل ما يمكّنان .

قلت : الأخفش : الضعيف البصر خِلْقة ، والجعبوب : القصير الدميم ، وهما الحجاج ويوسف بن عمر . وفى كتاب عبد الملك إلى الحجّاج : قاتلك الله أخيفشَ العينين ، أصكَّ الجاعِرتين[1] !

ومن كلام الحسن البصرى رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج : أتانا أُعَيْمش أُخَيْفش يمدّ بيدٍ قصيرة البنان ، ما عرق فيها عنان فى سبيل الله .

وكان المثل يُضْرَبُ بقِصَرِ يوسف بن عمر ، وكان يغضب إذا قيل له قصير ، فَصَّل له الخيّاطُ ثوبا ، فأبقى منه فضلة كثيرة ، فقال له : ما هذه ؟ قال : فضلت مِنْ قميص الأمير ، فضربه مائة سوط ، فكان الخيّاطون بعد ذلك يفصّلون له اليسير من الثوب ، ويأخذون الباقى لأنفسهم .

---

(١) الجاعرتان : حرفا الوركين المشرفان على الفخذين . والأصك : الذى تصطك ركبتاه وعرقوباه عن المشى

(٨٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاء ؛ وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلَاءٍ؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ . وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ ؛ وَلَا كُلُّ ذِي نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ .

فَيَا عَجَبًا ! وَمَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ؛ لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ، وَلَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ ، الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا ، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا ، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ ؛ كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًا ثِقَاتٍ ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ .

***

الشَّرْحُ :

القَصم ، بالقاف والصاد المهملة : الكسر ، قصمتُه فانقصم ، وقصّمته فتقصّم ، ورجل أقصم الثنيّة ؛ أى مكسورها ، بيّن القَصَم ، بفتح الصاد .

والتمهيل : التأخير . ويروى « رجاء » وهو التأخير أيضا ؛ والرواية المشهورة « ورخاء » ، أى بعد إعطائهم من سعة العيش وخِصب الحال ما اقتضته المصلحة .

والأَزْل ، بفتح الهمزة : الضيق . ويقتصُّون : يتبعون ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (١) .

ويعِفُّون ، بكسر العين ؛ عَفَفْتُ عن كذا ، أعِفُّ عَفًّا وعِفَّةً وعَفافة ، أى كففت ، فأنا عفٌّ وعفيف ، وامرأة عَفَّة وعفيفة ، وقد أعفَّه الله ، واستعفّ عن المسألة ، أى عفّ . وتعفَّف الرجل ، أى تكلّف العِفّة ، ويروى : « ولا يَعفُون عن عَيْب » ، أى لا يصفحون.

ومفزعهم : ملجؤهم . وفيما يُرى ، أى فيما يظنّ ، ويرى بفتح الياء ؛ أى فيما يراه هو. وروى : « بعرًا وثيقات » .

يقول إنّ عادة الله تعالى ألّا يقصِم الجبابرة إلا بعد الإمهال والاستدراج ؛ بإفاضة النعم عليهم ، وألّا يجبر أولياءه وينصرهم إلا بعد بؤس وبلاء يمتحنهم به ، ثم قال لأصحابه : إنّ فى دون ما استقبلتم من عَتْب لمعتبر ، أى من مشقّة ؛ (٢) يعنى بما استقبلوه ما لاقوه (٢) فى مستقبل زمانهم من الشيب ، وولاة السوء ، وتنكّر الوقت ؛ وسمّى المشقّة عتبًا ، لأن العَتْب مصدر عَتَب عليه ، أى وَجَد عليه ، فجعل الزمانَ كالواجد عليهم ، القائم فى إنزال مشاقّه بهم مقامَ الإنسان ذى الموجِدَة يعتِب على صاحبه . وروى « من عَتَب » ، بفتح التاء جمع عتَبة ؛ يقال: لقد حُمِل فلان على عتَبة ، أى أمر كريه من البلاء ؛ وفى المثل : « ما فى هذا الأمر رتَب ولا عتَب » ، أى شدة . وروى أيضا « من عَنَتٍ » وهو الأمر الشاقّ. وما استدبروه من خَطْب ؛ يعنى به ما تصرّم عنهم من الحروب والوقائع التى قَضَوْها ونضوها واستدبروها . ويروى : « واستدبرتم من خِصْب » ؛ وهو رخاء العيش ؛ وهذا يقتضى المعنى الأول ، أى وما خلّفتمُ وراءكم من الشباب والصحّة وصفو العيشة .

ثم قال : « وما كلّ ذى قلب بلبيب ... » الكلام إلى آخره ، وهو مأخوذ من قول الله

---

(١) سورة القصص ١١ .

(٢-٢) ج : « يعنى ما استقبلوه ، أى ما لاقوه » .

تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (١) .

ثم تعجب من اختلاف حجج الفرق فى الدّين وخطئهم وكونهم لا يتبعون أقوالَ الأنبياء ، ولا أقوال الأوصياء ، ثم نَعَى عليهم أحوالهم القبيحة ، فقال : إنهم لا يؤمنون بالغيب ، أى لا يصدقون بما لم يشاهدوه ، ولا يكفُّون عن الأمور القبيحة ، لـكنهم يعملون فى الشبهات ، أى يعملون أعمالا داخلة فى الشبهات متوسطة لها . ويسيرون فى الشهوات ، جعل الشهوات كالطريق التى يسير فيها الإنسان .

ثم قال : المعروف فيهم ماعرفوه ، أى ليس المعروف عندهم ما دلّ الدليل على كونه معروفا وصوابا وحَقًّا ، بل المعروف عندهم ماذهبوا إلى أنه حَقّ ، سواء كان حقًّا فى نفس الأمر أو لم يكن ، والمنـكر عندهم ماأنـكروه كما شرحناه فى المعروف .

ثم قال : إنهم لا يستشيرون بعالم ، ولا يستفتون فقيها فاضلا ، بل مفزعهم فى الأمور المشكلة إلى أنفسهم وآرائهم ، ولقد صدق عليه السلام ، فإن هذه صفات مَنْ يدّعى العلم والفضل فى زماننا وقبله بدهر طويل ، وذلك أنهم يأنفون من التعلّم والاسترشاد ، فالبادئ منهم يعتقد فى نفسه أنه أفضلُ من البارع المنتهى ؛ ومتى ظفر الواحد منهم بمبادئ علم وحله ، شرع فى التدْريس والتصنيف ، فمنعه التزامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء ، وأنف من سؤالهم عن الأمور المشكلة ، فدام جهله إلى أن يموت .

ثم قال : « كانَ كلّ واحد منهم إمام نفسه » ، ويروى بحذف « كانَ » وإسقاطها ، وهو أحسن .

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٨٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَاعْتِزَامٍ[1] مِنَ الْفِتَنِ؛ وَانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ؛ عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَإِغْوَارٍ[2] مِنْ مَائِهَا. قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى؛ فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ.

فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ، وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ. وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمُ الْعُهُودُ، وَلَا خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ، وَمَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمِ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ.

وَاللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالْأَمْسِ، وَلَا شُقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ، وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَوَاللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلَا أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا؛ فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

* * *

(١) مخطوطة النهج : «واعترام» . (٢) مخطوطة النهج : «وإغوار» .

الشرح :

الفَترة بين الرسل : انقطاعُ الرِّسالة والوحى ؛ وكذلك كان إرسال محمد صلى الله عليه وآله ، لأنّ بين محمد وبين عهد المسيح عليه السلام عهداً طويلا ، أ كثر الناس على أنه ستمائة سنة ، ولم يرسَل فى تلك المدّة رسول ، اللهمّ إلا ما يقال عن خالد بن سنان العبسىّ ، ولم يكن نبيًّا ولا مشهوراً .

والهجْعة : النَّوْمة ليلا ، والهجوع مثله ، وكذلك التَّهْجاع ، بفتح التاء ، فأما الهِجْعة بكسر الهاء ؛ فهى الهيئة كالجِلْسة من الجلوس .

قوله : « واعتزام من الفتن » ، كأنه جعل الفِتَن معتزِمة ، أى مريدة مصمّمة للشَّغب والمرْج . ويروى : « واعتراض » ، ويروى : « واعترام » بالراء المهملة من العُرام ، وهى الشِّرّة . والتلظّى : التلهّب .

وكاسفة النور : قد ذهب ضوءها ، كما تكسف الشمس . ثم وصفها بالتغير وذبول الحال ، فجعلها كالشجرة التى اصفرّ ورقُها ويبِس ثمرها . وأعور ماؤها ، والإعوار : ذهاب الماء ، فلاة عوْراء : لا ماء بها . ومَنْ رواه : « وإغوارٍ من مائها » ، بالغين المعجمة ، جعله من غار الماء ، أى ذهب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾[1] .

ومتجهّمة لأهلها : كالحة فى وجوههم .

ثم قال : « ثمرها الفتنة » أى نتيجتها ومايتولّد عنها . وطعامها الجيفة ، يعنى أكل الجاهلية الميتة ، أو يكون على وجه الاستعارة ، أى أكلها خبيث . ويروى «الخِيفة» أى الخوف ، ثم جعل الخوف والسيف شعارها ودثارها ، فالشعار مايلِى الجسد ، والدِّثار فوق

---

(١) سورة الملك ٣٠ .

الشعار ، وهذا من بديع الكلام ومن جيِّد الصناعة ، لأنّه لما كان الخوفُ يتقدّم السيف والسيف يتلُوه ، جعلَ الخوف شِعاراً لأنّه الأقربُ إلى الجسد ؛ وجعل الآثار تاليا له .

ثم قال : « واذكروا تيك » كلمة إشارة إلى المؤنثة الغائبة ، فيمكن أن يعنى بها الدنيا التي تقدّم ذكرها ، وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتهنَين بها ومحاسبين عليها ، والارتهان : الاحتباس ، ويمكن أن يعنى بها الأمانة التي عرضت على الإنسان لحملها ، والمراد بالأمانة الطاعة والعبادة وفعل الواجب وتجنّب القبيح . وقال : « تيك » ولم يجر ذكرها ، كما قال تعالى : ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ[1] ﴾ ولم يجرِ ذكره ؛ لأنّ الإشارة إلى مثل هذا أعظم وأهيب وأشدّ روعة فى صدر المخاطَب من التصريح .

قوله : « ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب » ، أى لم يطل العهد ؛ والأحقاب : المدد المتطاولة ، والقرون : الأمم من الناس .

وقوله : « من يوم كنتم » ؛ يروى بفتح الميم من « يوم » على أنه مبنى ؛ إذ هو مضاف إليه الفعل المبنى ؛ ويروى بجرّها بالإضافة ؛ على اختلاف القولين فى علم العربية .

ثم اختلفت الرواية فى قوله : « والله ما أسمعكم » فروى بالكاف وروى « أسمعهم » ، وكذلك اختلفت الرواية فى قوله : « وما أسماعُكم اليومَ بدون أسماعكم بالأمس » ، فروى هكذا ، وروى « بدون أسماعهم » ، فمن رواه بهاء الغيبة فى الموضعين فالكلام منتظم ، لا يحتاج إلى تأويل ، ومن رواه بكاف الخطاب ، قال : إنه خاطب به من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله وشاهده وسمع خطابه ؛ لأنّ أصحاب علىّ عليه السلام كانوا فريقين : صحابة وتابعين ، ويعضّد الرواية الأولى سياق الكلام .

وقوله : « ولا شُقّت لهم الأبصار ... إلا وقد أعطيتم مثلها[2] » .

---

(١) سورة البقرة ١ ، ٢ .

(٢) كذا فى الأصول .

وأصفيتم به : منحتموه ، من الصفيّ وهو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة ، يقال : صفيّ وصفيّة .

وخلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله قاله لأصحابه قد قلتُ مثله لكم ، فأطاع أولئك وعصيتم أنتم ، وحالكم مساوية لحالهم .

قلت : لو أن مجيبا منهم يجيبهُ لأمكن أن يقول له : المخاطبون وإن كانوا نوعا واحدا متساويا ؛ إلا أنّ المخاطِب مختلف الحال ؛ وذلك لأنك وإن كنت ابنَ عمه في النَّسب وأخاه ولحمه ودمه ؛ وفضائلك مشتقة من فضائله ، وأنت قبَس من نوره وثانيه على الحقيقة ، ولا ثالث لكما ؛ إلا أنك لم ترْزَق القبول الذي رزقه ؛ ولا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له ؛ وتلك خاصيّة النبوة التي امتاز بها عنك ؛ فإنه كان لا يسمع أحدٌ كلامَه إلا أحبّه ومال إليه ؛ ولذلك كانت قريش تسمى المسلمين قبل الهجرة الصباة ، ويقولون : نخاف أن يَصْبُو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد صلى الله عليه وآله ؛ ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبوَنّ قريش بأجمعها . وقالوا فيه : ما كلامه إلا السّحر ؛ وإنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر . ونهوْا صبيانَهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله ؛ وكان إذا صلى في الحِجْر وجهر يجعلون أصابعَهم في آذانهم خوفاً أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره ، هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾(١) .

ومعنى قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾(٢) لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن ، خوفاً أن يغيِّر عقائدهم في أصنامهم ، ولهذا

---

(١) سورة نوح .
(٢) سورة الإسراء ٤٦ .

أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة رُوائه ومنظره، وماذاقوه من حلاوة لفظه ومَسْرِىّ كلامه فى آذانهم، ومَلَكَ قلوبهم وعقولهم، حتى بذلوا المُهَج فى نصرته؛ وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام، وهو القبول الذى منحه الله تعالى، والطاعة التى جعلها فى قلوب الناس له، وذلك على الحقيقة سِرّ النبوّة، الذى تفرّد به صلوات الله عليه، فكيف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبىّ صلى الله عليه وآله؛ مع اختلاف حال الرئيسين وتساوى الأثرين كما يعتبر فى تحققه تساوى حال المحلين، يعتبر فى حقيقته أيضا تساوى حال العلّتين.

ثم نعود إلى التفسير، قال: « ولقد نزلت بكم البليّة »، أى المحنة العظيمة، يعنى فتنة معاوية وبنى أمية.

وقال: « جائلا خِطامها »، لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبتْ على راكبها، ويسمى الزمام خِطاما لكونه فى مقدّم الأنف، والخطم من كلّ دابة: مقدّم أنفها وفمها[(١)]، وإنما جعلها رخوا بطانها، لتكون أصعب على راكبها، لأنّه إذا استرخى البطان كان الراكب فى معرض السقوط عنها، وبطان القَتَب هو الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير.

ثم نهاهم عن الاغترار بالدنيا ومتاعها، وقال: إنها ظلٌّ ممدود إلى أجل معدود، وإنما جعلها كالظلّ لأنه ساكن فى رأى العين، وهو متحرك فى الحقيقة، لايزال يتقلّص، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[(٢)] وهو أشبه شىء بأحوال الدنيا.

وقال بعض الحكماء: أهل الدنيا كركب يُسار بهم وهم نيام.

---

(١) ج: « أنفه وفمه ».
(٢) سورة الفرقان ٤٦.

(٨٩)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ، اَلَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً ؛ إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ ، وَلَا فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ ، وَذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ ، وَإِلٰهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ .

***

الشّرْحُ :

الرويّة : الفكرة وأصلها الهمز ، رَوَأْتُ في الأمر ، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذة ، نحو البريّة ، من برأ ، أي خلق ، والذرية من ذَرَأ أي خلق أيضا ، والدَّرِيّة وهي مايستتر به الصائد ، أصله من درأت أي دفعت ، وفلان بريّ أصله بريء ، وصف الله تعالى بأنّه يعرف من غير أن تتعلّق الأبصار بذاته ، ويخلق من غير تفكر وتروٍ فيما يخلقه .

لم يزل قائما ، القائم والقيّوم بمعنًى ، وهو الثابت الذي لا يزولُ ، ويعبرعنه في الاصطلاح النظريّ بالواجب الوجود ، وقد يفسر القائم على معنى قولهم : فلان قائم بأمر كذا ، أي والٍ وممسك له أن يضطرب .

ثم قال : هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم ، وهذا يؤكّد التفسير

الأول ؛ لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقا بعد لم يصدق عليه أنه قائم بأمره إلا بالقوة لا بالفعل ؛ كما يصدق عليه أنه سميع بصير فى الأزل ، أى إذا وجدت المسموعات والمبصرات سمعها وأبصرها ، ولو سمى قبل خلق الكلام متكلما على هذا التفسير لم أستبعده ؛ وإن كان أصحابنا يأبونه .

والأبراج : الأركان فى اللغة العربية .

فإن قلت : فهل يطابق هذا التفسير مايعتقده أصحابُ الهيئة وكثير من الحكماء والمتكلّمين أنّ السماء كُرة لازاوية فيها ولا ضِلَع ؟

قلتُ : نعم لامنافاة بين القولين ، لأن الفلك وإن كان كُرة لكن فيه من المتممات مايجرى مجرى أركان الحصن أو السور ، فصحّ إطلاق لفظة الأبراج عليه ، والمتممات أجسام فى حشو الفلك تخفّ فى موضع ؛ والناس كلهم أثبتوها .

فإن قلت : فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على مايعتقده المنجّمون وأهل الهيئة ، وكثير من الحكماء والمتكلمين من كون الفلك مقسوما باثنى عشر قسما ، كلّ قسم منها يسمى برجا ؟

قلت : لامانع من ذلك ، لأنّ هذا المسمى كان معلوما متصوّرا قبل نزول القرآن ، وكان أهل الاصطلاح قد وضعوا هذا اللّفظ بإزائه ، فجاز أن ينزل القرآن بموجبه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [1] ، وأخذها علىّ عليه السلام منه ، فقال : « إذ لاسماء ذات أبراج » ، وارتفع «سماء» لأنه مبتدأ وخبره محذوف ؛ وتقديره «فى الوجود» .

ثم قال : « ولا حُجُب ذات إرتاج » والإرتاج مصدر أرتج أى أغلق ، أى ذات إغلاق ، ومن رواه «ذات رِتاج » على «فِعال» ، فالرتاج الباب المغلق ، ويُبعد رواية مَن رواه

---

(١) سورة البروج ١ .

«ذات أرتاج» لأن «فعالا» قل أن يجمع على «أفعال» ؛ ويعنى بالحُجُب ذات الإرتاج حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته . ويجوز أن يريد بالحجب السموات أنفسها ، لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما للملائكة فيه .

والليل الداجى : المظلم ، والبحر الساجى : الساكن . والفِجاج : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق الواسع بين جبلين . والمهاد : الفراش .

قوله : « ولا خلق ذو اعتماد » ؛ أى ولا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما ، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما ؛ ويجوز أن يريد بالاعتماد هنا : البطش والتصرّف . مبتدع الخلق : مخرجه من العدم المحض ، كقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾[1] . ودائبان : تثنية دائب ؛ وهو الجادّ المجتهد المتعب ، دأب فى عمله أى جدّ وتعب دأبا ودءوبا فهو دئيب ، ودأبته أنا . وسمّى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائما لا يفتران ولا يسكنان ، وروى «دائبين» بالنصب على الحال ويكون خبر المبتدأ «يبليان» وهذه من الألفاظ القرآنية[2] .

* * *

الأصلُ :

قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ .

* * *

الشّرْحُ

آثارهم ، يمكن أن يُعنَى به آثار وطئهم فى الأرض إيذانا بأنه تعالى عالم بكلّ معلوم

(١) سورة الأنعام ١٠١ .

(٢) من من قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾

كما آذن قوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [1] بذلك . ويمكن أن يعنى به حركاتهم وتصرفاتهم .

وروى : « وعدد أنفاسهم » على الإضافة .

وخائنة الأعين : مايومى به مسارقة وخفية . ومستقرهم ، أى فى الأرحام . ومستودعهم ، أى فى الأصلاب ، وقد فسر ذلك فتكون « من » متعلقة بمستودعهم ومستقرهم على إرادة تكررها ، ويمكن أن يقال : أراد مستقرهم ومأواهم على ظهر الأرض ومستودعهم فى بطنها بعد الموت ، وتكون « من » ها هنا بمعنى « مذ » أى مذ زمان كونهم فى الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات ، أى إلى أن يحشروا فى القيامة . وعلى التأويل الأول يكون تناهى الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء فى الدنيا .

***

الأصْلُ :

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ . قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ ؛ وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ .

عِبَادَ اللهِ ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا ، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ .

***

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

الشرح :

يجوز نَقِمة ونِقْمة ، مثل كَلِمة وكِلْمة ، ولَبِنة ولِبْنة، ومعنى الكلام أنه مع كونه واسع الرحمة في نفس الأمر، وأنه أرحم الراحمين؛ فإنه شديد النقمة على أعدائه ؛ ومع كونه عظيم النقمة في نفس الأمر وكونه شديد العقاب فإنه واسع الرحمة لأوليائه . وعازّه ، أي غالبه ، وعَزّه أي غلبه، ومنه ﴿ وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴾[1]، وفي المثل «مَنْ عَزَّ بَزّ»، أي مَنْ غَلَب سلَب . والمدمّر : المهلك ، دمّره ودمّر عليه بمعنى ، أي أهلكه . وشاقّه : عاداه، قيل إنّ أصله من الشّق وهو النّصف ، لأن المعادي يأخذ في شِقّ والمعادي في شِقّ يقابله . وناواه، أي عاداه ، واللفظة مهموزة ، وإنما ليّنها لأجل القرينة السّجعية ، وأصلها ناوأتُ الرجل مناوأة ونِواء ؛ ويقال في المثل : « إذا ناوأت الرجل فاصْبِر » .

قوله: « زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا » من الكلام الفصيح النادر اللطيف، يقول : اعتبروا أعمالكم وأنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط ، قبل أن يكون هذا الاعتبار فعلَ غيركم وأنتم لا تقتدرون على استدراك الفارط ، ومثله قوله : « وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا » .

ثم قال : « وتنفّسوا قبل ضيق الخناق » ، أي انتهزوا الفرصة، واعملوا قبل أن يفوتكم الأمر ، ويجدّ بكم الرحيل ويقع الندم ، قال الشاعر :

اختِمْ وطينُكَ رَطْبٌ إن قدرتَ فكَمْ قد أمكن الختْمُ أقواماً فما ختموا

ثم قال : « وانقادوا قبل عُنف السياق » ، هو العُنف بالضم ، وهو ضدّ الرفق ، يقال عنُف عليه وعنُف به أيضا ، والعَنيف : الذي لا رفق له بركوب الخيل ، والجمع عُنُف . واعتنفتُ الأمرَ ، أي أخذته بعنف، يقول : انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتساقوا

---

(١) سورة ص ٢٣ .

بغير اختياركم سوقًا عنيفا . ثم قال « مَنْ لم يُعِنْه الله على نفسه حتى يجعل له منها واعظا وزاجرا لم ينفعه الزجر والوعظ من غيرها » أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

وأقصرت عمّا تعهدين وزاجرٌ　　من النفس خيرٌ من عِتابِ العَواذِلِ

فإن قلت : أليس فى هذا الكلام إشعارٌ ما بالجبر ؟

قلت : إنه لا خلاف بين أصحابِنا فى أنّ لله تعالى ألطافًا يفعلها بعباده ، فيقرّبهم من الواجب ، ويبعدهم من القبيح ؛ ومن يعلم الله تعالى من حاله أنه لا لطف له لأنّ كلّ ما يعرض لطفًا له فإنه لا يؤثر فى حاله ولا يزداد به إلا إصرارًا على القبيح والباطل ؛ فهو الذى عَنَاه أميرُ المؤمنين عليه السلام بقوله : « من لم يعن على نفسه » ، لأنه ما قبل المعونة ولا انقاد إلى مقتضاها ، وقد روى : « واعلموا أنّه مَنْ لم يعِن على نفسه » بكسر العين أى من لم يعِن الواعظين له والمنذرين على نفسه ، ولم يكن معهم إلبًا عليها وقاهرا لها ، لم ينتفع بالوعظ والزجر ، لأن هوى نفسه يغلِب وعظَ كلّ واعظ وزجر كل زاجر .

(٩٠)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح ، وهى من جلائل خطبه عليه السلام

روى مَسْعَدَةُ بنُ صَدَقَةَ عن الصادقِ جعفرِ بنِ محمدٍ عليهما السـلامُ ، أنه قال : خطب أميرُ المؤمنينَ بهذه الخطبةِ على منبرِ الكوفةِ ؛ وذلك أن رجلًا أتاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا ربَّنا (١) مثل مانراه عياناً (١) ، لنزداد له حبًّا ، وبه معرفة ؛ فغضِبَ ونادَى : الصلاة جامِعَةً ، فاجتمع إليه الناسُ حتى غَصَّ المسجدُ بأهلِهِ ؛ فصعِدَ المنبرَ وهو مغضَبٌ متغيرُ اللونِ ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله ، ثم قال:

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي لَا يَفِرُهُ ٱلْمَنْعُ وَٱلْجُمُودُ، وَلَا يُكْدِيهِ ٱلْإِعْطَاءُ وَٱلْجُودُ ؛ إذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلَاهُ ؛ وَهُوَ ٱلْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ ٱلنِّعَمِ ، وَعَوَائِدِ ٱلْمَزِيدِ وَٱلْقِسَمِ ، عِيَالُهُ ٱلْخَلَائِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ ، وَٱلطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ، ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَٱلْآخِرُ ٱلَّذِي لم يكن لَهُ (٢) بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَٱلرَّادِعُ أَنَاسِيَّ ٱلْأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا ٱخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ ٱلْحَالُ ، وَلَا كَانَ فِى مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ ٱلِانْتِقَالُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

الأشبـاح : الأشخاص ، والمراد بهم هـا هنا الملائـكة ، لأنّ الخطبة تتضمّن ذِكْرَ الملائـكة .

(١ ــ ١) ساقط من مخطوطة النهج . (٢) مخطوطة النهج : « ليس له » .

وقوله : « الصلاة جامعةً » منصوب بفعل مقدر ، أى احضروا الصلاة ، وأقيموا الصلاة ، و « جامعةً » منصوب على الحال من الصلاة .

وغَصّ المسجد ، بفتح الغين ، أى امتلأ ، والمسجد غاصٌّ بأهله . ويقال: رجل مغضَب ، بفتح الضاد ، أى قد أغضِب ، أى فعل به مايوجب غضَبه .

ويَفِرُه المنع : يزيد فى ماله ، والموفور التامّ ، وفرتُ الشىء وفرا وَوَفَر الشىء نفسُه وفُورا ، يتعدّى ولايتعدى . وفى أمثالهم : « يوفر ويحمد » هو من قولك وفرته عرضَه ووفرته ماله .

وقوله : « ولا يكديه الإعطاء » ، أى لايفقِرُه ولا ينفد خزائنه ، يقال : « كَدَتِ الأرضُ » تَكْدِى وهى كادية ، إذا أبطأ نباتُها ، وقلّ خيرها ، فهذا لازم ، فإذا عدّيته أتيتَ بالهمزة فقلتَ : أكديت الأرض ، أى جعلتها كادية ، وتقول : أكدَى الرجلُ إذا قلّ خيره ، وقوله تعالى : ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [(١)] ، أى قطع القليل ، يقول : إنّه سبحانه قادر على المقدورات ، وليس كالملوك من البشر الذين إذا أعطوا نقصَتْ خزائنهم وإن منعوا زادت ، وقد شرح ذلك وقال : « إذ كلّ معطٍ منتقَص » أى منقوص ، ويجىء « انتقص » لازما ومتعديا ، تقول : انتقص الشىء نفسُه ، وانتقصتُ الشَىء ، أى نقصتهُ وكذلك « نقص » يجىء لازما ومتعديا .

ثم قال : « وكلّ مانع مذموم غيره » ، وذلك لأنّه تعالى إنما يمنع مَنْ تقتضى الحكمةُ والمصلحةُ منعه ، وليس كما يمنع البشر . وسأل رجل علىّ بن موسى الرِّضا عن الجواد ، فقال : إنّ لكلامك وجهين ، فإن كنتَ تسأل عن المخلوق ، فإنّ الجواد هو الذى يؤدّى ماافترض الله عليه ، والبخيل هو الذى يبخلُ بما افترض الله عليه ، وإن كنت تعنى الخالق ،

---

(١) سورة النجم ٣٤ .

فهو الجواد إن أعطى؛وهو الجواد إن مَنَع ، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ماليس له ، وإن منعه منعه ما ليس له .

قوله : « وليس بما سُئِل بأجود منه بما لم يُسأل » فيه معنى لطيف ، وذاك لأنّ هذا المعنى مما يختصّ بالبشر ، لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزّهم الطلبات ، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه ، وأما البارئ سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج لأنّ جوده عامٌّ فى جميع الأحوال .

ثم ذكر أنّ وجودَه تعالى ليس بزمانىّ ، فلا يطلق عليه البعدية والقبلية ، كما يطلق على الزمانيات ، وإنما لم يكن وجوده زمانيا لأنه لا يقبل الحركة ، والزمان من لواحق الحركة ، وإنما لم تطلق عليه البَعْدِيّة والقَبْلِيّة إذْ لم يكن زمانيا ، لأنّ قولنا فى الشىء : إنه بعد الشىء الفلانىّ ، أى للوجود فى زمان حضر بعد تَقَضِّى زمان ذلك الشىء الفلانى ، وقولنا فى الشىء : إنه قبل الشىء الفلانى، أى إنه موجود فى زمان حضر ولم يحضر زمان ذلك الشىء الفلانىّ بعد ، فما ليس فى الزمان ليس يصدق عليه القَبْل والبعد الزمانيان ، فيكون تقدير الكلام على هذا : الأوّل الذى لا يصدق عليه القبلية الزّمانية ، ليمكن أن يكون شىء ما قبله ، والآخِر الذى لا يصدق عليه البعدية الزمانية ، ليمكن أن يكون شىء ما بعده .

وقد يحمل الكلامُ على وجه آخر أقربَ مُتَنَاوَلاً من هذا الوجه ، وهو أن يكون أراد : الذى لم يكن محدثًا ، أى موجوداً قد سبقه عدم ، فيقال إنه مسبوق بشىء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه ، وأنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لايزال ، فيقال : إنه ينقضى وينصرم ، ويكون بعده شىء من الأشياء ، إمّا الزمان أو غيره ، والوجه الأوّلُ أدق وألطف ، ويؤكد كونه مراداً قوله عقيبه : « مااختلف عليه دهر فيختلف منه الحال » ، وذلك لأنّ واجب الوجود أعلى من الدهر والزمان ، فنسبة ذاته إلى الدهر والزمان بجملته وتفصيل أجزائه نسبة متحدة .

فإن قلت : إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان ولا بعدها بالزمان ؛ فهو معها بالزمان ، لأنه لا يبقى بعد نفي القَبْلية والبعدية إلا المعيّة !

قلت : إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمانيّ ، وأمّا ماليس زمانيا لا يلزم من نفي القبليّة والبعديّة إثبات المعيّة ، كما أنّه مالم يكن وجوده مكانيا لم يلزم من نفي كونه فوق العالم أو تحت العالم بالمكان ، أن يكون مع العالم بالمكان .

ثم قال : « الرادع أناسيّ الأبصار عن أن تنالَه أو تدركه » ، الأناسيّ : جمع إنسان ؛ وهو المثال الذى يُرى فى السواد ؛ وهذا اللفظ بظاهره يشعر بمذهب الأشعرية ، وهو قولهم : إنّ الله تعالى خالقٌ فى الأبصار مانعاً عن إدراكه ؛ إلا أنّ الأدلة العقلية من جانبنا اقتضتْ تأويلَ هذا اللفظ ، كما تأوّل شيوخنا قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ● إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (١) ؛ فقالوا : إلى جنّةِ ربها ؛ فنقول : تقديرُه الرادعُ أناسيَّ الأبصار أن تنال أنوارَ جلالته .

فإن قلت : أتثبتون له تعالى أنواراً يمكن أن تدركها الأبصار ، وهل هذا إلا قولٌ بالتجسيم !

قلت : كلاًّ لا تجسيمَ فى ذلك ؛ فكما أن له عرشاً وكرسياً وليس بجسم ؛ فكذلك أنوار عظيمة فوق العرش ، وليس بجسم ، فكيف تنكر الأنوار ، وقد نطق الكتاب العزيز بها فى غير موضع ، كقوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

* * *

(١) سورة القيامة ٧٥ .
(٢) سورة الزمر ٦٩ .

الأصلُ :

وَلَوْ وَهَبَ مَاتَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ ٱلْجِبَالِ ؛ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ ٱلْبِحَارِ ؛ مِنْ فِلِزِّ ٱللُّجَيْنِ وَٱلْعِقْيَانِ ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ المَرْجَانِ ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ ، وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَاعِنْدَهُ ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ ٱلْأَنْعَامِ ، مَالَا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ ٱلْأَنَامِ ، لِأَنَّهُ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي لَا يَغِيضُهُ[1] سُؤَالُ السَّائِلِينَ ، وَلَا يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ ٱلْمُلِحِّينَ .

* * *

الشرح

هذا الكلام من تتمة الكلام الأول ، وهو قوله : « لا يفِرُه المنع ، ولا يكْدِيه الإعطاء والجود ». وتنفست عنه المعادن : استعارة، كأنها لما أخرجته وولدته كانت كالحيوان يتنفس فيخرج من صدره ورئته الهواء.

وضحكت عنه الأصداف ، أى تفتحت عنه وانشقت ، يقال للطّلع حين ينشق : الضَّحك ، بفتح الضاد ، وإنما سمى الضاحك ضاحكا ، لأنه يفتح فاه . والفِلِزّ : اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة والرصاص ونحوها. واللُّجين : اسم الفضة جاء مُصغرا، كالكُميت والثريا. والعِقيان : الذهب الخالص ، ويقال : هو ماينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة. ونُثارة الدّر : ماتناثر منه ، كالسُّقاطة والنُّخالة ، وتأتى « فُعالة » تارةً للجيد المختار ، وتارة للساقط المتروك ، فالأول نحو الخلاصة ، والثانى نحو القُلامة .

وحصيد المَرجان : كأنه أراد المتبدّد منه كما يتبدد الحبّ المحصود ، ويجوز أن يعنى به الصلب المحكم ، من قولهم : « شيء مستحصَد » ، أى مستحصف مستحكم ، يعنى أنه ليس برخو ولاهشّ ، ويروى : « وحَصْباء المرجان » ، والحصباء : الحصى. وأرض حَصِبة ومحصَبة،

(١) مخطوطة النهج : « يغيظه »

بالفتح : ذات حَصْباء . والمرجان : صغار اللؤلؤ ؛ وقد قيل إنه هـذا الحجر ، واستعمله بعض المتأخرين فقال :

أدمى لها المرجانُ صَفْحَةَ خَدِّه   وبكى عليها اللؤلؤ المكنونُ

وتُنْفِدُه : تفنيه ، نفد الشيء أى فَنِيَ ، وأنفدته أنا . ومطالب الأنام : جمع مطلب، وهو المصدر ، من طلبت الشيء طَلَباً ومطلبا .

ويَغيضه ، بفتح حرف المضارعة : ينقصه ؛ ويقال : غاضَ الماء ، فهذا لازم ، وغاض الله الماء ، فهذا متعدٍّ ؛ وجاء : أغاض الله الماء .

والإلحاح : مصدر ألحّ على الأمر ، أى أقام عليه دائما ، من ألحّ السحاب ؛ إذا دام مطره ، وألحّ البعيرُ : حرَن ، كما تقول: خَلأت الناقة ، وروى « ولا يُبخِله » بالتخفيف ؛ تقول : أبخلت زيدا ، أى صادفته بخيلا ؛ وأجبنته : وجدته جبانا .

وفى هذا الفصل من حسن الاستعارة وبديع الصنعة مالا خفاء به .

***

الأصْلُ :

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ ، وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ ، مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ، وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ ، فَمَدَحَ اللهُ

اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَالَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً ، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً ، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ .

* * *

الشَّرْحُ :

تقول : ائتمّ فلان بفلان ؛ أى جعله إماما واقتدى به . فَكِلْ علمه ؛ من وكَلَه إلى كذا وكْلاً ووُكولا ؛ وهذا الأمر موكول إلى رأيك . والاقتحام : الهُجوم والدخول مغالبة. والسُّدد المضروبة : جمع سُدّة ؛ وهى الرِّتاج .

واعلم أنّ هذا الفصل يمكن أن تتعلق به الحشويّة المانعون من تأويل الآيات الواردة فى الصفات ، القائلين بالجمود على الظواهر ، ويمكن أيضا أن يتعلّق به مَنْ نفى النظر وحرّمه أصلا ؛ ونحن قبل أن نحققه ونتكلّم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾(١)؛ فنقول :

إن مِنَ النّاسِ من وقف على قوله : ﴿ إلا اللهُ ﴾ ، ومنهم من لم يقف على ذلك ، وهذا القول أقوى من الأوّل ؛ لأنه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن فى إنزاله ومخاطبة المكلّفين به فائدة ، بل يكون كخطاب العربىّ بالزّنجية ، ومعلوم أنّ ذلك عيب قبيح .

فإن قلتَ : فما الذى يكون موضع ﴿ يقولون ﴾ من الإعراب ؟

قلت : يمكن أن يكون نصبا على أنه حال من الراسخين ، ويمكن أن يكون كلاما مستأنفا ، أى هؤلاء العالمون بالتأويل ، يقولون : آمنّا به .

---

(١) سورة آل عمران ٧ .

وقد روى عن ابن عباس أنه تأوّل آية ، فقال قائل من الصحابة : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، فقال ابن عباس : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ ، وأنا من جملة الراسخين .

ثم نعود إلى تفسير كلام المؤمنين عليه السلام فنقول :

إنه غضب وتغيّر وجهه لقول السائل : صِفْ لنا ربّنا مثل مانراه عيانا ، وإذا هـذا المعنى ينصرف وصيّة له بما أوصاه به من اتباع ما جاء فى القرآن والسنّة ، وذلك لأنّ العلم الحاصل من رؤية الشيء عيانا ، عِلْمٌ لا يمكن أن يتعلّق مثله بالله سبحانه ، لأن ذاته تعالى لايمكن أن تُعْلَم من حيث هى هى ، كما تعلم المحسوسات ، ألا ترى أنّا إذا علمنا أنه صانع العالم ،وأنه قادر عالم حىّ سميع بصير مريد ، وأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض ،وعلمنا جميعَ الأمور السلبية والإيجابية المتعلّقة به ، فإنّا علمنا سُلوبا وإضافات ، ولاشك أنّ ماهية الموصوف مغايرة لماهية الصفات ، والذوات المخصوصة بخلاف ذلك ، لأنّا إذا رأينا السّوَاد ، فقد علمنا نفس حقيقة السواد لاصفة من صفات السواد ؛ وأيضا فإنّا لو قدرنا أنّ العلم بوجوده وصفاته السلبية والإيجابية ، يستلزم العلم بذاته ، من حيث هى هى لم يكن عالما بذاته علما جزئيا ، لأنّه يمكن أن يصدُق هذا العلم على كثيرين ، على سبيل البدل ، وإذا ثبت أنه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل البدل ، ثبتَ أنّه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل الجمع ، والعلم بالمحسوس يستحيلُ أن يصدق على كثيرين لاعلى سبيل الجمع ، ولا على سبيل البدل ، فقد بانَ أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشيء المرئىّ عيانا ، فأمير المؤمنين عليه السلام أنكر هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بنى إسرائيل لماطلبوا الرؤية ،قال تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة ٥٥ .

ثم قال للسائل بعد غضبه واستحالة لونه وظهور أثر الإنكار عليه: مادلّك القرآنُ عليه من صفته فخُذْ به ، فإن لم تجده فى الكتاب فاطلبه من السنّة ومن مذاهب أئمة الحق ، فإن لم تجد ذلك ، فاعلم أنّ الشيطان حينئذ قد كلّفك علمَ مالم يكلفك الله علمه ؛ وهذا حقٌ ؛ لأن الكتاب والسنّة قد نطقا بصفات الله من كونه عالما قادراً حيًّا مريداً سميعا بصيرا ، ونطقا أيضا بتنزيهه عن سِمات الحُدُوث كالجسمية والحلول والجهة ؛ ومااستلزم الجهة كالرؤية فلا إنكارَ على مَنْ طلب فى مدارك العقول وجوها تعضُدُ ماجاء به القرآن والسنّة ، وتوفّق بين بعض الآيات وبعض ؛ وتحمل أحدَ اللفظين على الآخر إذا تناقضا فى الظاهر ، صيانةً لكلام الحكيم عن التهافت والتعارض . وأما مالم يأتِ الكتاب والسنة فيه بشىء فهو الذى حُرّم وحُظِر على المكلّفين الفكر فيه ؛ كالكلام فى الماهيّة التى يذهب ضرار المتكلم إليها ، وكإثبات صفات زائدة على الصفات المعقولة لذات البارئ سبحانه ، وهى على قسمين:

أحدُها : مالم يرِدْ فيه نصٌ ؛ كإثبات طائفة تعرف بالماتريدية صفةً سمّوْها التكوين زائدة على القدرة والإرادة .

والثانى : ماورد فيه لفظ فأخطأ بعضُ أهل النظر ، فأثبت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للبارئ سبحانه ، نحو قول الأشعريِّين : إنّ اليدين صفة من صفات الله ، والاستواء على العرش صفة من صفات الله ، وإنّ وجه الله صفة من صفاته أيضا ، ثم قال : إن الراسخين فى العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج والتقحّم فيما لم يعرفوه ، وهؤلاء هم أصحابنا المعتزلة لاشبهة فى ذلك ، ألا ترى أنّهم يعللون أفعال الله تعالى بالحِكم والمصالح ، فإذا ضاق عليهم الأمر فى تفصيل بعض المصالح فى بعض المواضع ، قالوا : نعلم على الجملة أنّ لهذا وجهَ حكمة ومصلحة ، وإن كنا لانعرف تفصيل تلك المصلحة ، كما يقولون فى تكليف مَنْ يعلم الله تعالى منه أنه يكفر ، وكما يقولون فى اختصاص الحال التى حدث فيها العالم بحدوثه دون ماقبلها وما بعدها .

وقد تأول القطب الراوندي كلامَ أمير المؤمنين في هذا الفصل، فقال: إنما أنكر على من يقول: لم تعبَّد اللهُ المكلَّفين بإقامة خمس صلوات؛ وهلا كانت ستا أو أربعا! ولم جعلَ الظهر أربع ركعات، والصبح ركعتين؟ وهلّا عكس الحال! وهذا التأويل غيرُ صحيح، لأنه عليه السلام إنما أخرج هذا الكلام مخرج المنكِر عَلَى مَنْ سأله أن يصف له البارئ سبحانه، ولم يكن السائل قد سأل عن العِلّة في أعداد الصّلاة وكمية أجزاء العبادات.

ثم إنه عليه السلام قد صرّح في غُضونِ الكلام بذلك؛ فقال: فانظر أيها السائل، فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به، وما لم يدلك عليه فليس عليك أن تخوض فيه، وهذا الكلام تصريحٌ بأنّ البحث إنما هو في النظر العقليّ في فنّ الكلام، فلا يجوز أن يحمل على ما هو بمعزل عنه.

واعلم أننا نتساهل في ألفاظ المتكلمين، فنوردها بعباراتهم، كقولهم في «المحسوسات» والصواب «المحَسّات»؛ لأنه لفظ المفعول من «أحسّ» الرباعي، لكنا لما رأينا العدول عن ألفاظهم إذا خضنا في مباحثهم مستهجنًا عبّرنا بعباراتهم على علمٍ منّا أنّ العربية لا تسوغُها.

***

الأصْلُ:

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ – رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ.

***

الشرح :

ارتمت الأوهام ، أى ترامت ؛ يقال : ارتمى القوم بالنَّبل؛ أى تراموا ، فشبّه جَوَلان الأوهام والأفكار وتعارضها بالترامى .

وخَطْر الوساوس، بتسكين الطاء ؛ مصدر خَطَر له خاطر، أى عرض فى قلبه،وروى « من خطَرات الوساوس » .

وتولّهت القوب إليه : اشتدّ عِشقها حتى أصابها الولَه وهو الحيرة .

وقوله : «لتجرى فى كيفية صفاته» ، أى لتصادف مجرًى ومسلكا فى ذلك؛ وغمضت مداخلُ العقول ، أى غَمض دخولها ، ودق فى الأنظار العميقة التى لاتبلغ الصفات كُنْهها لدقّتها وغموضها طالبة أن تنال معرفته تعالى .

ولفظة « ذات » لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية ، فأنكر قومٌ إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه ، أمّا إطلاقها فلأنّها لفظة تأنيث ؛ والبارىء سبحانه منزّه عن الأسماء والصفات المؤنثة ؛ وأما إضافتها فلأنّها عين الشىء ؛ والشىء لا يضاف إلى نفسه. وأجاز آخرون إطلاقها فى البارىء تعالى وإضافتها إليه ، أما استعمالها فلوجهين :

أحدهما أنها قد جاءت فى الشعر القديم ، قال خُبيب الصحابىّ عند صَلْبه :

وذلك فى ذاتِ الإله وإن يشأ   يُبارك على أوصال شِلْوٍ موزَّع[1]

ويروى « ممزّع[2] » ، وقال النابغة :

مَحلّتُهمْ ذاتُ الإله ودينُهمْ   قديمٌ فما يخشَوْن غير العواقب[3]

والوجه الثانى أنها لفظة اصطلاحية، فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث « ذو » بل تستعمل

---

(١) هو خبيب بن عدى الأنصارىّ ، من قصيدة أوردها ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤١١ .

(٢) هى رواية الاستيعاب .   (٣) ديوانه ٨ .

ارتجالا فى مسماها الذى عبّر عنه بها أرباب النظر الإلهىّ ، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرَض وغيرهما فى غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونها فيه .

وأما منعهم إضافتها إليه تعالى ، وأنه لايقال : « ذاته » ؛ لأنّ الشىء لا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم : أخذتُه نفسه وأخذتُه عينه ؛ فإنه بالاتفاق جائز ، وفيه إضافة الشىء إلى نفسه .

ثم نعود إلى التفسير :

قوله عليه السلام : «ردعها» ، أى كَفّها . وتجوب ، أى تقطع . والمهاوى : المهالك ؛ الواحدة مَهْوَاة بالفتح ، وهى ما بين جبلين أو حائطين ونحو ذلك . والسُّدَف : جمع سُدْفة ، وهى القطعة من الليل المظلم . وجُبهت ، أى رُدّت ، وأصله مِنْ جَبَهتُه ، أى صَكَكْتُ جبهتَه . والجوْر : العدول عن الطريق . والاعتساف : قَطْع المسافة على غير جادّة معلومة .

وخُلاصة هذا الفصل أنّ العقول إذا حاولت أن تدرِك متى ينقطع اقتداره على المقدّرات نكصتْ عن ذلك ، لأنه قادر أبداً دائماً على ما لا يتناهى ؛ وإذا حاول الفِكْر الذى قد صفا وخلا عن الوساوس والعوائِق أنْ يدرك مغيّبات عِلْمِه تعالى كلّ وحَسَر ورجع ناقصا أيضاً ؛ وإذا اشتدّ عشق النفوس له ، وتولّهت نحوه لتسلك مسلكا تقِف منه على كيفية صفاته عجزت عن ذلك ؛ وإذا تغلغلت العقول ، وغَمَضت مداخلُها فى دقائق العلوم النظرية الإلهيّة التى لا توصف لدقّتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته تعالى ، انقطعت وأعيت ، وردّها سبحانه وتعالى وهى تجول وتقطع ظلماتِ الغيب لتخلُص إليه ، فارتدّتْ حيث جَبَهها وردعها ، مُقِرّة معترِفة بأن إدراكه ومعرفته لاتُنالُ باعتساف المسافات التى بينها وبينه ؛ وإن أرباب الأفكار والرويات يتعذّر عليهم أن يخطِر لهم خاطر يطابق ما فى الخارج من تقدير جلال عزته ؛ ولا بدّ من أخذ هذا القيد فى الكلام ؛ لأن أرباب الأنظار

لا بدّ أن تخطر لهم الخواطر فى تقدير جلال عزّته ؛ ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لما فى الخارج ؛ لأنها خواطر مستندُها الوهم لا العقل الصريح ؛ وذلك لأنّ الوهم قد ألف الحِسّيات والمحسوسات ، فهو يعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك ؛ وجلالُ واجبِ الوجود أعلى وأعظم من أن يتطرّق الوهمُ نحوه ؛ لأنه برىء من المحسوسات سبحانه ؛ وأما العقل الصريح فلا يدرك خصوصية ذاته لما تقدّم .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[1] فيه إشارة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾[2] .

***

الأصلُ :

الَّذِى ٱبْتَدَعَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ ، وَلَا مِقْدَارٍ ٱحْتَذَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ ، وَٱعْتِرَافِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ ؛ مَادَلَّنَا بِٱضْطِرَارِ قِيَامِ ٱلْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، فَظَهَرَتْ فِى ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِى أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ ، وَأَعْلَامُ حِكْمَتِهِ ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ ، وَدَلِيلاً عَلَيْهِ ؛ وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً ؛ فَحُجَّتُهُ بِٱلتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى ٱلْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ .

***

(١) سورة الملك ٣ ، ٤ .
(٢) سورة البقرة ٢٥٥ .

الشَّرْحُ :

المِساك ، بكسر الميم : مايمسك ويعصَم به .

وقوله : « ابتدع الخلق على غير مثال امتثله » يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يريد بـ « امتثله » مثله ، كما تقول : صنعت واصطنعت بمعنى ، فيكون التقدير أنه لم يمثّل لنفسه مثالا قبل شروعه فى خلق العالم ؛ ثم احتذى ذلك المثال ؛ وركّب العالم على حسب ترتيبه ، كالصانع الذى يصوغ حلْقة من رصاص مثالا ، ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها ، وكالبنّاء يقدر ويفرض رسوماً وتقديراتٍ فى الأرض وخطوطاً ، ثم يبنى بحسبها .

والوجه الثانى : أنّه يريد بامتثله احتذاه وتقيّله واتبعه ، والأصل فيه امتثال الأمر فى القول ، فنقل إلى احتذاء الترتيب العقلىّ ، فيكون التقدير أنّه لم يمثّل له فاعل آخر قبله مثالا اتبعه واحتذاه وفعل نظيره ، كما يفعل التلميذ فى الصباغة والنجارة شيئاً قد مثّل له أستاذُه صورتَه وهيئته .

واعلم أنّ هذا أحدُ الأسئلة التى يذكرها أصحابنا فى باب كونه عالما ، لأنهم لما استدلُّوا على كونه تعالى عالمًا بطريق إحكام العلم وإتقانه ، سألوا أنفسَهم فقالوا : لم لايجوز أن يكونَ القديمُ سبحانه أحدَثَ العالمَ محتذياً لمثال مثله ، وهيئة اقتضاها ، والمحتذِى لايجب كونه عالمًا بما يفعله ، ألا ترى أنّ من لايحسِن الكتابة قد يحتذى خطا مخصوصاً ، فيكتب قريباً منه ، وكذلك من يطبع الشّمع بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم ، فهو فعل الطابع ، ولايجب كونه عالما .

وأجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا : إنّ أول فعل محكم وقع منه ، ثم احتذى عليه ، يكفى فى ثبوت كونه عالمـا ، وأيضاً فإنّ المحتذى ليست العالمية بمسلوبة عنه ، بل موصوف بها ،

ألا ترى أنّه متصوّر صورة مايحتذيه ، ثم يوقع الفعل مشابها له ، فالمحتذى عالم فى الجملة ، ولكنّ علمه يحدث شيئاً فشيئاً .

فأما معنى الفصل فظاهر ، يقول عليه السلام : إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه ولا قدم له غيره ليحتذى عليه ، وأرانا من عجائب صنعته ومن اعتراف الموجودات كلّها ، بأنها فقيرة محتاجة إلى أنْ يمسكها بقوته، مادلّنا على معرفته ضرورة ، وفى هذا إشارة إلى أنّ كلّ ممكن مفتقر إلى المؤثر ، ولما كانت الموجودات كلّها غيره سبحانه ممكنة لم تكن غَنِيّة عنه سبحانه ، بل كانت فقيرة إليه ، لأنها لولاه مابقيت ، فهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء ، ولا شيء من الأشياء مطلقاً بغنيّ عنه سبحانه ، وهذه من خصوصية الإلهية ، وأجلّ ماتدركه العقول من الأنظار المتعلقة بها .

فإن قلت : فى هذا الكلام إشعار بمذهب شيخكم أبى عثمان ، فى أنّ معرفته تعالى ضرورية .

قلت : يكاد أن يكون الكلام مشيراً بذلك ؛ إلا أنه غير دالّ عليه ، لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار ، ولكن قال ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته ، فالاضطرار راجعٌ إلى قيام الحجة ، لا إلى المعرفة .

ثم قال عليه السلام : وظهرت آثار صنعته ، ودلائل حكمته فى مخلوقاته فكانت وهى صامتة فى الصورة ناطقة فى المعنى بوجوده وربوبيته سبحانه ، وإلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال :

فَوَعجبا كيفَ يُعْصَى الإلهُ أمْ كيف يجحدُه الجاحدُ ! (١)
وَفِى كُــــلِّ شيء لَه آيةٌ تَدُلُّ على أنّهُ وَاحِـــدُ

---

(١) لأبي العتاهية ، ديوانه ٦٩ ، ٧٠

وقال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (١) : إنه عبارة عن هذ المعنى .

***

الأصل :

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ ، وَتَلَاحُمِ حِقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ ، لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ ، وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَا نِدَّ لَكَ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ عَنِ الْمَتْبُوعِينَ ؛ إِذْ يَقُولُونَ : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؛ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ ، وَجَزَّءُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ ، وَأَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ ؛ فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً ، وَلَا فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا مَحْدُوداً مُصَرَّفاً .

***

الشرح :

حقاق المفاصل جمع حُقّة؛ وجاء فى جمعها حِقاق وحُقَق وحُقّ؛ ولما قال : « بتباين أعضاء خلقك ، وتلاحم حقاق مفاصلهم » ؛ فأوقع التلاحُم فى مقابلة التباين صناعة و بديعا. وروى

---

(١) سورة الإسراء ٤٤ .

« المحتجّة » ، فمن قال : « المحتجّة » ، أراد أنّها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمى من لدنه سبحانه ، ومن قال : « المحتجبة » أراد المستترة ، لأنّ تركيبها الباطن خفىّ محجوب .

والندّ : المثل . والعادلون بك : الذين جعلوا لك عَدِيلًا ونظيرا . ونحلوك : أعطوك ؛ وهى النِّحلة ، وروى : « لم يُعقَد » على ما لم يسمّ فاعله .

وغَيْب ضميره ، بالرفع . والقرائح : جمع قَرِيحة ، وهى القوة التى تستنبط بها المعقولات وأصلُه من قريحة البئر ، وهو أوّل مائها .

ومعنى هذا الفصل أنه عليه السلام شَهِد بأنّ المجسم كافر ، وأنّه لا يعرف الله ، وأن من شبه الله بالمخلوقين ذوى الأعضاء المتباينة ، والمفاصل المتلاحمة ، لم يعرفه ولم يباشر قلبه اليقين ، فإنّه لا ندّ له ولا مِثل ، ثم أكّد ذلك بآيات من كتاب الله تعالى ، وهى قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1] ﴾ . حكى سبحانه حكاية قول الكفار فى النار ؛ وهم التابعون للذين أغووهم من الشياطين وهم المتبوعون . لقد كنّا ضالين إذ سويناكم بالله تعالى ، وجعلناكم مثله ، ووجه الحُجّة أنه تعالى حكى ذلك حكاية منكِرٍ على مَنْ زعم أن شيئا من الأشياء يجوز تسويته بالبارى سبحانه ، فلو كان البارى سبحانه جسما مصوّرا ، لكان مشابها لسائر الأجسام المصوّرة ، فلم يكن لإنكاره على من سواه بالمخلوقات معنى .

ثم زاد عليه السلام فى تأكيد هذا المعنى ، فقال : كذب العادلون بك ، المثبتون لك نظيراً وشبيها ، يعنى المشبِّهة والمجسِّمة ، إذ قالوا : إنّك على صورة آدم ، فشبّهوك بالأصنام التى

---

(١) سورة الشعراء ٩٤ ـ ٩٨ .

كانت الجاهلية تعبدها ، وأعطوك حلية المخلوقين لما اقتضت أوهامهم ذلك ، من حيث لم يألفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلّا جسما ، وجعلوك مركّبا ومتجزئا ، كما تتجزّأ الأجسام ، وقدروك على هذه الخلقة ، يعني خلقة البشر المختلفة القُوى ، لأنها مركّبة من عناصر مختلفة الطبائع . ثم كرّر الشهادة فقال : أشهد أنّ مَنْ ساواك بغيرك ، وأثبت أنك جوهر أو جسم فهو عادل بك كافر . وقالت تلك الخارجية للحجاج : « أشهدُ أنك قاسط عادل » ، فلم يفهم أهلُ الشام حوله ما قالت ، حتى فسّره لهم ، قال عليه السلام فمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب ، وبما دلّت عليه حجج العقول . ثم قال : وإنك أنت الله ، أى وأشهد أنك أنت الله الذى لم تحِط العقولُ بك ، كإحاطتها بالأشياء المتناهية ، فتكون ذا كيفية .

وقوله : « في مهبّ فكرها » استعارة حسنة ، ثم قال : « ولا في رَوِيّات خواطرها » ، أى في أفكارها . محدودا ، ذا حدّ مُصرّفا ، أى قابلا للحركة والتغير .

وقد استدلّ بعضُ المتكلّمين على نفى كون البارى - سبحانه - جسما بما هو مأخوذ من هذا الكلام ، فقال : لو جاز أن يكون البارى جسما ، لجاز أن يكونَ القمر هو إله العالم ، لكن لا يجوز أن يكون القمر إله العالم ، فلا يجوز أن يكون البارى جِسْماً ، بيان الملازمة أنّه لو جاز أن يكون البارى سبحانه جسما ، لما كان بيْن الإلهية وبين الجسمية منافاة عقلية ، وإذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعُهما ، وإذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هُوَ إله العالم ، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسما يجوز عليه الحركة ، والأفول ، ونقصان ضوئه تارة ، وامتلاؤه أخرى ، فإذا لم يكن ذلك منافيا للإلهية ، جاز أن يكون القمر إله العالم ، وبيان الثانى إجماعُ المسلمين على كفر من أجاز كون القمر إله العالم ، وإذا ثبتت الملازمة وثبتت المقدّمة الثانية فقد تمت الدلالة .

***

الأصلُ :

ومنها :

قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ ! الْمُنْشِئُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا ، وَلَا قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ ، وَلَا شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِىءِ ، وَلَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّىءِ ، فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا ، وَنَهَجَ حُدُودَهَا ، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا ، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً ، مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدَارِ ، وَالْغَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ ، بَدَايَا خَلَائِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا ، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا .

***

الشرحُ :

الوِجْهة ، بالكسر : الجهة التى يتوجّه نحوها ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (١) .

والرَّيْث : البطء والمتلكّىء : المتأخر . والأوَد : الاعوجاج . ولاءم بين كذا وكذا ، أى جمع ، والقرائن هنا : الأنفس ، واحدتها قرونة وقرينة ، يقال : سمحت قرينته وقرونته ؛ أى أطاعته نفسُه وذلّت ، وتابعته على الأمر . وبدايا . ها هنا : جمع بديّة ،

---

(١) البقرة ١٤٨ .

وهي الحالة المعجبة ، أبدأ الرجل إذا جاء بالأمر البديء ، أي المعجب ، والبديّة أيضاً : الحالة المبتدأة المبتكرة ، ومنه قولهم : فعلَه باديَ ذي بَدِيء على وزن « فعيل » ، أي أوّل كلّ شيء . ويمكن أن يحمَل كلامُه أيضاً على هذا الوجه .

وأما خلائق ؛ فيجوز أن يكون أضاف « بدايا » إليها ؛ ويجوز ألاّ يكون أضافه إليها ، بل جعلها[1] بدلاً من « أجناسا » . ويروى « برايا » جمع بريّة . يقول عليه السلام : إنّه تعالى قدّر الأشياء التي خلقها، فخلقها محكمة على حَسَب ما قدّر . وألطف تدبيرها، أي جعله لطيفا ، وأمضى الأمور إلى غاياتها وحدودها المقدّرة لها ، فهيأ الصَّقْرة للاصطياد ، والخيل للركوب والطّراد ، والسيف للقَطْع ، والقلم للكتابة ، والفَلَك للدوران ونحو ذلك ، وفي هذا إشارة إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له » ؛ فلم تتعدّ هذه المخلوقات حدود منزلتها التي جعلت غايتها، ولا قصرت دون الانتهاء إليها ، يقول : لم تقف على الغاية ولا تجاوزتها . ثم قال : ولا استصعبتْ وامتنعت إذا أمرها بالمضيّ إلى تلك الغاية بمقتضى الإرادة الإلهية ، وهذا كلّه من باب المجاز ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[2] ﴾ .

وخلاصة ذلك ، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشيئته .

ثم علّل نفي الاستصعاب فقال : وكيف يَستصعب ، وإنما صدرت عن مشيئته ! يقول : إذا كانت مشيئتُه هي المقتضيَة لوجود هذه المخلوقات ، فكيف يُستَصعَبُ عليه بلوغها إلى غاياتها التي جعلت لأجلها ، وأصلُ وجودها إنما هو مشيئته ، فإذا كان أصل وجودها بمشيئته ، فكيف يستصعب عليه توجيهها لوجهتها ، وهو فرع من فروع وجودها وتابع له !

---

(١) ا : « يجعلها » .   (٢) سورة فصلت ١١ .

ثم أعاد معانىَ القول الأول ، فقال : إنه أنشأ الأشياء بغير روية ولا فكرة ولا غريزة أضمر عليها خَلْق ما خلق عليها . ولا تجربة أفادها ، أى استفادها من حوادث مرّت عليه من قبلُ ، كما تكسب التجارب علوماً لم تكن ، ولا بمساعدة شريك أعانه عليها . فتمّ خلقُه بأمره إشارة إلى قوله : « ولم يَستصعب إذ أمر بالمضىّ » ؛ فلما أثبت هناك كونها أُمِرت أعاد لفظ الأمر ها هنا ، والكلّ مجاز ، ومعناه نفوذ إرادته ، وأنه إذا شاء أمراً استحال ألّا يقع ، وهذا المجاز هو المجازُ المستعمَل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1] ؛ تعبيرا بهذا اللفظ عن سرعة مواتاة الأمور له ، وانقيادها تحت قدرته .

ثم قال : ليس كالواحد منا يعترض دون مراده رَيْث وبطء ، وتأخير والتِواء . ثم قال : وأقام العِوج وأوضح الطريق ، وجمع بين الأمور المتضادّة ، ألا ترى أنه جَمع فى بَدَن الحيوانات والنبات بين الكيفيات المتباينة المتنافرة ، من الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، ووصلَ أسباب أنفسها بتعديل أمزجتها ، لأن اعتدال المزاج أو القرب من الاعتدال سببُ بقاء الروح ، وفرّقها أجناساً مختلفات الحدود والأقدار ، والخلق والأخلاق والأشكال . أمورٌ عجيبة بديعة مبتكرة الصنعة ، غير محتذٍ بها حَذْوَ صانع سابق ، بل مخلوقة على غير مثال ، قد أحكم سبحانه صنعها ، وخَلَقها على موجب ما أراد ، وأخرجها من العدم المحض إلى الوجود ، وهو معنى الابتداع ، فإنّ الخلق فى الاصطلاح النظرىّ على قسمين : أحدهما صورة تخلق فى مادة ، والثانى ما لا مادّة له ، بل يكون وجودُ الثانى من الأول فقط ، من غير توسّط المادة ، فالأول يسمّى التكوين ، والثانى يسمى الإبداع ، ومرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين .

* * *

---

(١) سورة يس ٨٢ .

الأصل :

ومنها في صفة السماء :

وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا ، وَلاَحَمَ صُدُوعَ انْفِرَاجِهَا ، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا ، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا ، وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ ، فَالْتَحَمَتْ عُرَا أَشْرَاجِهَا ، وَفَتَقَ بَعْدَ الارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا ، وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا ، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا ، وَقَمَرَهَا آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا ، وَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا ، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا[1] فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا ، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا ، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ بِمَقَادِيرِهِمَا ، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا ، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا ، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا ، وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا ، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا ، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا ، مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا ، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا ، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا ، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا .

* * *

الشرح :

الرَّهَوات : جمع رَهْوة ، وهي المكان المرتفع والمنخفض أيضا ، يجتمع فيه ماء المطر ، وهو من الأضداد . والفُرَج : جمع فُرْجة ، وهي المكان الخالي . ولاحم : ألصق . والصَّدْع : الشَّق . ووَشَّج ، بالتشديد ، أي شبك . ووشجت العروقُ والأغصان ، بالتخفيف : اشتبكت ، وبيننا رحم واشجة ، أي مشتبكة .

وأزواجها : أقرانها وأشباهها ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾[2] ، أي أصنافا ثلاثة .

(١) مخطوطة النهج : « مسيرهما » .

(٢) سورة الواقعة ٧ .

والحُزونة : ضدّ السهولة . وأشراجُها : جمع شَرَج ؛ وهو عُرَا العَيْبة ؛ وأشرجتُ العيبة، أي أقفلت أشراجها، وتسمى مجرّة السماء شَرَجا ؛ تشبيها بشَرَج العَيْبة ؛ وأشراج الوادى: ماانفسح منه واتسع .

والارتتاق : الارتتاج . والنقاب : جمع نَقْب ؛ وهو الطريق في الجبل. وتمور : تتحرّك وتذهب وتجيء ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ (١) والأيْدُ : القوة. ونَاطَ بها : عَلَق . والدّرارىّ : الكواكب المضيئة ، نسبت إلى الدُّرّ لبياضها ؛ واحدها دُرّىّ، ويجوز كسر الدال ، مثل بحر لُجّىّ ولِجّىّ .

والثواقب : المضيئات . وتقول : افعل ماأمرتُك على أذلاله ، أى على وجهه ؛ ودَعْه في أذلاله ؛ أى على حاله ، وأمور الله جارية على أذلالها ؛ أى على مجاريها وطرقها .

يقول عليه السلام : كانت السماء أوّل ماخلقت غير منتظمة الأجزاء ، بل بعضُها أرفعُ وبعضها أخفَض ، فنظمها سبحانه ، فجعلها بسيطا واحدا ، نظْماً اقتضته القدرة الإلهية ؛ من غير تعليق ، أى لا كما ينظم الإنسانُ ثوبا مع ثوب ، أو عِقْدا مع عِقْد ، بالتعليق والخياطة ، وألصق تلك الفروجَ والشُّقوق ، فجعلها جسما متصلا ، وسطحا أملس لا نتوّات فيه ولا فُرَج ولا صُدوع ، بل جعلَ كلّ جزء منها ملتصقا بمثله ، وذلل للملائكة الهابطين بأمره ، والصاعدين بأعمال خلقه ـ لأنهم الكَتَبة الحافظون لها ـ حُزُونة العُروج إليها ، وهو الصعود

ثم قال : « ونادَاها بعد إذ هى » روى بإضافة « بَعْد » إلى « إذ » وروى بضمّ « بعد » ، أي وناداها بعد ذلك إذ هى دخان ؛ والأول أحسن وأصوب ، لأنها على الضمّ تكون دُخانا بعد نظامه رَهَوات فروجِها وملاحمة صدوعها ؛ والحال تقتضي أنّ دخانها قبل ذلك لا بعده .

---

(١) سورة الطور ٩ .

فإن قلت: ماهذا النداء ؟قلت:هوقوله : ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[1]،فهوأمر فى اللفظ ونداء فى المعنى ، وهو على الحقيقة كناية عن سرعة الإبداع . ثم قال: و فَتَق بعد الارتتاق صوامتَ أبوابها ، هذا صريح فى أنّ للسماء أبوابا ، وكذلك قوله : « على نقابها » ،وهو مطابق لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ﴾ [2] والقرآن العظيم وكلام هذا الإمام المعظّم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة ، الذين أحالوا الخرق على الفلك . وأما إقامة الرصدمن الشُّهب الثواقب ، فهو نص القرآن العزيز ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [3] : والقول بإحراق الشهب للشياطين اتباعا لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الانقضاض على الكواكب .

ثم قال : وأمسكها على الحركة بقوته ، وأمرها بالوقوف فاستمسكت ووقفت . ثم ذكره الشمس والقمرتذكرة مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [4] .

ثم ذكر الحكم فى جريان الشمس والقمر فى مجراها تذكرة مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [5] ، وقوله : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [6] .

---

(١) سورة فصلت ١١ .
(٢) سورة الأعراف ٤٠
(٣) سورة الجن ٨ ، ٩ .
(٤) سورة الإسراء ١٢ .
(٥) سورة يس ٢٨ ، ٢٩
(٦) سورة يونس ٥ .

ثم قال : « ثم علّق فى جوّها فلكها » ، وهذا يقتضى أنّ الفلك غير السماء ، وهو خلاف قول الجمهور ، وقد قال به قائلون ، ويمكن أن نفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنه أراد بالفلك دائرة معدّل النهار ، فإنّها الدائرة العظمى فى الفلك الأعظم ، وهى فى الاصطلاح النظرىّ تسمى فلكاً .

ثم ذكر أنه زيّن السماء الدنيا بالكواكب ، وأنها رجوم لمسترِقى السمع ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ (١) .

ثم شرح حال الدنيا فقال : « من ثبات ثابتها » ، يعنى الكواكب التى فى كُرة البروج و « مسير سائرها » ، يعنى الخمسة والنيّرين لأنّها سائرة دائما

ثم قال : « وصعودها وهبوطها » ، وذلك أنّ للكواكب السيارة صعوداً فى الأوْج ، وهبوطا فى الحضيض ، فالأوّل هو البعد الأبعد عن المركز ، والثانى البعد الأقرب .

فإن قلت : ما باله عليه السلام قال : « ونحوسها وسعودها » ، وهو القائل لمن أشار عليه ألّا يحارب فى يوم مخصوص : « المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار » ؟

قلت : إنه عليه السلام إنما أنكر فى ذلك القول عَلَى مَنْ يزعم أن النجوم مؤثّرة فى الأمور الجزئية ، كالذين يحكمون لأرباب المواليد وعليهم ، وكمن يحكم فى حَرْب أو سلم ، أو سفر أو مقام ، بأنه للسعد أو النحس ، وأنه لم ينكر على من قال : إنّ النجوم تؤثّر سعوداً ونحوسا فى الأمور الكلية ، نحو أن تقتضى حَرًّا أو بردا ، أوتدلّ على مرض عامّ

---

(١) سورة الصافات ٦ ــ ٩

أو قحط عام، أو مطر دائم، ونحو ذلك من الأمور التي لا تخص إنسانا بعينه، وقد قدمنا في ذلك الفصل مايدل على تصويب هذا الرأي، وإفساد ماعداه.

* * *

الأصْلُ:

ومنها في صفة الملائكة:

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَى بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدْسِ، وَسُتُرَاتِ الْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا.

وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ، لَا يَنْتَحِلُونَ مَاظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلَا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ؛ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(١) جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ.

وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُؤْصِرَاتُ الْآثَامِ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَالَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ

---

(١) سورة الأنبياء ٢٦، ٢٧.

وَهَيْبَةِ جَلاَلِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ، وَفِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ، وَفِي قَتْرَةِ الظَّلاَمِ الْأَيْهَمِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الْأَرْضِ السُّفْلَى؛ فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ؛ قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ.

قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاوَاتِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَلاَ تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ الْإِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ. وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُوبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ الْأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ.

وَلاَ تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلاَدَةُ الْغَفَلاَتِ، وَلاَ تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ.

قَدِ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَيَمَّمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لاَ يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ، وَلاَ يَرْجِعُ بِهِمُ الاِسْتِهْتَارُ

بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلَّا إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الْأَطْمَاعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ[1]. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّيَبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلَا عُدُولٌ، وَلَا وَنًى وَلَا فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً.

الشَّرْحُ :

هذا موضع المثل : « إذا جاء نهرُ الله بطل نهر مَعْقِل »[2] ! إذا جاء هذا الكلام الرّبانيّ ، واللفظ القدسيّ ، بطلَتْ فصاحة العرب ، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه ، نسبةَ التراب إلى النُّضار الخالص ؛ ولو فرضنا أنّ العرب تقدِرُ على الألفاظ الفصيحة المناسبة ، أو المقاربة لهذه الألفاظ ، من أين لهم المادّة التي عبَّرت هذه الألفاظ عنها ؟ ومن أين تعرف الجاهليّة بل الصحابة المعاصرُون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائيّة ؛ ليتهيّأ لها التعبير عنها ! أما الجاهليّة فإنهم إنما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش ، أو ثور فلاة ، أو صفة جبال أو فلوات ؛ ونحو ذلك . وأما الصحابة

---

(١) ج : « في اجتهادهم » .

(٢) نهر معقل : مضاف إلى معقل بن يسار بن عبد الله المزني ؛ ذكر ياقوت عن الواقدي أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار ، فنسب إليه .

فالمذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة ، إمّا في موعظة تتضمّن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا،أو مايتعلق بحرب وقتال؛من ترغيب أو ترهيب ؛ فأمّا الكلامُ في الملائكة وصفاتها ، وصُورها وعباداتها ، وتسبيحها ومعرفتِها بخالقها وحبّها له ، وَوَلَهها إليه ، وماجرى مجرى ذلك مما تضمّنه هذا الفصل على طوله ، فإنّه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل ؛ نعم ربما علموه جملة غير مقسّمة هذا التقسيم ، ولا مرتّبة هذا الترتيب ؛ بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم ؛وأمامَنْ عنده علم من هذه المادة ، كعبد الله بن سلاّم وأميّة بن أبي الصّلْت وغيرهم ؛ فلم تكن لهم هذه العبارة ، ولا قَدَرُوا على هذه الفصاحة ، فثبت أنّ هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة ، لم تحصل إلا لعليّ وحده ؛ وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده ، ورجَفَ قلبُه ، واستشعر عظمةَ الله العظيم في رَوْعه وخَلَده ، وهام نحوه وغلب الوجد عليه؛وكاد أن يخرج من مُسْكه شوقاً ؛ وأن يفارق هيكله صَبابةً ووجداً.

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

الصّفيح الأعلى : سطح الفَلَكِ الأعظم ؛ ويقال لوجه كلّ شيء عريض : صفيح وصَفْحَة .

والفُروج : الأماكن الخالية والفِجاج : جمع فَجّ ، والفَجّ : الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين وأجوائها : جمع جَوّ ،وهو ما اتّسع من الأودية،ويقال لما بين السماء والأرض جَوّ،ويروى : «أجوابها»، جمع جَوْبة،وهى الفُرْجة في السحاب وغيره ويروى:«أجْوازها» جمع جَوْز،وهو وَسَط الشيء.والفجوات : جمع فَجْوة،وهي الفُرْجة بين الشيئين؛تقول منه: تفاجَى الشيء ، إذا صار له فَجْوة ، ومنه الفَجاء ؛ وهو تباعُد مابين عُرْقوبَيِ البعير .

والزَّجَل : الصوت . وحظائر القدس : لفظة وردت في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصل « الحظيرة » مايعمل شبْه البيت للإبل من الشجر ليقيها البرد ؛ فسمّى عليه

السلام تلك المواطن الشريفة المقدّسة العالية التى فوق الفلك حَظَائر القدس ، والقُدْسُ بتسكين الدال وضمها : الطُّهر ، والتقديس :التطهير ، وتقدّس :تطهّر . والأرض المقدّسة المطهّرة ، وبيت المقدس أيضا ، والنسبة إليه قُدْسيّ ومقدسيّ . والسُّتُرات : جمع سُتْرة . والرجيج :الزلزلة والاضطراب ؛ ومنه ارتجّ البحر . وتستكّ الأسماع : تنسدّ ، قال النابغة:

وَنُبِّئْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنها المَسامِعُ (١)

سُبُحات النور ، بضم السين والباء : عبارة عن جلالة الله تعالى وعظمته . وتَرْدَع الأبصار تكفّها . وخاسئة ، أى سادرة ، ومنه : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٢) ، وخَسَأ بصرُه ، خَسْأ وخُسوءا ، أى سَدِر (٣) .

وقوله : « على حدودها » أى تقف حيث تنتهى قوّتها ، لأنّ قوّتها متناهية ؛ فإذا بلغتْ حدّها وقفت . وقوله : « أولِي أَجْنِحَةٍ » من الألفاظ القرآنية (٤) .

وقوله : « لاينتحلون ماظهر فى الخلق من صنعه » ، أى لا يدّعون الإلهيّة لأنفسهم، وإن كان قوم من البشر يدّعونها لهم . وقوله: « لا يدّعون أنهم يخلقون شيئامعه مما انفرد به»، فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا فى أنّ أفعال العباد مخلوقة لهم ، لأنّ فائدة هذا القَيْد ، وهو قوله : « انفرد به » إنّما تظهر بذلك .

وأما الآيات المقدسة ، فالرواية المشهورة « مُكْرَمون » وقرئ : « مُكَرَّمُون » بالتشديد ، وقرئ «لايسبُقونه» بالضم، والمشهور القراءة بالكسر ، والمعنى أنّهم يتبعون قوله ، ولا يقولون شيئا حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قولَه ، وأراد أن يقول : « لا يسبقونه بقولهم » ، فحذف الضمير المضاف إليه ، وأناب اللّام منابه

---

(١) ديوانه ٥٢ ، وروايته : « أتانى أبيت اللعن » .

(٢) سورة الملك ٤ . (٣) سدر : أى كلّ وأعيا .

(٤) من قوله تعالى فى سورة فاطر : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾

ثم قال : « وهم بأمره يعملون » ؛ أى كما أنّ قولهم تابع لقوله ؛ فعملهم أيضا كذلك فَرْعٌ على أمره ، لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به ؛ وجاء فى الخبر المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنّه رأى جبرائيل ليلة المعراج ساقطا كالحِلْس من خَشْية الله » . والحِلْس : الكساء الخفيف .

والزّائغ : العادل عن الطريق ، والإخبات : التذلّل والاستكانة . وأبوابا ذُلُلا ، أى سهلة وطيئة ، ومنه : دَابّةٌ ذَلُول ؛ وتماجيده : الثناء عليه بالمجد . والمؤصِرات : المثقِلات والإصْر : الثقل .

وتقول : « ارتحلتُ » البعير ، أى ركبته ، والعُقْبة : النوْبة ، والجمع عُقَب . ومعنى قوله : « ولم ترتحلهم عُقَب الليالى والأيام » . أى لم تؤثّر فيهم نوبات الليالى والأيام وكرورها ، كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير فى ظهره . ونوازعها : شهواتها النازعة المحرّكة ، وروى : « نوازغها » بالغين المعجمة ، من نَزَغ بينهم ، أى أفسد .

ولم تعترك الظنون ، أى لم تزدحم الظنون على يقينهم الذى عقدوه .

والإحَن : جمع إحْنَة ، وهى الحقد ، يقول : لم تقتدح قوادح الحِقْد فى ضمائرهم .

وما لاق ، أى ما التصق ، وأثناء صدورهم : جمع ثِنْى وهى التضاعيف . والرَّيْن : الدّنَس والغلبة ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وتقترع ، من الاقتراع بالسهام ، بأنْ يتناوب كلٌّ من الوساوس عليها . ويروى : « فيفترع » بالفاء ، أى تعلو بريبتها ، فَرَعه ، أى علاه .

والغمام : جمع غمامة ، وهى السحابة . والدُّلح : الثِّقال ، جاء يدلح بحِمْلِه ، أى جاء مثقلاً به . والجبال الشُّمّخ : العالية الشاهقة .

وقوله : « فى قَتْرة الظلام » ، أى سواده . والأيْهم : لا يهتدَى فيه ، ومنه

---

(١) سورة المطففين ٨٣ .

فلاةٌ يَهماء . والتُّخُوم ، بضم التاء : جمع تَخْم وهو منتهى الأرض أو القرية ، مثل فَلْس وفلوس ، ويروى : « تَخُوم » بفتح التاء على أنها واحد ، والجمع تُخُم مثل صَبُور وصُبُر .

وريح هَفَّافة ؛ أى ساكنة طيبة ؛ يقول: كأنّ أقدامهم التى خرقتِ الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة ليست مضطربة ؛ فتموج تلك الرايات ؛ بل هى ساكنة تحبسها حيث انتهت، وجاء فى الخبر أنّ لإسرافيل جناحين أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، وأنّ العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحيانا لعظمة الله ، حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور .

ثم ، قال : « قد استفرغتْهم أشغال عبادته تعالى » أى جعلتْهم فارغين إلا منها . ويروى : « ووسّلت حقائق الإيمان » بالسين المشددة ، يقال: وسّل فلان إلى ربّه وسيلة، والوسيلة ما يتقرب به ؛ والجمع وسيل ووسائل ؛ ويقال : وسلتُ إليه وتوسلت إليه بمعنًى .

وسويداوات القلوب : جمع سويداء ؛ وهى حَبّة القلب . والوشيجة فى الأصل :عرق الشجرة ، وهى هنا استعارة . وَحَنيتُ ضِلَعى ، أى عوجتها . والرِّبَق : جمع رِبقة ؛ وهى الحبل .

قوله : « ولم يتولّهم الإعجاب » ؛ أى لم يستول عليهم . والدءوب : الجدّ والاجتهاد. والأسَلات : جمع أسَلة ؛ وهى طرف اللسان ومستدقّه ،والجُؤار: الصّوْت المرتفع ،والهَمْس: الصوت الخفىّ ، يقول : ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة ، فيكون لأجلها أصواتُهم المرتفعة خافية ساكنة . لاتعدُو ، من عَدَا عليه ، إذا قهره وظلمه ، وهو هاهنا استعارة .

ولا تنتضل الخدائع فى هممهم ؛استعارة أيضا من النّضال ؛ وهو المراماة بالسهام . وذو العرش : هو الله تعالى ؛ وهذه لفظة قرآنية ؛قال سبحانه : ﴿ إذاً لَا بْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴾ .(١) يعنى لابتغوا إلى الله تعالى سبيلا . وقال تعالى : ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾(٢) ، والاستهتار : مصدر استهتر فلان بكذا ، أى لازمه وأولع به .

وقوله : « فيَنُوا » أى فيضعفوا ؛ ونى : ينِى . والجِدّ : الاجتهاد والانكماش .

ثم قال : إنهم لا يستعظمون عبادتهم ، ولو أنّ أحداً منهم استعظم عبادته لأذهب خوفُه رجاءه الذى يتولّد من استعظام تلك العبادة ؛ يصفهم بعظم التقوى .

والاستحواذ : الغَلَبة ، والغِلّ : الحقد ، وتشعّبتهم : تقسّمتهم وفرّقتهم ؛ ومنه قيل للمنية شَعوب ، أى مفرِّقة . وأخياف الهمم ، أى الهمم المختلفة ؛ وأصله من الخَيَف ؛ وهو كَحَل إحدى العينين دون الأخرى ؛ ومنه المثل : الناس أخياف ؛ أى مختلفون ، والإهاب : الجلد . والحافد : المسرع ؛ ومنه الدعاء : اللهمّ إليك نَسْعى ونحفِد .

* * *

واعلم أنّه عليه السلام إنما كرّروا كد صفاتهم بما وصفهم به ؛ ليكون ذلك مثالا يحتذِى عليه أهل العرفان من البشر ؛ فإنّ أعلى درجات البشر أن يتشبّه بالملَك ، وخُلاصة ذلك أمور :

منها العبادة القائمة .

ومنها ألّا يدعى أحدٌ لنفسه الحوْل والقوة ، بل لا حولَ ولا قوّة .

ومنها أن يكون متواضعا ذا سكينة ووقار .

ومنها أن يكون ذا يقين لا تقدَحُ فيه الشكوك والشبهات .

ومنها ألاّ يكون فى صدره إحْنة على أحد من الناس .

ومنها شِدّة التعظيم والهيبة لخالق الخلق ، تبارك اسمه .

ومنها أنْ تستفرغه أشغال العبادة له عن غيرها من الأشغال .

---

(١) سورة الإسراء ٤٢ .

(٢) سورة البروج ١٥ ، ١٦ .

ومنها أنه لا تتجاوز رغباته مما عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه .

ومنها أن يعقد ضميره وقلبه على محبة الله تعالى ، ويشرب بالكأس الروية من حبه .

ومنها عِظَم التقوى بحيث يأمن كلّ شيء عدا الله ، ولا يهاب أحداً إلا الله .

ومنها الخشوع والخضوع والإخبت والذلّ لجلال عزته سبحانه .

ومنها ألّا يستكثر الطاعة والعمل ، وإنْ جَلّ وعَظُم .

ومنها عِظَمُ الرجاء الواقع فى مقابلة عظم الخوف ؛ فإنّ الله تعالى يحب أن يُرْجَى ، كما يحب أن يخاف .

* **

[أبحاث تتعلق بالملائكة]

واعلم أنه يجب أن تَعلم أبحاث متعددة تتعلق بالملائكة ونقصد فيها قصد حكاية المذهب خاصة ، ونكلُ الاحتجاج والنظر إلى ما هو مذكور فى كتبنا الكلامية .

البحث الأول فى وجود الملائكة ، قال قوم من الباطنية : السبيل إلى إثبات الملائكة هو الحسّ والمشاهدة ؛ وذلك أن الملائكة عندهم أهلُ الباطن .

وقالت الفلاسفة : هى العقول المفارقة ؛ وهى جواهر مجرّدة عن المادة لا تعلّق لها بالأجسام تدبيرا ، واحترزوا بذلك عن النفوس ؛ لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر الأبدان ، وزعموا أنهم أثبتوها نظرا .

وقال أصحابنا المتكلمون : الطريق إلى إثبات الملائكة الخبرُ الصادق المدلول على صدقه ؛ وفى المتكلّمين مَنْ زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظرىّ ؛ وهو أنه لما وجد خلقا من طين وجب فى العقل أن يكون فى المخلوقات خَلْق من الهواء وخلق من النار فالمخلوق من الهواء هو الملك ، والمخلوق من النار الشيطان .

البحث الثانى فى بنية الملائكة ، وهيئة تركيبهم ، قال أصحابُنا المتكلّمون : إنّ الملائكة أجسامٌ لطاف ، وليسوا من لحم ودم وعظام ، كما خلق البَشَر من هذه الأشياء .

وقال أبو حفص المعوّد القرينسيّ من أصحابنا : إنّ الملائكة من أجسام من لحم وعظم : إنه لا فَرْق بينهم وبين البشر ؛ وإنما لم يُرَوْا لبعد المسافة بيننا وبينهم .

وقد تبعه على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر ، وهى مقالة ضعيفة لأنّ القرآن يشهد بخلافه فى قوله : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (٢) ؛ فلو كانوا أجساما كثيفة كأجسامنا لرأيناهم.

* * *

البحث الثالث فى تكليف الملائكة ، حكى عن قوم من الحَشْوية أنّهم يقولون : نّ الملائكة مضطرون إلى جميع أفعالهم ، وليسوا مكلّفين .

وقال جمهور أهل النظر : إنهم مكلّفون .

وحكى عن أبي إسحاق النظّام ، أنه قال : إن قوماً من المعتزلة قالوا : إنّهم جبِلوا على الطاعة لمخالفة خَلْقهم خلقة المكلفين ، وأنهم قالوا : لو كانوا مكلّفين لم يؤمَن أن يعصوا فيما أمروا به ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣) .

وقال قوم : إنّ أكثر الملائكة مكلّفون ، وأن فيهم من ليس بمكلّف بل هو مسخر للملائكة المكلفين ، كما أنّ فى الحيوانات ما هو غير مكلّف ، بل هو مسخّر للبشر ومخلوق لمصالحهم .

قالوا : ولا ننكر أن يكونَ الملائكة الذين ذكر منهم أنهم غُلُظ الأجْسام وعُظْم الخلق والتركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض ؛ قد جُعِلوا عُمُداً للسّموات والأرض ؛ فهم

(١) سورة التحريم ٦ . (٢) سورة الزخرف ٨٠ .
(٣) سورة ق ١٧ .

يحملونها بمنزلة الأساطين التى تحمل السقوف العالية ولم يرشحوا لأمر من الأمور سوى ذلك .

***

البحث الرابع : فيما يجوز من الملائكة ومالا يجوز ؛ قال شيخنا أبو القاسم : حكى أبو الحسن الخياط عن قدماء المعتزلة ، أنه لايجوز أن يَعْصِيَ أحدٌ من الملائكة ؛ ولم يذكر عنهم علّة فى ذلك .

وقال قوم : إنهم لايعصون ، ولا يجوز أن يعصُوا ؛ لأنهم غير مطيقين الشهوة والغضب ، فلا داعى لهم إلى المعصية ؛ والفاعل لايفعل إلا بداعٍ إلى الفعل .

وقال قوم : إنهم لايعصُون ، لأنهم يشاهدون من عجائب صنع الله وآثار هيبته مايبهرهُم عن فعل المعصية والقصد إليها ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(١).

وقال قوم : إنما لم يَجُزْ أن يعصوا ، لأنّ الله تعالى أخبر عنهم أنّهم لايعصون ، ولا ينكر مع ذلك أن يكون منهم من يتغيّر حاله ويتبدل بها حالة أخرى ويعصى ، على ماورد من خَبَرِ الملكين ببابل ، وخبر إبليس ، وإنما يسلب عنهم المعصية ماداموا على حالهم التى هى عليها .

وقال شيوخنا أصحاب أبى هاشم رحمه الله تعالى : إنّ المعصية تجوز عليهم ، كما تجوز علينا ، إلا أن الله تعالى علم أن لهم ألطافا يمتنعون معها من القبيح لفعلها ، فامتنعوا من فعل القبيح اختيارا ، فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشر يقدرون على المعصية ولا يفعلونها،

---

(١) سورة الأنبياء ٢٨ .

اختيارا من أنفسهم باعتبار الألطاف المفعولة لهم ، ولو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود ألطاف بعلم الله تعالى إذا فعلها فعلوا الواجب ، وامتنعوا من فعل القبيح لفعلها بهم ، ولكانوا معصومين كالأنبياء والملائكة ، لكنّه تعالى علم أنّهم لا يؤمنون ولو فعل مهما فعل ، فلا لطف فى المعلوم ، وهذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس والجنّ والملائكة .

* * *

البحث الخامس فى أنّ أىّ القبيلين أفضلُ : الملائكة أو الأنبياء؟ قال أصحابنا : نوع الملائكة أفضل من نوع البشر ، والملائكة المقرّبون أفضل من نوع الأنبياء ، وليس كلّ ملَكٍ عند الإطلاق أفضلَ من محمد صلى الله عليه وآله ، بل بعضُ المقربين أفضل منه ، وهو عليه السلام أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين ، والمراد بالأفضل الأكثر ثوابا ، وكذلك القول فى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء . والذى يحكيه قومٌ من أرباب المقالات أنّ المعتزلة ، قالوا : إنّ أدنى مَلَكٍ فى السماء أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ليس بصحيح عنهم .

وقال أهل الحديث والأشعرية : إنّ الأنبياء أفضلُ من الملائكة .

وقال الشيعة : الأنبياء أفضل من الملائكة ، والأئمّة أفضل من الملائكة .

وقال قوم منهم ومن الحَشَويّة : إنّ المؤمنين أفضلُ من الملائكة .

* * *

البحث السادس فى قِدَم الملائكة وحدوثهم ، أمّا الفلاسفة القائلون بأنّهم العقول المفارقة ، فإنّهم يذهبون إلى قِدم الملائكة .

وقال غيرهم من أهل الملل : إنّهم محدَثون .

وقال قوم من متأخرى الحكماء : إنّ نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت قائمة بأنفسها غير مدبّرة لشىء من الأبدان ، فإن كانت خَيّرة صالحة فهى الملائكة ،

وإن كانت شرّيرة رديئة الجوهر فهي الشياطين؛ فالملائكة عند هؤلاء محدثون؛ وعندهم أن هذه النفوس تساعد نفوسا أخرى متعلقة بتدبير الأبدان ، إمّا على الخير أو على الشرّ، فما ينسب فى الكتب الإلٰهية إلى إغواء الشياطين للناس وإضلالهم ، فالمراد به تلك النفوس الشرّيرة ، وما ينسب فيها إلى إعانة الملائكة لهم على الخير والصلاح ، فالمراد به تلك النفوس الخيّرة .

* * *

البحث السابع فى إبليس ، أهو من الملائكة أو ليس منها ؟ قال شيخنا أبو عثمان وجماعة من أصحابنا : إنه من الملائكة ، ولذلك استثناه الله تعالى ، فقال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [1] .

وقال قوم : إنّه كان من الملائكة بدلالة هذه الآية ، لكن الله مَسَخه حيث خالف الأمر ، فهو بعد المسخ خارج عن الملائكة ، وقد كان قبل ذلك مَلَكاً ، قالوا : ومعنى قوله : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أى من خزّان الجنة ، وروى ذلك عن ابن عباس ، قالوا : ويحمل على معناه أنّه صار من الجن ، فيكون « كان » بمعنى « صار » كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ،[2] أى مَنْ صار ، لأنها لو كانت « كان » على حقيقتها، لوجب ألا يكلّم بعضُهم بعضا ، لأنهم كانوا صبيانا فى المُهود .

قالوا : ومعنى صيرورته من الجنّ صيرورته ضالًّا ، كما أنّ الجنّ ضالّون ، لأنّ الكفار بعضهم من بعض ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [3] .

---

(١) سورة ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) سورة مريم ٢٩ .
(٣) سورة التوبة ٦٧ .

وقال معظم أصحابنا : إنّ إبليس ليس من الملائكة ، ولا كان منها ، وإنما استثناه الله تعالى منهم ، لأنه كان مأمورا بالسجود معهم ، فهو مستثنى من عموم المأمورين بالسجود ، لا من خصوص الملائكة .

* * *

البحث الثامن في هاروت وماروت ، هل هما من الملائكة أم لا ؟ قال جمهور أصحابنا : إنهما من الملائكة ، وإن القرآن العظيم قد صرّح بذلك في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾[1] ، وإنّ الذي أنزل عليهما هو علم السّحر ، ابتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلّمه منهم وعمل به كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلّمه لا ليعمل به ولكن ليتوقّاه كان مؤمنا : قالوا : وما كان هذان الملكان يعلّمان أحدا حتى ينبّهاه وينهياه وينصحاه ، ويقولا له : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ ، أي ابتلاء واختبار من الله ، ﴿ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، ولا تتعلّمه معتقدا أنه حق .

وحكي عن الحسن البصريّ أنّ هاروت وماروت عِلجان أقلفان من أهل بابل ، كانا يعلّمان الناس السحر ، وقرأ الحسن : ﴿ عَلَى ٱلْمَلِكَيْنِ بِبَابِل ﴾ ، بكسر اللام .

وقال قوم : كانا من الملائكة ، فعصيا الله تعالى بالحيف في الحكومة ، وقد كان استقضاهما في الأرض ، وركّب فيهما الشهوة والغضب ، على نحو ما ركّب في البشر ، امتحانا لهما ، لأنهما قد كانا عيّرا البشر بالمعصية ، فلما عصيا حبسهما الله تعالى وعاقبهما بعذاب معجّل ، وألهمهما كلاما إذا تكلما به سكن بعض ما بهما من الألم ، وإنّ السحرة يستمعون ذلك الكلام فيحفظونه ، ويفرقون به بين المرء وزوجه ، فإنهما يتقدّمان إلى من يحضرهما عندما يتكلّمان بالزجر عن العمل بذلك الكلام ، ويقولان : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ

---

(١) سورة البقرة .

فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ ، وهما لم يكفرا ، ولا دَعَوا إلى السحر ؛ وإن عذابهما سيقطع وقد جاء فى الأخبار مايوافق هذا .

وقال قوم من الحشويّة : إنهما شربا الخمر وقتلا النفس ، وزنيا بامرأة اسمها «باهيد» فمسخت ؛ وهى الزهرة التى فى السماء .

* * *

الأصْلُ :

ومنها فى صفة الأرض ودحوها على الماء :

كَبَسَ ٱلْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا ، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا ، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ المَاءِ المُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا ، وَسَكَنَ هَيْجُ ٱرْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا ، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ ٱصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ سَاجِياً مَقْهُوراً ، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً،وَسَكَنَتِ ٱلْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَٱعْتِلَائِهِ ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ .

فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ المَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا ،وَحَمَلَ شَوَاهِقَ ٱلْجِبَالِ الشُّمَّخِ ٱلْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا ، فَجَّرَ يَنَابِيعَ ٱلْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا ، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا ، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا ، فَسَكَنَتْ مِنَ المَيَدَانِ لِرُسُوبِ (١) ٱلْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا ، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا ، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ ٱلْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ

(١) مخطوطة النهج : « برسوب » .

بَيْنَ ٱلْجَوِّ وَبَيْنَهَا ، وَأَعَدَّ ٱلْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا .

ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ ٱلْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا ، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ ٱلْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا ، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا ؛ أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ ٱفْتِرَاقِ لُمَعِهِ ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ ٱلْمُزْنِ فِيهِ ، وَٱلْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً ، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ ، يَمْرِي ٱلْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ .

فَلَمَّا أَلْقَتِ ٱلسَّحَابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا ، وَبَعَاعَ مَا ٱسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ ٱلْعِبْءِ ٱلْمَحْمُولِ عَلَيْهَا ، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ ٱلْأَرْضِ ٱلنَّبَاتَ ، وَمِنْ زُعْرِ ٱلْجِبَالِ ٱلْأَعْشَابَ ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا ، وَتَزْدَهِي بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِهَا ، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغاً لِلْأَنَامِ ، وَرِزْقاً لِلْأَنْعَامِ ، وَخَرَقَ ٱلْفِجَاجَ فِي آفَاقِهَا ، وَأَقَامَ ٱلْمَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا .

***

الشرح :

كَبَس الأرض ، أى أدخلها فى الماء بقوة واعتماد شديد ؛ ويقال لضرب من التمر : الـكَبِيس ؛ لأنه يـكبَس حتى يتراصّ . والمَوْر : مصدر « مار » أى ذهب وجاء . ومستفحلة : هائجة هَيَجان الفحول . واستفحل الأمر : تفاقم واشتدّ . وزاخرة ، زخر الماء أى امتدّ جدًّا وارتفع .

والأواذيّ : جمع آذيّ ؛ وهو الموج وتصطفق : يضرب بعضها بعضا . والأثباج هاهنا :

أعالى الأمواج ، وأصل الثَّبَج: مابين الـكاهل إلى الظهر ؛ فنقل إلى هذا الموضع استعارة

وتَرغو : تصوِّت صوت البعير ، والرغاء : صوت ذات الخُفّ ؛ وفى المثل : « كَفى برغائها مناديا » ؛ أى أنّ رُغاء بعير المضيف يقوم مقام ندائه للضيافة والقِرَى . وزَبَدا على هذا منصوب بفعل مقدّر ؛ تقديره : وتَرغو قاذفةً زَبداً ، والزَّبد : مايظهر فوق السَّيْل ؛ يقال : قد أزبد البحر والسّيل ، وبحر مُزْبِد ؛ أى مالح يقذف بالزبد . والفحول عند هياجها ؛ فحول الإبل إذا هاجتْ للضِّرَاب .

وجماح الماء : صعودُه وغَلَيانه ، وأصله من جِماح الفَرَس ، وهو أن يعزّ فارسَه ويغلبه . والجَموح من الرجال : الذى يركبُ هواه فلا يمكن ردّه . وَخَضَع : ذلّ . وهَيْج الماء : اضطرابه ، هاج هَيْجا وهياجا وهَيَجانا ؛ واهتاج ، وتَهيّج ، كلّه بمعنًى ، أى ثار ، وهاجَه غيرُه ، يتعدّى ولا يتعدّى . وهَيج ارتمائه ، بمعنى تقاذفه وتلاطمه ، يقال: ارتمى القومُ بالسهام وبالحجارة ارتماء . وكَلْكَلُها : صدرها ؛ وجاء كَلْكَل وكَلْكال ؛ وربما جاء فى ضرورة الشعر مشدّدا ، قال :

كأنّ مَهْوَاهَا عَلَى ٱلـكَلْكَلِّ ... موضعُ كَفَّىْ راهبٍ مُصلّى[1]

والمستخذِى : الخاضع ؛ وقد يهمز . وقيل لأعرابىّ فى مجلس أبى زيد : كيف تقول: استخذأتُ ؟ ليتعرّف منه الهمزة . فقال: العرب لاتستخذىُ ، وهمزه ؛ وأكثر مايستعمل مليّنا ؛ وأصله من خَذَا الشئ يخذُو خَذْواً، أى استرخى؛ ويجوز خَذِىَ ، بكسر الذال، وأذُنٌ خَذْواء : بيّنة الخذاء ، أى مسترخية .

وتمعّـكت : تمرغت ؛ مستعار من تمعّك الدابة فى الأرض؛ وقالوا : معكتُ الأديم ، أى دلكته[2] . وكواهلها : جمع كاهل ؛ وهو ما بين الـكتفين ، ويسمى الحارك .

---

(١) الرجز لمنظور بن مرثد الأسدى ، اللسان ١٤ : ١١٧ . (٢) ب : « ذللته » .

واصطخاب أمواجه : افتعال من الصَّخَب ؛ وهو الصياح والجَلَبة ، يقال : صخِب الرجلُ فهو صَخْبَان ، واصطخب ، افتعل منه ؛ قال :

* إن الضَّفادع في الغُدران تَصْطَخِبُ [1] *

والساجي: الساكن: والحَكَمة : ما أحاط من اللجام بحنَك الدابة ؛ وكانت العرب تتخذها من القِدّ والأَبَق ؛ لأن الزينة لم تكن قصدهم ، قال زهير :

القائد الخيلَ منكوباً دوابرُها قد أحكمت حَكَمَاتِ القِدّ والأَبَقا [2]

واستعار الحَكَمة هاهنا ، فجعل للزابّ حَكَمة ينقاد للماء بها ويذلّ إليها .

ومدحوّة: مبسوطة، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [3]. ويجوز أن تكون « مدحوّة » هاهنا بمعنى مقذوفة مرميّة؛ يقال : دحوتُ الحصاة أي قذفتُها؛ ويقال للاعب الجوز : ادحُ وأبعد المدى. والتيّار : أعظم الموج . واجتهه : أعمقه والبأو : الكِبْر والفخر؛ تقول : بأوتُ على القوم أبأى بأوا ، قال حاتم :

فما زادنا بأواً على ذي قرابةٍ غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ [4]

وهذا الكلام استعارة ؛ يقال: كَسَرتِ الأرضُ سَوْرة الماء الجامح كما تُكسر سَوْرة بأو الرجل المتكبر المفتخر . والاعتلاء : التِّيه والتكبّر . والشُّموخ : العلوّ ، مصدر شَمَخ بأنفه أي تكبّر ، والجبال الشوامخ : الشاهقة والسموّ : العلو ، وسمو غلوائه أي غلوّه وتجاوزه الحدّ .

---

(١) اللسان ٢ : ١٠ من غير نسبة .
(٢) ديوانه ٤٩ ، والأبق : شبه الكتان .
(٣) سورة النازعات ٣٠ .
(٤) ديوانه ١١٩ .

وكَمَمْتُهُ ، أى شدّدت فمه لما هاج ، من الكِمَام وهو شىء يجعل فى فم البعير ، وبعير مَكْموم .

والكِظّة : الجهد والثِّقل الذى يعترى الإنسان عند الامتلاء من الطعام ، يقول : كممت الأرض الماء حال كونه مكظوظا لشدة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه . فهمد أى سكن ، همدت النارُ تهمُد ، بالضمّ همودا ، أى طفئت وذهبت ألبتة . والخمود دون الهمود . والنَّزَقات : الخفة والطيش ، نَزِق الرجل بالكسر ، ينزَق نَزَقاً . والنّزقات : الدفعات من ذلك .

ولَبَد الشىء بالأرض يلبُد ، بالضم لبودا ، أى لصق بها ساكنا . والزّيفان : التبختر فى المشى ، زاف البعيرُ يزيف ، والزيّافة من النُّوق المختالة ، ويروى : « ولبد بعد زَفَيان وثباته » ، والزّفيان : شدة هبوب الريح ، يقال زَفَتْه الريحُ زَفَيانا ، أى طردته ، وناقة زَفَيان : سريعة ، وقوس زَفَيان : سريعة الإرسال للسهم . وأكنافها : جوانبها ، وكنفا الطائر جناحاه ، ويقال صِلاء مُكْنَف[1] ، أى أحيط به من جوانبه ، وتكنّفه القوم واكتنفوه أحاطوا به .

والجبال الشواهق : العالية ، ومثله البذّخ . والعِرْنين أوّل الأنف تحت مجتمع الحاجبين . والينابيع : جمع ينبوع ، وهو ما انفجر من الأرض عن الماء . والسُّهوب : جمع سَهْب ، وهو الفلاة . والبِيد : جمع بَيْداء ، وهى الفلاة أيضا .

والأخاديد : جمع أخدود ، وهو الشقّ فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾[2] . والراسيات : الثقال . والشّناخيب : رءوس الجبال . والشمّ : العالية ، والجلاميد : الصخور ، واحدها جُلْمود . والصَّياخيد : جمع صَيْخود ، وهى الصخرة الصلبة .

(١) الصلاء : الوقود ، أو النار . (٢) سورة البروج ٤ .

والمَيَدان : التحرك والاضطراب ، وماد الرجل يميد أى تبختر . ورسوب الجبال : نزولها رسب الشيء فى الماء ، أى سَفُل فيه ، وسيف رَسُوب : ينزل فى العظام .

وقوله : « فى قِطَعِ أديمها » جمع قِطْعة ، يريد فى أجزائها وأبعاضها . ويروى فى « قُطَعِ أديمها » ، بضم القاف وفتح الطاء ، جمع قُطْمة وهى القُطْمة مفروزة[1] من الأرض ، وحكىَ أن أعرابيا قال ورثتُ من أبى قُطْمة . ويروى: « فى قطع أديمها » ، بسكون الطاء ، والقطْع : طِنْفِسة الرَّحْل ، فنقل ذلك إلى هذا الموضع استعارة ، كأنه جعل الأرض ناقة ، وجعل لها قطعا ، وجعل الجبال ثابتة فى ذلك القطع .

وأديم الأرض : وجهها وظاهرها . وتَغلغُل الماء فى الشجر : دخوله وتخلله فى أصوله . وعروقه متسرِّبة ، أى داخلة ، تسرّب الثعلب أى دخل السَّرَب ، وجَوْبات : جمع جَوْبة وهى الفُرْجة فى جبل أو غيره . وخَياشيمها : جمع خَيْشُوم وهو أقصى الأنف ، وتقول : خشمت الرجل خَشْمًا ، أى كسرت خيشومه . وجراثيمها : جمع جُرْثومة ، وهى أصل الشجر . وفَسَح : أوسع . ومتنسَّما ، يعنى موضع التنسم . والأرض الجُرُز التى لا نبات فيها لانقطاع المطر عنها ، وهذه من الألفاظ القرآنية[2] . والروابى : التلاع وما علا من الأرض . والجداول : الأنهار الصغار ، جمع جدول . والذَّريعة : الوُصلة .

وناشئة سحاب : ما يبتدئ ظهوره . والمَوَات ، بفتح الميم : القفر من الأرض ، واللمع : جمع لُمعة ، وهى القطعة من السحاب أو غيره . وتباين قَزَعه ، القَزَع : قطع من السحاب رقيقة واحدها قَزَعة ، قال الشاعر :

---

(١) فى الأصل : « مقروبة » ، تصحيف ، وانظر اللسان (قطم) .

(٢) من قوله تعالى فى سورة السجدة ٢٧ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ .

* كَأَنَّ رِعَالَهُ قَزَعُ الجَهَامِ (١) *

وفي الحديث « كأنهم قَزَعُ الخريف » (٢). وتباينها: افتراقها. وتمخّضت: تحركت بقوة، يقال: تمخّض اللبن إذا تحرّك في المخضة، وتمخّض الولد: تحرك في بطن الحامل، والهاء في « فيه » ترجع إلى المُزْن، أي تحركت لجة المُزْن في المُزْن نفسه، أي تحرّك من السحاب وسطه وثبجه. والتمع البرقُ ولمع أي أضاء، وكُفَفُه: جمع كُفّه. والكُفّة كالدّارة تكون في السحاب. وكان الأصمعيّ يقول: كلّ ما استطال فهو كُفّة بالضم؛ نحو كُفّة الثوب؛ وهي حاشيته وكُفّة الرمل، والجمع كِفاف، وكلّ ما استدار فهو كِفّة بالكسر؛ نحو كِفّة الميزان، وكِفّة الصائد وهي حُبالته، والجمع كِفف. ويقال أيضا: كَفّة الميزان بالفتح. والوميض: الضياء واللمعان.

وقوله: « لم ينم » أي لم يفتر ولم ينقطع، فاستعار له لفظة النوم. والكَنَهْور: العظيم من السحاب. والرّباب: الغمام الأبيض، ويقال: إنه السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، وهو جمع، والواحدة ربابة، وبه سميت المرأة الرّباب. والمتراكم: الذي قد رِكب بعضُه بعضاً، والميم بدل من الباء. وسَحًّا: صبًّا، وسحابة سَحُوح، وتَسَحْسَحَ الماء: سال، ومطر سَحْسَاح، أي يسحّ شديدا. ومتداركا: يلحق بعضه بعضا من غير انقطاع. وأسفّ: دنا من الأرض. وهَيْدَبه: ما تهدّب منه، أي تدلّى كما يتدلّى هُدْبُ العين على أشفارها. وتَمْرِي الجَنُوب، وهو بمعنى تحلب وتستدرّ، ويروى « تَمْرِيه الجَنُوب » على أن يعدّى الفعل إلى المفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبنا. ويروى: « تَمْتَرِي الجَنُوب » وهو بمعنى تَمْرِي، من مريت الفرس وامتريته، إذا استخرجتَ بالسوط ما عنده من الجري. وإنما

(١) لذي الرمة، ديوانه ٥٩٧ يصف فلاة، وصدره:

* تَرَى عُصَبَ القَطَا هَمَلًا عَلَيْهِ *

(٢) في النهاية لابن الأثير ٣: ٢٥١؛ من حديث لعلي.

خَصّ الجنوب بذلك لأنّها الريح التى يكون عليها المطر . والدِّرر : جمع دِرّة ، وهى كثرة اللبن وسيلانه وصبّه. والأهاضيب: جمع هِضاب، والهِضاب:جمع هَضْب، وهى حلبات القَطْر بعد القطر . والدُّفَع: جمع دُفعة ، بالضم وهى كالدُّفقة من المطر بالضم أيضا والشآبيب:جمع شؤبوب وهى رَشّة قوية من المطر ،تنزل دفعة بشدة،والبِرْك:الصدر وبِوانيها، تثنية بوان على « فِعال » بكسر الفاء وهو عمود الخيمة ، والجمع بُون بالضم ، قال الشاعر :

أصْبِرُ مِن ذِى ضَاغِطٍ عَرَكْرَكِ أَلْقَى بِوَانَىْ زَوْرِه للمبرَكِ[1]

ومن روى : « بَوَانِيها » أراد لواصقها ، من قولك : قوس بانية إذا التصقت بالوَتَر. والرواية الأولى أصحّ . وبَعاع السحاب : ثقله بالمطر ، قال امرؤ القيس :

وَأَلْقَى بِصَحْراءِ الْغَبِيطِ بَعَاعَــهُ نُزُولَ الْيَمانِى ذِى الْعِيابِ الْمُثَقَّلِ[2]

والعبْء : الثقل ، واستقلّت :ارتفعت ونَهضت ، وهوامد الأرض ، هى الأرضون التى لانبات بها . وزُعْر الجبال : جمع أزعر ، والمراد به قلة العشب والخَلَى[3] : وأصله من الزَّعَر ، وهو قلة الشعر فى الرأس ، قال :

مَنْ يَكُ ذَا لِمّةٍ يُرَجِّلُهَا فَإنّنِى غَيْرُ ضَائِرِى زَعَرِى

وقد زَعَر الرجلُ يَزْعَر : قَلّ شعرُه. وتبهج : تُسرّ وتفرح، تقول: بَهَجَنِى أمرُ كذا بالفتح ، وأبهجنى معاً ، أى سَرّنى . ومن رواه بضم الهاء أراد يَحْسُنُ ويُملح ، من البَهْجَة، وهى الحُسْن ، يقال بَهُجَ الرجلُ بالضم ، بَهَاجَةً ، فهو بهيج ، أى حسن ، قال الله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[4] ، وتقول:قد أبهجت الأرض بالهمزة ،أى بهج نباتُها وحَسُن.

---

(١) العركرك : الجمل الغليظ القوىّ ، والرجز فى صحاح الجوهرى ؛ وهو فى اللسان أيضاً بنسبته إلى حنظلة بن قيس بن أشيم .

(٢) ديوانه ٢٥ .

(٣) الخلى : الرطب من النبات ، وهو الكلأ .

(٤) سورة الحج ٥ .

وتزدَهِي ، أى تتكبّر ، وهى اللغة التى حكاها ابن دريد ، قال : تقول : زها الرجلُ يَزْهُو زَهْوًا ، أى تكبّر [1] وعلى هذه اللغة تقول : ازدهى الرجلُ يزدهِي ، كما تقول من «علا» اعتلى يعتلِي ، ومن « رمى »ارتمى يرتمِي ، وأمامَنْ رواه« وتُزْدَهَى بما ألبِسَتْه » على مالم يسمّ فاعله ،فهى اللغة المشهورة . تقول : زُهِي فلان علينا، وللعرب أحرف تتكلّم بها على سبيل المفعول به ، وإن كانت بمعنى الفاعل ، كقولهم: عُنِي بالأمر ، ونُتِجَت الناقة ،فتقول على هذه اللغة : فلان يُزْدَهى بكذا .

والرَّيْط جمع رَيْطة ، وهى المُلاءة غير ذاتِ لفقَين . والأزاهير : النَّوْر ذو الألوان . وسمِطَتْ به : علّق عليها السُّمُوط ، جمع سِمْط وهو العقد ، ومن رواه « شُمِطت » بالشين المعجمة ،أراد ماخالط سواد الرياض من النَّوْر الأبيض كالأقحوان ونحوه ، فصارت الرياض كالشعر الأشمط . والنّاضر : ذو النَّضارة ، وهى الحسن والطَّراوة .

وبلاغا للأنام ، أى كفاية . والآفاق : النواحى ، والمنار : الأعلام .

***

[فصــــول متنوعة تتعلّق بالخطبة]

وينبغى أن نتكلّم فى هذا الموضع فى فصول :

الفصل الأول فى كيفية ابتداء خلْق الأرض :

ظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الماء خُلِق قبل الأرض ، وقد ذكرنا فيما تقدّم أنّه قولٌ لبعض الحكماء ، وأنه موافق لما فى التوراة إلّا أنّ فى كلامه عليه السلام فى هذا الموضع إشكالا ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : كلامُه يشعر بأن هَيَجان الماء وغَلَيانه وموْجه

---

(١) نقله صاحب اللسان فى زها .

سَكّن بوضعِ الأرض عليه ، وهذاخلاف مايشاهد ، وخلاف مايقتضيه العقل ، لأنّ الماء الساكن إذا جُعِل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموّج، وصعد علوًّا، فكيف الماء المتموّج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه ؟

والجواب أنّ الماء إذا كان تموّجه من قِبَل ريح هائجة ، جاز أن يسكن هَيَجانُه بجسم يحول بينه وبين تلك الريح ، ولذلك إذا جعلنا فى الإناء ماء وروحناه بمروحة تموّجه، فإنه يتحرك ، فإن جعلنا على سطح الماء جسما يملأ حافات الإناء وروحناه بالمروحة فإن الماء لايتحرك، لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلَب بالمروحة وبين سطح الماء ، فمن الجائز أن يكون الماء الأول هائجاً لأجل ريح محرّكة له ،فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح ، وقد مرّ فى كلام أمير المؤمنين فى الخطبة الأولى ذكرُ هذه الريح ، فقال : « ريح اعتقمَ مهبّها، وأدام مُرَبَّها وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار ، وإثارة موج البحار ، فمخضت مخض السقاء ، وعصفت به عصفها بالفضاء».

* * *

الفصل الثانى فى بيان قوله عليه السلام : « فلما سكن هَيْج الماء من تحت أكنافها ، وحمَل شواهق الجبال البُذّخ على أكنافها ، فجّر ينابيع العيون فيها ، وعدّل حركاتِها بالراسيات من جلاميدها » :

وذلك لأنّ العامل فى « لمّا » يجب أن يكون أمراً مباينا لما أضيفت إليه ، مثاله : لماقام زيدقام عمرو ، فقام الثانية هى العاملة فى «لمّا» ، فيجوز أن تكون أمراً مباينا لما أضيف «لمّا» إليه ، ونحو قيام زيد ،وهاهناقد قال عليه السلام: لمّا حمل الله تعالى شواهق الجبال على الأرض عَدّل حركات الأرض بالجبال ، ومعلوم أن أحد الأمرين هو الآخر .

والجواب أنه ليس أحدُ الأمرين هوالآخر بعينه ، بل الثانى معلول الأول ، وموجب

عنه لأنّ الأول هو حَمْل الجبال عليها ، والثانى تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها ، فكأنه قال : حمل عليها الجبال ، فاقتضى ذلك الحمل تعديلَ حركاتِها ؛ ومعلومٌ أن هذا الكلام منتظم .

***

الفصل الثالث فى قوله : « إن الجبال هى المسكِّنة للأرض » :

فنقول : إن هذا القول يخالِف قولَ الحكماء ؛ لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك ، بل لأنها تطلب المركز ،وهى حاصلة فى حَيّزها الطبيعى ؛ لكنا وإن كان مخالفاً لقول الحكماء ، فإنّا نتقلده دينا ومذهباً ، ونعدل عن قول الحكماء ، لأنّ اتباع قوله عليه السلام أوْلى من اتباع أقوالهم .

***

الفصل الرابع فى ذكر نظائر لما وصف به المطر والسحاب :

فن ذلك ما رواه عبد الرحمن ، ابن أخى الأصمعىّ ، عن عمّه قال : سئل أعرابىّ عن مَطر ، فقال :

استقلَّ سَدٌّ مع انتشار الطَفَل ، فشصَا واحزَألّ ، ثم اكفهَرّت أرجاؤه ، واحمومَتْ أرْحاؤه ، وابْذعرّت فوارقه ، وتضاحكَتْ بوارقه ، واستطار وادقه ، وأرسمت جوْبُه ، وارتمن هَيْدَبُه ، وحَشَكت أخلافه ، واستقلّتْ أردافه ، وانتشرت أكنافه ؛ فالرعد يرتجس ، والبرق يختلِس، والماء ينبجِس ، فأترَع الغُدُر ، وأنبت الوُجُر ، وخلط الأوعال بالآجال ، وقرن الصِّيران بالرئال ، فللأودية هدير ، وللشِّراج خرير ، وللتِّلاع زَفير ، وحطّ النَّبع والعَنَم من القُلل الشمّ إلى القيعان الصُّحْم ، فلم يبق فى القُلَل إلا مُعْصِم

مُجْرَنْشِمٍ ، أو داحض مُحَرْجم ، وذلك من فضل رب العالمين ، على عباده المذنبين .

قلت : السَّدّ: السحاب الذى يَسُدّ الأفق . وأصل الجبل . والطَّفَل : اختلاط الظلام وانتشارُه حال غروب الشمس . وشصا : ارتفع وعلا . واحزألّ : انتصب . واكفهرّت أرجاؤه : غَلُظَت نواحيه وجوانبه وتراكمتْ . واحومّتْ : اسودّت مع مخالطة حمرة وأرجاؤه : أوساطه . وانزعرتْ : تفرّقت . والفوارق : قِطَعٌ من السحاب تتفرّق عنه مثل فِرَق الإبل ؛ وهى النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل وبَعُدت عنها حيث لا تُرَى . وتضاحكت بوارقُه : لمعت . واستطار : انتشر . والوادِق : ذو الوَدْق ، وهو مطر كبار . وأرسمت جُوَبه ، أى تلاءمت فُرَجُه والتحمت . وارثعن : استرخى . وهَيْدَبُه : ما تدلّى منه . وحَسَكت أخلافُه : امتلأت ضُروعه . وأردافه : مآخره . وأكنافه : نواحيه ، ورنجس : يصوّت ، والرَّجس : الصوت . ويختلس : يستلبُ البصر . وينبجس ينصبّ. فأترع الغُدُر : ملأها ، جمع غَدِير . وأنبت الوُجُر : حفرها : جمع وِجَار ؛ وهو بيت الضبع . والآجال : جمع إجْل ؛ وهو قطيع البقر : والصِّيران مثله ، جمع صُوار . والرِّئال : جمع رَأْل ؛ وهو فرخ النعام . والمدبر : الصوت . والشِّراج : جمع شَرْج ؛ وهو مسيل الماء إلى الحَرّة . وخرير الماء . صوته . وزفير التِّلاع : أن تزفر بالماء لفرط امتلائها . والقَبْع : شجر ، والعَنَم : شجر آخر ؛ وكلاهما لاينبت إلّا فى رءوس الجبال . والشمّ : العالية . والصُّحْم : السود التى تضرب إلى الصفرة ، والمُعْصِم : المعتصم الملتجئ . والمجرنثم : المتقبض ، والداحض : الزالق الواقع . والمحرجم : المصروع .

* * *

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم ، عن الأصمعى ، قال : سألت أعرابيًّا من بنى عامر ابن صعصعة ، عن مطر أصاب بلادَهم ، فقال :

نشأ عارضا ، فطلع ناهضا ، ثم ابتسم وامضا؛ فاعتَنّ فى الأقطار فأشجاها ، وامتدّ فى

الآفاق فغطّاها ، ثم ارتجس فهمهم، ثم دوّى فأظلم ، فأركّ ودثّ، وبغش وطشّ، ثم قطقط فأفرط ، ثم ديّم فأغمط، ثم ركد فأثجم ، ثم وبَل فسجَم، وجاد فأنعم ، فقمس الرُّبا، وأفرط الزُّبَى سَيْماً[1] تباعا ، يريد انقشاعا ؛ حتى إذا ارتوت الحزُون ، وتضحضحت المتون، ساقه ربكَ إلى حيث يشاء ، كما جلبه من حيث شاء .

قلت : العارض: سحاب يعترض فى الأفق . واعتنّ: اعترض. وأشجاها : ملأها فكان كالشَّجى فى حَلْقها . وارتجس : صوّت. والهمهمة : صوْت الرعد. ودوّى : أحدث دويًّا. فأظلم: أعدم الضوء من الأرض بتكاثفه. فأركّ، أى مطر ركًّا، والركّ: المطر الضعيف، وكذلك الدّثّ والبَغْش والطّشّ، وفوق ذلك القَطْقَط . وديّم : صار دِيمةً وهى المطر أياما لا يُقلع. وأغمط ، أى دام. وأثجَم : أقام . ووَبَل : جاء بالوابل ؛ وهو المطر العظيم : وسَجَم: صبّ. وأنعم : بالغ . وقمسَ : غوّص فى الماء . وأفرط الزُّبى : ملأها ، جمع زُبْيَة ؛ وهى حفيرة تحفر الوحوش فى مكان مرتفع. والحزون : جمع حَزْن، وهو ماغلُظ من الأرض. والمُتون : جمع متْن ؛ وهو الصلب من الأرض . وتضحضحت : صار فوقها ضحضاح من الماء ؛ وهو الرقيق .

* * *

ومن ذلك مارواه أبو حاتم أيضا ، عن الأصمعىّ ، قال : سألتُ أعرابيًّا عن مطرٍ أصابهم بعد جَدْب ، فقال :

ارتاح لنا ربُّك بعد مااستولى اليأس على الظُّنون، وخامر القلوبَ القُنوط؛ فأنشأ بنوء الجبهة قزَعةً كالفُرْص من قِبَل العيْن ، فاحزألّتْ عند ترجّل النهار لأدم السَّرار؛ حتى إذا نهضت فى الأفق طالعة ، أمرَ مسخّرها الجنوب فتبسّمت لها ، فانتثرت[2] أحضانُها، واحومّتْ أرْكانها ، وبَسَق عَنانها ، واكفهرّت رَحاها ، وانبعجت كُلاَها[3]، وذمرت

(١) ساح الماء سيحاً : جرى واضطرب ،وفى الأصول : « سيماً » تصحيف .

(٢) ب : « فانذعرت » . (٣) كلية السحابة : أسفلها .

أخراها أولاها؛ ثم استطارت عقائقها، وارتعجت بوارقها، وتقعقعت صواعقها، ثم ارتعبت جوانبها، وتداعت سواكبها، ودرّت حوالبها؛ فكانت للأرض طبقاً شج فهضب، وعمّ فأحسب؛ فعلّ القيمان، وضحضح الغيطان، وصوّح الأضواج، وأترع الشّراج، فالحمد لله الذي جعل كفاء إساءتنا إحسانا، وجزاء ظلمنا غفرانا.

قلت: نوء الجبهة محمود عندهم للمطر، والقزعة: القطعة الصغيرة من السحاب. والقرص: الترس. والعين ماعن يمين قبلة العراق. وترجّل النهار: انبساط الشمس. والأدم: أحد ليالي السّرار، والأحضان: النواحي. واحمومت: اسودّت. وبسق: علا. والعنان: مايعترض من السحاب في الأفق. وانبعجت: انفتقت. وذمرت: حضّت. والعقائق: البروق. وارتعجت: اهتزّت وارتعدت. وطبقا، أي غطّت الأرض. وهضب: جاء بالمطر دفعة فدفعة. وأحسب: كفى. وعلّ القيمان: سقاها مرّة بعد أخرى، والغيطان: جمع غائط وهو ما سفل من الأرض. وصوّح الأضواج: هدم الأجواف. وأترع الشّراج: ملأ المسيلات.

* * *

ومن ذلك مارواه ابن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه الأصمعيّ، قال:

سمعت أعرابياً من بني عامر يصف مطراً، قال: نشأ عند القصر بنوء النّفر حيّاً عارضاً ضاحكا وامضا، فكلا ولا ما كان حتى شجيت به أقطار الهواء، واحتجبت به السماء، ثم أطرق فاكفهرّ، وتراكم فادلهمّ، وبسق فازلأمّ، ثم حدت به الريح نخرّ، والبرق مرتعج، والرعد مُبتوِج، والحدج مبتمج، فأثجم ثلاثاً، متحيّراً هثهاثاً، أخلافه حاشكة، ودُفّعه متواشكة، وسوامه متماركة. ثم ودّع منجما، وأقلع متهما، محمود البلاء، مترع النّهاء[1]، مشكور النعماء، بطول ذى الكبرياء.

قلت: القصر: العشيّ. والنّفر من نجوم الأسد. والحيا: الدّاني من الأرض. وقوله: «كلا ولا» أي في زمان قصير جدا. وشجيت به الأقطار: صار كالشّجى لها.

(١) نهاء: جمع نهي؛ وهو الغدير.

وازلأمّ : انتصب. والمرتمج : المتدارك. والمتبوج : العالى الصوت. والحدّج : السحاب أول ماينشأ . ويتبعّج : يشقق . وأنجم : دام متحيّرا ، أى كأنه قد تحيّر لا وجه له يقصده . والمثهات : الداخل. وأخلافه حاشكة؛ أى ضروعة ممتلئة . ودُفَعه متواشكة، أى مسرعة. وسوامه متماركة ، شبّه قطع السحاب بسوام الإبل . ومُنْجماً : مقلعا . ومُتْهِما : يسير نحو تِهامة :

* * *

الفصل الخامس فى بيان أنه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع

وذلك لأن هذا الفن لايوجد منه فى كلام غيره ممن تقدّمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة ؛ ولكنها واقعة بالاتفاق كما وقع التجنيس فى القرآن العزيز اتفاقا غيرَ مقصود ، وذلك نحو قولِه : ﴿ يأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ (١) ، وكما وقعت المقابلة أيضا غير مقصودة فى قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٢) على أنها ليست مقابلة فى المعنى ، بل من اللفظ خاصة . ولما تأمل العلماء شعر امرئ القيس وجدوا فيه من الاستعارة بيتا أو بيتين نحو قوله يصف الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمطَّى بِصُلْبِــــهِ وَأَرْدَفَ أَعجازاً وَنَاء بِـكَلْـكَلِ (٣)

وقوله :

وإن يَكُ قد ساءتكِ مِنّى خليقةٌ فَسُلّى ثيابِى مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ (٤)

ولم يُنشِدوا مثل ذلك فى أشعار الجاهليّة ، حكموا له بأنه إمام الشعراء ورئيسهم .

وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على مالو كان موجودا فى ديوان شاعر مكثِر ، أو مترسّل مكثر

---

(١) سورة يوسف ٨٤ . (٢) سورة الرحمن ٨ .
(٣) ديوانه ١٨ . (٤) ديوانه ١٣ .

لكان مستحق التقديم بذلك؛ ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة، وأنها ترغو رُغاء فحول الإبل. ثم جعل الماء جِمَاحاً، ثم وصفه بالخضوع، وجعل للأرض كَلْكَلاً، وجعلها واطئة للماء به، ووصف الماء بالذلّ والاستخذاء لمّا جعل الأرض متمعّكة عليه كما يتمعّك الحمار أو الفرس، وجعل لها كواهل، وجعل للذل حَكَمة، وجعل الماء في حَكَمة الذلّ منقادا أسيرا، وساجيا مقهورا. وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأو واعتلاء، فردّته الأرض خاضعا مسكينا، وطأطأت من شُموخ أنفه، وسُموّ غلوائه، وجعلها كاعمة له، وجعل الماء ذا كِظّة بامتلائه، كما تعترى الكظّة المستكثر من الأكل. ثم جعله هامداً بعد أن كانت له نزقات، ولابداً بعد أن كانت له وثبات، ثم جعل للأرض أكتافا وعرانين، وأنوفا وخياشيم؛ ثم نفى النوم عن وميض البرق، وجعل الجنوب مارية دِرَرَ السحاب، ثم جعل للسحاب صدرا وبِوَانا، ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة، وجعل لها رَيْطا من لباس الزهور، وسُموطا تحلّى بها. فيالله وللعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضُل بعضه بعضا لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثا منها، أقاموا القيامة، ونفخوا في الصور، وملئوا الصحف بالاستحسان لذلك والاستطراف، ثم يرّون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على ألطف وجه، وأرصع وجه، وأرشق عبارة، وأدق معنى، وأحسن مقصد، ثم يحملهم الهوى والعصبية على السّكوت عن تفضيله إذا أجلوا وأحسنوا، ولم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه، على أنه لا عجب، فإنه كلام على عليه السلام، وحظّ الكلام حظّ المتكلم؛ وأشبه امرأ بعضُ بَزّه!

***

وهذا آخر الجزء السادس من الأجزاء العشرين من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي على ماجزأه [١].

(١) ج: «تم الجزء السادس من أجزاء شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد على ما جزأه، ويتلوه الجزء السابع والحمد لله وحده».

فهرس الخطب *

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات (*)

(*) وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

(١) انظر أخبار يوم السقيفة فى الجزء الأول ٢١ ـ ٦١

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ.ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٩٠)*

الأصْلُ:

فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خِيرَةً [1] مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ . فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ ؛ قَرْناً فَقَرْناً ؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ .

***

الشَّرْحُ :

مهّد أرضه : سوّاها وأصلحها، ومنه المهاد وهو الفراش، ومَهَدْتُ الفراش، بالتخفيف مَهداً ، أي بسطته ووطّأته . وقوله : «خِيَرة من خَلْقه» على « فِعَلة » ، مثل عِنَبة، الاسم

(*) بقية الخطبة التسعين ؛ وأولها في الجزء السادس ص ٣٩٨

(١) مخطوطة النهج : « خيرة » ، بالتسكين .

من قولك : اختاره الله ؛ يقال : محمد خِيَرَة الله من خلقه ؛ ويجوز : « خِيْرة الله » بالتسكين ، والاختيار : الاصطفاء .

والجِبِلّة : الخَلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١) ، ويجوز « الجُبُلّة » ، بالضم ، وقرأ بها الحسن البصري ، وقرئ قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾(٢) على وجوه : فقرأ أهلُ المدينة بالكسر والتشديد ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ جُبْلًا كَثِيرًا ﴾ مثل قُفْل ، وقرأ الكِسائيّ « جُبُلًا » كثيراً بضم الباء مثل « حُلُم » ، وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ جِبِلًا ﴾ بكسر الجيم ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحق : ﴿جُبُلًّا﴾ بالضم والتشديد .

قوله : « وأرْغَدَ فيها أُكُلَه » ، أي جعل أُكُله ـ وهو المأكول ـ رغداً ، أى واسعاً طيباً ، قال سبحانه : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾(٣) ، وتقرأ رَغْداً ورَغِداً بكسر الغين وضمها ، وأرغَدَ القومُ : أخصبوا ، وصاروا فى رَغَدٍ من العيش .

قوله : « وأوعز إليه فيما نهاه عنه » ، أى تقدّم إليه بالإنذار(٤) ، ويجوز « وَعَّز إليه » بالتشديد توعيزاً ، ويجوز التخفيف أيضا وعز إليه وعزا .

والواو فى « وأعلمه » عاطفة على « وأوعز » ، لا على « نهاه » .

قوله ، « موافاةً لسابق علمه » لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له ، وذلك لأنّ المفعول له يكون عذرا وعلّة للفعل ، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلهيّ السابق ، ولا يستمرّ ذلك على مذاهبنا ، بل يجب أن ينصب « موافاةً » على

---

(١) سورة الشعراء ١٨٤ .

(٢) سورة يس ٦٢ .

(٣) سورة البقرة ٣٥

(٤) ب : « الإنذار » ، وما أثبته من ج ، د .

المصدرية المحْضَة ؛ كأنه قال : فوافق بالمعصية موافاة ، وطابق بها « سابق العلم » مطابقـــة .

قوله : « فأهبطه بعد التوبة »،قد اختلف الناس فى ذلك ، فقال قوم : بل أهبطه قبل التوبة ؛ ثم تاب عليه وهو فى الأرض . وقال قوم : تاب قبل الهبوط ، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام ، ويدلّ عليه قوله تعالى:﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾(١)،فأخبر عن أنّه أهبطهم بعد تلقّى الكلمات والتوبة . وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(٢) . فبيّن أنّ اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط . وقال فى موضع آخر : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾(٣)؛ فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة ، واحتجّ الأولون بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾(٤)،قالوا : فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما ، ثم عقّب الهبوط بفاء التعقيب فى قوله : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ ، فدلّ على أنّ التوبة بعد الهبوط .

---

(١) سورة البقرة ٣٧ ، ٣٨

(٢) سورة الأعراف ٢٢ ــ ٢٤

(٣) سورة طه ١٢١ ــ ١٢٣

(٤) سورة البقرة ٣٥ ــ ٣٨

ويمكن أن يجابَ عن هذا فيقال : إنّه تعالى لم يقل : «فقلنا اهبطوا» بالفاء، بل قال: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ بالواو ، والواو لاتقتضى الترتيب، ولو كان عِوَضها فاء لـكانت صريحة فى أنّ الإهباط كان عقيب الزلّة ؛ فأمّا الواو فلا تدلّ على ذلك ؛ بل يجوز أن تـكون التوبة قبل الإهباط ، ويخبر عن الإهباط بالواو قبل أن يخبرَ عن التوبة .

قوله عليه السلام : « وَلِيُقِيمَ الحجّة على عباده » ، أى إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحـدة فأخلِقْ بِها ألّا يدخلها ذو خطايا جَمّة ؛ وهـذا يؤكّد مذهب أصحابنا فى الوعيد .

ثم أخبر عليه السلام أنّ البارئ سبحانه ما أخلى عباده بعد قبض آدم وتوفّيه مما يؤكد عليهم حجج الربوبية ، بل أرسل إليهم الرسل قَرْنا فقَرنا، بفتح القاف ؛ وهو أهل الزمان الواحد ، قال الشاعر :

إذا مَامَضى الْقَرْنُ الَّذِى أَنْتَ فِيهِمُ ... وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ(١)

وتعاهدَهُم بالحجج ، أى جَدّد العهد عندهم بها ؛ ويروى « بل تَعهّدَهم » بالتشديد، والتعهّد : التحفّظ بالشىء ؛ تعهّدْتُ فلانا وتعهّدت ضيعتى؛ وهو أفصح من «تعاهدت» لأنّ التفاعل إنما يكون من شيئين ؛ وتقول : فلان يتعهده صَرْعٌ .

قوله : « وبَلَغَ المقطعَ عُذْرُه ونُذُرُه » ، مقطع الشىء حيث ينقطع ، ولا يبقى خلفه شىء منه، أى لم يزل يبعث الأنبياء واحدا بعد واحد؛ حتى بعث محمدا صلى الله عليه وآله؛ فتمّتْ به حجته على الخلق أجمعين . وبلغ الأمرُ مقطعه ، أى لم يبق بعده رسول ينتظر ؛

---

(١) البيت فى اللسان ١٧ : ٢١٢ .

وانتهت عُذر الله تعالى ونُذُره ، فعذرُه ما بيّن للمكلّفين من الإعذار فى عقوبته لهم إنْ عَصَوْه ، ونُذُره ما أنذرهم به من الحوادث ، ومَنْ أنذرَهُمْ على لسانه من الرسل .

***

[القول فى عصمة الأنبياء]

واعلم أنّ المتكلمين اختلفوا فى عصمة الأنبياء ؛ ونحن نذكر هاهنا طرَفاً من حكاية المذاهب فى هذه المسألة على سبيل الاقتصاص ونقل الآراء ؛ لا على سبيل الحِجاج ؛ ونخصّ قِصّة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر ؛ إذ كانت هذه القصة مذكورةً فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل ؛ فنقول :

اختلف الناس فى المعصوم ما هُوَ ؟ فقال قوم : المعصوم هو الذى لا يمكنه الإتيان بالمعاصى ؛ وهؤلاء هم الأقلّون أهل النظر ؛ واختلفوا فى عدم التمكّن كيف هو ؟ فقال قوم منهم : المعصوم هو المختصّ فى نفسه أو بدنه أو فيهما ، بخاصيّة تقتضى امتناع إقدامه على المعاصى .

وقال قوم منهم : بل المعصوم مساوٍ فى الخواصّ النفسية والبدنية لغير المعصوم . وإنما العصمة هى القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية ، وهذا قولُ الأشعرىّ نفسه ؛ وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه .

وقال الأكثرون من أهل النظر : بل المعصوم مختار متمكّن من المعصية والطاعة .

***

وفسروا العصمة بتفسيرين :

أحدهما : أنها أمورٌ يفعلها الله تعالى بالمكلّف فتقتضى ألّا يفعل المعصية اقتضاء

غير بالغ إلى حدّ الإيجاب ، وفسّروا هذه الأمور فقالوا : إنها أربعة أشياء : أوّلها أن يكون لنفس الإنسانِ مَلَكةٌ مانعة من الفجور ، داعية إلى العفّة ؛ وثانيها العلم بمثالِب المعصية ومناقب الطاعة . وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى . ورابعها أنه متى صَدَر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملا بل يعاقب وينبه ويضيّق عليه العذر ؛ قالوا : فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوما عن المعاصي لا محالة ، لأنّ العِفّة إذا انضاف إليها العلمُ بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة ؛ ثم أكّد ذلك تتابع الوحي إليه وترادُفه ، وتظاهر البيان عنده ، وتمّ ذلك خوفُه من العتاب على القدر القليل ، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة .

وقال أصحابنا[1] : العصمة لطف يمتنع المكلّف عند فعله من القبيح اختيارا ، وقد يكون ذلك اللطف خارجا عن الأمور الأربعة المعدودة ، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إنْ أنشأ سحابا ، أو أهبّ ريحا ، أو حرّك جسما ؛ فإن زيدا يمتنع عن قبيح مخصوص اختيارا ، فإنّه تعالى يجب عليه فعل ذلك ، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد ، وإن كان الإطلاق المشتهر في العصمة إنما هو لمجموع ألطافٍ يمتنع المكلّف بها عن القبيح مدة زمان تكليفه .

وينبغي أن يقع [الكلام[2]] بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول :

* * *

الفصل الأول

في حال الأنبياء قبل البعثة ومَنِ الذي يجوزُ أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عليه أصحابُنا المعتزلة رحمهم الله ، أنه يجب أن ينزّه النبيّ قَبْلَ البعثة عما كان فيه تنفيرٌ عن الحقّ الذي يدعو إليه ، وعمّا فيه غضاضة وعيب .

---

(١) هو التفسير الثاني للعصمة .

(٢) تكملة من ج ، د .

فالأول نحو أن يكون كافرا أو فاسقا ، وذلك لأنّا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناسُ منه السُّخْف والمجون والفِسْق ، لايقع أمرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه إلّا على السَّداد والصلاح .

والثانى نحو أن يكون حَجّاما أو حائكا أو محترفاً بحِرفة يقذرُها الناس ، ويستخفُّون بصاحبها ، إلا أنْ يكون المبعوثُ إليهم على خلاف ماهو المعهود الآن ، بألّا يكون من تعاطى ذلك مستهاناً به عندهم .

ووافق أصحابَنا فى هذا القول جمهورُ المتكلمين .

وقال قوم من الخوارج : يجوز أن يبعث الله تعالى مَنْ كان كافرا قبل الرسالة ، وهو قول ابن فُورك [١] من الأشعرية ، لكنه زعم أنّ هذا الجائز لم يقع .

وقال قوم من الحَشَوِيّة : قد كان محمد صلى الله عليه وآله كافرا قبل البعثة ، واحتجُّوا بقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [٢] . وقال بُرغوث المتكلم ، وهو أحد النَّجّارية [٣] : لم يكن النبى صلى الله عليه وآله مؤمنا بالله قبل أن يبعثه ، لأنه تعالى قال له : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [٤] .

وروى عن السُّدِّىّ فى قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [٥] ، قال : وِزْره : الشرك ، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة .

وقال بعض الكرّامية [٦] فى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم صلى الله عليه وآله ،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ؛ الأديب المتكلم الواعظ ؛ ترجم له ابن عساكر فى كتابه تبيين كذب المفترى ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) سورة الضحى ٦ .

(٣) النجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار ؛ ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث من رجالهم ؛ وانظر الشهرستانى ١ : ٨١ ، ٨٢ .

(٤) سورة الشورى ٥٢

(٥) سورة الشرح ٢ .

(٦) الكرامية ؛ أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام ؛ وانظر تفصيل آرائهم فى الشهرستانى ١ : ٩٩ — ١٤٠ .

﴿قال أسلمت﴾ [١] : إنه أسلم يومئذ ، ولم يكن من قبل ذلك مسلما ، ومثل ذلك ، قال اليمان بن رباب ، متكلم الخوارج .

وحكى كثير من أرباب المقالات عن شيخنا أبي الهذيل وأبي عليّ جواز أن يبعث الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة ، ولم أجد في كتب أصحابنا حكاية هذا المذهب عن الشيخ أبي الهُذَيل ، ووجدتُه عن أبي عليّ ، ذكره أبو محمد بن مَتّوَيْه في كتاب « الكفاية » ، فقال : منع أهلُ العدل كلُّهم من تجويز بعثة مَنْ كان فاسقا قبل النبوّة إلا ماجرى في كلام الشيخ أبي عليّ رحمه الله تعالى من ثُبوت فَصْل بين البعثة وقبلها ، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكبا لكبيرة ثم يتوب ، فيبعثه الله تعالى حينئذ ، وهو مذهب محكيّ عن عبد الله بن العباس الرّامَهُرْمزيّ .

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى : والصحيح من قول أبي عليّ رحمه الله تعالى مثل مانختاره من التّسوية بين حال البعثة وقبلها في المنع من جواز ذلك .

وقال قوم من الأشعرية ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث : إنّ ذلك جائز واقع ، واستدلّوا بأحوال إخوة يوسف . ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نبوّة إخوة يوسف ، ثم هؤلاء المجوزون ، منهم من جوّز عليهم فعل الكبائر مطلقا ، ومنهم مَنْ جوّز ذلك على سبيل النّدْرة ثم يتوبون عنه ، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح ، فأمّا لو فرضنا [٢] إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصي ، فإنّ ذلك لا يجوز ، لأنه يفوّت الغرض من إرسالهم ونبوّتهم على هذا التقدير .

وقالت الإمامية : لايجوز أنْ يبعث الله تعالى نبيا قد وقع منه قبيح قبل النبوة ،

---

(١) من قوله تعالى في سورة البقرة ١٣١ : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(٢) ب : « لو فرض » ، وما أثبته من ج ، د .

لا صغيرا ولا كبيرا ، لا عمدا ولا خطأ ، ولا على سبيل التأويل والشبهة ؛ وهذا المذهب مما تفرّدوا به ؛ فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة ، لم يمنعوا وقوع الصغائر منهم إذا لم تكن مسخّفة منفرة .

أطردت الإمامية هذا القول فى الأئمة فجعلت حكمهم فى ذلك حكم الأنبياء فى وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوة وبعدها .

* * *

الفصل الثانى

فى عصمة الأنبياء فى زمن النبوة عن الذنوب فى أفعالهم وتروكهم عدا ما يتعلق بتبليغ الوحى والفتوى فى الأحكام

جوّز قوم من الحشويّة عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء ؛ كالزنا واللواط وغيرهما، وفيهم مَنْ جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان ، وفيهم مَنْ جوّز ذلك على الأحوال كلها .

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلًا ، ومنعوا أيضا مِنْ وقوع الصغائر المسخّفة منهم، وجوّزوا وقوع الصغائر التى ليست بمسخّفة منهم. ثم اختلفوا فنهم مَنْ جوّز على النبىّ الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخّفة عَمْداً[1] ؛ وهو قول شيخنا أبى هاشم رحمه الله تعالى؛ فإنه أجاز ذلك وقال : إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على خوف وَوَجَلٍ ، ولا يتجرأ على الله سبحانه .

ومنهم مَنْ منع مَنْ تعمّد إتيان الصغيرة ، وقال : إنّهم لا يقدمون على الذنوب التى يعلمونها ذنوباً ، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة؛ وهذا قول أبى على رحمه الله تعالى .

---

(١) كذا فى ج ، د ، وفى ب : « عملا » .

وحُكِيَ عن أبي إسحاق النظام وجعفر بن مبشِّر، أنّ ذنوبهم لا تكون إلّا على سبيل السّهو والنسيان، وأنّهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعا عن أممهم، لأنّ معرفتهم أقوى، ودلائلهم أكثر، وأخطارهم أعظم؛ ويتهيّأ لهم من التحفّظ مالا يتهيّأ لغيرهم.

وقالت الإمامية: لا تجوزُ عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمداً ولا خطأ، ولا سهواً، ولا على سبيل التأويل والشبهة؛ وكذلك قولهم في الأئمة؛ والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً، لأنّ أصحابنا إنّما يجوّزون عليهم الصغائر، لأنه لا عقابَ عليها؛ وإنما تقتضي نقصان الثواب المستحقّ على قاعدتهم في مسألة الإحباط، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنّه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمّا ولا عقابا؛ والإمامية إنّما تنفي عن الأنبياء الصغائر والكبائر؛ من حيث كان كلُّ شيء منها يستحق فاعلُه به الذمّ والعقاب، لأنّ الإحباط باطل عندهم؛ فإذا كان استحقاقُ الذمّ والعقاب يجب أن ينفى عن الأنبياء، وجب أن يُنْفَى عنهم سائر الذنوب، فقد صار الخلافُ إذاً متعلقا بمسألة الإحباط، وصارت هذه المسألة فرعا من فروعها.

***

واعلم أن القول بجواز الصّغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على ماذهب إليه شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى؛ إنما اقتضاه تفسيرُ ملابسة آدم للشجرة، وتكلّفه إخراجها عن تعمّد آدم للعصيان، فقال: إنّ آدم نُهِيَ عن نوع تلك الشجرة لا عن عينها، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وأراد سبحانه نوعَها المطلق، فظن آدم أنه أراد خصوصيّة تلك الشجرة بعينها؛ وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بعينها، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نوْعِها، فأخطأ في التأويل. وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب، ويقولون إنّ الإشكال باقٍ بحاله، لأن آدم أخلّ بالنظر على

هذا القول فى أن المنهىّ عنه : هل هو عينُ الشجرة أو نوعها ؟ مع أنه قد كان مدلولا على ذلك ، لأنّه لو لم يكن مدلولا على ذلك لـكانَ تـكليفُ الامتناع عن التناول تـكليف مالا يطاق ، وإذا دلّ على ذلك وجب عليه النظر ؛ ولا وَجْه يجب النظر لأجله إلا الخوف من تركه ؛ وإذا لم يكن بد من كونه خائفا فهو عالم إذاً بوجوب هـذا التأمّل والنظر ؛ فإذا أخلّ به فقد وقعتْ منه المعصية مع علمه .

وكما لايرضَى أصحابُ شيخنا أبى هاشم هـذا المذهب ؛ فـكذلك لايرتضُون مذهَب النَّظّام وجعفر بن مبشِّر ؛ وذلك لأنّ القول بأنّ الأنبياء يؤاخذون على مايفعلونه سهوا متناقض ؛ لأنّ السهو يُزِيل التـكْليف ، ويخرج الفعل من كونه ذنبا مؤاخذا به ؛ ولهـذا لايصحّ مؤاخذةُ المجنون والنائم ، والسهو فى كونه مؤثرا فى رفع التكليف جارٍ مجرى فقد القُدر والآلات والأدلّة ؛ فلو جاز أن يخالف حالُ الأنبياء حالَ غيرهم فى صحّة تـكليفهم مع السهو ، جاز أن يخالف حالُهم حالَ غيرهم فى صحّة التكليف مع فقد القُدَر والآلات ؛ وذلك باطل .

***

واعلم أنّ الشريف المرتضى ـ رحمه الله تعالى ـ قد تـكلّم فى كتابه المسمى « بتنزيه الأنبياء والأئمة » على هذه الآية ، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها][1] ، وحاول صَرْفها عن ظاهرها ، وتأوّلُ اللفظِ بتأويلٍ مستـكرَه غير صحيح ؛ وأنا أحكى كلامه هاهنا وأتكلّم عليه نُصرةً لأصحابنا ، ونصرةً أيضا لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ فإنه قد صرّح فى هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام ، ألا ترى إلى قوله : « والمخاطرة بمنزلته » ؛ وهل تكون هذه اللفظة إلا فى الذنب ! وكذلك سياقة الفَصْل من أوّله إلى آخره ؛ إذا تأمله المنصف واطّرح الهوى والتعصّب . ثم إنا نذكر [كلام][1] السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى ، قال رحمه الله تعالى :

---

(١) تـكملة من ج ، د .

أما قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ ﴾ فإنّ المعصية مخالفة للأمر(١)، والأمر من الحكيم تعالى قد يكونُ بالواجب وبالندب معا ؛ فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوبا إلى ترك التّناول من الشجرة، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلا ،وغير فاعل قبيحا،وليس يمتنع أن يسمّى تارك النفل عاصياً ، كما يُسمّى بذلك تارك الواجب ، فإنّ تسمية من خالف ماأمر به سواء كان واجبا أونفلا بأنه عاصٍ ظاهر، ولهذا يقولون: أمرتُ فلانا بكذاوكذا من الخير فعصاني وخالفني ، وإن لم يكن ماأمر به واجباً(٢).

يقال له : الكلام على هذا التأويل من وجوه :

أولها أنّ ألفاظ الشّرع يجب أن تُحمَل على حقائقها اللّغوية مالم يمكن لها حقائق شرعية ، فإذا كان لها حقائق شرعية وجبَ أن تحمل على عُرْف الشّرْع واصطلاحه ، كالصلاة والحجّ والنفاق والكفر ،ونحو ذلك من الألفاظ الشّرعية ،وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف ’’بالذّريعة‘‘ في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لامندوحَة عنه. وإذا كان لفظُ العصيان في الاصطلاح الشرعيّ موضوعا لمخالفة الأمر الإيجابي لم يجُز العدول عنه وحمله على مخالفة النّدْب .

ومعلوم أنّ لفظ العصيان في العُرْف الشرعيّ لايطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضي للوجوب ،فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندبي قول تبطله وتدفعه تلك القاعدة المقررة التي ثبتت بالاتفاق وبالدليل ، على أننا قبل أن نجيبَ بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال لتارك النفل: إنّه عاصٍ لافي أصل اللغة ، ولافي العُرْف، ولافي الشرع ، وذلك لأنّ حقيقة النفل هو مايقال فيه للمكلّف : الأوْلى أن تفعلَ هذا ، ولكَ ألاّ تفعله ، ومعلوم أنّ

(١) العبارة في كتاب تنزيه الأنبياء بعد ذكر الآية « ... قالوا : وهذا تصريح بوقوع المعصية التي لاتكون إلا قبيحة ؛ وأكده بقوله : « فغوى » ، والغي ضد الرشد . الجواب : يقال لهم : أما المعصية ... » .
(٢) تنزيه الأنبياء ٩ .

تاركَ مثلِ ذلك لا يطلَق عليه أنه عاصٍ ؛ ويبين ذلك أن لفظ « العصيان » فى اللغة موضوع للامتناع ؛ ولذلك سُمّيتِ العصا عَصاً ، لأنه يُمتَنع بها ؛ ومنه قولهم : قد شقّ العصا ، أى خرج عن الربقة المانعة من الاختلاف والتفرّق ، وتارك الندب لا يمتنع من أمرٍ ، لأنّ الأمر الندبىّ لا يقتضى شيئا اقتضاء اللزوم ، بل معناه إن فعلت فهو أوْلى ؛ ويجوز ألّا تفعل ، فأىّ امتناع حدث إذا خولف أمر الندب سمى المخالف له عاصيا ، ويبين ذلك أيضا أنّ لفظ « عاصٍ » اسم ذمّ ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الندب : كما لا يسمّى فاسقاً ؛ وإنْ كان الفسق فى أصل اللغة الخروج .

ثم يُسأل المرتضَى رحمه الله تعالى عمّا سأل عنه نفسَه ، فيقال له : كيف يجوز أن يكون تركُ الندب معصية ؟ أو ليْس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة فى كل حالٍ ، وأنهم لا ينفكّون عن المعصية ؛ لأنهم لا يكادون ينفكّون من ترك الندب[1] ؟ !

وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا ، فقال : وَصْف تارك النّدْب بأنه عاصٍ توسّع وتجوّز ، والمجاز لا يقاسُ عليه ، ولا يعدّى عن موضعه . ولو قيل إنه حقيقة فى فاعل القبيح ، وتارك الأوْلى [والأفضل][2] لم يجز إطلاقه فى الأنبياء إلا مع التقييد ، لأنّ استعماله قد كثُر فى فاعل القبائح ، فإطلاقه عن التقييد مُوهِمٌ .

لكنا نقول : إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنّهم فعلوا القبيح ، فلا يجوز ذلك ، وإنْ أردت أنهم تركوا مالو فعلوه لا ستحقّوا الثواب ؛ ولكان أوْلَى ، فهم كذلك .

كذلك يقال له : ليس هذا من باب القياس على المجاز الذى اختلَفَ فيه أربابُ أصول الفقه ؛ لأن مَنْ قال : إذا ترك زيد الندب ؛ فإنه يسمّى عاصيا ؛ يلزمه أن يقول : إن عمْرا إذا ترك الندب يسمى عاصيا ؛ وليس هذا قياسا ، كما أنّ من قال لزيد البليد : هذا

---

(١) تنزيه الأنبياء ١٠

(٢) من تنزيه الأنبياء .

حمار ، قال لعمرو البليد : هذا حمار ، والقياس على المجاز الذى اختلف الأصوليون فى جوازه خارج عن هذا للوضع .

ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ[١] ﴾ ، هل يجوز أن يقال : طأطىء لها عُنق الذلّ !

وأما قوله : لو سلمنا أنه حقيقة فى تارك الندب لم يجز إطلاقه فى حق الأنبياء ؛ لأنه يوهم العصيان ؛ بل يجب أن يقيّد .

فيقال له : لكن البارئ سبحانه أطلقه ولم يقيّده فى قوله : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ ﴾ ، فيلزمك أن يكون تعالى موهما وفاعلا للقبيح ؛ لأن إيهام القبيح قبيح .

فإن قال : الدلالة العقلية على استحالة المعاصى على الأنبياء تؤمن من الإيهام .

قيل له : وتلك الدلالة بعينها تؤمن من الإيهام فى قول القائل : الأنبياء عصاة ؛ فهلّا أجزتَ إطلاق ذلك !

* * *

وثانيها أنه تعالى قال : ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ والغىّ الضلال .

قال المرتضى رحمه الله تعالى : معنى غوى ها هنا خاب ، لأنه نعلم أنه[٢] لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لا ستحقّ الثواب العظيم ؛ فإذا خالف الأمر ولم يصِر[٣] إلى ما ندب إليه ، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصِرْ إلى الثواب الذى كان يستحقه بالامتناع ؛ ولا شبهة فى أنّ لفظ « غوى » يحتمل الخيبة ، قال الشاعر :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَه ... وَمَنْ يَغْوَ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لَائِمَا[٤]

---

(١) سورة الإسراء ٢٤ . (٢) التنزيه : « لأنا نعلم » .

(٣) ب : « فإذا خالف الأمر إلى ما ندب إليه » .

(٤) للمرقش ، اللسان ١٩ : ٣٧٧ .

يقال له : ألستَ القائل فى مصنّفاتك الكلامية : إنّ المندوبات إنما ندب إليها ،لأنها كالمسهّلات والميسّرات لفعل الواجبات العقلية ، وأنها ليست ألطافاً فى واجب عقلىّ ؛ وأنّ ثوابها يسيرٌ جدا بالإضافة إلى ثواب الواجب ! فإذا كان آدم عليه السلام ماأخلّ بشىء من الواجبات ، ولا فعلَ شيئا من المقبّحات ؛ فقد استحقّ من الثواب العظيم مايستحقر ثواب المندوب بالإضافة إليه . ومثل هذا لايقال فيه لمن ترك المندوب إنّه قد خاب ، ألا ترى أنّ من اكتسب مائة ألف قنطار من المال ، وترك بعد ذلك درهما واحدا كان يمكنه اكتسابه فلم يكتسبه ،لايقال : إنه خاب !

وثالثها أنّ ظاهر القرآن يخالف ماذكره ، لأنه تعالى أخبر أن آدم منهىٌّ عن أكل الشجرة بقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ ؛ وهذا يوجب أنّه قد عصى بأن فعل منهيًّا عنه ، والشريف المرتضى رحمه الله تعالى يقول : إنه عصى بأن ترك مأمورا به .

* * *

قال المرتضى رحمه الله تعالى مجيبا عن هذا : إنّ الأمر والنهى ليسا يختصّان[1] عندنا بصيغة ليس فيها احتمال واشتراك ، وقد يؤمر عندنا بلفظ النهى ويُنهى بلفظ الأمر ؛ وإنّما يكون النهىُ نهياً بكراهة المنهىّ عنه، فإذا قال تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ ، ولم يكره قربهما لم يكن فى الحقيقة ناهيا، كما أنه تعالى لمّا قال : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾[2]، ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾[3]؛ ولم يرد ذلك ؛ لم يكن آمرا به ؛ وإذا كان قد صحب قوله : ﴿ لَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إرادة ترك التناول ، وجب أن يكون هذا القول أمراً ؛ وإنما سمّاه منهيًّا ،وسمى

(١) التنزيه : « أما النهى والأمر معاً فليسا . . . » .
(٢) سورة فصلت ٤٠ .
(٣) سورة المائدة ٢

أمره له بأنه نهيٌ من حيث كان فيه معنى النهي ؛ لأنّ في النهي ترغيباً في الامتناع من الفعل ، وتزهيدا في الفعل نفسه ، ولما كان الأمر ترغيبا من فعل المأمور ، وتزهيدا في تركه جاز أن يسمّى نهياً .

وقد يتداخل هذان الوضعان في الشاهد ، فيقول أحدنا : قد أمرتُ فلانا بألّا يلق الأمير ؛ وإنما يريد أنه نهاه عن لقائه ؛ ويقول : نهيتك عن هَجْر زيد ؛ وإنّما معناه أمرتُك بمواصلته(١).

يقال له : هذا خلاف الظاهر ، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرِف اللفظ عن ظاهره ؛ ويكفى أصحاب أبي هاشم في نصرة قولهم التمسك بالظاهر .

واعلم أنّ بعض أصحابنا تأول هذه الآية ، وقال : إنّ ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوّته ؛ لأنه لو كان نبيا قبل إخراجه من الجنّة ، لكان إما أن يكون مرسَلًا إلى نفسه ؛ وهو باطل ، أو إلى حوّاء وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ أو إلى الملائكة ، وهذا باطل ، لأن الملائكة رسل الله ، بدليل قوله : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾(٢)؛ والرسول لايحتاج إلى رسول آخر ،أو يكون رسولا وليس هناك من يرسَل إليه ؛ وهذا محال . فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوّته وإرساله .

***

الفصل الثالث

في خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا : إنّ الأنبياء معصومون من كلّ خطأ يتعلق بالأداء والتبليغ ،فلايجوز

---

(١) التنزيه ١١ .
(٢) سورة فاطر ١ .

عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة ، ولا الغلط فيما يؤدونه عن الله تعالى ، ولا السهوُ فيه ولا الإلغاز ولا التّعمية ؛ لأنّ كلّ ذلك إما أنْ ينقُض دلالة المعجز على صدقه ، أو يؤدّى إلى تكليف ما لا يطاق .

وقال قومٌ من الكرّامية والحشوية: يجوز عليهم الخطأ في أقوالهم ، كما جاز في أفعالهم؛ قالوا : وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله في التبليغ، حيثُ قال: « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهنّ لتُرتجى » .

وقال قوم منهم : يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجّة فيه بمجرّد خبرهم ، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه ، كما وقع من النبيّ صلى الله عليه وآله في هذه الصورة، فإنّ قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل في أنّ الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترجّى شفاعتها. فأمّا ما كان السبيلُ إليه بمجرّد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم.

وقال قوم منهم : إنّ الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم ، إذا لم تَجْرِ تلك الأفعال مجرى بيان الوحي ، كبيانه عليه السلام لنا الشريعة ، ولا يجوز عليه الخطأ في حال البيان ، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان ، كما روى من خَبرِ ذي اليدين[1] حين سها النبي صلى الله عليه وآله في الصلاة، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحى، فإنه لا يجوز عليه أن يخطِئ فيه ، لأنه حجّة الله على عباده . فأمّا في أقواله الخارجة عن التبليغ ، فيجوز

(١) نقله أبو داود في كتاب الصلاة ١ : ٣٦٣ بسنده عن أبي هريرة قال : « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتي العشي : الظهر أو العصر ؛ قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم ، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يديه عليها ؛ إحداهما على الأخرى ، يعرف في وجهه الغضب ، ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون : قصرت الصلاة ! قصرت الصلاة ! وفي الناس أبو بكر وعمر ؛ فهاباه أن يكلماه ، فقام رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه ذا اليدين ؛ فقال : يارسول الله ، أنسيت أم قصرتِ الصلاة ؟ فقال : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » ، قال : بل نسيت يارسول الله ، وأقبل رسول الله على القوم فقال : « أصدق ذو اليدين ؟ » فأومئوا : أي نعم ، فرجع رسول الله إلى مقامه فصلى الركعتين الباقيتين ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع فكبر » .

أن يخطئ كما روى عنه صلى الله عليه وآله فى نهيه لأهل المدينة عن تأبير النخل (١) .

فأما أصحابنا للمنزلة ، فإنهم اختلفوا فى الخبر المروى عنه عليه الصلاة والسلام فى سورة النجم ، فمنهم من دفع الخبر أصلًا ولم يقبله ، وطعن فى رواته ، ومنهم من اعترف بكونه قرآنا منزلا ، وهم فريقان : أحدهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة ؛ فلما ظن المشركون أنه وصف آلهتهم ، رفع ونهى عن تلاوته . وثانيهما القائلون إنه خارج على وجه الاستفهام بمعنى الإنكار ، فتوهم سامعوه أنه بمعنى التحقيق ، فنسخه الله تعالى ونهى عن تلاوته .

ومنهم من قال : ليس بقرآن منزل ، بل هو كلام تكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل نفسه على طريق الإنكار والهزء بقريش ، فظنوا أنه يريد التحقيق ، فنسخه الله بأن بين خطأ ظنهم ، وهذا معنى قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ (٢) قالوا : فإلقاء الشيطان هاهنا هو إلقاء الشبهة فى قلوب المشركين ، وإنما أضافه إلى أمنيته ، وهى تلاوته القرآن ، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته عليه السلام ما لم يرده بها .

وأنكر أصحابنا الأخبار الواردة التى تقتضى الطعن على الرسول صلى الله عليه وآله ، قالوا : وكيف يجوز أن تصدق هذه الأخبار الآحاد على من قد قال الله تعالى له : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٣) وقال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ (٤) وقال عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل ٤ : ١٨٣٦ بسنده عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون النخل ؛ فقال : « لو لم يفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصاً (وهو البسر الردىء) فمر بهم فقال : « ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ! قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٢) سورة الحج ٥٢ .

(٣) سورة الفرقان ٣٢ .

(٤) سورة الأعلى ٦ .

عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [1] . وأمّا خبر ذي اليدين وخبر تأبير النخل ، فقد تكلّمنا عليهما في كتبنا المصنّفة في أصول الفقه.

***

الأصل :

وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا . وَخَلَقَ الْآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا ، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لِأَشْطَانِهَا ، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا .

***

الشرح :

الضِّيق والضَّيْق : لغتان ، فأما المصدر من « ضاق » فالضِّيق بالكسر ، لا غير .

وعَدَّل فيها : من التعديل وهو التقويم، وروى : « فعَدَل » ، بالتخفيف، من العدل نقيض الظلم .

والميسور والمعسور : مصدران . وقال سيبويه : هما صفتان ، ولا يجيء عنده المصدر على وزن « مفعول » ألبتّة ، ويتأول قولهم: «دعه إلى ميسوره» ، ويقول كأنه قال : دعه إلى أمر يوسر فيه ، وكذلك يتأول « المعقول » أيضا ، فيقول كأنه عُقِل له شيء ، أي حبس وأيّد وسدد .

ومعنى قوله عليه السلام : « ليبتلىَ مَنْ أراد بميسورها ومعسورها » ، هو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنّ إعطاء هذا المال فتنة ، وإمساكه فتنة » .

---

(١) سورة الحاقة ٤٥ ـ ٤٧ .

والعقابيل فى الأصل : الحلأ ، وهو قروح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض .
والفاقة : الفقر .

وطوارق الآفات : متجدّدات المصائب ، وأصلُ الطُّروق ما يأتى ليلا .

والأتراح : الهموم ، الواحد تَرَح ، وترّحه تتريحا ، أى حزّنه .

وخالجا : جاذبا ، والخلج الجذْب ، خلجه يخلجه بالكسر ، واختلجه ، ومنه الخليج : الحبْل لأنه يجتذب به ، وسمى خليج البحر خليجا ؛ لأنه يجذَب من معظم البحر .

والأشطان : الجبال ، واحدها شَطَن ، وشطنتُ الفرسَ أشطُنه ، إذا شددته بالشَّطَن .

والقرائن : الحبال ، جمع قَرَن ؛ وهو من شواذّ الجموع ، قال الشاعر :

أبلغْ خليفتَنا إنْ كنتَ لاقيَه   أنّى لدَى الباب كالمشدود فى قَرَنِ (١)

ومرائر القرائن : جمع مَرِير ، وهو ما لطُف وطال منها واشتدّ فتله ، وهذا الكلام من باب الاستعارة .

* * *

الأصْل :

عالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضْمِرِينَ وَنَجْوَى الْمُتَخافِتِينَ، وَخَواطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدِ عَزِيماتِ الْيَقِينِ ، وَمَسارِقِ إيماضِ الْجُفُونِ ، وَما ضَمِنَتْهُ أَكْنانُ الْقُلوبِ ، وَغَيابَاتُ الْغُيُوبِ ، وَما أَصْغَتْ لاِسْتِرَاقِهِ مَصائِخُ الْأَسْماعِ ، وَمَصَائِفِ الذَّرِّ ، وَمَشاتِي الْهَوَامِّ وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهاتِ ، وَهَمْسِ الْأَقْدامِ ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلائِجِ غُلُفِ الْأَكْمامِ ، وَمُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرانِ الْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها ، وَمُخْتَبَإِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ

(١) اللسان ١٧ : ٢١٥ من غير نسبة ، وروايته : « أبلغ أبا مسمع » .

ٱلْأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِهَا ، وَمَغْرِزِ ٱلْأَوْرَاقِ مِنَ ٱلْأَفْنَانِ ، وَمَحَطِّ ٱلْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ ٱلْأَصْلَابِ ، وَنَاشِئَةِ ٱلْغُيُومِ وَمُتَلَاحِمِهَا ، وَدُرُورِ قَطْرِ ٱلسَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا ، وَمَا تَسْفِي ٱلْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا ، وَتَعْفُو ٱلْأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا ، وَعَوْمِ بَنَاتِ ٱلْأَرْضِ فِي كُثْبَانِ ٱلرِّمَالِ ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ ٱلْأَجْنِحَةِ بِذُرَا شَنَاخِيبِ ٱلْجِبَالِ ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ ٱلْمَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ ٱلْأَوْكَارِ ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ ٱلْأَصْدَافُ ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ ٱلْبِحَارِ ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ ، وَمَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ ٱلدَّيَاجِيرِ ، وَسُبُحَاتُ ٱلنُّورِ ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلَالَةٍ ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ ، وَلَا ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ ، وَلَا ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ ٱلْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فَتْرَةٌ ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ .

* * *

الشرح :

لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علىّ بن العباس بن جُرَيج ، لإسماعيل بن بلبل :

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ   كَلَّا ، وَلَكِنْ لَعَمْرِي مِنْهُ شَيْبَانُ[1]

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ   كَمَا عَلَا بِرَسُولِ ٱللهِ عَدْنَانُ

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان ، بل كان يقرّ به عينُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن ،

---

(١) ديوانه الورقة ٢٧٣ (مخطوطة دار الكتب ، رقم ١٣٩ ـ أدب) .

ويقول له : إنه لم يُخْفِ ماشيّدتُ من معالم التوحيد ، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب مالم تبتدعه أنت في جاهلية النَّبَط ؛ بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس ، القائل بأنه تعالى لايعلم الجزئيّات ؛ لخشع قلبهُ وقفّ شعرُه ، واضطربَ فكره؛ألا ترى ماعليه من الرُّواء والمهابة ، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة ! مع ماقد أشربَ من الحلاوة والطّلاوة والطف والسلاسة؛لا أرى كلاما يشبه هذا إلّا أن يكون كلامَ الخالق سبحانه ، فإنّ هذا الكلام نَبْعةٌ من تلك الشجرة ، وجدول من ذلك البحر ، وجَذْوة من تلك النار؛وكأنه شَرْح قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [1] .

* * *

ثم نعود إلى التفسير فنقول :

النَّجْوى : المسارّة ، تقول:انتجى القومُ وتناجَوْا،أي تسارُّوا ، وانتجيت زيدا إذا خصصتَه بمناجاتك ؛ ومنه الحديث ، أنه صلّى الله عليه وآله أطال النَّجْوى مع عليّ عليه السلام ؛ فقال قوم : لقد أطال اليوم نَجْوَى ابن عمّه،فبلغه ذلك فقال : « إنّي ما انتجيتهُ؛ ولكن الله انتجاه ». ويقال للسرّ نفسه النَّجْو ؛ يقال: نجوته نَجْواً أي ساررته ؛ وكذلك ناجيْتُه مناجاة ، وسُمّي ذلك الأمرُ المخصوص نجوى لأنه يستسرّ به ؛ فأمّا قولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ فجعلهم هم النجوى؛وإنما النجوى فعلهم ؛ فإنما هو كقولك : « قوم رِضاً » وإنما الرضا ، فعلهم ؛ ويقال للذي تسارّه : النجيّ على « فعيل » ؛ وجمعه أنجية ، قال الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

* إنى إذا ما القومُ كانوا أنجيَهْ (١) *

وقد يكون النجىّ جماعة ؛ مثل الصّديق ؛ قال الله تعالى : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (٢) ، وقال الفرّاء : قد يكون النجىّ والنجوَى اسما ومصدرا .

والمتخافتين : الذين يسرّون المنطق ، وهى المخافتة والتخافت والخفْت ، قال الشاعر :

أُخاطِبُ جَهْراً إذْ لَهُنّ تَخَافُتٌ   وَشَتَّانَ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَنْطِقِ الْخَفْتِ (٣)

ورَجْم الظنون : القولُ بالظّن ، قال سبحانه : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾، ومنه « الحديث المرجّم » بالتشديد ، وهو الذى لا يدرَى أحقّ هو أم باطل ، ويقال صار رَجْمًا ، أى لا يوقف على حقيقة أمره .

وعقد عزيمات اليقين ، العزائم : التى يعقِد القلب عليها وتطمئِنّ النفس إليها .

ومسارق إيماض الجفون: ماتسترقه الأبصار حين تومض، يقال : أومض البصر والبرق إيماضاً إذا لمع لَمْعًا خفيفا ، ويجوز: ومض بغير همز، يمِض ومْضًا وميضا ووَمَضانا. وأكنانُ القلوب :غُلُفها ، والكِنّ: الستر ، والجمع أكنان،قال تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ (٤) ويروى : « أكنّة القلوب » وهى الأغطية أيضا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ (٥) ، والواحد كِنَان ، قال عمر بن أبى ربيعة :

---

(١) اللسان ٢٠ : ١٧٩ ، ونسبه إلى سحيم بن وثيل اليربوعى ؛ وبعده :

واضطربَ القومُ اضطرابَ الأرْشِيَهْ   هناكَ أوصِينِي وَلَا تُوصِى بِيَهْ

(٢) سورة يوسف ٨٠ .

(٣) اللسان ٢ : ٣٣٥ من غير نسبة .

(٤) سورة النحل ٨١.

(٥) سورة الأنعام ٢٥ .

تحتَ عَيْنٍ كِنانُنا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلُ (١)

ويعنى بالذى ضمنته أكنانُ القلوب الضمائر .

وغَيابات الغيوب : جمع غَيابة ، وهى قَعْر البئر فى الأصل ؛ ثم نقلت إلى كلّ غامض خفىّ ، مثل غَيابة ، وقد روى : « غَبَابَات » بالباء .

وأصغَتْ : تسمّعت ومالت نحوه . ولاستراقِه : لاستماعه فى خُفيه ، قال تعالى : ﴿ إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾ (٢) .

ومصائخ الأسماع : خروقُها التى يُصيخ بها ، أى يتسمّع .

ومصائف الذرّ : المواضع التى يَصيف الذرّ فيها ، أى يقيم الصيف ، يقال : صافَ بالمكان واصطاف بمعنى ، والموضع مَصيف ومصطاف .

والذرّ : جمع ذَرّة ، وهى أصغر النمل .

ومشاتى الهوامّ : المواضع التى تشتو الهوامُّ بها ، يقال : شتوتُ بموضع كذا وتشتّيْت ، أى أقمت به الشتاء .

والهوامّ : جمع هامّة ، ولا يقع هذا الاسم إلّا على المَخوف من الأحناش .

---

(١) اللسان ١٧ : ٢٤٣ ، وذكر قبله :

هاجَ ذا القلبَ منزلُ دارسُ العهدِ مُحوِلُ
أَيْنَنا باتَ ليلةً بينَ غُصنَيْنِ بُوبَلُ

قال ابن برى : صوابه إنشاده :

* بردُ عَصبٍ مُرَحّلُ *

وأنشده ابن دريد :

تحتَ ظِلٍّ كِنانُنا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلُ

(٢) سورة الحجر ١٨ .

ورجْع الحنين : ترجيعه وترديده ، والمولّهات : النُّوق والنساء اللواتى حيل بينهنّ وبين أولادهنّ .

وهمس الأقدام:صوت وطئها خفيا جدا ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[1]، ومنه قول الراجز .

* فَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسًا[2] *

والأسدُ الهموس : الخفىّ الوطء .

ومنفسَحُ الثّمرة ، أى موضع سعتها من الأكام ، وقد رُوى : « متفسّخ » بالخاء المعجمة وتشديد السين وبتاء بعد الميم ، مصدرا من تفسّخت الثمرة ، إذا انقطعت .

والولائج:المواضع الساترة،والواحدة وَلِيجة،وهو كالكهف يستَتِر فيه المارة من مطر أو غيره ، ويقال أيضا فى جمعه : وُلُج وأولاج .

ومتقمّع الوحوش:موضع تقمّعها واستتارها،وسمى قَمَعَة[3] بن إلياس بن مضر بذلك، لأنّه انقمع فى بيته كما زعموا .

وغِيرانُ الجبال : جمع غارٍ ، وهو كالكهف فى الجبل ، والمغار مثل الغار والمغارة مثله .

ومختبأ البعوض : موضع اختبائها واستتارها ، وسُوق الأشجار : جمع ساق. وألحيتُها جمع لحاء وهو القشر .

ومغرز الأوراق : موضع غرْزها فيها .

---

(١) سورة طه ١٠٨ .

(٢) اللسان ٨ : ١٣٦ من غير نسبة .

(٣) قمة ؛ بفتح القاف والميم ، قال صاحب اللسان : « كان اسمه عميراً فأغير على إبل أبيه فانقمع فى البيت فرقاً ، فسماه أبوه قمعة ، وخرج أخوه مدركة بن إلياس لبغاء إبل أبيه ، فأدركها وقعد الأخ الثالث يطبخ القدر ، فسمى طابخة » .

والأفنان : جمع فَنَن ، وهو الغصن والأمشاج : ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، جمع مَشِيج ، كيتيم وأيتام . ومحطّها : إما مصدر أو مكان .

ومسارب الأصلاب : المواضع التي يتسرب المنيُّ فيها من الصُّلبُ ، أي يسيل .

وناشئة الغيوم : أوّل ماينشأ منها ، وهو النّشوء أيضا ، وناشئة الليل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ (١) أول ساعاته ؛ ويقال : هي ما ينشأ في الليل من الطاعات . ومتلاحمها ، مايلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم .

ودرور قطر السحائب : مصدر، من دَرّ يدِرّ،أي سال،وناقة دَرُور:أي كثيرة اللبن، وسَحَاب درور : أي كثير المطر ، ويقال : إن لهذا السحّاب لدِرّةً ، أي . صبًّا ، والجمع درور . ومترا كمها : المجتمِع المتكاثف منها ، رَكَمْتُ الشيء أركمه بالضم : جمعته وألقيت بعضَه على بعض ، ورملٌ رُكام : وسحاب رُكام ، أي مجتمع .

والأعاصير : جمع إعصار،وهي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كالعمود.وقال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ (٢) .

وتسفى ، من سفَتِ الريح التراب سَفْيًا ، إذا أذرته فهو سَفِيّ . وذيولها هاهنا،يريد به أطرافها وما لاحَفَ الأرض منها .

وما تعفو الأمطار : أيْ ماتدرُس ؛ عفت الريح المنزل أي درسته ، وعفا المنزل نفسُه يعفُو : درس ، يتعدّى ولا يتعدّى .

وبنات الأرض : الهوامّ والحشرات التي تسكون في الرمال،وعَوْمها فيها : سباحتها؛ ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضا : عَوْم ، عُمت في الماء ، بضمّ أوله أعُوم .

---

(١) سورة المزمل ٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

وكُثبان الرمال : جمع كَثيب وهو ما انصبَّ من الرَّمْل واجتمع فى مكانٍ واحد فصار تلًا ، وكثبت الشىء أكثِبُه كثباً ، إذا جمعته ، وانكثب الرمْلُ : اجتمع .

وشَناخيبالجبال : رءوسها ، واحدهاشُنْخوب . وذُرَاها : أعاليهاجمع ذِرْوةوذُروة، بالكسر والضم .

والتَّغريد : التطريب بالغناء ، والتغرّد مثله ؛ وكذلك الغَرَد بفتحهما ؛ ويقال : غرِد الطائر فهو غرِد ، إذا طرّب بصوته .

وذوات المنطق هاهنا : الأطيار ؛ وسمّى صوتهامنطقا وإن كان لايطلق إلا علىألفاظ البشر مجازا .

ودياجير : جمع دَيْجور ؛ وهو الظلام . والأوكار : جمع وَكْر ؛ وهو عُشّ الطائر ؛ ويجمع أيضا على وُكور ، ووَكَر الطائر يكِر وَكْراً ، أى دخل وَكْره .

وقوله : « وما أوعبته الأصداف » ، أى من اللؤلؤ . وحَضَنت عليه أمواجُ البحار: أى ماضمّته كما تحضن الأنثى من الطير بيضها ، وهو مايكون فى لجة ؛ إما من سمك أو خشب أو مايحمله البحر من العنبر كالجاجم بين الأمواج وغير ذلك .

وسُدْفة الليل : ظلمته ، وجاء بالفتح . وقيل : السُّدفة اختلاط الضوء والظلمة معاً كوقت مابين طلوع الفجر إلى الإسفار .

وغشيتْه : غطّته . وذرّ عليه شارق نهار ، أى ماطلعت عليهالشمس ، وذرت الشمس تذُرّ بالضم ، ذُروراً : طلعت ، وذرّ البقل، إذا طلع من الأرض .

وشَرَقت الشمس : طلعت ، وأشرقت بالهمزة ، إذا أضاءت وصفت .

واعتقبت : تعاقبت . وأطباق الدياجير : أطباق الظُّلَم . وأطباقها : جمع طَبَقة ، أى

أغطيتها، أطبقت الشيء أي غطّيته، وجعلته مطبَقاً؛ وقد تطبّق هو، ومنه قولهم: لو تطبّقت السماء على الأرض لما فعلتُ كذا. وسُبحات النور: عطف على أطباق الدياجير، أي يعلم سبحانه ماتعاقب عليه الظلام والضياء. وسبحات هاهنا، ليس يعنى به مايعنى بقوله: «سبحات وجه ربنا»، لأنه هناك بمعنى مايسبّح عليه النور، أي يجرى، من سَبْح الفرس وهو جَرْيه، ويقال: فرس سابح.

والخُطوة: مابين القدمين، بالضم، وخطوت خَطْوَة بالفتح، لأنه المصدر.

ورَجْع كلّ كلمة: ماترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك.

والنَّسمة: الإنسان نفسه، وجمعها نَسم، ومثقال كلّ ذرة: أي وزن كلّ ذرة، ومما يغلط فيه العامة قولهم الدينار: مثقال، وإنما المثقال وزن كلّ شيء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (١).

وهَمام كلّ نفس هامّة، الهماهم: جمع هَمهمة، وهي ترديد الصوت في الصَّدْر، وحمار هِمْهِيم: يهمْهِم في صوته، وهمهمت المرأة في رأس الصبيّ، وذلك إذا نوّمته بصوت ترققه له. والنفس الهامّة: ذات الهمّة التي تعزم على الأمر.

قوله: «وما عليها» أي ماعلى الأرض، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه، اعتمادا على فهم المخاطب، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٢).

وقرارة النطفة: مايستقرّ فيه الماء من الأماكن، قال الشاعر:

وأنتمْ قَرَارَةُ كلِّ مَعْدِنِ سَوْءَةٍ ... وَلِكُلِّ سائلةٍ تَسِيلُ قَرارُ

والنُّطفة: الماء نفسه، ومنه قوله عليه السلام في الخوارج: إن مَصارعهم النطفة، أي لايعبرُون النهر، ويجوز أن يريد بالنطفة المَنيّ ويقويه ماذكره بعده من المُضغة.

---

(١) سورة النساء ٤٠.
(٢) سورة الرحمن ٢٦.

والنُّقاعة : نُقْرة يجتمع فيها الدم ، ومثله أنقُوعة ، ويقال لوقبة الثريد : أنقوعة .

والمضغة : قطعة اللحم. والسلالة في الأصل : ما استلّ من الشيء ، وسميت النطفة سلالة الإنسان ، لأنها استلّتْ منه ، وكذلك الولد .

والكُلفة : المشقة، واعتورته مثل عرته. ونفذهم عله ، تشبيه بنفوذ السهم، وعدّى الفعل بنفسه وإن كان معدًّى في الأصل بحرف الجر ، كقولك : اخترت الرجال زيدا ، أي من الرجال ، كأنه جعل عله تعالى خارقًا لهم ونافذا فيهم . ويروى : « وأحصاهم عدّه » ، بالتضعيف .

***

الأصْلُ :

اللّهُمّ أنْتَ أهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ ، إنْ تُؤَمّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ ، وَإنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوّ . اللّهُمّ فَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لا أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلَا أُثْنِي بِهِ عَلَى أحَدٍ سِوَاكَ ، وَلَا أُوَجِّهُهُ إلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الْآدَمِيِّينَ ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ . اللّهُمّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ ، أوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاءٍ ؛ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ .

اللّهُمّ ، وَهَذَا مَقَامُ مَنْ أفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الّذِي هُوَ لَكَ ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهَذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمَادِحِ غَيْرَكَ ؛ وَبِي فَاقَةٌ إلَيْكَ لا يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إلّا فَضْلُكَ ، وَلَا يَنْعَشُ مِنْ خَلّتِهَا إلّا مَنُّكَ وَجُودُكَ ، فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ ، وَأغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأيْدِي إلَى سِوَاكَ ؛ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ !

***

الشرح :

التمداد : مصدر : وخَيْر : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : فأنت خير مأمول .

ومعنى قوله : « قد بسطت لى » ، أى قد آتيتنى لسناً وفصاحة وسعة منطق ، فلا أمدحُ غيرَك ، ولا أحمَدُ سواك .

ويعنى بمعادن الخيبة : البشر ، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب فى الأكثر ، وجعلهم مواضع الريبة ، لأنهم لا يوثق بهم فى حال :

ومعنى قوله عليه السلام : «وقد رجوتُك دليلاً على ذخائر الرَّحْمة وكنوز المغفرة» ، أنّه راجٍ منه أن يدله على الأعمال التى ترضيه سبحانه ، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة ، وكأنه جعل تلك الأعمال التى يرجو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزا .

والفاقة : الفقر ، وكذلك المسكنة .

وينعَش ، بالفتح : يرفع ، والماضى نعَش ، ومنه النعْش لارتفاعه .

والمنّ : العطاء والنعمة ، والمنّان ، من أسماء الله سبحانه .

(٩١)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضى الله عنه :

دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي ؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ . وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ .

وَاعْلَمُوا[1] أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ ، وَعَتْبِ الْعَاتِبِ ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً ؛ خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً !

***

الشّرحُ :

فى أكثر النسخ : « لما أراده الناس على البيعة » ، ووجدت فى بعضها : « أداره الناس على البيعة » ، فمن روى الأول جعل « على » متعلقة بمحذوف ، وتقديره « موافقا » ، ومن روى الثانى جعلها متعلّقة بالفعل الظاهر نفسه ، وهو « أداره » ، تقول : أدرت فلانا على كذا ، وداورت فلانا على كذا ، أى عالجته .

ولا تقوم له القلوب ، أى لا تصبر . وأغامت الآفاق : غطّاها الغيم ، أغامت وغامت ، وأغيمت وتغيّمت[2] ، كلّه بمعنى ، والمحجّة : الطريق . وتنكّرت : جهلت فلم تعرف . و « وزيرا » و « أميرا » : منصوبان على الحال .

وهذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ؛ ويقولون : إنه عليه السلام لم يكن منصوصاً

---

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب ، ومخطوطة النهج « وأعلم » .

(٢) د : « وغمت » .

عليه بالإمامة من جهة الرسول صلى الله عليه وآله ، وإن كان أولى الناس بها وأحقهم بمنزلتها، لأنه لو كان منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول: «دَعُونى والتمسوا غيرى »؛ ولا أن يقول: «ولعلى أسمعكم وأطوعكم ان وليتموه أمركم»، ولا أن يقول : «وأنا لكم وزيراً خيرٌ منّى لكم أميرا » . وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون: إنّ الذين أرادوه على البَيْعة هم كانوا العاقدين بَيْعة الخلفاء من قبل ؛ وقد كان عثمان مَنَعَهم أو منع كثيراً منهم عن حقّه من العطاء ؛ لأنّ بنى أمية استأصلوا الأموال فى أيام عثمان ؛ فلما قتل قالوا لعلىّ عليه السلام : نبايعك على أن تسيرَ فينا سيرَة أبى بكر وعمر ؛ لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما ، فطلبوا من علىّ عليه السلام البَيْعة ، على أن يقسّم عليهم بيوت الأموال قسمة أبى بكر وعمر؛ فاستعفاهم وسألهم أن يطلبُوا غيره ممن يسير بسيرتهما ؛ وقال لهم كلاما تحته رمز، وهو قوله : « إنّا مستقبلون أمرا له وجوهٌ وألوان، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإنّ الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكّرت » .

قالوا: وهذا كلام له باطنٌ وغَوْر عميق ، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم(١)، وهو الإنذارُ بحرب المسلمين بعضهم لبعض ، واختلافُ الكلمة وظهورُ الفتنة .

ومعنى قوله: « له وجوه وألوان » أنه موضع شبهة وتأويل ، فمن قائل يقول : أصاب علىّ ، ومن قائل يقول : أخطأ ، وكذلك القول فى تصويب محاربيه من أهل الجمل وصِفّين والنّهْروان وتخطئتهم ، فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وتفرّقت جدا .

ومعنى قوله : « الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكّرت » أن الشبهة قد استولتْ على العقول والقلوب ، وجهل أكثرُ الناس محجّة الحق أين هى ، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفتى فيكم بشريعته وأحكامه خيرٌ لكم منى أميرا محجورا عليه

---

(١) ساقطة من ا .

مدبّرا بتدبيركم ، فإنى أعلم أنه لا قُدرة لى أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله فى أصحابه مستقلًّا بالتدبير ، لفساد أحوالكم ، وتعذّر صلاحكم .

وقد حمل بعضُهم كلامه على محمل آخر ، فقال : هذا كلام مُستزيد[1] شاكٍ من أصحابه ، يقول لهم : دعونى والتمسوا غيرى ، على طريق الضّجر[2] منهم ، والتبرّم بهم والتسخّط لأفعالهم ، لأنهم كانوا عَدَلوا عنه من قَبل ، واختاروا عليه ، فلما طلبوه بعدُ أجابهم جوابَ المتسخّط العاتب .

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر ، فقالوا : إنه أخرجه مخرج التهكّم والسخرية ، أى أنا لكم وزيراً خيرٌ منى لكم أميرا فيما تعتقدونه ، كما قال سبحانه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[3] أى تزعم لنفسك ذلك وتعتقده .

واعلم أن ماذكروه ليس ببعيد أن يُحمَل الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك ، فأما إذا لم يدلّ عليه دليل ، فلا يجوز صَرْفُ اللفظ عن ظاهره ، ونحن نتمسك بالظاهر إلّا أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حَمْل اللفظ عن ظاهره ، ولو جاز أن تصرف الألفاظُ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصدّ عنها ، لم يبق وثوق بكلام الله عزوجلّ وبكلام رسوله عليه السلام ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التى كانت بعد قَتل عثمان ، والبيعة العلَوية كيف وقعت .

* * *

[فصل فيما كان من أمر طلحة والزبير عند قسم المال]

ونحن نذكر هاهنا فى هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ[4] فى كتابه

---

(١) مستزيد ، أى شاك عاتب ، وفى الأساس : « فلان يستزيد فلاناً ، يستقصره ويشكوه ؛ وهو مستزيد » .
(٢) د : « الضجر » .
(٣) سورة الدخان ٤٩

(٤) هو محمد بن عبد الله ، أبو جعفر المعروف بالإسكافى ؛ أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين . قال الخطيب فى تاريخه (٥ : ٤١٦) : « له تصانيف معروفة ؛ وكان الحسين بن على الكرابيسى يتكلم معه ويناظره ، وبلغنى أنه مات فى سنة أربعين ومائتين » .

الذى نقض فيه كتاب " العثمانية " لشيخنا أبى عثمان ، فإن الذى ذكره لم نورده نحن فيما تقدم .

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصحابةُ فى مسجد رسولِ الله صلى الله عليه وآله بعد قتل عثمان للنظر فى أمر الإمامة ، أشار[1] أبو الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصارىّ وعمار بن ياسر بعلىّ عليه السلام ،وذكروا فضلَه وسابقته وجهاده وقرابته ، فأجابهم الناسُ إليه ، فقام كلّ واحدمنهم خطيبا يذكر فَضْلَ علىّ عليه السلام ، فمنهم مَنْ فَضّله على أهل عصره خاصة ، ومنهم من فضله على المسلمين كلِّهم كافة. ثم بويع وصعد المنبر فى اليوم الثانى من يوم البَيْعة ، وهو يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقينَ من ذى الحجة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر محمدا فصلّى عليه ، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام ، ثم ذكر الدنيا ، فزهدهم فيها ، وذكر الآخرة فرغبهم إليها ، ثم قال :

أما بعدُ؛ فإنه لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه استخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فعمِل بطريقه ، ثم جعلها شورى بين ستة ، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان ، فعمل ما أنكرتم وعرفتم[2] ، ثم حُصِر وقتل ، ثم جئتمونى طائعين فطلبتم إلىّ ؛ وإنما أنا رجلٌ منكم ، لى مالكم ، وعلىّ ما عليكم ، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة ،وأقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم ، ولا يحمِلُ هذا الأمرَ إلا أهلُ الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر ، وإنّى حاملكم على منهج نبيّكم صلى الله عليه وآله ، ومنفِذ فيكم ما أُمِرت به ؛ إن استقمتم لى . وبالله المستعان . ألا إنّ موضِعِى من رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته كموضعى منه أيامَ حياته ، فامضوا لما تؤمرون به ، وقِفُوا عند ما تنهون عنه ، ولا تعجلوا فى أمر حتى نبيّنه لكم ؛ فإنّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذراً . ألا وإنّ الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها للولاية على أمة محمد؛ حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أيّما وَالٍ وَلِىَ الأمر من بعدى ، أقيم على حدّ الصراط ،

(١) أشاروا بفضله ؛ أى عرفوا الناس به .
(٢) كذا فى د .

ونشرت الملائكة صحيفته ؛ فإن كان عادلا أنجاه الله بعدله ، وإن كان جائرا انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار ؛ فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحرّ وجهه » ، ولكنى لما اجتمع رأيكم لم يسعنى تركُكم .

ثم التفت عليه السلام يمينا وشمالا ، فقال : ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الرّوقة[1] ؛ فصار ذلك عليهم عارا وشنارا ؛ إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتُهم إلى حقوقهم التى يعلمون ، فينقمون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا ! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على مَنْ سواه لصحبته ، فإنّ الفضل النيّر غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرسول ، فصدق ملّتنا ، ودخل فى ديننا ، واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسّم بينكم بالسويّة ، لافضلَ فيه لأحد على أحدٍ ؛ وللمتقين عند الله غدا أحسنُ الجزاء ، وأفضل الثواب ؛ لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرا ولا ثواباً ، وما عند الله خير للأبرار . وإذا كان غدا إن شاء الله فاغدُوا علينا ؛ فإن عندنا مالاً نقسّمه فيكم ، ولا يتخلّفنّ أحدٌ منكم ؛ عربىّ ولا عجمىّ ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ؛ إلا حَضَر ؛ إذا كان مسلماً حرًّا . أقولُ قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم نزل .

قال شيخنا أبو جعفر : وكانَ[2] هذا أوّل ما أنكروه من كلامه عليه السلام ، وأورثهم الضِّغن عليه ؛ وكرهوا إعطاءه وقَسْمه بالسوية . فلما كان من الغد ، غدا وغدا الناس لقبض المال ؛ فقال لعبيد الله بن أبى رافع كاتبه : ابدأْ بالمهاجرين فنادِهم ، وأعطِ كلّ

---

(١) الروقة : الحسان .

(٢) د : « فكان » .

رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ثم ثَنَّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك ؛ ومن يحضر من الناس كلهم ؛ الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك .

فقال سهل بن حَنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامى بالأمس ؛ وقد أعتقتُه اليوم ؛ فقال : نعطيه كما نعطيك ، فأعطى كلَّ واحد منهما ثلاثة دنانير ؛ ولم يفضِّل أحداً على أحد؛ وتخلّف عن هذا القَسْم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومرْوان بن الحكم ؛ ورجال من قريش وغيرها .

قال : وسمع عبيدُ الله بن أبى رافع عبدَ الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد : ما خفِىَ علينا أمس من كلام علىّ ما يريد ؛ فقال سعيد بن العاص ـ والتفت إلى زيد بن ثابت : إياكِ أعنى واسمعى ياجارة ؛ فقال عبيدُ الله بن أبى رافع لسعيد وعبد الله ابن الزبير : إنّ الله يقولُ فى كتابه : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[1] .

ثم إنّ عبيد الله بن أبى رافع أخبرَ عليا عليه السلام بذلك ، فقال : والله إنْ بقيت وسلِمت لهم لأقيمنّهم على المحجّة البيضاء ، والطريق الواضح ، قاتل الله ابنَ العاص ! لقد عرَفَ من كلامى ونظرى إليه أمسِ أنّى أريده وأصحابه بمن هلك فيمن هَلَكَ .

قال : فبينا الناس فى المسجد بعد الصبح إذ طلع الزّبير وطلحة ، فجلسا ناحية عن علىّ عليه السلام ، ثم طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير ؛ فجلسوا إليهما ، ثم جاء قوم من قريش فانضمُّوا إليهم ، فتحدّثوا نجيًّا ساعة ؛ ثم قام الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، فجاء إلى علىّ عليه السلام ؛ فقال : يا أبا الحسن ؛ إنك قد وَتَرْتَنا جميعا ؛ أما أنا فقتلتَ أبى يوم بدر صَبْراً ، وخذلتَ أخى يوم الدار بالأمس ؛ وأما سعيد فقتلتَ أباه يوم بَدْر فى الحرب ـ وكان ثورَ قريش ـ وأما مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه ؛ ونحن إخوتك

---

(١) سورة الزخرف ٤٣ .

ونظراؤك من بنى عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عَنّا ماأصبناه من المال فى أيام عثمان ، وأن تقتل قتلتَه ؛ وإنا إن خفناك تركناك ؛ فالتحقنا بالشام .

فقال : أمّاما ذكرتم من وِتْرِى إيّاكم فالحقّ وتَرَكم ، وأما وضعى عنكم ماأصبتم فليس لى أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم ، وأماقتلى قتلة عثمان فلو لزِمَنى قتلُهم اليوم لقتلتُهم أمس ؛ ولكنْ لكم علىّ إن خفتمونى أن أؤمّنَكم وإن خفتُكم أن أسيِّرَكم .

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم ، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف ؛ فلما ظهر ذلك من أمرهم ، قال عمار بن ياسر لأصحابه : قوموابنا إلى هؤلاء النَّفَر من إخوانكم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينامنهم مانكره من الخلاف ، والطعن على إمامهم ؛ وقد دخل أهلُ الجفاء بينهم وبين الزُّبير والأعسر العاقّ ـ يعنى طلحة .

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسَهْل بن حنيف وجماعة معهم ، فدخلوا على علىّ عليه السلام ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، انظر فى أمرك ، وعاتِبْ قومك ، هذا الحىّ من قريش فإنهم قد نَقَضُوا عهدك ، وأخلفوا وعْدَك ، وقد دعونا فى السرّ إلى رفضك ، هداك الله لرشدك ! وذاك لأنهم كرِهوا الأسوة ، وفقدوا الأثرة ، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك وعظّموه ، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة ، وتألفاً لأهل الضلالة . فرأيك !

فخرج علىّ عليه السلام ، فدخل المسجد ، وصعد المنبر مرتديا بطاقٍ ، مؤتزرا ببُرْدٍ قِطْرِىّ ، متقلدا سيفا ، متوكئا على قوس ، فقال :

أما بعد ، فإنّانحمد الله ربنا وإلهنا وولينا ، وولىّ النعم علينا ، الذى أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة ، امتنانا منه بغير حَوْلٍ مناولاقوة ، ليبلوَنا أنشكرُ أم نكفر ؛ فمن شكرزاده ومَنْ كَفَر عذّبه ؛ فأفضلُ الناس عندالله منزلة ، وأقربهم من الله وسيلة ، أطوعُهم لأمره ،

وأعلمهم بطاعته ؛ وأتبعهم لسنّة رسوله ، وأحياهم لكتابه ؛ ليس لأحد عندنا فضلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول . هذا كتاب الله بين أظهرنا ، وعهد رسول الله وسيرته فينا ، لا يجهلُ ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحقّ منكر ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1].

ثم صاح بأعلى صوته : أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول ، فإنْ تَوَلَّيْتُم فإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ .

ثم قال : يامعشر المهاجرين والأنصار : أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم ، بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقين .

ثم قال : أنا أبو الحسن – وكان يقولها إذا غضب – ثم قال : ألا إنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تمنّونها وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ؛ فلا تغرّنّكم فقد حذّرتكموها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصّبر لأنفسكم على طاعة الله ، والذلّ لحكمه جلّ ثناؤه ، فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحد فيه أثرة ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا ، وعهدُ نبينا بين أظهرنا ، فمن لم يرضَ به فليتولَّ كيف شاء ، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه .

ثم نزل عن المنبر ، فصلّى ركعتين ، ثم بعث بعمار بن ياسر ، وعبد الرحمن بن حسل القرشي إلى طلحة والزبير ، وهما في ناحية المسجد ، فأتياهما فدعواهما ، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام ، فقال لهما : نشدتكما الله ، هل جئتماني طائعين للبيعة ، ودعوتماني إليها ، وأنا كارهٌ لها ؟ قالا : نعم ، فقال : غيرَ مجبرَين ولا مقسورين ، فأسلمتماني بيعتكما وأعطيتماني عهدكما ؟

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

قالا : نعم ، قال : فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى ؟ قالا : أعطيناك بيْعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا؛ وأن تستشيرنا فى كلِّ أمرٍ ولا تستبدّ بذلك علينا ، ولنا من الفضل على غيرنا ماقد علمت ؛ فأنتَ تقسم القَسْم وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا .

فقال: لقد نقمتما يسيرا ، وأرجأتما كثيرا ؛ فاستغفرا الله يغفر لكما. ألا تخبرانني، أدفعتُكما عن حقٍّ وجب لكما فظلمتكما إياه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسى بشىء؟ قالا : معاذ الله ! قال : أفوقع حُكمٌ أو حقٌّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه ؟ قالا : معاذ الله ! قال : فما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافى ؟ قالا : خلافك عمر بن الخطاب فى القَسْم ؛ أنك جعلتَ حقّنا فى القَسْم كحقّ غيرنا ، وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاءه الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوجفنا[1] عليه بخيلنا ورَجلنا ، وظهرتْ عليه دعوتنا ، وأخذناه قسرا قهرا ، ممن لا يرى الإسلام إلا كرها . فقال : فأمّا ماذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لى فى الولاية رغبة ؛ ولكنكم دعوتمونى إليها ، وجعلتمونى عليها ؛ فخفت أن أردّكم فتختلف الأمة ، فلما أفضت إلىّ نظرتُ فى كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلانى عليه وأتبعته ، ولم أحتجْ إلى آرائكما فيه ؛ ولا رأى غيركما ، ولو وقع حكمٌ ليس فى كتاب الله بيانُه ولا فى السنة برهانه ، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتُكما فيه ؛ وأما القَسْم والأسوة ؛ فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء ! قد وجدتُ أنا وأنتما رسولَ الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وأما قولكما : جعلتَ فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا ، سواء بيننا وبين غيرنا ، فقديما سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى القَسْم ، ولا آثرهم بالسبْق ، والله

---

(١) ما أوجفنا : ما أعملنا .

سبحانه موفٍ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرأً رأى حقًّا فأعان عليه، ورأى جَوْراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

* * *

قال شيخنا أبو جعفر: وقد روى أنهما قالا له وقت البيعة: نُبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنكما شريكاي في الفيء، لا أستأثر عليكما ولا على عبد حبشي مجدّع بدرهم فما دونه، لا أنا ولا وَلَدَاي هذان، فإن أبيتما إلا لفظ الشركة، فأنتما عَوْنان لي عند العجز والفاقة، لا عند القوّة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوز في عَقْد الأمانة، وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدِّين والشريعة.

قال رحمه الله تعالى: وقد رُوِيَ أيضاً أنّ الزبير قال في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من عليّ! قمنا له في أمر عثمان حتى قُتِل، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا مَنْ كنّا فوقه.

وقال طلحة: ما اللوم إلا علينا، كنّا معه أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا — يعني سعداً — وبايعناه، فأعطيناه ما في أيدينا، ومنعنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم ما رجوناه أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم.

* * *

فإن قلت: فإنّ أبا بكر قَسَم بالسواء، كما قَسَمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم ينكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قَسَم محتذياً لقَسْم[1] رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وَلِيَ عمر الخلافة، وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسُوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر،

---

(١) د: «محتذياً بالقسم رسول الله».

وأشربت قلوبهم حبَّ المال ، وكثرة النعم . وأما الذين اهتضموا فقنعوا ومرَنوا على القناعة ، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجهٍ ما ، فلما ولىَ عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه ، فازداد وثوقُ القوم بذلك ، ومن ألِفَ أمراً أشقّ عليه فراقه ، وتغيير العادة فيه ، فلما ولى أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر ، وقد نسي ذلك ورفض وتخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشق ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدَث ما حدث من نقض البيعة ، ومفارقة الطاعة ، ولله أمر هو بالغه !

(٩٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا ، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا .

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ[1] بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا ، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً .

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ ، لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ ؛ وَذَلِكَ إِذَا قَلَصَتْ حَرْبُكُمْ ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ ؛ وَكَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً ، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ .

إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ ؛ يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً ، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً .

أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا .

وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ ، تَعْذِمُ

---

(١) مخطوطة النهج : « نبأتكم » .

بِفِيهَا ، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا ، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا ، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا ، لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعاً لَهُمْ ؛ أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ .

وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلَ انتصار الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شوهاً مَخْشِيَّةً ، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً ، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى ، وَلَا عَلَمٌ يُرَى ، نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بنجاة ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ ، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً ، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً ، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ ، وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً ، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ ؛ لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونَنِيهِ .

***

الشّرح

فقأتُ عينه ، أي بخقتُها ، وتفقأت السحابة عن مائها : تشققت ، وتفقأ الدمّل والقُرح ، ومعنى فقْئه عليه السلام عينَ الفتنة ، إقدامه عليها حتى أطفأ نارها ، كأنه جعل للفتنة عيناً محدقة يهابها الناس ، فأقدم هو عليها ، ففقأ عينَها ، فسكنت بعد حركتها وهيجانها . وهذا من باب الاستعارة ، وإنما قال : « ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيرى » ، لأنّ الناس كلَّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة ، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم ، هل يتبعُون مولّيهم أم لا ؟ وهل يُجْهِزُون على جريحهم أم لا ؟ وهل يقسّمون فيئهم أم لا ؟ وكانوا يستعظمُون قتال مَنْ يؤذّن كأذاننا ، ويصلّى كصلاتنا ، واستعظموا أيضا حربَ عائشة وحربَ طلحة والزبير ، لمكانهم في الإسلام ، وتوقّف جماعتهم عن الدخول في تلك الحرب ، كالأحنف ابن قيس وغيره ، فلولا أنّ عليًا اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحدٌ عليها ، حتى

الحسن عليه السلام ابنه ، أشار عليه ألّا يبرح عَرْصة المدينة ، ونهاه عن المسير إلى البصرة ، حتى قال له منكرا عليه إنكاره : ولا تزال تحنّ حَنِين الأمَة ! وقد روى ابنُ هلال صاحب كتاب " الغارات " أنه كلّم أباه فى قتال أهل البصرة بكلام أغضبه ، فرماه ببيضةِ حديد عَقَرَتْ ساقه ، فعولج منها شهرين .

والغيهب : الظلمة ، والجمع غياهب . وإنما قال : « بعد ما ماج غيهبها » ، لأنه أراد : بعد ماعمّ ضلالُها فشمل ، فكنّى عن الضلال بالغيهب ، وكنّى عن العُموم والشمول بالتموّج ، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التى تشملها لو كانت ساكنة . واشتدّ كَلَبُها ، أى شرّها وأذاها . ويقال للقحط الشديد: كَلَب ، وكذلك للقرّ الشديد .

ثم قال عليه السلام : « سَلُونى قبل أن تفقدونى » ، روى صاحب كتاب " الاستيعاب " وهو أبو عمر محمد بن عبد البرّ عن جماعة من الرواة والمحدّثين ، قالوا : لم يقلْ أحدٌ من الصحابة رضى الله عنهم : « سَلُونى » إلا على بن أبى طالب . وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافى فى كتاب " نقض العثمانية " عن علىّ بن الجعد ، عن ابن شُبْرمة ، قال: ليس لأحد من الناس أن يقول عَلَى المنبر : « سَلُونى » إلا علىّ بن أبى طالب عليه السلام.

والفئة : الطائفة ؛ والهاء عوض من « الياء » التى نقصت من وسطه ، وأصله « فىْ » مثال « فيع » لأنه من فاء ، ويجمع على فئات ؛ مثل شيات وهبات ولِدَات .

وناعقها : الداعى إليها ، من نَعيق الرّاعِى بغنمه ، وهو صوته نَعَق ينعِق بالكسر نعيقا ونُعاقا ، أى صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانعَقْ بضأنكَ ياجرير فإنّما مَنَّتْك نفسُك فى الخلاء ضلالا (1)

---

(1) ديوانه ٥٠ .

فأمّا الغراب ، فيقال: نَغَق ، بالغين المعجمة ينغِق بالكسر أيضا ، وحكى ابن كيْسان « نَعَق الغراب » أيضا بعين غير معجمة .

والركاب: الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها رُكُب، مثل كتاب وكتب . ويقال : زيْت ركابىّ ، لأنه يحمل من الشام عليها .

والمُناخ ، بضمّ الميم ، ومَحطّ بفتحها ، يجوز أن يكونا مصدرين ، وأن يكونا مكانين، أما كونُ المُناخ مصدرا ، فلأنه كالمقام الذى بمعنى الإقامة ، وأما كون المحطّ مصدرا فلأنه كالمرد فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1] ، وأما كونُهما موضعين فلأن المناخ من أنخت الجمل ، لا من ناخ الجمل، لأنه لم يأت ، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتى مضموم الميم ، لأنّه مشبه ببنات الأربعة ، نحو دحرج ، وهذا مُدَحرجنا ، ومن قال : هذا مُقام بنى فلان ، أى موضع مقامهم جعَله كما جعلناه نحن، من أقام يقيم ، لا من قام يقوم ، وأما المحطّ ، فإنه كالمَقْتل موضع القتل ، يقال: مقتَل الرّجُل بين فكيه ، ويقال للأعضا التى إذا أصيب الإنسان فيها هلك : مَقاتل ، ووجه المماثلة كونهما مضمومى العين .

* * *

[فصل فى ذكر أمور غيبية ؛ أخبر بها الإمام ثم تحققت]

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم فى هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به ، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة وتضلّ بها مائة، إلا وهو مخبرٌ لهم ـ إن سألوه ـ برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها ، ومَنْ يقتل منها قتلا ، ومَنْ يموت منها موتا ، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الرّبوبية ، ولا ادّعاء النبوة ، ولكنه كان يقول : إن رسول الله صلى

(١) سورة غافر ٤٣

الله عليه وآله أخبرَه بذلك ، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، كإخباره عن الضربة يُضرب بها فى رَأسه فتخضب لحيته ، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام ، وماقاله فى كرْبلاء حيث مرّ بها ، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده ، وإخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمر ، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان ، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم ، وصَلْب مَنْ يُصْلَب ، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين ، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شَخَص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها ، وإخباره عن عبدالله بن الزبير ، وقوله فيه : « خبّ ضبّ ، يروم أمراً ولايدركه ، ينصِبُ حبالة الدين لاصطياد الدنيا ، وهو بعدمصلوب قريش » وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق ، وهلاكها تارة أخرى بالزّنج ، وهو الذى صحفّه قوم فقالوا : بالريح ، وكإخباره عن ظهور الرايات السُّود من خُراسان ، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببنى رزيق ـ بتقديم المهملة ـ وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم ، وكانوا هم وسَلَفهم دعاة الدولة العباسية ، وكإخباره عن الأئمة الّذين ظهروا من وَلده بطَبرِستان ، كالناصر والداعى وغيرهما ، فى قوله عليه السلام : « وإن لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله » ، وكإخباره عن مقتل النفس الزّكية بالمدينة ، وقوله : « إنه يقتَل عند أحجار الزيت » ، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة : « يقتل بعد أن يظهر ويُقهر بعد أن يقهر » ، وقوله فيه أيضاً : « يأتيه سهم غَرْب[1] يكون فيه منيّته فيا بؤساً للرامى ! شَلّت يده ، ووهَن عضُده » ، وكإخباره عن قتلى وَجّ ، وقوله فيهم : « هم خير أهل الأرض » .

وكإخباره عن المملكة العَلوية بالغرب ، وتصريحه بذكر كتامة ، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الدّاعى المعلّم . وكقوله وهو يشير إلى أبى عبدالله المهدى : وهو أولهم ثم يظهرُ

---

(١) سهم غرب ؛ أى لا يدرى راميه .

صاحب القيروان الغض البض ، ذو النسب المحض ، المنتجب من سلالة ذى البداء، المسجّى بالرداء ، وكان عبيد الله المهدى أبيض[1] مترفاً مشرباً بحمرة ، رخص البدن ، تارّ[2] الأطراف .

وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام ، وهو المسجّى بالرداء ، لأن أباه أبا عبدالله جعفراً سجّاه بردائه لما مات ، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ، ليعلموا موته ، وتزول عنهم الشبهة فى أمره .

وكإخباره عن بنى بويه وقوله فيهم : « ويخرج من دَيلمانَ بنو الصيّاد » ، إشارة إليهم . وكان أبوهم صياد السمك يصيدُ منه بيده مايتقوّت هو وعياله بثمنه ، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة ، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم . وكقوله عليه السلام فيهم : « ثم يستشرى أمرُهم حتى يملكوا الزوراء ، ويخلعوا الخلفاء » فقال له قائل : فكم مدتُهم يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « مائة أو تزيد قليلا » . وكقوله فيهم : « والمترفُ ابن الأجذم ، يقتله ابنُ عمّه على دِجلة » ، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معز الدولة أبى الحسين ، وكان معزّ الدولة أقطع اليد ، قطعت يده للنكوص فى الحرب ، وكان ابنه عزّ الدول بختيار مترَفاً ، صاحب لهو وشرب ، وقتله عَضُد الدولة فنّاخسرو ، ابن عمه بقصر الجصّ على دِجلة فى الحرب ، وسلَبه ملكه . فأما خلعهم للخلفاء فإنّ معز الدولة خلع المستكفى ، ورتّب عِوضه المطيع ، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خَلَع الطائع ورتّب عوضه القادر ، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام .

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده ، فإنّ على بن عبد الله لما ولِدَ ، أخرجه أبوه عبدالله إلى على عليه السلام ، فأخذه وتفَل فى فيه

---

(١) ساقطة من ب .
(٢) التار : الممتلىء جسمه وعظمه رياً .

وحنّكه بتمرة قد لاكها ، ودفعه إليه ، وقال : خذ إليك أبا الأملاك . هكذا الرواية الصحيحة ، وهى التى ذكرها أبو العباس المبرّد فى كتاب "الكامل"[1] ، وليست الرواية التى يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمَد عليه .

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرة ، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة .

فإن قلت : لماذا غَلَا الناس فى أمير المؤمنين عليه السلام ، فادّعَوْا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التى شاهدوا صدقها عِياناً ، ولم يَغلوا فى رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلهية ، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقيناً ، وهو كان أولى بذلك لأنه الأصلُ المتبوع ، ومعجزاته أعظم ، وأخباره عن الغيوب أكثر ؟

قلت : إنّ الذين صحبوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، وشاهدوا معجزاتِه ، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عِياناً ، كانوا أشدّ آراء ، وأعظم أحلاما ، وأوفر عقولا من تلك الطائفة الضعيفة العقول ، السخيفة الأحلام ، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام فى آخر أيامه ، كعبد الله بن سبأ وأصحابه ، فإنهم كانوا من ركاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة ، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفّهم المعجزاتُ ، فيعتقدوا فى صاحبها أنّ الجوهر الإلهىّ قد حلّه ، لاعتقادهم أنه لا يصحّ من البشرِ هذا إلا بالحلول ، وقد قيل : إن جماعة من هؤلاء كانوا من نَسْل النصارى واليهود ، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول فى أنبيائهم ورؤسائهم ، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك . ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم مُلحدين أرادوا إدخال الإلحاد فى دين الإسلام ، فذهبوا إلى ذلك ، ولو كانوا فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة ، إضلالا لأهل

---

(١) الكامل ٢ : ٢١٧ .

الإسلام ، وقصداً لإيقاع الشبهة فى قلوبهم ، ولم يكن فى الصحابة[1] مثل هؤلاء ، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة ، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة .

ومما يقدح لى من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنّ هؤلاء من العراق وساكنى الكوفة ، وطينة العراق مازالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بَصَرٍ وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد ، وشُبَهٍ معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل مانى وديصان ومَزْدك وغيرهم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان ، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعَجْرفيّة وخشونة الطبع ، ومن سكن المدن منهم كأهلِ مكة والمدينة والطائف فطباعُهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبلُ حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ، ولا موقع شبهة ، ولا مبتدع نِحلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة وناشئة من حيث سكن علىّ عليه السلام بالعراق والكوفة ، لا فى أيام مقامه بالمدينة ، وهى أكثر عمره .

فهذا مالاح لى من الفرق بين الرجلين فى المعنى المقدم ذكره .

* * *

فإن قلت : لماذا قال عن فئة تهدى مائة ؟ وما فائدة التقييد بهذا العدد ؟

قلت : لأنّ مادون المائة حقير تافه لا يعتدّ به ليذكر ويخبر عنه ، فكأنه قال : مائة فصاعدا .

قوله عليه السلام : « كرائه الأمور » جمع كريهة وهى الشدّة فى الحرب . وحوازب الخطوب : جمع حازب ، وحزَبه الأمر ، أى دَهَمه .

---

(١) كذا فى ا ، ب ، ج ، وفى د « أصحابه » .

وفشل : جبن ؛ فإن قلت : أما فشل المسئول فملوم ، فما الوجه فى إطراق السائل ؟

قلت : لشدة الأمر وصعوبته ، حتى إن السائل ليبهت ويدهش فيطرق ، ولا يستطيع السؤال .

قوله عليه السلام : « إذا قَلَّصت حربكم » يروى بالتشديد وبالتخفيف ، ويروى : « عن حربكم » ، فمن رواه مشددا أراد انضمّت واجتمعت ، وذلك لأنّه يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرّق فى مواطن متباعدة ، ألا ترى أنّ الجيوش إذا اجتمعت كلّها واصطدم الفَيْلَقان ، كان الأمر أصعب وأفظع من أن تكونَ كلُّ كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى فى بلاد متفرّقة متباعدة ، وذلك لأنّ اصطدامَ الفَيْلقَيْن بأجمعهما هو الاستئصال الذى لا شَوَى [1] له ولا بقيًا بعده . ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتزايدت ، من قولهم : قَلَصَتِ البئر ، أى ارتفع ماؤها إلى رأسها أو دونه ، وهو ماء قالِص وقَليص ، ومن روى : « إذا قَلَصت عن حربكم » أراد إذا قَلَصت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم ، أى انكشفت عنها ، والمضارع من قلَص يَقلِص ، بالكسر .

قوله : « وشمّرت عن ساق » ، استعارة وكناية ، يقال للجادّ فى أمره : قد شمّر عن ساقٍ ، وذلك لأنّ سبوغ الذيل مَعْثَرة . ويمكن أن يجرى اللفظ على حقيقته ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ [2] فسروه فقالوا : الساق : الشدّة ، فيكون قد أراد بقوله : « وشمرت عن ساق » ، أى كشفت عن شدّة ومشقة .

ثم قال : « تستطيلون أيام البلاء » ، وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة ، قال الشاعر :

---

(١) لا شوى له ؛ أى لا إبقاء له ؛ قال الكميت :

أجيبوا رُقَى الآسِي النِّطَاسِيِّ وَاحْذَرُوا ... مطفِّئَةَ الرَّضْفِ التى لا شَوَى لها

(٢) سورة القلم ٤٢ .

فأيامُ الهموم مقصّصاتٌ وأيامُ السرور تطيرطــيرا

وقال أبو تمام :

ثم انبرتْ أيامُ هَــجْرٍ أردفتْ بِجَوًى أسًى فكأنها أعوامُ[1]

قوله عليه السلام : « إن الفتن إذا أقبلت شبّهت » ، معناه أنّ الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثهــا ، يلتبس أمرها ولا يُعلم الحقّ منها من الباطل ، إلى أن تنقضيَ وتدبِر ، فحينئذ ينــكشف حالها ، ويعلم ما كان مشتبها منها . ثم أكّد عليــه السلام هذا المعنى بقوله : « ينــكَرْن مقبلات ، ويعرَفن مدبرات »، ومثال ذلك فتنة الجمل ، وفتنة الخوارج، كان كثير من الناس فيها في مبدأ الأمر متوقّفين ، واشتبه عليهم الحال ، ولم يعلموا موضع الحقّ إلى أن انقضت الفتنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وبان لهم صاحبُ الضلالة من صاحب الهداية .

ثم وصف الفتن ، فقال : إنها تحُوم حَوْم الرياح ، يصبن بلداً ، ويخطئن بلدا . حام الطائر وغيرُه حول الشيء ، يحوم حَوْماً وحَوَماناً ، أى دار .

ثم ذكر أنّ أخوف مايخاف عليهم فتنة بنى أميّة . ومعنى قوله « عمّت خطّتها ، وخصّت بليّتها » ،أنها عمّت الناس كافةمن حيث كانت رياسة شاملةلكلّ أحد ،ولــكن حظّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بليّتها أعظم ، ونصيبهم فيها أوفر .

ومعنى قوله : « وأصاب البلاء مَنْ أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمِي عنها » ، أن العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذ لم ينكر ، والجاهل بذلك لاإثم عليــه إذا لم ينههم عن المنكر ، لأنّ من لايعلم المنكر مُنكَراً لايلزمه إنــكاره ، ولايعني بالمنكر هاهنا

---

(١) ديوانه ٣ : ١٥٢ .

ما كان منكرا من الاعتقادات ، ولا مايتعلق بالأمانة ، بل الزنا وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة.

فإن قلت : أيّ فرق بين الأمرين ؟

قلت : لأن تلك يلحق الإثمُ مَنْ لايعلمها إذا كان متمكنا من العلم بها ، وهذه لايجب إنكارها إلا مع العلم بها ، ومن لايعلمها لايلحقه الإثم إذا كان متمكّنا من العلم بها ، فافترق الموضوعان .

ثم أقسم عليه السلام فقال : « وايم الله » ، وأصله « وايمنُ الله » ، واختلف النحويون فى هذه الكلمة فعند الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل ، وأن « ايمن » اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل ، وبضم الميم والنون ، قالوا : ولم يأت فى الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها ، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء ، فتقول : لَيْمن الله فتذهب الألف ؛ قال الشاعر :

فقال فريقُ القوم لما نشدتهم نعم ، وفريقٌ لَيَمُنُ الله ماندرِى[1]

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف ، والتقدير لَيْمنُ الله قسمى ؛ فإذا خاطبت قلت « ليمنكَ » ؛ وفى حديث عروة بن الزبير : « لَيْمُنُكَ لئِنْ كنت ابتَلَيْتَ ، لقد عافيت ، ولئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيت »[2] . وتحذف نونه فيصير « ايم الله » بألف وصل مفتوحة وقد تكسر ، وربما حذفوا الياء ، فقالوا : « ام الله » ؛ وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة، فقالوا : « مُ الله » ، وقد يكسرونها لما صارت حرفا شبهوها بالباء ؛ وربما قالوا « مُنُ الله » بضم الميم والنون : « ومِنِ الله » بكسرهما : « ومَنَ الله » بفتحهما ، وذهب أبو عبيد وابن كيسان وابن دَرَسْتويه إلى أنّ « أيمن » جمع يمين ، والألف همزة قطع ، وإنما خففت

(١) اللسان ٧ : ٣٠٤ ؛ ونسبه إلى نصيب ص ١٧٨ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٦٨ .

وطرحت فى الوصل لكثرة الاستعمال ، قالوا : وكانت العرب تحلف باليمين فتقول : يمين الله لا أفعل ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يمينَ اللهِ أبْرَحُ قاعداً ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِى لَدَيْكِ وَأَوْصالِى[1]

قالوا : واليمين تجمع على « أيْمن » ، قال زهير :

فتُجْمَعُ أيْمُنٌ مِنّا ومِنْكُمْ ... بمُقْسَمةٍ تَمُور بها الدِّماء[2]

ثم حلفوا به ، فقالوا : أيمن الله ؛ ثم كثر فى كلامهم وخفّ على ألسنتهم ؛ حتى حذفوا منه النون كما حذفوا فى قوله « لم يكن » فقالوا « لم يك » . فأقسم عليه السلام لأصحابه أنّهم سيجدون بنى أمية بعده لهم أرباب سوء ، وصدَقَ صلوات الله عليه فيما قال ، فإنّهم ساموهم سوء العذاب قَتْلا وصلبا ، وحَبْسا وتشريدا فى البلاد .

ثم شبّه بنى أمية بالنّاب الضَّروس ، والنّاب : الناقة المسنّة ، والجمع نيب ؛ تقول : لا أفعله ما حنّت النِّيب ، والضَّروس : السيئة الخُلُق تعضّ حالبها .

وتعذِم بفيها : تكدم ، والعذْم : الأكل بجفاء ، وفرس عَذُوم : يعضّ بأسنانه .

والزَّبْن : الدفع ؛ زبنتِ الناقة تزبِنُ ، إذا ضربت بثَفِناتها عند الحلْب ، تدفع الحالب عنها . والدَّرّ : اللبن ، وفى المثل : « لا درّ درُّه » الأصل « لبنُه » ، ثم قيل لكل خير ، وناقة دَرُور ، أى كثيرة اللبن .

ثم قال : لا يزالون بكم قتلا وإفناء لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه ، أولا يضرهم ولا ينفعهم ، قال : حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبد من مولاه ، أى لا انتصارَ لكم منهم ، لأنّ العبد لا ينتصر من مولاه أبدا . وقد جاء فى كلامه عليه

---

(١) ديوانه ٣٢ .

(٢) ديوانه ٧٨ . مقسمة : موضع الحلف عند الأصنام ؛ وقال بعضهم : مكة ؛ لأنها تنحر بها البدن وتمور بها الدماء . وتمور : تسيل (من شرح الديوان) .

السلام في غير هذا الموضع تتمة هذا المعنى : « إن حضر أطاعه ، وإن غاب سَبّه » ، أي ثلبه وشتمه ، وهذه أمارة الذلّ ، كما قال أبو الطيب :

أبْدُو فيسجدُ مَنْ بالسُّوء يذكُرُني ولا أعاتبه صَفْحاً وإهوانا[1]
وهكذا كنتُ في أهْلي وفي وطني إنّ النفيسَ نفيسٌ أينما كانــــا

قال عليه السلام : « والصاحب من مستصحِبه » ، أي والتابع من متبوعه .

والشُّوه: جمع شَوْهاء ، وهي القبيحة الوجه ، شاهت الوجوه تشوه شَوْهاً[2] ، قَبُحت ، وشوّهه الله فهو مشوّه ، وهي شوهاء ، ولا يقال للذكر : أشوه . ومخشيّة : مخوفة .

وقطعا جاهلية ، شبهها بقطع السحاب لتراكمها على النـاس ، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم ، ويروى : « شوهاء » و « قطعاء » ، أي نـكراء ، كالمقطوعة اليد .

قوله : « نحن أهلَ البيت منها بمنجاة » ، أي بمعزل ، والنّجاة والنّجوة : المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاك ، ولا يعلوه السيل . ولسنا فيها بدعاة ، أي لسنا من أنصار تلك الدّعوة . و « أهلَ البيت » منصوب على الاختصاص ، كقولهم : نحن معشرَ العرب نفعل كذا ، ونحن آلَ فلان كرماء .

قوله : « كتفريج الأديم » : الأديم الجلد ، وجمه أدُم مثل أفيق وأفُق ؛ ويجمع أيضا على « آدمة » ، كرغيف وأرغفه ، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عمّا تحته ، فوعدهم عليه السلام بأنّ الله تعالى يكشف تلك الغماء كانـكشاف الجلد عن اللحم ، بمن يسومهم خسفا ، ويوليهم ذلا .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٣ .
(٢) ساقطة من ب .

والعُنْف ، بالضم : ضدّ الرفق . وكأس مصبّرة ممزوجة بالصَّبِر لهذا المرّ ؛ ويجوز أن يكون « مصبّرة » مملوءة إلى أصْبارها ؛ وهى جوانبها ، وفى المثل : « أخذها بأصبارها » أى تامّة ، الواحد صُبر ، بالضم .

ويُحْلِسهم : يلبسهم ، أحلست البعير ألبسته الحِلْس ؛ وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة ، يقال : له حِلْس وحلَس ؛ مثل شِبْه وشَبَه .

والجَزُور من الإبل : يقع على الذَّكر والأنثى ، وجَزْرها : ذَبحها .

* * *

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوّدة ، وانقراض ملك بنى أمية . ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه ؛ حتى لقد صدق قوله : « لقد تودّ قريش ... » الكلام إلى آخره ، فإن أرباب السِّيَر كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزّاب لما شاهد عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس بإزائه فى صفّ خراسان : لوددت أن علىّ بن أبى طالب تحت هذه الراية بدلا من هذا الفتى ؛ والقصة طويلة وهى مشهورة[(١)] .

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير ، وهى متداولة منقولة مستفيضة ، خطب بها علىّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النّهروان ، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضىّ رحمه الله ، من ذلك قوله عليه السلام : « ولم يكن ليجترئ عليها غيرى ، ولو لم أكُ فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنهراون . وايمُ الله لولا أن تتكلوا فتدعُوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله عزّ وجلّ على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله : لمَنْ قاتلهم مبصراً لضلالتهم ، عارفا للهدى الذى نحن عليه ، سلونى قبل أن تفقدونى ، فإنّى ميّت عن قريب أو مقتول ، بل قتلًا ما ينتظر أشقاها أن يخضِّب هذه بدم » . وضرب بيده إلى لحيته .

(١) تفصيل حوادثها فى الكامل لابن الأثير ٤ : ٣٢٧ — ٣٣٤ .

ومنها فى ذكر بنى أمية : « يظهر أهلُ باطلها على أهل حقها ، حتى تُملَأَ الأرض عدوانا وظلما وبِدَعاً إلى أن يضع الله عزّ وجلّ جبروتها ، ويكسر عَمَدها ، وينزع أوتادها . ألا وإنّكم مدركوها فانصرُوا قوماً كانوا أصحاب رايات بدر وحُنين ؛ تؤجروا ، ولا تمالئوا عليهم عدوّهم ، فتصرعكم البليّة ، وتحُلّ بكم النقمة » .

ومنها : « إلّا مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه ، وإن توارى عنه شتمه . وايمُ الله لو فرّقوكم تحتَ كلّ حجر ؛ لجمعكم الله لشرِّ يوم لهم » .

ومنها : « فانظروا أهل بيت نبيكم ، فإن لَبَدُوا فالبدوا ، وإن استنصروكم فانصروهم ، فليفرجَنّ الله الفتنة برجل منّا أهلَ البيت ، بأبى ابن خيرة الإماء ؛ لا يعطيهم إلا السيف ، هَرْجاً هرجا ، موضوعا على عاتقه ثمانية أشهر ؛ حتى تقول قريش : لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا ، يغريه الله ببنى أمية حتى يجعلهم حُطاما ورفاتا ، ملعونين أينما ثقفوا أُخذُوا وقُتِّلوا تقتيلا . سنّة الله فى الذين خَلَوْا من قبل ولن تجدَ لسنّة الله تبديلا » .

فإن قيل : لماذا قال : « ولو لم أكُ فيكم لما قوتل أهلُ الجمل وأهل النهروان » ؛ ولم يذكر صِفّين ؟ قيل : لأنّ الشبهة كانت فى أهل الجمل وأهل النّهروان ظاهرة الالتباس ، لأنّ الزبير وطلحة مَوْعُودان بالجنة ، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله فى الآخرة ؛ كما هى زوجته فى الدنيا ، وحال طلحة والزبير فى السَّبْق والجهاد والهجرة معلومة ، وحال عائشة فى محبّة الرسول صلى الله عليه وآله لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة ؛ وأما أهل النّهروان فكانوا أهلَ قرآن وعبادة واجتهاد ؛ وعُزوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة ، وهم كانوا قرّاء أهل العراق وزهادهم ؛ وأما معاوية فكان فاسقا ، مشهورا بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام ؛ وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمرو بن العاص ؛ ومن اتبعهما من طغام أهل الشام وأجلافهم وجهّال الأعراب ، فلم يكن أمرُهم خافياً فى جواز محاربتهم واستحلال قتالهم ؛ بخلاف حال من تقدّم ذكره .

فإن قيل : ومَنْ هذا الرجل الموعود به الذى قال عليه السلام عنه : « بأبى ابن خيرة الإماء » ؟ قيل : أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثانى عشر ، وأنه ابن أمَة اسمها نرجس ، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطمىّ يولد فى مستقبل الزمان ، لأمّ ولد ، وليس بموجود الآن .

فإن قيل : فن يكون من بنى أمية فى ذلك الوقت موجوداً ، حتى يقول عليه السلام فى أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم ، حتى يودّوا لو أنّ عليا عليه السلام ، كان المتولّى لأمرهم عوَضاً عنه ؟

قيل : أما الإماميّة فيقولون بالرجعة ، ويزعمون أنه سيعاد قوم بأعيانهم من بنى أميّة وغيرهم ، إذا ظهر إمامهم المنتظر ، وأنه يقطع أيدى أقوام وأرجلهم ، ويسمُل عيون بعضهم ، ويصلُب قوما آخرين ، وينتقم من أعداء آل محمد عليه السلام المتقدّمين والمتأخرين . وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى فى آخر الزمان رجلا من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجودا الآن ، وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوْرا وظلما ، وينتقم من الظالمين وينكّل بهم أشدّ النّكال ، وأنه لأم ولد ، كما قد ورد فى هذا الأثر وفى غيره من الآثار ، وأن اسمه محمد ، كاسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولى على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بنى أميّة ، وهو السفيانىّ الموعود به فى الخبر الصحيح ، من ولد أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وأنّ الإمام الفاطمىّ يقتله ويقتل أشياعه من بنى أمية وغيرهم ، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء ، وتبدو أشراطُ الساعة ، وتظهر دابة الأرض ، ويبطل التكليف ، ويتحقّق قيام الأجساد عند نفخ الصور ، كما نطق به الكتاب العزيز .

فإن قيل : فإنكم قلتم فيما تقدّم : إن الوعد إنما هو بالسفّاح وبعمه عبد الله بن علىّ ، والمسوّدة ، وما قلتموه الآن مخالف لذلك !

قيل : إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضىّ رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى " نهج البلاغة " وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التى لم يذكرها الرضىّ ، وهى قوله بأبى ابن خِيرة الإماء . وقوله : « لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا » ، فلا مناقضةَ بين التفسيرين .

(٩٣)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصلُ :

فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ ، وَلَا يَنَالُهُ حَدْسُ ٱلْفِطَنِ ؛ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي ، وَلَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِي .

* * *

الشرح :

البركة : كثرة الخير وزيادته ، وتبارك الله منه ، وبركتُ ، أى دعوتُ بالبركة، وطعام بريك أى مبارك . ويقال : بارك الله لزيد وفى زيد وعلى زيد ؛ وبارك الله زيدا ، يتعدّى بنفسه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾(٢) . ويحتمل «تبارك الله» معنيين : أحدُهما أنْ يُراد : تبارك خَيْره وزادت نعمته وإحسانه ، وهذا دعاء . وثانيهما أن يُراد(١) به: تزايد وتعالى فى ذاته وصفاته عن أن يُقاس به غيره ، وهذا تمجيد .

قوله عليه السلام : « لا يبلغه بعدُ الهمم » أى بعد الأفكار والأنظار ، عبّر عنها بالهمم لمشابهتها إياها . وحَدْس الفِطَن : ظنّها وتخمينها ، حَدَسْت أحدِس ، بالكسر .

ويُسأل عن قوله: « لا غاية له فينتهى ، ولا آخر له فينقضى » ، فيقال : إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثانى غير الأول ، وكقولهم : ما تأتينا فتحدّثنا ، وليس الثانى هاهنا غير الأول، لأن الانقضاء هو الآخرية بعينها ، فكأنه قال: لا آخر له ، فيكون له آخر ، وهذا لغو، وكذلك القول اللفظة فى الأولى .

وينبغى أن يقال فى الجواب : إن المراد : لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضى بالفعل فيما

---

(١) سورة النمل ٢٧ (٢) ساقط من ب .

لا يزال : ولا هو أيضا ممكن الوجود فيا مضى ، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقا بالعدم ، وهو معنى قوله: « فينتهي » بل هو واجب الوجود في حالين: فيا مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران ، وهما العدم وإمكان العدم ، فاندفع الإشكال .

***

منها :

الأصل :

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ ، حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ؛ وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ ، وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى ، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى .

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ؛ سِيرَتُهُ الْقَصْدُ ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ ، وَكَلَامُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَمِ .

***

الشرح :

تناسختهم ،أى تناقلتهم، والتناسخ في الميراث: أن يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث

قائم لم يقسّم ، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر ، ومنه : نسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته ، أى نقلت ما فيه . ويروى : « تناسلتهم » .

والسّلَف : المتقدمون ، والخلف : الباقون، ويقال : خَلَف صدق بالتحريك ، وخَلْف سوء بالتسكين .

وأفضت كرامة الله إلى محمد صلى الله عليه ، أى انتهت . والأرومات : جمع أرومة وهى الأصل ، ويقال أروم بغير هاء : وصدع : شقّ ، وانتجب : اصطفى . والأسرة : رهط الرجل .

وقوله : « نبتت فى حرم » يجوز أن يعنى به مكّة ، ويجوز أن يعنى به المنعة والعزّ .

وبسقت : طالت. ومعنى قوله : « وثمر لا ينال » ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به ، لأن ذلك ليس بمدح بل يريد به أنّ ثمرها لا ينال قهرا ، ولا يجنى غصبا . ويجوز أنْ يريد بثمرها نفسه عليه السلام ، ومَن يجرى مجراه من أهل البيت عليهم السلام ، لأنهم ثمرة تلك الشجرة .

ولا ينال ، أى لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد ، وقد روى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله فى فضل قريش وبنى هاشم الكثير المستفيض، نحو قوله عليه السلام : « قدّموا قريشا ولا تقدُموها » ، وقوله : « الأئمة من قريش » ، وقوله : « إن الله اصطفى من العرب مَعَدًّا ، واصطفى من معدّ بنى النضر بن كنانة ، واصطفى هاشما من بنى النضر ، واصطفانى من بنى هاشم » ، وقوله : « إن جبرائيل عليه السلام قال لى : يا محمد قد طفتُ الأرض شرقا وغربا فلم أجدْ فيها أكرم منك ، ولا بيتا أكرم من بنى هاشم » ، وقوله : « نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية » ، وقوله عليه السلام : « إن الله تعالى لم يمسّنى بسفاح فى أرومتى منذ إسماعيل بن ابراهيم إلى عبدالله

ابن عبد المطلب » ، وقوله صلى الله عليه وآله : « سادة أهل محشر ، سادة أهل الدنيا : أنا وعلى وحسن وحسين وحمزة وجعفر » ، وقوله وقد سمع رجلا ينشد :

يا أيها الرجلُ المحوِّل رحلَه   هلّا نزلتَ بآل عبد الدار ؟

أهكذا قال يا أبا بكر؟ منكراً لما سمع ، فقال أبو بكر : لا يارسول الله ، إنه لم يقل هكذا ولكنه قال :

يا أيها الرجلُ المحوّل رَحْلَهُ   هلّا نزلتَ بآل عبد مناف[1] ؟
عَمْرو العُـلَا هشَم الثريد لقومِه   وَرِجالُ مكةَ مُسْنِتون عِجافُ

فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك ، وقوله : « أذلّ الله من أذلّ قريشا » ، قالها ثلاثا ، وكقوله : « أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب » وكقوله : « الناس تبع لقريش، برّهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم » ، وكقوله : «أنا ابنُ الأكرمين»، وقوله لبنى هاشم : «والله لا يُبغضُكم أحد إلا أكبّه الله على منخريه فى النار » ، وقوله : « ما بال رجال يزعمون أنّ قرابتى غير نافعة ! بل إنهما لنافعة ، وإنه لا يُبغِضُ أحدٌ أهلى إلا حرّمه الله الجنة » .

والأخبار الواردة فى فضائل قريش وبنى هاشم وشرفهم كثيرة جدا ، ولا نرى الإطالة ها هنا باستقصائها .

وسطع الصبح يسطع سطوعا ، أى ارتفع، والسَّطيع : الصبح. والزَّند : العود تقدح به النار ، وهو الأعلى، والزَّندة: السفلى فيها ثقب، وهى الأنثى، فإذا اجتمعا قيل : زَنْدان ولم يقل : « زندتان » ، تغليبا للتذكير، والجمع زناد وأزنُد وأزناد .

والقصد : الاعتدال . وكلامه الفصل، أى الفاصل، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى الفاعل ، كقولك : رجل عَدْل ، أى عادل .

والهفوة: الزّلة، هفا يهفو. والغباوة: الجهل وقلة الفطنة، يقال: غبيت عن الشىء وغبيت

---

(١) لمطرود بن كعب الخزاعى أمالى المرتضى ٢ : ٢٦٨

الشيء أيضا،أغبي غباوة إذا لم يفطن له ، وغبيَ على الشيء كذلك ، إذا لم تعرفه ، وفلان غبي على « فسيل » ، أي قليل الفطنة .

***

الأصْـلُ :

اعْلَمُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ عَلَى أَعْلَامٍ بَيِّنَةٍ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَأَنتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ ؛ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالأَقْلَامُ جَارِيَةٌ ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ ، وَالأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ .

***

الشَّـرْحُ :

الطريق : يذكّر ويؤنث ، يقال : هذا الطريق الأعظم ، وهذه الطريق العُظمى ، والجمع أطرِقة وطرُق .

وأعلام بيّنة ، أي منار واضح . ونهج ، أي واضح . ودار السلام : الجنة ، ويروى : « والطريق نهج » بالواو ، واو الحال .

وأنتم فى دار مستعتَب ، أى فى دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه ، واستعتابه .

ثم شرح ذلك فقال : أنتم ممهلون متفرّغون ، وصحف أعمالكم لم تطوَ بعد ، وأقلام الحفَظة عليكم لم تجفّ بعد ، وأبدانكم صحيحة ، وألسنتكم ما اعتُقلت كاعتقال ألسنة المحتضرين عند الموت ، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة ، لأنكم فى دار التكليف لم تخرجوا منها .

(٩٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ ، قَدِ ٱسْتَهْوَتْهُمُ ٱلْأَهْوَاءُ وَٱسْتَزَلَّتْهُمُ ٱلْكِبْرِيَاءُ، وَٱسْتَخَفَّتْهُمُ ٱلْجَاهِلِيَّةُ ٱلْجَهْلَاءُ ؛ حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ ، وَبَلَاءٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ ، فَبَالَغَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّصِيحَةِ ، وَمَضَىٰ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ، وَدَعَا إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ [١] .

***

الشرح :

حاطبون فى فتنة : جمع حاطب ؛ وهو الذى يجمع الحطَب ، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ ، أو يتكلّم بالغثّ والسمين : حاطب ليل ، لأنه لايبصر مايجمع فى حَبْله .

وروى : « خابطون » .

واستهوتهم الأهواء : دعتهم إلى نفسها .

واستزلّتهم الكبرياء : جعلتهم ذوى زلل وخطأ . واستخفّتهم الجاهلية : جعلتهم ذوى خِفّة وطَيْش وخُرْق .

والزلزال ، بالفتح : الاسم ، وبالكسر : المصدر ، والزلازل : الشدائد ، ومثله فى الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر « القَلْقال »

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٩٥)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الْأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَالظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَالْبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ .

الشّرح

تقدير الكلام : والظاهر فلا شيء أجلى منه ، والباطن فلا شيء أخفى منه ؛ فلما كان الجلاء يستلزم العلوّ والفوقية ، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتيّة ، عبّر عنهما بمايلازمهما ، وقد تقدم الكلامُ في معنى الأول والآخر والظاهر والباطن .

وذهب أكثر المتكلّمين إلى، أن الله تعالى يعدم أجزاء العالم ثم يعيدها ؛ وذهب قوم منهم إلى أنّ الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لاغير .

واحتجّ الأولون بقوله تعالى :﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾[1]، قالوا :لما كان أولا بمعنى أنّه الموجود ولا موجود معه ، وجب أن يكون آخرا بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كلّ شيء إلا ذاته تعالى ، كما كان أولا ، والبحث المستقصَى في هذا الباب مشروح في كتبنا الكلاميّة .

***

(١) سورة الحديد ٣

الأصلُ :

ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله :

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ؛ فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرَارِ ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصَارِ ؛ دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوَائِرَ ؛ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً ، وَأَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ ؛ كَلَامُهُ بَيَانٌ ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ .

* * *

الشّرحُ

المهاد : الفِراش ، ولما قال : « في معادن » ، وهي جمع معدن ، قال بحكم القرينة والازدواج : « وممَاهد » وإن لم يكن الواحد منها « ممهداً » ، كما قالوا : الغدايا والعشايا ، ومأجورات ومأزورات ، ونحو ذلك . ويعني بالسلامة هاهنا البراءة من العيوب ، أى في نسب طاهر غير مأفون ولا معيب .

ثم قال : « قد صُرِفت نحوه » ، أى نحو الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يقل مَنْ صرفها ، بل جعله فعلا لم يُسَمَّ فاعله ، فإن شئت قلت : الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبر كما يقوله الأشعرية ، بل بالتوفيق واللطف ، كما يقوله أصحابنا ، وإن شئت قلت : صرفها أربابُها .

والضغائن : جمع ضغينة ، وهى الحِقْد . ضَغِنت على فلان بالكسر ضِغْنا والضِّغْن الاسم ، كالضغينة ، وقد تضاغنوا واضطغنوا : انطوَوْا على الأحقاد . ودَفَنها : أكمنها وأخفاها . وألّف به إخوانا ، لأنّ الإسلام قد ألّف بين المتباعدين ، وفرق بين المتقاربين ، وقال

تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (١) ، قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما ، وألّف بين عليّ عليه السلام وعمّار مع تباعدهما .

قوله عليه السلام : « وَصَمْتُهُ لسان » ، لا يعني باللسان هاهنا الجارحة نفسها ، بل الكلام الصادر عنها ، كقول الأعشى (٢) :

* إنّي أتتني لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها *

قالوا في تفسيره : أراد الكلمة ، وجمعه على هذا ألسن ، لأنه مؤنث ، كقولك : ذراع وأذرع ، فأما جمع لسان للجارحة فألسنة ، لأنه مذكّر ، كقولك : حمار وأحمرة ، يقول عليه السلام : إن كلامَ الرّسول صلى الله عليه وآله بيان ، والبيان إخراج الشيء من حَيِّز الخفاء إلى حَيِّز الوضوح ، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد ، أي أنّ صمته لا يخلو من فائدة ، فكأنه كلام ، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة ، كقولهم : يده بحرٌ ، ووجهه بدر .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣

(٢) هو أعشى باهلة ؛ وبقيته :

* مِنْ عَلْوَ لَا كَذِبٌ فيها وَلَا سَخَرُ *

ديوان الأعشين ٢٦٦ .

(٩٦)

ومن كلام له عليه السلام :

الأصل :

وَلَئِنْ أَمْهَلَ اللهُ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذَهُ ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ، عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ [(١)] الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ .

أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ ؛ لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ ؛ وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِهِمْ [(٢)] ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي ، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا ، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي .

اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا ، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا .

شُهُودٌ [(٣)] كَغُيَّابٍ ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ . أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا ، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا ، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا . تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ . أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً ؛ كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ .

أَيُّهَا الْقَوْمُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ ، الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ ؛ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ . لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ ؛ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ !

---

(١) مخطوطة النهج : « وموضع » .

(٢) مخطوطة النهج : « باطل صاحبهم » .

(٣) مخطوطة النهج : « أشهود » .

يا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ وَاثْنَتَيْنِ : صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ ؛ لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلاَءِ .

تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ ! يا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا ! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ .

وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَحَمِيَ الضِّرَابُ ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا . وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً .

***

الشرح

أمهله : أخره ، وأخذه فاعل ، والمفعول محذوف تقديره : «فلن يفوته» . والمرصاد[1] : الطريق ، وهى من ألفاظ الكتاب العزيز .

ومجاز طريقه : مسلكه وموضع جوازه . والشجا : ماينشب فى الحلق من عظم أو غيره ، وموضع الشجا : هو الحلق نفسه . ومساغ ريقه : موضع الإساغة ، أسغت الشراب : أوصلته إلى المعدة . ويجوز : سغت الشراب أسوغه وأسيغه ، وساغ الشرابُ نفسُه يسوغ سَوْغا ، أى سهل مدخله فى الحلق ، يتعدّى ولا يتعدّى . وهذا الكلام من باب التوسّع والمجاز ، لأنّ الله تعالى لايجوز عليه الحصول فى الجهات ، ولكنه كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾[2] . وقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[3] .

---

(١) وهو من قوله تعالى فى سورة الفجر ٨٩ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .
(٢) سورة الحديد ٤ .   (٣) سورة ق ١٦ .

ثم أقسم عليه السلام أنّ أهل الشام لابدّ أن يظهروا على أهل العراق ، وأنّ ذلك ليس لأنّهم على الحقّ وأهلُ العراق على الباطل ، بل لأنّهم أطوَعُ لأميرهم ، ومدار النّصرة فى الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره ، لا على اعتقاد الحقّ ، فإنه ليس يُغني فى الحرب أن يكون الجيش محقّا فى العقيدة إذا كان مختلف الآراء ، غير مطيع لأمر المدبّر له ، ولهذا تجدُ أهل الشرك كثيرا ماينتصرون على أهل التوحيد .

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة فى هذا المعنى ، فقال : العادة أنّ الرعيّة تخاف ظلم الوالى ، وأنا أخاف ظلم رعيتى ، ومَنْ تأمّل أحواله عليه السلام فى خلافته ، علم أنّه كان كالمحجور عليه ، لا يتمكّن من بلوغ مافى نفسه ، وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين ، وكان السواد الأعظم ، لايعتقدون فيه الأمر الذى يجب اعتقادُه فيه ، ويرون تفضيلَ مَنْ تقدّمه من الخلفاء عليه ، ويظنّون أن الأفضليّة إنما هى الخلافة ، ويقلّد أخلافُهم أسلافَهم ، ويقولون : لولا أنّ الأوائل علموا فضل المتقدّمين عليه لما قدموهم ، ولا يرونه إلا بعين التبعيّة لمن سبقه ، وأنه كان رعيّة لهم ، وأكثرهم إنما يحارب معه بالحميّة وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة ، وكان عليه السلام مدفوعا إلى مداراتهم ومقاربتهم ؛ ولم يكن قادرا على إظهار ما عنده ، ألا ترى إلى كتابه إلى قضاته فى الأمصار . وقوله : « فاقضوا كما كنتم تقضون ، حتى تكون للناس جماعة ، وأموتَ كما مات أصحابى » ؛ وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير ، ومعناه واضح ، وهو أنه قال لهم : اتبعُوا عادتكم الآن بعاجل الحال فى الأحكام والقضايا التى كنتم تقضُون بها إلى أن يكون للناس جماعة ؛ أى إلى أن تُسفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة ، وحينئذ أعرفكم ما عندى فى هذه القضايا والأحكام التى قد استمررتم عليها .

ثم قال : « أو أموت كما مات أصحابى » ، فمن قائل يقول : عنى بأصحابه الخلفاء المتقدّمين

ومن قائل يقول: عَنَى بأصحابه شيعته كسلمان، وأبي ذرّ، والمقداد، وعمّار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله على المنبر في أمّهات الأولاد: «كان رأيي ورأي عمر ألّا يُبَعْن، وأنا أرى الآن بيعهنّ»؛ فقام عليه عبيدة السلمانيّ فقال له: رأيُكَ مع الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حرْفاً، فهل يدلّ هذا على القوة والقهر، أم على الضعف في السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضي في ذلك الوقت غير السكوت والإمساك! ألا ترى أنه كان يقرأ في صلاة الصبح وخلْفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضاً قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ﴾. فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضاً له على البديهة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٢]. وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بيّن، وبهذا ونحوه استدلّ أصحابنا المتكلّمون على حُسْن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ مَنْ مُنِيَ بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، المتمرّد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، وقتل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلّمين من أصحابنا: إنّ سياسة عليّ عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبرا لها بالإضافة إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، جرت مَجْرَى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذّره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تذهب إلى أن عثمان قتل مظلوما وتتولّاه وتبرأ من أعدائه، والأخرى — وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس — يعتقدون أن عثمان قُتِل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم مَنْ يصرح بتكفيره، وكلٌّ من هاتين الفرقتين يزعُم أن عليا عليه السلام موافق لها على رأيها، وتطالبه في كل وقت بأن يبديَ مذهبه في عثمان، وتسأله أن يجيب بجواب واضح في أمره، وكان عليه السلام،

---

(١) سورة الروم ٦٠، وهذه قراءة علي، وقراءة المصحف: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾، وانظر تفسير القرطبي ٦: ٤٣٩.

يعلم أنّه متى وافق إحدى الطائفتين باينتْه الأخرى ، وأسلمته وتولتْ عنه وخذلته ، فأخذ عليه السلام يعتمد فى جوابه ويستعمل فى كلامه ما تظنّ به كلّ واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيها ويماثل اعتقادَها، فتارة يقول : الله قتله وأنا معه، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنّه أراد أن الله أماتَه وسيميتنى كما أماته ؛ وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنّه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضا، وكذلك قوله تارة أخرى : «ماأمرْتُ به ولا نَهيت عنه»، وقوله : « لو أمرت به لكنت قاتلا ، ولو نهيت عنه لكنت ناصرا » ، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه ، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قُبِض عليه السلام ، وكلّ من الطائفتين موالية له معتقدة أن رأيه فى عثمان كرأيها، فلو لم يكن له من السِّياسة إلاهذا القَدْر — مع كثرة خوض الناس حينئذ فى أمر عثمان والحاجة إلى ذكره فى كل مقام — لكفاه فى الدلالة على أنه أعرَفُ الناس بها ، وأحذقهم فيها ، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام ، وتدبير أحول الرجال .

***

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : «ونصحت لكم» ، هو الأفصح، وعليه، ورد لفظ القرآن[1]، وقول العامة : « نصحتك » ليس بالأفصح .

قوله : « وعَبِيد كأرباب » يصفهم بالكِبْر والتِّيه .

فإن قلت : كيف قال عنهم إنّهم عبيد وكانوا عرَبًا صلبية ؟ قلت: يريد أنّ أخلاقهم كأخلاق العبيد ؛ من الغَدْر والخلاف ودناءة الأنفس؛ وفيهم مع ذلك كِبْر السادات والأرباب وتيههم ؛ فقد جمعوا خِصالَ السُّوء كلها .

وأيادى سبأ ؛ مثل يضرب للمتفرّقين، وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ

---

(١) من قوله تعالى فى سورة الأعراف ٧٩ : ﴿ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ .

كلَّ مُمزَّقٍ ﴾ (١) وسبأ مهموز ؛ وهو سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ؛ ويقال : ذهبوا أيدي سبا وأيادي سبا ، الياء ساكنة ؛ وكذلك الألف ؛ وهكذا نقل المثل ، أى ذَهَبوا متفرّقين ، وهما اسمان جعلا واحدا ؛ مثل معدى كرب .

قوله : « تتخادَعُون عن مواعظكم » ، أن تمسكون عن الاتّعاظ والازدجار ، وتُقلِعون عن ذلك ؛ من قولهم : كان فلان يُعطى ثم خدع ، أى أمسك وأقلع . ويجوز أن يريد : تتلوّنون وتختلفون في قبول الموعظة ؛ من قولهم : خلق فلان خَلَق خادع ، أى متلوّن ، وسوق خادعة أى مختلفة متلوّنة ، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها ؛ لأنه إنما يقال : فلان يتخادع لفلان ؛ إذا كان يُرِيه أنه منخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة ؛ وهذا لا يطابق معنَى الكلام .

والحَنيّة : القوس . وقوله : « كظهر الحنية » ، يريد اعوجاجهم ؛ كما أنّ ظهر القوس معوج . وأعضل المقوّم ، أى أعضل داؤه ، أى أعيا . ويروى : « أيها الشاهدةُ أبدانهم » بحذف الموصوف .

ثم أقسم أنه يودّ أنّ معاوية صارَفه بهم ، فأعطاه من أهل الشام واحدا ، وأخذ منه عشرة ، صَرْف الدينار بالدراهم ؛ أخذ هذا اللفظ عبدُ الله بن الزبير لمّا وفد إليه أهلُ البصرة ، وفيهم الأحنف ، فتكلّم منهم أبو حاضر الأسدىّ ، وكان خطيبا جَمِيلا ، فقال له عبد الله بن الزّبير : اسكتْ ؛ فو الله لوَدِدْت أنّ لى بكلّ عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صَرْف الدينار بالدراهم ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن لنا ولك مثَلا ، أفتأذن في ذكره ؟ قال : نعم . قال : مثَلُنا ومثلُك ومثل أهل الشام قولُ الأعشى :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُـــــلا غَيْرِى ، وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ (٢)

---

(١) سورة سبأ ١٩ .
(٢) هو أعشى قيس ، ديوانه ١٣ .

أحبّك أهلُ العراق وأحببتَ أهل الشام وأحبّ أهل الشام عبدَ الملك فما تصنع ؟ ثم ذكر عليه السلام أنهُ مني ، أى بُلِيَ منهم بثلاث واثنتين ، إنما لم يقل بخمس ، لأن الثلاث إيجابية ، الاثنتين سَلْبية ، فأحبّ أن يفرّق بين الإثبات والنفى .

ويروى : « لا أحرار صدُق عند اللقاء » جمع صادق . ولا إخوان ثقة عند البلاء ، أى موثوق بهم .

تربتْ أيديكم ، كلمة يدعى على الإنسان بها ، أى لا أصَبْتُمْ خيرا ، وأصل « ترب » أصابه التراب ، فكأنه يدعو عليه بأن يفتقر حتى يلتصق بالتراب .

قوله : « ما إخالكم » أى فما أظنُّكم ؛ والأفصح كسر الألف وهو السماع ؛ وبنو أسد يفتحونها وهو القياس .

قوله : « ألّا » أصله « أن لا » ثم أدغمت النون فى الألف فصارت كلمة واحدة .

وحمِس الوغى ، بكسر الميم : اشتد وعظُم ، فهو حمس وأحمس ؛ بيّن الحَمَس والحماسة . والوغى فى الأصل : الأصوات والجلبة ، وسميت الحرب نفسها وَغًى لما فيها من ذلك .

وقوله : « انفراج المرأة عن قُبُلها » ، أى وقت الولادة .

قوله : « ألقطه لقْطا » يريد أنّ الضلال غالب على الهدى ؛ فأنا ألتقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لقطا من ها هنا وها هنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة ، قد اكتنفها الشوك والعوسَج من جانبيهما كليهما ، فهو يلتقط النّهْج التقاطا .

***

الأصْلُ :

أنظُرُوا أهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فالْزَمُوا سَمْتَهُمْ ، وَاتَّبِعُوا أثَرَهُمْ ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى ، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى ، فَإنْ لَبَدُوا فالْبُدُوا ، وَإنْ نَهَضُوا فانْهَضُوا ، وَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا ، وَلَا تَتَأخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ ؛ إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ .

الشرح

السَّمت : الطريق ، ولَبَد الشيء بالأرض ، يلبُد بالضم لُبودا : التصق بها. ويصبحون شعثا غبرا، من قَشَف العبادة وقيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذّ ، فيراوحون بين جباههم وخدودهم، تارة يسجدون على الجباه ،وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة؛ تذللا وخضوعا . والمراوحة بين العمل : أن يعمل هذا مرّة وهذا مرة ،ويراوح بين رجليه ؛ إذا قام على هذه تارة وعلى هذه أخرى .

ويقال معزى لهذا الجنس من الغنم ومَعَز ومعيز وأمعوز ومَعْز ، بالتسكين ، وواحد المعز ماعز ، كصَحْب وصاحب ، والأنثى ماعزة والجمع مواعز .

وهملتْ أعينُهم : سالت ، تهمُل وتهمِل .

ويروى « حتى تَبُلّ جباههم » ،أى يبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته . ومادُوا : تحرّكوا واضطربوا ، إما خوفا من العقاب كما يتحرّك الرجل ويضطرب ، أو رجاء للثواب كما يتحرّك النشوان من الطرب ، وكما يتحرك الجذِل المسرورُ من الفَرَح .

(٩٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

وَٱللهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّىٰ لَا يَدَعُوا لِلهِ مُحَرَّماً إِلَّا ٱسْتَحَلُّوهُ ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ ، وَحَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رِعَتِهِمْ[1] ، وَحَتَّىٰ يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ : بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِٱللهِ ظَنّاً ، فَإِنْ أَتَاكُمُ ٱللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا ، وَإِنِ ٱبْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا ، فَإِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

* * *

الشرح

تقدير الكلام : لايزالون ظالمين ؛ فحذف الخبر وهو مراد ، وسدّت « حتى » وما بعدها مسدّ الخبر ؛ ولا يصحّ ماذهب إليه بعض المفسرين من أنّ « زال » بمعنى تحرك وانتقل ؛ فلا تكون محتاجة إلى خبر ، بل تكون تامة فى نفسها ، لأنّ تلك مستقبلها يزول بالواو ، وهاهنا بالألف لايزالون ؛ فهى الناقصة التى لم تأت تامّة قطّ ؛ ومثلها فى أنّها لاتزال ناقصة : ظلّ وما فتىء وليس .

والمحرّم : مالا يحلّ انتهاكه وكذلك الحرمة بفتح الراء وضمها .

وبيوت المَدَر : هى البيوت المبنيّة فى القُرى ، وبيوت الوبر : مايتخذ فى البادية من وبر الإبل والوبر لهـا كالصوف للضأن ، وكالشعر للمعز .

---

(١) زاد فى مخطوطة النهج بعدها : « ونزل به غيهم » .   (٢) مخطوطة النهج : « فإذا » .

وقد وَبِر البعيرُ بالكسر ، فهو وَبِر ، وأوبر ، إذا كثر وبرُه . ونبا به منزله : إذا ضرّه ولم يوافقه ، وكذلك نبا به فِراشُه ، فالفعل لازم ، فإذا أردت تعديتَه بالهمزة قلتَ : قد أنبى فلان على منزلى ، أى جعله نابياً ، وإنْ عدّيته بحرف الجر قلت : قد نبا بمنزلى فلان ، أى أنباه علىّ ، وهو فى هذا الموضع معدًّى بحرف الجرّ .

وسوء رِعتهم أى سوء ورعهم ، أى تقواهم . والورِع بكسر الراء : الرّجُل التقىّ ، ورع يرِع بالكسر فيهما ورعاً ورِعَةً ، ويروى : « سوء رَعْيهم » ، أى سوء سياستهم وإمْرتهم . ونصرة أحدكم من أحدهم ؛ أى انتصاره منه وانتقامه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ؛ وقد تقدم شرح هذا المعنى ؛ وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نُصرة العبد وتقدير الكلام : حتى يكون نصرةُ أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيّد العبد السيّئ الطريقة إياه ، « ومن » فى الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره مِنْ جانب أحدهم ومن جانب سيده ؛ وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله : « إذا شهد أطاعه » ؛ وهو الكلام الذى إذا استمرّ للمعنى جعل حالا من العبد بقوله : « من سيده » . والضمير فى قوله : « فيها » يرجع إلى غير مذكور لفظا ؛ ولكنه كالمذكور ؛ يعنى الفتنة ، أى حتى يكون أعظمكم فى الفتنة غناء .

ويروى برفع : « أعظمكم » ونصب « أحسنكم » والأول أليق ؛ وهذا الكلام كلّه إشارة إلى بنى أمية .

(٩٨)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَدْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الْأَبْدَانِ .

أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا ، وَالْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ ؛ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا ! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوهُ ، وَمُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْماً !

فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا ، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَلَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ .

أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ ، وَفِي آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ !

أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى : فَمَيِّتٌ يُبْكَى ، وَآخَرُ يُعَزَّى ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى ، وَعَائِدٌ يَعُودُ ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا

وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ ؛ وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي !

أَلَا فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعَ الْأُمْنِيَّاتِ ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَاسْتَعِينُوا اللهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

* * *

الشرح :

لما كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه ؛ لأنّ المجهول لا يحمد عليه ؛ ولما كان المستقبل غيرَ معلوم جعل الاستعانة بإزائه ؛ لأنّ الماضيَ لا يُستعان عليه ، ولقد ظَرُف وأبدع عليه السلام فى قوله : « ونسأله المعافاة فى الأديان ، كما نسأله المعافاة فى الأبدان » ، وذلك أنّ للأديان سُقْما وطبًّا وشفاء ؛ كما أنّ للأبدان سُقْما وطبًّا وشفاء ، قال محمود الورّاق :

وإذا مرضتَ من الذُّنوبِ فداوِها ... بالذِّكرِ إنّ الذِّكرَ خيرُ دواء

والسُّقم فى الأبدان لَيسَ بضائرٍ ... والسُّقم فى الأديان شرّ بلاء

وقيل لأعرابيّ : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى ، قيل : فما تشتهى ؟ قال : الجنّة ، قيل : أفلا ندعُو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضنى .

سمعتْ عفيرة بنت الوليد البَصْرِيّة العابدة رجلا يقول : ما أشدّ العمَى على من كان بصيرا ! فقالت : عبدَ الله ! غَفَلْتَ عن مرض الذنوب ، واهتممت بمرض الأجساد ؛ عَمَى القلوب عن الله أشدّ من عمى العين عن الدنيا ، ودِدْت أن الله وهب لى كُنْه محبّته ، ولم يُبق منى جارحة إلا تبَلها (١) .

قيل لحسان بن أبى سنان فى مرضه : مامرضُك ؟ قال : مرض لا يفهمه الأطباء ؛ قيل :

---

(١) تبلها : أسقمها .

وما هو ؟ قال: مرض الذنوب؛ فقيل : كيف تجدُك الآن ؟ قال: بخير إن نجوتُ من النار، قيل : فما تشتهى ؟ قال : ليلة طويلةٌ بعيدةٌ ما بين الطرفين أُحْيِيها بذكر الله .

ابن شُبْرُمة : عجبتُ ممّن يحتمِي من الطّعام مخافة الداء ، كيف لا يحتمِي من الذنوب مخافة النار !

قوله عليه السلام : « الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبّوا تركها » معنى حسن ؛ ومنه قول أبى الطّيّب :

كلّ دَمْعٍ يسيلُ منها عليها وبفكّ اليدينِ عنها تُخَلّى (١)

والرفض : التّرْك ؛ وإبل رَفْض : متروكة ترعى حيث شاءت ، وقوم سَفْر ، أى مسافرون . وأمّوا : قصدوا ، والعَلَم : الجبل أو المنار فى الطريق يهتدى به .

وكأنّ فى هذه المواضع كهى فى قوله : « كأنك بالدنيا لم تكُنْ ، وكأنك بالآخرة لم تزل ، ماأقرب ذلك وأسرعه » ، وتقدير الكلام هاهنا: كأنّهم فى حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له ، وكأنهم فى حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شُبّهوا وهم فى الحال الأولى بهم أنفسِهم وهم على الحال الثانية .

قوله عليه السلام : « وكم عسى المجرِى » أجْرَى فلان فرسه إلى الغاية، إذا أرسلها ؛ ثم نقل ذلك إلى كل مَنْ يقصِد بكلامه معنًى أو بفعله غرضاً ،فقيل : فلان يجرِى بقوله إلى كذا ، أو يجرِى بحركته الفلانية إلى كذا ، أى يقصد وينتهى بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه .

والحثيث : السريع. ويحدوه : يسوقه. والمنافسة : المحاسدة، ونفست عليه بكذا ، أى ضَنِنت . والبُؤس : الشدّة . والنفاد : الفناء .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١ .

وما فى قوله : « على أثر الماضى مايمضى الباق » إمّا زائدةأو مصدرية ، وقد أخذهذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مَسْلَمة بن عبدالملك ؛ قيل : لمامات مسلمةبن عبد الملك ، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جنازته ، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشْوان ثَمِل يجرّ مُطْرَف خزّ ؛وهو يندب مسلمة ومواليه حوله ، فوقف على هشام ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن عُقْبَى مَنْ بقى لحوق مَنْ مَضَى ؛ وقد أقفر بعد مسلمة الصّيدُ لمن رمى ، واختلّ الثغر فوهَى ،وارتجّ الطود فهوى ؛ وعلى أثرِ مَنْ سلف مايمضى من خَلَف ، فتزوّدُوا فإن خير الزاد التقوى .

قوله عليه السلام : « عند مساورة الأعمال القبيحة » العامل فى « عند » قوله : « اذكروا» أى ليكن ذكرُكم الموت وقت مساورتِكم ، والمساورة :المواثبة ، وسارَاليه يَسُور سَوْراً : وثب ، قال الأخطل يصف خمراً له :

لما أتوها بمصباحٍ ومِبزَلِهم سارَتْ إليهم سُؤُورَ الأبجل الضارى (١)

أى كوثوب العِرْق الذى قد فُصِد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه ؛ ويقال: إنّ لغَضَبِه لَسَوْرة ، وهو سَوّار ، أى وثّاب مُعَرْبِد .

---

(١) ديوانه ١١٨ . المبزل : الثقب فى جانب الخابية تجرى منه الخمر صافية . والأبجل : عرق يكون فى الدواب . وانظر اللسان (سور) .

(٩٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل:

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلنَّاشِرِ فِي اَلْخَلْقِ فَضْلَهُ ، وَاَلْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ . نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً ، وَ بِذِكْرِهِ نَاطِقاً ، فَأَدَّى أَمِيناً ، وَمَضَى رَشِيداً ، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ اَلْحَقِّ ؛ مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ،وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ. دَلِيلُهَا مَكِيثُ اَلْكَلاَمِ، بَطِيءُ اَلْقِيَامِ،سَرِيعٌ إِذَا قَامَ ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ؛ جَاءَهُ اَلْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ ؛ فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اَللّٰهُ ؛ حَتَّى يُطْلِعَ اَللّٰهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ ،فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ ، فَإِنَّ اَلْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ ، وَتَثْبُتَ اَلْأُخْرَى فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً .

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اَللّٰهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ اَلسَّمَاءِ ؛ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ ؛ فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اَللّٰهِ فِيكُمُ اَلصَّنَائِعُ ،وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

***

الشرح :

يده هاهنا : نعمته ؛ يقال : لفلان عندي يد ؛ أي نعمة وإحسان ، قال الشاعر :

فإنْ تَرْجِعِ الأيامُ بيني وبينَها ... فإنّ لها عنــدي يَداً لا أُضيعُها

وصادعا ، أى مظهرا ومجاهرا للمشركين ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (١) .

وراية الحقّ : الثّقلان المخلّفان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهما الكتاب والعِترة .

ومَرَق : خرج ، أى فارق الحقّ ، ومرق السهم عن الرميّة : خرج من جانبها الآخر ؛ وبه سُمّيت الخوارق مارقة .

وزهَقَت نفسه ، بالفتح زُهوقا ، أى خرجت ، قال تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢) . وزهَقَت الناقة ؛ إذا سبقت وتقدّمت أمام الرّكاب ، وزهقَ الباطل : اضمحلّ ، يقول عليه السلام : مَنْ خالفها متقدّما لها أو متأخرا عنها فقد خرج عن الحق ، ومن لازمها فقد أصابَ الحق .

ثم قال : « دليلها مَكيث الكلام » ، يعنى نفسه عليه السلام ، لأنه المشارُ إليه من العِترة ، وأعلمُ النّاس بالكتاب . وَمكِيث الكلام : بطيئه ، ورجل مَكيث ؛ أى رزين ، والمُكْث : اللُّبث والانتظار ، مَكَثَ ومكُث بالفتح والضم ، والاسم المُكْث والمِكْثة بالضم وكسرها ، يعنى أنه ذو أناة وتؤدة ، ثم أكّد ذلك بقوله : « بطىء القيام » .

ثم قال : « سريع إذا قام » ، أى هو متأنٍ متثبّت فى أحواله ؛ فإذا نهض جدّ وبالغ ؛ وهذا المعنى كثير جدا ؛ قال أبو الطيب :

وما قلتُ للبدرِ أنت اللُّجَيْنُ ولا قلتُ للشَّمْس أنتِ الذهبْ (٣)
فَيَقْلَقَ منهُ البعيد الأناةِ وَيغضَبُ منه البطىء الغضبْ

يعنى سيف الدولة .

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .
(٢) سورة التوبة ٨٥ .
(٣) ديوانه ١ : ٩٧ .

[أقوال مأثورة في مدح الأناة وذمّ العجلة]

ومن أمثالهم : « يريك المويني والأمور تطير » ؛ يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون ؛ ويقولون لمن هو كذلك : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(١) .

ووقع ذو الرّياستين إلى عامل له : إنّ أسرع النار التهاباً أسرعها خمودا ، فتأنّ في أمرك . ويقال : إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال : كلّ عملٍ تريدون أن تعملوه فتوقّفوا فيه ساعة ، فإنّي لو توقّفت لم يصبني ما أصابني .

بعض الأعراب يوصي ولده : إياكم والعَجلة ، فإن أبي كان يكنيها : أمّ الندم .

وكان يقال : مَنْ ورد عَجِلا صدر خَجِلا .

وقال ابن هانئ المغربيّ :

وكلُّ أناة في المواطن سؤددٌ ولا كأناةٍ من قديرٍ مُحَكَّمِ(٢)

ومنْ يتبيّنْ أنّ للصفح موضِعاً من السيف يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ

وما الرأيُ إلا بعد طول تثبُّتٍ ولا الحزمُ إلا بعد طول تَلَوُّمِ(٣)

وقوله عليه السلام: « بطيء القيام ، سريع إذا قام » فيه شَبَهٌ من قول الشّنْفَرَى :

مسبل في الحيّ أحوَى رِفَلٌّ وإذا يغزو فسِمْعٌ أزَلٌّ

ومن أمثالهم في مدح الأناة وذمّ العجلة : أخطأ مستعجل أو كاد ، وأصاب متثبت أو كاد .

---

(١) سورة النمل ٨٨ .

(٢) ديوانه ٦٧٠ .

(٣) تلوّم في الأمر : تمكث فيه وانتظر .

ومنها :

* وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[1] *

ومنها : ربّ عجلة تهب ريثاً[2] :

وقال البحترى :

حَلِيمٌ إذا القــومُ استخفَّتْ حُلُومُهُمْ وَقُورٌ إذا ما حادثُ الدهر أَجْلَبا[3]

قال الأحنف لرجل سبّه فأفرط : يا هذا، إنك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال .

وقال الشّاعر :

أحلامُنَا تَزِنُ الجبال رَجَاحَةً وتخالنـــا جِنًّا إذا ما نَجْهَلُ

[فصل فى مدح قلة الكلام وذم كثرته]

فأمّا قوله عليه السلام : « مكيثُ الكلام » ، فإنّ قلة الكلام من صِفات المدح وكثرته من صفات الذمّ . قالت جارية ابن السّماك له : ما أحسنَ كلامَك لولا أنك تكثر ترداده ! فقال : أردِّدُه حتى يفهمهُ من لم يفهمه ، قالت : فإلى أن يفهمه مَنْ لم يفهمه قد ملّه مَنْ فهمه .

بعث عبدُ العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابنِ أخيه الوليد بن عبدِ الملك قطيفةً حمراء ، وكتب إليه : أما بعدُ ، فقد بعثتُ إليك بقطيفة حمراء ، حمراء ، حمراء ؛ فكتب إليه الوليد : أما بعد ، فقد وصلت القطيفة ، وأنت ياعمّ أحمق ، أحمق ، أحمق .

---

(١) للقطامى وصدره :

* قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ *

وبعده :

وَرُبَّمَا فَاتَ قوماً جلّ أمرهمُ إذا توانَوْا وَكَانَ الرَّأْىُ لَوْ عَجِلُوا

وانظر جمهرة أشعار العرب ٣١٣ (المطبعة الرحمانية) .

(٢) أول من قاله مالك بن عوف الشيبانى . مجمع الأمثال ١ : ٢٩٤ .

(٣) ديوانه ١ : ٥٥ .

وقال المعتضد لأحمد بن الطيب السرخسيّ : طول لسانك دليلٌ على قِصَر عقلك .

قيل للعتّابيّ : ما البلاغة ؟ قال : كلّ مَنْ أفهمَك حاجتَه من غير إعادة ولا خلْسة ولا استعانة فهو بليغ . قيل له : ما الاستعانة ؟ قال : ألا ترى الرجل إذا حدّث قال : يا هناه ، واستمِعْ إليّ ، وافهم ، وألست تفهم ؟ . . هذا كلّه عيّ وفساد .

دخل على المأمون جماعة من بني العبّاس ؛ فاستنطقهم فوجدهم لُكْنًا، مع يسارٍ وهيئة، ومَنْ تكلّم منهم أكثر وَهذر ، فكانت حاله أفحش من حال الساكتين ، فقال : ما أبين الخَلّة في هؤلاء ! لا خَلّة الأيدي بل خَلّة الألسنة والأحلام .

وسئل عليّ عليه السلام عن اللّسان فقال : معيارٌ أطاشه الجهل ، وأرجحه العقل .

سمع خالد بن صفوان مكثاراً يتكلّم ، فقال له : ياهذا ، ليست البلاغة بخفّة اللّسان ، ولا بكثرة الهذَيان ، ولكنّها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة .

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزِّبَعْرَى : مالك لا تُسْهِب في شعرك ؟ قال : حسبك من الشعر غرّة لائحة ، أو وصمة فاضحة .

وفي خطبة كتاب «البيان والتبيين »(١) ؛ لشيخنا أبي عثمان : « ونعوذ بك من شرّ السّلاطة والهذَر ، كما نعوذ بك من العِيّ والحصر » ، قال أحيحة بن الجُلاَح :

والصمتُ أجملُ بالفتى ... ما لم يكن عِيٌّ يَشِينُهْ
والقول ذو خَطَلٍ إذا ... ما لَمْ يَكُنْ لُبٌّ يعينُهْ

وقال الشاعر يرثي رجلا :

لَقَدْ وارى المقابرُ من شُرَيْكٍ ... كثيرَ تَحَلُّمٍ وقليلَ عابِ(٢)

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٦ ، ونسبهما إلى عرز بن علقمة .

صموتا فى المجالس غير عىّ   جديراً حين ينطق بالصوابِ

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكره التشادُق والإطالة والهذر ، وقال : « إياك والتشادُق »، وقال صلى الله عليه وآله : « أبغضُكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » .

وروى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى ، عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنّا معاشر الأنبياء بكاء ون قليلو الكلام » ، رجل بَكِيء على « فعيل » .

قال : وكانوا يكرهُون أن يزيد منطق الرجل على عَقْله .

وقيل للخليل ، وقد اجتمع بابن المقفّع : كيف رأيتَه ؟ فقال : لسانه أرجحُ من عقله ، وقيل لابن المقفّع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : عقله أرجحُ من لسانه . فكان عاقبتهما أن عاش الخليل مصوناً مكرّماً ، وقتل ابن المقفع تلك القِتلة .

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عُبيد عن البلاغة ؟ فقال : مابلّغك الجنّة ، وباعدك عن النار ، وبصّرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك . قال : ليس عن هذا أسأل ، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول ، ومن سَقَطات الكلام ، ولا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت .

قال أبو عثمان الجاحظ : وكان عمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى : لا يكاد يتكلّم ، فإن تكلّم لم يكد يطيلُ ، وكان يقول : لا خير فى المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، وإذا أطال المتكلّم الكلام عرضت له أسبابُ التكلّف ، ولا خير فى شيء يأتيك بالتكلّف .

وقال بعض الشعراء :

وإذا خطبتَ على الرِّجال فلا تَكُنْ   خَطِلَ الكلام تقولُه مختالا

واعلمْ بأنّ من السكوت إبانةً ومن التكلّف مايكون خبالا[1]

وكان يقال : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكّر ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه سكت ، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه ، فإن همّ بالكلام تكلّم به .

وقال سعد بن أبي وقّاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم ، وقد كان غضب عليه ، فكلّموه في الرضا عنه : هذا الذي أغضبني عليه ، سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحسُ الأرضَ البقرُ بألسنتها » .

وقال معاوية لعمرو بن العاص في أبي موسى : قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللسان قصير الرأي فأجِد الحزّ ، وطبِّق المفصل ، ولا تلقَه برأيك كلّه .

وكان يقال : لو كان الكلامُ من فضة لكان السكوت من ذهب .

وكان يقال : مقتل الرجل بين فكّيه ، وقيل : بين لحييه.

وكان يقال : ماشيء بأحقّ بسجن من لسان .

وقالوا : اللسان سبع عَقُور .

وأخذ أبو بكر بطرف لسانه ، وقال : هذا الذي أوردني الموارد .

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة ، أوصاها حين أخرجها إليه فقال: أمسكي عليكِ الفضلَيْن، قالت : وما هما ؟ قال : فضل الغُلْمة ، وفضل الكلام .

وسئل أعرابيّ كان يجالس الشعبيّ عن طول صمته ، فقال : أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « وهل يُكبّ الناسَ في النار على مناخِرهم إلّا حصائدُ ألسنتهم » [2] .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٣٥ ، ونسبهما إلى بعض الكلبيين .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٣٣ ؛ قال في شرحه : « أي ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبيهاً بما يحصد من الزرع ، وتشبيهاً باللسان وما يقتطعه بحد المنجل الذي يحصد به »

تـكلّم رجل فى مجلس النّبي صلى الله عليه وآله فخطِل فى كلامه ، فقال عليه السلام :
« ماأعطِيَ العبد شرّاً من ذلاقة لسان »

قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة خالد بن عبدالله القَسْرِيّ ، وقد أنشده متمثلا :

وإذا الدّرّ زانَ حُسْنَ نُحورٍ كان للدرّ حسن نحرك زينًا

إن صاحبكم أعطِيَ مَقُولًا ، وحُرِم معقولا .

وقيل لإياس بن عمر : ادعُ لنا ، فقال : اللّهم ارحمْنا وعافنا وارزقنا ، فقالوا : زدنا يأبا الرحمن ، فقال : أعوذ بالله من الإسهاب .

وكان القُباع ـ وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومىّ ـ مِسْهاباً ، سريع الحديث كثيره ، فقال فيه أبو الأسود الدؤلىّ

أميرَ المؤمنين جُزِيتَ خَيراً أرِحْنا من قُبَاع بنى المغيرهْ [1]
بلوناهُ ولمنـــاه فأعْـيـاً علينا مايمرّ لنـا مريرهْ
على أن الفتى نِكحٌ أكولٌ ومسهاب ، مذاهبُه كثيرهْ

وقال أبو العتاهية :

كلّ امرئٍ فى نفســه أعْلَى وأشرفُ مِنْ قرينـهْ [2]
والصّمْتُ أجملُ بالفَتَى مِنْ منطقٍ فى غير حينهْ

وقال الشاعر :

وإيّاكَ إيّاكَ المراء فإنّه إلى الشرّ دَعّاء وللشرّ جالب

وكان يقال : المعجلة قَيْد الـكلام .

---

(١) ملحق ديوانه ٤٧ .
(٢) ديوانه ٢٨٢

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فزبَره ، قال : ليس حُسْن الخطابة على حَسَب طاقة الخاطب ؛ ولكن على حسب طاقة السامع .

محمد الباقر عليه السلام : إني لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل فاضلا على مقدار علمه ؛ كما أكره أن يكونَ مقدارُ علمه فاضلا على مقدار عقله .

أطال ربيعة الرأى الكلام ، وعنده أعرابيّ ، فلما فرغ من كلامه ، قال للأعرابيّ : ما تعدُّون العيّ والفهاهة فيكم ؟ قال : ما كنتَ فيه أصلحك الله منذ اليوم !

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام : إذا تمّ العقلُ نقص الكلام .

واصل بن عطاء : لأن يقولَ الله لى يوم القيامة : هَلّا قلتَ ! أحبُّ إلىّ من أن يقول لى : لم قلت ؟ لأنى إذا قلتُ طالبنى بالبرهان ؛ وإذا سكتّ لم يطالبنى بشىء .

نزل النعمان بن المنذر برابية ، فقال له رجل من أصحابه : أبيت اللعن ! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية ، إلى أينَ كان يبلغ دمُه ؟ فقال النعمان : المذبوح والله أنت ، ولأنظرنّ إلى أين يبلغ دمُك ! فذبحه . فقال رجل : ربّ كلمة تقول : دَعْنى .

أعرابىّ : رب منطقٍ صَدَع جَمْعاً ، وربّ سكوت شَعَب صدعا .

قالت امرأة لبعلها : مالك إذا خرجت تطلقّت وتحدّثت ، وإذا دخلت قعدت وسكت ؟ قال : لأنى أدِقّ عن جليلك ، وتجلّين عن دقيقى .

النَّخَعِىّ : كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلّمون الكلام .

علّى بن هشام :

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلُّمُ
إذا لم يكن صمت الفتى من بلادةٍ وعىٍّ ، فإن الصمت أهدى وأسلمُ

وهيب بن الورْد : إنّ الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها فى الصمت ، والعاشرة العزلة عن الناس .

مكث الربيع بنُ خثيم عشرين سنة لا يتكلّم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام، فسُمعتْ منه كلمةٌ واحدة، قال لما بلغه ذلك: أوقد فعلوها! ثم قال: « اللّهمّ فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ». ثم عاد إلى السكوت حتى مات.

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

زعمَ ابنُ سلمَى أنّ حلمِي ضرّني ... ما ضرّ قبلِي أهلَهُ الحِلْمُ
إنّا أناسٌ من سجيّتِهِمْ ... صِدقُ الحديثِ ورأيهم حَتْمُ
لبِسُوا الحياءَ فإن نظرتَ حسبتَهمْ ... سقموا ولم يَمْسَسْهمُ سُقْمُ
إنّي وجدتُ العُدْمَ أكبرُهُ ... عُدْمُ العقولِ وذلك العُدْمُ
والمرءُ أكثرُ عيبهِ ضَرَراً ... خَطَلُ اللسانِ وصَمْتُهُ حُكْمُ

جاء في الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا رأيتم المؤمنَ صموتاً فادنوا منه، فإنه يلقّى الحكمة ».

سفيان بن عيينة: من حُرِم العلم فليصمت، فإن حُرِمَهما فالموت خير له.

وكان يقال: إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك.

* * *

واعلم أن هذه الخطبة خطبَ بها أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة الثالثة من خلافته، وكنّى فيها عن حال نفسه، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه، وطاعتهم له؛ وهكذا وقع الأمر، فإنه نقِل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدّ اجتماعاً عليه من الشهر الذي قُتِل فيه عليه السلام.

وجاء في الأخبار أنه عَقَد للحسن ابنه عليه السلام على عشرةِ آلاف، ولأبي أيوب

الأنصاري على عشرة آلاف ، ولفلان وفلان ؛ حتى اجتمع له مائة ألف سَيْف ، وأخرج مقدّمته أمامه يريد الشام فضربه اللعينُ ابن ملجم ؛ وكان من أمره ما كان ، وانفضّت تلك الجموع ، وكانت كالغنم فقد راعيها .

ومعنى قوله : « ألقتم له رقابَكم » أطعتموه ؛ ومعنى « أشرتم إليه بأصابعكم » أعظمتموه وأجللتموه ، كالملك الذي يشار إليه بالإصبع ، ولا يخاطب باللسان . ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله ؛ ولم يحدّد ذلك بوقت معين ؛ ثم يطلع الله لهم مَنْ يجمعهم ويضمهم ، يعني من أهل البيت عليه السلام ؛ وهذا إشارة إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الوقت . وعند أصحابنا أنه غيرُ موجود الآن وسيوجد ، وعند الإمامية أنه موجود الآن .

قوله عليه السلام : « فلا تطمعوا فى غيرِ مقبل ، ولا تيأسوا من مدبر » ؛ ظاهر هذا الكلام متناقض ؛ وتأويله أنه نهاهم عن أن يطمعوا فى صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرياسة ؛ وهو معنى مقبل ، أى قادم ؛ تقول : سوف أفعل كذا فى الشهر المقبل ، وفى السنة المقبلة ، أى القادمة ؛ يقول : كلّ الرياسات التى تشاهدونها فلا تطمعوا فى صلاح أموركم بشىء منها ، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم ، مستأنف الرياسة خامل الذكر ، ليس أبوه بخليفة ، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة ، بل يتبَع ويعلو أمرُه ؛ ولم يكن قبل معروفا هو ولا أهله الأدنوْن ، وهذه صفة المهدىّ الموعود به .

ومعنى قوله : « ولا تيأسوا من مدبر » ، أى وإذا مات هذا المهدىّ وخلفه بنوه بعده ، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيأسوا وتتشككوا وتقولوا : لعلنا أخطأنا فى اتباع هؤلاء ؛ فإنّ المضطرب الأمر منّا ستثبتُ دعائمه وتنتظمُ أموره ، وإذا زلّت إحدى رجليه ثبتت

الأخرى فنبتت الأولى أيضا . ويروى : « فلا تطعنوا فى عين مقبل » ، أى لا تحاربوا أحداً منا ولا تيأسوا من إقبال مَنْ يدبر أمره منا .

ثم ذكر عليه السلام أنهم كنجوم السماء ، كلما خوى نجم طلع نجم . خوى : مال للمغيب .

ثم وعدهم بقرب الفرج ، فقال : إنّ تكامل صنائع الله عندكم ، ورؤية ما تأملونه أمر قد قَرُب وقته ، وكأنكم به وقد حضر وكان ، وهذا على نمط المواعيد الإلهية بقيام الساعة ، فإنّ الكتب المنزلة كلّها صرحت بقربها ، وإن كانت بعيدة عندنا ، لأنّ البعيد فى معلوم الله قريب ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ .

الأصْلُ:

ومن خطبة له عليه السلام ، وهى من الخُطب التى تشتمل على ذكر الملاحم

اَلْحَمْدُ لِلّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَالْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ .

***

الشّرْحُ :

يقول : البارئ تعالى موجود قبل كلّ شىء ، يشير العقل إليه ويفرضه أول الموجودات ؛ وكذلك هو موجود بعد كلّ شىء ، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات ؛ فإن البارئ سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولا قبل كلّ ما يفرض أولا ، وبالاعتبار الثانى يكون آخرا بعد كلّ ما يفرض آخرا .

فأما قوله : « بأوليّته وجب أن لا أولّ له . . . » ، إلى آخر الكلام ، فيمكن أن يفسّر على وجهين :

أحدُهما أنّه تعالى لما فرضناه أولا مطلقا ، تبع هذا الفرض أن يكون قديما أزليًّا ، وهو المعنىّ بقوله : «وجب أن لا أوّل» وإنما تبعه ذلك ، لأنّه لو لم يكن أزليا لكان محدَثا فكان له محدِث ؛ والمحدِث متقدّم على المحدَث ؛ لكنا فرضناه أولا مطلقا ، أى لا يتقدّم عليه شىء ، فيلزم المحال والخلف . وهكذا القول فى آخريّته ، لأنا إذا فرضناه آخرا مطلقا ؛ تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم ، وهو المعنىّ بقوله : « وجب أن لا آخر له »

وإنما تبعـــه ذلك ؛ لأنه لو لم يستحلّ عدمه لصح عدمه ؛ لـكن كلّ صحيح وممكن فليفرض وقوعه ، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال ، مع فرضنا إياه صحيحا وممكنا ؛ لـكن فرضُ تحقق عدمه محال ، لأنه لوعدم لما عدم بعد استمرار الوجودية إلا بضدّ ، لـكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضدّ المعدوم لاستحالة أن يعدمه ، ويعدم معه فى وقت واحد ؛ لأنه لو كان وقت عدم الطارئ هو وقت عدم الضدّ للمطروء عليه ، لامتنع عدم الضدّ المطروء عليه ؛ لأن حال عدمه الذى هو الأثر المتجدّد تكون العلة الموجبة للأثر معدومة ، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثرا ألبتّة ؛ فثبت أنّ الضدّ الطارئ لابدّ أن يبقى بعد عدم المطروء عليه ولو وقتا واحدا ، لـكن بقاءه بعده ولو وقتا واحداً يناقض فرضنا كون المطروء عليه آخرا مطلقا ، لأن الضد الطارئ قد بقىَ بعده ، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم فى المسألة الأولى .

والتفسير الثانى : ألّا تـكون الضمائر الأربعة راجعة إلى البارئ سبحانه ، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره ، ويكون تقدير الـكلام بأوليّة الأول الذى فرضنا كون البارئ سابقا عليه ، علمنا أن البارئ لا أول له ، وبآخرية الآخر الذى فرضنا أنّ البارئ متأخر عنه ؛ علمنا أنّ البارئ لا آخر له ، وإنّما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولّا لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل ، وإثبات محدِثين ومحدَثين إلى غير نهاية ، وهذا محال .

ولو كان سبحانه آخراً لآخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل ، وإثبات أضداد تعدم ويعدمها غيرها إلى غير نهاية ، وهذا أيضا محال .

* * *

الأصْلُ :

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلَانَ ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ .

أيُّهَا النَّاسُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي ، وَلَا تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي ؛ فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ[1] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ وَاللهِ[2] مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ، وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ .

لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا ، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا ، وَبَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا ، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا ، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ[3] ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ .

هَذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ ! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ !

***

الشرح :

في الكلام محذوف ، وتقديره : « لا يجرمنكم شقاقي على أن تكذبوني » ، والمفعول فضلة وحذفه كثير ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [4] ، فحذف العائد إلى الموصول ؛ ومنها قوله سبحانه : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [5] ، أي مَنْ رحمه ، ولابد من تقدير العائد إلى الموصول ؛ وقد قرئ قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، و ﴿ مَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [6] بحذف المفعول .

لا يجرمنكم : لا يحملنكم ، وقيل : لا يكسبنكم . وهو من الألفاظ القرآنية[7] .

---

(١) في مخطوطة النهج بعد هذه الكلمة « القرشي » (٢) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٣) مخطوطة النهج : « ساقه » (٤) سورة العنكبوت ٦٢ .

(٥) سورة هود ٤٣ . (٦) سورة يس ٣٥ .

(٧) من قوله تعالى في سورة هود ٨٩ : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ... ﴾

ولا يستهوينكم ، أى لا يستهيمنكم يجعلكم هائمين .

ولا تترامَوْا بالأبصار ، أى لا يلحَظُ بعضكم بعضا ؛ فعلَ المنكِر المكذِّب .

ثم أقسم بالذى فَلَق الحبّة ، وبرأ النسمة ، فَلَق الحبّة من البُرّ ، أى شقّها وأخرج منها الوَرَق الأخضر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾(١) .

وبرأ النّسمة ؛ أى خلق الإنسان ، وهذا القَسَم لايزال أمير المؤمنين يُقسِم به ، وهو من مبتكراته ومبتدعاته .

والمبلِّغ والسامع هو نفسه عليه السلام ، يقول : ما كذبتُ على الرسول تعمّدا ، ولا جهلت ما قاله فأنقل عنه غلطا .

والضِّلِّيل : الكثير الضلال ، كالشِّرِّيب والفِسِّيق ونحوهما .

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان ، لأنّ هذه الصفات والأمارات فيه أتمّ منها فى غيره ، لأنه قام بالشام حين دَعا إلى نفسه ، وهو معنى نعيقه ، وفَحَصت راياته بالكوفة ، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق ، وقَتل مُصعبا ، وتارةً لمّا استخلَف الأمراء على الكوفة كبشر بن مروان أخيه وغيره ، حتى انتهى الأمر إلى الحجّاج ، وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثِقَل وطأته ، وحينئذ صَعُب الأمر جِدًّا ، وتفاقمت الفتَن مع الخوارج وعبدالرحمن بن الأشعث ، فلمّا كَمَل أمرُ عبدالملك ـ وهومعنى « أينع زرعه » هلك ، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده ، كحروب أولاده مع بني المهلّب ، وكحروبهم مع زيد بن علىّ عليه السلام ، وكالفتن الكائنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسرىّ وعمر بن هُبيرة وغيرهم ، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال ، وذهاب النفوس .

---

(١) سورة الأنعام ٩٥ .

وقد قيل : إنه كَنَى عن معاوية وما حدَث فى أيامه من الفتن ، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيدالله بن زياد ، وواقعة الحسين عليه السلام ، والأوّل أرجح ، لأنّ معاوية فى أيام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد نَعَق بالشام ، ودعاهم إلى نفسه ، والكلام يدلّ على إنسان ينعق فيما بعد ، ألا تراه يقولُ : لكأنّى أنظر إلى ضِلّيل قد نَعَق بالشام !

* * *

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب .

النعيق : صوت الراعي بغنمه . وفَحَص براياته . من قولهم : ماله مفحَص قطاة ؛ أى مجثمها ، كأنهم جعلوا ضواحىَ الكوفة مفحَصاً ومجثَما لراياتهم .

وكوفان : اسم الكوفة ، والكوفة فى الأصل اسم الرملة الحمراء ؛ وبها سميت الكوفة .

وضواحيها : نواحيها القريبة منها البارزة عنها ؛ يريد رُستاقها .

وفغرت فاغرته : فتح فاه ، وهذا من باب الاستعارة ، أى إذا فتك فتح فاه وقتل ؛ كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيث للفتنة .

والشكيمة فى الأصل : حديدة معترضة فى اللجام فى فم الدابة ، ثم قالوا : فلان شديدُ الشكيمة ، إذا كان شديدَ المراس شديد النفس عَسِر الانقياد .

وثقلت وطأته : عظم جَوْره وظلمه . وكلوح الأيام : عبوسها ؛ والكدوح : الآثار من الجراحات .

والقروح ، الواحد الكَدْح ، أى الخدش .

والمراد من قوله : «من الأيام» ، ثم قال : «ومن الليالى» أنّ هذه الفتنة مستمرة الزمان كلّه ؛ لأن الزمانَ ليس إلا النهار والليل .

وأينع الزرع : أدرك ونضج ؛ وهو اليَنْع واليُنْع ، بالفتح والضم ؛ مثل النَّضج والنُّضج ؛

ويجوز ينع الزرع بغير همز ، ينَع ينوعا ، ولم تسقط الياء فى المضارع لأنها تقوّت بأختها ، وزرع ينِيع ويانع ؛ مثل نضيج وناضج . وقد روى أيضا هذا الموضع بحذف الهمز .

وقوله عليه السلام : « وقام على ينعه » الأحسن أن يكون « ينع » هاهنا جمع يانع كصاحب وصَحْب ، ذكر ذلك ابن كَيْسان ؛ ويجوز أن يكون أراد المصدر ، أى وقام على صفةٍ وحالةٍ هى نضجه وإدراكه .

وهدرت شقاشِقه ، قد مرّ تفسيره فى الشِّقْشِقية وبرقت بوارقه : سيوفه ورماحه .

والمعضلة : العسرة العلاج داء معضل .

ويخرِق الكوفة : يقطعها . والقاصف : الريح القوية تكسِر كلّ ماتمر عليه وتقصفه .

ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى ، فقال : « وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون » ؛ وهذا كناية عن الدولة العباسية التى ظهرت على دولة بنى أمية . والقُرون : الأجيال من الناس ، واحدها قَرْنٌ ، بالفتح .

ويحصَد القائم ، ويَحْطِم المحصود : كناية عن قتل الأمراء من بنى أمية فى الحرب ، ثم قتل المأسورين منهم صَبْراً ، فحصْد القائم قتل المحاربة ، وحَطْم الحصِيد : القتل صبرا ؛ وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن علىّ ، وأبى العباس السفاح .

(١٠١)

ومن خطبة له عليه السلام تجرى هذا المجرى :

الأصْلُ :

وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ ٱللهُ فِيهِ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لِنِقَاشِ ٱلْحِسَابِ وَجَزَاءِ ٱلْأَعْمَالِ، خُضُوعاً قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ ٱلْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالًا مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً ، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً .

***

الشَّرْحُ :

هذا شرح حال يوم القيامة ؛ والنِّقاش : مصدر ناقش ؛ أى استقصى فى الحساب ؛ وفى الحديث : « من نوقش الحساب عذِّب » .

وألجمهم العَرق : سـال منهم حتى بلغ إلى موضع اللجام من الدابة ؛ وهو الفم .

ورجفت بهم : تحرّكت واضطربت ، رجف يرجُفُ بالضم ؛ والرّجفة : الزلزلة والرجّاف من أسماء البحر ؛ سمّى بذلك لاضطرابه .

ثم وصف الزحام الشديد الذى يكون هناك ، فقال : أحسنُ الناس حالا هناك مَنْ وَجَد لقدميْه موضعا ، ومَنْ وجد مكانا يسعه .

***

الأصْلُ :

ومنها :

فِتَنٌ كَقِطَعِ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ ، لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا؛أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ

سَلَبُهُمْ ، يُجَاهِدُهُمْ فِي اللَّهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذَلِكِ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللَّهِ ! لَا رَهَجَ لَهُ وَلَا حِسَّ ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ !

***

الشرح

قطع الليل : جمع قِطْع ؛ وهو الظلمة ، قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ [1] .

قوله : « لاتقوم لها قائمة » ، أى لا تنهض بحربها فئة ناهضة ، أو لاتقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل ؛ يعنى لاسبيل إلى قتال أهلها ، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنيّة قائمة بل تنهدم .

قوله : « ولا يردّ لها راية » ؛ أى لاتنهزم ولا تفرّ ، لأنها إذا فرّت فقد رُدّت على أعقابها .

قوله : « مزمومة مرحولة » ، أى تامّة الأدوات كاملة الآلات ، كالناقة التى عليها رَحْلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركب .

يحفزها : يدفعها . ويجهَدها : يحمل عليهـا فى السَّير فوق طاقتها ؛ جَهَدت دابتى ؛ بالفتح ، ويجوز : أجهـدت ؛ والمراد أنّ أرباب تلك الفـتن يجتهدون ويجدّون فى إضرام نارها ، رُجّلا وفرسانا ، فالرّجل كنّى عنهم بالقائد ، والفرسان كنّى عنهم بالراكب .

والـكَلَب : الشدّة من البرد وغيره ، ومثله الـكُلْبة ؛ وقد كَلِب الشتاء ، وكَلِب القحط ، وكَلِب العـدوّ ، والـكَلَب أيضـا : الشرّ ، دفعت عنك كَلَبَ فلان ، أى شرّه وأذاه .

---

(١) سورة هود ٨١ .

وقوله : « قليل سَلَبُهم » ، أى همُّهم القتل لا السلب ، كما قال أبو تمام .

إنّ الأسودَ أسودَ الغاب هِمّتُها يومَ الكريهة فى المسلوبِ لا السَّلَب [١]

ثم ذكر عليه السلام أنّ هؤلاء أرباب الفتن يجاهدهم قوم أذلة ، كما قال الله تعالى : ﴿ أذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٢] ، وذلك من صفات المؤمنين .

ثم قال : هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد ؛ ولكنهم معروفون عند أهل السماء ، وهذا إنذار بملحمة تجرى فى آخر الزمان ؛ وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله بنحو ذلك ، وقد فسّر هذا الفصل قومٌ وقالوا إنه أشار به إلى الملائكة لأنّهم مجهولون فى الأرض ، معروفون فى السماء ، واعتذروا عن لفظة « قوم » ، فقالوا : يجوز أن يقال فى الملائكة قوم كما قيل فى الجنّ قوم ؛ قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ [٣] ؛ إلا أنّ لفظ « أذلةٍ عند المتكبرين » يبعد هذا التفسير .

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نِقَم الله لا رَهَجَ له ولا حسّ . الرَّهج : الغبار ، وكنّى بهذا الجيش عن جَدْب وطاعون يصيب أهلها حتى يبيدَهم . والموت الأحمر ، كناية عن الوباء والجوع .

الأغبر : كناية عن المحْل ، وسمّى الموت الأحمر لشدّته ؛ ومنه الحديث : « كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله » ووصف الجوع بأنه أغبر ، لأن الجائع يرى الآفاق كأنّ عليها غبرة وظلاما ؛ وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزَّنج ؛ وهو بعيد ، لأنّ جيشه كان ذا حسّ ورهَج ، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن ؛ ألا تراه قال : « فويل لكِ يا بصرة عند ذلك » ، ولم يكن قبل خروج صاحب الزَّنْج فِتَنٌ شديدة على الصفات التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

---

(١) ديوانه ١ : ٧١ .
(٢) سورة المائدة ٥٤ .
(٣) سورة الأحقاف ٢٩ .

(١٠٢)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أنظُرُوا إلى الدُّنيا نظرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا ، الصَّادِفِينَ عَنْهَا ؛ فَإنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ ، وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ .

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إلى الضَّعْفِ وَالْوَهَنِ؛ فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا .

رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنيا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ؛ وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ .

* * *

الشرحُ :

الصادفين عنها ، أي المعرضين ، وامرأة صدوف : التي تعرض وجهها عليك ثم تصدِف عنك .

وعَمّا قليل : عن قليل ، وما زائدة .

والثاوى : المقيم ، ثوى يثوِى ثواء وثُويًا ، مثل مضى يمضى مضاء ومُضيًا ؛ ويجوز : ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة ، وجاء « أثويتُ بالمكان » ، لغة فى « ثويت » ، قال الأعشى :

أثوَى وَقصّر ليــــله ليزوّدا فمضَتْ وأخلف من قُتيلة مَوْعِدَا[1]

والمترَف : الذى قد أترفته النعمة ، أى أطغته ؛ يقول عليه السلام : لا يعود على الناس ماأدبر وتولّى عنهم من أحوالهم الماضية ، كالشباب والقوّة ، ولا يُعلم حال المستقبل من صحة أو مرض ، أو حياة أو موت لينتظر ، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر :

وأضَيعَ العمرَ ، لا الماضى انتفعتُ بِهِ ولا حَصَلْتُ على علمٍ من الباقِ

ومشوب : مخلوط ، شبْته أشوبه فهو مشوب ، وجاء « مشيب » فى قول الشاعر :

* وماء قدورٍ فى القِصاع مشيب *

فبناه على « شِيب » لم يسمّ فاعله ، وفى المثل : « هو يشوب ويروب » ، يضرب لمن يخلط فى القول أو العمل .

والجلَد : الصلابة والقوة . والوهَن : الضعف نفسه ، وإنما عطف للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] ، وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[3] .

ثم نهى عن الاغترار بكثرة المعْجِب من الدنيا ، وعلّل حسنَ هَـذا النهى ، وقبح الاغترار بما نشاهده عيانا من قِلّة مايصحب مفارِقيها منها . وقال الشاعر :

فما تزوّد مما كانَ يجمعُه إلا حَنُوطاً غداة البين فى خِرَقِ
وغــــير نفحة أعوادٍ شببن ، له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلقِ

ثم جعل التفــكّر علة الاعتبار ، وجعل الاعتبار علّة الإبصار ؛ وهـذا حقّ ، لأنّ الفــكر يوجب الاتّعاظ ، والاتّعاظ يُوجب الــكشف ، والمشاهدة بالبصيرة التى نورها الاتّعاظ .

---

(١) ديوانه ١٥٠ ، وروايته : « ومضى » .
(٢) سورة المائدة ٤٨ .
(٣) سورة فاطر ٣٥ .

ثم ذكر أنّ ماهو كائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل ـ أى بعد زمان قصير ـ معدوما، والزمان القصير هاهنا : انقضاء الأجل وحضور الموت .

ثم قال : إنّ الذى هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل ـ أى بعد زمان قصير أيضا ـ كأنّه لم يزل ؛ والزمان القصير هاهنا هو حضور القيامة ؛ وهى وإن كانت تأتى بعد زمان طويل ، إلّا أنّ الميت لايحسّ بطوله ، ولا فرقَ بين ألف ألف سنة عنده إذا عاد حيًّا ، وبين يوم واحد ، لأن الشعور بالبطء فى الزمان مشروط بالعلم بالحركة ، ويدلّ على ذلك حال النائم . ثم قال : كلّ معدود منقضٍ ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظرى على أنّ الدنيا زائلة ومنصرفة ، وقد استدلّ المتكلّمون بهذا على أنّ حركات الفلك يستحيل ألّا يكون لها أول ، فقالوا لأنها داخلة تحت العدد ، وكلّ معدود يستحيل أن يكون غير متناهٍ ، والكلام فى هذا مذكور فى كتبنا العقلية .

ثم ذكر أن كلّ مايتوقع لابدّ أن يأتِيَ ، وكلّ ماسيأتى فهو قريب وكأنه قد أتى ، وهذا مثل قول قُسّ بن ساعدة الإيادىّ : مالِي أرى الناس يذهبون ثم لايرجعون ! أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا ! أقسم قُسٌّ قسما ، إنّ فى السماء لَخبرًا، وإنّ فى الأرض لِعبرًا؛ سقفٌ مرفوع ، ومِهاد موضوع ، ونجوم تمور ، وبحار لاتغور . اسمعوا أيّها الناس وعوا ! مَنْ عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آتٍ آت .

* * *

الأَصْلُ :

ومنها :

ألعالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً ألّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإنَّ مِنْ أبْغَضِ الرِّجالِ إِلَى اللهِ تَعالَى لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ ،جائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ،سائِراً بِغَيْرِ

دَلِيلٍ ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ ٱلدُّنْيَا عَمِلَ ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ ٱلْآخِرَةِ كَسِلَ ؛ كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ .

***

الشرح

قوله عليه السلام : «العالم مَنْ عرف قدره » ، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام، وقد قال الناس بعده فى ذلك فأكثروا، نحو قولهم: إذا جهلت قدر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل . ونحو قولهم : مَنْ لم يعرف قَدْرَ نفسه ، فالناس أعذَرُ منه إذا لم يعرفوه ، ونحو قول الشاعر أبى الطيب :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ رَأَى غيرُه مِنْهُ مَالَا يَرَى [1]

ثم عَبّر عن هذا المعنى بعبارة أخرى ، فصارت مثلاً أيضا ، وهى قوله : «كفى بالمرء جهلا ألّا يعرف قدره » ، ومن الكلام المروىّ عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام مرفوعا : « ماهلك امرؤ عرف قدره » ، رواه أبو العباس المبرد عنه فى الكامل .

قال : ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : وما إخالُ رجلًا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل فى عقله .

وروى صاحب " الكامل " أيضا عن أبى جعفر الباقر عليه السلام ، قال : لما حضرت الوفاةُ علىّ بن الحسين عليه السلام أبى ضمّنى إلى صدره ، ثم قال: يابنىّ أوصيك بما أوصانى به أبى يوم قُتِل ، وبما ذكر لى أنّ أباه عليا عليه السلام أوصاه به : يابنىّ عليك ببَذْلِ نفسك ، فإنه لا يسرّ أباك بِذُلّ نفسه حمر النعم .

وكان يقال : مَنْ عرف قدرَه استراح .

(١) ديوانه ١ : ٤٤

وفى الحديث المرفوع : « مارفع امرؤ نفسه فى الدنيا درجة إلا حطّه الله تعالى فى الآخرة درجات » .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ عن نفسه كَثُرَ الساخطون عليه . ثم ذكر عليه السلام أنّ مِنْ أبغض البَشَر إلى الله عبداً وكَلَه الله إلى نفسه ، أى لم يمدّه بمعونته وألطافه ، لعلمه أنه لاينجع ذلك فيه، وأنّه لا ينجذب إلى الخير والطاعة ، ولا يؤثر شىء مافى تحريك دواعيه إليها ، فيكِلُهُ الله حينئذ إلى نفسه .

والجائر : العادِل عن السّمت ، ولما كان هـذا الشقىّ خابطا فيا يعتقده ويذهب إليه مستندا إلى الجهل وفساد النّظر جعله كالسائر بغير دليل .

والحرث هاهنا : كلّ مايفعل ليثمر فائدة ، فحرث الدنيا كالتجارة والزراعة ، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المقبحات والمعاصى ، وسمى حرثا على جهة المجاز ، تشبيها بحرْث الأرض ، وهو من الألفاظ القرآنية .

وكَسِل الرجل بكسر السين ، يكسَل ، أى يتثاقل عن الأمور ، فهو كسلان ، وقوم كَسالى وكُسالى بالفتح والضم .

قال عليه السلام : حتّى كأن ماعمله من أمور الدنيا هو الواجب عليه ، لحرصه وجدّه فيه ، وكأنّ ماونى عنه ـ أى فتر فيه من أمور الآخرة ـ ساقط عنه ، وغير واجب عليه لإهماله وتقصيره فيه .

* * *

الأصْل :

ومنها :

وذلِكَ زَمانٌ لَا يَنْجُو فيهِ إلا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ ، إنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ،وَ إنْ غابَ

لم يُفتقَدْ؛ أولئكَ مَصابيحُ الهُدَى، وأعلامُ السُّرَى، لَيْسُوا بِالمَسابيحِ، ولا المَذابيعِ البُذُرِ، أولئكَ يَفتحُ اللهُ لَهُمْ أبوابَ رَحمتِهِ، ويَكشِفُ عَنهُمْ ضَرّاءَ نِقمتِهِ.

أيُّها النّاسُ؛ سيأتي عليكُمْ زَمانٌ يُكفأُ فيهِ الإسلامُ كَما يُكفأُ الإناءُ بِما فيهِ.

أيُّها النّاسُ؛ إنَّ اللهَ قَدْ أعاذَكُمْ مِنْ أنْ يَجُورَ عَلَيكُمْ؛ ولَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أنْ يَبتَليَكُمْ، وقَدْ قالَ جَلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ وإنْ كُنّا لَمُبتَلِينَ﴾[1].

***

قال الرضيّ رحمه الله تعالى:

أمّا قوله عَلَيهِ السّلام: «كُلُّ مُؤمِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أرادَ به الخاملَ الذِّكْرِ القليلَ الشرِّ، والمَساييحُ: جمعُ مِسْيَاحٍ؛ وهو الذي يَسِيحُ بينَ الناسِ بالفَسادِ والنّمائمِ، والمَذاييعُ: جمعُ مِذْياعٍ، وهو الذي إذا سَمِعَ لغيرِهِ بفاحِشةٍ أذاعَها، ونَوَّهَ بها. والبُذُرُ: جمع بَذُورٍ، وهو الذي يكثُرُ سَفَهُهُ ويَلغو مَنطِقُهُ.

***

الشرح:

شهد: حضر، وكفأت الإناء أي قلبته وكببته. وقال ابن الأعرابيّ: يجوز أكفأته أيضا، والبُذُر: جمع بَذُور مثل صَبُور وصُبُر؛ وهو الذي يذيع الأسرار؛ وليس كما قال الرضيّ رحمه الله تعالى، فقد يكون الإنسان بَذُورا وإن لم يكثُر سفهه ولم يَلْغُ منطقه؛ بأن يكون عُلَنة مذياعا من غير سفه ولا لغو. والضَّرّاء: الشدّة، ومثلها البأساء؛ وهما اسمان مؤنثان من غير تذكير، وأجاز الفرّاء أن يجمع على أضر وأبؤس، كما يُجمع النعماء على أنعُم.

***

(١) سورة المؤمنين ٣٠

واعلم أنه قد جاء فى التواضع وهَضْم النفس شىء كثير ؛ ومن ذلك الحديث المرفوع: « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبّر على الله وضعه » .

ويقال : إنّ الله تعالى قال لموسى : إنما كلمتك لأنّ فى أخلاقك خُلُقاً أحبّه الله ، وهو التواضع .

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشى الخُيَلاء ، فناداه فقال : ويلك ! أتمشى هذه المِشْية ، وأبوك أبوك ، وأمك أمك ! أما أمّك فأمَة ، ابتعتُها بمائتى درهم ؛ وأما أبوك فلا كثّر الله فى الناس مثله .

ومثل قوله عليه السلام : « كل مؤمن نُوَمة إنْ شهد لم يعرَف وإن غاب لم يفتقد » ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله : « ربّ أشعثَ أغبر ذى طِمْرين لا يُؤْبه له ، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه » .

وقال عمر لابنه عبدالله : التمس الرِّفعة بالتواضع والشرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس ، وإياك والخُيَلاء فتضَع من نفسك ، ولا تحقرنّ أحداً فإنك لا تدرى لعلّ مَنْ تزدريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك .

وقال الأحنف : عجبت لمن جرى فى مَجْرى البول مرتين ، من فَرْجين ، كيف يتكبّر !

وقد جاء فى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا : « إن الله يحبُّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ؛ يخرجون من كلّ غبراء مظلمة » .

* * *

وأما إفشاء السرّ وإذاعته ، فقد ورد فيه أيضا ما يكثر ، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [1] لكفى .

---

(١) سورة القلم ١٠ ، ١١

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلهـا من نار جهنم » قيل فى تفسيره : هو أن يسعى بأخيه ويجرّ نفعا بسعايته .

الجنيد : سَتْر ما عاينتَ أحسنُ من إشاعة ما ظننت .

عبد الرحمن بن عوف : من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها .

قال رجل لعمرو بن عُبيد : إن عليا الأسوارى لم يزل منذ اليوم يذكُرك بسوء ويقول : الضالّ . فقال عمرو : يا هذا ، ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه ، ولا وفّيتنى حقى حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ! اعلم أنّ الموت يعمّنا ، والبعث يحشرُنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا .

وكان يقال : مَنْ نَمّ إليك نمّ عليك .

وقالوا فى السعاة : يكفيك أن الصدق محمود إلا منهم ، وإن أصدقهم أخبثُهم .

وشى واشٍ برجل إلى الإسكندر ، فقال له : أتحبّ أن أقبل منك ما قلتَ فيه ، على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال : فكُفّ عن الشرّ يكفّ عنك .

قال رجل لفيلسوف : عابك فلان بكذا ، قال : لقيتَنى لِقِحتِك بما لم يلقنى به لحيائه .

عاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شىء بلغه عنه ، فأنكره ، فقال : أخبرَنى بذلك الثقة ، فقال : كلا أيها الأمير ، إن الثقة لا يَنِمّ .

عرض بعضُ عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع فى طىّ كتاب كتبه إليه ، فوقّع الفضل : قبول السعاية شرٌّ من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على قبيح كمن أجازه وعمل به ، فاطرُد هذا الساعىَ عن عملك ، وأقْصِه عن بابك ، فإنه لو لم يكن فى سعايته كاذبا لكان فى صدقه لئيما ، إذ لم يَرْعَ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسلام .

صالح بن عبد القدوس :

مَنْ يخـبرْك بشتمٍ عن أخٍ فهو الشـاتمُ ، لامَنْ شَتَمَكْ
ذاكَ شيء لم يواجِهْـك به إنما اللوم عَلَى مَنْ أعْلَمَكْ
كيف لم ينصرك إن كان أخـا ذا حفاظٍ عنـد مَنْ قد ظلمك !

طريح بن إسماعيل الثقفي[1] :

إن يعلمُوا الخـير يخفُوه وإن علموا شرًّا أذاعوا ، وإن لم يعلموا كَذَبُوا

ومعنى قوله عليه السلام: « وإن غاب لم يفتقَد » ، أى لا يقال : ماصنع فلان، ولاأين هو ؟ أى هو خامل لا يعرف .

وقوله : « أولئك يفتح الله بهم أبواب الرحمة ، ويكشف بهم ضرّاء النقمة »؛وروى: « أولئك يفتح الله بهم أبواب رحمته، ويكشف بهم ضرّاء نقمته » ، أى ببركاتهم يكون الخير ويندفع الشر .

ثم ذكر عليـه السـلام أنه سيأتى على الناس زمانٌ تنقلب فيـه الأمور الدينية إلى أضدادها ونقائضها ، وقد شهدنا ذلك عيانا .

ثم أخبر عليه السلام أنّ الله لا يجور على العباد ، لأنه تعالى عادل[2] ولا يظلم ولـكنه يبتلى عبـاده أى يختـبرهم ، ثم تلا قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾[3]، والمراد أنه تعالى ، إذا فسد الناس لا يلجئهم إلى الصلاح ؛ لـكن يتركهم واختيارهم امتحانا لهم ، فمن أحسن أثيب ، ومن أساء عوقب .

---

(١) ساقطة من ب (٢) ب : « عال » .
(٣) سورة « المؤمنون » ٣٠

(١٠٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً ، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْياً ؛ فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ ؛ يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ ؛ وَيُبَادِرُ بِهِمُ ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ ؛ يَحْسِرُ ٱلْحَسِيرُ ، وَيَقِفُ ٱلْكَسِيرُ ؛ فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ ؛ إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ . حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، فَٱسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ ، وَٱسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ . وَٱيْمُ ٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا ، وَٱسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَلَا خُنْتُ وَلَا وَهَنْتُ . وَٱيْمُ ٱللهِ لَأَبْقُرَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ ٱلْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ .

***

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

وقد تقدّم مختار هذه الخطبة ؛ إلّا أنى وجدتها فى هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان ؛ فأوجبت الحال إثباتها ثانية .

***

الشرح :

لقائل أن يقول : ألم يكن فى العرب نبىّ قبل محمد ؛ وهو خالد بن[1] سنان العبسىّ ؟ وأيضا فقد كان فيها هود وصالح وشعيب .

---

(١) هو خالد بن سنان بن غيث العبسى ، ذكره الرسول عليه السلام ؛ وقال : « ذلك نبى أضاعه قومه » . وانظر أخباره فى مروج الذهب ١ : ١٣١ (طبع أوربا) .

ونجيب هذا القائل بأنّ مراده عليه السلام أنه لم يكن فى زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه مَن ادّعى النبوّة ، فأما هود وصالح وشعيب ، فكانوا فى دَهْرٍ قديم جدا ، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتابا ، ولا يدّعى شريعة وإنما كانت نبوّة مشابهة لنبوّة جماعة من أنبياء بنى إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع ، وإنما ينهون عن الشرك ، ويأمرون (١) بالتوحيد .

ومنجاتهم : نجاتهم ، نجوت من كذا نجاء ، ممدود ، ونجا مقصور . ومنجاة على « مَفْعَلة » ، ومنه قولهم : « الصدق مَنجاة » .

قوله عليه السلام : « ويبادر بهم الساعة » ، كأنه كان يخاف أن تسبِقه القيامة ، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم ، وهم على ضلالهم .

والحسير : المعيا ، حَسَر البعير بالفتح ، يحسِر بالكسر حُسورا ، واستحسر مثله ، وحسرته أنا ، يتعدّى ولا يتعدّى ، حَسَر فهو حسير ، ويجوز أحسرته ، بالهمزة ، والجمع حَسْرَى ، مثل قتيل وقَتْلَى ، ومنه حَسَر البصر ، أى كَلّ ، يحسِر ، قال تعالى : ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٢) . وهذا الكلامُ من باب الاستعارة والمجاز ، يقول عليه السلام : كان النبيّ صلى الله عليه وآله لحِرْصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ، ورأفته بهم ، يلاحظ حالَ من تزلزل اعتقاده ، أو عرضتْ له شبهة ، أو حدثتْ عنده ريب ، ولا يزال يوضّح له ويرشده حتى يزيل ماخامر سرَّه من وساوس الشيطان ، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين ، ولم يكن ليقصّر فى مراعاة أحد من المكلّفين فى هذا المعنى إلا مَنْ كان يعلم أنّه لاخير فيه أصلا ، لعناده وإصراره على الباطل ، ومكابرته للحقّ .

ومعنى قوله : « حتى يلحِقه غايتَه » ، حتى يوصّله إلى الغاية التى هى الغرض بالتكليف ، يعنى اعتقاد الحقّ وسكون النفس إلى الإسلام ، وهو أيضا معنى قوله : « وبوّأهم محلّتهم » .

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) سورة الملك ٤ .

ومعنى قوله : « فاستدارت رحاهم » ، انتظم أمرهم ، لأن الرّحا إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها ، وهو أيضا معنى قوله : « واستقامت قناتهم » ، وكلّ هذا من باب الاستعارة .

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقتها ، الساقة : جمع سائق ، كقادة جمع قائد ، وحاكة جمع حائك ، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظا ، والمراد الجاهلية ، كأنه جعلها مِثلَ كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام ، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه ، حتى فرّت وأدبرت ، واتبعها يسوقها سوقا وهي مولّية بين يديه .

حتى أدبرت بحذافيرها ، أى كلها عن آخرها .

ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظا ، وهو قوله : « واستوسقت فى قيادها » ، يعنى الملّة الإسلامية أو الدعوة ، أو مايجرى هذا المجرى . واستوسقت : اجتمعت ، يقول : لماولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه فى قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها . ويجوز أن يعودَ هذا الضمير الثانى إلى المذكور الأول وهو الجاهلية ، أى ولّت بحذافيرها واجتمعت كلُّها تحت ذلّ المقادة .

ثم أقسم أنّه ماضعف يومئذ ولا وَهَن ولا جَبُن ولا خان ، وليبقرنّ الباطل الآن حتى يخرج الحقّ من خاصرته ، كأنّه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالبا عليه ، ومحيطا به ، فإذا بُقِر ظهر الحق الكامن [1] فيه ، وقد تقدم منّا شرح ذلك .

---

(١) ب : « الكائن » .

(١٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً ، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً ، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً ، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً ، فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا[١] ، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا ، إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ . صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا ، قَلِقاً وَضِينُهَا ؛ قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصَادَفْتُمُوهَا وَاللهِ ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ .

فَالْأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً ، وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ ؛ وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأُقْسِمُ بِاللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ ، وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ .

* * *

الشرح :

معنى كون النبيّ صلى الله عليه وآله شهيداً ، أنه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان.

أنجبها : أكرمها ، ورجل نجيب ؛ أي كريم بيّن النَّجابة ، والنُّجَبة مثل الهُمَزة ؛

---

(١) مخطوطة النهج : « لذاتها » .

ويقال: هو نُجْبَة القوم؛ أي النجيب منهم ،وأنجب الرجل، أي ولد ولدا نجيبا ،وامرأة منجبة ومِنجاب ، تلد النُّجَباء ، ونسوة مناجيب .

والشيمة : الخلق . والديمة : مطر يدوم . والمستمطرون : المستَجْدَوْنَ والمسماحون. واحلولت : حلت ، وقد عدّاهُ حميد بن ثور فى قوله(١) :

فَلَمّا أَتَى عَامَانِ بَعْدَ انفِصَالِه عن الضَّرْعِ ، واحْلَوْلَى دِماثا يَرُودها(٢)

ولم يجئ « افعوعل »متعديا إلا هذا الحرف وحرف آخر ، وهو اعروريت الفرس.

وهو الرَّضاع ، بفتح الراء : رضِع الصبىّ أمّه، بكسر الضاد يرضعها رضاعا، مثل سمع يسمَع سماعا ؛ وأهل نجد يقولون : رَضَع بالفتح يرضِع بالكسر ، مثل ضرَب يضرِب ضربا . وقال الأصمعىّ : أخبرنى عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُنْشد هذا البيت :

وَذَمّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يرضِعُونها أفاويقَ حتى مايدرّ لها ثُعْلُ(٣)

بكسر الضاد . والأخلاف للناقة بمنزلة الأطباء للكلبة ، واحدها خِلْف بالكسر ، وهو حلَمة الضَّرْع . والخِطام : زمام الناقة ، خطمتُ البعير : زممته ، وناقة مخطومة ، ونوق مخطّمة .

والوَضين للهودج ؛ بمنزلة البِطَان للقَتَب ، والتّصدير للرحْل ، والحِزام للسرْج؛وهو سُيور تنسَج مضاعفة بعضها على بعض ،يشدّ بها الهودج منه إلى بطن البعير ، والجمع وُضُن.

والمخضود : الذى خُضِد شوكه ، أى قطع .

وشاغرة : خالية ، شغَر المكان ، أى خلا ، وبلدة(٤) شاغرة . إذا لم تمتنع من غارة أحد . والثائر : طالب الثأر ، لايبقى على شىء حتى يدرك ثأره .

---

(١) ديوانه ٧٠٣ .

(٢) احلولى : استحلى واستمرأ ، والدماث : جمع دمث ؛ وهو السهل اللين الكثير النبات من الأرض، ويرودها : يأتيها للرعى .

(٣) اللسان ٩ : ٤٨٤ ، ونسبه إلى ابن همام السلولى .

(٤) ساقطة من ب .

يقول عليه السلام مخاطبا لمن فى عصره من بقايا الصحابة ولغيرهم من التابعين ، الذين لم يدركوا عَصْر رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله بعثَ محمدا ، وهو أكرم الناس شيمة ، وأنداهم يدا ، وخيرهم طفلا ، وأنجبهم كَهْلًا ، فصانه الله تعالى فى أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا ، وأكرمه عن ذلك فلم تُفْتَح عليكم البلاد ، ولا دَرّت عليكم الأموال ، ولا أقبلت الدنيا نحوكم ، وما دالت الدولة لكم إلا بعده ، فتمكّنتم من أكلها والتمتع بها ، كما يتمكّن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها ، وحلت لذّاتها لكم ، واستطبتم العيشة ، ووجدتموها حُلْوة خضرة .

ثم ذكر أنهم صادفوها — يعنى الدنيا — وقد صَعُبت على مَنْ يليها ولاية حق ، كما تستصعبُ الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخطام ، ليس زمامها بممكّن راكبها من نفسه ، قلقَة الوضين ، لايثبت هودجُها تحت الراكب ، حرامها سهل التناول على من يريده ، كالسِّدْر الذى خُضِد عنه شوكه ، فصار ناعما أملس ، وحلالها غير موجود لغلبة الحرام عليه ، وكونه صار مغمورا مستهلَكاً بالنسبة إليه ، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائما من استبداد الخلفاء قبله دونه بالأمر ، وأنه كان الأولى والأحقّ .

* * *

فإن قلت : إذا كانت الدنيا قَلِقة الوضين ، جائلة الخطام ، فهى صَعْبة الركوب ، وهذا ضدّ قوله : « حرامها بمنزلة السدر المخضود » ، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة !

قلت : فحوى كلامه أنّ الدنيا جمحت به عليه السلام ، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكباً لها أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبَها ، وأنها صارت بعده كالناقة التى خَلَعَتْ زمامها ، أو أجالته فلا يتمكّن راكبُها من قبضه ، واسترخى وَضِينُها لشدّة ما كان صدر عنها من النفار والتقحّم ، حتى أذرَتْ راكبها ، فصارت على حالٍ لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعى ، لأنه ركب مالا ينبغى أن يركب ، فالذين وُلّوا أمرها وُلُّوه

على غير الوجه ، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه ، ولهذا لم يقل : «فصار حرامها بمنزلة السدر المخضود » بل قال « عند أقوام » ، فخصّص .

وهذا الكلام كلّه محمول عند أصحابنا على التألّم من كون المتقدمين تركوا الأفضل، كما قدمناه فى أول الكتاب .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الدنيا فانية ، وأنها ظِلٌّ ممدود إلى أجل معدود . ثم ذكر أنّ الأرض بهؤلاء السكان فيها صورة خالية من معنى ، كما قال الشاعر :

ما أكثرَ النّاسَ ، لابل ما أقلّهُمُ   الله يعلَمُ أنّى لم أقُلْ فَنَدَا[1]
إنّى لأفتحُ عَينى ثم أغمِضُها   عَلَى كثيرٍ ، ولكنْ لا أرى أحدَا

* * *

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال : أيديكم فى الدنيا مبسوطة ، وأيدى مستحقّ الرّياسة ومستوجبى الأمر مكفوفة ، وسيوفكم مسلّطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء ، وسيوفهم مقبوضة عنكم ، وكأنّه كان يرمز إلى ماسيقع من قَتْل الحسين عليه السلام وأهله ، وكأنّه يشاهد ذلك عيانا ، ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذى سَنَح له ، والأمر الذى كان أخبر به ، ثم قال : إنّ لكل دمٍ ثائرا يطلب القَوَدَ ، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحدَه ، الذى لا يُعجزه مطلوب ، ولا يفوته هارب .

ومعنى قوله عليه السلام : « كالحاكم فى حقّ نفسه » ، أنّه تعالى لا يقصّر فى طلب دمائنا كالحاكم الذى يحكم لنفسه ، فيكون هو القاضى وهو الخصم ، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جدا فى استيفاء حقوقه .

ثم أقسم وخاطب بنى أمية ، وصرّح بذكرهم أنّهم ليعرفنّ الدنيا عن قليل فى أيدى غيرهم وفى دورهم ، وأنّ الملك سينتزعه منهم أعداؤهم ، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه

(١) البيتان لدعبل ، ديوانه ٥٧ ، وهما أيضاً فى العقد لابن عبد ربه ٢ : ٢٩٥ .

السلام ، فإنّ الأمر بقىَ فى أيدى بنى أمية قريبا من تسعين سنة ؛ ثم عاد إلى البيت الهاشمىّ ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدى أشدّ الناس عداوة لهم .

***

[هزيمة مراون بن محمد فى موقعة الزاب ، ثم مقتله بعد ذلك]

سار عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس فى جَمْع عظيم للقاء مرْوان بن محمد ابن مروان ، وهو آخر خلفاء الأمويين ، فالتقيا بالزّاب[1] من أرض الموصل ، ومرْوان فى جموع عظيمة وأعداد كثيرة ، فهزِم مرْوان ، واستولى عبد الله بن علىّ على عسكره ، وقتل من أصحابه خَلْقا عظيما ، وفرّ مرْوان هاربا حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه ، فصار إلى مصر ، فاتبعه عبدُ الله بجنوده ، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر ، وقتل خواصّه وبطانته كلّها ، وقد كان عبد الله قتل من بنى أمية على نهر أبى فُطْرُس[2] من بلاد فلسطين قريبا من ثمانين رجلا ، فتلهم مُثْلة[3] واحتذَى أخوه داود بن علىّ بالحجاز فعلَه ، فقتل منهم قريبا من هذه المدّة بأنواع المُثَل .

وكان مع مروان حين قُتِل ابناه عبد الله وعبيدُ الله — وكانا وليّى عهده — فهرَبا فى خواصّهما إلى أسْوان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جَهْدٌ شديد وضُرّ عظيم ، فهلك عبد الله بن مروان فى جماعة ممّن كان معه قتلا وعطشا وضُرًّا ، وشاهد من بقىَ منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره ، ووقع عبيد الله فى عدّة ممن نجا معه فى أرض البُجَه[4] وقطعوا البحر إلى ساحل جُدّة ، وتنقّل فيمن نجا معه من أهله ومواليه فى البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سُوقة بعد أن كانوا ملوكا فظُفِر بعبيد الله أيام السفاح ، فحبس

(١) هو الزاب الأعلى ، بين الموصل وإربل .

(٢) فطرس ، ضبطه صاحب مراصد الاطلاع بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة ؛ وقال: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

(٣) يقال : مثل فلان بالقتيل مثلة ومثلا ، أى جدعه وظهرت آثار فعله عليه .

(٤) انظر تاريخ الطبرى ٣ : ١٤٢٨ (طبع أوربا) .

فلم يزل فى السجن بقية أيام السّفّاح ، وأيام المنصور ، وأيام المهدىّ ، وأيام الهادى وبعض أيام الرشيد ، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير ، فسأله عَنْ خبره ،فقال : ياأميرَ المؤمنين، حُبست غلاما بصيرا ، وأخرِجْت شيخاً ضريرا ! فقيل: إنّه هلك فى أيام الرشيد ، وقيل : عاش إلى أن أدرك خلافة الأمين .

* * *

شهد يوم الزّاب مع مَرْوان فى إحـدى الرّوايتين إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، الذى خُطِب له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتل فيمنْ قُتِل . وفى الرواية الثانية إنّ إبراهيم قتله مَرْوان الحمار قبل ذلك .

* * *

لمـا انهزمَ مَرْوان يوم الزّاب مضى نحو الموصـل ، فنعه أهلُها من الدخول ؛ فأتى حرّان ، وكانت داره ومقامه ، وكان أهل حرّان حين أزيل لعْن أمير المؤمنين عن المنابر فى أيام الجمع امتنعوا من إزالته ، وقالوا : لا صلاة إلا بلعن أبى تراب ، فاتبعه عبد الله بن علىّ بجنوده ، فلما شارفه خرج مروان عن حرّان هاربا بين يديه وعبر الفرات ، ونزل عبد الله ابن علىّ على حرّان ، فهدم قصْر مروان بها ، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم ، واحتوى على خزائن مَرْوان وأمواله ، فسار مَرْوانُ بأهله وعِتْرته من بنى أميـة وخواصّه ، حتى نزل بنهر أبى فُطْرس ، وسار عبدالله بن علىّ حتى نزل دمشق ، فحاصرها وعليها مِنْ قِبَل مَرْوان الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مَرْوان فى خمسين ألف مقاتل ، فألقى الله تعالى بينهم العصبية فى فَضْل نزار على اليمن ، وفَضْل اليمن على نزار ، فقتِل الوليد ـ وقيـل بل قُتِل فى حرب عبـد الله بن على ـ ومَلَك عبـدُ الله دمشق ، فأتى يزيد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فحملهما مأسورين إلى أبى العباس السفاح ،فقتلهما وصلبهما بالحيرة ،وقتَل عبد الله بن علىّ بدمشق خلقا كثيرا من أصحاب مَرْوان وموالى بنى أمية وأتباعهم ، ونزل عبد الله على نهر

أبي فُطرس ، فقتل من بني أمية هناك بضعا وثمانين رجلا ، وذلك في ذي القعدة من سنة ثنتين وثلاثين ومائة .

***

[شعر عبد الله بن عمرو العبليّ في رثاء قومه]

وفي قتلى نهر أبي فُطْرس وقتلى الزاب يقول أبو عديّ عبد الله بن عمرو العبليّ ، وكان أمويّ الرأي :

تقول أمامةُ لمّا رأتْ نشوزِي عن المضجع الأملسِ (١)
وقلّةَ نومِي على مضجَعِي لدَى هَجْعَة الأعين النُّعَّسِ :
أبي ، ماعراكَ ؟ فقلت : الهمومُ عَرَيْنَ أباكِ فلا تُبْلِسِي (٢)
عَرَيْنَ أباكِ فحبّسْنَهُ مِنَ الذلّ في شرّ ماَمحبِس
لِفَقْدِ الأحبّةِ إذْ نالَها سهامٌ من الحدَث المُبْئِسِ (٣)
رمتْها المنون بلا نُكّلٍ ولا طائشاتٍ ولا نُكّسِ
بِأسْهُمِها المتلفاتِ النفو سِ متى ماتُصب مهجة تُخْلَسِ
فَصَرْعَى عنهمْ بنواحى البلا دِ فلقًى بأرض ولم يُرْمَسِ (٤)
نَقِيّ أصيب وأثوابُهُ مِنَ الْعَيْبِ والعار لم تَدْنَسِ (٥)
وآخرُ قد رُسّ في حفرةٍ وآخرُ طار فَلم يُحْسَسِ (٦)
أفاض المدامعَ قتلَى كُدًى وَقَتْلَى بِكُثْوةَ لم تُرْمَسِ (٧)
وَقَتْلَى بِوَجٍّ وباللّابَتَيْـ نِ من يثرب خَيرُ ما أنفُسِ (٨)

(١) الأغاني ٤ : ٣٤٠ (طبعة الدار) ؛ وروايته : « المضجع الأنفس » .
(٢) لا تبلسي : لا تحزني . (٣) في الأصل « المبلس » وأثبت رواية الأغاني
(٤) الأغاني : « ولم يرسس » ، والرس والرمس : الدفن .
(٥) الأغاني : « تقى » . (٦) الأغاني : « قد دس » .
(٧) كدى : موضع بالطائف ، وكثوة : موضع بعينه .
(٨) وج : اسم واد بالطائف .

وبالزابِيَيْن نفوسٌ ثَوَتْ ... وَقَتلَى بنهرِ أبي فُطْرُسِ (١)
أولئك قومى أناخَتْ بهمْ ... نوائبُ من زمن مُتْعِسِ
إذا ركبوا زينَةُ الموكِبَيْنِ ... وإنْ جلسوا زينةُ المجلسِ (٢)
وإن عنَ ذِكْرُهُمُ لم ينمْ ... أبوكِ ، وأوْحش في المأنسِ
فذاكِ الذي غالنِي فاعْلَمِي ... ولا تسألى بامرئٍ متعَسِ
هُمُ أضرعونى لريب الزما ... نِ وهم ألصقوا الخدّ بالمَعْطِسِ (٣)

* * *

[أنفة ابن مسلمة بن عبد الملك]

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب الأغاني ، قال : نظر عبدالله بن عليّ في الحرب إلى فتى عليه أبّهة الشَّرف ، وهو يحارب مستقتلاً (٤) ، فناداه : يافتى ، لك الأمان ، ولو كنتَ مَرْوان بن محمد ! قال : إلاَّ أكنه فلست بدونه ! فقال : ولك الأمان ، ولو كنتَ من كنت ، فأطرق ، ثم أنشد :

لَذُلُّ الحياة وكُرْهُ المما (٥) ... تِ وكُلاًّ أراهُ طعاماً وبيلا (٦)
وإنْ لم يكنْ غيرُ إحداهما ... فَسيْراً إلى الموت سَيْراً جميلا

ثم قاتل حتى قتل ، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك (٧) .

---

(١) الزابيان : تثنية زاب ، وهو الزاب الأعلى والزاب الأسفل ؛ ويريد به الأعلى ؛ وبه كانت الوقعة
(٢) الأغانى : « الزين في المجلس » . (٣) رواية الأغانى :

هُمُ أضرَعوني لريْبِ الزماَ ... نِ وهُمُ ألصقوا الرَّغْمَ بالمعطسِ

(٤) الأغانى : « مستقتلا » ؛ وهو الخارج من الصف المتقدم على أصحابه .
(٥) الأغانى : « أذل الحياة » . (٦) إحدى روايتى الأغانى :

* وكلًّا أرَى لكَ شرًّا وبيلا *

(٧) الأغانى ٤ : ٣٤٣ ، ٣٤٤ (طبعة الدار) .

[مما قيل من الشعر فى التحريض على قتل بنى أمية]

وروى أبو الفرج أيضا ، عن محمد بن خلف وكيع ، قال : دخل سَدِيف مولى آل أبى [1] لهب على أبى العباس بالحيرة ، وأبو العباس جالس على سريره ، وبنو هاشم دونه على الكراسىّ وبنو أمية حوله على وسائد قد ثنيت لهم ، وكانوا فى أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة [2] منهم على الأسرّة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسىّ ، فدخل الحاجب ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بالباب رجل حجازىّ أسود راكب على نجيب متلثّم ، يستأذِن ولا يخبر باسمه ، ويحلف لا يحسِر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين ! فقال : هذا سَدِيف مولانا ، أدخله ؛ فدخل فلما نظر إلى أبى العباس وبنو أمية حوله حَسَر اللثام عن وجهه ، ثم أنشد :

أصبح الملك ثابت الآساسِ ... بالبهاليل من بنى العباس [3]
بالصّدور المقدّمين قديماً ... والبحورِ القماقِمِ الرّؤّاسِ
يا إمامَ المطهَّرينَ من الذمّ ... ويارأس منتهى كلّ راسِ
أنت مهدىُّ هاشمٍ وفتاها [4] ... كم أناس رجوك بعد أناس [5]
لا تُقيلَنّ عبد شمسٍ عِثاراً ... واقْطَعَنْ كل رَقْلةٍ وغِرَاس

---

(١) الأغانى : « وهو مولى لآل أبى لهب » .
(٢) الأغانى : « والخلفاء » .
(٣) قال فى الكامل : الآساس : جمع أس ؛ وتقديرها « فعل » (بضم العين وسكون اللام) ، و « إفعال » ؛ وقد يقال الواحد أساس ، وجمعه أسس . والبهلول : الضحاك . وقال المرصفى : الأجود تفسيره بالعزيز الجامع لكل خير .
(٤) الأغانى : « وهداها » .
(٥) الأغانى : « بعد إياس » .

أنزلوها بحيثُ أنزلهـــا اللـــهُ بدار الهوانِ والإتعاس
خَوْفُهَا أظهرَ التودّدَ منهـــا وبهـــا منكمُ كحزِّ المواسى (١)
أقصِهِمْ أيّها الخليفةُ واحسِمْ عنك بالسّيف شأفة الأرْجاسِ
واذكُرَنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ وقَتيـــلاً بجانب المِهْرَاسِ (٢)
والقتيـــلَ الذى بحرّان أمسى ثاوياً بين غُرْبةٍ وتَنَاسِ (٣)
فَلَقَدْ ساءنى وساء سوائى قُرْبُهُمْ من نمارقٍ وكَرَاسِ (٤)
نِعْمَ كلبُ الهِراش مولاكَ شِبْلٌ لو نجا من حبائل الإفلاس

قال : فتغيّر لونُ أبى العباس ، وأخذه زَمَعٌ (٥) ورعدة ، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخر فيهم كان إلى جانبه، فقال : قتَلَنَا واللهِ العبد ! فأقبل أبو العباس عليهم، فقال : يابنى الزّوانى (٦) ؛ لا أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون فى الدنيا ، خذوهم ؛ فأخذتهم الخراسانية بالكافِرْكوبات فأهمدوا، إلا ما كان من عبدالعزيز ابن عمر بن عبد العزيز ، فإنه استجار بداود بن علىّ ، وقال : إن أبى لم يكن كآبائهم ،

---

(١) رواية الأغانى :

خوفهم أظهرَ التودّد منهم وبهمْ منكمُ كحزّ المواسى

(٢) ذكر المبرد فى شرح هذا البيت قوله : « مصرع الحسين وزيد » ، يعنى زيد بن على بن الحسين ؛ كان خرج على هشام بن عبد الملك ، وقتله يوسف بن عمر الثقفى ؛ وصلبه بالكناسة هو وجماعة من أصحابه . . . وإنما نسب قتل حمزة إلى بنى أمية ؛ لأن أباسفيان بن حرب كان قائدالناس يوم أحد.

(٣) القتيل الذى بحران هو إبراهيم بن محمد بن على ؛ وهو الذى يقال له الإمام ، وفى رواية الأغانى : « والإمام الذى » .

(٤) سوائى سواى ، والنمارق : واحدتها نمرقة ؛ وهى الوسائد .

(٥) الزمع : شدة الرعدة .

(٦) الأغانى : « يا بنى الفواعل » .

وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له : قد علمت صنيع أبيه إلينا؛ فوهبه له ، وقال : لا يرينى وجهه ، وليكن بحيث نأمنه ، وكتب إلى عماله فى الآفاق بقتل بنى أمية (١).

* * *

فأما أبو العباس المبرِّد ، فإنه روى فى الكامل (٢) هذا الشعر على غير هذا الوجه ؛ ولم ينسبه إلى سديف ، بل إلى شِبْل مولى بنى هاشم .

قال أبو العباس : دخل شِبْل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على ، وقد أجلس ثمانين من بنى أميّة على سِمط الطعام ، فأنشده :

أَصْبَحَ المُلْكُ ثابتَ الآساسِ ... بِالْبهاليلِ من بنى الْعَبّاسِ
طَلَبُوا وِتْرَ هاشمٍ وَشَفَوْها ... بَعْدَ مَيْلٍ من الزّمان وياسِ (٣)
لاتُقِيلَنّ عَبْدَ شمسٍ عِثاراً ... واقطَعَنْ كلَّ رَقْلَةٍ وأَواسى (٤)
ذلُّها أظهرَ التَّوَدُّدَ منها ... وبها منكمُ كحزّ المواسى (٥)
وَلَقَدْ غاظَنِي وَغَاظَ سوائِي ... قُرْبُهـا من نمارقٍ وكَراسى
أنزِلُوها بحيثُ أنزَلَها اللـه ... بدارِ الهوانِ والإتعاسِ
واذكُرُا مَصْرَعَ الحسينِ وزيدٍ ... وَقَتيلًا بجانبِ المِهْرَاسِ
والقتيلَ الّذِى بحرّانَ أضحَى ... ثاوِياً بين غُرْبَةٍ وتناسِ
نعم شِبْلُ المراشِ مولاكَ شِبْلٌ ... لَوْ نجا من حبائلِ الإفلاسِ

فأمر بهم عبد الله فشُدِخوا بالعَمَد ، وبسطت البُسُط عليهم ، وجلس عليها ، ودعا

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٤ ـ ٣٤٦

(٢) الكامل ٨ : ١٣٤ ، ١٣٥ بشرح المرصفى .

(٣) قال أبو العباس : يقال : « فى فيك ميل علينا (بسكون الياء) ، وفى الحائط ميل بفتحها » .

(٤) قال أبو العباس : الأواسى : ياؤه مشددة فى الأصل ، وتخفيفها يجوز ، ولو لم يجز فى الكلام لجاز فى الشعر » .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٢٦١ وما بعدها ، مع تصرف فى الرواية .

بالطّعام ، وإنه ليسمعُ أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا . وقال لِشِبْل : لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغنمتك أموالهم ، ولعقدتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

قال أبو العباس : الرّقْلة : النخلة الطويلة ، والأواسى : جمع آسية ؛ وهى أصل البناء كالأساس . وقتيل المِهْراس : حمزة عليه السلام ، والمِهْراس : ماء بأحُد . وقتيل حرّان : إبراهيم الإمام .

قال أبو العباس : فأما سَدِيف ، فإنه لم يقمْ هذا المقام ، وإنّما قام مقاما آخر ، دخل على أبى العباس السّفاح ؛ وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ؛ وقد أعطاهُ يدَه فقبّلها وأدناه ، فأقبل على السفاح ، وقال له :

لَا يَغُرّنْكَ مَاترى مِنْ رجالٍ إنّ تحتَ الضُّلوع داءً دويّا
فضع السّيف وارفع السوطَ حتّى لا ترى فَوْقَ ظهرِها أمويّا

فقال سليمان: مالى ولك أيها الشيخ! قتلتَنى قتلك الله ! فقام أبو العباس ، فدخل وإذا المنديل قد أُلقِى فى عُنق سليمان ، ثم جرّ فقتل .

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مرْوان فقتِل بالبلقاء،وحمل رأسه إلى عبدالله ابن علىّ .

* * *

[أخبار متفرقة فى انتقال الملك من بنى أمية إلى بنى العباس]

وذكر صاحب مروج الذهب أنّه أرسَلَ عبد الله أخاه صالح بن علىّ ومعه عامر بن إسماعيل أحدُ الشيعة الُخراسانية إلى مصر ، فلحقوا مروان ببُوصير ، فقتلوه وقتلوا كلّ مَنْ كان معه من أهله وبطانته ، وهجموا على الكَنيسة التى فيها بناته ونساؤه ، فوجدُوا خادما بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول ، فأخذُوه وسألوه عن أمره ، فقال : إنّ

أمير المؤمنين أمرنى إنْ هو قُتِل أن أقتلَ بناتِه ونساءه كلّهن ، قبل أن تصلوا إليهن ، فأرادوا قتله ، فقال : لاتقتلونى ، فإنكم إن قتلتمونى فقدتم ميراثَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : وماهو؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثبانٍ من الرمل ، فقال : اكشفوا هاهنا ، فإذا البردة والقضيب وقَعْب[1] مخضَّب قد دفنها مروان ضَنًّا بها أنْ تصيرَ إلى بنى هاشم . فوجّه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن علىّ ، فوجّه به صالح إلى أخيه عبد الله ، فوجّه به عبد الله إلى أبى العباس ، وتداوله خلفاء بنى العباس من بعد .

وأدخِل بنات مروان وحرمه ونساؤه على صالح بن علىّ ، فتكلّمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : ياعمّ أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ماتحبّ حفظه ، وأسعدك فى أحوالك كلّها ، وعمّك بخواصّ نعمه ، وشمِلك بالعافية فى الدنيا والآخرة . نحن بناتُك وبنات أخيك وابن عمّك ، فليسعنا من عدلكم ماوسعنا من جوركم . قال : إذاً لانستبقى منكم أحدا ، لأنكم قد قتلتم إبراهيمَ الإمامَ ، وزيد بن علىّ ، ويحيى بن زيد ، ومُسلم بن عقيل ؛ وقتلتم خيرَ أهل الأرض : حسينا وإخوته وبنيه وأهل بيته ، وسقتم نساءه سبايا ـ كما يُساق ذرارىّ الروم ـ على الأقتاب إلى الشام . فقالت : ياعمّ أمير المؤمنين ، فليسعْنا عفوُكم إذاً . قال : أمّا هذا فنعم ؛ وإن أحببت زوجتكِ من ابنى الفضل بن صالح ، قالت : ياعمّ أمير المؤمنين ، وأىّ ساعة عرس ترى ! بل تُلحِقنا بحرّان ، فحملهنّ إلى حرّان[2] .

* * *

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مَسْلمة الفِهرىّ ، عاملَ إفريقيَة لمروان ، فلمّا حدثت الحادثة ، هرب عبدُ الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه ، فاعتصما به فخاف

(١) مروج الذهب : « ومخصر » .

(٢) الخبر فى مروج الذهب ٣ : ٢٦١ ـ ٢٦٣ مع اختصار وتصرف ، وفى آخره : « فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعولن بالصياح والنحيب ؛ حتى ارتجّ العسكر بالبكاء منهن على مروان » .

على نفسه منهما، ورأى مَيْل الناس إليهما فقتلهما ؛ وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك يريد أن يقصِده ويلتجىء إليه ،فلمّا علِم ماجرى لابنِي الوليد بن يزيد ،خاف منه ، فقطع المجاز بين إفريقيَة والأندلس، وركب البحرَ حتى حصل بالأندلس ؛فالأمراء الّذين وُلُوها كانوا من ولده .

ثم زال أمرُهم ودولتهم على أيدِي بنى هاشم أيضا ، وهم بنو حَمُّود الحسنِيُّون ، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام .

***

لما قتلَ عامر بن إسماعيل مَرْوانَ ببُوصِير ، واحتوى على عسكره، دخل إلى الكنيسة التي كان فيها ، فقعد على فِرَاشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى ـ وتعرف بأمّ مَرْوان ـ : ياعامر ، إنّ دهرا أنزل مَرْوان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها،تأكل من طعامِه ليلة قَتْله ، محتويا على أمرِه ، حاكما فى مُلكه وحُرَمه وأهله ، لقادرٌ أن يغيّر ذلك . فأنهِيَ هذا الكلامُ إلى أبى العباس السفّاح ، فاستهجَن مافعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه : أما كان لك فى أدب الله مايزجرك أنْ تقعد فى مثل تلك الساعة على مهادِ مروان ، وتأكل من طعامه ! أما والله لولا أنّ أمير المؤمنين أنزل مافعلته على غير اعتقاد منك [لذلك][1] ولانَهَمٍ[2] على طعامٍ ، لمسّك من غضبه وأليم أدبه ، مايكون لك زاجرا ، ولغيرك واعظا. فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين : فتقرّب إلى الله بصدقة تطفئُ بها غضبَه ، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة ، وصُمْ ثلاثة أيام، وتُبْ إلى الله من جميع مايسخطه ويغضبه ، ومرْ جميعَ أصحابك أن يصوموا مثل صيامك .

ولما أُتى أبو العباس برأس مَرْوان ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه ،وقال : الحمد لله الذى

(١) من مروج الذهب (٢) فى مروج الذهب : ولا شهوة .

لم يبق ثأرنا قِبَلك وقِبَل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرنا بك ، وأظهرنا عليك . ماأبالى متى طرقنى الموت ، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بنى أمية ، وأحرقت شِلْوَ هشام بابن عمّى زيد بن علىّ ، كما أحرقوا شِلْوه ، وتمثل(١) :

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِى لم يَرْوَ شاربُهم ولا دماؤهُمُ جَمْعاً ترويني

ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس ، فتمثل :

أبى قومُنا أن يُنْصِفُونا فأنصفت قواطعُ فى أيمانِنا تَقْطُرُ الدّما(٢)

إذا خالطت هامَ الرجال تركتَها كبيض نَعامٍ فى الثرى قد تحطّما

ثم قال : أمّا مَرْوان فقتلناه بأخى إبراهيم ، وقتلنا سائر بنى أمية بحسين ، ومن قتل معه وبعده من بنى عمنا أبى طالب(٣) .

***

وروى المسعودىّ فى كتاب « مروج الذهب » عن الهيثم بن عدىّ ، قال : حدّثنى عمرو بن هانىء الطائىّ ، قال : خرجتُ مع عبد الله بن علىّ لنبش قبور بنى أميّة فى أيام أبى العباس السّفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحا ، مافقدنا منه إلا عِرْنينَ أنفه ؛ فضربه عبدُ الله بن علىّ ثمانين سوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئا إلا صُلْبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه ، وفعلنا مثل ذلك بغيرهما من بنى أميّة ، وكانت قبورهم بقنّسرين ، ثم انتهينا إلى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شئون(٤) رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظما واحدا ، ووجدنا

---

(١) فى مروج الذهب : « فتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له . . .

(٢) بعده فى مروج الذهب :

نُوَرِّثْنَ من أشياخ صدقٍ تقرّبوا بهنّ إلى يوم الوَغَى فتقدّما

(٣) مروج الذهب ٣ : ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٤) الشئون : موصل قبائل الرأس ، مفرده شأن .

من مَوْضع نحره إلى قدمه خطاً واحداً أسود ، كأنَّما خُطَّ بالرماد فى طول بَدَنه ، وتتبّعنا قبورَهم فى جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

قلت : قرأت هذا الخبر على النقيب أبى جعفر يحيى بن أبى زيد العلوىّ بن عبد الله فى سنة خمس وستمائة ، وقلتُ له : أما إحراقُ هشام بإحراق زيد فمفهوم ، فما معنى جَلْده ثمانين سوطاً ؟ فقال رحمه الله تعالى : أظنّ عبد الله بن علىّ ذهب فى ذلك إلى حدّ القَذْف ، لأنه يقال : إنّه قال لزيد : يابن الزانية ، لما سبّ أخاه محمداً الباقر عليه السلام ، فسبّه زيد، وقال له : سمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسمّيه أنت البقرة ! لشدّ ما اختلفتما ! ولتختلفنّ فى الآخرة كما خالفته فى الدنيا فيرد الجنة وترد النار .

وهذا استنباط لطيف .

***

قال مرْوان لكاتبه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى أن تصير مع عدوّى وتظهر الغَدْر بى ! فإنّ إعجابهم ببلاغتك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى اصطناعك وتقريبك ، فإن استطعت أن تسعى لتنفعنى فى حياتى ، وإلا فلن تعجز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى . فقال عبد الحميد : إنّ الذى أشرتَ به هو أنفع الأمرين لى ، وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر معك حتى يفتح الله لك أو أقتل بين يديك ، ثم أنشد :

أُسِرّ وفاء ثم أُظهِرُ غَــدْرَةً   فمَنْ لى بعُذْرٍ يوسِعُ الناس ظاهرُهْ !

فثبَت على حاله ، ولم يَصِرْ إلى بنى هاشم حتى قتِل مروان ، ثم قتِل هو بعده صبرا[1] .

***

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٣

وقال إسماعيلُ بن عبد الله القسريّ : دعانى مَرْوان ، وقد انتهت به الهزيمة إلى حَرّان ، فقال : يا أبا هاشم ـ وما كان يكنّينى قبلها : قد ترى ما جاء من الأمر ، وأنت الموثوق به ، ولا عِطْرَ بعد عروس ؛ ما الرأىُ عندك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، علامَ أجمعت ؟ قال : أرتحل بموالىّ ومَنْ تبعنى حتى آتى الدرب(١) ، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب ملكَ الروم وأستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم ، وليس هذا عاراً على الملوك ، فلا يزال يأتينى من الأصحاب الخائفُ والهارب والطامع فيكثر مَنْ معى ، ولا أزال على ذلك حتى يكشفَ الله أمرى ، وينصرنى على عدوّى ، فلما رأيتُ ما أجمعَ عليه من ذلك ، وكان الرأى ، ورأيت آثاره فى قومه من نِزار وعصبيّته على قومى من قَحْطان ، غششتُه ، فقلت : أعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين من هذا الرأى ؛ أن تحكّمَ أهل الشِّرْك فى بناتك وحرمك او هم الرّوم لا وفاء لهم ، ولا يُدْرَى ما تأتى به الأيام ، وإن حَدَث عليك حَدَثٌ من أرض النصرانية ـ ولا يحدثنّ الله عليك إلا خيراً ـ ضاع مَنْ بعدك ؛ ولكن اقطع الفرات ، واستنفر الشام جندا جندا ، فإنك فى كَنَفٍ وعدّة ، ولك فى كلّ جند صنائع وأصحاب ، إلى أن تأتىَ مصر ، فهى أكثرُ أرضِ الله مالا وخيلا ورجالا ، والشام أمامك ، وإفريقيّة خَلْفك ، فإن رأيتَ ما تحبّ انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية ، فقال : صدقت وأستخير الله . فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان : ابن حديد السُّلَمىّ ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ والكوثر بن الأسود الغنوىّ ، وغدر به سائرُ النِّزارية مع تعصبه لهم ؛ فلما اجتاز ببلاد قِنّسرين وخُناصرة ، أوقعوا بساقته ، ووثب به أهلُ حِمْص ، وصار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشىّ ثم العقيلىّ ، ثم أتى الأردنّ فوثب به هاشم بن عمرو التميمىّ ، ثم مَرّ بفلَسْطين ، فوثب به أهلُها ، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشّه فى الرأى ، ولم يَمْحَضْه النصيحة ، وأنّه فرّط فى مشورته إياه

(١) يطلق الدرب على ما بين طرطوس وبلاد الروم .

إذ شاور رجلا من قحطان موتورا شانئاً له ، وإنّ الرأىَ كان أول الذى هَمَّ به من قطع الدَّرْب والنزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملكها . ولله أمر هو بالغه [(١)] !

***

لما نزل مروان بالزّاب ، جرّد من رجاله مِمّن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس ، على مائة ألف قارح ، ثم نظر إليهم ، وقال : إنّها لعدّة ولا تنفع العدّة ، إذا انقضت المدة [(٢)] .

***

لما أشرف عبدالله بن على يوم الزّاب فى المسوّدة ، وفى أوائلهم البنود السُّود ، تحملها الرجال على الجمال البُخْت [(٣)] ، وقد جعل لها بدلا من القَنَا خشب الصَّفصاف والغَرَب [(٤)] قال مَرْوان لمن قرب منه : أما تروْنَ رماحهم كأنها النخلُ غلظا ! أما تروْن أعلامهم فوق هذه الإبل كأنّها قطع الغمام السُّود ! فبينما هو ينظرها ويعجب ، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود ، فنزلت على أوّل عسكر عبدالله بن علىّ ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومرْوان ينظر ، فازداد تعجّبه ، وقال : أما ترَوْن إلى السواد قد اتّصل بالسواد ؛ حتى صار الكلّ كالسحب السُّود المتكاثفة ! ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال : ألا تعرِفُنى مَنْ صاحب جيشهم ؟ فقال : عبد الله بن علىّ بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب . قال : ويحك أمِنْ ولد العباس هو ؟ قال : نعم ، قال : والله لوددتُ أنّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام مكانه فى هذا الصفّ ، قال : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا لعلىّ مع شجاعته التى ملأ الدنيا ذكرُها ! قال : ويحك ! إنّ عليا مع شجاعته صاحبُ دين ، وإنّ الدين غير الملك ، وإنّا نروى عن قديمنا أنّه لا شىء لعلىّ ولا لولده فى هذا . ثم قال : مَنْ هو من ولد العباس ،

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ (٢) مروج الذهب ٣ : ٢٦٥ مع اختصار وتصرف .
(٣) البخت : الإبل الخراسانية (٤) الغرب : شجرة حجازية ضخمة شاكة .

فإنى لا أثبت شخصه ؟ قال : هو الرجل الذى كان يخاصمُ بين يديك؛ عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر . فقال أذكرنى صورته وحليته ، قال : هو الرجل الأقنى الحديد المَضَل ، المعروق الوجه ، الخفيف اللحية ، الفصيح اللسان ، الذى قلت لما سمعت كلامه يومئذ : يرزق الله البيان مَنْ يشاء ، فقال : وإنه لهو ! قال : نعم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أتعلم لم صَيّرتُ الأمرَ بعدى لولدى عبد الله ، وابنى محمد أكبر سنا منه ؟ قال : لا ، قال : إن آباءنا أخبرُونا أنّ الأمر صائر بعدى إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه.

ثم بعث مروان بعد أن حدّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبدالله بن علىّ سرًّا ، فقال: يابن عمّ ، إنّ هذا الأمر صائر إليك ، فاتق الله واحفظنى فى حُرَمى ، فبعث إليه عبدالله: إنّ الحقّ لنا فى دمك ، وإنّ الحق علينا فى حُرَمك (١) .

قلت : إن مروان ظنّ أن الخلافة تكون لعبد الله بن علىّ ، لأنّ اسمه عبدالله ، ولم يعلم أنها تكون لآخر اسمه عبد الله ، وهو أبو العباس السفاح .

* * *

كان العَلاء بن رافع سِبْط ذى الكَلاع الحميرىّ مؤنساً لسليمان بن هشام بن عبدالملك لا يكاد يفارقه ، وكان أمر المسوّدة بخُراسان قد ظهر ودنوْا من العراق ، واشتدّ إرجافُ الناس ، ونطق العدو بما أحبّ فى بنى أمية وأوليائهم .

قال العلاء : فإنّى لمع سليمان وهو يشرب تجاه رُصافة أبيه ، وذلك فى آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده الحكَم الوادى (٢) ، وهو يغنّيه بشعر العرْجىّ (٣) :

إنّ الحبيبَ تروّحَتْ أجمالُهُ ... أُصُلاً ، فدمعك دائم إسبالُهُ (٤)

فاقنِ الحياءِ فقد بكيتَ بمولَةٍ ... لو كان ينفع باكيا إعوالُهُ ! (٥)

---

(١) مروج الذهب : ٣ : ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) فى الأصول : « الأودى » ، تصحيف ، وصوابه فى مروج الذهب .

(٣) فى الأصول : « البرجى » تصحيف (٤) ديوانه ٦٩

(٥) اقنى الحياء : احفظه .

يا حبّذا تلك الحول وحبّـذا   شخصٌ هناك ، وحبّذا أمثالُه !

فأجاد ماشاء ، وشرب سليمان بن هشام بالرَّطل ، وشربنا معه حتى توسَّدْنا أيدينا، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياى ، فقمت مسرعاً ، وقلت : ماشأن الأمير ؟ فقال : على رِسْلك ، رأيت كأنى فى مسجد دمشق، وكأنّ رجلا على يده حَجَر،وعلى رأسه تاج،أرى بصيصَ مافيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبنى أميّة قد دنا تشتيتكُمْ   وَذَهَابُ ملككمُ وليس براجِعِ

وينال صفوته عـدوٌّ ظالمٌ   كأسا لكم بسمام موت ناقع

فقلت : أعيذ الأمير بالله وساوس الشيطان الرجيم ! هـذا من أضغاث الأحلام ، وممـا يقتضيه ويجلبه الفكر ، وسماع الأراجيف . فقال : الأمر كما قلتُ لك ، ثم وَجَم ساعة ، وقال : ياحيرىّ ، بعيدُ مايأتى به الزمان قريب !

قال العلاء : فوالله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم (١) .

***

سُئل بعضُ شيوخ بنى أمية عَقِيب زوال الملك عنهم : ما كان سببُ زوال ملككم؟ فقال : جار عُمّالنا على رعيّتنا ، فتمنّوا الراحة منّا ، وتُحومل على أهل خراجنا فجلوْا عنا ، وخرِبَت ضياعنا فخلَتْ بيوت أموالنا ، ووثقْنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقَهم على منافعنا ، وأمضوْا أموراً دوننا،أخفوْا علمها عنّا،وتأخّر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدوُّنا ؛ فظافروه على حَرْبنا،وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا،وكان استتارُ الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال مُلْكنا .

***

كان سعيد بن عمر بن جَعْدة بن هبيرة المخزومىّ،أحد وزراء مروان وسمّاره،فلمّا ظهرَ

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٣٩ ، ٢٤٠

أمر أبي العباس السفاح ، انحاز إلى بني هاشم ، ومتَّ إليهم بأمّ هانئ بنت أبي طالب ، وكانت تحت هُبيرة بن أبي وهب ، فأتَتْ منه بجعْدة ، فصار من خواصّ السفاح وبطانته، فجلس السّفاح يوما ، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ ؛ ثم قال للحاضرين : أيّكم يعرف هذا ؟ فقال سعيد : أنا أعرفه ، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس ، رحمه الله تعالى ! قال سعيد : فحدّقت إليّ الشيعة ، ورمقني بأبصارها ، فقال لي أبو العباس : في أيّ سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغيّر لونه غضبا عليّ ، وتفرّق الناس من المجلس ، وتحدّثوا به ، فقلت : زلّة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبدا ! فأتيتُ منزلي ، فلم أزل باقي يومي أعْهدُ وأوصي ، فلما كان الليل اغتسلْتُ وتهيّأت للصلاة — وكان أبو العباس إذا همّ بأمر بعث فيه ليلا — فلم أزلْ ساهرا حتى أصبحتُ وركبت بغلتي ، وافكرت فيمن أقصِد في أمري ، فلم أجد أحداً أوْلى من سليمان بن مجالد مولى بني زهرة ، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم ، فأتيتهُ ، فقلت له : أذَكرني أمير المؤمنين البارحة ؟ قال : نعم ، جرى ذكرك ، فقال : هو ابن أختنا ، وفيّ لصاحبه ، ونحن لو أوليْناه خيرا لكان لنا أشكر . فشكرت لسليمان بن مجالد ماأخبرني به ، وجزيتهُ خيرا ، وانصرفت . فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه ، لا أرى منه إلا خيرا .

ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن عليّ وإلى أبي جعفر المنصور ، فأمّا عبد الله بن عليّ فكتب إلى أبي العباس يُغريه بي ، ويعاتبه على الإمساك عَني ، ويقول له : إنه ليس مثل هذا ممّا يحتمل ، وكتب إليه أبو جعفر يَعْذِر لي ، وضرب الدهر ضَرْبَهُ ، فأتى ذات يوم عند أبي العباس ، فنهض ونهضت ، فقال لي : عَلَى رِسْلك يابن هبيرة ! فجلست، فرفع السّتْر ، ودخل وثبتّ في مجلسه قليلا ، ثم خرج في ثوبيْ وَشْي ورداء وجُبّة ، فما رأيت والله أحسنَ منه ولا ممّا عليه قطّ ، فقال لي : يابن هبيرة ، إني ذاكرٌ لك أمراً ، فلا

يخرُجنّ من رأسك إلى أحد من الناس قلت : نعم ، قال : قد علمتَ ماجعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتَل مروان ، وإنما قتله عمّى عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتدبيره ، وأنا شديد الفكر فى أمر أخى أبى جعفر ، فى فَضْله وعلمه وسنّه وإيثاره لهذا الأمر ، كيف أخرِجُه عنه ! فقلت : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنّى أحدّثك حديثاً تعتبر به ، وتستغنى بسماعه عن مشاورتى ، قال : هاته ، فقلت : كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية ، إذ ورَدَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ينعَى سليمان ، ومصيرَ الأمر إليه ، فدخلت إليه ، فرمى الكتاب إلىّ فقرأته ، واسترجعت ، واندفع يبكى وأطال ، فقلت : أصلح الله الأمير وأطال بقاءه ! إنّ البكاء على الأمر الفائت عجز ، والموت منهلٌ لا بدّ من وِرْده ، فقال : ويحك ! إنى لستُ أبكى على أخى ، لكنّى أبكى لخروج الأمر عن ولد أبى إلى ولد عمّى ! فقال أبو العباس : حسبُك ، فقد فهمت عنك ، ثم قال: إذا شئت فانهَضْ ، فلما نهضت لم أمض بعيداً حتى قال لى : يابن هبيرة ! فالتفتّ إليه ، فقال : أما إنّك قد كافأت أحدهما ، وأخذت بثأرك من الآخر ، قال سعيد : فوالله ماأدرى من أىّ الأمرين أعجب ! من فطنته أم من ذكره[1] .

***

لما سايرَ عبدُ الله بن علىّ فى آخر أيام بنى أمية عبدَ الله بن حسن بن حسن ؛ ومعهما داود بن علىّ ، فقال داود لعبد الله بن الحسن : لم لا تأمرُ ابنيك بالظهور ؟ فقال عبد الله بن حسن : لم يأنِ لهما بعد ؛ فالتفتّ إليه عبد الله بن علىّ ، فقال : أظنك ترى أنّ ابنيك قاتلا مروان ! فقال عبد الله بن حسن : إنه ذاك ، قال : هيهات ! ثم تمثّل :

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٢ — ٢٧٤

سيكفيك الجمالة مستميتٌ خفيف الحاذِ من فتيان جَرْمِ

أنا والله أقتل مروان ، وأسلبه ملكه ؛ لا أنت ولا ولداك[1] !

***

وقد روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى رواية أخرى فى سبب قتل السفاح لمن كان أمّنه من بنى أمية ، قال : حدّث الزبير بن بكّار ، عن عمّه ، أنّ السفاح أنشِد يوما قصيدة مُدِح بها ، وعنده قوم من بنى أمية كان آمَنهم على أنفسهم ، فأقبل على بعضهم ، فقال : أين هذا مما مُدِحتم به ! فقال : هيهات ! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيّات فينا :

ما نقَموا من بنى أميّة إلّا أنهُمْ يحلُمون إن غَضِبُوا[2]

وأنّهم معدِن الملوك فما تصلُح إلا عليهم العرب

فقال له : يا ماصّ كذا من أمّه ! وإنّ الخلافة لفى نفسك بعد ! خذوهم . فأخِذوا وقتِلوا[3] .

***

وروى أبو الفرج أيضاً أنّ أبا العباس دعا بالغدَاء حين قُتِلوا ، وأمر ببساط فبُسِط عليهم ، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ ، قال : ما أعلم أنى أكلتُ أكلة قطّ كانت أطيبَ ولا أهنأ فى نفسى من هذه[4] . فلما فرغ من الأكل قال : جُرّوهم بأرجلهم، وألقوهم فى الطريق؛ ليلعنَهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء .

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤

(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٦ (طبعة الدار) .

(٤) الأغانى : « منها » .

قال : فلقد رأينا الكلاب تجرّهم بأرجلهم ، وعليهم سراويلات الوشى حتى أنتنوا ، ثم حفرتْ لهم بئر فألقُوا فيها[١] .

***

قال أبو الفرج : وروى عمر بن شبّه ، قال : حدثنى محمد بن معن الغِفَارىّ ، عن معبد الأنبارىّ ، عن أبيه ، قال : لما أقبل داود بن علىّ من مكة ، أقبل معه بنو حُسَنٍ جميعاً ، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن ، وأخوه حسن بن الحسن ، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان — وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمّه — فعمل داود مجلساً ببعض الطريق ، جلس فيه هو والهاشميّون كلّهم ، وجلس الأمويّون تحتهم ، فجاء ابن هرْمة فأنشده قصيدة يقول فيها :

فَلا عَفَا اللهُ عن مَرْوان مظلمةً ولا أميّة ، بئس المجلس النادى !
كانوا كعادٍ فأمسى اللهُ أهلكهمْ بمثل ما أهلك الغاوين مِنْ عَادِ
فلن يكذّبَنى من هاشمٍ أحدٌ فيما أقول ، ولو أكثرتُ تعدادِى

قال : فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضَحْكَةً كالكشْرة ، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن : أما رأيت ضحك[٢] داود إلى ابن عنبسة ! الحمد لله الذى صَرَفَها عن أخى — يعنى العثمانىّ — قال : فما هو إلا أن قدم المدينة ، حتى قتل ابن عنبسة[٣] .

***

قال أبو الفرج : وحدّثنى محمد بن معن ، قال : حدّثنى محمد بن عبد الله بن عمرو

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٧ (طبعة الدار) .
(٢) الأغانى : « ضحكته إلى ابن عنبسة » .
(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .

ابن عثمان ، قال : استحلف أخى عبد الله بن الحسن داودَ بن على - وقد حج معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة - بطلاق امرأته مُلَيكة بنت داود بن الحسن ، ألّا يقتل أخويه محمدا والقاسم ابنىْ عبد الله بن عمرو بن عثمان ، قال : فكنت أختلِف إليه آمنا ، وهو يقتل بنى أمية ، وكان يكره أنْ يرانى أهل خراسان ، ولا يستطيع إلىّ سبيلا ليمينه ، فاستدنانى يوما ، فدنوت منه ، فقال : ما أكثر الغفلة ، وأقلّ الحزْمة ! فأخبرت بها أخى عبدَ الله بن الحسن ، فقال : يابن أمّ ، تغيَّبْ عن الرجل ، وأقِلّ عنه ، فتغيب حتى مات[1] .

قلت : إلّا أنّ ذلك الدّيْن الذى لم يقضه داود ، قضاه أبو جعفر المنصور .

***

وروى أبو الفرج فى الكتاب المذكور أن سُدَيفا أنشد أبا العباس ، وعنده رجال من بنى أمية ، فقال :

يابنَ عمّ النبى أنت ضياءٌ ... استبنّا بك اليقينَ الجليّا

[فلمّا بلغ قوله][2] :

جرّد السيفَ وارفع العفو حتّى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا[3]

قَطَنَ البغضُ فى القديم وأضحى[4] ... ثابتاً فى قلوبهم مطويّا

وهى طويلة ، فقال أبو العباس : يا سُدَيف ، خُلِقَ الإنسان من عجل ! ثم أنشد أبو العباس متمثّلا :

أحيا الضغائنَ آباء لنا سَلَفُوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء

---

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٨ (طبعة الدار) .

(٢) من الأغانى .

(٣) ذكر بعده فى الأغانى :

لا يغرّنْكَ ما ترى من رجالٍ ... إنّ تحتَ الضلوع داءً دويّا

(٤) فى الأغانى : « بطن البغض » .

ثم أمر بمن عنده فقتلوا(١) .

●●●

وروى أبو الفرج أيضاً ، عن علىّ بن محمد بن سليمان النوفلى ، عن أبيه ، عن عمومته ، أنهم حضروا سليمان بن علىّ بالبصرة ، وقد حضر جماعة من بنى أمية عنده ، عليهم الثياب الموشّاة(٢) المرتفعة ـ قال أحد الرواة المذكورين : فكأنى أنظر إلى أحدهم وقد اسودّ شيب فى عارضيه من الغالية(٣) ـ فأمر بهم فقتلوا وجُرّوا بأرجلهم ، فألقُوا على الطريق ، وإنّ عليهم لسراويلات الوَشْى والكلاب تجرّهم بأرجلهم(٤) .

●●●

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك ، عن أبيه ، قال : جاءنى رسولُ عمرو ابن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان ، قال : يقول لك [عمرو](٥) : قد جاءت هذه الدولة ، وأنا حديث السنّ ، كثير العيال ، منتشِر الأموال ؛ فما أكون فى قبيلة إلا شُهر أمرى وعرِفت . وقد عزمت على أن أخرج من الاستتار ، وأفدِىَ حُرَمى بنفسى ، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن علىّ ، فصرْ إلىّ . فوافيتُه فإذا عليه طيلسانٌ أبيض مطبِق ، وسراويل وَشْىٍ مسدول ، فقلت : ياسبحان الله ! ماتصنع الحداثة بأهلها ! أبهذا اللباس تَلْقَى هؤلاء القوم لِما تُريد لقاءهم [فيه](٤) ! فقال : لا والله ، ولكن ليس عندى ثوب إلا أشهر ممّا ترَى . فأعطيته طَيْلسانى وأخذت طيلسانه ، ولويتُ سراويله إلى ركبتيه . فدخل إلىّ سليمان ، ثم خرج مسرورا فقلت له : حدّثنى ما جرى بينك وبين الأمير ، قال : دخلت عليه ولم يرنى(٦) قطّ ، فقلت : أصلح الله الأمير ! لفظتنى البلاد إليك ودلّنى فضلُك

(١) الأغانى ٤ : ٣٤٨ ، ٣٤٩ (طبعة الدار) .
(٢) الأغانى : « الموشية » .
(٣) الغالية : ضرب من الطيب .
(٤) الأغانى ٤ : ٣٤٩
(٥) من الأغانى .
(٦) الأغانى : « ولم تتراه » .

عليك ؛ إمّا قتلتنى [غانما][١] وإمّا أمّنتنى [سالما][٢]،فقال : ومَنْ أنت حتى أعرفك ؟ فانتسبت له ، فقال: مرحبا بك ! اقعد فتكلّم سالما آمنا ، ثم أقبلَ علىّ فقال : حاجتك يابن أخى ؟ فقلت: إن الحُرَم اللواتى أنت أقربُ الناس إليهنّ معنا، وأولى الناس بهنّ بعدنا، قد خفْن لخوفنا ، ومَنْ خاف خِيف عليه . فوالله ما أجابنى إلا بدموعه على خدّيه ، ثم قال: يابن أخى ، يحقِنُ الله دمك ، ويحفظك فى حُرَمك ، ويوفّر عليك مالك ؛ فوالله لو أمكننى ذلك فى جميع قومك لفعلت، فكن متواريًا كظاهر ، وآمنا كخائف، ولتأتنى رقاعُك . قال : فوالله لقد كنتُ أكتب إليه كما يكتبُ الرجل إلى أبيه وعمه . قال : فلما فرغ من الحديث ، رددت عليه طيلسانه ، فقال : مهلا ، فإن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا[٣] .

* * *

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ، قال : أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ ، عن عمر بن شبّة ، قال : قال سُديف لأبى العباس يحضّه على بنى أمية ، ويذكر من قتل مَرْوان وبنو أمية من أهله :

كيف بالعفو عنهمُ وقديمًا ... قتلوكم وهتّكوا الحرماتِ
أين زيدٌ وأين يحيى بن زيد ! ... يالها من مصيبة وتِرَاتِ !
والإمام الذى أصيب بحرّا ... ن إمام الهدى ورأس الثقاتِ
قتلوا آل أحمد لا عفا الذَّنْبَ لمروان غافرُ السّيئاتِ

* * *

قال أبو الفرج : وأخبرنى علىّ بن سليمان الأخفش، قال : أنشدنى محمد بن يزيد المبرّد لرجل من شيعة بنى العباس ، يحضّهم على بنى أمية :

(١) من الأغانى .
(٢) من الأغانى ، وروايته : « وإما رددتنى سالما » .
(٣) الأغانى ٤ : ٣٤٩ ، ٣٥٠ (طبعة الدار) .

إيّاكمُ أن تلينوا لاعتـذارهمُ ... فليس ذلك إلّا الخوف والطمعُ
لو أنّهم أمِنُوا أبدَوْا عداوتهمْ ... لـكنّهم قُمِعوا بالذلّ فانقمعوا
أليس فى ألف شهر قد مضت لهمُ ... سقيتمُ جُرَعًا من بعـدها جُرَعُ
حتى إذا ماانقضت أيام مدّتهمْ ... متّوا إليـكم بالأرحام التى قطعوا
هيهات لابدّ أن يسقوا بكأسهمُ ... رَيًّاوأن يَحصُدُواالزرع الذى زرعُوا
إنّا وإخواننا الأنصارَ شيعتُـكم ... إذا تفرقت الأهـــواء والشِّيَعُ (١)

* * *

قال أبو الفرج : وروى ابن المعتز فى قصة سُدَيف مثل ماذكرناه من قبل ؛ إلا أنّه قال فيها : فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغَمْر سليمان بن هشام ، فقال : ياماصّ بَظْر أمه، أتجبَهنَا بمثل هذا ونحن سَرَوات الناس ! فغضِب أبو العباس ـ وكان سليمان بن هشام صديقه قديما وحديثا، يقضى حوائجه فى أيامهم ويَبَرُّه ـ فلم يلتفت إلى ذلك، وصاح بالخراسانية: [خذوهم](٢) ! فقتلوهم جميعا إلا سليمان بن هشام ، فأقبل عليه أبو العباس ، فقال : ياأبا الغَمْر : ماأرى لك فى الحياة بعدهؤلاء خيرا . قال : لاوالله،قال : فاقتلوه ، وكان إلى جنبه فقتِل وصلِبوا فى بستانه ؛ حتى تأذّى جلساؤه بريحهم ، فـكلّموه فى ذلك ، فقال : والله إن ريحهم عندى لألذّ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظا عليهم [وحنقا](٢) .

* * *

قال أبو الفرج : وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليهم يعدّ فى موالى عثمان بن عفان واسم أبى سعيد إبراهيم ؛ وهو من شعرائهم الذين رثوْهم ، وبكوا على دولتهم وأيامهم ؛ فمن شعره بعد زوال أمرهم :

---

(١) بعده فى الأغانى ٤ : ٣٥١ :

إيّاكم أن يقولَ الناسُ إنهمُ ... قد مُلّـكوا ثم ماضرّوا ولانفعوا

(٢) من الأغانى ٤ : ٣٥١ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩ ، ٤٠

بكيتُ وماذا يرد البكا ؛ وقلّ البُكاء لقتلى كُداء
أصيبوا معاً فتولّوْا معاً كذلك كانوا معاً فى رخاء
بكت لهمُ الأرضُ من بعدهم وناحت عليهم نجومُ السماء
وكانوا ضياء فلما انقضى الزّمانُ بقومى تولى الضياء

ومن شعره فيهم :

أثّر الدّهرُ فى رجالى فقلّوا بعد جَمْع فراح عظمِى مَهِيضاً
ماتذكّرتُهمْ فتملك عينى فيضَ دمع، وحقّ لى أن تفيضا

ومن شعره فيهم :

أولئك قومى بعد عِزّ وثروةٍ تداعوْا فإلا تذرف العين أكْمَد
كأنهمُ لاناس للموت غيرُهمْ وإن كان فيهم منصفا غير مُعْتدِ[1]

***

وقال أبو الفرج : ركبَ المأمون بدمشق يتصيد ؛ حتى بلغ جبل الثلج ، فوقف فى بعض الطريق على بركة عظيمة ، فى جوانبها أربع سروات[2] ، لم يُرَ أحسن منها ، فنزل هناك ؛ وجعل ينظر إلى آثار بنى أميّة ويتعجّب منها ، ويذكرهم . ثم دعا بطبقٍ عليه طعام ، فأكل ، وأمر علّويه فغنى :

أولئك قومى بعد عزّ ومنعة تفانوْا فإلّا تذرف العين أكمَدِ

وكان علّويه من موالى بنى أمية ، فغضب المأمون . وقال : يابن الفاعلة ، ألم يكن لك وقت تبكى فيه على قومك إلا هذا الوقت ! قال : كيف لا أبكى عليهم ومولاكم زرياب، كان فى أيام دولتهم يركب معهم فى مائة غلام ، وأنا مولاهم معكم أموت جوعا ! فقام المأمون

(١) الأغانى ٤ : ٣٥٣ (طبعة الدار) .
(٢) السرو : شجر حسن الهيئة قويم الساق ، واحده سروة .

فركب وانصرف الناس ، وغضب على علّويه عشرين يوما ، وكُلّم فيه فرضي عنه ، ووصله بعشرين ألف درهم (١) .

***

لما ضرب عبد الله بن علىّ أعناق بنى أميّة ،قال له قائل من أصحابه : هذا والله جهد البلاء ، فقال عبدالله : كلّا ، ماهذا وشَرْطة (٢) حجّام إلّا سواء، إنما جهدالبلاء فقْر مدقع ، بعد غنًى موسع (٣) .

***

خطب سليمان بن علىّ لما قتَل بنى أمية بالبصرة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٤) قضاء فصل ، وقول مبرم ، فالحمد لله الذى صدق عبده ، وأنجز وعده ؛ وبعداً للقوم الظالمين ؛ الذين اتخذوا الكعبة غرَضاً ،والدين هزواً ،والفىء إرثا ، والقرآن عِضين ؛ لقدحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأيّن ترى لهم من بئر معطّلة وقصر مشيد ، ذلك بما قدّمت أيديهم ، وماربّك بظلام للعبيد ؛ أمهلهم حتى اضطهدوا العِترة ، ونبذوا السنّة ؛ واستفتحوا وخاب كلّ جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تُحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا !

***

ضرب الوليد بن عبد الملك عَلىّ بن عبد الله بن العباس بالسّياط ، وشَهّره بين الناس يُدار به على بعير ، ووجهه مما يَلِى ذَنَب البعير ، وصائح يصيح أمامه : هذا علىّ بن عبد الله الكذّاب ، فقال له قائل ، وهو على تلك الحال : ما الذى نسبوك إليه من الكذب يأبا محمد ؟ قال : بلغهم قولى : إن هذا الأمر سيكون فى ولَدِى ؛ والله ليكوننّ فيهم

---

(١) الأغانى ١٤ : ٣٥٣ ، ٣٥٤ (٢) الشرط : بزغ الحجام بالمشرط .
(٣) الخبر فى اللسان (٩ : ٢٥) ، مع اختلاف فى الرواية (٤) سورة الأنبياء : ٥

حتى يَمْلِكَهُ عبيدهم الصغار العيون ، المراض الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرّقة .

***

وروى أنّ علىّ بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه : الخليفتان أبو العباس وأبو جعفر ، فكلّمه فيما أراد ، ثم ولّى فقال هشام : إنّ هذا الشيخ قد خرِف وأهتر؛ يقول : إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده ! فسمع علىّ بن عبد الله كلامه ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكونَنّ ذلك ، وليملِكَنّ هذان .

وقد روى أبو العباس المبرّد فى كتاب " الكامل " هذا الحديث ، فقال : دخل علىّ بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخىّ ، ومعه ابنا ابنه الخليفتان بعد : أبو العباس وأبو جعفر ، فأوسع له على سريره وبرّه ، وسأله عن حاجته ، فقال : ثلاثون ألف درهم علىّ دين ، فأمر بقضائها ، قال: واستوص بابنىّ هذين خيرا ، ففعل ، فشكره علىّ بن عبد الله ، وقال : وصلتك رَحِم ، فلما ولّى قال سليمان لأصحابه : إنّ هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخلّط ، وصار يقول : إنّ هذا الأمر سينتقل إلى ولده . فسمع ذلك علىّ بن عبد الله ، فالتفت إليه ، وقال : إى والله ليكونَنّ ذلك ، وليملِكَنّ هذان(١) .

قال أبو العباس المبرّد : وفى هذه الرواية غلط ، لأنّ الخليفة فى ذلك الوقت لم يكن سليمان ، وإنما ينبغى أن يكون دخل على هشام ؛ لأنّ محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس كان يحاول التزويج فى بنى الحارث بن كعب ، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له ، فلمّا قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال : إنّى أردت أنْ أتزوّج ابنة خالى من بنى الحارث

---

(١) الكامل ٢ : ٢١٨ مع اختلاف فى الرواية .

ابن كعب ، فتأذن لى ! فقال عمر بن عبد العزيز : تزوجْ يرحمك الله مَنْ أحببت . فتزوجها فأولدها أبا العباس السّفاح ، وعمر بن عبدالعزيز بعد سليمان ، وأبو العباس ينبغى ألا يكون تهيأ لمثله أن يدخل على خليفة حتى يترعرع ، ولا يتمّ مثل هذا إلا فى أيام هشام ابن عبد الملك .

•••

قال أبو العباس المبرّد : وقد جاءت الرواية أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام لما وُلِد لعبد الله بن العباس مولود فقده وقت صلاة الظهر ، فقال : مابالُ ابن العبّاس لم يحضُر ! قالوا : وُلِد له ولدٌ ذكر ، ياأمير المؤمنين . قال : فامضُوا بنا إليه ، فأتاه فقال له : شكرتَ الواهب ، وبُورك لك فى الموهوب ! ماسمّيتَه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، أو يجوز لى أن أسمّيَه حتى تسمّيَه ! فقال : أخرجه إلىّ ، فأخرجه ، فأخذه فحنّكه ودعا له ثم رده إليه ؛ وقال : خذ إليك أبا الأملاك ، قد سميتهُ عليا ، وكنيته أبا الحسن . قال : فلما قدم معاوية خليفة ، قال لعبد الله بن العبّاس : لاأجمع لك بين الاسم والكنية ، قد كنيته أبا محمد ، فجرَتْ عليه[1] .

قلت : سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد رحمه الله تعالى ، فقلت له : مِنْ أىّ طريق عرف بنو أمية أنّ الأمر سينتقل عنهم ، وأنه سيليه بنو هاشم ، وأوّل من يلى منهم يكون اسمه عبد الله ؟ ولم منعوهم عن مناكحة بنى الحارث بن كعب لعلمهم أنّ أول من يلى الأمر من بنى هاشم تكون أمّه حارثية ؟ وبأىّ طريق عرف بنو هاشم أنّ الأمر سيصير إليهم ، ويملكه عبيدُ أولادهم ؛ حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه ، كما قد جاء فى هذا الخبر !

---

(١) الكامل ٣٦٠ (طبع أوروبا) .

فقال : أصلُ هذا كلّه محمد بن الحنفيّة ، ثم ابنه عبد الله المكنى أبا هاشم .

قلت له : أفكان محمد بن الحنفيّة مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام ؟ قال : لا ، ولكنهما كتما وأذاع . ثم قال : قد صحّت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث ، أنّ عليا عليه السلام لما قبض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام ، فقال لهما : أعطياني ميراثي من أبي ، فقالا له : قد علمت أنّ أباك لم يترك صفراء ولا بيضاء ، فقال : قد علمت ذلك ؛ وليس ميراث المال أطلب ؛ إنما أطلب ميراث العلم .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: فروى أبان بن عثمان عمّن يُروى له ذلك،عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : فدفعا إليه صحيفة ، لو أطلعاه على أكثرمنها لهلك ، فيها ذكر دولة بنى العباس .

قال أبو جعفر : وقد روى أبو الحسن علىّ بن محمد النوفلىّ ، قال : حدثنى عيسى ابن علىّ بن عبد الله بن العباس ، قال : لما أردنا الهرب من مروان بن محمد ، لما قبض على إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التى دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفيّة إلى محمد بن على ابن عبد الله بن العباس ، وهى التى كان آباؤنا يسمّونها صحيفة الدولة ، فى صندوق من نحاس صغير ، ثم دفناه تحت زيتونات بالشّراة [(١)] لم يكن بالشّراة من الزيتون غيرهن ،فلما أفضى السلطان إلينا ، وملكنا الأمر ،أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحُفر ، فلم يوجد فيه شىء ، فأمرنا بحفر جريب من الأرض فى ذلك الموضع ؛ حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئا .

قال أبو جعفر : وقد كان محمد بن الحنفيّة صرّح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرّفه تفصيله،ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصّل لعبدالله بن العباس الأمر،وإنما أخبره به

(١) الشراة : صقع بالشام بين المدينة ودمشق ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة ، كان يسكنها ولد على بن عبدالله بن عباس فى أيام بنى مروان . ياقوت .

مجملا ، كقوله في هذا الخبر : « خذ إليك أبا الأملاك »، ونحو ذلك مما كال يعرّض له به؛ ولكن الذي كشف القناع ، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفيّة .

وكذلك أيضا ماوصل إلى بني أمية من علم هـذا الأمر ، فإنه وصل من جهة محمد ابن الحنفيّة ، وأطلعهم على السرّ الذي علمه ، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبني العباس ، فإنّ كشفهُ الأمر لبني العباس كان أكمل .

قال أبو جعفر : فأما أبو هاشم،فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن عليّ بن عبدالله ابن العباس وأطلعه عليه ، وأوضحه له ، فلما حضرته الوفاة عَقيب انصرافه من عند الوليد ابن عبد الملك مَرّ بالشراة ؛ وهو مريض ومحمد بن علي بها ، فدفع إليه كتبه ، وجعله وصيّه ، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه .

قال أبو جعفر : وحضر وفاة أبي هاشم ثلاثة نفر من بني هاشم : محمد بن عليّ هذا ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن الحارث بن نوفل ابن الحارث بن عبدالمطلب؛فلما مات خرج محمدبن معاوية بن عبدالله بن جعفرمن عنده، وكلّ واحد منهما يدّعي وصايته ، فأمّا عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئا .

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى:وصدق محمد بن عليّ ، أنّه إليه أوصى أبو هاشم،وإليه دفع كتاب الدولة ، وكَذَب معاوية بن عبدالله بن جعفر،لكنّه قرأ الكتاب ، فوجدلم فيه ذِكراً يسيرا،فادّعى الوصية بذلك ، فمات وخرج ابنهُ عبدالله بن معاوية يدّعي وصاية أبيه ، ويدّعي لأبيه وصاية أبي هاشم ، ويظهر الإنكار على بني أمية ، وكان له في ذلك شيعة يقولون بإمامته سرّاً حتى قتل .

* * *

دخلتْ إحدى نساء بني أميّة على سليمان بن علي ؛ وهو يقتل بني أمية بالبصرة ،

فقالت : أيها الأمير ، إنّ العدل ليُمَلّ من الإكثار منه ، والإسراف فيه، فكيف لا تملّ أنت من الجوْر وقطيعة الرحم ! فأطرق ثم قال لها :

سَنَنْتُمْ علينا القتــل لا تنكِرُونه فذوقوا كما ذقْنا على سالِف الدّهرِ

ثم قال : يا أمَة الله

* وأول راضٍ سنّة مَنْ يَسِيرُها (١) *

ألم تحاربوا عليا وتدفعوا حقه ؟ ألم تسمُّوا حسنا وتنقضوا شرطه ؟ ألم تقتلُوا حسينا وتسيّروا رأسه؟ ألم تقتلوا زيدا وتصلبوا جسده ؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به ؟ ألم تلعنوا عليا على منابركم ؟ ألم تضربوا أبانا عليّ بن عبدالله بسياطكم ؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النّورة فى حبسكم ؟ ثم قال : ألكِ حاجة ؟ قالت : قَبَض عُمّالك أموالى ، فأمر بردّ أموالها عليها .

* * *

لما سار مَرْوان إلى الزّاب، حفر خندقا، فسار إليه أبو عون عبدالله بن يزيد الأزدىّ، وكان قَحْطبة بن شبيب قد وجّهه وأمدّ أبو سلمة الخلاّل بأمداد كثيرة ، فكان بإزاء مرْوان . ثم إن أبا العباس السفاح قال لأهله وهو بالكوفة حينئذ : مَنْ يسير إلى مَرْوان من أهل بيتى وله ولاية العهد إن قتله ؟ فقال عبدالله عمّه : أنا ، قال : سِرْ على بركة الله ، فسار فقدم على أبى عَوْن ، فتحول له أبو عون عن سُرادقه وخلّاه له بما فيه . ثم سأل عبدالله عن مخاضةٍ فى الزّاب ، فدلّ عليها ، فأمر قائدامن قوّاده فعبَرها فى خمسة آلاف ، فانتهى إلى عسكر مَرْوان فقاتلهم ؛ حتى أمسوْا وتحاجزوا ، ورجع القائد بأصحابه ، فعبرَ المخاضة إلى عسكر عبدالله بن علىّ ، وأصبح مروان ، فعقد جسرا ، وعَبَر بالجيش كلّه إلى

(١) من بيت لأبى ذؤيب الهذلى ؛ ديوان الهذليين ١ : ١٥٦ والبيت بتمامه :

فَلاَ تجزعَنْ من سُنّةٍ أنتَ سِرْتَها وأوّل راضٍ سُنّةً مَنْ يَسيرُها

عبدالله بن علىّ ، فكان ابنه عبد الله بن مروان فى مقدمته ، وعلى الميمنة الوليد ابن معاوية بن عبد الملك بن مروان ، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، وعبّأ عبدالله بن على جيشه ، وتراءى الجمان ، فقال مروان لعبد العزيز ابن عمر : انظر ، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم ؛ وإن قاتلونا قبل الزوال ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ثم أرسل إلى عبد الله ابن على يسأله الكفّ عن القتال نهار ذلك اليوم ، فقال عبدالله : كذب ابن زربى إنما يريد المدافعة إلى الزوال ؛ لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله . ثم حرك أصحابه للقتال ، فنادى مروان فى أهل الشام : لاتبدءوهم بالحرب ، فلم يسمع الوليد ابن معاوية منه ، وحمل على ميسرة عبد الله بن علىّ ، فغضب مروان وشتمه ، فلم يسمع له واضطرمت الحرب ، فأمر عبدالله الرماة أن ينزلوا ، ونادى : الأرض الأرض ! فنزل الناس ، ورمت الرماة ، وأشرعت الرماح وجثوا على الركب ، فاشتدّ القتال ، فقال مروان لقضاعة : انزلوا ، قالوا : حتى تنزل كندة ، فقال لكندة : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل السكاسك ، فقال لبنى سليم : انزلوا ، فقالوا : حتى تنزل عامر ، فقال لتميم : احملوا ، فقالوا : حتى تحمِلَ بنو أسد ، فقال لهوازن : احملوا ، قالوا : حتى تحمل غطفان ، فقال لصاحب شرطته: احمل ويلك ! قال : ما كنتُ لأجعل نفسى غرضاً ، قال : أما والله لأسوأنّك ، قال : وددت أنّ أميرَ المؤمنين يقدر على ذلك ! فانهزم عسكرُ مروان وانهزم مروان معهم ، وقطع الجسر ، فكان مَنْ هلك غرقا أكثر ممن هلك تحت السيف ، واحتوى عبدالله بن علىّ على عسكر مروان بما فيه ، وكتب إلى أبى العباس يخبره الواقعة .

***

كان مَرْوان سديدَ الرأى ، ميمون النقيبة ، حازما ، فلما ظهرت المسوّدة ، ولقيهم كان

مايدبّر أمرا إلا كان فيه خلل ، ولقد وقف يوم الزّاب ، وأمر بالأموال فأخرجت ، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا ، وهذه الأموال لكم، فجعل ناسٌ يصيبون من ذلك المال ويشتغلون به عن الحرب ، فقال لابنه عبد الله : سِرْ فى أصحابك فامنع مَنْ يتعرّض لأخذ المال ، فمال عبدالله برايته ، ومعه أصحابه ، فتنادَى الناسُ :الهزيمة ! الهزيمة ! فانهزموا ، وركب أصحابُ عبد الله بن علىّ أكتافهم .

***

لما قتل مروان ببوصير ، قال الحسن بن قحطبة : أخرجوا إلىّ إحدى بنات مَرْوان، فأخرجوها إليه وهى ترْعد ، قال : لا بأسَ عليك ! قالت : وأىّ بأس أعظمُ من إخراجك إياى حاسرة ،ولم أر رجلا قبلك قطّ ! فأجلسها، ووضع رأس مروان فى حِجْرها، فصرخت واضطربت فقيل له : ما أردت بهذا ؟ قال : فعلتُ بهم فعلهم بزيد بن على لمّا قتلوه ، جعلوا رأسه فى حجر زينب بنت علىّ بن الحسين عليه السلام .

***

دخلتْ زوجةُ مَرْوان بن محمد ، وهى عجوز كبيرة ، على الخيزُران فى خلافة المهدىّ ، وعندها زينبُ بنت سليمان بن علىّ ، فقالت لها زينب : الحمد لله الّذى أزال نعمتَك ، وصيّرك عِبْرة ! أتذكرين ياعدوة الله ، حين أتاك نساؤنا يَسْألنكِ أن تكلّمى صاحبَك فى أمر إبراهيم بن محمد ، فلقيتِهنّ ذلك اللقاء ، وأخرجتِهنّ ذلك الإخراج ! فضحكت ، وقالت : أىْ بنتَ عَمّى ! وأىّ شىء أعجبَك من حُسْن صنيع الله بى عقيب ذلك ؟ حتى أردتِ أن تتأسّىْ بى فيه ! ثم ولّت خارجة .

***

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خَلَوْن من شهر ربيع

الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فصعِد المنبر بالكوفة نخطب ، فقال : الحمدُ لله الّذِى اصْطَفى الإسلام لنفسه ، وكَرّمه وشرّفه وعَظّمه ، واختَارَهُ لنا ، وأيدّه بنا ، وجعلنا أهله وكهفَه ،وحصْنهوالقوّام به ،والذاّبين عنه ،والناصرين له ؛ وخَصّنابرحم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنبتنا من شَجَرتِه ، واشتقّنا من نَبعَتِه ، وأنزل بذلك كتاباً يتلى ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [١]، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قام بالأمر أصحابُه ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] فعدلوا ، وخرجوا خِماصاً[٣]، ثم وثب بنو حَرْب وبنو مروان فابتزّوها وتداولوها ، واستأثروا بها، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينا ؛ فلمّا آسفوه [٤] انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقّنا ، فأنا السّفّاحُ المبيحُ ، والثائر المبير [٥] .

***

وكان موعوكا فاشتدت عليه الوعكة ، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عمه داود بن علىّ وكان بين يديه ، فقال :

يا أهلَ العراق ، إنا والله ماخرَجنا لنحفِر نهراً ، ولا لنكنز لُجَيناً ولا عِقْيانا ؛ وإنما أخرجتنا الأَنَفة من ابتزاز الظالمين حقّنا ؛ ولقد كانت أموركم تتصل بنا فترمِضنا ونحن على فُرُشنا ، لكم ذمّة الله وذمّة رسوله ، وذمة العباس ؛ أنْ نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فيكم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله . واعلموا أنّ هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم .

---

(١) سورة الشورى ٢٣.
(٢) سورة الشورى ٣٨
(٣) خماصاً : جياعاً .
(٤) آسفوه : أغضبوه .
(٥) المبير : المهلك .

يا أهل الكوفة ؛ إنه لم يخطب على مِنبركم هذا خليفة حقّ إلا علىّ بن أبى طالب وأمير المؤمنين هذا ، فاحمَدُ الله الذى رَدّ إليكم أمورَكم . ثم نزل .

وقد روى حديث خطبة داود بن علىّ برواية أخرى ؛ وهى الأشهر ، قالوا : لما صعد أبو العباس مِنبر الكوفة ، حُصِر فلم يتكلم ، فقام داود بن علىّ ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بمِرْقاة ، فاستقبل الناس ، وقال :

أيها النّاس ، إن أمير المؤمنين يكرَه أن يتقدّم قولُه فعلَه ، ولأثرُ الفعال أجدَى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله تمثّلاً فيكم ، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم ؛ أقسم بالله قسَماً برّاً ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحقُّ به من علىّ بن أبى طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمسْ هامسُكم ، ولينطق ناطقكم . ثم نزل .

* * *

ومن خطب داود التى خطب بها بعد قتل مَرْوان :

شُكراً شُكراً ! أظَنّ عدوّ الله أن لن يُظْفَر به ، أرخى له فى زمامه ، حتى عثر فى فضل خِطامه ؛ فالآن عاد الحقّ إلى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ؛ وأخذَ القوسَ باريها ؛ وصار الأمر إلى النَّزَعة (١) ، ورجع الحقّ إلى مستقرّه ؛ أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة .

* * *

وخطب عيسى بن علىّ بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مَرْوان ، فقال : الحمد لله الذى لا يفوته مَنْ طلب ، ولا يُعجزُه مَنْ هرب ، خدعتْ والله الأشقرَ نفسُه ، إذ ظنّ أن الله ممهله ، ويأبى الله إلا أن يُتمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون ؛ فحتى متَى ؟ وإلى متى !

(١) النزعة : جمع نازع ؛ وهو الرامى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم ؛ يريد : رجع الحق إلى أهله .

أما والله لقد كَرِهَتْهُمْ ٱلعِيدَان(١) التى افْتَرعوها ، وأمسكت السماء دَرّها(٢) ، والأرض رَيْعها(٣) وقَحل(٤) الضَّرْع ، وجَفَز الفنيق(٥) ، وأَسْمَل(٦) جلباب الدّين ، وأُبْطِلت الحدُود ، وأُهدِرَت الدماء ؛ وكان ربُّك بالمرصاد ، فدمْدَمَ(٧) عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يَخاف عُقْباها ؛ وملَّكنا الله أمرَكم ؛ عبادَ الله لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ؛ فإنه من دواعِي المزيد ؛ أعاذنا الله وإياكم من مُضِلّات الأهواء ، وبغتات الفتن فإنما نحن به وله .

***

لما أمعن داود بن علىّ فى قَتْل بنى أمية بالحجاز قال له عبدالله بن الحسن عليه السلام : يا بن عمى ، إذا أفرطت فى قتل أكفائك فمَنْ تُباهى بسلطانك ! وما يكفيك منهم أن يروْك غاديا ورائحا فيما يسرّك ويسوءهم !

***

كان داود بن علىّ يمثل ببنى أمية ؛ يسمُل العيون ، ويبقَرُ البطون ، ويجدَعُ الأنوف ويصطلم الآذان . وكان عبد الله بن على بنهر أبى فُطْرُس يصلُبهم منكّسين ، ويسقيهم النُّورة والصَّبِر ، والرّماد والخلّ ، ويقطع الأيدى والأرجل . وكان سليمان بن علىّ بالبصرة يضرب الأعناق .

***

خطب السفاح فى الجمعة الثانية بالكوفة فقال :

---

(١) العيدان ، يريد أعواد المنابر ، وافترعوها : اعتلوها .
(٢) درها ، أى مطرها .
(٣) الريع : النماء .
(٤) قحل : يبس جلده على لحمه .
(٥) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته ، والجفز : السرعة فى المشى .
(٦) أسمل : خلق وبلى .
(٧) دمدم عليهم ، طحنهم فأهلكهم .

يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ؛ والله لا أعدكم شيئاً ولا أتوعدكم إلا وفيت بالوعد والوعيد ، ولأعملنّ اللين حتى لا تنفع إلا الشدّة ، ولأغمدنّ السيف إلا في إقامة حدّ ، أو بلوغ حقّ ، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعا . إنّ أهل بيت اللعنة والشّجرة الملعونة في القرآن ، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشدّ منها ، ولا يلي عليكم منهم والٍ إلا تمنيتم مَنْ كان قبله ، وإن كان لا خير في جميعهم ؛ منعوكم الصّلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المدبر بالمقبل ، والجار بالجار ، وسلّطوا شراركم على خياركم ، فقد محق الله جَوْرَهم ، وأزهق باطلهم بأهل بيت نبيكم ؛ فما نؤخر لكم عطاء ، ولا نضيع لأحد منكم حقا ، ولا نجهّزكم في بعث ، ولا نخاطر بكم في قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ؛ والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة .

ثم نزل .

* * *

كان يقال : لو ذهبتْ دولة بني أميّة على يد غير مروان بن محمد ، لقيل : لو كان لها مَرْوان لما ذهبت .

كان يقال : إنّ دولة بني أميّة آخرها خليفة أمّه أمَة ، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بني الإماء منهم ، ولو عَهِدُوا إلى ابن أمَة لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها ؛ وكان انقراضُ أمرهم على يد مروان وأمّه أمَة ، كانت لمصعب بن الزبير ، وَهبها من إبراهيم بن الأشتر ، فأصابها محمد بن مروان يوم قَتَل ابنَ الأشتر ، فأخذها من ثَقَله ، فقيل : إنها كانت حاملاً بمرْوان ، فولدته على فراش محمد بن مروان ؛ ولذلك كان أهل خراسان ينادونه في الحرب : يابن الأشتر .

قيل أيضا : إنها كانتْ حاملا به من مصعب بن الزبير ، وإنّه لم تطُلْ مدّتُها عند

إبراهيم بن الأشتر ؛ حتى قتِل فوضعت حَمْلها على فراش محمد بن مرْوان ، ولذلك كانت المسوّدة تصيح به في الحرب : يابن مصعب ! ثم يقولون : يابن الأشتر ! فيقول: ماأبالي أيّ الفَحْلين غَلَب عليّ !

* * *

لمـا بُويع أبو العباس جاءه ابنُ عياش المنتوف ، فقبّل يده وبايعه ، وقال : الحمدُ لله الذى أبدلنا بحِمار الجزيرة ، وابن أمَة النَّخَع ، ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وابن عبد المطلب .

* * *

لما صعِد السّفاح مِنبر الكوفة يوم بيعته ، وخطب الناس ، قام إليه السيّد الحِميرى ، فأنشده :

دونَكموها يابنى هاشمٍ ... فجدّدوا من آيها الطّامِسا[1]
دونكموها لاعلا كعبُ مَنْ ... أمسى عليكمْ مُلكُها نافِسا
دُونكموها فالبسُوا تاجَها ... لا تعدمُوا منكمْ لهُ لابِسا
خلافةُ اللهِ وسلطانهُ ... وعُنصُرٌ كان لكم دَارِسا
قَدْساسَها مِن قبلكم ساسَةٌ ... لم يتركوا رَطْباً ولا يَابِسا
لو خُيّرَ المنبرُ فرسانه ... ما اختارَ إلا منكمُ فارسا
والمُلكُ لو شُووِر في سائسٍ ... لما ارتضَى غيرَكم سائِسا
لم يُبقِ عبدُ الله بالشام مِنْ ... آل أبي العاص امْرَأً عاطِساً
فلستُ مِن أنْ تملِكوها إلى ... هُبوط عيسى منكمُ آيِسا

* * *

قال داود بن عليّ لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قتْله مَنْ قَتلَ من بني

(١) الأبيات فى الأغانى ٧ : ٢٤٠ (طبع الدار) مع اختلاف فى الرواية .

أميةَ : هل علمتَ ما فعلتُ بأصحابك ؟ قال : نعم ، كانوا يداً فقطعتَها ، وعَضداً ففتتَ[1] فيها ، ومِرّةً[2] فنقضتَها ، وجناحاً فحصصتَها[3] ؛ قال : إنى لخليق أن ألحقك فيهم ، قال : إنى إذاً لسعيد !

***

لما استوثق الأمر لأبى العباس السفاح ، وفد إليه عشرة من أمراء الشام ، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم ، وبأيمان البيْعة بأنهم لايعلمون — إلى أن قُتل مروان — أنّ لرسول صلى الله عليه وآله أهلا ولا قرابة إلا بنى أمية .

***

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : حدّثنى رجلٌ قال : كنت بالشام ، فجعلت لا أسمع أحداً يسمِّى أحداً أو يناديه : ياعلىّ أو ياحسن ، أو ياحسين ؛ وإنما أسمع : معاوية ، والوليد ، ويزيد ، حتى مررْت برجل ، فاستسقيته ماء ، فجعل ينادى : ياعلىّ ، ياحسن ، ياحسين ، فقلت : ياهذا ، إنّ أهلَ الشام لا يسمّوْن بهذه الأسماء ! قال : صدقت ، إنهم يسمُّون أبناءهم بأسماء الخلفاء ، فإذا لعن أحدُهم ولده أو شتمه فقد لعن اسمَ بعد الخلفاء ، وأنا سمّيت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمتُ أحدَهم أو لعنته ، فإنما ألعن أعداء الله .

***

كانت أمّ إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس أموية من ولد عثمان بن عفان .

قال إبراهيم : فدخلت على جدّى عيسى بن موسى مع أبى موسى ، فقال لى جدّى : أتحبّ بنى أمية ؟ فقال له موسى أبى : نعم ، إنهم أخواله ، فقال : والله لو رأيت جدّك

(١) فت فى عضده ؛ أى كسر قوته وفرق عنه أعوانه .
(٢) المرة فى الأصل : طاقة الحبل .
(٣) يقال : حص الجناح ؛ أى قطعه .

علىّ بن عبد الله بن العباس يُضرب بالسياط ما أحببتهم ؛ ولو رأيت إبراهيم بن محمد يُكرَه على إدخال رأسه فى جراب النُّورة[1] لما أحببتهم ، وسأحدّثك حديثا إن شاء الله أن ينفعك به نفعك : لما وجّه سليمان بن عبد الملك ابنَه أيوب بن سليمان إلى الطائف وجّه معه جماعة ، فكنت أنا ومحمد بن علىّ بن عبد الله جدّى معهم ، وأنا حينئذ حديث السّنّ ، وكان مع أيوبِ مؤدّب له يؤدّبه ، فدخلنا عليه يوما أنا وجَدّى ، وذلك المؤدّب يضربه ، فلما رآنا الغلام أقبل على مؤدّبه فضربه فنظر بعضُنا إلى بعض وقلنا : ماله قاتله الله ! حين رآنا كرِه أن نَشمَت به ، ثم التفت أيوب إلينا ، فقال : ألا أخبركم يابنى هاشم بأعقلكم وأعقلنا ، أعقلنا مَنْ نشأ منّا يبغضُكم ، وأعقلكم من نشأ منكم يبغضنا ؛ وعلامة ذلك أنكم لم تسمّوا بمروان ، ولا الوليد ، ولا عبد الملك ، ولم نسمّ نحن بعلىّ ولا بحسن ولا بحسين .

***

لما انتهى عامر بن إسماعيل — وكان صالح بن على قد أنفذه لطلب مَرْوان — إلى بوصير مِصْر ، هرب مَرْوان بين يديه فى نفر يسير من أهله وأصحابِهِ ؛ ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد ، فانتهوْا فى غَبش الصّبح إلى قنطرة هناك على نهر عميقٍ ، ليس للخيل عُبور إلا على تلك القنطرة ، وعامر بن إسماعيل من ورائهم ، فصادف مروانُ على تلك القنطرة بغالاً قد استقبلته تعبرُ القنطرة ، وعليها زُقَاق عسل ، فحبسته عن العُبور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهقه ، فلوى مَرْوان دابته إليهم ؛ وحارب فقُتل ، فلما بلغ صالح بن علىّ ذلك ، قال : إن لله جنوداً من عسل .

***

لما نقف رأس مروان ونفض مخه ، قطع لسانه وألقى مع لحم عنقه ، فجاء كلب فأخذ اللسان ، فقال قائل :

إنّ مِن عبَر الدنيا أن رأينا لسان مروان فى فم كلب .

***

خطب أبو مسلم بالمدينة فى السّنة التى حجّ فيها فى خلافة السفّاح ، فقال : الحمد لله الذى حَمِد نفسَه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمّد رسول الله صلى الله عليه من ذلك ما أوحى، واختارهُ من خلقه ،نفسُه من أنفسهم، وبيتُه من بيوتهم ؛ثم أنزل عليه فى كتابه النّاطق الذى حفظه بعلمه ،وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1]، ثم جعل الحقّ بعد محمد عليه السلام فى أهلِ بيته ، فصبرَ مَنْ صَبَرَ منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه على اللأواء والشدّة ، وأغضى على الاستبداد والأثَرة . ثم إنّ قوماً من أهل بيتِ الرسول صلى الله عليه ، جاهدوا على ملّة نبيّه وسُنّته بعد عصرٍ من الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهرانىْ قوم آثروا العاجلَ على الآجل، والفانىَ على الباق؛ إن رُتِق جورٌ فتقوه، أو فُتِق حقّ رتقوه ؛ أهل خمور وماخور ،وطنابير[2] ومزامير، إن ذُكّروا لم يذكّروا ،أو قُدّموا إلى الحق أدبروا ، وجعلوا الصدقات فى الشُّبُهات،والمغانمَ فى المحارم ؛ والفىء فى الغىّ ، هكذا كان زمانهم ،وبه كان يعمل سلطانهم . وزعموا أنّ غير آل محمد أولَى بالأمر منهم ، فلِمَ وبِمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضلُ بالصحابة دون ذوى القرابة، الشركاء فى النسب ، والورثة فى السّلَب[3] مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامِهم فى الجدب جائعكم ! والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطّ ؛ ومازلتم بعد نبيّه تختارون تيميّاً مرّة ، وعَدَوِيّاً مرة ، وأمويّاً مرة، وأسدِيّاً مرة، وسُفيانيّاً مرّة ،ومَرْوانيّاً مرّة

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣

(٢) الماخور : بيت الريبة . والطنابير : جمع طنبور ، وهو آلة من آلات الطرب : ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس (٣) السلب : ما يسلب .

حتى جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمَه ولا بيته ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنْوة وأنتم صاغرون . ألا إنّ آل محمد أئمة الهدى ، ومنارُ سبيل التقى ، القادة الذادة السادة ؛ بنو عمّ رسول الله ، ومنزل جبريل بالتنزيل ؛ كَمْ قَصَم الله بهم(١) من جبّار طاغ ، وفاسق باغٍ ، شيّد الله بهم الهدى ، وجلا بهم العَمى ؛ لم يُسْمَعْ بمثل العباس ! وكيف لاتخضع له الأمم لواجب حقّ الحرمة ! أبو رسول الله بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجلْدة بين عينيه . أمينُه يوم العقبة وناصره بمكّة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم حُنين ، عند ملتقى الفئتين ؛ لايخالف له رسما ، ولا يعصى له حكما ؛ الشافع يوم نِيق(٢) العُقاب ، إلى رسول الله فى الأحزاب ها إنّ فى هذا أيّها الناس لعبرةً لأولى الأبصار(٣) !

قلت : الأسديّ عبد الله بن الزّبير . ومَنْ لايعرفون اسمه ولا بيته ، يعنى نفسه ، لأنه لم يكن معلوم النّسب ؛ وقد اختلف فيه هل هو مولًى أم عربيّ .

ويوم العقبة : يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله بمكة . ويوم نيق العُقاب يوم فتح مكة ، شفع العباس ذلك اليوم فى أبى سفيان وفى أهل مكة ، فعفا النبيّ صلى الله عليه وآله عنهم .

* * *

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس ابن محمد وغيرهما ؛ فتذاكروا خُلفاء بنى أميّة ، والسبب الذى به سلبوا عزّهم ، فقال المنصور : كان عبد الملك جبّاراً لايبالى ماصنع ؛ وكان الوليد لحّانا مجنونا ، وكان سليمان همّته بطنه وفرجه ، وكان عمر أعورَ بين عميان ، وكان هشام رجلَ القوم ، ولم يزل بنو أميّة ضابطين لما مهّد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه ، ويحرسون ماوهب الله لهم منه ، مع تسنّمهم معالىَ الأمور ، ورفضِهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مترَفين من أبنائهم ، فغمطُوا النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية ، فابتدأت النّقمة منهم ،

(١) ساقطة من ب

(٢) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة .

(٣) د : الألباب .

باستدراج الله إياهم آمنين مكره . مطرحين صيانة الخلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزة ، وألبسهم الذلة ، وأزال عنهم النعمة .

* * *

سأل المنصورُ ليلةً عن عبد الله بن مروان بن محمد ، فقال له الربيع : إنه فى سجن أمير المؤمنين حيًا ، فقال المنصور : قد كان بلغنى كلامٌ خاطبه به ملكُ النوبة ؛ لما قدم دياره ، وأنا أحبّ أن أسمعه مِنْ فيه ، فليؤمَرْ بإحضاره . فأحضِر ، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة ، فأمره المنصور ، بالجلوس ، فجلس وللقيد فى رجليه خشخشة .قال:أحِبّ أن تسمعنى كلاما قاله لك ملك النوبة حيث غشيت بلاده ، قال : نعم ، قدمت إلى بلد النوبة ، فأقمت أياما ، فاتّصل خبرنا بالملك ، فأرسل إلينا فرشا وبسطا وطعاما كثيرا،وأفرد لنا منازل واسعة ، ثم جاءنى ومعه خمسون من أصحابه ، بأيديهم الحراب ، فقمت إليه فاستقبلته ، وتنحيّت له عن صدر المجلس ، فلم يجلس فيه ، وقعد على الأرض ، فقلت له : مامنعك من القعود على الفرش ؟ قال : إنى ملك ، وحقّ الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نِعَمه متجدّدة عنده ، ولمّا رأيت تجدّد نعمة الله عندى بقصدِكم بلادى ، واستجارتكم بى ، بعد عزّكم وملككم ،قابلت هذه النعمة بماترى من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكتّ ، فلبثنا ماشاء الله ؛ لايتكلّم ولاأتكلّم ، وأصحابه قيامٌ بالحراب على رأسه . ثم قال لى : لماذا شربتم الخمر وهى محرّمة عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدُنا بجهلهم ، قال : فلمَ وَطِئتمُ الزّروع بدوابّكم والفساد محرّم عليكم فى كتابكم ودينكم[1] ؟ قلت : فعَلَ ذلك أتباعُنا وعُمّالنا جهلاً منهم ، قال : فلِمَ لبستم الحرير والدّيباج والذهب ، وهو محرّم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ قلت : استعنّا فى أعمالنا بقوم من

(١) ساقطة من ب

أبناء العجم كتّاب ، دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك اتباعا لسنّة سلفهم ، على كُرْه منا .
فأطرق مليًّا إلى الأرض يقلّب يده ، وينكت الأرض . ثم قال : عبيدنا وأتباعنا وعمّالنا وكتّابنا ! ما الأمر كما ذكرت ، ولكنكم قوم استحللتم ما حرّم الله عليكم ، وركبتم ما عنه نُهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العزّ ، وألبسكم الذلّ ؛ وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بأرضى فينالنى معكم ؛ والضيافة ثلاث ، فاطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عن أرضى .

فأخذنا منه ما تزودنا به ، وارتحلنا عن بلده . فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلى الحبس .

***

وقد جاءنا فى بعض الروايات أنّ السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضمّوا إليه من بنى أميّة جلس يوما على سرير بهاشمية الكوفة (١) وجاء بنو أمية وغيرهم من بنى هاشم ، والقواد والكتاب ، فأجلسهم فى دار تتصل بداره ، وبينه وبينهم سِتر مسدول ، ثم أخرج إليهم أبا الجهم بن عطية ، وبيده كتابٌ ملصَق ، فنادى بحيث يسمعون : أين رسول الحسين ابن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؟ فلم يتكلّم أحد ، فدخل ثم خرج ثانية ، فنادى : أين رسول زيد بن علىّ بن الحسين ؟ فلم يجبه أحد ، فدخل ثم خرج ثالثة ، فنادى : أين رسول يحيى بن زيد بن على ؟ فلم يردّ أحد عليه ، فدخل ثم خرج رابعة ، فنادى : أين رسولُ إبراهيم بن محمد الإمام ؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض ، وقد أيقنوا بالشرّ ، ثم دخل وخرج ، فقال لهم : إنّ أمير المؤمنين يقول لكم : هؤلاء أهلى ولحمى ، فماذا صنعتم بهم ؟ ردّوهم إلىّ أو فأقيدونى من أنفسكم . فلم ينطقوا بحرف ، وخرجت الخراسانية بالأعمدة فشدخوهم عن آخرهم .

***

(١) هاشمية الكوفة ، مدينة بناها السفاح .

قلت: وهذا المعنى مأخوذ من قول الفَضْل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن علىّ عليه السلام فى سنة اثنتين وعشرين ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك؛ وذلك أنّ هشاما كتب إلى عامله بالبصرة ـ وهو القاسم ابن محمد الثقفىّ ـ أن يشخص كلّ مَنْ بالعراق من بنى هاشم إلى المدينة خوفا من خروجهم؛ وكتب إلى عامل المدينة أن يحبس قوما منهم، وأن يعرضهم فى كلّ أسبوع مرة، ويقيم لهم الكفلاء؛ على ألا يخرجوا منها، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة:

كلّما حُدِّثوا بأرضٍ نقيقاً ... ضمّنونا السجون أو سيّرونا
أشخصونا إلى المدينة أسْرَى ... لا كفاهمْ رَبِّى الذى يحذرونا
خلّفوا أحمدَ المطهَّر فينا ... بالذى لا يحبّ، واستضعفونا
قتلونا بغير ذنبٍ إليهم ... قاتل الله أمّـــةً قتلونا!
ما رعَوْا حقّنا ولا حفظوا فيـ ... ـنا وَصاة الإله بالأقربينا
جعلونا أدنى عدوٍّ إليهمْ ... فهمُ فى دمائنا يسْبَحُونا
أنكرُوا حقَّنا وجارُوا علينا ... وعلَى غيرِ إحنةٍ أبغضُونا
غيرَ أنّ النبىّ منّا وأنّا ... لم نزل فى صلاتهم راغبينا
إن دَعَوْنا إلى الهُدى لم يجيبو ... نا، وكانوا عن الهُدَى ناكبينا
أو أمرنا بالعُرْف لم يسمعوا مـ ... ـنّا وردّوا نصيحةَ النّاصحينا
ولقِدْماً ما رُدَّ نُصحُ ذوى الرأ ... ىِ فلم يتّبعهمُ الجاهلونا
فعسى الله أن يُديل أناسا ... مِنْ أناسٍ فيصبحُوا ظاهرينا
فتقرّ العيون من قوم سوءٍ ... قد أخافوا وقتّلوا المؤمنينا

ليت شعرى هل تُوجِفَنّ بى الخيـــلُ   عليها الكماةُ مستلئمينـــا(1)

من بنى هاشمٍ ومنْ كلّ حىّ   ينصرون الإسلام مستنصرينا

فى أناسٍ آباؤهم نصروا الدّ   ين ، وكانوا لربّهم ناصرينا

تحكم المرهفاتُ فى الهامِ منهم   بأكفّ المعاشر الثـــائرينا(2)

أين قتلى منّا بَغيتمْ عليهم   ثمّ قتلتموهمُ ظالمينـــا

ارجعوا هاشمـا وردُّوا أبا اليقـ   ظان وابنَ البديل فى آخرينـا

وارجِعوا ذا الشهادتين وقتلَى   أنتمُ فى قتالهمْ فاجرونا

ثم رُدُّوا حُجْراً وأصحاب حُجْرٍ   يومَ أنتمْ فى قتلهمْ معتدُونا

ثم رُدُّوا أبا عُميرٍ ورُدُّوا   لى رشيـدا وميثماً والذينـا :

قُتِلوا بالطُّفوف يوم حُسَينٍ   من بنى هاشم ، وردُّوا حسينـاً

أين عمرو ؟ وأين بِشرٌ وقتـلَى   معهمُ بالعراء مايدفنونا !

ارجِعوا عامرا وردُّوا زُهَيراً   ثم عثمانَ ، فارجعوا عازمينا

وارجعوا الحرّ وابن قَيْنٍ وقوماً   قُتِلوا حين جاوزوا صِفّينـــا

وارجعوا هانئاً وردّوا إلينـا   مُسلماً والرواع فى آخرينـا

ثم ردّوا زيداً إلينـا وردّوا   كلّ من قد قتلتمُ أجمعينـا

لن تردّوهُم إلينا ولسنا   منكمُ غـــيرَ ذلكمْ قابلينا

* * *

(١) الكماة : الشجعان : والمستلئم : لابس اللأمة ، وهى الدرع فى الحرب .

(٢) المرهفات : السيوف . والهام . الرءوس .

الأصْلُ :

أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ !

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ .

عِبَادَ اللهِ ، لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ ، وَلَا تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ ؛ يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَا يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ !

فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَا يُشْكِي شَجْوَكُمْ ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ .

إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ : الْإِبْلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَالِاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ ، وَالْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا .

فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي !

* * *

الشَّرْحُ :

هَارَ الجُرُف يهورُ هَوْراً وهئوراً فهو هائر ؛ وقالوا : « هارٍ » ، خفضوه فى موضع الرفع ، كقاضٍ ، وأرادوا « هائر » ؛ وهو مقلوب من الثلاثيّ إلى الرباعى ؛ كما قلبوا « شائك السلاح » إلى « شاكى السلاح » . وهَوَّرته ، فتهوّر وانهار ؛ أى انهدم .

وأشكيت زيدا : ازلت شكايته . والشجو : الهمّ والحزن .

وصوّح النبت ، أى جفّ أعلاه ، قال :

ولكنّ البلاد إذا اقشعرت وصوّح نبتُها رُعِيَ الهَشِيمُ[1]

يقول عليه السلام: أشدّ العيون إدراكاً ما نفذ طرفُها فى الخير، وأشدّ الأسماع إدراكاً ما حفظ للموعظة وقَبِلها .

ثم أمر الناس أن يستصبِحوا ، أى يُسرِجوا مصابيحَهم من شعلة سراج . متّعظٍ فى نفسه واعظ لغيره ؛ وروى بالإضافة من « شعلة مصباحِ واعظ » بإضافة « مصباح » إلى « واعظ » ؛ وإنما جعله متّعظا واعظا ، لأن مَنْ لم يتّعظ فى نفسه فبعيد أن يتعظ به غيرُه ؛ وذلك لأن القبول لا يحصل منه ، والأنفس تكون نافرةً عنه ، ويكون داخلا فى حيّز قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾[2]،وفى قول الشاعر :

* لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ[3] *

وعَنَى بهذا المصباح نفسَه عليه السلام .

ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافيةٍ قد انتفى عنها الكدر، كما يروّق الشراب بالراووق فيزول عنه كدره ؛ والامتياح : نزول البئر وملء الدلاء منها ، ويكنِي بهذا أيضا عن نفسه عليه السلام .

---

(١) لأبى على البصير ، وقبله :

لَعَمْرُ أبيكَ ما نُسِبَ المعلَّى إلى كرمٍ وفى الدُّنيا كريمُ

أمالى القالى ٢ : ٢٨٧

(٢) سورة البقرة ٤٤

(٣) لأبى الأسود الدؤلى ، وبقيته :

* عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ *

والبيت من شواهد المغنى ، وانظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٦٤ .

ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهالتهم ، وقال : إنّ من يكون كذلك ، فإنه على جانب جُرُفٍ متهدّم ؛ ولفظة « هارٍ » من الألفاظ القرآنية(١) .

ثم قال : ومَنْ يكون كذلك ، فهو أيضا ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع ؛ ليُحدِث رأيا فاسدا بعد رأى فاسد ، أى هو ساع فى ضلال يروم أن يحتجّ لما لاسبيل إلى إثباته ، وينصر مذهبا لاانتصار له .

ثم نهاهم وحذّرهم أن يشكوا إلى مَنْ لايزيل شِكايتهم ومَنْ لارأى له فى الدين ولا بصيرة . لينقض ماقد أبرمه الشيطان فى صدورهم لإغوائهم . ويروى : « إلى من لايشكى شجوَكم ، ومَنْ ينقض برأيه ماقد أبرم لكم » ؛ وهذه الرواية أليق ، أى لاتشكوا إلى مَنْ لايدفع عنكم ماتشكون منه ؛ وإنما ينقض برأيه الفاسد ماقد أبرمه الحقّ والشرع لكم .

ثم ذكر أنه ليس على الإمام إلا ماقد أوضحه من الأمور الخمسة .

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله — يعنى نفسه عليه السلام — قبل أن يموت ، فيذهب العلم . وتصويح النَّبْت ، كناية عن ذلك .

ثم قال : وقبل أن تشغَلوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استثارة العلم من معدنه واستنباطه من قرارته .

ثم أمرهم بالنهى عن المنكر ، وأن يتناهوْا عنه قبل يَنْهَوْا عنه ؛ وقال : إنما النهىُ بعد التناهى .

---

(١) من قوله تعالى فى سورة التوبة ١٠٩ ﴿ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

وفى هذا الموضع إشكال ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : النهى عن المنكر واجب على العدل والفاسق ، فكيف قال : « إنما أمرتم بالنهى بعد التناهى » ؟ وقد روى أنّ الحسنَ البصريّ قال للشّعبيّ : هلّا نهيتَ عن كذا ؟ فقال : يا أبا سعيد ، إنى أكره أن أقولَ مالا أفعل . قال الحسن : غفر الله لك ! وأيّنا يقول مايفعل ! ودّ الشيطان لو ظفِر منكم بهذه فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينهَ عن منكر !

والجواب أنه عليه السلام لم يردْ أن وجود النهى عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهى عن المنكر ؛ وإنما أراد : أنّى لم آمركم بالنهى عن المنكر إلا بعد أن أمرتُكم بالانتهاء عن المنكر ؛ فالترتيب إنما هو فى أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين ؛ لا فى نهيهم وتناهيهم .

فإن قلت : فلماذا قدم أمرَهم بالانتهاء على أمرهم بالنهى ؟

قلت : لأنّ إصلاح المرء نفسه أهمّ من الاعتناء بإصلاحه لغيره .

(١٠٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصلُ :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِى شَرَعَ ٱلْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ. وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ ؛ فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ ، وَنُورًا لِمَنِ ٱسْتَضَاءَ بِهِ ، وَفَهْمًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ ٱتَّعَظَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ .

فَهُوَ أَبْلَجُ ٱلْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ ٱلْوَلَائِجِ ؛ مُشْرِفُ ٱلْمَنَارِ ، مُشْرِقُ ٱلْجَوَادِّ ، مُضِئُ ٱلْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ ٱلْمِضْمَارِ ، رَفِيعُ ٱلْغَايَةِ ، جَامِعُ ٱلْحَلْبَةِ ، مُتَنَافِسُ ٱلسُّبْقَةِ ، شَرِيفُ ٱلْفُرْسَانِ .

التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَٱلْمَوْتُ غَايَتُهُ ، وَٱلدُّنْيَا مِضْمَارُهُ ، وَٱلْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ ، وَٱلْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

• • •

الشرح :

هـذا باب من الخطابة شريف ؛ وذلك لأنه ناط بكلّ واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطَتْ بغيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرّت فى قرارها ؛ ألا تراه قال: « أمنا لمن عَلِقه » ! فالأمنُ مرتّب على الاعتلاق ؛ وكذلك فى سائر الفقر كالسلْم المرتّب على الدخول، والبرهان المرتّب على الكلام، والشاهد المرتّب على الخصام، والنّور المرتّب

على الاستضاءة . . . إلى آخرها ؛ ألا ترى أنه لو قال : « وبرهانا لمن دخله ، ونورا لمن خاصم عنه ، وشاهدا لمن استضاء به » ، لـكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها ، فـكان قد خرج عن قانون الخطابة ، ودخل فى عَيْب ظاهر !

وتوسّم : تفرّس . والولائج : جمع وليجة ، وهو المدخل إلى الوادى وغيره .

والجُنَّة : الترس . وأبلج المناهج : معروف الطريق .

والحَلْبة : الخيل المجموعة للمسابقة .

والمِضْمار : موضع تضمير الخيل ، وزمان تضميرها . والغاية : الراية المنصوبة ، وهو هاهنا خِرْقة تجعل على قَصَبة وتنصب فى آخر المدَى الذى تنتهى إليه المسابقة ؛ كأنه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التى مضمارها كريم ، وغايتها رفيعة عالية ؛ وحَلْبتها جامعة حاوية ، وَسُبقتها متنافس فيها ، وَفُرسانها أشراف .

ثم وصفه بصفات أخرى ، فقال : التصديق طريقه ، والصالحات أعلامه ، والموت غايتـه ؛ أى أنّ الدنيـا سِجْن المؤمن ، وبالموت يخلُص من ذلك السجن ؛ ويحظى بالسعادة الأبدية .

قال : والدنيا مضماره ، كأن الإنسان يجرى إلى غاية هى الموت ؛ وإنما جعلها مِضْمار الإسلام ، لأنّ المسلم يقْطَع دنياه لا لدنياه بل لآخرته ، فالدّنيا له كالمِضْمار للفرس إلى الغاية المعيّنة .

قال : والقيامة حلْبته ، أى ذات حلبته فحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ﴾ أى ذوو درجات .

ثم قال : والجنة سُبقتُه ، أى جزاء سُبقتِه ، فحذف أيضاً .

***

الأصل :

منها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله :

حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً .

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ ؛ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ ، وَلَا نَاكِبِينَ ، وَلَا نَاكِثِينَ ، وَلَا ضَالِّينَ ، وَلَا مُضِلِّينَ ، وَلَا مَفْتُونِينَ !

***

قال الرضىّ رحمه الله تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، إِلَّا أَنَّنَا كَرَّرْنَاهُ هاهنا لِمَا فِي الرِّوَايَتَيْنِ مِنَ الاخْتِلَافِ .

***

الشرح :

قبسا ، منصوب بالمفعولية ، أى أوْرَى رسول الله صلى الله عليه وآله قَبَساً ، والقَبَس : شعلة من النار ، والقابس : طالب الاستصباح منها . والكلام مجاز ، والمراد الهداية فى الدين .

وعلَما ، منصوب أيضا بالمفعولية ، أى وأنار رسول الله صلى الله عليه وآله علما لحابس ، أى نصب لمن قد حَبَس ناقته ــ ضلالا ، فهو يخبط لا يدرى كيف يهتدى إلى المنهج ــ علما يهتدى به .

فإن قلت : فهل يجوز أن ينصب « قبسا » و « علما » على أن يكون كلّ واحد منهما حالا ، أى حتى أورى رسول الله فى حال كونه قبساً وأنار فى حال كونه علما ؟

قلت : لم أسمع « أورَى الزند » وإنما المسموع « وَرَى » و « ورِى » ولم يجىء « أورى » إلا متعديا ، أورى زيد زنده ، فإن حمل هاهنا على المتعدّى احتيج إلى حذف المفعول ، ويصير تقديره : حتى أورى رسول الله الزند حال كونه قبساً ، فيكون فيه نوع تكلّف واستهجان .

والبعيث : المبعوث . ومقسما : نصيبا ، وإن جعلته مصدراً جاز .

والنُّزُول : طعام الضيف . والوسيلة : مايتقرّب به ، وقد فسر قولهم فى دعاء الأذان : « اللهم آته الوسيلة » ، بأنها درجة رفيعة فى الجنّة . والسَّناء بالمد : الشرف . وزمرته : جماعته .

وخزايا : جمع خزيان ، وهو الخجِل المستحيى ، مثل سكران وسكارى ، وحيران وحيارى ، وغَيْران وغيارَى .

وناكبين ، أى عادلين عن الطريق . وناكثين ، أى ناقضين للعهد .

***

قلت : سألتُ النقيب أباجعفر رحمه الله ـ وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية عن هذا الموضع ـ فقلت له : قد وقفت على كلام الصحابة وخُطَبهم فلم أر فيها من يعظّم رسولَ الله صلى الله عليه وآله تعظيمَ هذا الرجل ، ولا يدعو كدعائه ؛ فإنا قد وقفنا من "نهج البلاغة" ، ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل ، تدلّ على إجلال عظيم ، وتبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله . فقال : ومن أينَ لغيره من الصحابة كلام مدوّن يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبى صلى عليه وآله ؟ وهل وُجِد لهم إلا كلماتٌ مبتدرة ، لا طائل تحتها ! ثم قال : إن عليا عليه السلام كان قوىَّ الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتصديق له ، ثابت اليقين ؛ قاطعا بالأمر ، متحققاً له ، وكان

مع ذلك يحب رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه ، وتربيته له ، واختصاصه به من دون أصحابه . وبعد ؛ فشرفُه له ، لأنهما نفسٌ واحدة فى جسمين : الأب واحد ، والدار واحدة ، والأخلاق متناسبة ؛ فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه ، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه ، ولقد كان يودّ أنْ تطبق دعوةُ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأن جمال ذلك لاحقٌ به ، وعائد عليه ، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد فى إعلاء كلمته !

فقلت له : قد كنتُ اليوم أنا وجعفر بن مكّى الشاعر نتجاذب هذا الحديث ، فقال جعفر : لم ينصر رسولَ الله صلى الله عليه وآله أحدٌ نُصرة أبى طالب وبنيه له ، أما أبو طالب فكفَله وربّاه ، ثم حَماه من قريش عند إظهار الدّعوة ، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله ، وأما ابنه جعفر فهاجَر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فنشَر دعوته بها ، وأما علىّ فإنه أقام عماد الملّة بالمدينة ؛ ثم لم يُمْنَ أحدٌ من القتل والهوان والتشريد بما مُنِىَ به بنو أبى طالب ؛ أما جعفر فقتل يوم مؤتة ، وأما علىّ فقتل بالكوفه بعد أن شرب نقيع الحنظل ، وتمنّى الموت ، ولو تأخر قتلُ ابن ملجم له لمات أسفا وكمدا ، ثم قُتِل ابناه بالسمّ والسيف ، وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطفّ ، وحُمِلت نساؤهم على الأقتاب سَبايَا إلى الشام ، ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصّلْب والتشريد فى البلاد والهوان والحبس والضرب مالا يحيط الوصف بكنهه ، فأىّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ، ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل !

فقال رحمه الله — وأصاب فيما قال — : فهلّا قلت : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

ثم قال : وهلّا قلت له : فقد نصرته الأنصار ، وبذلت مُهجَها دونه ، وقتلت بين يديه فى

(١) سورة آل عمران ١٦٣

فى مواطن كثيرة ، وخصوصا يوم أُحُد ثم اهتضِمُوا بعده ، واستُؤثر عليهم ، ولقوا من المشاق والشدائد مايطول شرحه ؛ ولو لم يكن إلا يوم الحرّة ، فإنه اليوم الذى لم يكن فى العرب مثله ، ولا أصيب قوم قطّ بمثل ما أصيب به الأنصار ذلك اليوم !

ثم قال : إن الله تعالى زَوَى الدنيا عن صالحى عباده وأهل الإخلاص له ؛ لأنه لم يرها ثمنا لعبادتهم ، ولا كفؤا لإخلاصهم ، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار ؛ فى مثلها يتنافس المتنافسون !

***

الأصْلُ :

منها فى خطاب أصحابه :

وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلَا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ.

وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَغْضَبُونَ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ، وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ. وَايْمُ اللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ !

***

الشّرْحُ :

هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية ؛ التى كان

يُغير بها على أطراف أعمال علىّ عليه السلام كالأنبار وغيرها ؛ مما تقدّم ذكرنا له ؛ قال لهم : إنّ الله أكرمكم بالإسلام بعد أن كنتم مجوسا أو عبّاد أصنام ، وبلغتم من كرامته إياكم بالإسلام منزلة عظيمة ؛ أكرِم بها إماؤكم وعبيدكم ؛ ومن كان مَظِنّة للمِهْنة وللذلّة .

ووصل بها جيرانكم ، أى مَنْ التجأ إليكم من مُعاهَدٍ أو ذِمّىّ ؛ فإنّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم ؛ حتى عصم دماءهم وأموالهم ، وصرتم إلى حال يعظّمكم بها مَنْ لافضل لكم عليه ، ولا نعمة لكم عنده ؛ كالروم والحبشة ، فإنهم عظّموا مسلمى العرب لتقمّصهم لباس الإسلام والدين ، ولزومهم ناموسه ، وإظهارهم شعاره .

ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ، ولا لكم عليه إمرة ؛ كالملوك الذين فى أقاصى البلاد ؛ نحو الهند والصين وأمثالها ؛ وذلك لأنهم هابوا دولة الإسلام ؛ وإن لم يخافوا سطوة سيفها ؛ لأنه شاع وذاع أنّهم قوم صالحون ؛ إذا دعوا الله استجاب لهم ؛ وأنهم يقهرون الأمم بالنصر السماوىّ وبالملائكة ؛ لا بسيوفهم ولا بأيديهم . قيل : إنّ العرب لما عبرت دِجْلة إلى القصر الأبيض الشرقىّ بالمدائن عبرتْها فى أيام مَدّها ، وهى كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها ، ولا دروع عليها ولا بَيْض ؛ فهربت الفرس بعد رَمْى شديد منها العرب بالسهام ؛ وهم يقدمون ويحملون ؛ ولا تهولُهم السهام ؛ فقال فلاح نَبَطىّ ، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلى زرعه لأُسْوارٍ من الأساورة معروف بالبأس وجَوْدة الرماية : ويلكم ! أمِثلُكم فى سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين ! ولذعه باللّوم والتعنيف . فقال له : أقم مِسحاتك ، فأقامها فرماها ، فخرق الحديد حتى عبر النّصل إلى جانبها الآخر ، ثم قال : انظر الآن ، ثم رمى بعضَ العرب المارّين عليه عشرين سهما لم يُصِبْه ولا فرسه منها بسهم واحد ؛ وإنه لقريب منه غير بعيد . ولقد كان بعضُ السهام يسقط بين يدى الأُسوار ، فقال له بالفارسية : أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم ! قال : نعم .

ثم قال عليه السلام : مالكم لاتغضبون ، وأنتم ترون عهود الله منقوضة ! وإنّ من العجب أن يغضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه ، ولا يغضب ولا يأنف لنقض عهود إلٰهه وخالقه !

ثم قال لهم : كانت الأحكام الشرعية إليكم تردُ منّي ومن تعليمي إيا كم ، وتثقيق لكم ، ثم تصدُر عنكم إلى مَنْ تعلّمونه إياها من أتباعكم وتلامذتكم ، ثم يرجع إليكم بأنْ يتعلّمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة ؛ ففررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم ، وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ، ومكّنتم الظلَمة من منزلتكم ؛ حتى حكّموا فى دين الله بأهوائهم ، وعمِلوا بالشّبْهة لا بالحجّة ، واتسعوا فى شهواتهم ومآرب أنفسهم .

ثم أقسم بالله : إنّ أهل الشام لو فرّقوكم تحت كل كوكب ليجمعنكم الله ليوم ، وهو شرّ يوم لهم ؛ وكنى بذلك عن ظهور المسوّدة وانتقامها من أهل الشام وبنى أمية ، وكانت المسوّدة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية .

(١٠٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى بعض أيام صفين :

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ .

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ ، تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ ؛ حَسًّا بِالنِّصَالِ ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ ؛ تَرْكَبُ أُولَاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ ؛ تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا ؛ وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا !

* * *

الشرح :

جولتكم : هزيمتكم . فأجمل فى اللفظ ، وكنى عن اللفظ المنفر ، عادلاً عنه إلى لفظ لاتنفير فيه ، كما قال تعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾(١) ، قالوا : هو كناية عن إتيان الغائط ، وإجمال فى اللفظ .

وكذلك قوله : « وانحيازكم عن صفوفكم » كناية عن الهرب أيضا ؛ وهو من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾(٢) .

---

(١) سورة الفرقان ٧

(٢) سورة الأنفال ١٦

وهذا باب من أبواب البيان لطيف ؛ وهو حُسْن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج ؛ عوضا عن لفظ يتضمّن جَبْهاً وتقريعا .

وتحوزكم : تعدل بكم عن مراكزكم . والجفاة : جمع جافٍ ؛ وهو الفَدْم الغليظ . والطَّغام : الأوغاد . واللهاميم : جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل ، قال الشاعر :

لا تحسبنّ بياضاً فيّ منقصـــــةً إنّ اللهاميم في أقرابها بَلَقُ[1]

واليآفيخ : جمع يافُوخ وهو معظم الشيء ، تقول : قد ذهب يافوخ الليل ، أى أكثره ، ويجوز أن يريد به اليافوخ ، وهو أعلى الرأس ، وجمعه يآفيخ أيضا . وأفختُ الرجلَ : ضربت يافوخَه ، وهـذا أليق ، لأنه ذكر بعـده الأنف والسنام ، فحمل اليافوخ على العضو إذاً أشبه .

والوحاوح : الحرق والحزازات . ولقيته بأخرة على « فَعَلة » أى أخيرا .

والحسّ القتل ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾[2] .

وشجرت زيدا بالرمح : طعنته ، والتأنيث في « أولام » و « وأخرام » للكتائب .

والهيم : العطاش . وتذاد تصدّ وتمنع ، وقد روى : « الطغاة » عوض « الطغام » .

وروى « حشأ » بالهمز من حشأت الرجل أى أصبت حشاه .

وروى « بالنضال » بالضاد المعجمة ، وهو المناضلة والمراماة .

وقد ذكرنا نحن هـذا الكلام فيما اقتصصناه من أخبار صِفِّين فيما تقـدم من هذا الكتاب .

---

(١) اللسان ١٦ : ٢٩ ، من غير نسبة .
(٢) سورة آل عمران ١٥٢

(١٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام، وهى من خطب الملاحم :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَاَلظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ؛ خَلَقَ اَلْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ؛ إِذْ كَانَتِ اَلرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بِذَوِي اَلضَّمَائِرِ؛ وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ اَلسُّتُرَاتِ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ اَلسَّرِيرَاتِ.

***

الشرح :

الملاحم : جمع ملحمة؛ وهى الوقعة العظيمة فى الحرب؛ ولما كانت دلائل إثبات الصانع ظاهرة ظهور الشمس؛ وصفه عليه السلام بكونه ظهر وتجلى لخلقه، ودلهم عليه بخلقه إياهم وإيجاده لهم.

ثم أكد ذلك بقوله : « والظاهر لقلوبهم بحجته » ولم يقل « لعيونهم » لأنه غير مرئى؛ ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عليه.

ثم نفى عنه الروية والفكر والتمثيل بين خاطرين؛ ليعمل على أحدهما، لأن ذلك إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولى النوازع المختلفة والبواعث المتضادة.

ثم وصفه بأن علمه محيط بالظاهر والباطن والماضى والمستقبل، فقال : إن علمه خرق باطن الغيوب المستورة، وأحاط بالغامض من عقائد السرائر.

***

منها فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله :

اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ .

***

الشرح

شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام، لأنّ أكثر الأنبياء منهم : والمشكاة : كوّة غير نافذة ؛ يجعل فيها المصباح . والذؤابة . طائفة من شعر الرأس ، وسرّة البطحاء : وسطها ، وبنو كعب بن لؤىّ يفخرون على بنى عامر بن لؤىّ بأنهم سكنوا البطاح ، وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكّة ، وسكن معها بنو فهر بن مالك ، رهط أبى عبيدة ابن الجرّاح وغيره ، قال الشاعر :

فَحَلَلْتَ منها بالبطا ح وحَلّ غيرُك بالظواهِرْ

وقال طريح بن إسماعيل :

أنت ابنُ مُسْلَنطِح البطاح ولم تُطْرَقْ عليك الحُنِىّ والوُلُجُ[1]

وقال بعض الطالبيّين :

وأنا ابن مُعتلج البطاح إذا غدا غيرى ، وراح على متون ظواهِر

---

(١) قيل فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان من أخواله . الحنىّ : ما انخفض من الأرض ، والولج : ما اتسع من الأودية ؛ أى لم تكن بينهما فيختفى حسبك ، والبيت فى معجم البلدان ٢ : ٢١٤ .

يفترّ عنّ ركنها وحطيمُها ... كالجَفْن يُفتح عن سواد الناظِرِ
كجبالِهاَ شَرَفِي، ومثل سهولها ... خُلُقِي، ومثل ظبائهن مجاوِرِى

***

الأصل :

ومنها :

طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ ؛ يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ ؛ مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ ؛ وَآذَانٍ صُمٍّ ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ ٱلْغَفْلَةِ ، وَمَوَاطِنَ ٱلْحَيْرَةِ .

***

الشرح :

إنما قال : « دوّار بطبّه » ، لأنّ الطبيب الدّوار أكثر تجربة ، أو يكون عنَى به أنه يدور على مَنْ يعالجه ؛ لأنّ الصالحين يدورون على مرضى القلوب ، فيعالجونهم ويقال : إن المسيح رُئيَ خارجا من بيت مومسة ، فقيل له : ياسيدنا ، أمثلك يكون هاهنا ! فقال : إنما يأتى الطبيبُ المرضى .

والمراهم : الأدوية المركّبة للجراحات والقروح . والمواسم : حدائدُ يُوسَم بها الخيل وغيرها .

ثم ذكر أنّه إنما يعالج بذلك مَنْ يحتاج إليه ؛ وهم أولو القلوب العُمْى ، والآذان الصمّ ، والألسنة البكم ، أى الخرس . وهذا تقسيم صحيح حاصر ، لأن الضلال وغافلة

الحق يكون بثلاثة أمور : إما بجهل القلب ، أو بعدم سماع للمواعظ والحجج ، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر ، فهذه أصول الضلال ؛ وأما أفعال المعاصى فروع عليها .

[فصل فى التقسيم وما ورد فيه من الكلام]

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾(١). وهذه قسمة صحيحة ، لأن المكلفين : إما كافر ، أو مؤمن ، أو ذو المنزلة بين المنزلتين، هكذا قسم أصحابنا الآية على مذهبهم فى الوعيد .

وغيرهم يقول : العباد إمّا عاص ظالم لنفسه ، أو مطيع مبادرٌ إلى الخير ، أو مقتصد بينهما .

ومن التقسيم أيضا قوله : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾(٢) ومثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾(٣)، لأنّ الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع .

ووقف سائل على مجلس الحسن البصرىّ ، فقال : رحم الله عبدا أعطى من سَعَة ، أو واسَى من كفاف ، أو آثر مِنْ قِلّةٍ ! فقال الحسن : لم تترك لأحدٍ عذراً .

---

(١) سورة فاطر ٣٢

(٢) سورة الواقعة ٧ ــ ١٠

(٣) سورة الرعد ١٢

ومن التقسيمات الفاسدة فى الشعر قول البحترى :

ذَاكَ وَادى الأَرَاكِ فَاحْبِسْ قليلَا مُقْصِراً فى مَلَامَةٍ أَوْ مُطيلاَ (١)

قِفْ مَشُوقًا، أومُسْعِداً ، أوحزينا أو معينا ، أو عاذراً ، أو عذولا

فالتقسيم فى البيت الأول صحيح ، وفى الثانى غير صحيح، لأنّ المشوق يكون حزينا ، والمسعد يكون معينا ؛ فكذلك يكون عاذرا ، ويكون مشوقا ، ويكون حزينا .

وقد وقع المتنبى فى مثل ذلك ، فقال :

فافخر ، فإنّ الناس فيك ثلاثة مستعظِمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ (٢)

فإن المستعظم يكون حاسدا ، والحاسد يكون مستعظما .

ومن الأبيات التى ليس تقسيمها بصحيح ، ما ورد فى شعر الحماسة :

وأنتَ امرؤٌ إمّا ائتمنتُك خاليًا فخنتَ ، وإما قلت قولا بلا عِلْمِ (٣)

فأنتَ من الأمر الذى قد أتيته بمنزلةٍ بين الخيانة والإثم

وذلك لأنّ الخيانة أخصّ من الإثم، والإثم شامل لها، لأنه أعمّ منها، فقد دخل أحد القسمين فى الآخر . ويمكن أنْ يعتذر له ، فيقال : عَنَى بالإثم الكذبَ نفسه ، وكذلك هو المعنى أيضا بقوله : « قولا بلا علم »، كأنه قال له : إما أن أكون أفشيت سرى إليك فخنتَنى ، أو لم أفش فكذبت عَلَى ، فأنت فيما أتيتَ بين أن تكونَ خائنا أو كاذبا .

ومما جاء من ذلك فى النثر قول بعضهم : « من جريحٍ مضرّجٍ بدمائه، أو هارب لا يلتفت إلى ورائه » ، وذلك أنّ الجريح قد يكون هاربا ، والهارب قد يكون جريحا .

وقد أجاد البحترى لما قسّم هذا المعنى ، وقال :

---

(١) ديوانه ٢ : ٢١٠

(٢) ديوانه ٣ : ٢٥٩

(٣) لعبد الله بن همام السلولى ، حماسة أبى تمام بشرح المرزوقى ٣ : ١١٣٩

غادرتهم أيدى المنيّة صُبحاً لِلقَنا بين رُكّعٍ وسجودِ
فهمُ فرقتانِ : بين قتيـــل قبضت نفسُه بحدّ الحديد
أو أسيرٍ غـــدا له السجن لَحداً فهو حىٌّ فى حالة الملحودِ
فرقة للسيوف ينفـذ فيهـــا الـ حُكْمُ قسراً وفرقةٌ للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب: النِّعم ثلاث: نعمة فى حال كونها، ونعمة تُرجَى مستقبَلة، ونعمة تأتى غير محتَسبة ، فأبقى اللهُ عليك ماأنتَ فيه ، وحقّق ظنّك فيما تَرتجيه ، وتفضّل عليك بما لم تحتسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية . وأيضافإنّ النعمةَ التى تأتى غير محتَسبة داخلة فى قِسْم النعمة المستقبَلة .

وقد صحح القسمة أبو تمام ، فقال :

جُمعتْ لنا فِرَقُ الأمانى منكمُ بأبَرَّ من رُوح الحياة وأوصلِ[1]
كالمُزن من ماضى الرَّباب ومقبِلٍ متنظَّرٍ ومخيِّمٍ متهلل
فصنيعةٌ فى يومها وصنيعةٌ قدأحولَتْ ، وصنيعةٌ لم تحولِ

***

فإنْ قلت : فإن ما عبتَ به فساد التقسيم على البحترىّ والمتنبى يَلزمك مثله فيما شرحته ، لأنّ الأعمى القلب قد يكون أبكم اللسان ، أصمّ السمع .

قلت : إن الشاعرين ذكرا التقسيم بـ «أو» ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام قَسم بالواو والواو للجمع ، فغيرُ منكَرٍ أنْ تجتمع الأقسام الوحد ، أو أن تعطى معنى الانفرادفقط ، فافترق الموضعان .

***

---

(١) ديوانه ٣ : ٥١ ، وهناك البيت الثالث قبل الثانى .

الأصل :

لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ؛ فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ ؛ قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا ، وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا .

مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً ، وَشُهُوداً غُيَّباً ، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ !

***

الشرح :

انجابت : انكشفت . والمحجة : الطريق . والخابط : السائر على غير سبيل واضحة . وأسفرت الساعة : أضاءت وأشرقت ، وعن متعلقة بمحذوف ، وتقديره : كاشفة عن وجهها .

والمتوسّم : المتفرّس . أشباحا بلا أرواح ، أي أشخاصا لا أرواح لها ولا عقول ، وأرواحا بلا أشباح ؛ يمكن أن يريد به الخفة والطيش ، تشبيها بروح بلا جسد . ويمكن أن يعني به نقصهم ، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الأعمال والتحريك اللذين كانا من فعلها حيث كانت تدبر الجسد .

ونساكا بلا صلاح : نسبهم إلى النفاق . وتجارا بلا أرباح : نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها .

ثم وصفهم بالأمور المتضادة ظاهرا ، وهي مجتمعة في الحقيقة ، فقال : أيقاظا نوّما ،

لأنهم أولو يقظة ؛ وهم غفول عن الحق كالنيام ، وكذلك باقيها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [1] .

***

الأصل:

رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا ، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا ، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ .

***

الشرح:

هذا كلام منقطع عمّا قبله ، لأن الشريف الرضيّ رحمه الله كان يلتقط الفصول التى فى الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرها ، ويتخطّى ما قبلها وما بعدها ، وهو عليه السلام يذكر هاهنا ما يحدُث فى آخر الزمان من الفتن ، كظهور السّفيانيّ وغيره .

والقطب فى قوله عليه السلام : « قامت على قطبها » : الرئيس الذى عليه يدور أمرُ الجيش . والشّعب : القبيلة العظيمة ، وليس التفرّق للراية نفسها ، بل لنصّارها وأصحابها ، فحذف المضاف ، ومعنى تفرّقهم ، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة فى بلاد متفرقة ، أى تفرق ذلك الجمع العظيم فى الأقطار ، داعين إلى أمر واحد ويروى « بشُعَبها » جمع شُعْبَة .

---

(١) سورة الحج ٤٦ .

وتقدير : « تكيلكم بصاعها » تكيل لكم ، فحذف اللام ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾(١) ، أى كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ؛ والمعنى تحملكم على دينها ودعوتها ، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها. ويجوز أن يريد بقوله : « تكيلكم بصاعها » يقهركم أربابها على الدخول فى أمرهم ، ويتلاعبون بكم ، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيّال البُرّ به إذا كاله بصاعه .

وتخبطكم بباعها : تظلمكم وتعسفكم ، قائدها ليس على ملّة الإسلام بل مقيم على الضلالة ، يقال : ضلّة لك ، وإنه ليلومنى ضِلّة ، إذا لم يوفّق للرشاد فى عَذْله .

والثفالة : ماثفل فى القِدْر من الطبيخ . والنُّفاضة : ماسقط من الشيء المنفوض .

والعِكْم : العِدْل ، والعِكْم أيضاً نمطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتها .

وعركت الشيء : دلكته بقوة . والحصيد : الزرع المحصود .

ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنها تخصّه بنكايتها وأذاها ؛ كما قيل : المؤمن مُلَقًّى والكافر موقّى ، وفى الخبر المرفوع : « آفات الدنيا أسرعُ إلى المؤمن من النار فى يَبيس العَرْفَج » .

* * *

الأصل :

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ ٱلْمَذَاهِبُ ، وَتَتِيهُ بِكُمُ ٱلْغَيَاهِبُ ، وَتَخْدَعُكُمُ ٱلْكَوَاذِبُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ! فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ .

فَٱسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ ، وَٱسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ .

---

(١) سورة المطففين ٣

وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ .

***

الشَّرْحُ :

الغياهب : الظلمات ، الواحد غَيْهب . وتتيه بكم : تجعلكم تائهين ، عدّى الفعل اللازم بحرف الجرّ ، كما تقول فى ذهب : ذهبت به . والتائه : المتحير .

والكواذب هاهنا : الأمانىّ ، فحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله :

* إلاّ بكَفّىْ كان من أرْمَى البشر *

أى بكَفّىْ غلام هذه صفته .

وقوله : « ولكل أجل كتاب » أظنه منقطعا أيضاً عن الأول مثل الفصل الذى تقدم ؛ وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة . ويمكن على بعد أن يكون متصلا بما هو مذكور هاهنا .

وقوله « ولكل غيبة إياب » قد قاله عَبيد بن الأبرص ، واستثنى من العموم الموت ، فقال :

وكلُّ ذى غَيْبَةٍ يئوبُ وغائب الموت لا يئوبُ (١)

وهو رأى زنادقة العرب ؛ فأمّا أمير المؤمنين ، وهو ثانى صاحب الشريعة التى جاءت بعود الموتى ، فإنه لا يستثنى ، ويحقّق عبيدا فى استثنائه .

والربانىّ : الذى أمرهم بالاستماع منه ؛ إنما يعنى به نفسه عليه السلام ، ويقال : رجل

---

(١) ديوانه ١٣

ربانىّ أى متألّه عارف بالربّ سبحانه . وفى وصف الحسَن لأمير المؤمنين عليه السلام : « كان والله ربانىّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا قرابتها ، وذا سابقتها » .

ثم قال : وأحضروه قلوبكم ، أى اجعلوا قلوبكم حاضرةً عنده ، أى لا تقنعوا لأنفسكم بحضور الأجساد وغيبة القلوب ، فإنكم لا تنتفعون بذلك : وهتف بكم : صاح ، والرائد : الذى يتقدّم المنتجعين لينظر لهم الماء والكلأ . وفى المثل : الرائد لا يكذب أهله .

وقوله : « وليجمع شمله » أى وليجمع عزائمه وأفكاره لينظر ؛ فقد فَلَق هذا الربانىّ لكم الأمر ، أى شقّ ما كان مبهماً ، وفتح ما كان مغلقا ، كما تفلق الخرزة فيعرَف باطنها .

وقرَفه ، أى قشره ، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة ، وتقلع .

***

الأَصْلُ :

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ ٱلْبَاطِلُ مَآخِذَهُ ، وَرَكِبَ ٱلْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ ؛ وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ ٱلسَّبُعِ ٱلْعَقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيقُ ٱلْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى ٱلْفُجُورِ ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى ٱلْكَذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ ٱلْوَلَدُ غَيْظاً ؛ وَالْمَطَرُ قَيْظاً ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً ، وَتَغِيضُ ٱلْكِرَامُ غَيْضاً ، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً ، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً ، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً ، وَغَارَ ٱلصِّدْقُ ، وَفَاضَ ٱلْكَذِبُ ، وَٱسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ ٱلْفُسُوقُ نَسَباً ، وَٱلْعَفَافُ عَجَباً ، وَلُبِسَ الإِسْلَامُ لُبْسَ ٱلْفَرْوِ مَقْلُوباً .

***

الشرح :

تقول : أخذ الباطل مأخذه ، كما تقول عمل عمله ؛ أي قوى سلطانه وقهر ؛ ومثله « ركب الجهل مراكبه » .

وعظمت الطاغية ، أي الطغيان ، فاعلة بمعنى المصدر ، كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾[1] ، أي تكذيب، ويجوز أن تكون الطاغية هاهنا صفة فاعل محذوف ، أي عظمت الفئة الطاغية . وقلت الداعية مثله ، أي الفرقة الداعية .

وصال : حمل ووثب ، صَوْلا وصَوْلَةً ، يقال : ربّ قول أشدُّ من صَوْل، والصيّال والمصاولة هي المواثبة ، صايله صِيالا وصيالةً ، والفحلان يتصاولان ، أي يتواثبان .

والفنيق : فحل الإبل . وهدَرَ : ردّد صوته فى حَنْجَرته ، وإبل هوادر ؛ وكذلك هدّر بالتشديد تهديرا ، وفى المثل : « هو كالمهدر فى العُنّة » يضرب للرجل يصيح ويجلب وليس وراء ذلك شيء كالبعير الذى يُحبَس فى العنة ؛ وهى الحظيرة ، ويمنع من الضِّراب ، وهو يهدر ، وقال الوليد بن عقبة لمعاوية :

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المعنَّى تهدّر فى دمشقَ ولا تَرِيمُ[2]

والكظوم : الإمساك والسكوت ، كَظَمَ البعير يكظِم كظوما ، إذا أمسك الجِرّة ؛ وهو كاظم ، وإبل كُظُوم لا تجترّ ، وقوم كُظْم ساكتون .

وتواخي الناس : صاروا إخوة ، والأصل تآخى الناس ، فأبدلت الهمزة واوا ، كآزرته أى أعنته ، ووازرته .

يقول : اصطلحوا على الفجُور ، وتهاجروا على الدين ، أى تعادَوْا وتقاطعوا .

فإن قلت : فإنّ من شعار الصالحين أن يهجُروا فى الدين ويعادوا فيه !

(١) سورة الواقعة ٢

(٢) اللسان ١٥ : ١٧٦ ، وقال : « السدم الذى يرغب عن فحلته ، فيحال بينه وبين آلافه ، ويقيد إذا هاج ، فيرعى حوالى الدار » .

قلت : لم يذهب أميرُ المؤمنين حيث ظننت ، وإنما أراد أنّ صاحب الدين مهجور عندهم ، لأنّ صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم مجرى الأخ في الحنوّ عليه ؛ والحبّ له ، لأنه صاحب فجور .

ثم قال : « كان الولد غيظاً » ، أي لكثرة عقوق الأبناء للآباء ، « وصار المطر قيظاً » يقال إنه من علامات الساعة وأشراطها .

وأوساطُه أكالًا ؛ أي طعاماً ، يقال: ماذقتُ أكالا ؛ وفي هذا الموضع إشكال ؛ لأنه لم يُنقل هذا الحرف إلا في الجَحْد خاصة ، كقولهم : مابها صافر ، فالأجود الرواية الأخرى ؛ وهي « آكالا » بمد الهمزة على « أفعال » جمع أُكل ؛ وهو ما أُكِل ، كقُفْل وأقفال . وقد روى « أُكالاً » بضم الهمزة على « فُعال » ؛ وقالوا : إنه جمع « آكل » للمأكول كعِرْق وعُراق ، وظِئْر وظُؤار ، إلا أنه شاذ عن القياس ، ووزن واحدها مخالف لوزن واحد « أكال » لو كان جمعا ، يقول: صار أوساط الناس طُعمة للولاة وأصحاب السلاطين، وكالفريسة للأسد.

وغار الماء : سفل لنقصه ، وفاض : سال .

وتشاجر الناس : تنازعوا وهي المشاجرة ، وشَجَر بين القوم ؛ إذا اختلف الأمر بينهم ، واشتجروا ؛ مثل تشاجروا .

وصار الفسوق نسبا يصير الفاسق صديق الفاسق ؛ حتى يكون ذلك كالنسب بينهم ؛ وحتى يعجب الناس من العفاف ؛ لقلّته وعدمه .

ولَبِس الإسلام لبس الفرو ؛ وللعرب عادة بذلك ؛ وهي أن تجعل الخمْل إلى الجسد ؛ وتظهر الجلد ؛ والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية في ذلك الزمان .

(١٠٨)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ.

مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ.

لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ؛ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ.

لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ.

كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ.

أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ.

بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ.

سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ عَظِيمَةً فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ!

***

الشرح :

قال : كلّ شيء خاضع لعظمة الله سبحانه ، وكلّ شيء قائم به ، وهذه هي صفته الخاصة ، أعني كونه غنيا عن كلّ شيء ، ولا شيء من الأشياء يغني عنه أصلا .

ثم قال : «غِنى كلّ فقير ، وعز كلّ ذليل ، وقوة كلّ ضعيف ، ومفزع كلّ ملهوف» .

جاء في الأثر : من اعتزّ بغير الله ذَلّ ، ومن تكثّر بغير الله قَلّ ؛ وكان يقال : ليس فقيرا من استغنى بالله . وقال الحسن : واعجبا للوط نبيّ الله ! قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) ، أتراه أراد ركنا أشدّ وأقوى من الله !

واستدلّ العلماء على ثبوت الصانع سبحانه بما دلّ عليه فحوى قوله عليه السلام : « ومفزع كلّ ملهوف » ، وذلك أنّ النفوس ببدائهها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها ، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطرارا لا اختيارا ، فدلّ ذلك على أنّ العلم به مركوز في النفس ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٢) .

ثم قال عليه السلام : « من تكلّم سَمِعَ نطقه ، ومَن سكت علم سرّه » ، يعني أنه يعلم ما ظهر وما بطن .

ثم قال : « ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبُه » ، أي هو مدبّر الدنيا والآخرة ، والحاكم فيهما .

ثم انتقل عن الغيبة إلى الخطاب ، فقال « لم ترك العيون » .

---

(١) سورة هود ٨٠

(٢) سورة الإسراء ٦٧

[فصل فى الكلام على الالتفات]

واعلم أنّ باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبيرٌ من أبواب علم البيان، وأكثر مايقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلّم بذلك المعنى المنتقل إليه، كقوله سبحانه: ﴿ الحمد لله ربّ العالمين * الرّحمن الرحيم * مالك يوْم الدّين ﴾ فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قالوا: لأنّ منزلة الحمد دون منزلة العبادة، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبده، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضر يخاطب بالكاف؛ لأنّ كاف الخطاب أشدّ تصريحا به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر، وقال فى الغضب: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، فأسنده إلى فاعل غير مسمّى ولا معيّن، وهو أحسن من أن يكون قال: « لم تغضب عليهم »، وفى النعمة: « الذين أنعم عليهم ».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ فأخبر بـ « قالوا » عن غائبين، ثم قال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ [1]، فأتى بلفظ الخطاب استعظاما للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. ﴾ [2] الآية.

***

(١) سورة مريم ٨٨، ٨٩

(٢) سورة يونس ٢٢

وفائدة ذلك أنّه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنّه يعدّد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيهم وعنادهم الحق، ويقبّح عندهم مافعلوه، ويقول : ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا ، فلمّا رحمناهم ، واستجبنا دعاءهم ، عادوا إلى بغيهم ! وهذه الفائدة لوكانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة .

***

قال عليه السلام : مارأتك العيون فتخبر عنك ، كما يخبر الإنسان عما شاهده ؛ بل أنت أزليّ قديم موجود قبل الواصفين لك .

فإن قلت : فأيّ منافاة بين هذين الأمرين ، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له ، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه ، ثم يصفونه رأى عين !

قلت : بل هاهنا منافاة ظاهرة ، وذلك لأنه إذا كان قديما لم يكن جِسْماً ولا عَرَضا ، وماليس بجسم ولا عَرَض تستحيل رؤيته ، فيستحيل أن يخبرَ عنه على سبيل المشاهدة .

ثم ذكر عليه السلام أنّه لم يخلق الخلق لاستيحاشه وتفرّده ، ولا استعملهم بالعبادة لنفعه ؛ وقد تقدم شرح هذا .

ثم قال : لاتطلب أحداً فيسبقك ، أى يفوتك ، ولا يفلتك من أخذته .

فإن قلت : أيّ فائدة فى قوله : « ولا يفلتك من أخذته » ، لأن عدم الإفلات هو الأخذ ، فكأنّه قال : لايفلتك من لم يفلتك !

قلت : المراد أنّ مَنْ أخذت لايستطيع أن يُفْلِت ، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلِتُوا بحيلة من الحِيَل .

فإن قلت : أفلتَ فعل لازم ، فما باله عَدّاه ؟

قلت : تقدير الكلام : « لا يفلت منك » فحذف حرف الجر، كما قالوا: «استجبتك» أى استجبت لك ، قال :

* فلم يستجبه عند ذاك مجيب(١) *

وقالوا : استغفرت الله الذنوب ، أى من الذنوب ، وقال الشاعر :

أستغفرُ الله ذنباً لست محصيَه ربُّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

قوله عليه السلام : « ولا يردّ أمرَك مَنْ سَخِط قضاءك ، ولا يستغنى عنك مَنْ تولّى عن أمرك » ، تحتـه سر عظيم ، وهو قول أصحـابنا فى جواب قول المجْبِرة : لو وقع منّا مالا يريده لاقتضى ذلك نقصه : إنه لانقص فى ذلك ، لأنه لايريد الطاعات منّا إرادة قَهْر وإلجاء ، ولو أرادَها إرادة قهر لوقعتْ وغلبت إرادته إرادتنا ، ولـكنّه تعالى أراد منّا أن نفعل نحن الطاعة اختيارا ، فلا يدلّ عدم وقوعها منّا على نقصه وضعفه ، كما لايدلّ بالاتفاق بيننا وبينكم عدمُ وقوع ماأمر به على ضعفه ونقصه .

ثم قال عليه السلام : « كلّ سرّ عنـدك علانية » ، أى لايختلف الحال عليـه فى الإحاطة بالجهر والسرّ ، لأنه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الأمور واحدة .

ثم قال : « أنت الأبد فلا أمدَ لك » ، هـذا كلام عُلْوىّ شريف ، لايفهمه إلا الراسخون فى العلم ، وفيه سِمَة من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : « لاتسبّوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » ؛ وفى مناجاة الحكماء لمحة منه أيضا ، وهو قولهم : « أنت الأزل السَّرْمد، وأنت الأبد الّذى لاينفد » ، بل قولهم : « أنت الأبد الذى لاينفد » ، هو قوله : «أنت الأبد فلاأَمَدلك » ، بعينه ، ونحن نشرحه هاهنا على موضوع هذا الـكتاب، فإنه كتاب أدب لاكتاب نظر ، فنقول : إن له فى العربية محملَين : أحدهما أنّ المراد به : أنت ذو الأبد ، كما قالوا : رجل خالٍ ، أى ذو خالٍ ؛ والخال الْخُيَلاء ، ورجل داء ، أى به داء ، ورجل

(١) صدره :

* وَدَاعٍ دَعَا يَامَنْ يجيبُ إلَى ٱلنَّدَى *

أمالى القالى ٢ : ١٥١ ، من قصيدة لـكعب بن سعد الغنوى يرثى بها أبا المغوار .

حال ، أى ذو مال . والمحمل الثانى ، أنه لما كان الأزل والأبد لا ينفكان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام ، كأنه أحدهما بعينه ، كقولهم : أنتِ الطلاق ؛ لما أراد المبالغة فى البينونة جعلها كأنها الطلاق نفسه ، ومثله قول الشاعر :

• فإن المندّى رِحْلَةٌ فرُكوب [1] •

وقال أبو الفتح فى " الدمشقيات " استدلّ أبو علىّ على صرف « مِنًى » للموضع المخصوص ، بأنه مصدر « منى يمنى » ، قال : فقلت له : أتستدلّ بهذا على أنه مذكر ، لأن المصدر إلى التذكير ! فقال : نعم ، فقلت : فما تنكر ألا يكون فيه دلالة عليه ، لأنه لا ينكر أن يكون مذكرا سمى به البقعة المؤنثة ، فلا ينصرف ، كامرأةٍ سميتها بحجر وجبَل وشبع ومعى ، فقال : إنما ذهبت إلى ذلك ، لأنه جُعِل كأنه المصدر بعينه ، لكثرة ما يعانى فيه ذلك . فقلت : الآن نعم .

ومن هذا الباب قوله :

• فإنما هِىَ إقبالٌ وإدبار [2] •

وقوله :

• وهنّ من الإخلاف قبلك والمطلِ •

وقوله : « فلا منجى منك إلا إليك » قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية :

إليك فررتُ منك ومن زيادٍ ولم أحسب دَمِى لكما حلالًا [3]

ثم استعظم واستهول خلقه الذى يراه ، وملكوته الذى يشاهده ، واستصغر واستحقر

---

(١) لعلقمة وصدره :

• تُرَادُ عَلَى دِمنِ الحياضِ فإنْ تَعَفْ •

(٢) الخنساء ، ديوانها ٧٨ ، وصدره :

• تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حَتّى إذا ادَّكَرتْ •

(٣) ديوانه ٢ : ٦٠٨ .

ذلك ، بالإضافة إلى قدرته تعالى ، وإلى ماغاب عنّا من سلطانه . ثم تعجّب من سُبوغ نعمه تعالى فى الدنيا ، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة ، وهذا حقّ لأنه لا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى .

* * *

الأصْلُ :

منها :

مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلاَبَ ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْحَامَ ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ ؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ ؛ وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ ؛ وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ؛ لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَاخَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ؛لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ؛وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ .

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً ! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً ، وَخَدَماً وَقُصُوراً ، وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً .

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا ، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا ؛ وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا ، وَلاَ إِلَى مَاشَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا.أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا ، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا ؛ وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ ؛ فَهُوَ[1] يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ ؛قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ ،وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ ،فَهُوَعَبْدٌ لَهَا،وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا،حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا،وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ ،وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ ؛وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ

(١) ساقطة من ب .

عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ؛ كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ؛ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ؛ حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ؛ وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ؛ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لَا يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلَا يُجِيبُ دَاعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ

مَسَأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلَا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.

* * *

الشرح :

هذا موضع المثل . « فى كلّ شجرة نار، واستمجد المرخ والعفار »، الخطب الوعظية الحسان كثيرة ؛ ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث :

محاسن أصناف المغنين جمّةٌ   وماقصباتُ السّبْق إلا لمعبد

من أراد أن يتعلّمَ الفصاحة والبلاغة ، ويعرف فضلَ الكلام بعضه على بعض ؛ فليتأمل هذه الخطبة ؛ فإن نسبتها إلى كل فصيح من الكلام - عدا كلام الله ورسوله - نسبة الكواكب المنيرة الفلكيّة إلى الحجارة المظلمة الأرضية ؛ ثم لينظر الناظر إلى ماعليها من البهاء ، والجلالة والرّواء ، والديباجة، وماتحدثه من الروعة والرهبة ، والمخافة والخشية؛ حتى لو تليتْ على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنّشور لهدّت قواه ، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده ؛ فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل

ما جزى به وليا من أوليائه ! فما أبلغ نصرته له ! تارةً بيده وسيفه ، وتارة بلسانه ونطقه ، وتارة بقلبه وفكره ! إن قيل : جهاد وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين ، وإن قيل : وعظٌ وتذكير ؛ فهو أبلغُ الواعظين والمذكّرين ، وإن قيل : فقهٌ وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين ، وإن قيل : عدل وتوحيد ، فهو إمام أهل العدل والموحّدين :

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم فى وَاحدِ[1]

ثم نعود إلى الشرح ، فنقول : قوله عليه السلام : « أسكنتهم سمٰواتك » ، لا يقتضى أنّ جميع الملائكة فى السمٰوات ، فإنه قد ثبت أنّ الكرام الكاتبين فى الأرض ؛ وإنما لم يقتض ذلك ؛ لأنّ قوله : « من ملائكة » ليس من صيغ العموم ؛ فإنه نكرة فى سياق الإثبات : وقد قيل أيضا : إنّ ملائكة الأرض تعرُج إلى السماء ومسكنها بها ، ويتناوبون على أهل الأرض .

قوله : « هم أعلمُ خلقك بك » ، ليسَ يعنى به أنّهم يعلمون من ماهيته تعالى ما لا يعلمه البشر ؛ أمّا على قول المتكلّمين فلأنّ ذاته تعالى معلومة للبشر ، والعلم لا يقبل الأشدّ والأضعف ، وأمّا على قول الحكماء ، فلأنّ ذاته تعالى غيرُ معلومة للبشر ولا للملائكة ؛ ويستحيل أن تكون معلومة لأحدٍ منهم ؛ فلم يبق وجهٌ يحمَل عليه قوله عليه السلام : « هم أعلم خلقك بك » إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم ؛ كما يقال : وزير الملك أعلمُ بالملِك من الرعية ، ليس المراد أنّه أعلم بذاته وماهيّته ، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه .

قوله : « وأخوفهم لك » ؛ لأنّ قوّتى الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم ، وهما منبع

---

(١) لأبى نواس ، التمثيل والمحاضرة ٨٠

الشرّ ، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصي . وأيضا فإنّ منهم مَنْ يشاهد الجنة والنار عيانا ، فيكون أخوفَ لأنّه ليس الخبر كالعيان .

قوله : « وأقربهم منك » لا يريد القربَ المكانيّ لأنه تعالى منزّه عن المكان والجهة ؛ بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل ؛ وهذا يدلّ على صحة مذهب أصحابنا في أنّ الملائكة أفضلُ من الأنبياء .

ثم نبّه على مزيّة لهم تقتضي أفضليةَ جنسِهم على جنس البشر ؛ بمعنى الأشرفيّة ، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله « لم يسكنُوا الأصلاب ، ولم يضمّنوا الأرحام ، ولم يخلقوا من ماء مَهين ، ولم يتشعّبهم ريبُ المنون » ؛ وهذه خصائص أربع :

فالأولى أنّهم لم يسكنوا الأصلاب ، والبَشر سكنوا الأصلاب ، ولا شبهة أنّ ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحميّة والدمويّة أشرف مما خالطها ومازجها .

والثانية أنّهم لم يضمّنُوا الأرحام ؛ ولا شبهة أنّ من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذَر أشرفُ ممن خرج منه ؛ وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كامكاو بن يزدَجِرْد بن شهريار ؛ يفخر على أبناء الملوك بأنّه لم يخرج من بُضْع امرأة ، لأن أمّه ماتت وهي حامل به ، فشقّ بطنها عنه وأخرج ؛ قال أبو الريحان البيرونيّ في كتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية " عن هذا الرجل : إنه كان يتيه على الناس ، وإذا شتم أحدا ، قال : ابن البُضْع ؛ قال أبو الريحان : وأوّل مَن اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم ، وهو أول من سمّي فيهم قيصر ، لأن تفسير « قيصر » بلغتهم ، شقّ عنه ، وأيامه تاريخ ، كما أنّ أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم .

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين ، وقد نصّ القرآن العزيز على أنّه مهين ؛ وكفى ذلك في تحقيره وضَعته ؛ فهم لا محالة أشرف ممّن خلق منه ؛ لاسيا وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته .

والرابعة أنّهم لايشعَّبهم المنيّة ، ولا ريب أنّ من لاتتطرّق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت ، أشرف ممن هو فى كلّ ساعة ولحظة بعرض سقام ، وبصدد موت وحمام .

***

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان : إحداها أنّ « أفضل » بمعنى كونهم أكثر ثوابا ، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف ؛ كما تقول : إنّ الفلك أفضلُ من الأرض ، أى أنّ الجوهر الذى منه جسيمة الفلك أشرفُ من الجوهر الذى منه جسميّة الأرض.

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثانى .

قوله عليه السلام : « يشعَّبهم ريب المنون » ، أى يقسّمهم ، والشَّعب: التفريق ، ومنه قيل للمنيّة : شَعوب ، لأنها تفرّق الجماعات ، وريبُ المنون : حوادث الدهر ، وأصل الرَّيْب ماراب الإنسانَ ، أى جاءه بما يكره ، والمنون الدهر نفسه ، والمنون أيضا المنيّة ، لأنّها تمنّ المدّة أى تقطعها ، والمنّ : القطع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (١) .

وقال لَبيد :

* غُبْسٌ كواسبُ لايمنّ طعامُها (٢) *

ثم ذكر أنّهم كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عاينوا كُنْه ماخفى عليهم من البارئ تعالى لحقروا أعمالهم . وزرَوْا على أنفسهم ، أى عابوها: تقول زريت على فلان ، أى عبته وأزريت بفلان أى قصرت به .

(١) سورة فصلت ٨

(٢) صدره :

* لمعفّر قَهْدٍ تنازعَ شِلْوَهُ *

المعفر : الذى سحب فى العفر ؛ وهو التراب . والقهد : الأبيض . والغبس : الذئاب ، والغبسة لون فيه شبيه بالغبرة ، وكواسب : تكسب الصيد . وقوله : « مايمن طعامها » ، أى ماينقص . (المعلقات بشرح التبريزى ١٤٥) .

فإن قلت : ماهذا الكنهُ الذى خَفِىَ عن الملائكة ؛ حتى قال : « لو عاينوه لَحَقَرُوا عبادتَهم ، ولعلموا أنهم قد قصروا فيها » ؟

قلت : إنّ علوم الملائكة بالبارئ تعالى نظريّة كعلوم البشر ، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية فى الجلاء والوضوح ، فأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول : لو كانتْ علومهم بك وبصفاتك اثباتية والسلبية والإضافية ضرورية ، عِوَض علومهم هذه المتحقّقة الآن ؛ التى هى نظرية ولانكشف لهم ماليس الآن على حدّ ذلك الكشف والوضوح . ولاشبهةَ أنّ العبادة والخدمة على قَدْر المعرفة بالمعبود ، فكلّما كان العابد به أعرفَ ، كانت عبادته له أعظَم ، ولا شبهة أنّ العظيم عند الأعظم حقير .

فإن قلت : فما معنى قوله : « واستجماع أهوائهم فيك » ، وهل للملائكة هَوًى ؟ وهل تستعمل الأهواء إلا فى الباطل ؟

قلت : الهوى : الحبُّ وميْل النفس ، وقد يكون فى باطل وحقّ ، وإنما يحمل على أحدها بالقرينة ، والأهواء تستعمل فيهما ، ومعنى استجماع أهوائهم فيه : أنّ دواعيهم إلى طاعته وخدمته لاتنازعها الصوارف ، وكانت مجتمعة مائلة إلى شقّ واحد .

فإن قلت : الباء فى قوله : « بحسن بلائك » بماذا تتعلق ؟

قلت : الباء هاهنا للتعليل بمعنى اللام ، كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ ﴾(١) ، أى لأنهم ، فتكون متعلقة بما فى «سبحانك» من معنى الفعل ، أى أسبحك لحسن بلائك . ويجوز أن تتعلّق بمعبود ، أى يعبد لذلك .

ثم قال : «خلقت دارا» يعنى الجنة . والمأدَبة والمأدُبة ، بفتح الدال وضمها : الطعام الذى يُدعَى الإنسان إليه ، أدبَ زيدٌ القومَ ، يأدِبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدب الداعى إلى طعامه ، قال طَرَفة :

---

(١) سورة غافر ٢٢ .

نَحْنُ فى فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى   لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ[١]

وفى هذا الـكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة ، وهو مذهب أكثر أصحابنا .

ومعنى قوله : « وزروعا » أى وغروساً من الشجر، يقال : زرعت الشجر، كما يقال : زرعت البرّ والشعير، ويجوز أن يقال : الزروع: جمع زَرْعٍ وهو الإنبات، يقال :زرعه الله أى أنبته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[٢] . ولو قال قائل : إن فى الجنة زروعا من البرّ والقُطْنِيَّة[٣] لم يبعد .

قوله: ثم أرسلت داعيا يعنى الأنبياء. وأقبلوا على جِيفة ،يعنى الدنيا، ومن كلام الحسن رضى الله عنه : إنّما يتهارشون على جِيفةٍ .

وإلى قوله : « ومن عشق شيئا أعشى بصره » نظر الشاعر فقال :

وَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ   كما أنّ عين السخط تبدى المساويا[٤]

وقيل لحكيم : ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم، كما يرون عَيب غيرهم ؟قال: إنّ الإنسان عاشق لنفسه ، والعاشق لا يرَى عيوب المعشوق .

قد خرقت الشهواتُ عقله ، أى أفسدته كما تخرق الثوب فيفسد .

وإلى قوله : « فهو عبد لها ولمن فى يديه شيء منها » نظر ابن دريد ، فقال :

عَبِيدُ ذِى المالِ وإنْ لم يَطمعُوا   مِنْ ما لِهِ فى نُغْبةٍ تَشْفى الصَّدَا

وهم لمن أملَق أعداءٌ وإن   شاركهم فيما أفاد وحَوَى

---

(١) ديوانه ٦٨ . المشتاة : يريد الشتاء والبرد ، والجفلى : أن يعم بدعوته إلى طعام ولا يخص أحدا والانتقار ، أن يدعو النقرى ، وهى أن يخصهم ولا يعمهم .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٣) القطنية : ما سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر . القاموس .

(٤) لعبد الله بن معاوية ، زهر الآداب ٨٥

وإلى قوله : « حينا زالت زال إليها ، وحينا أقبلت أقبل عليها » نظر الشاعر ، فقال :

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها   فكيفما انقلبتْ يوما به انقلبُوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ   يوما عليه بما لا يشتهى وَثَبُوا

والغِرّة: الاغترار والغَفلة ، والغارّ : الغافل، وقد اغتررتُ بالرجل، واغترّه زيد،أى أتاه على غِرّة منه، ويجوزأن يعنى بقوله : « المأخوذين على الغرّة » الحداثة والشبيبة، يقول: كان ذلك فى غَرارتى وغرتى ، أى فى حداثتى وصبايَ .

قوله : « سكْرة الموتِ وحسرة الفوْت » ، أى الحسرة على مافاتهم من الدنيا ولذّتها ، والحسرة على ما فاتهم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصى .

والولوج : الدخول ، وَلَج يلِج .

قوله . « وبقاء من لبّه » أى لبُه باقٍ لم يعدم ، ويروى « ونقاء » بالنون ، والنّقاء: النظافة ، أى لبّه غير مغمور .

أغمض فى مطالبها ، أى تساهل فى دينه فى اكتسابه إياها ، أى كان يفى نفسَه بتأويلات ضعيفة فى استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض ،قال تعالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ [١]، ويمكن أن يُحمَل على وجه آخر ، وهو أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة فى تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها .

قوله عليه السلام : « وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها » ، أى من وجوه مباحة وذوات شبهة ، وهذا يؤكد الحمل الأول فى « أغمض » .

والتبعات : الآثام ، الواحدة تبعة ومثلها التّباعة ، قال :

---

(١) سورة البقرة ٢٦٧ .

لم يحذَرُوا مِنْ رَبِّهم   سُوء العواقب والتَّباعه (١)

والهنأ : المصدر من هَنِيء الطعام وهَنُؤ بالكسر والضم ، مثل فَقِه وفَقُه ، فإن كسرت قلت : « يهنَأ » ، وإن ضممت قلت : « يهنُؤ » ، والمصدر « هناءة » و « مهنأ » ، أى صار هنيئا ، وهنأنى الطعام يَهْنَؤُنى » ويهنئنى - ولا نظير له فى المهموز - هَنْأ وهَناء ، وهنئت الطعام ، أى تهنـأت به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوه هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾ (٢).

والعبء : الحمل ، والجمع أعباء .

وغَلِق الرَّهن ، أى استحقّه المرتهِن ، وذلك إذا لم يُفْتَكّكْ فى الوقت المشروط ، قال زهير :

وَفَارَقتكَ برهنٍ لا فكاكَ لَهُ   يوم الوَدَاعِ فأمسى الرَّهْنُ قد غَلِقَـا (٣)

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « قد غَلِقتْ رهونه بها » فى هذا الموضع ؟

قلت : لمّا كان قد شارفَ الرحيلَ وأشفى على الفراق ، وصارت تلك الأموال التى جمعها مستحقة لغيره ، ولم يبقَ له فيها تصرُّف ، أشبهت الرَّهن الذى غَلِق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقًّا له ، وصار مستَحقًّا لغيره وهو المرتهِن .

وأصحر : انكشف ؛ وأصله الخروج إلى الصحراء والبروزُ من المكمن .

رجْع كلامهم : ما يتراجعونه بينهم (٤) من الكلام . ازداد الموت التياطا به؛ أى التصاقا.

قد أُوحِشُوا ، أى جعِلوا مستوحشين ، والمستوحِش : المهموم الفزِع ؛ ويروى «أَوْحشوا من جانبه» ، أى خلَوْا منه وأقفروا ، تقول : قد أوحش المنزل من أهلِه ، أى أقفر .

وخلا إلى مخطّ فى الأرض ، أى إلى خَطّ ، سماه مخطّا أو خطًّا لدِقّته ؛ يعنى اللّحد؛

(١) اللسان ٩ : ٢٨٥ ، وقبله :

أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّهـا   زَمَنَ التَّقَحّمِ والمَجَاعَـه

(٢) سورة النساء ٤   (٣) ديوانه ٣٣   (٤) ساقطة من ب .

ويروى : « إلى محطّ » بالحاء المهملة ؛ وهو المنزل ، وحطّ القوم ، أى نزلوا .

وألحق آخرُ الخلق بأوله ؛ أى تساوى الكلّ فى شمول الموت والفناء لهم ، فالتحق الآخر بالأوّل .

أماد السماء : حرّكها ، ويروى : « أمار » ؛ والمَوَرَان : الحركة . وفطرها : شقّها . وأرجّ الأرض : زلزلها ، تقول : رجّت الأرضُ ، وأرجّها الله ، ويجوز « رجّها » ، وقد روى « رجّ الأرضَ » بغير همزة ؛ وهو الأصحّ ، وعليه ورد القرآن : ﴿ كَلَّا إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ (١) .

أرجفها : جعلها راجفة أى مرتعدة متزلزلة ، رجفت الأرضُ ، ترجُف ، والرَّجَفان : الاضطراب الشديد ؛ وسمّى البحر رَجّافاً لاضطرابه ، قال الشاعر :

* حتى تغيبَ الشَّمسُ فى الرَّجّاف (٢) *

ونسفها : قلعها من أصولها . ودكّ بعضُها بعضاً : صدمه ودقّه حتى يكسره ويسوّيه بالأرض ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ (٣) .

ميزهم ، أى فصَل بينهم ، فجعلهم فريقين : سعداء وأشقياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (٤) ، أى انفصلوا من أهل الطاعة .

يظعَن : يرحل . تنوبهم الأفزاع : تعاودهم ، وتعرض لهم الأخطار : جمع خَطَر ، وهو مايشرف به على الهلَكة .

---

(١) سورة الواقعة ٤

(٢) لمطرود بن كعب الخزاعى ، من أبيات يرثى فيها عبد المطلب ؛ أوردها صاحب اللسان ١١ : ١٢ وابن هشام ١ : ١١٧ (على هامش الروض الأنف) وصدره :

* المُطعِمونَ اللَّحمَ كلَّ عَشِيَّةٍ *

(٣) سورة الحاقة ١٤

(٤) سورة يس ٥٩ .

وتُشخصهم الأسفار : تخرجهم من منزل إلى منزل ، شخص الرجلُ وأشخصه غيرُه.
وغلّ الأيدى : جعلها فى الأغلال ، جمع غُلّ بالضم ؛ وهو القَيد . والقَطِران : الهناء ، قطرتُ البعير أى طَليته بالقَطِران ، قال :

* كما قَطَرَ المهنوءةَ الرّجُلُ الطالى (١) *

وبعير مقطور ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية ، قال تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (٢) ؛ والمعنى أنّ النار إلى القَطِران سريعة جدا .
ومقطّعات النّيران ، أى ثياب من النيران ، قدقطعت وفصّلت لهم ؛ وقيل :المقطّعات: قصار الثياب . والكَلَب : الشدّة . والجلَب والجَلَب : الصوت . والقصيف : الصوت الشديد .

لا يُفصم كبولها : لا يكسر قيودها ، الواحد كَبْل .
ثم ذكر أن عذابهم سرمدىّ ، وأنه لا نهاية له ، نعوذ بالله من عذاب ساعة واحدة، فكيف من العذاب الأبدىّ !

[موازنة بين كلام الامام علىّ وخطب ابن نباتة]

ونحن نذكر فى هذا الموضع فصولا من خُطب الخطيب الفاضل عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله ؛ وهو الفائز بقَصَبات السبق من الخطباء ؛ وللناس غرام عظيم بخطبه وكلامه ؛ ليتأمّل الناظر كلامَ أميرالمؤمنين عليه السلام فى خطبه ومواعظه؛ وكلام هذا الخطيب المتأخر

---

(١) لامرىء القيس ، ديوانه ٣٣ ، وصدره :

* أيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فؤادَها *

(٢) سورة إبراهيم ٥٠

الذى قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها ، وأنّ مواعظه هى الغاية التى ليس بعدها غاية. فمن ذلك قوله :

« أيها الناس؛ تجهزوا فقد ضُرِبَ فيكم بُوقُ الرحيل ، وابرُزوا فقد قربت لكم نوق التحويل ، ودَعُوا التمسك بخُدَعِ الأباطيل ، والركون إلى التسويف والتعليل ؛ فقد سمعتم ما كرّر الله عليكم من قِصص أبناء القُرى ، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَلَفَ من الورى ؛ مما لا يعترض لذوى البصائر فيه شكٌّ ولا مِرًا ؛ وأنتم معرِضون عنه إعراضكم عمّا يُختَلَق ويفترى ؛ حتى كأنّ ماتعلمون منه أضغاثُ أحلام الكرى ،وأيدى المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العُرَا ، وهجمت بكم على هول مطلعٍ كريه القِرى؛ فالقهقرى رحمكم الله عن حبائل العطب القهقرى ! واقطعوا مفاوزَ المهلكات بمواصلة السُّرى ، وقفوا على أحداث المنزلين من شَناخيب الذُّرا ، المنجلين بوازع أمّ حَبَوْكَرى ، المشغولين بما عليهم من الموت جرى ، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى ، تجدوا ما يَقى منها عِبْرَة لمن يرى . فرحِم الله امرأً رحم نفسه فبكاها ، وجعل منها إليها مشتكاها ! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون ، وتصدق فيه أراجيف الظنون ، وتَشْرَقَ عليه بمائها مُقَل العيون ؛ ويلحق بمن دَثَرَ من القرون ، قبل أن يبدوَ على المناكب محمولا ، ويغدوَ إلى محلّ المصائب منقولا ، ويكونَ عن الواجب مسئولا ، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولا . هناك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، وتقطع الأسباب ، وتذهب الأحساب ، ويمنع الإعتاب ، ويجمع من حَقّ عليه العقاب ، ومَنْ وجب له الثواب ، فيضرب بينهم بسُورٍ له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب » .

فلينظر المنصِف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد؛ أوّلا بالنسبة إلى ذلك الكلام العربىّ المحض ، ثم لينظرْ فيما عليه من الكسل والرخاوة ، والفتور والبلادة ، حتى كأنّ ذلك

الكلام لعامر بن الطفيل[١] مستلئما شِكّته[٢] ، راكبا جواده ، وهذا الكلام للدّلال المديني[٣] المخنّث ، آخذا زمّارته ، متأبطا دفّه .

والمخ ما في « بوق الرحيل » من السفسفة واللفظ العاميّ الغثّ . واعلم أنهم كلهم عابوا على أبي الطيب قوله :

فإن كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ فنى النّاس بُوقاتٌ لها وطُبُولُ[٤]

وقالوا : لا تدخل لفظة « بوق » في كلام يفلح أبدا .

والمخ ما على قوله : « القهقرى القهقرى » متكرّرة من المجْنة ، وأهجَنُ منها « أمّ حَبَوْكَرى »[٥] . وأين هذا اللفظ الحوشيّ الذي تفوح منه روائح الشّيح والقَيْصوم؛ وكأنه من أعرابيّ قح قد قدِم من نجد لا يفهم محاورة أهل الحضر ، ولا أهل الحضر يفهمون جواره ؛ من هذه الخطبة الليّنة الألفاظ التي تكاد أن تنثنى من لينها ، وتتساقط من ضَعْفِها !

ثم المخ هذه الفِقَر والسّجَعات ، التي أولها « القرى » ثم « المرا » ثم « يفترى » ثم « السكرى » إلى قوله : « عبرة لمن يرَى » ، هَلْ ترَى تحت هذا الكلام معنى لطيفا ، أو مقصدا رشيقا ! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظا جزْلا فصيحا ، أوْ عذبا معسولا ! وإنما هي ألفاظ قد ضُمّ بعضُها إلى بعض ، والطائل تحتها قليل جدا . وتأمل لفظة « مِرا » فإنها ممدودة في اللغة ، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة ، وإن أراد جمع « مِرْية » فقد خرج

---

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري ، ابن عم لبيد ؛ أحد فرسان العرب وفتاكهم . وانظر أخباره في خزانة الأدب ١ : ٤٧٣ .

(٢) الشكة بالكسر : السلاح .

(٣) الدلال المديني ، واسمه ناقد ، وكنيته أبو زيد ، كان من أهل المدينة ، وأحد ظرفاء ثلاثة كانوا بها : طويس ، والدلال ، وهنب ، كان هنب أقدمهم ، والدلال أصغرهم ؛ وانظر أخباره في الأغاني ٤ : ٢٦٩ – ٣٠١ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٠٨ .

(٥) أم حبوكرى : من أسماء الداهية عندهم .

عن الصناعة ، لأنه يكون قد عطف الجمع المفرد ، فيصير مثل قول القائل : « ما أخذت منه دينارا ولا دراهم » ، فى أنه ليس بالمستحسن فى فن البيان .

ومن ذلك قوله :

« أيها الناس ، حصحصَ الحقّ ، فما من الحقّ مناص ، وأشخِص الخلق ؛ فما لأحد من الخلق خَلاص ، وأنتم على ما يباعدكم من الله حِرَاص ، ولكم على موارد الهلَكة اغتصاص ؛ وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص ؛ كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص ، ولجوارح الموت فى وَحْش نفوسكم اقتناص ؛ ليس بها عليها تأبٍّ ولا اعتياص » .

فليتأمّلْ أهلُ المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلامَ بعين الإنصاف ، يعلموا أن سطراً واحدا من كلام « نهج البلاغة » يساوى ألف سطر منه ، بل يزيد ويُربِي على ذلك ؛ فإنّ هذا الكلام ملزقٌ عليه آثار كُلفة وهُجْنة ظاهرة ، يعرفها العامىّ فضلا عن العالم .

ومن هذه الخطبة :

« تاجروا رحمكم الله وثيرَ المراقد ، وادّخروا طيّب المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقد ، واغتنموا فسحة المَهَل قبل انسداد المقاصد ، واقتحموا سُبُل الآخرة على قِلّة المرافق والمساعد » .

فهل يجد متصفّح الكلام لهذا الفصل عُذوبة ، أو معنى يُمدح الكلامُ لأجله ؟ وهلْ هُوَ إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض ، ليس لها حاصل ؛ كما قيل فى شعر ذى الرُّمة : « بعرِ ظِباء ونقط عروس »[1] !

ومن ذلك قوله :

« فياله من واقع فى كَرْب الحشارِج ، مصارع لسكرات الموت معالج ! حتى دَرَج على تلك المدارج ، وقدم بصحيفته على ذى المعارِج » .

(١) من كلام جرير فى وصف شعر ذى الرمة ، وانظر الموشح للمرزبانى ١٧١ .

وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلّف .

ومن ذلك قوله :

« فكأنكم بمنادى الرحيل قد نادى في أهل الإقامة ، فاقتحموا بالصّغار محجّة القيامة ، يتلو الأوائل منهم الأواخر ، ويتبع الأكابرُ منهم الأصاغر ، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر ، حتى تبتلع جميعهم الحفر والمقابر » .

فإن هذا الكلام ركيك جدا ، لو قاله خطيب من خُطباء قُرَى السواد لم يستحسَن منه ؛ بل ترك واسترذل .

ولعل عائباً يعيب علينا فيقول : شرعتم في المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وبين كلام ابن نُباتة ؛ وهل هذا إلا بمنزلة قول مَنْ يقول : السيف أمضى من العصا ؛ وفي هذه غضاضة على السيف !

فنقول : إنه قد اشتملت كتبُ المتكلّمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البَشَر ، ليبيّنوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب ؛ نحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[1] وبين قول القائل : « القتل أنفى للقتل » ونحو مقايستهم بين قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] وبين قول الشاعر :

فإن عرضوا بالشرّ فاصفح تكرّما وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلْ

* * *

ونحو إيرادهم كلام مُسيلمة ، وأحمد بن سليمان المعرّى ، وعبد الله بن المقفع ، فصلاً فصلا ، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد ، وإيضاح أنّه لا يبلغ ذلك إلى درجة

---

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) سورة الأعراف ١٩٩

القرآن العزيز ، ولا يقاربها ، فليس بمستنكَرٍ منّا أن نذكر كلام ابن نُباتة فى معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهرَ فضيلة كلامه عليه السلام ، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل ، الذى قد اتفق الناس على أنه أوحدُ عصره فى فنه .

واعلم أنّا لا ننكر فضل ابن نُباتة وحُسنَ أكثر خطبه ، ولكنّ قوماً من أهل العصبيّة والعناد ، يزعمون أنّ كلامه يساوى كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ويماثله ، وقد ناظر بعضُهم فى ذلك ، فأحببت أن أبيّن للناس فى هذا الكتاب أنّه لا نسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلّم بالإضافة إلى زُهير والنابغة .

* * *

واعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والأرشق والحلو والأحلى ، والعالى والأعلى من الكلام أمر لا يُدرك إلا بالذوق ؛ ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه ؛ وهو بمنزلة جاريتين : إحداهما بيضاء مشرّبة حمرة دقيقة الشفتين ، نقية الثّغر ، كحلاء العينين ، أسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدِلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن ؛ لكنها أحلَى فى العيون والقلوب منها ، وأليق وأصلح ، ولا يدرَى لأىّ سبب كان ذلك ، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف ، ولا يمكن تعليله ، وهكذا الكلام ؛ نعم يبقى الفرق بين الموضعين . أنّ حُسْن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كلّ من له عين صحيحة ، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق ، وليس كلّ من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وممّن يصلح لانتقاد الكلام ؛ وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم

بذلك دُرْبَة وملكة تامة ، فإلى أولئك ينبغى أن ترجع فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض ، إن كنت عادما لذلك من نفسك .

***

الأصل :

منها فى ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله :

قَدْ حَقَّرَ ٱلدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا،وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ ٱللهَ زَوَاهَا عَنْهُ ٱخْتِيَاراً ، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ ٱحْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ ٱلدُّنْيَا بِقَلْبِهِ،وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ؛ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً،أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً،وَدَعَا إِلَى ٱلْجَنَّةِ مُبَشِّراً ، وَخَوَّفَ مِنَ ٱلنَّارِ مُحَذِّراً.

***

الشرح :

فَعّل ، مشدّد ، للتكثير ، « قتّلت » أكثر من « قَتَلْت » ؛ فيقتضى قوله عليه السلام : « قد حقّر الدنيا » زيادة تحقير النبي صلى الله عليه وآله لها ، وذلك أبلغ فى الثناء عليه وتقريظه .

قوله : «وَصَغّرها» ، أى وصغّرها عندغيره ، ليكون قوله : « وأَهْوَنَ بها وهوّنها» مطابقا له ، أى أهون هو بها وهَوّنها عند غيره .

وزواها : قبضها ، قال عليه الصلاة والسلام : « زُوِيَتْ لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها » .

وقوله :«اختيارا» ، أى قبض الدّنيا عنه باختيار ورضاً من النبي صلى الله عليه وآله بذلك، وعلمٍ بما فيه من رفعة قدره ، ومنزلته فى الآخرة .

والرياش والريش بمعنى ، وهو اللباس الفاخر كالحِزْم والحرام واللِّبس واللباس ، وقرئ : ﴿ وَرِيَاشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[1] ويقال : الريش والرياش : المال والخِصْب والمعاش ، وارتاش فلان : حسنت حاله . ومعذرا ، أى مبالغا ، أعذر فلان فى الأمر ، أى بالغ فيه .

***

الأَصْلُ :

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ المَلَائِكَةِ ، وَمَعَادِنُ ٱلْعِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ ٱلْحُكْمِ ؛ نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام غير ملتصق بالأول كل الالتصاق ، وهو من النمط الذى ذكرناه مرارا ؛ لأنّ الرضيّ رحمه الله يقتضب فصولا من خطبة طويلة ، فيوردها إيراداً واحدا ، وبعضها منقطع عن البعض .

قوله عليه السلام : « نحن شجرة النبوّة » ، كأنه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بنى هاشم . ومحطّ الرسالة : منزلها . ومختلف الملائكة : موضع اختلافها فى صعودها ونزولها ، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبيّين فقال : يفتخر على بنى عمّ له ليسوا بفاطميين :

هل كان يعتمد البُرَاقَ أبوكُمُ ... أمْ كانَ جبريلٌ عليه يُنزَّلُ
أم هَلْ يقولُ له الإلهُ مُشافِهاً ... بالوَحْيِ : قم يأيّها المزمّلُ

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ وهى قراءة عاصم ، وانظر تفسير القرطبي ٧ : ١٨٤ .

وقال آخر يمدح قوما فاطميين :

ويطرقه الوَحْيُ وهناً وأنتم ْ ضجيعان بين يدى جَبْرئيلَا

يعنى حسنا عليه السلام وحسينا عليه السلام .

واعلم أنه إن أراد بقوله : « نحن مختلف الملائكة » جماعة من جملتها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلا ريب فى صحة القضية وصدقها ، وإن أراد بها نفسه وابنيه فهى أيضا صحيحة؛ ولكن مدلوله مستَنبَط ، فقد جاء فى الأخبار الصحيحة ، أنه قال . « ياجبريل ، إنه منى وأنا منه » ، فقال جبريل : وأنا منكما . وروى أبو أيوب الأنصارىّ مرفوعا: « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى علىّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا » ؛ وذلك قبل أن يظهر أمرُ الإسلام ويتسامع الناس به .

وفى خطبة الحسن بن علىّ عليه السلام لما قبض أبوه : « لقد فارقكم فى هذه الليلة رجلٌ لم يسبقه الأولون، ولايدركه الآخرون، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره » .

وجاء فى الحديث أنه سُمِع يوم أحد صوتٌ من الهواء من جهة السماء ، يقول : « لاسيف إلا ذو الفقار ، ولافتى إلا علىّ » ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « هذا صوت جبريل » .

فأما قوله : « ومعادن العلم ، وينابيع الحُكْم » يعنى الحكمة أو الحكم الشرعىّ ، فإنه وإن عنَى بها نفسه وذرّيته ، فإن الأمر فيها ظاهر جدًّا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلىّ بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب » ، وقال : « أقضاكم علىّ » والقضاء أمر يستلزم علوما كثيرة .

وجاء فى الخبر أنّه بعثه إلى اليمن قاضيا، فقال : يارسول الله ، إنهم كهول وذوو أسنان

وأنافتي، وربما لم أصِبْ فيما أحكم به بينهم، فقال له : « اذهب فإنّ الله سيثبّت قلبك ويهدى لسانك » .

وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [1]: سألت الله أن يجعلها أذنك ففعل. وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [2] أنها أنزلت فى علىّ عليه السلام وما خُصّ به من العلم . وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [3] : أن الشاهد علىّ عليه السلام .

وروى المحدّثون أنه قال لفاطمة : « زَوّجتُكِ أقدمَهم سِلْما ، وأعظمهم حِلْماً ، وأعلمهم علما » . وروى المحدّثون أيضا عنه عليه السلام أنه قال : « مَنْ أراد أن ينظر إلى نوح فى عَزْمه ، وموسى فى عِلْمِه ، وعيسى فى وَرَعه ، فلينظر إلى علىّ بن أبى طالب » .

وبالجملة فحاله فى العلم حال رفيعة جدا لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه . وحقّ له أن يصف نفسَه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم ، فلا أحدَ أحقُّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

فإن قلت : كيف قال : « عدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة » ، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه ، لاينتظرونها !

قلت : لما كانت منتظرةً لهم ومعلوما بيقين حلولها بهم ، صاروا كالمنتظرين لها. وأيضا فإنهم ينتظرون الموت لامحالة الذى كلّ إنسان ينتظره ؛ ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقا إليه جعل انتظاره انتظار مايكون بعده .

(١) سورة الحاقة ١٢
(٢) سورة النساء ٥٤
(٣) سورة هود ١٧

(١٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إنَّ أفضلَ ما تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إلى ٱللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى ، ٱلْإيمانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَٱلْجِهادُ فِي سَبِيلِهِ ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ ٱلْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةُ ٱلْإِخْلَاصِ ؛ فَإِنَّها ٱلْفِطْرَةُ ، وَإِقامُ الصَّلاةِ فَإِنَّها ٱلْمِلَّةُ ، وَإِيتاءُ الزَّكاةِ فَإِنَّها فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ ٱلْعِقابِ ، وَحَجُّ ٱلْبَيْتِ وَٱعْتِمارُهُ ، فَإِنَّهُما يَنْفِيانِ ٱلْفَقْرَ وَيَرْحَضانِ الذَّنْبَ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّها مَثْرَاةٌ فِي ٱلْمالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي ٱلْأَجَلِ ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّها تُكَفِّرُ ٱلْخَطِيئَةَ ، وَصَدَقَةُ ٱلْعَلَانِيَةِ فَإِنَّها تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ ، وَصَنائِعُ ٱلْمَعْرُوفِ فَإِنَّها تَقِي مَصارِعَ ٱلْهَوانِ .

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ ٱللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ ، وَٱرْغَبُوا فِيما وَعَدَ ٱلْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ ٱلْوَعْدِ ؛ وَٱقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ ٱلْهَدْيِ ، وَٱسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّها أَهْدَى ٱلسُّنَنِ ، وَتَعَلَّمُوا ٱلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ ٱلْحَدِيثِ ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ ٱلْقُلُوبِ ، وَٱسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفاءُ ٱلصُّدُورِ ، وَأَحْسِنُوا تِلاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ ٱلْقَصَصِ . وَإِنَّ ٱلْعالِمَ ٱلْعامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَٱلْجاهِلِ ٱلْحائِرِ ٱلَّذِي لا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ ؛ بَلِ ٱلْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَٱلْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ ؛ وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ أَلْوَمُ .

* * *

الشرح :

ذكر عليه السلام ثمانية أشياء ، كلٌّ منها واجب .

أولها : الإيمان بالله ورسوله ، ويعني بالإيمان هاهنا مجرد التصديق بالقلب ، مع قطع النظر عما عدا ذلك من التلفظ بالشهادة ، ومن الأعمال الواجبة ، وترك القبائح . وقد ذهب إلى أن ماهيّة الإيمان هو مجرد التصديق القلبيّ جماعة من المتكلمين ؛ وهو وإن لم يكن مذهبَ أصحابنا، فإنّ لهم أن يقولوا : إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللفظ على أصل الوضع اللغويّ ؛ لأن الإيمان في أصل اللغة هو التصديق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾[1] ، أي لست بمصدّق لنا؛ لا إن كنّا صادقين، ولا إنْ كنا كاذبين . ومجيئه عليه السلام به على أصل الوضع اللغوى لا يبطل مذهباً في مسمّى الإيمان؛ لأنا نذهب إلى أن الشرع استجدّ لهذه اللفظة مسمًّى ثانيا ، كما نذهب إليه في الصلاة والزكاة وغيرها ، فلا مُنَافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام .

وثانيها : الجهاد في سبيل الله ، وإنما قدّمه على التلفّظ بكلمتَيِ الشهادةَ ؛ لأنه من باب دفع الضرر عن النفس، ودفع الضرر عن النفس مقدّم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح . والتلفّظ بكلمتَيِ الشهادة من أعمال الجوارح ؛ وإنما أخّره عن الإيمان ، لأنّ الإيمان من أفعال القلوب ؛ فهو خارج عمّا يتقدم عليه ، ودفع الضرر من الأفعال المختصّة بالجوارح ، وأيضا فإنّ الإيمان أصلُ الجهاد ، لأنّه ما لم يعلم الإنسان على ماذا يُجاهد لا يجاهد ، وإنما جعله ذِرْوة الإسلام، أي أعلاه ،لأنه ما لم تتحصّن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكّن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام ؛ فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن .

وثالثها : كلمة الإخلاص ؛ يعني شهادة أنْ لا إله إلا الله وشهادة أنّ محمداً رسول الله ، قال : فإنها الفطرة ؛ يعني هي التي فطر الناس عليها ؛ والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد، وعليها فُطِر البشرُ كلّهم، والكلمة الثانية تبَعٌ لها فأجريت مجراها، وإنما أخّرت

(١) سورة يوسف ١٧ .

هذه الخصلة عن الجهاد ، لأنّ الجهاد كان هو السببَ في إظهار الناس لها و نطقهم بها ؛ فصار كالأصل بالنسبة إليها .

ورابعها إقام الصلاة أى إدامتها ، والأصل « أقام إقواما » ، فحذفوا عين الفعل ، وتارة يعوّضون عن العين المفتوحة هاء ، فيقولون : « إقامة » . قال : فإنها الملة ، وهذا مثل قول النبي صلى الله عليه وآله : « الصّلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هدّم الدين » .

وخامسها إيتاء الزكاة ، وإنما أخرها عن الصلاة لأنّ الصلاة آكد افتراضا منها ؛ وإنما قال فى الزكاة « فإنها فريضة واجبة » ، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعيّن المقدر فى السائمة ، باعتبارٍ غير الاعتبار الذى يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة ؛ والاعتبار الأوّل من القطع ، والثانى من الوجوب ، وقال : فإنها فريضة واجبة ؛ مثل أن يقول : فإنها شىء مقتطع من المال موصوف بالوجوب .

وسادسها صوم شهر رمضان ؛ وهو أضعف وجوباً من الزكاة ، وجعله جُنّة من العقاب ، أى سترة .

وسابعها الحجّ والعمرة ، وهما دون فريضة الصّوْم ، وقال : إنهما ينفيان الفقر ، ويَرْحضان الذنب ، أى يغسلانه ؛ رَحَضت الثوب ، وثوب رَحيض . وهذا الكلام يدلّ على وجوب العُمْرة ؛ وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء .

وثامنها صِلَة الرّحم وهى واجبة ، وقطيعة الرحم محرّمة ، قال : فإنها مثراة فى المال ، أى تُثْريه وتكثره .

ومَنْسأة فى الأجل ، أى تنسؤه وتؤخره ، ويقال : نسأ الله فى أجلك . ويجوز أنسأه بالهمزة .

فإن قلت : فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ؟

قلت : أما الصّلاة ، فلأن تاركها يقتل ، وإن لم يجحد وجوبها ، وغيرها ليس كذلك ؛ وإنما قدمت الزّكاة على الصوم لأنّ الله تعالى قرنها بالصلاة فى كثير من الكتاب العزيز ، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا فى موضع واحد ، وكثرة تأكيد الشىء وذكره دليلٌ على أنه أهمّ ، وإنما قدّم الصوم على الحجّ ، لأنه يتكرر وجوبه ، والحجّ لا يجب فى العمر إلا مرّة واحدة ، فدلّ على أنه أهمّ عند الشارع من الحج .

ثم قال عليه السلام : « وصدقة السرّ » ، فخرج من الواجبات إلى النوافل . قال : « فإنّها تكفر الخطيئة » ، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحقّ بثواب أزيد منه أو توبة وأصله فى اللغة السّتْر والتغطية ، ومنه الكافر ؛ لأنّه يغطّى الحق ، وسمّى البحر كافرا لتغطيته ما تحته ، وسمى الفلّاح كافرا لأنّه يغطّى الحبّ فى الأرض المحروثة .

ثم قال : « وصدقة العلانية » ، فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والهدم وغيرها .

قال : « وصنائع المعروف ، فإنها تقى مصارع الهوان » كأسْر الروم للمسلم ، أو كأخذ الظّلَمة لغير المستحقّ للأخذ .

ثم شرع فى وصايا أُخَرَ عدّدها . والهَدْى : السيرة ، وفى الحديث : « واهدوا هَدْىَ عمّار » ، يقال : هَدِىَ فلان هَدْىَ فلان ، أى سار سيرته .

وسمّى القرآن حديثا اتباعا لقول الله تعالى : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾[1] ؛ واستدلّ أصحابُنا بالآية على أنه محدَث ، لأنه لا فَرْق بين حديث ومحدث فى اللغة . فإن قالوا : إنما أراد أحسن الكلام ، قلنا : لعمرى إنه كذلك ، ولكنه لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث ؛ لأنه إنما سمّى الكلام والمحاورة والمخاطبة حديثا ؛ لأنه أمر يتجدّد حالا فحالا ، والقديم ليس كذلك .

---

(١) سورة الزمر ٢٣ .

ثم قال : « تفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب » ؛ من هذا أخذ ابن عباس قوله :« إذا قرأت آلم حم ، وقعت فى روضات دمِثاتٍ » .

ثم قال : « فإنه شفاء الصدور » ، وهذا من الألفاظ القرآنية[1] .

ثم سمّاه قصصا ، اتباعا لما ورد فى القرآن من قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[2] .

ثم ذكر أن العالم الذى لا يعمل بعلمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله .

ثم قال : « بل الحجّة عليه أعظم » ، لأنه يعلم الحقّ ولا يعمل به ، فالحجّة عليه أعظم من الحجّة على الجاهل ، وإن كانا جميعاً محجوجَيْن ، أما أحدُهما فبعلمه ، وأما الآخر فبتمكّنه من أن يعلم .

ثم قال : « والحسرة له ألزم » ، لأنه عند الموت يتأسّف ألاّ يكون عمِل بما علم ، والجاهل لا يأسف ذلك الأسف .

ثم قال : « وهو عند الله ألوم » ، أى أحقّ أن يلام ، لأن المتمكّن عالم بالقوة ، وهذا عالم بالفعل ، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشدّ .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة يونس ٥٧ : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .

(٢) سورة يوسف ٣

(١١٠)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْـلُ:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ . لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا ؛ وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا . غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ ، لَا تَعْدُو – إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا – أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾[1].

لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً ، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْناً ، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً ؛ وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ .

وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى ، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى !

لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً ، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً ، وَلَا يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ؛ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ .

غَرَّارَةٌ ؛ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، فَانِيَةٌ ؛ فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى .

---

(١) سورة الكهف ٤٥ .

مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ ، وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ .

كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً ؛ وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً !

سُلْطَانُهَا دُوَلٌ ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ . حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ . مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ .

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً ، وَأَبْقَى آثَاراً ، وَأَبْعَدَ آمَالاً ، وَأَعَدَّ عَدِيداً ، وَأَكْثَفَ جُنُوداً ! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ ، وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ . فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً ! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَادِحِ ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ . فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا ، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ .

وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ !

أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ ؛ أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ !

فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا !

فاعلموا ـ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا ، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا . وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (١) ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً ، وَأُنْزِلُوا

---

(١) سورة فصلت ١٥

الأجداثِ فَلا يُدْعَونَ ضِيفاناً ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفيحِ أجنانٌ ، وَمِنَ التُّرابِ أكْفانٌ ، وَمِنَ الرُّفاتِ جيرانٌ . فَهُمْ جيرَةٌ لا يُجيبونَ داعِياً ؛ وَلا يَمْنَعونَ ضَيْماً ، وَلا يُبالونَ مَنْدَبَةً . إنْ جِيدوا لَمْ يَفْرَحوا ، وَإنْ قُحِطوا لَمْ يَقْنَطوا ، جَميعٌ وَهُمْ آحادٌ ، وَجيرَةٌ وَهُمْ أبْعادٌ ، مُتَدانونَ لا يَتَزاوَرونَ ، وَقَريبونَ لا يَتَقارَبونَ .

حُلَماءُ قَدْ ذَهَبَتْ أضْغانُهُمْ ، وَجُهَلاءُ قَدْ ماتَتْ أحْقادُهُمْ ؛ لا يُخْشى فَجْعُهُمْ ؛ وَلا يُرْجى دَفْعُهُمْ . اسْتَبْدَلوا بِظَهْرِ الأرْضِ بَطْناً ، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً ، وَبِالأهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنّورِ ظُلْمَةً ، فَجاءوها كَما فارَقوها ، حُفاةً عُراةً قَدْ ظَعَنوا عَنْها بِأعْمالِهِمْ ، إلَى الحَياةِ الدّائِمَةِ ، والدّارِ الباقِيَةِ ، كما قالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [1] .

***

الشرح :

خَضِرة ، أى ناضرة ، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية ، قال النبي صلى الله عليه وآله : « إنّ الدنيا حُلْوة خضِرة ، وإن الله مستخلِفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ! » .

وحُفَّت بالشهوات ، كأن الشهوات مستديرة حولها ، كما يحفّ الهودجُ بالثياب ، وحَفّوا حوله يحفُّونَ حَفّاً : أطافوا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ [2] .

قوله : « وتحبّبت بالعاجلة » ، أى تحبّبت إلى الناس بكونها لذّة عاجلة ، والنفوس مغرمة مولعة بحبّ العاجل ، فحذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول .

قوله : « وراقت بالقليل » ، أى أعجبت أهلها ؛ وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم .

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤

(٢) سورة الزمر ٧٥

قوله : « وتحلّت بالآمال » من الحِلْية ، أى تزيّنت عند أهلها بما يؤمّلون منها .

قوله : « وتزيّنت بالغرور » ، أى تزيّنت عند الناس بغرور لاحقيقة له .

والحَبْرة : السرور . وحائلة : متغيّرة . ونافدة : فانية . وبائدة : منقضية . وأكّالة : قتالة ، وغوّالة : مهلكة . والغَوْل : ماغال ، أى أهلك ؛ ومنه المثل : « الغضب غُول الحلم » .

ثم قال : إنها إذا تناهتْ إلى أمنيّة ذوى الرغبات فيها لاتتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

فاختلط ، أى فالتفّ بنبات الأرض . وتكاثف به ، أى بسبب ذلك الماء وبنزوله عليه ؛ ويجوز أن يكون تقديره : فاختلط بنبات الأرض ، لأنه لمّا غذّاه وأنماه ، فقد صار مختلطا به ، ولمّا كان كلّ واحد من المختلطين مشاركاً لصاحبه فى مسمّى الاختلاط جاز « فاختلط به نبات الأرض » ، كما يجوز : فاختلط هو بنبات الأرض .

والهشيم : ماتهشّم وتحطّم ، الواحدة هشيمة . وتذرُوه الرياح : تطيّره . وكان الله على مايشاء ، من الإنشاء والإفناء ، مقتدرا .

قوله : « من يلق من سرّائها بطنا » إنما خصّ السرّاء بالبطن ، والضرّاء بالظهر ، لأن الملاق لك بالبطن ملاقٍ بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهرَه مدبر عنك . وقيل : لأنّ الترس بطنه إليك وظهره إلى عدوّك ، وقيل : لأنّ للشىَ فى بطون الأودية أسهلُ من السير على الظِّرَاب والآكام .

وطلّه السحابُ يَطُلّه ، إذا أمطره مطرا قليلا ، يقول : إذا أعطت قليلا من الخير أعقبت ذلك بكثير من الشر ، لأنّ التَّهتان الكثير المطر ، هتن يهتِن بالكسر ، هَتْنا وهُتونا وتَهْتانا .

قوله : «وحرىّ » ،أى جدير وخَليق ، يقال : بالحَرَى أن يكون هذا الأمر كذا ، وهذا الأمر مَحْرَاة لذلك ،أى مَقْمَنة ، مثل مَجْباة ، وما أحراه مثل ماأحجاه ، وأحْرِ به، مثل أحْجِ به ، وتقول : هو حَرًى أن يفعل ذلك بالفتح ، أى جدير وقمِن ، لايثنى ولا يجمع ، قال الشاعر :

وَهُنَّ حَرًى ألّا يُثِبنَكَ نَقْرَةً ... وَأَنتَ حَرًى بالنارِ حينَ تُثيبُ[1]

فإذاقلت: هوحرٍ بكسر الراء وحرىّ بتشديدها على «فعيل» ثنيت وجمعت ،فقلت : هما حَرِيَانِ وحَرِيّانِ ، وحَرُون مثل عَمُون ، وأحراء أيضا ، وفى المشدّد حَرِيّون وأحْرِياء، وهى حرِيَة وحَرِيّة ؛ وهنّ حَرِيّات وحَرِيات وحرايا .

فإن قلت : فهلا قال : « وحرّية إذا أصبحت » ، لأنه يخبر عن الدنيا ؟

قلت : أراد شأنها ، فذكّر ، أى وشأنها خليق أن يفعل كذا .

واعذوذب : صار عذبا . واحلولى : صار حُلوا ، ومن هاهنا أخذ الشاعر قوله :

ألا إنّما الدّنيا غضارةُ أيكةٍ ... إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ
فلا تكتحِلْ عيناك منها بعبْرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهبُ

وارتفع « جانب » المذكور بعد « إن » لأنه فاعل فعل مقدّر يفسّره الظاهر ؛ أى وإن اعذوذب جانبٌ منها ، لأن « إنْ » تقتضى الفعل وتطلبه فهى : كـ « إذا » فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[2] .

وأمرّ الشىء ، أى صار مرًّا . وأوْبى : صار وبيًّا ، ولَيّن الهمز ، لأجل السجع .

والرَّغَب : مصدر رغبت فى الأمر رغبة ورَغَبا ، أى أردته .

يقول: لاينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقته تعبًا،يقال :أرهقه إثما،أى حمّله وكلّفه .

---

(١) البيت فى اللسان ١٨ : ١٨٨ ، من غير نسبة .
(٢) سورة الانشقاق ١

فإن قلت : لم خَصّ الأمن بالجناح والخوف بالقوادم ؟

قلت : لأنّ القوادم مقاديمُ الريش ، والراكب عليها بمَرَض خطر عظيم وسقوط قريب ، والجناح يستروبق البرد والأذى ، قال أبو نُوَاس :

تَغَطَّيتُ مِنْ دَهْرِي بظلّ جناحه ... فصرت أرى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِى [1]
فلو تسأل الأيامَ ما اسمى لما دَرَتْ ... وأيْنَ مكانى ما عرفْنَ مكانِى

والهاء فى « جناحه » ترجع إلى الممدوح [2] بهذا الشعر .

وتُوبقه : تهلكه ، والأبّهة : الكبْر . والرَّنَق ، بفتح النون ، مصدر رَنَق الماء ، أى تكدّر وبالكسر الكدر ، وقد روى هاهنا بالفتح والكسر ، فالكسر ظاهر ، والفتح على تقدير حذف المضاف ، أى ذو رَنَق .

وماء أُجَاج : قد جمع المرارة والمُلوحة ، أجَّ الماء يؤُج أجاجا . والصبِر ، بكسر الباء : هذا النبات المرّ نفسه ، ثم سمّىَ كلّ مرّ صبراً . والسمام : جمع سَمّ لهذا القاتل ، يقال سَمّ وسُمّ ، بالفتح والضم ، والجمع سِمام وسُموم .

ورمام : بالية ، وأسبابها : حبالها . وموفورها : ذو الوفْر والثروة منها ، والمحروب : المسلوب ، أى لا تحمى جارا ولا تمنعه .

ثم أخذ قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [3] فقال : « ألستم فى مساكِنِ مَنْ كان قبلكم أطول أعمارا » ، نصب « أطول » بأنه خبر كان ، وقد أتانا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول

---

(١) ديوانه ٩٧
(٢) هو محمد بن الفضل بن الربيع .
(٣) سورة إبراهيم ٤٥ .

أعمارا بقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عامًا﴾ [1] ، وثبت بالعيان أنهم أبقى آثارا ؛ فإنّ من آثارهم الأهرام والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك . وأمّا بُعْدُ الآمال فمرتّب على طول الأعمار ، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعَد ، وإن عَنى به علوّ الهمم ، فلا ريب أنهم كانوا أعلى هماً من أهل هذا الزمان ؛ وقد كان فيهم مَنْ ملَك معمورة الأرض كلّها ، وكذلك القول في « أعدّ عديداً ، وأكثف جنوداً » ، والعديد : العدوّ الكثير ؛ وأعدّ منهم ، أي أكثر .

قوله : « ولا ظهر قاطع » ، أي قاطع لمسافة الطريق .

والفوادح: المثقلات ، فَدَحه الدَّين أثقله؛ ويروى « بالقوادح » بالقاف؛ وهي آفة تظهر في الشجر ، وصدوع تظهر في الأسنان .

وأوهقتهم: جعلتهم في الوهَق ، بفتح الهاء ، وهو حبل كالطِّوَل [2] ويجوز التسكين ، مثل نَهْر ونَهَر .

والقوارع : المحن والدواهي ؛ وسميت القيامة قارعة في الكتاب العزيز من هذا المعنى وضعضعتهم : أذلتهم ، قال أبو ذؤيب :

* أني لرَيْبِ الدهرِ لا أتضعضع * [3]

وضعضعت البناء : أهدمته .

وعفّرتهم للمناخر . ألصقت أنوفهم بالعَفَر ، وهو التراب . والمناسم: جمع منسِم ، بكسر السين وهو خُفّ البعير .

---

(١) سورة العنكبوت ١٤

(٢) الطول ، أو الطيل : حبل طويل يشد به قائمة الدابة .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٣ ؛ وصدره :

* وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ *

ودان لها : أطاعها ، ودان لها أيضا : ذَل .وأخلد إليها : مال، قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾(١).

والسَّغَب : الجوع : يقول : إنما زودتْهم الجوع ، وهذا مثل ، كما قال :

* ومدحتُه فأجازَني الحرمانا *

ومعنى قوله : « أو نوّرت لهم إلا الظلمة »؛ أى بالظلمة ؛وهذا كقوله : « هل زوّدتْهم إلا السَّغب » . وهو من باب إقامة الضدّ مقام الضدّ ، أى لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة. والضنك: الضيق.

ثم قال : فبئست الدار ، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره « هى » كما قال تعالى: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾(٢)، وتقديره : «هو».

ومن لم يتهمها : من لم يسؤ ظنًا بها. والصفيح : الحجارة. والأجنان : القبور ،الواحد جَنَن،والجنون :المقبور ،ومنهقول الأعرابية:« لله درّكمن مجنون فى جَنَن! ».والأكنان: جمع كِنّ : وهو السّتر، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾(٣).

والرّفات : العظام البالية . والمندبة :الندْب على الميت. لا يبالون بذلك : لا يكترثون به . وجِيدُوا: مُطِروا .وقُحِطوا : انقطع المطر عنهم فأصابهم القَحْط ، وهو الجدب وإلى معنى قوله عليه السلام : « فهم جيرة لايجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد ، متدانون لا يتزاورون ، وقريبون لا يتقاربون » نظر البحترىّ ، فقال:

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦
(٢) سورة ص ٣٠
(٣) سورة النحل ٨١

بنا أنتِ من مجفوّة لم تؤنّبِ ... ومهجورة فى هَجْرها لم تعتّبِ[1]

ونازحــةٍ والدار منها قريبةٌ ... وماقُرْب ثاوٍ فى التراب مغيّبِ !

وقد قال الشعراء والخطباء فى هذا المعنى كثيرا ، فمن ذلك قول الرضىّ أبى الحسن رحمه الله فى مرثيته لأبى إسحاق الصابى :

أعزِزْ علىّ بأنْ نزلتَ بمنزلٍ ... متشابهٍ الأمجادِ بالأوغادِ[2]

فى عصبةٍ جُنِبوا إلى آجالِهمْ ... والدهرُ يُعجلُهمْ عن الإزوادِ

ضرَبوا بمدْرَجة الفناء قبابَهمْ ... من غــــيرِ أطنابٍ ولا أوتادِ

رَكْبٌ أناخُوا لايرجّى منهمُ ... قصدٌ لإتهــــامٍ ولا إنجادِ

كرهوا النزولَ فأنزلتهمْ وقعةٌ ... للدهر نازلة بــكل مَقَـادِ

فتهافتوا عن رَحْل كل مذلّلٍ ... وتطاوحوا عن سَرْج كلّ جواد

بادون فى صُوَرِ الجميع وإنهم ... متفردون تفرّدَ الآحــاد

فقوله : « بادون فى صور الجمع ... » البيت ، هو قوله عليه السلام : « جمع وهم آحاد » بعينه.

وقال الرضىّ رحمه الله تعالى أيضا :

متوسّدين على الخــدود كأنمــا ... كَرِعُوا على ظمإٍ من الصّهباء[3]

صُوَرٌ ضننتَ على العيون بحسنها ... أمسيتُ أوقرُها من البَوْغاء[4]

ونواظرٍ كَحَلَ التراب جفونَها ... قد كنت أحْرُسُها من الأقذاء

قَرُبت ضرائحهم على زُوّارها ... ونَأوا عن الطّلاب أىّ تناء[5]

(١) ديوانه ١ : ٤٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٩ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ من مرثيته لوالدته .

(٤) لحظها : ملاحظتها . والبوغاء : التربة الرخوة

(٥) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .

قوله : « قربت ضرائحهم ... » البيت هو معنى قوله عليه السلام : « وجيرة ، وهم أبعاد » بعينه .

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب : (١)

لكلِّ أناس مقبرٌ فى ديارهم (٢)   فهمْ ينقصون ، والقبور تزيدُ
فكائن تَرَى من دار حَىٍّ قد أخربت   وقبرٍ بأكناف التراب جديدُ (٣)
همُ جيرة الأحياء ، أمّا مزارهم (٤)   فدانٍ ، وأما الملتقى فبعيدُ

ومن كلام ابن نُباته : « وحيدا على كثرة الجيران ، بعيدا على قرب المكان » .

ومنه قوله : « أسير وحشة الانفراد ، فقير إلى اليسير من الزاد ، جارُ من لا يجير ، وضيفُ من لا يمير ، حلوا ولا يرون ركبانا ، وأنزلوا ولا يُدْعَون ضيفانا ، واجتمعوا ولا يُسَمَّون جيرانا ، واحتشدوا ولا يعدّون أعوانا ، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه المذكور فى هذه الخطبة ، وقد أخذه مصالتةً .

ومنه قوله : « طحنتهم طحن الحصيد ، وغيّبتهم تحت الصعيد ، فبطون الأرض لهم أوطان ، وهم فى خرابها قطّان ، عمروا فأخربوا ، واقتربوا فاغتربوا ، واصطحبوا وما اصطحبوا » .

ومنه قوله : « غُيّبا كأشهاد ، عصبا كآحاد ، همودا فى ظُلَمِ الألحاد ، إلى يوم التناد » .

---

(١) لعبد الله بن ثعلبة الحنفى ؛ حماسة أبى تمام - بشرح المرزوقى ٨٩١
(٢) الحماسة :

* لِكُلِّ أُنَاسٍ مَقْبَرٌ بِفِنَائِهِمْ *

(٣) رواية الحماسة :

وما إن يَزَالُ رسمُ دارٍ قد اخلقَتْ   وبيتٌ لميْتٍ بالفَنَاء جَديدُ

(٤) الحماسة : « أما جوارهم » .

واعلم أنّ هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين[١] " ، ورواها لقَطَرِىّ بن الفجاءة ، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها فى كتاب " الموفق " لأبى عبيد الله المرزبانىّ مروية لأمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهى بكلام أمير المؤمنين أشبه ؛ وليس يبعد عندى أن يكون قطرىّ قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ؛ وقد لقى قَطَرىّ أكثرهم .

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٢٦ – ١٢٧ ؛ وهى أيضا بنسبتها إلى قطرى فى العقد ١ : ١٤١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٣ ، وعيون الأخبار ٢ : ٢٥٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٠

(١١١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس :

هَلْ يُحَسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً ! بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى ٱلْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا !

كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ !

* * *

الشرح :

أما مذهب جمهور أصحابنا؛ وهم النافون للنفس الناطقة ؛ فعندهم أنّ الروح جسم لطيف بخارىّ، يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، ينفذ فى العروق الضوارب ، والحياة عَرَض قائم بالروح وحالّ فيها ؛ فللدماغ روح دِماغية وحياة حالّة فيها ؛ وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد ؛ وعندهم أن لملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه ؛ لولا ذلك لتعذّر عليه وهو جسم أن يقبض روحين فى وقت واحد فى المشرق والمغرب ؛ لأنّ الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد . قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحَفَظة الكاتبون هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل ، قالوا : وكيفية القبض ولُوج الملك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائىّ لا يتعذّر عليه النفوذ فى المخارق الضيّقة ، فيخالط الروح

التي هي كالشبيهة به ، لأنها جسم لطيف بخاريّ ، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه ، وإنما يكون ذلك في الوقت الّذي يأذَنُ الله تعالى له فيه ؛ وهو حضور الأجل ، فألزموا على ذلك أن يغوصَ الملك في الماء مع الغريق ؛ ليقبض روحه تحت الماء ؛ فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلّل الملَك الماء في مسامّ الماء ؛ فإنّ فيه مسامّ ومنافذ ، وفي كلّ جسم على قاعدتهم في إثبات الماء في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنّه لامسامّ فيه ، لم يبعد أن يلجه الملك فيوسّع لنفسه مكانا كما يلجهُ الحجر والسمك وغيرهما ، وكالريح الشديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره ، وتغوره ، وقوة الملَك أشدّ من قوة الريح .

ثم نعود إلى الشرح فنقول :

الملَك أصله « مألك » بالهمز ، ووزنه « مفعل » والميم زائدة ، لأنه من الألوكة والألوك ؛ وهي الرسالة ، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقيل ملأك ، قال الشاعر :

فلستُ لإنسيٍّ ولكن لملأكٍ تنزّلَ من جوّ السماء يصوب (١)

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال ، فقيل : « مَلَك » ، فلما جمع ردت الهمزة إليه ، فقالوا : ملائكة وملائك ، قال أميّة بن أبي الصلت :

وَكَأَنَّ بِرَقِعَ والملائك حولها سَدِرٌ تواكله القوائم أجردُ (٢)

والتوفّي : الإماتة وقبض الأرواح ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (٣) .

والتقسيم الذي قسّمه في وفاة الجنين حاصر ؛ لأنه مع فرضنا إيّاه جسما يقبض الأرواح التي في الأجسام ؛ إما أن يكون مع الجنين في جوف أمّه فيقبض روحَه عند حضور أجله ،

(١) اللسان ١٢ : ٢٧٤ من غير نسبة .
(٢) اللسان ٦ : ٣٠
(٣) سورة الزمر ٤٢

أو خارجا عنها . والقسم الثانى ينقسم قسمين : أحـدهما أن يَلجَ جوف أمّه لقبض روحه فيقبضها ،والثانى أن يقبضَهامن غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها؛ وذلك بأن تطيعه الرُّوح وتـكون مسخّرة إذا أراد قبضها امتدّت إليه فقبضها . وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها، ولو قسمها واضع المنطق لما زاد .

ثم خرج إلى أمر آخرَ أعظم وأشرف مما ابتدأ به ، فقال : « كيف يصف إلهه مَنْ يعجز عن وصف مخلوق مثله » ! وإلى هذا الغرض كان يترامَى ، وإياه كان يقصد ؛ وإنما مهّد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف ، والسرّ الدقيق .

[فصل فى التخلص وسياق كلام للشعراء فيه]

وهـذا الفنّ يسميه أرباب علم البيان التخلّص ، وأكثر مايقع فى الشعر ، كقول أبى نواس :

تقول التى من بيتها خَفّ مركبى ... عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ[1]
أما دونَ مصرٍ للغنى متطلَّب ! ... بلى ، إن أسبابَ الغنى لـكثيرُ
فقلت لها واستعجلتْها بوادرٌ ... جرَت ، فجرى فى جريهنّ عَبيرُ:
ذرِينى أكثر حاسديك برحلةٍ ... إلى بلد فيـه الخصيب أميرُ

ومن ذلك قول أبى تمام :

يَقُولُ فى قُومِسٍ صحبى وقد أخذَتْ ... مِنّا السُّرَى وَخُطَا المَهريّةِ القُودِ[2]
أمَطْلِعَ الشمسِ تبغى أنْ تؤمّ بنا ... فقلت كلاّ ولـكن مطلِع الجودِ

(١) ديوانه ٩٩ ، من قصيدة يمدح فيها الخصيب بن عبد الرحمن المرادى ، أمير مصر .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٠ ، قومس : بلد بين العراق وخراسان .

ومنه قول البحتري:

هل الشباب ملمٌّ بي فراجعةٌ ... أيامُه ليَ في أعقاب أيامي! [1]

لو أنه نائل غمرٌ يجادُ به ... إذن تطلبتُه عند ابن بسطام

ومنه قول المتنبي؛ وهو يتغزّل بأعرابية، ويصف بخلها وجبْنها وقلة مطعمها؛ وهذه كلها من الصفات الممدوحة في النساء خاصة [2]:

في مُقلتيْ رشأ تديرُهما ... بدويةٌ فُتِنتْ بها الحِلَلُ [3]

تشكو المطاعمُ طولَ هِجرَتِها ... وصدودَها، ومَنِ الذي تصلُ!

ما أسأرتْ في القَعْبِ من لبنٍ ... تركتْه، وهو المسك والعسل

قالت: ألا تصحو فقلت لها ... أعلمْتِني أنّ الهوى ثَمِلُ

لَوْ أنّ فنّاخُسْرَ صبّحكمْ ... وبرزتِ وحدكِ عاقه الغزَلُ [4]

وتفرّقتْ عنكم كتائبُه ... إن الملاحَ خوادعٌ قُتُلُ

ما كنتِ فاعلة وضيفكمُ ... ملكُ الملوك وشأنكِ البَخَلُ

أتمنّعين قِرًى فتفتضحي ... أم تبذُلين له الذي يَسَلُ

بل لا يحلّ بحيث حَلّ به ... بخلٌ ولا جوْرٌ ولا وَجَلُ

وهذا من لطيف التخلّص ورشيقه، والتخلص مذهب الشعراء، والمتأخرون يستعملونه كثيرا، ويتفاخرون فيه ويتفاضلون، فأما التخلّص في الكلام المنثور فلا يكاد يظهر لمتصفّح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمّل شديد؛ وقد وردت منه مواضع في القرآن العزيز؛ فمن

---

(١) المثل السائر ٢ : ٢٦٥

(٢) ديوانه ٣ : ٣٠١ ؛ من قصيدة يمدح فيها ركن الدولة .

(٣) الرشأ : ولد الظبية الصغير . والحلل : جمع حلة ؛ وهي القوم المجتمعون في بيوت مجتمعة النزول . والبدوية : الساكنة البدو .

(٤) فناخسر ؛ هو اسم عضد الدولة . وصبحكم : أتاكم صباحاً للغارة .

أبينها وأظهرها أنه تعالى ذكر فى سورة الأعراف الأمم الخالية ؛ والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن انتهى إلى قصة موسى ، فقال فى آخرها بعد أن شرحها وأوضحها: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ ﴾(١).

وهذا من التخلصات اللطيفة المستحسنة .

[فصل فى الاستطراد وإيراد شواهد للشعراء فيه]

واعلم أن من أنواع علم البيان نوعاً يسمى الاستطراد ، وقد يسمى الالتفات، وهو من جنس التخلص وشبيه به ، إلا أن الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذى تروم ذكره فتذكره ، وكأنك غير قاصد لذكره بالذات ، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرض عن غير قصد ، ثم تدعه وتتركه ، وتعود إلى الأمر الذى كنت فى تمهيده ، كالمقبل عليه ، وكالملغى عما استطردت بذكره ، فمن ذلك قول البحترى وهو يصف فرسا :

(١) سورة الأعراف ١٥٥ ـ ١٥٧

وأغرّ فِي الزّمن البهيم مُحَجّلٍ ... قَدْ رُحتُ مِنه عَلَى أغرّ مُحَجّلِ[1]
كالهيكل المبنىّ إلّا أنه ... فى الحسن جاء كصورةٍ فى هيكلِ
وافِي الضلوع يشدّ عقد حزامه ... يومَ اللقاء على مُعِمٍّ مُخولِ
أخواله للرستمين بفارسٍ ... وجدُوده للتُّبعين بموكلِ
يهوِي كاهوت العُقاب وقد رأتْ ... صيداً، وينتصب انتصابَ الأجدلِ
متوجس برقيقتين كأنما ... تُرَيانِ من ورق عليه مكلّلِ
مايِن يعاف قذًى ولو أوردْته ... يوماً خلائق حَمْدَوَيْهِ الأحول
ذَنَبٌ كما سَحَبَ الرِّشاءَ يذبّ عن ... عُرُفٍ، وعرفٌ كالقناع المسبَلِ
جَذلانُ ينفض عُذْرَةً فى غُرّةٍ ... يقَقٍ تسيل حجولها فى جَنْدَلِ
كالرائح النشوان أكثر مشيِه ... عرضاً على السَّنن البعيد الأطولِ
ذهب الأعالى حيث تذهب مقلةٌ ... فيه بناظرها حديد الأسفلِ
هزِج الصَّهيل كأنّ فى نغماته ... نبراتُ معبد فى الثقيل الأولِ
مَلَكَ القلوب، فإن بدا أعطينَه ... نظرَ المحبِّ إلى الحبيب المقبلِ

ألا تراه كيف استطرد بذكر حَمْدويه الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك؛ ولا أراده وإنما جَرّته القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس؛ ولو أقسم إنسان أنه مابنى القصيدة منذ افتتحها إلّا على ذكره، ولذلك أتى بها عَلَى روىّ اللام، لكان صادقاً. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنك فى التخلّص متى شرعتَ فى ذكر الممدوح

---

(١) ديوانه ٢ : ٢١٧، ٢١٨ (طبع الجوائب).

أو المهجوّ تركت ما كنت فيه من قبل بالكلّية وأقبلت على ما تخلّصت إليه من المديح والهجاء بيتا بعد بيت ؛ حتى تنقضىَ القصيدة ، وفى الاستطراد تمرّ على ذكر الأمر الذى استطردت به مرورا كالبرق الخاطف ؛ ثم تتركه وتنساه ، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قَصْدَ ذاك ، وإنما عرض عروضا . وإذا فهمت الفرق فاعلم أنّ الآيات التى تلوْناها إذا حققتَ وأمعنت النظر ، من باب الاستطراد ، لا من باب التخلّص ، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١) . فعاد إلى ما كان فيه أولا ، ثم مرّ فى هذه القصّة ، وفى أحوال موسى وبنى إسرائيل حتى قارب الفراغ من السّورة .

ومن لطيف التخلّص الذى يكاد يكون استطرادا ، لولا أنّه أفسده بالخروج إلى المدح ، قولُ أبى تمام فى قصيدته التى يمدح بها محمد بن الهيثم التى أوّلها :

أَسْقَى طُلولَهُمُ أجشُّ هزيمُ ... وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ ونعيمُ(٢)

ظلمتْكَ ظالمةُ البرىء ظلومُ ... والظُّلْمُ من ذى قُدْرَةٍ مذمومُ

زَعَمَتْ هواكَ عفَا الغداةَ كما عفَتْ ... مِنْها طلولٌ باللّوى ورسومُ

---

(١) سورة الأعراف ١٥٨ — ١٦٠ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ .

لا والذي هو عالِمٌ أنّ النوى صَبِرٌ وأنّ أبا الحسين كريمُ
ما حُلْتُ عمّا تعهدين ولا غدَتْ(١) نفسي على إلفٍ سواكِ تحومُ

فلو أتمّ متغزلا لكان مستطردا لامحالة ، ولكنه نقض الاستطراد ، وغمس يده في المدح ، فقال بعد هذا البيت :

لمحمد بن الهيثم بن شُبانةٍ مجدٌ إلى جَنْبِ السِّماكِ مقيمُ
ملك إذا نسِبَ النّدى من مُلتقَى طرفَيْهِ فهُوَ أخٌ لهُ وحَميمُ

ومضى على ذلك إلى آخرها .

***

ومن الاستطراد أن يحتالَ الشاعر لذكر ما يروم ذكرَه ، بوصف أمر ليس من غرضه ، ويدمج الغرض الأصليّ في ضمن ذلك وفي غضونه ؛ وأحسنُ مايكون ذلك إذا صرّح بأنه قد استطرد ونصّ في شعره على ذلك ، كما قال أبو إسحاق الصابي في أبيات كتبها إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة ، كتبها إليه إلى شيراز وأبو إسحاق في بغداد ، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكِرمان وما والاها متواصلةً مترادفة إلى العراق ، وكُتُب عبد العزيز واصلة بها إلى عزّ الدولة بختيار والصابي يجيب عنها :

ياراكبَ الجسْرَةِ العيْرانةِ الأُجُدِ يَطوِى المَهامِهَ من سهْلٍ إلى جَلَدِ
أبلغ أبا قاسمٍ — نفسي الفداء له — مقالةً من أخٍ للحقّ معتمدِ
في كلّ يومٍ لكم فتحٌ يُشادُ به بين الأنام بذكر السّيّدِ العضُدِ
وما لنا مثلُه لكننا أبدا نجيبكم بجواب الحاسِدِ الكمِدِ
فأنتَ أكتبُ منّي في الفتوح وما تجرى مجيبا إلى شأوِى ولا أمَدِى

---

(١) الديوان :

* ما زلتُ عن سَنَنِ الودادِ ولا غدَتْ *

وما ذممتُ ابتدائى فى مكاتبةٍ ولا جوابكمُ فى القرب والبُعْدِ
لكننى رمت أن أثنى على مَلِكٍ مستطرد ببديع فيه مطّرِدِ

ولقد ظرُف وملُح أبو إسحاق فى هذه الأبيات ، ومتى خلا أو عَرِى عن الظرف والملاحة ، ولقد كان ظرفا ولباقة كلّه !

وليس من الاستطراد مازعم ابن الأثير الموصلى فى كتابه المسمى "بالمثل[1] السائر" أنه استطراد ؛ وهو قول بعض شعراء الموصل يمدح قرواش بن المقلّد ، وقد أمره أن يعبث بهجاء وزيره سليمان بن فهد ، وحاجبه أبى جابر ومغنّيه المعروف بالبرقعيدىّ ، فى ليلة من ليالى الشتاء وأراد بذلك الدّعابة والولع بهم ، وهم فى مجلس فى شراب وأنس ، فقال وأحسن فيما قال :

وليلٍ كوجهِ البرقعيدىّ ظلمةً وبردِ أغانيه وطُول قُرونِهِ
سَرَيْتُ ونومى فيه نومٌ مشرّدٌ كعقلِ سليمانَ بن فهدٍ ودِينِهِ
على أوْلقٍ فيه التفاتٌ كأنه أبو جابر فى خَبْطه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصّباح كأنه سَنا وَجْهِ قِرْواشٍ وَضَوْء جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كلّ واحد منهم ، ووضع الأبيات لذلك ، وأمره قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك ، فهجاهم ومدحه ولم يستطرد . وهذه الأبيات تشبيهات كلّها مقصود بها الهجاء ، لم يأت بالعرض فى الشعر كما يأتى الاستطراد .

وهذا غلط من مصنف الكتاب .

(١) المثل السائر ٢ : ٢٧١

(١١٢)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ؛ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عن أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!

اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ.

إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا.

قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ؛ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ؛ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ؛ فَلَا تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ.

مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي

وُجُوهِكُمْ ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ .

وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ ؛ إِلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ .

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ ، صَنِيعَ مَنْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « فإنها منزلُ قُلْعة » بضم القاف وسكون اللام ، أى ليست بمستوطنة . ويقال : هذا مجلس قُلْعة ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة . ويقال : هم على قُلْعة ، أى على رحلة ، ومن هذا الباب . قولهم : فلان قُلْعة ، إذا كان يتقلع عن سرجه ، ولا يثبت فى البطش والصراع ، والقلعة أيضا : المال العاريّة ، وفى الحديث : « بئس المال القلعة ».

والنُّجْعة : طلب الكلأ فى موضعه ، وفلان ينتجع الكلأ ، ومنه انتجعت فلانا ، إذا أتيته تطلب معروفه .

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى ، فقال : « من هوانها أنه خَلَط حلالها بحرامها ... » الكلام ، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة ، فإنّ تلك صفو كلّها وخير كلّها ؛ وهذه مشوبة ؛ والكَدَر والشرّ فيها أغلب من الصَّفْو والخير . ومن كلام بعض الصالحين : من هوان الدّنيا على الله أنه لا يعصَى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها . ويروى : « ولم يضنّ بها على أعدائه » ، والرواية المشهورة « عن أعدائه » ، وكلاهما مستعمل .

والزهيد : القليل ، والعتيد : الحاضر . والسَّيْر : سير المسافر .

ثم أمرهم بأنْ يجعلوا الفرائض الواجبة عليهم من جُمْلة مطلوباتهم ، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبـة كما سألهم ، أى كما ألزمهم وافترض عليهم ، فسمّى ذلك سؤالا لأجل المقابلة بين اللفظين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[1] ، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله : « فإنّ الله لا يَملّ حتى تَملّوا » وكما قال الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أحـدٌ علَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[2]

ثم أمرهم أن يُسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت ، فيَحلّ بهم . ومثل قوله : « تبكى قلوبهم وإن ضحكوا » قول الشاعر ، وإن لم يكن هذا المقصِد بعينه قَصَد :

كَمْ فَاقَةٍ مستورةٍ بمروءةٍ ... وضرورةٍ قد غُطّيَتْ بتجمُّلِ

ومن ابتسامٍ تحته قلبٌ شجٍ ... قد خامرتْه لوعةٌ ما تنجَلِي

والمقت : البغض . واغتبطوا : فرحوا .

وقوله : « أملَك بكم » مثل « أوْلى بكم » . وقوله : « والعاجله أذهب بكم من الآجلة » أى ذهبت العاجلةُ بكم واستولت عليكم أكثرَ مما ذهبت بكم الآخرة ، واستولت عليكم .

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فِطْرَة واحدة ، وهى دين الله وتوحيده ؛ وإنما اختلفوا وتفرّقوا باعتبار أمر خارجيّ عن ذلك ؛ وهو خبْث سرائرهم وسوء ضمائرهم ، فصاروا إلى حالٍ لا يتوازرون ، أى لا يتعاونون ، والأصل الهمز ، آزرته ، ثم تقلب الهمزة واوا ، وأصل قوله : « فلا توازرون » « فلا تَتَوازرون » فحذفت إحدى التاءين ، كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[3] ، أى لا تتناصرون ، والتبادل : أن يجودَ بعضهم على بعض بماله ويبذله له .

---

(١) سورة الشورى ٤٠ .
(٢) لعمرو بن كلثوم ، من المعلقات بشرح التبريزى ٢٣٨ .
(٣) سورة الصافات ٢٥ .

ومثل قوله عليه السلام « مابالكم تفرحون بكذا ، ولا تحزنون لكذا ، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم » من هذا قول الرضى رحمه الله :

نَقصُ الجديدين من عمرى يزيدُ على ... ماينقصان على الأيام من مالِ (١)

دهرٌ تؤثّر فى جسمى نوائبه ... فما اهتمامىَ أنْ أودَى بسربالى

والضمير فى « يخاف » راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له ؛ أى مايخافه الأخ من مواجهته بعينه .

قوله : « وصارَ دينُ أحدكم لُعقةً على لسانه » أخذه الفرزدق ، فقال للحسين بن علىّ عليه السلام ، وقد لقيَه قادما إلى العراق ، وسأله عن الناس : « أمّا قلوبهمُ فمعك ، وأمّا سيوفهم فعليك ، والدين لُعقةٌ على ألسنتهم ، فإذا امتحصوا قلّ الديّانون » ، واللفظة مجاز ، وأصل اللُّعقة شىء قليل يُؤخذ بالمِلْعقة من الإناء ، يصف دينهم بالنّزارة والقِلّة كتلك اللعقة ؛ ولم يقنع بأن جعله لُعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط ، أى ليس فى قلوبهم .

---

(١) ديوانه ، لوحة ١٥٠ ؛ من قصيدة يرثى فيها صديقاً له .

(١١٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ ؛ نَحْمَدُهُ عَلَى آلاَئِهِ ؛ كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلاَئِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ ، السِّرَاعِ إِلَى مَانُهِيَتْ عَنْهُ . وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ ؛ عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ ؛ وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ ، وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ ؛ إِيمَاناً نَفَى إِخْلاَصُهُ الشِّرْكَ ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ . وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ ، وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ ؛ لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ مِنْهُ .

* * *

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللّهِ بِتَقْوَى اللّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ ؛ زَادٌ مُبْلِغٌ ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ ؛ دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ ؛ فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا ، وَفَازَ وَاعِيهَا .

عِبَادَ اللّهِ ؛ إِنَّ تَقْوَى اللّهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللّهِ مَحَارِمَهُ ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ ؛ حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ ؛ وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ ، وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ ، فَبَادَرُوا الْعَمَلَ ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ ، فَلاَحَظُوا الْأَجَلَ .

ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ[1] قَوْسَهُ ، لاَ تُخْطِئُ سِهَامُهُ ، وَلاَ تُؤْسَى جِرَاحُهُ ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ ؛ آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ . وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ

(١) مخطوطة النهج : « موتر » بالتشديد .

مَالَا يَأْكُلُ ، وَيَبْنِي مَالَا يَسْكُنُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؛ لَا مَالًا حَمَلَ ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ .

وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً ، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً ؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَّ ، وَبُؤْساً نَزَلَ .

وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ ؛ فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ ، وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ . فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا ، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا ، وَأَضْحَى فَيْئَهَا !

لَا جَاءٍ يُرَدُّ ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ ؛ فَسُبْحَانَ اللهِ ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ !

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ ؛ فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا ، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ !

إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ ، قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ ؛ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ ، وَدَخَلَ الْيَقِينُ ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ . فَبَادِرُوا الْعَمَلَ ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ ، مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ .

مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ

رَحْمَتُهُ . الرَّجَاءَ مَعَ الْجَافِي ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي ، فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ !

* * *

الشرح

لقائل أن يقول : أمّا كونه واصلَ الحمدَ له من عباده بالنّعم منه عليهم فمعلوم ؛ فكيف قال : إنه يصلُ النِّعم المذكورة بالشكر ، والشكر من أفعال العباد ؛ وليس من أفعاله ليكون واصلًا للنّعم به !

وجواب هذا القائل ، هو أنه لما وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه فى عقولهم مقرّرا ، وبعد أن أقدرهم عليه ، صار كأنه الفاعل له ، فأضافه إلى نفسه توسّعا ، كما يقال : أقام الأمير الحدّ ، وقتل الوالى اللصّ ؛ فأمّا حمدُه سبحانه على البلاء كحمدِه على الآلاء فقد تقدّم القول فيه . ومن الكلام المشهور : « سبحان من لا يُحمَد على المكروه سواه » ، والسرّ فيه أنه تعالى إنما يفعلُ المكروه بِنا لمصالحنا ، فإذا حَمِدْناه عليه فإنما حمدناه على نعمةٍ أنعم بها ، وإن كانَتْ فى الظاهر بليّة وألما .

فإن قلت : فقد كان الأحسن فى البيان أن يقول : « نحمده على بلائه ، كما نحمده على آلائه » .

قلت : إنما عكس لأنه جاء باللفظين فى معرِض ذكْر النعم والشكر عليها ، فاستهجن أن يلقّبها بلفظة الحمد على البلاء للمنافرة التى تكون بينهما ، فقال : نحمده على هذه الآلاء التى أشرنا إليها ؛ التى هى آلاء فى الحقيقة . وهذا ترتيب صحيح منتظم .

ثم سأل الله أن يعينَه على النفس البطيئة عن المأمور به ، السريعة إلى المنهىّ عنه . ومن دعاء بعض الصالحين : اللهمّ إنى أشكو إليك عدوًّا بين جنبىّ قد غلب علىّ .

وفسّر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[1] قالوا : أراد مجاهدة النفوس. ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « أبت الأنفس إلا حبَّ المال والشرف ، وإنَّ حبّهما لأذهبُ بدين أحدكم من ذئبين ضاريين باتا فى زريبة غنم إلى الصباح ، فماذا يبقيان منها !

ثم شرع فى استغفار الله سبحانه من كلِّ ذنب ، وعبّر عن ذلك بقوله : « مما أحاط به علمُه ، وأحصاه كتابُه » ؛ لأنه تعالى عالم بكلِّ شىء ، ومحيط بكلِّ شىء ؛ وقد أوضح ذلك بقوله : « علمٍ غير قاصر ، وكتاب غير مغادر » ، أى غير مبقٍ شيئا لا يحصيه ، قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[2].

ثم قال : « ونؤمن به إيمان مَنْ عاين وشاهد » ، لأنَّ إيمان العيان أخصُّ وأوثق من إيمان الخبر ، فإنه ليس الخبر كالعيان ؛ وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو عليه السلام سيدُهم ورئيسهم ؛ ولذلك قال : « لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقينا » .

وقوله : « تُصعدان القول » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[3] وروى : « تسعدان القول » بالسين ، أى هما شهادتان بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان ، ويُسعدانها .

ثم ذكر أنهما شهادتان لا يخفّ ميزانٌ هما فيه ، ولا يثقلُ ميزان رفعا عنه . أمّا إنه لا يثقلُ ميزانٌ رُفعا عنه ؛ فهذا لا كلام فيه ؛ وإنما الشأن فى القضية الأولى ، لأنّ ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلّص ؛ وهم أصحاب مقاتل بن سليمان ، القائلون إنه لا يضرّ مع الشهادتين معصية أصلاً ، وإنه لا يدخُل النّارَ مَنْ فى قلبه ذرّة من الإيمان ،

---

(١) سورة التوبة ١٢٣
(٢) سورة الكهف ٤٩
(٣) سورة فاطر ١٠ .

ولم على ذلك احتجاج قد ذكرناه فى كتبنا الكلامية ، فنقول فى تأويل ذلك إنه لم يحكم بهذا على مجرّد الشهادتين ، وإنما حكم بهذا على شهادتين مقيّدتين ، قد وصفهما بأنهما يصعدان القول ، ويرفعان العمل ، وتانك الشهادتان المقيّدتان بذلك القيْد ، إنما هما الشهادتان اللتان يقارنهما فعلُ الواجب وتجنّب القبيح ، لأنه إن لم يقارنْهما ذلك لم يرْفعا العمل، وإذا كان حكمه عليه السلام بعدخِفّة ميزان هافيه، إنما هو على شهادتين مقيّدتين لا مطلقتين، فقد بطل قولُ مَنْ يجعل هذا الكلام حجة المرجئة .

ثم أخذ فى الوصاة بالتقوى ، وقال إنما الزاد فى الدنيا الذى يزوّد منه لسفر الآخرة وبها المعاذ ، مصدر من عذت بكذا ، أى لجأت إليه واعتصمت به .

ثم وصفهما ـ أعنى الزاد والمعاذ ـ فقال : « زاد مُبلِغ » ، أى يبلغك المقصد والغاية التى تسافر إليها ، ومعاذ منجح ، أى يصادف عنده النجاح .

دعا إليها أسمع داع : يعنى البارئ سبحانه ؛ لأنه أشدّ الأحياء إسماعا لما يدعوهم إليه وبناء « أفعل » هاهنا من الرباعى ، كما جاء ما أعطاه للمال ؛ وما أولاه للمعروف ! وأنت أكرم لى من زيد ، أى أشدّ إكراما ؛ وهذا المكان أقفرُ من غيره ، أى أشدّ إقفارا ، وفى المثل « أفلسُ من ابن المذلّق »[1] ، وروى : « دعا إليها أحسن داعٍ » ، أى أحسن داعٍ دعاء ، ولا بدّ من تقدير هذا المميّز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن ، وإنما يوصف بالحسن أفعاله .

ووعاها خير واع ، أى من وعاها عنه تعالى وعقلها وأجاب تلك الدعوة ، فهو خير واع. وقيل : عنى بقوله : « أسمع داع » رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعنى بقوله : « خير واع » نفسه ، لأنه أنزل فيه : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[2] والأول أظهر .

---

(١) فى القاموس : « وابن المذلق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليلة ، ولا أبوه ولا أجداده ، فقيل : « أفلس من ابن المذلق » .

(٢) سورة الحاقة ١٢

ثم قال : «فأسمع داعيَها» أى لم يبق أحداً من المكلفين إلا وقد أسمعه تلك الدعوة وفازوا عليها ، أفلح مَنْ فَهِمها وأجاب إليها ، لابدمن تقديرهذا ؛ وإلافأى فوز يحصل لمن فهم ولم يجب ! والتقوى : خشية الله سبحانه ومراقبته فى السرّ والعلن ، والخشية أصلُ الطاعات ، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(١) وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(٢).

قوله : « حتى أسهرتْ لياليَهم ، وأظمأت هواجرَهم » من قول العرب « نهاره صائم، وليله قائم» : نقلوا الفعل إلى الظرف، وهومن باب الاتساع الذى يجرون فيه الظروف مجرى المفعول به ، فيقولون : الذى سرته يوم الجمعة ، أى سرت فيه ، وقال :

* ويوم شهدناه سليما وعامرا (٣) *

أى شهدنا فيه سليما ، وقد اتسعوا فأضافوا إلى الظروف فقالوا :

* يا سارق الليلة أهل الدار (٤) *

وقال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾(٥) فأخرجوهما بالإضافة عن الظرفية .

قوله عليه السلام : «فأخذوا الراحة النَّصَب» يروى : «فاستبدلوا الراحة» والنَّصَب: التعب . واستقربوا الأجل : رأوه قريبا .

فإن قلت : لماذا كرّر لفظة « الأجل » ، وفى تكرارها مخالفة لفنّ البيان ؟

قلت : إنه استعملها فى الموضعين بمعنيين مختلفين ، فقوله : « استقربوا الأجل» يعنى المدة . وقوله : « فلا حظوا الأجل » يعنى الموت نفسه .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ (٢) سورة الطلاق ٢

(٣) الكتاب ١ : ٩ ، ونسبه لبعض بنى عامر ، وبقيته :

* قليلٍ سوى طعنِ النهال نوافله *

(٤) الكتاب لسيبويه ١ : ٨٩ ، ونسبه إلى بعض الرجاز .

(٥) سورة سبأ ٣٣ .

ويروى : « موتر » و « وموتر » بالتشديد . ولا تؤسَى جراحه : لا تطبّ ولا تصلح ، أسوْت الجرح ، أى أصلحته. ولا ينقع : لا يروى ؛ شَرِب حتى نقع ، أى شفى عليله ، وماء ناقع ؛ وهو كالناجع ، وما رأيتُ شَرْبة أنقع منها .

وإلى قوله عليه السلام : « يجمع مالا يأكل ، ويبنى مالا يسكن » نظر الشاعر، فقال:

أموالُنــــا لذَوى الميراث نجمعُها ... ودُورنا لخراب الدهر نَبْنيهـــا

وقال آخر :

ألَمْ تر حَوْشَبًا أمْسَى يبنِّى ... بنــاء نفعُه لبنى بُقَيْــلَهْ

يؤمّل أن يعمّر عمر نوح ... وأمر الله يطرِق كل لَيْـلَهْ

قوله: «ومن غِيَرها أنك ترى المرحوم مغبوطا والمغبوط مرحوما»، أى يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، وقد فسره قوم فقالوا: أراد أنك ترى مَنْ هو فى باطن الأمر مرحوم، مغبوطا، وترى مَنْ هو فى باطن الأمر مغبوط ، مرحوما ، أى تحسب ذاك وتتخيّله ؛ وهذا التأويل غير صحيح ، لأن قوله بعده: « ليس ذلك إلا نعيما زلّ ، وبؤسا نَزَل » ، يكذّبه ويصدّق التفسير الأول .

وأضحى فيئها، من أضحى الرجل إذا برز للشمس. ثم قال : « لاجاءٍ يُرَدّ ولا ماضٍ يرتد » أى يسترد ويسترجع ، أخذه أبو العتاهية فقال :

فلا أنا راجعٌ ما قد مضى لِي ... وَلا أنا دافعٌ ما سوف يأتى

وإلى قوله : « ما أقرب الحىّ من الميت للحاقه به ، وما أبعـــد الميت من الحى لانقطاعه عنه » نظر الشاعر ، فقال :

يا بعيدا عَنّى وليس بعيـــداً ... من لحاق به حميم قريبُ

صِرْتُ بين الورى غريبا كما أنــــك تحت الثرى وحيد غريب

فإن قلت : ماوجه تقسيمه عليه السلام الأمورَ التى عدّدها إلى الفناء والعناء ، والغِيَر والعبَر ؟

قلت : لقد أصاب الثّغرة وطبّق المفصِل ؛ ألا تراه ذكر فى الفناء رَمْىَ الدهر الإنسان عن قوْس الردى ، وفى العناء جَمْع مالا يأكل ، وبناء مالا يسكن ، وفى الغِيَر الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر ، وفى العِبَر اقتطاع الأجل الأمل ؛ فقد ناط بكلّ لفظة مايناسبها .

وقد نظر بعضُ الشعراء إلى قوله عليه السلام : « ليس شيء بشرّ من الشرّ إلا عقابُه ، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه » فقال :

خــير البضائع للإنسان مكرُمة تَنْمِى وتزكو إذا بارت بضائعهُ

فالخير خيرٌ ، وخير منــه فاعلُه والشرّ شرّ ، وشرّ منه صانعهُ

إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب ، والشاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشرّ .

ثم ذكر أنّ كلّ شيء من أمور الدنيا للرغبة والرهبة ، سماعه أعظم من عِيانه ، والآخرة بالعكس ؛ وهذا حقّ ؛ أما القضيّة الأولى فظاهرة ، وقد قال القائل :

أهتزُّ عنـــد تمنّى وصْلِها طربًا وربّ أمنيّة أحْــــلَى من الظَّفَر

ولهذا يحرِص الواحد منّا على الأمر ، فإذا بلغه برَد وفتر ، ولم يجده كما كان يظنّ فى اللذة . ويوصف لنا البلد البعيد عنّا بالخصب والأمن والعدل ، وسماح أهله ، وحسن نسائه ، وظَرْف رجاله ، فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وُصف ؛ بل ربما وجدنا القليل من ذلك ، ويُوصف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم ، ويبالغ الواصفون فى ذلك . فإذا اختبرناه وجدناه دون ماوُصف ؛ وكذلك قد يخاف الإنسان حبسا أو ضربا أو نحوهما فإذا

وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه ، ووجد الأمر دون ذلك ، وكذلك القتل والموت ؛ فإنّ ما يستعظِمُه النّاس منهما دون أمرهما في الحقيقة ، وقد قال أبو الطيب — وهو حكيم الشعراء :

كلّ مالم يكنْ من الصّعْبِ في الأ ... نْفس سَهلٌ فيهـــا إذا هو كانا (١)

ويقال في المثل : لِـجِ الخوف تأمن . وأمّا أحوالُ الآخرة فلاريب أنّ الأمر فيها بالضدّ من ذلك ؛ لأنّ الذي يتصوره الناس من الجنة ، أنّها أشجار وأنهار ومأكول ومشروب ، وجماع ، وأمرها في الحقيقة أعظمُ من هذا وأشرفُ ، لأنّ ملاذّها الروحانية المقارِنة لهـذه الملاذّ المضادّة لهـا أعظم من هذه الملاذّ بطبقات عظيمة ، وكذلك أكثر الناس يتوهّمون أنّ عذاب النار يكون أياما وينقضي ؛ كما يذهب إليه المرجئة ، أو أنه لاعذاب بالنار لمسلم أصلا ؛ كما هو قول الخلّص من المرجئة ، وأنّ أهل النار يألفون عذابها فلا يستضرّون به إذا تطاول الأمد عليهم ؛ وأمر العذاب أصعب مما يظنون ؛ خصوصا على مذهبنا في الوعيد ؛ ولو لم يكن إلّا آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها ، فإنّ ذلك أعظمُ من ملاقاة جرْم النار لبدن الحيّ .

وفي هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة ، ليس هذا الكتاب موضوعا لها .

ثم أمرهم بأن يكتفوا من عِيان الآخرة وغيبها بالسماع والخبَر ، لأنه لاسبيل ونحن في هذه الدار إلى أكثر من ذلك .

وإلى قوله : « ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة ؛ خيرٌ مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا » نظر أبو الطيب ، فقال ، إلّا أنّه أخرجه في مخرج آخر :

بلاد ماٱشتهيتَ رأيتَ فيها ... فليس يفوتها إلا كِرَامُ (٢)

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٤١

(٢) ديوانه ٤ : ٧٣

فهلاّ كان نقصُ الأهل فيها　　وكان لأهلها منها التّمامُ!

ثم قال : « فكم من منقوص فى دنياه وهو رابح فى آخرته ، وكَمْ من مزيد فى دنياه وهو خاسر فى آخرته » . ثم قال : « إنّ الذى أمِرتم به أوسع من الذى نهيتم عنه ، وما أحِلّ لكم أكثر مما حُرّم عليكم » ؛ الجملة الأولى هى الجملة الثانية بعينها ، وإنما أتى بالثانية تأكيدا للأولى وإيضاحا لها ، ولأنّ فنّ الخطابة والكتابة هكذا هو ، وينتظم كلتا الجملتين معنى واحد ، وهو أنّ فيما أحلّ الله غنًى عمّا حرّم ، بل الحلالُ أوسع ؛ ألا ترى أنّ المباح من المآكل والمشارب أكثرُ عددا وأجناسا من المحرّمات ! فإن المحرّم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرهما ، والمحرّم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر ؛ وما عدا ذلك حلال أكلُه وشربه ، وكذلك القول فى النكاح والتسرّى ، فإنّهما طريقان متهيمان إلى قضاء الوطر ، والسّفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد .

فإن قلت : فكيف قال : « إنّ الذى أمِرتم به » فسمّى المباح مأمورا به ؟

قلت سمّى كثير من الأصوليين المباح مأمورا به ، وذلك لاشتراكه مع المأمور به فى أنه لاحرج فى فعله ، فأطلق عليه اسمه . وأيضا فإنه لمّا كان كثير من الأمور التى عددناها مندوبا أطلق عليه لفظ الأمر ، لأن المندوب مأمور به ؛ وذلك كالنّكاح والتسرّى وأكل اللحوم ؛ التى هى سبب قوة البدن ، وشرب مايصلح المزاج من الأشربة التى لا حرَج فى استعمالها . وقال بعض العقلاء لبنيه : يابنىّ ؛ إنه ليس كل شىء من اللّذة ناله أهلُ الخسارة بخسارتهم إلاّ ناله أهلُ المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم ؛ فاستتروا بستر الله ودخل إنسان على علىّ بن موسى الرضا عليه السلام ، وعليه ثياب مرتفعة القيمة ؛ فقال : يا بن رسول الله ، أتلبس مثل هذا ؟ فقال له : مَنْ حَرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق !

ثم أمر بالعمل والعبادة ، ونهى عن الحِرْص على طلب الرزق ، فقال : إنكم أمِرْتم بالأوّل وضُمِنَ لكم الثانى ؛ فلا تجعلوا المضمون حصوله لكم هو المخصوص بالحِرْص والاجتهاد ؛ بل ينبغى أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة . وقد يتوهّمّ قوم أنه ارتفع «طلبه» بـ « المضمون» ؛ كقولك : المضروب أخوه ؛ وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبَه ، وإنما ضمن حصوله ؛ ولكنه ارتفع ؛ لأنه مبتدأ وخبره أولى ؛ وهذا المبتدأ والخبر فى موضع نصب ، لأنه خبر « يكونَنّ » أوارتفع لأنه بدل من « المضمون » ؛ وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول ؛ وهو بدل الاشتمال .

ثم ذكر أنّ رجعة العمر غيرُ مرجوّة ، ورجعة الرزق مرجوّة ؛ أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه ؛ أى يكتسب عِوَضه فى الغدِ دينارا ، وأمّا « أمس » نفسه فستحيل أن يعود ولا مثله ، لأن الغد وبَعْد الغد محسوب من عمره ؛ وليس عوضا من الأمس الذاهب . وهذا الكلام يقتضى أنّ العمرَ مقدور ، وأن المكاسب والأرزاق إنما هى بالاجتهاد ، وليست محصورة مقدّرة ، وهذا يناقض فى الظاهر ما تقدّم من قوله : « إنّ الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه » ، فاحتاج الكلام إلى تأويل ، وهو أنّ العمر هو الظرف الذى يوقع المكلّف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى ، المخلّصة له من الشقاوة العظمى ؛ وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصّة ، فكلّ جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت ، فقد فات على الإنسان بفواته مالا سبيل له إلى استدراكه بعينه ولااغترام مثله ، لأن المثل الذى له إنما هو زمان آخرَ ، وليس ذلك فى مقدور الإنسان ، والزمان المستقبل الذى يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه ، فيقال : إنّه حصله عوَضاً مما انقضى وذهب من عمره ؛ وإنما هو فعل غيره ؛ ومع ذلك فهو معدّ ومهيّأ لأفعال من العبادة توقع فيه ، كما كان الجزء الماضى معدًّا لأفعال

توقع فيه ، فليس أحدهما عوضاً عن الآخر ولا قائماً مقامه، وأمّا المنافع الدنيوية كالمآكل، والمشارب والأموال ، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قَدَر على ارتجاعه بعينه ، إن كانت عينه باقية ، ومالا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله ، والرزق وإن كان مضمونا من الله إلّا أنّ الحركة فيه نصيباً ، أمّا أن يكون شرطا أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان ، كحركته واعتماده وسائر أفعاله، ويكون الأمر بالتوكّل والنهى عن الاجتهاد فى طلب الرزق على هذا القول ، إنما هو نهى عن الحرص والجشع والتهالك فى الطلب ؛ فإنّ ذلك قبيح يدلّ على دناءة الهمة وسقوطها .

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب ، لأنّ الأمر الذى يراد الذاهب له يمكن حصوله بهذا المكتسب؛ وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر، لأنّ العبادات والأعمال التى كان أمسِ متعينا لها ، لا يمكن حصولها اليوم، على حدّ حصولها أمس ، فافترق البابان : باب الأعمال ، وباب الأرزاق .

وقوله : « الرجاء مع الجائى ، واليأس مع الماضى » ، كلام يجرى مجرى المثل ، وهو تأكيد للمعنى الأول ، وجعل الجائى مرجوًّا لأنه لا يعلم غيبه ، قال الشاعر :

مامضى فاتَ والمقدّر غيبٌ ولكَ السّاعةُ التى أنت فيها

وقوله : « حق تقاته » ، أى حق تقيّته ، أى خوفه ، اتقى يتقى تقية وتقاة ، ووزنها « فُعَلة » وأصلها الياء ، ومثلها اتخم تخمة ؛ واتهم تهمة .

(١١٤)

ومن خطبة له عليه السلام فى الاستسقاء :

الأصل :

اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا!

اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الْآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ!

اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا!

اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجُودِ؛ فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ.

نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ؛ أَلَّا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا؛ وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا؛ وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحًّا وَابِلاً، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ.

اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيئَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ!

اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا، وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا؛ مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا

ٱلْقَطْرَ ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا ، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا،وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا ، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا ، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا ٱلْمُجْدِبُونَ ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا ٱلْمُسْنِتُونَ ؛ فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطُوا ، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

* * *

قال الشريف الرضى رحمه الله تعالى :

قوله عَلَيْهِ السَّلَامَ: « أنْصَاحَتْ جِبَالُنَا »،أىْ تَشَقَّقَتْ مِنَ ٱلْمحولِ،يُقَالُ:أنصَاحَ الثَّوْبُ ، إِذَا أنْشَقَّ . وَيقَالُ أيضاً : أنصاحَ النَّبْتُ ، وَصَاحَ وَصَوَّحَ ؛ إِذَا جَفَّ وَيَبِسَ؛ كُلُّهُ بِمَعْنًى .

وَقَوْلُه : « وَهَامَتْ دَوَابُّنَا » أىْ عَطِشَتْ ، وَٱلْهُيَامُ : الْعَطَشُ .

وَقَوْلُهُ : «حَدَابِيرُ السِّنِينَ» ، جَمْعُ حِدْبَارٍ،وَهِىَ النَّاقَةُ الَّتِىأَنْضَاهَا السَّيْرُ؛فَشَبَّهَ بِهَا السَّنَةَ الَّتِى فَشَا فِيهَا ٱلْجَدْبُ ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ :

حَدَابِيرُ مَاتَنفَكُّ إِلَّا مُنَاخَـــةً عَلَى ٱلْخَسْفِ أَوْ نَرْمِى بِهَا بَلَداً قَفْرَا[1]

وَقَوْلُهُ : « وَلَا قَزَعٌ رَبَابُهَا » ، ٱلْقَزَعُ : ٱلْقِطَعُ الصِّغَارُ ٱلْمُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ .

وَقَوْلُهُ : «وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا» فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ:«وَلَا ذَاتُ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا»،وَالشَّفَّانُ الرِّيحُ ٱلْبَارِدَةُ ، وَالذِّهَابُ : ٱلْأَمْطَارُ اللَّيِّنَةُ ، فَحَذَفَ « ذَاتُ » لِعِلْمِ السَّامِعِ بِهِ .

* * *

---

(١) ديوانه ١٧٣ ، وروايته : « حراجيج ما تنفك » .

الشرح :

يجوز أن يريد بقوله : « وهامت دوابُّنا » معنًى غير ما فسّره الشريف الرضيّ رحمه الله به ، وهو نُدودها وذهابُها على وجوهها لشدة المحْل ، يقول : هام على وجهه ، يهيم هَيْماً وهَيَمَاناً .

والمرابض : مبارك الغنم ، وهى لها كالمواطن للإبل ، واحدها مَرْبِض ، بكسر الباء مثل مجلِس . وعجّت : صرخت . ويحتمل الضمير فى « أولادها » أن يرجع إلى الثكالى ، أى كعجيج الثكالى على أولادهن ، ويحتمل أن يرجع إلى الدوابّ ، أى وعجّت على أولادها كعجيج الثكالى ، وإنّما وصفها بالتحيّر فى مَرَابضها ، لأنّها لشدّة المحْل تتحيّر فى مباركها ، ولا تدرى ماذا تصنع ؛ إن نهضت لترعَى لم تجد رعيا ، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادّة أقرب !

قوله : « وملّت التردد فى مراتعها ، والحنين إلى مواردها » ، وذلك لأنّها أكثرت من التردّد فى الأماكن التى كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعا ، فملّت التّرداد إليها ، وكذلك ملّت الحنين إلى الغدران والموارد التى كانت تعتادها للشرب ، فإنّها حنّت إليها لما فقدتها ، حتى ضجرت ويئست فملّت مما لا فائدة لها فيه .

والآنّة والحانّة : الشاة والناقة ، ويقال : ماله حانّة ولا آنّة . وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوصب ، يقال : أنّ يئنّ أنينا وأنانا وتأنانا .

والوالج : الداخل ؛ وإنما ابتدأ عليه السلام بذكر الأنعام وما أصابها من الجدب اقتفاء بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولعادة العرب ، أما سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال : « لولا البهائم الرتّع ، والصبيانُ الرضّع ، والشيوخُ الركّع ، لصبّ

عليكم العذاب صبًّا » ، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم فى صلاة الاستسقاء . وتقدير دعائه عليه السلام : اللّهمّ إن كنتَ حرمتنا الغيث لسوء أعمالنا ، فارحم هذه الحيوانات التى لا ذنب لها ، ولا تؤاخذها بذنوبنا. وأمّا عادة العرب فإنّهم كانوا إذا أصابهم المحْل استسقوْا بالبهائم ، ودعوا الله بها واسترحموه لها ؛ ومنهم من كان يجعل فى أذناب البقر السّلع والعُشَر [١] ، ويصعد بها فى الجبال والتلاع العالية ، وكانوا يُسْقَوْن بذلك ؛ وقال الشاعر :

أجاعلٌ أنتَ بَيْقُوراً مسلّعةً ذريعـــةً لك بين الله والمطر [٢]

فاعتكرت : رَدِف بعضُها بعضا ، وأصل عَكَر عطف . والعكْرة . الكرّة، وفى الحديث : قال له قوم : يارسول الله ، نحن الفرّارُون . فقال : « بل أنتم العكّارون إن شاء الله » [٣] .

والبيت الذى ذكره الرضىّ رحمه الله لذى الرّمة، لا أعرفه إلا « حراجيج »، وهكذا رأيتُه بخط ابن الخشّاب رحمه الله ، والحرجوج : الناقة الضّامرة فى طول .

وفيه مسألة نحوية ، وهى أنه كيف نقَضَ النفى من « ماتنفكّ » وهو غير جائز ، كما لا يجوز مازال زيد إلا قائما ؟ وجوابها أنّ تنفكّ هاهنا تامّة ، أى ماتنفصل ، ومناخة منصوب على الحال .

قوله : « وأخلفتنا مخايل الجوْد » ، أى كلّما شِمْنا برقًا، واختلنا سحابا، أخلفنا ولم يمطر . والجوْد : المطر الغزير . ويروى : « مخايل الجُود » بالضم .

---

(١) السلع : نبات ، وقيل : شجر مرّ . والعشر : شجر من العضاه ، وله صمغ حلو .

(٢) اللسان ١٠ : ٢٥ ، ونسبه إلى الورك الطائى .

(٣) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢٠ ؛ قال فى شرحه : « أى الكرارون إلى الحرب ، والعطافون نحوها؛ يقال للرجل الذى يولى عن الحرب ثم يكر راجعاً إليها : عكر واعتكر » .

والمبتئس : ذو البؤس . والبلاغ للملتمس ، أى الكفاية للطالب .

وتقول : قنَط فلان ، بالفتح ، يقنُط ويقنِط ، بالكسر والضم ، فهو قانط . وفيه لغة أخرى قَنِط بالكسر ، يقنَط قنَطا ، مثل تَعِب يتعَب تعباً ، وقناطة أيضا ، فهو قنِط . وقرئ : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ ﴾ [1] .

وإنما قال : « ومُنِيع الغمام » فبنى الفعلَ للمفعول به؛ لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى ، وهو منيع النعم ، فاقتضى حسنُ الأدب أنه لم يسمّ الفاعل . وروى « مَنَع الغمام » ، أى ومَنَع الغمام القطر ، فحذف المفعول . والسوام : المال الراعى .

فإن قلت : ماالفرق بين « تؤاخذنا » وبين « تأخذنا » ؟

قلت : المؤاخذة دون الأخذ ؛ لأنّ الأخذ الاستئصال ، والمؤاخذة عقوبة وإن قلّت .

والسحاب المنبعِق : المتبعّج بالمطر ، ومثله المتبعّق ، ومثله البُعاق . والربيع المغدق : الكثير . والنبات المونق : المعجب .

وانتصب « سحّا » على المصدر . والوابل : المطر الشديد .

ثم قال : « تُحْيِي به ماقد مات » ، أى يكاد يتلف بها من الزرع . وتردّ به ماقد فات ، أى يستدرك به الناس مافاتهم من الزرع والحرث .

والسقيا مؤنثة ؛ وهى الاسم من سَقَى . والمربعة : الخصيبة .

و « ثامراً فرعُها » : ذو ثمر ، كما قالوا : لابن وتامر ؛ ذو لبن وتمر .

وتنعش : ترفع . والنِّجاد : جمع نَجْد ، وهو ماارتفع من الأرض . والوهاد : جمع وَهْد ، وهو المطمئنّ منها ؛ وروى : « نجادَنا » بالنصب على أنه مفعول .

---

(١) سورة الحجر ٥٥

قوله : « وتندى بها أقاصينا » ، أى الأباعد منّا . ويندى بها : ينتفع ، نديت بكذا ، أى انتفعت .

والضواحى : النواحى القريبة من المدينة العظمى . والمرملة : الفقيرة ، أرمل افتقر ونفد زاده . ووحشك المهملة : التى لا راعى لها ولا صاحب ولا مشفق .

وسماء مخضِلّة : مُخضِل النبت أى تبلّه ،وروى:«مخضَلّة» أى ذات نبات وزروع مخضَلّة ؛ يقال : اخضلّ النبت اخضلالا ، أى ابتل ؛ وإنما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكر ، لأنه أراد الإمطار . والودْق : المطر . ويحفِز : يدفع بشدّة ؛ وإذا دفع القطر القطر ، كان أعظم وأغزر له .

وبرق خُلّب : لا مطر معه ، وسحاب جَهام : لا ماء فيه . والمجدِبون : أهل الجدْب . والمسنِتون الذين أصابتهم السنَة وهى المحْل والقحط الشديد .

* * *

[صلاة الاستسقاء وآدابها]

واعلم أنّ صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سُنّة .

وقال أبو حنيفة : لا صلاة للاستسقاء . قال أصحابه : يعنى ليست سنّة فى جماعة ،وإنّما يجوز أن يصلّيَ الناس وُحدانا ، قالوا : وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار .

وقال باقى الفقهاء كالشافعىّ وأبى يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك . قالوا: وقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى بالناس جماعةً فى الاستسقاء ، فصلّى ركعتين ، جَهَر بالقراءة فيهما وحوّل رداءه ورفع يديه واستسقى . قالوا : والسنّة أنْ يكون فى المصلّى ، وإذا أراد الإمام الخروج قبلك وَعَظ الناس ، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ، لأنّ ذلك يمنع القطر .

قالوا : وقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : إذا بُخِس المكيال حُبِس القطر .
وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[1] ، قال : دوابّ الأرض تلعنهم، يقولون : مُنِعنا القَطْر بخطاياهم .

قالوا : ويأمر الإمام النّاس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج ، ثم يخرج فى اليوم الرابع وهم صيام ويأمرهم بالصَّدَقة ، ويستسق بالصالحين من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله كما فعل عمر ، ويحضر معه أهل الصلاح والخير ، ويستسق بالشُّيوخ والصبيان .

واختلفوا فى إخراج البهائم ، فنهم من استحبّ ذلك ، ومنهم من كَرِهَه . ويُكره إخراج أهل الذمّة ، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا . والغُسْلُ والسواك فى صلاة الاستسقاء عندهم مسنونان ، ولا يستحب فيهما التطيُّب ، لأنّ الحال لا يقتضيه .

وينبغى أنْ يكونَ الخروج بتواضع وخشوع وإخبات ، كما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله للاستسقاء .

قالوا : ولا يؤذَّن لهذه الصلاة ولا يقام ، وإنما ينادَى لها : الصلاة جامعة ! وهى ركعتان كصلاة العيد ، يكبّر فى الأولى سبع تكبيرات ، وفى الثانية خمس تكبيرات .

قالوا : ويخطب بعد الصلاة خطبتين ، ويكون دعاء الاستسقاء فى الخطبة الأولى .

قالوا : فيقول : اللهمّ اسقنا غيثا مغيثا ، هنيئا مريئا مريعا ، غَدَقا مجللا طَبَقاً ، سَحًّا دائما . اللهمّ اسقِنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهمّ إنّ بالعباد والبلاد من اللأواء والضَّنْك والجهد مالا نشكوه إلاّ إليك . اللهمّ أنبت لنا الزّرع ، وأدرّ لنا الضَّرْع ، واسقنا من بركات السماء . اللهمّ ا كشف عنّا الجهد والجوع والعُرْى ، وا كشف عنّا مالا يكشفه غيرك . اللهمّ إنا نستغفرك ؛ إنك كنت غفارا ، فأرسِل السماء علينا مدرارا .

(١) سورة البقرة ١٥٩

قالوا : ويستحبّ أن يستقبل القبلة فى أثناء الخطبة الثانية ، ويحوّل رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن تفاؤلا بتحوّل الحال . وكذا رُوى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعل ، ويستحبّ للناس أن يحوّلوا أرديتهم مثله ، ويتركوها كما هى ، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلّا إذا رجعوا إلى منازلهم .

ويستَحَبّ أن يدعُوَ فى الخطبة الثانية سرّا فيجمع بين الجهر والسرّ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ (٢) ﴾ . قالوا : ويستحبّ رفع اليد فى هذا الدعاء ، وأن يكثروا من الاستغفار لقوله تعالى : ﴿ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (٣) ﴾ ، فإن صلّوا واستسقَوْا فلم يُسْقَوْا عادوا من الغد ، وصلّوا واستسقَوْا ، وإن سُقوا قبلَ الصلاة صلوا شكرا وطلبا للزيادة .

قالوا : ويستحبّ أن يقفوا تحت المطر حتى يصيبهم ، وأن يحسِرُوا له عن رءوسهم ؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله حسَر عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء .

ويستحَبّ إذا سال الوادى أن يغتسلوا فيه ، ويتوضئوا منه .

وقد استحبّ قوم من الفقهاء أن يخرُجَ النّاس للاستسقاء حُفاة حاسرين ، والأكثرون على خلاف ذلك .

فأما مذهب الشيعة فى هذه المسألة فأن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين ، فيكبّر الله مائة تكبيرة ، ويرفع بها صوته ويكبّر مَنْ حضر معه ، ثم يلتفت عن يمينه فيسبّح الله مائة تسبيحة ، يرفع بها صوته ، ويسبّح معه مَنْ حضر ، ثم يلتفت عن يساره فيهلّل الله

---

(١) سورة نوح ٩
(٢) سورة الأنعام ٦٣
(٣) سورة نوح ١٠ ، ١١

مائة مرة يرفع بها صوته ، ويقول من حضر مثل ذلك ، ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيحمد الله مائة مرة ، يرفع بها صوته ويقول معه مَنْ حضر مثل ذلك ؛ ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام فى الاستسقاء ، فإنْ لم يتمكّن منها اقتصر على الدعاء .

[أخبار وأحاديث فى الاستسقاء]

وجاء فى الأخبار الصحيحة رؤيا رُقيقة فى الجاهلية ؛ وهى رقيقة بنت أبى صيفىّ ابن هاشم بن عبد مناف[1] ، قالت رقيقة : تتابعتْ على قريش سنُونَ أقحلت[2] الضَّرْع وأرقَّت العظم ، فبينا أنا راقدة[3] — اللهمّ — أو مُهوّمة[4] [ومعى صِنْوى][5] ، إذا أنا بهاتف صَيِّت[6] يصرخ بصوت صَحِل[7] : يامعشر قريش ؛ إنّ هذا النبىّ المبعوث فيكم قد أظلّتكم أيامه ، وهذا إبّان نجومه[8] ؛ فحيّهَلَا[9] بالخصب والحيا[10] . ألا فانظروا رجلا منكم عُظاما جُساما[11] ، أبيض بَضًّا ، أوطفَ الأهداب[12]

---

(١) وكانت لدة عبد المطلب بن هاشم .

(٢) أقحلت ، من قحل قحولا ، وقحل قحلا إذا يبس .

(٣) الرقود : النوم بالليل المستحكم الممتد ؛ ومنه قولهم : طريق مرقد ؛ إذا كان بيناً ممتداً .

(٤) هوموا وتهوموا ؛ إذا هزوا هامهم من النعاس .

(٥) من الفائق .

(٦) الصيت : فيعل ، من صات يصوت ويصات كالميت من مات ، ويقال فى معناه : صائت وصات ومصوات .

(٧) الصحل : الذى فى صوته ما يذهب بجدته ؛ وهو مستلذ فى السمع .

(٨) إبان نجومه : وقت ظهوره ، وهو فعلان ، من أب الشىء إذا تهيأ .

(٩) فيهلا ، بألف مزيدة ، ويجوز التنوين والتنكير ، أى عجل .

(١٠) الحيا : المطر ؛ لأنه حياة الأرض .

(١١) الفائق : « طوالا » .

(١٢) أوطف الأهداب : طويلها .

سَهْل الخدين ؛ أشمّ العِرْنين ، له سُنَّة[1] تهدى إليه . ألا فليَخلُص[2] هو وولده ، وليدلِفْ إليه من كلِّ بطْن رجل . ألا فليشُنّوا[3] عليهم من الماء ، وليمسّوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ؛ وليكن فيهم الطيِّب الطاهر [لذاته][4] . فليستق الرجلُ ، وليؤمّن القوم . ألا فغِثتُم[5] إذا ما شئتم .

قالت : فأصبحتُ ــ علم الله ــ مذعورة قد[6] قفّ جِلْدِى ، وَوَلِهَ عقلى ، فاقتصصت رؤياى على الناس ، فذهبت فى شِعاب مكة ؛ فو الحرْمة والحرَم ؛ إن بقى أبطحىٌّ إلا وقال : هذا شيبة الحمد[7] .

فتتامّت[8] رجال قريش ، وانقضّ إليه من كلِّ بطنٍ رجل ، فشنّوا عليهم ماء ، ومسّوا طيبا ، واستلموا وأطّوّفوا ، ثم ارتقوا أبا قُبَيْس ، وطفِق القوم يدِفّون حول[9] عبد المطلب ، ما إن يُدْرِك سعيهم مَهْلُه[10] ؛ حتى استقرّوا بذِرْوة الجبل ، واستكَفُّوا[11] جانبيه .

فقام فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله عليه وآله ، فرفعه على عاتقه ؛ وهو يومئذ غلام

---

(١) الفائق : « له فخر » .

(٢) فليخلص : فليتميز هو وولده من الناس .

(٣) شن الماء : صبه على رأسه .

(٤) زيادة من الفائق ؛ قال فى شرحه : « يعنى أن مولده وموالد من مضى من آبائه كلها موصوف بالطهر والزكاة ، أو يراد أترابه ، وذكر الأتراب أسلوب من أساليبهم فى تثبيت الصفة وتمكينها » .

(٥) غثتم : مطرتم .

(٦) قف شعرى : تقبض .

(٧) قال الزمخشرى : اسم عبد المطلب عامر ؛ وإنما قيل له شيبة الحمد لشيبة كانت فى رأسه ؛ وعبد المطلب ، لأن هاشماً تزوج سلمى بنت زيد النجارية ، فولدته ، فلما توفى هاشم وشب الغلام انتزعه المطلب عمه من أمه ، وأردفه على راحلته ، وقدم به مكة . فقال الناس : أردف المطلب عبده .

(٨) التتام : التوافر .

(٩) الدفيف : المر السريع .

(١٠) المهل ، بالإسكان : التؤدة ؛ أى لا يدرك إسراعهم إبطاءه .

(١١) استكفوا : أحدقوا ؛ من الكفة وهى ما استدار .

قد أيفع أو كَرَب[1]، ثم قال: اللهمّ سادّ الخلّة، وكاشفَ الكُربة، أنت عالم غير مُعَلَّم، ومسئول غير مبخّل، وهذه عِبِدّاؤك[2] وإماؤك بعذارات[3] حَرَمِك، يشكون إليك سَنَتَهم التي أذهبت الخفّ والظِّلْف، فاسمعنّ اللهمّ، وأمطرنّ علينا غيثا مُغْدِقًا مريعا سَحًّا طَبَقًا دراكا.

قالت: فوربّ الكعبة ماراموا حتى انفجرت السماء بمائها واكتظّ الوادي بثجيجه[4] وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب: هنيئا لك سيدَ البطحاء!

وفي رواية أبي عبيدة معمّر بن المثنّى قال: فسمعْنا شِيخانَ[5] قريش وجلّتها: عبد الله بن جُدعان وحرْب بن أمية وهشام بن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئا لك، أبا البطحاء[6]!

وفي ذلك قال شاعر من قريش وقد روى هذا الشعر لرقيقة:

بشيبة الحمدِ أسقَى الله بلدتَنا ... وقد فقدنا الحَيَا واجلوّذ المطر[7]
فجاد بالماء وسميٌّ له سَبَلٌ ... سَحًّا، فعاشت به الأنعام والشجر[8]

***

وفي الحديث من رواية أنس بن مالك: أصاب أهلَ المدينة قَحْط على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقام إليه رجل وهو يخطب يوم جمعة، فقال: يا رسول الله، هَلَك الشاء، هلك الزّرع[9]، ادعُ الله لنا أن يسقينا، فمدّ عليه السلام يده، ودعا واستسقى،

(١) كرب، أي قرب من الإيفاع.
(٢) العبداء والعبدى: العبيد.
(٣) العذرات: جمع العذرة؛ وهي الفناء.
(٤) الثجيج: الثجوج، أي المصبوب.
(٥) الشيخان: جمع شيخ، كالضيفان في جمع ضيف.
(٦) الخبر في الفائق ٢: ٣١٤ ـ ٣١٧
(٧) اجلوّذ المطر، أي امتد وقت تأخره وانقطاعه.
(٨) سبل: أي مطر جود هاطل.
(٩) سنن أبي داود: «هلك الكراع، هلك الشاء».

وإن السماء كمثل الزّجاجة ، فهاجت ريح ثم أنشأت سحابا ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت عزَالِيَها[1] ، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلَنا ، ودام القَطْر ، فقام إليه الرجل فى اليوم الثالث . فقال : يا رسول الله ، تهدّمت البيوت ، ادع الله أن يحبسه عنّا . فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم رفع يده : وقال : « اللهم حَوَالينا ولا علينا » .

قال أنس : فو الذى بعث محمداً بالحقّ ، لقد نظرتُ إلى السحاب ، وإنه لقد انجابَ حول المدينة كالإكليل[2] .

* * *

وفى حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرنُ الشمس ، فقعد على المنبر ، وحمِد الله وكبّره ، ثم قال : إنكم شكوتم جَدْبَ دياركم ، وقد أمركم الله أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيبَ لكم فادعوه . ثم رفع صوته فقال : « اللهمّ إنك أنت الغنىّ ، ونحن الفقراء ، فأنزِلْ علينا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين . اللهمّ اجعل ما تنزله علينا قوةً لنا ، وبلاغاً إلى حين ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين » . فأنشأ الله سحابا ، فرعَدَتْ وبَرَقت ، ثم أمطرت ، فلم يأت عليه السلام منزله ، حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعَتَهم إلى الكِنّ ضحك حتى بدت نواجذه ، وقال : أشهد أنّى عبد الله ورسوله ، وأن الله على كلّ شىء قدير[3] .

* * *

ومن دعائه عليه السلام فى الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم : « اللهم اسقنا وأغثنا ، اللهم اسقِنا غيثا مُغيثا ، وحَيًا ربيعاً ، [وجَداً][4] طَبَقاً ، غدَقاً مُغدِقا[5] ، مونقا[6] عامًّا ،

(١) العزالى فى الأصل : جمع عزلاء ، وهو مصب الماء من الراوية ، ويريد شدة وقع المطر . على التشبيه .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ١ : ٦١٦ ، مع اختلاف فى الرواية

(٣) الحديث فى سنن أبى داود ١ : ٦١٤ ، مع اختلاف الرواية أيضاً .

(٤) من الفائق ، والجدا : والطبق ماله .

(٥) المغدق : الكثير المطر .

(٦) مونقاً : معجباً .

هنيئا مريئا ، مَرِيعا مُرْبِعا[1] مرتعا[2] ، وابلا سابلا[3] مسيلا ، مجلّلا[4] ، درًّا ، نافعا غير ضارّ ، عاجلا غير رائث[5] . غيثا — اللهمّ — تحيي به العباد ، وتغيث به البلاد ، وتجعله بلاغا للحاضر منّا والباد ؛ اللهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها ، وأنزل علينا فى أرضنا سكنها . اللهم أنزل علينا ماء طَهوراً ، فأحيِ به بلدةً ميتا ، واسقه مما خَلَقت لنا أنعاما وأناسيّ كثيرا »[6] .

●●●

وروى عبد الله بنُ مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقى بالعباس ، فقال : اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيك وقفيّة[7] آبائه[8] وكُبْرِ رجاله ، فإنك قلت ، وقولك الحق : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ... ﴾ الآية ، فحفظتَهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهمّ نبيك فى عمّه فقد دلَوْنا به إليك مستشفعين ومستغفرين . ثم أقبل على الناس ، فقال : استغفروا ربّكم إنه كان غفارا .

قال ابن مسعود : رأيت العباس يومئذ وقد طال عُمَر ، وعيناه تنضحان ، وسبائبُه تجول على صدره ؛ وهو يقول : اللهمّ أنت الراعى فلا تُهمل الضالّة ، ولا تدع الكسير بدار مَضيعة ، فقد ضَرَع الصغير ، ورَقّ الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السرّ وأخفى . اللهمّ أغثهمْ بغياثك من قبل أن يقنَطوا فيهلِكوا ، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون[9] .

---

(١) المربع : ذو المراعة ؛ وهي الخصب . والمربع : الذى يربعهم عن الارتياد ؛ من ربعت بالمكان وأربعت .

(٢) المرتع : المنبت ما يرتع فيه .

(٣) السابل ، من قولهم : سبل سابل ؛ أى مطر ماطر .

(٤) المجلل : الذى يجلل الأرض بمائه أو بنباته .

(٥) الرائث : البطيء .

(٦) الفائق للزمخشرى ١ : ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٧) قفية آبائه : تلوهم وتابعهم

(٨) كبر قومه : أقعدهم فى النسب .

(٩) الخبر فى الفائق ٢ : ٣٦٦ .

قال : فنشأت طُرَيرة[1] من سحاب ، وقال الناس : ترون ترون ! ثم تلاءمت واستتمّت ومشت فيها ريح ، ثم هَدَت[2] ودرّت ، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية ، وقَلّصوا المـآزر ، وطفِق الناس يلوذون بالعباس ، يمسحون أركانه ويقولون : هنيئا لك ساقي الحرَمين[3] .

(١) الطريرة : تصغير طرة ، وهي القطعة المستطيلة من السحاب ؛ شبهت بطرة الثوب .
(٢) هدت من الهدة ؛ وهي صوت ما يقع من السماء .
(٣) قال الزمخشرى : « سمى ساقى الحرمين بهذه السقيا » .

(١١٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقِّ ، وَشَاهِداً عَلَى ٱلْخَلْقِ ، فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَجَاهَدَ فِي ٱللهِ أَعْدَاءَهُ ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ ، إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَى ، وَبَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَى .

***

الشرح :

قوله : « وشاهدا على الخلق » ، أى يشهد على القوم الذين بعث إليهم ، ويشهد لهم ، فيشهد على العاصى بالعصيان والخلاف ، ويشهد للمطيع بالإطاعة والإسلام ، وهذا من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[١] ، ومن قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ ﴾[٢] .

فإن قلت : إذا كان الله تعالى عالماً بكلّ شىء ، ومالكاً لكلّ أحد ، فأىّ حاجة إلى الشهادة ؟

قلت : ليس بمنكرٍ أن يكون فى ذلك مصلحة للمكلّفين فى أديانهم ، من حيث إنّه قد تقرّر فى عقول الناس ، أنّ من يقوم عليه شاهد بأمرٍ منكرٍ قد فعله ، فإنه يخزى

---

(١) سورة النساء ٤١ .

(٢) سورة المائدة ١١٧ .

ويخجل وتنقطع حجته ، فإذا طرق أسماعهم أنّ الأنبياء تشهد عليهم، والملائكة الحافظين تكتب أعمالَهم ، كانوا عن مواقعة القبيح أبعد .

والواني : الفاتر الكالّ . والواهن : الضعيف .

والمعذِّر : الذى يعتذر عن تقصيره بغير عذر ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ (١) .

***

الأصل:

منها :

وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَاأَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنكُمْ غَيْبُهُ ؛ إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ ؛ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لا حَارِسَ لَهَا ، وَلا خَالِفَ عَلَيْهَا ، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ ؛ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا ؛ وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَاذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَاحُذِّرْتُمْ ، فَتَاهَ عَنكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ .

وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ ؛ قَوْمٌ وَاللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ .

أَمَا وَاللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ . إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ !

---

(١) سورة التوبة ٩٠ .

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

الْوَذَحَة : الْخُنفساء ؛ وَهذا القول يُومئ به إلى الحجّاج ، وَله مع الْوَذَحَةِ حَدِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

* * *

الشّرح :

الصعيد : التراب ، ويقال : وجه الأرض ، والجمع صُعُد وصُعُدات ، كطريق وطُرُق وطُرُقات . والالتدام : ضرب النساء صدورَهنّ في النّياحة . ولا خالف عليها : لا مستخلف .

قوله : « ولهمّت كلّ امرئٍ منكم نفسه » ، أي أذابته وأنحلته ، همتُ الشحم ، أي أذبته . ويروى : « ولأهمّت كلّ امرئٍ » وهو أصحّ من الرواية الأولى ؛ أهمّني الأمر ، أي أحزنني .

وتاه عن فلان رأيه ، أي عزب وضلّ .

ثم ذكر أنه يودّ ويتمنّى أن يفرّق الله بينه وبينهم ، ويلحقه بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبالصالحين من أصحابه ، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممّن كان أمير المؤمنين يُثْني عليه . ويحمد طريقته من الصحابة . فمضَوْا قُدُما ، أي متقدّمين غير معرّجين ولا معرّدين[1] .

وأوجفوا : أسرعوا . ويقال : غنيمة باردة وكرامة باردة ، أي لم تؤخذ بحرب ولا عسف وذلك لأن المكتسب بالحرب جارٍ في المعنى لما يلاقي ويعاني في حصوله من المشقّة .

وغلام ثقيف المشار إليه ، هو الحجّاج بن يوسف . والذيّال : التائه ، وأصله من « ذال » أي تبختر ، وجرّ ذيله على الأرض . والميال : الظالم .

ويأكل خَضِرَتكم : يستأصل أموالكم . ويذيب شحمتكم مثله ؛ وكلتا اللفظتين استعارة .

(١) يقال : عرد الرجل عن قرنه ؛ إذا أحجم ونكل .

ثم قال له كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه : « إيهٍ أباوَذْحة » ، إيهٍ كلمة يُستزاد بها من الفعل ، تقديره : زِدْ وهات أيضا ماعندك ، وضدّها إيهاً ، أى كفّ وأمسك .

قال الرضىّ رحمه الله : والوَذْحَة الخنفساء ؛ ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب ، ولا وجدتهُ فى كتاب من كتب اللغة ، ولا أدرى من أين نقل الرضىّ رحمه الله ذلك !

ثم إن المفسّرين بعد الرضىّ رحمه الله قالوا فى قصة هذه الخنفساء وجوهاً :

منها أنّ الحجّاج رأى خنفساء تدِبّ إلى مصلّاه ، فطردَها فعادت ، ثم طردها فعادت ، فأخذها بيده ، وحذَف بها ، فقرصته قَرْصا ورمَتْ يده منها ورما كان فيه حتفه ، قالوا : وذلك لأنّ الله تعالى قتله بأهونِ مخلوقاته ؛ كما قتل نمرود بن كنعان بالبقّة التى دخلت فى أنفه ، فكان فيها هلاكه .

ومنها أنّ الحجّاج كان إذا رأى خُنفساء تدِبّ قريبةً منه ، يأمر غلمانه بإبعادها ، ويقول : هذه وَذْحة من وَذَح الشيطان ، تشبيها لها بالبعرة ، قالوا : وكان مغرىً بهذا القول ، والوَذَح : مايتعلّق بأذناب الشاة من أبعارها فيجفّ .

ومنها أنّ الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات : واعجبا لمن يقول إن الله خلق هذه ! قيل : فمن خلقها أيها الأمير ؟ قال : الشيطان ، إنّ ربّكم لأعظم شأنا أن يخلق هذه الوذح ! قالوا : فجمعها على « فَعَلَ » كبَدَنة وبَدَن ، فنقل قوله هذا إلى الفقهاء فى عصره ، فأكفروه .

ومنها أنّ الحجّاج كان مثفارا[1] ، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشفى بحركتها فى الموضع حكاكه . قالوا : ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شانئا مبغضا لأهل البيت. قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء ، وإنما قلنا : كلّ من فيه هذا الداء فهو مبغض .

قالوا: وقد روى أبو عمر الزاهد — ولم يكن من رجال الشيعة — فى أماليه وأحاديثه عن السيارىّ

(١) رجل مثفار : نعتِ سوء .

عن أبى خزيمة الكاتب ، قال : مافتّشنا أحدا فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصبيًّا .

قال أبو عمر : وأخبرنى المطافى عن رجاله ، قالوا :

سئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصِّنف من الناس ، فقال رحم منكوسة يُؤتَى ولا يأتِى ؛ وما كانت هذه الخصلة فى ولىّ لله تعالى قطّ ؛ ولا تكون أبدا ، وإنما تكون فى الكفار والفساق والناصب للطاهرين .

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزومىّ من القوم ؛ وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، قالوا : ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر : يامُصَفِّرَ استِه[1] .

فهذا مجموع ماذكره المفسرون ، وما سمعته من أفواه الناس فى هذا الموضع ، ويغلب على ظنى أنه أراد معنًى آخر ؛ وذلك أنّ عادة العرب أن تكنى الإنسان إذا أرادتْ تعظيمه بما هو مظنَّة التعظيم ، كقولهم : أبو الهول ، وأبو المقدام ، وأبو المغوار ، فإذا أرادتْ تحقيره والغضّ منه كنَتْهُ بما يستحقَر ويستهان به ، كقولهم فى كُنية يزيد بن معاوية : أبو زنّة ، يعنون القرد ، وكقولهم فى كنية سعيد بن حفص البخارىّ المحدث : أبو الفار ، وكقولهم للطفيلىّ : أبو لقمة ، وكقولهم لعبد الملك : أبو الذِّبان لبَخَره ، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء :

فأنتَ لعمرى أبو جعفرٍ ولكننا نحذف الفاء منهُ

وقال أيضا :

لئيم دَرِنُ الثوبِ نظيف القعب والقِدْرِ
أبو النتن ، أبو الدَّفرِ ، أبو البعر ، أبو الجعْرِ

فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلمُ مِن حال الحجاج نجاسته بالمعاصى والذنوب ؛

(١) انظر اللسان ـ صفر .

التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصق بشعر الشاء ، كناه « أبو وذَحَة » ويمكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لدمامته في نفسه ، وحقارة منظره ، وتشويه خلقته ، فإنه كان قصيرا دميا نحيفا ، أخفشَ العينين ممسوحَ الساقين ، قصير الساعدين ، مجدورَ الوجه ، أصلع الرأس ، فكنّاه بأحقر الأشياء ، وهو البعرة .

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى ، فقالوا : « إيه أباودجة » ؛ قالوا : واحدة الأوداج ، كنّاه بذلك لأنه كان قتّالاً يقطع الأوداج بالسيف ، ورواه قوم « أبا وحرة » وهي دويبّة تشبه الحِرْباء قصيرة الظهر ؛ شبّهه بها .

وهذا وما قبله ضعيف ، وما ذكرناه نحن أقرب الصواب .

(١١٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا ، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا ، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ !

فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ !

***

الشَّرْحُ :

انتصاب « الأموال » بفعل مقدر دلّ عليه « بذلتموها » وكذلك « أنفس » ، يقول : لم تبذلوا أموالكم فى رضاً من رزقكم إياها ، ولم تخاطروا بأنفسكم فى رضا الخالق لها ، والأوْلَى بكم أن تبذُلوا المالَ فى رضا رازقه ؛ والنفس فى رضا خالقها ، لأنه ليس أحَدٌ أحقّ منه بالمال والنفس وبذلها فى رضاه .

ثم قال : من العجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيعوكم لأجل الله ، وانتمائكم إلى طاعته ، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه فى نفع عباده ، والإحسان إليهم .

ومحصول هذا القول : كيف تسيمون الناس أن يطيعوكم لأجل الله ؛ ثم إنكم أنتم لا تُطيعون الله ، الذى تكلّفون الناس أن يطيعوكم لأجله !

ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل مَنْ كان قبلهم ، وهذا مأخوذ من قوله

تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

وروى عن « أصل إخوانكم » وذلك بموت الأب ، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشج بينه وبين أخيه ، والرواية الأولى أظهر .

(١) سورة إبراهيم ٤٥ .

(١١٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَنتُمُ الْأَنصَارُ عَلَى الْحَقِّ ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ ؛ بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ ؛ فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ؛ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ !

***

الشرح

الجنن : جمع جُنّة ، وهى ما يُستتر به . وبطانة الرجل : خواصه وخالصته الذين لا يطوى عنهم سرّه .

فإن قلت : أمّا ضربُه بهم المدبر فمعلوم ؛ يعنى الحرب ، فما معنى قوله عليه السلام : « وأرجو طاعة المقبل » ؟

قلت : لأن مَنْ ينضوِى إليه من المخالفين إذا رأى ماعليه شيعتُه وبطانتُه من الأخلاق الحميدة ، والسيرة الحسنة ، أطاعه بقلبه باطنا ، بعد أن كان انضوى إليه ظاهرا .

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل ؛ وقد ذكره المدائنى والواقدىّ فى كتابيهما[1] .

(١) كتاب الجمل للمدائنى ، ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٠ ، وكتاب الجمل للواقدى ذكره أيضاً ابن النديم فى ص ٩٩ .

(١١٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضهم على الجهاد، فسكتوا مليا، فقال عليه السلام: ما بالكم! أمخرسون أنتم؟ فقال قومٌ منهم: يا أميرَ المؤمنين، إنْ سِرْتَ سِرْنا معك.

فقال عليه السلام :

مَا بَالُكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ! وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شجعانكم، وَذَوِي بَأْسِكُمْ؛ وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى؛ أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ.

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي؛ فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ؛ وَاللهِ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ — وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ — لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ، مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ.

إِنَّهُ لَا غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ.

مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!

***

الشرح :

سكتوا مليا ، أي ساعة طويلة ، ومضى مَلِيٌّ من النار كذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[1] . وأقمت عند فلان مُلاوة ومَلاوة ومِلاوة من الدهر ، بالحركات الثلاث ، أي حينا وبرهة ، وكذلك أقمت مَلْوة ومُلوة ومِلوة ، بالحركات الثلاث .

وقوله : « أمخرَسون أنتم ؟ » اسم المفعول من أخرسه الله ، وخرس الرجل ، والخرَس المصدر .

والكتيبة : قطعة من الجيش . والتقلقل : الحركة فى اضطراب . والقِدْح :السهم. والجَفِير : الكنانة ، وقيل وعاء للسهام أوسع من الكنانة .

واستحار مدارها : اضطرب ، والمدار هاهنا مصدر . والثِّفال بكسر الثاء:جلد يبسط وتُوضع الرحا فوقه ، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق .

وحُمّ : أى قُدّر ، والركاب : الإبل ، وشخصت عنكم : خرجت :

ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم ، وأنّهم يحيدون عن الحقّ وعن الحرب ، أى ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب .

ثم قال : إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرّق القلوب . والغَناء ، بالفتح والمدّ : النفع .

وانتصب « طمانين » على الحال من الضمير المنصوب فى « أطلبكم » .

***

---

(١) سورة مريم ٤٦ .

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صِفّين والنهروان ، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم .

فإن قلت : كيف قال : الطريق الواضح ، فذكّره ، ثم قال : « لا يهلك فيها » فأنثه ؟

قلت : لأنّ الطريق يذكّر ويؤنث ، تقول : الطريق الأعظم والطريق العظمى ، فاستعمل اللغتين معا .

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

تاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ الْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ الْحُكْمِ ، وَضِيَاءُ الْأَمْرِ .

أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ؛ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ ؛ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ ؛ وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ .

اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ؛ وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ .

وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ .

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ .

* * *

الشرحُ :

رواها قوم « لقد عَلِمْتُ » بالتخفيف وفتح العين ، والرواية الأولى أحسن ، فتبليغ الرسالات تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى المكلّفين، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ﴾ (١)، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصة براءة : « لا يؤدّى عنّى إلا أنا ورجل منّى » .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٩ .

وإتمام العِدات : إنجازها ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾(١) ، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام : «قاضي دِيني ومنجز مَوْعدي » .

وتمام الكلمات: تأويل القرآن ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾(٢)، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام : « اللهمّ اهد قلبَه ، وثبّت لسانه » .

وخلاصة هذا ، أنه أقسم بالله أنه قد عَلِم ، أو علّمَ ، - على اختلاف الروايتين - أداء الشرائع إلى المكلّفين ، والحكم بينهم بما أنزله الله ، وعلِم مواعيد رسول الله التي وعد بها ، فمنها ماهو وعدٌ لواحدٍ من الناس بأمرٍ ، نحو أن يقول له : سأعطيك كذا ، ومنها ماهو وعدٌ بأمرٍ يحدُث ، كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة . وعلِم تمام كلمات الله تعالى ، أي تأويلها وبيانها الذي يتمّ به؛ لأنّ في كلامه - تعالى - المجمَل الذي لا يستغني عن متمّمٍ ومبيّن يوضحه .

ثم كشف الغطاء وأوضح المراد فقال: « وعندنا - أهلَ البيت - أبواب الحكم » ، يعني الشرعيات والفتاوى . وضياء الأمر ، يعني العقليات والعقائد ، وهذا مقام عظيم لايجسُر أحدٌ من المخلوقين أن يدّعيه سواه عليه السلام؛ ولو أقدم أحد على ادّعائه غيره لكذب وكذبه الناس .

و « أهلَ البيت » منصوب على الاختصاص .

وسبلُه قاصدة ، أي قريبة سهلة ، ويقال : بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة ، أي هيّنة المسير لا تعَب فيها ولا بطء .

وتُبلَى فيه السرائر ، أي تختبر

ثم قال : من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام ١١٥ .

ولا موجود من العقل عنده أولى وأحرى ؛ أى مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع وزاجر عن القبيح ، فبعيد أن ينزَجر ، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل :

. . . . . . وزاجر من النّفس خيرٌ من عتاب العواذِلِ

ثم ذكر النار فحذّر منها .

وقوله : « حليتها حديد » ؛ يعنى القيود والأغلال .

ثم ذكر أنّ الذكْر الطيّب ـ يخلّفه الإنسان بين الناس ـ خير له من مالٍ يجمعه ويورّثه من لا يحمده ؛ وجاء فى الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه مخبرٌ فأخبرَه أن مالاً له قد انفجرت فيه عين خرّارة ، يبشّره بذلك ، فقال : بشّر الوارث ؛ بشّر الوارث ، يكررها ، ثم وقف ذلك المال على الفقراء ، وكتب به كتابا فى تلك الساعة .

(١٢٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام ، وقد قامَ إليه رَجلٌ مِن أصحابه ، فقال : نَهَيْتَنا عن الحكومة ثمّ أمرتَنا بها، فما ندري أيّ الأمْرَيْنِ أرْشَدُ ؟ فَصَفَقَ عليه السلام إحدَى يَدَيْهِ على الأخرى ، ثم قال :

هٰذا جزاء مَنْ تَرَكَ ٱلْعُقْدَةَ ! أما وَٱللهِ لَوْ أَنّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى ٱلْمَكْرُوهِ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱللهُ فِيهِ خَيْراً ، فَإِنِ ٱسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنِ ٱعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ ، لَكَانَتِ ٱلْوُثْقَى ، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ ! أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كَنَاقِشِ ٱلشَّوْكَةِ بِٱلشَّوْكَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا !

ٱللّٰهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هٰذَا ٱلدَّاءِ ٱلدَّوِيِّ ، وَكَلَّتِ ٱلنَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ ٱلرَّكِيِّ !
أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ دُعُوا إِلَى ٱلْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ، وَقَرَءُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَهِيجُوا إِلَى ٱلْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ ٱللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا ، وَسَلَبُوا ٱلسُّيُوفَ أَغْمَادَهَا ، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً ؛ وَصَفّاً صَفّاً ، بَعْضٌ هَلَكَ ، وَبَعْضٌ نَجَا ، لَا يُبَشَّرُونَ بِٱلْأَحْيَاءِ ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ ٱلْمَوْتَى ، مُرْهُ ٱلْعُيُونِ مِنَ ٱلْبُكَاءِ ، خُمْصُ ٱلْبُطُونِ مِنَ ٱلصِّيَامِ ، ذُبُلُ ٱلشِّفَاهِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ ، صُفْرُ ٱلْأَلْوَانِ مِنَ ٱلسَّهَرِ ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ ٱلْخَاشِعِينَ ، أُولَٰئِكَ إِخْوَانِي ٱلذَّاهِبُونَ ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ ، وَنَعَضَّ ٱلْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ !
إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ، وَيُعْطِيَكُمْ

بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ،وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه شبهة من شبهات الخوارج ، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولا ثم أمرت بها ثانيا ، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً ، وبأمرك بها مخطئا ، وإن كانت حسنة ، كنتَ بنهيك عنها مخطئا وبأمرك بها مصيبا ، فلا بدّ من خطئك على كلّ حال .

وجوابها أنّ للإمام أن يعمل بموجب مايغلب على ظنّه من المصلحة ، فهو عليه السلام لمّا نهاهم عنها كان نهيهُ عنها مصلحة حينئذ ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة فى ظنّه قد تغيّرت ، فأمرهم على حسب ما تبدّل وتغيّر فى ظنه ، كالطبيب الذى ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمره بمثله غداً .

وقوله : « هذا جزاء من ترك العقدة » ، يعنى الرأى الوثيق ، وفى هذا الكلام اعتراف بأنه بان له وظهرَ فيما بعد أنّ الرأى الأصلح كان الإصرار والثبات على الحرب ، وأن ذلك وإن كان مكروهاً ، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه ، كما قال سبحانه : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١)

ثم قال : كنت أحملكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرو ؛ مِنْ رفع المصاحف ، فإن استقمتم لى اهتديتم بى ، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين : أحدهما أن تعوجوا ، أى يقع منكم بعض الالتواء ، ويسير من العصيان ، كفتور الهمّة وقلة الجدّ فى الحرب . والثانى التأبى والامتناع المطلق من الحرب ، فإن كان الأول قوّمتكم

---

(١) سورة النساء ١٩

بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع ، وإن كان الثانى تداركت الأمر معكم : إمّا بالاستنجاد بغيركم من قبائل العرب وأهل خُراسان والحجاز ، فكلّهم كانوا شيعته وقائلين بإمامته ، أو بما أراه فى ذلك الوقت من المصلحة التى تحكم بها الحال الحاضرة .

قال : لو فعلت ذلك لكانتْ هى العقدة الوثقى ؛ أى الرأى الأصوب الأحزم .

فإن قلت : أفتقولون إنه أخطأ فى العدول عن هذا الرأى ؟

قلت : لا نقول إنه أخطأ بمعنى الإثم ، لأنه إنّما فعل ما تغلّب على ظنّه أنه المصلحة ، وليس الواجب عليه إلا ذلك ، ولكنه ترك الرأى الأصوب ، كما قال الحسن : « هلّا مضيت قُدُما لا أبا لك ! » ، ولا يلحق الإثم من غلب على ظنّه فى حكم السياسة أمر فاعتمده ، ثم بان له أنّ الأصوب كان خلافه ، وقد قيل إن قوله :

لَقَدْ عَثَرْتُ عَثْرَةً لا تَنْجَبِرْ سوفَ أَكِيس بَعْدَها وأَستمِرّْ

* وأجمع الرأى الشتيت المنتشِرْ *

إشارة إلى هذا المعنى ؛ وقيل : فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضى الله عنه : مَنْ عَرَفه عرف أنه غيرُ ملوم فى الانقياد معهم إلى التحكيم ، فإنّه ملّ من القتل وتجريد السيف ليلا ونهارا ، حتى ملّت الدماء من إراقته لها ، وملّت الخيل من تقحّمه الأهوال بها ، وضَجِر من دوام تلك الخطوب الجليلة ، والأرزاء العظيمة ، واستلاب الأنفس ، وتطاير الأيدى والأرجل بين يديه ، وأكلت الحربُ أصحابه وأعداءه ، وعُطّلت السواعد ، وخَدِرت الأيدى التى سلمت من وقائع السيوف بها ، ولو أنّ أهلَ الشام لم يستعفوا من الحرب ، ويستقيلوا من

المقارعة والمصادمة ، لأدّت الحال إلى قعود الفيلقين معا ، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح ، فإنّ الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه .

***

واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول ، واستدرك بكلام آخر حذرًا أن يثبتَ على نفسه الخطأ في الرأى ، فقال : لقد كان هذا رأيا لو كان لى من يطيعنى فيه ، ويعمل بموجبه ، وأستعين به على فعله ، ولكن بمنْ كنت أعمل ذلك ، وإلى مَنْ أخلد فى فعله ! أمّا الحاضرون لنصرى فأنتم وحالكم معلومة فى الخلاف والشّقاق والعصيان ، وأمّا الغائبون من شيعتى كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ العدوّ غرضه منّى ، ولم يبقَ مَنْ أخلُد إليه فى إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأى الذى كان صوابا لو اعتُمِد ؛ إلا أنْ أستعين ببعضكم على بعض ، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة ؛ وهذا مثل مشهور : « لا تنقش الشوكة بالشوكة » . فإن ضَلْعها لها ، والضلع الميل ؛ يقول : لا تستخرج الشوكة الناشبة فى رجلك بشوكة مثلها ، فإن إحداهما فى القوّة والضعف كالأخرى ، فكما أنّ الأولى انكسرت لمّا وطئتَها فدخلتْ فى لحمك ، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر ، ، وتلج فى لحمك .

ثم قال : « اللّهمّ إن هذا الداء الدوىّ ، قد ملّت أطباؤه » ، والدوىّ : الشديد ، كما تقول : ليلٌ أليل .

وكلّت النَّزَعَة ، جمع نازع ، وهو الذى يستقى الماء ، والأشطان : جمع شَطَن ، وهو الحبل . والرَّكِىّ : الآبار ، جمع رَكيّة ، وتجمع أيضا على ركايا .

ثم قال : أين القوم ! هذا كلام متأسّفٍ على أولئك ، متحسّر على فقدهم .

والوله : شدّة الحب حتى يذهب العقل ، وَلِهَ الرجل .

واللقاح ، بكسر اللام : الإبل ، والواحدة لقوح ؛ وهى الحلوب ، مثل قِلاص وقلوص .

قوله : « وأخذوا بأطراف الأرض » ، أى أخذوا على الناس بأطراف الأرض ، أي حصروهم ، يقال لمن استولى على غيره وضيّق عليه : قد أخذ عليه بأطراف الأرض ، قال الفرزدق :

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ (١)

وزحفًا زحفًا ، منصوب على المصدر المحذوف الفعل ، أى يزحفون زحفا ، والكلمة الثانية تأكيد للأولى . وكذلك قوله : « وصَفًّا صَفًّا » .

ثم ذكر أنّ بعض هؤلاء المتأسّف عليهم هلك ، وبعض نجا ، وهذا ينحى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ (٢) .

ثم ذكر أنّ هؤلاء قوم وقَذَتْهم العبادة ، وانقطعوا عن الناس ، وتجرّدوا عن العلائق الدنيوية ، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشَّر به ، وإذا مات له ميّت لم يعزَّ عنه .

ومَرِهت عين فلان ، بكسر الراء ، إذا فسدت لترك الكُحْل ، لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل مَرَهَ عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه . وذكر أن بطونهم من خماص الصوم ، وشفاههم ذابلة من الدعاء ، ووجوههم مصفرّة من السّهر ، لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غَبَرة الخشوع .

ثم قال : « أولئك إخواني الذاهبون » . فإن قلت : مَنْ هؤلاء الذين يشير — عليه السلام — إليهم ؟

قلت : هم قوم كانوا فى تأْتأة الإسلام وفى زمان ضعفه وخموله أربابَ زهد وعبادة وجهاد شديد فى سبيل الله ، كمصعب بن عمير من بنى عبد الدّار ، وكسعد بن معاذ من الأوس ، وكجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهم ؛ ممن استشهد من الصالحين

---

(١) ديوانه ٥١٥ .

(٢) سورة الأحزاب ٢٣ .

أرباب الدين والعبادة والشجاعة فى يوم أُحُد ، وفى غيره من الأيام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكعمّار ، وأبى ذرّ ، والمقداد ، وسلمان ، وخبّاب ، وجماعة من أصحاب الصُّفّة وفقراء المسلمين أرباب العبادة ، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة . وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الجنة لتشتاقُ إلى أربعة : علىّ ، وعمار ، وأبى ذرّ ، والمقداد » ، وجاء فى الأخبار الصحيحة أيضا ، أنّ جماعة من أصحاب الصُّفّة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضُّوا أيديَهم عليه ، وقالوا : واأسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عُنق عدوّ الله ! وكان معه أبو بكر ، فقال لهم : أتقولون هذا لسيّد البطحاء ؟ فرفع قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأنكره ، وقال لأبى بكر : « انظر لا تكون أغضبتَهم ، فتكون قد أغضبت ربك » فجاء أبو بكر إليهم وترضّاهم وسألهم أن يستغفروا له ، فقالوا : غفر الله لك .

قوله : « فحَقّ لنا » ، يقال : حَقّ له أن يفعل كذا ، وهو حقيق به ، وهو محقوق به ، أى خليقٌ له ، والجمع أحقاء ومحقوقون .

ويسنّى : يسهّل . وصدف عن الأمر ، يصدِف ، أى انصرف عنه . ونزغات الشيطان : ما ينزَغ به ، بالفتح ، أى يفسد ويغرى . ونفثاته : ماينفِث به وينفُث ، بالضم والكسر ؛ أى يخيّل ويسحر .

واعقلوها على أنفسكم ، أى اربطوها والزموها .

(١٢١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة ، فقال عليه السلام : أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ ؟ فقالوا : مِنَّا مَنْ شَهِدَ ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ . قَالَ : فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ؛ فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً ؛ حَتَّى أُكَلِّمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ . وَنَادَى النَّاسَ ، فَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا . ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً ، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً : إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا ، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ، فَقُلْتُ لَكُمْ : هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ ؛ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ[1] .

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ

---

(١) بعدها في المخطوطة المصرية : « وقد كانت هذه الفعلة ، وقد رأيتكم أعطيتموها . والله لئن أبيتها ما وجبت علي فريضتها ، ولا حملني الله ذنبها ، ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع ، وإن الكتاب لمعي ، ما فارقته مذ صحبته » .

وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَاناً وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ .

***

وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَادَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا،وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا ، رَغِبْنَا فِيهَا ، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا !

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام يتلو بعضه بعضا ؛ ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصق أحدها بالآخر ؛ وهذه عادة الرضيّ ، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلمات فصيحة ، يوردها على سبيل التتالى؛ وليست متتالية حين تكلّم بها صاحبها ، وسنقطع كلّ فصل منها عن صاحبه إذا مررنا على متنها .

قوله : « إلى معسكرهم » الكاف مفتوحة ، ولا يجوز كسرها ؛ وهو موضع العسكر ومحطّه .

وشهد صفين : حضرها ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ ﴾(١) .

قوله : « فامتازوا: أى انفردوا» ، قال تعالى :﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾(٢) .

قوله : « حتى أكلّم كلا منكم بكلامه » ، أى بالكلام الذى يليق به

والغيلة : الخداع . والناعق : المصوّت .

قوله : « إن أجيب ضلّ ، وإن ترك ذلّ . . »هو آخر الفصل الأول. وقوله:«ضلّ»، أى ازداد ضلالا ، لأنه قد ضلّ قبل أن يجاب .

(١) سورة البقرة ١٨٥ .
(٢) سورة يس ٥٩ .

فأما قوله : « فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه » ، فهو من كلام آخر ، وهو قائم بنفسه ، إلى قوله : « وصبرا على مضض الجراح » ، فهذا آخر الفصل الثانى .

فأما قوله : « لكنا إنما أصبحنا » ، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما ؛ وهو فى الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول ؛ لأنّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم ؛ وهذا يتضمّن تصويبها ؛ وظاهر الحال أنّه بعد كلام طويل . وقد قال الرضىّ رحمه الله فى أول الفصل : إنه من جملة كلام طويل ، وإنه لمّا ذكر التحكيم ، قال ما كان يقوله دائما ، وهو أنّى إنما حكّمت على أن نعمل فى هذه الواقعة بحكم الكتاب ، وإن كنت أحارب قوما ما أدخلوا فى الإسلام زيغا وأحدثوا به اعوجاجا، فلمّا دعونى إلى تحكيم الكتاب أمسكتُ عن قتلهم ، وأبقيْت عليهم لأنى طمعت فى أمر يُلمّ الله به شَعَث المسلمين ، ويتقاربون بطريقه إلى البقية ، وهى الإبقاء والكفّ .

فإن قلت: إنه قد قال : « نقاتل إخواننا من المسلمين » ، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة « المسلمين » ؟

قلت : إنّا وإن كنا نذهب إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا ولا مسلما ، فإنا نجيز أن يطلق عليه هذا اللفظ إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمّة وعابدى الأصنام ، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصودا به التعظيم والثناء والمدح ، فإن لفظة « مسلم » و « مؤمن » تستعمل فى أكثر الأحوال كذلك ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشّرْك ، ولم يقصد مدحهم بذلك، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم .

(١٢٢)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه فى ساعة الحرب:

وَأَىُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ.

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ.

إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ!

* * *

الشرح:

أحسّ: علم ووجد. ورِباطة جأش، أى شدة قلب: والماضى «رَبَط»، كأنه يربط نفسه عن الفرار. والمرويّ: «رِباطة» بالكسر، ولا أعرفه نقلا وإنما القياس لا يأباه، مثل عَمِر عِمارة، وخَلَب خِلابة.

والفشل: الجبن. وذبّ الرجل عن صاحبه، أى أكثر الذبّ، وهو الدفع والمنع. والنَّجْدة: الشجاعة. والحثيث: السريع؛ وفى بعض الروايات: «فليذبّ عن صاحبه» بالإدغام، وفى بعضها «فليذبُبْ» بفك الإدغام. والمِيتة، بالكسر: هيئة الميّت كالجِلْسة: والرِّكْبة هيئة الجالس والراكب، يقال: مات فلان مِيتة حسنةً، والمرويّ فى «نهج

البلاغة ،، بالكسر فى أكثر الروايات، وقد روى : «من موتة» وهو الأليق،يعنى المرّة الواحدة ، ليقع فى مقابلة الألف .

***

واعلم أنّه عليه السلام أقسم أنّ القتل أهونُ من الموت حَتْف الأنف ؛ وذلك على مقتضى مامنحه الله تعالى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر ؛ وهو عليه السلام يحاول أن يحضّ أصحابه ، ويحرّضهم ؛ ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه ، وإقدامَهم على الحرب مماثلا لإقدامه ؛ على عادة الأمراء فى تحريض جندهم وعسكرهم ؛ وهيهات ! إنما هو كما قال أبو الطيب :

يكلّفُ سيفُ الدولة الجيشَ همّـــهُ وَقَدْ عَجِزَتْ عَنْهُ الجيوشُ الخضارِمُ(١)
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النّاسِ مَاعِنْـــدَ نفسِهِ وذلك ما لا تدّعيــــهِ الضراغم

ليست النفوس كلّها من جوهر واحدٍ ، ولا الطباع والأمزجة كلّها من نوع واحدٍ ، وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده ، فى الأوقات المتطاولة ، والدهور المتباعدة؛ وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان؛فإن التواريخ من قبل الطوفان- مجهولة عندنا- أنّ أحداً أعطى من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها؛ من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم؛والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم، والموت على الحياة ، والموت الذى كان يطلبه ويؤثره ؛ إنما هو القتل بالسيف ، لا الموت على الفراش ، كما قال الشاعر :

لو لم يمتْ بين أطرافِ الرماح إذاً لمات - إذ لم يمتْ - من شدّة الحزَنِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٩ ، والخضارم : جمع خضرم ؛ وهو العظيم الكبير من كل شىء .

وكما قال الآخر :

يستعــــذبون مناياهم كأنّهمُ لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت : فما قولك فيما أقسم عليه : هل ألف ضربة بالسيف أهون ألماً على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة،أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوّز ؛ترغيباً لأصحابه فى الجهاد ؟

قلت : الحالف يحلف على أحد أمرين : أحدهما أن يحلف على ظنّه واعتقاده ؛ نحو أن يحلف أنّ زيدا فى الدار ،أى أنا حالف ومقسم على أنّى أظن أن زيدا فى الدار ، أو أنى أعتقد كون زيد فى الدار . والثانى أن يحلف ، لا على ظنّه، بل يحلف على نفس الأمر فى الخارج ؛ فإن حملنا قَسم أمير المؤمنين عليه السلام على المحمل الأول فقد اندفع السؤال؛ لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك ؛ فحلف أنه يعتقد وأنّه يظن ذلك ؛ وهذا لا كلام فيه ، وإن حملناه على الثانى فالأمر فى الحقيقة يختلف ، لأنّ المقتول بسيف صارم معجّل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة مايجده الميت دون النزع من المدّ والكفّ ، نعم قد يجد المقتولُ قبل الضربة ألم التوقّع لها ، وليس كلامنا فى ذلك ، بل فى ألم الضّربة نفسها،وألف سيف صارم مثل سيف واحد،إذا فرضنا سرعة الزّهوق.وأما فى غيره هذه الصورة ، نحو أن يكون السيف كالّا ، وتتكرر الضربات به،والحياة باقية بعد ؛ وقايسنا بينه وبين ميّت يموت حَتْف أنفه موتا سريعا ، إمّا بوقوف القوّة الغازية كما يموت الشيوخ ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة ، ويبقى العقل والذهن ، إلى وقت الموت،فإن للموت هاهنا أهون وأقل ألما ، فالواجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إمّا على جهة التعريض ؛ فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء فى المبالغات المجازية ، وإما أن يكون أقسم على أنّه يعتقد ذلك ، وهو صادق فيما أقسم ؛ لأنه هكذا كان يعتقد بناء على

ماهو مركوز فى طبعه من محبّة القتال ، وكراهية الموت على الفراش . وقد روى أنه قيل لأبى مسلم الخراسانى : إن فى بعض الكتب المنزلة : مَنْ قَتَل بالسيف فبالسيف يُقتَل ، فقال : القتل أحبّ إلىّ من اختلاف الأطباء ، والنظر فى الماء ، ومقاساة الدواء والداء ، فذُكِر ذلك للمنصور بعد قتل أبى مسلم ، فقال : قد أبلغناه محبّته !

(١٢٣)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام:

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ، لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً، قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ.

***

الشرح:

الكشيش: الصوت يشوبه خَوَر، مثل الخشخشة، وكَشيش الأفعى: صوتها من جلدها لا من فمها، وقد كشَّت تكِشّ، قال الراجز:

كَشِيش أفعى أجمعت لعضٍّ ... وهي تحكّ بعضَها ببعضٍ [1]

يقرّع عليه السلام أصحابه بالجبن والفشل، ويقول لهم: لكأنّي أنظر إليكم وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي قد اعتراكم؛ فهي أشبه شيء بأصوات الضِّباب المجتمعة.

ثم أكّد وصف جبنهم وخوفهم، فقال: لا تأخذون حقًّا، ولا تمنعون ضيما، وهذه غاية ما يكون من الذلّ.

ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال: قد خلّيتم وطريق النجاة عند الحرب، ودللتم عليها،

(١) اللسان ٨: ٢٣٣، من غير نسبة.

وهى أن تقتحموا وتلحجوا ، ولا تهنوا ؛ فإنكم متى فعلتم ذلك نجوتم ؛ ومتى تلوّمتم وتبطتم وأحجمتم هلكتم ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

تأخّرتُ أستَبقِى الحياةَ فلم أجِدْ ... لِنَفْسِى حَياةً مثل أن أتقدّما[1]

وقال قَطَرِىّ بن الفُجاءة :

لا يركَنَنْ أحدٌ إلى الإحجامِ ... يومَ الوغى متخوّفاً لِحمامِ[2]
فلقد أرانى للرماح دريئةً ... مِنْ عن يمينى تارةً وأمامى
حتّى خضبْتُ بما تحدّر من دمِى ... أكنافَ سَرْجِى أو عِنانَ لجامى
ثم انصرفتُ وقد أصبْتُ ولم أصَبْ ... جَذَعَ البصيرةِ قارِحَ الإقدامِ[3]

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أنّ عليك عيونا من الله ترعاك وتراك ، فإذا لقيتَ العدوّ ، فاحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ؛ فإن دم الشهيد نورٌ له يوم القيامة . وقال أبو الطيب :

يُقتَلُ العاجزُ الجبانُ وَقَدْ يَعجَزُ عن قَطْعِ بُخْنُقِ المولود[4]
ويوقَّى الفتى المِخَشُّ وقد خوّضَ فى ماءِ لبّةِ الصِّنْديدِ[5]

---

(١) الحصين بن الحمام المرى ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٩٢

(٢) ديوان الحماسة ، بشرح التبريزى ١ : ١٣٠

(٣) قال التبريزى فى شرح البيت : « يقول : أنا جذع البصيرة ، أى استبصارى ويقينى لا يحتاجان إلى تهذيب ولا تأديب ؛ كما لا يحتاج الجذع إلى الرياضة ، وإقدامى قارح ، أى قد بلغ النهاية ، كما أن القروح نهاية سن الفرس ولا سن بعده » .

(٤) ديوانه ١ : ٣٢٢ ، البخنق : ما يجعل على رأس الصبى ، وتلبسه المرأة عند إدهان رأسها .

(٥) المخش : الرجل الجرىء على الليل والصنديد : السيد الكريم . وخوّض : أكثر الخوض .

ولهذا المعنى الذى أشار إليه عليه السلام سبب معقول ؛ وهو أن المقدّم على خصمه يرتاع له خصمه ، وتنخذل عنه نفسه ، فتكون النجاة والظفر للمقدّم ؛ وأما المتلوّم عن خصمه ، المحجم المتهيّب له ؛ فإن نفس خصمه تقوى عليه ، ويزداد طمعه فيه ، فيكون الظفر له ، ويكون العطب والهلاك للمتلوّم الهائب .

{ تم الجزء السابع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثامن }

فهرس الخطب (*)

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

(١) أولها فى الجزء السادس ص ٣٩٨

فهرس الموضوعات (*)

(*) وهى الموضوعات الواردة فى كتاب شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثامن

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٢٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى حث أصحابه على القتال :

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ؛ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَالْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ؛ فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ، وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ؛ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ؛ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ؛ فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا، وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا.

***

الشرح :

الدارع : لابس الدِّرْع، والحاسر : الذى لادِرْع عليه ولا مِغْفَر؛ أمرهم عليه السلام بتقديم المستلئم على غير المستلئم، لأنّ سَوْرة الحرب وشدّتها تلقى وتصادف الأوّل فالأوّل؛ فواجب أن يكون أوّلُ القوم مستلئما. وأن يعضّوا على الأضراس؛ وقد تقدم شرح هذا، وقلنا: إنه يجوز أن يريد به شدة الحنق والجدّ؛ ويجوز أن يريد أنّ العضّ على الأضراس يشدّ شؤون الدماغ ورباطاته، فلا يبلغ السيف منه مبلغه لو صادفه رِخْواً. وأمرهم بأن يلتووا إذا طعنوا؛

لأنهم إذا فعلوا ذلك، فبالحرَى أن يمورَ السِّنان ، أىْ يتحرّكَ عن موضع الطعنة ؛ فيخرج زالقا ، وإذا لم يلتووا لم يمرَّ السِّنان ، ولم يتحرّكْ عن موضعه فيخرق وينفذ ، فيقتل .

وأمرهم بغضّ الأبصار فى الحرب ، فإنه أربَطُ للجأش ؛ أى أثبت للقلب ، لأن الغاضّ بصره فى الحرب أحرَى ألّا يُدهش ولا يرتاع لهَوْل ماينظر .

وأمرهم بإماتة الأصوات وإخفائها ،فإنه أطرد للفشل ؛ وهو الجبن والخوف ؛وذلك لأن الجبان يرعدويبرُق ، والشجاع صامت .

وأمرهم بحفظ رايتهم ألّا يميلوها ،فإنّها إذا مالت انكسر العسكر، لأنهم إنما ينظرون إليها وألّا يُخلُوهامن محامٍ عنها ، وألّا يجعلوها بأيدى الجبناء وذوى الهَلَع منهم كى لايُخيموا ويجبنوا عن إمساكها .

والذّمار : ماوراء الرجل مما يحقّ عليه أن يحميَه ، وسمّى ذِمارا ؛ لأنه يجب على أهله التذمّر له ، أى الغضب .

والحقائق : جمع حاقّة ؛ وهى الأمر الصعب الشديد ؛ ومنه قول الله تعالى : ﴿ الحاقّةُ ماالحاقّة ﴾ ، يعنى الساعة .

ويكتنفونها : يحيطون بها . وحِفَافاها : جانباها ، ومنه قول طَرَفَة :

كأنّ جناحَىْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنّفا حِفافَيْهِ شُكّا فى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ(١)

***

الأصل:

أجزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ ، وَآسَى أخاهُ بِنَفْسِهِ ؛ وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إلى أخِيهِ ؛ فَيَجْتَمِعَ

(١) المعلقات ـ بشرح التبريزى ٦٤ . المضرحى : العتيق من النسور ؛ يضرب إلى البياض . وحفافاه: جانباه . والعسيب : عظم الذنب . والمسرد : المخصف .

عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ . وَأَيْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ ، لَا تَسْلَمُونَ مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ .

إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ وَالذُّلَّ اللَّازِمَ ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ . وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ ، وَلَا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ .

مَنْ رَائِحٌ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ ! الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي .

الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ .

وَاللهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ . اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ .

***

الشرح :

من الناس من يحمل هذه الصيغة وهى صيغة الإخبار بالفعل الماضى ، فى قوله : « أجزأ امرؤ قِرْنَه » فى معنى الأمر ؛ كأنه قال : ليُجزِئْ كلّ امرئ قِرنَه ؛ لأنه إذا جاز الأمر بصيغة الإخبار فى المستقبل ، جاز الأمر بصيغة الماضى ، وقد جاز الأول ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾(١) ، فوجب أن يجوز الثانى . ومن النّاس من قال : معنى ذلك : هلاّ أجزأ امرؤ قرنه ! فيكون تحضيضا محذوف الصيغة للعلم بها . وأجزأ بالهمزة ، أى كفى . وقِرْنك : مقارنك فى القتال أو نحوه .

وآسى أخاه بنفسه مؤاساةً ، بالهمز ، أى جعله أسوة نفسه ، ويجوز : واسيتُ زيدا بالواو ، وهى لغة ضعيفة .

ولم يكِلْ قِرنه إلى أخيه ، أى لم يدع قِرْنه ينضمّ إلى قِرْن أخيه ، فيصيرا معا فى

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣ .

مقاومة الأخ المذكور ، وذلك قبيحٌ محرّم ، مثاله : زيد وعمرو مسلمان، ولهما قِرْنان كافران في الحرْب ؛ لا يجوز لزيد أن ينكُلَ عن قِرْنه فيجتمع قِرْنُهُ وقِرْن عمرو على عمرو .

ثم أقسم عليه السلام أنّهم إن سلموا من الألم النازل بهم لو قُتِلُوا بالسيف في الدنيا ؛ فإنهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة ؛ على فِرارهم وتخاذُلهم ، وسمّى ذلك سيفاً على وجه الاستعارة وصناعة الكلام ، لأنه قد ذكر سيف الدنيا ، فجعل ذلك في مقابلته .

والهاميم : السادات الأجواد من الناس، والجياد من الخيل ، الواحد أُهموم . والسَّنام الأعظم ، يريد شرَفهم وعلوّ أنسابهم ، لأن السَّنام أعلى أعضاء البعير .

وموجِدة الله : غضبه وسَخَطه .

ويروى : «والذلّ اللاذم » بالذال المعجمة ؛ وهو بمعنى اللازم أيضا ، لذِمتُ المكان بالكسر ، أي لزمته .

ثم ذكر أنّ الفِرار لا يزيد في العُمْر ، وقال الراجز :

قَدْ عِلمتْ حَسْنَاءُ دَعْجَاءُ المقَلْ ... أن الفِرار لا يزيدُ في الأجَـلْ

ثم قال لهم : أيُّكم يروح إلى الله فيكون كالظمآن يرد الماء !

ثم قال : الجنّة تحت أطراف العوالي ؛ وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: « الجنّة تحت ظلال السيوف » . وسمع بعض الأنصار رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، يقول يوم أُحُد : « الجنّة تحت ظلال السيوف » ، وفي يده تُميرات يلُوكها ، فقال : بَخٍ بَخٍ ! ليس بيني وبين الجنة إلّا هذه التُميرات ! ثم قَذَفها من يده ؛ وكسر جَفْنَ سيفه ، وحمل على قريش فقاتل حتى قُتِل .

ثم قال : « اليوم تُبلَى الأخبار » ؛ هذا من قول الله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾(١)، أي نختبر أفعالكم .

---

(١) سورة محمد ٣١ .

ثم دعا على أهل الشام إن ردّوا الحق ، بأن يفضّ الله جماعتهم ، أي يهزمهم ويشتّت ، أي يفرّق كلمتهم . وأن يُبسلهم بخطاياهم ، أي يسلمهم لأجل خطاياهم التي اقترفوها ولا ينصرهم ، أبسلتَ فلانا ؛ إذا أسلمته إلى الهلكة ، فهو مبسَل ، قال تعالى : ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾(١) ، أي تُسلَم ، وقال : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾(٢) ، أي أسلموا للهلاك لأجل ما اكتسبوه من الإثم ؛ وهذه الألفاظ كلها لا يتلو بعضها بعضا ، وإنما هي منتزَعة من كلام طويل ، انتزعها الرضيّ رحمه الله ، واطّرح ماعداها .

***

الأصل :

إنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ . وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ . وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ . وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ .

***

قال الشريف الرضيّ رحمه الله تعالى :

الدَّعْق : الدَّقّ ، أيْ تدقّ الخيول بحوافرها أرضَهُمْ . وَنَوَاحِرُ أَرْضِهِمْ : مُتَقَابِلَاتُهَا ، وَيُقَالُ : مَنَازِلُ بَنِي فُلَانٍ تَتَنَاحَرُ ؛ أَيْ تَتَقَابَلُ .

***

الشرح :

طعن دِراك ، أي متتابع يتلو بعضُه بعضاً . ويخرج منه النسيم ، أي لسَعَتِه ؛ ومن هذا النحو قول الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ٧٠

(٢) سورة الأنعام ٧٠ .

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ، لولا الشّعاع أضاءها[1]
ملكتُ بها كفّي فأنهرتُ فتقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ماوَرَاءها[2]

فهذا وصف الطعنة، بأنّها لاتّساعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ماوراءها، وأنه لولا شعاع الدم ـ وهو ماتفرّق منه ـ لبان منها الضوء. وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد من أصحابه طعناتٍ يخرُجُ النسيم ـ وهو الريحُ اللينة ـ منهنّ.

وفلقت الشيء، أفلِقه ـ بكسر اللام ـ فَلْقا، أي شققتُه. ويُطِيح العظام: يسقطها، طاح الشيء، أي سقط أو هلك أو تاه في الأرض، وأطاحه غيره، وطوّحه.

ويُنْدِرُ السواعد: يسقطها أيضا، ندرَ الشيء يندُر نَدْراً، أي سقط، ومنه النوادر، وأندره غيرُه. والساعد: من الكوع إلى المِرفق، وهو الذراع.

والمناسر: جمع مَنْسِر؛ وهو قطعة من الجيش تكون أمامَ الجيش الأعظم، بكسر السين وفتح الميم، ويجوز مِنْسَر بكسر الميم وفتح السين، وقيل إنها اللغة الفصحى.

ويُرْجَمُوا، أي يُغزَوْا بالكتائب، جمع كتيبة وهي طائفة من الجيش.

تقفوها الحلائب، أي تتبعها طوائف لنصرِها والمحاماة عنها، يقال: قد أحلبوا، إذا جاءوا من كلّ أوب للنّصرة، ورجل مُحلِب، أي ناصر، وحالبت الرجل، إذا نصرتَه وأعنته؛ وقال الشاعر[3]:

ألَهْفَا بِقُرّى سَحْبَلٍ حين أحْلَبَتْ ... عَلَيْنَا الوَلَايَا والعدوّ المباسِلُ[4]

---

(١) لقيس بن الحطيم، ديوانه ٧، وديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ١٧٨. الشعاع: المتفرق، ومنه: تطاير القوم شعاعا، والنفذ: الخرق؛ يقول: لولا انتشار الشمس لأضاءها.

(٢) ملكت، من قولهم: ملكت العجين وأملكته؛ إذا بالغت في عجنه؛ أي شددت بهذه الطعنة كفي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيء الذي وراءها.

(٣) هو جعفر بن علبة الحارثي؛ ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ١ : ٤٤.

(٤) قرى: اسم موضع، وسحبل: واد بعينه. وأحلبت: أعانت: والولايا: جمع ولية؛ وهي البردعة؛ يكنى بها عن النساء أو الضعفاء؛ والمباسل، من البسالة؛ وهي الشجاعة.

أى أعانتْ ونصرتْ . والخميس : الجيش . والدَّعْق ، قد فسرّه الرضىّ رحمه الله ؛ ويجوز أن يفسّر بأمر آخر ؛ وهو الهيْج والتنفير ؛ دَعَقَ القومَ يَدْعَقُهم دَعْقا ، أى هاج منهم ونَفّرهم .

ونواحر أرضهم ،قد فسّره رحمه الله أيضا؛ ويمكن أن يفسّر بأمر آخر ،وهو أن يراد به أقصى أرضِهم وآخرها ، من قولهم لآخر ليلة فى الشهر : ناحرة .

وأعنان مسارِبهم ومسارحهم : جوانبها ، والمسارب : مايسرُب فيه المال الراعى ، والمسارح : مايسرح فيه ، والفرق بين «سرَح» و «سرب» ، أن السُّروح إنما يكونُ فى أوّل النهار ، وليس ذلك بشرط فى السُّروب .

***

[عود إلى أخبار صِفّين]

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه فى صِفّين ، يحرّضهم به، وقد ذكرنا من حديث صِفّين فيما تقدّم أكثره ؛ ونحن نذكر هاهنا تتمة القصّة ؛ ليكون مَنْ وقف على ما تقدّم وعلى هذا المذكور آنفا هنا ، قد وقف على قصّة صفين بأسرها .

اتفق النّاس كلّهم أنّ عمّارا رضى الله عنه أصِيب مع علىّ عليه السلام بصِفّين ، وقال كثيرٌ منهم ، بل الأكثر : إن أويسا القَرَنىّ[1] أصيب أيضا مع علىّ عليه السلام بصِفّين . وذكر ذلك نصر بن مزاحم فى '' كتاب صِفّين '' رواه عن حفص بن عمران البرجىّ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى البختَرىّ ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله فى أويس ماقال ، وقال الناس كلّهم : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إنّ الجنّة لتشتاق إلى

---

(١) هو أويس بن عامر القرنى (بفتح القاف والراء) سيد التابعين ؛ ذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب.

عمّار » ، ورووْا عنه صلى الله عليه وآله أنّ عماراً جاء يستأذن عايه ، فقال : « ائذنوا له ، مَرْحباً بالطيّب المطيّب »(١).

* * *

وروى سلمة بن كُهيل ،عن مجاهد ، أن النبيّ صلى الله عليه وآله رأى عمّارا وهو يحمل أحجار المسجد فقال : « مالهم ولعمار ! يدعوهم إلى الجنة ، ويدعونه إلى النار ! » .

وروى الناس كافّة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « تقتلك الفئة الباغية »(٢)

* * *

وروى نصر بن مزاحم فى كتاب صِفّين ، عن عمرو بن شمِر ، عن مالك بن أعْين ،عن زيد بن وهب الُجهنيّ ، أن عمّار بن ياسر نادى(٣) فى صِفّين يوما قبل مقتله بيوم أو بيومين : أين من يبغى رضوان الله عزّ وجلّ ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ؟ فأتته عِصابة من النّاس ، فقال : أيّها الناس ، اقصِدوا بنا قَصْد هؤلاء القوم [الذين يتبعون دم عثمان ، ويزعمون أنه قتِل مظلوما ، والله إن كان إلا ظالما لنفسه ، الحاكم بغير ما أنزل الله](٤) . ودفع علىّ عليه السلام الراية إلى هاشم بن عُتْبة بن أبى وقّاص — وكان عليه ذلك اليوم دِرْعان — فقال له علىّ عليه السلام كهيئة المازح : أيا هاشم ، أما تخشى على نفسك أن تكون أعْوَر جبانا ؟ قال : ستعلم يا أميرَ المؤمنين ، والله لألُفّنّ بين جماجم العرب لفّ رجل ينوِى الآخرة . فأخذ رمحا فهزّه فانكسر ، ثم أخذ آخر فوجده جاسيا فألقاه ، ثم دعا برمح لَيّن فشدّ به اللواء(٥) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو قال : لما دفع علىّ عليه السلام الراية إلى هاشم بن عُتْبة ، قال

(١) صفين ٣٦٧
(٢) صفين ٣٦٦
(٣) صفين : « نادى يومئذ » .
(٤) تكملة من صفين
(٥) صفين ٣٦٩ — ٣٧٠ .

له رجل من أصحابه مِن بَكْر بن وائل : أقْدِم هاشم ـ يكررها ـ ثم قال : مالك [يا هاشم[1]] قد انتفخ سَحْرك ! أعَوَراً وجُبنا ! قال : مَنْ هذا ؟ قالوا : فلان ، قال : أهلُها وخيرمنها ، إذا رأيتنى قد صُرعت فخذها . ثم قال لأصحابه : شدّوا شُسوعَ نعالكم ، وشدّوا أُزُرَكم ، فإذا رأيتمونى قد هَزَزْت الراية ثلاثا ، فاعلموا أنّ أحداً منكم لا يسبقنى إلى الحملة[2] . ثم نظر إلى عسكر معاوية ، فرأى جمعا عظيما ، فقال : مَن أولئك ؟ قيل : أصحاب ذى الكَلاع ، ثم نظر فرأى جندا ، فقال : من أولئك ؟ قيل : قريش وقوم من أهل المدينة ، فقال : قَوْمى ، لا حاجة لى فى قتالهم ، مَنْ عند هذه القبّة البيضاء ؟ قيل : معاوية وجنده ، قال : فإنى أرى دُونَهم أَسْوِدة[3] ، قيل : [ذاك][1] عمرو بن العاص وابناه ومواليه ، فأخذ الراية فهزّها ، فقال رجل من أصحابه : البَثْ[4] قليلا ولا تعجَل ، فقال هاشم :

قَدْ أكثرا لَوْمِى وَمَا أَقلاّ[5] … إنى شَرَيْتُ النفس لَنْ أعتلاّ
أعوَرُ يبغى أهلَه محلاّ … قد عالج الحياة حتى مَلاّ
لا بد أن يَفُلّ أو يُفَلاّ[6] … أَشلّهم بذى الكعوب شَلاّ[7]

---

(١) تكملة من صفين .
(٢) صفين : « إليها » .
(٣) أسودة : جمع سواد ، وهو الشخص .
(٤) صفين : « امكث » .
(٥) مروج الذهب ٢ : ٣٩٢ : « قد أكثر القوم » .
(٦) الفل : الهزيمة .
(٧) الشل : الطرد ، وذو الكعوب : الرمح . ورواية الطبرى ٦ : ٢٤ :

* يَتُلّهم بذى الكعوب تَلاّ *

ويتلهم : يصرعهم . وفى إحدى روايتى صفين . « أشدهم بذى الكعوب » .

مَعَ ابن عَمِّ أحمــدَ المُعَلَّى(١) أوّلُ مَنْ صَدَّقَهُ وَصَــلَّى(٢)

***

قال نصر : وحدّثنا عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : لما تناول هاشم الراية ، جعل عمار بن ياسر يحرّضه على الحرب ، ويقرعه(٣) بالرمح ، ويقول : أقدم يا أعور :

* لَا خَيْرَ فِي أَعْوَرَ لا يأتي الفَزَعْ *

فيستحيي من عمّار ، ويتقدّم ، ويركز الراية ؛ فإذا ركزها عاوده عمّار بالقول ، فيتقدّم أيضا . فقال عمرو بن العاص : إنى لأرى لصاحب الراية السَّوْدَاء عملا ، لئن دام على هذا لتَفْنَيَنَّ العرب اليوم ! فاقتتلوا قتالا شديدا ، وعمّار ينادى : (٤) صبرا ! والله إن الجنة (٤) تحت ظلال البيض . فكان بإزاء هاشم وعمارٍ أبو الأعور السُّلَمِيّ ، ولم يزل عمّار بهاشم ينخُسُه وهو يزحف بالراية ، حتى اشتدّ القتال وعظم ، والتقى الزَّحْفان ، واقتتلا قتالا لم يسمع السامعون بمثله ، وكثرت القتلى في الفريقين جميعا(٥) .

***

وروى نصر ، عن عمرو بن شَمِر ، قال : حدّثني(٦) مَنْ أثق به من أهل العراق ،

---

(١) بعده في صفين :

* فيه الرَّسُول بالهُدَى استهلّا *

(٢) بعده في صفين :

* فجاهَدَ الكفّارَ حتّى أَبْلَى *

والخبر في صفين ٣٧٠ ، ٣٧١ ، وبعده هناك : « قال : وقد كان على قال له : أتخاف أن يكون أعور جبانا أبا هاشم المرقال ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ لتعلمن — إن شاء الله — ألف اليوم بين جماجم القوم ؛ فحمل يومئذ يرقل إرقالا » .

(٣) صفين : « يتناوله » .

(٤ — ٤) صفين : « صبرا عباد الله ، الجنة » . والبيض : السيوف .

(٥) صفين : « كليهما » ، والخبر هناك في ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٦) في صفين . « عن عمرو بن شمر ، عن أبي إسحاق ، عن أبي السفر » .

قال: لما التقينا بالقوم فى ذلك اليوم، وجدناهم خمسةَ صفوف [قد قيّدوا أنفسهم بالعمائم](١)، فقتلنا صفًّا، ثم صفًّا، ثم خلصنا إلى الرابع؛ ما على الأرض شامىّ ولا عِراقى يولّى دُبُرَه، وأبو الأعور يقول:

إذا ما فَرَرْنا كانَ أسْوَا فِرارِنا ... صُدودَ الخدودِ وازْوِرارَ المناكبِ(٢)

صُدودَ الخــــدودِ والقنا متشاجرٌ ... ولا تبرح الأقدامُ عنــــد التضاربِ

قال نصر: والتقتْ فى هذا اليوم هَمْدان العراق بعكّ الشام، فقال قائلهم:

هَمْدانُ هَمْدانُ؛ وعكٌّ عكّْ ... ستعلَمُ اليـــومَ مَنِ الأَرَكّْ(٣)

وكانت على عَكّ الدروع، وليس عليهم رايات(٤)، فقالت: هَمْدان: خدِّموا القوم، أى اضربوا سوقهم ــ فقالت عَكّ: ارْكُوا برْكَ الْكَمل(٥)، فبركوا كما يبرك(٦) الجمل ثم رموا الحجَر، وقالوا: لا نفرّ حتى يفر الحكَر(٧).

قال نصر: واقتتل الناسُ من لدن اعتدالِ النهار إلى صلاة المغرب، ما كان صلاة القوم إلا التكبير عند مواقيت الصلاة.

ثم إنّ أهل(٨) العراق كشفوا ميمنة أهل الشام، فطاروا فى سواد الليل، وكشف أهلُ الشام مَيْسَرة أهل العراق؛ فاختلطوا فى سواد الليل، وتبدّلت الرايات بعضُها ببعض، فلما أصبح الناس وجَدَ أهلُ الشام لواءهم وليس حوله إلّا ألف رجل، فاقتلعوه وركزوه من

---

(١) من صفين.
(٢) لقيس بن الحطيم؛ ديوانه ١٠
(٣) الأرك: الضعيف.
(٤) صفين: «رانات»، والرانات: جمع ران؛ وهو كالخف إلا أنه لا قدم له.
(٥) يريد «الجمل» وعك تقلب الجيم كافا. وانظر صفين ٢٠٦
(٦) صفين: «كما برك».
(٧) أى الحجر، بلغة عك.
(٨) صفين: «ميسرة العراق».

وراء موضعه الأول وأحاطوا به، ووجد أهلُ العراق لواءهم مركوزا وليس حوله إلا ربيعة؛ وعليّ عليه السلام بينها، وهم يحيطون به، وهو لا يعلم مَنْ هم، ويظنّهم غيرهم؛ فلما أذّن مؤذّن عليّ عليه السلام الفجر، قال عليّ عليه السلام:

يامَرْحَباً بالقائلينَ عَدْلا وبالصّلاةِ مَرْحَباً وأهلا

ثم وقف وصلّى الفجر، فلما انفتل أبصر وجوهاً ليست بوجوه أصحابه بالأمس، وإذا مكانُه الذي هو فيه مابيْن الميسرة إلى القلب، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: ربيعة، وإنك ياأمير المؤمنين لعندنا منذ الليلة [1]! فقال:

* فخرٌ طويلٌ لك ياربيعهْ *

ثم قال لهاشم بن عُتبة: خذ اللواء؛ فوالله مارأيتُ مثل هذه الليلة. فخرج هاشم باللواء حتى ركزه في القلب [2].

***

قال نصر: حدثنا عمرو بن شمِر، عن الشعبي، قال: عبّى معاوية تلك الليلة أربعة آلاف وثلثمائة من فارس وراجل مُعْلِمين [3] بالخضرة، وأمرهم أن يأتوا عليًّا عليه السلام مِن ورائه. ففَطِنتْ لهم هَمْدان، فواجهوهم وصَمَدوا إليهم، فباتوا تلك الليلة يتحارسون، وعليّ عليه السلام قد أفضى به ذهابه ومجيئه إلى رايات ربيعة؛ فوقف بينها وهو لا يعلم، ويظنّ أنه في عسكر الأشعث، فلما أصبح لم ير الأشعث ولا أصحابه، ورأى سعيد بن قيس الهمْدانيّ على مركزه، فجاء إلى سعيد رجل من ربيعة، يقال له زُفَر [4] فقال [له] [5]: ألست القائل بالأمس: لئنْ لم تنتهِ ربيعة لتكوننّ ربيعة ربيعة، وهَمْدان هَمْدان؟ فما أغنت هَمْدان

(١) صفين: « وقد بت فيهم تلك الليلة ».
(٢) صفين ٣٧٣، ٣٧٤.
(٣) يقال رجل معلم، بكسر اللام؛ إذا علم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها؛ ومنه قول الشاعر:

فتعرّفوني إنني أنا ذاكمُ شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعْلِمُ

(٤) صفين: « تفر ».
(٥) من صفين.

البارحة ! فنظر إليه علىّ عليه السلام نظر منكِر ، ونادى منادِى علىّ عليه السلام : أن اتّعدوا للقتال، واغدُوا عليه، وانهدُوا إلى عدوّكم . فكلّهم تحرّك إلا ربيعة لم تتحرّك، فبعث إليهم علىّ عليه السلام : أن انهدُوا إلى عدوّكم ، فبعث إليهم أبا ثَرْوان ، فقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يُقرئكم السلام ، ويقول لكم : يامعشرَ ربيعة، مالكم لا تَنْهَدُون إلى عدوّكم وقد نَهَدَ الناس ! قالوا : كيف نَنْهد وهذه الخيل من وراء ظهورنا ! قل لأمير المؤمنين فليأمر هَمْدان أو غيرها بمناجزتهم لنَنْهد . فرجع أبو ثروان إلى علىّ عليه السلام، فأخبره ، فبعث إليهم الأشتر ، فقال : يامعشرَ ربيعة ، مامنعكم أن تَنْهدوا وقد نَهد الناس ـ وكان جهير الصوت ـ وأنتم أصحاب كذا ، وأصحاب كذا ؟! فجعل يعدّد أيامهم . فقالوا : لسنا نفعل حتى ننظر ماتصنع هذه الخيل التى خَلف ظهورنا ؟ وهى أربعة آلاف ، قل لأمير المؤمنين : فَلْيَبْعَثْ إليهم مَنْ يكفيه أمرهم .

وراية ربيعة يومئذ مع الحُضَين[1] بن المنذر . فقال لهم الأشتر : فإن أمير المؤمنين يقول لكم : اكفُونيها ، إنكم لو بعثتم إليهم طائفةً منكم لتركوكم فى هذه الفلاة ، وفرّوا كاليعافير[2] . فوجّهت حينئذ ربيعة إليهم تيم الله والنَّمِر بن قاسط وعَنَزَة . قالوا : فمشينا إليهم مستلئمين مقنّعين فى الحديد ـ وكان عامّة قتال صِفّين مشياً ـ قال : فلما أتيناهم هربُوا وانتشروا انتشارَ الجراد ، فذكرت قوله : « وفرّوا كاليعافير » . ثم رجعنا إلى أصحابنا وقد نشِب القتال بينهم وبين أهل الشام ، وقد اقتطع أهلُ الشام طائفةً من أهل العراق ، بعضها من ربيعة ، فأحاطوا بهـا ، فلم تَصلْ إليها حتى حملْنا على أهل الشام ، فعلَوْناهم بالأسياف حتى انفرجوا لنا ، فأفضينا إلى أصحابنا فاستنقذناهم ، وعرَفناهم تحت النَّقْع بسيماهم وعلامتهم . وكانت علامة أهل العراق بصِفِّين الصّوف الأبيض ، قد جعلوه فى رءوسهم وعلى

---

(١) فى الأصول : « حصين » بالصاد المهملة ؛ تصحيف ، وهو الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشى ، كان من كبار التابعين ، وانظر المؤتلف ٨٧ .

(٢) اليعافير : جمع يعفور ؛ وهو الظبى .

أكتافهم ، وشعارهم : « يا الله ، يا الله ! يا أحد يا صمد ! يا رب محمد ! يا رحمن يا رحيم ! » ، وكانت علامةُ أهل الشام خِرَقاً صُفْراً ، قد جعلوها على رءوسهم وأكتافهم ، وشعارهم :

« نحن عبادُ الله حقًّا حقًّا »

يالثارات عثمان !

قال نصر : فاجتلدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد ، فلم يتحاجزوا حتى حَجَز بينهم الليل ، وما يُرَى رجُلٌ من هؤلاء ومن هؤلاء موليًا [١] .

***

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد [٢] ، قال : كانوا عرباً يعرف بعضُهم بعضاً في الجاهلية ، وإنّهم لَحديثو عهْد بها ، فالتقوا في الإسلام . وفيهم بقايا تلك الحميّة ، وعند بعضهم بصيرة الدّين والإسلام ، فتضاربوا واستحيَوا من الفِرار ؛ حتى كادت الحرب تبيدهم ، وكانوا إذا تحاجزوا دَخَلَ هؤلاء عسكر هؤلاء ، فيستخرجون قَتْلاهم فيدفنونهم [٣] .

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد ، قال : فبينا عليّ عليه السلام واقفاً بين جماعة من هَمْدان وحمير وغيرهم من أفناء [٤] قحطان ، إذ نادى رجل من أهل الشام : من دلّ على أبي نوح الحميريّ ؟ فقيل له : قد وجدته ، فماذا تريد ؟ قال : فَحَسر عن لِثامه ، فإذا هو ذو الكَلاع الحميريّ ، ومعه جماعة من أهله ورهطه ، فقال لأبي نوح : سِرْ معي ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى أن نخرُجَ عن الصّفّ ، قال : وما شأنُك ؟ قال : إنّ لي إليك لحاجة ، فقال أبو نوح ، معاذ الله أن أسير إليك إلاّ في كتيبة ! قال ذو الكَلاع : بَلى فسِرْ فلك ذمّة الله وذمّة رسوله

(١) صفين ٢٧٤ ـ ٢٧٦

(٢) في صفين : « نصر ؛ عمر ، حدثني صديق أبي عن الإفريقي بن أنعم قال » .

(٣) الخبر في صفين ٢٧٧ موصول بما بعده ؛ وهناك : « فيدفنونهم ، فلما أصبحوا ـ وذلك يوم الثلاثاء ـ خرج الناس إلى مصافهم ، فقال أبو نوح : فكنت في الخيل يوم صفين ، في خيل علي عليه السلام ، وهو واقف بين جماعة من همدان وحمير وغيرهم من أفناء قحطان . . . » .

(٤) أفناء الناس : أخلاطهم .

وذمّة ذى الكَلاع ، حتى ترجع إلى خيلك ، فإنما أريد أن أسألك عن أمرٍ فيكم تماريناً فيه . فسار أبو نُوح ، وسار ذو الكَلاع ، فقال له : إنما دعوتُك أحدّثك حديثاً حدّثناه عمرو بن العاص قديماً فى خلافة[1] عمر بن الخطاب ، ثم أذكرْناه الآن به فأعاده ؛ إنه يزعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه قال : « يلتقى أهل الشام وأهلُ العراق ، وفى إحدى الكتيبتين الحقّ وإمام الهدى ، ومعه عمّار بن ياسر ». فقال أبو نوح : نعم والله[2] ؛ إنه لفينا . قال : نشدتُك الله، أجادٌّ هو على قتالنا[3] ؟ قال أبو نوح : نعم وربّ الكعبة ، لهو أشدّ على قتالكم منّى ، ولوددت أنكم خَلْق واحد فذبحتُه وبدأت بك قبلهم ،وأنت ابن عمّى[4]. قال ذو الكَلاع : وَيلك ! علام تمنّى ذلك مِنّا ! فوالله ماقطعتُك فيما بينى وبينك قطّ ، وإنّ رحِمَك لقريبة ، وما يَسُرّنى أنْ أقتلك . قال أبو نوح : إنّ الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة ، ووصل به أرحاماً متباعدة ، وإنى قاتلُك وأصحابك ، لأنا على الحقّ وأنتم على الباطل . قال ذو الكَلاع : فهل تستطيع أن تأتِيَ معى صفّ أهل الشام، فأنا لك جارٌ منهم ، حتى تلقى عمرو بن العاص ، فتخبره بحال عمّار وجِدّه فى قتالنا،لعلّه أن يكونَ صلحٌ بين هذين الجندين !

ـ قلت : واعجباه من قوم يعتريهم الشكّ فى أمرهم لمكان عمّار ، ولا يعتريهم الشكّ لمكان علىّ عليه السلام ! ويستدلّون على أنّ الحقّ مع أهل العراق بكوْن عمّار بين أظهرهم ،ولا يعبئون بمكانِ علىّ عليه السلام ! ويحذرون من قول النبى صلى الله عليه وسلم: « تقتلُكَ الفئة الباغية » ، ويرتاعون لذلك ، ولا يرتاعون لقوله صلى الله عليه وآله فى علىّ عليه السلام: « اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه » ، ولا لقوله: « لايحبّك إلا مؤمن

(١) صفين : « إمارة » .
(٢) صفين : « لعمر الله » .
(٣) صفين : « فى قتالنا » .
(٤) كذا فى د ، وفى ب : « أنت وابن عمى » .

ولا يبغضك إلا منافق » . وهذا يدلك على أنّ عليا عليه السلام اجتهدت قريش كلّها من مبدإ الأمر فى إخمال ذكره وستر فضائله ، وتغطية خصائصه حتى مُحِيَ فضله ومرتبته من صدورِ الناس كافّة إلا قليلا منهم .

قال نصر : فقال له أبو نوح : إنك رجل غادِرٌ ، وأنت فى قوم غُدُر ، وإنْ لم يُرِد الغدر أغدروك ، وإنى أن أموتَ أحبُّ إلىّ من أن أدخل مع معاوية . فقال ذو الكلاع : أنا جارٌ لك من ذلك ؛ ألّا تقتل ولا تسلَب ولا تكرَه على بيعة ، ولا تحبَس عن جندك ؛ وإنما هى كلمة تبلّغها عمرو بن العاص ، لعلّ الله أن يُصلِحَ بذلك بين هذين الجندين ، ويضع عنهم الحرب . فقال أبو نوح : إنى أخاف غَدَراتِك وغَدَراتِ أصحابك . قال ذو الكلاع : أنا لك بما قلت زعيم ، قال أبو نوح : اللهمّ إنك ترى ما أعطانى ذو الكلاع ، وأنت تعلم ما فى نفسى ، فاعصِمْنِي واخترْ لى وانصرنى ، وادفع عنّى . ثم سار مع ذى الكلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس ، وعبد الله بن عمر يحرّض الناس على الحرب ، فلما وقفا على القوم ، قال ذو الكلاع لعمرو : يا أبا عبد الله ، هلْ لك فى رجل ناصح لبيب مشفِق ؛ يخبرك عن عمّار بن ياسر فلا يكذبك ؟ قال : ومَنْ هو ؟ قال : هو ابن عمّى هذا ، وهو من أهل الكوفة . فقال عمرو : أرى عليك سيما أبى تراب ! فقال أبو نوح : علىّ سيما محمد وأصحابه ، وعليك سيما أبى جهل وسيما فرعون ! فقام أبو الأعور فسلّ سيفَه ، وقال : لا أرى هذا الكذّاب اللئيم يسبّنا بين أظهرنا وعليه سيما أبى تراب ! فقال ذو الكلاع : أقسم بالله لئن بسطتَ يدك إليه لأحطمنّ أنفك بالسيف ؛ ابن عمّى وجارى ، عقدت له ذمّتى ، وجئت به إليكم ليخبركم عمّا تماريتم فيه . فقال له عمرو بن العاص : يا أبا نوح ، أذكّرك بالله إلّا ما صدَقتنا ولم تكذبنا ، أفيكم عمّار بن ياسر ؟ قال أبو نوح : ما أنا بمخبرِك حتى تخبرَ : لِمَ تسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد صلى الله عليه عدّة غيره ، وكلّهم جادّ على قتالكم ؟ فقال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « إنّ

عمارا تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس لعمار أن يفارق الحق، ولن تأكل النار من عمار شيئاً»، فقال أبو نوح: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لفينا جادّ على قتالكم! فقال عمرو: الله الذى لا إله إلا هو إنه لجادّ على قتالنا! قال: نعم والله الذى لا إله إلا هو؛ ولقد حدّثنى يوم الجمل أنّا سنظهر على أهل البصرة، ولقد قال لى أمس: إنكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سَعَفات (١) هَجَر؛ لعلمنا أنّا على الحق، وأنكم على باطل؛ ولكانت قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار. قال عمرو: فهل تستطيع أن تجمع بينى وبينه؟ قال: نعم، فركب عمرو بن العاص وابناه، وعُتْبة بن أبى سفيان وذو الكلاع، وأبو الأعور السُّلمىّ، وحوشب، والوليد بن عقبة وانطلقوا، وسار أبو نوح ومعه شُرَحبيل بن ذى الكلاع يحميه؛ حتى انتهى إلى أصحابه، فذهب أبو نوح إلى عمار، فوجده قاعدا مع أصحاب له، منهم الأشتر وهاشم وابنا بُدَيل، وخالد بن معمر، وعبدالله بن حَجَل، وعبدالله بن العباس. فقال لهم (٢) أبو نوح: إنّه دعانى ذو الكلاع، وهو ذو رحِم؛ فقال: أخبِرْنى عن عمار ابن ياسر، أفيكم هو؟ فقلت: لِمَ تسأل؟ فقال: أخبرَنى عمرو بن العاص فى إمرة عمر بن الخطاب أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه، يقول: «يلتقى أهلُ الشام وأهل العراق، وعمار مع أهل الحق، وتقتله الفئة الباغية»، فقلت: نعم، إن عماراً فينا، فسألنى: أجادّ هو على قتالنا؟ فقلت: نعم والله، إنه لأجدّ منّى فى ذلك، ولوددت أنكم خَلْق واحد فذبحته وبدأت بك ياذا الكلاع، فضحك عمار، وقال: أيسرّك ذلك؟ قال: نعم، ثم قال أبو نوح: أخبرَنى الساعة عمرو بن العاص، أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه يقول: «تقتل عمارا الفئة الباغية»، قال عمار: أقرّرته بذلك؟ قال: نعم، لقد قرّرته بذلك فأقرّ،

---

(١) الحديث فى النهاية ٢ : ١٦٢؛ قال فى شرحه: «السعفات: جمع سعفة، بالتحريك؛ وهى أغصان النخيل؛ وقيل: إذا يبست سميت سعفة؛ وإذا كانت رطبة؛ فهى شطبة؛ وإنما خص هجر للمباعدة فى المسافة؛ ولأنها موصوفة بكثرة النخيل».

(٢) صفين: «وقال أبو نوح».

فقال عمّار : صدق ، وليضرّنّه ماسمع ولا ينفعه . قال أبو نوح : فإنه يريد أن يلقاك ، فقال عمّار لأصحابه : اركبُوا، فركبوا وساروا.قال : فبعثنا إليهم فارساً من عبدالقيس يسمّى عوف بن بشر فذهب،حتى إذا كان قريباً منهم،نادى : أين عمرو بن العاص؟قالوا : هاهنا؛ فأخبره بمكان عمّار وخيله،قال عمرو:قل له : فليسرْ إلينا،قال عوف : إنه يخاف غَدارتك وفَجَراتك ، قال عمرو : ماأجرأك عليّ وأنت على هذه الحال ؟ قال عوف : جرّأني عليك بصري فيك وفي أصحابك،وإن شئت نابذتك الآن على سواء ، [وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك،وأنت كنت غادرا][1] ؛ فقال عمرو : إنك لسفيهٌ ، وإني باعث إليك رجلامن أصحابي يوافقك[2]،قال:ابعث مَنْ شئت،فلستُ بالمستوحش،وإنك لاتبعث إلاشقياً،فرجع عمرو ، وأنفذ إليه أبا الأعور،فلمّا توافقا تعارفا،فقال عوف : إنّي لأعرف الجسد وأنكر القلب،وإني لا أراك مؤمناولا أراك إلا من أهل النار،قال أبو الأعور:ياهذا ؛ لقد أعطيتَ لسانا يكبّك الله به على وجهك في النار،قال عوف : كلاّ والله إنّي لأتكلّم بالحق وتتكلّم بالباطل ، وإني أدعوك إلى الهدى وأقاتلك على الضلال[3] ؛ وأفرّ من النار ، وأنت بنعمة الله ضالّ ، تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة ، وتشترى العقاب بالمغفرة ، والضلالة بالهدى ؛ انظر [4] إلى وجوهنا ووجوهكم وسيمانا وسيماكم ، واسمع دعوتَنا ودعوتكم ، فليس أحدٌ منّا إلا وهو أولى بالحق وبمحمد، وأقرب إليه منكم . فقال أبو الأعور:لقد أكثرتَ الكلام،وذهب النّهار،ويحك ! ادعُ أصحابَك وأدعُو أصحابي،ولْيأت أصحابُك في قلّة إن شاءوا أو كثرة،فإني أجيء من أصحابي بعدّتهم[5]، [فإن شاء أصحابك فليقلّوا،

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) كذا في د ، وفي ب : « يوافقك » .
(٣) صفين : « وأقاتل أهل الضلال » .
(٤) صفين : « انظروا . . . واسمعوا . . . » .
(٥) صفين : « بعددهم » . وفي ب : « بعدة » .

وإن شاءوا فليكثروا] (١) . فسار (٢) عمّار فى اثنى عشر فارسا ، حتى إذا كانوا بالمنصف سار عمرو بن العاص فى اثنى عشر فارسا حتى اختلفت أعناق الخيل (٢) ؛ خيل عمار وخيل عمرو ، ونزل القوم واحتبوْا بحمائل سيوفهم ، فتشهّد عمرو بن العاص ، فقال له عمار : اسكت ، فلقد تركتها وأنا أحقّ بها منك ، فإن شئتَ كانت خصومة فيدفع حقُّنا باطلك ، وإن شئتَ كانت خطبة ؛ فنحن أعلم بفَصْل الخطاب منك ، وإن شئتَ أخبرتُك بكلمةٍ تفصِلُ بيننا وبينك ، وتكفّرك قبل القيام ، وتشهد بها على نفسك ، ولا تستطيع أن تكذّبنى فيها . فقال عمرو : يا أبا اليقظان ، ليس لهذا جئتُ إنما جئتُ لأنى رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم . أذكّرك الله إلّا كففتَ سلاحهم ، وحقَنْتَ دماءهم ، وحرصتَ (٣) على ذلك ، فعلام تقاتلوننا ! أوَ لسنا نعبُد إلهًا واحدا ، ونصلى إلى قبلتكم وندعو دعوتكم ، ونقرأ كتابكم ، ونؤمن بنبيّكم ! فقال عمّار : الحمد لله الذى أخرجها من فيك ، إنها لى ولأصحابى : القبلة ، والدين ، وعبادة الرحمن ، والنبىّ والكتاب ؛ من دونك ودون أصحابك . الحمدُ لله الذى قرّرك لنا بذلك ، وجعلك ضالًّا مضلًّا أعمى ، وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك ؛ إنّ رسول الله صلى الله عليه أمرنى أنْ أقاتِلَ الناكثين ؛ فقد فعلت ، وأمرنى أن أقاتل القاسطين وأنتم هم ، وأمّا المارقون فلا أدرى أدركهم أوْ لا ! أيها الأبتر ، ألست تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « مَنْ كنتُ مولاه فعلىّ مولاه ، اللّهمّ والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه ! » ؛ فأنا مولَى الله ورسوله وعلىّ مولاى بعدهما . قال عَمْرو : لِمَ تشتِمنى يا أبا اليقظان ولست أشتِمك ! قال عمّار : وبِمَ تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول : إنّى عصيت الله ورسوله يوما قط ! قال عمرو : إن فيك لمساب (٤) سوى ذلك ؛ قال عمّار : إن الكريم مَنْ أكرمه

---

(١) تكملة من كتاب صفين .

(٢ — ٢) صفين : « فسار أبو الأعور فى مائة فارس حتى إذا كان حيث كنا بالمرة الأولى وقفوا وسار فى عشرة بعمرو ، وسار عمار فى اثنى عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل . . . » .

(٣) صفين : « وحرضت على ذلك » .

(٤) صفين : « لمسبات » .

الله ! كنتُ وضيعاً فرفعني الله ، ومملوكا فأعتقني الله ، وضعيفا فقوّاني الله ؛ وفقيراً فأغناني الله ! قال عمرو : فما ترى في قتل عثمان ؟ قال : فتح لكم باب كلّ سوء ، قال عمرو : فعليّ قتله ؟ قال عمّار : بل الله ربُّ عليّ قتله وعليّ معه ، قال عمرو : فكنتَ[1] فيمن قتله ؟ قال : كنتُ مع مَنْ قتله ، وأنا اليوم أقاتل معهم ، قال عمرو : فلم قتلتموه ؟ قال عمّار : إنه أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه ، فقال عمرو : ألا تسمعون ؟ قد اعترف بقتل إمامكم ! فقال عمّار ، قد قالها فرعون قبلك لقومه : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾[2] . فقام أهلُ الشام ولهم زَجَل فركبوا خيولهم ورجعوا ، وقام عمّار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا ، وبلغ معاوية ما كان بينهم فقال : هلكت العرب إن حرّكتهم خفّة العبد الأسود ـ يعني عمارا[3] .

●●●

قال نصر : فحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : فخرجت[4] الخيول إلى القتال واصطفّت بعضُها لبعض ، وتزاحف الناس ، وعلى عمّار درعٌ بيضاء ؛ وهو يقول : أيّها الناس ، الرّواح إلى الجنّة .

فقاتل القوم قتالا شديدا لم يَسْمَع السامعون بمثله ، وكثرت القتلى حتى أنْ كان الرجل ليشدّ طُنُبَ فُسطاطه بيد الرجل أو برجْله . وحكى الأشعث بعد ذلك ، قال : لقد رأيت أخبِيَة صِفّين وأروقتها ، وما فيها خِباء ولا رواق ولا فُسطاط إلا مَرْبوطا بيد إنسانٍ أو برجله .

قال نصر : وجعل أبو السّماك الأسديّ يأخذ إداوة من ماء وشَفْرَةً حَديدة ، فيطوف في القتلى ، فإذا رأى رجلا جَريحاً وبه رَمَق أقعده ، فيقول له : مَنْ أمير المؤمنين ؟ فإذا قال :

---

(١) صفين : « أ كنت » .
(٢) من الآية ٢٥ في سورة الشعراء
(٣) صفين ٣٧٧ ـ ٣٨٤
(٤) صفين : « وخرج للقتال » أي عمار .

« علىّ » غسل الدم عنه ، وسقاه من الماء ، وإن سكت وجاء بالسكين حتى يموت ولا يسقيه [(١)] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : سمعت الشعبيّ ، يقول : قال الأحنف بن قيس : والله إنّى إلى جانب عمّار بن ياسر ، [بيني وبينه رجل من بني الشعيراء [(٢)]] .

فتقدّمنا حتى دنونا من هاشم بن عُتْبة ، فقال له عمار : احمِلْ فداك أبي وأمّي ! فقال له هاشم : يرحمك الله يا أبا اليقظان ! إنّك رجل تأخذك خِفّة في الحرب ، وإنّى إنما أزحفُ باللواء زحفاً ، أرجو أن أنال بذلك حاجتي ، وإن خَفَفْتُ لم آمن الهلكة . وقد كان قال معاوية لعمرو : ويحك ! إنّ اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان من قبل يُرْقل به إرقالاً ، وإنْ زحف به اليوم زحفاً إنه لَليومُ الأطول على أهل الشام ، فإن زحف في عُنُق [(٣)] من أصحابه ؛ إني لأطمع أن تقتطع . فلم يزل به عمار حتى حمل ، فبصُر به معاوية ، فوجّه إليه حماة أصحابه ومَنْ يُزَنّ [(٤)] بالبأس والنّجْدة منهم في ناحية ، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومعه يومئذ سيفان قد تقلّد بأحدهما ، وهو يضرب بالآخر ، فأطافت به خيولُ عليّ عليه السلام ، وجعل عمرو يقول : يا الله ، يا رحمن ! ابني ، ابني ! فيقول معاوية : اصبر فلا بأس عليه . فقال عمرو : لو كان يزيد ابن معاوية ، أصبَرت [(٥)] ! فلم يزل حماة أهل الشام تذبّ عن [(٦)] عبد الله حتى نجا هاربا على فرسه [(٧)] [ومن معه ، وأصيب هاشم في المعركة] [(٢)] .

* * *

---

(١) صفين ٣٨٥

(٢) من صفين .

(٣) عنق ، أي جماعة .

(٤) يزن ، أي يتهم .

(٥) صفين : « إذا أصبرت » .

(٦) صفين : « يذبون عنه » .

(٧) صفين ٣٨٥ ، ٣٨٦

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : وفى هذا اليوم قُتِل عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أصيب فى المعركة ، وقد كان قال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص : والله إنها لراية قد قاتلتُها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن ، ثم قال :

نَحْنُ ضربناكُمْ على تأويلِهِ كما ضربناكُمْ على تنزيلِهِ

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مقيلِهِ ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

* أو يرْجِعَ الحقُّ إلى سَبيلِهِ *

ثم استسقى وقد اشتدّ عطشه ، فأتته امرأة طويلة اليدين ، ما أدرى أعُسٌ معها أم إدواة ، فيها ضَياحٌ[1] من لبن ! فقال حين شرب : « الجنّة تحت الأسنّه ، اليوم ألقى الأحبّه ، محمدا وحزبه » . والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنهم على الباطل . ثم حمل وحَمَل عليه ابن حَوّى السَّكْسَكى[2] وأبو العادية ، فأما أبو العادية فطعنه ، وأما ابن حَوّى فاحتزّ رأسه ، وقد كان ذو الكَلاع يسمع عمرو بن العاص يقول : إن النبى صلى الله عليه يقول لعمار : « تقتلك الفئة الباغية ، وآخر شُرْبك ضَياحٌ من لبن » ، فقال ذو الكَلاع لعمرو : ويحك ما هذا ! قال عمرو : إنه سيرجع إلينا ، ويفارق أبا تراب ؛ وذلك قبل أن يصاب عمّار ، فلما أصيب عمار فى هذا اليوم أصيب ذو الكَلاع ، فقال عمرو لمعاوية : والله ما أدرى بقتل أيّهما أنا أشدّ فرحا ! والله لو بقى ذو الكَلاع حتى يقتل عمّار لمال بعامّة قومه إلى علىّ ، ولأفسد علينا أمرنا[3] .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : كان لا يزال رجل يجىء فيقول لمعاوية وعمرو : أنا قتلت عمّارا ، فيقول له عمرو : فما سمعته يقول ؟ فيخلط ، حتى أقبل ابنُ حَوّى[4] ،

(١) الضياح بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .
(٢) صفين : « ابن جون السكونى » ، وفى مروج الذهب ٢ : ٢١ : « أبو حواء السكسكى » .
(٣) صفين : « جندنا » ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٤) صفين : « ابن جون » .

قال : أنا قتلتهُ ، فقال عمرو : فما كان آخر منطقه ؟ قال: سمعته يقول: « اليوم ألقى الأحبّه. محمدا وحزبه » . فقال : صدقت ، أنت صاحبُه ، أما والله ما ظفرتْ يداك ؛ ولقد أسخطتَ ربك [١] .

* * *

قال نصر : حدثنا عمرو بن شمر ، قال : حدثنى إسماعيل السّدىّ ، عن عبد خير الهَمْدانىّ ، قال: نظرتُ إلى عمّار بن ياسر يوما من أيام صِفّين، قد رُمِىَ رميةً فأغمِي عليه، فلم يصلِّ الظهرَ ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ولا الفجر ، ثم أفاق فقضاهنّ جميعا، يبدأ بأوّل شىء فاته ، ثم بالتى تليها [٢] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن السدىّ ، عن أبى حُرَيث ، قال : أقبل غلامٌ لعمّار بن ياسر ، اسمه راشد، يحمل إليه يوم قتل بشربة من لبن، فقال عمار: أما إنّى سمعتُ خليلى رسول الله صلى الله عليه يقول : « إنّ آخِرَ زادك من الدنيا شربة لبن » [٣] .

* * *

قال نصر : وروى عمرو بن شمر ، عن السّدىّ، أنّ رجلَين بصِفّين اختصما فى سلَب عمّار وفى قتله، فأتَيا عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال : ويحكما اخرجا عنّى ! فإنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « ما لقريش [٤] ولعمّار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار . قاتله وسالبُه فى النار » .

---

(١) صفين : ٣٨٧ ، ٣٨٨

(٢) صفين ٣٨٨

(٣) صفين ٣٨٨

(٤) العبارة فى صفين : « ولعت قريش بعمار ، ما لهم ولعمار .. »

قال السُّدِّيّ : فبلغني أنّ معاوية قال لما سمع ذلك : إنما قتله مَنْ أخرجه ؛ يخدع بذلك طَغَام أهل الشام [١] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن جابر ، عن أبي الزبير ، قال : أتى حُذَيفةَ بنَ اليمان رهطٌ من جُهينة ، فقالوا له : يا أبا عبد الله ، إنّ رسول الله صلى الله عليه استجار من أن تُصْطَلَمَ أمّتُه [٢] ، فأجير من ذلك ، واستجار من أن يُذيق [٣] أمّته بعضها بأس بعض ، فمنع من ذلك ، فقال حُذَيفة : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : « إنّ ابنَ سميّة لم يخيَّر بين أمرين قطّ إلا اختار أشدّهما – يعني عمّارا – فالزموا سمته » [٤] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر قال : حمل عمّار ذلك اليوم على صفّ أهل الشام وهو يرتجز :

كلّا وربِّ البيت لا أبرحُ أجي ... حتى أموتَ أو أرى ما أشتهي

لا أفتأ الدهرَ أحامي عن علِي [٥] ... صهر الرسول ذي الأمانات الوفي

ينصرنا ربُّ السموات العلي [٦] ... ويقطع الهامَ بحدّ المشرفي

يمنحنا النصرَ عَلَى من يبتغي [٧] ... ظلماً علينا جاهداً ما يأتلي

قال : فضرب أهلَ الشام حتى اضطرهم إلى الفرار [٨] .

* * *

(١) صفين ٣٨٨ ، ٣٨٩
(٢) تصطلم : تستأصل .
(٣) صفين : « واستجار من أن يذوق بعضها بأس بعض » .
(٤) صفين ٣٨٩
(٥) صفين : « أنا مع الحق أحامي عن علي » .
(٦) صفين : نقتل أعداءه وينصرنا العلي .
(٧) صفين : « والله ينصرنا » .
(٨) صفين ٣٨٩

قال نصر : وقد كان عبد الله بن سويد الحِميرىّ من آل ذى الكَلاع ، قال لذى الكَلاع : ما حديثٌ سمعتَه من ابن العاص فى عمّار ؟ فأخبره ، فلما قُتِل عمّار خرج عبد الله ليلًا يمشى ، فأصبح فى عسكر علىّ عليه السلام ، وكان عبد الله من عُبّاد أهل زمانه ، وكاد أهل الشام أن يضطربوا لولا أنّ معاوية قال لهم : إنّ عليا قتل عمّارا ، لأنه أخرجه إلى الفتنة . ثم أرسل معاوية إلى عمرو : لقد أفسَدْتَ علىّ أهل الشام ؛ أكلّ ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه تقوله ! فقال عمرو : قلتُها ولستُ أعلم الغيب ، ولا أدرى أنّ صِفّين تكون ! قلتُها وعمّار يومئذ لك ولىٌّ ، وقد رويتَ أنت فيه مثل ما رويت . فغضب معاوية وتنمّر لعمرو ، وعزم على منعه خيرَه ، فقال عمرو لابنه وأصحابه : لا خيرَ فى جوار معاوية ؛ إنْ تجلّت هذه الحرب عنه لأفارقنّه — وكان عمرو حَمِىَّ الأنف ، قال[1] :

تعاتبنى أن قلتُ شيئاً سمعتُه ... وقد قلتَ لو أنصفتَنِى مثلَه قبلِى

أنعلُك فيما قلت نعلٌ ثبيتةٌ ... وتزْلَقُ بى فى مثل ما قلتُه نعلِى !

وما كان لى علمٌ بصِفّين أنّها ... تكون وعمّارٌ يحثّ على قتلِى

ولو كان لِى بالغيبِ علمٌ كتمتُها ... وكابدتُ أقواماً مراجلُهم تَغْلِى[2]

أبى الله إلا أنّ صدرَك واغرٌ ... علىّ بلا ذنبٍ جنيتُ ولا ذَحْلِ

سوى أننى والراقصاتِ عشيّةً ... بنصرِك مدخولُ الهوى ذاهلُ العقلِ

فلا وضَعَتْ عنّى حَصانٌ قِناعها ... ولا حملتْ وجناءُ ذِعْلِبَةٌ رَحْلِى[3]

ولازلتُ أُدْعَى فى لؤىّ بن غالبٍ ... قليلاً غَنائِى لا أميرٌ ولا أَحْلِى

إنِ اللهُ أرخَى من خِناقِكَ مَرّةً ... ونلتَ الذى رجّيت إن لم أزُرْ أهلى

---

(١) صفين : «فقال فى ذلك» .

(٢) ب : «كابدت» تصحيف صوابه من د .

(٣) الوجناء : الناقة الشديدة ، شبهت بالوجين من الأرض ؛ وهو الأرض الصلبة . والذعلبة : السريعة

وأتركُ لك الشامَ التي ضاق رُحْبُها ... عليك ولم يَهْنِيك بها العيشُ من أجلِ

فأجابه معاوية :

أألآن لما ألقتِ الحربُ بَرْكَها ... وقام بنا الأمر الجليلُ على رِجْلِ

غمزْتَ قناتي بعد ستين حجة ... تِباعًا كأني لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي !

أتيتَ بأمرٍ فيه للشام فتنةٌ ... وفي دون ما أظهرتَه زَلَّةُ النَّعْلِ

فقلت لك القول الذي ليس ضائرًا ... ولو ضرّ لم يضرُرْكَ حملُك لي ثقلي

تُعاتبني في كلِّ يوم وليلةٍ ... كأنَّ الذي أبليكَ ليس كما أبلي[1]

فيا قبَّحَ اللهُ العتابَ وأهلَه ... ألم ترَ ما أصبحتُ فيه من الشُّغْلِ !

فدعْ ذا ولكن هل لك اليومَ حيلةٌ ... تردّ بها قومًا مراجِلُهم تَغْلِي !

دعاهم عليٌّ فاستجابوا لدَعْوَةٍ ... أحبَّ إليهم من ثَرَى المال والأهلِ

إذا قلتُ هابوا حَوْمَةَ الموت أرقلوا ... إلى الموت إرقالَ الهَلوكِ إلى الفَحْلِ

قال : فلما أتى عمرا شعر معاوية أتاه ، فأعتبه[2] وصار أمرهما واحدا .

قال « نصر : ثم إن عليا عليه السلام دعا في هذا اليوم هاشم بن عُتْبة ومعه لواؤه [وكان أعور][3] فقال له : ياهاشم[4] حتى متى ! : فقال هاشم : لأجهدنَّ ألا أرجع إليك أبداً . فقال عليّ عليه السلام : إنّ بإزائك ذا الكَلاع ، وعنده الموت الأحمر . فتقدّم هاشم

---

(١) صفين : « فعاتبتني »

(٢) أعتبه : أرضاه .

(٣) من صفين .

(٤) صفين : « ياهاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ فقال هاشم : لأجهدن على ألا أرجع إليك أبداً ، قال علي : إن بإزائك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر ! فتقدم هاشم فلما أقبل قال معاوية : من هذا المقبل ؟ فقيل : هاشم المرقال . « فقال : أعور بني زهرة ! قاتله الله ! وقال : إن حماة اللواء ربيعة ، فأجيلوا القداح ، فمن خرج سهمه عبيته لهم ، فخرج سهم ذي الكلاع لبكر بن وائل ، فقال : ترّحك الله من سهم ! كرهت الضراب ! وإنما كان جل أصحاب علي أهل اللواء من ربيعة ؛ لأنه أمر حماة منهم أن يحاموا عن اللواء ، فأقبل هاشم وهو يقول » .

فلما أقبل ، قال معاوية : مَن هذا المقبل ؟ فقيل : هاشم المِرْقال ، فقال : أعور بنى زُهْرة ! قاتله الله ! فأقبل هاشم وهو يقول :

أعْوَرُ يبغى نفسَه خَلاصا مثل الفَنِيقِ لابساً دِلاَصاً[1]
لادِيَةً يخشى ولا قِصاصا كلَّ امرىءٍ وإن كَبَا وحَاصاً[2]
* لَيْسَ يَرَى مِنْ يَوْمِهِ مَنَاصاً *

فحمل صاحب لواء ذى الكَلاع — وهو رجل من عُذْرة — فقال :

ياأعْوَرَ العينِ — ومابى من عَوَرْ — اثْبُتْ فإنِّى لَسْتُ من فَرْعَىْ مُضَرْ
نحن اليمانونَ وَمَا فينا خَوَرْ كَيْفَ تَرى وَقْعَ غُلَامٍ من عُذَرْ !
ينعَى ابنَ عفّان ويلحىَ مَنْ غَدَرْ سِيَّانِ عندى مَنْ سَعَى ومَنْ أمَرْ

فاختلفا طعنتين ، فطعنه هاشم فقتله ، وكثرت القتلى حول هاشم ، وحمل ذو الكَلاع ، واختلط الناس واجتلدوا ، فقتِل هاشم وذو الكَلاع جميعا ، وأخذ عبدُ الله بن هاشم اللواء وارتجز ، فقال :

ياهاشمَ بنَ عتبةَ بنِ مالكْ أعْزِزْ بشيخٍ من قُرَيْش هالِكْ !
تخبطه الخيلانُ بالسنابكْ فى أسودٍ من نقعهنّ حالِكْ
أبشِرْ بحُورِ العِين فى الأرائكْ والرَّوْحِ والريحانِ عندَ ذلِكْ[3]

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبىّ ، قال : أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة راية أبيه ، ثم قال : أيها الناس ، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذى قدّر أرزاقهم ،

---

(١) بعده فى صفين :

* قَدْ جَرَّبَ الْحَرْبَ وَلَا أَنَاصَا *

(٢) حاص : هرب .
(٣) صفين ٣٩٣ — ٣٩٥

وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه الله ربه فاستجاب لأمره[1]، وسلّم لأمره، وجاهد فى طاعة ابن عمّ رسوله . أول مَن آمن به ، وأفقههم فى دين الله ، الشديد على أعداء الله، المستحلّين حُرم الله ، الذين عملوا فى البلاد بالجوْر والفساد ، واستحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله ، وزيّن لهم الإثم والعدوان ، فحق عليكم جهادُ مَنْ خالف الله ، وعطّل حدوده ، ونابذَ أولياءه . جودوا بمهجكم فى طاعة الله فى هذه الدنيا ، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى ، والأبد الذى لا يفنى . فوالله لو لم يكن ثوابٌ ولا عقاب ، ولا جنّة ولا نار، لكان القتالُ مع علىّ أفضلَ من القتال مع معاوية ، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون !

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، قال : لما انقضى أمرُ صِفّين ، وسلّم الحسن عليه السلام الأمرَ إلى معاوية ، ووفدت عليه الوفود، أشخِص عبدالله بن هاشم إليه أسيراً، فلّما مثَل بين يديه ، وعنده عمرو بن العاص ، قال : ياأميرَ المؤمنين ، هذا المختال ابن المرقال، فدونك الضب المضب[2] المغترّ المفتون ؛ فاقتله ، فإنّ العصا من العُصيّة ، وإنما تلد الحيّةُ حُييّة ، وجزاء السيئة سيئة مثلها .

فقال عبد الله : إن تقتلنى فما أنا بأوّل رجل خذله قومُه ، وأسلمه يومُه . فقال عمرو: ياأميرَ المؤمنين، أمكنىّ منه أشخب أوداجه على أثباجه . فقال عبد الله : فهلاّ كانت هذه الشجاعة منك يابن العاص فى أيام صِفّين، ونحن ندعوك إلى النّزال ، وقد ابتلّت أقدام الرجال من نقيع الجريال[3]، وقد تضايقت بك المسالك ، وأشرفتَ منها على المهالك! وايمُ الله لولا مكانُك منه لرميتُك بأحدّ مِنْ وقع الأشاقى[4] ؛ فإنك لا تزال تكثر فى

(١) د « له »
(٢) المضب : الملازم .
(٣) الجريال : صبغ أحمر ، ويريد به هنا الدم .
(٤) الأشاقى : جمع إشفى ، وهو مخصف الإسكاف .

هوَيِك ، وتخبط فى دَهَيكَ ، وتنشبُ فى مَرسك، [تخبط العشواء ، فى الليلة الحِنْدِس الظلماء] .(١) فأمر(٢) معاوية به إلى الحبس ، فكتب عمرو إلى معاوية(٢) :

أمرتُك أمراً حازما فعصيتَنِى ... وكانَ من التوفيق قتلُ ابن هاشمِ
وكان أبوه يامعاويةُ الذى ... رَمَاكَ على حربٍ بحزّ الغلاصِمِ
فقتّلنا حتى جرتْ من دمائنا(٣) ... بصِفّين أمثالُ البحور الخضارمِ
وهذا ابنهُ ، والمرء يشبهُ أصلَه ... ستقرَع ـ إن أبقيتَه ـ سِنَّ نادمِ !

فبعث معاوية بالشعر إلى عبد الله بن هاشم ، فكتب فى جوابه من السجن :

معاوىَ إن المرء عَمْراً أبتْ له ... ضغينةُ صَدْرٍ وُدُّها غير سالمِ
يرى لك قتلى يابن حَرْبٍ ، وإنّما ... يَرَى ما يرَى عمرو ملوكُ الأعاجمِ
على أنهم لا يقتلون أسيرَهُمْ ... إذا كان فيه مَنْعَةٌ للمسالمِ
وقد كان منّا يوم صِفّين نفْرَةٌ ... عليك ، جناها هاشمٌ وابن هاشم
قضى الله فيها ماقضى ثمّتَ انقضى ... وما مامَضى إلّا كأضغاثِ حالمِ
فإن تعفُ عنّى تعفُ عن ذِى قرابةٍ ... وإن ترَ قتْلى تستحلّ محارمى

هذه رواية نصر بن مزاحم(٤) .

***

---

(١) من صفين .

(٢ـ٢) صفين : « قال فأعجب معاوية ما سمع من كلام ابن هاشم فأمر به إلى السجن وكف عن قتله ؛ فبعث إليه عمرو بأبيات يقول له » .

(٣) صفين :

* فما بَرِحُوا حتّى جرَتْ مِنْ دِمائِنا *

(٤) صفين ٣٩٥ ، ٣٦٠ .

وروى أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيدالله المرزبانيّ ، أنّ معاوية لما تمّ له الأمر بعد وفاة عليّ عليه السلام ، بعث زيادا على البصرة ، وناد منادي معاوية : أمِنَ الأسودُ والأحمر بأمان الله ؛ إلاّ عبد الله بن هاشم بن عُتْبة ! فمكث معاوية يطلبه أشدّ الطلب ، ولا يعرف له خبراً ، حتى قدم عليه رجلٌ من أهل البصرة ، فقال له : أنا أدلُّك على عبد الله بن هاشم بن عتبة ؛ ! كتب إلى زياد ؛ فإنه عند فلانة المخزوميّة ؛ فدعا كاتبه فكتب : من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمِدْ إلى حيّ بني مخزوم ، ففتّشه داراً دارا ، حتى تأتيَ إلى دار فلانة المخزوميّة ؛ فاستخرج عبد الله بن هاشم المِرْقال منها ؛ فاحْلِقْ رأسَه ؛ وألبسه جُبّة شَعَر ، وقيّده ، وغُلّ يده إلى عنقه ، واحمله على قَتَب بعير بغير وطاء ولا غطاء ، وانفُذْ به إليّ .

قال المرزبانيّ : فأما الزبير بن بكّار فإنه قال : إنّ معاوية قال لزياد لما بعثه إلى البصرة: إنّ عبد الله بن المِرْقال في بني ناجية بالبصرة ، عند امرأة منهم يقال لها فلانة ، وأنا أعزم عليك إلا حطَطْتَ رَحْلك ببابها ، ثم اقتحمت الدار واستخرجتَه منها ، وحملتَه إليّ .

فلما دخل زياد إلى البصرة ، سأل عن بني ناجية ، وعن منزل المرأة فاقتحم الدار ، واستخرج عبدَ(١) الله منها ، فأنفذه إلى معاوية فوَصل إليه يوم الجمعة ، وقد لاقى نَصَباً كثيرا ، ومن الهجير ماغيّر جسمَه ، وكان معاوية يأمر بطعام فيتّخذ في كلّ جمعة لأشراف قريش ولأشراف الشام ووفود العراق ، فلم يشعر معاوية إلا وعبدالله بين يديه ، وقد ذَبل وسَهِمَ وجهه ، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص ، فقال معاوية : ياأبا عبد الله ، أتعرف هذا الفتى؟ قال: لا ، قال : هذا ابن الّذي كان يقول في صِفّين :

أعْوَرَ يبغي أهلَه مَحلاّ ... قَدْ عالَجَ الحياة حتى ملاّ

* لا بدّ أن يَفُلّ أو يُفَلاّ *

قال عمرو : وإنه لهو ! دونك الضّبّ المضِبّ ، فاشخب أوداجَه ، ولا تَرْجِعْهُ إلى أهل

(١) ب : « واستخرجه » .

العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق ، وله مع ذلك هوًى يُرْدِيه ، وبطانة تغويه ، فو الذى نفسى بيده لئنْ أفلتَ من حبائلك ، ليُجَهِّزن إليك جيشاً تكثر صواهله ، لشرِّ يوم لك .
فقال عبد الله وهو فى القيد : يابن الأبتر ، هلّا كانت هذه الحماسة عندك يوم صِفِّين ، ونحن ندعوك إلى البراز ، وتلوذ بشمائل الخيل كالأَمَة السوداء والنَّعجة القوداء[1] ! أما إنه إن قتلنى قَتَل رجلا كريم المخبرة ، حميد المقدرة[2] ، ليس بالجِبْس المنكوس ، ولا الثِّلْب[3] المركوس . فقال عمرو : دع كيتَ وكيتَ ، فقد وقعت بين لَحْيَى لَهْزَمٍ ، فَرُوس للأعداء ، يسعطك إسعاطَ الكودَن[4] الملجم . قال عبد الله : أكثِرْ إكثارك ، فإنى أعلمك بَطِراً فى الرخاء ، جبانا فى اللقاء ، هيّابة عند كفاح الأعداء ، ترى أنْ تقىَ مهجتَك ، بأن تبدىَ سوءتك . أنسيتَ يوم صفّين وأنت تُدْعى إلى النزال، فتحيد عن القتال، خوفا أن يغمرك رجال لهم أبدان شداد ، وأسنّة حداد ، ينهبون السَّرح ، ويذلّون العزيز .

قال عمرو : لقد علم معاوية أنى شهدت تلك المواطن ، فكنت فيها كِدرَة الشوك ، ولقد رأت أباك فى بعض تلك المواطن تخفق أحشاؤه ، وتنقّ أمعاؤه . قال : أما والله لو لقيك أبى فى ذلك المقام ، لارتعدتْ منه فرائصك ، ولم تسلَمْ منه مهجتُك ، ولكنه قاتل غيرَك فقتل دونك .

فقال معاوية : ألا تسكت لا أمّ لك ! فقال : يا بن هند ، أتقول لى هذا ! والله لئن شئت لأعرقنّ جبينك ، ولأقيمنّك وبين عينيك وَسْم يلين له أخدعاك . أبا كثر من الموت تخوّفنى ! فقال معاوية : أو تكفّ يابن أخى ! وأمر به إلى السجن .

فقال عمرو : وذكر الأبيات ، فقال عبد الله : وذكر الأبيات أيضا ، وزاد : « فأطرق معاوية طويلاً حتى ظنّ أنه لن يتكلم » ، ثم قال :

---

(١) القوداء : الذليلة المنقادة .
(٢) المقدرة ، مثلثة الدال : القوة واليسار .
(٣) الثلب : المعيب .
(٤) الكودن : البرذون يوكف ويشبه به البليد .

أرَى العفوَ عن عُلْيَا قريشٍ وسيلةً إلى الله فى اليوم العَبُوس القماطرِ
ولستُ أرى قتلِي فتًى ذا قرابة له نسب فى حيّ كعب وعامرِ
بل العفوَ عنه بعد ما خابَ قِدْحُه وزلّتْ به إحدى الجدود العواثرِ
وكان أبوه يوم صِفّين محنقاً علينـــا ، فأردته رماحُ يُحابِرِ

ثم قال له : أتراك فاعلا ما قال عمرو من الخروج علينا ! قال : لا تسل عن عَقِيدات الضمائر ، لاسيما إذا أرادت جهادا فى طاعة الله . قال : إذن يقتلك الله كما قتل أباك ، قال : ومَنْ لى بالشهادة !

قال : فأحسن معاوية جائزته ، وأخذ عليه موثقاً ألّا يساكنه بالشام فيفسد عليه أهله .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن السّدىّ ، عن عبد خير الهمدانىّ ، قال : قال هاشم بن عُتْبة يوم مقتله : أيها الناس ، إنى رجل ضَخْم ، فلا يهولنّـكم مسقطى إذا سقطت ، فإنه لا يفرَغ منى أقلّ من نحْرِ جزور ، حتى يفرُغ الجزارُ من جَزْرها . ثم حمل فصرِع ، فمرّ عليه رجل وهو صريع بين القتلى ، فناداه : اقرأ على أمير المؤمنين السلام ، وقل له : بركات الله ورحمته عليك(1) يا أمير المؤمنين ، أنشُدك الله إلا أصبحت وقد ربطت مقاوِدَ خيلك بأرجل القتلى ، فإنّ الدبْرة تصبح غدا لمن غلَب على القتلى . فأخبَر الرجلُ عليا عليه السلام بما قاله ، فسار فى الليل بكتائبه حتى جعل القتلى خلْف ظهره ، فأصبح والدّبْرة له على أهل الشام(2) .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن السدىّ ، عن عبد خير ، قال : قاتل هاشمٌ الحارثَ بن المنذر التّنُوخىَّ ، حمل عليه بعد أن أعيا وكلّ ، وقتل بيده ، فطعنه بالرّمح فشقّ بطنَه فسقط ، وبعث إليه علىّ عليه السلام وهو لايعلم : أقدِم بلوائك ، فقال للرسول : انظر

---

(1) ساقطة من ب (2) صفين ٤٠١

إلى بطنى ، فإذا هو قد انشقّ ، فجاء علىّ عليه السلام حتى وقف عليه ، وحوله عصابة من أسلم قد صرِعوا معه ، وقوم من القراء ، فجزع عليه ، وقال :

جَزَى اللهُ خيراً عُصْبَةً أسلَمِيَّةً ... صِباحَ الوُجوه صُرِّعُوا حَوْلَ هاشمِ
يزيد وسعدانٌ وبِشْرٌ وَمَعْبَدٌ ... وسفيان ، وابنا معبدٍ ذى المكارم
وعُرْوة لا يَبْعَدْ ثَنَاهُ وذِكْرُهُ (١) ... إذا اختُرِطت يوما خفافُ الصوارم (٢)

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبىّ ، عن أبى سلمة (٣) ، أنّ هاشم بن عتبة استصرخ الناس عند المساء : « ألا مَنْ كان له إلى الله حاجة ، ومن كان يريد الآخرة فليقبِل (٤) » . فأقبل إليه ناسٌ كثير شدّ بهم على أهل الشام مرارا ، ليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له ، فقاتل قتالا شديدا ثم قال لأصحابه : لا يهولنّكم ما ترَوْن من صبرهم ، فوالله ما ترون منهم إلا حميّة العرب وصبرها تحت راياتها ، وعند مراكزها ؛ وإنّهم لعلى الضلال ، وإنكم لعلى الحق ؛ ياقوم اصبروا وصابروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدوّنا على تؤدة ، رويدا ، واذكروا الله ، ولا يُسلمنّ رجل أخاه ، ولا تُكثِروا الالتفات ، واصمُدوا صمدهم ، وجالدوهم محتسبين ؛ حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ وهو خير الحاكمين .

قال أبو سلمة : فبينا هو وعصابة من القرّاء يجالدون أهل الشام ، إذ طلع عليهم فتًى شابٌّ ، وهو يقول :

أنا ابن أرباب ملوكِ غسّانْ ... والدائنُ اليوم بدين عثمانْ (٥)

---

(١) ثناه : خبره .
(٢) اخترطت : سلت ، والخبر فى صفين ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
(٣) صفين : « عن عمرو بن شمر ، عن رجل » .
(٤ — ٤) صفين : « ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل » .
(٥) صفين : « غسان » .

أنبأنا قراؤنا بما كان[1] أنَّ علياً قتلَ ابنَ عفانْ

ثم شدَّ لا ينثني حتى يضربَ بسيفه ، ثم جعل يلعن عليا ويشتمه ويُسهب في ذمّه ، فقال له هاشم بن عتبة : ياهذا إنَّ الكلام بعده الخصام ، وإنَّ لعنَك سيّد الأبرار ، بعده عقاب النار . فاتق الله ، فإنك راجع إلى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال[2] .
قال الفتى : إذا سألني ربّي قلت : قاتلتُ أهلَ العراق ، لأن صاحبهم لا يصلّي كما ذُكِر لي ، وأنهم لا يصلّون ، وصاحبُهم قتل خليفتَنا ، وهمْ آزروه على قتله . فقال له هاشم : يابنيَّ ، وما أنت وعثمان ! إنما قتله أصحابُ محمد ؛ الذين هم أولى بالنظر في أمور المسلمين ، وإنَّ صاحبنا كان أبعدَ القوم عن دمه ، وأما قولك : « إنه لا يصلّي » ، فهو أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله ، وأوّل من آمن به . وأما قولك : إن أصحابه لا يصلّون ، فكلَّ مَنْ ترى معه قراء الكتاب ، لا ينامون الليل تهجّدا ، فاتق الله واخشَ عقابه ، ولا يغرُرْك من نفسك الأشقياء الضالون .

فقال الفتى : ياعبدَ الله ، لقد دخل قلبي وجلٌ من كلامك ، وإني لأظنّك صادقا صالحا ، وأظنّني مخطئا آثما ، فهل لي من توبة ؟ قال : نعم ، ارجع إلى ربّك وتب إليه ، فإنه يقبل التوبةَ ويعفو عن السيئات ، ويحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين . فرجع الفتى إلى صفّه منكسراً نادما ، فقال له قوم من أهل الشام : خدعك العراقيّ ! قال : لا ، ولكنْ نصحني العراقيْ[3] .

قال نصر : وفي قتل هاشم وعمار تقول امرأة من أهل الشام :

لا تعدَمُوا قوماً أذاقوا ابنَ ياسرٍ شَعوباً ولم يعطوكمُ بالخزائمِ

---

(١) صفين : « أنبأنا أقوامنا »
(٢) صفين : « وما أردت به »
(٣) صفين ٤٠٣ ، ٤٠٤

فنحنُ قتلنا اليثربىّ ابن مِحْصَنٍ خطيبكمُ وابنى بُدَيل وهاشمِ [1]

قال نصر : أما اليثربىّ ، فهو عمرو بن مِحْصن الأنصارىّ ، وقد رثاه النجاشىّ شاعر أهل العراق ، فقال :

لِنِعْمَ فتى الحيَّين عمرو بن مِحْصَنٍ إذا صارخُ الحىّ المصبّحُ ثوّبا [2]
إذا الخيل جالت بينها قِصَدُ القنا [3] يثرن عَجاجاً ساطِعاً متنصّبا
لقـــد فُجِع الأنصارُ طرّاً بسيِّدٍ أخى ثقـــةٍ فى الصَّالحات مجرّبا
فيارُبَّ خـــيرٍ قد أفدتَ ، وجفنةٍ ملأتَ ، وقِرْنٍ قد تركت مسلّبا [4]
ويارُبَّ خَصْمٍ قد رددتَ بغيظِهِ فآب ذليلاً بعـــد أن كان مغضَبا
وراية مجـــدٍ قد حملتَ وغزوةٍ شهدتَ إذ النِّكْسُ الجبانُ تهيَّبا
حويطا على جلّ العشيرة ماجـــداً [5] وما كنت فى الأنصار نِكْساً مؤنّبا
طويلَ عمادِ المجـــد رَحْباً فِناؤه خَصِيباً إذا مارائد الحىّ أجدبا
عظيمَ رمادِ النار لم يكُ فاحشا ولا فَشِـــلاً يوم النِّزال مغلّبا
وكنتَ ربيعاً ينفع الناسَ سيبُهُ وسيفا جُرَازاً باتكَ الحـــدّ مِقضباً
فمن يك مسرورا بقتـــل ابن مِحْصَنٍ فعاش شقيّاً ثم مات معـــذّبا
وغُودِرَ منـــكبًّا لفيهِ ووَجْهِهِ يعالج رمحاً ذا سنـــانٍ وثعلبـــا [6]
فإن يقتلوا الحرّ الـــكريم ابنَ مِحْصَنٍ فنحن قتلنا ذا الـــكَلاع وحَوْشبا

---

(١) صفين ٤٠٠ .
(٢) المصبح : الذى صبحته الغارة ، والتثويب : الاستصراخ .
(٣) القصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة .
(٤) صفين : « فخيبا » .
(٥) صفين : « حووطا » .
(٦) الثعلب : طرف الرمح .

وإن يقتلوا ابنيْ بُدَيْل وهاشما فنحن تركنا منكمُ القِرْن أعضبا
ونحن تركنا حِمْيراً فى صفوفكم لدَى الحرب صَرْعى كالنَّخيل مُشَذَّبا
وأفلتنا تحت الأسنّة مرثدٌ وكان قديما فى الفرار مدرّبا
ونحن تركنا عند مختلف القنا أخاكم عُبيد الله لحما ملحّباً
بصفّين لما ارفضّ عنه رجالكمْ ووجه ابن عتّاب تركناه مُلْغَبا (١)
وَطَلْحة من بعد الزبير ولم ندع لضبّةَ فى الهيْجا عريفاً وَمَنْكِبا (٢)
ونحن أحطنا بالبعير وأهلِه ونحن سقيناكُمْ سِماما مقشّبا (٣)

قال نصر : وكان ابن مِحْصن من أعلام أصحاب علىّ عليه السلام ، قتل فى المعركة ، وجزع علىٌّ عليه السلام لقتله .

قال : وفى قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانىّ ، وهو من الصحابة — وقيل إنه آخر مَنْ بقى من صَحْب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشهد مع علىّ صِفّين ، وكان من مخلصى الشيعة :

ياهاشمَ الخيرِ جُزِيت الجَنّهْ قاتلتَ فى الله عَدُوَّ السُّنّهْ
والتاركِى الحقّ وأهل الظِّنّهْ أعظِمْ بما فزت به مِنْ مِنّهْ !
صَيّرَنِى الدهر كأنّى شَنّهْ وسوف تعلو حول قبرى رَنّهْ (٤)
* من زوجةٍ وحَوْبَةٍ وكَنّهْ *

---

(١) صفين : « عنه صفوفكم » . ملغب ، من اللغب ، وهو التعب والنصب .
(٢) العريف : النقيب دون الرئيس ، والمنكب : من يعاونه .
(٣) المقشب : المخلوط .
(٤) الرنة : الندبه والعويل على الميت .

قال نصر : والحوْبة[1] القرابة ، يقال : لى فى بنى فلان حوبة ، أى قُرْبَى[2] .

* * *

قال نصر : وقال رجلٌ من عُذْرة ، من أهل الشام :

لقــد رأيتُ أموراً كلّها عجبٌ ... وما رأيتُ كأيامٍ بصفّينا
لمّا غدَوْا وغــدوْنا كلّنا حَنِقٌ ... كما رأيتَ الجمالَ الجِــلّةَ الجُونا
خيــلٌ تجولُ وأخرى فى أعِنّتِها ... وآخرون على غيظٍ يُرامُونا
ثم ابتذلنا سيوفاً فى جماجمهمْ ... وَمَا نســاقيهمُ من ذاك يَجْزونا
كأنهـــا فى أكفّ القوم لامعةً ... ســلاسلُ البرق يَجْدَعْنَ العرانينا
ثم انصرفنا كأشــلاء مقطّعةٍ ... وكلُّهم عنــد قتلاهم يصلّونا[3]

* * *

قال نصر : وقال رجل[4] لعدىّ بن حاتم الطائىّ ــ وكان من جلة أصحاب علىّ عليه السلام ــ ياأبا طَريف ، ألم أسمعك تقول يوم الدار : « واللهِ لاتحبِقُ فيها عَناقٌ حَوْليّة »[5] ! وقد رأيتَ ما كان فيها ! وقد كان فقئت عــين عدىّ ، وقتل بنوه ــ فقال : أما واللهِ لقد حَبَقَتْ فى قتله العَناق والتيس الأعظم[6] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : بعث علىّ عليه السلام خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادّته ، فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفِهْرِىّ فى خيل إلى تلك الخيل ، فأزالوها ،

(١) وفى اللسان عن أبى عبيد : « وهى عندى كل حرمة تضيع إن تركتها ، من أم أو أخت أو ابنة أو غيرها » .
(٢) صفين ٤٠٧ ، ٤٠٨
(٣) صفين ٤٠٥ ، ٤٠٦
(٤) صفين : « نصر عن عمرو بن شمر بإسناده »
(٥) الحبق : ضراط المعز ، والعناق : الأنثى من ولد المعز .
(٦) صفين ٤٠٨ ، ٤٠٩

وجاءت عيون علىّ عليه السلام فأخبروه بما كان ، فقال لأصحابه : ماترون فيما هاهنا ؟ فقال بعضهم : نرى كذا ، وقال بعضهم : نرى كذا ، فلما زاد الاختلاف، قال علىّ عليه السلام: اغدُوا إلى القتال، فغاداهم إلى القتال، فانهزمت صفوف الشام من بين يديه ذلك اليوم، حتى فرّ عتبة بن أبى سفيان عشرين فرسخا عن موضع المعركة ، فقال النجاشىّ فيه من قصيدة أولها:

لقـــــد أمعنتَ ياعتبُ الفِرارَا وأورثَكَ الوغَى خِزْياً وعارا
فلا يَحمِـــدْ خُصاكَ سوى طِمِرٍّ إذا أجريتَهُ انهمر انهمـــــارا

وقال كعب بن جُعيل — وهو شاعر أهل الشام — بعد رفع المصاحف، يذكر أيام صِفّين ويحرّض معاوية :

معاوِيَ لاتنهضْ بغــير وثيقةٍ فإنكَ بعـــــد اليوم بالذلِّ عارفُ
تركتم عبيـد الله بالقاع مسنَداً يمجّ نجيعـا والعروق نوازفُ
ألا إنمـا تبكى العيونُ لفارسٍ بصِفّين أجلَتْ خيلُه وهو واقفُ
ينوء وتعلوهُ شآبيبُ من دمٍ كما لاح فى جيب القميص اللّفائفُ[1]
تبدّل من أسماء أسيافَ وائلٍ وأىّ فتى لو أخطأته المتالفُ !
ألا إن شرّ الناس فى الناس كلّهمْ بنو أسد ، إنّى بما قلتُ عارفُ
وفرّت تميم : سعدُها وربابُها وخالفت الجعراء فيمن يخالفُ[1]
وقد صبرت حولَ ابن عمّ محمـدٍ على الموت شهباء المناكب شارفُ[2]
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم وحتى أتيحت بالأكفّ المصاحفُ

---

(١) الجعراء : لقب بنى العنبر بن عمرو بن تميم .
(٢) ورد هذا البيت وتاليه فى كتاب صفين منسوبين إلى أبى جهمة الأسدى ، يرد بهما على كعب ابن جعيل .

وقد تقدم ذكر هذه الأبيات بزيادة على ماذكرناه الآن [١] .

***

قال نصر : وهجا كعبَ بن جُعَيل عتبةُ بن أبي سفيان وعيّره بالفرار ، وكان كعب من شيعة معاوية ، لكنّه هجا عتبة تحريضا له ، فهجاه عتبة جوابا ، فقال له :

وَسُمِّيتَ كعباً بشرّ العظا م وكان أبوكَ يُسَمَّى الجُعَلْ [٢]

وإنّ مكانك من وائلٍ مكانُ القُرادِ من است الجَمَلْ [٣]

***

قال نصر : ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس ، حدّثنا بها عمر ابن سعد ، عن سليمان الأعمش ، عن إبراهيم النَّخَعِيّ ، قال : حدثنا القعقاع بن الأبرد الطُّهَوِيّ ، قال : والله إني لواقف قريباً من عليّ عليه السلام بصِفّين يوم وقعة الخميس ، وقدالتقتْ مذحِج ـ وكانوا فى ميمنة عليّ عليه السلام ـ وعكّ ولخم وجُذام والأشعريّون ، وكانوا مستبصرين فى قتال عليّ عليه السلام ، فلقد والله رأيتُ ذلك اليوم من قتالهم ، وسمعت من وقع السيوف على الرءوس وخبْط الخيول بحوافرها فى الأرض وفى القتلى ؛ ما الجبال تَهِدّ [٤] ، ولا الصواعق تصعَق ، بأعظم من هؤلاء فى الصدور من تلك الأصوات . ونظرتُ إلى عليّ عليه السلام وهو قائم ، فدنوت منه فأسمعُه يقول : لاحول ولا قوة إلا بالله اللهمّ إليك الشكوى وأنت المستعان ! ثم نهض حين قام قائمُ الظهيرة وهو يقول : « ربّنا افْتَحْ بيننا وبين قومنا بالحقّ ، وأنت خير الفاتحين » . وحمل على الناس بنفسه ، وسيفُه مجرّد بيده ، فلا والله ماحجز بين الناس ذلك اليوم إلا الله ربُّ العالمين ، فى قريب من ثلث الليل

(١) صفين ٤١٠ ، ٤١١

(٢) صفين : « سمي الجعل » .

(٣) صفين : ٤١٢

(٤) تهد : تحدث صوتا ، والهدة : الصوت .

الأول ، وقتِلت يومئذ أعلام العرب ، وكان فى رأس علىّ عليه السلام ثلاثُ ضَرَبات ، وفى وجهه ضربتان .

قال نصر : وقد قيل : إنّ عليا عليه السلام لم يجرح قطّ ، وقتِل فى هذا اليوم خزيمة ابن ثابت ذو الشهادتين ، وقتِل من أهل الشام عبد الله بن ذى الكلاع الحميرىّ ، فقال معقل بن نَهيك بن يساف الأنصارىّ :

يالهفَ نفسِى ومَنْ يشفى حَزَازتَها ... إذ أفلتَ الفاسِقُ الضِّليل منطلقاً

وأفلت الخيلَ عمرو وهى شاحِبَةٌ ... تحت العجاج تحثّ الرّكْض والعَنَقا (١)

وافت منيّـة عبد الله إذ لحقتْ ... قُبّ الخيول به ، أعجِزْ بمن لِحقَا

وانساب مروانُ فى الظلْماء مستتراً ... تحت الدجَى كلّما خاف الردى أرقا

وقال مالك الأشتر :

نحن قتلنا حوشباً ... لمّا غدا قد أعلما

وذَا الكَلاع قبلهُ ... ومَعْبَداً إذْ أقدما

إن تقتلوا منا أبا الـ ... يقظانِ شيخا مسلماً

فقد قتلنا منكمُ ... سبعين كَهْلا مجرِما

أضحوا بصِفّين وقدْ ... لاقوْا نَكالا مؤلِما

وقالت ضُبيعة بنت خزيمة بن ثابت ذى الشهادتين ترثى أباها رحمه الله :

عيْن جودى على خزيمة بالدمْـ ... ـع قتيلِ الأحزاب يوم الفُراتِ

قتلوا ذا الشّهادتين عُتوًّا ... أدركَ الله منهم بالتِّراتِ !

قتلوه فى فتية غيرِ عُزْلٍ ... يسرعون الركوبَ فى الدّعْواتِ

نصروا السيّد الموفّق ذا العد ... لِ ، ودانوا بذاك حتى المماتِ

(١) العنق : ضرب من السير .

لعنَ اللهُ معشراً قتلوه ورماهم بالخزي والآفاتِ[١]

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الأعمش ، قال : كتبَ معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وكان سيّداً معظما من سادات الأنصار ، وكان من شيعة عليّ عليه السلام ـ كتابا ، وكتب إلى زياد بن سميّة ـ وكان عاملا لعليّ عليه السلام على بعض فارس ـ كتابا ثانيا. فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطراً واحدا : حاجيْتك ! « لا تنسى الشيباء أبا عُذْرها، ولا قاتل بِكْرها » ، فلم يدر أبو أيوب ماهو ! قال : فأتى به عليا عليه السلام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن معاوية كهف المنافقين ، كتب إليّ بكتاب لا أدرى ماهو ! قال عليّ عليه السلام : فأينَ الكتاب ؟ فدفعه إليه ، فقرأه ، وقال : نعم ، هذا مثل ضربه لك ، يقول: لا تنسى الشيباء أبا عذرها . والشيباء : المرأة البِكْر ليلةَ افتضاضها ، لا تنسى بعلها الذى افترعها أبدا ، ولا تنسى قاتل بِكْرها ؛ وهو أول ولدها ، كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان .

وأما الكتابُ الذى كتَبه إلى زياد ، فإنّه كان وعيداً وتهدُّدا ، فقال زياد : ويْلِي عَلَى معاوية ، كهفِ المنافقين وبقيّة الأحزاب ! يتهدّدني ويتوعّدني ، وبيني وبينه ابنُ عمّ محمد ؛ معه سبعون ألفاً ، سيوفهم على عواتقهم ؛ يطيعونه[٢] فى جميع مايأمرهم به ، لا يلتفِت رجل منهم وراءه حتى يموت ! أما والله لو ظفِر ثم خَلَص إليّ ليجدنّي أحمَرَ ضرّاباً بالسيف .

قال نصر : أحمر أى مولى . فلما ادّعاه معاوية عاد عربيًّا مَنافيا[٣] .

***

(١) صفين ٤١٣ ـ ٤١٦ . (٢) صفين : « ومعه سبعون ألفاً طوائع ، سيوفهم عند أذقانهم » .
(٣) منافيا : منسوب إلى عبد مناف .

قال نصر : وروى عمرو بن شمر أن معاوية كتب فى أسفل كتابه إلى أبى أيوب :

أبلغ لديك أبا أيوبَ مألكةً ... أنا وقومُكَ مثلُ الذئبِ والنَّقَدِ (١)
إنا قتلنا أميرَ المؤمنين فلا ... ترجُوا المودةَ منّا آخرَ الأبدِ (٢)
إنّ الذى نلتموه ظالمينَ لهُ ... أبقتْ حزازتُه صَدْعًا على كبدى (٣)
إنى حلفتُ يمينًا غيرَ كاذبةٍ ... لقد قتلتم إمامًا غيرَ ذى أوَدِ (٤)
لا تحسبوا أننى أنسى مصيبتَهُ ... وفى البلاد من الأنصار من أحَدِ
قد أبدلَ اللهُ منكم خيرَ ذى كَلَعٍ ... واليحصبيين أهلَ الخوفِ والجَنَدِ (٥)
إن العراقَ لنا فقعٌ بقرقرةٍ ... أو شحمةٌ بزَّها شاوٍ ولم يَكَدِ (٦)
والشامُ ينزلها الأبرارُ ، بلدتُها ... أمنٌ ، وبيضتُها عِرِّيسةُ الأسدِ (٧)

فلما قرئ الكتاب على علىّ عليه السلام ، قال : لشدّ ما شحذكم معاوية ! يامعشر الأنصار أجيبوا الرجل ؛ فقال أبو أيوب : ياأميرَ المؤمنينَ ، إنى ما أشاء أن أقولَ شيئًا من الشعر يعيا به الرجال إلا قلته ، فقال : فأنت إذاً أنت .

فكتب أبو أيوب إلى معاوية : أمّا بعد ، فإنك كتبت : « لا تنسى الشيباء أبا عُذْرها ، ولا قاتل بِكْرها » ، فضربتَها مثلا بقتل عثمان ، ومانحن وقتل عثمان إن الذى تربص بعثمان

(١) المألكة : الرسالة . والنقد : جنس صغير من الغنم ، يكون بالبحرين .
(٢) صفين : « عندى آخر الأبد » .
(٣) صفين : « حرارته » .
(٤) الأود : الاعوجاج .
(٥) الجند ، بالتحريك : مدينة باليمن ، وفى صفين : « أهل الحق والجند » .
(٦) الفقع : البيضاء الرخوة من الكمأة . والقرقرة : الأرض المنخفضة ؛ ويقال فى المثل : « هو أذل من فقع بقرقرة » ، لأنه لا يمتنع على من جناه ، أو لأنه يداس بالأرجل .
(٧) صفين : « وحومتها عريسة الأسد » .

وثبط يزيد بن أسد وأهلَ الشام عن نُصرته لأنتَ ؛ وإنَّ الذين قتلوه لغيرُ الأنصار ؛ وكتب فى آخر كتابه :

لا توعِدنّا ابنَ حرب إننا نفرٌ — لا نبتغى وُدَّ ذِى البغضاء من أحدِ[1]
واسعَوْا جميعاً بنى الأحزاب كلّكمُ — لسنا نريد رضاكُمْ آخر الأبدِ
نحنُ الذين ضربنا النّاس كلّهمُ — حتى استقامُوا وكانوا عُرْضة الأوَدِ
والعامَ قصرُكَ منّا إن ثبتَ لنا — ضربٌ يزيل بينَ الرُّوح والجسدِ[2]
أمّا علىٌّ فإنا لا نفارقُهُ — ما رفرفَ الآلُ فى الدوّية الجَرَدِ[3]
إمّا تبدّلتَ منّا ـ بعد نُصرتنا — دينَ الرسول ـ أناساً ساكنِى الجَنَدِ
لا يعرفون أضلَّ اللهُ سعيهمُ — إلا اتباعكم ، يا راعىَ النّقَدِ
فقد بغى الحقَّ هَضْماً شرُّ ذى كَلَعٍ — واليحصبيّونَ طُرّاً بيضةُ البلدِ[4]

قال : فلمّا أتى معاوية كتابُ أبى أيوب كَسَرهُ[5].

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، قال : حدثنى مجالد ، عن الشعبىّ ، عن زياد ابن النَّضْر الحارثىّ ، قال : شهدتُ مع علىّ عليه السلام صِفّين ، فاقتتلنا مرة ثلاثة أيام ، وثلاث ليال ؛ حتى تكسّرت الرماح ، ونفدَت السهام ، ثم صرنا إلى المسايفة ، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل ؛ حتى صرنا نحن وأهل الشام فى اليوم الثالث ؛ يعانق بعضُنا بعضاً ؛ ولقد قاتلتُ ليلتئذٍ بجميع السلاح ، فلم يبقَ شىء من السلاح إلا قاتلتُ به ؛ حتى تحاثَيْنا

(١) صفين : « إننا بشر » .
(٢) صفين : « أن أقت لنا » .
(٣) الدوية : المفازة ؛ وفى صفين « الداوية » ؛ وهما سواء . والجرد : الفضاء لانبات فيه .
(٤) اليحصبيون : بنو يحصب ؛ وهم بطن فى حمير .
(٥) صفين ٤١٧ ـ ٤١٩

بالتراب ، وتكادمنا بالأفواه ؛ حتى صرنا قياما ينظر بعضنا إلى بعض ؛ ما يستطيع أحدٌ من الفريقين أن ينهضَ إلى صاحبه ؛ ولا يقاتل ؛ فلما كان نصفُ الليل من الليلة الثالثة ، انحاز معاوية وخيله من الصفّ وغلب عليٌّ عليه السلام على القَتْلَى ؛ فلما أصبح أقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتِل كثير منهم ، وقتل من أصحاب معاوية أكثر ، وقتِل فيهم تلك الليلة شمِر بن أبرهة [1] .

***

قال نصر : وحدثنا عمرو ، عن جابر عن تميم ، قال : والله إنّى لمع علىٍّ عليه السلام ؛ إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصارىّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عمرو بن العاص يرتجز فى الصفّ بشعر ، أفأسمعكه ! قال : نعم ، قال : إنه يقول :

إذا تخازَرْتُ وما بى من خَزَرْ [2] ... ثم كسَرْتُ العين من غير عَوَرْ [3]
ألفيتَنى ألوَى بعيدَ المستمرْ [4] ... ذا صولةٍ فى المصمئلّاتِ الكُبَرْ [5]
أحمل ما حُمِّلتُ من خيرٍ وشرْ ... كالحيّة الصمّاء فى أصل الحَجَرْ

فقال علىٌّ : اللهم العنه ؛ فإنّ رسولك لعنه ، قال علقمة : وإنّه يا أميرَ المؤمنين يرتجز برجز آخر ، فأنشدك ؟ قال : قل ، فقال :

أنا الغلامُ القرشىّ المؤتَمَنْ ... الماجدُ الأبلجُ ليثٌ كالشَّطَنْ
ترضى بىَ الشامُ إلى أرض عَدَنْ ... ياقادة الكوفة ، ياأهل الفِتَنْ [6]

---

(١) صفين ٢٠٤ .
(٢) التخازر : تصنع الخزر ؛ وهو ضيق العين .
(٣) صفين : « ثم خبأت العين » .
(٤) الألوى : القوى الشديد المراس .
(٥) المصمئلات : الوقائع الشديدة ؛ وأصل المصمئلة : الداهية .
(٦) بعده فى صفين :

* يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنْ *

أضربُكم ولا أرى أبا حَسَن[1] كَفَى بهـذا حَزَنًا من الحزنْ !

فضحك علىّ عليه السلام ، وقال : إنه لـكاذب ، وإنه بمكانى لعالم، كما قال العربىّ: « غير الوهى ترقعين وأنت مبصرة » ، وَيحكم أرونى مكانه ؛ لله أبوكم ؛ وخلاكم ذمّ !

وقال محمد بن عمرو بن العاص :

لو شهدت جُمْلٌ مقامى ومشهدى[2] بصِفّين يوماً شاب منها الذوائبُ
غداةَ غدَا أهلُ العراق كأنهم من البحر موجٌ لُجّـهُ متراكبُ
وجئناهمُ نمشى صفوفا كأننا سحاب خريفٍ صفّقتْهُ الجنائبُ
فطارتْ إلينا بالرماح كُماتُهمْ وطِرْنا إليهم والسيوفُ قواضبُ
فدارتْ رَحانا واستدارت رحاهمُ سَرَاةَ نهارٍ ماتولّى المناكبُ
إذا قلت يوما قد ونوا برزتْ لنا كتائبُ منهم وارجحنّتْ كتائبُ
وقالوا نرى من رأينا أن تُبايعوا عليًا ، فقلنا بل نرى أن نضاربا[3]
فأبنا وقد أردَوْا سراةَ رجالنا[4] وليس لما لاقوْا سوى الله حاسبُ
فلم أر يوماً كان أكثر باكيا ولا عارضاً منهم كميًا يكالب
كأنّ تلالى البيض فينا وفيهمُ تلألُؤ برقٍ فى تِهامة ثاقِب[5]

(١) بعده فى صفين :

* أعنِى عَلِيًا وَابنَ عمّ المُؤْتمَنْ *

(٢) صفين : « وموقفى »

(٣) فى البيت إقواء .

(٤) صفين : « نالوا سراة رجالنا » .

(٥) فى صفين : « فرد عليه محمد بن على بن أبى طالب :

لَوْ شَهِدَتْ جُمْلٌ مَقَامَكَ أَبْصَرَتْ مقامَ لَئِيمٍ وَسْطَ تلكَ الكَتائِبِ
أَتذكُرُ يَوْماً لَمْ يَكُنْ لَكَ فَخْرُهُ وَقَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ عَلَيْكَ الجَلائِبُ
وَأَعْطَيْتُمُونا مَا نَقِمْتُمْ أَذِلَّةً عَلى غَيْرِ تَقْوَى اللهِ وَالدِّينُ وَاصِبُ

وقال النّجاشىُّ يذكر عليا عليه السلام ، وجِدَّه فى الأمر :

إنى إخالُ علياً غير مرتدعٍ حتى تُقام حقوقُ الله والحُرَمُ
أما ترى النَّقْعَ معصوباً بلمَّتِهِ كأنه الصَّقْر فى عِرْنينه شَمَمُ (١)
غضبانُ يحرق نابيْه عَلَى حَنَقٍ (٢) كما يغطّ الفنيقُ المصعَبُ القَطِمُ (٣)
حتى يزيل ابنَ حربٍ عن إمارته كما تنكَّب تيس الحَبْلَةِ الحُلُمُ (٤)

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد عن الشعبىّ ، قال : بلغ النجاشىّ أن معاوية تهدده فقال : (٥) .

يأيُّها الرجلُ المبدِى عداوتَهُ رَوِّىء لنفسك أىَّ الأمر تأتمِرُ !
لا تحسبنّى كأقوام ملكتَهمُ طوعَ الأعنة لمّا ترشح الغُدُرُ
وما علمتُ بما أضمرتَ من حَنَقٍ حتى أتتنى به الرُّكبانُ والنُّذُرُ
إذا نفستَ على الأمجاد مجدَهمُ (٦) فابسُط يديك ، فإن الخير مبتَدَرُ
واعلم بأنّ علىَّ الخيرِ من نفرٍ شُمِّ العرانين لا يعلوهمُ بشرُ
لا يجحد الحاسد الغضبان فضلهمُ (٧) ما دام بالحَزْن من صمّائها حَجَرُ
نعم الفتى أنتَ إلّا أنّ بينكما كما تفاضلَ ضوء الشمس والقمرُ

---

(١) فى صفين : « نقع القبائل فى عرنينه شمم » .

(٢) صفين : « نابيه بحرته » .

(٣) المصعب : الفحل ، والقطم : المشتهى للضراب .

(٤) صفين ٤٢٠ ـ ٤٢٤ ، وبعد هذا البيت هناك :

لَوْ تَرَوْهُ كَمِثْلِ الصَّقْرِ مُرْتَدِيًا يَخْفِقْنَ مِنْ حَوْلِهِ العقبانُ وَالرَّخَمُ

(٥) فى صفين : « وقال النجاشى أيضاً يمدح عليا ويهجو معاوية ، وقد بلغه أنه يتهدده » .

(٦) صفين : « الأمجاد » .

(٧) صفين : « لا يرتقى الحاسد الغضبان مجدهم » .

ولا إخالك إلا لستَ منتهياً ... حتى يمسّك من أظفاره ظُفُرُ
لا تحمدنّ امرأً حتى تجرّبه ... ولا تذمنّ مَنْ لم يبلُهُ الخُبُرُ
إنى امرؤٌ قلما أُثنِي على أحدٍ ... حَتّى أرى بَعْضَ ما يأتِي وما يَذَرُ
وإن طوى معشرٌ عنّى عداوتَهم ... فى الصّدر أو كان فى أبصارهم خَزَرُ
أجمعتُ عَزْماً جراميزى بقافيةٍ ... لا يبرحُ الدَّهْرَ منها فيهمُ أثَرُ (١)

قال: فلمّا بلغ معاويةَ هذا الشعر، قال: ما أراه إلا قد قارب (٢).

* * *

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن إسحاق، أنّ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، كان يحمل على الخيل يوماً، فجاءه رجل، فقال: هل من فرسٍ يابن ذى الجناحين! قال: تلك الخيل فخذ أيّتَها شئت، فلما ولّى قال ابنُ جعفر: إن تصب أفضل الخيل تقتل، فما عتّم أن أخذ أفضل الخيل، فركبه، ثم حمل على فارس قد كان دعاه إلى البراز، فقتله الشامىّ، وحمل غلامان آخران من أهل العراق؛ حتى انتهيا إلى سرادق معاوية، فقتلا عنده؛ وأقبلت الكتائبُ بعضُها نحو بعض، فاقتتلت قياما فى الركب، لا يسمع السامع إلا وقع السيوف على البيض والدّرَق.

وقال عمرو بن العاص:

أجئتم إلينا تسفِكون دماءنا ... وما رُمتمُ وعرٌ من الأمر أعسرُ
لعمرِى لَمَا فيه يكون حِجاجُنا ... إلى الله أدهَى لو عقلتم وأنكرُ
تعاورتمُ ضَرْباً بكلِّ مهنّدٍ ... إذا شدّ وَرْدَانٌ تقدّم قَنْبرُ (٣)
كتائبُكم طوراً تَشُدُّ وتارةً ... كتائبنا فيها القَنا والسَّنَوَّرُ (٤)

---

(١) يقال: ضم فلان جراميزه؛ إذا رفع ما انتشر من ثيابه ثم مضى؛ يريد أنه أجمع أمره ومضى، ويريد بالقافية، الشعر بقوله فى الهجاء، وفى صفين: «جمعت صبرا».

(٢) صفين ٤٢٤. (٣) قنبر غلام على، ووردان غلام عمرو بن العاص.

(٤) السنور هنا: الدروع. والخبر فى صفين ٥، ٤.

إذا ما ألتقوا يوماً تدارك بينهم طِعانٌ وموت فى المعارك أحمرُ

وقال رجل من كلب مع معاوية يهجو أهل العراق ويوبخهم :

لقد ضَلّتْ معاشرُ من نزارٍ إذا انقادوا لِمثـل أبى تُرابِ (١)
وإنهـــمُ وبيعتَهم عليّاً كواشمةِ التغضّنِ بالخضـابِ
تزيّنُ من سَفاهتِها يديْهـــا وتحسِرُ باليـدين عن النقـابِ
فإياكم وداهيـــةً نئوداً تسير إليـكم تحتَ العُقابِ (٢)
إذا ساروا سمعتَ لحافتيْهمْ دوِيّاً مثل تصفيقِ السَّحابِ (٣)
يُجيبون الصَّريخ إذا دعاهمْ وقد طعن الفوارسُ بالحرابِ (٤)
عليهم كلُّ سابغـــةٍ دِلاصٍ وأبيضَ صارمٍ مثل الشِّهابِ (٥)

وقال أبو حَيّـة بن غَزِيّة الأنصاريّ ؛ وهو الذى عقَر الجمل يوم البصرة ، واسمه عمرو :

سائلْ حليـلةَ معبَدٍ عن بعلِهـا وحليلةَ اللخمىّ وابن كَلَاعِ (٦)
واسأل عُبَيْدَ الله عن فرساننا لمّا ثوَى مُتجَدّلا بالقـاعِ
واسأل معاويةَ المولّى هارباً والخيل تَمعَجُ وهى جِدُّ سِراعِ (٧)
ماذا يخبّرك المخـــبر منهمُ عنهمْ وعنّا عند كلّ وقاعِ (٨)
إن يصدُقوك يخبّروك بأننا أهلُ الندَى قِدْماً مجيبُو الدّاعِى

---

(١) صفين ٤٢٧ .
(٢) النئود : الداهية الشديدة والعقاب : الراية .
(٣) صفين : « إذا هشوا » .
(٤) الصريخ : المستغيث .
(٥) الدلاص : الدرع .
(٦) صفين ٤٣١ .
(٧) تمعج : تسرع ، وفى صفين : « والخيل تعدو » .
(٨) الوقاع : المواقعة فى الحرب .

إن يصدقوك يخبّروك بأننــــا   نحمى الحقيقة كلّ يوم مَصاعِ (١)
ندعو إلى التقوى ونرعَى أهلها   برعاية المأمونِ لا المضيــــاعِ
ونسنّ للأعــداء كلّ مثقّفٍ   لَدْنٍ وكلّ مشطّبٍ قطّاعِ (٢)

وقال عدىّ بن حاتم الطائىّ :

أقولُ لما أنْ رأيتُ المعمعَهْ (٣)   واجتمع الجندان وسْطَ البلْقَعَهْ
هــذا علىّ والهدَى حقًّا معَهْ   يارَبّ فاحفظه ولا تضيِّعَهْ
فإنّه يخشاك ربّ فارفَعَهْ   ومن أراد عيبَهُ فضعضِعَهْ

* أو كادَهُ بالبَغى منك فاقمَعَهْ *

وقال النعمان بن جعلان الأنصارىّ :

سائلْ بصِفّين عنّا عند غَدْوتنا   أم كيف كنّا إلى العلياء نبتدرُ (٤) !
وسلْ غداةَ لقينا الأزْدَ قاطبةً   يومَ البصيرة لما استجمعتْ مُضَرُ
لولا الإلهُ وعَفْوٌ من أبى حسنٍ   عنهم ، ومازال منه العفو يُنتظر (٥)
لما تداعتْ لهم بالمِصْرِ داعيــةٌ   إلّا الـكلابُ، وإلّا الشاء والحُمُرُ
كم مُقْعَصٍ قد تركناهُ بقفرةٍ   تعوِى السباعُ عليه وهو منعفِرُ (٦)
ما إن يؤوب ولا ترجوه أسرته   إلى القيـامة حتى ينفخ الصُّـورُ (٧)

قال عمرو بن الحمِق الخُزاعىّ :

---

(١) المصاع : المجالدة والقتال . وفى صفين : « عند كل مصاع » .
(٢) سيف مشطب : فيه شطب ؛ وهى الخطوط والطرائق .   (٣) صفين ٤٥٣
(٤) صفين : ٤٣٣ .
(٥) البيت فى صفين :

لولَا الإلهُ وقومٌ قد عرفتهمُ   فيهم عفافٌ ، وما يأتى به القدر

(٦) المقعص : المقتول بمكانه ، أو المجهز عليه .
(٧) صفين : « ما إن تراه ولا يبكى علانية » .

تقولُ عِرسِىَ لما أنْ رأت أرَقِى ... ماذا يهيجكَ من أصحاب صِفِّينا[1] !
ألستَ فى عُصْبةٍ يهدى الإلهُ بهمْ ... لا يظلمون ، ولا بغياً يريدونَا !
فقلت إنى عَلَى ما كان من رَشَدٍ ... أخشى عواقبَ أمرٍ سوف يأتينا
إدالةَ القومِ فى أمرٍ يرادُ بنـا ... فاقنَىْ حياء وكُفِّى ماتقولينا[2]

وقال حُجْر بن عدى الكندىّ :

ياربَّنا سلِّم لنـا عليّا ... سلِّم لنا المهذّب التقيّا[3]
المؤمنَ المسترشِد الرضيّا ... واجعله هادى أمةٍ مهديّا
واحفظه ربِّ حفظك النبيّا ... لا خَطِل الرأى ولا غبيّا[4]
فإنه كان لنـا وليّا ... ثم ارتضيه بعـده وصيّا

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الشعبى ، قال : قال الأحنف بن قيس فى صِفّين لأصحابه : هلَكت العرب ! قالوا له : وإن غَلَبْنا يا أبا بحر ؟ قال : نعم ، قالوا : وإن غُلِبنا ؟ قال : نعم ، قالوا : والله ما جعلتَ لنا مخرجا . فقال الأحنف : إنّا إنْ غلبنـا لم نترك بالشام رئيسـا إلا ضربنا عنقه ، وإن غلبونا لم يعرّج بعـدها رئيس عن معصية الله أبدا[5] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الشّعبىّ ، قال : ذكر معاوية يوماً صِفّين بعد عام الجماعة ، وتسليم الحسن عليه السلام الأمرَ إليه ، فقال الوليد بن عُقْبة : أىْ بنى عمّك

(١) صفين : ٤٣٣
(٢) اقنى حياء ، أى الزمى الحياء .
(٣) صفين ٤٣٤
(٤) فى الأصول : « بغيا » وما أثبته من صفين
(٥) صفين ٤٤٠

كان أفضلَ يوم صفّين [ياوليد](١)، عند وَقَدان الحرب ، واستشاطة لَظَاها حين قاتلت الرجال على الأحساب ؟ قال : كلّهم قد وصـل كَنَفَيْها عند انتشار وقَمّها ، حتى ابتلت أثباجُ الرّجال من الجِرْيال ، بـكلِّ لَدْنٍ عَسّال ، وبكلِّ عَضْب قَصّال . فقـال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : أما والله لقد رأيتُنا يوما من الأيام ، وقد غشينا ثعبانٌ في مثل الطَّوْد الأرعن ، قد أثار قسطلًا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدهم شائل الغرّة، ـ يعني عليا عليه السلام ـ يضربهم بسيفه ضربَ غرائبَ الإبل؛ كاشراً عن نابه كَشْر المُخْدر الحرِب ، فقال معاوية : نعم إنه كان يقاتل عن تِرَةٍ له وعليه(٢).

***

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الشعبي ، قال : أرسل عليّ عليـه السلام إلى معاوية : أن ابرُزْ إليّ وأعفِ الفريقين من القتال ، فأيّنا قتل صاحبهَ كان الأمر له .فقال عمرو : لقد أنصفك الرجـل ، فقال معاوية : أما أبارز الشجاع الأخرق ! أظنك ياعمرو طمِعت فيها . فلمّا لم يجب قال عليّ عليـه السلام : وانفساه ! أيطاع معاوية وأعصى ! ماقاتلت أمة قطّ أهلَ بيتِ نبيها وهى مقرّة بنبيّها غير هذه الأمّة !

ثم إنّ عليا عليه السلام أمرَ الناس أن يحملُوا على أهل الشام ،فحملوا ، فنقضوا صفوف الشام ، فقال عمرو : عَلى مَنْ هذا الرّهج الساطع ؟ قالوا : على ابنَيْك عبدالله ومحمد،فقال عمرو : ياوردان ، قدّم لوائى ، فأرسل إليه معاوية : إنه ليس على ابنَيْك بأس فلا تنقض الصفّ ، والزم موقفك ، فقال عمرو : هيهات هيهات .

اللّيثُ يَحْمِي شِبْلَيْهِ ماخيرُه بَعْد ابنَيه !

ثم تقدّم باللواء،فأدركه رسول معاوية[فقال](٣): إنه ليس على ابنيك بأس؛فلاتحملنّ،

---

(١) من صفين

(٢) صفين ٤٤٠ ، ٤٤١

(٣) من د وصفين .

فقال : قل له : إنك لم تلدهما ، وإنى أنا ولدتهما . وبلغ مقدّم الصفوف، فقال له الناس: مكانك ! إنّه لا بأس على ابنيك ؛ إنّهما فى مكان حريز . فقال : أسمعونى أصواتَهما حتى أعلمَ أحيّان هما أم قتيلان ! ونادى : ياوردان ، قدم لواءك قِيْدَ قوس ؛ فقدّم لواءه ، فأرسل علىّ عليه السلام إلى أهل الكوفة : أن احملوا ، وإلى أهل البصرة : أن احملوا . فحمل الناس من كلّ جانب ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وخرج رجل من أهل الشام ، فقال : مَنْ يبارز ؟ فبرز إليه رجلٌ من أهل العراق ، فاقتتلا ساعةً ، وضرب العراقىّ الشامىّ على رجله، فأسقط قدَمَه ، فقاتل ولم يسقط إلى الأرض، فضرَبه العراقىّ أخرى ، فأسقط يده ، فرمى الشامىّ سيفه إلى أهل الشام ، وقال : دونكم سيفى هذا ، فاستعينوا به على قتال عدوّكم. فاشتراه معاوية من أوليائه بعشرة آلاف درهم[1].

***

قال نصر : وحدّثنا مالك الجُهَنىّ ، عن زيد بن وهب ، أنّ عليًّا عليه السلام مرّ على جماعة من أهل الشام بصفّين ، منهم الوليد بن عقبة ، وهم يشتمونه ويقصبونه[2]، فأخبر بذلك ، فوقف على ناسٍ من أصحابه، وقال : انهَدُوا إليهم ، وعليكم السكينة والوقار وسيما الصالحين ، أقربْ بقومٍ من الجهل ، قائدهم ومؤدّبهم معاوية ، وابن النابغة ، وأبو الأعور [السُّلَمىّ][3] ، وابن أبى مُعيط شارب الحرام ، والمحدود[4] فى الإسلام ! [وهم أولاء][3] ، يقصبوننى ويشتموننى ، وقبل اليوم ماقاتلونى وشتمونى، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام ، وهم يدعوننى إلى عبادة الأصنام ، فالحمد لله، ولا إله إلا الله! لقديماً ماعادانى الفاسقون ، إنّ هذا لهو الخطب الجلل ؛ إنّ فساقا كانوا عندنا غيرَ مرضيّين ، وعلى الإسلام

(١) صفين ٤٤١ ، ٤٤٢
(٢) يقصبونه : يسبونه .
(٣) من صفين .
(٤) صفين : « المجلود »

وأهله متخوفين ، أصبحوا وقدخدعوا شطر هذه الأمة ، وأشربوا فى قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان ، ونصبوا لنا الحرب ، وجدّوا فى إطفاء نور الله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . اللهم فإنهم قد ردّوا الحق فافضض جمعهم ، وشتّت كلمتهم ، وأبلسهم بخطاياهم ، فإنه لا يذلّ من واليت ، ، ولا يعزّ من عاديت[1] .

* * *

قال نصر : وكان علىّ عليه السلام ، إذا أراد الحملة هلّل وكبّر ، ثم قال :

من أىّ يومىّ من الموت أفرّ أيوم لم يقدر أو يوم قُدِرْ !

فجعل معاوية لواءه الأعظم مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، فأمر علىّ عليه السلام جارية بن قُدامة السعدىّ أن يلقاه بأصحابه ، وأقبل عمرو بن العاص بعده فى خيل ، ومعه لواء ثانٍ ، فتقدّم حتى خالط صفوفَ العراق ، فقال علىّ عليه السلام لابنه محمد : امش نحو هذا اللواء رويداً ؛ حتى إذا أشرعْتَ الرماح فى صدورهم فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى . ففعل - وقد كان أعدّ علىّ عليه السلام مثلهم مع الأشتر - فلما أشرع محمد الرماح فى صدورِ القوم ، أمر علىّ عليه السلام الأشترَ أن يحمل فحمل ، فأزالهم عن مواقفهم ، وأصاب منهم رجالاً ، واقتتل الناس قتالا شديدا ، فما صلى مَنْ أراد الصلاة إلا إيماء ، فقال النجاشىّ فى ذلك اليوم يذكر الأشتر :

ولما رأينا اللواء العقاب[2] يقحمه الشانئُ الأخزرُ
كليث العرينِ خلال العجاج وأقبل فى خيله الأبترُ
دعونا لها الكبش كبشَ العراق وقد أضمر الفشلَ العسكرُ[3]
فردّ اللواء على عقبه وفاز بحظوتها الأشترُ

(١) صفين ٤٤٤ ، ٤٤٥

(٢) صفين : « رأيت اللواء لواء العقاب »

(٣) صفين : « وقد خالط العسكر العسكر »

كما كان يفعل فى مثلها إذا ناب معصَوْصِبٌ منكر
فإن يدفع الله عن نفسه فحظ العراق به الأوفرُ
إذا الأشتر الخير خَلَّى العراق فقد ذهب العرْف والمنكَرُ
وتلك العراق ومن عرفت كنقْقِع تضمّنه القرْقرُ (١)

* * *

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عتبة الكندىّ ، قال : حدثنى شيخ من حَضرموت شَهِد مع علىّ عليه السلام صِفّين ، قال : كان مِنّا رجل يعرف بهانئ بن فهد(٢) ، وكان شجاعا ، فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى البراز فلم يخرج إليه أحد ، فقال هانئ : سبحان الله ! مايمنعكم أن يخرج منكم رجل إلى هذا ! فوالله لولا أنّى موعوك، وأنّى أجدُ ضعفا شديداً لخرجت إليه . فما ردّ أحدٌ عليه ، فقام وشدّ عليه سلاحه ليخرج ، فقال له أصحابُه : ياسبحان الله ! أنت موعوك وَعْكَةً شديدة ، فكيف تخرج ! قال : والله لأخرجنّ ولو قتلنى ، فخرج ؛ فلما رآه عرفه ، وإذا الرجل من قومه من حَضرموت، يقال: له يعمر بن أسد الحضرمىّ ، فقال : ياهانئ ، ارجع فإنّه إن يخرج إلىّ رجلٌ غيرُك أحبُّ إلىّ ، فإنّى لا أحبّ قتلك . قال هانئ : سبحان الله ! أرجع وقد خرجت! لا والله لأقاتلنّ اليوم حتى أقتل ، ولا أبالى قتلتَنى أنت أو غيرك ! ثم مشى نحوه ، وقال: اللهمّ فى سبيلك ونصراً لابن عمّ رسولك . واختلفا ضربتين ، فقتله هانئ ، وشدّ أصحاب يعمر بن أسد على هانئ ، فشدّ أصحاب هانئ عليهم ، فاقتتلوا وانفرجوا عن اثنين وثلاثين قتيلا . ثم إنّ عليا عليه السلام أرسل إلى جميع العسكر : أن احملوا ، فحمل الناس كلّهم على راياتهم، كلٌّ منهم

---

(١) النقع : الكمأة الرخوة ، والقرقر : الأرض اللينة المطمئنة . والشعر فى صفين ٤٠١ ـ ٤٠٢
(٢) صفين : « ابن نمر »

يحمل عَلَى مَنْ يإزائه (١)، فتجالدُوا بالسيوف،وعُمُد الحديد ؛ لا يُسمع إلّا صوت ضرب الهامات ، كوقع المطارق على السنَّادِين، ومرّت الصلوات كلّها،فلم يصلّ أحدٌ إلا تكبيراً عند مواقيت الصلاة ؛ حتى تفانَوْا ، ورقّ الناس ، وخرج رجل من بين الصفّين ، لا يُعلَمَ مَنْ هو ، فقال : أيّها الناس ، أخرَج فيكم المحلقون؟فقيل : لا ، فقال : إنّهم سيخرُجون، ألسنتُهم أحلَى من العسل ، وقلوبهم أمرّ من الصَّبِر ، لهم حُمَة كحُمَة الحيات . ثم غاب الرجل فلم يُعلم مَنْ هو (٢) !

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن السدى،قال : اختلط أمر الناس تلك الليلة، وزال أهلُ الرايات عن مراكزهم،وتفرّق أصحابُ علىّ عليه السلام عنه،فأتى ربيعة ليلا؛ فكان فيهم،وتعاظم الأمر جدّاً،وأقبل عدىّ بن حاتم يطلُب عليا عليه السلام فى موضعه الذى تركه فيه فلم يجده ، فطاف يطلبه ، فأصابه بين رماح ربيعة ، فقال : يأمير المؤمنين؛ أمّا إذ كنت حيّا ، فالأمر أممٌ ، مامشيتُ إليك إلّا عَلَى قتيل ؛ وما أبقت هذه الوقعة لهم عميدا ، فقاتِل حتى يفتح الله عليك، فإنّ فى الناس بقيّة بعد.وأقبل الأشعث يلهث جزعاً، فلما رأى عليا عليه السلام هلّل فكبّر ، وقال : يأمير المؤمنين ، خيل كخيلٍ ورجال كرجال ؛ ولنا الفضلُ عليهم إلى ساعتنا هذه ، فعدْ إلى مكانك الذى كنتَ فيه ؛ فإنّ الناس إنما يظنّونك حيث تركوك.وأرسل سعيد بن قيس الهَمْدَانىّ إلى علىّ عليه السلام: إنّا مشتغلون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضل ، فإن أردت أن نمدّ أحداً أمددناه.فأقبل علىّ عليه السلام عَلَى ربيعة ، فقال : أنتم دِرْعى ورمحى ــ قال:فربيعة تفخَر بهذا الكلام إلى اليوم ــ فقال عدىّ بن حاتم . يأمير المؤمنين،إنّ قوما أنِسْت بهم؛وكنت فى هذه الجولة

---

(١) صفين : « لحمل الناس على راياتهم كل قوم بحيالهم »
(٢) صفين ٤٤٧ ، ٤٤٨

فيهم ، لعظيمُ حقّهم ؛ والله إنّهم لصُبُر عند الموت ، أشدّاء عنـد القتال ـ فدعا على عليه السلام بفرَس رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يقال له المرتجز ، فركبه ، ثم تقدّم أمام الصفوف ، ثم قال : بل البغلة ، بل البغلة ، فقدِّمت له بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الشهباء ، فركبها ، ثم تعصّب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت سوداء ، ثم نادى : أيّها الناس ، مَنْ يَشْرِ نفسه اللهَ يربح ، إنّ هذا ليومٌ[1] له مابعده ، إنّ عدوّكم قد مسّه القَرْح كما مسكم ، فانتدبوا لِنصرة دين الله . فانتدب له مابين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفا ، قد وضعوا سيوفَهم عَلَى عواتقهم ، فشدّ بهم على أهل الشام ، وهو يقول:

دبّوا دبيب النمل لا تفوتُوا ... وأصبِحُوا فى حربكم وبيتُوا
حتّى تنالوا الثأر أو تموتُوا ... أولا فإنى طالمـــا عُصيتُ
قد قلتمو لو جئتنـــا الجيتُ ... ليس لـكم ماشئتمُ وشيتُ
• بل مايريد المُحْيِ المميتُ •

وتبعه عدىّ بن حاتم بلوائه ، وهو يقول :

أبعـد عمّارٍ وبعــــد هاشمٍ ... وابن بُديلٍ فارس الملاحِمِ
نرجو البقاء ، ضلّ حُلْمُ الحالِمِ ... لقد عَضِضْنا أمسِ بالأباهِمِ !
فاليوم لا نقرعُ سنّ نادِمِ ... ليس امرؤٌ من حتفِهِ بسالِمِ

وحمل وحمل الأشتر بعدهما فى أهل العراق كافّة،فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا انتقض، وأهمد أهل[2] العراق ماأتوا عليه حتّى أفضى الأمر إلى مضرِب معاوية،وعلى عليه السلام يضرب الناس بسيفه قُدُماً قُدُماً ، ويقول :

---

(١) ج ، د : « إن هذا اليوم » .
(٢) صفين : « وأهمدوا ما أتوا عليه »

أضربُهمْ ولا أرى معاويهْ ... الأخزَرَ العين العظيمَ الحاويهْ

* هوتْ به النار أمٌّ هاويهْ *

فدعا معاوية بفرسه لينجوَ عليه ، فلما وضع رجله في الرّكاب توقّف وتلوّم قليلا ، ثم أنشد قول عمرو بن الإطنابة :

أبتْ لى عِفّتى وأبَى بلائى ... وأخذِى الحمدَ بالثمن الرَّبيحِ

وإقدامى على المكروهِ نفسى ... وضربى هامةَ البطلِ المشيحِ

وقَولِى كلّما جشأت وجاشتْ ... مكانَكِ تُحمَدى أو تستريحى

لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمِى بعدُ عن عِرْضٍ صحيحِ

بذى شُطَبٍ كلونِ الملح صافٍ ... ونفسٍ ما تقرّ على القبيحِ

ثم قال : يا عمرو بن العاص ، اليوم صبر وغداً فخر ، قال : صدقت ، إنك وما أنت فيه ، كقول القائل[1] :

ما علّتِى وأنا جَلْدٌ نابلُ[2] ... والقوس فيها وَتَرٌ عُنابلُ[3]

تَزِلّ عن صَفْحتِها المعابلُ[4] ... الموتُ حقٌّ والحياة باطلُ

فثنَى معاوية رجلَه من الركاب ، ونزل واستصرخ بعكٍّ والأشعريّين ، فوقفوا دونه ، وجالدُوا عنه ، حتى كرِه كلٌّ من الفريقين صاحبَه ، وتحاجز الناس[5] .

***

---

(١) صفين : « ابن أبى الأفلح » ؛ وهو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ؛ صحابى ، ذكره ابن حجر فى الإصابة ٢ : ٢٣٥ . والرجز فى اللسان ١٣ : ٥٠٦

(٢) فى اللسان : « طب خاتل » .

(٣) العنابل : الوتر الغليظ .

(٤) المعابل : جمع معبلة ؛ وهى النصل الطويل العريض .

(٥) صفين ٥٥٧ ـ ٥٦٠

قال نصر : جاء رجل إلى معاوية بعد انقضاء صِفّين وخلوص الأمر له ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ لى عليك حقًّا ، قال : وماهو؟ قال : حق عظيم ! قال ويحك! ماهو ؟ قال : أتذكر يوماً قدّمت فرسك لتفرّ ، وقد غشيَك أبو تراب والأشتر ، فلما أردت أن تستوثبه وأنت على ظهره ، أمسكتُ بعنانك وقلت لك : أين تذهب ! إنه للؤمٌ بك أن تسمَح العرب بنفوسها لك شهرين ، ولا تسمح لها بنفسك ساعة ، وأنت ابن ستين ! وكم عسى أن تعيش فى الدنيا بعد هذه السنّ إذا نجوت ! فتلوّمتَ فى نفسك ساعة ، ثم أنشدتَ شعرا لا أحفظه ثم نزلت ! فقال : ويحك ! فإنك لأنت هو ! والله ما أخلّى هذا المحل إلا أنت ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، عن النخعىّ ، عن ابن عباس ، قال : تعرّض عمرو بن العاص لعلىّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين ، وظنّ أنه يطمع منه فى غرّة فيصيبهُ ، فحمل عليه علىٌّ عليه السلام فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه ، ورفع ثوبه وشغر برجلِه ، فبدت عورتُه ، فصرف عليه السلام وجهه عنه ، [وارتُثّ (1)] ، وقام معفّراً بالتراب ، هارباً على رجليه ، معتصِماً بصفوفه . فقال أهل العراق : يا أميرَ المؤمنين : أفلت الرجل ! فقال أتدرون مَنْ هو ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه عمرو بن العاص ، تلقّانى بسوءته فصرفت وجهى عنه . ورجع عمرو إلى معاوية ، فقال : ما صنعتَ يا أبا عبدالله ؟ فقال : لقيَنى علىّ فصرعنى ، قال : احمَد الله وعورتك ، والله إنّى لأظنّك لو عرفته لما أقحمتَ عليه ، وقال معاوية فى ذلك :

ألا لله من هفواتِ عمرو يعاتبنى على تركى برازى

---

(1) من صفين .

فقد لاقى أبا حسن عليًّا ... فآب الوائلىُّ مآبَ خازِى
فلو لم يُبد عورتَه لطارت ... بمهجتِهِ قوادمُ أىّ بازى[1]
فإن تكن المنيّة أخطأته ... فقد غنّى بها أهل الحجاز !

فغضب عمرو وقال : ماأشدّ تعظيمك[عليًّا][2] أبا تراب فى أمرى ! هل[3] أنا إلّا رجل لقيَه ابن عمّه فصرعه ! أفترى السماء قاطرةً لذلك دما ! قال : لا ، ولكنها معقِبة لك خزيا[4] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : لما اشتدّ الأمر ، وعظُم على أهل الشام ، قال معاوية لأخيه عُتبة بن أبى سفيان : القَ الأشعث ، فإنه إن رضى رضيتِ العامّة ـ وكان عُتْبة فصيحا ـ فخرج فنادى الأشعث ، فقال الأشعث : سَلُوا مَنْ هو المنادى ؟ قالوا : عُتْبة ابن أبى سفيان ، قال : غلام مُتْرَف ، ولا بدّ من لقائه ! فخرج إليه ، فقال : ماعندك ياعتبة؟ فقال : أيها الرجل ، إنّ معاوية لو كان لاقيا رجلا غير علىّ للقيَك ، إنك رأسُ أهل العراق ، وسيّد أهل اليمن ، وقد سَلَفَ من عثمان إليك ماسلف من الصِّهر والعمل ، ولستَ كأصحابك ، أمّا الأشتر فقتل عثمان ، وأما عدىّ فحرّض عليه ، وأما سعيد بن قيس فقلّد عليًّا ديتَه ، وأما شُريح وزَحْر بن قيس فلا يعرفان غيرَ الهوى ، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرّما ، وحاربت أهل الشام حَمِيّة ، وقد بلغْنا منك وبلغت منا ما أردت ؛ وإنّا لا ندعوك إلى ترك علىّ ونصرة معاوية ، ولكنا ندعوك إلى البقيّة التى فيها صلاحُك وصلاحنا . فتكلّم الأشعث ، فقال : ياعُتْبة ، أمّا قولك : « إن معاوية لا يلقى إلا عليا »

(١) صفين : « به ليثا يذلل كل نازى »
(٢) صفين .
(٣) صفين : « هو » .
(٤) صفين ٤٦٣ ، ٤٦٤

فلو لقيَنى واللهِ لما عظُم عنّى، ولا صَغُرْتُ عنه، وإن أحبّ أن أجمع بينه وبين علىّ فعلت. وأما قولك: «إنى رأسُ أهل العراق، وسيّد أهل اليمن»؛ فإن الرأس المتّبَع والسيّد المطاع، هو علىّ بن أبى طالب؛ وأما ماسلَف من عثمان إلىّ، فوالله مازادنى صهره شرفا، ولا عمله عزًّا. وأما عيبُك أصحابى، فإنه لا يقرّبك منى، ولا يباعدنى عنهم؛ وأما محاماتى عن أهل العراق؛ فمن نزل بيتا حماه؛ وأما البقية فلستم بأحوجَ إليها منّا، وسنرى رأينا فيها.

فلما عاد عتبة إلى معاوية، وأبلغه قوله قال له: لا تلقَهُ بعدها؛ فإنّ الرجل عظيم عند نفسه؛ وإن كان قد جَنح للسّلم. وشاع فى أهل العراق ماقاله عُتْبة للأشعث وما ردّه الأشعث عليه؛ فقال النجاشىّ يمدحه:

يابن قيسٍ وحارثٍ ويزيدٍ ... أنتَ واللهِ رأسُ أهلِ العراقِ
أنت واللهِ حيّةٌ تنفث السـمّ ... قليلٌ منها غَناء الراقى(١)
أنت كالشمس والرجال نجومٌ ... لا يُرى ضوءها مع الإشراقِ
قد حميتَ العراقَ بالأسلِ السُّمْـ ... ـرِ وبالبيض كالبروق الرّقاق
وسَعَرتَ القتال فى الشام بالبيـ ... ـض المواضى وبالرّماح الدّقاق
لا ترى غير أذرعٍ وأكفٍّ ... ورءوسٍ بهامِها أفلاقِ(٢)
كلّمـا قلت قد تصرّمت الهيـ ... ـجا سقيتَهمْ بكأسٍ دِهاقِ
قد قضيتَ الذى عليك من الحقّ ... وسارتْ به القِلاصُ المناقى(٣)
أنت حلوٌ لمن تقرّب بالو ... دّ وللشـانئين مرُّ المذاقِ
بئسما ظنّه ابن هندٍ ومَنْ مثـ ... ـلُكَ فى الناس عند ضِيق الخناقِ!

(١) صفين: «قليل فيها».
(٢) أفلاق: جمع فلق؛ وهو المكسور.
(٣) المناقى: النياق السمينة، جمع منقية.

قال نصر : فقال معاوية لما يئس من جهة الأشعث لعمرو بن العاص : إن رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن العباس ، فلو كتبتَ إليه كتاباً لعلك ترققه ، ولعله لو قال شيئاً لم يخرج عليّ منه ؛ وقد أكلتنا الحرب ، ولا أرانا نصلُ إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام فقال عمرو : إن ابن عباس لا يُخدَع ؛ ولو طمعت فيه لطمعت في عليّ ، قال معاوية: على ذلك فاكتب ، فكتب عمرو إليه :

أما بعد ، فإنّ الذى نحن فيه وأنتم ليس بأوّل أمر قاده البلاء ؛ وأنت رأسُ هذا الجمع بعد عليّ ، فانظر فيما بقى ، ودعْ ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياةً ولا صبراً ، فاعلم أنّ الشام لا تهلِك إلّا بهلاك العراق ، وأنّ العراق لا تهلِك إلا بهلاك الشام ؛ فما خيرُنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدادِكم منّا ! ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ؛ ولكنا نقول : ليتها لم تكن ؛ وإنّ فينا مَنْ يكره اللقاء ، كما أنّ فيكم مَنْ يكرهه ؛ وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ؛ أو مؤتمَن مشاوَر وهو أنت ، فأما الأشتر الغليظ الطبع ، القاسى القلب ؛ فليس بأهل أن يدعَى فى الشورى ولا فى خواصّ أهل النجوى . وكتب فى أسفل الكتاب :

طال البلاء وما يرجَى له آسى ... بعد الإله سوى رِفْقِ ابن عباسِ

قولاله قول من يرجو مودّته[1] : ... لا تنسَ حظَّك إنّ الخاسر الناسِى

انظر فدًى لكَ نفسى قبل قاصمةٍ ... للظهر ليس لها راقٍ ولا آسِ

إنّ العراق وأهل الشام لن يجدوا ... طعم الحياة مع المستغلِق القاسى

يابن الذى زمزمٌ سقيا الحجيج له ... أعظمْ بذلك من فخرٍ عَلَى الناس!

إنى أرى الخير فى سلم الشآم لكمْ ... والله يعلم ما بالسِّلمِ من باس

فيها التقى وأمور ليس يجهلها ... إلا الجهول وما نوكى كأكياس

(١) صفين : « قول من يرضى بحظوته »

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس ،عرضه على أمير المؤمنين عليه السلام ، فضحك، وقال : قاتل الله ابنَ العاص ! ما أغرّاه بك يا عبد الله . أجبه وليردّ عليه شعرَه الفضل ابن العباس، فإنه شاعر ؛ فكتب ابن عباس إلى عمرو :

أما بعد ، فإنى لا أعلمُ أحداً من العرب أقلّ حياء منك ، إنه مالَ بك معاوية إلى الهوى فبعتَه دينَك بالثمن اليسير ، ثم خبطت الناس فى عَشْوة ؛ طمعا فى الدنيا فأعظمتَها إعظام أهلِ الدنيا ، ثم تزعم أنك تتنزّه عنها تنزُّه أهل الورع ، فإن كنت صادقا فارجع إلى بيتك ، ودعْ الطمع فى مصر والركون إلى الدنيا الفانية ، واعلم أنّ هذه الحرب ما معاوية فيها كعلىّ ؛ بدأها علىّ بالحق ، وانتهى فيها إلى العذر ، وبدأها معاوية بالبغى وانتهى فيها إلى السرف ؛ وليس أهلُ العراق فيها كأهل الشام ؛ بايعَ أهلُ العراق عليا، وهو خيرٌ منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست أنا وأنت فيها سواء ، أردتُ الله وأردتَ مصر ، وقد عرفتَ الشىء الذى باعدك منّى ، ولا أعرف الشىء الذى قرّبك من معاوية ، فإن تُرِدْ شرّا لا نسبقك به ، وإن ترد خيرا لا تسبقنا إليه . والسلام .

ثم دعا أخاه الفضل ، فقال : يا بنَ أمّ ، أجب عَمراً ، فقال الفضل :

يا عمرُو حسبُكَ من مَكْرٍ ووَسْوَاسِ ... فاذهبْ فليس لداء الجهل من آسِ

إلا تواتر طعــــنٍ فى نحورِكمُ ... يُشْجِى النفوسَ وَيَشْفِى نخوة الرّاسِ

أمّا علىٌّ فإن الله فَضّـــلـــه ... بفضلِ ذى شرفٍ عالٍ على النّاسِ

إن تعقلوا الحربَ نعقلْها مخيّســـةً ... أو تبعثوها فإنّا غـــير أنكاسِ (١)

---

(١) بعده فى صفين :

قَدْ كانَ مِنّا ومنكمْ فى مجاجِنِها ... مالا يردُّ ، وكلّ عُرْضَةُ البَاسِ

قَتْلَى العراق بقتلَى الشام ذاهبةٌ   هذا بهذا ، وما بالحقّ من باس (١)

ثم عرض الشعرَ والكتاب على علىّ عليه السلام،فقال : لا أراه يُجيبك بعدها أبدا بشىء إن كان يعقل ؛ وإن عاد عُدْتَ (٢) عليه . فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عَرَضه على معاوية ، فقال : إنّ قلْب ابن عباس وقلْب علىّ قلب واحد ، وكلاهما ولَد عبد المطلب ، وإن كان قد خَشُن فلقدْ لان ، وإن كان قد تعظَّم أوْ عَظَّم صاحبه ، فلقد قارب وجنح إلى السّلم .

قال نصر : وقال معاوية لأكْتُبَنّ إلى ابن عباس كتاباً أستعرض فيه عقله ، وأنظر ما فى نفسه ، فكتب إليه :

أما بعد ، فإنّكم معشرَ بنى هاشم لستم إلى أحدٍ أسرعَ بالمساءة منكم إلى أنصار ابن عفّان ؛ حتى إنّكم قتلتم طلحةَ والزبير ؛ لطلبهما دَمَه ، واستعظامِهما مانيلَ منه، فإن كان ذلك منافسةً لبنى أميّة فى السلطان ، فقد وَلِيَها عدىّ وتَيْم فلمْ تنافسوهم ، وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ماترى ، وأكلتْ هذه الحروبُ بعضُها بعضاً ؛ حتى استوينا فيها ، فما يطمِعكم فينا يطمِعُنا فيكم،وما يؤيسنا منكم يؤيسكم منّا؛ولقد رجونا غير ما كان ، وخشِينا دونَ ماوقع ، ولست ملاقينا اليومَ بأحدَّ من حَدّ أمس ، ولا غداً بأحدّ من حَدّ اليوم ، وقد قنعْنا بما فى أيدينا من مُلك الشام ، فاقنعوا بما فى أيديكم من مُلك العراق ، وأبقُوا على قريش ، فإنّما بَقِىَ من رجالها ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز ، فأمّا اللذان بالشام فأنا وعمرو ، وأمّا اللذان بالعراق فأنت

---

(١) بعده فى صفين :

لا بارَكَ اللهُ فى مصرٍ لقدْ جلبتْ   شرًّا وحظُّكَ مِنْهَا حُسْوَةُ الكاسِ

ياعمرو إنّكَ عارٍ منْ مَغارِمِها   والراقصاتِ ومِنْ يوم الجزا كاسِ

(٢) صفين : « قصود إليه » .

وعلىّ ، وأما اللّذان بالحجاز ، فسعد وابن عمر ؛ فاثنان من الستّة ناصبان لك ، واثنان واقفان فيك ، وأنت رأسُ هذا الجمع ؛ ولو بايعَ لك النّاسُ بعد عثمان كُنّا إليك أسرعَ منّا إلى علىّ [1] .

فلما وصل الكتابُ إلى ابن عبّاس أسخطه ، وقال : حتّى مَتَى يخطب ابنُ هندٍ إلىّ عقلى ! وحتّى متَى أجمجم على مافى نفسِى ! وكتب إليه :

أما بعد [فقد] [2] أتانى كتابك ، وقرأته . فأما ماذكرتَ من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفّان ، وكراهتنا لسلطان بنى أمية ،فلَعمرى لقد أدركتَ فى عثمان حاجتَك حين استنصرك فلم تنصره ؛ حتى صرت إلى ماصرتَ إليه . وبينى وبينك فى ذلك ابنُ عمّك وأخو عثمان ، وهو الوليدبن عقبة . وأما طلحة والزبير ، فإنّهما أجلباعليه وضيّقا خناقه ، ثم خرجا ينقُضان البَيْعة ، ويطلبان المُلْك ، فقاتلناهما على النّكث ، كما قاتلناكَ على البغى . وأمّا قولك : إنه لم يبقَ من قريش غيرُ ستة ، فما أكثرَ رجالها ، وأحسن بقيّتها ! وقد قاتلك من خيارها مَنْ قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خَذَلك . وأما إغراؤُك إيانا بعدىّ وتَيم،فإن أبا بكر وعمرخيرٌ من عثمان ، كما أن عثمان خير منك،وقد بقِىَ لك منّا ماينسيك ماقبله ، وتخاف مابعده . وأمّا قولك : لو بايع الناس لِى لاستقامُوا!فقد بايع النّاس عليا وهو خيرٌ منّى فلم يستقيموا له . وما أنت والخلافةَ يامعاوية ! وإنما أنت طليق وابن طليق ! والخلافة للمهاجرين الأوّلين ؛ وليس الطُّلقاء منها فى شىء ! والسلام .

فلما وصل الكتاب إلى معاوية،قال : هذا عملى بنفسى ، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة . وقال :

---

(١) بعدها فى صفين : « فى كلام كثير كتب إليه » .
(٢) من صفين .

دعوتُ ابنَ عبّاس إلى جلِّ حظّه ... وكان امرأً أهدى إليه رسائلي
فأخلف ظني والحوادث جمّةٌ ... وما زاد أن أغلى عليه مراجلي
فقل لابن عباس : أراك مخوِّفا ... بجهلك حلمي ، إنني غير غافل
فأبرِق وأرعِد ما استطعت فإنني ... إليك بما يشجيك سَبْطُ الأنامل(١)

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : عقد معاوية يوماً من أيام صفّين الرياسة على اليمن من قريش ، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم ؛ منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد وعتبة ابنا أبي سفيان ، وبُسْر بن أبي أرطاة ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وذلك في الوقعات الأولى من صِفّين ، فغمّ ذلك أهلَ اليمن ، وأرادوا ألّا يتأمّرَ عليهم أحدٌ إلّا منهم . فقام إليه رجل من كِنْدة ، يقال له عبد الله بن الحارث السَّكونيّ ، فقال : أيّها الأمير ، إنّي قد قلت شيئاً فاسمعه ، وضعه منّي على النصيحة ، قال : هات ، فأنشده :

مُعاويَ أحييتَ فينا الإحَنْ ... وأحدثت بالشّام مالم يكُنْ
عقدتَ لبُسْرٍ وأصحابه ... وما النّاس حولَكَ إلاّ اليَمَنْ
فلا تَخلِطنّ بنا غيرَنا ... كما شيب بالماء صَفْوُ اللّبَنْ(٢)
وإلاّ فدعنا عَلَى حالنا ... فإنا وإنّا إذا لم نُهَنْ
ستعلم إن جاش بحرُ العراقِ ... وأبدى نواجذَه في الفتَنْ
وشدَّ عليٌّ بأصحابِهِ(٤) ... ونفسُك إذ ذاكَ عندالذّقَنْ

---

(١) صفين : « حد » .
(٢) صفين ٤٧٢ ، ٤٧٣
(٣) صفين : « محض اللبن »
(٤) صفين : « على وأصحابه »

بأنا شعارُك دونُ الدِّثارِ وأنَا الرماحُ وأنَا الجُنَنْ
وأنَا السيوفُ ، وأنَا الحتوفُ وأنَا الدُّروع ، وأنَا المِجَنّ

قال : فبكى لها معاوية ، ونظر إلى وجوه أهل اليمن ، فقال : أعن رضاكم يقول ماقال ؟ قالوا : لا مرحباً بما قال ؛ إنّما الأمرُ إليك فاصنع ما أحببت . فقال معاوية : إنما خلطتُ بكم أهلَ ثقتي ، ومَنْ كان لي فهو لكم ؛ ومنْ كان لكم فهو لي . فرضيَ القومُ وسكتوا ، فلمّا بلغ أهلَ الكوفة مقالُ عبد الله بن الحارث لمعاوية [فيمن عقد له من رءوس أهل الشام][1] ، قام الأعور الشَّنيّ إلى عليّ عليه السلام ؛ فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية ، ولكن نقول : زاد الله في سرورك[2] وهداك ! نظرتَ بنور الله ، فقدّمت رجالا ، وأخّرتَ رجالا . عليك أن تقول ، وعلينا أن نفعل . أنت الإمام ، فإن هلكتَ فهذان من بعدك ـ يعني حسنا وحسينا عليهما السلام ـ وقد قلتُ شيئا فاسمعه ، قال : هات ، فأنشده :

أبا حسنٍ أنت شمسُ النهارِ وهذانِ في الحادثاتِ القمَرْ
وأنت وهذان حتى المماتِ بمنزلةِ السَّمْعِ بَعْدَ البصَرْ
وأنتمْ أناس لكم سَوْرَةٌ تقصّر عنها أكفّ البَشَرْ
يخبِّرُنا النّاس عن فضلكمْ وفضلُكمُ اليومَ فوق الخبَرْ
عقدت لقومٍ أولى نجدةٍ من أهلِ الحياء وأهلِ الخطَرْ[3]
مساميحُ بالموت عند اللقا ءِ منّا وإخواننا من مُضَرْ
ومن حيّ ذي يَمَن جِلّةٌ يقيمون في النّائبات الصُّعُرْ
فكلٌّ يسرّك في قومه ومن قال لا ، فبفيهِ الحَجَرْ

---

(١) من صفين .
(٢) صفين : « زاد الله في سرورك وهداك »
(٣) صفين ١٨٣ ، ١٨٤

ونحنُ الفوارسُ يومَ الزبير وطلحة إذ قيل أودى غُدَرْ
ضربناهمُ قبلَ نصفِ النهار إلى الليل حتى قضينا الوطَرْ
ولم يأخذ الضربُ إلا الرءوسَ ولم يأخذ الطعنُ إلا الثُّغَرْ
فنحنُ أولئك في أمسنا ونحن كذلك فيما غَبَرْ

قال : فلم يبق أحدٌ من الرؤساء إلا وأهدى إلى الشَّنّيّ ، [أو أتحفه] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، قال : لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، دعا عمرو بن العاص ، وبُسْر بن أبي أرطاة ، وعُبيدَ الله ابن عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فقال لهم : إنّه قد غمّني مقامُ رجال من أصحاب عليّ ، منهم سعيد بن قيس الهَمْداني في قومه ، والأشتر في قومه ، والمِرْقال ، وعديّ بن حاتم ، وقيس بن سعد في الأنصار ، وقد علمتم أنّ يمانيتكم وقتكم بأنفسها أياماً كثيرة ، حتى لقد استحييتُ لكم ، وأنتم عِدّتهم من قريش ، وأنا أحبّ أن يعلم الناس أنكم أهلُ غنائه ، وقد عبّأت لكلّ رجلٍ منهم رجلًا منكم ، فاجعلوا ذلك إليّ ، قالوا : ذاك إليك ، قال : فأنا أكفيكم غداً سعيد بن قيس وقومَه ، وأنت يا عمرو للمرقال أعور بني زهرة ، وأنت يا بسرُ لقيس بن سعيد ، وأنت يا عُبيد الله للأشتر ، وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيّئ ـ يعني عديّ بن حاتم ـ وقد جعلتها نُوَباً في خمسة أيام ، لكلّ رجلٍ منكم يوم ، فكونوا على أعِنّة الخيل ، قالوا : نعم ، فأصبح معاوية في غدِه ، فلم يدعْ فارسا إلا حَشَده ، ثم قصد لهَمْدان بنفسه ، وارتجز فقال :

لن تمنعَ الحرمةَ بعد العامِ بين قتيلٍ وجريحٍ دامِ (١)
سأملِكُ العراقَ بالشآمِ أنعَى ابنَ عفانٍ مَدَى الأيامِ

---

(١) قبله في صفين :

لا عَيشَ إلّا فلْقَ قِحْفِ الهامِ من أرحبٍ وشاكرٍ وشبامِ

فطعن فى أعرض الخيل مليًّا . ثم إن همدان تنادت بشعارها ، وأقحم سعيد بن قيس فرسَه على معاوية ، واشتدّ القتال حتى حجز بينهم الليل ، فهمْدان تذكر أنّ سعيدا كاد يقتنصه ؛ إلا أنه فاته ركضًا ، وقال سعيد فى ذلك :

يالهفَ نفسى فاتنى معاويهْ   فوق طمِرٍّ كالعُقاب هاوِيَهْ

* والراقصاتِ لا يعودُ ثانيهْ (١) *

قال نصر : وانصرف معاوية ذلك اليوم ، ولم يصنع شيئا ، وغدا عمرو بن العاص فى اليوم الثانى فى حُماة الخيل ، فقصد للمرقال ، ومع المرقال لواء علىّ عليه السلام الأعظم فى حماة الناس ، [وكان عمرو من فرسان قريش (٢)] ، فارتجز عمرو ، فقال :

لاعيشَ إن لم ألقَ يوماً هاشما   ذاك الذى جَشّمنِى المجاشما (٣)

ذاكَ الذِى يشتِمُ عِرْضى ظالما   ذاكَ الذِى إن يَنْجُ منّى سالما

* يَكُنْ شَجًى حتّى المماتِ لازما *

فطعن فى أعراض الخيل مُزْبداً ، وحمل المرقال عليه ، وارتجز فقال :

لا عَيْشَ إن لم ألقَ يوماً عَمْرَا   ذاكَ الّذِى أحدث فينا الغَدْرَا

أو يبدّلَ الله بأمرٍ أمرا (٤)   لا تجزعى يا نفسُ صبْراً صَبْرَا

ضَرْباً هَذَا ذَيكَ وطَعْناً شَزْرَا (٥)   ياليت ما تجنِى يكونُ القبرا !

---

(١) والرقص : ضرب من سير الإبل ، وبعده فى صفين :

إلّا على ذاتِ خَصيلٍ طَاوِيَهْ   إنْ يَعْدُ اليومَ فكفّى عاليَهْ

(٢) من صفين .

(٣) بعده فى صفين :

* ذَاكَ الذى أقامَ لى المآتِما *

(٤) صفين : « أو يحدث الله لأمر أمرا »

(٥) هذا ذيك ، أى هذًّا بعد هذ ، يعنى قطعا بعد قطع .

فطاعن عمرا حتى رجع ، وانصرف الفريقان بعد شدّة القتال ، ولم يسرّ معاوية ذلك ، وغدًا بُسر بن أبى أرطاة فى اليوم الثالث فى حماة الخيل ، فلقى قيس بن سعد ابن عبادة فى كُماة الأنصار ، فاشتدّت الحرب بينهما ، وبرَزَ قيس كأنه فَنيقٌ مُقْرَم ، وهو يقول :

أنا ابنُ سعدٍ زانهُ عُبادَهْ   والخزرجيّون كماةٌ سادَهْ
ليس فرارى فى الوغى بعادَهْ   إنّ الفِرار للفتى قِلادَهْ
يارَبِّ أنت لقِّنِي الشهادَهْ   فالقتلُ خير من عناقِ غادَهْ
* حتّى متى تُثْنَى لى الوِسادَهْ *

وطاعن خيل بُسر ، وبرز بُسْر فارتجز وقال :

أنا ابن أرطـــاةَ العظيمُ القَدْرِ   مُرَدَّدٌ فى غالبٍ وفهرِ
ليس الفِرّار من طباع بُسْرِ   إن أرجِــع اليوم بغيرِ وِترِ
وقد قضيتُ فى العـــدوّ نذرِى   ياليت شعرى كم بقِى من عمرى !

ويطعن بُسرٌ قيسا ، ويضرب به قيس بالسيف ، فردّه على عقِبيْه ، ورجع القوم جميعا ، ولقيس الفضل ، وتقدّم عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى اليوم الرابع ؛ لم يترك فارسًا مذكورا إلا جمعه ؛ واستكثر ما استطاع ، فقال له معاوية : إنّك اليوم تلقى أفعى أهل العراق ، فارفق واتئد ، فلقيَه الأشتر أمام الخيل مُزبداً ــ وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد ــ وهو يقول :

يارَبِّ قيِّض لِى سيوف الكفَرَهْ   واجعل وفاتى بأكفّ الفَجَرَهْ
فالقتل خيرٌ من ثياب الحِبَرَهْ   لا تعدلُ الدّنيا جميعا وَبَرَهْ
* ولا بعوضاً فى ثواب البرَرَهْ *

وشدّ على الخيل خيل الشام ، فردّها . فاستحيا عبيد الله وبرز أمام الخيل ـ وكان فارسا شجاعا ، وقال :

أنمى ابن عفانٍ وأرجو ربّى ذاك الّذى يخرجنى من ذنبى
ذاك الّذى يكشف عنّى كربى إنّ ابنَ عفّـان عظيمُ الخطبِ
يأبى له حُبّى بـــكل قلبى إلا طِعـــانى دونه وضربى

• حَسْبى الذى أنويه حَسْبى حَسْبى •

فحمل عليه الأشتر ، وطعنه واشتدّ الأمر ، وانصرف القوم ، وللأشتر الفضل . فغمّ ذلك معاويةَ ، وغدا عبد الرحمن بن خالد فى اليوم الخامس ، وكان رجاء معاوية أن ينال حاجتَه ، فقوّاه بالخيل والسلاح ، وكان معاوية يعدّه ولدا ، فلقيَه عدىّ بن حاتم فى كُماة مَذحِـج وقُضاعة ، فبرز عبد الرحمن أمام الخيل ، وقال :

قُلْ لعدىٍّ ذَهَبَ الوعيـدُ أنا ابن سيفِ الله لا مزيدُ
وخالدٌ يزينـــه الوليدُ ذاك الّذى قيل له الوحيدُ(١)

ثم حمل فطعن الناس ، فقصده عدىّ بن حاتم ، وسدّد إليه الرمح ، وقال :

أرجُو إلهى وأخـافُ ذَنْبى ولستُ أرجو غـيرَ عَفْوِ ربّى
يا بنَ الوليد بغضـكم فى قلْبى كالهَضْب بل فوق قِنان الهَضْبِ

فلما كاد أن يخالطه بالرمح ، توارى عبد الرحمن فى العَجاج ، واستتر بأسنّة أصحابه واختلط القوم ، ثم تحاجزوا ، ورجع عبد الرحمن مقهوراً ، وانـكسر معاوية ؛ وبلغ أيمن بن خزيم ما لقىَ معاوية وأصحابه ، فشمِت بهم ـ وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام وكان معتزلا للحرب فى ناحية عنها ، فقال :

---

(١) صفين : « ذاك الذى هو فيكم الوحيد » .

معاوىَ إنّ الأمرَ لله وحــدَهُ ... وإنك لا تستطيع ضُرّا ولا نفعا

عبأتَ رجالًا من قُريشٍ لعُصْبَةٍ ... يمانيةٍ لا تستطيع لهـــا دَفْعَا

فكيف رأيتَ الأمر إذ جدّ جِدّه ... لقد زادك الأمر الذى جئته جَدْعا

تمنّى لقيسٍ أو عدىّ بن حاتم ... والأشترِ، يالنّاس أغمارك الجُذْعا[1]

وتجعـــلُ للمرقالِ عمراً وإنه ... لليثٌ لَقِى من دون غايته ضَبْعاً

وإنّ سعيداً إذ برزتَ لرمحِه ... لفارس همْدان الذى يشعَب الصّدْعا

مليٌّ بضرْب الدارعين بسيفِه ... إذا الخيل أبدَتْ من سنابكها نَقْعاً

رجعتَ فلم تظفرْ بشىء تُريدُهُ ... سوى فرسٍ أعيت وأبْت بها ظَلْعاً

فدعهمْ فلا والله لا تستطيعهمْ ... مجاهرةً ؛ فاعمل لقهرهمُ خَدْعا

قال : وإنّ معاوية أظهر لعمرو شماتة، وجعل يقرّعه ويوبّخه ، وقال: لقد أنصفتكم؛ إذ لقيت سعيد بن قيس فى همْدان ، وفررتم . وإنك لجبان ياعمرو ! فغضب عمرو ، وقال: فهلاّ برزت إلى علىّ إذ دعاك إن كنت شجاعا كما تزعم ! وقال :

تسير إلى ابنِ ذى يزنٍ سعيدٍ ... وتترك فى العجاجة مَنْ دَعَاكا

فهلْ لك فى أبى حسنٍ علىٍّ ... لعلّ الله يُمْكِنُ مِنْ قفاكا !

دعاك إلى البرازِ فلم تجبْـــهُ ... ولو نازلتـــه تربَتْ يَدَاكا

وكنت أصمّ ، إذ ناداك عنها ... وكان سكوتُه عنهـــا مُناكا

فآب الكبْش قد طَحَنَتْ رَحَاهُ ... بنجْدتِهِ وما طَحَنَتْ رَحاكا

فما أنصفتَ صحبَك يابنَ هنـدٍ ... أتفرقه وتغضب مَنْ كفاكا

فلا والله ما أضمرْتَ خـــيراً ... ولا أظهرتَ لِى إلّا هواكا

(١) الأغمار : جمع غمر ، وهو من لا تجربة له ، والجذع : جمع أجذع ، وهو السيء الغذاء .

قال : وإن القرشيِّين استحيَوْا ماصنعوا ، وشمِت بهم اليمانيةُ من أهل الشام ، فقال معاوية : يامعشر قريش؛واللهِ لقد قرّبكم لقاء القوم إلى الفتح ؛ ولكن لامَرَدَّ لأمرِ الله؛ ومِمَّ تستحيون ! إنما لقيتم كِباش العراق،فقتلتم منهم وقتلوا منكم،ومالكم علىّ من حجة. لقد عبأت نفسى لسيّدهم وشجاعهم سعيد بن قيس . فانقطعوا عن معاوية أياما ، فقال معاوية [فى ذلك] [1] :

لعمرى لقد أنصفتُ والنَّصْفُ عادتى ... وعاين طعناً فى العَجاج المعاينُ
ولولا رجائى أن تئوبوا بُنهزةٍ [2] ... وأنْ تغسِلوا عاراً وَعَتْهُ الكنائنُ
لناديت للهيجا رجالًا سواكمُ ... ولكنما تحمى الملوكَ البطائنُ
أتدرونَ مَنْ لاقيتمُ ، فَلَّ جيشكمْ ! ... لقيتمْ ليوثاً أصحرتْها العرائنُ [3]
لقيتمْ صناديد العِراق ومَنْ بهم ... إذا جاشت الهيجاء تُحْمَى الظعائنُ
وما كان منكم فارسٌ دون فارسٍ ... ولكنّه ماقدّر الله كائنُ !

فلما سمع القوم ماقاله معاوية ، أتوه فاعتذروا إليه ، واستقاموا إليه على مايحب [4] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر ، قال : لما اشتدّ القتال وعظُم الخطب ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : أن قدّم عكّا والأشعريين إلى مَنْ بإزائهم. فبعث عمرو إليه أنّ بإزاء عكٍّ هَمْدان [5] . فبعث إليه معاوية : أنْ قدّم عكّا ، فأتاهم عمرو ، فقال : يامعشر عكّ،إنّ عليا قد عرف أنكم حىّ أهل الشام،فعبأ لكم حَىّ أهل العراق همْدان،

(١) من صفين
(٢) صفين : « أن تبوءوا »
(٣) أصحرتها : أبرزتها . والعرائن : جمع عرين ؛ مسكن الأسد .
(٤) صفين ١٨٢ ـ ١٩٢
(٥) صفين : « أن همدان بإزاء عك » .

فاصبروا وهَبُوا إلىّ جاجكم ساعة من النهار ؛ فقد بلغ الحقّ مقطَمَه . فقال ابن مسروق العكيّ : أمهلنى حتى آتِيَ معاوية ، فأتاه فقال : يامعاوية ، اجعلْ لنا فريضةً ألفٍ رجل فى ألفين ألفين ، ومَنْ هلك فابنُ عَمّه مكانه ؛ لتقرّ اليوم عينُك. فقال : لك ذلك، فرجع ابنُ مسروق إلى أصحابه ، فأخبرَهم الخبر ، فقالت عكّ : نحن لهَمْدان ، ثم تقدّمت عكّ ، ونادى سعيد بن قيس : ياهمْدان ، أن تقدّموا [1] ! فشدّت هَمْدان على عكّ رجّالة ، فأخذت السيوفُ أرجُلَ عكّ ، فنادى ابن مسروق :

* يالعكٍّ بَرْكاً كبركِ الكَمَلْ *

فبركوا تحت الحجَفَ ، فشجرتْهم [2] همْدان بالرماح ، وتقدّم شيخ من همْدان ، وهو يقول :

يالبَكِيلٍ لخمُها وحاشِدُ [3] نفسى فداكمْ طاعِنُوا وجالِدُوا
حتى تخرّ منكم القماحدُ [4] وأرجلٌ يتبعها سواعدُ
* بذاك أوصى جدّكم والوالدُ *

وقام رجل من عكّ ، فارتجز فقال :

تدعون همْدان وندعو عكّا بكّوا الرجالَ يالعكٍّ بكّا
إن خَدّمَ القومُ فبركاً بَرْكاً لا تدخِلوا اليومَ عليكم شكّا [5]
* قد محك القومُ فزيدوا محْكاً *

---

(١) صفين : « خدموا »
(٢) صفين : « وشجروهم بالرماح » ، وشجروهم : طعنوهم .
(٣) بكيل وحاشد : من بطون همدان .
(٤) القماحد : جمع قمحدة ، وهى ما أشرف على القفا من عظم الرأس .
(٥) خدموا ، أى اضربوا موضع الخدمة ؛ وهى الخلخال ، يعنى اضربوهم فى سوقهم

قال : فالتقى القومُ جميعا بالرماح، وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل. فقالت همدان : يامعشر عَكّ ، نحن نقسم بالله إننا لا ننصرف حتى تنصرفوا. وقالت عكّ مثل ذلك ، فأرسل معاوية إلى عكّ أن أبِرّوا قَسَم [1] إخوتكم وهلمّوا . فانصرفت عكّ ، فلما انصرفت انصرفت همْدان ، فقال عمرو : يامعاوية ، والله لقد لقيتُ أسْد أسْداً ؛ لم أرَ والله كهذا اليوم قطّ لو أنّ معك حيّا كعكّ ، أو مع علىّ حىّ كهمْدان لكان الفناء .

وقال عمرو فى ذلك :

إنّ عكّاً وحاشــداً وبَكيلا كأسود الضّراء لاقتْ أسودَا
وجثَا القومُ بالقنـــا وتساقوْا بظُباةِ السيوف موتا عتيــدا
ازورار المناكب الغلْبِ بالشُّــمّ وضربِ المسوّمين الخدودا
ليس يدرون ما الفرار ولو كا ن فراراً لكان ذاك سديدا
يعـلم الله مارأيت من القو م ازوراراً ، ولا رأيت صدودا
غير ضرب فوق الطُّلَى ، وعلى الها م وقرع الحديد يعلو الحديدا
ولقد قال قائل خدّموا السُّو ق ، فخرّت هناك عكّ قعودا
كبُروك الجمال أثقلهـــا الحِمْـــلُ فـــا تستقلّ إلا وئيدا

قال : ولما اشترطت عكّ والأشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم ، لم يبقَ من أهل العراق أحدٌ فى قلبه مرض إلا طمع فى معاوية ، وشخص [2] ببصره إليه ؛ حتى فشا ذلك فى الناس ، وبلغ عليا عليه السلام ، فساءه [3] .

* * *

(١) صفين : أبروا قسم القوم
(٢) صفين : « وشخص بصره إليه » .
(٣) صفين ٤٨٥ ، ٤٩٤

قال نصر : وجاء عدىّ بن حاتم يلتمس عليا عليه السلام ، ما يطأ إلا على قتيل أو قدَم أو ساعِدٍ ، فوجده تحت رايات بكر بن وائل ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ألا تقومُ حتى نقاتلَ إلى أن نموت ! فقال له علىّ عليه السلام : ادنُ ، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه ، فقال: ويحك! إن عامّة مَنْ معى اليوم يعصينى ، وإنّ معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه !

قال نصر : وجاء المنذر بن أبى حَميصة الوداعىّ ـ وكان شاعر همْدان وفارسها ـ عليًّا عليه السلام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ عكًّا والأشعريّين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا ؛ وإنّا قد رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية ؛ والله لآخرتُنا خيرٌ من دنياهم ، ولعراقنا خيرٌ من شآمهم ، ولإمامنا أهدى من إمامهم ؛ فاستفتِحنا بالحرب ، وثق منّا بالنصر ، واحمِلنا على الموت ، وأنشده :

إن عكًّا سألوا الفرائض والأشـ ... ـعَرَ سألوا جوائزًا بَثَنِيّهْ[1]

تركوا الدّين للعطاء وللفَرْ ... ض ، فكانوا بذاك شرّ البريّهْ

وسألنا حُسْنَ الثواب من اللهِ ... وصبرًا على الجهاد ونيّهْ

فلكلٍّ ماساله ونواهُ ... كلّنا يحسب الخلافَ خطيّهْ

ولأهلُ العراق أحسن فى الحرْ ... ب إذا ما تدانَتِ السّمهريّهْ

ولأهلُ العراق أحمل للثِّقْلِ ... إذا عمّت البلادَ بليّهْ

ليس منّا من لم يكن فى الله ... وليًّا ياذَا الولَا والوصيّهْ

فقال علىّ عليه السلام : حسبك الله! يرحمك الله ! وأثنى عليه وعلى قومه خيرا . وانتهى شعره إلى معاوية ، فقال: والله لأستميلنّ بالدنيا ثقاتِ علىّ ، ولأقسمنّ فيهم الأموال حتى تغلِب دنياى آخرتَه .

قال نصر : فلما أصبح النّاس غدوْا على مصافهم ، وأصبح معاوية يدورُ فى أحياء اليمن ، وقال : عبُّوا إلىّ كلّ فارس مذكور فيكم ، أتقوّى به على هذا الحىّ من همْدان

---

(١) بثنية : منسوب إلى بثنة ، قرية بالشام .

فخرجت خيل عظيمة ، فلما رآها علىّ عليه السلام وعرف أنها عيونُ الرجال ، فنادى : يالَهَمْدان ! فأجابه سعيد بن قيس ، فقال له علىّ عليه السلام : احمل ، فحمل حتى خالط الخيل بالخيل ، واشتدّ القتال ، وحطّمتهم همْدان حتى ألحقتْهم بمعاوية؛ فقال معاوية: مالقيت من همدان ! وجزع جزعا شديدا ، وأسرع القتل فى فرسان الشام ، وجمع علىّ عليه السلام همْدان ، فقال لهم : يامعشر همْدان ، أنتم درْعى ورمحى ومِجَنّى ، ياهمدان مانصرتم إلا الله ، ولا أجبتم غيرَه . فقال سعيد بن قيس : أجَبْنا الله وأجَبْناك ، ونصرْنا رسول الله فى قبره ، وقاتلنا معك مَنْ ليس مثلك ، فارمِنا حيث شئت .

قال نصر : وفى هذا اليوم قال علىّ عليه السلام :

ولو كنتُ بوّابا على باب جَنّةٍ لقلتُ لهمْدانَ ادخلى بسلامِ

فقال علىّ عليه السلام لصاحب لواء همْدان : اكفِنى أهل حِمْص ، فإنى لم ألقَ من أحدٍ مالقيت منهم . فتقدّم وتقدّمت همْدان ، وشدّوا شدّةً واحدة على أهل حِمْص ، فضربوهم ضربا شديدا متداركا ، بالسيوف وعُمُد الحديد ، حتى ألجئوهم إلى قبة معاوية ، وارتجز من همْدان رجل ، عِدَادُه فى أرْحب ، فقال :

قدْ قتلَ اللهُ رجالَ حِمْصِ غُرّوا بقولِ كذِبٍ وخَرْصِ
حِرْصاً على المال وأىّ حِرْصِ! قد نكَصَ القومُ وأىَّ نَكْصِ !
* عن طاعةِ اللهِ وفحوى النَّصِّ *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعدٍ ، قال : لما ردّت خيول معاوية أسِف فجرّد سيفه وحمل فى كُماة أصحابه ، فحملت عليه فوارس همْدان ، ففاز منها ركضا ، وانكسرت كُماته ورجعت همْدان إلى مراكزها ، فقال حُجر بن قحطان الهمْدانىّ ، يخاطب سعيد ابن قيس :

ألا ابنَ قيس قرّت العينُ إذ رأتْ فوارسَ همْدان بن زيد بن مالكِ
على عارفاتٍ للقاء عوابس طوالَ الهوادي مشرفاتِ الحواركِ
معوّدة للطعن في ثغرانها يجُلْنَ فيحطمْن الحصَى بالسنابكِ
عَبَاها عليّ لابن هند وخيله فلو لم يفتها كانَ أوّل هالكِ
وكانت له في يومه عند ظنّه وفي كلّ يوم كاسِف الشمس حالكِ
وكانتْ بحمد الله في كلّ كُرْبةٍ حُصونًا وعزًّا للرجال الصّعالكِ
فقل لأمير المؤمنين: أن ادعُنا متى شئت إنّا عُرْضة للمهالك(١)
ونحن حطَمْنا السُّمْرَ في حيّ حِمير وكِندة والحيّ الخفاف السكاسك
وعكّ ولخم شائلينَ سياطَهُمْ حذارَ العوالي كالإماء العوارك(٢)

***

قال: نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن رجاله، أنّ معاوية دعا يومًا بصفّين مروان ابن الحكم، فقال له: إنّ الأشتر قد غمّني وأقلقني، فاخرج بهذه الخيل في يحصُب والكلاعيين، فالقه: فقال مرْوان: ادع لها عمرا، فإنه شعارك دون دِثارك. قال: فأنت نفسي دون وريدي. قال: لو كنتُ كذلك ألحقتَني به في العطاء، وألحقتَه بي في الحِرْمان، ولكنك أعطيتَه ما في يدك، ومنّيته ما في يد غيرك، فإن غَلَبت طاب له المقام، وإن غُلِبتَ خفّ عليه الهرب. فقال معاوية: سيغنى الله عنك. قال: أمّا إلى اليوم فلم يغنِ. فدعا معاوية عمرا، فأمره بالخروج إلى الأشتر، فقال: أما إني لا أقول لك ما قال مروان، قال: وكيف تقوله وقد قدّمتُك وأخّرته، وأدخلتُك وأخرجته! قال: أما والله إن كنتَ فعلتَ، لقد قدّمتني كافيا، وأدخلتَني ناصحا؛ وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر، وإن كان لا يرضيهم

---

(١) صفين: «إذا شئت».
(٢) العوارك: الحوائض.

إلا رجوعُك فيما وثِقت لى به منها فارجع فيه . ثم قام فخرج فى تلك الخيل،فلقيَه الأشتر أمام القوم ، وقد علم أنه سيلقاه ، وهو يرتجز ويقول :

يا ليتَ شعرِى كيف لى بعمرِو ... ذاكَ الذى أوجبتُ فيه نَذْرِى !

ذاكَ الذِى أطلبُه بوِترِى ... ذاكَ الذى فيه شفاء صدرِى

مَنْ بائِنِى يوماً بكلّ عمرى ... يُغْلِى به عند اللقاء قَدْرِى

أجعله فيه طعام النَّسرِ ... أو لا فربِّى عاذِرِى بعذرى

فلما سمع عمرو هذا الرجز ، فشل [1] وجَبُن ، واستحيا أن يرجع ، وأقبل نحو الصوت ، وقال :

يا ليت شعرِى كيف لى بمالكِ ؟ ... كم كاهلٍ جببتُه وحارِكِ ! [2]

وفارسٍ قتلتُه وفاتكٍ [3] ... ومُقْدِمٍ آب بوجهٍ حالكٍ

* مازلت دهرى عرضة المهالك [4] *

فغشيَه الأشتر بالرمح ، فراغ عمرو عنه ، فلم يصنع الرمح شيئا ، ولوَى عَمْرو عِنان فرسه ، وجعل يده على وجهه ، وجعل يرجع راكضا نحو عسكره . فنادى غلامٌ من يَحْصُب : ياعمرو ، عليك العَفَا ما هبت الصبا ؛ يا آل حمير [إنّا لكم ما كان معكم [5]] ؛ هاتوا اللواء [6] ، فأخذه وتقدّم ، وكان غلاما حَدَثا ، فقال :

---

(١) صفين : « وفشل حبله وجبن » .

(٢) جببته : قطعته ، والحارك أعلى الكاهل .

(٣) بعده فى صفين :

* ونابلٍ فتكتُه وباتك *

(٤) صفين : « هذا وهذا عرضة المهالك » .

(٥) من صفين

(٦) صفين : « أبلغونى اللواء »

إن يكُ عمرو قد علاه الأشترُ ... بأسمرٍ فيه سِنانٌ أزهرُ
فذاك والله لعمري مفخرُ ... يا عمرو تكفيك الطِّعانَ حِمْيَرُ
واليحصبيّ بالطعان أمهرُ ... دون اللواء اليوم موتٌ أحمرُ

فنادى الأشترُ ابنَه إبراهيم : خذ اللواء ، فغلام لغلام . وتقدم فأخذ إبراهيم اللواء، وقال :

يأيها السائلُ عَنِّى لا تُرَعْ ... أقدِمْ فإنى مِنْ عَرانينِ النَّخَعْ
كيف ترى طعنَ العراقىّ الجَذَعْ ... أطيرُ فى يوم الوَغَى ولا أقَعْ
ماساءكم سَرّ ، وماضرّ نَفَعْ ... أعددْتُ ذا اليومَ لهول المُطَّلَعْ

ويحمل على الحِمْيرىّ ، فالتقاه الحميرىّ بلوائه ورمحه ، فلم يبرحا يطعَن كلّ واحدٍ منهما صاحبَه ، حتى سقط الحميرىّ قتيلا ، وشمت مروان بعمرو ، وغضب القحطانيون على معاوية ، وقالوا : تولى علينا مَنْ لا يقاتل معنا . ولِّ رجلا مِنّا ، وإلا فلا حاجة لنا فيك .

وقال شاعرهم :

مُعاوِىَ إمّا تدعُنا لعظيمةٍ ... يُلَبَّسُ مِن نكرائها الغَرْضُ بالحقَبْ[(١)]
فولّ علينا مَنْ يحوطُ ذمارَنا ... من الحِمْيريّين الملوكِ على العربْ
ولا تأمرنّا بالّتى لا نُريدُها ... ولا تجعلنّا بالهوى موضعَ الذَّنَبْ
ولا تغضبنّا والحوادث جَمّةٌ ... عليك ، فيفشو اليومَ فى يحصُبَ الغضبْ
فإن لنا حقا عظيما وطاعةً ... وحُبًّا دخيلاً فى المُشاشِ وفى العَصَبْ[(٢)]

***

فقال لهم معاوية : والله لا أولى عليكم بعد هذا اليوم إلا رجلا منكم[(٣)]

---

(١) الغرض : حزام الرجل . والحقب : حبل يشد به الرحل فى بطن البعير .
(٢) المشاش : رءوس العظام ، وفى صفين : « فى المشاشة والعصب » .
(٣) صفين ٤٩٩ ـ ٥٠٢ .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : لما أسرع أهلُ العراق فى أهل الشام ، قال لهم معاوية : هذا يوم تمحيص ، وإنّ لهذا اليوم مابعده ، وقد أسرعتم فى القوم كما أسرعوا فيكم ، فاصبروا وموتوا كراماً . وحرّض علىّ عليه السلام أصحابَه ، فقام إليه الأصبغ بن نباتة ، وقال : ياأمير المؤمنين ، قدّمنى فى البقيّة من الناس ، فإنك لا تفقد لى اليوم صبرا ولا نصرا ؛ أما أهل الشام فقد أصبنا ؛ وأما نحنُ ففينا بعض البقية ، ائذن لى فأتقدّم ، فقال له : تقدّم على اسم الله والبركة ، فتقدم وأخذ الراية ومضى بها ، وهو يقول :

إنّ الرجاء بالقنوط يُدْمَغُ   حتى متى يرجو البقاء الأصبغ!
أما ترى أحداث دهر تَنْبُغُ   فادبغ هواك ، والأديمُ يدبَغُ
والرفق فيما قد تريد أبلغُ   اليوم شغل ، وغدا لا تفرُغُ

فما رجع إلى علىّ عليه السلام حتى خضب سيفه دما ورمحه . وكان شيخا ناسكا عابدا ، وكان إذا لقىَ القومُ بعضُهم بعضا يغمِد سيفه ، وكان من ذخائر علىّ عليه السلام ممّن قد بايعه على الموت ؛ وكان علىّ عليه السلام يضنّ به عن الحرب والقتال[1] .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، قال : نادَى الأشتر يوما أصحابَه ، فقال : أما من رجل يشرى نفسه لله ! فخرج أثال بن حَجْل بن عامر المذحِجىّ فنادى بين العسكرين : هلْ من مبارز ؟ فدعا معاوية ـ وهو لا يعرفه ـ أباه حَجْلَ بن عامر المذحِجىّ ، فقال : دونك الرجل ـ قال : وكان مستبصرين فى رأيهما ـ فبرز كلّ واحد منهما إلى صاحبه ، فبدره بطعنة ، وطعنه الغلام ، وانتسبا فإذا هو ابنه ، فنزلا فاعتنق كلّ

(١) صفين ٥٠٢ ، ٥٠٣

واحد منهما صاحبَه ، وبكيا . فقال له الأب : يابنىّ ، هلمّ إلى الدنيا . فقال له الغلام : ياأبى هلمّ إلى الآخرة . ثم قال : ياأبتِ والله لو كان من رأيى الانصراف إلى أهل الشام لوجبَ عليك أن يكون من رأيك لى أن تنهانى ، واسوأتاه ! فماذا أقول لعلىّ وللمؤمنين الصالحين ! كنْ على ماأنت عليه ، وأنا على ماأنا عليه . فانصرف حَجْل إلى صفّ الشام ، وانصرف ابنه أثال إلى أهل العراق ، فخبّر كلّ واحد منهما أصحابَه ، وقال فى ذلك حَجْل :

إنّ حَجْل بن عامرٍ وأثالًا أصبحا يضربان فى الأمثالِ
أقبل الفارس المدجّج فى النقــع أثالٌ يدعو يريد نزالِى
دون أهل العراق يخطر كالفحـــل على ظهر هيكلٍ ذيّالِ
فدعانى له ابنُ هند وما زا لَ قليلا فى صحبهِ أمثالِى
فتناولتُه ببادرة الرُّمــحِ وأهوى بأسمرٍ عسّال
فاطّعنا وذاك من حدث الدهـ ـرِ عظيمٌ ، فتى لشيخ بجالِ[1]
شاجراً بالقناة صدرَ أبيه وعزيزٌ علىّ طعنُ أثال[2]
لاأبالى حينَ اعترضتُ أثالاً وأثالٌ كذاك ليس يُبالِى
فافترقنا على السلامة ، والنّفـــسُ يقيها مؤخّرُ الآجالِ
لا يرانى على الهدى وأراه مِنْ هُدَاىَ على سبيل ضلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق ، قال أثال ابنه مجيبا له[3] :

إن طعنِى وسْطَ العجاجة حَجْلاً لم يكن فى الّذى نويتُ عُقوقا
كنت أرجو به الثواب من الله ـهِ وكونى مع النبىّ رفيقا

---

(١) البجال : الكبير
(٢) صفين : « وعظيم على »
(٣) صفين : « وكان مجتهدا ومستبصرا »

لم أزل أنصر العراق على الشا م أرانى بفعل ذاك حقيقا
قال أهل العراق إذ عَظُم الخط بُ ونقّ المبارزون نقيقا :
مَنْ فتى يسلك الطريق إلى الله ، فكنتُ الذى سلكت الطريقا[1]
حاسرَ الرأس لا أريد سوى المو تِ أرى الأعظم الجليل دقيقا
فإذا فارس تقحّم فى الرو ع خِدَبًّا مثل السَّحوق عتيقا[2]
فبدانى حَجْلٌ يبادِرَة الطَّعْ نِ وما كنت قبلها مسبوقا
فتلقّيتُه بعالية الرُّمْ حِ كِلانا يطاوِلُ العَيُّوقا
أحمد الله ذا الجلالة والقد رة حمداً يزيدنى توفيقا
إذْ كففتُ السنان عنه ولم أد نُ قتيلا مِنهُ ولا تُفروقا[3]
قلتُ للشّيخ لستُ أكفر نعما كَ لطيف الغذاء والتفنيقا[4]
غير أنى أخاف أن تدخل النا رَ فلا تعصنِى وكنْ لى رفيقا
وكذا قال لى فغرّب تغريبـ ـاً، وشرّقتُ راجعا تشريقا[5]

***

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر بالإسناد المذكور ، أنّ معاويةَ دعا النّعمان بن بشير بن سعد الأنصاريّ ، ومسلَمة بن مخلَّدٍ الأنصاريّ ـ ولم يكن معه من الأنصار غيرهما ـ فقال : ياهذان ، لقد غمّنى مالقيت من الأَوس والخزرَج ، واضعِى سيوفِهم عَلَى عواتقهم يدعُون إلى النزال ، حتى لقد جَبّنُوا أصحابى الشجاع منهم والجبان؛ وحتى والله ما أسأل عن

---

(١) صفين : « فكنت الذى أخذت »
(٢) الخدب : الضخم العظيم . والسحوق : النخلة الطويلة ؛ وفى صفين : « تقحم فى النقع » .
(٣) التفروق : قمع التمرة .
(٤) التفنيق : التنعيم .
(٥) صفين ٥٠٣ ، ٥٠٦ .

فارس من أهلِ الشام إلّاقيل قتله الأنصار : أما واللهِ لألقينّهم بحدّى وحديدِى،ولأعبينّ لكلّ فارس منهم فارسا ينشَبُ فى حَلْقِه،ولأرمينّهم بأعدادِهم من قريش،رجال لم يغذِهم التّمر والطُّفَيْشل[١]، يقولون : نحن الأنصار ؛ قد والله آوَوْا ونصروا ، ولكن أفسدوا حَقّهم بباطلهم !

فغضِب النعمان ، وقال : يامعاوية لا تلومَنّ الأنصار فى حبّ الحرب والسرعة[٢] نحوها ، فإنهم كذلك كانوا فى الجاهلية. وأمّا دُعاؤهم إلى النزال[٣] فقد رأيتُهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يفعلون ذلك كثيرا . وأما لقاؤك إياهم فى أعدادهم من قريش فقد علمت مالقيتْ قريش منهم قديما ، فإن أحببت أن ترَى فيهم مثلَ ذلك آنفا فافعل . وأما التّمر والطُّفَيْشَل ، فإنّ التمر كان لنا فلما[٤] ذقتُموه شاركتمونا فيه. وأما الطُّفَيْشَل، فكان لليهود ، فلما أكلناه غلبناهم عليه ، كما غلبت قريش عَلَى السّخينة[٥] .

ثم تكلّم مسلمة بن مخلد ، فقال : يامعاوية،إنّ الأنصار لاتعاب أحسابُها ولا نَجَداتها. وأما غمّهم إياك فقد والله غمّو نا ، ولو رضِينا ما فارقونا ولا فارقْنا جماعَتهم ، وإنّ فى ذلك مافيه من مباينة العشيرة ؛ ولكنا حمّلنا ذلك لك ، ورجونا منك عِوَضه . وأما التّمر والطُّفَيْشَل ؛ فإنهما يجرّان عليك السخينة والخرنوب .

قال : وانتهى هذا الكلام إلى الأنصار ، فجمع قيس بن سعد الأنصار ،ثم قام فيهم خطيبا فقال : إنّ معاوية قال مابلغكم ، وأجابه عنكم صاحِبا كم ، ولعَمْرِى إن غظتم

---

(١) الطفيشل ، بوزن سميدع ؛ ذكره صاحب القاموس وقال : إنه نوع من المرق .

(٢) صفين : « بسرعتهم فى الحرب » .

(٣) صفين : « فأما دعاؤهم الله » .

(٤) صفين : « فلما أن ذقتموه » .

(٥) فى اللسان : « السخينة : دقيق يلقى على ماء أو لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو بحسى ، وهو الحساء . . . وفى حديث معاوية أنه مازح الأحنف بن قيس فقال : ماالشىء الملفف فى البجاد ؟ قال : هو السخينة يا أمير المؤمنين . والملفف فى البجاد وطب اللبن يلف فيه ليحمى ويدرك ، وكانت تميم تعير به ، والسخينة : الحساء المذكور يؤكل فى الجدب ؛ وكانت قريش تعير بها » .

معاوية اليوم ؛ لقد غظتموه أمس ، وإن وترتموه في الإسلام ؛ فلقد وترتموه في الشرك ؛ وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين ، فجدّوا اليوم جدًّا تُنسونه به ما كان أمس ، وجِدّوا غداً جدًّا تنسُونه به ما كان اليوم ؛ فأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ؛ والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب. فأما التمر فإنا لم نغرِسْه ؛ ولكن غلبنا عليه مَنْ غرسه ، وأما الطُّفَيْشَل ، فلو كان طعامنا لسُمّينا به؛ كما سمّيت قريش بسخينة ، ثم قال سعد في ذلك :

يابن هندٍ دع التوثب في الحرْ ب إذا نحن بالجيادِ سَرَيْنَا [١]
نحنُ مَنْ قد علمتَ فادْنُ إذا شئتَ بمَنْ شِئْتَ في العجاج إلينا [٢]
إن تشأ فارس له فارس منّا وإنْ شئتَ باللفيف التقينا
أيّ هذين ما أردت فخذه ليس مِنّا وليس منك الهوينَى
ثم لا نسلخ العجاجة حتى تنجلي حربُنا ؛ لنا أو علَيْنا [٣]
ليْتَ ما تطلبُ الغداةَ أتانا أنعَمَ الله بالشهادة عيْناَ

فلما أتى شعرُه وكلامُه معاويةَ ، دعا عمرَو بن العاص، فقال : ماترى في شتم الأنصار؟ قال : أرى أن توعِدَهم ، ولا تشتِمهم [٤] . ماعسى أن تقولَ لهم إذا أردتَ ذمّهم ! فذُمّ أبدانَهم ولا تذمّ أحسابهم . [٥] فقال : إن قيس بن سعد يقوم كلّ يوم خطيبا [٥]، وأظنّه والله يُفنينا غدا إن لم يحبسْه عنّا حابس الفيل، فما الرأيُ ؟ قال : الصبر والتوكّل، وأرسل

(١) صفين : « في البلاد نأينا » .
(٢) بعده في صفين :

إنْ برَزْنا بالجمعِ نَلْقكَ في الجمْـعِ ، وَإنْ شئتَ محضة أسرَينا
فالقنا في اللفيفِ نَلْقكَ في الخزْ رجِ نَدْعو في حربنا أبوَيْنا

(٣) في صفين : « ثم لا ننزع العجاجة » ، والعجاج : ما تثيره الريح من التراب ، واحده عجاجة .
(٤) صفين : « أرى أن توعد ولا تشتم » .
(٥ ـ ٥) صفين : « قال معاوية ، إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيبا » .

إلى رءوس الأنصار مع على، فعاتبهم وأمرهم أن يعاتبوه، فأرسل معاوية إلى أبى مسعود[1] والبَرَاء بن عازب، وخُزيمة بن ثابت، والحجّاج بن غزية، وأبى أيوب، فعاتبهم فمشوا إلى قيس بن سعد، وقالوا له: إنّ معاوية لايحبّ الشتم، فكُفّ عن شتمه، فقال: إنّ مثلى لايشتم، ولكنّى لا أكفّ عن حربه حتى ألقى الله. قال: وتحرّكت الخيل غُدوة، فظنّ قيس أنّ فيها معاوية، فحمل على رجل يشبهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حملَ على آخر يشبهه أيضا فقنّعه بالسيف[2].

فلما تحاجزَ الفريقانِ شتمه معاوية شتما قبيحا، وشتم الأنصار فغضِب النّعمان ومسلَمة، فأرضاهما بعد أنْ همّا أن ينصرفا إلى قومهما.

ثم إنّ معاوية سأل النعمان ان يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السِّلْم. فخرج النعمان، فوقف بين الصّفين، ونادى: ياقيس بن سعد، أنا النعمان بن بشير، فخرج إليه، وقال: هيه يانعمان! ماحاجتُك؟ قال: ياقيس، إنه قد أنصفكم مَنْ دعاكم إلى مارضىَ لنفسه. يامعشرَ الأنصار، إنكم أخطأتم فى خَذل عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وأقحمتم خيولكم على أهلِ الشام بصِفّين، فلو كنتم إذْ خذلتم عثمان خذلتمُ عليا؛ لكانت واحدة بواحدة، ولكنّكم[3] لم ترضَوْا أن تكونوا كالنّاس؛ حتى أعلمتُم فى الحرب، ودعوتم

---

(١) صفين: «فأرسل معاوية إلى رجال من الأنصار، فعاتبهم؛ فيهم عقبة بن عمر وأبو مسعود....».

(٢) فى صفين: ثم انصرف وهو يقول:

قولُوا لهـذا الشّانِئِ معاوِيَهْ ... إنْ كلُّ ماأوْعَدْتَ رِيحٌ هاوِيَهْ
خوّفْتَنا أكْلُبَ قَوْمٍ عاوِيَهْ ... إلىّ يابْنَ الخاطِئِينَ الماضِيَهْ
تُرْقِلُ إرْقالَ العَجُوزِ الجارِيَهْ ... فى أثرِ السّارِى لَيالِى الشّاتِيَهْ

(٣) صفين: «ولكنكم خذلتم حقا، ونصرتم باطلا، ثم لم ترضوا....».

إلى البراز . ثم لم ينزل بعليّ حطبٌ قطّ إلا هوّنتم عليه المصيبةَ ، ووعدتموه الظفر . وقد أخذت الحربُ منّا ومنكم ما قد رأيتم ، فاتقوا الله في البقيّة .

فضحك قيس ، وقال : ما كنتُ أظنّك يانعمان محتويا على هذه المقالة ، إنه لاينصحُ أخاه من غشّ نفسه ، وأنت الغاشّ الضالّ المضِلّ . أما ذكرُك عثمان ؛ فإن كانت الأخبار تكفيك فخذ منّي واحدة ؛ قتل عثمانَ مَنْ لستَ خيراً منه ، وخذله مَنْ هو خيرٌ منك. وأمّا أصحابُ الجمل فقاتلناهم على النكث . وأمّا معاوية؛ فوالله لو اجتمعتْ عليه العرب قاطبة لقاتلته الأنصار ؛ وأما قولك إنا لسنا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنّا مع رسول الله، نتقي السيوف بوجوهنا، والرماحَ بنحورنا ؛ حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن انظر يانعمان ؛ هل ترى مع معاوية إلا طليقاً ، أو أعرابياً ، أو يمانيّاً مستدرجا بغرور! انظرْ أين المهاجرون والأنصار والتّابعون لهم بإحسان ؛ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه! ثم انظر ، هل ترى مع معاوية أنصاريّاً غيرك وغير صُوَيحبك ؛ ولستما والله ببدريّين ولا عَقَبيّين ولا أُحُديّين ، ولا لكما سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن . ولعمري لئن شغبتَ علينا لقد شغب علينا أبوك[1]!

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، قال : كان فارسَ أهل الشام الذي لاينازَع عوفُ بن مجزأة المراديّ ، المكنى أبا أحمر ، وكان فارسَ أهل الكوفة العكبرُ بن جدير الأسديّ ، فقام العكبر إلى عليّ عليه السلام ، وكان

(١) الخبر في صفين ٤٠٧ ـ ٤١٢ ، وبعده ، وقال قيس في ذلك :

وَالرّاقِصَاتِ بِكلِّ أشعثَ أغبرٍ ... خوص العُيونِ تحثّها الرّكبانُ
ما ابْنُ المُخَلَّدِ ناسِياً أسيافَنَا ... فيمَنْ نُحارِبُهُ ولا النُّعمانُ
تَرَكَا البَيَانَ وفي العِيانِ كِفَايَةٌ ... لَوْ كَانَ ينفعُ صَاحِبِيهِ عِيانُ

منطيقا فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ في أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس ؛ قد ظننا بأهلِ الشام الصبر[1] وظنّوا بنا ، فصبرنا وصبروا ، وقد عجبت من صبر أهل الدنيا [لأهل الآخرة ، وصبر أهلِ الحقّ على أهل الباطل ، ورغبة أهل الدنيا[2]] ، [3]ثم قرأتُ آية من كتاب الله فعلمت أنهم مفتونون[3] : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ[4] ﴾ . فقال له عليه السلام خيراً ، وخرج الناس إلى مصافّهم ، وخرج عوف بن مجزأة المراديّ نادراً من الناس ، وكذا كان يصنع ، وقد كان قتل نفراً من أهلِ العراق مبارزةً ، فنادى : يا أهل العراق ؛ هلْ من رجل عَصاه سيفُه يبارزني ! ولا أغرّكم من نفسي ! أنا عوف بن مجزأة[5] . فنادى النّاس بالمكبّر ، فخرج إليه منقطعا عن أصحابه ليبارزه ، فقال عوف :

بالشّام أمنٌ ليس فيه خوفْ بالشّام عَدْلٌ ليس فيه حَيْفْ
بالشام جُودٌ ليس فيه سَوْفْ أنا ابن مجزاةٍ واسمي عوفْ
هل من عراقيّ عصاه سَيْفْ يَبْرُزُ لي وكيفَ لِي وكيفْ !

فقال له المكبّر :

الشّام مَحْلٌ والعراق ممطرْ[6] بها إمامٌ طاهرٌ مطهّرْ[7]
والشام فيها أعورٌ ومَعْوِرْ أنا العراقيّ واسمي مُكَبّرْ[8]

---

(١) صفين : « وظنوه » .
(٢) من صفين .
(٣ – ٣) صفين : « ثم نظرت فإذا أعجب ما يعجبني جهله بآية من كتاب الله » .
(٤) سورة العنكبوت ١ – ٣
(٥) صفين : « فأنا فارس زوف » ، وزوف أبو قبيلة .
(٦) صفين : « ممطر »
(٧) صفين : « بها الإمام والإمام معذر » .
(٨) المعور : القبيح السريرة .

ابن جُدير وأبوه المنـــذرُ   ادن ، فإنى فى البراز قَسْوَرُ[١]

فاطّعنا ، فصرعه المكبر وقتله ، ومعاوية على التلّ فى وجوه قريش ونفر قليل من الناس ، فوجه المكبّر فرسَه ، يملأ[٢] فروجه ركضاً ؛ ويضربه بالسوط مسرعا نحو التلّ . فنظر معاوية إليه فقال : هذا الرجلُ مغلوبٌ عَلَى عقله أو مستأمن ؛ فاسألوه ، فأتاه رجل وهو فى حَمْوِ فرسه ، فناداه فلم يجبه ، ومضى مبادراً ؛ حتى انتهى إلى معاوية ، فجعل يطعن فى أعراض الخيل ورجا أن ينفرد بمعاوية فيقتله ، فاستقبله رجال ؛ قتل منهم قوما ، وحال الباقون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورماحهم ؛ فلما لم يصل إليه قال : أوْلى لك يا بن هند[٣] ! أنا الغلام الأسدىّ ، ورجع إلى صفّ العراق ولم يتكلّم ، فقال له علىّ عليه السلام : مادعاك إلى ماصنعت ؟ لا تُلْقِ نفسَك إلى التهلُكة ؛ قال : ياأمير المؤمنين أردت غِرّة ابن هند لحيل بينى وبينه ؛ وكان المكبر شاعرا فقال :

قتلتُ المرادىّ الذى كان باغياً   ينادى وقد ثار العَجَاجُ : نَزَالِ
يقولُ : أنا عوفُ بن مجزاة والمُنَى   لقـــاء ابن مجزاةٍ بيوم قتالِ
فقلت له لمّا علا القومَ صوتُه :   مُنِيتَ بمشبوح اليدين طُوَالِ[٤]
فأوْجَرْتُه فى ملتقى الحرْب صَعْدَةً   ملأتْ بها رعباً صدورَ رجال[٥]

---

(١) صفين : « فإنى للكمى مصحر » ، والمصحر : المنكشف لقرنه .

(٢) صفين : « فلأ فروجه » ؛ يقال : ملأ الفرس فرجه وفروجه ؛ إذا أسرع ، والفرج : ما بين فخذى الفرس ورجليها .

(٣) أولى لك ، كلمة تهدد ووعيد ، معناه قد وليك ، أى قاربك الشر فاحذر . وقيل : أولاك الله ما تكرهه ، وقيل : معناه أولى لك العقاب والهلاك .

(٤) رجل مشبوح الذراعين ؛ أى عريضهما ، وفى النهاية : فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه كان مشبوح الذراعين ، أى طويلهما ، وقيل : عريضهما ، وفى رواية : « كان شبح الذراعين » ، والشبح : مد الشىء بأوتاد كالجلد والحبل ، وشبحت العود إذا نحته حتى تعرضه » .

(٥) يقال : أوجر فلانا الرمح طعنه به فى فيه ، وقيل فى صدره . والصعدة : القناة المستوية تنبت كذا لا تحتاج إلى تثقيف .

فنادرتُه يكبو صريعاً لوجهِهِ   ينوء مِراراً فى مَكَرّ مجالِ (١)
وقدّمتُ مُهرِى راكضاً نحو صفِّهمْ   أصرّفــــه فى جرْيه بشِمَالِى (٢)
أريدُ به التلّ الذى فوق رأسِهِ   معاويةُ الجانِى لـكلّ خَبالِ (٣)
فقـــامَ رجالٌ دونَهُ بسيوفهمْ   وقام رجالٌ دونَهُ بعـــوالِى
فلو نلتُه نلتُ التى ليس بعدها   وفزت بذكر صالح وفعالِ (٤)
ولو متّ فى نيلِ المُنَى ألف مَوْتَةٍ   لقلت إذا ما متّ : لستُ أبالِى

قال : فانـكسر أهل الشام لقتل عَوْف المرادىّ ، وهدر معاوية دم المكبر ، فقال المـكبر : يد الله فوق يدِهِ ، فأين الله جلّ جلاله ودفاعه عن المؤمنين (٥) !

***

قال نصر : ورَوَى عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين ، عن أبى الـكَنود ، قال : جزِع أهلُ الشام عَلَى قتلاهم جزعاً شديداً ، وقال معاوية بن خديج : قَبّح الله ملـكا يملـكه المرء بعد حَوْشَبٍ وذى الـكَلاع ، والله لو ظفِرْنا بأهل الدنيا بعد قتلهما بغير مئونة ما كان ظفراً . وقال يزيد بن أسد لمعاوية : لا خيرَ فى أمرٍ لا يشبه آخرُه أولَه ، لا يدمى جريح ولا يبكى قتيل حتى تنجلىَ هذه الفتنة ، فإن يكن الأمر لك أدميت

---

(١) صفين : « ينادى مرارا » .
(٢) فى صفين : « فأضربه فى حومة بشمال » .
(٣) بعده فى صفين :

يقولُ ـ ومُهرِى يَعْرِفُ الجَرْىَ جامِحاً   بفارِسِهِ ـ : قَدْ بَانَ كُلُّ ضَـــلَالِ
فلمّا رَأَونِى أصْــدُقُ الطَّعْنَ فيهمُ   جلَا عنهمُ رجمَ الغيُوبِ فِعــالِى

(٤) صفين : « من الأمر شىء غير قيل وقال » .
(٥) صفين ٥١٢ ـ ٥١٦ .

وبكيت عَلَى قرار ، وإن يكن لغيرك فما أصيبت به أعظم . فقال معاوية : يا أهلَ الشام ، ما جعلكم أحقّ بالجزع عَلَى قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم ؛ والله ما ذو الكَلاع فيكم بأعظمَ من عمّار بن ياسر فيهم ، ولا حَوْشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم ، وما عبيد الله بن عمر فيكم بأعظمَ من ابن بُدَيل فيهم ، وما الرجال إلّا أشباه ، وما التمحيص إلّا من عند الله ؛ فأبشرُوا فإنّ الله قد قتل من القوم ثلاثة : قتل عمارا وكان فتاهم ، وقتل هاشماً وكان حمزتَهم ، وقتل ابنَ بُدَيل وهو الذى فعل الأفاعيل ؛ وبقى الأشتر ، والأشعث ، وعدىّ بن حاتم ، فأمّا الأشعث فإنما حمى عنه[1] مصره ، وأمّا الأشتر وعدىّ فغضبا والله [للفتنة[2]] ، قاتلهما غدا إلى شاء الله تعالى ، فقال معاوية بن خَديج : إن يكن الرجال عندك أشباها فليست عندنا كذلك ، وغضب . وقال شاعر اليمن يرثى ذا الكَلاع وحوشبا[3] :

مَعاوِىَ قد نلنا ونيلت سَرَاتُنا   وجُدِّعَ أحياء الكَلاع ويحصُبِ
فذو كَلَعٍ لا يُبْعِدِ الله دارَه   وكلّ يمانٍ قد أصيبَ بحوْشَبِ
هما ما هما كانا – معاوى – عصمةً   متى قلت كانا عصمةً لا أكْذَبِ
ولو قُبِلَتْ فى هالكٍ بَذْلُ فِدْيَةٍ   فديتُهما بالنفْس والأمّ والأبِ[4]

* * *

وروى نصر ، عن عمر بن سعد ، عن عبيد الرحمن بن كعب ، قال : لما قتل عبد الله بن بُدَيل يوم صِفِّين مرّ به الأسود بن طَهْمَان الخزاعىّ ، وهو بآخر رَمَق ، فقال له : عَزَّ عَلىّ والله مصرعُك ! أما والله لو شهدتُك لآسيتُك ، ولدافعتُ عنك ، ولو رأيت الذى أشْعَرك[5]

(١) صفين : « لحياة مصره » .
(٢) من صفين .
(٣) صفين : « وقال الحضرمى فى ذلك شعرا » .
(٤) صفين ٥١٨ ، ٥١٩ .
(٥) الإشعار : الإدماء بطعن أو رمى أووجء بحديدة .

لأحببت ألّا أزايلَه ولايزايلني حتى أقتله ، أو يلحقني بك . ثم نزل إليه،فقال:رحمك الله ياعَبد الله ، [والله] (١) إن كان جارك ليأمَنُ بوائقك ، وإن كنتَ لمِن الذّاكرين الله كثيراً.أوْصني رحمك الله . قال : أوصيك بتقوى الله ، وأن تناصحَ أميرَ المؤمنين،وتقاتل معه حتى يظهر الحقّ أو تلحق بالله ، وأبلغْ أميرَ المؤمنينَ عنّي السلام،وقل له : قاتلْ عَلَى المعركة حتى تجعلَها خَلْف ظهرك ؛ فإنه مَنْ أصبحَ والمعركة خلف ظهره ، كان الغالب .

ثم لم يلبث أن مات .

فأقبل أبو الأسود إلى علىّ عليه السلام ، فأخبره ، فقال : رحمه الله ! جاهَدَ معنا عدوّنا فى الحياة ، ونصح لنا فى الوفاة (٢) .

* * *

قال نصر : وقد رُوى نحو هذا عن عبد الرحمن بن كَلَدة ، حدثنى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ، قال : خرجتُ ألتمس أخى سويداً فى قتلَى صِفّين، فإذا رجل صريع فى القتلى ، قد أخذ بثوبى فالتفتّ ، فإذا هو عبدالرحمن ابن كَلَدة ، فقلت : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! هل لك فى الماء ومعى (٣) إداوة ؟ فقال : لاحاجة لى فيه، قد أنفذ فىّ السلاح وخرقنى،فلست أقدر على الشراب،هل أنت مُبلِغٌ عنّى أميرَ المؤمنين رسالةً أرسلُك بها ؟ قلت : نعم ، قال : إذا رأيته فاقرأ عليه السلام ، وقل له : ياأميرَ المؤمنين ، احمِلْ جرحاك إلى عسكرك حتى تجعلهم من وراء ظهرك،فإنّ الغَلَبة لمن فعل ذلك ؛ ثم لم أبرح حتى مات.فخرجتُ حتى أتيتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام فقلت له : إنّ عبد الرحمن بن كَلَدة يقرأ عليكَ السّلام ، قال : وأين هو ؟ قلت:وجدتُه وقد أنفذه السّلاح وخَرّقه ، فلم يستطع شرب الماء ، ولم أبرح حتى ماتَ . فاسترجع عليه السلام ، فقلت:قد أرسلنِى إليك برسالةٍ ، قال:وماهى ؟ قلت : إنّه يقول : احمِلْ جرحاك

---

(١) من صفين . (٢) صفين ٥٢٠ ، ٥٢١ .

(٣) الإدواة : إناء صغير من جلد ؛ ويجمع على أداوى .

إلى عسكرك ، واجعلهم وراء ظهرك ؛ فإنّ الغَلبة لمن فعل ذلك ، فقال : صدَق ، فنادى مناديه فى العسكر أن احِلوا جرحاكم من بيْن القتلى إلى معسكركم ، ففعلوا (١) .

* * *

قال نصر : وحدّثنى عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن عامر ،عن صعصعة بن صُوحان، أنّ أبرهَة بن الصَّبّاح الحِميرىّ قام بصِفّين ، فقال : ويحكم يامعشر أهل اليمن ! إنّى لأظنّ الله قد أذنَ بفنائكم ! ويحكم خَلّوا بين الرجلين ، فليقتتلا ، فأيّهما قَتَل صاحبَه مِلْنا معه جميعا — وكان أبْرهة من رؤساء أصحاب معاوية — فبلغ قولُه عليا عليه السلام ، فقال : صدق أبرهة ! والله ماسمعتُ بخطبة منذ وردتُ الشام أنا بها أشدّ سروراً منّى بهذه الخطبة !

قال : وبلغ معاويةَ كلامُ أبرهة ، فتأخر آخر الصفوف،وقال لمن حوله : إنّى لأظنّ أبرهة مصاباً فى عقله . فأقبلَ أهلُ الشام يقولون : والله إنّ أبرهة لأكملنا ديناً وعقلا ، ورأيا وبأسا؛ولكن الأمير (٢) كرِه مبارزة علىّ،وسمع مادارمن الكلام أبو داود عروة ابن داود العامرىّ — وكان من فرسان معاوية — فقال : إن كان معاوية كرِه مبارزة أبى حسن ، فأنا أبارزه ، ثم خرج بين الصّفّين ، فنادى : أنا أبو داود فابرز إلىّ ياأبا حسن ، فتقدم علىّ عليه السلام نحوه ، فناداه الناس : ارجعْ ياأميرَ المؤمنين عن هذا الكلب فليس لك بخطر، فقال : والله مامعاوية اليوم بأغيظَ لى منه،دعونى وإياه ، ثم حمَلَ عليه فضربه فقطعه قطعتين ،سقطت إحداهما يمنيّةً والأخرى شامية ؛ فارتجّ العسكران لهول الضربة، وصرخ ابن عمّ لأبى داود:واسوء صباحاه ! وقبّح الله البقاء بعد أبى داود ! وحمل على علىّ عليه السلام ، فطعنه فضرب الرمح فبراه ، ثم قنّعه ضربةً فألحقه بأبى داود ، ومعاوية

---

(١) صفين ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
(٢) صفين : « معاوية » .

واقف على التلّ ، يبصر ويشاهد ، فقال : تباً لهذه الرجال وقبحاً، أما فيهم من يقتلُ هذا مبارزَة أو غيلة ، أو فى اختلاط الفيلق وثَوَران النقع . فقال الوليد بن عقبة : ابرزْ إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته ، فقال : والله لقد دعانى إلى البراز حتى لقد استحييتُ من قريش ، وإنى والله لا أبرز إليه ، ماجعل العسكرُ بين يدَى الرئيس إلا وقاية له . فقال عتبة بن أبى سفيان : الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فقد علمتم أنه قتل حريثا ، وفضح عمرا ولا أرى أحدا يتحكك به إلا قتله . فقال معاوية لبُسْر بن أرطاة : أتقوم لمبارزته ؟ فقال: ماأحدٌ أحقّ بهامنك ، أما إذ بيتموه فأنا له ، قال معاوية : إنك ستلقاه غدا فى أوّل الخيل ، وكان عند بُسْر ابن عمّ له ، قدِم من الحجاز يخطب ابنته ، فأتى بسرا ، فقال له : إنى سمعتُ أنك وعدتَ من نفسك أن تبارز عليا ، أما تعلم أنّ الوالى من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمد أخوه ، وكلّ من هؤلاء قِرْن علىّ ، فما يدعوك إلى ما أرى ! قال : الحياء، خرج منى كلام ، فأنا أستحيي أن أرجع عنه . فضحك الغلام، وقال :

تنازِله يابُسْر إن كنتَ مثله ... وإلا فإنّ الليث للشاء آ كل(١)

كأنك يابُسْر بن أرطاةَ جاهلٌ ... بآثاره فى الحرب أو متجاهلُ

معاوية الوالى وصِنْواه بعدَهُ ... وليس سواء مستعارٌ وناكلُ

أولئك هم أولى به منك إنه ... علىٌّ فلا تقربْه ، أمّك هابلُ ؟

متى تَلْقَهُ فالموت فى رأس رمحه ... وفى سيفِهِ شغلٌ لنفسك شاغلُ

وما بعده فى آخر الخيل عاطفٌ ... ولا قبله فى أوّل الخيل حامل

فقال بُسْر : هل هو إلا الموت ؟ لا بدّ من لقاء الله فغدا علىّ عليه السلام منقطعاً من خيله ، ويده فى يد الأشتر ، وهما يتسايران رويدا ، يطلبان التلّ ليقفا عليه ؟ إذ برز له بُسْر مقنعا فى الحديد ، لا يعرف، فناداه: أبرز إلى أباحسن، فانحدر إليه على تُؤَدة غير مكترث به

---

(١) صفين : « للضبع آ كل » .

حتى إذا قاربه طعنه وهو دارعٌ فألقاه إلى الأرض، ومنع الدّرع السنان أن يصلَ إليه، فاتقاه بسرٌ بعورته، وقصد أن يكشفها، يستدفع بأسه، فانصرف عنه عليه السلام مستدبرا له فعرفه الأشتر حين سقط فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا بُسْر بن أرطاة، هـذا عدو الله وعدوك، فقال: دعه عليه لعنة الله، أبعد أن فعلها؟ فحمل ابنُ عمّ بُسر من أهل الشام، شاب، على عليٍ عليه السلام. وقال:

أرديتَ بُسْرا والغلامُ ثائرُهْ أرْدَيْتَ شيخاً غاب عنـه ناصرُهْ

* وكلُّنا حامٍ لبُسْرٍ واتراه *

فلم يلتفت إليه علي عليه السلام، وتلقّاه الأشتر فقال له:

في كل يومٍ رجلٌ شيخٍ شاغرَهْ وعورةٌ وسْطَ العَجَاج ظاهِرهْ

تبرزُها طعنة كف واتره عمروٌ وبُسْرٌ منيا بالفاقِرهْ

فطعنه الأشتر، فكسر صُلْبه، وقام بُسْرٌ من طعنة علي عليه السلام موليًا، وفرّت خيله، وناداه عليّ عليه السلام: يا بُسْر، معاوية كان أحقّ بها منك، فرجع بُسر إلى معاوية، فقال له معاوية: ارفع طرفك، فقد أدال الله عمراً منك، وقال الشاعر في ذلك:

أفي كلّ يومٍ فارسٌ تندبونَهُ له عورةٌ تحتَ العجاجة باديَهْ

يكفّ بها عنه عليٌّ سنـانَهُ ويضحكُ منها في الخلاء معاوِيَهْ

بدت أمسِ من عمرو فقنّع رأسَه وعورةُ بسْرٍ مثلها حَذْو حاذِيَهْ

فقولا لعمرو وابن أرطاةَ أبصِرا سَبيلَيْـكما، لا تلقيا الليث ثانيَهْ

ولا تحمدا إلا الحيا وخُصا كما هما كانتا للنفس ـ والله ـ واقيَهْ

فلولاهما لم تنجُوَا من سِنانهِ وتلك بما فيها عن العوْد ناهيَهْ

متى تلقيا الخيلَ المغيرة صُبْحة وفيها علىّ فاتركا الخيل ناحيَهْ [١]
وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القَنا ونار الوغَى ، إن التجارب كافيَهْ [٢]
وإنْ كان منه بعدُ للنفس حاجة فعودَا إلى ماشئْتما هِيَ ماهيَهْ

قال : فكان بُسْر بعد ذلك اليوم ، إذا لقِيَ الخيل التى فيها علىّ ينتحِى ناحية ، وتحامى فرسانُ الشام بعدها علياً عليه السلام [٣] .

***

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن الأجلح بن عبد الله الكندىّ ، عن أبى جُحيفة ، قال : جمع معاوية كلّ قرشىّ بالشام ، وقال لهم : العجَب يامعشر قريش ! أنّه ليس لأحد منكم فى هذه الحرب فِعالٌ [٤] يطول بها لسانه غداً ماعدا عمراً ، فما بالكم ! أين حَمِيّة قريش ؟ فغضب الوليد بن عُقْبة ، وقال : أىّ فعال تريد ؟ والله مانعرف فى أكفائنا من قريش العراق مَنْ يُغنِى غناءنا باللسان ولا باليد . فقال معاوية : بلى إنّ أولئك ،وقَوْا عليا بأنفسهم. قال الوليد : كلاّ ، بل وقاهم علىّ بنفسه. قال : ويحكم أما فيكم مَنْ يقوم لقِرْنه منهم مبارزة ومفاخرة ! فقال مروان : أمّا البراز فإنّ عليًّا لا يأذنُ لحسن ولا لحسين ولا لمحمّد بنيه فيه، ولا لابن عباس وإخوته ، ويصلَى بالحرب دونهم ، فلأيّهم نبارز ! وأمّا المفاخرة ؛ فبماذا نفاخرهم ! بالإسلام أم بالجاهلية ! فإن كان بالإسلام ، فالفخر لهم بالنبوّة ، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن ، فإن قلنا قريش ، قالوا لنا: عبد المطلب .

---

(١) صفين : « الخيل المشيحة » .
(٢) صفين : « وحى الوغى » .
(٣) صفين : ٥٢١ – ٥٢٧ .
(٤) فعال ، بالكسر : جمع فعل ، وفى صفين : « فعال يطول به لسانه » ، والفعال بالفتح : الفعل الحسن .

فقال عُتْبة بن أبي سفيان : الموا عن هذا ، فإني لاقٍ بالغداة جَعْـدة بن هُبيرة ، فقـال معـاوية : بَخٍ بَخٍ ! قومُه بنو مخزوم ، وأمّـه أمّ هانئ بنت أبي طالب ، كفء كريم !

وكثر العتاب والخصام بين القوم ، حتى أغلظوا لمروان وأغلظ لهم ، فقال مرْوان : أما والله ، لولا ما كان منّي إلى عليّ عليه السلام في أيام عثمان ، ومشهدي بالبصرة ، لـكان لي في عليّ رأيٌ يكفي امرأً ذا حسب ودين ؛ ولـكنْ ولعلّ . ونابذ معـاوية الوليد بن عُقْبة [دون القوم] (١) ، فأغلظ له الوليد ، فقال معاوية : إنّك إنّما تجترئُ عليّ بنسبك من عثمان ، ولقد ضربك الحدّ وعزلك عن الـكوفة .

ثم إنهم ماأمسوا حتى اصطلحوا ، وأرضاهم معاوية من نفسه ، ووصلهم بأموال جليلة. وبعث معاوية إلى عُتْبة ، فقال : ما أنت صانعٌ في جَعْدة ! قال : ألقاه اليوم وأقاتله غداً ، وكان لجَعْدة في قريش شرفٌ عظيم ، وكان له لسانٌ ، وكان من أحبّ الناس إلى عليّ عليه السلام ، فغدا عليه عُتْبة ، فنادى : أبا جَعْدة أبا جعدة ! فاستأذن عليًّا عليه السلام في الخروج إليه ، فأذِن له ، واجتمع الناس ، فقال عُتْبة : ياجَعْدة ، والله ما أخرجك علينا إلا حبّ خالك وعمّك عامل البحرين ؛ وإنّا والله مانزعم أنّ معـاوية أحقُّ بالخلافة من عليّ ، لولا أمره في عثمان ؛ ولـكن معاوية أحقّ بالشام لرضا أهلِها به ، فاعفوا لنا عنها ؛ فوالله مابالشام رجلٌ به طِرْق (٢) إلا وهو أجدُّ من معاوية في القتـال ؛ وليس بالعراق رجل له مثل جدّ عليّ في الحرب ، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم ، وما أقبح بعليّ أن يكون في قلوب المسلمين أوْلَى الناس بالناس ؛ حتى إذا أصابَ سلطانا أفنى العرب . فقال جعدة : أما حُبّي لخالي ، فلو كان لك خالٌ مثله لنسيتَ أباك ؛ وأما ابن أبي سلمة فلم يصب أعظمَ من قدره ، والجهاد أحبّ إليّ من العمل ؛ وأما فضـل عليّ عَلَى معاوية ؛

(١) من صفين .
(٢) الطرق هنا : القوة ، وفي الحديث : « لا أجد رجلا به طرق يتخلف » .

مهذا مالا يختلف فيه اثنان . وأمّا رضاكم اليوم بالشام ؛ فقد رضيتم بها أمس فلم نقبل . وأمّا قولك : « ليس بالشام أحدٌ إلّا وهو أجدّ من معاوية ، وليس بالعراق رجل مثل جدّ علىّ » ؛ فهكذا ينبغى أن يكون ، مضى بعلىّ يقينُه ، وقصر بمعاوية شكّه ، وقصدُ أهل الحقّ خيرٌ من جهد أهل الباطل . وأمّا قولُك : « نحن أطوع لمعاوية منكم لعلىّ » فوالله مانسأله إن سكتَ ، ولا نردّ عليه إن قال . وأما قتلُ العرب ، فإنّ الله كتب القتل والقتال ، فمن قتله الحقُّ فإلى الله .

فغضب عُتْبة ، وفَحَش على جَعْدة فلم يجبه ، وأعرض عنه ، فلما انصرف عنه ، جمع خيله فلم يستبق [منها][(1)] شيئاً ، وجلّ أصحابه السّكون والأزد والصّدِف ، وتهيّأ جَعْدة بما استطاع ، والتقَوْا ، فصبَر القوم جميعاً ، وباشر جَعْدة يومئذ القتال بنفسه ، وجزع عتبة ، فأسلم خيله ، وأسرع هارباً إلى معاوية ، فقال له : فضَحك جَعْدة وهَزْمتك ، لا تغسل رأسك منها أبداً ! فقال : والله لقد أعذرت ؛ ولكن أبى الله أنْ يديلنا منهم ؛ فما أصنع ؟ وحَظِى جَعْدَةُ بعدها عند علىّ عليه السلام !

وقال النّجاشىّ فيما كان من فُحْش عتبة عَلَى جَعْدة :

إنّ شتمَ الكريم ياعُتْبُ خطبٌ فاعلَمَنْهُ من الخطوب عظيمُ
أمّــه أمّ هانئ وأبوهُ من معدّ ومن لؤىّ صميمُ
ذاكَ منها هبيرة بن أبي وهـــب أقرّت بفضــا مخزومُ
كان فى حربكم يعــدّ بألفٍ حين يلقى بها القرومَ القرومُ
وابنُه جَعْدَةُ الخليفة منــه هكذا تنبت الفروع الأروم[(2)]

(١) من صفين .
(٢) صفين : « هكذا يخلف الفرع الأروم » .

كلّ شيء تريده فهو فيــه حَسَبٌ ثاقبٌ ودينٌ قــويمُ
وخطيب إذا تمعــرت الأو جُهُ يشجَى بهِ الألدّ الخصيمُ
وَحَليمٌ إذا الُحبَى حَلّها الجَهْـــلُ ، وخفّت من الرجال الحلومُ
وشَكيمُ الحروب قد علم النا سُ إذا حلّ فى الحروب الشكيمْ
وصحيح الأديم من نَغَل العيـــبِ إذا كان لا يصحّ الأديمُ
حامل للعظيم فى طلب الحمـــدِ إذا عظّم الصغيرَ اللئيـمُ
ما عسى أن تقول للذهب الأحمـــر عيباً ، هيهات منك النجوم !
كلّ هـــذا بحمدِ ربّك فيهِ وسوى ذاك كانَ وهو فطيمُ

وقال الأعور الشَنّىّ فى ذلك ، يخاطب عُتْبة بن أبى سفيان :

ما زلتَ تظهرُ فى عِطْفَيْك أبّهــةً لا يرفع الطَّرْفَ منك التّيه والصّلَفُ
لا تحسبِ القومَ إلّا فقع قَرْقَرةٍ أو شحمةً بزّها شاوٍ لها نُطُفُ[1]
حتى لقيت ابنَ مخزومٍ ، وأىّ فتى أحيــا مآثر آباء له سَلَفُوا !
إن كان رهط أبى وهب جحاجحةً فى الأولين ، فهـذا منهمُ خَلَفُ
أشجاك جَنْدَة إذ نادى فوارسَــه حاموا عن الدّين والدنيا فما وقفوا
هـــلاّ عطفتَ على قوم بمصرعةٍ فيها السّكُون وفيها الأزْدُ والصّدِفُ[2]

•••

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الشعبىّ ، قال : كان رجلٌ من أهل الشام ،

(١) الفقع : ضرب من أردأ الكمأة . والقرقرة : الأرض السهلة المطمئنة .
(٢) صفين ٥٢٧ – ٥٣٣ ، وبعد هذا البيت :

قدْ كُنْتَ فى منظرٍ من ذا ومستمَعٍ يا عُتْبَ لَوْلا سفاه الرأى والسَّرَفُ
فاليَوْمَ يَقْرَعُ منكَ السِّنُّ من ندَمٍ ما للمُبَارِزِ إلّا العَجْـــز وَالنَّصَفُ

يقال له الأصبغ بن ضرار الأزدىّ ، من مسالح معاوية وطلائعه ، فندب له علىّ عليه السلام الأشتر ، فأخذه أسيرا من غير قتال ، فجاء به ليلا فشدّه وثاقا ، وألقاه عند أصحابه ينتظر به الصباح ؛ وكان الأصبغ شاعرا مفوّها ، فأيقن بالقتل ، ونام أصحابه ، فرفع صوته فأسمع الأشتر ، وقال :

ألا ليتَ هذا الليلَ أصبح سرمداً ... علَى الناسِ لا يأتيهمُ بنهارِ (١)

يكونُ كذا حتى القيامة إنّنى ... أحاذرُ فى الإصباح يوم بوارى (٢)

فيا ليل أطبق ، إنّ فى الليل راحةً ... وفى الصبح قتلِى أو فكاكُ أسارِى

ولو كنتُ تحت الأرض ستين واديا ... لما ردّ عنّى ما أخاف حِذارى

فيا نفسُ مهلًا إنّ للموت غاية ... فصبراً على ما ناب يا بنَ ضرارِ

أأخشَى ولى فى القوم رِحْمٌ قريبة ... أبَى الله أن أخشى ومالكُ جارى (٣)

ولو أنّه كانَ الأسيرَ ببلدةٍ ... أطاعُ بها ، شمّرت ذيلَ إزارى

ولو كنت جارَ الأشعثِ الخيرِ فكّنِى ... وقلّ من الأمر المخوفِ فرارى

وجارَ سعيد أو عدىّ بن حاتم ... وجارَ شُريحِ الخيرِ قرّ قرارِى

وجار المرادىّ الكريم وهانىء ... وزَحْرِ بن قيس ما كرهتُ نهارِى (٤)

ولو أنّنى كنتُ الأسيرَ لبعضهم ... دعوتُ فتى منهم ففكّ إسارى (٥)

أولئك قومى لا عدمتُ حياتَهم ... وعفوهمُ عنّى وسَتْرِ عوارى

---

(١) صفين . « طبق سرمداً » .

(٢) صفين « ضرمة نار » .

(٣) صفين : « والأشتر جارى » .

(٤) صفين : « المرادى العظيم » .

(٥) صفين : « دعوت رئيس القوم » .

قال : فغدا به الأشتر إلى عليّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ هذا رجل من مسالح معاوية ، أصبته أمس ، وبات عندنا الليل ، فحرّكنا بشعره ، وله رَحِمٌ ، فإن كان فيه القتل فاقتله ؛ وإن ساغ لك العفو عنه فهبْه لنا ؛ فقال : هو لك يا مالك ، وإذا أصبت منهم أسيرا فلا تقتله ، فإنّ أسير أهل القبلة لا يقتل .

فرجع به الأشتر إلى منزله وخلى سبيله .

(١) صفين ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(١٢٥)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى الخوارج لما أنكروا تحكيم الرجال ، ويذم فيه أصحابه فى التحكيم :

إنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ ؛ وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ . هٰذَا الْقُرْآنُ ، إنما هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ؛ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ ؛ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ . وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ ، لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾[1] ، فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ؛ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ؛ فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ ؛ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا ، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ .

إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ ، مِنَ الْبَاطِلِ ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ وَزَادَهُ . فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ !

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ .

مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا ، وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا ؛ لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ !

أُفٍّ لَكُمْ ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً (١) يَوْماً أُنَادِيكُمْ ، وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ !

• • •

الشّرح :

دفّتا المصحف : جانباه اللذان يكنفانه ، وكان الناس يعملونهما قديما من خشب ، ويعملونهما الآن من جلد ؛ يقول عليه السلام : لا اعتراض عليّ في التحكيم ، وقول الخوارج : « حكّمت الرجال » دعوى غير صحيحة ؛ وإنما حكّمت القرآن ؛ ولكنّ القرآن لا ينطق بنفسه، ولا بدّ له ممن يترجم عنه . والتَّرْجُمان بفتح التاء وضم الجيم ، هو مفسّر اللغة بلسان آخر ، ويجوز ضمّ التاء لضمة الجيم ، قال الراجز :

« كالتُّرْجُمان لَقِيَ الأنباطا »

ثم قال : لما دعينا إلى تحكيم الكتاب، لم نكن القوم الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) ، بل أجبنا إلى ذلك، وعملنا بقول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (٣) .

وقال : معنى ذلك أن نحكم بالكتاب والسنّة ، فإذا عمل الناس بالحقّ في هذه الواقعة ، واطّرحوا الهوى والعصبية ، كنّا أحقّ بتدبير الأمة وبولاية الخلافة من المنازع لنا عليها.

---

(١) مخطوطة النهج : « ترحاً » .

(٢) سورة النور ٤٨ .

(٣) سورة النساء ٥٩ .

فإن قلت : إنّه عليه السلام لم يقل هكذا ؛ وإنما قال : إذا حُكِم بالصدق فى كتاب الله ، فنحن أولى به ، وإذا حُكِم بالسنة فنحن أحقّ بها !

قلت : إنه رفع نفسه عليه السلام أن يصرّح بذكر الخلافة فكنّى عنها ، وقال : نحنُ إذا حُكِم بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنّة ، ويلزم من كونه أوْلى بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلافة من جميع الناس ، فدلّ على ما كنّى عنه بالأمر المستلزم له .

فإن قلت : إذا كان الرجال الذين يترجون القرآن ويفسّرونه ، وقد كُلِّفُوا أن يحكموا فى واقعة أهل العراق وأهل الشام ، بما يدلّهم القرآن عليه ؛ يجوز أن يختلفوا فى تفسير القرآن وتأويله ، فيدّعى صاحب أهل العراق من تفسيره ما يستدلّ به على مراده ، ويدّعى وكيل أهل الشام ما يقابل ذلك ويناقضه ، بطريق الشبهة التى تمسكوا بها من دم عثمان ، ومن كون الإجماع لم يحصل على بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، احتاجَ الحكمان حينئذ إلى أنْ يحكم بينهما حَكَمان آخران ، والقول فيهما كالقول فى الأول إلى ما لا نهاية له ؛ وإنما كان يكون التحكيم قاطعا للشَّغَب لو كانَ القرآن ينصّ بالصريح الذى لا تأويل فيه ، إمّا عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام وإمّا على معاوية ، ولا نصّ صريح فيه ؛ بل الذى فيه يحتمل التأويل والتجاذب ؛ فما الذى يفيد التحكيم والحال تعود لا محالة جَذَعة !

قلت : لو تأمّل الحكمان الكتاب حقّ التأمّل ، لوجدا فيه النصّ الصريح على صحة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّ فيه النصّ الصريح على أنّ الإجماع حجّة ، ومعاوية لم يكن مخالفاً فى هذه المقدمة ولا أهل الشام ، وإذا كان الإجماع حجّة ، فقد وقع الإجماع لما توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، على أنّ اختيار خمسةٍ من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعتِه توجب لزوم طاعته وصحة خلافته ، وقد بايع أميرَ المؤمنين عليه السلام

خمسة من صلحاء الصحابة بل خمسون ؛ فوجب أنْ تصحّ خلافته ، وإذا صحّت خلافته نفذت أحكامه ، ولم يجب عليه أن يقيد بعثمان ، إلا إن حضر أولياؤه عنده ، طائعين له مبايعين ، ملتزمين لأحكامه ؛ ثم بعد ذلك يطالبون القصاص من أقوام بأعيانهم ، يدّعون عليهم دمَ المقتول ؛ فقد ثبت أنّ الكتاب لو تؤمِّلَ حقّ التأمّل ، لكان الحق مع أهل العراق ، ولم يكن لأهل الشام من الشبهة ما يقدح فى استنباطهم المذكور .

ثم قال عليه السلام : فأمّا ضربى للأجل فى التّحكيم فإنما فعلته لأن الأناة والتثبّت من الأمور المحمودة ؛ أما الجاهل فيعلم فيه ما جهله ، وأما العالم فيثبُت فيه على ما علِمه ، فرجوتُ أن يصلح الله فى ذلك الأجلِ أمرَ هذه الأمّة المفتونة .

ولا تؤخذ بأكظامها : جمع كَظَم ؛ وهو مخرج النَّفَس ، يقول : كرهت أن أعجِل القوم عن التبيّن والاهتداء ، فيكون إرهاق لهم ، وترك للتنفيس عن خناقهم ، وعدُولى عن ضرب الأجل بينى وبينهم أدْعى إلى استفسادهم ، وأحْرَى أن يركبوا غيّهم وضلالهم ، ولا يُقْلِعوا عن القبيح الصادر عنهم .

ثم قال : أفضلُ الناس مَنْ آثرَ الحقّ وإن كرثه ــ أى اشتدّ عليه ، وبلغ منه المشقة . ويجوز « أكرثه » بالألف ــ على الباطل وإن انتفع به وأورثه زيادة .

ثم قال : « فأين يتاه بكم ؟ » ، أى أين تذهبون فى التيه ؟ يعنى فى الحيْرة . وروى : « فأنى يُتاهُ بكم ؟ » .

ومن أين أتيتم ؟ أى كيفَ دخل عليكم الشيطان أو الشبهة ، ومن أىّ المداخل دخل اللّبس عليكم !

ثم أمرهم بالاستعداد للمسير إلى حرب أهل الشام ، وذكر أنهم مُوزَعُون بالجوْر ،

أى ملهمون ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ (١) أى ألهمنى، أوزعته بكذا وهو موزَع به ، والاسم والمصدر جميعا الوزع بالفتح ، واستوزعت إليه تعالى شكره فأوزَعنى ، أى استلهمته فألهمنى .

ولا يعدِلون عنه ؛ لا يتركونه إلى غيره ، وروى « لا يعدلون به » ؛ أى لا يعدلون بالجوْر شيئا آخر ، أى لا يرضون إلا بالظلم والجوْر ولا يختارون عليهما غيرها .

قوله : « جفاة عن الكتاب » : جمع جافٍ وهو النابى عن الشىء ، أى قد نبوْا عن الكتاب لا يلائمهم ولا يناسبونه، تقول : جفاَ السرجُ عن ظهرِ الفرس إذا نبا وارتفع، وأجفيتهُ أنا ، ويجوز أن يريد أنّهم أعراب جفاة ، أى أجلافٌ لا أفهام لهم .

قوله : « نُكُبٌ عن الطريق » ، أى عادلون ، جمع ناكب ، نكَب ينكُب عن السبيل ، بضم الكاف ، نكوبا .

قوله : « وما أنتم بوثيقة » ، أى بذى وثيقة ، بحذف المضاف ، والوثيقة : الثقة، يقال : قد أخذت فى أمر فلان بالوثيقة ، أى بالثقة ، والثقة مصدر .

والزوافر : العشيرة والأنصار ، ويقال : هم زافرتهم عند السلطان ، للذين يقومون بأمره عنده .

وقوله : « يعتصم إليها » ، أى بها ، فأناب « إلى » مناب الباء ، كقول طرفة :

وإن يَلتَقِ الحىّ الجميع تلاقنى ... إلى ذِرْوة البيت الرفيع المصمّدِ (٢)

وحُشاش النار : ما تُحشّ به ، أى توقد ، قال الشاعر :

أفِى أن أحُشّ الحرب فيمن يَحُشها ... أُلامُ ، وفى ألّا أقرّ المخازيا !

---

(١) سورة النمل ١٩ .

(٢) من المعلقة — بشرح التبريزى ٧٢

وروى « حَشاش » بالفتح كالشّياع ، وهو الحطب الذى يلقى فى النار قبل الجزل ، وروى : « حُشّاش » بضم الحاء وتشديد الشين ، جمع حاشٍ ، وهو الموقد للنار .

قوله : « أفٍّ لكم » من الألفاظ القرآنية ، وفيها لغات « أفّ » بالكسر وبالضم وبالفتح و « أفٍّ » منونا بالثلاث أيضا ، ويقال : أفّاً وتفّاً ؛ وهو إتباع له ، وأفّة وتفّة ، والمعنى استقذار المعنىّ بالتأفيف .

قوله : « لقد لقيت منكم بَرْحاً » ، أى شدّة ، يقال : لقيت منهم بَرْحاً بارحا ، أى شدّة وأذى ، قال الشاعر :

أجِدَّكَ هذا عمرَكَ الله كلّما ... دَعَاكَ الهوى بَرْحٌ لعينك بارح[1] !

ويروى : « ترحا » ، أى حزنا .

ثم ذكر أنه يناديهم جهارا طورا ، ويناجيهم سِرًّا طورا ، فلا يجدهم أحراراً عند ندائه ، أى لا ينصرون ولا يجيبون ، ولا يجدهم ثقاتاً وذوى أمانة عند المناجاة ، أى لا يكتمون السرّ .

والنّجاء : المناجاة ، مصدر ناجيته نجاء ، مثل ضاربته ضِرابا ، وصارعته صِراعا .

---

(١) اللسان (برح) من غير نسبة .

(١٣٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما عوقب على التسوية فى العطاء وتصييره الناس أسوة فى العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف :

أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ ! وَاللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً ! وَلَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ !

ثم قال عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ ؛ وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ ؛ وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ؛ إِلَّا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ ؛ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ ؛ فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ ، وَأَلْأَمُ خَدِينٍ .

* * *

الشرح :

أصل « تأمرونى » : تأمروننى ، بنونين ، فأسكن الأولى وأدغم ، قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الزمر ٦٤

ولا أطور به : لا أقربَ به ولا تَطُرْ حَوْلَنَا ، أى لاتقرب ماحولنا ، وأصله من طَوار الدار ، وهو ما كان ممتداً معها من الفناء .

وقوله : « ما سمر سمير » يعنى الدهر ، أى ما أقام الدهر ومابقى ، والأشهر فى المثل : « ما سمر ابنا سمير » ، قالوا : السمير الدهر ، وابناه الليل والنهار . وقيل : ابنا سمير الليل والنهار ، لأنه يُسْمَرفيهما ، ويقولون : لا أفعله السَّمَر والقمر ، أى ما دام الناس يسمرون فى ليلة قمراء ولا أفعله سميرَ الليالى ، أى أبدا ، قال الشَّنْفَرَى :

هنالِكَ لَا ارْجُو حياةً تَسُرُّنِي   سميرَ اللَّيالى مُبسلا بالجرائر [1]

قوله : « وما أمَّ نجم فى السماء نجما » ، أى قصد وتقدّم ، لأن النجوم تتبع بعضها بعضا ، فلا بدّ من تقدم وتأخر ؛ فلا يزال النجم يقصد نجما غيره ، ولا يزال النجم يتقدم نجما غـيره .

والخدين : الصديق ؛ يقول عليه السلام : كيف تأمرونى أن أطلب النصر من الله بأن أجور على قوم وليت عليهم ! يعنى الذين لاسوابق لهم ولاشرف ؛ وكان عُمَر يقصهم فى العطاء عن غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لو كان المال لى وأنا أفرقه بينهم لسوّيت ، فـكيف وإنما هو مال الله وفيئه !

ثم ذكر أنّ إعطاء المال فى غير حقّه تبذير وإسراف ، وقد نهى الله عنه وأنه يرفع صاحبه عند الناس ، ويضعه عند الله ، وأنه لم يسلك أحد هذه المسلك إلاّ حرمه الله ودّ الذين يصحب إليهم بالمال ، ولو احتاج إليهم يوما عند عثرة يعثرها لم يجدهم .

•••

(١) ديوانه ٣٦

واعلم أن هذه مسألة فقهية ورأيُ عليّ عليه السلام وأبى بكر فيها واحد، وهو التسوية بين المسلمين فى قسمة الفيء والصدقات، وإلى هذا ذهب الشافعيّ رحمه الله، وأما عمر فإنه لمّا وَلِيَ الخلافة فضّل بعض الناس على بعض، ففضّل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر أيام خلافته بذلك، فلم يقبل، وقال: إنّ لم يفضّل أحدا على أحد، ولكنه قال: ﴿إنّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء والمساكِينِ﴾(١)، ولم يخصّ قوما دون قوم، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أولا. وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله، والمسألة محلّ اجتهاد، وللإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتهاده، وإن كان اتباع عليّ عليه السلام عندنا أولى، لا سيما إذا عضّده موافقة أبي بكر على المسألة، وإن صحّ الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى، فقد صارت المسألة منصوصا عليها، لأن فعله عليه السلام كقوله.

(١) سورة التوبة ٩

(١٢٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج أيضا :

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ـ بِضَلَالِي ، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي ، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي ! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ ، وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِمْ ؛ وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ . ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ . وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ : مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ . وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ ؛ فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ .

أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ ؛ وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ ؛ فَإِنَّمَا حُكِّمَ

الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ ؛ فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا ؛ فَلَمْ آتِ لَا أَبَا لَكُمْ بُجْراً ، وَلَا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ .

إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلَّا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ ؛ وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، فَمَضَيَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا ، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا .

* * *

الشرح :

ليس لقائل أن يقول له عليه السلام معتذرا عن الخوارج : إنهم إنما ضلّلوا عامّة أمة محمد صلى الله عليه وآله ، وحكموا بخطئهم وكفرهم وقتلهم بالسيف خبطاً ، لأنهم وافقوك فى تصويب التحكيم ؛ وهو عندهم كفر فلم يؤاخذوهم بذنبك كما قلت لهم ؟ وذلك لأن أمير المؤمنين عليه السلام ما قال هذه المقالة إلا لمن رأى منهم استعراض العامّة ، وقتل الأطفال حتى البهائم ، فقد كان منهم قوم فعلوا ذلك . وقد سبق منّا شرح أفعالهم ووقائعهم بالناس ، وقالوا : إن الدار دار كفر لا يجوز الكفّ عن أحد من أهلها ، فهؤلاء هم الذين وجّه أمير المؤمنين عليه السلام إليهم خطابه وإنكاره ، دون غيرهم من فرق الخوارج .

[مذهب الخوارج فى تكفير أهل الكبائر]

واعلم أن الخوارج كلّها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر ، ولذلك كفّروا عليا عليه السلام ومَن اتبعه على تصويب التحكيم ؛ وهذا الاحتجاج الذى احتج به عليهم

لازم وصحيح ؛ لأنه لو كان صاحبُ الكبيرة كافرا لما صلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا ورّثه من المسلم ، ولا مكّنه من نكاح المسلمات ، ولا قسم عليه من الفيء ولأخرجه عن لفظ الإسلام .

وقد احتجت الخوارج لمذهبها بوجوه :

منها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(١) ، قالوا : فجعل تاركَ الحجّ كافرا .

والجواب أن هذه الآية مجملة ، لأنه تعالى لم يبيّن ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بماذا ؟ فيحتمل أن يريد تاركَ الحج ، ويحتمل أن يريد تاركَ اعتقاد وجوبه على من استطاع إليه سبيلا ، فلا بدّ من الرجوع إلى دلالة ، والظاهر أنه أراد لزومَ الكفر لمن كفر باعتقاد كون الحج غيرَ واجب ؛ ألا تراه في أول الآية قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ ، فأنبأ عن اللزوم ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ بلزوم ذلك ! ونحن نقول : إنّ مَنْ لم يقل : لله على الناس حج البيت ، فهو كافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٢) ، قالوا : والفاسق لفسقه وإصراره عليه آيسٌ من رَوْح الله ، فكان كافرا .

والجواب أنّا لا نسلّم أن الفاسقَ آيسٌ من رَوْح الله مع تجويزه تلافِي أمره بالتوبة والإقلاع ؛ وإنما يكون اليأس مع القطع ، وليس هذه صفة الفاسق ، فأمّا الكافر الذى يجحد الثواب والعقاب ، فإنه آيسٌ من رَوْح الله ، لأنه لا تخطُر له التوْبة والإقلاع ، ويقطع على حسن معتقده .

ومنها قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٣) وكلّ مرتكبٍ للذنوب فقد حكَم بغير ما أنزل الله . ولم يحكم بما أنزل الله .

---

(١) سورة آل عمران ٩٧ (٢) سورة يوسف ٨٧
(٣) سورة المائدة ٤٤

والجواب أنّ هذا مقصورٌ على اليهود؛ لأن ذكرهم هو المقدّم فى الآية؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[1] ثم قال عقيب قوله: ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[2] فدلّ على أنها مقصورة على اليهود.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۞ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۞ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[3]، قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أنّ الفاسق يصلى النارَ، فوجب أنْ يسمّى كافرا.

والجواب، أنّ قوله تعالى: ﴿نارًا﴾ نكرة فى سياق الإثبات فلا تعمّ، وإنّما تعمّ النكرة فى سياق النفى؛ نحو قولك: «ما فى الدار من رجل»؛ وغير ممتنع أن يكون فى الآخرة نار مخصوصة لا يصلاها إلّا الذين كذّبوا وتولّوا، ويكون للفسّاق نار أخرى غيرها.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[4]، قالوا: والفاسق تحيط به جهنّم، فوجب أن يكون كافرا.

والجواب أنه لم يقل سبحانه: «وَإِنَّ جهنم لا تحيط إلاّ بالكافرينَ» وليس يلزم من كونها محيطةً بقوم ألاّ تحيط بقوم سواهم.

ومنها قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[5]. قالوا:

---

(١) سورة المائدة ٤٣

(٢) سورة المائدة ٤٦

(٣) سورة الليل ١٤ — ١٦

(٤) سورة التوبة ٤٩

(٥) سورة آل عمران ١٠٧

والفاسق لا يجوز أن يكونَ ممّن ابيضت وجوههم ، فوجب أن يكونَ ممّن اسودّت ، ووجب أن يسمّى كافرا ، لقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

والجواب أنّ هذه القسمة ليست متقابلة ؛ فيجوز أن يكونَ المكلّفون ثلاثة أقسام: بيضُ الوجوه ، وسود الوجوه ؛ وصنف آخر ثالث بين اللونين ؛ وهم الفساق .

ومنها قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾(١) . قالوا : والفاسق على وجهه غبَرة ، فوجب أن يكونَ من الكفرة والفجرة .

والجواب، أنه يجوز أن يكون الفسّاق قسماً ثالثا لا غبرة على وجوههم، ولا هي مسفرة ضاحكة ، بل هي على ما كانت عليه في دار الدنيا .

ومنها قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (٢). قالوا : والفاسق لا بدّ أن يجازَى ، فوجب أن يكون كفورا .

والجواب ، أنّ المرادَ بذلك : « وهل نجازِي بعقاب الاستئصال إلا الكفور » ؛ لأنّ الآية وردت في قصة أهل سبأ ، لكونهم استؤصلوا بالعقوبة .

ومنها أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾(٣) ، وقال في آية أخرى :﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٤) ، فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركا .

والجواب أنّا لا نسلّم أنّ لفظة « إنما » تفيد الحصر ؛ وأيضا فإنه عطف قوله :

---

(١) سورة عبس ٣٨ ـ ٤٢

(٢) سورة سبأ ١٧

(٣) سورة الحجر ٤٢

(٤) سورة النحل ١٠٠

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ على قوله : ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ، فوجب أن يثبت التغاير بين الفريقين ، وهذا مذهبنا ، لأنّ الذين يتولّونه هم الفسّاق ، والذين هم به مشركون هم الكفار .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١) فجعل الفاسق مكذّبا .

والجواب ، أنّ المراد به الذين فسقوا عن الدين ، أى خرجوا عنه بكفرهم ، ولاشُبْهة أنّ مَنْ كان فسقه من هذا الوجه فهو كافر مكذّب ، ولا يلزم منه أنّ كلّ فاسق على الإطلاق فهو مكذّب وكافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢) ، قالوا: فأثبت الظالمَ جاحدا ، وهذه صفة الكفار .

والجواب أنّ المكلّف قد يكون ظالما بالسرقة والزنا ، وإن كان عارفا بالله تعالى ، وإذا جاز إثبات ظالم ليس بكافر ولا جاحد بآيات الله تعالى ، جاز إثباتُ فاسق ليس بكافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣) .

والجواب ، أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الكافر فاسق ، ولا تدلّ على أنّ الفاسق كافر .

ومنها قوله تعالى : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤) .

---

(١) سورة السجدة ٢٠
(٢) سورة الأنعام ٣٣
(٣) سورة النور ٥٥
(٤) سورة الأعراف ١٠٢ ـ ١٠٥

فنص سبحانه على أن مَنْ تخف موازينه يكون مكذّبا ، والفاسق تخف موازينه،فكان مكذّبا ، وكلّ مكذّب كافر .

والجواب أنّ ذلك لا يمنع من قسم ثالث ، وهم الذين لا تخف موازينهم ولا تثقل؛ وهم الفساق ، ولا يلزم من كون كلّ مَنْ خفّت موازينه يدخل النار ألّا يدخل النار إلا من خفّت موازينه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [1] ، وهذا يقتضى أنّ من لا يكون مؤمنا فهو كافر ، والفاسق ليس بمؤمن ،فوجب أن يكون كافرا .

والجواب أنّ « منْ » هاهنا للتبعيض ، وليس فى ذكر التبعيض نفى الثالث، كاأن قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ [2] ؛ لا ينفى وجود دابّة تمشى على أكثر من أربع كبعض الحشرات .

***

ثم نعود إلى الشرح :

قوله عليه السلام : « ومن رَمَى به الشيطان مراميَه » ، أى أضلّه كأنّه رمَى به مرمًى بعيدا ، فضلّ عن الطريق ؛ ولم يهتد إليها .

قوله : « وضرب به تيهَه » أى حيّره وجعله تائها .

ثم قال عليه السلام : يهلك فىّ رجُلان ، فأحدهما مَنْ أفرط حبّه له واعتقاده فيه حتى ادّعى له الحلول كما ادّعت النصارى ذلك فى المسيح عليه السلام، والثانى مَنْ أفرط بغضه له، حتى حاربَه ، أو لعنه ، أو برِئ منه ، أو أبغضه ؛ هذه المراتب الأربع؛ والبغض أدناها ، وهو

---

(١) سورة التغابن ٢

(٢) سورة النور ٤٥

مُوبِقٌ مهلك ؛ وفى الخبر الصّحيح المتَّفق عليه أنه لايحبّهٔ إلا مؤمن ، ولايُبغضه إلّا منافق ؛ وحسبك بهذا الخبر ، ففيه وحده كفاية .

[فصل فى ذكر الغلاة من الشيعة والنصيرية وغيرهم]

فأما الغُلاة فيه فهالكون كما هلك الغلاة فى عيسى عليه السلام . وقد روى المحدّثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عليه السلام : « فيك مَثَلٌ من عيسى بن مريم ، أبغضته اليهود فبهتَت أمّه ، وأحبّته النصارى فرفعته فوق قدره » ، وقد كان أمير المؤمنين عثر على قوم من أصحابه خرجوا من حدّ محبته باستحواذ الشيطان عليهم أن كفروا بربهم ، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم ، فاتخذوه ربًّا وادّعوه إلهًا ، وقالوا له : أنت خالقنا ؛ ورازقنا ، فاستتابهم ، واستأنى وتوعّدهم فأقاموا على قولهم ، فحفر لهم حفرًا دخّن عليهم فيها ، طمعا فى رجوعهم ، فأبوا فحرقهم ، وقال :

ألَا تَرَوْنِي قَدْ حَفَرْتُ حَفَرَا (١) ... إنّى إذا رأيتُ أمرًا منكَرًا

* أوقدتُ نارى وَدَعَوْتُ قَنْبَرَا *

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفىّ ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصىّ ، المعروف بنوين ، وروى أيضاً عن علىّ بن محمد النوفلىّ عن مشيخته ، أن عليا عليه السلام مرّ بقوم وهم يأكلون فى شهر رمضان نهارا ، فقال : أسفر أم مرضى ؟ قالوا : لا ولا واحدة منهما ، قال : فمن أهل الكتاب أنتم فتعصمكم الذمّة والجزية ؟ قالوا : لا ، قال : فما بالُ الأكل فى نهار رمضان ! فقاموا إليه ، فقالوا : أنتَ أنت ! يومون إلى ربوبيته ، فنزل عليه السلام عن فرسه ، فألصق خدّه بالأرض ، وقال : ويلكم ! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله ، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام . فأبوا فدعاهم مرارا ، فأقاموا على كفرهم ، فنهض إليهم ، وقال : شدُّوهم وثاقا ، وعلىّ بالفعَلة والنار والحطب ، ثم أمر

(١) الحفر : البئر الواسعة .

بحفر بئرين لحفرتا ، إحداهما سَرَبًا والأخرى مكشوفة ، وألقى الحطب فى المكشوفة ، وفتح بينهما فتحا ، وألقى النار فى الحطب ، فدخن عليهم ، وجعل يهتف بهم ، ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام ، فأبوا ، فأمر بالحطب والنار فألقى عليهم ، فأحرقوا ، فقال الشاعر :

لترم بى المنيةُ حيثُ شاءتْ إذا لم ترمنِى فى الحفرتينِ
إذا ما حُشّتا حطبا بنـــار فذاك الموت نقداً غير دَينِ

قال : فلم يبرحْ عليه السلام حتى صارُوا حُمَماً .

ثم استترت هذه المقالة سنة أو نحوها ، ثم ظهر عبد الله بن سبأ وكان يهوديا يتستر بالإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام فأظهرها ، واتّبعه قومٌ فسمّوا السبَئية[1] ، وقالوا : إنّ عليا عليه السلام لم يمتْ ، وإنّه فى السماء ، والرعد صوته والبرق صوته ؛ وإذا سمعوا صوت الرعد ، قالوا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ! وقالوا فى رسول الله صلى الله عليه وآله أغلَظ قول ، وافتروْا عليه أعظم فِرْية ، فقالوا : كَتَم تسعة أعشار الوحى ، فنَعَى عليهم قولَهم الحسنُ بن علىّ بن محمد بن الحنفيّة رضى الله عنه فى رسالته ، التى يذكر فيها الإرجاء ، رواها عنه سليمان بن أبى شيخ ، عن الهيثم بن معاوية ، عن عبد العزيز بن أبان ، عن عبد الواحد بن أيمن المكىّ ، قال : شهدتُ الحسن بن علىّ بن محمد بن الحنفيّة يُملِى هذه الرسالة ، فذكرها وقال فيها : ومِنْ قول هذه السبئيّة : هدِينا لوحىٍ ضلّ عنه الناس ، وعِلْمٍ خفِىَ عنهم ؛ وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كَتم تسعة أعشار الوحى ؛ ولو كتم صلى الله عليه وآله شيئاً مما أنزل الله عليه لكَتَم شأن امرأة زيد ، وقوله تعالى : ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾[2] .

---

(١) السبئية هم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة ، وقالت بتناسخ الجزء الإلهى بعد على رضى الله عنه . وانظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) سورة التحريم ١

ثم ظهر المغيرة بن سعيد [١] ، مولى بَجِيلة ، فأراد أن يحدِثَ لنفسه مقالةً يستهوى بها قوماً ، وينال بها مايريد الظفَرَ به من الدنيا ، فغلَا في علىّ عليه السلام ، وقال : لو شاء علىّ لأحيا عاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً .

وروى على بن محمد النوفلىّ ، قال : جاء المغيرة بن سعيد ، فاستأذنَ عَلَى أبى جعفر محمد بن علىّ بن الحسين ، وقال له : أخبِر الناس أنى أعلمُ الغيب ، وأنا أطعِمك العراق ، فزبره أبو جعفر زجراً شديدا ، وأسمعه ما كرِهَ ، فانصرف عنه ، فأتى أبا هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفيّة رحمه الله ، فقال له مثل ذلك — وكان أبو هاشم أيِّداً — فوثب عليه فضربه ضرباً شديدا أشفى به على الموت ، فتعالج حتى برِئ ، ثم أتى محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن رحمه الله — وكان محمد سُكّيتاً [٢] — فقال له كما قال للرجلين ، فسكت محمد فلم يجبه ، فخرج وقد طمع فيه بسكوته ، وقال : أشهد أنّ هذا هو المهدىّ الذى بَشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه قائمُ أهل البيت ، وادّعى أنّ علىّ بن الحسين عليه السلام أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن . ثم قدم المغيرةُ الكوفة ، وكان مشعبذاً ، فدعا الناس إلى قوله ، واستهواهم واستغواهم ، فاتبعه خلق كثير ، وادّعى عَلَى محمد بن عبد الله أنه أذِنَ له فى خَنْق الناس وإسقائهم السموم ، وبثّ أصحابَه فى الأسفار يفعلون ذلك بالناس ، فقال له بعضُ أصحابه : إنا نخنُق مَن لا نعرف ، فقال : لاعليكم ! إنْ كان من أصحابكم عجّلتموه إلى الجنة ، وإن كان من عدوّكم عجّلتموه إلى النار ؛ ولهذا السبب كان المنصور يسمّى محمد بن عبد الله الخنّاق ، وينحله ما ادّعاه عليه المغيرة .

ثم تفاقم أمرُ الغُلاة بعد المغيرة ، وأمعنوا فى الغلوّ ، فادعوا حلول الذات الإلهية

---

(١) هو المغيرة بن سعيد البجلى ، مولى خالد بن عبد الله القسرى ، ادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد بن على بن الحسين ، وبعد ذلك ادعى النبوة لنفسه ، واستحل المحارم ، وغلا فى على غلواً لا يعتقده عاقل ، وزاد على ذلك قوله بالتشبيه . الشهرستانى ١ : ١٥٥

(٢) السكيت ، على التصغير : الكثير السكوت .

المقدّسة فى قوم من سلالة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا بالتناسخ ، وجحدوا البعث والنشور ، وأسقطوا الثواب والعقاب ، وقال قوم منهم : إن الثواب والعقاب إنّما هو ملاذّ هذه الدنيا ومشاقّها ، وتولّدت من هذه المذاهب القديمة التى قال بها سلفهم مذاهبُ أفحش منها قال بها خَلَفُهم ، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنّصيريّة(١) ، وهى التى أحدثها محمد بن نصير النميرىّ ، وكان من أصحاب الحسن العسكرىّ عليه السلام ، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهى التى أحدثها إسحاق بن زيد بن الحارث ، وكان من أصحاب عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف ، ويثبت لعلىّ عليه السلام شركة مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى النبوّة على وجهٍ غير هذا الظاهر الذى يعرفه الناس ؛ وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن بن علىّ بن محمد ابن الرّضا ، فلما مات ادّعى وكالة لابن الحسن الذى تقول الإماميّة بإمامته ، ففضحه الله تعالى بما أظهره من الإلحاد والغلوّ والقول بتناسخ الأرواح ، ثم ادّعى أنه رسول الله ونبىٌّ من قِبَل الله تعالى ، وأنه أرسله علىّ بن محمد بن الرضا ، وجحد إمامة الحسن العسكرىّ وإمامة ابنه ، وادعى بعد ذلك الربوبية ، وقال بإباحة المحارم .

وللغلاة أقوال كثيرة طويلة عريضة ؛ وقد رأيتُ أنا جماعةً منهم ، وسمعت أقوالهم ، ولم أر فيهم محصّلا ، ولا مَنْ يستحقّ أن يخاطَب ؛ وسوف أستقصى ذِكْرَ فِرَقِ الغلاة وأقوالهم فى الكتاب الذى كنت متشاغلاً بجمعه ، وقطعنى عنه اهتمامى بهذا الشرح ، وهو الكتاب المسمى " بمقالات الشيعة " إن شاء الله تعالى .

* * *

قوله عليه السلام : « والزموا السَّواد الأعظم » ؛ وهو الجماعة ، وقد جاء فى الخبر عن

---

(١) انظر الشهرستانى ١ : ١٦٨ ، ١٦٩

رسول الله صلى الله عليه وآله هذه اللفظة التى ذكرها عليه السلام، وهى : «يد الله على الجماعة ولا يبالى بشذوذِ مَنْ شذّ» ، وجاء فى معناها كثير ، نحو قوله عليه السلام : «الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد» ، وقوله : «لا تجتمع أمتى على خطأ» ، وقوله : «سألت الله ألّا تجتمع أمتى على خطأ ، فأعطانيها» ، وقوله : «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» ، وقوله : «لا تجتمع أمّتى على ضلالة» ، و «سألت ربى ألّا تجتمع أمتى على ضلالة فأعطانيها» . و «لم يكن الله ليجمع أمّتى على ضلال ولا خطأ» .

وقوله عليه السلام : «عليكم بالسّواد الأعظم» ، وقوله : «مَنْ خرج من الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه» .

وقوله : «مَنْ فارق الجماعة مات ميتة جاهليّة» ، وقوله : «مَنْ سرّه بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة» .

والأخبار فى هذا المعنى كثيرة جدا .

ثم قال عليه السلام : «مَنْ دعا إلى هـذا الشعار فاقتلوه» ، يعنى الخوارج ، وكان شعارهم أنّهم يحلِقُون وسط رءوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل .

قال : «ولو كان تحت عمامتى هذه ـ أى لو اعتصم واحتمى بأعظم الأشياء حُرْمة ـ فلا تـكفّوا عن قتله» .

ثم ذكر أنه إنما حُكّم الحكمان ليُحييا ما أحياه القرآن ، أى ليجتمعا على ما شهد القرآن باستصوابه واستصلاحه ، ويميتا ما أماته القرآن ، أى ليفترقا ويصدّا وينكلا عمّا كرهه القرآن ، وشهد بضلاله .

والبُجْر ، بضم الباء : الشرّ العظيم ، قال الراجز :

* أرمى عليها وهى شىءٌ بُجْرُ *

أى داهية .

ولاخَتَلْتُكُم ، أى خدعتكم ، خَتَلَهُ وخاتله : أى خدعه ، والتخاتل : التخادع .

ولا لبَّسته عليكم ؛ أى جعلته مشتبها ملتبسا ، ألبستُ عليهم الأمر ألبسه بالكسر .

والملأ : الجماعة من الناس . والصَّمْد : القصد .

قال : سبق شرطُنا سوء رأيهما ، لأنا اشترطنا عليهما فى كتاب الحكومة مالامضرّة علينا ؛ مع تأمّله فيما فعلاه من اتّباع الهوى وترك النصيحة للمسلمين .

(١٢٨)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة:

يا أحنف، كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب، ولا قعقعة لجم، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام.

ـ قال الشريف الرضي أبو الحسن رحمه الله تعالى: يومىء بذلك إلى صاحب الزنج ـ

•••

ثم قال عليه السلام:

ويل لسكككم العامرة، والدور المزخرفة، التي لها أجنحة كأجنحة النسور، وخراطيم كخراطيم الفيلة؛ من أولئك الذين لا يندب قتيلهم، ولا يفقد غائبهم.

أنا كاب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها!

•••

الشرح:

اللجب: الصوت. والدور المزخرفة: المزينة المموهة بالزخرف، وهو الذهب.

وأجنحة الدور التي شبهها بأجنحة النسور: رواشينها. والخراطيم: ميازيبها.

وقوله : « لا يندب قتيلُهم » : ليس يريد به مَنْ يقتلونه ، بل القتيل منهم؛ وذلك لأنّ أكثرَ الزّنج الذين أشار إليهم؛ كانوا عبيد الدهاقين البصرة وبناتها ، ولم يكونوا ذوي زوجاتٍ وأولاد ، بل كانوا على هيئة الشطّار عُزّابا فلا نادبةَ لهم .

وقوله : « ولا يفقد غائبهم » يريد به كثرتَهم وأنّهم كلما قتِل منهم قتيل سدّ مسدّه غيره ، فلا يظهر أثر فقده .

وقوله : « أنا كابّ الدنيا لوجهها » ، مثل الكلمات المحكيّة عن عيسى عليه السلام: أنا الذي كببت الدنيا على وجهها ، ليس لي زوجة تموت ، ولا بيت يخرب ، وسادِيَ الحجَر وفراشي المدَر ، وسراجي القمر .

***

[أخبار صاحب الزّنج وفتنته وما انتحله من عقائد]

فأما صاحب الزّنج[1] هذا فإنه ظهر في فُرات البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين رجل زعم أنه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فتبعه الزّنج الذين كانوا يكسَحون[2] السّباخ في البصرة .

وأكثرُ الناس يقدحون في نسبه وخصوصا الطالبيين .. وجمهور النسّابين اتفقوا على

---

(١) ذكره صاحب الأعلام فقال : « علي بن محمد الورزنيني العلوي ، الملقب بصاحب الزنج ؛ من كبار أصحاب الفتن في العهد العباسي ، وفتنته معروفة بفتنة الزّنج ؛ لأن أكثر أنصاره منهم . ولد ونشأ في ورزنين ، إحدى قرى الري ، وظهر في أيام المهتدي بالله العباسي ، سنة ٢٥٥ هـ ، وكان يرى رأي الأزارقة ، والتف حوله سودان أهل البصرة ورعاعها ، فامتلكها واستولى على الأبلة ، وتتابعت لقتاله الجيوش ؛ فكان يظهر عليها ويشتتها ؛ ونزل البطائح ، وامتلك الأهواز ، وأغار على واسط ، وبلغ عدد جيشه ثمانمائة ألف مقاتل ، وجعل مقامه في قصر اتخذه بالمختارة ، وعجز عن قتاله الخلفاء ؛ حتى ظفر به الموفق بالله ، فقتله ، وبعث برأسه إلى بغداد . قال المرزباني : تروى له أشعار كثيرة في البسالة والفتك كان يقولها وينحلها غيره ، وفي نسبه العلوي طعن وخلاف .

(٢) كسح البيت : كنسه ؛ ثم استعير لتنقية البئر والنهر وغيره .

أنه من عبد القيس ، وأنه علىّ بن محمد بن عبد الرحيم ، وأمّه أسدية من أسد بن خزيمة ، جدّها محمد بن حكيم الأسدىّ ، من أهل الكوفة ، أحد الخارجين مع زيد بن علىّ ابن الحسين عليه السلام عَلَى هشام بن عبد الملك ، فلما قتل زيد ، هرب فلحق بالرّىّ وجاء إلى القرية التى يقال لها وَرْزَنين ، فأقام بها مدّة ، وبهذه القرية ولد علىّ بن محمد صاحب الزّنج ، وبها منشؤه ، وكان أبو أبيه المسمّى عبد الرحيم رجلاً من عبد القيس ، كان مولده بِالطالِقان ، فقدِم العراق ، واشترى جارية سِنْدية ، فأولدها محمدا أباه .

وكان علىّ هذا متصلا بجماعة من حاشية السلطان وخَوَل بنى العباس ، منهم غانم الشّطرنجىّ ، وسعيد الصغير ، وبشير[1] ، خادم المنتصر ؛ وكان منهم معاشُه ومن قوم من كتّاب الدولة يمدحهم ويستمنحهم بشعره ، ويعلّم الصبيان الخطّ والنّحو والنجوم ، وكان حسن الشعر[2] مطبوعا عليه ؛ فصيحَ اللهجة ؛ بعيد الهمة ، تسمو نفسه إلى معالى الأمور ، ولا يجد إليها سبيلاً ؛ ومن شعره القصيدة المشهورة التى أولها :

---

(١) الطبرى : « بشر » .

(٢) وذكره المرزبانى فى معجم الشعراء ٢٩ ، وقال : تروى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك ؛ سمعت ابن دريد يذكر أنها — أو أكثرها — له ؛ لأنه كان يقولها وينحلها لغيره ، وقرئت عليه بحضرتى فاعترف بها . قال : وفيما يروى لعلى لما هرب من الدار التى كان فيها فى اليوم الذى قتل فيه :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَاخَيْرَ منزِلٍ ... خَرَجْنَا وَخَلَّفْنَاهُ غَيْرَ ذَمِيمِ

فإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ أَحْدَثْنَ فرقَةً ... فَنْ ذَا الَّذِى مِنْ رَيْبِهِنَّ سَلِيمُ

وله :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورٍ ببغدا ... د ، وَمَا قَدْ حَوَتْهُ كُلُّ عاصِ

وَخُمُورٍ هُنَاكَ تُشْرَبُ جَهْراً ... ورِجَالٍ عَلَى المعاصِى حِراصِ

لستُ بابْنِ الفَوَاطِمِ الغُرِّ إِنْ لَمْ ... أجلِ الخَيْلَ حَوْلَ تلكَ العِراصِ

رأيتُ المقــــامَ على الاقتصادِ   قُنوعاً بهِ ذِلّةً في العِبادِ

ومن جلّتها:

إذا النّار ضاقَ بها زَنْدُها   فَفُسحتُهـــا في فِراق الزِّنادِ
إذا صارمٌ قرّ في غِمْــــدِهِ   حَوَى غيرُهُ السَّبْقَ يوم الجِلادِ

ومن الشعر المنسوب إليه:

وإنّا لتصبحُ أسيافُنا   إذا ما انتضين ليوم سَفُوكِ
منابرهنّ بطونُ الأكُفّ   وأغمادهُنّ رءوسُ المُلُــــوكِ

ومن شعره في الغزل:

ولمّا تبيّنت المنـــازل بالحمى   ولم أقضِ منها حاجة المتورّدِ
زفرت إليها زفرةً لو حشوتُها   سرابيل أبدانِ الحديد المسرّدِ (١)
لرقّت حواشيها، وظلّت متونُها   تلين كما لانت لداود في اليد

ومن شعره أيضا:

وإذا تنازعني أقولُ لهـــا قِرِي   موتٌ يريحُكِ أو صعود المنبرِ
ماقد قُضِي سيكونُ فاصطبري له   ولكِ الأمان مِنَ الّذِي لم يقدر

•••

وقد ذكر المسعودي في كتابه المسمى "مروج الذهب"، أنّ أفعال علىّ بن محمد صاحب الزنج، تدلّ على أنّه لم يكن طالبياً، وتصدّق مارُمِي به من دعوته في النسب؛ لأنّ ظاهر حاله كان ذَهابه إلى مذهب الأزارقة، في قتل النساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض،

---

(١) البدن: الدرع القصيرة؛ وجمعه أبدان.

وقد روى أنه خطب مرّة ، فقال فى أول خطبته : « لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر لا حُكم إلا لله » ، وكان يرى الذنوب كلّها شِرْكا (١) .

ومن الناس من يطعن فى دينه ويرميه بالزّندقة والإلحاد ؛ وهذا هو الظاهر من أمره، لأنه كان متشاغلا فى بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات .

***

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢) ، أن علىّ بن محمد شَخَص من سامُرّاء وكان يعلّم الصبيان بها، ويمدح الكتّاب ، ويستميح الناس،فى سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين،فادّعى بها أنه علىّ بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيدالله بن العباس بن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام،ودعا الناس بهجَر إلى طاعته ، فاتّبعه جماعة كثيرة من أهلها، واتّبعه (٣) جماعة أخرى ؛ فكانت بسببه بين الذين اتّبعوه والذين أبوْه عصبيّة ، قتل فيها بينهم جماعة ، فانتقل عنهم لمّا حدثت ذلك إلى الأحساء ، وضَوَى (٤) إلى حىّ من بنى تميم ، ثم من بنى سعد يقال لهم بنو الشّماس ، فكان بينهم مقامه ؛ وقد كان أهل البحرين أحلّوه من أنفسهم محلّ النبىّ صلى الله عليه وآله ـ فيما ذكر ـ حتى جُبِىَ له الخراج هنالك،ونفذ حُكْمُه فيهم،وقاتلوا أسبابَ السلطان لأجله،ووتر منهم جماعةً كثيرة،فتنكّروا له ، فتحوّل عنهم إلى البادية . ولما انتقل إلى البادية صحبه جماعة من أهل البحرين،منهم رجل كيّال من أهل الأحساء ،يقال له يحيى بن محمد الأزرق،مولَى بنى دارم،ويحيى بن أبى

---

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٤ ، ١٩٥

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ١٧٤٣٠ وما بعدها (طبع أوربا) .

(٣) فى الطبرى : « وأباه جماعة أخر » .

(٤) ضوى : التجأ وانضم .

تغلب ، وكان تاجراً من أهل هَجَر ، وبعض موالِي بنى حنظلة أسود يقال له سليمان ابن جامع ، وكان قائد جيشه حيث كان بالبحرين .

ثم تنقّل فى البادية من حىّ إلى حىّ ، فذكر عنه أنه كان يقول : أوتيتُ فى تلك الأيام آياتٍ من آياتِ إمامتى ،منها أنى لقيت سوراً من القرآن لم أكن أحفظها، فجرى بها لسانى فى ساعة واحدة؛منها «سبحان» و «الكهف» و «صاد» ، ومنها أنى ألقيتُ نفسى على فراشى،وجعلت أفكّر فى الموضع الذى أقصِد له،وأجعل مُقامى به إذا نبت البادية بى. وضقتُ ذَرْعاً بسوء طاعة أهلها،فأظلّتنى سحابة، فبرقت ورعدت،واتّصل صوتُ الرعد منها بسمعى ، فخوطبت فقيل لى:اقصِد البصرة ؛ فقلت لأصحابى وهم يكتنفوننى:إنى أُمِرْت بصوت من هذا الرعد بالمصير إلى البصرة .

وذكر عنه أنّه عند مصيره إلى البادية أوْهَم أهلَها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين [1] المقتول بناحية الكوفة فى أيام المستعين ، فاختدع بذلك قوماً منهم ، حتى اجتمع عليه منهم جماعة،فزحف بهمْ إلى موضع من البحرين،يقال له الرّدْم،فكانت بينه وبين أهله وقعة عظيمة، كانت الدَّبْرَة [2] فيها عليه وعلى أصحابه، قتِلوا فيها قتلاً ذريعا ، فتفرّقت عنه العرب وكرهته ، وتجنّبتْ صحبتَه .

فلما تفرّقت العرب عنه ونبتْ به البادية ، شخص عنها إلى البصرة ، فنزل بها فى بنى ضُبَيعة ، فاتّبعه بها جماعة ، منهم علىّ بن أبان المعروف بالمهلبىّ ، من ولد المهلّب بن أبى صُفْرة ، وأخواه محمد والخليل وغيرهم ؛ وكان قدومه البصرة فى سنة أربع وخمسين ومائتين،

---

(١) هو يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، خرج فى أيام المتوكل ، وقتل فى أيام المستعين سنة ٢٥٠ ، ورثاه الشعراء . قال أبو الفرج : وما بلغنى أن أحداً ممن قتل فى الدولة العباسية من آل أبى طالب رثى بأكثر مما رثى به يحيى ، ولا قيل فيه الشعر بأكثر مما قيل فيه . وانظر أخباره فى مقاتل الطالبيين ٦٣٩ ـ ٦٦٤

(٢) فى الطبرى : « الدائرة » ، وهما بمعنى .

وعاملُ السلطان بها يومئذ محمد بن رجاء، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبِلالية والسّعدية، فطمع في أحد الفريقين أن يميلَ إليه، فأرسل أربعةً من أصحابه يدْعُون إليه؛ وهم محمد ابن سَلْم القصّاب الهجَرىّ وبُرَيش القُرَيعىّ وعلىّ الضرّاب، والحسين الصيدنانىّ، وهم الذين كانوا صحبوه بالبحرين، فلم يستجب لهم أحد من أهل البلد، وثار عليهم الجند، فتفرّقوا، وخرج علىّ بن محمد من البصرة هاربًا، وطلبه ابنُ رجاء فلم يقدر عليه. وأخبر ابنُ رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه، فأخذهم فحبسهم، وحبس معهم زوجة علىّ ابن محمد، وابنه الأكبر، وجارية له كانت حاملا؛ ومضى علىّ بن محمد لوجهه يريد بغداد ومعه قوم من خاصّته؛ منهم محمد بن سلْم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبُريش القُريعىّ، فلما صاروا بالبطيحة، نذِر بهم بعضُ موالى الباهليّين، كان على أمر البَطيحة، فأخذهم وحمَلهم إلى محمد بن أبى عوْن وهو عامل السلطان بواسط، فاحتال لابن أبى عوْن حتى تخلّص هو وأصحابه من يده؛ ثم صار إلى بغداد فأقام بها سنة، وانتسب في هذه السنة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد؛ وكان يزعم أنه ظهر له أيام مقامه ببغداد في هذه السنة آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعله كلّ واحد منهم، وأنه سأل ربّه أن يعلمه حقيقة أمور كانت في نفسه، فرأى كتابا يكتَب له على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

* * *

قال أبو جعفر: واستمال ببغداد جماعة، منهم جعفر بن محمد الصُّوحانىّ، من ولد زيد ابن صُوحان العبدىّ، ومحمد بن القاسم، وغلامان لبنى خاقان[1]؛ وهما مُشرق ورفيق، فسمّى مشرقا حمزة وكنّاه أبا أحمد، وسمى رفيقا جعفرا وكنّاه أبا الفضل؛ فلما انقضى عامه ذلك ببغداد، عُزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثبتْ رؤساء الفتنة بها من البِلاليّة والسّعدية،

(١) الطبرى: «وغلاما يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان».

فتحوا المحابس، وأطلقوا مَنْ كان فيها ، فتخلّص أهله وولده فيمن تخلّص، فلمّا بلغه ذلك شخص عن بغداد ، فكان رجوعه إلى البصرة في شهر رمضان من سنة خمس وخمسين ومائتين؛ ومعه عليّ بن أبان المهلبيّ ، وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام مشرق ورفيق ، وأربعة أُخَر من خواصّه ؛ وهم يحيى بن محمد ، ومحمد بن سلم ، وسليمان بن جامع، وأبو يعقوب المعروف بجرْبان ؛ فساروا جميعا حتى نزلوا بالموضع المعروف ببرنخـل من أرض البصرة في قصر هنـاك يعرف بقصر القرشيّ على نهر يعرف بعمود ابن المنجم ؛ كان بنو موسى بن المنجّم احتفروه ، وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع مايملـكونه هناك من السِّباخ .

قال أبو جعفر : فذكر عن ريحان بن صالح ، أحد غلمان الشّورجيّين الزُّنوج ،وهو أوّل مَنْ صحبه منهم ، قال : كنت موكّلا بغلمان مولاى ، أنقل الدقيق إليهم،فمررت به وهو مقيم بقصر القرشيّ يظهر الوَكالة لأولاد الواثق، فأخذنى أصحابه وصاروا بى إليه، وأمرونى بالتسليم عليه بالإمْرة ، ففعلت ذلك ، فسألنى عن الموضع الذى جئت منـه ، فأخبرته أنى أقبلت من البصرة ، فقال : هل سمعت لنا بالبصرة خبرا ؟ قلت : لا ، قال : فخبر البِلالية والسّعدية ؟ قلت : لم أسمع لهم خبراً ، فسألنى عن غلمان الشورجيّين ومايجرى لـكلّ جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر ، وعمّن يعمـل في الشّورج من الأحرار والعبيد ؛ فأعلمتُه ذلك ، فدعانى إلى ما هو عليه ، فأجبتُه فقال لى : احتَل فيمن قدرتَ عليه من الغلمان ، فأقبلْ بهم إلىّ . ووعدنى أن يقوّدنى على من آتيه به منهم ، وأن يحسن إلىّ ، واستحلفنى ألّا أعلِم أحداً بموضعه ، وأن أرجع إليه . فخلّى سبيلى ، فأتيتُ بالدقيق الذى معى إلى غلمان مولاى ، وأخبرتهم خبره ، وأخذت له البيعة عليهم ، ووعدتهم عنه بالإحسان والغنى ، ورجعت إليه من غد ذلك اليوم ، وقد وافاه رفيق غلام الخاقانية[1]

---

(١) فى الطبرى : « غلام يحيى بن عبد الرحمن » .

وقد كان وجّهه إلى البصرة (١) ، يدعو إليه غلمان الشُّورج ، ووافى إليه صاحب له آخر يعرف بشبل بن سالم (٢) ، قد كان دعا إليه قوماً منهم أيضاً (٢) ، وأحضر معه حريرة كان أمره بابتياعها ، ليتخذها لواء ، فكتب فيها بالحمرة (٣) : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ... (٤) ﴾ الآية ، وكتب اسمه واسم أبيه عليها ، وعلّقها في رأس مُرْدِيّ (٥) ، وخرج وقت السَّحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان ؛ فلما صار إلى مؤخّر القصر الذي كان فيه ، لقيه غلمان رجل من الشورجيين ، يعرف بالعطار [متوجهين إلى أعمالهم] (٦) ، فأمر بأخذ وكيلهم ، فأُخذ وكُتّف ، واستضم غلمانه إلى غلمانه ، وكانوا خمسين غلاما ، ثم صار إلى الموضع المعروف بالسَّنائي فاتبعه الغلمان الذين كانوا فيه ، وهم خمسمائة غلام فيهم الغلام المعروف بأبي حُديد ، وأمر بأخذ وكيلهم ، وكتّفه ثم مضى إلى الموضع المعروف بالسيرافي ، فاتبعه مَنْ كان فيه من غلمان ، وهم مائة وخمسون غلاما ، منهم زُرَيق وأبو الخنجر ، ثم صار إلى الموضع المعروف بسَبَخة ابن عطاء ، فأخذ طريفا ، وصبيحا الأعسر ، وراشد المغربي ، وراشدا القرمطي (٧) ؛ وكلّ هؤلاء من وجوه الزّنج وأعيانهم الذين صاروا قوّادا وأمراء في جيوشهم ، وأخذ معهم ثمانين غلاما .

ثم أتى إلى الموضع المعروف بغلام سَهل الطّحّان ، فاستضاف مَنْ كان به من الغلمان ؛ ثم لم يزل يفعل مثل ذلك في يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من الزّنج ، ثم قام فيهم

---

(١) الطبري : « في حوائج من حوائجه » .
(٢ — ٢) الطبري : « وكان من غلمان الدباسين » .
(٣) الطبري : « بحمرة وخضرة » . (٤) سورة التوبة ١١١ .
(٥) المردي : خشبة تدفع بها السفينة .
(٦) من الطبري .
(٧) الطبري . « القرماطي » .

آخرَ الليل خطيبا ، فمنّاهم ووعَدهم أن يقوّدهم ويرئّسهم ويملّكهم الأموال والضياع ، وحلف لهم بالأيمان الغليظة ألا يغدرَ بهم ، ولا يخذلَهم ، ولا يدعَ شيئا من الإحسان إلا أتى إليهم .

ثم دعا وكلاءهم ، فقال : قد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم ، وكلفتموهم مالا يطيقونه ، فكلمني أصحابي فيكم ، فرأيت إطلاقكم .

فقالوا له : أصلحك الله ! إنّ هؤلاء الغلمان أُبّاق[1] ، وإنهم سيهربون منك فلا يُبقون عليك ولا علينا ، فخذ من مواليهم مالًا ، وأطلقهم .

فأمرَ الغلمان فأحضروا شطوبا[2] ، ثم بطح كلّ قوم وكيلَهم ، فضرَب كلّ رجل منهم خمسمائة شطبة ، [وأحلفهم بطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه][3] ، ثم أطلقهم فمضوا نحو البصرة ومضى رجل منهم حتى عبَر دُجَيل الأهواز ، فأنذر الشّورجيين ليحفظوا غلمانهم ، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام زنجي[4] ، ثم سار ، وعبَر دُجَيلا ، وسار إلى نهر ميمون بأصحابه ، واجتمع إليه السُّودان من كلّ جهة .

فلما كان يوم الفطر ، جمعهم وخطب خطبة ذكَر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأنّ الله تعالى قد استنقذهم من ذلك ، وأنه يريد أن يرفَع أقدارَهم ، ويملّكهم العبيدَ والأموال والمنازل ، ويبلُغَ بهم أعلى الأمور ، ثم حلفَ لهم على ذلك . فلما فرغَ من خطبته

---

(١) أبّاق : هاربون .

(٢) الشطوب : جريد النخل الجنف .

(٣) من الطبري .

(٤) في الطبري : « يقال له عبد الله ، ويعرف بكرخا » .

أمرَ الذين فهموا عنه قوله أن يُفهِمُوه مَنْ لا فهمَ له من عجمهم ، ليطيبَ بذلك أنفُسهم، ففعلوا ذلك .

***

قال أبو جعفر : فلمّا كان في اليوم الثالث من شوال، وافاه الحميريّ أحد عمال السلطان بتلك النواحي ، في عدد كثير، فخرج إليه صاحب الزّنج في أصحابه، فطرده وهزم أصحابَه، حتى صاروا في بطن دجلة ، واستأمن إلى صاحب الزّنج رجل من رؤساء السودان، يعرف بأبي صالح القصير في ثلاثمائة من الزنج ، فلمّا كثر من اجتمع إليه من الزّنج قوّد قواده ، وقال لهم : مَنْ أتى منكم برجلٍ من السودان فهو مضموم إليه .

قال أبو جعفر : وانتهى إليه أن قوماً من أعوان السلطان هناك ، منهم خليفة بن أبي عون على الأبُلّة ، ومنهم الحميريّ قد أقبلوا نحوه ، فأمر أصحابه بالاستعداد لهم، فاجتمعوا للحرب، وليس في عسكره يومئذ إلا ثلاثةُ أسياف : سيفه ، وسيف عليّ بن أبان، وسيف محمد بن سلْم ، ولحق القوم بتوافى الزّنج ، فبدر مُفرِّج النوبيّ والمكنيّ بأبي صالح، وريحان ابن صالح ، وفتح الحجام ؛ وقد كان فتح حينئذ يأكل وبين يديه طبق، فلما نهض تناول ذلك الطبق ، وتقدم أمام أصحابه ، فلقيه رجل من عسكر أصحاب السلطان، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي كان في يده ، فرمى الرجل[1] سلاحَه ، وولّى هاربا، وانهزم القوم كلّهم ، وكانوا أربعة آلاف ، فذهبوا على وجوههم ، وقُتِل مَنْ قتل منهم ، ومات بعضُهم عطشا ، وأُسِرَ كثير منهم ، فأتى بهم صاحب الزّنج ، فأمر بضرب أعناقهم ، فضربت ، وحملت الرءوس على بغل كان أخذها من الشورجيّين ، كانت تنقل الشورج .

***

(١) الطبري : « فرمى ببغل » .

قال أبو جعفر : ومرّ فى طريقه بالقرية المعروفة بالحمدية[1] فخرج منها رجلٌ من موالى الهاشميين ، فحمل على بعض السودان فقتله ، ودخل القرية ، فقال له أصحابه : ائذنْ لنا فى انتهاب القرية وطلب قاتل صاحبنا ، فقال : لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند أهلها[2] ، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم ، ونسألهم أن يدفعوه إلينا ، فإنْ فعلوا وإلّا حلّ[3] لنا قتالهم ، وعجّل المسير من القرية ، فتركها وسار[4] .

قال أبو جعفر : ثم مرّ على القرية المعروفة بالكرخ ، فأتاه كبراؤها ، وأقاموا له الأنزال[5] ، وبات ليلته تلك عندهم ، فلمّا أصبح أهدى له رجلٌ من أهل القرية المسمّاة جُبّى فرسا كميتا ، فلم يجد سرجا ولا لجاما ، فركبه بحبل وسنفه[6] بحبل ليف .

* * *

قلت : هذا تصديق قول أمير المؤمنين عليه السلام : « كأنّه به قد سار فى الجيش الذى ليس لهُ غبار ولا لجب ، ولا قعقعة لجم ، ولا حمحمة خيل ، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدامُ النعام » .

* * *

قال أبو جعفر : وأوّل مال صار إليه مائتا دينار وألف درهم ، لما نزل القرية المعروفة بالجعفرية ، أحضر بعض رؤسائها ، وسأله عن المال فجحد ، فأمر بضرب عنقه ، فلما خاف

---

(١) فى الطبرى : « ومضى حتى وافى القادسية » .

(٢) الطبرى : « القوم » .

(٣) الطبرى : « وإلا ساغ » .

(٤) الطبرى : « وأعجلهم عن المسير ، فساروا إلى نهر ميمون راجعين ، فأقام فى المسجد الذى كان أقام فيه . فى بدأته ، وأمر بالرءوس المحمولة معه ، وأمر بالأذان أبا صالح النوبى فأذن وسلم عليه بالإمرة ، فأقام فصلى بأصحابه العشاء الآخرة ، وبات ليلته بها ، ثم مضى من الغد حتى مر بالكرخ . . . » .

(٥) الأنزال : جمع نزل ، وهو ما هيء للضيف أن ينزل عليه .

(٦) سنفه : شده بالسناف ؛ وهو حبل يشد على رقبة البعير .

أحضَر له هذا القدر ، وأحضر له ثلاثةَ براذِين : كميتاً وأشقرَ وأشهَب ، فدفع أحدَها إلى محمد بن سلم ، والآخر إلى يحيى بن محمد ، والآخر إلى مشرق غلام الدقانية . ووجدوا في دارٍ لبعض الهاشميين سلاحاً فانتهبوه ، فصار ذلك اليوم بأيدي بعض الزَّنج سيوف وآلات وأتراس .

قال أبو جعفر : ثم كانتْ بينه وبين مَنْ يليه من أعوان السلطان ، كالحيرىّ ، ورُميس وعقيل وغيرهم وقعات ، كان الظفر فيها كلّها له ، وكان يأمر بقتل الأسرى ، ويجمع الرءوس معه ، وينقلها من منزل إلى منزل ، وينصبها أمامه إذا نزل ، وأوقعَ الهيبة والرَّهبةَ في صدور الناس بكثرة القتلى ، وقلة العفو ، وعلى الخصوص المأسورين ، فإنه كان يضرب أعناقهم ولا يستبقي منهم أحدا .

قال أبو جعفر : ثم كان له مع أهل البصرة وقعة بعد ذلك سار يريدها في ستة آلاف زنجي ، فاتبعه أهل الناحية المعروفة بالجعفرية ليحاربوه ، فعسكر عليهم ، فقتلَ منهم مقتلةً عظيمة ، أكثر من خمسمائة رجل ؛ فلما فرغ منهم قصد نحو البصرة ، واجتمع أهلها ومَنْ بها من الجند ، وحاربوه حرباً شديداً ، فكانت الدائرة عليه ، وانهزم أصحابه ، ووقع كثير منهم في النَّهرين المعروفين بنهر كثير ونهر شيطان ، وجعل يهتف بهم ويردّهم ولا يرجعون ، وغرق مِنْ أعيان جنده وقوّاده جماعة ؛ منهم أبو الجون ، ومبارك البحرانىّ ، وعطاء البربرىّ ، وسلّام الشامي ، فلحقه قوم من جند البصرة ، وهو على قنطرة نهر كثير فرجع إليهم بنفسه ، وسيفُه في يده ، فرجعوا عنه ؛ حتى صاروا إلى الأرض وهو يومئذ في دُرّاعة[1] وعمامة ونعل وسيف ، وفي يده اليسرى ترس ، ونزل عن القنطرة ، فصعدها البصريون يطلبونه ، فرجع إليهم ، فقتل منهم رجلا بيده على خمس مراقٍ من القنطرة ، وجعل يهتف بأصحابه ، ويعرّفهم مكانه ، ولم يكن بقي معه في ذلك الموضع من أصحابه

(١) الدراعة : جبة مشقوقة من المقدم ، وهو ضرب من الثياب .

إلا أبو الشوك ومصلح ورفيق ومشرق غلاما الخاقانية ، وضلّ أصحابُه عنه ، وانحلّتْ عمامته ، فبقى على رأسه كَور[1] منها أو كَوران ، فجعل يسحبها من ورائه ، ويعجله المشى عن رفعها، وأسرع غلاما الخاقانية فى الانصراف،وقصّر عنهما فنابا عنه،فاتّبعه رجلان من أهل البصرة بسيفيهما ، فرجع إليهما ، فانصرفا عنه ، وخرج إلى الموضع الذى فيه جمع أصحابه ، وقد كانوا تحيّروا ، فلما رأوه سكنوا .

***

قال أبو جعفر : ثم سأل عن رجاله وإذا قد هرب كثير منهم ، ونظر فإذا هو مِنْ جميع أصحابه فى مقدار خمسمائة رجل ، فأمر بالنفخ فى البوق الذى كانوا يجتمعون لصوته ، فنفخ فيه فلم يرجع إليه أحد .

قال : وانتهب أهلُ البصرة سفنا كانت معه ، وظفروا بمتاع من متاعه ، وكتب من كتبه واصطرلابات كان معه ، ثم تلاحق به جماعة ممن كان هرب ، فأصبح وإذا معه ألف رجل . فأرسل محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم أنّه لم يخرج إلّا غضبا لله وللدين ، ونهيا عن المنكر ، فعبر محمد بن سلم حتى توسّط أهل البصرة ، وجعل يكلّمهم ويخاطبهم ، فرأوا منه غِرّة ، فوثبوا عليه فقتلوه ،ورجع سليمان ويحيى إلى صاحب الزّنج ، فأخبراه، فأمرهما بطىّ ذلك عن أصحابه؛ حتى يكون هو الذى يخبرهم .

فلما صلى بهم العصر ، نعى إليهم محمد بن سلم ، وقال لهم : إنكم تقتلُون به فى غدٍ عشرة آلاف من أهل البصرة .

قال أبو جعفر : وكان الوقعة التى كانت الدَّبرة عليه فيها يوم الأحد لثلاث عشرة

---

(١) كَوْرُ العمامة : يريد كل دائرة من العمامة ، وكل دور منها كور . (اللسان) .

ليلة خلون من ذى القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلما كان يوم الاثنين جمع له أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه يوم الأحد ، وانتدب لذلك رجلٌ من أهل البصرة يعرف بحمّاد الساجيّ، وكان من غزاة البحر فى الشّذا(١)، وله علم بركوبها، والحرب فيها ، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خَفّ معه من حزبى البلالية والسعدية ، ومن غير هذه الأصناف من الهاشميّين والقرشيّين ومن يحبّ النظر ومشاهدة الحرب من سائر أصناف الناس، وشحنَ ثلاثة مراكب من الشّذا (١) بالرماة، وجعل الناس يزدحمون فى الشّذا حِرْصاً على حضور ذلك المشهد ، ومضى جمهورُ الناس رَجّالة، منهم من معه سلاح ومنهم من لا سلاحَ معه بل نظّارة، فدخلت السفن النهر المعروف بأمّ حبيب بعد زوال الشمس من ذلك اليوم فى المدّ، ومرّت الرجالة والنظارة على شاطئ النهر ، قد سدّوا ماينفذ فيه البصر كثرةً وتكاثفا ، فوجّه صاحب الزنج صاحبه زُرَيقا وأبا الليث الأصبهانىّ ، فجعلهم كمينا من الجانب الشرقىّ من نهر شيطان ، وكان مقيماً بموضع منه ، ووجّه صاحبيْه شبلا وحسينا الحمّامىّ ، فجعلهما كمينا فى غربيّه ، ومع كلّ من الكمينين جماعة ، وأمر علىّ بن أبان المهلبى أن يتلقّى القوم فيمنْ بقى معه مِنْ جمعه ، وأمره أن يستتر هو وأصحابه بتراسهم ، ولا يثور إليهم منه ثائر ، حتى يوافيهم القوم ويخالطوهم بأسيافهم ، فإذا فعلوا ذلك ثاروا إليهم وتقدّم إلى الكمينيْن إذا جاوزهما الجمع، وأحسّا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجا من جنبى النهر ، ويصيحا بالناس .

وكان يقول لأصحابه بعد ذلك : لمّا أقبل إلىّ جمعُ البصرة وعاينتُه ، رأيت أمرا هائلا راعنى، وملأ صدرى رهبةً وجزعا ، ففزعت إلى الدعاء ، وليس معى من أصحابى إلا نفر يسير ، منهم مصلح، وليس منّا أحد إلا وقد خُيِّل إليه مصرعه، فجعل مصلح يعجّبنى من

---

(١) الشذا : ضرب من السفن ، الواحدة شذاة ، قال صاحب التهذيب : هذا معروف ، لكنه ليس بعربى (اللسان) .

كثرة ذلك الجمع ، وجعلت أومئ إليه أن اسكت [1] ، فلما قرب القوم منّى قلت : اللهمّ إن هذه ساعة المُسْرة ، فأعنّى ، فرأيت طيوراً بيضا أقبلتْ فتلقّت ذلك الجمع ، فلم أستتم دعائى حتى بصرت بسُمَيْرِيَّة [2] من سفنهم قد انقلبتْ بمن فيها ، ففرقوا ، ثم تلتها الشذا فغرقت واحدة بعد واحدة ، وثار أصحابى إلى القوم ، وخرج الكمينان من جَنْبى النهر ، وصاحوا وخبطوا الناس ، فغرقتْ طائفة ، وقتلت طائفة ،وهربت طائفة نحو الشط طمعا ، فأدركها السيف ، فمن ثبت قتل ، ومن رجع إلى الماء غرق ؛ حتى أبيد أكثرُ ذلك الجمع ، ولم ينج منهم إلّا الشريد ، وكثر المفقودون بالبصرة ، وعلا العويل من نسائهم .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا يوم الشذا الذى ذكره الناس فى أشعارهم ، وعظّموا مافيه من القتل ، فكان ممن قتل من بنى هاشم ، جماعة من ولد جعفر بن سليمان [3] وانصرف صاحب الزّنج [4] وجمع الرءوس وملأ بها سفنا، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب فى الجزر وأطلقها ، فوافت البصرة ، فوقفت فى مشرعة تعرف بمشرعة القيّار ، فجعل الناس يأتون تلك الرءوس،فيأخذ رأسَ كلَّ رجل أولياؤه،وقوى صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وسكن الرّعبُ قلوبَ أهلِ البصرة منه؛وأمسكوا عن حربه ، وكتب إلى السلطان بخبره، فوجّه جُعْلان التركىّ مددا لأهل البصرة ، فى جيش ذوى عدّة وأسلحة [5] .

---

(١) الطبرى : « أن يمسك » .

(٢) السميريه على التصغير : ضرب من السفن (اللسان) .

(٣) بعدها فى الطبرى : « وأربعون رجلا من الرماة المشهورين فى خلق كثير لا يحصى عددهم » .

(٤) فى الطبرى : « وانصرف الخبيث وجمعت له الرءوس » .

(٥) فى الطبرى : « وأمر أبا الأحوص الباهلى بالمصير إلى الأبلة واليا ، وأمده برجل من الأتراك يقال له جريج » .

قال أبو جعفر : وقال أصحاب عليّ بن محمد له[1] : إنّا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة ، ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم ، ومَنْ لا حَراكَ به ، فأذنْ لنا في تقحّمها، فنهاهم[2] وهجّن آراءهم وقال : بل نبعد عنها ، فقد رعبناهم وأخفناهم ، ولنقتحمها وقتا آخر ، وانصرف بأصحابه إلى سَبَخة في آخر أنهار البصرة ، تعرف بسبخة[3] أبي قُرّة ، قريبة من النهر المعروف بالحاجر فأقام هناك ، وأمر أصحابَه باتخاذ الأكواخ ، وهذه السَّبَخة متوسطة النّخل والقرى والعمارات ، وبثّ أصحابَه يمينا وشمالا ، يعيثون ويُغيرون على القرى ، ويقتلون الأكرة ، وينهبون أموالَهم ، ويسرقون مواشيهم[4] .

***

وجاءه شخص من أهل الكتاب من اليهود ، يعرف بمارويه ، فقبّل يدَه وسجَد له ، وسأله عن مسائل كثيرة ، فأجابه عنها ، فزعم اليهوديّ أنه يجد صفتَه في التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله عن علامات في يده وجسده ذكر أنها مذكورة في الكتب ؛ فأقام معه .

***

قال أبو جعفر : ولما صار جُعْلان التركي إلى البصرة بعسكره ، أقام ستة أشهر يحارب صاحب الزَّنج ، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والنُّشّاب ، ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلا ، لضيق الموضع بما فيه من النخل والدَّغَل[5] عن مجال الخيل ،

---

(١) في الطبري : « فزعم الخبيث أن أصحابه قالوا له بعقب هذه الوقعة : إنا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة . . . . » .

(٢) في الطبري : « فزبرهم » .

(٣) في الطبري عن شبل : « هي سبخة أبي قرة ، موقعها بين النهرين : نهر أبي قرة ، والنهر المعروف بالحاجر » .

(٤) في الطبري : فهذا ما كان من خبره وخبر الناس الذين قربوا من موضعه في هذه السنة » ، أي سنة أربع وخمسين ومائتين .

(٥) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير الملتف . وكل موضع يخاف فيه الاغتيال .

ولأنّ صاحبَ الزنج قد كان خندق نفسه على وأصحابه .

ثم إنّ صاحب الزّنج بيّت جعلان ، فقتل جماعة من أصحابه ، ورُوِّع الباقون رَوْعا شديدا ، فانصرف جعلان إلى البصرة ووجّه إليه مقاتلة السّعدية والبلالية فى جمع كثيف ، فواقعهم صاحب الزنج ، فهزمهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانصرفوا مفلولين ، ورجع جعلان بأصحابه إلى البصرة ، فأقام بها معتصما بجدرانها ، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج ، وأمر سعيد الحاجب بالشُّخوص إلى البصرة لحربهم .

قال أبو جعفر : واتفق لصاحب الزنج من السعادة أنّ أربعا وعشرين مركبا من مراكب البحر كانت اجتمعت تريد البصرة ، وانتهى إلى أصحابها خبرُ الزنج وقطعهُم السبل ، وفيها أموال عظيمة للتجار ، فاجتمعت آراؤهم على أن شدّوا المراكب بعضَها إلى بعض ؛ حتى صارت كالجزيرة ، يتصل أولها بآخرها ، وسارت فى دَجْلة ، فكان صاحب الزّنج يقول : نهضت ليلة إلى الصلاة وأخذت فى الدعاء والتضرّع ، فخوطبت بأن قيل لى : قد أظلّكَ فتحٌ عظيم ، فالتفتّ فلم ألبث أنْ طلعت المراكبُ ، فنهض أصحابى إليها فى شذاتها فلم يلبثوا أن حَوَوْها وقتلوا مقاتلتها ، وسَبَوْا ما فيها من الرقيق ، وغنموا منها أموالا لا تحصى ؛ ولا يعرف قدرها فأنهبتُ ذلك أصحابى ثلاثة أيام وأمرت بما بقى منها فحيزَ لى .

* * *

قال أبو جعفر : ثم دخل الزّنج الأبلة فى شهر رجب من سنة ست وخمسين ومائتين ، وذلك أن جُعْلان لما تنحّى إلى البصرة ، ألحّ صاحبُ الزنج بالسّرايا على أهل الأبلّة ، فجعل يحاربهم من ناحية شطّ عثمان بالرجّالة ، وبما خَفّ له من السفن من ناحية دَجْلة ، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقِل .

فذكر عن صاحب الزنج أنه قال : مِيلَتْ[1] بين عَبّادان والأبلّة ، فمِلْتُ إلى التوجّه إلى عَبّادان فندبت الرجال إلى ذلك ، فخوطبتُ وقيل لى : إنّ أقرب عدوّ داراً ، وأولاه ألّا يتشاغل عنه بغيره أهلُ الأبلّة ، فرددت بالجيش الذى كنت سيّرته نحو عبّادان إلى الأبلّة ، ولم يزالوا يحاربون[2] أهلها إلى أنْ اقتحموها وأضرموها نارا ، وكانت مبنيّة بالساج بناء متكاثفاً ، فأسرعت فيها النار ، ونشأت ريح عاصف ، فأطارتْ شرَرَ ذلك الحريق إلى أن انتهى إلى شطّ عثمان ، وقتل بالأبلّة خَلْق كثير ، وحُوِيت الأسلاب والأموال ، على أن الذى أحرق منها كان أكثر مما انتهب ، واستسلم أهل عبّادان بعدها لصاحب الزّنج ، فإن قلوبهم ضعفت ، وخافوه على أنفسهم وحُرَمهم ، فأعطوْا بأيديهم ، وسلّموا إليه بلدهم ، فدخلها أصحابه ، فأخذوا مَنْ كان فيها من العبيد ، وحملوا ما كان فيها من السلاح ، ففرّقه على أصحابه ، وصانعه أهلها بمال كفّ به عنهم .

* * *

قال أبو جعفر : ثم دخل الزّنج بعد عبّادان إلى الأهواز ولم يثبت لهم أهلها ، فأحرقوا ما فيها ، وقتلوا ونهبوا ، وأخربوا ، فكان بالأهواز إبراهيم بن محمد المدبّر الكاتب ، وإليه خراجها[3] وضياعها ، فأسروه بعد أن ضربوه ضربة على وجهه ، وحوَوْا كلّ ما كان يملكه من مال وأثاث ورقيق وكُراع ، واشتدّ خوفُ أهلِ البصرة ، وانتقل كثير من أهلها عنها ، وتفرّقوا فى بلاد شتّى ، وكثرت الأراجيف من عوامّها .

* * *

---

(١) فى الأصول : « مثلت » ، وما أثبته من الطبرى .

(٢) الطبرى : « فلم يزالوا يحاربون أهل الأبلة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب سنة ٢٥٦ ، فلما كان فى هذه الليلة اقتحمها الزنج مما يلى دجلة ونهر الأبلة ، فقتل بها أبو الأحوص وابنه وأضرمت ناراً ، وكانت مبنية بالساج » .

(٣) الطبرى : « وإليه الخراج والضياع » .

قال أبو جعفر : فلمّا دخلت سنة سبع وخمسين أنفذ السلطان بُغراج التركى على حرب البصرة وسعيد بن صالح الحاجب للقاء صاحب الزنج ، وأمر بُغْراج بإمداده بالرجال ، فلما صار سعيد إلى نهر معقِل ، وجد هناك جيشا لصاحب الزّنج فى النّهر المعروف بالمُرْغاب ، فأوقعْ بهم سعيد فهزمهم ، واستنقذ ما فى أيديهم من النساء والنهب ، وأصابت سعيدا فى تلك الوقعة جراحات ؛ منها جراحة فى فيه .

ثم بلغه أنّ جيشاً لصاحب الزنج فى الموضع المعروف بالفرات ، فتوجّه إليه فهزَمه ، واستأمن إليه بعض قواد صاحب الزنج ؛ حتى لقد كانت المرأة من سكّان ذلك الموضع تجد الزنجىّ مستتراً بتلك الأدغال فتقبض عليه ؛ حتى تأتى به عسكر سعيد ، ما به عنها امتناع .

ثم قصد سعيد حرب صاحب الزّنج ، فعبر إليه إلى غربىّ دجلة ، فأوقع به وَقَعاتٍ متتالية ، كلّها يكونُ الظّفَر فيها لسعيد، إلى أن تهيّأ لصاحب الزّنج عليه أن وجّه إلى يحيى ابن محمد البحرانىّ صاحبه ؛ وهو إذ ذاك مقيم بنهر معقِل ، فى جيش من الزّنج ، فأمره بتوجيه ألف رجل من أصحابه ، عليهم سليمان بن جامع وأبو الليث القائدان ، ويأمرهما بقصد عسكر سعيد ليلًا ؛ حتى يوقعا به وقت طلوع الفجر ، من ليلة عيّنها لهم ، ففعلا ذلك ، وصارا إلى عسكر سعيد فى ذلك الوقت ، فصادفا منه غِرّة وغفلة ، فأوقعا به وبأصحابه ، وقت طلوع الفجر ؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأصبح سعيد وقد ضعف أمرُه ، واتّصل بالسلطان خبره ، فأمره بالانصراف إلى باب السلطان، وتسليم الجيش الذى معه إلى منصور ابن جعفر الخيّاط ، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز وكوتب بحرب صاحب الزنج ، وأنْ يصمد له ، فكانت بينهم وقعة كان الظّفَر فيها للزنج ، فقتل من أصحاب منصور خلق كثير عظيم ، وحمل من الرءوس خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن محمد البحرانىّ القائد ، فنصبت على نهر معقِل .

• • •

قال أبو جعفر : ثم كانت بين الزّنج وبين أصحاب السلطان بالأهواز وقعات كثيرة، تولّاها علىّ بن أبان المهلبىّ ، فقتل شاهين بن بِسطام ، وكان من أكابر أصحاب السلطان ، وهزم إبراهيم بن سيما ، وكان أيضا من الأمراء المشهورين ، واستولى الزّنج على عسكره .

* * *

قال أبو جعفر : ثم كانت الواقعة العظمى بالبصرة فى هذه السنة ، وذلك أنّ صاحب الزّنج قطعَ الميرة عنهم ، فأضرّ ذلك بهم ، وألحّ بجيوشه وزنوجه عليهم بالحرب صباحا ومساء ، فلما كان فى شوّال من هذه السنة ، أزمع عَلَى جَمْع أصحابه للهجوم على البصرة، والجدّ فى خرابها ؛ وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفرّقهم ، وإضرار الحصار بهم ، وخراب ما حولَها من القرى . وكان قد نظر فى حِساب النجوم ، ووقف على انكساف القمر ، الليلة الرابعة عشرة من هذا الشهر ، فذكر محمد بن الحسن بن سهل أنه قال : سمعته يقول : اجتهدت فى الدعاء على أهل البصرة ، وابتهلت إلى الله تعالى فى تعجيل خرابها ، فخوطبت وقيل لى : إنما البصرة خبزة [لك] (1) تأكلها من جوانبها ، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة . فأوّلتُ انكسار نصف الرغيف بانكساف نصف القمر المتوقّع فى هذه الليالى ، وما أخلق أمرَ أهل البصرة أن يكون بعده !

قال : فكان يحدّث بهذا حتى أفاض فيه أصابهُ ، وكَثُر تردّده فى أسماعهم وإجالتهم إياه بينهم .

* * *

ثم ندب محمد بن يزيد الدارمىّ - وهو أحد مَنْ كان صحِبَه بالبحرين للخروج إلى

(1) من الطبرى .

الأعراب واستنفار مَنْ قدَر عليه منهم ـ فأتاه منهم بخلق كثير ، ووجّه إلى البصرة سليمان بن موسى الشعرانيّ ، فأمره بتطرّق البصرة ، والإيقاع بأهلها ، وتقدم إلى سليمان [بن موسى][1] بتمرين[2] الأعراب على ذلك . فلما وقع الكسوف ، أنهض إليها علىّ بن أبان ، وضم إليه جيشاً من الزنج وطائفة من الأعراب ، وأمره بإتيان البصرة مما يَلِي بنى سعد ، وكتب إلى يحيى بن محمد البحرانيّ فى إتيانها مما يلِي نهر عدىّ ، وضمّ باقى الأعراب إليه ؛ فكان أوّل مَنْ واقَع أهل البصرة علىّ بن أبان وبغراج التركىّ يومئذ بالبصرة فى جماعة من الجند ، فأقام يقاتلهم يومين ، وأقبل يحيى بن محمد مما يَلِي قصر أنس ، قاصدا نحو الجسر ، فدخل علىّ بن أبان البلد وقت صلاة الجمعة ، لثلاث عشرة بقين من شوّال . فأقبل يقتل الناس ، ويحرّق المنازل والأسواق بالنار ، فتلقّاه بغراج وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان الهاشميّ ، المعروف بِبُرَيْه ـ وكان وجيهاً مقدّما مطاعا ـ فى جمع عظيم ، فردّاه ، فرجع فأقام ليلته تلك[3] . ثم غاداهم وقد تفرق جند البصرة فلم يكن فى وجهه أحد يدافعه ، وانحاز بغراج بمن معه ، وهرب إبراهيم بن محمد الهاشميّ المعروف ببُريه ، فوضع علىّ بن أبان السيف فى الناس ، وجاء إليه إبراهيم بن محمد المهلبيّ ـ وهو ابن عمه ـ فاستأمنه لأهل البصرة ، فحضر أهلُ البصرة قاطبة ، فأمّنهم ، ونادى مناديه : مَنْ أراد الأمان فليحضُر دارَ إبراهيم بن محمد المهلبيّ . فحضر أهلُ البصرة قاطبةً ، حتى ملئوا الأزقة . فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة ، فأمر بأخذ السكك والطرق عليهم ، وغدَر بهم ، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم ، فقتِل كلّ مَنْ شهد ذلك المشهد .

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « فى تمرين » .

(٣) الطبرى : « يومه ذلك » .

ثم انصرف آخرَ نهار يومه ذلك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخريبة .

***

وروى أبو جعفر ، قال : حدثني محمد بن الحسن بن سهل ، قال : حدثني محمد بن حمان ، قال : كنت يومئذ بالبصرة ، فضيت مبادراً إلى منزلي لأتحصن به ، وهو في سكة المِربد ، فلقيتُ أهلَ البصرة هاربين ، يدعون بالويل والثبور ، وفي آخرهم القاسم بن جعفر ابن سليمان الهاشميّ على بَغْل ، متقلداً سيفا ، يصيح بالناس : ويحكم ! تُسلِمون بلدكم وحَرَمكم ! هذا عدوّكم قد دخل البلد . فلم يلوُوا عليه ، ولم يسمعوا منه ، فضى هارباً ، ودخلت أنا منزلي ، وأغلقت بابي ، وأشرفت فرَّى الأعراب ورجّالة الزنج، يقدمُهم رجل على حصان كُمَيْتٍ ، بيده رمح ، وعليه عَذَبة صفراء ، فسألت بعد ذلك عنه فقيل لى : إنه علىّ بن أبان .

قال : ونادى منادى علىّ بن أبان : مَنْ كان من آل المهلّب فليدخل دارَ إبراهيم ابن يحيى المهلبيّ ، فدخلتْ جماعة قليلة ، وأغلِق الباب دونهم ، ثم قيل للزنج : دونكم الناس فاقتلوهم ، ولا تبقُوا منهم أحداً ، وخرج إليهم أبو الليث الأصفهانى ، أحدقوّاد الزنج ، فقال للزنج : كيلوا ؛ وهى العلامة التى كانوا يعرفونها فيمن يؤمَرُون بقتله ، فأخذ الناسَ السيف ، قال : فوالله إنى لأسمع تشهّدهم وضجيجهم وهم يقتلون ، وقد ارتفعت أصواتهم بالتشهّد ، حتى سُمِعت بالطفَاوة ، وهو عَلَى بعدٍ من الموضع الذى كانوا فيه .

قال : ثم انتشر الزّنج فى سِكَك البصرة وشوارعها ، يقتلون مَنْ وجدوا . ودخل علىّ بن أبان يومئذ المسجد فأحرقه ، وبلغ إلى الكلّاء فأحرقه إلى الجسر ، وأخذت النار كلّ ما مرّت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع ، ثم ألحوا بالغدوّ والروّاح عَلَى مَنْ وجدوه ، ويسوقونهم إلى يحيى بن محمد البحرانىّ ، وهو نازل ببعض سِكَك البصرة ، فمَنْ كان ذا مال قرّره حتى يستخرج ماله ثم يقتله ، ومَنْ كان مختلاً قتله معجّلا .

قال أبو جعفر: وقد كان علىّ بن أبان كفّ بعض الكفّ عن العيث بناحية بنى سعد، وراقب قوماً من المهلبيّين وأتباعهم، فانتهى ذلك إلى علىّ بن محمد صاحب الزنج، فصرفه عن البصرة، وأقرّ يحيى بن محمد البحرانىّ بها لموافقته على رأيه فى الإثخان فى القتل، ووقوع ذلك بمحبّته، وكتب إلى يحيى بن محمد يأمره بإظهار الكفّ ليسكن الناس، ويظهرَ المستخفى، ومَنْ قد عرف باليسار والثروة، فإذا ظهر فليؤخذوا بالدلالة على مادفنوه وأخفوه من أموالهم، ففعل يحيى بن محمد ذلك، وكان لا يخلو فى اليوم من الأيام من جماعة يؤتَى بهم، فمن عرف منهم باليسار استنزف ماعنده ثم قتله، ومَنْ ظهرت له خلّته عاجله بالقتل حتى لم يدع أحداً ظهر له إلّا قتله.

***

قال أبو جعفر: وحدّثنى محمد بن الحسن، قال: لما انتهى[1] إلى علىّ بن محمد عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة سمعته يقول: دعوت على أهل البصرة فى غداة اليوم الذى دخل فيه أصحابى إليها، واجتهدت فى الدّعاء، وسجدت وجعلت أدعو فى سجودى، فرفعتْ إلىّ البصرة، فرأيتها ورأيت أصحابى يقاتلون فيها، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا فى صورة جعفر المعلوف المتولّى كان للاستخراج فى ديوان الخراج بسامرّاء، وهو قائم قد خفّض يده اليسرى، ورفع يده اليمنى، يريد قلب البصرة، فعلمتُ أنّ الملائكة تولّت إخرابها دون أصحابى، ولو كان أصحابى تولّوْا ذلك مابلغوا هذا الأمر العظيم الذى يحكى عنها؛ ولكن الله تعالى نصرنى بالملائكة، وأيّدنى فى حروبى، وثبّتَ بهم مَنْ ضعُف قلبُه من أصحابى.

قال أبو جعفر وانتسب صاحب الزّنج[2] فى هذه الأيام إلى محمد بن محمد بن زيد بن علىّ بن الحسين، بعد انتسابه الذى كان إلى أحمد بن عيسى بن زيد؛ وذلك لأنه بعد

---

(١) الطبرى: «لما أخرب الخائن البصرة».

(٢) الطبرى: «وانتسب الخبيث».

إخرابه البصرة ، جاء إليه جماعة من العلويّة الذين كانوا بالبصرة ، وأتاه فيمن أتاه منهم قوم من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فى جماعة من نسائهم وحُرَمهم ، فلما خافهم ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى ، وانتسب إلى محمد بن محمد بن زيد .

* * *

قال أبو جعفر : فحدثنى محمد بن الحسن بن سهل ، قال : (١ كنت حاضرا عنده وقد حضر جماعة من النوفليّين(١) ، فقال له القاسم بن إسحاق النوفلىّ : إنه انتهى إلينا أن الأمير(٢) من ولد أحمد بن عيسى بن زيد ، فقال : لست من ولد عيسى ، أنا من ولد يحيى بن زيد .

قال محمد بن الحسن : فانتقل من أحمد بن عيسى بن زيد إلى محمد بن محمد بن زيد ، ثم انتقل من محمد إلى يحيى بن زيد ؛ وهو كاذب لأنّ الإجماع واقع على أنّ يحيى بن زيد مات ولم يعقِبْ ولم يولَدْ له إلّا بنت واحدة ماتت ؛ وهى ترضع .

فهذا ما ذكره أبو جعفر الطبرى فى « التاريخ الكبير » .

* * *

وذكر علىّ بن الحسن المسعودى فى « مروج الذهب » أن هذه الواقعة بالبصرة ، هلك فيها مِنْ أهلها ثلاثمائة ألف إنسان ، وأنّ علىّ بن أبان المهلبى بعد فراغه من الواقعة ، نصب منبرا فى الموضع المعروف ببنى يشكر ، صلّى فيه يوم الجمعة ، وخطب لعلىّ بن محمد صاحب الزنج ، وترحّم بعد ذلك على أبى بكر وعمر ، ولم يذكر عثمان ولا عليا عليه السلام فى خطبته ، ولعن أبا موسى الأشعرىّ وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ، قال :

(١ ــ ١) الطبرى : « سمعت الخبيث وقد حضره جماعة من النوفليين » .
(٢) الطبرى : « إنك » .

وهذا يؤكّد ما ذكرناه وحكيناه من رأيه ، وأنه كان يذهب إلى قول الأزارقة .

قال : واستخفى مَنْ سَلِمَ من أهل البصرة في آبار الدور ، فكانوا يظهرون ليلا ، فيطلبون الكِلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفار والسنانير ، فأفنوها حتى لم يقدروا على شيء منها ، فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلوه ، فكان يراعي بعضُهم موتَ بعض ، ومَنْ قدر على صاحبه قتله وأكله ، وعدموا مع ذلك الماء ، وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة قد احتضرت ، وعندها أختها وقد احتوشوها ينتظرون أن تموتَ فيأكلوا لحمها ، قالت المرأة : فما ماتت حسناء حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه ، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب وهي تبكي ومعها رأس الميت ، فقال لها قائل : ويحك ! مالك تبكين ! فقالت : اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسناء حتى قطّعوها ، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئا إلا الرأس ؛ وإذا هي تبكي شاكية من ظلمهم لها في أختها .

قال : وكان مثل هذا وأكثر منه وأضعافه ، وبلغ منْ أمر عسكره أنه ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشراف قريش ، فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم ، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان بن فلان ، وأخذ كلّ زنجيّ منهم العشرين والثلاثين يطؤهنّ الزّنج ويخدمْن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن عليّ عليه السلام ، وكانت عند بعض الزنج وسألته : أن يعتقها مما هي فيه ، أو ينقلها من عنده إلى غيره ، فقال لها : هو مولاك ، وهو أولى بك[1] .

* * *

قال أبو جعفر : وأشخص السلطان لحرب صاحب الزنج محمدا المعروف بالمولد في جيش

---

(١) مروج الذهب ٤ : ٢٠٧ ، ٢٠٨

كثيف، فجاء حتى نزل الأبُلّة، وكتب صاحب الزّنج إلى يحيى بن محمد البحرانيّ يأمره بالمصير إليه، فصار إليه بزنوجه، وأقام على محاربته عشرة أيام، ثم فتَر المولد عن الحرب، وكتب عليّ ابن محمد إلى يحيى، يأمره أن يبيّته، فبيّته فهزمه، ودخل الزّنج عسكره فغنموا ما فيه، وكتب يحيى إلى صاحب الزّنج يخبره ، فأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت ، ثم انصرف عنه، فمرّ بالجامدة ، وأوقع بأهلها، وانتهب كلّ ما كان في تلك القرى، وسفك ما قدَر على سفكه من الدماء ، ثم عاد إلى نهر معقل .

* * *

قال أبو جعفر : واتّصلت الأخبار بسامراء وبغداد وبالقوّاد والموالي وأهل الحضرة، بما جرى على أهلِ البصرة، فقامت عليهم القيامة، وعلم المعتمد أنه لا يرتُق هذا الفتق إلا بأخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل — وكان منصورا مؤيدا عارفا بالحرب وقيادة الجيوش، وهو الذي أخذ بغداد للمعتز، وكسر جيوش المستعين ، وخلعه من الخلافة ، ولم يكن لبني العباس في هذا الباب مثله ومثل ابنه أبي العباس — فعقد له المعتمد على ديار مضَر وقنّسرين والعواصم، وجلس له مستهلّ شهر ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين، فخلع عليه وعلى مفلح، وشخَصا نحو البصرة لحرب علي بن محمد وإصلاح ما أفسده من الأعمال، وركب المعتمد ركوبا ظاهرا يشيّع أخاه أبا أحمد إلى القرية المعروفة ببركوارا ، وعاد .

* * *

قال أبو جعفر: وأما صاحب الزّنج فإنه بعد هزيمة محمد المولد أنفذ عليّ بن أبان المهلبيّ إلى حرب منصور بن جعفر وإلى الأهواز، فكانت بينهما حروب كثيرة في أيام متفرّقة حتى كان آخرها اليوم الذي انهزم فيه أصحاب منصور ، وتفرّقوا عنه، وأدركت منصورا طائفة من الزّنج ، فلم يزل يكرّ عليهم حتى انقصف رمحه، ونفدت سهامه ، ولم يبق معه سلاح ،

وانتهى إلى نهر يعرف بنهر ابن مَرْوان، فصاح بحصان كان تحته ليعبُر ، فوثب فقصّر[١] فانغمس فى الماء .

وقيل : إنّ الحصان لم يقصّر فى الوثْبة؛ ولكنّ رجلاً من الزّنج سبقه إلى النهر،فألقى نفسَه فيه ، لعلمه أنه لامحيص لمنصور عن النهر ، فلما وثب الفرس تلقّاه الأسود،فنكص فغاصَ الفرس ومنصور ، ثم أطلع منصور رأسه ، فنزل إليه غلام من السودان من عُرَفاء مصلح ، يقال له ابرون ، فاحتزّ رأسه ، وأخذ سلَبه،فولّى يارجوخ التركى صاحب حرب خوزستان ، ما كان مع منصور من العمل أصفجون التركى .

***

وقال أبو جعفر : وأما أبو أحمد،فإنّه شخَص عن سامُرّاءفى جيشٍلم يسمَعِالسامعون بمثله ، كثرةً وعُدّة ، قال : وقد عاينتُ أنا ذلك الجيش ، وأنا يومئذ ببغداد بباب الطاق، فسمعتُ جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون : قد رأينا جيوشا كثيرة للخلفاء ؛ فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عُدّة وأكمل عَتادا وسلاحا ، وأكثر عدداً وجمعا ، واتبع ذلك الجيشَ مِنْ متسوِّقة أهلِ بغداد خلق كثير .

***

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن بن سهل ، أنَّ يحيى بن محمد البحرانىّ كان مقيما بنهر معقل قبل موافاة أبى أحمد ، فاستأذن صاحبَ الزّنج فى المصير إلى نهر العباس، فكرِه ذلك ، وخاف أن يوافيَه جيشٌ من قِبَلِ السلطان ، وأصحابه متفرّقون،فألحّ عليه يحيى حتى أذن له ، فخرج واتّبعه أكثرُ أهلِ عسكر صاحب الزّنج ، وكان علىّ بن أبان

---

(١) الطبرى : « وقصرت رجلاه فانغمس فى الماء » .

مقيا بجُبَّى فى جمع كثير من الزّنج ، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر صاحب الزّنج، يُغادونها ويراوحونها لنقلِ ماناله أيديهم منها إلى منازلهم ، فليس بعسكر علىّ بن[1] محمد يومئذ من أصحابه إلّا القليل ، فهو على ذلك من حاله، حتى وافى أبو أحمد فى الجيش ومعه مفلح ، فورد جيشٌ عظيم لم يرد على الزّنج مثلُه ، فلما وصل إلى نهر معقل ، انصرف مَنْ كان هناك من الزّنج ، فالتحقوا بصاحبهم مرعوبين ، فراعه ذلك ، ودعا برئيسين منهما ، فسألهما عن السبب الذى له تركا موضعهما ، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد ، وكثرة عدد أهله وإحكام عدّتهم، وأنّ الذى عايناه من ذلك لم يكن فى قوّتهما الوقوف له فى المُدّة التى كانا فيها ، فسألهما : هل علماً مَنْ يقود هذا الجيش؟ فقالا : قد اجتهدنا فى علم ذلك ، فلم نجد مَنْ يصدُقنا عنه .

فوجّه صاحب الزّنج طلائعه فى سُميريّات ليعرف الخبر ، فرجعت طلائعه إليه بتعظيم أمر الجيش وتفخيمه، ولم يقف أحدٌ منهم على مَنْ يقوده ، فزاد ذلك فى جَزَعِه وارتياعه، فأمر بالإرسال إلى علىّ بن أبان يعلِمه خبرَ الجيش الوارد ، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه، ووافى جيش أبى أحمد ، فأناخ بإزاء صاحب الزّنج فلما كان اليوم الذى كانت فيه الواقعة، خرج علىّ بن محمد يطوف فى عسكره ماشياً ، ويتأمّل الحال فيمن هو من حزبه ومَنْ هو [مقيم][2] بإزائه على حربه، وقد كانت السماء مطرت ذلك اليوم مطراً خفيفاً، والأرض ثرِيةٌ[3] تزِلّ عنها الأقدام ، فطوّف ساعة من أوّل النهار ورجع ، فدعا بدواة وقرطاس ليكتب كتاباً إلى علىّ بن أبان ، ليعلمه ماقد أظلّه من الجيش ، ويأمرَه بتقديم مَنْ قَدَرَ على تقديمه من الرجال؛ فإنّه لفى ذلك، إذ أتاه أبو دُلَفٍ القائد أحد قوّاد الزّنج ، فقال له: إنّ

---

(١) الطبرى : « الخبيث » .

(٢) من الطبرى .

(٣) فى الأصول : « تربة » وما أثبته من الطبرى .

القوم قد غَشَوك ورهقوك ، وانهزم الزّنج من بين أيديهم،وليس فى وجوههم مَنْ يردّهم؛ فانظر لنفسك ، فإنهم قد انتهوا إليك[1] . فصاح به وانتهره وقال : اغرُبْ[2] عنّى فإنك كاذبٌ فيما حكيت ، إنما ذلك جزعٌ داخَل قلبَك[3] لكثرة مَنْ رأيت من الجمع ، فاخلع قلبَك ، فلستَ تدرِى ماتقول !

فخرج أبو دُلَفٍ من بين يديه،وأقبل يكتب ، وقال لجعفر بن إبراهيم السجّان: نادف الزّنج ، وحرّكهم للخروج إلى موضع الحرب ، فقال له : إنّهم قد خرجوا ، وقد ظفروا بسُمَيريّتين من سفن أصحاب السلطان،فأمره بالرجوع لتحريك الرّجالة ، وكان من القضاء والقدر أن أصيب مفلح — وهو القائد الجليل،المرشّح لقيادة الجيش بعد أبى أحمد— بسهم غَرْب[4] لايدرَى من رماه ، فمات لوقته ، ووقعت الهزيمة على أصحاب أبى أحمد،وقوِى الزّنج على حربهم ، فقتلوا منهم جمعا كثيرا . ووافى علىّ بن محمد زَنْجه بالرءوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوها بين يديه ، فكثرت الرءوس يومئذٍ حتى ملأت الفضاء ، وجعل الزّنج يقتسِمون لحوم القتلى ، ويتهادونها بينهم ، وأُتِىَ بأسيرٍ من الجيش فسأله عن رأس العسكر ، فذكر أبا أحمد ومفلحا ، فارتاع لذكر أبى أحمد،وكان إذا راعه أمرٌ كذّب به ، وقال : ليس فى الجيش إلا مُفْلح ، لأنى لست أسمع الذِّكر إلا له ، ولو كان فى الجيش مَنْ ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد ، ولمّا كان مُفْلح إلا تابعاً له ، ومضافا إليه[5] .

قال أبو جعفر : وقد كان قبل أن يصيبَ السهمُ مفلحا،انهزم الزّنج لما خرج عليهم

---

(١) الطبرى : « إلى الجبل الرابع » .
(٢) فى الأصول : « اعزب » ، وما أثبت من الطبرى
(٣) الطبرى : « دخلك » .
(٤) يقال : أصابه سهم غرب ، بالإضافة أو الوصف ، أى لا يدرى راميه .
(٥) الطبرى : « إلى صحبته » .

جيش أبي أحمد ، وجزِعوا جزعاً شديداً ، ولجئوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب ، ولا جسرَ يومئذ عليه ، فغرق منهم خلق كثير ، ولم يلبثْ صاحبُ الزنج إلا يسيرا حتى وافاه علىّ بن أبان فى أصحابه ، فوافاه وقد استغنى عنه بهزيمة الجيش السلطانى ؛ وتحيَّز أبو أحمد بالجيش إلى الأبُـلّة ، ليجمع ما فرّقت الهزيمة منه ، ويجدّد الاستعداد للحرب ، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن ، قال : فكان صاحب الزنج لايدرى كيف قُتِل مفلح ؛ فلما لم يرَ أحداً ينتحل رميَه ادّعى أنه كان الرامى له ، قال : فسمعته يقول : سقط بين يدىّ سَهْمٌ من السماء ، فأتانى به واح خادمى ، فدفعه إلىّ ، فرميتُ به فأصاب مُفلِحاً فقتله ، قال محمد : وكذَب فى ذلك ، لأنى كنتُ حاضراً معه ذلك المشهد ، مازال عن فرسه حتى أتاه خبرُ الهزيمة[1] .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إنّ الله تعالى أصاب صاحب الزّنج بمصيبة تعادِل فرحَه وسروره بقتل مُفلح عقيب قَتْل مُفلح ، وذلك أنّ قائده الجليل يحيى بن محمد البحرانىّ أُسِرَ وقتل ، وصورة ذلك أن صاحب الزنج كان قد كتب إلى يحيى بن محمد ، يعلمُه ورودَ هذا الجيش عليه ، ويأمرُه بالقدوم والتحرّز فى منصرفه من أنْ يلقاه أحدٌ منهم وقد كان يحيى غَنِمَ سفنا فيها متاعٌ وأموال ؛ لتجّار الأهواز جليلة ، وحامى عنها أصحابُ أصغجون التركى فلم يُغْن ، وهزمهم يحيى ، ومضى الزنج بالسفن المذكورة يمدّونها متوجّهين نحو معسكر صاحب الزّنج على سَمْت البطيحة المعروفة ببَطيحة الصّحناة ، وهى طريقة متعسّقة وعرة ؛

---

(١) بعدها فى الطبرى : « وأتى بالرءوس والقضت الحرب » .

فيها مشاقّ متعبة ، وإنما سلكها يحيى وأصحابه ، وتركوا الطريقَ الواضح ؛ للتحاسد الذى كان بين يحيى بن محمد وعلىّ بن أبان ، فإن أصحاب يحيى أشارُوا عليه ألّا يسلك الطريق التى يمرّ فيهـا على أصحاب علىّ بن أبان ، فأصغىَ إلى مشورتهم فشرَعُوا له الطريق المؤدى إلى البطيحة المذكورة فسلكها ، وهذه البطيحة ينتهى السائر فيها إلى نهر أبى الأسد ، وقد كان أبو أحمد انحاز إليه ، لأن أهلَ القرى والسواد كاتبوه يعرّفونه خبر يحيى بن محمد البحرانىّ ، وشدة بأسه ، وكثرة جمعه ، وأنّه ربما خرج من البطيحة إلى نهر أبى الأسد ، فعسكر به ، ومنع أبا أحمد المِيرة ، وحال بينه وبين مَن يأتيه من الأعراب وغيرهم ، فسبقه أبو أحمد إلى نهر أبى الأسد ، وسار يحيى حتى إذا قرب من نهر أبى الأسد ، وافته طلائعُه ، فأخبرته بالجيش ، وعظّمت أمره ، وخوّفته منه ، فرجع من الطريق الذى كان سلكه بمشقّة شديدة نالته ، ونالت أصحابه ، وأصابهم مرض لتردّدهم فى تلك البطيحة ، وجعل يحيى على مقدّمته سليمان بن جامع ، وسار حتى وقف على قنطرة فورج نهر العباس ، فى موضع ضيّق تشتدّ فيه جرية المـاء ، وهو مشرف ينظر أصحابه الزنج : كيف يجُرون تلك السفن التى فيها الغنائم ، فنها ما يغرق وما يسلم .

***

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن سمعان قال: كنتُ فى تلك الحال واقفاً مع يحيى على القنطرة ، وقد أقبل علىّ متعجّبا من شدّة جرية المـاء ، وشدّة ما يلقىَ أصحابُه من تلقّيه بالسفن ، فقال : أرأيت لو هجم علينا عدوّ فى هذه الحال مَن كان يكون أسوأ حالا مِنّا ! فو الله ما انقضى كلامُه حتى وافَى كاشهم التركى فى جيش ؛ قد أنفذه معه أبو أحمد عند رجوعه من الأبُـلّة إلى نهر أبى الأسد ، يتلقّى به يحيى ، فوقعت الصيحة ، واضطربت الزنج ، فنهضتُ متشوّفا للنظر ، فإذا الأعلام الحمر قد أقبلت فى الجانب الغربىّ من نهر العباس ويحيى به ، فلما رآها الزنج ألقَوْا أنفسهم جملةً فى الماء ، فعبروا إلى الجانب الشرقى

وخلا الموضع الذى فيه يحيى ، فلم يبق معه إلا بضعة عشر رجلا منهم ، فنهض عند ذلك فأخذ درَقته وسيفه ، واحتزم بمنديل ، ثم تلقّى القوم[١] فى النفر الذين تخلّفوا معه ، فرشقهم أصحاب كاشهم التركىّ بالسهام ، حتى كثر فيهم الجراح ، وجرح يحيى بأسهم ثلاثة فى عضُده اليمنى وساقه اليسرى ؛ فلما رآه أصحابُه جريحا ، تفرّقوا عنه ولم يعرف فيقصد له ، فرجع حتى دخل بعض تلك السفن ، وعبر به إلى الجانب الشرقىّ من النهر ؛ وذلك وقت الضحى ، وأثقلته الجراحات التى أصابته ، فلما رأت الزّنج شدّة مانزل به ، اشتدّ جزعهم ، وضعفتْ قلوبهم ، فتركوا القتال ، وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم ، وحاز أصحاب السلطان تلك الغنائم التى كانتْ فى السفن فى الجانب الغربىّ من النهر ، وانفضّ الزنج بالجانب الشرقىّ عن يحيى ، فجعلوا يتسلّلون بقيّة نهارهم بعد قتل ذريع فيهم ، وأسْرٍ كثير ، فلما أمسوا وأسدَف الليل ، طاروا على وجوههم . فلما رأى يحيى تفرّقَ أصحابه ركب سُميريّة كانت هناك ، وأقعد معه فيها متطبّبا ، يقال له عباد[٢] ، وطمع فى الخلاص إلى عسكر صاحب الزنج ، فسار حتى قرب من فوّهة النهر ، فأبصر سميريّات وشذاءات لأصحاب السلطان فى فوّهة النهر ، فخاف أنْ تعترض سميريّته ، وجزع من المرور بها ، فعبر به الملاّح إلى الجانب الغربىّ من النهر ، فألقاه وطبيبه على الأرض فى زرع هناك ، فخرج يمشى وهو مثقل حتى ألقى نفسه فى بعض تلك المواضع ، فأقام هناك ليلته تلك . فلما أصبح نزفه الدم ، ونهض عباد الطبيب[٣] ، فجعل يمشى متشوّفا أن يرى إنسانا ، فرأى بعضَ أصحاب السلطان ، فأشار لهم إلى موضع يحيى ، فجاءوا ، حتى وقفوا عليه ، فأخذوه ، وانتهى خبره إلى [الخبيث][٤] صاحب الزنج فجزع عليه جزعا شديدا ، وعظم عليه توجّعه .

(١) الطبرى : « القوم الذين أتوه » .

(٢) الطبرى : « ويعرف بأبى جيش » .

(٣) بعد فى الطبرى : « المتطبب » .

(٤) من الطبرى .

ثم حُمِل يحيى إلى أبي أحمد ، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد ، فأدخل إلى سامُرّاء راكبَ جمل ، والناس مجتمعون ينظرونه ، ثم أمر المعتمد ببناء دكّة عالية بحضرة مجرى الحلبة ، فبنيتْ ، ورفع للناس عليها حتى أبصره الخلائق كافّة ، ثم ضرب[1] بين يدى المعتمد وقد جلس له مائتى سوط بثمارها[1] ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف ، [ثم خبط بالسيوف] ثم ذبح وأحرق .

***

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن ، قال : لما قتِل يحيى البحرانىّ ، فانتهى خبرُه إلى صاحب الزّنج ، قال لأصحابه. لما عظم علىّ قتلُه ، واشتدّ اهتمامى به، خوطبت فقيل لى: قتله خيرٌ لك ! إنه كان شرهاً . ثم أقبل على جماعة أنا فيهم ، فقال : مِنْ شَرَهه أنّا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نغنمه[2] وكان فيها عِقْدان ، فوقعا فى يد يحيى ، فأخفى عنّى أعظمهما خطرا ، وعرض علىّ أخسّهما ، ثم استوهبه فوهبته له ، فرفع إلىّ العِقْد الذى أخفاه حتى رأيته ، فدعوته فقلت : أحضِرْ لى العقد الذى أخفيتَه ، فأتانى بالعِقد الذى وهبتُه له ، وجحد أن يكون أخذ غيرَه ، فرُفِع إلىّ العقد ثانية ، فجعلت أصفه له وأنا أراه وهو لا يراه ، فبُهت وذهب ، فأتانى ، ثم استوهبنيه فوهبتُه له ، وأمرته بالاستغفار .

قال أبو جعفر : وذكر محمد بن الحسن ، أنّ محمد بن سمعان حدّثه أن صاحب الزّنج، قال فى بعض أيامه : لقد عُرِضَتْ علىّ النبوّة فأبيتها . فقيل له : ولم ذاك ؟ قال : إنّ لها أعباء خِفْت ألا أطيق حملها .

***

(١-١) الطبرى : « ثم رفع للناس حتى أبصروه ، فضرب بالسياط . وذكر أنه دخل سامرا يوم الأربعاء لتسع خلون من رجب على جمل ، وجلس المعتمد من غد ذلك اليوم ؛ وذلك يوم الخميس ، فضرب بين يديه مائة سوط بثمارها » .

(٢) الطبرى : « نصيبه » .

قال أبو جعفر : فأمّا الأميرُ أبو أحمد ، فإنه لما صار إلى نهر أبي الأسد وأقام به ، كثرت العلل فيمن معه من جُنده وغيرهم ، وفشا فيهم الموت ، فلم يزل مقيما هنالك حتى أبَلّ مَنْ نجا مِنْهم من عِلّته ، ثم انصرف ، راجعا إلى بَاذاوَرْد ، فعسكر به ، وأمر بتجديد الآلات وإصلاح الشذوات والسميريّات وإعطاء الجند أرزاقهم وشحَن السفن بقوّاده ومواليه وغِلمانه ، ونهض نحو عسكر الناجم ، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سَمّاها لهم؛ من نهر أبي الخصيب وغيره ، وأمر الباقين بملازمته والمحاربة معه ؛ في الموضع الذى يكون فيه، وهم الأقلّون ؛ وعرف الزنج تفرّق أصحاب أبي أحمد عنه ، فكثروا في جهته ، واستمرت الحرب بينه وبينهم ، وكثرت القتلى والجراح بين الفريقين ، وأحرق أصحابُ أبي أحمد قُصوراً ومنازل كان الزّنج ابتنوها ، واستنقذوا من نساء أهل البصرة جَمْعاً كثيرا . ثم صرف الزّنج سورتَهم وشدّة حملتهم إلى الموضع الذى به أبو أحمد ، فجاءه منهم جمعٌ لا يقاوَم ، بمثل العدّة اليسيرة التى كان فيها ، فرأى أنّ الحزم في محاجزتهم ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على تُؤدة وتمهّل ، ففعلوا ، وبقيت طائفة من جنده وَلَجُوا تلك الأدغال والمضايق ، فخرج عليهم كمين للزنج فأوقعوا بهم ، فحاموا عن أنفسهم ، وقتلوا عدداً كثيرا من الزّنج إلى أن قتلُوا بأجمعهم ، وحملت رُءوسهم إلى الناجم ، فزاد ذلك في قوّته وعتوّه وعُجبه بنفسه ، وانصرف أبو أحمد بالجيش إلى باذاورد ، وأقام يعبّى أصحابه الرجوع إلى الزنج ، فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره ، وذلك في أيام عُصُوف الرياح ، فاحترق العسكر ، ورحل أبو أحمد منصرفاً وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط[(١)].

فأقام بها إلى ربيع الأول ، ثم انصرف عنها إلى سامرّاء ؛ وذلك أنّ المعتمد كاتبه واستقدمه

---

(١) بعدها في الطبرى : « فلما صار إلى واسط تفرق عنه عامة من كان معه من أصحابه » .

لحرب يعقوب بن الليث الصفار أمير خراسان ، فاستخلف على حرب الناجم محمدا المولد ، وأمّا الناجم فإنه لم يعلم خبر الحريق الذى وقع فى عسكر أبى أحمد ، حتى وَرَدَ عليه رجلان من أهل عبّادان ، فأخبراه ، فأظهر أن ذلك من صُنْع الله تعالى له ونصره على أعدائه ، وأنه دعا الله على أبى أحمد وجيشه ، فنزلت نارٌ من السماء فأحرقتهم .

وعاد إلى العبث ، واشتد طغيانه وعتوّه ، وأنهض علىّ بن أبان المهلبىّ ، وضم إليه أكثر الجيش ، وجعل على مقدمته سليمان بن جامع ، وأضاف إليه الجيش الذى كان مع يحيى بن محمد البحرانى وسليمان بن موسى الشعرانىّ ، وأمرهم بأن يقصِدوا الأهواز وبها حينئذ أصفجون[1] التركى ، ومعه نيزك القائد ؛ فالتقى العسكران بصحراء تعرف بدشت ميسان[2] ، واقتتلوا ، فظهرت[3] الزنج ، وقتل نيزك فى كثير من أصحابه ، وغرق أصفجون التركى ، وأسر كثير من قوّاد السلطان ؛ منهم الحسن بن هرثمة المعروف بالشارى[4] ، والحسن بن جعفر . وكتب علىّ بن أبان بالخبر إلى الناجم ، وحمل إليه أعلاما ورءوسا كثيرة وأسرى ، ودخل علىّ بن أبان الأهواز ، وأقام بها بزنوجه يعيث وينهب القُرى والسواد ، إلى أن ندب المعتمد على الله موسى بن بغا لحربه ، فشخص عن سامُرّا ، فى ذى القعدة من هذه السنة ، وشيّعه المعتمد بنفسه إلى خلف الحائطين ، وخلع عليه هنالك فقدم أمامه عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز وإسحاق بن كنداخ إلى البصرة ، وإبراهيم بن سيما إلى الباذاورد .

قال أبو جعفر : فلما ورد عبد الرحمن بن مفلح على الأهواز أناخ بقنطرة أربق[5] عشرة أيام ، ثم مضى إلى علىّ بن أبان المهلبى فواقعه فهزمه علىّ بن أبان ، فانصرف فاستعدّ

(١) فى الأصول : « صنجور » ، تحريف .
(٢) الطبرى : « رستادان » .
(٣) الطبرى : « فكانت الدبرة يومئذ على أصنجون » .
(٤) الطبرى : « الشار » .
(٥) الطبرى : « أربك » .

ثم عاد لمحاربته ، فأوقع به وقعة عظيمة ، وقتَل من الزَّنج قتلًا ذريعا وأسر أسرى كثيرة ، وانهزم علىّ بن أبان ومَنْ معه من الزّنج حتى أتوا الموضع المعروف ببَيان ، فأراد الناجم ردّهم فلم يرجعوا ، للذّعر الذى خالطَ قلوبهم . فلما رأى ذلك أذِنَ لهم فى دخول عسكره ، فدخلوا جميعا ، فأقاموا معه بالمدينة التى كان بناها ، ووافَى عبد الرحمن بن مفلح حصنَ مهدىّ ليعسكِر به ، فوجّه إليه الناجم علىّ بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه ، ومضى علىّ بن أبان إلى قريب من الباذاورد ؛ وهناك إبراهيم بن سيما ، فواقعه إبراهيم ، فهزم علىّ بن أبان ، فعاوده فهزمه إبراهيم ، فمضى فى الّليل ، وسلك الأدغال والآجام ؛ حتى وافَى نهرَ يحيى ، فانتهى خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فوجّه إليه طاشْتِمر التركىّ فى جمعٍ من الموالى ، فلم يصلْ إلى علىّ بن أبان ومن معه ، لوعورة الموضع الذى كانوا فيه ، وامتناعه بالقصب والحَلافى[1] ، فأضرمه عليهم نارا ، فخرجوا منه هاربين ، وأسر منهم أسْرَى ، وانصرف إلى عبد الرحمن ابن مفلح بالأسرى والظّفر ، ومضى علىّ بن أبان ، فأقام بأصحابه فى الموضع المسمى بنسوخا ، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن مفلح ، فصار إلى العمود ، فأقام به ، وصار علىّ بن أبان إلى نهر السِّدْرة ، وكتب إلى الناجم يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشّذا ، فوجّه إليه ثلاث عشرة شَذَاة ، فيها جمعٌ كثير من أصحابه ، فسار علىّ بن أبان ومَنْ معه فى الشّذَا ، ووافَى عبد الرحمن بمن معه ، فلم يكن بينهما قتال ، وتواقف الجيشان يومَهما ذلك .

فلما كان الليل انتخَب علىّ بن أبان من أصحابه جماعةً يثق بجلَدهم وصبرهم ، ومضى ومعه[2] سليمان بن موسى المعروف بالشّعرانى ، وترك سائرَ عسكره مكانه ليخفى أمرُه ، فصار من وراء عبد الرحمن ، ثم بيّته وعسكره[3] ، فنال منه ومن أصحابه نيلا ما ، وانحاز

(١) الحلافى : مكان ينبت الحلفاء .

(٢) الطبرى : « فيهم » .

(٣) الطبرى : « فى عسكره » .

عبدُ الرحمن عنه وترك أربع شَذَوَاتٍ من شَذَوَاته ، فغنمها علىّ بن أبان ، وانصرف ومضى عبد الرحمن لوجهه ؛ حتى وافى دُولاب[١] ، فأقام بها ، وأعدّ رجالا من رجاله ، وولّى عليهم طاشتمر التركىّ ، وأنفذهم إلى علىّ بن أبان ، فوافَوْه وهو فى الموضع المعروف بباب آزر ، فأوقعوا به وَقْعةً انهزم منها إلى نهر السِّدرة ، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بانهزامه عنه ، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وافى العود ؛ فأقام به واستمدّ أصحابه للحرب ، وهيّأ شذواتِه ، وولّى عليها طاشتمر ، وسار إلى فُوّهة نهر السِّدرة ، فواقع علىّ بن أبان وقعة عظيمة ، انهزم منها علىّ بن أبان ، وأخذ منه عشر شَذَوات ، ورجع علىّ بن أبان إلى الناجم مفلولا مهزوما ، وسار عبد الرحمن من فوره ، فعسكر ببيان ، فكان عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر النّاجم ، فيوقعان به ، ويخيفان مَنْ فيه وإسحاق بن كنداجيق[٢] يومئذ بالبصرة ، وقد قطع المِيرة عن عسكر الناجم ؛ فكان الناجم يجمع أصحابه فى اليوم الذى يخاف فيه موافاةَ عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم ابن سيما ؛ حتى ينقضىَ الحرب ، ثم يصرف فريقا منهم إلى ناحية البصرة ، فيواقع بهم إسحاق ابن كنداجيق ؛ فأقاموا على هذه الحال بضعَة عشر شهرا إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الزّنج[٣] .

* * *

قال أبو جعفر : وسبب ذلك أنّ المعتمدَ ردّ أمرَ فارس والأهواز والبصرة وغيرها من

---

(١) الطبرى : « الدولاب » .
(٢) الطبرى : « كنداج » .
(٣) فى الطبرى : « إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الخبيث ، وو ليها مسرور البلخى ، وانتهى الخبر بذلك إلى الخبيث » .

النواحي والأقطار إلى أخيه أبي أحمد ، بعد فراغه من حرب يعقوب بن الليث الصفّار وهزيمته له ، فاستخلف أبو أحمد على حرب صاحب الزنج مسروراً البلخيّ ، وصرف موسى بن بغا عن ذلك ؛ واتفق أنّ ابن واصل حاربَ عبد الرحمن بن مفلح ، فأسره وقتله ، وقتل طاشتمر التركيّ أيضا ، وذلك بناحية رَامَهُرْمز ، فاستخلف مسرورٌ البلخيّ على الحرب أبا الساج وولّى الأهواز ؛ فكانت بينه وبين عليّ بن أبان المهلبيّ وقعة بناحية دولاب ، قتل فيها عبد الرحمن صهر أبي الساج ، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مُكْرَم ، ودخل الزّنج الأهواز ؛ فقتلوا أهلها وسَبَوْا وأحرقوا [دورها](١) .

* * *

قال أبو جعفر : ثم وجّه صاحب الزّنج جيوشه بعد هزيمة أبي الساج إلى ناحية البطيحة والحوانيت ودستُميسان ، قال : وذلك لأنّ واسطاً خلتْ من أكثر الجند في وقعة أبي أحمد ويعقوب بن الليث التي كانت عند دير العاقول ، فطمع الزنج فيها ، فتوجّه إليها سليمان بن جامع في عسكر من الزّنج ، وأردفه التاجم بجيش آخر مع أحمد بن مهديّ في سُميريّات ، فيها رماة من أصحابه ، أنفذه إلى نهر المرأة ، وأنفذ عسكرا آخر فيه سليمان بن موسى ، فأمره أن يعسكر بالنهر المعروف باليهوديّ ؛ فكانت بين هؤلاء وبين من تخلّف بهذه الأعمال من عساكر السلطان حروب شديدة ، وكانت سجالاً لهم وعليهم ؛ حتى ملكوا البطيحة والحوانيت ، وشارفوا واسطاً ، وبها يومئذ محمد المولّد من قِبَل السلطان فكانت بينه وبين سليمان بن جامع حروب كثيرة يطولُ شرحها وتعداده ، وأمدّه التاجم بالخليل بن أبان — أخي عليّ بن أبان المهلبيّ — في ألف وخمسمائة فارس ، ومعه أبو عبد الله الزنجي المعروف بالمذوّب ، أحد قُدّامه المشهورين ، فقويَ سليمان بهم ، وأوقع بمحمد المولّد ، فهزمه ، ودخل واسطاً في ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين بزنوجه وقوّاده ، فقتل منها خلقا كثيرا ، ونهبها وأحرق دورها وأسواقها ، وأخرب كثيرا من منازل أهلها ،

(١) من تاريخ الطبري .

وثبت للمحاماة عنها قائدٌ كان بها من جانب محمد بن المولّد، يقال له كنجور البخاريّ، فحامَى يومه ذلك إلى العصر، ثم قتِل . وكان الذى يقود الخيل يومئذ فى عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوّب، وكان أحمد بن مهدىّ الجبائىّ فى السميريّات، وكان مهربان[1] الزنجى فى الشّذَوات، وكان سليمان بن موسى الشعرانىّ وأخوه فى ميمنته وميسرته، وكان سليمان بن جامع، وهو الأمير على الجماعة فى قواده السّودان ورجالته منهم، وكان الجميع يداً واحدة، فلما قضوْا وطَرَهم من نهب واسط وقتل أهلها، خرجوا بأجمعهم عنها، فمضوا إلى جُنْبلاء، وأقاموا هناك يعيثون ويخربون .

وفى أوائل سنة خمس وستين، دخلوا إلى النّعمانية، وجَرْجَرايا وجَبُّل، فنهبوا وأخربوا وقتلوا وأحرقوا، وهرب منهم أهل السّواد فدخلوا إلى بغداد .

***

قال أبو جعفر : فأمّا علىّ بن أبان المهلبىّ فإنه استولى على معظم أعمال الأهواز، وعاث هناك وأخرب وأحرق، وكانت بينه وبين عمّال السلطان وقواده مثل أحمد بن ليثويه، ومحمد بن عبد الله الكردىّ، وتكين البخارى، ومطر بن جامع، وأغرتمش التركى وغيرهم، وبينه وبين عُمّال يعقوب بن الليث الصفار، مثل خضر بن العنبر وغيره حروبٌ عظيمة، ووقعات كثيرة، وكانت سِجَالاً، تارة له وتارة عليه؛ وهو فى أكثرها المستظهر عليهم.

وكثرت أموال الزنج والغنائم التى حَوَوْها من البلاد والنواحى، وعَظُم أمرهم، وأهمّ الناسَ شأنُهم، وعظم على المعتمد وأخيه أبى أحمد خَطْبُهم، واقتسموا الدنيا؛ فكان علىّ بن محمد الناجم صاحب الزنج وإمامهم مقيماً بنهر أبى الخصيب، قد بنى مدينةً عظيمة سمّاها المختارة، وحصّنها بالخنادق، واجتمع إليه فيها من النّاس مالا ينتهى العدّ والحصر إليه، رغبة ورهبة؛ وصارتْ مدينة تضاهى سامُرّاء وبغداد، وتزيد عليهما، وأمراؤه وقواده

(١) كذا فى الطبرى، وفى الأصول : « مهربار » .

بالبصرة وأعمالها يجبُون الخراج على عادة السلطان لمّا كانت البصرة فى يده ، وكان علىّ ابن أبان المهلّبىّ ـ وهو أكبر أمرائه وقوّاده ـ قد استولى على الأهوز وأعمالها ، ودوّخ بلادها كرامهر مز وتستَر وغيرها ، ودان له الناس، وجبا الخراج ، وملَك أموالا لا تحصى .

وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعرانىّ ، ومعهما أحمد بن مهدىّ الجبائىّ فى الأعمال الواسطية ، قد ملكوها وبنوا بها المدن الحصينة ، وفازوا بأموالها وارتفاعها ، وجبَوْا خراجها ، ورتّبوا عمالهم وقوّادهم فيها ، إلى أن دخلت سنة سبع وستين ومائتين ، وقد عظم الخطب وجلّ ، وخيف على مُلْك بنى العباس أن يذهب وينقرض ؛ فلم يجد أبو أحمد الموفّق ـ وهو طلحة بن المتوكّل على الله ـ بدًّا من التوجّه بنفسه ومباشرته هذا الأمر الجليل برأيه وتدبيره ، وحضوره معارك الحرب ، فندب أمامه ابنه أبا العباس ، وركب أبو أحمد إلى بستان الهادى ببغداد ، وعرض أصحاب أبى العباس ، وذلك فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، فكانوا عشرة آلاف ، فرسانا ورجّالة فى أحسن زىّ وأجمل هيئة ، وأكمل عدّة ، ومعهم الشّذَوات والسميريّات والمعابر برسم الرجّالة[1] ، كلُّ ذلك قد أحكمت صنعته . فركب أبو العباس من بستان الهادى ، وركب أبو أحمد مشيّعاً له حتى نزل القرية المعروفة بالفِرْك ، ثم عاد وأقام أبو العباس بالفِرْك أياما ؛ حتى تكامل عدده وتلاحق به أصحابه .

ثم رحل إلى المدائن ، فأقام بها أياما ، ثم رحل إلى دير العاقول ، فورَدَ عليه كتاب نُصَير المعروف بأبى حمزة ، وهو من جلّة أصحابه ، وكان صاحب الشّذَا والسميريّات ، وقد كان قدّمه على مقدّمته بدجْلة يعلمه فيه أنّ سليمان بن جامع قد وافَى لمّا علم بشخوص أبى العباس ، والجبائىّ يقدُمه ، فى خيلهما ورجالهما وسفنهما حتى نزلا الجزيرة التى بحضرة

---

(١) الطبرى : « للرجالة » .

بردودا ، فوق واسط بأربعة فراسخ ، وأن سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافَى نهر أبان بعسكره ؛ عسكر البرّ وعسكر الماء ؛ فرحَل أبو العباس لَمّا قرأ هذا الكتاب حتى وافى جَرْجَرَايا ، ثم منها إلى فم الصِّلح ، ثم ركب الظهر وسار حتى وافى الصِّلح ، ووجّه طلائعه ليتعرّف الخبر ، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم، وأن أوّلهم قريب من الصِّلح ، وآخرهم ببستان موسى بن بغا ، أسفل واسط ؛ فلما عرف ذلك عَدَل عن سَنَن الطريق ، ولقِيَ أصحابه أوائل القوم ، فتطاردوا لهم عن وصيّةٍ أوصاهم أبو العباس بها ، حتى طمِع الزّنج فيهم ، واغترّوا وأمعنوا في اتّباعهم ، وجعلوا يصيحون بهم: اطلبوا أميراً للحرب ، فإن أميرَكم مشغول بالصّيد !

فلما قربوا من أبي العباس بالصِّلح ، خرج إليهم فيمن معه من الخيل والرجِل ، وأمَرَ فصيح بأبي حمزة : يا نُصَير ، إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب ! ارجع إليهم . فرجع نُصَير بشذَواته وسُميريّاته ؛ وفيها الرجال ، وركب أبو العباس في سُميريّة ، ومعه محمد بن شعيب ، وحفّ أصحابُه بالزنج مِن جميع جهاتهم ؛ فانهزموا ، ومنح الله أبا العباس وأصحابه أكتافَهم ، يقتلونهم ويطردونهم ، إلى أن وافوا قرية عبد الله ؛ وهي على ستة فراسخ ، من الموضع الذي لقوهم فيه ، وأخذوا منهم خمس شذوات وعشر سميريّات ، واستأمن منهم قوم ، وأسِر منهم أسرى ، وغرِق مِنْ سفنهم كثير ؛ فكان هذا اليوم أوّلَ الفتح على أبي العباس .

* * *

قال أبو جعفر : فلما انقضى هذا اليوم ، أشار على أبي العباس قوّاده وأولياؤه ، أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه ، إشفاقاً عليه من مقاربة القوم، فأبى إلا نزول واسط بنفسه ، ولما انهزم سليمان بن جامع ومَن معه ، وضرب الله وجوهَهم ، انهزم سليمان بن

موسى الشعرانيّ عن نهر أبان ؛ حتى وافى سوق الخميس ؛ ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير ؛ وقد كان القوم حين لقُوا أبا العباس، أجالوا الرأى بينهم فقالوا : هذا فتى حَدَث لم تطل ممارسته الحرب وتدرّبه بها ، والرأى أن نرميه بجدّنا كلّه ، ونجتهد فى أوّل لَقْيةٍ نَلقاه فى إزالته؛ فلعلّ ذلك أن يروعه، فيكون سببا لانصرافه عنّا فَفعلوا ذلك وحشدوا واجتهدوا ، فأوقع الله تعالى بهم بأسه ونقمته، ولم يتمّ لهم ماقدروه ، وركب أبو العباس من غدِ يوم الوقعة ، حتى دخل واسطاً فى أحسن زىّ، وكان ذلك يوم جُمعة، فأقام حتى صلّى بها صلاة الجمعة ، واستأمن إليه خلق كثير من أتباع الزّنج وأصحابهم، ثم انحدر إلى العُمْر؛ وهو على فرسخ واحد من واسط، فاتخذه معسكرا، وقد كان أبو حمزة نُصَير وغيره أشاروا عليه أن يجعلّ معسكره فوق واسط ، حذراً عليه من الزّنج فامتنع ، وقال : لست نازلا إلا العُمْر ، وأمر أبا حمزة أن ينزل فُوّهة بردُودا فوق واسط ، وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شىء من آرائهم ، واستبدّ برأى نفسه، فنزل العُمْر وأخذ فى بناء الشَّذَوات والسُّميريّات ، وجعل يراوح الزّنج القتال ويغاديهم ، وقد رتّب خاصة غلمانه ومواليه فى سميريّات ، فجعل فى كلّ سميريّة أميراً منهم .

ثم إنّ سليمان استعدّ وحشد وفرّق أصحابه ، فجعلهم فى ثلاثة أوجه : فرقة أتت من نهر أبان ، وفرقة من برّ تمرتا ، وفرقة من بردُودا ، فلقيهم أبو العباس ؛ فلم يلبثوا أن انهزموا ، فلحقت طائفة منهم بسوق الخميس، وطائفة بمازروان ، وطائفة ببرّ تمرتا، وسلك آخرون نهر الماذيان ، واعتصم قوم منهم ببردودا ، وتبعهم أصحابُ أبى العباس ، وجعل أبو العباس قَصْده القوم الذين سلكوا نهر الماذيان، فلم يرجع عنهم حتى وافى بهم برْمساور، ثم انصرف ، فجعل يقف على القُرى والمسالك ويسأل عنها ويتعرّفها ، ومعه الأدلّاء وأرباب الخِبْرة ؛ حتى عرف جميع تلك الأرض ومنافذها ، وما ينتهى إليه من

البطائح والآجام وغـيرها ؛ وعاد إلى مُعَسكره بالعُمر ، فأقام به أياما مريحا نفسه وأصحابه .

ثم أتاه مخبر فأخبره أنّ الزّنج قد اجتمعوا واستعـدّوا لـكبس عسكره ، وأنهم على إتيانه من ثلاثة أوجه ، وأنهم قالوا : إن أبا العباس غلام يغرّر بنفسه ، وأجمع رأيهم على تـكمين الـكُمناء ، والمصير إليه من الجهات الثلاث ؛ فحـذِر أبو العباس من ذلك واستعدّ له ، وأقبلوا إليه وقد كمنوا زهاء عشرة آلاف في برتمرتا ، ونحوا من العدّة في قس هثا[1] وتقدّم منها عشرون سميريّة إلى عسكر أبي العباس ؛ على أن يخرج إليهم فيهربوا بعد مناوشة يسيرة ، فيُجيزوا أبا العباس وأصحابه إلى أن يجاوزوا الـكُمناء ؛ ثم يخرج الـكمين عليهم من ورائهم .

فمنع أبو العباس أصحابَه من اتباعهم لما وافوهم ، وأظهروا الـكسْرة والموْد ، فعلموا أنّ كيدهم لم ينفذ فيه ، وخرج حينئذ سليمان والجبائيّ في الشّذا والسميريّات العظيمة ، وقد كان أبو العباس أحسن تعبئة أصحابه ، فأمر أبا حمزة نُصيرا أن يخرُج إليهم في الشذا والسميريات المرتّبة ؛ فخرج إليهم ، ونزل أبو العباس في شَذَاة من شَذَوَاتٍ قد كان سمّاها الغزال ، واختار لها جَدّافين ، وأخذ معه محمد بن شعيب الاشتيام ، واختار من خاصّة أصحابه وغلمانه جماعة ، دفع إليهم الرماح ، وأمر الخيّالة بالمسير بإزائه على شاطئ النهر ، وقال لهم : لا تَدَعُوا المسيرَ ما أمكنـكم ، إلى أن تقطعـكم الأنهـار . ونَشَبت الحرب بين الفريقين ؛ فـكانت معركة القتال من حَدّ قرية الرمل إلى الرُّصافة ؛ حتى أذن الله في هزيمة الزّنج ؛ فانهزموا ، وحاز أصحاب أبي العباس منهم أربع عشرة شذاة ، وأفلت سليمان والجبائيّ في ذلك اليوم بعد أن أشفَيا على الهلاك راجلَين ، وأخـذِت دوابّهما ، ومضى جيشُ الزّنج بأجمعه ، لا يَلتفِت أحدٌ منهم حتى وافوْا طهيثا ، وأسلَموا ما كان معهم من أثاث وآلة ، ورجع

(١) في الأصول : « برهثا » .

أبو العباس ، فأقام بمعسكره بالعُمر ؛ وأصلح ما كان أخذ منهم من الشَّذا والسفن [١] ، ورتّب الرجال فيها ، وأقام الزّنج بعد ذلك عشرين يوما لا يظهر منهم أحد .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إن الجبائيّ صار بعد ذلك يجيء فى الطلائع كلّ ثلاثة أيام وينصرف، وحفر فى طريق عسكر أبى العباس آباراً ، وصيّر فيها سفافيد حديد، وغشّاها بالبواريّ ، وأخفى مواضعها ، وجعلها على سنن مسير الخيل لينهوّر فيها المجتازون بها، وجعل بواقِى طرف العسكر متعرّضاً به، لتخرج الخيل طالبةً له، فجاء يوما وطلبته الخيل كما كانت تطلبه ، فقطر [٢] فرس رجل من قُوّاد الفراغنة فى بعض تلك الآبار ، فوقف أصحابُ أبى العباس بما ناله من ذلك على ما كان دبّره الجبّائىّ ، فحذِروا ذلك ، وتنكّبوا سلوك تلك الطريق .

قال أبو جعفر : وألحّ الزّنج فى مغاداة العسكر فى كلّ يوم بالحرب ، وعسكروا بنهر الأمير فى جمع كثير ، وكتب سليمان إلى النّاجم يسأله إمداده بسميريّات ، لكلّ واحدة منهن أربعون مجدافا؛ فوافاه من ذلك فى مقدار عشرين يوما أربعون سميرية ، فيها الرجال والسيوف والتِّراس والرماح ، فكانت لأبى العبّاس معهم وقعات عظيمة ، وفى أكثرها الظَّفَر لأصحابه والخذلان على الزّنج ؛ ولجّ أبو العباس فى دخول الأنهار والمضايق ؛ حتى انتهى إلى مدينة سليمان بن موسى الشعرانىّ بنهر الحجيس التى بناها وسمّاها للنيمة ، وخاطر أبو العباس بنفسه مرارا ، وسلّم بعد أن شارف العطب ، واستأمن إليه جماعةٌ من قوّاد الزّنج فأمّنهم ، وخلع عليهم وضمّهم إلى عسكره ، وقتل من قوّاد

---

(١) الطبرى : « والسميريات » .
(٢) قطر : ذهب وأسرع .

الزّنج جماعة ، وتمادت الأيام بينه وبينهم ، واتّصل بأبى أحمد الموفّق أنّ سليمان بن موسى الشعرانى والجبائىّ ومَنْ بالأعمال الواسطيّة من قوّاد صاحب الزّنج ، كاتبوا صاحبَهم ، وسألوه إمدادَهم بعلىّ بن أبان المهلبىّ ؛ وهو المقيم حينئذ بأعمال الأهواز ، والمستولى عليها ، وكان علىّ بن أبان قائد القواد وأمير الأمراء فيهم ، فكتب النّاجم إلى علىّ بن أبان يأمره بالمسير بجميع مَنْ معه إلى ناحية سليمان بن جامع ، ليجتمعا على حرب أبى العباس .

فصحّ عزمُ أبى أحمد على الشخوص إلى واسط وحضور الحرب بنفسه ، فخرج عن بغداد فى صَفَر من هذه السنة ، وعسكر بالفِرْك وأقام بها أياما ؛ حتى تلاحق به عسكرُه ، ومن أراد المسيرَ معه ، وقد أعدّ آلة الماء[1] ورحل من الفرْك إلى المدائن ، ثم إلى دير العاقُول ، ثم إلى جرْجَرايا ، ثم قُنّى ، ثم جَبُّل ، ثم نزل الصُّلْح ؛ ثم نزل على فرسخ من واسط[2] .

وتلقاه ابنهُ أبو العباس فى جَريدة خيل فيها وجوه قوّاده ، فسأله أبوه عن خبرهم ، فوصف له بلاءهم ونصحَهم ، فخلع أبو أحمد عَلَى أبى العباس ، ثم عَلَى القوّاد الذين كانوا معه . وانصرفَ أبو العباس إلى معسكره بالعُمْر فبات به ، فلما كان صبيحة الغد ، رحل أبو أحمد منحدراً فى الماء ، وتلقّاه ابنه أبو العباس فى آلات الماء بجميع العسكر فى هيئة الحرب ، على الوضع الذى كانوا يحاربون الزّنج عليه ، فاستحسن أبو أحمد هيئتهم ، وسُرّ بذلك ، وسار أبو أحمد حتى نزل بإزاء القرية المعروفة بقرية عبد الله ، ووضع العطاء ، فأعطى الجيش كلّه أرزاقهم ، وقدم ابنه أبا العباس أمامه فى السُّفن ، وسار وراءه . فتلقاه

(١) الطبرى : « وقد أعد له قبل ذلك الغذا والسميريات والمعابر » .
(٢) بعدها فى الطبرى : « فأقام هنالك يومه » .

أبو العباس برءوس وأسرى من أصحاب الشّعرانىّ ، وكان لقيهم ، فأمر أبو أحمد بالأسرى فضرِبت أعناقهم ، ورحل يريد المدينة التى بناها الشعرانىّ بسوق الخميس ، وسمّاها المنيعة .

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب الشّعرانىّ قبل حرب سليمان بن جامع ؛ لأنّ الشعرانىّ كان وراءه ، فخاف إن بدأ بابن جامع ، أن يأتيَه الشعرانىّ من ورائه، فيشغله عمّنْ هو أمامه ؛ فلما قرُب من المدينة ، خرج إليه الزّنج ، فحاربوه حربا ضعيفة ، وانهزموا ، فعلا أصحاب أبى العباس السُّور ، ووضعوا السيف فيمنْ لقيهم ، وتفرّق الزنج ، ودخل أبو العباس المدينة ، فقتلوا وأسروا ، وحَوَوْا ما كان فيها ، وأفلت الشعرانىّ هاربا ومعه خواصّه ، فاتّبعهم أصحاب أبى العباس ، حتى وافَوْا بهم البطائح ، فغرِق منهم خَلْق كثير ، ولجأ الباقون إلى الآجام ، وانصرف الناس ، وقد استنقذ من المسلمات اللّواتى كنّ بأيدى الزّنج فى هذه المدينة خاصة خمسة آلاف امرأة ، سوى مَن ظُفِر به من الزنجيات[1] .

فأمر أبو أحمد بحمل[2] النساء اللّواتى سباهنّ الزّنج إلى واسط ، وأنْ يدفعنَ إلى أوليائهنّ ، وبات أبو أحمد بحيال المدينة ، ثم باكرها ، وأذن للناس فى نَهْب مافيها من أمتعة الزنج ، فدخلت ونهب كلّ ما كان بها ، وأمر بهدْم سورها ، وطمّ[3] خندقها وإحراق ما كان بقى منها ، وظفر فى تلك القرى التى كانت فى يد الشعرانىّ بما لا يحصى من الأرز والحنطة والشعير ؛ وقد كان الشعرانىّ استولى على ذلك كلّه ، وقتل أصحابه ، فأمر أبو أحمد ببيعه وصرف ثمنه فى أعطيات مواليه وغلمانه وجنده .

---

(١) الطبرى : « من الزنجيات اللواتى كن فى سوق الخميس » .
(٢) الطبرى : « بحياطة النساء » .
(٣) طم الخندق والنهر : ردمه .

وأما الشعرانىّ فإنه التحق هو وأخوه بالمذار ، وكتب إلى النّاجم يعرّفه ذلك وأنه معتصِمٌ بالمذار .

* * *

قال أبو جعفر : فحدّثنى محمد بن الحسن بن سهل ، قال : حدّثنى محمد بن هشام الكرنبائىّ المعروف بأبى واثلة ، قال : كنت بين يدى النّاجم ذلك اليوم وهو يتحدّث ، إذ وَرَدَ عليه كتابُ سليمان بخبر الواقعة وما نزل به ، وانهزامِه إلى المذار ، فما كان إلّا أنْ فضّ الكتاب ، ووقعت عينه على ذكر الهزيمة ، حتى انحلّ وكاء بطنه ، فنهض لحاجته ثم عاد. فلما استوى به مجلسه ، أخذ الكتاب وتأمّله ، فوقعت عينُه على الموضع الذى أنهضه أولا ، فنهض لحاجته حتى فعل ذلك مرارا ، فلم أشكّ فى عِظَمِ المصيبة ، وكرهت أن أسأله ، فلما طال الأمرُ تجاسرتُ ، فقلت : أليس هذا كتاب سليمان بن موسى ؟ قال : بَلَى ، ورد بقاصمة الظهر ؛ ذكر أنّ الذين أناخُوا عليه أوقعوا به وقعةً لم تُبْقِ منه ولم تَذَرْ، فكتب كتابه هذا وهو بالمذار ، ولم يسلم بشىء غير نفسه . قال : فأ كبرتُ ذلك ـ والله يعلم ما أخفى من السرور الذى وصل إلى قلبى ـ قال : وصبَرَ علىّ بن محمد على مكروه ما وصل إليه ، وجعل يظهر الجلَد ، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذى نزل بالشعرانىّ ، ويأمره بالتيقظ فى أمره وحفظ ما قِبله .

قال أبو جعفر : ثم لم يكن لأبى أحمد بعد ذلك همٌّ إلا فى طلب سليمان بن جامع ، فأتته طلائعه ، فأخبرته أنّه بالحوانيت ، فقدّم أمامه ابنَه أبا العباس فى عشرة آلاف ، فانتهى إلى الحوانيت ، فلم يجد سليمان بن جامع بها ، وألفَى هناك من قوّاد السودان المشهورين بالبأس والنجدة القائدين ، المعروف أحدهما بشبْل ، والآخر بأبى الندى[1] ، وهما من قدماء

(١) الطبرى : « أبو النداء » .

أصحاب الناجم الذين كان قوّدهم فى بدء مخرجه ، وكان سليمان قد خلّف هذين القائدين بالحوانيت ، لحفظ غلاتٍ كثيرة كانوا قد أخذوها ، فحاربهما أبو العباس ، فقتل من رجالهما وجرح بالسهام خلقا كثيرا ـ وكانوا أجلاّد رجالِ سليمان بن جامع ونخبتهم الذين يعتمد عليهم ـ ودامت الحرب بين أبى العباس وبينهم ذلك اليوم إلى أن حجز الليل بين الفريقين . ورمى أبو العباس فى ذلك اليوم كُرْكيًا طائرا ، فوقع بين الزّنج والسهمُ فيه، فقالوا : هذا سهم أبى العباس ، وأصابهم منه ذُعر ، واستأمن فى هذا اليوم بعضهم إلى أبى العباس فسأله عن الموضع الذى فيه سليمان بن جامع ،فأخبره أنه مقيم بمدينته التى بناها بطهيثا، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان،وأن معه هنالك جميعَ أصحابه إلا الشبلا وأبا الندى ؛ فإنهما بالحوانيت لحفظ الغلات التى حوّزها . فأمر حينئذ أبو أحمد أصحابه بالتوجّه إلى طهيثا ، ووضع العطاء ، فأعطى عسكره ، وشخص مصاعدًا إلى بردودا،ليخرج منها إلى طهيثا ؛ إذ كان لاسبيلَ له إليها إلّا بذلك ، فظنّ عسكره أنّه هارب ، وكادوا ينفضّون لولا أنّهم عرفوا حقيقة الحال ، فانتهى إلى القرية بالمؤذنة ، وعقد جسرا على النهر المعروف بمهروذ ، وعبّر عليه الخيل ، وسار إلى أن صار بينه وبين مدينة سليمان التى سمّاها المنصورة بطهيثا ميلان ، فأقام هنالك بعسكره ، ومطرت السماء مطرا جوْدًا ، واشتدّ البرد أيام مُقامه هنالك ،فشغل بالمطر والبرد عن الحرب فلم يحارب ،فلما فتر ركب فى نفر من قُوّاده ومواليه لارتياد موضع لجال الخيل، فانتهى إلى قريب من سُور تلك المدينة، فلقاه منهم خلق كثير وخرج عليه كمناء من مواضع شتّى ، ونشبت الحرب واشتدّت، فترجّل جماعةٌ من الفرسان ،ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التى كانوا أوغلوها ، وأسِر من غلمان أبى أحمد غلامٌ يقال له وصيف العَلَمدار وعدّة من قواد زيرك ، وقتل فى هذا اليوم أحد بن مهدى الجبائىّ أحد القوّاد العظماء من الزّنج ، رماه أبو العباس بسهم فأصاب أحدَ منخريه حتى خالط دِماغه ، فخرّ صريعا ،وحمل من المعركة وهو حىّ ،فسأل أن يحمل

إلى الناجم ؛ فحمل من هناك إلى نهر أبى الخصيب إلى مدينة النّاجم التى سماها المختارة، فوضع بين يديه ، وهو على ما به ، فعظمت المصيبة عليه به إذ كانَ من أعظم أصحابه غناء ، وأشدّهم تصبّرًا لإطاعته ، فمكث الجبائىّ يعالج هناك أياما ثم هلك ، فاشتدّ جزع الناجم عليه ، وصار إليه ، فولىَ غسله وتكفينَه والصلاة عليـه ، والوقوف على قبره إلى أن دفن ؛ ثم أقبل على أصحـابه فوعظهم ، وذكر موت الجبائىّ . وكانت وفاته فى ليـلة ذات رُعود وبروق .

فقال فيا ذكر عنه : لقد سمعتُ وقتَ قبضِ روحه زَجَل الملائـكة بالدّعاء له ، والترحّم عليه . وانصرف من دفنه منكسرا ، عليه الـكآبة .

***

قال أبو جعفر : فلما انصرف أبو أحمد ذلك اليوم من الوقعة ، غاداهم بـكْرة الغد ، وعبّأ أصحابه كتائب فرسانا ورجّالة ، وأمر بالشذا والسمير يّات أن يسارَ بها معه فى النهر الذى يشقّ مدينة طهيثا ، وهو النهر المعروف بنهر المنذر ، وسار نحو الزّنج ؛ حتى انتهى إلى سور المدينة فرتّب قوّادغلمانه فى المواضع التى يخاف خروج الزّنج عليه منها ، وقدم الرجّالة أمام الفرسان ، ونزل فصلّى أربع ركعات ، وابتهل إلى الله تعالى فى النّصر والدعاء للمسلمين ، ثم دعا بسلاحه فلبسه ، وأمَر ابنَه أبا العباس أنْ يتقدم إلى السُّور ويحضّ الغلمان على الحرْب ففعل ؛ وقد كان سليمان بن جامع أعدّ أمامَ سور المدينة التى سماها المنصورة خندقا ، فلما انتهى الغلمان إليه تهيّبوا عُبورَه ، وأحجموا عنـه ، فحرّضهم قوادهم ، وترجّلوا معهم فاقتحموه متجاسرين عليه ، فعبروه وانتهوْا إلى الزّنج وهم مشرفون من سُور مدينتهم ، فوضعوا السلاح فيهم ، وعبرَت شِرْذمة من الفرسان الخندق خوضاً ، فلما رأى الزّنج خبَر هؤلاء الذين لقوهم وجراءتهم عليهم ، ولَّوْا منهزمين ، واتبعهم أصحابُ أبى أحمد ، ودخلوا

المدينة من جوانبها ، وكان الزّنج قد حصّنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كلّ خندق منها سوراً يعتصمون به ، فجعلوا يقفون عند كلّ سور وخندق انتهوْا إليه، وأصحاب أبي أحمد يكشفونهم في كلّ موقف وقفوه ، ودخلت الشذَا والسميريّات مدينتهم مشحونة بالمقاتلة من النهر الذى يشقّها بعد انهزامهم ، فأغرقت كلّ مامرّت به لهم من شذاة أو سميريّة؛ واتّبعوا مَنْ تجافى النهر منهم ؛ يقتلون ويأسِرون ؛ حتى أجلوْهم عن المدينة وعمّا يتصل بها، وكان ذلك زُهاء فرسخ ، فحوى أبو أحمد ذلك كلّه ، وأفلت سليمان بن جامع في نفرٍ من أصحابه ، واستحرّ القتلُ فيهم والأسر ؛ واستنقذ من نساء أهل واسط وصِبْيانهم وما اتصل بذلك من القرى ونواحى الكوفة زُهاء عشرة آلاف ؛ فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإنفاق عليهم ، وحملوا إلى واسط فدفعوا إلى أهليهم ، واحتوى أبو أحمد على كلّ ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشى ؛ فكان شيئا جليلَ القدر ، فأمر ببيع الغلاّت وغيرها من العُروض ، وصرَفه في أعطيات عسكره ومواليه وأسر من نساء سليمان وأولاده عِدّة ، واستنقِذ يومئذ وصيف العلمدار ومن كان أسره الزّنج معه، فأخرجوا من الحبس ، وقد كان الزّنج أعجلَهم الأمر عن قتله وقتلهم ، وأقام أبو أحمد بطهيثا سبعةَ عشر يوما ، وأمر بهدْم سورِ المدينة ، وطمّ خنادقها ، ففعِل ذلك ، وأمر بتتبّع مَنْ لجأ منهم إلى الآجام ، وجعل لكلّ مَن أتاه برجل منهم جُعْلاً ؛ فسارع الناس إلى طلبهم، فكان إذا أتِيَ بالواحد منهم خَلَع عليه وأحسن إليه ، وضمّه إلى قوّاد غلمانه لما دبّر من استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحبهم ، وندب نُصَيرا صاحبَ الماء في شذَا وسميريّات لطلب سليمان بن جامع والهاربين معه من الزّنج وغيرهم ، وأمره بالجدّ في اتباعهم ؛ حتى يجاوز البطائح ، وحتى يلج دَجْلة المعروفة بالعوراء ؛ وتقدم إليه في فتح السّكور[1] التى كان سليمان أحدثها ليقطع بها الشذا عن دَجْلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبى الخصيب ؛ وتقدّم إلى

---

(١) السكور : جمع سكر بالكسر ؛ وهو ما سد به النهر .

زيرك فى المقام بطهيثا فى جمع كثير من العسكر، ليتراجع إليها الذين كان سليمان أجلاهم عنها من أهلها، فلما أحكم ما أراد إحكامه، تراجع بعسكره مزمعاً على التوجّه إلى الأهواز ليصلحها؛ وقد كان قدّم أمامه ابنه أبا العباس، وقد تقدّم ذكر على أبان المهلبىّ، وكونه استولى على معظم كور الأهواز، ودوّخ جيوشَ السلطان هناك، وأوقعَ بهم، وغلَب على معظم تلك النواحى والأعمال.

فلما تراجع أبو أحمد وافَى بردودا، فأقام بها أياما، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للسير على الظهر إلى الأهواز، وقدّم أمامه مَنْ يصلح الطرق والمنازل؛ ويعدّ فيها المِيرَة للجيوش التى معه؛ ووافاه قبل أن يرحل عن واسط زيرك منصرفا عن طهيثا، بعد أن تراجع إلى النواحى التى كان بها الزّنج أهلُها؛ وخلفهم آمنين، فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار فى الشّذا والسميريّات فى نخبة عسكره وأنجادهم، فيصير بهم إلى دِجْلة العوراء، فتجتمع يده ويد نصير صاحب الماء على نقض دجلة، واتباع المنهزمين من الزّنج والإيقاع بكلّ من لقوا من أصحاب سليمان إلى أن ينتهِىَ بهم السير إلى مدينة الخائن بنهر أبى الخصيب، فإن رأوا موضعَ حرب حاربوه فى مدينة؛ وكتبوا بما يكون منهم إلى أبى أحمد، ليرد عليهم من أمره ما يعملون بحسبه.

واستخلف أبو أحمد عَلَى مَنْ خَلّفه من عسكره بواسط ابنَه هارونَ، وأزمع على الشخوص فى خِفّ[1] من رجاله وأصحابه، ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنه هارون فى أن يحدِر الجيشَ الذى خلّفه معه فى السفن إلى مستقرّه بدجْلة، إذا وافاه كتابُه بذلك، وارتحل شاخصا من واسط الأهواز وكورها، فنزل باذِبين، إلى الطِّيب، إلى قُرْقُوب إلى وادى السوس؛ وقد كان عقِد له عليه جسْرٌ، فأقام به من أول النهار إلى وقت الظهر؛ حتى عبَر عسكره أجمع. ثم سار حتى وافى السُّوس فنزلها؛ وقد كان أمر مسرورا البلخىّ وهو عامله على الأهواز بالقدُوم؛ عليه فوافاه فى جيشه وقوّاده من غدِ اليوم الذى نزل فيه السُّوس؛

(١) الطبرى: «فيمن خف».

تخلع عليه وعليهم ، وأقام بالسُّوس ثلاثا ، وكان ممّن أسِر من الزنج بطهيثا أحمد بن موسى ابن سعيد البصرىّ المعروف بالقَلوص ، وكان قائدا جليلا عندهم ، وأحد عُدَد النّاجم ، ومن قدماء أصحابه ، أسِر بعد أن أثخن جراحات كانت فيها منيّتُه ، فأمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط .

***

قال أبو جعفر : واتّصل بالناجم خبرُ هذه الوقعة بطهيثا ، وعلِم ما نيلَ من أصحابه ، فانتقض عليه تدبيرُهُ وضلّتْ حيلته ، فحمله الهلع إلى أن كتب إلى علىّ بن أبان المهلبىّ ، – وهو يومئذ مقيم بالأهواز فى زُهاء ثلاثين ألفا – يأمره بترك كل ما كان قِبَله من المِيرَة والأثاث ، والإقبال إليه بجميع جيوشه ، فوصل الكتاب إلى المهلّبىّ ، وقد أتاه الخبر بإقدام أبى أحمد إلى الأهواز وكُوَرها ، فهو لذلك طائر العقل . فقرأ الكتاب ، وهو يحفزُهُ فيه حفزا بالمصير إليه ، فترك جميع ما كان قبله ، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائىّ . فلما شخص المهلّبى عنه لم يثبُت ولم يقِمْ ، لما عنده من الوجل وترادُف الأخبار بوصول أبى أحمد إليه ، فأخلَّ ما استخلِف عليه ، وتبعَ المهلبى – وبالأهواز يومئذ ونواحيها من أصناف الحبوب والتمر والمواشى شىء عظيم – فخرجوا عن ذلك كله ، وكتب الناجم أيضا إلى بهبوذ بن عبد الوهاب القائد – وإليه يومئذ الأعمال التى بين الأهواز وفارس – يأمره بالقدوم عليه بعسكره ، فترك بهبوذ ما كان قِبَله من الطعام والتمر والمواشى ، فكان ذلك شيئاً عظيما ، فحوى جمعَ ذلك أبو أحمد ؛ فكان قوةً له على الناجم ، وضعفاً للناجم .

ولما رحل المهلبىّ عن الأهواز بثّ أصحابه فى القُرى التى بينه وبين مدينة الناجم ، فانتهبوها وأجلوْا عنها أهلها ، وكانوا فى سِلْمهم ؛ وتخلّف خلقٌ كثير ممّن كان مع المهلبىّ من الفرسان والرجالة عن اللّحاق به ، وأقاموا بنواحى الأهواز ، وكتبوا يسألون أبا أحمد

الأمان لما انتهى عنه إليهم من عفوه عمّن ظفر به من أصحاب التاجم؛ وكان الذى دعا التّاجم إلى أمر المهلبىّ وبهبوذ بسرعة المصير إليه، خوفه موافاة أبى أحمد بجيوشه إليه، على الحالة التى كان الزّنج عليها من الوجَل وشدّة الرعب، مع انقطاع المهلبىّ وبهبوذ فيمن كان معهما عنه. ولم يكن الأمر كما قدّر، فإنّ أبا أحمد إنما كان قاصداً إلى الأهواز؛ فلو أقام المهلبىّ بالأهواز وبهبوذ بمكانه فى جيوشهما، لكان أقربَ إلى دفاع جيش أبى أحمد عن الأهواز، وأحفظ للأموال والغلّات التى تُرِكت بعد أن كانت اليد قابضةً عليها.

***

قال أبو جعفر: وأقام أبو أحمد حتى أحرز الأموال التى كان المهلبىّ وبهبوذ وخلفاؤهما تركوها، وفتِحت السكور التى كان التّاجم أحدثها فى دجلة، وأصلِحت له طرقه ومسالكه ورحل أبو أحمد عن السّوس إلى جُنديْسابور فأقام بها ثلاثاً، وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر، فوجّه فى طلبها وحملها، ورحَلَ عن جُنْدَيْسابور إلى تستَر، فأقام بها لجباية الأموال من كُور الأهواز، وأنفذ إلى كلّ كُورة قائداً ليروّج بذلك حملَ المال، ووجه أحمد بن أبى الأصبغ إلى محمد بن عبدالله الكردىّ، صاحب رَامَهُرْمُز وما يليها من القِلاع والأعمال، وقد كان مالأ المهلبىّ؛ وحمل إلى التاجم أموالاً كثيرة، وأمره بإيناسه وإعلامه ماعليه رأيه فى العفو عنه، والتغمّد لزلته، وأن يتقدّم إليه فى حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز بجميع مَنْ معه من الموالى والغلمان والجند، ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق، وينهضهم معه لحرب التّاجم. ففعل وأحضرهم، وعُرِضوا رجلاً رجلاً، وأعطوا ثم رحل إلى عسكر مُكرَم، فجعله منزلَه أياما، ثم رحل منه فوافَى الأهوازَ وهو يرى أنه قد تقدّمه إليها من المِيرَة ما يحمل عساكره، فلم يكن كذلك، وغلُظ الأمر فى ذلك اليوم، واضطرب الناس اضطرابا شديدا، فأقام ثلاثة أيام ينتظر ورودَ المِيرَة فلم ترد، فساءت أحوالُ الناس، وكاد ذلك يفرّق جماعتهم، فبحث عن السبب المؤخر لورودها،

فوُجد الزّنج قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية ، كانت بين سوق الأهواز ورَامَهُرْمز ، يقال لها قنطرة أربق، فامتنع التجّار ومَنْ كان يحمل المِيرة من الورود، لقطع تلك القنطرة، فركب أبو أحمد إليها ، وهى على فرسخين من سوق الأهواز ، فجمع مَنْ كان فى العسكر من السودان ، وأخذهم بنقل الصخر والحجارة لإصلاح هذه القنطرة، وبذل لهم من أموال الرعيّة ، فلم يرِمْ حتى أصلحت فى يومه ذلك، وردّت إلى ما كانت عليه، فسلكها الناس، ووافت القوافِل بالمِيرة ، فحيِيَ أهلُ العسكر، وحسُنت أحوالُهم ، وأمر بجمع السفن لعقد الجسر على دُجيل الأهواز ، فجمعت من جميع الكُور ، وأقام بالأهواز أياما حتى أصلح أصحابه أمورَهم ، وما احتاجوا إليه من آلاتهم ، وحسُنت أحوال دوابّهم ، وذهَب عنها ما كان بها من الضرّ بتأخر الأعلاف ، ووافَتْ كتبُ القوم الّذين تخلّفوا عن المهلّبيّ ، وأقاموا بعدَه بسوق الأهواز يسألون أبا أحمد الأمان، فأمّنهم، فأتاه منهم نحو ألف رجل، فأحسن إليهم ، وضمّهم إلى قوّاد غلمانه ، وأجرى لهم الأرزاق ، وعقد الجسر على دُجَيل الأهواز ، ورحل بعد أن قدّم جيوشه أمامه، وعَبَر دُجَيلاً ، فأقام بالموضع المعروف بقصر المأمون ثلاثا، وقد كان قدّم ابنه أبا العباس إلى نهر المبارك، من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون بالانحدار إليه ليجتمع العساكر هناك ، ورحل أبو أحمد عن قصر المأمون إلى قُورَج العباس، ووافاه أحمد بن أبي الأصبغ هناك بهدايا محمد بن عبد الله الكرديّ صاحب رامهرمز من دوابّ ومال (١) . ثم رحل عن القُورَج فنزل الجعفرية ، ولم يكن بها ماء ، وقد كان أنفذ إليها وهو بعد فى القُورَج من حفر آبارها ، فأقام بها يوماً وليلة ، وألفى بها ميراً مجموعة ، فاتّسع الجند بها، وتزوّدوا منها، ثم رحل إلى المنزل المعروف بالبشير ، فألفى فيه غديراً من ماء المطر ، فأقام به يوما وليلة، ورحل إلى المبارك وكان منزلا بعيد المسافة ،

---

(١) الطبرى : « وشوار وغير ذلك »

فتلقاه ابناه أبو العباس وهارون فى طريقه، وسفّا عليه، وسارا بسيره، حتى وَرَد بهم المبارك؛ وذلك يومَ السّبت للنصف من رجب سنة: سبع وستين.

***

قال أبو جعفر، فأما نُصير وزيرك، فقد كانا اجتمعا بدَجْلة العوراء، وانحدرا حتى وافيا الأبُلّة بسفنهما وشذاها، فاستأمن إليهما رجلٌ من أصحاب الناجم، فأعلمهما أنّه قد أنفذ عددا كثيرا من السميريّات والزواريق مشحونة بالزّنج، يرأسهم قائدٌ من قُوّاده؛ يقال له محمد بن إبراهيم، ويكنى أبا عيسى.

قال أبو جعفر: ومحمد بن إبراهيم هذا، رجل من أهلِ البَصْرة، جاء به إلى الناجم صاحب شُرطته المعروف بيَسار، واستصلحه لكتابته فكان يكتب له حتى مات (١)، وقد كانت ارتفعت حالُ أحمد بن مهدىّ الجُبّائىّ عند الناجم، وولّاه أكثرَ أعمالِه، فضمّ محمد بن إبراهيم هذا إليه، فكان كاتبه، فلما قتل الجبّائىّ فى وقعة سليمان الشعرانىّ، طمع محمد بن إبراهيم هذا فى مرتبته، وأنْ يحلّه الناجم محلّه، فنبذ القلم والدواة، ولبِس آلة الحرب، وتجرّد للقتال، فأنهضه النّاجم فى هذا الجيش، وأمره بالاعتراض فى دِجْلة لمدافعة مَنْ يردُها من الجيوش، فكان (٢) يدخلها أحيانا، وأحيانا يأتى بالجمع الذى معه إلى النّهر المعروف بنهر يزيد، وكان معه فى ذلك الجيش من قُوّاد الزّنج شبل بن سالم وعمرو المعروف بغلام بُوذى (٣) وأخلاط من السودان وغيرهم، فاستأمن رجلٌ منهم كان فى ذلك الجيش إلى زيرك ونصير، وأخبرهما خبره، وأعلمهما أنه على القصد لسواد عسكر نُصير. وكان نصير يومئذ معسكراً بنهر المرأة، وأنّهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقِل، وبثق

---

(١) الطبرى: «فكان يكتب ليسار على ما يلى حتى مات».
(٢) الطبرى: «فكان فى دجلة أحياناً».
(٣) كذا فى الطبرى.

شِيرين حتى يوافُوا الشرطة ، ويخرجوا من وراء العسكر ، فيكبّوا على مَنْ فيه ، فرجع نُصَير عند وصول هذا الخبر إليه من الأُبلّة ، مبارزا إلى عسكر موسار تزيرك قاصدا بثق شيرين ، معارضا لمحمد بن إبراهيم ، فلقيَه فى الطريق ، فوهب الله له العلوّ عليه بعد صبر من الزّنج له ، ومجاهدة شديدة ، فانهزموا ولجئوا إلى النهر الذى فيه كمينُهم ، وهو نهر يزيد ، فدلّ تزيرك عليهم ، فتوغّلت إليهم سميريّاته(١) ، فقتل منهم طائفة وأسر طائفة ؛ فكان محمد بن إبراهيم فيمن أُسِر ، وعمرو وغلام بوذى ، وأخِذ ما كان معهم من السميريّات ؛ وهى نحو ثلاثين سميريّة ، وأفلت شبل بن سالم فى الذين نجوْا معه ، فلحق بعسكر الناجم ، وخرج تزيرك فى بَثْق شِيرين سالماً ظافرا ، ومعه الأسارى ورءوس القتلى ؛ مع ما حوى من السميريّات والسفن ، وانصرف من دِجْلة العوراء إلى واسط ، وكتب إلى أبى أحمد بالفتح ، وعظم الجزَع على كلّ من كان بدَجْلة وكورها من أتباع الناجم ؛ فاستأمن إلى نصير صاحب الماء ، وهو مقيم حينئذ بنهر المرأة زُهاء ألفى رجل من الزّنج وأتباعهم .

فكتب إلى أبى أحمد بخبرهم ، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان ، وإجراء الأرزاق عليهم ، وخلطهم بأصحابه ، ومناهضة العدوّ بهم ، ثم كتب إلى نُصير يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك ؛ فوافاه هنالك .

وقد كان أبو العباس عند منصَرَفه إلى نهر المبارك ، انحدر إلى عسكر الناجم فى الشّذَا ، فأوقع بهم فى مدينته بنهر أبى الخصيب ، فكانت الحرب بينهما من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر .

واستأمن إليه قائد جليل من قوّاد الناجم من المضمومين ، كانوا إلى سليمان بن جامع ، يقال له منتاب ، ومعه جماعة من أصحابه ؛ فكان ذلك مما كسر من الناجم وانصرف أبو العباس بالظَّفَر ، وخلَع على منتاب الزنجىّ ، ووصله وحمله . فلما لقى أباه أخبره خبَره ، وذكر

---

(١) الطبرى : « عليهم سميراته وشذواته » .

إليه خروجَه إليه فى الأمان ، فأمر أبو أحمد له بخلَع وصلةٍ وحُملان ، وكان منتاب أوّل من استأمن من جلة قواد النّاجم .

•••

قال أبو جعفر : ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك(١) كان أوّل ما عمل به فى أمر الناجم أن كتبَ إليه كتاباً يدعوه فيه إلى التوبةِ والإنابة إلى الله تعالى ؛ مما ارتكب من سَفك الدماء ، وانتهاك المحارم ، وإخراب البلدان والأمصار ، واستحلال الفُروج والأموال ، وانتحال مالم يجعله الله له أهلًا من النبوّة والإمامة ، ويعلمه أنّ التوبة له مبسوطة ، والأمان له موجود ؛ فإنْ نَزَع عمّا هو عليه من الأمور التى يسخطها الله تعالى ، ودخل فى جماعة المسلمين ، محا ذلك ماسلَف من عظيم جرائمه ؛ وكان له به الحظّ الجزيل فى دنياه وآخرته، وأنفذ ذلك إليه مع رسول، فالتمس الرسول إيصاله إليه ،فامتنع الزَّنج من قبُول الكتاب، ومن إيصاله إلى صاحبهم، فألقى الرسول الكتاب إليهم إلقاء ، فأخذوه وأتوْا به صاحبَهم، فقرأه ولم يجب عنه بشىء ، ورجع الرّسول إلى أبى أحمد ، فأخبره . فأقام خمسة أيام متشاغلًا بعرض السفن ، وترتيب القوّاد والموالى والغلمان فيها ، وتخيّر الرماة ، وانتخابهم للمسير بها .

ثم سار فى اليوم السادس فى أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة النّاجم(٢) التى سمّاها المختارة ،من نهر أبى الخصيب فأشرف عليها ، وتأمّلها فرأى منَعتها وحَصانتها بالسُّور والخنادق المحيطة بها ، وعَوّر(٣) الطريق المؤدّى إليها ؛ وماقد أعدّ(٤) من المجانيق

---

(١) الطبرى : « ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك يوم السبت للنصف من رجب سنة سبع وستين ومائتين »

(٢) الطبرى : « فلما كان يوم الخميس سار أبو أحمد فى أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة الخبيث » .

(٣) الطبرى : « وما عور من الطرق المؤدية لها » .

(٤) الطبرى : « وأعد » .

والعرّادات[1] والقسىّ الناوكيّة ، وسائر الآلات على سُورها ، فرأى مالم ير مثله ممن تقدّم من منازِعى السلطان . ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم مااستغلَظ أمره .

ولما عاين الزّنج أبا أحمد وأصحابَه ، ارتفعت أصواتهم بما ارتجّت له الأرض ، فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنَه أبا العباس بالتقدّم إلى سور المدينة ، ورَشْق مَنْ عليه بالسهام، ففعل ودنا ، حتى ألصق شذواته بمسنّاة قصر التّاجم ، وانحاز الزنج بأسرهم إلى المواضع التى دنت منه الشذا . وتحاشدوا ، وتتابعت سهامُهم وحجارة منجنيقاتهم وعرّاداتهم ومقاليعهم ، ورمى عوامُّهم بالحجارة عن أيديهم ؛ حتى مايقع طرف ناظر على موضع إلا رأى فيه سهماً أو حجراً .

وثبت أبو العباس ، فرأى التاجم وأشياعُه من جَلَدهم واجتهادهم وصَبْرهم مالا عهدَ لهم بمثله من أحدٍ ممّن حاربهم ، وحينئذ أمر أبو أحمد ابنَه أبا العباس بالرّجوع بمن معه إلى مواقفهم ليروّحوا عن أنفسهم ، ويداووا جروحهم ، ففعلوا ذلك ، واستأمن فى هذه الحال إلى أبى أحمد مقاتلان من مقاتلة السميريّات من الزّنج ، فأتياه بسُميريّاتهما وما فيها من الملاحين والآلات ، فأمر لهما بخلَع ديباج ومناطق محلاّة بالذهب ، ووصلَهما بمال ، وأمر للملاحين بخلَع من الحرير الأحمر والأخضر الذى حسُن موقعه منهم ، وعمّهم جميعا بصِلاته ، وأمر بإدنائهم من الموضع الذى يراهم فيه نظراؤهم ؛ فكان ذلك من أنجع[2] المكايد التى كِيدَ بها صاحب الزنج ؛ فلما رأى الباقون ماصار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم رغبوا فى الأمان ، وتنافسوا فيه ، فابتدر منهم جمع كثير مسرعين نحوه ، راغبين فيما شرَع لهم منه . فأمر أبو أحمد لهم بمثل ماأمر به لأصحابه ؛ فلمّا رأى التاجم ركونَ أصحاب السميريّات إلى الأمان ، ورغبتهم فيه ، أمر بردّ من كان منهم فى دِجْلة إلى نهر أبى

---

(١) العرادة : شبه المنجنيق ؛ إلا أنها صغيرة .
(٢) الطبرى : « أنجح » .

الخصيب ، ووكّل بفوّهة النهر مَنْ يمنعهم الخروج ، وأمر بإظهار شذاوته الخاصّة، وندب لم بهبوذ بن عبد الوهاب ـ وهو من أشدّ كماته بأساً ، وأكثرهم عَدداً وعُدّة ـ فانتدب بهبوذ لذلك ؛ وخرج في جمع كثيف من الزّنج فكانت بينه وبين أبي حمزة نُصَيْر صاحب الماء وبين أبي العباس بن أبي أحمد وقعات شديدة ، في كلّها يظهر عليه أصحاب السلطان ، ثم يعود فيرتاش ويحتشد ، فيخرج فيواقعهم ، حتى صَدَقُوه الحرب ، وهزموه وألجئوه إلى فناء قصر الفاجر، وأصابته طعنتان ، وجرح بالسهام، وأوهنتْ أعضاءه الحجارة ، وأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت ، وقتِل قائد جليل معه من قُوّاد الزنج ذو بأس ونجدة ؛ وتقدُّم في الحرب ؛ يقال له عميرة .

واستأمن إلى أبي أحمد جماعة أخرى، فوصلهم وحَباهم وخَلَع عليهم ، وركب أبو أحمد في جميع جيشه وهو يومئذ في خمسين ألف رجل ، والفاجر في ثلاثمائة ألف رجل ، كلهم يقاتل ويدافع ؛ فمن ضاربٍ بسيف ، وطاعنٍ برمح ، وراممٍ بقوس ، وقاذفٍ بمقلاع ، ورام بعرّادة ومِنجَنيق ، وأضعفهم أمرُ الرماة بالحجارة عَنْ أيديهم ، وهم النظّارة المكثّرون للسّواد ، والمعينون بالنّعير والصياح ، والنساء يَشْرَكْنَهم في ذلك أيضاً، فأقام أبو أحمد بإزاء عسكر الفاجر إلى أن أضحى ، وأمر فنودى : الأمانُ مبسوطٌ للناس : أسودِهم وأحمرِهم ، إلا لعدوّ الله الدّاعي عليّ بن محمد . وأمر بسهام فعلّقت فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان ، مثل الذى نُودى به ، ووعد الناس فيها الإحسان ورمى بها إلى عسكر الفاجر ، فمالت إليه قلوب خَلق كثير من أولئك ؛ ممّن لم يكن له بصيرة في اتباع الفاجر ، فأتاه في ذلك اليوم جمع كثير يحملهم الشّذَا والسُّميريّات، فوصلهم وحَباهم، وقدم عليه قائدان من قوّاده ، وكلاهما من مواليه ببغداد ، أحدهما بكتمر والآخر بغرا[1] في جمع

---

(١) الطبري : « جعفر بن بغلاغز » .

من أصحابهما ؛ فكان ورودهما زيادةً في قوّته . ثم رحل في غدِ هذا اليوم بجميع جيشه ، فنزل متاخماً لمدينة التّاجم في موضع كان تخيّره للنزول ، فأوطن [١] هذا الموضع ، وجعله معسكراً له وأقام به ، ورتّب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم ، فجعل نُصَيْرا صاحب الماء في أول العسكر ، وجعل زيرك التركيّ في موضع آخر ، وعليّ بن جهشار حاجبه في موضع آخر ، وراشداً مولاه في مواليه وغلمانه الأتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة والزّنج والفراغنة والعجم والأكراد ، محيطاً هو وأصحابه بمضارب أبي أحمد وفساطيطه وسُرادقاته ، وجعل صاعد بن مخلد وزيرَه وكاتبه في جيش آخر من الموالي والغِلْمان ، فوق عسكر راشد ، وأنزل مسروراً البلخيّ القائد صاحب الأهواز في جيش آخر على جانب من جوانب عسكره ، وأنزل الفضلَ ومحمداً ابني موسى بن بغا في جانب آخر بجيش آخر [٢] ، وتلاهما القائد المعروف بموسى [٣] ، ولَجُّوا في جيشه وأصحابه ، وجعل بُغْراجَ التركيّ على ساقته في جيش كثيف بعدّة عظيمة ، وعدد جمّ . ورأى أبو أحمد من حال التّاجم وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم معه أنه لابدّ له من الصبر عليه ، وطول الأيام في محاصرته ، وتفريق جموعه ، وبذل الأمان لهم ، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم ، والغلظة على مَنْ أقام عَلَى غيّه منهم ، واحتاج إلى الاستكثار من الشّذا وما يحارب به في الماء ، وشرَع في بناء مدينة مماثلة لمدينة التّاجم ، وأمر بإنفاذ الرسل في حَمْل الآلات والصنّاع من البرّ والبحر ، وإنفاذ المِيَرِ والأزواد والأقوات وإيرادها إلى عسكره بالمدينة التي شرع فيها ، وسماها الموفقيّة . وكتب إلى عمّاله بالنّواحي في حَمْل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة ، وألّا يحمَل إلى بيت المال بالحضْرة درهمٌ واحد ، وأنفذ رسلا إلى سيراف وجَنّابة [٤] في بناء الشّذا

---

(١) أوطن الموضع : أقام فيه .

(٢) الطبري : « في جيشهما على النهر المعروف بهالة » .

(٣) الطبري : « موسى دالجويه » .

(٤) الطبري : « وجنابا »

والاستكثار منها لحاجته إلى أن يبثّها ويفرّقها فى المواضع التى يقطع بها الميَرة عن النّاجم وأصحابه ، وأمر بالكتاب إلى عمّاله فى إنفاذ كلّ مَنْ يصلح للإثبات والعَرْض فى الدواوين ؛ من الجند والمقاتلة ، وأقام ينتظر ذلك شهراً أو نحوه ، فوردت الميَر متتابعة ، يتلو بعضها بعضاً، ووردت الآلات والصّناع وبنيت المدينة، وجهّز التّجار صنوف التجارات فى الأمتعة ، وحملوها إليها ، واتخذت بها الأسواق ، وكثُر بها التّجار والمجهزون من كلّ بلد ، ووردت إليها مراكب من البحر ، وقد كانت انقطعت لقطع الناجم وأصحابه سُبُلَها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين ، وبنى أبو أحمد فى هذه المدينة المسجد الجامع ، وصلّى بالناس فيه واتّخذ دور الضّرب، فضرب بها الدنّانير والدراهم ، فجمعت هذه المدينة جميعَ المرافق وسيق إليها صنوف المنافع ؛ حتى كان ساكنوها لا يفقدون فيها شيئاً، مما يوجد فى الأمصار العظيمة القديمة ، وحملت الأموال وأدرّ العطاء على الناس فى أوقاته ، فاتّسعوا وحسنت أحوالهم ، ورغب الناس جميعاً فى المصير إلى هذه والمقام بها .

* * *

قال أبو جعفر: وأمر النّاجم بهبود بن عبد الوهاب، فعبر والنّاس غارّون فى سُميريّات إلى طرف عسكر أبى حمزة صاحب الماء، فأوقع به، وقتل جماعةً من أصحابه، وأسر جماعة، وأحرق أكواخاً كانت لهم، وأرسل إبراهيم بن جعفر الهَمْدانىّ — وهو من جلة قوّاد النّاجم — فى أربعة آلاف زنجىّ، ومحمد بن أبان المكنى أبا الحسين — أخا علىّ بن أبان المهلّبى — فى ثلاثة آلاف والقائد المعروف بالدّور فى ألف وخمسمائة، ليُغيروا على أطراف عسكر أبى أحمد ويُوقعوا بهم. فنذِر بهم [1] أبو العبّاس ، فنهد إليهم فى جمع كثيف من أصحابه، وكانت بينه وبينهم حروب كان الاستظهار فيها كلّها له ، واستأمن إليه جماعة منهم ، فخلع عليهم ، وأمر أن يوقفوا بإزاء مدينة النّاجم ليعاينهم أصحابُه ، وأقام أبو أحمد يكايد النّاجم ، ويبذل

---

(١) نذر : علم .

الأموال لأصحابه تارةً ، وبواقعهم ويحاربهم تارة ؛ ويقطع الميرة عنهم ، فسَرَى بهبود الزنجي في الأجلاد للمنتخبين من رجاله ليلة من الليالي ، وقد تأدّى إليه خبر قَيْرَوان[1] ورد للتجّار ، فيه صنوف التجارات والأمتعة والمِيَر ، فكمن في النخل ، فلما ورد القيروان ، خرج إلى أهله وهم غارّون ، فقتل منهم وأسر ، وأخذ ما شاء أن يأخذ من الأموال .

وقد كان أبو أحمد علم بورود ذلك القيروان ، وأنفذ قائداً من قوّاده لبَذرقته[2] في جمع خفيف ، فلم يكن لذلك القائد بهبود طاقة ، فانصرف عنه منهزماً .

فلما انتهى إلى أبي أحمد ذلك ، غلظ عليه ما نال الناس في أموالهم وتجاراتهم ، فأمر بتعويضهم . وأخلف عليهم مثل الذي ذهب منهم ، ورتّب على فوهة النهر المعروف بنهر بيان ، وهو الذي دخل القيروان فيه جيشاً قوياً لحراسته .

* * *

قال أبو جعفر : ثم أنفذ الناجم جيشاً عليه القائد المعروف بصندل الزنجيّ ، وكان صندل هذا — فيما ذكر — يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورءوسهن ويقلبهنّ تقليب الإماء ، فإن امتنعت منهنّ امرأة لطم وجهها ، ودفعها إلى بعض علوج الزّنج يواقعها ، ثم يخرجها بعد ذلك إلى سوق الرقيق فيبيعها بأوكس الثمن ، فيسّر الله تعالى قتله في وقعة جرت بينه وبين أبي العباس ، أسر وأحضِر بين يدي أبي أحمد ، فشدّه كتافاً ، ورماه بالسهام حتى هلك .

* * *

قال أبو جعفر : ثم ندب الناجم جيشاً آخر ، وأمره أن يغير على طرف من أطراف عسكر أبي أحمد وهم غارّون ، فاستأمن من ذلك الجيش زنجيّ مذكور ، يقال له مهذّب ،

---

(١) القيروان : القافلة .

(٢) البذرقة : الحراسة والخفارة .

كان من فرسان الزّنج وشجعانهم ، فأتى به إلى أبى أحمد وقت إفطاره ، فأعلمه أنه جاء راغباً فى الطاعة والأمان ، وأن الزّنج على العبور فى ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات ، وأن المندوبين لذلك أنجادُهم وأبطالُهم ، فأمر أبو أحمد أبا العباس ابنه أن ينهض إليهم فى قوّاد عيّنهم له ، فنهضوا ، فلما أحسّ ذلك الجيش بأنهم قد نذِروا بهم ، وعرفوا استئمان صاحبهم ، رجعوا إلى مدينتهم .

***

قال أبو جعفر : ثم إن الفاجر ندَب أجلّ قوّاده وأكبرهم قدْرا عنده ، وهو علىّ ابن أبان المهلبىّ ، وانتخَب له أهل البأس والجلَد ، وأمره أن يبيّت عسكر أبى أحمد ، فعبر فى زهاء خمسة آلاف رجل ، أكثرهم الزنج ، وفيهم نحو مائتى قائد من مذكوريهم وعظمائهم ، فعبَر ليلاً إلى شرقىّ دجلة ، وعزموا على أن يفترقوا قسمين : أحدهما خلف عسكر أبى أحمد والثانى أمامه ، ويغير الذين أمامه على أصحاب أبى أحمد ، فإذا ثاروا إليهم ، واستعرت الحرب ، أكبّ أولئك الذين من وراء العسكر على مَن يليهم ؛ وهم مشاغيل بحرب مَن بإزائهم . وقدّر الفاجر وعلىّ بن أبان أن يتهيأ لهما من ذلك ما أحبّا ، فاستأمن منهم إلى أبى أحمد غلام كان معهم من الملاحين ليلاً ، فأخبره خبرهم ، وما اجتمعت عليه آراؤهم ، فأمر ابنه أبا العباس والغلمان والقوّاد بالحذر والاحتياط والجدّ ، وفرّقهم فى الجهتين المذكورتين .

فلمّا رأى الزّنج أنّ تدبيرَهم قد انتقض ، وأنه قد فُطِن لهم ونُذِر بهم ، كرّوا راجعين فى الطريق الذى أقبلوا فيه ، طالبين التخلّص . فسبقهم أبو العباس وزيرك إلى فوّهة النهر ليمنعوهم من عبوره ، وأرسل أبو أحمد غلامه الأسود الزنجىّ الذى يقال له ثابت — وكان له قيادة على السودان الذين بعسكر الموفّق — فأمره أن يعترضهم ، ويقف لهم فى طريقهم

بأصحابه ، فأدركهم وهو فى خمسمائة رجل ، فواقعهم وشدّ عَضُده أبو العباس وزيرك بمن معهما ، فقتِل من الزنج أصحاب الناجم خلق كثير ، وأسِر منهم كثير ، وأفلت الباقون فلحقوا بمدينتهم ، وانصرف أبو العباس بالفتح وقد علق رءوس الزنج فى الشّذَا وصلب الأسارى أحياء فيها ، فاعترضوا بهم مدينتهم ليُرهبوا أصحابهم ، فلما رأوهم رعبوا وانكسروا . واتصل بأبى أحمد أن النّاجم مَوّه على أصحابه ، وأوهم أن الرءوس المرفوعة مُثُلٌ مثَّلها لهم أبو أحمد ليراعوا ، وأن الأسارى من المستأمنة . فأمر أبو أحمد عند ذلك بجميع الرءوس والمسير بها إلى إزاء قصر الناجم ، والقذف بهـا فى منجنيق منصوب فى سفينة إلى عسكره ، ففعل ذلك ، فلما سقطت الرءوس فى مدينتهم ، عرف أولياء القتلى رءوس أصحابهم ، فظهر بكاؤهم وصُراخهم .

***

قال أبو جعفر : وكانت لهم وقعات كثيرة بعد هذه ، فى أكثرها ينهزم الزنج ويُظفَر بهم ؛ وطلب وجوهُهم الأمان ، فكان ممن استأمن محمد بن الحارث القائد ، وإليه كان حفظ النهر المعروف بمَنكى ، والسور الذى يلى عسكر أبى أحمد ، كان خروجه ليلاً مع عدّة من أصحابه ، فوصله أبو أحمد بصِلاتٍ كثيرة ، وخلع عليه ؛ وحمله على عدّة دوابّ بحليتها وآلاتها ، وأسنى له الرزق .

وكان محمد هذا حاول إخراجَ زوجته معه ـ وهى إحدى بنات عمّه ـ فعجزت المرأة عن اللحاق به ، فأخذها الزّنج فردّوها إلى الناجم ، فحبسها مدة ، ثم أمر بإخراجها والنّداء عليها فى السوق ، فبيعت .

وممن استأمن ، القائد المعروف بأحمد البرذعى ـ كان من أشجع رجالهم ، وكان يكون أبدا مع المهلّبى .

وكان ممن استأمن مربدا[١] القائد وبرنكوية[٢] وبيلويه[٣] ، فخلعت عليهم الخلع ووصلوا بالصلات الكثيرة ، وحملوا على الخيول المحلاة ، وأحسن إلى كل من جاء معهم من أصحابهم .

* * *

قال أبو جعفر : فضاقت الميرة على الناجم وأصحابه ، فندب شبلاً القائد وأبا الندى — وهما من رؤساء قواده ، وقدماء أصحابه الذين يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم — وأمرهما بالخروج فى عشرة آلاف من الزنج وغيرهم ، والقصد إلى نهر الدير ونهر المرأة ونهر أبى الأسد ، والخروج من هذه الأنهار إلى البطيحة ، والغارة[٤] على المسلمين وأهل القرى وقطع الطرقات ، وأخذ جميع ما يقدرون عليه من الطعام والميرة وحمله إلى مدينته ، وقطعه عن الوصول إلى عسكر أبى أحمد . فندب أبو أحمد لقصدهم مولاه ازبرك فى جيش كثيف ، بعضه فى الماء ، وبعضه على الظهر ، فوافاهم فى الموضع المعروف بنهر عمر ، فكانت بينه وبينهم حرب شديدة ، أسفرت عن انكسارهم وخذلان الله لهم ، فأخذ منهم أربعمائة سفينة وأسرى كثيرين ، وأقبل بها وبهم ، وبالرءوس إلى عسكر أبى أحمد .

قال أبو جعفر : وندب أبو أحمد ابنه أبا العباس لقصد مدينة الناجم ، والعلو عليها ، فقصدها من النهر المعروف بالغربى ، وقد أعد الناجم به على بن أبان المهلبى ، فاستعرت الحرب بين الفريقين ، فأمد الناجم عليا بسليمان بن جامع فى جمع كثير من قواد الزنج ، واتصلت الحرب ، واستأمن كثير من قواد الزنج إلى أبى العباس وامتدت الحرب إلى بعد العصر ، ثم انصرف أبو العباس ، فاجتاز فى منصرفه بمدينة الناجم ، وقد انتهى إلى الموضع المعروف

---

(١) الطبرى : « مديد » .
(٢) الطبرى : « وابن أنكلويه » .
(٣) الطبرى : « ومنيته » .
(٤) الطبرى : « الغارة » .

بنهر الأتراك ، فرأى فى ذلك النهر قلة من الزّنج الذين يحرسونه ، فطمع فيهم ، فقصد نحوهم ، وصعد جماعة من أصحابه سورَ المدينة ، وعليه فريق من الزّنج ، فقتلوا مَنْ أصابوا هناك ، ونذر الناجم بهم ، فأنجدهم بقوّاد من قوّاده ، فأرسلَ أبو العباس إلى أبيه يستمدُّه ، فوافَى من عسكر أبى أحمد مَنْ خفَّ من الغلمان ، فقوِىَ بهم عسكرُ أبى العباس .

وقد كان سليمان بن جامع لما رأى أنّ أبا العباس قد أوْغَلَ فى نهر الأتراك ، صَمِد فى جمع كثير من الزّنج ، ثم استدبرَ أصحابَ أبى العباس وهم متشاغلون بحرب مَنْ بإزائهم على سور المدينة ، فخرج عليهم من ورائهم وخَفَقَتْ طبولهم ، فانكشف أصحابُ أبى العباس وحملت الزّنج عليهم من أمامهم ، فأصيب فى هذه الوقعة جماعةٌ من غلمان أبى أحمد وقوّاده ، وصار فى أيدى الزّنج عدّة أعلام ومطارد ، وحامَى أبو العباس عن نفسه حتى انصرف سالماً ، فأطمعت هذه الوقعة الزّنج وأتباعهم[1] ، وشدّت قلوبهم . فأجمع أبو أحمدَ على العبور بجيشه أجمع ، وأمر بالاستعداد والتأهّب ، فلما تهيّأ له ذلك عَبَر فى آخر ذى الحجة من سنة سبع وستين ، فى أكثف جمع ، وأكمل عُدّة ، وفرّق قوّاده على أقطار مدينة الناجم ، وقصد هو بنفسه ركناً من أركانها ، وقد كان النّاجم حصّنه بابنه الذى يقال له أنكلاى ، وكَنَفه بعلِىّ بن أبان ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمدانىّ وحفّه بالمجانيق والعرّادات[2] والقِسِىّ الناوكيّة ، وأعدّ فيه الناشبة[3] ، وجمع فيه أكثر جيشه ، فلما التقى الجمعان أمر أبو أحمد غلمانه النّاشبة والرامحة[4] والسّودان بالدنوّ من هذا

---

(١) الطبرى : « وتباعهم » .

(٢) العرادة بالتشديد : من آلات الحرب ، أصغر من المنجنيق .

(٣) الناشبة : الرماة بالنشاب ؛ والنشاب : السهام ؛ مأخوذة من النشوب .

(٤) الرامحة : الرماة بالرمح .

الركن ، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك ، وهو نهر عريض غزير الماء ، ولما انتهوا إليه أحجموا عنه ، فصيح بهم ، وحرّضوا على العبور ، فعبروه سباحةً ، والزّنج ترميهم بالمجانيق والعرّادات والمقاليع والحجارة عن الأيدى ، والسهام عن قسيّ اليد، وقسيّ الرجْل ، وصنوف الآلات التي يرمى عنها ، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوروا النهر وانتهوا إلى السور ، ولم يكن لحقهم من الفَعَلة مَنْ كان أعدّ لهدمه. فتولى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح ، ويسّر الله تعالى ذلك ، وسهلوا لأنفسهم السبيل إلى علوّه ، وحضرهم بعضُ السلالم التي كانت اتخذت لذلك ، فعلوا الركنَ ونصبوا عليه علَماً عليه مكتوب : «الموفق بالله» ، وأكبّت عليهم الزنج ، فحاربوا أشدّ حرب ، وقتل من قوّاد أبي أحمد القائد المعروف بثابت الأسود ، رُمِيَ بسهم في بطنه فمات ، وكان من جلّة القوّاد ، وأحرق أصحابُ الموفق ما على ذلك الركن من المنجنيقات والعرّادات .

وقصد أبو العباس بأصحابه جهةً أخرى من جهات المدينة ليدخلها من النهر المعروف بمَنْكى ، فعارضه علىّ بن أبان فى جمع من الزّنج ، فظهر أبو العباس عليه ، وهزمه ، وقتل قوما من أصحابه ، وأفلت علىّ بن أبان المهلّبيّ راجعا ، وانتهى أبو العباس إلى نهر مَنْكى وهو يرى أنّ المدخل من ذلك الموضع سهل ، فوصل إلى الخندق ، فوجده عريضاً منيعاً، فحمل أصحابه أن يعبروه فعبروه ، وعبرته الرجّالة سباحة ، ووافوا السور فثلَموا منه ثُلْمَةً واتسع لهم دخولها فدخلوا ، فلقى أوّلهم سليمان بن جامع وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية، فحاربوه وكشفوه ، وانتهوا إلى النهر المعروف بابن سمعان ، وهو نهر سِيق بالمدينة ، وصارت الدار المعروفة بدار ابن سمعان فى أيديهم ، فأحرقوا ما كان فيها وهدموها .

فوقفت الزّنج على نهر ابن سَمْعان ،وقوفاطويلا ودافعوا مدافعةً شديدة ،وشدّ بعض موالى الموفق على علىّ بن أبان فأدبر عنه هاربا فقبض على مئزره ، فحل على المئزر ونبذه إلى الغلام ، ونجا بعد أن أشرف على الهلكة ، وحمل أصحاب أبي أحمد على الزنج ، فكشفوهم

عن نهر ابن سمعان، حتى وافوا بهم طرَفَ المدينة، وركب النّاجم بنفسه فى جمع من خواصّه؛ فتلقّاه أصحاب الموفّق، فعرفوه وحملوا عليه، وكشفوا مَنْ كان معه حتى أفرد، وقرب منه بعضُ الرجّالة حتى ضرب وجه فرسه بتُرْسِه، وكان ذلك وقتَ غروب الشمس، وحَجَز الّليل بينهم وبينه وأظلم، وهبّت ريح شمال عاصف، وقوِىَ الجزْرُ؛ فلصق أكثر سفن الموفّق بالطين، وحرّض الناجم أصحابه، فثاب منهم جَمْعٌ كثير، فشدّوا على سفن الموفّق، فنالوا منها نيلاً، وقتلوا نفراً، وصمدبهبوذ الزنجىّ لمسرور البلخىّ بنهر الغربىّ، فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر أسرى، وصار فى يده دوابّ من دوابّهم، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق، وقد كان هرب فى هذا اليوم كثير من قوّاد صاحب الزّنج، وتفرّقوا على وجوههم نحو نهر الأمير وعبّادان وغيرها، وكان ممّن هرب ذلك اليوم منهم أخو سليمان ابن موسى الشعرانىّ محمد وعيسى، فمضيا يؤمّان البادية، حتى انتهى إليهما رجوعُ أصحاب الموفّق، وما نيل منهم، فرجعا، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا فى عسكر النّاجم، وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبى أحمد، فأمّنهم، ووجّه إليهم السفُن، وحملهم إلى الموفّقية، وخلع عليهم، وأجرى لهم الأرزاق والأنزال.

وكان ممن رغب فى الأمان من قوّاد الناجم القائد المعروف بريحان بن صالح المغربىّ، وكانت له رياسة وقيادة، وكان يتولّى حجبة أنكلانىّ بن الناجم[1]. فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفذ إليه عدد كثير من الشّذَا والشّميريّات والمعابر مع لزيرك القائد، صاحب مقدّمة أبى العباس؛ فسلك نهر اليهودىّ إلى آخره، فألفَىَ به ريحان القائد ومَنْ كان معه من أصحابه، وقد كان الموعد تقدّم منه فى موافاة ذلك الموضع. فسار لزيرك به وبهم إلى دار الموفّق، فأمر لريحان بخلع جليلة،

(١) الطبرى: «ابن الخبيث المعروف بأنكلاى».

وحِمل على عدّة أفراس بآلتها وحليتها ، وأجيز بجائزة سنيّة ، وخَلَع على أصحابه ، وأجيزوا على أقدارهم ومراتبهم ، وضمّ ريحان إلى أبى العباس ، وأمر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار التاجم ، فوقفوا هنالك فى الشَّذَا ؛ عليهم الخلع الملوّنة بصنوف الألوان والذهب حتى عاينوهم مشاهدة ، فاستأمن فى هـذا اليوم من أصحاب زُيحان الذين كانوا تخلّفوا عنه ومن غيرهم جماعة ، فألحقوا فى البرّ والإحسان بأصحابهم [(١)] .

***

ثم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسَّجّان فى أول يوم من سـنة ثمان وستين ومائتين ، وكان أحدَ ثقات الخاجم ، ففعل به من الخلَع والإحسان مافعل بريحان ، وحُمِل فى سُميرية حتى وقف بإزاء قصر الخاجم ؛ حتى رآه أصحابه ، وكلّمهم وأخبرهم أنهم فى غرورٍ من صاحبهم ، وأعلمهم ماوقف عليـه من كذبه وفجوره ؛ فاستأمن فى هـذا اليوم خلقٌ كثير من قوّاد الزنج وغـيرهم ، وتتابع النّاس فى طلب الأمان ، وأقام أبو أحـمد يُجِمّ أصحابَه ، ويُداوِى جراحهم ، ولا يحارب ولا يعبُر إلى الزّنج إلى شهر ربيع الآخر .

ثم عبر جيشه فى هذا الشهر المذكور مرتّبا على ما استصلحه من تفريقه فى جهاتٍ مختلفة ، وأمرهم بهدْم سور المدينة ، وتقدّم إليهم أن يقتصرُوا على الهدْم ، ولا يدخلوا المدينة ، ووكّلَ بكلّ ناحية من النواحى التى وجّه إليها قوّاده سفناً فيها الرّماة ، وأمرهم أن يحمُوا بالسهام من يهدِم السّور من الفَعَلة ، فثلمت فى هذا اليوم من السور ثُلَمٌ كثيرة ، واقتحم أصحاب أبى أحمد المدينة من جميع تلك الثُّلَم وهزموا مَنْ كان عليها من الزّنج ، وأوْغلوا فى طلَبهم ، واختلفت بهم طرق المدينـة ، وتفرّقت بهم السّـكك والفِجاج ،

---

(١) فى الطبرى بعدها : « وكان خروج ريحان بعد الوقعة التى كانت يوم الأربعاء فى يوم الأحد لليلة بقيت من ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين » .

وانتهوا إلى أبعد من المواضع التي كانوا وصلوا إليها في المرّة التي قبلها، فتراجعت إليهم الزّنج، وخرج عليهم كمناؤهم من نواحٍ يهتدون إليها، ولا يعرفها جيش أبي أحمد. فتحيّر جيش أبي أحمد، فقتِل منهم خلق كثير، وأصاب الزّنج منهم أسلحة وأسلابا؛ وأقام ثلاثون ديلميًّا من أصحاب أبي أحمد يُدافعون عن النّاس ويحمونهم، حتى خَلَص إلى السفن مَنْ خَلَص، وقتلت الديالمة عن آخرها، وعظُم على الناس ما أصابهم في هذا اليوم، وانصرف أبو أحمد إلى مدينته الموفّقيّة، فجمع قوّاده، وعَذَلهم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والإفساد عليه في رأيه وتدبيره، وتوعّدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لمثل ذلك، وأمر بإحصاء المقتولين[1] من أصحابه، فأتِيَ بأسمائهم، فأقرّ ما كان جاريًا لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسُن موقع ذلك، وزاد في صحة نيّات أصحابه، لما رأوا من حياطته خلف مَنْ أصيب في طاعته.

قال أبو جعفر: وشرع أبو أحمد في قطع المِيرة عن مدينة الخبيث من جميع الجهات، وقد كان يجلَب إليهم من السّمك الشيء العظيم من مواضع كثيرة، فمنع ذلك عنهم، وقتِل القومُ الّذين كانوا يجلبونه، وأخذت عليهم الطّرق، وسدّ عليهم كلّ مسلكٍ كان لهم، وأضرّ بهم الحصار، وأضعف أبدانهم وطالت المدّة، فكان الأسير منهم يؤسَر، والمستأمِن يستأمِن؛ فيُسأل عن عهده بالخبز[2]، فيقول: مذ سنة أو سنتين! واحتاج مَنْ كان منهم مقيما في مدينة الخبيث إلى الحيلة لقوّته، فتفرقوا في الأنهار النائية عن عسكرهم طلبا للقوت، وكثُرت الأسارى منهم في عسكر أبي أحمد؛ لأنه كان يلتقطهم بأصحابه يوما فيوما، فأمر باعتراضهم[3] لمّا رأى كثرتهم، فمَنْ كان منهم ذا قوّة وجَلَدٍ ونهوضٍ بالسّلاح منّ عليه، وأحسن إليه، وخلطه بغلمانه السّودان، وعرّفهم مالهم عنده من البرّ والإحسان ومَنْ كان منهم ضعيفا لا حراك به، أو شيخًا فانيا لا يُطيق حمل السلاح، أو مجروحا جراحة قد أزمنته، أمرَ بأن يكسَى ثوبين، ويوصَل بدارهم، ويزوّد ويحمل إلى عسكر

(١) الطبري: «للمقتولين».

(٢) في الأصول: «بالخبر»، والصواب ما أثبته من الطبري.

(٣) د: «بعرضهم».

الفاجر ، فيلقى هناك بعد أن يوصى[1] بوصف ماعاين من إحسان أبى أحمد إلى كلّ مَنْ يصير إليه ، وأنّ ذلك رأيه فى جميع مَنْ يأتيه مستأمنا ، أو يأسره ، فتهيّأ له بذلك ماأراد من استمالة الزّنج ؛ حتى استشعروا الميلَ إلى ناحيته ، والدخولَ فى سِلْمه وطاعته .

***

قال أبو جعفر : ثم كانت الوقعة التى قُتِل فيها بهبوذ[2] الزنجى القائد وجرح أبو العباس ، وذلك أن بهبوذ كان أ كثرَ أصحاب الفاجر غاراتٍ ، وأشدّهم تعرّضا لقطع السُّبل ، وأخْذ الأموال ، وكان قد جمع من ذلك لنفسه مالًا جليلا ، وكان كثير الخروج فى السُّميريّات الخفاف ، فيخترق بها الأنهار المؤدّية إلى دَجْلة ، فإذا صادف سفينةً لأصحاب أبى أحمد أخذَها واستولَى على أهلها ، وأدخلها النّهر الذى خرج منه ، فإنْ تبعه تابع حتى توغّل فى طلبه ، خرج عليه من ذلك النّهر قومٌ من أصحابه ، قد أعدّهم لذلك ، فأقطعوه وأوقعوا به . فوقع التحرُّز حينئذمنه ، والاستعداد لغاراته ، فركب شذاةً ، وشبّهها بشذوات أبى أحمد ، ونصب عليها علماً مثل أعلامه ، وسار بها ومعه كثير من الزّنج ، فأوقع بكثير من أصحاب أبى أحمد ، وقتَل وأسر . فندَب له أبو أحمد ابنَه أبا العباس فى جمعٍ كثيف ، فكانت بينهما وَقْعةٌ شديدة ، ورُمِى فيها أبو العباس بسهمٍ فأصابه ، وأصابت بهبوذ طعنةٌ فى بطنه من يدِ غلام من بعض سُميريّات أبى العباس ، فهوَى إلى الماء ، فابتدره أصحابه ، فحملوه ورجعوا به إلى عسكر الفاجر ، فلم يصلوا به إلّا وهو ميت ، فعظمت الفجيعة به على الفاجر وأوليائه ، واشتدّ عليه جزعهم ، وخفىَ موته على أبى أحمد ؛ حتى استأمن إليه رجلٌ من الملاحين ، فأخبره بذلك ؛ فسرّ ، وأمر بإحضار الغلام الذى طعنه ، فوصله وكساه وطوّقه ، وزاد فى رزقه . وأمر لجميع مَنْ كان فى تلك السُّميريّة بصِلات وخِلعَ ، وعولج أبو العباس مِنْ جُرْحِه مدّة حتى برأ ، وأقام أبو أحمد فى مدينته الموفّقية ممسِكاً عن حرب الزّنج ، محاصرا لم

---

(١) الطبرى : « يؤمر » .

(٢) الطبرى : « بهبوذ بن عبد الوهاب » .

بسدّ الأنهار وسَكْرها ، واعترض من يخرج منهم لجلب الميرة ، ومنتظرا برء ولده؛ حتى كَمَل بعد شهور كثيرة ، وانقضت سنة ثمان وستين .

ونُقل إسحاق بن كنداجيق عن البصرة وأعمالها ؛ فوُلِّى الموصلَ والجزيرة وديار ربيعة وديار مُضر .

ودخلت سنة تسع وستين وأبو أحمد مقيمٌ على الحصار ، فلما أمِنَ على أبى العباس ، وركب على عادته ، عاود النهوضَ إلى حرب النّاجم .

* * *

قال أبو جعفر : وقد كان بهبوذ لَمّا هلك طمِعَ الناجم فى أمواله لكثرتها ووفورها، وصحّ عنده أنه تركَ مائتى ألف دينار عيناً ، ومن الجواهر وغيرها بمثل ذلك،فطلب المالَ المذكور بكلّ حيلة ،وحبَسَ أولياء بهبوذ وقرابته وأصحابَه، وضربهم بالسياط ،وأثار دوراً من دوره، وهدم أبنيةً من أبنيته ؛ طمعاً فى أن يجد فى شيءٍ منها دفينا ؛ فلم يجد من ذلك شيئا؛ فكان فعله هذا أحدَ ما أفسدَ قلوب أصحابه عليه، ودعاهم إلى الهرب[1] منه، والزهد فى صحبته، فاستأمَن منهم إلى أبى أحمد خلقٌ كثير ، فوصَلَهم وخلع عليهم ، ورأى أن يعبُر دِجلة من الجانب الشرقىّ إلى الجانب الغربىّ ، فيجعل لنفسه هناك معسكرا ، ويبنى به مدينةً أخرى، ويضيق خناق الناجم ، ويتمكّن من معاداته ومراوحته بالحرب ، فقد كانت الريح العاصف تحولُ بينه وبين عبور دَجْلة فى كثير من الأيام بالجيش ؛ فأمر بقطع النخل المقارب لمدينة النّاجم لذلك ، وإصلاح موضع يتخذه معسكراً ، وأن يحفّ بالخنادق ، ويحصر بالسور ليأمن بيَات الزّنج ، وجعل على قوّاده نوائبَ لذلك ، ومعهم الفعلة والرجال،فقابل الناجم ذلك ؛ بأن جعلَ علىّ بن أبان المهلبى وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانى نُوَباً للحرب والمدافعة عن ذلك ؛ وكان أنكلاىّ بن الناجم ربّما حضر فى نَوْبة أيضا ، وضمّ

---

(١) الطبرى : « الهرب » .

إليه سليمان بن موسى بن الشعرانى ، وقد كان صار إليه من المذار بعد الوقعة التى انهزم فيها ، وعلم الناجم أن أبا أحمد إذا جاوره صعب أمره ، وقرب على من يريد اللحاق به من الزنج المسافة مع مايدخل قلوب أصحابه بمجاورته من الرعب والرهبة ، وفى ذلك انتقاض تدبيره ، وفساد جميع أموره ؛ فكانت الحرب بين قواد أبى أحمد وقواد الناجم متصلة ؛ على إصلاح هذا الموضع ، ومدافعة الزنج عنه .

واتفق أن عصفت الرياح يوما وجماعة من قواد أبى أحمد بالجانب الغربى للعمل الذى يريدونه ، فانتهز الناجم الفرصة فى امتناع العبور بدجلة ، لعصف الريح ، فرماهم بجميع جيشه ، وكاثرهم برجله ، فلم تجد الشذوات التى مع قواد أبى أحمد سبيلا إلى الوقوف بحيث كانت واقفة به ، لحمل الرياح إياها على الحجارة ، وخوف[1] أصحابها عليها من التكسر ، ولم يجدوا سبيلاً إلى العبور فى دجلة ، لشدة الريح واضطراب الأمواج ، فأوقعت الزنج بهم ، فقتلوهم عن آخرهم ، وأفلت منهم نفر ، فعبروا إلى الموفقية ، فاشتد جزع أبى أحمد وأصحابه لما نالهم .

ولما تهيأ للزنج عليهم ، وعظم بذلك اهتمامهم . وتعقب أبو أحمد الرأى ، فرأى أن نزوله ومقامه بالجانب الغربى ، بجاور مدينة الناجم خطأ ، وأنه لا يؤمن منه حيلة ، وانتهاز فرصة ، فيوقع بالعسكر بياتا ، أو يجد مساغاً إلى[2] مايكون له قوة ، لكثرة الأدغال فى ذلك الموضع ، وصعوبة المسالك ، وإن الزنج على التوغل فى تلك المواضع الوعرة الموحشة أقدر وهو عليهم أسهل من أصحابه ؛ فانصرف عن رأيه فى نزول الجانب الغربى[3] ، وصرف همه وقصده

---

(١) الطبرى : « وما خاف » .
(٢) الطبرى : « إلى شىء مما يكون » .
(٣) الطبرى : « غربى دجلة » .

إلى هدم سور مدينة الناجم ، وتوسعة الطريق والمسالك لأصحابه فى دخولها؛ فندب القوّاد لذلك ، وندب الناجم قوّاده للمدافعة عنها ، وطال الأمَد ، وتمادت الأيام .

فلما رأى أبو أحمد تحاشُد الزّنج وتعاونَهم على المنع من هدم السُّور، أزمع على مباشرة ذلك بنفسه ، وحضوره إياه ، ليستدعىَ بذلك جِدّ أصحابه واجتهادهم، ويزيد فى عنايتهم وهِمَمِهم ، فحضر بنفسه ، واتّصلت الحرب ، وغلُظت على الفريقين ، وكثر القتل والجراح فى الحزبين ، وأقام أبو أحمد أياماً كثيرة يُغاديهم الحرب ويراوحهم، فكانوا لا يفترُون يوماً من الأيام ، وصعُب على أصحاب أبى أحمد ما كانوا يرومونه ، واشتدّت حماية الزّنج عن مدينتهم ، وباشر النّاجم الحرب بنفسه، ومعه نخبة أصحابه وأبطالهم، والموطّنون أنفسَهم على الصّبر معه ، فحاموا جهدَهم، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحداً منهم السّهم أو الطعنة أو الضّربة فيسقط ، فيجذبه الّذى إلى جانبه، فينحّيه، ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخلُوَ موقفُ رجلٍ منهم ، فيدخِل الخللَ عليهم .

واتفق فى بعض الأيّام شدّة ضباب ستر بعضَ الناس عن بعض؛ فما يكاد الرجل يبصر صاحبه ، وظهر أصحاب أبى أحمد ، ولاحتْ تباشيرُ الفتح ، ودخل الجندُ إلى المدينة وولجوها ، وملكوا مواضع منها ؛ وإنّهم لعلى ذلك ؛ حتى وصل سهم من سهام الزّنج إلى أبى أحمد؛ رماه به رومىّ كان مع الناجم، يقال له قِرْطاس؛ فأصابه فى صدره وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين. فستر أبو أحمد وخواصّه ما ناله من ذلك عن الناس ، وانصرف إلى الموفّقية آخرَ نهار يومه هذا، فعولج فى ليلته تلك وشدّت الجراحة، وغدا على الحرب على ما ناله من ألمها ليشدّ بذلك قلوبَ أصحابه من أن يدخلها وهنٌ أو ضعف ، فزاد فى قوّة علّته ، بما حمل على نفسه من الحركة ، فغلظت وعظم أمرها، حتى خيف عليه العَطَب ، واحتاج إلى علاج نفسه بأعظم ما يعالَج به الجراح ؛ واضطرب لذلك

العسكرُ والجند والرعيّة؛ وخافوا قوّة الزّنج عليهم؛ حتى خرج عن الموفّقيّة جماعة من التجّار كانوا مقيمين بها لما وصل إلى قلوبهم من الرهبة .

***

قال أبو جعفر: وحُدِّثت على أبى أحمد فى حال صعوبة علّته، حادثة فى سلطانه وأمور متعلّقة بما بينه وبين أخيه المعتمد، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرّحلة عن معسكره إلى بغداد ، وأن يخلّف مَنْ يقوم مقامه، فأبى ذلك، وحاذر أن يكون فيه تلافى ماقد فرّق من شمل صاحب الزّنج ؛ فأقام على صعوبة علّته، وغلظ الأمر الحادث فى سلطانه وصبر إلى أن عُوفِىَ ، فظهر لقوّاده وخاصّته ؛ وقد كان أطال الاحتجابَ عنهم ، فقويتْ بِرؤيته مُنّتُهم، وأقام متماثلاً مودّعا نفسه إلى شعبان من هذه السنة ؛ فلما أبَلّ وقوِىَ على الركوب والنهوض ، نهض وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب، وجعل النّاجم لما صحّ عنده الخبر بما أصاب أبا أحمد يَعِدُ أصحابَه المِدَات، ويمنيهم الأمانىّ ، واشتدّت شوكتهم، وقويتْ آمالهم ، فلما اتّصل به ظهور أبى أحمد ، جعل يحلِف للزّنج على منبره ، أنّ ذلك باطل لا أصلَ له ، وأنّ الذى رأوْه فى الشّذا مثالٌ مُوِّه وشُبِّه عليهم .

***

قلت : الحادث الذى حدث على أبى أحمد من جهة سلطانه ، أنّ أخاه المعتمد ؛ وهو الخليفة يومئذ ، فارقَ دار ملكه ، ومستقرّ خلافته مغاضباً له متجنّيا عليه، زاعما أنه مستبدٌّ بأموال المملكة وجبايتها ، مضطهدله مستأثر عليه ، فكاتب ابن طولون صاحب مصر، وسأله أن يأذَنَ له فى اللّحاق به، فأجابه ابنُ طولون إلى ذلك، فخرج من سامُرّاء فى جماعة من قوّاده ومواليه، قاصداً مصر. وكان أبو أحمد هو الخليفة فى المعنى؛ وإنّما المعتمد صورةٌ

خالية من معاني الخلافة ، لا أمرَ له ولا نهي ، ولا حلّ ولا عَقْد ، وأبو أحمد هو الذى يرتّب الوزراء والكتّاب ، ويقوّد القوّاد ، ويقطع الأقطاع، ولا يراجع المعتمدَ فى شيء من الأمور أصلا ، فاتّصل به خبر المعتمد فى شخوصه عن سامُرّاء ، وقصده ابن طولون ، فكاتب إسحاق بن كنداجيق وهو يومئذ على الموصل والجزيرة،فأمره أن يعترضَ المعتمد؛ ويقبض عليه وعلى القوّاد والموالى الذين معه ويعيدَهم إلى سامُرّاء،وكتب لإسحاق بإقطاعه ضِياع أولئك القوّاد والموالى بأجمعهم، فاعترضهم إسحاق ، وقد قرُبوا من الرّقة،فأخذهم وقبض عليهم،وقيّدهم بالقيود الثقيلة،ودخل على المعتمد فعنّفه،وهجّنه وعَذَله فى شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه،ومفارقة أخيه على الحال التى هو بها،وحرب مَنْ يحاول قتلَه، وقتلَ أهلِ بيته وزوال ملكهم .

ثم حلهم فى قيودهم حتى وافى بهم سامراء ، فأقرّ المعتمد على خلافته ، ومنعه عن الخروج،وأرسل أبو أحمد ابنَه هارون،وكاتبه صاعد بن مخلد من الموفقيّة إلى سامراء فخلعا على ابن كنداجيق ، خِلعاً جليلة ، وقلَّد بسيفين من ذهب ؛ ولُقّب ذا السيفين؛وهو أول مَنْ قُلّد بسيفين ، ثم خلع عليه بعد ذلك بيوم قباء دِيباج أسود ، ووِشاحين مرصّعين بالجوهر الثمين،وتوّج بتاج من ذهب مرصع بنفيس الجوهر،وقلّد سيفا من ذهب مرصّع بالجواهر العظيمة ، وشيّعه إلى منزله هارون وصاعد،وقعدا على طعامه ؛ كلّ ذلك مكافأةً له عن صنيعه فى أمر المعتمد. فليعجب المتعجّب من همّة الموفق أبى أحمد ، وقوّة نفسه،وشدّة شكيمته ! أن يكون بإزاء ذلك العدوّ،ويقتل من أصحابه كلّ وقتٍ مَنْ يقتل،ثم يصاب ولده بسهم ، ويصاب هو بسهم آخر فى صدره يشارف منه على الموت ، ويحدث من أخيه وهو الخليفة مايحدُث ، ولا تنكسِر نفسه ولا يَهِي عزمُه ، ولا تضعف قوّته . ويحقّ

ما سُمّيَ المنصورَ الثانى ! ولولا قيامُه فى حرب الزّنج ، لانقرض مُلْك أهلِ بيته؛ ولكنّ الله تعالى ثبّته لما يريده من بقاء هذه الدولة .

***

قال أبو جعفر : ثم جدّ الموفّق فى تخريب السّور ، وإحراق المدينة ، وجدّ الناجم فى إعداد المقاتلة والمحاطة عن سُورِه ومدينته، فكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجلّ عن الوصف ، ورمى النّاجم سفنَ الموفّق المقاربة لسور مدينته بالرّصاص المذاب ، والمجانيق والعرّادات، وأمر أبو أحمد بإعداد ظلّة[1] من خشب [الشذا[2]] وإلباسها جلودَ الجواميس، وتغطية ذلك بالخيوش المطلّية بصنوف العقاقير والأدوية التى تمنع النار من الإحراق، ففعل ذلك، وحُورب صاحب الزّنج من تحتها، فلم تعمل نارُه ورصاصُه المذاب فيها شيئا، واستأمن إلى أبى أحمد محمدُ بن سمعان ، كاتب الناجم ووزيره فى شعبان من هذه السنة، فهدّ باستئمانه أركانَ الناجم ، وأضعف قوّته ، وانتدب أبو العباس لقصد دار محمد بن يحيى الكرنبائىّ؛ وكانت بإزاء دار الناجم ، وشرع فى الحيلة فى إحراقها ، وأحرق الموفّق كثيرا من الرواشين[3] المطلّة على سور المدينة وشعثها، وعلا غلمانُ أبى أحمد على دار النّاجم وولجوها وانتهبوها ، وأضرموا النّار فيها ، وفعل أبو العباس بدار الكرنبائىّ مثلَ ذلك، وجرح أنكلاى بن النّاجم فى بطنه جراحة شديدة ، أشفى منها على التّلف ، واتّفق مع هذا الظفر العظيم أن غرِق أبو حمزة نُصَيْر صاحب جيش الماء عند ازدحام الشّذَوات وإكباب الزّنج على الحرب، فصعُب ذلك على أبى أحمد، وقوِىَ بغرقه أمر الزّنج، وانصرف أبو أحمد

---

(١) الطبرى : «ظلال » ؛ وهما اسم جمع ؛ واحدهما ظلة ،بالضم .

(٢) من الطبرى .

(٣) : جمع روشن ؛ وهو الكوة .

آخر نهار هذا اليوم ، وعَرَضت له عِلّة أقام فيها بقيّة شعبان وشهر رمضان ، وأيّاما من شوال ممسِكاً عن حَرْب الزّنج ، إلى أن استبلّ من علته .

* * *

قال أبو جعفر: فلما أحرقت دار الفاجر ودُور أصحابه ، وشارف أن يؤخذ ، وعرضت لأبى أحد هذه العلّة، فأمسك فيها عن الحرب ، انتقل الفاجر من مدينته التى بناها بغربىّ نهر أبى الخصيب إلى شرقيّه إلى منزل وَعْرٍ لايخلُص إليه أحد لاشتباك القَصب والأدغال والأحطاب فيه ، وعليه خنادق من أنهار قاطعة معترضة ، فقطن هناك فى خواصّه ومَنْ تخلّف معه من جلّة أصحابه وثقاته ، ومَنْ بقى فى نُصْرته من الزّنج ؛ وهم حدود عشرين ألف مقاتل ، وانقطعت المِيرَة عنهم ، وبان للناس ضعف أمرهم ، فتأخرّ الجلَب الذى كان يصل إليهم ، فبلغ الرطل من خبز البُرّ عندهم عشرة دراهم ، فأكلوا الشعير ، ثم أكلوا أصناف الحبوب ؛ ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتتبّعون الناس ؛ فإذا خلا أحدٌ منهم بصبىّ أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه . ثم صار قوىّ الزّنج يعدُو على ضعيفهم ، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه ، ثم ذبحوا أولادَهم ، فأكلوا لحومَهم ، وكان الفاجر لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئا من ذلك إلا بالحبس ، وإذا تطاول حبسُه أطلقه .

ولما أبل الموفّق من علته ، وعلم انتقال الفاجر إلى شرق نهر أبى الخصيب واعتصامه به ، أعمل فكرَه فى تخريب الجانب الشرقىّ عليه ، كما فعل بالجانب الغربىّ ، ليتمكّن من قتله أو أسره ؛ فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدَّحال(١) وسدّ الأنهار ، وطمّ الخنادق ، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار للبنية، وإدخال الشّذَا؛ وفيها المقاتلة إلى حريم الفاجر ؛ وفى كلّ ذلك يدافع الزّنجُ عن أنفسهم بحريب شديدة ، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس ، وتُراق فيها الدماء ، وكان الظّفر فى ذلك كلّه لأبى أحمد ، وأمر الزّنج يزداد ضعفا

---

(١) الدحال : جمع دحل ، وهو النقب الضيق الأعلى الواسع الأسفل ؛ يمكن أن يمشى فيه .

وطالت الأيام على ذلك ؛ إلى أن استأمن سليمان بن موسى الشعرانيّ ، وهو من عظمائهم، وقد تقدّم ذكره ، فوجّه يطلب الأمان من أبي أحمد ، فمنعه ذلك لما كان سَلَفَ منه من العَيْثِ وسفك الدماء بنواحي وسِط .

ثم اتّصل بأبي أحمد أنّ جماعةً من رؤساء الزّنج قد استوحشوا لمنعه الشّعرانيّ من الأمان ، فأجاب إلى إعطائه الأمان استصلاحا بذلك غيرَه من رؤساء الزّنج ، وأمر بتوجيه الشَّذا إلى موضِع وَقَعَ الميعاد عليه، فخرج سليمان الشعرانيّ وأخوه، وجماعة من قوّاده، فنزلوا الشَّذا ، فصاروا إلى أبي العباس ، فحملهم إلى أبي أحمد ، فخلع على سليمان ومَنْ معه ، وحمله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها، وأنزل له ولأصحابه أنزالًا سنيّة ، ووصله بمال جليل، ووصل أصحابه، وضمّه وضمّهم إلى أبي العباس، وأمر بإظهاره وإظهارهم في الشّذا لأصحاب النّاجم ، ليزدادوا ثقة بأمانته ، فلم تبرح الشّذا ذلك اليوم من موضعها ؛ حتى استأمن جمع كثير من قواد الزّنج ، فوصلوا وألحقوا بإخوانهم في الحِباء والبِرّ والخلع ، والجوائز ؛ فلما استأمن الشعرانيّ اختلّ ما كان النّاجم قد ضبطه به من مؤخر عسكره ، وقد كان جمله على مؤخر نهر أبي الخصيب ، فوهَى أمره وضعف ، وقلّدما كان سليمان يتولّاه القائد المعروف بشبل بن سالم — وهو من قوّادهم المشهورين — فلم يمسِ أبو أحمد حتى وافاه رسول شِبْل ابن سالم يطلب الأمان ، ويسأل أن يوقف له شَذَوات عند دار ابن سمعان ؛ ليكون قصده في الليل إليها، ومعه مَنْ يثقُ به من أصحابه ، فأجيب إلى سؤاله ، ووافى آخر الليل ومعه عياله وولده ، وجماعة من قُوّاده ، فصاروا إلى أبي أحمد ، فوصَله بصِلةٍ جليلة ، وخلعَ عليه خِلَعًا كثيرة ، وحمله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها ، ووصل أصحابه ، وخلَع عليهم، وأحسن إليهم؛ وأرسله في الشّذَوات، فوقفوا بحيث يراهم النّاجم وأصحابه نهاراً ، فعظُم ذلك عليه وعلى أوليائه، وأخلص شبل في مناصحة أبي أحمد ، فسأل أنْ يضمّ إليه عسكرا يبيت به عسكر النّاجم ، ويسلك إليه مِنْ مسالكَ يعرفها هو ولا يعرفها أصحاب أبي أحمد، ففعل

وكَبَس عسكر التّاجم سَحَراً ، فأوقع بهم وهم غارّون؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جمْعاً من قوّاد الزّنج وانصرف بهم إلى الموفّق، وذُعر الزّنج من شبل وما فعله ، فامتنعوا من النّوم ، وخافوا خوفاً شديدا ، فكانوا يتحارسون بعد ذلك فى كلّ ليلة ، ولا تزال النَّفْرة تقع فى عسكرهم ، لما استشعروا من الخوف ، ووصل إلى قلوبهم من الوحشة ؛ حتى لقد كان ضَجيجُهم وتحارُسهم يسمع بالموفّقية .

وصحّ عزم الموفّق على العبور لمحاربة التاجم فى الجانب الشرقىّ من نهر أبى الخصيب، فجلس مجلسا عاما، وأمر بإحضار قوّاد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجّالتهم من الزّنج والبيضان فأدخلوا إليه ، فخطبهم وعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك المحارم، وما كان صاحبهم زيّنه لهم من معاصى الله سبحانه ؛ وأنّ ذلك قد كان أحلّ له دماءهم ،وأنه قد غفر الزّلة وعفا عن العقوبة ، وبذل الأمان ، وعاد على من لجأ إليه بالفضل والإحسان. فأجزل الصِّلاتِ ، وأسنى الأرزاق ، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة ، وأنّ ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقّه وطاعته ، وأنهم لن يأتوا بشىء يتعرّضون به لطاعة ربّهم ، والاستدعاء لرضا سلطانهم أولَى بهم من الجدّ فى مجاهدة التاجم وأصحابه، وأنّهم من الخبرة بمسالك عسكر التّاجم ومضايق طرق مدينته، والمعاقل التى أعدّها للحرب على ماليس عليه من غيرهم ؛فهم أحرى أن يمحَضُوه نصحَهم ، ويجهدوا على الولوج إلى التاجم ، والتوغّل إليه فى حصونه ؛ حتى يمكّنهم الله منه ومن أشياعه ،فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد ، ومن قصّر منهم استدعى من سلطانه إسقاط حاله ، وتصغيرَ منزلته ووضعَ مرتبته .

فارتفعت أصواتهم جميعا بالدّعاء للموفّق والإقرار بإحسانه ، وبما هم عليه من صحّة الضمائر من السَّمْع والطاعة والجدّ فى مجاهدة عدوّه ، وبذل دمائهم ومُهَجهم فى كلّ مايقرّبهم منه ، وأنّ مادعاهم إليه قد قوّى مِنّتهم ، ودلّهم على ثقته بهم ، وإحلاله إياهم

على أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحيةً ، ولا يخلطهم بعسكره ، ليظهر من حُسْن جهادهم بين يديه ؛ وخلوص نيّاتهم فى الحرب ، ونكايتهم فى العدوّ ومايعرف بهطاعتهم، وإقلاعهم عمّا كانوا عليه من جهلهم .

فأجابهم إلى ذلك ، وعرّفهم حسنَ ماظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد .

***

قال أبو جعفر: ثم استعدّ أبو أحمد ورتّب جيشه ؛ ودخل إلى عسكر النّاجم بشرقىّ نهر أبى الخصيب فى خمسين ألف مقاتل ، من البرّ والبحر ، فرسانا ورجّالة ، يكبّرون ويهلّلون ويقرءون القرآن ، ولهم ضجيج وأصوات هائلة . فرأى الناجم منهم ما هاله وتلقّاهم بنفسه وجيشه ؛ وذلك فى ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين .

واشتبكت الحرب ، وكثر القتل والجراح ، وحامَى الزّنج عن صاحبهم وأنفسهم أشد محاماة ، واستماتوا ، وصبر أصحاب أبى أحمد ،وصدقوا القتال، فمنّ اللهعليهم بالنصر،وانهزم الزّنج ، وقتِل منهم خَلقٌ عظيم ، وأسِر منهم أسرى كثيرة ؛ فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى فى المعركة ، وقصد بنفسه دار النّاجم ، فوافاها وقد لجأ الناجم إليها ؛ ومعه أنجاد أصحابه للمدافعة عنه .

فلما لم يغنُوا شيئا أسلوها ، وتفرّقوا عنها ، ودخلها غلمان الموفّق، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث ، فأخذوه وانتهبوه، وأخذوا حُرَمه وولده الذكور والإناث؛وتخلّص الناجم بنفسه ، ومضى هاربا نحو دار علىّ بن أبان المهلبىّ ، لا يلوِى على أهل ولا ولدٍ ولا مالٍ ، وأحرقت دارُه ،وحمل أولاده ونساؤه إلى الموفّقية فى التوكيل ،وقصدأصحاب أبى أحمد دار المهلبىّ ،وقد لجأ إليها الناجم وأكثر الزّنج ، وتشاغل أصحاب أبى أحمد بنهب

الأموال من دور الزنج ، فاغتنم الفاجم تشاغلَهم بالنهب ، فأمر قوّاده بانتهاز الفرصة ، والإكباب عليهم ، فخرجوا عليهم من عدّة مواضع ، وخرج عليهم كمناء أيضا قد كانوا كنوهم لهم ، فكشفوهم واتبعوهم حتى وافوا بهم نهر أبي الخصيب ، فقتلوا من فُرسانهم ورجّالتهم جماعة ، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع .

ثم تراجع النّاس ، ودامت الحرب إلى وقت العصر ، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرِفَ أصحابه ، فأمرهم بالرّجوع فرجعوا على هدوء وسكون ، كي لا تكون هزيمة ، حتى دخلوا سفنهم ، وأحجم الزنج عن اتباعهم ، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مراكزهم .

قال أبو جعفر : ووافَى إلى أبي أحمد في هذا الشهر كاتبُه صاعد بن مخلد من سامَرّاء في عشرة آلاف ، ووافَى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون - وكان إليه أمرُ الرّقة وديار مُضَر - في عشرة آلاف من نُخبة الفرسان وأنجادهم ، فأمر أبو أحمد لؤلؤا أن يخرج في عسكره فيحارب الزنج ، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبي أحمد مَنْ يدلّه على الطرق والمضايق ؛ فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة في ذي الحجّة من هذه السنة ؛ استظهر فيها لؤلؤ عليهم ؛ وبان مِن نجدته وشجاعته وإقدام أصحابه ، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ما سرّ أبا أحمد وملأ قلبه .

* * *

قال أبو جعفر : فلما دخلت سنة سبعين ومائتين ، تتابعت الأمداد إلى أبي أحمد من سائر الجهات ، فوصل إليه أحمدُ بن دينار في جَمْع عظيم من المطوّعة ، من كُور الأهواز ونواحيها ، وقدِم بعده من أهل البحرين جمعٌ كثير من المطوّعة زُهاء ألفَيْ رجل ، يقودهم رجلٌ من عبد القيس ، وورد بعد ذلك زُهاء ألف رجل من فارس ، ورئيسهم شيخ من المطوّعة يكنى أبا سلمة ، وكان أبو أحمد يجلس لكلّ مَنْ يرد ويخلع عليه ، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة ، ويصلهم بالصّلات ، فعظُم جيشه جدًّا ، وامتلأت بهم الأرض ، وصحّ

عزمه على لقاء التاجم بجميع عسكره ، فرتّب جيوشه ، وقسّمهم على القوّاد ، وأمر كلّ واحدٍ من القوّاد أن يقصد جهة من جهات معسكر التاجم عيّنها له ، وركب بنفسه ، وركب جيشه ، وتوغلوا فى مسالك شرقىّ نهر أبى الخصيب ، ولقيهم الزنج ، وقد حشدوا واستقبلوا ؛ فكانت بينهم وَقعة شديدة ، منحهم الله تعالى فيها أكتاف الزنج ، فولّوا منهزمين ؛ فاتبعهم أصحابُ أبى أحمد يقتلون ويأسِرون ، فقتِلَ منهم كثير ، وغرِق كثير ، وحوَى أصحابُ أبى أحمد معسكر التاجم ومدينته ، وظفروا بعيال علىّ بن أبان المهلبىّ وداره وأمواله ، فاحتوَوا عليها ، وعَبَر أهلُه وأولادُه إلى الموفّقية مع كلابهم ، ومضى التّاجم ومعه المهلبىّ وابنه أنكلانىّ ، وسليمان بن جامع ، والهمدانىّ وجماعة من أكابر القوّاد ، عامدين إلى موضع كان التّاجم قد أعدّه لنفسه ملجأ إذا غُلِب على مدينته وداره فى النهر المعروف بالسفيانىّ . فتقدم أبو أحمد ومعه لؤلؤ قاصدين هذا النهر ، لأن أبا أحمد دلّ عليه ، فأوغَل فى الدخول وفقده أصحابه ، فظنوا أنه رجع، فرجعوا كلهم، وعَبَروا دَجْلة فى الشّذَا ظانّين أنه عبر راجعاً ، وانتهى أبو أحمد ومعه لؤلؤ ، قاصدين هذا النهر ، فاقتحمه لؤلؤ بفرَسه ، وعبَر أصحاب لؤلؤ خلفَه .

ووقف أبو أحمد فى جماعة من أصحابه عند النّهر ، ومضى التّاجم هاربا ، ولؤلؤ يتبعه فى أصحابه ؛ حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريرى ، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه ، فأوقعوا به وبمن معه فكشفوهم ، فولوا هاربين حتى عبروا النهر المذكور ؛ ولُؤلؤ وأصحابه يطردونهم من ورائهم ، حتى ألجئوهم إلى نهر آخر ، فعبروه واعتصموا بدِحالٍ وراءه ، فولجوها ، وأشرف لؤلؤ وأصحابه عليها فأرسل إليه الموفّق ينهاه عن اقتحامها ، ويشكر سعيَه ، ويأمره بالانصراف ؛ فانفرد لؤلؤ هذا اليوم وأصحابُه بهذا الفعل ؛ دون أصحاب الموفّق ؛ فانصرف لؤلؤ محمودَ الفِعْل ، فحمله الموفّق معه فى شَذَاته وجدّد له من البرّ والكرامة ورَفْع المنزلة لِما كان منه فى أمر التّاجم ، حَسْبَما كان مستحقّاً له ؛ ولهذا نادى

أهلُ بغداد لما أدخل إليهم رأس الناجم بين يدى أبي العباس : ماشئتم قولوا ، كان الفتح للؤلؤ .

* * *

قال أبو جعفر : فجمع للموفّق في غدِ هذا اليوم قوّاده وهو حنِقٌ عليهم لانصرافهم عنه ، وإفرادهم إياه ، وكان لؤلؤ وأصحابه تولّوا طلب النّاجم دونهم ، فعنّفهم وعذَلهم ووبّخهم على ما كان منهم ، وعجّزهم وأغلظ لهم ، فاعتذروا إليه بما توهّموه من انصرافه ، وأنهم لم يعلموا أنه قد لجج وأوْغَل في طلب الناجم ، وأنّهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه .

ثم تحالفوا بين يديه ، وتعاقدوا ألّا يبرحوا في غدٍ موضعَهم إذا توجّهوا نحو الزّنج ، حتى يُظفرهم الله تعالى به ، فإنْ أعيام ذلك أقاموا حيث انتهى بهم النهار في أيّ موضع كان حتى يحكم الله بينهم وبينه . وسألوا الموفّق أن يردّ السُّفن إلى الموفّقية ، بحيث لا يطمع طامع من العسكر في الالتجاء إليها والعبور فيها .

فقبِل أبو أحمد عذرَهم ، وجزاهم الخير عن تنصّلهم ، ووعدهم بالإحسان ، وأمرهم بالتأهّب للعبور ؛ ثم عبّر بهم على ترتيب ونظام قد أحكمه وقرره ، وذلك في يوم السبت لليلتين خلَتا من صفر من سنة سبعين ومائتين ، وقد كان النّاجم عاد من تلك الأنهار إلى معسكره بعد انصراف الجيش عنه ، فأقام به ، وأمّل أن تتطاول به وبهم الأيام[1] ، وتندفع عنه المُناجزة ، فلقيه في هذا اليوم سَرَعان[2] العسكر ؛ وهم مَغيظون محنَقون من التقريع والتوبيخ اللاّحقين بهم بالأمس ، فأوقعوا به وبأصحابه وقعةً شديدة ، أزالوهم عن مواقفهم ، فتفرّقوا لا يلوِى بعضهم على بعض ، واتبعهم الجيش يقتلُون ويأسرون مَنْ لحقُوا منهم ، وانقطع

(١) الطبرى : « تتطاول بهم الأيام » .

(٢) سرعان الناس : أوائلهم . وفى الطبرى : « فوجد الموفق المتسرعين من فرسان غلمانه ورجالتهم » .

النّاجم فى جماعة من كُماته من قوّاد الزّنج ؛ منهم المهلّبيّ ، وفارقه ابنه انكلانىّ وسليمان ابن جامع ، فكانا فى أوّل الأمر مجتمعين ، ثم افترقا فى الهزيمة ، فصادف سليمانَ بن جامع قومٌ من قوّاد الموفّق ، فحاربوه وهو فى جَمْع كثيف من الزّنج ، فقتِل جماعة من كُماته ، وظُفِرَ به فأسر ، وحُمِل إلى الموفّق بغير عهد ولا عقد ، فاستبشر النّاس بأسر سليمان ، وكثر التكبير والضجيج، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثرأصحابه غناء، وأُسِرَ بعده إبراهيم ابن جعفر الهمدانىّ ، وكان من عظماء قوّاده وأكابر أمراء جيوشه ، وأُسِرَ نادر الأسود المعروف بالحفّار ، وهو من قدماء قوّاد النّاجم ، فأمر الموفّق بتقييدهم بالحديد، وتصييرهم فى شذَاةٍ لأبى العباس ، ومعهم الرّجال بالسلاح، وجدّ الموفّق فى طلب النّاجم ، وأمعن فى نهر أبى الخصيب ، حتى انتهى إلى آخره .

فبينا هو كذلك ، أتاه البشير بقتل النّاجم فلم يصدق ، فوافاه بشيرٌ آخر، ومعه كفٌّ زَعَم أنها كفه ، فقوىَ الخبرُ عنده بعض القوّة، فلم يلبث أن أتاه غلام من غلمان لؤلؤ يركضُ ومعه رأسُ الناجم، فوضعه بين يديه ، فعرضه الموفّق على مَنْ كان حاضراً تلك الحال معه من قوّاد المستأمنة، فعرفوه ، وشهدوا أنه رأس صاحبه، فخرّ ساجدا[1] ، وسجد ابنه أبو العباس، وسجد القوّاد كلهم شكرا لله تعالى ، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وأمر برفع الرأس على قناة ، ونصبه بين يديه فرآه الناس ، وارتفعت الأصوات والضجيج .

* * *

قال أبو جعفر : وقد قيل : إنه لما أُحيطَ بالناجم، لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا المهلّبيّ ، فلما علما أنّهما مقتولان افترقا ، فوقف النّاجم حتى وصل إليه هذا الغُلام ومعه جماعة من غلمان لؤلؤ ، فمانَع عن نفسه بسيفه حتى عجز عن الممانعة ، فأحاطوا به وضربوه بسيوفهم حتى سقط ، ونزل هذا الغلام فاحتزّ رأسه ، وأما المهلبيّ فإنّه قصد النهر المعروف

(١) بعدها فى الطبرى : « على ما أولاه وأبلاه » .

بنهر الأمير ، فقذف بنفسه يوم النّجاة ، وقبل ذلك كان ابن الناجم وهو المعروف بأنكلاى فارق أباه ، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالديناريّ ، متحصّنا فيه بالأدغال والآجام، فلم يظفر بهما ذلك اليوم ، ودلّ الموفّق عليهما بعد ذلك .

وقيل له : إنّ معهما جمْعاً من الزّنج وجماعة من جِلّة قوّادهم ، فأرسل غلمانه فى طلبهما، وأمرهم بالتّضييق عليهما ، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم، وأعطوْا بأيديهم . فظفر بهم الغلمان ، وحملوهم إلى الموفّق ، فقتل منهم جماعة ، وأمرّ بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلاى بالحديد والرجال الموكّلين بهما .

***

قال أبو جعفر : وانصرف فى هذا اليوم وهو يوم السبت ، لليلتين خلتا من صفر أبو أحمد من نهر أبى الخصيب، ورأس النّاجم منصوب بين يديه على قَناة فى شذاة يُخترقُ به فى النهر ، والناس من جانبى النهر ينظرون إليه حتى وافى دِجْلة ، فخرج إليها ، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمدانىّ مصلوبان أحياء فى شذاتين عن جانبيه، حتى وافى قصره بالموفّقية . هذه رواية أبى جعفر وأكثر الناس عليهما .

***

وذكر المسعودىّ فى كتاب " مروج الذهب " [1] أنّ الناجم ارتُثّ ، وحُمِل إلى أبى أحمد وهو حىّ ، فسلّمه إلى ابنه أبى العباس ، وأمر بتعذيبه ، فجعله كردناجا [2] على النار وجلده ينتفخ ، ويتفرقع حتى هلك .

والرواية الأولى هى الصحيحة ، والذى جعل كردناجا هو قرطاس الذى رمى أبا أحمد

---

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٥ .
(٢) الكردناج ، معناه الكباب ، أو ما يشبهه (وانظر دوزون) .

بالسهم ، ذكر ذلك التنوخى فى "نشوار المحاضرة"، قال : كان الزّنج يصيحون لما رمى أبو أحمد بالسهم ، وتأخّر لعلاج جراحته عن الحرب : ملّحوه ملّحوه ، أى قد مات وأنتم تكتمون موته ، فاجعلوه كاللحم المكسود .

قال : وكان قرطاس الرامى لأبى أحمد يصيح بأبى العباس فى الحرب إذا أخذتنى فاجعلنى كردناجا ؛ يهزأ به .

قال : فلما ظفر به أدخل فى دُبُره سيخاً من حديد ، فأخرجه من فيه ، وجعله على النار كردناجا .

* * *

قال أبو جعفر : ثم تتابع مجىء الزّنج إلى أبى أحمد فى الأمان ، فحضر منهم فى ثلاثة أيام نحو سبعة آلاف زنجىّ ، لما عرفوا قتل صاحبهم ، ورأى أبو أحمد بذلَ الأمان لهم، كى لا يبقى منهم بقيّة يخاف معرّتها فى الإسلام وأهله ، وانقطعت منهم قطعة نحو ألف زنجىّ مالت نحو البرّ ، فمات أكثرها عطشا ، وظفر الأعراب بمَن سلِم منهم ، فاسترقّوهم، وأقام الموفّق بالموفقية ، بعد قتل الناجم مدّة ، ليزداد الناس بمقامه أنساً وأمانا ، ويتراجع أهلُ البلاد إليها ، فقد كان الناجم أجلاهم عنها . وقدِم ابنه أبو العباس إلى بغداد ، ومعه رأس الناجم ، فدخلَها يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة بقين من جُمادى الأولى من هذه السّنة ، ورأس الناجم بين يديه على قَنَاة ، والناس مجتمعون يشاهدونه .

* * *

وقد روى غير أبى جعفر ، وذكره الآبى[1] فى مجموعه المسمى "نثر الدرر"، عن العلاء ابن صاعد بن مخلد ، قال : لما حُمِل رأس صاحب الزنج ودُخِل به المعتضد إلى بغداد دَخَل فى جيش

---

(١) هو الوزير زين الكفاة أبو سعد منصور بن الحسين الآبى ، وزير مجد الدولة رستم بن فخر الدولة ابن بويه . وكتابه نثر الدرر فى المحاضرات ؛ منه نسخ خطية ؛ وأجزاء متفرقة فى دار الكتب المصرية .

لم يُرَ مثله، واشتقَّ أسواقَ بغداد، والرأس بين يديه، فلما صرنا بباب الطاق، صاح قوم من دَرْبٍ من تلك الدُّروب: رحم الله معاوية وزاد! حتى علَتْ أصواتُ العامّة بذلك فتغيّر وجهُ المعتضد، وقال: ألا تسمع يا أبا عيسى! ما أعجبَ هذا! وما الذى اقتضى ذكر معاوية فى هذا الوقت! والله لقد بلَغ أبي إلى الموت وما أفلتَ أنا إلا بعد مشارفته، ولقينا كلَّ جهد وبلاء، حتى أنجينا هؤلاء الكلاب من عدوّهم، وحصّنّا حُرَمَهم وأولادهم، فتركوا أن يترحموا على العبّاس وعبد الله ابنه ومَنْ وَلَد من الخلفاء، وتركوا الترحّم على علىّ بن أبي طالب، وحمزةَ وجعفر، والحسن والحسين؛ والله لا برحت أو أؤثّر فى تأديب هؤلاء أثرا لا يعاودون بعد هذا الفعل مثله! ثم أمر بجمع النفّاطين ليحرِق الناحية؛ فقلت له: أيها الأمير، أطال الله بقاءك! إنّ هذا اليوم من أشرف أيام الإسلام فلا تفسِدْه بجهل عامّة لا أخلاق لهم. ولم أزل أداريه وأرفق به حتى سار.

فأما الذى يرويه الناسُ من أن صاحب الزنج ملك سواد بغداد، ونزل بالمدائن، وأن الموفّق أرسل إليه من بغداد عسكرا، وأصحبهم دِنان النبيذ، وأمرهم أن ينهزموا من بين يدى الزنج عند اللقاء، ويتركوا خيامهم وأثقالهم لينتهبها الزنج وأنهم فعلوا ذلك، فظفر الزنج فيما ظفروا به من أمتعتهم بتلك الدِّنان، وكانت كثيرة جدا، فشربوا تلك الليلة وسكروا، وباتوا على غِرّة، فكبسهم الموفق وبيّتهم ليلا وهم سكارَى، فأصاب منهم ما أراد — فباطل موضوع لا أصل له؛ والذى بيّتهم وهم سكارى فقتل منهم نيلا تكين البخارى؛ وكان على الأهواز بيت أصحاب علىّ بن أبان فى سنة خمس وستين ومائتين؛ وقد أتاه الخبر بأنهم تلك الليلة قد عمِل النّبيذ فيهم؛ والصحيح أنه لم يتجاوز نهبَهم ودخولهم البلاد الثمانية. هكذا رواه الناس كلهم.

* * *

قال أبو جعفر: فأمّا علىّ بن أبان وأنكلانيّ بن الناجم ومَنْ أُسِرَ معهما، فإنّهم

حملوا إلى بنداد فى الحديد والقِدّ ، فجعلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومعهم غلام للموفق يقال له فتح السعيدىّ ، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنتين وسبعين ومائتين فكانت للزنج حركة بواسط ، وصاحوا : أنكلانى ، يا منصور ! وكان الموفق يومئذ بواسط ! فكتب إلى محمد بن عبد الله ، وإلى فتح السعيدى بأمرهما بتوجيه رءوس الزنج الذين فى الأسر إليه ، فدخل فتح السعيدىّ إليهم ، فجعل يخرج الأوّل فالأوّل فيذبحه على البالوعة كما تذبح الشاة ، وكانوا خمسة : أنكلانى بن الناجم ، وعلىّ بن أبان المهلبى ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمذانىّ ، ونادر الأسود ؛ وقلَع رأس البالوعة وطرحت فيها أبدانهم ، وسدّ رأسها ، ووجّه برءوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط ، وانقطعت حركة الزّنج ، ويئس منهم .

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فى جُثث هؤلاء الخمسة ، فأمر بصلبهم بحضرة الجسر ، فأخرجوا من البالوعة ؛ وقد انتفخوا وتغيّرت روائحهم ، وتقشّرت جلودهم ، فصلِب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقىّ وثلاثة على الجانب الغربىّ ؛ وذلك لسبع بقين من شوال من هذه السنة ، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صُلبوا بحضرته .

وقد قال الشعراء فى وقائع الزنج فأكثروا كالبحترىّ وابن الرومى وغيرهما ؛ فمن أراد ذلك فليأخذه من مظانّه .

***

الأجنل :

منها فى وصف الأتراك :

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المِجَانُّ المُطَرَّقَةُ ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ المَجْرُوحُ عَلَى المَقْتُولِ ، وَيَكُونَ المُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ المَأْسُورِ .

فقال له بعض أصحابه : لقد أعطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك عليه السلام وقال للرجل ـ وكان كلبيا :

يا أَخَا كَلْبٍ ؛ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نفس بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . . ﴾ الآيَةَ ، فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثَى ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ؛ وَمَنْ يَكُونُ لِلنَّارِ حطباً أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً ؛ فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي ، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي .

***

الشرح :

المِجانّ : جمع مِجَنّ بكسر الميم ، وهو الترس ، وإنما سمى مِجَنًّا ، لأنه يُستَتر به ، والجُنّة : السُّترة والجمع جُنَن ؛ يقال استجنّ بجُنّة ، أى استتر بسترة .

والمُطْرَقة ، بسكون الطاء : التى قد أطرق بعضُها إلى بعض ، أى ضُمّت طبقاتها ؛ فجعل بعضُها يعلو بعضا ، يقال : جاءت الإبل مطاريق ؛ أى يتلو بعضها بعضا . والنعل المطرّقة : المخصوفة ، وأطرِقَتْ بالجلد والعَصَب ، أى ألبست ، وتُرْسٌ مطرّق ، وطِراق النعل : ما أطرقت وخرزت به . وريش طِراق ؛ إذا كان بعضه فوقَ بعض ، وطارق الرجلُ بين الثوبَيْن ؛ إذا لبس أحدَهما على الآخر ؛ وكلّ هذا يرجع إلى مفهوم واحد وهو مظاهرة الشىء بعضه بعضا . ويروى : « المِجانّ المطرّقة » ، بتشديد الراء ، أى كالتِّرَسة المتّخذة من حديد مطرّقٍ بالمطرقة .

والسَّرَق : شُقَق الحرير ، وقيل : لا تسمّى سَرَقا إلا إذا كانت بيضا ، الواحدة سَرَقة .

ويعتقبون الخيل ، أى يجنبونها لينتقلوا من غيرها إليها . واستحرار القتل : شدّته ، استحرّ وحَرّ بمعنى ، قال ابن الزِّبَعْرَى :

حيث ألقت بقُباء بَرْكَها واستحرّ القتل فى عبد الأشَلّ[1]

والمُفلِت : الهارب .

يقول عليه السلام : إنّ الأمورَ المستقبلة على قسمَيْن :

أحدهما ما تفرّد الله تعالى بعلمه ، ولم يطلِعْ عليه أحداً من خلقه ؛ وهى الأمور الخمسة المعدودة فى الآية المذكورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[2]

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٦ (٢) سورة لقمان ٣٤ .

والقسم الثانى مايعلمهُ بعضُ البشر بإعلام الله تعالى إيّاه ؛ وهو ماعدا هذه الخمسة ، والإخبار بملحمة الأتراك من جُملة ذلك .

وتضطمّ عليه جوانحى : تفتعل ، من الضمّ ، وهو الجمع ، أى يجتمع عليه جوانح صدرى ، ويروى : « جوارحى » ،وقد روِى أنّ إنسانا قال لموسى بن جعفر عليه السلام: إنّى رأيت الليلة فى منامى أنّى سألتك : كم بقى من عمرى ؟ فرفعتَ يدك اليمنى ، وفتحتَ أصابعها فى وجهى مشيرا إلىّ ، فلم أعلم خمس سنين،أم خمسة أشهر ، أم خمسة أيام!فقال : ولا واحدة منهنّ ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التى استأثر الله تعالى بها فى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . . ﴾ الآية .

فإن قلت : لم ضحك عليه السلام لمّا قال له الرجل : « لقد أوتيت علم الغيب » ؟ وهل هذا إلا زهو فى النّفس ، وعُجْب بالحال !

قلت : قد روِىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ضحِك فى مناسب هذه الحال ؛ لما استسقَى فسُقِىَ وأشرف درورُ المطر ، فقام إليه الناس ، فسألوه أن يسأل الله تعالى أن يحبسه عنهم ، فدعا ، وأشار بيده إلى السحاب ، فانجاب حول المدينة كالإكليل؛وهوعليه السلام يخطب على المنبر ؛ فضحك حتى بدت نواجذُه،وقال : أشهد أنى رسول الله ؛ وسرّ هذا الأمر أنّ النبىّ أو الولىّ إذا تحدَّثُ عنده نعمة الله سبحانه ، أو عرف الناسُ وجاهته عند الله ، فلابد أن يسرّ بذلك . وقد يحدُث الضحك من السرور ؛ وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التِّيه والعُجْب،وكان محضَ السّرور والابتهاج،وقد قال تعالى فى صفة أوليائه: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (١) .

فإن قلت : فإنّ من جملة الخمسة :﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾،وقد أعلم

---

(١) سورة آل عمران ١٧٠

نحلّ أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحيةً، ولا يخلطهم بعسكره، ليظهر من حُسْن جهادهم بين يديه؛ وخلوص نياتهم في الحرب، ونكايتهم في العدوّ وما يعرف به طاعتهم، وإقلاعهم عمّا كانوا عليه من جهلهم.

فأجابهم إلى ذلك، وعرّفهم حسنَ ما ظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

***

قال أبو جعفر: ثم استعدّ أبو أحمد ورتّب جيشه؛ ودخل إلى عسكر الناجم بشرقيّ نهر أبي الخصيب في خمسين ألف مقاتل، من البرّ والبحر، فرسانا ورجّالة، يكبّرون ويهلّلون ويقرءون القرآن، ولهم ضجيج وأصوات هائلة. فرأى الناجم منهم ما هاله وتلقّاهم بنفسه وجيشه؛ وذلك في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين.

واشتبكت الحرب، وكثر القتل والجراح، وحامى الزّنج عن صاحبهم وأنفسهم أشد محاماة، واستماتوا، وصبر أصحاب أبي أحمد، وصدقوا القتال، فمنّ الله عليهم بالنصر، وانهزم الزّنج، وقتل منهم خلقٌ عظيم، وأسِر منهم أسرى كثيرة؛ فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى في المعركة، وقصد بنفسه دار النّاجم، فوافاها وقد لجأ الناجم إليها؛ ومعه أعياد أصحابه للمدافعة عنه.

فلما لم يغنوا شيئا أسلموها، وتفرّقوا عنها، ودخلها غلمان الموفّق، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث، فأخذوه وانتهبوه، وأخذوا حُرَمه وولده الذكور والإناث؛ وتخلّص الناجم بنفسه، ومضى هاربا نحو دار عليّ بن أبان المهلبيّ، لا يلوِي على أهل ولا ولدٍ ولا مالٍ، وأحرقت داره، وحمل أولاده ونساؤه إلى الموفّقية في التوكيل، وقصد أصحاب أبي أحمد دار المهلبيّ، وقد لجأ إليها الناجم وأكثر الزّنج، وتشاغل أصحاب أبي أحمد بنهب

الأموال من دور الزنج ، فاغتنم الفاجم تشاغلهم بالنهب ، فأمر قوّاده بانتهاز الفرصة ، والإكباب عليهم ، فخرجوا عليهم من عدّة مواضع ، وخرج عليهم كمناء أيضا قد كانوا كنوهم لهم ، فكشفوهم واتبعوهم حتى وافوا بهم نهر أبى الخصيب ، فقتلوا من فُرسانهم ورجّالتهم جماعة ، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع .

ثم تراجع النّاس ، ودامت الحرب إلى وقت العصر ، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرفَ أصحابه ، فأمرهم بالرّجوع فرجعوا على هدوء وسكون ، كى لا تكون هزيمة ، حتى دخلوا سفنهم ، وأحجم الزنج عن اتباعهم ، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مراكزهم .

قال أبو جعفر : ووافَى إلى أبى أحمد فى هذا الشهر كاتبهُ صاعد بن مخلد من سامُرّاء فى عشرة آلاف ، ووافَى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون — وكان إليه أمرُ الرّقة وديار مُضَر — فى عشرة آلاف من نُخبة الفرسان وأنجادهم ، فأمر أبو أحمد لؤلؤا أن يخرج فى عسكره فيحارب الزنج ، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبى أحمد مَنْ يدلّه على الطرق والمضايق ؛ فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة فى ذى الحجّة من هذه السنة ؛ استظهر فيها لؤلؤ عليهم ؛ وبان مِن نجدته وشجاعته وإقدام أصحابه ، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ما سرّ أبا أحمد وملأ قلبه .

***

قال أبو جعفر : فلما دخلت سنة سبعين ومائتين ، تتابعت الأمداد إلى أبى أحمد من سائر الجهات ، فوصل إليه أحمدُ بن دينار فى جَمْع عظيم من المطوّعة ، من كُور الأهواز ونواحيها ، وقدِم بعده من أهل البحرين جمعٌ كثير من المطوّعة زُهاء ألفَىْ رجل ، يقودهم رجلٌ من عبد القيس ، وورد بعد ذلك زُهاء ألف رجل من فارس ، ورئيسهم شيخ من المطوّعة يكنى أبا سلمة ، وكان أبو أحمد يجلس لكلّ مَنْ يرد ويخلَع عليه ، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة ، ويصلهم بالصّلات ، فعظُم جيشه جدًّا ، وامتلأت بهم الأرض ، وصحّ

ثم إن المعروف بجنكزخان ـ والناس يلفظونه بالراء ، وذكر لى جماعة من أهل المعرفة بأحوال التتر أنه « جنكز » بالزاى المعجمة ـ عنّ له رأى فى النهوض إلى بلاد تركستان ، وذلك أنّ جنكزخان هذا هو رئيس التتار الأقصين فى المشرق ، وابن رئيسهم ، ومازال سلفه رؤساء تلك الجهة ، وكان شجاعا عاقلاً موفقا منصوراً فى الحروب ؛ وإنما عنّ له هذا الرأى ؛ لأنه رأى أنّ طائفة من التتار ـ لا ملك لهم ، وإنما يقوم بكلّ فرقة منهم مدبّر لها من أنفسها ـ قد نهضت فملكت بلادَ تركستان على جلالتها ، غار من ذلك ، وأراد الرّياسة العامّة لنفسه ، وأحبّ المُلك ، وطمع فى البلاد ، فنهض بمن معه من أقاصى الصين ؛ حتى صار إلى حدود أعمال تركستان ، فحاربه التتار الذين هناك ، ومنعوه عن تطرّق البلاد ، فلم يكن لهم به طاقة ، وهزمهم وقتل كثيرا منهم ؛ وملك بلاد تركستان بأجمعها ، وصار كالمجاور لبلاد خوارزمشاه ، وإن كان بينهما مسافةٌ بعيدة ، وصار بينه وبين خُوارِزْمشاه سِلْمٌ ومهادنة ؛ إلا أنها هُدْنة على دَخَن .

فمكثت الحال على ذلك يسيرا ، ثم فسدتْ بما كان يصلُ إلى خوارزمشاه على ألسنة التّجار من الأخبار ، وأنّ جنكز خان على عَزْم النهوض إلى سَمَرْقَنْد ومايليها ، وأنه فى التأهّب والاستعداد ، فلو دَارَاه لكان أَوْلَى له ؛ لكنّه شرَع فسدّ طرق التجار القاصدين إليهم ، فتعذّرَتْ عليهم الكسوات ، ومُنِع عنهم المِيَرة والأقوات التى تجلب وتحمَل من أعمال ماوراء النهر إلى تركستان ، فلو اقتنع بذلك لكان قريبا ؛ لكنّه أنهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوتران ، وهى آخر ولايته بما وراء النهر ، أنّ جنكزخان قد سيّر جماعة من تجّار التتار ، ومعهم شىء عظيم من الفِضّة إلى سَمَرْقَنْد ، ليشتروا له ولأهله وبنى عمّه كُسْوةً وثيابا وغير ذلك .

فبعث إليه خوارزم مشـاه يأمره بقتل أولئك التجّار ، وأخْذِ مامعهم من الفضّـة وإنفاذها إليه ، فقتلهم وسيّر إليه الفضّة . وكان ذلك شيئاً كثيرا جدّاً ؛ ففرّقه خوارزمشاه على تجّار سمرْقنْد وبُخارى ، وأخذ ثمنه منهم لنفسه . ثم علم أنّه قد أخطأ ، فأرسل إلى نائبه بأوتران ، يأمره أن ينفذ جواسيس من عنده إليهم ، ليخبروه بعدّتهم ، فمضت الجواسيسُ ،وسلكت مفاوز وجبالا كثيرة،وعادوا إليه بعد مدّة ، فأخبروه،بكثرةعددهم، وأنهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدركهم ، وأنهم من أصبَر الناس على القتال ؛ لا يعرفون الفرار ، ويعملون مايحتاجون إليه من السلاح بأيديهم ، وأنّ خيلهم لا تحتاج إلى الشعير ، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى ، وأن عندهم من الخيل والبقر مالا يُحصى،وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير ، وهم أصبرُ خَلْق الله على الجوع والعطش والشّقاء ، وثيابُهم من أخشن الثّياب مسّاً ، ومنهم منْ يلبس جلود الكلاب والدوابّ الميّتـة ؛ وأنهم أشبهُ شئ بالوحش والسباع .

فأنهىَ ذلك كلّه إلى خُوارزم مشاه ، فندمَ على قتل أصحابهم ، وعلى خَرْق الحجاب بينه وبينهم ، وأخذ أموالهم ، وغلَب عليه الفِكْر والوَجَل ، فأحضر الشهاب الخيوقىّ ، وهو فقيه فاضل كبير المحلّ عنده ، لا يخالف مايشير به ، فقال له : قد حَدَث أمرٌ عظيم لا بدّ من الفكر فيه ، وإجالة الرأى فيما نفعل ؛ وذلك أنّه قد تحرّك إلينا خَصْمٌ من الترك فى عدد لا يحصى ، فقال له : عساكرك كثيرة ، وتكاتِبُ الأطراف ، وتجمع الجنود ، ويكون من ذلك نفيرٌ عام ، فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتُك بالأموال والرجال ، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب سَيْحُون ، وهو نهر كبير يفصِلُ بين بلاد الترك وبين بلاد خوارِزْ مشاه ، فتكون هناك ، فإذا جاء العدوّ وقد سار مسافة بعيدة ، لقيناه ونحن جامُّون مستريحون ، وقد مسّه وعساكرَه النصبُ واللُّغوب .

ما سمّيَ المنصورَ الثانى ! ولولا قيامُه فى حرب الزّنج ، لانقرض مُلْك أهلِ بيته؛ ولـكنّ الله تعالى ثبّته لما يريده من بقاء هذه الدولة .

* * *

قال أبو جعفر : ثم جدّ الموفّق فى تخريب السّور ، وإحراق المدينة ، وجدّ الناجم فى إعداد المقاتلة والمحاطة عن سُورِه ومدينته، فـكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجلّ عن الوصف ، ورمى النّاجم سفنَ الموفّق المقاربة لسور مدينته بالرّصاص المذاب ، والمجانيق والعرّادات، وأمر أبو أحمد بإعداد ظلّة(١) من خشب [الشذا(٢)] وإلباسها جلودَ الجواميس، وتغطية ذلك بالخيوش المطلّية بصنوف العقاقير والأدوية التى تمنع النار من الإحراق، ففعل ذلك، وحُورب صاحب الزّنج من تحتها، فلم تعمل نارُه ورصاصُه المذاب فيها شيئا، واستأمن إلى أبى أحمد محمدُ بن سمعان ، كاتب الناجم ووزيره فى شعبان من هذه السنة، فهدّ باستئمانه أركانَ الناجم ، وأضعف قوّته ، وانتدب أبو العباس لقصد دار محمد بن يحيى الـكرنبائىّ ؛ وكانت بإزاء دار الناجم ، وشرع فى الحيلة فى إحراقهـا ، وأحرق الموفّق كثيرا من الرواشين(٣) المظلّة على سور المدينة وشعثها، وعلا غلمانُ أبى أحمد على دار النّاجم وولجوها وانتهبوها ، وأضرموا النّار فيها ، وفعل أبو العباس بدار الـكرنبائىّ مثلَ ذلك، وجرح أنـكلانى بن النّاجم فى بطنه جراحة شديدة ، أشفى منها على التّلف ، واتّفق مع هـذا الظفر العظيم أن غرِق أبو حمزة نُصَيْر صاحب جيش الماء عند ازدحام الشّذَوات وإكباب الزّنج على الحرب، فصعُب ذلك على أبى أحمد، وقوِىَ بغرقه أمر الزّنج، وانصرف أبو أحمد

---

(١) الطبرى : «ظلال» ؛ وهما اسم جمع ؛ واحدهما ظلة ،بالضم .
(٢) من الطبرى .
(٣) ... : جمع روشن ؛ وهو الـكوة .

آخر نهار هذا اليوم ، وعَرَضت له عِلّة أقام فيها بقيّة شعبان وشهر رمضان ، وأيّاما من شوال ممسِكاً عن حَرْب الزّنج ، إلى أن استبلّ من علته .

* * *

قال أبو جعفر : فلما أحرقت دار الفاجر ودُور أصحابه ، وشارف أن يؤخذ ، وعرضت لأبي أحمد هذه العلّة ، فأمسك فيها عن الحرب ، انتقل الفاجر من مدينته التي بناها بغربيّ نهر أبي الخصيب إلى شرقيه إلى منزل وَعْرٍ لا يخلُص إليه أحد لاشتباك القَصَب والأدغال والأحطاب فيه ، وعليه خنادق من أنهار قاطعة معترضة ، فقطن هنـاك في خواصّه ومَنْ تخلّف معه من جلّة أصحابه وثقاته ، ومَنْ بقي في نُصْرته من الزّنج ؛ وهم حدود عشرين ألف مقاتل ، وانقطعت المِيرَة عنهم ، وبان للناس ضعف أمرهم ، فتأخرّ الجَلَب الذى كان يصل إليهم ، فبلغ الرطل من خبز البُرّ عندهم عشرة دراهم ، فأكلوا الشعير ، ثم أكلوا أصناف الحبوب ؛ ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتبعون الناس ؛ فإذا خلا أحدٌ منهم بصبيّ أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه . ثم صار قوىّ الزّنج يعدُو على ضعيفهم ، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه ، ثم ذبحوا أولادَهم ، فأكلوا لحومَهم ، وكان الفاجر لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئا من ذلك إلا بالحبس ، وإذا تطاول حبسُه أطلقه .

ولما أبلّ الموفّق من علّته ، وعلم انتقال الفاجر إلى شرق نَهر أبي الخصيب واعتصامه به ، أعمل فكرَه في تخريب الجانب الشرقيّ عليه ، كما فعل بالجانب الغربيّ ، ليتمكّن من قتله أو أسره ؛ فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدّحال[1] وسدّ الأنهار ، وطمّ الخنادق ، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار المبنية ، وإدخال الشّذَا؛ وفيها المقاتلة إلى حريم الفاجر ؛ وفي كلّ ذلك يدافع الزّنجُ عن أنفسهم بحرب شديدة ، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس ، وتُراق فيها الدماء ، وكان الظّفر في ذلك كلّه لأبي أحمد ، وأمرُ الزّنج يزداد ضعفا

---

(١) الدحال : جمع دحل ، وهو النقب الضيق الأعلى الواسع الأسفل ؛ يمكن أن يمشى فيه .

ثم رحل إلى خُراسان ، فعبَر جيحُون ؛ وكانت هذه الوقعة فى سنة ست عشرة وستمائة فنزل بالقرب من بَلْخ ، فعسكر هناك ، واستنفر النّاس .

وأما التتار فإنّهم رحلوا بعد أن استعدُّوا يطلبون بلاد ما وراء النهر ؛ فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوار زمشاه عنها ، وحصروها ، فقاتلوا العسكر المرابط بها ثلاثة أيام قتالا متتابعا ، فلم يكن للعسكر الخوارزمىّ بهم قوة ؛ ففتحوا أبواب المدينة ليلاً ، وخرجوا بأجمعهم عائدين إلى خراسان ، فأصبح أهلُ بخارى وليس عندهم من العسكر أحد أصلا ، فضعفت نفوسهم ، فأرسلوا قاضى بخارى[1] ليطلُب الأمان للرعيّة ، فأعطاه التتار الأمان ، وقد كان بقى فى قلعة بُخارى خاصة طائفة من عسكر خوار زمشاه معتصمون بها .

فلمّا رأى أهلُ بخارى بذلَهم للأمان ، فتحوا أبوابَ المدينة ، وذلك فى رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل التتار[2] بُخارى ، ولم يتعرّضوا لأحدٍ من الرعيّة ، بل قالوا لهم : كلّ ما لخوارِ زمشاه عندكم من وديعةٍ أو ذخيرةٍ أخرجوه إلينا ؛ وساعدونا على قتال مَنْ بالقلعة ، ولا بأس عليكم . وأظهروا فيهم العدلَ وحسنَ السّيرة ودخل جنكز خان بنفسِه إلى البلد ، وأحاط بالقلعة ، ونادى مناديه فى البلدان : لا يتخلّف أحدٌ ؛ ومَنْ تخلّف قُتِل . فحضر النّاسُ بأسرهم ، فأمرهم بطمّ الخندق فطمّوه بالأخشاب والأحطاب والتراب ، ثم زحفوا نحو القلعة ، وكان عدّةُ مَن بها من الجند الخوارزمية أربعمائة إنسان ، فبذلوا جهدَهم ، ومنعوا القلعة عشرة أيام إلى أنْ وصل النقّابون إلى سور القلعة ، فنقبوه ودخلوا القلعة ، فقتلوا كلّ مَن بها من الجند وغيرهم .

---

(١) فى ابن الأثير : « وهو بدر الدين قاضيخان » .
(٢) ابن الأثير : « فدخل الكفار » .

فلما فرغوا منها أمر جنكزخان أن يكتب له وجوهُ البلد ورؤساؤهم ، ففعل ذلك ، فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم ، فأحضروا ، فقال لهم : أريد منكم الفضة النُّقرة[1] التي باعها إياكم خوارزمشاه ، فإنها لى ، ومِنْ أصحابي أخذت . فكان كلّ مَنْ عنده شيء منها يحضره ، فلما فرغ من ذلك أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصّة ، فخرجوا مجرّدين عن أموالهم ، ليس مع كلّ واحد منهم إلا ثيابه التي على جسده ، فأمرَ بقتلهم ، فقتلوا عن آخرهم ، وأمر حينئذٍ بنهب البلد ، فنهب كلّ ما فيه ، وسبيت النساء والأطفال ، وعذّبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال. ثم رحلوا عنه نحو سَمَرْقَنْد ، وقد تحققوا عجزَ خوارزمشاه عنهم ، واستصحبوا معهم مَنْ سَلِمَ من أهل بخارى ؛ أسارى مشاةً على أقبح صورة ، وكلّ مَنْ أعيا وعجز عن المشي قتلوه .

فلما قاربوا سَمَرْقند، قدّموا الخيّالة ،وتركوا الرجّالة والأسارى والأثقال وراءهم ،حتى يلتحقوا بهم شيئا فشيئا ، ليرعبوا قلوبَ أهل البلد ، فلما رأى أهلُ سَمَرْقند سوادَهم ، استعظموهم ؛ فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجّالة والأثقال ؛ ومع كلّ عشرة من الأسارى عَلَمٌ ، فظنّ أهلُ البلد أنّ الجميع عسكر مقاتلة ؛ فأحاطوا بسَمَرْقَنْد ، وفيها خمسون ألفا من الخوارزمية ، ومالا يحصى كثرة من عوامّ البلد ؛ فأحجم العسكر الخوارزميّ عن الخروج إليهم ، وخرجت العامّة بالسلاح ، فأطمعهم التتار في أنفسهم ، وتقهقروا عنهم ؛ وقد كمنوا لهم كمناء ؛ فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم مِنْ ورائهم ، وشدّ عليهم مِنْ ورائهم جمهورُ التتار ؛فقتلوهم عن آخرهم .

فلما رأى مَنْ تخلّف بالبلد ذلك ، ضعفت قلوبهم ،وخيّلت الجند الخوارزميّ أنفسهم

---

(١) النقرة : القطعة المذابة من الفضة أو الذهب .

حملوا إلى بغداد فى الحديد والقدّ ، فجعلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومعهم غلام للموفق يقال له فتح السعيدى ، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنتين وستين ومائتين فكانت للزنج حركة بواسط ، وصاحوا : أنكلاى ، يا منصور ! وكان الموفق يومئذ بواسط ! فكتب إلى محمد بن عبد الله ، وإلى فتح السعيدى يأمرهما بتوجيه رءوس الزنج الذين فى الأسر إليه ، فدخل فتح السعيدى إليهم ، فجعل يخرج الأول فالأول فيذبحه على البالوعة كما تذبح الشاة ، وكانوا خمسة : أنكلاى بن الناجم ، وعلى بن أبان المهلبى ، وسليمان بن جامع ، وإبراهيم بن جعفر الهمذانى ، ونادر الأسود ؛ وقلع رأس البالوعة وطرحت فيها أبدانهم ، وسدّ رأسها ، ووجّه برءوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط ، وانقطعت حركة الزنج ، ويئس منهم .

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فى جُثث هؤلاء الخمسة ، فأمر بصلبهم بحضرة الجسر ، فأخرجوا من البالوعة ؛ وقد انتفخوا وتغيّرت روائحهم ، وتقشّرت جلودهم ، فصلِب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقىّ وثلاثة على الجانب الغربىّ ؛ وذاك لسبع بقين من شوال من هذه السنة ، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صُلِبوا بحضرته .

وقد قال الشعراء فى وقائع الزنج فأكثروا كالبحترىّ وابن الرومى وغيرهما ؛ فمن أراد ذلك فليأخذه من مظانّه .

***

الأجَلُ :

منها في وصف الأتراك :

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمِجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ .

فقال له بعض أصحابه : لقد أعطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك عليه السلام وقال للرجل ـ وكان كلبيا :

يا أَخَا كَلْبٍ ؛ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . . ﴾ الآيَةَ ، فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ؛ وَمَنْ يَكُونُ لِلنَّارِ حَطَباً أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً ؛ فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي ، وَتَنْضَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي .

***

عقله مما اعتراه من خوف التتار، أو لأمر سلطه الله تعالى عليه؛ فكان يهذى بالتتار بكرةً وعشية؛ وكلّ وقت وكلّ ساعة؛ ويقول: هو ذا هم قد خرجوا من هذا الباب؛ قد هجموا من هذه الفرجة، ويرعد ويحول لونه، ويختل كلامه وحركاته.

وحكى لى فقيه خُراسانىّ وصل إلى بغداد يعرف بالبرهان، قال: كان أخى معه، وكان ممّن يثق خوارزمشاه به، ويختصه، قال: لمح خوارزمشاه لما تغيّر عقله بكلمة كان يقولها: «قراتتر كلدى» يكرّرها، وتفسيرها: «التتر السّود قد جاءوا»، وفى التّتر صِنف سود يشبهون الزّنج، لهم سيوف عريضة جدا على غير صورة هذه السيوف؛ يأكلون لحوم الناس، فكان خوارزم شاه قد أهتِرَ وأغرِىَ بذكرهم.

وحدّثنى البرهان، قال: رَقِىَ به شمس الدّين أتليمش إلى قلعة من قلاع الهند؛ حصينة عالية شاهقة لا يعلوها الغيم أبدا؛ وإنما تمطر السحب من تحتها. وقال له: هذه القلعة لك وذخائرها أموالك، فكن فيها وادعا آمنا إلى أن يستقيم طالعك؛ فالملوك مازالوا هكذا، يُدْبِرُ طالعُهم ثم يقبل؛ فقال له: لا أقدر على الثّبات فيها، والمقام بها، لأنّ التتر سوف يطلبوننى، ويقدمون إلى هاهنا، ولو شاءوا لوضعوا سروج خيلهم واحدا على واحد تحت القلعة؛ فبلغت إلى ذروتها، وصعِدوا عليها، فأخذونى قبضا باليد، فعلم أتليمش أنّ عقله قد تغير، وأنّ الله تعالى قد بدّل ما به من نعمة، فقال: فما الّذى تريد؟ قال: أريد أن تحملنى فى البحر المعروف ببحر المعبر إلى كِرْمان، فحمله فى نفر يسير من مماليكه إلى كِرْمان، ثم خرج منها إلى أطراف بلاد فارس، فمات هناك فى قرية من قرى فارس، وأخفِىَ موتُه، لئلا يقصدَه التتر، وتطلبَ جثّته [1].

---

(١) فى ابن الأثير ٩ : ٣٣ فصل واف عن خوارزم شاه وسيرته.

وجملة الأمر أنّ حاله مشتبهة ملتبسة لم يتحقّق على يقين ، وبقِيَ النّاس بعد هلاكه نحو سبع سنين ينتظرونه .

ويذهب كثير منهم إلى أنه حيّ مستتر ؛ إلى أن ثبت عند الناس كافّة أنه هلك .

***

فأمّا جرماغون فإنّه لما يئس من الظّفَر بخُوارزم شاه ، عاد من ساحل البحر إلى مازندران ، فملَكها في أسرع وقت؛ مع حصانتها وصعوبة الدُّخول إليها وامتناع قلاعها؛ فإنّها لم تزل ممتنعة على قديم الوقت؛ حتى إنّ المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة من العراق إلى أقصى خُراسان ، بقيت أعمال مازندران بحالها تؤدّى الخراج ، ولا يقدر المسلمون على دخولها ؛ إلى أيّام سليمان بن عبد الملك .

ولما ملكت التّتار مازندران، قتلوا فيها ونهبوا وسلبوا، ثم سلكوا نحو الرّيّ فصادفوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه ، ومعهنّ أموال بيت خوارزم شاه وذخائرهم؛ التي مالا يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة ، وهنّ قاصدات نحو الرّيّ، ليعتصِمْن ببعض القلاع المنيعة؛ فاستولى التّتار عليهنّ وعلى مامعهنّ بأسره، وسيّروه كلّه إلى جنكزخان بسمرقند وصمدوا صَمْد الرّيّ ، وقد كان اتّصل بهم أنّ محمدا خوارزم شاه قصدها كما يتسامع النّاس بالأراجيف الصحيحة والباطلة ، فوصلوها على حين غفلة من أهلها ، فلم يشعرْ بهم عسكر الرّيّ إلا وقد ملكوها ونهبوها ، وسبوا الحرم ، واسترقّوا الغلمان ، وفعلوا كلّ قبيح منكر فيها ، ولم يقيموا بها ، ومضوْا مسرعين في طلب خُوارزم شاه، فنهبوا في طريقهم مامرّوا به من المدن والقرى، وأحرقوا وخربوا، وقتلوا الذّكران والإناث ؛ ولم يبقوا على شيء ، وقصدوا نحو همذان ، فخرج إليهم رئيسها ، ومعه أموال جليلة قد جمعها من أهل همذان ؛ عينا وعُروضا وخيلا ، وطلب منهم الأمان لأهل البلد ، فأمّنوه، ولم يعرِضوا لهم

النّاجم فى جماعة من كُماته من قُوّاد الزّنج ؛ منهم المهلّبيّ ، وفارقه ابنه انكلانىّ وسليمان ابن جامع ، فكانا فى أوّل الأمر مجتمعين ، ثم افترقا فى الهزيمة ، فصادف سليمانَ بن جامع قومٌ من قوّاد الموفّق ، فحاربوه وهو فى جَمْع كثيف من الزّنج ، فقتِل جماعة من كُماته ، وظُفِرَ به فأسر ، وحُمِل إلى الموفّق بغير عهد ولا عَقْد ، فاستبشر النّاس بأسر سليمان ، وكثر التكبير والضجيج ، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثرأصحابه غناء ، وأُسِرَ بعده إبراهيم ابن جعفر الهمدانيّ ، وكان من عظماء قوّاده وأكابر أمراء جيوشه ، وأُسِرَ نادر الأسود المعروف بالحفّار ، وهو من قدماء قوّاد النّاجم ، فأمر الموفّق بتقييدهم بالحديد ، وتصييرهم فى شَذَاةٍ لأبى العباس ، ومعهم الرّجال بالسلاح ، وجدّ الموفّق فى طلب النّاجم ، وأمعن فى نهر أبى الخصيب ، حتى انتهى إلى آخره .

فبينا هو كذلك ، أتاه البشير بقتل النّاجم فلم يصدق ، فوافاه بشيرٌ آخر ، ومعه كفٌّ زَعَم أنها كفّه ، فقوِىَ الخبرُ عنده بعض القوّة ، فلم يلبث أن أتاه غلام من غلمان لؤلؤ يركضُ ومعه رأسُ النّاجم ، فوضعه بين يديه ، فعرضه الموفّق على مَنْ كان حاضراً تلك الحال معه من قوّاد المستأمنة ، فعرفوه ، وشهدوا أنه رأس صاحبه ، فخرّ ساجداً[1] ، وسجد ابنه أبو العباس ، وسجد القوّاد كلهم شكراً لله تعالى ، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وأمر برفع الرأس على قناة ، ونصبه بين يديه فرآه الناس ، وارتفعت الأصوات والضجيج .

* * *

قال أبو جعفر : وقد قيل : إنه لما أُحِيطَ بالناجم ، لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا المهلّبيّ ، فلما علما أنهما مقتولان افترقا ، فوقف النّاجم حتى وصل إليه هذا الغُلام ومعه جماعة من غلمان لؤلؤ ، فامتنع عن نفسه بسيفه حتى عجز عن الممانعة ، فأحاطوا به وضربوه بسيوفهم حتى سقط ، ونزل هذا الغلام فاحتزّ رأسه ، وأما المهلبيّ فإنّه قصد النهر المعروف

---

(١) بعدها فى الطبرى : « على ما أولاه وأبلاه » .

بنهر الأمير ،فقذف بنفسه يومُ النّجاة ، وقبل ذلك كان ابن التاجم وهو المعروف بأنكلانى فارق أباه ، ومضى يومَ النهر المعروف بالديناري ، متحصنا فيه بالأدغال والآجام،فلم يظفر بهما ذلك اليوم ، ودلّ الموفق عليهما بعد ذلك .

وقيل له : إنّ معهما جمعاً من الزنج وجماعة من جِلّة قوّادهم ،فأرسل غلمانه فى طلبهما، وأمرهم بالتضييق عليهما ، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم،وأعطوْا بأيديهم . فظفر بهم الغلمان ، وحملوهم إلى للموفّق ، فقتل منهم جماعة ، وأمرَ بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلانى بالحديد والرجال الموكّلين بهما .

***

قال أبو جعفر : وانصرف فى هذا اليوم وهو يوم السبت ، لليلتين خلتا من صفر أبو أحمد من نهر أبى الخصيب، ورأس الناجم منصوب بين يديه على قناةٍ فى شذاة يُخترقُ به فى النهر ، والناس من جانبى النهر ينظرون إليه حتى وافى دِجلة ، فخرج إليها ، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمدانيّ مصلوبان أحياء فى شذاتين عن جانبيه، حتى وافى قصره بالموفقية . هذه رواية أبى جعفر وأكثر الناس عليهما .

***

وذكر المسعوديّ فى كتاب " مروج الذهب "[1] أنّ الناجم ارتُثّ ،وحُمِل إلى أبى أحمد وهو حىّ ، فسلّمه إلى ابنه أبى العباس ، وأمر بتعذيبه ،فجعله كردناجا[2] على النار وجلده ينتفخ ، ويتفرقع حتى هلك .

والرواية الأولى هى الصحيحة ، والذى جعل كردناجا هو قرطاس الذى رمى أبا أحمد

---

(١) مروج الذهب ٤ : ١٩٥ .

(٢) الكردناج ، معناه الكباب ، أو ما يشبهه «وانظر دوزى» .

وذلك فى شهر رجب من سنة ثمانى عشرة وستمائة ، ودخلوا المدينة بالسيف ،وقاتلهم الناس فى الدُّروب ، وبطل السلاح للازدحام ، واقتتلوا بالسكاكين ، فقتِلَ من الفريقين مالا يحصى ، وظهر التتار على المسلمين فأفنوهم قتلاً ، ولم يسلم منهم إلا من كان له نفَقٌ فى الأرض يستخفى فيه . ثم ألقوا النار فى البلد فأحرقوها، ورحلوا إلى مدينة أرْدَبِيل وأعمال أذربيجان ، فملكوا أردبِيل ، وقتلوا فيها ، فأكثروا .

ثم ساروا إلى تِبريز ، وكان بها شمس الدين عثمان الطُّغرائىّ ، قد جمع كلمة أهلها بعد مفارقة صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان للبلاد ، خوفاً من التتار ، ومقامه بنقجُوان، فقوّى الطغرائىّ نفوسَ الناس على الامتناع ، وحذّرهم عاقبةَ التخاذل ،وحصّن البلد. فلما وصل التتار ، ورأوا اجتماع كلمة المسلمين وحصانة البلد ، طلبوا منهم مالاً وثيابا، فاستقرّ الأمرُ بينهم على شىء معلوم ، فسيّروه إليهم ، فلما أخذوه رحلُوا إلى بيْلَقان . فقاتلهم أهلُها . فملكها التتار فى شهر رمضان من هذه السنة ، ووضعوا فيهم السيف حتى أفنوْهم أجمعين .

ثم ساروا إلى مدينة گنجَة ، وهى أم بلاد أرّان ، وأهلُها ذوو شجاعة وبأس وجلَد، لمقاومتهم الكرج ، وتدرّبهم بالحرب ، فلم يقدر التتار عليهم وأرسلوا إليهم يطلبون مالا وثيابا ، فأرسلوه إليهم . فساروا عنهم ، فقصدوا الكرْج ، وقد أعدُّوا لهم ، فلما صافوهم هرب الكرج ، وأخذهم السيف ، فلم يسلَمْ إلا الشريد ، ونهبت بلادهم وأخربت ولم يُوغل التتار فى بلاد الكرْج ، لكثرة مضايقها ودَرْبنداتها[1] ، فقصدوا دَرْبَنْد شروان فحصروا مدينة شماخِى ، وصعدوا سورَها فى السلالم ، وملكوا البلد بعد حرْبٍ شديدة ، وقتلوا فيه فأكثروا[2] .

---

(١) الدربند : الباب وانظر معجم البلدان .
(٢) ابن الأثير ٩ : ٣٤٠

فلما فرغوا ، أرادوا عبورَ الدَّرْبَنْد ، فلم يقدموا عليه ، فأرسلوا إلى شروان شاه ملك الدربند ، فطالبوه بإنفاذ رسولٍ يسعى بينه وبينهم فى الصُّلح ، فأرسل إليهم عشرة من ثقاته، فلمّا وصلوا إليهم جمعوهم ، ثم قتلوا واحداً منهم بحضور الباقين ، وقالوا للتسعة : إنْ أنتم عرّفتمونا طريقاً نعبرُ فيه فلكم الأمان ، وإلّا قتلناكم كما قتلنا صاحبَكم، فقالوا لهم : لا طريق فى هذا الدَّربند ، ولكن نعرّفكم موضعاً هو أسهل المواضع لعبور الخيل .

وساروا بين أيديهم إليه ، فعبروا الدربند ، وتركوه وراء ظهورهم ؛ وساروا فى تلك البلاد ؛ وهى مملوءة من طوائف مختلفة منهم اللّان واللّكز وأصناف من التّرك ، فنهبوها وقتلوا الكثير من ساكنيها ، ورحلوا إلى اللّان — وهم أمم كثيرة — وقد وصلهم خبرُهم ، وجمعوا وحذروا ، وانضاف إليهم جموعٌ من قفجاق ، فقاتلوهم فلم يظفرْ أحدُ العسكرين بالآخر ؛ فأرسل التتار إلى قفجاق: أنتم إخواننا ، وجنسنا واحد ، واللّان ليسُوا من جنسكم لتنصروهم ، ولا دينُهم دينكم ، ونحن نعاهدكم ألّا نعرِض لكم ، ونحمل إليكم من المال والثّياب ما يستقرّ بيننا وبينكم ؛ على أن تنصرفوا إلى بلادكم .

فاستقرّ الأمر بينهم على مالٍ وثياب حَمَلها التتار إليهم ؛ وفارقت قفجاق اللّان ، فأوقع التتار باللّان ، فقتلوهم ، ونهبوا أموالهم ، وسبوْا نساءهم . فلما فرغوا منهم ساروا إلى بلاد قفجاق وهم آمنون متفرّقون ، لما استقرّ بينهم وبين التتار من الصُّلح ، فلم يشعروا بهم إلا وقد طرقُوهم ، ودخلوا بلادَهم ، فأوقعوا بهم الأول فالأول ، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم ؛ وسمع ما كان بعيد الدار من قفجاق بما جرى .

ففرّوا من غير قتال ، فأبعدوا ، فبعضهم بالغياض وبعضهم بالجبال ، وبعضهم لحقوا ببلاد الروس . وأقام التّتار فى بلاد قَفْجاق ، وهى أرض كثيرة المراعى فى الشّتاء ، وفيها أيضاً أماكن باردة فى الصّيف ، كثيرة المراعى ، وهى غياضٌ على ساحل البحر .

***

ثم سارت طائفة منهم إلى بلاد الرُّوس ؛ وهى بلاد كثيرة عظيمة ، وأهلها نصارى ؛ وذلك فى سنة عشرين وستمائة . فاجتمع الرُّوس وقفجاق عن منعهم عن البلاد ؛ فلما قاربهم التتار ، وعرفوا اجتماعهم ، رجعوا القهقرى إيهاماً للروس ؛ أنّ ذلك عن خوفٍ وحَذَر ؛ فجدّوا فى اتباعهم ؛ ولم يزل التتار راجعين ، وأولئك يقفُون آثارهم اثنى عشر يوما .

ثم رجعت التتار على الرُّوس وقفجاق ، فأثخنوا فيهم قتلاً وأسْراً ، ولم يسلم منهم إلّا القليل ، ومن سلِم نزل فى المراكب ، وخرج فى البحر إلى الساحل الشامىّ ، وغرق بعض المراكب .

وهذه الوقائع كلّهـا تولّاها التتر المغرّبة ، الذين قادهم جرماغون ، فأمّا ملكهم الأكبر جنكزخان ، فإنه كان فى هذه المدة بسمرْقند ماوراء النهر ، فقسم أصحابه أقساما ؛ فبعث قسما منهم إلى فَرْغانة وأعمالها ، فملكوها ، وبعث قسما آخر إلى تَرْمِذ وما يليها فملكوها ، وبعث قسما آخر إلى بَلْخ وما يليها من أعمال خراسان

فأمّا بلْخ ؛ فإنهم أمّنوا أهلها ، ولم يتعرّضوا لها بنهب ولاقتل ، وجعلوا فيها شِحْنَة[1] وكذلك فارِيات وكثير من المدن ، إلا أنهم أخذوا أهلها ، يقاتلون بهم من يمتنع عليهم ؛ حتى وصلوا إلى الطّالِقان ، وهى عدّة بلاد ، وفيها قلعة حصينة ، وبها رجال أنجاد ، فأقاموا على حصارها شهورا فلم يفتحوها ، فأرسلوا إلى جنكزخان يعرّفونه عجزهم عنها ؛ فسار بنفسه ، وعَبَرَ جَيْحون ، ومعه من الخلائق ما لايحصى ؛ فنزل على هذه القلعة ، وبنى حَوْلها شِبْهَ قلعة أخرى من طين وتراب وخشب وحطب ، ونَصَب عليها المنجنيقات ، ورمى القلعة بها ، فلما رأى أهلُها ذلك فتحوها ، وخرجوا وحملوا حَمْلَةً واحدة ، فقتِل منهم مَنْ قتل ، وسلِم مَنْ سَلِم ، وخرج السالمون فسلَكوا تلك الجبال والشِّعاب ، ناجين بأنفسهم ، ودخل التتار القلعة ، فنهبوا الأموال والأمتعة ، وسَبَوُا النساء والأطفال

(١) الشحنة فى البلد : من يقوم فيها بالكفاية لضبطها من جهة السلطان .

ثم سيّر جنكزخان جيشا عظيما مع أحد أولاده إلى مدينة مَرْو ، وبها مائتا ألف من المسلمين ؛ فكانت بين التتار وبينهم حروب عظيمة شديدة ، صبَر فيها المسلمون ثم انهزموا ، ودخلوا البلد ، وأغلقوا أبوابه ، فحاصره التتار حصارا طويلا ، ثم أمّنوا متقدم البلد ، فلما خرج إليهم فى الأمان ، خلع عليه ابن جنكز خان وأكرمه ، وعاهده ألّا يتعرض لأحدٍ من أهل مَرْو ، ففتح الناس الأبواب فلما تمكنوا منهم استعرضوهم بالسيف عن آخرهم ، فلم يُبقُوا منهم باقية ، بعد أن استصفوْا أرباب الأموال عقيب عذاب شديد عذّبوهم به .

ثم ساروا إلى نيسابور ، ففعلوا به ما فعلوا بمَرْوَ من القتل والاستئصال ، ثم عدوا إلى طُوس ، فنهبوها وقتلوا أهلَها ، وأخرجوا المشهد الذى به علىّ بن موسى الرضا عليه السلام والرشيد هارون بن المهدىّ ، وساروا إلى هَرَاة فحصروها ، ثم أمّنوا أهلها ، فلما فتحوها قتلوا بعضهم ، وجعلوا على الباقين شِحْنة ، فلما بعُدوا وثب أهلُ هَراة على الشِّحنة فقتلوه ، فعاد عليهم عسكر من التتار ، فاستعرضوهم بالسيف ، فقتلوهم عن آخرهم .

ثم عادوا إلى طَالَقان ، وبها ملكهم الأكبر جنكزخان ، فسيّر طائفةً منهم إلى خُوارزم ، وجعل فيها مقدّم أصحابه وكبراءهم ، لأن خوارزم حينئذ كانت مدينة الملك ، وبها عسكر كثير من الخوارزميّة ، وعوامّ البلد معروفون بالبأس والشجاعة ، فساروا ووصلوا إليها ، فالتقى الفئتان ، واقتتلوا أشد قتال سُمِع به ، ودخل المسلمون البلد ، وحصرتهم التتار خمسة أشهر ، وأرسل التتار إلى جنكزخان يطلبون المدَد ، فأمدهم بجيش من جيوشه ، فلما وصل قويَتْ منّتهم به وزحَفُوا إلى البلد زحفاً متتابعا ، فملكوا طرَفاً منه ، وولجوا المدينة ، فقاتلهم المسلمون داخل البلد ، فلم يكن لهم به طاقة ، فملكوه وقتلوا كلّ مَنْ فيه ، فلما فرغوا منه وقضَوا وطرَهم من القتل والنهب ، فتحوا السِّكْر[1] الذى يمنع

---

(١) السكر بالكسر : ما سد به النهر .

ماء جيحون عن خوارزم ، فدخل الماء البلد ، فغرق كله ، وانهدمت الأبنية ، فبقى بحراً ، ولم يسلم من أهل خوارزم أحد البتة ، فإنّ غيره من البلاد كان يسلم نفرٌ يسير من أهلها، وأما خوارزم فمن وقف للسيف قُتِل ، ومن استخفَى غرّقه الماء أو أهلكه الهدْم ، فأصبحت خوارزم يبابا .

* * *

فلما فرغ التّتر من هذه البلاد ، سيّروا جيشاً إلى غزنة ، وبها حينئذ جلال الدين منكبرى بن محمد خوارزم شاه مالكها ، وقد اجتمع إليه من سَلِمَ من عسكر أبيه وغيرهم، فكانوا نحو ستين ألفا ، وكان الجيش الذى سار إليهم التتار اثنى عشر ألفا ، فالتقَوْا فى حدود غزْنة ، واقتتلوا قتالا شديداً ثلاثة أيام ، ثم أنزل الله النصر على المسلمين، فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وتحيّز الناجون منهم إلى الطالقان ، وبها جنكزخان، وأرسل جلال الدين إليه رسولا يطلب منه أن يعين موضعاً للحرب ، فاتّفقوا على أن يكون الحرب بكابُل ، فأرسل جنكز خان إليها جيشاً ، وسار جلال الدين إليها بنفسه، وتصافّوا هناك ، فكان الظفر للمسلمين ، وهرب التتار فالتجئوا إلى الطالقان ، وجنكز خان مقيم بها أيضا ، وغنم المسلمون منهم غنائمَ عظيمةً ، فجرت بينهم فتنة عظيمة فى الغنائم ، وذلك لأنّ أميراً من أمرائهم اسمه بغراق ، كان قد أبلى فى حرب التّتر هذه ؛ جرَتْ بينه وبين أمير يعرف بملك خان نسيب خوارزم شاه مقاولةٌ أفضتْ إلى أن قتل أخ لبغراق ، فغضب وفارق جلال الدين فى ثلاثين ألفا ، فتبعه جلال الدين واسترضاه واستعطفه، فلم يرجع ؛ فضعُف جانب جلال الدين بذلك ، فبينا هو كذلك وصله الخبر أنّ جنكز خان قد سار إليه من الطالقان بنفسه وجيوشه ، فعجز عن مقاومته ؛ وعلم أنه لا طاقة له به، فسار نحو بلاد الهند وعَبَرَ نهر السند ، وترك غزْنة شاغرة كالفريسة للأسد ، فوصل إليها

جنكز خان فملكها ، وقتل أهلها وسَبَى نساءها ، وأخرب القصور ، وتركها كأمس الغابر .

ثم كانت لهم بعد ملك غزنة واستباحتها وقائعُ كثيرةٌ مع ملوك الروم بنى قلج أرسلان لم يوغلوا فيها ، فى البلاد وإنما كانوا يتطرّقونها وينهبون ماتاخمهم منها ؛ وأذعن لهم ملوك فارس وكِرْمان والتيز ومُكران بالطاعة ، وحملوا إليهم الإتاوة ، ولم يبق فى البلاد الناطقة باللسان الأعجمىّ بلد إلا حكم فيه سيفُهم أو كتابهم ، فأكثر البلاد فتلوا أهلها ، وسبق السيف فيهم العذّل ، والباقى أدّى الإتاوة إليهم رغماً ، وأعطى الطاعة صاغراً ، ورجع جنكزخان إلى ماوراء النهر ، وتوفى هناك .

وقام بعده ابنه قاآن مقامه ، وثبت جرماغون فى مكانه بأذربيجان . ولم يبقَ لهم إلا أصبهان ؛ فإنهم نزلوا عليها مراراً فى سنة سبع وعشرين وستمائة . وحاربهم أهلها . وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة ، ولم يبلغوا منها غرضاً ، حتى اختلف أهلُ أصبهان فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان : حنفيّة وشافعيّة ، وبينهم حروب متّصِلة وعصبيّة ظاهرة ، فخرج قومٌ من أصحاب الشافعىّ إلى من يجاورهم ويتاخمهم من ممالك التتار ؛ فقالوا لهم : اقصدوا البلد حتى نسلّمه إليكم ، فنقِل ذلك إلى قاآن بن جنكز خان بعد وفاة أبيه ، والملك يومئذ منوطٌ بتدبيره ، فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدّة التى بنوها وسمّوها قراحرم ؛ فعبرت جيحون مغرّبة ، وانضمّ إليها قوم ممّن أرسله جرماغون على هيئة المددِ لهم ، فنزلوا على أصفهان فى سنة ثلاث وثلاثين المذكورة وحصروها ، فاختلف سيفا الشافعية والحنفيّة فى المدينة ، حتى قتِل كثير منهم ، وفتحت أبوابُ المدينة ، وفتحها الشافعيّة على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفيّة ، ويعفوا عن الشافعيّة ؛ فلمّا دخلوا البلد بدأوا بالشافعية ، فقتلوهم قتلا ذريعا ؛ ولم يقفوا مع العهد الذى عهدوه لهم ، ثم قتلوا الحنفيّة ، ثم قتلوا سائر الناس ،

وسَبَوُا النساء ، وشقُّوا بطونَ الحبالى،ونهبوا الأموال، وصادروا الأغنياء،ثم أضرموا النار، فأحرقوا أصبهان ، حتى صارت تلولاً من الرماد .

* * *

فلمّا لم يبق لهم بلدٌ من بلاد العجم إلا وقدْ دوّخوه ، صمدوا نحو إربل فى سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وقد كانوا طرقوها مراراً ، وتحيّفوا بعضَ نواحيها فلم يُوغِلوا فيها، والأمير المرتّب بها يومئذ باتكين الرومىّ ، فنزل عليها فى ذى القعدة من هذه السنة منهم نحو ثلاثين ألف فارس ، أرسلهم جرماغون ، وعليهم مقدّم كبير من رؤسائهم يعرف بجكتاى، فغاداها القتال وروّاحها ، وبها عسكر جمّ من عساكر الإسلام ، فقتِل من الفريقين خلق كثير ، واستظهر التتار ، ودخلوا المدينة، وهرّب الناس إلى القلعة ، فاعتصمُوا بها،وحصرهم التتّار ، وطال الحصار حتى هلك الناس فى القلعة عطشا ؛ وطلب باتكين منهم أن يصالحوه عن المسلمين بمالٍ يؤديه إليهم ؛ فأظهرُوا الإجابة ، فلما أرسل إليهم ماتقرّر بينهم وبينه ، أخذوا المال وغدرُوا به ، وحملوا على القلعة بعد ذلك حملاتٍ عظيمة ، وزحفوا إليها زحفا متتابعا ، وعلقوا عليها المنجنيقات الكثيرة ، وسيّر المستنصر بالله الخليفة جيوشَه مع مملوكه وخادم حضرته وأخصّ مماليكه به شرف الدين إقبال الشرابى ؛ فساروا إلى تكريت ، فلما عرف التتر شخوصَهم رَحَلوا عن إربل ، بعدأن قتلوا منها مالا يُحصى ؛ وأخربوها وتركوها كجوف حمار ، وعادوا إلى تِبريز ، وبها مقام جرماغون ، وقد جعلها دارَ مُلكه .

فلما رَحَلُوا عن إربل ، عاد العسكر البغدادىّ إلى بغداد ؛ وكانت للتتار بعد ذلك نهضات وسرايا كثيرة إلى بلاد الشام ، قتلوا ونهبُوا وسَبَوْا فيها ؛ حتى انتهت خيولهم إلى حلَب ، فأوقعوا بها ، وصانعهم عنها أهلُها وسلطانها ، ثم عمدوا إلى بلاد كَيْخسْرُو صاحب الروم ؛ وذلك بعد أن هلك جرماغون ؛ وقام عوضه المعروف ببابايسيجو ؛ وكان

قد جمع لهم ملك الروم قضّه وقضيضه ، وجيشه ولفيفه ؛ واستكثر من الأكراد المتمرية، ومن عساكر الشام وجُنْد حلب ؛ فيقال : إنه جمع مائة ألف فارس وراجل ، فلقيه التّتار فى عشرين ألفا ، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة ، قتلوا فيها مقدّمته ، وكانت المقدمة كلها أو أكثرها من رجال حلب ، وهم أنجاد أبطال ؛ فقتلوا عن آخرهم ، وانكسر العسكر الرومىّ ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكيّة ، فاعتصم بها وتمزّقت جموعه ، وقُتِل منهم عدد لا يحصى ، ودخلت التّتار إلى المدينة المعروفة بقَيْسارِيّة ، ففعلوا فيها أفاعيل منكرة من القتل والنهب والتحريق ، وكذلك بالمدينة المعروفة بسيواس وغيرها من كبار المدن الروميّة، وبَخَع لهم صاحب الروم بالطاعة ،وأرسل إليهم يسألهم قبولَ المال والمصانعة ، فضربوا عليه ضريبةً يؤدّيها إليهم كلّ سنة ، ورجعوا عن بلاده .

وأقاموا على جُملة السكون والموادعة للبلاد الإسلامية كلّها ،إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وستّمائة. فاتّفق أنّ بعض أمراء بغداد وهو سليمان بن برجم، وهو مقدّم الطائفة المعروفة بالإيواء ، وهى من التركمان ، قتلَ شِحْنة من شِحَنهم فى بعض قلاع الجبل يعرف بخليل بن بدر ، فأثار قتله أن سار من تِبريز عشرة آلاف غلام منهم ، يطوون المنازل ، ويسبِقُون خبرهم، ومقدّمهم المعروف بجكتاى الصغير ، فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد ، وذلك فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة فى فصل الخريف، وقد كان الخليفة المستعصم بالله ، أخرَج عسكره إلى ظاهر سُور بغداد على سبيل الاحتياط ،وكان التتر قد بلغهم ذلك، إلّا أنّ جواسيسهم غرّتهم ، وأوقعت فى أذهانهم أنه ليس خارج السُّور إلا خيام مضروبة وفساطيطُ مضروبة ،لا رجالَ تحتها ،وأنكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادَهم وثَقَلهم، ويكون قُصارَى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزِمُوا إلى البلد ، ويعتصموا بجدرانه ، فأقبلت

التتر على هذا الظنّ ،وسارت على هذا الوهم ، فلماقربوا من بغداد ، وشارفوا الوصول إلى العسكر ، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين إقبالا الشرابيّ إلى ظاهر السور ، وكان خروجه فى ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ فإنّ التتار لو وصلُوا وهو بعد لم يخرج ،لاضطرب العسكرُ، لأنّهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم ، بل كلّ واحد منهم أمير نفسه ، وآراؤهم مختلفة ، لايجمعهم رأى واحد ، ولا يحكم عليها حاكم واحد ، فكانوا فى مظنّة الاختلاف والتفرّق ، والاضطراب والتشتت ، فكانَ خروج شرف الدين إقبال الشرابيّ فى اليوم السادس عشر من هذا الشهر المذكور ، ووصلت التتر إلى سور البلد فى اليوم السابع عشر ، فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفًّا واحدا ، وترتب العسكر البغداديّ ترتيبا منتظما ؛ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم، مالم يكونوا يظنّونه ولا يحسبونه ، وانكشف ذلك الوَهْم الذى أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان .

وكان مدبّر أمر الدولة والوزارة فى هذا الوقت ،هو الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقميّ ، ولم يحضر الحرْب ، بل كان ملازما ديوانَ الخلافة بالحضرة ؛ لكنه كان يمدّ العسكر الإسلاميّ من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه ويقفون عنده ، فحملت التّتار على عسكر بغداد حملات متتابعة ، ظنوا أنّ واحدةً منها تهزمهم، لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم ، وأنّ الرعب والخوف منهم يكفى ويغنى عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم، فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثُبوت ، ورشقوهم بالسهام ، ورشقت التتار أيضا بسهامها ، وأنزل الله سكينتَه على عسكر بغداد ، وأنزل بعد السكينة نصره ، فما زال العسكر البغداديّ تظهر عليه أمارات القوّة ، وتظهر على التّتار أمارات الضعف والخذلان إلى أن حَجَزَ اللّيلُ بين الفريقين ، ولم يصطدم الفيلقان وإنما

كانت مناوشاتٌ وحَمَلات خفيفة لا تقتضى الاتصال والممازجة ، ورشقٌ بالنُّشاب شديد .

فلما أظلم الليل ، أوقد التتار نيرانا عظيمة ؛ وأوهموا أنّهم مقيمون عندها ، وارتحلوا فى الليل راجعين إلى جهة بلادهم ، فأصبح العسكر البغدادىّ ، فلم ير منهم عيناً ولا أثراً ، وما زالوا يطوُون المنازل ، ويقطعون القُرى عائدين حتى دخلوا الدربند ، ولحقوا ببلادهم .

* * *

وكان ما جرى من دلائل النبوّة ، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وَعَد هذه الملّة بالظهور والبقاء إلى يوم القيامة ، ولو حَدَث على بغداد منهم حادثة ، كما جرى على غيرها من البلاد ، لانقرضت ملّة الإسلام ، ولم يبق لها باقية .

وإلى أن بلغنَا من هذا الشرح إلى هذا الموضع ، لم يذعَر العراق منهم ذاعر بعد تلك النَّوْبة التى قدّمنا ذكرها .

* * *

قلت : وقد لاح لى من فحوى كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا بأس على بغداد والعراق منهم ، وأن الله تعالى يكفى هذه المملكة شرّهم ، ويردّ عنها كيدَهم ، وذلك من قوله عليه السلام : « ويكون هناك استحرار قتل » ، فأتى بالكاف ، وهى إذا وقعت عقيب الإشارة أفادت البعد ، تقول للقريب : هنا ، وللبعيد هناك ، وهذا منصوص عليه فى العربية ؛ ولو كان لهم استحرار قتل فى العراق لما قال : « هناك » بل كان يقول : « هنا » ، لأنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة فى البَصْرة ؛ ومعلوم أن البصرة وبغداد شىء واحدٌ وبلد واحد ؛ لأنهما جميعاً من إقليم العراق ؛ وملكهما ملك واحد ، فيلمح هذا الموضع ، فإنه لطيف .

* * *

وكتبتُ إلى مؤيد الدين الوزير عقيب هذه الوقعة التى نصر فيها الإسلام ، ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم أبياتا أنسب إليه الفتح ، وأشير إلى أنه هو الذى قام بذلك وإن لم يكن حاضرا له بنفسه ؛ وأعتذر إليه عن الإغباب بمديحه ؛ فقد كانت الشواغل والقواطع تصدّ عن الانتصاب لذلك :

أبقَى لنَا اللهُ الوزيرَ وحاطهُ بكتائبٍ من نصرِه ومقانبِ(١)
وامتدّ وارفُ ظِلّه لنزيلـه وصفتْ متونُ غديرِه للشاربِ
يا كالئ الإسلام إذ نزلتْ به فرغاء تشهق بالنجيع السالبِ(٢)
فى خُطّـة بَهْماء دَيْمُومِيّة لا يهتدى فيها السُّلَيْكُ للاحبِ(٣)
لا يَعتلى سَلِسَاتُها مرهوبة الـ إيناس جَلْسٌ لا تدرّ لعاصبِ
فرّجْتَ غمرتَها بقلب ثابت فى حملة ذعرى ورأى ثاقبِ
ما غبتَ ذاك اليومَ عن تدبيرها كم حاضرٍ يَمضى بسيف الغائبِ !
عُمَرُ الّذى فتحَ العراق وإنما سَعْدٌ حسام فى يمين الضاربِ(٤)
أثنِي عليك ثناء غيرِ موارب وأجيدُ فيك المدحَ غير مراقبِ
وأنا الذى يهواك حبًّا صادقا متقادماً ، ولربّ حبٍّ كاذبِ
حُبًّا ملأتُ به شباب جوانحى يفعاً ، وها أنا ذو عِذار شائبِ

---

(١) المقانب : جمع مقنب : الجماعة من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

(٢) الفرغاء : الطعنة الواسعة .

(٣) البهماء : التى لا يهتدى فيها ، والديمومية : منسوب إلى الديموم وهو الفلاة أيضاً . والسليك أحد لصوص العرب وفتا كهم واللاحب : الطريق الواضح .

(٤) هو عمر بن الخطاب ؛ فتحت العراق فى عهده ؛ وسعد بن أبى وقاص قائد المسلمين يوم القادسية .

إنّ القريض وإن أغبّ متيّمٌ ‏ ‏ ‏ ‏ بـكلًا ، وربّ عجائبٍ كواظبِ

ولقــد يخالِصُك القَصِيّ وربّما ‏ ‏ ‏ ‏ يُمْنَى بودّ مماذقٍ متقاربِ

سدّت مسالـكه همومٌ جمجمتْ ‏ ‏ ‏ ‏ بالفِـكر حتّى لا يمضّ لحـالبِ

ومن العناء مغلب فى حظّه ‏ ‏ ‏ ‏ يبغى مغالَبة القضــاء الغـالبِ

وهى طويلة ؛ وإنما ذكرنا منها مااقتضته الحال .

(١٢٩)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام فى ذكر المكاييل والموازين :

عِبَادَ اللهِ ، إنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَـذِهِ الدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ؛ أَجَلٌ مَنْقُوصٌ ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ ؛ وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَاراً ، وَالشَّرُّ إِلَّا إِقْبَالًا ، وَالشَّيْطَانُ فِي هَـلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعاً ؛ فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُـدَّتُهُ ، وَعَمَّتْ مَـكِيدَتُهُ ، وَأَمْـكَنَتْ فَرِيسَتُهُ .

اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ ؛ فَهَلْ تُبْصِرُ إِلَّا فَقِيراً يُـكَابِدُ فَقْراً ، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً ، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً !

أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ ، وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ ، وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَـكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ !

وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالَةٍ لَا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ ؛ اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ ! فَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

ظَهَرَ الْفَسَادُ فَلَا مُنْـكِرٌ مُغَيِّرٌ ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ . أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِـهِ ، وَتَـكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ ! هَيْهَاتَ لَا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ .

لَعَنَ اللهُ الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!

***

الشرح :

أثوياء : جمع ثوِيّ ؛ وهو الضيف، كقوىّ وأقوياء. ومؤجّلون : مؤخّرون إلى أجل، أى وقت معلوم .

ومديُون : مُقْرَضُون؛ دِنْتُ الرجل أقرضتُه ؛ فهو مدين ومديون، ودنت أيضا ،إذا استقرضت ، وصار علىّ دين ؛ فأنا دائن ، وأنشد :

نَدِينُ وَيَقْضِي اللهُ عَنَّا ، وقَدْ نَرَى مصارِعَ قومٍ لايدِينُون ضُيَّما[1]

ومقتضَوْن : جمع مقتضَى ، أى مطالَب بأداء الدين ؛ كرتضوْن جمع مرتَضى ، ومصطفوْن جمع مصطفَى .

وقوله : « أجل منقوص » ، أى عمر ، وقد جاء عنهم : أطال الله أجلك ، أى عمرك وبقاءك . والدائب : المجتهد ذو الجِدّ والتعب . والكادح : الساعى .

ومثل قوله : « فربّ دائب مضيّع ، وربّ كادح خاسر » ، قول الشاعر :

إذا لم يكنْ عونٌ من اللهِ للفتَى فأكثرُ ما يجنِي عليـهِ اجتهادُهُ

ومثله :

إذا لم يكنْ عونٌ من الله للفتَى أتتهُ الرّزَايا من وجوه الفوائدِ

وهو كثير ؛ والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾[2] ويروى : « فربّ دائب مضيع » ، بغير تشديد .

---

(١) اللسان ١٧ : ٣٦ ؛ ونسبه للعجير السلولى .

(٢) سورة الغاشية ٢ ـ ٤

وقوله : « وأمكنَتْ فريستهُ » ، أى وأمكنته ؛ لحذف المفعول .

وقوله : « فاضرب بطرفك » لفظة فصيحة ، وقد أخذَها الشاعر فقال :

فاضْرِبْ بطرْفِك حيث شئت فلن ترى إلّا بخيلا . . . .

والوفر : المال الكثير ؛ أى بخِل ولم يؤدّ حق الله سبحانه ، فكثر مالُه .

والوَقْر ، بفتح الواو : الثِّقَل فى الأذن . وروى « المنغَصة » ، بفتح الغين .

الحُثالة : السّاقط الردىء من كلّ شىء .

وقوله : « لاتلتقى بذمّهم الشفتان » ، أى يأنَف الإنسان أن يذمّهم ؛ لأنه لابدّ فى الذمّ من إطباق إحدى الشفتين على الأخرى ، وكذلك فى كلّ الكلام .

وذهابا عن ذكرم ، أى ترفّعا ، يقال : فلان يذهب بنفسه عن كذا ، أى يرفعها .

ولا زاجر مزدجِر ، أى ليس فى الناس مَنْ يزجُر عن القبيح وينزجر هو عنه .

ودار القدْس : هى الجنّة . ولا يُخدَع الله عنها ، لأنه لا تخفى عليه خافية ؛ ولا يجوز عليه النّفاق والتمويه . ثم لعن الآمر بالمعروف ولا يفعله ، والناهىَ عن المنكر ويرتكبه؛ وهذا من قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

ولست أرى فى هذه الخطبة ذكراً للموازين والمكاييل ؛ التى أشار إليها الرضىّ رحمه الله ؛ اللّهم إلا أن يكون قوله عليه السلام : « وأين المتورّعون فى مكاسبهم » ، أو قوله: « ظهر الفساد » ، ودلالتهما على الموازين والمكاييل بعيدة .

* * *

[نبذ من أقوال الحكماء والصالحين]

واعلم أنّ هذه الخطبة قد اشتملتْ عَلَى كلام فصيح ، وموعظة بالغة من ذكر الدنيا

وذكر أهلها ؛ ونحن نذكر كلماتٍ وردت عن الحكماء والصالحين تناسبها : عَلَى عادتنا فى إيراد الأشباه والنظائر .

قال بعضُ الصالحين : ما أدرى كيف أعجب من الدنيا ! أمِنْ حُسْن منظرِها وقبح مَخبرِها ، أم من ذمّ الناس لها ، وتناحُرِهم عليها !

قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ قال : آسفاً عَلَى أمسى ، كارهاً ليومى ، متّهماً لغدى.
قيل لأعرابىّ : كيف ترى الدهر ؟ قال : خَدُوعاً خلوباً ، وثوباً غلوباً .

قيل لصوفىّ : لم تركتَ الدنيا ؟ قال : لأنى مُنِعتُ صفوَها ، وامتنعت من كدرها.
وقيل لآخر : لم تركتَ الدّنيا ؟ قال : لأنّى عدمت الوسيلة إليها إلا بمشقها،وأعشَقُ ما أكون لها أغدرُ ماتكون بى . وأنشد لبشر الحافى :

قرير العين لا ولدٌ يموتُ ولا حذِرٌ يبادِرُ مايفوتُ
رخىّ البال ليس له عيالٌ خلىٌّ من حُرِبت ومن دُهيت
قضى وطر الصّبا وأفاد عِلماً فغايته التفرّد والسُّكوتُ
وأكبر همّه مما عليـــــــه تذابح مَنْ ترى خلقٌ وقُوتُ

قال أبو حيّان:سمعت ابن القصّاب الصوفى،يقول : اسمعْ واسكت ، وانظر واعجب،
قال ابن المعتز :

ملّ سقامى عوّدهْ وخان دَمْعِى مُسْعِدُهْ
وضاعَ من ليلى غدُهْ طوبَى لعين تجـــدهْ
قلّت من الدهر يدُهْ يفنَى ويبقى أبدهْ
والموت ضارٍ أسدُهْ وقاتلٌ مَنْ يلِدهْ

ومن الشعر القديم المختلف فى قائله :

قِصَرُ الجـــديد إلى بِلًى ... والوصل فى الدُّنيا انقطاعُهْ
أىّ اجتماع لم يُصَـــدْ ... بِفرقٍ منهـــا اجتماعُهْ
أم أىّ شَعْبٍ ذى التئـــام لم يبدِّدْهُ انصـــداعُهْ
أم أىّ منتفـــع بشى ... ءٍ ثم تمّ له انتفاعُـــهْ
يابؤسَ للـــدّهر الّذى ... مازال مختلفاً طباعُـــهْ
قد قيل فى مثلٍ خلَا : ... « يكفيكَ مِن شرٍّ سَماعُهْ »

قيل لصوفى : كيف ترى الدّنيا ؟ قال : وما الدّنيا ؟ لا أعرف لها وجوداً ؛ قيل له : فأين قلبُك ؟ قال: عند ربّى ، قيل : فأين ربك ؟ قال : وأين ليس هو !

قال ابن عائشة : كان يقال : مجالسةُ أهل الدّيانة تجلُو عن القلوب صدأ الذنوب ، ومجالسة ذوى المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق ، ومجالسة العلماء تزكّى النفوس .

ومن كلام بعض الحكماء الفصحاء : كُنْ لنفسك نصيحاً ، واستقبل توبةً نصوحا ، وازهَدْ فى دارٍ سمّها ناقع،وطائرها واقع ؛ وارغب فى دارٍ طالبها مُنْجِح ، وصاحبها مفلح. ومتى حقّقت وآثرت الصدق،بانَ لك أنّهما لا يجتمعان ، وأنّهما كالضدّين لا يصطلحان؛ فجرّدْ همّك فى تحصيل الباقية ؛ فإنّ الأخرى أنت فانٍ عنها وهى فانية عنك ؛ وقدعرفت آثارَها فى أحبابها ورفقائها ، وصُنْعَها بطلّابهاوعشقائها معرفة عيان ؛ فأىّ حجة تبقى لك، وأىّ حجة لا تثبت عليك !

ومن كلام هـذا الحكيم : فإنّا قد أصبحنا فى دارٍ رابحها خاسر ، ونائلها قاصر ، وعزيزها ذليل ، وصحيحُها عليل ، والداخل إليها مخرَج ؛ والمطمئنّ فيها مزعَج ؛ والذائق من شرابِها سكران ، والواثق بسرابها ظمآن ؛ ظاهرها غُرور ، وباطنها شرور ، وطالبها

مكدود ، وعاشقها مجهود، وتاركها محمود . العاقل مَنْ قلاها وسَلا عنها؛ والظريفُ مَنْ عافها وأنِفَ منها ، والسعيدمَنْ غمّض بصره عن زهرتها؛ وصرفه عن نَضْرتها ؛ وليس لهافضيلة إلا دلالتُها على نفسها، وإشارتُها إلى نقصها ؛ ولعمرى إنّها لفضيلة لو صادفتْ قلبا عقولا ، لا لسانا قؤولا ، وعملا مقبولا ، لا لفظا منقولا ؛ فإلى الله الشكوى من هوًى مُطاع، وعمر مضاع ! فبيَدِهِ الداء والدواء ؛ والمرض والشفاء .

قال أبو حرّة : أتينا بكر بن عبد الله المزّى نعوده ، فدخلنا عليه وقد قام لحاجته ، فجلسنا ننتظره ، فأقبل إلينا يتهادَى بين رجلين؛ فلما نظر إلينا سلّم علينا ؛ ثم قال: رحِم الله عبداً أعطِيَ قوّةً فعمِل بها فى طاعة الله ، أو قصّر به ضعف فكفّ عن محارم الله .

وقال بكر بن عبد الله : مثلُ الرّجل فى الدنيا مثل رجل له ثلاثة خلّان ؛ قال له أحدهم : أنا خازنك خُذْ مِنّى ماشئت ؛ فاعمل به ماشئت ؛ وقال الآخر : أنا معك أحملك وأضعُك؛ فإذا متّ تركتك ؛ وقال الآخر: أنا أصحبك أبداً ؛ حياتك وموتك. فأما الأوّل فماله ؛ وأما الثانى فعشيرتُه ، وأما الثالث فعمله .

قيل للزّهرىّ : مَن الزّاهد فى الدنيا ؟ قال : مَنْ لم يمنع الحلال شكرَه، ومن لم يمنع الحرام صبْرَه .

وقال سفيانُ الثورىّ : ماعبِد الله بمثل العقل، ولا يكون الرّجل عاقلا حتى تكون فيه عشرخصال : يكون الكِبْر منه مأمونا، والخير منه مأمولا ، يقتدِى بمنْ قبله، ويكون إماما لمن بعده ؛ وحتى يكون الذلّ فى طاعة الله أحبّ إليه من العزّ فى معصية الله ؛ وحتّى يكون الفقر فى الحلال ، أحبّ إليه من الغنى فى الحرام، وحتّى يكون عيشة القوت؛ وحتّى يستقلّ الكثير من عمله ، ويستكثر القليل من عمل غيره ؛ وحتى لايتبرّم بطلب الحوائج

قبله ، والعاشرة وما العاشرة ! بها شادَ مجدَه،وعلا ذكره ؛ أن يخرج من بيته فلا يستقبله أحدٌ من الناس إلّا رأى أنّه دونه .

قال يونس بن حبيب : كان عندنا بالبصرة جنديٌّ عابد ، فأحبَّ الغزو ، فلما خرج شيّعتهُ ، فقلت : أوصني ؛ فقال: أوصيك بتقوى الله ، وأوصيك بالقرآن ، فإنّه نور الليل المظلم ، وهُدَى النّهار المشرق ؛ فاعمل به عَلَى ما كان من جهدٍ وفاقة ، فإن عَرَض بلاء فقدّم مالَكَ دون نفسِك ، فإن تجاوز البلاء فقدّم مالَكَ ونفسَكَ دون دينك . واعلم أنّ المحروب من حُرِبَ دينه،والمسلوبَ مَنْ سُلِبَ يقينه.إنه لاغنى مع النار،ولافقر مع الجنّة، وإنّ جهنم لا يفكّ أسيرها ، ولا يَستغني فقيرها .

ابن المبارك ، كان فيما مضى جبّار يقتل الناس على أكل لحوم الخنازير،فلم يزل الأمر يترقّى حتى بلغ إلى عابد مشهور ، فأراده على أكلها ، وهدّده بالقتل ، فشقّ ذلك على الناس. فقال له صاحب شرطته : إنّي ذابح لك غداً جدْياً ، فإذا دعاك هذا الجبّار لتأكل،فكلْ فإنّما هو جَدْيٌ ؛ فلما دعاه ليأكل أبى أن يأكل،فقال : أخرجوه واضربوا عنقه.فقال له الشرطيّ : مامنعك أنْ تأكلَ من لحم جدْي ؟ قال : إنّي رجل منظور إليّ ، وإنى كرهت أنْ يتأسّى بيَ النّاس في معاصي الله . فقدّمه فقتله .

سفيان الثوريّ ، كان رجل يبكي كثيراً،فقال له أهله : لوقتلتَ قتيلا ثم أتيت وليّه فرآك تبكي هذا البكاء لعفا عنك ؛ فقال : قد قتلتُ نفسي ، فلعلّ وليّها يعفو عني .

وكان أيّوب السَّختيانيّ كثيرَ البكاء،وكان يغالط الناس عن بكائه ؛ يبكي مرّة فيأخذ أنفه ، ويقول : الزكمة ربما عرضت لي ، ويبكي مرّة فإذا استبان مَنْ حوله بكاءه ؛ قال : إن الشيخ إذا كبر مجّ [1] .

---

(١) المـاج : من يسيل لعابه كبرا وهرما .

ومن كلام أبي حيان التوحيدى فى " البصائر " : ما أقول فى عالَم الساكن فيه وَجِل، والصاحى بين أهله ثَمِل ، والمقيم على ذنوبه خَجِل ، والراحل عنه مع تماديه عَجِل . وإن داراً هذه من آفاتها وصروفها لحقوقة بهجرانها وتركها ، والصُّدُوف منها خاصّة؛ ولا سبيل لساكنها إلى دار القرار إلّا بالزهد فيها ، والرضا بالطفيف منها ، كبُلْغة الثاوى ، وزاد المنطلق .

(١٣٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لأبى ذرّ رحمه الله لما أخرج إلى الرَّبَذة :

يا أبا ذَرّ ؛ إنَّكَ غَضِبْتَ لِلّٰهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ . إنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ ؛ وَاهْرَبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ ؛ وَأَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ !

وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً ، وَالأَكْثَرُ حَسَداً ؛ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً ؛ ثُمَّ اتَّقَى اللهَ ، لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً .

لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ ؛ وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ .

***

الشرح :

[أخبار أبى ذرّ الغفارىّ حين خروجه إلى الرَّبَذة]

واقعة أبى ذرّ رحمه الله وإخراجه إلى الرَّبَذة ، أحدُ الأحداث التى نُقِمَتْ على عثمان : وقد رَوَى هذا الكلامَ أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ فى كتاب " السقيفة " عن عبد الرزّاق ، عن أبيه ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عبّاس ، قال :

لما أُخرِج أبو ذَرّ إلى الرَّبَذة ، أمر عثمان ، فنودى فى الناس : ألا يُكَلِّمْ أحدٌ أبا ذَرّ ولا يشيّعه . وأمر مَرْوان بن الحكم أن يخرُج به . فخرج به ؛ وتحاماه الناس إلا علىّ

ابن أبي طالب عليه السلام وعَقِيلا أخاه ، وحسناً وحسيناً عليهما السلام ، وعمّارا ، فإنهم خرجوا معه يشيّعونه ، فجعل الحسن عليه السلام يكلّم أبا ذرّ ، فقال له مروان : إيهاً ياحسن ! ألا تعلم أنّ أميرَ المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل ! فإن كنتَ لاتعلم فاعلم ذلك ؛ فحمل عليّ عليه السلام على مروان ، فضرب بالسوط بين أذُنَيْ راحلته ، وقال : تنحَّ لحاك الله إلى النار !

فرجع مروان مغضباً إلى عثمان ؛ فأخبره الخبَر ، فتلظّى على عليّ عليه السلام ، ووقف أبو ذرّ فودّعه القوم ؛ ومعه ذكوان مولى أمّ هانئ بنت أبي طالب .

قال ذكوان : فحفظت كلام القوم — وكان حافظاً — فقال عليّ عليه السلام : ياأباذرّ ، إنك غضبتَ لله ؛ إنّ القوم خافوك على دنياهم ؛ وخفتَهم على دينك . فامتحنوك بالقِلى ، ونفوك إلى الفلا ، والله لو كانت السموات والأرض على عبدٍ رتقاً ، ثمّ اتقى الله لجعل له منها مخرجا . ياأبا ذرّ لا يؤنسنّك إلا الحقّ ، ولا يوحشنّك إلاّ الباطل . ثم قال لأصحابه: ودّعوا عمّكم ، وقال لعقيل : ودّع أخاك .

فتكلّم عَقِيل ، فقال : ماعسى أن نقول ياأبا ذرّ ، وأنت تعلم أنا نحبك ، وأنت تحبّنا ! فاتّق الله ، فإنّ التقوى نجاة ، واصبر فإنّ الصبر كرَم . واعلم أنّ استثقالك الصّبرمن الجزع ، واستبطاءك العافيةَ من اليأس ، فدع اليأس والجزع .

ثم تكلّم الحسن ، فقال : ياعمّاه ؛ لولا أنه لا ينبغي للمودّع أن يسكت ، وللمشيّع أن ينصرف ، لقصر الكلام وإن طال الأسف ، وقد أتى القوم إليك ماترى ؛ فضع عنك الدنيا بتذكّر فراغها ، وشدّة مااشتدّ منها برجاء مابعدها ، واصبر حتى تلقَى نبيّك صلى الله عليه وآله وهو عنك راضٍ .

ثم تكلم الحسين عليه السلام ، فقال : ياعمّاه ، إنّ الله تعالى قادر أن يغير ماقد ترى ؛

والله كلَّ يوم هو في شأن ؛ وقد منعك القوم دنياهم ، ومنعتهم دينك ؛ فما أغناك عمّا منعوك ، وأحوجهم إلى ما منعتهم ! فاسأل الله الصبر والنصر ؛ واستعِذْ به من الجشع والجزَع ، فإنّ الصبر من الدين والكرم ؛ وإنّ الجشع لا يقدّم رزقا ، والجزع لا يؤخّر أجلا .

ثم تكلّم عمّار رحمه الله مغضبا ، فقال : لا آنس الله مَنْ أوحشك ، ولا آمن مَنْ أخافك ؛ أما والله لو أردتَ دنياهم لأمنوك ؛ ولو رضيت أعمالهم لأحبّوك ؛ وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا ، والجزع من الموت . مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه ، والملك لمنْ غلَب ، فوهبوا لهم دينهم ، ومنحهم القوم دنياهم ؛ فخسرُوا الدّنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين !

فبكى أبو ذرّ رحمه الله ـ وكان شيخاً كبيرا ـ وقال : رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة ! إذا رأيتكم ذكرتُ بكم رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ مالي بالمدينة سَكَنٌ ولا شَجَنٌ غيركم ؛ إني ثقُلت على عثمان بالحجاز ، كما ثقُلت على معاوية بالشام ، وكره أن أجاور أخاه وابنَ خاله بالمصرين ، فأفسد الناس عليهما ؛ فسيّرني إلى بلدٍ ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحبا ، وما أخشى مع الله وحشة .

ورجع القوم إلى المدينة ؛ فجاء عليّ عليه السلام إلى عثمان ، فقال له : ما حملك على ردّ رسولي ، وتصغير أمري ! فقال عليّ عليه السلام : أمّا رسولك ، فأراد أن يردّ وجهي فرددته ، وأمّا أمرك فلم أصغّره .

قال : أما بلغك نهيي عن كلام أبي ذرّ ! قال : أوكلّما أمرت بأمرٍ معصية أطعناك فيه ! قال عثمان : أقِدْ مروان من نفسك ، قال : ممّ ذا ؟ قال : من شتمه وجذْب راحلته ، قال : أمّا راحلتَه فراحلتي بها ، وأما شتمُه إياي ؛ فوالله لا يشتمني شتمة إلا شتمتُك مثلها ؛ لا أكذب عليك .

فغضب عثمان ؛ وقال : لم لا يشتمك ! كأنك خير منه ! قال على : إى والله ومنك! ثم قام فخرج .

فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بنى أمية ، يشكو إليهم عليًا عليه السلام ، فقال القوم : أنت الوالى عليه ، وإصلاحه أجمل . قال : وددت ذاك ؛ فأتوا عليا عليه السلام، فقالوا : لو اعتذرتَ إلى مروان وأتيته ! فقال : كلّا ؛ أمّا مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه ، ولكن إنْ أحبّ عثمان أتيته .

فرجعوا إلى عثمان، فأخبروه ، فأرسل عثمان إليه ، فأتاه ومعه بنو هاشم ، فتكلّم على عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا ماوجِدْتَ علىّ فيه من كلام أبى ذرّ ووداعه ، فوالله ماأردتُ مَساءتك ولا الخلاف عليك ؛ ولكن أردتُ به قضاء حقّه . وأمّا مرْوان فإنه اعترض ، يريد ردّى عن قضاء حقّ الله عزّ وجلّ ، فرددته ردّ مثلى مثله ، وأمّا ما كان منّى إليك ، فإنك أغضبتنى ، فأخرج الغضب منّى مالم أرِده .

فتكلّم عثمان ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا ما كان منك إلىّ فقد وهبتُه لك، وأما ما كان منك إلى مروان ، فقد عفَا الله عنك ، وأمّا ما حلفْتَ عليه فأنت البرّ الصادق، فادنِ يدكَ ، فأخذ يده فضمّها إلى صدره .

فلما نهضَ قالت قريش وبنو أميّة لمرْوان : أأنتَ رجلٌ ! جبَهك علىّ ، وضرب راحلتَك ، وقد تفانت وائلٌ فى ضَرْع ناقة ، وذُبيان وعَبْس فى لَطْمة فرس ، والأوس والخزرج فى نَسْعة ! أفتحمل لعلىّ عليه السلام ماأتاه إليك !

فقال مروان : والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه .

***

واعلم أنّ الذى عليه أكثر أرباب السِّيرة وعلماء الأخبار والنّقل ، أنّ عثمان نفى

أبا ذرّ أولًا إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية ؛ ثم نفاه من المدينة إلى الرَّبَذة لمّا عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام .

أصل هذه الواقعة ، أنّ عثمان لمّا أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوتَ الأموال ، واختصّ زيد بن ثابت بشيء منها ، جعل أبو ذرّ يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشّر الكافرين بعذاب أليم، ويرفع بذلك صوتَه، ويتلو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فرُفع ذلك إلى عثمان مرارا وهو ساكت .

ثم إنّه أرسل إليه مولًى من مواليه :أن انتهِ عمّا بلغني عنك ، فقال أبو ذرّ :أوَ ينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى ، وعيبِ مَنْ تَرَكَ أمر الله تعالى ! فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحبُّ إليّ وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضا عثمان .

فأغضب عثمانَ ذلك وأحفظه ، فتصابر وتماسك ، إلى أن قال عثمان يوما، والناس حوله: أيجوزُ للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً ، فإذا أيسَرَ قضى ؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك ، فقال أبو ذرّ : يابن اليهوديّين ، أتعلّمنا ديننا !

فقال عثمان : قد كثُر أذاك لي وتولّعك بأصحابي ، الحقْ بالشّام . فأخرجه إليها .

فكان أبو ذرّ ينكِر على معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار ، فقال أبو ذرّ لرسوله : إن كانتْ مِنْ عطائي الّذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلُها ، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها ، وردّها عليه .

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذرّ : يامعاوية ، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة ؛ وإن كانت من مالِك فهي الإسراف . وكان أبو ذرّ يقول بالشام : والله لقد حدثَتْ أعمالٌ ما أعرفها ، والله ماهي في كتاب الله ولا سنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ،

والله إنى لأرى حقًّا يُطفَأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذَّبا ، وأثَرةً بغير تقى ، وصالحا مستأثَراً عليه .

قال حبيبُ بن مسلمة الفِهْرىّ لمعاوية : إن أبا ذرّ لمفسِد عليكم الشام ؛ فتدارك أهلَه إن كان لك فيه حاجة .

***

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى كتاب " السفيانية " عن جلّام بن جندل الغِفارىّ ، قال : كنت غلاماً لمعاوية على قنّسرين والعواصم ، فى خلافة عثمان ، فجئت إليه يوما أسأله عن حال عملى ؛ إذْ سمعت صارخاً على باب داره يقول : أتتكم القِطَار تحمل النار ! اللهمّ العن الآمرين بالمعروف ، التاركين له . اللهمّ العن الناهين عن المنكر المرتكبين له . فازْبأرّ معاوية وتغيّرَ لونه وقال : يا جلّام أتعرف الصارخ ؟ فقلت : اللهم لا . قال : مَنْ عذيرى من جُندَب بن جنادة ! يأتينا كلَّ يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت ! ثم قال : أدخِلوه علىّ ، فجىء بأبى ذرّ بين قوم يقودونه ، حتى وقف بين يديه ؛ فقال له معاوية : يا عدوّ الله وعدوّ رسوله ! تأتينا فى كلّ يوم فتصنع ما تصنع ! أما إنى لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتُك ، ولكنى أستأذن فيك .

قال جلّام : وكنت أحبُّ أن أرى أبا ذرّ ، لأنه رجلٌ من قومى ، فالتفتّ إليه فإذا رجل أسمرُ ضَرْبٌ(١) من الرّجال ، خفيف العارضين ، فى ظهره جَنَأ(٢) ، فأقبل على معاوية ، وقال : ما أنا بعدوّ لله ولا لرسوله ، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله ، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر ، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه ، ودعا عليك مرّاتٍ ألاّ تشبع . سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقول : « إذا ولىَ الأمّة الأعيَنُ ، الواسع البُلعوم ، الذى يأكل ولا يشبع ، فلتأخذ الأمة حِذرَها منه » . فقال معاوية : ما أنا ذاك

(١) الضرب : الخفيف اللحم .

(٢) يقال جنىء جنأ ؛ إذا أشرف كاهله على ظهره حدبا .

الرجل، قال أبو ذرّ : بل أنت ذلك الرجل ، أخبرنى بذلك رسول الله صلى الله عليه ، وسمعته يقول ـ وقد مررتَ به ـ : « اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب » ، وسمعته صلى الله عليه يقول : « است معاوية فى النار » . فضحك معاوية وأمر بحبسه ، وكتب إلى عثمان فيه .

فكتب عثمان إلى معاوية : أن احمل جندبا إلىّ ، عَلى أغلظِ مركب وأوعره . فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار ، وحمله على شارفٍ[1] ليس عليها إلا قَتَب ؛ حتى قدِم به المدينة ؛ وقد سقط لحم فخذيه من الجَهْد .

فلما قدِم بعث إليه عثمان : الحقْ بأىّ أرض شئت . قال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : بيت المقدس ؟ قال : لا ، قال : بأحد المِصرين ؟ قال : لا ؛ ولكنّى مسيّرك إلى رَبَذة ، فسيّره إليها ؛ فلم يزل بها حتى مات .

وفى رواية الواقدىّ ، أنّ أبا ذرّ لما دخل على عثمان ، قال له :

لا أنعم الله بِقَيْنٍ عيناً نعم ولا لقاه يوماً زيناً
* تحيةَ السُّخطِ إذا التقينا *

فقال أبو ذرّ : ماعرفتُ اسمى « قيناً » قطّ . وفى رواية أخرى : لا أنعم الله بك عينا يا جُنَيْدب ! فقال أبو ذرّ : أنا جندُب ؛ وسمّانى رسول الله صلى الله عليه « عبد الله » ، فاخترتُ اسمَ رسولِ الله صلى الله عليه الّذى سمّانى به على اسمِى . فقال له عثمان : أنت الذى تزعُم أنّا نقول : يد الله مغلولة ، وإن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذرّ : لو كنتُم لا تقولون هذا لأنفقتم مالَ الله على عباده ؛ ولكنّى أشهدُ أنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه ، يقول : « إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا، جعلوا مال الله دُوَلا ، وعبادَه خَوَلا ، ودينه دَخَلا » . فقال عثمان لمن حضر : أسمعتموها من رسول الله ؟ قالوا : لا ، قال عثمان : ويلك يا أبا ذرّ ! أتكذِب على رسول الله ! فقال أبو ذرّ لمن حضر : أما تدرُون أنّى صدقت ! قالوا : لا والله

(١) الشارف : الناقة المسنة .

ماتدرى ، فقال عثمان : ادعُوا لى عليًّا، فلما جاء قال عثمان لأبى ذرّ : اقصُصْ عليه حديثَك فى بنى أبى العاص ، فأعاده، فقال عثمان لعلىّ عليه السلام : أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : لا ؛ وقد صدق أبو ذرّ . فقال : كيف عرفتَ صدقه ؟ قال : لأنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يقول : « ما أظلّت الخضراء ، ولا أقلّتِ الغبراء من ذى لَهْجَةٍ أصدَقَ من أبى ذرّ »، فقال مَنْ حضر : أمّا هذا فسمعناه كلُّنا من رسول الله، فقال أبو ذرّ : أحدِّثُكم أنّى سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتتّهمونى ! ما كنتُ أظنّ أنّى أعيش حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم !

* * *

وروى الواقدىّ فى خبر آخرَ بإسناده، عن صَهْبان ، مولَى الأسلميّين ، قال : رأيت أبا ذرّ يوم دُخِل به على عثمان ، فقال له : أنت الّذى فعلت وفعلت ! فقال أبو ذرّ : نصحتُك فاستغششتَنى ، ونصحت صاحبك فاستغشّنى ! قال عثمان : كذبْت ؛ ولكنك تريد الفتنة وتحبّها، قد أنغلت[1] الشام علينا ، فقال له أبو ذرّ: اتّبِعْ سنّة صاحبيْك لا يكنْ لأحدٍ عليك كلام ، فقال عثمان : مالك وذلك لا أمّ لك ! قال أبو ذرّ : والله ما وجدت لى عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فغضب عثمان ، وقال : أشيرُوا علىّ فى هذا الشّيخ الكذّاب ؛ إمّا أن أضربَه ، أو أحبسَه ، أو أقتله ؛ فإنه قد فرّق جماعة المسلمين ؛ أو أنفيَه من أرض الإسلام. فتكلّم علىّ عليه السلام ـ وكان حاضرا ـ فقال : أشيرُ عليك بما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ[2] ﴾، فأجابه عثمان بجواب غليظ ، وأجابه علىّ عليه السلام بمثله ، ولم نذكر الجوابين تذمّما منهما .

قال الواقدىّ : ثم إن عثمان حظر على الناس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ ، أو يكلّموه. فمكث

(١) النغل : الإفساد بين القوم .

(٢) سورة غافر ٢٨ .

كذلك أياما ، ثم أتى به فوقف بين يديه ، فقال أبو ذرّ : ويحكَ ياعثمان ! أما رأيتَ رسول الله صلى الله عليه ، ورأيت أبا بكر وعمر ! هل هديُك كهديهم ! أما إنّك لتبطشُ بي بطش جبّار ، فقال عثمان : اخرُجْ عنّا من بلادنا،فقال أبو ذَرّ : ماأبغض إليّ جوارك ! فإلى أين أخرج ؟ قال : حيث شئت ، قال : أخرج إلى الشام أرض الجهاد ؟ قال : إنما جلبتُك من الشام لِمَا قد أفسدتّها ، أفأردّك إليها ! قال : أفأخرُج إلى العراق ؟ قال : لا ؛ إنّك إن تخرج إليها تقدُم على قومٍ أولى شُبَهٍ وطعنٍ على الأئمة والولاة ، قال: أفأخرج إلى مصر ؟ قال : لا ، قال : فإلى أين أخرج ؟ قال : إلى البادية ، قال أبو ذرّ : أصير بعد الهجرة أعرابيًّا ! قال : نعم، قال أبو ذَرّ : فأخرج إلى بادية نجد ؟ قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد ؛ أقصَى فأقصَى ؛ امضِ عَلَى وجهك هذا فلا تعدوَنّ الرَّبَذَة . فخرج إليها .

* * *

وروى الواقديّ أيضا عن مالك بن أبي الرّجال،عن موسى بن ميسرة،أنّ أبا الأسود الدّؤليّ ، قال : كنت أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خروجه إلى الرَّبذَة ، فجئته فقلت له : ألا تخبرني ، أخرجْتَ من المدينة طائعا ، أم أخرجت كرها ؟ فقال : كنتُ في ثَغْر من ثغور المسلمين أغني عنهم ، فأخرِجت إلى المدينة ، فقلت : دار هجرتي وأصحابي، فأخرجْت من المدينة إلى ماترى . ثم قال : بينا أنا ذاتَ ليلةٍ نائمٌ في المسجد عَلَى عهد رسول الله صلى الله عليه ، إذ مرّ بي عليه السلام فضرَبني برجْله ، وقال : لا أراك نائما في المسجد ، فقلت : بأبي أنت وأمي ! غلبتْني عيني ، فنمت فيه . قال : فكيف تصنعُ إذا أخرجوك منه ؟ قلت : إذاً ألحق بالشام ، فإنّها أرضٌ مقدّسة ، وأرضُ الجهاد. قال : فكيف تصنع إذا أخرجت منها ؟ قلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيفَ تصنعُ

إذا أخرجوك منه ؟ قلت : آخذُ سيفي فأضربهم به . فقال : الا أدلّك على خيرٍ من ذلك؟ انسَقْ معهم حيث ساقوك ، وتسمعُ وتطيع . فسمعتُ وأطعتُ وأنا أسمع وأطيع ؛ والله ليلقينّ اللهَ عثمانُ وهو آثم في جنْبي .

* * *

واعلم أن أصحابنا رحمهم الله قد روَوْا أخباراً كثيرة ؛ معناها أنه أخرج إلى الرَّبَذَة باختياره .

وحكى قاضي القضاة رحمه الله في " المغني " عن شيخنا أبي عليّ رحمه الله،أنّ الناس اختلفُوا في أمرِ أبي ذَرّ ، وأنّ الروايةَ وردت بأنه قيل له : أعثمانُ أنزلَك الرَّبَذَة؟فقال : لا بل أنا اخترتُ لنفسي ذلك .

وروَى أبو عليّ أيضاً أنّ معاوية كتب يشكوه وهو بالشام ، فكتب إليه عثمانُ : أن صِرْ إلى المدينة . فلما صار إليها ، قال له : ما أخرجك إلى الشام ؟ قال : إنّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول:« إذا بلغتْ عِمارةُالمدينة موضعَ كذا فاخرُجْ منها»؛ فلذلك خرجت.فقال : أيّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام ؟ قال الرَّبَذَة ، فقال : صِرْ إليها.

وروى الشيخ أبو عليّ أيضا عن زيد بن وهب ، قال : قلت لأبي ذرّ وهو بالرَّبَذَة : ما أنزلَك هذا المنزل ؟ قال : أخبرك أني كنت بالشام ، فذكرت قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا ﴾.فقال لي معاوية:هذه نزلتْ في أهلِ الكتاب، فقلت : فيهم وفينا . فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك ، فكتب إليّ : أن أقدِمْ،فقدمْتُ عليه ، فانثال الناس إليّ كأنّهم لم يعرفوني ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيّرني وقال : انزل حيث شئت ، فنزلت الرَّبَذَة .

ونحن نقول : هــذه الأخبارُ وإن كانت قد رُوِيَتْ ، لكنّها ليست في الاشتهار

---

(١) سورة التوبة ٣٤ .

والكثرة كتلك الأخبار، والوجه أنْ يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظنّ بفعله: إنّه خاف الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنّه أنّ إخراجَ أبي ذرّ إلى الرَّبَذَة أحسمُ للشّغب، وأقطع لأطماع مَنْ يشرئبّ إلى شقّ العصا، فأخرجه مراعاةً للمصلحة، ومثل ذلك يجوز للإمام. هكذا يقول أصحابنا المعتزلة؛ وهو الأليق بمكارم الأخلاق، فقد قال الشاعر:

إذَا ما أتتْ مِنْ صاحبٍ لكَ زلّةٌ فكنْ أنتَ محتالا لزلّتِه عُذْرَا

وإنّما يتأوّل أصحابُنا لمن يحتمِل حاله التأويل كعثمان، فأما من لم يحتمل حاله التأويل، —وإن كانت له صحبة سالفة— كمعاوية وأضرابه، فإنهم لا يتأوّلون لهم إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وَجهَ لتأويلها؛ ولا تقبل العلاج والإصلاح.

(١٣١)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ ؛ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سِرَارَ الْعَدْلِ ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ؛ وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ ؛ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلَاةِ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ . وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ ، وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ ، فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ ، وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ ، فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ .

***

الشرح :

أظأركم : أعطفكم، ظأرت الناقة ظأرا، وهي ناقة مظؤورة؛ إذا عطفتها على ولد غيرها؛

وفى المثل : « الطعن يظأر » أى يعطِف على الصلح[١] ؛ وظأرت الناقة أيضاً إذا عطفت على البوّ ؛ يتعدّى ولا يتعدّى ، فهى ظؤور .

والوعوعة : الصوت ، والوعواع مثله .

وقوله : «هيهات أن أطْلِع بكم سرار العدل» ، يفسرّه الناس بمعنى هيهات أن أطلعكم مضيئين ومنوّرين لسرار العدل . والسّرار : آخر ليلة فى الشهر ، وتكون مظلمة ؛ ويمكن عندى أن يفسّر على وجه آخر ؛وهو أن يكون السّرار هاهنا بمعنى السُّرور ،وهى خطوط مضيئة فى الجبهة ؛وقد نصّ أهلُ اللغة على أنه يجوز فيهاسُرر وسِرار ،وقالوا :ويجمع سِرار على أسرّة ، مثل حمار وأحمرة ، قال عنترة :

بزجاجةٍ صَفْرَاء ذاتِ أَسِرّةٍ   قُرِنتْ بأزْهَرَ فى الشمال مُقَدّمِ[٢]

يصف الكأس ؛ ويقول : إنّ فيها خطوطا بيضا ؛ وهى زجاج أصفر . ويقولون : بَرَقَتْ أَسِرّة وجهه وأسارير وجهه ؛ فيكون معنى كلامه عليه السلام : هيهاتَ أن تلمع بكم لوامعُ العدل ، وتنجلِى أوضاحُه ؛ ويبرق وجهه . ويمكن فيه أيضاً وجه آخر وهو أن ينتصب « سِرار » هاهنا على الظّرفية ،ويكون التقدير : هيهات أن أطلِع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه ؛ فيكون قد حذف المفعول ؛ وحذفه كثير .

ثم ذكر أنّ الحروبَ التى كانتْ منه لم تكن طلبا للملك ، ولا منافسة على الدّنيا ، ولكن لتقامَ حدودُ الله على وجهها ، ويجرى أمر الشريعة والرعيّة على ما كان يجرى عليه أيّام النبوّة .

ثم ذكر أنه سبَق المسلمين كلّهم إلى التوحيد والمعرفة ، ولم يسبِقه بالصلاة أحدٌ إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وهكذا روى جمهور المحدثين ، وقد تقدّمَ ذكر ذلك .

---

(١) فى اللسان : «والطعن يظأر ، أى يعطف على الصلح ، تقول : إذا خافك أن تطعنه فتقتله : عطفه ذلك عليك ، فجاد . بماله للخوف » .

(٢) من المعلقة — بشرح التبريزى ١٩١ . وذات أسرة ؛ ذات طرائق وخطوط .

فإن قلت : أىّ وجه لإدخال هذا الكلام فى غُضُون مقصده فى هذه الخطبة ، فإنها مبنيّة على ذمّ أصحابه ، وتقرير قاعدة الإمامة ، وأنّه لايجوز أن يليها الفاسق ، وأنّه لا بدّ للإمام من صفات مخصوصة ؛ عدّدها عليه السلام ، وكلّ هذا لا تعلّق لسبقه إلى الإسلام !

قلت : بل الكلامُ متعلِّق بعضُه ببعض من وجهين : أحدُهما أنه لما قال : اللهمّ إنك تعلم أنى ماسَلَلْتُ السَّيْفَ طلبا للملك ، أراد أن يؤكِّد هذا القول فى نفوس السامعين؛ فقال : أنا أوّل من أسْلَمَ ؛ ولم يكن الإسلام حينئذ معروفا أصلا ، ومن يكون إسلامه هكذا لا يكون قد قصد بإسلامه إلّا وجه الله تعالى والقربة إليه ؛ فمَنْ تكونُ هذه حاله فى مبدأ أمره ، كيف يخطُرُ ببال عاقل أنّه يطلُب الدنيا وحُطامها ، ويجرّد عليها السَّيْفَ فى آخر عمره ، ووقت انقضاء مدّة عُمْرِه !

والوجه الثانى أنّه إذا كان أوّلَ السابقين ، وجب أن يكون أقربَ المقرّبين ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[1] ، ألا ترى أنه إذا قال الملك: « العالمون العاملون هم المختصّون بنا » ، وجب أن يكون أعلمهم أشدّهم به اختصاصا؛ وإذا كان عليه السلام أقربَ المقرّبين ، وجب أن تنتفىَ عنه الموانع الستة ، التى جعل كلّ واحد منها صادًّا عن الإمامة ، وقاطعا عن استحقاقها ؛ وهى البخل والجهل والجفاء ـ أى الغِلْظة ـ والعصبية فى دولته ـ أى تقديم قوم على قوم ـ والارتشاء فى الحكْم ، والتعطيل للسّنّة ، وإذا انتفتْ عنه هذه الموانع الستّة تعين أن يكون هو الإمام ، لأنّ شروط الإمامة موجودة فيه بالاتفاق ، فإذا كانت موانعُها عنه منتفيةً ولم يحصل لغيره اجتماع الشروط ، وارتفاع الموانع ، وجب أنْ يكون هو الإمام ؛ لأنه لايجوز خلوّ العصر من إمام ؛ سواء كانت هذه القضيّة عقليّة أو سمعيّة .

---

(١) سورة الواقعة ١٠ .

فإن قلت : أفتراه عَنَى بهذا قوماً بأعيانهم ؟

قلت : الإمامية تزعُم أنه رَمَز فى الجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر ، ورمز بالجهل إلى مَنْ كان قبله ؛ ورمز بتعطيل السّنة إلى عثمان ومعاوية ؛ وأما نحن فنقول : إنّه عليه السلام لم يعن ذلك ؛ وإنّما قال قولا كلّيًّا غير مخصوص ، وهذا هو اللائق بشرفه عليه السلام ، وقول الإماميّة دعوى لا دليل عليها ، ولا يعدم كلّ أحد أن يستنبط من كلّ كلام مايوافق غرضه وإن غمض ، ولا يجوز أن تُبنَى العقائد على مثل هذه ستنباطات الدقيقة .

والنهمة : الهمّة الشديدة بالأمر ، قد نُهم بكذا بالضم ، فهو منهوم ، أى مولَع به حريص عليه ، يقول : إذا كان الإمام بخيلاً كان حرصُه وجشَعه على أموال رعيّته ، ومن رواها « نَهَمَته » ، بالتحريك فهى إفراط الشهوة فى الطعام ، والماضى نَهِم ، بالكسر .

قوله عليه السلام . « فيقطعهم بجفائه » أى يقطعهم عن حاجاتهم لغلظته عليهم ، لأنّ الوالىَ إذا كان غليظاً جافيا أتعب الرعيّة وقطعهم عن مراجعته فى حاجاتهم خوفاً من بادرته ، ومعرّته .

قوله : « ولا الحائف للدول » ، أى الظالم لها ، والجائر عليها . والدّول : جمع دُولة بالضمّ وهى اسم المال المتداول به ، ويقال : هذا الفىء دُولة بينهم ، أى يتداولونه ، والمعنى أنّه يجب أن يكونَ الإمام يقسم بالسوّية ، ولا يخصّ قوماً دون قوم على وجه العصبيّة لقبيلة دون قبيلة ، أو لإنسان من المسلمين دون غيره ، فيتّخذ بذلك بطانة .

قوله : « فيقف بها دون المقاطع » ، المقاطع : جمع مقطع ، وهو ماينتهى الحقّ إليه ، أى لا تصل الحقوق إلى أربابها لأجل ما أخذ من الرشوة عليها .

فإن قلت : فما باله قال فى المانع السادس : « فيهلك الأمة » وكلّ واحد من الموانع قبله يفضى إلى هلاك الأمة !

قلت : كلّ واحد من الموانع الخمسة يفضِى إلى هلاك بعض الأمّة ، وأمّا مَنْ يعطّل السنّة أصلا ، فإنه لا محالة مهلك للأمّة كلّها ، لأنه إذا عطّل السنة مطلقاً ، عادت الجاهلية الجهلاء كما كانت .

وقد روى : « ولا الخائف الدولَ » بالخاء المعجمة . ونصب « الدّول » أى مَنْ يخاف دول الأيام وتقلّبات الدهر فيتّخذ قوما دون قوم ظهرْيًا ، وهذا معنى لا بأس به

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى ، اَلْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ ، اَلْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ . وَنَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ نَجِيبُهُ وَبَعِيثُهُ ، شهادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلَانَ ، وَالقَلْبُ اللِّسَانَ .

***

الشرح

على ما أبلى ، أى ما أعطى ، يقال : قد أبلاه الله بلاء حسنا ، أى أعطاه ، قال زهير :

جَزَى اللهُ بالإحسان مافعلا بكُمْ وأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو (١)

وأما قوله : « وابتلى » فالابتلاء إنزال مضرّة بالإنسان على سبيل الاختبار ، كالمرض والفقر والمصيبة . وقد يكون الابتلاء بمعنى الاختبار فى الخير ؛ إلا أنه أكثر مايستعمل فى الشرّ .

والباطن : العالم ، يقال : بطنت الأمر ، أى خبرته . وتـكِنّ الصدور : تستر، وماتخون العيون : ماتسترق من اللحظات والرمزات على غير الوجه الشرعىّ .

والنّجيب : المنتجَب . والبعيث : المبعوث .

***

(١) ديوانه ١٠٩ ، وروايته : « رأى الله بالإحسان » .

الأصل:

منها:

فَإِنَّهُ وَاللهِ الجِدُّ لَا اللَّعِبُ، وَالحَقُّ لَا الكَذِبُ، وَمَا هُوَ إِلَّا المَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ؛ وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ المَالَ وَحَذِرَ الإِقْلَالَ، وَأَمِنَ العَوَاقِبَ: طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ؛ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ؛ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ المَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَى المَنَاكِبِ؛ وَإِمْسَاكًا بِالأَنَامِلِ.

أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً؛ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً؛ وَمَا جَمَعُوا بُوراً، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ.

فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ، بَرَّزَ مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً؛ لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَى دَارِ القَرَارِ.

فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ.

•••

الشرح:

قوله عليه السلام: «فإنّه والله الجدّ»، الضمير للأمر والشأن الّذى خاض معهم فى ذكره ووعظهم بنزوله. ثم أوضحه بعد إجماله، فقال: إنه الموتُ الّذى دعا فأسمع، وحدا فأعجل.

وسواد الناس : عامّتهم .

ومن ها هنا ؛ إما بمعنى الباء ؛ أى لا يغرّنك الناس بنفسك وصحتك وشبابك ، فتستبعد الموت اغترارا بذلك ؛ فتكون متعلّقة بالظاهر ؛ وإمّا أن تكون متعلّقة بمحذوف ؛ تقديره : متمكّنا من نفسك ، وراكنا إليها .

والإقلال : الفقر وطولَ أملٍ ، منصوب على أنه مفعول .

فإن قلت : المفعول له ينبغى أن يكون الفعل علّة فى المصدر وها هنا ليس الأمنُ علّة طول الأمل ؛ بل طول الأمل علّة الأمن ؟

قلت : كما يجوز أن يكون طول الأمل علّة الأمن ؛ يجوز أن يكون الأمنُ عِلّة طول الأمل ، ألا ترى أنّ الإنسان قد يأمن المصائب فيطول أملُه فى البقاء ووجوه المكاسب ؛ لأجل ما عنده من الأمن . ويجوز أن ينصب « طولَ أملٍ » على البدل من المفعول المنصوب بـ « رأيت » ؛ وهو « مَنْ » ؛ ويكون التقدير : قد رأيت طولَ أملِ مَنْ كان . وهذا بدل الاشتمال ؛ وقد حذِف منه الضّمير العائد كما حذِف من قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ . . . ﴾[1] .

وأعواد المنايا : النّعش . ويتعاطى به الرّجالَ الرّجال : يتداولونه : تارةً على أكتاف هؤلاء ، وتارة على أكتاف هؤلاء ؛ وقد فسر ذلك بقوله : « حملا على المناكب ، وإمساكا بالأنامل » .

والمشيد : المبنىّ بالشِّيد ؛ وهو الجصّ .

البُور : الفاسِد الهالك ؛ وقوم بور ، أى هَلْكى ، قال سبحانه : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا[2] ﴾ ، وهو جمع ، واحده بائر كحائل وحُول .

---

(١) سورة البروج ٤ ، ٥ (١) سورة الفتح ـ ١١ .

ويُستعتَبون ها هنا يفسّر بتفسيرين ، على اختلاف الروايتين : فمن رواه بالضم على فعل ما لم يسمّ فاعله ؛ فمعناه لا يعاتَبون على فعل سيّئة صدرتْ منهم كما كانوا فى أيام حياتهم ؛ أى لا يعاتبهم الناس أو لا يستطيعون — وهم موتى — أن يسيئوا إلى أحد إساءة عليها ، ومن رواه « يَسْتَعتِبون » بفتح حرف المضارعة ؛ فهو من استعتَب فلان ، أى طلب أنْ يُعتَب ، أى يرضَى ، تقول : استعتبته فأعتبنى ؛ أى استرضيته فأرضانى .

وأشعر فلانٌ التقوى قلبَه : جعله كالشعار له ، أى يلازمه ملازمة شِعار الجسد .

وبرزَ مهلُه ، ويروى بالرفع والنصب ، فمن رواه بالرفع جعله فاعل « برز » ، أى مَنْ فاق شَوْطَه برز الرجل على أقرانه ، أى فاقهم ، والمهلُ شوط الفرس ، ومن رواه بالنصب جعل « برز » بمعنى أبرز ، أى أظهر وأبان ؛ فنصب حينئذ على المفعولية .

واحتبلت غِرّة زيد ، أى اغتنمتها ؛ والمَبال : الصيّاد الذى يحتبل الصيد أن يغرّه وذئب هِبَلٌ أى محتال ، « هبلها » منصوب على المصدر كأنه من هبل ،مثل غضب غضبا ، أى اغتنموا وانتهزوا الفرصة ؛ الانتهاز الذى يصلح لهذه الحال ؛ أى ليكن هذا الاحتبال بجدّ وهمّة عظيمة ، فإنّ هذه الحال حال عظيمة لا يليق بها إلّا الاجتهاد العظيم .

وكذا قوله : « واعملوا للجنّة عملها » ؛ أى العمل الذى يصلح أن يكون ثمرته الجنّة .

ودار مقام ، أى دار إقامة . والمجاز : الطريق يجاز عليه إلى المقصد .

والأوفاز : جمع وفز بسكون الفاء ؛ وهو العجلة . والظُّهور : الرّكاب ، جمع ظَهر . وبنو فلان مظهرون ، أى لهم ظهور ينقلون عليها الأثقال ، كما يقال: منجِبون ؛ إذا كانوا أصحاب نجائب . والزِّيال : المفارقة ؛ زايلَه مزايلَة ، وزِيالاً ، أى فارقه .

(١٣٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَانْقَادَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا ، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَالأَرَضُونَ مَقَالِيدَها ، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ الأَشْجارُ النَّاضِرَةُ ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبانِهَا النِّيرَانُ الْمُضِيئَةُ ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ ٱلثِّمَارُ اليَانِعَةُ .

***

الشرح :

الضمير فى «له» يرجع إلى الله تعالى ؛ وقد كان تقدم ذكره سبحانه فى أول الخطبة ؛ وإن لم يذكره الرضيّ رحمه الله ، ومعنى انقياد الدنيا والآخرة له نفوذ حكمه فيهما ، وشياع قدرته وعمومها .

وأزمّتها : لفظة مستعارة من انقياد الابل بأزمّتها مع قائدها . والمقاليد : المفاتيح .

ومعنى سجود الأشجار الناضرة له تصرّفها حسَب إرادته ، وكونها مسخّرة له محكوما عليها بنفوذ قدرته فيها ، فجعل عليه السلام ذلك خضوعاً منها لمشيئته ، واستعار لها ما هو أدلّ على خضوع الإنسان من جمع أفعاله،وهو السجودومنه قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ والجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحج ١٨ .

قوله : « وقدحتْ له من قُضبانها » ـ بالضم ـ جمع قضيب ، وهو الغصن ، والمعنى أنه بقدرته أخرج من الشجر الأخضر ناراً ، والنار ضدّ هذا الجسم المخصوص ، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1] بعينه .

وآتت أُكلها : أعطت ما يؤكل منها ، وهو أيضاً من الألفاظ القرآنية[2] .

واليانعة : النَّاضجة . وبكلماته ، أي بقدرته ومشيئته ، وهذه اللفظة من الألفاظ المنقولة على أحد الأقسام الأربعة المذكورة في كتبنا في أصول الفقه ، وهو استعمال لفظة متعارفة في اللغة العربية في معنى لم يستعملها أهلُ اللغة فيه ، كنقل لفظة « الصَّلاة » الذي هو في أصل اللغة للدعاء إلى هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة ، ولم تستعمل العرب تلك اللفظة فيها . ولا يصحّ قولُ من قال : المراد بذلك قوله « كُن » ، لأنه تعالى لا يجوز أن يخاطب المعدوم وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[3] من باب التوسّع والاستعارة المملوء منهما القرآن ، والمراد سرعة المؤاتاة ، وعجلة الإيجاد ، وأنه إذا أراد من أفعاله أمراً كان .

***

الأَصْـلُ

منها :

وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَا يَعْيَا لِسَانُهُ ، وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ .

***

(١) سورة يس ٨٠ .

(٢) وهو قوله تعالى في سورة البقرة ٢٦٥ : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ .

(٣) سورة النحل ٤٠ .

الشرح :

يقال: هو نازل بين أظهرهم ، وبين ظهريهم ، وبين ظهرانَيهم ، بفتح النون ، أى نازل بينهم . فإن قلت : لماذا قالت العرب « بين أظهرهم » ، ولم تقل : «بين صدورهم»؟ قلت : أرادت بذلك الإشعار بشدة المحاماة عنه ، والمراماة مِنْ دونه ، لأنّ النَّزيل إذا حامَى القوم عنه استقبلوا شَبا الأسنّة ، وأطراف السيوف عنه بصدورهم ، وكان هو محروساً مصونا عن مباشرة ذلك وراء ظهورهم .

ولا يعيا لسانه : لا يكِل ، عَيِيت بالمنطق ، فأنا عيِيٌّ ، على « فَعِيل » ، ويجوز: عَيَّ الرجل فى منطقه ، بالتشديد ، فهو « عَيّ » على « فَعْل » .

***

الأصل

منها :

أرْسَلَهُ على حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الأَلْسُنِ ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ ، وَخَتَمَ بِهِ الوَحْيَ ، فَجاهدَ فى اللهِ المُدْبِرِينَ عَنْهُ ، وَالعادِلِينَ بِهِ .

***

الشرح :

الضمير فى « أرسله » ، راجع إلى النبى صلى الله عليه وآله ، وهو مذكور فى كلام لم يحكه جامع الكتاب .

والفترة : زمان انقطاع الوحى، والتنازع من الألسن ، أنّ قوماً فى الجاهلية كانوا يعبدون

الصنم ، وقوماً يعبدون الشمس ، وقوماً يعبدون الشيطان ، وقوماً يعبدون المسيح ، فكلّ طائفة تجادل مخالفيها بألسنتها لتقودها إلى معتقدها .

وقفّى به الرّسل : أتبعها به ، قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ﴾[1]، ومنه الكلام المقفّى ، وسمّيت قوافي الشعر ، لأنّ بعضها يتبع بعضا .

والعادلين به : الجاعلين له عديلا ، أي مثلا ، وهو من الألفاظ القرآنية أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[2] .

***

الأصل :

منها :

وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى ، لا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً ، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا ، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ .

***

الشرح :

شبّه الدنيا وما بعدها بما يتصوّره الأعمى ، من الظلمة التي يتخيّلها ؛ وكأنها محسوسة له ؛ وليست بمحسوسة على الحقيقة ؛ وإنما هي عدم الضوء ، كمن يطلع في جبّ ضيق ، فيتخيّل ظلاماً ، فإنه لم ير شيئاً ، ولكن لمّا عدم الضوء فلم ينفذ البصر تخيّل أنه يرى الظلمة ؛ فأمّا من يرى المبصرات في الضياء ، فإنّ بصره ينفذ فيشاهد المحسوسات يقينا ؛ وهذه حال

(١) المائدة ٤٦ .
(٢) سورة الأنعام ١ .

الدنيا والآخرة ؛ أهلُ الدنيا مغشًى بصرهم ونيام ، ويظنّون أنّهم يبصرون شيئاً وليسوا ببصرين على الحقيقة ، ولا حواسّهم نافذَة فى شىء ، وأهلُ الآخرة قد نفذت أبصارهم ، فرأوا الآخرة . ولم يقف إحساسهم على الدّنيا خاصّة ، فأولئك هم أصحاب الأبصار على الحقيقة؛ وهذا معنى شريف من معانى أصحاب الطريقة والحقيقة ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾[1] ، فأما قوله : « فالبصير منها شاخص ، والأعمى إليها شاخص » ، فمن مستحسَن التجنيس ؛ وهذا هو الذى يسمّيه أرباب الصناعة الجناس التام؛ فالشاخص الأوّل الراحل ، والشاخص الثانى من شَخَص بصرُه ، بالفتح ، إذا فتح عينَه نحو الشىء مقابلاً له وجعل لا يطرف .

***

[فصل فى الجناس وأنواعه]

واعلم أنّ الجناس على سبعة أضرب[2] :

أولها : الجناس التّام كهذا اللفظ ، وحدّه أن تتساوى حروف ألفاظ الكلمتين فى تركيبها وفى وزنها ، قالوا : ولم يرد فى القرآن العزيز منه إلا موضع واحد ؛ وهو قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[3] .

وعندى أن هذا ليس بتجنيس أصلا ، وقد ذكرته فى كتابى المسمى " بالفلك الدائر على المثل السائر " ، وقلت : إنّ السّاعة فى الموضعين بمعنًى واحد ، والتّجنيس أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ؛ ولا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازا ؛ بل يكونان حقيقتين ، وإنّ

---

(١) سورة الأعراف ١٩٥ .

(٢) هذا التقسيم ؛ مع معظم الشواهد أورده ابن الأثير فى المثل السائر ١ : ٢٤٦ وما بعدها .

(٣) سورة الروم ٥٥ .

زمان القيامة وإن طال ، لكنه عند الله فى حكم الساعة الواحدة ، لأنّ قدرته لا يعجزُها أمر ، ولا يطول عندها زمان ؛ فيكون إطلاق لفظ «الساعة» على أحد الوضعين حقيقة، وعلى الآخر مجازا،وذلك يخرجُ الكلام عن حدّ التجنيس ، كما لو قلت : ركبت حمارا، ولقيت حمارا ، وأردت بالثانى البليد .

وأيضا ، فلمَ لايجوز أن يكون أرادبقوله:﴿ويوم تقومُ السّاعة﴾، الأولى خاصّةمن زمان البعث ؛ فيكون لفظ « الساعة » مستعملا فى الوضعين حقيقة بمعنى واحد ، فيخرج عن التجنيس ، وعن مشابهة التجنيس بالكلّية .

قالوا : وورد فى السّنة من التجنيس التّام خبر واحد ، وهو قوله صلى الله عليه وآله لقوم من الصحابة ، كانوا يتنازعون جَرير بن عبد الله البجَلىّ فى زِمام ناقته: « خَلُّوا بين جرير والجرير » ، فالجرير الثانى الحَبْل .

وجاء من ذلك فى الشعر لأبى تمام قوله :

فأصبحَتْ غُرَرُ الإسلامِ مشرقةً بالنصر تضحك عن أيامك الغُرَرِ[(1)]

فالغرر الأولى مستعارة من غُرّة الوجه،والغُرَرُ الثانية من غُرّة الشىء،وهى أكرمه.

وكذلك قوله :

مِنَ القَوْمِ جَعْدٌ أبيضُ الوجهِ والنّدَى وَلَيْسَ بِنَانٌ يُجْتَدَى منه بالجَعْدِ[(2)]

فالجَعْد الأول السيّد ، والثانى ضدّ السّبط ؛ وهو من صفات البخيل .

وكذلك قوله :

بِكُلِّ فتًى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلقَنَا مُحَيًّا مُحَلًّى حَلْيُهُ الطّعنُ والضَّرْبُ[(3)]

---

(١) المثل السائر ١ : ٢٤٧ ، وليس فى ديوانه .

(٢) ديوانه ٢ : ١٢١ .

(٣) ديوانه ١ : ١٩٩ .

فالضرب الأوّل الرجل الخفيف ، والثانى مصدر « ضرب » .

وكذلك قوله :

عَـدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المستضامة عنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسالِهَا الحَصِبِ [1]

فأحدهما جمع « ثغر » وهو مايُتاخم العدوّ من بلاد الحرب ، والثانى للأسنان .

ومن هذه القصيدة :

كَمْ أحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيّ مُصْلَتَةً تهتزّ من قُضُبٍ تهتزّ فى كُثُبِ

بِيضٌ إذا انتضيتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ أحقّ بالبيضِ أبداناً من الحجبِ [2]

وقد أكثر الناس فى استحسان هذا التجنيس وأطنبوا ؛ وعندى أنه ليس بتجنيس أصلاً ، لأن تسميةَ السيوف « قُضُبا » وتسمية الأغصان « قضبا » كلُّه بمعنى واحد؛وهو القطع ؛ فلا تجنيس إذاً . وكذلك البيض للسيوف ، والبيض للنساء ، كلّه بمعنى البياض ، فبطَل معنى التجنيس ، وأظننى ذكرت هذا أيضا فى كتاب " الفلك الدائر " [3] .

قالوا : ومن هذا القسم قوله أيضا :

إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الخيلِ صَدَّعُوا صُدُورَ العوالِي فى صدور الكتائب [4]

وهذا عندى أيضا ليس بتجنيس ، لأن الصّدور فى الموضعين بمعنى واحد ؛ وهوجزء الشىء المتقدم البارز عن سائره ؛ فأما قوله أيضا :

عامِى وعامُ العيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورة ، وتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ [5]

---

(١) ديوانه ١ : ٦٨ ، ٧٧، ٧٨ . والحصب : الذى فيه صغار الحصى .

(٢) أبدانا ، من صفات نساء الروم ، ورواية الديوان : « أحق بالبيض أترابا » .

(٣) الفلك الدائر ٩١ .

(٤) ديوانه ١ : ٢١٥ ، وقال فى شرحه : يقول : «إذا شقت الخيل غبـار الحرب ؛ فإنهم يطعنون الأبطال بالرماح حتى يكسروها فى صدورهم » .

(٥) ديوانه ٢ : ٣٩٣ ، والوديقة : شدة الحر ومسجورة : مملوءة بالسراب . والتنوفة : القفر من الأرض . وصيخود : صلبة .

حَتَّى أغادِرَ كلَّ يومٍ بالفَلَا   للطَّيرِ عيـــداً من بنات العِيد(١)

فإنّه من التجنيس التّام ؛ لاشبهة فى ذلك لاختلاف المعنى ، فالعيد الأول هو اليوم المعروف من الأعياد ، والعيد الثانى فحل من فحول الإبل .

ونحو هذا قول أبى نواس :

عَبّاسُ عباسٌ إذا احتدَمَ الوَغَى   والفضلُ فضلٌ والرّبيع ربيعُ(٢)

وقول البحترىّ :

إذا العَيْنُ راحتْ وهى عَيْنٌ على الهوى   فليس بسرٍّ ما تُسِرُّ الأضــــــالع(٣)

فالعين الثانية الجاسوس ، والأولى العين المبصرة . وللغزّى المتأخر قصيدة أكثر من التجنيس التّام فيها ، أولها :

لَوْ زَارَنا طيفُ ذاتِ الخال أحيانَا   ونحن فى حُفَرِ الأجداث أحيانَا

وقال فى أثنائها :

تقول أنتَ امرؤٌ جافٍ مغالطة   فقلت لا هوّمتْ أجفانُ أجفانا

وقال فى مديحها :

لم يبقَ غــيرُك إنسانٌ يُلاذُ بهِ   فلا برحْتَ لعينِ الدّهر إنسانا

وقد ذكر الحاتمىّ فى كتابه من صناعة الشعر باباً سمّاهُ ردّ الأعجاز على الصدور ؛ ذكر أنّه خارج عن باب التجنيس ، قال : مثل قول الشاعر :

وَنَشْرِى بجميلِ الصُّنْـ   ـع ذكراً طيِّب النّشرِ
وَنفْرِى بسيوف الهِنْـ   ـدِ مَنْ أسْرَفَ فى الفَخْرِ

---

(١) العيد هنا : ما يعتاد .
(٢) ديوانه ١ : ٩٦ ، والمثل السائر ١ : ٢٥١ .
(٣) . له ٢ : ٧٠

ويجرى فى شرى الحمد على شاكلة البحرِ

وهذا من التجنيس ؛ وليس بخارج عنه ولكنه تجنيس مخصوص ، وهو الإتيان به فى طرفَى البيت .

وعدّ ابن الأثير الموصلىّ فى كتابه من التجنيس قول الشاعر فى الشيب :

بأبياضاً أذرَى دُمُوعىَ حتّى عادَ منها سوادُ عينى بياضاَ

وكذلك قول البحترىّ :

وأغرّ فى الزمن البهيم محجّلٍ قد رحتُ منه على أغرّ محجّلِ (١)

وهذا عندى ليس بتجنيس ، لاتفاق المعنى . والعجب منه أنه بعد إيراده هذا أنكر على من قال : إن قول أبى تمام :

أظُنّ الدمعَ فى خدّى سيَبْقى رسوماً من بكائى فى الرّسوم (٢)

من التجنيس ، وقال : أىّ تجنيس هاهنا والمعنى متفق ! ولو أمعن النظر لرأى هذا مثلَ البيتين السابقين .

قالوا : فأمّا الأجناس الستة الباقية ، فإنها خارجة عن التجنيس التامّ ومشبّهة به .

فمنها أن تكون الحروف متساويةً فى تركيبها ، مختلفة فى وَزْنها ؛ فمن ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله : « اللهمّ كما حسّنت خَلْقى فحسّن خُلُقى » ؛ وقول بعضهم : لن تنالُوا غُرَر المعالى إلا بركوب الغَرَر ، واهتبال الغُرر » ، وقول البحترىّ :

وَفَرَّ الحائنُ المغرورُ يَرْجُو أمانًا ، أىُّ ساعة ما أمانِ (٣)!

(١) المثل السائر ١ : ٢٥٢ ، وذكر بعده :

كالهيكلِ المبنِىّ إلّا أنّهُ فى الحُسْنِ جاءَ كصُورَةٍ فى هيكلِ

ولم أجدهما فى ديوانه .

(٢) ديوانه ٣ : ١٦٠ .

(٣) ديوانه ٢ : ٢٧٩ والحائن : الذى قرب حينه .

يهابُ الإلتفاتَ وقد تصدّى   لمعقلة طرفِهِ طرَفُ السِّنان

وقال آخر :

قد ذُبْتُ بين حُشاشةٍ وذَماء   ما بين حرّ هوى وحرّ هواء

ومنها : أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ، فإنْ زاد على ذلك خرج من باب التجنيس ؛ وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1] . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[3] . ونحو هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله من قوله : « الخيرُ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » ، وقال بعضهم : « لا تُنال المكارم إلا بالمكاره » .

وقال أبو تمام :

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ   تَصُول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ[4]

وقال البحتري :

من كلّ ساجي الطّرْف أغيَدَ أجيدٍ   ومهفهف الكشحين أحوى أحورِ[5]

وقال أيضا :

شَواجِرُ أرْماحٍ تُقَطِّعُ بينهمْ   شواجنَ أرحامٍ ملومٍ قُطُوعُها[6]

---

(١) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام ٢٦ .

(٣) سورة غافر ٧٥ .

(٤) ديوانه ١ : ٢١٣ .

(٥) ديوانه ٢ : ٣١٩ .

(٦) ديوانه ١ : ٢١٢ .

وهذا البيت حَسَن الصنعة ؛ لأنه قد جمع بين التجنيس الناقص وبين المقلوب ؛ وهو أرماح ، وأرحام .

ومنها : أن تكون الألفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[١] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[٢] ، وكقول النبى صلى الله عليه وآله : « المسلِمُ مَنْ سلِمَ الناس من لسانه ويده » وقول بعضهم : الصديق لا يحاسب ، والعدوّ لا يحتسب له ؛ هكذا ذكر ابن الأثير هذه الأمثلة .

قال : ومن هذا القسم قول أبى تمام :

أيام تُدمى عَيْنَهُ تلك الدُّمَى حُسْناً وَتَقْمُرُ لبّه الأقمارُ[٣]
بيضٌ فهنّ إذا رُمِقْنَ سَوافِراً صُوَرٌ وهنّ إذا رَمَقْنَ صِوَارُ[٤]

وكذلك قوله أيضا :

بَدْرٌ أطاعت فيك بادرةَ النوى وَلَعاً وشمسٌ ، أولعتْ بِشِماسِ[٥]

وقوله أيضا :

جَهِلُوا فلم يستكثروا من طاعةٍ معروفةٍ بعمارة الأعمـــارِ[٦]

وقوله أيضا :

إنّ الرِّماحَ إذا غُرِسْنَ بمَشْهدٍ فجَنَى العوالِى فى ذُرَاهُ مَعالِ[٧]

---

(١) سورة القيامة ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) سورة الكهف ١٠٤ .
(٣) ديوانه ٢ : ١٦٦ ، وروايته : فيها وتقمر » . ويقمرن لبه : يذهبن به .
(٤) وهن إذا رمقن صوار ؛ أى تشبه عيون بقر الوحش إذا نظرت .
(٥) ديوانه ٢ : ٢٤٤ .
(٦) ديوانه ٢ : ٢٠٨ ، والمثل السائر ١ : ٢٥٨ ، وذكر قبله :

كادُوا النبوّةَ والهدَى فتقطّعتْ أعناقُهُمْ فى ذلِكَ المضمارِ

(٧) ديوانه ٣ : ١٤٣ .

وقوله أيضا :

إذا أحسن الأقوامُ أن يتطاولوا   بلا نعمةٍ أحسنتَ أن تتطوّلا(١)

وقوله أيضا :

شدّ ما استنزلتك عن دمعك الأظـ   ـعانُ حتى استهلّ صَوبُ العَزالى(٢)

أىّ رَبْع يكذبُ الدهر عَنْهُ   وَهْوَ ملقًى على طريق الليالى !

بين حالٍ جَنَتْ عليـه وحول   فهو نِضْو الأحوالِ والأحوال

أىّ حسنٍ فى الذاهبين تولّى   وجمالٍ على ظهور الجمـالِ

ودلالٍ مخيّم فى ذُرَى الخَيْـ   ـم وحجْلٍ مُقَصَّرٍ فى الحجالِ

فالبيت الثالث والخامس هما المقصودان بالتمثيل .

ومن ذلك قول على بن جَبلة :

وَكم لك مِنْ يوم رفعتَ عمادَهُ   بذات جفونٍ ، أو بذاتِ جِفان(٣)

وكقول البحترىّ :

نسـيمُ الروض فى ريح شَمالٍ   وصَوْبُ المزن فى رَاحٍ شَمُولِ(٤)

وكقوله أيضا :

جديرٌ بأنْ تنشقّ عَنْ ضوء وجهِهِ   ضَبَابةُ نقعٍ تحتها الموتُ ناقع(٥)

***

(١) ديوانه ٣ : ١٠٠ .

(٢) لم أجدها فى ديوانه .

(٣) المثل السائر ١ : ٢٠٩ ؛ وروايته : « رفعت عماده » .

(٤) ديوانه ٢ : ١٦٠ ؛ وقبله :

وَذَكّرَنيك والذِّكْرَى عناءٌ   مَشابهُ فيك بَيِّنَةُ الشُّكُولِ

(٥) ديوانه ٢ : ٧٧ .

واعلم أنّ هذه الأمثلة لهذا القسم ؛ ذكرها ابن الأثير فى كتابه ؛ وهو عندى مستدرك ، لأنه حدّ هذا القسم بما يختلف تركيبه ؛ يعنى حروفه الأصلية ؛ ويختلف أيضا وزنه ، ويكون اختلاف تركيبه بحرف واحدٍ . هكذا قال فى تحديده لهذا القسم ، وليس بقمر والأقمار تختلف بحرف واحد ؛ وكذلك عمارة والأعمار ، وكذلك الموالى والمعالى . وأما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، فخارج عن هذا بالكلّية ، لأن جميع أمثلة هذا القسم يختلف فيه الكلمات بالحروف الزائدة ، وهذه الآية اختلاف كلتيها بحروف أصلية ، فليست من التجنيس الذى نحن بصددِه ، بل هى من باب تجنيس التصحيف ، كقول البحترىّ :

وَلَمْ يكُن للمغترّ بالله إذْ سَرَى ليعجز والمعتزُّ باللهِ طالبُه[1]

ثم قال ابن الأثير فى هذا القسم أيضا : ومن ذلك قول محمد بن وهيب الحميرىّ :

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدّهرِ بأساً ونائلاً فمالُكَ موتورٌ وسيفُكَ واتر

وهذا أيضا عندى مستدرَك ، لأنّ اللفظتين كلاهما من الوِتر ، ويرجعان إلى أصل واحد ؛ إلا أن أحد اللفظين مفعول والآخر فاعل ، وليس أحدٌ يقول إن شاعرا لو قال فى شعره : ضارب ومضروب ؛ لكان قد جانس .

• • •

ومنها القسم المكنىّ بالمعكوس ؛ وهو على ضربين : عكس لفظ وعكس حرف، فالأول كقولهم : « عادات السادات ، سادات العادات » ، وكقولهم : شيم الأحرار أحرار الشيَم .

ومن ذلك قول الأضبط بن قُرَيع :

قَدْ يجمعُ المالَ غيرُ آكله ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ

(١) ديوانه ١ : ١١٨ .

وَيَقْطَعُ الثَّوْبَ غيرُ لابسهِ ويلبسُ الثّوب غيرُ مَنْ قَطَعَهْ

ومثله قول المتنبي :

فلا مجدَ في الدّنيا لمن قلّ مالُه ولا مالَ في الدّنيا لمنْ قلّ مجدُهُ [١]

ومثله قول الرضيّ رحمه الله من أبيات يذمّ فيها الزمان :

أسفّ بمن يطير إلى المعالي وطار بمن يُسفّ إلى الدّنايا [٢]

ومثله قول آخر :

إنّ الليالي للأنام مناهــــلٌ تُطْوَى وتُنْشَرُ بينها الأعمارُ [٣]

فقِصارُهنّ مع الهموم طويلةٌ وطوالهنّ مع السرور قِصارُ

ولبعض شعراء الأندلس يذكر غلامه [٤] :

غـــيّرتنا يدُ الزما نِ فقد شِبْتُ والتحَى

فاستحالَ الضُّحَى دُجًى واستحال الدُّجَى ضُحى

ويسمّى هذا الضرب التبديل ، وقد مثله قدامة بن جعفر الكاتب بقولهم: « اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك » .

ومثله قول النبي صلى الله عليه وآله: «جار الدار أحقّ بدار الجار».قالوا : ومنه قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾[٥] ؛ ولا أراه منه ، بل هو من باب الموازنة . ومثّلوه أيضا بقول أمير المؤمنين عليه السلام : أما بعدُ ؛ فإنّ الإنسان يسرّه درْك مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه . وبقول أبي تمام لأبي المغيث

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٣ .

(٢) ديوانه . . .

(٣) ابن الأثير من غير نسبة .

(٤) نسبه ابن الأثير إلى ابن الزقاق الأندلسي .

(٥) سورة الروم ١٩ .

وأبي سعيد الضرير ؛ فإنهما قالا : لمّا امتدح عبدَ الله بن طاهر بقصيدة ، وفي افتتاحها تـكلّف وتعجرف : لم لا تقول ما يُفهم ؟ فقال لهما : لم لا تفهمان ما يقال !

والضرب الثاني من هـذا القسم عكس الحروف ؛ وهو كقول بعضهم ، وقد أهدى لصديق له كرسيًّا :

أهديتُ شيئا يَقِلُّ لولا أُحْدُوثة الفالِ والتبرّكْ

« كرسى » تفاءلتُ فيه لمّا رأيتُ مقلوبه « يسرّكْ »

وكقول الآخر :

كيف السرور بإقبالٍ وآخره إذا تأملته مقـــــلوب إقبالِ

أى لا بقاء (١) .

وكقول الآخر :

جاذبتُها والريحُ تجذب عقربًا من فوق خدّ مثل قلبِ العقربِ

وطفقتُ ألثمُ ثغرَها فتمنعتْ وتحجبتْ عنّى بقلب العقرب

يريد « برقعا » (٢) .

ومنها النوع المسمى المجنّب ، وهو أن يجمع بين كلمتين إحداهما كالجنيبة التابعة للأخرى ، مثل قول بعضهم :

أبا الفيّاض لا تحسب بأنّى لفقرِي مِنْ حُلَى الأشعار عارِ (٣)

فلى طبعٌ كسلسالٍ مَعِينٍ زلالٍ من ذُرَا الأحجارِ جارِ

وهذا في التحقيق هو الباب المسمى لزوم ما لا يلزم ؛ وليس من باب التجنيس .

ومنها المقلوب ؛ وهو ما يتساوى وزنه وتركيبه إلا أنّ حروفه تتقدّم وتتأخر ، مثل قول أبي تمام :

(١) وهو مقلوب « إقبال » .

(٢) وهو مقلوب لفظ « العقرب » .

(٣) في المثل السائر : « أبا العباس » .

بِيضُ الصَّفائحِ لا سودُ الصَّحائفِ في مُتونهن جِــلاء الشَّكِّ والرِّيَبِ (١)

وقد ورد مثل ذلك فى المنثور ، نحو ماروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه يقال يوم القيامة ، لصاحب القرآن : اقرأ وارق » .

وقد تكلّمت فى كتابى المسمى « بالعبقريّ الحسان » على أقسام الصناعة البديعة نثرا ونظما ؛ وبيّنت أنّ كثيرا منها يتداخل ، ويقوم البعض من ذلك مقام بعض ، فليلمح من هناك .

***

الأَصْلُ :

منها :

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ، إِلَّا ٱلْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي ٱلْمَوْتِ رَاحَةً؛ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ ٱلْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ ٱلْعَمْيَاءِ؛ وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ ٱلصَّمَّاءِ ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ ؛ وَفِيهَا ٱلْغِنَى كُلُّهُ وَٱلسَّلَامَةُ .

كِتَابُ ٱللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ ؛ وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي ٱللهِ ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ ٱللهِ .

قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَى ٱلْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ ؛ وَنَبَتَ ٱلْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ ، وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ ٱلْآمَالِ ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ ٱلْأَمْوَالِ. لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكُمُ ٱلْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ ٱلْغُرُورُ ، وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ .

***

(١) ديوانه ١ : ٤٦ .

الشرح :

هذا الفصل ليس بمنتظم من أوله إلى آخره ، بل هو فصول متفرّقة التقطها الرضيّ من خطبة طويلة على عادته فى التقاط مايستفصحه من كلامه عليه السلام ، وإن كان كلّ كلامه فصيحا ؛ ولكن كلّ واحد له هوًى ومحبّة لشىء مخصوص ، وضروب الناس عشاقٌ ضروبا .

أما قوله : « كل شىء مملول إلا الحياة » ، فهو معنى قد طرّقه الناس قديما وحديثا ، قال أبو الطيب :

وَلَذِيذُ الحَيَاةِ أنفسُ فى النفـ ـسِ وأشهى من أن يُمَلّ وأحْلَى ⁽¹⁾
وإذا الشيخ قال أفٍّ فـما مـ ـلّ حياةً ولكنِ الضَّعْفَ مَلّا

وقال أيضا :

أرى كُلّنا يبغِى الحيـ ـاة لنفسه حَرِيصاً عليهـا مُسْتهاماً بها صَبّا ⁽²⁾
فحبّ الجبان النفسَ أورده البقا وحبّ الشجاع النفس أورده الحرْبا

وقال أبو العلاء :

فما رَغِبَتْ فى الموت كُدْرٌ مسيرها إلى الوِرْدِ خِمْساً ثم تَشْربنَ من أجْنِ ⁽³⁾
يُصَادِفْنَ صَقْراً كلَّ يوم وليـلةٍ وَيَلْقَيْنَ شرًّا من مخالبه الحُجْنِ ⁽⁴⁾
ولا قلقاتُ الليل باتت كأنهـا من الأيْنِ والإدلاج بعضُ القنا اللُّدْنِ ⁽⁵⁾

---

(١) ديوانه ٣ : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) ديوانه ١ : ٦٥ .

(٣) سقط الزند ٢ : ٩١٩ ، ٩٢٠ الكدر من القطا : الغبر الألوان . والخمس : ورود الماء كل خمسة أيام . والأجن : الماء المتغير .

(٤) الحجن : المتعقفة .

(٥) عنى بالقلقات، حمر الوحش ؛ لقلقها فى السير إلى الماء .

خَرَبْنَ مليعاً بالسّنابك أَرْبَعاً ... إلى الماء لا يقدِرْنَ منه على مَعْنِ (١)
وخوفُ الردَى آوى إلى الكهفِ أهلَه ... وكلّفَ نوحاً وابنَه عَمَلَ السُّفْنِ
وما استعذبَتْهُ روحُ موسى وآدمٍ ... وقد وُعِدا مِنْ بَعْدِهِ جنّتَيْ عَدْنِ

ولى من قصيدة ، أخاطب رجلين فرّا فى حرب :

عَذَرْتُكما إنّ الحمام لمبغَضٌ ... وإنّ بقاء النّفْسِ للنفس محبوبُ
ويُكْرَهُ طعم الموتِ والموتُ طالبٌ ... فكيف يلذّ الموتُ والموتُ مطلوب !

وقال أبو الطيب أيضاً :

طيبُ هذا النسيم أوقَرَ فى الأنـ ... ـفُسِ أنّ الحِمَامَ مُرُّ المذاقِ (٢)
والأسى قبلَ فُرْقَةِ الرُّوح عجزٌ ... والأسى لا يكونُ بَعْدَ الفِراقِ

البحترىّ :

ما أطيبَ الأيّام إلا أنّها ... ياصاحبىّ إذا مضت لم ترْجِعِ (٣)

وقال آخر :

أوفى يصفّق بالجناح مغلّسا ... ويصيح من طرب إلى النّدمانِ
ياطيب لذّة هذه الدُّنيا لنا ... لو أنّها بقيتْ على الإنسانِ

وقال آخر :

أرى النّاس يهوَوْنَ البقاء سفاهةً ... وذلك شىء ما إليه سبيلُ
وَمَنْ يأمَنِ الأيامَ ! أمّا بلاؤُها ... فجمٌّ ، وأما خيرُها فقليلُ

---

(١) المليع : الأرض الخالية . والمعن : الشىء القليل .
(٢) ديوانه ٢ : ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، وروايته : « إلف هذا الهواء » .
(٣) ديوانه ٢ : ١٠٠ .

وقال محمد بن وهيب الحميرىّ :

ونحنُ بنُو الدّنيا خلِقْنا لغيرِها وما كنت منه فهو شيء محبّبُ

وهذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد قيل له : ما أكثر حبّ الناس للدنيا ! فقال : هم أبناؤها ، أيلامُ الإنسان على حبّ أمه !

وقال آخر :

يامَوْتُ ما أفجاكَ من نازلٍ تنزل بالمرء عَلَى رُغْمِهِ
تستلبُ العَذْرَاء مِنْ خِدْرِهَا وتأخذ الواحدَ مِنْ أمّهِ

أبو الطيب :

وهى معشوقة على الغدرِ لا تحـ ـفظ عهداً ولا تُتَمِّمُ وَصْلاً[1]
كلّ دمعٍ يسيل منها عليْهَا وبفكّ اليديْن عنهـا تُخَلَّى
شِيَمُ الغانياتِ فيهـا فلا أدرِي لذا أنّث اسمَهـا النـاس أم لا !

فإن قلت : كيف يقول: إنه لا يجد فى الموت راحةً ؟ وأين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدنيا سجن المؤمن،وجنّة الكافر »اومن قوله عليه السلام:« والله ما أرجو الرّاحة إلا بعد الموت »اوماذا يعمل بالصالحين الذين آثرُوا فراقَ هذه العاجلة، واختاروا الآخرة ، وهو عليه السلام سيّدهم وأميرهم !

قلت : لا منافاة ، فإنّ الصالحين ، إنّما طلبوا أيضا الحياة المستمرّة بعد الموت ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله إنما قال : إنّ الدنيا سجن المؤمن ؛ لأنّ الموتَ غير مطلوب للمؤمن لذاته ، إنما يطلبه للحياة المتعقبة له ، وكذلك قوله عليه السلام : « والله ما أرجو الرّاحة إلا بعد الموت » ، تصريح بأنّ الراحة فى الحياة التى تتعقّب الموت ؛ وهى حياة الأبد ، فلا منافاة إذاً بين هذه الوجوه وبين ماقاله عليه السلام ، لأنه مانفى إلا الرّاحة فى الموت نفسه ؛ لا فى الحياة الحاصلة بعده .

(١) ديوانه ٣ : ١٣١ ، ١٣٢ .

فإن قلت : فقد تطرأ على الإنسان حالة يستصحبها قيود الموت لنفسه ، ولا يفكّر فيما يتعقّبه من الحياة التى تشير إليها ولا يخطر بباله ؟

قلت : ذاك شاذّ نادر فلا يُلتفت إليه ؛ وإنما الحكم للأعمّ الأغلب . وأيضا فإنّ ذاك لا يلتذّ بالموت ، وإنّما يتخلّص به من الألم ، وأمير المؤمنين قال : مامِنْ شىء من الملذّات إلا وهو مملول ؛ إلا الحياة ، وبين الملذّ والخلاص من الألم فرقٌ واضح ؛ فلا يكون نقضا على كلامه .

فإن قلت : قد ذكرت ماقيل فى حبّ الحياة وكراهية الموت ، فهل قيل فى عكس ذلك ونقيضه شىء ؟ قلت : نعم ؛ فن ذلك قول أبى الطيب :

كَفَى بكَ داء أنْ تَرَى الموتَ شافِيا ... وَحَسْبُ المنايا أنْ يكنّ أمانِيا(١)

تمنّيتَها لَمّا تمنّيتَ أن ترَى ... صديقاً فأعيا ، أو عدوّاً مُداجِيا

وقال آخر .

قد قلتُ إذْ مدحُوا الحياة فأسرفُوا ... فى الموت ألف فضيلة لا تعرَفُ

منها أمانُ لقائه بلقائه ... وفراق كلّ معاشر لا ينصِف

وقيل لأعرابى وقد احتُضر : إنك ميت ؛ قال : إلى أين يُذهب بى ؟ قيل : إلى الله ، قال : ماأكره أن أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلا منه .

إبراهيم بن مهدىّ :

وإنّى وإنْ قُدِّمْتَ قبلى لعالمٌ ... بأنّى وإن أبطأتُ عنك قريبُ(٢)

وإنّ صباحاً نلتقى فى مسائه ... صباحٌ إلى قلبى الغداةَ حبيبُ

وقال بعض السلف : مامن مؤمن إلّا والموت خير له من الحياة ، لأنه إن كان محسنا

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٢) الكامل ٤ : ١٨ (طبعة نهضة مصر) .

فالله تعالى يقول : ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (١) ، وإن كان مسيئاً فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (٢) .

وقال ميمون بن مهران : بتّ ليلةً عند عمر بن عبد العزيز ، فرأيته يبكي ويكثر من تمنّي الموت ، فقلت له : إنك أحييتَ سنّنا ، وأمتّ بدعا ، وفي بقائك خير للمسلمين ، فما بالك تتمنّى الموت ! فقال : ألا أكونُ كالعبد الصالح حين أقرّ الله له عينه، وجمع له أمره، قال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٣) !

وقالت الفلاسفة : لا يستكمل الإنسانُ حدّ الإنسانية إلا بالموت ، لأنّ الإنسان هو الحيّ الناطق الميّت .

وقال بعضهم : الصّالح إذا مات استراح ، والطالح إذا مات استُريحَ منه .

وقال الشاعر :

جَزَى اللهُ عنّا الموتَ خيراً فإنه — أبرّ بنا من كلّ برّ وأرأفُ
يعجّلُ تخليصَ النفوسِ من الأذى — ويُدْني من الدّار التي هي أشرفُ

وقال آخر :

مَنْ كانَ يرجُو أن يعيشَ فإنّني — أصبحتُ أرجُو أن أموتَ لأُعتقا
في الموتِ ألفُ فضيلة لو أنّها — عُرِفتْ لكانَ سبيلُه أنْ يُعشقا

وقال أبو العلاء:

جِسْمِي وَنَفْسِيَ لَمّا استجْمَعا صَنَعا — شرًّا إليّ ، فَجَلّ الواحدُ الصّمَدُ !

(١) سورة القصص ٦٠ .
(٢) سورة آل عمران ١٧٨ .
(٣) سورة يوسف ١٠١ .

فالجسم يبذل فيه النفس مجتهداً ... وتلك تزعم أنّ الظالم الجسدُ
إذا هُما بعدَ طولِ الصحبة افترقا ... فإنّ ذاك لأحداث الزمان يدُ

وقال أبو العتاهية :

المرء يأمُل أن يَعيـــشَ وطولُ عُمْرٍ قد يَضُرّهْ(١)
تفنَى بشـــاشتُهُ وَيَبْـــقَى بعد حُلْوِ العيشِ مُرُّهْ
وتخونُه الأيامُ حَـــتّى لا يَرى شيئــاً يَسُرُّهْ
كَمْ شامتٍ بي إنْ هلكـــتُ وقائلٍ : لله دَرُّهْ !

وقال ابن المعتز :

ألستَ ترى يا صاحِ ما أعجبَ الدّهرَا ... فذمًّا له .. لكنّ للخالِق الشُّكْرَا
لقَدْ حبّبَ الموتَ البقاءَ الذى أرَى ... فياحسداً مِنّى لمن يسكُنُ القَبْرَا

***

فأما قوله عليه السلام : « وإنما ذلك بمنزلة الحكمة » ، إلى قوله . « وفيها الغنى كلّه والسلامة » ، ففصل آخر غير ملتئم بما قبله ، وهو إشارة إلى كلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله رواه لهم ، ثم حضّهم على التمسّك به ، والانتفاع بمواعظه ، وقال : إنّه بمنزلة الحكمة التى هى حياة القلوب ،ونور الأبصار، وسَمْع الآذان الصمّ ، ورِيّ الأكبادالحرّى؛ وفيها الغنى كلّه ،والسلامة ؛والحكمة المشبّه كلام الرسول صلى الله عليه وآله بها هى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(٢) وفى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

(١) ديوانه ١٢٠ .
(٢) سورة البقرة ٢٦٩ .

لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾(١) ، وفى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾(٢) وهى عبارة عن المعرفة بالله تعالى ، وبما فى مبدعاته من الأحكام الدالّة على علمه ؛ كتركيب الأفلاك ، ووضع العناصر مواضعَها ، ولطائف صنعة الإنسان وغيره من الحيوان ، وكيفية إنشاء النبات والمعادن ، وما فى العالم من القوى المختلفة ، والتأثيرات المتنوعة ؛ الراجع ذلك كلّه إلى حكمة الصانع وقدرته وعلمه ، تبارك اسمه !

* * *

فأما قوله : « وكتابُ الله » ، إلى قوله : « ولا يخالف بصاحبه عن الله » ، ففصل آخر مقطوع عمّا قبله ، ومتّصل بما لم يذكره جامع " نهج البلاغة " .

فإن قلتَ : مامعنى قوله : « ولا يختلف فى الله ، ولا يخالف بصاحبه عن الله » ؟ وهل بين هاتين الجملتين فرق ؟

قلت : نعم ، أما قوله : « ولا يختلف فى الله » ، فهو أنه لا يختلف فى الدلالة على الله وصفاته ، أى لا يتناقض ، أى ليس فى القرآن آيات مختلفة يدلُّ بعضُها عَلَى أنه يعلم كلّ المعلومات مثلا ، وتدلّ الأخرى على أنه لا يعلم كلّ المعلومات ؛ أو يدلّ بعضها على أنه لا يرى ، وبعضها على أنه يرى ، وليس وجودنا للآيات المشتبهة بقادح فى هذا القول ، لأنّ آيات الجبر والتشبيه لا تدلّ ، وإنما توهِم ؛ ونحن إنّما نفينا أن يكون فيه مايدلّ عَلَى الشىء ونقيضه .

وأما قوله : « ولا يخالف بصاحبه عن الله » ؛ فهو أنّه لا يأخذ بالإنسان المعتمد عليه إلى غير الله ، أى لا يهديه إلّا إلى جناب الحقّ سبحانه ؛ ولا يعرُج به إلى جناب الشيطان ؛ يقال : خالفتُ بفلان عن فلان ، إذا أخذت به غير نحوه ، وسلكت به غير جهته .

---

(١) سورة لقمان ١٢ .
(٢) سورة مريم ١٢ .

فأما قوله : « قد اصطلحتم عَلَى الغِلّ ... » إلى آخر الفصل ، فكلامٌ مقطوع أيضا عمّا قبله ، والغِلّ : الحِقد .

والدِّمَن : جمع دِمْنة ؛ وهى الحقد أيضا ، وقد دمِنت قلوبهم بالكسر ، أى ضغِنت . ونبت المرعى عليها ، أى دامت وطال الزمان عليها ؛ حتى صارت بمنزلة الأرض الجامدة الثابتة التى تنبت النبات . ويجوز أن يريدَ بالدِّمَن ها هنا جمع دِمْن وهو البَعَر المجتمع كالمزبلة ؛ أوجمع دِمْنة وهى آثار الناس وما سوّدوا من الأرض ؛ يقال : قد دمّن الشاء الماء ، وقد دمّن القوم الأرض ؛ فشبّه ما فى قلوبهم من الغلّ والحِقد والضغائن بالمزبلة المجتمعة من البعر وغيره ؛ من سُقَاطة الديار التى قد طال مكثها حتى نبت عليها المرعى ، قال الشاعر :

وَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا (١)

قوله عليه السلام : « لقد استهام بكم الخبيث » ، يعنى الشيطان . واستهام بكم : جعلكم هائمين ؛ أى استهامكم ، فعدّاه بحرف الجرّ ، كما تقول فى « استنفرت القوم إلى الحرب » : استنفرتُ بهم ، أى جعلتهم نافرين . ويمكن أن يكون بمعنى الطّلب والاستدعاء ، كقولك : استعلمت منه حال كذا ، أى استدعيت أن يعلمنى ، واستمنحت فلانا ، أى طلبت واستدعيت أن يعطيَنى ، فيكون قوله : « واستهام بكم الخبيث » ؛ أى استدعى منكم أن تهيموا وتقعوا فى التِّيه والضلال والحيرة .

قوله : « وتاه بكم الغَرور » هو الشيطان أيضا ، قال سبحانه : ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾(٢) . وتاه بكم : جعلكم تائهين حائرين . ثم سأل الله أن يعينه على نفسه وعليهم .

ومن كلام بعض الصالحين : « اللهمّ انصرنى على أقرب الأعداء إلىّ داراً ، وأدناهم منى جواراً ، وهى نفسى » .

(١) البيت لزفر بن الحارث . اللسان ١٧ : ١٥ .
(٢) سورة الحديد ١٤ .

(١٣٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد شاوره عمر بن الخطاب فى الخروج إلى غزو الروم :

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لِأَهْلِ هَـذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ ، وَالَّذِى نَصَرَهُمْ ، وَهُمْ قَلِيـلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيـلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ ، حَىٌّ لَا يَمُوتُ .

إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَـذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ ، لَا يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَهْفٌ دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ . لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً ، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنَّصِيحَةِ ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى ، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

* * *

الشرح :

توكّل لهم : صار وكيلا ، ويروى : « وقد تكفّل » ، أى صار كفيلا .

والحوْزة : الناحية ، وحوْزة الملك بَيْضته ؛ ويقول : إنما الذى نصرهم فى الابتداء على ضَعْفهم هو الله تعالى ؛ وهو حَىٌّ لا يموت ؛ فأجدِرْ به أن ينصرَهم ثانيا ، كما نصرهم أولا !

وقوله : « فتنكبْ » مجزوم لأنه عطف على « تسِرْ » .

وكهف ، أى وكهفٌ يلجأ إليه . ويروى « كانفة » أى جهة عاصمة ، من قولك : كنفت الإبل ، جعلتَ لها كنيفا من الشجر تستتِر به وتعتصم .

ورجلٌ مِحْرَب ، أى صاحب حروب .

وحفزتُ الرّجل أحفِزه : دفعتَه من خَلْفِه وسقتَه سوقا شديدا .

وكنت ردءا ، أى عونا ، قال سبحانه : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾(١) .

ومثابة ، أى مرجعا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾(٢) ، أشار عليه السلام ألّا يشخَص بنفسه ، حذراً أن يصابَ ، فيذهب المسلمون كلّهم لذهاب الرأس ، بل يبعث أميراً من جانبه على الناس ، ويقيم هو بالمدينة ، فإن هُزِموا كان مرجعهم إليه.

فإن قلت : فما بالُ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشاهِد الحروبَ بنفسه ، ويباشرها بشخصه ؟

قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان موعوداً بالنصر ، وآمناً على نفسه بالوعد الإلهيّ فى قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾(٣) ، وليس عمر كذلك .

فإن قلت : فما بالُ أميرِ المؤمنين عليه السلام شهد حَرْب الجمل وصِفّين والنّهروان بنفسة ، فهلّا بعث أميرا محرَبا ، وأقام بالمدينة ردءا ومثابة !

قلت : عن هذا جوابان : أحدهما أنّه كان عالماً من جهة النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه لا يقتَل فى هذه الحروب ؛ ويشهد لذلك الخبر المتّفق عليه بين الناس كافّة : « يقاتل بعدى النّاكثين والقاسطين والمارقين » . وثانيهما ، يجوز أن يكون غلَب على ظنّه أنّ غيره لا يقوم مقامَه فى حرب هذه الفرق الخارجة عليه ، ولم يجد أميرا محرَبا من أهل البلاء والنصيحة ، لأنه عليه السلام هكذا قال لعمر ؛ واعتبر هذه القيود والشروط ؛ فمن كان من

(١) سورة القصص ٣٤ .
(٢) سورة البقرة ١٢٥
(٣) سورة المائدة ٦٧ .

أصحابه عليه السلام مجرّبًا لم يكن من أهل النّصيحة له ، ومَن كان من أهل النصيحة له لم يكن مجربا ، فدعته الضرورة إلى مباشرة الحرب بنفسه .

* * *

[غزوة فلسطين وفتح بيت المقدس]

واعلم أنّ هذه الغَزَاة هى غزاة فلسطين ، التى فتِح فيها بيت المقدس ؛ وقد ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ(١) ، وقال :

إن عليًّا عليه السلام هو كان المستخلف على المدينة لمّا شخَص عمر إلى الشام ، وإن عليا عليه السلام قال له : لا تخرج بنفسك ، إنك تريد عدوّا كَلِبًا ، فقال عمر : إنى أبادر بجهاد العدوّ موت العباس بن عبد المطلب ، إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشرّ كما ينتقض(٢) الحبل . فمات العباس لستّ سنين خلت من إمارة عثمان وانتقض بالناس الشرّ .

قال أبو جعفر : وقد كان الروم عرفوا من كتبهم أنّ صاحب فتح مدينة إيلياء - وهى بيت المقدس - رجل، اسمه عَلَى ثلاثة أحرف ، فكان مَنْ حضر من أمراء المسلمين يسألون عن اسمه ، فيعلمون أنّه ليس بصاحبهم ، فلما طال عليهم الأمر فى حرب الروم ، استمدُّوا عمر ، وقالوا : إن لم تحضر بنفسك لم يُفتَحْ علينا ، فكتب إليهم أن يَلقَوْه برأس الجابية ، ليوم ٍسمّاه لهم ، فلقوه وهو راكب حمارا ، وكان أوّلَ مَنْ لقيه يزيد بن أبى سفيان ، ثم أبو عبيدة بن الجراح ، ثم خالد بن الوليد ، على الخيول وعليهم الدّيباج والحرير ، فنزل عمر عن حِماره ، وأخذ الحجارة ، ورماهم بها ، وقال : سَرْعان ما لُفِتُّم عن رأيكم ! إياى

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٦٠٧ وما بعدها (طبع دار المعارف) .
(٢) الطبرى : « كما ينتقض أول الحبل » .

تستقبلون فى هذا الزّىّ ! وإنما شبعتم منذ سنتين ، سَرْع ماتَرّت بكم[1] البِطْنة ؛ وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين ، لاستبدلت بكم غيركم !

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنما هى يلامقة ، وتحتها السلاح [2] ، فقال : فنعم إذاً !

قال أبو جعفر : فلما علم الروم مقدَمَ عمر نفسه ، سألوه الصلح ، فصالحهم ، وكتب لهم كتاباً على أن يؤدّوا الجزية ، ثم سار إلى بيت المقدس ، فقصر فرسُه عن المشى ، فأُتِىَ ببرذَوْنٍ فركبه ، فهزّه وتَمَلْمَج تحته ، فنزل عنه ، وضرب وجهه بردائه ، وقال : قبّح الله مَنْ علّمك هذا ! ردّوا علىّ فرسى ، فركبه وسار حتى انتهى إلى بيت المقدس .

قال : ولم يركب برذونا قبلَه ولا بعده ، وقال : أعوذ بالله من الخُيَلاء !

قال أبو جعفر : ولقيَه معاوية ، وعليه ثياب ديباج ، وحوله جماعة من الغلمان والخوَل ، فدنا منه فقبّل يده ، فقال : ماهـذا يابن هند ! وإنك لعلى هذه الحال ، مترَفٌ صاحب لَبُوس وتنعّم ؛ وقد بلغنى أنّ ذوى الحاجات يقفون ببابك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أما اللباس فإنّا ببلاد عدوّ ، ونحب أن يرى أثر نعمة الله علينا ، وأما الحجاب فإنّا نخاف من البِذْلة جرأة الرعيّة . فقال : ماسألتُك عن شىْ إلا تركتَنى منه فى أضيق من الرّواجب[3] ، إن كنتَ صادقا فإنه رأى لبيب ، وإن كنت كاذبا ؛ فإنها خدعة أريب.

* * *

وقد روى الناس كلام معاوية لعمر على وجه آخر ، قيل : لما قدم عمر الشام قدِمها ، وهو راكب حماراً قريباً من الأرض ، ومعه عبد الرحمن بن عوف راكب حمارٍ قريب أيضا ، فتلقاهما معاوية فى كَوْكَبةٍ خشناء[4] ، نثنى وركه ، ونزل وسلّم بالخلافة فلم يردّ عليه.

---

(١) التار : الممتلئ البدن ، وفى الطبرى . « ندت » .

(٢) اليلمق : القباء المحشو وفى الطبرى : « وإن علينا السلاح » .

(٣) الرواجب : ما بين عقد الأصابع .

(٤) خشناء ، أى كثيرة السلاح .

فقال له عبد الرحمن : أحصرتَ الفتى يا أمير المؤمنين ، فلو كلّمته ! قال : إنك لَصاحِبُ الجيش الذى أرى ! قال : نعم ، قال : مع شدّة احتجابك، ووقوف ذوى الحاجات ببابك! قال : أجلْ ، قال : لِمَ ويحك! قال لأنا ببلاد عدوّ كثير فيها جواسيسهم، فإنْ لم نتخذ العُدّة والعَدَد استخفّ بنا ، وهجم على عوراتنا ، وأنا بعد عاملك ،فإن استنقصتنى نقصتُ، وإن استزدتنى زدتُ ، وإن استوقفتنى وقفت . فقال : إن كنت كاذباً إنه لرأىُ أريب، وإن كنت صادقا إنّه لتدبير لبيب ؛ ماسألتك عن شىء قطّ إلا تركتنى منه فى أضيق من رواجب الضّرس ؛ لا آمرُك ولا أنهاك . فلما انصرف ، قال عبد الرحمن : لقد أحسن الفتى فى إصدار ما أوردتَ عليه ، فقال : لحسْنِ إيراده وإصداره جشّمناه ما جشّمناه .

* * *

قال أبو جعفر : شخص عمر من المدينة إلى الشام أربعَ مرات ، ودخلها مرة راكب فرسٍ ، ومرة راكبَ بعيرٍ ، ومرةً راكب بغل ، ومرةً راكب حمار ، وكان لا يعرَف، وربما استخبره الواحد : أين أمير المؤمنين ؟ فيسكت ، أو يقول : سل الناس، وكان يدخل الشام وعليه سَحْقُ[1] فرو مقلوب ، وإذا حضر الناس طعامه رأوْا أخشن الطعام .

قال أبو جعفر : وقدم الشام فى إحدى هذه المرّات الأربع ، فصادف الطاعون بها فاشياً ، فاستشار الناس ، فكلّ أشار عليه بالرجوع وألّا يدخلها ، إلا أبا عبيدة بن الجراح، فإنه قال : أتفرّ من قدَرِ الله ؟ قال نعم ، أفرّ من قدَرِ الله بقدَر الله إلى قدَر الله، لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! فما لبث أن جاء عبد الرحمن بن عوف ، فروى لهم عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : «إذا كنتم ببلادِ الطاعون فلا تخرجوا منها، وإذا قدمتم إلى بلاد الطاعون فلا تدخلوها » ، فحمِد الله على موافقة الخبر لما كان فى نفسه ، وما أشار به الناس، وانصرف راجعا إلى المدينة ، ومات أبو عبيدة فى ذلك الطاعون وهو الطاعون المعروف بطاعون عِمْواس ، وكان فى سنة سبع عشرة من الهجرة[2] .

(١) السحق : الثوب البالى .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٦٠٦

(١٣٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد وقعت بينه وبين عثمان مشاجرة ، فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان : أنا أكفيكه ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة :

يابْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ ، أَنْتَ تَكْفِينِي ؟ فَوَاللهِ مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ ، اُخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ ؛ ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ ، فَلَا أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ !

• • •

الشرح :

هو المغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة الثقفيّ ، حليف بني زهرة ؛ وإنما قال له أمير المؤمنين عليه السلام : « يابنَ اللعين » ، لأنّ الأخنس ابن شريق كان من أكابر المنافقين ، ذكره أصحاب الحديث كلّهم في المؤلّفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله مائةً من الإبل من غنائم حُنَين يتألّف بها قلبه ، وابنه أبو الحكم بن الأخنس ، قتله أمير المؤمنين عليه السلام يوم أحُد كافرا في الحرب ، وهو أخو المغيرة هذا . والحقد الذي في قلب المغيرة عليه من هذه الجهة.

وإنما قال له : « يابن الأبتر » ، لأنّ من كان عقبه ضالا خبيثا ، فهو كمن لا عقِب له بل من لا عقب له خير منه ويروى : « ولا أقام من أنت منهضه » بالهمزة .

ويروى « أبعد الله نوءك » من أنواء النجوم التي كانت العرب تنسب المطر إليها ، وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا : أبعد الله نوءك ! أي خيرك .

والجَهد بالفتح : الغاية ، ويقال : قد جهد فلان جَهده بالفتح ، لا يجوز غير ذلك؛ أى انتهى إلى غايته . وقد رُوِىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن ثَقِيفاً .

وروى أنه عليه السلام قال : « لولا عروة بن مسعود للعنتُ ثقيفاً » .

وروى الحسن البصرىّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن ثلاث بيوت: بيتان من مكة ؛ وهما بنو أمية وبنو المغيرة ، وبيت من الطائف وهم ثقيف .

وفى الخبر المشهور المرفوع وقد ذكر ثقيفا : « بئست القبيلة ، يخرج منها كذّاب ومُبِير »[1] فكان كما قال صلى الله عليه وآله ؛ الكذاب المختار ، والمبِير الحجاج .

واعلم أن هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان ؛ ولكن عوانة روى عن إسماعيل ابن أبى خالد ، عن الشعبىّ ، أن عثمان لما كثرت شكايته من علىّ عليه السلام ، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أحدٌ إلا شكا إليه عليا ، فقال له زيد بن ثابت الأنصارىّ — وكان من شيعته وخاصّته : أفلا أمشى إليه فأخبرَه بموجِدتك فيما يأتى إليك ؟ قال : بلى : فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفى — وعِداده فى بنى زُهرة ، وأمّه عمة عثمان بن عفان — فى جماعة ، فدخلوا عليه ، فحمِد زيد الله وأثنى عليه، ثم قال : أما بعدُ فإن الله قدّم لك سلفا صالحاً فى الإسلام ، وجعلك من الرسول بالمكان الذى أنت به ، فأنت للخير كلّ الخير أهل ، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمّك ، ووالى هذه الأمّة ، فله عليك حقّان : حقّ الولاية وحق القرابة ؛ وقد شكا إلينا أنّ عليًّا يعرِض لى ، وردّ أمرى علىّ ، وقد مشينا إليك نصيحةً لك ، وكراهيَةَ أن يقع بينك وبين ابن عمّك أمرٌ نكرهه لكما .

قال ؛ فحمِد علىٌّ عليه السلام الله ، وأثنى عليه وصلّى على رسوله ، ثم قال : أمّا بعد ، فوالله ماأحبّ الاعتراض ، ولا الردّ عليه ، إلا أن يأبى حقا لله لا يسعنى أن أقول فيه إلّا بالحق ؛ ووالله لأكفنّ عنه ماوسعنى الكفّ .

---

(١) المبير : المهلك .

فقال المغيرة بن الأخنس ـ وكان رجلا وَقّاحا[1]، وكان من شيعة عثمان وخُلَصائه: إنك والله لتَكُفَّنّ عنه أو لنُكَفّنّ؛ فإنه أقدر عليك منك عليه! وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين إعزازاً لتكون له الحجة عندهم عليكَ. فقال له علي عليه السلام: يابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفّني! فوالله ما أعزّ الله امرأ أنت ناصره، اخرج أبعد الله نَوَاك، ثم اجهد جهدك، فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيتم.

فقال له زيد: إنّا والله ماجئناك لنكونَ عليك شهوداً، ولا ليكون ممشانا إليك حجة؛ ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر أن يصلح الله ذاتَ بينكما، ويجمع كلمتكما. ثم دعا له ولعثمان، وقام فقاموا معه.

وهذا الخبر يدلّ على أن اللفظة «أنت تكفّني»، وليست كما ذكره الرضيّ رحمه الله «أنت تكفيني»؛ لكن الرضيّ طبّق هذه اللفظة على ماقبلها، وهو قوله: «أنا أكفيكه»؛ ولا شبهة أنها رواية أخرى.

***

[فصل في نسب ثقيف، وطرف من أخبارهم]

وإنما قال له: «والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع»، لأن ثقيفا في نسبها طعن، فقال قوم من النسابين: إنّهم من هَوازن؛ وهو القول الذي تزعمه الثقفيُّون، قالوا: هو ثقيف، واسمه قسيّ بن منبّه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس بن عَيْلان ابن مُضَر. وعلى هذا القول جمهور الناس.

ويزعم آخرون أنّ ثقيفاً من إياد بن نزار بن معدّ بن عدنان، وأنّ النَّخَع أخوه لأبيه

(١) الوقاح: ذو الوقاحة.

وأمه ، ثم افترقا ، فصار أحدهما فى عِـداد هَوَازن ، والآخر فى عداد مَذحِـج بن مالك ابن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقد روى أبو العباس المبرد فى '' الكامل '' لأخت الأشتر مالك بن الحارث النَّخَعِىّ تبكيه :

أبعد الأشتر النخعىّ نَرْجُو ... مكاثرةً ونقطع بَطْنَ وادِ (1)
ونصحبُ مذحِجاً بإخاء صدقٍ ... وإن ننسبْ فنحن ذُرَا إيادِ
ثقيفٌ عمّنا وأبو أبينا ... وإخوتنا نزار أولو السداد

قال أبو العباس : وهجا (2) يحيى بن نوفل — وكان هجّاء خبيث اللسان — العُرْيانَ ابن الهيثم بن الأسود النَّخَعِىّ ، وقد كان العريان تزوّج امرأة اسمها زَبادِ — مبنى على الكسر ، والزاى مفتوحة بعدها باء منقوطة بواحدة — وهى من ولد هانئْ بن قبيصة الشيبانىّ ، وكانت قبله تحت الوليد بن عبد الملك بن مروان ، فطلقها ، فأنكحها إياه أخ لها يقال له زياد ، فقال يحيى بن نوفل :

أعُرْيانُ ما يدرى امرؤ سِيلَ عنكمُ ... أمِنْ مَذحِـج تُدْعَوْن أم مِنِ إيادِ
فإن قلتم من مذحج إنّ مذحجاً ... لبيضُ الوجوه غـير جدّ جمـادِ
وأنتم صغار الهـام حُدْلٌ كأنما ... وجوهكمُ مطليّةٌ بمـدادِ (3)
وإن قلتمُ الحىّ اليمانون أصلُنا ... وناصرُنا فى كلّ يوم جـلادِ
فأطولْ بأيرٍ من مَعَـدٍّ ونزوةٍ ... نزتْ بإيادٍ خَلْفَ دارِ مُـرادِ
ضللتم كما ضلّت ثقيفٌ فما لكمْ ... ولا لهم بين القبـائل هادِ
لعمرُ بنى شيبانَ إذْ يُنْكحونَهُ ... زبادِ لقَدْ ما قصّروا بزبـادِ (4)

---

(1) الكامل ٢ : ٦٦ ، ٦٧ (طبعة نهضة مصر) .
(2) الكامل ٢ : ٦٤ .
(3) حدل : جمع أحدل وهو المائل العنق ؛ وفى الأصول : « حول » وما أثبته من الكامل .
(4) لقد ما قصروا ؛ قال أبو العباس : « ما زائدة » ، مثل قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾

أبعد وليد أنكحوا عبدَ مَذْحِجٍ كَمُنْزِيَةٍ عَــيْراً خِلاَفَ جوادِ[1]
وأنكحها لا فى كِفاء ولا غــنًى زيادٌ ، أضــلَّ الله سَعْىَ زياد[2]

***

قال أبو العباس : وكان المغيرة بن شعبة ، وهو والى الكوفة صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر ؛ وهى فيه عمياء مترهّبة ؛ فاستأذن عليها ، فقيل لها : أمير هذه المدَرَة بالباب . قالت : قولوا له : مِنْ ولد جبلة بن الأيهم أنت ؟ قال : لا ، قالتْ : أفمن ولَد المنذر بن ماء السماء أنت ؟ قال : لا ، قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا المغيرة بن شعبة الثقفىّ ، قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئت خاطبا ، قالت : لو كنت جئتنى لجمال أو حالٍ لأطلبتُك ، ولكن أردت أن تتشرّف بى فى محافل العرب ؛ فتقول : نكحتُ ابنةَ النعمان بن المنذر ؛ وإلا فأىّ خيرٍ فى اجتماع أعور وعمياء !

فبعث إليها : كيف كان أمركم ؟ قالت : سأختصر لك الجواب ؛ أمسينا وليس فى الأرض عربىٌّ إلّا وهو يرهبنا أو يرغب إلينا ؛ وأصبحنا وليس فى الأرض عربىٌّ إلا ونحن نرهبه ونرغب إليه . قال : فما كان أبوك يقول فى ثقيف ؟ قالت : أذكر ؛ وقد اختصم إليه رجلان منهم ؛ أحدهما ينتهى إلى إياد ، والآخر إلى هوازن ؛ فقضى للإيادىّ وقال :

إنّ ثقيفاً لم تَكُنْ هوازنا ولم تناسِبْ عامراً أو مازنا

فقال المغيرة : أمّا نحن فمن بكر بن هوازن، فليقل أبوك ما شاء ؛ ثم انصرف[3].

وقال قوم آخرون : إن ثقيفاً من بقايا ثمود ؛ من العرب القديمة التى بادت وانقرضت .

***

(١) خلاف جواد ، أى بعد جواد .
(٢) يقال : هو كفاؤك فى الشرف ، إذا كان عديلك .
(٣) الكامل ٢ : ٦٦ (طبعة نهضة مصر) .

قال أبو العباس : وقد قال الحجاج على المنبر : يزعمون أنا من بقايا ثمود ؛ فقد كذبهم الله بقوله : ﴿وثمودَ فما أبقى﴾[1] .

وقال مرة أخرى : ولئن كنّا من بقايا ثمود ؛ لَمَا نجا مع صالح إلا خيارهم .

وقال الحجّاج يوما لأبي العَسوَّس الطائيّ : أيّ أقدم ، أنزول ثقيف الطائف ، أم نزول طيّء الجبلين ؟ فقال له أبو العسوّس : إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيء الجبلين قبلها ، وإن كانت من بقايا ثمود ؛ فهي أقدم ؛ فقال الحجاج : اتّقِني فإني سريع الخطفة للأحمق المتهوّر ، فقال أبو العَسوّس ـ قال أبو العباس ، وكان أعرابيا قحًّا إلا أنه لطيف الطبع ؛ وكان الحجاج يمازحه ـ :

يؤدّبني الحجـــاجُ تأديبَ أهْلِهِ ... فلو كنتُ من أولاد يوسفَ ما عدَا
وإنّي لأخشى ضربةً ثقفيّـــةً ... يقُدّ بها ممّن عصـــاه المقلّدا
على أنني ممـــا أحاذِرُ آمِنٌ ... إذا قيلَ يوماً قد عصى المرء واعتدَى[2]

وقتل المغيرة بن الأخنس مع عثمان يوم الدار ، وقد ذكرنا مقتله فيما تقدّم .

تم الجزء الثامن من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء التاسع

(١) سورة النجم ٥١ .
(٢) الكامل ٢ : ٦٥ .

فهرس الخطب *

(*) وهى الخطب الواردة فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

(*) وهى الموضوعات الواردة فى كتاب شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٦هـ — ١٩٦٧ م)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

[ذكر أطراف مما شجر بين على وعثمان فى أثناء خلافته]

واعلَمْ أنّ هذا الكتاب يستدعى منّا أن نذكُر أطرافاً ممّا شجَر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته ؛ إذْ كان هذا الكلام الذى شرحناه من ذلك النمط[1] ؛ والشىء يُذكر بنظيره ؛ وعادتُنا فى هذا الشرح أن نذكرَ الشىء مع ما يناسبه ويقتضى ذكرَه .

قال أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ فى كتاب «أخبار السقيفة» : حدّثنى محمد بن منصور الرمادىّ ، عن عبد الرزاق ، عن معمَر ، عن زياد بن جَبَل ، عن أبى كعب الحارثىّ[2] ـ وهو ذو الإداوة[3] ، قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وإنما سمّىَ ذا الإداوة لأنّه قال : إنى خرجتُ فى طلب إبلٍ ضوالّ ، فتزوّدتُ لبناً فى إداوة ، ثم قلت فى نفسى : ما أنصفتُ ربّى ! فأين الوضوء ؟ فأرقتُ اللّبن وملأتُها ماء ، فقلت : هذا وضوء وشراب ، وطفِقت أبغى إبلى ، فلما أردتُ الوضوء اصطببتُ من الإداوة ماء فتوضّأت ، ثم أردتُ الشّرب ، فلمّا اصطببتُها ؛ إذا لبن فشربت ؛ فمكثت بذلك ثلاثا : فقالت

---

(١) انظر الجزء الثامن ص ٢٥٢ إلى ٢٦٢ فى أخبار أبى ذر الغفارى وإخراجه إلى الربذة وموقف عثمان وعلى منه .

(٢) أبو كعب الحارثى ، أورده ابن حجر فى الإصابة ٤ : ١٦٥ ؛ ونقل خبره ، عن معمر فى جامعه .

(٣) الإداوة ، بالكسر : إناء صغير من جلد .

له أسماء النحرانية : يا أبا كعب ، أحقيناً كان أم حليباً[1] ؟ قال : إنك لبطّالة ! كان يعصم من الجوع ويروى من الظمأ ، أما إنّي حدّثت بهذا نفراً من قومى ؛ منهم علىّ بن الحارث سيّد بنى قنان ؛ فلم يصدّقنى ، وقال : ماأظنّ الذى تقول كما قلت ! فقلت: الله أعلمُ بذلك . ورجعت إلى منزلى، فبتّ ليلتى تلك ، فإذا به صلاةَ الصبح عَلَى بابى، فخرجت إليه، فقلت : رحمك الله ! لم تعنّيت ؟ ألا أرسلتَ إلىّ فـآتيَك ، فإنى لأحقّ بذلك منك قال: مانمت الليلة إلا أتانى آتٍ فقال : أنت الذى تـكذّب مَنْ يحدّث بما أنعم الله عليه ! قال أبو كعب: ثم خرجت حتى أتيت المدينة ، فأتيت عثمانَ بن عفّان وهو الخليفة يومئذٍ فسألته عن شىء من أمر دينى ، وقلت : ياأميرَ المؤمنين ، إنّى رجلٌ من أهل اليمن من بنى الحارث بن كعب ، وإنّى أريدُ أن أسألك فأمُر حاجبَك ألّا يحجُبَنى ، فقال : يا وثّاب ، إذا جاءك هذا الحارثىّ فأذَنْ له . قال : فـكنت إذا جئت ، فقرعت الباب، قال : مَنْ ذا ؟ فقلت : الحارثىّ . فيقول : ادخل ، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفرٌ سكوت لا يتـكلّمون ، كأنّ على رءوسهم الطير ، فسلّمت ثم جلست ، فلم أسأله عن شىء لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله ، فبينا أنا كـذلك إذْ جاء نفرٌ ، فقالوا : إنّه أبَى أن يجىء . قال : فغضب وقال : أبى أن يجىء ! اذهبـوا فجيئوا به ؛ فإنْ أبَى فجرّوه جرّاً .

قال : فـكثت قليلاً ، فجاءوا ومعهم رجل آدم طُوال أصلع ، فى مقدّم رأسه شعرات، وفى قفاه شعرات ، فقلت : مَنْ هذا ؟ قالوا : عمّار بن ياسر ، فقال له عثمان : أنتَ الذى تأتيك رسلُنا فتأبَى أن تجىء ! قال : فـكلّمه بشىء لم أدرِ ماهو ، ثم خرج . فما زالوا

---

(١) الحقين : اللبن الذى قد حقن فى السقاء لتخرج زبدته . والحليب : اللبن المحلوب الذى لم يتغير طعمه .

ينفضّون من عنده حتى ما بَقِيَ غيرى فقام ، فقلت : والله لا أسألُ عن هـذا الأمر أحـداً أقول حدّثنى فلان حتى أدرِى ما يصنع . فتبعتهُ حتّى دخل المسجد ، فإذا عمّار جالس إلى سارية ، وحوله نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون ، فقال عثمان : ياوثّاب علىّ بالشُّرَط ، فجاءوا ،فقال : فرّقوا بين هؤلاء ، ففرّقوا بينهم .

ثم أقيمت الصلاة ، فتقدّم عثمان فصلّى بهم ، فلما كبّر قالت امرأة من حُجْرتها : يأيّها الناس . ثم تـكلّمت ، وذكرت رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وما بعثه الله به ، ثم قالت : تركتم أمر الله ، وخالفتم عهده . . . ونحو هـذا ، ثم صمتتْ وتـكلّمت امرأة أخرى بمثل ذلك ، فإذا هما عائشة وحفصة .

قال : فسلّم عثمان ، ثم أقبل على الناس ، وقال : إنّ هاتين لَفَتّانتان ، يحلّ لى سبّهما ، وأنا بأصلهما عالم .

فقال له سعد بن أبى وقّاص : أتقولُ هذا لحبائب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : وفِيمَ أنت ! وما هاهنا ، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربَه ، فانسلّ سعد .

فخرج من المسجد ، فاتبعه عثمان ، فلقِيَ عليّاً عليه السلام بباب المسجد ، فقال له عليه السلام : أين تريد؟ قال : أريد هذا الّذى كذا وكذا ـ يعنى سعدا يشتمه ـ فقال له علىّ عليه السلام : أيّها الرجل ، دعْ عنك هذا . قال : فلم يَزَلْ بينهما كلام ، حتى غضبا، فقال عثمان : ألستَ الّذى خلّفك رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم تَبُوكَ ! فقال علىّ : ألستَ الفارّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد !

قال : ثم حَجَزَ الناس بينهما . قال : ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الكوفة، فوجدت أهلها أيضا وقع بينهم شرّ ، ونشبوا فى الفتنة ، وردّوا سعيدَ بنَ العاص فلم يَدَعُوه يدخل إليهم . فلمّا رأيتُ ذلك رجعتُ حتى أتيت بلادَ قومى .

***

وروى الزُّبير بن بَكّار فى كتاب « الموفّقيات » عن عمّه، عن عيسى بن دواد، عن رجاله ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : لما بنى عثمان دارَه بالمدينة ، أكثرَ النّاس عليه فى ذلك فبلغه ، فخطبَنا فى يوم جمعة ؛ ثم صلّى بنا ، ثم عاد إلى المِنْبر ، فحمِدالله وأثنى عليه، وصلّى عَلَى رسوله ، ثم قال : أمّا بعدُ ؛ فإنّ النعمة إذا حدثَتْ حدث لها حُسّاد حَسْبَها ، وأعداء قَدْرَها ؛ وإنّ الله لم يحدِثْ لنا نعما ليَحْدُثَ لها حسّاد عليها ، ومنافسون فيها ، ولكنّه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه ، وضمّ القاصية إليه ، فأتانا عن أناس منكم أنّهم يقولون: أخذ فيئنا ، وأنفق شيئنا ، واستأثر بأموالنا ، يمشون خَمَرا[1] ، وينطقون سِرّا ؛ كأنّا غُيَّب عنهم ، وكأنهم يهابون مواجهتنا ؛ معرفةً منهم بدُحوض حجّتهم ؛ فإذ غابوا عنّا يرُوح بعضهم إلى بعض يذكرنا . وقد وجدوا عَلَى ذلك أعوانا من نظرائهم ، ومؤازرين من شبابهم ، فبعدا بعدا ! ورغما رغما . ثم أنشد بيتين كأنه يومئْ فيهما إلى علىّ عليه السلام :

توقّد بنارٍ أينما كُنْتَ واشتعِلْ ... فلستَ ترَى مما تعالج شافيـــــا

تشُطّ فيقضى الأمرَ دونَكَ أهلُه ... وشيكاً ، ولا تُدعَى إذا كنت نائيا

مالِى ولفيئِكم وأخذ مالكم . ألستُ من أكثر قريش مالاً ، وأظهرهم من الله نعمة. ألم أكنْ على ذلك قبل الإسلام وبعده . وهبُونى بنيتُ منزلًا من بيت المال ؛ أليس هو لى ولكم . ألم أقِمْ أمورَكم ، وأنى من وراء حاجاتكم ! فما تفقدون من حقوقكم شيئا ، فلِمَ لا أصنع فى الفضل ما أحببت ؛ فلمَ كنتُ إماماً إذا . ألا وإنّ من أعجب العجَب ، أنه بلغنى عنكم أنكم تقولون : لنفعلنّ به ولنفعلنّ . فبِمَنْ تفعلون ، لله آباؤكم . أبنقد البقاع ، أم بفقع القاع ! ألست أحراكم إن دعا أن يُجاب ؛ وأقمنكم إن أمرَ أنْ يُطاع .

---

(١) فى المثل : « هو يدب له الضراء ، ويمشى له الخمر » ، يقال لمن ختل صاحبه .

لهفى عَلَى بقائى فيكم بعد أصحابى ، وحياتى فيكم بعد أترابى ! يا ليتنى تقدّمت قبل هذا ، لكنّى لا أحبُّ خلاف ما أحبه الله لى عزّ وجلّ ؛ إذا شئتم فإنّ الصادق المصدّق محمدا صلى الله عليه وسلم قد حدّثنى بما هو كائن من أمرى وأمركم ، وهذا بدء ذلك وأوّله ، فكيف المهرب مما حتّم وقدّر ! أما إنّه عليه السلام قد بشّرنى فى آخر حديثه بالجنّة دونكم ، إذا شئتم فلا أفلح من نَدِم !

قال : ثمّ همّ بالنزول فبصُر بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعه عمّار بن ياسر رضى الله عنه ، وناسٌ من أهل هواه يتناجون ؛ فقال : إيهاً إيهاً ! أسراراً لا جهاراً ! أما والّذى نفسى بيده ما أحنِق عَلَى جِرّة ، ولا أوتَى من ضعف مِرّة ؛ ولولا النّظر لى ولكم والرّفق بى وبكم ، لعاجلتكم ؛ فقد اغتررتم ، وأقلتم من أنفسكم .

ثم رفع يديه يدعو ويقول : اللهمّ قد تعلم حُبّى للعافية فألبسنيها ، وإيثارى للسلامة فآتنيها .

قال : فتفرّق القوم عن علىّ عليه السلام ، وقام عدىّ بن الخيار ؛ فقال : أتمّ الله عليك يا أميرَ المؤمنين النعمة ، وزادك فى الكرامة ، والله لأن تُحسَد أفضلُ من أن تَحسُد ؛ ولأن تُنافَس أجلّ من أنْ تنافِس ! أنت والله فى حَسَبنا الصميم ، ومنصبنا الكريم ؛ إن دَعَوتَ أجِبْت ؛ وإن أمرت أطِعت ، فقل نفعل ، وادعُ نُجِبْ ؛ جُعِلت الخِيَرة والشّورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختارُوا لهم ولغيرهم ، وإنهم ليروْنَ مكانك ، ويعرفون مكان غيرك ؛ فاختاروك منيبين طائعين ، غير مكرهين ولا مجبَرين ، ما غيّرت ولا فارقت ، ولا بدّلت ولا خالفت ؛ فعلامَ يقدمون عليك وهذا رأيهم فيك ! أنت والله كما قال الأول :

إذهب ، إليك فما للحسو ... دِ إلّا طلابُك تحت العثارِ

حكمت فما جُرْتَ فى خَلّةٍ ... فحكمُك بالحقّ بادى المنار
فإن يسبعوك فسِرًّا وقدْ ... جَهَرْتَ بسيفك كلَّ الجهارِ (١)

* * *

قال : ونزل عثمان فأتى منزله ، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس ، فلما أخذوا مجالسهم، أقبل علَى ابن عباس ، فقال : مالى ولكم يابن عباس ! ما أغراكم بى ، وأولعكم بتعقب أمرى ! أتنقِمون علىّ أمرَ العامة ؟ أتيتُ من وراء حقوقهم ، أم أمركم ؟ فقد جعلتُهم يتمنّون منزلتكم ! لا والله لكن الحسدوالبغى وتثوير الشرّ وإحياء الفتن! والله لقدألقى النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ ذلك ، وأخبرنى به عن أهله واحداً واحداً ، والله ما كذَبت ولا أنا بمكذوب .

فقال ابن عباس: على رِسْلِك ياأمير المؤمنين ، فوالله ما عهدتك جَهراً بسِرّك ،ولا مظهراً مافى نفسك، فما الذى هيّجك وثوّرك ! إنّا لم يولِغنا بك أمر،ولم نتعقّبْ أمرَك بشىء،أتيت بالكذب، وتُسُوِّف عليك بالباطل. والله مانقمنا عليك لنا ولا للعامة،قدأوتيتَ من وراء حقوقنا وحقوقهم ، وقضيتَ ما يلزمك لنا ولهم ، فأما الحسد والبغى وتثوير الفتن ، وإحياء الشرّ فمتى رضيتْ به عِترة النبىّ وأهل بيته ! وكيف وهم منه وإليه! على دين الله يثوّرون الشرّ، أم على الله يحيون الفتن ، كلاّ ليس البغى ولا الحسد من طباعهم . فاتّئِدْ ياأميرَ المؤمنين وأبصِرْ أمرك ، وأمسك عليك؛ فإن حالتك الأولَى خير من حالتك الأخرى ! لعمرى أن كنتَ لأثيراً عندرسول الله، وأن كان ليفضى إليك بسره مايطويه عن غيرك،ولا كذبت ولاأنت بمكذوب؛ أخْسَأْ (٢) الشيطان عنك ولا يركبْك ، واغلب غضبك ولا يغلبك ،فما دعاك إلى هذا الأمر الذى كان منك !

قال : دعانى إليه ابنُ عمك علىّ بن أبى طالب ، فقال ابن عباس : وعسَى أن يكذِبَ مبلغُك ! قال عثمان : إنه ثقة ، قال ابن عباس : إنه ليس بثقةٍ مَنْ بلّغ وأغرى . قال عثمان : يا بن عباس ، آللهِ إنك ما تعلم من علىّ ما شكوتُ منه ؟ قال : اللهم لا ، إلا أن يقول كما يقول الناس ، وينقِم كما ينقمون ؛ فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم ! فقال عثمان : إنما آفتى من أعظم الداء الذى ينصب نفسه لرأس الأمر ، وهو علىٌّ ابن عمك ، وهذا والله كلّه من نكده وشؤمه . قال ابن عباس : مهلاً ، استثْن يا أمير المؤمنين ، قلْ : إن شاء الله ، فقال : إن شاء الله . ثم قال : إنى أنشدك يابن عباس الإسلام والرَّحِم فقد والله غلِبت وابتليت بكم ، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دونى فحملتمُوه عنى ، وكنت أحدَ أعوانِكم عليه ، إذاً والله لوجدتمونى لكم خيراً مما وجدتكم لى ، ولقد علمتُ أنّ الأمر لكم ، ولكنّ قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم ، فو الله ما أدرى أدَفعوه عنكم أم دفعوكم عنه !

قال ابن عباس : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإنا ننشدك الله والإسلامَ والرَّحِم ، مثل ما نشدتنا ، أن تطمِع فينا وفيك عدوًّا ، وتُشمِت بنا وبك حسوداً ! إنّ أمرَك إليك ما كان قولاً ؛ فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا فى يديك . وإنّا والله لنخالفنّ إن خولفنا ، ولننازعنّ إن نوزعنا ؛ وما تمنّيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس ، ويعيب كما عابوا ! فأمّا صرف قومنا عنّا الأمر فمن حسدٍ قد والله عرفته ، وبغيٍ قد والله علمته ، فاللهَ بيننا وبين قومنا ! وأما قولك : إنك لا تدرى أدفعوه عنّا أم دفعونا عنه ! فلعمرى إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلا إلى فضلنا ، ولا قدْراً إلى قدرنا ، وإنا لأهلُ الفضل وأهل القدر ، وما فَضَل فاضلٌ إلا بفضلنا ، ولا سبَق سابق إلا بسبقنا ؛ ولولا هدينا ما اهتدى أحد ، ولا أبصرُوا من عمًى ، ولا قصدوا من جَوْر .

فقال عثمان : حتى متى يابن‌عباس، يأتينى عنكم ما يأتينى ! هبونى كنتُ بعيداً ، أما كان لى من الحقّ عليكم أنْ أراقب وأن أناظر ! بلَى وربّ الكعبة ، ولكنّ الفرقة

مهّلت لكم القول فيّ ، وتقدّمت بكم إلى الإسراع إليّ . والله المستعان .

قال ابنُ عباس : مهلا ، حتى ألقى عليًا ثم أحمل إليك على قَدْر ما رأى . قال عثمان : افعل فقد فعلت ، وطالما طلبت فلا أُطلَب[1] ، ولا أُجاب ولا أُعتب .

قال ابن عباس : فخرجت فلقيتُ عليًا ، وإذا به من الغضب والتلظّى أضعاف ما بعثمان ، فأردتُ تسكينَه فامتنع ، فأتيتُ منزلى وأغلقت بابى ، واعتزلتهما .

فبلغ ذلك عثمان ، فأرسل إلىّ ، فأتيته وقد هدأ غضبُه ، فنظر إلىّ ثم ضحك ، وقال : يابن عباس ، ما أبطأ بكَ عنّا ! إنّ تركك العوْد إلينا لدليلٌ على ما رأيت عند صاحبك ، وعرفت من حاله ، فالله بيننا وبينه ! خُذْ بنا فى غير ذلك .

قال ابن عباس : فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن علىّ شىء ، فأردتُ التكذيب عنه يقول : ولا يوم الجمعة حين أبطأتَ عنّا وتركتَ العوْد إلينا ! فلا أدرِى كيف أردّ عليه .

* * *

وروى الزُّبيرُ بن بكار أيضا فى «الموفقيات» ، عن ابن عباس رحمه الله ، قال : خرجتُ من منزلى سَحَرًا أسابِق إلى المسجد ، وأطلب الفضيلة ، فسمعت خَلْفى حِسًّا وكلاما ، فتسمّعتهُ فإذا حِسُّ عثمان وهو يدعو ولا يرى أن أحداً يسمعه ، ويقول : للهمَّ قد تعلم نيّتى فأعنى عليهم ، وتعلم الذين ابتليتُ بهم من ذَوِى رَحِمى وقرابتى ، فأصلحْنِى لهم ، وأصلحهم لى .

قال : فقصّرْت من خطوتى وأسرع فى مشيته ، فالتقينا فسلّم ، فرددت عليه ، فقال : إنى خرجت ليلتَنا هذه أطلب الفَضْل والمسابقة إلى المسجد ، فقلت : إنه أخرجنى ما أخرجك ، فقال : والله لئن سابقتَ إلى الخير ، إنّك لمنْ سابقين مباركين ، وإنى لأحبُّكم وأتقرب إلى الله بحبّكم ، فقلت : يرحمُك الله يا أميرَ المؤمنين ! إنّا لنحبُّك ونعرف سابقتك وسنّك وقرابتك وصهرك . قال : يابن عباس ، فما لى ولابن عمّك وابن خالى ! قلت : أىّ بنى عمومتى وبنى أخوالك ؟ قال : اللهم اغفر ! أتسأل مسألة الجاهل !

---

(١) أطلب فلان فلانا ، أجابه إلى طلبه .

قلت: إن بنى عمومتى من بنى خؤولتك كثير؛ فأيّهم تعنى ؟ قال : أعنى عليًّا لاغيره، فقلت: لا والله ياأمير المؤمنين، ماأعلم منه إلاخيراً ، ولا أعرف له إلا حسنا. قال : والله بالحرَى أن يستر دونك مايظهره لغيرك ، ويقبض عنك ماينبسط به إلى سواك .

قال : ورُمِينا بعمّار بن ياسر ، فسلّم، فرددت عليه سلامه ، ثم قال : مَنْ معك؟قلت: أمير المؤمنين عثمان ، قال : نعمْ ، وسلّم بكنيته ، ولم يسلّم عليه بالخلافة ، فردّ عليه ، ثم قال عمّار : ماالذى كنتم فيه ، فقد سمعت ذَرْواً[1] منه ؟ قلت : هو ماسمعتَ،فقال عمّار : رُبّ مظلوم ٍ غافل ، وظالم متجاهل ! قال عثمان:أما إنّك من شُنّائِنا وأتباعهم ، وايمُ الله ، إنّ اليدَ عليك لمنبسِطة ، وإنّ السبيل إليك لَسهْلة،ولولا إيثار العافية ؛ ولمّ الشّعث لزجرتُك زجرةً تـكفى مامضى ، وتمنع مابقِيَ .

فقال عمّار : والله ما أعتذِر من حبّى عليا ، وما اليدُ بمنبسطة ، ولا السبيلُ بسهلة ؛ إنى لازم حجّـة ، ومقيم على سنّة ؛ وأمّا إيثارك العافيـةَ ولَمّ الشعث ، فلازم ذلك . وأما زجْرِى فأمسِكْ عنه ، فقد كفاك معلّمى تعليمى . فقال عثمان : أمَا والله إنك ماعلمتُ من أعوان الشّرّ الحاضّين عليه ، الخذَلة عند الخير ، والمثبّطين عنه . فقال عمّار : مهلا ياعثمان ، فقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يصِفنى بغير ذلك ، قال عثمان: ومتى ؟ قال : يوم دخلتُ عليه منصرَفَه عن الجمعة ، وليس عنده غيرك ، وقد ألقى ثيابه ، وقعدفى فُضُله[2] ، فقبّلتُ صدرَه ونحرَه وجبهته ، فقال : « ياعمّار ، إنّك لتحبّنا وإنّا لنحبّك ، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبّطين عن الشرّ » ، فقال عثمان : أجلْ ولـكنّك غيّرت وبدّلت ، قال : فرفع عمّار يده يدعُو ، وقال : أمّنْ يابنَ عباس ، اللهمّ مَنْ غيّر فغيّر به ! ثلاث مرات .

قال : ودخلنا المسجدَ ، فأهوى عمّار إلى مصلاّه ، ومضيتُ مع عثمان إلى القِبْلة ،

(١) الذرو : الطرف من القول .
(٢) الفضل : الثوب يلبسه الرجل فى بيته .

فدخل المحراب ، وقال : تابِعْ عليّ إذا انصرفنا ، فلما رآنى عمّار وحدى أتانى ، فقال : أمَا رأيتَ مابلغ بى آنفا ؟ قلت : أما والله لقد أصبتَ به وأُصِيب بك ، وإن له لسنّه وفضلَه وقرابته ، قال : إنّ له لذلك ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه . وانصرف .

وصلّى عثمان ، وانصرفت معه يتوكّأ علىّ ،فقال : هل سمعتَ ماقال عمّار ؟ قلت:نعم، فسرّنى ذلك وساءنى ، أمّا مساءته إيّاى فما بلغ بك ، وأما مسرّته لى لحلمك واحتمالُك .

فقال : إن عليًّا فارقَنى منذ أيام على المقاربة ، وإن عمّارا آتيه فقائل له وقائل ؛ فابدُره إليه ، فإنّك أوثق عنده منه وأصدق قولّا ، فالقَ الأمرَ إليه على وجهه ، فقلت : نعم .

وانصرفت أريد عليًّا عليه السلام فى المسجد ، فإذا هو خارج منه ، فلمّا رآنى تفجّع لى من فَوْت الصّلاة،وقال : ما أدركتَها ! قلت:بلى ؛ ولكنّى خرجت مع أمير المؤمنين، ثم اقتصصْتُ عليه القصّة ، فقال : أمَا والله يابنَ عباس ، إنه ليقرف قَرْحةً ، ليحورَنّ عليه ألمها[1] . فقلت : إن له سنّه وسابقتَه ، وقرابتَه وصهره ، قال : إنّ ذلك له ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه .

قال : ثم رهقَنا[2] عمّار ، فبشّ به علىّ،وتبسّم فى وجهه،وسأله ، فقال عمّار : يابن عباس، هل ألقيت إليه ما كنّا فيه ؟ قلت : نعم ؛ قال : أما والله إذاً لقد قلتَ بلسان عثمان ، ونطقت بهواه ! قلتُ : ماعدوتُ الحقّ جَهْدى ؛ ولا ذلك من فعلى ؛ وإنك لتعلم أىّ الحظّين أحبّ إلىّ ، وأىّ الحقّين أوجبُ علىّ !

قال : فظنّ علىّ أنّ عند عمارغيرَ ما ألقيتُ إليه ، فأخذ بيده وترك يدى، فعلمت أنّه يكره مكانى ، فتخلّفت عنهما ، وانشعب بنا الطريق ، فسلكاه ولم يدعُنى،فانطلقتُ إلى منزلى ، فإذا رسول عثمان يدعونى ، فأتيتهُ ، فأجد ببابه مَرْوان وسعيد بن العاص ،

---

(١) يقال : قرف القرحة ، أى قشرها بعد يبسها ؛ وليحورن : ليرجعن .

(٢) رهقنا : غشينا .

فى رجالٍ من بنى أميّة ، فأذِن لِي وألطفنى ، وقرّبنى وأدْنَى مجلسى ، ثم قال : ماصنعت؟ فأخبرته بالخبر عَلَى وجهه وماقال الرجل ، وقلت له ـ وكتمته قوله : « إنه ليقرِف قَرْحةً ليحورنّ عليه ألمُها » ـ إبقاء عليه ، وإجلالًا له ؛ وذكرتُ مجىء عمار ، وبَشّ علىّ له ، وظنّ علىّ أن قِبَله غيرَ ما ألقيت عليه ، وسلوكهما حيث سلكا . قال : وفعلا ؟ قلت : نعم. فاستقبلَ القبلة ، ثم قال : اللهمّ ربّ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ؛ أصلِح لى عليًا ، وأصلحنى له ! أمّنْ يابنَ عباس ، فأمّنت. ثم تحدّثنا طويلا، وفارقته وأتيت منزلى .

***

وروى الزّبير بن بكّار أيضا فى الكتاب المذكور ، عن عبد الله بن عباس ، قال : ماسمعتُ من أبى شيئًا قطّ فى أمر عثمان يلومُه فيه ولا يعذِرُه ، ولا سألته عن شىء من ذلك مخافةَ أن أهجُم منه على مالا يوافقه ؛ فإنّا عنده ليلةً ونحن نتعشّى ، إذْ قيل : هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب، فقال : ائذنوا له ، فدخل فأوسع له على فراشِه، وأصاب من العشاء معه ، فلما رُفِع قام مَنْ كان هناك ، وثبتّ أنا . فحمِد عثمان الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ياخالُ ، فإنّى قد جئتك أستعذِرك من ابن أخيك علىّ ؛ سبّنى ، وشهّر أمرى ، وقطع رحِمى ، وطعن فى دينى ؛ وإنى أعوذ بالله منكم يابنى عبد المطّلب ! إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه ، فقد تركتموه فى يدىْ ، مَنْ فعلَ ذلك بكم ، وأنا أقربُ إليكم رحِما منه ! وما لمت منكم أحدا إلا عليًا ، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه ، فتركته لله والرّحِم ، وأنا أخاف ألّا يتركنى فلا أتركه .

قال ابن عباس : فحمِد أبى الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يابن أختى، فإن كنتَ لا تحمَد عليًا لنفسك فإنّى لا أحمدك لعلّى ، وما علىٌّ وحده قال فيك ، بل غيره ؛ فلو أنّك

اتّهمت نفسك للناس، اتّهم الناس أنفسهم لك؛ ولو أنك نزلتَ مما رُقِيت وارتقوا مما نزلوا، فأخذتَ منهم وأخذوا منك ، ما كان بذلك بأس . قال عثمان : فذلك إليك ياخالِ ، وأنت بيني وبينهم . قال : أفأذكر لهم ذلك عنك ؟ قال : نعم ، وانصرف ؛ فما لَبِثْنَا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رَجع بالباب ، قال أبي : ائذنوا له ، فدخل فقام قائما ، ولم يجلس ، وقال : لا تعجل ياخالِ حتى أوذنك ، فنظرنا فإذا مرْوان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول ، فأقبل علىّ أبي ، وقال : يابنىّ ، ما إلى هذا من أمره شيء ، ثم قال : يابنىّ ، املك عليك لسانك حتى ترى مالا بدّ منه ؛ ثم رفع يديه، فقال : اللهمّ اسبِق بي مالا خير لي في إدراكه . فما مرّت جمعة حتى مات رحمه الله .

***

وروى أبو العباس المبرد في "الكامل" عن قنبر مولى علىّ عليه السلام قال: دخلت مع علىّ على عثمان ، فأحبّا الخلوة، فأومأ إلىّ علىّ عليه السلام بالتنحّى ، فتنحّيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتبه وعلىّ مطرِق، فأقبل عليه عثمان ، وقال : مالك لاتقول ! قال : إن قلتُ لم أقل إلا ماتكره ، وليس لك عندى إلا ماتحبّ .

قال أبو العباس : تأويلُ ذلك : إن قلتُ اعتددت عليك بمثل ما اعتددتَ به علىّ ، فلذعك عتابى ، وعقدى ألّا أفعل — وإن كنت عاتبا — إلا ماتحبّ[1] .

وعندى فيه تأويل آخر ؛ وهو: أنّى إن قلت واعتذرت فأىّ شيء حسّنته من الأعذار لم يكن ذلك عندك مصدّقا ، ولم يكن إلا مكروها غير مقبول ؛ والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندى في باطنى وما أطوى عليه جوانحى إلّا ماتحب، وإن كنتَ لاتقبل المعاذير التى أذكرها ، بل تكرهها وتنبو نفسك عنها .

***

(١) الكامل ١ : ١٣

وروى الواقدى فى كتاب " الشورى " عن ابن عباس رحمه الله ، قال : شهدت عِتَاب عثمان لعلىٍّ عليه السلام يوماً ، فقال له فى بعض ما قاله : نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً ! فلعهدى بك وأنت تطيع عتيقا وابن الخطاب طاعتَك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولستَ بدون واحد منهما ، وأنا أمسّ بك رَحِماً ، وأقرب إليك صهرا ، فإن كنتَ تزعم أنّ هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فقد رأيناك حين تُوفّى نازعتَ ثم أقررت ، فإن كانا لم يركبا من الأمر جدَداً ، فكيف أذعنت لهما بالبَيْعة ، وبَخَعْتَ بالطاعة ! وإن كانا أحسنا فيما وليا ، ولم أقصّر عنهما فى دينى وحسبى وقرابتى ، فكن لى كما كنت لهما .

فقال علىّ عليه السلام : أما الفرقة ، فمعاذ الله أن أفتح لها بابا ، وأسهل إليها سبيلا ، ولكنى أنهاك عمّا ينهاك الله ورسوله عنه ، وأهديك إلى رشدك ، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذا ما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ، فأنت أعلم بذلك والمسلمون ، ومالى ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين ! فأمّا ألا يكون حقى بل المسلمون فيه شرعٌ فقد أصاب السهم الثُّغْرة[1] ، وأمّا أن يكون حقى دونهم فقد تركتُه لهم ، طبت به نفسا ، ونفضت يدى عنه استصلاحا . وأما التّسوية بينك وبينهما ، فلستَ كأحدهما ، إنهما وليا هذا الأمر ، فظلفا[2] أنفسهما وأهلهما عنه ، وعُمْتَ فيه وقومك عوْمَ السابح فى اللّجة ، فارجع إلى الله أبا عمرو ، وانظر هل بقى من عُمرك إلا كظِمْء الحمار[3] ! فحتى متى وإلى متى ! ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم ! والله لو ظَلَمَ عاملٌ من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركا بينه وبينك .

قال ابن عباس : فقال عثمان : لك العتبَى ، وأفعل وأعزِلُ من عمالى كلَّ مَنْ تكرهه

---

(١) الثغرة : نقرة النحر بين الترقوتين . (٢) ظلفا أنفسهما ، أى كفا .

(٣) يقال : ما بقى منه من ظِمْء الحمار ؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير ؛ لأنه ليس شىء أقصر ظِمأ من الحمار ، والكلام على المثل .

ويكرهه المسلمون ؛ ثم افترقا . فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك ، وقال : يجترئ عليك النّاس ، فلا تعزل أحدا منهم !

* * *

وروى الزبير بن بكار أيضاً فى كتابه ، عن رجال أسندَ بعضهم عن بعض ، عن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قال : أرسلَ إلىّ عثمان فى الهاجرة[1] ، فتقنّعت بثوبى ، وأتيته ، فدخلت عليه وهو على سريره ، وفى يده قضيب ، وبين يديه مال دَثِر[2] : صُبْرتان من ورِقٍ وذهب ، فقال : دونك خُذْ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتنى . فقلت : وصلتك رَحِم ! إن كان هذا المال ورثته ، أو أعطاكه معطٍ ، أو اكتسبته من تجارة ؛ كنتُ أحدَ رجلين : إما آخذ وأشكر ، أو أوفرَ وأجْهَد ، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل ، فو الله مالك أن تعطينيه ولا لى أن آخذه . فقال : أبيتُ والله إلا ما أبيتَ . ثم قام إلىّ بالقضيب فضربنى ، والله ما أردّيده ، حتى قضى حاجته ، فتقنّعت بثوبى ، ورجعت إلى منزلى ، وقلت : الله بينى وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيت عن منكر !

* * *

وروى الزبير بن بكّار ، عن الزهرى ، قال : لما أُتِى عمرُ بجوهر كسرى ، وضع فى المسجد ، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر ، فقال لخازن بيت المال : وَيْحك ! أرِحْنِى من هذا ، واقسِمه بين المسلمين ، فإن نفسى تحدّثنى أنّه سيكون فى هذا بلاء وفتنة بين الناس ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ قسّمته بين المسلمين لم يسعهم ، وليس أحد يشتريه لأن ثمنه عظيم ، ولكن ندعه إلى قابل ، فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمالٍ فيشتريه منهم من يشتريه . قال : ارفعه فأدخله بيت المال .

وقتِل عمر وهو بحاله ، فأخذه عثمان لما ولّى الخلافة فحلّى به بناته .

---

(١) الهاجرة : نصف النهار فى القيظ . (٢) الدثر : المال الكثير .

قال الزبير : فقال الزهري : كلٌّ قد أحسن؛ عمر حين حَرَم نفسَه وأقاربه ، وعثمان حين وصل أقاربَه .

* * *

قال الزّبير. وحدّثنا محمد بن حرب ، قال : حدّثنا سفيان بن عُيَينة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، قال : جاء رجل إلى عليّ عليه السلام يستشفع به إلى عثمان ، فقال : حمّال الخطايا ! لا والله لا أعود إليه أبدا . فآيسه منه .

* * *

وروى الزبير أيضا ، عن شداد بن عثمان ، قال : سمعت عَوْف بن مالك في أيام عُمر ، يقول : ياطاعون خذني ، فقلنا له : لم تقول هذا ؛ وقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ المؤمن لا يزيدُه طول العمر إلا خيراً » ؛ قال : إني أخاف ستًّا : خلافةَ بني أميّة ، وإمارة السّفهاء من أحداثهم ، والرِّشوة في الحكم ، وسفْك الدم الحرام ، وكثرة الشُّرَط ، ونَشْأً ينشأ ، يتّخذون القرآن مزامير .

* * *

وروى الزّبير عن أبي غسّان ، عن عمر بن زياد ، عن الأسود بن قيس ، عن عبيد بن حارثة ، قال : سمعت عثمان وهو يخطب ، فأكبّ الناس حوله ، فقال : اجلِسوا يا أعداء الله ! فصاح به طلحة : إنهم ليسوا بأعداء الله ؛ لكنهم عبادُه ؛ وقد قرءوا كتابه .

* * *

وروى الزّبير ، عن سفيان بن عيينة ، عن إسرائيل عن الحسن ، قال : شهدتُ المسجد يوم جمعة ، فخرج عثمان ، فقام رجل ، فقال : أنشد كتاب الله ! فقال عثمان : اجلس : أما لِكتاب الله ناشدٌ غيرك ! فجلس ، ثم قام آخر فقال مثل مقالته ، فقال : اجلس ، فأبى

أن يجلس ، فبعث إلى الشُّرَط ليُجلِسوه ، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه ، قال : ثم تراموْا بالبطحاء ؛ حتى يقول القائل : ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء .

فنزل عثمان ، فدخل داره ولم يصلِّ الجمعة .

***

[فصل فيما شجر بين عثمان وابن عباس من الكلام بحضرة عليّ]

وروى الزّبير أيضا في " الموفقيات " عن ابن عباس رحمه الله ، قال: صلّيت العصر يوماً ، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفّان في أيّام خلافته في بعض أزقّة المدينة وحده ، فأتيته إجلالا وتوقيراً لمكانه ، فقال لي : هل رأيتَ عليا ؟ قلت: خلّفته في المسجد ، فإن لم يكن الآن فيه فهو في منزله ؛ قال :أما منزله فليس فيه فابغِه(١) لنا في المسجد. فتوجّهنا إلى المسجد ، وإذا عليٌّ عليه السلام يخرج منه ؛ قال ابن عباس :وقد كنت أمس ذلك اليوم عند عليّ ، فذكر عثمان وتجرّمه عليه ، وقال: أما والله يابنَ عباس ،إن من دوائه لقطع كلامه، وترك لقائه . فقلت له : يرحمك الله ! كيف لك بهذا ! فإن تركتَه ثم أرسل إليك فما أنت صانع ؟ قال : أعتلّ ؛ وأعتلّ ؛ فمن يَقْسِرني(٢) ! قال : لا أحد .

قال ابن عباس : فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد، ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان ، فنظر إلىّ عثمان ، وقال : يابن عباس ، أما ترى ابنَ خالنا يكره لقاءنا !فقلت : ولِمَ وحقّك ألزم، وهو بالفضل أعلم ! فلما تقاربا رماه عثمان بالسّلام ، فردّ عليه ، فقال عثمان. إنْ تدخلْ فإيّاك أردنا ، وإن تمضِ فإيّاك طلبْنا . فقال عليّ :أيّ ذلك أحببتَ ؟ قال: تدخل ، فدخلا وأخذ عثمان بيده ، فأهوى به إلى القِبْلة ، فقصَر عنها، وجلس قُبالَتها ، فجلس عثمان إلى جانبه ، فنكصتُ عنهما ، فدعَواني جميعاً ، فأتيتهما ، فحمِد عثمان اللهَ ، وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : أما بعد يا بنيّ خاليّ وابنيْ

(١) ابغه : اطلبه .

(٢) كذا في د ، وفي ب : « يضرني » .

عمَّى ؛ فإذْ جمعتكما فى النداء فسأجمعكما فى الشكاية ،عن رضاى على أحد كما، ووجْدى على الآخر. إنى أستعذِ ركما من أنفسكما ، وأسألكما فيئتكما، وأستوهبكما رَجْعتكما؛فوالله لو غالبنى الناس ماانتصرت إلا بكما ، ولو تهضمونى ماتعزّزت إلّا بعزّ كما . ولقدطالهذا الأمرُ بيننا حتى تخوّفت أن يجوزَ قدرَه ، ويعظُم الخطر فيه ؛ ولقد هاجَنى العدوّ عليكما، وأغرانى بكما ؛ فمنعنى اللهُ والرحِم مما أراد ، وقد خلوْنا فى مسجدرسول اللهصلى اللهعليهوسلم وإلى جانب قبره ؛ وقد أحببتُ أنْ تظهِرا لى رأيكما فىّ ، وما تنطويان لى عليهوتصدُقا؛ فإنّ الصدق أنجَى وأسلم ؛ وأستغفر الله لى ولكما .

قال ابن عباس : فأطرق علىّ عليه السلام ، وأطرقت معه طويلا ؛ أمّا أنا فأجللته أنْ أتكلّم قبله ، وأمّا هو فأراد أن أجيبَ عنّى وعنه . ثم قلت له : أتتكلم أم أتكلم عنك ؟ قال : بل تكلم عنّى وعنك . فحمدت الله وأثنيت عليه ، وصلّيت على رسوله، ثم قلت : أمّا بعد يابنَ عمّنا وعمّتنا ، فقد سمعنا كلامك لنا ، وخلطَك فى الشكاية بيننا على رِضـ ـزعمتَ ـ عن أحدنا ووجْدك على الآخر ، وسنفعل فى ذلك، فنذمّك ونحمَدك، اقتداء منك بفعلك فينا ؛ فإنّا نذمّ مثلَ تهمتك إيانا على ما اتّهمتنا عليه بلا ثقة إلاظنًّا ؛ ونحمَد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتَك ، ثم نستعذرك من نفسك استعذارَك إيانامن أنفسنا ، ونستوهبك فيئَتك ،استيهابك إيانا فيئتنا ونسألك رجْعتك مسألتك إيانا رجعتنا؛ فإنا معاً أيّما حِمدت وذممت منا ، كمثلك فى أمر نفسك ؛ ليس بيننا فرق ولا اختلاف ؛ بل كلانا شريك صاحبه فى رأيه وقوله ؛ فوالله ماتعلمنا غير معذرين فيما بيننا وبينك ، ولا تعرِفنا غيرَ قانتين عليك ، ولا تجدُنا غيرَ راجعين إليك ؛ فنحنُ نسألك من نفسك مثل ماسألتَنا من أنفسنا . وأمّا قولك :لوغالبتْنى الناسُ ما انتصرتُ إلاّ بكما ،أوتهضّمونى ماتعزّزت إلّا بعزكما ، فأين بنا وبك عن ذلك ، ونحن وأنت كما قال أخو كنانة :

بدا بحُتُرُّ مارام نال ، وإن يرُمْ يخُضْ دونه غمراً من الغرّ رائمهْ
لنـا ولهم منّا ومنهم على العِدَا مراتب عزّ مصعِدات سلالمهْ

وأما قولك فى هَيْج العدوّ وإياك علينا ، وإغرائه لك بنا ، فوالله ماأتاك العدوّ من ذلك شيئاً إلا وقد أتانا بأعظمَ منه ؛ فمنعنا مما أرادَ مامنعكَ من مراقبة الله والرحم ، وما أبقيت أنت ونحن إلاّ على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا ؛ ولقد لَعَمْرِى طال بنا وبك هذا الأمر حتى تخوّفنا منه على أنفسنا ، وراقبنا منه ماراقبت .

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك ، وما ننطوى عليه لك ، فإنّا نخبرك أنّ ذلك إلى ماتحبّ ؛ لا يعلم واحدٌ منامن صاحبه إلاذلك ، ولا يقبل منه غيرَه ، وكلانا ضامنٌ على صاحبه ذلك وكفيلٌ به ، وقد برَّأتَ أحدَنا وزكّيته ، وأنطقت الآخر وأسكتّه ، وليس السقيمُ منّا مما كرهت بأنطقَ من البرىْ فيما ذكرت ، ولا البرىْ منا مما سخِطْتَ بأظهرَ من السقيم فيما وصفت ؛ فإمّا جمعتَنا فى الرضا ، وإمّا جمعتنا فى السخط ؛ لنجازيك بمثل ماتفعل بنا فى ذلك ؛ مكايلة الصاع بالصاع ؛ فقد أعلمناك رأينا ، وأظهرنا لك ذاتَ أنفسنا ، وصدَقْناك ؛ والصدق كما ذكرت أنجى وأسلم ، فأجِبْ إلى مادعوتَ إليه ، وأجْلِلْ عن النقضِ والغدْرِ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره ، واصدق تنجُ وتسلم ، ونستغفر الله لنا ولك .

قال ابنُ عباس : فنظر إلى علىّ عليه السلام نظرَ هيْبة ، وقال : دعْهُ حتى يبلغ رضاه فيما هو فيه ، فوالله لو ظهرت له قلوبُنا ؛ وبدت له سرائرُنا ، حتى رآها بعينه كما يسمعُ الخبرَ عنها بأذنه ، مازال متجرّما منتقما ، والله ماأنا ملقًى على وَضَمة[1] ، وإنى لمانع ماوراء ظهرى ؛ وإن هذا الكلام لمخالفةٌ منه وسوء عشرة .

فقال عثمان : مهلا أبا حسن ؛ فوالله إنك لتعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفنى

---

(١) الوضم فى الأصل : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم ؛ وفى المثل : « تركهم لحما على وضم » ، أى أوقع بهم فأوجعهم .

بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده : « إنّ من أصحابي لقوماً سالمين لهم، وإن عثمان لمنهم؛ إنه لأحسنهم بهم ظنّا ، وأنصحُهم لهم حبّاً » . فقال عليٌّ عليه السلام : فتصدّقْ قوله صلى الله عليه وسلم بفعالك ، وخالفْ ماأنت الآن عليه؛ فقد قيل لك ماسمعتَ، وهو كافٍ إن قبلتَ.

قال عثمان: فتثق ياأبا الحسن؟ قال: نعم أثق ولا أظنك إلا فاعلا ، قال عثمان: قدوثقت وأنت ممن لا يَخْفِرُ صاحبه ، ولا يكذّب لقيله .

قال ابن عباس : فأخذتُ بأيديهما ؛ حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا، ونهضت عنهما؛ فتشاوروا وتآمرا وتذاكرا؛ ثم افترقا؛ فوالله مامرّت ثالثة حتّى لقيَني كلّ واحدٍ منهما، يذكر من صاحبه مالا تبركُ عليه الإبل . فعلمتُ أن لا سبيل إلى صلحهما بعدها .

* * *

وروى أحمد بن عبدالعزيز الجوهريّ في كتاب "أخبار السقيفة" عن محمد بن قيس الأسديّ، عن المعروف بن سويد؛ قال : كنت بالمدينة أيام بويع عثمان، فرأيت رجلاً في المسجد جالسا ، وهو يَصْفِق[1] بإحدى يديه على الأخرى، والناس حوله، ويقول : واعجبًا من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت، معدن الفضل، ونجوم الأرض ، ونور البلاد! والله إنّ فيهم لرجلاً مارأيت رجلا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أولَى منه بالحقّ ، ولا أقضَى بالعدل، ولا آمرَ بالمعروف، ولاأنهى عن المنكر، فسألت عنه فقيل: هذا المقداد؛ فتقدّمت إليه ، وقلت: أصلحك الله ! مَن الرجل الذي تذكر؟ فقال : ابن عمّ نبيك رسول الله صلى الله عليه وسلّم عليّ بن أبي طالب !

قال: فلبثتُ ماشاء الله ثم إنّي لقيت أباذرّ رحمه الله، فحدّثته ماقال المقداد، فقال : صدق؛ قلتُ : فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم ! قال: أبَى ذلك قومهم ، قلت : فما يمنعكم أن تُعينوهم ! قال : مه لا تقلْ هذا ، إياكم والفرقة والاختلاف !

---

(١) يصفق : يضرب .

قال : فسكتّ عنه ، ثمّ كان من الأمر بعدُ ما كان .

* * *

وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ في الكتاب الذي أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان ، أنّ عليًّا اشتكى ، فعاده عثمان من شكايته ؛ فقال عليّ عليه السلام :

وعائدةٍ تعودُ لغيرِ وُدٍّ   تودّ لو أنّ ذا دَنفٍ يموتُ

فقال عثمان : والله ماأدري أحياتُك أحبّ إليّ أم موتك ! إن مِتّ هاضني فقدُك ، وإن حييت فتنتني حياتك ، لا أعدِم مابقيتَ طاعنا يتّخذك ربيئة يلجأ إليها .

فقال عليّ عليه السلام : ماالذي جعلني ربيئةً للطاعنين العائبين ! إنّما سوء ظنّك بي أحلّني من قلبك هذا المحلّ ، فإنْ كنتَ تخاف جانبي فلك عليّ عهدُ الله وميثاقه أن لا بأس عليك منّي ، مابلّ بحرٌ صوفةً [1] ، وإني لك لراعٍ ، وإني عنك لمحامٍ ؛ ولكن لا ينفعني ذلك عندك . وأما قولك : « إن فقدي يَهيضُك » ، فكلّا أن تُهاض لفقدي ، ما بقيَ لك الوليد ومروان .

فقام عثمان فخرج .

وقد روي أنّ عثمان هو الذي أنشدَ هذا البيت ، وقد كان اشتكى ، فعاده عليّ عليه السلام فقال عثمان :

وعائدةٍ تعودُ بغير نُصْحٍ   تودّ لو أنّ ذا دَنفٍ يموتُ

* * *

وروى أبو سعد الآبيّ [2] في كتابه عن ابن عباس ، قال : وقع بين عثمان وعليّ

---

(١) من قولهم في المثل : لا آتيك ما بل بحر صوفة .

(٢) هو أبو سعد زين الكفاة منصور بن الحسين الآبي ؛ وزير مجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة ابن بويه ، صاحب كتاب نثر الدرر في المحاضرات .

عليه السلام كلام، فقال عثمان: ما أصنع، إنْ كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بدرٍ سبعين، كأنّ وجوههم شُنوف الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم!

وروى المذكور أيضا أن عثمان لما نقم النّاس عليه مانقموا، قام متوكئا على مَرْوان يخطب النّاس؛ فقال: إنّ لكل أمّة آفة، ولكلّ نعمة عاهة، وإنّ آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النعمة، قوم عيّابون طعّانون، يظهرُون لكم ماتحبُّون، ويسرّون ماتكرهون؛ طَغَام مثل النّعام، يتبَعُون أوّل ناعق، ولقد نقَموا عليّ ما نقموا عَلَى عمر مثله، فقمعهم ووقمهم (١) وإنّي لأقربُ ناصرا، وأعزّ نفرا، فمالى لا أفعلُ في فضول (٢) الأموال ما أشاء!

وروى المذكور أيضا أنّ عليا عليه السلام اشتكى، فعاده عثمان، فقال: ما أراك أصبحت إلا ثقيلا! قال: أجلْ، قال: والله ماأدري أموتُك أحبّ إليّ أم حياتُك! إنّي لأحبُّ موتَك، وأكره أن أعيش بعدك، فلو شئتَ جعلتَ لنا من نفسك مخرجا، إمّا صديقا مسالما وإما عدوّا مغالبا، وإنك لكما قال أخو إياد (٣):

جَرّتْ لما بيننا حبلُ الشَّموسِ فلا ... يأسا مبينا نرى منها ولا طَمعا

فقال عليّ عليه السلام: ليس لك عندي ماتخافه، وإن أجبتك لم أجبك إلا بما تكرهه.

* * *

وكتب عثمان إلى عليّ عليه السلام حين أحيط به، أما بعد: فقد جاوزَ الماء الزُّبى، وبلغ الحزام الطُّبْيَيْن، وتجاوز الأمر فيّ قدْرَه، فطمِع فيّ من لا يدفعُ عن نفسه.

---

(١) وقمهم: أذلهم.

(٢) فضول الأموال: الزائدة عن الحاجة.

(٣) هو لقيط بن يعمر الإيادي. من قصيدة ينذر بها قومه غزو كسرى إياهم؛ وأولها:

يَادَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الْجَرَعَا ... هَاجَتْ لِيَ الْهَمَّ وَالأَحْزَانَ وَالْوَجَعَا

في مختارات ابن الشجري ١ ـ ٦.

فإنْ كُنتُ مأكولًا فكنْ خيرَ آكلٍ وإلّا فأدركْني ولمّا أُمزَّقِ[1]

* * *

وروى الزّبير خبر العيادة على وجه آخر قال : مرض عليّ عليه السلام ، فعاده عثمان ومعه مَرْوان بن الحكم ، فجعل عثمان يسأل عليًا عن حاله ، وعليّ ساكتٌ لايجيبه ، فقال عثمان : لقد أصبحْتَ ياأبا الحسن مِنّي بمنزلة الولد العاقّ لأبيه ! إن عاش عَقّه ، وإن مات فجعه ؛ فلو جعلتَ لنا من أمرك فَرَجًا،إما عدوًّا أو صديقا ؛ ولم تجعلنا بين السماء والماء!أماوالله لأنا خيرٌ لكَ من فلان وفلان؛وإن قتِلتُ لاتجد مثلي،فقال مروان : أما والله لايُرام ماوراءنا حتى تتَواصَلَ سيوفُنا ، وتقطع أرحامنا .

فالتفت إليه عثمان ، وقال : اسكتْ لاسكتّ ! وما يُدخلك فيما بيننا !

* * *

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ،عن زيد بن أرقم ؛ قال:سمعتُ عثمان وهو يقول لعليّ عليه السلام:أنكرتَ عَلَيّ استعمالَ معاوية،وأنت تعلم أن عُمَرَ استعمله!قال عليٌّ عليه السلام: نشدتُك الله ! ألا تَعلم أنّ معاويةَ كانَ أطوعَ لعمرمن يَرْفَأ غلامه ! إنّ عمرَ كان إذا استعمل عاملا وطىء على صِماخِه ؛ وإنّ القومَ ركبوك وغلبوك ، واستبدّوا بالأمر دونك .

فسكت عثمان .

* * *

[أسباب المنافسة بين عليّ وعثمان]

قلت : حدثني جعفر بن مكي الحاجب رحمه الله ، قال: سألت محمد بن سليمان حاجب الحجّاب -وقد رأيت أنا محمداً هذا ، وكانت لي به معرفة غير مستحكَمة ، وكان ظريفاً

(١) البيت للممزق العبدي ، والخبر في الكامل ١ : ١٧

أديبا ، وقد اشتغل بالرياضيّات من الفلسفة ، ولم يكن يتعصّب لمذهب بعينه ـ قال جعفر : سألتُ عمّا عنده في أمر عليّ وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النّسب بين عبد شمس وبين بني هاشم ، وقد كان حرب بن أميّة نافرَ عبدَ المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان يحسُد محمداً صلى الله عليه وآله وحارَبَه ، ولم تزل الشّنْئتان متباغضتين وإن جمعتهما المنافيّة . ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله زوّج عليا بابنته ، وزوّج عثمان بابنته الأخرى ؛ وكان اختصاصُ رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة أكثرَ من اختصاصه للبنت الأخرى ، وللثانية التي تزوّجها عثمان بعد وفاة الأولى ، واختصاصه أيضا لعليّ وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إيّاه لنفسه ، أكثرَ وأعظمَ من اختصاصه لعثمان . فنفّس عثمان ذلك عليه ، فتباعدَ ما بين قلبيهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختين من مُباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقلُ من إحداهما إلى الأخرى ، فيتكدّر قلبها على أختها ، ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعلين أيضا ، كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار ؛ وقد قيل : ماقطَع من الأخوَيْن كالزّوجتين . ثم اتفق أن عليّاً عليه السلام قتَلَ جماعةً كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فتأكّد الشنآن ، وإذا استوحشَ الإنسانُ من صاحبه استوحش صاحبُه منه . ثم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصبأ إلى عليّ جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ، ولا حضر في دار فاطمة مع مَنْ حضر من المخلّفين عن البيعة ، وكانت في نفس عليّ عليه السلام أمورٌ من الخلافة لم يمكنه إظهارُها في أيام أبي بكر وعمر ، لقوّة عمر وشدته ، وانبساط يده ولسانه ؛ فلما قتِل عمر وجَعَل الأمر شورى بين الستّة ، وعدل عبد الرحمن بها عن عليّ إلى عثمان ، لم يملكْ عليٌّ نفسَه ، فأظهر ما كان كامناً ، وأبدى ما كان مستورا ؛ ولم يزل الأمر يتزايد بينهما ، حتى شرف وتفاقم ؛ ومع ذلك فلم يكن عليّ عليه السلام لينكر من أمره إلا منكرا ، ولا ينهاه إلا كما تقتضي الشريعة نهيه عنه ؛ وكان عثمان مستضعفا في نفسه ، رِخْواً قليل الحزم ، واهيَ العقدة ، وسلّم عنانَه إلى

مرْوان يصرّفه كيف شاء ؛ الخلافة له فى المعنى ولعثمان فى الاسم . فلما انتقض على عثمان أمرُه ، استصرخ علياً وَلاذَ به ، وألقى زمام أمرِه إليه ، فدافع عنه حيث لا ينفع الدّفاع ، وذبّ عنه حينَ لا يغنِي الذّبّ ، فقد كان الأمرُ فسد فساداً لا يُرْجَى صلاحه .

قال جعفر : فقلت له : أتقول إنّ علياً وجَد من خلافة عثمان أعظم مما وَجَده من خلافة أبى بكر وعمر ؟ فقال : كيف يكون ذلك ؛ وهو فرع لهما ، ولولا هما لم يصل إلى الخلافة ، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ، ولا يخطر له ببال ! ولكن ها هنا أمر يقتضى فى عثمان زيادَة المنافسة ، وهو اجتماعهما فى النسب ، وكونُهما من بنى عبد مناف ، والإنسَانُ ينافِس ابن عمّه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد ، ويهوّن عليه من الأبعد ما لا يهوّن عليه من الأقرب .

قال جعفر : فقلت له : أفتقول : لو أنّ عثمان خُلِع ولم يقتَل ؛ أكان الأمرُ يستقيم لعلىّ عليه السلام إذا بويع بعد خلعه ؟ فقال : لا ، وكيف يتوهّم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حىّ مخلوع أكثر من انتقاضها عليه بعد قتله ، لأنّه موجود يُرْجَى ويُتوقّع عوْده ، فإن كان محبوساً عَظُمَ البلاء والخطب ، وهتف الناس باسمه فى كلّ يوم ، بل فى كلّ ساعة ، وإن كان مُخَلًّى سِربُهُ ، وممكنا من نفسه ، وغير محولٍ بينه وبين اختياره ، لجأ إلى بعض الأطراف ، وذكر أنه مظلوم غُصِبت خلافتُه ، وقهِر على خلع نفسه ، فكان اجتماع الناس عليه أعظمَ ، والفتنة به أشدّ أغلظ .

قال جعفر : فقلت له : فما تقول فى هذا الاختلاف الواقع فى أمر الإمامة من مبدأ الحال ، وما الذى نظنّه أصله ومنبعه ؟ فقال : لا أعلم لهذا أصلا إلا أمرين : أحدُهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهمَل أمر الإمامة فلم يصرّح فيه بأحدٍ بعينه ، وإنما كان هناك رَمْزٌ وإيماء ، وكناية وتعريض ، لو أراد صاحبُه أن يحتجّ به وقت الاختلاف وحالَ المنازعة

لم يقم منه صورة حجة تغنى ، ولا دلالة تحسب وتكفى ؛ ولذلك لم يحتجّ علىّ عليه السلام يوم السقيفة بما ورد فيه ، لأنه لم يكن نصًّا جليا يقطع العذر ، ويوجب الحجة ؛ وعادة الملوك إذا تمهد ملكهم ، وأرادوا العقد لولد من أولادهم ، أو ثقة من ثقاتهم ، أن يصرّحوا بذكره ، ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر ، وبين فواصل الخطب ، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم ، والأقطار النائية منهم ؛ ومَنْ كان منهم ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ، ضرب اسمه عَلَى صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك ؛ بحيث تزول الشبهة فى أمره ، ويسقط الارتياب بحاله ؛ فليس أمرُ الخلافة بهيّن ولا صغير ليترك حتى يصير فى مظنّة الاشتباه واللّبس ؛ ولعلّه كان لرسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك عذرٌ لا نعلمه نحن ؛ إمّا خشيةً من فساد الأمر ، أو إرجاف المنافقين ، وقولهم : إنّها ليس بنبوّة وإنما هى مُلك به أوصَى لذريته وسلالته ؛ ولمّا لم يكن أحدٌ من تلك الذرّية فى تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السنّ ، جعله لأبيهم ؛ ليكون فى الحقيقة لزوجته التى هى ابنته ولأولادِه منها من بعده .

وأمّا ماتقوله المعتزلة وغيرُهم من أهل العدْل : إنّ الله تعالى علم أنّ المكلّفين يكونون عَلَى ترك الأمر مهمَلًا غير معيّن أقرب إلى فعل الواجب وتجنّب القبيح . قال : ولعلّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم فى مرضِه أنّه يموت فى ذلك المرض ، وكان يرجو البقاء فيمهّد للإمامة قاعدة واضحةً . ومما يدلّ عَلَى ذلك أنّه لما نوزع فى إحضار الدواة والكتف ليكتب لهم مالا يضلّون بعده ، غضب وقال : اخرجوا عنّى ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرّفهم رشدَهم ، ويهديهم إلى مصالحهم ، بل أرجأ الأمر إرجاء مَنْ يرتقب الإفاقة ، وينتظر العافية .

قال : فبتلك الأقوال المجمجمة ، والكنايات المحتملة ، والرموز المشتبهة ، مثل حديث

خَصْف النعل ، ومنزلة هارون من موسى ، ومَنْ كنت مولاه ، وهذا يعسوب الدين ، ولا فتى إلّا علىّ ، وأحبّ خلقك إليك ... وماجرى هذا المجرى ، مما لايفصِل الأمر ، ويقطع العذر ويُسكِت الخصم ، ويفحم المنازع ؛ وَثَبت الأنصار فادّعتها ، ووَثَب بنوهاشم فادّعَوْها ، وقال أبو بكر : بايعوا عمرَ أوأبا عبيدة ، وقال العبّاس لعلىّ : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم ممن رَعَف به الدّهر فيما بعد ؛ ولم يكن موجودا حينئذ : إنّ الأمر كان للعباس لأنه العمّ الوارث ، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقّه ؛ فهذا أحدها .

وأما السبب الثانى للاختلاف ، فهو جَعْل عمرَ الأمر شورى فى الستّة ، ولم ينصّ عَلَى واحد بعينه ؛ إمّا منهم أو من غيرهم ؛ فبقِىَ فى نفس كلّ واحد منهم أنه قد رُشّح للخلافة وأهّل للملك والسلطنة ؛ فلم يزل ذلك فى نفوسهم وأذهانهم مصوّراً بين أعينهم ، مرتَسِماً فى خيالاتهم ، منازعة إليه نفوسهم ، طامحة نحوه عيونُهم ؛ حتى كان من الشّقاق بين على وعثمان ما كان ، وحتى أفضى الأمرُ إلى قتل عثمان . وكان أعظم الأسباب فى قتله طلحة ؛ وكان لايشكّ أنّ الأمر له من بعده لوجوه ؛ منها سابقته ، ومنها أنه ابن عمّ لأبى بكر ، وكان لأبى بكر فى نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة ، أعظم منها الآن . ومنها أنه كان سَمِحاً جوادا ، وقد كان نازع عمر فى حياة أبى بكر ، وأحبّ أن يفوّض أبو بكر الأمرَ إليه من بعده ؛ فما زال يفتِل فى الذّروة والغارب فى أمر عثمان ، وينكّر له القلوب ، ويكدّر عليه النفوس ، ويغرى أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به . وساعده الزُّبير ؛ وكان أيضا يرجو الأمرَ لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما الأمرَ بدون رجاء علىّ ، بل رجاؤهما كان أقوى ؛ لأنّ عليا دحضَه الأوّلان ، وأسقطاه ، وكسرا ناموسه بين الناس ؛ فصار نسياً منسيًّا ، ومات الأكثر ممّن يعرف خصائصه التى كانت فى أيام النبوّة وفضله ، ونشأ قوم لايعرفونه ولايرونه إلا رجلا من عُرْض المسلمين ؛ ولم يبق له مما يمتّ به إلّا أنه ابن عمّ الرسول ، وزوج ابنته ، وأبو سِبْطَيه ، ونُسِىَ ماوراء ذلك كله ؛ واتفق له من بُغْض

قريش وانحرافها مالم يتفق لأحد ؛ وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحبّ طلحة والزّبير، لأنّ الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودةً فيهما ، وكانا يتألّفان قريشا فى أواخر أيام عثمان ؛ ويمدانهم بالعطاء والإفضال ؛ وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوّة لا بالفعل ؛ لأن عمر نصّ عليهما وارتضاهما للخلافة ، وعمر متّبع القول ومرضىّ الفعال ، موفّق مؤيّد مطاع ، نافذ الحكم فى حياته وبعد وفاته ؛ فلما قتل عثمان ، أرادها طلحة ، وحرَص عليها ، فلولا الأشتر وقوم معه من شُجعان العرب جعلوها فى علىّ لم تصل إليه أبدا، فلما فاتت طلحة والزبير، فتقا ذلك الفتق العظيم عَلَى علىّ ،وأخرجا أمّ المؤمنين معهما،وقصدا العراق ، وأثارا الفتنة ؛ وكان من حرب الجمل ماقد علم وعرف ، ثم كانت حرب الجمل مقدّمةً وتمهيدا لحرب صِفّين ؛ فإنّ معاوية لم يكن ليفعل مافعل ، لولا طمعُه بماجرى فى البصرة ، ثم أوهَمَ أهلَ الشام أنّ عليًّا قد فَسَق بمحاربة أم المؤمنين ، ومحاربة المسلمين ، وأنه قتل طلحة والزبير ، وهما من أهل الجنة ، ومَنْ يقتل مؤمنا من أهل الجنّة فهو من أهل النار ، فهل كان الفساد المتولّد فى صِفّين إلا فرعا للفساد الكائن يوم الجمل ! ثم نشأ مِن فساد صِفّين وضلال معاوية كلّ ماجرى من الفساد والقبيح فى أيام بنى أميّة، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاًمن فروع يوم الدار ، لأن عبد الله كان يقول : إنّ عثمان لما أيقن بالقتل نَصّ علىّ بالخلافة ؛ولى بذلك شهود، ومنهم مروان بن الحكم. أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعاً عَلَى أصل ، وغصنا من شجرة ، وجَذْوة من ضِرام ! هكذا يدور بعضه عَلَى بعض ، وكله من الشورى فى الستّة .

قال : وأعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له : إنك استعملت يزيد بن أبى سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلانا من المؤلّفة قلوبهم من الطُّلَقاء وأبناء الطلقاء ، وتركت أنْ تستعمل عليًّا والعباس والزبير وطلحة ! فقال : أمّا علىّ فأنبَهُ من ذلك ، وأما هؤلاء النفر

من قريش ، فإني أخاف أن ينتشروا في البلاد ، فيُكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك ، ويدّعيه كلّ واحدا منهم لنفسه ، كيف لم يَخَفْ من جعلهم ستّة متساوين في الشورى ، مرشّحين للخلافة ! وهل شيء أقربُ إلى الفساد من هذا! وقد روى أنّ الرشيد رأى يوماً محمدا وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان ؛ فسرّ بذلك ، فلما غابا عن عينه بكى ، فقال له الفضل بن الربيع : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، وهذا مقامُ جَذَل لا مقام حُزْن ؟ فقال: أما رأيتَ لعبهما ومودّة بينهما؟ أما والله ليتبدلَنّ ذلك بغضاً وشنَفاً[1] وليختلسنّ كلّ واحد منهما نَفْس صاحبه عن قريب ، فإن الملك عقيم . وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما عَلَى ترتيب ، هذا بعد هذا ؛ فكيف مَنْ لم يرتّبوا في الخلافة ، بل جعلوا فيها كأسنان المشط !

فقلت أنا لجعفر : هذا كلّه تحكيه عن محمد بن سليمان ، فما تقول أنت ؟ فقال :

إذَا قَالَتْ حَــــذام فَصدّقُوهَا   فإنّ القَوْلَ ماقَالَتْ حذامِ[2]

---

(١) الشنف : البكره .

(٢) قبله :

فَلَوْلاَ الْمُزعِجاتُ مِنَ اللّيَالِي   لَمَا تَرَك الْقَطَا طِيبَ الْمَنَــــامِ

نسبهما صاحب اللسان: (في رقش) لُجيم بن صعب .

(١٣٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً ، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ وَايْمُ اللهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ، حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً .

***

الشرح :

الفَلْتة : الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة ؛ وفى الكلام تعريض ببيعة أبى بكر ؛ وقد تقدّم لنا فى معنى قول عمر : « كانت بيعة أبى بكر فَلْتة وقى الله شرّها » كلام .

والخِزامة : حلقة من شعر تُجعلُ فى أنف البعير ، ويُجعل الزمام فيها .

وأعينُونى على أنفسكم : خذوها بالعدل ، واقمعوها عن اتّباع الهوى ، واردَعُوها بعقولكم عن المسالك التى تُرْدِيها وتوبِقُها ، فإنّكم إذا فعلتم ذلك أعنتمونى عليها ؛ لأنّى أعظكم وآمركم بالمعروف ، وأنهاكم عن المنكر ؛ فإذا كبحتُم أنفسكم بلجام العقل الداعى إلى ما أدعو إليه ؛ فقد أعنتمونى عليها .

فإن قلت : ما معنى قوله : « أريدكم لله وتريدوننى لأنفسكم » ؟

قلت : لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصرة دين الله والقيام بحدوده وحقوقه ؛ ولا يريدهم لحظّ نفسه ، وأمّا هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب ، والأسباب الموصّلة إلى منافع الدنيا .

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه ؛ فأمّا الخواص منهم فإنّهم كانوا يريدونه للأمر الذى يريدهم له من إقامة شرائع الدين وإحياء معالمه .

(١٣٧)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام فى شأن طلحة والزبير :

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي ، مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ(١) عَلَيَّ.

وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ . وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَايْمُ اللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ؛ لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حِسْيٍ.

* * *

الشرح :

النِّصْفُ : الإنصاف ، قال الفرزدق :

ولكنَّ نِصْفاً لو سببتُ وسبَّنِي بنُو عبدِ شمسٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَهَاشِمِ(٢)

وهو على حذف المضاف ؛ أى ذا نِصْفٍ ، أى حكما منصفا عادلا يحكم بينى وبينهم .

والطَّلِبة : بكسر اللام : ما طلبتَه من شىء . ولبَسْت على فلان الأمر ، ولُبِس عليه الأمر ، كلاهما بالتخفيف .

(١) مخطوطة النهج بتشديد الباء . (٢) اللسان ١١ : ٢٤٦ .

والحمأ : الطين الأسود ، قال سبحانه : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (١) .

وحُمَة العقرب : سمّها ، أى فى هذه الفئة الباغية الضلالُ والفساد والضرر ؛ وإذا أرادت العربُ أن تعبّر عن الضلال والفساد قالت : الحَمْء ، مثله الحَمْأة بالتاء ؛ ومن أمثالم : « ثَأْطَةٌ مدّت بماء » (٢) ؛ يُضْرب للرجل يشتدّ مُوقه وجهله ؛ والثّأْطة : الحمْأة ، وإذا أصابها الماء ازدادت فسادا ورطوبة .

ويروَى فيها : « الحما » بألف مقصورة . وهو كناية عن الزّبير ، لأن كل ما كان بسبب الرجل فهم الأحماء ؛ واحدهم « حما » مثل قفا وأقفاء ، وما كان بسبب المرأة فهم الأختان ؛ فأما الأصهار فيجمع الجهتين جميعا . وكان الزّبير ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله أعلمَ عليًّا بأنّ فئة من المسلمين تبغى عليه أيّام خلافته ، فيها بعضُ زوجاته وبعض أحمائه ، فكنّى علىّ عليه السلام عن الزّوجة بالحُمَة وهى سمّ العقرب ، ويروى : « والحَمء » يضرَب مثلا لغير الطيّب ولغير الصافى ؛ وظهر أنّ الحَمْء الذى أخبر النبى صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزّبير ابنُ عمته . وفى الحما أربع لغات : حَماً مثل قفا ، وحَمْء مثل كَمْء ، وحَمُو مثل « أبو » ، وحم مثل أبٍ .

قوله عليه السلام : « والشبهة المغدَفة » أى الخفيّة ، وأصله المرأة تُغْدِف وجهها بقناعها ، أى تستره . وروى : « المُغدِفة » (٣) بكسر الدال ، من أغدف الليل ، أى أظلم .

وزاح الباطل ، أى بَعُد وذهب ، وأزاحه غيره .

وعن نصابه : عن مركزه ومقرّه ، ومنه قول بعض المحدّثين :

قد رجــــع الحقُّ إلى نصابِهِ ... وأنت من دون الورى أولَى بِهِ

والشّغْب ، بالتسكين : تهييج الشرّ ، شَغَب الحقد بالفتح شَغْبا ، وقد جاء بالتحريك فى لغة ضعيفة ، وماضيها شغِب ، بالكسر .

---

(١) سورة الحجر ٢٦ .

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ١ : ١٥٣ .

(٣) هى رواية مخطوطة النهج .

ولَأُفرِطنّ لهم حوضاً ، أى لأملأنّ ، يقال : أفرطتُ المزادة أى ملأتها ، وغدير مفرَط ، أى ملآن .

والماتح ، بنقطتين من فوق : المستقِى من فوقُ ، وبالياء : مالىءُ الدّلاء من تحت .

والعَبّ : الشرب بلا مصّ كما تشرب الدابّة : وفى الحديث : « الكُباد من العَبّ »[1] .

والحِسْى : ماء كامنٌ فى رمل يحفَر عنه فيستخرَج ، وجمعه أحساء .

***

يقول عليه السلام : والله ما أنكروا علىّ أمراً هو منكَر فى الحقيقة ، وإنّما أنكروا ما الحجّة عليهم فيه لا لهم ؛ وحمَلهم على ذلك الحسد وحبّ الاستئثار بالدنيا والتفضيل فى العطاء ؛ وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يراه ولا يستجيزه فى الدين . قال : ولا جعلوا بينى وبينهم نِصْفا ، يعنى وسيطا يحكم ويُنصف ، بل خرجوا عن الطاعة بغتة ؛ وإنهم ليطلبون حقا تركوه ، أى يظهرون أنهم يطلبون حقا بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة .

قال : ودماً هم سفكوه ؛ يعنى دم عثمان ؛ وكان طلحة من أشدّ الناس تحريضاً عليه ، وكان الزّبير دونه فى ذلك .

روى أنّ عثمان قال : ويلى على ابن الحضْرميّة ـ يعنى طلحة ـ أعطيتُه كذا وكذا بُهاراً[2] ذهبا ؛ وهو يروم دمى يحرّض على نفسى ؛ اللّهم لا تمتّعه به ولقِّه عواقب بغيه[3] .

وروَى الناس الذين صنّفوا فى واقعة الدّار أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنّعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس ، يرمى الدار بالسهام . ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين

---

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ٣ . والكباد : وجع الكبد .

(٢) البهار : الحمل ، قيل : هو ثلاثمائة رطل بالقبطية .

(٣) انظر النهاية ١ : ١٠١ .

حَصَرُوه الدخول من باب الدار ، حملهم طلحة إلى دارٍ لبعض الأنصار ، فأصعدهم إلى سطحها ، وتسوّروا منها على عثمان داره فقتلوه .

ورووا أيضاً أنّ الزبير كان يقول : اقتلوه فقد بدّل دينكم . فقالوا : إن ابنك يحامي عنه بالباب ، فقال : ما أكره أن يقتل عثمان ولو بُدِئَ بابني ؛ إن عثمان لجيفةٌ على الصراط غداً .

وقال مروان بن الحكم يوم الجمل : والله لا أترك ثأري وأنا أراه ، ولأقتلنّ طلحة بعثمان ؛ فإنه قتله . ثم رماه بسهم فأصاب مأبضه(١) ، فنزف الدم حتى مات .

ثم قال عليه السلام : إن كنت شريكهم في دم عثمان ؛ فإن لهم نصيبهم منه ، فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه ، وإن كانوا وَلُوه دوني ، فهم المطلوبون إذَنْ به لا غيرهم .

وإنما لم يذكر القسم الثالث ؛ وهو أن يكون هو عليه السلام وليَه دونهم ؛ لأنه لم يقل به قائل ، فإنّ النّاس كانوا على قولين في ذلك : أحدهما أنّ علياً وطلحة والزبير مُتّهمون لَطَخٌ من عثمان ؛ لا بمعنى أنهم باشروا قتله ؛ بل بمعنى الإغراء والتحريض ؛ وثانيهما أنّ علياً عليه السلام بريء من ذلك ، وأنّ طلحة والزبير غير بريئين منه .

ثم قال : وإنّ أوّل عدلهم لَلحُكم على أنفسهم ؛ يقول : إنّ هؤلاء خرجوا ونقضوا البيْعة ، وقالوا : إنّما خرجنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإظهار العدل وإحياء الحقّ وإماتة الباطل ، وأوّل العدل أن يحكموا على أنفسهم ؛ فإنّه يجب على الإنسان أن يقضيَ على نفسه ثم على غيره ، وإذا كان دم عثمان قبلهم ، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم .

---

(١) المأبض : مايثبت عليه الفخذ .

قال : وإن معي لبصيرتي ، أي عقلي ؛ ما لَبَّسْتُ على الناس أمرهم ولا لُبِسَ الأمر عليّ ، أي لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بل أوضحه لي وعرّفنيه .

ثم قال : وإنها للفئة الباغية ؛ لام التعريف في « الفئة » تشير بأنّ نصاً قد كان عنده : أنه ستخرج عليه فئة باغية ، ولم يعيّن له وقتها ولا كلّ صفاتها ، بل بعض علاماتها ، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلامات موجودة فيهم ؛ قال : وإنها للفئة الباغية ، أي وإنّ هذه الفئة ، أي الفئة التي وُعِدت بخروجها عليّ ، ولولا هذا لقال : « وإنها لفئة باغية » ، على التنكير .

ثم ذكر بعض العلامات ، فقال : إنّ الأمر لواضح ، كلّ هذا يؤكّد به عند نفسه وعند غيره أنّ هذه الجماعة هي تلك الفئة الموعود بخروجها ، وقد ذهب الباطل وزاح[1] ، وخرِس لسانه بعد شَغْبه .

ثم أقسم ليملأنّ لهم حوضاً هو ماتحه ، وهذه كناية عن الحرب والهيجاء وما يتعقّبهما من القتل والهلاك . لا يصدرون عنه بريّ ، أي ليس كهذه الحياض الحقيقية التي إذا وَرَدَها الظمآن صَدَر عن رِيّ ونقع غليله ، بل لا يصدُرون عنه إلا وهم جزَر السيوف ، ولا يعبّون بعده في حِسْي لأنهم هلكوا ، فلا يشربون بعده البارد العذب .

وكان عمرو بن الليث الصفّار أمير خراسان أنفذ جيشاً لمحاربة إسماعيل بن أحمد السامانيّ ، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث ، فغضب ولَقِيَ القوّاد بكلام غليظ ، فقال له بعضهم : أيها الأمير ، إنه قد طُبِخَ لك مِرْجَلٌ عظيم ، وإنما نلنا منه لُهمة[2] يسيرة والباقي مذخور لك ، فلم تتركه ! اذهب إليهم فكُلْه . فسكت عمرو ابن الليث عنه ولم يجب .

---

(١) زاح الأمر : ذهب .
(٢) اللهمة : الجزء اليسير .

ومرادنا من هذه المشابهة والمناسبة بين الكنايتين .

* * *

الأصل:

منه :

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، تَقُولُونَ : الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا ، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا .

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي ، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ . فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ وَرَدَّا الْعَافِيَةَ .

* * *

الشرح :

العُوذ : النوق الحديثات النتاج ، الواحدة عائذ ، مثل حائل وحُول ، وقد يقال ذلك للخيل والظباء ، ويجمع أيضاً على «عُوذان » مثل راع ورُعيان، وهذه عائذة بَيِّنة العُؤوذ، وذلك إذا ولدت عن قريب ، وهي في عياذها ، أي بحدثان نتاجها[1] .

والمطافيل : جمع مُطْفِل ، وهي التي زال عنها اسمُ العِياذ ومعها طِفْلُها ، وقد تسمّى المطافيل عُوذا إلى أن يبعد العهد بالنّتاج مجازا ؛ وعلى هذا الوجه قال أمير المؤمنين : « إقبال العوذ المطافيل » ، وإلا فالاسمان معاً لا يجتمعان حقيقةً ، وإذا زال الأول ثبت الثاني .

قوله : « وألّبا الناس عليّ » أي حرّضا ، يقال : حسود مؤلّب .

---

(١) في اللسان : « ويقال : هي عائذة بينة العؤوذ ، إذا ولدت عشرة أيام أو خمسة عشر ، ثم هي مطفل » .

واستثبتهما ، بالثاء المعجمة بثلاث : طلبت منهما أن يثوبا أى يرجعا ، وسمّى المنزل مَثابة لأن أهله يتصرفون فى أمورهم ثم يثوبون إليه ، ويروى : « ولقد استتبتُهما » ، أى طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما فى نقض البيعة .

واستأنيت بهما ، من الأناةِ والانتظار .

والوِقاع ، بكسر الواو : مصدر واقعتهم فى الحرب وِقاعا ، مثل نازلتهم نِزالا ، وقاتلتهم قِتالا .

وغمَط فلان النعمة ، إذا حقَّرها وأزرى بها غمْطا ، ويجوز « غمِط » النّعمة بالكسر والمصدر غيرُ محرّك ويقال : إن الكسر أفصح من الفتح .

يقول عليه السلام : إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النُّوق إلى أولادها ، تسألوننى البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتُكم . ثم دعا علىّ على طلحة والزبير بعد أنْ وصفهما بالقطيعة والنكث والتأليب عليه ، بأن يَحُلَّ الله تعالى ما عقدا ، وألاّ يحكِم لهما ما أبرما ، وأن يريَهما المساءة فيما أمّلا وعملا .

فأما الوصف لهما بما وصفهما به ، فقد صدق عليه السلام فيه ، وأمّا دعاؤه فاستجيب له ، والمساءة التى دعابها هى مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة ، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان رسوله بالجنّة ، وإنما استوجباها بالتّوبة التى ينقلها أصحابنا رحمهم الله فى كتبهم عنهما ، ولولاها لكانا من الهالكين .

(١٣٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يومئ فيها إلى ذكر الملاحم :

يَعْطِفُ ٱلْهَوَى عَلَى ٱلْهُدَى ، إِذَا عَطَفُوا ٱلْهُدَى عَلَى ٱلْهَوَى ، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى ٱلْقُرْآنِ ، إِذَا عَطَفُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ .

***

الشرح :

هذ إشارة إلى إمام يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان ، وهو الموعود به فى الأخبار والآثار ، ومعنى « يعطف الهوى » يقهره ويُثْنِيه عن جانب الإيثار والإرادة ، عاملا عمل الهدى ، فيجعل الهدى قاهراً له ، وظاهرا عليه .

وكذلك قوله : « ويعطف الرأى على القرآن » ، أى يقهر حكم الرأى والقياس والعمل بغَلَبة الظنّ عاملا عمل القرآن .

وقوله : « إذا عطفوا الهدى » و « إذا عطفوا القرآن » إشارة إلى الفِرَق المخالفين لهذا الإمام ، المشاقّين له ، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى ، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرأى .

***

الأصل :

منها :

حتّى تقومَ الحربُ بِكُمْ على ساقٍ ؛ بادِياً نواجِذُها ، مَملوءةً أخلافُها ، حُلواً رضاعُها ، عَلقماً عاقِبتُها .

ألا وَفي غَدٍ ـ وَسَيأتي غَدٌ بِما لا تَعرفونَ ـ يأخُذُ الوالي مِنْ غَيرِها عُمّالَها عَلى مَساوِئِ أعمالِها ، وَتُخرِجُ لَهُ الأرضُ أفاليذَ كَبِدِها ، وَتُلقِي إليْهِ سِلماً مَقاليدَها ، فَيُريكُمْ كَيفَ عَدلُ السِّيرَةِ ، وَيُحيي مَيّتَ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ .

* * *

الشرح :

الساق : الشدّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾[1] .

والنواجذ : أقصى الأضراس ، والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتها ، كما أنّ غاية الضحك أن تبدُو النواجذ .

قوله : « مملوءةً أخلافها » ، والأخلاف للناقة حلمات الضرع ، واحدها خِلْف .

وكذلك وقوله : « حلوا رضاعها ، علقما عاقبتها » قد أخذه الشاعر ، فقال :

الحربُ أوّلَ ماتكون فتيّةً ... تسعى بزينتها لكلّ جهولِ[2]
حتى إذا اشتعلت وشبّ ضرامُها[3] ... عادتْ عجوزاً غير ذات حليلِ
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت ... مكروهةً للشمّ والتقبيل

---

(١) سورة القلم ٤٢ .

(٢) تنسب إلى امرئ القيس ، وهي في ديوانه ٣٥٣ ، من زيادات نسخة ابن النحاس .

(٣) الديوان : « حتى إذا استعرت » .

وهو الرَّضاع بالفتح، والماضى رضِع بالكسر ، مثل سمِع سماعا ، وأهل نجد يقولون : « رَضَع » بالفتح « يرضِع » بالكسر رَضْعا ، مثل ضرب يضرِب ضربا ، وأنشدوا :

وَذَمُّوا لنا الدّنيا وهم يرْضِعُونها أفاويقَ حتى مايدرّ لهـا ثُعُلْ[1]

بكسر الضاد .

[فصل فى الاعتراض وإيراد مُثُل منه]

وقوله : « ألاَ وفى غدٍ » تمامه « يأخذ الوالى » وبين الكلام جملة اعتراضية ، وهى قوله : « وسيأتى غدٌ بما لا تعرفون » والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه ؛ ومثل ذلك فى القرآن كثير ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾[2] ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجواب المتلقّى به قوله : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ ، وقد اعترض بينهما قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ ، واعترض بين هذا الاعتراض قوله: ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، لأنك لو حذفته لبقى الكلام على إفادته ، وهو قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ » ، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم ، وتأكيد إجلاله فى النفوس ؛ ولا سيما بقوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عظيمٌ ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[3] ، فقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ اعتراض ، والمراد التنزيه . وكذلك قوله: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، فـ « لَقَدْ علِمتم » اعتراض ؛ والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة. وكذلك قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ

---

(١) اللسان ٩ : ٤٨٤ ، ونسبه إلى ابن همام السلولى .

(٢) سورة الواقعة ٧٥ – ٧٧ .

(٣) سورة النحل ٥٧ .

مُفْتَرٍ ﴾[1] فاعترض بين « إذا » وجوابها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم ؛ فجعل الجواب اعتراضا .

ومن ذلك قوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[2] فاعترض بقوله: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ بين ﴿ وصينا ﴾ وبين الموصَّى به ؛ وفائدة ذلك إذكارُ الولَد بما كابدته أمه من المشقّة فى حمله وفصاله .

ومن ذلك قوله: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[3] فقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، والمراد أن يقرّر فى أنفس السامعين أنّه لا ينفع البشرَ كتمانُهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره .

ومن الاعتراض فى الشعر قول جرير :

وَلَقَدْ أرانِي ـ والجديدُ إلى بِلًى ـ   فى موكِبٍ بيضِ الوجوه كرامِ[4]

فقوله : « والجديد إلى بلًى » اعتِراض ، والمراد تعزيته نفسه عمّا مضى من تلك اللذات .

وكذلك قول كُثَيّر :

لو أنّ الباخِلين ـ وأنتِ منهم ـ   رأوكِ تعلّموا منكِ المِطالا[5]

فقوله : « وأنتِ منهم » اعتراض ؛ وفائدته ألّا تظن أنها ليست باخلة .

---

(١) سورة النحل ١٠١ .

(٢) سورة لقمان ١٤ .

(٣) سورة البقرة ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) ديوانه ٥٥١ ، والرواية فيه : « فى فتية طرف الحديث كرام » .

(٥) ديوانه ١ : ١٥١ .

ومن ذلك قول الشاعر (١) :

فلو سألتْ سَرَاةَ الحيِّ سلْمَى ... على أنْ قد تلوّن بي زَمَانى (٢)

لخبّرها ذوُو أحسابِ قومِي ... وأعدائي فكلٌّ قد بلَانى

بِذَبِّى الذّم عن حَسَبِي وَمَالِي ... وَزَبُونات أشْوَسَ تيّحانِ (٣)

وإنى لَاأزالُ أخا حُروبٍ ... إذا لم أجْنِ كُنتُ مِجَنَّ جانى

فقوله :

* على أنْ قد تلوّن بي زماني *

اعتراض، وفائدته الإخبار عن أنّ السنّ قد أخذت منه وتغيّرت بطول العمر أوصافُه.

ومن ذلك قول أبى تمام :

رَدَدْتَ رَوْنقَ وجهى فى صحيفته ... ردّ الصقالِ بَهَاءَ الصّارِم الخذِمِ (٤)

وما أبالِي ـ وَخَيرُ القول أصدقُه ـ ... حقنتَ لى ماء وجهى أم حقنت دمى

فقوله : «وخَيْرُ القولِ أصْدَقُه» اعتراض، وفائدته إثبات صدقه فى دعواه أنه لايبالى أيّهما حقن .

فأما قول أبى تمام أيضا :

وإنّ الغِنَى لى إنْ لحظتَ مطالبى ... من الشّعر ـ إلا فى مديحك ـ أطوعُ (٥)

فإنّ الاعتراض فيه هو قوله : «إلا فى مديحك» وليس قوله : «إنْ لحظت مطالبى» اعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصلي (٦)، لأنّ فائدة البيت معلّقة عليه، لأنه لايريد أنّ الغنى

(١) لسوار بن المضرب السعدى . ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ١ : ١٣٠ .

(٢) سراة القوم : خيارهم .

(٣) زبونات ، من الزبن ، وهو الدفع . والتيحان : العريض المقدام .

(٤) ديوانه ٣ : ٢١٨ . والخذم : السريع القطع .

(٥) ديوانه ٢ : ٣٣٣ .

(٦) المثل السائر ٢ : ١٨٨ .

لى على كل حال أطوع من الشِّعر ، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد مختلّ ! بل مراده أنّ الغنى لى بشرط أن تلحظ مطالبى من الشعر أطوعُ لى ؛ إلاّ فى مديحك ، فإنّ الشعر فى مديحك أطوع لى منه ، وإذا كانت الفائدة معلّقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضا.

وكذلك وَهم ابن الأثير[1] أيضا فى قول امرئ القيس :

فلو أنّ ما أسْعَى لأدنى معيشةٍ كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ[2]
ولكِنّما أسْعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى

فقال : إن قوله : « ولم أطلبْ » اعتراض ؛ وليس بصحيح ، لأنّ فائدة البيت مرتبطة به : وتقديره : لو سعيتُ لأن آكلَ وأشرب لكفانى القليل ، ولم أطلب الملك ؛ فكيف يكون قوله : ولم أطلب الملك اعتراضا ، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلة تَردُ لتحسين وتكملة ، وليست فائدته أصلية !

وقد يأتى الاعتراض ولا فائدة فيه ؛ وهو غير مستحسَن ، نحو قول النابغة :

يقولُ رجالٌ يجهلونَ خليقتِى لعلّ زياداً - لا أبالكَ - غافلُ[3]

فقوله : « لا أبالك » ، اعتراض لا معنى تحته ها هنا ، ومثله قول زهير :

سئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يعشْ ثمانينَ حَوْلاً - لا أبا لكَ - يسأمِ[4]

فإن جاءت « لا أبالك » تعطى معنى يليق بالموضع فهى اعتراض جيد ، نحو قول أبى تمام :

* عِتابَكِ عَنى - لا أبالكِ - وَاقصِدِى *

فإنه أراد زجرها وذمّها لما أسرفت فى عتابه .

---

(١) المثل السائر ٢ : ١٨٦ . (٢) ديوانه ٣٩ .
(٣) ديوانه ٦١ . (٤) ديوانه ٢٩ .

وقد يأتى الاعتراض على غايةٍ من القبح والاستهجان ، وهو على سبيل التقديم والتأخير ، نحو قول الشاعر :

فَقَدْ والشَّكُّ بَيَّنَ لِي عَنَــــاء   بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ فَصِيحُ[1]

تقديره : : فقد بَيّن لى صُرَدٌ يصيح بوشك فراقهم ، والشك عناء ، فلاجل قوله : « والشك عناء » بين « قد » والفعل الماضى ؛ وهو « بَيّن » عدّ اعتراضا مستهجنا .

وأمثال هذا للعرب كثير .

قوله عليه السلام : « يأخذ الوالِى من غيرها عمّالها على مساوئ أعمالها » كلام منقطع عما قبله ، وقد كان تقدم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمْرَة ، فذكر عليه السلام أنّ الوالىَ — يعنى الإمام الذى يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان — يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء أعمالهم . وعلى ها هنا متعلقة بـ « يأخذ » التى هى بمعنى « يؤاخذ » من قولك : أخذته بذنبه ، وآخذته ، والهمز أفصح .

والأفاليذ : جمع أفلاذ ، وأفلاذ جمع فِلْذ ، وهى القطعة من الكبد ، وهذا كناية عن الكنوز التى تظهر للقائم بالأمر ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى خبر مرفوع فى لفظة : « وقاءت له الأرض أفلاذ كبدها » ، وقد فسر قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[2] بذلك فى بعض التفاسير .

والمقاليد : المفاتيح .

***

الأصلُ

منها :

كأنّى بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّءوسِ . قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ .

(١) المثل السائر ٢ : ١٩١ .   (٢) سورة الزلزلة ٢ .

وَاللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا .

فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا إخبار عن عبد الملك بن مَرْوان وظهوره بالشام ومُلْكه بعد ذلك العراق ، وماقتَل من العرب فيها أيّامَ عبدالرحمان بن الأشعث ، وقتلِه أيام مصعب بن الزبير .

ونعق الرعى بغنمه ، بالعين المهملة ، ونَغَق الغراب بالغين المعجمة . ونحص براياته هاهنا : مفعول محذوف تقديره : وفحص الناسَ براياته ، أى نحّام وقلبهم يمينا وشمالا .

وكوفان : اسم الكوفة . وضواحيها : ماقرب منها من القرى . والضَّروس : الناقة السيئة الخلُق تعض حالبها ، قال بشر بن أبي خازم :

عَطَفْنَا لهمْ عَطْفَ الضَّرُوسِ مِن المَلاَ بشهباء لا يمشى الضَّرَّاء رقيبُها[1]

وقوله : « وفرش الأرض بالرءوس » : غطّاها بها كما يغطّى المكان بالفراش .

وفغرت فاغرتُه ؛ كأنه يقول : فتح فاه؛ والكلام استعارة،وفغَر « فَعَل » يتعدّى ولا يتعدّى . وثقُلتْ فى الأرض وطأته ، كناية عن الجوْر والظلْم .

بعيد الجولة : استعارة أيضا؛ والمعنى أنّ تطواف خيوله وجيوشه فى البلاد، أو جَوَلان رجاله فى الحرب على الأقران طويل جدًّا لا يتعقّبه السكون إلا نادرا .

وبعيد منصوب على الحال ، وإضافته غير محضة .

---

(١) اللسان ٩ : ٤٢٤ ، ديوانه ١٥

وعوازب أحلامها : ماذهب من عقولها ، عزَبَ عنه الرأى ، أى بعُد .

ويسق لكم طرقه ، أي يسهل . والعقِب ، بسكسر القاف : مؤخّر القدم ، وهى مؤنثة .

فإن قلت:فإنّ قوله : «حتى تؤوب» يدلّ على أن غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها ، وعبدالملك مات فى ملكه ولم يزُل الملك عنه بأوْبَةِ أحلام العرب إليها فإنّ فائدة « حتى » إلى ؟ وهى موضوعة للغاية .

قال : إن مُلكَ أولاده مُلكه أيضا،ومازال الملك عن بنى مَرْوان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها ، والعرب هاهنا : بنو العباس ومن اتّبعهم من العرب أيام ظهور الدولة، كقحطبة بن شبيب الطائىّ وابنيه: حُميد والحسن ،وكبنى رزَنى ، بتقديم الراء المهملة، الذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبىّ ، وعِدادهم فى خُزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بنى العباس . وقد قيل : إنّ أبا مسلم أيضا عربىّ أصله ، وكلّ هؤلاء وآباؤهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين فى دولة بنى أمية،لم ينهض منهم ناهض،ولا وثب إلى الملك واثب ، إلى أن أفاء الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عَزَب عنهم من إبائهم وحميّتهم، فغاروا للدّين والمسلمين من جَوْر بنى مروان وظلمهم،وقاموا بالأمر،وأزالوا تلك الدولة التى كرهها الله تعالى ، وأذِنَ فى انتقالها .

ثم أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتابَ والسنة ، والعهد القريب الذى عليه باقى النبوّة ــ يعنى عهده وأيامه عليه السلام .وكأنّه خاف من أن يكون بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبار ستنقضى إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها ، كالأمر لهم باتباع ولاة الدولة الجديدة فى كلّ ماتفعله،فاستظهرَ عليهم بهذه الوصية،وقال لهم: إذا ابتذلت الدولة ، فالزموا الكتاب والسنّة ، والعهد الذى فارقتُكم عليه .

(١٣٩)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام في وقت الشورى :

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصِلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ ؛ فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَعُوا مَنْطِقِي . عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ ؛ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ .

الشرح :

هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى بعد وفاة عمر .

[من أخبار يوم الشورى وتولية عثمان]

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدّم مافيه كفاية ؛ ونحن نذكر هاهنا مالم نذكره هناك ، وهو من رواية عوانة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبيّ في كتاب " الشورى " ، و " مقتل عثمان " ، وقد رواه أيضا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في زيادات كتاب «السقيفة» ، قال :

لما طُعِن عمرُ جَعَل الأمرَ شورى بين ستّة نفر : عليّ بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن مالك ؛ وكان

طلحة يومئذ بالشام ، وقال عمر : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِض وهو عن هؤلاء راضٍ ؛ فهم أحقُّ بهذا الأمر من غيرهم ، وأوصى صُهَيب بن سنان ، مولى عبد الله بن جُدْعان ـ ويقال : إنّ أصلَه من حيّ من ربيعة بن نزار ، يقال لهم عَنَزة ـ فأمره أن يصلِّيَ بالناس حتى يرضَى هؤلاء القومُ رجلاً منهم ، وكان عمر لا يشكّ أنّ هذا الأمر صائر إلى أحد الرّجُلين : عليّ وعثمان ، وقال : إنْ قدِم طلحة فهو معهم ، وإلّا فلتختَرِ الخمسةُ واحداً منها . وروى أن عمر قبل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى ، وقال : الأمر في هؤلاء الأربعة ، ودعُوا سعداً عَلَى حاله أميراً بين يدَيِ الإمام . ثم قال : ولو كان أبو عبيدة ابن الجرّاح حيًّا لما تخالَجَتني فيه الشكوك ، فإن اجتمع ثلاثة على واحد ، فكونوا مع الثلاثة ، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذى فيه عبد الرحمن .

وقال لأبي طلحة الأنصاريّ : يا أبا طلحة ؛ فو الله لطالما أعزّ الله بكم الدين، ونصر بكم الإسلام ؛ اختر من المسلمين خمسين رجلاً ، فائت بهم هؤلاء القوم في كلّ يوم مرّة ، فاستحِثُّوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمّة رجلاً منهم .

ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار ـ فأعلمهم ما أوصَى به ، وكتب في وصيّته أن يولِّيَ الإمام سعدَ بن مالك الكوفة ، وأبا موسى الأشعريّ ،لأنه كان عزل سعداً عن سَخْطَةٍ فأحبّ أن يطلب ذلك إلى مَنْ يقوم بالأمر من بعده استرضاء لسعد .

قال الشعبيّ : فحدثني من لا أتّهمه من الأنصار ـ وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ : هو سهل بن سعد الأنصاريّ ـ قال : مشيت وراء عليّ بن أبي طالب حيثُ انصرف من عند عمر ، والعباس بن عبد المطلب يمشي في جانبه ، فسمعتُه يقول للعباس : ذهبتْ منّا والله! فقال : كيف علمت ؟ قال : ألا تسمعه يقول : كونوا في الجانب الذى فيه عبد الرحمن ، لأنه ابنُ عمّه ، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره ، فإذاً اجتمع هؤلاء ! فلو أنّ الرجلين

الباقيين كانا معى لم يغنيا عنى شيئا ، مع أنى لست أرجو إلا أحدهما ، ومع ذلك فقد أحب عمر أن يعلمنا أن لعبد الرحمن عنده فضلا علينا . لعمرُ الله ماجعل الله ذلك لهم علينا ، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرته ما أتى إلينا قديما، ولأعلمته سوء رأيه فينا ، وما أتى إلينا حديثا ؛ ولئن ماتَ ــ وليموتَنّ ــ ليجتمعنّ هؤلاء القوم على أن يصرفوا هذا الأمر عنّا ؛ ولئن فعلوها ــ وليفعلُنّ ــ ليرونني حيث يكرهون ؛ والله مابى رغبة فى السلطان ، ولا حبّ الدنيا ؛ ولكن لإظهار العدل ، والقيام بالكتاب والسنّة .

قال : ثمّ التفتّ فرآني وراءه ، فعرفت أنه قد ساءه ذلك ، فقلت : لا تَرُعْ أباحسن ! لا والله لا يستمع أحدٌ الذى سمعتُ منك فى الدنيا ما اصطحبنا فيها ؛ فوالله ماسمعه منّى مخلوق حتى قبض الله عليًّا إلى رحمته .

قال عوانة : فحدثنا إسماعيل ، قال : حدثنى الشعبيّ ، قال : فلما مات عمر ، وأدرج فى أكفانه ، ثم وضع ليصلّى عليه ، تقدّم علىّ بن أبى طالب ، فقام عند رأسه ، وتقدّم عثمان فقام عند رجليه ، فقال علىّ عليه السلام : هكذا ينبغى أن تكون الصلاة ، فقال عثمان : بل هكذا ، فقال عبد الرحمن : ما أسرع ما اختلفتم ! ياصُهَيْب ، صلّ عَلَى عمر كما رضِيَ أن تصلّيَ بهم المكتوبة ، فتقدّم صُهيب فصلّى عَلَى عمر .

قال الشعبيّ : وأدخِل أهل الشورى دارا، فأقبلوا يتجادلون عليها ، وكلّهم بها ضنين، وعليها حريص ؛ إمّا لدنيا وإمّا لآخرة ، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن : مَنْ رجلٌ منكم يخرِجُ نفسَه عن هذا الأمر، ويختار لهذه الأمّة رجلا منكم، فإنّى طيّبةٌ نفسِى أن أخرُجَ منها، وأختار لكم ؟ قالوا : قد رضينا ؛ إلّا علىّ بن أبى طالب فإنّه اتّهمَه وقال : أنظر وَأرَى . فأقبل أبو طلحة عليه ، وقال : ياأبا الحسن ، ارضَ برأى عبد الرحمن ، كانَ الأمر لك أو لغيرك ، فقال علىّ : أعطِنى ياعبدالرحمن موثِقاً من الله لتؤثِرنّ الحقّ ، ولا تتّبعَ الهوى،

ولا تَمِلْ إلى صِهْرٍ ولا ذي قرابة ، ولا تعمل إلا لله ، ولا تألو هذه الأمةَ أن تختارَ لها خيرَها .

قال : فحلفَ له عبدالرحمن بالله الذي لا إله إلا هو، لأجتهدنّ لنفسي ولكم وللأمة، ولا أميلُ إلى هوًى ولا إلى صهر ولا ذِي قرابة .

قال : فخرج عبدُالرحمن ، فمكث ثلاثة أيام يشاوِر الناس ، ثم رجع واجتمع الناس، وكثروا عَلَى الباب لا يشكّون أنه يبايع عليّ بن أبي طالب ، وكان هوَى قريش كافة ماعدا بني هاشم في عثمان ، وهوَى طائفة من الأنصار مع عليّ وهوى طائفة أخرى مع عثمان ؛ وهي أقلّ الطائفتين ، وطائفة لا يبالُون : أيّهما بُويع .

قال : فأقبل المقداد بن عمرو ؛ والناس مجتمعون، فقال : أيّها الناسُ ؛ اسمعوا ماأقول، أنا المقداد بن عمرو ؛ إنّكم إن بايعتم عليا سمعنا وأطعنا ، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا ؛ فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ ، فنادى : أيّها الناس ، إنّكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عليًّا سمعنا وعصينا. فقال له المقداد : ياعدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ كتابه ، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون ! فقال له عبد الله : يابنَ الحليف العسيف (١) ، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول في أمرِ قريش !

فقال عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح : أيّها الملأ؛ إن أردتم ألّا تختلف قريش فيما بينها، فبايعوا عثمان ؛ فقال عمّار بن ياسر: إن أردتم ألّا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليا؛ ثم أقبل عَلَى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فقال: يافاسق يابن الفاسق ، أأنت مِمّن يستنصحه المسلمون ، أو يستشيرونه في أمورهم ! وارتفعت الأصوات، ونادى منادٍ لا يُدْرَى مَنْ هو! — فقريش تزعم أنّه رجل من بني مخزوم، والأنصار تزعم أنّه رجل طُوال آدم مشرف عَلَى الناس — لا يعرفه أحد منهم : ياعبد الرحمن ، افرُغ من أمرك ، وامضِ عَلَى مافي نفسك فإنه الصواب .

---

(١) العسيف : المستهان به .

قال الشعبيّ : فأقبل عبد الرحمن عَلَى عليّ بن أبي طالب ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه ، وأشدّ ما أخذ الله على النبيّين من عهد وميثاق : إن بايعتك لتعملَنّ بكتاب الله وسنّة رسوله ، وسيرة أبي بكر وعمر ! فقال عليّ عليه السلام : طاقتي ومبلغ علمي وجهد رأيي ؛ والناس يسمعون .

فأقبل عَلَى عثمان ، فقال له مثل ذلك ، فقال : نعم لا أزولُ عنه ولا أدعُ شيئاً منه .

ثم أقبل عَلَى عليّ فقال له ذلك ثلاث مرات ، ولعثمان ثلاث مرات ، في كلّ ذلك يجيب عليّ مثل ما كان أجاب به ، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به .

فقال : ابسُط يدك ياعثمان ، فبسط يده فبايعه ، وقام القوم فخرجوا ؛ وقد بايعوا إلّا عليّ بن أبي طالب ، فإنّه لم يبايع .

قال : فخرج عثمان عَلَى النّاس ووجهه متهلّل ، وخرج عليّ وهو كاسف البال مظلِم؛ وهو يقول:يابنَ عوف؛ليس هذا بأوّل يوم تظاهرتمْ علينا،من دفعِنا عن حقّنا والاستئثار علينا ! وإنها لسنّة علينا ، وطريقة تركتموها .

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان : أما والله لو بُويع غيرك لما بايعناه ؛ فقال عبدالرحمن بن عوف : كذبتَ ؛ والله لو بويع غيره لبايعتَه؛ وما أنت وذاك يابن الدبّاغة ! والله لو وليَها غيره لقلتَ له مثل ماقلت الآن ، تقرّبا إليه وطمعا في الدنيا ، فاذهب لا أبا لك ! .

فقال المغيرة : لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعتُك ماتكره . ومضيا .

قال الشعبيّ ، فلما دخل عثمان رَحْله دخل إليه بنو أميّة حتى امتلأت بهم الدار ، ثم أغلقوها عليهم ، فقال أبو سفيان بن حَرْب : أعندكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، قال : يابني أميّة،تلقّفوها تلقّف الكرة؛فوالّذي يحلِف به أبو سفيان مامن عذاب ولاحساب، ولا جنّة ولا نار ، ولا بعث ولا قيامة !

قال : فانتهره عثمان ، وساءه بما قال ، وأمر بإخراجه .

قال الشعبيّ : فدخل عبدُ الرحمن بن عوف على عُثْمان ، فقال له : ماصنعت ! فوالله ماوفّقت حيث تدخل رحلك قبل أنْ تصعد المنبر ، فتحمَد الله وتثنِي عليه،وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعِدُ النّاس خيراً .

قال : فخرج عثمان ، فصعِد المنبر ، فحِمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هذا مقام لم نكن نقومه ، ولم نعدّ له من الكلام الذى يقام به فى مثله ، وسأهيّئُ ذلك إن شاء الله ، ولن آلو أمّةَ محمد خيرا ، والله المستعان .

ثم نزل .

* * *

قال عوانة : فحدّثنى يزيد بن جرير ، عن الشعبيّ،عن شقيق بن مسلمة ، أنّ عليّ بنَ أبى طالب ، لما انصرف إلى رحله،قال لبنى أبيه : يابنى عبدالمطّلب ، إنّ قومَكم عادوْكم بعد وفاة النبيّ كعداوتهم النبيّ فى حياته ، وإن يطِعْ قومُكم لا تؤمّروا أبدا ؛ ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلا بالسيف .

قال : وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، داخلٌ إليهم ، قد سمع الكلام كلّه فدخل ، وقال : ياأبا الحسن ، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض!فقال : اسكت ويحك ! فوالله لولا أبوك وما ركب منّى قديما وحديثا ، ما نازعنى ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف . فقام عبد الله فخرج .

قال : وأكثَر النّاس فى أمرِ الهُرْمُزان وعبيدالله بن عمر،وقتله إياه ، وبلغ ماقال فيه علىّ بن أبى طالب . فقام عثمان فصعد المنبر ، فحِمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيّها الناس، إنّه كان من قضاء الله أنّ عُبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان ، وهو رجل من

المسلمين ، وليس له وارثٌ إلا الله والمسلمون ؛ وأنا إمامكم وقد عفوْت ، أفتعفُون عن عبيد الله ابن خليفتكم بالأمس ؟ قالوا : نعم ، فعفاعنه ، فلما بلغ ذلك عليًّا تضاحك ،وقال : سبحان الله ! لقد بدأ بهاعثمان ! أيعفُوعن حقّ امرى ليس بواليه! تالله إنّ هذا لهوالعجَب! قالوا : فكان ذلك أوّل مابدا من عثمان مما نقِم عليه .

قال الشعبيّ : وخرج المِقْداد من الغدِ، فلقِيَ عبدالرحمن بن عوف، فأخذ بيده،وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجهَ الله ، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فأكثر الله مالك . فقال عبد الرحمن : اسمعْ ، رحمك الله ، اسمع ! قال: لاأسمع والله ؛ وجذب يده من يده ، ومضى حتى دخل على عليّ عليه السلام ، فقال : قم فقاتل حتى نقاتلَ معك ، قال عليّ : فبمن أقاتل رحمك الله ! وأقبلَ عَمّار بن ياسر ينادى:

يا ناعيَ الإسلام قم فانْعَهُ قد مات عرفٌ وبدا نُكْرُ

أما والله لو أنّ لى أعوانًا لقاتلتُهم ،والله لئن قاتلهم واحدٌ لأكونَنّ له ثانيا. فقال عليّ : ياأبا اليقظان ؛ والله لاأجِدُ عليهم أعوانًا ، ولاأحبّ أن أعرِّضكم لما لا تطيقون . وبقى عليه السلام فى داره ، وعنده نفر من أهل بيته ؛ وليس يدخل إليه أحد مخافة عثمان .

قال الشعبيّ : واجتمع أهلُ الشورى عَلى أن تكونَ كلمتُهم واحدة على مَنْ لم يبايع، فقاموا إلى عليّ ،فقالوا : قم فبايع عثمان ، قال: فإنْ لم أفعل، قالوا : نجاهدْك، قال : فمشى إلى عثمان حتى بايعه ؛ وهو يقول : صدق الله ورسوله . فلما بايع أتاه عبدُ الرحمن بن عوف ، فاعتذَر إليه ؛ وقال : إن عثمان أعطانا يده ويمينه ، ولم تفعل أنت ، فأحببتُ أن أتوثّق للمسلمين ، فجعلتُها فيه ، فقال : إيهاً عنك ! إنّما آثرتَه بها لتنالها بعده ، دقّ الله بينكما عطرَ مَنْشِم (١) .

---

(١) منشم : امرأة عطارة من خزاعة ؛ فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ؛ فضرب ذلك مثلا لشدة الأمر .

قال الشعبيّ : وقدم طلحة من الشام بعد مابويع عثمان ، فقيل له : رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك ؛فقال : والله لوبايعتم شرّكم لرضيتُ ، فكيف وقدبايعتم خيرَكم ؟قال :ثم عَدَا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه ، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه .

قال الشعبيّ :فأمّا مايذكره الناس من المناشدة، وقول علىّ عليه السلام لأهل الشورى: أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم كذا ؛ فإنه لم يكن يوم البيعة ، وإنما كان بعد ذلك بقليل ؛ دخل علىّ عليه السلام على عثمان وعنده جماعة من الناس ،منهم أهلُ الشورى ، وقد كان بلغه عنهم هَنات وقوارصُ ، فقال لهم :أفيكم أفيكم! كلّ ذلك يقولون لا، قال :لكنّى أخبركم عن أنفسكم؛ أمّا أنت ياعثمان ففررتَ يوم حُنَين، وتولّيت يوم التقى الجمان ، وأمّا أنت ياطلحة فقلت : إنْ مات محمد لنركضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا ،وأمّا أنتَ ياعبد الرحمن ، فصاحب قراريط ، وأماأنت ياسعد فتدقّ عن أن تذكر .

قال : ثم خرج فقال عثمان : أما كان فيكم أحدٌ يردّ عليه ! قالوا ؛ ومامنعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين ! وتفرّقوا .

* * *

قال عوانة : قال إسماعيل : قال الشعبيّ : فحدثنى عبد الرحمن بن جندَب ، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزدىّ ، قال: كنت جالسا بالمدينة حيث بويع عثمان ، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو ؛ فسمعته يقول : والله مارأيت مثلَ ماأتى إلى أهل هذا البيت ! وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً ، فقال : وماأنت وذاك يامقداد ! قال المقداد: إنّى والله أحبّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله ،وإنى لأعجب من قريش وتطاوُلهم على النّاس بفضل رسول الله ، ثمّ انتزاعهم سلطانه من أهله . قال عبدالرحمن : أمّا والله لقد أجهدتُ نفسى

لكم . قال للمقداد : أما والله لقد تركتَ رجلاً من الذين يأمُرون بالحق وبه يعدلون ! أما والله لو أنّ لى على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالى إيام ببدر وأحُد . فقال عبد الرحمن : ثكلتْك أمّك ؛ لا يسمعنّ هذا الكلامَ الناس ، فإنى أخاف أن تكون صاحب فتنة وفُرقة .

قال المقداد : إنّ مَنْ دعا إلى الحقّ وأهله وولاة الأمر لايكون صاحب فتنة ؛ ولكنْ مَنْ أقحم الناس فى الباطل ، وآثر الهوى على الحق ، فذلك صاحب الفتنة والفُرْقة .

قال : فتربّد وجهُ عبد الرحمن ، ثم قال : لو أعلم أنك إياىَ تعنى لكان لى ولك شأن .

قال المقداد : إياى تهدّد يابنَ أمّ عبد الرحمن ! ثم قام عن عبد الرحمن ، فانصرف .

قال جندب بن عبد الله : فاتّبعتُه ، وقلت له : يا عبد الله ، أنا مِنْ أعوانِك ، فقال : رحمك الله ! إنّ هذا الأمر لا يغنى فيه الرجلان ولا الثلاثة ؛ قال : فدخلت من فورى ذلك عَلَى علىّ عليه السلام ، فلما جلست إليه ، قلت : يا أبا الحسن ، والله ما أصاب قومُك بصرف هذا الأمر عنك ، فقال : صبرٌ جميل والله المستعان .

فقلت : والله إنك لصبور ! قال : فإنْ لم أصبرْ فماذا أصنع ؟ قلت : إنى جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف ، فقالا كذا وكذا ، ثم قام المقداد فاتّبعته ، فقلت له كذا ، فقال لى كذا . فقال علىّ عليه السلام : لقد صدَق المقداد ، فما أصنع ؟ فقلت : تقومُ فى الناس فتدعوهم إلى نفسك ، وتخبرهم أنّك أولى بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتسألهم النّصر على هؤلاء المظاهرين عليك ، فإن أجابك عشرة من مائة شَدَدْتَ بهم على الباقين ، فإن دانوا لك فذاك ، وإلّا قاتلتَهم وكنت أوْلَى بالعذر ؛ قُتِلتَ أو بقيت ، وكنت أعْلَى عند الله حجّة .

فقال : أترجو يا جندب أن يبايعَنى من كلّ عشرة واحد ؟ قلت أرجو ذلك ، قال : لكنى لا أرجو ذلك ، لا والله ولا من المائة واحد ، وسأخبرك ؛ إنّ الناس إنما ينظرون

إلى قريش فيقولون : هم قوم محمد وقبيله . وأما قريش بينها فتقول : إنّ آل محمد يرون لهم على الناس بنبوّته فضلا ، ويرون أنهم أولياء هذا الأمر دون قريش ، ودون غيرهم من الناس ، وهم إن وَلُوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبدا ؛ ومتى كان فى غيرهم تداولته قريش بينها ؛ لا والله لا يدفَعُ الناسُ إلينا هذا الأمر طائعين أبدا !

فقلت : جعلت فداك يا بن عمّ رسول الله ! لقد صدعْتَ قلبي بهذا القول ، أفلا أرجع إلى المصر ، فأوذِنُ الناس بمقالتك ، وأدعو النّاس إليك ؟ فقال : يا جندب ليس هذا زمان ذاك .

قال : فانصرفتُ إلى العراق ، فكنت أذكر فضل علىّ على الناس فلا أعدم رجلا يقول لى ما أكره ، وأحسن ما أسمعه قول مَنْ يقول : دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك ؛ فأقول : إنّ هذا مما ينفعنى وينفعك ، فيقوم عنّى ويدَعنى .

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى : حتى رُفِع ذلك من قولى إلى الوليد ابن عُقْبة ، أيام ولينا فبعث إلىّ فحبسنى حتى كُلِّم فىّ ، فخلّى سبيلى .

وروى الجوهرىّ ، قال : نادى عمّار بن ياسر ذلك اليوم : يا معشرَ المسلمين ، إنا قد كُنّا ، ما كنّا نستطيع الكلام ، قلّة وذلة ، فأعزّنا الله بدينه ، وأكرمنا برسوله ، فالحمد لله ربّ العالمين . يا معشرَ قريش ، إلى مَتَى تصرفون هذا الأمْرَ عن أهل بيت نبيكم ! تحوّلونه ها هنا مرّة ، وها هنا مرّة ! ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه فى غيركم ، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله !

فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة : يابن سميّة ، لقد عَدَوْتَ طوْرك وماعرفتَ قدرك ؛ ما أنت وما رأت قريش لأنفسها ! إنك لستَ فى شيء من أمرها وإماراتها ، فتنحّ عنها .

وتكلّمت قريش بأجمعها ، فصاحوا بعمار وانتهروه ؛ فقال : الحمد لله رب العالمين ؛ ما زال أعوانُ الحقّ أذلاء ! ثم قام فانصرف .

(١٤٠)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى النهى عن غيبة الناس :

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ . أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ ؛ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ .

وَايْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ ، لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ .

يَاعَبْدَ اللهِ ، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ . فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ غَيْرُهُ بِهِ .

* * *

الشرح :

ليس فى هذا الفصل من غريب اللغة مانشرح .

[أقوال مأثورة فى ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين]

ونحن نذكر مما ورد فى الغيبة لُمَماً نافعة عَلَى عادتنا فى ذكر الشيء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه .

وقد ورد فى الكتاب العزيز ذمّ الغيبة . قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تحاسَدُوا ولا تباغضوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وروى جابر وأبو سعيد عنه صلى الله عليه وآله : « إيّاكم والغيبة ، فإن الغيبة أشدّ من الزّنا ، إنّ الرجلَ يزنى فيتوبُ الله عليه ، وإنّ صاحبَ الغيبة لا يُغفَرُ له حتى يغفر له صاحبُه » .

وروى أنس عنه صلى الله عليه وآله : « مررت ليلةَ أسرِيَ بى ، فرأيت قوما يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فسألت جبريل عنهم ، فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس » .

وفى حديث سَلْمان ، قلت : يا رسول الله ، علِّمنى خيراً ينفعنى الله به ، قال : « لا تحقِرَنّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، والقَ أخاك ببِشْرٍ حَسَن ، ولا تغتابنّه إذا أدبر » .

وفى حديث البَرَاء بن عازب : خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمعَ العواتقَ فى بيوتهنّ ، فقال : « ألا لا تغتابُوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتِهم ، فإنّه مَنْ يتتبّع عورةَ أخيه تتبّع الله عورته ، ومَنْ يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » .

---

(١) سورة الحجرات ١٢ .

وفى حديث أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال فى يوم صوم: «إنّ فلانة وفلانة كانتا تأكلان اليوم شحمَ امرأةٍ مسلمة ـ يعنى الغيبة ـ فرُّها فليتقيّآ، فقاءت كلّ واحدة منهما عَلَقة دم» (١).

وفى الصّحاح المجمَع عليها أنّه عليه السلام مرّ بقبرين جديدين، فقال: «إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان بكبير؛ أمّا أحدُهما؛ فكان يغتاب الناس، وأمّا الآخر فكان لايتنزّه من البول»؛ ودعا بجريدة رطْبة فكسرها اثنتين ـ أو قال: دعا بجريدتين ـ ثم غرسهما فى القبرين ـ وقال: «أما إنه سيهُون من عذابهما مادامتا رطبتيْن».

وفى حديث ابن عباس أنّ راجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً، وهو يمشى عليه السلام، وهما يمشيان معه، فمرّ على جيفةٍ، فقال: «انهشا منها»، فقالا: يارسول الله، أو نهش الجيفة! فقال: «ماأصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه».

وفى حديث أبى هريرة: «من أكل لحمَ أخيه حيًا قُرِّب إليه لحمه فى الآخرة، فقيل له: كُلْه ميتا كما أكلتَه حيًّا، فيأكله ويضجّ ويكلح».

وروى أن رَجُلين كانا عند باب المسجد، فمرّ بهما رجل كان مخنّثا، فترك ذلك، فقالا: لقد بقىَ عنده منه شىء، فأقيمت الصلاة، فصلّيا مع الناس، وذلك يجول فى أنفسهما فأتيا عطاء بن أبى رباح، فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم.

وعن مجاهد: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾، الهُمَزَة: الطعّان فى الناس، واللُّمَزَة: النمّام.

وعن الحسن: والله للغيبة أسرعُ فى دين المؤمن من الأكلة فى الجسد.

---

(١) العلقة: القطعة من الدم.

بعضهم : أدركنا السّلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكفّ عن أعراض الناس .

ابن عباس : إذا أردتَ أن تذكُرَ عيوب صاحبك ، فاذكُر عيوبك . وهذا مشتقّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

أبو هريرة : يبصر أحدُهما القَذَى فى عين أخيه ، ولا يبصرُ الجذْع فى عين نفسه ! وهذا كالأول .

الحسن : يابن آدم ، إنّك إن قضيتَ حقيقة الإيمان فلا تَعِب النّاس بعيب هو فيك حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك ؛ فإذا فعلتَ ذلك كان شغلك فى خاصّة نفسك . وأحبّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا .

ويروى أنّ المسيح عليه السلام مرّ على جيفة كلْب ، فقال بعضُ التلامذة : ما أشدّ نتنه ! فقال المسيح : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه نهاهم عن غيبة الكلب ونبّههم إلى أنه لا ينبغى أن يُذكر من كلّ شىء إلّا أحسنُه .

وسمع علىّ بن الحسين عليه السلام رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إنّ لكلّ شىء إداماً ، وإدام كلاب الناس الغِيبة .

وفى خطبة حجّة الوداع : « أيها الناس ، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . إنّ الله حرّم الغِيبة كما حرّم المال والدم » .

عمر : مايمنعكم إذا رأيتم مَنْ يخرِق أعراض الناس أن تعرّبوا عليه ، أىْ تقبّحُوا ! قالوا : نخاف سفهه وشرّه ، قال : ذلك أدنى ألّا تكونوا شهداء .

أنس يرفعه : « مَنْ مات على الغيبة حُشِر يوم القيامة مزرقّة عيناه ، ينادى بالويل والندامة ، يعرف أهله ولا يعرفونه » .

وقال هشام بن عبد الملك فى بعض ولد الوليد بن عُقْبة :

أبلغْ أبا وهبٍ إذا مالقيتَـهُ ... بأنك شرّ الناسِ غَيْباً لصاحبِ

فتبدى له بِشْراً إذا مالقيتَـه ... وتلـمه بالغَيْبِ لسْعَ العقـاربِ

مرّ الشعبىّ بقومٍ يغتابونه فى المسجد ، وفيهم بعض أصدقائه ، فأخـذ بعُضادَتَىِ الباب ، وقال :

هنيئاً مريئاً غـير داء مُخَامرٍ ... لعزَّةَ مِنْ أعراضِنا مااستحلّتِ(1)

ومن كلام بعض الحكماء : أبصر الناس بالعَوار المِعوار ؛ هـذا مثل قول الشاعر :

وأجْرَأُ مَن رأيتُ بظهرِ غيبٍ ... عَلَى عيبِ الرجال ذَوُو العيوب

قيل لشبيب بن شَبّة بن عقال : مابال عبد الله بن الأهتم يغتابك وينتقصك ! قال : لأنه شقيق فى النّسب ، وجارى فى البلد ، وشريكى فى الصنعة .

دخل أبو العيناء على المتوكّل ، وعنده جلساؤه ، فقال له : يامحمّد كلّهم كانوا فى غيبتك منذ اليوم ، ولم يبق أحد لم يذُمك غيرى ، فقال :

إذا رضيتْ عَنّى كرامُ عشيرتِى ... فـلا زالَ غَضْبَاناً عَلَىّ لئامُها

قال بعضهم : بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديّين ، فلما كان وقت السَّحَر ، حرّكهم واحد ، فقال : إلى كَمْ هذا النوم عن أعراض الناس !

وقيل لشاعر وصله بعضُ الرؤساء ، وأنعم عليه : ماصنع بك فلان ؟ قال : ما وفَتْ نعمتُه بإساءته ؛ منعنى لذة الثّلْب ، وحلاوة الشكوى .

أعرابىّ : مَنْ عاب سَفِلَةً فقد رفعه ، ومن عاب شريفا فقد وضع نفسه .

---

(1) لكثير ، أمالى القالى ٢ : ١٠٨

نظر بعضُ السَّلف إلى رجل يغتاب رجلا ، وقال : ياهـذا ، إنك تملى على حافظيكَ كتابا ، فانظر ماذا تقول !

ابن عباس : ما الأسد الضارِى على فريسة بأسرعَ من الدنىء فى عِرْض السَّرِىّ .

بعضهم :

ومطروفة عيناه عن عَيْب نفسه   فإنْ لاح عيبٌ من أخيـه تبصّرا

وقالت رابعة العَدوِيّة : إذا نصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله ، فتشاغل بها عن ذكر مساوئ خلقه .

قال عبد الله بن عُروة بن الزبير لابنه : يا بنيّ ، عليك بالدّين ، فإنّ الدنيا ما بنتْ شيئا إلا هدَمـه الدين ، وإذا بَنى الدّين شيئا لم تستطع الدنيا هدمَـه ؛ ألا ترى علىّ بن أبى طالب وما يقول فيه خطباء بنى أمية من ذَمِّه وعيبه وغيبته ! والله لـكأنما يأخذون بناصيته إلى السماء ! ألا تراهم كيف يندُبون موتاهم ، ويرثيهم شعراؤهم ؛ والله لـكأنما يندبون جِيفَ الحُمُر !

ومن كلام بعض الصالحين : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذهب والفضة ، لأنك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجِدُ بك نفسُك لخيانيه فيه ؛ وقد استودعك عِرْضه وأنت تغتابه ، ولا تبالى .

كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه ، كلما اغتاب أحداً أن يتصدّق بدينار ، وكان إذا مدح أحدا قال : هو كما يشاء الله ، وإذا ذمه قال : هو كما يعلم الله .

الأحنف : فىّ خَلّتان : لا أغتاب جليسى إذا قام عَنّى ، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلونى.

قيل لرجل من العرب : مَن السيّد فيكم ؟ قال : الذى إذا أقبل هِبْناه ، وإذا أدبر اغتبْناه.

قيل الربيع بن خُثَيْم : ما نراك تعيب أحدا ! فقال : لست راضياً على نفسى ؛فأتفرّغ لذكر عيوب الناس ! ثم قال :

لنفسىَ أبكى لستُ أبكى لغيرها لنفسىَ فى نفسى عن النّاس شاغل

عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان : ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة ! ما سمعته يغتاب عدوًّا ، قال : هو والله أعقل من أن يسلّط على حسناته مايذهبُ بها .

سئل فُضَيل عن غِيبة الفاسق ، فقال : لا تشتغلْ بذكره ، ولا تعوّد لسانك الغِيبة، اشغَل لسانك بذكر الله ، وإياك ذكر الناس ؛ فإنّ ذكر الناس داء ، وذكر الله دواء .

بعض الشعراء :

ولستُ بذى نيرب فى الصديق خؤونَ العشيرة سبّابها(١)

ولا مَنْ إذا كان فى مجلس أضاع القبيلةَ واغتابها

ولكن أبجّلُ ساداتِها ولا أتعلّمُ ألقابها

وكان يقال : الغيبة فاكهة القرّاء .

وقيل لإسماعيل بن حمّاد بن أبى حنيفة : أى اللّحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ؛ هى والله أطيَب من لحوم الدجاج والدّراج(٢) — يعنى الغيبة .

ابن المغيرة : لا تذكر الميّت بسوء ؛ فتكون الأرض أكتَم عليه منك .

وكان عبد الملك بن صالح الهاشمىّ إذا ذُكِر عنده الميّت بسوء ، يقول : كُفّوا عن أسارى الثَّرى .

وفى الأثر : سامعُ الغِيبة أحد المغتابَيْن.

(١) النيرب : العداوة .

(٢) الدراج : طائر على خلقة القطا .

أبو نواس :

ماحطّك الواشونَ من رُتبَةٍ   عندى وما ضرّك مغتـابُ
كأنهم أثنوْا ولم يعلَمُوا   عليك عندِى بالّذى عابوا

الحسن : ذمُّ الرجل فى السرّ ، مدحٌ له فى العلانية .

علىّ عليه السلام : الغِيبة جَهْد العاجز ؛ أخذه المتنبى فقال :

وأكبِر نفسى عن جزاء بغيبـــــةٍ   وكلّ اغتيابٍ جُهْدُ مَنْ ماله جُهْدُ(١)

بلغ الحسن أنّ رجلا اغتابه ، فأهدى إليه طبقا من رُطَب ، فجاءه الرجل معتذرا ، وقال : أصلحك الله ! اغتبتُك فأهديت لى ! قال : إنك أهديت إلىّ حسناتِك ، فأردت أن أكافئك .

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله ، فقال له : إن الأسوارىّ لم يزلْ أمس يذكرك ويقول: عمرو الضّال ، فقال له : ياهذا ؛ والله مارعيتَ حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا رعيتَ حقّى حين بلّغتَ عن أخى ما أكرهه . أعلِمه أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ؛ والله يحكم بيننا .

***

[حكم الغيبة فى الدين]

واعلم أنّ العلماء ذكروا فى حدّ الغِيبة : أنْ تذكُرَ أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرت نقصانا فى بدنه ؛ مثل أن تقول : الأقرع ، أو الأعور ؛ أو فى نَسبه نحو أن تقول : ابن النبطىّ وابن الإسكاف أو الزّبال أو الحائك أو خُلُقه ، نحو سيّء الخلُق أو بخيل

---

(١) ١ : ٣٧٦ .

أو متكبّر؛ أو فى أفعاله الدنيئة نحو قولك: كذّاب وظالم ومتهاون بالصلاة؛ أو الدنيوية نحو قولك: قليل الأدب متهاون بالنّاس، كثير الكلام، كثير الأكل؛ أو فى ثوبه كقولك: وسخ الثياب، كبير العمامة، طويل الأذيال.

وقد قال قوم: لا غيبةَ فى أمور الدين، لأنّ المغتاب إنما ذمّ ماذمّهُ الله تعالى؛ واحتجّوا بما روى أنه ذُكِرَ لرسول الله صلى الله عليه وآله امرأةٌ وكثرة صومها وصلاتها، ولكنها تؤذى جارتَها، فقال: «هى فى النار»؛ ولم ينكِر عليهم غيبتَهم إياها.

ورُوِى أنّ امرأةً ذُكِرت عنده عليه السلام بأنها بخيلة، فقال: «فما خيرها إذن»!

وأكثر العلماء على أنّ الغيبة فى أمور الدين محرّمة أيضا، وادّعوا الإجماع على أنّ من ذَكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب؛ سواء أكان فى الدّين أو فى غيره. قالوا: والمخالف مسبوق بهذا الإجماع، وقالوا: وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «هل تدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرُك أخاك بما يكرهه»، فقائل قال: أرأيت يارسول الله، إن كان ذلك فى أخى؟ قال: «إن كان فيه فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فقد بهتّه»(1).

قالوا: وَرَوى مُعاذ بن جبل أنّ رجلا ذُكِر عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال قوم: ماأعجزَه! فقال عليه السلام: «اغتبتم صاحبَكم»، فقالوا: قلنا مافيه، فقال: «إن قلتم ماليس فيه فقد بهتّموه».

قالوا: وما احتجّ به الزاعمون أن لا غيبة فى الدّين؛ ليس بحجّة، لأن الصحابة إنما ذكرتْ ذلك فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسؤال؛ ولم يكن غرضُها التنقّص.

واعلم أنّ الغيبة ليست مقصورة على اللّسان فقط، بل كلّ ماعرّفت به صاحبَك

---

(1) بهته، أى قذفه بالباطل.

نقصَ أخيك فهو غيبة ؛ فقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وبالمحاكاة ، نحو أنْ تمشي خلف الأعرج متعارجا ؛ وبالكتاب ؛ فإنّ القلم أحدُ اللسانين .

وإذا ذكر المصنف شخصا في تصنيفه ، وهجّن كلامه ، فهو غيبة . فأما قوله : « قال قوم كذا » ، فليس بغيبة ؛ لأنه لم يعيّن شخصا بعينه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما بالُ أقوام يقولون كذا ! » ، فكان لا يعيّن ، ويكون مقصودُه واحداً بعينه .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القُرّاء المرائين ؛ وذلك نحو أن يُذْكر عندهم إنسان ، فيقول قائلهم : الحمد لله الذي لم يبلنا بدخول أبواب السلطان ، والتبذّل في طلب الحُطَام ؛ وقصده أن يفهم الغير عيبَ ذلك الشخص ؛ فتخرج الغيبة في مخرج الحمد والشكر لله تعالى ، فيحصل من ذلك غيبة المسلم ، ويحصل منه الرياء ، وإظهار التعفف عن الغيبة وهو واقع فيها ؛ وكذلك يقول : لقد ساءني مايذكر به فلان ؛ نسأل الله أن يعصمه ؛ ويكون كاذبا في دعوى أنه ساءه ، وفي إظهار الدعاء له ؛ بل لو قصد الدعاء له لأخفاه في خلوة عقب صلواته ، ولو كان قد ساءه لساءه أيضا إظهار مايكرهه ذلك الإنسان .

* * *

واعلم أنّ الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجّب كالغيبة ؛ بل أشدّ ، لأنه إنما يظهر التعجّب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة ، فيندفع فيها حكاية ؛ يستخرج الغيبة منه بذلك ، وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب ، فما ظنّك بالمجتهد في حصول الغيبة ، والباعث على الاستزادة منها ! وقد روى أن أبا بكر وعمر ذكرا إنسانا عند رسول الله ، فقال أحدهما : إنه لنؤوم ؛ ثم أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله خبزاً قفاراً ، فطلبا منه أدْماً[1] ، فقال : قد ائتدمتما ، قالا : مانعلمه ، قال : « بلى إنما أكلتما من لحم صاحبكما » ، فجمعهما في الإثم ، وقد

---

(١) الخبز القفار : ما كان بغير أدم ، والأدم : ما يؤتدم به .

كان أحدهما ثالثا والآخر مستمعا ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك ، فإن قال بلسانه : اسكت وهو مريدٌ للغيبة بقلبه ، فذلك نفاق ، ولا يخرجه عن الإثم إلّا أن يكرهه بقلبه ، ولا يكفي أن يشير باليد ، أي اكفف ، أو بالحاجب والعين ، فإنّ ذلك استحقار المذكور ، بل ينبغي أن يذبّ عنه صريحاً ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أُذِلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره ، أذلّه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » .

* * *

[فصل في الأسباب الباعثة على الغيبة]

واعلم أنّ الأسباب الباعثة على الغيبة على أمور :

منها شفاء الغيظ ، وذلك أن يجري من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر ، فإذا هاج غضبه تشفّى بذكر مساوئه ، وسبق إليها لسانه بالطبع إن لم يكن هناك دين وازع ، وقد يمنع تشفّي الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ، فيصير حقداً ثابتاً ، فيكون سببا دائما لذكر المساوئ .

ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام ، فإنّهم إذا اجتمعوا ربّما أخذوا يتفكّهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه ، ونفرُوا عنه فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظنّ أنه مجاملة في الصحبة . وقد يغضب رفقاؤه من أمرٍ فيحتاج إلى أنْ يغضب لغضبهم ، إظهاراً للمساهمة في السرّاء والضرّاء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوئ .

ومنها أن يستشعر من إنسان أنه سيذمّه ويطول لسانه فيه ، ويقبّح حاله عند بعض الرؤساء ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح حاله ، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه . وقد يبتدئ بذكر بعض مافيه صادقا ليكذب عليه بعد ذلك ، فيروج كذبه بالصدق الأول .

ومنها أن ينسب إلى أمر فيريد التبرّؤ منه ، فيذكر الذى فعله ، وكان من حقّه أن يبرّىء نفسه ، ولا يذكر الذى فعله ، لكنه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه ، وكيلا يكون تبرّؤا مبتورا ، وربما يعتذر بأن يقول : فلان فعله ، وكنت شريكا فى بعض الأمر ليبرّئ نفسه بعض البراءة .

ومنها المباهاة وحبّ الرياسة ، مثل أن يقول : كلامُ فلان ركيك ، ومعرفته بالفنّ الفلانيّ ناقصة ، وغرضه إظهار فضله عليه .

ومنها الحسد وإرادة إسقاط قدر مَن يمدحه الناس بذكر مساوئه ، لأنه يشقّ عليه ثناء النّاس عليه ، ولا يجدُ سبيلا إلى سدّ باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه .

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضّحك والسخرية ، فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة .

* * *

واعلم أن الذى يقوّى فى نفسى أنّ الغيبة لا تكون محرّمة إلا إذا كانت على سبيل القصد إلى تنقّص الإنسان فقط وغضّ قدره ، فأمّا إذا خرجت مخرجاً آخر ، فليست بحرام ، كمن يظلمه القاضى ويأخذ الرّشوة على إسقاط حقوقه ، فإن له أن يذكر حالَه للسلطان متظلّما من حَيْف الحاكم عليه ، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلا بذلك ، فقد قال صلى الله عليه وآله : « مَطْل الغنيّ ظلم » ، وقال : « ليّ(1) الواجد يحلّ عقوبته وعِرْضه » .

(١) يقال : لى عن الأمر ، إذا تثاقل .

وكذلك النهي عن المنكر واجب ، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغيرة على تغييره وردّ القاضي إلى منهج الصلاح فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكب للمنكر، ومَنْ ذكر الإنسان بلقب مشهور فعرف عن عيبه ، كالأعرج والأعمش المحدّثين ، لم يكن مغتابا إذا لم يقصد الغضّ والنقص .

والصحيح أنّ المجاهر بالفسق لا غيبة له ، كصاحب الماخور والمخنّث : ومن يدعو الناس إلى نفسه ابنة ، وكالمشّار والمستخرج بالضرب ، فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به ، وربما تفاخروا بذلك ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه ، فلا غيبة له » ، وقال عمر : ليس لفاجر حرمة ، وأراد المجاهرَ بالفسق ، دون المستتر .

وقال الصّلت بن طريف : قلت للحسن رحمه الله : الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب ، هل ذِكري له بما فيه غيبة ؟ فقال : لا ، ولا كرامة له !

* * *

[طريق التوبة من الغيبة]

واعلم أنّ التوبة من الغِيبة تكفّر عقابها ، والتوبة منها هي الندم عليها ، والعزم على ألّا يعود ، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، فلا حاجة إلى الاستحلال منه ، بل لا يجوز إعلامه بذلك ، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله ، لأنه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثمَ ذلك الإيلام ، وفي إعلامه تضييق صَدْرِه ، وإدخال مشقّة عليه، وإن كان الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، وجَب عليه أن يستحلّه ويستوهبَه ، فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختصّ بالباريء سبحانه من ذلك الوقت ، وبقي ما يختصّ بذلك الميّت لا يسقط حتى يؤخذ العِوض له من المذنب يوم القصاص .

الأصل

ومن كلام له عليه السلام

أيُّها النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أقاوِيلَ الرِّجالِ . أمَا إنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي ، وَتُخْطِىءُ السِّهامُ ، وَيُحِيلُ الكَلامُ ، وَباطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ .

أمَا إنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ إلَّا أرْبَعُ أصابِعَ .

***

فسُئِل عليه السلام عن معنى قوله هذا ، فَجَمَعَ أصابعَه ووضعها بَيْنَ أُذُنه وعينه ثمَّ قال :

البَاطِلُ أنْ تَقُولَ : سَمِعْتُ ، وَالحَقُّ أنْ تَقُولَ : رَأيْتُ .

***

الشرح :

هذا الكلام هو نَهْيٌ عن التسرّع إلى التصديق بما يقال من العيب والقدْح في حقّ الإنسان المستور الظاهر ، المشتهر بالصلاح والخير ، وهو خلاصة قوله سبحانه: ﴿إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ﴾[1] . ثمّ ضرب عليه السلام لذلك مثلا ، فقال : قد يرمى الرامى فلا يصيب الغرض ، وكذلك قد يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً ، وربّما كان لغرض فاسدٍ أو سمعه ممّن له غرض

---

(١) سورة الحجرات ٦ .

فاسدا ، كالعدوّ والحسود ، وقد يشتبه الأمر فيُظنّ المعروف منكراً ، فيعجَل الإنسان بقول لا يتحققه ، كمن يرى غلام زيد يحمل فى إناء مستورٍ مغطًّى خلًّا ، فيظنه خمراً .

قال عليه السلام : « ويُحيل الكلام » ، أى يكون باطلا ، أحال الرجلُ ، فى منطقه ، إذا تكلّم الذى لا حقيقة له ، ومن الناس من يرويه : « ويحيك الكلام » بالكاف ، من قولك : ما حاك فيه السيف ، ويجوز « أحاك » بالهمزة ، أى ما أثّر ، يعنى أنّ القول يؤثّر فى العِرْض وإن كان باطلا ، والرواية الأولى أشهر وأظهر .

ويبور : يفسد . وقوله : « وباطل ذلك يبور » ، مثل قولهم : للباطل جولة ، وللحق دولة ، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] .

والإصبع مؤنثة ، ولذلك ، قال : « أربع أصابع » بحذف الهاء .

فإن قلت : كيف يقول عليه السلام : الباطل مايُسمع والحق مايُرى ، وأكثر المعلومات إنما هى من طريق السماع ، كعلمنا الآن بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته التى لم نرها ، وإنما سمعناها !

قلت : ليس كلامه فى المتواتر من الأخبار ، وإنما كلامه فى الأقوال الشاذّة الواردة من طريق الآحاد ، التى تتضمّن القَدْح فيمن قد غلَبت نزاهته ، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بالمشكوك .

(١) سورة الإسراء ٨١ .

(١٤٢)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ مِنَ الْحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ ،مادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ : مَاأَجْوَدَ يَدَهُ ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ .

فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا ، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشرح:

هذا الكلام يتضمن ذمّ من يُخرج ماله إلى الفتيان والأقران والشعراء ، ونحوهم ، ويبتغي به المدحَ والسمعة ، ويعدل عن إخراجه في وجوه البر وابتغاء الثواب ، قال عليه السلام : ليس له من الحظّ إلا مَحْمَدة اللئام وثناء الأشرار ، وقولهم : ما أجود يده ! أي ما أسمحه ! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله – يعني الصدقات وما يجري مجراها من صلة الرّحم والضيافة وفكّ الأسير والعاني ، وهو الأسير بعينه ، وإنما اختلف اللفظ .

والغارم: مَنْ عليه الديون. ويقال: صَبَرَ فلان نفسَه على كذا مخففا، أى حبسها، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ (١).

وقال عنترة يذكر حرباً:

فصــــبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً ترسُو إذا نفس الجبان تَطَلّعُ (٢)

وفى الحديث النبوىّ فى رجل أمسك رجلا، وقتله آخر فقال عليه السلام: « اقتلُوا القاتل واصبِرُوا الصابر »؛ أى احبسُوا الذى حبسه للقتل إلى أن يموت.

وقوله: « فإن فَوْزاً »: أفصح من أن يقول: « فإنّ الفوز » أو فإنّ فى الفوز كما قال الشاعر:

إنّ شِواءً ونشوةً وخَبَبَ البازل الأمونِ (٣)

من لذّةِ العَيْش، والفتى للدّهر، والدّهرُ ذو شؤون (٤)

ولم يقل: « إن الشواء والنّشوة »، والسرّ فى هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصا من جملة أشخاص، داخلة تحت نوع واحد؛ ويقول: إنّ واحدا منها أيّها كان فهو من لذّة العيش؛ وإن لم يحصل له كلّ أشخاص ذلك النوع، ومراده تقرير فضيلة هذه الخصال فى النفوس، أى متى حصل للإنسان فوزٌ ما بها؛ فقد حصل له الشرف، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة « الفوز » بالألف واللام إذا قصد بها الجنسية إلّا أنه قد يسبق إلى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية، فأتى بلفظةٍ لا توهِم الاستغراق؛ وهى اللفظة المنكرة؛ وهذا دقيق، وهو من لباب علم البيان.

---

(١) سورة الكهف ٢٨.

(٢) اللسان ٦ : ١٠٧، يقول: حبست نفساً صابرة.

(٣) لسلم بن ربيعة، ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٣ : ١١٣٧. النشوة: السكر. والخبب: ضرب من السير. والبازل: التى استكمل لها تسع سنين. والأمون: الموثقة الخلق.

(٤) الحماسة: « ذو فنون ».

(١٤٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام فى الاستسقاء :

أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُكُمْ ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا ، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا .

إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (١) .

فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ !

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ .

---

(١) سورة نوح ١٠ ـ ١٢ .

اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعَبَةُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا ؛ وَلَا تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا .

اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ ؛ وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً ، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ ، نَافِعَةَ الْحَيَا ؛ كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى ؛ تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ ؛ وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ ؛ إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ .

* * *

الشرح :

تظلكم : تعلو عليكم ، وقد أظلّتنى الشجرة واستظلت بها . والزُّلفة : القربة ، يقول إنّ السماء والأرض إذا جاءتا بمنافعكم ـ أمّا السماء فبالمطر، وأمّا الأرض فبالنّبات ـ فإنهما لم تأتيا بذلك تقرُّبا إليكم ، ولا رحمةً لكم ، ولكنّهما أُمِرتا بنفعكم فامتثلتا الأمر ؛ لأنه أمرُ مَنْ تجب طاعته، ولو أُمِرتا بغير ذلك لفعلتاه . والكلام مجاز واستعارة ، لأنّ الجماد لا يؤمر ؛ والمعنى أنّ الكل مسخّر تحت القدرة الإلهية ،ومرادُه تمهيدُ قاعدةِ الاستسقاء، كأنه يقول : إذا كانت السماء والأرض أيام الخصب والمطر والنّبات لم يكن ما كان منهما محبّة لكم ، ولا رجاء منفعةٍ منكم ؛ بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرهما له ،

فكذلك السماء والأرض أيام الجذب وانقطاع المطر وعدم الكلأ ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم ، ولا استدفاعَ ضررٍ يُخاف منكم ، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرهما له ، وإذا كان كذلك فبالحرى ألا نأمل السماء ولا الأرض ، وأن نجعل آمالنا معلّقة بالملك الحق المدبّر لها ، وأن نسترحمه وندعوه ونستغفره ، لا كما كانت العرب في الجاهلية يقولون : مُطِرنا بنوء كذا ، وقد سَخِط النَّوء الفلانيّ على بني فلان فأمحلوا .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى يبتلى عبادَه عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم ، وحبس مطر السماء عنهم ؛ وهذا الكلام مطابق القواعد الكلامية ، لأنّ أصحابنا يذهبون إلى أنّ الغلاء قد يكون عقوبة على ذنب ، وقد يكون لطفا للمكلّفين في الواجبات العقليّة وهو معنى قوله : « ليتوب تائب ... » ، إلى آخر الكلمات . ويُقلع : يكفّ ويمسك .

ثم ذكر أنّ الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً في دُرور الرزق ، واستدلّ عليه بالآية التي أمر نوح عليه السلام فيها قومه بالاستغفار ؛ يعني التوبة عن الذنوب ، وقدم إليهم الموعِد بما هو واقع في نفوسهم ، وأحبّ إليهم من الأمور الآجلة ، فمنّاهم الفوائد العاجلة، ترغيباً في الإيمان وبركاته ، والطاعة ونتائجها، كما قال سبحانه للمسلمين : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[1] ، فوعدهم بمحبوب الأنفس الذي يرونه في العاجل عيانا ونقداً لا جزاء ونسيئة . وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[3]

---

(١) سورة الصف ١٣ .
(٢) سورة الأعراف ٩٦ .
(٣) سورة المائدة ٦٦ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾(١).

***

[الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب]

وكلّ ما فى التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدّنيا ومضارّها ، أما منافعها فمثل أنْ يقول : إن أطعتم باركت فيكم ، وكثّرت من أولادكم وأطلتُ أعماركم، وأوسعت أرزاقكم، واستبقيتُ اتّصال نسلكم ، ونصرتكم على أعدائكم ، وإن عصيتم وخالفتم اخترمتُكم ونقصتُ من آجالكم ، وشتّتُّ شملكم ، ورميتكم بالجوع والمَحْلِ ، وأذللت أولادكم، وأشمتّ بكم أعداءكم ، ونصرت عليكم خصومكم ، وشرّدتكم فى البلاد ، وابتليتكم بالمرض والذلّ ، ونحو ذلك .

ولم يأت فى التوراة وعد ووعيد بأمرٍ يتعلّق بما بعد الموت. وأمّا المسيح عليه السلام، فإنّه صرح بالقيامة وبعث الأبدان ؛ ولكن جعل العقاب روحانيًّا ؛ وكذلك الثواب ؛ أما العقاب فالوحشة والفزع وتخيّل الظلمة وخبث النّفس وكدرها وخوف شديد ، وأمّا الثواب فما زاد على أن قال : إنهم يكونون كالملائكة ؛ وربما قال : يصعدون إلى ملكوت السماء، وربما قال أصحابه وعلماء ملّته: الضوء واللّذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم . هذا هو قول المحقّقين منهم ؛ وقد أثبت بعضُهم ناراً حقيقيّة ، لأن لفظة « النار » وردت فى الإنجيل ، فقال محققوهم : نار قلبيّة، أى نفسيّة روحانية ، وقال الأقلّون: نار كهذه النار .ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدنىّ ، فقال: الرّعدة وصَرِير الأسنان؛ فأمّا الجنّة بمعنى الأكل والشرب والجماع ؛ فإنه لم يقل منهم قائل به أصلًا ، والإنجيل صرّح بانتفاء ذلك فى القيامة تصريحًا لا يبقى بعده ريب لمرتاب ؛ وجاء خاتم الأنبياء محمد

---

(١) سورة الجن ١٦ .

صلى الله عليه وسلم فأثبت المعادَ على وجه محقّق كامل ؛ أكمل مما ذكره الأوّلان ، فقال : إنّ البدن والنفس معاً مبعوثان ؛ ولكلٍّ منهما حظّ في الثواب والعقاب .

وقد شرح الرئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع في رسالة له في المعاد ، تعرف " بالرسالة الأضحوية " شرحا جيدا،فقال : إنّ الشّريعة المحمّدية أثبتت في القيامة ردّ النّفس إلى البدن ، وجعلت للمثاب والمعاقَب ثواباً وعقابا بحسب البدن والنفس جميعا ؛ فكان المثاب الذّات بدنيّة من حور عين وولدان مخلّدين وفاكهة يشتهون ، وكأس لايصدّعون عنها ولا ينزفون،وجنّات تجري من تحتها الأنهار؛من لبنٍ وعسل وخمر وماء زلال ، وسرُر وأرائك وخيام وقباب ، فَرْشُها من سُندس وإستبرق؛وماجرى مجرى ذلك . ولذّات نفسانيّة من السرور ومشاهدة الملكوت والأمنِ من العذاب والعلم اليقينيّ بدوام مامْ فيه ، وأنّه لايتعقّبه عدم ولا زوال، والخلوّ عن الأحزان والمخاوف والمعاقَب عقاب بدنيّ ؛ وهو المقامع من الحديد ، والسلاسل ، والحريق والحميم والغسلين والضّرائع والجلود التي كلّما نضجت بدّلوا جلوداً غيرها ، وعقاب نفسانيّ من اللعن والخِزْي والخجل والنّدم والخوف الدائم واليأس من الفَرَج ، والعلم اليقيني بدوام الأحوال السيّئة التي هم عليها .

قال : فوفّت الشريعة الحكيمة حقّها من الوعد الكامل ، والوعيد الكامل؛وبهما ينتظم الأمر ، وتقوم الملّة ؛ فأمّا النصارى وماذهبوا إليه من أمر بعث الأبدان، ثم خلوّها في الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح ، فهو أركّ ماذهب إليه أرباب الشرائع وأسخفه ، وذلك أنّه إن كان السبب في البعث ، هو أنّ الإنسان هو البدن ،أو أنّ البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة ، فوجب أن يبعث ، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك ، فإنه يوجب أن يثاب البدن،ويعاقب بالثواب والعقاب البدنيّ المفهوم عند العالم ، وإن كان الثواب والعقاب روحانيا ؛ فما الغرض في بعث الجسد ؟ ثم ما ذلك

الثواب والعقاب الروحانيان ! وكيف تصوّر العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا ! كلّا بل لم تصورْ لهم الشريعة النّصرانية من ذلك شيئاً ، غير أنّهم يكونون فى الآخرة كالملائكة ، وهذا لا يفى بالتّرغيب التام ، ولا ماذكروه من العقاب الروحانىّ ـ وهو الظلمة وخبث النفس ـ كافٍ فى الترهيب . والذى جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه .

انقضى كلام هذا الحكيم .

* * *

فأمّا كون الاستغفار سبباً لنزول القطْر ودرور الرزق ، فإنّ الآية بصريحها ناطقة به ، لأنّها أمرٌ وجوابه ، قال : ﴿استغفروا ربّكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا﴾ ، كما تقول : قم أكرمْك ، أى إن قمت أكرمتك . وعن عمر أنّه خرج يستسقى ، فازاد على الاستغفار ، فقيل له : مارأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح[1] السماء التى يُستنزل بها المطر .

وعن الحسن أنّ رجلا شكا إليه الجدْب ، فقال : استغفر الله ، فشكا آخرُ إليه الفقر ، وآخر قلّة النسل ، وآخر قلّة ريْع أرضه ، فأمرهم كلّهم بالاستغفار ، فقال له الربيع ابن صبيح : رجال أتوك يشكون أبوابا ، ويشكون أنواعا فأمرتهم كلّهم بالاستغفار ، فتلا له الآية .

قوله : « استقبل توبته » أى استأنفها وجدّدها . واستقال خطيئته : طلب الإقالة منها والرحمة . وبادر منيّته : سابق الموت قبل أن يدهمه .

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٦ . قال : « المجاديح ، واحدها مجدح ، والياء زائدة للإشباع ، والقياس أن يكون واحدها « مجداح » ؛ فأما « مجدح » فجمعه مجادح ، والمجدح : نجم من النجوم ؛ قيل : هو الدبران ، وقيل : هو ثلاثة كواكب كالأثافى تشبيها بالمجدح الذى له ثلاث شعب ؛ وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مشبها بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون ، لا قولا بالأنواء ، وجاء بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد الأنواء جميعها التى يزعمون أن من شأنها المطر » .

قوله عليه السلام : « لا تُهلِكْنا بالسنين » جمع : سَنَة ، وهى الجدْب والمحْل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾[1] ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله يدعو على المشركين : « اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف » ، والسَّنة لفظ محذوف منه حرف ، قيل إنه الهاء ، وقيل الواو ، فمن قال : المحذوف هاء ، قال : أصله «سَنْهة» مثل جَبْهة ، لأنهم قالوا : نخلة سَنْهاء ، أى تحمل سَنَة ولا تحمل أخرى ، وقال بعض الأنصار :

فليست بسنهاء ولا رُجَبِيَّــــةٍ ولكنْ عرايا فى السنين الجوائحِ[2]

ومن قال أصلها الواو ، احتجّ بقولهم : أسنَى القومُ يُسنون إسناء ، إذا لبثوا فى المواضع سَنَة ، فأمّا التصغير فلا يدلّ على أحد المذهبين بعينه ، لأنه يجوز سُنَيَّة وسُنَيْهة ، والأكثر فى جمعها بالواو والنون « سِنون » بكسر السين كما فى هذه الخطبة ، وبعضهم يقول : « سُنُون » بالضم .

والمضايق الوَعْرة ، بالتسكين ، ولا يجوز التحريك ، وقد وَعُر هذا الشيء بالضم وُعورة ، وكذلك توعّر ، أى صار وَعْرا ، واستوعرتُ الشيء : استصعبته .

وأجاءتنا : ألجأتنا ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[3] .

والمقاحط المجدبة : السِّنون المحلة ، جمع مَقْحَطة .

وتلاحمت : اتصلت .

والواجم : الذى قد اشتدّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام ، والماضى « وَجَم » بالفتح يجِم وُجُوما .

قوله : « ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقايسنا بأعمالنا » ، أى لا تجعل جوابَ دعائنا لك ماتقتضيه ذنوبنا ؛ كأنه يجعله كالمخاطِب لهم ، والمجيب عمّا سألوه إياه ، كما يفاوض الواحدُ

---

(١) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٢) اللسان (سنه) ، ونسبه إلى سويد بن الصامت الأنصارى .

(٣) سورة مريم ٢٣ .

منّا صاحبَه ويستعطفه ، فقد يجيبه ويخاطبه بما يقتضيه ذنبُه إذا اشتدّت موجدته عليه ونحوه .

ولا تقايسنا بأعمالنا ، قِسْتُ الشيء بالشيء إذا حذوته ومثّلته به ، أي لا تجعل ما تجيبنا به مقايساً ومماثلًا لأعمالنا السيّئة .

قوله : « سُقْياً ناقعة » هي « فُعْلَى » مؤنثة غير مصروفة .

والحيا : المطر . وناقعة مروية : مسكّنة للعطش ، نَقَعَ الماء العطش نَقْعاً ونُقوعاً سكّنه ، وفي المثل : « الرَّشْفُ أنقع » أي أنّ الشراب الذي يُرْشَفُ قليلًا قليلًا أنجع وأقطع للعطش ، وإن كان فيه بطء .

وكثيرة المجتنى ، أي كثيرة الكلأ ، والكلأ : الذي يجتنى ويرعى . والقِيعان : جمع قاعٍ ، وهو الفَلَاة .

والبُطنان : جمع بَطْن ، وهو الغامض من الأرض ، مثل ظَهْر وظُهْران وعَبْد وعُبْدان .

(١٤٤)

الأصل

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ ؛ لِئَلاَّ تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ .

أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً ؛ لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ : أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً ، وَالْعِقَابُ بَوَاءً .

أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا ، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا ؛ أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ ؛ بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى ، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى .

إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ، غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ .

***

الشرح :

أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ١٦٥ .

(٢) سورة الإسراء ١٥ .

فإن قلت : فهـذا يناقضُ مذهبَ المعتزلة فى قولهم بالواجبات عقلا ، ولو لم تبعث الرسل !

قلت : صحّة مذهبهم تقتضى أن تُحمـل عمومُ الألفاظ على أنّ المراد بها الخصوص، فيكون التأويل : لئلا يكون للناس على الله حجّة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه ولا قبحه ، كالشرعيّات ، وكذلك : «وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولا» على مالم يكن العقل دليلًا عليه حتى نبعثَ رسولا .

الإعذار : تقديم العذر . ثم قال : إن الله تعالى كشف الخلق بما تعبّدهم به من الشرعيّات على ألسنة الأنبياء، ولم يكن أمرُهم خافيا عنه ، فيحتاج إلى أن يكشفَهم بذلك، ولكنّه أراد ابتلاءهم واختبارهم ، ليعلم أيُّهم أحسن عملا ، فيعاقب المسيء ، ويثيب المحسن .

فإن قلت : الإشكال قائم ، لأنّه إذا كان يعلم أيُّهم محسن ، وأيُّهم مسيء ، فما فائدة الابتلاء ؟ وهل هو إلا محض العبث !

قلت : فائدة الابتلاء إيصال نفعٍ إلى زيد لم يكن ليصحّ إيصاله إليه إلا بواسطة هذا الابتلاء ، وهو مايقوله أصحابنا : إنّ الابتلاء بالثّواب قبيح ، والله تعالى يستحيل أن يفعل القبيح .

قوله : « وللعقاب بَوَاء » أى مكافأة ، قالت ليلى الأخيليّة :

فإن تكنِ القتلى بَوَاءً فإنّكم ... فتًى ماقتلتم آل عوف بن عامر[1]

وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضا ، إذا قتلتَه به ، وقد باء الرجل بصاحبه، أى قُتل به

---

(١) فى مقتل توبة بن الحمير ، اللسان ١ : ٢٩ .

وفى المثل : « باءت عَرَارٌ بكَحْلَ »[1] وهما بقرتان ؛ قتلت إحداهما بالأخرى. وقال مهلهل لبُجير لما قتل : « بُؤْ بشِسْعِ نعل كليب » .

قوله عليه السلام « أين الذين زعموا » ، هذا الكلام كناية وإشارة إلى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل ؛ فنهم مَنْ كان يدّعى له أنه أفرَض ، ومنهم من كان يدعى له أنه أقرأ ، ومنهم كان يدّعى له أنه أعلم بالحلال والحرام . هذا مع تسليم هؤلاء له أنه عليه السلام أقضى الأمة ، وأنّ القضاء يحتاج إلى كلّ هذه الفضائل ، وكلّ واحدةٍ منها لا تحتاج إلى غيرها ، فهو إذنْ أجمع للفقه وأكثرهم احتواء عليه ، إلّا أنّه عليه السلام لم يرض بذلك ولم يصدق الخبر الذى قيل : « أفرَضكم فلان » إلى آخره فقال : إنّه كذب وافتراء حمل قوما على وضعه الحسدُ والبغي والمنافسة لهذا الحيّ من بنى هاشم ؛ أن رفعهم الله على غيرهم ، واختصّهم دون مَنْ سواهم .

وأنْ هاهنا للتعليل ، أى « لأنْ » فحذف اللام التى هى أداة التعليل على الحقيقة، قال سبحانه : ﴿ بِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] : وقال بعض النحاة لبعض الفقهاء الزاعين أن لا حاجة للفقه إلى النحو : ماتقول لرجل قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ فقال : لايقع إلّا بالدخول ، فقال : فإن فتح الهمزة ؟ قال: كذلك، فعرّفه أنّ العربيّة نافعة فى الفقه ، وأنّ الطلاق منجز لا معلّق ، إن كان مرادُه تعليل الطلاق بوقوع الدخول لاشتراطه به .

ثم قال : « بنا يُستعطى الهُدَى ، أى يطلب أن يعطَى ، وكذلك « يستجلى » أى يطلَبُ جلاؤه .

ثم قال : إنّ الأئمة من قريش ... إلى آخر الفصل .

* * *

(١) المثل فى اللسان ١٤ : ١٠٣ ، قال : ومن أمثالهم : « باءت عرار بكحل » ؛ إذا قتل القاتل بمقتوله ؛ يقال : كانتا بقرتين فى بنى إسرائيل ، قتلت إحداهما بالأخرى . ونقل عن ابن برى : كحل بمنزلة « دعد » يصرف ولا ينصرف .

(٢) سورة المائدة ٨٠ .

[اختلاف الفرق الإسلامية فى كون الأئمة من قريش]

وقد[1] اختلف الناس فى اشتراط النسب فى الإمامة ، فقال قوم من قدماء أصحابنا : إنّ النسب ليس بشرط فيها أصلاً ، وإنها تصلح فى القرشيّ وغير القرشيّ إذا كان فاضلا مستجمعاً للشرائط المعتبرة ، واجتمعت الكلمة عليه ، وهو قول الخوارج .

وقال أكثرُ أصحابنا وأكثرُ النّاس : إنّ النسب شرط فيها ، وأنّها لا تصلح إلا فى العرب خاصّة ؛ ومن العرب فى قريش خاصة . وقال أكثرُ أصحابنا : معنى قول النبى صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قريش » إنّ القرشيّة شرط إذا وُجِد فى قريش من يصلح للإمامة ؛ فإن لم يكن فيها مَنْ يصلح ، فليست القرشية شرطاً فيها .

وقال بعضُ أصحابنا : معنى الخبر أنه لا تخلو قريش أبداً ممنّ يصلح للإمامة ، فأوجبوا بهذا الخبر وجود مَنْ يصلُح من قريش لها فى كلّ عصر وزمان .

وقال معظم الزّيدية : إنها فى الفاطميّين خاصة من الطالبيّين ، لا تصلُح فى غير البطنَيْن ، ولا تَصحّ إلاّ بشرط أن يقومَ بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس . وبعض الزيدّية يجيز الإمامة فى غير الفاطميّين من ولد علىّ عليه السلام ؛ وهو من أقوالهم الشاذّة .

وأما الراوندية فإنّهم خَصّصُوها بالعبّاس رحمه الله وولده من بين بطون قريش كلها ؛ وهذا القول هو الّذِى ظهر فى أيام المنصور والمهدىّ ، وأما الإمامية فإنهم جعلوها سارِيةً فى ولد الحسين عليه السلام فى أشخاص مخصوصين ، ولا تصلح عندهم لغيرهم .

وجعلها الكيْسانية فى محمد بن الحنفيّة وولده ، ومنهم مَنْ نقلها منه إلى ولد غيره .

فإن قلت : إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم ، فما قولك فى هذا

---

(١) كذا فى ا ، ب وفى د : « قد » .

الـكلام وهو تصريح بأنّ الإمامة لا تصلح من قريش إلا فى بنى هاشم خاصّة ، وليس ذلك بمذهب للمعتزلة ؛ لا متقدّميهم ولا متأخّريهم !

قلت : هذا الموضع مشكل ، ولى فيه نظر ؛ وإن صحّ أن عليا عليه السلام قاله ، قلتُ كما قال ، لأنه ثبت عندى أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال : « إنه مع الحق ، وإنّ الحق يدور معه حيثما دار » ، ويمـكن أن يتأوّل ويطبق على مذهب المعتزلة ، فيحمل على أن المراد به كمالُ الإمامة كما حمِل قوله صلى الله عليه وآله : « لا صلاة لجارِ المسجد إلا فى المسجد » ، على نفى الـكمال ، لا على نفى الصّحة .

***

الأصـل :

منها :

آثَرُوا عَاجِلاً ، وَأَخَّرُوا آجِلاً ، وَتَرَكُوا صَافِياً ، وَشَرِبُوا آجِناً ؛ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ ، وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبَالِى مَا غَرَّقَ ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِى الْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ .

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى ، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَازِلِ التَّقْوَى ! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِى وُهِبَتْ لِلهِ ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ ، وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا ، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا !

***

الشرح :

آثروا : اختاروا . وأخروا : تركوا الآجن : الماء المتغير . أجَن الماء يأجُن ويأجِن. وَتَبِيء به : ألفه، وناقة بَسُوء : ألِفت الحالب ولا[1] تمنعه . وشابت عليه مفارقه : طال عهده به مُذ زَمن الصِّبا حتى صار شيخا . وصبغت به خلائقه ماصارت طبعاً لأنّ العادة طبيعة ثانية .

مُزْبداً ، أى ذو زَبَدٍ ، وهو مايخرج من الفم كالرّغوة ؛ يضرب مثلا الرجل الصائل المقتحم .

والتيّار : معظم اللجّة ، والمراد به هاهنا السّيل . والهشيم : دقاق الحطَب .

ولا يحفَل ، بفتح حرف المضارعة ؛ لأن الماضى ثلاثى ، أى لا يبالى.

والأبصار اللامحة : الناظرة . وتشاحُّوا : تضايقوا ، كلٌّ منهم يريد ألّا يفوته ذلك، وأصله الشحّ وهو البخل .

فإن قلت : هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين تقدّم ذكرهم فى أول الخطبة !

قلت : لا ؛ وإن زعم قوم أنّه عناهم ؛ بل هو إشارة إلى قوم ممّن يأتى من الخلَف بعد السلَف ، ألا تراه قال : كأنّى أنظرُ إلى فاسقهم قدصحب المنكر فألفه ؛ وهذا اللفظ إنما يقال فى حقّ من لم يوجَد بعد ، كما قال فى حقّ الأتراك : « كأنّى أنظر إليهم قوماً كأنّ وجوهَهم المجانّ »، وكما قال فى حقّ صاحب الزنج: « كأنّى به ياأحنف قد سار فى الجيش »، وكما قال فى الخطبة التى ذكرناها آنفا : « كأنى به قد نَعَق بالشام » يعنى به عبد الملك .

وحوشى عليه السلام أن يعنى بهذا الكلام الصحابة ، لأنهم ما آثروا العاجل ، ولا أخروا الآجل ، ولا صحبوا المنكر ، ولا أقبلوا كالتيّار ؛ لايبالى ماغرّق ، ولا كالنار لاتبالى ماأحرقتْ، ولا ازدحموا على الحطام ، ولا تشاحُّوا عَلَى الحرام ، ولا صرّفوا عن الجنّة وجوههم ، ولا أقبلوا

---

(١) ح : « ولا تمنعه » .

إلى النار بأعمالهم ، ولا دعاهم الرحمن فولّوا ، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا . وقد علم كلّ أحدٍ حُسْنَ سيرتهم ، وسَدَاد طريقتهم وإعراضَهم عن الدنيا وقد ملكوها ، وزهدَهم فيها وقد تمكّنوا منها ، ولولا قوله : « كأنّى أنظر إلى فاسقهم » لم أبعد أن يعنىَ بذلك قوماً ممّن عليه اسم الصحابة وهو رديء الطريقة ، كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ، ومَرْوان بن الحكم ، ومعاوية ، وجماعة معدودة أحبّوا الدنيا واستغواهمُ الشّيطان ؛ وهم معدودون فى كتب أصحابنا . ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم .

(١٤٥)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أيُّهَا النَّاسُ ؛ إنَّمَا أنتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ المَنَايَا؛مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ؛وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ؛لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى،وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إلا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ ، إلَّا بِنَفَادِ مَاقَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ ؛وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ ،إلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ،وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ، إلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ ،إلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ وَقَدْمَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ !

***

الشرح .

الغَرَض : ماينصب ليُرمى ، وهو الهدف وتنتضل فيه المنايا : تترامى فيه للسَّبق ، ومنه الانتضال بالكلام وبالشعر [1] ،كأنه يجعل المنايا أشخاصاتتناضل بالسهام؛ من الناس مَنْ يموت قتلًا ، ومنهم مَنْ يموت غرقا ، أو يتردّى في بئر ، أو تسقط عليه حائط،أو يموت على فراشه .

ثم قال : « مع كل جرْعة شَرَق ، وفى كلّ أَكلة غَصص » : بفتح الغين ، مصدر قولك : غَصِصْتَ يافلان بالطعام ، وروى : « غُصَص » جمع غُصّة ، وهى الشجا ، وهذا مثل قول بعضهم : المنحة فيها مقرونة بالمحنة ، والنعمة مشفوعة بالنقمة .

---

(١) فى ا ، ب : « الشعر » ، وما أثبته من د ، ج .

وقد بالغ بعض الشعراء فى الشكوى ، فأتى بهذه الألفاظ ، لكنه أسرف ، فقال :

حَظِّى من العيشِ أكْلٌ كلُّه غُصَصٌ   مرّ المذاق ، وشربٌ كلّه شَرَقُ

ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه أنّ نعيم الدنيا لا يدوم ، فإذا أحسنتْ أساءت ، وإذا أنعمت أنقمت .

ثم قال : « ولا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى » ، هذا معنى لطيف ، وذلك أنّ الإنسان لا يتهيّأ له أن يجمع بين الملاذّ الجسمانية كلّها فى وقت ، فحال مايكون آكلا لا يكون مجامعاً ، وحال مايشرب لا يأكل ، وحال مايركب للقَنَص والرّياضة ، لا يكون جالساً على فراش وثير ممهد ؛ وعلى هــذا القياس لا يأخــذ فى ضَرْب من ضُروب الملاذّ إلّا وهو تارك لغيره منها .

ثم قال : « ولا يعمّر معمّر منــكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله » ، وهذا أيضا لطيف ، لأنّ المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقطَعه ، ويوم الســبت من أيام عُمُره ، فإذاً قد هدم من عمره يوما ، فيكون قد قرب إلى الموت ، لأنه قد قطع من المسافة جزءاً .

ثم قال : « ولا تجدّد له زيادة فى أكله إلا بنفاذ ماقبلها من رزقه » ، وهذا صحيح فإنّ فسّرنا الرزق بما وصل إلى البطن على أحد تفسيرات المتــكلمين ، فإن الإنسان لا يأكل لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التى قبلها ، فهو إذاً لا يتجدد له زيادة فى أكله إلا بنفاد ماقبلها من رزقه .

ثم قال : « ولا يحيا له أثر ، إلا مات له أثر » ، وذلك أنّ الإنسان فى الأعمّ الأغلب لا ينتشر صيتُه ويشيع فضلُه إلا عند الشيخوخة ، وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم فى الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنه ، فإذاً ما حيى له أثر إلا بعد أن مات له أثر ، وهو قوّته ونشاطه وشبيبته ، ومثله قوله : « ولا يتجدّد له جديد ، إلا بعد أن يخلَق له جديد » .

ثم قال : « ولا تقوم له نابتة إلّا وتسقط منه محصودة » ؛ هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم فى الأعمّ الأغلب ، ولهذا قال : « وقد مضت أصولٌ نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله » ؛ وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى ، فقالوا فيه وأكثروا ؛ نحو قول الشاعر :

فإنْ أنتَ لم تصدُقْكَ نفسك فانتسِبْ ... لعلّك تهديكَ القُرونُ الأوائلُ[1]

فإنْ لم تجِدْ من دونِ عَدْنانَ والداً ... ودون مَعَــدٍّ فَلْتَزَعْكَ العواذِلُ

وقال الشاعر :

فعــدَدتُ آبائى إلى عِرْقِ الثّرى ... فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا

لابدّ من تلفٍ مصيب فانتظرْ ... أبأرضِ قومِكَ أم بأخرى تُصرَعُ !

وقد صرّح أبو العتاهية بالمعنى ؛ فقال :

كلّ حياة إلى ممــاتٍ ... وكلّ ذى جِــدّةٍ يحولُ

كيف بقاء الفروع يومــاً ... وقد ذوَتْ قبلها الأصولُ !

* * *

الأصْـلُ :

منها :

وَمَا أُحدِثَتْ بدعَةٌ إلاّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ ؛ فَاتّقُوا الْبِدَعَ ، وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ. إنّ عَوَازِمَ الأُمُورِ أفضَلُهَا ، وَإنّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا .

* * *

(١) لبيد ، ديوانه ٢ : ٢٧ ، ٢٨ .

الشرح :

البِدْعة : كل ما أُحدِث مما لم يكنْ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمنها الحسَن كصلاة التراويح ، ومنها القبيح كالمنكرات التى ظهرت فى أواخر الخلافة العثمانية ؛ وإن كانت قد[1] تكلّفت الأعذار عنها .

ومعنى قوله عليه السلام : « ما أحدِثتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنّة » ؛ أنّ من السنّة ألّا تحدث البدعة ، فوجود البدعة عدمٌ للسنّة لامحالة .

والمهيَع : الطريق الواضح ، من قولهم : أرض هيعة ، أى مبسوطة واسعة ؛ والميم مفتوحة وهى زائدة .

وعوازم الأمور : ماتقادم منها ، من قولهم : عجوزٌ عوزم أى مسنّة ، قال الراجز :

لقد غدوتُ خلَقَ الثيابِ ... أحِلُ عِدْلين من التّرابِ[2]

لِعَوزَمٍ وصِبْيَةٍ سِغابِ ... فـآكلٌ ولاحسٌ وآبى

ويجمع « فوعل » على فواعل ، كدورق ، وهَوْجل ، ويجوز أن يكون «عوازم» جمع عازمة ، ويكون فاعل بمعنى مفعول ، أى معزوم عليها ، أى مقطوع معلوم بيقين صحتها ، ومجىء « فاعلة » بمعنى « مفعولة » كثير ، كقولهم : عيشة راضية بمعنى مرضيّة ، والأوّل أظهر عندى ، لأنّ فى مقابلته قوله : « وإنّ محدَثاتها شرارها » ، والمحدَث فى مقابلة القديم .

---

(١) ساقط من ا .

(٢) اللسان ١٥ : ٢٩٥ (عن الفراء) .

(١٤٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر فى الشخوص لقتال الفرس بنفسه :

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُمَا(١) طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ؛ وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالِاجْتِمَاعِ؛ فَكُنْ قُطْباً وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ؛ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ؛ فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ؛ وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ؛ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

***

(١) مخطوطة النهج : « حيث ».

الشرح :

نظام العِقْد : الخيط الجامع له ، وتقول : أخذته كلّه بحذافيره ، أى بأصله ؛ وأصل الحذافير أعالى الشيء ونواحيه ؛ الواحد حِذْفار .

وأصْلِهم نار الحرب : اجعلهم صالين لها ، يقال: صليتُ اللحم وغيره أصْليه صَلْياً ، مثل رميته أرميه رَمْياً ، إذا شويته ، وفى الحديث أنه صلى الله عليه وآله أُتِيَ بشاة مَصْليّة[1] ، أى مشوّية ويقال أيضاً : صليت الرجل نارا إذا أدخلته النـار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلتَ : أصليتُه بالألف ، وصلّيته تصليـة ، وقرىء ﴿ ويُصَلَّى سَعِيرا ﴾[2] ومن خفف فهو من قولهم : صَلِيَ فلان بالنار ـ بالـكسر ـ يَصْلَى صِلِيّاً احترق ، قال الله تعالى : ﴿ هُمْ أَوْلَى بِهَـا صِلِيًّا ﴾[3] ويقال أيضاً : صَلِيَ فلانٌ بالأمر ؛ إذا قاسى حرّه وشدّته ، قال الطُّهَوِيّ :

وَلَا تَبْلَى بسالتهم وإنْ هُمْ صَلُوا بالحرب حيناً بعد حينِ[4]

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين عليـه السلام وهو مجـاز من الإحراق ، والشيء الموضوع لها هذا اللفظ حقيقة .

والعورات : الأحوال التى يخاف انتقاضها فى ثغر أو حرب ، قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾[5] . والـكَلَب : الشرّ والأذى .

* * *

[يوم القـادسية]

واعلم أنّ هذا الـكلام قد اختلف فى الحال التى قاله فيها لعمر ، فقيل : قاله له فى

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٧٣ .

(٢) سورة الانشقاق ١٢ ، وهى قراءة الحرمين وابن عامر والـكسائى . تفسير القرطبى ١٩ : ٢٧٠ .

(٣) سورة مريم ٧٠ .

(٤) لأبى الغول الطهوى ، ديوان الحماسة ، بشرح المرزوقى: ١ : ٤١ .

(٥) سورة الأحزاب ١٣ .

غَزَاة القادسيّة ، وقيل فى غزَاة نهاوَنْد . وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبرىّ فى " التاريخ الكبير " . وإلى القول الأول ذهب المدائنىّ فى كتاب " الفتوح " ؛ ونحن نشير إلى ماجرى فى هاتين الوقعتين إشارة خفيفةً على مذهبنا فى ذكر السِّيَر والأيام .

فأما وقعة القادسيّة فكانت فى سنة أربعَ عشرة للهجرة ؛ استشار عمر المسلمين فى أمر القادسيّة ، فأشار عليه علىّ بن أبى طالب ـ فى رواية أبى الحسن علىّ بن محمد بن سيف المدائنىّ ـ ألّا يخرج بنفسه ، وقال : إنك إن تخرُجْ لا يكنْ للعجم همّة إلا استئصالك ، لعلمهم أنك قطبُ رحا العرب ، فلا يكون للإسلام بعدها دولة . وأشار عليه غيره من الناس أن يخرُج بنفسه ، فأخذ برأى علىّ عليه السلام .

وروى غيرُ المدائنىّ أنّ هذا الرأى أشارَ به عبد الرحمن بن عوف ؛ قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرىّ : لما بدا لعمر فى المقام بعد أنْ كان عزم على الشخوص بنفسه ، أمّر سعد ابن أبى وقّاص على المسلمين ، وبعث يزْدَجِرْد رستمَ الأرمنىّ أميرا على الفرس ، فأرسل سعدٌ النّعمانَ بن مقرّن رسولًا إلى يزدَجِرد ، فدخل عليه ، وكلّمه بكلام غليظ ، فقال يزْدَجِرد : لولا أنّ الرُّسل لا تقتَل اقتلتُك ، ثم حمّله وَقراً من تراب على رأسه ، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن ، وقال : ارجع إلى صاحبك ، فقد كتبتُ إلى رستم أن يَدفنه وجنده من العرب فى خندق القادسيّة ؛ ثم لأشغلنّ العرب بعدها بأنفسهم ، ولأصيبنّهم بأشدّ مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف . فرجع النّعمان إلى سعد فأخبره ، فقال : لا تخفْ ، فإنّ الله قد ملّكنا أرضهم تفاؤلا بالتراب .

قال أبو جعفر : وتثبّط رستم عن القتال وكرهه ، وآثر المسالمة ، واستعجله يزدَجِرْد مرارا ، واستحثّه على الحرب ، وهو يدافع بها ، ويرى المطاولة . وكان عسكره مائةً وعشرين ألفا

وكان عسكر سعد بضعاً وثلاثين ألفا، وأقام رستمُ بريدا من الرجال، الواحد منهم إلى جانب الآخر؛ من القادسية إلى المدائن، كلّما تكلّمَ رستم كلمة أدّاها بعضهم إلى بعض، حتى تصل إلى سمع يزدَجِرْد فى وقتها، وشهد وقعة القادسيّة مع المسلمين طُلَيحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، والشّماخ بن ضرار، وعَبَدة بن الطبيب الشاعر، وأوس بن معن الشاعر، وقاموا فى النّاس يُنشدونهم الشّعر ويُحرّضونهم، وقرن أهلُ فارس أنفسهم بالسّلاسل لئلا يهربوا، فكان المقرّنون منهم نحو ثلاثين ألفا، والتحم الفريقان فى اليوم الأوّل، فحملت الفِيَلة التى مع رستم على الخيل فطحنتها، وثبت لها جمع من الرّجالة، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلا، منها فيل الملك، وكان أبيضَ عظيما، فضربت الرجال خراطيم الفِيَلة بالسيوف فقطعتها، وارتفع عُواؤها، وأصيبَ فى هذا اليوم — وهو اليوم الأول — خمسمائة من المسلمين، وألفان من الفرس. ووصل فى الثانى أبو عبيدة بن الجراح من الشّام فى عساكر من المسلمين؛ فكان مدداً لسعد؛ وكان هذا اليوم على الفرس أشدّ من اليوم الأوّل، فقتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف. وأصبحوا فى اليوم الثالث على القتال، وكان عظيماً على العرب والعجم معاً، وصبر الفريقان، وقامت الحرب ذلك اليوم: وتلك الليلة جمعاء لا ينطِقُون، كلامُهم الهرير، فسمّيت ليلة الهرير.

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وانقطع سعد إلى الصلاة والدّعاء والبكاء، وأصبح النّاس حَسْرَى لم يغمضوا ليلتَهم كلّها، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفا فى اليوم الرابع، أمالت الغبار والنّقع على العجم، فانكسروا، ووصلت العرب إلى سرير رستم، وقد قام عنه ليركب جملا، وعلى رأسه العلم، فضرب هلال بن علقمة الحِمْل الذى رُستم فوقه، فقطع حباله، ووقع على هلال أحد العدلين، فأزال فقَار ظهره، ومضى رستم نحو العتيق، فرمى نفسه فيه، واقتحم هلال عليه، فأخذ

برجله ، وخرج به يجرّه حتى ألقاه تحت أرجُل الخيل ، وقد قتله وصعد السرير ، فنادى : أنا هلال ، أنا قاتل رستم ،فانهزمت الفرس ، وتهافتوا[1] فى العقيق،فقتِل منهم نحو ثلاثين ألفا ، ونهبت أموالُهم وأسلابهم ؛ وكانت عظيمة جدًّا ، وأخذتِ العربُ منهم كافوراً كثيرا ، فلم يعبئوا به،لأنهم لم يعرفوه ، وباعوه من قوم بملح ، كيلاً بكيل،وسرُّوا بذلك وقالوا : أخذْنا منهم ملحا طيّبا ، ودفعنا إليهم ملحا غير طيّب ، وأصابوا من الجامات من الذهب والفضة مالا يقع عليه العدّ لكثرته ؛ فكان الرجل منهم يعرِض جامَيْن من ذهب على صاحبه ، ليأخذ منه جاماً واحداً من فضة يعجبه بياضها ويقول : من يأخذ صَفْراوين ببيضاء !

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر ، فكتب إلى سعد : لا تتبع الفُرْس ، وقِفْ مكانك واتّخذه منزلًا . فنزل موضعَ الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها ، وبنى فيها الخِطَط للعرب[2] .

***

[يوم نهاوند]

فأمّا وقعة نَهاوند ، فإنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبرىّ ذكر فى كتاب التاريخ[3] أنّ عمر لما أراد أن يغزوَ العجم وجيوش كسرى وهى مجتمعة بنهاوَنْد ، استشار الصحابة ، فقام عثمان فتشهّد ، فقال : أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم،وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يمَنهم،ثم تسير أنت بأهل هذين الحرَمَيْن إلى المصريْن : البصرة والكوفة ، فتلقَى جمعَ المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرتَ

---

(١) تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٤) .

(٢) تهافت على الشىء : تساقط وتتابع ؛ وأكثر استعماله فى الشر .

(٣) تاريخه (حوادث سنة ٢١)

بين معك ومَنْ عندك ، قلّ في نفسك ماتكاثر من عدد القوم ، وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر ؛ إنك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم(١) باقية ، ولا تمتّعُ من الدنيا بعزيز ، ولا تكون منها في حرز حريز . إنّ هذا اليوم له مابعده ، فاشهد بنفسك ورأيك وأعوانك ، ولا تغِبْ عنه .

قال أبو جعفر : وقام طلحة ، فقال : أمّا بعد يا أمير المؤمنين ؛ فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ، وحنّكتك(٢) التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا ننبو في يديك ، ولا نَكلُ أمرَنا إلا إليك ، فأمرْنا نُجِبْ ، وادعنا نُطِعْ ، واحملنا نركبْ ، وقُدْنا ننقدْ ، فإنك وليّ هذا الأمر ، وقد بلوتَ وجرّبت واختبرت ، فلم ينكشفْ شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار .

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : أمّا بعد ، فإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، إنما هو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزّه وأمدّه بالملائكة ، حتى بلغ مابلغ ، فنحن على موعودٍ من الله ، والله منجزٌ وعدَه ، وناصر جنده ، وإنّ مكانك منهم مكانُ النظام من الخرَز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحلّ تفرّق مافيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا ؛ والعرب اليوم وإن كانوا قليلا ، فإنهم كثيرٌ عزيز بالإسلام ؛ أقم مكانك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، فإنّهم أعلامُ العرب ورؤساؤهم ، وليشخص منهم الثلثان ، وليقم الثلث ، واكتبْ إلى أهل البصرة أن يمدّوهم ببعض مَنْ عندهم ، ولا تُشخص الشام ولا اليمن ، إنّك إن أشخصت أهل الشام مِنْ شامهم ، سارت الروم إلى ذراريّهم ، وإن أشخصت أهلَ اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريّهم ، ومتى شخصتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليك العرب من أقطارها وأطرافها ، حتى يكون ماتدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العوْرات والعيالات . إنّ الأعاجم إن ينظروا

---

(١) الطبري : «العرب» .

(٢) الطبري : «واحتنكتك» .

إليك غداً قالوا : هذا أميرُ العرب وأصلهم ؛ فكان ذلك أشدَّ لِكَلَبهم عليك . وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم ، فإنّ الله هو أكرهُ لسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ؛ وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنّا نقاتل بالصبر والنصر .

فقال عمر : أجلْ ! هذا الرأى ، وقد كنت أحبّ أن أتابع عليه ، فأشيروا علىّ برجل أولّيه ذلك الثغر . قالوا : أنت أفضل رأيا ، فقال: أشيرو علىّ به ، واجعلوه عراقيًّا قالوا : أنت أعلم بأهلِ العراق ، وقد وَفَدُوا عليك ، فرأيتَهم وكلّمتهم . قال : أما والله لأولّينّ أمرَهم رجلاً يكون غداً لأوّل الأسِنّة ، قيل : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : النعمان بن مقرّن ، قالوا : هو لها .

وكان النّعمان يومئذ بالبصرة ، فكتب إليه عمر ، فولّاه أمرَ الجيش .

قال أبو جعفر : كتب إليه عمر : سِرْ إلى نهاوند ، فقد وليّتك حربَ الفيروزان ـ وكان المقدّم على جيوش كسرى ـ فإن حدَث بك حدَثٌ فعلى النّاس حُذيفة بن اليمان ، فإن حدث به حدث فعلى الناس نعيم بن مقرّن ، فإن فتح الله عليكم فاقسِمْ على الناس ما أفاء الله عليهم ، ولا ترفع إلىّ منه شيئا ، وإن نكث القوم فلا ترانى ولا أراك ؛ وقد جعلتُ معك طُلَيحة بن خويلد ، وعَمرو بن معد يكرب ، لعلمهما بالحرب ، فاستشرهما ولا تولّهما شيئا .

قال أبو جعفر : فسارَ النّعمان بالعرب حتى وافى نَهاوند ، وذلك فى السنّة السابعة من خلافة عمر ، وتراءى الجمان ، ونشب القتال ، وحَجَزهم المسلمون فى خنادقهم ، واعتصموا بالحصون والمدُن ، وشقّ على المسلمين ذلك ، فأشار طليحة عليه ، فقال : أرى أنْ تبعث خيلاً يبعض القوم وتحمّشهم(١) ، فإذا استحمشوا خرج بعضهم ، واختلطوا بكم

---

(١) تحمشهم : تهيجهم .

فاستطردوا لهم ، فإنهم يطمعون بذلك ، ثم تعطف عليهم حتى يقضيَ الله بيننا وبينهم بما يحبّ .

ففعل النعمان ذلك ، فكان كما ظنّ طليحة ، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع ؛ فلما أمنوا فى الانكشاف للمسلمين حمَل النّعمان بالناس ، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يسمع السامعون مثله ، وزلّق بالنعمان فرسه فصرِع وأصيب ، وتناول الراية نعيم أخوه ، فأتى حذيفة لما فدفعها إليه ، وكتَم المسلمون مُصابَ أميرهم ، واقتتلوا حتى أظلم الليل ، ورجعوا والمسلمون وراءهم ، فعمِيَ عليهم قصدُهم فتركوه ، وغشيَهم المسلمون بالسيوف ؛ فقتلوا منهم ما لا يحصى ، وأدرك المسلمون الفيروزانَ وهو هارب ، وقد انتهى إلى ثنِيّة مشحونة [١] ببغال موقَرة عسلا ، فحبسته على أجَلِه ، فقتل ، فقال المسلمون : إن لله جنوداً من عسل .

ودخَل المسلمون نهاوند فاحتوَوْا على ما فيها ، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة ، فحمِلت إلى عمر ، فلما رآها بكى ، فقال له المسلمون : إنّ هذا اليوم يوم سرور وجذَل ، فما بكاؤك ؟ قال : ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى [٢] هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر إلا لخيرٍ أراده بهما ، ولا أراه فتحه علىّ إلا لشرّ أُريدَ بى ، إنّ هذا المال لا يلبث أن يفتِن الناس .

ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول : اللهمّ اعصمنى ولا تكِلْنى إلى نفسى ؛ يقولها مرارا ؛ ثم قسمه بين المسلمين عن آخره .

---

(١) يقال : شحن المدينة بالخيل أو البغال ؛ إذا ملأها .

(١٤٧)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام .

فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ ؛ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ ؛ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ . وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ !

***

الشَّرْحُ :

الأوثان : جمع وَثَن ؛ وهو الصَّنَم ، ويجمع أيضا على وُثْن ، مثل أَسَد وآساد وأُسْد ؛ وسمى وَثَناً لانتصابه وبقائه على حال واحدة ، من قولك : وَثَنَ فلان بالمكان ؛ فهو واثن ؛ وهو الثابت الدائم .

قوله : « فتجلّى سبحانه لهم » ، أى ظهر من غيرأن يُرَى بالبصر ، بل بما نبّههم عليه فى القرآن من قِصص الأولين ، وما حلّ بهم من النقمة عند مخالفة الرسل .

والمَثُلات ، بضم الثاء : العقوبات .

فإن قلت : ظاهر هذا الكلام أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الناس ليقرّوا بالصانع ويثبتوه ؛ وهذا خلاف قول المعتزلة ، لأنّ فائدة الرسالة عندهم هى إلطاف

المكلّفين بالأحكام الشرعيّة المقرّبة إلى الواجبات العقلية ، والمبعّدة من المقبّحات العقلية ، ولا مدخلَ الرسول فى معرفة البارئ سبحانه ، لأنّ العقل يُوجبها ، وإن لم يبعث الرسل ا

قلت : إنّ كثيرا من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل ؛ إذا كان فى حثّهم المكلّفين على مافى العقول فائدة ؛ وهو مذهب شيخنا أبى علىّ رحمه الله ، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد صلى الله عليه وآله إلى العرب وغيرهم ، لأنّ الله تعالى علم أنّهم مع تنبيهه إيّاهم — على ماهو واجب فى عقولهم من المعرفة — أقربُ إلى حصول المعرفة ؛ فحينئذ يكون بعثه لطفا ، ويستقيم كلام أمير المؤمنين .

* * *

الأصْلُ :

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ ؛ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى وَإِنِ اجْتَمَعَا .

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ ؛ كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ ؛ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ ، وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً ، وَجَعَلُوا

فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ ؛ وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ ؛ حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ .

***

الشرح :

أخبر عليه السلام أنّه سيأتى على الناس زمان من صفته كذا وكذا ؛ وقد رأيناه ورآه مَن كان قبلنا أيضا ؛ قال شُعبة إمام المحدّثين : تسعة أعشار الحديث كذب . وقال الدارقطنى : ما الحديث الصحيح فى الحديث إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود . وأمّا غلَبة الباطل على الحقّ حتى يخفى الحق عنده ، فظاهرة .

وأبور : أفسد ، من بار الشيء ، أى هلك . والسلعة : المتاع ، ونبذ الكتاب : ألقاه ولا يؤويهما : لا يضمّهما إليه ، وينزلهما عنده .

والزّبْر : مصدر زبرت أزبُر بالضم ، أى كتبت ، وجاء يزبر بالكسر ، والزِّبْر بالكسر : الكتاب وجمعه زبور ؛ مثل قِدْر وقدور ، وقرأ بعضهم : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾[1] ، أى كتبا . والزَّبُور ،بفتح الزّاى : الكتاب المزبور ، فَعُول بمعنى مفعول ؛ وقال الأصمعىّ : سمعت أعرابيا يقول : أنا أعرف بزِبْرَتى[2] أى خطى وكتابتى .

ومَثَلوا بالصالحين ، بالتخفيف : نكّلوا بهم ، مثلت بفلان أمثُل بالضمّ مَثْلاً بالفتح وسكون الثاء ، والاسم المُثْلة بالضم ؛ ومن روى « مَثّلوا » بالتشديد ؛ أراد جدّعوهم بعد قتلهم .

« وعلى » فى قوله : « وسمّوا صدقهم على الله فرية » ، ليست متعلّقة بصدقهم ، بل بفرية ،

---

(١) سورة الإسراء ٥٥ .

(٢) الصحاح ٢ : ٦٦٧ .

أى وسمّوا صدقهم فرية على الله ؛ فإن امتنع أنْ يتعلق حرف الجرّ به لتقدّمه عليه ، وهو مصدر، فليكن متعلقا بفعل مقدّر دلّ عليه هذا المصدر الظاهر. وروى : «وجعلوا فى الحسنة العقوبة السيئة » والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن .

والموعود هاهنا : الموت . والقارعة : المصيبة تقرَع ، أى تلق بشدّة وقوة .

***

الأصـلُ :

أيُّهَا ٱلنَّاسُ ، إنهُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَ ٱللهَ وُفِّقَ ؛ وَمَنِ ٱتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِىَ لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ، فَإِنَّ جَارَ ٱللهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ.

وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ ٱللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ ؛ فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَاعَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ ، وَسَلَامَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَاقُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ .

فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ ٱلْحَقِّ نِفَارَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْأَجْرَبِ ، وَٱلْبَارِئِ مِنْ ذِى ٱلسَّقَمِ .

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا ٱلرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِى تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِى نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِى نَبَذَهُ . فَٱلْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ : هُمُ ٱلَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ؛ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ؛ لَا يُخَالِفُونَ ٱلدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ .

***

الشّرح :

من استنصح الله : من أطاع أوامره وعلم أنّه يهديه إلى مصالحه ، ويردّه عن مفاسده ويرشده إلى مافيه نجاته ، ويصرفه عمّا فيه عَطَبه .

والتى هى أقوم : يعنى الحالة والخلّة التى اتّباعها أقوم ؛ وهذا من الألفاظ القرآنية،قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[1] . والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده وعدله .

ثم نهى عليه السّلام عن التكبّر والتعظّم وقال : إنّ رفعةَ القومِ الذينَ يعرفون عظمة الله أن يتواضعُوا له . وما هاهنا ،بمعنى أىّ شىء ، ومن روى بالنصب جعلها زائدة. وقد ورد فى ذم التعظم والتكبّر ما يطول استقصاؤه ؛ وهو مذموم على العباد،فكيف بمنْ يتعظّم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين ! وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا افتخر : « أنا سيّد ولدِ آدم » ، ثم قال : « ولا فَخْر » ، فجهر بلفظة الافتخار،ثم أسقط استطالة الكبر ؛ وإنّما جهر بما جهر به ؛ لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدّث بها ، وفى الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله قد أذهبَ عنكم حَمِيّة الجاهلية وفخرَها بالآباء ؛ الناس بنو آدم ، وآدم من تراب ؛ مؤمن تقىّ ، وفاجر شقىّ . لينتهينّ أقوامٌ يفخرون برجال ، إنّما هم فحْم من فحم جهنم ، أو ليكونُنّ أهون على الله من جُعلان تدفع النّتن بأنفها » .

قوله : « واعلَموا أنّكم لن تعرفوا الرّشد حتى تعرفوا الذى تركه » ، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال ؛ وهو قول أصحابنا جميعهم ، فإنّهم بين مكفّر لمن خالف أصول التوحيد والعدْل ـ وهم الأكثرون ـ أو مفسِّق ، وهم الأقلون ؛ وليس أحدٌ منهم معذورا عند أصحابنا وإن ضلّ بعد النظر ، كما لا نعذر اليهود والنصارى إذا ضلّوا بعد النظر .

ثم قال عليه السلام : « فالتمسوا ذلك عند أهله » ، هذا كناية عنه عليه السلام ؛ وكثيرا ما يسلك هذا المسلك ، ويعرّض هذا التعريض ؛ وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الإلهية .

---

(١) سورة الإسراء ٩ .

ثم ذكر أنّ هؤلاء الذين أمَرَ باتباعهم ينبيء حكمهم عن علمهم ، وذلك لأنّ الامتحان يظهر خبيئة الإنسان .

ثم قال : « وصمتهم عن نطقهم » ، صمت العارف أبلغُ من نطق غيره ؛ ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتا .

ثم ذكر أنّهم لا يخالفون الدّين لأنهم قوّامه وأربابه ؛ ولا يختلفون فيه ، لأنّ الحقّ فى التوحيد والعدل واحد ، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه ؛ كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق .

وصامت ناطق ؛ لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدّ له من مترجم ؛ فهو صامت فى الصورة ، وهو فى المعنى أنطق الناطقين ؛ لأن الأوامر ومنواهىَ والآداب كلها مبنيّة عليه ، ومتفرّعة عليه .

(١٤٨)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر أهل البصرة:

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّانِ إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ، وَلاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ؛ وَعَمَّا قَلِيلٍ يَكْشِفُ قِنَاعَهُ بِهِ.

وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا؛ وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا.

قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ؛ وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ؛ وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ.

وَاللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ؛ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ.

* * *

الشرح:

ضمير التثنية راجعٌ إلى طلحة والزُّبير رضى الله عنهما. ويمتّان: يتوسّلان؛ الماضى ثلاثىٌّ؛ مَتَّ يَمُتُّ بالضم. والضَّبّ: الحقد. والمحتسبون: طالبو الحِسْبة؛ وهى الأجر. ومستمع اللّدم كناية عن الضبُع؛ تسمع وقع الحجر بباب جُحرها من يد الصائد فتنخذل وتكفّ

جوارحَها إليها حتى يدخل عليها فيربطها؛ يقول: لا أكون مقرًّا بالضيم راغنًا(١)؛ أسمع النّاعي المخبِرَ عن قتل عسكر الجمل لحكيم بن جبلة وأتباعه، فلا يكون عندي من التغيير والإنكار لذلك؛ إلا أن أسمعه وأحضر الباكين على قتلاهم.

وقوله: «لكلّ ضلّة علّة، ولكلّ ناكث شبهة» هو جواب سؤال مقدّر، كأنه يقول: إن قيل: لأيّ سبب خرج هؤلاء؟ فإنّه لا بدّ أن يكون لهم تأويل في خروجهم؛ وقد قيل: إنهم يطالبون بدم عثمان؛ فهو عليه السلام قال: كلّ ضلالة فلا بدّ لها من علّة اقتضتها، وكلّ ناكثٍ فلا بدّ له من شبهة يستنِد إليها.

وقوله: «ليتنزعَنّ هذا نفس هذا» قول صحيح لا ريبَ فيه، لأنّ الرياسة لا يمكن أنْ يدبّرها اثنان معا، فلو صحّ لهما ما أراداه لوثب أحدهما على الآخر فقتله؛ فإن الملك عقيم؛ وقد ذكرَ أربابُ السِّيرة أنّ الرجلين اختلفا من قَبْلِ وقوع الحرب، فإنهما اختلفا في الصلاة، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير؛ يصلي هذا يوما، وهذا يوما، إلى أن تنقضيَ الحرب.

ثم إنّ عبد الله بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار، واحتجّ في ذلك بأنه استخلفه على الصلاة، واحتجّ تارة أخرى بنصٍّ صريح زعمه وادّعاه، وطلب طلحة من عائشة أن يسلِّم الناسُ عليه بالإمْرة، وأُدلَى إليها بالتيميّة، وأدلى الزبير إليها بأسماء أختها، فأمَرت الناس أنْ يسلّموا عليهما معا بالإمْرَة.

واختلفا في تولّي القتال، فطلبه كلّ منهما أولا، ثم نَكَلَ كلٌّ منهما عنه وتفادَى(٢) منه.

وقد ذكرنا في الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة من أخبار الجمل.

---

(١) يقال: رغن إليه، إذا أصغى. (٢) تفادى منه: تحاماه.

[من أخبار يوم الجمل]

وروى أبو مخنف ، قال : لما تزاحف الناس يومَ الجمل والتقوْا ، قال عليّ عليه السلام لأصحابه : لا يرمينّ رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح ، حتى أحدث إليكم ؛ وحتى يبدءوكم بالقتال وبالقتل . فرمى أصحاب الجمل عسكر عليّ عليه السلام بالنّبل رمياً شديداً متتابعا ، فضجّ إليه أصحابه ، وقالوا : عقرتْنا سهامهم يا أمير المؤمنين . وجيء برجل إليه ، وإنه لفي فُسْطاطٍ له صغير ، فقيل له : هذا فلان قد قُتِل . فقال : اللهمّ اشهد ، ثم قال : أعْذِروا إلى القوم ، فأُتيَ برجل آخر فقيل : وهذا قد قتل : فقال : اللهمّ اشهد ، أعْذِروا إلى القوم ، ثم أقبل عبد الله بنُ بدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، يحمل أخاه عبد الرحمن بنَ بُدَيْل ، قد أصابه سهم فقتله ، فوضعه بين يدى عليّ عليه السلام ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، هذا أخي قد قتِل ؛ فعند ذلك استرجع عليٌّ عليه السلام ، ودعا بدِرْعِ رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفُضُول فلبسها ، فتدلّت بطنه فرفعها بيده ، وقال لبعض أهله ، فحزم وسطه بعمامة ، وتقلّد ذا الفقار ، ودفع إلى ابنه محمد رايةَ رسول الله صلى الله عليه وآله السوداء ، وتعرف بالعُقاب ، وقال لحسن وحسين عليهما السلام : إنما دفعت الراية إلى أخيكما . وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

***

قال أبو مخنف : وطاف عليّ عليه السلام على أصحابه ، وهو يقرأ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

ثم قال : أفرَغَ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزّ لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كلّ أمر . ثم رفع مصحفا بيده ، فقال : مَنْ يأخذ هذا المصحف ، فيدعوهم إلى مافيه ، وله الجنة ؟ فقام غلام شابّ اسمه مسلم ، عليه قَبَاء أبيض ، فقال : أنا آخذه ، فنظر إليه عليّ وقال : يا فتى، إن أخذته ، فإنّ يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل فقال : لا صبر لى على ذلك ، فنادى عليّ ثانية ، فقام الغلام ، وأعاد عليه القول ، وأعاد الغلام القول مراراً ؛ حتى قال الغلام : أنا آخذه ؛ وهذا الذى ذكرتَ فى الله قليل ، فأخذه وانطلق ، فلما خالطهم ناداهم : هذا كتابُ الله بيننا وبينكم . فضربه رجلٌ فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى فضربه أخرى فقطع اليسرى ، فاحتضنه فضربوه بأسيافهم ، حتى قتل فقالت أم ذريح العبديّة فى ذلك[1] :

يارب إنّ مسلما أتاهم[2] بمصحفٍ أرسله مولاهمُ
للعدل والإيمان قد دعاهمُ يتلو كتابَ الله لا يخشاهمُ
فخضبوا من دمه ظُبَاهم[3] وأمهم واقفة تَرَاهم[4]
* تأمرُهم بالغَيِّ لا تنهاهم[5] *

قال أبو مخنف : فعند ذلك أمر على عليه السلام ولده محمدا أن يحَمل الراية ، فحمل وحمل معه النّاس ، واستحرّ القتلُ فى الفريقين وقامت الحرب على ساق .

* * *

(١) الأبيات والخبر فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ٣٦) مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .
(٢) والطبرى : « لاهم إن مسلما دعاهم » .
(٣) الطبرى : « قد خضبت من علق لحاهم » .
(٤) الطبرى : « وأمهم قائمة » .
(٥) الطبرى : « يأمرون الغي » .

[مقتل طلحة والزبير]

قال : فأما طلحة ، فإنّ أهلَ الجمل لما تضعضعوا قال مروان : لا أطلُب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم ! فانتحى له بسهم فأصاب ساقه ، فقطع أكحَله[1] ، فجعل الدم يَبِض[2] ، فاستدعى مِنْ مولًى له بغلة ، فركبها وأدبر ، وقال لمولاه : ويحك ! أما من مكانٍ أقدِر فيه على النزول ، فقد قتلني الدم ! فيقول له مولاه : انجُ ، وإلّا لحقك القوم ، فقال : بالله[3] مارأيت مصرَعَ شيخ أضيعَ من مصرعى هـذا ! حتى انتهى إلى دار من دُور البصرة ، فنزلها ومات بها .

وقد رُوِى أنه رُمِى قبـل أنْ يرميَه مروان ، وجرح فى غـير موضع من جسده .

وروى أبو الحسن المدائنىّ أنّ عليا عليه السلام مرّ بطلحة ، وهو يكيدُ[4] بنفسه ، فوقف عليه وقال : أما والله إن كنتُ لأبغض أن أراكم مصرّعين فى البلاد ، ولـكن ماحُم واقع ، ثم تمثّل :

وماتـدرى إذا أزمعت أمراً ... بأىّ الأرض يدركك المَقِيلُ[5]

وما يدرى الفقير متى غِنـاهُ ... ولا يدرى الغنىّ متى يَعِيلُ![6]

---

(١) الأكحل : عرق فى الذراع .

(٢) يبض : يسيل قليلا قليلا .

(٣) ا ، ب ، د : « تالله » .

(٤) يقال : هو يكيد بنفسه ، أى يجود بها ؛ وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على سعد ابن معاذ ، وهو يكيد بنفسه ، فقال : « جزاك الله من سيد قوم ، فقد صدقت الله ماوعدته ، وهو صادقك ما وعدك » .

(٥) من أبيات فى اللسان (عيل) ونسبها إلى أحيحة ؛ والبيت الأول فى الأغانى ٢١ : ١٠٦ (من غير نسبة) .

(٦) يعيل : يفتقر .

وما تدرى إذا ألقحت شَوْلا[١] أتُنْتَجُ بعد ذلك أم تحِيل[٢]

* * *

وأما الزُّبير فقتله ابن جُرموز غيلةً بوادى السباع، وهو منصرِف عن الحرب، نادم على مافرّط منه؛ وتقدّم ذكر كيفية قتله فيما سبق.

وروى الكلبيّ، قال: كان العِرْق الذى أصابه السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك، وإذا رفع يده عنه سال، فقال طلحة: هذا سهم أرسله الله تعالى، وكان أمرُ الله قَدَراً مقدورا؛ مارأيت كاليوم دم قرشيّ أضيع!

قال: وكان الحسن البصريّ إذا سمع هذا وحُكِى له، يقول: ذُقْ عَقْعَق[٣]!

وروى أبو مخنف، عن عبد الله بن عون، عن نافع، قال: سمعت مَرْوان بن الحكم يقول: أنا قتلتُ طلحة.

وقال أبو مخنف: وقد قال عبد الملك بن مروان: لولا أن أبى أخبرنى أنه رمى طلحة فقتله، ماتركت تيْميًّا إلا قتلتُه بعثمان. قال: يعنى أنّ محمد بن أبى بكر وطلحة قتلاه، وكانا تيْميّيْن.

قال أبو مخنف: وحدّثنا عبد الرحمن بن جُندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله، قال: مررت بطلحة، وإنّ معه عصابة يقاتل بهم، وقد فَشَتْ فيهم الجراح، وكَثَرَهُمُ الناس، فرأيتُه جريحاً، والسيف فى يده، وأصحابه يتصدّعون[٤] عنه رجلا فرجُلا، واثنين فاثنين؛ وأنا أسمعه، وهو يقول: عبادَ الله، الصبرَ الصبرَ؛ فإنّ بعد الصبر النّصر والأجر؛

---

(١) الشول من النوق: التى خف لبنها وارتفع ضرعها، وأتى عليهـا سبعة أشهر من يوم نتاجها، فلم يبق فى ضروعها إلا شوال من اللبن أو بقية.

(٢) تحيل: لم تلقح.

(٣) العقعق، كثعلب: طائر على قدر الحمامة، على شكل الغراب، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة، والعرب تضرب به المثل فيما لا يحمد.

(٤) يتصدعون: يتفرقون، وفى د «يتصدعون».

فقلت له : النّجاء النجاء ! ثكلتك أمّك ! فوالله ما أجِرت ولا نُصِرت ؛ ولكنك وُزِرْتَ وخسرت ؛ ثم صِحْتُ بأصحابه ، فانذعروا عنه ، ولو شئتُ أن أطعنه لطعنته ، فقلت له : أما والله لو شئت لجدّلتك فى هذا الصعيد[1] ، فقال : والله لملكت ملاك الدنيا والآخرة إذَنْ ! فقلت له : والله لقد أمسيتَ وإنّ دمك لحلال ، وإنّك لمن النادمين . فانصرف ومعه ثلاثة نفَر ، وما أدرى كيف كان أمره إلّا أنى أعلم أنه قد هلك .

وروى أنّ طلحة قال ذلك اليوم : ما كنت أظنّ أنّ هذه الآية نزلت فينا : ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[2] .

وروى المدائنىّ ، قال : لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكانا ينزله[3] ، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب علىّ عليه السلام : أنا طلحة ، من يجيرنى ! يكررها . قال : فكان الحسن البصرىّ إذا ذكر ذلك يقول : لقد كان فى جوار عريض .

---

(١) الصعيد : التراب .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

(٣) ب : « يرتاد منزله »

(١٤٩)

الأجَلُ

ومن كلام له عليه السلام قبل موته :

أيُّهَا النَّاسُ ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مايَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ .الأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ .

كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الأَمْرِ ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ.هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ .

أَمَّا وَصِيَّتِي،فَاللهَ لَاتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ،وَمُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مالَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ . رَبٌّ رَحِيمٌ ، ودِينٌ قَوِيمٌ ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ.

أنا بِالأَمْسِ صاحِبُكُمْ ، وأنا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وغَداً مُفارِقُكُمْ ! غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ! إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ ، فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ ، ومَهَبِّ رِيَاحٍ ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ . اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا ، وعَفَا فِي الأَرْضِ مَخَطُّهَا .

وإِنَّمَا كُنْتُ جاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً ، وسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً ، ساكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ ، وصامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ . لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي ، وخُفُوتُ إِطْرَاقِي ، وسُكُونُ أَطْرَافِي ؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ ، والْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ .

وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مرْصَدٍ لِلتَّلَاقِي ! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي ، وَقِيامِ غَيْرِي مَقَامِي .

•••

الشَّرْحُ :

أطردتُ الرجل ، إذا أمرتَ بإخراجه وطردِه ، وطردتُه إذا نفيتَه وأخرجتَه ؛ فالإطراد أدلّ على العزّ والقهر من الطرد ، وكأنه عليه السلام جعل الأيام أشخاصا يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه ، أي مازِلتُ أبحث عن كيفيّة قتلي ، وأيّ وقت يكون بعينه ، وفي أيّ أرض يكون ، يوما يوما ، فإذا لم أجده في اليوم أطردته واستقبلت غده ؛ فأبحث فيه أيضا فلا أعلم ، فأبعده وأطرده ، وأستأنف يوما آخر ، هكذا حتى وقع المقدور . وهذا الكلام يدلّ على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصّلة من جميع الوجوه ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلمه بذلك علما مجملا ؛ لأنّه قد ثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له: « ستضرَب على هذه ـ وأشار إلى هامته ـ فتخضَب منها هذه ـ وأشار إلى لحيته» ، وثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له : « أتعلم مَنْ أشقى الأولين » ؟ قال : نعم ، عاقر الناقة ، فقال له : « أتعلم مَنْ أشقى الآخِرين » ؟ قال : لا ، قال : « من يضرب هاهنا ، فيخضب هذه » .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّه بعد ضرب ابن مُلجم له لا يقطع على أنه يموت من ضربته ، ألا تراه يقول : إن ثبتت الوطأة في هذه المزلّة فذاك ، وإن تدحض فإنّما كنّا في أفياء أغصان ، ومهابّ رياح ، أي إن سلمتُ فذاك الذي تطلبونه ، يخاطب أهلَه وأولاده ، ولا ينبغي أن يقال : «فذاك ما أطلبه» ، لأنه عليه السلام كان يطلب الآخرة ،

أكثر من الدنيا . وفي كلامه المنقول عنه ما يؤكّد ما قلناه ؛ وهو قوله : « إن عشتُ فأنا وليّ دمي ، وإن متّ فضربة بضربة » .

وليس قوله عليه السلام : « وأنا اليوم عِبْرة لكم ، وغداً مفارقكم » وما يجرى مجراه من ألفاظ الفصل بناقض[1] لما قلناه ؛ وذلك لأنّه لا يعني غداً بعينه ، بل ما يستقبل من الزمان ، كما يقول الإنسان الصحيح : أنا غدا ميّت ، فالى أحرص على الدنيا ! ولأنّ الإنسان قد يقول في مرضه الشديد لأهله وولده : ودّعتكم وأنا مفارقكم ، وسوف يخلو منزلي منّي ، وتتأسّفون على فراق ، وتعرفون موضعي بعدي ؛ كله على غَلَبة الظنّ ؛ وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى ، وردعهم عن الهوى وحبّ الدنيا .

فإن قلت : فما تصنع بقوله عليه السلام لابن ملجَم :

أُرِيدُ حِبَاءهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ مِن خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ[2]

وقول المخلص من شيعته : فهلّا تقتله ! فقال : فكيف أقتل قاتلي ! وتارة قال: إنّه لم يقتلني ، فكيف[3] أقتل من لم يقتل ! وكيف قال في البطّ الصائح خلفه في المسجد ليلة ضربه ابن ملجم : دعوهنّ ، فإنهنّ نوائح . وكيف قال تلك الليلة : إنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فشكوتُ إليه ، وقلت : ما لقيتُ من أمتك من الأود واللّدد ! فقال: ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم خيرا منهم ، وأبدِلهم بي شرّاً مني ! وكيف قال : إني لا أُقتَلُ محاربا ، وإنما أُقتَل فَتْكاً وغيلة ، يقتلني رجلٌ خامل الذكر . وقد جاء عنه عليه السلام من هذا الباب آثار كثيرة .

قلت : كلّ هذا لا يدلّ على أنه كان يعلم الأمر مفصّلا من جميع الوجوه ، ألا ترى أنه

---

(١) د : « بناقض » .
(٢) من أبيات في اللآلي ٦٣ ، نسبها إلى عمرو بن معديكرب ؛ وروايته فيها : « أريد حياته » .

ليس فى الأخبار والآثار ما يدلّ على الوقت الذى يقتل فيه بعينه، ولا على المكان الذى يقتل فيه بعينه! وأما ابنُ ملجم، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذى يقتله، ولم يعلم علماً محققا أنّ هذه الضربة تزهَق نفسه الشريفة منها، بل قد كان يجوز أن يُبِلّ ويُفيق منها؛ ثم يكون قتله فيما بعد على يد ابن ملجم، وإن طال الأمد. وليس هذا بمستحيل، وقد وقع مثله، فإنّ عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق فى أيام معاوية على معافرةٍ كانت بينهما فعفا عمرو عنه، ثم كان من القضاء والقدر أنّ عبد الملك قتل عمراً أيضا بيده ذبحا، كما تذبح الشاة.

وأما قوله فى البط: «دعوهنّ فإنهن نوائح» فلعله علم أنه تلك الليلة يصاب ويجرح؛ وإن لم يعلم أنّه يموت منه، والنوائح قد ينحن على المقتول وقد ينحن على المجروح، والمنام والدّعاء لا يدلّ على العلم بالوقت بعينه، ولا يدلّ على أن إجابة دعائه تكون على الفور لامحالة.

***

ثم نعود إلى الشرح.

أمّا قوله: «كلّ امرئ لاقٍ ما يفرّ منه فى فراره»، أى إذا كان مقدورا، وإلّا فقد رأينا مَنْ يفرّ من الشىء ويسلم، لأنه لم يقدّر؛ وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(١)، وقوله: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾(٢) ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾(٣)، وفى القرآن العزيز مثل هذا كثير.

قوله: «والأجل مَساق النفس» أى الأمر الذى تساق إليه، وتنتهى عنده، وتقف إذا بلغته فلا يبقى له حينئذ أكلة فى الدنيا.

---

(١) سورة النساء ٧٨.
(٢) سورة آل عمران ١٥٤
(٣) سورة الجمعة ٨.

قوله : « والهرب منه موافاته »،هذا كلام خارج مخرج المبالغة فى عدم النّجاة،وكون الفرار غيرَ مغنٍ ولا عاصم من الموت ، يقول : الهرب بعينه من الموت موافاة للموت، أى إتيان إليه ، كأنه لم يرتض بأن يقول : الهارب لابدّ أن ينتهىَ إلى الموت ،بل جعل نفس الهرب هو ملاقاة الموت .

قوله : « أبحثها » أى أكشفها ، وأكثر مايستعمل « بحث » مُعَدًّى بحرف الجر، وقد عدّاه هاهنا إلى «الأيام» بنفسه وإلى «مكنون الأمر» بحرف الجرّ ، وقد جاء:بحثت الدّجاجة التراب ، أى نبشته .

قوله : « فأبى الله إلا إخفاءه ، هيهات علم مخزون » ! تقديره : هيهات ذلك! مبتدأ وخبره، هيهات اسم للفعل،معناها بعد،أى علمٌ هذا الغيب علم مخزون مصون،لم أطلّع عليه.

فإن قلت : مامعنى قوله : « كم اطردت الأيام أبحثها» ؟ وهل علِم الإنسان بموته كيف يكون ، وفى أىّ وقت يكون ، وفى أىّ أرض يكون ؛ مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث ؟

قلت:مراده عليه السلام أنى كنت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله أسأله كثيرا عن هذا الغيب؛ فما أنبأنى منه إلّا بأمور إجمالية غير مفصّلة،ولم يأذن الله تعالى فى إطلاعى على تفاصيل ذلك.

قوله:«فاللهَ لاتشركوا به شيئا» الرواية المشهورة«فاللهَ »بالنصب؛وكذلك «محمدا» بتقدير فعل ، لأنّ الوصية تستدعى الفعل بعدها ، أى وحّدُوا الله ، وقد روى بالرفع ؛ وهو جائز على المبتدأ والخبر .

قوله : «أقيموا هذين العمودين،وأوقدوا هذين المصباحين،وخَلاَكم ذمّ مالم تشردُوا»، كلام داخلٌ فى باب الاستعارة ، شبّه الكتاب والسنّة بعمودَىِ الخيمة ، وبمصباحَين

يُستضاء بهما . وخَلَا كم ذمٌ : كلمة جارية مجرى المثل ، معناها : ولا ذمّ عليكم ، فقد أعذرتمْ . وذمّ ، مرفوع بالفاعلية ، معناه : عَدَا كم وسقَط عنكم .

فإن قلت : إذا لم يشركوا بالله ولم يضيّعوا سنة محمد صلى الله عليه وآله فقد قاموا بكلّ مايجب، وانتهوْا عن كلّ مايقبّح ، فأىّ حاجة له إلى أن يستثنىَ ويقول: «مالم تشردوا» ، وإنما كانَ يحتاج إلى هذه اللفظة لو قال : وصيّتى إليكم أن توحّدوا الله ،وتؤمنوابنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ، كان حينئذ يحتاج إلى قوله : « مالم تشردوا » ويكون مرادُه بها فعلَ الواجبات ، وتجنّب المقبحات ، لأنّه ليس فى الإقرار بالوحدانية والرسالة العمل ، بل العمل خارج عن ذلك، فوجب إذا أوصى أن يوصىَ بالاعتقاد والعمل ، كما قال عمر لأبى بكر فى واقعة أهل الرِّدّة : كيف تقاتلهم وهم مقرّون بالشهادتين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله « أمرت بأن أقاتلَ النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، فقال أبو بكر: إنه قال تتمة هذا : « فإذا هم قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلّا بحقها » وأداء الزكاة من حقها !

قلت : مراده بقوله : «مالم تشردوا » مالم ترجعوا عن ذلك فكأنّه قال : خلاكم ذمّ إن وحّدتم الله واتبعتم سنة رسوله ، ودمتم على ذلك . ولا شبهة أنّ هذا الكلام منتظم ، وأنّ اللفظتين الأوليين ليستا بمغنيتين عن اللفظة الثالثة [١] وبتقدير أن يغنيا عنه، فإنّ فى ذكره مزيد تأكيد وإيضاح غير موجودين لو لم يذكر ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [٢]، وليس لقائل أن يقول: مَن لا يخشى الله لا يكون مطيعاً لله والرسول ، وأىّ حاجة به إلى ذكر ماقد أغنى اللفظُ الأول عنه !

قوله : « حُمِّل كلّ امرئٍ مجهوده ، وخُفِّفَ عن الجهلة » ، هذا كلام متصل بما قبله ،

---

(١) ب : « اللفظ الثالث » .
(٢) سورة النور ٥٢ .

لأنّه لما قال : «مالم تشردُوا» أنبأ عَنْ تكليفهم كلّ ما وردت به السّنة النبوية ؛ وأن يدوموا عليه ؛ وهذا فى الظاهر تكليفُ أمورٍ شاقة ، فاستدرك بكلامٍ يدلّ على التخفيف ، فقال : إن التكاليف على قَدْرِ المكلّفين ، فالعلماء تكليفهم غير تكاليف العامة ، وأرباب الجهل والمبادئ كالنساء وأهل البادية وطوائف من النّاس ، الغالبُ عليهم البلادة وقلّة الفهم ، كأقاصى الحبشة والترك ونحوهم ، وهؤلاء عند المكلفين غير مكلّفين ، إلا بحمل التوحيد والعدل ، بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصّلة وحلّ المشكلات الغامضة . وقد روى « حَمَل » على صيغة الماضى ، و « مجهودَه » بالنصب ، و « خَفَّفَ » على صيغة الماضى أيضاً ، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدّم ذكره ، والرواية الأولى أكثر وأليق .

ثم قال : « ربّ رحيم » أى ربكم ربٌ رحيم . ودين قويم ، أى مستقيم . وإمام عليم ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن الناس من يجعل « ربّ رحيم » فاعل « خفّف » على رواية من رواها فعلا ماضيا وليس بمستحسن لأنّ عطف « الدين » عليه يقتضى أن يكون الدين أيضا مخففا ، وهذا لا يصحّ .

ثم دعا لنفسه ولهم بالغفران .

ثم قسّم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمةً حسنة ، فقال : « أنا بالأمس صاحبكم ، وأنا اليوم عِبْرة لكم ، وغدا مفارقكم » إنما كان عبرةً لهم لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريعاً بعد أن صَرَعَ الأبطال ، وقتل الأقران ، فهو كما قال الشاعر :

أ كُلُ أشلاء الفوارِس بالقَنَا   أضحى بهنّ وشِلْوه مأ كول

ويقال : دَحَضت قدمُ فلان ، أى زلّت وزَلقت .

ثم شبّه وجوده فى الدنيا بأفياء الأغصان ومهابّ الرياح وظلال الغمام ، لأنّ ذلك كلّه سريع الانقضاء لاثبات له .

قوله : « اضمحلّ فى الجوّ متلفقُها ، وعَفَا فى الأرض مَخَطُّها » ، اضمحلّ ذهب ، والميم زائدة ، ومنه الضَّحْل وهو الماء القليل ، واضمحلّ السحاب : تقشّع وذهب ، وفى لغة الكلابيين امضحلّ الشىء بتقديم الميم . ومتلفقها : مجتمعها ، أى ما اجتمع من الغيوم فى الجو ؛ والتلفيق : الجمع : وعفا : دَرَس ، ومخطّها : أثرها ؛ كالخطة .

قوله : « وإنما كنتُ جاراً جاوركم بَدَنِى أياما » ، فى هذا الكلام إشعار بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النفس ، وأنّ هويّة الإنسان شىء غير هذا البدَن .

وقوله : « ستعقَبون مِنّى » أى إنما تجدون عَقِيب فقدى جُثّة ؛ يعنى بدناً خلاء ، أى لا رُوح فيه ؛ بل قد أقفر من تلك المعانى التى كنتم تعرفونها وهى العقل والنطق والقوة وغير ذلك . ثم وَصف تلك الجُثّة فقال : « ساكنة بعد حرَاك » بالفتح ، أى بعد حرَكة « وصامتة بعد نطق » . وهذا الكلام أيضا يُشعر[1] بما قلناه من أمر النفس ، بل يصرّح بذلك ، ألا تراه قال : « ستعقبون منى جثّة » ، أى تستبدلون بى جثة صفتها كذا ؛ وتلك الجثّة جثته عليه السلام ، ومحال أن يكون العِوَض والمعوّض عنه واحدا ، فدلّ على أنّ هويّته عليه السلام التى أعقِبنا منها الجثة غير الجُثّة .

قوله : « ليعظكم هدوّى » ، أى سكونى ، وَخفوت إطراقى ، مثله خَفَت خُفوتا سكن ، وَخفت خُفاتا مات فجأة . وإطراقه : إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض ، لضعفه عن رفع جفنه ، وسكون أطرافه : يداه ورجلاه ورأسه عليه السلام .

قال : « فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ ، والقول المسموع » ؛ وصدق عليه السلام ! فإن خَطْباً أخرس ذلك اللسان ، وَهدّ تلك القُوَى لخطبٌ جليل ، ويجب أن يتّعظ العقلاء به . وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى مَنْ شاهد تلك الحال ، بل بالإضافة إلى من سمعها ، وأفكر فيها ، فضلاً عن مشاهدتها عِيانا ! وَفى هذا الكلام شَبَهٌ من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوت الإسكندر فقال أحدهم : حرّكنا بسكونه .

---

(١) ب : « مشعر » .

وقال الآخر : قد كان سيفك لا يجف ، وكانت مراقيك لا ترام ، وكانت نقماتك لاتؤمَن ، وكانت عطاياك يفرَح بها ، وكان ضياؤك لاينكشف ، فأصبح ضوءك قد خَمَد ، وأصبحت نقماتك لا تخشى ، وَعطاياك لا تُرجى ، وَمَراقِيك لا تُمْنَعُ ، وسيفك لا يقطع .

وقال الآخر : انظروا إلى حلم المنام كيف انجلى ، وإلى ظِلّ الغمام كيف انسلى !

وقال آخر : ماكان أحوجَه إلى هذا الحلم ، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته !

وقال آخر : القدرة العظيمة التى ملأت الدنيا العريضة الطويلة ؛ طُوِيَتْ فى ذراعين .

وقال الآخر : أصبح آمرُ الأمراء أسيرا ، وقاهر الملوك مقهورا . كان بالأمس مالكاً ، فصار اليوم هالكا .

ثم قال عليه السلام : « وَدّعتكم وَداعَ امرئٍ مرصَدا للتلاقى » ، أرصدته لكذا ، أى أعددته له ، وفى الحديث : « إلّا أن أرصدَه لدينٍ عَلَيّ » . والتلاقِى ها هنا : لقاء الله . ويروى : «ودَاعِيكم» أى وداعى إياكم ، والوَداع مفتوح الواو .

ثم قال : « غدا ترون أيامى ، ويكشف لكم عن سرائرى ، وتعرفوننى بعدُ خلوّ مكانى ، وقيام غيرى مقامى » ؛ هذا معنًى قد تداوله الناس قديما وحديثا ، قال أبو تمام :

رَاحَتْ وُفُودُ الأرضِ عَنْ قَبْرِهِ ... فارغةَ الأيدى مِلَاءَ القُلُوبْ

قد علمت ما رزئت إنما ... يُعرف قدرُ الشمس بعد الغروبْ

وقال أبو الطيب :

وَنَذِمّهمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فضلَهُ ... وبضدّها تتبيّن الأشياء(١)

---

(١) ديوانه ١ : ٢١ ، وروايته : « ونذيمهم » .

ومن أمثالهم :

* الضد يظهر حسنه الضد *

ومنها أيضا : لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية .

وإنما قال عليه السلام : « ويكشف لكم عن سرائرى » ؛ لأنهم بعد فقده وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة مَنْ بعده ، أنه إنما كان يريد بتلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى ، وألّا يظهر المنكر فى الأرض ، وإن ظنّ قوم فى حياته أنّه كان يريد الملك والدنيا .

(١٥٠)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام ويومئ فيها إلى الملاحم :

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمالًا ظَعْناً فِي مَسالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذاهِبِ الرُّشْدِ؛ فَلا تَسْتَعْجِلُوا ما هُوَ كائِنٌ مُرْصَدٌ ، وَلا تَسْتَبْطِئُوا ما يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ ؛ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِما إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ . وَما أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَباشِيرِ غَدٍ !

يا قَوْمِ، هذا إِبّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ ما لا تَعْرِفُونَ . أَلا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَها مِنّا يَسْرِي فِيها بِسِراجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيها عَلَى مِثالِ الصّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيها رِبْقاً ، وَيُعْتِقَ فِيها رِقّاً ، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً ؛ فِي سُتْرَةٍ عَنِ النّاسِ ؛ لا يُبْصِرُ الْقائِفُ أَثَرَهُ ، وَلَوْ تابَعَ نَظَرَهُ ؛ ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيها قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصارُهُمْ ، وَيُرْمَى بالتفسير فِي مَسامِعِهِمْ ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ .

***

الشّرْحُ :

يذكر عليه السلام قوماً من فرق الضلال أخذوا يمينا وشمالا ، أى ضلّوا عن الطريق الوسطى التي هي منهاج الكتاب والسنّة؛ وذلك لأنّ كلّ فضيلة وحقّ فهو محبوس بطرفين خارجين عن العدالة ، وهما جانبا الإفراط والتفريط ؛ كالفطانة التي هي محبوسة

بالجربزة والغباوة،والشجاعة التي هي محبوسة بالتهوّر والجبن ، والجود المحبوس بالتبذير والشحّ ؛ فمن لم يقعْ على الطريق الوسطى وأخذ يمينا وشمالا فقد ضلّ .

ثم فسّر قوله:« أخذ يمينا وشمالا » ، فقال :« ظلموا ظلما في مسالك الغيّ،وتركوا مذاهب الرشد تركاً ». ونصب « تركا » و« ظلما » على المصدرية،والعامل فيهما من غير لفظهما [1] ؛ وهو قوله : « أخذوا » .

ثم نهاهم عن استعجال ماهو ممدّ ، ولابدّ من كونه ووجوده ، وإنما سماه كائنا لقرب كونه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [2] ، ونهاهم أن يستبطئوا مايجيء في الغد لقرب وقوعه ، كما قال :

* وإن غدا للناظرين قريب *

وقال الآخر:

* غدٌ ماغد ما أقرب اليوم من غد *

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [3] .

ثم قال : كم من مستعجلٍ أمراً ويحرص عليه ، فإذا حصل وَدّ أنه لم يحصل !

قال أبو العتاهية :

مَنْ عاش لاقى مايسو ءُ من الأمور وما يسرُّ [4]
ولرب حتفٍ فوقَه ذهبٌ وياقوت ودُرُّ

وقال آخر :

فلا تتمنَّيَنَّ الدهر شيئا فكم أمنيةٍ جلبت مَنيّه

---

(١) ب : « لفظها » .
(٢) سورة الزمر ٣٠ .
(٣) سورة هود ٨١ .
(٤) ديوانه ٩٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . وتباشير الصبح : أوائله .

ثم قال : ياقومُ قد دنا وَقت القيامة ، وَظهور الفتن التى تظهر أمامها .

وإبّان الشيء ، بالكسر وَالتشديد : وَقته وَزمانه ، وَكنى عن تلك الأهوال بقوله: « وَدُنُوّ من طلعة مالا تعرفون »؛ لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلُها، نحو دابة الأرض ، والدجّال وَفتنته ، وَما يظهر على يده من الخاريق وَالأمور الموهِمة ، وَواقعة السّفيانىّ وَما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يُحصَى عددهم .

ثم ذكر أن مهدىّ آل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو الذى عنى بقوله: « وإنّ مَنْ أدركَها منّا يسرى فى ظلمات هذه الفتن بسراج منير » ؛ وهو المهدىّ ، وأتباع الكتاب والسنة .

ويحذُو فيها : يقتفى ويتّبع مثال الصالحين ، ليحلّ فى هذه الفتن . ورِبقاً : أى حبلا معقودا .

ويعتقُ رِقّا ، أى يستفِكّ أسْرَى ، وينقذ مظلومين من أيدى ظالمين .

ويصدَع شَعباً ، أى يفرّق جماعة من جماعات الضلال . ويشعَبُ صَدْعا : يجمع ماتفرّق من كلمة أهل الهدى والإيمان .

قوله عليه السلام: «فى سترة عن الناس»، هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الإنسان المشار إليه ، وليس ذلك بنافع للإمامية فى مذهبهم ، وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم؛ وذلك لأنّه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان ، ويكون مستترا مدة، وله دعاة يدعُون إليه ، ويقرّرون أمره ، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار ؛ ويملك الممالك ؛

---

(١) سورة البقرة ٢١٦

ويقهر الدّول ؛ ويمهّد الأرض ؛ كما وردفي قوله : « لا يبصر القائف » ، أى هو فى استتار شديد لا يدركه القائف ، وهو الذى يعرف الآثار ، والجمع « قافة » ، ولا يعرف أثره ولو استقصى فى الطلب ؛ وتابع النّظر والتأمل .

ويقال : شَحَذْتُ السّكين أشحَذُه شَحْذاً ، أى حدّدته ، يريد : لَيُحرَّضَنّ فى هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال ، ولتُشحَذنّ عزائمهم كما يشحَذ الصَّيْقل السيف ، ويرقق حدّه .

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوذِي العزائم ؛ فقال : تجْلَى بصائرُهم بالتنزيل ، أى يكشف الرَّيْن والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويلَه ومعرفة أسراره .

ثم صرّح بذلك فقال : « ويرمى بالتفسير فى مسامعهم » ، أى يكشف لهم الغطاء ، ويخلق المعارف فى قلوبهم ، ويلهمون فَهْمَ الغوامض والأسرار الباطنة ، ويغبَقون كأسَ الحكم بعد الصَّبوح ، أى لا تزال المعارف الربّانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحا ومساء ؛ فالغَبوق كناية عن الفيض الحاصل لهم فى الآصال ، والصّبوح كناية عمّا يحصل لهم منه فى الغَدَوات ، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة ؛ وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لولىّ الله الذى يجتبيه ، ويخلقه فى آخر أوقات الدنيا ، فيكون خاتمة أوليائه ، والذى يلقى عصا التكليف عنده .

* * *

الأصْلُ :

منها :

وَطَالَ ٱلْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا ٱلْخِزْىَ ، وَيَسْتَوْجِبُوا ٱلْغِيَرَ ، حَتَّى إذَا ٱخْلَوْلَقَ

ٱلْأَجَلُ، وَٱسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى ٱلْفِتَنِ، وَٱشْتَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ؛ لَمْ يَمُنُّوا عَلَى ٱللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي ٱلْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ ٱلْقَضَاءِ ٱنْقِطَاعَ مُدَّةِ ٱلْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ.

***

الشرح:

هذا الكلام يتصل بكلام قبله، لم يذكره الرضيّ رحمه الله، وهو وصف فئة ضالة قد استولتْ وملَكت، وأملى لها الله سبحانه. قال عليه السلام: وطال الأمدُ بهم ليستكملوا الخزْى، ويستوجبوا الغِيَر، أى النعم[1] التى يغيّرها بهم من نعم الله سبحانه، كما قال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[2]، وكما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

حتى إذا اخلولَق الأجل، أى قارب أمرُهم الانقضاء، من قولك: اخلولق السَّحاب، أى استوى، وصار خليقاً بأن يمطر، واخلولق الرسمُ: استوى مع الأرض.

واستراح قوم إلى الفتن، أى صبا قومٌ من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفئة، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها، واتبعوها.

واشتالوا عن لَقاح حَرْبهم، أى رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشبّوا الحرب بينهم وبين هذه الفئة، مهادَنةً لها وسلما وكراهية للقتال، يقال: شال فلان كذا، أى رفعه، واشتال «افتعل» هو فى نفسه، كقولك: حجَم زيد عمراً، واحتجم هو نفسُه. ولَقاح حربهم: هو بفتح اللام، مصدر من لَقحت الناقة.

قوله: «لم يمنُّوا»، هذا جواب قوله: «حتى إذا»، والضمير فى «يمنُّوا» راجع إلى

(١) كذا فى د، وفى ا، ب: «والنعم».
(٢) سورة الإسراء ١٦.
(٣) سورة الأعراف ١٨٢.

العارفين الذين تقدّم ذكرهم فى الفصل السابق ذكره ، يقول : حتى إذا ألقى هؤلاء السّلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال ، واستراحوا من منابذتهم بدخولهم فى ضلالتهم وفتنتهم ، إمّا تقيّة[١] منهم ، أو لشبهة دخلت عليهم ، أنهض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الذين خصّهم بحكمته ، وأطلعهم على أسرار ملكوته فنهضوا ، ولم يعتّوا على الله تعالى بصبرهم ، ولم يستعظموا أن يبذلوا فى الحقّ نفوسَهم ؛ قال : حتى إذا وافق قضاء الله تعالى وقَدَره كى ينهض هؤلاء بقضاء الله وقدره فى انقضاء مدة تلك الفتنة ، وارتفاع ما كان شَمِل الخلق من البلاء بملكها وإمرتها ، حمل هؤلاء العارفون بصائرَهم على أسيافهم. وهذا معنى لطيف ، يعنى أنّهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس ، وكشفوها وجرّدوها من أجفانها ، مع تجريد السيوف من أجفانها ، فكأنها شئ محمول على السيوف يبصره مَنْ يبصر السيوف ، ولا ريبَ أنّ السيوف المجرّدة من أجلى الأجسام للأبصار ، فكذلك مايكون محمولا عليها ، ومِن النّاس مَنْ فسّر هذا الكلام ، فقال : أراد بالبصائر جمع بصيرة ، وهو الدم ، فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التى سفكتها هذه الفئة ، وكأنّ تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التى جرّدوها للحرب ، وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه :

رَاحُوا بصائرَهُم عَلَى أكتافِهِمْ ... وبَصِيرَتِى يَعْدُو بِهاعَتَدٌ وأى[٢]

وفسّره أبو عمرو بن العلاء ، فقال : يريد أنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خَلْفَهم ، أى لم يثأروا به ، وأنا طلبت ثأرى. وكان أبو عبيدة معمَر بن المثنّى يقول فى هذا البيت : البصيرة : التّرس أو الدّرع ، ويرويه : « حملوا بصائرهم ».

* * *

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « بقية » ، وفى د : « بقيّة ».

(٢) البيت فى الصحاح ٢ : ٥٩٢ ، ونسبه إلى الأسعر الجعفى ، وهو أيضا فى اللسان ٥ : ١٢٣

الأصلُ :

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِجِ ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ . قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ ؛ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ؛ مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ .

***

الشرح :

رجعوا على الأعقاب : تركوا ما كانوا عليه ، قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ﴾[(١)] .

وغالتهم السُّبل : أهلكتهم اختلاف الآراء والأهواء ، غاله كذا ، أي أهلكه ، والسُّبل : الطرق .

والولائج : جمع وَلِيجة ، وهي البطانة يتخذها الإنسان لنفسه ، قال سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[(٢)] .

ووصلوا غير الرَّحِم ، أي غير رحم الرسول الله صلى الله عليه وآله ، فذكرها عليه السلام

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٢) سورة التوبة ١٦ .

ذِكْراً مطلقا غير مضاف للعلم بها ، كما يقول القائل : «أهل البيت» ، فيعلم السامع أنه أراد أهلَ بيت الرسول .

وهَجَرُوا السبب ، يعني أهلَ البيت أيضا ؛ وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « خلَّفْتُ فيكم الثَّقَلَيْن : كتاب الله وعِترتي أهل بيتي ؛ حبْلان ممدودان من السماء إلى الأرض ، لا يفترقان حتى يرِدَا عليّ الحوض » ، فعبّر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ « السبب » لمّا كان النبي صلى الله عليه وآله قال : « حَبْلان » ، والسبب في اللغة : الحبل .

عَنَى بقوله : « أُمِرُوا بمودّته » قولَ الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (١) .

قوله : « ونقلوا البناء عن رصّ أساسه » ؛ الرَّصّ مصدر رَصَصْتُ الشيء أرصّه ، أي ألصقت بعضه ببعض ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (٢) ، وتَرَاصّ القوم في الصف ، أي تلاصقوا . فبنوْه في غير موضعه ! ونقلوا (٣) الأمر عن أهله إلى غير أهله .

ثم ذمّهم عليه السلام ، وقال : « إنّهم معادن كلّ خطيئة ، وأبواب كل ضاربٍ في غَمْرة » ، الغمرة : الضّلال والجهل . والضّارب فيها : الداخل المعتقد لها .

قد ماروا في الحيْرة ، مارَ يمُور إذا ذهب وجاء ، فكأنّهم يسبحون في الحيرة كما يَسْبَح الإنسان في الماء .

وذَهَل فلان ، بالفتح ، يذْهَل . على سنّة من آل فرعون ، أي على طريقة ، وآل فرعون : أتباعه ، قال تعالى : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الشورى ٢٣ .

(٢) سورة الصف ٤ .

(٣) ب : « وعقلوا » ، وما أثبته من د .

(٤) سورة غافر ٤٦ .

من منقطِـع إلى الدنيا : لا هَمّ له غـيرها . راكن : مخلِد إليهـا ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾[1] . أو مفارق للدين مباين[2] : مزايل .

فإن قلت : أيّ فَرْق بين الرَّجُلين؟ وهل يكون المنقطِـع إلى الدنيا إلّا مفارقا للدين؟

قلت : قد يكون فى أهل الضلال مَنْ هو مفارق للدين مباين؛ وليس براكنٍ إلى الدنيا ولا منقطِـع إليها ؛ كما نرى كثيراً من أحبار النصارى ورهبانهم .

فإن قلت : أليس هذا[3] الفصل صريحاً فى تحقيق مذهب الإمامية ؟

قلت : لا ، بل نحمله على أنه عَنَى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب ، فى أيام صِفّين ، وهم الذين نقلوا البناء ، وهجروا السبب ، ووصلُوا غير الرَّحِم ، واتّـكلوا على الولائج ، وغالتهم السُّبُل ، ورجعوا على الأعقاب ؛ كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومَرْوان بن الحكم ، والوليد بن عُقْبة ، وحبيب بن مسلَمة ، وبُسْر بن أرطاة ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وحوشب ، وذِى الكَلاع ، وشُرَحْبيل ابن السّمط[4] ، وأبى الأعور السلمىّ ؛ وغيرهم ممن تقدّم ذِكرُنا له فى الفصول المتعلّقة بصِفّين وأخبارها ، فإنّ هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليـه السلام إلى معاوية ، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه .

فإن قلت . لفظ الفصل يشهدُ بخلاف ما تأوّلته ، لأنه قال عليه السلام : حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب ، فجعل رجوعَهم على الأعقاب عَقِيب قَبْض الرسول صلى الله عليه وآله ، وما ذكرتَه أنتَ كان بعد قَبْض الرسول بنيّف وعشرين سنة !

قلت : ليس يمتنع أن يكونَ هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب ، لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأضْمَرُوا فى أنفسهم مشاقّة أمير المؤمنين وأذاه ، وقد كان فيهم مَنْ

---

(١) سورة هود ١١٣ .
(٢) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « ومباين » .
(٣) ساقطة من د
(٤) ب : « الصمت » .

يتحكّك به فى أيام أبى بكر وعمر وعثمان، ويتعرّض له؛ ولم يكن أحدٌ منهم ولا من غيرهم يُقدِم على ذلك فى حياة رسول الله . ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدادهم عن الإسلام بالكلّيّة ، فإنّ كثيرا من أصحابنا يطعنون فى إيمان بعض مَنْ ذكرناه ويعدّونهم من المنافقين ، وقد كان سيفُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقمعُهم ويردَعُهم عن إظهار ما فى أنفسهم من النفاق ، فأظهر قومٌ منهم بعده ما كانوا يضمِرُونه من ذلك ؛ خصوصا فيما يتعلّق بأمير المؤمنين ، الذى وَرَد فى حقّه : « ما كنّا نعرِفُ المنافِقِين عَلَى عَهْدِ رسول الله إلّا ببغض علىّ بن أبى طالب » ، وهو خَبَرٌ محقق مذكور فى الصّحاح .

فإن قلت : يمنعك من هذا التأويل قوله : « ونقلوا البناء عن رصّ أساسه ، فجعلوه فى غير موضعه »، وذلك لأنّ « إذا » ظرف ؛ والعامل فيها قوله : «رجع قومٌ على الأعقاب» وقد عطف عليه قوله : « ونقلوا البناء » ؛ فإذا كان الرّجوع على الأعقاب واقعاً فى الظرف المذكور ، وهو وقت قبض الرسول، وجَب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً فى ذلك الوقت أيضاً ، لأنّ أحد الفعلين معطوف على الآخر ، ولم ينقلْ أحدٌ وقتَ قبض الرسول صلى الله عليه وآله البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وإنّما نُقِل عنه إلى شخص آخر ، وفى إعطاء العطف حقّه إثبات مذهب الإماميّة صريحا !

قلت : إذا كان الرجوعُ على الأعقاب واقعاً وقت قبض النبى صلى الله عليه وآله فقد قمنا بما يجبُ من وجود عامل فى الظرف ، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً فى تلك الحال أيضاً ، بل يجوز أن يكون واقعاً فى زمان آخر؛ إما بأن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، أو بأن تكون العطف فى مطلق الحدث لا فى وقوع الحدَث فى عين ذلك الزّمان المخصوص ، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ

يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[1] ؛ فالعامل فى الظرف «استطعما» ويجب أن يكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة . ولا يجب أن تكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً ؛ ألا ترى أنّ من جملتها «فأقامه» ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما ؛ اللهم إلا أن يقول قائل : أشار بيده إلى الجدار فقام ، أو قال له : قم ، فقام ، لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً للإتيان إلّا على هذا الوجه ؛ وهذا لم يكن ، ولا قاله مفسر . ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ؛ لأنّ الأجر إنما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة : وإنما يكون فيه مشقّة إذا بناه بيده ، وباشره بجوارحه وأعضائه .

واعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يقتضيه سؤدُده الجليل ، ومنصبه العظيم ، ودينه القويم ، من الإغضاء عمّا سلف ممّن سلف ؛ فقد كان صاحبَهم بالمعروف بُرْهةً من الدهر ، فإمّا أن يكون ما كانوا فيه حقّهم أو حقه ، فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة ، أو لما رآه من المصلحة ؛ وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن نطبّق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم وبين أولها ؛ فإنّ بَعُد تأويل مايتأوّله من كلامه ، ليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة فى القرآن ، ولم يمنع بعدها من الخوض فى تأويلها محافظةً على الأصول المقررة ؛ فكذلك هاهنا .

---

(١) سورة الكهف ٧٧ .

(١٥١)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ ، وَالاِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ ؛ لَا يُؤَازَى فَضْلُهُ ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ ؛ أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ ؛ يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ .

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ ؛ فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا ، وَظُهُورِ كَمِينِهَا ، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا ، وَمَدَارِ رَحَاهَا ؛ تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ ؛ شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلَامِ ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ ؛ يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ ؛ وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ ؛ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ .

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ ، وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا .

مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ . قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ ؛ وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ ، تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا ، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا ؛ يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ .

يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ ، وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ . مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ ، تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ؛ بَرِيئُهَا سَقِيمٌ ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ .

***

الشرح :

مداحر الشيطان : الأمور التي يُدْحَر بها ، أي يطرد ويبعد ، دحرته أدحره دُحورا ، قال تعالى : ﴿ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾[1]،وقال سبحانه : ﴿ أخرُجْ مِنها مَذْءوماً مَدْحُوراً ﴾[2] ، أي مقصًى .

ومزاجره : الأمور يزجربها ؛ جمع مَزْجر : ومَزْجرة،وكثيرا مايبنى عليه السلام من الأفعال « مَفْعلا » و « مَفْعَلة » ويجمعه ؛ وإذا تأملت كلامه عرفت ذلك .

وحبائل الشيطان : مكائده وأشراكه التي يُضِلّ بها البشر . ومخاتله : الأمور التي يختِل بها ، بالكسر ، أي يخدع .

لا يُؤازى فضله : لا يساوِى ، واللفظة مهموزة ، آزيت فلانا : حاذيته ، ولا يجوز « وازيته » .

(١) سورة الصافات ٩ .
(٢) سورة الأعراف ١٨

ولا يجبر فقدُه : لا يسدّ أحدٌ مسدّه بعده . والجفوة الجافية : غِلَظ الطّبع وبلادة الفهم .

ويستذِلّون الحكيم : يستضيمون العقلاء ، واللام هاهنا للجنس ، كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (١) .

يحيون على فَتْرة : على انقطاع الوحي مابين نبوّتين .

ويموتون على كَفْرة ، بالفتح ، واحد الكَفَرات ، كالضربة واحدة الضّربات .

ويروى: « ثم إنكم معشر الناس ». والأغراض: الأهداف . وسكَرات النعمة: ماتحدثه النّعم عند أربابها من الغفلة المشابهة للسُّكر ، قال الشاعر :

خمس سَكَرات إذا مُنِيَ المرْ ءُ بهـا صارَ عُرْضَة الزّمانِ

سَكْرَةُ المال والحداثة والعِشـ ـق وسكْر الشّراب والسّلطانِ

ومن كلام الحكماء : للوالي سَكْرةٌ لا يُفيق منها إلّا بالعزْل . والبوائق: الدّواهي، جمع بائقة ؛ يقال : باقَتْهُم الدّاهية بَوْقًا ، أي أصابَتْهم ، وكذلك : باقتهم بؤوق على « فعول » ، وابتاقت عليهم بائقة شرّ ، مثل انباحت ، أي انفتقت ، وانباقَ عليهم الدّهر : هجم بالداهية ، كما يخرُج الصوت من البُوق ، وفي الحديث : « لا يدخل الجنّة من لا يأمن جارُه بوائقَه » ، أي غوائله وشرّه .

والقَتَام ، بفتح القاف : الغبار . والأقتم : الذي يعلوه قَتَمة ؛ وهو لونٌ فيه غبرة وحُمْرة .

والعِشْوة ، بكسر العين : ركوب الأمر على غير بيان ووضوح. ويروى : « وتبيّنوا في قتام العِشْوة » كما قرئ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٢) و ﴿ فتثبتوا ﴾ .

---

(١) سورة الفجر ٢٢ .

(٢) سورة الحجرات ٦ .

واعوجاج الفتنة : أخذها فى غَيْرِ القَصْد ، وعدولها عن المهج .

ثم كَنَى عن ظهور المستور المخفىّ منها بقوله : «عند طلوع جنينها ، وظهور كمينها» ، والجنين : الولد مادام فى البطن ، والجمع أجِنّة ، ويجوز ألّا يكون الكلام كناية بل صريحاً ؛ أى عند طلوع ما استجنّ منها ؛ أى استتر وظهور ما كمن ، أى مابطن .

وكَنَى عن استحكام أمر الفتنة بقوله : « وانتصاب قطبها ، ومدار رحاها » .

ثم قال : إنّها تبدو يسيرة ، ثم تصير كثيرة .

والفظاعة . مصدر فظُع بالضم ، فهو فظيع أى شديد شنيع تجاوز المقدار ، وكذلك أفظَع الرجل فهو مُفظِع ، وأُفظِعَ الرجل على مالم يسمّ فاعله : نزل به أمر عظيم، وأفظعت الشيء : وجدته فظيعا ، ومثله استفظعته ، وهذا المعنى كما قال الشاعر :

وَ رُبَّما هَاجَ الـــكَبِيـــرَ من الأمور لك الصغير

وفى المثل : « والشر تبدؤه صغاره » ، وقال الشاعر :

فإنّ النّارَ بالعُودَيْن تُذْكَى وإنَّ الحَرْبَ أوّلُها كَلَامُ[1]

وقال أبو تمام :

ربّ قليل جَدَا كثيراً كم مطرٍ بَدْؤُهُ مُطيرُ

وقال أيضا :

لا تذيلنْ صغير همّك وانظرْ كم بذى الأثل دوحة من قَضيبِ[2]

قوله : « شِبابها كشِباب الغلام » بالكسر ، مصدر شبَّ الفرس والغلام يشِبُّ ويشَبُّ شبابا وشبيبا ، إذا قمص ولعب ، وأشببته أنا ، أى هيّجته .

---

(١) لنصر بن سيار ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ١١٠ .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٧ . والأثل : شجر معروف بعظمه ، والدوحة : الشجرة العظيمة .

والسُّلام: الحجارة جمع ، واحده سَلِمة بكسر اللام ؛ يذكر الفتنة ، ويقول : أنها تبدو في أوّل الأمر وأربابها يمرحون ويشبّون كما يشِبّ الغلام ويمرح ، ثم تئول إلى ان تعقب فيهم آثارا ، كآثار الحجارة في الأبدان ، قال الشاعر :

والحب مثـــل الحرب أوّلهـــا التخيّـــل والنّشـــاطُ
وختـــامهـــا أم الرّبيـ ق الكرّ والضّربُ القِطَاطُ[1]

ثم ذكر أنّ هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم ، وكلّهم ظالم ، أولهم يقود آخرهم ؛ كما يقود الإنسان القطارَ من الإبل وهو أمامها وهي تتبعه . وآخرهم يقتدِي بأوّلهم ، أي يفعل فعلَه ، ويحذو حذوَه .

وجيفة مريحة : منتنة ، أراحت: ظهر ريحُها. ويجوز أن تكون من أراحَ البعير ، أى مات ، وقد جاء في « أراح » بمعنى أنتن « راح » بلا همز .

ثم ذكر تبرّؤ التابع من المتبوع ، بمعنى يوم القيامة

فإن قلت : إنّ الكتاب العزيز إنما ذكر تبرؤ المتبوع من التابع في قوله :﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾[2] ، وهاهنا قد عكس ذلك ، فقال :إنّ التابع يتبرّأ من المتبوع !

قلت : إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك ، في قوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[3]. ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾[4]، فقولهم : ﴿ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ هو التبرؤ ، وهو قوله حكايةعنهم:﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[3] ﴾ ، وهذا هو التبرّؤ .

---

(١) أم الربيق كناية عن الحرب .
(٢) سورة البقرة ١٦٦ .
(٣) سورة الأنعام ٢٢ ، ٢٣ .
(٤) سورة غافر ٧٤

ثم ذكر عليه السلام أنّ القائد يتبرّأ من المقود ، أى يتبرّأ المتبوع من التابع فيكون كلٌّ من الفريقين تبرّأ من صاحبه ، كما قال سبحانه :﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ (١) .

ويتزايلون : يتفرّقون .

قوله : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف » . طالعها : مقدّماتها وأوائلها؛ وسمّاها « رَجوفا » ، لشدّة الاضطراب فيها .

فإن قلت : ألم تكن قلتَ : إنّ قوله : « عن قليل يتبرّأ التابع من المتبوع » يعنى به يوم القيامة ، فكيف يقول : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة » وهذا إنّما يكون قبل القيامة !

قلت : إنّه لمّا ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهى الدنيا ، أراد أن يقول بعده بلا فصل : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف » ، لكنه لما تعجّب من تزاحم الناس وتكالُبهم على تلك الجيفة ، أراد أن يؤكّد ذلك التعجّب ، فأتى بجملة معترضة بين الكلامين . تؤكد معنى تعجّبه منهم ، فقال : إنّهم على ماقد ذكرنا من تكالُبهم عليها؛ عن قليل يتبرّأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضُهم بعضا ، وذلك أدعى لهم — لو كانوا يعقلون — إلى أن يتركوا التكالُب والتهارُش على هذه الجيفةِ الخسيسةِ . ثم عاد إلى نظام الكلام ، فقال : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف » ، ومثلُ هذا الاعتراض فى الكلام كثير ، وخصوصا فى القرآن ، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم طرفا .

قوله : « والقاصمة الزّحُوف » القاصمة : الكاسرة ، وسماها زَحُوفاً تشبيهاً لمشيها قُدُماً بمشى الدَّبى الذى يهلك الزروع ويبيدها ، والزحف : السير على تُؤَدة كسَيرِ الجيوش بعضها إلى بعض .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٥ .

قوله : « وتزيغ قلوبٌ » أى تميل ، وهذه اللفظة والتى بعدها دالّتان على خلاف ماتذهب إليه الإماميّة من أنّ المؤمن لا يكفر ، وناصرتان لمذهب أصحابنا .

ونجومُها : مصدر نَجَمَ الشرّ إذا ظهر .

مَنْ أشرف لها : مَنْ صادَمها وقابلها . ومَنْ سعى فيها ، أى فى تسكينها وإطفائها، وهذا كلّه إشارة إلى الملحمة الـكائنة فى آخر الزمان .

والتكادُم : التعاضّ بأدْنى الفم ، كما يكدِم الحمار ، ويقال : كَدَمَ يكدِم ، والمكدَم : المعضّ .

والعانة : القطيع من حُمر الوحش ، والجمع عُون .

تغيض فيها الحكمة : تنقُص .

فإن قلت : ليس قوله : « وتنطِق فيها الظلمة » واقعاً فى نقيض قوله : « تغيض فيها الحكمة » ، فأين هذا مِن الخطَابة التى هو فيها نسيجُ وحده !

قلت : بل المناقضة ظاهرة ؛ لأنّ الحكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بدّ من نطقٍ ما ، فإذا لم تنطق الحكماء وجبَ أن يكون الناطق لمن ليس من الحكماء ؛ فهو من الظَّلَمة ، فقد ثبت التناقض .

والمِسْحَل : المبرد . يقول : تنحت أهلَ البدْو وتسحتُهم كما يُسحَتُ الحديد أو الخشب بالمبرد . وأهل البدْو : أهلُ البادية ، ويجوز أن يريد بالمسْحَل الحلقة التى فى طرف شكيم اللّجام المعترضة بإزاء حَلْقة أخرى فى الطرف الآخر ، وتدخل إحداهما فى الأخرى ؛ بمعنى أنّ هذه الفتنة تصدم أهل البدْو بمقدمة جيشها كما يصدِمُ الفارسُ الراجل أمامه بمسْحَل لجام فرسه .

والكَلْكَل : الصدر . وترضّهم : تدقّهم دقًّا جريشا .

قوله : «تضيع في غبارها الوُحدان» ، جمع واحد ، مثل شابّ وشبّان ، وراعٍ ورُعيان، ويجوز «الأُحدان» بالهمز ، أي مَنْ كان يسير وحده فإنه يهلك بالكليّة في غبارها، وأما إذا كانوا جماعة ركبانا فإنهم يضلّون، وهو أقربُ من الهلاك، ويجوز أن يكونَ الوُحدان جمع أوحد ؛ يقال : فلان أوحد الدّهر ، وهؤلاء الوُحدان أو الأحدان ، مثل أسود وسُودان، أي يضلّ في هذه الفتنة ، وضلالها الذى كنّى عنه بالغبار فضلاء عصرِها وعلماء عهدها؛ لغموض الشّبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها . ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أنّ الراكبَ الذى هو بمظنّة النّجاة لا ينجُو . والرُّكبان : جمع راكب، ولا يكون إلا ذا بعير.

قوله : تَرِدُ بمُرّ القضاء ، أى بالبوار والهلاك والاستئصال .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة : إنها من القضاء ؟

قلت : نعم ، لا بمعنى الخلق بل بمعنى الإعلام ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ﴾[1] أى أعلمناهم ، أى ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء إعلامه من المكلّفين أنها أمّ اللّهيم[2] التى لا تبقى ولا تذر ، فذلك الإعلام هو المرّ الذى لا يبلغ الوصفُ مرارته ، لأنّ الإخبار عن حلول المكروه الذى لا مدفع عنه ولا محيص منه، مرٌّ جدا .

قوله : «وتحلُب عَبيط الدماء» ، أى هذه الفتنة يحلُبها الحالب دما عبيطا، وهذه كناية عن الحرب ، وقد قال عليه السلام في موضع آخر : «أما والله ليحلبنّها دما، وليتبعنّها ندما» والعبيط . الدم الطرىّ الخالص .

وثَلَمت الإناء ، أثلِمه بالكسر .

والأكياس : العقلاء .

---

(١) سورة الإسراء ٤ .
(٢) أم اللهيم : الداهية .

والأرجاس : جمع رِجْس ، وهو القَذَر والنّجس ، والمراد هاهنا الفاسقون ، فإمّا أن يكون على حذف المضاف ؛ أى ويدبّرها ذوو الأرجاس ، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسها ، (١) لمّا كانوا قد أسرفوا فى الفسق ، فصاروا كأنهم الفسق والنجاسة نفسها (١) كما يقال: رجل عَدْل ، ورجل رضا .

قوله : « مِرْعادٌ مبراقٍ » ، أى ذات وعيد وتهدّد ، ويجوز أن يعنى بالرّعد صوتَ السلاح وقعقعته ، وبالبرق لونَه وضوءه .

وكاشفة عن ساقٍ : عن شدّة ومشقة .

قوله : « بريئها سقيم » ؛ يمكن أن يعنى بها أنّها لشدّتها لا يكاد الّذى يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة ، بل لابدّ أن يستثنىَ شيئاً من الفسق والضلال ، أى لشدّة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلّفين حينئذ .

ويمكن أن يعنى به أنّ الهارب منها غير ناجٍ ، بل لابدّ أن يصيبه بعض معرّتها ومضرّتها .

وظاعنها مقيم ، أى ما يفارق الإنسان من أذاها وشرّها ؛ فكأنه غير مفارق له ، لأنه قد أبقى عنده ندوباً وعقابيل من شرورها وغوائلها .

***

الأصل :

منها :

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الْأَيْمَانِ ، وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ ، فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ .

(١ ـ ١) ساقط من ب .

وَالْزَمُوا مَاعُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ . وَأَقْدِمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ ، وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ ، وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ .

***

الشرح :

يقال : طَلَّ دم فلان فهو مطلول ، أى مُهدَر لا يُطلَب به ، ويجوز أُطِلَّ دمُه ، وطلّه الله وأطلّه : أهدره ، ولا يقال : طَلَّ دم فلان بالفتح ، وأبو عبيدة والكسائىّ يقولانه .

ويختِلون : يخدعون بالايمان التى يعقِدونها ويقسِمون بها ، وبالإيمان الذى يظهرونه ويقرّون به .

ثم قال : « فلا تكونوا أنصار الفِتَن ، وأعلام البدع » ، أى لا تكونوا ممن يشارُ إليكم فى البدع كما يشار إلى الأعلام المبنيّة القائمة ، وجاء فى الخبر المرفوع : « كُنْ فى الفتنة كابنِ اللَّبون ، لا ظهرَ فيركب ، ولا ضَرعٍ فيحلب » ، وهذه اللفظة يرويها كثير من الناس لأمير المؤمنين عليه السلام .

قوله : « واقدَموا على الله مظلومين » ، جاء فى الخبر : « كُنْ عبدَ الله المقتول » .

ومدارج الشيطان : جمع مَدْرَجة ، وهى السبيل التى يدرج فيها . ومهابط العدوان : محالُّه التى يهبط فيها .

ولُعَق الحرام : جمع لُعْقةٍ ، بالضمّ ، وهى اسم لما تأخذه الملعقة ، واللَّعقة ، بالفتح : المرّة الواحدة .

قوله : « فإنكم بعين من حرّم » ، يقال : أنت بعين فلان ، أى أنت بمرأى منه ، وقد قال عليه السلام فى موضع آخر بصِفّين : « فإنّكم بعين الله ، ومع ابن عمّ رسول الله » ، وهذا من باب الاستعارة ، قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[1] ، وقال : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾[2] .

(١) سورة طه ٣٩ . (٢) سورة القمر ١٤ .

(١٥٢)

الأصْلُ

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ، وَ بِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أنْ لَا شَبَهَ لَهُ ؛ لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ ، اَلْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ ، وَالْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ ، وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ ، وَالْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ .

بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا ، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ : « كَيْفَ » فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « أَيْنَ » ، فَقَدْ حَيَّزَهُ ، عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومٌ ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ ، وَقَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ .

***

الشَّرْحُ :

[أبحاث كلامية]

في هذا الفصل أبحاث :

أوّلها في وجوده تعالى ، وإثبات أنّ للعالم صانعاً ؛ وهاتان طريقتان في الدّلالة على وجوده الأول سبحانه :

إحداها : الطريقة المذكورة فى هذا الفصل ، وهى طريقة المتكلمين ، وهى إثبات أنّ الأجسام محدَثة ، ولا بدّ للمحدَث من مُحدِث .

والثانية : إثبات وجوده تعالى من النظر فى نفس الوجود .

وذلك لأنّ الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين : واجب وممكن ، وكلّ ممكن لا بدّ أن ينتهىَ إلى الواجب ، لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه فى قوامه ؛ فلا بدّ من واجب يستند إليه ؛ وذلك الواجب الوجود الضرورىّ الذى لا بدّ منه ، هو الله تعالى .

وثانيها : إثبات أزليّته ؛ وبيانه ما ذكره فى هذا الفصل ؛ وهو أن العالَم مخلوق له سبحانه حادث من جهته ، والمحدَث لا بدّ له من محدِث ، فإن كان ذلك المحدِث محدَثا ، عاد القول فيه كالقول فى الأول ، وتسلسل ، فلا بدّ من محدِث قديم ؛ وذلك هو الله تعالى .

وثالثها : أنه لا شبيهَ له ، أى ليس بجسم كهذه الأجسام ، وبيانه ما ذكر أيضاً أنّ مخلوقاته متشابهة ، يعنى بذلك ما يريده المتكلّمون من قولهم : الأجسام متماثلة فى الجسمية ، وأنّ نوع الجسمية واحد ، أى لا يخالف جسمٌ جسماً بذاته ، وإذا كانت [متماثلة صحّ على كلّ واحد منها ما صحّ على الآخر ، فلو كان [له] سبحانه شبيهٌ منها ـ أى لو كان جسماً مثلها ـ لوجب أن يكون محدَثا كمثلها ، أو تكون قديمة مثله ؛ وكلاَ الأمرين محال .

ورابعها : أنّ المشاعر لا تستلمه ، وروى «لا تلمسه» ؛ والمشاعر الحواسّ ، وبيانه أنه تعالى ليس بجسم لما سبق ؛ وما ليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسةً له ؛ لأنّ إدراك المشاعر مدركاتِها مقصور على الأجسام وهيئاتها . والاستلام فى اللغة : لمس الحجر باليد وتقبيله ؛ ولا يهمز ، لأن أصله من السَّلام وهى[1] الحجارة ؛ كما يقال : استنوق الجملُ ، وبعضهم يهمزه .

---

(١) ساقطة من د .

وخامسها : أنّ السواتر لا تحجبه ؛ وبيانه أنّ السواتر والحجب ؛ إنّما تحجب ما كان في جهة ؛ وذلك لأنها ذوات أين ووضع فلا نسبة لها ، إلى ماليس من ذوات الأين والوضع .

ثم قال عليه السلام : «لافتراق الصانع والمصنوع» ، إشارة إلى أنّ المصنوع من ذوات الجهة والصانع منزّه عن ذلك ؛ برىء عن الموادّ ، فلا يلزم فيه مايلزم في ذوات المادة والجهة .

وسادسها : معنى قولنا : إنه أحد ، « أنّه ليس بمعنى العدد كما يقوله الناس : أوّل العدد أحد وواحد ، بل المراد بأحديّته كونه لا يقبل التجزّؤ ؛ وباعتبار آخر كونه لا ثانيَ له في الربوبية .

وسابعها : أنّه خالق ، لا بمعنى الحركة والنَّصَب ، وهو التعب ؛ وذلك لأنّ الخالقين منّا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساما تفعل بالآلات ، والباري سبحانه ليس بجسم ، ولا يفعل بالآلة ، بل كونه قادرا إنّما هو لذاته المقدّسة ، لا لأمرٍ زائد عليها ، فلم يكن فاعلا بالحركة .

وثامنها : أنّه سميع ، لا بأداة ؛ وذلك لأنّ حاجتنا إلى الحواسّ ، إنما كانت لأمرٍ يخصّنا ؛ وهو كوننا أحياء بحياة حالّة في أبعاضنا ، والباريُ تعالى حيّ لذاته ؛ فلم يحتجْ في كونه مدركا إلى الأداة والجارحة .

وتاسعها : أنه بصير لا بتفريق آلة ، والمراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذى باعتباره يكون الواحد منّا مبصرا ، فإنّ القائلين بالشعاع يقولون : إنّه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعّة ؛ وتكون آلة للحيّ في إبصار المبصَرات ، فيتفرّق عليها ، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصَرا ، والباريُ تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك ، ويتفرّق على المرئيات

فيدركها به ؛ وذلك لما قدّمناه من أنّه حيّ لذاته ؛ لا بمعنى ، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدرَكات .

وعاشرها : أنّه الشاهد لا بمماسّة ؛ وذلك لأنّ الشاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود ؛ ألا ترى أنّ مَنْ في الصين لا يكون شاهدا مَنْ في المغرب ؛ لأنّ الحضور الجسمانيّ يفتقر إلى القرب ، والقرب من لوازم الجسمية ، فما ليس بجسم ـ وهو عالم بكلّ شيء ـ يكون شاهدا من غير قرب ولا مماسّة ، ولا أين مطلوب .

وحادى عشرها : أنّه البائن لا بتراخى مسافة بينونة المفارق عن المادّة بينونة ليست أينيّة ، لأنه لا نسبةَ لأحدهما إلى الآخر بالجهة ؛ فلا جرَم كان البارئ تعالى مباينا عن العالم ، لا بمسافة بين الذاتين .

وثانى عشرها : أنّه الظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة ؛ وذلك لأنّ الظاهر من الأجسام ما كان مرئيا بالبصر ، والباطن منها ما كان لطيفا جدا ؛ إما لصغره أو لشفافيّته ، والبارئ تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار ، باطن ؛ أى غير مدرك بالحواسّ لأن ذاته لا تقبل المدركيّة إلّا من حيث كان لَطيف الحجم أو شفّاف الجِرم .

وثالث عشرها : أنّه قال : بان من الأشياء بالقهر لها ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه[1] بالخضوع له ، والرجوع إليه ؛ هذا هو معنى قول المتكلّمين والحكماء ، والفرق بينه وبين الموجودات كلّها أنه واجب الوجود لذاته ، والأشياء كلّها ممكنة الوجود[2] بذواتها ، فكلّها محتاجة إليه ، لأنها لا وجود لها إلّا به ؛ وهذا هو معنى خضوعها له ، ورجوعها إليه . وهو سبحانه غنىّ عن كلّ شيء ؛ ومؤثّر فى كلّ شيء ؛ إمّا بنفسه ، أو بأن يكون مؤثّرا فيما هو مؤثر فى ذلك الشيء ، كأفعالنا ، فإنه يؤثر فينا ؛ ونحن نؤثر فيها ، فإذا هو قاهر لكلّ شيء ، وقادر على كلّ شيء . فهذه هى البينونة بينه وبين الأشياء كلّها .

---

(١) ج : « عنه » .
(٢) ساقطة من د .

ورابع عشرها : أنّه لا صفة له زائدة على ذاته ؛ ونعنى بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته ؛ وذلك لأنّ مَنْ أثبت هذه الصفة له فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن عَدّه فقد أبطل أزَله ، وهذا كلام غامض ، وتفسيره أن مَنْ أثبت له علما قديما أو قدرة قديمةً ، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلوماتٍ محدودة ، أى محصورة ، وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدُودة ؛ وهذه المقدّمة فى كُتُب أصحابنا المتكلّمين مما يذكرونه فى تقرير أنّ العلم الواحد لا يتعلّق بمعلومَيْن ، وأنّ القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلّق فى الوقت الواحد من الجنس الواحد فى المحلّ الواحد إلاّ بجزء واحد ؛ وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدَثين ، فإنّ هذا الحكم لازم لهما ، فقد ثبت أنّ مَنْ أثبت المعانى القديمة فقد أثبت البارئ تعالى محدود العالمية والقادريّة ، ومن قال بذلك فقد عدّه ، أى جعله من جملة الجثة المعدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات ، ومَنْ قال بذلك ؛ فقد أبطل أزله ، لأن كلّ ذات مماثلة لهذه الذوات المحدَثة ؛ فإنها محدثة مثلها ، والمحدث لا يكون أزليا .

وخامس عشرها : أنّ من قال : « كيف » ، فقد استوصَفه ، أى مَنْ قال لزيد : كيف الله ؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفيّة من الكيفيات ، والبارئ تعالى لا تجوز الكيفيّات عليه ، والكيفيّات هى الألوان والطعوم ونحوها ، والأشكال والمعانى وما يجرى مَجْرَى ذلك ؛ وكلّ هذا لا يجوز إلا على الأجسام .

فإن قلت : ينبغى أن يقول : « فقد وصفه » ، ولا يقال : « فقد استوصفه » ؛ لأنّ السائل لم يستوصف الله ؛ وإنما استوصف صاحبه الذى سأله عن كيفيّة الله .

قلت : « استوصف » ها هنا بمعنى « وصف » ؛ كقولك : استغنى زيد عن عمرو ، أى غَنِيَ عنه ، واستعلى عليه ، أى علا ، ومثله كثير .

وسادس عشرها : أنّ من قال : « أين » فقد حيّزه ، لأنّ « أين » سؤال عن المكان ، وليس الله تعالى فى مكان ، ويأتى أنّه فى كلّ مكان بمعنى العلم والإحاطة .

وسابع عشرها : أنه عالم إذ لا معلوم ، وربّ إذ لا مربوب ، وقادر إذ لا مقدور ، وكلّ هذا صحيح ومدلول عليه ، لأنه عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشياء بموجود ، وهو ربّ كلّ شيء قبل أن يخلقه ، كما تقول إنّه سميع بصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصَرات ، أى قبل أن يخلقها ، وقادر على الأشياء قبل كونها ، لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة ، لاستحالة إيجاد الموجود .

وقد شرحنا كل هذه المسائل التوحيدية فى كتبنا المصنّفة فى علم الكلام .

***

الأصْلُ

منها :

قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ ، وَلَمَعَ لَامِعٌ ؛ وَلَاحَ لَائِحٌ ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ ، وَاسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً ، وَبِيَوْمٍ يَوْماً ؛ وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ ، انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ .

وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ .

إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ ، اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ وَبَيَّنَ حُجَجَهُ ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ ، وَبَاطِنِ حُكْمٍ ؛ لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ .

فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَفِي ، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي .

***

الشرح :

هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه .

قد طلع طالع ، يعنى عَوْد الخلافة إليه ، وكذلك قوله : « ولمع لامع ، ولاح لائح » ؛ كلّ هذا يراد به معنًى واحد .

واعتدل مائل ، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج فى أواخر أيام عثمان ، واستبدل الله بعثمان وشيعته عليًّا وشيعتَه ، وبأيام ذاك أيام هذا .

ثم قال : « وانتظرنا الغِيَر انتظار المجدب المطر » ؛ وهذا الكلام يدلّ على أنّه قد كان يتربّص بعثمان الدوائر ، ويرتقب حلول الخطوب بساحته ، لِيَلِيَ الخلافة .

فإن قلت : أليس هو الذى طلّق الدنيا ، فأين هذا القول من طلاقها ؟

قلت : إنه طلّق الدنيا أن يقبل[1] منها حظا دنيويًّا ، ولم يطلقها ، أن ينهى فيها عن المنكرات التى أمره الله تعالى بالنهى عنها ، ويقيم فيها الدين الذى أمره الله بإقامته ، ولا سبيل له إلى النّهى عن المنكَر والأمر بالمعروف إلّا بولاية الخلافة .

* * *

[عقيدة علىّ فى عثمان ورأى المعتزلة فى ذلك]

فإن قلت : أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال : إنه عليه السلام كان ينتظر قتلَ عثمان ، انتظار المجدِب المطر ، وهل هذا إلّا محض مذهب الشيعة !

قلت : إنه عليه السلام لم يقل : « وانتظرنا قتله » وإنما انتظر الغِيَر ، فيجوز أن يكون أراد انتظار خلعه وعزله عن الخلافة ، فإنّ عليا عليه السلام عند أصحابنا كان يذهب إلى أنّ عثمان استحقّ الخلع بإحداثه ، ولم يستحقّ القتل ، وهذا الكلام إذا حُمِل على انتظار الخلع كان موافقا لمذهب أصحابنا .

---

(١) د : « ينال » .

فإن قلت : أتقول المعتزلة إنّ عليا كان يذهب إلى فسق عثمان المستوجب لأجله الخلع؟

قلت : كلّا ! حاش لله أن تقولَ المعتزلة ذلك ! وإنما تقول إنّ عليا كان يرى أنّ عثمان يضعف عن تدبير الخلافة ، وأنّ أهلَه غَلَبُوا عليه ، واستبدّوا بالأمر دونه ، واستعجزه المسلمون ، واستسقطوا رأيه ، فصار حكمه حكم الإمام إذا عَمِيَ ، أو أسره العدوّ ، فإنه ينخلِع من الإمامة .

***

ثم قال عليه السلام : « الأئمة قوّام الله على خلقه » ، أى يقومون بمصالحهم ، وقيّم المنزل : هو المدّبر له .

قال : « وعرفاؤه على عباده » : جمع عريف ، وهو النقيب والرئيس ، يقال : عرُف فلان بالضمّ عرافةً بالفتح ، مثل خَطُب خطابة أى صار عريفا ، وإذا أردت أنه عمِل ذلك قلت : عرَف فلان علينا سنين ، يعرُف عِرافة بالكسر ، مثل كَتَبَ يكتبُ كِتابة .

قال : « ولا يدخل الجنّة إلا مَنْ عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النّار إلا مَنْ أنكرهم وأنكروه » ، هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] ، قال المفسّرون : ينادى فى الموقف : يا أتباعَ فلان ، ويا أصحاب فلان ، فينادَى كلّ قوم باسم إمامهم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : لا يدخل الجنّة يومئذٍ إلّا مَنْ كان فى الدّنيا عارفا بإمامه ، ومَنْ يعرفه إمامه فى الآخرة ، فإنّ الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة ، وإن لم يكونوا رأوْهم فى الدنيا ، كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يشهد[2] للمسلمين وعليهم ، وإن لم يكنْ رأى أكثرهم ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[3] وجاء فى الخبر

(١) سورة الإسراء ٧١ .
(٢) ب : « شهد » .
(٣) سورة النساء ٤١ .

المرفوع : « مَنْ مات بغير إمام مات مِيتة جاهلية » ، وأصحابنا كافّة قائلون بصحّة هذه القضيّة ؛ وهي أنه لا يدخل الجنّة إلا من عرَف الأئمة ؛ ألا تَرَى أنهم يقولون : الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلان وفلان ، ويعدّونهم واحدا واحدا ، فلو أنّ إنسانًا لا يقول بذلك ؛ لـكان عندهم فاسقا ، والفاسق لا يدخل الجنّة عندهم أبدا ، أعنى مَنْ مات على فسقه . فقد ثبت أنّ هذه القضية ، وهي قوله : عليه السلام : « لا يدخل الجنّة إلّا مَنْ عرفهم » قضيّة صحيحة على مذهب المعتزلة ، وليس قوله : « وعرفوه » بمنكَر عند أصحابنا ؛ إذا فسرنا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات ، وهو ما ذكرناه .

وبقيت القضيّة الثانية فيها الأشكال ، وهي قوله عليه السلام : « ولا يدخل النّار إلّا مَنْ أنكرهم وأنكروه » ، وذلك أنّ لقائل أن يقول : قد يدخل النار مَنْ لم ينكرهم ؛ مثل أن يكون إنسان يعتقِد صحّة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة ، ثم يزنى أو يشربُ الخمر من غير توبة ، فإنه يدخل النار ؛ وليس بمنكر للأئمة ؛ فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال !

فالجواب أن الواو فى قوله « وأنكروه » بمعنى « أو » كما فى قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[١] فالإنسان المفروض فى السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إلّا أنّهم ينكرونه ، أى يسخطون يوم القيامة أفعاله ، يقال : أنكرت فعل فلان أى كرهته ؛ فهذا هو تأويل الكلام على مذهبنا ، فأمّا الإمامية فإنّهم يحملون ذلك على تأويل آخر ، ويفسرون قوله : « ولا يدخل النار » ، فيقولون : أراد ولا يدخل النار دخولا مؤبدا إلا من ينكرهم وينكرونه .

---

(١) سورة النساء ٣ .

ثم ذكر عليه السلام شرفَ الإسلام ، وقال : إنه مشتقّ من السّلامة ، وإنه جامع للكرامة ، وإنّ الله قد بين حججه ، أى الأدلة على صحّته .

ثم بين ما هذه الأدلة ، فقال : « من ظاهر علم ، وباطن حكم » أى حكمه ، فـ « مِن » ها هنا للتبيين والتفسير ؛ كما تقول : دفعت إليه سلاحا من سيف ورمح وسهم ؛ ويعنى بظاهر عِلم وباطن حكم ، والقرآن ، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن ؛ من قوله : « لا تفنى غرائبه » أى آياته المحكمة . و « براهينه العازمة » أى القاطعة ولا تنقضى عجائبه ؛ لأنّه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بكفر غرائبَ عجائب لم تكن عنده من قبل .

« فيه مرابيع النّعم » ؛المرابيع الأمطار التى تجىء فى أول الربيع فتكون سبباً لظهور الكلأ ، وكذلك تدبّر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها .

قوله : « قدأحمى حماه ،وأرعى مرعاه » ،الضمير فى«أحمى» يرجع إلى الله تعالى،أى قد أحمى الله حماه، أى عرّضه لأن يُحمى ، كما تقول : أقتلت الرجل، أى عرّضته لأن يقتل. وأضربته ،أى عرّضته لأن يضرب ؛أى قدعرّض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكّن منها ، وعرّض مَرْاعاه لأن يُرْعى ، أى مكّن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربى مبين ، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع حتى نبه فى أكثره على أدلة العقل .

(١٥٣)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الغَافِلِينَ،وَيَغْدُو مَعَ المُذْنِبِينَ ، بِلاَ سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ .

***

الشَّـرْحُ :

يصف إنسانا من أهل الضلال غير معيّن ؛ بل كما تقول: رحم الله أمرأ اتقى ربه وخاف ذنبه ، وبئس الرجل رجل قلّ حياؤه ، وعدم وفاؤه ؛ ولست تعنى رجلا بعينه .

ويهوى : يسقط . والسبيل القاصد : الطريق المؤدية إلى المطلوب .

والإمام : إمّا الخليفة، وإما الأستاذ ؛ أو الدين، أو الكتاب؛ على كلّ من هؤلاء تطلق هذه اللفظة .

***

الأصْـلُ :

منها :

حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمْ، اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً ؛ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ .

وَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلاَلَ فِي الْمَغَاوِي،وَلاَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ .

فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ،وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ،وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ؛ وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ ، وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ . وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ ، وَضَعْ فَخْرَكَ ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ ؛ وَاذْكُرْ قَبْرَكَ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ ؛ وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ؛وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً ؛ فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ؛﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1] .

* * *

الشرح :

فاعل « كشف » هو الله تعالى ، وقد كان سبق ذكره فى الكلام،وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل الشقوة والعذاب ؛ فقد ورد فى الخبر الصحيح أنّه : « لا يموت ميّت حتى يرى مقرّه من جنّة أو نار » .

ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا؛سمّى ذلك عليه السلام استخراجا لهم من جلابيب غفلتهم ، كأنهم كانوا من الغفلة والذهول فى لباسٍ نُزِع عنهم .

قال : « استقبلوا مدبراً »،أى استقبلوا أمراً كان فى ظنّهم واعتقادهم مدبراً عنهم؛وهو الشقاء والعذاب . « واستدبروا مقبلا » تركوا وراء ظهورهم ما كانوا خُوّلوه من الأولاد والأموال والنّعم ، وفى قوة هذا الكلام أن يقول:عرفوا ما أنكروه وأنكروا ما عرفوه:

---

[1] سورة الفاطر ١٤ .

وروى : « أحذركم ونفسي هذه المزلّة » مفعلة ، من الزّلل ، وفي قوله : «ونفسي» لطافة رشيقة ؛ وذلك لأنه طيّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم في هـذا التحذير ، ليـكونوا إلى الانقياد له أقربَ ، وعن الإباء والنفْرة أبعد ؛ بطريق جَدَدٍ لاحب .

والمهاوي : جمع مَهْواة ؛ وهي الهوّة يتردّى فيها .

والمغاوي : جمع مَغْواة ، وهي الشبهة التي يغوَى بها النّاس ، أي يضلّون .

يصف الأمور التي يُمِين بها الإنسانُ أرباب الضلال على نفسه،وهي أن يتعسّف في حقّ يقوله ، أو يأمرُ به ، فإنّ الرفق أنجح،وأن يحرّف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيرا، وأن يتخوف من الصدق في ذات الله ، قال سبحانه : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (١) ، فذمّ من لا يصدق ويجاهد في الحقّ .

قوله : « واختصِرْ من عجلتك »،أي لا تكن عَجَلتك كثيرة ، بل إذا كانت لك عجلة فلتكن شيئاً يسيرا .

وتقول : أنعمت النظر في كذا ، أي دقّقتُه ، من قولك : أنعمت سَحْق الحجر ، وقيل : إنه مقلوب « أمعن » .

والنبي الأمّيّ : إمّا الذي لا يحسن الكتابة ، أو المنسوب إلى أمّ القرى؛وهي مكّة .

ولا محيص عنـه : لا مفرّ ولا مهرب ، حاص ؛ أي تخلّص من أمر كان نشب فيه .

قوله : « فإن عليه ممرّك » أي ليس القبر بدار مقام ، وإنما هو ممرّ وطريق إلى الآخرة .

---

(١) سورة النساء ٧٧ .

وكما تدين تدان ، أى كما تجازِى غيرَك تجازَى بفعلك وبحسب ما عملت ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ (١) أى مجزيُّون ؛ ومنه الديّان فى صفة الله تعالى .

قوله : « وكما تزرع تحصد » معنى قد قاله الناس بعده كثيرا ، قال الشاعر :

إذا أنتَ لم تَزْرَعْ وأدْرَكْتَ حاصِداً ندمت على التقصير فى زمن البذر

ومن أمثالهم : « من زرع شرا حصد ندما » .

فامهد لنفسك : أى سوِّ ووطِّئْ .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٢) من القرآن العزيز ، أى ولا يخبرك بالأمور أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها .

* * *

الأصْلُ :

إنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ ؛ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا : أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ ؛ أَوْ يُعِرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ ؛ أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إلَى النَّاسِ بِإظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ . اعْقِلْ ذَلِكَ ؛ فَإنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ .

إنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا .

إنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ، إنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ ، إنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ .

* * *

(١) سورة الصافات ٥٣ .

(٢) سورة فاطر ١٤ .

الشرح :

عزائم الله ، هي موجباته والأمر المقطوع عليه ، الذي لا ريبَ فيه ولا شبهة ، قال عليه السلام : إنّ من الأمور التي نصّ الله تعالى عليها نصًّا لا يحتمل التأويل ـ وهي من العزائم التي يقطع بها ، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها ـ أنّ مَنْ مات وهو على ذنْبٍ من هذه الذنوب[1] المذكورة ـ ولو اكتفى بذلك عليه السلام لأغناه عن قوله : « لم يتب » إلّا أنه ذكر ذلك تأكيدا وزيادة في الإيضاح[2] ـ فإنّه لا ينفعه فعل شيء من الأفعال الحسنة ولا الواجبة ؛ ولا تفيدُه العبادة ؛ ولو أجهد نفسه فيها ؛ بل يكون من أهل النار . والذنوب المذكورة هي أنْ يتّخذ مع الله إلها آخر فيشركه في العبادة ، أو يقتل إنسانا بغير حقّ ، بل ليشفي غيظه ، أو يقذف غيره بأمرٍ قد فعله هو .

عرّه بكذا يعرّه عرًّا ، أي عابه ولطّخه ، أو يروم بلوغ حاجةٍ من أحدٍ بإظهار بدعة في الدين ؛ كما يفعل أكثرُ النّاس في زماننا ، أو يكون ذا وَجْهين ؛ وهو أيضا قوله : « أو يمشي فيهم بلسانين » ؛ وإنما أعاده تأكيدا .

***

لما نصب معاوية ابنَه يزيد لولاية العهد ، أقعده في قبّة حمراء ، وأدخل النّاس يسلّمون على معاوية ، ثم يميلون إلى قُبّة يزيد ، فيسلّمون عليه بولاية العهد ؛ حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إنك لو لم تولّ هذا أمورَ المسلمينَ لأضعتَها ؛ وكان الأحنف جالساً ، فلما خفّ الناس ، قال معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ! قال : أخافُ الله إن كذبتُك ، وأخافك إنْ صدقتك ؛ فماذا أقول ! فقال : جَزاك الله عن الطّاعة خيرا ، وأمر له بصِلَةٍ جزيلة . فلما خرج لقيَه ذلك الرّجل بالباب ، فقال : يا أبا بَحْر ، إنّي لأعلمُ أنّ شرّ مَنْ خَلَق اللهُ هذا الرّجل ؛ ولكنّ هؤلاء

(١) ساقطة من ب .

(٢) ا ، ج : « زيادة الإيضاح » .

قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت فقال : يا هذا أمسِكْ عليك ؛ فإنّ ذا الوجهين خليق ألّا يكون وجيهاً عند الله غدا .

***

ثم أمرَ عليه السلام بأن يعقل ما قاله ، ويعلم باطن خطابه ؛ وإنما رمَزَ بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل ، لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين ، وعَرُّوه[1] عليه السلام بأمرٍ هم فعلوه ، وهو التأليب على عثمان وحصره ، واستنجحوا حاجتهم إلى أهلِ البصرة بإظهار البدعة والفتنة ، ولقُوا الناس بوجهين ولسانين ؛ لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به ، ثم دَبّوا له الخَمَرَ[2] ، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشِّرك بالله سبحانه ؛ في أنها لا تُغفَر إلا بالتوبة ، وهذا هو معنى قوله : « اعقل ذلك » فإنّ المِثْلَ دليل على شبهه . ورُوِى « فإنّ المثَل » واحد الأمثال ، أى هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عام ؛ والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه .

فإن قلتَ : فهذا تصريح بمذهب الإمامية في طلحة والزبير وعائشة .

قلت : كلاّ ، فإنّ هذه الخطبة خَطَب بها وهو سائر إلى البصرة ، ولم تقع الحرب إلّا بعد تعدّد الكبائر ، ورَمز فيها إلى المذكورين ، وقال : « إن لم يتوبوا » ؛ وقد ثبت أنهم تابوا ، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة .

ثم أراد عليه السلام أن يومِئ إلى ذكر النّساء للحال التي كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بامرأة ؛ فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان ، تمهيداً لقاعدة ذِكر النساء ، فقال : إنّ البهائم همّها بطونها ، كالحمر والبقر والإبل الغنم ، وإنّ السّباع همّها العدوان

---

(١) عروه : سبوه .

(٢) أخمر القوم ؛ إذا تواروا بالخمر ؛ ويقال للرجل إذا ختل صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر .

عَلَى غيرها ؛ كالأسود الضارية والنمور والفهود والبُزاة والصّقور . ثم قال : وإن النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها .

نظر حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة عَلَى شَجرة ، فقال : ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذه الثمرة .

ومرّت امرأة بسُقراط وهو يتشرّق فى الشمس ، فقالت : ما أقبحك أيها الشيخ ! فقال : لو أنّكنّ من المرائى الصدئة لغمّنى ما بان من قبح صورتى فيكنّ .

ورأى حكيم امرأةً تعلّم الكتابة ، فقال : سهم يسقَى سمًّا ليرمى به يوما ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمِل نارا ، فقال : نار عَلَى نار ؛ والحامل شرٌّ من المحمول .

وقيل لسقراط : أىّ السباع أحسن ؟ قال : المرأة .

وتزوّج بعضهم امرأة نحيفة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .

ورأى بعضُ الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السّيل ، فقال : زادتِ الكدر كدَرا ، والشرّ بالشر يهلك .

***

ثم ذكر عليه السلام خصائص المؤمن ، فقال : إنّ المؤمنين مستكينون ؛ استكان الرجلُ ، أى خَضَع وذلّ .

إنّ المؤمنين مشفقون ، التقوى رأس الإيمان كما ورد فى الخبر .

ثم قال : « إن المؤمنين خائفون » ؛ هو الأول وإنما أكّده ، والتأكيد مطلوب فى باب الخطابة .

(١٥٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ .

دَاعٍ دَعَا ، وَرَاعٍ رَعَى ؛ فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ .

***

الشرح :

يقول : إنّ قلب اللبيب له عين يبصر بها غايته التى يجرى إليها ، ويعرف من أحواله المستقبلة ما كان مرتفعا أو منخفضا ساقطا . والنَّجد: المرتفع من الأرض ، ومنه قولهم للعالم بالأمور : « طَلَّاع أنجُد » .

ثم قال : « داع دعا » ؛ موضع « داع » رفع ، لأنّه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره: « فى الوجود داع دعا ، وراع رعى » ؛ ويعنى بالدّاعى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبالراعى نفسه عليه السلام .

***

الأصل :

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ ؛ وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ .

نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا .

الشّرْح :

هذا كلام متّصل بكلام لم يحكه الرضيّ رحمه الله ؛ وهو ذكر قوم من أهل الضّلال قد كان أخذ فى ذمّهم ، ونَعَى عليهم عيوبهم .

وأرَزَ المؤمنون : أى انقبضوا ؛ والمضارع «يأرِز» بالكسر أرْزا وأروزا ، ورجل أرُوَز أى منقبض ، وفى الحديث : « إنّ الإسلام ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيّة إلى جُحْرِها » (١) ؛ أى ينضمّ إليها ويجتمع .

ثم قال : « نحن الشّعار والأصحاب » ؛ يشير إلى نفسه ، وهو أبدا يأتى بلفظ الجمع ومراده الواحد .

والشّعار : ما يلى الجسد من الثياب ، فهو أقرب من سائرها إليه ؛ ومراده الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وآله .

والخَزَنَةُ والأبواب ؛ يمكن أن يعنى به خَزَنة العلم وأبواب العلم ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها ، فمن أراد الحكمة فليأتِ الباب » . وقوله فيه : « خازن علمى » وقال تارة أخرى : « عَيْبة عِلْمى » . ويمكن أن يريد خزنة الجنّة وأبواب الجنة ، أى لا يدخل الجنة إلا مَنْ وافَى بولايتنا ؛ فقد جاء فى حقه الخبر الشائع المستفيض : إنه قَسِيم النار والجنة ، وذكر أبو عبيد الهروىّ فى " الجمع بين الغريبين " ، أنّ قوما من أئمة العربية فسّرُوه فقالوا : لأنّه لما كان مُحِبُّهُ من أهل الجنة ، ومبغِضهُ من أهل النّار ؛ كأنّه بهذا الاعتبار قسيمُ النار والجنة . قال أبو عبيد : وقال غير هؤلاء : بلْ هو قسيمها بنفسه فى الحقيقة ؛ يدخِل قوما إلى الجنة ، وقوما إلى النار ؛ وهذا الذى ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه ، يقول للنار : هذا لى فدعيه ، وهذا لكِ فخذيه .

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتَى إلّا من أبوابها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٤ .

الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾[١].

ثم قال : مَنْ أتاها من غير أبوابها سُمّى سارقا ، وهذا حقّ ظاهرا وباطنا ؛ أمّا الظاهر فلأنّ مَنْ يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق ، وأمّا الباطن فلأنّ مَنْ طلب العلم من غير أستاذ محقّق فلم يأتِهِ من بابه ؛ فهو أشبه شىء بالسارق .

* * *

[ذكر الأحاديث والأخبار الواردة فى فضائل علىّ]

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو فخر بنفسه ، وبالغ فى تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته؛ التى آتاه الله تعالى إياها ، واختصّه بها ، وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّة ؛ لم يبلغوا إلى معشار مانطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه فى أمره ؛ ولستُ أعنى بذلك الأخبارَ العامّة الشائعة التى يحتجّ بها الإماميّة على إمامته ، كخبر الغدير ، والمنزلة ، وقصّة براءة ، وخبر المناجاة ، وقصّة خيبر ، وخبر الدار بمكة فى ابتداء الدعوة ؛ ونحو ذلك ؛ بل الأخبار الخاصّة التى رواها فيه أئمة الحديث ، التى لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره ؛ وأنا أذكر من ذلك شيئا يسيرا مما رواه علماء الحديث الذين لا يُتَّهمون فيه ، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه ، فروايتهم فضائله توجب من سكونِ النفس مالا يوجبه رواية غيرهم .

* * *

الخبر الأول : « ياعلىّ ، إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها ، هى زينة الأبرار عند الله تعالى ، الزّهد فى الدنيا ، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً[٢] ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ؛ ووهب لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ؛ ويرضون بك إماما » .

---

(١) سورة البقرة ١٧٧

(٢) ترزأ : تأخذ .

رواه أبو نعيم الحافظ فى كتابه المعروف بـ " حلية الأولياء " وزاد فيه أبو عبدالله أحمد بن حنبل فى " المسند " : « فطوبى لمن أحبّك وصدق فيك ، وويلٌ لمن أبغضك وكذّب فيك ! » .

* * *

الخبر الثانى: قال لوفد ثقيف : « لَتُسْلِمُنّ ، أو لأبعثنّ إليكم رجلا منّى — أو قال: عديل نفسى — فليضربنّ أعناقكم ، وليسبينّ ذراريّكم ، وليأخذنّ أموالكم » . قال عمر : فما تمنّيت الإمارة إلّا يومئذ ، وجعلتُ أنصب له صدرى رجاء أن يقول : هو هذا . فالتفت فأخذ بيد علىّ وقال : « هو هذا ! » ، مرتين .

رواه أحمد فى " المسند " ؛ ورواه فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام، أنّه قال: « لتنتهنّ يابنى وليعة⁽¹⁾ ، أو لأبعثنّ إليكم رجلا كنفسى ، يُمضى فيكم أمرى . يقتل المقاتلة ، ويسبى الذرّيّة » . قال أبو ذرّ : فما راعنى إلّا برد كفّ عمر فى حُجْزَتى⁽²⁾ من خلفى ، يقول : مَنْ تراه يعنى ؟ فقلت : إنه لا يَعنيك ، وإنما يعنى خاصفَ النعل ، وإنه قال : « هو هذا » .

* * *

الخبر الثالث : « إنّ الله عَهِد إلىّ فى علىّ عهداً ، فقلت: يارب بيّنه لى ، قال : اسمع، إنّ عليًّا رايةُ الهدى ، وإمامُ أوليائى ، ونورُ من أطاعنى ، وهو الكلمة التى ألزمتُها المتقين ؛ مَنْ أحبّه فقد أحبّنى ، ومن أطاعه فقد أطاعنى ؛ فبشّره بذلك . فقلت : قد بشرته يارب . فقال : أنا عبد الله وفى قبضته ؛ فإن يعذّبنى فبذنوبى لم يظلم شيئاً ، وإن يتمّ لى ماوعدنى فهو أولى ؛ وقد دعوت له فقلت : اللهمّ اجْلُ قلبَه ، واجعلْ ربيعَه الإيمان بك . قال : قد فعلت ذلك ، غير أنى مختصّه بشىء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائى ، فقلت : ربّ ، أخى وصاحبى ! قال : إنّه سبق فى علمى : إنّه لمبتلٍ ومبتلًى » .

(١) بنو وليعة : حى فى كندة .

(٢) الحجزة : موضع الإزار .

ذكره أبو نعيم الحافظ في "حلية الأولياء" عن أبي برزة الأسلمي، ثم رواه بإسناد آخر بلفظ آخر، عن أنس بن مالك: «إنّ رب العالمين عهد في عليّ إليّ عهداً؛ إنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائي، ونور جميع من أطاعني. إن علياً أميني غداً في القيامة، وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي».

* * *

الخبر الرابع: «مَنْ أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه، وإلى آدم في علمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في فطنته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب».

رواه أحمد بن حنبل في "المسند"، ورواه أحمد البيهقيّ في صحيحه.

* * *

الخبر الخامس: «مَنْ سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويتمسك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كوني فكانت؛ فليتمسّكْ بولاء عليّ بن أبي طالب».

ذكره أبو نُعيم الحافظ في كتاب "حلية الأولياء" ورواه أبو عبد الله بن حنبل في "المسند"، في كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب، وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: «مَنْ أحبّ أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنّة عدن بيمينه، فليتمسّك بحبّ عليّ بن أبي طالب».

الخبر السادس: «والذي نفسي بيده، لولا أن تقول طوائف مِنْ أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالا: لا تمرّ بملأٍ من المسلمين إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة.

ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في "المسند".

* * *

الخبر السابع: خرج صلى الله عليه وآله على الحجيج عشيّة عرفة، فقال لهم: إنّ الله قد

باهَى بكم الملائكة عامّة ، وغفر لكم عامّة ، وباهَى بعليّ خاصة ، وغفر له خاصة . إنى قائل لكم قولًا غير محابٍ فيه لقرابتى ؛ إن السعيد كلّ السّعيد حقّ السعيد مَنْ أحبّ عليًّا فى حياته وبعد موته » .

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى كتاب فضائل على عليه السلام ، وفى " المسند " أيضاً .

***

الخبر الثامن : رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى الكتابين المذكورين: « أنا أوّل مَنْ يُدعى به يوم القيامة؛ فأقوم عن يمين العرش فى ظلّه، ثم أُكسى حلّة، ثم يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض ؛ فيقومون عن يمين العرش ويكسَوْن حُللًا ، ثم يدعى بعليّ ابن أبي طالب لقرابته منّى ومنزلته عندى، ويدفع إليه لوائى لواء الحمد ، آدم ومَنْ دونه تحت ذلك اللواء » . ثم قال لعليّ: « فتسير به حتى تقف بينى وبين إبراهيم الخليل، ثم تكسى حلّة، وينادى منادٍ من العرش: نعم العبدُ أبوك إبراهيم ونعم الأخ أخوك عليّ أبشر فإنك تُدْعَى إذا دعيت ، وتُكْسَى إذا كسيت ، وتحيا إذا حييت » .

***

الخبر التاسع: « يا أنس، اسكب لى وضوءا » ، ثم قام فصلّى ركعتين، ثم قال: « أوّل من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقين، وسيّد المسلمين، ويعسوب الدين ، وخاتم الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين » . قال أنس: فقلت : اللهمّ اجعله رجلًا من الأنصار ، وكتمت دعوتى، فجاء عليّ ، فقال : صلى الله عليه وسلّم : « مَنْ جاء يا أنس » ؟ فقلت : عليّ ؛ فقام إليه مستبشرا ، فاعتنقه ، ثم جعل يمسحُ عرق وجهه . فقال عليّ : يارسول الله ، صلّى الله عليك وآلك ؛ لقد رأيت منك اليوم تصنع بى شيئاً ماصنعته بى قبل ! قال : « وما يمنعنى وأنت تؤدّى عنى ، وتسمعهم صوتى ، وتبين لهم مااختلفوا فيه بعدى ! » .

رواه أبو نعيم الحافظ فى " حلية الأولياء " .

***

الخبر العاشر : « ادعُوا لى سيّدَ العرب عليّاً » ، فقالت عائشة : ألستَ سيّد العرب؟ فقال: « أنا سيّد ولد آدم، وعليّ سيّد العرب »؛ فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوه، فقال لهم: «يامعشرَ الأنصار، ألا أدلـكم على ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً» قالوا: بلى يارسول الله، قال: « هذا عليّ ؛ فأحبّوه بحبّى، وأكرِموه بكرامتى؛ فإنّ جبرائيل أمرنى بالّذى قلت لـكم عن الله عزّ وجلّ » .

رواه الحافظ أبو نعيم فى " حلية الأولياء " .

* * *

الخبر الحادى عشر : «مرحَباً بسيّد المؤمنين، وإمام المتّقين» ! فقيل لعليّ عليه السلام: كيف شكرُك ؟ فقال : أحمَد الله على ما آتانى ، وأسأله الشُّكر على ما أولانى ، وأنْ يزيدَنى ممّا أعطانى .

ذكره صاحب " الحلية " أيضاً .

* * *

الخبر الثانى عشر : « مَنْ سرّه أن يحيا حياتى ، ويموت مماتى ، ويسكنَ جنّة عدن التى غرسها ربّى ، فليوالِ عليّاً من بعدِى ، وليوال وليّه ، وليقتد بالأئمة من بعدى، فإنّهم عِترَتى ، خلقُوا من طينتى، ورزقوا فهماً وعلماً. فويل للمكذّبين من أمتى ! القاطعين فيهم صلتى ، لا أنالهمُ الله شفاعتى » .

ذكره صاحب " الحلية " أيضاً .

* * *

الخبر الثالث عشر : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد فى سريّة ، وبعث عليّاً عليه السلام فى سريّة أخرى ، وكلاهما إلى اليمن، وقال : « إن اجتمعتما فعليّ على الناس ، وإن افترقتما فكلّ واحدٍ منكما على جُنده » ، فاجتمعا وأغارا وسبيا نساء ، وأخذا أموالا ، وقتلا ناسا ، وأخذ عليّ جارية فاختصّها لنفسه ، فقال خالد لأربعة من المسلمين ؛ منهم بُريدة الأسلميّ: اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاذكروا له كذا، واذكروا

له كنفا، لأمور عدّدها على عليّ، فسبقوا إليه، فجاء واحد من جانبه، فقال: إنّ عليًّا فعل كذا، فأعرض عنه، فجاء الآخر من الجانب الآخر، فقال: إنّ عليا فعل كذا، فأعرض عنه فجاء بُريدة الأسلمى فقال: يارسول الله، إنّ عليا فعل ذلك، فأخذ جاريةً لنفسه، فغضب صلى الله عليه وآله، حتى احمرّ وجهه، وقال: «دعُوا لى عليًّا!»، يكررها، «إنّ عليا منّى وأنا مِنْ عليّ، وإنّ حظه فى الخمس أكثر مما أخذ؛ وهو ولىّ كلّ مؤمن من بعدى».

رواه أبو عبد الله أحمد فى "المسند" غير مرة، ورواه فى كتاب فضائل عليّ، ورواه أكثر المحدّثين.

***

الخبر الرابع عشر: «كنت أنا وعليّ نوراً بين يدى الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلَق آدم قسّم ذلك فيه وجعله جزأين، فجزء أنا، وجزء عليّ».

رواه أحمد فى "المسند" وفى كتاب فضائل على عليه السلام، وذكره صاحب كتاب الفردوس، وزاد فيه: «ثمّ انتقلنا حتى صرنا فى عبد المطلب، فكان لى النبوّة ولعليّ الوصية».

***

الخبر الخامس عشر: «النّظر إلى وجهك ياعليّ عبادة، أنت سيّد فى الدنيا وسيّد فى الآخرة، مَنْ أحبّك أحبّنى. وحبيبى حبيب الله، وعدوّك عدوّى وعدوّى عدوّ الله، الويل لمن أبغضك!».

رواه أحمد فى "المسند"، قال: وكان ابنُ عبّاس يفسره، ويقول: إنّ مَن ينظر إليه يقول: سبحان الله! ما أعلم هذا الفتى! سبحان الله ما أشجع هذا الفتى! سبحان الله، ما أفصح هذا الفتى!

الحديث السادس عشر : لما كانت ليلة بدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ يستقى لنا ماء ؟ » ، فأحجم الناس ، فقام علىّ فاحتضن قربة ، ثم أتى بئرا بعيدة القَعْر مظلمة ، فانحدر فيها ، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل : أن تأهبوا لنصر محمد وأخيه وحزبه ، فهبطوا من السّماء ، لهم لغط يذعر مَنْ يسمعه ، فلما حاذوا البئر ، سلّموا عليه من عند آخرهم إكراما له وإجلالا .

رواه أحمد فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام ، وزاد فيه فى طريق أخرى عن أنس ابن مالك : « لتؤتَيَنّ يا علىّ يوم القيامة بناقةٍ من نوق الجنة فتركبها ، وركبتك مع ركبتى ، وفخذِك مع فخذى ؛ حتى تدخل الجنة » .

* * *

الحديث السابع عشر : خَطَبَ صلى الله عليه وآله الناس يوم جمعة ، فقال : « أيّها النّاس ؛ قدّموا قريشا ولا تقدموها ، وتعلّموا منها ولا تعلموها ، قوّة رجلٍ من قريش تعدِلُ قوّة رجُلين من غيرهم ، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلين من غيرهم . أيّها الناس أوصيكم بحبّ ذى قرباها ، أخى وابن عمى علىّ بن أبى طالب ؛ لا يحبّه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلاّ منافق ؛ مَنْ أحبّه فقد أحبّنى ، ومَنْ أبغضه فقد أبغضنى ، ومَنْ أبغضنِي عذّبه الله بالنار » .

رواه أحمد رضى الله عنه فى كتاب فضائل علىٍّ عليه السلام .

* * *

الحديث الثامن عشر : الصِّدّيقون ثلاثة : « حبيب النّجار ، الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، ومؤمن آل فرعون الّذى كان يكتم إيمانه ، وعلىّ بن أبى طالب ؛ وهو أفضلهم » .

رواه أحمد فى كتاب فضائل علىّ عليه السلام .

* * *

الحديث التاسع عشر : أعطِيتُ فى علىّ خمسا ، هُنّ أحبُّ إلىّ من الدنيا وما فيها ؛ أما واحدة فهو كابٍ بين يدى الله عزّ وجلّ ؛ حتى يفرغ من حساب الخلائق ، وأما الثانية

فلواء الحمد بيده ، آدم ومن ولد تحته ، وأما الثالثة فواقف عَلَى عُقْر[1] حوضى ؛ يسقِي مَنْ عرف من أمّتى ، وأما الرابعة فساتر عورتى ومسلمى إلى رَبِّى ، وأما الخامسة فإنى لست أخشى عليه أن يعود كافرا بعد إيمان ، ولا زانيا بعد إحصان » .

رواه أحمد فى كتاب الفضائل .

***

الحديث العشرون : كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ، فقال عليه الصلاة والسلام يوما : « سدّوا كلّ باب فى المسجد إلا باب علىّ » ، فسدّت ، فقال فى ذلك قوم ، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم ، فقال : « إنّ قوماً قالوا فى سدّ الأبواب وترك باب علىّ ، إنى ما سددت ولا فتحت ، ولكنّى أمِرْت بأمرٍ فاتبعته » .

رواه أحمد فى " المسند " مرارا ، وفى كتاب الفضائل .

***

الحديث الحادى والعشرون : دعا صلى الله عليه وآله عليًّا فى غزاة الطائف ، فانتجاه ، وأطال نجواه حتى كره قوم من الصحابة ، ذلك ، فقال قائل منهم : لقد أطال اليَوْمَ نَجْوى ابنِ عمّه ، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك فجمع منهم قوما ، ثم قال : « إنّ قائلا قال : لقد أطالَ اليوم نجوى ابن عمّه ، أما إنى ما انتجيتُه ؛ ولكن الله انتجاه » .

رواه أحمد رحمه الله فى " المسند " .

***

الحديث الثانى والعشرون : « أخصِمك[2] يا علىّ بالنبوّة فلا نبوّة بعدِى ، وتخصم الناس بسبع ، لا يحاجك فيها أحد من قريش : أنت أوّلهم إيمانا بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسويّة ، وأعدلهم فى الرعيّة ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزيّة » .

---

(١) العقر : مؤخر الحوض حيث تقف الإبل . (٢) أخصمك : أغلبك .

رواه أبو نعيم الحافظ فى " حلية الأولياء ".

***

الخبر الثالث والعشرون ، قالت فاطمة : إنك زوّجتنى فقيراً لا مال له ، فقال : « زوّجتك أقدمهم سِلْماً ، وأعظمهم حِلْماً ، وأكثرهم عِلْماً ! ألا تعلمين أنّ الله اطّلع إلى الأرض اطّلاعةً ، فاختار منها أباك ، ثم اطّلع إليها ثانية فاختار منها بعلك ! » .

رواه أحمد فى المسند .

***

الحديث الرابع والعشرون ، لما أنزل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ بعد انصرافه عليه السلام من غزاة حُنَيْن ، جعل يكثر من « سبحان الله ! أستغفر الله » ، ثم قال : « يا علىّ إنّه قد جاء ما وعدت به ، جاء الفتح ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا ، وإنّه ليس أحد أحقّ منك بمقامى ؛ لقِدَمك فى الإسلام وقربك منى ، وصهرك ؛ وعندك سيّدة نساء العالمين ؛ وقبل ذلك ما كان من بلاء أبى طالب عندى حين نزل القرآن ؛ فأنا حريصٌ عَلَى أن أراعى ذلك لولده » .

رواه أبو إسحاق الثعلبىّ فى « تفسير القرآن » .

***

واعلم أنّا إنما ذكرنا هذه الأخبار ها هنا ، لأنّ كثيرا من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مرّوا عَلَى كلامه فى « نهج البلاغة » وغيره المتضمّن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صَلى الله عليه وآله ، وتميزه إياه عن غيره ، ينسبونه إلى التّيه والزّهو والفخر ، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة ، قيل لعمر : وَلّ عليّاً أمر الجيش والحرب ، فقال : هو أتْيَهُ من ذلك ! وقال زيد بن ثابت : مارأينا أزهَى من علىّ وأسامة .

فأردنا بإيراد هذه الأخبار ها هنا عند تفسير قوله : « نحن الشعار والأصحاب ، ونحن الخزنة والأبواب » ، أن ننبّه عَلَى عِظَم منزلته عند الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّ من قيل

فى حقه ماقيل لو رقى إلى السماء ، وعرّج فى الهواء ، ونخر عَلَى الملائكة والأنبياء ، تعظما وتبجّحا ؛ لم يكن ملوماً ، بل كان بذلك جديرا ؛ فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قطّ مسلك التعظّم والتكبّر فى شىء من أقواله ولا من أفعاله ؛ وكان ألطف البشر خلقا ، وأكرمهم طبعا ، وأشدّهم تواضعا،وأكثرهم احتمالا ، وأحسنهم بِشْراً ، وأطلقهم وجها؛ حتى نسبه من نسبه إلى الدّعابة والمزاح،وهما خُلقان ينافيان التكبّر والاستطالة؛وإنما كان يذكر أحيانا مايذكره من هذا النوع ، نَفْثَة مصدُور ، وشكوى مكروب ، وتنفّس مهموم ؛ ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة ، وتنبيه الغافل عَلَى ماخصّه الله به من الفضيلة ، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ عَلَى اعتقاد الحقّ والصواب فى أمره والنهى عن المنكر الذى هو تقديم غيره عليه فى الفضل ؛ فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1]

***

الأصْلُ :

منها :

فِيهِمْ كَرَائِمُ الإِيمَانِ ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ ؛ إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا ، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا . فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ ؛ فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ ؛ يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ : أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ ، فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ ؛فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ

---

(١) سورة يونس ٣٥ .

إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ ؛ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ ؛ فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ !

* * *

الشرح :

قوله : « فيهم » يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وآله الذين عناهم بقوله : « نحن الشعار والأصحاب » ، وهو يطلق دائما هذه الصيغ الجمعية ، ويعنى نفسه ؛ وفى القرآن كثير من ذلك، نحو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] .

وكرائم الإيمان : جمع كريمة وهى المنفسات منه ، قال الشاعر :

ماض مِنَ العيش لو يفدى بذلت له ... كرائم المال من خيلٍ ومن نَعَمِ

فإن قلت : أيكون فى الإيمان كرائم وغير كرائم ؟ قلت : نعم لأنّ الإيمان عند أكثر أصحابنا اسم للطّاعات كلها واجبها ونفلها، فمن كانت نوافله أكثر كانت كرائم الإيمان عنده أكثر ، ومن قام بالواجبات فقط من غير نوافل ، كان عنده الإيمان، ولم يكن عنده كرائم الإيمان .

فإن قلت : فعلى هذا تكون النوافل أكرمَ من الواجبات ؟

قلت : هى أكرم منها باعتبار ، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر ؛ أمّا الأوّل فلأنّ صاحبها إذا كان قد قام بالواجبات كان أعلى مرتبةً فى الجنّة ممن اقتصر على الواجبات فقط ؛ وأمّا الثانى فلأنّ المخلّ بها لا يعاقب ، والمخلّ بالواجبات يعاقب .

قوله : « وهم كنوز الرحمن » لأن الكنز مال يدّخر لشديدة أو ملمّة تلمّ بالإنسان ، وكذلك هؤلاء قد ذخروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين .

---

(١) سورة آل عمران ١٧٣ .

ثم قال : إن نطقوا صدقوا ، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عىّ يوجب كونَهم مسبوقين ؛ لكنّهم ينطقون حُكْما ، ويصمُتون حلما .

ثم أمر عليه السلام بالتقوى والعمل الصالح ، وقال : « ليصدق رائدٌ أهلَه »، الرائد: الذاهب من الحىّ يرتاد لهم المرعى ؛ وفى أمثالهم : « الرائد لا يكذِب أهلَه » ، والمعنى أنه عليه السلام أمر الإنسان بأن يصدُق نفسَه ولا يكذبَها بالتسويف والتعليل ، قال الشاعر :

أخىَّ إذا خاصمت نفسَك فاحتشِدْ   لها وإذا حدّثت نفسَك فاصدُقِ

وفى المثل : « المتشبِّع بما لا يملك كلابس ثوبىْ زور » .

فإنه منها قدم ؛ قد قيل : إن الله تعالى خَلَق أرواح البشر قبل أجسادهم ، والخبر فى ذلك مشهور والآية أيضا ؛ وهى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[1] . ويمكن أنْ يفسّر على وجه آخر؛ وذلك أنّ الآخرة اليوم عَدَمٌ محضٌ ، والإنسان قَدِم من العدَم ، وإلى العدم ينقلب ؛ فقد صحّ أنه قَدِم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة .

وروى : « أنّ العامل بالبصَر » أى بالبصيرة، فيكون هو وقوله : « فالناظر بالقلب »، سواء ؛ وإنما قاله تأكيدا، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل، فأمّا الرواية المشهورة فالوجه فى تفسيرها أن يكون قوله : « فالناظر » مبتدأ و« العامل » صفة له ؛ وقوله: « بالبصر يكون مبتدأ عمله » جملة مركبة من مبتدأ وخبر ، موضعها رفع ، لأنها خبر المبتدأ الذى هو « فالناظر »؛ وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها « كان »، فالجار والمجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع، لأنّها خبر « كان »، ويكون قوله فيما بعد : « أن يعلم » منصوب

(١) سورة الأعراف ١٧٢

الموضع ؛ لأنه يدل من «البصر» الذى هو خبر «يكون». والمراد بالبصر هاهنا البصيرة، فيصير تقدير الكلام : فالناظر بقلبه، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة، بأن يعلم : أعمله له أم عليه !

ويروى : «كالسابل على غير طريق» ، والسابل: طالب السبيل ؛ وقد جاء فى الخبر المرفوع: « مَنْ عمِل بغير هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً »، وفى كلام الحكماء: «العامل بغير علم كالرامى من غيرَ وتَر » .

***

الأصْـلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ ؛ فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ ، طَابَ بَاطِنُهُ ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ » .

***

الشّـرْحُ :

هذا الكلام مشتقّ من قوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً ﴾[1]؛ وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من البشر، ولمن لا يؤثّر ذلك فيه مثّله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبْت ، والأرض السبخة الخبيثة لا تنبت؛ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى يومى. يقول : إنّ لكلتا حالتِى الإنسان الظاهرة أمراً باطناً يناسبها من أحواله ؛ والحالتان الظاهرتان : ميله إلى العقل وميله إلى الهوى ؛ فالمتّبع لمقتضى عقله يرزق السعادة والفوز؛ فهذا هو الذى طاب

(١) سورة الأعراف ٥٨ .

ظاهره ، وطاب باطنه ، والمتّبع لمقتضى هواه وعادته ودين أسلافه يرزق الشّقاوة والعطب ؛ وهذا هو الذى خبُث ظاهره وخَبُث باطنه .

فإن قلت : لِمَ قال : «فما طاب» ؟ وهلاّ قال: «فمن طاب» ! وكذلك فى «خَبُث» !

قلت : كلامه فى الأخلاق والعقائد وما تنطوى عليه الضمائر ؛ يقول : ماطاب من هذه الأخلاق والملكات ، وهى خلق النفس الربانيّة المريدة للحقّ ؛ من حيث هو حقّ ؛ سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن ؛ وسواء كان ذلك مستقبَحا مستهجنا عند العامّة أو لم يكن ؛ وسواء نال به من الدنيا حظًّا أو لم ينل . يستطيب باطنه يعنى ثمرته ؛ وهى السعادة ؛ وهذا المعنى من مواضع « ما » لا من مواضع « من » .

فأما الخبر المروى[1] ، فإنه مذكور فى كتب المحدّثين ؛ وقد فسّره أصحابنا المتكلّمون ، فقالوا : إنّ الله تعالى قد يحبّ المؤمن ومحبّته له إرادة إثابته ، ويبغض عملا من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر ؛ فإنّها مكروهة عند الله ؛ وليست قادحة فى إيمان المؤمن ، لأنها تقع مكفَّرة ؛ وكذلك قد يبغض العبدَ بأن يريد عقابه ؛ نحو أن يكون فاسقا لم يتب ، ويحبّ عملا من أعماله ؛ نحو أن يطيع ببعض الطاعات ، وحبّه لتلك الطاعة ؛ هى إرادته تعالى أن يُسقط عنه بها بعض مايستحقّه من العقاب المتقدّم .

***

الأَصْـلُ :

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَاغِنَى بِهِ عَنِ ٱلْمَاءِ . وَٱلْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ .

***

(١) ساقطة من ب .

الشرح :

السَّقْى : مصدر سَقَيْت ، والسِّقْى ، بالكسر : النصيب من الماء .

وأمرَّ الشيء ، أى صار مُرًّا .

وهذا الكلام مثل فى الإخلاص وضدّه وهو الرياء وحبّ السمعة ، فكلّ عمل يكون مدده الإخلاص لوجه تعالى لا غير ؛ فإنه زاكٍ حلو المجنَى ، وكلّ عمل يكون الرياء وحبّ الشهرة مدده ؛ فليس بزاكٍ ، وتكون ثمرته مرّة المذاق .

(١٥٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش :

الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته ، وردعت عظمته العقول فلم تجد مساغا إلى بلوغ غاية ملكوته .

هو الله الحق المبين ، أحق وأبين مما ترى العيون . لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبها ، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلا . خلق الخلق على غير تمثيل ، ولا مشورة مشير ، ولا معونة معين ؛ فتم خلقه بأمره ، وأذعن لطاعته ؛ فأجاب ولم يدافع ، وانقاد ولم ينازع .

ومن لطائف صنعته ، وعجائب خلقته ، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكل حي . وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مذاهبها ، وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها ، وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها ، وأكنها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها . وهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها ، وجاعلة الليل سراجا تستدل به في التماس أرزاقها ، فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته ، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته ، فإذا ألقت الشمس قناعها ، وبدت أوضاح نهارها ، ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها ؛ أطبقت الأجفان على مآقيها ، وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها .

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً ؛ وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً !

وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ[1] يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا، لَاجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ !

* * *

الشرح :

الخفّاش ، واحد جمعه خَفَافيش، وهو هذا الطائر الذى يطير ليلا ولا يطير نهارا، وهو مأخوذ من الخَفَش؛ وهو ضعف فى البصر خِلْقة، والرجل أخفش، وقد يكون علّة، وهو الذى يبصر بالليل لا بالنهار ، أو فى يوم غيم لا فى يوم صحو .

وانحسرت الأوصاف : كلّت وأعيت . وردعت : كفّت . والمساغ : المسلك .

قال : « أحقّ وأبين مما ترى العيون » ؛ وذلك لأنّ العلوم العقلية إذا كانت ضرورية أو قريبة من الضروريّة ، كانت أوثق من المحسوسات، لأنّ الحسّ يغلط دائما، فيرى الكبير صغيرا كالبعيد ، والصغير كبيرا ، كالعنبة فى الماء ترى كالإجّاصة، ويُرى الساكن متحرّكا؛ كجرف الشطّ إذا رآه راكبُ السفينة متصاعدا، ويُرى المتحرّك ساكنا كالظلّ، إلى غير ذلك من الأغاليط والقضايا العقلية الموثوق بها ؛ لأنها بديهيّة أو تكاد، فالغلط غير داخل عليها.

قوله : « يقبضها الضياء » ، أى يقبض أعينها .

قوله : « وتتّصل بعلانية برهان الشمس » كلام جيّد فى مذاهب الاستعارة .

---

(١) د : « ولما » .

وسُبُحات إشراقها: جلاله وبهاؤه . وأكنّها : سترها، وبُلَج ائتلافها: جمع بُلْجة؛ وهى أول الصبح ؛ وجاء بَلْجة أيضا بالفتح .

والحِدَاق : جمع حَدَقة العين . والأسداف : مصدر أسدف الليل ، أظلم .
وغسق الدّجُنّة : ظلام الليل . فإذا ألقت الشمس قناعها ، أى سفرت عن وجهها وأشرقت .

والأوضاح: جمع وَضَح، وقد يراد به حلىٌ يعمل من الدراهم الصّحاح، وقد يراد به الدراهم الصّحاح نفسها وإن لم يكن حُليًّا. والضِّباب ، جمع ضَبّ. ووِجارها : بيتها . وشظايا الآذان: أقطاع منها . والقصب هاهنا : الغُضروف .

وخلاصة الخطْبة، التعجُّب من أعين الخفافيش التى تبصر ليلا ولا تبصر نهارا، وكلّ الحيوانات بخلاف ذلك، فقد صار الليل لها معاشًا، والنهار لها سكنا ؛ بعكس الحال فيما عداها. ثم من أجنحتها التى تطير بها وهى لحم لا ريش عليه ولا غضروف؛ وليست رقيقة فتنشقّ ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران. ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لاصق بها، فإذا وقعت وقع ملتصقا بها هكذا ، إلى أن يشتدّ ويقوى على النهوض فيفارقها .

* * *

[فصل فى ذكر بعض غرائب الطُّيور ومافيها من عجائب]

واعلم أنّه عليه السلام قد أتى بالعلة الطبيعية فى عدم إبصارها نهارا ؛ وهو انفعال حاسّة بصرها عن الضوء الشديد ؛ وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس ؛ وهو المرض المسمّى « روز كور » أى أعمى النهار ، ويكون ذلك عن إفراط التحلّل فى الروح النورىّ، فإذا لقىَ حرّ النهار أصابه قمر ، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول ، فيعود الإبصار .

وأما طيرانها من غير ريش ؛ فإنه ليس بذلك الطيران الشديد ، وإنما هو نهوض وخِفّة ، أفادها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة،والتصاق الولد بها ، لأنها تضمّه إليها بالطبع، وينضمّ إليها كذلك ، وتستعين على ضمّه برجليها،وبقصر المسافة.وجملة الأمر أنه تعجّب من عجيب . وفى الأحاديث العامية : قيل للخفاش:لماذا لا جناح لك ؟ قال : لأنى تصوير مخلوق ، قيل : فلماذا لا تخرج نهارا ؟ قال: حياء من الطيور،يعنون أنّ المسيح عليه السلام صوّره ، وأنّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِى ﴾ (١) .

وفى الطير عجائب وغرائب لاتهتدى العقول إليها ؛ ويقال : إن ضربين من الحيوان أصمان لا يسمعان ، وهما النعام والأفاعى .

وتقول العرب : إن الظّليم يسمع بعينه وأنفِه ؛ لا يحتاج معهما إلى حاسّة أخرى . والكراكىّ يجمعها أمير لها كيعسوب النحل،ولا يجمعها إلا أزواجا.والعصافير آلفةٌ للناس آنسةٌ بهم،لاتسكن داراً حتى يسكنها إنسان؛ومتى سكنتها لم تقم فيها إذاخرج الإنسان منها؛ فبفراقه تفارق ؛ وبسكناه تسكن . ويذكر أهل البصرة أنه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق فى البصرة عُصفور إلّا خرج إليها ، إلّا ماأقام على بَيْضه وفراخه ؛ وقد يُدَرّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع .

وقال شيخنا أبو عثمان: بلغنى أنه درِّب فيرجع مِن مِيل.وليس فى الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من رأس العصفور ، وليس فى الحيوان الذى يعايشُ الناس أقصرَ عمرا منه ، قيل لأجل السِّفاد الذى يستكثر منه . ويتميز الذكر من الأنثى فى العصافير تميُّز الديك

---

(١) سورة المائدة ١١٠ .

من الدجاجة ؛ لأنّ له لحية ؛ ولا شيء أحنى على ولده منه ، وإذا عَرَض له شيء صاح ، فأقبلت إليه العصافير بساعدنه ؛ وليس [لشيء](١) في مثل جسم العصفور [من](١) شدّة وطئه [إذا مشى أو على السطح ما للعصفور ؛ فإنك](١) إذا كنتَ تحت السطح ووقع ؛ حسبت وقعة، وقعة حجر ، وذكور(٢) العصافير لا تعيش إلّا سنة ؛ وكثيرا ما تجلب الحيّاتِ إلى المنازل ، لأنّ الحيّات تتبعها حرصا على ابتلاع بيضها وفراخها .

ويقال : إن الدجاجة إذا باضت بيضتين في يوم واحد وتكرّر ذلك ماتت ، وإذا هَرِمت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضه صفرة ؛ وإذا لم يكن للبيضة محّ لم يخلق فيها فرّوج؛ لأن غذاءه المحّ مادام في البيضة،وقد يكون للبيضة مُحّانِ فتنفقص(٣) عن فرّوجَيْنِ يخلقان من البياض ، ويغتذيان بالمحّين ، لأن الفراريج تُخلَق من البياض وتغتذي بالصُّفرة .

وكلّ ديكٍ فإنه يلتقط الحبّة فيحذف بها إلى الدجاجة سماحاً وإيثاراً ؛ ولهذا قالوا : « أسمح من لاقطة » يعنون الدِّيَكة ، إلا ديَكة مَرْو بخراسان ، فإنّها تطرد دجاجها عن الحبّ وتنزعه من أفواهها فتبتلعه .

والحمامة بلهاء ، وفي أمثالهم : « أحمق من حمامة » ، وهي مع حُمقها مهتدية إلى مصالح نفسها وفراخها .

قال ابنُ الأعرابيّ : قلت لشيخ من العرب : مَنْ علّمك هذا ؟ قال : علّمني الّذي علّم الحمامة على بَلَهِهاَ تقليبَ بيضها ، كيْ تعطيَ الوجهين جميعا نصيبهما من الحضن .

والهداية في الحمام لاتكونُ إلّا في الخُضْر والسُّمْر ، وأمّا الأسود الشديد السواد فهو كالزنجيّ القليل المعرفة ، والأبيض ضعيف القوّة . وإذا خرج الجوزل(٤) عن بيْضته علم أبواه أنّ حلقه لايتسع للغذاء ،فلا يكون لهما همّ إلا أن ينفخا في حَلقه الريح لتتّسع حوصلته بعد التحامها ،ثم يعلمان أنه لا يحتمل في أوّل اغتذائه أن يُزَقّ بالطعْم ؛ فيزقّانه باللعاب المختلط

(١) تكملة من كتاب الحيوان .
(٢) د : « ذكورة
(٣) انقفصت البيضة عن الفرخ : انفلقت عنه.
(٤) الجوزل : فرخ الحمام .

بقوَاها وقوى الطُّعْم ثم يعلمان أنّ حَوْصلته تحتاج إلى دِباغ ، فيأكلان من شَورج (١) أصول الحيطان ، وهو شيء من الملح الخالص والتراب فيَزُقّانه به . فإذا علما أنه قد اندبغ زقّاه بالحبّ الذي قد غَبَّ في حواصلهما، ثم بالذي هو أطرى فأطرى ، حتى يتعوّد ؛ فإذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعضَ المنع ، ليحتاج ويتشوّف ، فتطلبه نفسه ، ويحرص عليه ؛ فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما ، نزع الله تلك الرحمة منهما ، وأقبل بهما على طلب نَسْل آخر .

ويقال : إنّ حيّة أكلَتْ بيض مُكَّاء فجعل المُكَّاء يشرشر على رأسها ، ويدنو منها حتى دَلَعت (٢) الحيّة لسانها ، وفتحت فاها تريده وتهمّ به ، فألقى فيها حَسَكة (٣) فأخذت بحلقها حتى ماتت !

ومن دعاء الصالحين : يارزّاق النّعّاب (٤) في عشّه ! وذلك أنّ الغراب إذا فقص عن فراخه ، فقص عنها بيض الألوان ، فينفر عنها ولا يزقّها ؛ فتنفتح أفواهها ، فيأتيها ذباب يتساقط في أفواهها ، فيكون غذاءها إلى أن تسودّ ، فينقطع الذباب عنها ، ويعودُ الغراب إليها فيأنس بها ويغذّيها .

والحُبَارى تدبق (٥) جناح الصقر بذرقها ، ثم يجتمع عليه الحُبَارَيات ، فينتِفنَ ريشه طاقةً طاقةً ؛ حتى يموت ؛ ولذلك يحاول الحُبارى العلوّ عليه ، ويحاول هو العلوّ عليها ، ولا يتجاسر أن يدنُوَ منها متسفّلا عنها . ويقال : إن الحبارَى تموت كَمَداً إذا انحسر عنها ريشها ، ورأت صُوَيحباتها تطير .

* * *

(١) الشورج : نوع من الملح ؛ وربما كان للدباغة خاصة .
(٢) دلعت لسانها : أخرجته .
(٣) حسكة : شوكة .
(٤) النعاب ، أى الغراب .
(٥) تدبق : تصطاد .

وكلّ الطير يتسافَدُ بالأستاه إلا الحجَل؛ فإن الحجلة تكون فى سُفالة الريح، واليعقوب [1] فى عَلَاوتها، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفُحّال [2] بالريح.

والحُبارَى شديدُ الحمق، يقال إنها أحمق الطير؛ وهى أشدّه حِياطةً لبيضها وفراخها.

والعقعق مع كونه أخبث الطير وأصدقها خبثا، وأشدّها حذَراً، ليس فى الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضه وفراخه منه.

ومن الطير مايؤثر التفرّد كالعُقاب؛ ومنه مايتعايش زوجا كالقطا.

والظليم يبتلع الحديد المحمّى، ثم يميعهُ فى قانصته حتى يُحيله كالماء الجارى؛ وفى ذلك أعجوبتان: التغذّى بما لايتغذّى به، واستمراؤه وهضمه شيئا لو طبخ بالنار أبداً لما انحلّ.

وكما سُخّر الحديد لجوف الظليم فأحاله، سُخّر الصخر الأصمّ لأذناب الجراد، إذا أراد أن يلقى بيضهَ غرس ذنبَه فى أشدّ الأرض صلابة، فانصدع له؛ وذلك من فعل الطبيعة بتسخير الصانع القديم سبحانه؛ كما إنّ عود الحَلْفاء الرَّخْو الدقيق [3] المنبت، يلقى فى نباته الآجرّ والخزَف الغليظ، فيثقبه.

وقد رأيت فى مسنّاة سور بغداد، فى حجر صلد نبعةَ نبات قد شقّت وخرجت من موضع؛ لو حاول جماعة أن يضربوه بالبيارم الشديدة مدّة طويلة لم يؤثر فيه أثرا.

وقد قيل: إن إبرة العقرب أنفذُ فى الطّنْجير [4] والطست.

وفى الظليم شبَهٌ من البعير من جهة المَنسِم والوظيف والعُنق والخِزامة التى فى أنفه،

---

(١) اليعقوب: ذكر الحجل.

(٢) الفحال: ذكر النخل.

(٣) ساقطة من ب.

(٤) الطنجير: وعاء يعمل فيه الخبيص (معرب).

وشَبَهٌ من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار . ثم إنّ ما فيه من شَبَه الطير جَذَبه إلى البيض ، وما فيه من شَبَه البعير لم يجذبه إلى الولادة .

ويقال : إنّ النعامة مع عظم عظامها وشدّة عَدْوِها لا مخّ فيها ، وأشدّ ما يكون عَدْوُها أن تستقبل الريح ؛ فكلّما كان أشدّ لعصوفها كان أشدّ لحُضْرها[١] ، تضع عنقها على ظهرها ثم تخرق الريح ، ومن أعاجيبها أنّ الصيّف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمرة ابتدأ لون وظيفها في الحُمْرة ؛ فلا يزالان يزدادان حمرةً إلى أن تنتهيَ حُمْرة البُسر ، ولذلك قيل للظليم : خاضب ، ومن العجَب أنها لا تأنس بالطير ولا بالإبل مع مشاكلتها للنوعين ؛ ولا يكاد يرى بيضها مبدّدا البتّة ، بل تصفّه طولا صفًّا مستويا على غاية الاستواء ، حتى لو مددْتَ عليه خيط المِسطَر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض ؛ ثم تعطي لكلّ واحدة نصيبها من الحَضْن .

والذئب لا يعرض لبيض النعام ما دام الأبوان حاضرين ، فإنهما متى نقفاه[٢] ركبه الذكر فطحره[٣] وأدركته الأنثى فركضته ، ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عِوَضه ، فلا يزالان يفعلان به ذلك حتى يقتلاه أو يعجزها هرباً . والنّعام قد يتخذ في الدّور ، وضرره شديد ، لأنّ النعامة ربّما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ ، فخطفته وأكلته ، وخرمت الأذن ، أو رأت ذلك في لبّتها فضربت بمنقارها اللّبة فخرقتها[٤] .

---

(١) الحضر : نوع من السير .
(٢) نقفاه : ثقباه .
(٣) طحره : كسر بيضته .
(٤) الحيوان ٥ : ٢١٧ وما بعدها .

(١٥٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم:

فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱللهِ فَلْيَفْعَلْ ؛ وَإِنْ أَطَعْتُمُونِي؛ فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْجَنَّةِ؛وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ. وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ٱلْقَيْنِ ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ . وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا ٱلْأُولَى ، وَٱلْحِسَابُ عَلَى ٱللهِ !

***

الشرح :

يعتقل نفسه على الله : يحبسها على طاعته . ثم ذكر أنّ السبيل التى حملهم عليها وهى سبيل الرشاد ؛ ذات مشقّة شديدة ومذاقة مريرة ، لأنّ الباطل محبوب النفوس؛فإنه اللهو واللّذة ، وسقوط التكليف ؛ وأما الحقّ فمكروه النفس ، لأن التكليف صعب وترك الملاذّ العاجلة ، شاقّ شديد المشقّة .

والضِّغن : الحقد . والمِرْجل : قِدْر كبيرة . والقَيْن : الحداد ، أى كغليان قِدْر من حديد .

***

[فصل فى ترجمة عائشة وذكر طرف من أخبارها]

وفلانة كناية عن أمّ المؤمنين عائشة ، أبوها أبو بكر ، وقد تقدّم ذكر نسبه ، وأمها أم رُومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سبيع بن دَهْمان ابن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة . تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الهجرة بسنتين ، بعد وفاة خديجة ؛ وهى بنت سبع سنين ، وبَنَى عليها بالمدينة ؛ وهى بنت تسع سنين وعشرة أشهر ؛ وكانت قبله تذكر لجُبَير بن مطعم ؛ وتُسمَّى له ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله رأى فى المنام عائشة فى سَرَقة[1] من حرير عند متوفّى خَديجة ، فقال : « إن يكن هذا من عند الله يُمْضِه »[2] ؛ روى هذا الخبر فى المسانيد الصحيحة ، وكان نكاحُه إياها فى شوّال ، وبناؤه عليها فى شوّال أيضاً ، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحبّتها على أزواجهنّ فى شوّال ، وتقول : هل كان فى نسائه أحظَى منّى ! وقد نكحنى ، وبنى علىّ فى شوال ؛ ردًّا بذلك على مَنْ يزعم من النساء أنّ دخولَ الرجل بالمرأة بين العيدين مكروه .

وتوفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وهى بنت عشرين سنة . واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وآله فى الكُنْية ، فقال لها : « اكتنى بابنك عبد الله بن الزُّبير » ؛ يعنى ابنَ أختها ، فكانت تكنَى أمّ عبد الله . وكانت فقيهةً راوية للشعر ، ذات حظّ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومَيْلٍ ظاهر إليها ، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمِي ويستشرى[3] ، حتى كان منها فى أمره فى قصة مارية ، ما كان من الحديث[3]

---

(١) السرقة ، واحدة السرق ؛ وهو شقق من الحرير الأبيض .
(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٤٤ .
(٣) انظر تفسير الكشاف ٤ : ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

الذى أسرّته إلى الزوجة الأخرى ، وأدّى إلى تظاهرهما عليه ، وأنزل فيهما قرآنا يُتلى فى المحاريب، يتضمّن وعيداً غليظاً عَقِيب تصريح بوقوع الذنب، وصَغْو القلب ، وأعقبتْها تلك الجرأة ، وذلك الانبساط وحدث منها فى أيام الخلافة العلويّة ما حـدث ؛ ولقد عفـا الله تعالى عنها ، وهى من أهل الجنّة عندنا بسابق الوعد ، وماصحّ من أمر التوبة .

وروى أبو عمر بن عبـد البر فى كتاب " الاستيعاب " فى باب عائشة ، عن سعيد ابن نصر ، عن قاسم بن أصبغ، عن محمد بن وضاح ؛ عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع عن عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنسائه : « أيتكنّ صاحبة الجملَ الأدبَب ، يقتَل حولها قتـلى كثير ، وتنجو بعدما كادت »[1] ؟ .

قال أبو عمر بن عبد البر : وهذا الحديث من أعلام نبوّته صلّى الله عليه وآله ، قال: وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد، فثقة رجاله أشهر من أن تذكر[2] .

ولم تحمل عائشة من رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا وُلد له ولد من مَهِيرة[3] إلا من خديجة ، ومن السّراريّ من مارية .

وقُذِفت عائشة فى أيام رسول الله صـلى الله عليه وآله بصفوان بن المعطّل السُّلَمىّ ، والقصة مشهورة ، فأنزل الله تعالى براءتها فى قرآن يُتْلَى وينقل ، وجُلِد قاذفوها الحدّ ، وتوفيت فى سنة سبع وخمسين للهجرة ، وعمرها أربع وستون سنـة ، ودفنت بالبَقيع ،

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٠ ؛ والرواية هناك : « ليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأدبب ؛ تنبحها كلاب الحوأب؟» ؛ وقال فى شرحه : أراد « الأدب » ، فأظهر الإدغام لأجل الحوأب ، والأدب الكثير وبر الوجه .

(٢) الاستيعاب ٧٤٤ ، وفيه : « وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى ذكر » .

(٣) المهيرة : الحرة من النساء ؛ وهى غير السرية .

فى مُلْك معاوية ، وصلّى عليها المسلمون ليلاً ، وأمّهم أبو هريرة ، ونزل فى قبرها خمسة من أهلها : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبى بكر ، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبى بكر ؛ وذلك لسبع عشرة خلتْ من شهر رمضان من السنة المذكورة .

* * *

فأما قوله : « فأدركها رأىُ النساء » أى ضعف آرائهنّ . وقد جاء فى الخبر : « لايفلح قوم أسندوا أمرَهم إلى امرأة » . وجاء : « إنهنّ قليلات عقل ودين » ، أو قال : « ضعيفات » ، ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد ؛ والمرأة فى أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب ، سيئة الظن ، فاسدة التدبير ، والشجاعة فيهنّ مفقودة ، أو قليلة ؛ وكذلك السخاء .

وأما الضِّغْن ، فاعلم أنّ هذا الكلام يحتاج إلى شرح ، وقد كنت قرأته على الشيخ أبى يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعانى رحمه الله أيام اشتغالى عليه بعلم الكلام ، وسألته عمّا عنده فيه ، فأجابنى بجواب طويل ؛ أنا أذكر محصوله ، بعضُه بلفظه رحمه الله ، وبعضُه بلفظى ، فقد شذّ عنى الآن لفظه كلّه بعينه ، قال : أول بدء الضِّغْن كان بينها وبين فاطمة عليهما السلام ، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله تزوّجها عَقِيب موت خديجة ، فأقامها مقامها ، وفاطمة هى ابنة خديجة ، ومن المعلوم أنّ ابنة الرجل إذا ماتت أمّها ، وتزوج أبوها أخرى ، كان بين الابنة وبين المرأة كَدَرٌ وشنآن ، وهذا لابدّ منه ، لأن الزوجة تنفَس عليها ميل الأب ، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة . كالضَّرّة لأمّها ؛ بل هى ضرة على الحقيقة ، وإن كانت الأمّ ميتة . ولأنّا لو قدّرنا الأمّ حيّة ، لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة ، فإذا كانت قد ماتت ورثتْ ابنتها تلك العداوة ، وفى المثل : « عداوة الحماة والكَنّة » . وقال الراجز :

إن الحماة أو لِمَتْ بالكَنَّهْ(١) وأولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّهْ

ثم اتفق أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مال إليها وأحبّها ، فازداد ماعند فاطمة بحسب زيادة ميله ، وأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة إكراماً عظيما أكثر مما كان الناس يظنونه؛ وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم ، حتى خرج بها عن حدّ حب الآباء للأولاد ، فقال بمحضر الخاصّ والعام مراراً لا مرة واحدة ، وفى مقامات(٢) مختلفة لا فى مقام واحد : إنّها سيّدة نساء العالمين ، وإنها عديلة مريم بنت عمران ، وإنها إذا مرّت فى الموقف نادى منادٍ من جهة العرش : يا أهل الموقف ، غضّوا أبصاركم لتعبُرَ فاطمة بنت محمد . وهذا من الأحاديث الصحيحة ، وليس من الأخبار المستضعَفة ؛ وإن إنكاحه عليّاً إيّاها ما كان إلّا بعد أن أنكحه الله تعالى إياها فى السماء بشهادة الملائكة . وكم قال لامرّة(٣) : « يؤذينى ما يؤذيها ، ويغضبنى ما يغضبها » ، و « إنها بضعة منّى ، يريبنى ما رابها » ، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضّغن عند الزوجة حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل ، والنفوس البشرية تغيظُ على ما هو دون هذا ، فكيف هذا !

ثم حصل عند بعلها ماهو حاصلٌ عندها ـ أعنى عليًّا عليه السلام ـ فإنّ النساء كثيرا مايحملنَ الأحقاد فى قلوب الرجال ؛ لاسيما وهنّ محدّثات الليل ، كما قيل فى المثل ؛ وكانت تكثر الشكوى من عائشة ، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلنَ إليها كلماتٍ عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلنَ إليها كلماتٍ عن فاطمة ؛ وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها ، كانت عائشة تشكو إلى أبيها ، لعلمها أنّ بعلَها لا يُشكيها(٤) على ابنته ، فحصل فى نفس أبى بكر من ذلك أثرٌ ما ، ثم تزايد تقريظُ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الكنة : امرأة الابن .
(٢) ب : « فى » .
(٣) د : « مرة » .
(٤) يقال : أشكى فلانا ؛ إذا قبل شكواه .

لعليّ عليه السلام . وتقريبه واختصاصه ؛ فأحدث ذلك حسداً له وغبطة فى نفس أبى بكر عنه ؛ وهو أبوها ، وفى نفس طلحة وهو ابن عمّها ، وهى تجلس إليهما ، وتسمع كلامهما ؛ وهما يجلسان إليها ويحادثانها ، فأعدَى إليها منهما كما أعدتْهما .

قال : ولست أبرّئ عليًّا عليه السلام من مثل ذلك ؛ فإنه كان ينفَسُ على أبى بكر سكونَ النبيّ صلى الله عليه وآله إليه وثناءه عليه ، ويحبّ أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده ، فتأكّدت البِغضة بين هذين الفريقين . ثم كان من أمر القذف ما كان ؛ ولم يكن علىّ عليه السلام من القاذفين ، ولكنّه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها ، تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشّناة والمنافقين .

قال له لما استشاره : إن هى إلا شِسْع نعلك ، وقال له : سلِ الخادم وخوّفها وإن أقامت على الجحود فاضربها . وبلغ عائشة هذا الكلام كلّه ، وسمعت أضعافه ممّا جرت عادة الناس أن يتداولوه فى مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاماً كثيرا عن علىّ وفاطمة ، وأنهما قد أظهرا الشماتة جهاراً وسرًّا بوقوع هذه الحادثة لهما ، فتفاقم الأمرُ وغَلُظ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله صالَحها ورجع إليها ، ونزل القرآن ببراءتها ؛ فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قُهِر ، ويستظهر بعد أن غُلِب ، ويبرأ بعد أن اتُّهم ؛ من بسط اللسان ، وفَلَتات القول ؛ وبلغ ذلك كلّه عليا عليه السلام وفاطمة عليها السلام ، فاشتدّت الحال وغَلُظت ، وطوى كلٌّ من الفريقين قلبَه عَلَى الشنآن لصاحبه. ثم كان بينها و بين علىّ عليه السلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال ؛ كلّها تقتضى تهييج مافى النفوس ، نحو قولها له ـ وقد استدناه رسول الله ، فجاء حتى قعد بينه

وبينهاوهما متلاصقان : أماوجدتَ مقعدا لـكذا ـ لاتـكنى عنه ـ إلّا فخذِى ! ونحو ماروى أنهسايره يوماوأطال مناجاته؛ فجاءت وهى سائرة خلفهماحتى دخلت بينهما، وقالت:فيمَ أنتما فقد أطلتما ! فيقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله غَضِب ذلك اليوم . وما روى من حديث الجفنة من الثريد التى أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتها ؛ ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها .

ثم اتفق أنّ فاطمةوَلَدَت أولادا كثيرة بنين وبنات ؛ولم تلد هى ولداً ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُقيم بنى فاطمة مقام بنِيه ،ويسمّى الواحدمنهما « ابنى » ويقول: « دعوا لى ابنى ولا تُزْرِموا[1] على ابنى » ، و « مافعل ابنى؟» فما ظنُّك بالزوجة إذاحُرِمت الولد من البعل ، ثمّ رأت البعل يدنِّى بنى ابنتِهمن غيرها ،ويحنو عليهم حُنُوّ الوالدالمشفق! هل تـكون مُحِبّةً لأولئك البنيـن ولأمهم ولأبيهم ، أم مبغِضة ! وهل تودّ دوامَ ذلك واستمرارَه ،أم زواله وانقضاءه !

ثم اتّفق أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله سدّ باب أبيها إلى المسجد ، وفتح باب صهره ؛ ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة ، ثم عزله عنها بصهره ، فقدح ذلك أيضا فى نفسها، وولدلرسول الله صلى الله عليهوآله إبراهيم من مارية، فأظهر علىّ عليهالسلام بذلكسروراً كثيرا ؛ وكان يتعصّب لمارية، ويقوم بأمرها عند رسول الله صلى الله عليه وآله ميلا عَلَى غيرها ، وجرت لمارية نـكبة مناسبةلنـكبة عائشة ،فبرّأها علىّ عليهالسلام منها ، وكشف بطلانها ، أو كشفه الله تعالى عَلَى يدِه ، وكان ذلك كشفا محسّا بالبصر ، لايتهيّأ للمنافقين أن يقولوا فيه ماقالوه فى القرآن المنزّل ببراءة عائشة ،وكلّ ذلك مما كان يوغِرُ صدرَ عائشة عليـه ، ويؤكّـد مافى نفسها منه ، ثم مات إبراهيم فأبطنتْ شماتةً ، وإن أظهرت كآبة ،

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٤ ، قال : « أى لا تقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم الدمع والبول ؛ إذا انقطع . » .

ووَجَم عليٌّ عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة ، وكانا يؤثران ، ويريدان أن تتميّز مارية عليها بالولد ، فلم يقدّر لها ولا لمارية ذلك ؛ وبقيت الأمور على ماهى عليه ؛ وفى النفوس مافيها ، حتى مَرِض رسول الله صلى الله عليه وآله المرضَ الذى توفّى فيه ، وكانت فاطمة عليها السلام وعليٌّ عليه السلام يريدان أن يمرّضاه فى بيتهما ، وكذلك كان أزواجه كلّهن ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبّة القلبية التى كانت لها دون نسائه ، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلها فى بيتهما ؛ فلا يكون عنده من الانبساط لوجودهما مايكون إذا خلا بنفسه فى بيت مَنْ يميل إليه بطبعه ، وعلم أنّ المريض يحتاج إلى فضل مداراة ، ونوم ويقظة وانكشاف ، وخروج حَدَث ، فكانت نفسه إلى بيته أسكنَ منها إلى بيت صهره وبنته ، فإنه إذا تصوّر حياءهما منه استحيا هو أيضا منهما ؛ وكلّ أحد يحبّ أن يخلُوَ بنفسه ، ويحتشم الصّهر والبنت ، ولم يكن له إلى غيرها من الزوجات مثل ذلك الميل إليها ، فتمرّض فى بيتها ، فغُبِطت على ذلك ، ولم يمرض رسول الله صلى الله عليه وآله منذ قدم المدينة مثل هذا المرض ؛ وإنما كان مرضه الشّقيقة[1] يوما أو بعض يوم ثم يبرأ ، فتطاولَ هذا المرضُ ؛ وكان عليٌّ عليه السلام لايشكّ أنّ الأمر له ، وأنّه لاينازعه فيه أحد من الناس ، ولهذا قال له عمّه وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله : امْدُد يدَك أبايعك ، فيقول الناس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابنَ عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف عليك اثنان . قال : ياعمّ ، وهل يطمع فيها طامع غيرى ! قال : ستعلم ، قال : فإنّى لاأحبّ هذا الأمر من وراء رتاج ، وأحبّ أن أُصحِرَ به[2] . فسكت عنه ، فلما ثقل[3] رسول الله صلى الله عليه وآله فى مرضِه ، أنفذ جيش أسامة ، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام

---

(١) الشقيقة : مرض يأخذ فى نصف الرأس والوجه .
(٢) يقال : أصحر فلان بما فى قلبه ، أى أظهره .
(٣) يقال : أصبح ثاقلا ، أى مريضا .

المهاجرين والأنصار ؛ فكان عليّ عليه السلام حينئذ بوصوله إلى الأمر — إن حدث برسول الله صلى الله عليه وآله حدث — أوثق ، وتغلّب على ظنه أنّ المدينة لو ماتت خلت من منازع ينازعه الأمر بالكلّية ؛ فيأخذه صفواً عفوا ، وتتمّ له البيعة ، فلا يتهيأ فسخها لو رام ضدّ منازعته عليها ، فكان — من عَوْدِ أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه ، وإعلامه بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يموت — ما كان ، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف ، فنسب عليٌّ عليه السلام عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصلّ بالناس ؛ لأنّ رسول الله كما روى ، قال : « ليصلّ بهم أحدهم » ، ولم يعيّن ؛ وكانت صلاة الصبح ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في آخر رَمَقٍ يتهادى بين علي والفضل بن العباس ؛ حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر ، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى ، فجعل يومُ صلاته حُجّةً في صرف الأمر إليه . وقال : أيّكم يطيبُ نفساً أن يتقدم قدمين قدّمهما رسول الله في الصلاة ؟ ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصلاة لصرفه عنها ؛ بل لمحافظته على الصّلاة مهما أمكن ؛ فبويع على هذه النكتة التي اتّهمها عليّ عليه السلام على أنّها ابتدأت منها .

وكان عليّ عليه السلام يذكر هذا لأصحابه في خَلَواته كثيرا ؛ ويقول : إنّه لم يقلْ صلى الله عليه وآله : « إنّكن لَصُوَيحبات يوسف » إلا إنكاراً لهذه الحال ، وغضباً منها ، لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما ؛ وأنّه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب ؛ فلم يُجْدِ ذلك ، ولا أثّر ، مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر ويمهّد له قاعدة الأمر ؛ وتقرر حاله في نفوس الناس ومن اتّبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار . ولما ساعد على ذلك من الحظ الفَلَكيّ والأمر السمائيّ ؛ الذي جمع عليه القلوب والأهواء ، فكانت هذه الحال عند عليّ أعظم من كلّ عظيم ؛ وهي الطامّة الكبرى ،

وللصيبة العظمى ؛ ولم ينسُبْها إلا إلى عائشة وحدَها ، ولا علّق الأمر الواقع إلا بها ؛ فدعا عليها فى خلواتِه وبين خواصّه ، وتظلّم إلى الله منها ، وجرى له فى تخلفه عن البيْعة ما هو مشهور ؛ حتى بايع ؛ وكان يبلغه وفاطمة عنها كلّ مايكرهانه منذ مات رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن توفّيت فاطمة ، وهما صابران على مضضٍ ورَمَض[1] ، واستظهرت بولاية أبيها ، واستطالت وعَظُمَ شأنها ، وانخذل علىّ وفاطمة وقُهِرا ؛ وأخِذَت فَدَك ، وخرجت فاطمة تجادل فى ذلك مرارا فلم تظفر بشىء ، وفى ذلك تبلغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كلّ كلام يسوءها ، ويبلِّغْنَ عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك ، إلا أنه شتّان ما بين الحالين ، وبعد ما بين الفريقين ، هذه غالبة وهذه مغلوبة ، وهذه آمِرة وهذه مأمورة ، وظهر التشفى والشماتة ، ولا شىء أعظم مرارة ومشقّة من شماتة العدوّ .

فقلت له ، رحمه الله : أفتقول أنت : إنّ عائشة عيّنَت أباها للصلاة ورسول الله صلى الله عليه وآله لم يعيِّنْه ! فقال : أمّا أنا فلا أقول ذلك ، ولكنّ عليًّا كان يقوله ، وتكليفى غير تكليفه ، كان حاضراً ولم أكن حاضرا ، فأنا محجوج بالأخبار التى اتّصلت بى ، وهى تتضمن تعيين النبىّ صلى الله عليه وآله لأبى بكر فى الصلاة ، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنّه من الحال التى كان حضرها .

قال : ثم ماتت فاطمة ، فجاء نساء رسول الله صلى الله عليه وآله كلّهنّ إلى بنى هاشم فى العزاء إلا عائشة ، فإنّها لم تأتِ ، وأظهرت مرضاً ، ونقل إلى علىّ عليه السلام عنها كلام يدلّ على السرور .

ثم بايع علىّ أباها فسرّت بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيْعة واستقرار

---

(١) الرمض : الغيظ الشديد .

الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا ، واستمرّتِ الأمور على هذا مُدّة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلي ، والأحقاد تذيب الحجارة ، وكلّما طال الزمان على عَليّ تضاعفت همومه ، وباح بما في نفسه ، إلى أن قتِل عثمان وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليبا وتحريضاً ، فقالت : أبعده الله ! لمّا سمعت قتلَه ، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة ، فتعود الإمْرة تيميّة كما كانت أوّلا ، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت : واعثماناه ! قتِل عثمان مظلوما ، وثار ما في الأنفس ، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده .

هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله ، ولم يكن يتشيّع ، وكان شديداً في الاعتزال ، إلا أنه في التفضيل كان بغداديًّا .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ولو دُعِيَتْ لتنال من غيري مثل ما أتت إليّ ، لم تفعل » فإنما يعني به عمر ، يقول : لو أنّ عمر وَلِيَ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتِل عليه ، والوجهِ الّذي أنا وليت الخلافة عليه ، ونسِب إلى عمر أنه كان يؤثر قتله ، أو يحرّض عليه ، ودعِيَتْ عائشة إلى أن تخرج عليه في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام ، تثير فتنة وتنقض البيعة ـ لم تفعل ، وهذا حقّ ، لأنها لم تكن تجد على عمر ما تجده على عليّ عليه السلام ، ولا الحال الحال .

فأما قوله : « ولها ـ بعدُ ـ حُرْمتها الأولى ، والحساب على الله » ، فإنه يعني بذلك حُرْمتَها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وآله لها ، وحبّه إياها . وحسابها على الله ، لأنه غفور رحيم لا يتعاظم عفوه زلّة ، ولا يضيق عن رحمته ذنب .

فإن قلت : هذا الكلام يدلّ على توقفه عليه السلام فى أمرها ، وأنتم تقولون : إنّها من أهل الجنّة ، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام ؟

قلت : يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبرُ عنده بتوبتها ؛ فإنّ أصحابنا يقولون : إنّها تابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت ، وقالت : لوددْت أن لى من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين ؛ كلّهم ماتوا ، ولم يكن يوم الجمل . وأنّها كانت بعد قتله تُثنى عليه وتنشر مناقبَه ؛ مع أنهم رووْا أيضا أنها عَقِيب الجمل كانت تبكى حتى تبلّ خمارها ، وأنها استغفرت الله وندمت ؛ ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديثُ توبتها عَقِيب الجمل بلاغا يقطع العذر ويثبت الحجة ؛ والذى شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعا مستفيضا ، إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهى على ذلك ، والتائب مغفور له ، ويجب قبول التوبة عندنا فى العدل ، وقد أكّدوا وقوع التوبة ؛ منها ما روى فى الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله فى الآخرة كما كانت زوجته فى الدنيا ، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أنْ نتكلّف إثبات توبتها ولو لم ينقل ، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر !

***

الأَصْـلُ :

منه :

سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ ؛ فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا ، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ

الفَاسِقُونَ . وَإِنَّ الخَلْقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ القِيَامَةِ ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الغَايَةِ القُصْوَى .

•••

الشرح :

هو الآن في ذكر الإيمان ، وعنه قال : « سبيل أبلج المنهاج » ، أى واضح الطريق.

ثم قال: «فبالإيمان يستدلّ على الصالحات» ، يريد بالإيمان ههنا مسمّاه اللغوى لا الشرعيّ لأنّ الإيمان في اللغة هو التصديق ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾[1] أى بمصدّق، والمعنى أنّ من حصل عنده التصديق ، بالوحدانية والرسالة ؛ وهما كلمتا الشهادة ، استدلّ بهما على وجوب الأعمال الصالحة عليه أو ندبه إليها ، لأنّ المسلم يعلم من دين نبيه صلى الله عليه وآله أنه أوجب عليه أعمالا صالحة ، وندبه إلى أعمال صالحة ؛ فقد ثبت أنّ بالإيمان يستدلّ على الصالحات .

ثم قال : « وبالصالحات يستدلّ على الإيمان » ، فالإيمان ههنا مستعمل في مسمّاه الشرعيّ لا في مسمّاه اللغويّ ، ومسمّاه الشرعيّ هو العقد بالقلب ؛ والقول باللسان ، والعمل بالجوارح ، فلا يكون المؤمن مؤمنا حتى يستكمل فعل كلّ واجب ، ويجتنب كلّ قبيح؛ ولا شبهة أنا متى علمنا أو ظننا من مكلّف أنه يفعل الأعمال الصالحة ، ويجتنب الأعمال القبيحة؛ استدللنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه ، وبهذا التفسير الذى فسّرناه نسلم من إشكال الدّور ، لأنّ لقائل أن يقول : من شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول ؛ فلو كان كلّ واحد من الإيمان والصالحات يستدلّ به على الآخر ، لزم تقدّم العلم بكلّ واحد منهما على العلم بكلّ واحد منهما ، فيؤدّى إلى الدّور ؛ ولا شبهة أن هذا الدّور غير لازم على التفسير الذى فسّرناه نحن .

---

(١) سورة يوسف ١٧ .

ثم قال عليه السلام : « وبالإيمان يعمر العلم » ؛ وذلك لأن العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما علم ، بل مستضرّ به غاية الضرر؛ فكأنّ علمه خراب غير معمور؛ وإنما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنّب القبيح على مذهبنا، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرنا أو القول اللسانيّ على قول آخرين؛ ومذهبنا أرجح، لأنّ عمارة العلم إنما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح ؛ و بدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان .

ثم قال : « وبالعلم يُرهب الموت » ، هذا من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(١) .

ثم قال : « وبالموت تختم الدنيا » ؛ وهذا حق لأنه انقطاع التكليف .

ثم قال: « وبالدنيا تحرز الآخرة » ؛ هذا كقول بعض الحكماء. الدنيا متجر، والآخرة ربح ، ونفسك رأس المال .

ثم قال: «وبالقيامة تزلف الجنّة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين» ، هذا من القرآن العزيز(٢) . وتزلف لهم : تقدّم لهم وتقرّب إليهم .

ولا مقصر لي عن كذا : لا محبس ولا غاية لي دونه . وأرقل : أسرع . والمضمار: حيث تستبق الخيل .

* * *

الأصل :

منها :

قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ؛ لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا؛

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) من قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ . سورة الشعراء ٩٠ ، ٩١ .

لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا، وَلَا يَنْقُلُونَ عَنْهَا ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ .

وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ ؛ لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ ، وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ .

* * *

الشرح :

شَخَصُوا من بلد كذا : خرجوا . ومستقر الأجداث : مكان استقرارهم بالقبور ؛ وهى جمع جَدَث .

ومصائر الغايات : جمع مَصِير ، والغايات : جمع غاية وهى ماينتهى إليه ، قال الكميت :

فالآن صرت إلى أُمَيَّـــــة والأمور إلى مصايرْ

ثم ذكر أن أهل الثواب والعقاب ؛ كلّ من الفريقين يقيم بدار لايتحوّل منها ؛ وهذا كما ورد فى الخبر : « إنه ينادِى منادٍ : ياأهل الجنّة سعادة لافناء لها ، وياأهل النار ؛ شقاوة لافناء لها » .

ثم ذكر أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خُلُقان من خُلُق الله سبحانه ؛ وذلك لأنه تعالى ماأمر إلّا بمعروف ، ومانهى إلاعن منكر ؛ ويبقى الفرق بيننا وبينه أنا يجب علينا النهى عن المنكر بالمنع منه ، وهو ـ سبحانه ـ لايجب عليه ذلك ؛ لأنه لو منع من إتيان المنكر لبطل التكليف .

ثم قال : « إنّهما لايقرّبان من أَجَلٍ ، ولا ينقصان من رزق » ، وإنما قال عليه السلام

ذلك ، لأنّ كثيرا من الناس يكفّ عن نهى الظلمة عن المناكير ؛ توهّما منه أنّهم إمّا أن يبطشوا به فيقتلوه ،أو يقطعوا رزقه ويحرموه ، فقال عليه السلام : إنّ ذلك ليس ممّا يقرّب من الأجل ، ولا يقطع الرزق . وينبغى أن يحمَل كلامُه عليه السلام على حال السلامة وغلبة الظنّ بعدم تطرّق الضرر الموفِي على مصلحة النهى عن المنكر .

ثم أمر باتباع الكتاب العزيز ، ووصفه بما وصفَه به .

وماء نافع ، ينقع الغلة ، أى يقطعها ويُروى منها . ولا يزيغ : يميل فيُستعتب : يطلب منه العتبى هى الرضا ؛ كما يطلب من الظالم يميل فيسترضى .

قال : ولا يخلقه كثرة الردّ وولوج السمع ، هذا من خصائص القرآن المجيد شرّفه الله تعالى ، وذلك أنّ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردّد ولوجُه الأسماع ملّ ومُجّ واستُهجن ؛ إلا القرآن فإنه لا يزال غضا طريًا محبوبًا غير مملول .

(١٥٧)

الأصل

وقام إليه عليه السلام رجل، فقال: أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ، مَاهَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا؟ فَقَالَ: يَاعَلِيُّ؛ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي.

فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»؟ فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً»! فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ؛ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ؛ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ، وَقَالَ: يَاعَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ.

فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ.

●●●

الشرح :

قد كان عليه السلام يتكلم فى الفتنة ؛ ولذلك ذكر الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ولذلك قال : « فعليكم بكتاب الله » ، أى إذا وقع الأمر واختلط الناس ، فعليكم بكتاب الله ؛ فلذلك قام إليه مَنْ سأله عن الفتنة . وهذا الخبر مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قد رواه كثير من المحدّثين عن علىّ عليه السلام ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب علىّ جهاد المشركين » ، قال : فقلت : يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التى كتب علىّ فيها الجهاد ؟ قال : قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّى رسول الله ، وهم مخالفون للسنّة . فقلت : يا رسول الله ، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد ؟ قال : على الإحداث فى الدّين ، ومخالفة الأمر ؛ فقلت : يارسول الله ، إنك كنت وعدتَنى الشهادة ، فاسأل الله أن يعجّلها لى بين يديك ، قال : فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ! أما إنّى وعدتك الشهادة وستستشهد ؛ تضربُ على هذه فتخضب هذه ، فكيف صبرك إذاً ! قلت : يارسول الله ليس ذا بموطن صبر ، هذا موطن شكر ، قال : أجلْ ، أصبت ، فأعدّ للخصومة فإنك مخاصَم ، فقلت : يا رسول الله ، لو بينت لى قليلا ! فقال : إن أمتى ستُفتَن من بعدى ؛ فتأوّل القرآن وتعمل بالرأى ؛ وتستحلّ الخمر بالنبيذ ، والسحت بالهديّة ، والرّبا بالبيع ، وتحرّف الكتاب عن مواضعه ، وتغلب كلمة الضلال ، فكن جليسَ بيتك حتى تقلّدَها ، فإذا قُلّدتَها جاشت عليك الصدور ، وقلبت لك الأمور ؛ تقاتل حينئذ عَلَى تأويل القرآن ، كما قاتلتَ عَلَى تنزيله ؛ فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى . فقلت : يا رسولَ الله ، فبأىّ المنازل أنزِل هؤلاء المفتونين من بعدك ؟ أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة ؟ فقال : بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدْل . فقلت : يا رسولَ الله ، أيدركهم العدل مِنّا أم من غيرنا ؟ قال : بل منّا ، بنا فتح وبنا يختَم ، وبنا ألّف الله بين القلوب

بعد الشرك ، وبنا يؤلّف بين القلوب بعد الفتنة . فقلت : الحمد لله على ما وهب لنا من فضله .

***

واعلم أنّ لفظه عليه السلام المروىّ في " نهج البلاغة " يدلّ على أنّ الآية المذكورة وهي قوله عليه السلام : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ أنزلت بعد أُحُد ؛ وهذا خلاف قول أرباب التفسير ، لأنّ هذه الآية هي أوّل سورة العنكبوت وهي عندهم بالاتفاق مكيّة ، ويوم أُحُد كان بالمدينة ؛ وينبغي أن يقال في هذا : إنّ هذه الآية خاصّة أنزلت بالمدينة ، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة ؛ وغلب عليها نسب المكيّ لأنّ الأكثر كان بمكة ، وفي القرآن مثل هذا كثير ، كسورة النحل ، فإنها مكيّة بالإجماع ، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أُحُد ، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

فإن قلت : لِمَ قال : « علمت أنّ الفتنة لا تنزلُ بنا ورسولُ الله بين أظهرنا » ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (٢) .

وقوله : « حيزتْ عنّي الشّهادةُ » ، أي منعت .

قوله : « ليس هذا من مواطن الصبر » كلامٌ عالٍ جدًّا يدلّ على يقين عظيم ، وعرفانٍ تام ، ونحوه قوله ـ وقد ضربه ابن ملجم ـ : فزتُ وربّ الكعبة .

---

(١) سورة النحل ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ٣٣ .

قوله : « سيفتنون بعدى بأموالهم » من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (١) .

قوله : « ويمنّون بدينهم على ربهم » ، من قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (٢) .

قوله : « ويتمنّون رحمته » من قوله : « أحمق الحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله » .

قوله : « وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ » من قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) .

والأهواء الساهية : الغافلة . والسُّحْت : الحرام ، ويجوز ضم الحاء ، وقد أسحت الرجل فى تجارته ، إذا اكتسب السُّحْت .

وفى قوله : « بل بمنزلة فتنة » تصديق لمذهبنا فى أهل البغى ، وأنهم لم يدخلوا فى الكفر بالكلية ، بل هم فسّاق ، والفاسق عندنا فى منزلة بين المنزلتين ، خرج من الإيمان ، ولم يدخل فى الكفر .

---

(١) سورة الأنفال ٢٨ .
(٢) سورة الحجرات ١٧ .
(٣) سورة الأعراف ٩٩ .

(١٥٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَلِيلاً عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ .

عِبَادَ اللَّهِ ؛ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ . آخِرُ فَعَالِهِ [١] كَأَوَّلِهِ ، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ . فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ ؛ فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ ؛ وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ ؛ وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ . فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ .

اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ ؛ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ ؛ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ . أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى .

عِبَادَ اللَّهِ ؛ اللَّهَ اللَّهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ : فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ . فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ ، لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ . قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ . أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ

---

(١) د : « أفعاله » .

خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

اعْلَمُوا - عِبَادَ اللهِ - أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ؛ وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ؛ يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَاحِقاً بِهِ؛ فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَالَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ!

وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ؛ قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا؛ فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

* * *

الشرح:

جعل الحمد مفتاحا لذكره؛ لأن أول الكتاب العزيز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1]،

---

(١) سورة الحجر ٩.

وسببا للمزيد ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [1] ، والحمد ها هنا هو الشكر ، ومعنى جعله الحمدَ دليلا على عظمته وآلائه أنّه إذا كان سببا للمزيد ، فقد دلّ ذلك على عظمة الصانع وآلائه ؛ أمّا دلالته عَلَى عظمته ، فلأنّه دالٌّ عَلَى أنّ قدرته لاتتناهى أبداً ؛ بل كلّما ازداد الشكر ازدادت النعمة . وأمّا دلالته عَلَى آلائه ، فلأنّه لا جودَ أعظمُ من جود مَنْ يعطى مَنْ يحمَده ، لا حمداً متطوّعا ، بل حمْدا واجبا عليه .

قوله : « يجرى بالباقين كجريه بالماضين » ، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم مانظموه فى هذا المعنى ، قال بعضهم :

مات مَنْ مات والثريّا الثريّا ... والسِّماك السِّماك والنَّسْرُ نَسْرُ
ونجـــــوم السّماء تضحك مِنّا ... كيفَ تَبقَى مِنْ بعدِنَا وَنَمُرّ !

وقال آخر :

فما الدّهرُ إلا كالزّمانِ الّذى مَضَى ... ولا نحن إلّا كالقرون الأوائلِ

قوله : « لا يعود ما قد ولّى منه » ، كقول الشاعر :

مَا أحسَنَ الأيّام إلّا أنّهَا ... ياصاحبىّ إذا مَضَتْ لم ترجعِ [2]

قوله : « ولا يبقى سرمداً ما فيه » ؛ كلام مطروق المعنى ، قال عدىّ :

ليس شىءٌ عَلَى المنون بباقٍ ... غير وجـــــه المهيمن الخلّاقِ

قوله : « آخر أفعاله كأوّله » ، يروى : « كأوّلها » ، ومن رواه : « كأوّله » أعاد الضّمير إلى الدهر ، أى آخر أفعال الدهر كأوّل الدهر ، فحذف المضاف .

متشابهة أموره ؛ لأنّه — كما كان من قبل — يرفع ويضع ، ويغنى ويفقر ، ويوجد

---

(١) سورة إبراهيم ٧ .
(٢) البحترى ، ديوانه ٢ : ١٠٠ .

ويهدم ، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة . وروى : « متسابقة » أى شيء منها قبل شيء ، كأنها خيلٌ تتسابق فى مِضْمارٍ .

متظاهرة أعلامه ، أى دَلالاته على سجيّته التى عامَل النّاس بها قديما وحديثا .

متظاهرة : يقوى بعضها بعضا . وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام عَلَى عادة العرب فى ذكر الدّهر ؛ وإنما الفاعل على الحقيقة ربُّ الدهر .

والشّوّل : النُّوق التى خَفّ لبنها وارتفع ضَرْعها ، وأتى عليها من نَتاجها سبعة أشهر أو ثمانية ، الواحدة شائلة ، وهى جَمْعٌ عَلَى غير القياس . وشَوّلت الناقة ، أى صارت شائلة ، فأما الشائلة بغيرها ، فهى الناقة تَشُول بذَنبها للقاح ولا لبَنَ لها أصلا ، والجمع شُوّل ، مثل راكع وركّع ، قال أبو النجْم :

* كأنّ فى أذنابهنّ الشُّوّلِ[1] *

والزاجر : الذى يزجر الإبل بسوقها ، ويقال : حدوتُ إبلى وحدوتُ بإبلى ، والحدو سَوْقها ، والغناء لها ، وكذلك الحُداء ، ويقال للشّمال : حَدْواء ، لأنّها تحدو السحاب ، أى تسوقه ، قال العجاج :

* حَدْوَاء جاءتْ من بــــلاد الطورِ[2] *

ولا يقال للمذكر : « أحْدَى » ، وربما قيل للحمار إذا قدم أُتنه : حادٍ ، قال ذو الرُّمة :

* حادى ثلاثٍ من الحُقْب السّماحيج[3] *

والمعنى أنّ سائقَ الشّوّل يعسِف بها ، ولا يتّقى سَوْقها ولا يدارك كما يسوق العِشار[4] .

(١) اللسان (شول) .

(٢) ديوانه ٢٨ .

(٣) ديوانه ٧٨ ، وصدره :

* كأنّهُ حِينَ يَرْمِى خَلْفَهُنّ به *

(٤) العشار من الإبل : التى قد أتى عليها عشرة أشهر .

ثم قال عليه السلام : « مَنْ شغَل نفسَه بغير نفسه هلك » ، وذلك أنّ من لا يوفّ النظرَ حقّه ، ويميل إلى الأهواء ونُصرة الأسلاف . والحجاج عمّا رُبِّيَ عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعوا فى قلبه العقائد ؛ يكون قد شغل نفسه بغير نفسه، لأنّه لم ينظر لها ، ولا قصد الحقّ من حيث هو حقّ ، وإنّما قصد نُصْرة مذهب معيّن يشقّ عليه فراقه ، ويصعب عنده الانتقال منه ؛ ويسوءه أن يردّ عليه حجةً تبطله ، فيُسهر عينه ، ويتعب قلبَه فى تهويس(١) تلك الحجة والقدح فيها بالغثّ والسمين ، لا لأنه يقصد الحقّ ، بل يقصد نصرة المذهب المعيّن ، وتشييد دليله ، لا جرَم أنّه متحيّر فى ظلمات لا نهاية لها !

والارتباك : الاختلاط ، ربكت الشيء أربكه رَبكاً ، خلطته فارتبك ، أى اختلط ، وارتبك الرّجل فى الأمر ، أى نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه .

قوله : « ومدّت به شياطينه فى طغيانه » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾(٢) .

وروى : « ومدّت له شياطينه » باللام ، ومعناه الإمهال ،مدّ له فى الغىّ ، أى طوّل له، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾(٣) .

قوله : « وزينت له سيّئ أعماله » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾(٤) .

قوله : « التقوى دار حصن عزيز » ، معناه دار حصَانة عزيزة ، فأقام الاسم مقام المصدر ، وكذلك فى الفجور .

ويحرز مَنْ لجأ إليه : يحفظ من اعتصم به .

---

(١) تهويس الحجة : إفسادها .
(٢) سورة الأعراف ٢٠٢ .
(٣) سورة مريم ٧٥ .
(٤) سورة فاطر ٨ .

وحُمَةَّ الخطايا : سمّها ، وتقطع الحمة ، كما تقول : قطعت سَرَيان السمّ فى بدن الملسوع بالبادزهرات والترياقات ؛ فكأنه جعل سمّ الخطايا ساريا فى الأبدان ، والتقْوى تقطع ريانه .

قوله : « وباليقين تدرك الغاية القصوى » ؛ وذلك لأنّ أقصى درجات العرفان الكشف ؛ وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين .

وانتصب «اللهَ ، الله » على الإغراء . و « فى » متعلّقة بالفعل المقدّر ؛ وتقديره : راقبوا . وأعزّ الأنفس عليهم ، أنفسهم .

قوله : « فشِقْوة لازمة » ، مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف ؛ تقديره : فغايتكم ، أو فجزاؤكم ، أو فشأنكم ؛ وهذا يدلّ على مذهبنا فى الوعيد ، لأنّه قَسَم الجزاء إلى قسمين ، إمّا العذاب أبدا ، أو النعيم أبدا ؛ وفى هذا بطلان قول المرجئة : إنّ ناسا يخرجون من النّار فيدخلون الجنة ، لأن هذا لو صحّ لكان قسماً ثالثاً .

قوله : « فقد دُلِلْتُم على الزّاد » ، أى الطاعة .

وأمرتم بالظَّعن ، أى أمرتم بهجْر الدنيا ، وأنْ تظعَنُوا عنها بقلوبكم . ويجوز : « الظَّعْن » بالتسكين .

وحُثِثتم على المسير ؛ لأنّ الليل والنّهار سائقان عنيفان .

قوله : « وإنّما أنتم كركْب وقوف لا يَدْرُون مَتَى يؤمرون بالسير » ، السَّيْر هاهنا ، هو الخروج من الدنيا إلى الآخرة ؛ بالموت ؛ جعل الناس ومقامهم فى الدنيا كركْب وقوف لا يدرون متى يقال لهم : سيروا فيسيرون ، لأنّ النّاس لا يعلمون الوقت الذى يموتون فيه.

فإن قلت : كيف سمّى الموت والمفارقة سيراً ؟

قلت : لأنّ الأرواح يُعْرَجُ بها إمّا إلى عالمها وهم السُّعداء ، أو تهوى إلى أسفل

السافلين وهم الأشقياء ؛ وهذا هو السَّيْر الحقيق ، لا حركة الرجل بالمشى ، ومَنْ أثبت الأنفس المجرّدة ، قال : سَيْرها خلوصها من عالم الحسّ ، واتّصالها المعنوىّ لا الأبدىّ ى بيارتها ، فهو سير فى المعنى لا فى الصورة ؛ ومَنْ لم يَقُلْ بهذا ولا بهذا قال : إنّ الأبدان بعد الموت تأخذ فى التحلّل والتزايل ، فيعود كلّ شىء منها إلى عنصره ، فذاك هو السَّيْر.

و « ما » فى « عمّا قليل » زائدة . وتَبِعته : إثمُه وعقوبته .

قوله : « إنه ليس لما وعد الله من الخير مَتْرَك » ، أى ليس الثواب فيما ينبغى للمرء أن يتركه ، ولا الشرّ فيما ينبغى أن يرغب المرء فيه .

وتفحَصُ فيه الأعمال : تكشف . والزَّلزال، بالفتح: اسم للحركة الشديدة والاضطراب، والزِّلزال ؛ بالكسر المصدر ، قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1] .

قوله : « ويشيب فيه الأطفال » كلامٌ جارٍ مجرى المثل ، يقال فى اليوم الشديد: إنّه ليُشِيب نواصى الأطفال ؛ وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾[2] ، وليس ذلك على حقيقته ، لأنّ الأمّة مجمعة على أنّ الأطفال لا تتغيّر حالهم فى الآخرة إلى الشيب ؛ والأصل فى هذا أنّ الهموم والأحزان إذا توالتْ على الإنسان شاب سريعاً ، قال أبو الطيّب :

والهمُّ يخترِم الجسيمَ نحافةً ... ويُشيبُ ناصيةَ الصّبِىّ ويُهرِم[3]

قوله : « إنّ عليكم رصداً من أنفسكم ، وعيوناً من جوارحكم » ، لأنّ الأعضاء تنطق فى القيامة بأعمال المكلفين ، وتشهد عليهم .

---

(١) سورة الأحزاب ١١ .
(٢) سورة المزمل ١٧ .
(٣) ديوانه ٤ : ١٢٤ .

والرّصد جمع راصد، كالحرس جمع حارس.

قوله: « وحفّاظ صدق »؛ يعني الملائكة الكاتبين؛ لا يعتصم منهم بسترة ولا ظلام ليل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إذا ماخلوت الدّهر يومافلا تقلْ خلوتُ؛ ولكِن قُل :عليّ رقيبُ

قوله: « وإنّ غدا من اليوم قريب »، ومنه قول القائل:

* فإنّ غــدا لناظِرِهِ قَرِيبُ[1] *

منه قوله:

* غَدٌ ماغدٌ ماأقرب اليوم من غَدِ *

ومنه قول الله تعالى: ﴿ إنّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبحُ أليسَ الصُّبحُ بِقَرِيبٍ ﴾[2].

والصيحة: نفخة الصّور.

وزاحت الأباطيل: بعدت. واضمحلّت: تلاشت وذهبت.

قوله: « واستحقّت »، أي حقت ووقعت، استفعل بمعنى « فعل »، كقولك: استمرّ على باطله، أي مرّ عليه.

وصدرت بكم الأمور مصادرها، كلّ وارد فله صَدَر عن مورده، وصدَر الإنسان عن موارد الدنيا: الموت ثم البعث.

---

(١) صدره:

* فَإنْ يَكُ صَدْرُ هَـذَا اليَوْمِ وَلّىٰ *

(٢) سورة هود ٨١

(١٥٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ ؛ ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ ؛ وَلَنْ يَنْطِقَ ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . . .

أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ .

***

الشرح :

الهجعة : النّومة الخفيفة؛ وقد تستعمل في النّوم المستغرق أيضا. والمبرَم: الحبل المفتول. والذى بين يديه : التوراة والإنجيل .

فإن قلت : التوراة والإنجيل قبله ، فكيف جعلهما بين يديه ؟

قلت: أحد جزأي الصلة محذوف وهو المبتدأ ؛ والتقدير : بتصديق الذى هو بين يديه؛ وهو ضمير القرآن ، أى بتصديق الذى القرآن بين يديه ؛ وحذف أحد جزأي الصلة هاهنا، ثم حذفه فى قوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً ﴾[1] ، فى قراءة مَنْ جعله اسما

---

(١) سورة الأنعام ١٤٥ .

مرفوعا، وأيضا فإنّ العرب تستعمل «بين يديه» بمعنى «قبل»، قال تعالى: ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1]، أى قبله.

* * *

الأصـلُ:

منها:

فَمِنذَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمَئِذٍ لا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّماءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ؛ مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ؛ وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ؛ مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ؛ وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ، وَزَوَامِلُ الْآثَامِ.

فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَتَطَعَّمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً، مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!

* * *

الشـرح:

التَّرحة: الحزن، قال: فحينئذ لا يبقى لهم، أى يحيق بهم العذاب؛ ويبعث الله عليهم مَنْ ينتقم، وهذا إخبارٌ عن مُلْك بنى أميّة بعده؛ وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم فى الأرض.

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظَّلَمة، ومَنْ كان يؤثر ملكهم، فقال، «أصفيتم بالأمر

---

(١) سورة سبأ ٤٦.

غير أهله ، أصفيتُ فلانا بكذا : خصصته به ، وصفيّة المغنم : شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة .

وأوردتموه غير وِرْده : أنزلتموه عند غير مستحقه .

ثم قال : سيبدّل الله مآكلهم اللذيذة الشهيّة بمآكلَ مريرة علقميّة . والمقِر : المرّ . ومآكلا منصوب بفعل مقدّر أي يأكلون مآكلا ؛ والباء هاهنا للمجازاة الدالة على الصلة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾[1] وكقول أبي تمام :

فَبِما قدْ أَرَاهُ رَيّانَ مَكْسُوّ المعانِي مِنْ كلّ حُسْن وطيبِ[2]

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾[3] .

وجعل سمارَم الخوف ، لأنه باطن في القلوب ، ودِثارم السيف لأنه ظاهر في البدن ؛ كأنّ الشعار ما كان إلى الجسد والدثار ما كان فوقه .

ومطايا الخطيّات : حوامل الذنوب . وزوامل الآثام : جمع زاملة ، وهي بعير يستظهر به الإنسان يحمل متاعه عليه ، قال الشاعر :

زَوامِلُ أشْعَارٍ وَلاعِلْمَ عِندَهُمْ بجيِّـــدها إلّا كعِلْمِ الأباعِرِ[4]

وتنخّمت النُّخامة : إذا تنخعتها ، والنُّخامة : النُّخاعة .

والجديدان : الليل والنهار ؛ وقد جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب المحدّثين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر أنّ بني أميّة تملك الخلافة بعده ، مع ذمٍّ منه عليه

---

(١) سورة النساء ١٥٥ .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٤ .

(٣) سورة القصص ١٧ .

(٤) بعده :

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بأوسَاقِهِ أَوْ رَاحَ ما في الْغَرَائِرِ

والبيتان لمروان بن سليمان بن أبي حفصة ، يهجو قوما من رواة الشعر (اللسان ـ زمل) .

والسلام لهم ، نحو ماروى عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾(١) فإن المفسرين قالوا : إنه رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله الذي فسر لهم الآية به ، فساءه ذلك ثم قال : الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة ؛ ونحو قوله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولا وعباده خولا » ونحو قوله صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾(٢) قال : ألف شهر يملك فيها بنو أمية . وورد عنه صلى الله عليه وآله من ذمهم الكثير المشهور نحو قوله : « أبغض الأسماء إلى الله الحكم وهشام والوليد » ، وفي خبر آخر : « اسمان يبغضهما الله : مروان والمغيرة » ؛ ونحو قوله : « إن ربكم يحب ويبغض ؛ كما يحب أحدكم ويبغض ، وإنه يبغض بني أمية ويحب بني عبد المطلب » .

فإن قلت : كيف قال : « ثم لا تذوقها أبدا » وقد ملكوا بعد قيام الدولة الهاشمية بالمغرب مدة طويلة ؟

قلت : الاعتبار بملك العراق . والحجاز ؛ وما عداهما من الأقاليم لا اعتداد به .

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

(٢) سورة القدر ٣ .

(١٦٠)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ وَحَلَقِ الضَّيْمِ؛ شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

***

الشرح:

أحطت بجهدى من ورائكم: حميتكم وحضنتكم. والجُهد، بالضمّ الطاقة. الرِّبَق جمع رِبْقة، وهى الحبل يُرْبَق به البهم.

وحلَق الضيم: جمع حَلْقة، بالتسكين، ويجوز: «حِلق» بكسر الحاء وحِلاق.

فإن قلت: كيف يجوز له أن يطرق ويغضى عن المنكر؟

قلت: يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنّه أنّه إن نهاهم عنه لم يرتدعوا، وأضافوا إليه منكراً آخر، فحينئذ يخرج الإطراق والإغضاء عن حدّ الجواز إلى حدّ الوجوب، لأنّ النهى عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة.

(١٦١)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ؛ يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي؛ وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ؛ وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ؛ حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ؛ حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ؛ حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ! إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ؛ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ؛ لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ.

وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ؛ وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ـ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ ـ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

***

الشرح

يجوز أن يكون أمره هاهنا هو الأمر الفعليّ، لا الأمر القوليّ، كما يقال: أمر فلان مستقيم، وما أمر كذا، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[1]، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2]، فيكون المعنى أنّ شأنه تعالى ليس إلّا أحد شيئين وهما «أن يقول»، «وأن يفعل»، فعبّر عن «أن يقول» بقوله: «قضاء» لأنّ القضاء الحكم، وعبر عن «أن يفعل» بقوله: «وحكمة» لأنّ أفعاله كلّها تتبع دواعيَ الحكمة. ويجوز أن يكون «أمره» هو الأمر القولي؛ وهو المصدر من «أمر له بكذا أمراً» فيكون المعنى أنّ أوامره إيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة؛ وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب في القرآن العزيز في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3]، أي أوجب وألزم.

قوله: «ورضاه أمانٌ ورحمة»؛ لأنّ مَنْ فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة؛ لأنّ الرضا رحمة وزيادة.

قوله: «يقضي بعلم»، أي يحكم بما يحكم به لأنّه عالم بحسن ذلك القضاء، أو وجوبه في العدل.

قوله: «ويعفو بحلم»، أي لا يعفو عن عجز وذلّ، كما يعفو الضعيف عن القويّ؛ بل هو قادر على الانتقام ولكنّه يحلم.

ثم حمد الله تعالى على الإعطاء والأخذ، والعافية والبلاء؛ لأنّ ذلك كلّه من عند الله لمصالح للمكلّف، يعلمها وما[4] يعلمها المكلّف، والحمد على المصالح واجب.

---

(١) سورة القمر ٥٠.
(٢) سورة النحل ٧٧.
(٣) سورة الإسراء ٢٣.
(٤) د: «ولا».

ثم أخذ فى تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة فى وصفه، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحمد لله زنةَ عرشه ، الحمد لله عددَ خلقه ، الحمد لله ملء سمائه وأرضه »، فقال عليه السلام : حمداً يكون أرضَى الحمد لك » ، أى يكون رضاك له أوفَى وأعظم من رضاك بغيره ، وكذلك القول فى : « أحبّ » و « أفضل » .

قوله : « و يبلُغ ماأردت » ، أى هو غاية ماتنتهى إليه الإرادة ؛ وهذا كقول الأعرابيّة فى صفة المطر : غشينا ماشئنا ؛ وهو من فصيح الكلام .

قوله : « لايحجب عنك » ، لأنّ الإخلاص يقارنه ، والرياء منتفٍ عنه .

قوله : « ولا يُقصَرُ دونك » ؛ أى لا يحبَس ؛ أى لامانع عن وصوله إليك ، وهذا من باب التوسّع ؛ ومعناه : أنه برىء من الموانع عن إعاره الثواب واقتضائه إياه ، وروى « ولا يُقصر » من القصور ، وروى « ولا يقصّر » من التقصير .

ثم أخذ فى بيان أنّ العقول قاصرة عن إدراك البارى سبحانه والعلم به ، وأنا إنما نعلم منه صفات إضافية أو سلبية ؛ كالعلم بأنه حىّ ، ومعنى ذلك أنّه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدّر ؛ وأنّه قيوم بمعنى أن ذاته لايجوز عليها العدَم، أى يقيم الأشياء ويمسكها؛ وكلّ شىء يقيم الأشياء كلّها ويمسكها ، فليس بمحتاج إلى مَنْ يقيمه ويمسكه ؛ وإلّا لم يكنْ مقيما وممسكا لكلّ شىء ، وكلّ مَن ليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه ؛ فذاته لايجوز عليها العَدَم. وأنّه تعالى لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم؛ لأنّ هذا من صفات الأجسام ؛ ومالا يجوز عليه العَدَم لايكون جِسْماً ، ولا يوصف بخواصّ الأجسام ولوازمها ، فإنّه لاينتهى إليه نظر، لأن انتهاء النظر إليه ؛ يستلزم مقابلته وهو تعالى منزه عن الجهة ، وإلا لم يكن ذاته مستحيلا عليها العدم ، وأنه لا يدركه بَصَر ، لأن إبصار الأشياء بانطباع أمثلتها فى الرطوبة الجليدية كانطباع أشباح المرئيّات فى المرآة ، والبارى تعالى لا يتمثّل ، ولا يتشبّح ؛ وإلّا لم يكن

قيوماً ، وأنه يدرك الأبصار ؛ لأنه إمّا عالم لذاته ، أو لأنّه حيٌّ لا آفة به ، وأنه يحصى الأعمال لأنّه عالم لذاته ، فيعلم كلّ شيء حاضراً وماضياً ومستقبلا ، وأنّه يأخذُ بالنّواصى والأقدام ، لأنّه قادر لذاته ، فهو متمكّن من كلّ مقدور .

ثم خرج إلى فنّ آخر ؛ فقال : وما الذى نعجب لأجله من قدرتك وعظيم ملكك ، والغائب عنّا من عظمتك أعظم من الحاضر ! مثال ذلك أن جِرْم الشمس أعظمُ من جِرْم الأرض مائة وستين مرّة . ولا نسبة لجِرْم الشمس إلى فَلَكها المائل ، ولا نسبة لفلكها المائل إلى فلكها المميل ؛ وفلك تدوير المرّيخ الذى فوقها أعظمُ من مميل الشمس ؛ ولا نسبة لفلك تدوير المرّيخ إلى فلكه المميل ؛ وفلك تدوير المشترى أعظم من مميل المرّيخ ، ولا نسبة لفلك تدوير المشترى إلى فلكه المميل ، وفلك تدوير زُحَل أعظم من مميل المشترى ، ولا نسبة لفلك تدوير زُحل إلى مميل زحل ، ولا نسبة لمميل زحل إلى كرة الثوابت ، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى ؛ فانظر أىّ نسبة تكون الأرض بكليّتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس ، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه ، وتتناهى دونه ، وتحول سواتُر الغيوب بينها وبينه ، كما قال عليه السلام .

ثم ذكر أنّ مَنْ أعمل فكرَه ليعلم كيف أقام سبحانه العرش ، وكيف ذرَأ الخلق ، وكيف علّق السموات بغير علاقة ولا عَمَد ، وكيف مدّ الأرض على الماء ، رجعَ طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً . وهذا كلّه حقّ ، ومن تأمل كتبنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين علّلوا هذه الأمور ، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسبابا عقلية ، وادّعوا وقوفَهم على كنهها وحقائقها ، علم صحّة ما ذكره عليه السلام ، من أنّ مَنْ حاول تقدير ملك الله تعالى ، وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله ، فقد ضلّ ضلالا مبينا .

وروى : « وفكره جائرا » ، بالجيم ، أى عادلا عن الصواب والحسير : المتعب .
والمبهور : المغلوب . والواله : المتحيّر .

***

الأصْلُ :

منها :

يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو ٱللهَ ، كَذَبَ وَٱلْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ! فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ - إِلَّا رَجَاءَ ٱللهِ - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ - إِلَّا خَوْفَ ٱللهِ - فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ .

يَرْجُو ٱللهَ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَيَرْجُو ٱلْعِبَادَ فِي ٱلصَّغِيرِ؛ فَيُعْطِي ٱلْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي ٱلرَّبَّ! فَمَا بَالُ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ!

أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا ، أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا! وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ ؛ أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ ؛ فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعِبَادِ نَقْدًا ، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَارًا وَوَعْدًا .

وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ ؛ آثَرَهَا عَلَى ٱللهِ؛ فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا ، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا .

***

الشّرْحُ :

يجوز « بزُعمه » ، بالضم و « بزَعمه » بالفتح، و« بِزِعمه» بالكسر ، ثلاث لغات،أى بقوله فأما من « زعمت » ، أى كفلت ، فالمصدر « الزّعم » بالفتح ، والزّعامة .

ثم أقسم على كذب هذا الزّاعم ، فقال : « والعظيم » ، ولم يقل : والله العظيم ؛ تأكيداً لعظمة البارئ سبحانه ، لأنّ الموصوف إذا أُلقِيَ وتُرِك واعتمِد على الصّفة حتى صارت كالاسم ، كان أدلّ على تحقق مفهوم الصفة ، كالحارث والعباس .

ثم بيّن مستنَد هذا التكذيب ، فقال : مابالُ هذا الزاعم ! إنه يرجو ربّه ، ولا يَظهر رجاؤه في عمله ، فإنّا نَرَى مَنْ يَرجو واحداً من البشر يلازم بابه ؛ ويواظب على خدمته ويتحبّب إليه ، ويتقرّبُ إلى قلبه بأنواع الوسائل والقُرَب ؛ ليظفرَ بمراده منه ، ويتحقّق رجاؤه فيه ، وهذا الإنسان الذى يزعم أنّه يرجُو الله تعالى ، لايظهر من أعماله الدينية مايدلّ على صدق دَعْواه ، ومراده عليه السلام هاهنا ليس شخصاً بعينه ، بل كلّ إنسانٍ هذه صفته ، فالخطاب له والحديث معه .

ثم قال : « كلّ رجاء إلّا رجاء الله فهو مدخول » ، أى معيب ، والدَّخْل ، بالتسكين : العيب والرِّيبة . ومن كلامهم : « ترَى الفتيان كالنّخل ، ومايدريك ماالدَّخل »[1] ، وجاء « الدَّخَل » بالتحريك أيضاً ، يقال : هذا الأمر فيه دَخَل ودَغَل ، بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾[2] ؛ أى مكراً وخديعة ، وهو من هذا الباب أيضاً .

ثم قال : « وكلّ خوف محقّق إلا خوف الله فإنه معلول » : محقّق ، أى ثابت ، أى كلّ خوفٍ حاصل حقيقة فإنّه مع هذا الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح ؛ إلا خوف الله وحده وتقواه ، وهيبته وسطوته وسخطه ؛ ذلك لأنّ الأمر الذى يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال ، والأمر الذى يُخاف من البارى تعالى لاغاية له ولا انقضاء لمحذوره ، كما قيل فى الحديث المرفوع : « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

---

(١) مثل ، وأول من قالته عثمة بنت مطرود البجلية . وانظر الفاخر ١٥٦ .
(٢) سورة النحل ٩٤ .

ثمّ عاد إلى الرجاء ، فقال : يرجو هذا الإنسان الله فى الكثير ، أى يرجو رحمته فى الآخرة ، ولا يتعلّق رجاؤه بالله تعالى إلّا فى هذا الموضع ، فأمّا ماعدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضارّ والتوصّل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات ، فإنه لايخطر له الله تعالى ببالٍ ، بل يعتمد فى ذلك على السُّفَراء والوسطاء ، ويرجو حصول هذه المنافع ، ودفعَ هذه المضارّ من أبناء نوعه من البشر ، فقد أعطى العبادَ مِنْ رجائه مالم يعطه الخالق سبحانه ، فهو مخطئ ؛ لأنّه إمّا أن يكونَ هو فى نفسه صالحًا لأن يرجوه سبحانه ، وإمّا ألّا يكون البارئُ تعالى فى نفسه صالحاً لأن يُرجَى ، فإن كان الثانى فهو كُفرٌ صُراح ، وإن كان الأوّل فالعبد مخطئٌ حيث لم يجعل نفسه مستعدًّا لعمل الصالحات ، لأن يصلحَ لرجاء البارئُ سبحانه .

ثم انتقل عليه السلام إلى الخوف ، فقال : وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثلَه ؛ خافه أكثر من خوفه البارئ سبحانه ؛ لأنّ كثيرا من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذة البارئ سبحانه ؛ وهذا مشاهَد ومعلوم من النّاس ، فخوف بعضهم من بعض كالنقد المعجّل ، وخوفهم من خالقهم ضِمارٌ ووعد . والضِّمار : مالا يرجَى من الوعود والديون . قال الراعى :

حَمِدْنَ مَزَارَهُ وأَصَبْنَ مِنْهُ عَطاءً لم يكُنْ عِدةً ضِمارا[1]

ثم قال : « وكذلك من عظمت الدنيا فى عينه » يختارها على الله ، ويستعبده حبها. ويقال : كبُر ، بالضمّ ، يكبُر أى عظُم ؛ فهو كبير وكُبار بالتخفيف ؛ فإذا أفرط قيل :

---

(١) اللسان ٦ : ١٦٤ ، وقبله :

وأنضاه أُنِخْنَ إلى سَعيدٍ طروقاً ثم عجّلْنَ ابتكارَا

« كُبَّار » بالتشديد ، فأمّا كِبَر بالكسر ، فمعناه أسَنّ ؛ والمصدر منهما كِبَراً ، بفتح الباء .

***

الأصلُ :

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَافٍ لَكَ فِي ٱلْأُسْوَةِ ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ ٱلدُّنْيَا وَعَيْبِهَا ، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا ؛ إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا ، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا ، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا ، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ؛ وَٱللهِ مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ ٱلْأَرْضِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ ٱلْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ .

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ ٱلْمَزَامِيرِ ، وَقَارِئِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ ٱلْخُوصِ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ : أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا ! وَيَأْكُلُ قُرْصَ ٱلشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ ٱلْحَجَرَ ، وَيَلْبَسُ ٱلْخَشِنَ ، وَيَأْكُلُ ٱلْجَشِبَ ، وَكَانَ إِدَامُهُ ٱلْجُوعَ ، وَسِرَاجُهُ بِٱللَّيْلِ ٱلْقَمَرَ ، وَظِلَالُهُ فِي ٱلشِّتَاءِ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ ؛ دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ .

***

الشرح :

يجوز أُسوة وإسوة ، وقرئ التنزيل بهما ، والمساوئ :العيوب ؛ ساءه كذا يسوءه سَوْءا بالفتح ومساءة ومسائية . وسوته سوايةً ومسايةً ، بالتخفيف ،أى ساءه مارآه منى. وسأل سيبويهِ الخليل عن « سوائية » ،فقال : هى « فعاليَة » بمنزلة علانيَة ، والذين قالوا: « سواية » حذفوا الهمزة تخفيفا ؛ وهى فى الأصل . قال :وسألتُه عن « مسائيَة » ،فقال: هى مقلوبة وأصلها « مساوئة »فكرهوا الواو مع الهمزة ،والذين قالوا: « مساية »حذفوا الهمزة أيضا تخفيفا ؛ ومن أمثالهم : « الخيل تجرى فى مساويها » ؛ أى أنها وإن كانت بها عيوب وأوصاب ، فإنّ كرمَها يحملها على الجرى .

والمخازى : جمع مَخْزاة ؛ وهى الأمر يستحَى من ذكره اقبْحه .

واكنافُها : جوانبها . وزوَى : قبض . وزخارف : جمع زُخرف ؛ وهو الذهب ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « عُرِضَتْ علىّ كنوز الأرض ودُفِعت إلىّ مفاتيح خزائنها ، فكرهتُهاواخترت الدار الآخرة » ، وجاء فى الأخبار الصحيحةأنّه كان يجوعُ ويشدّ حجَرا عَلَى بطنه . وأنّه ماشبع آل محمد من لَحْم قطّ ، وأنّ فاطمة وبعلَها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير ، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدُّوها لفطورهم ، وباتوا جياعا . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ملك قطعة واسعة من الدّنيا ، فلم يتدنّس منها بقليل ولا كثير ؛ ولقد كانت الإبل التى غنمها يوم حنين أكثر من عشرة آلاف بعير ؛ فلم يأخذ منها وبَرةً لنفسه ، وفرّقها كلّها على الناس ، وهكذا كانت شيمته وسيرته فى جميع أحواله إلى أن توفى .

والصّفاق : الجلد الباطن الذى فوقه الجلد الظاهر من البطن . وشفيفه : رقيقه الذى يستَشفّ ماوراءه ، وبالتفسير الذى فسر عليه السلام الآية فسّرها المفسرون ، وقالوا :إنّ

خضرة البقل كانت تُرَى فى بطنه من الهزال ، وإنه ما سأل الله إلا أكلةً من الخبز . وما فى ﴿ لِمَا أَنزَلْتَ ﴾ بمعنى أيّ ، أىْ إنى لأى شىء أنزلتَ إلىّ ـ قليل أو كثير ، غثّ أو سمين ـ فقير .

فإن قلت : لم عدّى « فقيرا » باللام ، وإنما يقال : « فقير إلى كذا » ؟

قلت : لأنه ضمّن معنى « سائل » و « مطالب » . ومن فسر الآية بغير ما ذكره عليه السلام لم يحتجْ إلى الجواب عن هذا السؤال ، فإنّ قوما قالوا : أراد : إنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلىّ من خير ، أىْ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ؛ فإنّ ذلك رضا بالبدل السنىّ ، وفرحاً به وشكرا له .

وتشذُّب اللحم : تفرّقه .

والمزامير : جمع مزمار ؛ وهو الآلة التى يزمر فيها ، ويقال : زَمَر يزمِر ويزمُر ، بالضم والكسر ؛ فهو زمّار ، ولا يكاد يقال : زامر ؛ ويقال للمرأة : زامرة ، ولا يقال زمّارة ، فأما الحديث أنه نَهَى عن كَسْب الزمّارة ، فقالوا : إنها الزانية هاهنا . ويقال : إنّ داود أعطِىَ من طيب النَّغَم ولذّة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو فى محرابه ، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفِر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته . وقال النبىّ صلى الله عليه وآله لأبى موسى ، وقد سمعه يقرأ : « لقد أوتيتَ مزمارا من مزامير داود » ، وكان أبو موسى شجىّ الصوت إذا قرأ . وورد فى الخبر : « داود قارئ أهل الجنة » .

وسفائف الخوص : جمع سفيفة ، وهى النسيجة منه ، سففْتُ الخوصَ وأسففته بمعنى .

وهذا الذى ذكره عليه السلام عن داود يجب أن يحمل على أنه شرح حاله قبل أن يملك فإنه كان فقيرا ، فأمّا حيث ملك فإن المعلوم من سيرته غير ذلك .

فأما عيسى فحاله كما ذكرها عليه السلام ، لاريب فى ذلك ، على أنه أكل اللحم وشرب

الخمر ، وركب الحمار وخدمه التلامذة ؛ ولكنّ الأغلب من حاله هي الأمور التي عدّدها أمير المؤمنين عليه السلام .

ويقال: حَزَنني الشيء يحزُنني بالضم ؛ويجوز : «أحزنني» بالهمز يُحزنني ،وقرئ بهما ، وهو في كلامه عليه السلام في هذا الفصل بهما .

ويقال : لفته عن كذا ، يَلفِتُه بالكسر ، أي صرفه ولواه .

* * *

الأصْـلُ :

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ ،صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى . وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ ،وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ . قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً ، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً . أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً ، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً ، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللهُ وَرَسُولُهُ ،وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ تَعَالَى وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى ! وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ؛ وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ : يَا فُلَانَةُ ـ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي ؛ فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدنيا وَزَخَارِفَهَا . فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ،وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ،وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً ،وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً ، وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً ، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبغَضَ شَيْئاً أَبغَضَ أَنْ يَنظُرَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ؛ وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَايَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدُّنيَا وَعُيُوبِهَا ؛ إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ،فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ:أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ ! فَإِنْ قَالَ : « أَهَانَهُ » فَقَدْ كَذَبَ وَاللهِ الْعَظِيمِ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ ، وَإِنْ قَالَ : « أَكْرَمَهُ »فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنيَا لَهُ ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنهُ؛ فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ ؛ وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَماً لِلسَّاعَةِ ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ ، وَمُنذِراً بِالْعُقُوبَةِ ؛ خَرَجَ مِنَ الدُّنيَا خَمِيصاً ، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً ، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ ؛ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ ؛ فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ ! وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ : أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَقُلْتُ : اُعْزُبْ عَنِّي ؛ فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى .

* * *

الشَّرْحُ :

المقتص لأثره : المتبع له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ (١) .

وقضم الدنيا : تناول منها قدر الكفاف،وما تدعو إليه الضرورة من خشن المعيشة، وقال أبو ذر رحمه الله : « يخضمون ونقضم،والموعد الله ! » . وأصل القضم أكل الشيء اليابس بأطراف الأسنان ، والخضم : أكلٌ بكلّ الفم للأشياء الرّطبة ، وروى: « قصم » بالصاد ، أي كسر .

(١) سورة القصص ١١ .

قوله : « أهضَمُ أهلِ الدّنيا كشحا » الكَشْحُ : الخاصرة، ورجلٌ أهضَم : بيِّن الهضَم؛ إذا كان خميصاً لقلّةِ الأكل .

وروى : « وحقّر شيئا فحقّره » بالتخفيف . والشّقاق : الخلاف .

والمحادّة : المعاداة . وخَصَف النّعْل : خرزها . والرياش : الزينة ، والمِدْرعة . المدّراعة .

وقوله : « عند الصّباح يحمد القوم السرى » ؛ مثل يضرب لمحتمِل المشقّة العاجلة[1]، رجاء الراحة الآجلة .

***

[نبذ من الأخبار والآثار الواردة فى البعد عن زينة الدنيا]

جاء فى الأخبار الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : « إنّما أنا عبدٌ آكل أكلَ العبيد ، وأجلس جِلْسة العبيد » ؛ وكان يأكل على الأرض ، ويجلس جلوسَ العبيد ، يضع قصبَتيْ ساقيه على الأرض ، ويعتمد عليهما بباطنى فَخِذيْه ، وركوبه الحمار العارى آيةُ التواضع وهضْم النفس . وإرداف غيره خلفه آكد فى الدلالة على ذلك .

وجاء فى الأخبار الصحيحة النهيُ عن التصاوير وعن نصب الستور التى فيها التصاوير، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى سِتْراً فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصورة .

وجاء فى الخبر : « مَنْ صَوّر صورةً كُلِّف فى القيامة أن ينفخ فيها الروح ، فإذا قال : لا أستطيع ، عُذِّب » .

---

(١) وأول من قاله خالد بن الوليد ؛ وانظر مضربه ومورده فى الفاخر ١٩٣ .

قوله : « لم يضع حَجَراً على حجر » هو عين ماجاء في الأخبـار الصحيحة ، خَرَج رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا ولم يضع حجَرا على حجر .

وجاء في أخبار عليٍّ عليه السلام التي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله، وهو راوبتي عن قريش بن السبيع بن المهنّا العلويّ ، عن نقيب الطالبيين أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمّر ، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيْرَفيّ المعروف بابن الطيوريّ ، عن محمد بن عليّ بن محمد بن يوسف العلاف المزنيّ ، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك القطيعيّ ، عن عبدالله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله، قال : قيل لعليٍّ عليه السلام : يأميرَ المؤمنين ، لم ترقعُ قميصَك ؟ قال . ليخشعَ القلبُ ، ويقتديَ بي المؤمنون .

وروَى أحمد رحمه الله أنّ عليا كان يطوفُ الأسواق مؤتزراً بإزار، مرتديا برداه، ومعه الدِّرة كأنّه أعرابيٌّ بدويّ ، فطاف مرّة حتى بلغ سوقَ الكرابيس ، فقال لواحد :ياشيخ، بعْنِي قميصاً تكون قيمتُه ثلاثة دراهم ، فلما عرفه الشيخ لم يشترِ منه شيئاً ، ثم أتى آخر ، فلما عرفه لم يشترِ منه شيئاً ، فأتى غـلاماً حَدَثاً ، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، فلما جاء أبو الغلام ، أخبره ، فأخذ دِرْهَماً . ثم جاء إلى عليّ عليه السلام ليدفَعه إليه ، فقال له: ماهذا ؟ أو قال ماشابهَ هذا ، فقال : يامولاي ، إنّ القميص الذي باعك ابني كان يساوي درهمين ، فلم يأخذ الدّرهم ، وقال : باعني رضايَ وأخذ رضاه .

وروى أحمد رحمه الله عن أبي النوار بائع الخام بالكوفة ، قال : جاءني عليّ بن أبي طالب إلى السوق، ومعه غلام له وهو خليفة ، فاشترى مِنّي قميصَيْن ،وقال لغلامه: اختر أيَّهما شئت ، فأخذ أحدَهما ، وأخذ عليٌّ الآخر ، ثم لبسه ومدّ يده ، فوجد كُمّه فاضلة ،فقال: اقطع الفاضل . فقطعته ، ثم كفّه وذهب .

وروى أحمد رحمه الله عن العمال بن عمير ، قال: رأيتُ قميص عليّ عليه السلام الذى أصيب فيه ، وهو كرابيس سبيلانيّ[1] ، ورأيت دمَه قد سال عليه كالدّردىّ[2] .

وروى أحمد رحمه الله قال : لما أرسل عثمان إلى عليّ عليه السلام ، وجده مؤتزرا بعباءة ، محتجِزاً بعِقال ، وهو يَهْنَأ بعيرا له .

والأخبار فى هذا المعنى كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

(١) الكرابيس : ثياب فارسية من القطن ؛ وسبيلانىّ : كأنها منسوبة إلى سبيلة ، موضع .
(٢) الدردى : ما رسب من الزيت و أسفل الإناء .

(١٦٢)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

ٱبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي ، وَالْكِتَابِ الْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ ؛ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ ، وَٱمْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ . أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ . فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ ؛ وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ .

***

الشرح :

بالنور المضيء ، أي بالدين ، أو بالقرآن . وأسرتُه : أهله . أغصانها معتدلة ، كناية عن عدم الاختلاف بينهم في الأمور الدينية . وثمارها متهدّلة ؛ أي متدلّية ، كناية عن سهولة اجتناء العلم منها .

وطَيْبة اسم المدينة ، كان اسمها يثرب ، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله طَيْبة ،

ومما أكْفَر النّاس به يزيدَ بن معاوية أنّه سماها « خبيثة »،مراغَمة لرسول الله صلى الله عليه وآله .

علا بها ذكره ، لأنه صلّى الله عليه وآله إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة .

« ودعوة متلافية » أي تتلافى مافسد فى الجاهلية من أديان البشر .

قوله : «وبيّن به الأحكام المفصولة»:ليس يعنى أنها كانت مفصولةقبل أن بيّنها،بل المراد : بيّن به الأحكام التى هى الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا ؛ لأجل بيانه لها .

والكبوة : مصدر كبا الجواد ، إذا عثر فوقع إلى الأرض .

والمآب : المرجع . والعذاب الوبيل : ذو الوبال وهو الهلاك :

والإنابة : الرجوع . والسبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث . والقاصدة : ضدّ الجائرة.

فإن قلت لم عدّى القاصدة بـ « إلى » ؟

قلت : لأنها لمّا كانت قاصدة ،تضمّنت معنى الإفضاء إلى المقصد ، فعدّاها بـ « إلى » باعتبار المعنى .

***

الأصلُ :

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً ، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً ؛ رَهَّبَ فَأَبْلَغَ ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ ،وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا،وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا ؛ فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا . أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللهِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ .

نَفَضُوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا ؛ فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ .

وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ ؛ قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا ، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا ، لَا يَتَفَاخَرُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ وَلَا يَتَحَاوَرُونَ .

فَاحْذَرُوا ـ عِبَادَ اللهِ ـ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ .

* * *

الشرح :

المنجاة : مصدر نجا ينجو نجاةً ومنجاة . والنّجاة : النّاقة يُنجَى عليها ؛ فاستعارها هاهنا للطاعة والتقوى ، كأنها كالمطيّة المركوبة يخلص بها الإنسان من الهلكة .

قوله : « رهّب فأبلغ » ؛ الضمير يرجع إلى الله سبحانه ؛ أى خوّف المكلّفين فأبلغ فى التخويف ، ورغّبهم فأتمّ الترغيب وأسبغه .

ثم أمر بالإعراض عما يسرّ ويروق من أمر الدنيا ؛ لقلة مايصحب الناس من ذلك .

ثم قال : إنّها أقربُ دار من سخط الله ، وهذا نحو قول النبى صلى الله عليه وآله : « حبُّ الدّنيا رأسُ كلّ خطيئة » .

قوله : « فغضّوا عنكم عباد الله غرومها » ،أى كفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها والاشتغال بها ، يقال:غضضت فلانا عن كذا أى كففته، قال تعالى : ﴿وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[1] .

قوله : « فاحذروها حَذَر الشفيق الناصح » ، أى فاحذروها على أنفسكم لأنفسكم كما يحذر الشفيق الناصح على صاحبه ، وكما يحذر المجدّ الكادح ؛ أى الساعى من خيبة سعيه.

والأوصال: الأعضاء. والمحاورة : المخاطبة والمناجاة،وروى : «ولا يتجاورون» بالجيم.

والعَلَم : مايستدلّ به فى المفازة .

وطريق جَدَد ، أى سهل واضح . والسبيل قَصْد ، أى مستقيم .

(١) سورة لقمان ١٩ .

(١٦٣)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه ، وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟ فقال عليه السلام :

يا أخا بَنِي أسَدٍ ؛ إنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ ؛ تُرْسِلُ في غَيْرِ سَدَدٍ ؛ ولَكَ بَعْدُ ذِمامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ ؛ وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فاعْلَمْ .

أَمَّا الاسْتِبْدادُ عَلَيْنا بِهذَا الْمَقامِ ، وَنَحْنُ الأعْلَوْنَ نَسَباً ، وَالأشَدُّونَ بالرَّسُولِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّم نَوْطاً ، فإنَّها كانَتْ أثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْها نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْها نُفُوسُ آخَرِينَ ؛ وَالْحَكَمُ اللهُ ، والْمَعْوَدُ[1] إلَيْهِ يَوْمُ الْقِيامَةِ .

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ في حَجَراتِهِ ... وَلَكِنْ حَدِيثاً ما حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

وَهَلُمَّ الْخَطْبَ في ابْنِ أبي سُفْيانَ ، فَلَقَدْ أضْحَكَني الدَّهْرُ بَعْدَ إبْكائِهِ ؛ ولَا غَرْوَ وَاللهِ ؛ فَيالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ ، وَيُكْثِرُ الأوَدَ !

حاوَلَ الْقَوْمُ إطْفاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْباحِهِ ، وَسَدَّ فَوّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ ؛ وجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً ، فإنْ تَرْتَفِعْ عَنّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى ، أحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلى مَحْضِهِ ، وَإنْ تَكُنِ الأُخْرَى ، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ ﴾[2]

---

(١) المعود ، بسكون العين وفتح الواو ؛ كذا ضبطت في اللسان . وفي النهاية لابن الأثير : هكذا جاء « المعود » على الأصل ؛ وهو « مفعل » ، من عاد يعود ، ومن حق أمثاله أن تقلب واوه ألفا ، كالمقام والمراح ، ولكنه استعمله على الأصل .

(٢) سورة فاطر ٨ .

الشرح :

الوضين : بِطان القَتَب[1] ، وحزام السرج ؛ ويقال للرجل المضطرب فى أموره : إنّه لقَلِقُ الوضين ؛ وذلك أنّ الوضين إذا قلق ، اضطرب القتَبُ أو الهودَجُ ، أو السَّرج ومَنْ عليه .

ويرسِل فى غير سَدد ، أى يتكلّم فى غير قصد وفى غير صواب ، والسَّدَدُ والاستداد : الاستقامة والصواب ، والسديد : الذى يصيب السَّدد ، وكذلك المُسِدّ . واستدّ الشىء ، أى استقام .

وذِمامة الصّهر ، بالكسر ؛ أى حرمته ، هو الذّمام ، قال ذو الرُّمة :

تَكُنْ عَوْجَةً يجزيكها الله عِندَهُ ⁂ بها الأجرَ أو تُقْضَى ذِمَامَةَ صَاحِبِ[2]

ويروى : « ماتّة الصّهر » ، أى حرمته ووسيلته ، متّ إليه بكذا ، وإنّما قال عليه السلام له : « ولك بعد ذِمامة الصّهر » ؛ لأنّ زينب بنت جحش زوْج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسَدِيّة ؛ وهى زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة ابن مرّة بن كثير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة . وأمّها أميّة بنت عبدالمطلب بن هاشم ابن عبد مناف ، فهى بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمصاهرة المشار إليها ، هى هذه .

ولم يفهم القطب الراوندىّ ذلك ، فقال فى الشرح : « كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج فى بنى أسد » ولم يصِبْ ، فإنّ عليا عليه السلام لم يتزوّج فى بنى أسد البتّة . ونحن نذكر أولاده : أمّا الحسَنُ والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكبرى ، فأمّهم فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله[3] . وأما محمّد فأمّه خَولة بنت إياس[4] ابن جعفر ، من بنى حَنيفة ، وأمّا أبو بكر وعبد الله ، فأمّهما ليلى بنت مسعود النّهشليّة ،

(١) البطان : حزام القتب ؛ وهو الذى يجعل تحت بطن الدابة ، والقتب : رحل صغير على قدر السنام .
(٢) ديوانه ٥٤ .
(٣) فى تاريخ الطبرى : « ويذكر أنه كان لها منه ابن آخر يسمى محسناً ، توفى صغيراً » .
(٤) فى نسب قريش : « خولة بنت جعفر بن قيس » .

من تميم وأما عمر ورقية فأمهما سَبِيّة من بنى تَغْلِب، يقال لها : الصَّهْباء، سُبِيت فى خلافة أبى بكر وإمارة خالد بن الوليد بعَيْنِ التمر . وأمّا يحيى وعون فأمّهما أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية[1] . وأمّا جعفر والعباس وعبد الله وعبد الرحمن[2] فأمّهم أم البنين بنت حزام ابن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بنى كلاب . وأمّا رملة وأمّ الحسن فأمّهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفىّ ، وأما أمّ كلثوم الصغرى وزينب الصغرى وجُمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأمّ الكرام ونفيسة وأمّ سلَمة وأم أبيها[3] وأمامة بنت علىّ عليه السلام فهنّ لأمهات أولاد شتى ؛ فهؤلاء أولاده ، وليس فيهم أحدٌ من أسديّة ، ولا بلَغنا أنه تزوّج فى بنى أسَد ، ولم يولد له ، ولكنّ الراوندىّ يقول ما يخطِر له ولا يحقّق .

وأما حقّ المسألة ، فلأن للسائل على المسئول حقّا حيث أهّله لأن يستفيد منه .

والاستبداد بالشىء : التفرّد به . والنَّوْط : الالتصاق . وكانت أثَرة ، أى استئثاراً بالأمر واستبدادا به ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله للأنصار : « ستلقونَ بعدى أثَرَة » .

وشحّتْ : بخلت . وسَخَتْ : جادتْ ؛ ويعنى بالنفوس التى سَخَتْ نفسه ، وبالنفوس التى شحّت ؛ أمّا على قولنا فإنه يعنى نفوسَ أهل الشورى بعد مقتل عُمَر ، وأمّا على قول الإمامية ، فنفوسَ أهلِ السَّقيفة . وليس فى الخبر ما يقتضى صَرْفَ ذلك إليهم ، فالأَوْلَى أن يحمَل على ما ظهر عنه من تألّمه مِنْ عبد الرحمن بن عوف ومَيْله إلى عثمان .

ثم قال : إنّ الحكَم هو الله ، وإنّ الوقت الذى يعود الناس كلّهم إليه هو يوم القيامة . وروى : « يومَ » بالنصب على أنه ظرف والعامل فيه « المَعْوَد » ، على أن يكون مصدرا .

وأما البيتُ فهو لامرئ القيس بن حُجْر الكِنْدىّ ، وروى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يستشهد إلاّ بصدره فقطْ وأتمّه الرواة .

---

(١) فى إحدى روايات الطبرى أنه أعقب منها يحيى ومحمد الأصغر .

(٢) فى الطبرى ونسب قريش : « وعثمان » .

(٣) كذا فى الأصول ، ولم تذكر فى الطبرى ، وزاد : « أم هانئ ورملة الصغرى » .

[حديث عن امرئ القيس]

وكان من قصة هذا الشعر أنّ امرأ القيس ، لما تنقّل فى أحياء العرب بعد قتل أبيه ، نزل على رَجُلٍ من جَدِيلة طيِّئ ، يقال له طريف[1] بن ملّ ، فأجاره وأكرمه ، وأحسن إليه ، فمدحه وأقام عنده . ثم إنه لم يولِه نصيباً فى الجبلين : أجأ وسَلْمَى ، فخاف ألاّ يكون له مَنَعة ، فتحوّل ونزل على خالد بن سَدُوس بن أصمع النَّبهانىّ ، فأغارتْ بنو جَدِيلة على امرئ القيس وهو فى جوار خالد بن سَدُوس ، فذهبوا بإبله ، وكان الذى أغار عليه منهم باعث بن حُوَيص ، فلما أتى امرأ القيس الخبر ، ذكر ذلك لجارِه ، فقال له : أعطِنى رواحلَك ألحق عليها القوم ، فأردّ عليك إبلَك ، ففعل . فركب خالد فى إثر القوم حتى أدركهم ، فقال : يا بنى جَدِيلة ، أغرتُم على إبل جارى ! فقالوا : ما هو لك بجار ، قال : بلَى والله وهذه رواحله ، قالوا : كذلك ! قال : نعم ، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ ، وذهبوا بهنّ وبالإبل . وقيل : بل انطوَى خالدٌ على الإبل فذهب بها ، فقال امرؤ القيس :

دَعْ عنكَ نهباً صِيحَ فى حَجَرَاتِه	ولكن حديثاً ما حديثُ الرّواحلِ[2]
كأنّ دِثاراً حلّقَتْ بلَبُونِهِ	عُقابُ تَنُوفَى لا عُقاب القواعلِ[3]
تَلَعَّبَ باعثٌ بذمّـــةِ خالدٍ	وأوْدَى دِثارٌ فى الخطوب الأوائلِ[4]
وأعجبـــنى مشىَ الحُزُقّةِ خالدٍ	كمشىِ أتانٍ حُلِّئتْ بالمناهلِ
أبت أجأٌ أن تُسْلِمَ العامَ جارَها	فمن شاء فلينهَضْ لها من مقاتلِ
تبيت لَبونى بالقُرَيّةِ أُمَّناً	وأسْرَحُها غِبًّا بأكناف حائلِ

(١) فى الديوان ١٤٢ : « طريف بن مالك » .

(٢) الشعر والخبر فى الديوان ٩٤ ــ ٩٦ . والحجرات : النواحى .

(٣) اللبون : التى لها ألبان .

(٤) باعث : رجل من طيِّئ ؛ وهو ممن أغار عليه .

بنو ثُعَل جيرانُها وحُماتُها ... وتُمْنَعُ من رُماةِ سعدٍ ونائل

تُلاعِبُ أولادَ الوُعولِ رِباعُها ... دُوَيْنَ السّماء فى رُءوس المجادل

مكلَّلَةً حَمْرَاءَ ذاتَ أَسِرَّةٍ ... لها حُبُكٌ كأنّها من وَصائلِ

دِثار : اسم راعٍ كان لامرئ القيس . وتَنُوفَى والقواعل جبال . والحزُقّة : القصير الضخم البطن ، واللَّبون : الإبل ذوات الألبان . والقُرَيّة : موضع معروف بين الجَبَلَين . وحائل اسم موضع أيضا . وسعد ونائل حيّان من طيّء . والرِّباع : جمع رُبَع ، وهو ما نتِج فى الربيع . والمجادل : القصور . ومكلَّلة ، يرجع إلى المجادل مكلّلة بالصخر . والأسِرّة : الطرايق وكذلك الحُبُك . والوصائل : جمع وَصِيلة ، وهو ثوب أمغر (١) الغَزْل ، فيه خطوط . والنَّهب : الغنيمة ، والجمع النِّهاب ، والانتهاب مصدر انتهبتُ المال ، إذا أبحته يأخذه من شاء ، والنُّهبَى : اسم ما أُنهِب . وحَجَراته : نواحيه ، الواحدة حَجْرة ، مثل جَمَرات وجَمْرة . وصيحَ فى حَجَراته صياح الغارة . والرَّواحل : جمع راحلة ، وهى الناقة التى تصلح أن ترْحَل ، أى يُشدّ الرَّحْل على ظهرها ، ويقال للبعير : راحلة . وانتصب « حديثا » بإضمار فعل ، أى هات حديثاً أو حدِّثنى حديثا . ويروى : « ولكن حديثٌ » ، أى ولكن مرادى أو غرضى حديث فحذف المبتدأ ، وما هاهنا ، يحتمل أن تكون إبهاميّة ؛ وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة زادته إبهاماً وشياعا ، كقولك : أعطِنى كتابا ما ، تريد أىّ كتاب كان ، ويحتمل أن تكون صلة مؤكدة كالتى فى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

فأمّا « حديث » الثانى فقد ينصب وقد يرفع ، فمن نصب أبدله من « حديث » الأول ، ومَنْ رفع جاز أن يجعل « ما » موصولة بمعنى « الذى » ، وصلتها الجملة ، أى الذى هو حديث الرواحل ، ثمّ حذف صدر الجملة كما حذف فى ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ ﴾ (٣) ويجوز أن تجعل « ما » استفهامية بمعنى « أىّ » .

---

(١) المغرة : لون يضرب إلى الحمرة .

(٢) سورة النساء ١٥٥ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٤ .

ثم قال : « وهلمّ الخطب » ، هذا يقوّى رواية مَنْ روى عنه أنّه عليه السلام لم يستشهد إلّا بصدر البيت ، كأنّه قال: دع عنك ما مضى وهلمّ ما نحن الآن فيه من أمر معاوية، فجعل « هلمّ » ما نحن فيه من أمر معاوية قائماً مقام قول امرئ القيس .

* ولكنْ حديثاً ما حديثُ الرّواحلِ *

وهلمّ ، لفظ يستعمل لازما ومتعدّياً ، فاللازم بمعنى « تعالَ » ، قال الخليل : أصلُه « لمّ » من قولهم : لمّ الله شعثَه » أى جَمَعه ، كأنّه أراد « لُمّ نفسك إلينا » أى اجمعها واقرُب مِنّا ، وجاءت « ها » للتنبيه قبلها ، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال ، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة ؛ يستوى فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكّر في لغة أهل الحجاز، قال سبحانه : ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾(١) ، وأهل نجد يصرّفونها فيقولون للاثنين : « هلمّا » وللجمع : « هلمّوا » وعلى ذلك . وقد يوصل إذا كان لازما باللام، فيقال: هلمّ لك ، وهلمّ لكما ، كما قالوا : هَيْتَ لك ، وإذا قيل لك : هلُمّ إلى كذا أى تعال إليه، قلت : لا أَهَلُمّ مفتوحة الألف والهاء مضمومة الميم ، فأمّا المتعدية فهى بمعنى « هات » ، تقول : هلمّ كذا وكذا ، قال الله تعالى : ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾(٢) ، وتقول لمن قال لك ذلك : لا أهلمّه ، أى لا أعطيكه ، يأتى بالهاء ضمير المفعول ليتميّز من الأولى .

يقول عليه السلام : ولكن هات ذكر الخطب ، فحذف المضاف . والخطْب : الحادث الجليل ؛ يعنى الأحوال التى أدّت إلى إن صار معاوية منازعاً فى الرياسة ، قائماً عند كثير من النّاس مقامه ، صالحا لأنْ يقع فى مقابلته ، وأن يكون ندّاً له .

ثم قال : « فلقد أضحكنى الدهر بعد إبكائه » ، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدّم مَنْ سلف عليه؛ فلم يقنع الدّهر له بذلك ، حتى جعل معاوية نظيرا له؛ فضحكت عليه

---

(١) سورة الأحزاب ١٨ .

(٢) سورة الأنعام ١٥٠ .

السلام مما تحكم به الأوقات ، ويقتضيه تصرّف الدّهر وتقلّبه ؛ وذلك ضَحِك تعجُّب واعتبار .

ثم قال : « ولا غَرْوَ والله » ، أى ولا عجَب والله .

ثم فسّرَ ذلك فقال : ياله خطبا يستفرغُ العجب ! أى يستنفده ويفنيه ، يقول: قد صار العجبُ لا عجبَ لأنّ هذا الخطْب استغرق التعجّبَ ؛ فلم يبق منه مايطلَق عليه لفظ التعجُّب ؛ وهذا من باب الإغراق والمبالغة فى المبالغة ، كما قال أبو الطيب :

أسَفِى على أسَفِى الّذى دَلَّهتِنى ... عن علمه فَبِه علىّ خفـــاء[1]
وشَكِيّتِى فَقْدُ السقام لأنّهُ ... قد كَانَ لَمّا كانَ لى أعضـــاء

وقال ابن هانى المغربىّ :

قَدْ سِرْتُ فى الميدان يوم طِرَادِهِمْ ... فعجبتُ حتى كِدْتُ ألاّ أعْجَبَا[2]

والأَوَد : العوَج .

ثم ذكر تمالؤ قريش عليه ، فقال : حاول القومُ إطفاء نور الله من مصباحه ، يعنى ماتقدّم من منابذة طَلْحة والزبير وأصحابهما له ، وما شفع ذلك من معاوية وعمرو وشيعتهما. وفوّار اليَنْبوع : ثقب البئر.

قوله : « وجدحوا بينى وبينهم شِرْبا[3] » ، أى خلطوه ومزجوه وأفسدوه .

والوبىء : ذو الوباء والمرض ؛ وهذا استعارة كأنّه جعل الحال التى كانت بينه وبينهم قد أفسدها القوم ، وجعلوها مَظِنّة الوباء والسّقَم ، كالشرب الذى يخلط بالسمّ أو بالصَّبِر فيفسد ويوبئ .

---

(١) ديوانه ١ : ١٤ .
(٢) ديوانه ٨١ (طبعة المعارف) .
(٣) الشرب : النصيب من الماء .

ثم قال : فإن كشف الله تعالى هذه المحنَ التي يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين، وحصل لي التمكّن من الأمر ، حملتُهم على الحقّ المحض الذي لا يمازجُه باطل ، كاللبن المحْضِ الذي لا يخالطه شيء من الماء ، وإن تـكُن الأخرى ، أي وإنْ لم يكشف الله تعالى هذه الغمّة ومتّ أو قتلت — والأمور على ماهي عليه من الفتنة ودولة الضلال — فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات ؛ والآية من القرآن العزيز [1] .

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلويّ نقيب البصرة ، وقت قراءتي عليه ، عن هذا الكلام ، وكان رحمه الله على مايذهب إليه من مذهب العَلَويّة منصفا وافر العقل ، فقلت له : مَنْ يعني عليه السلام بقوله : « كانت أثَرة شحّت عليها نفوس قوم، وسَخَت عنها نفوس آخرين ؟ » ومَن القومُ الّذين عناهم الأسديّ بقوله : « كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به » ؟ هل المرادُ يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة؛ فقلت: إنّ نفسي لا تسامحني أن أنسُب إلى الصحابة عصيان رسول الله صلى الله عليه وآله ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحني أيضا نفسي أن أنسب الرسول صلى الله عليه وآله إلى إهمال أمر الإمامة ، وأنْ يترك النّاس فوضى سُدًى مهمَلين ؛ وقد كان لا يغيبُ عن المدينة إلّا ويؤمّر عليها أميرا وهو حيّ ليس بالبعيد عنها ، فكيف لا يؤمّر وهو ميّت لا يقدر على استدراك ما يحدُث !

ثم قال : ليس يشكّ أحدٌ من الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عاقلا كامل العقل ، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم ؛ وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة ، سديد الرأي ، أقام ملّة ، وشرَع شريعة ، فاستجدّ ملكا عظيما بعقله وتدبيره؛ وهذا الرّجل العاقل الكامل يعرفُ طباع العرب وغرائزهم وطلبَهم بالثّارات والذُّحول ؛ ولو بعد الأزمان المتطاولة . ويقتُل الرجل من القبيلة رجلا من بيت آخر ،

---

(١) سورة فاطر ٨ .

فلا يزال أهلُ ذلك المقتول وأقاربه يتطلّبون القاتل ليقتلوه ؛ حتى يدركوا ثأرهم منه ؛ فإن لم يظفروا به قَتَلُوا بعضَ أقاربه وأهله ، فإن لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحدا أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدنين . والإسلام لم يُحِلْ طباعهم ، ولا غيّر هذه السجيّة المركوزة في أخلاقهم ، والغرائز بحالها ، فكيف يتوهّم لبيب أنّ هذا العاقل الكامل وَتَر العرب ، وعلى الخصوص قريشاً ، وساعدَهُ على سَفْك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضغائن ابنُ عمِّه الأدنى وصهرُه ، وهو يعلم أنّه سيموت كما يموت الناس ، ويتركه بعدَه وعنده ابنته ، وله منها ابنان يجريان عندَه مَجْرَى ابنين من ظَهْره حُنوًّا عليهما ، ومحبّة لهما ، ويعدل عنه في الأمر بعده ، ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه ، فيحقِنُ دمه ودم بنيه وأهله باستخلافه ! ألا يعلمُ هذا العاقل الكامل ؛ أنّه إذا تركه وترك بنيه وأهلَه سُوقَةً ورعيّة ؛ فقد عرّض دماءهم الإراقة بعده ؛ بل يكونُ هو عليه السلام هو الذي قتله ، وأشاط[1] بدمائهم ، لأنّهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم ؛ وإنّما يكونون مضغةً للآكل ، وفريسةً للمفترس ، يتخطّفهم الناس ، وتبلغ فيهم الأغراض ! فأمّا إذا جَعَل السلطان فيهم ، والأمر إليهم ؛ فإنّه يكون قد عَصَمهم وحَقَن دماءهم بالرّياسة التي يَصُولون بها ، ويرتدع النّاس عنهم لأجلها . ومثل هذا معلوم بالتجربة . ألا ترى أنّ ملِك بغداد أو غيرها من البلاد لو قَتَل النّاس ووترَهم ، وأبقى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه ، ثم أهمل أمر ولده وذرّيته من بعده ، وفَسَح للنّاس أن يقيموا مَلِكاً من عُرْضِهم ، وواحداً منهم ، وجعل بنيه سوقَةً كبعض العامّة ، لكان بنوه بعده قليلًا بقاؤهم ، سريعاً هلاكهم ، ولوَثَب عليهم الناس ذوو الأحقاد والتِّرات من كلِّ جهة ، يقتلونهم ويشرّدونهم كلَّ مشرَّد . ولو أنّه عيّن ولداً من أولاده للمُلك ، وقام خواصّه وخدمه وخَوَلُه بأمره بعده ، لحُقِنت دماء أهل

---

(١) أشاط بدمائهم : أهدرها أو عمل على هلاكها .

بَنيه ، ولم تطلْ يد أحد من الناس إليهم لناموس الملك ، وأبّهة السلطنة ، وقوة الرياسة ، وحرمة الإمارة !

أفترى ذهب عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المعنى ؛ أم أحبّ أن يُستأصل أهله وذرّيته من بعده ! وأين موضعُ الشّفَقة علَى فاطمة العزيزة عنده ، الحبيبة إلى قلبه !

أتقول : إنّه أحبّ أن يجعلها كواحدةٍ من فقراء المدينة ، تتكفّفُ الناس ، وأن يجعل عليًا ، المكرّم المعظّم عنده ، الذى كانت حاله معه معلومةً ، كأبى هريرة الدّوْسِيّ وأنس ابن مالك الأنصاريّ ، يحكّم الأمراء فى دمه وعرضِه ونفسه وولده ، فلا يستطيع الامتناع ، وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول ؛ تتلظّى أكباد أصحابها عليه ، ويودّون أن يشربُوا دمه بأفواههم ، ويأكلوا لحمه بأسنانهم ؛ قد قتل أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامَهم ، والعهدُ لم يطُلْ ، والقروح لم تتقرّف[1] ، والجروح لم تندمل !

فقلت له : لقد أحسنتَ فيما قلتَ ، إلّا أنّ لفظه عليه السلام يدلّ على أنه لم يكن نصّ عليه ، ألا تراه يقول : « ونحنُ الأعلَوْن نسباً ، والأشَدّونَ بالرسول نَوْطا » ، فجعل الاحتجاج بالنَّسب وشدّة القرْب ؛ فلو كان عليه نصّ ، لقال عِوَض ذلك : « وأنا المنصوص علىّ ، المخطوب باسمي » .

فقال رحمه الله : إنما أتاه من حيثُ يعلم ، لا من حيث يجهل ؛ ألا ترى أنه سأله ، فقال : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام ، وأنتم أحقّ به ؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه ، وهم أحقّ به من جهة اللُّحمة والعِترة ؛ ولم يكن الأسدىُّ يتصوّر النّصّ ولا يعتقده ، ولا يخطر بباله ، لأنّه لو كان هذا فى نفسه ، لقال له : لم دَفَعكَ النّاس عن هذا المقام ، وقد نصّ عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ولم يَقُل له هذا ، وإنما قال كلاما عامًّا لبنى هاشم كافّة :

---

(١) تقرف الجرح : طلعت فوقه قشرة . أى شارف البرء .

كيف دفعكم قومُكم عن هذا وأنتم أحقّ به ؟ أى باعتبار الهاشميّة والقربَى . فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذى تعلّق به الأسدىّ بعينه ؛ تمهيدا للجواب ، فقال : إنّما فعلوا ذلك مع أنا أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرنا لأنّهم استأثروا علينا ، ولو قال له : أنا المنصوص علىّ ، والمخطوب باسمي فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما كان قد أجابه ، لأنّه ما سأله : هل أنت منصوص عليك أم لا؟ ولا هل نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالخلافة على أحد أم لا ؟ وإنّما قال : لم دَفَعكم قومُكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم ؟ فأجابه جواباً ينطبق على السؤال ويلائمه أيضا ، فلو أخذ يصرّح له بالنصّ ، ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لنفَر عنه ، واتّهمه ولم يقبل قوله ، ولم ينجذب إلى تصديقه ؛ فكان أولى الأمور فى حكم السياسة وتدبير الناس ؛ أن يجيب بما لا نُفْرة منه ، ولا مطعن عليه فيه .

(١٦٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الحمدُ للهِ خالقِ العبادِ ، وساطحِ المهادِ ، ومُسيلِ الوهادِ ، ومُخصبِ النِّجادِ ؛ ليسَ لأوّليّتِهِ ابتداء ، ولا لأزليّتِهِ انقضاء ؛ هُوَ الأوّلُ ولَمْ يزلْ ، والباقي بلا أجلٍ . خرّتْ لهُ الجباهُ ، ووحّدتْهُ الشِّفاهُ . حدَّ الأشياءَ عندَ خلقِهِ لها إبانةً لهُ مِنْ شبهِها ، لا تُقدِّرُهُ الأوهامُ بالحدودِ والحركاتِ ، ولا بالجوارحِ والأدواتِ ؛ لا يُقالُ لهُ : « متى » ؟ ولا يُضرَبُ لهُ أمدٌ بـ « حتّى » ؛ الظّاهرُ لا يُقالُ : « مِمَّ » ؟ والباطنُ لا يُقالُ : « فيمَ » ؟

لا شبحٌ فيتقصّى ، ولا محجوبٌ فيُحوى . لَمْ يقربْ مِنَ الأشياءِ بالتصاقٍ ، ولَمْ يبعُدْ عنها بافتراقٍ ، ولا يخفى عليهِ مِنْ عبادِهِ شخوصُ لحظةٍ ، ولا كرورُ لفظةٍ ، ولا ازدلافُ ربوةٍ ، ولا انبساطُ خطوةٍ . في ليلٍ داجٍ ، ولا غسقٍ ساجٍ ، يتفيّأُ عليهِ القمرُ المنيرُ ، وتعقُبُهُ الشّمسُ ذاتُ النّورِ في الأفولِ والكرورِ ، وتقلّبِ الأزمنةِ والدّهورِ ؛ مِنْ إقبالِ ليلٍ مُقبلٍ ، وإدبارِ نهارٍ مُدبرٍ .

قبلَ كلِّ غايةٍ ومُدّةٍ ، وكلِّ إحصاءٍ وعِدّةٍ ، تعالى عمّا ينحلُهُ المُحدِّدونَ مِنْ صفاتِ الأقدارِ ، ونهاياتِ الأقطارِ ، وتأثّلِ المساكنِ ، وتمكُّنِ الأماكنِ . فالحدُّ لخلقِهِ مضروبٌ ، وإلى غيرِهِ منسوبٌ .

لَمْ يخلقِ الأشياءَ مِنْ أصولٍ أزليّةٍ ، ولا مِنْ أوائلَ أبديّةٍ ؛ بلْ خلقَ ما خلقَ فأقامَ

حَدَّهُ ، وَصَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ .

لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ ؛ عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمٰوَاتِ الْعُلَا ، كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى .

* * *

الشَّرْحُ :

المهاد هنا : هو الأرض ؛ وأصله الفراش : وساطحه باسطه ؛ ومنه تسطيح القبور خلاف تَسْنِيمها ؛ ومنه أيضا المِسْطَح ؛ للموضع الذى يبسط فيه التّمر ليجفّ .

والوِهاد : جمع وَهْدة ؛ وهى المكان المطمئن . ومسيلها : مجرى السّيل فيها . والنّجاد : جمع نَجْد ، وهو ما ارتفع من الأرض . ومخصبها : مروّضها وجاعلها ذوات خِصْب .

* * *

[مباحث كلامية]

واعلم أنّه عليه السلام أورَدَ فى هذه الخطبة ضروباً من علم التوحيد ، وكلها مبنيّة على ثلاثة أصول :

الأصل الأول : أنه تعالى واجب الوجود لذاته ، ويتفرّع على هذا الأصل فروع :

أولها : أنه ليس لأوّليته ابتداء ، لأنه لو كان لأوّليته ابتداء لكان محدَثا ، ولاشىء من المحدَث بواجب الوجود ، لأن معنى واجب الوجود ، أنّ ذاته لا تقبل العدَم ، ويستحيل الجمع بين قولنا : هذه الذات محدَثة ، أى كانت معدومة من قبل ، وهى فى حقيقتها لا تقبل العدَم .

وثانيها : أنّه ليس لأزليّته انقضاء ، لأنه لو صحّ عليه العَدَمُ لـكان لعدَمه سبب ، فـكان وجوه موقوفاً على انتفاء سبب عدمه ، والمتوقِّف على غيره ، يكون ممكنَ الذات ، فلا يكون واجبَ الوجود . وقوله عليه السلام : « هو الأوّل لم يزَلْ ، والباقي بلا أجَل » تكرار لهذين المعنيين السابقَين على سبيل التأكيد ، ويدخل فيه أيضا قوله : « لا يقال له مَتَى ، ولا يضرب له أمد بحتّى » ؛ لأن « متى » للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان ، و « حتى » للغاية وواجب الوجود لا غاية له . ويدخل أيضا فيه قوله : « قبل كلّ غاية ومدّة ، وكلّ احصاء وعدّة » .

وثالثها : أنّه لا يشبهُ الأشياء البتّة ، لأنّ ما عداه إمّا جسم أو عَرَض أو مجرّد ، فلو أشبهَ الجِسْم أو العرض لـكان إما جسما أو عرضا ؛ ضرورة تساوى المتشابهين المتماثلين فى حقائقهما . ولو شابهَ غيرَه من المجرّدات ـ مع أنّ كل مجرد غير مُمْـكِن ـ لـكان ممكناً ، وليس واجب الوجود بممكن ، فيدخل فى هذ المعنى قوله عليه السلام : « حَدّ الأشياء عند خَلقِه لها ، إبانةً له من شبهها » ، أى جعل المخلوقاتِ ذوات حدود ليتميز هو سبحانه عنها ، إذ لا حدّ له ، فبطل أنْ يشبِهه شيء منها . ودخل فيه قوله عليه السلام : « لا تقدّره الأوهام بالحدود والحركات ، ولا بالجوارح » . والأدوات : جمع أداة وهى مايعتمَد به ، ودخل فيه قوله : « الظّاهر فلا يقال : مم » ؟ أىْ لا يقال : من أىّ شىء ظَهَر ، « والباطن فلا يقال : فيم » ، أى لا يقال فيما ذا بطن ؟ ويدخل فيه قوله : « لا شَبحٌ فيتقصّى » والشَّبح : الشخص ويُتقصّى يطلب أقصاه . ويدخل فيه قوله : « ولا محجوب فيحوَى » وقوله : « لم يقرب من الأشياء بالتصاق ، ولم يبعد عنها بافتراق » ؛ لأنّ هذه الأمور كلّها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولا يماثلها . ويدخل فيه قوله عليه السلام : « تعالى عما ينحَلُه المحدّدون من صفات الأقدار » ؛ أى مما ينسبه إليه المشبهة والمجسّمة من صفات المقادير ، وذوات المقادير .

ونهايات الأقطار ، أي الجوانب . وتأثّلَ المساكن ، مجدٌ مؤثّل ، أي أصيل ، وبيت مؤثّل ، أي معمور ؛ وكأنَّ أصلَ الكلمة أن تبنى الدار بالأَثْل ، وهو شجر معروف . وتمكّن الأماكن : ثبوتها واستقرارها . وقوله : « فالحدّ لخلقه مضروب ، وإلى غيره منسوب » ، وقوله : « ولاله بطاعة شيء انتفاع » ، لأنه إنّما ينتفع الجسم الذى يصحّ عليه الشهوة والنّفرة ؛ كلُّ هذا داخل تحت هذا الوجه .

***

الأصل الثانى : أنّه تعالى عالم لذاته ، فيعلم كلَّ معلوم ، ويدخل تحت هذا الأصل قوله عليه السلام : « لاتخفَى عليه من عبادِه شخوص لحظة » ؛ أن تسكن العين فلا تتحرّك . ولا « كرور لفظة » ، أي رجوعها . « ولا ازدلاف ربوة » ، صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض ، وهى الموضع المرتفع « ولا انبساط خطوة . فى ليل داج » أى مظلم . « ولا غسق ساج » ، أى ساكن .

ثم قال : « يتفيّأ عليه القمر المنير » ، هذا من صفات الغَسَق ، ومن تتمّة نعته : ومعنى : « يتفيّأ عليه » يتقلّب ذاهباً وجائيا فى حالتَيْ أخذه فى الضوء إلى التبدّر ، وأخذه فى النقص إلى المحاق .

وقوله : « وتعقّبه » ، أى وتتعقّبه ، فحذف إحدى التاءين ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾[1] ؛ أى « تتوفّاهم » ، والهاء فى « وَتَعَقَّبُهُ » ترجع إلى القمر ، أى وتسير الشمس عقبه فى كروره . وأفوله ، أى غيبوبته ، وفى تقليب الأزمنة والدهور ، من إقبال ليلٍ وإدبار نهار .

---

(١) سورة النساء ٩٧ .

فإن قلت : إذا كان قوله : « يتفيّأ عليه القمر المنير » فى موضع جرّ ، لأنه صفة « غسق » ، فكيف تتعقّب الشمس القمر مع وجود الغسق ؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق ؟

قلت : لا يلزم من تعقّب الشمس للقمر ثبوتُ الغسق ؛ بل قد يصدق تعقّبهما له ويكون الغسق معدوما ، كأنه عليه السلام قال : « لا يخفى على الله حركةٌ فى نهار ولا ليل ، يتفيّأ عليه القمر ، وتعقبه الشمس » ، أى تظهر عقيبه ، فيزول الغسق بظهورها .

وهذا التفسير الذى فسرناه يقتضى أن يكون حرف الجر وهو « فى » التى فى قوله : « فى الكرور » متعلقا بمحذوف ، ويكون موضعه نصبا على الحال ، أى وتعقبه كارًا وآفلا . ويدخل تحته أيضا قوله عليه السلام : « علمه بالأموات الماضين ، كعلمه بالأحياء الباقين ، وعلمه بما فى السموات العلا ، كعلمه بما فى الأرضين السُّفْلى » .

* * *

الأصل الثالث : أنّه تعالى قادر لذاته ، فكان قادراً على كلّ الممكنات ، ويدخل تحته قوله : « لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة ، ولا من أوائل أبدية ، بل خلق ما خلق فأقام حدّه ، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته » ، والردّ فى هذا على أصحاب الهيولى والطينة التى يزعمون قدمها . ويدخل تحته قوله : « ليس لشىء امتناع » ، لأنه متى أراد إيجادَ شىء أوجدَه ، ويدخل تحته قوله : خرّت له تجباه » ، أى سجدت . و « وحّدته الشفاه » ، يعنى الأفواه ، فعبر بالجزء عن الكلّ مجازا ؛ وذلك لأنّ القادر لذاته هو المستحق للعبادة لخلقه أصول النّعم ، كالحياة والقدرة والشهوة .

* * *

واعلم أنّ هذا الفنّ هو الذى بان به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب فى زمانه قاطبة

واستحقّ به التقدّم والفضل عليهم أجمعين ؛ وذلك لأنّ الخاصّة التى يتميّز بها الإنسان عن البهائم هى العقل والعلم، ألا ترى أنّه يشاركه غيرُه من الحيوانات فى اللّحميّة والدمويّة والقوّة والقدرة ، والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الامتياز إلّا بالقوّة الناطقة ، أى العاقلة العالمة ؛ فكلّما كان الإنسانُ أكثَر حظًّا منها ، كانت إنسانيتُه أتمّ؛ ومعلوم أنّ هذا الرّجل انفرد بهذا الفنّ، وهو أشرفُ العلوم، لأنّ معلومَه أشرف المعلومات، ولم يُنقَل عن أحدٍ من العرب غيره فى هذا الفنّ حرف واحد ، ولا كانت أذهانهم تصِلُ إلى هذا، ولا يفهمونه بهذا الفنّ فهُوَ[(١)] منفرد فيه، وبغيره من الفنون -وهى العلوم الشرعية- مشارك لهم، وراجحٌ[(٢)] عليهم ؛ فكان أكملَ منهم، لأنا قد بيّنّا أنّ الأعلم أدخلُ فى صورة الإنسانية ؛ وهذا هو معنى الأفضليّة .

***

الأصل :

منها :

أيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ ؛ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ . بُدِئْتَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ؛ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ ؛ تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لَا تُحِيرُ دُعَاءً ، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً . ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا ؛ وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا ؛ فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ !

هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ ؛ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ .

***

(١) ساقطة من ب

(٢) ا ، ب : « وأرجح » . وما أثبته من ج ، د .

الشرح

السَّوِيّ : المستوى الخلقة غير ناقص ،قال سبحانه : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ﴾(١).

والمُنشأ ، مفعول من « أنشأ » أى خُلِق وأوجِد . والمرعيّ : المحوط المحفوظ .

وظلمات الأرحام ، ومضاعفات الأستار: مستقرّ النُّطَف ، والرَّحِم موضوعة فيما بين المثانة والمِعَى المستقيم ؛ وهى مربوطة برباطات على هيئة السّلسلة ، وجسمها عصبيّ ؛ ليمكن امتدادها واتّساعُها وقتَ الحاجة إلى ذلك عند الولادة ، وتنضمّ وتتقلّص إذا استُغنِي عن ذلك ؛ ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحـد ، وزائدتان يسمّيان قرنَيِ الرحم ؛ وخَلْفَ هاتين الزائدتين بيضَتا المرأة؛ وهما أصغر من بيضتَي الرّجُل ، وأشدّ تفرطُحاً، ومنهما ينصبّ مَنِيُّ المرأة إلى تجويف الرَّحِم ؛ وللرّحِم رَقَبَةٌ منتهية إلى فَرْج المرأة ، وتلك الرّقبـة من المرأة بمنزلة الذّكر من الرجل ؛ فإذا امتزج مَنِيُّ الرجل بمَنِي المرأة فى تجويف الرّحم كان العلوق، ثم ينمى ويزيد من دم الطَّمْث ، ويتصل بالجنين عروق تأتى إلى الرَّحِم فتغذوه ، حتى يتمّ ويكمُل ،فإذا تمّ لم يـكْتَفِ بما تحته من تلك العروق فيتحرّك حركاتٍ قويّة ، طلَبَاً للغذاء، فتهتك أربطة الرَّحِم التى قلنا إنّها على هيئة السلسلة ؛ وتـكونُ منها الولادة .

قوله : « بُدِئت من سُلَالة من طين » ، أى كان ابتـداء خلقك من سُلالة ؛ وهى خلاصة الطين ، لأنّها سُلَّت من بين الـكَدَر ، و« فُعَالة » بناء للقلّة ، كالقُلامة والقُمامة .

وقال الحسن : هى ما بين ظَهْرَانَي الطِّين .

ثم قال : « ووضعتَ فى قرار مكين » ،الـكلام الأوّل لآدم الذى هو أصلُ البشر، والثانى لذرّيّته ،والقرار المـكين :الرَّحِم متمكّنة فى موضعها برباطاتها، لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العُلُوق .

---

(١) سورة مريم ١٩

ثم قال : « إلى قَدَر معلوم ، وأجَلٍ مقسوم » ، إلى : متعلقة بمحذوف ، كأنه قال : « منتهيا إلى قَدَرٍ معلوم » ، أى مقدّراً طوله وشكله إلى أجلٍ مقسوم مدّة حياته .

ثم قال : « تمور فى بطنِ أمّك » ، أى تتحرّك . لا تُحير ، أى لا ترجع جوابا ، أحار يُحير .

إلى دار لم تشهدها ؛ يعنى الدنيا ؛ ويقال : أشبه شىء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التى بعد الموت ؛ انتقالُ الجنين من ظلمة الرَّحِم إلى فضاء الدنيا ؛ فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلا الدّار التى هو فيها ، ولا يشعر بما وراءها ، ولا يحسّ بنفسه إلّا وقد حَصَل فى دارٍ لم يعرفها ، ولا تخطر ببالِه ، فبقىَ هو كالحائر المبهوت ؛ وهكذا حالنا فى الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت .

ولقد أحسن ابن الرومىّ فى صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنيَا بِهِ مِنْ صُروفِها ... يكونُ بكاء الطِّفْلِ ساعَةَ يولَدُ[1]
وإلّا فما يُبكيه منهـا وإنّها ... لأوْسَعُ مِمّا كانَ فيـه وأرْغَدُ !
إذا أبْصَرَ الدنيـا استهلّ كأنّه ... بما سوفَ يلقَى من أذاها يهدَّدُ

قال : « فمَنْ هداك إلى اجترارِ الغِذَاء من ثدْيِ أمّك ؟ » ، اجترار : امتصاص اللبن من الثّدْى ؛ وذلك بالإلهام الإلهىّ .

قال : « وعرّفك عند الحاجـة » ، أى أعلمك بموضع الحَلَمة عند طلبك الرّضاع فالتقمتَها بفيك .

---

(١) ديوانه الورقة ٦٥ (مخطوطة دار الكتب المصرية ـ ١٣٩ أدب) .

ثم قال : « هيهات » ، أى بَعُد أن يحيط علما بالخالق مَنْ عجز عن معرفة المخلوق !

قال الشاعر :

رأيتُ الورَى يدّعون الهُدَى ... وكمْ يدّعِي الحقّ خَلْقٌ كثيرْ
وما فِي البرايا امرُؤٌ عنــدَهُ ... من العلم بالحقّ إلا اليسيرْ
خَفِيٌّ فمـــا ناله ناظرٌ ... وما إن أشار إليـــهِ مشيرْ
ولا شيء أظهرُ من ذاته ... وكيف يرى الشّمْسَ أعمَى ضريرْ !

(١٦٥)

الأصـلُ :

ومن كلام له عليه السـلام لعثمان بن عفان : قالوا : لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وشـكوا إليه مانقموه على عثمان ، وسألوه مخاطبته واستعتابه لهم ، فدخل عليه السلام على عثمان ، فقال :

إنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ؛ وَوَاللهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لَكَ! ما أعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ ، وَلَا أدُلُّكَ عَلَى أمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ !

إنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانَعْلَمُ ؛ ماسَبَقْنَاكَ إلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ ؛ وَقَدْ رَأيْتَ كَمَا رَأيْنَا،وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا ، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا صَحِبْنَا.وَمَا ابْنُ أبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأوْلَى بِعَمَلِ الخيْرِ[1] مِنْكَ، وَأنْتَ أقْرَبُ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مالَمْ يَنَالَا ؛ فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ ، فَإنَّكَ وَاللهِ مَاتُبَصَّرُ مِنْ عَمًى ، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ ؛ وَإنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ ، وَإنَّ أعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ .

فَاعْلَمْ أنَّ أفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إمَامٌ عَادِلٌ ؛ هُدِيَ وَهَدَى،فَأقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً ، وَأمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً؛ وَإنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أعْلَامٌ ، وَإنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أعْلَامٌ ؛ وَإنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ ؛ فَأمَاتَ سُنَّةً مَأخُوذَةً ، وَأحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً ! وَإنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإمَامِ الْجَائِرِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ؛ ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا .

(١) د : « الحق » .

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا ، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا ، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً ، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً . فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ ، وَتَقَضِّي الْعُمُرِ .

فقال له عثمان رضى الله عنه :

كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي ، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ .

فقال عليه السلام :

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ ؛ وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ .

* * *

الشرح :

نقَمت على زيد ، بالفتح ، أنقِم فأنا ناقم ، إذا عتبتَ عليه . وقال الكسائىّ : نقِمت بالكسر أيضاً ، أنقَم لغة ؛ وهذه اللفظة تجىء لازمة ومتعدّية ، قالوا : نقمت الأمرَ أى كرهته .

واستعتبتُ فلانا ؛ طلبت منه العُتبى وهى الرّضا ، واستعتابُهم عثمان : طلبُهم منه مايرضيهم عنه .

واستسفرونى : جعلونى سفيراً ووسيطا بينك وبينهم .

ثم قال له وأقسم على ذلك : إنّه لا يعلم ماذا يقول له ! لأنّه لا يعرف أمرا يجهله ، أى من هذه الأحداث خاصّة . وهذا حقّ ، لأنّ عليا عليه السلام لم يكن يعلم منها مايجهله

عثمان ، بل كان أحداث الصبيان فضلاً عن العقلاء المميّزين ، يعلمون وجهي الصواب والخطأ فيها .

ثم شرع معه في مسلك الملاطفة والقول اللّين ، فقال : ماسبقنا إلى الصّحْبة ، ولا انفردنا بالرّسُول دونك ، وأنت مثلنا ونحن مثلك .

ثم خرج إلى ذكر الشيْخَيْن ، فقال قولا معناه أنّهما ليسا خيراً منك،فإنّك مخصوص دونهما بقرْب النسب ،يعني المنافيّةوبالصهر ؛ وهذا كلام هو موضع المثل : « يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء » ، ومراده تفضيل نفسه عليه السلام عليهما ، لأنّ العلّة التي باعتبارها فضّل عثمان عليهما محققةٌ فيه وزيادة ؛ لأنّ له مع المنافيّة الهاشميّة ، فهو أقرب .

والوشيجة : عروقُ الشّجرة . ثم حذّره جانب الله تعالى ونبّهه على أن الطريق واضحة، وأعلام الهدى قائمة ، وأنّ الإمام العادل أفضلُ الناس عندالله ،وأنّ الإمام الجائر شرّ الناس عند الله .

ثم روى له الخبر المذكور ، وروى : « ثم يرتبك في قمرها » ، أي ينشَب .

وخوّفه أن يكون الإمامَ المقتول الذي يفتح الفِتن بقتله ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال كلاما هو هذا ، أو يشبه هذا .

ومَرَج الدين ، أي فسد . والسّيّقة : ما استاقه العدوّ من الدوابّ ، مثل الوسيقة ، قال الشاعر :

فما أنا إلّا مثلُ سَيّقة العِـدَا إن استَقْدَمَتْ نحرٌ وإنْ جَبأَتْ عَقْرُ[1]

والجُلال ، بالضم : الجليل ، كالطُّوال والطويل ؛ أي بعد السنّ الجليل ؛ أي العمر الطويل .

---

(١) اللسان ١٢ : ٣٣ من غير نسبة .

وقوله: «ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه؛ وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»، كلامٌ شريف فصيح، لأنّ الحاضر أيّ معنى لتأجيله اوالغائب فلا عذر بعد وصول الأمر في تأخيره؛ لأنّ السلطان لا يؤخّر أمره.

وقد ذكرنا من الأحداث التي نُقمت على عثمان فيما تقدّم مافيه كفاية، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ رحمه الله في "التاريخ الكبير"[1] هذا الكلام، فقال: إنّ نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا، فكتب بعضُهم إلى بعض: أن اقدموا، فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالروم؛ واستطال الناس على عثمان، ونالوا منه؛ وذلك في سنة أربع وثلاثين؛ ولم يكن أحدٌ من الصحابة يذبّ عنه ولا ينهى؛ إلّا نفرٌ، منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعديّ، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت؛ فاجتمع الناس، فكلّموا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وسألوه أن يكلّم عثمان، فدخل عليه، وقال له إنّ الناس ... وروَى الكلام إلى آخره بألفاظه، فقال عثمان: وقد[2] علمت أنك ليقولنّ[2] ماقلت! أما والله لو كنتَ مكاني ماعنّفتُك، ولأعتبت عليك[3]. ولم آت منكَراً، إنّما وصلتُ رَحماً، وسددتُ خَلّة، وآويت ضائعاً، ووليّت شبيها بمن كان عمر يوليّه؛ أنشدك الله ياعليّ، ألا تعلم[4] أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك! قال: بلى، قال: أفلا تعلم أنّ عمر ولّاه! قال: بلى، قال: فلم تلومني أنْ ولّيت ابنَ عامر في رحمه وقرابته! فقال عليّ عليه السلام: إنّ عمرَ كان يطأ على صماخ مَنْ يوليّه، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة، وأنت فلا تفعل؛ ضعفت ورققت على أقربائك.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٣٧، وما بعدها.

(٢-٢) الطبري: «قد والله علمت ليقولن الذي قلت».

(٣) الطبري: «ما عنفتك ولا أسلمتك».

(٤) الطبري: «هل تعلم».

[قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً ، فقال علىّ : لعمرى إن رحمهم منّى لقريبة ؛ ولكنّ الفضل فى غيرهم] (١) .

فقال عثمان : أفلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية ! فقد وليته . قال علىّ : أنشدك الله ألا تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلامه له ؟ قال : بلى ، قال : فإنّ معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس : هذا بأمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه !

ثم قام علىّ ، فخرج عثمان على أثره ، فجلس على المنبر ، فخطب الناس ، وقال : أما بعد ؛ فإنّ لكلّ شىء آفة ، ولكلّ أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمّة ، وعاهة هذه النّعمة عيّابون طعّانون يُرُونكم ما تحبّون ، ويُسرّون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ؛ أمثال النّعام يتبعُ أوّلَ ناعق ، أحبّ مواردها إليها البعيد ، لا يشربون إلا نغصاً ، ولا يردُون إلا عِكراً . أما والله لقد عبتم علىّ ما أقررتُم لابن الخطاب بمثله ؛ ولكنّه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ؛ فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولِنتُ لكم ، وأوطأتكم كَتِفِى ، وكففت يدى ولسانى عنكم ، فاجترأتم علىّ . أما والله لأنا أقربُ ناصرا ، وأعزّ نفراً ؛ وأكثر عدداً ؛ وأحرى إن قلت : هلمّ أن يُجاب صوتى . ولقد أعددت لكم أقرانًا ؛ وكشرت لكم عن نابى ؛ وأخرجتم منى خُلقاً لم أكنْ أحسنه ؛ ومنطقا لم أكن أنطق به . فكفّوا عنى ألسنتكم وطعنكم وعيبكم علَىّ ولاتكم ؛ فما الذى تفقدون من حقّكم ! والله ما قصّرت عن بلوغ مَنْ كان قبلى [يبلغ] (١) ؛ وما وجدتكم تختلفون عليه ؛ فما بالكم !

فقام مروان بن الحكم ، فقال : وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السيف .

فقال عثمان : اسكت لا سكتّ ! دعنى وأصحابى ، ما منطقك فى هذا ! ألم أتقدّم (٢) إليك ألّا تنطق !

فسكت مروان ، ونزل عثمان .

---

(١) من الطبرى .   (٢) تقدم إليه : أمره .

(١٦٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس :

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ ، وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا ، وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِهَا ؛ مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ .

كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ ، فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً ؛ وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً ؛ وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ ؛ فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ .

***

الشرح :

المَوات ، بالفتح: مالا حياة فيه. وأرضٌ موات ، أي قَفْر ، والساكن هاهنا كالأرض والجبال . وذو الحركات : كالنار والماء الجارى والحيوان .

ونعقت فى أسماعنا دلائله ، أى صاحت دلائله ؛ لظهورها كالأصوات المسموعة التى تعلّم يقينا .

وأخاديد الأرض : شقوقها ، جمع أخدود . وفجاجها : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق بين الجبلين . ورواسى أعلامها : أثقال جبالها

مصرّفة فى زمام التسخير ، أى هى مسخّرة تحت القدرة الإلٰهية .

وحِقاق المفاصل : جمع حُقّ ؛ وهو مجمع المفصلين من الأعضاء كالركبة ؛ وجعلها محتجبة لأنها مستورة بالجلد واللحم .

وعَبالة الحيوان : كثافة جَسده . والخفوف : سرعة الحركة . والدفيف للطائر : طيرانه فُوَيق الأرض ؛ يقال : عُقاب دَفُوف . قال امرؤ القيس يصف فرسه ويشبّهها بالعُقاب :

كأنى بِفَتْخاء الجناحين لِقْــــوَةٍ دفوفٍ من العقبان طأطأت شِمْلالى [(١)]

ونسقها : رتبها . والأصابيغ : جمع أصباغ ، وأصباغ جمع صِبْغ .

والمغموس الأوّل : هو ذو اللون الواحد كالأسود والأحمر . والمغموس الثانى : ذو اللونين ، نحو أن يكون أحمر وعنقه خضراء .

وروى : « قد طورق لون » أى لون على لون ، كما تقول : طارقت بين الثوبين .

فإن قلت : ماهذه الطيور التى يسكن بعضها الأخاديد وبعضها الفِجاج ، وبعضها رءوس الجبال ؟

قلت : أمّا الأول فـكالقطا والصّدا [(٢)] ، والثانى كالقبَج [(٣)] والطّيهوج [(٤)] ، والثالث كالصّقر والعُقاب .

* * *

(١) ديوانه ٣٨ . الفتخاء : اللينة الجناحين . واللقوة : السريعة من العقبان . وطأطأت : دانيت وخفضت . والشملال : الخفيفة السريعة .

(٢) الصدا : ذكر البوم .

(٣) القبج ، واحده القبجة ؛ وهى أنثى الحجل .

(٤) الطيهوج : طائر شبيه بالحجل الصغير ، غير أن عنقه أحمر ومنقاره ورجلاه حمر .

الأصل :

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُسُ ؛ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْسَنِ تَعْدِيلٍ ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ ؛ إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وسَمَا بِهِ مُطِلًّا عَلَى رَأْسِهِ ؛ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ . يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ . يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ ، وَيَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ . أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ. وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ ،فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ؛لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ !

***

الشرح :

الطاوس:فاعول ، كالماعون ، والكابوس، وترخيمه «طُوَيس» : ونضّد : رتّب.

قوله : « أشرج قصبه »، القصب هاهنا : عروق الجناح . وغضاريفه:عظامه الصغار، وأشرَجها : ركّب بعضها فى بعض كما تُشرَج العيبة، أى يداخِلُ بين أشراجها وهى عُراها واحدها ؛ شَرَج ، بالتحريك .

ثم ذكر ذَنَب الطاوس ، وأنّه طويل المسحَب ، وأنّ الطاوس إذا دَرَج إلى الأنثى للسِّفاد نَشَر ذَنَبه من طَيّه ، وعَلاَ بِهِ مرتفعا على رأسه . والقِلْع : شِراع السفينة ، وجمعه قِلاع . والدّاريّ : جالب العطر فى البحر من دَارِين ؛ وهى فُرْضة بالبحرين ، فيها سُوقٌ يحمل إليها المسك من الهند ، وفى الحديث: « الجليس الصالح كالدّارِيّ،إن لم يُحْذِك من عطره علقك من ريحه »[1] . قال الشاعر :

---

(١) نهاية ابن الأثير ١ : ٢١١ . لم يحذك : لم يعطك .

إذا التَّاجر الدَّارِىُّ جاء بِفَأْرَةٍ ... من المسك رَاحَتْ فى مفارقهم تَجْرِى

والنُّوتِى : الملاّح ؛ وجمعه نواتىّ

وعَنَجه : عطَفه ، وعَنَجْت خِطام البعير ، رددته على رجْليه ، أعنُجُه بالضمّ ، والاسم العَنَج ؛ بالتحريك ؛ وفى المثل « عَوْدٌ يُعَلَّم العَنَجَ[1] » يضرب مثلا لتعليم الحاذق .

ويختال ، من الخُيَلاء وهى العُجْب . ويميس : يتبختر .

وَزَيفانه : تبختره ، زافَ يزيف ، ومنه ناقة زيّافة ، أى مختالة ، قالَ عنترة :

* زَيَّافَةٍ مثل الفنيق المكدَّم[2] *

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جرّ الذُّنابَى ، ودفع مقدّمه بمؤخره واستدار عليها.

ويفضى : يسفِد ، والدَّيسكة جمع دِيك ، كالقِرَطة والجِحَرَة جمع قُرْط وجُحْر .

ويؤرّ : يسفِد ؛ والأرّ : الجماع ، ورجل آرّ كثير الجماع ، وملاقحه : أدوات اللقاح وأعضاؤه ؛ وهى آلات التناسل .

قوله : « أرّ الفحول » ، أى أرّا مثل أرّ الفحول ذات الغُلْمة والشَّبَق .

ثم ذكر أنه لم يقل ذلك من إسناد قد يضعّف ويتداخله الطعن ، بل قال ذلك عن عيان ومشاهدة .

---

(١) العود : البعير المسن ، وانظر مجمع الأمثال ١ : ١٢ .

(٢) من المعلقة ـ بشرح التبريزى ، وصدره :

* ينباعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

ينباع : ينفعل من باع يبوع ؛ إذا مر مرًّا لينا . والذفريان : الحيدان الناتئان بين الأذن ومنتهى الشعر . والجسرة : الضخمة . والزيافة : المسرعة . والفنيق : الفحل ، والمكدم ، من الكدم وهو العض . (من شرح التبريزى) .

فإن قلت : من أين للمدينة طواويس ؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « أحيلك من ذلك على معاينة » ؛ لا سيما وهو يعنى السِّفاد، ورؤية ذلك لمن تكثر الطواويس فى داره ويطول مكثُها عنده نادرة !

قلت : لم يشاهد أميرُ المؤمنين عليه السلام الطواويسَ بالمدينة بل بالكوفة، وكانت يومئذ تجبَى إليها ثمرات كلّ شىء ، وتأتى إليها هدايا الملوك من الآفاق ، ورؤية المسافدة مع وجود الذّكر والأنثى غير مستبعَدة .

* * *

واعلم أنّ قوماً زعموا أنّ الذّكر تدمع عينه ، فتقف الدمعة بين أجفانه ،فتأتى الأنثى فتطعمها فتلقَح من تلك الدمعة ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يُحِلْ ذلك ،ولكنه قال: ليس بأعجب من مطاعمة الغراب،والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد ؛ ومن أمثالهم:«أخفى من سِفاد الغراب » ؛ فيزعمون أنّ اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى منهما،وانتقال جزء من الماء الذى فى قانصته إليها من منقاره . وأما الحكماء فقلّ أن يصدّقوا بذلك ؛ على أنّهم قد قالوا فى كتبهم ما يقرب من هذا ، قالوا فى السمك البياض : إنّ سفاده خفىٌّ جدا ، وإنه لم يظهر ظهوراً يعتدّ به ويحكم بسببه .

هذا لفظ ابن سينا فى كتاب " الشفاء " ، ثم قال : والناس يقولون : إن الإناث تأخذ زرع الذكور فى أفواهها إلى بطونها ، ثم قال : وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة للزرع ، وأما عند الولادة فإنّ الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضها .

قال ابن سينا : والقَبَجة تحبلها ريح تهبّ من ناحية الحَجَل الذكر ؛ ومن سماع صوته. قال : والنوع المسمّى مالاقيا ، تتلاصق بأفواهها ، ثم تتشابك ، فذلك سِفادها ؛ وسمت

أنّ الغراب يسفد وأنه قد شوهد سِفاده ؛ ويقول الناس : إنّ من شاهد سِفاد الغراب يُثرِي ولا يموت إلّا وهو كثير المال موسر .

والصَّفقتان ، بفتح الضاد : الجانبان، وهما صفقتا النّهر ، وقد جاء ذلك بالكسر أيضا، والفتح أفصح .

والمنبجس : المنفجر. ويسفحها : يصبها،وروى : «تنشجها مدامعه» ؛ من النّشيج،وهو صوت الماء وغليانه من زِقّ أو حُبّ أو قِدْر .

الأصْلُ

تَخَالُ قَصَبَه مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ،وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ . فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ : جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ ، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ .

يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ،وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ ؛ فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ ؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ؛لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ .

***

الشرح :

قَصَبُه : عظام أجنحته ، والمدَارِي جمع مِدْرَى ؛ وهو فى الأصل القَرْن ؛ قال النّابغة يصف الثّور والكلاب :

شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمِدْرَى فأنفذَها شكَّ المبيطِر إذ يشفى من العَضَدِ (١)

(١) ديوانه ٢٠ . شك : أنفذ الفريصة : بضعة فى مرجع الكتف إلى الخاصرة . والمبيطر : البيطار والعضد : داء يأخذ فى العضد .

وكذلك المِدْرَاة ؛ ويقال المِدْرَى لشيء كالمِسَلَّة تصلِحُ بها الماشطة شُعُور النساء ؛ قال الشاعر :

تَهْلِكُ المِدْرَاةُ فى أكنافِهِ وَإذا ما أرْسَلَتْهُ يَعْتَفِرْ[1]

وتَدَرَّت المرأة ، أى سَرَّحت شَعْرَها . شبَّه عظام أجنحة الطاوس بمداري من فضّة لبياضها ؛ وشبّه ما أنبت الله عليها من تلك الدّارات والشموس الّتي فى الرِّيش بخالِصِ العِقْيان ؛ وهو الذّهب .

وَفِلَذَ الزَّبَرْجَد : جمع فِلْذَة ، وهي القطعة . والزَّبَرْجد : هذا الجوهر الذى تسمّيه الناس الباخش .

ثم قال : إن شبّهتَه بنبات الأرض قلت : إنه قد جُنِيَ من زهرة كلّ ربيع فى الأرض ، لاختلاف ألوانه وأصباغه .

وإنْ ضاهيتَه بالملابس ، المضاهاة : المشاكلة ، يُهمز ولا يُهمز ، وقرئ : ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] ، ﴿وَيُضَاهِئُونَ﴾ ؛ وهذا ضَهِيّ هذا ، على « فَعِيل » ، أى شبيهه .

وموشِيّ الحُلَل : ما دُبِّج بالوشى ؛ وهو الأرقم الملوَّن . والعَصْب : بُرود اليمن . والحُلِيّ : جمع حَلْى ؛ وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة ، مثل ثَدِيّ وثَدْى ، ووزنه « فُعول » ، وقد تكسر الحاء لمكان الياء ، مثل « عِصِيّ » . وقرئ : ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾[3] بالضمّ والكسر .

ونطِقَتْ باللّجين ؛ جعلت الفضّة كالنِّطاق لها . والمكلّل : ذو الإكليل .

---

(١) اللسان ١٨ : ٢٨٠ (من غير نسبة) .

(٢) سورة التوبة ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف ١٤٨ .

وزَقَا : صوّت ، يزقو زَقْواً وزقياً وزُقاء ، وكلُّ صائح زاقٍ . والزَّقْية : الصَّيحة ؛ وهو أثقلُ من الزَّواقى ؛ أى الدِّيكة ، لأنهم كانوا يسمُرون ؛ فإذا صاحت الدِّيَكة تفرّقوا .

ومُعولاً : صارخا ، أعولت الفرس صوّتت ، ومنه العَويل والعَوْلة .

وقوائمه حُمْش : دِقاق ؛ وهو أحمش السّاقَين وحَمْش الساقين بالتّسكين ؛ وقد حمِشت قوائمه ، أى دقّت . وتقول العرب للغلام إذا كانت أمّه بيضاء وأبوه عربيا : آدم ، لجاء لونه بين لونيهما .

خِلاسيّ ، بالكسر والأنثى خِلاسيّة وقال الليث : الدِّيَكة الخِلاسيّة ، هى المتولّدة من الدجاج الهندىّ والفارسىّ .

يقول عليه السلام : إنّ الطاوس يزْهَى بنفسه ، ويتيه إذا نَظَر فى أعطافه ، ورأى ألوانه المختلفة ؛ فإذا نظر إلى ساقَيْه وَجَم لذلك وانكسر نشاطه وزهوه ، فصاح صياح العويل لحزنه ؛ وذلك لدقّة ساقيه ونتوء عُرقوبَيْه .

* * *

الأصلُ :

وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ ، وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ ، وَمَغْرِزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ ؛ إِلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِى لَوْنِ الأُقْحُوَانِ ، أَبْيَضُ يَقَقٌ ؛ فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِى سَوَادِ

ماهُنالِكَ يأْتلِقُ ، وَقلّ صِبْغٌ إلاّ وَقَدْ أخذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ ؛ وَعلاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ ، فَهُوَ كالأزَاهِيرِ المَبْثُوثَةِ ، لَمْ تَرُبَّها أمطارُ رَبِيعٍ ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ .

***

الشرح :

نَجَمَتْ : ظهرتْ . والظُّنبوب : حَرْف الساق ؛ وهو هذا العظم اليابس .

والصِّيصيَة في الأصل : شوكة الحائك التي يسوّى بها السَّدَاةَ واللُّحمة ، ومنه قوله (١) :

* كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسيج المُمَدَّدِ *

ونقل إلى صِيصِيَة الديك لتلك الهيئة التي في رجله .

والعُرْف : الشعر المرتفع من عُنقه على رأسه . والقُنْزُعة ، واحدة القنازع ؛ وهي الشَّعر حوالى الرأس ، وفي الحديث : « غَطِّي عنّا قنازِعَك يا أمَّ أيمن » (٢) .

وموشّاة : ذات وشي .

والوسِمة ، بكسر السين : العِظْلِم الّذي يُخْضَب به ؛ ويجوز تسكينُ السِّين .

والأسحم : الأسود . والمتلفّع : الملتحف ، ويروى : « متقنِّع بِمِعْجَر » ؛ وهو ماتشدُّه المرأة على رأسها كالرِّداء .

والأقحوان : البابونج الأبيض ؛ وجمعه أقاح .

---

(١) لدريد بن الصمة ، وصدره :

* فجئتُ إليهِ والرِّماحُ تَنُوشُهُ *

من كلمة له في ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٤ ـ ٣٠٩ بشرح التبريزى .

(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٧٩ ؛ ولفظه هناك : « أنه قال لأم سليم : خضلي قنازعك » .

وأبيض يَقَق : خالص البياض ، وجاء : « يقِق » بالكسر . ويأتلق : يلمع .
والبصيص : البريق ، وبصّ الشيء : لَمَع .
وتربُها الأمطار : تربّيها وتجمعها .

يقول عليه السلام : كأنّ هذا الطائرَ ملتحِفٌ بملحفة سوداء، إلّا أنها لكثرةرونقها يتوهّم أنه قد امتزج بها خضرة ناضرة ، وقلّ أن يكون لون إلّا وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب ، فهو كأزاهير الربيع ، إلّا أنّ الأزهار تربّيها الأمطار والشموس؛ وهذا مستغنٍ عن ذلك .

***

الأصْـلُ :

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى ؛ وَيَنْبُتُ تِبَاعاً ؛ فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأَغْصَانِ،ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ . لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فى غَيْرِ مَكَانِهِ ؛ وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ ، أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً ، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً ، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً ؛ فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ ؛ وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ ؛ وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ !

فَسُبْحَانَ الَّذِى بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ ؛ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً ، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً ، وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ !

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَافَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ!

ورأى على نفسِه الا يضطَرِبَ شَبحٌ مِمّا أُولِجَ فيهِ الرُّوحَ ؛ إلّا وَجَعلَ الحِمامَ مَوْعِدَهُ، وَالفَناء غايَتَهُ .

* * *

الشّرح :

ينحسر من ريشه : ينكشف فيسقط ، ويروى : « يتحسّر » .

تَترى ، أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾[1] ؛ لأنّه لم يرسلهم على تراسل ، بل بعد فترات ؛ وهذا مما يغلط فيه قومٌ ، فيعتقدون أنّ « تَتْرَى » للمواصلة والالتصاق . وأصلها الواو من « الوَتْر » وهو الفرد وفيها لغتان ، تنوّن ولا تنوّن ، فن ترك صَرْفها للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث ، ومَنْ نوّنها جعل ألفها للإلحاق .

قال عليه السلام : « وينبُت تباعاً » أى لافترات بينهما ، وكذلك حال الريش الساقط ، يسقط شيئاً بعد شيء ، وينبت جميعاً .

وينحتّ : يتساقط ، وانحتاتُ الورق : تناثرها . وناميا : زائداً. يقول عليه السلام: إذا عاد ريشه عادَ مكان كلّ ريشة ريشةٌ ملوّنة بلون الريشة الأولى ، فلا يتخالف الأوائل والأواخر .

والخضرة الزَّبرجديّة : منسوبة إلى الزّمرّذ[2]، ولفظة « الزّبرجد » تارة تستعمله، وتارة لهذا الحجَر الأحمر المسمّى « بالخش » . والعسجد : الذهب . وعمائق الفِطَن :

---

(١) سورة المؤمنين ٤٤ .

(٢) فى اللسان : « الزبرجد والزبردج : الزمرذ » .

البعيدة القعر . والقريحة : الخاطر والذهن . وبَهَرَ : غَلَب ، وجلّاه : أظهره ؛ ويروى بالتخفيف . وأدمج القوائم : أحكمها ؛ كالحبل المدمَج الشديد الفَتْل .

والذَّرّة : النملة الصغيرة . والهَمَجَة ، واحدة الهَمَج ؛ وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمر وأعينها .

ووأى : وعد ، والوأى : الوعد .

* * *

واعلم أنّ الحكماء ذكروا فى الطاوس أمورا ، قالوا : إنّه يعيش خمسا وعشرين سنة[1] ، وهى أقصى عمره ، ويبيض فى السنة الثالثة من عمره عندما يتنقش لونه ، ويتمّ ريشه . ويبيض فى السنة مرّة واحدة اثنتىْ عشرة بيضة فى ثلاثة أيام ، ويحضنها ثلاثين يوما ، فيفرخ ويلقى ريشَه مع سقوط ورق الشجر ، ويُنبِته مع ابتداء نبات الورق .

والدجاج قد يحضِن بيض الطاوس ؛ وإنّما يختار الدجاج لحضانته ؛ وإن وُجدت الطاوسة ، لأنّ الطاوس الذَّكر يعبث بالأنثى ، ويشغلها عن الحضانة ، وربّما انقفص البيض من تحتها ؛ ولهذه العلّة يخبأ كثير من الإناث محاضنها عن ذُكرانها ، ولاتقوى الدجاجة على أكثر من بيضتىْ طاوس . وينبغى أن يتعهّد الدّجاجة حينئذ بتقريب العلَف منها .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله فى كتاب " الحيوان " : إن الطاوسة قد تبيض من الريح ؛ بأن يكون فى سُفالة الريح وفوقها طاوس ذكر ، فيحمل ريحه فتبيض منه ، وكذلك القَبَجة .

قال : وبيض الريح قلّ أن يُفْرِخ .

* * *

(١) ساقط من ب .

الأصل :

منها فى صفة الجنة :

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا ؛ لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَافِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا ، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا ، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ .

قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ ؛ فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ ؛ لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا ، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا ؛ جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

تفسير بعض ما فى هذه الخطبة من الغريب

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ » الأَرُّ : كنايةٌ عن النِّكَاحِ ؛ يُقَالُ : أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يَؤُرُّهَا ، إِذَا نَكَحَهَا .

وَقَوْلُهُ عليه السلام : « كأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ » ؛ الْقَلْعُ : شِرَاعُ السفينةِ . وَدَارِيٌّ : منسوب إِلَى دَارِين ؛ وهى بلدةٌ عَلَى البحرِ يُجْلَبُ منها الطِّيبُ . وَعَنَجَهُ ، أى عَطَفَهُ ؛ يقال : عَنَجْتُ الناقة ، أَعْنُجُهَا عَنجاً إذا عطفتها . وَالنُّوتِيُّ : الْمَلَّاحُ .

وقوله عليه السلام : « صَفَّتَيْ جُفُونِهِ » ، أراد جانِبَيْ جُفُونِهِ ، وَالصَّفَّتَانِ : الْجَانِبَانِ .

وَقوله : « وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ » ، الْفِلَذُ : جمع فِلْذَةٍ وَهِيَ الْقِطْعَةُ .

وقوله عليه السلام : « كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ » الْكِبَاسَةُ : الْعِذْقُ . وَالْعَسَالِيجُ : الْغُصون ، وَاحدها عُسْلُوجٌ .

***

الشرح :

رميتَ ببصرِ قلبك ، أي أفكَرْتَ وتأمّلت وعَزَفَتْ نفسُك : كرهتْ وزهدت.

والزخارف : جمع زُخرف ؛ وهو الذهب وكلّ مموّه .

واصطفاف الأشجار : انتظامها صَفّاً ، وروى : « في اصطفاق أغصان » أي اضطرابها .

ويأتى على مُنْيسة مجتنيها : لا يترك له مُنْيـة أصلا ، لأنه يكون قد بلغ نهاية الأماني .

والعسل المصفّق : المصفّى تحويلا من إناء إلى إناء . والمونقة : المعجبة . وزهقت نفسه : مات .

***

واعلم أنّه لا مزيد في التشويق إلى الجنّة على ماذكره الله تعالى في كتابه ؛ فكلّ الصَّيْد في جانب الفرا(١) .

---

(١) الفرأ : حمار الوحش ؛ وأصل المثل : « كل الصيد في جوف الفرا » ، وفي القاموس بغير همز لأنه مثل ؛ والأمثال موضوعة على الوقف » .

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك أخبار صحيحة ، فروى أسامة بن زيد ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر الجنّة فقال : « ألا مشمّر لها اهى وربّ الكعبة ريحانة تهتزّ ، ونور يتلألأ ، ونهر يطّرد ، وزوجة لا تموت ؛ مع حبور ونعيم ، ومقام الأبد » .

وروى أبو سعيد الخدرىّ عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله سبحانه لما حوّط حائط الجنّة ؛ لبِنَة من ذهب ولبنة من فضّة ، وغرس غرسها ، قال لها : تكلّمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : طوبَى لك منزل الملوك ! » .

وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام : « إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة ، قال لهم ربُّهم تعالى : أتحبّون أن أزيدكم ؟ فيقولون : وهلْ خيرٌ مما أعطيتَنا ؟ فيقول : نعم ، رِضوانى أكبر » .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « إنّ أحدَهم ليُعطَى قوّة مائة رجل فى الأكل والشرب » ، فقيل له : فهل يكون منهم حَدَث ـ أو قال خَبَث ؟ قال : « عَرَقٌ يفيض من أعراضهم كريح المسك يضمُر منه البطن » .

وروى الزمخشرىّ فى " ربيع الأبرار " ـ ومذهبه فى الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم ؛ وكذلك فى انحرافه عن الشيعة وتسخيفه لمقالاتهم ـ أنّ رسول الله محمدا صلى الله عليه وآله ، قال : « لما أسرِىَ بى ، أخذنى جبرئيل ، فأقعدنى على دُرْنوكٍ من درانيك الجنّة ، ثم ناولنى سَفرجلة ، فبينا أنا أقلبها انفلقتْ ، فخرجت منها جارية لم أرَ أحسنَ منها ، فسلّمت ، فقلت : مَنْ أنتِ ، قالت : أنا الراضية المرضيّة ، خلقنى الجبّار من ثلاثة أصناف : أعلاى من عنبر ،

وأوسطى من كافور ، وأسفلى من مسك. ثم عجننى بماء الحيوان ، وقال لى : كونى كذا، فكنت . خلقنى لأخيك وابن عمك على بن أبى طالب » .

قلت : الدُّرنوك : ضرب من البُسط ذو خَمَل ، ويشبّه به فَرْوة البعير ، قال الراجز :

* جعد الدَّرانيك رِفَلُّ الأجْلاد[1] *

---

(١) اللسان ١٢ : ٣٠٦ ، ونسبه إلى رؤبة ، وبعده .

* كأنه مُختضِبٌ فى أجساد *

(١٦٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ؛ وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ ، يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً ، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً .

***

الشرح

أمرهم عليه السلام أن يتأسّى الصغير منهم بالكبير في أخلاقه وآدابه ؛ فإنّ الكبير لكثرة التجربة أحزم وأكيس ، وأن يرأف الكبير بالصغير . والرأفة : الرحمة ؛ لأنّ الصغير مظنّة الضعف والرقة .

ثم نهاهم عن خُلُق الجاهليّة في الجفاء والقسوة ، وقال : إنهم لا يتفقّهون في دين ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به ؛ وهذا من قول الله سبحانه : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1] . وروى : « تتفقهون » بتاء الخطاب .

ثم شبّههم ببيض الأفاعي في الأعشاش ، يظنّ بيض القطا فلا يحلّ لمن رآه أن يكسره لأنه يظنّه بيض القطا ، وحضانه يُخرج شرّاً ؛ لأنه يفقص عن أفعى .

(١) سورة البقرة ١٧١ .

واستعار لفظة « الأداحي » للأعشاش مجازاً؛ لأن الأداحي لا تكون إلّا للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها، ودَحْوها: توسيعها، من دَحَوْت الأرض.

والقَيْض: الكسر والفلق، قِضْتُ القارورة والبيضة، وانقاضت هي، وانقاض الجدار انقياضاً، أي تصدّع من غير أن يسقط؛ فإن سقط قيل: تقيّض تقيُّضاً، وتَقوّض تقوضاً؛ وقوّضته أنا. وتقول للبيضة إذا تكسرت فلقاً: تقيّضت تقيضاً، فإن تصدّعت ولم تنفلق، قلت: انقاضت، فهي منقاضة، والقارورة مثله.

***

الأصْلُ:

مِنها:

افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ؛ أَيْنَما مالَ مالَ مَعَهُ؛ على أنَّ اللهَ تَعالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ؛ كَما يَجْتَمِعُ قَزَعُ الخَرِيفِ، يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكاماً كَرُكامِ السَّحابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثارِهِمْ كَسَيْلِ الجَنَّتَيْنِ؛ حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلا حِدابُ أَرْضٍ؛ يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ.

وَايْمُ اللهِ لَيَذُوبَنَّ مافِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ العُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَما تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

أَيُّها النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الباطِلِ، لَمْ

يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ، لَكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً؛ بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَئُونَةَ الِاعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

***

الشَّرْحُ:

هو عليه السلام: يذكر حال أصحابه وشيعته بعده، فيقول: افترقوا بعد ألفتهم: أى بعد اجتماعهم.

وتشتتوا عن أصلهم، أى عنى بعد مفارقتى؛ فمنهم آخذ بغصن؛ أى يكون منهم مَنْ يتمسك بمن أخلفه بعدى من ذرية الرسول، أينما سلكوا سلكوا معهم؛ وتقدير الكلام: ومنهم مَنْ لا يكون هذه حاله. لكنه لم يذكره عليه السلام، اكتفاء بذكر القسم الأول لأنه دالّ على القسم الثانى.

ثم قال: على أنّ هؤلاء القوم: من ثبت منهم على عقيدته فينا ومن لم يثبت؛ لابدّ أن يجمعهم الله تعالى لشرّ يوم لبنى[1] أمية، وكذا كان، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بنى مَرْوان: مَنْ كان منهم ثابتاً على ولاء علىّ بن أبى طالب عليه السلام، ومَنْ حادَ منهم عن ذلك؛ وذلك فى أواخر أيام مَرْوان الحمار، عند ظهور الدّعوة الهاشمية.

وقَزَع الخريف: جمع قَزَعة، وهى سُحُب صغار تجتمع فتصيرُ ركاما، وهو ما كَثُف

---

(١) ج: «بنى».

من السّحاب . وركمت الشيء أركمه ، إذا جمعته وألقيت بعضه على بعض .

ومستثارهم : موضع ثورتهم .

والجنّتان : هما اللتان قال الله تعالى فيهما : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (١) . وسلّط الله عليهما السّيل ، قال الله تعالى : ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ (٢) . فشبّه عليه السلام سيلان الجيوش إلى بنى أميّة بالسيل المسلّط على تينك الجنّتين .

فإنه لم تسلم عليه قارة ؛ وهى الجبيل الصغير . ولم تثبت له أكمة ، وهى التلعة من الأرض .

ولم يردّ سننه ، أى طريقه . طود مرصوص ، أى جبل شديد التصاق الأجزاء بعضها ببعض . ولا حداب أرض . جمع حدَبة (٣) وهى الرّوابى والنّجاد .

ثم قال : « يذعذعهم الله » ؛ الذّعذعة بالذال المعجمة مرتين : التفريق ، وذعذعة الشرّ : إذاعته .

ثم يسلكهم ينابيع فى الأرض ، من ألفاظ القرآن (٤) ، والمراد أنه كما أنّ الله تعالى ينزّل من السّماء ماء فيستكنّ فى أعماق الأرض ، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها ، كذلك هؤلاء القوم ، يفرّقهم الله تعالى فى بطون الأودية وغوامض الأغوار ، ثم

---

(١) سورة سبأ ١٥ .

(٢) سورة سبأ ١٦ .

(٣) فى اللسان : الحدبة ، بفتحتين : ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع . ولا تكون الحدبة إلا فى قف أو غلظ من الأرض .

(٤) وهو قوله تعالى فى سورة الزمر ٢١ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

يظهرُم بعد الاختفاء فيأخـذ بهم من قوم حقوقَ آخرين ، ويمـكّن منهم قوماً من ملك قوم وديارهم .

ثم أقسم ليذُوبَنّ ماق أيدِى بنى أمية بعد علوّهم وتمـكينهم ، كما تذوب الألْيَـة على النار ؛ وهمزة « الألْيَة » مفتوحة ، وجمعها ألَيات ، بالتحريك ؛ والتثنية ألْيَان بغـير تاء ؛ قال الراجز :

* ترتجّ ألْيَاهُ ارتجاجَ الوَطْبِ [(١)] *

وجمع الألية ألاء على « فِعال » وكبش آلَى على « أفعَل » ونعجة « ألياء » والجمع ألْىٌ على « فُعْل » ، ويقال أيضاً : كبش ألْيَان بالتحريك ، وكباش ألْيَانات ، ورجل ألْيَأ ، أى عظيم الألية ، وامرأة عجزاء ولا تقل : «ألياء» وقد قاله بعضهم . وقد أَلِىَ الرجُل بالـكسر يألَى : عَظُمتْ ألْيَتُه .

ثم قال : لولا تخاذلـكم لم يطمع فيـكم مَنْ هو دونـكم .

وتَهِنُوا ، مضارع وَهَن ، أى ضعف ، وهو من ألفاظ القرآن [(٢)] أيضاً .

وتِهْتُمْ مَتاه بنى إسرائيل : حِرْتم وضَلَلْتم الطريق ؛ وقد جاء فى المسانيد الصّحيحة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « لتركَبُنّ سَنَنَ مَنْ كان قبلـكم حذْوَ النّعل النعل ، والقَذّة بالقَذّة ؛ حتى لو دخـلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه » ، فقيل : يارسولَ الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذاً ! ومن الأخبار الصحيحة أيضاً : « أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهودُ والنّصارى ! » [(٣)] .

وفى صحيحى البخارىّ ومسلم رحمهما الله أنه سيجاء يوم القيامة بأناسٍ من أمّتى ،

---

(١) الصحاح (ألى) من غير نسبة .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة آل عمران ١٣٩ : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ .

(٣) النهـاية لابن الأثير ٤ : ٢٥٨ ؛ قال : « التهوك كالتهور ؛ وهو الوقوع فى الأمر بغير روية . أو الذى يقع فى كل أمر ؛ وقيل : هو التحير » .

فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فإذا رأيتهم اختلجوا دونى ، قلت : أى ربّ ، أصحابى ! فيقال لى : إنك لا تدرى ما عملوا بعدك ؟ فأقول ما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا توفَّيْتَنِى كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد ﴾ : الإسناد فى هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه .

وفى الصحيحين أيضاً ، عن زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من نومه محمرّاً وجهه ؛ وهو يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرّ قد اقترب ! » ، فقلت : يارسول الله ، أنهلك ، وفينا الصالحون ! فقال : « نعم ، إذا كثر الخبث » .

وفى الصحيحين أيضاً : « يهلك أمتى هذا الحىّ من قريش » ، قالوا : يا رسول الله ، فا تأمرنا ؟ قال : « لو أنّ الناس اعتزلوهم » ، رواه أبو هريرة عنه صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام : « ليُضعِّفنّ لكم التيه من بعدى » . يعنى الضلال ، يضعّفه لكم الشيطان وأنفسكم بما خلّفتم الحق وراء ظهوركم ، أى لأجل ترككم الحق . وقطعكم الأدنى - يعنى نفسه . ووصلكم الأبعد ، يعنى معاوية . ويروى : « إن اتبعتم الراعى لكم » ، بالراء .

والاعتساف : سلوك غير الطريق . والفادح : المثقل ، فدحه الدين : أثقله .

(١٦٨)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام فى أول خلافته :

إنَّ ٱللهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ ٱلْخَيْرَ وَالشَّرَّ ؛ فَخُذُوا نَهْجَ ٱلْخَيْرِ تَهْتَدُوا ، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا .

ٱلْفَرَائِضَ ٱلْفَرَائِضَ ! أَدُّوهَا إِلَى ٱللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ . إِنَّ ٱللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى ٱلْحُرَمِ كُلِّهَا ، وَشَدَّ بِالإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِى مَعَاقِدِهَا . فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى ٱلْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ .

بَادِرُوا أَمْرَ ٱلْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ .

تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ؛ فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ :

ٱتَّقُوا ٱللهَ فِى عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ ٱلْبِقَاعِ وَٱلْبَهَائِمِ ، وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَلَا تَعْصُوهُ ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمُ ٱلْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ .

***

الشرح

واصدِفوا عن سَمْت الشر ، أى أعرِضوا عن طريقه . تَقْصِدوا ، أى تعدلوا ، والقصْد : العدل .

ثم أمَر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها ؛ كالصّلاة والزّكاة ؛ وانتصب ذلك على الإغراء .

ثم ذكر أنّ الحرام غير مجهول للمكلّف بل معلوم ، والحلال غير مدخول ، أى لا عيب ولا نقص فيه ؛ وأنّ حرمة المسلم أفضلُ من جميع الحرُمات . وهذا لفظ الخبر النبوىّ : « حُرْمة المسلم فوق كلّ حُرْمة ، دمه وعرضه وماله » .

قال عليه السلام : « وشد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين فى معاقدها » ؛ لأنّ الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

قال : « فالمسلم مَنْ سلِم الناس » ؛ هذا لفظ الخبر النبوىّ بعينه .

قوله : « ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب » ، أى إلّا بحقّ ؛ وهو الكلام الأوّل ، وإنما أعاده تأكيدا .

ثم أمر بمبادرة الموت ، وسماه الواقعة العامة ، لأنه يعمّ الحيوان كلّه ، ثم سمّاه خاصّة أحدكم ؛ لأنه وإن كان عاماً إلا أنه مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم.

قوله : « فإنّ الناس أمامكم » ؛ أى قد سبقوكم . والساعة تسوقُكم من خَلْفكم .

ثم أمر بالتخفّف(١) ؛ وهو القَناعة من الدنيا باليسير ، وترك الحرص عليها ، فإنّ المسافر الخفيف أحرى بالنجاة ولحاق أصحابه وبلوغ المنزل ، من الثقيل .

---

(١) ا ، ب « بالتخفيف » ، وما أثبته من د .

وقوله : « فإنما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم » ؛ أى إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضا ، فيبعث الكلّ جميعا فى وقت واحد .

ثم ذكر أنّهم مسؤولون عن كلّ شىء حتى عن البقاع : لم استوطنتم هذه ، وزهِدتم فى هذه ؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار ؟ وحتى عن البهائم ؛ لم ضربتُموها ؟ لم أجعتموها ؟

وروى : « فإن البأس [1] أمامكم » يعنى الفتنة ، والرواية الأولى أظهر . وقد ورد فى الأخبار النبوية « ليَنتصفَنّ للجمّاء من القرناء » ، وجاء فى الخبر الصحيح : « إنّ الله تعالى عذّب إنسانا بهرّ ، حبسه فى بيت وأجاعه حتى هلك » .

---

(١) ب : « الناس » تحريف ؛ وما أثبته من باقى الأصول .

(١٦٩)

ومن كلام له عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة ، وقد قال له قوم من الصحابة : لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ! فقال عليه السلام :

يَا إِخْوَتَاه ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ؛ وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا ؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ !

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ ؛ وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً . إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا هَذَا . فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً .

فَاهْدَءُوا عَنِّي وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي؛ وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً ، وَتُورِثُ وَهَناً وَذِلَّةً . وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ ؛ وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً ؛ فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ .

* * *

الشرح :

أجلَب عليه: أعان عليه، وأجابه : أعانه . والألف فى «ياإخوتاه» بدل من ياء الإضافة، والهاء للسكت .

وعلى حدّ شوكتهم . شدّتهم ؛ أى لم تنكسر سورتُهم .

والعِبْدان جمع عَبْد ، بالكسر : مثل جَحْش وجِحشان ، وجاء عُبدان بالضم ،مثل تَمْر وتُمران ، وجاء عبيد ، مثل كَلْب وكَلِيب ؛ وهو جمع عزيز ، وجاء أعْبد وعِباد وعبدّان ، مشددة الدال ، وعبّداء بالمد ، وعبُدّى بالقصر ، ومعبوداء بالمدّ ، وعُبُد بالضم ، مثل سقف وسُقُف ، وأنشدوا :

أنسُبِ العبــــدَ إلى آبائه أسْوَد الجلدة من قوم عُبُدْ [1]

ومنه قرأ بعضهم : ﴿ وَعُبُدَ الطَّاغوت ﴾ [2] وأضافه .

قوله : « والتفّتْ إليهم أعرابكم » : انضمّت واختلطتْ بهم .

وهم حلالكم ، أى بينكم يسومونكم ماشاءوا : يكلّفونكم ، قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [3] .

وتؤخذ الحقوق مُسمَحة ، من أسمح ؛ أى ذلّ وانقاد .

فاهدءوا عنّى ، أى فاسكنوا [4] . هَدَأ الرجل هدْءًا وهدوءًا ، أى سكن ؛ وأهدأه غيره .

وتضعضع قوّة : تضعف وتهدّ : ضعضعتُ البناء : هددته . والمنّة : القوة . والوَهن : الضعف . وآخر الدواء الكيّ ، مثل مشهور ؛ ويقال : « آخر الطبّ » ويغلط فيه العامة فتقول : « آخر الداء » ، والكيّ ليس من الدّاء ليكون آخره .

* * *

---

(١) اللسان ٤ : ٢٦٠ .

(٢) سورة المائدة ٦٠ ؛ وهى قراءة عن ابن عباس ، وانظر تفسير القرطبي ٦ : ٢٣٥ .

(٣) سورة البقرة ٤٩ .

(٤) فى الأصول : « فاسكتوا » .

[موقف علىّ من قتلة عثمان]

واعلم أنّ هذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام كان فى نفسه عِقابُ الذين حصَرُوا عثمان والاقتصاص ممّن قتله ، إن كان بقىَ ممن باشر قتله أحد ؛ ولهذا قال : إنى لستُ أجهل ما تعلمون ؛ فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك ، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغى ؛ وصدق عليه السلام ؛ فإنّ أكثر أهل المدينة أجلبُوا عليه ، وكان مِنْ أهل مِصر ومن الكوفة عالَمٌ عظيم حضروا من بلادهم ، وطووا المسالك البعيدة لذلك ، وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية ، وكان الأمرُ أمرَ جاهلية ، كما قال عليه السلام ، ولو حرّك ساكناً لاختلف الناس واضطربوا ، فقومٌ يقولون : أصابَ ، وقوم يقولون : أخطأ ، وقوم لا يحكمون بصواب ولاخطأ . بل يتوقفون ، ولا يأمن – لو شرع فى عقوبة الناس والقبضِ عليهم – مِنْ تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم ؛ فكان الأصوبُ فى التدبير ، والذى يوجبه الشرع والعقل الإمساك إلى حين سكون الفتنة ، وتفرّق تلك الشعوب وعَوْد كلّ قوم إلى بلادهم ؛ وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعَه معاوية وغيرُه ، وأن يحضُرَ بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم ، ويعيّنون قوماً بأعيانهم ، بعضهم للقتل ، وبعضهم للحصار ، وبعضهم للتسوّر ، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضى ؛ فحينئذ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى ؛ فلم يقع الأمر بموجب ذلك ، وعَصَى معاوية وأهلُ الشام ، والتجأ ورثة عثمان إليه ، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيًّا ، وإنما طلبوه مغالبة ، وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية ، ولم يأتِ أحدٌ منهم الأمر من بابه ؛ وقبل ذلك ما كان من أمرِ طلحة والزبير ، ونقضِهما البيعة ، ونهبهما أموالَ المسلمين بالبصرة وقتلهما الصالحين من أهلها ؛ وجرت أمور كلُّها تمنع الإمام عن التصدّى للقصاص ، واعتماد ما يجب اعتماده ؛ لو كان الأمر وَقَع على القاعدة

الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة ، وقد قال هو عليه السلام لمعاوية : « فأمّا طلبُك قتَلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ، وحاكم القوم إلىّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنّة رسوله » .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : وهذا عَيْن الحقّ ، ومحضُ الصواب ، لأنه يجب دخول الناس فى طاعة الإمام ، ثم تقع المحاكمة إليه ، فإن حَكَم بالحق استديمت إمامته ، وإن حَكَم بالجوْر انتقضَ أمره ، وتعين خلعُه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « وسأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكىّ » .

قلت : ليس معناه : وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكنَ الصبر ، فإذا لم أجد بدًّا عاقبتهم ، ولكنه كلام قاله أوّل مسير طلحة والزبير إلى البَصْرة ، فإنه حينئذ أشارَ عليه قوم بمعاقبة المجلبين ، فاعتذر بما قد ذكر ، ثم قال : « وسأمسك الأمر ما استمسك » ؛ أى أمسك نفسى عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكننى ، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم ، وأجتهد فى ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب ، فإذا لم أجد بدًّا من الحرب ، فآخر الدواء الكىّ ، أى الحرب ، لأنها الغاية التى ينتهى أمر العصاة إليها .

شرح نهج البلاغة

لابن أبى الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء العاشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٦هـ — ١٩٦٧م)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ الحمد لله الواحد العدل ١)

(١٧٥)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام فى معنى طلحة بن عبيد الله:

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ؛ وَاللهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ؛ لِأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ (٢) الْأَمْرُ، وَيَقَعَ الشَّكُّ.

وَوَاللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ:

لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ.

وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ.

وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ؛ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ، وَيَرْكُدَ جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ.

فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ؛ وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

***

(١ - ١) ساقط من ب.

(٢) مخطوطة النهج: «ليلبس».

الشرح :

كان هاهنا تامّة ، والواوا واو الحال ؛ أى خُلِقت ووجدتُ وأنا بهذه الصفة ، كاتقول: خلقنى الله وأنا شجاع .

ويجوز أن تكون الواو زائدة ، وتكون « كان » ناقصة ، وخبرها « ماأهدّد» ، كا فى المثل : « لقد كنت وما أُخَشَّى بالذئب[1] » .

فإن قلت : إذا كانت ناقصة ، لزم أن تكون الآن بخلاف مامضى ؛ فيكون الآن يهدّد ويُرَهَّب .

قلت : لا يلزم ذلك ، لأنّ « كان » الناقصة للماضى من حيث هو ماضٍ ؛ وليس يشترط فى ذلك أن يكون منقطعا ؛ بل قد يكون دائما ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[2] .

ثم ذكر عليه السّلام أنه على ماوعده ربّه من النصر ، وأنّه واثق بالظّفَر والغلبة الآن، كا كانت عادتُه فيا سبق .

ثم شرح حال طلحة ، وقال : إنّه تجرّد[3] للطّلب بدم عثمان ، مغالطةً للنّاس ، وإيهاماً لهم أنّه برىء من دمه ، فيلتبِسُ الأمرُ ، ويقع الشكّ .

وقد كان طلحةُ أجهَد نفسَه فى أمرِ عثمان والإجلاب[4] عليه ، والحصرِ له ،والإغراء به ، ومنّتْهُ نفسه الخلافة ؛ بل تلبّس بها ، وتسلّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها ، وقاتل النّاس ، وأحدقوا به ، ولم يبقَ إلا أن يَصْفِق[5] بالخلافة على يده .

---

(١) بقية المثل : « فاليوم قبل الذئب الذئب » ، وأول من قاله قباث بن أشيم الكنانى ، وانظر مجمع الأمثال ٢ : ١٨٠ .

(٢) سورة النساء ١٧ .

(٣) يقال : تجرد للأمر ؛ إذا جد فيه وتفرغ له .

(٤) أجلب عليه ، أى حاول أن يجمع الناس له من كل مكان .

(٥) صفق على يديه بالبيعة صفقاً وصفقة ، أى ضرب يده على يده .

[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان]

ذكر أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ فى كتاب " التاريخ "، قال :

حدّثنى عمر بن شبّة ، عن علىّ بن محمد ، عن عبد ربّة ، عن نافع ، عن إسماعيل بن أبى خالد[1] ، عن حَكِيم[2] بن جابر ، قال : قال علىّ عليه السلام لطلحة وعثمان محصور : أنشُدك الله إلّا رددتَ الناس عن عثمان ! قال : لا والله حتى تُعطِىَ بنو أميّة الحقّ من أنفسها .

وروى الطّبرىّ أنّ عثمان كان له عَلَى طلحة خمسون ألفا ، فخرج عثمان يوما إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيّأ مالك فاقبِضْه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك[3] .

قال : فكان عثمان يقولُ وهو محصور : جزاء سِنِمّار !

وروى الطبرىّ أيضا أنّ طلحة باع أرضا له من عثمان بسبعمائة ألف ، فحملها إليه ، فقال طلحة : إنّ رجلا يبيت[4] وهذه عنده وفى بيته ، لا يدرى مايطرُقه من أمر الله لغرير بالله ؟ فبات ورسله تختلف بها فى سِكَكِ المدينة يقسِمُها حتّى أصبح وما عنده منها درهم واحد .

قال الطبرىّ : روى ذلك الحسن البصرىّ ، وكان إذا روَى ذلك يقول: ثم جاء إلينا يطلب الدينار والدرهم ــ أو قال : والصفراء والبيضاء[5] .

---

(١) فى الأصول : « أبو طالب » ، تحريف وصوابه من تاريخ الطبرى .
(٢) حكيم بفتوحة وكسر الكاف ؛ كذا ضبط فى التقريب .
(٣) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٠٤ .
(٤) فى الطبرى : « تتسق » .
(٥) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٠٥

وروى الطّبرىّ أيضا ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : لما حَججْتُ بالنّاس نيابة عن عثمان وهو محصور ، مررت بعائشة بالصُّلْصُل(١) ، فقالت : يابنَ عباس، أنشُدك الله، فإنّك قد أُعطيتَ لساناً وعقلا ، أن تُخَذِّل الناسَ عن طلحة ؛ فقد بانت لهم بصائرهم فى عثمان وأنهجَتْ(٢) ، ورفعت لهم للنار ، وتحلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ ؛ وإنّ طلحة — فيما بلغنى — قد اتخذ رجالا على بيوت الأموال، وأخذمفاتيحَ الخزائن،وأظنّه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمّه أبى بكر ، فقال : ياأمّه ، لو حدَث بالرّجل حدثٌ مافزع الناس إلّا إلى صاحبنا ، فقالت : إيهاً عنك يابن عباس ؛ إنى لستُ أريد مكابَرتك ولا مجادَلتك(٣) .

وروى المدائنىّ فى كتاب " مقتل عثمان "، أنّ طلحة مَنع من دفنه ثلاثة أيام ، وأنّ عليا عليه السلام لم يبايع الناس إلّا بعد قتل عثمان بخمسة أيام ، وأن حَكيم بن حزام أحدَ بنى أسد بن عبد العُزّى ، وجُبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدَا بعلىّ عليه السلامَ على دفنه ، فأقعدَ طلحةُ لهم فى الطّريق ناسا بالحجارة ، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطا بالمدينة يعرف بحَشّ كَوْكب(٤) كانت اليهود تَدْفِنُ فيه موتاهم ، فلما صار هناك رُجِم سريره ، وهمّوا بطرحه ؛ فأرسل علىّ عليه السلام إلى النّاس يعزم عليهم ليكُفُّوا عنه فكفُّوا ، فانطلقوا به حتى دفنوه فى حَشّ كوكب .

---

(١) صلصل : موضع بنواحى المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل به صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح ؛ قال عبدالله بن مصعب الزبيرى :

أشرِف عَلَى ظَهْرِ القُدَيْمَةِ هَلْ تَرَى ... برقاً سَرَى فى عارِضٍ متهلّلِ
نَضَح العَقِيقَ فَبَطْنَ طَيْبَةَ مَوْهِناً ... ثمّ اسْتَمَرّ يؤمُّ قَصْدَ الصُّلْصُلِ

(٢) أنهج الطريق : وضح .

(٣) تاريخ الطبرى ٤ : ٤٠٧ .

(٤) حش كوكب : موضع عند بقيع الغرقد ، ذكره ياقوت ، وقال : اشتراه عثمان بن عفان ، وزاده فى البقيع ، ولما قتل ألقى فيه ، ثم دفن فى جنبه .

وروى الطبريّ نحو ذلك ؛ إلّا أنه لم يذكر طلحة بعينه ؛ وزاد فيه أنّ معاوية لما ظَهَر على النّاس ؛ أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البَقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبرِه حتى اتّصل [ذلك][1] بمقابر المسلمين .

وروى المدائنيّ فى هذا الكتاب ، قال : دفن عثمان بين المغرب والعَتَمة ، ولم يشهد جنازته إلّا مَرْوان بن الحكَم وابنه عثمان وثلاثةٌ من مواليه ، فرفعت ابنتهُ صوتَها تندُبه ؛ وقد جعل طلحة ناساً هناك أ كمنهم كمينا ، فأخذتهم الحجارة ، وصاحوا : نعثل نعثل[2] ! فقالوا : الحائط الحائط ! فدفن فى حائطٍ هناك .

وروى الواقديّ ، قال : لما قتِل عثْمان ، تكلّموا فى دفنه ، فقال طلحة : يُدفن بدير سَلْع — يعنى مقابر اليهود .

وذكر الطبريّ فى تاريخه هذا ؛ إلّا أنه روى عن طلحة فقال : قال رجل : يدفن بدير سلْع — فقال حكيم بن حزام : والله لايكون هذا أبدا وأحد من ولد قصيّ [حيّ][1] حتى كاد الشرُّ يلتحم ؛ فقال ابن عُدَيْس البَلَوِيّ : أيها الشيخ ؛ وما يضرّك أين دفن ! قال : لا يدفن إلا ببقيع الغَرْقد[3] ؛ حيث دفن سَلَفُهُ ورهطه ؛ فخرج به حكيم بن حزام فى اثنى عشر رجلا ، منهم الزّبير بن العوام ، فمنعهم النّاس عن البقيع ، فدفنوه بحَشّ كَوْكب[4] .

* * *

(١) من تاريخ الطبرى .

(٢) نعثل : رجل من أهل مصر ؛ كان طويل اللحية ؛ وكان شاتمو عثمان رضى الله عنه يسمونه بذلك . اللسان .

(٣) أصل البقيع فى اللغة ، الموضع الذى فيه أروم الشجر ؛ والغرقد كبار الشجر المسمى بالعوسج . وهو مقبرة أهل المدينة (ياقوت) .

(٤) تاريخ الطبرى ٤ : ٤١٢ ، ٤١٧ .

وروى الطبريّ في التاريخ أنّ عثمان لما حُصِر ، كان عليّ عليه السلام بخيبر في أمواله ؛ فلما قدم أرسل إليه يدعوه ، فلما دخل عليه قال له : إنّ لي عليك حقوقا : حقّ الإسلام ، وحقّ النسب ، وحقّ مالي عليك من العهد والميثاق ؛ ووالله أن لو لم يكنْ من هذا كلّه شيء وكنّا في جاهلية ؛ لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتزّهم أخو تَيْمٍ مُلْكَهم — يعني طلحة — فقال له عليه السلام : سيأتيك الخبر ، ثم قام فدخل المسجد ، فرأى أسامة بن زيد جالساً ، فدعاه فاعتمد على يدِه ، وخرج يمشي إلى طلحة ، فدخل داره ؛ وهي دِحاسٌ[1] من الناس ؛ فقام عليه السلام ، فقال : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذي وقعتَ فيه ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعدَ ما مسّ الحِزام الطُّبْيين ! فانصرف عليّ عليه السلام ولم يُحِرْ إليه شيئاً حتى أتى بيت المال ، فنادى : افتحُوا هذا الباب ، فلم يقدروا على فَتْحِه ، فقال : اكسِرُوه ، فكُسِر فقال : أخرجوا هذا المال ، فجعلوا يخرجونه وهو يعطي الناس ؛ وبلغ الذين في دار طلحة ما صنع عليّ عليه السلام ، فجعلوا يتسلّلون إليه حتى بقي طلحة وحده ؛ وبلغ الخبرُ عثمان ، فسُرّ بذلك ، ثم أقبل طلحة يمشي عامداً إلى دار عثمان ، فاستأذن عليه ؛ فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ أستغفر الله وأتوبُ إليه ؛ لقد رمت أمراً حال الله بيني وبينه . فقال عثمان : إنك والله ما جئت تائبا ؛ ولكن جئت مغلوبا ؛ والله حسيبك يا طلحة[2] !

ثم قسم عليه السلام مالَ طلحة ، فقال : لا يخلو إمّا أن يكون معتقِداً حلّ دم عثمان ، أو حرمته ؛ أو يكون شاكّاً في الأمرين ؛ فإن كان يعتقد حلّه لم يجُز له أن ينقُضَ البيْعة لنصرة إنسان حلال الدم ، وإن كان يعتقد حرمته ، فقد كان يجب عليه أن ينهنِهَ عنه الناس ، أي يكفّهم .

---

(١) دحاس من الناس ؛ أي ممتلئة .

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٤٣١

وأن يعذّر فيه ؛ بالتشديد أي يقصّر ولم يفعل ذلك ؛ وإنْ كان شاكاً ؛ فقد كان يجب عليه أن يعتزِل الأمر ، ويركد جانبا ؛ ولم يعتزل وإنما صَلِيَ بنار الفتنة ، وأصلاها غيرَه .

فإن قلت : يمكن أن يكون طلحةُ اعتقَد إباحة دم عثمان أوّلاً ، ثم تبدّل ذلك الاعتقاد بعد قتله ؛ فاعتقد أنّ قتلَه حرام ، وأنه يجب أن يقتصّ من قاتليه !

قلت : لو اعترف بذلك لم يقسِّم عليّ عليه السلام هذا التقسيم ؛ وإنما قسّمه لبقائه على اعتقاد واحد ؛ وهذا التقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحدٍ صحيح لا مطعن فيه ؛ وكذا كان حال طلحة فإنّه لم ينقل عنه أنه قال : ندمت على مافعلت بعثمان .

فإن قلت : كيف قال أمير المؤمنين عليه السّلام: « فما فعل واحدة من الثلاث »؛وقد فعل واحدة منها ، لأنّه وازر قاتليه حيث كان محصورا !

قلت : مراده عليه السلام أنّه إن كان عثمان ظالما ، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله ؛ يحامى عنهم،ويمنعهم ممّن يروم دماءهم؛ومعلوم أنّه لم يفعل ذلك،وإنما وازرهم وعثمان حيّ؛ وذلك غير داخل في التقسيم .

(١٧٦)

الأصْـلُ :

من خطبة له عليه السلام :

أيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ ، وَالتَّارِكُونَ ، وَالْمَأْخُوذُ[1] مِنْهُمْ .

مالِي أرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ ، وَإلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ ! كأَنَّكُمْ نَعَمٌ أرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إلَى مَرْعًى وَبِيٍّ ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ ؛ وَإنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى ؛ لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا ! إذَا أُحْسِنَ إلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا ، وَشِبَعَهَا أمْرَهَا .

وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ ؛ وَلَكِنْ أخَافُ أنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ألَا وَإنِّي مُفْضِيهِ إلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ ، مَا أنْطِقُ إلَّا صَادِقًا ؛ وَلَقَدْ عَهِدَ إلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو ، وَمآلِ هَذَا الأمْرِ ؛ وَمَا أبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إلَّا أفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ ، وَأفْضَى بِهِ إلَيَّ .

أيُّهَا النَّاسُ ؛ إنِّي وَاللهِ مَا أحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إلَّا وَأسْبِقُكُمْ إلَيْهَا ، وَلَا أنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إلَّا وَأتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

خاطب المكلّفين كافّة ؛ وقال : إنّهم غافلون عمّا يُراد بهم ومنهم ؛ وليسوا بمغفول عنهم ؛ بل أعمالهم محفوظة مكتوبة .

---

(١) ب : « المأخوذ » ، من غير واو .

ثم قال : والتاركون : أى يتركون الواجبات .

ثم قابل ذلك بقوله : « والمأخوذ منهم » ، لأنّ الأخذ فى مقابلة التّرك ؛ ومعنى الأخذ منهم انتقاصُ أعمارهم ؛ وانتقاض قواهم ، واستلاب أحبابهم وأموالهم .

ثم شبههم بالنَّعم التى تتبع نعماً أخرى .

سائمة ، أى راعية ؛ وإنّما قال ذلك لأنّها إذا اتبعت أمثالها كان أبلغَ فى ضرب المثل بجهلها من الإبل التى يُسِيمُها راعيها والمرعى الوبىّ : ذو الوَباءِ والمرض . والمشرب الدّوىّ ذو الداء ، وأصل « الوبى » الوبىء المهموز ؛ ولكنه ليّنه ؛ يقال : أرض وبيئة على « فعيلة » ، ووبئة على « فَعِلة » ؛ ويجوز أوبأتْ فهى موبئة .

والأصل فى الدوىّ « دَوٍ » بالتخفيف ؛ ولكنه شدّده للازدواج .

ثم ذكر أن هذه النَّعم الجاهلة التى أوقعت أنفسها فى هذا المرتع والمشرب المذمومين كالغنم وغيرها من النّعم المعلوفة .

المُدَى : جمع مُدْية ؛ وهى السِّكين ، لاتعرف ماذا يراد بها ، وتظنّ أن ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة .

ومعنى قوله : « تحسب يومها دهرها » ؛ أىْ تظنّ أنّ ذلك العلف والإطعام كما هو حاصلٌ لها ذلك اليوم ، يكون حاصلا لها أبداً .

و « شبعها أمرَها » ، مثل ذلك ، أى تظن أنه ليس أمرُها وشأنُها إلّا أن يطعمها أربابُها الشبع وتحسُن وتسمن ؛ ليس يريدون بها غير ذلك .

ثم خرج عليه السلام من هذا الفنّ إلى فنّ آخر ، فأقسم أنّه لو شاء أن يخبر كلّ واحد منهم من أين خرج ، وكيفية خروجه من منزله ، وأين يلج ، وكيفيّة ولوجه ؛ وجميع شأنه من مطعمه ومشربه ، وما عزم عليه من أفعاله ، وما أكله ، وما ادّخره فى بيته ، وغير ذلك من شئونه وأحواله ، لفعل .

وهـذا كقولِ المسيح عليـه السلام : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾[1] .

قال : إلّا أنى أخاف أن تـكفروا فىّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ أىْ أخاف عليـكم الغلوّ فى أمرى ، وأنْ تُفَضِّلُونى على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ بل أخاف عليـكم أن تدّعوا فىّ الإلٰهيـة ، كما ادّعت النصارى ذلك فى المسيح لمّا أخبرهم بالأمور الغائبة .

ثم قال : «ألَا وإنّى مُفْضِيه إلى الخاصّة »أى مفضٍ به ومودعٌ إياه خواصَّ أصحابى وثقاتى الذين آمنُ منهم الغلوّ ،وأعلم أنّهم لا يـكفرون فىّ بالرسول صلى الله عليه وسلم لعلمهم أنّ ذلك من إعلام نبوّته ، إذ يكون تابع من أتباعه ، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة .

ثم أقسم قَسَماً ثانيا أنّه ماينطق إلّا صادقا ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد بذلك كلّه إليه ، وأخبره بمهلِك مَنْ يهلِك من الصحابة وغيرهم من الناس ؛ وبنجاةِ[2] مَنْ ينجو ،وبمآلِ هذا الأمر ـ يعنى مايفضى إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة ـ وأنّه ماترك شيئا يمرّ على رأسه عليه السلام إلا وأخبره به وأسرّه إليه .

* * *

[فصل فى ذكر بعض أقوال الغلاة فى علىّ]

واعلم أنه غيرُ مستحيل أن تكون بعض الأنفُس مختصّةً بخاصيّة تدرِك بها المَغيّبات ؛ وقد تقدّم من الـكلام فى ذلك مافيه كفاية ، ولـكنْ لايمكنُ أن تـكون نفس تدرك كلّ المغيّبات؛لأنّ القوة المتناهية لاتحيط بأمورٍ غير متناهية ؛وكلّ قوّة فى نفس حادثة فهى متناهية ؛فوجب أن يحمَلَ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ، لاعلى أن يريد به عموم العالِمية

(١) سورة آل عمران ٤٩ .

(٢) ا : « بنجاة » .

بل يعلم أمورا محدودة من المغيّبات ؛ مما اقتضت حكمة البارئ سبحانه أن يؤهّله لعلمه ؛ وكذلك القول فى رسول الله صلى الله عليه وآله إنه إنما كان يعلم أموراً معدودة لا أمورا غير متناهية ؛ ومع أنه عليه السلام قد كتم ماعلمه حذرا من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كفر كثير منهم ، وادّعوا فيه النبوّة ، وادّعوا فيه أنه شريك الرسول فى الرسالة ، وادعوا فيه أنه هو كان الرسول ؛ ولكنّ الملَك غلط فيه ؛ وادّعوا أنه هو الذى بعث محمدا صلى الله عليه وآله إلى الناس ، وادّعوا فيه الحلول ، وادّعوا فيه الاتحاد ، ولم يتركوا نوعا من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه ؛ وقال شاعرهم فيه من أبيات :

وَمَنْ أهلكَ عادا و ثمودا بدواهيهِ
وَمَنْ كلّم موسى فوْ قَ طُورٍ إذْ يُنادِيهِ
ومن قال على المنبر يوما وهو راقيهِ :
سَلُونى أيّها الناس فحاروا فى معانيهِ

وقال بعض شعرائهم :

إنّما خالقُ الخلائقِ مَنْ زَعْ زَعَ أركان حصن خيبرَ جَذْبا
قَدْ رضِينا به إماماً ومولى وسجدْنا له إلٰهاً وربّا

***

[جملة من إخبار علىّ بالأمور الغيبية]

وقد ذكرنا فيما تقدّم من إخباره عليه السلام عن الغيوب طرفا صالحا ، ومن عجيب ماوقفت عليه من ذلك قوله فى الخطبة التى يذكر فيها الملاحم ، وهو يشير إلى القرامطة[1] :

(١) يرجع مذهب القرامطة إلى كبيرهم الحسن بن بهرام الجنابى أبو سعيد ؛ كان دقاقاً من أهل جنابة بفارس ، ونفى فيها ، فأقام فى البحرين تاجراً ، وجعل يدعو العرب إلى نحلته ، فعظم أمره ؛ فحاربه الخليفة مظفر الحسن وصافاه للمقتدر العباسى ؛ وكان أصحابه يسمونه السيد . استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ؛ وكان شجاعا ؛ داهية ، قتله خادم له صقلبي فى الحمام بهجر ، مات سنة ٣٠١ . وانظر تاريخ ابن الأثير .

« ينتحلون لنا الحبّ والهوى ، ويضمِرُون لنا البغضَ والقِلى ؛ وآية ذلك قتلهم ورّاثنا ، وهجرهم أحداثنا » .

وصحّ ما أخبَر به ؛ لأن القرامِطة قتلتْ مِن آل أبي طالب عليه السلام خَلْقا كثيرا ؛ وأسماؤهم مذكورة في كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهانيّ .

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابيّ في جيشه بالغَرِيّ(١) وبالحاير(٢)؛ فلم يعرّج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف .

وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة : كأنّي بالحجر الأسود منصوبا هاهنا . ويحَهم . إن فضيلتَه ليست في نفسه ، بل في موضعه وأسُسه ، يمكث هاهنا برهة ، ثم هاهنا برهة ـ وأشار إلى البحرين ـ ثم يعود إلى مأواه ، وأمّ مثواه .

ووقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم ، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه ، ووجدت في كثير منها اختلالاً ظاهرا ؛ وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة ، بل من كلام له وجدتُه متفرّقا في كتب مختلفة ؛ ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه ؛ وهو يخطب على المنبر ويقول : « سلوني قبل أن تفقدوني ؛ فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة، أو تهدي مائة إلّا نبأتكم بناعقها وسائقها ، ولو شئت لأخبرتُ كلّ واحدٍ منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه » . فقال : فكم في رأسي طاقة شعر ؟ فقال له : أما والله إنّي لأعلم ذلك ؛ ولكن أين برهانه لو أخبرتك به ! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالِك . وقيل لي إنّ على كلّ

---

(١) الغري ، واحد الغريين ؛ وهما بناءان كالصومعتين ؛ كانا بظهر الكوفة ؛ قرب قبر علي عليه السلام (مراصد الاطلاع) .

(٢) الحاير ، بعد الألف ياء مكسورة : موضع قبر الحسين عليه السلام . ذكره ياقوت .

شعرة من شعر رأسك ملكا يلعنك وشيطانا يستفزّك ، وآيةُ ذلك أنّ فى بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ويحضّ على قتله[1] .

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام ، كان ابنه حصين – بالصاد المهملة – يومئذ طفلًا صغيرا يرضع اللّبن ، ثم عاش إلى أن صار على شُرْطة عبيد الله بن زياد ، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده على لسانه إن أرجأ ذلك ، فقتِل عليه السلام صَبيحة اليوم الذى ورد فيه الحصين بالرسالة فى ليلته .

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرّاء بن عازب يوما : يا براء ، أيقتَل الحسين وأنت حىّ فلا تنصره ! فقال البَرّاء : لا كان ذلك يا أمير المؤمنين !

فلما قتِل الحسين عليه السلام كان البَرّاء يذكر ذلك ؛ ويقول : أعظِمْ بها حَسْرة ! إذْ لم أشهده وأقتل دونه !

وسنذكر من هذا النّمط – فيما بعد إذا مررنا بما يقتضى ذكره – ما يحضرنا إن شاء الله.

(١) ب : « قتاله » .

(١٧٧)

الأَصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللهِ ؛ وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللهِ ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللهِ ؛ فإِنَّ اللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ ، وأخذَ[1] عَلَيْكُمُ الحجَّةَ ؛ وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمالِ ، وَمَكارِهَهُ مِنْهَا ؛ لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ ، فإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ كانَ يَقُولُ : إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكارِهِ ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مامِنْ طاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهٍ ، وَما مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ ، فإِنَّ هَـذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً ، وَإِنَّها لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فى هَوًى .

وَاعْلَمُوا عِبادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُمْسِي وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ ، فَلَا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْها، وَمُسْتَزِيداً لَها .فَكُونُوا كالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ ،وَالْماضِينَ أَمامَكُمْ؛ قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ ، وَطَوَوْها طَيَّ الْمَنازِلِ .

***

الشَّرْحُ :

أعذر إليكم : أوضح عذره فى عقابكم إذا خالفتم أوامره . والجليّة : اليقين ؛ وإنما أعذر إليهم بذلك، لأنه مكّنهم من العلم اليقينيّ بتوحيده وعدله ، وأوجب عليهم ذلك فى

(١) مخطوطة النهج : « وأخذ » .

عقولهم ؛ فإذا تركوه ساغ فى الحكمة تعذيبهم وعقوبتهم ؛ فكأنّهُ قد أبان لهم عذره أنْ لو قالوا : لِمَ تعاقبنا ؟

ومحابّه من الأعمال ، هى الطاعات التى يحبّها . وحبه لها إرادة وقوعها من المكلّفين.

ومكارهه من الأعمال : القبائح التى يكرهها منهم ؛ وهذا الكلام حجّة لأصحابنا على المجبِّرة . والخبر الذى رواه عليه السّلام مروىّ فى كتب المحدّثين ؛ وهو قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «حُجبت الجنّة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات » ، ومن المحدّثين من يرويه : « حفّت » فيهما ، وليس منهم من يرويه : «حُجِبت» فى النار ؛ وذلك لأنّ لفظ « الحجاب » إنما يُستعمَلُ فيما يرام دخولُه وولوجه لمكان النفع فيه ؛ ويقال : حُجِب زيد عن مأدُبة الأمير ، ولا يقال : حُجِب زيد عن الحبْس .

ثم ذكر عليه السّلام أنّه لا طاعة إلّا فى أمرٍ تكرهه النفس ، ولا معصيةَ إلّا بموافقة أمرٍ تحبّه النفس ؛ وهذا حقّ ، لأنّ الإنسان مالم يكن متردّد الدواعى لا يصحّ التكليف؛ وإنما تتردّد الدواعى إذا أمر بما فيه مشقّة ، أو نهِىَ عمّا فيه لذّة ومنفعة .

فإن قلت : أليس قد أُمِر الإنسان بالنّكاح وهو لذة؟ قلت : مافيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يُرْبى على اللّذة الحاصلة فيه[1] مرارا .

ثم قال عليه السلام : « رحم الله امرأً نزع عن شهوته » ، أى أقلع .

وقمع هوَى نفسه ، أى قهره .

ثم قال : فإنّ هذه النفس أبعدُ شىء منزَعاً ، أى مذهبا ، قال أبو ذؤيب :

والنّفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رغّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقْنَعُ[2]

---

(١) د : « منه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٣ .

ومن الكلام المرويّ عنه عليه السلام ـ ويروى أيضا عن غيره : « أيّها الناس،إنّ هذه النفوسَ طُلَعة (١) فإلّا تقدعوها (٢) تنزعْ بكم إلى شرّ غاية » (٣) .

وقال الشاعر :

وَمَا النّفس إلّا حيثُ يجعلُها الفَتَى فإن أطمِعَتْ تاقَتْ وإلاَّ تَسَلّتِ

ثم قال عليه السلام : « نَفْس المؤمن ظَنُون عنده »؛الظّنُون : البئر (٤) التي لا يدرى أفيها ماء أم لا ، فالمؤمن لا يصبِح ولا يمِسى إلّا وهو على حَـذَرٍ من نفسه ، معتقدا فيها التقصير والتضجيع (٥) في الطاعة ، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها .

وزاريا عليها : عائبا ؛ زريْتُ عليه : عبت .

ثم أمرهم بالتأسّي بمن كان قبلهم،وهم الذين قوّضُوا من الدّنيا خيامَهم،أي نقضوها ، وطوَوْا أيّام العمر كما يطوِي المسافر منازلَ طريقه .

* * *

الأصْـلُ :

وَاعْلَمُوا أَنّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ ، وَالْهَادِي الّذِي لَا يُضِلُّ ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ ، وَمَا جَالَسَ هَـذَا الْقُرْآنَ أَحَـدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ زِيَادَةٍ فِي هُدًى ؛ أو نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى.

وَاعْلَمُوا أَنّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ

---

(١) الطلعة : الكثيرة التطلع .

(٢) القدع : المنع والكف .

(٣) الخبر في الفائق ١ : ٢٤٦ منسوب إلى الحسن البصري بهـذه الرواية : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله ؛ فإنها سريعة الدثور ، واقدعوا هذه الأنفس فإنهـا طلعة » . وانظر نهـاية ابن الأثير ٣ : ٤٢ ، ٢٣٤ .

(٤) في اللسان عن المحكم : « بئر ظنون : قليلة الماء لا يوثق بمائها » .

(٥) التضجيع في الأمر : التقصير فيه .

غِشٍّ ؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ ؛ إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ ؛ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ .

فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ؛ وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ .

* * *

الشرح :

غشّه يغشّه ، بالضم ، غِشًّا ، خلاف نصحه . واللأواء : الشدّة .

وشَفَع له القرآن شَفاعة ، بالفتح ؛ وهو ممّا (١) يغلط فيه العامّة فيكسرونه، وكذلك مت كذا بكذا ، أتيمتة ، مفتوح أيضا .

ومَحَلَ به إلى السّلطان ، قال عنه مايضرّه ؛ كأنّه جعل القرآن يَمْحَلُ يوم القيامة عند الله بقوم ؛ أىْ يقول عنهم شرًّا ، ويشفع عند الله لقوم ، أى يُثْنِي عليهم خيرا .

والحارث : المكتسب ، والحرْث : الكسب . وحَرَثَة القرآن : المتاجرون به الله .

واستنصحوه على أنفسكم، أى إذا أشار عليكم بأمر وأشارتْ عليكم أنفسكم بأمر يخالفه،

---

(١) ب « والتغلط » .

فاقبلُوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم ؛ وكذلك معنى قوله : « واتّهموا عليه آراءكم ، واستغشّوا فيه أهواءكم » .

***

[فصل فى القرآن وذكر الآثار التى وردت بفضله]

واعلم أنّ هذا الفصل من أحسنِ ماورد فى تعظيم القرآن وإجلاله ؛ وقد قال النّاس فى هذا الباب فأكثروا .

ومن الكلام المروىّ عن أمير المؤمنين عليه السلام فى ذِكر القرآن أيضا،مارواه ابن قتيبة فى كتاب " عيون الأخبار " عنه عليه السلام أيضا ، وهو : « مثل المؤمِن الّذى يقرأ القرآن كمَثَل الأترُجّة ؛ ريحها طيّب ، وطعمها طيّب . ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التّمْرة طعمها طيّب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الّذى يقرأ القرآن كمثل الرّيحانة . ريحها طيّب، وطعمها مرّ . ومثل الفاجر الّذِى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مرّ ، وريحُها منتنة » .

وقال الحسن رحمه الله : قرّاء القرآن ثلاثة : رجل اتّخذه بضاعة فنقله من مِصْر إلى مِصْر ؛ يطلب به ماعند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيّع حدوده ، واستدرّ به الولاة واستطال به على أهل بلاده ، وقد كثر الله هذا الضّرب من حَمَلة القرآن ــ لا كثّرهم الله ــ ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن ، فوضعه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وانهملت عيناه ، وتسربل بالخشوع ، وارتدى بالحزن ؛ فبذلك وأمثاله يُسْقى النّاس الغيث ، وينزل النّصْر ، ويُدْفع البلاء . والله لهذا الضّرْب من حملة القرآن أعزّ وأقلّ من الكبريت الأحمر .

وفى الحديث المرفوع : « إنّ من تعظيم جلال الله إكرامَ ذى الشّيبة فى الإسلام ، وإكرام الإمام العادل ، وإكرام حَمَلة القرآن » .

وفى الخبر المرفوع أيضا : « لا تسافِرُوا بالقرآن إلى أرض العدوّ ؛ فإنى أخاف أن يناله العدوّ » .

وكانت الصّحابة تكرهُ بيعَ المصاحف وتراه عظيما ، وكانوا يكرهون أن يأخُذَ المعلّم على تعليم القرآن أجرا .

وكان ابنُ عبّاس يقول : إذا وقعتُ فى آل حم ؛ وقعتُ فى روضات دمِثات أتأنق فيهنّ .

وقال ابنُ مسعود : لكلّ شىء ديباجة ، وديباجة القرآن آل حم .

قيل لابن عباس : أيجوز أن يحلّى المصحف بالذهب والفضة ؟ فقال : حِليته فى جوفه .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « أصفر البيوت جوف صفِر من كتاب الله » .

وقال الشعبىّ : « إياكم وتفسيرَ القرآن ؛ فإنّ الذى يفسره إنما يحدّث عن الله » .

الحسن رحمه الله : رحِم الله امرأ عرَض نفسه وعمله على كتاب الله ؛ فإنْ وافق ، حمِد الله وسأله الزيادة ، وإن خالف ، أعتب وراجع من قريب .

حفِظ عمر بن الخطاب سورة البقرة ، فنحر وأطعم .

وفدَ غالبُ بن صعصعة على علىّ عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق ، فقال له : مَنْ أنت ؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعىّ ، قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : ما فعلت إبلُك ؟ قال : أذهبتْها النوائب ، وذَعْذَعَتْها الحقوق . قال : ذاك خير سبلها .

---

(١) أى فرقتها وبددتها .

ثم قال : يا أبا الأخطل ، مَنْ هذا الغلام معك ؟ قال : ابنى وهو شاعر ، قال : علّمه القرآن فهو خير له من الشِّعر ؛ فكان ذلك فى نفس الفرزدق؛ حتى قيّد نفسه ، وآلى ألا يحلّ قيدَه حتى يحفظ القرآن ؛ فما حلّه حتى حفظه ؛ وذلك قوله :

وما صبَّ رجلى فى حديد مجاشعٍ مع القدّ إلا حاجةٌ لى أريدها[1]

قلت : تحت قوله عليه السلام : « يا أبا الأخطل » ، قبل أن يعلم أنّ ذلك الغلام ولده وأنه شاعر ، سرّ غامض ؛ ويكاد يكون إخبارا عن غيب ؛ فليلمح .

الفُضيل بن عِياض : بلغنى أنّ صاحب القرآن إذا وقف على معصية ، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال : ألهذا حملتَنى !

قلت : وهذا القول على سبيل المثَل والتخويف من مواقعة المعاصى لمن يحفظ القرآن .

أنس : قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يابن أمّ سليم ، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساء ؛ فإنّ القرآن يحيى القلب الميّت ، وينهى عن الفحشاء والمنكر » .

كان سفيان الثورىّ إذا دخل شهرُ رمضان ترك جميع العبادة ، وأقبلَ على قراءة القرآن من المصحف .

كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : مَثَل كتاب محمد فى الكتب مثل سِقاء فيه لبن ، كلّما مخضته استخرجت منه زُبْدا .

أسلم الخواص : كنتُ أقرأ القرآن ؛ فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسى : يا أسلم ، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فجاءت حلاوة قليلة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ؛ فازدادت الحلاوة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من الله عزّ وجلّ حين تكلم به ، فجاءت الحلاوة كلها .

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٥ ؛ وهو أيضاً فى اللسان ٥ : ٢ ؛ ويقال : صب رجلا فلان فى القيد ؛ أى قيد.

بعضُ أرباب القلوب : إن الناس يجمِزون(١) في قراءة القرآن ما خلا المحبّين ؛ فإن لهم خانَ إشارات، إذا مرُّوا به نزلوا . يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكّرون فيها .

في الحديث المرفوع : « ما مِنْ شفيع ؛ من ملَكٍ ولا نبي ولا غيرهما ، أفضل من القرآن » .

وفي الحديث المرفوع أيضا : « مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتِيَ أفضلَ مما أوتي فقد استصغر عظمةَ الله » .

وجاء في بعض الآثار : إنّ الله تعالى خلَق بعض القرآن قبل أن يخلُقَ آدم ، وقرأه على الملائكة ، فقالوا : طوبى لأمةٍ ينزل عليها هذا ! وطوبى لأجوافٍ تحمل هذا ! وطوبى لألسنة تنطق بهذا !

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : يا رسول الله ، وما جِلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن وذكر الموت » .

وعنه عليه السلام . « ما أذن الله لشيء أذنَه لنبيٍّ حسن الترنم بالقرآن »(٢) .

وعنه عليه السلام : « إن ربكم لأشدُّ أَذَناً إلى قارئ القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنَتِهِ » .

وعنه عليه السلام : « أنت تقرأ القرآن مانهاك ؛ فإذا لم ينهك فلست تقرؤه » .

ابن مسعود رحمه الله : ينبغي لحامِل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ النّاس مفطِرُون ، وبحزنه إذِ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبخشوعه إذ الناس يختالون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون سِكّيتا زمّيتا ليّناً(٣) ، ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا ممارياً ، ولا صيّاحاً ولا حديدا ولا صَخّابا(٤) .

---

(١) يجمزون : يسرعون . (٢) الأذن : الاستماع مع الإعجاب .
(٣) السكيت : الكثير السكوت ، والزميت : الحليم الساكن القليل الكلام .
(٤) الحديد : السريع الغضب .

بعض السلف . إنّ العبد ليفتتح سورة فتصلّي عليه حتى يفرغ منها . وإنّ العبدَ ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، قيل : كيف ذاك ؟ قال : إذا أحلّ حلالها ، وحرّم حرامها ؛ صلّت عليه وإلّا لعنته .

ابن مسعود : أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به،فاتخذوا دراسته عملاً؛إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته مايسقط منه حرفا ، وقد أسقط العمل به .

ابن عباس : لأنْ أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبّرهما أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذرَمة [١] .

ثابت البنانيّ : كابدت فى القرآن عشرين سنة ، وتنعّمت به عشرين سنة.

***

الأصلُ :

الْعَمَلَ الْعَمَلَ ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ ، وَالاسْتِقَامَةَ الاسْتِقَامَةَ ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ !

إنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إلَى نِهَايَتِكُمْ ، وَإنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ ، وَإنَّ لِلإسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إلَى غَايَتِهِ ؛وَاخْرُجُوا إلَى اللهِ مِمَّا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ .

أنا شَاهِدٌ لَكُمْ ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ . ألا وَإنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ .

وَإنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

(١) الهذرمة : السرعة فى القراءة .

ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ؛ وَقَدْ قُلْتُمْ : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا ، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا ، فَإِنَّ أَهْلَ ٱلْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ ٱللَّهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ .

***

الشرح :

النّصب على الإغراء ؛ وحقيقته فعل مقدّر ، أى الزموا العمل ، وكرّر الاسم لينوب أحدُ اللفظين عن الفعل المقدّر ؛ والأشبه أن يكون اللفظ الأوّل هو القائم مقام الفعل ؛ لأنه فى رتبته . أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة ، وعبّر عنها بالنهاية ؛ وهى آخر أحوالِ المكلّف التى يفارق الدنيا عليها ؛ إمّا مؤمنا أو كافرا ، أو فاسقاً، والفعل المقدّر هاهنا : راعوا وأحسنوا وأصلحوا ، ونحو ذلك .

ثم أمرهم بالاستقامة وأنْ يلزموها ؛ وهى أداء الفرائض .

ثم أمرهم بالصبر عليها وملازمته ، وبملازمة الورع .

ثم شرع بعد هذا الكلام المجمَل فى تفصيله فقال : « إنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم » ، وهذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله : « أيها الناس ، إنّ لكم معالمَ فانتهوا إلى معالمكم ، وإنّ لكم غايةً فانتهُوا إلى غايتكم » ، والمراد بالنهاية والغاية أن يموتَ الإنسان على توبةٍ من فعل القبيح والإخلال بالواجب .

ثم أمرهم بالاهتداء بالعلَم المنصوب لهم ؛ وإنما يعنى نفسَه عليه السلام .

ثم ذكر أنّ للإسلام غاية ، وأمرهم بالانتهاء إليها ؛ وهى أداء الواجبات ، واجتناب المقبّحات .

ثم أوضح ذلك بقوله : واخرجوا إلى الله ممّا افترَض عليكم من حقّه ، وبيّن لكم

من وظائفه » ؛ فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجملها أولا . ثم ذكر أنه شاهد لهم ، ومحاجّ يوم القيامة عنهم ؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾(١) .

وحجيج : فعيل بمعنى « فاعل » ، وإنما سمّى نفسه حجيجاً عنهم ؛ وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخاصمة(٢) ؛ لأنه إذا شهد لهم ، فكأنه أثبت لهم الحجّة ، فصار محاجًّا عنهم .

قوله عليه السلام : « ألا وإنّ القَدَر السابق قد وقع » ، يشير به إلى خلافته .

وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان ؛ وفي هذا إشارة إلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره أنّ الأمر سيُفضى إليه منتهى عمره، وعند انقضاء أجله .

ثم أخبرهم أنه سيتكلّم بوعد الله تعالى ومحجّته على عباده في قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . . ﴾(٣) الآية ، ومعنى الآية أنّ الله تعالى وعد الذين أقرّوا بالربوبية ولم يقتصروا على الإقرار ، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزّل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى ، ولفظة ﴿ ثمّ ﴾ للتراخي ، والاستقامة مفضّلة على الإقرار باللسان ، لأنّ الشأن كلّه في الاستقامة ، ونحوها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾(٤) ، أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ، والاستقامة هاهنا هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية . وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أدّوا الفرائض ، وقال أبو بكر : استمرّوا على التوحيد .

---

(١) سورة الإسراء ٧١
(٢) د : « محاجة » .
(٣) سورة فصلت ٣٠
(٤) سورة الحجرات ١٥ .

وروى أن أبا بكر تلاها ، وقال : ما تقولون فيها ؟ فقالوا : لم يذنبوا ، فقال : حملتُم الأمرَ على أشدّه ، فقالوا : قل ، قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . ورأىُ أبى بكر فى هذا الموضع ـ إن ثبت عنه ـ يؤكد مذهب الارجاء ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا .

وروى سفيان بن عبد الله الثقفىّ ، قال : قلتُ يا رسول الله ، أخبِرْنى بأمرٍ أعتصم به ، فقال : قُلْ : لا إله إلا الله ، ثم استقمْ ، فقلت : ما أخوفُ ما تخافُه علىّ ؟ فقال : هذا ، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله .

وتتنزّل عليهم الملائكة ، عند الموت ، أو فى القبر ، أو عند النشور .

وألا تخافوا « أن » بمعنى « أى » ، أو تكون خفيفة من الثقيلة ، وأصله « أنه لا تخافوا » والهاء ضمير الشأن .

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة فى الآية ، فقال : قد أقررتم بأنّ الله ربكم فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته .

لا تمرقوا منها ، مرق السهمُ ، إذا خرج من الرميّة مروقاً .

ولا تبتدعوا : لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة .

ولا تخالفوا عنها ، تقول : خالفت عن الطريق ، أى عدلتُ عنها .

قال : فإنّ أهل المروق منقطع بهم ، بفتح الطاء . انقُطِع بزيد بضم الهمزة ، فهو منقطَعٌ به ، إذا لم يجد بلاغا ووصولا إلى المقصد .

•••

الأصْلُ :

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا،وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً ، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ؛ فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ،وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تقوى تَنفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ ؛ وَ إِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ؛وَ إِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ؛لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ ، وَ إِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ ؛ وَ إِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ ، وَمَاذَا عَلَيْهِ . وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ،وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ .

فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ، فَلْيَفْعَلْ .

* * *

الشَّرْحُ :

تهزيعُ الأخلاق : تغييرها ؛ وأصل الهزْع : الكسر ، أسد مهزِّع : يكسر الأعناق ويرض العظام ، ولمّا كانَ المتصرِّف بخلقه ، الناقل له من حال قد أعدم سمته الأولى كما يعدم الكاسر صورة المكسور ؛ اشتركا فى مسمًّى شامل لهما ؛ فاستعمل التّهزيع فى الخُلُق للتغيير والتبديل مجازاً .

قوله : « واجعلوا اللّسان واحدا » ، نهى عن النّفاق واستعمال الوجهين .

قال : « وليخزُنِ الرجل لسانه » ، أى ليحبسه ؛ فإنّ اللسان يجمح بصاحبه فيلقيه فى الملكة .

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان ؛ قال : فإنّ لسان المؤمن وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه ؛ وشرَح ذلك وبيّنه .

فإن قلت : المسموع المعروف : « لسان العاقل من وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه » ؛ كيف نقله إلى المؤمن والمنافق ؟

قلت : لأنه قلّ أن يكون المنافق إلا أحمق ، وقلّ أن يكون العاقل إلا مؤمنا فلأ كثرية ذلك ، استعمل لفظ « المؤمن » ؛ وأراد العاقل ، ولفظ « المنافق » وأراد الأحمق .

ثم روى الخبر المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله وهو مشهور .

ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكلٌّ منهم نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إنما المسلم مَنْ سلِم المسلمون من لسانه ويده » ، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم ؛ وانتصاب « تهزيع » على التحذير ؛ وحقيقته تقدير فعل ، وصورته : جنّبوا أنفسكم تهزيعَ الأخلاق ؛ فـ « إياكم » قائم مقام أنفسكم ، والواو عوضٌ عن الفعل المقدّر ، وأكثر ما يجيء بالواو ؛ وقد جاء بغير واو في قول الشاعر :

إيّاكَ إيّاكَ المراء فإنّهُ إلى الشّرِّ دَعّاء وللشّرِّ جالبُ

وكان يقال : ينبغي للعاقل أن يتمسّك بستّ خِصال ، فإنها من المروءة : أن يحفظَ دينه ، ويصونَ عِرْضَه ، ويَصِلَ رحمه ، ويحميَ جارَه ، ويرعى حقوقَ إخوانه ، ويخزُنَ عن البَذاء لسانه[1] .

وفي الخبر المرفوع : « مَنْ كُفِي شرّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه ، ولَقْلَقِه ، دخل الجنّة » .

---

(١) البذاء : السفه والفحش في المنطق .

فالقبقب البطن : والذبذب : الفرْج ، والقلق : اللسان .

وقال بعض الحكماء : مَنْ عَلِم أنّ لسانه جارحةٌ من جوارحه أقلّ من اعمالها ، واستقبح تحريكها ؛ كما يستقبح تحريك رأسِه أو منكِبه دائما .

***

الأصلُ :

وَأَعلَمُوا عِبادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعامَ ما اُسْتَحَلَّ عاماً أَوَّلَ ، وَيُحَرِّمُ الْعامَ ما حَرَّمَ عاماً أَوَّلَ؛ وَأَنَّ ماأَحْدَثَ النَّاسُ لَايُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ،وَلَكِنِ الْحَلَالُ ماأَحَلَّ اللهُ ، وَالْحَرامُ ماحَرَّمَ اللهُ ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمورَ وَضَرَّسْتُمُوها ، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ ، وَضُرِبَتْ الأَمْثالُ لَكُمْ ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ الْوَاضِحِ فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ ، وَلَا يَعْمَى عنهُ إِلَّا أَعْمَى .

وَمَنْ لَمْ يَنفَعْهُ اللهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجارِبِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ ؛وَأَتاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمامِهِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ ماأَنْكَرَ ، وَيُنْكِرَ ما عَرَفَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ : مُتَّبِعٌ شِرْعَةً ، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً ؛ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ بُرْهانُ سُنَّةٍ ، وَلَا ضِياءُ حُجَّةٍ .

***

الشرح :

يقول : إنّ الأحكام الشرعيّة لا يجوز بعد ثبوت الأدلّة عليها من طريق النصّ أن تُنقَضَ باجتهاد وقياس ؛ بل كلّ ماورد به النصّ تُتّبع مورد النصّ فيه ، فما استحللته عاما أوّل ؛ فهو فى هذا العام حلال لك ؛ وكذلك القول فى التحريم؛ وهذا هو مذهب أكثر أصحابنا ؛ أنّ النصّ مقدّم على القياس ، وقد ذكرناه فى كتبنا فى أصول الفقه .

وأوّل هاهنا ، لاينصرف ، لأنّه صفة على وزن « أفعل » .

وقال : « إنّ ما أحدث الناسُ لا يُحِلُّ لكم شيئا مما حُرّم عليكم » ؛ أى ما أحدثوه من القياس والاجتهاد ؛ وليس هذا بقادح فى القياس ، ولكنه مانعٌ من تقديمه على النصّ ؛ وهكذا يقول أصحابنا .

قوله : « وضرّستموها » بالتشديد أى أحكمتموها تجربةً وممارسة، يقال : قد ضرّسته الحرب ، ورجل مضرّس .

قوله : « فلا يَصمّ عن ذلك إلّا أصمّ » أى لا يصمّ عنه إلّا من هو حقيق أن يقال عنه : إنه أصمّ، كما تقول : ما يجهل هذا الأمر إلّا جاهل ؛ أى بالغ فى الجهل .

ثم قال : « مَنْ لم ينفعه الله بالبلاء » أى بالامتحان والتجربة ، لم تنفعه المواعظ ؛ وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيّل فيما أنكره أنه قد عرفه ، وينكر ما قد كان عارفا به . وسمّى اعتقاد العرفان وتخيّله « عرفانا » على المجاز .

ثم قسم النّاس إلى رجلين : إما متّبع طريقةً ومنهاجا ، أو مبتدعٌ ما لا يعرف؛ وليس بيده حجّة ، فالأوّل المحقّ والثانى المبطِل .

والشّرعة : المنهاج . والبرهان : الحجة .

* * *

الأصْـلُ :

فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَعِظْ أحَداً بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ؛ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، وَسَبَبُهُ الأمِينُ ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاءٌ غَيْرُهُ ؛ مَعَ أنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أوِ الْمُتَنَاسُونَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : يَا بْنَ آدَمَ ، اعْمَلِ الْخَيْرَ ، وَدَعِ الشَّرَّ ؛ فَإِذَا أنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ .

* * *

الشرح :

إنما جعله حبل الله ؛ لأنّ الحبل ينجو من تعلّق به من هوّة ، والقرآن ينجو من الضلال مَنْ يتعلّق به .

وجعله متينا ، أى قويًّا ، لأنه لا انقطاع له أبدا ، وهذه غاية المتانة والقوّة .

ومَتُن الشىء ، بالضم ، أى صلُب وقوِىَ . وسببه الأمين ، مثل حَبْله المتين ؛ وإنّما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة .

وفيه ربيع القلب ؛ لأنّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برَعْىِ الربيع .

وينابيع العلم ؛ لأنّ العلم منه يتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول .

والجلاء ، بالكسر : مصدر جلوْتُ السيف ؛ يقول : لا جِلَاء لصدأ القلوب من الشُّبُهات والغفلات إلا القرآن .

ثم قال : إنّ المتذكّرين قد ذهبوا وماتوا ، وبَقِىَ النّاسون الّذين لا علومَ لهم ، أو المتناسون الذين عندهم العلوم ، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروى : « والمتناسون » بالواو .

ثم قال : أعينوا على الخير إذا رأيتموه ، بتحسينه عند فاعله ، وبدفع الأمور المانعة عنه ، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله ، وإذا رأيتم الشرّ فاذهبوا عنه ، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسكم فى مقام الراضى به ، الموافق على فعله . ثم روى لهم الخبر .

والجواد القاصد : السهل السَّيْر ، لا سريع يتعب بشرعته ، ولا بطىء يفوتُ الغرض ببطئه .

***

الأصل :

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ : فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ.

فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ ؛ فَالشِّرْكُ بِاللهِ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَه : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ ، فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ ، فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً .

الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى ، وَلَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ ؛ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ .

فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ ؛ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ! وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ ؛ وَأَكَلَ قُوتَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ !

***

الشرح :

قسم عليه السلام الظلم ثلاثة أقسام :

أحدها : ظلمٌ لا يغفر؛ وهو الشّرك بالله ، أى أن يموت الإنسان مصرًّا على الشّرك؛ ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر ؛ وإنْ لم يذكرها ، لأنّ حكمها حكم الشّرك عندم .

وثانيها : : الكمات المغفورة ، وهى صغائر الذنوب ؛ هكذا يفسّر أصحابنا كلامه عليه السلام .

وثالثها : مايتعلّق بحقوق البَشر بعضِهم على بعض ؛ فإنّ ذلك لا يتركه الله مُهْمَلًا ، بل لا بدّ من عقاب فاعله ؛ وإنما أفردَ هذا القِسْم مع دخوله فى القِسم الأول لتميُّزه بكونه متعلِّقًا بحقوق بنى آدم بعضِهم على بعض ؛ وليس الأوّل كذلك .

فإن قلت : لفظه عليه السلام مطابقٌ للآية ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) والآية ولفظه عليه السلام صريحان فى مذهب المرجئة ؛ لأنكم إذا فسرتم قوله : « لمن يشاء » بأنّ المراد به أرباب التوبة قيل لكم : فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتهم ، ويسقط عقاب شِرْكهم بها ، فلأىّ معنى خصص المشيئة بالقسم الثانى وهو مادون الشرك ! وهل هذا إلا تصريح بأنّ الشرك لا يُغفر لمن مات عليه ، وما دونه من المعاصى إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب ، ولا لغيره بل أمْرُه إلى الله !

قلت : الأصوب فى هذا الموضع ألّا يجعل قوله : « لمن يشاء » معنيًا به التائبون ؛ بل نقول : المراد أنّ الله لا يستر فى موقف القيامة مَنْ مات مشركا ، بل يفضحه على رءوس الأشهاد كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .

وأمّا مَنْ مات على كبيرة من أهل الإسلام ، فإنّ الله تعالى يستره فى الموقف ، ولا يفضحه بين الخلائق ؛ وإن كان من أهل النار ؛ ويكون معنى المغفرة فى هذه الآية السّتر وتغطية حال العاصى فى موقف الحشر ؛ وقد يكون من أهل الكبائر ممن يقرّ بالإسلام

---

(١) سورة النساء ٤٨ .

(٢) سورة هود ١٨ .

لعظيم كبائره جدًّا ، فيفضحه الله تعالى فى الموقف كما يفضح المشرك ؛ فهذا معنى قوله : ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فامّا الكلامُ المطوّل فى تأويلات هذه الآية فذكور فى كتبنا الكلاميّة .

واعلم أنه لا تعلُّق للمرجئة ولا جدْوَى عليهم من عموم لفظ الآية ، لأنهم قد وافقونا على أن الفاسق َغير مغفور له وليس بمشرك ؛ فإذا أراد بقوله تعالى : ﴿إنّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ومن جرى مجرَى المشركين ،قيل لهم :ونحن نقول : إن الزانىَ والقاتلَ يجريان مَجرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين ، فلا تنكروا علينا مالم تنكروه على أنفسكم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ القِصاص فى الآخرة شديدٌ ؛ ليس كما يعهده الناس من عقاب الدّنيا الذى هو ضرب السوط ؛ وغايته أنْ يذوق الإنسان طعم الحديد ؛ وهو معنى قوله: « جرحاً بالمُدى » ، جمع مُدية وهى السكّين ؛ بل هو شىء آخر عظيم لا يعبّر النطق عن كُنْهِهِ وشدّة نكاله وألمه .

[فصل فى الآثار الواردة فى شديد عذاب جهنم]

قال الأوزاعىّ فى مواعظه للمنصور : « روِىَ لى عنْ رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لو أنّ ثوبا من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأحرق أهلَ الأرض قاطبة ؛ فكيف بمن يتقمّصه ! ولو أنّ ذَنوبا من حميم جهنم صبّ على ماء الأرض كلّه لأجّنه حتى لا يستطيع مخلوق شربه ، فكيف بمن يتجرّعه ! ولو أن حلْقةً من سلاسل النار وضِعَتْ على جبلٍ لذابَ كما يذوب الرصاص ، فكيف بمن يُسلَكُ فيها ، ويُرَدُّ فضلها على عاتقه !

وروى أبو هُريرة عن النبى صلى الله عليه وآله : « لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون ، وأخرج إليهم رجلٌ من النار فتنفّس وأصابهم نَفَسُه لأحرق المسجد ومَنْ فيه » .

وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبريل : مالى لا أرى ميكائيل ضاحكا! قال : إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار ورآها .

وعنه صلى الله عليه وآله : « لمّا أسرِيَ بى سمعت هَدّة[1] ، فسألت جبريل عنها، فقال : حَجر أرسله الله من شَفير جهنم ، فهو يهوِى منذ سبعين خريفا حتى بلغ الآن فيه »

وروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله فى قوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾[2] . قال : « تتقلّص شفتُه العليا حتى تبلغَ وسط رأسه ، وتسترخى شفتُه السّفلى حتى تضرب سرّته » .

وروى عُبيد بن عمير اللّيثى عنه عليه السلام : « لتزفِرَنّ جهنم زفرةً لا يبقى ملَك ولا نبيّ إلّا خرّ مرتعدةً فرائصُه ؛ حتى إنّ إبراهيم الخليل ؛ ليجثُو على ركبتيه ، فيقول : يارب إنّى لا أسألك إلّا نفسى » .

أبو سعيد الخدْرِيّ مرفوعا : « لو ضُرِبت جبال الدنيا بمقمَع[3] من تلك المقامع الحديد لصارت غُبارا » .

الحسن البصريّ : قال : الأغلال لم تجعل فى أعناق أهل النّار لأنهم أعجزوا الربّ ، ولكن إذا أصابهم اللّهب أرسبتهم فى النار ــ ثم خرّ الحسن صَعِقا ، وقال ــ ودموعه تتحادَرُ : يابن آدم ، نفسَك نفسَك ! فإنّما هى نفس واحدة إن نجتْ نجوتَ ، وإن هلكتَ لم ينفعك مَنْ نجا .

طاوس : أيّها الناس ، إنّ النار لمّا خلِقَتْ طارت أفئدةُ الملائكة ، فلمّا خلقتم سكنت .

---

(١) الهدة : صوت وقع الحائط أو الصخر أو نحوها .
(٢) سورة المؤمنين ١٠٤ .
(٣) المقمع و المقمعة : العمود من الحديد ؛ أو خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل ويهان .

مطرّف بن الشِّخِّير : إنكم لتذكرون الجنّة ، وإنّ ذكر النّار قد حال بينى وبين أن أسأل الله الجنة .

منصور بن عمّار : يامن البعوضة تقلقه . والبقّة تسهره ، أمثلك يقوى على وَهَج السّعير ، أو تطيق صفحةُ خدّه لَفْحَ سَمومها ، ورقة أحشائه خشونة ضَرِيعها[(١)] ، ورطوبة كبده تجرّع غسّاقها[(٢)] !

قيل لعطاء السّلمى : أيسرّك أن يقال لك : قَعْ فى جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبدا لا إليها ولا إلى غيرها ؟ فقال : والله الذى لا إله إلاّ هو ، لو سمعت أن يقال لى ؛ لظننت أنّى أموت فرحا قبل أن يقال لى ذلك .

الحسن : والله ما يقدر العباد قَدْر حرّها ؛ روينا : لو أنّ رجلا كان بالمشرق ، وجهنم بالمغرب ، ثم كشف عن غطاء واحد منها لغلت جمجمته ؛ ولو أنّ دلوا من صديدها صبّ فى الأرض ما بقىَ على وجهها شىء فيه روح إلاّ مات .

كان الأحنف يصلى صلاةَ الليل ، ويضع المصباح قريبا منه ، فيضع إصبعَه عليه ، ويقول : يا حُنَيْف ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! حتى يُصبح .

* * *

[فصل فى العزلة والاجتماع وما قيل فيهما]

ثم نهاهم عليه السلام عن التفرّق فى دين الله ؛ وهو الاختلاف والفرقة ؛ ثم أمرهم باجتماع الكلمة ، وقال : إنّ الجماعة فى الحقّ المكروه إليكم ، خير لكم من الفرقة فى الباطل المحبوب عندكم ؛ فإنّ الله لم يعطِ أحداً خيراً بالفرقة ؛ لا ممّن مضى ، ولا ممّن بَقىَ .

---

(١) الضريع : نبات يسمى رطبه سبرقا ، ويابسه ضريعا ؛ لا تقربه دابة لخبثه .
(٢) الغساق : ما يقطر من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه .

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة ، والنهي عن الاختلاف والفرقة .

ثم أمر عليه السلام بالعزلة ، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة ، ومجانبة الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم .

وقد ورد في العزلة أخبار آثار كثيرة ؛ واختلف الناس قديما وحديثاً فيها ، ففضّلها قوم على المخالطة ، وفضّل قوم المخالطة عليها .

فممّن فضّـل العزلة سفيان الثوريّ ، وإبرهيم بن أدهم ، وداود الطائيّ ، والفُضيل ابن عياض ، وسليمان الخوّاص ، ويوسف بن أسباط ، وبِشْر الحافي ، وحُذيفة المرعشيّ ؛ وجمع كثير من الصوفية ، وهو مذهبُ أكثر العارفين ، وقول المتألّهين من الفلاسفـة .

وممن فضَّل المخالطـة على العزلة ابن المسيّب ، والشعبيّ ، وابن أبي ليلى ، وهشام ابن عروة ، وابن شبرُمة ، والقاضي شُريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عُيينة ، وابن المبارك .

فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إمعان النظر فيه أنّ العزلة خيرٌ لقوم ، وأن المخالطةَ خيرٌ لقوم آخرين على حسب أحوال الناس واختلافهم .

وقد احتجّ أرباب المخالطة بقول الله تعالى : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ (٢) ، وهذا ضعيف ، لأنّ المراد بالآية تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في أصول الدين ، و المراد

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٥ .

بتأليف القلوب ، وبالأخوّة عدم الإحَن والأحقاد بينهم ، بعد استمار نارها فى الجاهلية ؛ وهذا أمر خارج عن حديث العزلة .

واحتجُّوا بقول النبى صلى الله عليه وآله : « المؤمن إلفٌ[1] مألوف ؛ ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلَف » ؛ وهذا أيضاً ضعيف ، لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخلُق والأمر بالرفق والبِشر ؛ فلا يدخل تحته الإنسان الحسَن الخلق الذى لو خولط لألِف وأُلِف ؛ وإنما يمنعه من المخالطة طلبُ السّلامة من الناس .

واحتجُّوا بقوله : « مَنْ شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبقَة الإسلام عن عنقه » ؛ وهذا ضعيف أيضاً لأنه مختصّ بالبغاة والمارقين عن طاعة الإمام ، فلا يتناول أهلَ العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة ؛ إلاّ أنهم لا يخالطون الناس .

واحتجُّوا بنهيه صلى الله عليه وآله عن هَجْر الإنسان أخاه فوق ثلاث ؛ وهذا ضعيف لأن المراد منه النهى عن الغضب ، واللَّجاج ، وقطع الكلام والسلام لثوران الغيظ ؛ فهذا أمر خارج عن الباب الذى نحن فيه .

واحتجُّوا بأنّ رجلا أتى جَبَلاً يعبد فيه ؛ فجاء أهله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنهاه ، وقال له : « إنّ صبْر المسلم فى بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خيرٌ له من عبادة أربعين سنة » .

وهذا ضعيف ، لأنه إنما كان ذلك فى ابتداء الإسلام والحثّ على جهاد المشركين .

واحتجُّوا بما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : «الشّيطان ذئب ؛ والنّاس كالغنم يأخذ القاصية والشاذّة ، إياكم والشّعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد» . وهذا ضعيف ، لأنّ المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها .

* * *

(١) الإلف : العشير المؤانس .

واحتجّ من رجح العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة فى ذلك ؛ نحو قول عمر : خذوا بحظكم من العُزلة .

وقول ابن سيرين : العزلة عبادة .

وقول الفُضيل : كفَى بالله محبوباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً ؛ اتخِذ الله صاحباً ، ودع النّاس جانباً .

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائىّ : عِظْنى ، فقال : صُمْ عن الدنيا واجعل فِطرَك للآخرة ، وفرّ من الناس فرارَك من الأسد .

وقال الحسن : كلمات أحفظهنّ من التوراة : قنَع ابن آدم فاستغنى ، واعتزل النّاس فسلِم ، ترَك الشهوات فصار حرًّا ؛ ترَك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلا فتمتّع طويلا .

وقال وهب بن الورد : بلغَنا أن الحكمة عشرة أجزاء ؛ تسعة منها الصمْت ، والعاشر فى العُزْلة عن الناس .

وقال يوسف بن مسلم لعلى بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ! وكان قد لزم البيت — فقال : كنت وأنا شابٌّ أصبرُ على أشدّ من هذا ، كنت أجالس النّاس ولا أكلّمهم .

وقال الثورىّ : هذا وقت السّكوت وملازمة البيوت .

وقال بعضهم : كنت فى سفينة ، ومعنا شابٌّ عَلَوىّ ؛ فمكث معنا سبعاً لانسمع له كلاما ، فقلنا له : قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ، ولا نراك تخالطنا ولا تكلّمنا ! فأنشد :

قليلُ الهمّ لا ولد يموتُ ... وليس بخائف أمراً يفوتُ
قضى وطَر الصِّبا وأفاد علماً ... فغايتُه التفرّد والسُّكوتُ

وأكبر همّه مما عليه   تناجز من ترى خَلَقٌ وقوتُ

قال النَّخَعىّ لصاحب له : تفقه ثم اعتزل .

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز ، ويعودُ المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك ؛ إلى أنْ ترك الجميع . وقال : ليس يتهيّأ للإنسان أن يخبر بكلّ عذر له .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرّغت لنا ! فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلّا عند الله تعالى .

وقال الفُضيل بن عياض : إنى لأجد للرّجل عندى يداً ؛ إذا لقينى ألّا يسلّم علىّ ، وإذا مرضت ألّا يعودنى .

وقال الدارانىّ : بينا ابن خُثَيم جالسٌ على باب داره ؛ إذ جاء حجَر فصكّ وجهه ؛ فسجد ، وجعل يمسح الدم ، ويقول : لقد وُعِظت ياربيع ! ثم قام فدخل الدّار ؛ فاجلس بعد ذلك على بابه حتى مات .

وكان سعدُبن أبي وقّاص وسعيد بن زيد قد ازما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما ؛ حتى ماتا بالعقيق .

قال بشر : أقلِلْ من معرفة الناس؛ فإنّك لاتدرى ماتكون يوم القيامة ! فإنْ تكن فضيحة كان مَنْ يعرفك أقلّ .

واحضر بعضُ الأمراء حاتماً الأصمّ فكلّمه ، ثم قال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، ألّا ترانى ولا أراك !

وقيل للفُضَيل : إنّ ابنَك يقول : لودِدْتُ أنى فى مكان أرَى الناس ولا يرونِني ! فبكى الفُضَيل ، وقال : ياويح علىّ[1] ، ألّا أتمها فقال : ولا أرام !

---

١) على هو ابن الفضيل .

ومن كلام الفُضَيل أيضاً : من سخافة عَقْل الرجل كثرة معارفه .

وقد جاء فى الأحاديث المرفوعة ذكر العُزْلة وفضلها ، نحو قوله عليه السلام لعبد الله ابن عامر الجهنىّ ، لمّا سأله عن طريق النجاة ، فقال له : « ليسَعك بيتُك ، أمسِكْ عليك دينَك ، وابكِ على خطيئتك » .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أىُّ الناس أفضل ؟ فقال : « رجل معتزل فى شِعْب من الشّعاب ؛ يعبد ربّه ، ويدع الناس من شرّه » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله يحب التّقىّ النّقىّ الخفِىّ » .

***

[ذكر فوائد العزلة]

وفى العزلة فوائد : منها الفراغ للعبادة ، والذِّكر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلْق ، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدّنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ؛ لأنّ ذلك لا يمكن إلّا بفراغ ، ولا فراغَ مع المخالطة ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله فى ابتداء أمره يتبتّل فى جبل حِراء ، ويعتزل فيه ، حتى أتته النبوّة .

وقيل لبعض الحكماء : ما الذى أرادوا بالخلْوة والعُزْلة ؟ فقال : دوام الفِكْر وثبات العلوم فى قلوبهم ، ليحيَوْا حياة طيّبة ، ويموتوا موتا طيّبا .

وقيل لبعضهم : ما أصبرك على الوَحْدة ؟ فقال : لست وحدِى ، أنا جليس ربى ، إذا شئت أن يناجيَنى قرأت كتابه ، وإذا شئتُ أن أناجيَه صلّيت .

وقال سُفيان بن عيينة : لقيت إبراهيمَ بن أدهم فى بلاد الشام ، فقلت له : ياإبراهيم ،

تركتَ خراسان! فقال: ماتهنأت بالعيش إلّا هاهنا؛ أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق؛ فمن رآني قال: موسوِس أو حمّال.

وقيل للحسن: ياأبا سعيد، هاهنا رجل لم نره قطّ جالسا إلا وحده خلف سارية، فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني، فنظروا إليه ذاتَ يوم، فقالوا للحسن—وأشاروا إليه، فمضى نحوه، وقال له: ياعبد الله، لقد حُبِّبت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: أمرٌ شغَلني عنهم، قال: فما يمنعك أن تأتيَ هذا الرّجل الذي يقال له الحسن، فتجلس إليه؟ قال: أمرشغلني عن الناس وعن الحسن، قال: وما ذلك الشّغل يرحمك الله؟ قال: إنّي أمسي وأصبح بين نعمة وذنب، فأشغل نفسي بشكر الله على نِعَمِه، والاستغفار من الذنب؛ فقال الحسن: أنت أفقه عندي ياعبد الله من الحسن، فالزَمْ ماأنت عليه.

وجاء هِرَم بن حيّان إلى أويس، فقال له: ماحاجتُك؟ قال: جئت لآنس بك، قال: ما كنتُ أعرف أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره!

وقال الفُضَيل: إذا رأيتُ الّيل مقبلًا فرحتُ به، وقلت: أخلُو بربّي، وإذا رأيت الصبحَ أدركني، استرجعت كراهيَة لقاء الناس، وأن يجيء إليّ من يشغَلني عن ربّي.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنسْ بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قلّ علمُه، وعميَ قلبُه، وضاع عمره.

وقال بعض الصالحين: بينا أنا أسيرُ في بعض بلاد الشام، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إليّ تنحّى إلى أصل شجرة، وتستّر بها: فقلت: سبحان الله! أتبخل عليّ بالنظرِ إليك؟ فقال: ياهذا، إني أقمتُ في هذا الجبَل دهراً طويلا، أعالج قلبي في الصبْر عن الدنيا وأهلها، فطال في ذلك تعبي، وفنِيَ عمري، ثم سألت الله تعالى

ألا يحمل حظّى من أيّامى فى مجاهدة قلبى فقط، فسكّنه الله عن الاضطراب، وآلفَهُ الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك وتريدنى خفت أن أقع فى الأمر الأوّل فأعود إلى إلف المخلوقين، فإليك عنى فإنّى أعوذ من شرّك بربّ العارفين وحبيب التائبين. ثم صاح: واغمّاه من طول المُكْث فى الدّنيا! ثم حوّل وجهه عنى، ثم نفض يده، وقال: إليكِ عنى يادنيا، لغيرى فتزيّنى، وأهلَكِ فغرّى! ثم قال: سبحان مَنْ أذاق العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبَهم عن ذكر الجِنان، والحور الحسان؛ فإنّى فى الخلوة آنس بذكر الله، وأستلذ بالانقطاع إلى الله، ثم أنشد:

وإنّى لأَسْتَغْشِى وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لعلّ خيالاً منكِ يَلْقَى خَيالِيا[1]

وأخرجُ من بين البيوتِ لعلّنى ... أحدّثُ عنكِ النَّفْسَ فى السرّ خاليا

وقال بعض العلماء: إنّما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم، فإذا كانت ذاتُه فاضلة طلب الوحدة ليستعينَ بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وكان يقال: الاستئناس بالنّاس من علامات الإفلاس.

* * *

ومنها التخلّص بالعزلة عن المعاصى التى يتعرّض الإنسان لها غالبا بالمخالطة، وهى الغيبة، والرّياء، وترك الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وسرقة الطبع بعضَ الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من الغير.

أمّا الغِيبة فإنّ التحرّز منها مع مخالطة الناس صعبٌ شديد لا ينجو من ذلك إلا الصدّيقون؛ فإنّ عادة أكثر الناس التّمضمض بأعراض من يعرفونه، والتنقّل بلذّة

---

(١) لمجنون ليلى، من قصيدة له ديوانه ٢٩٤، ٢٩٦.

ذلك ، فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلوة والمفاوضة ، فإن خالطتهم ووافقت أثمت ، وإن سكتَّ كنت شريكا ، فالمستمع أحد المغتابِينَ ، وإن أنكرتَ تركوا ذلك المغتاب واغتابوك ؛ فازدادوا إثمًا على إثمهم .

فأمَّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإن من خالط الناس لا يخلُوا عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصَى الله ، وإن أنكر تعرّض بأنواع من الضرر ؛ وفي العزلة خلاص عن ذلك ، وفي الأمر بالمعروف إثارة للخِصام ، وتحريك لكوامن ما في الصدور . وقال الشاعر :

وكم سُقْتُ في آثاركُمْ من نصيحة   وقد يستفيدُ الظِّنَّةَ المتنصِّحُ

ومن تجرّد للأمر بالمعروف ندِم عليه في الأكثر ، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمَه وحده ، فيوشك أن يقع عليه ؛ فإذا سقط قال : ياليتني تركتُه مائلا ! نعم لو وجدَ الأعوانَ حتى يحكِمَ ذلك الحائط ويدعمه استقام ؛ ولكنك لا تجد القوم أعوانا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فدع الناس وانجُ بنفسك .

وأمّا الرِّياء فلا شبهة أنّ مَنْ خالط الناس دَاراهم ، ومَنْ دَاراهم راءاهم ، ومن راءاهم كان منافقا ؛ وأنت تعلم أنك إذا خالطت متعاديَيْن ، ولم تلق كلّ واحدٍ منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعا ، وإن جاملتَهما كنتَ من شرار النّاس ، وصرت ذا وَجْهين ؛ وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهارُ الشّوق والمبالغة فيه ، وليس يخلُو ذلك عن كذب ؛ إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، فقولك : كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه ، نفاق محض .

قال السَّرِيّ السقطيّ : لو دخلَ عليّ أخ فسوّيتُ لحيتي بيدي لدخوله ، خشيتُ أن أُكتب في جريدة المنافقين .

كان الفُضَيل جالسا وحده فى المسجد ، فجاء إليه أخ له ، فقال : ماجاء بك ؟ قال : المؤانسة ؛ قال : هى والله بالمواحشة أشبه ؛ هل تريد إلّا أن تتزيّن لى وأتزيّن لك ، وتـكذِب لى وأكذِب لك ! إمّا أن تقوم عنّى، وإمّا أن أقوم عنك .

وقال بعضُ العلماء : ما أحبّ الله عبداً ألّا أحبّ ألّا يشعر به خلقه .

ودخل طاوس على هِشام بن عبد الملك ، فقال : كيف أنت ياهشام ؟فغضب،وقال: لِمَ لمْ تخاطبنى بإمْرة المؤمنين ؟ قال : لأنّ جميع الناس ما اتّفَقُوا على خلافتك ، فخشيتأن أكون كاذبا .

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحترازَ ، فليخالط الناس ؛ وإلا فليرضَ بإثبات اسمه فى جريدة المنافقين إن خالطهم ؛ ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة .

وأما سرقة الطبع من الغير ؛ فالتجربة تشهد بذلك ، لأنّ مَنْ خالط الأشرار اكتسب من شرّهم ؛ وكلما طالت صحبةُ الإنسان لأصحاب الـكبائر ، هانت الـكبائر عنده وفى المثل : « فإنّ القَرِينَ بالمقارن يقتدى[(١)] » .

ومنها الخلاص من الفِتَن والحروب بين الملوك والأمراء على الدُّنيا .

روى أبو سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلم غنيمات يتّبع بهـا شِعاف الجبال ، ومواضع القَطْر ، يفرّ بدينه من الفتن » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر الفِتَن فقال : « إذا رأيتَ الناس قد مَرِجت عهودهم[(٢)] ، وخفّت أماناتهم، وكانوا هكذا ــ وشبّك

---

(١) أصله فى قول الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَـكُلُّ قَرِينٍ بالمقارن يَقْتَدِى

(٢) مرجت عهودهم ، أى اختلطت . أملك عليك لسانك ، أى لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٧ ، ١٠٦ .

بأصابعه ـ فقلت ماتأمرنى ؟ فقال : « الزم بيتك، واملِكْ عليك لسانك ، وخذ ماتعرف، ودَعْ ماتنكر ، وعليك بأمرِ الخاصّة ، ودَعْ عنك أمر العامّة » .

وروى ابن مسعود عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « سيأتى عَلَى الناس زمانٌ لا يسلم لذى دين دينهُ إلاّ مَنْ فَرّ من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ؛ كالثعلب الروّاغ » قيل : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : « إذا لم تُنَل المعيشة إلّا بمعاصى الله سبحانه ، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ؛ فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوْجَتِهِ وولده ، وإن لم يكن فعلى يدِ قرابته » ، قالوا : كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : « يعيّرونه بالفقر وضيق اليد ، فيكلّفونه مالا يطيقه حتى يورِدَه ذلك موارد الهلكة » .

وروى ابنُ مسعود أيضا أنه صلى الله عليه وآله ذكر الفتنة ، فقال : « المرْج » فقلت : وما المرْج يارسول الله ؟ قال : « حين لا يأمن المرء جليسه » ، قلت : فبمَ تأمُرنى يارسول الله ، إن أدركتُ ذلك الزمان ؟ قال : « كُفّ نفسك ويدك ، وادخل دارك »، قلت : أرأيتُ إن دُخِل علىّ دارى ! قال : « ادخل بيتك » ، قلت : إن دُخِل علىّ البيت ، قال : « ادخل مسجدك ، واصنع هكذا ـ وقبض على الكوع ـ وقل : ربّىَ الله ، حتى تموت » .

***

ومنها الخلاصُ من شرّ الناس، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة ، وتارة بسوء الظنّ والتهمة وتارة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة والكذب بما يرَوْنَه منك من الأعمال والأقوال مما لاتبلغ عقولهم كُنْهَه ؛ فيدّخرون ذلك فى نفوسهم عدة ؛ لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر ، ومن يعتزلهم يستغنِ عن التحفُّظ لذلك .

وقال بعض الحكماء لصاحبه : أعلّمك شعرا هو خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم ! وهو :

اخفضِ الصَّوْتَ إن نطقْتَ بليلٍ　　والتفتْ بالنَّهارِ قبـــل المقالِ
ليس للقول رجعـــةٌ حين يبدُو　　بقبيحٍ يكون أو بجمال

ومَنْ خالط الناس لا ينفكّ من حاسد وطاعن ؛ ومَنْ جرَّب ذلك عرف .

ومن الكلام المأثور عن عليّ عليه السلام : « أُخْبُرْ تَقْلِهْ » قال الشاعر :

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ　　ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمَـــدُ
وصار بالوحـدة مستأنِساً　　يوحِشه الأقرب والأبعدُ

وقيل لسعد بن أبى وقاص : ألا تأتى المدينة ؟ قال : مابقىَ فيها إلا حاسد نعمة ، أو فرِحٌ بنقمة .

وقال ابن السَّمَّاك : كتب إلينا صاحب لنا : أمّا بعد ؛ فإنّ الناس كانوا دواءً يُتداوى به ، فصاروا داءً لا دواء لهم ، ففِرّ منهم فِرارك من الأسد .

وكان بعضُ الأعراب يلازم شجرةً ويقول : هذه نديمى ، وهو نديم فيه ثلاث خصال: إن سمِعَ لم ينمّ علىّ ، وإن تفلْتُ فى وجهه احتمل ، وإن عربدتُ عليه لم يغضب؛ فسمع الرشيد هذا الخبر ، فقال : قد زهّدنى سماعه فى الندماء .

وكان بعضُهم يلازم الدّفاتر والمقابر ، فقيل له فى ذلك ، قال : لم أرَ أسْلَمَ من الوحدة ولا أوْعظ من قبر ، ولا أمتَع من دِفْتر .

وقال الحسن مَرّة : إنى أريد الحجّ ، فجاء إلىّ ثابت البُنانىّ ، وقال : بلغنى أنك تريد الحجّ ، فأحببت أن نصطحب ، فقال الحسن: دعْنا نتعاشر بسِتْرِ الله ؛ إنِّى أخاف أن نصطحب فيرَى بعضُنا من بعض ما نتماقَتُ عليه .

وقال بعض الصالحين : كان النَّاس ورَقاً لاشوكَ فيه؛ فالنَّاس اليوم شوكٌ لاوَرَق فيه.

وقال سُفيان بن عُيَينة : قال لى سفيان الثورىّ : فى اليقظة فى حياته ، وفى المنام بعد

وفاته : أقلِلْ معرفة الناس ؛ فإنّ التخلّص منهم شديد . ولا أحسِبُنى رأيتُ ما أكره إلا ممّن عرفت .

وقال بعضهم : جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كلْب رابض قريبا منه ، فذهبت أطرده فقال : دعْه فإنه لا يضرّ ولا يؤذى ، وهو خير من الجليس السوء .

وقال أبو الدرداء : اتّقوا الله واحذروا الناس ، فإنهم ماركبوا ظهر بعير إلاّ أدبروه ولا ظهر جوادٍ إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه .

وقال بعضهم : أقِلّ المعارف ؛ فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخفّ لظهرك ، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك ؛ لأنه كلّما كثرت المعارف كثرت الحقوق ، وعسر القيام بالجميع .

وقال بعضهم : إذا أردتَ النجاة فأنكِرْ من تعرِف ، ولاتتعرّفْ إلى من لاتعرف .

***

ومنها ؛ إنّ فى العُزلة بقاء التستر على المروءة والخلق والفقر وسائر العورات ؛ وقد مدح الله تعالى المتسترين فقال : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ [1] .

وقال الشاعر :

وَلَا عارَ أنْ زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ... ولـكنّ عاراً أن يزولَ التّجمّلُ

وليس يخلو الإنسان فى دينه ودنياه وأفعاله عن عوْرات يُتقَيْنَ ويجب سترها ؛ ولا تبقى السلامة مع انكشافها ؛ ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بترك المخالطة .

***

ومنها أن ينقطع طمعُ الناس عنك ، وينقطع طمعك عن الناس ؛ أما انقطاعُ طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم ؛ فإنّ رضا الخلق غاية لا تُدرك ؛ لأن أهونَ حقوق الناس

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

وأيسرها حضورُ الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم ، والإملاكات[1] ؛ وفى ذلك تضييع الأوقات ، والتعرّض للآفات ؛ ثم يعوّق عن بعضها العوائق ، وتستثقل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار ، فيقول لك قائل : إنك قمت بحقّ فلان ، وقصّرت فى حقّى ، ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل : إنّ مَنْ لَمْ يَعُد مريضا فى وقت العيادة ، يشتهى موتَه خيفة من تخجيله إياه إذا برئ من تقصيره ؛ فأما مَنْ يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضوْن كلُّهم عنه ، ومتى خصّص وقع الاستيحاش والعتاب ، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق ؛ ممّا لا قدرة عليه للمتجرّد ليله ونهاره ، فكيف مَنْ له مهمّ يشغَلُه دينىّ أو دنيوىّ !

ومن كلام بعضهم : كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء[2] .

وقال الشاعر :

عَدُوّكَ مِنْ صديقكَ مُستَفَادٌ فلا تستكثرنّ من الصّحابِ
فإنّ الدّاء أكثرَ ما تراه يكونُ من الطّعام أو الشرابِ

وأما انقطاع طمَعك عنهم ؛ ففيه أيضاً فائدة جزيلة ؛ فإنّ مَنْ نظر إلى زهرة الدّنيا وزخرفها ، تحرّك حرصُه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ؛ وأكثر الأطماع يتعقّبها الخيبة ؛ فيتأذّى الإنسان بذلك ؛ وإذا اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشتهِ ولم يطمع ؛ ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[3] .

وقال عليه السلام : « انظروا إلى مَنْ دونكم ، ولاتنظروا إلى مَنْ هو فوقكمْ ؛ فإنه أجدرُ ألا تزدرُوا نعمةَ الله عليكمْ » .

---

(١) الإملاكات : مجامع التزويج . (٢) ب : « كثرة » ، وما أثبته من ا ، د .
(٣) سورة الحجر ٨٨ .

وقال عَوْن بن عبد الله : كنتُ أجالس الأغنياء ؛ فلا أزال مغموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبى ، ودابةً أفرَهَ من دابتى ، فجالست الفقراء فاسترحت .

وخرج المُزَنىّ صاحب الشافعىّ من باب جامع الفُسطاط بمصر ، وكان فقيراً مقلًّا ، فصادف ابنَ عبدالحكم قدأقبل فى موكبه ، فبهره مارأى من حاله ، وحسن هيآته ، فتلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (١) ثم قال : نعم أصبر وأرضى .

فالمعتزل عن الناس فى بيته لا يبتلَى بمثل هذه الفتن ؛ فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا ، إمّا أن يقوى دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرّع مرارة الصّبْر ؛ وهو أمرّ من الصّبِر ، أو تنبعث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلِك دنيا وآخرة ، أما فى الدنيا فبالطمع الذى فى أكثر الأوقات يتضمّن الذلّ المعجل ، وأمّا فى الآخرة فلا يثاره متاع الدنيا على ذكر الله ، والتقرّب إليه ؛ ولذلك قال الشاعر :

إذَا كَانَ بابُ الذّلّ منْ جانب الغِنَى سموتُ إلى العَلياء منْ جانب الفَقْر

أشار إلى أنّ الطمع يوجب فى الحال ذلًّا .

* * *

ومنها الخلاص مِنْ مشاهدة الثقلاء والحمق ومعاناة أخلاقهم ؛ فإنّ رؤية الثقيل هى العمى الأصغر ؛ قيل للأعمش : بم عمِشتْ عيناك (٢) ؛ قال : بالنّظر إلى الثقلاء .

ودخل على أبى حنيفة رحمه الله ، فقال له : رَوَيْنا فى الخبر أنّ منْ سلب كريمتيه عَوّضه الله ماهو خير منهما ؛ فما الذى عوضك ؟ قال : كفانى رؤية ثقيل مثلك يمازحه .

وقال الشافعىّ رحمه الله : ماجالستُ ثقيلا إلّا وجدت الجانب الذى يليه من بدَنى كأنّه أثقلُ علىّ من الجانب الآخر .

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيويا ؛ إلّا أنها تضرِبُ فى الدين بنصيب ؛ وذلك لأنّ

---

(١) سورة الفرقان ٢٠ .

(٢) د : « عينك » .

مَنْ تأذّى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلبه ؛ وذلك فساد في الدين ، وفي العزلة السلامة عن جميع ذلك .

* * *

واعلم أنّ كلامَ أميرِ المؤمنين عليه السلام تختلف مناهجه ، فقد رجّح العزلةَ في هذا الفصل على المخالطة ، ونهى عن العزلة في موضع آخر سيأتي ذكره في الفصل الذي أوّله ، « أنه دخل على العلاء بن زياد الحارثيّ عائدا » ؛ ويجب أنْ يحمل ذلك على أنّ من الناس مَنِ العزلة خيرٌ له من المخالطة ، ومنهم مَنْ هو بالضدّ من ذلك ؛ وقد قال الشافعيّ قريباً من ذلك ، قال ليونس بن عبد الأعلى صاحبه : يايونس ، الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ؛ فكن بين المنقبض والمنبسط .

فإذا أردْتَ العزلة فينبغي للمعتزل أن ينويَ بعزلته كفّ شرّه عن الناس أولا ؛ ثم طلبَ السلامة من شرّ الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرّد بكنه الهمة بعبادة الله تعالى رابعا ، فهذه آداب نيّته . ثم ليكنْ في خلوته مواظباً على العِلْم والعمل ، والذكر والفكر ، ليجتنيَ ثمرة العزلة . ويجب أن يمنع الناس عن أن يكثِروا غشيانه وزيارته ، فيتشوّش وقته ، وأنْ يكفّ نفسه عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف النّاس وما الناس مشغولون به ؛ فإنّ كلّ ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث على الخاطر والبال وقتَ الصلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب ؛ فإنّ وقوع الأخبار في السمع كوقوع البَذر في الأرض ، لا بدّ أن ينبت وتتفرّع عروقه وأغصانه ؛ وإحدى مهمّات المعتزِل قطع الوساوس الصّارفة عن ذكر الله ؛ ولا ريب أنّ الأخبار ينابيع الوساوس وأصولها .

ويجب أنْ يقنع باليسير من المعيشة ، وإلّا اضطرّه التوسّع إلى النّاس ، واحتاج إلى مخالطتهم .

وليكن صبوراً على مايلقاه من أذى الجيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى مايقول فيه مَنْ أثنى عليه بالعزلة ، وقدَح فيه بترك المخالطة ؛ فإنّ ذلك لابدّ أن يؤثر فى القلب ، ولو مدّة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لابدّ أن يكون واقفاً عن سيره فى طريق الآخرة، فإنّ السّير فيها إمّا يكون بالمواظبة على وِرْد أو ذكر مع حضور قلب ، وإمّا بالفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته ، وإمّا بالتأمّل فى دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طرق التخلّص منها،وكلّ ذلك يستدعِي الفراغ ؛ ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ماذكرناه يشوّش القلب .

ويجب أن يكون للمعتزل أهلٌ صالح أو جليس صالح،لتستريح نفسه إليه ساعةً عن كدّ المواظبة،ففي ذلك عونٌ له على بقيّة الساعات.وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العزلة إلّا بقطع الطمع عن الدنيا؛وما النّاس منهمكون فيه،ولا ينقطع طمعه إلّا بقصَر الأمل،وألّا يقدّر لنفسه عمراً طويلا ، بل يصبح على أنه لايمسى ، ويمسى على أنه لايصبح، فيسهلَ عليه صبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدّر تراخى أجله ، وليكن كثيرَ الذكر للموت ووحدة القبر ، مهما ضاق قلبه من الوحدة ، وليتحقّق أن مَنْ لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته مايأنس به ، فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت ، وأنّ مَنْ أنِس بذكر الله ومعرفته فإنّ الموت لايزيل أنسه ، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأنس والمعرفة، بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه،قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١) .

وكلّ من يجرد نفسه فى ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت ، فالمجاهد مَنْ

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠ .

جاهد نفسَه وهواه ، كما صرّح به عليه السلام ، وقال لأصحابه : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين ، والجهاد الأكبر جهاد النفس .

وهذا الفصل فى العزلة نقلناه على طوله من كلام أبى حامد الغزالىّ فى إحياء علوم الدين وهذّبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه [1] .

---

(١) كتاب آداب العزلة ؛ من كتاب الإحياء ٢ : ٢٢١ ـ ٢٤٤ ، وهو الكتاب السادس من ربع العادات .

(١٧٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى معنى الحكمين :

فَأَجْمَعَ رَأْىُ مَلَئِكُمْ على أنِ اختاروا رَجُلَيْنِ ؛ فَأَخَذْنا عَلَيْهِما أنْ يُجَعْجِعا عِنْدَ القُرْآنِ ، وَلَا يُجاوِزَاهُ ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُما تَبَعَهُ ، فَتاها عَنْهُ ، وَتَرَكا الحَقَّ وَهُما يُبْصِرانِهِ ، وَكانَ الجَوْرُ هَوَاهُما ، وَالاعْوِجاجُ دَأْبَهُما ؛ وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤُنا عَلَيْهِما فى الحُكْمِ بِالعَدْلِ وَالعَمَلِ بِالحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِما ، وَجَوْرَ حُكْمِهِما ، وَالثِّقَةُ فى أَيْدِينا لِأَنْفُسِنا ، حِينَ خالَفا سَبِيلَ الحَقِّ ، وَأَتَيا بِما لا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الحُكْمِ .

* * *

الشرح :

الملأ : الجماعة . ويجعجعا : يحبسا نفوسهما وآراءهما عند القرآن ، جعجعت ، أى حبست ، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى القرآن ولا يتجاوزاه .

فتاها عنه ، أى عدلا ، وتركا الحق على علم منهما به .

والدأب : العادة ، و « سوء رأيهما » منصوب ، لأنه مفعول « سبق » ، والفاعل « استثناؤنا » .

ثم قال : « والثقة فى أيدينا » ، أى نحن على برهان وثقة من أمرنا ، وليس بضائر لنا ما فعلاه لأنهما خالفا الحق ، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم .

وروى الثورىّ ، عن أبى عبيدة ، قال : أمر بلال بن أبى بُرْدة وكان قاضياً ، بتفريق بين رجل وامرأته ، فقال الرجل : يا آل أبى موسى ، إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين !

***

[كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر]

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مِصْر ، قد قبضها بالشرْط الذى اشترط على معاوية : « أما بعد ، فإنّ سؤّال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق كثُروا علىّ ، وليس عندى فضل عن أعطيات الحجاز ، فأعنّى بخراج مصر هذه السنة » .

فكتب عمرو إليه :

معاوىَ إنْ تدرِكْكَ نفسٌ شحيحةٌ ... فما مصر إلّا كالهباءة فى التُّربِ
وما نلتُها عفواً ولكن شرطتُها ... وقد دارت الحرب العَوَان على قُطْبِ
ولولا دفاعى الأشعرىّ ورهطه ... لألفيتَها ترغو كراغية السَّقْبِ (١)

ثم كتب فى ظاهر الكتاب ـ ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبى زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزىّ رحمه الله ـ

معاوىَ حظّىَ لا تغفلِ ... وعن سَنَنِ الحقّ لا تعدِلِ
أتنسى مخادعتى الأشعرىّ ... وما كان فى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ!
ألينُ فيطمع فى غِرّتى ... وسهمىَ قد خاض فى المقتلِ
فألمظه عسلا بارداً ... وأخبأ من تحته حَنْظَلِي
وأعليته المنبر المشمخرّ ... كرجع الحسام إلى المفصلِ

(١) الرغاء : صوت الإبل ، والسقب : ولد الناقة .

فأضحى لصاحبــــه خالعاً ... كخلع النعال من الأرجُلِ
وأثبتهـــا فيك موروثةً ... ثبوتَ الخواتِم فى الأنمُلِ
وهبت لغيرىَ وزن الجبالِ ... وأعطيتَنى زِنَةَ الخرْدَلِ
وإنّ عليًّا غـــدا خصمنا ... سيحتجّ بالله والرسُــــلِ
وما دَمُ عثمان منجٍ لنا ... فليس عن الحقّ من مَزْحَلِ

فلما بلغ الجوابُ إلى معاوية لم يعاوده فى شىء من أمر مصر بعدها .

***

بعث عبد الملك رَوْح بن زنباع وبلال بن أبى بردة بن أبى موسى ، إلى زفر بن الحارث الكلابىّ بكلام ، وحذّرهما من كيده ، وخصّ بالتحذير رَوْحاً . فقال : ياأمير المؤمنين، إن أباه كان المخدوع يوم دومة الجندل لا أبى ، فلامَ تخوّفنى الخداع والكيد.

فغضب بلال وضحك عبد الملك .

(١٧٩)

ومن خطبة له عليه السلام :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ ، وَلَا نُجُومُ السَّمَاءِ ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ ؛ شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ ، وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى ، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى .

***

الشَّرْحُ :

لا يشغَلُهُ أمر ؛ لأنّ الحيّ الذي تشغله الأشياء هو الحيّ العالم بالبعض دون البعض، والقادر على البعض دون البعض ؛ فأمّا من لا يغيب عنه شيء أصلاً ، ولا يعجز عن شيء أصلا ، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره ــ إذا أراد ــ مانع أصلا ؛ فكيف يشغَلُه شأن !

وكذلك لا يغيّره زمان ؛ لأنّه واجب الوجود ، ولا يحويه مكان ، لأنه ليس بجسم،

ولا يصفه لسان ، لأنّ كُنْه ذاته غيرُ معلوم ؛ وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب .

ولا يعزب عنه أمر من الأمور ، أى لا يفوته علم شىء أصلا .

والسوافى : التى تَسْفِى التراب ، أى تَذْرُوهُ .

والصفا ، مقصور : الصخر الأملس ؛ ولا وقف عليها ها هنا ؛ لأنّ المقصور لا يكون فى مقابلة الممدود ، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هى « الظلماء » ، ويكون « الصفا » فى أدراج الكلام أسْوة بكلمة من الكلمات . والذَّرّ : صغار النمل .

ويعلم مساقط الأوراق ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾[١] .

وطَرْف الأحداق : مصدر طَرَف البصر يطرُف طَرْفا ؛ إذا انطبق أحدُ الجفنين على الآخر ؛ ولكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقعَ على الواحد ، فقال عليه السلام : « طَرْف الأحداق » ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾[٢] .

وغير معدول به : غير مسوًّى بينه وبين أحد .

والدِّخلة ، بكسر الدال : باطن الأمر ، ويجوز الدُّخْلة بالضمّ .

والمعتام : المختار . والعِيمة بالكسر : خِيارُ المال ؛ اعتام الرجل ، إذا أخذَ العِيمة .

فإن قلت : لفظة « معتام » و « مختار » تصلح للفاعل والمفعول ، فماذا يفصل بينهما ؟

قلت : بما يقترن باللفظ من الكلام قبله وبعده .

فإن قلت : فهل يختلفان فى التقدير فى صناعة النحو ، وإن اتَّفقا فى اللفظ ؟

قلت : نعم ؛ فإنّ عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها ؛ فإن أردت الفاعل فهى مكسورة ، وتقديره « مختير » مثل « مخترِع » ، وإن كان مفعولا فهى مفتوحة ،

---

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

(٢) سورة إبراهيم ٤٣ .

وتقديره « مختيَر » مثل « مخترَع » وعلى كلا التقديرين لا بدّ من انقلاب الياء ألفا، واللفظ، واحد ولكن يقدّر على الألف كسرة للفاعل وفتحه المفعول، وكذلك القول في « معتام » و « مضطر » ونحوهما.

وحُكِيَ أنّ بعض المتكلّمين من المجبرة، قال: أسمّي العبدَ مضطرًا إلى الفعل إذا فعله، ولا أسمي الله تعالى مضطرًا إليه.

قيل: فكيفَ تقول؟ قال: « مضطِر » بكسر الطاء، فضحك أهل المجلس منه.

والعقائل: جمع عقيلة، وهي كريمة كلّ شيء من الناس والإبل وغير ذلك، ويقال للدرّة عقيلة البحر.

وأشراط الهدى: علاماته، ومنه أشراط الساعة قال تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[1].

والغِربيب: الأسود الشديد السواد. ويُجلى به غربيب العمى: تُكشَفُ به ظُلَمُ الضلال، وتستنير بهدايته. وقوله تعالى: ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[2]، ليس على أنّ الصفة قد تقدّمت على الموصوف، بل يجعل السود بدلا من الغرابيب.

فإن قلت: الهاء في « حقائقه » إلى ماذا ترجع؟

قلت: إلى الباريْ سبحانه، وحقائقه حقائق توحيده وعدله، فالمضاف محذوف، ومعنى حقائق توحيده الأمور المحقّقة اليقينيّة التي لا تمتريها الشكوك، ولا تتخالجها الشبهُ، وهي أدِلّة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم بعد أنْ دلّهم إليها. ونبّههم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه إمام المتكلّمين الذي لم يعرف علمَ الكلام من أحد قبله.

* * *

---

(١) سورة محمد ١٨.

(٢) سورة فاطر ٢٧.

الأصل :

أيُّها النَّاسُ ، إنَّ الدُّنيا تَغُرُّ المُؤَمِّلَ لها ، والمُخلِدَ إليها ، ولا تَنفَسُ بِمَنْ نافَسَ فيها ، وتَغلِبُ مَنْ غلَبَ عليها .

وَايْمُ اللهِ ما كانَ قَومٌ قطُّ في غَضِّ نِعمَةٍ مِنْ عَيشٍ فَزالَ عَنهُمْ إلّا بِذُنُوبٍ اجتَرَحُوها ؛ لأنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلّامٍ لِلعَبِيدِ .

ولَوْ أنَّ النَّاسَ حِينَ تَنزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ ، وتَزُولُ عَنهُمُ النِّعم ، فَزِعُوا إلى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيّاتِهِمْ ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ لَرَدَّ عَلَيهِمْ كُلَّ شارِدٍ ، وأصلَحَ لَهُمْ كُلَّ فاسِدٍ .

وإنِّي لأخشَى عَلَيكُمْ أنْ تَكُونُوا في فَترَةٍ ، وقَدْ كانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلتُمْ فِيها مَيلَةً ، كُنتُمْ فِيها عِندِي غَيرَ مَحمُودِينَ ، ولَئِنْ رُدَّ عَلَيكُمْ أمرُكُمْ إنَّكُمْ لَسُعَداءُ .

وَما عَلَيَّ إلّا الجَهْدُ ، ولَوْ أشاءُ أنْ أقُولَ لَقُلتُ : عَفا اللهُ عَمّا سَلَفَ !

***

الشرح :

المخلِد : المائل إليها ، قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾(1) .

ولا تنفس بمن نافس فيها : لا تضنّ به ، أى من نافس فى الدنيا فإنّ الدنيا تهينه ولا تضنّ به ، كما يضنّ بالعلق النفيس .

ثم قال : « وتغلب مَنْ غلَب عليها » ، أىْ مَنْ غلَب على الدنيا مقاهرة فسوف تقله الدنيا وتهلكه :

ثم أقسم إنه ما كان قوم فى غَضّ نعمة أي فى نعمة غضة ؛ أى طريّة ناضرة ، فزالت عنهم

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦ .

إلا بذنوب اجترحوها ، أى اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ؛ ومن قال: إنّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستحقاً ، فأمّا مذهب أصحابنا فلا يتخرّج هذا الكلام عليه ، لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به فى الآخرة ، فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومه ، بل على الأكثر والأغلب .

ثم قال عليه السلام : لو أنّ الناس عند حلول النقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم ؛ لرفع عنهم النقمة ، وأعاد إليهم النعمة

والولَه ، كالتحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد . والشارد : الذاهب

قوله : «وإنّى لأخشى عليكم أن تكونوا فى فترة » ، أى فى أمر جاهليّة لغلبة الضلال والجهل على الأكثرين منهم .

* * *

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان فى أوّل خلافته عليه السلام ، وقد تقدّم ذكر بعضها ، والأمور التى مالوا فيها عليه : اختيارهم عثمان وعدولهم عنه يوم الشورى .

وقال : « لئن ردّ عليكم أمركم » أى أحوالكم التى كانت أيام رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ صلاح القلوب والنيّات إنّكم سعداء .

والجُهد بالضمّ : الطاقة .

ثم قال : لو أشاء أن أقول لقلت ، أى لو شئت لذكرتُ سبب التحامل علىّ وتأخرى عن غيرى ؛ ولكنى لا أشاء ذلك ، ولا أستصلح ذكره .

ثم قال : « عفا الله عما سلف » لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[1]

وهذا الكلام يدلّ على مذهب أصحابنا فى أنّ ماجرى من عبد الرحمن[2] وغيره فى يوم الشورى ، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل ، فإنه معفوّ عنه مغفور لفاعله ، لأنّه لو كان فسقاً غير مغفور ، لم يقلْ أمير المؤمنين عليه السلام : « عفا الله عمّا سلف » .

(١) سورة المائدة ٩٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عوف .

(١٨٠)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله ذِعلب اليمانيّ فقال : هل رأيتَ ربك بأمير المؤمنين ؟فقال عليه السلام: أفأعبد مالاأرى ! فقال : وكيف تراه ؛قال:

لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشاهَدَةِ الْعِيانِ ؛ وَلَـكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحقَائِقِ الإِيمانِ ، قَرِيبٌ مِنَ الأَشْياء غَيْرَ مُلَامِسٍ ، بَعِيدٌ مِنْها غَيْرَ مُبايِنٍ ؛ مُتَـكلِّمٌ بِلا رَوِيَّةٍ ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ ، صانِعٌ لَا بِجارِحَةٍ .

لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالخَفاء ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالجَفاء ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالحاسَّةِ ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ .

تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ؛ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخافَتِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

الذِّعلب في الأصل ؛ الناقة السريعة ، وكذلك الذِّعلبة ثم نقل فسمّى به إنسان ، وصار علماً ، كما نقلوا « بكراً » عن فتى الإبل إلى بن بكر وائل .

واليمانِي مخفّف النون ، ولا يجوز تشديدها ؛ جعلوا الألف عوضاً عن الياء الثانية ؛ وكذلك فعلوا في « الشامي » والأصل « يمنيّ و شاميّ » .

وقوله عليه السلام: « أفأعبد مالا أرى ؟ » ، مقام رفيع جدًّا لا يصلح أن يقوله غيره عليه السلام .

ثم ذكر ماهيّة هذه الرؤية ، قال : إنّها رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر .

ثم شرح ذلك ، فقال : إنّه تعالى قريب من الأشياء ، غير ملامس لها ، لأنه ليس بجسم ، وإنما قُرْبه [1] منها علمُه بها ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [2] .

قوله : « بعيد منها غيرُ مباين » ، لأنّه أيضاً ليس بجسم فلا يطلَق عليه البينونة ، وبُعْدُه منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها ، وذلك كما يصدُق على البعيد بالوضع ، يصدق أفضل الصّدق على البعيد بالذّات الذى لا يصحّ الوضع والأينُ أصلاً عليه .

قوله : « متكلّم بلا رويّة » ، الرّويّة : الفكرة يرتّئى الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ سديدة دالّة على مقصده ، والبارئ تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار ؛ بل لأنّه إذا أراد تعريف [خلقه [3]] من جهة الحروف والأصوات ؛ وكان فى ذلك مصلحة ولطف لهم ، خلَق الأصوات والحروف فى جسم جمادىّ ، فيسمعها من يسمعها ، ويكون ذلك كلامه ، لأنّ المتكلّم فى اللغة العربية فاعل الكلام لا من حلّه الكلام . وقد شرحنا هذا فى كتبنا الكلاميّة .

قوله : « مريدٌ بلا همّة » ؛ أى بلا عَزْم ، فالعزم عبارة عن إرادة متقدّمة للفعل ، تفعل توطيناً للنفس على الفعل ، وتمهيداً للإرادة المقارنة له ؛ وإنّما يصحّ ذلك على الجسم الذى يتردّد فيها ، تدعوه إليه الدواعى ، فأمّا العالم لذاته ، فلا يصحّ ذلك فيه .

قوله : « صانع لا بجارحة » ، أى لا بعضو ؛ لأنّه ليس بجسم .

قوله : « لطيف لا يوصف بالخفاء » ، لأنّ العرب إذا قالوا لشىء : إنّه لطيف ، أرادوا أنّه صغير الحجم ، والبارئ تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين :

---

(١) د : « قربته » .

(٢) سورة المجادلة ٧ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

أحدهما : أنه لا يُرَى لعدم صحّة رؤية ذاته ؛ فلما شابه اللطيف من الأجسام فى استحالة رؤيته ، أطلق عليه لفظ « اللطيف » إطلاقاً للفظ السّبب على المسبّب .

وثانيهما : أنّه لطيفٌ بعباده ؛ كما قال فى الكتاب العزيز ، أى يفعل الألطاف المقرّبة لهم من الطاعة ، المبعّدة لهم من القبيح . أو لطيفٌ بهم بمعنى أنّه يرحمهم ويرفُق بهم .

قوله : « كبيرلا يوصَفُ بالجفاء »، لمّا كان لفظ « كبير » إذا استعمِل فى الجسم أفاد تباعد أقطاره؛ ثم لما وصف البارىءُ بأنّهُ كبيرأرادأن ينزّهه عمايدلّ لفظ « كبير » عليه، إذا استعمل فى الأجسام ؛ والمراد من وصفه تعالى بأنه كبير ، عَظَمة شأنه وجلالة سلطانه .

قوله : « بصير لا يوصف بالحاسّة » ؛ لأنّه تعالى يدرِك إمّا لأنّه حىّ لذاته ، أو أن يكون إدراكه هو علمه ؛ ولا جارحة له ولا حاسّة على كلّ واحد من القولين .

قوله : « رحيم لا يوصف بالرّقة » ؛ لأنّ لفظة الرحمة فى صفاته تعالى تطلق مجازا على[1] إنعامه على عباده ، لأنّ الملك إذا رقّ على رعيّته وعطَف ، أصابهم بإنعامه ومعروفه .

قوله : « تعنو الوجوه » ، أى تخضع ، قال تعالى : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾[2] .

قوله : « وتَجِبُ القلوب » ، أى تخفِق، وأصله من وَجَب الحائط : سقط . ويروى: « توْجل القلوب » أى تخاف ، وَجِل : خاف .

وروى : « صانع لا بجاسّة » ؛ وروى « لا تراه العيون بمشاهدة العيان » عوضاعن « لا تدركه » .

---

(١) ب ، د : « عن » .
(٢) سورة طه ١١١

(١٨١)

الأصـلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذم أصحابه :

أَحْمَدُ اللهَ عَلَى مَاقَضَى مِنْ أَمْرٍ ،وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ؛وَعَلَى ابْتِلاَئِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ ؛ وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ .

إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ ،وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ .

لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ ! مَاتَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ ، وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ ! الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي ـ وَلَيَأْتِيَنِّي ـ لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ .

لِلّهِ أَنْتُمْ ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ ! أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ ـ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ ـ إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي ، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ !

إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضاً فَتَرْضَوْنَهُ ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ .

قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ !

وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ !

***

الشرح :

قضى وقدّر فى هذا الموضع واحد .

ويروى : « على ما ابتلانى » .

وأُهِلْتُمْ : خُلّيتم وتركتم ، ويروى : « أمهلتم » ، أى أخرتم .

وخرتم : ضعفتم ، والخَوَرُ : الضّعف ؛ رجل خَوّار ، ورمح خوّار ، وأرض خوّارة ، والجمع خُور . ويجوز أن يكون « خرتم » أى صحتم ، كما يخور الثّور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾ [1] . ويروى : « جُرْتُم » أى عدلتم عن الحرب فرارا .

وأُجِئْتُمْ : أُلجئتم ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [2] .

والمشاقة : المقاطعة والمصارمة .

ونكصتم : أحجمتم ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ ، أى رجع محجِماً ، أى دعيتم إلى كشف القناع مع العدو وجبنتم وهبتموه .

قوله : « لا أبا لغيركم » ، الأفصح « لا أب » ، بحذف الألف ، كما قال الشاعر :

أبى الإسلامُ لا أبَ لِي سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ [3]

وأما قولهم : « لا أبا لك » ، بإثباته فدون الأوّل فى الفصاحة ؛ كأنهم قصدوا الإضافة ؛ وأقحموا اللام مزيدة مؤكّدة ، كما قالوا : « يا تيمَ تيم عدىّ » ، وهو غريب ؛ لأن حكم

---

(١) سورة طه ٨٨ .

(٢) سورة مريم ٢٣ .

(٣) لنهار بن توسعة اليشكرى ؛ والبيت من شواهد سيبويه .

« لا » أن تعمل فى النّكرة فقط ، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة ، والإضافة تعرّف؛ فاجتمع فيها حكمان متنافيان، فصار من الشواذّ كالملامح والمذاكير ولدن غدوة[1] .

وقال الشّيخ أبو البقاء رحمه الله : يجوزُ فيها وجهان آخران . أحدهما أنّه أشبع فتحة الباء ، فنشأت الألف والاسم باقٍ على تنكيره ، والثانى أن يكون استعمل « أبًا» على لغة من قالها « أبا » فى جميع أحوالها مثل « عصا » ، ومنه :

* إنّ أبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا *[2]

قوله : « الموت أو الذلّ لسكم » ، دعاء عليهم بأنْ يصيبَهم أحد الأمرين ، كأنه شرعَ داعياً عليهم بالفناء الكلىّ؛ وهو الموت؛ ثم استدرك فقال : «أو الذلّ» ؛ لأنه نظير الموت فى المعنى ؛ ولكنّه فى الصورة دونه ؛ ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدّعوة الثانية؛ فإنّ شيعته ذَلُّوا بعدُ فى الأيّام الأمويّة ؛ حتى كانوا كفَقَعِ قرْقر[3] .

ثم أقسم أنّه إذا جاء يومُه لتكونَنّ مفارقته لهم عن قِلًى؛ وهو البغض، وأدخل حَشْوةً بين أثناء الكلام ، وهى « ليأتِيَنّ » وهى حشوة لطيفة ؛ لأنّ لفظة « إنْ » أكثر ما تستعمل لما لا يُعلم حصوله ، ولفظة « إذا» لما يُعلم أو يغلب على الظّنّ حصوله ،تقول:إذا طلعت الشمس جئت إليك ، ولا تقول : إن طلعت الشمس جئتُ إليك ؛ وتقول : إذا احمرّ البُسْر جئتك ، ولا تقول : إن احمرّ البُسْر جئتك ، فلمّا قال : « لئنْ جاء يومى» ، أتى بلفظة دالّة على أنّ الموضع موضع « إذا » لا موضع « إنْ » ، فقال : « وليأتينّ » .

---

(١) أى أنهما لا يستعملان إلا هكذا ، فلا يستعملون «ملمحة» ، ولا يستعملون « مذكارا» ، كما أن « لدن » اختصت « بغدوة » ، وانظر سيبويه ١ : ٣٤٨ .

(٢) بقيته :

* قدْ بَلَغَا فى المجدِ غَايَتَاهَا *

وهو من شواهد النحاة ؛ وانظر ابن عقيل ١ : ٤٦ .

(٣) الفقع : ضرب من أردأ الكمأة ، والقرقر : المكان المستوى الأملس ؛ ويشبه به الرجل الذليل؛ فيقال : هو أذل من فقع بقرقر ؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها .

والواو فى قوله : « وأبا لصحبتكم » ، واو الحال ، وكذلك الواو فى قوله : «وبكم غير كثير » ؛ وقوله : « غير كثير » لفظ فصيح ، وقال الشاعر :

لِيَ خَمْسُونَ صَدِيقاً بينَ قاضٍ وأمير
لبسوا الوفرَ فلمْ أخْلَعْ بهمْ ثوبَ الفقير
الكثيرُ هُمْ ولكنِّي بهمْ غيرُ كثير

قوله : « لله أنتم »لله ؛ فى موضع رفع ؛ لأنّه خبر عن المبتدأ الذى هو «أنتم »،ومثله: لله درّ فلان ! ولله بلادُ فلان ! ولله أبوك ! واللام هاهنا فيها معنى التعجّب ؛ والمراد بقوله: « لله أنتم » لله سعيكم ، أو لله عملكم ، كما قالوا : «لله درّك ! »، أى عملك، فحذف المضاف، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه .

فإن قلت : أفجاءت هذه اللام بمعنى التعجّب فى غير لفظ « لله » ؟

قلت : لا ، كما أنّ تاء القسم لم تأتِ إلّا فى اسم الله تعالى .

قوله عليه السلام : «أما دينٌ يجمعكم !» ارتفاع «دين» على أنّه فاعل فعلٍ مقدّر له ؛ أى أما يجمعكم دين يجمعكم ! اللفظ الثانى مفسر للأول كما قدرناه بعد « إذا » فى قوله سبحانه : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ويجوز أن يكون « حميّة » مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره: أما لكم حميّة ! والحميّة : الأنفة . وشحذتُ النّصل : أحددته .

فإن قلت : كيف قال : إنّ معاوية لم يكن يعطى جندَه وأنّه هو عليه السّلام كان يعطيهم ؛ والمشهور أنّ معاوية كان يمدّ أصحابَه بالأموال والرغائب !

قلت : إنّ معاوية لم يكن يعطى جندَه على وجه المَعُونة والعطاء ؛ وإنّما كان يعطى رؤساء القبائل من اليمن وساكنى الشام الأموالَ الجليلة ؛ يستعبدهم بها ، ويدعو أولئك

الرؤساء أتباعَهُمْ من العرب فيطيعونهم ؛ فنهم مَنْ يطيعُهم حميّةً ، ومنهم من يطيعهم لأيادٍ وعوارفَ من أولئك الرؤساء عندهم ، ومنهم مَن يطيعهم دِيناً ، زعموا للطّلب بدم عثمان ، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فإنّه كان يقسّم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرّزق ، ولا يرى لشريف على مشروف فضلا ؛ فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممّن ينصره ويقوم بأمره ، وذلك لأنّ الرؤساء من أصحابه كانوا يجدُون في أنفسهم من ذلك — أعني المساواةَ بينهم وبين الأتباع — فيخذلونه عليه السلام باطناً ، وإن أظهرُوا له النصر ، وإذا أحسّ أتباعُهم بتخاذلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضا وتواكلوا أيضا ، ولم يُجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق ، لأن انتصار الأتباع له وقتالهم دونه لا يتصوّر وقوعه ، والرؤساء متخاذلون ، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعا .

فإنْ قلت : فأيّ فرق بين المعونة والعطاء ؟

قلت : المعونة إلى الجند شيء يسير من المال برسم ترميم أسلحتهم ، وإصلاح دوابّهم ، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهرا فشهرا ، والعطاء المفروض شهرا فشهرا يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات ، ومؤنة العيال ، وقضاء الديون .

والتَّرِيكة : بيضة النعام تتركها في مَجْثِمِها ، يقول : أنتم خلفُ الإسلام وبقيّته كالبيْضة التي تتركها النعامة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لا يخرج إليكم من أمري رضاً فترضَونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه » ؟

قلت : معناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئا ، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم ، بل لابدّ لكم من المخالفة والافتراق عنه .

ثم ذكر أنَّ أحبَّ الأشياء إليه أن يلقى الموت ، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أنْ تَكُنَّ أمَانِيَا[1]

تَمَنَّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أنْ تَرَى صَدِيقًا فَأعْيَا ، أوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

قوله : « قد دارستُكم الكتاب » ، أي درسته عليكم ، دارستُ الكُتب وتدارستُها وأدرستُها ، ودرستها ، بمعنى ، وهي من الألفاظ القرآنية[2] .

وفاتحتُكم الحِجاج ، أي حاكمتكم بالمحاجّة والمجادلة ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾[3] أي احكم ، والفتّاح : الحاكم .

وعرفتكم ما أنكرتم : بصّرتكم ما عَمِيَ عنكم .

وسَوَّغتُكم ما مججتُم ، يقال : مججتُ الشراب من فمي ، أي رميت به ، وشيخٌ ماجٌّ : يمجُّ ريقه ، ولا يستطيع حبسه من كبره ، وأحمق ماجّ : أي يسيل لعابه ، يقول : ما كانت عقولكم وأذهانكم تنفر عنه من الأمور الدينية أوضحتُه لكم حتى عرفتموه واعتقدتموه وانطوتْ قلوبكم عليه .

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم ، لأنه قال : لو كان الأعمى يلحظ ، والنائم يستيقظ ! أي أني قد فعلت معكم ما يقتضي حصولَ الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم لو أزلتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم ، والمانع المشارُ إليه هو الهوى والعصبية والإصرار على اللّجاج ، ومحبّة نصره عقيدة قد سبقت إلى القلب ، وَزرَعها التعصّب ،

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٨١ .

(٢) من قوله تعالى في سورة آل عمران ٧٩ : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

(٣) سورة الأعراف ٨٩ .

ومشقّة مفارقة الأسلاف الّذين قد انغرس فى النفس تعظيمهم ، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظنّ بهم .

ثم قال : « أقرِبْ بقومٍ ! » أى ما أقربهم من الجهل ! كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ (١) أى ما أسمعهم وأبصرهم !

فإن قلت : قد كان يجب أن يقول . « وأقرِبْ بقومٍ قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة من الجهل » فلا يحولُ بيْن النّكرة الموصوفة وصفتها بفاصل غريب ، ولم يقل ذلك ، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيّ منهما !

قلت : قد جاء كثير من ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ (٢) فى قول من لم يجعل « مَرَدُوا » صفة أقيمة مقام الموصوف ، لأنه يجعل « مردوا » صفة القوم المحذوفين المقدّرين بعد « الأعراب » وقد حال بين ذلك وبين « مردوا » قوله : « ومن أهل المدينة » .

ونحوه قوله : ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ (٣) .

فإن « قيّما » حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذى الحال « ولم يجعل له عوجا » والحال كالصفة ؛ ولأنهم قد أجازوا : « مررت برجل ــ أيّها الناس ــ طويل » ، والنداء أجنبيّ ؛ على أنّا لا نسلّم أن قوله : « من الجهل » أجنبي ، لأنّه متعلق بأقرِبْ ، والأجنبي ما لا تعلّق له بالكلام .

---

(١) سورة الكهف ٢٦ .
(٢) سورة التوبة ١٠١ .
(٣) سورة الكهف ١ ، ٢ .

(١٨٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد أرْسَلَ رَجُلاً من أصحابه يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أحوالِ قَوْمٍ مِن جُنْد الكوفة قد هَمُّوا باللحاق بالخوارج ، وكانوا على خوفٍ منه عليه السلام ، فلما عاد إليه الرَّجلُ قالَ له : أأمِنُوا فقَطَنُوا ، أم جبنوا فظَعَنُوا ! فقالَ الرجلُ : بلْ ظعنُوا يا أمير المؤمنين .

فقال عليه السلام :

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ! أمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأسِنَّةُ إلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هاماتِهِمْ ؛ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى ما كَانَ مِنْهُمْ .

إنَّ الشَّيْطانَ الْيَوْمَ قدِ اسْتَفَلَّهُمْ ، وَهُوَ غداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ ، ومُتَخَلٍّ عَنْهمْ ؛ فَحَسْبُهُمْ مِنَ الْهُدَى ، وَارْتِكاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ .

الشَّرْحُ :

قد ذكرنا قصّة هؤلاء القوم فيما تقدّم عند شرحنا قصّة مَصْقَلة بن هبيرة الشّيبانيّ .

وقَطَن الرجلُ بالمكان ، يقطُن بالضمّ : أقام به وتوطّنه ؛ فهو قاطن ؛ والجمع قطّان وقاطنة وقطين أيضا ، مثل غازٍ وغزيّ . وعازب للكلأ البعيد وعزيب .

وظَعَن صار الرجل ظَعْناً وظَعَنا ؛ وقرئ بهما : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾[1] ؛ وأظعنه: سيره، وانتصب « بُعْداً » على المصدر .

(١) سورة النحل ٨٠ .

وثمود ؛ إذا أردت القبيلة غيرُ مصروف ، وإذا أردت الحىّ أو اسم الأب مصروف ، ويقال : إنّه ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح ، قيل سمّيت ثمود لقلّة مائها ، من الثَّمْد وهو الماء القليل ؛ وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرى .

وأشرعتُ الرّمح إلى زيد ؛ أى سدّدته نحوه ، وشرع الرُّمح نفسه وصبّت السيوفُ على هاماتهم : استعارة من صببْتُ الماء ، شبّه وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرءوس بصبّ الماء .

واستفلّهم الشيطانُ : وجدهم مَفْلولين ، فاستزلّهم ؛ هكذا فسروه .

ويمكن عندى أن يريد أنه وجدهم فَلًّا ، لا خير فيهم ، والفلُّ فى الأصل : الأرض لا نبات بها لأنّها لم تمطر ، قال حسّان يصف العُزّى[1] :

وإنّ التى بالجِذْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلةٍ ... ومَن دانها فلٌّ من الخير مَعْزِلُ[2]

أى خالٍ من الخير .

ويروى «استفزّهم» ، أى استخفّهم .

والارتكاس فى الضلال : الرجوع ؛ كأنه جعلهم فى تردّدهم فى طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلّص منه .

والجماح فى التّيه : الغلوّ والإفراط ، مستعار من جِماح الفرس ؛ وهو أن يعتزّ صاحبه ويغلبه ، جَمَح فهو جَمُوح .

---

(١) فى الأصل : «الفرّى» ، تصحيف ، وفى الصحاح : «العزى» وهى شجرة كانت تعبد .
(٢) اللسان ١٤ : ٤٧ ، ونسبه إلى عبدالله بن رواحة ، وذكر قبله :

شَهِدْتُ وَلم أُكْذِبْ بأَنّ محمّدًا ... رسُولُ الذى فوقَ السماواتِ من علُ

(١٨٣)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوِيَ عَنْ نَوْفٍ البَكَالِيِّ ، قالَ خَطَبنا بِهذِهِ الخُطْبَةِ أَميرُ المُؤْمِنينَ عَلِيٌّ عليه السَّلام بِالكُوفَةِ ؛ وَهُوَ قائِمٌ على حِجارَةٍ نَصَبهالَهُ جَعْدَةُ بنُ هُبَيْرَةَ المَخْزُومِيُّ ، وعليه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَحمائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ ، وَفى رِجْلَيْهِ نَعْلانِ من لِيفٍ ؛ وَكأنَّ جَبِينَهُ ثَفِنَةُ بَعِيرٍ ، فَقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ :

الحَمْدُ للهِ الَّذِى إِلَيْهِ مَصائِرُ الخَلْقِ ، وَعَواقِبُ الأَمْرِ ، نَحْمَدُهُ على عَظِيمِ إِحْسانِهِ ، وَنَيِّرِ بُرْهانِهِ ، وَنَوامِى فَضْلِهِ وَامْتِنانِهِ ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضاءً ، وَلِشُكْرِهِ أَداءً ، وَإِلى ثَوابِهِ مُقَرِّباً ، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً ؛ وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعانَةَ راجٍ لِفَضْلِهِ ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ ؛ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالعَمَلِ وَالقَوْلِ ؛ وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ رَجاهُ مُوقِناً ، وَأَنابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً ، وَلاذَ بِهِ راغِباً مُجْتَهِداً .

* * *

الشَّـرْحُ :

[نَوْفٌ البَكالِيّ]

قال الجوهرىّ فى الصّحاح : نَوْف البَكالىّ ، بفتح الباء ، كان حاجبَ علىّ عليه السلام ، ثم قال : وقال ثعلب : هو منسوب إلى بَكالة ، قبيلة[1] .

---

(١) صحاح الجوهرى ٣ : ١٦٣٨ .

وقال القطب الراوندىّ فى شرح "نهج البلاغة": بَكال وبَكيل شىء واحد؛ وهو اسم حىّ من همْدان، وبكيل أكثر، قال الكُمَيت:

* فَقَدْ شَرَكَتْ فِيهِ بَكيلٌ وأرْحَبُ[1] *

والصواب غيرُ ماقالاه، وإنّما بنو بِكال، بكسر الباء، حىٌّ من حِمْيَرَ؛ منهم هذا الشخص؛ هو نَوْف بن فضالة، صاحب علىّ عليه السلام؛ والرواية الصحيحة الكسر، لأنّ نوف بن فضالة بِكالىّ، بالكسر، من حِمْير؛ وقد ذكر ابنُ الكلبىّ نسبَ بنى بِكال الحميريّين، فقال: هو بِكال بن دُعْمِىّ بن غوث بن سعد بن عوف بن عدىّ بن مالك بن زيد ابن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن ابن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْير.

***

[نسب جعدة بن هُبيرة]

وأمّا جعدة بن هُبيرة، فهو ابنُ أختِ أمير المؤمنين عليه السلام، أمّه أمّ هانىء بنت أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤىّ بن غالب. وكان جَعدة فارساً شجاعا، فقيها وولِىَ خُراسان لأمير المؤمنين عليه السلام؛ وهو من الصّحابة الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح، مع أمّه أمّ هانىء بنت أبى طالب؛ وهربَ أبو هبيرة بن أبى وهب ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزِّبَعْرَى إلى نجران.

---

(١) الصحاح، وصدره:

* يقُولونَ يُورَثْ ولولا تُراثُهُ *

وروَى أهلُ الحديث أنَّ أمّ هانئٍ كانتْ يوم الفتح في بيتها ، فدخل عليها هُبيرة ابن أبي وهب بعلُها ، ورجل من بني عمّه هاربيْن من عليّ عليه السلام ؛ وهو يتبعهما وبيده السّيف ، فقامت أمّ هانئٍ في وجهه دونهما ، وقالت : ماتريده منهما! ولم تكن رأته من ثماني سنين ، فدفع في صدرها ، فلم تزُل عن موضعها ، وقالت : أتدخلُ ياعليّ بيتي ، وتهتك حرمتي ، وتقتل بَعلي ، ولا تستحيي منّي بعد ثماني سنين ! فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهْدَر دمهما ، فلا بدّ أن أقتلهما . فقبضت على يده التي فيها السيف، فدخلا بيتا ثم خرجا منه إلى غيره ، ففاتاه ، وجاءت أم هانئٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يغتسل من جَفْنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوْبها ، فوقفت حتى أخذ ثوبه ، فتوشّح به ، ثم صلّى ثمانيَ ركعات من الضُّحى ، ثم انصرف ، فقال : مرحباً وأهلا بأمّ هانىء ! ماجاء بك ؟ فأخبرته خبر بعلها وابن عمّه ، ودخول عليّ عليه السلام بيتها بالسيف . فجاء عليّ عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله يَضْحك ، فقال له: ماصنعت بأمّ هانئٍ؟ فقال : سلْها يارسول الله ماصنعت بي ! والّذي بعثك بالحقّ لقد قبضتْ على يدِي وفيها السيف ؛ فما استطعتُ أن أخلصها إلّا بعد لأي ، وفاتني الرجلان . فقال صلى الله عليه وآله : « لو ولَدَ أبو طالب النّاسَ كلّهم لكانوا شجعاناً ، قد أجَرْنا من أجارتْ أمّ هانئٍ ، وأمّنا مَنْ أمّنت ، فلا سبيلَ لك عليهما » .

فأمّا هبيرة فلم يرجع ؛ وأمّا الرجل الآخر ، فرجع فلم يعرض له .

قالوا : وأقام هُبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافرا ، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعراً أوله :

أشاقَتْكَ هندُ أم أتاكَ سُؤالُها كذاكَ النّوى أسبابها وانفتالها

يذكر فيه أمّ هانئٍ وإسلامها ، وأنّه مهاجر لها إذ صَبَتْ إلى الإسلام ، ومن جملته :

فإنْ كنتِ قــد تابعتِ دينَ محمّدٍ   وقَطَّعَت الأرحامَ منك حبالُها (١)
فكونى على أعلى سحوق بهضبـةٍ   ململمة غبراء يُبْسٌ قلالُهـا (٢)

وقال ابن عبد البر فى كتاب "الاستيعاب (٣)" :

ولدت أمّ هانئ لهبيرة بن أبى وهب بنين أربعة : جعدة ، وعمرا ، وهانئا، ويوسف، قال : وجعدة الذى يقول :

أبى من بنى مخزومَ إنْ كنتَ سائلا   ومن هاشمٍ أمّى ، لخيرُ قبيـلِ (٤)
فمن ذا الّذى ينأى علىّ بخـاله   كخالى علىٍّ ذى النّدى وعقيـلِ !

* * *

المدرعة : الجبّة ، وتدَرّع : لبسها ، وربما قالوا : تمدرع .

وثَفِنة البعير ، واحدة ثفِناته ، وهو مايقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف ، كالركبتين وغيرهما ويقال : ذو الثَّفِنات الثلاثة لعلىّ بن الحسين، وعلى بن عبد الله بن العباس عليهم السلام ، ولعبد الله بن وهب الراسبىّ ، رئيس الخوارج ، لأنّ طول السجود كان قد أثّر فى ثفِناتهم ، قال دِعْبل :

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٨٢ .
(٢) فى الاستيعاب :

* ممنّعةٍ لا يستطاعُ قلالهـا *

وبعده :

فإنّىَ مِنْ قومٍ إذا جَدَّ جَدُّهم   على أىِّ حالٍ أصبحَ القومَ حالُها
وإنّى لأحمى مِنْ وَرَاءِ عشيرتى   إذا كثرتْ تحتَ الموالى مجالها
وطَارَتْ بأيْدِي القومِ بيضٌ كأنّهَا   مخاريقُ وِلْدَانٍ ينوسُ ظِلَالُهَا
وَإنّ كلامَ المرءِ فى غيرِ كُنهِهِ   لنبلٌ تهوى ليسَ فيها نِصالُها

(٣) الاستيعاب ص ٨٢ — ٩٢ .
(٤) المصدر السابق .

دِيارُ عَلِيّ والْحُسَيْنِ وجَعْفَرٍ   وَحَمْزَةَ والسَّجادِ ذِى الثَّفِناتِ[١]

ومصائر الأمور : جمع مَصِير ، وهو مصدر « صار » إلى كذا ، ومعناه المرجع، قال تعالى : ﴿ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾[٢] فأما المصدر من « صار الشىء كذا » فصير وصَيْرورة، والقياس فى مصدر « صار إليه » أى رجع « مَصارا » ، كمعاش ، وإنما جَمَع المصدر هاهنا لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى فى أحوالٍ مختلفة فى الدّنيا وفى الدار الآخرة ، فجمع لمصدر ، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير ، لاختلاف وجوهه ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾[٣] .

وعواقب الأمر : جمع عاقبة ؛ وهى آخر الشىء .

ثم قسّم الحمد ، فجعله على ثلاثة أقسام :

أحدُها : الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نعمه تعالى ؛ كالحياة والقدْرة والشهوة وغيرها مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر .

وثانيها : الحمد على نيّر برهانه ، وهو ما نصبه فى العقول من العلوم البديهية المفضِية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله .

وثالثها : الحمد على أرزاقه النّامية ؛ أى الزائدة وما يجرى مجراها من إطالة الأعمار ، وكثرة الأرزاق ، وسائر ضروب الإحسان الداخلة فى هذا القسم .

ثم بالغ فى الحمد حمداً يكون لحقه قضاء، ولشكره أداء، وذلك لأنّ الحمد والشكر [ولو بلغ]

---

(١) من قصيدته التائية :

مَدارِسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوَةٍ   وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقفِرُ العَرَصَاتِ

وهى فى معجم الأدباء ١١ : ١٠٣ — ١١٥ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة الأحزاب ١٠ .

أقصى غاياته لم يصلْ إلى أن يكون قاضيا لحقّ الله تعالى ، ولا مؤدّيًا لشكره ؛ ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة .

ثم قال : « وإلى ثوابه مقرّبا ، ولحسن مزيده موجبا » ؛ وذلك لأنّ الشكر يوجب الثواب والمزيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ،[1] أى « أثبكم » ، وقال: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] .

ثم شرع فى الاستعانة بالله فقصّلها أحسنَ تفصيل ، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله فى الآخرة ، مؤمّل لنفعه فى الدنيا ، واثق بدفعه المضارّ عنه؛ وذلك لأنه أراد أن يحتوى على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله ، فذكر الأمورَ الإيجابيّة ، وأعقبها بالأمور السلبيّة ، فالأولى جلب المنافع ، والثانية دفع المضارّ .

والطَّول : الإفضال . والإذعان : الانقياد والطاعة .

وأناب إليه : أقبل وتاب . وخنع : خضع ، والمصدر الخنوع . ولاذ به : لجأ إليه .

***

الأَصْلُ :

لَمْ يُولَدْ سُبْحانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشارَكاً ، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ موروثاً هالِكاً . وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمانٌ ، وَلَمْ يَتَعاوَرْهُ زِيادَةٌ وَلَا نُقْصانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِما أَرانا مِنْ عَلَاماتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ ، وَالْقَضاءِ الْمُبْرَمِ . فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمواتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ ، قَائِماتٍ بِلاَ سَنَدٍ ؛ دَعاهُنَّ فَأَجَبْنَ طائِعاتٍ مُذْعِناتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّئاتٍ وَلَا مُبْطِئاتٍ . وَلَوْلَا إِقْرارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَإِذْعانُهُنَّ لَهُ بِالطَّواعِيَةِ ؛ لَما جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ

(١) سورة البقرة ١٥٢
(٢) سورة إبراهيم ٧

وَلَا مُسْكِنًا إلَّا لِسَكِينَةٍ، وَلَا مُصْعِدًا لِكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

***

الشَّرْحُ :

نفى عليه السلام أن يكون البارئ سبحانه مولوداً فيكون له شريك فى العزّ والإلهيّة؛ وهو أبوه الذى ولده، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر؛ فإنّ الأكثر أنّ الملِك يكونُ ابنَ ملك قبله؛ ونفى أن يكون له ولد، جريا أيضا على عادة البشَر، فى أنّ كلّ والدٍ فى الأكثر، فإنّه يهلِك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد؛ وهذا النمَط من الاحتجاج يسمّى خطابة؛ وهو نافع فى مواجهة العرَب به، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة، فتارةً تثبت فى نفوس العلماء بالبرهان، وتارة تثبت فى نفوس العوامّ بالخطابة والجدَل.

ثم نفى أنْ يتقدّمه وقت أو زمان، والوقت هو الزمان، وإنّما خالف بين اللفظين، وأتى بحرف العطف؛ كقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾.

ونفى أن يتعاوره، أى تختلف عليه زيادة أو نقصان؛ يقال: عاورت زيدا الضَّرب؛ أى فعلت به من الضَّرْب مثل ما فعل بى؛ واعتوروا الشىء؛ أى تداولوه فيما بينهم، وكذلك تعوّرُوه وتعاوروه، وإنّما ظهرت الواو فى «اعتوروا»، لأنّه فى معنى «تعاوروا» فبنى عليه ولو لم يكن فى معناه لاعتلّت، كما قالوا: «اجتوروا» لمّا كان فى معنى: «تجاوروا» التى لا بدّ من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها. واعتورت الرّياح رسم الدار: اختلفت عليه.

فإن قلت: هذا يقتضى أن يقول: «ولم يتعاوره زيادة ونقصان»، لأنّ التعاور يستدعى الضدّين معا، ولا ينبغى أن يقول: «ولا نقصان»؛ كما لا يجوز أن تقول: لم يختلف زيد ولا عمرو.

قلت : لمّا كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال: « لا يعتوره الزيادة »؛ فكذلك القول في جانب النقصان ؛ وجرى كلّ واحد من النوعين مجرى أشياء متنافية ، تختلف على الموضع الموصوف بها .

قوله عليه السلام : « موطّدات » ؛ أي ممهدات مثبتات .

والعَمَد : جمع عماد ، نحو إهاب وأهَب، وإدام وأدَم ؛ وهو على خلاف القياس؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (٢) . والسَّنَد : مايستند إليه .

ثم قال : « دعاهنّ فأجبن طائعاتٍ » ؛ هذا من باب المجاز والتوسّع ؛ لأنّ الجماد لا يُدْعى ؛ وأمّا من قال : إنّ السموات أحياء ناطقة، فإنّه لم يجعلهنّ مكلّفات ليقال: ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة لما فعل كذا ؛ بل يقول ذلك على وجهٍ آخر ؛ ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز ، نحو قول الراجز :

أمْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ... مَهْلا رويداً قَدْ مَلأْتَ بطْنِي (٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٤) .

ومنه قول مكاتَب لبني مِنْقر التميميّين ، كان قد ظلَع (٥) بمكاتبته ، فأتى قبر غالب بن صعصعة ، فاستجار به؛ وأخذ منه حَصَيات فشدّهن في عمامته، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره، وقال : إني قد قلت شعرا ، قال : هاته ، فأنشده :

---

(١) سورة الهمزة ٩ .
(٢) سورة الرعد ٢ .
(٣) اللسان (قطن) من غير نسبة .
(٤) سورة فصلت ١١ .
(٥) يريد أنه ضاق بها .

خشيت الرَّدَى أو أن أردَّ على قسْرِ بقبر ابنِ ليلَى غالبٍ عذتُ بعدما
ولم يكُ إلّا غالبا ميِّتٌ يقْرِى بقبر امرئٍ يَقرِى المئين عظامُه
فكاكك أن تلقى الفرزدقَ بالمصْرِ فقال لى استقدمْ أمامك إنّما

فقال : ماسمك ؟ فقال : لهذم ، قال : يالهذم حكمك مسمَّطا ، قال : ناقة كَوْماء [١] سوداء الحدَقة ، قال : ياجارية اطرحى لنا حبلا ، ثم قال : يالهذم اخرج بنا إلى المِرْبد فألقِه فى عنق ماشئت من إبل الناس . فتخيّر لهذم على عينه ناقةً ، ورمى بالحبل فى عنقها ، وجاء صاحبها ، فقال له الفرزدق : اغد علىَّ أُوَفِّك ثمنها ، فجعل لهذم يقودها ، والفرزدق يسوقها ، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء ، فصاح به الفرزدق : يالهذم ، قبح الله أخسرَنا ! نخبّر الشاعر عن القبر ؛ بقوله : « فقال لى استقدم أمامك » والقبر والميّت الذى فيه لا يخبران ، ولكن العرب وأهل الحكمة من العجم يجعلون كلَّ دليل قولاً وجوابا ، ألا ترى إلى قول زهير :

* أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنَة لم تَكلَّمِ [٢] *

وإنما كلامها عنده أن تبيّن مايرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها .

ومن كلام بعض الحكماء : هلاّ وقفت على تلك الجنان والحيطان ، فقلت : أيتها الجنان ، أين مَنْ شقّ أنهارَك ، وغرس أشجارَك ، وجنى ثمارَك ! فإن لم تجبك حِواراً ، أجابتك اعتبارا !

وقَالَ [٣] النعمان بن المنذر ومعه عدىّ بن زيد ، فى ظلّ شجرات مونِقات يشرب،

---

(١) الكوماء : الناقة الضخمة .
(٢) ديوانه ، وبقيته :

* بحومانةِ الدَّراج فالمتثلَّمِ *

(٣) قال ، من القيلولة

فقال عديّ : أبيت اللعن ! وأراد أن يعظه : أتدري ماتقول هذه الشجرات ؟ قال : ماتقول ؟ قال :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بالماءِ الزُّلَالِ (١)
ثم أضحَوْا عصَفَ الدَّهْرُ بهمْ وكَذَاكَ الدَّهرُ يودِي بالرجالِ

فتنغّص النعمان يومه ذلك(١) .

والمذعِن : المنقاد المطيع . والمتلكّىء : المتوقف.

والكلم الطيّب : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله رسوله .

والعمل الصالح : أداء الواجبات والنوافل ؛ واللفظات من القرآن(٢) العزيز .

والمَصْعَد : موضع الصعود ، ولاشبهة أنّ السماء أشرف من الأرض على رأى المِلّيّين وعلى رأى الحكماء ، أمّا أهل المِلّة، فلأنّ السماء مصعد الأعمال الصالحة ، ومحلّ الأنوار ، ومكان الملائكة ، وفيها العرش والكرسيّ ، والكواكب المدبِّرات أمراً،وأمّاالحكماء فلأمور أخرى تقتضيها أصولهم .

* * *

الأصْلُ

جَعَلَ نُجُومَها أعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِها الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجاجِ الأقْطارِ ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِها ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلَا اسْتَطاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْحَنادِسِ أنْ تَرُدَّ ماشاعَ فى السَّمَوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤ نورِ الْقَمَرِ ؛ فَسُبْحانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوادُ

(١) الشعر والخبر فى الأغانى ٢ : ٩٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) من قوله تعالى فى سورة فاطر ١٠ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

غَسَقٍ دَاجٍ ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ ، فِي بِقَاعِ الْأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ ؛ وَلَا فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ ، وما يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّماء ، وما تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ ، وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُها عَنْ مَسْقَطِها عَوَاصِفُ الْأَنْوَاء وَانْهِطَالُ السَّماء ، وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّها ، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّها ؛ وَما يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِها ؛ وما تَحْمِلُ مِن الْأُنْثَى فِي بَطْنِها .

***

الشرح :

أعلاما ، أي يستدلّ بها . والفجاج : جمع فَجّ ؛ وهو الطريق فى الجبل .

ثم قال : إنّ ادلهام سواد الليل ـ أى شدّة ظلمته ـ لم يمنع الكواكب من الإضاءة ؛ وكذلك أيضا لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره ؛ وإنّما خصّ القمر بالذّكر وإن كان من جملة الكواكب ، لشرفه بما يظهر للأبصار من عظم حجمه ، وشدّة إضاءته ، فصار كقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [1] ، وقد روى بعض الرواة «ادلهامَ» بالنصب ؛ وجعله مفعولا ، «وضوء نورها» بالرفع وجعلها علا ؛ وهذه الرواية أحسن فى صناعة الكتابة لمكان الازدواج ؛ أى لا القمر ولا الكواكب تمنع الليل من الظلمة ، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة .

والسُّجف : جمع سِجْف ، وهو السِّتر ، ويجوز فتح السين .

وشاع : تفرّق ، والتلألؤ : اللمعان . والجلابيب : الثياب . والغسق : الظلمة ، والساجى . الساكن . والدّاجى : المظلم ، والمتطأطئ : المنخفض . والسُّفع المتجاورات هاهنا : الجبال ؛ وسماها سُفعا لأنّ السُّفعة سواد مشرب بحمرة ؛ وكذلك لونها فى الأكثر .

---

(١) سورة الرحمن ٦٨ .

واليَفاع : الأرض المرتفعة . والتّجاجل : صوت الرعد .

وما تلاشت عنه بروق الغمام ؛ هذه الكلمة أهمل بناءها كثير من أئمة اللغة ؛ وهى صحيحة وقد جاءت ووردت . قال ابنُ الأعرابيّ : لَشَا الرّجُل ؛ إذا اتّضع ، وخَسّ بعد رفعة ، وإذا صَحّ أصلُها صحّ استعمال النّاس ، تلاشى الشيء ، بمعنى اضمحلّ .

وقال القطب الراونديّ : تلاشى مركّب من « لا شيء » ، ولم يقف على أصل الكلمة ؛ وقد ظهر الآن أنّ معنى كلامه عليه السلام أنّه سبحانه يعلم ما يصوت به الرّعد ؛ ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق .

فإن قلت : وهل يقصد الرّعد بجلجلته معنى معقولا ليقال : إنّ البارئ يعلمه ! ثم ما المراد بكونه عالمًا بما يضمحلّ البرق عنه ؟

قلت : قد يكون تعالى يحدِث فى الرّعد جلجلة ، أى صوتا ليهلك به قوما ، أو لينفع به قوما ، فعلمه بما تتضمّنه تلك الجلجلة هو معنى قولنا : يعلم ما يصوّت به الرعد ، ولا ريب أنّ البرق يلمع فيضيء أقطارا مخصوصة ، ثم يتلاشى عنها ، فالبارئ سبحانه عالم بتلك الأقطار التى يتلاشى البرق عنها .

فإن قلت : هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق ؛ وبما لا يضيئه ؛ فلماذا خصّ بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق ؟

قلت : لأنّ علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب ، لأنّ ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة ، فأراد عليه السلام أنْ يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر ؛ ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتمّ وأكمل .

والعواصف : الرّياح الشديدة ، وأضافها إلى الأنواء ؛ لأنّ أكثر مايكون عَصَفانُها فى الأنواء ؛ وهى جمع نَوْء ، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين فى المغرب

مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلا له من ساعته ؛ ومدة النوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

قال أبو عبيد : ولم يسمع في النَّوْء أنّه السقوط إلا في هـذا الموضع ، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها .

وقال الأصمعيّ : بل إلى الطالع في سلطانه ، فتقول : مُطرنا بنوء كذا وكذا ، ونهى النبيّ صلى الله عليـه وآله عن ذلك ؛ والجمع أنواء ونُوآن أيضاً ؛ مثل بَطْن وبُطْنان وعَبْد وعُبدان ، قال حسان بن ثابت :

وَيَثرِبُ تعـــلمُ أنّا بِهَا ... إذا قَحَط القطر نُوآنها[1]

والانهطال : الانصباب . ومسقط القطرة من المطر : موضع سقوطها ؛ ومقرّها : موضع قرارها ، ومسحب الذّرة الصغيرة من النمل ومجرّها : موضع سحبها وجرّها .

وهذا الفصل من فصيح الـكلام ونادره ؛ ويتضمّن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ما يشهد لنفسه .

* * *

الأصْـلُ :

والحَمْدُ لِلّهِ الـكائِنِ قَبْلَ أنْ يَـكُونَ كُرْسِيٌّ أو عَرْشٌ أوْ سَماءٌ أوْ أرْضٌ أوْ جانٌّ أوْ إنْسٌ ، لَا يُدْرَكُ بِوَهْمٍ ، وَلا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ سائِلٌ ، وَلَا يَنْقُصُهُ نائِلٌ ، وَلا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ ،ولا يُحَدُّ بِأيْنٍ ،وَلَا يُوصَفُ بالأزْواجِ ،وَلَا يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ ،وَلَا يُدْرَكُ بِالحَواسِّ ؛ وَلَا يُقاسُ بِالنّاسِ .

الّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَـكْلِيمًا ، وأرَاهُ مِنْ آياتِهِ عَظِيماً ؛ بِلَا جَوارِحَ وَلَا أدَواتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، بَلْ إنْ كُنْتَ صادِقاً أيُّهـَا المُتَـكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ ؛ فَصِفْ

(١) الصحاح ١ : ٧٩ .

جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ . فَلَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ .

***

الشرح :

ليس يعني بالسكان هاهنا مايعنيه الحكماء والمتكلّمون ، بل مراده الموجود ، أي هو الموجود قبل أن يكون الكرسيّ والعرش وغيرهما . والأوائل يزعمون أنّ فوق السموات السبع سماء ثامنة ، وسماء تاسعة ، ويقولون : إنّ الثامنة هي الكرسيّ ، وإنّ التاسعة هي العرش .

قوله عليه السلام : « لا يدرك بوهم » ، الوهم هاهنا [1] : الفكرة والتوهّم .

ولا يقدّر بفهم ، أي لا تستطيع الأفهام أن تقدّره وتحدّه .

ولا يشغله سائل كما يشغل السؤال منّا من يسألونه .

ولا ينقصه العطاء ، كما ينقص العطاء خزائن الملوك .

ولا يبصر بجارحة، ولا يحدّ بأين، ولفظة «أين» في الأصل مبنيّة على الفتح؛ فإذا نكّرتها صارت اسماً متمكّنا ، كما قال الشاعر :

لَيْتَ شِعْرِي وأينَ منّيَ ليتٌ ... إن « ليتاً » وإنّ « لوًّا » عناء

وإن شئت قلت : إنّه تكلّم بالاصطلاح الحكميّ . والأين عندهم ، حصول الجسم في المكان، وهو أحد المقولات العشر .

---

(١) ساقطة من ب .

قوله عليه السلام : ولا يوصَف بالأزواج؛ أى صفات الأزواج ؛ وهى الأصناف،قال سبحانه : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[1] .

قوله : « ولا يَخلُق بعلاج » ، أى لا يحتاج فى إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة .

قوله : « وكلّم موسى تكليما »[2] من الألفاظ القرآنية،والمراد هاهنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لبْسٍ عساه يصلح للسامع ؛ فيعتقد أنّه أراد المجاز ؛ وأنّه لم يكن كلامٌ على الحقيقة .

قوله:« وأراه من آياته عظيما »؛ليس يريد به الآيات الخارجة عن التكليم ؛ كانشقاق البحر ، وقلْب العصا ، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله : « تكليما » ، وقوله : « بلا جوارح ولا أدوات،ولا نطق ولا لَهوات »،مستهجنا ، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيما من آياته ؛ وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاته الستّ ؛ ليس على حدّ سماع كلام البشر من جهة مخصوصة ؛ وله دوِيّ وصلصلة كوقع السلاسل العظيمة على الحصا الأصمّ .

فإن قلت : أتقول إنّ الكلام حلّ أجساما مختلفة من الجهات الستّ ؟

قلت : لا وإنّما حلّ الشجرة فقط ؛ وكان يُسمَع من كلّ جهة ، والدليل على حلوله فى الشجرة قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ ﴾[3]؛فلا يخلو إمّا أن يكون النداء حلّ الشجرة؛أو المنادى حلّها،والثانى باطل ، فثبت الأوّل .

ثم قال عليه السلام لمن يتكلّف أن يصف ربّه : إن كنت صادقا؛أنك قد وصلت إلى

---

(١) سورة ق ٧ .

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة النساء ١٦٤ ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

(٣) سورة القصص ٣٠ .

معرفة صِفَته ؛ فصفْ لنَا الملائكة ؛ فإنّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه .

وحُجُرات القدس : جمع حُجْرة . ومرجحِنّين : مائلين إلى جهة «تحت» خضوعا لجلال البارئ سبحانه ؛ ارجحنّ الحجر ، إذا مال هاويا ، متولّهة عقولهم ، أى حائرة .

ثم قال : إنّما يدرَك بالصفات ؛ ويعرف كنه ما كان ذا هيئة وأداة وجارحة ، وما ينقضى ويفنى ويتطرّق إليه العدم ؛ وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك .

وتحت قوله : « أضاء بنوره كلّ ظلام ... » إلى آخر الفصل ، معنى دقيق وسرٌّ خفىّ ؛ وهو أنّ كلّ رذيلة فى الخلق البشرىّ مع معرفته بالأدِلّة البرهانية غير مؤثّرة ولا قادحة فى جلالة المقام الذى قد بلغ إليه ؛ وذلك نحو أن يكون العارف بخيلا أو جبانا ، أو حريصا أو نحو ذلك ؛ وكلّ فضيلةٍ فى الخلق البشرىّ مع الجهل به سبحانه ؛ فليست بفضيلةٍ فى الحقيقة ولا معتدّ بها ؛ لأنّ نقيصة الجهل به تكسِف تلك الأنوار ، وتمحقُ فضلها ؛ وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جوادا ، أو شجاعا ، أو عفيفا ، أو نحو ذلك ؛ وهذا يطابق ما يقوله الأوائل ؛ من أنّ العارف المذنب يشقَى بعد الموت قليلا ؛ ثم يعود إلى النعيم السرمدىّ ، وأنّ الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاءً مؤبّدا ومذهب الخلّص من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات ، ويقال : إنّه مذهب أبى حنيفة رحمه الله . ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأنْ يقال : كلّ ظلام من المعاصى الصغائر ؛ فإنه ينجلى بضياء معرفته وطاعته ؛ وكلّ طاعة يفعلها المكلّف مع الكفر به سبحانه ، فإنها غير نافعة ولا موجبة ثوابا ، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومه إلى خصوصه .

***

الأصْلُ :

أوصيكُمْ عِبادَ اللهِ بتقوى الله الّذي ألبسَكُمُ الرِّياشَ ، وأسْبغَ عليكُمُ المعاشَ ؛ فلَوْ أنَّ أحداً يجدُ إلى البقاءِ سُلَّماً ، أوْ لِدَفْعِ الموْتِ سبيلاً ؛ لكانَ ذلكَ سُليمانَ بن داودَ عليهِ السّلامُ ؛ الّذي سُخِّرَ لهُ مُلْكُ الجِنِّ والإنْسِ ؛ معَ النُّبُوَّةِ وعظيمِ الزُّلْفةِ ؛ فلمّا استوْفَى طُعْمتَهُ ، واستكْمَلَ مُدَّتَهُ ، رمَتْهُ قِسِيُّ الفَناءِ بِنِبالِ الموْتِ ؛ وأصْبَحتِ الدِّيارُ منهُ خاليةً ، والمساكِنُ مُعطَّلةً ؛ وورِثَها قوْمٌ آخرُونَ .

وإنَّ لَكُمْ في القُرونِ السّالفةِ لعِبْرَةً ! أيْنَ العمالقَةُ وأبناءُ العمالقةِ ! أيْنَ الفراعِنَةُ وأبناءُ الفراعِنةِ ! أيْنَ أصحابُ مدائنِ الرَّسِّ الّذينَ قتلوا النّبيِّينَ ، وأطفَئوا سُنَنَ المُرْسَلينَ ، وأحْيَوْا سُنَنَ الجبّارينَ ! أيْنَ الّذين ساروا بالجُيوشِ ، وهزَمُوا الألوفَ ، وعَسْكَرُوا العساكِرَ ، ومَدَّنوا المدائنَ !

***

الشّرْحُ :

الرِّياش : اللّباس . وأسبغ : أوسع ؛ وإنّما ضربَ المثل بسليمان عليه السلام ، لأنه كان مَلِك الإنس والجنّ ، ولم يحصل لغيره ذلك ، ومن النّاس مَنْ أنكر هذا ؛ لأنّ اليهود والنّصارى يقولون : إنّه لم يتعدّ ملكه حدود الشام ، بل بعض الشام ، وينكرون حديث الجنّ والطير والريح ، ويحملون ماورد من ذلك على وجوهٍ وتأويلاتٍ عقلية معنوية؛ليس هذا موضع ذكرها .

والزُّلفة : القرب . والطُّعْمة ، بضم الطاء : المأكلة ؛ يقال : قد جعلت هذه الضّيْعة طُعمة لزيد .

والقِسِيّ : جمع قَوْس ، وأصلها «قووس» على «فعول» ، كضرب وضروب ؛ إلّا أنهم قدّموا

اللام ، فقالوا « قُسُوّ » على « فلوع » ، ثم قلبت الواو ياء ؛ وكسروا القاف كما كسروا عين « عصيّ » فصارت « قِسِيّ » .

[نسب العمالقة]

والعمالقة أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ؛ كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم ؛ فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام ؛ ومنهم طسم بن لاوذ أخوه .

ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما ؛ وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ فى طسْم ؛ فلما ملكهم عملاق بن طسم ، بغوا وأكثروا الفساد فى الأرض ؛ حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بَعْلِها ؛ وإن كانت بكرا افتضها قبل وصولها إلى البعل ؛ ففعل ذلك بامرأةٍ من جَدِيس ؛ يقال لها غفيرة بنت غفار ؛ فخرجت إلى قومها ؛ وهى تقول :

لا أحدٌ أذلّ من جديسِ أهكذا يفعل بالعروسِ !

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار ؛ وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته ، فصنع الأسود طعاما ، ودعا عملاق الملك إليه ، ثم وثب به وبطسْم ، فأتى على رؤسائهم ، ونجا منهم رياح بن مرّ ، فصار إلى ذى جيشان بن تبّع الحميرى ملك اليمن ؛ فاستغاث به ، واستنجده على جَدِيس ، فسار ذو جيشان فى حِمْيَر ، فأتى بلاد جوّ ، وهى قصبة اليمامة ، فاستأصل جديساً كلّها ، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديسٍ باقية ، ولا لطسْمٍ إلا اليسير منهم .

ثم ملك بعد طسْمٍ وجديس وَبار بن أُمَيم بن لاوذ بن إرم ، فسار بولده وأهله ، فنزل بأرض وبار ، وهى المعروفة الآن برمل عالِج ، فبغوْا فى الأرض حينا حتّى أفناهم الله .

ثم مَلَكَ الأرضَ بعد وبار عبد ضَخْم بن أُثَيف بن لاوذ ، فنزلوا بالطائف حينا ، ثم بادوا .

* * *

[نسب عاد وثمود]

وممّن يعدّ مع العمالقة عاد وثمود ؛ فأما عاد فهو عاد بن عويص بن إرم بن سام بن نوح ؛ كان يعبد القمر ، ويقال : إنه رأى من صُلْبِه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف ؛ وإنه نكح ألف جارية ؛ وكانت بلاده الأحقاف المذكورة فى القرآن ؛ وهى من شِحْر عُمان إلى حَضَرموت ؛ ومن أولاده شدّاد بن عاد ؛ صاحب المدينة المذكورة .

وأمّا ثمود ؛ فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ؛ وكانت دياره بين الشّام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة .

* * *

[نسب الفراعنة]

قوله عليه السلام : « أين الفراعنة ، وأبناء الفراعنة ؛ جمع فِرْعون ؛ وهم ملوك مصر ، فمنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مُصْعب فرعون موسى . ومنهم فرعون بن الأعرج الّذى غزا بنى إسرائيل وأخربَ بيت المقدس .

* * *

[نسب أصحاب الرّسّ]

قوله عليه السلام : « أين أصحاب مدائن الرسّ ؟ » ، قيل : إنهم أصحابُ شعيب

النبي صلى الله عليه وآله ، وكانوا عَبَدَة أصنام ؛ ولهم مواشٍ وآبار يُسقَون منها .

والرس : بئر عظيمة جدًّا انخسفت بهم ؛ وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلّها وديارهم . وقيل : الرسّ قرية بفَلْج اليمامة ، كان بها قوم من بقايا ثمود بَغَوْا ، فأهلكوا.

وقيل : قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز ، وكانت العَنْقاء تختطِف صبيانَهم فتقتلهم ؛ فدعوُا الله أن يتقدّم منها؛ فبعث إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء ، فشارطوه على ذلك فدعا عليهـا ، فأصابتها الصاعقة ، فلم يفُوا له فقتلوه ؛ فأهلكوا .

وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرسّ ، هو الأخدود . وقيل : الرسّ أرض بأنطاكية قتل فيها حَبيب النجار .

وقيل : بل كذّب أهلها نبيّهم ورسّوه في بئر ، أي رمَوْه فيها .

وقيل : إن الرسّ نهر في إقليم الباب، والأبواب مبدؤه من مدينة طراز ، وينتهي إلى نهر الكرّ ، فيختلط به حتى يصبّ في بحر الخزر ، كان هناك ملوك أولو بأس وقدرة ، فأهلكهم الله ببغيهم .

***

الأصل :

منها :

قَدْ لَبِسَ لِلحِكْمَةِ جُنَّتَها ،وَأَخَذَها بِجَمِيعِ أدَبِهَا ،مِنَ الإقبالِ عَلَيْهَا ،وَالمَعرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفرُّغِ لَهَا ؛فَهِيَ عِندَ نَفْسِهِ ضالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُها،وَحاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْها،فَهُوَ مُغتَرِبٌ إذَا اغتَرَبَ الإسْلَامُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ ،وَأَلصَقَ الأَرضَ بِجِرانِهِ ؛ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقايا حُجَّتِهِ ؛خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنبِيائِهِ .

***

الشرح :

هذا الكلام فسّره كلّ طائفة على حسب اعتقادها ، فالشّيعة الإماميّة ؛ تزعم أنّ المراد به المهدى المنتظر عندهم،والصوفيّة يزعمون أنّه يعنى به ولىّ الله فى الأرض؛ وعندهم أنّ الدّنيا لا تخلو عن الأبدال ؛ وهم أربعون،وعن الأوتاد ، وهم سبعة ، وعن القطب وهو واحد ؛ فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه،وصار أحد الأربعين وتِداً،عوض الوَتِد ، وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم الله تعالى أبدالًا عوض ذلك البدَل .

وأصحابُنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلِى الأمّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدْل والتوحيد ، وأنّ الإجماع إنّما يكون حجّةً باعتبار أقوال أولئك العلماء ، لكنه لما تعذّرت معرفتهم بأعيانهم ، اعتبر إجماع سائر العلماء ، وإنّما الأصل قول أولئك .

قالوا : وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة ؛ ولكنه يصف حال كلّ واحد منهم ؛ فيقول : من صفته كذا ، ومن صفته كذا .

والفلاسفة يزْعمون أنّ مرادَه عليه السلام بهذا الكلام العارف ، ولهم فى العرفان وصفات أربابه كلام يعرِفه مَنْ له أنس بأقوالهم . وليس يبعد عندى أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله فى آخر الوقت ، إذا خلقه الله تعالى ؛ وإن لم يكن الآن موجوداً ، فليس فى الكلام ما يدلّ على وجوده الآن ، وقد وقع اتّفاق الفِرَق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضى إلا عليه .

قوله عليه السلام : « قد لبس للحكمة جُنّتها » ، الْجُنّة : ما يستتر به من السّلاح كالدِّرْع ونحوها ، ولبس جنّة الحِكْمة قمع النفس عن المشتهيات ، وقطع علائق النفس عن

المحسوسات ؛ فإنّ ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الهوى ؛ كما تمنع الدّرع الدّارع عن أن يصيبه سهام الرّماية .

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص ، فقال : « وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها » ؛ أى شدّة الحرص والهمة .

ثم قال : « والمعرفة بها » ، أى والمعرفة بشرَفِها ونفاستها .

ثم قال : « والتفرّغ لها » ؛ لأنّ الذهن متى وجّهته نحو معلومين تخبّط وفسد ؛ وإنما يدرك الحكمة بتخلية السرّ من كلّ ما مرّ سواها .

قال : « فهيَ عند نفسه ضالّته التى يطلبها » ؛ هذا مثل قوله عليه السلام : « الحكمة ضالّة المؤمن » ومن كلام الحكماء : لا يمنعَنّك من الانتفاع بالحكمة حقارة مَنْ وجدتَها عنده ؛ كما لا يمنعك خبث تراب المعدِن من التقاط الذهب .

ووجدت بخط أبى محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله فى تعاليق مسوّدة أبياتا للمَطَوِىّ ؛ وهى :

قد رأينا الغزَال والغصن والنّجميْـــــن شمس الضحى وبدْر التّمامِ
فوحقّ البيان يعضُــــده البرْ هانُ فى مأقِطٍ شديد الخصامِ [1]
ما رأينا سوى المليحة شيئــاً جمع الحسن كلَّه فى نظــــامِ
هى تجرى مجرى الأصالة فى الرأ ىِ ومَجْرَى الأرواح فى الأجسام

وقد كتب ابن الخشاب بخطّه تحت « المليحة » : ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة!
قوله عليه السلام : « وحاجتــه التى يسأل عنها » ؛ هو مثل قوله : « ضالّتــه التى يطلبها » .

ثم قال : « هو مغترب إذا اغترب الإسلام » ؛ يقول هذا الشخص يُخفِى نفسَه ويحملها

(١) المأقط : ساحة القتال .

إذا اغترب الإسلام ، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجوْر على الصّلاح والعدل ؛ قال عليه السلام : « بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بدأ » .

قال : « وضرب بعسيب ذَنَبِه ، وألصق الأرض بجرانه » ؛ هذا من تمام قوله: « إذا اغترب الإسلام » ، أي إذا صار الإسلام غريبا مقهورا ؛ وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بعَسِيبه ؛ وهو أصلُ الذَّنَب ، ويلصق جِرانه – وهو صدره – في الأرض ؛ فلا يكون له تصرّف ولا نهوض .

ثم عاد إلى صفة الشّخص المذكور .

وقال : « بقيّة من بقايا حججه ، خَليفة من خلائف أنبيائه » ، الضمير هاهنا يرجع إلى الله سبحانه وإنْ لم يجرِ ذكره؛ للعلم به ، كما قال : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾(١) ، ويمكن أن يقال : إنّ الضمير راجع إلى مذكور وهو الإسلام ؛ أي من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام .

فإن قلت : ليس للإسلام إلا نبيّ واحد .

قلت : بل له أنبياء كثير ؛ قال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(٢)، وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(٣) ، وكلّ الأنبياء دَعَوْا إلى مادعا إليه محمد صلى الله عليه وآله من التوحيد والعدل ، فكلّهم أنبياء للإسلام .

فإن قلت : أليس لفظ « الحجّة » ولفظ « الخليفة » مشعراً بما تقوله الإماميّة ؟

قلت : لا ، فإنّ أهل التصوف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة ؛ وكذلك الفلاسفة،

---

(١) سورة ص ٣٢ .
(٢) سورة الحج ٧٨ .
(٣) سورة النحل ١٢٣ .

وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كلّ عصر ، لأنّهم حجج الله ، أي إجماعهم حجّة ؛ وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه .

وعلى مااخترناه نحن فالجواب ظاهر .

***

الأصل :

ثم قال عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا .

لِلَّهِ أَنْتُمْ ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ ! أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً ، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الْأَخْيَارُ ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى !

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً ، يُسِيغُونَ الْغُصَصَ ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ ! قَدْ وَاللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ !

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ! أَيْنَ عَمَّارٌ ! وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ ! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ! وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ !

***

قال : ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده إِلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ، ثم قال عليه السلام :

أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ !

أَحْيَوُا السُّنَّةَ ، وَأَماتُوا الْبِدْعَةَ ؛ دُعُوا لِلْجِهادِ فَأَجابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقائِدِ فَاتَّبَعُوهُ .

ثم نادى بأعلى صوته :

الْجِهادَ الْجِهادَ عِبادَ اللهِ ! أَلا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذا ؛ فَمَنْ أَرادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ .

* * *

قالَ نَوْفٌ : وَعقد للحسين عليه السلام في عَشَرة آلافٍ ، ولقيس بن سعدٍ رحمه الله في عشرة آلافٍ ، ولأبي أيُّوب الأنصاريّ في عشرةِ آلاف ، ولغيرهم على أعدادٍ أُخَر ؛ وهو يريد الرَّجْعَةَ إلى صِفّين فما دارت الجمعةُ حتى ضربه الملعون ابنُ الملجم لعنه الله ، فتراجعت العساكر ، فكنا كأغنامٍ فقدت راعيها ، تختطفها الذئاب من كل مكانٍ !

* * *

الشَّرْحُ :

بثثتُ لكم المواعظ : فرّقتُها ونشرتُها . والأوصياء : الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلهية ؛ وقد يمكن ألّا يكونوا خلفاء بمعنى الإمرة والولاية ، فإنّ مرتبتهم أعلَى من مراتب الخلفاء .

وحدوتكم : سقتكم كما تحدَى الإبل . فلم تستوسقوا ، أي لم تجتمعوا ، قال :

* مستوسقاتٍ لم يجِدْن سائقا[1] *

قوله : « يطأ بكم الطريق » ، أي يحملكم على المِنْهاج الشرعيّ ، ويسلك بكم مسلَكَ الحقّ ، كأنّه جعلهم ضالّين عن الطريق التي يطلبونها .

---

(١) اللسان (وسق) ، وقبله :

* إنّ لنا لإبلًا نقانقا *

وقال : أتريدون إماماً غيرى يوقفكم على الطريق التى تطلبونها حتى تطئوها وتسلكوها !

ثم ذكر أنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً؛ وهو الهدى والرشاد ، فإنه كان فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه مقبلا ؛ ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه؛ وأقبل منها ما كان مدبراً ؛ وهو الضلال والفساد ؛ ومعاوية عند أصحابنا مطعون فى دينه ، منسوبٌ إلى الإلحاد ؛ قد طعن فيه صلى الله عليه وآله؛ وروى فيه شيخنا أبو عبدالله البصرىّ فى كتاب " نقض السُّفيانية " على الجاحظ ؛ وروى عنه أخبارا كثيرة تدلُّ على ذلك ؛ وقد ذكرناها فى كتابنا فى " مناقضة السفيانيّة " .

وروى أحمد بن أبى طاهر فى كتاب " أخبار الملوك " أنّ معاوية سمع المؤذّن يقول « أشهد أن لا إله إلا الله » ، فقالها ثلاثا، فقال : أشهد أن محمدا رسول الله ! فقال: لله أبوك يابن عبد الله ! لقد كنتَ عالىَ الهمّة ؛ ما رضيتَ لنفسك إلّا أن يقرَنَ اسمُكَ باسم ربِّ العالمين !

قوله عليه السلام : « وأزمَع التَّرحال »أى ثبت عزمُهم عليه ؛ يقال : أزمعتُ الأمرَ؛ ولا يقال : أزمعتُ على الأمر ، هكذا يقول الكسائىّ ؛ وأجازه الخليل والفرّاء .

ثم قال عليه السلام : إنّه لم يضرّ إخواننا القتلَى بصِفّين كونهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنّغص والغُصَص .

ويقال : ماء رنْق ، بالتسكين،أى كدر ، رنِق الماء بالكسر ؛ يرنق رنقا فهو رَنْق، وأرنقته ؛ أى كدّرته ، وعيش رَنِق بالكسر ، أى كَدِر .

ثم أقسم إنّهم لقُوا الله فوفّاهم أجورهم ؛ وهذا يدلّ عَلَى مايذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه .

ثم قال عليه السلام : « أين إخوانِى » ؟ ثم عدّدهم ، فقال : « أين عمار » .

* * *

[عمار بن ياسر ونسبه ونبذ من أخباره]

وهو عمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسيّ ـ بالنّون ـ المذحِجيّ ؛ يكنى أبا اليقظان ، حليف بنى مخزوم .

ونحن نذكر طرَفا من أمره من كتاب " الاستيعاب [1] " لأبى عمر بن عبد البرّ المحدّث. قال أبو عمر : كان ياسر والد عمّار عربيًّا قحطانيا،من عَنْس فى مذحِج ؛ إلاّ أنّ ابنه عمّارا كان مولًى لبنى مخزوم ؛ لأنّ أباه ياسراً قدِمَ مكّة مع أخوين له ؛ يقال لهما : مالك والحارث ؛ فى طلب أخ لهم رابع؛ فرجع الحارث ومالك إلى اليمن،وأقام ياسر بمكّة؛ فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فزوّجه أبو حذيفة أمَةً يقال لها سُمَيّة ، فأولدها عمّارا ، فأعتقه أبو حذيفة ؛ فمن هاهنا كان عمّار مولى بنى مخزوم . وأبوه عربيّ ؛ لا يختلفون فى ذلك ؛ وللحلف والولاء الّذى بين بنى مخزوم وعمّار وأبيه ياسر كان احتمال بنى مخزوم على عثمان؛ حين نال من عمّار غلمان عثمان مانالوا من الضّرب؛ حتى انفتق له فَتْقٌ فى بطنه ، زعموا،وكسروا ضِلَعاً من أضلاعه ؛ فاجتمعت بنو مخزوم،فقالوا: والله لئِنْ مات لاقتلنا به أحداً غيرَ عثمان !

قال أبو عمر : كان عمّار بن ياسر ممّن عُذّب فى الله ثم أعطاهم عمّارٌ ماأرادوا بلسانه، واطمأنّ الإيمان بقلبه ؛ فنزل فيه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[2]، وهذا ممّا أجمع عليه أهل التفسير [3] .

---

(١) الاستيعاب ١ : ٤٢٢ ـ ٤٢٤ .

(٢) سورة النحل ١٠٦ .

(٣) فى كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ : ١٨٠ « هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر ؛ فى قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه » ، ثم قال : « وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن عادوا فعد » .

وهاجر إلى أرضِ الحبَشة ، وصلى إلى القبلتين ؛ وهو من المهاجرين الأوّلين ، ثم شهِد بدراً والمشاهِدَ كلّها ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم شهِدَ اليمامة ، فأبلَى فيها أيضا يومئذ ، وقطِعَتْ أذُنه .

قال أبو عمر : وقد روى الواقديّ ، عن عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن عمر ؛ قال : رأيتُ عمّاراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح : يا معشرَ المسلمين ، أمِنَ الجنّة تفرّون ؟ أنا عمّار بن ياسر ، هلمُّوا إلىّ ! وأنا أنظُر إلى أذنه قد قطعت ، فهى تذبذب(١) ؛ وهو يقاتل أشدّ القتال .

قال أبو عمر : وكان عمّار آدمَ طُوالًا مضطربا أشهَلَ(٢) العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، ، لا يغيّر شيبه .

قال : وبلَغنا أنّ عمّاراً قال : كنتُ ترِبًا لرسول الله صلى الله عليه وآله في سِنّه ، لم يكن أحدٌ أقرَبَ إليه منّى سنًّا .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ : إنه عمار بن ياسر ، ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾(٣) إنه أبو جهل بن هشام .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ عمّاراً ملئْ إيمانا إلى مُشاشه »(٤) .

ويروى إلى أخمَص(٥) قدميْه .

وروَى أبو عمر عن عائشة ، أنها قالت : ما من أحدٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تذبذب : تتحرك .

(٢) الشهل ، محركة : أن يشوب سواد العين زرقة .

(٣) سورة الأنعام ١٢٢ ، وفى تفسير القرطبي عن ابن عباس أيضاً أنهـا نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهل . قال : « والصحيح أنها عامة فى كل مؤمن وكافر » .

(٤) المشاشة : رأس العظم .

(٥) الأخمص : من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

أشاء أن أقول فيه إلّا قلت ، إلا عمار بن ياسر ، فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّه ملىء إيمانا إلى أخمص قدميه » .

قال أبو عمر : وقال عبد الرحمن بن أبزى : شَهِدنا مع علىّ عليه السلام صِفّين ثمانمائة ممّن بايع بيْعة الرضوان ، قتل مِنّا ثلاثة وستون ؛ منهم عمّار بن ياسر .

قال أبو عمر : ومن حديث خالد بن الوليد ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ أبغض عمّارا أبغضه الله » ؛ فما زلت أحبه من يومئذ .

قال أبو عمر : ومن حديث علىّ بن أبى طالب عليه السلام : إنّ عمّاراً جاء يستأذنُ عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ، فعرف صوته ، فقال : « مَرْحَباً بالطيّب المطيَّب - يعنى عمّارا - ائذنوا له » .

قال أبو عمر : ومن حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وآله : « اشتاقتِ الجنة إلى أربعة : علىّ ، وعمار ، وسلمان ، وبلال » .

قال أبو عمر : وفضائل عمّار كثيرة جدا يطول ذكرها .

قال : وروى الأعمش ، عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ ، قال : شهِدْنَا مع على عليه السلام صِفّين ، فرأيت عمّار بن ياسر لا يأخذ فى ناحية ولا وادٍ من أوْدِية صفّين ، إلاّ رأيتُ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يتّبعونه ، كأنه علَم لهم . وسمعتُه يقول يومئذ لهاشم ابن عتبة : يا هاشم ، تقدّم ، الجنة تحت البارقة .

اليَوْمَ ألْقَى الأحِبَّهْ مُحَمّداً وَحِـــزْبَهْ

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرَ لعلمنا أنّا على الحق ، وأنهم على الباطل ، ثم قال :

نَحنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تنزيــلِهِ فَالْيَوْمَ نضربُكُمْ على تأويلِهِ

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ويذْهِلُ الخليل عن خليلِهِ
* أو يرجع الحق على سبيلِهِ *

فلم أر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قتلوا في موطن ، ماقتلوا يومئذ .

قال : وقد قال أبو مسعود البدريّ وطائفة لحذَيفة حين احتُضِر ، وقد ذكر الفتنة: إذا اختلَف النّاس فيمنْ تأمرنا ؟ قال :عليكم بابن سميّة ، فإنّه ان يفارق الحقّ حتى يموت ـ أو قال : فإنّه يزول مع الحقّ حيث زال .

قال أبو عمر : وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حُذيفة مرفوعا .

قال أبو عمر : وروى الشّعبيّ ، عن الأحنف ، أنّ عمّاراً حمل يوم صِفّين ، فحمل عليه ابن جَزْء السَّكْسَكيّ ، وأبو الغادية الفَزَاريّ ؛ فأمّا أبو الغادية فطعنه ، وأمّا ابن جزء فاحتزّ رأسه .

قلت : هذا الموضع ممّا اختلف فيه قول أبي عمر رحمه الله ، فإنه ذكر في كتاب الكنى من "الاستيعاب"[1] ، أبا الغادية ـ بالغين المعجمة ـ وقال : إنه جُهَنيّ من جُهينة ،وجُهينة من قُضاعة ، وقد نسبه هاهنا فَزاريًّا .

وقال في كتاب الكنى : إنّ اسم أبي الغادية يسار ، وقيل مسلم .

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب "المعارف" ، عن أبي الغادية أنّه كان يحدّث عن نفسه بقتل عمار ، ويقول : إنّ رجلاً طعنه فانكشف المِغْفَر عن رأسه ، فضربت رأسه ، فإذا رأس عمّار قد نَدَر[2] .

وكيفية هذا القتل تخالف الكيفيّة التي رواها ابن عبد البرّ .

قال أبو عمر : وقد روى وَكيع ، عن شعبة ، عن عبد بن مرّة ، عن عبدالله بن سلمة،

(١) الاستيعاب ٦٨٠ .
(٢) المعارف ٢٥٧ (طبعة دار الكتب) .

قال : لكأنّى أنظر إلى عمّار يوم صِفّين وهو صريع ، فاستسقى ، فَأُتِىَ بشربة من لبن فشرب ، فقال :

* اليوم ألقى الأحبّهْ *

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد إلىّ أنّ آخرَ شَرْبة أشرَبُها فى الدّنيا شربة من لبن ، ثم استسقى ثانية فأتته امرأة طويلة اليدين بإناء ، فيه ضَيَاح[1] من لبن ، فقال حين شَرِبه : الحمدُ لله ، الجنّة تحت الأسِنّة ، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَفاتِ هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنهم على الباطل ، ثم قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد رَوَى حارثة بن المضراب : قرأت كتابَ عمر إلى أهل الكوفة : أمّا بعد ، فإنّى بعثت إليكم عمّاراً أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلّما ووزيرا ، وهما من النُّجباء ، من أصحاب محمّد ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، فإنّى قد آثرتكم بعبدِ الله عَلَى نفسى أثَرَةً .

قال أبو عمر : وإنّما قال عمر : هما من النُّجباء ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله . « إنّه لم يكن نبىٌّ إلا أعطِىَ سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء ، وإنّى قد أعطيتُ أربعةَ عشر : حمزة ، وجعفرا ، وعليًّا ، وحسنا ، وحسينا ، وأبا بكر ، وعمر ، وعبد الله بن مسعود ، وسلْمان ، وعمّارا ، وأبا ذرّ ، وحُذَيفة ، والمقْداد ، وبلالا » .

قال أبو عمر : وتواترتِ الأخبار عَنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله أنه قال: « تقتلُ عمّاراً الفئة الباغية » ، وهذا من إخباره بالغيب ، وأعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ، وهو من أصح الأحاديث .

وكانت صِفّين فى ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ، ودفَنَه علىٌّ عليه السلام فى ثيابه ولم يغسّله .

---

(١) الضياح ، بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .

وروى أهلُ الكوفة أنّه صلّى عليه ؛ وهو مذهبهم فى الشّهداء ؛ أنّهم لا يغسّلون ولكن يصلى عليهم .

قال أبو عمر: وكانت سنّ عمّار يوم قُتِل نَيّفاً وتسعين سنة ؛ وقيل : إحدى وتسعين، وقيل : اثنتين وتسعين ، وقيل : ثلاثا وتسعين .

***

[ذكر أبى الهيثم بن التيّهان وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام : « وأين ابن التّيّهان »؛ هو أبو الهيثم بن التّيّهان؛ بالياء المنقوطة؛ باثنتين تحتها ؛ المشددة المكسورة؛ وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها؛ واسمه مالك، واسم أبيه مالك أيضا ، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصارى؛ أحدُ النُّقَباء ليلة العقبة. وقيل : إنه لم يكن من أنفسهم ، وإنّه من بَلِىّ بن أبى الحارث بن قُضاعة ، وإنّه حليفٌ لبنى عبد الأشهل ؛ كان أحدَ النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدرا .

قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب " الاستيعاب " : اختلف فى وقت وفاته ، فذكر خليفة ، عن الأصمعىّ ، قال : سألتُ قومَه ، فقالوا : مات فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله [1] .

قال أبو عمر : وهذا لم يتابع عليه قائله .

وقيل : إنّه توفِّىَ سنة عشرين ، أو إحدى وعشرين .

وقيل : إنه أدرَكَ صِفّين ، وشهدها مع علىّ عليه السلام ؛ وهو الأكثر .

وقيل : إنه قتل بها .

ثم قال أبو عمر : حدّثنا خَلَف بن قاسم ، قال : حدّثنا الحسن بن رشيق ، قال :

---

(١) الاستيعاب ٦٩٦ .

حدّثنا الدُّولابىّ ، قال : حدّثنا أبو بكر الوجيهىّ ، عن أبيه ، عن صالح بن الوجيه ، قال : وممّن قتِل بصفّين عمّار ، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وعبد الله بن بُدَيل ؛ وجماعة من البدريّين رحمهم الله .

ثم روى أبو عُمر رواية أخرى، فقال : حدّثنا أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالمؤمن ، قال : حدّثنا عثمان بن أحمد بن السمّاك ، قال: حدّثنا حنبل بن إسحاق بن على ، قال : قال أبو نُعيم : أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، اسمُهُ مالك ، واسم التَّيِّهان عمرو بن الحارث ، أصيب أبو الهيثم مع علىّ يوم صفين .

قال أبو عمر : هذا قول أبى نعيم وغيره .

قلت : وهذه الرّواية أصحّ من قول ابن قتيبة فى كتاب المعارف [1] ؛ وذكر قوم أنّ أبا الهيثم شهد صِفّين مع علىّ عليه السلام ؛ ولا يعرفُ ذلك أهلُ العلم ولا يثبتونه؛ فإنّ تعصّب ابن قتيبة معلوم ؛ وكيف يقول : لا يعرفه أهل العلم ، وقد قاله أبو نعيم، وقاله صالح ابن الوجيه ، ورواه ابنُ عبد البرّ وهؤلاء شيوخ المحدّثين !

***

[ذكر ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام: « وأين ذو الشّهادتين »؟هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمىّ الأنصارى من بنى خَطْمة [2]، من الأوس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) المعارف ٢٧٠ ، قال : « وليس يعرف ذلك أهل العلم ولا يثبتونه » .

(٢) بنو خطمة ؛ هم بنو عبدالله بن مالك بن أوس .

شهادته كشهادة رجلين ؛ لقصّة مشهورة[١] ؛ يكنَى أبا عُمارة ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ؛ وكانت رايةُ بنى خَطْمة بيده يوم الفتح .

قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب[٢] : وشهد صِفّين مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فلما قُتِل عمار قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد رُوِى حديثُ مقتله بصفّين من وجوه كثيرة ، ذكرناها فى كتاب " الاستيعاب " عن ولد ولده ، وهو محمد بن عُمارة بن خزيمة ذى الشهادة ؛ وأنّه كان يقول فى صِفّين : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « تقتل عمّاراً الفئةُ الباغية » ؛ ثم قاتل حتى قُتِل .

***

قلت : ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبيّة القَبيحة ، أنّ أبا حيانِ التوحيدىّ قال فى كتاب " البصائر " : إن خُزيمة بن ثابت المقتول مع علىّ عليه السلام بصِفّين ؛ ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، بل آخر من الأنصار صحابىّ اسمه خزيمة بن ثابت ؛ وهذا خطأ ، لأنّ كتب الحديث والنّسب تنطق بأنّه لم يكن فى الصحابة من الأنصار ، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين ؛ وإنما الهوى لا دواء له ؛ على أنّ الطبرىّ صاحب التاريخ قد سَبَق أبا حيّان بهذا القول ؛ ومن كتابِه نقل أبو حيان ؛ والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه ، ثم أىّ حاجة لناصرى أمير المؤمنين أن يتكثّروا بخُزيمة ، وأبى الهيثم ، وعمّار وغيرهم ! لو أنصف

---

(١) ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة ، قال : « روى عنه ابنه عمارة أن النبى صلى الله عليه وسلم اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربى ، فجحده سواء ، فشهد خزيمة بن ثابت للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله : « ما حملك على الشهادة ، ولم تكن حاضراً معنا ؟ قال : صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه » .

(٢) الاستيعاب ١٠٧ ، ١٠٨ .

الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة ، لعلموا أنه لو كان وحده ، وحاربه الناسُ كلهم أجمعون ، لـكان على الحقّ ، وكانوا على الباطل .

ثم قال عليه السلام : « وأين نظراؤهم من إخوانهم » ! يعني الذين قتِلوا بصِفّين معه من الصحابة ، كابن بُدَيل ، وهاشم بن عتبة ، وغيرهما ممّن ذكرناه في أخبار صِفّين .

وتعاقدوا على المنيّة : جعلوا بينهم عقدا ، وروى « تعاهدوا » .

وأبرِد برءوسهم إلى الفَجَرة : حمِلت رءوسهم مع البريد إلى الفَسَقة للبشارة بها ، والفجرة هاهنا : أمراء عسكر الشام ، تقول : قد أبردت إلى الأمير ، فأنا مبرِد ، والرسول بريد ؛ ويقال للفُرانق[1] البريد ، لأنه ينذر قُدام الأسد .

قوله : « أوْهِ على إخواني » ساكنة الواو مكسورة الهاء ، كلمة شكوى وتوجُّع ، وقال الشاعر :

فأوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتُها ... ومِنْ بُعْدِ أرضٍ دونها وسَماء[2]

وربما قلبوا الواو ألفا ، فقالوا : آهِ من كذا ، آه على كذا ؛ وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء ، فقالوا : أوِّهْ من كذا ، وربما حذفوا الهاء مع التّشديد ، وكسروا الواو ، فقالوا : أوِّ من كذا بلا مدّ ، وقديقولون : آوّهْ ، بالمد والتّشديد وفتح الألف وسكون الهاء ؛ لتطويل الصوت بالشكاية ، وربما أدخلوا فيه الياء تارةً يعدّونه ، وتارة لا يمدونه ، فيقولون : «أوياه » و « آوياه »وقد أوّهَ الرجلُ تأويها ، وتأوه تأوُّها ، إذا قال « أوْهِ » ، والاسم منه « الآهة » بالمدّ ، قال المثقّب العبدىّ :

إذَا ما قمت أرْحَلُهَا بليـــلٍ ... تأوّه آهة الرّجُل الحزينِ[3]

---

(١) ذكره صاحب اللسان ؛ واستشهد بقول امرىء القيس :

وإنّي أذينٌ إن رَجَعْتُ مملّكاً ... بسيرٍ ترى منه الفرانق أزورا

(٢) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

(٣) اللسان ١٧ : ٣٦٥ .

قوله عليه السلام: « ووثِقُوا بالقائد فاتّبعوه »، يعنى نفسه، أى وثقوا بأنّى على الحقّ، وتيقّنوا ذلك، فاتّبعونى فى حرب مَنْ حاربت، وسِلْم مَنْ سالمت .

قوله : « الجهادَ الجهادَ » ، منصوب بفعل مقدّر .

وإنّى معسكر فى يومى ، أى خارج بالعسكر إلى منزل يكونُ لهم معسكرا .

* * *

[ذكر سعد بن عبادة ونسبه]

وقيس بن سعد بن عبادة بن دُليم[1] الخزرجىّ . صحابىّ ، يكنى أبا عبد الملك؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث ، وكان طُوالاً جدًّا سِبطا شجاعا، جوادا ، وأبوه سعد رئيس الخزرج؛ وهو الذى حاولت الأنصارُ إقامته فى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يبايع أبا بكر حين بُويع ، وخرج إلى حَوْران ، فماتَ بها ، قيل : قتلته الجنّ لأنه بال قائمًا فى الصّحراء ليلا ، ورَوَوْا بيتين من شعر ؛ قيل إنهما سمعا ليلة قتله ، ولم يُرَ قائلهما :

نَحْنُ قتلْنَا سَيِّد الخزْ ... رَجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَهْ
ورميناهُ بِسَهْمَيْـ ... ـنِ فلم نُخْطِئْ فؤادهْ

ويقول قوم : إنّ أمير الشام يومئذ كَمَن له مَنْ رماه ليلا ، وهو خارج إلى الصحراء بسهمين ، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام ، وقد قال بعض المتأخرين فى ذلك :

يقولونَ سعد شكّت الجنُّ قلبَهُ ... ألَا ربما صَحَّحْتَ دينك بالغَدْرِ
وما ذنبُ سَعْدٍ أنه بال قائمًا ... ولكنّ سعدا لم يبايع أبا بكرِ
وقد صبرَتْ من لذّة العيش أنفسٌ ... وما صبرتْ عن لذّة النّهى والأمرِ

---

(١) فى الأصول : « دلهم » وأثبت ما فى الاستيعاب .

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقائلٌ بمحبّته وولائه ، وشهد معه حروبه كلها ، وكان مع الحسن عليه السلام ، ونقم عليه صلحه معاوية ، وكان طالبيّ الرأى ، مخلصاً فى اعتقاده ووده ؛ وأكّد ذلك عنده فواتُ الأمر أباه وما نيل يوم السقيفة وبعده منه ، فوجد من ذلك فى نفسه وأضمره ، حتى تمكّن من إظهاره فى خلافة أمير المؤمنين ، وكما قيل : « عدوّ عدّك صديق لك » .

* * *

[ذكر أبى أيوب الأنصارى ونسبه]

وأما أبو أيوب الأنصاريّ ، فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجيّ ، من بنى النّجار ، شهد العقَبة وبدْراً وسائر المشاهد وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرج عن بنى عمرو بن عوف ، حين قدم المدينة مهاجراً من مكّة ، فلم يزل عنده حتى بَنَى مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إليها ، ويوم المؤاخاة آخى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بينه وبين مُصْعَب بن عمير .

وقال أبو عمر فى كتاب «الاستيعاب»(١) : إنّ أبا أيّوب شهد مع علىّ عليه السلام مشاهده كلّها ، وروى ذلك عن الكلبىّ وابن إسحاق ، قالا : شهد معه يوم الجمل وصِفّين، وكان مقدّمته يوم النّهروان .

* * *

قوله « تختطفها الذئاب » ، الاختطاف : أخذُك الشىء بسرعة ، ويروى «تتخطّفها» ، قال تعالى : تخافون أنْ ﴿ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾(٢)

ويقال : إن هذه الخطبة آخرُ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام قائماً .

---

(١) الاستيعاب ٦٢٠ .

(٢) سورة الأنفال ٢٦ .

(١٨٤)

الأصل :

من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ، خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ؛ وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا؛ وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُم عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ، مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

***

الشرح :

المنصَبة، بالفتح والنَّصَب : التعب، والماضي نصِب بالكسرة، وهمّ ناصب في قول النابغة :

* كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيمةَ ناصِبِ (١) *

ذو نَصَب، مثل رجل تامر ولابِن، ويقال: هو «فاعل» بمعنى «مفعول فيه» لأنه يُنْصَب

---

(١) ديوانه ٢، وبقيته :

* وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ *

فيه ويُتعب ؛ كقولهم : ليل نائم ، أى يُنام فيه ، ويوم عاصف ؛ أى تعصف فيه الريح .
واستعبدت فلانا : اتّخذته عبداً . والضرّاء : الشدّة .

ومعتبر[1] : مصدر بمعنى الاعتبار . ومصاحّها : جمع مصحّة « مفعلة » من الصحّة ، كمضارّ جمع مضرّة . وصفَه سبحانه بأنّه معروف بالأدلّة ؛ لا من طريق الرؤية كما تعرف المرئيّات ، وبأنّه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منّا فيما يزاوله ويباشر من أفعاله . خلَق الخلائق بقدرته على خَلْقِهم ؛ لا بحركة واعتماد[2] . «وأسبغَ النّعمة عليهم»:أوسعها . واستعبد الّذين يُدْعَوْن فى الدّنيا أرباباً بعزّه وقهره .

وساد كلّ عظيم بسَعة جوده ؛ وأسكن الدنيا خلقه ، كما ورد فى الكتاب العزيز : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] .

وبعثَ رسلَه إلى الجنّ والإنس ؛ كما ورد فى الكتاب العزيز : ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[4] .

قال : « ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا » أى عن عوراتها وعيوبها المستورة ؛ وليخوّفوهم من مضرّتها وغرورها المفضى إلى عذاب الأبد .

وليضربوا لهم أمثالها ، كالأمثالِ الواردة فى الكتاب العزيز ، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ... ﴾ الآية[5] .
قوله : « وليهجُموا عليهم » ؛ هجمتُ على الرّجل :دخلت عليه بَغْتَةً ؛ يقول:ليدخلوا عليهم بما فى تصاريف الدنيا ؛من الصحّةوالسّقَم ، وما أحلّ وما حرّم على طريق الابتلاء .

---

(١) د : « بمعتبر » .
(٢-٢) هذا اللفظ وشرحه لم يرد فى الخطبة .
(٣) سورة البقرة ٣٠ .
(٤) سورة الأنعام ١٣٠ .
(٥) سورة يونس ٢٤ .

ثم قال : « وما أعدّ الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة » ، يجوز أن تكون « ما » معطوفة على « عيوبها » ، فيكون موضعها نصباً ، ويجوز أن يكون موضعها جرّاً ، ويكون من تتمة أقسام ما يُعتَبر به ، والأوّل أحسن .

ثم قال عليه السلام : إنى أحمد الله كما استحمد[1] إلى خلقه ، استحمد[1] إليهم فعلَ مايوجب عليهم حمده .

ثم قال : إنّه سبحانه جعل لكل شىء من أفعاله قَدْراً ، أى فعله مقدّراً محدود الغرض ، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[2] .

وجعل لكل شىء مقدّر وقتاً ينتهى إليه وينقطع عنده ؛ وهو الأجَل .

ولكلّ أجل كتابا ، أى رُقوماً تعرفها الملائكة ، فتعلم انقضاء عمر مَنْ ينقضى عمره ، وعَدَم ماألطافهم فى معرفة عدمه .

***

الأصْل :

منها فى ذكر القرآن :

فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ ؛ حُجَّةُ ٱللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ ، وَٱرْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ ؛ أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى ٱلْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْهُدَى بِهِ .

فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَاعَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً ، وَآيَةً مُحْكَمَةً ، تَزْجُرُ عَنْهُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ .

(١) ساقط من ب .
(٢) سورة الرعد ٨ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ .

قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى ، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ ؛ إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً ، لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً ، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ ، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ .

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ[1] إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالِارْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ .

***

الشرح

جعل القرآن آمراً وزاجراً ، لما كان خالقه — وهو الله سبحانه — آمراً زاجراً به ، فأسند الأمر والزجر إليه ؛ كما تقول : سيف قاتل ، وإنما القاتل الضارب به ، وجعله صامتاً ناطقاً ؛ لأنه — من حيث هو حروف وأصوات — صامت ، إذ كان العرض يستحيل أن يكون ناطقاً

---

(١) ا : « يسأل » .

لأنّ النطق حركة الأداة بالكلام، والكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها؛ وهو من حيث يتضمّن الإخبار والأمر والنهى والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام، كالناطق، لأنّ الفهم يقع عنده، وهذا من باب المجاز كما تقول: هذه الربوع الناطقة، وأخبرتنى الديار بعد رحيلهم بكذا.

ثم وصفه بأنّه حجّة الله على خلقه، لأنّه المعجزة الأصليّة.

أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقَه، وارتهن عليه أنفسهم، لمّا كانَ سبحانه قد قرّر فى عقول المكلّفين أدلّة التوحيد والعدل، ومن جملة مسائل العدْل النبوّة، ويثبت نبوّة محمد صلى الله عليه وآله عقْلا، كان سبحانه بذلك كالآخذ ميثاقَ المكلّفين بتصديق دعوته، وقبول القرآن الّذى جاء، وجعل به نفسهم رَهْناً على الوفاء بذلك، فمن خالف خَسِرَ نفسَه، وهلَك هلاك الأبَد.

هـذا تفسير المحقّقين، ومن الناس من يقول: المراد بذلك قصّة الذرّيّة قبل خلق آدم عليه السلام، كما ورد فى الأخبار، وكما فسر قوم عليه الآية.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى قبَض رسوله صلى الله عليه وآله؛ وقد فرّغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال والإتمام، كقوله تعالى: ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[1]، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه.

قال: فعظّموا من الله ماعظّم من نفسه؛ لأنّه سبحانه وصفَ نفسه بالعظمة والجلال فى أكثر القرآن؛ فالواجب علينا أن نعظّمه على حَسَبِ ماعظّم نفسه سبحانه.

ثم علّل وجوبَ تعظيمِه، وحَسّنَ أمرَه لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يُخفِ عنّا شيئاً من أمر ديننا، وذلك لأنّ الشرعيّات مصالح المكلّفين، وإذا فعل الحكيم سبحانه بنا

---

(١) سورة المائدة ٣.

مافيه صلاحُنا ،فقد أحسَنَ إلينا ، ومن جملةصلاحِنا تعريفُنا من الشرعيّات ما فعله لطفٌ ومفضٍ بنا إلى الثواب ، وهـذا أبلغ مايـكون من الإحسان ، والمحسِنُ يجب تعظيمه وشـكره .

قال : لم يترك شيئا إلّا وجعل له نصًّا ظاهرا يدلّ عليه ، أو عَلَمًا يستدَلّ به عليه،أى إمّا منصوص عليه صريحا ، أو يمكن أن يستنبَط حكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه فيبقى على البراءة الأصليّة ، وحكم العقل .

قوله : « فرضاه فيما بقِيَ واحد » معناه أنّ مالم ينصّ عليه صريحًا ، بل هو فى محلّ النّظر ، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه ، فيحلّه بعضُهم ، ويحرّمه بعضهم ؛ بل رضا الله سبحانه أمرٌ واحد ،وكذلك سَخَطه ،فليس يجوزأن يكونَ شىءٌمن الأشياء يفتِى فيه قوم بالحلّ وقوم بالحرْمة ، وهذا قولٌ منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد ، وقد سبق منه عليه السلام مثلُ هذا الـكلام مرارا.

قوله : « واعلموا أنه ليس يرضى عنكم ... »،الـكلام إلى منتهاه،معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف فى الفتاوَى والأحكام ، كما اختلف الأمم من قبلـكم ، فسَخِط اختلافَهم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾(١).

وكذلك ليس يسخَطُ عليـكم بالاتفاق والاجتماع الّذى رضِيَه ممّن كان قبلـكم من القرون .

ويجوز أن يفسّر هذا الـكلام بأنّه لا يرضى عنكم بما سَخِطه على الّذين من قبلـكم من الاعتقادات الفاسدة فى التوحيد والعدل،ولا يسخط عليـكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التى رضيَها مِمّن كان قبلـكم فى التّوحيد والعدل ،فيـكون الـكلام مصروفًا إلى الأصول لا إلى الفروع .

(١) سورة الأنعام ١٥٩ .

قال : « وإنما تسيرون فى أثر بَيّن » ؛ أى أنّ الأدِلّة واضحة ، وليس مراده الأمرَ بالتقليد ، وكذلك قوله « وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم » ، يعنى كلمةَ التوحيد « لا إله إلا الله » ، قد قالها الموحّدون من قبل هذه المِلّة ، لا تقليداً ، بل بالنّظر والدليل ، فقولوها أنتم كذلك !

ثم ذكر أنه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة دنياهم ؛ قال الحسن البصرىّ : إن الله تعالى كفانا مؤونة دُنيانا ، وحثّنا على القيام بوظائف ديننا ، فليته كفانا مؤونة ديننا ، وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا .

قوله : « وافترض من ألسنتكم الذِّكر » ؛ افترض عليكم أنْ تذكُروه وتشكُروه بألسنتكم ، و« من » متعلّقة بمحذوف دلّ عليه المصدر المتأخّر ؛ تقديره : « وافترض عليكم الذّكر من ألسنتكم الذكر » .

ثم ذكر أنّ التقوى المفترَضة هى رِضَا الله وحاجته من خَلْقه ، لفظة « حاجته » مجاز ، لأنّ الله تعالى غنىٌّ غير محتاج ؛ ولكنه لما بالغ فى الحثّ والحضّ عليها ، وتوعدّ على تركها جعله كالمحتاج إلى الشىء ، ووجْهُ المشاركة أنّ المحتاج يحثّ ويحضّ على حاجته ، وكذلك الآمر المكلّف إذا أكّد الأمر .

قوله : « أنتم بعينه » ؛ أى يعلم أحوالكم ، ونواصيكم بيده ؛ الناصيَة : مقدّم شعر الرأس ؛ أى هو قادر عليكم قاهرٌ لكم ، متمكّن من التصرّف فيكم ، كالإنسان القابض على ناصية غيره .

وتقلّبكم فى قبضته ، أى تصرّفكم تحت حكمه ، لو شاء أن يمنعكم منعكم ؛ فهو كالشىء فى قَبْضَة الإنسان ؛ إن شاء استدام القبض عليه ، وإنْ شاء تركه .

ثم قال : إن أسررتُم أمراً علمه ، وأن أظهرتموه كتَبَه ، ليس على أنّ الكِتَابة غيرُ العلم ، بل هما شىء واحد ؛ ولكنّ اللفظ مختلِف .

ثم ذكر أنّ الملائكة موكّلة بالمكلّف؛ وهذا هو نصّ الكتاب العزيز؛ وقد تقدّم القول فى ذلك .

ثم انتقل إلى ذكر الجنّة ؛ والكلام يدلّ على أنها فى السماء ، وأنّ العرش فوقها .

ومعنى قوله : « اصطنعها لنفسه » إعظامُها وإجلالُها ، كما قال لموسى : ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[١]؛ ولأنه لما تعارفَ النّاس فى تعظيم مايصنعونه ؛ أن يقولَ الواحدُ منهم لصاحبه : قد وهبتك هذه الدّار التى اصطنعتُها لنفسى ؛ أى أحكمتها ، ولم أكن فى بنائها متكلّفا بأن أنبَها لغيرى ، صحّ وحَسُن من البليغ الفصيح أن يستعيرَ مثل ذلك فيما لم يصطنعه فى الحقيقة لنفسه ؛ وإنّما هو عظيم جليل عنده .

قوله : « ونورها بهجته » ؛ هذا أيضا مستعار ، كأنّه لما كان إشراقُ نورها عظيما جدًّا نسبه إلى بهجة البارىّ ، وليس هناك بهجة على الحقيقة ؛ لأنّ البهجة حسن الخلقة ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٢] ؛ أى من كلّ صنف حسن .

قوله : « وَزُوّارُها ملائكته » قد ورد فى هذا من الأخبار كثير جدًّا ، ورفقاؤها: رسله ، من قوله تعالى : ﴿ وحَسُنَ أولَـٰئِكَ رَفِيقًا ﴾[٣] .

ويوشِك ، بكسر الشين ، فعلٌ مستقبَل ، ماضيه « أوشك » ؛ أى أسرع .

ورهِقَه الأمر بالكسر : فاجأه .

ويُسَدّ عنهم باب التوبة ، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفا فقط ؛ لا لقبح القبيح ، قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ ﴾[٤] .

---

(١) سورة طه ٤٩ .

(٢) سورة ق ٧ .

(٣) سورة النساء ٦٩ .

(٤) سورة النساء ١٨ .

وإنما قال : فى مثل ما سأل إليه الرجعة مَنْ كان قبلكم ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

وبنو سبيل : أرباب طريق مسافرون .

وأوذِنَ فلان بكذا : أُعْلِم . وآذنته : أعلمته .

وقد تقدّم لنا كلام بالغ فى التقوى وماهيتها وتأكيد وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها .

***

[نبذ وأقاويل فى التقوى]

روى المبرّد فى الكامل أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب : اتقِ الله يا أمير المؤمنين ، فقال له رجل : أتألِتُ على أمير المؤمنين ! أى أتنتقصه (٢) ! ، فقال عمر : دَعْهُ ، فلا خيرَ فيهم إذا لم يقولُوها ، ولا خيرَ فينا إذا لم تُقْبَلْ لنا .

وكتب أبو العتاهية إلى سهل بن صالح (٣) — وكان مقيما بمكّة : أمّا بعد ، فأنا أوصيك بتقوى الله الذى لا غَناء بك عن تقاته ، وأتقدّم إليك عن الله ، وأذكّرك مكرَ الله فيما دبّت به إليك ساعات الليل والنهار ، فلا تُخدعَنّ عن دينك ، فإنّ ساعاتك أوقاتك إن ظفرت بذلك منك ، وجدتَ الله فيك أسرعَ مكرا ، وأنفذ فيك أمرا ، ووجدت ما مكرت به فى غير ذات الله غير رادٍّ عنك يدَ الله ، ولا مانع لك من أمر الله ؛ ولعمرِى لقد ملأت عينك الفكر واضطربت فى سمعك أصوات العبَر ؛ ورأيت آثار نِعَم الله نسختْها آثارُ نِقَمِه حين استهزئ بأمره ؛ وجُوهِر بمعاندته . ألا إنّ فى حُكم الله

(١) سورة المؤمنين ٩٩ ، ١٠٠ .
(٢) وانظر النهاية لابن الأثير ١ : ٣٨ .
(٣) د : « صاعد » .

أنه مَنْ أكرمه الله، فاستهان بأمره، أهانه الله. السَّعيد مَنْ وُعِظ بغيره، لا وعظك الله في نفسك! وجعل عظتك في غيرك، ولا جَعَل الدُّنيا عليك حسرة وندامة، برحمته!

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله: « لا كرمَ كالتقوى، ولا مال أعْوَد من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا قرين كحسْنِ الخُلق، ولا ميراثَ كالأدب، ولا فائدة كالتوفيق، ولا تجارَة كالعمل الصالح ولا ربحَ كثواب الله، ولا وَرَع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزّهد في الحرام، ولا عِلْم كالتفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حَسَب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا مظاهرة أوفق من المشورة؛ فاحفظ الرّأس وما حوَى، والبطن وما وعَى، واذكر الموت وطولَ البِلى ».

***

الأصْلُ:

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ؛ فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ. فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ؛ ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ!

أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ.

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ؛ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ!

فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا.

أسْهِرُوا عُيُونَكُمْ ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً ، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً : ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ ؛ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

* * *

الشرح :

الرَّمضاء : الأرض الشديدة الحرارة ، والرَّمَض ، بالتحريك : شدّة وقع الشمس على الرّمل وغيره ، وقد رَمِضَ يومُنا بالكسر ، يرمِض رَمَضاً : اشتدّ حرّه ، وأرض رَمِضة الحجارة ، ورمِضتْ قدمُه من الرَّمْضاء : احترقت .

---

(١) سورة محمد ٧ .
(٢) سورة البقرة ٢٤٥
(٣) سورة الحديد ٢١ .

والطابَق ، بالفتح : الآجرّة الكبيرة ؛ وهو فارسىٌّ معرب .

وضجيع حجَر : يومئ فيه إلى قوله تعالى :﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾(١)، قيل: إنها حجارة الكبريت .

وقرين شيطان : يومئ فيه إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾(٢).

وحطَم بعضُها بعضاً : كسره أو أكله، والحُطَمة من أسماء النار ؛لأنها تحطِم ماتلقى، ومنه سُمّىَ الرّجلُ الكثير الأكل : حُطَمة .

واليفَن : الشيخ الكبير . ولهزه : خالطه ، ويقال له حينئذ : مَلْهوز ، ثم أشمط ، ثم أشيب . ولهزتُ القوم : خالطتهم ودخلت بينهم .

والقتير : الشّيب ؛ وأصله رءوس المسامير فى الدُّرُوع تسمّى قتيرا .

والتحمت أطواق النار بالعظام : التفّتْ عليها ، وانضمّت إليها ، والتصقت بها .

والجوامع : جمع جامعة ، وهى الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

ونَشِبت : علقَتْ . والسواعد : جمع ساعد ، وهو الذراع .

و «فى» من قوله :«فى الصحة قبل السُّقْمِ » ، متعلقة بالمحذوف الناصب لله، وهو اتقوا، أى اتقوه سبحانه فى زمان صحتكم ، قبل أن ينزل بكم السّقم ، وفى فسحة أعماركم قبل أن تبدّل بالضِّيق .

وفَكاك الرّقاب : بفتح الفاء : عتقها قبل أن تغلَقَ رهائنها ، يقال غَلِقَ الرهن، بالكسر ؛ إذا استحقّه المرتهن بألّا يفكّه الراهن فى الوقت المشروط ، وكان ذلك من شرع الجاهليّة ، فنهى عنه النبىّ صلى الله عليه وآله ، وقال : لايغلَق الرهن .

---

(١) سورة البقرة ٢٤ .

(٢) سورة ق ٢٣ .

وخذوا من أجسادكم ، أى أنعبوها بالعبادة حتى تنحَل .

والفَلّ : القِلّة . والذّل : الذِّلّة .

وحسيس النّار : صوتها. واللغوب : النَّصَب .

***

[طرف وأخبار]

ونظير قوله عليه السلام : « استقرَضَكم وله خزائن السموات والأرض » ، ما رواه المبرد فى " الكامل " عن أبى عثمان المازنىّ ، عن أبى زيد الأنصارىّ ، قال : وقف علينا أعرابىّ فى حَلْقة يونس [النحوىّ][1] ، فقال : الحمدُ لله كما هو أهله ، وأعوذ بالله أن أذكِّر به وأنساه ، خرجنا من المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ، ثلاثين رجُلاً ممّن أخرجته الحاجة ، وحُمِل على المكروه ، ولا يمرّضُون مرضاهم[2] ، ولا يدفنون ميّتهم ، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه ؛ والله يا قوم لقد جُعْتُ حتى أكَلْتُ النّوى المحرق ، ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدّم ، وحتى خرج من قدمى بَخَص[3] ولحم كثير ، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفَلّ[4] طريق ، ونِضْوَ سَفَر ! فإنّه لاقليل من الأجر ، ولا غنًى عن [ثواب][5] الله ، ولا عمل بعد الموت ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِي

---

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « مريضهم » .

(٣) قال أبو العباس المبرد : قوله : « بخص » ؛ يريد اللحم الذى يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعى . وقال غيره : هو لحم يخالطه بياض من فساد يحل فيه . ويقال : بخصت عينه - بالصاد - ولا يجوز إلا ذلك ويقال : بخسته حقه ؛ بالسين : إذا ظلمته ونقصته ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ وفى المثل : تحسبها حمقاء وهى باخس .

(٤) قال أبو العباس : الفل فى أكثر كلامهم المنهزم الذاهب ؛ وفى خبر كعب بن معدان الأشقرى : « إنا آثرنا الحد على الفل » .

(٥) من الكامل .

يقرض اللهَ قرضاً حسناً ﴾[١] ؛ مَلِيٌّ وفيٌّ ماجد واجد ، [جواد][١] لا يستقرض من عوز[٢] ؛ ولكنه يبلو[٣] الأخيار[٤] .

قال المازنيّ : فبلغني أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا .

ومن كلام على بن عبيدة الريحانيّ : الأيام مستودَعات الأعمال ، ونعم الأرضون هى لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح !

وخطب الحجّاج ، فقال : أيها الناس ، إنكم أغراضُ حِمام وفُرَص هَلَكة . قد أنذركم القرآن ، ونادى برحيلكم الجديدان ! ها إنّ لكم موعداً لا تؤخّر ساعتُه ، ولا تدفَع هجمتُه ، وكأنْ قد دلَفت إليكم نازلتُه ، فتعلّق بكم رَيْبُ المنُون ، وعلقَتْ بكم أمّ اللُّهَيم الحيزبون ؛ فماذا هيّأتمْ للرّحيل ؟ وماذا أعددتم للتّزيل ؟ مَنْ لَمْ يأخذ أهبة الحذَر ، نزل به مرهوب القَدَر !

***

[خطبة لأبى الشخباء العسقلانىّ]

قلت : وقد شُغِف الناس فى المواعظ بكلام كاتب محدث ؛ يعرف بابن أبى الشخباء

---

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

(٢) قال أبو العباس : « لا يستقرض من عوز » ؛ فالعوز تعذر المطلوب ؛ يقال : أعوز فلان ؛ فهو معوز ؛ إذا لم يجد .

(٣) قال أبو العباس : قوله : « ولكن ليبلو الأخيار » ؛ يقال : الله يبلوهم ويبتليهم ويختبرهم فى معنى وتأويله يمتحنهم ؛ وهو العالم عز وجل بما يكون ؛ كعلمه بما كان ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

(٤) الخبر فى الكامل ١ : ٤٥١ ـ ٤٥٥ .

العسقلانيّ وأنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه ، هي أحسن ماوجدتُه له ، ليعلمَ الفرق بين الكلام الأصيل والمولّد :

أيها النّاس ، فُكّوا أنفسكم من حَلَقات الآمال المتعبة، وخفّفُوا ظهوركم من الآصار المستحقبة ، ولا تسيمُوا أطماعكم في رياض الأماني المتشعبة ، ولا تُميلوا صَغْوَاكُم إلى زبارج الدنيا المحبّبة ، فتظلّ أجسامكم في هشائمها عاملة نَصِبَة ! أما علمتم أنّ طباعها على الغدر مركّبة ، وأنّها لأعمار أهلها منتهبة ، ولِمَا ساءهم منتظرة مرتقبة ، في هَبّتها راجعة متعقّبة! فانضوا رَحِمكم الله ركائبَ الاعتبار مشرّقة ومغرّبة ، وأجْرُوا خيول التفكّر مصعّدة ومصوّبة ؛ هل تجدون إلا قصورا على عروشها خَرِبة ، وديارا معطشة من أهلها مجدبة ! أين الأمم السّالفة المتشعّبة ، والجبابرة الماضية المتغلّبة ، والملوك المعظمة المرجّبة، أولو الحَفَدة والحجبة ، والزّخارف المعجبة ، والجيوش الحرّارة اللّجِبة والخيام الفضفاضة المطنّبة ، والجياد الأعوجيّة المجنّبة، والمصاعب الشدقميّة المُصْحَبة ، واللّدان المثقّفة المدرّبة ، والماذيّة الحصينة المنتخبة ، طرقت والله خيامهم غير منتهبة ، وأزارتهم من الأسقام سيوفا مُقطبة، وسيّرت إليهم الأيامُ من نُوَبها كتائب مكتّبة ، فأصبحت أظفار المنية من مُهجهم قانية مختضِبة ، وغدت أصوات النادبات عليهم مجلِبة ، وأكلت لحومَهم هوامّ الأرض السَّغِبة . ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عُذرٌ ولا معتبة ، وتجازَى كلُّ نفس بما كانت مكتسبة ، فسعيدة مقرّبة تجري من تحتها الأنهار مثوّبة ، وشقيّة معذّبة في النار مكبكبة .

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب . وهي كما تراها ظاهرة التكلّف ، بيّنة التوليد، تخطب على نفسها ، وإنّما ذكرتُ هذا ، لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من ''نهج البلاغة'' كلام محدَث ، صنعه قومٌ من فُصحاء الشيعة ، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن وغيره ، وهؤلاء قوم أعمت العصبيّة أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح

وركبوا بُنَيَّات[1] الطريق ، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام ، وأنا أوضّح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول :

***

[رأى للمؤلف فى كتاب نهج البلاغة]

لا يخلو إما أن يكون كلّ " نهج البلاغة " مصنوعا منحولاً ، أو بعضه . والأوّل باطل بالضّرورة لأنّا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدّثون كلّهم أو جلّهم ، والمؤرّخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسبُوا إلى غرض فى ذلك . والثانى يدلّ على ما قلناه ؛ لأن مَنْ قد أنِسَ بالكلام والخطَابة ، وشدَا طرَفاً من علم البيان ، وصار له ذوقٌ فى هذا الباب لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد ، وإذا وقَف على كرّاس واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء ، أو لاثنين منهم فقط ؛ فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامَيْن ، ويميّز بين الطريقتين . ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده ، لو تصفّحنا ديوان أبى تمام ؛ فوجدناه قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ، لعرفْنا بالذّوق مبايَنَتها لشعر أبى تمام وَنَفَسه ، وطريقته ومذهبه فى القريض ، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ؛ لمباينتها لمذهبه فى الشعر ، وكذلك حذَفُوا من شِعْر أبى نُوَاس شيئا كثيرا ؛ لِمَا ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ، ولا من شعره ، وكذلك غيرُهما من الشعراء ، ولم يعتمدوا فى ذلك إلا عَلَى الذّوْق خاصة .

وأنت إذا تأملت " نهج البلاغة " وجدته كلّه ماء واحداً ، ونَفَساً واحدا ، وأسلوباً واحدا ، كالجسم البَسيط الذى ليس بعضٌ من أبعاضه مخالِفاً لباقى الأبعاض فى الماهيّة ، وكالقرآن العزيز ، أوّله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكلّ سورة منه ، وكل آية مماثلة فى

(١) يقال : ركب بنيات الطريق ، أى ضل ؛ وأصل البنيات : الطرق الصغار ، ثم أطلقت على الترهات .

للأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقِي الآيات والسُّور ؛ ولو كان بعض " نهج البلاغة " منحولًا وبعضه صحيحا، لم يكن ذلك كذلك؛ فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلالُ مَنْ زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضَه منحولٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه مالا قِبَلَ له به ، لأنّا متى فتحنا هذا الباب ، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا فى هذا النّحْو ، لم نثِقْ بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعنٍ أن يطعن ويقول : هذا الخبر منحول؛ وهذا الكلام مصنوع، وكذلك مانقِل عن أبى بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك ، وكلّ أمر جعله هذا الطاعن مستندا له فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وآله ، والأئمة الراشدين ، والصحابة والتابعين ، والشعراء والمترسّلين ، والخطباء ؛ فلناصِرِى أميرِ المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من " نهج البلاغة " وغيره ، وهذا واضح .

(١٨٥)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله للبُرج بن مُسْهِر الطائىّ ، وقد قال له بحيث يسمعه : « لاحكمَ إلا الله » ، وكان من الخوارج :

اسْكُتْ قَبَحَكَ(١) اللهُ يَاأَثْرَمُ افَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ ، نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

* * *

الشَّرْحُ :

البرج بن مُسْهِر — بضم الميم وكسر الهاء — بن الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طىّ بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . شاعر مشهور من شعراء الخوارج ، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين عليه السلام ، فزجره .

وقَبَحك الله : لفظة معناها كَسَرك ، يقال : قَبَحْتُ الجوْزة ، أى كسرتها ، وقيل : قبحه : نحّاه عن الخير . وكان البرجُ ساقطَ الثنيّة ، فأهانه بأن دعاه به ، كما يُهان الأعور بأن يقال له : ياأعور .

والضئيل : الدقيق الحقير ، ضَؤُل الرجل ، بالضمّ ضآلة : نَحُفَ ، وضَؤُل رأيه : صَغُر ، ورجل متضائل ، أى شَخْت ، وكذلك : « ضُؤَلَة » .

---

(١) مخطوطة النهج : « قبحك » بالتشديد .

ونَمر الباطل : صاح ، والمراد أهلُ الباطل ، ونَمرَ فلان فى الفتنة : نهض فيها .

ونجَم : طلع ، أى طلع بلا شرف ولا شجاعةٍ ولا قدم ، بل على غفلة ، كما ينبت قرن الماعز . وهذا من باب البديع ؛ وهو أنْ يشبّه الأمر يراد إهانته بالمهين ، ويشبّه الأمر يراد إعظامه بالعظيم ، ولو كان قد تكلّم فى شأن ناجمٍ يريد تعظيمه ، لقال : نجم نجوم الكوكب من تحت الغَمام ، نجومَ نَوْر الربيع من الأكام ، ونحو ذلك .

(١٨٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوِي أنّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همّام، كان رجلاً عابداً ، فقال له: يا أمير المؤمنين : صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم ، فتثاقل عليه السلام عن جوابِهِ، ثم قال: يا همّامُ اتقِ اللهَ وأحسن: فـ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[1].

فلم يقنع همّامٌ بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ ـ حَيْثُ خَلَقَهُمْ ـ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ؛ لأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ.

غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ، كَالَّذِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ، لَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ.

---

(١) سورة النحل ١٢٨ .

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ .

صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً ، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنفُسَهُمْ مِنْهَا .

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا ؛ يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنفُسَهُمْ ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ ؛ وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ .

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ، وَيَقُولُ : لَقَدْ خُولِطُوا ! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ؛ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ ، فَهُمْ لِأَنفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ؛ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي !

اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ !

* * *

الشرح :

همّام المذكور فى هذه الخطبة : هو همّام بن شُريح بن يَزِيد بن مرّة بن عمرو بن جابر بن يحيى بن الأصهب بن كَعْب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذُهْل بن مُرّان بن صيفىّ بن سعدالعشيرة .

وكان همّام هذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه ، وكان ناسكاً عابدا ، قال له : ياأميرَ المؤمنين ، صِفْ لى المتّقين حتى أصيرَ بوصفك إيّاهم ، كالنّاظر إليهم .

فتثاقل عن جوابه ، أى أبطأ .

فعزم عليه ، أىأقسم عليه ، وتقوللمن يكرّر عليكَ الطّلبوالسّؤال : قد عزم علىّ ، أى أصرّ وقَطع ، وكذلك تقول فى الأمر تُريد فعلَه وتَقْطَع عليه : عزمت عَزْماً وعَزْماناً وعَزِيمة وعزيماً .

فإن قلت : كيف جازَ له عليه السّلام أن يتثاقَل عن جواب المسترشِد ؟

قلت : يجوز أن يكون تثاقل عن جوابه ؛ لأنّه علم أنّ المصلحة فى تأخير الجواب ، ولعلّه كان حضر المجلس مَنْ لايحِبّ أن يجيبَ وهو حاضر ، فلمّا انصرف أجاب ، ولعلّه رأى أنّ تثاقلَه عن الجواب يشدّ تشوّقَ همّام إلى سماعه ، فيكون أنجعَ فى موعظته ، ولعلّه كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة ؛ لامن باب تأخير البيان عَنْ وقت الحاجة ، ولعلّه تثاقَل عن الجواب ليرتّب المعانىَ الّتى خطرت له فى ألفاظ مناسبة لها ، ثم ينطق بها كما يفعَلُه المتروّى فى الخطبة والقريض

فإن قلت : فما معنى إجابته له أولا بقوله : ياهمّام ، اتقِ الله وَأحْسِنْ فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ؟ وأىّ جواب فى هذا عن سؤال همام ؟

قلت : كأنّه لم ير فى بادئ الحال شرح صفات المتقين على التفصيل ، فقال لهمام : ماهيّة التقوى معلومة فى الجلة ، فاتق الله وأحسن ؛ فإنّ الله قد وَعَد فى كتابه أن يكون وليًا وناصرا لأهل التقوى والإحسان ، وهذا كما يقول لك قائل : ما صفاتُ الله الّذى أعْبُده أنا والناس ؟ فتقول له : لاعَلَيْك ألّا تعرف صفاته مُفَصّلة ، بعد أن تعلَمَ أنّه خالق العالم ، وأنّه واحدٌ لا شريك له ! فلما أبى همّام إلّا الخوض فيما سأله على وجه التّفْصيل ،قال له : إنّ الله تعالى خَلَق الخلق حين خلقهم ، ويروى :« حيث خلقهم » وهو غَنِيٌّ عن طاعتهم؛ لأنّه ليس بجسم فيستضرّ بأمر أو ينتفع به .

وقَسَم بين الخلق معايشهم ، كما قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١) .

وفى قوله :«وضعهم مواضعهم »معنى قوله :﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ﴾ (١)، فكأنه عليه السلام أخذ الألفاظ ، فألغاها وأتى بمعناها .

فلما فرغ من هذه المقدّمة شرَع فى ذكر صفات المتقين ، فقال : إنّهم أهلُ الفضائل ثم بَيّن ماهذه الفضائل ، فقال : « منطقهم الصواب » .

فإن قلت :أىّ فائدة فى تقديم تلك المقدّمة ، وهى كون البارئ سبحانه غنيًّا لاتضرّه المعصية ، ولا تنفعه الطاعة !

قلت : لأنّه لما تضمّنت الخطبة مدحَ الله تعالى للمتقين وما أعدّه لهم من الثواب ، وذمّه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم ، فربّما يتوهّم متوهّمٌ أنّ الله تعالى مارغّب فى الطّاعة

---

(١) سورة الزخرف ٣٢ .

هذا الترغيب البالغ ، وخوّف من المعصية هذا التخويف البالغ ، إلّا وهو منتفع بالأولى ، مستضرٌّ بالثانية ، فقدّم عليه السلام تلك المقدّمة نفياً لهذا الوهم .

* * *

[فصل فى فضل الصمت والاقتصاد فى المنطق]

واعلم أنّ القول فى خَطَر الكلام وفضل الصّمت وفضل الاقتصار فى المنطق وسيعٌ جدًّا ، وقد ذكرنا منه طرَفاً فيما تقدّم ، ونذكر الآن منه طرفاً آخر .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَنْ صَمَتَ نجا » .

وقال أيضاً : « الصمت حُكْم وقليل فاعله » .

وقال له صلى الله عليه وآله بعضُ أصحابه : أخبرنى عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحداً بعدك ، فقال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قال : فما أتّقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه .

وقال له عليه السلام عُقْبة بن عامر : يارسولَ الله ، ما النّجاة ؟ قال : « املِكْ عليكَ لسانك [1] ، وابْكِ على خطيئتك ؛ وليسعْكَ بيتُك » .

وَرَوَى سهل بن سعد الساعديّ ، عنه صلى الله عليه وآله : « من يتوكّلْ لى بما بين لَحْيَيْه ورِجْلَيْه أتوكّل له بالجنّة » .

وقال : « مَنْ وُقِيَ شرَّ قَبقَبِه [2] وَذَبذَبِهِ [3] ولَقْلَقِه [4] فقدْ وُقِيَ » .

وروى سَعيد بن جُبَير مرفوعا: «إذا أصبَح ابنُ آدم أصبحَتِ الأعضاء كلّها تشكو

---

(١) املك عليك لسانك ؛ أى لا تحركه إلا بما يكون لك لا عليك .

(٢) القبقب : البطن ؛ من القبقبة ؛ وهى صوت يسمع من البطن فكأنها حكاية ذلك الصوت . النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٢٥ .

(٣) ذبذبه ، أى ذكره . وانظر النهاية لابن الأثير ٢ : ٤٣ .

(٤) اللقلق : اللسان . النهاية لابن الأثير ٤ : ٦٤ ؛ قال : ومنه حديث عمر : ما لم يكن نقع ولا لقلقة » ؛ أراد الصياح والجلبة عند الموت ؛ وكأنها حكاية الأصوات الكثيرة .

اللّسان ، تقول : أى بنى آدم ، اتق الله فينا ؛ فإنّك إن استقَمْتَ استقمنا ، وإن اعوجَجْتَ اعوججْنا » .

وقد رُوِى أنّ عمر رأى أبا بكر وهو يمدّ لسانه ، فقال : ماتصنع ؟ قال : هذا الّذى أوردنى الموارِدَ ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « ليس شىء فى الجسد إلّا يشكو إلى الله تعالى اللّسان عَلَى حِدّته » .

وسُمِعَ ابنُ مسعودٍ يُلَبّى عَلَى الصَّفا ، ويقول : يالسانُ ، قلْ خيراً تَغنَم ، أواصمت تَسْلَمْ من قبل أن تندَم . فقيل له : يا أبا عبدِ الرّحمن ، أهذا شىء سمِعتَه ، أم تقوله مِنْ تلقاءِ نَفْسِك ؟ قال : بل سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « أ كثر خطايا ابنِ آدم من لسانه » .

وروى الحسن مرفوعا : « رحم الله عبداً تكلّم فغنِم ، أوسكت فسَلِم » .

وقالت التلامذةُ لعيسى عليه السلام : دلّنا على عملٍ ندخل به الجنة ، قال : لاتنطقوا أبدا ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال . فلا تنطقوا إلّا بخير .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله عند لسان كلّ قائل ، فاتّقَى الله امرؤ علم ما يقول » .

وكان يقول : لاشىء أحقّ بطولِ سجنٍ من لسان .

وكان يقال : لسانك سَبُع ، إن أطلقتَه أ كلك .

فى حكمة آل داود : حقيقٌ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظا للسانه ، مقبِلا على شانه .

وكان يقال : مَنْ عَلِم أنّ كلامَه من عمله ، أقلّ كلامَه فيما لاينفعه .

وقال محمد بن واسع : حفظُ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدينار والدرهم .

اجتمع أربعةُ حكماء : من الرّوم ، والفرس ، والهند ، والصين ، فقال أحـدهم : أنا أندمُ على ماقلتُ ولا أندم على مالم أقل : وقال الآخر : إذا تـكلّمتُ بالـكلمة ملـكتنى ، ولم أملِـكها ، وإذا لم أتـكلّم ملـكتها ولم تملِـكنى . وقال الآخر : عجبتُ للمتـكلّم ؛ إن رجعتْ عليه كلته ضرّته ، وإن لم ترجع لم تنفعه ، وقال الرّابع : أنا على ردّ مالم أقل أقدرُ منّى على ردّ ماقلت .

* * *

[ذكر الآثار الواردة فى آفات اللسان]

واعلم أنّ آفاتِ اللّسان كثيرة :

فمنها الـكلام فيما لايعنيك ؛ وهو أهونُ آفاتِ اللّسان ، ومع ذلك فهو عَيبٌ ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مِن حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » .

وروى أنّه عليه السلام مرّ بشهيد يوم أُحُد ، فقال أصحابه : هنيئـا له الجنّة ! قال : وما يدريكم لعلّه كانَ يتـكلّم فيما لايعنيه !

وقال ابنُ عباس : خمسٌ هى أحسنُ وأنفعُ من حُمْرِ النّعم :لاتتـكلّمْ فيمالايعنيك، فإنّه فضل لا آمن عليه الوِزْر . ولا تتـكلّم فيما يعنيك حتى تجدَ له موضعا، فربّ متكلّم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فأساء . ولا تُمارِ حليما ولاسفيها ،فإنّ الحليم يَقليكَ، والسفيه يُؤذيك . واذكر أخاك إذا تغيب عنك بماتحبّ أن يذكرك به ، وأعفه عمّاتحبّ أن يُعفيَك عنه . واعمل عمل رجلٍ يرى أنّه مجازًى بالإحسان ، مأخوذ بالجرائم .

* * *

ومنها فضولُ الـكلام وكثرته ، وترك الاقتصار؛ وكان يقال :فضول المنطق وزيادته نَقْص فى العقل ، وهما ضدّان متنافيان ، كلّما زاد أحدُهما نقص الآخر .

وقال عبدُالله بن مسعود : إيَّاكُمْ وفضول الكلام ؛ حَسْبُ امرئٍ مابلغ به حاجتَه.

وكان يقال : مَنْ كثر كلامُه كثر سقطُه .

وقال الحسن : فضولُ الكلام كفضول المال ، كلاهما مهلِك .

* * *

ومنها الخوض فى الباطل ، والحديث فيما لايحلّ ، كحديث النِّساء ومجالس الخمر . ومقامات الفُسّاق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ ﴾ (١) .

* * *

ومنها المِراء (٢) والجدال ، قال عليه السلام : « دَعِ المِراء وإن كنت محقًّا » .

وقال مالك بن أنس : المِراء يقسِّى القلب ، ويورِث الضَّغائن .

وقال سُفيان الثورىّ : لو خالفتُ أخى فى رُمّانة فقال : حُلْوة ، وقلت: حامضة ، لَسَعى بى إلى السلطان .

وكان يقال : صافِ مَنْ شئت ثم أغضِبْه بالجدال والمِراء ؛ فليرمينّك بداهية تمنعك العيش .

وقيل لميمون بن مِهْران : مالك لاتفارق أخا لك عن قِلًى؟ قال : لأنّى لاأشارِيه ، ولا أماريه .

* * *

ومنها التقعّر فى الكلام بالتشدّد ، والتكلّف فى الألفاظ ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة المدثر ٤٥ .

(٢) المراء ، وفعله مارى يمارى : كثرة المنازعة واللجاجة فى القول

«أبغضكم إليّ، وأبعدُكم منّي مجالسَ يوم القيامة الثّرثارون[1] المتفيهقون[2] المتشدّقون[3].»

وقال عليه السلام: «هلك المتنطّعون...»، ثلاث مرات، والتنطّع: هو التعمّق والاستقصاء.

وقال عمر: إن شقاشِقَ الكلام من شقاشق الشيطان.

***

ومنها الفُحْش والسبّ والبَذاء[4] قال النّبي صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والفُحْش؛ فإنّ الله لا يحبّ الفحش، ولا يرضى الفُحش».

وقال عليه السلام: «ليس المؤمنُ بالطّعان، ولا باللعان، ولا بالسبّاب، ولا البذيء».

وقال عليه السلام: «لو كان الفُحْشُ رجلًا لكان رجل سوء».

***

ومنها المُزاح الخارج عن قانون الشريعة، وكان يقال: مَنْ مزح استُخِفّ به.

وكان يقال: المُزاح فحل لا ينتج إلا الشرّ.

***

ومنها الوعد الكاذب؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: العِدَة دين، وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل، فقال: ﴿إنّه كانَ صادِقَ الوَعْدِ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أوْفُوا بالعُقُودِ﴾[6].

***

(١) الثرثارون: الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق، وأصله من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عين ثرثارة.

(٢) المتفيهقون، أصله من قولهم: «فهق الغدير يفهق، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد».

(٣) المتشدقون: المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز وفي اللسان: وقيل: «أراد بالمتشدق: المستهزئ بالناس، يلوي شدقه بهم وعليهم».

(٤) البذاء، بالفتح: السفه والفحش في المنطق.

(٥) سورة مريم ٥٤.

(٦) سورة المائدة ١.

ومنها الـكذب فى القول واليمين ، والأمر فيهما مشهور .

***

ومنها الغِيبَة ، وقد تقدّم القول فيها .

***

قوله عليه السلام : «وملبسهم الاقتصاد» ؛ أى لبس بالثمين جِدًّا ، ولا بالحقير جدًّا ، كالخِرَق التى تُؤخَذُ من مَلَى المزابل ؛ ولـكنه أمرٌ بين أمرين ؛ وكان عليه السلام يلبس الـكَرَابيسَ ، وهو الخام الغليظ ؛ وكذلك كان عمرُ رضى الله عنه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبَسُ اللّيّنَ تارةً ، والخشِنَ أخرى .

قوله عليه السلام : «ومشيُهم التّواضع» ؛ تقديره : وصِفةُ مشيهم التواضع ، فحذف المضاف ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾[1] .

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشى ، وهو يتبختَرُ ويميس فى مِشيتِه ، فصاح به ، فأقبل ، فقال له : وَيلك ! لو عرفتَ نفسك لقصَدْتَ فى مَشيك ، أمّا أمُّك فأمَةٌ ابتعتُها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى الناس من أمثاله !

والأصل فى هذا الباب، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[2] .

وقوله : « غَضُّوا أبصارهم » أى خَفَضُوها وغَمَضُوها ، وغضضت طرفى عن كذا : احتملت مكروهه .

وقوله : « وقفوا أسماعهم على العِلم النافع لهم » أى لم يشغَلوا سمعَهم بشىء غير العلوم النافعة ؛ أى لم يشتغلوا بسماع شِعْرٍ ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا .

---

(١) سورة لقمان ١٩ .
(٢) سورة الإسراء ٣٧ .

قوله : « نزلت أنفُسهم منهم فى البَلَاء ؛ كالّذى نزلت فى الرخاء » ، يعنى أنّهم قد طابوا نفسا فى البلاء والشدّة كطيب أنفسهم بأحوالهم فى الرّخاء والنعمة ؛ وذلك لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها ، وتقدير الكلام من جهة الاعراب : نَزَلَتْ أنفُسهم منهم فى حالِ البلاء نزولًا كالنُّزُول الذى نزلته منهم فى حال الرّخاء ، فوضع « كالذى » نصب ؛ لأنه صفة مصدر محذوف ، والموصول قد حذف العائد إليه ، وهو الهاء فى « نزلته » كقولك : ضربت الذى ضربت ؛ أى ضربت الذى ضربته .

ثم قال عليه السلام : إنّهم من شدّة شوقهم إلى الجنة ، ومن شدة خوفهم من النار ، تكاد أرواحُهم أن تفارق أجسادَهم ، لولا أنّ الله تعالى ضرب لهم آجالا ينتهون إليها .

ثم ذكر أنّ الخالقَ لمّا عظُم فى أعينهم استصغروا كلّ شىء دونه ، وصاروا لشدّة يقينهم ومكاشفتهم ، كمن رأى الجنة فهو يتنعّم فيها ، وكمنْ رأى النار وهو يعذّب فيها ، ولا ريبَ أنّ منْ يشاهد هاتين الحالتين ، يكون على قَدَمٍ عظيمة من العبادة والخوف والرجاء ، وهذا مقام جليل ، ومثله قوله عليه السلام فى حقّ نفسه : « لو كُشِفَ الغِطاء ما ازددتُ يقينا » . والواو فى « والجنة » واو « مع » ، وقد روى بالعطف بالرفع على أنه معطوف على « هم » ، والأوّل أحسن .

ثم وصفهم بحزن القلوب ، ونحافة الأجسام ، وعفّة الأنفس وخفّة الحوائج ، وأنّ شرورهم مأمونة على الناس ، وأنهم صَبَرُوا صبراً يسيرا أعقبهم نعيما طويلا .

ثم ابتدأ م فقال : تجارة مربحة ، أى تجارتهم تجارة مربحة ، فحذف المبتدا . وروى : « تجارةً مربحةً » ، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل .

قوله : « أمّا الليلَ » بالنصب على الظرفية ، وروى « أمّا الليلُ » على الابتداء .

قوله : « تالين » ؛ منصوب على أنّه حال ؛ إمّا من الضمير المرفوع بالفاعلية فى « صافّون » أو من الضمير المجرور بالاضافة فى : « أقدامهم » .

والترتيل: التبيين والإيضاح؛ وهو ضدّ الإسراع والعَجَل ويروى: «يرتلونه» على أنّ الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أى يستجلبون لها الحُزْن به، ويستثيرون به دواء دائهم؛ إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْبُكَاءَ لَرَاحَةٌ به يشتفى من ظنّ أنْ لاتلاقيا

وقال آخر:

شَجَاكَ مِنْ ليلتك الطُّولُ فالدَّمْعُ من عينيك مَسْدُولُ
وهو إذا أنتَ تأمَّلْتَهُ حُزْنٌ على الخدَّين محلولُ

ثم ذكر أنهم إذا مرُّوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنّوا بها، طمعا فى نيله، وتطلّعت أنفسُهم إليها شوْقًا، أى اشرأبّت.

«ونصبَ أعينهم» منصوب على الظرفية، ورُوى بالرفع؛ على أنه خبر إنّ؛ والظن هاهنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾(١).

وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه. وزفيرُ النّار: صوتها

وقد جاء فى فضل قراءة القرآن شىء كثير، روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أنّ أحداً أوتى أفضلَ مما أوتى فقد استصغر ماعظّمه الله».

وقال صلى الله عليه وآله: «لو كان القرآن فى إهاب مامسّته النار».

وقال: «أفضلُ عبادة أمّتى قراءة القرآن».

---

(١) سورة المطففين ٤.

وقال : « أهلُ القرآن أهل الله وخاصّته » .

وقال : « إنّ هذه القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : فما جِلاؤها ؟ قال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله سبحانه لَأشدّ أَذَنًا[1] إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قَيْنته » .

وقال الحسن رحمه الله : مادون القرآن من غنًى ، ولا بعد القرآن من فاقة .

***

ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم ، فقال : « حانُون على أوْساطهم » ؛ حَنَيْتُ العُود : عطَفته ، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصّلاة .

مفترشُون لجباههم : باسطون لها على الأرض .

ثم ذكر الأعضاء السّبعة التي مباشرتُها بالأرضِ فروضٌ في الصلاة ، وهي : الجبهة ، والكفّان ، والرّكبتان ، والقَدَمان .

قوله عليه السلام : « يطلُبون إلى الله » ، أي يسألونه ، يقال : طلبتُ إليك في كذا ، أي سألتك ، والكلام على الحقيقة ، مقدّرٌ فيه حال محذوفة يتعلّق بها حرف الجرّ ، أي يطلبون سائلين إلى الله في فكاك رقابهم ؛ لأنّ « طلب » لا يتعدّى بحرف الجرّ

ثم لما فرغ من ذكر الليل ، قال : « وأمّا النّهار فحلماء ، علماء ، أبرار أتقياء » ، هذه الصّفات هي التي يطلع عليها الناظرون لهم نهارا ، وتلك الصفات المتقدّمة من وظائف الليل .

ثم ذكر ماهمّ عليه من الخوف ، فقال عليه السلام : « إنّ خوفَهم قد بَرَاهُمْ بَرْىَ

---

(١) الأذن : الاستماع .

«القِداح»، وهى السّهام ، واحدها قِدْح ، فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ومابهم من مرض ، نظير هذا قول الشاعر[١]

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ ... بَيْنَ الْبُيُوتِ من الحياء سَقِيماً[٢]

حَتَّى إذا رُفِعَ اللّواء رأيته ... تَحْتَ اللّواءِ عَلَى الْخَمِيسِ زَعِيما[٣]

ويقال للمتّقين لشدّة خوفهم : كأنهم مَرْضَى، ولا مَرَضَ بهم . وتقول العرب للكرام من النّاس ، القليل المأكل والمشرب ، رافضى اللباس الرفيع ، ذوى[٤] الأجسام النحيفة : مِراضٌ من غير مرض ، ويقولون أيضا للمرأة ذات الطرْف الغضيض الفاتِرِ ، ذات الكسل : مريضة من غير مرض ، قال الشاعر :

ضعيفة كَرّ الطرْف تحسِبُ أنّها ... حَدِيثَةُ عَهْدٍ بالإفاقةِ مِنْ سُقْمِ

***

(١) من أبيات لليلى الأخيلية ، ذكرها أبو تمام فى الحماسة ٤ : ١٦٠٧ ــ بشرح التبريزى ، أولها :

يَأَيُّهَا السّدِمُ الملوّى رَأْسَهُ ... لِيقُودَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ بَرِيما

أتريدُ عَمْرَو بن الخليع ودونَهُ ... كَعْبٌ ، إذًا لَوَجَدْتَهُ مَرْءوما

وفى أمالى القالى : ١ : ٢٤٨ : « كان الأصمعى يرويها لحميد بن ثور الهلالى » . وانظر تنبيهات البكرى ٧٨ .

(٢) قال التبريزى : « أى لايبالى كيف كان ثيابه لأنه لايزين نفسه ، إنما يزين حسبه ويصون كرمه ، وقيل : معناه أنه غليظ المناكب ، وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قميصه ، وقيل : أرادت أنه كثير الغزوات متصل الأسفار ، فقميصه متخرق لذلك . وقولها : « من الحياء سقيما » ، تعنى أنه ينتقع لونه من شدة الحياء ، وإنما يستحى من ألا يكون قد بلغ من إكرام القوم ما فى نفسه » .

(٣) الخميس : الجيش؛ لأنه يكون من خمس كتائب ، أو خمسة صفوف: المقدمة ، والميمنة ، والميسرة، والقلب ، والساقة . وسمى الرئيس زعيما ، لأنه يزعم عن قومه ، أى يقول .

(٤) ب : « ذو » ، وصوابه من د .

[ذكر الخوف وما ورد فيه من الآثار]

واعلم أنّ الخوفَ مقامٌ جليل من مقامات العارفين ، وهو أحد الأركان التي هي أصولُ هذا الفنّ ؛ وهو التَّقْوَى التي حثّ الله تعالى عليها ، وقال : إنّ أكرَمَ الناس عنده أشدُّهم خوفاً له . وفي هذه الآية وحدها كفاية ، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدتَ أكثره ذكرَ المتقين ، وهم الخائفون ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَنْ خافَ اللهَ خافَهُ كلّ شيء ، ومَنْ خاف غيرَ الله خوّفه الله من كلّ شيء » .

وقال عليه السّلام : « أتمّكُمْ عقلاً أشدّكم لله خوفاً ، وأحسنُكم فيما أمرَ به ونهى عنه نظراً » .

وقال يحيى بن مُعاذ : مِسكين ابن آدم ، لو خاف النّار كما يخاف الفقر ، دخل الجنة .

وقال ذُو النّون المصريّ : ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرّجاء ؛ فإنّ الرّجاء إذا غلب تشوّش القلب .

وقيل لبعض الصالحين : مَنْ آمنُ الخلقِ غداً ؟ قال : أشدُّهم خوفاً اليوم .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام من أصحابك ، يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : إنّك والله لأن تَصْحَبَ قوماً يخوّفونك حتى تدركَ الأمْن ، خيرٌ لك من أن تصحَبَ قوما يؤمّنونك حتى يدركك الخوف .

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وآله في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (١) : هم الذين يعصون ويخافون المعصية ؟ قال : « لا ، بل الرّجل يصوم ويتصدّق ، ويخاف ألا يقبل منه » .

---

(١) سورة المؤمنين ٦٠ .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما من قَطْرةٍ أحبّ إلى الله تعالى من قَطْرة دمع من خشية الله ، أو قطرةِ دمٍ أريقت في سبيل الله » .

وقال عليه السلام : « سبعة يظلّهم الله بظلّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه » ؛ وذكر منهم رجلا ذكر الله في خَلْوةٍ ، ففاضت عيناه .

* * *

قوله عليه السلام : « ويقول قد خولطُوا » ؛ أي أصابتهم جِنّة .

ثم قال : « ولقد خالطهم أمر عظيم » ، أي مازجهم خوف عظيم تولّهوا لأجْلِه ، فصاروا كالمجانين .

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم ، ولا يرضيهم اجتهادهم ؛ وأنّهم يتّهمون أنفسهم ، وينسبونها إلى التقصير في العبادة ، وإلى هذا نظر المتنبي ، فقال :

يَسْتَصْغِرُ الخَطَرَ الكَبِيرَ لِنَفْسِهِ ... وبظنّ دِجْلَةَ ليس تَكْفِي شاربا (١)

قال : « ومن أعمالهم مشفقون » ؛ أي مشفقون من عباداتهم ألّا تُقبل ، وإلى هذا نظر أبو تمام ، فقال :

يتجنّب الآثام ثم يخافها ... فكأنما حسناتُه آثامُ

ومثل قوله : « أنا أعلمُ بنفسي من غيري » . قوله عليه السلام لمن زكّاه نفاقا : « أنا دونَ ما تقول ، وفوقَ ما في نفسك » .

وقوله : « اللهمّ لا تؤخذني بما يقولون ... » إلى آخر الكلام مفرد مستقلّ بنفسه منقول عنه عليه السلام ؛ أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون في أمره ، فمنهم الحامِدُ له ، ومنهم الذامّ ، فقال : اللهمّ لا تؤاخذني . . . » الكلمات إلى آخرها ، ومعناه : اللهمّ

(١) ديوانه ١ : ١٢٥ .

إن كان ما ينسُبُه الذامّون إليّ من الأفعال الموجبة الذمّ حقًّا ، فلا تؤاخـذني بذلك ، واغفر لي مالا يعلمونه من أفعالي ، وإن كان مايقوله الحامدون حقًّا ، فاجعلني أفضلَ ممّا يظنونه فيّ .

***

الأصـلُ :

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ ؛ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ ، وَقَصْداً فِي غِنًى ، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ ، وَطَلَباً فِي حَلاَلٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى ، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ .

يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِراً ، وَيُصْبِحُ فَرِحاً ؛ حَذِراً لَمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ .

إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ .
قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ .

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ ، قَلِيلاً زَلَلُهُ ؛ خَاشِعاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُهُ ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ ، سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيزاً دِينُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ .

الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، بَعِيداً فُحْشُهُ ، لَيِّناً قَوْلُهُ ، غَائِباً مُنْكَرُهُ ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ ، مُدْبِراً شَرُّهُ .

فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ .

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ .

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ .

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ . أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ .

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ .

***

قال : فَصَعِقَ همَّامٌ صعقةً كانت نَفْسُهُ فيها ، فقال أميرُ المؤمنين عليه السّلام :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ .

ثم قال :

هٰكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا !

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَمَا بَالُكَ يا أمير المؤمنين !

فقال عليه السلام :

وَيْحَكَ ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ ، وَسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ ، فَمَهْلاً لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا ، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ !

الشرح :

هذه الألفاظ التي أولها : « قوّة في دين » ؛ بعضها يتعلّق حرف الجر فيه بالظّاهر ، فيكون موضعه نصباً بالمفعوليّة ، وبعضها يتعلّق بمحذوف ، فيكون موضعه نصبا أيضاً على الصّفة ، ونحن نفصّلها .

فقوله : « قوة في دين » حرف الجرّ ها هنا متعلّق بالظاهر ، وهو « قوّة » ، تقول : فلان قويّ في كذا وعلى كذا ، كما تقول : مررتُ بكذا ، وبلغت إلى كذا .

و « وحزما في لين » ؛ ها هنا لا يتعلّق حرف الجرّ بالظاهر ؛ لأنّه لامعنى له ، ألا ترى أنّك لا تقول : فلان حازم في اللّين ؛ لأن اللّين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه ، وليس كما تقول : فلان حازمٌ في رأيه أو في تدبيره ! فوجبَ أن يكون حرف الجر متعلّقا بمحذوف ، تقديره : وحزما كائناً في لين .

وكذلك قوله : « وإيمانا في يقين » ، حرف الجرّ متعلّق بمحذوف : أي كائنا في يقين ، أي مع يقين .

فإن قلت : الإيمان هو اليقينُ فكيف ، قال : « وإيماناً في يقين » ؟ قلت : الإيمانُ هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل ، واليقين هو سكون القلْب فقط ، فأحدُهما غير الآخر .

قوله : « وحرصاً في علم » ، حرف الجرّ ها هنا يتعلّق بالظاهر ، و « في » بمعنى « على » كقوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[1] .

قوله : « وقصدا في غنًى » حرف الجرّ متعلّق بمحذوف ، أي هو مقتصد مع كونه غنيا ، وليس يجوز أن يكون متعلّقا بالظاهر ، لأنه لا معنى لقولك : اقتصِدْ في الغِنَى ، إنما يقال : اقتصد في النّفقة ؛ وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغِنَى ومجامع له .

---

(١) سورة طه ٧١ .

قوله : « وخشوعا فى عبادة » حرف الجرّ هاهنا يحتمل الأمرين معا .

قوله : « وتجمّلاً فى فاقة » ، حرف الجر هاهنا متعلّق بمحذوف ، ولا يصحّ تعلّقه بالظّاهر ؛ لأنّه إنما يقال : فلان يتجمّل فى لباسه ومروءته ؛ مع كونه ذا فاقة ؛ ولا يقال : يتجمّل فى الفاقة ؛ على أن يكون التجمّل متعدّيا إلى الفاقة .

قوله : « وصَبْراً فى شدّة » ، حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .

قوله : « وطلبا فى حلال » حرف الجر هاهنا يتعلّق بالظّاهر و « فى » بمعنى « اللام » .

قوله : « ونشاطا فى هدًى » حرف الجرّ هاهنا يحتمل الأمرين .

قوله : « وتحرّجاً عن طمع » ، حرف الجرّ هاهنا يتعلق بالظاهر لا غير .

قوله : « يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل » قد تقدّم مثله .

•••

قوله : « يمسى وهمّه الشكر » ، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين ، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين فى كتابه فى مواضع كثيرة ، نحو قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1] فقرن الشّكر بالذّكر .

وقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[3] .

ولعلوّ مرتبة الشّكر طعن إبليس فى بنى آدم ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[4] ، وقد صدّقه الله تعالى فى هذا القول فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة ١٥٢ .

(٢) سورة النساء ١٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٤) سورة الأعراف ١٧ .

(٥) سورة سبأ ١٣ .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : قد قَطَع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ ، فقال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(١) .

واستثنى فى خمسة أمور : وهى الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة .

فقال : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾(٢) .

وقال : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾(٣) .

وقال : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾(٤) .

وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٥) .

وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾(٦) .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلا ، وهو خُلُق من أخلاق الربوبيّة ، قال تعالى فى صفة نفسه : ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٧)

وقد جَعَل الله تعالى مفتاحَ كلام أهل الجنة ، فقال : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ، وجعله خاتمة كلامهم أيضا فقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٩) .

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وآله : قد غَفَر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر فلِمَ تقوم الليل ، وتتعِبُ نفسَك ؟ قال : أفلا أكونُ عبداً شكورا !

* * *

(١) سورة إبراهيم ٧
(٢) سورة التوبة ٢٨ .
(٣) سورة الأنعام ٤١
(٤) سورة الشورى ١٩
(٥) سورة النساء ٤٨
(٦) سورة التوبة ١٥ .
(٧) سورة التغابن ١٧
(٨) سورة الزمر ٧٤ .
(٩) سورة يونس ١٠ .

قوله عليه السلام : « ويصبح وهمّه الذّكر » ، هذه أيضا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾(١) قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكرني ربّي. ففزعوا منه فقال : إذا ذكرته ذكرني ، وتلا الآية ، فسكتوا.

وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾(٢).

وقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾(٣).

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾(٤).

وقال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾(٥).

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾(٦).

وقال في ذمّ المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٧).

وقال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ﴾(٨).

وقال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٩).

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم ».

وقال صلى الله عليه وآله : « مَنْ أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة ، فليُكثر من ذكر الله ».

---

(١) سورة البقرة ١٥٢
(٢) سورة الأحزاب ٤١ .
(٣) سورة بقرة ١٩٨
(٤) سورة البقرة ٢٠٠ .
(٥) سورة النساء ١٠٣
(٦) سورة آل عمران ١٩١ .
(٧) سورة النساء ١٤٢
(٨) سورة الأعراف ٢٠٥ .
(٩) سورة العنكبوت ٤٥

وسئل عليه السلام : أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : « أن تموتَ ولسانُك رطب بذكر الله » .

وقال صلّى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « إذا ذكرَني عبدي في نفسه ، ذكرتُه في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأ خيرٍ من ملئه ، وإذا تقرّب منّي شبراً تقرّبتُ منه ذراعا ، وإذا تقرّبَ منّي ذراعا تقرّبتُ منه باعا ، وإذا مَشى إليّ هرولتُ إليه » .

وقال صلى الله عليه وآله : « ماجلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفّت بهم الملائكة ، وغشيَتْهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

***

قوله عليه السلام : « يبيت حذِراً ويصبح فَرِحاً ، حذراً لما حُذِّرَ من الغفلة ، وفرحاً بما أصاب من الفَضْل والرحمة » .

وقد تقدّم ذكر الخوف .

وقد عرض عليه السلام هاهنا بالرّجاء المقابل للخوف ؛ فإنّ فرَح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن ان يحمل على أنّه فرح بمجرد ماأصاب من فضل الله ورحمته . ويمكنُ أن يحمل على أنّه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه ؛ لما استدلّ على وصوله إليه وقوِي ظنّه بظفره به ، بما عَجّل الله تعالى له من الفضل والرحمة في الدنيا ، ومقامُ الرجاء للعارفين مقام شريف، وهوفي مقابلة مقام الخوف، وهو المقام الذي يوجد العارف فيه فرحا، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر ٢٩ .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « أنا عندَ ظنّ عبدى بى ، فليظنّ بى ماشاء » .

ودخل صلى الله عليه وآله على رجل من أصحابه ، وهو يجودُ بنفسه ، فقال : كيف تجدك ؟ قال : أجِدُنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربّى . فقال صلى الله عليه وآله : « ماجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلّا أعطاه الله مارجاه ، وأمّنه مما خافه » .

***

قوله عليه السلام : « إن استصعبَتْ عليه نفسُه » ، أى صارت صعبة غير منقادة ؛ يقول : إذا لم تطاوعْه نفسُه إلى ماهى كارهة له لم يعطِها مرادها فيما تحبّه .

قوله عليه السلام : « قرةّ عينه فيما لايزول ، وزهادته فيما لايبقى » ، يقال للفرح المسرور : إنّه لقَرِير العين ، وقرّت عينُه تقَرّ ، والمراد برْدُها ؛ لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة .

وهذا الكلام يحتمل أمرين :

أحدُهما أن يعنِيَ بما لايزول البارئ سبحانه ، وهـذا مقام شريف جدًّا أعظم من سائر المقامات ، وهو حبّ العارف لله سبحانه ، وقد أنكره قومٌ فقالوا : لامعنى لمحبّة البارئ إلّا المواظبة على طاعته ، ونحوه قول أصحابنا المتكلّمين : إنّ محبّة الله تعالى للعبد هى إرادته لثوابه ، ومحبّة العبد للبارئ هى إرادته لطاعته ، فليست المحبّة عندهم شيئاً زائداً على الإرادة ولا يجوز أن تتعلق بذاتِ الله سبحانه ، لأنّ الإرادة لاتتعلّق إلا بالحدوث ، وخالفهم شيخنا أبوالحسن ، فقال : إنّ الإرادة يمكن أن تتعلّق بالباقى ، ذكر ذلك فى الكلام فى الأكوان فى أول التصفّح ، فأمّا إثبات الحبّ فى الجملة فقد نطقَ به القرآن قال سبحانه : ﴿ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (١) . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله نظر إلى مُصعَب بن عمير مقبلا وعليه إهابُ كبشٍ قد تمنطق به ، فقال : « انظروا إلى الرّجل الذى قد نوّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوَيْن يغذُوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حبّ الله ورسوله إلى ماترون » .

ويقال : إنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلَتْ أبدانهم ، وتغيّرت ألوانهم ، فقال : ماالذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الخوف من النار ، قال : حقٌّ على الله أن يؤمّن من يخافه ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدُّ نحولاً وتغيّراً ، فقال : ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الشّوق إلى الجنة ، فقال : حقٌّ على الله أن يعطى مَنْ رجاه . ثم مرّ إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نحولا ، وعلى وجوههم ، مثل المرائى من النور ، فقال: ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : حبّ الله عزّ وجلّ ، فقال : أنتم المقربون ، ثلاثا .

وقال بعض العارفين :

أحبّكَ حبّين : حبّ الهـوى ... وحبًّا لأنك أهـــلٌ لذا كا
فأمّا الذى هــوَ حبُّ الهوى ... فشُغْلى بذكرِكَ عمّن سوا كا
وأمّا الذى أنتَ أهـلٌ له ... فكشفكَ لى الحُجْبَ حتى أرا كا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ... ولـكنْ لكَ الحمدُ فى ذَا وذَا كا

(١) سورة المائدة ٥٤ .
(٢) سورة البقرة ١٦٥ .
(٣) سورة آل عمران ١٣١ .

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريّون من أنها الإبصار بالعين ؛ بل المعرفة التامّة ؛ وذلك لأنّ المعارف النظرية يصحّ أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا ، فهذا أحد محمَلي الكلام .

وثانيهما : أن يريد بما لا يزول ، نعيمَ الجنة ، وهذا أدونُ المقامَيْن ، لأنّ الخلّص من العارفين يحبّونه ويعشقونه سبحانه لذاته ، لا خوفا من النار ، ولا شوقا إلى الجنة ، وقد قال بعضهم : لستُ أرضى لنفسى أن أكون كأجيرِ السوء ، إن دُفِعت إليه الأجرة رضِيَ وفرح ، وإن مُنعها سخط وحزن ، إنّما أحبُّه لذاته .

وقال بعض شعرائهم شعرا من جملته :

فَهَجْرُهُ أعظمُ من نارِهِ وَوَصْلُه أطيَبُ منْ جَنّتِهْ

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، من هذا الكثير ، نحو قوله : « لم أعبدْه خوفا ولا طمعا ، لكنّى وجدته أهلا للعبادة فعبدته » .

* * *

قوله عليه السلام : « يمزج الحلم بالعلم » ، أى لا يحلُم إلّا عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون .

قوله : « والقول بالعمل » ، أى لا يقتصر على القول ، ومثل هذا قول الأحوص :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ ما تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ اللّسانِ يَقُولُ ما لَا يَفْعَلُ

قوله عليه السلام : « تراه قريبا أملُه » ، أى ليست نفسه متعلّقةً بما عظُم من آمال الدنيا ؛ وإنّما قُصارَى أمره أن يؤمّل القوت والملبس . قليلا زلله : أى خطؤه .

قوله : « منزوراً أكله » ، أى قليلا ، ويحمَد من الإنسان الأكل النزر ، قال أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبَهُ الْغُمَرُ(١)

وقال متمم بن نويرة :

لَقَدْ كَفَّنَ الْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ ... فَتًى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا(٢)

قوله عليه السلام : « مكظوما غيظه » كظم الغيظ من الأخلاق الشريفة ، قال زيد بن عليّ عليه السلام : « ماسرّنى بجرعة غيظ أتجرّعها وأصبر عليها حُمر النعم » .

وجاء رجل إلى الرّبيع بن زياد الحارثىّ ، فقال : ياأبا عبد الرحمن ، إنّ فلانًا يغتابُك وينالُ منك ، فقال : والله لأغيظنّ مَنْ أمرَه بذلك ، قال الرّجل : ومَنْ أمرَهُ ؟ قال: الشّيطان عدوّ الله ، استغواه ليؤثمه ، وأراد أن يُغضِبَنى عليه فأ كافئه ، والله لا أعطيه ما أحبّ من ذلك . غفر الله لنا وله .

وجَهِل(٣) إنسان على عمر بن عبد العزيز ، فقال : أظنّك أردت أن يستفزّنى الشيطان بعزّ السلطان ، فأنال منك اليوم ماتناله منّى غدا ! انصرف عافاك الله .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « الغضبُ يفسِدُ الإيمان ، كما يفسِدُ الصَّبرُ العسل » .

وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصنى ، فقال : « لا تغضب » ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : « لا تغضب » ، فقال : (٤زدنى ، فقال٤) : « لا أجد مزيدا » .

ومن كلام بعض الحكماء لا يفى عزُّ الغضب بذلّة الاعتذار .

* * *

(١) من قصيدة له فى ديوان الأعشين ٢٦٨ ، الكامل ٤ : ٦٥ ، ٦٦ ، أمالى المرتضى ١ : ٩٦. الفلذ : قطعة من الكبد ؛ ولا يقال إلا للبعير ، والغمر ـ كصرد ـ القدح الصغير ، والحزة : القطعة الصغيرة ورواية الكامل
* تَكْفِيهِ فِلْذَةُ كِبْدٍ إِنْ أَلَمَّ بِهَا *

(٢) من قصيدة له فى الكامل ٤ : ٧٢ـ٧٤ ، والمفضليات ٢٦٥ـ٢٧٠ . والمنهال ، هو ابن عصمة الرياحى ، كفن مالكا فى ثوبه . غير مبطان العشيات : لا يعجل بالعشاء ، وينتظر الضيفان . الأروع : الذى إذا رأيته راعك بجماله وحسنه .

(٣) الجهل هنا : السفاهة .

(٤ ـ ٤) ساقط من ب .

قوله : « إن كان فى الغافلين » ؛ معناه أنّه لايزال ذاكراً الله تعالى ، سواء كان جالسا مع الغافلين أو مع الذاكرين ؛ أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه ، وأمّا إذا كان مع الذّاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه .

قوله عليه السلام : « يعفو عمّن ظلَمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل مَنْ قطعه » ؛ من كلام المسيح عليه السلام فى الإنجيل : « أحبّوا أعداءكم ، وصِلُوا قاطعيكم ، واعفوا عن ظالِميكم ، وباركوا علىّ لاعنيكم ؛ لكى تكونوا أبناءَ أبيكم الّذى فى السماء ، الذى تشرق شمسُه على الصّالحين والفَجَرة ، وينزل مَطَرُه على المطيعين والأثَمة » .

قوله عليه السلام : « بعيدا فُحْشُه » ؛ ليس يعنى به أنّه قد يُفحِش تارة ، ويترك الفحش تارات ، بل لافُحْشَ له أصلا ، فكنّى عن العَدَم بالبعد ؛ لأنّه قريب منه .

قوله : « ليّناً قوله » ، العارف بسّام طلق الوجه ، ليّن القوْل ، وفى صفات النبى صلى الله عليه وآله : « ليس بفَظّ ولا صَخّاب » .

قوله : « فى الزلازل وقور » ؛ أى لاتحرّكه الخطوب الطارقة ، ويقال : إنّ علىّ بن الحسين عليه السلام كان يصلّى ، فوقعتْ عليه حيّة ، فلم يتحرّك لها ، ثم انسابت بين قدميه فما حرّك إحداهما عن مكانه ، ولا تغيّر لونه .

قوله : « لايحيفُ على من يبغض » ، هذا من الأخلاق الشريفة النبويّة ، وفى كلام أبى بكر فى صفات مَنْ يصلح للإمامة : إن رضىَ لم يدخِله رضاه فى باطل ، وإن غضب لم يخرِجه غضبهُ عن الحق .

قوله : « يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه » ؛ لأنه إن أنكر ثم شُهد عليه فقد ثبت كذبه ، وإن سكت ثم شهد عليه فقدم أقام نفسَه فى مقام الرّيبة .

قوله : « ولا ينابز بالألقاب » ؛ هـــذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ (١) .

قوله : « ولا يضارّ بالجار » ، فى الحديث المرفوع : « أوصانى ربّى بالجار حتى ظننتُ أن يورّثه » .

قوله : « ولا يشمت بالمصائب » ؛ نظير قول الشاعر :

فَلَسْتَ تَرَاهُ شَامِتاً بِمصِيبَـةٍ ... وَلَا جَزِعاً مِنْ طَارِقِ ٱلْحَدَثَانِ

قوله : « إن صمت لم يغمّه صمته » ؛ أى لايحزن لفوات الكلام ، لأنه يرى الصّمت مغنما لامغرما .

قوله : « وإن ضحك لم يعلُ صوتُه » ؛ هكذا كان ضحكُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكثره التبسّم ، وقد يفرّ أحيانا ، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرة .

قول : « وإن بغى عليه صبر » ؛ هـذا من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ (٢) .

قوله : « نفسه منه فى عناء لأنه يتعبها بالعبادة ، والناس لايلقون منه عنتاً ولاأذى» فالمم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه .

قوله : « فصعق همام » ، أغمى عليه ومات ، قال الله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (٣) .

***

(١) سورة الحجرات ١١ .
(٢) سورة الحج ٦٠ .
(٣) سوره الزمر ٦٨ .

[ذكر بعض أحوال العارفين]

واعلم أنّ الوجدَ أمرٌ شريف ، قداختلف الناس[1] فيه،فقالت الحكماء فيهأقوالا ، وقالت الصوفيّة فيهأقوالا ؛ أمّا الحكماءفقالوا: الوجْد[2] هو حالة تحدُث للنّفس عندانقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة ، إذا كان قد وَرَدَ عليهاوارد مُشوِّق . وقال بعضُهم :الوجد هو اتّصال النفس بمبادئها المجرّدة عند سماع مايقتضي ذلك الاتّصال .

وأمّا الصُّوفية فقد قال بعضهم : الوجد رفْع الحجاب ، ومشاهدة المحبوب . وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السرّ ؛ وهو فَناؤك من حيث أنت أنت . وقال بعضُهم : الوجدُ سِرّ الله عند العارفين ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء عن الحقّ .

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت[3] العبارة،وقدمات كثيرمن الناس بالوجْدِ عند سماع وعظ ،أو صفقة[4] مطرِب ، والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًّا،وقد رأينانحنُ في زماننا مَنْ مات بذلك فجأة .

* * *

قوله : « كانت نفسه فيها » ، أي مات . ونفثَ الشيطان على لسانك ، أي تكلّم بلسانك ، وأصله النفخ بالفم ، وهو أقل من التّفل ؛ وإنّما نهى أمير المؤمنين القائل:«فهلاَّ أنت ياأمير المؤمنين ! »لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض ، وذلك أنه لايلزم من موت العاميّ عند وعظ العارف أن يموتَ العارف عند وعظ نفسه ، لأنّ انفعال العاميّ ذي الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام

(١) د : « فداى الناس » (٢) ساقطة من ب (٣) الأصول : اختل .
(٤) صفقة مطرب، من صفقت العود ؛ إذا حركت أوتاره فاصطفق (اللسان) .

نفسه ، أو الفكر في كلام نفسه ، لأنَّ نفس العارف قوية جدًّا ، والآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجَر .

فإن قلتَ : فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غيرُ هذا الجواب !

قلتُ : صدقت ، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون ، وتصِلُ أفهامهم إليه ، نخرج معه إلى حديث الآجال ، وأنّها أوقاتٌ مقدّرة لا تتعدّاها ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرْق بين نفسه ونفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مُسْكِتٍ ؛ وهو مع إسكاته الخصْم حقٌّ وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب ، ويقع فيه تشويش ، وهذا نهاية السّداد وصحة القول .

(١٨٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَلِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً.

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَدْنَوْنَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ عليه[1] الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ.

قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ؛ حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَمُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ. لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ.

يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ؛ إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

---

(١) د : « إليه ».

قَدْ أعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً ، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ ؛ يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ . قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ ؛ فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ ، وَحُمَةُ النِّيرَانِ: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

* * *

الشرح :

الضمير فى « له » وهو الهاء راجعٌ إلى « ما » التى بمعنى « الذى » ، وقيل : بل هو راجع إلى الله سبحانه ، كأنه قال : «نحمده على ماوفق من طاعته» ، والصحيح هو الأول، لأنّ « له » فى الفقرة الأولى بإزاء « عنه » فى الفقرة الثانية . والهاء فى « عنه » ليست عائدة إلى « الله » وذاد : طرد ، والمصدر الذِّياد .

وخاض كلّ غَمْرة ، مثل قولك : ارتكب كلّ مهلكة ، وتقحم كلّ هول .

والغَمْرة : ماازدحم وكثر من الماء ، وكذلك من النّاس ، والجمع غِمار .

والغُصّة : الشّجا ، والجمع غُصَص .

وتلوّن له الأدنَوْن : تغيّر عليه أقاربه ألواناً .

وتألّب عليه الأقصوْن : تجمّع عليه الأبعدون عنه نسباً .

وخلعت إليه العرب أعنّتها ، مثل ، معناه أوْجَفُوا إليه مسرعين لمحاربته ، لأنّ الخيل إذا خلعتْ أعنّتها كان أسْرع لجريها .

وضربتْ إلى محاربته بطونَ رواحِلها ، كناية عن إسراع العرب نحوه للحرب ؛

---

(١) سورة المجادلة ١٩ .

لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كانَ أوحى لها ؛ ومراده أنّهم كانوا فرسانا وركبانا .

قوله : « حتى أنزلت بساحته عداوتها » ؛ أى حَرْبها ، فعبّر عنها بالعداوة ؛لأنّ العداوة سببُ الحرب ، فعبّر بالسّبب عن المسبَّب ؛ مازلنا نطأ السّماء حتى أتيناك ؛ يعنون المـاء ، لمّا كان اعتقادُهم أنّ السماء سببُ الماء .

وأسحق المزار ، أبعده ؛ مكان سَحِيق ، أى، بعيد ، والسُّحْق بضم السين : البعد، يقال: « سُحْقا له » ؛ ويجوز ضم الحاء ، كما قالوا : عُسْر وعسُر ، وسَحُق الشىءُ بالضم ،أى بعد، وأسحقه الله أبعده . والمزار : المـكان الذى يُزار منه ، أو المـكان الذى يزار فيه ،والمراد هاهنا هو الأوّل ومن قرأ كتبَ السِّيرة علم مالاقى رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذاتِ الله سبحانه من المشقّة ، واستهزاء قريش به فى أوّل الدعوة ، ورميهم إياه بالحجارة ، حتى أدْمَوْا عَقِبَيْه ، وصياح الصّبيان به ، وفَرْث الـكرِش على رأسِه ، وفَتْل الثّوب فى عُنُقه وحَصْره وحَصْر أهله فى شِعْب بنى هاشم سنين عدّة ، محرّمة معاملاتهم ومبايعتهم ومنا كحتهم وكلامهم ، حتى كادوا يموتون جوعاً ، لولا أنّ بعضَ مَنْ كان يحنُوا لرَحِمٍ أو لسبب غيره ، فهو يسرق الشىء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلا ، ثم ضرْبهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوَثاق فى الشمس ، وطردهم إياهم عن شِعاب مكة ،حتى خرج مَنْ خرج منهم إلى الحبشة ، وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف ، وتارة ببنى عامر،وتارة بربيعة الفَرَس ، وبغيرهم . ثم أجمعوا على قتله والفتْك به ليلا ، حتى هرب منهم لائذاً بالأوْس والخزرج ، تاركاً أهله وأولاده ، ولاَ حوتْه يده ، ناجياً بحُشاشة نفسه،حتى وصل إلى المدينة ؛ فناصبوه الحرْب ورموْه بالمناسر (١) والـكتائب ، وضربوا إليه آباط الإبل ،

---

(١) المنسر : قطعة من الجيش الـكبير .

ولم يزل منهم فى عنــاء شديد ، وحروب متصلة ، حتى أكرمه الله تعالى ونَصَره ، وأيّد دينَه وأظهره . ومَنْ له أُنْسٌ بالتواريخ يعلم من تفاصيل هــذه الأحوال ما يطول شرحه .

سمّى النفاق نِفاقاً من النافقاء ، وهى بيت اليَرْبُوع ، له بابان يدخلُ من أحدهما ، ويخرج من الآخر ، وكذلك الذى يُظهر دينا ويبطن غيره .

والضالّون المضِلُّون : الذين يَضِلّون أنفسهم ويُضِلّون غيرَهم ؛ وكذلك الزالُّون المزِلّون ؛ زلّ فلان عن الأمر ، أى أخطأ ، وأزلّه غيرُه .

قوله : « يفتنُّون » يتشعّبون فنونا ، أى ضروبا .

ويعمِدونــكم ، أى يهدّونكم ويفدحونــكم ؛ يقال : عَمَده المرض يعمِده ، أى هدّه ، ومنه قولهم للعاشق : عميد القلب .

قوله : « بعِمادٍ » ، أى بأمر فادح وخطب مؤلم ، وأصل العَمَد انشداخُ سَنَامِ البعير ، وماضيه : عمِد السنام بالــكسر ، عَمَدا فهو عَمِد .

ويرصدونــكم : يعدّون المــكايد لــكم ، أرصدت : أعددت ، ومنه فى الحديث: « إلّا أنْ أُرْصِدَه لدَيْنٍ علىّ » .

وقلب دوٍ ، بالتخفيف ، أى فاسد ، من داء أصابه ، وامرأة دوِيَة ؛ فإذا قلت : رجل دوًى ، بالفتح ، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة ، لأنه مصدر فى الأصل ، ومن روى : « دويّة » بالتشديد ، فَلِى بُعده ، فإنما شدده ليقابل « نقيّة » .

والصِّفاح : جمع صَفْحة الوجه وهى ظاهره ، يقول : باطنهم عليل ، وظاهرهم صحيح . يمشون الخفاء ، أى فى الخفاء ، ثم حذف الجار فنصب ، وكذلك يدبّون الضَّرَاء ،

والضَّرَّاء : شجر الوادى الملتفّ ، وهذا مثل يضربُ لمن يختلُ صاحبه ،يقال : هو يدبّ له الضَّرَّاء ويمشى له الخمَر ، وهو جَرْف الوادى .

ثم قال : « وصفهم داء ، وقولهم شفاء ، وفعلُهم الدّاء العَياء » ؛ أى أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين ، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين . والدّاء العَياء : الذى يُعيِي الأُساة .

ثم قال : « حَسَدة الرخاء » يحسُدون عَلَى النعم . « ومؤكِّدو البلاء » ،إذا وقع واحد من الناس فى بلاء أكّدوه عليه بالسّعايات والنّمائم ، وإغراء السلطان به ، ولقد أحسن أبو الطيب فى قوله يذمّ البشر :

وَكَأنَّا لَمْ يَرْضَ فينا بريب الدّ ... هرِ حَتّى أعانه مَنْ أعانَا[1]

كُلّما أنبت الزمانُ قَنَاةً ... رَكّبَ المرء فى القَنَاةِ سِنَانَا

« ومقنِطُو الرّجاء » ، أى أهل الرجاء ، أى يبدّلون بشرورهم وأذاهم رَجاء الرّاجى قُنوطا .

قوله : « وإلى كلّ قلب شفيع » ، يصف خلابة ألسنتهم وشدّة مَلَقِهم ، فقد استحوذُوا عَلَى قلوب الناس بالرّياء والتصنّع .

قوله : « ولكلّ شجو دموع » ، الشجو : الحزْن ، أى يبكون تباكيًا وتملّلا وحقًا ، عند أهل كلّ حزن ومصاب .

يتقارضون الثناء ، أى يثنى زيد عَلَى عمرو ، ليثنيَ عمرٌو عليه فى ذلك المجلس ، أو يبلغه فيثنى عليه فى مجلس آخر ، مأخوذ من القَرْض .

ويتراقبون الجزاء : يرتقب كلّ واحدٍ منهم عَلَى ثنائه ومدْحِه لصاحبه جزاء منه

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٤٠ .

إمّا بالمال أو بأمر آخر ، نحو ثناء يثنى عليه ، أو شفاعة يشفع له ، أو نحو ذلك .

والإلحاف فى السؤال :الاستقصاء فيه ، وهو مذموم ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾(١).

قوله : « وإن عَذَلوا كشفوا » ، أى إذا عذلك أحدُهم كشف عيوبك فى ذلك اللوم والعَذْل ، وجبّهك بها ، وربّما لايستحى أن يذكُرَها لك بمحضر ممّن لاتحبّ ذكرَها بحضرته ، وليسوا كالناصحين عَلَى الحقيقة ، الذين يمرّضون عند العتاب بالذّنب تمريضاً لطيفاً ليقلع الإنسان عنه .

وإن حكموا أسرفُوا ، إذاسألك أحـدُهم فَفوّضتَه فى مالك أسرفَ ولم يقنع بشىء ، وأحبّ الاستئصال .

قدأعدُّوا لـكلّ حقٍّ باطلا ؛ يقيمون الباطل فىمعارضة الحقّ ، والشبهة فى مصادمة الحجّة . ولـكلّ دليلٍ قائم وقول صحيح ثابت ، احتجاجا ماثلا مضادًّا لذلك الدليـل ، وكلاما مضطربًا لذلك القول .

ولـكلّ باب مفتاحا ؛ أى ألسنتهم ذلِقةٌ قادرةٌ عَلَى فتح المغلَقاتِ ، لُلطف توصّلهم ، وظَرْف منطقهم .

ولـكل ليل مصباحا ؛ أى كلّ أمرٍ مظلم فقد أعدُّوا له كلاما ينيره ويضيئه ، ويجعله كالمصباح الطاردِ لليل .

يتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عمّا فى أيدى الناس ، وبالزّهد فى الدنيا . وفى الأثر : شرّكم مَنْ أخذ الدنيا بالدين .

ثم قال : إنّما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقَهم ، أى لتنفق سِلْعتُهم .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

والأعلاق : جمع عِلْق ، وهو السلعة الثمينة .

يقولون فيشبّهون ، يوقعون الشُّبَه فى القلوب .

ويصفون فيموّهون ؛ التمويه التزيين ، وأصله أن تطلى الحديدة بذهب يحسّنها .

قد هيّئوا الطريق ، أى الطريق الباطل قد هيئوها لتُسلك بتمويهاتهم .

وأضلعوا المضيق : أمالوه ، وجعلوه ضِلَعًا ، أى معوجًّا ، أى جعلوا المسلك الضيّق وجًّا بكلامهم وتلبيسهم ، فإذا أسلكوه إنسانا اعوجّ لاعوجاجه .

واللُّمَة : بالتخفيف : الجماعة ، والُحمَة بالتخفيف أيضا : السمّ ، وكنى عن إحراق النار بالحمة المشابهة فى المضرّة .

(١٨٨)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ؛ مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَامِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ؛ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ!

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ؛ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً؛ عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ؛ فَاسْتَفْتِحُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ؛ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ.

وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ؛ وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ، لَا يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ.

قَرُبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَإِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ؛ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا ، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا ، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ ؛ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، وَتُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ؛ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ؛ وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ ؛ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَاقاً ، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً ؛ فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ ، وَلَا حَمِيمٌ يَنْفَعُ ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ .

* * *

الشرح

أظهر سبحانه من آثار سلطانه ، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها فى بعض ، كالممِيل الذى يشتمل على المائل ، وفلك التدوير وغيرهما ؛ ونحو خلق الإنسان وما تدلّ كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه ؛ ونحو خلق النبات والمعادن ، وترتيب العناصر وعلاماتها ، والآثار العلوية المتجدّدة ، حسب تجدد أسبابها ، ما حيّر عقول هؤلاء ، وأشعر بأنها إذا لم يحط بتفاصيل تلك الحِكم مع أنها مصنوعة [1] ، فالأولَى ألا نحيطَ بالصانع الذى هو برىء عن المادة وعلائق الحسّ .

والْمُقَل : جمع مُقْلة ؛ وهى شحمة العين الّتى تجمع السواد والبياض ؛ ومقلتُ الشىء : نظرت إليه بمقلتى ؛ وأضاف المقل إلى « العقول » مجازاً ، ومراده البصائر .

وردع : زجر ودفع . وهماهِم النفوس : أفكارها وما يهمهم به عند التمثيل والرويّة فى الأمر ، وأصل الهمهمة ، صُوَيتٌ بسمع ، لا يفهم محصوله

---

(١) د : « موضوعة »

والعِرْفان : المعرفة ، وكُنْه الشيء : نهايته وأقصاه . والإيقـان : العِلْم القطعيّ ، والإذعان : الانقياد . والأعلام : المنار والجبال يستدلّ بها في الطرقات .

والمنـاهج : السُّبُل الواضحة والطامسة كالدارسة . وصدَع بالحقّ : بيّن ، وأصـله الشقّ يظهر ماتحته . ويقال . نَصحتُ لزيد ، وهو أفصح من قولك : نصحتُ زيدا .

والقَصْد : العدل .

والعَبَث . مالا غرض فيه ، أو ماليس فيه غرض مثله ، والهَمَل : الإبل بلا راع ؛ وقد أهملتُ الإبل : أرسلتها سدًى .

قوله : « عليم مبلغ نعمه عليـكم ، وأحصى إحسانه إليكم » ، أى هو عالم بكمّيّة إنعامه عليـكم علما مفصّلًا ؛ وكلُّ مَنْ علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتدّ نقمته عليه عند عصيانه له وجرأته عليه ، بخلاف مَن يجهل قدر نعمته على الغير ؛ فإنه لا يشتدّ غضبه لأنه لايعلم قدر نعمته المكفورة .

قوله : « فاستفتحوه » ، أى اطلبوا منه الفَتْح عليـكم والنَّصْر لـكم .

واستنجِحُوه : اطلبوا منه النجاح والظَّفَر .

واطلبوا إليه ، أى اسألوه ، يقال : طلبت إلى زيد كذا وفى كذا .

واستمنِحوه ، بكسر النون : اطلبوا منه المِنْحَة ، وهى العطيّة . ويروى : « واستميحوه » بالياء ، استمحتُ الرّجُل : طلبت عطاءه ، ومحتُ بالرجل : أعطيته .

ثم ذكر عليه السلام أنّه لاحِجاب يمنع عنه ، ولادونه باب يُغلق ، وأنه بكلّ مكان موجود ، وفى كلّ حين وأوان ، والمراد بوجوده فى كلّ مكان إحاطة علمه ؛ وهو معنى قوله

تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ (٢) .

قوله : « لا يثلمه العطاء » بالكسر : لا ينقص قدرته .

والحِباء : النّوال ولا يستنفذه ، أى لا يفنيه .

ولا يستقصيه : لا يبلغ الجود أقصى مقدوره وإن عَظُم الجود ، لأنّه قادر على مالا نهاية له .

ولا يلويه شخص عن شخص : لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضا وذهولا عن شخص آخر ؛ بل هو عالم بالجميع ، لا يشغله شأن عن شأن . لوى الرجل وجهه ، أى أعرض وانحرف ، ومثل هذا أراد بقوله : « ولا يلهيه صوت عن صوت » ، ألهاه كذا ، أى شغله .

ولا تحجُزه ـ بالضمّ ـ هِبة عن سَلْب ؛ أى لا تمنعه ، أى ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا ؛ فإنّ الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو ، حالما يكون مهتمّا بتلك العطيّة ؛ لأنّ اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر .

ومثل هذا قوله : « ولا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تُولِهه رحمة عن عقاب » ، أى لا تحدث الرحمة لمستحقّها عنده ولَهاً ، وهو التحيّر والتردّد ، وتصرفه عن عقاب المستحقّ ؛ وذلك لأنّ الواحد منا إذا رحِمَ إنسانا حدث عنده رقّة ، خصوصا إذا توالت منه الرحمة لقوم متمرّدين ، فإنه تصير الرحمة كالملَكة عنده ، فلا يطيق مع تلك الحال أن ينتقم ، والبارئ تعالى بخلاف ذلك ؛ لأنه ليس بذى مزاج سبحانه .

ولا يجنّه البطون عن الظهور ، ولا يقطعه الظهور عن البطون ؛ هذه كلّها مصادر ؛ بطَن

---

(١) سورة المجادلة ٧ .

(٢) سورة الحديد ٤

بُطُونا أى خَفِىَ ، وظهر ظهورا ، أى تجلّى ، يقول : لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإنْ لم يكن ظاهرا بذاته ، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفى كُنْهه عن إبصار العقول وإدراكها له . ويقال : اجتننت كذا ، أى سترته ، ومنه الجنين ، والْجُنّة للترس ، وسمّى الجنُّ جنًّا لاستتارهم .

ثم زاد المعنى تأكيدا فقال : « قرُب فنأى » ؛ أى قرب فعلا فنأى ذاتا ، أى أفعاله قد تُعلم ؛ ولكنّ ذاته لا تعلم .

ثم قال : « وعلا فدنا » ؛ أى لمّا علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول ، لأنّها عرفت ذاته ، لكن عرفت أنّه شىء لا يصحّ أن يعرف ، وذلك خاصّته سبحانه ، فإنّ ماهيّته يستحيل أن تتصوّر للعقل لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بخلاف غيره من الممكنات.

ثم أكّد المعنى بعبارة أخرى ، قال : « وظهر فبطَن ، وبطن فعلَن » ، وهذا مثل الأوّل.

ودان : غلب وقَهر ، ولم يُدَنْ : لم يقهر ولم يغلب .

ثم قال : « لم يذرأ الخلق باحتيال » أى لم يخلقهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم ، بل أوجدَهُم على حسب عِلمه بالمصلحة خلقا مخترعا من غير سبب ولا واسطة .

قال : « ولا استعان بهم لكَلال » ، أى لإعياء ، أى لم يأمر المكلّفين بالجهاد لحاجته فى قهر أعدائه ، وجاحدى نعمته إليهم ؛ وليس بكالّ ولا عاجز عن إهلاكهم ، ولكنّ الحكمةَ اقتضتْ ذلك ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾(١) ، أى لبطل التكليف .

ثم ذكر أنّ التقوى قِوام الطاعات التى تقوم بها ، وزمام العبادات لأنها تمسك وتحصّن ؛ كزمام الناقة المانع لها من الخبْط .

---

(١) سورة البقرة ٢٥١ .

والوثائق : جمع وثيقة ، وهى مايوثق به . وحقائقها جمع حقيقة ؛ وهى الراية ؛يقال : فلان حامى الحقيقة .

قوله : « تؤُلْ » بالجزم ، لأنه جواب الأمر ؛ أى ترجع .

والأكنان : جمع كِنّ وهو الستر . والدَّعة : الراحة . السَّمَة : الجِدَة . والمعاقل: جمع مَعْقِل ، وهو الملجأ . والحِرز : الحفظ . وتشخص الأبصار : تبقى مفتوحة لاتطرف .

والأقطار : الجوانب . والصُّروم : جمع صُرْم وصِرْمة ، وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .

والعِشار :النوق أتى عليهامن يوم أرسل الفحل فيها عشرةأشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تضَع ، والواحدة عُشَراء ، وهذامن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [1] ، أى تركت مسيَّبَة مهملَة لايلتفت إليها أربابها ، ولا يحلبونها لاشتغالم بأنفسهم .

وتزهق كلّ مهجة : تهلك . وتبكم كلّ لهجة ، أى تخرس ، رجل أبكم وبكيم ، والماضى بكِمَ بالكسر .

والشُّمّ الشوامخ : الجبال العالية ، وذلّها : تدكدكها ؛ وهى أيضا الصّمّ الرواسخ . فيصير صلدها — وهو الصلب الشديد انصلابه — سرابًا ، وهو مايتراءى فى النهار فيظنّ ماء .

والرَّقراق : الخفيف . ومعهدها : ماجعل منها منزلا للناس . قاعا : أرضا خالية .

والسَّملق : الصفصف المستوى ، ليس بعضه أرفعَ وبعضه أخفض .

---

(١) سورة التكوير ٤ .

(١٨٩)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ، ولا مَنْهَجٌ واضِحٌ .

أُوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِتقْوَى اللهِ ، وأُحَذِّرُكُمُ الدُّنيا ، فإنَّها دَارُ شُخُوصٍ ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ ، ساكِنُها ظاعِنٌ ، وَقاطِنُها بائِنٌ .

تَمِيدُ بِأَهْلِها مَيَدَانَ السَّفِينَةِ ، تَقْصِفُها العَوَاصِفُ في لُجَجِ البِحارِ ، فَمِنْهُمُ الغَرِقُ الوَبِقُ ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي على بُطُونِ الأَمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيـاحُ بِأَذْيالِها ، وَتَحْمِلُهُ على أَهْوَالِها ، فَما غَرِقَ مِنْها فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وما نَجا مِنْها فَإِلَى مَهْلَكٍ .

عِبادَ اللهِ ؛ الآنَ فَاعْلَمُوا ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، والأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، والأَعْضاءُ لَدْنَةٌ ، وَالمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، والمَجالُ عَرِيضٌ ؛ قَبْلَ إِرْهاقِ الفَوْتِ ، وَحُلُولِ المَوْتِ ؛ فَحَقِّقُوا عَلَيْـكُمْ نُزُولَهُ ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ .

***

الشرح :

يقول : بعث الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وآله لمّا لم يبق عَلَمٌ يهتدي به المكلّفون؛ لأنّه كان زمان الفترة وتبدّل المصلحه ، واقتضاء وجوب اللّطف عليه سبحانه تجديداً لبعثته ؛ ليعرّف المبعوثُ المكلّفين الأفعال التي تقرّبهم من فعل الواجبات العقلية، وتبعدهم عن المقبّحات الفعلية .

والفنار الساطع : المرتفع . سطع الصُّبحُ سطوعا : ارتفع .

ودارُ شُخوص : دار رحلة شَخَصَ من البلد : رحل عنه .

والظاعن : المسافر . والقاطن : المقيم . والبائن : البعيد . يقول : ساكن الدنيا ليس بساكن على الحقيقة ، بل هو ظاعن فى المعنى وإن كان فى الصورة ساكناً ، والمقيم بها مفارق ؛ وإن ظَنّ أنه مقيم .

وتَميد بأهلها : تتحرّك وتَميل . والمَيَدان : حركة واضطراب .

وتصفقها العواصف : تضربها بشدّة ، ضربا بعد ضرب . والعواصف : الرياح القوية.

اللُّجج : جمع لُجّة ، وهى معظم البحر .

الوبِق : الهالك ، وَبَق الرجل بالفتح ، يبِقُ وبوقا : هلك ، والموْبِق منه كالموعِد « مفعِل » من وعد يعِد ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾[1] ؛ وفيه لغة أخرى : وَبِقَ الرجل يَوْبَق وَبَقًا ، وفيه لغة ثالثة : وَبِق الرّجل ، بالكسر يبِق بالكسر أيضا ، وأوبقه الله ، أى أهلكه .

وتحفزه الرياح ، تدفعه . ضرب عليه السلام لأهل الدنيا مثلا براكبى السَّفينة فى البحر ، وقد مادَتْ بهم ، فمنهم الهالك على الفور ، ومنهم مَنْ لا يتعجّل هلاكه ، وتحمله الرياح ساعة أو ساعات ، ثم مآله إلى الهلاك أيضا .

ثم أمَرَ عليه السلام بالعمل وقتَ الإمكان قبل ألّا يمكن العمل ، فكنَى عن ذلك بقوله : والألسن منطلقة ، لأنّ المحتضَر يُعتقل لسانه ، والأبدان صحيحة ، لأنّ المحتضَر سقيم البدن . والأعضاء لدْنة ، أى لينة ، أى قبل الشيخوخة والهرَم ويبس

---

(١) سورة الكهف ٥٢ .

الأعضاء والأعصاب . وللتقلّب فسيح ، والمجال عريض ، أى أيام الشيبة وفى الوقت والأجل مهلة ، قبل أن يضيق الوقت عليكم .

قبل إرهاق الفوت ، أى قبل أن يجعلكم الفوت ـ وهو فوات الأمر وتعذّر استدراكه عليكم ـ مرهَقين ، والمرهَق : الذى أدرك ليقتل ، قال الكميت :

تَنْدَى أكُفُّهُمُ وَفِى أبْيَاتِهِمْ ثِقَةُ المُجَاوِرِ والمضافِ المُرْهَقِ [1]

قوله : « فحقّقوا عليكم نزوله ، ولا تنتظروا قدومه » ، أى اعملوا عمل مَنْ يشاهد الموت حقيقة ، لا عمل مَنْ ينتظره انتظارا ويطاول الأوقات مطاولة ، فإنّ التسويف داعية التقصير .

---

(١) الصحاح واللسان (رهق) .

(١٩٠)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ ، أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا .

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ، وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي ، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي . وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي ؛ فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ : مَلَأٌ يَهْبِطُ ، وَمَلَأٌ يَعْرُجُ ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا !

فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

* * *

الشَّـرْحُ :

يمكن أن يعني بالمستحفَظين الخلفاء الّذين تقدّموا ؛ لأنهم الّذين استحفِظوا الإسلام ؛ أي جُعِلوا حافظين له ، وحارسين لشريعته ولحوزته ، ويجوز أن يعني به العلماء والفُضَلاء من الصّحابة ، لأنهم استحفِظوا الكتاب ، أي كُلِّفوا حفظه وحراسته .

والظاهر أنه يرمز فى قوله عليه السلام : « لم أردّ على الله ، ولا على رسوله ساعة قطّ » إلى أمور وقعتْ من غيره ، كما جرى يوم الحديبيّة عند سطْر كتاب الصلح ؛ فإنّ بعض الصحابة[1] أنكر ذلك ، وقال : يارسولَ الله، ألسنا المسلمين ؟ قال : بلى ، قال: أوَليسُوا الكافرين ؟ قال : بلى ، قال : فكيف نُعطَى الدنيّة فى ديننا ! فقال صلى الله عليه وآله: « إنّما أعمَل بما أومَر به » فقال قوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا بدخول مكّة ! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينا الدنيّة فى ديننا ، والله لو أجد أعوانا لم أعطِ الدنيّة أبدا ، فقال أبو بكر لهذا القائل : ويحك ! الزَمْ غَرْزه[2] ، فوالله إنّه لرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ الله لا يضيّعه .

ثم قال له : أقال لك : إنه سيدخلها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلُها. فلما فتح النبيّ صلى الله عليه وآله مكّة ، وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال : هذا الذى وُعدتم به .

***

واعلم أنّ هذا الخبر صحيح لا ريبَ فيه ، والنّاس كلُّهم روَوْه ، وليس عندى بقبيح ولا مستهجَن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وآله عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد ، والتماساً لطُمأنينة النفس ، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم : ﴿ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[3] . وقد كانت الصّحابة تراجِع رسول الله صلى الله عليه وآله فى الأمور ، وتسأله عمّا يستبهم عليها وتقول له : أهذا منك أم من الله ؟ وقال له السّعْدان[4] رحمهما الله يوم الخندق ، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعضِ تمر المدينة : أهذا مِنَ الله أم رأىٌ رأيته من نفسك ؟ قال : بل من نفسى ؛ قالا : لا ، والله لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا فى مقابض سيوفنا !

---

(١) هو عمر بن الخطاب ، وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٣١ (طبعة الحلبى) .

(٢) الغرز فى الأصل : ركاب كور الجمل ، والكلام هنا على المجاز ، أى اتبع قوله وفعله .

(٣) سورة البقرة ٢٦١ .

(٤) هما سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة الأنصاريان .

وقالت الأنصار له يوم بدر ، وقد نزل بمنزلٍ لم يستصلحوه :أنزلتَ هذا المنزل عن رأيٍ رأيتَ أم بوحيٍ أُوحِيَ إليك ؟ قال : بل عن رأيٍ رأيتُه ، قالوا : إنه ليس لنا بمنزلٍ ، ارحل عنه فانزل بموضع كذا . .

وأما قول أبي بكر له : « الزم غَرْزه ، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلّم » فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه ، ولا يدلّ ذلك على الشكّ ، فقد قال الله تعالى لنبيّه : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (١) ؛ وكلُّ أحد لا يستغنى عن زيادة اليقين والطمأنينة . وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصّة ، كقوله : دعني أضرب عُنُق أبي سفيان . وقوله : دَعْني أضرب عُنق عبد الله بن أبيّ ، وقوله : دَعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة . ونَهْى النبيّ صلى الله عليه وآله عن التسرّع إلى ذلك ، وجذبه ثوبَ رسول الله صلى الله عليه وآله حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّي ، وقوله : كيف تستغفر لرأس المنافقين ! وليس في ذلك جميعه ما يدلّ على وقوع القبيح منه ، وإنما الرّجلُ كان مطبوعاً على الشدّة والشراسة والخشونة ، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجيّة التي طُبِع عليها . وعلى أيّ حال كان ، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيرا .

* * *

قوله عليه السلام : « ولقد واسيتُه بنفسي » ؛ يقال : واسيته وآسيته ، وبالهمزة أفصح ، وهذا مما اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع ، ثبت معه يوم أُحُد وفرّ الناس ، وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس ، وثبت تحت رايته يوم خَيْبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله .

---

(١) سورة الإسراء ٧٤ .

وروى المحدّثون أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما ارتُثّ [1] يوم أُحُد، قال الناس: قتِل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلّا أنه حيّ، فصمَدتْ له. فقال لعلىّ عليه السلام: اكفنى هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صمَدت له كتيبة أخرى، فقال: ياعلىّ اكفنى هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمَدت له كتيبة ثالثة، فكذلك، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يقول: قال لى جبريل: يا محمد، إنّ هذه للمواساة، فقلت: وما يمنعه وهو منّى وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما.

وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادى: « لاسيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علىّ » فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حضره: « ألا تسمعون! هذا صوتُ جبريل ».

وأما يومُ حنين فثبت معه فى نفرٍ يسير من بنى هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه، وقتَل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابتْ إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها.

وأما يوم خيبر فقصّته مشهورة.

* * *

قوله عليه السلام: « نجدةً أكرمنى الله سبحانه بها »، النّجْدة: الشجاعة، وانتصابها هاهنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: « لقد قبض وإنّ رأسه لَعلَى صدرى، ولقد سالتْ نفسه فى كفّى، فأمررتُها على وجهى »، يقال: إنّ رسول الله

(١) ارتث: حمل من المعركة جريحا وفيه رمق.

صلى الله عليه وآله قاء دماً يسيرا وقت موته ، وإنّ علياً عليه السلام مَسَحَ بذلك الدّم وجهه .

وقد رُوِيَ أنّ أبا طيبة الحجّام شرب دمَه عليه السلام وهو حيّ ، فقال له : إذن لا يجعْ بطنك .

قوله عليه السلام : « فضجّت الدار والأفنيَة » ، أي النازلون في الدار من الملائكة ؛ أي ارتفع ضَجيجُهم ولجبُهم ، يعني أني سمعت ذلك ولم يسمعه غيري من أهل الدار .

والملأ : الجماعة؛ يهبط قومٌ من الملائكة ويصعد قوم . والعروج: الصعود . والهينمة : الصوت الخفيّ . والضريح : الشقّ في القبر .

* * *

[ذكر خبر موت الرسول عليه السلام]

وقد روى مِنْ قصّة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عرَضت له الشكاة التي عرضت ، في أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة ، فجهّز جيش أسامة بن زيد، فأمرهم بالمسير إلى البَلْقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليهما السلام من الرّوم ، وخرج في تلك الليلة إلى البقيع ، وقال : إني قد أمِرْت بالاستغفار عليهم ، فقال عليه السلام : السّلام عليكم ياأهلَ القبور ، ليهنِكم ما أصبحتم فيه مِمّا أصبح الناس فيه ، أقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم ، يتبع أولَها آخرُها . ثم استغفر لأهل البقيع طويلا ، ثم قال لأصحابه : إنّ جبريل كان يعارِضُني القرآن في كلّ عام مرّة ، وقد عارضني به العامَ مرتين ، فلا أراه إلا لحضور أجلي. ثمّ انصرف إلى بيته، فخطب الناس في غدِه ، فقال[1] : معاشر الناس ، قد حان منّي خُفُوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندي عِدَة ، فليأتني أعطه إياها ، ومَنْ كان عليّ دين ، فليأتني أقضِه . أيّها الناس ، إنّه ليس بين الله وبين أحد نسبٌ ولا أمر يؤتيه به خيرا ،

(١) ساقطة من ب .

أو يصرف عنه شرًا إلا العمل ، ألا لا يدّعينّ مدّعٍ ولا يتمنّينّ متمنٍ . والذى بعثنى بالحق لا ينجّى إلّا عملٌ مع رحمة ، ولو عصَيْت لهويت . اللهمّ قد بلّغت .

ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة ، ثم دخل بيت أم سلَمة ، ثمّ انتقل إلى بيت عائشة يمرّضه النساء والرجال ، أمّا النساء فأزواجه وبنته عليها السلام ، وأمّا الرجال فعلىّ عليه السلام والعبّاس والحسن والحسين عليهما السلام ، وكانا غلامين يومئذ ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحيانا إليهم ، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مرَضِه ، فأول ذلك التنازع الواقع يوم قال صلى الله عليه وآله : « ائتونى بدواة وقرطاس ، وتلا ذلك حديث التخلّف عن جيش أسامة ، وقول عياش بن أبى ربيعة : أيولّى هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار !

ثم اشتدّ به المرض ، وكان عند خفّة مرضه يصلّى بالناس بنفسه ، فلما اشتدّ به المرض ، أمر أبا بكر أن يصلّىَ بالناس .

وقد اختلف فى صلاته بهم ، فالشّيعة تزعم أنه لم يصلّ بهم إلّا صلاةً واحدة ، وهى الصّلاة التى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهادَى بين علىّ عليه السلام والفضل ، فقام فى المحراب مقامه ، وتأخّر أبو بكر .

والصحيح عندى – وهو الأكثر الأشهر – أنها لم تكنْ آخرَ صلاة[1] فى حياته صلّى الله عليه وآله بالنّاس جماعة ، وأنّ أبا بكر صلّى بالناس بعد ذلك يومين ، ثم مات صلّى الله عليه وآله ؛ فمن قائل يقول : إنّه توفّىَ لليلتين بقيتا من صَفَر ، وهو القول الذى تقوله الشّيعة ؛ والأكثرون أنّه توفّىَ فى شهر ربيع الأول بعد مضىّ أيام منه .

وقد اختلفت الرّواية فى موته ، فأنكر عمر ذلك ، وقال : إنّه لم يَمُتْ ، وإنه غاب وسيعود ، فثناه أبو بكر عن هذا القول ، وتلا عليه الآيات المتضمّنة أنه سيموت ، فرجع إلى قوله .

---

(١) ب : « الصلاة » .

ثم اختلفوا في موضع دفنه ، فرأى قوم أن يدفنوه بمكة لأنها مسقطُ رأسه ، وقال مَنْ قال : بل بالمدينة ؛ ندفنه بالبقيع عند شهداء أُحُد . ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبض فيه ، وصلّوا عليه أرسالًا لا يؤمّهم أحد .

وقيل : إن عليًّا عليه السلام أشار بذلك فقبلوه .

وأنا أعجب من ذلك ؛ لأنّ الصّلاة عليه كانت بعد بيْعة أبي بكر ، فما الذي منع من أن يتقدّم أبو بكر فيصلّي عليه إماما !

وتنازعوا في تلحيدِه وتضريحِه ، فأرسل العبّاس عمّه إلى أبي عبيدة بن الجرّاح — وكان يحفِر لأهل مكّة ويضرّح[1] على عادتهم — رجلا ، وأرسل عليّ رجلًا إلى أبي طلحة الأنصاريّ — وكان يَلحَد لأهل المدينة على عادتهم — وقال : اللهمّ اخترْ لنبيّك ، فجاءأبو طلحة فلحَدله ، وأدخِل في اللّحد .

وتنازعوا فيمن ينزل معه القبر ، فمنع عليّ عليه السلام النّاس أن ينزلوا معه ، وقال : لاينزل قبرَه غيري وغير العبّاس ، ثم أذن في نزولِ الفضل وأسامة بن زيد مولاهم ، ثم ضجّت الأنصار ، وسألت أن ينزل منها رجل في قبره . فأنزلوا أوْس بن خوليّ — وكان بدريًّا .

فأما الغسْل فإنّ عليا عليه السلام تولّاه بيده ، وكان الفضل بن العباس يصبّ عليه الماء .

وروى المحدّثون عن عليّ عليه السلام ، أنه قال : ما قَلّبْتُ منه عُضواً إلّا وانقلب ، لاأجدُ له ثِقلاً ، كأنّ معي مَنْ يساعدني عليه ، وما ذلك إلّا للملائكة .

وأما حديث الهينمة وسماع الصّوت ، فقد رواه خَلْق كثير من المحدّثين ، عن عليّ

---

(١) يضرح : أي يشق ويحفر له ضريحاً .

عليه السلام ، وتروى الشيعة أنّ علياً عليه السلام عَصَب عَيْنَي الفضْل بن العباس ، حين صبّ عليه الماء ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك ، وقال : إنه لا يبصر عورتى أحدٌ غيرُك إلا عَمِىَ .

* * *

قوله عليه السلام : « فمن ذا أحقّ به منّى حيًّا وميتا ! » ، انتصابهما على الحال من الضمير المجرور فى « به » ، أى أىّ شخص أحق برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته منّى ، ومرادُه من هذا الكلام ، أنه أحقّ بالخلافة بعده وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه فى الدنيا ؛ وليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير المجرور فى « منّى » لأنه لا يحسن أن يقول : أنا أحقّ به إذا كنت حيًّا من كلّ أحد ، وأحقّ به إذا كنت ميتا من كلّ أحد ، لأنّ الميت لا يوصَف بمثل ذلك ، ولأنه لا حال ثبتت له من الأحقيّة إذا كان حيًّا إلّا وهى ثابتة له إذا كان ميتا ، وإن كان الميت يوصف بالأحقيّة ، فلا فائدة فى قوله « وميتا » على هذا الفرض ، ولا يبقى فى تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة ، وأمّا إذا كان حالا من الضمير فى « به » ، فإنه لا يلزم من كونه أحقّ بالمنزلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حىّ أن يكونَ أحقَّ بالخلافة بعد وفاته ، أى ليس أحدُهما يلزم الآخر ، فاحتاج إلى أن يبيّن أنه أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله من كلّ أحدٍ إن كان الرسول حيًّا ، وإنْ كان ميتا ، ولم يستهجن أن يقسّم الكلام إلى القسمين المذكورين .

قوله عليه السلام : « فانفذوا إلى بصائركم » ، أى أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التى أنتم عليها ، ولا يدخلنّ الشكّ والرّيب فى قلوبكم .

قوله عليه السلام : « إنى لعلى جادّة الحق ، وإنهم لعلى مزلّة الباطل » ؛ كلام عجيب

على قاعدة الصناعة المعنوية ، لأنّه لا يحسن أن يقول : وأيهم لَعَلَى جادّة الباطل ؛ لأن الباطل لا يوصف بالجادّة ، ولهـذا يقال لمن ضلّ : وقع فى بُنَيّاتِ الطريق[1] ، فتعوّض عنهـا بلفظ « المزلّة » ، وهى الموضع الذى يزلّ فيه الإنسان ، كالمزلقة : موضع الزّلَق ، والمغرَقة : موضع الغرق ، والمهلـكة : موضع الهلاك .

(١) بنيات الطريق فى الأصل : الطرق الصغار تتشعب من الجادة .

(١٩١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ ، وَاخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ ، وَتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنفسكم ، وَجِلَاءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ .

***

الشرح :

العجيج : رفع الصوت ، وكذلك العَجّ ، وفي الحديث : « أفضل الحج العَجّ والثّجّ » ، أي التلبية وإراقة الدم ، وعجيج ، أي صوت ، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت .

والنِّينان : جمع نُونٍ ، وهو الحوت ، واختلافها هاهنا : هو إصعادها وانحدارها .

ونجيب الله : منتجبه ومختاره .

وسفير وحيه : رسول وحيه ، والجمع سفَراء ، مثل فقيه وفقهاء .

وإليه مرامى مفزعكم : إليه تفزعون وتلجئون ، ويقال : فلان مرمَى قصدى، أى هو للوضع الذى أنحوه وأقصده .

ويروى: « وجلاء عَشَى أبصاركم »، بالعين المهملة والألف المقصورة، والجأش : القلب، وتقدير الكلام : وضياء سواد ظلمة عقائدكم ، ولكنه حذف المضاف للعلم به .

* * *

الأصْلُ :

فَاجْعَلُوا طَاعَةَ ٱللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرْكِ طَلِبَتِكُمْ ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ ، فَإِنَّ طَاعَةَ ٱللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ .

فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا ؛ وَٱحْلَوْلَتْ لَهُ ٱلْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا ، وَٱنْفَرَجَتْ عَنْهُ ٱلْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا . وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا ، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا .

فَاتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ،وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ ،وَٱمْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ . فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ ، وَٱخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ .

* * *

الشرح :

الشِّعار : أقرب إلى الجَسَد من الدِّثار . والدَّخيل : ماخالطباطنَ الجسد، وهو[1] أقرب من الشعار .

ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفا بين الأضلاع ، أى فى القلب، وذلك أمسّ بالإنسان من الدخيل ، فقد يكون الدَّخيل فى الجسد وإن لم يخامر القلب .

ثم قال : « وأميرا فوق أموركم » ، أى يحكم على أموركم كما يحكم الأمير فى رعيّته .

والمنهل : الماء يرده الوارد من الناس وغيرهم .

وقوله : « لحين ورودكم » ، أى لوقت ورودكم .

والطِّلبة بكسر اللام : ماطلبته من شىء .

قوله : « ومصابيح لبطون قبوركم » ، جاء فى الخبر : إن العمل الصالح يضىء قبرَ صاحبه كما يضىء المصباح الظلمة .

والسَّكن : مايسكن إليه .

قوله : « ونَفَساً لكرب مواطنكم » ؛ أى سعة ورَوْحا .

ومكتنفة : محيطة . والأُوَار : حرّ النار والشمس .

وعَزَبت : بعُدت . واحلولت : صارت حلوة . وتراكمها : اجتماعها وتكاثفها .

وأسهلت : صارت سهلة . بعد إنصابها ، أى بعد إتعابها لكم ؛ أنصبته : أتعبته .

وهطلت : سالت . وقحوطها : قلّتها ورَتاحتها[2] .

وتحدّبت عليه : عطفت وحنَت .

نضوبها : انقطاعها . كنضوب الماء : ذهابه .

---

(١) ب : « فهو »

(٢) الرتاحة : القلة .

ووبَل المطر : صار وابلا ، وهو أشدّ المطر وأكثره . وإرذاذها : إتيانها بالرَّذاذ وهو ضعيف المطر .

قوله : « فعبِّدوا أنفسكم » ، أى ذللوها . ومنه طريق معبّد .

واخرجوا إليه من حقّ طاعته ، أى أدّوا المفترَض عليكم من العبادة ، يقال : خرجت إلى فلانٍ من دَيْنه ، أى قضيته إياه .

***

الأصلُ :

ثُمَّ إنَّ هَذَا الإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِى اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ .

أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ المِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ ، وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ ، وَأَتْأَقَ الحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ .

ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ ، وَلاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ ، وَلاَ انْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، وَلاَ انْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلاَ انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ ، وَلاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ ، وَلاَ جَذَّ لِفُرُوعِهِ ، وَلاَ ضَنْكَ لِطُرُقِهِ ، وَلاَ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ ، وَلاَ عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ ، وَلاَ عَصَلَ فِى عُودِهِ ، وَلاَ وَعَثَ لِفَجِّهِ ، وَلاَ انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ ، وَلاَ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ .

فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِى الحَقِّ أَسْنَاخَهَا ، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا ؛ وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا ، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا ؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا ، وَأَعْلاَمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا ، وَمَنَاهِلُ رَوِىَ بِهَا وُرَّادُهَا .

جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُضِيءُ النِّيرَانِ ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ .

فَشَرِّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ ؛ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ .

* * *

الشرح :

اصطنعه على عينه ؛ كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به ، تقول للصانع : اصنع لى كذا على عينى ، أى اصنعه صنعة كاملة كالصنعة التى تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعينى ، قال تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾(١) .

وأصفاه خيرة خلقه ، أى آثر به خيرة خلقه ، وهم المسلمون ؛ وياء : «خِيرَة» مفتوحة.

قال : وأقام الله دعائم الإسلام على حبّ الله وطاعته .

والمحادّ : المخالف ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ ﴾(٢) ، أى من يعادِ الله كأنه يكون فى حدّ وجهة ، وذلك الإنسان فى حدّ آخر وجهة أخرى ، وكذلك المشاقّ ؛ يكون فى شقّ والآخر فى شق آخر .

وأتأق الحياض : ملأها ، وَتَئِقَ السّقاء نفسه يتأق تأقا ، وكذلك الرجل ، إذا امتلأ غضباً .

قوله : « بمواتحه » ، وهى الدّلاء يمتح بها ، أى يسقى بها .

والانفصام :الانكسار . والعفاء: الدّروس .

والجذّ : القطع ، ويروى بالدال المهملة ؛ وهو القطع أيضاً .

والضّنك : الضيق .

---

(١) سوره طه ٣٩ .

(٢) سوره التوبة ٩ .

والوعوثة : كثرة فى السهولة توجب صعوبة المشى ؛ لأن الأقدام تغيث فى الأرض .

والوضَح : البياض .

والعَوَج ، بفتح العين : فيما ينتصب كالنخلة والرّمح ، والعِوَج بكسرها : فيما لا ينتصب ؛ كالأرض والرأى والدّين .

والعَصَل : الالتواء والاعوجاج ، ناب أعصَل وشجرة عصلة ، وسهام عُصْل .

والفَجّ : الطريق الواسع بين الجبلين ، يقول : لا وَعث فيه ؛ أى ليس طريق الإسلام بوعث ، وقد ذكرنا أنّ الوعوثة ماهى .

قوله : « فهو دعائم أساخ فى الحق أسناخها » ، الأسناخ : جمع سِنْخ ، وهو الأصل ، وأساخها فى الأرض : أدخلها فيها ، وساخت قوائم فرسه فى الأرض تسوخُ وتَسِيخ : دخلت وغابت .

والآساس بالمدّ : جمع أسَس ، مثل سَبَب وأسباب ، والأسَس والأُسّ والأساس واحد ، وهو أصل البناء .

وغَزُرت عيونها ، بضم الزاى : كثرت . وشَبّت نيرانها بضم الشين : أوقدت ، والمنار : الأعلام فى الفلاة .

قوله : « قصد بها فجاجها » ، أى قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين فى تلك الفجاج ، فأضاف القصد إلى الفِجاج .

وروى : « روّادها » جمع رائد ، وهو الذى يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء .

والذُّرْوة : أعلى السنام والرأس وغيرهما .

قوله : « معوِز المثار » ، أى يعجز الناس إثارته وإزعاجه لقوّته ومتانته .

***

الأصْـلُ :

ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ ، حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الانْقِطَاعُ ؛ وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاعُ ، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا ، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا ، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلامِهَا ، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا .

جَعَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بَلاغاً لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لأُمَّتِهِ ؛ وَرَبِيعاً لأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً لأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفاً لأَنْصَارِهِ .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَاجاً لا يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعاً لا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ ، وَفُرْقَاناً لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ ، وَتِبْيَاناً لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِيُّ الإِسْلامِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ . وَبَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلُ لا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلُ لا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ ، وَأَعْلامٌ لا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَآكَامٌ لا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ .

***

[اختلاف الأقوال فى عمر الدنيا]

الشرح :

قوله عليه السلام : « حين دنا من الدنيا الانقطاع » ، أى أزفت الآخرة وقرب وقتها . وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا شديدا فذهب قوم إلى أن عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، قد ذهب بعضها وبقى بعضها .

واختلفوا فى مقدار الذاهب والباقى ، واحتجوا لقولهم بقوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(١) ، قالوا : اليوم هو إشارة إلى الدنيا ، وفيها يكون عروج الملائكة والروح إليه ، واختلافهم بالأمر من عنده إلى خلقه ، وإلى رسله ، قالوا : وليس قول بعض المفسرين إنه عنى يوم القيامة بمستحسن ، لأن يوم القيامة لا يكون للملائكة والروح عروج إليه سبحانه ، لانقطاع التكليف ، ولأن المؤمنين إما أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة ، أو يكون هذا مختصاً بالكافرين فقط ، ويكون قصيراً على المؤمنين ، والأول باطل ؛ لأنه أشد من عذاب جهنم ، ولا يجوز أن يلقى المؤمن هذه المشقة ، والثانى باطل ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الزمان الواحد طويلا قصيرا بالنسبة إلى شخصين ، اللهم إلا أن يكون أحدهما نائما ، أو ممنوا بعلة تجرى مجرى النوم ، فلا يحس بالحركة ، ومعلوم أن حال المؤمنين بعد بعثهم ، ليست هذه الحال .

قالوا : وليست هذه الآية مناقضة للآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢) ، وذلك لأن سياق الكلام يدل على أنه أراد به الدنيا ، وذلك لأنه قد ورد فى الخبر أن

---

(١) سورة المعارج ٤ .

(٢) سورة السجدة ٥ .

بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام ، فإذا نزل الملك إلى الأرض ، ثم عاد إلى السماء، فقد قطع فى ذلك اليوم مسيرة ألف عام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، أى ينزل الملك بالوحى والأمر والحكم من السماء إلى الأرض،ثم يعود راجعاً إليه وعارجا صاعدا إلى السماء ، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة.

•••

وذكر حمزة بن الحسن الأصفهانىّ فى كتابه المسمى " تواريخ الأمم " : أنّ اليهود تذهب إلى أنّ عدد السنين من ابتداء التّناسل إلى سنة الهجرة لمحمد صلى الله عليه وآله أربعة آلاف واثنتان وأربعون سنة وثلاثة أشهر .

والنصارى تذهبُ إلى أنّ عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثه أشهر .

وأنّ الفرس تذهب إلى أنّ من عهد كيومَرْث والد البشر عندهم إلى هلاك يَزْدَجِرد ابن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعةعشريوما، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذى جاء به زَرَدْشت ، وهو الكتاب المعروف بأبستا .

فأمّا اليهود والنصارى فيسندُون ذلك إلى التوراة ويختلفون فى كيفيّة استنباط المدّة .

وتزعم النّصارى واليهود أن مدّة الدّنيا كلّها سبعة آلاف سنة ، قد ذهب منها ماذَهَب وبقى ما بَقِىَ .

وقيل : إنّ اليهود إنما قصّرت المدّة لأنهم يزعمون أنّ شيخهم الذى هو منتظرُهم ، يخرج فى أوّل الألف السابع ، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيامها لتعجّل افتضاحهم ، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند مَنْ يأتى بعدنا من البشر .

قال حمزة : وأما المنجّمون فقد أتوا بما يغمز هذا كلّه ، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارتْ فيه الكواكب ، من رأس الحمل إلى اليوم الذى خرج فيه المتوكّل ابن معتصم بن الرشيد من سامَرّاء إلى دمشق ، ليجعلها دار الملك ، وهو أوّل يوم من المحرّم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة المحمدية ، أربعة آلاف ألف ألف ألف ـ ثلاث لفظات ـ وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة، بسِنِى الشمس

قالوا : والذى مضى من الطّوفان إلى صبيحة اليوم الّذى خرج فيه المتوكّل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما .

* * *

وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتاب ''الآثار الباقية عن القرون الخالية'' :أنّ الفرس والمجوس يزعمون أن عُمْر الدنيا اثنا عشر ألف سنة ، على عدد البروج وعدد الشهور ، وأنّ الماضىَ منها إلى وقت ظهور زَرَدُشت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة ، وبين ابتداء ظهور زَرَدُشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التى كتبنا فيها شرح هذا الفصل ـ وهى سنة سبع وأربعين وسمّائة للهجرة النبويّة ـ ألف وخمسمائة وسبعون سنة ،فعلَى هذا يكون الماضى إلى يومنا هذا من أصل اثنى عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثمانى عشرة سنة ، فيكون الباقى من الدنيا علَى قولهم أكثر من الماضى .

وحكى أبو الريحان عن الهند فى بعض كتبه، أنّ مدّة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت فى رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت .

* * *

فأما الأخباريّون من المسلمين ، فأكثرهم يقولون : إنّ عمر الدّنيا سبعة آلاف سنة

ويقولون إننا فى السابع ، والحقّ أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده ، كما قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾(١)، وقال : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(٢).

ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾(٣) و ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾(٤)، و ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾(٥).

ولا نعلم كميّة الماضى ولا كميّة الباقى ، ولكنّا نقول كما أمرنا ، ونسمع ونطيع كما أدّبنا ، ومن الممكن أن يكون مابقى قريبا عند الله ، وغير قريب عندنا ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾(٦).

وبالجملة هذا موضع غامض يجب السكوت عنه .

***

قوله عليه السلام : « وقامت بأهلها على ساق » ، الضمير للدنيا ، والساق الشدّة، أى انكشفت عن شدّة عظيمة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾(٧) أى التفت آخر شدّة الدنيا بأول شدّة الآخرة .

والمهاد : الفراش . وأزف منها قياد ، أى قرب انقيادها إلى التقضى والزوال .

وأشراط السّاعة : علاماتها ، وإضافتها إلى الدّنيا لأنّها فى الدّنيا تحدث ، وإن كانت علامات للأخرى . والعفاء : الدروس .

---

(١) سورة النازعات ٤٢ ـ ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف ٨٧ .
(٣) سورة القمر ١ .
(٤) سورة الأنبياء ١ .
(٥) سورة النحل ١ .
(٦) سورة المعارج ٦ .
(٧) سورة القيامة ٢٩ .

وروى : « من طِوَلها » والطِّوَل : الحبل .

ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال : جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته ؛ أى ذا بلاغ ، والبلاغ : التّبليغ ، فحذف المضاف .

ولا تخبو : لا تنطفئ . والفرقان : مايُفرّق به بين الحقّ والباطل .

وأثافيّ الإسلام : جمع أُثفِيّة ، وهى الأحجار توضع عليها القِدْر ، شكل مثلّث .

والغيطان : جمع غائط ، وهو المطمئنّ من الأرض .

ولا يَغيضها ، بفتح حرف المضارعة ، غاض المــاء وغِضتُه أنا ، يتعدّى ولا يتعدّى ، وروى « لا يُغيضها » بالضمّ على قول من قال : أغضت الماء ، وهى لغة ليست بالمشهورة

والإكام : جمع أَكَم ، مثل جِبال جمع جَبَل ، والأَكَم جمع إكَمة ، مثل عِنب جمع عِنَبة ، والأَكَمة :ماعلا من الأرض ، وهى دون الكثيب .

***

الأصْــلُ :

جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ،وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ،وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ،وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ،وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى .

***

الشرح :

الضمير يرجع إلى القرآن، جعله الله رِيًّا لعطش العلماء، إذا ضلّ العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه، فسقاهم كما يسقى الماء العطش، وكذا القول في « ربيعا لقلوب الفقهاء »، والربيع ههنا : الجدول، ويجوز أن يريد المطر في الرّبيع، يقال : رُبِعَت الأرض فهي مربوعة .

والمحاجّ : جمع محجّة، وهي جادّة الطريق . والمعقِل : الملجأ .

وسِلْماً لمن دخله، أي مأمناً، وانتحله : دان به، وجعله نِحْلَته .

والبرهان : الحجّة، والفَلْج : الظَّفَر والفوز . وحاجّ به : خاصم .

قوله عليه السلام: « وحاملا لمَنْ حَمَله » ؛ أي أنّ القرآن ينجّي يوم القيامة مَنْ كان حافظا له في الدنيا، بشرط أن يعمل به .

قوله عليه السلام : « ومطيّة لمن أعمله »، استعارة، يقول : كما أنّ المطية تنجّي صاحبها إذا أعملها وبعثها على النّجاء، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه، ومعنى إعماله، اتّباع قوانينه والوقوف عند حدوده .

قوله : « وآية لمَنْ توسّم »، أي لمن تفرّس، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1].

والجُنّة : مايستتَرُ به : واستلأم : لبس لأمة الحرب، وهي الدرع .

ووَعَى : حَفِظ .

قوله : « وحديثا لمن روَى »، قد سمّاه الله تعالى حديثا فقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

---

(١) سورة الحجر ٧٥ .

الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾[1] ؛ وأصحابنا يحتجون بهذه اللفظة على أنّ القرآن ليس بقديم؛ لأنّ الحديث ضدّ القديم .

وليس للمخالف أن يقول : ليس المراد بقوله : ﴿ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ ما ذكرتم ؛ بل المراد أحسنُ القول ، وأحسن الكلام ، لأنّ العرب تسمّى الكلام والقول حديثا ، لأنا نقول : لعمرى، إنه هكذا ، ولكن العرب ما سمّت القول والكلام حديثا إلّا أنه مستحدَث متجدِّد حالا فحالا ، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية : « قد مللتُ كلّ شىء إلّا الحديث» ، فقال : إنّما يُملّ العتيق ؛ فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثا ، وفطِن لمغزام ومقصدهم فى هذه التسمية ، وإذا كنّا قد كلّفنا أن نجرى على ذاته وصفاته وأفعاله ما أجراه سبحانه فى كتابه ، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفيّة التى أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث ــ وكان القرآن فى عرف اللغة إنما سمّى حديثا لحدوثه وتجدّده ــ فقد ساغ لنا أن نُطلِقَ على كلامه أنه محدَث ومتجدِّد ؛ وهذا هو المقصود .

---

(١) سورة الزمر ٢٣ .

(١٩٢)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام كان يوصي به أصحابه :

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً. أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾[1].

وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ.

وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ !

وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ؛ وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ؛ مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾[2]. . .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[3]؛ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ، وَيُصْبِرُ نَفْسَهُ.

---

(١) سورة المدثر ٤٢، ٤٣.
(٢) سورة النور ٣٧.
(٣) سورة طه ١٣٢.

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ الْإِسْلاَمِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا؛ فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً،وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً ؛ فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَاهُوَأَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ ، مَغْبُونُ الْأَجْرِ ، ضَالُّ الْعَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ . ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا،إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمٰوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ،وَالْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ ؛ فَلاَ أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ ؛ وَلاَأَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا . وَلَوِ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ ، أَوْ عَرْضٍ ، أَوْ قُوَّةٍ ، أَوْ عِزٍّ ، لاَمْتَنَعْنَ ؛ وَلٰكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَعَقَلْنَ مَاجَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ،وَهُوَ الْإِنْسَانُ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (١) .

إِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذه الآية يستدلّ بها الأصوليّون من أصحابنا على أنّ الكفار يعاقبون فى الآخرة على ترك الواجبات الشرعيّة ، وعلى فعل القبائح ، لأنّها فى الكفار وردت ، ألا ترى إلى قوله: ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ (٢). فليس يجوز أن يعنى بالمجرمين ههنا الفاسقين من أهل القبلة،لأنه قال : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾

---

(١) سورة الاحزاب ٧٢ .

(٢) سورة المدثر ٤٢ ـ ٤٧

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾(١) .

قالوا : وليس لقائل أن يقول : معنى قوله : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة ؛ لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ لأنّ أحد الأمرين هو الآخر ، وحَمْل الكلام على مايفيد فائدةً جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة ، فقد ثبت بهذا التقرير صحة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على تأكيد أمر الصلاة ، وأنّها من العبادات المهمّة في نظر الشارع .

قوله عليه السلام : « وإنّها لتحتُّ الذّنوب » ، الحتّ : نثر الورق من الغصن ، وانحاتّ ، أي تناثر ؛ وقد جاء هذا اللفظ في الخبر النبويّ بعينه .

والرِّبَق : جمع رِبْقة ، وهي الحبل ، أي تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقّدة ، أي تحلّ ما انعقد على المكلّف من ذنوبه ، وهذا من باب الاستعارة .

ويروى : « تعهّدوا أمر الصلاة » بالتضعيف ، وهو لغة ، يقال : تعاهدت ضَيْعتي وتعهّدتها وهو القيام عليها ، وأصله من تجديد العهد بالشيء ، والمراد المحافظة عليه ؛ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ ، أي واجبا ، وقيل موقوتا ؛ أي منجّما كلّ وقت لصلاة معيّنة ؛ وتؤدّى هذه الصلاة في نجومها .

وقوله : « كتابا » أي فرضا واجبا ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾(٣) أي أوجب .

والحَمّة : الحفيرة فيها الحميم وهو الماء الحارّ ، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح ، قال صلى الله عليه وآله : « أيسرّ أحدكم أن تكون على بابه حَمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس

---

(١) سورة المدثر ٤٢ — ٤٧ .

(٢) سورة النساء ١٠٣ .

(٣) سورة الأنعام ٣

مرات ، فلا يبقى عليه من دَرَنِهِ شىء ! قالوا نعم ، قال : فإنّها الصلوات الخمس » .
والدَّرَن : الوسخ .

والتجارة فى الآية ، إمّا أنْ يراد بها : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله . ثمّ أفرد البيع بالذكر ، وخصّه وعطفه على التجارة العامة ، لأنه أدخل فى الإلهاء ، لأنّ الربح فى البيع بالكسب معلوم ، والرّبح فى الشراء مظنون ، وإمّا أن يريد بالتجارة الشراء خاصة إطلاقا لاسم الجنس الأعمّ على النوع الأخصّ ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة ، إذا اتّجه له شراء صالح ، فأما إقام الصلاة فإنّ التاء فى « إقامة » عوض من العين الساقطة للإعلال ، فإنّ أصله « إقوام » مصدر أقام ، كقولك : أعرض إعراضاً ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت التاء .

قوله عليه السلام : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصِباً بالصّلاة ، أى تَعِباً ، قال تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾(١) .

وروى أنه عليه السلام قام حتى تورّمت قدماه مع التبشير له بالجنة .

وروى أنه قيل له فى ذلك فقال : « أفلا أكونُ عبدا شكورا ! » .

ويُصبر نفسه : من الصبر ، ويروى : « ويَصْبر عليها نفسه » أى يحبس ؛ قال سبحانه : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾(٢) . وقال عنترة يذكر حربا كان فيها :

فَصَبَرْتُ عارِفَـةً لذلك حُرَّةً ترْسُو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ(٣)

* * *

[فصل فى ذكر الآثار الواردة فى الصلاة وفضلها]

واعلم أنّ الصلاة قد جاء فى فضلها الكثير الذى يُعجزنا حصره ، ولو لم يكن

---

(١) سورة طه ٢ . (٢) سورة الكهف ٢٨ .
(٣) اللسان (صبر) .

إلا ماورد فى الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الوصاة بها والمحافظة عليها ، لكان بعضه كافيا .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « الصَّلاةُ عمودُ الدِّين ،فمن تركها فَقَدْ هَدَمَ الدين » .
وقال أيضاً عليه السلام : « عَلَمَ الإيمان الصّلاة ، فمن فرّغ لها قلبه ، وقام بحدودها ؛ فهو المؤمن » .
وقالت أمّ سلمة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه .
وقيل للحسن رحمه الله : مابال المتهجّدين مِنْ أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنّهم خَلَوْا بالرحمن ، فألبسهم نورا من نوره .

وقال عمر : إنّ الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام ماأكمل الله له صلاة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتمّ خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها .
وقال بعض الصالحين : إنّ العبد ليسجُد السّجدة عنده أنّه متقرب بها إلى الله ،ولو قُسِم ذنبه فى تلك السجدة على أهل مدينة لهلكوا ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يكون ساجداً وقلبه عند غير الله ، إنّما هو مصغٍ إلى هوًى أو دنيا .

صلّى أعرابيّ فى المسجد صلاة خفيفة ، وعمر بن الخطاب يراه ، فلمّا قضاها قال : اللهمّ زَوِّجْنى الحور العين . فقال عمر : ياهذا لقد أسأت النَّقْد ، وأعظمت الخِطْبة !
وقال علىّ عليه السلام : لايزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن ما حافظ على الخمس ، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه ، وأوقعه فى العظائم .
وروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال : « الصلاة إلى الصلاة كفّارة لمابينهما ، مااجتنبت الكبائر » .

وجاء فى الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حزَبَه أمرٌ فزِع إلى الصلاة .

وقال هشام بن عروة : كان أبي يطيل المكتوبة ويقول : هى رأس المال .

قال يونس بن عبيد : مااستخفّ أحد بالنوافل إلّا استخفّ بالفرائض .

يقال : إنّ محمد بن المنكدر جزّأ الليل عليه وعلى أمّه وأخته أثلاثاً ، فماتت أخته ، فجزّأه عليه وعلى أمه نصفين ، فماتت أمّه فقام الليل كله .

كان مسلم بن يَسار لايسمع الحديث إذا قام يصلّى ، ولا يفهمه ، وكان إذا دخل بيته سكت أهلُه فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة ، فيتحدّثون ويلغطون ، فهو لا يشعر بهم . ووقع حريق إلى جنبه وهو فى الصلاة ، فلم يشعر به حتى حرق .

كان خلف بن أيوب لايطردُ الذباب إذا وقع على وجهه وهو فى الصلاة فى بلاد كثيرة الذّبان ، فقيل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلغنى أنّ الشطّار يصبرون تحت السّياط ليقال: فلان صبور ، أفلا أصبر وأنا بين يدى ربىّ على أذى ذباب يقع علىّ !

قال ابن مسعود : الصلاة مكيال ، فمن وَفّى وُفّيَ له ، ومن طفّف ،فويلٌ للمطفّفين !

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : يارسول الله ،ادع لى أن يرزقنى الله مرافقتك فى الجنّة ، فقال : « أعنّى على إجابة الدّعوة بكثرة السجود » .

***

قوله عليه السلام : « قربانا لأهل الإسلام » ، القربان : اسم لما يتقرّب به من نَسيكة أو صدقة .

وروى : « ومن النار حجازا » بالزاى أى مانعا. واللّهَف :الحسرة،ينهى عليه السلام

عن إخراج الزكاة مع التسخّط لإخراجها والتلهف والتحسّر على دفعها إلى أربابها، ويقول: إنّ من يفعل ذلك يرجو بها نَيل الثواب ضالّ مضيّع لماله، غير ظافر بما رجاه من المثوبة.

***

[ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة والتصدق]

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوّع الكثير جداً، ولو لم يكن إلّا أنّ الله تعالى قرنها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفى.

وروى بريدة الأسلمي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « ماحَبَس قومٌ الزكاة إلا حبس الله عنهم القَطْر ».

وجاء في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهما في سبيل الله ماجاء في الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ .. ﴾(١) الآية، قال المفسرون: إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها.

وروى الأحنف قال: قدمتُ المدينة، فبينا أنا في حَلْقَة فيها ملأٌ من قريش، إذ جاء رجل خَشِنُ الجسد، خَشِنُ الثياب، فقام عليهم، فقال: بشّر الكانزين برَضْف(٢) يحمى عليها في نار جهنم، فتوضع على حلمة ثدي الرجل حتى تخرج من نُغْض(٣) كتفه، ثم توضع على نُغْض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه، فسألت عنه فقيل: هذا أبو ذرّ الغفاريّ، وكان يذكره ويرفعه.

ابن عباس يرفعه: « مَنْ كان عنده ما يزكّي فلم يزكّ، وكان عنده مايحجّ فلم يحج سأل الرجعة، يعني قوله: « رب ارجعون ».

---

(١) سورة التوبة ٣٤.

(٢) الرضف: الحجارة المحماة.

(٣) النغض: أعلى الكتف؛ وقيل هو العظم الرقيق الذي على طرفه.

أبو هريرة : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله : أيّ الصدقة أفضل؟ فقال : أن تعطى وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل ؛ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا[1] .

وقيل للشبليّ : مايجب فى مائتى درهم ؟ قال: أمّا من جهة الشرع فخمسة ، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلّ .

أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بعضَ نسائه أن تقسم شاة على الفقراء فقالت: يارسول الله ؛ لم يبق منها غير عُنُقِها ؛ فقال عليه السلام : كلّها بقىَ غير عنقها . أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

يبكى على الذّاهب من مالِهِ وإنّما يبقى الذى يذهبُ

السائب : كان الرجل من السلف يضع الصدقة ، ويمثُل قائما بين يدى السائل الفقير ويسأله قبولها ؛ حتى يصير هو فى صورة السائل .

وكان بعضهم يبسط كفّه ويجعلها تحت يد الفقير ؛ لتكون يدُ الفقير العليا .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله : «ما أحسن عبدٌ الصدقة إلاّ أحسنَ الله إليه فى مخلّفيه»

وعنه صلى الله عليه وآله : « الصدقة تسدّ سبعين بابا من الشرّ » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « أذهبُوا مذمّة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » .

كان النبيّ صلى الله عليه وآله لا يكِلُ خصلتين إلى غيره : لا يوضّئه أحد، ولا يعطى السائل إلّا بيده .

بعض الصالحين : الصلاة تبلغك نصفَ الطريق ، والصوم يبلغك باب الملِك ، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

الشّعبى : من لم يرَ نفسه أحوجَ إلى ثواب الصَدَقة من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته ؛ وضرب بها وجهه .

---

(١) ساقط من ب .

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن ؛ أعطاه زيتا أو سمنا أو نحوهما مما ينتفع به ، فإن لم يكن ، أعطاه كحلا ، أو خرج بإبرة وخاط بها ثوب السائل ، أو بخرقة يرقّع بها ما تخرّق من ثوبه .

ووقف مرّة على بابه سائل ليلا ، ولم يكن عنده مايدفعه إليه ، فخرج إليه بقصبة فى رأسها شُعلة ، وقال : خذ هذه وتبلّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك .

* * *

قوله عليه السلام : « ثم أداء الأمانة » ، هى العقد الذى يلزم الوفاء به ، وأصحّ ماقيل فى تفسير الآية أنّ الأمانة ثقيلة الحمل ، لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم ، فهى بالغة من الثقل وصعوبة المحمل مالوا أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها . فأمّا الإنسان فإنه حمَلها والتزم القيام بها . وليس المراد بقولنا : إنها عرضت على السموات والأرض أى لو عرضت عليها وهى جمادات ، بل المراد تعظيم شأن الأمانة ، كما تقول : هذا الكلام لا يحمله الجبال ، وقوله :

* امتلأ الحوض وقال قطنى *(١)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أتينا طائعين ﴾(٢) . ومذهب العرب فى هذا الباب . وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع .

---

(١) اللسان (قطن) ، وبقيته :

* سَلًا رُوَيْدًا قَدْ مَلَأْتَ بَطْنِي *

(٢) سورة فصلت ١١ .

(١٩٣)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَٱللهِ مَامُعَاوِيَةُ بِأدهَى مِنِّي ؛ وَلَـكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَـدْرِ لَـكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ،وَلَـكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ ؛ وَلِـكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ .وَٱللهِ مَاأُسْتَغْفَلُ بِالمَـكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

***

الشّرْحُ :

الغُدَرَة ، على «فُعَلة» الـكثير الغَدْر،والفُجَرة والـكُفَرة:الـكثير الفجور والـكفر، وكلّ ما كان على هذا البناء فهو للفاعل ، فإن سكّنت العين فهو للمفعول ، تقول : رجل ضُحَـكة أي يَضحك ، وضُحْـكة يُضحَك منه ، وسُخَرة يَسْخر ، وسُخْرة يُسخَر به ، يقول عليهالسلام: كلّ غادر فاجر،وكلّ فاجر كافر.ويروى: « ولـكن كلّ غَدْرةفجْرة، وكلّ فَجْرة كَفْرة » على «فَعْلة» للمرةالواحدة .

وقوله : « لـكلّ غادرلواء يعرّف به يوم القيامة » ؛حديث صحيح مروىّ عن النبي صلى الله عليه وآله .

ثم أقسم عليه السلام أنه لايُستغفَل بالمـكيدة ، أى لاتجوزالمـكيدة علىّ ، كماتجوزعلى ذوى الغَفْلة ، وأنه لايستغمَز بالشديدة ، أى لاأهين وألين للخطب الشديد .

***

[سياسة عليّ وجريها على سياسة الرسول عليه السلام]

واعلم أنّ قوماً ممّن لم يعرف حقيقة فضلِ أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أنّ عمر كان أسوس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو عليّ بن سينا بذلك في «الشفاء» في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرّض به في كتاب «الغرر»[1]، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أنّ معاوية كان أسوس منه وأصحّ تدبيرا، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحّة تدبيره، ونحن نذكر هاهنا مالم نذكره هناك ممّا يليق بهذا الفصل الذى نحن في شرحه.

اعلم أنّ السائس لايتمكّن من السياسة البالغة إلّا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ماقلناه؛ فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيّدا بقيود الشريعة، مدفوعا إلى اتّباعها ورفض مايصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقا، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ماهو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النصّ بالآراء وبالاستنباط من أصولٍ تقتضي خلاف مايقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسوط من

(١) هو كتاب الغرر لأبي الحسين البصرى، في أصول الكلام، شرحه المؤلف، وسماه: «شرح مشكلات الغرر»، ذكره صاحب روضات الجنات.

يتغلّب على ظنّه أنه يستوجب ذلك ، ويصفح عن آخرين قد اجترموا مايستحقون به التأديب ، كلّ ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص والظواهر ، ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة ، ويطبّق أمورَ الدّنيا على أمور الدين ، ويسوق الكلّ مساقا واحدا ؛ ولا يَضَع ولا يرفع إلّا بالكتاب والنصّ ، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة ، وكان عمر مع ذلك شديد الغلظة والسياسة ، وكان عليّ عليه السلام كثير الحِلْم والصّفح والتجاوز ، فازدادت خلافة ذاك قوّة ، وخلافة هذا لينا ؛ ولم يُمْنَ عمر بما مُنِيَ به عليّ عليه السلام من فتنة عثمان ؛ التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم ، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة . ثم تلا ذلك فتنة الجمل ، وفتنة صِفّين ثم فتنة النّهروان ، وكلّ هذه الأمور مؤثّرة في اضطراب أمر الوالى وانحلال معاقد ملكه ، ولم يتّفق لعمر شيء من ذلك ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحّة تدبير الخلافة !

فإن قلت : فما قولك في سياسة الرسول الله صلى الله عليه وآله وتدبيره ؟ أليس كان منتظماً سديدا مع أنه كان لا يعمل إلّا بالنصوص والتوقيف من الوحي ! فهلّا كان تدبير عليّ عليه السلام وسياسته كذلك ! إذا قلتم : إنه كان لا يعمل إلّا بالنصّ ، قلت : أما سياسة الرسول لله صلى الله عليه وآله وتدبيره فخارج عمّا نحن فيه ؛ لأنه معصوم لا تتطرّق الغفلة إلى أفعاله ، ولا واحدَ من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا . وأيضا فإنّ كثيرا من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذِن للرسول الله صلى الله عليه وآله أن يحكم في الشرعيّات وغيرها برأيه ، وقال له : احكم بما تراه ، فإنّك لا تحكم إلّا بالحق ، وهذا مذهب يونس بن عمران ، وعلى هذا فقد سقط السؤال ، لأنّه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة ، ولا ينتظر الوحيَ . وأيضا فبتقدير فساد هذا المذهب ؛ أليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه إلى أنّ الرسول الله صلى الله عليه وآله كان يجوز[1] له أن يجتهدَ في الأحكام والتدبير ، كما يجتهد

(١) ساقط من ب

الواحد من العلماء ، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾(١).

والسؤال أيضا ساقط على هذا المذهب ، لأنّ اجتهاد عليّ عليه السلام لا يساوي اجتهادَ النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وبين الاجتهادين كما بين المنزلتين .

* * *

وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسنيّ نقيب البصرة رحمه الله إذا حدّثناه في هذا يقول : إنّه لا فرقَ عندَ من قرأ السِّيرتين : سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسياسة أصحابه أيام حياته ، وبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيّام حياته ، فكما أنّ عليًّا عليه السلام لم يزلْ أمرُه مضطربًا معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه، وكثرة الفتن والحروب ، فكذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله لم يزل ممنوًّا بنفاق المنافقين وأذاهم ، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه ، وكثرة الحروب والفتن .

وكان يقول : ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم ، والتألّم من أذاهم له ؛ كما أنّ كلام علي عليه السلام مملوء بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم له ، والتوبيخ لهم عليه ! وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾(٣) الآية.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

---

(١) سورة النساء ١٠٥ (٢) سورة المجادلة ٨ (٣) سورة المجادلة ١٠ .

لَرَسُولُه وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ﴾ السورة بأجمعها (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

---

(١) سورة المنافقين .
(٢) سورة محمد ١٦ .
(٣) سورة محمد ٢٠ .
(٤) سورة محمد ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) سورة الفتح ١١ ، ١٢ .

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١).

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

قال : وأصحابه هم الذين نازعوا في الأنفال وطلبوها لأنفسهم ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وهم الذينَ ٱلتَوَوْا عَلَيْهِ في ٱلْحَرْب يوم بدر ، وكرهوا لقاء العدوّ حتى خيف خذلانهم، وذلك قبل أن تتراءى الفئتان ، وأنزل فيهم: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (٤).

وهم الذين كانوا يتمنّون لقاء العِيرِ دون لقاء العدوّ ، حتى إنّهم ظفروا برجلين في الطريق ، فسألوهما عن العِير ، فقالا لا علم لنا بها ، وإنّما رأينا جيشَ قريش من وراء ذلك الكثيب ، فضربوهما ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلّي ، فلمّا ذاقا مسّ الضّرْب قالا : بل العِير أمامكم فاطلبوها ، فلما رفعوا الضَّرْب عنهما ، قالا : والله ما رأينا العِير ولا رأينا إلّا الخيل والسلاح والجيش، فأعادوا الضَّرْب عليهما مرة ثانية ، فقالا وهما يُضْربان : العِير أمامكم ، خلّوا عنّا ،فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من الصّلاة، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهُما ، وإذا كذباكم خلّيتم عنهما ! دعوهما ؛ فما رأيا إلّا جيش أهل مكة،وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

(١) سورة الفتح ١٥ .
(٢) سورة الحجرات ٤، ٥ .
(٣) سورة الأنفال ١ .
(٤) سورة الأنفال ٦ .

دَابِرِ ٱلْكَافِرِينَ ﴾[1] . قال المفسرون : الطائفتان : العير ذات اللطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبةَ أبي سفيان بن حرب ، وإليها كان خروج المسلمين ، والأخرى : الجيش ذو الشَّوْكة ، وكان عليه السلام قد وعدهم بإحدى الطائفتين ، فكرهوا الحرب ، وأحبُّوا الغنيمة .

قال : وهم الذين فرّوا عنه صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ، وأسلموه وأصعدوا في الجبل ، وتركوه حتى شجَّ الأعداء وجهَه ، وكسروا ثنيّتَه ، وضربوه على بَيْضَتِه ، حتى دخل جماجمه ، ووقع من فرسه إلى الأرض بين القتلى ، وهو يستصرخ بهم ، ويدعوهم فلا يجيبه أحدٌ منهم إلا مَنْ كان جارياً مجرى نَفْسِه ، وشديد الاختصاص به ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾[2] ، أي ينادي فيسمَع نداءه آخر الهاربين لا أوّلهم ؛ لأن أوّلهم أوْغَلوا في الفرار ، وبعدوا عن أن يسمعوا صوته ، وكان قصارَى الأمر أن يبلغَ صوتُه واستصراخه مَنْ كان على ساقة الهاربين منهم .

قال : ومنهم الذين عَصَوْا أمره في ذلك اليوم ، حيث أقامهم على الشِّعْب في الجبل ، وهو الموضع الذي خاف أن تكرّ عليه منه خيل العدوّ من ورائه ، وهم أصحاب عبدالله ابن جُبير ، فإنّهم خالفوا أمره وعصوْه فيما تقدّم به إليهم ، ورغِبوا في الغنيمة ، ففارقوا مركزَهم ؛ حتى دخل الوَهن على الإسلام بطريقهم ، لأنّ خالد بن الوليد كرّ في عِصابة من الخيل ، فدخل من الشِّعب الذي كانوا يحرسونه ، فما أحسّ المسلمون بهم إلّا وقد غشوهم بالسيوف من خلفهم ، فكانت الهزيمة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ

---

(١) سورة الأنفال ٧

(٢) سورة آل عمران ١٥٣ .

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (١) .

قال : وهم الذين عصوا أمره في غزاة تبوك ، بعد أن أكد عليهم الأوامر، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه ، فأنزل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين، وفيها أوضح دليل على أن أصحابه وأولياءه المصدّقين لدعوته كانوا يعصونه، ويخالفون أمره ؛ وأكد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٣) .

ثم عاتب رسولَ الله صلى الله عليه وآله على كونه أذِنَ لهم في التخلّف، وإنّما أذِن لهم لعلمه أنهم لا يجيبونه في الخروج ، فرأى أن يجعل المِنّة له عليهم في الإذن لهم ، وإلا فعدواعنه ولم تصل له المنّة ، فقال له : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٤) ، أي هلاّ أمسكت عن الإذن لهم حتى يتبيّن لك قعود مَنْ يقعد ، وخروج مَنْ يخرج ، صادقهم من كاذبهم ! لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلّهم ، وكان بعضهم ينوي الغدر ، وبعضهم يعزم على أن يخيس (٥) بذلك الوعد، فلولم يأذن لهم لعلم من يتخلّف ومن لا يتخلّف ، فعرف الصادق منهم والكاذب .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .
(٢) سورة التوبة ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة التوبة ٤٢ .
(٤) سورة التوبة ٤٣ .
(٥) يخيس : يغدر .

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنّ الذين يستأذنونه في التخلّف خارجون من الإيمان، فقال له:
﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (١)

ولا حاجة إلى التّطويل بذكر الآياتِ المفصّلة فيما يناسب هذا المعنى ، فمنْ تأمّل الكتاب العزيز علِمَ حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت ، ولم ينقُله الله تعالى إلى جوارِه إلاّ وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف مايضمرون من تصديقه في جهادٍ شديد، حتى لقد كاشفوه مراراً ، فقال لهم يوم الحديبيّة : احلقوا وانحروا . . . مرارا ، فلم يحلقوا ولم ينحروا ، ولم يتحرّك أحد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم وهو يقسم الغنائم : « اعدل يا محمّد فإنك لم تعدل » .

وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين : أتأخذُ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفَعَه إلى أقاربك من أهل مكّة ! حتى أفضى الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته : « ائتوني بدواة وكَتِفٍ أكتبْ لكم ما لا تضلّون بعده » ، فعصوه ولم يأتوه بذلك ، وليتهم اقتصرُوا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا ، وهو يسمع !

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه ، والقليل منه ينبئُ عن الكثير ، وكان يقول : إنّ الإسلام ما حلا عندهم ولاثبت في قلوبهم إلاّ بعد موته ، حين فتِحَتْ عليهم الفتوح ، وجاءتهم الغنائم والأموال ، وكثرت عليهم المكاسب ، وذاقوا طعم الحياة ، وعرفوا لذّة الدّنيا ، ولبسوا الناعم ، وأكلوا الطيّب ، وتمتعوا بنساء الروم ، وملَكوا خزائن كسرى ، وتبدلوا بذلك القشْف والشّظف والعيش الخشِن وأكل

---

(١) سورة التوبة ٤٤ — ٤٥ .

الضِّبَاب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف والكَرابيس [١] ، وأكل اللَّوْزينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج ، فاستدلّوا بما فتحه الله عليهم ، وأتاحه لهم على صحة الدّعوة ، وصدق الرسالة ، وقد كان صلى الله عليه وآله وعدَهم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر ، فلمّا وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظّموه وبجّلوه ، وانقلبت تلك الشكوك وذاك النفاق وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصا ، وطاب لهم العيش ، وتمسّكوا بالدين ، لأنه زادهم طريقاً إلى نَيْل الدنيا ، فعظّموا ناموسَه ، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرّسول الذي جاء به ، ثم انقرض الأسلافُ وجاء الأخلاف على عقيدة ممهّدة ، وأمرٍ أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين رُبُّوا في حجورهم ، ثم انقرض ذلك القرن ، وجاء مَن بعدهم كذلك ، وهلمّ جرّا .

قال : ولولا الفتوح والنّصر والظفَر الذي منحهم الله تعالى إياه ، والدّولة التي ساقها إليهم ، لانقرض دينُ الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يذكر في التواريخ ، كما تُذكر الآن نبوّة خالد بن سنان العبسي ، حيث ظهر ودعا إلى الدّين . وكانَ النّاس يعجَبُون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجَبُون ويتذاكرون أخبارَ مَنْ نبغ من الرؤساء والملوك والدُّعاة الذين انقرض أمرهم ، وبقيت أخبارهم .

وكان يقول : مَنْ تأمّل حال الرّجلين وجدهما متشابهيْن في جميع أمورهما أو في أكثرها ؛ وذلك لأنّ حَرْب رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين كانَتْ سِجَالاً ، انتصر يوم بدر ، وانتصر المشركون عليه يوم أُحُد ، وكان يوم الخندق كَفافاً خرج هو وهم سواء ، لا عليه ولا له ، لأنهم قتلوا رئيسَ الأوْس وهو سعد بن معاذ ، وقتِل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدوَدّ ، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت ، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح ، فكان الظفر له .

وهكذا كانت حروبُ على عليه السلام ، انتصر يوم الجمل ؛ وخرج الأمر بينه وبين

---

(١) الكرابيس : جمع كرباس ، وهو الثوب من القطن الأبيض .

معاوية على سواء ، قتل من أصحابه رؤساء ، ومن أصحاب معاوية رؤساء ،وانصرف كلّ واحدٍ من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ، ثمّ حارب بعد صِفّين أهل النّهْرَوان، فكان الظّفَر له .

قال : ومن العَجَب أنّ أوّل حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بدرا ، وكان هو المنصور فيها ، وأوّل حروب علىّ عليه السلام الجمل ، وكان هو المنصور فيهما . ثم كان من صحيفة الصُّلح والحكومة يوم صِفّين نظير ما كان من صحيفة الصّلح والمدنة يوم الحديبيّة . ثم دعا معاوية فى آخر أيّام علىّ عليه السلام إلى نفسه وتسمّى بالخلافة ، كما أنّ مسيلمة والأسود العنسىّ دَعَوَا إلى أنفسهما فى آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وتسمّيا بالنبوّة ، واشتدّ على علىّ عليه السلام ذلك ، كما اشتدّ على رسول الله صلى الله عليه وآله أمرُ الأسود ومُسَيلمة ، وأبطل الله أمرها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وآله ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبنى أميّة بعد وفاة علىّ عليه السلام . ولم يحارب رسولَ الله صلى الله عليه وآله أحد من العرب إلا قريش ماعدا يوم حنين ، ولم يحارب عليا عليه السلام من العرب أحَدٌ إلّا قريش ماعدا يوم النّهروان . ومات على عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله شهيداً بالسمّ . وهذا لم يتزوّجْ عَلَى خديجة أمّ أولاده حتى ماتت ، وهذا لم يتزوجْ على فاطمة أمّ أشرف أولاده حتى ماتت . ومات رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث وستين سنة ، ومات علىّ عليه السلام عن مثلها .

وكان يقول : انظروا إلى أخلاقهما وخَصائصهما ، هذا شجاع وهذا شجاع ، وهذا فصيح وهذا فصيح ، وهذا سخىّ جواد وهذا سخىّ جواد ، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلٰهية ، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلٰهية الدقيقة الغامضة ، وهذا زاهد فى الدنيا غير نَهِم ولا مستكثر منها ، وهذا زاهد فى الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها. وهذا مُذيب[1] نفسَه فى الصّلاة والعبادة ، وهذا مثله. وهذا غير محبَّب إليه شىء من الأمور العاجلة

(١) ا : « مذئب » .

إلا النساء، وهذا مثله، وهذا ابن عبد المطّلب بن هاشم، وهذا فى قُعْدده[1]، وأبواهما أخوان لأب واحد دون غيرهما من بنى عبد المطّلب؛ وربّى محمد صلى الله عليه وآله فى حِجْر والدهذا وهذا أبو طالب، فكان جاريًا عنده مجرى أحدِ أولاده. ثمّ لما شبّ صلى الله عليه وآله وكبر استخلصه من بنى أبى طالب وهو غلام، فربّاه فى حجره مكافأة لصنيع أبى طالب به، فامتزج الخلُقان، وتماثلت السجيتان، وإذا كان القرين مقتديا بالقرين، فما ظنّك بالتربية والتثقيف الدهر الطويل! فواجب أن تكون أخلاق محمد صلى الله عليه وآله كأخلاق أبى طالب، وتكون أخلاقُ على عليه السلام كأخلاق أبى طالب أبيه، ومحمد عليه السلام مربّيه، وأن يكون الكلّ شيمةً واحدةً وسوساً[2] واحدا، وطينة مشتركة، ونفساً غير منقسمة ولا متجزّئة، وألاّ يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرْق ولا فضلٌ، لولا أنّ الله تعالى اختصّ محمدا صلى الله عليه وآله برسالته، واصطفاه لوحيه، لما يعلمُه من مصالح البريّة فى ذلك، ومن أنّ اللطفَ به أكمل، والنفع بمكانه أتمّ وأعمّ، فامتاز رسولُ الله صلى الله عليه وآله بذلك عمّن سواه، وبَقِيَ ماعدا الرسالة على أمر الاتحاد، وإلى هذا المعنى أشار صلى الله عليه وآله بقوله: «أخصِمُك[3] بالنبوّة فلا نبوّة بعدى، وتخصِمُ الناس بسبع»، وقال له أيضاً: «أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبىّ بعدى»، فأبان نفسه منه بالنبوّة، وأثبت له ماعداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما.

وكان النقيب أبو جعفر رحمه الله، غزير العلم، صحيح العقل، منصفاً فى الجدال، غيرَ متعصّب للمذهب — وإن كان عَلَويًّا — وكان يعترف بفضائل الصّحابة، ويثنى على الشّيخَيْن. ويقول: إنهما مَهّدَا دين الإسلام، وأرسيا قواعده؛ ولقد كان شديد الاضطراب فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّما مهداه بما تيسّر للعرب من الفتوح والغنائم فى دولتهما. وكان يقول فى عثمان: إنّ الدّولة فى أيّامه كانت على إقبالها وعلوّ جدّها، بل كانت الفتوح فى أيّامه أكثر، والغنائم أعظم، لولا أنّه لم يراع ناموسَ الشيخَيْن، ولم يستطع أن يسلك

---

(١) القعدد: القريب الآباء من الجد الأعلى (٢) أى أصلا واحدا (٣) أخصمك: أغلبك.

مسلكهما ، وكان مضعّفاً فى أصل القاعدة ، مغلوبا عليه ، وكثير الحبّ لأهله ،وأتيح له من مَرْوان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وحَمَل النّاس على خلعه وقتله .

***

[كلام أبى جعفر الحسنىّ فى الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلىّ]

وكان أبو جعفر رحمه الله لايجحد الفاضل فضله ، والحديث شجون .

قلت له مرّة : ماسبب حبِّ الناس لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وعشقهم له ، وتهالكهم فى هواه ؟ ودعْنِى فى الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ، وغيرذلك من الخصائص التى رزقه الله سبحانه الكثير الطيِّب منها !

فضحك وقال لى : كم تجمع جراميزك علىّ !

ثم قال : هاهنا مقدّمة ينبغى أن تُعلَم ؛ وهى أنّ أكثر النّاس موتورون من الدنيا؛ أمّا المستحقون فلا ريب فى أنّ أكثرهم محرومون ؛ نحو عالم يرى أنّه لاحظّ له فى الدنيا ، ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسّعا عليه . وشجاعٍ قد أبلى فى الحرْب ، وانتُفِع بموضعه ، ليس له عطاء يكفيه ، ويقوم بضروراته ، ويرى غيره وهو جبان فشِل ، يفرقُ من ظلّه ، مالكاً لقُطْر عظيم من الدنيا ، وقطعة وافرة من المال والرزق . وعاقلٍ سديد التدبير ، صحيح العقل ، قد قُدِر [(١)] عليه رزقه ، وهو يرى غيره أحمق مائقا تدرّ عليه الخيرات ، وتتحلّب عليه أخلاف الرزق . وذى دين قويم ، وعبادة حَسَنة ، وإخلاص وتوحيد ، وهو محروم ضيّق الرزق ويرى غيره يهوديّاً أونصرانياأوزنديقا، كثيرَالمال حَسَنَالحال؛ حتى إنّ هذه الطّبَقات المستحقّة يحتاجون فى أكثر الوقت إلى الطبَقات التى لااستحقاق

---

(١) قدر عليه رزقه : ضيق .

لها ، وتدعوهم الضرورة إلى الذلّ لهم ، والخضوع بين أيديهم. إمّا لدفع ضرر، أو لاستجلاب نفع ، ودون هذه الطّبقات من ذوى الاستحقاق أيضا ، ما نشاهده عياناً من نجّار حاذق أو بنّاء عالم ، أو نقّاش بارع ، أو مصوّر لطيف ، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم، وقعود الوقت بهم ، وقلّة الحيلة لهم ، ويُرَى غيرُهم ممن ليس يجرى مجراهم ، ولا يلحق طبقتهم ؛ مرزوقاً مرغوبا فيه ، كثير المكسب طيّب العيش ، واسعَ الرّزق . فهذا حال ذوى الاستحقاق والاستعداد . وأمّا الذين ليسوا من أهل الفضائل ، كحشْو العامة، فإنّهم أيضا لا يخلُون من الحقْد على الدنيا والذمّ لها ، والحنَق والغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم ، ولا يرى أحدٌ منهم قانعاً بعيشه ، ولا راضياً بحاله ، بل يستزيد ويطلب حالاً فوق حاله .

قال : فإذا عرفت هذه المقدّمة ؛ فمعلوم أنّ عليا عليه السلام كان مستحقًّا محروما، بل هو أميرُ المستحقِّين المحرومين ، وسيّدهم وكبيرهم، ومعلومٌ أنّ الذين ينالهم الضّيمُ، وتلحقهم الذلة والهضيمة ، يتعصّب بعضهم لبعض ، ويكونون إلْباً ويدا واحدة على المرزوقين الذين ظفرُوا بالدنيا ، ونالوا مآربهم منها ، لاشتراكهم فى الأمر الذى آلمهم وساءهم ،وعضّهم ومضّهم ، واشتراكهم فى الأنَفة والحَمِيّة والغضب والمنافسة لمن علا عليهم ، وقهرَهُم،وبلغ من الدّنيا مالم يبلغوه؛ فإذا كان هؤلاء - أعنى المحرومين - متساوين فى المنزلة والمرتبة، وتعصّب بعضهم لبعض ، فما ظنُّك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القَدْر جليل الخطر كامل الشرف، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب ، وهو مع ذلك محروم محدود ،وقد جرّعته الدنيا علاقمَها ، وعلّته عَلَلًا بعد نَهَلٍ من صابها وصَبِرِها ، ولقى منها بَرْحاً بارحا، وجهدا جهيدا ، وعلا عليه مَنْ هو دونه ، وحُكِّم فيه وفى بنيه وأهله ورهطه مَنْ لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ، ولا دائراً فى خَلَدِه ، ولا خاطرا بباله ،ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له . ثمّ كان فى آخر الأمر أن قتِل هذا الرجل الجليل فى

محرابِه ، وقتِل بنوه بعدَهُ ، وسُبِيَ حريمُهُ ونساؤه ، وتُتُبِّع أهلُه وبنو عمّه بالقتل والطّرد والتشريد والسجون ، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم ، وانتفاع الخلْق بهم . فهل يمكن ألّا يتعصب البَشَرُ كلّهم مع هذا الشخص ! وهل تستطيع القلوب ألّا تحبّه وتهواه ، وتذوبَ فيه وتفنى في عشقه ، انتصارا له ، وحَمِيّةً من أجله ، وأنَفَةً ممّا ناله ، وامتعاضا مما جرى عليه ! وهذا أمرٌ مركوز في الطبائع ، ومخلوق في الغرائز ، كما يشاهد الناس على الجُرُف إنسانا قدوقع في الماء العميق ، وهو لايحسن السباحة ، فإنّهم بالطّبْع البشريّ يرِقّون عليه رقّة شديدة ، وقد يُلْقِي قومٌ منهم أنفسَهم في الماء نحوه ، يطلبون تخليصَه، لايتوقّعون على ذلك مجازاةً منه بمالٍ أو شكر ، ولا ثوابا في الآخرة ؛ فقد يكون منهم مَنْ لا يعتقد أمرَ الآخرة ، ولكنها رقّة بشَرِيّة ، وكأنّ الواحدَ منهم يتخيّل في نفسه أنه ذلك الغريق، فكما يطلب خلاصَ نفسه لو كان هذا الغريق ؛ كذلك يطلب تخليصَ مَنْ هو في تلك الحال الصعبة؛ للمشاركة الجنسيّة . وكذلك لو أنّ ملكا ظلم أهل بلدٍ من بلاده ظلما عنيفا، لكان أهلُ ذلك البلد يتعصّب بعضُهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك ، والاستعداء عليه؛ فلو كان مِنْ جملتهم رجلٌ عظيمُ القدْر ، جليل الشّأن، قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إيّاهم، وأخذَ أمواله وضِياعَه ، وقَتل أولادَه وأهله ، كان لِياذُهم به ، وانضواؤهم إليه ، واجتماعهم والتفافهم به أعظمَ وأعظم ، لأنّ الطبيعة البشريّة تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراريّ ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعا .

وهذا محصول قولِ النّقيب أبي جعفر رحمه الله ، قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له؛ لأنّي لاأحفظ الآن ألفاظه بعينها ، إلّا أنّ هذا هو كان معنى قوله وفحواه ، رحمه الله . وكان لا يعتقد في الصّحابة مايعتقده أكثر الإماميّة فيهم ، ويسفِّه رأيَ مَنْ يذهب فيهم إلى النّفاق والتّكفير . وكان يقول : حكمُهم حُكْمُ مسلمٍ مؤمن، عَصَى في بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله ، إنْ شاء آخذه ، وإن شاء غفر له .

قلت له مرّة : أفتقولُ إنّهما من أهل الجنة ؟ فقال : إى والله ! أعتقد ذلك ، لأنّهما إمّا أن يعفوَ الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله ، أو بشفاعة علىّ عليه السلام ، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب ، ثم ينقلهما إلى الجنة ؛ لا أستريب فى ذلك أصلا ، ولا أشكُّ فى إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحّةِ عقيدتهما .

فقلت له : فعثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ! وهل كان إلا واحداً منّا ، وغصنا من شجرة عبدمناف ! ولكنّ أهله كدّروه علينا ، وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا .

قلت له : فيلزَمُك[1] على ما تراه فى أمرِ هؤلاء أن تجوِّزَ دخولَ معاوية الجنّة ، لأنّه لم تكن منه إلاّ المخالفة وترك امتثال الأمر النبوىّ !

فقال : كلاّ ؛ إنّ معاوية من أهلِ النار ، لا لمخالفته عليًّا ، ولا بمحاربته إيّاه ، ولكنّ عقيدتَه لم تكن صحيحة ، ولا إيمانه حقًّا ، وكان من رءوس المنافقين هو وأبوه ، ولم يسلِمْ قلبُه قطّ ، وإنّما أسلم لسانه ؛ وكان يذكر مِنْ حديث معاوية ومن فَلَتات قوله ، وماحفِظ عنه من كلامٍ يقتضى فساد العقيدة شيئا كثيرا ، ليس هذا موضعَه فأذكره .

وقال لى مرّة : حاش لله أن يُثبتَ معاوية فى جَريدة الشّيخيْن الفاضلين أبى بكر وعمر ! والله ماهما إلاّ كالذّهب الإبريز ، ولا معاوية إلاّ كالدّرهم الزائف ـ أو قال: كالدرهم القَسِّىّ[2] ـ ثم قال لى : فما يقول أصحابُكم فيهما ؟ قلت : أمّا الذى استقرّ عليه رأىُ المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم فى التفضيل وغيره ، أنّ عليا عليه السلام أفضلُ الجماعة ، وأنّهم تركوا الأفضلَ لمصلحة رأوها ؛ وأنه لم يكن هناك نصٌّ يقطع العُذر ، وإنّما كانت إشارة وإيماء لا يتضمّن شىء منها صريحَ النّص ، وإنّ عليا عليه السلام نازَع ثم بايع ،

(١) ب : « فيلزمك » .
(٢) درهم قسى ، وتخفف سينه ، أى ردىء .

وتجمّع ثم استجاب. ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحّة البيعة ولا بلزومها، ولو جرّد السيف كما جرّده فى آخر الأمر لقلنا بفسق كلّ مَنْ خالفه على الإطلاق كائنا مَنْ كان، ولكنه رضىَ بالبيعة أخيراً، ودخل فى الطاعة.

وبالجملة، أصحابنا يقولون: إنّ الأمر كان له، وكان هو المستحقّ والمتعين، فإن شاء أخذه لنفسه، وإن شاء ولّاه غيرَه، فلمّا رأيناه قد وافَق على ولاية غيره، اتّبعناه ورضِينا بما رضىَ. فقال: قد بَقِىَ بينى وبينكم قليل؛ أنا أذهب إلى النصّ وأنتم لا تذهبون إليــه!

فقلت له: إنّه لم يثبت النصّ عندنا بطريق يوجب العلم؛ وما تذكرونه أنتم صريحا فأنتم تنفردون بنقله، وماعدَا ذلك من الأخبار التى نشاركـكم فيها، فلها تأويلات معلومة.

فقال لى وهو ضَجِر: يافلان، لو فتحنا باب التأويلات، لجاز أن يتناول قولنا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؛ دعنى من التأويلات الباردة التى تعلم القلوب والنفوس أنها غيرُ مرادة، وأنّ المتكلمين تـكلفوها وتعسّفوها، فإنما أنا وأنت فى الدار ولا ثالث لنا، فيستحيى أحدُنا من صاحبه أو يخافه.

فلما بلغنا إلى هذا الموضع؛ دخل قوم ممّن كان يخشاه، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث، وخضنا فى غيره.

* * *

[سياسة علىّ ومعاوية وإيرادَ كلام للجاحظ فى ذلك]

فأمّا القولُ فى سياسة معاوية، وأنّ شَنَأَة علىّ عليه السلام ومُبغضيه زعموا أنها خيرٌ من سياسة أمير المؤمنين، فيكفينا فى الكلام على ذلك ماقاله شيخنا أبو عثمان، ونحن نحكيه بألفاظه.

قال أبو عثمان : وربّما رأيت بعض مَنْ يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز - وهو من العامّة ويظنّ أنّه من الخاصّة - يزعم أنّ معاوية كان أبعد غَوْراً، وأصحّ فِكراً، وأجود رويّة، وأبعدَ غاية، وأدقّ مسلكا ؛ وليس الأمرُ كذلك ، وسأرْمى إليك بجملة تعرف بها موضع غَلَطِه . والمكانَ الذى دخل عليه الخطأ من قِبَله .

كان علىّ عليه السلام لا يستعملُ فى حَرْبه إلاّ ماوافق الكِتاب والسنة ، وكان معاوية يستعمل خلافَ الكتاب والسنة ؛ كما يستعمل الكتاب والسنة ، ويستعمل جميعَ المكايد ، حلالها وحرامها ، ويسير فى الحرب بسيرة مِلك الهند إذا لاقى كِسْرى، وخاقان إذا لاقى رُتْبيل[1] . وعلىّ عليه السلام يقول : لاتبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم، ولاتتبعوا مدبِراً ، ولا تُجْهزوا عَلَى جريح ، ولا تفتحوا باباً مغلقاً ؛ هذه سيرته فى ذى الكَلاع ، وفى أبى الأعور السُّلَمىّ ، وفى عمرو بن العاص ، وحبيب بن مَسْلَمة ، وفى جميع الرؤساء ، كسيرته فى الحاشيَة والحشْو والأتباع والسِّفلة. وأصحاب الحروب ، إنْ قَدَرُوا على البيَات بيّتوا ، وإن قَدَرُوا على رَضْخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك فى طَرْفة عين لم يؤخروه إلى ساعة ، وإن كان الحرْق أعجَل من الغَرَق لم يقتصروا على الغرَق ولم يؤخروا الحرْق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدْم لم يتكلفوا الحِصار ، ولم يدَعوا أن ينصِبُوا المجانيق[2] ، والعَرّادات[3] ، والنقب ، والتسريب ، والدّبابات[4] ، والكَمِين[5] ، ولم يدَعُوا دسّ السّموم ، ولا التضريب بين الناس بالكذب ، وطرْح

(١) رتبيل : صاحب الترك .

(٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة .

(٣) العرادات : جمع عرادة ؛ وهى من آلات الحرب ؛ ترمى بالحجارة المرمى البعيد ، إلا أنها أصغر من المنجنيق .

(٤) الدبابة : آلة تتخذ فى الحصار ، يدخل فى جوفها الرجال ثم تدفع فى أصل الحصن ؛ فينقبونه وهم فى جوفها ؛ وجمعها دبابات .

(٥) الكمين : القوم يكمنون فى الحرب حيلة ؛ وهو أن يستخفوا فى مكمن ؛ بحيث لا يفطن لهم ثم ينتهزوا غرة العدو فينقضوا عليهم .

الكتب فى عساكرهم بالسّمايات ، وتوهيم الأمور ، وإيحاش بعض من بعض ، وقتلهم بكلّ آلة وحيلة ؛ كيف وقع القتل ، وكيف دارت بهم الحال ! فمن اقتصر — حفظك الله — من التدبير على مافى الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويلَ العريضَ من التدبير ؛ ومالا يتناهى من المكايد . والكذب — حفظك الله — أكثرُ من الصدق ، والحرامُ أكثر عدداً من الحلال ، ولو سمّى إنسانٌ إنسانا باسمه لكان قد صدق ، وليس له اسم غيره ، ولو قال : هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كلّ ماخطر على البال ، لكان كاذبا فى ذلك ، وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحقّ والباطل ، وكذلك السُّقم والصحّة ، وكذلك الخطأ والصواب ؛ فعلىّ عليه السلام كان ملجَماً بالورَع عن جميع القول إلاّ ماهو لله عزّ وجلّ رضاً ، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلا ما هو لله رضاً ، ولا يرى الرِّضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه ، ولا يرى الرّضا إلاّ فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، دون مايعوّل عليه أصحابُ الدّهاء والنكْراء[1] والمكايد والآراء ، فلمّا أبصرت العوامّ كثرة نوادر معاوية فى المكايد ، وكثرة غرائبه فى الخداع ، وما اتفق له وتهيّأ على يده ، ولم يروْ ذلك من علىّ عليه السلام ، ظنّوا — بقِصَرِ عقولهم ، وقلة علومهم — أنّ ذاك من رجحانٍ عند معاوية ونقصان عند علىّ عليه السلام . فانظُر بعدَ هذا كله ، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف ! ثم انظر هل خَدَع بها إلا مَنْ عصى رأىَ علىّ عليه السلام ، وخالف أمره !

فإنْ زعمتَ أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت ، وليس فى هذا اختلفنا ، ولا عَنْ غرارة أصحاب علىّ عليه السلام وعَجَلتهم وتسرّعهم وتنازعهم دفعنا ، وإنما كان قولُنا فى التمييز بينهما فى الدّهاء والنكراء وصحة العقل والرأى والبزلاء[2] ؛ على أنالا نصفُ الصالحين

(١) النكراء : الدهاء والفطنة .

(٢) يقال : خطة بزلاء ، أى تفصل بين الحق والباطل .

بالدّهاء والنّكْراء ؛ لا نقول : ما كان أنكرَ أبا بكر بن أبي قحافة ! وما كان أنكر عمر بن الخطاب ! ولا يقول أحدٌ عنده شيء من الخير : كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم ، وأنكر قريش وأنكر كنانة ؛ لأنّ هذه الكلمة إنما وُضِعَتْ في مديح أصحاب الأرب ومَنْ يتعمّق في الرأي في توكيد الدنيا وزِبْرِجها وتشديد أركانها ، فأمّا أصحابُ الآخرة الّذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشَر ، وإنما يصلُحون عَلَى تدبير خالق البَشَر ، فإنّ هؤلاء لا يُمْدَحون بالدّهاء والنّكْراء ، ولم يمنعوا هذا إلاّ ليُعطَوْا أفضلَ منه . ألا ترى أنّ المغيرة بن شُعبة — وكان أحدَ الدهاة — حين ردّ على عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب — وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضا : أأنت كنتَ تفعل ، أو تُوهم عمر شيئاً فيلقّنه عنك ! ما رأيت عمرَ مستخلياً بأحد إلاّ رحمته كائناً مَنْ كان ذلك الرجل ، كان عمر والله أعقلَ من أن يُخْدَع ، وأفضلَ من أن يَخْدَع . ولم يذكُرْه بالدّهاء والنّكْراء ، هذا مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه ، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التي لا تصلح في أهل الطهارة ، كان ذلك غير مقبول منه ، فهذا هذا .

وكذلك كان حُكْم قولِ معاوية للجميع : أخرِجُوا إلينا قَتَلة عثمان ، ونحن لكم سِلْم . فاجْهَد كلَّ جَهْدِك ، واستعن بمَنْ شايعك إلى أن تتخلّص إلى صواب رأيٍ في ذلك الوقت أضله عليّ ؛ حتى تعلم أن معاوية خادع ، وأنّ عليًّا عليه السلام كان المخدوع .

فإن قلت : فقد بلغ ما أراد ، ونال ما أحبّ ، فهل رأيت كتابنا وُضِع إلا عَلَى أنّ عليا كان قد امتُحِن في أصحابه وفي دهره ، بما لم يمتَحَنْ إمام قبله من الاختلاف والمنازعة ، والتّشاح من الرياسة والتسرّع والعجلة ! وهل أتى عليه السلام إلا من هذا المكان ! أوَ لسنا قد فرغنا من هذا الأمر ، وقد علمنا أنّ ثلاثة نفر تواطئوا على قَتْل ثلاثة نفر ، فانفرد ابنُ مُلْجَم

بالتماس ذلك من علىّ عليه السلام ، وانفرد البَرْك الصريمىّ بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر — وهو عمرو بن بكر التميمىّ — بالتماس ذلك من معاوية ، فكان من الاتفاق أو من الامتحان ، أنْ كان علىّ من بينهم هو المقتول .

وفى قياس مذهبكم أن تزعُمُوا أنّ سلامة عمرو ومعاوية إنّما كانتْ بحزْم منهما ، وأنّ قتل علىّ عليه السلام إنّما هو من تضييع منه ، فإذْ قد تبيّن لكم أنّه من الابتلاء والامتحان فى نفسه بخلاف الذى قد شاهدتموه فى عدوّه ، فكلّ شىء سوى ذلك ، فإنّما هو تبَعٌ للنفس .

هذا آخر كلام أبى عثمان فى هذا الموضع ، ومَنْ تأمّله بعين الإنصاف ، ولم يتّبع الهوى علم صحّة جميع ما ذكره ، وأنّ أمير المؤمنين دُفِع — من اختلاف أصحابه ، وسوء طاعتهم له ؛ ولزومه سنَن الشريعة ، ومنهج العدل ، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشّرع فى استمالة الناس إليهم بالرّغبة والرّهبة — إلى مالم يُدْفَع إليه غيره . فلولا أنّه عليه السلام كان عارفاً بوجوه السّياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة ، حاذقاً فى ذلك ، لم يجتمع عليه إلاّ القليل من النّاس ، وهم أهلُ الآخرة خاصّة ؛ الذين لا ميْلَ لهم إلى الدنيا ، فلمّا وجدناه دبّر الأمر حين وَلِيَه ؛ واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العدّ والحصر ، وقاتل بهم أعداءه الذين حالُهم حالهم ، فظفِر فى أكثر حروبه ، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء ؛ وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار — علمنا أنّه من معرفةِ تدبير الدول والسلطان بمكان مكين .

* * *

[ذكر أقوال من طعن فى سياسة علىّ والردّ عليها]

وقد تعلق مَنْ طَعن فى سياسته بأمور :

منها قولُهم : لو كان حين بُويع له بالخلافة فى المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد ، ويبايعه معاويةُ وأهلُ الشام ثم يعزله بعد ذلك ؛ لكان قد كُفِىَ ماجرى بينهما من الحرب

والجواب : أنّ قرائن الأحوال حينئذ ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أنّ معاوية لايبايع له وإن أقرّه على ولاية الشام ، بل كان إقرارُه له على إمْرَةِ الشام أقوى لحال معاوية ، وآكدَ فى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنه لايخلو صاحب السؤال إمّا أن يقول : كان ينبغى أن يطالبه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام ، فيكون الأمران معاً ، أو يتقدّم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة . أو يتقدّم منه إقراره على الشام وتتأخّر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان. فإنْ كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاويةُ على أهل الشام تقليده بالإمْرَة ، فيؤكّد حاله عندهم ويقرّر فى أنفسهم؛ لولا أنه أهلٌ لذلك لما اعتمده علىّ عليه السلام معه ، ثم يماطله بالبيعة ، ويحاجزه عنها . وإن كان الثانى فهو الذى فعله أمير المؤمنين عليه السلام . وإن كان الثالث فهو كالقسم الأول ؛ بل هو آكد فيما يريده معاوية من الخلاف والعصيان . وكيف يتوهّم مَنْ يعرف السِّيَر أنّ معاوية كان يبايع له ؛ لو أقرّه على الشام وبينه وبينه مالا تبركُ الإبلُ عليه ، من التِّرات القديمة، والأحقاد ،وهو الذِى قتل حنظلة أخاه والوليد خاله، وعتبة جدّه فى مقام واحد. ثم ماجرى بينهما فى أيام عثمان ، حتى أغلظ كلٌّ واحدٍ منهما لصاحبه ، وحتى تهدّده معاوية ، وقال له : إنّى شاخص إلى الشام وتارك عندك هذا الشيخ ـ يعنى عثمان ـ والله لئن

انحصّت[1] منه شعرة واحدة لأضربنّك بمائة ألف سيف . وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم .

وأما قول ابن عباس له عليه السلام : ولّه شهراً واعزله دهراً ، وما أشار به المغيرة ابن شعبة ، فإنّهما ما توهّماه ، وما غلب على ظنونهما وخطر بقلوبهما ، وعليّ عليه السلام كان أعلمَ بحاله مع معاوية ، وأنّها لا تقبل العلاج والتدّبير . وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكْره ودهائه ، وما كان في نفسه من عليّ عليه السلام مِنْ قَتْل عثمان ومن قَبْل قَتْل عثمان ، أنّه يقبل إقرار عليّ عليه السلام له على الشام ! وينخدع بذلك ، ويبايع ويعطى صَفْقَة[2] يمينه ! إنّ معاوية لأدهى من أن يُكاد بذلك ، وإن عليّاً عليه السلام لأعرفُ بمعاوية ممن ظنّ أنّه لو استماله بإقراره لبايع له ، ولم يكن عند عليّ عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف ؛ لأن الحال إليه كانت تئول لا محالة ، فجعل الآخر أولا .

وأنا أذكر في هذا الموضع خبراً رواه الزبير بن بكّار في " الموفقيّات " ليعلم من يقف عليه ، أنّ معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة عليّ عليه السلام أبداً ، ولا يعطيه البيعة ، وأنّ مضادّته له ، ومباينته إياه كمضادّة السّواد للبياض ، لا يجتمعان أبدا وكباينة السّلْب للإيجاب ، فإنّها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً . قال الزبير :

حدّثني محمد بن محمد بن زكريا بن بسْطام ، قال : حدّثني محمد بن يعقوب بن أبي الليث ، قال : حدّثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى المكّيّ ، عن أبيه ، عن جدّه الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد ، عن قيس بن عرفجة ، قال : لما حصِر عثمان أبرَدَ مروان بن الحكم بخبره بريدَيْن : أحدهما إلى الشام ، والآخر إلى اليمن — وبها يومئذ يعلى بن منية — ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب ؛ فيه أنّ بني أمية في الناس كالشّامة

---

(١) انحص الشعر : انجرد وتناثر .   (٢) الصفقة هنا : المبايعة .

الحراء ، وأنّ الناس قد قعدوا لهم برأس كلّ محجّة ، وعلى كلّ طريق ، فجعلوهم مرمى العرّ والعضيهة[1] ، ومقذف القَشْبِ[2] والأفيكة ؛ وقد علمْ أنّها لم تأتِ عثمان إلا كرْهًا ، تجبذ من ورائها . وإنّى خائف إن قتِل أن تكون من بنى أمية بمناط الثريّا ، إن لم نَصِرْ كرصيف الأساس المحكم ، ولئن وَهى عمودُ البيت لتتداعَيَنّ جدرانُه ، والذى عيب عليه إطعامكما الشّام واليمن ، ولا شكّ أنكما تابعاه إن لم تحذرا ، وأما أنا فساعفٌ كلّ مستشير ، ومعين كلّ مستصرخ ، ومجيبٌ كل داع ، أتوقّع الفرصة فأثب وثبة الفهْد أبصرَ غفلة مقتَنصة ؛ ولولا مخافة عطَب البريد ، وضياع الكتب ، لشرحت لكما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر ؛ فجدّا فى طلب ما أنتما وليّاه ؛ وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله . وكتب فى آخره :

وَمَا بَلَغَتْ عثمانَ حتّى تخطّمتْ ... رجالٌ ودانَتْ للصّغار رجالُ

لقد رجعتْ عودًا على بدء كونها ... وإن لم تجدّا فالمصيرُ زوالُ

سيبدىْ مكنون الضمائر قولهم ... ويظهر منهم بعد ذاك فعالُ

فإنْ تقعدا لا تطلبا ما ورثتما ... فليس لنا طول الحياة مقالُ

نعيش بدارِ الذلّ فى كلّ بلدةٍ ... وتظهر منا كآبَةٌ وهُزالُ

فلمّا ورد الكتاب على معاوية ، أذّن فى الناس : الصّلاة جامعة ! ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ .

وفى أثناء ذلك وَرَد عليه قبل أن يكتب الجواب ، كتابُ مرْوان بقتل عثمان ، وكانت نسخته : وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوّة العزم ، وصلاحَ النيّة ، ومنّ عليك بمعرفة الحقّ واتّباعه ؛ فإنّى كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتْل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام

(١) العضيهة : الإفك والبهتان .

(٢) القشب من الكلام : الفرى ، وعن ابن الأعرابى : القاشب : الذى يعيب الناس بما فيه .

وأىّ قِتلةٍ قُتِل ! نُحِر كما يُنحَر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمْل ، بعد أن نُقِبَتْ صفحتُه بطىّ المراحل وسَيْر المجير ، وإنى مملِكُ من خبره غير مقصّر ولا مطيل: إنّ القوم استطالوا مدّته ، واستقلُّوا ناصرَه ، واستضعفوه فى بدنه ، وأمّلُوا بقتلِهِ بَسْطَ أيديهم فيا كان قَبَضَه عنهم،واعصوصبوا[1] عليه ، فظلّ محاصَرا،قد مُنِــع من صلاة الجماعة، وردّ المظالم ، والنّظر فى أمور الرعيّة ، حتى كأنّه هو فاعل لما فعلوه . فلما دام ذلك أشرف عليهم ، فخوّفهم الله وناشدَم ، وذكّرم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلّم له ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ، ولم ينكروه ، ثم رمَوْه بأباطيلَ اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعــةً إلى قتله ، فوعــدهم التوبة ممّا كرهوا ، ووعدَم الرّجعة إلى ما أحبّوا . فلم يقبلوا ذلك ، ونهبوا دارَه ، وانتهــكوا حرمتَه ، ووثبوا عليه ، فسفــكوا دَمه ، وانقشعوا عنه انقشاعَ سحابة قد أفرغَتْ ماءها،منكفئين قِبَل ابن أبى طالب،انكفاءالجرَاد إذا أبصرالمرعى. فأخلِقْ ببنى أميّة أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيُوق إن لم يثأره ثائر ! فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تــكونه فــكنه . والسلام .

فلما ورد الــكتاب على معاوية،أمر بجمع الناس،ثمّ خطبهم خطبة أبكى منها العيون، وقلقل القلوب ، حتى علت الرّنّة ، وارتفع الضّجيج ، وهمّ النساءأن يتسلّحن ، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله،والزبير بن العوّام ، وسعيد بن العاص،وعبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عُقْبة ، ويعلَى بن مُنْية — وهو اسم أمّه — وإنّما اسم أبيه أميّة .

فــكان كتاب طلحة : أما بعد،فإنّك أقلّ قريش فى قريش وِتْرا ، مع صباحةوجهك وسماحة كفّك ، وفصاحة لسانك.فأنت بإزاء مَنْ تقدّمك فى السابقة ، وخامس المبشّرين بالجنّة ، ولك يوم أُحُد وشرفه وفضلُه ، فسارع رحمك الله إلى ماتقلّدك الرعيّة من أمرها ممّا لا يسعك التخلّف عنه ، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به ، فقد أحكمتُ لك الأمر

---

١) اعصوصب القوم : اجتمعوا وصاروا عصائب .

قِبَلى ، والزبير فغير متقدّم عليك بفضل ، وأيكما قدّم صاحبه فالمقدّم الإمام ، والأمر من بعده للمقدّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لك رشد الموفقين . والسلام .

وكتب إلى الزبير : أمّا بعد،فإنك الزبير بن العوام،ابن أبى خديجة وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، وسلَفه،وصهر أبى بكر ، وفارس المسلمين،وأنت الباذل فى الله مهجتَه بمكّة عند صيحة الشيطان ؛ بعثك المنبعث ، فخرجت كالثّعبان المنسلِخ . بالسيف المنصلت،تخبط خَبْط الجمل الرديع[1] ؛ كلّ ذلك قوة إيمان،وصدق يقين،وسبقت لك من رسول الله صلى الله عليـه وسلّم البشارة بالجنّة ، وجعلك عمر أحد المستخلَفين على الأمّة . واعلم يأبا عبد الله ، أنّ الرعية أصبحت كالغنم المتفرّقة لغيبة الراعى،فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولمّ الشعث ، وجَمْع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قَبْل تفاقم الأمر وانتشار الأمّة ، فقد أصبح الناس على شَفَا جُرُفٍ هارٍ عمّا قليل ينهار إن لم يُرْأب . فشمّر لتأليف الأمة ، وابتَغ إلى ربّك سبيلا ، فقد أحكمتُ الأمر على من قِبَلى لك ولصاحبك على أنّ الأمر للمقدّم ، ثمّ لصاحبه من بعـده . جعلك الله من أئمة الهدى ، وبُغاة الخير والتقوى . والسلام .

وكتب إلى مروان بن الحكم :

أمّا بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين ، وما ركِبُوه به ، ونالوه منه،جهلاً بالله وجراءة عليه ، واستخفافا بحقّه،ولأمانىّ لوّح الشيطانُ بها فى شَرَك الباطل ليدَهْدِهَهم[2] فى أهويات الفتن ، ووهَدات الضّلال ، ولعمرى لقد صدق عليهم ظنّه ، ولقد اقتنصهم بأنشوطة فخّه.فعلى رِسْلك أبا عبد الله ، يمشى الهوينَى ويكون أولا، فإذا قرأت كتابى هذا فكنْ كالفَهْد لا يصطاد إلّا غِيلةً ، ولا يتشازر[3] إلا عن حيلة ،

(١) الرديع ، أى المردوع ؛ من ردعه ؛ إذا كفه .
(٢) أى « ليرديهم » .
(٣) تشازر : نظر بمؤخر العين .

وكالثعلب لايفلتُ إلا رَوَغانا ، وأخفِ نفسَك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف ، وامتهن نفسَك امتهان مَنْ ييأس القوم من نصره وانتصاره ، وابحثْ عن أمورهم بحثَ الدجاجة عن حَبّ الدُّخن عند فقاسها ، وأنغِل (١) الحجاز فإنى منغل الشام . والسلام .

وكتب إلى سعيد بن العاص :

أما بعد ، فإنّ كتاب مَرْوان ورد علىّ من ساعة وقعت النازلة ، تُقبِلُ به البُرُد بسير المطىّ الوجيف (٢) ، تتوجّس توجُّس الحيّة الذَّكر خوف ضربة الفأس ، وقبضة الحاوى (٣) ، ومروان الرائد لا يكذبُ أهلَه ، فعلام الإفكاك يابن العاص ، ولات حينَ مَناص ، ذلك أنكم يابنى أميّة عمّا قليلٍ تسألون أدنى العيشِ من أبعد المسافة ، فينكركم مَنْ كان منكم عارفاً ، ويصدّ عنكم مَنْ كان لكم واصلاً ، متفرّقين فى الشعاب تتمنّون لمظة (٤) المعاش . إنّ أمير المؤمنين عُتِب عليه فيكم ، وقتِل فى سبيلكم ، ففيمَ القُعود عن نصرته ، والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه ، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلّاب ثأره ! أصبحتم متمسّكين بشظف معاشٍ زهيد ، عمّا قليل يُنزع منكم عند التخاذُل وضعف القوى . فإذا قرأتَ كتابى هذا فدبّ دبيب البُرْء فى الجسد النحيف ، وسرْ سَيْر النجوم تحت الغَمام ، واحشد حشد الذرّة (٥) فى الصيف لانجحارها فى الصّرْد ، فقد أيّدتكم بأسد وتيم . وكتب فى الكتاب :

تالله لا يذهبُ شَيْخِى باطِلاً ... حتى أُبيرَ مالكاً وكاهِلا (٦)

---

(١) أنغلهم ، أى أحملهم على الضغن .

(٢) الوجيف : السير السريع .

(٣) الحاوى : الذى يرقى الحية .

(٤) اللمظة فى الأصل : اليسير من السمن ؛ تأخذه بإصبعك ؛ يقال : عنده لمظة من سمن ، ثم أطلق على كل شئ قليل .

(٥) الذر : صغار النمل .

(٦) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٤ . أبير : أهلك . ومالك وكاهل من بنى أسد .

القاتِلين الملكَ الحُلاحِلا [١] خيرَ معدٍّ حسباً ونائلا [٢]

وكتب إلى عبد الله بن عامر :

أمّا بعد ، فإنّ المدبّر مركبٌ ذلول ، سهل الرّياضة ، لاينازعك اللّجام. وهيهات ذلك إلا بعد ركوب أثباج المهالك ، واقتحام أمواج المعاطب . وكأنى بكم يابنى أمية شَعَارِيرُ [٣] كالأوارك ، تقودها الحُداة ، أو كرخَم الخندمة [٤] تذرق [٥] خوف العُقاب، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشرِيَ الفساد وندْب [٦] السّوط جديد ، والجرح لمّا يندمل ؛ومن قبل استضراء الأسد،والتقاء لَحْيَيْه على فريسته.وساوِرِ الأمرَ مساورة الذئب الأطلس كسيرةَ القطيع . ونازل الرأىَ ، وانصب الشّركَ ، وارم عن تمكّن ، وضعِ الهِناء مواضعَ النُّقبِ [٧] ، واجعل أكبر عدّتك الحذر ، وأحدّ سلاحك التحريض . واغض عن العوراء ، وسامح اللّجُوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الأشوَس ، وقوِّ عزم المريد، وبادر العَقَبة ، وازحف زَحْفَ الحيّة . واسبق قبل أن تُسبَق ، وقمْ قبل أن يقام لك . واعلم أنك غير متروك ولا مهمَل ، فإنى لكم ناصح أمين . والسّلام .

وكتب فى أسفل الكتاب :

---

(١) الحلاحل : السيد الشريف ؛ يعنى أباه .

(٢) قال شارح ديوانه : قوله : « خير معد » ؛ هو راجع إلى قوله : « مالكا وكاهلا » ؛ لأن بنى أسد من معد ؛ وإنما يريد : حتى أهلك أشرف معد وخيرهم ؛ انتصارا لأبى . النائل : العطاء .

(٣) شعارير : متفرقون . والأوراك : جمع أركة ، وهى الناقة التى تلزم الأراك وترعاه ، وشأنها التفرق لتتبع الأراك .

(٤) الخندمة : موضع .

(٥) ذرق الطائر : سلح .

(٦) ندب السوط : أثره .

(٧) هنأ البعير : طلاه بالهناء ؛ وهو القطران ، والنقب جمع نقبة ؛ وهى أول مايبدو من الجرب ، وأصله قول دريد بن الصمة :

متبذّلاً تبدُو محاسنُهُ يضعُ الهناء مواضعَ النُّقْبِ

وانظر اللسان (نقب) .

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ قيسَ بن عاصمٍ ورحمتُهُ ما شاء أنْ يترحَّما (١)
تحيةَ مَنْ أهـــدى السلام لأهلِهِ إذا شطَّ دارا عن مزارك سلَّما
فما كان قيسٌ هُلْكه هُلْكَ واحدٍ ولـكنه بنيان قـــوم تهدَّما

وكتب إلى الوليد بن عقبة :

يابن عقبة ، كنْ الجيش ، وطيب العيش أطيب من سَفْع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس فى أفقها ؛ إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسكِ ظلاً تستكنّ به ؛ إنى أراك على التراب رَقُوداً ؛ وكيف بالرقاد بك ! لارقاد لك ؛ فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده ألفيت كشريد النعام ، يفزع من ظلّ الطائر ؛ وعن قليل تشرب الرّنق ، وتستشعر الخوف . أراك فسيح الصّدر ، مسترخِيَ اللّبَبِ ، رِخْو الحزام ، قليل الاكتراث ؛ وعن قليل يُجتثّ أصلك . والسلام .

وكتب فى آخر الكتاب :

خترت نومك أنْ هبّت شآمية عند الهجير وشرباً بالعشيّاتِ
على طلابك ثأراً من بنى حكَمٍ هيهاتَ مِنْ راقدٍ طلاّبِ ثاراتِ

وكتب إلى يعلى بن أميّة :

حاطك الله بكلاءته ، وأيدك بتوفيقه . كتبتُ إليك صبيحة ورد علىّ كتاب مروان بخبرِ قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه . وإنّ أميرَ المؤمنين طال به العمرُ حتى نقصتْ قواه ، وثقلتْ نهضتهُ ، وظهرت الرّعشة فى أعضائه ، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعا للإمامة والأمانة وتقليد الولاية ، وثبوا به ، وألبّوا عليه ؛ فكان أعظم ما نقموا عليه وعابوه به ، ولايتك اليمن وطول مدّتك عليها . ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال ،

---

(١) لعبدة بن الطبيب يرثى قيس بن عاصم ، الشعر والشعراء ٧٠٢ .

حتى ذبحوه ذبحَ النَّطيحه[1] مبادرا بها الفَوْت ، وهو مع ذلك صائم معانقٌ المصحف ، يتلو كتابَ الله . فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرّسول ، والإمام المقتول . على غير جُرْم سفكوا دمه ، وانتهكوا حرمته ، وأنت تعلم أنّ بيعته فى أعناقنا ، وطلب ثأره لازم لنا ، فلا خيرَ فى دنيا تعدلُ بنا عن الحقّ ، ولا فى إمْرة توردُنا النار . وإن الله جلّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير فى دينه ، فشمِّر لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيتُك أهلها ، وأحكمتُ أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكّة ، حتى يجتمع رأيُكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمّهد لكم العراق ، ويسهل لكم حُزونة عِقابها[2] .

واعلم يا بن أميّة أن القوم قاصدُوك بادئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حَسَبه إن شاء الله .

وكتب فى أسفل الكتاب :

ظلّ الخليفة محصوراً يناشدُهُمْ ... بالله طوراً ، وبالقرآن أحيانَا

وقد تألّف أقـــوامٌ على حَنَقٍ ... عن غير جُرْمٍ وقالوا فيه بُهْتَانَا

فقام يُذكّرهم وعدَ الرّسولِ له ... وقوله فيه إسراراً وإعـــلانَا

فقال كُفّوا فإنى معتب لكمُ ... وصارف عنكُم يَعْلَى ومَرْوانَا

فكذّبوا ذاك منه ثمّ ساوَرهُ ... من حاض لبّتَه ظلما وعدوانا

قال : فكتب إليه مروان جوابا عن كتابه :

أما بعد ، فقد وصل كتابُك ، فنعمَ كتابُ زعيم العشِيرة ، وحامى الذّمار ! وأخبرُك

---

(١) النطيحة : الشاه المنطوحة .

(٢) العقاب ، بالكسر : جمع عقبة ، وهى فى الأصل : المرقى الصعب من الجبال .

أن القوم على سَنَنِ استقامةٍ إلّا شغبًا بإشعب ،شَتَّتَ بينهم مقولى على غير مجابهة، حسب ماتقدّم من أمرك ؛ وإنما كان ذلك رسيس[1] العصاة ، ورمى أخدر من أغصان الدوحة ؛ ولقد طويت أديمهم على نَغَل يحلُمُ[2] منه الجلد . كذبتْ نفس الظانّ بنا ترك المظلمة ، وحبّ الهجوع ؛ إلّا تهويمة الراكب العَجِل ، حتى تجذّ جماجم وجماجم ؛ جذّ العراجين المهدّلة حين إيناعها ، وأنا على صحة نيتى ، وقوّة عزيمتى وتحريك الرّحِم لى ، وغَلَيان الدم منّى ؛ غيرُ سابقك بقول ، ولا متقدّمك بفعل ، وأنت ابن حرب ، طلّاب التِّرات ، وآبى الضيم.

وكتابى إليك وأنا كحِرْباء السّبْسَب فى الهَجير ترقب عين الغَزالة[3] ، وكالسَّبُع المفلِت من الشَّرَك يَفرَق من صوت نفسه؛ منتظرًا لما تصحّ به عزيمتك ؛ ويرِدُ به أمرك؛ فيكون العمل به ، والمحتذَى عليه .

وكتب فى أسفل الكتاب :

أيُقْتَلُ عثمانٌ وتَرْقَا دموعُنا ... ونَرقُدُ هذا الليلَ لا نتفزّعُ !
ونشرب بَرْدَ الماء رِيًّا وقد مَضَى ... على ظمأ يتلو القُرآنَ ويركعُ
فإنّى ومَنْ حَجّ الملبّون بيته ... وطافوا به سعيًا،وذو العرش يسمعُ
سأمنعُ نفسى كلّ ما فيه لذّةٌ ... من العَيْش حتى لا يُرى فيه مطمعُ
وأقتلُ بالمظلوم مَنْ كان ظالمًا ... وذلك حكمُ الله ما عنه مَدْفَعُ

وكتب إليه عبد الله بن عامر :

---

(١) الرسيس : الشىء الثابت ، يريد أن ذلك دأبهم وعادتهم .
(٢) حلم الجلد ، إذا فسد .
(٣) السبسب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . والهجير : شدة الحر ، والغزالة : الشمس .

أمّا بعد ، فإنّ أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوى إليها فراخها تحتها ، فلما أقصده[1] السهم صرنا كالنعام الشارد . ولقد كنت مشترك الفكر ، ضالّ الفهم ، ألتمس دريئة أستجنّ بها من خطأ الحوادث ، حتى وقع[2] إلىّ كتابك ، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادى ، فأنا كواجد المحجّة كان إلى جانبها حائرا ، وكأنى أعاين ماوصفتَ من تصرّف الأحوال .

والذى أخبرك به أنّ الناس فى هذا الأمر ، تسعة لك وواحد عليك . ووالله لَلموتُ فى طلب العزّ أحسنُ من الحياة فى الذلّة ، وأنت ابنُ حَرْب فتى الحروب ، ونُضار[3] بنى عبد شمس ، والهِمَم بك منوطةٌ وأنت مُنهِضها ، فإذا نهضتَ فليس حين قعود ؛ وأنا اليوم على خلاف ما كانتْ عليه عزيمتى من طلب العافية ، وحبّ السلامة قبل قَرْعك سويداء القلب بسوط الملام ، ولنعم مؤدّب العشيرة أنت ! وإنّا لنرجوك بعد عثمان ، وها أنا متوقع مايكون منك لأمثله ، وأعمل عليه إن شاء الله .

وكتب فى أسفل الكتاب :

لاخيرَ فى العيشِ فى ذلّ ومنقصةٍ ... وللموتُ أحسنُ من ضَيْمٍ ومِنْ عارِ
إنّا بنو عبدِ شمس معشرٌ أُنُفٌ ... غُرٌّ جَحاجِحَةٌ طُلّابُ أوتارِ
واللهِ لو كانَ ذمّيًّا مجاوِرُنا ... ليطلب العزّ لم نقعدْ عن الجارِ
فكيف عثمان لم يُدْفَنْ بمَزْبلَةٍ ... على القُمامة مطروحًا بها عارِ !
فازحف إلىّ فإنّى زاحفٌ لهمُ ... بكلّ أبيضَ ماضى الحدِّ بتّارِ

وكتب إليه الوليد بن عُقْبة :

أما بعد ، فإنك أسدُّ قريش عقلًا ، وأحسنُهم فهمًا ، وأصوبهم رأيًا ؛ معك حسن

---

(١) أقصده : أصابه . (٢) د : « دفع » . (٣) ب : « نضار »

السياسة ، وأنت موضع الرّياسة ، توردُ بمعرفة ، وتُصْدِر عن منهل رويّ . مُنَاوِئك كالمنقلب من العَيُّوق[1] يَهوِي به عاصف الشّمال إلى لُجّة البحر .

كتبتَ إليّ تذكرُ طيب الخيش ، ولين العيش ، فَمِلْءُ بطني عليّ حرام إلا مُسْكة الرّمَق[2] حتى أفرِيَ[3] أوْداج قَتَلة عثمان فَرْيَ الأُهُب[4] بشَباة الشّفار . وأما اللين فهيهات إلا خِيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب ، إنّا على مُداجاة ، ولمّا تَبْدُ صَفَحَاتُنَا بَعْدُ ؛ وليس دون الدم بالدم مزْحَل . إنّ العار منقصة ، والضعف ذل . أيخبط قتلة عثمان زَهْرة الحياة الدنيا ، ويسقوْن برْد المعين ، ولمّا يمتطُوا الخوف ، ويستحلسوا الحذَر ، بعد مسافة الطرْد وامتطاء العقبة الكئود في الرحلة ! لا دعيتُ لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حرباً تضع الحوامل لها أطفالها ! قد ألوتْ بنا المسافة ، ووردنا حياض المنايا ، وقد عقلتُ نفسي على الموت عَقْلَ البعير ، واحتسبت أني ثاني عثمان أو أقتل قاتله ! فعجّل عليّ مايكون من رأيك ، فإنا مَنُوطون بك ، متبعون عَقِبك ، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية ؛ لما أخافه من إحكام القوْم أمرهم !

وكتب في أسفل الكتاب :

نومي عليّ محرّمٌ إن لم أقم ... بدمِ ابن أمّي مِنْ بني العَلّاتِ

قامت عليّ — إذا قعدت ولم أقمْ ... بطِلاب ذاك — مناحةُ الأمْوَاتِ

عَذُبَتْ حياضُ الموت عندي بعدما ... كانتْ كريهة مَوْرِدِ النّهَلاتِ

وكتب إليه يعلَى بن أميّة :

---

(١) العيوق : نجم أحمر مضئ في طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا ، لا يتقدمها ، يضرب مثلا للبعد .

(٢) الرمق : بقية الروح .

(٣) فرى الجلد : شقه .

(٤) الأهب : جمع إهاب ، وهو الجلد ما لم يدبغ .

إنا وأنتم يابنى أمية كالحجر لا يُبنَى بغير مَدَر ، وكالسَّيف لا يَقطع إلاَّ بضاربهِ .

وصل كتابُك بخبَر القوم وحالهم ، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النَّطيحة بُودِرَ بها الموت لَيُنْحَرَنَّ ذابحُهُ نحرَ البَدَنة وافَى بها الهدْى الأجَل ! ثَـكلتنى مَنْ أنا ابنُها إن نمت عن طلب وِتر عثمان ، أو يقال : لم يبق فيه رَمَق ! إنّى أرى العيش بعد قَتل عثمان مرّا ، إن أدلج القوم فإنّى مدلج . وأما قصدهم ماحوته يدِى من المال ، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان ، وإن أبوْا ذلك أنفقنا المال على قتالهم ، وإنّ لنا ولهم لمعركةً نتناحر فيها نحرَ القُدار النقائع[1] ، عن قليل تصل لحومها .

وكتب فى أسفل الكتاب :

لمثل هذا اليوم أوصى النّاس   لا تعط ضيما أو يخـــرّ الراسُ

* * *

قال : فكلّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرّضونه ، ويُغرونه ، ويحرّكونه ، ويَهيجونه ، إلّا سعيد بن العاص ، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء ؛ كان كتابه :

أما بعدُ ؛ فإنّ الحزْمَ فى التثبّتْ ، والخطأ فى العجلة ، والشؤم فى البِدَار ؛ والسهمُ سهمك مالم ينبضْ به الوتَر ، ولن يردّ الحالبُ فى الضَّرع اللبن. ذكرتَ حقّ أمير المؤمنين علينا ، وقرابتَنامنه ، وأنه قُتِل فينا . فخصلتان ذكرُهما نقص ، والثالثة تكذب ، وأمرتَنا بطلب دم عثمان ، فأىّ جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ! رُدِمت الفِجَاج ، وأحكِم الأمرُ عليك ، وولى زمامَه غيرُك ، فدعْ مناوأةَ مَنْ لوكان افترش فراشَه صَدْر الأمر لم يعدل به غيره . وقلت : كأنا عن قليل لا نتعارف ، فهل نحن إلّا حىٌّ من قريش، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنّا الحق ، إنها خلافة مَنافية ، وبالله أقسم قسما مبرورا ؛ لئن صحت عزيمتك على

---

(١) القدار : الجزار ، والنقائع : جمع نقيعة ؛ وهى ما نحر من إبل النهب .

ماورد به كِتابُك ، لألقينّك بين الحالَيْنِ ؛ طليحاً . وحسبى إخالُك بعد خَوْض الدماء تنال الظّفر ، هل فى ذلك عوَض من ركوب المأثم ونقص الدّين !

أمّا أنا فلا عَلَيّ بنى أميّة ولا لهم ، أجعل الحزم دارِى ، والبيت سجنى ، وأتوسّد الإسلام ، وأستثمر العافيــة . فاعدِل أبا عبد الرحمن زمامَ راحلتِك إلى محجّة الحقّ ، واستوهب العافية لأهلك ، واستعطف الناس على قومِك ، وهيهات من قبولك ما أقول حتى يفجّر مَرْوانُ ينابيعَ الفِتَن تأجّج فى البلاد ، وكأنّى بكما عند ملاقاة الأبطال تعتذران بالقَدَر ، ولبئس العاقبة الندامة ! وعمّا قليلٍ يَضِحُ لك الأمر . والسلام .

هــذا آخرُ ماتــكاتب القوم به ، ومَنْ وقف عليه علم أنّ الحال لم يــكن حالا يقبل العلاج والتدبير ، وأنه لم يكن بدٌّ من السيف ، وأنّ عليا عليــه السلام كان أعرَف بما عَمِل .

وقد أجاب ابن سنان فى كتابه الذى سمّاه « العادل » عن هذا السؤال ، فقال : قدعلم النّاس كافّة أنه عليه السلام فى قصّة الشورى عرض عليه عبدُ الرحمن بن عوف ، أن يعقد له الخلافة على أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة أبى بكر وعمر ، فلم يستجب إلى ذلك ، وقال : بل عَلَيّ أنْ أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله ، وأجتهد رأيى .

وقداختلف النّاسُ فى ذلك ، فقالت الشيعة : إنّما لم يدخل تحت الشّرط ، لأنّه لم يستصوب سيرتَهما . وقال غيرهم : إنّما امتنع لأنّه مجتهد ، والمجتهد لايقلّد المجتهد ، فأيّهما أقرب على القولين جميعا إثمًا ، وأيسر وزرا ! أن يقرّ معاوية على ولاية الشام مدّة إلى أن تتوطّد خلافته ، مع ماظهر من جَوْر معاوية وعداوته ، ومدّ يدِه إلى الأموال والدّماء أيامَ سلطانه ، أو أن يعاهد عبدَ الرّحمن على العمل بسيرة أبى بكر وعمر ، ثم يخالف بعضَ أحكامِها إذا استقرّ الأمر له ، ووقع العقد ! ولا رَيْبَ أنّ أحداً لايخفى عليــه فضلُ مابين

للوضعين ، وفضلُ مابيْن الإثنين ، فن لايجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمّح بلفظة يتلفّظ بها ، يجوز أن يتأوّلها أو يورّى فيها ، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر ، وتقوية يده مع تمكينه فى سُلطانه ، لتَحصُل له طاعة أهل الشام واستضافة طرَفٍ من الأطراف ! وكأنّ معنى قولِ القائل : هلّا أقرّ معاوية على الشّام ؛ هوهلّا كان عليه السلام متهاوناً بأمرِ الدّين راغباً فى تشديد أمرِ الدّنيا !

والجواب عن هذا ظاهر ، وجهل السائل عنه واضحٌ .

واعلم أنّ حقيقة الجواب هو أنّ علياً عليه السلام ، كان لايرى مخالفة الشّرع لأجل السياسة ، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيويّة ، أما الدنيويّة فنحو أن يتوهّم الإمام فى إنسان أنه يرومُ فسادَ خلافته من غير أنْ يثبتَ ذلك عليه يقيناً ، فإنّ علياً عليه السلام لم يكن يستحِلّ قتله ، ولا حبْسه ، ولا يعمل بالتوهّم وبالقول غير المحقّق ، وأما الدينيّة فنحو ضرب المتّهم بالسّرِقة ، فإنّه أيضاً لم يكن يعمل به ، بل يقول : إن يثبت عليه بإقرار أو بيّنة ، أقمت عليه الحدّ ، وإلا لمْ أعترضه . وغيرُ عليّ عليه السلام قد كان منهم مَنْ يرَى خلاف هذا الرّأى ، ومذهب مالك بن أنس العملُ على المصالح المرسَلة ، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمّة لإصلاح الثلثين ، ومذهب أكثر الناس أنّه يجوز العمل بالرأى وبغالب الظنّ ، وإذا كان مذهبه عليه السلام ماقلناه ، وكان معاوية عنده فاسقاً ، وقد سبق عنده مقدّمة أخرى يقينية ، هى أنّ استعمال الفاسق لايجوز ولم يكن ممّن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة ، فقد تعين مجاهرته بالعزْل ، وإنْ أفضى ذلك إلى الحرب .

***

فهذا هو الجواب الحقيقىّ ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقىّ ، لكان لقائل أن

يقول لابن سنان القولَ فى عُدُوله عن الدّخول تحت شرط عبد الرحمن ، كالقول فى عدوله عن إقرار معاوية على الشّام ، فإنّ مَنْ ذهب إلى تغليطه فى أحد الموضعين ، له أن يذهب إلى تغليطه فى الموضع الآخر .

قال ابن سنان : وجواب آخر ، وهو أنّا قد علمنا أنّ أحدَ الأحداث التى نُقِمت على عثمان . وأفضت بالمسلمين إلى حِصاره وقتله ، تَوْليةُ معاوية الشّام ، مع ماظهر من جَوْره وعُدوانه ، ومخالفة أحكام الدين فى سلطانه ، وقد خوطب عثمان فى ذلك ، فاعتذر بأنّ عمر ولّاه قبله ، فلم يقبل المسلمون عذرَه ، ولا قنعوا منه إلّا بعزله ، حتى أفضى الأمرُ إلى ماأفضى ، وكان علىّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهيَة ، وأعرفهم بما فيه من الفَساد فى الدّين .

فلو أنّه عليه السلام افتتح عقْد الخلافة ، بتوليته معاوية الشام ، وإقراره فيه ، أليس كان يبتدئ فى أوّل أمره بما انتهى إليه عثمان فى آخره ، فأفضى إلى خلعه وقتله ! ولو كان ذلك فى حكم الشريعة سائغاً ، والوِزْر فيه مأمونا ، لكان غلطاً قبيحا فى السياسة ، وسبباً قويًّا للعصيان والمخالفة ، ولم يكن يمكِنُه عليه السلام أن يقولَ للمسلمين: إنّ حقيقةرأيى عزلُ معاوية عند استقرار الأمر ، وطاعة الجمهور لى ، وإنّ قصدى بإقراره على الولاية مخادعته ، وتعجيل طاعته ، ومبايعة الأجناد الذين قبَله ، ثم استأنف بعدذلك فيهمايستحقّه من العزل ، وأعمل فيه بموجب العدْل ، لأنّ إظهارَه عليه السلام لهذا العزْم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذى شرع فيه وينتقض الرأى الذى عوّل عليه .

* * *

ومنها قولهم : إنّه ترك طلحةَ والزُّبير حتى خرجا إلى مكّة ، وأذِنَ لهما فى العُمْرة ، وذهب عنه الرأى فى ارتباطهما قبَله ، ومنعهما من البعد عنه .

والجواب عنه ؛ أنّه قد اختلفت الرّواة فى خروج طلحة والزبير من المدينة :هل كان يإذن علىّ عليه السلام أم لا ! فَمنْ قال : إنّهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه ، فسؤاله ساقطٌ ، ومن قال : إنّهما استأذناه فى العُمرة ، وأذِنَ لهما ، فقد روى أنه قال : والله ماتريدان العُمرة ، وإنّما تريدان الغَدْرة ! وخوّفهما بالله من التسرّع إلى الفتنة . وما كان يجوز له فى الشّرْع أن يحبسهما ، ولا فى السياسة . أما فى الشّرع فلأنّه محظور أن يعاقَبَ الإنسان بما لم يفْعَل ، وعلى مايُظَنّ منه ، ويجوز ألّا يقع . وأمّا فى السياسة فلأنّه لو أظهر التهمة لهما ـ وهما من أفاضل السابقين ، وجِلّة المهاجرين ـ لكان فى ذلك من التنفير عنه مالا يخفى ، ومن الطّعن عليه ماهو معلوم ، بأن يقال : إنّه ليس من إمامته على ثقة ،فلذلك يتّهم الرؤساء ، ولا يأمن الفضلاء ، لاسيّما وطلحة كانَ أوّلَ مَنْ بايعه ، والزبير لم يزلْ مشتهرا بنصرته ؛ فلو حبسهما ، وأظهر الشكّ فيهما لم يكن أحدٌ إلى جهته ، ولنَفَر النّاس كلّهم عن طاعته .

فإن قالوا : فهلّا استصلحهما وولّاهما ، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما ؟

قيل لهم : فحوى هذا أنكم تطلُبون من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون فى الإمامة مغلوبًا على رأيه ، مفتاتًا عليه فى تدبيره ، فيقرّ معاوية على ولاية الشام غصبا، ويولّى طلحة والزبير مِصر والعراق كُرْها ؛ وهذا شىء مادخَلَ تحته أحد ممّن قبله ،ولارضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم ، ومن الخلافة اللفظ ؛ ولقد حورب عثمان وحُصِر على أن يعْزِل بعض ولاته فلم يجِب إلى ذلك ، فكيف تسومُون عليًا عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة ! وهذا ظاهر .

* * *

ومنها تعلّقهم بتولية أميرِ المؤمنين عليه السلام محمدَ بن أبى بكر مِصْر ،وعزله قيسَ ابن سعد عنها ؛ حتى قتِل محمّد بها ؛ واستولى معاوية عليها .

والجواب أنّه ليس يمكن أن يقال : إنّ محمداً رحمه الله لم يكن بأهلٍ لولاية مصر؛ لأنّه كان شجاعا زاهدا فاضلا ، صحيح العقل والرأى ؛ وكان مع ذلك من المخلصين فى محبّة أمير المؤمنين عليه السلام، والمجتهدين فى طاعته ؛ وممن لا يتّهم عليه ، ولا يُرتاب بنصحه، وهو ربيبُه وخرِّيجه ، ويجرى مجرى أحدِ أولاده عليه السلام ، لتربيته له ، وإشفاقه عليه .

ثمّ كان المصريون على غاية المحبة له ، والإيثار لولايته ، ولما حاصروا عثمانَ وطالبوه بعزل عبدالله بن سعد بن أبى سرح عنهم؛ اقترحوا تأميرَ محمد بن أبى بكر عليهم. فكتب له عثمان بالعهد على مِصر وصار مع المصريين حتى تعقّبه كتابُ عثمان إلى عبدالله بن سَعْد فى أمره وأمر المصريين بما هو معروف. فعادُوا جميعا، وكان منْ قتل عثمان ما كان؛ فلم يكن ظاهرُ الرأى ووجهُ التدبير إلّا تولية محمد بن أبى بكر على مصر، لما ظهرَ من ميل المصريين إليه ، وإيثارهم له ؛ واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه ؛ فكان الظنُّ قويًّا باتفاق الرعيّة على طاعته ، وانقيادهم إلى نصرته ، واجتماعهم على محبّته ، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان ، وليس ذلك بعيب على أمير المؤمنين عليه السلام ،فإنّ الأمور إنما يعتمدها الإمامُ على حسب ما يظنّ فيها من المصلحة ، ولا يعلم الغيبَ إلّا الله تعالى. وقد تولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى مؤتة جعفرا فقتِل ،وولّى زيدا فقتِل، وولّى عبدَالله ابن رواحة فقتل ، وهزم الجيش، وعاد مَنْ عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال ، فهل لأحدٍ أن يعيبَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بهذا ، ويطعن فى تدبيره !

***

ومنها قولهم : إنّ جماعةً من أصحابه عليه السلام فارقوه ؛وصاروا إلى معاوية ، كعقيل ابن أبى طالب أخيه، والنّجاشىّ شاعره ، ورقَبة بن مَصْقلة أحد الوجوه من أصحابه؛ ولولا أنّه

كان يُوحشهم ولا يستميلهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوّه ، وهذا يخالفُ حكمَ السياسة ، وما يجب من تألُّف قلوب الأصحاب والرعيّة .

والجواب : إنّا أولا لا ننكر أنْ يكون كلّ من رَغب فى حطام الدّنيا وزخرفها ، وأحبّ العاجل من ملاذّها وزينتها ءيل إلى معاوية الذى يبذُل منها كلّ مطلوب ، ويسمَحُ بكلّ مأمول ، وبطعِم خراج مصر عمرو بن العاص ، ويضمَن لذى الكَلاع وحبيب ابن مسلمة ما يوفى على الرجاء والاقتراح ، وعلىّ عليه السلام لا يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة وحكم الملّة ، حتى يقول خالد بن معمر السدوسى لعلباء ابن الهيثم ، وهو يحمله على مفارقة علىّ عليه السلام ، واللحاق بمعاوية : اتقِ الله ياعلباء فى عشيرتك ، وانظر لنفسك ولرَحِمك ؛ ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيدَ فى عطاء الحسن والحسين دريهمات يسيرة ، ريثما برأبان بهمـــا ظلَف عيشهما ، فأبى وغضب فلم يفعل .

فأما عَقيل ، فالصحيح الذى اجتمع ثقاتُ الرُّواة عليه أنّه لم يجتمع مع معاوية إلّا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكنه لازم المدينة ، ولم يحضر حرب الجمل وصِفّين ، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد كتب عَقيل إليه بعد الحكمين يستأذنه فى القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله ، فأمره عليه السلام بالمقام ، وقد رُوى فى خبر مشهورٍ ، أنّ معاوية وبّخ سعيد بن العاص على تأخيره عنه فى صِفّين ، فقال سعيد : لو دعوتَنى لوجدتَنى قريبا ، ولكنى جلست مجلس عَقيل وغيره من بنى هاشم ، ولو أوعبنا لأوعَبُوا(١) .

وأما النجاشىّ ، فإنه شرِبَ الخمر فى شهر رمضان ، فأقام علىٌّ عليه السلام الحدّ عليه ،

---

(١) أوعب القوم ؛ إذا خرجوا جميعهم للغزو .

وزاده عشرين جَلْدة فقال النّجاشيّ : ماهذه العِلاَوة (١) ؟ قال : لجرأتك على الله فى شهر رمضان . فهرب النجاشيّ إلى معاوية .

وأمّا رَقَبة بن مَصْقَلة ، فإنه ابتاع سَبْيَ بنى ناجية وأعتقهم ، وألطّ بالمال (٢) وهرب إلى معاوية ، فقال عليه السلام: فَعَل فِعْل السادة،وأبق إباق العبيد ؛ وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى ، والتلزّم بالدين ، ولا يُظَن ُّ بعليّ عليه السلام التساهل والتسامح فى صغير من ذلك ولا كبير .

***

ومنها شبهة الخوارج وهى التحكيم،وقد يحتجّ به على أنه اعتمد مالايجوز فى الشرع، وقد يحتجّ به على أنه اعتمد ماليس بصواب فى تدبير الأمر . أما الأول فقولهم : إنه حكّم الرّجال فى دين الله ، والله سبحانه يقول : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾(٣) وأما الثانى فقولهم: إنه كان قد لاحَ له النّصر ، وظهرت أمارات الظّفر بمعاوية ، ولم يبق إلّا أن يأخذ برقبته فترك التّصميم على ذلك ، وأخلد إلى التّحكيم . وربما قالوا : إنّ تحكيمه يدلّ على شكٍّ منه فى أمره ، وربّما قالوا : كيف رضيَ بحكومةِ أبى موسى وهو فاسق عنده بتثبيطه أهل الكوفة عنه فى حرب البَصرة ؟ وكيف رضيَ بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟

والجواب : أمّا تحكيم الرجال فى الدّين فليس بمحظور،فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوجها ، فقال:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا

---

(١) العلاوة ، بالكسر : ما زاد على الشئ .
(٢) ألط بالمال ، أى أخذه وجحده .
(٣) سورة الأنعام ٥٧ .

مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [1] . وقال في جزاء الصّيد : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [2] .

وأمّا قولهم : كيف ترك التّصميم بعد ظهور أمارات النصر ؟ فقد تواتر الخبرُ بأنّ أصحابه لما رفَع أهلُ الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم ، ومشارفة هلاك معاوية وأصحابه ، انخدعوا برفع المصاحف ، وقالوا : لا يحلّ لنا التّصميم على حربهم ، ولا يجوز لنا إلّا وضع السّلاح ورفع الحرب والرّجوع إلى المصاحف وحكمها . فقال لهم : إنّها خديعة ، وإنّها كلمة حقّ يُراد بها باطل ، وأمرهم بالصّبر ولو ساعةً واحدة ، فأبوْا ذلك ، وقالوا : أرسلْ إلى الأشتر فليعُدْ ، فأرسل إليه ، فقال : كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر ! فقالوا له : ابعث إليه مرّةً أخرى ، فبعث إليه ، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يُمهل ساعةً من النهار ، فقالوا : إنّ بينك وبينه وصيّة ألاّ يقبل ، فإن لم تبعث إليه مَنْ يعيدُه ، وإلّا قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان ، أو قبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرّسول إلى الأشتر ، فقال : أتحبّ أن تظفر أنت هاهنا وتكسر جنود الشام ، ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام في مَضْرَبه ! قال : أو قدْ فعلوها ! لا بارك الله فيهم ! أبعد أن أخذت بمخنَق [3] معاوية ، ورأى الموتَ عيانا أرجع ! ثم عاد فشتم أهلَ العراق وسبّهم ، وقال لهم وقالوا له ، ماهو منقول مشهور ، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم .

فإذا كانت الحال وقعت هكذا ، فأيّ تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام ! وهل ينسَب للمغلوب على أمره ، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير !

وبهذا نجيب عن قولهم : إنّ التحكيم يدلّ على الشكّ في أمره ، لأنّه إنّما يدلّ على ذلك لو ابتدأ هو به ؛ فأمّا إذا دعاه إلى ذلك غيرُه ، واستجاب إليه أصحابُه ، فنعهم وأمرهم

---

(١) سورة النساء ٣٥ .
(٢) سورة المائدة ٩٥ .
(٣) المخنق : موضع الخنق من العنق .

أن يمرّوا على وتيرتهم وشأنهم ، فلم يفعلوا ، وبين لهم أنها مكيدة فلم يتبيّنوا ، وخاف أن يقتَلَ أو يسلَّمَ إلى عدوّه ، فإنه لا يدلّ تحكيمهُ على شكّه ؛ بل يدلّ على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه ، ورجا أن يحكم الحكمان بالكتاب ؛ فتزولَ الشبهة عمّن طلب التحكيم من أصحابه .

وأمّا تحكيمه عمْراً مع ظهور فسقه ، فإنّه لم يرض به ، وإنما رضِيَ به مخالفُهُ ؛ وكرهه هو فلم يقبل منه . وقد قيل : إنّه أجابَ ابن عباس رحمه الله عن هذا ، فقال للخوارج : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾[1] ! أرأيتم لو كانت المرأة يهودية فبعثتْ حكماً من أهلها ، أكنّا نسخط ذلك !

وأما أبو موسى فقد كرِهَهُ أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وأراد أن يجعلَ بدله عبد الله ابن عبّاس ، فقال أصحابه : لا يكون الحكمان من مُضَر ، فقال : فالأشتر . فقالوا : وهل أضرم النّار إلّا الأشتر ! وهل جرّ ما ترى إلاّ حكومة الأشتر ! ولكن أبا موسى ، فأباه فلم يقبلوا منه ، وأثنوْا عليه ، وقالوا : لا نرضى إلاّ به ؛ فحكّمه على مضض .

* * *

ومنها قولُهم : ترك الرأى لمّا دعاه العبّاس وقتَ وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة ، وقال له : امْدُدْ يدَك أبايعْك ، فيقول النّاس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بايعَ ابنَ عمّه ، فلا يختلف عليك اثنان ؛ فلم يفعل ، وقال : وهل يطمع فيها طامع غيرى ! فما راعه إلا الضّوضاء واللّغط فى باب الدار ، يقولون : قد بويع أبو بكر ابن أبى قُحافة .

الجواب : إنّ صوابَ الرأى وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الواقعة ، يستندانِ إلى

---

(١) سورة النساء ٣٥ .

ما قد كان غَلب على الظنّ ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يغلِبْ على ظنّه أنّ أحداً يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهّدها له رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وما توهّم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجَه من البيت وحضوره ، ولعلّه قد كان يخطر له أنه إمّا أن يكون هو الخليفة أو يشاوَر في الخلافة إلى مَنْ يفوض . وما كان يتوهّم أنّه يجرى الأمر على ما جرى من الفلتة عند ثوران تلك الفتنة ، ولا يشاوَر هو ولَا العبّاس ولا أحدٌ من بنى هاشم ، وإنما كان يكون تدبيره فاسداً لو كان يحاذِرُ خروجَ الأمر عنه ، ويتوهّم ذلك ، ويغلِب على ظنّه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجّلة في الدار من وراء الأبواب والأغلاق ، وإلاّ فاته ، ثم يهمل ذلك ولا يفعله . وقد صرح هو بما عنده ، فقال : وهل يطمع فيها طامعٌ غيرى ! ثم قال : إنى أكره البيعة ها هنا وأحبّ أن أصْحِر[1] بها ؛ فبين أنه يستهجن أن يبايع سرّاً خلف الحجُب والجدران ، ويحب أن يبايع جَهْرةً بمحضَرٍ من الناس كما قال ، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايعهم في داره ، فقال : لا ، بل في المسجد ، ولا يعلم ولا خطر له ما في ضمير الأيام ، وما يُحدث الوقتُ من وقوع ما لا يتوهّم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه .

* * *

ومنها قولهم : إنّه قصّر في طلب الخلافة عند بيعة أبي بكر ، وقد كان اجتمع له من بنى هاشم وبنى أميّة وغيرهم من أفناء الناس مَنْ يتمكّن بهم من المنازعة وطلب الخلافة ، فقصّر عن ذلك ، لا جبناً ، لأنه كان أشجع البشر ، ولكن قصور تدبير وضعف رأى ، ولهذا أكفرته الكاملية[2] وأكفرت الصحابة ، فقالوا : كفرت الصحابة لتركهم بيعتَه ، وكفر هو بترك المنازعة لهم !

---

(١) أصحر بالأمر : أظهره .

(٢) الكاملية : أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبى كامل ؛ وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة على ، وكفر على بتركه قتالهم ؛ وكان يلزمه قتالهم كما لزم قتال أصحاب صفين . الفرق بين الفرق ٣٩ .

والجواب : أمّا على مذهبنا ، فإنّه لم يكن عليه السلام منصوصاً عليه ، وإنّما كان يدّعيها بالأفضليّة والقَرابة والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص ، فلمّا وقعت بيعةُ أبي بكر رأى هو عليّ عليه السلام أنّ الأصلح للإسلام تركُ النّزاع ، وأنّه يخاف من النّزاع حدوثَ فتنة تحلّ معاقد المِلّة وتزعزع أركانها ، فحضر وبايع طوعاً ، ووجب علينا بعد مبايعته ورضاه أن نرضى بمن رضيَ هو عليه السلام ، ونطيع مَنْ أطاعه ، لأنّه القدوة ، وأفضل مَنْ تركه صلّى الله عليه وآله بعده .

وأما الإمامية ، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم .

***

ومنها قولهم : إنّه قصّر في الرأي حيث دخل في الشُّورى ، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً لعثمان وغيره من الخمسة ، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم ، فوهن بذلك قدرُه ، وطأطأ من جلالته ، ألا ترى أنّه يُستهجن ويقبُح من أبي حنيفة والشافعيّ رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لبعض من بدا[1] طرفاً من الفقه ، ويستهجَن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسهما بمن يعلم أبوابا يسيرة من النحو !

الجواب : أنّه عليه السلام وإن كان أفضلَ مِنْ أصحاب الشورى ، فإنّه كان يظنّ أنّ وَلِيَ الأمر أحدهم بعد عمر ، لا يسير سيرة صالحة ، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام ، وقد كان يثنى على سيرة عمر ويحمّدها ، فواجب عليه بمقتضى ظنّه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه ، توقّعاً لأن يفضيَ الأمرُ إليه ، فيعمل بالكتاب والسنّة ، ويحيي معالمَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس اعتماد مايقتضيه الشرع ممّا يوجب نقصاً في الرأي ، فلا تدبير أصحّ ولا أسدّ من تدبير الشرع .

***

ومنها قولهم : إنه ما أصاب حيث أقامَ بالمدينة وعثمان محصور ، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تتورط بنو أميّة به دمَ عثمان ، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لـكان من قذفهم إياه بذلك أبعدَ ، وعنه أنزَه .

والجواب : أنّه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان ، أنّ أهل الفساد من بني أميّة يرمونه بأمره ، والغيب لا يعلمه إلّا الله ، وكان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على الحاصرين له ، فقد حضر هو بنفسه مرارا ، وطرد الناس عنه ، وأنفذ إليه ولديه وابنَ أخيه عبد الله ، ولولا حضور عليّ عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة ، وما تراخي أمره وتأخره قتله ، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له ، ويحامي عنه .

* * *

ومنها قولهم : كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتِل عثمان ، أن يغلق بابه ، ويمنع النّاس من الدخول إليه ، فإنّ العرب كانت تضطرب اضطرابة ثم تئول إليه ، لأنه تعيّن للأمر بحكم الحال الحاضرة . فلم يفعل ، وفتح بابه ، وترشّح للأمر ، وبسط له يده ؛ فلذلك انتقضَتْ عليه العرب من أقطارها .

والجواب : إنه عليه السلام كان يرى أنّ القيام بالأمر يومئذ فرضٌ عليه لا يجوز له الإخلال به ، لعدم مَنْ يصلح في ظنّه للخلافة ، فما كان يجوز له أن يغلِق بابه ويمتنع . وما الذي كان يومئذ أن يبايع الناسُ طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلا للأمر ؛ فقد كان عبدُ الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور . وكان مروان يطمع أن يتحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة ، وله من بني أميّة شيعة وأصحاب ، بشبهة أنه ابنُ عمّ عثمان ، وأنّه كان يدبر أمر الخلافة على عهده . وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة ، لأنّه من بني أميّة وابن عمّ عثمان ، وأمير الشام عشرين سنة ، وقد كان قومٌ من بني أميّة يتعصّبون لأولاد عثمان المقتول ، ويرومون إعادة الخلافة فيهم

وما كان يسوغ لعلىّ عليه السلام فى الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها ، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء ، فلذلك فتح بابه ، وامتنع امتناع مَنْ يحاول أن يعلم ما فى قلوب الناس ؛ هل رغبتهم إليه حقيقة أم لا ! فلمّا رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه ؛ وقد قال فى خطبته : « لولا حضورُ الحاضر ووجوب الحجّة بوجود الناصر ... لألقيتُ حبلَها على غاربها ، ولسقيت آخرَها بكأس أولها[1] » ؛ وهذا تصريح بما قلناه .

***

ومنها قولهم : هلا إذْ ملك شريعة الفُرات على معاوية ، بعد أنْ كان معاوية ملكها عليه ، ومنعه وأهلَ العراق منها ، مَنَع معاوية وأهل الشام منها ؛ فكان يأخذهم قبضاً بالأيدى ! فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء ، بل فسح لهم فى الورود ؛ وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب .

الجواب ، أنه عليه السلام لم يكن يستحلّ ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعَطَش ؛ فإن الله تعالى ما أمر فى أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك ؛ ولا فسح فيه فى نحو القصاص أوحد الزانى المحصن أو قتل قاطع الطريق ، أو قتال البغاة والخوارج ، وما كان أمير المؤمنين ممّن يترك حُكم الله وشريعتَه ، ويعتمد ما هو محرّم فيها لأجل الغَلَبة والقهر والظفَر بالعدوّ ، ولذلك لم يكن يستحلّ البيَات[2] ولا الغَدْر ولا النَّكث . وأيضا فمن الجائز أنْ يكونَ عليه السلام غلب على ظنّه أنّ أهلَ الشام إن مُنِعوا من الماء كان ذلك أدْعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكَرة على عسكره ، وأن يضعوا فيهم السيوف ، فيأتوا عليهم ويكسِرُوهم بشدّة حَنَقِهم وقوّة داعيهم إلى ورود الماء ، فإنّ ذلك من أشدّ الدّواعى إلى أن يستميت القوم ويستقتلوا . ومَنِ الذى يقف بين يدىْ جيش عظيم عرَمرم حَنِقٍ قد اشتدّ بهم العطش ، وهم يرون الماء كبطون الحيّات ، لايحول بينهم و بينه

(١) من الخطبة الشقشقية ؛ وقد تقدمت فى الجزء الأول ص ١٥١ — ٢٠٣
(٢) يقال : بيت العدو ؛ إذا أوقع به ليلا .

إلا قوم مثلهم ، بل أقل منهم عِدّة وأضعف عُدّة ، ولذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال : لأمنعنّهم وروده فأقتلهم بشِفار الظمأ ، قال له عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ، فليسوا ممّن يرى الماء ويصبر عنه . فقال : لا والله لا أخلّي لهم عنه . فسفّه رأيه وقال : أتظنّ أنّ ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشا ، والماء بمَعقد الأُزُر ، وسيوفهم في أيديهم ! فلجّ معاوية ، وقال : لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان عطشا . فلما مسّ أهلَ العراق العطش ، أشار عليّ عليه السلام إلى الأشعث أن احمِل ، وإلى الأشتر أن احمِلْ ، فحملا بمَنْ معهما فضربا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد ، وفرّ معاوية ومَنْ رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفرّ الغنمُ خالطتْها السِّباع ، وكان قصارَى أمره ، ومنتهى همّته أن يحفظ رأسه ، وينجوَ بنفسه . وملك أهلُ العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه ، فصارُوا في البرّ القفر ، وصار عليّ عليه السلام وأصحابه على شريعةِ الفرات ، مالكين لها ، فما الذى كان يؤمّنُ عليًّا عليه السلام لو أعطش القومَ أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم ! وهل بعد الموت بالعطش أمرٌ يخافه الإنسان ! وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما !

***

ومنها قولهم : أخطأ حيثُ محا اسمه بالخلافة من صحيفةِ الحكومة ، فإنّ ذلك مما وهّنه عند أهل العراق ، وقوّى الشبهة في نفوس أهل الشام .

والجواب ، أنه عليه السلام احتذى في ذلك ــ لما دعي إليه واقترحه الخصم عليه ــ فعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله في صحيفة الحديبية ، حيث محا اسمه من النبوّة لما قال له سهيل بن عمرو : لو علمنا أنّك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاربْناك ، ولا منعناك عن البيت ، وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة : ستدعَى إلى مثلها فتجيب . وهذا من أعلام نبوّته صلوات الله عليه ، ومن دلائل صدقه ، ومثله جرى له حذْو القُذّة بالقذّة .

***

ومنها قولهم : إنه كان غيرَ مصيب فى ترك الاحتراس ، فقد كان يعلم كثرة أعدائه ، ولم يكن يحترس منهم ؛ وكان يخرج ليلاً فى قميص ورداء وحده ؛ حتى كَمن له ابن مُلجم فى المسجد فقتله ، ولو كان احترس وحفِظَ نفسَه ولم يخرج إلّا فى جماعة . ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشُرْطة ، لم يوصل إليه .

والجواب ، أنّ هذا إن كان قادحا فى السياسة والتدبير ، فليكن قادحا فى تدبير عمر وسياسته ؛ وهو عند الناس فى الطبقة العليا فى السّياسة وصحّة التدبير ، وليكن قادحا فى تدبير معاوية ، فقد ضربه الخارجىّ بالسّيف ليلةَ ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ولم يأت على نفسه ، ومعاوية عند هؤلاء سديدُ التدبير؛ وليكن قادحاً فى صحة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقد كان يخرج وحده فى المدينة ليلا ونهارا مع كثرة أعدائه ؛ وقد كان يأكل ما دُعِيَ إليه ولا يحترس ؛ حتى أكل من يهودية شاة مشويّة قد سمّته فيها فمرض ، وخِيف عليه التلف ، ولمّا برأ لم تزل تنتقض عليه حتى مات منها وقال عند موته : إنّى ميت من تلك الأكلة ، ولم تكن العرب فى ذلك الزمان تحترس ،ولا تعرف الغِيلة والفَتك، وكان ذلك عندهم قبيحاً يعيّر به فاعله ؛ لأن الشجاعة غير ذلك ، والغِيلة فعل العَجَزة من الرجال ؛ ولأنّ عليا عليه السلام كانت هيبته قد تمكّنت فى صدور الناس ،فلم يكن يظنّ أنّ أحدا يقدم عليه غيلة أو مبارزة فى حرب ،فقد كان بلغ من الذكر بالشجاعة مبلغا عظيماً لم يبلغه أحد من الناس ، لا مَنْ تقدّم ولا مَنْ تأخّر، حتى كانت أبطال العرب تفزعُ باسمه ؛ ألا ترى إلى عمر بن معد يكرب وهو شجاع العرب ، الذى تُضرب به الأمثال، كتب إليه عمر بن الخطاب فى أمر أنكره عليه ، وغدر تخوفه منه : أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه ، لأبعثنّ إليك رجلا تستصغرُ معه نفسَك ، يضع سيفَه على هامَتِك فيخرجه من بين فخذيك ! فقال عمرو لمـا وقف على الكتاب : هدّدنى بعلىّ والله ! ولهذا قال شبيب بن بجرة لابن مُلجم ، لما رآه يشدّ الحرير على بطنه وصدره : ويلك ! ما تريد

أن تصنع! قال: أقتل عليا، قال هَبِلتك الهَبُول، لقد جئت شيئا إدًّا! كيف تقدِر على ذلك! فاستبعد أن يتمّ لابن مُلجم ماعزم عليه، ورآه مراماً وعرا. والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى غَلَبات الظُّنون، فن غلبت على ظنّه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس؛ وإنما يجب الاحتراس على مَنْ يغلب على ظنّه العطب إن لم يحترس.

فقد بان بما أوضحناه فسادُ قول من قال: إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة، وبان أنّه أصحّ الناس تدبيرا وأحسنهم سياسة، وإنّما الهوى والعصبية لا حيلة فيهما!

(١٩٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ ٱلْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ ٱجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ ٱللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا ، فقالَ سُبْحَانَهُ : ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْخَوَّارَةِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ٱلْوَاضِحَ وَرَدَ ٱلْمَاءَ ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ !

* * *

الشرح :

الاستيحاش : ضدّ الاستئناس ، وكثيرا مايحدثه التوحّد وعدم الرفيق ؛ فنهى عليه السلام عن الاستيحاش فى طريق الهدى لأجل قلّة أهله ، فإنّ المهتدىَ ينبغى أن يأنس بالهداية ، فلا وحشة مع الحقّ .

وعَنَى بالمائدة : الدّنيا ، لذّتها قليلة ، ونغصتها كثيرة ، والوجود فيها زمان قصير جدًّا ، والعدم عنها زمان طويل جدا .

ثم قال : ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجرم بعينه ، بل لمن اجترمه ومَنْ رضى به ، وإن لم يباشره بنفسه ، فإنّ عاقر ناقة صالح إنّما كان إنسانا واحدا ، فعمّ الله ثمودَ بالسخط

لما كانوا راضين بذلك الفعل كلّهم ، واسم « كان » مضمَر فيها ، أى ما كان الانتقام منهم إلّا كذا .

وخارتْ أرضهم بالخسْفة : صوّتت كما يخور الثور ، وشبّه عليه السلام ذلك بصوت السّكّة المحماة فى الأرض الخوّارة ، وهى اللّيّنة، وإنّما جعلها محماة لتكون أبلغَ فى ذهابها فى الأرض . ومن كلامه عليه السلام يوم خيبر ، يقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد بعثه بالرّاية : أكون فى أمرك كالسّكّة المحماة فى الأرض، أم الشاهد يرى مالا يرى الغائب ؟ فقال له : بل يرى الشّاهد مالا يرى الغائب .

وقال له أيضا هذه اللفظة لمّا بعثه فى شأن مارية القبطية ، وما كانت اتُّهمت به من أمر الأسود القبطىّ ، ولهذا علّة فى العلم الطبيعى ، وذلك أنّ السّكّة المحماة تخرق الأرض بشيئين : أحدهما تحدُّد رأسها ، والثانى حرارته ، فإنّ الجسم المحدّد الحارّ إذا اعتُمِد عليه فى الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدّد على النفوذ بتحليلها ماتلاقى من صلابة الأرض ، لأنّ شأن الحرارة التحليل ، فيكون غوص ذلك الجسم المحدّد فى الأرض أوحى وأسهل .

والتّيه : المفازة يتحيّر سالكها .

***

[قصة صالح وثمود]

قال المفسّرون : إن عاداً لما أهلِكت عَمَرتْ ثمودُ بلادها ، وخلفُوهم فى الأرض ، وكثروا وعُمِّروا أعماراً طوالا ، حتى إنّ الرّجُل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته، فنحتوا البيوت فى الجبال ، وكانوا فى سَعة ورخاء من العيش فعتوْا على الله ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحا ، وكانوا قوماً عربا، وصالح من أوسطهم

نسبا ، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، فقال : أية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا — فى يوم معلوم لهم من السّنة — فتدعو إلهك وندعو إلهنا ، فإن استجيب لك اتّبعناك ، وإن استجيب لنا اتّبعتنا.

قال : نعم ، فخرج معهم ، ودعوا أوثانهم ، وسألوها الاستجابة فلم تجبْ ، فقال سيدُهم جندع بن عمرو — وأشار إلى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يسمونها الكاثبة : أخرِج لنا فى هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وَبْراء — والمخترجة : التى شاكلت البُخْت[1] — . فإن فعلت صدّقناك وأجبناك .

فأخذ عليهم المواثيق ؛ لئن فعلتُ ذلك لتؤمنُنّ ولتصدّقُنّ ؟ قالوا : نعم ، فصلّى ودعا ربّه ، فتمخّضت الصخرة تمخُّضَ النتُوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عُشَراء[2] جَوْفاء وبْراء كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله ، وعظماؤهم ينظرون . ثم نُتِجت ولدا مثلها فى العِظَم ، فآمن به جندع ورهطٌ من قومه ، ومنع أعقابَهم ناس من رءوسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعَى الشّجر وتشرب الماء ، وكانت ترِدُ غِبًّا ؛ فإذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر ، فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ثم تتفجّج ؛ فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلىء أوانيهم ، فيشربون ويدّخرون ، فإذا وقع الحرّ تصيّفَتْ بظهر الوادى ، فتهرُب منها أنعامهم ، فتهبط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشتّت ببطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشقّ ذلك عليهم ؛ وزيّنَتْ عَقْرها لهم امرأتان : عنيزة أم غَنْم وصدقة بنت المختار ؛ لما أضرّت به من مواشيهما ، وكانتا كثيرتى المواشى ، فعقروها ؛ عَقَرها قدار الأحمر ، واقتسموا لحمها وطبخوه .

---

(١) البخت : الإبل الخراسانية .
(٢) العشراء من النوق : التى مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، وجمعها عشار ، بكسر العين .

فانطلق سَقْبها[1] حتى رقَى جبلا اسمه قارة ، فرغا ثلاثا ؛ وكان صالح قال لهم : أدركوا الفَصِيل عسى أن يُرْفَع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه ؛ وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبِحون غدا ووجوهكم مصفرّة ، وبعد غدٍ وجوهكم محمرّة ، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة ؛ ثم يغشاكم العذاب .

فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين ، فلما كان اليوم الرابع ، وارتفعت الضحوة ، تحنّطوا بالصَّبِر ، وتكفّنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال ، فتقطعت قلوبهم فهلكوا .

وقد جاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بالحِجْر في غزوة تَبُوك ، فقال لأصحابه : لا يدخلنّ أحدٌ منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلّا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

وروى المحدّثون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام : أتدرى مَنْ أشقى الأولين ؟ قال : نعم ، عاقر ناقة صالح ، قال : أفتدرى مَنْ أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : مَنْ يضربك على هذه ، حتى تخضب هذه .

---

(١) السقب : ولد الناقة ؛ خاص بالذكر .

(١٩٥)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

روى عنه أنه قاله عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام ، كالمناجي به رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم عند قبره .

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَارَسُولَ اللهِ عَنِّي ، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ ! قَلَّ يارَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي ، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي ، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ . فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ؛ فإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ !

أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ . وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِها . فَأَحْفِها السُّؤالَ ، وَاسْتَخْبِرْها الحالَ ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُما سَلَامَ مُوَدِّعٍ ، لَاقالٍ وَلَا سَئِمٍ ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ !

***

الشّرْحُ

أما قول الرضيّ رحمه الله : « عند دفن سيدة النساء » ، فلأنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: « فاطمة سيدة نساء العالمين » إمّا هذا اللفظ بعينه ، أو لفظ يؤدّي هذا

المنى ، روى أنه قال وقد رآها تبكى عند موته: « ألا ترضين أن تكونى سيّدة نساء هذه الأمة ! ». وروى أنه قال: « سادات نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

قوله عليه السلام: « وسريعة اللّحاق بك » جاء فى الحديث: أنّه . آها تبكى عند موته فأسرّ إليها : « أنتِ أسرع أهلى لحوقا بى » ، فضحكت .

قوله : « عن صفيّتك » أجلّه صلى الله عليه وآله عن أن يقول : « عن ابنتك » ، فقال : « صفيّتك »، وهذا من لطيف عبارته، ومحاسن كنايته ، يقول عليه السلام: ضَعُفَ جلدى وصَبْرى عن فراقها ؛ لكنى أتأسّى بفراق لك فأقول : كلُّ عظيم بعد فراقك جَلَل، وكلُّ خطب بعد موتك يسير .

ثم ذكر حاله معه وقتَ انتقاله صلواتُ الله عليه إلى جوار ربّه ، فقال : لقد وسّدْتُك فى ملحودة قبرك ، أى فى الجهة المشقوقة من قبرك ، واللّحد : الشّقّ فى جانب القبر ، وجاء بضمّ اللّام فى لغة غير مشهورة .

قال : « وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك » ، يروى أنّه صلى الله عليه وآله قذف دماً يسيرا وقت موته . ومَنْ قال بهذا القول زعم أنّ مرضه كان ذات الجنب ، وأنّ القُرحة التى كانت فى الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت فى تلك الحال ، وكانت فيها نفسُه صلّى الله عليه وآله . وذهبَ قومٌ إلى أنّ مرضه إنّما كان الحمّى والسّرسام الحارّ ، وأنّ أهل داره ظنوا أنّ به ذاتَ الجنب فلدّوه وهو مغمّى عليه ، وكانت العرب تداوى باللّدود(١) مَنْ به ذات الجنب ، فلما أفاق علم أنهم قد لدّوه ، فقال : « لم يكن الله ليسلّطها علىّ ، لُدّوا كلّ من فى الدار » ، فجعل بعضهم يَلُدّ بعضا .

---

(١) فى اللسان عن الفراء : « اللدأن يؤخذ بلسان الصبى فيمد الى أحد شقيه ، ويوجر فى الآخر الدواء فى الصدف . بين اللسان وبين الشدق ؛ وفى الحديث أنه لد فى مرضه » .

واحتجّ الذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روى من انتصابه وتعذّر الاضطجاع والنّوم عليه ، قال سلْمان الفارسيّ : دخلتُ عليه صبيحةَ يوم قبل اليوم الذى مات فيه ، فقال لى : يا سلْمان ، ألا تسألُ عمّا كابدتُه الليلةَ من الألم والسهر أنا وعلىّ ! فقلت : يا رسول الله ، ألا أسهرُ الليلةَ معك بدَله ؟ فقال : لا هو أحقّ بذلك منك .

***

وزعم آخرون أنّ مرضه كان أثراً لأكلة السمّ التى أكلها عليه السلام ، واحتجُّوا بقوله صلى الله عليه وآله : « ما زالت أكلة خَيْبر تعاودنى ؛ فهذا أوانُ قطعت أبهَرى »[(١)] .

ومَنْ لم يذهبْ إلى ذات الجنْب ، فأوّلوا قولَ علىّ عليه السلام : « فاضت بين نحرى وصدرى نفسُك » فقالوا : أراد بذلك آخر الأنفاس التى يخرجها الميّت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها ، ولا بدّ لكل ميّت من نفخةٍ تكون آخر حركاته .

ويقول قوم : إنّها الروح ، وعبّر علىّ عليه السلام عنها بالنفس ، لمّا كانت العرب لا ترى بين الرّوح والنفس فرْقاً .

واعلم أن الأخبار مختلفة فى هذا المعنى ، فقد روى كثير من المحدّثين عن عائشة أنها قالت : توفّىَ رسول الله صلى الله عليه وآله بين سَحْرِى[(٢)] ونحرى .

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن علىّ عليه السلام ، أنه قال عن نفسه ، وقال فى رواية أخرى : «ففاضت نفسُه فى يدى ، فأمررتها على وجهى » .

---

(١) الأبهر : عرق إذا انقطع مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم يتشعب منهما سائر الشرايين
(٢) السحر هنا : الرئة .

والله أعلم بحقيقة هذه الحال ، ولا يبعد عندى أن يصدُق الخبران معاً ، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وقت الوفاة مستندا إلى علىّ وعائشة جميعا ، فقد وقع الاتفاق عَلَى أنه مات وهو حاضر لموته ، وهو الذى كان يقلّبه بعد موته ، وهو الذى كان يعلّله ليالىَ مرضه ، فيجوز أن يكون مستندا إلى زوجته وابن عمّه ، ومثل هذا لا يبعد وقوعه فى زماننا هذا ، فكيف فى ذلك الزمان الذى كان النساء فيه والرجال مختلطين ، لا يستتر البعض عن البعض .

فإن قلت . فكيف تعمل بآية الحجاب ، وما صحّ من استتار أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله عن الناس بعد نزولها ؟

قلت : قد وقع اتفاق المحدثين كلّهم على أنّ العباس كان ملازما للرسول صلى الله عليه وآله أيامَ مرضه فى بيت عائشة ، وهذا لا ينكره أحدٌ ، فعلى القاعدة التى كان العباس ملازمه صلى الله عليه وآله كان علىّ عليه السلام ملازمه ، وذلك يكون بأحد الأمرين : إمّا بأن نساءه لا يستترن من العباس وعلىّ لكونهما أهلَ الرجل وجزءاً منه ، أو لعلّ النساء كن يختمرن بأخمرتهنّ ، ويخالطن الرجال فلا يرونَ وجوههنّ ، وما كانت عائشة وحدَها فى البيت عند موته ، بل كان نساؤه كلّهن فى البيت ، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وآله .

فأما حديثُ مرضه صلوات الله عليه ووفاته ، فقد ذكرناه فيما تقدم .

قوله : « إنا لله » إلى آخره ؛ أى عبيده ، كما تقول : هذا الشيء لزيد ، أى يملكه . ثم عقّب الاعترافَ بالملكيّة بالإقرار بالرّجعة والبعث ، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة ، كما أدّب الله تعالى خَلْقه وعباده .

والوديعة والرهينة ، عبارة عن فاطمة ، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابة الكاتب قولَه عن قَطْر النّدى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حملتْ من مصر إلى المعتضد أحمد بن

طلحة بن المتوكل : « وقد وصلت الوديعة سالمة ، والله المحمود ، وكيف يوصى الناظر بنوره أم كيف يحضّ القلب على حفظ سروره » !

وأخذ الصابى هذه اللفظة أيضا ، فكتب عن عزّ الدولة بختيار بن بويه ، إلى عدّة الدّولة أبى تَغْلِب بن حمدان ، وقد نقل إليه ابنته : « قد وجّهت الوديعة ياسيّدى ، وإنما تقلب من وطن إلى سكن ، ومن مغرس إلى مغرس ، ومن مأوى برّ وانعطاف ، إلى مثوى كرامة وألطاف » .

فأما الرّهينة فهى المرتَهَنة ، يقال للمذكّر : هذا رهين عندى على كذا ، وللأنثى : هذه رهينة عندى على كذا ، كأنها عليها السلام كانتْ عنده عوَضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله ، كما تكونُ الرهينة عوَضاً عن الأمر الذى أخذت رهينةً عليه .

ثم ذكر عليه السلام أنّ حزنه دائمٌ ، وأنه يسهر ليله ولاينام إلى أن يلتحِقَ برسول الله صلى الله عليه وآله ويجاوره فى الدار الآخرة ، وهذامن باب المبالغة ، كما يبالغ الخطباء والكتاب والشعراء فى المعانى ، لأنه عليه السلام ماسهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل عليه السلام، وإنما سهر ليلة أوشهرا أوسنة ، ثم استمرّ مريرُه ، وارعوى رسَنُه، فأمّا الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة ، هكذا وردت الرواية عنه .

قوله عليه السلام : « وستنبئك ابنتُك » ، أى ستعلمك .

فأحفها السؤال ، أى استقص فى مسألتها،واستخبرها الحال، أحفيت إحفاء فى السؤال: استقصيت ،وكذلك فى الحجاج والمنازعة، قال الحارث بن حِلّزة :

إنّ إخواننا الأراقم يَغْـلُو ن علينا فى قِيلهمْ إحفاء[1]

ورجل حفىّ ، أى مستقص فى السؤال .

---

(١) المعلقات بشرح التبريزى ٢٤٥ . يغلون : أى يرتفعون . والإحفاء : الاستقصاء .

واستخبِرْها الحال ؛ أي عن الحال ، فحذف الجار ، كقولك : اخترت الرجال زيداً أي من الرجال ، أي سَلْها عمّا جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا ولا يدلّ هذا على وجود النصّ ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألّم من اطّراحهم وترك إدخالهم في المشاورة ، فإنّ ذلك مما تكرهه النفوس وتتألّم منه ، وهجا الشاعر قوماً ، فقال :

وَيُقْضَى الأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ(١)

قوله : « هذا ولم يَطُل العهد ، ولم يَخْلَق الذِّكر » ، أي لم ينس .

فإن قلت : فما هذا الأمر الذى لم ينسَ ولم يَخْلَق ، إن لم يكن هناك نصّ ؟

قلت : قوله صلى الله عليه وآله : « إني مخلف فيكم الثَّقَلين » ، وقوله : « اللّهمّ أدِرِ الحقّ معه حيث دار » ، وأمثال ذلك من النصوص الدالّة على تعظيمه وتبجيله ومنزلته في الإسلام ، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخّر عَقْد البيعة إلى أن يحضر ويُستشار ، ويقع الوفاق بينه وبينهم ، على أن يكون العَقْد لواحدٍ من المسلمين بموجبه ، إمّا له أو لأبي بكر ،أو لغيرهما ، ولم يكن ليليقَ أن يبرم الأمروهو غير حاضر له ، مع جلالته في الإسلام،وعظيم أثره، وما ورد في حقّه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله،فهذا هو الذى كان ينقِم عليه السلام ، ومنه كان يتألّم ويُطِيل الشّكوى ،وكان ذلك في موضعه. وما أنكر إلّا منكَراً . فأمّا النصّ فإنّه لم يذكره عليه السلام ، ولا احتجّ به ، ولما طال الزمان صَفَح عن ذلك الاستبداد الّذى وقع منهم ، وحضر عندهم فبايعهم ، وزال ما كان في نفسه .

---

(١) لجرير ، من قصيدة له في ديوانه ١٦٠ – ١٦٦ ، يهجو فيها التيم ، قبيل عمر بن لجأ . وشهود ، أي حاضرون .

فإن قلت : فهل كان يسوغُ لأبى بكر ، وقد رأى وثوبَ الأنصار على الأمر أن يؤخِّره إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر المشورة ؟

قلت : إنّه لم يلُمْ أبا بكرٍ بعينه ، وإنّما تألّم من استبداد الصّحابة بالأمر دون حضوره ومشاورته . ويجوز أن يكون أكثر تألّمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد ، والتغلّب .

***

[ما رواه أبو حيان فى حديث السقيفة]

وروى القاضى أبو حامد أحمد بن بشير المرورّوذىّ العامرىّ فيما حكاه عنه أبو حيّان التوحيدىّ ، قال أبو حيّان : سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلةً ببغداد بدار ابن جيشان ، فى شارع المادِيان ، فتصرّف الحديث بنا كلّ متصرّف ، وكان والله مِعناً(١) مِزْيلاً مِغلطاً(٢) عزيز(٣) الرواية ، لطيف الدّراية [له] فى كلّ جوٍ متنفَّسٌ ، وفى كل نار مقتبَس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فركب كلٌّ منّا فنّاً ، وقال قولا ، وعرّض بشىء ونزع إلى مذهب ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى علىّ ، وجواب علىّ له ومبايعته إياه عَقِيب تلك الرسالة ؟ فقالت الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من دُرَر الحِقاق المصونة(٤) ، ومخبّآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتُها إلّا للمهلّبى(٥) فى وزارته ، فكتبها عنّى فى خَلوة بيده ، وقال : لا أعرف فى الأرض رسالةً

---

(١) المعن : الخطيب المتصرف .

(٢) يقال : رجل مزيل مغلط : أى فائق رائق .

(٣) فى صبح الأعشى : « غزير » .

(٤) صبح الأعشى : « من بنات الحقائق » . والحقاق : جمع حق ، بالضم ؛ وهو الوعاء .

(٥) صبح الأعشى : « لأبى محمد المهلبى » .

أعقل منها ، ولا أبين ، وإنّها لتدلّ على عِلم وحُكْم ، وفصاحة وفقاهة ، فى دين ودهاء وبعد غَوْر ، وشدّة غَوْص .

فقال له واحدٌ من القوم : أيها القاضى ، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها سمعناها ورويناه عنك ؛ فنحنُ أوْعَى لها من المهارِيّ ؛ وأوجب ذِماماً عليك !

فقال[1] : هـذه الرسالة رواها عيسى بن دأب ، عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه عُروة بن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح[1] .

قال أبو عبيدة : لما استقامت الخلافة لأبى بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين الوقار والهيبة — بعد هَنَة[2] كادَ الشّيطان بها يُسَرّ فدفع الله شرّها ، وأدحض عسرها ؛ فركد كَيْدها ، وتيسّر خيرها ، وقصم ظهر النفاق والفسق بين أهلها — بلَغ أبا بكر عن على عليه السلام تلكّؤٌ وشماس ، وتهمْهُم[3] ونفاس ، فكرِه أن يتمادى الحال وتبدُوَ له العورة ، وتنفرج[4] ذاتُ البين ، ويصيرَ ذلك دريئة لجاهـل مغرور ، أو عاقل ذى دَهاء ، أو صاحب سلامة ضعيف القلب ، خوّار الجنان ؛ دعانى فى خلوة لحضرته ، وعنـده عمر وحدَه — وكان عمر قبساً له وظهيراً معه ، يستضىء بناره ، ويستملى من لسانه — فقال لى :

يا أبا عبيدة ، ما أيْمَنَ ناصيتك ، وأبيَن الخيرَ بين عارضَيْك ! لقد كنتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحلّ المغبُوط ، ولقد قال فيك فى يوم مشهود : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، وطالما أعزّ الله الإسلام بك ، وأصلح ثَلْمه على يديك ، ولم تزلْ للدّين ناصرا وللمؤمنين رَوْحا ، ولأهلك ركنا ، ولإخوانكَ مَردّا ! قد أردتُك

(١—١) فى صبح الأعشى : « حدثنا الخزاعى بمكة ، عن أبى ميسرة ، قال : حدثنا محمد بن أبى فليح ، عن عيسى بن دأب المتاح ، قال : سمعت مولاى أبا عبيد يقول : » .

(٢) صبح الأعشى : « بعد فتنة » .

(٣) همهم الرجل : تكلم كلاماً خفيا ، والنفاس : مصدر نافس ؛ أى رغب فى الشىء . وفى نهاية الأرب وصبح الأعشى : « تهمم » .

(٤) نهاية الأرب : « وتفرق » .

لأمر لَهُ ما بعده ؛ خطرُه [1] مخوف ، وصلاحه معروف ،ولئن لم يندمل جرحُه بِسبارك [2] ورِفقِك ، ولم تُجَبّ حيّته [3] بُرقيتك ، لقد وقع اليأس ،وأعضل البأس ،واحتيج بعدك إلى ماهو أمرّ من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامَه بك ، ونظامه على يدك [4] . فتأتّ [5] له يا أبا عبيدة ، وتلطّف فيه ،وانصح لله ولرسوله ؛ ولهذه العِصابة ، غير آلٍ جهداً ، ولا قالٍ حمداً ؛ والله كالئك وناصرك ، وهاديك ومبصّرك .

امض إلى عليّ ، واخفض جناحَك له ، واغضُض من صوتك عنده ؛ واعلم أنه سُلالة أبي طالب ؛ ومكانه ممّن فقدناه بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبرّ مفرقة ، والجوّ أكلف ، والليل أغلف ،والسماء جلواء ،والأرض صلعاء ،والصعود متعذّر ،والهبوط متعسّر ، والحقّ عَطوف رءوف ، والباطل نَسوف عصوف ؛ والعُجب مقدَحة الشّرّ ، والضِّغن رائد البوار ، والتّعريض شِجار [6] الفتنة ، والقِحة مفتاح العداوة ، والشيطان متّكئ على شماله ، باسط ليمينه ، نافجٌ [7] حِضنَيه لأهله : ينتظر الشّتات والفرقة ،ويدبّ بين الأمة بالشّحناء والعداوة ، [8] عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوِسُ بالفُجور [8] ؛ ويدلِي بالغرور ، ويمنّي أهلَ الشرور ، ويوحي إلى أوليائه بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد أبينا

---

(١) د : « خطر مخوف » . صبح الأعشى : « لأمر خطر مخوف » .

(٢) السبار : الميل الذي يسبر به الجرح . وفي صبح الأعشى : « بيسارك » .

(٣) الجب : القطع عامة .

(٤) صبح الأعشى : « بيديك » .

(٥) تأت : تهيأ للأمر برفق وحسن حيلة . ، وفي ب : « تأن » .

(٦) الشجار : مركب أصغر من الهودج ، ضربه مثلا .

(٧) في اللسان : « كل ما ارتفع فقد نفج وانتفج وتنفج ، ونفجه هو . . . ونفجت الشيء فانتفج ، أي رفعته وعظمته ... وفي حديث علي : « نافجا حضنيه » كنى به عن التعاظم والتكبر والخيلاء . والحضن : الجنب ؛ وهما حضنان .

(٨ــ٨) صبح الأعشى : « عنادا لله عز وجل أولا ، ولآدم ثانيا ، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولدينه ثالثا ؛ يوسوس بالفجور » .

آدم ، وعادة منه منذ أهانه الله فى سالف الدّهر ؛ لايُنْجِى [١] منه إلا بعضّ الناجذ على الحقّ ، وغضّ الطرف عن الباطل ، ووطء هامة عدوّ الله والدّين؛ بالأشدّ فالأشدّ ، والأجدّ فالأجدّ ، وإسلام النّفس لله فيما حاز رضاه ، وجنّب سخطه .

ولا بدّ من قولٍ ينفع إذ قد أضرّ السكوت وخيف غِبُّه، ولقد أرشدك من أفاء ضالّتك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته لك بعتابك ، وأراد الخيرَ بك مَنْ آثر البُقْيا معك .

ما هـذا الذى تسوّل لك نفسُك ، ويَدْوَى [٢] به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُك ، ويتخاوص [٣] دونه طرفك ، ويستشرى به ضغنك ، ويترادُّ معه نَفَسُك ، وتـكثر لأجله صُعَداؤك ، ولا يفيض به لسانُك ! أعجمة بعد إفصاح ؟ ألَبساً بعد إيضاح أديناً غير دين الله؟ أخُلُقاً غير خُلُق القرآن ؟ أهَدْياً غير هدى محمد أمثلي يُمشَى له الضَّراء ويدبّ له الخمَر [٤] أم مِثلُك ينقبض عليه الفضاء ، ويـكسف فى عينه القمر ! ماهـذه القَعْقعة بالشِّنان [٥] ، والوَعْوعة باللِّسان ! إنك لجدّ عارف [٦] باستجابتنا لله ولرسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبّتنا ، هجرةً إلى الله ونُصرةً لدينه ، فى زمان أنت منه فى كِنّ الصِّبا وخِدْر الغَرارة غافل ، تُشَبّب وتُربّب . لا تعِى مايُشاد ويراد ، ولا تحصِّل مايساق ويقـاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشـكالك ، حتى بلغت إلى غايتك هذه التى إليها أجريت [٧] ، وعندها حُطَّ رحلك ، غير مجهولِ القَدْر

---

(١) صبح الأعشى : « لا منجى » .

(٢) دوى الصدر يدوى ؛ من باب علم : ضغن .

(٣) تخاوص : غض بصره عن الأمر شيئا .

(٤) مثل يضرب للرجل يختل صاحبه ويمكر به . ويقال : ما واراك من أرض فهو الضراء ، وماواراك من شجر فهو الخمر .

(٥) يقال فلان لايقعقع له بالشنان ، أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع .

(٦) صبح الأعشى : « إنك والله » .

(٧) صبح الأعشى : « التى إليها عدل بك » .

ولا مجحود الفضل ، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالًا تزيلُ الرواسى ، ونقاسى أهوالًا تُشيب النواصى؛ خائضين غمارَها ، راكبين تيّارها ، نتجرّع صابها ، ونُشرِج[1] عِيابها، ونُحكِم آساسها ، ونبرم أمراسَها ، والعيون تحدّج[2] بالحسد ، والأنوف تعطس بالكِبْر، والصُّدُور تَستعِر بالغَيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والأسنة[3] تشحَذ بالمكْر، والأرض تميدُ بالخوف ، لا ننتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع فى نحْر أمر إلّا بعد أن نحسُوَ الموت دونه ، ولا نبلغ إلى شئ إلّا بعد تجرّع العذاب قبله ، ولا نقوِّم منآداً إلّا بعد اليأس من الحياة عنده ، فادين فى كلّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأمّ ، والخال والعمّ ، والمال والنَّشب، والسَّبَد[4] واللَّبَد ، والهِلّة والبِلّة[5]، بطيب أنفس وقُرّة أعين ، ورُحب أعطان، وثبَات عزائم ، وصحّة عُقول ، وطلاقة أوْجُه، وذلاقة ألسن. هذا إلى خبيئات أسرار ، ومكنونات أخبار ؛ كنت عنها غافلًا ، ولولا سنُّك لم تكُ عن شىء منها نا كلا . كيف وفؤادك مشهُوم[6] وعودك معجوم ، وغيبك مخبور ، والخير منك كثير ! فالآن قد بلغ الله بك ، وأرهصَ[7] الخيرَ لك ، [وجعل مرادك بين يديك][8] ، فاسمع ما أقول لك[9] ، واقبل مايعودُ قبوله عليك[10] ، ودع التحبّس ، والتعبّس[11]

(١) أشرج العيبة : شد عراها . (٢) تحدج : تحدق .

(٣) صبح الأعشى : « والشفار » .

(٤) فى اللسان : « السبد الوبر ، وقيل : الشعر ؛ والعرب تقول : « ماله سبد ولا لبد » ، أى ماله ذو وبر ولا صوف متلبد؛ يكنى بهما عن الإبل والغنم ، وقيل : يكنى به عن المعز والضأن ... وقال الأصمعى: ماله سبد ولا لبد ، أى ماله قليل ولا كثير » .

(٥) فى اللسان : « ما جاء بهلة ولا بلة ؛ الهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة : أدنى بلل من الخير ، وحكاهما كراع جميعا بالفتح . ويقال : ما أصاب عنده هلة ولا بلة ، أى شيئا » .

(٦) مشهوم ، أى ذكى متوقد .

(٧) أرهص الخير لك : هيأه ، وجعله دانيا منك .

(٨) من صبح الأعشى .

(٩) فى صبح الأعشى : « وعن علم أقول ما تسمع » .

(١٠) فى صبح الأعشى : « فارتقب زمانك ، وقلص أردانك » .

(١١) نهاية الأرب : « التقاعس » .

لمن لا يضلع[1] لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غمِنٌ ، وفى النفوس مَغَنٌ ، وأنت أديمُ هذه الأمة فلا تَحَلَّم[2] لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تَحُلْ أجاجا ، والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا لمن هو ؟ فقال هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يجاحش[3] عليه ، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمخ اليه ، وهو لمن يقال له : هو لك ، لا لمن يقول : هو لى .

ولقد شاورنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الصّهر ، فذكر فتيانا من قريش ،فقلت له . أين أنت من علىّ ا فقال: إنّى لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه[4] ، وحِدّة سنّه . فقلت : متى كنفته يدُك ، ورعته عينُك ، حفّتْ بهما البركة ، وأسبِغت عليهما النّعمة ؟ مع كلام كثير خطبتُ به رغبته فيك ، وما كنتُ عرفتُ منك فى ذلك حَوْجاء ولا لوْجاء[5] ؛ ولكنى قلت ماقلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنتُ لك إذْ ذاك خيراً منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فقد كَنَى عن غيرك[6] ، وإن قال فيك ، فما سكت عن سواك ، وإن اختلج فى نفسك شىء ، فهلمّ فالحكم مرضىّ ، والصواب مسموع ، والحق مُطاع .

ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ماعند الله[7] وهو عن هذه العصابة راض وعليها حَدِب ، يسرّه ماسرّها ، ويكيده ما كادها ، ويُرضيه ما أرضاها ، ويسخطه

---

(١) الضلع : الاعوجاج ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب : « يظلع » .
(٢) لا تحلم ، لا تفسد ، وأصله فى الجلد .
(٣) يجاحش ، أى يدفع الناس عنه ليختص به لنفسه .
(٤) ميعة الشباب : أوله .
(٥) فى اللسان : « الحوجاء : الحاجة ، ويقال : ما فى صدرى به حوجاء ولالوجاء ، ولا شك ولامرية بمعنى واحد » .
(٦) صبح الأعشى ونهاية الأرب : « فلم يكن ممرضا عن غيرك » .
(٧) صبح الأعشى : « إلى الله عز وجل » .

ما أسخطها . ألم تعلم[1] أنه لم يَدَعْ أحـداً من أصحابه وخُلطائه ، وأقاربه وسُجَرائه[2] ؛ إلاّ أبانَهُ بفضيلة ، وخصَّهُ بمزيَّة ،وأفرده بحالة ، لوأصفقت الأمة عليه لأجلِها لـكان عنده إيالتها وكفالتها .

أتظنّ أنه عليـه السلام تركَ الأمة سُدًى[3] بَدَداً ، عِداً[4] مباهلَ عبـاهلَ[5] طلاحَى[6] مفتونة بالباطل ، ملويّة[7] عن الحقّ ؛ لاذائد ولا رائد ، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط، ولاساقيَ ولا واق،ولاحاديَ ولاهادى، كلاّ والله ماالشتاق إلى ربّه،ولاسأله المصير إلى رضوانه ، إلّا بعد أن أقام الصُّوى ، وأوضح المدى ، وأمّن المهالك[8] ،وحمَى المطارح والمبارك. وإلّا بعدأن شَدَخَ يافوخ الشِّرْك بإذن الله ،وشرم وجه النّفاق لوجه الله ،وجدَع أنف الفتنة فى دين الله ، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله ؛ وصدع بملء فيه ويده بأمر الله .

وبعد ؛ فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة جامعة ، ودار واحدة، إن استقادوا لك[9] وأشاروا بك ، فأنا واضع يدى فى يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ؛ وإن تـكن الأخرى ، فادخل فى صالح مادخل فيه المسلمون ، وكن العونَ على مصالحهم ،والفاتح لمغالِقهم ، والمرشدَ لضالّهم ، والرادع لغاويهم ؛ فقد أمر الله بالتعاون على البرّ ، وأهاب إلى التناصر على الحقّ . ودعنا نقضِ هذه الحياة الدنيابصدور بريئة من الغلّ ، ونلق الله بقلوب سليمة من الضِّغْن .

---

(١) صبح الأعشى : « أما تعلم » .
(٢) السجراء : جمع سجير ، وهو الصديق .
(٣) سدى : مهملون .
(٤) بددا : متفرقون ، وعدا : متباعدون .
(٥) عباهل مباهل : مهملون أيضا .
(٦) الطلاحى : الإبل التى تشكو بطوناً من أكل الطلح ؛ أراد بهما هنا القوم الذين لاراعى لهم يصدهم عما يضرهم .
(٧) صبح الأعشى : « مغبونة » .
(٨) صبح الأعشى : « وأمن المسالك » .
(٩) صبح الأعشى : « إن استقالونى لك ، وأشاروا عندى بك » .

وإنما النّاس[1] ثُمامة[2] فارفُق بهم، واحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تسوّل لك نفسُك فرقتَهم، واختلاف كلمتهم؛ واترك ناجمَ الشرّ حصيدا، وطائر الحِقد واقعا، وباب الفتنة مغلَقا، لا قال ولا قيل، ولا لومَ ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل؛ وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تهيّأتُ للنهوض، قال لى عمر: كنْ على الباب هنيهةً فلى معك ذَرْوٌ[3] من الكلام. فوقفت وما أدرى ما كان بعدى، إلّا أنه لحقنى بوجه يَنْدَى تهلّلا، وقال لى: قل لعلىّ: الرّقاد محلمة، واللجاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منّا أحدٌ إلا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاع أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم؛ وإنّ أكيَسَ الكيّسِ مَنْ منح الشّارد تألّفا، وقارب البعيد تلطّفا، ووزَن كلَّ أمرٍ بميزانه، ولم يجعل خبره كعِيانه، ولا قاس فتره بشبره؛ دينًا كان أو دنيا، وضلالا كان أو هدى، ولا خير فى علم معتمل[4] فى جهل، ولا فى معرفة مشوبة بنكر.

ولسنا كجلدة رُفْغ البعير بين العِجان وبين الذَّنب[5]

وكلّ صالٍ فبناره يصلَى؛ وكلّ سيل فإلى قراره يجرى. وما كان سكوت هذه العِصابة إلى هذه الغاية لعِىّ وحصَر، ولا كلامها اليوم لفرَقٍ أو حَذَر، فقد جدع الله بمحمد عليه السلام أنفَ كلّ متكبّر، وقصم به ظهرَ كلّ جبّار، وسلّ لسان كلّ كذوب؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال!

ماهذه الخُنزوانة[6] التى فى فَرَاش رأسك؟ وماهذا الشّجا المعترض فى مدارج أنفاسك، وماهذه الوَحَرة[7] التى أكلت شَرَاسيفَك[8]، والقَذَاة التى أعشَتْ ناظرك؟ وماهذا الدَّخَس[9]

(١) صبح الأعشى: «وبعد فإنما الناس».

(٢) الثمامة: واحد الثمام، نبت ضعيف، يضرب به المثل لما هو هين.

(٣) ذرو من الكلام: طرف منه، وفى صبح الأعشى: «دور» تحريف.

(٤) صبح الأعشى ونهاية الأرب: «مستعمل».

(٥) الرفغ: أصول الفخذين من باطن.

(٦) الخنزوانة: الكبر.

(٧) الوحرة: العداوة؛ وأصلها دويبة يشبه بها.

(٨) الشراسيف فى الأصل: جمع شرسوف، وهو غضروف معلق بكل ضلع، مثل غضروف الكتف.

(٩) الدخس: التدسيس فى الأمر.

والدّس اللذان يدلّان على ضيق الباع ، وخورَ الطباع ! وما هـذا الذى لَبِسْت بسببه جِلْدَ النمِر ، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكر الشدّ مااستسعيت لها ، وسريت سُرَى ابن أنقد[١] إليها؛ إنّ العَوان لاتعلّم[٢] الخِمْرة . ما أحوج الفرعاء إلى فالية ، وما أفقر الصلعاء إلى حالية ، ولقد قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبَّد[٣] مخيَّس ، ليس لأحدٍ فيه ملمس ، لم يسيِّر فيك قولا ، ولم يستنزل لك قرآنا ، ولم يجزم فى شأنك حكما؛ لسنا فى كسرويةٍ كِسْرى ، ولاقيصرية قيصر ؛ [تأمّل إخوان فارس وأبنـاء الأصفر ، قد جعلهم الله جَزَرا لسيوفنا ، ودريئة لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ! بل][٤] . نحن فى نور نبوّة ، وضياء رسالة ، وثمرة حكمة وأثر رحمة؛ وعنوان نعمة ، وظل عصمة ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرتق والفتق ؛ لها من الله تعالى قلب أبىّ ، وساعد قوىّ ، ويد ناصرة ؛ وعين ناظرة .

أتظن ظنّا أن أبابكر وثب على هذا الأمر مُفتاتا على الأمة؛ خادِعا لها، ومتسلّطا عليها! أتراه امتاخ أحلامها[٥] ، وأزاغ أبصارها، وحلّ عقودها، وأحال عقولها، واستلّ من صدورها حميّتها، وانتكث رشاءها ، وانتضب ماءها ، وأضلّها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل نهارها ليلا ، ووزنها كيلا ، ويقظتها رقادا ، وصلاحها فسادا ! إن كان هكذا ، إنّ سحره لمبين ، وإن كيده لمتين . كلاّ والله ، بأىّ خيل ورجْل ، وبأىّ سنان ونصل ، وبأىّ مُنة وقوّة ، وبأىّ مال وعُدّة ؛ وبأىّ أيدٍ وشدّة وبأى عشيرة وأسرة ، وبأىّ قدرة ومُكْنة ، وبأى تدرّع وبسطة! لقد أصبح بما وسمته منيع الرّقبة ، رفيع العتبة . لا والله لـكن سَلا عنها فولِهتْ نحوه ، وتطامن لها فالتفّت به ، ومال عنها ، فمالت إليه ، واشمأزّ[٦] دونها فاشتملت عليه؛ حبوةٌ حباه الله بها ، وغايةٌ بلّغه الله إليها ، ونعمة سربله جمالها ، ويدٌ لله أوجب عليه شكرها ، وأمةٌ نظر الله به

(١) ابن أنقد : القنفذ .
(٢) إن العوان لا تعلم الخمرة ، مثل ، والعوان : المرأة التى أسنت واا تهرم .
(٣) المعبد : المذلل ؛ ومثله المخيس .
(٤) تـكملة من صبح الأعشى .
(٥) امتلخ أحلامها : اجتذبها ؛ يريد أمال عقولها نحوه .
(٦) اشمأز : انقبض .

لها[١] . وطالما حلّقت فوقه فى أيام النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لِفْتها ، ولا يرتصد وقتها؛ والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخِيَرة . وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ؛ ولا يجحد حقك فيما آتاك ربك من العلم، ومنحك من الفقه فى الدين ؛ هذا إلى مزايا خُصِصْتَ بها، وفضائلَ اشتملت عليها ؛ ولكن لك[٢] مَنْ يزاحمك بمنكبٍ أضخمَ من مَنْكبك ، وقُربى أمسّ مِنْ قرباك ، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيْبة أروع من شيبتك ، [٣]وسيادة معروفة فى الإسلام والجاهلية ،[٣] ومواقف ليس لك فيها جَمَل ولا ناقة ، ولا تذكُر فيها فى مقدّمة ولا ساقة، ولا تضرِبُ فيها بذراعٍ ولا إصبع ، ولا تعدُّ[٤] منها ببازل ولا هُبَع[٥] .

إن أبا بكر كان حبّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعِلاقة[٦] همّه ، وعيبة سرّه ومثوى حزنه ، وراحة باله ، ومرْمَق طرفه[٧] ؛ شهرته مغنية عن الدلالة عليـــه[٨] .

ولعمرى إنك لأقرب منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنّه أقرب منك قُرْبة ، والقرابة لحم ودم، والقُرْبة روح ونفس ، وهذا فَرْقٌ يعرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون .

ومهما شككْتَ فلا تشكّ فى أنّ يدَ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخلْ فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدا ، والفِظْ مِن فيك ما هو متعلّق[٩] بلهاتك ، وانفُث

---

(١) صبح الأعشى : « إليها » .
(٢) فى الأصول : « كل » ، وأثبت ما فى صبح الأعشى .
(٣–٣) صبح الأعشى : « وسيادة لها أصل فى الجاهلية وفرع فى الإسلام » .
(٤) صبح الأعشى : « ولا تخرج منها » .
(٥) البازل من الإبل : مادخل فى التاسعة . والهبع : البعير ينتج فى الصيف ؛ يريد : ليس لك فيها شىء .
(٦) صبح الأعشى : « علاقة نفسه » .
(٧) بعدها فى صبح الأعشى : « وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار » .
(٨) صبح الأعشى : « الدليل » .
(٩) صبح الأعشى : « يعلق » .

سَخِيمة صدرك ، فإن يكن فى الأمد طُول ، وفى الأجل فسحة ، فستأ كله مريئاً أو غير مرىءٍ ، وستشرب به هنيئاً أو غير هنىءٍ ، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا مَنْ كان طامعا فيك ، حين يَعُضّ إهابَك ، ويفرِى أديمَك ، ويزرِى على هَدْيك ، هناك تقرَع السنّ من ندم ، وتشرب الماء ممزوجا بدم ، حين [1] تأسى على مامضَى من عمرك ، وانقضى وانقرض من دارِج قومك ؛ وتودّ أن لو سُقِيت بالكأس التى سقيتَها غيرك ، ورُدِدت إلى الحال التى كنت تكرهها فى أمسِك ، ولله فينا وفيك أمر هو بالغه ، وعاقبة هو المرجّو لسرّائها وضرّائها ، وهو الولىّ الحميد الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فمشيت إلى علىّ مثبِّطا متباطئا ، كأنما أخطو على أمّ رأسى فرَقاً من الفتنة ، وإشفاقا على الأمّة ، وحذرا من الفرقة ؛ حتى وصلت إليه فى خلاء فأبثثته بثى كلّه ، وبرئت إليه منه ، ودفعته له . فلما سمعها ووعاها ، وسرَت فى أوصاله حُميّاها قال : حلّت معلوّطة ، وولت مخروّطة [2] ، ثم قال :

إحْـدَى لياليكِ فهِيسِى هِيسِى   لا تنعَمِى الليْلَة بالتَّعريسِ [3]

يا أبا عبيدة ، أهذا كلّه فى أنفس القوم يستنبطونه [4] ويضطغنون عليه ! فقلت : لاجواب عندى ، إنّما جئتُك قاضيا حقّ الدين ، وراتقاً فتق الإسلام [5] ، وسادًّا ثُلْمة الأمة ؟ يعلم الله ذلك من جُلجلان [6] قلبى ، وقرارة نفسى .

---

(١) صبح الأعشى : « حينئذ » .

(٢) المعلوطة : من الاعلواط ؛ وهو ركوب الرأس ، والتقحم على الأمور من غير روية ، والمخروطة : السريعة .

(٣) فى اللسان ٨ : ١٣٩ : « الهيس : السير ؛ أى ضرب كان ، وهاس يهيس هيسا : سار أى سير كان ؛ حكاه أبو عبيدة » ، وروى البيت .

(٤) صبح الأعشى : « ويحسون به » .

(٥) صبح الأعشى : « المسلمين » .

(٦) الجلجلان : حبة القلب .

فقال : ما كان قعودى فى كِسْر هـذا البيت قصداً لخلاف ، ولا إنكاراً لمعروف ، ولا زراية على مُسلم ، بل لما وَقَذَنِى به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من فراقه ،وأودعنى من الحزن لفقده ، فإنّى لم أشهد بعده مشهدا إلا جدّد علىّ حزنا ، وذكّرنى شَجَنا ؛وإنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، وقد عكفت على عهدالله أنظر فيه ،وأجمع ما تفرّق منه ؛ رجاء ثواب معـدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلّم لعلمه ومشيئته أمرَه ؛على أنّى أعلم أنّ التظاهر علىّ واقع ، ولى عن الحق الذى سيق إلىّ دافع ، وإذ قدأفعم الوادى لى، وحُشِد النادى علىّ ؛ فلا مرحبا بما ساء أحداً من المسلمين ؛وفى النّفس كلام لولاسابق قولٍ، وسالف عهد ، لشفيتُ غيظى بخنصَرى وبِنصَرِى ، وخُضْتُ لُجّتَه بأخمَصِي ومَفْرَق ، ولـكنّى ملجَم إلى أن ألقى الله تعالى ، عنـده أحتسب مانزل بى ، وأنا غادٍ إن شاءالله إلى جماعتـكم ، ومبايع لصاحبكم ؛ وصابر على ماساءنى وسرّكم ،ليقضىَ اللهُ أمرا كان مفعولا، وكان الله عَلَى كل شىء شهيدا .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبى بكر وعمر ، فقصَصْتُ القولَ عَلَى غرّه ، ولم أترك شيئا من حلوه ومُرّه ، وذكرت [1] غُدُوّه إلى المسجد ؛ فلما كان صباح يومئذ [2] وافى علىّ تخرق الجـماعة إلى أبى بكر وبايعه [2] ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زُمَيْتاً [3]، واستأذن للقيام ونهض ، فتبعه عمر إكراماً له ، وإجلالاً لموضعه،واستنباطا [4] لما فى نفسه، وقام أبو بكر إليـه فأخذ بيده ، وقال : إنّ عِصابة أنت منها ياأبا الحسن لمعصومة ، وإنّ أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزا علينا ، كريما لدينا ، نخاف الله إن سخطت، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا أنى شُدِهت لمـا أجبت إلى مادعيت إليـه ، ولـكنى خفت

(١) صبح الأعشى ، : « وبكرت » .
(٢ ـ ٢) صبح الأعشى : « وإذا على يخترق الجماعة إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فبايعه » .
(٣) صبح الأعشى : « زميتا » ، أى حليا ووقورا .
(٤) صبح الأعشى : « مستأثرا لما عنده » .

الفرقة ، واستئثار الأنصار بالأمر عَلَى قريش ، وأعجلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك ، ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهِلى به ، وما أسعد [1] من ينظر الله إليه بالكفاية ! وإنا إليك لمحتاجون ، وبفضلك عالمون، وإلى رأيك وهَدْيِك فى جميع الأحوال راغبون ، وعَلَى حمايتك وحفيظتك معوّلون. ثم انصرف وتركه مع عمر .

فالتفت علىّ إلى عمر فقال : ياأبا حفص ، والله ماقعدت عن صاحبك جزعا على ماصار إليه ، ولا أتيته خائفا منه ، ولا أقول ما أقول بعلّة [2] ، وإنى لأعرف مَسْمَى طرْفى ومَخْطَى [3] قدمىَ ، ومنزع قوسى ، وموقع سهمى ؛ ولكنى تخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الذى جعله لى رسول الله ؛ وأتيت فبايعت ، حفظا للدّين ، وخوفا من انتشار أمر الله .

فقال له عمر: ياأبا الحسن ، كَفْكِفْ من غَرْبك، ونَهْنِه [4] من شِرّتك، ودع العصا بلحائها ، والدلو برشائها ، فإنّا مِنْ خَلْفها وورائها . إن قدَحْنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قَرَحْنا أدمينا ، وقد سمعت أمثالك التى ألغزت بها صادرة عن صدر دَوٍ ، وقلب جَوٍ . زعمت أنك قعدت فى كِسرْ بيتك لِما وَقَذَك به فراق رسول الله . أفراق رسول الله صلى الله عليه ، وَقَذَك وحدك ولم يقِذْ سواك ! إنّ مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك ، وإنّ من حقّ مصابه ألّا تَصدع شَمْل الجماعة بكلمة لاعصام لها ، فإنك لَترَى الأعراب حولَ المدينة لو تَدَاعَتْ علينا فى صبح يوم لم نَلْتَقِ فى مساه . وزعمت أنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ، فمن الشّوق إليه نصرة دينه ، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه .

---

(١) كذا فى د ، وفى ب : « أسد » .

(٢) صبح الأعشى : « لعلة » .

(٣) صبح الأعشى : « منتهى طرفى ومحط قدمى » .

(٤) صبح الأعشى : « واستوقف من سربك » .

وزعمتَ أنك مكبٌّ على عهد الله تجمع مانفرّق منه ، فمن العكوف على عهده النّصيحة لعباده ، والرأفة على خلقه ، وأن تبذل من نفسك مايصطلحون به ويجتمعون عليه.

وزعمتَ أنّ التظاهر عليك واقع ؛ أىّ تظاهر وقع عليك ! وأىّ حقّ استؤثر به دونك ! لقد علمتَ ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهرا ، وما تقلّبتْ عليه ظهرا وبطنا ، فهل ذكرتك أو أشارت بك ، أو طلبت رضاها من عندك ! وهؤلاء المهاجرون ؛ مَن الّذى قال منهم إنّك صاحبُ هذا الأمر ، أوأومأ إليك ، أوهمهم بك فى نفسه ! أتظنّ أنّ الناس ضلّوا من أجلك ، أو عادوا كفّاراً زهدا فيك ، أو باعوا الله تعالى بهواهم بغضاً لك ! ولقد جاءنى قوم من الأنصار ، فقالوا : إنّ عليًّا ينتظر الإمامة[1] ، ويزعم أنّه أولى بها من أبى بكر ، فأنكرتُ عليهم ورددتُ القول فى نحورهم ، حتى قالوا : إنّه ينتظر الوحىَ ويتوكّف[2] مناجاة الملك ! فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد محمّد عليه السلام.

ومن أعجب شأنك قولك : « لولا سابق قول لشفيت غيظى بخنصرى وبنصرى » ! وهل ترك الدّين لأحدٍ أن يشفىَ غيظه بيده أو لسانه ! تلك جاهليّة استأصل الله شأفتها ، واقتلع جرثومتها ، ونوّر ليلها ، وغوّر سيلها ، وأبدل منها الرّوح والريحان ؛ والهدى والبرهان !

وزعمت أنك ملجَم ، فلعمرى إنّ من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ماعنده ، أمسك لسانه ، وأطبق فاه ، وغلب عقلُه ودينه على هواه .

وأما قولك : « إنّى لأعرف منزَع قوسى » ، فإذا عرفتَ منزَع قوسِك عرف غيرُك مضربَ سيفه ، ومطعَن رمحه . وأمّا ماتزعمه من الأمر الذى جعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم لك ، فتخلّفت إعذاراً إلى الله ، وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه المسلمون

(١-١) صبح الأعشى : « لقد جاءنى عقيل بن زياد الخزرجى فى نفر من أصحابه ، ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجى ، وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة » . (٢) يتوكف : ينتظر .

لجنحوا إليه ، وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمعهم على العمى ، ولا ليضربهم بالصبا بعد المدى ، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ؛ فرأى اجتماع أمته على أبى بكر ، لما سفه آراءهم ، ولا ضلل أحلامهم ، ولا آثرك عليهم ، ولا أرضاك بسخطهم ، ولأمرك باتباعهم ، والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم .

فقال على : مهلا أبا حفص أرشدك الله ! خفض عليك ، مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد عنه حِوَلًا ، وإن أخسرَ النّاس صفقة عند الله مَنْ استبطن النفاق، واحتضن الشّقاق، وفى الله خَلَف عن كلّ فائت ، وعِوَضٌ من كلّ ذاهب ، وسلْوة عن كلّ حادث ، وعليه التوكّل فى جميع الحوادث . ارجع أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب ، مبرود الغليل ، فصيح اللسان ، رحب الصّدر ، متهلّل الوجه ، فليس وراء ماسمعته منّى إلّا مايشدّ الأزر ، ويحبط الوِزْر ، ويضع الإصْر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، إن شاء الله .

فانصرف عمر إلى مجلسه .

قال أبو عبيدة : فلم أسمع ولم أر كلاما ولا مجلسا كان أصعبَ من ذلك الكلام والمجلس(١) .

***

قلت : الذى يغلب على ظنّى أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّه مصنوع موضوع ، وأنّهُ من كلام أبى حيان التوحيدىّ ، لأنه بكلامه ومذهبه فى الخطابة والبلاغة أشبه ، وقد حفظنا كلامَ عمر ورسائله ، وكلام أبى بكر وخُطبه ، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب ، ولا يسلكان هذا السبيل فى كلامهما ، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ! ومَنْ تأمّل كلامَ أبى حيّان عرف أنّ

---

(١) الخبر فى صبح الأعشى ١ : ٢٣٧ — ٢٤٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢١٣ — ٢٢٩ ، ومحاضرة الأبرار ٢ : ١٠٢ — ١١٠ ، ونشره إبراهيم الكيلانى مع رسالتين لأبى حيان فى دمشق ١٩٥١ .

هذا الكلام من ذلك المدين خرج ؛ ويدلّ عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المروزوذي[(١)]؛ وهذه عادته في كتاب " البصائر " يسند إلى القاضي أبي حامد كلّ ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه ، إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه ، وإنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب ، لأنّه وإن كان عندنا موضوعا منحولا ، فإنّه صورة ماجرت عليه حال القوم ، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال ، فقد نطقوا به بلسان الحال .

وممّا يوضّح لك أنّه مصنوع ، أنّ المتكلّمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث ، وكلّ مَنْ صنّف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية ، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقِطُ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اللّفظة الشاذّة ، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام ، في معرض التألّم والتظلّم ، فيحتجّ بها ، ويعتمِد عليها ، نحو قوله : « مازلت مظلوما مذ قبض رسول الله حتّى يوم الناس هذا » .

وقوله : « لقد ظُلِمْت عَدَد الحجر والمَدَر » .

وقوله : « إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه ، وإن نُمنعه نركبْ أعجازَ الإبل ، وإن طال السُّرى » .

وقوله : « فصبرتُ وفي الحلق شجاً ، وفي العين قذًى » .

وقوله : « اللّهمّ إني أستعديك على قريش فإنّهم ظلموني حقّي ، وغصبوني إرثي » .

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه ، فكأنما ظفر بملك الدنيا ويودِعها كتبَه وتصانيفه ، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث ، وهلاّ ذكره في كتاب " الشافي في الإمامة "

---

(١) هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المروروذي ؛ أحد فقهاء الشافعية ؛ ترجم له ابن خلكان ١ : ١٨ ، ١٩ توفي سنة ٣٦٢ .

كلام أمير المؤمنين عليه السلام هـذا ، وكذلك من قبله من الإماميّة كابن النعمان ، وبنى نُوبخت ، وبنى بابويه وغيرهم ، وكذلك مَنْ جاء بعده متأخّرى متكلّمى الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا ! وأين كانَ أصحابُنا عن كلام أبى بكر وعمر له عليه السلام ! وهلّا ذكره قاضى القضاة فى " المغنى " مع احتوائه على كلّ ماجرى بينهم ، حتى إنّه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد فى أخبار السقيفة ! وهلاّ ذكره مَنْ كان قبل قاضى القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومَنْ جاء بعده من متكلّمينا ورجالنا ! وكذلك القول فى متكلّمى الأشعريّة وأصحاب الحديث كابن الباقلانىّ وغيره ، وكان ابنُ الباقلانىّ شديداً على الشّيعة ، عظيم العصبيّة عَلَى أمير المؤمنين عليـه السلام ، فلو ظفرَ بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هـذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بهـا ، وجعلهـا هِجّيراه ودأبه .

والأمر فيما ذكرناه من وضع هـذه القصّة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ، ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السِّيَر ، وأقلّ أنس بالتواريخ .

* * *

قوله عليـه السلام : « مودّع لا قالٍ ولا مبغض ولا سئم » ، أى لا ملول ، سئمت من الشيء أسأم سأما وسآما وسآمة ، سئمته إذا مللته ، ورجل سؤوم .

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى ، فقال : « إن انصرفتُ فلا عن ملالة ، وإن أقمت فلا عن سوء ظنّ بمـا وعد الله الصابرين » ، أى ليست إقامتى عَلَى قبرِك وجزعى عليك، إنكاراً منى لفضيلة الصبر والتجلّد والتعزّى والتأسّى ، وما وعد الله به الصـابرين من الثواب ، بل أنا عالم بذلك ، ولـكن يغلبنى بالطّبع البشرىّ .

وروى أن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلها الحسن

ابن الحسن عليه السلام سنة ، فلما انقضت السنة قوّضت الفسطاس راجعةً إلى بيتها ، فسمعت هاتفا يقول : هل بلغوا ماطلبوا ! فأجابه هاتف آخر ، بل يئسوا فانصرفوا .

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتابه " الكامل " أنّ عليه السلام تمثّل عند قبر فاطمة :

ذكرت أبا أروى فبتّ كأنّنى ... بردّ الهموم الماضيات وكيلُ (١)
لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ ... وكلّ الذى دُون الفراق قليلُ
وإن افتقادى واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ عَلَى ألاّ يدوم خليلُ

والناس يرونه :

* وإن افتقادى فاطما بعد أحمدٍ *

تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
ويليه الجزء الحادى عشر

---

(١) الكامل ٤ : ٣٠ (طبعة نهضة مصر) ، ولم يذكر هناك البيت الأول .

فهرس الخطب *

* وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى للموضوعات الواردة أثناء الشرح .

(١٧٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة :

إِنَّ اللّهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ ؛ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ ؛ إِلاَّ مَا حَفِظَ اللّهُ مِنْهَا . وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ ؛ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا .

وَاللّهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ (١) الْإِسْلَامِ ؛ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً ؛ حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ .

إِنَّ هٰؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي ؛ وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هٰذَا الرَّأْيِ ، انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللّهُ عَلَيْهِ ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّم ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ .

* * *

الشرح :

وأمر قائم ، أى مستقيم ليس بذى عوج . لا يهلك عنه إلا هالك ، تقديره : لا يهلك عادلاً عنه إلا هالك ؛ وهذا كما تقول : لا يعلم هذا الفنّ إلا عالم ، أى مَنْ قد بلغ الغاية

---

(١) ساقطة من ب .

فى العلم واستحق أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه ، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلّا من هو أعظم الهالكين ، ومن يشارُ إليه بالهلاك ، وقد بلغ الغاية فى الهلاك .

ثم قال : « إنّ المبتدعاتِ المشبّهاتِ هنّ المهلكات » ، المبتدَعات : ما أحدِث ولم يكن على عهد الرسول . والمشبِّهات : التى تشبِه السنن وليست منها ، أى المشبِّهات بالسنن . وروى : « المشبَّهات » بالكسر ، أى المشبَّهات على الناس ، يقال : قد شُبِّه عليه الأمر ؛ أى ألبِس عليه ، ويروى : « المشتَبهات » أى الملتبَسات ، لا يُعرف حقُّها من باطلها .

قال : « إلّا مَنْ حفظ الله » ، أى مَنْ عصمه الله بألطاف يمتنع لأجلها عن الخطأ . ثم أمرَهم بلزوم الطّاعة، واتباع السلطان ، وقال: إنّ فيه عصمة لأمركم ؛ فأعطوه طاعتكم غير مُلَوّمة ، أى مخلصين ذوى طاعة محضة لا يلامُ باذلها ، أى لا ينسَب إلى النفاق . ولا مستكره بها ، أى ليست عن استكراه ، بل يبذلونها اختياراً ومحبّة ، ويروى : « غير ملويّة » أى معوجة ، من لَوَيْتُ العود .

ثم أقسم أنّهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام ـ يعنى الخلافة ـ ثم لا يعيده إليهم أبدا ، حتى يأرز الأمر إلى غيرهم ؛ أى حتى ينقبض وينضمّ ويجتمع ؛ وفى الحديث : « إنّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جُحْرِها »(١) .

فإن قلت : كيف قال : إنّه لا يعيده إليهم أبداً ، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية ؟ قلت : لأنّ الشّرط لم يقع؛ وهو عدم الطاعة ، فإنّ أكثرهم أطاعوه طاعةً غيرملوّمة ولا مستكرَه بها ، وإذا لم يتحقّق الشرط لم يتحقّق المشروط .

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤ .

وقد أجاب قوم عن هذا ، فقالوا : خاطب الشيعة الطالبيّة ، فقال : إنْ لم تُعطونى الطاعة المحضةَ نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرِز وينضمّ إلى بيت آخر ؛ وهكذا وقع ؛ فإنها انضمّت إلى بيت آخر من بنى هاشم .

وأجاب قوم آخرون ، فقالوا : أراد بقوله : « أبداً » للمبالغة ؛ كما تقول : احبِسْ هذا الغريم أبداً ، والمراد بالقوم الذين يأرِز الأمر إليهم بنو أمية ؛ كأنه قال : إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلها فى قوم آخرين ؛ وهم أعداؤكم من أهل الشام وبنى أمية ، ولا يعيده إليكم إلى مدّة طويلة ، وهكذا وقع .

وقد تمالئوا : قد اجتمعوا . وتساعدوا على سَخْطة إمارتى : على كراهيتها وبغضها .

ثم وعد بالصبر عليهم مالم يُخَفْ من فرقة الجماعة ، وانتشار حبل الإسلام .

وفَيالة الرأى : ضعفه ، وكذلك فُيولته ؛ ورجل فِيلُ الرأى : أى ضعيفه ، قال :

بنى ربّ الجواد فلا تَفِيلوا فما أنتم فنعذرَكم لفِيلِ [1]

أى اسم على رجل ضعيف الرأى والجمع أفيال ، ويقال أيضا : رجل فال ، قال :

رأيتُك يا أُخَيطِلُ إذ جَرَيْنا وجُرِّبتِ الفَراسةُ كُنْتَ فالا [2]

قال : إن تمّوا على هذا الرأى الضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم .

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك ، وأفاءها عليه : ردّها عليه ، فاء يفِئ : رجع . وفلان سريع الفىء من غَضَبه ، أى سريع الرجوع . وإنه لحسن الفِيئة بالكسر ؛ مثال « الفِيعة » أى حسن الرجوع ؛ وهذا الكلام لايشعر بأنّه عليه‌السلام كان يعتقد أنّ الأمر له ، وأنه غُلِب عليه ثم رجع إليه ، ولكنه محمول على أنّه من رسول صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكلّ ، وأنهما من جوهر واحد ، فلما كان الوالى قديما وهو رسول الله صلى الله

---

(١) اللسان ١٤ : ٥٠ ونسبه إلى الكميت .

(٢) اللسان ١٤ : ٥٠ ، ونسبه إلى جرير .

عليه وآله ، ثم تخلّل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات غريبة ، سمّى ولايته فيئاً ورجوعا ، لأنها رجعت إلى الدّوحة الهاشميّة ؛ وبهذا يجب أن يتأوّل قوله : « فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها » أى أرادوا انتزاع الخلافة من بنى هاشم ، كما انتزعت أولا ، وإقرارها فى بيوت بعيدة عن هـذا البيت ، أسوة بما وقع من قبل .

والنّعش : مصدر نعش ، أى رفع ، ولا يجوز : « أنعش » .

(١٧١)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب ، وقد أرسله قوم من أهل البصرة ؛ لما قرب عليه السلام منها، ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم ؛ فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ماعلم به أنّه على الحقّ ، ثمّ قال له : بايع ، فقال : إنى رسول قوم ، ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم . فقال عليه السلام :

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ ٱلَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً ، تَبْتَغِى لَهُمْ مَسَاقِطَ ٱلْغَيْثِ ،فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ ٱلْكَلَإِ وَالْمَاءِ ، فَخَالَفُوا إِلَى ٱلْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ ما كُنْتَ صَانِعاً ؟

قَالَ : كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى ٱلْكَلَإِ وَالْمَاءِ .

فقال عليه السَّلَامُ : فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ .

فقالَ الرّجل : فَوَاللهِ مَا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عند قيام ٱلْحُجَّةِ علىّ فبايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَام .

والرّجل يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ ٱلْجَرْمِيّ .

* * *

الشرح :

الجرمىّ : منسوب إلى بنى جَرْم بن رَبّان بن حُلْوان بن عمران بن الحاف ابن قُضاعة ، من حِمْير . وكان هذا الرجل بعثه قومٌ من أهل البصرة إليه عليه السلام ،

يستعلم حاله : أهو على حجة[1] أم على شبهة ؟ فإذا رآه عليه السلام ، وسمع لفظه ، علم صدقه وبرهانه ؛ فكان بينهما ماقد شرحه عليه السلام .

ولا شيء ألطفُ ولا أوقعُ ولا أوضحُ من المثال الذى ضربه عليه السلام ، وهو حجة لازمة لا مدفع لها .

قوله : « ولا أحدِث حدثا » أى لا أفعل مالم يأمرونى به ، إنما أمرت باستعلام حالك فقط ؛ فأمّا المبايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلا مالم أندَب له .

ومساقط الغيث : المواضع التى يسقط الغيث فيها . والكلأ : النبت إذا طال وأمكن أن يُرْعَى ؛ وأول مايظهر يسمى الرُّطْب ، فإذا طال قليلا فهو الخلا ، فإذا طال شيئا آخر فهو الكلأ ، فإذا يبس فهو الحشيش .

والمعاطش والمجادب : مواضع العطش والجدْب ، وهو المحْل .

---

(١) بعدها : « حجتهم »

(١٧٢)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اللّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ ؛ الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ .

وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى .

وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً ، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا ، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ !
الْعَارُ وَرَاءَكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ !

• • •

الشَّرْحُ :

السقف المرفوع : السماء . والجوّ المكفوف : السماء أيضا ؛ كَفّه ، أى جمعه وضمّ بعضه إلى بعض ، ويمرّ فى كلامه نحو هذا ، وأنّ السماء هواء جامد أو ماء جامد .

وجعلته مغيضاً لليل والنهار، أى غَيْضة لهما ؛ وهى فى الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء،

فتسمّى غَيضة ومغيضا ؛ وينبت فيها الشجر ، كأنّه جعل الفلك كالغَيضة ، والليل والنهار كالشجر النابت فيها .

ووجـه المشاركة أنّ المغيض أو الغيضة يتولّد منهما الشجر ؛ وكذلك اللّيل والنهار يتولّدان من جرَيان الفلك .

ثم عاد فقال : « ومجرًى للشمس والقمر » ، أى موضعاً لجريانهما .

ومختلَفاً للنجوم السيّارة ، أى موضعا لاختلافها ، واللام مفتوحة .

ثم قال : « جعلت سـكانه سِبْطا من ملائكتك » أى قبيلة ، قال تعالى : ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾[١] .

لا يسأمون : لا يملّون . وقرارا للأنام ، أى موضع استقرارهم وسكونهم . ومدرَجاً للهوامّ ، أى موضع دُروجهم وسيرهم وحركاتهم ، والهوامّ : الحشرات والمخوف من الأحناش .

ومالا يحصى ، أى لا ينضبط بالإحصاء والعدّ ؛ مما نراه ونعرفه ومالا نراه ولا نعرفه .

وقال بعض العلماء : إن أردت أن تعرف حقيقـة قوله : « مما يُرى ومالا يُرى » فأوقد نارا صغيرة فى فلاةٍ فى ليلة صيفيّة ، وانظر ما يجتمع عليها من الأنواع الغريبة العجيبة الخلْق ؛ التى لم تشاهدها أنت ولا غيرك قطّ .

قوله : « وللخلق اعتمادا » ، لأنهم يجعلونها كالمساكن لهم ، فينتفعون بها ويبنون منازل إلى جانبها ، فيقوم مقام جدار قد استغنوْا عن بنيانه ، ولأنها أمّهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلْق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها .

---

(١) سورة الأعراف ١٦٠ .

قوله : « وسدّدنا للحق » أي صوبنا إليه ، من قولك : « سهم سديد » ، أي مصيب ، وسدد السنان إلى القِرْن ، أي صوّبه نحوه .

والذّمار : ما يحامى عنه . والغائر : ذو الغَيْرة . ونزول الحقائق : نزول الأمور الشديدة كالحرب ونحوها .

ثم قال : « النار وراءكم » ، أي إن رجعتم القهقرى هاربين .

والجنة أمامكم ، أي إن أقدمتم على العدو مجاهدين . وهذا الكلام شريف جدا .

(١٧٣)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً.

* * *

الشرح:

هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضها فوق بعض، كما أن السموات كذلك، ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [1]، وهو قول كثير من المسلمين.

وقد تأول ذلك أربابُ المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة، فقالوا: إنها سبعة أقاليم، فالمثلية هي من هذا الوجه، لا من تعدد الأرَضِين في ذاتها.

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فيقال: إنها وإن كانت أرضا واحدة، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة، وهي كُرِيّة الشكل، فمن على حَدَبة الكرة لا يرى مَنْ تحته، ومن تحته لا يراه، ومَنْ على أحد جانبيها لا يرى مَنْ على الجانب الآخر، والله تعالى يدركُ ذلك كله أجمع، ولا يحجّب عنه شيء منها بشيء منها.

فأما قوله عليه السلام: «لا توارِي عنه سماءٌ سماءً»، فلقائل أن يقولَ: ولا يتوارَى شيء من السموات عن المدركين منا، لأنها شفافة، فأي خصيصة للباري تعالى في ذلك؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدةٍ غير القاعدة الفلسفية، بل هو على قاعدة

(١) سورة الطلاق ١٢.

الشريعة[1] الإسلاميّة التى تقتضى أنّ السمٰوات تحجب ماوراءها عن المدركين بالحاسّة ؛ وأنها ليست طباقا متراصّة ، بل بينها خلق من خلق الله تعالى لايعلمهم غيره . واتباعُ هذا القول واعتقاده أولى .

***

الأصْلُ :

منها :

وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ : إنَّكَ عَلَى هٰذَا الأمْرِ يابْنَ أَبِي طالِبٍ لَحَرِيصٌ ؛ فَقُلْتُ : بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ ؛ وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ ، وَإنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ ؛ فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي المَلَإِ الْحَاضِرِينَ ، هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ !

اللّهُمَّ إنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي ، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي ، ثُمَّ قَالُوا : أَلَا إنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ .

الشّرْح :

هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ماجرى يوم الشورى بعد مقتل عمر . والذى قال له : « إنك على هذا الأمر لحريص » سعد بن أبى وقاص ، مع روايته فيه : « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى » ، وهذا عجب ؛ فقال لهم : بل أنتم والله أحرصُ وأبعد . . . الكلام المذكور . وقد رواه الناس كافة .

وقالت الإماميّة : هذا الكلام يوم السقيفة ، والذى قال له : إنّك على هذا الأمر لحريص ، أبو عبيدة بن الجراح ؛ والرواية الأولى أظهر وأشهر .

(١) ب : « على قاعدته الشريعة الإسلامية » .

وروى : « فلما قَرَعته » بالتخفيف ، أى صدمته بها .

وروى : « هبّ لا يدرى مايجيبنى » ، كما تقول: استيقظ وانتبه ، كأنه كان غافلاذاهلا عن الحجة فهبّ لمّا ذكرتُها .

أستعديك : أطلب أن تُعْدِيَنى عليهم وأنْ تنتصف لى منهم .

قطعوا رحمى : لم يرعَوْا قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله .

وصغّروا عظيم منزلتى : لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه .

وأجمعوا على منازعتى أمراً هولى ، أى بالأفضلية أنا أحقّ به منهم ؛ هكذا ينبغى أن يُتأوّل كلامه .

وكذلك قوله : « إنما أطلب حقّا لى وأنتم تحولون بينى وبينه ، وتضربون وجهى دونه » .

قال : « ثم قالوا : ألا إنّ فى الحقّ أن تأخُذَه ، وفى الحقّ أن تتركه »،قال: لم يقتصروا على أخذِ حَقّى سا كتين عن الدّعوى ؛ ولكنّهم أخذوه وادّعوا أنّ الحقّ لهم،وأنه يجبُ علىّ أن أترك المنازعة فيه ؛ فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقّى ، فكانت المصيبة به أخفّ وأهون .

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحوٍ من هذا القول ، نحو قوله : « مازلتُ مظلوماً منذ قبضَ الله رسولَه حتى يوم النّاس هذا » .

وقوله : « اللهمّ أخزِ قريشاً فإنها منعتْنى حقّى وغصبتْنى أمرى » .

وقوله : « فجزى قريشا عنّى الجوازِى ، فإنهم ظلمونى حقّى ، واغتصبونى سلطان ابن أمّى » .

وقوله ، وقد سمع صارخا ينادى : أنا مظلوم ، فقال : « هلمّ فلنصرُخْ معا ، فإنى مازلتُ مظلوماً » .

وقوله : « وإنه ليعلم أنّ محلّى منها محلّ القطب من الرحى » .

وقوله : « أرى تراثى نهبا » .

وقوله : « أصفيا بإنائنا ، وحَمَلا الناس على رقابنا » .

وقوله : « إنّ لنا حقا إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نُمنَعه نركب أعجاز الإبل ؛ وإن طال السُّرَى » .

وقوله : « مازلت مستأثَراً علىّ ، مدفوعاً عمّا أستحقه وأستوجبه » .

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة والأحقيّة ؛ وهو الحقّ والصواب ؛ فإنّ حمله على الاستحقاق بالنصّ تكفيرٌ أو تفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار ؛ ولكنّ الإماميّة والزيديّة حملوا هذه الأقوال على ظواهرها ، وارتكبوا بها مركبا صعبا. ولعمرى إنّ هذه الألفاظ مُوهِمةٌ مغلّبة على الظن مايقوله القوم ؛ ولكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ ؛ ويدرأ ذلك الوهم ، فوجب أن يجرىَ مجرى الآيات المتشابهات الموهمة مالا يجوز على البارئ ، فإنه لا نعمل بها ، ولا نعوّل على ظواهرها ، لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة فى الكتب .

وحدثنى يحيى بن سعيد بن على الحنبلى المعروف بابن عالية ، من ساكنى قَطُفْتا (١) بالجانب الغربىّ من بغداد ، وأحد الشهود المعدّلين بها ، قال : كنت حاضراً مجلس الفخر إسماعيل ابن علىّ الحنبلىّ الفقيه المعروف بغلام ابن المنى ، وكان الفخر إسماعيل بن على هذا ، مقدّم

---

(١) قطفتا ، بالفتح ثم الضم ولفاء ساكنة وتاء مثناة والقصر : محلة بالجانب الغربى من بغداد ، بينها وبين دجلة أقل من ميل (مراصد الاطلاع) .

الحنابلة ببغداد فى الفقــه والخلاف ؛ ويشتغل بشىء فى علم المنطق ، وكانَ حُلْوَ العبارة ، وقد رأيته أنا وحضرت عنده ، وسمعت كلامه ، وتوفى سنة عشر وستمائة .

قال ابن عالية : ونحن عنده نتحدّث ؛ إذ دخل شخص من الحنابلة ، قد كان له دَيْن على بعض أهل الـكوفة ، فانحدر إليه يطالبه به ، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير ، والحنبلىّ بالمذكور بالـكوفة ؛ وهذه الزيارة هى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جُمُوعٌ عظيمة ؛ تتجاوز حدّ الإحصاء .

قال ابن عالية : فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص : مافعلت ؟ مارأيت ؟ هل وصل مالُكَ إليك ؟ هل بقِىَ لك منه بقية عند غريمك ؟ وذلك يجاوبه ؛ حتى قال له : ياسيّدى لو شاهدتَ يوم الزيارة يوم الغدير ، ومايجرى عند قبر على بن أبى طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جِهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة ! فقال إسماعيل : أىّ ذنب لهم ! والله ماجرّأهم على ذلك ، ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر . فقال ذلك الشخص : ومَنْ صاحب القبر ؟ قال : علىّ بن أبى طالب ! قال : ياسيدى ، هو الذى سنّ لهم ذلك ، وعلّمهم إياه وطرّقهم إليه ! قال : نعم والله ، قال : ياسيّدى فإن كان محقا فمالنا أن نتولّى فلانا وفلانا ! وإن كان مبطلا فمالنا نتولاه ! ينبغى أن نبرأ إمّا منه أو منهما .

قال ابن عالية : فقام إسماعيل مسرعا ، فلبس نعليْه ، وقال : لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة ، ودخل دار حرمه ، وقمنا نحن وانصرفنا .

• • •

الأصل

منها فى ذكر أصحاب الجمل :

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تُجَرُّ الأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا

مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ . فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا،وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا ؛ فِي جَيْشٍ مَامِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ ،وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ ؛ طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ ؛ فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا ، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا ، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً ، وَطَائِفَةً غَدْراً .

فَوَاللهِ إِنْ لَوْلَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ ٱلْجَيْشِ كُلِّهِ ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا،وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ ، دَعْ مَا إِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِثْلَ ٱلْعِدَّةِ ٱلَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ !

***

الشَّرْحُ :

حُرْمة رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عن الزَّوجة ، وأصله الأهل والحرَم ؛ وكذلك حَبيس رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عنها .

وقتلوهم صبرا ، أي بعد الأسر . وقوله : « فوالله إنْ لولم يصيبوا » إن هاهنا زائدة، ويجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة .

ويُسأل عن قوله عليه السلام:« لولم يصيبوا إلا رجلا واحدا لحلّ لي قتل ذلك الجيش بأسره ، لأنهم حضروه فلم ينكروا » ،فيقال : أيجوز قتلُ من لم ينكِر المنكر مع تمكّنه من إنكاره ؟

والجواب،أنّه يجوز قتلهم؛لأنّهم اعتقدوا ذلك القتل مباحا،فإنهم إذا اعتقدوا إباحته، فقداعتقدوا إباحة ماحرّم الله ، فيكون حالُهم حالَ من اعتقد أنّ الزنا مباح،أو أنّ شرب الخمر مباح .

وقال القطب الراوندى : يريد أنهم داخلون فى عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ (١) .

ولقائل أن يقول : الإشكال إنما وقع فى قوله : « لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلا واحدا لحلّ لى قتل ذلك الجيش بأسره » ، لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسانٍ ولا يدٍ ، فهو علّل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر ، ولم يعلل ذلك بعموم الآية .

وأما معنى قوله : « دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدّة التى دخلوا بها عليهم » ، فهو أنه لو كان المقتول واحدا لحل لى قتلهم كلهم ، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدّةً مثل عدّتهم التى دخلوا بها البصرة ! وما ها هنا زائدة .

وصدق عليه السلام ، فإنهم قتلوا من أوليائه وخُزّان بيت المال بالبَصْرة خلقاً كثيرا ؛ بعضهم غدراً وبعضهم صبراً ، كما خطب به عليه السلام .

* * *

[ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال] (٢)

وروى أبو مخنف، قال : حدثنا إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبى حازم . وروى الكلبيّ عن أبى صالح ، عن ابن عباس . وروى جرير بن يزيد ، عن عامر الشعبي ، وروى محمد ابن إسحاق ، عن حبيب بن عمير ، قالوا جميعا : لما خرجت عائشة وطَلْحةُ والزبير من مكة إلى البصرة ، طرقت ماء الحوأب ــ وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة ــ فنبحتهم الكلاب ، فنفرت صعاب إبلهم ، فقال قائل منهم : لَعَنَ الله الحوأب فما أكثر كلابها ! فلما سمعت عائشة ذِكْر الحوأب ، قالت : أهذا ماء الحوأب؟ قالوا : نعم ، فقالت : ردُّونى ردُّونى . فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «كأنى بكلاب

(١) سورة المائدة ٣٣ .

(٢) انظر ص ١١١ وما بعدها من هذا الجزء .

ماء يدعى الحوأب، قد نبحت بعض نسائي»، ثم قال لي: «إياكِ يا حميراء أن تكونيها» فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك الله، فإنا قد جزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك مَنْ يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟ فلفّق لها الزّبير وطلحة خمسين أعرابيًا جعلا لهم جُعلًا، فحلفوا لها، وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوأب، فكانت هذه أوّل شهادة زُور في الإسلام.

فسارت عائشة لوجهها.

* * *

قال أبو مخنف: وحدثنا عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يوما لنسائه، وهُنّ عنده جميعا: «ليت شعري أيتكُنّ صاحبة الجمل الأدْبب[1]، تنبحها كلابُ الحوأب، يُقتَلُ عن يمينها وشمالها قَتلَى كثيرة، كلّهم في النار وتَنجُو بعد ما كادت؟».

قلت: وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله، يحملون قوله عليه السلام: «وتنجو» على نجاتها من النار، والإماميّة يحملون ذلك على نجاتها من القتل، ومحملنا أرجح، لأن لفظة «في النار» أقرب إليه من لفظة «القتلى»، والقُرْب معتبر في هذا الباب؛ ألا ترى أنّ نحاة البصريين أعملوا أقرَب العاملين، نظرا إلى القرب!

* * *

قال أبو مخنف: وحدّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن الزبير وطلحة أغذّا[2] السير بعائشة، حتى انتهَوْا إلى حَفَر أبي موسى الأشعريّ، وهو قريب من البصرة، وكتبا إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ، وهو عامل عليّ عليه السلام عَلَى البصرة: أن أخلِ لنا دارَ الإمارة، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحنف بن قيس، فقال له: إنّ هؤلاء القوم قدِموا علينا ومعهم زوجة رسول الله، والناس إليها سراع كما ترى؛ فقال الأحنف:

---

(١) الأدبب: الكثير الشعر.
(٢) الإغذاذ: الإسراع.

إنهم جاءوك بها الطلب بدم عثمان ؛ وهم الذين ألبُوا على عثمان الناس ، وسفكوا دمه ؛ وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلقوا العداوة بيننا ، ويسفكوا دماءنا ، وأظنُّهم والله سيركبون منك خاصّة مالا قبلَ لك به ، إنْ لم تتأهّب لهم بالنهوض إليهم فيمَن معك من أهل البصرة ، فإنك اليوم الوالى عليهم ، وأنت فيهم مطاع ، فسر إليهم بالناس ، وبادرهم قبل أن يكونوا معك فى دار واحدة ، فيكون الناس لهم أطوعَ منهم لك ؟

فقال عثمان بن حَنيف : الرأى مارأيتَ ، لكننى أكره الشرّ ، وأن أبدأهم به ، وأرجو العافية والسّلامة إلى أن يأتينى كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به . ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبدىّ من بنى عمرو بن وديعة ، فأقرأه كتاب طلحة والزبير ، فقال له مثل قول الأحنف ، وأجابه عثمان بمثل جوابه للأحنف ، فقال له حكيم : فأذَنْ لى حتى أسير إليهم بالناس ، فإن دخلوا فى طاعة أمير المؤمنين ، وإلّا نابذتهم على سواء .

فقال عثمان : لو كان ذلك رأيى لسرتُ إليهم بنفسى ، قال حكيم : أما والله إن دخلوا عليك هذا المِصر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم ، وليزيلنّك عن مجلسك هذا ، وأنت أعلم . فأبى عليه عثمان .

***

قال : وكتبَ علىّ إلى عثمان لمّا بلغه مشارفةُ القوم البصرة .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عثمان بن حَنيف ، أما بعد :

فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثُوا ، وتوجّهوا إلى مصرك ، وساقهم الشيطان لطلب مالا يرضَى الله به . والله أشدّ بأسا ، وأشدّ تنكيلا ، فإذا قدِموا عليك فادعُهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذى فارقونا عليه ، فإنْ أجابوا فأحسِنْ جوارَهم ماداموا

عندك ، وإن أبوْا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف ، فناجزْهم القتال حتى يحكم الله بينك ، وبينهم وهو خير الحاكمين ؛ وكتبت كتابى هذا إليك من الرَّبَذة ، وأنا معجّل المسير إليك إن شاء الله .

وكتبه عبيد الله بن أبى رافع فى سنة ست وثلاثين .

قال : فلما وصلَ كتابُ علىّ عليه السلام إلى عثمان ، أرسل إلى أبى الأسود الدؤلىّ وعمران بن الحصين الخزاعىّ ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم ، وما الذى أقدمهم ! فانطلقا حتى إذا أتيا حَفَر أبى موسى ، وبه معسكر القوم ، فدخلا على عائشة ، فنالاها ووعظاها ، وأذكراها وناشداها الله ، فقالت لهما : القيا طلحة والزّبير . فقاما من عندها ، ولقيا الزبير فكلماه ، فقال لهما : إنا جئنا للطلب بدم عثمان ، وندعو الناس إلى أن يردّوا أمرَ الخلافة شورى ، ليختار الناس لأنفسهم . فقالا له : إن عثمان لم يُقتَل بالبصرة ليطلَبَ دمه فيها ، وأنت تعلم قتلة عثمان مَنْ هم ، وأين هم ! وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشدّ الناس عليه ، وأعظمهم إغراء بدمه ، فأقيدوا من أنفسكم . وأما إعادة أمر الخلافة شورى ، فكيف وقد بايعتم عليًّا طائعين غير مكرَهين ! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنت آخذ قائمَ سيفك ، تقول : ما أحدٌ أحقّ بالخلافة منه ولا أولى بها منه ! وامتنعت من بيعة أبى بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول !

فقال لهما : اذهبا فالقيا طلحة ، فقاما إلى طلحة فوجداه أخشَن الملمس ، شديد العريكة ، قوى العزم فى إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب ، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف ، فأخبراه وقال له أبو الأسود :

يا بنَ حنيف قد أتيت فانفرْ وطاعِنِ القوم وجالد واصبِرْ[1]

---

(١) تاريخ الطبرى ٦ : ١٧٤ .

* وابرز لها مستلئما وشمّرْ *

فقال ابن حَنيف : إى والحرمين لأفعلنّ . وأمر مناديَه فنادى فى الناس : السلاح السلاح ! فاجتمعوا إليه ، وقال أبو الأسود :

أتينا الزبير فدانى الكلام ... وطلحة كالنّجم أو أبعدُ
وأحسنُ قوليهما فادحٌ ... يضيق به الخطب مستنكدُ
وقد أوعدونا بجهدِ الوعيد ... فأهونْ علينا بما أوعَدُوا
فقلنا ركضتم ولم تُرمِلُوا ... وأصدرتمُ قبل أن توردُوا
فإن تلقِحوا الحرب بين الرجال ... فملقحها حده الأنكدُ
وإن عليًّا لكم مصحِرٌ ... ألا إنه الأسد الأسودُ
أما إنه ثالث العابدين ... بمكة والله لا يعبَدُ
فرخُّوا الخناق ولا تعجلوا[(١)] ... فإن غدا لكمُ موعدُ

قال : وأقبل القوم ، فلما انتهوا إلى المربِد ، قام رجل من بنى جُشَمَ فقال : أيها الناس ، أنا فلان الجُشَمىّ ، وقد أتاكم هؤلاء القوم ، فإن كانوا أتوكم خائفين ؛ لقد أتوكم من المكان الذى يأمن فيه الطير والوحش والسباع ، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان ؛ فغيرُنا ولِىَ قتله . فأطيعونى أيها الناس وردُّوهم من حيث أقبلوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلَموا من الحرب الضَّرُوس والفتنة الصماء التى لا تُبْقِى ولا تَذَر .

قال : فحصَبه ناس من أهل البصرة ، فأمسك .

قال : واجتمع أهلُ البصرة إلى المربِد حتى ملئوه مشاة وركبانا ، فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكونِ ليخطُب ، فسكتوا بعد جهد . فقال : أمّا بعد ، فإن عثمان بن عفّان كان من أهل السابقة والفضيلة ، ومن المهاجرين الأولين الذى رضى الله عنهم ورضُوا عنه

(١) رخى : مثل أرخى .

ونزل القرآن ناطقا بفضلهم ، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان أحدث أحداثا نقمنا عليه ، فأتيناه فاستعتبناه فأعتبنا ، فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرَها غصبا بغير رضاً منها ولا مشورة ، فقتله ، وساعده على ذلك قومٌ غير أتقياء ولا أبرار ، فقتِل محرِما بريئاً تائبا . وقد جئنا كم أيها الناس نطلب بدم عثمان ، وندعوكم إلى الطلب بدمه ؛ فإنْ نحنُ أمكننا الله من قتَلتِه قتلناهم به ، وجعلنا هذا الأمر شورَى بين المسلمين ، وكانت خلافة رحمةً للأمة جميعا ، فإنّ كلّ مَنْ أخذ الأمر من غير رضاً من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً ، كان ملكه ملكا عَضُوضاً ، وحدَثا كثيرا .

ثم قام الزّبير ، فتكلّم بمثل كلام طلحة .

فقام إليهما ناس من أهل البصرة ، فقالوا لهما : ألم تبايعا عليا فيمن بايعه ؟ ففيم بايعتما ثم نكثتما ! فقالا : ما بايعْنا ، وما لأحد في أعناقنا بيعة ؛ وإنما استُكرِهنا على بيْعة . فقال ناس : قد صدقا وأحسنا القول ، وقطعا بالثواب . وقال ناس : ما صَدَقا ولا أصابا في القول ؛ حتى ارتفعت الأصوات .

قال : ثم أقبلت عائشة على جملِها ، فنادت بصوت مرتفع : أيها الناس ، أقلّوا الكلام واسكتوا ، فأسكت الناس[1] لها ، فقالت :

إنّ أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة ؛ حتى قتِل مظلوما تائبا ، وإنما نقَمُوا عليه ضربه بالسوط ، وتأميرَه الشبّان ، وحمايته موضع الغمامة ، فقتلوه محرِماً في حرمة الشهر وحرمة البلد ، ذبحاً كما يذبح الجمل . ألا وإنّ قريشا رمتْ غَرَضَها بنبالها ، وأدْمَت أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئا ، ولا سلكتْ به سبيلا

(١) أسكت الناس : انقطعوا عن الكلام .

قاصدا ، أما والله ليَرَوُنَّها بلايا عقيمة تنبّه النائم ، وتقيم الجالس ، ولَيُسَلَّطَنَّ عليهم قوم لا يرحمونهم ؛ ويسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس ؛ إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه أمُصْتُموه[1] كما يماص الثوب الرحيض[2] ، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابنَ أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ، ابتزازاً وغصباً . تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ! ألا إنّ عثمان قتِل مظلوما فاطلبوا قَتَلَتَه ، فإذا ظفرتُمْ بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورَى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ ولا يدخل فيهم مَنْ شَرَكَ في دم عثمان .

قال : فماج الناس واختلطوا ، فمن قائل : القول ما قالت ، ومن قائل يقول : وما هي وهذا الأمر ، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها ! وارتفعت الأصوات ، وكثُر اللغط حتى تضاربُوا بالنعال ، وتراموْا بالحصى .

ثم إنّ الناس تمايزوا فصاروا فريقين : فريق مع عثمان بن حُنيف ، وفريق مع عائشة وأصحابها .

***

قال : وحدّثنا الأشعث بن سوّار ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي الخليل ، قال : لما نزل طلحة والزّبير المِربد ، أتيتهما فوجدتهما مجتمعيْن ، فقلت لهما : ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما الذى أقدمكما أرضنا هذه ؟ فلم يتكلّما ، فأعدت عليهما ، فقالا : بلغنا أنّ بأرضكم هذه دنيا ، فجئنا نطلبها .

***

(١) الموص : الغسل بالأصابع ؛ وفى النهاية لابن الأثير ٤ : ١١٤ « يقال : مصته أموصه موصاً . أرادت أنهم استتابوه عما نقموا منه ، فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه » .
(٢) الرحيض : المغسول .

قال : وقد روى محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس أنه لقيهما ، فقالا له مثل مقالتهما الأولى : إنما جئنا لطلب الدنيا .

وقد روى المدائني أيضاً نحواً مما روى أبو مخنف ، قال : بعث عليّ عليه السلام ابنَ عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب ، فقال له : إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لكم : ألم تبايعني طائعاً غير مكرَه ، فما الذي رابك مني ، فاستحللت به قتالي ؟ قال : فلم يكن له جواب إلا أنه قال لي : إنا مع الخوف الشديد لنطمع ؛ لم يقل غير ذلك .

قال أبو إسحاق : فسألت محمد بن عليّ بن الحسين عليه السلام : ماتراه يعني بقوله هذا؟ فقال : أما والله ماتركت ابن عباس حتى سألته عن هذا ، فقال : يقول : إنّا مع الخوف الشديد ممّا نحن عليه ، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم .

* * *

وقال محمد بن إسحاق : حدّثني جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه ، عن ابن عباس، قال : بعثني عليّ عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير ، وبعث معي بمصحف منشور ، وإن الريح لتصفِق ورقه ، فقال لي : قل لهما : هذا كتاب الله بيننا وبينكم ، فما تريدان ؟ فلم يكن لهما جواب إلا أن قالا : نريد ما أراد ؛ كأنهما يقولان : المُلْك.

فرجعتُ إلى عليّ فأخبرته

* * *

وقد روى قاضي القضاة رحمه الله في كتاب "المغني" عن وهب بن جرير ، قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إنّ لكما فضلًا وصحبة ؛ فأخبراني عن مسيركما

هذا وقتالكما؛ أشيء أمركما به رسول الله صلى الله عليه وآله، أم رأيٌ رأيتماه؟ فأمّا طلحة فسكت وجعل ينكت في الأرض، وأما الزّبير، فقال: ويحك! حُدِّثنا أنّ هاهنا دراهم كثيرة، فجئنا لنأخذ منها.

وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجّة في أنّ طلحة تاب، وأنّ الزبير لم يكن مصرًّا على الحرب. والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف، وإنّ صحّ هو وماقبله؛ إنّه لدليل على حُمْقٍ شديد، وضعف عظيم، ونقص ظاهر. وليت شعري ماالذي أحوجهما إلى هذا القول! وإذا كان هذا في أنفسهما، فهلّا كتماه!

***

ثم نعود إلى خبرهما: قال أبو مخنف: فلما أقبل طلحة والزبير من المربد، يريدان عثمان بن حَنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السّكك؛ فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدّباغين، فاستقبلهم أصحاب ابن حَنيف فشَجَرهم[1] طلحة والزبير وأصحابهما بالرّماح، فحمل عليهم حكيم بن جبلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة، فأخذوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها مليًّا حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مُسَنّاة البصرة، حتى انتهوا إلى الرابوقة، ثم أتوا سَبَخة دار الرزق، فنزلوها.

قال: وأتاهما عبد الله بن حكيم التميميّ لما نزلا السَّبَخة بكتب كانا كتباها إليه، فقال لطلحة: ياأبا محمد، أما هذا كتبك إلينا؟ قال: بلَى، قال: فكتبتَ أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله؛ حتى إذا قتلته، أتيتنا ثائرًا بدمه! فلعَمري ماهذا رأيك؛ لا تريد إلّا هذه الدنيا. مهلا! إذا كان هذا رأيك؛ فلمَ قبلتَ من عليّ ماعرض عليك من البيعة،

---

(١) شجره بالرمح: طعنه.

فبايعته طائعاً راضياً ، ثم نـكثتَ بيعتك ، ثم جئت لتدخِلنا فى فتنتك ! فقال : إنّ عليا دعانى إلى بيعته بعد مابايع الناس ، فعلمتُ لو لم أقبلْ ما عرضه علىّ لم يتمّ لى ، ثم يغرى بى مَنْ معه .

قال : ثم أصبحنا من غدٍ فصفّا للحرب ، وخرج عثمان بن حنيف إليهما فى أصحابه ، فناشدَهما اللهَ والإسلام ، وأذكرهما بيعتهما عليًا عليه السلام ، فقالا : نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : وما أنتما وذاك ! أين بنوه ؟ أين بنو عمّه الذين هم أحق به منكم ! كلّا والله ؛ ولـكنّكما حسدتماه ؛ حيث اجتمع الناس عليه ، وكنتما ترجُوَان هذا الأمر ، وتعملان له ! وهل كان أحدٌ أشدّ على عثمان قولا منـكما ! فشتماه شتماً قبيحاً ، وذكرا أمّه ، فقال للزبير : أما والله لولا صفيّة ومكانُها من رسول الله فإنها أدنتك إلى الظل ، وأنّ الأمر بينى وبينك - يابن الصعبة - يعنى طلحة - أعظم من القول ؛ لأعلمتكما من أمركما مايسوءكما. اللهم إنى قد أعذرت إلى هذين الرجلين !

ثم حمل عليهم ، واقتتل النّاس قتالًا شديداً ، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتبَ بينهم كتاب صلح فكتب :

هذا مااصطلح عليه عثمان بن حَنيف الأنصارىّ ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وطلحة والزُّبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما ؛ أنّ لعثمانَ بن حنيف دار الإمارة والرّحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأنّ لطلحة والزُّبير ومَنْ معهما أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة ، ولا يضارّ بعضُهم بعضاً فى طريق ولا فُرْضة ولا سوق ولا شِرْعة ولا مِرْفق ، حتى يقدَم أميرُ المؤمنين علىّ بن أبى طالب ؛ فإنْ أحبُّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة ، وإن أحبوا لحق كلُّ قوم بهواهم وما أحبوا من

قتال أو سلم أو خروج أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا عهدالله وميثاقه ، وأشدّ ماأخذه على نبيٍّ من أنبيائه ؛ من عهد وذمة .

وختم الكتاب ، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه : الحقوا رحمكم الله بأهلكم ، وضعوا سلاحكم ، وداووا جرْحاكم . فمكثوا كذلك أياما

ثم إنّ طلحة والزبير قالا : إن قدِم علىّ ونحن على هذه الحال من القلّة والضعف ؛ ليأخذن بأعناقنا ، فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب ، فأرسلا إلى وجوهِ الناس وأهل الرياسة والشرف ، يدعُوَانهم إلى الطلب بدم عثمان ، وخلع علىّ ، وإخراج ابن حنيف من البصرة . فبايعهم على ذلك الأزدُ وضَبّة وقَيْس بن عَيْلان كلّها إلا الرجُل والرجلين من القبيلة ، كرهوا أمرهم فتوارَوْا عنهم ، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمى فلم يأتهم ؛ فجاءه طلحة والزبير إلى داره ، فتوارى عنهما ، فقالت له أمه : مارأيت مثلك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما ! فلم تزل به حتى ظهر لهما ، وبايعهما ومعه بنو عمرو ابن تميم كلّهم وبنو حنظَلة إلا بنى يربُوع ؛ فإن عامّتهم كانوا شيعة لعلىٍّ عليه السلام ، وبايعهم بنو دارم كلّهم إلا نفرا من بنى مُجاشع ذوِى دين وفضل .

فلما استوسق لطلحة والزبير أمرُهما ، خرجا فى ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ، ومعهما أصحابهما ، قد ألبسوهم الدروع ، وظاهروا فوقها بالثياب ، فانتهوْا إلى المسجد وقتَ صلاة الفجر ، وقد سبَقهم عثمان بن حَنيف إليه ، وأقيمت الصلاة ، فتقدّم عثمان ليصلّىَ بهم ، فأخّره أصحابُ طلحة والزبير ، وقدموا الزبير فجاءت السبابجة — وهم الشُّرَط حرس بيت المال — فأخرجوا الزبير ، وقدّموا عثمان ، فغلبهم أصحاب الزبير ، فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان ، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلعُ ، وصاح بهم أهلُ المسجد : ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس ! فغلب الزّبير فصلى بالنّاس ، فلما انصرف من

صلاتِه ، صاح بأصحابه المستسلِحين : أنْ خُذوا عثمان بن حُنَيف ، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما ؛ فلما أسر ضُرِب ضرب الموت ، ونتِف حاجباه وأشفار عينيه ، وكلّ شعرة فى رأسه ووجهه ، وأخذوا السيابجةَ وهم سبعون رجلا ؛ فانطلقوا بهم وبعثمان ابن حُنيف إلى عائشة ، فقالت لأبان بن عثمان : اخرج إليه فاضرب عنقه ، فإنّ الأنصار قتلتْ أباك ، وأعانت على قتله . فنادى عثمان : ياعائشة ، وياطلحة ، ويازُبير ؛ إن أخى سهل ابن حُنيف خليفةُ علىّ بن أبى طالب على المدينة ؛ وأقسم بالله إنْ قتلتُمونى ليضعَنّ السيفَ فى بنى أبيكم وأهليكم ورهطكم ؛ فلا يُبقِى أحداً منكم . فكفُّوا عنه ، وخافوا أن يقع سهل بن حُنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة ، فتركوه .

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتلْ السّيابجة ، فإنّه قد بلغنى الذى صنعوا بك . قال : فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم ، ولِىَ ذلك منهم عبدُ الله ابنه ، وهم سبعون رجلا ، وبقيَتْ منهم طائفة مستمسكين ببيت المال . قالوا : لا ندفعه إليكم حتى يقدَم أمير المؤمنين ؛ فسار إليهم الزبير فى جيش ليلاً ، فأوقع بهم ؛ وأخذ منهم خمسين أسيراً ، فقتلهم صَبْرا .

* * *

قال أبو مخنف : فحدّثنا الصقعب بن زهير ، قال : كانت السيابجة القتلى يومئذ أربعمائة رجل ، قال : فكان غَدْرُ طلحة والزبير بعثمانَ بن حُنيف أوّلَ غدر كان فى الإسلام ، وكان السيابجة أوّلَ قومٍ ضربت أعناقهم من المسلمين صَبْراً . قال : وخيّروا عثمانَ ابن حُنَيف بَيْن أن يقيم أو يلحق بعلىّ ، فاختار الرّحيل ؛ فخلّوا سبيلَه ، فلحِق بعلىّ عليه السلام ، فلما رآه بكى ، وقال له : فارقتك شيخاً ، وجئتك أمرد ، فقال علىّ : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! قالها ثلاثا .

قلت : السبابجة لفظة معرّبة ، قدذكرها الجوهرىّ فى كتاب " الصّحاح "[1] قال: هم قوم من السِّند ، كانوا بالبصرة جَلَاوزة[2] وحرّاس السجن ، والهاء للعُجْمة والنسب، قال يزيدُ بن مفرّغ الحِمْيَرىّ :

وَطَمَاطِيمَ من سَبَـــابِيجَ خُزْرٍ … يُلبِسُونى مع الصَّبـاح القُيودَا

قال : فلما بلغ حَــكِيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حُنيف ، خرج فى ثلاثمائة من عَبْد القيس مخالفًا لهم ومنابذا؛ فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جَمَلٍ ؛ فسمّى ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر ، ويوم علىّ يوم الجمل الأكبر .

وتجالدَ الفريقان بالسُّيوف ،فشدّ رجل من الأزد من عسكر عائشة عَلَى حَــكِيم بن جبلة، فضرب رجله فقطعها ، ووقع الأزدىّ عن فرسه ، فجثا حَــكِيم، فأخذ رجله فرمى بها الأزدىّ، فصرعه ، ثم دبّ إليه فقتله متــكئا عليه ، خانقا له حتى زهقت نفسه ، فمر بحَــكِيم إنسانٌ وهو يجود بنفسه ، فقال : مَنْ فعل بك ؟ قال : وسادى ، فنظر فإذا الأزدىّ تحته ، وكان حَــكِيم شجاعا مذكورا.

قال :وقتل مع حَــكِيم إخوة له ثلاثة ،وقتل أصحابه كلُّهم،وهم ثلاثمائة من عَبْد القيس، والقليل منهم مِنْ بكر بن وائل ، فلما صفت البَصْرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حُنَيف عنهما اختلفا فى الصلاة ، وأراد كلٌّ منهما أن يؤمّ بالناس ، وخاف أن تــكون صلاته خَلْفَ صاحبه تسليما له ورضا بتقدّمه ؛ فأصلحت بينهما عائشة ، بأنْ جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصلّيان بالناس ، هذا يوما وهذا يوما .

قال أبو مِخنف : ثم دخلا بيت المال بالبصرة ، فلما رأوْا ما فيــه من الأموال ، قال الزُّبير :﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾[3]،فنحن أحق

(١) الصحاح ١ : ٣٢١ .
(٢) الجلواز : الشرطى .
(٣) سورة الفتح ٢٠ .

بها من أهل البصرة ، فأخذا ذلك المال كلّه ، فلما غلب علىٌّ عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال ، وقسمها فى المسلمين .

وقد ذكرنا فيما تقدّم كيفيّة الوقعة ، ومقتل الزبير فارًّا عن الحرب خوفا أو توبة — ونحن نقول : إنها توبة — وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أمّ المؤمنين وإحسان علىّ عليه السلام إليها وإلى مَنْ أُسِر فى الحرب ، أو ظفر به بعدها .

***

[منافرة بين ولَدَى على وطلحة]

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمى — يلقّب أبا بعرة ، ولِىَ شُرْطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس — كلّم إسماعيل ابن جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام بكلام خرجا فيه إلى المنافرة[(١)] ، فقال القاسم بن محمد : لم يزلْ فضلُنا وإحساننا سابقاً عليكم يا بنى هاشم وعلى بنى عبد مناف كافّة ، فقال إسماعيل : أىّ فضل وإحسانٍ أسْدَيْتُموه إلى بنى عبد مناف ؟ أغضَبَ أبوك جدّى بقوله : ليموتنّ محمد ولنجولنّ بين خلاخيل نسائه كما جال بين خلاخيل نسائنا[(٢)] . فأنزل الله تعالى مُراغمة لأبيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ﴾[(٣)] ومنع ابنُ عمّك أمى حقها من فَدَك وغيرها من ميراث أبيها ؛ وأجلَبَ أبوك على عثمان وحصره حتى قُتِل ، ونكث بيعة علىّ وشام[(٤)] السيفَ

(١) المنافرة : المفاخرة بالحسب والنسب .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣ : ٥٠٦ .
(٣) سورة الأحزاب ٥٣ .
(٤) شام بالسيف : شهره .

فى وجهه ، وأفسد قلوب المسلمين عليه ، فإنْ كان لبنى عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحسانًا ؛ فعرِّفنى مَنْ هم جعلتُ فداك !

***

[منافرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس]

وتزوّج عبد الله بن الزبير أمّ عمرو ابنة منظور بن زبّان الفزاريّة ، فلمّا دخل بها قال لها تلك الليلة : أتدرين مَنْ معك فى حَجَلتك[1] ؟ قالت : نعم ؛ عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى .

قال : ليس غير هذا ! قالت : فما الذى تريد ؟ قال : معكِ مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أنّ بعض بنى عبد مناف حَضَرك لقال لك خلافَ قولك . فغضب ، وقال : الطعام والشراب علىّ حرام حتى أحضرك الهاشميّين وغيرهم من بنى عبد مناف ؛ فلا يستطيعون لذلك إنكارا . قالت : إن أطعتنى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك .

فخرج إلى المسجد فرأى حَلقةً فيها قوم من قريش ، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابنُ الزّبير : أحِبّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ؛ فقام القوم بأجمعهم حتى وَقَفُوا على باب بيته ؛ فقال ابنُ الزبير : يا هذه اطرَحِي عليك ستركِ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة ، فتغدّى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتُكم لحديث ردّته علىّ صاحبةُ السّتر ، وزعمتْ أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أقرّ لى بما قلت ، وقد حضرتم جميعاً . وأنت يا بنَ عباس ، ما تقول ؟ إنى أخبرتُها أنّ معها فى خِدْرها مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة

(١) الحجلة ، بالتحريك : بيت للعروس يزين بالثياب والأسرة والستور .

الرأس من الجسد ، بل بمنزلة العينين من الرأس ! فردّتْ عليّ مقالتي ، فقال ابن عباس : أراك قصدْتَ قصدي ؛ فإن شئت أن أقولَ قلت ، وإن شئتَ أن أكفَّ كففت ، قال: بل قل ، وما عسى أن تقول ! ألستَ تعلم أني ابنُ الزبير حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنّ أمّي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وأنّ عمتي خديجة سيدة نساء العالمين ، وأن صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي ، وأنّ عائشة أمّ المؤمنين خالتي ! فهل تستطيع لهذا إنكارا !

قال ابن عباس : لقد ذكرت شرَفًا شريفًا ، وفخرا فاخرا ، غير أنك تُفاخر مَنْ بفخره فخرتُ ، وبفضله سموتُ . قال : وكيف ذاك؟ قال : لأنك لم تذكرْ فخرا إلا برسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتَ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوّة ، قال ابن عباس :

* قد أنصفَ القارةَ مَنْ راماها[1] *

نشدتكم الله أيُّها الحاضرون ! أعبد المطّلب أشرف أم خويلد في قريش ؟ قالوا : عبدالمطّلب ، قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم ، قال : أفعبدمناف أشرف أم عبد العزّى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تنافرني يابنَ الزُّبير وَقَدْ قَضَى ... عليك رسولُ الله لا قول هازلِ

ولو غيرُنا يابنَ الزبير فخرتَه ... ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

(١) القارة : قوم من رماة العرب ؛ وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة ، من كنانة ؛ سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشداخ أن يفرقهم في كنانة . وأصل المثل كما ذكره صاحب اللسان : أن رجلين التقيا ، أحدهما قاري والآخر أسدي ؛ فقال القاري : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القاري : قد أنصفتني ، وأنشد :

قد أنصفَ القارةَ مَنْ رَاماهَا ... إنّا إذا ما فِئَةٌ نَلقَاهَا

* نردُّ أولاها على أخراهَا *

ثم انتزع له سهماً فشك فؤاده .

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل فى قوله : «ما افترقت فرقتان إلا كنتُ فى خيرهما » ، فقد فارقناك من بعد قصيّ بن كلاب ، أفنحن فى فرقة الخير أم لا ؟ إن قلت: نعم خُصِمْت(١) ، وإن قلت : لا كفرت !

فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرّمك بطعامنا يابنَ عباس لأعرقت جبينك قبل أن تقومَ من مجلسك ، قال ابن عباس : ولم ؟ أبباطل فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحقّ لا يخشى من الباطل !

فقالت المرأة من وراء السّتر : إنى والله لقد نهيتُه عن هـذا المجلس ، فأبى إلّا ماترون .

فقال ابن عباس: مَهْ أيتها المرأة ! اقنعى ببعلِك ، فما أعظم الخطر ، وما أكرم الخبر! فأخذ القوم بيد ابن عباس — وكان قد عَمِيَ — فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرّة ، فنهض وقال :

ألَا ياقَوْمَنَا ارتحلوا وسيروا فلو تُرِكَ القَطَـــا لَغَفَا وَنَامَا

فقال ابن الزبير : ياصاحبَ القطا ، أقبِلْ علىّ ، فما كنتَ لتدَعنى حتى أقول ، وايمُ الله لقد عرف الأقوام أنى سابقٌ غير مسبوق ، وابن حوارىّ وصدّيق ، متبجّح فى الشرف الأنيق ، خيرٌ من طليق .

فقال ابن عباس : دَسَعْتَ بجرّتك(٢) فلم تبق شيئاً ؟ هذا الكلام مردود ، من امرئ حسود ، فإنْ كنتَ سابقاً فإلى مَنْ سَبقْتَ ؟ وإن كنت فاخراً فبِمَنْ فخرت ؟ فإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسْرَتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا ، وإن كنتَ إنّما أدركتَه بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، والكَثْكَث(٣) فى فمك ويديك. وأمّا ما ذكرت

---

(١) خصمت : أى غلبت .

(٢) يقال : دسع البعير بجرته ؛ أى دفعها حتى أخرجها ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) الكثكث : التراب .

من الطّلَبق ، فوالله لقد ابتُلِيَ فصبر ، وأنعم عليه فشكر ؛ وإن كان والله لوفيًّا كريمًا غير ناقض بيعةً بعد توكيدها ، ولا مسلِمٍ كتيبةً بعد التأمّر عليها .

فقال ابن الزبير : أتعيّر الزبير بالجبن ؛ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك !

قال ابن عباس : والله إني لا أعلم إلّا أنّه فرّ وما كرّ ، وحارب فما صبر ، وبايع فما تمّ ، وقطع الرحم ، وأنكر الفضل ، ورام ماليس له بأهل .

وَأَدْرَكَ مِنْهَا بعضَ ما كان يرتجي ⁂ وقصّر عن جَرْيِ الكرام وبلّدا

وما كان إلا كالمجين أمامه ⁂ عَنَاقٌ فجاراه العَناقُ فأجهدا

فقال ابن الزبير : لم يبق يابني هاشم غير المشاتمة [1] والمضاربة .

فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث : أقمناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ! والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنتَ إلّا كالسغِب الظمآن ، يفتح فاه يستزيد من الريح ، فلا يشبع من سَغَب ، ولا يروى من عطش ؛ فقل إن شئت ، أو فدع .

وانصرف القوم .

---

(١) ب : « المشاغبة » .

(١٧٤)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

أمِينُ وَحْيِهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ .

أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّ أحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الأمْرِ أقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأعْلَمُهُمْ بِأمْرِ اللهِ فِيهِ ؛ فَإنْ شَغَبَ شاغِبٌ اسْتُعْتِبَ ، فإنْ أبَى قُوتِلَ .

وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الإمامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَها عامَّةُ النَّاسِ ؛ ما إلى ذلِكَ سَبِيلٌ ؛ وَلَكِنْ أهلُها يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غابَ عَنْها ؛ ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أنْ يَرْجِعَ ، وَلَا لِلغَائِبِ أنْ يَخْتارَ .

ألَا وَإنِّي أُقاتِلُ رَجُلَيْنِ : رَجُلاً ادَّعَى ما لَيْسَ لَهُ ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

صَدْر الكلام فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويتلوه فُصول :

أولها : أنّ أحقّ الناس بالإمامة أقوام عليها ، وأعلمهم بحكم الله فيها ؛ وهذا لا ينافِي مذهبَ أصحابنا البغداديين فى صحّة إمامة المفضول ، لأنّه ما قال : إن إمامة غير الأقوى فاسدة ، ولكنه قال : إنّ الأقوى أحقّ ؛ وأصحابنا لا ينكرون أنّه عليه السلام أحقُّ ممن تقدّمه بالإمامة مع قولهم بصحّة إمامة المتقدمين ؛ لأنه لا منافاة بين كونه أحقّ ، وبين صحة إمامة غيره .

فإن قلت : أيّ فرقٍ بين أقوام عليه وأعلمهم بأمر الله فيه ؟ قلت : أقوام أحسنُهم سياسة ، وأعلمهم بأمر الله أكثرُهم علما وإجراء للتدبير بمقتضى العلم ؛ وبين الأمرين فرق واضح، فقد يكون سائسا حاذقا، ولا يكون عالما بالفقه ، وقد يكون سائسا فقيها، ولا يجرى التدبير على مقتضى علمه وفقهه .

وثانيها : أنّ الإمامة لا يشترط فى صحة انعقادها أن يحضرُها الناسُ كافّة، لأنه لو كان ذلك مشترَطا لأدّى إلى ألّا تنعقد إمامة أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض، ولكنّها تنعقد بعقد العلماء وأهل الحلّ والعقد الحاضرين، ثم لا يجوز بعد عقدها لحاضريها أن يرجعُوا من غير سبب يقتضى رجوعَهم، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير مَنْ عقدله، بل يكون محجوجا بعقد الحاضرين ، مكلّفا طاعة الإمامة المعقود له ؛ وعلى هذا جرت الحال فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، وانعقد إجماع المسلمين عليه ؛ وهذا الكلام تصريح بصحّة مذهب أصحابنا فى أنّ الاختيار طريق إلى الإمامة ، ومبطلٌ لما تقوله الإماميّة من دعوى النصّ عليه ؛ ومن قولهم : لا طريق إلى الإمامة سوى النصّ أو المعجز .

وثالثها : أنّ الخارج على الإمام يستعتَب أولا بالكلام والمراسلة، فإن أبى قُوتل؛ وهذا هو نصّ الكتاب العزيز : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (١) .

ورابعها : أنه يقاتِل أحدَ رجلين : إمّا رجلاً ادّعى ماليس له نحو أن يخرُج على الإمام مَن يدّعى الخلافة لنفسه، وإمّا رجلاً منع ما عليه، نحو أن يخرج على الإمام رجلٌ لا يدّعى الخلافة ولكنه يمتنع من الطاعة فقط .

فإن قلت : الخارج عَلَى الإمام مدّعِ الخلافة لنفسه ، مانع ما عليه أيضا لأنه قد امتنع من الطاعة ، فقد دخل أحدُ القسميْن فى الآخر !

---

(١) سورة الحجرات ٩ .

قلت : لمّا كان مدّعى الخلافة قد اجتمع له أمران : إيجابىّ وسلبىّ ، فالإيجابى دعواه الخلافة ، والسلبىّ امتناعُه من الطاعة ، كان متميّزاً عمن لم يحصل له إلّا القسم السلبىّ فقط، وهو مانع الطاعة لاغير ، فكان الأحسن فى فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب ، فلذلك قال : « إمّا مدعيا ماليس له ، أو مانعا ماهو عليه » .

***

الأصْلُ :

أُوصِيكُمْ ـ عِبَادَ اللهِ ـ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَاتَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ ؛ وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللهِ ؛ وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْحَقِّ ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ ، وَقِفُوا عِنْدَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً .

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا ، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا ، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ ؛ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ ؛ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ .

أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ ، وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا ؛ وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا ، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا ، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا ؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا ؛ وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَى مَازُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا ، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ . أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ !

***

الشرح :

لم يكن المسلمون قَبْلَ حربِ الجمل يعرفون كيفيّة قتالِ أهل القبلة ؛ وإنما تعلّموا فقه ذلك من أمير المؤمنين عليه السلام .

وقال الشافعيّ : لولا عليّ لما عرِف شيء من أحكام أهل البغى .

قوله عليه السلام : « ولا يحمل هذا العلَمَ إلا أهلُ البصر والصبر » ، وذلك لأنّ المسلمين عظُم عندهم حربُ أهل القبلة ، وأكبروه ؛ ومَنْ أقدَم عندهم عليه أقدَم على خوف وحذر ، فقال عليه السلام : إن هـذا العلم ليس يدركه كلّ أحـدٍ ، وإنمـا له قوم مخصوصون .

ثم أمرهم بالمضيّ عندما يأمرهم به ، وبالانتهاء عمّا ينهاهم عنه ، ونهاهم عن أن يعجلوا بالحكم على أمر ملتبس حتى يتبيّن ويتّضح .

ثم قال : إنّ عندنا تغييراً لـكلّ ماتنكرونه من الأمور التي يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها ، أى لستُ كعثمان أصرّ على ارتـكاب ما أنهى عنه ، بل أغيّر كلّ ماينكره المسلمون ، ويقتضى الحال والشرع تغييرَه .

ثم ذكر أنّ الدنيا التى تغضب الناس وترضيهم ؛ وهى منتهى أمانيهم ورغبتهم ، ليست دراهم ، وإنما هى طريقٌ إلى الدار الآخرة ، ومدّة اللبث فى ذلك الطريق يسيرة جدا .

وقال : إنها وإنْ كانت غرّارة فإنها منذرة ومحذّرة لأبنائها بما روأوه من آثارها فى

سلفهم وإخوتهم وأحبائهم ، ومناداتها على نفسها بأنها فاعلة بهم ما فعلت بأولئك من الفناء ، وفراق المألوف .

قال : فدعوا غرورَها لتحذيرها ؛ وذلك لأنّ جانب تحذيرها أولى بأن يعمل عليه من جانب غرورها ؛ لأن غرورها إنما هو بأمرٍ سريع مع التصرّم والانقضاء ، وتحذيرها إنما هو لأمرٍ جليل عظيم ؛ فإن الفناء المعجّل محسوس ؛ وقد دلّ العقل والشرائع كافة على أنّ بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة ، فينبغي للعاقل أن يحذَر من تلك الشقاوة ، ويرغب في تلك السعادة ، ولاسبيلَ إلى ذلك إلا برفض غُرور الدنيا ، على أنه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على أهل اللبّ والبصيرة رفضُها ، لأن الموجود منها خيال ، فإنه أشبه شيء بأحلام المنام ؛ فالتمسك به والإخلاد إليه حُمْق .

والحنين : صوت يخرجُ من الأنف عند البكاء ، وأضافه إلى الأَمَة ؛ لأنّ الإماء كثيرا ما يُضرَبْن فيبكين ، ويسمَع الحنين منهن ؛ ولأن الحرّة تأنف من البكاء والحنين .

وزوى : قبض .

ثم ذكر أنّه لا يضرّ المكلّف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه ، يعني القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات ، ولا ينفعه حصولُ الدنيا كلّها بعد تضييعه دينه ؛ لأن ابتياع لذّة متناهية بلذة غير متناهية يُخرج اللذة المتناهية من باب كونها نفعاً ، ويدخلها في باب المضارّ ؛ فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول مضارّ وعقوبات غير متناهية ، أعاذنا الله منها !

(تم الجزء التاسع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء العاشر)

(تنبيه) : ضبطت كلمة « حُنيف » ، في بعض المواطن من صفحات هذا الجزء بفتح الحاء المهملة ، والصواب بالضم .

فهرس الخطب *

(*) وهى الخطب التى وردت فى نهج البلاغة .

صفحة

فهرس الموضوعات

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الحادي عشر

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٩٦)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

أيُّها النّاسُ، إنّما الدُّنيا دارُ مجازٍ، والآخرةُ دارُ قرارٍ، فخذُوا مِنْ ممرِّكُمْ لِمقرِّكُمْ؛ ولا تهتِكوا أستارَكُمْ، عِندَ مَنْ يعلمُ أسرارَكُمْ، وأخرِجوا مِنَ الدُّنيا قلوبَكُمْ مِنْ قبلِ أنْ تخرُجَ مِنها أبدانُكُمْ، ففيها اختُبِرْتُمْ، ولغيرِها خُلِقْتُمْ.

إنّ المرءَ إذا هلكَ قالَ النّاسُ: ما تَرَكَ! وقالتِ الملائكةُ: ما قدَّمَ! لِلّهِ آباؤكُمْ! فقدِّموا بعضاً يكُنْ لكُمْ، ولا تُخلِفوا كُلّاً فيكونَ فرضاً عليكُمْ.

* * *

الشّرحُ :

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في " الكامل "[1] عن الأصمعيّ، قال: خطبنا أعرابيّ بالبادية، فحمِد الله واستغفره، ووحّده وصلّى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم؛ فأبلغ في إيجاز، ثم قال: أيها النّاس، إنّ الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم، ولا تهتكوا أستاركم، عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم. في الدّنيا أنتم،

(١) الكامل ٤ : ١٠٨ (طبعة نهضة مصر).

ولغيرها خلقتم. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، والمصلّى عليه رسول الله، والمدعوّ له الخليفة[١]، والأمير جعفر بن سليمان.

وذكر غيره الزيادة التى فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهى: « إنّ المرء إذا هلك ... »، إلى آخر الكلام.

وأكثر النّاس على أنّ هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام.

ويجوز أن يكونَ الأعرابىّ حفظه فأورده كما يوردِ النّاسُ كلامَ غيرهم.

* * *

قوله عليه السلام: « دار مجاز »، أى يُجاز فيها إلى الآخرة، ومنه سُمِّىَ المجاز فى الكلام مجازاً، لأنّ المتكلّم قد عَبَر الحقيقة إلى غيرها، كما يَعبُر الإنسان من موضع إلى موضع.

ودار القرار: دار الاستقرار الذى لا آخر له.

فخذوا من ممرّكم، أى من الدنيا. لمقرّكم؛ وهو الآخرة.

قوله عليه السلام: « قال الناس: ماترك! »، يريد أنّ بنى آدم مشغولون بالعاجلة، لايفكّرون فى غيرها، ولا يتساءلون إلّا عنها، فإذا هلك أحدكم، فإنّما قولهم بعضهم لبعض: ما الذى ترك فلان من المال؟ ما الذى خلف من الولد؟ وأما الملائكة فإنّهم يعرفون الآخرة، ولا تستهويهم شهواتُ الدّنيا، وإنّهم مشغولون بالذّكر والتسبيح، فإذا هلك الإنسان، قالوا: ماقدّم؟ أى أىّ شىء قدّم من الأعمال؟

ثم أمرهم عليه السلام، بأنْ يقدّموا من أموالهم بعضها صدقة، فإنّها تبقى لهم، ونهاهم أن يخلّفوا أموالَهم كلّها بعد موتهم، فتكون وبالًا عليهم فى الآخرة.

---

(١) يريد به أبا جعفر المنصور؛ وقد ولى ابن عمه جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله بن العباس المدينة سنة ست وأربعين ومائة.

(١٩٧)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام كان كثيرا ماينادى به أصحابه :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ ؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَئُوداً ، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً ، لَابُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَائِبَةٌ[(١)] ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ ، وَمُضْلِعَاتُ[(٢)] الْمَحْذُورِ .

فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا ، وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى .

* * *

وقد مضى شىء من هذا الكلام فيما تقدّم بخالف هذه الرِّوَايَةَ .

* * *

الشَّرحُ :

تجهّزوا لكذا ، أى تهيّئوا له .

والعُرجة: التعريج ، وهو الإقامة، تقول : مالى على ربعك عُرجة[(٣)]، أى إقامة، وعرّج فلان على المنزل ، إذا حبَس عليه مطيّته .

---

(١) مخطوطة النهج : « دانية » .

(٢) مخطوطة النهج : « المضلات » .

(٣) فى اللسان : « مالى عندك عرجة [مثلثة العين مع إسكان الراء] ، ولا عرجة [بفتحتين] ، ولا تعريج ، ولا تعرج ، أى مقام ، وقيل : محبس » .

والعقبة الكئود: الشاقّة المصعد. ودائبة: جادّة. والمخلب للسَّبُع بمنزلة الظُّفر للإنسان.

وأفظع الأمرُ، فهو مفظع، إذا جاوز المقدار شدّة.

ومضلعات المحذور: الخطوب التي تُضلِع، أي تجعل الإنسان ضليعاً، أي معوجًّا، والماضي ضَلِع بالكسر يَضلَع ضَلَعاً.

ومن رواها بالظاء، أراد الخطوب التي تجعل الإنسان ظالعا، أي يغمز في مَشْيِه لثقلها عليه، والماضي ظَلَع بالفتح، يظلَع ظَلَعاً، فهو ظالع.

(١٩٨)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة، وقد عتبا عليه [١] من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما:

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً. أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ! أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ! أَوْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ؛ وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ [٢] النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ. فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ. فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللهِ عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَى.

أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج.

(٢) مخطوطة النهج «استسن».

ثم قال عليه السلام :

رَحِمَ اللهُ رَجلًا رَأى حَقًا فَأَعَانَ عَلَيْهِ ،أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

نَقَمت عليه ، بالفتح أنقِم ، هذه اللغة الفصيحة ، وجاء نقِمت بالكسر ، أنقَم .

وأرجأنما : أخرتما ، أى نقمتما من أحوالى اليسير ، وتركتما الكثير الذى ليس لكما ولا لغيركما فيه مطعَن ، فلم تذكراه ، فهلّا اغتفرتُما اليسير للكثير !

وليس هذا اعترافا بأنّ مانقماه موضع الطعن والعيب ، ولكنه على جهة الجدَل والاحتجاج ، كما تقول لمن يطعن فى بيتٍ من شعر شاعر مشهور : لقد ظلمته إذْ تتعلّق عليه بهذا البيت ، وتنسى ماله من المحاسن الكثيرة فى غيره !

ثم ذكر وجوه العتاب والاستزادة[1] ، وهى أقسام : إمّا أن يكون لهما حقٌّ يدفعهما عنه ، أو استأثر عليهما فى قَسْم ، أو ضَعُف عن السياسة ، أو جَهِل حُكْماً من أحكام الشريعة ، أو أخطأ بابه .

فإن قلت : أىّ فرق بين الأوّل والثانى ؟

قلت : أما دفعهما عن حقهما ، فمنعهما عنه ؛ سواء صار إليه عليه السّلام أو إلى غيره ، أو لم يصِرْ إلى أحد ، بل بقىَ بحاله فى بيت المال .

---

(١) الاستزادة : طلب الرجوع واللين والانقياد ، ومنه الحديث : فاستزاد لأمر الله ، أى رجع ولان وانقاد . (اللسان) .

وأما القسم الثانى فهو أن يأخذَ حقَّهما لنفسه ، وبين القسمين فرق ظاهر ، والثانى أفحش من الأوّل .

فإن قلت : فأىّ فرق بين قوله : « أم جهلته » ، أو « أخطأت بابه » !

قلت : جَهْل الحكم أن يكونَ الله تعالى قد حكم بحرمة شىء ، فأحلّه الإمام أوالمفتى، وكونه يخطئ بابه ؛ هو أن يصيب فى الحكم ويخطئ فى الاستدلال عليه .

ثم أقسم أنّه لم يكن له فى الخلافة رغبة ولا إرْبة ، بكسر الهمزة ، وهى الحاجة . وصدَق عليه السلام ! فهكذا نَقَل أصحابُ التواريخ وأرباب عِلْم السِّيَر كلُّهم ، وروى الطبرىّ فى التاريخ ورواه غيره أيضاً أنّ الناسَ غَشُوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : دعونى والتمسوا غيرى ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لاتثبت عليه العقول ، ولاتقوم له القلوب . قالوا : نَنْشُدك الله ! ألا ترَى الفِتنة ! ألا ترى إلى ما حدث فى الإسلام ! ألا تخاف الله ! فقال : قد أجبتكم لما أرى منكم ، واعلموا أنى إنْ أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعُكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمرَكم إليه . فقالوا : مانحن بمفارقيك حتى نبايعك . قال : إن كان لابدّ مِن ذلك ففى المسجد؛ فإن بَيْعتى لاتكون خَفِيّاً، ولاتكون إلا عن رضاً المسلمين، وفى ملأ وجماعة . فقام والنّاس حوله ، فدخل المسجد ، وانثال عليه المسلمون فبايعوه ، وفيهم طلْحة والزبير[1] .

قلت: قوله : « إن بيعتى لا تكون خَفِيا ، ولا تكون إلّا فى المسجد بمحضرٍ من جمهور النّاس » ، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس لمّا سامَه مدّ يدِه للبيعة : إنّى أحبّ أن أُصحِر بها[2] ، وأكره أن أبايع من وراء رِتاج .

---

(١) تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٢ (المطبعة الحسينية) مع تصرف .
(٢) أصحر : من قولهم : أصحر الأمر وبه، إذا أظهره .

ثم ذكر عليه السلام أنه لما بُويع عمِل بكتاب الله وسنة رسوله ، ولم يحتجْ إلى رأيهما ولا رأيِ غيرِهما ، ولم يقع حُكم يجهله فيستشيرهما ، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما ، ولم يأنفْ من ذلك .

ثم تكلّم في معنى التَّنْفِيل في العطاء ، فقال : إنى عملت بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك . وصدق عليه السلام ! فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سوّى في العطاء بين الناس ، وهو مذهب أبي بكر .

والمُعْتِبِي : الرّضا ، أي لست أرضيكما بارتكاب مالا يحلّ لى في الشرع ارتكابه .

والضمير في « صاحبه » ، وهو الهاء المجرورة يرجع إلى الجوْر ، أي وكان عونًا بالعمل على صاحب الجوْر .

* * *

[من أخبار طلحة والزبير]

قد تقدّم منّا ذكرُ ماعتب به طلحة والزُّبير على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنهما قالا : ما نراه يستشيرنا في أمرٍ ، ولا يفاوضنا في رأى ، ويقطع الأمرَ دوننا ، ويستبدّ بالحكم عنّا ! وكانا يرجوان غير ذلك ، وأراد طلحةُ أن يولِّيَه البصرة ، وأراد الزّبير أن يولّيَه الكوفة، فلما شاهدا صلَابتَه في الدين ، وقوّته في العزم، وهَجْرَه الإدهان والمراقبة، ورفضه المُدَالسة والمواربة ، وسلوكه في جميع مسالكه منهَج الكتاب والسنّة ، وقد كانا يعلمان ذلك قديما من طبعه وسجيّته ، وكان عمر قال لهما ولغيرهما : إنّ الأجْلح[1] إن وَلِيَها ليحملنّكم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الأجلح ، من الجلح ، وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس ، وكان رضى الله عنه كذلك .

من قبل قال : وإنّ تولّوها عليّاً ، تجدوه هادياً مهدياً » ، إلّا أنّه ليس الخبرُ كالعيان ، ولا القول كالفعل ، ولا الوعد كالإنجاز . وحالّا عنه ، وتنكّرا له ، ووقعا فيه ، وعاباه وغمَصاه[1] ، وتطلّبا له العلل والتأويلات، وتنقّما عليه الاستبداد وترك المشاورة ، وانتقلا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة النّاس فى قسمة المال ، وأثنيا على عمرَ ، وحمدا سيرته ، وصوّبا رأيه ، وقالا : إنّه كان يفضّل أهلَ السوابق ، وضلّلا عليّاً عليه السلام فيما رآه ، وقالا : إنّه أخطأ ، وإنّه خالف سيرة عمر ، وهى السيرة المحمودة التى لم تفضحها النبوّة ، مع قرب عهدنا منها ، واتصالها بها . واستنجدا عليه بالرؤساء من المسلمين، كان عمر يفضّلهم وينفّلهم[2] فى القَسْم على غيرهم — والنّاس أبناء الدّنيا ، ويحبّون المال حُبّاً جمّاً — فتنكّرتْ على أمير المؤمنين عليه السلام بتنكّرهما قلوبٌ كثيرة ، ونغِلتْ[3] عليه نيّاتٌ كانت من قبل سليمة، ولقد كان عمر موفّقاً حيث منع قريشاً والمهاجرين وذوى السّوابق من الخروج من المدينة ،ونهاهم عن مخالطة النّاس ،ونهى النّاس عن مخالطتهم ،ورأى أنّ ذلك أسُّ الفساد فى الأرض ،وأنّ الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين، ومتى بَعُد الرءوس والكبراء منهم عن دار الهجرة، وانفردوا بأنفسهم ، وخالطهم النّاس فى البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسِّنوا لهم الوثوب ، وطلب الإمْرة ومفارقة الجماعة ، وحلّ نظام الألفة ، ولكنّه رضىَ الله عنه نقضَ هذا الرأى السّديد بما فعله بعد طعن أبى لؤلؤة له من أمْرِ الشورى ، فإنّ ذلك كان سبب كلّ فتنة وقعت ، وتقع إلى أن تنقضىَ الدنيا. وقد قدّمنا ذكر ذلك ، وشرحنا ما أدّى إليه أمرُ الشورى من الفساد بما حصل فى نفس كلّ من السّتة من ترشيحه للخلافة .

* * *

---

(١) غمصاه : تهاونا بحقه .
(٢) ينفلهم : يعطيهم النفل .
(٣) نغلت : فسدت .

وروى أبو جَعْفَرٍ الطبريّ فى تاريخه ، قال : كان عمر قد حَجَرَ على أعلام قريش من المهاجرين الخروجَ فى البلدان إلاَّ بإذْنٍ وأجَلٍ ، فشـكوْه ، فبلغه ، فقام فخطب ، فقال : ألاَ إنى قد سننتُ الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذَعاً ، ثم ثنيًّا (١) ، ثم يكون رَباعياً (٢) ، ثم سَدِيساً ، ثم بازلاً (٣) . ألا فهل يُنتَظر بالبازل إلا النقصان ألا وإنّ الإسلام قد صار بازلاً ، وإنّ قريشا يريدون أن يتخـذوا مال الله معونات على ما فى أنفسهم . ألا إنّ فى قريش منْ يُضمِر الفرقة ، ويروم خَلْع الرِّبْقة . أمّا وابنُ الخطاب حيّ فلا؛ إنّى قائم دون شِعْب الحرّة ، آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتُوا فى النار .

وقال أبو جعفر الطّبرى فى التّاريخ أيضاً : فلما ولّى عثمان لم يأْخذهم بالّذى كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدّنيا ، ورآهم النّاس، خَمَل مَنْ لم يكن له طَوْل ولا قَدَمٌ فى الإسلام ، ونبُه أصحاب السّوابق والفَضل، فانقطع إليهم النّاس، وصاروا أوزاعا معهم ، وأمّلوهم ، وتقرّبوا إليهم ، وقالوا: يملكون فيكون لنا فى مُلْكهم حظوة، فكان ذلك أوّل وَهَنٍ على الإسلام ، وأوّلَ فتنة كانت فى العامة .

وروى أبو جعفر الطبريّ ، عن الشعبيّ ، قال : لم يمت عمر حتى ملّته قريش، وقد كان حَصَرهم بالمدينة ، وسألوه أنْ يأذَنَ لهم فى الخروج إلى البلاد ، فامتنع عليهم ، وقال : إنّ أخوَف ما أخافُ على هـذه الأمة انتشاركم فى البلاد ، حتى إنّ الرّجُلَ كان يستأذنه فى غزو الروم أو الفرس ، وهو ممّنْ حبسه بالمدينة من قُريش، ولاسيما من المهاجرين فيقول له: إنّ لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله مايكفيك ويبلغك ويُحْسِبُك (٤)، وهو خيرٌ لك من الغزو اليوم ، وإنّ خيراً لك ألّا ترى الدنيا ولا تراك .

---

(١) الثنيّ : الذى يلقى ثنيته .

(٢) الرباعي : هو الذى ألقى رباعيته ، والرباعية : السن التى بين الثنية والناب .

(٣) البازل : البعير فطر نابه وانشق ، ويكون ذلك فى السنة التاسعة .

(٤) يقال : أحسبه إذا أرضاه أو أعطاه ما يرضيه وكفاه .

فلما مات عمر وولى عثمان خلّى عنهم فانتشروا فى البلاد واضطربوا ، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم ، فلذلك كان عثمان أحبَّ إلى قريش من عمر .

فقد بان لك حسنُ رأى عمر فى منْع المهاجرين وأهل السّابقة من قُريش من مخالطة النّاس والخروج من المدينة ، وبان لك أنّ عثمان أرخى لهم فى الطِّوَل (١) ، فخالطهم الناس ، وأفسدوهم ، وحبّبُوا إليهم الملك والإمرة والرئاسة ، لاسيّما مع الثروة العظيمة التى حصلت لهم ، والثّراء مفسدة وأىّ مفسدة ! وحصل لطلحة والزبير منْ ذلك مالم يحصل لغيرهما ثروة ويسارا ، وقدما فى الإسلام ، وصار لهما لفيف عظيم من المسلمين يمنّونهما الخلافة ، ويحسّنون لهما طلب الإمْرة ، لاسيما وقد رشّحهما عمر لها ، وأقامهما مقام نفسه فى تحمّلها ، وأى امرىء منّى بها قطّ نفسَه ففارقها حتى يغيّب فى اللّحد ! ولا سيّما طلحة ، قد كان يحدّث بها نفسه وأبو بكر حىّ ، ويروم أن يجعلها فيه ، بشبهة أنّه ابن عمّه ، وسخط خلافة عمر ، وقال لأبى بكر : ماتقول لربّك وقد ولّيتَ علينا فظًّا غليظا ، وكان له فى أيام عمر قوم يجلسون إليه ، ويحادثونه سرًّا فى معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لبايعناك بَغْتةً ، جلب الدّهرُ علينا ماجلب ! وبلغ ذلك عمر ، فخطب النّاس بالكلام المشهور ، إنّ قوما يقولون : إنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا ، أما أنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، إلّا إنّ الله وَقى شرّها ، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأبى بكر ، فأىّ امرىء بايع امرأ من غير مشورة من المسلمين ، فإنّهما بغرّة أن يقتلا ، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أنْ كان رضيها ، وأظهر ما فى نفسه ، وألّب عليه حتى قُتِل ، ولم يشكّ أنّ الأمر له ، فلمّا صارت إلى علىّ عليه السلام ، حدث منه ماحدث ، وآخر الدواء الكىّ .

وأما الزّبير فلم يكن إلّا عَلَوِىّ الرأى ، شديد الوَلَاء ، جاريا من الرّجل مجرى نفسه .

---

(١) الطول : الحبل ، يريد أنه لان وترك لهم الحبل على الغارب ، حتى فعلوا مافعلوا .

ويقال : إنّه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين عَقِيب يوم السّقيفة وما جرى فيه ،وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلا على حمار ، وابناها بين يدي الحمار ، وهوعليه السلام يسوقه فيطرُق بيوتَ الأنصار وغيرهم ، ويسألهم النّصْرة والمعونة ، أجابه أربعون رجلا،فبايعهم على الموت ، وأمرهم أن يصبحوا بكرةً محلّقى رءوسهم ومعهم سلاحهم ، فأصبح لم يوافِه منهم إلّا أربعة : الزبير ، والمقداد ، وأبوذرّ ، وسَلْمان . ثم أتاهم من الليل، فناشدهم،فقالوا: نصبّحك غدوة ؛ فما جاءه منهم إلا أربعة ، وكذلك فى الليلة الثالثة ،وكان الزّبير أشدّهم له نصرة ، وأنفذهم فى طاعته بصيرة ، حلَق رأسه، وجاء مرارا وفى عنقه سيفه ،وكذلك الثلاثة الباقون ، إلّا أنّ الزبير هو كان الرأس فيهم . وقد نقل النّاس خبر الزّبير لما هَجَم عليه بيت فاطمة عليها السلام ، وكسر سيفه فى صخرة ضربت به ، ونقلوا اختصاصه بعلىّ عليه السلام ، وخلواته به . ولم يزل مواليا له ، متمسّكا بحبّه ومودّته ، حتى نشأ ابنُه عبدالله وشبّ ، فنزع به عِرْقٌ من الأمّ ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه ، ومحبّة الوالد للولد معروفة ، فانحرف الزبير لانحرافه؛ على أنه قد كانت جرت بين علىّ عليه السلام والزّبير هَنَاتٌ فى أيام عمر كدّرت القلوب بعض التكدير ، وكان سببها قصّة موالى صفيّة ومنازعة علىّ الزبير فى الميراث ، فقضى عمر للزّبير ، فأذعن علىّ عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه ، لارجوعا عمّا كان يذهب إليه من حكم الشرع فى هذه المسألة وبقيت فى نفس الزّبير ، على أنّ شيخنا أبا جعفر الإسكافىّ رحمه الله ذكر فى كتاب " نقض العثمانية " عن الزبير كلاما ، إنْ صحّ ، فإنّه يدلّ على انحراف شديد ،ورجوع عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام .

قال : تفاخَر علىّ عليه السلام والزبير ، فقال الزبير : أسلمتُ بالغا ، وأسلمتَ طفلا ، وكنتُ أوّلَ مَنْ سلّ سيفا فى سبيل الله بمكّة وأنت مستخف فى الشّعب[1]، يكفُلك الرجال ،

---

(١) هو شعب أبى يوسف بمكة ؛ وانظر معجم البلدان ٥ : ٢٧٠

وبِكونك الأقارب من بنى هاشم . وكنتُ فارساً ، وكنتَ راجلا ، وفى هيئتى نزلت الملائكة ، وأنا حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال شيخنا أبو جعفر : وهذا الخبر مفتعل مكذوب ، ولم يجر بين علىّ والزبير شىء من هذا الكلام ، ولكنه من وضع العثمانية ، ولم يسمع به فى أحاديث الحشوّية ، ولا فى كتب أصحاب السّيرة .

ولعلىّ عليه السلام أن يقول : طفلٌ مسلم خير من بالغ كافر ، وأمّا سلّ السيف بمكة ، فلم يكنْ فى موضعه ، وفى ذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ… ﴾[1] الآية ، وأنا على منهاج الرسول فى الكفّ والإقدام ، وليس كفالة الرجال والأقارب بالشّعب عارًا علىّ ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشّعب يكفله الرّجال والأقارب . وأمّا حربُك فارساً ، وحربى راجلا ، فهلّا أغنت فروسيّتُك يوم عمرو ابن عبدوَدّ فى الخندق ! وهلّا أغنت فروسيّتُك يوم طلحة بن أبى طلحة فى أحُد ! وهلّا أغنت فروسيّتك يوم مرحب بخيبر ! ما كانتْ فرسُك التى تحارب عليها فى هذه الأيام إلا أذلّ من العنز الجرباء ، ومَنْ سلّمتْ عليه الملائكة أفضل ممّن نزلتْ فى هيئته ، وقد نزلت الملائكة فى صورة دِحْية الكلبىّ ، أفيجب من ذلك أن يكون دحية أفضلَ منّى ! وأما كونك حوارىّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فلو عددت خصائصى فى مقابلة هذه اللفظة الواحدة لك ، لاستغرقت الوقت ، وأفنيْت الزمان ، وربّ صمتٍ أبلغُ من نطق[2] .

***

ثم نرجع إلى الحديث الأوّل ، فنقول : إنّ طلحة والزبير لما أيِسا من جهة علىّ عليه

---

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) انظر رسالة العثمانية ٢٢٤ وما بعدها .

السلام ، ومن حصول الدنيا من قِبَله ، فَبَدَا له ظهر المِجنّ ، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعا ، روى شيخنا أبو عثمان قال :

أرسل طلحةُ والزّبير إلى عليّ عليه السلام قبل خروجهما إلى مكّة مع محمد بن طلحة، وقالا : لاتقل له : « يا أمير المؤمنين » ، ولكن قل له : « ياأباالحسن » ، لقد فال فيك رأينا ، وخاب ظنّنا . أصلحنا لك الأمر ، ووطّدنا لك الإمْرة ، وأجلبنا على عثمان حتى قتِل ، فلمّا طلبك النّاس لأمرهم ، أسرعنا إليك ، وبايعناك ، وقُدْنا إليك أعناقَ العرب ، ووطِئ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بَيْعتك حتى إذا ملَكت عنانك ، استبدَدْت برأيك عنّا ، ورفضتنا رفض التّرِيكة [1] ، وأذلْتنا إذالة [2] الإماء ، وملّكت أمرَك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونُزّاع الأمصار ، فكنّا فيما رجوناه منك ، وأمّلناه من ناحيتك ، كما قال الأوّل :

فكُنْتَ كَمُهْرِيقِ الّذي في سِقَائه ... لِرَقْراقِ آلٍ فوقَ رابيةٍ صَلْدِ

فلمّا جاء محمّد بن طلحة ، أبلغه ذاك ، فقال : اذهبْ إليهما ، فقل لهما : فما الذي يرضيكما ؟ فذهب وجاءه ، فقال : إنهما يقولان : وَلِّ أحدَنا البصرة والآخر الكوفة ! فقال : لاها الله ! إذَنْ يحلُم الأديم ، ويستشري الفساد ، وتنتقض عليّ البلاد من أقطارها، والله إني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة ، فكيف آمنهما وقد ولّيتهما العراقين ! اذهبْ إليهما فقل : أيها الشيخان ، احذرا من سَطْوة الله ونقمته ، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيدا، وقد سمعتما قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [3] . فقام محمد بن طلحة فأتاهما ، ولم يعد إليه ، وتأخّرا عنه أياما ، ثم جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكّة للعمرة ، فأذِن لهما بعد أن أحلفهما

---

(١) التريكة : التي تترك فلا يتزوجها أحد . (٢) الإذالة : الإهانة .

(٣) سورة القصص ٨٣ .

ألّا ينقضا بيعته ، ولا يغدِرَا به ، ولا يشقّا عصا المسلمين ، ولا يُوقِعَا الفرقة بينهم، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة ، فحلفا على ذلك كلّه ثم خرجا ففعلا ما فعلا .

***

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : لمّا خرج طلحة والزبير إلى مكّة ، وأوهَمَا النّاس أنّهما خرجا للعمرة ، قال علىّ عليه السلام لأصحابه : والله ما يريدان العمرة ، وإنّما يريدان الغَدْرة ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنّما ينكُث على نفسه ، ومَنْ أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما[1] ﴾ .

وروى الطّبرى فى التاريخ ، قال : لمّا بايع طلحة والزبير عليًّا عليه السلام ، سألاه أن يؤمّرهما على الكوفة والبصرة ، فقال : بل تكونان عندى أتجمّل بكما ، فإننى أستوحش لفراقكما .

قال الطبرىّ : وقد كان قال لهما قبل بيعتهما له : إنْ أحببتما أنْ تبايعانى ، وإنْ أحببتما بايعتكما ؛ فقالا : لا ؛ بل نبايعك ؛ ثم قالا بعد ذلك : إنما بايعناه خشية على أنفسنا، وقد عرفنا أنّه لم يكن ليبايعنا . ثم ظهرا إلى مكة ، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر .

وروى الطبرىّ أيضا فى التاريخ قال : لمّا بايع النّاس عليا ، وتمّ له الأمر ، قال طلحة للزبير : ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلّا كحِسّة[2] أنف الكلب .

وروى الطبرىّ أيضا فى التاريخ ، قال : لمّا بايَع النّاس عليا عليه السلام بعد قتل عثمان ، جاء علىّ إلى الزّبير ، فاستأذن عليه . قال أبو حبيبة مولى الزبير : فأعلمتُه به ، فسلّ السيفَ ، ووضعه تحت فراشه ، وقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل فسلّم عَلَى الزّبير وهو واقف . ثم خرج ، فقال الزبير : لقد دخل لأمرٍ ما قضاه ، قم مقامه وانظر : هل ترى من

---

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى ١ : ٣٠٦٩ (طبع أوربا) ، والكلمة غير واضحة فى الأصول .

السيف شيئا ! فقمت فى مقامه ، فرأيت ذُباب السيف ، فأخبرتُه وقلت : إن ذُباب السيف لَيظهر لمن قام فى هذا الموضع ، فقال : ذاك أعجلَ الرجل .

وروى شيخُنا أبو عثمان ، قال : كتب مُصْعب بن الزبير إلى عبد الملك :

مِنْ مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان : سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

سَتَعْلَمُ يا فَتَى الزَّرْقاء أنِّى ... سأهتِك عن حلائلك الحِجَابَا
وأترك بلدةً أصبحت فيها ... تَهوّر من جوانبها خَرَابا

أمَا إن لله علىّ الوفاء بذلك ؛ إلّا أن تتراجع أو تتوب ! ولعمرى ماأنت كعبدالله بن الزبير ، ولا مروان كالزّبير بن العوام ، حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمّته . فسلِّم الأمر إلى أهله ، فإنّ نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين . والسلام .

فكتب إليه عبد الملك :

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى الذّلول الذى أخطأمَنْ سماه المُصْعَب ؛ سلام عليك ، فإنّى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

أتُوعِدُنِى وَلَمْ أرَ مِثلَ يومى ... خَشاش الطّير يوعدن العُقَابَا
مَتى تَلْقَ العُقاب خَشَاشَ طيرٍ ... يهتّك عن مقاتلها الحِجَابا
أتوعد بالذئاب أسودَ غابٍ ... وأسْدُ الغاب تَلْتَهِم الذئابا !

أمّا ماذكرت من وفائك ، فلعمرى لقد وفّى أبوك لتيْم وعدىّ بعداءقريش وزعانفها ، حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان ، الشريف النسب ، الكريم الحسب ، بغاه الغوائل ، وأعدّ له الحبائل ، حتى نال منه حاجته ، ثم دعا النّاس إلى علىّ وبايعه ، فلما

دانت له أمور الأمّة ، وأجمعت له الكلمة ، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف ، فنقض عهدَه ، ونكث بيعته بعد توكيدها، ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾؛ وتمزقت لحمه الضباع بوادي السباع .ولعمري إنّك تعلم ياأخا بني عبد العزّى بن قصيّ ؛ أنّا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام ، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت ، ولم ترث ذلك عن كلالة ، بل عن أبيك ، ولا أظنّ حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلّا إلى ما آل إليه حسدُ أبيكما من قبل ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾(1)؛ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(2) .

وروى أبو عثمان أيضا ، قال: دخل الحسن بن عليّ عليهما السلام على معاوية ، وعنده عبد الله بن الزبير ـ وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش ـ فقال : ياأبا محمد، أيّهما كان أكبر سنًّا ؛ عليّ أم الزبير ؟ فقال الحسن : ماأقرب مابينهما، وعليّ أسن من الزبير ارحم الله عليا ! فقال ابن الزّبير رحم الله الزّبير ـ وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، فقال : ياعبد الله، ومايهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه ! قال:وأنا أيضا ترحّمت على أبي! قال: أتظنه ندًّا له وكفؤا ؟ قال : وما يَعدِلُ به عن ذلك ! كلاهما من قريش ، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتمّ له . قال : دع ذاك عنك يا عبدالله ؛إنّ عليا من قريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم ، ولمّادعا إلى نفسه أتبع فيه ، وكان رأساً، ودعا الزّبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ، ولما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وولّى مدبراً قبل أنْ يظهر الحقّ فيأخذه ، أو يدحض الباطل فيتركه ، فأدركه رجل لو قيس ببعض أعضائه لكان أصغر، فضرب عنقه ،وأخذ سَلَبه، وجاء برأسه، ومضى عليّ قُدُماً كعادته مع ابن عمّه، رحم الله عليا!

---

(١) سورة فاطر ٤٣ .
(٢) سورة الشعراء ٢٢٧ .

فقال ابن الزبير : أما لو أنّ غيرك تكلّمَ بهـذا يا أبا سعيد ، لعلم ! فقال : إنّ الذى تعرّض به يرغب عنك . وكفّه معاوية ، فسكتوا .

وأخبِرتْ عائشة بمقالتهم ، ومرّ أبو سعيد بفِنائها ، فنادته : يا أبا سعيد ، أنت القائل لابن أختى كذا ؟ فالتفت أبو سعيد ، فلم ير شيئا ، فقـال : إنّ الشيطان يرانا ولا نراه ! فضحكت عائشة ، وقالت : لله أبوك ! ما أذاق لسانك !

(١٩٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ :

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ !

***

الشرح :

السبّ : الشتم ، سبّه يسُبّه بالضم ، والتّساب : التشاتم ، ورجلٌ مِسَبّ بكسر الميم : كثير السِّباب ، ورجلٌ سُبّة ، أى يسبُّه الناس ، ورجل سُبَبَة ، أى يسبّ الناس ، ورجل سَبّ : كثير السباب ، وسِبُّك : الذى يسابّك ، قال :

لَا تَسُبَّنَّنِي فَلَسْتَ بِسِبِّي   إِنَّ سِبِّي من الرجال الكريمُ[1]

والذى كرهه عليه السلام منهم ، أنهم كانوا يشتُمون أهلَ الشام ، ولم يكن يكره منهم لعنهم إياهم ، والبذاءة منهم ، لا كما يتوهّمه قومٌ من الحشوية ، فيقولون : لا يجوز

---

(١) لعبد الرحمن بن حسان ، وانظر الصحاح ١ : ١٤٥ .

لعن أحدٍ ممّن عليه اسم الإسلام ، وينكرون عَلَى مَنْ يلعن ، ومنهم مَنْ يغالى فى ذلك ، فيقول : لا ألعن الكافر ، ولا ألعن إبليس ، وإن الله تعالى لا يقول لأحدٍ يوم القيامة : لِمَ لم تلعن ؟ وإنما يقول : لِمَ لَعنتَ ؟

واعلم أنّ هذا خلاف نصّ الكتاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٢) .

وقال فى إبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ (٤) .

وفى الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرّؤ ممّن يجب التبرّؤ منه ! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ (٥) وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ؛ فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحقّ بها اللعن والبراءة ؛ فلا ضَيْرَ على مَنْ يلعنه ويبرأ منه ، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يَجُز لعنُه ، ولا البراءة منه .

وممّا يدلّ على أنّ مَنْ عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنُه ، بل يجب فى وقت ، قول الله تعالى فى قصّة اللّعان : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُ

---

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .
(٢) سورة البقرة ١٥٩ .
(٣) سورة ص ٧٨ .
(٤) سورة الأحزاب ٦١ .
(٥) سورة الممتحنة ٤ .

لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۞ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى القاذف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فهاتان الآيتان فى المكلّفين من أهل القبلة، والآيات قبلهما فى الكافرين والمنافقين ؛ ولهذا قنّت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه ، ولعنهم فى أدبار الصلوات .

فإن قلت : فما صُورة السبّ الذى نَهَى أمير المؤمنين عليه السلام عنه ؟

قلت : كانوا يشتمُونهم بالآباء والأمهات ، ومنهم مَنْ يطعن فى نسب قوم منهم ، ومنهم مَنْ يذكرهم باللؤم ، ومنهم مَنْ يعيّرهم بالجبن والبخل وبأنواع الأهاجى التى يتهاجَى بها الشعراء ، وأساليبها معلومة ، فنهاهم عليه السلام عن ذلك ، وقال : إنى أكره لكم أن تكونوا سبّابين ؛ ولكن الأصوب أن تصِفُوا لهم أعمالهم ، وتذكروا حالهم ؛ أى أن تقولوا : إنّهم فسّاق ؛ وإنهم أهل ضلال وباطل .

ثم قال : اجعلوا عِوَض سبهم أن تقولوا : اللّهمّ احقنْ دماءنا ودماءهم !

حقنت الدم أحقُنه ، بالضمّ : منعت أن يسفَك ، أى ألهمهم الإنابة إلى الحقّ والعدول عن الباطل ؛ فإنّ ذلك إذا تمّ حقنت دماء الفريقين .

فإن قلت : كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله ؟ أليس من أصولكم أنّ الله تعالى لا يضطر المكلّف إلى اعتقاد الحق ، وإنما يكله إلى نظره ؟ !

قلت : الأمر وإن كان كذلك ، إلّا أنّ المكلفين قد تُعبِّدُوا بأن يدعوا الله تعالى

---

(١) سورة النور ٦ ، ٧ .

(٢) سورة النور ٢٣ .

بذلك، لأنّ في دعائهم إياه منك لطفاً لهم ومصالح في أديانهم ؛ كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل.

قوله : « وأصلح ذات بيننا وبينهم » ؛ يعني أحوالنا وأحوالهم. ولمّا كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : « ذات البين » ؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة الصدور قيل : « ذات الصدور » ، وكذلك قولهم : اسقني ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابسا له ، ويقولون للمتبرّز قد وضع ذا بطنه ؛ وللحبلى تضع : ألقت ذا بطنها .

وارعوى عن الغيّ : رجع وكفّ .

لهِج به بالكسر ، يلهَج : أغرى به وثابر عليه .

(٢٠٠)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى بعض أيام صِفِّين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرّع إلى الحرب :

اَمْلِكُوا عَنِّى هَـذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِى ؛ فَإِنَّنِى أَنْفَسُ بِهَذَيْنِ - يَعْنِى الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهما السلام - عَلَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

* * *

قَالَ الرَّضِىُّ أَبُو الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ : قوله عليه السَّلَامُ : « اَمْلِكُوا عَنِّى هَذَا الْغُلَامَ » من أعْلَى الْكَلَامِ وَأفصحه .

* * *

الشرحُ :

الألف فى « اَمْلِكُوا » ألف وصل ، لأن الماضى ثلاثىّ ، من ملكت الفرس والعبد والدار ، أملِك بالكسر ، أى احجُروا عليه كما يُحجَر المالك على مملوكه .

وعن ، متعلّقة بمحذوف تقديره : استولوا عليه وأبعدوه عنّى . ولما كان الملك سبَب الحجْر على المملوك عبّر بالسبب عن المسبَّب ، كما عبّر بالنكاح عن العقد ، وهو فى الحقيقة اسم الوطء ، لما كان العَقْدُ طريقا إلى الوطء ، وسببا له .

ووجه علوّ هذا الكلام وفصاحته أنّه لما كان فى : « املكوا » معنى البعد ، أعقبه

بعن ، وذلك أنهم لايملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلّا وقدأبعدوه عنه؛ ألاترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيدا عن عمرو ! فلذلك قال: املكوا عنّى هذا الغلام ، واستفصح الشارحون قول أبى الطّيِّب :

إذا كان شَمُّ الرَّوْحِ أَدْنَى إليكمُ   فلا برحتْنى رَوْضَةٌ وقَبُول [1]

قالوا : ولمّا كان فى « فلا برحتنى » معنى « فارقتنى » عدّى اللفظة ، وإن كانت لازمة، نظرا إلى المعنى [1] .

قوله : « لايَهُدّنى » أى لئلا يهدّنى ، فحذف كما حذف طَرَفة فى قوله :

* ألا أيُّهذا الزّاجرى أحضُرَ الوَغَى [2] *

أى لأن أحضر .

وأنفس : أبخل ، نفِسْت عليه بكذا ، بالكسر .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما : أبناء رسول الله وولد رسول الله، وذرية رسول الله ، ونسل رسول الله ؟

قلت : نعم؛ لأن الله تعالى سمّاهم « أبناءه » فى قوله تعالى: ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ [3] ، وإنما عَنَى الحسن والحسين ، ولو أوصى لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات، وسمّى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم فى قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [4] إلى أن قال : ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ؛ ولم يختلف أهل اللغة فى أنّ وَلَدَ البنات من نسل الرجل .

---

(١) ديوانه ٣ : ٩٦ .

(٢) من المعلقة ـ بشرح التبريزى ٨٠ ، وبقيته :

* وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِى *

(٣) سورة آل عمران ٦١ .

(٤) سورة الأنعام ٨٤ .

فإن قلت :فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾؟قلت: أسألك عن أبوّته لإبراهيم بن مارية ؛ فكما تجيب به عن ذلك ؛ فهو جوابي عن الحسن والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عنى زيد بن حارثة؛ لأنّ العرب كانت تقول: «زيد بن محمد» على عادتهم فى تبنى العبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ، ونهى عن سنة الجاهلية ،وقال: إنّ محمدا عليه السلام ليس أبًا لواحد من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزى إليه بالنبوّة ، وذلك لاينفى كونه أبًا لأطفال ، لم تطلق عليهم لفظة الرجال ، كإبراهيم وحسن وحسين عليهم السلام .

فإن قلت : أتقول إنّ ابنَ البنتِ ابنٌ على الحقيقة الأصليّة أم على سبيل المجاز ؟

قلت : لذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصليّة ؛لأنّ أصل الإطلاق الحقيقة ،وقد يكون اللفظ مشتركًا بين مفهومين وهو فى أحدهما أشهر ، ولايلزم من كونه أشهر فى أحدهما ألا يكون حقيقة فى الآخر .

ولذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة عُرْفية ، وهى التى كثر استعمالها ؛وهى فى الأكثر مجاز ؛ حتى صارت حقيقة فى العرف ، كالراوية للمزادة ، والسماء للمطر .

ولذاهب أن يذهب إلى كونه مجازا قد استعمله الشارع ، فجاز إطلاقه فى كلّ حال؛ واستعماله كسائر المجازات المستعملة .

ومما يدلّ على اختصاص ولد فاطمة دون بنى هاشم كافّة بالنبىّ عليه السلام ،أنه ما كان يحلّ له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما ، وإن بعُدْن وطال الزمان ، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بنى هاشم من الطالبيِّين وغيرهم؛ وهذا يدلّ على مزيد الأقربيّة ، وهى كونهم أولاده ، لأنه ليس هناك من القُرْبى غير

هذا الوجه ، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخته ، ولا هناك وجه يقتضي حرمتهم عليه إلا كونه والداً لهم ، وكونهم أولاداً له ، فإن قلت قد قال الشاعر :

بَنُونَا بنُو أبنائِنَا وبناتُنا * بنوهُنّ أبناء الرّجال الأباعد

وقال حكيم العرب أكثم بن صيفيّ في البنات يذمّهن : إنّهن يلدن الأعداء ، ويورّثن البُعداء .

قلت : إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر ، وليس في قول أكثم ما يدلّ على نفي بنوّتهم ، وإنما ذكر أنهن يلدْن الأعداء ؛ وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدوا ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾[1] ، ولا ينفي كونه عدوًّا كونه ابنا ، قيل لمحمد ابن الحنفيّة عليه السلام : لِمَ يغرّر بك أبوك في الحرب ، ولِمَ لا يغرر بالحسن والحسين ؟ فقال : لأنهما عيناه ؛ وأنا يمينه ، فهو يذبّ عن عينيه بيمينه .

---

(١) سورة التغابن ١٤ .

(٢٠١)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله لما اضطرب عليه أصحابه فى أمر الحكومة :

أيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِى مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ وَاللهِ أَخَذَتْ مِنكُمْ وَتَرَكَتْ ، وَهِىَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ .

لَقَدْ كُنتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً ، وَكُنتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً . وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ ؛ وَلَيْسَ لِى أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَاتَكْرَهُونَ !

* * *

الشرحُ :

نهِكتكم ، بكسر الهاء : أدنفتكم وأذابتكم ، ويجوز فتح الهاء ، وقد نهك الرجل أى دنف وضَنِىَ ، فهو منهوك .وعليه نَهْكةُ المرض ،أى أثرة الحرب، مؤنثة .

وقد أخذتْ منكم وتركتْ ، أى لم تستأصلكم، بل فيكم بعدُ بقيّة ، وهى لعدوّكم أنهك ، لأنّ القتل فى أهل الشام كان أشدّ استحرارا ، والوهَن فيهم أظهر ، ولولا فساد أهل العراق برفعِ المصاحف ، لاستؤصل الشام،وخلص الأشتر إلى معاوية ، فأخذه بعنقه، ولم يكن قد بقىَ من قوّة الشام إلا كحرَكة ذَنَب الوزغةعند قتلها ، يضطرب يمينا وشمالا؛ ولكن الأمورَ السماويّة لا تغالَب .

فأما قوله : « كنت أمس أميرا ، فأصبحتُ اليوم مأمورا » ، فقد قدّمنا شرح حالم من قبل ، وأنّ أهل العراق لمّا رفع عمرو بن العاص ومَنْ معه المصاحف على وجه المكيدة

حين أحسّ بالعطب وعلوّ كلمة أهلِ الحقّ ، ألزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب ، وكفّ الأيدى عن القتال ، وكانوا فى ذلك على أقسام :

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، وغلب على ظنّه أنّ أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة ، بل حقّا ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب ، فرأى أنّ الاستسلام للحجّة أولى من الإصرار عَلَى الحرب .

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب، وآثر السِّلْم ، فلمّا رأى شبهةً ما يسوغ التعلّقُ بها فى رفض المحاربة وحبّ العافية أخلد إليهم .

ومنهم مَنْ كان يُبْغِض عليا عليه السلام بباطنه ، ويطيعه بظاهره ، كما يطيع كثيرمن النّاس السلطان فى الظاهر ويبغضه بقلبه ، فلمّا وجدوا طريقا إلى خذلانه وترك نصرته ، أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه ، وطالبوه بالكفّ وترك القتال ، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة ، وقال لهم : إنها حيلة وخديعة ، وإنّى أعرفُ بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا دين ، قد صحبتهم وعرفتهم صغيرا وكبيرا ، فعرفت منهم الإعراض عن الدّين ، والركون إلى الدنيا ، فلا تُراعُوا برفع المصاحف ، وصمّموا على الحرب ، وقد ملكتموهم ، فلم يبق منهم إلّا حشاشة ضعيفة ، وذَماء قليل . فأبوا عليه ، وألحّوا وأصرُّوا على القعود والخذلان ، وأمروه بالإنفاذ إلى المحاربين من أصحابه ، وعليهم الأشتر أن يأمرهم بالرجوع ، وتهدّدوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية . فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب ، فأبى عليه فقال : كيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر ! فقولوا له : «ليمهلنى ساعة واحدة» ، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت. فلمّا عاد إليه الرسول بذلك ، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سرًّا وباطنًا، تأمره بالتصميم ، وتنهاه عن الكفّ ، وإن لم تمدّهُ الساعة ، وإلّا قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرّسل إلى الأشتر فقالوا له : أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سُلّ عليه

خمسون ألف سيف ! فقال : ما الخبر ؟ قال : إنّ الجيش بأسره قد أحدق به ، وهو قاعد بينهم على الأرض ، تحته نِطَع ، وهو مُطرِق ، والبارقة تلمع على رأسه ، يقولون : لئن لم تُعِد الأشتر قتلناك ! قال : ويحكم ! فما سبب ذلك ؟ قالوا : رفع المصاحف ، قال : والله لقد ظننت حين رأيتها رُفعت أنّها ستوقع فرقةً وفتنة .

ثم كرّ راجعا على عقبيه ، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر ، قد ردّده أصحابه بين أمرين : إمّا أن يُسلِموه إلى معاوية ، أو يقتلوه ، ولا ناصر له منهم إلّا ولداه وابن عمّه ونفر قليل لا يبلغون عشرة ، فلما رآهم الأشتر سبّهم وشتمهم ، وقال : ويحكم ! أبعد الظَّفَر والنّصر صبّ عليكم الخذلان والفرقة ! يا ضعاف الأحلام ! يا أشباه النساء ! يا سفهاء العقول ! فشتموه وسبّوه ، وقهروه وقالوا : المصاحف المصاحف ! والرّجوع إليها ، لا نرى غير ذلك ! فأجاب أميرُ المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم ، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحظور الأضعف ، فلذلك قال : « كنت أميراً فأصبحت مأموراً ؛ وكنت ناهيا فصرت منهيًا » . وقد سبق من شرح حالِ التحكيم وما جرى فيه ما يغني عن إعادته.

(٢٠٢)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثى ؛ وهو من أصحابه يعوده ، فلما رأى سعة داره قال :

ما كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فى الدُّنيا ، أما أَنْتَ إِلَيْهَا فى الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ ! وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ : تَقْرِى فِيهَا الضَّيْفَ ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا ، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ !

فَقَالَ لَهُ الْعَلاَءُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِى عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ .

قال : وماله ؟

قال : لَبِسَ الْعَبَاءَ ، وَتَخَلَّى مِنَ الدُّنيا .

قال : عَلَيَّ بِهِ . فلما جاء ، قال :

يَا عُدَىَّ نَفْسِهِ ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ! أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ !

قال :

يا أمير المؤمنين ، هَذَا أَنْتَ فى خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ ، وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ !

قال :

وَيْحَكَ إِنِّى لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْحَقِّ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ ، كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ !

الشرح

كنت هاهنا زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[1].

وقوله : « وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة » ، لفظ فصيح ، كأنه استدرك ، وقال : وبلى على أنك قد تحتاج إليها فى الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة . بأن تقرى فيها الضيف ؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقال : ضيوف وأضياف . والرحم : القرابة .

وتطلع منها الحقوق مطالعها : توقعها فى مظان استحقاقها.

والعباء جمع عباءة ، وهى الكساء ، وقد تلين، كما قالوا: عظاءة وعظاية، وصلاءة وصلاية.

وتقول : علىّ بفلان ، أى أحضره ، والأصل أعجل به علىّ ، لحذف فعل الأمر ، ودل الباقى عليه .

ويا عُدَىّ نفسه ، تصغير « عدو » ، وقد يمكن أن يراد به التحقير المحض هاهنا، ويمكن أن يراد به الاستعظام لمداوته لها ، ويمكن أن يخرج مخرج التحنن والشفقة ، كقولك : يابنىّ .

واستهام بك الخبيث ، يعنى الشيطان ، أى جعلك هائما ضالا ، والهاء زائدة .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « أنت أهون على الله من ذلك » ؟

قلت : لأن فى المشاهد قد يحل الواحد منا لصاحبه فعلا مخصوصا ، محاباة ومراقبة ،

---

(١) سورة مريم ٢٩ .

وهو يكره أن يفعله ، والبشر أهونُ على الله تعالى من أن يحلّ لهم أمراً مجاملة واستصلاحا للحال معهم ، وهو يكره منهم فعله .

وقوله : « هذا أنت ! » ، أى فما بالنا نراك خشنَ الملبس ! والتقدير : « فها أنت تفعل كذا ، فكيف تنهى عنه ! »

وطعام جَشِب ، أى غليظ ، وكذلك مجشوب ، وقيل : إنّه الذى لا أُدْمَ معه .

قوله عليه السلام : « أن يقدّروا أنفسهم بضَعفة الناس » ، أى يشبّهوا ويمثّلوا .

وتبيّغ الدم بصاحبه ، وتبوّغ به ، أى هاج به ، وفى الحديث : « عليكم بالحجامة لا يتبيّغ بأحدكم الدم فيقتله » ، وقيل : أصل « يتبيغ » يتبغّى ، فقلب ، جَذَب وجبَذ ، أى يجب على الإمام العادل أنْ يشبّه نفسَه فى لباسه وطعامه بضَعَفة الناس ـ جمع ضعيف ـ لكيلا يهلِك الفُقَراء من الناس ، فإنّهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطْعم ، كان أدعى لهم إلى سُلْوان لذّات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس .

* * *

[ذكر بعض مقامات العارفين والزُّهاد]

وروى أنّ قوماً من المتصوّفة دخلُوا خراسان على علىّ بن موسى الرضىّ ، فقالوا له : إنّ أمير المؤمنين فكّر فيما ولّاه الله من الأمور ، فرآكم أهلَ البيت أولَى الناس أن تؤمُّوا الناس ، ونظر فيك من أهل البيت ، فرآك أوْلَى الناس بالناس ، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك ، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجَشِب ، ويلبس الخشن ، ويركب الحمار ، ويعود المريض . فقال لهم : إنّ يوسف كان نبياً ، يلبس أقبية الديباج المزرّرة بالذهب ، ويجلس على متّكآت آل فرعون ، ويحكم ؛ إنّما يراد من الإمام قِسْطه وعدْله ؛ إذا قال صدق ،

وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز . إنّ الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعما ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ . . . . ﴾ (١) الآية .

وهذا القول مخالف للقانون الذى أشار أمير المؤمنين إليه ، وللفلاسفة فى هذا الباب كلام لابأس به ، وقد أشار إليه أبو علىّ بن سينا فى كتاب '' الإشارات '' وعليه يتخرّج قولا أمير المؤمنين وعلىّ بن موسى الرضىّ عليهما السلام . قال أبو علىّ فى مقامات العارفين : « العارفون قد يختلفون فى الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب مايختلف عندهم من دواعى العبَر ، فربّما استوى عند العارف القشَف والترف ، بل ربما آثر القشَف ، وكذلك ربما سوّى عنده التّفْل والعِطْر ، بل ربما آثر التّفل ، وذلك عند ما يكون الهاجس بباله ، استحقار ماعدا الحقّ ، وربما صغا إلى الزينة ، وأحبّ من كلّ شىء عقيلته (٢) ، وكره الخِداج والسَّقَط ، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة ، فهو يرتاد إليهما فى كلّ شىء ، لأنه مزيّة خطوة من العناية الأولى ، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا فى عارفَيْن ، وقد يختلف فى عارف بحسب وقتَيْن .

واعلم أنّ الذى رويتُه عن الشيوخ ، ورأيته بخطّ عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله ، أنّ الربيع بن زياد الحارثىّ ، أصابته نشّابة فى جبينه ، فكانت تنتقض عليه فى كلّ عام ، فأتاه علىّ عليه السلام عائداً ، فقال : كيف تجدك أباعبد الرحمن ؟ قال : أجِدُنى يا أميرَ المؤمنين لو كان لا يذهب ما بى إلا بذهاب بصرى لتمنيت ذهابه ، قال : وما قيمة بصرك عندك ! قال : لو كانت لى الدنيا لفديتُه بها ، قال : لاجرم ! ليعطينّك الله على قدر ذلك . إنّ الله تعالى يُعطى على قدر الألم والمصيبة ، وعنده تضعيف كثير . قال الربيع :

---

(١) سورة الأعراف ٣٢ .
(٢) العقيلة من كل شىء أكرمه ، جمعها عقائل

يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصمَ بن زياد أخي ؟ قال : ماله ، قال: لبس العَباء، وترك المُلاء ، وغمّ أهلَه ، وحَزَن ولده .

فقال عليّ : ادعُوا لي عاصما ، فلما أتاه عبَس في وجهه ، وقال : ويحك ياعاصم أترى الله أباح لك اللذات، وهو يكره ما أخذت منها ! لأنتَ أهونُ على الله من ذلك. أوَ ما سمعته يقول: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾(١)، ثم يقول: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(٢) وقال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾(٣) ، أما والله إنّ ابتذال نعم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال ، وقد سمعتَ الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، إنّ الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾(٥) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا ﴾(٦) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه : « مالي أراكِ شَعْثاء مرهاء سلتاء ! »(٧) .

قال عاصم : فلمَ اقتصرتَ يا أمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشِب ؟ قال: إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام ، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره.

فما قام عليّ عليه السلام حتى نزع عاصم العَباء ، ولبس مُلاءة .

والرّبيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خُراسان، وفيه قال عمر: دُلّوني على رجل إذا كان

---

(١) سورة الرحمن ١٩ .
(٢) سورة الرحمن ٢٢ .
(٣) سورة فاطر ١٢ .
(٤) سورة الضحى ١١ .
(٥) سورة البقرة ١٧٢ .
(٦) سورة المؤمنون ٥١ .
(٧) المرهاء : التي لا تكتحل . والسلتاء : التي لا تختضب .

فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير ، وإذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنّه الأمير بعينه ! وكان خيّراً متواضعاً ، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحّش له الربيع ، وتقشّف وأكل معه الجَشِب من الطعام ، فأقرّه على عمله ، وصرف الباقين ، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان : إنّ أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرك أن تحرِز الصّفْراء والبيضاء وتقسم الخُرْثِيّ [(١)] وما أشبهه على أهل الحرب . فقال له الربيع : إنّى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ثم نادى فى الناس : أن اغدُوا على غنائمكم ، فأخذ الخمس وقسّم الباقى على المسلمين ، ثم دعا الله أن يميته؛ فما جمع حتى مات .

وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك ابن أدد .

وأما العلاء بن زياد الذى ذكره الرضىّ رحمه الله فلا أعرفه ، لعلّ غيرى يعرفه .

---

(١) الخرثىّ : أردأ المتاع .

(٢٠٣)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع،وعما فى أيدى الناس من اختلاف الخبر ، فقال عليه السلام :

إنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَ بَاطِلاً ، وَصِدْقاً وَ كَذِباً ، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً ، وَعَامًّا وَخَاصًّا ، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً ، وَحِفْظاً وَوَهَماً .

وَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَهْدِهِ ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً ، فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ :

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ ، وَلَـكِنَّهُمْ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَلَقِفَ عَنْهُ ؛ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلَّوْهُمُ الْأَعْمَالَ ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ . فَهٰذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ .

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَوَهِمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ

كَذِبًا فَهُوَ فِي يَدَيْهِ ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ .

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا ، يَأْمُرُ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ .

وَآخَرُ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنَ اللهِ ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى سَمْعِهِ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْكَلَامُ ، لَهُ وَجْهَانِ ، فَكَلَامٌ خَاصٌّ ، وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ ، وَمَا قَصَدَ بِهِ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ ، وَيَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى يَسْمَعُوا ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، وَحَفِظْتُهُ .

فَهَذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ .

***

الشرح :

الكلام فى تفسير الألفاظ الأصوليّة ؛ وهى العامّ والخاصّ ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والكذب ، والمحكَم والمتشابه ، موكول إلى فنّ أصول الفقه ، وقد ذكرناه فيما أمليناه من الكتب الأصولية ، والإطالة بشرح ذلك فى هذا الموضع مستهجَنة .

قوله عليه السلام : « وحفظا ووهَما » الهاء مفتوحة ، وهى مصدر وَهِمتُ ،بالكسر، أوْهَم ، أى غلطت وسهوت ، وقد روى : « وَهْماً » بالتسكين ،وهو مصدر وهَمت بالفتح أوْهُم ، إذا ذهب وهْمك إلى شىء وأنت تريد غيره ، والمعنى متقارب .

وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « فليتبوّأ مقعده من النار » كلامٌ صيغته الأمر ، ومعناه الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾[1] ، وتبوّأت المنزلَ : نزلته ، وبوّأته منزلا : أنزلته فيه .

والتأثّم : الكفّ عن موجب الإثم ، والتحرّج مثله ، وأصله الضّيق ، كأنه يضيق على نفسه .

ولقِفَ عنه : تناول عنه .

وجَنّب عنه : أخذ عنه جانبا .

و « إنْ » فى قوله : « حتى إنْ كانوا لَيحبّون » مخففة من الثقيلة ، ولذلك جاءت اللام فى الخبر .

والطارئ ، بالهمز : الطالع عليهم ، طَرَأ أى طلع ، وقد روى : « علَلهم » ، بالرفع عطفا على « وجوه » ، وروى بالجرّ عطفا على « اختلافهم » .

***

---

(١) سورة مريم ٧٥ .

[ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام]

واعلم أن هذا التقسيم صحيح ، وقد كان فى أيام الرسول الله صلى الله عليه وآله منافقون ، وبقوا بعده ، وليس يمكن أن يقال : إنّ النفاق مات بموته ، والسبب فى استتار حالهم بعده أنه صلى الله عليه وآله كان لايزال يذكرهم بما ينزل عليه من القرآن ، فإنه مشحون بذكرهم ، ألا ترى أنّ أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين ، فكان السبب فى انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن ، فلما انقطع الوحىُ بموته صلّى الله عليه وآله لم يبقَ من ينعَى عليهم سقطاتِهم ويوبّخهم على أعمالهم ، ويأمر بالحذَر منهم ، ويجاهرهم تارةً ، ويجاملهم تارة ، وصار المتولّى للأمر بعده يحمِلُ النّاس كلّهم على كاهل المجاملة ، ويعاملهم بالظاهر ، وهو الواجب فى حكم الشرع والسياسة الدنيويّة ، بخلاف حال الرسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه كان تكليفه معهم غيرَ هذا التكليف ، ألا ترى أنه قيل له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾[1] ! فهذا يدلّ على أنه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلّا كان النّهىُ له عن الصّلاة عليهم تكليفَ مالا يطاق ، والوالى بعده لايعرفهم بأعيانهم ، فليس مخاطباً بما خُوطب به صلّى الله عليه وآله فى أمرهم ، ولسكوت الخلفاء عنهم بعده خَمَل ذكرُهم ، فكان قصارَى أمرِ المنافق أن يُسِرّ مافى قلبه ، ويعاملَ المسلمين بظاهره ، ويعاملونه بحسب ذلك . ثم فُتِحت عليهم البلاد ، وكثرت الغنائم ، فاشتغلوا بها عن الحركات التى كانوا يعتمدونها أيام رَسولِ الله ، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والرّوم ، فألهتهم الدّنيا عن الأمور الّتى كانت تُنقَم منهم فى حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهم مَن استقام اعتقاده ، وخلصت نيّته ، لما رأوا الفتوح وإلقاء الدّنيا أفلاذَ كبدها من الأموال العظيمة ، والكنوز الجليلة إليهم ، فقالوا : لولم يكن هذا الدّين

---

(١) سورة التوبة ٨٤ .

حقًّا لما وصلنا إلى ماوصلنا إليه . وبالجملة لمّا تَرَكُوا تُرِكُوا ، وحيث سُكِتَ عنهم سكتوا عن الإسلام وأهله ؛ إلّا فى دسيسة خفيّة يعملونها ، نحو الكذب ، الذى أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّه خالط الحديث كذبٌ كثيرٌ ، صدرَ عن قومٍ غيرِ صحيحِى العقيدة ، قصدوا به الإضلالَ وتخبيط القلوب والعقائد ، وقَصَدَ به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم فى التنويه بذكرهم غرض دنيوىّ . وقد قيل : إنّه افتُعِل فى أيّام معاوية خاصّة حديث كثير على هـذا الوجه ، ولم يسكت المحدّثون الراسخون فى علم الحديث عن هذا ، بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبيّنوا وضعها ؛ وأنّ رواتها غير موثوق بهم ، إلّا أن المحدّثين إنمـا يطعنون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون فى الطعن على أحـدٍ من الصحابة ؛ لأنّ عليه لفظ « الصحبة » ؛ على أنهم قد طعنوا فى قومٍ لهم صُحْبة كبُسْر بن أرطاة وغيره .

فإن قلت : مَنْ هم أئمة الضلالة ، الذين يتقرّب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وصحبوه للزور والبهتان ؟ وهل هـذا إلّا تصريح بمـا تذكره الإمامية ، وتعتقده !

قلت : ليس الأمر كما ظننت وظنّوا ، وإنمـا يعنى معاوية وعمرو بن العاص ومَنْ شايعهما على الضّلال ، كالخبر الذى رواه مَنْ رَوَاه فى حقّ معاوية : « اللهمّ قِهِ العـذاب والحساب ، وعلّمه الـكتاب » ؛ وكرواية عمرو بن العاص تقرُّبًا إلى قلب معاوية : « إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء ، إنّما وليّى الله وصالح المؤمنين » وكرواية قوم فى أيّام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان ، تقرّبا إلى معاوية بها ، ولسنا نجحَدُ فضلَ عُثْمان وسابقته ، ولـكنّا نعلم أنّ بعض الأخبار الواردة فيه موضوع ، كخبر عمرو بن مرّة فيه وهو مشهور ، وعمرو بن مرّة ممّن له صحبة ، وهو شامىّ .

[ذكر بعض مامُنِي به آل البيت من الأذى والاضطهاد]

وليس يجب من قولنا : إنّ بعضَ الأخبار الواردة فى حقّ شخص فاضل مفتعلة أن تكون قادحة فى فضل ذلك الفاضل ؛ فإنّا مع اعتقادنا أنّ عليًّا أفضلُ الناس ، نعتقد أنّ بعضَ الأخبار الواردة فى فضائله مفتعل ومختلق .

وقد رُوِى أنّ أبا جعفر محمد بن علىّ الباقر عليه السلام ، قال لبعض أصحابه : يافلان، مالقينا من ظلم قريش إيانا ، وتظاهرهم علينا ، ومالقى شيعتنا ومحبونا من الناس ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس ، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معْدِنه ، واحتجّت على الأنصار بحقّنا وحجّتنا . ثم تداولتْها قريش ، واحدٌ بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكثت بيعتنا ، ونصبت الحرب لنا ، ولم يزل صاحبُ الأمر فى صعود كئود ، حتى قتِل ، فبويع الحسن ابنُه وعُوهد ثم غدِر به ، وأُسْلِم ، ووثب عليه أهلُ العراق حتى طعن بخنجر فى جَنْبه ، ونهبت عسكره ، وعولجت خلاليل أمهات أولاده ، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته ، وهمْ قليلٌ حقّ قليل . ثم بايع الحسينَ عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفا، ثم غدرُوا به ،وخرجوا عليه ، وبيعته فى أعناقهم وقتلوه ، ثم لم نزل ـ أهلَ البيتِ ـ نُسْتَذَلّ ونُستضام ، ونقصَى ونمْتهن ، ونحرَم ونقتَل ، ونَخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كلّ بلدة ، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووْا عنّا مالم نقله ومالم نفعله، ليبغّضونا إلى النّاس ، وكان عُظْمُ ذلك وكِبره زمنَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقُتِلَتْ شيعتُنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدى والأرجل على الظِّنّة ، وكان مَنْ يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجِن أو نُهِبَ ماله ، أو هُدِمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد ،

إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتلِ الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كلَّ قِتلة ، وأخذهم بكلِّ ظِنّة وتهمة ، حتى إنّ الرجل ليقال له : زنديق أو كافر ، أحبُّ إليه من أن يقال : شيعة عليّ ، وحتى صار الرّجل الذى يذكر بالخير — ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً — يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة ، من تفضيل بعض من قد سَلَف من الولاة ، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها ، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنّها حقٌّ لكثرة مَنْ قد رَوَاها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع .

وروَى أبو الحسن عليّ بن محمد بن أبى سيف المدائنيّ فى كتاب « الأحداث » قال : كتب معاوية نسخة واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمّة ممن روى شيئاً من فضل أبى تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء فى كلّ كورة ، وعلى كلّ منبر ، يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته ؛ وكان أشدَّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ؛ لكثرة مَنْ بها من شيعة عليّ عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سُمَيّة ، وضمّ إليه البصرة ، فكان يتتبع الشّيعة وهو بهم عارف ؛ لأنّه كان منهم أيّام على عليه السلام ؛ فقتلهم تحت كلّ حَجَر وَمَدَر ، وأخافهم ، وقطع الأيدىَ والأرجل ، وسَمَل العيون ، وصلّبهم على جُذوع النّخل ، وطردهم وشرّدهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم . وكتب معاويةُ إلى عُمّاله فى جميع الآفاق : ألاّ يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة . وكتب إليهم : أن انظروا مَن قِبَلكم من شِيعَةِ عثمان ومحبّيه وأهل ولايته ؛ والذين يروون فضائله ومناقبه ؛ فأدنُوا مجالسَهم وقرّبُوهم وأكرِمُوهم ، واكتبُوا لى بكلّ مايروِى كلّ رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ففعلوا ذلك ، حتى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثُه إليهم معاوية من الصِّلات والكِساء والحِباء والقطائع ، ويفيضه فى العرب منهم والموالى ؛ فكثر ذلك فى كلّ مصر ، وتنافسوا فى المنازل والدنيا ، فليس يجىء أحد مردود من النّاس عاملا من

عمال معاوية ، فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفّعه . فلبثوا بذلك حينا .

ثم كتب إلى عماله أنّ الحديث فى عثمان قد كثُر وفشا فى كل مصر وفى كلّ وجه وناحية ؛ فإذا جاءكم كتابى هذا فادعُوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبرا يرويه أحدٌ من المسلمين فى أبى تراب إلّا وتأتونى بمناقض له فى الصحابة ؛ فإن هذا أحبّ إلىّ وأقرّ لعينى ، وأدحضُ لحجة أبى تراب وشيعته ، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجدّ الناس فى رواية مايجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وأُلقِىَ إلى معلّمى الكتاتيب ؛ فعلّموا صبيانَهم وغلمانَهم من ذلك الكثير الواسع حتى رَووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن ، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمَهم وحشَمَهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا مَنْ قامت عليه البيّنة أنه يحبّ عليا وأهل بيته ، فامحُوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفَع ذلك بنسخة أخرى : مَن اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم ، فنكّلُوا به ، واهدِمُوا داره . فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ؛ ولا سيما بالكوفة ، حتى إن الرجلَ من شيعة على عليه السلام ليأتيه مَنْ يثق به ، فيدخل بيتَه ، فيلقى إليه سرّه ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ، ليكتُمَنّ عليه ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ؛ وكان أعظمَ الناس فى ذلك بليّةً القراء المراءون ، والمستضعَفون ، الذين يُظهرون الخشوع والنُّسك فيفتعلون الأحاديث ليحظَوْا بذلك عند ولاتهم ، ويقرّبوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضّياع

والمنازل ؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدى الديانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان ؛ فقبلوها ورَووها ، وهم يظنّون أنها حق ، ولو علمُوا أنّها باطلة لما رَووها ، ولا تديّنوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسنُ بن علىّ عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دَمه ؛ أو طريد فى الأرض .

ثم تفاقم الأمر بعد قَتْل الحُسين عليه السلام ، وولّىَ عبد الملك بن مروان ، فاشتدّ على الشّيعة ، ووُلِّىَ عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرّب إليه أهل النّسك والصلاح والدّين ببغض على وموالاة أعدائه ، وموالاة مَنْ يدّعى من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه ، فأكثروا فى الرواية فى فضلِهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغضّ من علىّ عليه السلام وعيبه ، والطعن فيه ، والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج ـ ويقال إنّه جدّ الأصمعىّ عبد الملك بن قُرَيب ـ فصاح به : أيُّها الأمير إن أهلِى عقّونى فسمّونى عليًّا ، وإنى فقير بائس ، وأنا إلى صلَة الأمير محتاج . فتضاحك له الحجاج ، وقال : لِلُطْفِ ما توسّلت به قد ولّيتك موضع كذا .

وقد روى ابنُ عرفة المعروف بنِفطويه ـ وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم ـ فى تاريخه ما يناسب هذا الخبر ، وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة فى فضائل الصحابة افتُعلت فى أيام بنى أمية ، تقرّبا إليهم بما يظنّون أنهم يُرغمون به أنوف بنى هاشم .

قلت : ولا يلزم من هذا أن يكون علىّ عليه السلام يسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل ، إلا أن معاوية وبنى أمية كانوا يبنُون الأمر من هذا على ما يظنّونه فى علىّ عليه السلام من أنه عدوّ مَنْ تقدم عليه ؛ ولم يكن الأمر فى الحقيقة كما

يظلمونه ، ولكنه كان يرى أنه أفضلُ منهم ، وأنّهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيق منه لهم ، ولا براءة منهم .

***

فأما قوله عليه السلام : « ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه » ، فقد وقع ذلك . وقال أصحابنا في الخبر الّذي رواه عبدالله بن عمر : « إنّ الميّت ليُعذّب ببكاء أهله عليه » : إن ابن عباس لمّا رُوِي له هذا الخبر ، قال : ذَهَل ابن عمر ، إنّما مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر يهوديّ ، فقال : إنّ أهله ليبكون عليه ، وإنه ليعذّب .

وقالوا أيضاً : إن عائشه أنكرت ذلك ، وقالت : ذَهَل أبو عبد الرحمن ، كما ذهل في خبر قَلِيب بدر ، إنّما قال عليه السلام : « إنهم ليبكون عليه ، وإنّه ليعذب بجرمه » .

قالوا : وموضع غلطه في خبر القَلِيب أنه روى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وقف على قَلِيب بدر ، فقال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّا » ؟ ثم قال : « إنهم يسمعون ما أقول لهم » ، فأنكرت عائشة ذلك ، وقالت : إنما قال : « إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق » ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (١) .

فأما الرّجل الثالث ، وهو الذي يسمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ ، فقد وقع كثيرا ، وكتُب الحديث والفقه مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحُمُرِ الأهلية لخبر رووه في ذلك ، ولم يرووا الخبر الناسخ .

وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون في العلم .

وأما قوله عليه السلام : « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له

---

(١) سورة النمل ٨٠ .

وجهان » ، فهذا داخلٌ فى القسم الثانى وغير خارج عنه ، ولكنّه كالنّوع من الجنس ، لأنّ الوهم والغلط جنس تحته أنواع .

* * *

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصّحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ، لا يطّلع أحدٌ من النّاس على مايدور بينهما ، وكان كثيرَ السؤال للنبيّ صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلّى الله عليه وآله ، وإذا لم يسأل ابتدأه النبيّ صلى الله عليه وآله بالتّعليم والتثقيف ولم يكن أحدٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله كذلك ، بل كانوا أقساماً : فمنهم مَنْ يهابه أن يسأله ، وهم الذين يحبّون أن يجئ الأعرابيّ أو الطارئ فيسأله وهم يسمعون ، ومنهم مَنْ كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمّة فى النظر والبحث ، ومنهم مَنْ كانَ مشغولا عن طلب العلم وفهم المعانى ، إمّا بعبادة أو دنيا ، ومنهم المقلّد يرى أنّ فرضه السكوت وترك السؤال ، ومنهم المبغض الشّانئ الذى ليس للدّين عنده من الموقع مايضيّع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه ؛ وانضاف إلى الأمر الخاصّ بعليّ عليه السلام ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته ، وإشراق نفسه وضوءها ، وإذا كان المحلّ قابلا متهيّئا ، كان الفاعل المؤثّر موجودا ، والموانع مرتفعة ، حصل الأثر على أتمّ مايمكن ؛ فلذلك كان علىّ عليه السلام — كما قال الحسن البصرىّ — ربّانىّ هذه الأمة وذا فضلها ؛ ولذا تسمّيه الفلاسفة: إمام الأئمة وحكيم العرب .

[فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث]

واعلم أنّ أصلَ الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من جهة الشّيعة ، فإنّهم وضعوا

فى مبدأ الأمر أحاديثَ مختلفة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث «السطل» وحديث «الرّمانة» وحديث غزوة البئر التى كان فيها الشياطين، وتعرف كما زعموا بـ « ذات العلم » ، وحديث غَسْل سلمان الفارسىّ ، وطىّ الأرض ، وحديث الجمجمة ، ونحو ذلك . فلما رأت البَكْرِيّة ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديثَ فى مقابلة هذه الأحاديث ، نحو «لو كنت متخذا خليلا» ، فإنهم وضعوه فى مقابلة حديث الإخاء ، ونحو سدّ الأبواب؛ فإنّه كان لعلىّ عليه السلام فقلبته البكرية إلى أبى بكر، ونحو « ائتونى بدواة وبياض أكتب فيه لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان » . ثم قال: «يأبَى الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر » ، فإنهم وضعوه فى مقابلة الحديث المروىّ عنه فى مرضه : « ائتونى بدواةٍ وبياضٍ أكتب لكم مالا تضلّون بعده أبدا » ، فاختلفوا عنده . وقال قوم منهم : لقد غلبه الوجع ، حسْبنا كتاب الله ونحو حديث : « أنا راضٍ عنكَ فهل أنت عنّى راضٍ ! » ، ونحو ذلك . فلمّا رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا فى وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذى زعموا أنه فتله فى عُنق خالد ، وحديث اللّوح الذى زعموا أنه كان فى غدائر الحنفيّة أم محمد ، وحديث : « لا يفعلنّ خالد ما آمر به »، وحديث الصحيفة التى علّقت عام الفتح بالكعبة ، وحديث الشيخ الذى صعد المنبر يوم بويع أبو بكر ، فسبق النّاس إلى بيعته ، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضى نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلىّ أدون الطبقات فيهم ، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة فى علىّ وفى ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حبّ الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان فى غُنْيَةٍ عمّا اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل علىّ عليه السلام الثابتة الصحيحة، وفضائل أبى بكر المحقّقة

الملومة ماينفى عن تكلّف العصبيّة لها ، فإنّ العصبيّة لما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوئ والمقابح . ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبيّة ، وأن يجريَنا على ماعوّدنا من حبّ الحقّ أين وجد وحيث كان ؛ سخط ذلك من سخط ، ورضى به من رضى ، بمنّه ولطفه !

(٢٠٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ ، يَبَساً جَامِداً ، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً ، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا ، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ .

قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ . وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا ، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا ، وَأَطْوَادَهَا ؛ فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا ، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا ، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا ، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا ، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا ، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً ، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً ، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا ، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا ، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا .

فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا ، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا ! فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً ، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً ، فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي ، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى !

***

الشرح :

أراد أن يقول : « وكان من اقتداره » فقال : « وكان من اقتدار جبروته »، تعظيما وتفخيما ، كما يقال للملك : أمرت الحضرةُ الشريفة بكذا .

والبحر الزاخر : الّذى قد امتد جدًّا وارتفع .

والمتراكم : المجتمع بعضُه على بعض .

والمتقاصف : الشديد الصوت ، قصفَ الرّعد وغيره قصيفا .

واليَبَس ، بالتحريك: المكان يكون رطبا ثم ييبس، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ [1]، واليبْس بالسكون: اليابس خِلْقة ، حطب يبْس ، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام ، لأنّ الحطب ليس يابساً خِلْقة بل كان رطبا من قبل ، فالأصوب أن يقال : لا تكون هذه اللفظة محرّكة إلا فى المكان خاصّة .

وفَطَر : خلق ، والمضارع يفطُر بالضمّ ، فَطْراً .

والأطباق : جمع طبَق ، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد ، يقول : خلق منه أجساما مجتمعة مرتتقة، ثم فتقها سبع سموات . وروى : « ثم فطر منه طِبَاقا » أى أجساماً منفصلة فى الحقيقة متّصلة فى الصورة بعضها فوق بعض، وهى من ألفاظ القرآن [2] المجيد .

والضمير فى « منه » يرجع إلى ماء البحر فى أظهر النّظر ، وقد يمكن أن يرجع إلى اليَبس .

* * *

واعلم أنه قد تكرّر فى كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول ويناسبه ، وهو مذهب

(١) سورة طه ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة الملك ٣ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ، وقوله فى سورة نوح ١٥ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ .

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثاليس الملطيّ ، قالوا : أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبده ، والسماء من بخاره ، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا ، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾(١).

قال شيخنا أبو علىّ وأبو القاسم رحمهما الله فى تفسيريهما : هذه الآية دالّة على أنّ الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض ، قالا : وكان الماء على الهواء ، قالا : وهذا يدلّ أيضا على أنّ الملائكة كانوا موجودين قبل خلقِ السموات والأرض، لأنّ الحكيم سبحانه لايجوز أن يقدّم خلْق الجماد على خلق المكلّفين ، لأنه يكون عبثا .

وقال على بن عيسى الرمانىّ من مشايخنا : إنّه غيرُ ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان، إذا علم أنّ فى إخبار المكلّفين بذلك لطفا لهم ، ولا يصحّ أن يخبرهم إلّا وهو صادق فيما أخبر به ، وإنّما يكون صادقا إذا كان الخبر خبره على ماأخبر عنه ، وفى ذلك حسن تقديم خلْق الجماد على خلق الحيوان . وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنه كان يذهب إلى أنّ الأرضَ موضوعة على ماء البحر ، وأنّ البحر حامل لها بقدرة الله تعالى ، وهو معنى قوله : « يحملها الأخضر المثعنجِر ، والقمقام المسخّر » ، وأنّ البحر الحامل لها قد كان جارياً فوقف تحتها ، وأنّه تعالى خلَق الجبال فى الأرض ، فجعل أصولها راسخة فى ماء البحر الحامل للأرض وأعاليها شامخة فى الهواء ، وأنّه سبحانه جعَل هذه الجبال عِماداً للأرض ، وأوتادا تمنعها من الحركة والاضطراب ، ولولاها لماجَتْ واضطربت ، وأنّ هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحرّكه حركة عنيفة ، وتموج السحب التى تغترف الماء منه لتمطر الأرض به ، وهذا كلّه مطابق لما فى الكتاب العزيز ، والسنّة النبويّة، والنظر الحكمىّ ، الا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) سورة هود ٧

كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[1]، وهذا هو صريح قوله عليه السلام : « ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها » ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[2] ، وإلى ماورد فى الخبر من أنّ الأرض مدحوّة على الماء، وأنّ الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها ، ثم تمطر

وأما النّظر الحكميّ فطابق لكلامه إذا تأمّله المتأمّل ، وحمله على المحمل العقلىّ ، وذلك لأنّ الأرض هى آخر طبقات العناصر ، وقبلها عنصر الماء ، وهو محيط بالأرض كلّها إلّا مابرز منها ،وهو مقدار الربع من كرَة الأرض ، على ماذكره علماء هذا الفنّ وبرهنوا عليه ، فهذا تفسير قوله عليه السلام : « يحْمِلُها الأخضر المثعنجر » .

وأما قوله: « ووقف الجارى منه لخشيته » ، فلا يدلّ دلالة قاطعة على أنه كان جاريًا ووقف ، ولكن ذلك كلامٌ خرج مخرج التعظيم والتبجيل، ومعناه أنّ الماء طبعه الجريان والسَّيلان ، فهو جارٍ بالقوّة ، وإن لم يكن جاريا بالفعل ، وإنما وقف ولم يجرِ بالفعل بقدرة الله تعالى، المانعة له من السيلان ، وليس قوله: « ورست أصولها فى الماء » ممّا ينافى النظر العقلىّ ، لأنه لم يقل : « ورست أصولها فى ماء البحر » ، ولكنه قال : « فى الماء » ، ولا شبهة فى أنّ أصولَ الجبال راسية فى الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض ، فإنّ الأرض كلّها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصّورة الهوائيّة إلى الصورة المائيّة .

وليس ذكره للجبال وكونها مانعةً للأرض من الحركة بمُنافٍ أيضا للنظر الحكمىّ لأنّ الجبال فى الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة ، فيكون ثقلها مانعا من الهدّة والرجفة .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ٣١

وليس قوله : « تكركره الرياح » منافياً للنظر الحكمىّ أيضا، لأنّ كرة الهواء محيطة بكرة ، وقد تعصف الرياح فى كرة الهواء للأسباب المذكورة فى موضعها من هذا العلم ، فيتموّج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح .

وليس قوله عليه السلام : « وتمخضه الغمام الذوارف » صريحا فى أنّ السحب تنزل فى البحر ، فتغترف منه ، كما قد يعتقد فى المشهور العامّى ، نحو قول الشاعر :

كالبحرِ يُمطِرُه السحاب وَمَا لَهَا فَضْلٌ عليه لأنّها من مائِهِ

بل يجوز أن تكون الغمام الذّوارف تمخضه وتحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها ، فقد ثبت أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام موجّه ؛ إن شئت فسرته بما يقوله أهلُ الظاهر ، وإنْ شئت فسّرتَه بما يعتقده الحكماء .

فإن قلت : فكيف قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؛ وهل كان الذين كفروا رائين لذلك ؛ حتى يقول لهم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟

قلت : هذا فى قوله : « اعلموا أنّ السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ، كما يقول الإنسان لصاحبه : ألم تعلم أنّ الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه ؟ أى اعلم ذلك إن كنت غير عالم ؛ والرؤية هنا بمعنى العلم .

واعلم أنّه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء — ويقال : إنه مذهب سقراط — إلى تفسير القيامة وجهنّم بما يبتنى على وضع الأرض على الماء ، فقالوا : الأرض موضوعة على الماء ، والماء على الهواء ، والهواء على النار ، والنار فى حشو الأفلاك ؛ ولما كان العُنصران الخفيفان ، — وهما الهواء والنار — يقتضيان صعوداً دائماً عما يحيطان به ، والعنصران الثقيلان اللّذان فى وسطهما ، وهما

الماء والأرض ؛ يقتضيان النزول والهبوط ، وقعت الممانعة والمدافعة ، فلزم من ذلك وقوف الماء والأرض فى الوسط .

قالوا : ثم إنّ النار لاتزال يتزايد تأثيرها فى إسخان الماء، وينضاف إلى ذلك حرّ الشمس والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائىّ غايتهما فى الغليان والفوران ، فيتصاعد بخارٌ عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة ، وينضاف إلى ذلك حرّ فلك الأثير الملاصق للأفلاك فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص ، وتتهافت وتتساقط وتصير كالمهل الشديد الحرارة . ونفوس البشر على قسمين : أحدهما ما تجوهر وصار مجردا بطريق العلوم والمعارف وقطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبّرا للبدن ، والآخر مابقى على جسمانيته بطريق خلوه من العلوم والمعارف ، وانغماسه فى اللذات والشهوات الجسمانية ، فأمّا الأول فإنه يلتحق بالنفس الكلّية المجردة ، ويخلص من دائرة هذا العالم بالكلّية . وأمّا الثانى فإنّه تنصبّ عليه تلك الأجسام الفلكية الذائبة ، فيحترق بالكلّية ، ويتعذب ويلقى آلاما شديدة .

قالوا : هذا هو باطن ماوردت به الرّواية من العذاب عليها ، وخراب العالم والأفلاك وانهدامها .

***

ثم نعود إلى شرح الألفاظ :

قوله عليه السلام : « فاستمسكت » ، أى وقفت وثبتت.

والهاء فى « حدّه » تعود إلى أمره ، أى قامت على حدّ ماأمرت به ؛ أى لم تتجاوزه ولا تعدّته .

والأخضر : البحر ، ويسمّى أيضا « خُضارة » معرفة غير مصروف، والعرب تسميه بذلك؛ إمّا لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر ، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ

الأخضر ؛ كما سمّوا الأخضر أسود، نحو قوله : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1] ، ونحو تسميتهم قرى العراق سوادا لخضرتها وكثرة شجرها ، ونحو قولهم للدبزج[2] من الدواب أخضر .

المثعنجر : السائل، ثعجرت الدّم وغيره فاثعنجر، أي صببتُه فانصبّ ، وتصغير المثعنجر مُثَيْعِج ومُثَيْعِيج .

والقَمقام ، بالفتح : من أسماء البحر ، ويقال لمن وقع في أمر عظيم : وقع في قمقام من الأمر ، تشبيها بالبحر .

قوله عليه السلام : « وَجَبَل جلاميدَها » ، أي وخلق صخورها ؛ جمع جُلمود .

والنُّشُوز : جمع نَشز ، وهو المرتفع من الأرض . ويجوز فتح الشين .

ومتونَها: جوانبها. وأطوادَها: جبالها: «ويروى»: «وأطوادِها» بالجر عطفا على متونها.

فأرساها في مراسيها، أثبتها في مواضعها ،رسا الشيْ يرسُو: ثبت. ورست أقدامُهم في الحرب: ثبتت ، ورست السفينة تَرسُو رسوًّا ورسْوا ، أي وقفت في البحر . وقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[3] ؛ بالضم من أجريت وأرسيت ، ومن قرأ بالفتح فهو من « رست » هي ، « وجرت » هي .

وألزمها قرارَاتها : أمسكها حيث استقرّت .

قوله: «فأنهد جبالها»،أي أعلاها. نهد ثدي الجارية ينهُد بالضمّ ، إذا أشرف وكعب، فهي ناهد وناهدة .

وسهولها : ما تطامن منها عن الجبال .

وأساخ قواعدها ، أي غيّبَ قواعد الجبال في جوانب أقطار الأرض ، ساخت قوائم

---

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

(٢) في اللسان : « يقال : فرس أخضر ، وهو الديزج » .

(٣) سورة هود ٤١ .

الفرس فى الأرض تَسُوخ وتَسِيخ ، أى دخلت فيها وغابت ، مثل ثاخت ، وأسخْتها أنا مثل أثختها .

والأنصاب: الأجسام المنصوبة ، الواحد نُصُب بضم النون والصاد ، ومنه سميت الأصنام نُصُبا فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[1] ؛ لأنها نصبت فعبدت من دون الله، قال الأعشى :

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنّه   لعاقبةٍ ، واللهَ ربّك فاعْبُدا[2]

أى وأساخ قواعد الجبالِ فى متون أقطار الأرض ؛ وفى المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب الماثلة ، وهى الجبال أنفسها .

قوله : « فأشهق قِلالها » ، جمع قُلّةٍ وهى ما علا من رأس الجبل ، أشهقها : جعلها شاهقة ، أى عالية .

وأرزّها : أثبتها فيهـا ، رزت الجرادة تَرُزُّ رَزًّا ، وهو أن تدخل ذَنبها فى الأرض فتلقى بيضها، وأرَزّها الله: أثبت ذلك مهاق الأرض ، ويجوز « أرزت»، لازما غير متعد، مثلَ رزت ، وارْتَزَّ السهم فى القرطاس : ثبت فيه . وروى « وآرزها » بالمد من قولهم : شجرة آرزة ، أى ثابتة فى الأرض ، أرَزَت بالفتح، تأرِز بالكسر ، أى ثبتت، وآرزها ـ بالمد ـ غيرُها ، أى أثبتها .

وتميد : تتحرك . وتَسِيخ : تنزل وتهوى .

فإن قلت : ما الفرق بين الثلاثة : تميد بأهلهـا ، أو تسيخ بحملهـا ، أو تزول عن مواضعها ؟

قلت : لأنهـا لو تحركت لـكانت إمّا أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها ،

---

(١) سورة المائدة ٣ .
(٢) ديوانه ١٠٣ .

والأوّل هو المراد بقوله : « تميد بأهلها » ، والثانى تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أو لا تنزل إلى تحت ، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله : « أو تسيخُ بحملها » والقسم الثانى هو المراد بقوله : « أو تزول عن مواضعها » .

فإن قلت : ما المراد بـ « على » فى قوله : « فسكنت على حركتها » ؟ .

قلت : هى لهيئة الحال ، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه ، ودخلت إليه على شربه ، أى سكنت ، على أن من شأنها الحركة ؛ لأنها محمولة على سائل متموّج .

قوله : « مَوَجان مياهها » ، بناء « فَعَلان » لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والنزَوان والخفقان ، ونحو ذلك .

وأجمدها ، أى جعلها جامدة . وأكنافها : جوانبها . والمهاد : الفراش

فوق بحر لجىّ : كثير الماء ، منسوب إلى اللُّجّة ، وهى معظم البحر .

قوله : « بكركرة الرياح » ، الكركرة : تصريف الريح السّحاب إذا جمعته بعد تفريق وأصله « يكرّر » من التكرير ، فأعادوا الكاف ، كركرت الفارس عنّى أى دفعته ورددته .

والرياح العواصف : الشديدة الهبوب . وتمخَضه ، يجوز فتح الخاء وضمّها وكسرها ، والفتح أفصح ؛ لمكان حرف الحلق ، من مَخَضت اللبن ، إذا حركته لتأخذ زبده .

والغمام : جمع ، والواحدة غمامة ، ولذلك قال : « الذّوارف » ، لأنّ « فواعل » أكثر مايكون لجمع المؤنث ، ذرفت عينه أى دمعت ، أى السحب المواطر ، والمضارع من « ذرفت » عينه « تذرِف » بالكسر ، ذَرْفا وذَرَفا . والمذارف : المدامع .

(٢٠٥)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَللّٰهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ ، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً ، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَهُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ .

* * *

الشرح :

ما في « أيّما » زائدة مؤكّدة ، ومعنى الفصل وعيدُ مَن استنصره فقعد عن نصره ، ووصْف المقالة بأنّها عادلة ، إمّا تأكيد ، كما قالوا : شعر شاعر ، وإمّا ذاتُ عَدْل ، كما قالوا : رجل تامر ولابن ، أي ذو تَمْر ولبن ، ويجوز أيضاً أن يريد بالعادلة المستقيمة التي ليست كاذبة ولا محرّفة عن جهتها ، والجائرة نقيضها وهي المنحرفة ، جارَ فلانٌ عن الطريق ، أي انحرف وعدل .

والنكوص : التأخّر .

قوله عليه السلام : « نستشهدُك عليه » ، أي نسألك أن تشهد عليه ، ووصفه تعالى

بأنه أكبرُ الشاهدين شهادة، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أيُّ شَيْءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ ﴾[1]، يقول: اللّهمّ إنّا نستشهدك على خذلان من استنصرناه ،واستنفرناه إلى نُصرتك ،والجهاد عن دينك فأبى النّهوض ، ونكث عن القيام بواجب الجهاد، ونستشهد عِبادَك ،من البشر فى أرضك ، وعبادك من الملائكة فى سمواتك عليه أيضاً ، ثم أنت بعد ذلك المغنى لنا عن نصرته ونهضته ، بما تتيحه لنا من النصر ، وتؤيدنا به من الإعزاز والقُوّة ، والآخذ له بذنبه فى القعود والتخلّف .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام ١٩
(٢) سورة محمد ٢٨

(٢٠٦)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ ؛ وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا ازْدِيَادٍ ؛ وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ . لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ .

* * *

الشرحُ :

يجوز شَبَه وشِبْه، والرواية هاهنا بالفتح، وتعاليه سبحانه عن شَبَه المخلوقين ؛ كونُه قديماً واجب الوجود ، وكلّ مخلوق محدَث ممكن الوجود .

قوله: « الغالب لمقال الواصفين »، أى إنّ كُنْه جلاله وعظمته، لايستطيع الواصفون وصفه وإنْ أطنبوا وأسهبوا ، فهو كالغالب لأقوالهم لعجزها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه ، والظاهر، بأفعاله ، والباطن بذاته ، لأنه إنّما يعلم منه أفعاله : وأما ذاته فغير معلومة .

ثم وصف علمه تعالى فقال: إنّه غيرُ مكتسَب كما يكتسِب الواحد منّا علومَه بالاستدلال والنظر ، ولا هو علمٌ يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منّا ومعارفه ، وتكثر لكثرة الطُّرُق التى يتطرّق بها إليها .

ثم قال : « ولا علم مُستفاد » ، أي ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجدّد كما يذهب إليه جَهم وأتباعه وهشام بن الحكم ، ومن قال بقوله .

ثم ذكر أنه تعالى قدّر الأمور كلّها بغير رويّة،أي بغير فكر ولاضمير،وهو مايطويه الإنسان من الرأى والاعتقاد والعزم فى قلبه .

ثم وصفه تعالى بأنه لايغشاه ظلامٌ ، لأنه ليس بجسم،ولا يستضىء بالأنوار ؛كالأجسام ذوات البصر . ولا يَرْهقه ليل ، أى لا يغشاه . ولا يجرى عليه نهار ، لأنه ليس بزمانىّ . ولا قابل للحركة ، ليس إدراكه بالإبصار ، لأنّ ذلك يستدعى المقابلة . ولا علمه بالإخبار مصدر أخبر ، أى ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلّفين ، بل هو يعلم كلّ شىء ، لأنّ ذاته ذات واجبٌ لها أن تعلم كلّ شىء لمجرّد ذاتها المخصوصة ، من غير زيادة أمر على ذاتها .

* * *

الأصْـلُ :

منها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ ، وَقَدَّمَهُ فِي الاصْطِفَاءِ ، فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

* * *

الشّـرْحُ :

أرسله بالضياء ، أى بالحقّ ، وسمّى الحقّ ضياء ، لأنه يهتدَى به ، أو أرسله بالضياء أى بالقرآن .

وقدّمه فى الإصطفاء ، أى قدّمه فى الاصطفاء على غيره من العرب والعجم ، قالت قريش : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ (١) ، أى على رجل من رجلين من القريتين عظيم ؛ أى إمّا على الوليد بن المغيرة من مكّة ، أو على عروة بن مسعود الثقفىّ من الطائف .

ثم قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (٢) ، أى هو سبحانه العالم بالمصلحة فى إرسال الرسل ، وتقديم من يرى فى الاصطفاء على غيره .

فرتق به المفاتق ، أى أصلح به المفاسد ، والرّتق ضدّ الفتق ، والمفاتق : جمع مَفْتَق ، وهو مصدر ؛ كالمضرب والمقتل .

وساور به المغالب : ساورتُ زيدا أى واثبته ، ورجل سَوّار ، أى وثّاب ، وسَوْرة الخمر : وثوبها فى الرأس .

والحزونة ضدّ السهولة ، والحَزْن : ما غَلُظ من الأرض ، والسّهل : مالان منها ، واستعير لغير الأرض كالأخلاق ونحوها .

قوله : « حتى سرح الضلال » ، أى طرده وأسرع به ذهابا .

عن يمين وشمال ، من قولهم : ناقة سُرُح ومنسرحة ، أى سريعة . ومنه تسريح المرأة ، أى تطليقها .

(١) سورة الزخرف ٣١
(٢) سورة الزخرف ٣٢

(٢٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ ، وَحَكَمٌ فَصَلَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا ، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً ، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً ، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ ؛ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَفْئِدَةَ ؛ فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ ؛ يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ ، وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ . لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ ؛ عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ .

فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا ، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا ، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً ؛ فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ .

فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ ،

وَتَقَطَّعَ أَسْبَابُهُ . وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الضمير فى « أنّه » يرجع إلى القَضاء والقَدر المذكورفى صدرهذه الخطبة،ولم يذكره الرضيّ رحمه الله ؛ يقول : أشهد أنّ قضاءه تعالى عَدْل عَدلَ وحَكَم بالحقّ ، فإنّه حَكَمٌ فصّل بين العباد بالإنصاف ، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز ، وهو بالحقيقة منسوب إلى ذى القضاء ، والقاضى به هو الله تعالى .

قوله : « وسيّد عباده » ، هذا كالمجمع عليه بين المسلمين ، وإن كان قد خالف فيه شذوذٌ منهم ، واحتجّ الجمهور بقوله: « أنا سيّد ولد آدم ولا فخر » ، وبقوله : « ادعوا لِي سيّدَ العرب عليّاً » ، فقالت عائشة : ألستَ سيّد العرب ! فقال : « أنا سيّد البشر،وعلىّ سيّد العرب » ، وبقوله : « آدم ومَنْ دونه تحت لوائى » .

واحتجّ المخالف بقوله عليه السلام : « لا تفضّلونى على أخى يونس بن متّى » .

وأجاب الأولون تارةً بالطعن فى إسناد الخبر ، وتارة بأنه حكاية كلام حكاه صلى الله عليه وآله عن عيسى بن مريم ، وتارة بأنّ النهى إنّما كان عن الغلوّ فيه كما غلت الأمم فى أنبيائها ، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول : لا تأكل من الخبز ولا درهما ، وليس مراده تحريمَ أكل الدّرهم والدرهمين ، بل تحريم مايستضرّ بأكله منه .

قوله عليه السلام : « كلّما نسخَ الله الخلق فرقتين جعله فى خيرهما » ، النّسْخ:النقل، ومنه نسخ الكتاب ، ومنه نَسَخَت الرّيحُ آثار القوم ، ونسخت الشمس الظلّ ، يقول:

كلّما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين ، جعل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام، وسمّى ذلك نسخا ، لأنّ البطن الأول يزول ، ويخلُفه البطن الثانى ، ومنه مسائل المناسخات فى الفرائض .

وهذا المعنى قد وردَ مرفوعاً فى عدّة أحاديث ، نحو قولِه صلّى الله عليه وآله : « ماافترقت فرقتان منذُ نَسل آدم ولدَه إلّا كنتُ فى خيرهما » .

ونحو قوله : « إنّ الله اصطفَى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل مُضَر ، واصطفى من مُضَر كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش هاشما، واصطفانى من بنى هاشم » .

قوله : « لم يُسهِمْ فيه عاهر ، ولا ضرب فيه فاجر » ، لم يسهم : لم يضرب فيه عاهر بسهم ، أى بنصيب ، وجمعه سُهمان ، والعاهر : ذو العَهَر ، بالتحريك وهو الفجور والزنا، ويجوز تسكين الهاء ، مثل نَهْر ونَهَر ، وهذا هو المصدر، والماضى عَهَر بالفتح، والاسم العِهْر، بكسر العين وسكون الهاء ، والمرأة عاهرة ومعاهِرة وعَيْهرة ، وتعيْهَرَ الرّجل إذا زنى ، والفاجر كالعاهر هاهنا ، وأصلُ الفجور: المَيْلُ ، قال لَبِيد :

فإنْ تتقـدّمْ تَغْشَ مِنْها مقدّماً غليظاً، وإن أخّرْتَ فالكِفْلُ فاجِرُ[1]

يقول : مقعد الرديف مائل .

***

[ذكر بعض المطاعن فى النسب وكلام للجاحظ فى ذلك]

وفى الكلام رمْز إلى جماعة من الصّحابة فى أنسابهم طعن ، كما يقال : إنّ آل سعد ابن أبى وقّاص ليسوا من بنى زُهرة بن كلاب ، وإنّهم من بنى عُذْرة من قحطان ،

(١) ديوانه ٢ : ٥

وكما قالوا : إن آل الزّبير بن العوام من أرض مصر من القِبط ، وليسوا من بنى أسد بن عبد العُزّى . قال الهيثم بن عدىّ فى كتاب "مثالب العرب" : إنّ خُوَيلد بن أسَد بن عبد العُزّى كان أتى مصر ثم انصرف منها بالعوّام ، فتبناه ، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خُويلد :

بَنِى أسـدٍ مابالُ آل خويلدٍ يحنون شوقاً كلّ يوم إلى القِبْطِ ![1]

متى يذكروا قِفْقى يحنوا لذكرها والرّمث المقرون والسّمك الرّقطِ

عيون كأمثال الزّجاج وضـيمةٌ تخالف كعبا فى لِحَى كَثّة ثُطٌّ[2]

يُرَى ذاك فى الشّبان والشيب منهمُ مبيناً وفى الأطفال والجِلّة الشُّمْطِ

لَعَمْرُ أبى العوام إنّ خُوَيلداً غـداة تبنّاه ليُوثَق فى الشُّرطِ[3]

وكما يقال فى قوم آخرين : نرفع هذا الكتاب عن ذكر مايُطْعَنُ به فى أنسابهم ، كى لايظنّ بنا أنّا نحب المقالة فى النّاس .

قال شيخنا أبو عثمان فى كتاب "مفاخرات قريش" : لاخيرَ فى ذكر العيوب إلّا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قطّ إلا لدعىّ أو شعوبىّ ، ولست واجده لصحيح النسب ، ولا لقليل الحسد ، وربما كانت حكاية الفحش أفحشَ من الفحش ، ونقلُ الكذب أقبحَ من الكذب . وقال النبي صلّى الله عليه وآله : « اعف عن ذى قَبر » ، وقال : « لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات » ، وقيل فى المثل : « يكفيك من شرّ سماعه » . وقالوا : أسمعك مَنْ أبلغك ، وقالوا : من طلب عيبا وجده ، وقال النابغة :

وَلَسْتَ بِمستبقٍ أخـاً لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ ، أىُّ الرّجالِ المهذّبُ ![4]

---

(١) ديوانه ٢٣٩ .

(٢) يقال : رجل ثط وأثط ؛ إذا عرى وجهه من الشعر إلا طاقات فى أسفل ضلعه .

(٣) يريد شرط الخليفة .

(٤) ديوانه ١٤ .

قال أبو عثمان : وبلغ عمرَ بن الخطّاب أنّ أناسا من رُواة الأشعار وحَمَلة الآثار يعيبون النّاس ، ويثلبونهم فى أسلافهم ، فقام على المنبر ، وقال : إيّاكم وذكر العيوب ، والبحث عن الأصول ، فلو قلت : لايخرجُ اليوم من هذه الأبواب إلّا مَنْ لا وَصْمَة فيه لم يخرج منكم أحد . فقام رجلٌ من قريش ـ نكره أن نذكره ـ فقال : إذاً كنتُ أنا وأنت ياأمير المؤمنين نخرج ! فقال : كذبت ، بل كان يقال لك ، ياقين ابن قين ، اقعد!

قلت : الرّجل الذى قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ ، كان عمرُ يبغضه لبغضه أباه خالدا ، ولأنّ المهاجر كان عَلَوِيّ الرأى جدا ، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه ، شهد المهاجر صِفّين مع عليّ عليه السلام ، وشهدها عبدُ الرحمن مع معاوية ، وكان المهاجر مع عليّ عليه السلام فى يوم الجمل ، وفقئت ذلك اليوم عينهُ . ولأنّ الكلام الذى بلغ عمر بلغه عن المهاجر ، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته فى قريش ـ وكونه يسمّى ريحانة قريش ، ويسمّى العدْل ، ويسمى الوحيد ـ حدّادا يصنع الدروع وغيرها بيده ، ذكر ذلك عنه عبدُ الله بن قتيبة فى كتاب "المعارف (١)".

وروى أبو الحسن المدائنيّ هذا الخبَر فى كتاب "أمّهات الخلفاء" وقال: إنه رُوِى عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة ، فقال : لاتلمْه يابن أخى ، إنه أشفق أن يُحَدَّج (٢) بقضيّة نُفيل بن عبد العزى وصهاك أمَة الزبير بن عبد المطلب . ثم قال : رحم الله عمر ! فإنه لم يعدُ السنّة ، وتلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

أمّا قول ابن جرير الآمُليّ الطّبرستانيّ فى كتاب "المسترشد" : إنّ عثمان والد

---

(١) المعارف ٢٠٠

(٢) يقال : حدجه بذنب غيره ؛ أى عزاه إليه

(٣) سورة النور ١٩

أبي بكر الصديق كان ناكحاً أمّ الخير ابنة أخته ، فليس بصحيح ، ولكنها ابنة عمّه ، لأنها ابنة صخر بن عامر ، وعثمان هو ابن عمرو بن عامر ؛ والعجب لمن اتبعه من فضلاء الإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب ، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش ، ولم يكن أحدٌ منهم مجوسيًّا ولا يهوديًّا ، ولا كان من مذهبهم حِلّ نكاح بنات الأخ ولا بنات الأخت !

* * *

ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان ، قال : ومتى يقدر الناس — حفظك الله — على رجل مسلَّم من كلّ أُبْنة ، ومبرّأ من كلّ آفة ؛ في جميع آبائه وأمهاته وأسلافه وأصهاره ، حتى تسلم له أخواله وأعمامه ، وخالاته وعمّاته ، وأخواته وبناته ، وأمّهات نسائه ، وجميع مَنْ يناسبه من قِبَل جدّاته وأجداده ، وأصهاره وأختانه ! ولو كان ذلك موجوداً لما كان لنسب رسول الله صلّى الله عليه وآله فضيلة في النّقاء والتّهذيب ، وفي التّصفية والتّنقيح ، قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « ما مسّني عِرْقُ سِفَاحٍ قطّ ، ومازلت أُنْقَلُ من الأصلاب السليمة من الوُصوم [1] ، والأرحام البريئة من العيوب » ، فلسنا نقضي لأحدٍ بالنّقاء من جميع الوجوه ، إلّا لنسب من صدّقه القرآن ، واختاره الله على جميع الأنام ، وإلّا فلا بدّ من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفيه ، أو في بعض أسلافه ، أو في بعض أصهاره ؛ ولكنّه يكون مغطًّى بالصلاح ، ومحجوبا بالفضائل ، ومغمورا بالمناقب .

ولو تأمّلت أحوالَ النّاس ، لوجدت أكثرهم عيوبا أشدَّهم تعييباً ، قال الزّبرقان بن بدر : ما استبَّ رجُلان إلّا غلب الأمُهما . وقال : خَصْلتان كثيرتان في امرئ السّوء :

(١) الوصوم : العيوب .

كثرة الطّعام ، وشدّة الشّباب ، ولو كان مايقوله أصحابُ الثالب حقًّا ، لما كان على ظهرها عربيّ ، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشميّ : إنْ كانَ مايقول بعضٌ في بعض حقًّا ، فما فيهم صحيح ، وإن كان ما يقولُ بعضُ المتكلّمين في بعض حقًّا ، فما فيهم مسلم !

* * *

قوله عليه السلام : « ألا وإنّ الله قد جَعل للخير أهلا ، وللحق دعائم ، وللطاعة عِصَماً » . الدعائم : مايدعَم بها البيت لئلا يسقُط ، والعِصَم : جمع عصْمَة ، وهو مايُحفظ به الشيء ويمنع ، فأهل الخير هم المتقون . ودعائم الحق : الأدِلّة الموصّلة إليه المثبتة له في القلوب. وعِصَم الطّاعة : هي الإدمان على فعلها ، والتمرّن على الإتيان بها ، لأن المُرون على الفعل يكسب الفاعل ملَكةً تقتضي سهولته عليه . والعون هاهنا : هو اللطف المقرّب من الطاعة، المبعِد من القبيح .

ثم قال عليه السلام : « إنّه يقولُ على الألسنة ، ويثبّت الأفئدة » ، وهذا من باب التوسّع والمجاز ، لأنه لما كان مسهلا للقول أطلق عليه أنّه يقول على الألسنة ،ولمّا كان الله تعالى هو الّذي يثبّت الأفئدة ، كما قال : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [1] ، نسب التثبيت إلى اللّطف ، لأنّه من فعل الله تعالى ، كما ينسَب الإنبات إلى المطر ، وإنما المنبِت للزّرع هو الله تعالى ، والمطر فعله .

ثم قال عليه السلام : « فيه كِفاء لمكتفٍ ، وشفاء لمشتفٍ »، والوجه فيه « كفاية »، فإنّ الهمز لا وجه له هاهنا ، لأنه من باب آخر ؛ ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين « كِفاء »،

(١) سورة إبراهيم ٢٧ .

و « شفاء » كما قالوا : الغدايا والعشايا ، وكما قال عليه السلام : « مأزورات غير مأجورات » ، فأتى بالهمز ، والوجه الواو ، للازدواج .

* * *

[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

ثم ذكر العارفين ، فقال : « واعلموا أنّ عباد الله المستحفظين علمه » ، إلى قوله : « وهذّبه التمحيص » .

واعلم أن الكلام في العرفان لم يأخذه أهل الملّة الإسلامية إلّا عن هذا الرّجل ، ولعمرى لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات ، وأبعد النّهايات. والعارفون هم القوم الّذين اصطفاهم الله تعالى ، وانتخبهم لنفسه ، واختصّهم بأنسه ، أحبوه فأحبهم ، وقربوا منه فقرُب منهم.

قد تكلّم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان ، فكلّ نطق بما وقع له ، وأشار إلى ما وجده في وقته .

وكان أبو على الدّقاق يقول : منْ أمارات المعرفة حصولُ الهيبة من الله، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وكان يقول : المعرفة توجبُ السّكينة في القلب ، كما أنّ العلم يوجب السّكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وسئل الشّبلىّ عن علامات العارف ، فقال : ليس لعارفٍ علامة، ولا لمحبّ سكون، ولا لخائف قرار .

وسئل مرّة أخرى عن المعرفة ، فقال : أوّلها الله ، وآخرها مالا نهاية له .

وقال أبو حفص الحدّاد : منذ عرفت الله مادخل قلبي حقّ ولا باطل . وقد أشكل هذا الكلامُ على أرباب هذا الشأن ، وتأوّله بعضُهم ، فقال : عند القوم أنّ المعرفة توجب

غَيْبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذِكْر الحق عليه ، فلا يشهد غير الله ، ولا يرجع إلّا إليه ، وكما أنّ العاقل يرجع إلى قلبه وتفكّره وتذكّره فيما يسنح له من أمر ، أو يستقبله من حال ، فالعارف رجوعه إلى ربّه ، لا إلى قلبه ، وكيف يدخل المعنى قلبَ مَنْ لاقلبَ له !

وسئل أبو يزيد البِسْطامىّ عن العِرْفان ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾[1] ، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحدّاد .

وقال أبو يزيد أيضاً : للخَلْق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنّه محيت رسومه وفنِىَ هو ، وصارت هوّيتُه هوّية غيره ، وغيبت آثاره فى آثار غيره .

قلت : وهذا هو القول بالاتحاد الذى يبحث فيه أهل النظر .

وقال الواسطىّ : لاتصحّ المعرفة وفى العبد استغناء بالله ، أو افتقار إليه . وفسّر بعضُهم هذا الكلام ، فقال : إنّ الافتقار والاستغناء من أمارات صَحْو العبد وبقاء رسومه على ما كانت عليه ، والعارف لايصحّ ذلك عليه ، لأنّه لاستهلاكه فى وجوده ، أو لاستغراقه فى شهوده ؛ إنْ لم يبلغْ درجة الاستهلاك فى الوجود مختطفٌ عن إحساسه بالغنى والفقر وغيرهما من الصّفات ، ولهذا قال الواسطىّ : منْ عَرَف الله انقطع وخرس وانقمع ، قال صلى الله عليه وآله : « لاأحصى ثناء عليك ، أنتَ كما أثنيْتَ على نفسك » .

وقال الحُسينُ بن منصور الحلّاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدّنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرىّ : غاية العرفان شيئان : الدَّهَش والحيْرة .

وقال ذو النُّون : أعرَفُ النّاس بالله أشدُّهم تحيُّرا فيه .

وقيل لأبى يزيد : بماذا وصلت إلى المعرفة ؟ قال : ببدنٍ عارٍ ، وبطن جائع .

---

(١) سورة النمل ٣٤ .

وقيل لأبي يعقوب السُّوسيّ: هل يتأسّف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليتأسّف عليه!

وقال أبو يزيد: العارف طيّار، والزاهد سيّار.

وقال الجُنَيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يَطَؤُها البَرّ والفاجر، وكالسحاب يُظِلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقي ما ينبت وما لا ينبت.

وقال يحيي بن معاذ: يخرُج العارف من الدّنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بكائه على نفسه، وحبّه لربه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأنس.

وقال بعضهم: العارف أَنِسَ بالله فأوحشه من خَلْقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خَلْقه، وذلّ لله فأعزّه في خَلْقه.

وقال بعضهم: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

وقال أبو سُليمان الدّارانيّ: إنّ الله يفتح للعارف على فراشِه، ما لا يفتح للعابد وهو قائم يصلّي.

وكان رُوَيْم يقول: رياء العارفين أفضلُ من إخلاص العابدين.

وسئل أبو تراب النخشبيّ عن العارف، فقال: هو الّذي لا يكدّره شيء، ويصفُو به كلّ شيء.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتحُطّ.

وسئل يحيي بن مُعاذ عن العارف، فقال: الكائن البائن.

وقيل: ليس بعارف مَنْ وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا!

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله.

وسئل أبو سعيد الخرّاز: هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ قال

نعم ، إنّما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا صاروا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصُول ، زال عنهم ذلك .

***

واعلم أنّ إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم لفظة « الولاية » ، في قوله : « يتواصَلُون بالولاية ، ويتلاقون بالمحبّة » يستدعي الخوض في مقامين جليلين من مَقامات العارفين : المقام الأوّل الولاية ، وهو مقام جليل ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وجاء في الخبَر الصّحيح عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، يقول الله تعالى : « مَنْ آذى لي وليًّا فقد استحلّ محارِمي ، وما تقرّب إليّ العبد بمثل أداء مافرضتُ عليه ، ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، ولا ترددت في شيء أنا فاعله كتردّدي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابُدّ لَهُ منه » .

واعلم أنّ الوليّ له معنيان :

أحدهما « فَعِيل » بمعنى « مفعول » ، كقَتِيل وجَرِيح ، وهو من يتولّى الله أمره كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) ، فلا يكِله إلى نفسه لحظة عين ، بل يتولّى رعايته .

وثانيهما « فَعِيل » بمعنى « فاعل » كنَذِير وعَلِيم ؛ وهو الّذي يتولّى طاعة الله وعبادته فلا يعصيه .

ومن شرط كون الولّي وليًّا ألّا يعصِيَ مولاه وسيّده ، كما أن من شرط كون النبيّ

---

(١) سورة يونس ٦٢ .
(٢) سورة الأعراف ١٩٦ .

نبيا العصمة ، فمن ظنّ فيه أنّه من الأولياء ، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض ، فليس بولىّ عند أصحاب هذا العلم . بل هو مغرور مخادع .

ويقال : إنّ أبا يزيدَ البِسْطامىّ قصد بعض مَنْ يوصف بالولاية ، فلما وافى مسجده، قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخّم فى المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه ، وقال : هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة ، كيف يكون أمينا على أسرار الحق !

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أتحبّ أن تكون لله وليا ؟ قال : نعم ، قال: لاترغب فى شىء من الدّنيا ولا من الآخرة ، وفرّغ نفسك لله ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

وقال يحيى بن معاذ فى صِفَة الأولياء : هم عبادٌ تسربَلُوا بالأنس بعد المكابدة ، وادّرَعُوا بالرّوح بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية .

وكان أبو يزيدَ يقول : أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائسَ إلّا المحارم ، فهم مخدّرون عنده فى حجاب الأنس ، لا يراهم أحدٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقال أبو بكر الصَّيْدلانىّ : كنت أصلِحُ لقبرأبى بكر الطمستانى لوحا أنقر فيه اسمه، فيُسرَق ذلك اللوح، فأنقر له لوحا آخر وأنصبه على قبره ، فيُسرق، وتكرر ذلك كثيرا دون غيره من ألواح القبور ، فكنت أتعجبّ منه ، فسألت أبا علىّ الدّقاق عن ذلك ، فقال : إنّ ذلك الشيخ آثر الخفاء فى الدنيا ، وأنت تريد أن تشهره باللّوح الذى تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما هو سَتَر نفسه .

وقال بعضهم : إنّما سمى الولىّ وليا ، لأنّه توالت أفعاله على الموافقة .

وقال يحيى بن معاذ: الولى لايرائى ولا ينافق، وما أقلّ صديق من يكون هذا خُلقه!

***

المقام الثانى المحبّة قال الله سبحانه: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (١)، والمحبّة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة.

قال أبو يزيدَ البسطاميّ: المحبّة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال أبو عبد الله القرشيّ: المحبّة أن تهب كلّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وأكثرهم على نفى صفة العشق، لأنّ العشق مجاوزة الحدّ فى المحبّة، والبارئ سبحانه أجلّ من أن يوصف بأنّه قد تجاوز أحد الحدّ فى محبته.

سئل الشّبلىّ عن المحبة، فقال: هى أن تَغارَ على المحبوب أن يحبّه أحدٌ غيرك.

وقال سَمْنون: ذهب المحبّون بشرف الدنيا والآخرة، لأنّ النبىّ صلىّ الله عليه وآله قال: «المرء مع من أحبّ»، فهم مع الله تعالى.

وقال يحيى بن مُعاذ: حقيقة المحبّة مالا ينقُص بالجفاء، ولا يزيد بالبرّ.

وقال: ليس بصادق من ادّعى محبّته ولم يحفظ حدوده.

وقال الجُنيد: إذا صحّت المحبّة سقطت شروط الأدب.

وأنشد فى معناه:

إذا صَفَت المودّة بين قوم ... وَدَامَ ودادهم سَمُج الثّناء

وكان أبو علىّ الدقاق يقول: ألست ترى الأب الشفيق لايبجّل ولده فى الخطاب، والناس يتكلّفون فى مخاطبته، والأب يقول له: يافلان، باسمه.

---

(١) سورة المائدة ٥٤.

وقال أبو يعقوب السُّوسيّ : حقيقة المحبّة أن ينسَى العبد حظَّه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

قيل للنصراباذيّ : يقولون : إنه ليس لك من المحبّة شيء . قال : صدقوا ، ولكن لى حسراتهم ، فهو ذو احتراق فيه .

وقال النصراباذيّ أيضا : المحبّة مجانبة السلوّ على كل حال ، ثم أنشد :

وَمَنْ كانَ فى طُولِ الهوى ذاقَ سَلْوَةً　　فإنىَ من ليلى لها غير ذائقِ

وأكثرُ شيء نلتُه فى وصالها　　أمانىّ لم تصدق كلمحةِ بارقِ

وكان يقال : الحب أوله خبْل ، وآخره قتل .

وقال أبو على الدقّاق فى معنى قول النبىّ صلّى الله عليه وآله : « حبّك الشيء يُعمى ويُصِمّ » ، قال : يعمى ويصمّ عن الغير إعراضا وعن المحبوب هَيْبة ، ثم أنشد :

إذَا مابدا لى تعاظمتُه　　فأصدر فى حال مَنْ لم يرَه

وقال الُجنيد : سمعتُ الحارث المحاسبيّ ، يقول : المحبّة إقبالك على المحبوب بكليّتك ، ثم إيثارك له على نفسك ، ومالك وولدك ، ثم موافقتك له فى جميع الأمور سرًّا وجهرا ، ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصّر فى محبته .

وقال الجُنيد : سمعتُ السرىّ يقول : لاتصلح المحبّة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا .

وقال الشِّبلىّ : المحبّ إذا سكت هلك ، والعارف إذا لم يسكت هلك .

وقيل : المحبّة نار فى القلب تحرق ماسوى ودّ المحبوب .

وقيل : المحبّة بذلُ الجهد ، والحبيب يفعل مايشاء .

وقال الثَّورىّ : المحبّة هَتك الأستار ، وكشف الأسرار .

حبس الشِّبْلِيّ في المارستان بين المجانين ، فدخل عليه جماعة، فقال : مَنْ أنتم؟ قالوا : محبُّوك أيها الشيخ . فأقبل يرميهم بالحجارة ، ففرُّوا ، فقال : إذ ادعيتم محبتى فاصبروا على بلائى .

كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيدَ البِسطامىّ : قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من من كأس محبته . فكتب إليه أبو يزيد: غيرُكَ شربَ بحور السموات والأرض وما روِىَ بعد ، ولسانه خارج ، ويقول : هل من مزيد !

ومن شعرهم فى هذا المعنى :

عجبتُ لمنْ يقولُ ذكرتُ ربِّى ... وهَــلْ أنسى فأذكر ما نَسِيتُ !
شربتُ الحبّ كأساً بعد كأسٍ ... فما نَفِدَ الشَّراب ولا رَوِيتُ

ويقال : إنّ الله تعالى أوحَى إلى بعض الأنبياء : إذا اطّلعت على قلب عَبْدٍ فلم أجد فيه حبّ الدنيا والآخرة ، ملأته من حبى .

وقال أبو علىٍ الدّقاق : إنّ فى بعض الكتب المنزّلة: عبدى ، أنا وحقّك لك محبّ ، فبحقى عليك كن لى محبًا .

وقال عبدالله بن المبارك : مَنْ أُعطِىَ قِسْطاً من المحبّة ، ولم يعطَ مثله من الخشية ، فهو مخدوع .

وقيل : المحبة ما تمحو أثرك ، وتسلُبك عن وجودك .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم إنّ السكر الذى يحصل عند المشاهدة لا يُوصف . وأنشد :

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ ... وكانَ سُكْرِى من المديرِ

وكان أبو علىّ الدقّاق ينشد كثيرا :

لى سكرتان وللندمان واحـــدةٌ شىء خصصتُ به من بينهم وحدى

وكان يحيى بن معاذ يقول : مثقالُ خردلةٍ من الحبّ أحبّ إلىّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يكونَ محبًّا ، فليكن كما حُكِىَ عن بعض الهند أنه أحبّ جاريةً ، فرحلت عن ذلك البلد ، فخرج الفتى فى وداعها ، فدمَعَتْ إحدى عينيه دون الأخرى ، فغمض التى لم تدمع أربعا وثمانين سنة ولم يفتحْها ، عقوبة لأنها لم تبكِ على فراق حبيبته .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

بكتْ عينى غَـداةَ البين دَمْعاً وأُخرى بالبكا بخلت عَلَيْنا

فعاقبتُ التى بخِلَتْ عَلَيْنا بأن غمّضتها يومَ ٱلتقَيْنا

وقيل : إنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبّى وحبّ غيرى .

وقيل : المحبة إيثارُ المحبوب على النفس، كامرأة العزيز لما أفرط بها الحبّ ، قالت: ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1] ، وفى الابتداء ، قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾[2] فورّكت[3] الذنب فى الابتداء عليه ، ونادت فى الانتهاء على نفسها بالخيانة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وآله فى المنام ، فقلت : يا رسولَ الله ، اعذرنى ، فإنّ محبةَ الله شغلتنى عن حبّك ، فقال : يا مبارك ، مَنْ أحبّ الله فقد أحبّنى.

● ● ●

(١) سورة يوسف ٥١ .
(٢) سورة يوسف ٢٥ .
(٣) يقال : ورك الذنب عليه : حمله .

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل :

قوله عليه السلام : « يصونون مَصُونه » ؛ أى يكتمون من العلم الذى استحفظوه ما يجب أن يُكتم . ويفجّرون عيونه: يظهرون منه ماينبغى إظهاره؛ وذلك أنّه ليس ينبغى إظهار كلّ ما استودِع العارف من الأسرار ؛ وأهلُ هذا الفنّ يزعمون أنّ قوماً منهم عجزوا عن أن يحمّلوا بما حُمّلوه ، فباحوا به فهلكوا ، منهم الحسين بن منصور الحلّاج . ولأبى الفتوح الجارُودىّ المتأخّر أتباعٌ يعتقدون فيه مثلَ ذلك .

والوَلاية ، بفتح الواو: المحبّة والنُّصرة، ومعنى «يتواصَلُون بالوَلاية» يتواصلون وهم أولياء ، ومثله : « ويتلاقَوْن بالمحبّة » كما تقول : خرجت بسلاحى ، أى خرجت وأنا متسلّح ، فيكون موضع الجار والمجرور نصباً بالحال ، أو يكون المعنى أدقّ وألطف من هذا ، وهو أن يتواصلوا بالوَلاية ، أى بالقلوب لا بالأجسام ، كما تقول : أنا أراك بقلبى ، وأزورك بخاطرى ، وأواصلك بضميرى .

قوله : « ويتساقَوْن بكأس رويّة » ، أى بكأس المعرفة ، والأنس بالله ، يأخذ بعضهم عن بعض العلومَ والأسرار ، فكأنهم شَرْبٌ يتساقَوْن بكأس من الخمر[1] .

قال : « ويصدُرون بريّة » يقال : من أين ريّتكم ؟ مفتوحة الراء ، أى[2] من أين ترتوون الماء ؟

قال : «لا تشوبهم الرِّيبة» ، أى لا تخالطهم الظِّنّة والتُّهمة ، ولا تسرع فيهم الغِيبة ، لأن أسرارهم مشغولةٌ بالحقّ عن الخلق .

قال : « على ذلك عقَد خَلْقهم وأخلاقهم » ، الضمير فى «عقَد» يرجع إلى الله تعالى ، أى على هذه الصفات والطبائع عَقَد الخالق تعالى ، خِلْقتهم وخُلُقهم ، أى هم متهيئون لما صاروا إليه ، كما قال عليه السلام : « إذا أرادك لأمر هيأك له » .

(١) ب : « الخرة » ، وما أثبته من ا . (٢) ساقطة من ا .

وقال عليه السلام : « كلٌّ ميسّرٌ لما خُلِق له » .

قال : « فعليه يتحابون ، وبه يتواصلون » ، أى ليس حبُّهم بعضهم بعضاً إلّا فى الله ، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله ، لا للهوى ، ولا لغرضٍ من أغراض الدنيا ، أنشد منشدٌ عند عمر قولَ طرَفة :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لم أحفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِى (١)

فمنهنَّ سَبقى العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ (٢)

وَكَرِّى إذا نادَى المضاف مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضَا نبهتَــــهُ المتوردِ (٣)

وَتَقْصِيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعجِبٌ ... بِبَهْــكَنَةٍ تحتَ الطِّرَافِ المعمّدِ (٤)

فقــال عمر : وأنا لولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى ، لم أحفِل متى قام عوّدى ؛ حُبِّى فى الله ، وبغضى فى الله ، وجهادى فى سبيل الله .

قوله عليــه السلام : « فـكانوا كتفاضل البَذْر » ، أى مَثَلُهم مثل الحب الذى يُنتقى للبَذْر ، يستصلح بعضه ، ويسقط بعضه .

قد ميزّه التخليص : قد فرّق الانتقاء بين جيده ورديئه . وهذّبه التمحيص ، قال النبىّ صلى الله عليه وآله : « إن المرض ليمحّص الخطايا كما تمحّص النار الذهب » ، أى كما تخلّص النار الذهب مما يشوبه .

ثم أمر عليه السلام المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه ، ووعظه وتذكيره ، وبالحذر

---

(١) من المعلقة بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الـكميت من الخمر : التى تضرب إلى السواد . وقوله : متى ماتعل بالماء تزبد ؛ أى متى تمزج به تزبد ، لأنها عتيقة .

(٣) كرى : عطفى . والمضاف : الذى أضافته الهموم . والتحنيب : احديداب فى وظيفى يدى الفرس ، وليس ذلك بالاعوجاج الشديد ؛ وهو مما يوصف صاحبه بالشدة . والسيد : الذئب . والغضا : شجر ؛ وذئابه أخبث الذئاب . ونبهته : هيجته . والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٤) الدجن : إلباس الغيم السماء ، ومعجب : يعجب من رآه . والبهكنة : التامة الخلق .

مِنْ نزول القارعة بهم ، وهى هاهنا الموت ، وسمّيت الداهيــة قارعةً لأنهــا تقرع ، أى تصيب بشدّة .

قوله : « فليصنع لمتحوَّله » ؛ أى فليعدّ مايجب إعداده للموضع الذى يتحوّل إليه ، تقول : اصنع لنفسك ، أى اعمل لها .

قوله : « ومعارف منتقَلِه » معارف الدّار : مايعرفها المتوسّم بها واحــدها معرّف، مثل معاهد الدار ، ومعالم الدار ، ومنه معارف المرأة ،وهومايظهر منها، كالوجْه واليدين. والمنتقَل ، بالفتح : موضع الانتقال .

قوله : «فطوبَى» هى « فُعْلَى » من الطّيب ، قلبوا الياء واوا للضمّة قبلها ، ويقال : طوبَى لك ، وطوباك ! بالإضافة .

وقول العامة : « طوبيك » بالياء غير جائز .

قوله : « لذى قلب سليم » ، هو من ألفاظ الـكتاب العزيز [1] ، أى سليم من الغلّ والشك .

قوله : « أطاع مَنْ يهديه » ، أى قبل مشورة الناصح الآمر له بالمعروف ،والناهى له عن المنـكر .

وتجنب مَنْ يُرْدِيه ، أى يهلـكه بإغوائه وتحسين القبيح له .

والباء فى قوله : « ببصرِ مَنْ بَصّره » ، متعلّقة بـ « أصاب » .

قوله : « قبل أن تغلق أبوابه » ، أى قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته .

والحوبة : الإثم . وإماطته : إزالته ، ويجوز أمطتُ الأذى عنه ، ومِطت الأذى عنه، أى نحّيته ، ومنع الأصمعىّ منه إلّا بالهمزة .

---

(١) وذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء ٨٩ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، وقوله فى سورة الصافات ٨٤ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

(٢٠٨)

الأصل :

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيرا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلَا سَقِيماً ، وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ ؛ وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي ، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي ، وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّي ، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي ، وَلا مُلْتَبِساً عَقْلِي ، وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي .

أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ، ظَالِماً لِنَفْسِي ؛ لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ ـ وَلَا حُجَّةَ لِي ـ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ !

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي !

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ ، أَوْ تَتَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ !

***

الشرح :

قوله : « كثيرا » منصوب بأنه صفة مصدر محذوف ، أى دعاء كثيرا . وميّتا منصوب على الحال ، أى لم يفلق الصباح علىّ ميتا ، ولا يجوز أن تكون « يصبح » ناقصة ، ويكون «ميتا» خبرها ، كما قال الراوندىّ ؛ لأنّ خبر « كان » وأخواتها، يجب أن يكونَ هو الاسم ، ألا ترى أنّهما مبتدأ وخبر فى الأصل واسم « يصبح » ضمير «الله» تعالى ، و « ميتا » ليس هو الله سبحانه .

قوله : « ولا مضروبا على عروق بسوء » ، أى ولا أبرَص ، والعرب تكنِي عن البرص بالسّوء ، ومن أمثالم : ما أنكرُكَ من سوء ، أى ليس إنكارى لك عن برَص حدَث بك فغيّر صورتك .

وأراد بعروقه أعضاءه ، ويجوز أن يريد : ولا مطعونا فى نسبى ، والتفسير الأوّل أظهر .

« ولا مأخوذا بأسوإ عملى » ، أى ولا معاقبا بأفحش ذنوبى .

ولا مقطوعا دابرى ، أى عقبى ونسلِى . والدابر فى الأصل : التابع ، لأنّه يأتى دبُرا ، ويقال للهالك : قد قطع الله دابره ، كأنّه يراد أنه عفا أثره ، ومحا اسمه ، قال سبحانه : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ (١) .

ولا مستوحشا ، أى ولا شاكًّا فى الإيمان ، لأنّ مَنْ شكّ فى عقيدةٍ استوحش منها. ولا ملتبسا عقلى ، أى ولا مختلطا عقلى ، لَبَسْتُ عليهم الأمر بالفتح ، أى خلطته . وعذاب الأمم من قبلُ المسخُ والزّلزلة والظلمة ونحو ذلك .

---

(١) سورة الحجر ٦٦ .

قوله : « لك الحجة علىّ ، ولا حجّة لى » ، لأنّ الله سبحانه قد كلّفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبحَ القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه ، وهذه حجّة الله تعالى على عباده ، ولا حجّة للعباد عليه ، لأنه ما كلّفهم إلّا بما يطيقونه ، ولا كان لهم لطف فى أمرٍ إلا وفعَله.

قوله : « لا أستطيع أن آخذ إلّا ما أعطيتَنى ، ولا أتقىَ إلا ما وقيتَنى » ، أى لا أستطيع أن أرزق نفسى أمرا ، ولكنك الرزاق ، ولا أدفع عن نفسى محذورا من المرض والموت إلا مادفعته أنتَ عنّى .

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مايَدرِى الفَتَى كَيفَ يتقى ... نوائبَ هذا الدّهر أم كيف يحذرُ ا
يرى الشىء مِمّا يُتّقَى فيخافُهُ (١) ... ومالا يرى ممّا يقِى اللهُ أكثرُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفاية الله أجدَى مِن توقّينا ... وعادةُ الله فى الأعداء تكفينا
كاد الأعادى فما أبقَوْا ولا تركوا ... عَيْباً وطعناً وتقبيحا وتهجينا
ولم نزد نحنُ فى سرّ وفى علَنٍ ... عَلَى مقالتِنا : الله يكفينا
وكان ذاك ــ وردّ الله حاسدَنا ... بغيظه ــ لم ينل مأمولَه فينا

قوله عليه السلام : « أنْ أفتقِر فى غناك » ، موضع الجار والمجرور نصب على الحال ، و « فى » متعلّقة بمحذوف ، والمعنى أن أفتقِر وأنت الموصوف بالغنى الفائض على الخلق ، وكذلك قوله : « أوأضِلّ فى هداك » ، معناه : أوأضل وأنت ذو الهداية العامّة للبشر كافّة ، وكذلك : « أو أضام فى سلطانك » ، كما يقول المستغيث إلى السلطان : كيف أظلم فى عدلك !

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « ويخافه » .

وكذلك قوله : « أو أُضطَهد والأمرُ لك »، أى وأنت الحاكم صاحبُ الأمر ، والطاء فى « أضطهد » هى تاء الافتعال ، وأصل الفعل ضهدت فلانا ، فهو مضهود ، أى قهرته وفلان ضُهَدَة لكلّ أحد ، أى كلّ مَنْ شاء أن يقهره فعل .

قوله : « اللهمّ اجعلْ نفسى » ، هذه الدعوة مثل دَعْوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهى قوله : « اللهمّ متِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ، واجعله الوارث منّا » ، أى لا تجعل موتنا متأخِّرا عن ذهاب حواسّنا . وكان علىّ بن الحسين يقول فى دعائه : اللهمّ احفَظْ علىّ سمعى وبصرى ، إلى انتهاء أجَلى .

وفسّرُوا قوله عليه السلام : « واجعلْه الوارث مِنّا » ، فقالوا : الضمير فى «واجعله» يرجع إلى الإمتاع .

فإن قلت : كيف يتّفق الإمتاع بالسمع والبصر ، بعد خروج الرّوح ؟

قلت : هذا توسّع فى الكلام ، والمراد : لا تبلُنا بالعمَى ولا الصَّمَم ، فنكون أحياء فى الصورة ولسنا بأحياء فى المعنى ، لأنّ مَنْ فقدهما لا خَيْرَ له فى الحياة ، فحملتْه المبالغة على أن طلب بقاءهما بعد ذهاب النفس ، إيذانًا وإشعاراً بحبّه ألّا يُبْلَى بفقدها .

و « نُفْتَتَن » ، على ما لم يسمّ فاعله : نصابُ بفتنة تُضِلّنا عن الدِّين ، وروى : « نَفْتتِن » بفتح حرف المضارعة على « نفتعل » ، افتتن الرجل أى فتن ، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعدِّياً كما ذكره الراوندىّ ، ولكنه قرأ فى " الصحّاح " للجوهرىّ : « والفتون : الافتتان ، يتعدّى ولا يتعدّى » ، فظنّ أنّ ذلك للافتتان وليس كما ظنّ ، وإنما ذلك راجع إلى الفُتون .

والتتابع : التهافت فى اللّجاج والشرّ ، ولا يكون إلّا فى مثل ذلك ، وروى أو « تتايع » بطرح إحدى التاءات .

(٢٠٩)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ ، تَفَضُّلاً مِنْهُ ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ .

***

الشرح :

الذى له عليهم من الحقّ هو وجوب طاعته ، والذى لهم عليه من الحقّ هو وجوب معدلته فيهم . والحقّ أوسع الأشياء فى التواصف ، وأضيقُها فى التناصف ؛ معناه أنّ كلّ أحدٍ يصف الحقّ والعدل ، ويذكر حسنه ووجوبه ، ويقول : لو وُلّيت لعدلت ، فهو بالوصف باللسان وسيع ، وبالفعل ضيّق ، لأنّ ذلك العالَم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه ، ويعِدُون أنْ لو وُلّوا باعتماده وفعله ، لا تجدُ فى الألف منهم واحداً لو وُلِّيَ لعدل . ولكنه قول بغير عما

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول ، وهو وجوب الحقّ له وعليه ، فقال : إنّه لايجرى لأحدٍ إلّا وجرى عليه ، وكذلك لايجرى عليه إلّا وجرى له ، أى ليس ولا واحد من الموجودين يرتفع عن أن يجرى الحقّ عليه ، ولو كان أحدٌ من الموجودين كذلك لكان أحقّهم بذلك البارئُ سبحانه ، لأنّه غايةُ الشرف ، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام ، وهو مالك الكلّ ، وسيّد الكلّ ، فلوكان لجواز هذه القضية وجه ، ولصحتها مساغ ، لكان البارئُ تعالى أَوْلَى بها ، وهى ألّا يُستحقّ عليه شىء ، وتقدير الكلام : لكنّه يُستحقّ عليه أمور ، فهو فى هذا الباب كالواحد منّا يَستحِقّ ويُستحقّ عليه ، ولكنّه عليه السلام حذف هذا الكلام المقدّر ، أدباً وإجلالا لله تعالى أن يقول : إنه يُستحقّ عليه شىء .

فإن قلت : فما بالُ المتكلّمين لا يتأدّبون بأدبه عليه السلام ! وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق !

قلت : ليست وظيفة المتكلّمين وظيفةَ أمير المؤمنين عليه السلام فى عباراتهم ، هؤلاء أربابُ صناعة ، وعلم يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لابدّ لهم من استعماله ، للإفهام والجدل بينهم ، وأميرُ المؤمنين إمام يخطب على منبره ، يخاطب عرباً ورعيّة ليسوا من أهل النظر ، ولا مخاطبتُه لهم لتعليم هذا العلم ، بل لاستنفارهم إلى حرْب عدوّه ، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقّى كلّ لفظة توهم ما يستهجنه السامع فى الأمور الإلٰهية وفى غيرها .

فإن قلت : فما هذه الأمور التى زعمتَ أنها تُستحقّ على البارئ سبحانه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ ، واللفظ يقتضيها ؟

قلت : الثواب ، والعوض ، وقبول التوْبة ، واللّطف ، والوفاء بالوعد ، والوعيد ، وغير ذلك مما يذكره أهلُ العدل .

فإن قلت : فما معنى قوله : « لـكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه ، لقدرته على عباده ، ولعدله فى كلّ ماجرتْ عليـه صروفُ قضائه » ؟ وهب أنّ تعليل عدم استحقاق شىء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح ، كيف يصحّ تعليلُ ذلك بعدله فى كلّ ماجرت عليـه صروف قضائه ؟ ألا ترى أنّه ليس بمستقيم أن تقول لا يُستحقّ على البارئ شىء ، لأنّه عادل ، وإنّما المستقيم أن تقول لا يُستحقّ عليـه شىء ، لأنّه مالك ، ولذلك علّلت الأشعريّة هذا الحكم بأنّه مالك الكلّ ، والاستحقاق إنّما يكون على مَنْ دونه .

قلت : التعليل صحيح ، وهو أيضا مما علّلت به الأشعريّة مذهبها ، وذلك لأنّه إنّما يتصوّر الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممّن يتوقّع منه أو يصحّ منه أن يظلم ، فيمكن حينئذ أن يقال : قد وجب عليه كذا ، واستُحقّ عليه كذا ، فأمّا من لا يمكن أن يظلم ، ولا يتصوّر وقوع الظلم منه ، ولا الكذب ، ولا خلف الوعد والوعيد ، فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه ، كما لا يقال : كذا الداعى الخالص يستحقّ عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعى ، ويجب عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعى ، مثل الهارب من الأسد ، والشديد العطش إذا وجد الماء ، ونحو ذلك .

فإن قلت : أليس يُشعر قوله عليه السلام : « وجعل جزاءهم عليـه مضاعفة الثواب تفضّلا منه » بمذهب البغداديين من أصحابكم ، وهو قولهم : إن الثواب تفضّل من الله سبحانه ، وليس بواجب !

قلت : لا ، وذلك لأنّه جعل المتفضَّل به ، هو مضاعفة الثواب ، لا أصل الثواب ، وليس ذلك بمستنكر عندنا .

فإن قلت : أيجوز عندكم أن يستحقّ المكلّف عشرة أجزاء من الثّواب فيعطى عشرين جزءا منه ؟ أليس من مذهبكم أنّ التعظيم والتّبجيل لايجوز من البارئ سبحانه أن يفعلهما.

فى الجنّة إلا على قدر الاستحقاق ، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل ؟ فكيف قلت : إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة !

قلت : مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقّة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة فى الجنّة، فسمّى تلك اللذة الجسمانية ثوابا لأنّها جزء من الثواب، فأمّا اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها.

قوله عليه السلام : « بما هو من للمزيد أهله » ، أى بما هو أهله من المزيد ، فقدّم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال ، وفيه دلالة على أنّ حال المجرور تتقدّم عليه ، كما قال الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ الماءِ حَرّانَ صادِياً إلىّ حبيباً إنّهـــــا لحبيبُ

***

الأصْلُ :

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحانَهُ مِن حُقُوقِهِ حُقُوقاً أفْتَرَضَها لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَها تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا ، وَيُوجِبُ بَعْضُها بَعْضاً ، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُها إلَّا بِبَعْضٍ .

وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ سُبْحانَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ ، وَحَقُّ ٱلرَّعِيَّةِ عَلَى ٱلْوَالِي ، فَرِيضَةٌ فَرَضَها ٱللهُ سُبْحانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ ، فَجَعَلَها نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ ٱلرَّعِيَّةُ إلَّا بِصَلَاحِ ٱلْوُلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ ٱلْوُلَاةُ إلَّا بِٱسْتِقَامَةِ ٱلرَّعِيَّةِ ، فَإذَا أَدَّتِ ٱلرَّعِيَّةُ إلَى ٱلْوَالِي حَقَّهُ ، وَأَدَّى ٱلْوَالِي إلَيْها حَقَّها ، عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ ٱلدِّينِ ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِها ٱلسُّنَنُ ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ ٱلزَّمَانُ ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلْأَعْدَاءِ .

وَإِذَا غَلَبَتِ ٱلرَّعِيَّـةُ وَالِيَهَا ، أَوْ أَجْحَفَ ٱلْوَالِي بِرَعِيَّتِـهِ ؛ ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ ٱلْـكَلِمَةُ ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ ٱلْجَوْرِ ، وَكَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ فِي ٱلدِّينِ ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ ٱلسُّنَنِ ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُطِّلَتِ ٱلْأَحْـكَامُ ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ ٱلنُّفُوسِ ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ ، فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلْأَبْرَارُ ، وَتَعِزُّ ٱلْأَشْرَارُ ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ ٱلْعِبَادِ .

فَعَلَيْـكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ،وَحُسْنِ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ،فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَى رِضَا ٱللهِ حِرْصُهُ ، وَطَالَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ ، بِبَالِـغٍ حَقِيقَةَ مَا ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ؛مِنَ ٱلطَّاعَةِ لَهُ.وَلَـكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ ٱلنَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَٱلتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمْ ، وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي ٱلْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ ، وَتَقَدَّمَتْ فِي ٱلدِّينِ فَضِيلَتُهُ ، بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ مِنْ حَقِّهِ ؛ وَلَا ٱمْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ ٱلنُّفُوسُ ، وَٱقْتَحَمَتْهُ ٱلْعُيُونُ ، بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ .

***

الشرح :

تتكافأ فى وجوهها : تتساوى وهى حقّ الوالى على الرعيّة،وحق الرعيّة على الوالى.

وفريضة ، قد روى بالنصب وبالرفع،فن رفع فخبر مبتدأ محذوف،ومن نصب فبإضمار فعل ، أو على الحال .

وجرت على أذلالها السّنن ، بفتح الهمزة ، أى على مجاريها وطرقها .

وأجحف الوالى برعيّته : ظلمهم .

والإدغال فى الدين : الفساد .

ومحاجّ السنن: جمع محجّة، وهي جادّة الطريق .

قوله : « وكثرت عِلَل النفوس » ، أي تعلّقها بالباطل . ومن كلام الحجّاج : إيّاكم وعلل النفوس، فإنّها أدوى لكم من علل الأجساد .

واقتحمته العُيون : احتقرته وازدرته ، قال ابن دُريد :

وَمِنْـــهُ مَاتَقْتَحِمُ ٱلْعَيْنُ فإنْ ذُقْتَ جَنَاهُ سَاغَ عَذْباً في اللّها(١)

ومثل قوله عليه السلام : « وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته » ، قول زيد ابن عليّ عليه السلام لهشام بن عبد الملك : إنه ليس أحدٌ وإنْ عظمت منزلته بفوقِ أن يُذَكَّر بالله ، ويحذّر من سطوته ، وليس أحدٌ وإن صغُر بدونِ أن يذكّر بالله ويخوّف من نقمته .

ومثل قوله عليه السلام : « وإذا غلبت الرعيّة واليَها » قولُ الحكماء : إذا علا صوت بعض الرعيّة على الملك فالملك مخلوع ، فإن قال : نعم ، فقال أحدٌ من الرعيّة : لا ، فالملك مقتول .

* * *

[فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء في وجوب الطاعة لأولي الأمر الكثير الواسع، قال الله سبحانه : ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(٢).

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : « السمع والطاعة على المرء

---

(١) من المقصورة ٢٣ (طبعة مصر سنة ١٣١٩) .
(٢) سورة النساء ٥٩ .

المسلم فيما أحبّ وكره مالم يؤمَر بمعصية ، فإذا أُمِر بها فلا سمعَ ولا طاعة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ أسودَ مجدَّع فاسمعوا له وأطيعوا » .

ومن كلام على عليه السلام : « إنّ الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجَرة » .

بعث سعد بن أبي وقاص جَرِير بنَ عبد الله البَجَليّ من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ، فقال له عمر : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم كقِداح الجُعْبة ، منها الأعصل[1] الطائش ، ومنها القائم الرائش . قال : فكيف سَعْدٌ لهم ؟ قال : هو ثِقافها ، الّذى يقيم أَوَدَها ، ويغمز عَصَلها[2] . قال : فكيف طاعتهم ؟ قال : يصلّون الصلاة لأوقاتها ، ويؤدون الطاعة إلى ولاتها . قال : الله أكبر ! إذا أقيمت الصلاة ، أُدِّيت الزكاة ؛ وإذا كانت الطاعة ، كانت الجماعة .

ومن كلام أبَرْوِيز الملك : أطِعْ مَنْ فوقك يُطعك مَنْ دونك .

ومن كلام الحكماء : قلوب الرعيّة خزائن واليها ، فما أودعه فيها وجَده .

وكان يقال : صِنفان متباغضان متنافيان : السلطان والرعيّة ؛ وهما مع ذلك متلازمان ، إن صَلَح أحدهما صلح الآخر ، وإن فسد فسد الآخر .

وكان يقال : محلّ الملك من رعيّته محلّ الروح من الجسد ، ومحلّ الرعيّة منه محلّ الجسد من الرّوح ، فالروح تألَم بألم كلّ عضو من أعضاء البدن ، وليس كلّ واحد من الأعضاء يألم بألم غيره ، وفساد الروح فساد جميع البدن ، وقد يفسد بعضُ البدن وغيره من سائر البدن صحيح .

---

(١) السهم الأعصل : القليل الريش .
(٢) العصل : الاعوجاج والميل .

وكان يقال : ظلم الرعية استجلاب البليّة .

وكان يقال : العَجَب ممّن استفسد رعيته ، وهو يعلم أن عزّه بطاعتهم !

وكان يقال : موت الملك الجائر خِصْب شامل .

وكان يقال : لا قحطَ أشدّ من جوْر السلطان .

وكان يقال : قد تعامَل الرعيــة المشمئزّة بالرفق ؛ فتزول أحقادها ، ويذلّ قيــادها ، وقد تعامَل بالخُرْق فتكاشف بما غيبت ، وتقدم على ماعيبت ؛ حتى يعود نفاقها شِقاقا ، ورذاذها سيلا بُعاقا[1]. ثم إن غَلَبت وقهرت فهو الدّمار ، وإن غُلِبت وقُهِرت لم يكن بغلَبها افتخار ، ولم يدرَك بقهرها ثار .

وكان يقال : الرعية وإن كانت ثمــارا مجتناة ؛ وذخائر مقتناة ، وسيوفا منتضاة ، وأحراسا مرتضاة ؛ فإن لها نِفارا كنفار الوحوش ، وطغيانا كطغيان السيول ؛ ومتى قَدَرَتْ أن تقول ، قَدَرَتْ على أن تصول .

وكان يقال : أيدى الرعيّة تبع ألسنتها ؛ فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه ، ولن تحبه حتى يعدل عليها فى أحكامه عدلًا يتساوى فيه الخاصة والعامة ؛ وحتى يخفّف عنها المؤن والكلف ، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها وأراذلها عليها ؛ وهذه الثالثة تحقد على الملك العِليْة من الرعية ، وتطمع السفلة فى الرتب السنية .

وكان يقال : الرعية ثلاثة أصناف : صِنْف فضلاء مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة ، يعلمون فضيلة الملِك وعظيم غَنائه ، ويرثُون له من ثقل أعبائه ، فهؤلاء يحصّل الملك مودّاتهم بالبِشْر عند اللقاء ، ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء . وصِنف فيهم خير وشرّ ظاهران ، فصلاحهم يكتسَب من معاملتهم بالترغيب والترهيب ؛ وصِنف من السفلة الرّعاع أتباع

---

(١) السيل البعاق . المتصبت بشدة .

لكلّ داعٍ ؛ لا يمتحنون فى أقوالهم وأعمالهم بنقد ، ولا يرجعون فى الموالاة إلى عقد .

وكان يقال : ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظائم ؛ ألا ترى أول نشوز المرأة كلمة سومحت بها ، وأوّل حِران الدابّة حَيدة سوعدت عليها .

ويقال : إنّ عثمان قال يوما لجلسائه ، وهو محصور فى الفتنة : وددتُ أنّ رجلا صدوقا أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء ! فقام إليه فتًى فقال : إنّى أخبرك ؛ تطأطأتَ لهم فركبوك ، وما جرّأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك . قال : صدقت ، فهل تعلم ما يُشبّ نيران الفتن ! قال: نعم ، سألتُ عن ذلك شيخاً من تَنُوخ كان باقعة ، قد نقّب فى الأرض وعلم علما جمّا ، فقال : الفتنة يثيرها أمران : أثرة تُضْغِنُ على الملك الخاصّة ، وحلم يجرّئ عليه العامّة . قال : فهل سألته عمّا يُخمدها ؟ قال : نعم ، زعم أنّ الذى يخمدها فى ابتدائها استقالة العَثْرة وتعميم الخاصة بالأثَرة ، فإذا استحكمت الفتنة أخمدها الصبر . قال عثمان : صدقت ؛ وإنّى لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ويقال : إن يَزْدَجِرد بن بهرام سأل حكيما : ماصلاح الملك ؟ قال : الرفق بالرعيّة ، وأخذ الحقّ منها بغير عنف والتودّد إليها بالعدل وأمن السبُل وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه ؛ إذا صلَحوا صلَح . قال : فما الذى يثير الفتن ؟ قال : ضغائن يظهرها جرأة عامّة، واستخفاف خاصة بهم وانبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسر ، وأمن مُعْسر ،وغفلة مرزوق ، ويقظة محروم . قال : وما يسكِّنها ؟ قال:أخذ العدّة لما يخاف ، وإيثار الجدّ حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم ، وادراع الصبر ، والرضا بالقضاء .

وكان يقال: خير الملوك مَنْ أشرَب قلوب رعيته محبتَه، كما أشعرها هيبتَه ، ولن يُنال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء : إكرام شريفها ، ورحمة ضعيفها ، وإغاثة لهيفها ،

وكفّ عدوان عـدوّها ، وتأمين سبُل رواحها وغدوّها ، فمتى أعدمها شيئاً من ذلك ، فقد أحقدها[1] بقدر ما أفقدها .

وكان يقال : الأسباب التى تجرّ الملك إلى الملك ثلاثة :

أحدها من جهة الملِك ،وهو أن تتأمّرشهواتُه على عقله، فتَستهويه نَشَوات الشّهوات فلا تسنَح له لذّة إلا اقتنصها ، ولا راحة إلا افترصها .

والثانى من جهة الوزراء ، وهو تحاسدهم المقتضى تعارض الآراء ،فلا يسبق أحدُهم إلى حقّ إلّا كُويد وعُورض وعُونِد .

والثالث من جهة الجند المؤهّلين لحراسة الملك والدّين،وتوهين المعاندين،وهو نُكولهم عن الجلاد ،وتضجيعهم فى المناصحة والجهاد ،وهم صنفان : صنف وسّع الملك عليهم فأبطرهم الإتراف ،وضنّوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف ،وصنف قَدرعليهم الأرزاق،فاضطغنوا الأحقاد[2] واستشعروا النفاق .

***

[الآثار الواردة فى العدل والإنصاف]

قوله عليه السلام : « أو أجحف الوالى برعيّته » ،قد جاء من نظائره الكثير جداً، وقد ذكرنا فيما تقدّم نكتا حسنة فى مدح العدل والإنصاف، وذمّ الظلم والإجحاف. وقال النبىّ صلى الله عليه وآله : « زيّن الله السماء بثلاثة : الشمس ، والقمر ، والكواكب . وزيّن الأرض بثلاثة : العلماء ، والمطر ، والسّلطان العادل » .

وكان يقال : إذا لم يعمّر الملك ملكه بإنصاف الرعيّة خرب ملكه بعصيان الرعيّة .

وقيل لأنوشروان :أىّ الجُنن أوقى؟ قال: الدّين، قيل:فأىّ العُدَد أقوى؟قال:العدل.

(١) يقال : أحقده ، أى صيره حاقداً . (٢) اضطغنوا الأحقاد : انطووا عليها .

وقّع جعفر بن يحيى إلى عامل من عمّاله : كَثُرَ شاكوك، وقلّ حامدوك، فإمّا عدلت، وإمّا اعتزلت .

وُجد فى خزانة بعض الأكاسرة سَفَط ، فَفُتح فوجد فيه حبّ الرمان ، كلّ حبّة كالنواة الكبيرة من نوى المشمش ، وفى السَّفَط رُقعة فيها : هذا حبّ رمان عملنا فى خراجه بالعدل .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطّاب متظلّما ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، هذا مكان العائذ بك . قال له : عذتَ بمعاذ ، ماشأنك ؟ قال : سابقتُ ولد عمرو بن العاص بمصرَ فسبقتُه ، فجعل يقنّعنى بسوطه، ويقول : أنا ابن الأكرمين ! وبلغ أباه ذلك ، فحبسنى خشية أن أقدُم عليك؛ فكتب إلى عمرو: إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وابنُك. فلمّا قدم عمرو وابنه ، دفع الدِّرة إلى المصرىّ ، وقال : اضرِبه كما ضرَبك ، فجعل يضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأمير ، اضربْ ابن الأمير ! يردّدها ، حتى قال : ياأميرَ المؤمنين قد استقدتُ منه ، فقال ــ وأشار إلى عمرو : ضعْها على صَلْعَته ، فقال المصرىّ : ياأمير المؤمنين ، إنما أضرب مَنْ ضربنى ، فقال : إنما ضربك بقوّة أبيه وسلطانه ، فاضرب به إن شئت؛ فوالله لو فعلتَ لما منعك أحدٌ منه ، حتى تكون أنت الذى تتبرع بالكفّ عنه ! ثم قال : يابن العاص ، متى تعبّدتم الناسَ وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا !

خطب الإسكندر جنده ، فقال لهم بالرومية كلاماً تفسيره : ياعبادَ الله ، إنما إلهُكم الله الذى فى السماء ، الذى نصرنا بعد حين ، الذى يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكَرْب . والله لايبلغنى أنّ الله أحبّ شيئاً إلا أحببتُه وعملت به إلى يوم أجلى ، ولا يبلغنى أنّه أبغض شيئاً إلّا أبغضتُه وهجرته إلى يوم أجلى . وقد أنبِئت أنّ الله يحبّ العدل فى عباده ، ويُبغض الجور ، فويل للظالم من سوطى وسيفى ! ومَنْ ظهر منه

العدل من عمّالى فليتشكه فى مجلسى كيف شاء ؛ وليتمن علىّ ما شاء ، فلن تخطئه أمنيته والله المجازى كلاً بعمله .

قال رجلٌ لسليمان بن عبد الملك وهو جالس للمظالم : يا أميرَ المؤمنين، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1] ! قال : ما خطبك ؟ قال : وكيلك اغتصبنى ضيعتى وضمّها إلى ضيعتك الفلانية . قال : فإنّ ضيعتى لك ، وضيعتك مردودة إليك . ثم كتب إلى الوكيل بذلك ، وبصرفه عن عمله .

ورفع إلى كسرى قباذ أنّ فى بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم ، وخبثت ضمائرهم ، لأنّ أحكام الملك جرت على بعضهم لبعضهم ، فوقّع فى الجواب : أنا أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر .

وتظلم أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم ، فقال : ماعلمت فى عمالى أعدلَ ولا أقومَ بأمر الرعية ، ولا أعودَ عليهم بالرفق منه . فقال له منهم واحد : فلا أحد أولى منك يا أمير المؤمنين بالعدلْ والإنصاف ، وإذا كان بهذه الصفة فمن عدل أمير المؤمنين أن يولّيه بلدا بلدا ، حتى يلحق أهلَ كلِّ بلدٍ من عدله ، مثل ما لحقنا منه ، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذمنه سواهم ، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثرُ من ثلاث سنين . فضحك وعزله .

كتب عدىّ بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن قبلنا قوماً لا يؤدّون الخراج إلا أن يمسّهم نصبٌ من العذاب ، فاكتب إلى أمير المؤمنين برأيك . فكتب : أما بعد، فالعجبُ لك كلّ العجب ! تكتب إلىّ تستأذننى فى عذاب البشر ، كأن إذنى لك جُنّة من عذاب الله ، أو كأنّ رضاى ينجيك من سخط الله ! فمن أعطاك ما عليه عفوا

---

(١) سورة الأعراف ٤٤ .

تخذ منه ، ومن أبى فاستحلِفه ، وكِلْه إلى الله ، فلأنْ يلقَوُا الله بجرائمهم أحبُّ إلى من أن ألقاه بمذابهم .

فُضَيل بن عياض : ما ينبغى أن تتكلمّ بفيك كلّه ! أتدرى مَنْ كان يتكلم بفيه كلِّه ! عمر بن الخطاب كان يعدل فى رعيّته ، ويجور على نفسه ، ويطعمهم الطيب ، ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن ، ويعطيهم الحق ويزيدهم ، ويمنع ولده وأهله ، أعطى رجلا عطاءه أربعة آلاف درهم ، ثم زاده ألفا ، فقيل له : ألا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا ؟ فقال : إن هذا ثبَت أبوه يوم أُحُد ، وإنّ عبد الله فرّ أبوه ولم يثبت .

وكان يقال : لا يكونُ العُمْران ، إلّا حيث يعدل السلطان .

وكان يقال: العدل حصن وثيق ، فى رأس نيق [1] ، لا يحطّمه سيلٌ ، ولا يهدمه منجنيق .

وقّع المأمون إلى عامل كثر التظلّم منه : أنصفْ مَنْ وليت أمرهم ، وإلّا أنصفَهم منك مَنْ ولىَ أمرك .

بعض السلف : العدْل ميزان الله ، والجور مكيال الشيطان .

---

(١) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

(٢١٠)

الأصل:

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ من عَظُمَ جَلَالُ اللهِ سُبْحانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذَلِكَ ـ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا ازْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً.

وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ. وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ، أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ.

فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَاهُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَالَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَاصَلَحْنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى ، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى .

* * *

الشـرح :

هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلها أن تشرح ، ففيه معانٍ مختلفةسبيلها أن تذكر وتوضّح ، وتذكر نظائرها وما يناسبها .

فنها قوله عليه السلام : إنّ من حقّ مَنْ عَظُمت نعمة الله عليه أن تعظُم عليه حقوق الله تعالى ، وأنْ يعظم جلال الله تعالى فى نفسه ، ومن حقّ مَنْ كان كذلك ، أن يصغُر عنده كلُّ ماسوى الله .

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو استحقار كلّ ماسوى الله تعالى،وذلك أنّ مَنْ عرف الله تعالى فقد عرف ماهو أعظمُ من كلّ عظيم،بل لا نسبة لشىء من الأشياء أصلاً إليه سبحانه . فلا يظهر عند العارف عظمةُ غيره البتّة ، كما أنّ مَنْ شاهد الشّمس المنيرة يستحقرضوء القمر والسراج الموضوع فى ضوء الشمس،حال مشاهدته جرْم الشمس، بل لا تظهر له فى تلك الحال صنوبرة السراج ، ولا تنطبع صورتُها فى بصره .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : منْ أسخَف حالاة الولاة أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويُوضع

أسرع على الكِبْر . قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لا يدخل الجنّة مَنْ كان فى قلبه مثقال حبّة من كِبْر » .

وقال صلّى الله عليه وآله : « لولا ثلاث مهلِكات لصَلح الناس: شحّ مطاع، وهوًى متّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وكان يقال : ليس لمعجَبٍ رأى ، ولا لمتكبّر صديق .

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول : ماتاه إلّا وضيع ،ولا فاخر إلّا لقيط ، ولا تعصّب إلا دخيل .

وقال عمر لبعض ولده : التمس الرفعة بالتّواضع ، والشّرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس . وإيّاك والخيَلاء فتضعَ من نفسك ، ولا تحقِرنّ أحداً ، لأنك لاتدرى لعلّ مَنْ تزدَرِيه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك .

***

ومنها قوله عليه السلام : قد كرهتُ أن تظنّوا بى حبّ الإطراء واستماع الثناء . قد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : «احثُوا فى وجوه المدّاحين التراب». وقال عمر: المدح هو الذبح .

وكان يقال : إذا سمعتَ الرّجُل يقول فيك من الخير ماليس فيك ،فلاتأمن أن يقول فيك من الشرّ ماليس فيك .

ويقال : إنّ فى بعض الكتب المنزّلة القديمة : عَجَباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! ولمن قيل فيه الشرّ وليس فيه كيف يغضب ! وأعجب من ذلك مَنْ أحبّ نفسه على اليقين ، وأبغض النّاس على الظنّ .

وكان يقال : لايغلبنّ جهلُ غيرك بك علمَكَ بنفسك .

وقال رجل لعبد الملك : إنّى أريد أن أسِرّ إليك ياأمير المؤمنين شيئاً ،فقال لمنْ حولَه:

إذا شئتم فانهضوا ! فتقدّم الرجل يريد الكلام ، فقال له عبد الملك : قِفْ ، لا تمدحْني فإنّى أعلمُ بنفسي منك ، ولا تكذبْنِي فإنّه لا رأى لمكذوب ، ولا تغتبْ عندي أحدا ، فإنّى أكره الغيبة ، قال : أفيأذن أمير المؤمنين فى الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

وناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجانىّ فى مسألةٍ كلاميّة ، فجعل النّوشجانىّ يخضع فى الكلام ، ويستخذِي له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجّة لى عليك . وقد ساءنى منك ذلك ، ولو شئت أن أقتسر الأمور بعزّة الخلافة، وهيبة الرياسة لصدِّقت وإن كنت كاذبا ، وعدِّلت وإن كنت جائرا ، وصوِّبت وإن كنت مخطئا ، ولكنّى لا أقنع إلاّ بإقامة الحجّة ، وإزالة الشّبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلا ، وأسخفهم رأيا مَنْ رضىَ بقولهم : صدق الأمير !

وقال عبد الله بن المقفّع فى " اليتيمة " : إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حبّ المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثّلم يقتحمون عليك منها ، وبابا يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ، ويسخرون منك لها . واعلم أنّ قابل المدح كمادحِ نفسه ، وأنّ المرء جديرٌ أن يكون حُبّه المدح هو الذى يحمله على ردّه، فإنّ الرادّ له ممدوح ، والقابل له مَعِيب .

وقال معاوية لرجل : مَنْ سيّد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنتَ كذلك لم تقله .

وقال الحسن : ذمّ الرّجل نفسَه فى العلانية مدحٌ لها فى السرّ .

كان يقال : مَنْ أظهر عيب نفسه فقد زكّاها .

***

ومنها قوله عليه السلام : لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ماهو أحقّ به من الكبرياء . فى الحديث المرفوع : « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومَنْ تكبر خفضه الله ».

وفيه أيضا : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمتهُ .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « فلا تكلمونى بما تكلَّم به الجبابرة ، ولا تتحفَّظوا منِّى بما يتحفظ به عند أهل البادرة » .

أحسن ما سمعتهُ فى سلطان لا تخافُ الرعية بادرته ، ولا يتلجلج للتحاكُم عنده ؛ مع سطوته وقوته ، لإيثاره العدل . قول أبى تمام فى محمد بن عبد الملك :

ديوانِ مُلْكٍ ، وشيعىٌّ ، ومحتَسِبُ ... وزيرُ حَقٍّ ، ووالِي شُرْطَةٍ ورحاَ (١)

والوخدُ والمَلْعُ والتَّقْرِيبُ والخَبَبُ ... كالأرحبيِّ المذكَّى سَيْرُه المرَطَى (٢)

مِنْ مَتْنِهِ وبه مِنْ مَسِّها جُلَبُ ... عَوْدٌ تساجلُه أيامه فبها (٣)

فى رَحْلِهِ ألسُنُ الأقوام والرُّكَبُ ... ثَبْتُ الخِطابِ إذا اصْطَكَّت بمظلمةٍ (٤)

---

(١) ديوانه ١ : ٢٥٣ .

(٢) قال شارح ديوانه : كان بعض الناس يقول لأبى تمام : أنا أستحسن قول امرئ القيس :

وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجُرْ ... وَتَعرِفُ فيهِ من أبيهِ شَمَائِلا

ونائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرْ ... سَمَاحَةَ ذَا ، وجودَ ذَا ، ووفاءَ ذَا ،

فذكر أربعة وردّ عليها أربعة أصناف ؛ فلقيه أبو تمام بعد مدة ، فقال له : أنشدنى بيتى امرئ القيس . واستحسن ذكره لأربعة ورده عليهم أربعة أصناف ، وقد ذكرت خمسة ورددت عليهم خمسة أصناف ، وأنشده هذين البيتين . الأرحبي ، يعنى به نجيبا من الإبل منسوبا إلى أرحب ، وهم حى من همدان . والمذكى الذى قد تمت سنه وذكاؤه ، يقال : فرس مذكّ ووحش منك . والمرطى : ضرب من العدو سهل ، وقلما يستعمل إلا فى الإبل ، فأما الوخد والملع فمجيئهما كثير فى وصف سير النوق والجمال ، ولا يكادون يقولون: وخد الفرس ، وقد حكى ذلك أبو نصر صاحب الأصمعى . والتقريب أيضا لا يكاد يستعمل فى الجمال، يقول: هذا الممدوح جمع إصلاح الملك كما يجمع هذا الأرحبيّ هذه الضروب من السير .

(٣) العود : المسن من الإبل ، والمراد به هنا الرجل المجرب ، على الاستعارة . والجلب : جمع جلبة ، وهو الأثر فى ظهر البعير وغيره من أثر حمل أو نحوه ، يقول : قد جرّب الأمور ، خيرها وشرّها ؛ يكون الدهر مرة معه ومرة عليه ، فكأنه يساجله .

(٤) اصطكت : اضطربت ، وقوله : « بمظلمة » ، أى بخصلة مظلمة .

لا المنطق اللغوُ يزكو فى مقاومِهِ ... يوماً، ولا حجة الملهوف تستلبُ (١)
كأنما هو فى نادى قبيلتِــــه ... لا القلبُ يهفو ولا الأحشاء تضطربُ (٢)

ومن هذا المعنى قول أبى الجهم العدَوىّ، فى معاوية:

نقلّبُه لنخبرَ حالتيْــــهِ ... فنخبر منهما كرماً ولينا
نميــلُ على جوانبــهِ كأنّا ... إذا ملنا نميــلُ على أبينا

***

ومنها قوله عليه السلام: لا تظنوا بى استثقالَ رفع الحقّ إلىّ، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له، كان العملُ به عليه أثقلَ.

هذا معنى لطيف، ولم أسمع فيه شيئاً منثورا ولا منظوماً.

***

ومنها قوله عليه السلام: ولا تكفّوا عن قول بحقّ أو مشورة بعدل.

قد ورد فى المشورة شىء كثير: قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٣).

وكان يقال: إذا استشرت إنسانا صار عقله لك.

وقال أعرابىّ: ماغُبِنت قطّ حتى يُغْبَن قومِى، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورَهم.

وكان يقال: من أعطى الاستشارة لم يمنَع الصواب، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيَرة، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الشكر لم يمنَع المزيد.

وفى آداب ابن المقفع: لا يقذفنّ فى رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك للناس حاجتك إلى رأى غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة، فإنّك لا تريد الرأى للفخر؛

(١) المنطق اللغو: الهذر وما لا يحتاج إليه من الكلام. ويزكو: يروج وينمو، مقاوم: جمع مقام.
(٢) لا القلب يهفو؛ أى لا يزيغ عما يريد.
(٣) سورة آل عمران ١٥٩

ولكن للانتفاع به ؛ ولو أنك أردته للذكر لكان أحسنَ الذكر عند العقلاء أن يقال : إنه لا ينفرد برأيه دون ذوِي الرأي من إخوانه .

* * *

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : عليه السلام : « وربّما استحلَى النّاسُ الثّناء بعد البلاء ...» إلى قوله: « لابدّ من إمضائها »؟ فنقول : إنّ معناه أنّ بعض مَنْ يكره الإطراء والثناء ، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختبار ، كما قال مرْدَاس بن أديّة لزياد : إنّما الثناء بعد البلاء ، وإنما نثنى بعد أن نبتلى ؛ فقال : لو فرضنا أنّ ذلك سائغ وجائز وغير قبيح ، لم يجزْ لكم أن تثنوا علىّ فى وجهى ، ولا جاز لى أن أسمَعه منكم ؛ لأنه قد بقيتْ علىّ بقيّة لم أفرُغ من أدائها ، وفرائض لم أُمضِها بعد ، ولا بدّ لى من إمضائها ؛ وإذا لم يتمّ البلاء الذى قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده ، لم يحسن الثناء .

* * *

ومعنى قوله : « لإخراجى نفسى إلى الله وإليكم » أى لاعترافى بين يدى الله وبمحضر منكم أنّ علىّ حقوقا فى إيالتكم ، ورياستى عليكم ، لم أقم بها بعد ، وأرجو من الله القيام بها .

* * *

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : « فلا تخالطونى بالمصانعة » ؟ فنقول : إنّ معناه لا تصانعونى بالمدح والإطراء عن عمل الحق ، كما يصانَع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم الإطراء والثناء ، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صونعوا به من التقريظ والتزكية والنفاق .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « فإنّى لست بفوقِ أنْ أخطئ » ؛ هذا اعتراف منه عليه السلام بعدم العصمة ، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره ، أو يكون قاله على سبيل هضم

النفس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولا أنا إلا أن يتداركني الله برحمته ».

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « أخرجنا مما كنا فيه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى » . ليس هذا إشارة إلى خاصّ نفسه عليه السلام ، لأنه لم يكن كافرا فأسلم ، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس ، فيأتى بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسُّعا ، ويجوز أن يكون معناه : لولا ألطافُ الله تعالى ببعثه محمد صلى الله عليه وآله لكنت أنا وغيرى على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ [1] ليس معناه أنه كان كافرا ، بل معناه : لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحدٍ من قومك . ومعنى « ووجدك ضالًا » ، أى ووجدك بعُرْضة [2] للضلال ، فكأنه ضالٌّ بالقوة لا بالفعل .

(١) سورة الضحى ٧ .

(٢) كذا فى ب ، وفى ا : « بمرضية الضلال » .

(٢١١)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَئُوا إِنَائِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي ، وَقَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً ، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ .

***

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَه اللهُ : وَقَدْ مَضَى هذا الْكَلامُ فى أثناء خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، إلا أنِّى ذَكَرْتُهُ هاهنا لاخْتِلَافِ الرِّوَايَتَيْنِ .

***

الشّرْحُ :

العدوى : طلبك إلى والٍ ليُعديك على مَنْ ظلمك ، أى ينتقم لك منه ، يقال : استعديتُ الأميرَ على فلان فأعدانى ، أى استعنت به عليه فأعانى .

وقطعوا رحمى : وقطعوا قرابتى ، أى أجرونى مجرى الأجانب ويجوز أن يُريد أنّهم عدّونى كالأجنبيّ من رسول الله صلى الله عليه وآله . ويجوز أن يريد أنّهم جعلونى كالأجنبيّ

منهم ؛ لاينصرونه ، ولا يقومون بأمره .

وأكفئوا إنائى : قلبوه وكبّوه ، وحذف الهمزة من أوّل الكلمة أفصح وأكثر ، وقد روى كذلك ، ويقال لمن قد أضيعت حقوقه : قد أكفأ إناءه ؛ تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء

وقد اختلفت الرواية فى قوله : « ألا إنّ فى الحقّ أن تأخذه » ، فرواها قوم بالنون ، وقوم بالتاء . وقال الراوندى : إنها فى خطّ الرضىّ بالتاء . ومعنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتُك حقًّا ، وإن وُلّى غيرُك كانت ولايته حقا ، على مذهب أهل الاجتهاد. ومن رواها بالنون ، فالمعنى ظاهر .

والرافد : المعين . والذابّ : الناصر .

وضننت بهم : بخلت بهم . وأغضيت على كذا : صبَرت .

وجرِعت بالكسر . والشّجا : مايعترض فى الحلق .

والوخز : الطعن الخفيف ، وروى « من حزّ الشفار » والحزّ : القطع .

والشِّفار : جمع شفرة ، وهى حدّ السيف والسكّين .

***

واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام مايناسبه ، ويجرى مجراه ، ولم يؤرّخ الوقت الذى قاله فيه ، ولا الحال التى عناها به ، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه السلام قاله عقِيب الشّورى وبيعة عثمان ، فإنه ليس يرتاب أحدٌ من أصحابنا على أنه تظلّم وتألّم حينئذ .

ويكره أكثر أصحابنا حملَ أمثال هذا الكلام على التألّم من يوم السقيفة .

ولقائل أن يقول لهم : أتقولون إنّ بيعة عثمان لم تكن صحيحة؟ فيقولون : لا، فيقال

لم : فعلَى ماذا تحملون كلامه عليه السلام ، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله ؟ فيقولون: نحملُ ذلك على تألّمه وتظلّمه منهم إذا تركوا الأولَى والأفضل . فيقال لم : فلاتنكروا قول مَنْ يقولُ من الشّيعة وغيرهم : إنّ هذا الكلام وأمثاله صدَرعنه عقِيب السقيفة،وحملوه على أنّه تألم وتظلّم من كونهم تركوا الأوْلى والأفضل ،فإنكم لستم تنكرون أنّه كان الأفضلَ والأحقّ بالأمر ، بل تعترفون بذلك ، وتقولون : ساغت إمامة غيره ،وصحّت لمانع كان فيه عليه السلام ، وهو ماغلب على ظنون العاقدين للأمر من أنّ العرب لاتطيعه ، فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولِيَ الخلافة لأسباب يذكرونها ، ويعدّونها ، وقد روى كثير من المحدّثين أنّه عقيب يوم السّقيفة تألّم وتظلّم ، واستنجدواستصرخ ،حيث ساموه الحضور والبيعة ،وأنّه قال وهو يشير إلى القبر :﴿ يَابْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى ﴾[1]وأنّه قال : واجعفراه ! ولا جعفر لى اليوم ! واحمزتاه ولا حمزة لى اليوم !

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدّم ، وكلّ ذلك محمول عندنا على أنّه طلب الأمر من جهة الفضل والقرابة ، وليس بدالّ عندنا على وجود النصّ ، لأنه لو كان هناك نصّ لكان أقلّ كلفةً وأسهلَ طريقا ، وأيسرَ لِمَا يريدُ تناولَا أن يقول : ياهؤلاء إنّ العهد لم يطُلْ ، وإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أمرَكم بطاعتى ، واستخلفنى عليكم بعده ، ولم يقع منه عليه السلام بعد ماعلمتموه ونصّ ينسخ ذلك ، ولا يرفعه ، فما الموجب للتركى ، والعدول عنى !

فإن قالت الإمامية : كان يخاف القتل لو ذكر ذلك ، قيل لم : فهلا يخاف القتل وهو يعتلّ ويدفع ليبايع ، وهو يمتنع ، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلّى الله عليه وآله،

---

(١) سورة الأعراف ١٥٠ .

وتارة بعمّه حمزة وأخيه جعفر ـ وهما ميتان ـ وتارة بالأنصار ، وتارة ببنى عبدمناف، ويجمع الجموع فى داره ، ويبثّ الرسل والدّعاة ليلا ونهارا إلى الناس ، يذ كّرهم فضله وقرابته ، ويقول للمهاجرين : خَصَمْتُمُ(١) الأنصار بكونكم أقربَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وأنا أخصِمكم بما خَصَمْتُم به الأنصار ، لأنّ القرابة إن كانت هى المعتبرة ، فأنا أقربُ منكم .

وهلّا خاف من هذا الامتناع ، ومن هذا الاحتجاج ، ومن الخلوة فى داره بأصحابه ، ومِنْ تنفير الناس عن البيعة التى عقدت حينئذ لمن عقدت له !

وكلّ هذا إذا تأمّله المنصِف علم أنّ الشيعة أصابتْ فى أمرٍ ، وأخطأت فى أمرٍ ، أمّا الأمرُ الذى أصابت فيه فقولها : إنه امتنع وتلكّأ ، وأراد الأمر لنفسه ، وأمّا الأمرُ الذى أخطأت فيه ، فقولُها : إنه كان منصوصاً عليه نصاً جلياً بالخلافة ، تعلمهُ الصّحابة كلّها أو أكثرها ، وإنّ ذلك النصّ خولف طلباً للرئاسة الدنيويّة ، وإيثاراً للعاجلة . وإنّ حال المخالفين للنصّ لا تعدُو أحدَ أمرين : إمّا الكفر أو الفسق ، فإنّ قرائن الأحوال وأماراتها لا تدلّ على ذلك ، وإنّما تدلّ وتشهد بخلافه ، وهذا يقتضى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان فى مبدأ الأمر يظنّ أنّ العقد لغيره كان عن غير نظر فى المصلحة ، وأنّه لم يقصَدْ به إلا صرفُ الأمرِ عنه ، والاستئثار عليه ، فظهر منه ما ظهر من الامتناع والقعود فى بيته ، إلى أن صحّ عنده ، وثبت فى نفسه ، أنهم أصابوا فيما فعلوه ، وأنّهم لم يميلوا إلى هوًى ، ولا أرادوا الدنيا ، وإنما فعلوا الأصلح فى ظنونهم ، لأنه رأى من بغض الناس له ، وانحرافهم عنه ، وميلهم عليه ، وثوران الأحقاد التى كانت فى أنفسهم ، واحتدام النيران التى كانتْ فى قلوبهم ، وتذكّروا التّراث التى وَتَرَهم فيما قبل بها ، والدماء التى سفكها منهم ، وأراقها .

---

(١) خصمكم الأنصار : غلبوكم .

وتعلّل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنّه ، واستهجانهم تقديمَ الشّباب على الكهول والشيوخ .

وتعلّل طائفة أخرى منهم بكراهيَة الجمعَ بين النبوّة والخلافة فى بيت واحد ، فيجفخُون[1] على الناس كما قاله من قاله . واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعدّيه وشدته ، وعلمهم بأنّه لا يداجِى ولا يحابى ، ولا يراقب ولا يجامل فى الدّين ، وأن الخلافة تحتاج إلى مَنْ يجتهد برأيه ، ويعمل بموجب استصلاحه ، وانحراف قوم آخرين عنه ، للحسد الذى كان عندهم له فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لشدة اختصاصه له ، وتعظيمه إياه ، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالّة على رفعة شأنه وعلو مكانه ، وما اختصّ به من مصاهرته وأخوّته ، ونحو ذلك من أحواله معه ، وتنكّرُ قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجْب والتيه، كما زعموا، واحتقار العرب، واستصغاره الناس كما عددوه عليه، وإن كانوا عندنا كاذبين ، ولكنه قولٌ قيل ، وأمر ذكر ، وحال نسبت إليه ، وأعانهم عليها ما كان يصدُر عنه من أقوال توهم مثل هذا ، نحو قوله: « فإنا صنائعُ ربّنا ، والناس بعد صنائع لنا » ، وما صحّ به عنده[2] أنّ الأمر لم يكن ليستقيم له يوما واحداً ، ولا ينتظم ولا يستمرّ ، وأنه لو ولى الأمر لفتقت العرب عليه فتقا يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه ، فأذعن بالبَيْعة ، وجنَح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمْرة ، وإن كان على مَضَض ورَمَض .

وقد روى عنه عليه السلام أنّ فاطمةَ عليها السلام حرّضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوتَ المؤذّن : « أشهد أن محمدا رسول الله » ، فقال لها : أيسرّك زوال هذا النداء من الأرض ! قالت : لا ، قال : فإنّه ما أقول لك .

---

(١) فيجفخون : يفخرون ويتكبرون .
(٢) ب : « عنده » ، وما أثبته من ا

وهـذا المذهب هو أقصَدُ المذاهب وأصحّها ، وإليه يذهب أصحابنا المتأخّرون من البغداديين ، وبه نقول .

واعلم أنّ حال عليّ عليه السلام فى هذا المعنى أشهرُ من أن يحتاج فى الدّلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب ، فقد رأيت انتقاضَ العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسٍ وعشرِين سنة ، وفى دون هـذه المدّة تُنسَى الأحقاد ، وتموت التّرات، وتبرُد الأكباد الحامية ، وتسلُو القلوب الواجدة ، ويعدَم قرْنٌ من الناس ، ويوجـد قرْن ، ولا يبقى من أرباب تلك الشّحناء والبغضاء إلّا الأقلّ ، فـكانت حاله بعد هذه المدّة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابنِ عمّه صلى الله عليه وآله ، من إظهار مافى النفوس ، وهَيَجان مافى القلوب ، حتى إنّ الأخلافَ من قريش ، والأحداث والفتيان الّذين لم يشهدوا وقائعه وفتـكاته فى أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به مالو كانت الأسـلاف أحياء لقصّرت عن فعله ، وتقاعست عن بلوغ شأوِه ، فـكيف كانت تـكونُ حاله لو جلس على مِنبَر الخلافة ، وسيفه بعد يقطُر دما من مُهج العرب ، لاسيا قريش الذين بهم كان ينبغى ـ لودهمه خطبـ ـ أن يعتضد ، وعليهم كان يجب أن يعتمد ! إذن كانت تدرُس أعلام الملّة وتنعفِى رسومُ الشريعة ، وتعود الجاهليّة الجهلاء على حالها ، ويفسدُ ماأصلحه رسول الله صلى الله عليـه وآله فى ثلاث وعشرين سنة فى شهر واحد، فـكان من عناية الله تعالى بهذا الدّين أنْ ألهم الصحابة مافعلوه، والله متمّ نوره ولو كره المشركون .

***

[فصل فى أنّ جعفراً وحمزة لو كان حيّين لبايعا عليا]

وسألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى يزيد رحمه الله ، قلت له : أتقول: إنّ حمزة وجعفراً لو كانا حيّين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكانا يبايعانه بالخلافة ؟ فقال : نعم ، كانا أسرع إلى بيعته من النار فى يَبَس العَرْفج . فقلت له : أظنّ أنّ جعفراً كان يبايعه ويتابعه ، وما أظنّ حمزة كذلك ، وأراه جبّاراً ، قوىّ النفس ، شديدَ الشكيمة ، ذاهبا بنفسه ، شجاعا بُهْمَةً ، وهو العمّ والأعلى سِنًّا ، وآثاره فى الجهاد معروفة ، وأظنُّه كان يطلب الخلافة لنفسه !

فقال : الأمر فى أخلاقه وسجاياه كما ذكرتَ ، ولكنّه كان صاحب دين متين ، وتصديقٍ خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولو عاش لرأى من أحوال علىّ عليه السلام مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله مايوجبُ أن يكسر له نخوته ، وأن يقيمَ له صَعَره ، وأن يقدّمه على نفسه ، وأن يتوخّى رضا الله ورضا رسوله فيه ، وإن كان بخلاف إيثاره.

ثم قال: أين خُلُق حمزة السَّبُعىّ من خُلُق علىّ الروحانىّ اللطيف ، الذى جمع بينه وبين خُلُق حمزة ، فاتّصفت بهما نفسٌ واحدة ! وأين هَيُولانيّة نفس حمزة ، وخلوها من العلوم من نفس علىّ القُدْسيّة التى أدركت بالفطرة لابالقوة التعليميّة مالم تدركه نفوس مدقّقى الفلاسفة الإلهيّين ! لو أنّ حمزة حىّ حتّى رأى مِنْ علىٍّ مارآه غيره ، لكان أتبَع له من ظلّه ، وأطوع له من أبى ذرّ والمقداد !

وأما قولك : هو العمّ والأعلى سِنًّا ، فقد كان العباس العمّ والأعلى سنًّا ، وقد عرفت مابذله له وندبه إليه ، وكان أبو سفيان كالعمّ ، وكان أعلى سنًّا ، وقد عرفت ماعرضه عليه. ثم قال : مازالت الأعمام تخدُم أبناء الإخوة ، وتكون أتباعا لهم ؛ ألست ترى داود بن

عليّ ، وعبد الله بن عليّ ، وصالح بن عليّ ، وسليمان بن عليّ ، وعيسى بن عليّ ، وإسماعيل ابن عليّ ، وعبد الصمد بن عليّ خَدَمُوا ابن أخيهم — وهو عبد الله السّفّاح بن محمد بن عليّ — وبايعوه وتابعوه، وكانوا أمراء جيوشِه وأنصاره وأعوانه! ألستَ ترى حمزة والعباس اتّبعا ابن أخيهما صلوات الله عليه ، وأطاعاه ورضيا برياسته ، وصدّقا دعوته! ألستَ تعلم أن أبا طالب كان رئيس بنى هاشم وشيخَهم ، والمطاع فيهم ، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمه ومكفوله ، وجاريا مجرى أحد أولاده عنده ، ثم خضع له ، واعترف بصدقه، ودان لأمره ، حتى مدحه بالشعر كما يمدحُ الأدنى الأعلَى ، فقال فيه :

وَأبيَضَ يُستَسقَى الغَمَامُ بوجهِهِ ثِمَالُ اليتامَى عِصمةٌ للأراملِ[1]

يُطِيفُ به الهُلّاكُ من آل هاشمٍ فهمْ عندَه في نعمةٍ وفواضلِ

وإن سرًّا اختصّ به محمّد صلى الله عليه وآله ، حتى أقام أبا طالب — وحاله معه حاله — مقام المادحِ له ، لسرّ عظيم وخاصية شريفة، وإنّ في هذا لمُعتَبِرٍ عِبْرَةً أن يكون هذا الإنسان الفقير الذى لا أنصارَ له ولا أعوانَ معه، ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يقهر غيره ، تعمل دعوته وأقواله فى الأنفس ما تعمله الخمر فى الأبدان المعتدلةِ المزاج ، حتى تطيعه أعمامُه ويعظّمه مربّيه وكافلُه ، ومَنْ هو إلى آخر عمره القيّم بنفقته ، وغذاء بدنه ، وكسوة جسده ، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشّعراء الملوك والرؤساء ! وهذا فى باب المعجزات عند المنصِف أعظمُ من انشقاق القمر ، وانقلاب العصا ، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدّخرون فى بيوتهم .

ثم قال رحمه الله: كيف قلت : أظنّ أن جعفراً كان يبايعه ويتابعه ، ولا أظنّ فى حمزة ذلك ! إنْ كنت قلت ذلك لأنه أخوه ، فإنّه أعلى منه سنّاً ، هو أكبر من عليّ بعشر

---

(١) ديوانه ١١٣ . ثمال اليتامى : عمادهم وملاذهم .
عصمة للأرامل : حافظ المساكين .

سنين ، وقد كانت له خصائصُ ومناقب كثيرة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله قولا شريفا اتفق عليه المحدّثون ، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن حارثة ، وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي » فحجل فرحا ، ثم قال لزيد : « أنت مولانا وصاحبنا » ، فحجل أيضا ، ثم قال لعليّ : « أنت أخي وخالصتي » ، قالوا : فلم يحجل ، قالوا : كأنّ ترادف التعظيم له وتكرّره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع ، وكان غيره إذا عُظِّم عُظْم نادرا ، فيحسن موقعه عنـــده . واختلف الناس في أى المدحتين أعظم .

فقلت له : قد وقفتُ لأبي حيّان التوحيدي في كتاب " البصائر " على فصل عجيب يمازج مانحن فيه ، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب : سمعت قاضيَ القضاة أبا سعد بشر بن الحسين ـ ومارأيت رجلا أقوى منه في الجدل ـ في مناظرة جرت بينه وبين أبي عبد الله الطبريّ وقد جرى حديث جعفر بن أبي طالب ، وحديثُ إسلامه ، والتفاضل بينه وبين أخيه عليّ ، فقال القاضي أبو سعد : إذا أنعم النظر علِم أنّ إسلام جعفر كان بعد بلوغ ، وإسلامُ البالغ لايكون إلّا بعد استبصار وتبيّن ومعرفةٍ بقبح مايخرج منه ، وحسن مايدخل فيه ؛ وإنّ إسلام عليّ مختلف في حاله ، وذلك أنه قد ظنّ أنه كان عن تلقين لاتبيين إلى حين بلوغه ، وأوان تعقّبه ونظره . وقد علم أيضاً أنهما قتلا ، وإن قَتْلة جعفر شهادة بالإجماع ، وقتلة عليّ فيها أشدّ الاختلاف . ثم خصّ الله جعفراً بأنْ قبَضَه إلى الجنّة قبل ظهور التباين ، واضطراب الحبل ، وكثرة الهرْج ، وعلى أنّه لو انعقد الإجماع ، وتظاهرَ جميع الناس على أنّ القتلتين شهادة ، لكانت الحال في الذى رفع إليها جعفر أغلظ وأعظم ، وذلك أنّه قتِل مقبلًا غير مدبر ، وأمّا عليّ فإنه اغتيل اغتيالا ، وقصِد من حيث لايعلم ؛ وشتّان مابين مَنْ فوجئ بالموت وبين مَنْ عاين مخايل الموت!

وتلقاه بالنحر والصدر ، وعجل إلى الله بالإيمان والصدق ! ألا تعلم أنّ جعفراً قطعت يمناه ، فأمسك اللواء بيسراه ، وقطعت يسراه ، فضمّ اللواء إلى حشاه ، ثم قاتِله ظاهر الشرك بالله وقاتِل علىّ ممن صلّى إلى القبلة ، وشهد الشهادة ، وأقدم عليه بتأويل ، وقاتِل جعفر كافر بالنصّ الذى لاخلاف فيه ! أما تعلم أنّ جعفرا ذو الجناحين ، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمدينة !

قال النقيب رحمه الله : اعلم ــ فِداكَ شيخك ــ أن أباحيّان رجلٌ ملحِدزنديق،يحبّ التلاعب بالدّين ، ويخرِجُ مافى نفسه فيعزوه إلى قوم لم يقولوه . وأقسِم بالله أنّ القاضىَ أبا سعد لم يَقُلْ مِنْ هذا الكلام لفظة واحدة ، ولكنّها من موضوعات أبى حيان وأكاذيبه وترّهاته ؛ كما يسند إلى القاضى أبى حامد المرورّوذىّ كلّ منكَر ، ويروى عنه كلّ فاقرة .

ثم قال : ياأبا حيّان ! مقصودُكَ أن تجعلها مسألة خلاف تثير بهافتنةً بين الطالبيّين ، لتجعل بأسهم بينهم ! وكيف تقلّبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم !

ثم ضحك رحمهُ الله حتى استلقى ومدّ رجليه ، وقال : هذا كلام يُستغنى عن الإطالة فى إبطاله بإجماع المسلمين ، فإنّه لاخلافَ بين المسلمين فى أنّ عليا أفضلُ من جعفر ؛ وإنّما سرق أبو حيان هذا المعنى الذى أشار إليه من رسالة المنصور أبى جعفر إلى محمد بن عبد الله ، النفس الزكيّة ، قال له : وكانت بنو أميّة يلعنون أباكَ فى أدبار الصلوات المكتوبات ، كما تلعن الكفرة ، فمنّقنام وكفّرنام ، وبيّنافضلهوأشدْنابذكره،فاتخذتَ ذلك علينا حجّة ، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قدّمناه علَى حمزةوالعباسوجعفر، أولئك مضوْا سالمين مسلمين منهم ، وابتلى أبوك بالدماء!

فقلت له رحمه الله : وإذاً لا إجماع فى المسألة ؛ لأنّ المنصور لم يقلْ بتفضيله عليهم،

وأنت ادّعيت الإجماع ، فقال : إنّ الإجماع قد سبق هـذا القائل ، وكلّ قول قد سبقه الإجماع لا يعتدّ به .

فلمّا خرجت من عند النقيب أبى جعفر بحثتُ فى ذلك اليوم فى هذا الموضوع مع أحمد ابن جعفر الواسطىّ رحمه الله ـ وكان ذا فضل وعقل ، وكان إماميّ المذهب ـ فقال لى : صدق النقيب فيما قال ! ألست تعلم أنّ أصحابكم المعتزلة على قولين : أحدهما أنّ أكثر المسلمين ثوابًا أبو بكر ، والآخر أنّ أكثرهم ثوابًا علىّ ، وأصحابنا يقولون : إنّ أكثرَ المسلمين ثوابًا علىّ ، وكذلك الزيدية . وأمّا الأشعريّة والكرّامية وأهل الحديث ، فيقولون : أكثر المسلمين ثوابًا أبو بكر ، فقد خلَص من مجموع هذه الأقوال أنّ ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علىّ عليه السلام ؛ أمّا علَى قول الإماميّة والزيديّة والبغداديين كافّة ، وكثير من البصريين من المعتزلة ، فالأمر ظاهر ، وأمّا الباقون فعندهم أنّ أكثرَ المسلمين ثوابًا أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علىّ ؛ ولم يذهب ذاهبٌ إلى أنّ ثواب حمزة وجعفر أكثرُ من ثواب علىّ من جميع الفِرَق . فقد ثبت الإجماع الذى ذكره النقيب ، إذا فسرنا الأفضليّة بالأكثرية ثوابًا ، وهو التفسير الذى يقع الحجاج والجدال فى إثباته لأحد الرجلين . وأمّا إذا فسرنا الأفضليّة بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالّة على التعظيم ، فمعلوم أنّ أحدًا من النّاس لا يقارب عليا عليه السلام فى ذلك ، لا جعفر ، ولا حمزة ولا غيرهما .

ثم وقع بيدى بعد ذلك كتابٌ لشيخنا أبى جعفر الإسكافى ، ذكر فيه أنّ مذهب بِشر بن المعتمِر ، وأبى موسى ، وجعفر بن مُبَشّر ، وسائر قدماء البغداديّين أنّ أفضلَ المسلمين علىّ بن أبى طالب ، ثمّ ابنهُ الحسن ، ثم ابنهُ الحسين ، ثم حمزةُ بن عبد المطلب ، ثم جعفرُ بن أبى طالب ، ثم أبو بكر بن أبى قُحافة ، ثم عمرُ بن الخطاب ، ثم عثمان ابن عفّان .

قال : والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله ، وأكثرهم ثوابًا ، وأرفعهم فى دار الجزاء منزلة .

ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبى عبد الله البصرى يذكر فيه هذه المقالة ، وينسبها إلى البغداديين ، وقال : إنّ الشيخ أبا القاسم البلخى كان يقول بها ، وقبله الشيخ أبو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين ، قالوا كلّهم بها ، فأعجبنى هذا المذهب ، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه ، ونظمته فى الأرجوزة التى شرحت فيها عقيدة المعتزلة ، فقلت :

وخير خلق الله بعد المصطفى ... أعظمهم يوم الفخار شرفا
السيد المعظّم الوصىّ ... بعل البتول المرتضى علىّ
وابناه ثم حمزة وجعفر ... ثم عتيق بعدهم لا ينكر
المخلص الصدّيق ثم عمر ... فاروق دين الله ذاك القسور
وبعده عثمان ذو النورين ... هذا هو الحق بغير مين

(٢١٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام :

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِى فى يَدَىَّ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِى طَاعَتِى ، وَعَلَى بَيْعَتِى ؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَىَّ جَمَاعَتَهُمْ ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِى فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً ، وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، فَضَارَبُوا بِهَا ، حَتَّى لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ .

* * *

الشرح :

عَضُّوا على أسيافهم ، كناية عن الصَّبْر فى الحرب وترك الاستسلام ، وهى كناية فصيحة ، شبّه قبضهم على السيوف بالعضّ ، وقد قدمنا ذكر ما جرى ، وأنّ عسكر الجمل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن أمنوهم غدرا ، وأنّ بعض الشيعة صبر فى الحرب ولم يستسلم ، وقاتل حتى قتل ، مثل حكيم بن جبلة العبدىّ وغيره . وروى : « وطائفةٌ عضوا على أسيافهم » بالرفع ، تقديره : ومنهم طائفة .

قرأت فى كتاب " غريب الحديث " لأبى محمد عبد الله بن قتيبة فى حديث حُذَيفة بن اليمان ، أنه ذكر خروج عائشة ، فقال : « تقاتل معها مُضَر ، مضّرها الله فى النار[1] » ،

(١) قال ابن الأثير فى شرحه للحديث : « أى جعلها فى النار ، فاشتق لذلك لفظاً من اسمها ؛ يقال : مضرنا فلانا فتمضر ؛ أى صيرناه كذلك ، أى نسبناه إليها . وقال الزمخشرى : مضرها : جمعها كما يقال : جند الجنود ، وقيل : مضرها : أهلكها ، من قولهم : ذهب دمه خضراً مضراً ، أى هدراً » . النهاية ٤ : ٩٨ .

وأزد عُمان سلّت الله أقدامها [١] ، وإنّ قيساً لن تنفكّ تبغى دين الله شرّاً ، حتى يركبها الله بالملائكة ، فلا يمنعوا ذَنَب تَلْعة » [٢] .

قلت : هذا الحديث من أعلام نبوّة سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله ، لأنه إخبار عن غيب تلقّاه حُذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله ؛ وحُذَيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات فى الأيّام التى قتل عثمان فيها أتاه نعيُه وهو مريض ، فمات وعلىّ عليه السلام لم يتكامل بيعة الناس ، ولم يدرك الجمل .

وهذا الحديث يؤكّد مذهب أصحابنا فى فسق أصحاب الجمل ، إلّا مَنْ ثبتت توبتُه منهم ، وهم الثلاثة .

(١) سلت الله أقدامها : قطعها . النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٢) التلاع : مسايل الماء ، من علو إلى سفل ، واحدها تلعة ، وذنب التلعة : أسفلها ؛ قال الزمخشرى : « أى يذلها الله حتى لا تقدر على أن تمنع ذنب تلعة . الفائق ٣ : ٣٢ .

(٢١٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما مرّ بطلحة بن عبيد الله وعبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً ! أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَتْنِي أَعْيَارُ بَنِي جُمَحٍ ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ !

***

الشرح :

[عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد]

هو عبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبد شمس . ليس بصحابيّ ، ولكنه من التابعين، وأبوه عتّاب بن أسِيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبدشمس، من مُسلِمة الفتح ، ولما خرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من مكّة إلى حُنَين ، استعمله عليها ، فلم يزل أميرَها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبقي على حاله خلافة أبي بكر الصديق ، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ، لم يعلم أحدُهما بموت الآخر ، وعبد الرحمن هذا هو الّذي قال أمير المؤمنين فيه ،وقد مرّ به قتيلا يوم الجمل : لهفي عليك يعسوب قريش ! هذا فتى الفتيان ، هذا اللّباب المحض من بني عبد مناف ، شفيتُ نفسي ، وقتلت معشري ، إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري ! فقال له قائل : لَشدّ ما أطريتَ

الفتى يا أمير المؤمنين منذ اليوم ! قال : إنه قام عنّي وعنه نسوة لم يقمن عنك

وعبد الرحمن هذا هو الذى احتملت العُقاب كفّه يوم الجمل وفيها خاتَمُهُ، فألقتها باليمامة فعرفت بخاتمه ، وعلم أهل اليمامة بالوقعة .

***

ورأيت فى شرح " نهج البلاغة " للقطب الرّاوندىّ فى هذا الفصل عجائبَ وطرائف، فأحببتُ أن أوردَها هاهنا . منها أنه قال فى تفسير قوله عليه السلام « أدركْتِ وتْرى[1] من بنى عبد مناف » ، قال : يعنى طلحةَ والزُّبير ، كانا من بنى عبد مناف ، وهذا غلط قبيح، لأنّ طلحة من تَيْم بن مرّة ، والزُّبير من أسد بن عبد العزّى بن قصى ، وليس أحدٌ منهما من بنى عبدمناف، وولد عبدمناف أربعة: هاشم ، وعبد شمس، ونوفل، وعبدالمطّلب، فكلّ مَنْ لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة ، فليس من ولد عبد مناف .

ومنها أنّه قال : إنّ مَرْوان بن الحكَم ، من بنى جُمَح ،ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيداً عن معرفة الأنساب ! مرْوان من بنى أميّة بن عبد شمس ، وبنو جُمَح من بنى هُصَيص بن كعب بن لؤىّ بن غالب ، واسم جُمَح تَيْم بن عمرو بن هُصيص ، وأخوه سهم بن عمرو بن هُصَيص رهط عمرو بن العاص ، فأين هؤلاء ، وأين مروان ابن الحكم !

ومنها أنّه قال : « وأفلتتنى أغيار بنى جُمح » بالغين المعجمة ، قال : هو جَمْع « غَيْر » الّذى بمعنى « سوى » ، وهذا لم يُرْوَ ، ولا مثله مما يتكلّم به أمير المؤمنين لركّته وبعده عن طريقته ، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول : «ولم يفلتنى إلّا بنوجُمح » إلى مثل هذه العبارة الركيكة المتعسّفة .

***

(١) الوتر : الذحل والثأر .

[بنو جُمَح]

واعلم أنّه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الذمّ لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبيّ صلّى الله عليه وآله من بنى جُمَح ، فقال : « وأفلتنى أعيارُ بنى جُمَح » ، جمع عَيْر وهو الحمار ، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا ، ولم يقتل منهم إلّا اثنان ، فمَن هرب ونجا بنفسه : عبد الله الطويل بن صفوان بن أميّة بن خلَف بن وهب بن حُذَافة ابن جُمح ، وكان شريفا وابن شريف ، وعاش حتى قُتِل مع ابن الزبير بمكّة .

ومنهم يحيى بن حكيم بن صَفْوان بن أمية بن خلف ، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكّة ، لما جمع له بين مكة والمدينة ، فأقام عمرو بالمدينة ، ويحيى بمكة .

ومنهم عامر بن مسعود بن أميّة بن خلف ، كان يسمّى دُحروجة الجُعَل ، لقصره وسواده ، وعاش حتى ولّاه زياد صَدَقاتِ بكر بن وائل ، وولّاه عبد الله بن الزُّبير بن العوّام الكوفة .

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة بن الأعور بن أُهَيب بن حُذافة بن جُمَح ، عاش حتى قتل بقُديد ، قتلتْه الخوارج .

فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بنى جُمَح ، وقتل من بنى جُمَح مع عائشة عبدالرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، وعبد الله ابن ربيعة بن دَرّاج العَنْبس بن وهبان بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، لا أعرف أنّه قتِل من بنى جُمح ذلك اليوم غيرهما ، فإنْ صحّت الرواية : « وأفلتنى أعيان بنى جُمَح » ، بالنون ، فالمراد رؤساءهم وساداتهم .

• • •

وأتلعوا أعناقهم : رفعوها ، ورجل أتلَع : بيِّن التَّلع ، أى طويل العنق ، وجِيدٌ تَليع أى طويل ، قال الأعشى :

يوم تُبْـدِى لنـا قُتَيلَةَ عَنْ جِيـ ـدٍ تَليعٍ تزينُهُ الأطواقُ (١)

ووُقِص الرّجل ، إذا اندقّت عنُقه ، فهو موقوص ، ووَقصتُ عنقَ الرّجل أقِصُها وَقْصاً ، أى كسرتُها ، ولا يجوز وقصت العنق نفسها .

والضمير فى قوله عليه السلام : « لقد أتلعوا » يرجع إلى قريش ،أى راموا الخلافة فقتِلُوا دونها .

فإن قلت : أتقول إنّ طلحة والزبير لم يكونا من أهل الخلافة ؟ إن قلتَ ذلكَ تركت مذهبَ أصحابِك ، وإن لم تقله خالفت قول أمير المؤمنين « لم يكونوا أهله » !

قلت : هما أهلٌ للخلافة مالم يطلبْها أميرُ المؤمنين ، فإذا طلبَها لم يكونا أهلاً لهـا ، لا هما ولا غيرهما ، ولولا طاعته لمن تقدّم وما ظهر من رضاه به لم نحكم بصحّة خلافته .

---

(٢) ديوانه ١٤٠ .

(٢١٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ؛ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ ، وَأَرْضَى رَبَّهُ .

***

الشرح :

يصف العارفَ ، يقول : قد أحيا قلبه بمعرفة الحقّ سبحانه ، وأمات نفسه بالمجاهدة ورياضة القوّة البدنية بالجوع والعطش ، والسهر ، والصّبر على مشاقّ السفر ، والسياحة .

حتى دقّ جليلُه ، أى حتى نَحَل بدنُه الكثيف .

ولطف غليظُه ، تلطفت أخلاقه وصفتْ نفسه ، فإن كدر النفس فى الأكثر إنّما يكون من كَدَر الجسد ، والبطنة — كما قيل — تذهب الفطنة .

***

[فصل فى مجاهدة النفوس وما ورد فى ذلك من الآثار]

وتقول أرباب هذه الطريقة : مَنْ لم يكن فى بدايته صاحبَ مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمّة .

وقال عثمان المغربي الصوفيّ : مَنْ ظَنّ أنه يُفتَحُ عليه شيء من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن سرّ من أسرارها من غير لزوم المجاهدة ، فهو غالط .

وقال أبو على الدقّاق : مِنْ لم يكن في بدايته قَوْمة ، لم يكن في نهايته جَلْسة .

ومن كلامهم : الحركة بركة . حركاتُ الظواهر ، تُوجب بركات السرائر .

ومن كلامهم : مَنْ زيّن ظاهره بالمجاهدة حسّن الله سرائرَه بالمشاهدة .

وقال الحسن القرازيّ : هـذا الأمر على ثلاثة أشياء : ألّا تأكل إلّا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغَلَبة ، ولا تتكلّم إلاّ عند الضرورة .

وقال إبراهيم بن أدْهَم : لن ينال الرّجل درجة الصّالحين حتى يغلق عن نفسه باب النّعمة ، ويفتحَ عليها باب الشّدّة .

ومن كلامهم : من كَرُمَتْ عليه نفسه ، هان عليه دينه .

وقال أبو على الرّوذْباريّ : إذا قال الصوفيّ بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فألزموه السوق ، ومُروه بالكسب .

وقال حبيب بن أوس أبو تمام ؛ وهو يقصد غيرَ ما نحن فيه ، ولكنه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه :

خُذِي بعَبَراتِ عينكِ عن زَمَاعِي ... وصُونى ما أزلْتِ من القِناع(١)
أقِلّي قد أضاقَ بُكاكِ ذَرْعِي ... وما ضاقتْ بنازلةٍ ذِرَاعى
أ آلِفَةَ النّحيبِ كم افتراقٍ ... أظلّ فكان داعيةَ اجتماعِ !

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٣٦ ، قال في شرحه . يقول لها : نحي عن عزمي بكاءك . وزماع اسم من أزمعت ، وتقنعي بالقناع الذي ألقيته من رأسك .

فليستْ فرحةُ الأَوْبَاتِ إلّا ... لموقوفٍ على ترَح الوداعِ[1]
تعجّبُ أنْ رأت جسمِي نحيلًا ... كأنّ المجـــد يُدْرَكُ بالصِّراع ![2]
أخو النَّكبات مَنْ يأوِي إذا ما ... أطفنَ به إلى خُلُقٍ وساعِ[3]
يثيرُ عجـاجةً في كلّ فَجٍّ ... يَهيمُ به عديُّ بن الرّقاعِ[4]
أبنّ مع السباع الماء حتّى ... تخالته السّباعُ من السّبـاعِ

وقال أيضاً :

فاطلُبْ هُدُوءاً بالتقلقُـلِ واستثِرْ ... بالعِيسِ منْ تحتِ السُّهادِ هُجُودا[5]
مَا إنْ ترَى الأحسابَ بيضاً وُضَّحاً ... إلّا بحيثُ ترَى المنايا سُودا[6]

وجاء في الحديث أنّ فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بكِسْرة خُبز ، فقال : ما هذه ؟ قالت : قُرْص خبزته ، فلم تطِبْ نفسي حتى أتيتُك منه بهذه الكِسْرة ، فأكلها ، وقال : « أمَا إنّها لَأوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث » .

وكان يقال : ينابيع الحِكْمة من الجوع ، وكسر عادية النفس بالمجاهدة .

---

(١) قال في شرحه : « أي لمن يعرف ترح الوداع ، من قولهم : وقفت فلاناً على أمري ، فهو موقوف عليه ، أي من لم يجد ألماً للفراق لم يجد فرحا باللقاء » .

(٢) الديوان : « توجع أن رأت » .

(٣) رواية الديوان :

فتى النَّـكباتِ من يأوى إذا ما ... قطفن بهِ إلى خلقٍ وساعِ

وقال في شرحه : « قطفن : من قولهم : دابة قطوف ، ويروى : « أطفن به » . ويروى : « أضفن به » يقول : هو صاحب النكبات والشدائد يرتكبها ، ويأوى إلى خلق واسع ؛ إذا ضيقن من مذاهبه وأحطن به » .

(٤) في الديوان : « في كل ثغر » .

(٥) ديوانه ١ : ٤١٦ ، ٤٢٢ ، قال في شرحه : « أي اطلب بالحركة في الأسفار سكوناً ودعة فيا بعد ، وبالأرق نوماً . وقوله : « بالعيس » أي بركوب العيس . ومن تحت السهاد ؛ أي من تحت الصبر على السهاد .

(٦) أي من لم يصبر في معركة الأبطال لم يذكر .

وقال يحيى بن مُعاذ : لو أنّ الجوعَ يُباع فى السوق لما كان ينبغى لطلّاب الآخرة إذا دخلوا السُّوق أن يشتروا غيرَه .

وقال سهل بن عبدالله : لمّا خَلق الله الدّنيا جعل فى الشِّبَع المعصيةَ والجهل ، وجعلَ فى الجوع الطاعة والحكمة .

وقال يحيى بن مُعـاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزّهّاد سياسة ، وللعارفين تـكرِمة .

وقال أبو سليمان الدّارانىّ : مفتاح الدّنيا الشّبَع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

وقال بعضهم : أدب الجوع ألّا ينقصَ من عادتك إلامثل أذن السِّنّور ، هكذا على التدريج ، حتّى تصل إلى ما تريد .

ويقال : إنّ أبا تُراب النّخشبىّ خرج من البصرة إلى مكّة ، فوصل إليها على أكلتين : أكلةٍ بالنِّبَاج ، وأكلةٍ بذات عِرْق .

قالوا : وكان سهل بن عبدالله التّسترىّ إذا جاع قوىَ ، وإذا أكل ضعف .

وكان منهم مَنْ يأكلُ كلّ أربعين يوماً أكلة واحدة ، ومنهم مَنْ يأكل كلّ ثمانين يوماً أكلة واحدة .

قالوا : واشتهى أبو الخير العسقلانىّ السمك سنين كثيرة ، ثم تهيأ له أكلُه من وجهٍ حلال ، فلمّا مدّ يدَه ليأكل أصابت أصبعه شوكة من شوك السمك ، فقام وترك الأكل ، وقال : يارب ، هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى الحلال ، فكيف بمن مدّ يدَه بشهوة إلى الحرام !

وفى الكتاب العزيز : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (١) ، فالجملة الأولى هى التقوى ، والثانية هى المجاهدة .

---

(١) سورة النازعات ٤٠ ، ٤١ .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « أخوَفُ ماأخاف على أمّتي اتّباع الهوى وطول الأمل ، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأمّا طول الأمل فيُنسِي الآخرة » .

وسئل بعضُ الصوفيّة عن المجاهدة ، فقال : ذَبْح النّفس بسُيوف المخالفة .

وقال : منْ نجمَتْ طوارقُ نفسِه ، أفلتْ شَوارق أنسه .

وقال إبراهيم بن شيبان : مابتّ تحت سقفٍ ولا في موضع عليه غَلَق[1] أربعين سنة. وكنت أشتهي في أوقاتٍ أن أتناول شُبْعَة[2] عدس فلم يتفق ، ثم حُمِلَتْ إليّ وأنا بالشّام غَضَارة[3] فيها عدسيّة ،فتناولت منها وخرجت، فرأيت قواريرمعلّقة فيهاشبه أنموذجات، فظننتها خلًّا ، فقال بعض الناس : أتنظر إلى هـذه وتظنّها خلًّا ! وإنّما هي خمر ، وهي أنموذجاتهذه الدنان ـلدنان هناكـ فقلت : قدلزِمَني فرضُ الإنـكار،فدخلت حانوت ذلك الخمّار لأكسِرَ الدّنان والجِرار ، فحُمِلتُ إلى ابن طُولون ، فأمر بضربي مائتي خَشَبة ، وطرحِي[4] في السِّجْن ، فبقيت مدّة ، حتى دخل أبو عبد الله الوباني المغربيّ أستاذ ذلك البلد ، فعلم أنّي محبوس ، فشفع فيّ ، فأخرِجت إليـه ، فلمّا وقع بصرُه عليّ قال : أيّ شيء فعلت ؟ فقلت : شُبعة عـدس ومائتي خشبـة ، فقـال : لقـد نجوتَ مجّانًا .

وقال إبراهيم الخوّاص : كنتُ في جبلٍ ، فرأيت رُمّانًا فاشتهيته ، فدنوت فأخذت منه واحدةً ، فشققتها فوجدتها حامِضَةً ،فمضيت وتركت الرمّان ، فرأيت رجلاً مطروحا قد اجتمع عليه الزّنابير ، فسلّمت عليه ، فردّ عليّ باسمي ، فقلت : كيف عرفتَنِي ؟ قال : مَنْ عَرَفَ الله لم يَخْفَ عليه شيء ، فقلت له : أرى لك حالًا مع الله ، فلو سألته أن يحميَك ويقيَك من أذى هـذه الزّنابير ! فقال : وأرَى لك حالًا مع الله ، فلو سألته أن يقيَك من شهوة الرّمّان ، فإنّ لذع الرّمان يجـد الإنسـان ألمه في الآخرة ، ولذع الزنابير

---

(١) الغلق هنا : الباب .
(٢) الشبعة من الطعام : قدر ما يشبع به .
(٣) الغضارة : القصعة الكبيرة .
(٤) كذا في ا ، وفي ب : وطرحني » .

يجد الإنسان ألّمه في الدنيا ، فتركته ومضيت على وجهي .

وقال يوسف بن أسباط : لايمحو الشّهَواتِ من القلب إلّا خوفٌ مزعج ، أوشَوْق مقلِق .

وقال الخوّاص : مَنْ ترك شهوة فلم يجد عِوَضها في قلبِهِ فهو كاذب في تركها .

وقال أبوعلىّ الرّباطىّ : صحبت عبد الله المروزىّ ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ؛ فلما صحبتُه قال لى : أيّما أحبُّ إليك ؟ تكون أنتَ الأمير ، أم أنا ؟ قلت : بل أنت ، فقال : وعليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ مِخْلَاةً ووضع فيها زادا ، وحملها على ظهره ، فكنت إذا قلت له : أعطنى حتى أحملها ، قال : الأمير أنا ، وعليك الطاعة، قال: فأخذَنا المطرُ ليلة ، فوقف إلى الصّباح على رأسى ، وعليه كساء يمنع عنّى المطر ، فكنت أقول في نفسى: ياليتنى متّ ولم أقل له : أنت الأمير! ثم قال لى: إذا صحبت إنسانا فاصحبه كما رأيتَنى صحبتك .

أبو الطيّب المتنبّى :

ذرِينى أنلْ مالا يُنَال من العُــــلَا ... فصعبُ العُلَا فى الصّعْبِ والسّهلُ فى السهلِ (١)

تريدينَ إدراكَ المعالى رخيصــــةً ... ولا بُدّ دونَ الشّهْدِ من إبَرِ النّحــلِ (٢)

وله أيضا :

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبـاراً ... تعبتْ فى مُرادِها الأجســامُ (٣)

ومن أمثال العامة : مَنْ لم يَغْلِ دماغُه فى الصّيف لم تَغْلِ قِدْرُه فى الشتاء .

مَنْ لم يركَب الأخطَار ، لم ينل الأوطار .

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .

(٢) فى الديوان : « تريدين لقيان المعالى »

(٣) ديوانه ٣ : ٣٤٥

إدراك السُّول وبُلوغ المأمول ، بالصبرِ على الجوع ، وفقدِ الهُجوع، وَسَيَلانِ الدموع.

***

واعلم أنّ تقليلَ المأكول لاريب فى أنّه نافعٌ للنفس والأخلاق ،والتّجْربة قد دلّتْ عليه ، لأنّا نرى المكثِرَ من الأكْل يغلبه النّومُ والكَسل وبلادة الحواسِّ وتتبخر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة ، فتتصاعد إلى الدّماغ فتفسد القوّى النّفسانية . وأيضا فإنّ كثرَة المأكل تزيل الرّقّة ، وتورث القَساوة والسّبُعية ،والقياس أيضا يقتضى ذلك؛ لأنّ كثرة المزاوَلات ، سببٌ لحصولِ المَلكات ، فالنّفس إذا توفّرت على تدبير الغِذاء وتصريفه ، كان ذلك شغلا شاغلا لها ، وعائقا عظيما عن انصبابها إلى الجهة الرُّوحانية العالية ، ولكن ينبغى أن يكون تقليل الغذاء إلى حَدٍّ يوجب جوعاً قليلا ، فإنّ الجوع المفرِط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها ، واختلال قُواها ، وذلك يقتضى تشويشَ النّفْس واضطراب الفكر ، واختلال العقل ، ولذلك تمرض الأخلاط السَّوْداوية لمن أفرط عليه الجوع ، فإذَنْ لابدّ من إصلاح أمر الغذاء ، بأن يكون قليلَ الكَمّيّة ، كثير الكيفيّة ، فتؤثِّر قلة كميّته فى أنّه لايشغل النفس بتدبير الهضْم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية ، وتؤثِّر كثرة كيفيته فى تدارُك الخلل الحاصل له من قلّة الكَمية ،ويجب أن يكون الغِذاء شديدَ الإمداد للأعضاء الرئيسَة ، لأنها هى المهمّة من أعضاء البَدَن وما دامت باقيةً على كال حالها لا يظهر كثير خللٍ من ضعف غيرها من الأعضاء .

***

[فصل فى الرياضة النفسية وأقسامها]

واعلم أنّ الرّياضة والجوع هى أمرٌ يحتاج إليه المريد الذى هو بعدُ فى طريق السّلوك إلى الله .

وينقسم طالبُو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة :

أحدها : الّذِين مارَسُوا العلومَ الإلٰهيّة، وأجهدُوا أنفسَهم فى طلبها والوصول إلى كنهها، بالنّظر الدقيق ، فى الزمان الطويل ، فهولا يحصُلُ لهم شوق شديد ، وميلٌ عظيم إلى الجهة العالية الشريفة ، فيحملهم حبُّ الكمال عَلَى الرّياضة .

وثانيها : الأنفُس الّتى هى بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الرُّوحانيّة من غير ممارسة عِلْم ولا دربة بنظر وبحث ، وقد رأينا مثلَهم كثيرا ، وشاهدنا قوماً من العامّة متى سَنَح لهم سانح مشوق ، مثل صوت مطرب ، أو إنشاد بيت يقع فى النفس ، أو سماع كلمةٍ توافق أمراً فى بواطنهم ، فإنّه يستولِى عليهم الوجد ، ويشتدّ الحنين ، وتغشاهم غواشٍ لطيفة روحانيّة ، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات .

وثالثها : نفوس حَصَل لها الأمْران معاً : الاستعدادُ الأصليّ ، والاشتغال بالعلوم النظريّة الإلهيّة .

ورابعها : النفوس التى لا استعداد لها فى الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهيّة ، ولكنهم (١) قومٌ سمعوا كمال َهذه الطريقة ، وأنّ السعادةَ الإنسانيّة ليستْ إلّا بالوصول إليها، فمالت نحوها ، وحصل لها اعتقاد فيها .

فهذه أقسام المريدين ؛ والرياضة التى تليقُ بكلّ واحدٍ من هذه الأقسام غير الرياضة اللائقة بالقسم الآخر .

---

(١) ا : « وكان »

ونحتاجُ قبل الخوضِ فى ذلك إلى تقديم أمرين :

أحدهما : أنّ النفحاتِ الإلٰهية دائمة مستمرّة ،وأنه كل مَنْ توصّل إليها وصل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(١) وقال النبىّ صلىّ الله عليه وآله : « إنّ لربّكم فى أيّام عصركم نفحاتٍ ، ألا فتعرّضوا لنفحاته » .

وثانيهما : أنّ النفوسَ البشريّةَ فى الأكثر مختلفةٌ بالنوع ،فقدتكون بعض النفوس مستعدّة غاية الاستعداد لهذا المطلب ، وربّما لم تكن البتّة مستعدّة له ، وبين هذين الطرَفَين أوساط مختلِفة بالضّعف والقوّة .

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ القسمَيْن الأوّلَيْن لمّا اختلفا فيما ذكرناه لاجرم ، اختلفا فى الكسْب والمكتَسب .

أمّا الكسْب فإنّ صاحب العِلْم الأوْلَى به فى الأكثر العُزلة والانقطاع عن الخلْق ، لأنه قد حصلت له الهداية والرّشاد ، فلا حاجة له إلى مخالطة أحدٍ يستعين به على حصول ماهو حاصل . وأمّا صاحبُ الفِطْرة الأصليّة من غير عِلْم فإنّه لا يليقُ به العُزْلة ، لأنه يحتاج إلى المعلّم والمرشِد ، فإنه ليس يكفى الفطرة الأصليّة فى الوصول إلى المَعالم الإلٰهية والحقائق الربّانية ، ولا بدّ من موقف ومرشد فى مبدأ الحال ، هذا هو القول فى الكسب بالنظر إليهما .

وأمّا المكتَسب ، فإنّ صاحب العلم إذا اشتغل بالرّياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كمّيّة ، وأقل كيفية ممّا لصاحب الفطرة المجردة ،أما كثرة الكمّية ، فلأنّ قوّته النظريّة تُعينه على ذلك ، وأمّا قلّة الكيفيّة، فلأنّ القوّة النفسانية تتوزّع على تلك الكثرة؛ وكلّما كانت الكثرة أكثرَ ؛ كان توزّع القوّة إلى أقسامٍ أكثر ،وكان كلّ واحدٍ منها

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

أضعف مما لو كانت الأقسامُ أقلّ عددا ، وإذا عرفتَ ذلك عرفت أنّ الأمر فى جانب صاحب الفِطْرة الأصليّة بالعكس من ذلك ، وهو أنّ مشاهداتِه ومكاشفاته تكون أقلّ كميّة ، وأكثرَ كيفية .

وأمّا الاستعداد الثّالث ، وهو النفس الّتى قد جمعت الفِطْرة الأصليّة والعلوم الإلٰهيّة النظريّة بالنظر ، فهى النفس الشريفة الجليلة الكاملة .

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة فى أنّ رياضتَها القلبية يجب أن تكون زائدة فى الكمّ والكيف على رياضتها البدنيّة ، لأن الغرض الأصلىّ هو رياضةُ القلب وطهارة النفس ، وإنّما شرعت الرياضات البدنيّة ، والعبادات الجسمانية ، لتكون طريقا إلى تلك الرياضة الباطنة ، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرّياضة البدنية عبثاً ؛ لأنّ الوسيلة بعد حصول المتوسَّل إليه فضلةٌ مستغنًى عنها ، بل ربّما كانت عائقة عن المقصود . نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصّة ، لئلّا تعتاد النّفسُ الكسل ، وربما أفضى ذلك إلى خلَلٍ فى الرياضة النفسانيّة ؛ ولهذا حُكى عن كثير من كبراء القوم قلّة الاشتغال بنوافل العبادات .

وأما القسم الرابع ، وهو النفس التى خلت عن الوصْفَيْن معا ؛ فهذه النفْس يجب ألا تكون رياضتها فى مبدأ الحال إلّا بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور فى كتب الحكمة الخلقية ، فإذا لانت ومرَنت واستعدّت للنفحاتِ الإلٰهيّة حصل لها ذوق ما ، فأوجب ذلك الذّوق شوقاً ، فأقبلت بكلّيتها على مطلوبها .

* * *

[فصل فى أنّ الجوع يؤثر فى صفاء النفس]

واعلم أنّ السّبب الطبيعى فى كون الجوع مؤثرا فى صفاء النفس ، أنّ البلغم الغالبَ على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة ، وإبطاء الفَهْم لكثرة الأرضيّة فيه ، وثقَلِ جوهره ، وكثرة مايتولّد عنه من البخارات التى تسدّ المجارى ، وتمنع نفوذ الأرواح ، ولا ريبَ أن الجوع يقتضى تقليل البلغم ، لأنّ القوّة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه ، عمِلَتْ فى الرطوبة الغريبة الكائنة فى الجسد ، فكلّما انقطع الغذاء استمرّ عملها فى البلغم الموجود فى البدن ، فلا تزال تعمل فيه وتُذيبه الحرارة الكائنة فى البدن ، حتى يفنى كلُّ مافى البدن من الرطوبات الغريبة ، ولا يبقى إلّا الرطوبات الأصليّة ، فإن استمرّ انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوّة الهاضمة فى تنقيص الرطوبات الأصليّة من جوهر البدن؛ فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدّ ليس بمفرط ، لم يضرّ ذلك بالبدن كلّ الإضرار ، وكان ذلك هو غاية الرّياضة التى أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله: « حتى دقّ جليلهُ ولطفُ غليظه » ، وإن أفرطَ وقع الحَيْف والإجحاف على الرطوبة الأصليّة، وعطِب البدن ووقع صاحبه فى الدّقّ والذبول ، وذلك منهىٌّ عنه ؛ لأنّه قتل للنفس ، فهو كمن يقتل نفسَه بالسّيف أو بالسّكين .

* * *

[كلام للفلاسفة والحكماء فى المكاشفات الناشئة عن الرياضة]

واعلم أن قوله عليه السلام : « وبرق له لامعٌ كثير البرق » ، هو حقيقة مذهبِ الحكماء ، وحقيقة قول الصوفيّة أصحاب الطريقة والحقيقة ؛ وقد صرّح به الرئيس أبو علىّ ابن سينا فى كتاب " الإشارات " فقال فى ذكر السالك إلى مرتبة العرفان : ثم إنّه

إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًّا ما عَنَّتْ له خُلْسات من اطّلاع نور الحق إليه لذيذة كأنها بروقٌ تُومِض إليه ثم تخمَد عنه ، وهي التي تسمّى عندهم أوقاتا ، وكلّ وقتٍ يكتنفه وجدٌ إليه ، ووجد عليه . ثمّ إنّه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعَن في الارتياض ، ثمّ إنّه ليتوغّل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض ، فكلّما لَمح شيئا عاج منه إلى جانب القدس ، فتذكّر من أمره أمراً فغشيَهُ غاشٍ ، فيكاد يرى الحقّ في كلّ شيء ؛ ولعلّه إلى هذا الحدّ تستولى عليه غواشِيه ، ويزول هو عن سكينته ، ويتنبّه جليسه لاستنفاره عن قراره ، فإذا طالت عليه الرّياضة لم تستنفره غاشية ؛ وهُدِيَ للتأنّس بما هو فيه. ثم إنّه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوفُ مألوفا ، والوميضُ شِهابا بيِّنا ، ويحصل له معارف مستقرّة ؛ كأنّها صحبة مستمرّة ؛ ويستمتع فيها ببهجته ، فإذا انقلب عنها انقلب حيران آسفا .

فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في "الإشارات" ، وهي كما تراها مصرّح فيها بذكر البُرُوق اللامعة للعارف .

وقال القشيريّ في الرّسالة لمّا ذكر الحال والأمور الواردة على العارفين ، قال : هي بروق تلمع ثم تخمد ، وأنوار تبدو ثم تخفى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها ! ثم تمثّل بقول البحتري[1] :

خَطَرَتْ فِي النَّوْمِ مِنْها خطرةٌ خطرة البرق بــدا ثم اضمحلْ
أيّ زَوْرٍ لك لو قَصْداً سَرَى وملمٌّ بك لو حقـا فَعَلْ !

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حَسْبما ذكره الحكيم ، وكلاهما يتّبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه حكيم الحكماء، وعارف العارفين ،ومعلّم الصوفيّة ، ولولا أخلاقه

(١) ديوانه ٢ : ١٨١ .

وكلامه وتعليمهُ للناس هذا الفن تارةً بقوله ، وتارة بفعله ، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ، ولا عِلم كيف يُورد ، ولا كيف يصدِر .

وقال القشيريّ أيضا فى الرسالة : المحاضرة قبل المكاشفة ؛ فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة .

وقال : وهى أرفع الدرجات . قال : فالمحاضرة حضُور القلب ، وقد تكون بتواتر البرهان ، والإنسان بعد وراء الستر ، وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر .

وأما المكاشفة فهى حضور البيِّن غير مفتقر إلى تأمّل الدليل ، وتطلّب السبيل، ثمّ المشاهدة ، وهى وجود الحق من غير بقاء تهمة .

وأحسن ما ذكر فى المشاهدة قول الجُنيد : هى وجود الحق مع فقدانك .

وقال عمرو بن عثمان المكىّ : المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلِّى على القلب من غير أن يتخلّلها ستر ولا انقطاع ، كما لو قدِّر اتصال البروق فى الليلة المظلمة ؛ فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام له التجلّى مع النهار فلا ليل .

وأنشدوا شعرا :

لَيْــلِى بوجهكَ مُشرقٌ ... وظلامُهُ فى الناس سارِ
فالناس فى سَدَفِ الظَّلا ... م ونحن فى ضوء النهـــار

وقال النورىّ : لا تصحّ للعبد المشاهدة وقد بقى له عِرْق قائم .

وقالوا : إذا طلع الصباح ، استغنى عن المصباح .

وأنشدوا أيضا :

فلما استنار الصبْح طوّح ضوءه ... بأنوارِه أنوارَ ضوء الكواكب

نجرّعهم كأسا لو ابتليتَ لظى بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس وأىّ كأس ، تصطلمهم عنهم ، وتفنيهم وتخطفهم منهم ولا تبقيهم ، كأس لا تبقى ولا تذَر ، تمحو بالكلّية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية ، كما قال قائلهم :

* ساروا فلم يبق لا عينٌ ولا أثرُ [١]

وقال القُشيرىّ أيضا: هى ثلاث مراتب: اللوائح ، ثم اللوامع، ثم الطوالع . فاللوائح كالبروق ؛ ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

فافترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمهُ علىّ وداعا

وأنشدوا :

ياذا الذى زارَ وما زَارا كأنه مقتبسٌ نارَا

مر بباب الدار مستعجلاً ماضَرّه لو دخل الدارا !

ثم اللوامع ، وهى أظهر من اللوائح ؛ وليس زوالها بتلك السرعة ؛ فقد تبقى وقتين وثلاثة ، ولكن كما قيل :

* العين باكيةٌ لم تُشبع النظرا *

أو كما قالوا :

وبلانى من مشهدٍ ومغيبٍ وحبيبٍ منّى بعيدٍ قريبِ

لم تَرِدْ ماء وجهه العينُ حتّى شَرِقَتْ قبل ريّها برقيب

فأصحاب هذا المقام بين رَوْح وفَوْح ؛ لأنهم بين كشف وستر يلمع ثم يقطع، لا يستقر لهم نور النهار ؛ حتى تكرّ عليه عساكر الليل ، فهم كما قيل :

والليلُ يشملُنا بفاضلِ بُرْدِهِ والصبح يلحفُنا رداء مذهبا

ثم الطوالع ؛ وهى أبقى وقتا ، وأقوى سلطانا ، وأدوم مكثا ، وأذهب للظلمة ، وأنفى للتهمة [٢] .

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ٤٣ ، ٤٤ .

أفلا ترى كلام القوم كلّه مشحون بالبروق واللمعان !

وكان مما نقم حامد بن العباس وزير المقتدر وعلىّ بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على الحلاج أنهما وجدا فى كتبه لفظ « النور الشمشمانىّ » ، وذلك لجهالتهما مراد القوم واصطلاحهم ، ومَنْ جهل أمرا عاداه .

***

ثم قال عليه السلام : « وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة » ، أى لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه ، حتى وصل ، وتلك المقامات معروفة عند أهلها ، ومَنْ له أنس بها ، وسنذكرها فيما بعد .

ثم قال : « وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه فى قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه » ، أى كانت الراحة الكلّية والسعادة الأبدية مستثمرة من ذلك التعب الذى تحمّله لما استعمل قلبه ، وراض جوارحه ونفسه ، حتى وصل ، كما قيل :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى ‏ ‏ وَتَنْجَلِي عَنَّا غَيَابَاتُ الكَرَى (١)

وقال الشاعر :

تقولُ سُلَيْمَى لَوْ أقمتَ بأرْضنا ‏ ‏ وَلَمْ تدرِ أنّى للمقام أطوّفُ

وقال آخر :

ما ابيضّ وجهُ المرء فى طلب العُلَا ‏ ‏ حتّى يسوّدَ وجهُهُ فى البِيدِ

وقال :

فاطلب هُدُوءًا بالتقلقل واستثر ‏ ‏ بالعِيسِ من تحت السّهاد هجودًا (٢)

ما إن ترى الأحسابَ بيضاً وُضّحاً ‏ ‏ إلا بحيث ترى المنـايا سودا

---

(١) مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ؛ وأول من قاله خالد بن الوليد فى أبيات ذكرها الميدانى عند الكلام على مضرب المثل ومورده : (٢ : ٢) .

(٢) لأبى تمام ، ديوانه ١ : ٤١٦ .

(٢١٥)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد :

وَاللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ ، وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمارٍ مَمْدُودٍ لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ . فَشُدُّوا عُقَدَ المَآزِرِ ، وَاطْوُوا فُضُولَ الخَوَاصِرِ ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ . مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ ، لِعَزَائِمِ اليَوْمِ ! وَأَمْحَى الظُّلَمَ ، لِتَذَاكِيرِ الهِمَمِ !

***

الشَّرْحُ :

مستأديكم شكره ، أى طالبٌ منكم أداء ذلك والقيام به ، استأديت دَيْنى عند فلان ، أى طلبته .

وقوله : «ومورّثكم أمره » ، أى سيرجع أمر الدولة إليكم ، ويزول أمر بنى أميّة .

ثم شبّه الآجال التى ضُرِبَتْ للمكلّفين ليقوموا فيها بالواجبات ، ويتسابقوا فيها إلى الخيرات ، بالمضْمار الممدود لخيل تتنازع فيه السبق .

ثم قال : « فشدّوا عُقَد المآزر » ، أى شمّروا عن ساق الاجتهاد . ويقال لمن يوصَى بالجدّ والتشمير : اشدد عُقْدة إزارك ، لأنّه إذا شدّها كان أبعد عن العثار ، وأسرع للمشى .

قوله : « واطووا فُضُول الخواصر » ، نهى عن كثرة الأكل ، لأنّ الكثير الأكل لا يطوى فضول خواصره لامتلائها ، والقليل الأكل يأكل فى بعضها ويطوى بعضها ، قال الشاعر :

كلُوا فى بعض بطنِكُمُ وعفُّوا فإن زمانكمْ زَمنٌ خميصُ

وقال أعشى باهلة :

طاوِى المَصِيرِ على العزّاء مُنصَلتٌ بالقوم ليلة لا ماء ولا شَجَر(١)

وقال الشنفَرى :

وأطوِى على الخُمص الحوايا كما انطوتْ خُيوطَة مارِىّ تُغار وتفتَل(٢)

***

ثم أتى عليه السلام بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها ، وإن كان قد سبق بمعناها ، وهى قوله: « لا تجتمع عزيمةوولِيمة ». وقوله : « ما أنقض النوم العزْم اليوم ! » . وقوله : « وأمحى الظلم لتذاكير الهم ! » .

فما جاء للمحدثين من ذلك ما كتبه بعض الكتاب إلى ولده :

خِدْمَةُ السُّلطان والكا سات فى أيدى المِلاح

ليس يلتامان فاطلب رفعةً أو شرب راح

ومثله قول آخر لولده :

ما للمطيعِ هواهُ من الملامِ ملاذُ

فاختر لنفسك هَذا مَجْدٌ ، وهذا التِذاذُ

وقال آخر :

وَلَيْسَ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغتدَى لشربِ صَبُوحٍ أو لشربِ غَبُوقِ

ولكن فتَى الفِتيان مَنْ راحَ واغتدَى لضرِّ عدوٍّ أو لنفعِ صديقِ

---

(١) الكامل للمبرد ٤ : ٦٥ ، قال فى شرحه : « طاوى المصير » يقال لواحد المصران مصير ، والعزاء : الأمر الشديد ، يقال : سيف منصلت ومصلت ؛ إذا جرد من غمده .

(٢) من لاميته ؛ وهى فى نوادر القالى ٢٠٣ — ٢٠٧ .

وهذا كثير جدا يناسب قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » .

ومثل قوله : « ما أنقضَ النوم لعزائم اليوم » قولُ الشاعر :

فتًى لا ينامُ على عزمِه ومَن صمَّمَ العزم لم يرقدِ

وقوله : «وأمحى الظُّلَم لتذاكير الهمم» ، أى الظلم التى ينام فيها ، لا كلّ الظلم ، ألا ترى أنه إذا لم ينم فى الظلمة بل كان عنده من شدّة العزم وقوة التصميم مالا ينام معه ، فإنّ الظلمة لا تمحو تذاكير همه . والتذاكير : جمع تَذْكار .

والمثلان الأوّلان أحسن من الثالث ، وكأن الثالث من تتمة الثانى .

وقد قالت العرب فى الجاهلية هذا المعنى ، وجاء فى القرآن العزيز: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١) .

وهذا مثل قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » ، أى لا يجتمع لكم دخول الجنة والدّعة، والقعود عن مشقّة الحرب .

---

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢١٦)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

يَالَهُ مَرَاماً مَاأَبْعَدَهُ ! وَزَوْراً ما أَغْفَلَهُ ! وَخَطَراً مَاأَفْظَعَهُ ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ !

***

الشَّـرْحُ :

قد اختلف المفسرون فى تأويل هاتين الآيتين، فقال قوم : المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم فى التكاثر بالأموال والأولاد ، حتى أتاكم الموت ، فكنَى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر .

وقال قوم : بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم ، وتعدّى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات ، فقالوا : منّا فلان وفلان ـ لقوم كانوا وانقرضوا .

وهذا هو التفسير الذى يدلّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « ياله مراماً ! » ، منصوب على التمييز .

ما أبعده ! أى لافخر فى ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد ؛ وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته .

وزورًا ما أغفله ! إشارة إلى القوم الذين افتخروا ؛ جعلهم بتذكُّر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم . والزَّوْر : اسم للواحد والجمع ، كالخَصْم والضَّيْف . قال : ما أغفلهم عمّا يراد منهم ! لأنهم تركوا العبادة والطاعة ، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى .

ثم قال: «وخطرًا ما أفظعه!» إشارة إلى الموت أي: ما أشدّه . افظُع الشيء بالضم ، فهو فظيع ، أي شديد شنيع مجاوز للمقدار .

قوله : « لقد استخلَوْا منهم أيّ مدكر » ؛ قال الراونديّ : أي وجدوا موضع التذكّر خاليا من الفائدة ، وهذا غير صحيح ، وكيف يقول ذلك وقد قال : « وخطرا ما أفظعه ! » وهل يكون أمر أعظم تذكيرا من الاعتبار بالموتى ! والصحيح أنه أراد بـ «استخلَوْا» ذكر مَنْ خلا من آبائهم ؛ أي مَنْ مضى ، يقال: هذا الأمر من الأمور الخالية ، وهذا القرن من القرون الخالية ، أي الماضية .

واستخلى فلان في حديثه ؛ أي حدّث عن أمور خالية ، والمعنى أنّه استعظم مايوجبه حديثهم عمّا خلا وعمّن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير ، فقال : أيّ مدّكر[1] وواعظ في ذلك ! وروى أيّ مذكر بمعنى المصدر ، كالمعتقد بمعنى الاعتقاد ، والمعتبر بمعنى الاعتبار .

« وتناوشوهم من مكان بعيد » أي تناولوهم ، والمراد ذكروهم وتحدثوا عنهم ؛ فكأنهم تناولوهم ، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[2] ؛ وأنّى لهم تناولُ الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر !

***

---

(١) ا : « تذكر » ، وما أثبته من ب .   (٢) سورة سبأ ٥٢ .

الأصلُ :

يَرْتَجِعُونَ(١) مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ . وَلأَنْ يَكُونُوا عِبَرًا ، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً ؛ وَلأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ .

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ .

وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَقَالَتْ : ذَهَبُوا فِي الأَرْضِ ضُلَّالاً ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً ، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا ؛ وَإِنَّمَا الأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ .

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكاً وَسُوَقاً .

* * *

الشرح :

« يرتجعون منهم أجسادا » ، أي يذكرون آباءهم ، فكأنّهم ردّوهم إلى الدنيا ، وارتجعوهم من القبور . وخَوَتْ : خلت .

قال : وهؤلاء الموتى أحقّ بأن يكونوا عبرة وعظةً من أن يكونوا فخرا وشرفا ، والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلّة منهم بالقيام مقام العزّ .

وتقول : هذا أحْجَى من فلان ، أي أوْلَى وأجدر . والجناب : الفِناء .

---

(١) ب : « يرتجعون » .

ثم قال : « لقد نظروا إليهم بأبصار العَشْوة » ، أى لم ينظروا النّظر المفضِىَ إلى الرؤية ؛ لأنَّ أبصارَهم ذات عَشْوة ، وهو مرض فى العين ينقص به الإبصار ، وفى عين فلان عَشاً وعَشْوة بمعنًى ، ومنه قيل لـكلِّ أمرٍ ملتبس يركبه الرَّاكب على غير بيان أمر عَشْوة ، ومنه أوطأتنى عُشْوة ، ويجوز بالضم والفتح .

قال : « وضربوا بهم فى غَمْرة جهالة » ، أى وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى فى بحر جهلٍ . والضرب هاهنا : استعارة ، أو يكون من الضّرب بمعنى السير ، كقوله تعالى : ﴿ وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [1] ، أى خاضوا وسبحوا من ذكرهم فى غمرة جهالة ، وكلٌّ هذا يرجع إلى معنى واحد ، وهو تسفيه رأى المفتخرين بالموتى ، والقاطعين الوقت بالتـكاثر بهم ؛ إعراضا عمّا يجب إنفاقه من العمر فى الطاعة والعبادة .

ثم قال : « لو سألوا عنهم ديارهم التى خلت منهم » ، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور ، « لقالت ذهبوا فى الأرض ضُلّالا » ، أى هالـكين ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [2] .

وذهبتم فى أعقابهم ؛ أى بعدهم « جهالا » ؛ لغفلتـكم وغروركم .

قوله عليه السلام : « تَطئون فى هامهم » ، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرّى ؛ فقال:

خَفِّفِ الوطْءَ ما أظنّ أديمَ الـ ... أرضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأجْسادِ [3]
ربّ لحدٍ قَدْ صار لحداً مِرَاراً ... ضَاحكٍ من تزاحُمِ الأضْـــدَادِ

(١) سورة النساء ١٠١ .
(٢) سورة السجدة ١٠ .
(٣) ديوانه ؛ سقطالزند ٩٧٤،٩٧٥ مع اختلاف فىالرواية وترتيب الأبيات وأديم الأرض: ظاهرها.

ودفــــين على بقــايا دفـــين مِنْ عهـود الآباء والأجــداد (١)
صاحِ هــذي قبورنا تملأ الأرْ ضَ ، فأين القبورُ من عهد عادِ !(٢)
سِرْ إن اسطعْتَ في الهــواء رُوَيْداً لا اختيــالاً عَلَى رُفاتِ العبــادِ

قوله : « وتستنبتون في أجسادهم » ، أي تزرعون النّبات في أجسادهم ، وذلك لأنّ أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى ، فالزّرع لامحالة يكون نابتا في الأجزاء التّرابية التي هي أبدان الحيوانات . وروى : « وتستثبتون » ، بالثاء ؛ أي وتنصبون الأشياء الثابتة كالعَمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى .

ثم قال : « وترتعون فيما لفظوا » ، لفَظتُ الشيء بالفتح : رميتُــه من فمي ، ألفِظه بالكسر ، ويجوز أن يريد بذلك أنّــكم تأكلون ماخلّفوه وتركوه . ويجوز أن يريد أنّــكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابيّة خالطها الصديد الجاري من أفواههم .

ثم قال : « وتسكنون فيما خرّبوا » ، أي تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذكر والعبادة ، فـكأنهم أخربوها في المعنى ، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم . ويجوز أن يريد أنّ كلّ دار عامرة قد كانت من قبل خربة ، وإنّما أخربها قوم بادوا وماتوا ، فإذن لاساكن منّا في عمارة إلّا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خرابا من قبل ، والذين أخربوه الآن موتى . ويجوز أن يريد بقوله : « وتسكنون فيما خربوا » ؛ وتسكنون في دور فارقوها وأخلوْها ، فأطلقَ على الخلوّ والفراغ لفظ « الخراب » مجازا .

قوله : « وإنّما الأيّام بينـكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليـكم » ؛ يريد أنّ الأيام والليالى تشيّع رائحا إلى المقابر وتبـكى وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب .

(١) الديوان :

* في طويل الأزمانِ والآبادِ *

(٢) الديوان : « تملأ الرحب » .

قوله : « أولئكم سلف غايتِكم » ، السلف : المتقدمون . والغاية : الحدّ الذى ينتهى إليه . إمّا حسّيا أو معنويا ، والمراد هاهنا الموت .

والفرَط : القوم يسبقون الحيّ إلى المنهل .

ومقاوم العزّ : دعائمه ، جمع مقوم ، وأصلها الخشبة التى يمسكها الحرّاث . وحلَبات الفخر : جمع حَلْبة ، وهى الخيل تجمع للسباق .

والسُّوَق ، بفتح الواو : جمع سُوقة ؛ وهو مَنْ دون الملِك .

***

الأصْلُ :

سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ . غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا ، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا .

وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً ، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً ، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً ، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ .

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَتْ[1] بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ ؛ فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ .

لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً ، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً . أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ

---

(١) كذا فى ا ، فى ب : « وبليت » .

عَلَيْهِمْ سَرْمَداً ، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا ، فَكِلَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ .

فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ ، فَقَالُوا : كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ ، وَخَوَتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى ، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ ، وَتَهَدَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا ، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً ، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا ، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا ، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا . مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ ـ لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي .

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ ؛ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فى سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ؛ ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ ؛ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ؛ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ ؛ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَنَجِيُّ هَمٍّ

ما كانَ يجدُهُ ، وَتوَلَّدَتْ فيهِ فَترَاتُ عِلَلٍ ، آنَسَ ما كانَ بصِحَّتِهِ . فَفزِعَ إلى ما كانَ عَوَّدَهُ الأَطِبّاء مِنْ تَسْكِينِ الحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ البَارِدِ بِالحَارِّ ، فلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إلّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرّكَ بِحَارٍّ إلّا هَيَّجَ بُرُودَةً ، وَلَا اعتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلكَ الطَّبَائِعِ إلّا أَمَدَّ مِنهَا كُلَّ ذاتِ دَاء ؛ حَتّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ، وَتعَايا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ ؛ فَقَائِلٌ : هُوَ لَمَا بِهِ ؛ وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عافيَتِهِ ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الماضِينَ مِنْ قَبْلِهِ .

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا ؛ وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ ؛ إذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسانِهِ .

فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ ! وَدُعاء مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ ! مِنْ كَبِيرٍ كانَ يُعَظِّمُهُ ، أَوْ صَغِيرٍ كانَ يَرْحَمُهُ .

وَإنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تَسْتَغْرِقَ بِصِفَةٍ ، أو تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

***

الشَّرْحُ :

هذا موضع المثل : « مَلْماً[1] باظليم وإلّا فالتَّخْوِيَةُ » ، مَنْ أراد أن يعظ ويخوّف ، ويقرع صَفَاةَ القلب ، ويعرّف الناس قدر الدنيا وتصرّفها بأهلها، فليأتِ بمثل هذه الموعظة فى مثل هذا الكلام الفصيح وإلّا فليمسك ، فإنّ السكوت أستر ، والعيّ خير من منطق يفضح صاحبه . وَمَنْ تأمّل هذا الفصل ، علم صدق معاوية فى قوله فيه : «واللهِ ماسَنّ

---

(١) الملع : السير السريع ، ويقال : خوّى الطائر ؛ إذا أرسل جناحيه .

الفصاحة لقريش غيره » . وينبغى لو اجتمع فصحاء العرب قاطبةً فى مجلس،وتُلىَ عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدىّ بن الرّقاع :

* قلم أصابَ من الدّواة مِدَادها [(١)] *

فلما قيل لهم فى ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود فى الشعر ؛ كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن .

وإنى لأطيل التعجّب من رجل يخطب فى الحرْب بكلام يدلّ على أن طبعه مناسب لطباع الأُسُود والنمور وأمثالها من السباع الضارية ، ثم يخطب فى ذلك الموقف بعينه ، إذا أراد الموعظة بكلام يدلّ على أنّ طبعه مشاكل لطباع الرّهبان لابسى المُسوح الذين لم يأكلوا لحما ، ولم يريقوا دما ؛ فتارة يكون فى صورة بِسْطام بن قيس الشيبانىّ وعُتَيبة ابن الحارث اليربوعىّ ، وعامر بن الطّفيل العامرىّ ، وتارة يكون فى صورة سُقراط الحَبْر اليونانىّ ، ويوحَنَّا المعمَدَان الإسرائيلىّ ، والمسيح بن مريم الإلٰهىّ .

وأقسم بمن تُقسِم الأمم كلّها به ؛ لقد قرأتُ هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قط إلّا وأحدثتْ عندى روعة وخوفاً وعظة ،وأثّرَتْ فى قلبى وجيباً ، وفى أعضائى رِعْدة ، ولا تأملتُها إلّا وذكرت الموتى من أهلى وأقاربى ، وأرباب ودّى ، وخيّلت فى نفسى أنى أنا ذلك الشخص الذى وصف عليه السلام حالَه .

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء فى هـذا المعنى ! وكم وقفت على ماقالوه وتكرّر وقوفى عليه ! فلم أجد لشىء منه مثل تأثير هذا الكلام فى نفسى ؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتى فى قائله ، أو كانت نية القائل صالحة ، ويقينه كان ثابتا ،وإخلاصه كان محضاً

---

(١) صدره :

* تُزْجِى أغنّ كأن إبرة روقه *

خالصا ، فـكان تأثير قوله فى النفوس أعظم ، وسريان موعظته فى القلوب أبلغ .

***

ثم نعود إلى تفسير الفصل :

فالبرزخ : الحاجز بين الشيئين ، والبرزخ مابين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فيجوز أن يكون البرزخ فى هذا الموضع القبر ،لأنه حاجز بين الميّت وبين أهل الدنيا ، كالحائط المبنىّ بين اثنـين ، فإنّه برزخ بينهما ، ويجوز أن يريد به الوقت الذى بين حال الموت إلى حال النّشور ، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام ،لأنه قال : «فى بطون البرزخ »ولفظة«البطون»تدلّ على التفسير الأولّ .ولفظتا«أ كلت الأرض من لحومهم وشربت من دمائهم » مستعارتان.

والفَجَوات : جمع فَجْوة وهى الفُرْجة المتّسعة بين الشيئين ، قال سبحانه:﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ [1] ؛ وقد تفاجَى الشىء ؛ إذا صارت له فجوة .

وجمادا لاينمون ، أى خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذى لا ينمِى ولا يزيد . ويروى : « لايَنِمّون » بتشديد الميم ، من النَّميمة وهى الهمس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله نامّته ، فى قول من شدّد ولم يهمز .

وضِمارا ، يقال لـكلّ مالا يرجى من الدَّيْن والوعد ، وكلّ مالا تـكون منه على ثقة : ضِمار .

ثم ذكر أنّ الأهوال الحادثة فى الدنيا لاتُفزِعهم ، وأنّ تنـكّر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لايحزنهم . ويروى « تُحْزِنهم » على أنّ الماضى رباعىّ .

ومثله قوله : « لايحفِلُون بالرواجف » أى لايكترثون بالزلازل .

---

(١) سورة الـكهف ١٧ .

قوله : « ولا يأذنون للقواصف » أى لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذا، أى سمعته .

وجمع الغائب غُيّب وغَيَب ، وكلاهما مروى هاهنا، وأراد أنهم شهود فى الصورة، وغير حاضرين فى المعنى .

والآلاف ، على فُعّال: جمع آلف ؛ كالطُّرّاق جمع طارق ، والسُّمّار : جمع سامر، والكفّار جمع كافر .

* * *

ثم ذكر أنه لم تَنمِ أخبارهم ، أى لم تستبهم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم ، ولا عن بعد منزل لهم ، وإنما سُقوا كأسَ المنون التى أخرستهم بعد النطق ، وأصمّتهم بعد السمع ، وأسكنتهم بعد الحركة .

وقوله : « وبالسَّمع صمما » ، أى لم يسمعوا فيها نداء المنادى ، ولا نوح النائح ، أو لم يسمع فى قبورهم صوت منهم .

قوله : « فكأنهم فى ارتجال الصّفة » ، أى إذا وصفهم الواصف مرتجلا غير متروّ فى الصفة ، ولا متهيّئ للقول .

قال: « كأنهم صرعى سُبات » ؛ وهو نوم؛ لأنّه لا فرق فى الصورة بين الميّت حال موته والنائم المسبوت .

* * *

ثم وصفهم بأنّهم جيران إلّا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا ، وأنّهم أحبّاء إلا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا .

وقوله « أحبّاء » جمع حبيب، كخليل وأخلاء ، وصديق وأصدقاء .

ثم ذكر أنّ عُرا التعارف قد بليَتْ منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء؛ وهذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة .

ثم وصفهم بصفة أخرى ، فقال : كلّ واحدٍ منهم موصوف بالوحْدة ؛ وهم مع ذلك مجتمعون ، بخلاف الأحياء الذين إذا انضمّ بعضهم إلى بعض انتفى عنه وصف الوحدة .

ثم قال : « وبجانب الهجر وهم أخلّاء » أى وكلّ منهم فى جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خُلّة ومودة ، أى كانوا كذلك. وهذا كله من باب الصناعة المعنوية ، والمجاز الرشيق.

ثم قال : إنّهم لا يعرفون للنهار ليلا ولا لليل نهارا ، وذلك لأنّ الواحد من البَشَر إذا مات نهارا لم يعرف لذلك النهار ليلا أبدا ، وإن مات ليلا لم يعرف لذلك الليل صباحا أبدا . وقال الشاعر :

لا بد من يومٍ بلا ليلةٍ أو ليلة تأتى بلا يومِ

وليس المراد بقوله : « أىّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا » أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذى ماتوا فيه ولا يشعرون بما يتعقّبه من الأوقات، بل المراد أن صورةَ ذلك الوقت لو بقيتْ عندهمْ لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقتٌ آخر يطرأ عليها . ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس ، فيقال : إن النفس التى تفارق ليلا تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبدا لا تزول بطرآنِ نهار عليها ، لأنها قد فارقت الحواس ، فلا سبيل لها إلى أن يرتسم فيها شىء من المحسوسات بعد المفارقة ، وإنّما حصل ما حصل من غير زيادة عليه ، وكذلك الأنفس التى تفارق نهارا .

***

[بعض الأشعار والحكايات فى وصف القبور والموتى]

واعلم أنّ الناس قد قالوا فى حال الموتى فأكثروا ؛ فمن ذلك قول الرضىّ أبى الحسن رحمه الله تعالى :

أعزز عليّ بأن نزلت بمنزلٍ متشابهِ الأمجادِ بالأوغادِ ! (١)
فى عصبة جُنِبُوا إلى آجالهم والدهر يعجلهم عن الإرْوَادِ
ضربوا بمدرجة الفناء قبابَهم من غير أطنـــاب ولا أعمادِ
ركبٌ أناخوا لا يُرجّى منهمُ قَصْدٌ لإتهام ولا إنجـــادِ
كرِهوا النزول فأنزلتهم وقعةٌ للدهر باركة بكلّ مفـادِ
فتهافتُوا عن رَحْل كل مذلّلٍ (٢) وتطاوحُوا عن سرج كلّ جواد
بادون فى صُوَرِ الجميع وإنّهم متفرّدون تفرُّدَ الآحاد

قوله : « بادون فى صور الجميع » مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام :
« فكلهم وحيد وهم جميع » .

وقال أيضا :

ولقد حفظت له فأين حِفَاظُه ولقـد وفيتُ له فأين وفاؤه؟ (٣)
أوَعَى الدعاء فلم يجبه قطيعةً أم ضَلّ عنه من البعاد دعاؤهُ
هيهات أصبح سمعُه وعيانه فى الترب قد حجبتْهما أقذاؤهُ
يمسى ولينُ مهادِه حصباؤُه فيه ، ومؤنسُ ليله ظلماؤُهُ
قد قُلِّبَتْ أعيانه وتنكّرَتْ أعلامُه ، وتكسّفتْ أضواؤهُ

---

(١) من مرثيته لأبى إسحاق الصابى ، ومطلعها :

أعلِمْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأعوادِ أرأيتَ كيفَ خبا ضياء النّادِى

ديوانه لوحة ١٢٩ .

(٢) الديوان : « عن ظهر كل مذلل » .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ ، من مرثية لبعض أصدقائه .

مُنفٍ وليس للذِّكر إغفاؤه ، مغضٍ وليس لفكرةٍ إغضاؤهُ
وجهٌ كلمع البرق غاض وميضُه قلبٌ كصدر العَضب فُلّ مَضاؤهُ
حَكَمَ البلى فيه فلو تلقى به أعداءه لرثى له أعداؤهُ

وقال أبو العلاء :

أستغفر الله ما عندى لكم خبرٌ وما خطابىَ إلّا معشرا قُبِروا
أصبحتمُ فى البلى غُبْراً ملابسكمْ من الهَباء ، فأين البُرْدُ والقِطر (١)
كنتم على كلّ خطب فادحٍ صُبُراً فهل شعرتم؟وقد جادتكم الصُّبَرُ (٢)
وما درى يوم أُحْدٍ بالذين ثوَوْا فيه ، ولا يوم بدر أنّهم نُصِرُوا

وقال أبو عارم الكلابىّ :

أجازعةٌ رُدَيْنَةُ أنْ أتاها نعيّى أمْ يكون لها اصطبارُ !
إذا ما أهلُ قبرى ودّعونى وراحوا والأكفّ بها غُبارُ
وغودر أعظُمِى فى لحدِ قبرٍ تراوِحُه الجنائب والقِطارُ
تهبّ الريح فوق محطّ قبرى ويرعى حوله اللّهق النوار (٣)
مقيمٌ لا يكلّمهُ صديقٌ بقبر ، لا أزور ولا أزار
فذاك النأى لا الهجران حَوْلاً وحولا ثم تجتمع الدّيار !

مرّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا ، فسأل : هل بقىَ من نسلهم أحد ؟ قالوا : بقى واحد ، وهو يلزم المقابر ، فدعا به فسأله : لم تلزم المقابر؟ قال : أردت أن أميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء ، قال : هل لك أن تلزمنى حتى أنيلك بغيتك ؟ قال : لو علمتُ أنك تقدر على ذلك لزمتك . قال : وما بغيتك؟

---

(١) القطر : من البرود .
(٢) الصبر : السحابة البيضاء .
(٣) اللهق : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

قال : حياة لا موت معها ، قال : لن أقـــدرَ على ذلك ، قال : فدعني أطلبه ممن يقدر عليه .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « مارأيت منظرا إلّا والقبر أفظع منه » .

وقال صلّى الله عليه وآله : « القبر أوّل منزلٍ من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فمابعده أيسر ، ومن لم ينج فما بعده شرٌّ له » .

مرّ عبد الله بن عمر رضى الله عنه بمقبرةٍ فصلّى فيها ركعتين ، وقال : ذكرت أهل القبور وأنّه حيل بينهم وبين هذا ، فأحببت أنْ أتقرّب بهما إلى الله .

***

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « وبجانب المهجر » ؟ وأى فائدة فى لفظة « جانب » فى هذا الموضع ؟

قلت : لأنّهم يقولون : فلان في جانب الهجر ، وفى جانب القطيعة ، ولا يقولون : « فى جانب الوصل » ، وفى « جانب المصافاة » ، وذلك أنّ لفظة « جنب » فى الأصل موضوعة للمباعدة ، ومنه قولهم : « الجار الجُنُب » ، وهو جارك من قوم غرباء . يقال : جنبت الرجل ، وأجنبته ، وتجنّبته ، وتجانبته ، كلّه بمعنى ، ورجل أجنبىّ ، وأجنب ، وجُنب ، وجانب ، كلّه بمعنى .

قوله عليه السلام : « شاهدوا من أخطار دارهم » ، المعنى أنه شاهد المتقون من آثار الرحمة وأماراتها ، وشاهد المجرمون من آثار النقمة وأماراتها عنـد الموت ، والحصول فى القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنّون أيّام كونهم فى الدنيا .

ثم قال : « فكلا الغايتين مدّت لهم » ، المعنى مدّت الغايتان : غاية الشقىّ منهم وغاية السعيد .

إلى مباءة ، أى إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف ،أورجاء راج؛وتلك المباءة هى النّار أو الجنة . وتقول : قد استباء الرجل أى اتّخذ مباءة،وأبأت الإبل:رددتّها إلى مباءتها ؛ وهى معاطنها .

ثم قال : « فلو كانوا ينطقون بها لعيُّوا » ، بتشديد الياء ، قال الشاعر :

عَيُّوا بأمرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ ببيضَتِها الْحَمَامَهْ

جَعَلَتْ لها عودين مِنْ نَشَمٍ وآخر من ثُمَامَهْ

وروى « لَعَيُوا » بالتخفيف ، كما تقول : « حَيُوا » قالوا : ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأنّ الواو ساكنة ، وضمّت الياء الأولى لأجل الواو ، قال الشاعر :

وَكُنّا حَسِبْنَاهم فَوَارسَ كَهْمَسٍ حَيُوا بعدماماتوا من الدهر أعصرا

قوله : « لقد رَجَعَتْ فيهم »يقال :رجع البصر نفسُه ، ورجعه زيدبصره ؛يتعدىّ ولا يتعدى ، يقول : تـكلّموامعنىّ لاصورة ،فأدركت حالهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسّية . وكَلَحت الوجوه كلُوحا وكُلاحا ، وهو تـكشّر فى عُبوس .

والنواضِر : النواعم ، والنّضرة : الحسن والرونق .

وخوت الأجساد النواعم : خلت من دمِها ورطوبتها وحشوتها . ويجوز أن يكون خوتْ أى سقطت . قال تعالى : ﴿ فهىَ خَاوِيةٌ عَلَى عُروشها ﴾ [١] ، والأهدام : جمع هِدْم ، وهو الثوب البالى ، قال أوس .

وَذَاتِ هِدْمٍ عارٍ نواشِرُها تُصْمِت بالماء تَوْلَباً جَدَعا [٢]

---

(١) سورة الحج ٤٥ .

(٢) ديوانه ٥٥ النواشر : عصب الذراع ، الواحد ناشرة ؛ وبها سمى الرجل ، وأراد بالتولب طفلها والجذع : السيئ الغذاء ؛ تصمته بالماء لأنه ليس لها لبن من شدة الفقر .

وتكاءدَنا : شقّ علينا ، ومنه : عقبة كؤود . ويجوز تكأدنا، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها « تفعّل وتفاعَل » بمعنى ، ومثله تعهّد الضيعة ، وتعاهدها .

ويقال : قوله : « وتوارثنا الوحشة » . كأنه لمّا مات الأب فاستوحش أهله منه ، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا ، صار كأنّ الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال ، وهذا من باب الاستعارة .

قوله : « وتهدّمت علينا الربوع » ، يقال : تهدّم فلان على فلان غضبا ؛ إذا اشتدّ غضبه ،ويجوز أن يكون تهدّمت أى تساقطت . وروى « وتهكت » بالكاف ، وهو كقولك : « تهدمت » بالتفسير بن جميعا ، ويعنى بالرّبوع الصّموت ، القبور ، وجعلها صُموتاً لأنّه لا نطق فيها ، كما تقول : ليل قائم ونهار صائم ، أى يقام ويصام فيهما ، وهذا كلّه على طريق المزّ والتحريك وإخراج الكلام فى معرِض غير المعرِض المعهود ،جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأتوا] بما وصفه من أحوالهم . وورد فى الحديث أنّ عمر حضر جنازة رجل ، فلما دفن قال لأصحابه : قفوا ، ثم ضرب فأمعن فى القبور ، واستبطأه الناس جدا ثم رجع وقد احمرّت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، فقيل : أبطأت ياأمير المؤمنين ، فما الذى حبسك ؟ قال : أتيت قبورَ الأحبّة ، فسلّمتُ فلم يردّوا علىّ السلام، فلما ذهبت أقفى نادانى التراب ، فقال : ألا تسألنى ياعمر مافعلتُ باليدين ؟ قلت : مافعلتَ بهما ؟ قال : قطعتُ الكفّين من الرُّسغين ، وقطعت الرّسغين من الذراعين ، وقطعت الذراعين من المرفقين ، وقطعت المرفقين من العضُدين ، وقطعت العضُدين من المنكبين ، وقطعت المنكبين من الكتفين، فلمّا ذهبت أقفّى نادانى التراب ، فقال: ألا تسألنى ياعمر مافعلتُ بالأبدان والرجلين؟ قلت : مافعلتَ ؟ قال : قطعت الكتفين من الجنبين ، وقطعت الجنبين من الصّلب ، وقطعت الصلب من الورِكين ، وقطعت الورِكين من الفخذين ، وقطعت الفخِذين من الرّكبتين،

وقطعت الركبتين من الساقين ، وقطعت الساقين من القدمين ، فلمّا ذهبت أقفى ناداني التراب ، فقال : ياعمر ، عليك بأكفان لاتبلَى ؟ فقلت : وما أكفانٌ لاتبلى ، قال : تقوى الله ، والعمل بطاعته . وهـذا من الباب الذي نحن بصدده ، نسب الأقوال المذكورة إلى التراب وهو جماد ،ولم يكن ذلك ، ولـكنه اعتبر فانقدَحَتْ فى نفسه هذه المواعظ الحكمية، فأفرغها فى قالب الحكاية ، ورتّبها على قانون المسألة والإجابة ، وأضافها إلى جماد موات، لأنّه أهزُّ لسامعها إلى تدبّرها ، ولو قال : نظرت فاعتبرت فى حال الموتى ،فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظته المبلغ الذى بلغته حيث أودعها فى الصورة التى اخترعها.

***

قوله عليه السلام : « فلو مثّلتَهم بعقلك ،أو كشف عنهم محجوبُ الغطاء لك » إلى آخر جواب «لو» . هذا الكلام أخذه ابن نُباتة بعينه فقال: فلو كشفتم عنهم أغطيةَ الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث ، لو جدتم الأحداق على الخدود سائلة ،والألوانَ من ضيق اللحود حائلة ، وهوامّ الأرض فى نواعم الأبدان جائلة ، والرءوس الموسّدة على الأيمان زائلة، ينكرُها مَنْ كان لها عارفا ، ويفرّ عنها مَنْ لم يزل لها آلفا .

قوله عليه السلام: « ارتسخت أسماعهم » ليس معناه ثبتتْ كما زعمه الراوندىّ ،لأنّها لم تثبت ، وإنما ثبتت الهوامّ فيها ، بل الصحيح أنّه من رسخ الغدير إذا نشّ ماؤه ونضب، ويقال : قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعته حتى يلتقى الثّريان .

واستكّت ، أى ضاقت وانسدّت ، قال النابغة :

وُنُبِّئتُ خيرَ الناسِ أنّكَ لُمتَنِي وتلك التى تَستَكّ منها المسامعُ[1]

***

(١) ب « فيها » ، والبيت فى ديوانه ٥٣ ، وروايته :

* أتاني أبيتَ اللّعنَ أنكَ لُمتَنِي *

قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب نخسفت » ، أى غارت وذهبت فى الرأس .

وأخذ المتنبيّ قوله : « واكتحلت أبصارهم بالتراب » ، فقال :

يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً ويَمْشِي أواخِرُنا على هامِ الأوالِي[1]
وكَمْ عينٍ مقبَّلةِ النَّواحِي كحيلٍ بالجنادلِ والرِّمالِ !
ومغضٍ كان لا يُغضي لخطبٍ وبال كان يُفكِّرُ فى الهزالِ

وذَلاقة الألسن : حدّتها ، ذَلِقَ اللسان والسّنان يذلَق ذَلَقاً ، أى ذرِبَ ؛ فهو ذلِق ، وأذلق .

وهَمَدت ، بالفتح : سكنتْ وخمدتْ . وعاث : أفسد . وقوله : « جديد بلَى » ، من فنّ البديع ، لأنّ الجِدّة ضدّ البلى ؛ وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال :

يادارُ غادَرنى جديدُ بلاكِ رثّ الجديدُ فهل رثيت لذاكِ !

وسَمُجها : قبح صورتها ، وقد سَمُج الشىء بالضمّ فهو سَمْج ، بالسكون ، مثل ضَخم فهو ضخْم ، ويجوز : فهو سَمِج ، بالكسر ، مثل خَشُن فهو خشِن .

قوله : « وسهّل طرق الآفة إليها » ؛ وذلك أنّه إذا استولى العنصر الترابيّ على الأعضاء ، قوى استعدادها ، للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها .

ومستسلمات ، أى منقادة طائعة غير عاصية ؛ فليس لها أيدٍ تدفع عنها ، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها .

والأشجان : جمع شَجَن ، وهو الحزن .

والأقذاء : جمع قَذًى ، وهو مايسقط فى العين فيؤذيها .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٨ . والأوالى : الأوائل ، ولكنه قلب .

قوله : « صفة حال لاتنتقل » ، أى لاتنتقل إلى حسن وصلاح، وليس يريد: لاتنتقل مطلقا ، لأنها تنتقل إلى فساد واضمحلال .

ورجل عزيز ، أى حدث ، وعزيز الجسد ، أى طرىّ ، وأنيق اللون: معجب اللون. وغَذِىٌّ تَرَف : قد غُذِى بالترف ، وهو التنعّم المطغِى.

وربيبُ شَرَف ، أى قد رُبِّىَ فى الشرف والعزّ . ويقال : ربّ فلان ولدَه يَرُبّه ربًّا، وربّاه يربّيه تربيةً .

ويتعلّل بالسرور : يتلهّى به عن غيره . ويفزع إلى السّلوة : يلتجىء إليها. وضَنًّا، أى بخلا . وغضارة العيش : نعيمه ولينه .

وشحاحة ، أى بخلا ، شحِحْتُ بالكسر أشِحّ . وشحَحْتُ أيضا بالفتح ، أشُح وأشِحُّ ؛ بالضم والكسر ، شُحًّا وشَحاحةً . ورجل شحيح وشَحّاح بالفتح . وقوم شِحاحٌ وأشِحّة .

ويضحك إلى الدنيا وتضحكُ إليه ؛ كناية عن الفرَح بالعمر والعيشة ، وكذا كلّ واحدٍ منهما يضحك إلى صاحبه لشدّة الصفاء ، كأنّ الدّنيا تحبُّه وهو يحبُّها .

وعيش غَفول : قد غفل عن صاحبه ، فهو مستغرق فى العيش لم ينتبه له الدّهر ، فيكدّر عليه وقته ، قال الشاعر :

وكان المرء فى غفلاتِ عيشٍ كأنّ الدّهْرَ عَنْها فى وَثاق

وقال آخر :

ألا إنّ أحلَى العيش ما سَمَحتْ به صروفُ الليالى ، والحوادثُ نُوَّمُ

قوله : « إذ وَطِئَ الدهر به حَسَكه » ، أى إذ أوطأه الدهر حَسَكه . والهاء فى « حَسَكه » ترجع إلى الدّهر ، عدّى الفعل بحرف الجرّ ، كما تقول : قام زيد بعمرو ، أى أقامه .

وقُواه : جمع قوّة وهى المِرّة من مرائر الحبل . وهذا الـكلام استعارة .

ومن كَثَبٍ : من قرب . والبث : الحزن . والبثّ أيضا : الأمر الباطن الدخيل .

ونجيّ الهمّ : ما يناجيك ويسارّك . والفَتَرات : أوائل المرض .

وآنس ما كان بصحته ، منصوب على الحال . وقال الراونديّ فى الشرح : هذا من باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » . ثم ذكر أن العامل فى الحال « فترات » ، قال : تقديره : « فترات آنس ما كان» . وما ذكره الراونديّ فاسد ، فإنّه ليس هذا من باب : « أخطب ما يكون الأمير قائمـا ، لأنّ ذلك حال سدّ مسدّ خبر المبتدأ ، وليس هاهنا مبتدأ . وأيضا فليس العامل فى الحـال « فترات » ولا « فتر » ، بل العامل : « تولّدت » . والقارّ : البارد .

فإن قلت : لم قال : « تسكين الحـار بالقـارّ ، وتحريك البارد بالحـار » ؟ ولأىّ معنى جعل الأول التسكين والثـانى التحريك ؟ قلت : لأنّ من شأن الحرارة التهييج والتثوير ، فاستعمل فى قهرها بالبارد لفظة « التسكين » ، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد ، فاستعمل فى قهرها بالحارّ لفظة « التحريك » .

قوله : « ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلّا أمدّ منها كل ذات داء » ، أى ولا استعمل دواء مفردا معتدل المزاج أو مركبا كذلك إلا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول .

وينبغى أن يكون قوله : « ولا اعتدل بمُمازج » ، أى ولا رام الاعتـدال لممتزج ، لأنه لو حصل له الاعتدال لـكانَ قد بَرِئ من مرضه ، فسمّى محاولة الاعتدال اعتدالا ، لأنه باستدلال المتدلات قدْ تهيّأ للاعتدال ، فـكان قد اعتدل بالقوّة .

وينبغى أيضا أن يكون قد حذف مفعول « أمدّ » ، وتقديره « بمرضٍ » كما قدّرناه نحن ، وحذف المفعولات كثير واسع .

قوله : « حَتّى فَتَرَ مُعَلِّله » ، لأنّ مُعلّلى المرض فى أوائل المرض يكون عندهم نشاط، لأنّهم يرجُون البُرْء ، فإذا رأوا أمارات الهلاك فترت همتهم .

قوله : « وذَهَل مُمَرِّضُه » ، ذَهَل بالفتح، وهذا كالأوّل ، لأن الممرّض إذا أعيا عليه المرض ، وانسدّت عليه أبواب التدبير يذهَل .

قوله : « وتمايا أهله بصفة دائه » ، أى تعاطوا العِيّ وتساكتوا إذا سُئِلوا عنه ، وهذه عادة أهل المريض المُثقَل ؛ يجمجمون إذا سئلوا عن حاله .

قوله : « وتنازعوا دونه شَجِىّ خبر يكتمونه » ، أى تخاصموا فى خبر ذى شجى ، أى خبر ذى غُصّة يتنازعونه وهم حول المريض ستراً دونه ، وهو لا يعلم بنجواهم ، وبما يُفيضون فيه من أمره

فقائل منهم : هو لمآبه ، أى قد أشفى على الموت . وآخر يمنّيهم إياب عافيته ، أى عَوْدَها ، آب فلان إلى أهله ، أى عاد .

وآخر يقول : قد رأينا مثل هذا ، ومَنْ بلغ إلى أعظم من هذا ثمّ عوفِىَ ، فيمنّى أهلَه عَوْد عافيته .

وآخر يصبر أهله على فقده ، ويذكر فضيلة الصّبْر ، وينهاهم عن الجزع ، ويروى لهم أخبار الماضين .

وأُسِى أهليهم ، والأُسَى : جمع أُسْوة ، وهو ما يتأسّى به الإنسان . قالت الخنساء :

وما يبكون مِثلَ أخِى ولكِنْ أسلّى النَّفْسَ عنه بالتأسّى[1]

قوله : « على جناح من فراق الدنيا » ، أى مُسْرِعان ما يفارقها ؛ لأنّ مَنْ كان على جناح طائر ، فأوشِكْ به أن يسقط !

---

(١) ديوانها ١٠٣ ، وروايته « وما يبكين »

قوله : « إذْ عَرَضَ له عارض » يعنى الموت . ومِن غُصصه : جمع غُصّة . وهو مايعترض مجرى الأنفاس . ويقال : إنّ كلّ ميّتٍ من الحيوان لايموت إلّا خنقا ، وذلك لأنّه من النَّفَس يدخل ، فلا يخرج عِوَضه ، أو يخرج فلا يدخل عِوَضه ، ويلزم من ذلك الاختناق ، لأنّ الرئة لاتبقى حينئذٍ مَرْوَحةً للقلب ، وإذا لم تُرَوّحه اختنق .

قوله : « فتحيّرت نوافذ فطنته » ، أى تلك الفطنة النافذة الثاقبة تحيّرت عند الموت ، وتبلّدت .

قوله : « ويبست رطوبةُ لسانِه » ؛ لأنّ الرّطوبة اللّعابيّة الّتى بها يكون الذوق تنشف حينئذٍ ، ويبطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة .

قوله : « فكم من مهمٍّ من جوابه عرفه فعَيّ عن ردّه ! » نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عنه حال مايكون محتضراً ، فيحاول أن يعرّف أهلَه به فلا يستطيع ، ويعجز عن ردّ جَوابِهم ، وقد رأينا مَنْ عجز عن الكلام فأشار إشارةً فهموا معناها ، وهى الدّواة والكاغَد ، فلمّا حضر ذلك أخذ القلم وكتب فى الكاغد مالم يُفْهَم ، ويده تُرْعَد . ثم مات .

قوله : « ودعاه مؤلمٍ لقلبه سمعه فتصامّ عنه » ، أظهر الصّمم ، لأنّه لاحيلة له .

ثم وصف ذلك الدعاء فقال : « من كبيرٍ كان يعظّمه » ، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام . «وصغير كان يرحمه» ، نحو صراخ الولد على الوالد، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه .

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال: إنها أفظع من أن تحيط الصفاتُ بها. وتستغرقها ، أى تأتى على كُنْهِها ، وتُعبّر عن حقائقها .

قوله : «أو تعتدل على عقول أهل الدنيا» ، هذا كلام لطيف فصيح غامض ، ومعناه

أنّ غمرات الموت وأهواله عظيمة جدًّا لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها ووصفت كما هي على الحقيقة ، بل تنبو عنها ، ولا تصدق بما يقال فيها ، فعبّر عن عدم استقامتها على العقول بقوله : « أو يعتدل » ، كأنه جعلها كالشيء المعوجّ عند العقل ، فهو غير مصدّق به .

***

[إيراد أشعار وحكايات فى وصف الموت وأحوال الموتى]

ومما يناسب ماذكر ، من حال الإنسان قول الشاعر :

بينا الفتى مَرِحُ الخطا فرحًا بما ... يسعى له إذْ قيل قد مَرِضَ الفتى

إذْ قيل باتَ بليلةٍ ما نامَها ... إذْ قيل أصْبَح مُثْقَلًا ما يُرتجَى

إذْ قيل أمسى شاخصًا وموجّهًا ... إذْ قيلَ فارقَهُمْ وحلّ به الرّدَى

***

وقال أبو النّجم العجلىّ :

والمرء كالحالم فى المنامِ ... يقول إنّى مدركٌ أمامِى

فى قابلٍ مافاتنى فى العامِ ... والمرء يُدْنيهِ إلى الحِمَامِ

مرُّ الليالى السُّودِ والأيّامِ ... إنّ الفتى يُصبحُ للأسقامِ

كالغرضِ المنصُوب للسّهامِ ... أخطأ رامٍ ، وأصاب رامِ

***

وقال عمران بن حِطّان :

أفى كلّ عام مَرْضَةٌ ثم نقهةٌ ... ويُنْعَى، ولايُنعَى ، مَتَى ذا ؟إلى متى !

ولابدّ من يوم يجيء وليلةٍ ... يسُوقان حتفاً راحَ نحوك أو غدا

***

وجاء في الحديث أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلّم مرّ بمقبرةٍ فنادى : يا أهلَ القبور الموحِشة، والرُبُوع المعطّلة، ألا أخبِرُكم بما حدَث بعدكم ؟ تزوّجَ نِساؤكم، وتُبُوِّئت مساكنكم، وقُسِمت أموالكم . هلْ أنتم مخبِرون بما عاينتمْ ! ثم قال : ألا إنّهم لَوْ أُذِنَ لهم في الجوابِ لقالوا : وجدنا خيرَ الزّاد التّقوى .

ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال : إنّ أمراً هذا آخرُه ، لجديرٌ أن يُزْهَد في أوّله ، وإن أمراً هذا أوّله لجديرٌ أن يُخاف آخره .

***

وقال عَبْدة بن الطبيب ـ ويعجبني قوله على الحال التي كان عليها ؛ فإنه كان أسود لصا من لصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم ـ :

ولقد علمتُ بأن قصريَ حفرةٌ ... غبراء يحملني إليها شرجَعُ (١)

فبكى بناتِي شَجْوَهُنّ وزوجتِي ... والأقربُون إليّ ، ثم تصدّعوا

وتُركتُ في غبراء يُكرَه وِردُها ... تسفِي عليّ الريح ثم أودّعُ

إنّ الحوادث يخترِمْن وإنّما ... عُمر الفتى في أهله مستودَعُ

ونظير هذهِ الأبيات في رَويّها وعَروضها قول متمّم بن نويرة اليربوعيّ :

ولقد علمتُ ولا محالةَ أنّني ... للحادثات ، فهل تريْنِي أجزعُ (٢) !

أهلكْنَ عاداً ثم آلَ محرّقٍ ... فتركنَهم بَلَداً وما قد جمّعوا (٣)

---

(١) من مفضليته ١٤٠ ـ ١٤٩ ، والشرجع : خشب يشد بعضه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى.
(٢) من مفضليته ٤٨ ـ ٥٤ .
(٣) بلداً ، أي تراباً .

ولمنْ كان الحـــارثان كلاهما ولمنْ كان أخـــو المصانع تبّعُ (١)
فمـــددت آبائي إلى عِرْق الثّرَى فدعوتُهم فعلمتُ أنْ لم يَسْمَعُوا
ذهبـــوا فَلَمْ أدرِكهمُ ودعتْهمُ غُـــولٌ أتوْها والطّريق المَهْيَعُ
لا بدّ من تلفٍ مصيب فانتظِرْ أبأرض قومك أم بأخرى تُصْرَعُ !
وليأتينّ عليـــك يومٌ مرّةً يُبكَى عليك مُقنّعاً لا تَسْمَعُ (٢)

* * *

لمّا فتح خالد بن الوليد عَيْن التّمر ، سأل عن الحُرَقَة بنت النّعمان بن المنذر ، فدُلّ عليها ، فأتاها — وكانت عَمْيـاء — فسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعتْ علينا الشمس ما شيء يدبّ تحت الخورنق إلّا تحت أيدينا ، ثم غربت وقد رحِمنا كلُّ مَنْ يدورُ به ، وما بيت دخلته حَبْرة ، إلّا دخلته عَبْرة ؛ ثم قالت :

وَبَيْنَا نَسُوسُ النّاسَ وَالأمْرُ أمرُنا إذا نحن فيـــه سُوقَةٌ نتنصّفُ
فأفٍّ لدنيـــا لا يدومُ نعيمُها تقلّبُ تاراتٍ بنـــا وتَصرّفُ !

فقال قائل ممّن كان حول خالد : قاتل الله عديّ بن زيد ! لكأنّه ينظر إليها حين يقول :

إنّ للدهر صَرْعةً فاحذرنْها لا تبيتنّ قد أمِنْتَ الدّهورا (٣)
قد يبيت الفتى معافى فيردَى ولقـــد كان آمناً مسروراً

* * *

دخل عبدُ الله بن العبّاس على عبد الملك بن مروان يوم قرّ ، وهو على فُرُش

---

(١) الحارثان : هما الحارث الأصغر ، والحارث الأكبر الأعرج : المصانع . القصور . تبع : ملك من ملوك اليمن .
(٢) مقنع : ملفف في أثوابه .
(٣) الأغاني ٢ : ١٣٨ — ١٤٠ .

يكاد يغيب فيها ، فقال : يابنَ عباس ، إنّى لأحسِب اليوم بارداً ! قال : أجلْ ، وإنّ ابن هند عاش فى مثل ماترى ؛ عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هو ذاك على قبره ثُمامةٌ تهتزُّ .

فيقال : إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابتة .

***

كان محمّد بن عبد الله بن طاهر فى قصره ببغداد على دِجْلة ، فإذا بحشيش على وجه الماء وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فأمر بها فوجد هذا :

تاه الأعيرجُ واستولى به البَطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحــذَرُ

أحسنتَ ظنّك بالأيّام إذ حسُنَتْ ... ولم تخفْ سوء ما يأتى به القَدَرُ

وسالمتْك الليالى فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالى يحدُث الكدَر

فلم ينتفع بنفسه أياماً .

***

عدىّ بن زيد :

أيّها الشامت المعيِّر بالدهـ ... ـرِ أأنت المبرَّأ الموفور !

أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ... ـامِ ، بل أنتَ جاهلٌ مغرور

مَنْ رأيت المنُون خلّدْنَ أمْ مَنْ ... ذا عليه من أن يُضام خفير !

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وان أم أين قبْلَهُ سابور [١] !

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ... ـروم ولم يبق منهمُ مذكورُ

---

(١) سابور الجنود ، هو ابن أردشير ، وسابور ذو الأكتاف ، هو سابور بن هرمز ، وكلاهما من ملوك العجم .

وأخو الحضْرِ إذْ بناه وإذ دِجْـ لةُ تجبَى إليـــــه والخابور(١)
لم يهبْـــهُ ريب المنون فباد الـ ـملْكُ عنـــــه فبابُه مهجورُ
شادَهُ مرمراً وجلّلَهُ كلْـ ساً فللطّير فى ذُرَاه وُكور(٢)
وتبيّنْ ربَّ الخورنق إذ أشْـ رف يوماً وللهـدى تفـكير(٣)
سرّهُ حالُه وكـــثرة ما يمْـــلِكُ والبحرُ معرضاً والسّدير(٤)
فارعوى قلبُهُ وقال: فما غِبْـ طةُ حيٍّ إلى الممات يصـــيرُ!
ثم بعد الفلاح والملك والأمّـــةِ وارتْهمُ هنـاك القبورُ(٥)
ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جَـ فّ فألوتْ به الصَّبا والدّبور(٦)

قد اتفق الناس على أنّ هذه الأبيات أحسن ماقيل من القريض فى هذا المعنى، وأنّ الشعراء كلهم أخذوا منها، واحتذوا فى هذا المعنى حذوها.

***

وقال الرضىّ أبو الحسن رضى الله عنه:

انظر إلى هـذا الأنام بعِـبْرَةٍ لا يعجبنّك خلقـه ورُواؤه(٧)
فتراه كالورق النّضير تقصّفتْ أغصانُه، وتسلّبت شَجْراؤه(٨)
أنى تحاماه المنون، وإنمـا خُلِقَتْ مَرَاعِى للردى خضراؤه
أم كيف تأمل فلتةً أجساده من ذا الزمان وحشوها أدواؤه!

(١) الخابور: اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.
(٢) الكلس: الصاروج، وأخلاطها التى تصرج (تطلى) بها النزل وغيرها.
(٣) فى الأغانى: «وتذكر».
(٤) فى الأغانى: «سره ماله».
(٥) الأمة: النعمة.
(٦) ألوت به: أى ذهبت به.
(٧) ديوانه لوحة ١١٦.
(٨) ديوانه: «فبيناه».

لا تعجبنّ فما العجيب فناؤهُ　　بيدِ المنون ، بل العجيب بقاؤهُ
إنّا لنعجب كيف حُمّ حِمامُه　　عَنْ صحةٍ ، ويغيبُ عَنّا دَاؤه
مَنْ طاح فى سبل الرّدَى آباؤه　　فليسلكنّ طريقَهمْ أبناؤه
ومؤمَّرٍ نزلوا به فى سُوقة　　لا شكله فيهم ولا نظراؤه (١)
قد كان يَفْرَق ظلّه أقرانهُ　　ويَغُضّ دُون جلاله أكْفاؤه (٢)
ومُحجَّبٍ ضُربت عليه مهابةٌ　　يَغْشِي العيون بهاؤُه وضياؤهُ
نادَتْه من خلف الحجاب منيّةٌ　　أمَمٌ فكان جوابَها حوباؤهُ (٣)
شقّت إليه سيوفه ورماحَه　　وأمِيطَ عنه عبيدُه وإماؤه
لم يُغْنه مَنْ كان ودّ لو أنّه　　قَبْلَ المنون مِنَ المنون فداؤه
حَرَمٌ عليه الذلّ إلّا أنّه　　أبدًا لَيشهدُ بالجلال بِناؤه (٤)
متخشّع بعد الأنيس جنابُه　　متضائلٌ بعد القَطين فناؤه
عُريان تطرد كلّ ريح تُرْبه　　ويطيع أوّل أمرِها حصباؤه
ولقد مررت ببرزخٍ فسألتُه　　أين الأُلَى ضمّتهمُ أرجاؤه ؟
مثل المطىّ بوارِكًا أجداثهُ　　تَسْفِي عَلَى جنبانها بَوْغَاؤه (٥)
ناديته فَخَفى علىّ جوابُهُ　　بالقولِ إلّا مازَقَتْ أصداؤه (٦)

---

(١) الديوان : « قرناؤه » .
(٢) يفرق : يخاف ويهاب .
(٣) أمم : قريبة ، والحوباء : النفس .
(٤) حرم عليه : حرام عليه .
(٥) بواركا : جمع بارك أو باركة . البوغاء : التراب .
(٦) زقت : صاحت : الأصداء : جمع صدى ، وهو حكاية الصوت فى الجبال والكهوف والأماكن العالية .

مِنْ ناظرٍ مطروفةٍ ألحاظه ... أو خاطرٍ مطلولة سوداؤه (١)
أو واجدٍ مكظومة زفراته ... أو حاقدٍ منسيّةٍ شحناؤه (٢)
ومسنّدين على الجنوب كأنهم ... شَرْبٌ تخاذل بالطِّلا أعضاؤه
تحت الصّعيد لغير إشفاق إلى ... يوم المَعاد يضمّهم أحشاؤه
أكلتهمُ الأرض التي ولدتهمُ ... أكلَ الضَّروس حلَتْ له أكلاؤه

***

وقال أيضا :

وتفرّقُ البُعداء بعدَ تجمّعٍ ... صَعْبٌ، فكيفَ تفرّقُ القُرباءِ! (٣)
وخلائقُ الدّنيا خلائقُ مُومسٍ ... للمنع آونةً ، وللإعطاء (٤)
طَوْراً تبادلك الصّفاء وتارة ... تلقاك تنكرُها من البَغضاء
وتداوُل الأيام يُبلينا كما ... يُبلي الرّشاء تطاوُحُ الأرْجاء (٥)
وكأنّ طولَ العُمرِ رَوْحةُ راكبٍ ... قضَى اللغوبَ وَجدّ في الإسراء (٦)
لهفي على القوم الأولى غادرتُهم ... وعليهمُ طَبَقٌ من البَيْداء (٧)

---

(١) مطروفة ، من قولهم : طرف فلان بصره ؛ إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر . ومطلولة ، من قولهم : طل دم فلان ، إذا ذهب هدراً .
(٢) واجد ، من الوجد ؛ وهو الحزن .
(٣) من مرثيته لوالدته فاطمة بنت الناصر ، وأولها :

أبكيك لو نقعَ الغليلُ بكائي ... وأقولُ لوْ ذهبَ المقالُ بدائي

ديوانه لوحة ١١٥ .
(٤) المومس : المرأة الفاجرة .
(٥) الرشاء : الحبل يستقى به من البئر ، والأرجاء : جمع رجا ؛ وهو ناحية البئر .
(٦) روحة راكب : راحته . واللغوب : الإعياء . والإسراء : سير الليل .
(٧) الطبق : وجه الأرض ؛ أو غطاء كل شيء .

متوسِّدين على الخدودِ كأنما ... كَرَعُوا على ظَمَإٍ من الصَّهْبَاء
صُوَرٌ ضَنِنْت على العُيُون بلحظِها ... أمسيتُ أوقِرُها من البَوْغَاء (١)
ونواظرٌ كَحَلَ التّراب جفونَهَا ... قد كنت أحرُسُها من الأقذاء
قَرُبت ضَرَائِحُهُمْ عَلَى زُوّارِها ... وناَوْا عن الطُّلاب أىّ تناء (٢)
ولبئس ما يلقى بعُقْرِ ديارِمْ ... أذُنُ للصيخ بها وعينُ الرّائى (٣)

---

(١) البوغاء : التربة الرخوة .
(٢) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .
(٣) عقر ديارهم : وسطها .

(٢١٧)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(١) :

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَادُ بِهِ بعد الْمُعَانَدَةِ . وَمَا بَرِحَ لِلهِ ـ عَزَّتْ آلَاؤُهُ ، فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ ـ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطريقَ ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ .

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تجارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُون بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَاوَرَاءَ ذَلِكَ ، فَكَأَنَّمَا

---

(١) سورة النور ٣٦ ، ٣٧

اطّلعوا غُيوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا ، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمِ الْمَحْمُودَةِ ، وَمَجَالِسِهِمِ الْمَشْهُودَةِ ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ؛ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا ، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا ؛ وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلَالِ بِهَا ؛ فَنَشَجُوا نَشِيجاً ، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً ، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ ـ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجًى ، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ؛ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ .

يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ .

لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ .

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ .

* * *

الشرح :

من قرأ ﴿ يسبَّح له فيها ﴾ بفتح الباء[1] ارتفع « رجال » عنده بوجهين :

(١) هي قراءة ابن عامر وأبي بكر بن مجاهد؛ والباقون بكسرها ؛ وانظر أيضا إتحاف فضلاء البشر ٣٢٥

أحدها أنْ يُضمَر له فعل يكون هو فاعله ، تقديره « يسبحه رجال » ، ودلّ على « يسبّحه » يسبّح ، كما قال الشاعر :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائحُ[1]

أى يبكيه ضارع ، ودلّ على « يبكيه » « يبْكِ » .

والثانى أن يكونَ خبر مبتدأ محذف ، تقديره : « المسبّحون رجال » . ومَنْ قرأ : « يسبَّح له فيها » بكسر الباء ، فـ « رجال » فاعل ، ووُقع لفظ « التجارة » فى مقابلة لفظ « البيع » إمّا لأنه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصّة ، أو لأنه عم بالتجارة المشتملة على البيع والشراء ، ثم خصّ البيع ، لأنه أدخلُ فى باب الإلهاء ، لأنّ البيع يحصل ربحه بيقين ، وليس كذلك الشراء ، والذكْر يكون تارةً باللسان ، وتارةً بالقلب ، فالّذى باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء ، والذى بالقلب ؛ فهو التعظيم والتبجيل والاعتراف والطاعة .

وجلوت السيف والقلب جِلاء ، بالكسر ، وجلوت اليهودَ عن المدينة جَلاء بالفتح .

والوَقْرة : الثقل فى الأذن . والعَشْوة ، بالفتح : فَعْلة ، من العشا فى العين .

وآلاؤه : نعمه .

فإن قلت : أىّ معنى تحت قوله : « عزت آلاؤه » وعزّت بمعنى . «قلّت» ؟وهل يجوز مثل ذلك فى تعظيم الله ؟

قلت : عزّت هاهنا ليس بمعنى « قلّت » ولكن بمعنى : « كرمت وعظمت » ، تقول منه : عَزَزْتُ على فلان بالفتح ، أى كرُمْت عليه ، وعظُمت عنده ، وفلان عزيز علينا ، أى كريم معظم .

---

(١) البيت من شواهد مغنى اللبيب ٦٢٠ .

والبُرهة من الدهر : المدّة الطويلة ، ويجوز فتح الباء .

وأزمان الفترات : ما يكون منها بين النَّوْبتين .

وناجاهم فى فكرهم : ألهمهم ، بخلاف مناجاة الرّسل ببعث الملائكة إليهم ، وكذلك « وكلّمهم فى ذات عقولهم » ، فاستصبحوا بنور يقظة » : صار ذلك النور مصباحا لهم يستضيئون به .

قوله : « مَنْ أخذ القصد حَمِدوا إليهم طريقه » ، إلى هاهنا: هى التى فى قولهم: أحمَدُ الله إليك ؛ أى مُنهياً ذلك إليك ، أو مفضياً به إليك؛ ونحو ذلك ، وطريقة العرب فى الحذف فى مثل هذا معلومة، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ﴾[1]؛ أى لجعلنا بدلا منكم ملائكة . وقال الشاعر :

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبرّدة باتت على طَهَيَانِ

أى عِوَضاً من ماء زمزم .

قوله : « ومَن أخذ يمينا وشمالا » ، أى ضلّ عن الجادّة .

و « إلى » فى قوله : « ذمّوا إليه الطريق » مثل « إلى » الأولى .

ويهتفون بالزواجر : يصوّتون بها ، هتفت الحمامة تهتِف هتْفا ، وهتف زيد بالغنم هِتافاً بالكسر ، وقوس هتافة وهتفى ، أى ذات صوت .

والقسْط : العدل . ويأتمرون به : يمتثلون الأمر .

وقوله : « فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة »، إلى قوله: « ويسمعون مالا يسمعون » ؛ هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » .

والأوْزار : الذنوب . والنشيج : صوت البكاء . والمقعد : موضع القعود .

---

(١) سورة الزخرف ٦٠ .

ويد قارعة : تطرق باب الرحمة ، وهذا الكلام مجاز .

والمنادح : المواضع الواسعة .

و « على » فى قوله : «ولا يخيب عليه الراغبون» متعلقة بمحذوف مثل «إلى» المتقدّم ذكرها ، والتقدير « نادمين عليه » .

والحسيب : المحاسب .

* * *

واعلم أنّ هذا الكلام فى الظاهر صفة حال القصّاص والمتصدّين لإنكار المنكَرات، ألا تراه يقول: «يذكّرون بأيام الله» ! أى بالأيام التى كانت فيها النقمة بالعصاة ،ويخوّفون مقامه من قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (١) ثم قال : فمن سلك القَصْد حمِدُوه، ومَنْ عدل عن الطريق ذمّوا طريقه، وخوفوه الهلاك . ثم قال : يهتفون بالزواجر عن المحارم فى أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر .

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولا ؛ أنّ ظاهرَ الكلام شرحُ حالِ القصّاص وأرباب المواعظ فى المجامع والطرقات ، والمتصدّين لإنكار القبائح ؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين ، الذين هم صَفْوة الله تعالى من خلقه ، وهو عليه السلام دائما يكنى عنهم ، ويرمز إليهم ، على أنه فى هذا الموضع قد صرح بهم فى قوله : « حتى كأنّهم يرون ما لا يَرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون » .

وقد ذكر من مقامات العارفين فى هذا الفصل الذكر ، ومحاسبة النفس ، والبكاء والنحيب ، والنّدم والتّوبة ، والدعاء والفاقة ، والذلة ، والحزن ، وهو الأسى الذى ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله .

* * *

(١) سورة الرحمن ٤٦ .

[بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم ، وهذا موضعه ، فنقول : إنّ أول مقام من مقامات العارفين ، وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « التائبُ من الذّنب كمَن لا ذنْب له » .

وقال عليّ عليه السلام : « مامن شيء أحبّ إلى الله من شابّ تائب » .

والتوبة في عرف أربابِ هذه الطريقة النّدَم على ماعمل من المخالفة وترْك الزلّة في الحال والعزم على ألّا يعودَ إلى ارتكاب معصية ، وليس النّدم وحده عند هؤلاء توبة ، وإن جاء في الخبر : «الندم توبة» ، لأنّه على وِزان قوله عليه السلام : «الحجّ عرفة» ليس على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان ، بل المراد أنّه أكبر الأركان وأهمّها. ومنهم من قال: يكفي الندم وحده ، لأنه يستتبِع الرّكنين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ماهو مصرّ على مثله ، أو ماهو عازم على الإتيان بمثله .

قالوا : وللتوبة شروط وترتيبات :

فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقْدة الغفلة ، ورؤية العبد ماهو عليه من سوء الحالة ، وإنّما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى مايخطر بباله من زَواجر الحقّ سبحانه ؛ يسمع قلبه ، فإنّ في الخبر النبويّ عنه صلى الله عليه وآله : « واعظ كلّ حالِ الله في قلب كلّ امرئ مسلم » .

وفي الخبر : « إنّ في بدن المرء لمُضْغةً إذا صلَحت صلَح جميع البدن ؛ ألا وهي القلب ، وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهي القلب » .

---

(١) سورة النور ٣١ .

وإذا أفكر العبدُ بقلبه فى سوء صنيعه ، وأبصر ماهو عليه من ذميم الأفعال ، سَنَحت فى قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة ، فيمدّه الحقّ سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى طرق الرجوع والتأهّب لأسباب التوبة .

وأوّل ذلك هِجران إخوان السوء ؛ فإنّهم الذين يحملونه على ردّ هذا القصْد ، وعكس هذا العزم، ويشوّشون عليه صحّة هذه الإرادة، ولا يتمّ ذلك له إلّا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التى تزيده رغبة فى التوبة، وتوفّر دواعيه إلى إتمام ماعزَم عليه، ممّا يقوّى خوفه ورجاءه ، فعند ذلك تنحلُّ عن قلبه عُقْدة الإصرار على ماهو عليه من قبيح الفعال، فيقف عن تعاطى المحظورات ، ويكبَح نفسَه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلّة فى الحال ، ويلزم العزيمة على ألّا يعود إلى مثلها فى الاستقبال ، فإنْ مَضَى على موجب قصدِه ، ونفذ على مقتضى عزمِه ، فهو الموفّق حقا ، وإن نقضَ التوبة مرةً أو مرات ، ثم حملته إرادته عَلَى تجديدها ، فقد يكون مثل هذا كثيرا ، فلا ينبغى قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإنّ لكلِّ أجلٍ كتابا . وقد حُكِيَ عن أبى سليمان الدّارانىّ أنه[1] قال: اختلفتُ إلى مجلس قاصّ ، فأثر كلامه فى قلبى ، فلمّا قمت لم يبق فى قلبى شىء ، فعدت ثانيا ، فسمعت كلامَه ، فبقىَ من كلامه فى قلبى أثر فى الطريق ثم زال ، ثم عدتُ ثالثا فوَقر كلامُه فى قلبى ، وثبتَ حتى رجعتُ إلى منزلى ، وكسرت آلات المخالفة ، ولزمت الطريق .

وحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ ، فقال : عصفور اصطاد كُرْكيًّا — يعنى بالعصفور القاصّ ، وبالكركىّ أبا سليمان .

ويحكى أنّ أبا حفصٍ الحدّاد ذكر بدايته ، فقال : تركت ذلك العمل — يعنى المعصية — كذا وكذا مرّة ، ثم عدت إليها ، ثم تركنى العمل ، فلم أعدْ إليه .

---

(١) ساقط من . ب

وقيل إنّ بعض المريدين تابَ ، ثم وقعت له فترة ، وكان يفكّر ويقول : أترى لو عدتُ إلى التوبة كيف كان يكون حكمي ! فهتف به هاتف : يافلان ، أطعتَنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، وإن عدتَ إلينا قبلناك ؛ فعاد الفتى إلى الإرادة .

وقال أبو علي الدقّاق : التوبة عَلَى ثلاثة أقسام . فأوّلها التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوْبة ، فجعل التوبة بداية ، والأوْبة نهاية ، والإنابة واسطة بينهما . والمعنى أنّ مَنْ تاب خوفا من العقاب فهو صاحب التوبة ، ومَنْ تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب الإنابة ، ومَنْ تاب مراعاة للأمر فقط ، فهو صاحب الأوْبة .

وقال أبو عليّ أيضا : التوبة صفة المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] . والإنابة صفة الأولياء ، قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾[2] ، والأوْبة صفة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[3] .

وقال الجُنيد : دخلت عَلَى السّريّ يوما ، فوجدته متغيّرا ، فسألته فقال : دخل عليّ شابٌّ ، فسألني عن التوبة ، فقلت : ألاّ تنسى ذنبك ! فقال : بل التوبة ألا تذكر ذنبك . قال الجنيد : فقلتُ له : إنّ الأمر عندي ماقاله الشابّ ، قال : كيف ؟ قلت : لأني إذا كنتُ فى حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء ، فذِكْر الجفاء فى حال الصّفاء جفاء . فسكت السّريّ .

وقال ذو النّون المصريّ : الاستغفار من غير إقلاع توبةُ الكذّابين .

وسئل البوشنجيّ عن التوبة ، فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فذاك حقيقة التوبة .

---

(١) سورة النور ٣١ .
(٢) سورة ق ٣٣
(٣) سورة ص ٣٠ .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرضُ بما رَحُبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وقيل لأبى حفص الحدّاد : لِمَ تُبغِضُ الدّنيا ؟ فقال : لأنّى باشرتُ فيها الذّنوب ، قيل : فهلّا أحببْتَها لأنك وُفّقت فيهـا للتوبة ! فقال : أنا من الذّنب عَلَى يقين ، ومن هذه التوبة عَلَى ظَنّ .

وقال رجل لرابعة العدويّة : إنّى قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصى، فهل يتوبُ علىّ إن تبتُ ؟ قالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

قالوا : ولمّا كان الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ ﴾ دلّنا ذلك عَلَى محبته لمن صحّت له حقيقة التوبة ، ولا شبهة أنّ مَنْ قارف الزّلة فهو من خطئه عَلَى يقين ، فإذا تاب فإنّه من القبول عَلَى شكّ ، لاسيما إذا كان مِنْ شرط القبول محبة الحقّ سبحانه له ، وإلى أن يبلُغ العاصى محلًّا يجدُ فى أوصافه أمارة محبّة الله تعالى إيّاه مسافة بعيـدة ، فالواجب إذاً عَلَى العبد إذا علم أنّه ارتكب مايجب عنه التوبة دوام الانكسار ، وملازمة التنصّل والاستغفار ، كما قيل : استشعار الوَجل إلى الأجَل .

وكان من سنّته عليه السلام دوام الاستغفار . وقال : « إنّه لَيُغَانُ عَلَى قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرّة » (٢) .

---

(١) سورة التوبة ٢٥ .

(٢) أورده ابن الأثير فى النهاية ٣ : ١٨٠ ، وقال : الغين : الغيم ، وغينت السماء تغان : إذا أطبق عليهـا الغيم ، وقيل : الغين : شجر ملتف ؛ أراد ما يغشاه من السهو الذى لا يخلو منه البشر ؛ لأن قلبـه أبداً كان مشغولا بالله تعـالى ؛ فإن عرض له وقتاً ما عارض بشرى يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار » .

وقال يحيي بن معاذ : زلّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها .

ويحكى أنّ عليّ بن عيسى الوزير ركب فى موكب عظيم ، فجعل الغرباء يقولون : مَنْ هذا ؟ مَنْ هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على السطح : إلى متى تقولون : من هذا ، من هذا ! هذا عبد سقط من عينِ الله ، فابتلاه بما ترون . فسمع عليّ بن عيسى كلامها ، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصّل فى الاستعفاء من الوزارة حتى أُعفِيَ ، وذهب إلى مكّة فجاور بها .

* * *

ومنها المجاهدة ، وقد قلنا فيها مايكفى فيما تقدّم .

* * *

ومنها العزلة والخلوة ، وقد ذكرنا فى جزء قبل هذا الجزء مما جاء فى ذلك طرفا صالحا .

* * *

ومنها التّقوى ، وهى الخوف من معصية الله ، ومن مظالم العباد ، قال سبحانه:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]، وقيل : إنّ رجلاً جاء إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، فقال : يارسول الله أوصِنِي، فقال: « عليك بتقوى الله ، فإنه جامع كلّ خير،وعليك بالجهاد ، فإنّه رهبانيّة المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنّه نور لك » .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[2] : أن يُطاع فلا يعصى ، ويُذكَر فلا ينسى ، ويُشكر فلا يكفر .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .

وقال النصراباذيّ : من لزم التقوى بادرَ إلى مفارقة الدّنيا ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾(١).

وقيل : يستدلّ على تقوى الرجل بثلاث: التوكّل فيما لم ينلْ ، والرضا(٢) بما قد نال، وحسن الصبر على مافات .

وكان يقال : مَنْ كان رأس ماله التّقوى كَلّت الألسُنُ عن وصف ربحه .

وقد حكَوْا من حكايات المتقين شيئاً كثيرا ، مثل مايحكى عن ابن سيرين ، أنّه اشترى أربعين حُبّاً(٣) سمنا ،فأخرج غلامه فأرةً من حُبّ ؛ فسأله :من أى حبّ أخرجها؟ قال : لا أدرى ، فصبّها كلّها .

وحكى أنّ أبا يزيد البسطاميّ غسل ثوبَه فى الصّحراء ومعه مصاحب له ، فقال صاحبه : نضرب هذا الوتِد فى جدار هذا البُستان ، ونبسط الثّوب عليه ، فقال : لايجوز ضرب الوتِد فى جدار النّاس قال : فنعلّقه على شجرة حتى يجفّ، قال : يكسر الأغصان، فقال : نبسطه على الإذخر(٤) قال : إنه علف الدواب لايجوز أن نستره منها . فولّى ظهره قِبَل الشمس ، وجعل القميص على ظهره حتى جفّ أحدُ جانبيه ، ثم قلبه حتى جفّ الجانب الآخر .

* * *

ومنها الورع ، وهو اجتناب الشُّبهات ، قال صلى الله عليه وآله لأبي هريرة : « كنْ ورِعاً تكنْ أعبد النّاس » .

وقال أبو بكر : كنا ندَعُ سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع فى باب واحد من الحرام .

---

(١) سورة الأنعام ٣٠٢ .
(٢) ب : « الشكر » ، وما أثبته من : ا .
(٣) الحب هنا : الجرة .
(٤) الإذخر : الحشيش الأخضر .

وكان يقال : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذّهب والفضة، والزّهد فى الرياسة أشدّ منه فى الذّهب والفِضّة ، لأنك تبذلهما فى طلب الرياسة .

وقال أبو عبد الله الجلاّء : أعرِف مَنْ أقام بمكّة ثلاثين سنة لم يشربْ من ماء زمزم إلّا ما استقاه بر كْوتِهِ ورِشائه .

وقال بشر بن الحارث : أشدّ الأعمال ثلاثة : الجود فى القلّة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحقّ عند من يُخاف ويرجّى .

ويقال : إنّ أخت بشر بن الحارث [1] جاءت إلى أحمد بن حنبل ، فقالت : إنّا نغزِل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطّاهرية ، فيقع شعاعها علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى ضوئها ؟ فقال أحمد : مَنْ أنتِ ياأَمَةَ الله ؟ قالت : أختُ بشر الحافى ، فبكى أحمد ، وقال : من بيتِكم خرج الوَرَع ، لا تغزلى فى ضوء مشاعلهم .

وحكى بعضهم ، قال : مررت بالبَصْرة فى بعض الشوارع؛فإذا بمشايخ قُعود وصبيان يلعبون،فقلت : أماتستحيون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال غلام من بينهم : هؤلاء المشايخ قلّ ورعُهم ، فقلّت هيبتُهم .

ويقال : إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، ماصحّ له أن يأ كل من تمر البصرة ولا من رُطَبها حتى مات ولم يذقه.وكان إذا انقضى أوان الرُّطَب يقول:ياأهل البصْرة ، هذا بطنى مانقص منه شىء ، سواء علىّ أ كلت من رُطَبكم أو لم آ كل !

وقال الحسن : مثقالُ ذَرّة من الوَرَع خيرٌ من ألف مثقال من الصّوْم والصلاة .

ودخل الحسن مكّة ، فرأى غلاما من ولَدِ علىّ بن أبى طالب ، قد أسند ظهره إلى

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر الحافى تاريخ بغداد ٧ : ٦٧ .

الكعبة وهو يعظ الناس ، فقال له الحسن : ما مِلاك الدين ؟ قال : الوَرَع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، فجعل الحسن يتعجّب منه .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ لم يصحبْه الورع ، أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وحُمِل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الغنائم ، فقبض على مشمّه ، وقال : إنما ينتفَع مِنْ هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجدَ رِيحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحريريّ عن الورع فقال : كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو فى النزْع ، فمات الرجل ، فنفث أبو صالح فى السِّراج فأطفأه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن الذى فى المسْرجة له ، فلما مات صار إلى الورثة .

***

ومنها الزهد، وقد تكلّموا فى حقيقته، فقال سفيان الثوريّ: الزهد فى الدنيا قصرُ الأمل

وقال الخوّاص : الزهْد أن تترك الدُّنيا فلا تبالِى مَنْ أخذها .

وقال أبو سُلَيمان الدّارانيّ : الزهدُ تركُ كلّ ما يشغل عن الله .

وقيل : الزهد تحتْ كلمتين من القرآن العزيز : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1] .

وكان يقال: مَنْ صدق فى زهده أتته الدنيا وهى راغمة، ولهذا قيل : لو سقطت قلنسُوة من السماء لما وقعتْ إلّا عَلَى رأس من لا يريدها .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد يُسْعطك[2] الخلّ والخردل ، والعِرفان يُشمّك المسك والعنبر .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .
(٢) سعطه الدواء وغيره : أدخله فى أنفه .

وقيل لبعضهم : ما الزّهد في الدنيا ؟ قال : تَرْك ما فيها على مَنْ فيها .

وقال رجل لذى النون المصرىّ : متى ترانى أزهد فى الدنيا ؟ قال : إذا زهدتَ فى نفسك .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى ترانى أدخلُ حانوت التوكّل ، وألبس رداء الزهد ، وأقعد بين الزاهدين ؟ فقال : إذا صرتَ من رياضتك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطعَ اللهُ عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك ولا فى يقينك ، فأمّا ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فقعودك على بساط الزاهدين جهل ؛ ثم لا آمن أن تفتضح .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوامّ ، وترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواصّ ، وترك كلّ ما يشغلك عن الله ، وهو زهد العارفين .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعَرُوس ، فطالبها كماشطتها تحسّن وجهها وتعطّر ثوبها ، والزاهد فيها كضرّتها تُسَخِّم وجهها ، وتنتف شعرها ، وتحرق ثوبها . والعارف مشتغل بالله ، لا يلتفت إليها ، ولا يشعر بها .

وكان النّصراباذىّ يقول فى مناجاته : يامن حقَنَ دماء الزاهدين ، وسفَك دماء العارفين !

وكان يقال : إنّ الله تعالى جعل الخير كلّه فى بيت ، وجعل مفتاحه الزّهد ، وجعل الشرّ كلّه فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

* * *

ومنها الصمت ، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نكتا نافعة فى هذا المعنى ، ونذكر الآن شيئاً آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذينّ جاره ، ومَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه ، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت » .

وقال أصحاب هذا العلم : الصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ (١) .

وقال مخبرا عن الجن : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (٣) .

وقالوا : كم بين عبد سكت تصوّناعن الكذب والغيبة ، وعبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة !

وأنشدوا :

أرتّبُ ما أقولُ إذَا افترَقنَا وأُحْكِم دائمًا حُجَجَ المَقَالِ
فأنساها إذا نحن التقينا وأنطقُ حين أنطق بالمُحَالِ

وأنشدوا :

فياليلُ كم من حاجةٍ لى مهمّةٍ إذا جئتكم لم أدرِ بالّليل ماهيا !

قالوا : وربما كان سبب الصّمت والسكوت حيرة البديهة ؛ فإنّه إذا ورد كشف بغتة، خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد فلا علم ولا حسّ ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٤) ، فأمّا إيثار أرباب المجاهدة الصمت فلمّا علموا فى الكلام من الآفات ، ثمّ مافيه من حظّ النفس وإظهار صفات للمدح ، والميل إلى أن يتميّز من بين أشكاله بحسن النطق ، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام . وهذا نعت أرباب

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .
(٢) سورة الأحقاف ٢٩ .
(٣) سورة طه ١٠٨ .
(٤) سورة المائدة ١٠٩ :

الرياضة ، وهو أحدُ أركانهم فى حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق .

ويقال : إن داود الطائىّ لما أراد أن يقعد فى بيته ، اعتقد أن يحضر مجلس أبى حنيفة، لأنه كان تلميذا له ويقعد بين أضرابه من العلماء ، ولا يتكلم فى مسألةٍ على سبيل رياضته نفسه ، فلما قويَتْ نفسُه على ممارسة هذه الخصلة سنةً كاملة ، قعد فى بيته عند ذلك ، وآثر العزلة .

ويقال : إنّ عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابا فاستحسن لفظه ، مزّق الكتاب وغيّره .

وقال بشر بن الحارث : إذا أعجبك الكلام فاصمُت ، فإذا أعجبَك الصمتُ فتكلّمْ .

وقال سهل بن عبدالله : لا يصحّ لأحدٍ الصّمت حتى يُلزِم نفسَه الخلوة ، ولا يصحّ لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

* * *

ومنها الخوف ، قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(٢) .

وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾(٣) .

وقال أبو على الدقاق : الخوف على مراتب : خوف ، وخشية ، وهيبة .

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٤) .

والخشية من شروط العلم، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٥).

---

(١) سورة السجدة ١٦ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

(٣) سورة النحل ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٥) سورة فاطر ٢٨ .

والهيبة من شروط المعرفة ، قال سبحانه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ﴾ (١) .

وقال أبو عمر الدمشقيّ : الخائف مَنْ يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضُهم : مَنْ خاف من شيء هرب منه ، ومَنْ خاف الله هَرَب إليه .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : ما فارق الخوفُ قلباً إلا خرب .

* * *

ومنها الرجاء، وقد قدّمنا فيها قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحا؛ قال سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ﴾ (٢) .

والفرق بين الرجاء والتمنّي ، وكون أحدهما محمودا والآخر مذموما ؛ أنّ التمنى ألا يسلك طريق الاجتهاد والجدّ ، والرجاء بخلاف ذلك ، فلهذا كان التمنّي يورث صاحِبَه الكسل .

وقال أبو علي الرُّوذباريّ : الرجاء والخوف كجناحَيِ الطائر ، إذا استويا استوى الطائر وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموتِ .

وقال أبو عثمان المغربيّ: من حَمَل نفسه على الرّجاء تعطّل، ومَنْ حمل نفسه على الخوف قَنَط ، ولكن مِنْ هذا مرّة ومن هذا مرة .

ومن كلام يحيى بن معاذ ــ ويروى عن عليّ بن الحسين عليهما السلام : يكاد رجائي لك مع الذنوب ، يغلب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأني أجدُني أعتمد في الأعمال على

---

(١) سورة آل عمران ٢٨ .
(٢) سورة العنكبوت ٥ .

الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك! وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف .

* * *

ومنها الحزن ، وهو من أوصاف أهل السّلوك .

وقال أبو علىّ الدّقاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله فى شهر مالا يقطعه مَنْ فقد الحزن فى سنتين .

وفى الخبر النبوى صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يحبّ كلّ قلبٍ حزين » .

وفى بعض كتب النبوّات القديمة : « إذا أحبّ الله عبداً نصب فى قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مِزْماراً » .

وروى أن رسول الله صلّى الله عليه وآله كان متواصلَ الأحزان ، دائم الفكْر .

وقيل : إنّ القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِب ؛ كما أنّ الدار إذا لم يكن فيها ساكن خَرِبت.

وسمعت رابعة رجلاً يقول : واحُزْناه ! فقالت : قُلْ واقلّة حُزْناه ! لو كنتَ محزونا ماتهيّأ لك أن تتنفّس !

وقال سُفْيان بن عُيينة : لو أن محزوناً بكَى فى أمّة ، لرحِم الله تلك الأمّة ببكائه .

وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحدٌ من أصحابه يقول : إذا رأيت محزونا فأقرئه عنّى السّلام .

وكان الحسن البصرىّ لايراه أحدٌ إلاّ ظنّ أنه حديث عهد بمصيبة .

وقال وكيع يوم مات الفُضَيل : ذهب الحزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السّلف : أكثر مايجدُه[1] المؤمن فى صحيفته من الحسنات الحزنُ والهمّ.

---

(١) ب : « يوجده » ، وما أثبته من ا .

وقال الفُضَيل : أدركت السلفَ يقولون : إنّ لله في كلّ شيء زكاةً ، وزكاة العقل طول الحزن .

***

ومنها الجوعُ وترك الشهوات ، وقد تقدّم ذكر ذلك .

***

ومنها الخشوع والتواضع ، قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾(١) .

وفي الخبر النبويّ عنه صلّى الله عليه وآله : « لايدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبه مثقال ذرّة من كِبْر ، ولا يدخل النار مَنْ في قلبه مثقال ذَرّة من إيمان » ، فقال رجل : يارسولَ الله ، إنّ المرء لَيُعجبَ أن يكون ثوبُهُ حسناً ، فقال : « إنّ الله جميل يحبّ الجمال ؛ إنّما المتكبّر مَنْ بطر الحقّ ، وغمص الناس » .

وروى أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يعود المريضَ ، ويشيّع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبْد .

وكان يوم قُرَيْظة والنّضير على حمار مخطوم بحبل من ليف ، عليه إكاف من ليف .

ودخل مكةَ يوم فتحها راكب بعير ، برَحْل خَلَق ، وإنّ ذقنه لتمسّ وسط الرّحل خضوعا لله تعالى وخشوعا ، وجيشه يومئذ عشرة آلاف .

قالوا في حدّ الخشوع : هو الانقياد للحقّ . وفي التواضع : هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم .

وقال بعضهم : الخشوع قيام القلب بين يدى الحقّ بهمّ مجموع .

وقال حُذَيفة بن اليمان : أوّل ماتفقدون من دينكم الخشوع .

---

(١) سورة المؤمنين ٢ .

وكان يقال: منْ علامات الخشوع أنّ العبد إذا أغضِب أوخولف أورُدَّ عليه استقبل ذلك بالقبول .

وقال محمد بن على التّرمذىّ : الخاشع مَنْ خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه . فماتت حواسه وحَيِىَ قلبه ، وتطامنت جوارحه .

وقال الحسن : الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب .

وقال الجُنَيْد : الخشوع تذلل القلوبِ لعلام الغُيوب ، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أى خاشعون متواضعون .

ورأى بعضهم رجلًا منقبِض الظاهر ، منكسر الشاهد ، قد زوى منكبيه ، فقال : يا فلان ، الخشوع ها هنا ـ وأشار إلى صدره ، لا ها هنا ـ وأشار إلى منكبيه .

ورُوِىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته ، فقال: « لو خشع قلب هذا لخشعتْ جوارحه » .

وقيل : شرط الخشوع فى الصّلاة ألا يعرف مَنْ على يمينه ، ولا مَنْ على شماله .

وقال بعض الصوفية : الخشوع قُشَعْريرة تردُ على القَلْب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

وكان يقال : مَنْ لم يتضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

وقيل : إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التّراب .

وكان عمر بن الخطاب يُسرع فى المشى ، ويقول : هو أنجح للحاجة ، وأبعد من الزّهْو .

كان رجاء بن حَيْوة ليلةً عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فضعف المصباح ، فقام رجل ليصلحه ، فقال : اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدِم المرء ضيفَه ، فقال :

أنبه[1] الظلام ، قال : إنها أول نومة نامها ، ثم قام بنفسه فأصلح السراج . فقال رجاء : أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ! قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر ابن عبد العزيز .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعلف البعير ويقم البيت ، ويخصف النعل ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم . ويطحن معها إذا أعيت . وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا ، ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حشف التمر . وكان هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم السجية ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوس، متواضعا من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب ، رحيما لكل مسلم ، ما تجشأ قط من شبع ، ولا مد يده إلى طمع .

وقال الفضيل : أوحى الله إلى الجبال أنى مكلم على واحد منكم نبيا ، فتطاولت الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلم الله عليه موسى لتواضعه .

سئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح ، ولين الجانب .

ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا، ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .

وكان يقال : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والتكبر محنة لا يرحم منها ، والعز فى التواضع ، فمن طلبه فى الكبر لم يجده .

وكان يقال : الشرف فى التواضع ، والعز فى التقوى ، والحرية فى القناعة .

يحيى بن معاذ : التواضع حسن فى كل أحد ؛ لكنه فى الأغنياء أحسن ، والتكبر سمج فى كل أحد ، ولكنه فى الفقراء أسمج .

(١) ب : « انتبه » تصحيف .

وركب زيد بن ثابت ، فدنا ابنُ عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يابن عم رسول الله! فقال : إنّا هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرجها فقبّلها، فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا .

وقال عُروة بن الزبير : رأيتُ عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقه قِرْبة ماء ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّه لاينبغى لمثلك هذا ! فقال : إنّه لما أتتنى الوفود سامعةً مطيعةً ، دخلتْ نفسى نخوة ، فأحببت أن أكسِرها . ومضى بالقربة إلى حُجْرة امرأة من الأنصار ، فأفرغها فى إنائها.

أبو سليمان الدارانىّ : مَنْ رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدْمة .

يحيى بن مُعاذ : التكبّر على مَنْ تكبّر عليك تواضع .

بِشْر الحافى : سلّموا على أبناء الدّنيا بترك السلام عليهم .

بلغ عمرَ بن عبد العزيز أنّ ابناً له اشترى خاتما بألف درهم ، فكتب إليه : بلغنى أنك اشتريت خاتما وفصُّه بألف درهم ، فإذا أتاك كتابى فبِعْ الخاتم ، وأشْبِع به ألف بطن ، واتّخذْ خاتماً من درهمين ، واجعل فصّه حديدا صينيًا ، واكتب عليه : «رحم الله امرأ عرَف قدره » .

قُوِّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطُب أيّام خلافته باثنى عشر درهما، وهى: قَبَاء، وعمامة ، وقميص ، وسراويل ، ورداء ، وخُفّان ، وقلنسوة .

وقال إبراهيم بن أدهم : ماسررت قطّ سرورى فى أيام ثلاثة : كنت فى سفينة ، وفيها رجل مضحِك ، كان يلعَبُ لأهل [1] السفينة ، فيقول : كنّا نأخذ العِلْج من بلاد الترك هكذا ، ويأخذ بشعر رأسى فيهزّنى ، فسرّنى ذلك ، لأنه لم يكن فى تلك السفينة أحقر منّى فى عينه . وكنت عليلا فى مسجد ، فدخل المؤذن وقال : اخرج ، فلم أطق ، فأخذ

(١) فى الأصول : « أمل » .

برجلي وجرّني إلى خارج المسجد . وكنت بالشام وعليّ فرو ، فنظرت إليه فلم أميّز بين الشعر وبين القمل لكثرته .

عُرض على بعض الأمراء مملوكٌ بألوف من الدراهم ، فاستكثر الثمن ؛ فقال العبد: اشترني يامولايَ ، ففيّ خصلة تساوي أكثر من هذا الثمن . قال : ماهي ؟ قال : لو قدّمتني على جميع مماليكك وخوّلتني بكلّ مالك لم أغلط في نفسي ، بل أعلم أني عبدُك . فاشتراه .

تشاجر أبو ذرّ وبلال ، فعيّر أبو ذرّ بلالا بالسّواد ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ياأبا ذرّ ، ماعلمتُ أنه قد بَقِيَ في قلبك شيء من كِبْر الجاهليّة . فألقى أبو ذرّ نفسه ، وحلف ألاّ يحمل رأسه حتى يطأ بلال خدّه بقدمه ؛ فما رفع رأسه حتى فعل بلال ذلك .

مرّ الحسنُ بن عليّ عليهما السلام بصبيان يلعبون ، وبين أيديهم كِسَر خبز يأكلونها، فدعوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : الفضل لهم، لأنّهم لم يجدوا غيرَ ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر ممّا أطعمناهم .

* * *

ومنها مخالفة النّفس ، وذكر عيوبها ، وقد تقدم ذكر ذلك .

* * *

ومنها القناعة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (١) ، قال كثير من المفسرين : هي القناعة .

وفي الحديث النبوي ـ ويقال إنّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا ينفد » .

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

وفى الحديث النبوى أيضا : « كن ورِعاً تكنْ أعبدَ النّاس ، وكن قنوعا تكنْ أشكر الناس ، وأحبّ للناس ماتحبّ لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن مجاورة مَنْ جاورك تكن مسلما ، وأقلّ الضّحِك ، فإنّ كثرة الضحك تميتُ القلب » .

وكان يقال : الفقراء أمواتٌ إلّا مَنْ أحياه الله تعالى بعزّ القناعة .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزّهد ، هذا أول الرضا . وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا[1] ﴾ : إنّه القناعة .

وقال أبو بكر المراغىّ : العاقل مَنْ دبّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ؛ وأنكر أبو عبد الله بن خفيف ، فقال : القناعة ترك التسويف بالمفقود ، والاستغناء بالموجود .

وكان يقال : خرج العزّ والغنى يجولان ، فلقيا القناعة ، فاستقرّا .

وكان يقال : مَنْ كانت قناعته سمينة طابت له كلُّ مرَقة .

مرّ أبو حازم الأعرج بقصّاب ، فقال له : خذ يا أبا حازم ، فقال : ليس معى درهم ، قال : أنا أنظِرُك ، قال : نفسى أحسن نظِرةً لى منك .

وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع : العزّ فى الطاعة ، والذلّ فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة .

وكان يقال : انتقِم من فلان بالقناعة ، كما تَنْتَقِم من قاتلك بالقصاص .

ذو النون المصرى : مَنْ قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

وأنشدوا :

وَأَحْسَنُ بالفتى من يوم عــارٍ ... يُنَالُ به الغنى ، كَرَمٌ وجُوعُ

---

(١) سورة الحج ٥٨ .

ورأى رجل حكيما يأكل ماتساقط من البقل على رأس الماء ، فقال له : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هـذا ! فقال : وأنت لو قنعت بهـذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل : العُقاب عزيزٌ فى مطاره ، لا تسمو إليه مطامع الصيادين ، فإذا طمع فى جيفة علقت على حبالة ، نزل من مطاره فنشب فى الأحبولة .

وقيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ،فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجراً ﴾(١)، قال له الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾(١)

وفسّر بعضُهم قوله : ﴿ هَبْ لِي مُلْـكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾(٢)، فقال : مقاما فى القناعه لايبلغه أحد .

* * *

ومنها التوكّل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾(٣)

وقال سهل بن عبد الله : أولُ مقامٍ فى التوكّل أن يكونَ العبد بين يدى الله تعالى ، كالميت بين يدى الغاسل ، يقلّبه كيف يشاء ، لايكون له حركة ، ولا تدبير .

وقال رجل لحاتم الأصمّ : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(٤).

وقال أصحاب هـذا الشأن : التوكّل بالقلب ، وليس ينافيه الحركة بالجسد ، بعدأن يتحقّق العبد أنّ التقدير من الله ، فإنْ تعسّر شىء فبتقديره ، وإنْ تسهّل فبتيسيره .

---

(١) سورة الكهف ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) سورة ص ٣٥ .
(٣) سورة الطلاق ٣ .
(٤) سورة المنافقون ٧ .

وفى الخبر النبوى أنه عليه السلام قال للأعرابى الذى ترك ناقته مهملة فندّت ، فلما قيل له ، قال : توكّلت فتركتها ، فقال عليه السلام : « اعقِلْ وتوكّل » .

وقال ذُو النون : التوكّل الانخلاع من الحول والقوّة ، وترك تدبير الأسباب

وقال بعضُهم : التوكّل ردّ العيش إلى يوم واحدٍ بإسقاط همّ غدٍ .

وقال أبو علىّ الدقاق : التوكُّل ثلاثُ درجات : التوكّل وهو أدناها ، ثم التسليم، ثم التفويض ؛ فالأولى للعوامّ ، والثانية للخواصّ ، والثالثة لخواصّ الخواصّ .

جاء رجلٌ إلى الشِّبْلِىّ يشكو إليه كثرة العيال، فقال : ارجع إلى بيتك ، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ طَعَن فى التوكّل فقد طعَن فى الإيمــان ، ومَنْ طَعَن فى الحركة ، فقد طعن فى السنة .

وكان يقال : المتوكّل كالطفل لا يعرف شيئا يأوِى إليه إلّا ثدى أمّه ، كذلك المتوكل لا يهتدى إلا إلى ربه .

ورأى أبو سليمان الدارانىّ رجلا بمكّة لا يتناول شيئا إلا شربةً من ماء زمزم ، فمضت عليه أيام ، فقال له يوما : أرأيتِ لو غارت ــ أى زمزم ــ أىّ شىء كنت تشرب ! فقام وقبّل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرا حيث أرشدتنِى ؛ فإنّى كنت أعبد زمزم منذ أيام . ثم تركه ومضى .

وقيل : التوكل نفى الشُّكوك ، والتفويض إلى مالك الملوك .

ودخل جماعة على الُجنيد ، فقالوا : نطلب الرزق ! قال : إن علمتم فى أىّ موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله ذلك ، قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه ، قالوا : اندخل البيت فنتوكّل ، قال : التجربة شكّ ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وقيل : التوكّل الثقة بالله واليأس عمّا فى أيدى الناس .

* * *

ومنها الشّكر ، وقد تقدّم منّا ذكر كثير مما قيل فيه .

* * *

ومنها اليقين وهومقام جليل ، قال الله : تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[1] .

وقال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقينا .

وقال سهل بن عبد الله : حرام عَلَى قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه شكوى إلى غير الله .

وذكر للنبي صلى الله عليه وآله ما يقال عن عيسى بن مريم عليه السلام أنّه مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقينا لمشى عَلَى الهواء .

وفى الخبر المرفوع عنه صلى الله عليه وآله ، أنه قال لعبدالله بن مسعود : « لاترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمدَنّ أحداً عَلَى فضل الله ، ولا تذمن أحداً عَلَى ما لم يؤتك الله . واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يردّه كراهة كاره ، وأنّ الله جعل الرّوح والفرَح فى الرّضا واليقين ، وجعل الهمّ والحزن فى الشكّ والسخط » .

* * *

ومنها الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ﴾[2] .

وقال علىّ عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وسئل الفُضَيل عن الصبر ، قال : تجرّع المرارة من غير تعبيس .

وقال رويم : الصّبر ترك الشكوى .

(١) سورة البقرة ٤ .
(٢) سورة النحل ١٢٧ .

وقال علىّ عليه السلام : الصَّبر مطيّة لا تكبو .

وقف رجل على الشِّبلىّ ، فقال : أىّ صبرٍ أشدّ عَلَى الصابرين ؟ قال الشِّبلىّ : الصَّبر فى الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فالصبر لله ، فقال : لا ، قال : فالصبر مع الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فأى شىء ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشِّبلىّ صرخة عظيمة ، ووقع .

ويقال إنّ الشِّبلىّ حُبِس فى المارستان ، فدخل عليه قوم ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : محبّوك جئناك زائرين ، فرماهم بالحجارة فهربوا ، فقال : لو كنتم أحبّاىَ ، لصبرتم على بلائى .

وجاء فى بعض الأخبار ، عن الله تعالى : بعينى ما يتحمّل المتحمّلون من أجلى .

وقال عمر بن الخطاب : لو كان الصَّبر والشكر بعيرين لم أبالِ أيّهما ركبت .

وفى الحديث المرفوع : « الإيمان الصّبر والسخاء » .

وفى الخبر : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قائده ، والرفق والده ، والبرّ أخوه ، والصبر أمير جنوده . قالوا : فناهيك بشرف خصلة تتأمّر عَلَى هذه الخصال ! والمعنى أنّ الثبات عَلَى هذهِ الخصال واستدامة التخلّق بها إنما يكون بالصبر ، فلذلك كان أمير الجنود .

***

ومنها المراقبة ، جاء فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وآله : أنّ سائلا سأله عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنّك تراهُ ، فإن لم تكن تراهُ ، فإنه يراك » .

وهذه إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الربّ عليه ، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة لِربّه ، وهو أصل كلّ خير ، ولا يكاد يصل[1] إلى هذه الرّتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة ، فإذا حاسب نفسَه على ما سلف ، وأصلح حالَه فى الوقت ،

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « يوصل » .

ولازم طريق الحقّ ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب ، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس ، راقبه تعالى فى عموم أحواله ، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه ، يعلم أحواله ، ويرى أفعالَه ، ويسمع أقواله . ومَنْ تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة !

ويحكى أنّ ملكا كان يتحظّى جارية له ، وكان لوزيره ميل باطنٌ إليها ؛ فكان يسعى فى مصالحها ، ويرجّح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه . فاتّفق أن عرض عليها الملك حَجَرَيْن من الياقوت الأحمر : أحدهما أنفس من الآخر ، بمحضر من وزيره ، فتحيّرت أيّهما تأخذ ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس ، وحانت من الملك التفاتة ، فشاهد عين الوزير وهى مائلة إلى ذلك الجانب ، فبقِىَ الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسرا عينه نحو الجانب الذى كان طرفُه مائلا إليه ذلك اليوم ، أى كأنَّ (١) ذلك خِلقة . وهذا عزم قوىٌّ فى المراقبة ، ومثله فليكن حالُ من يريد الوصول .

ويحكى أيضا أنّ أميرا كان له غلام يُقبِل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقيل له فى ذلك ، فأحبّ أن يبيِّن لهم فضل الغلام فى الخدْمة على غيره ، فكان يوما راكبا ، ومعه حشمه ، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم الغلمان لماذا ركض ! فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء ومعه شىء من الثلج ، فقال الأمير : ما أدراك أنى أردت الثلج ! فقال : إنك نظرت إليه ، ونظرُ السلطان إلى شىء لا يكون إلا عن قصد . فقال الأميرُ لغلمانه : إنما أختصّه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكلٍّ واحد منكم شغلاً ، وشغله مراعاة لَحَظاتى ، ومراقبة أحوالى .

---

(١) ب : « أن » .

وقال بعضهم : منْ راقب الله فى خواطره ، عصمه الله فى جوارحه .

* * *

ومنها الرضا ، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التى يقضيها الله تعالى عليه ، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصى والفواحش ، أو نسبتها إلى الربّ تعالى عنها ؛ فإنه سبحانه لا يرضاها ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[1] .

وقال : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[2] .

قال رويم : الرّضا أن لو أدخلك جهنّم لما سخطت عليه .

وقيل لبعضهم : متى يكون العبد راضياً ؟ قال : إذا سرّته المصيبة ، كما سرّته النعمة .

قال الشبلىّ مرة ـ والجنيد حاضر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : أرى أنّ قولك هذا ضيقُ صَدْر ، وضيق الصدر يجىء من ترك الرضا بالقضاء .

وقال أبو سليمان الدارنىّ : الرضا ألاّ تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذ به من النار .

وقال تعالى فيمن سخط قسمته : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[3] .

ثم نبّه على ما حرموه من فضيلة الرضا ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[3] ، وجواب « لو » ها هنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به .

---

(١) سورة الزمر ٧ . (٢) سورة الإسراء ٣٨ .

(٣) سورة التوبة ٥٨ ، ٥٩

وفى حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره « ارضى الله عنهم » ، ولمّا كان رضاه عن عباده مقاما جليلا جداً حذف ذكره ؛ لأنّ الذكر له لاينبئ عن كنهه ، وحقيقة فضلِه ، فكان الإضراب عن ذكره أبلَغ فى تعظيم مقامه .

ومن الأخبار المرفوعة أنه صلّى الله عليه وآله قال : « اللهمّ إنّى أسألك الرضا بعد القضاء » ؛ قالوا : إنّما قال : « بعد القضاء » لأنّ الرّضا قبل القضاء لا يتصوّر ، وإنّما يتصوّر توطين النفس عليه ، وإنّما يتحقق الرضا بالشىء بعد وقوع ذلك الشىء .

وفى الحديث أنّه قال لابن عباس يوصيه : « اعمل لله باليقين والرّضا ؛ فإن لم يكن فاصبر ، فإنّ فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا » .

وفى الحديث أنّه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ، فقال : ما الّذى بلغ بك ما أرى ؟ قال : المرض والحاجة ، قال : أولا أعلّمك كلاما إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك ! قال : والّذى نفسى بيده ما يسرّنى بحظّى منهما أنْ شهدت معك بدراً والحديبية ! فقال صلى الله عليه وآله « وهل لأهل بدرٍ والحديبية ما للراضى والقانع ! »

وقال أبو الدرداء : ذِروة الإيمان الصّبْر والرضا .

قدم سعد بن أبى وقاص مكّة بعد ما كُفّ بصره ، فانثال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم ، فقال له عبد الله بن السائب : يا عمّ إنك تدعُو للنّاس فيُستجاب لك ، هلا دعوت أن يردّ عليك بصرك ! فقال : يابن أخى ، قضاء الله تعالى أحبُّ إلىّ من بصرى .

عمر بن عبد العزيز : أصبحتُ ومالى سرور إلا فى مواقع القَدَر .

وكان يقال : الرضا اطّراح الاقتراح على العالم بالصلاح ، وكان يقال : إذا كان القَدَر حقّا كان سخطه حمقا .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ حَظِيَ . ومنْ اطّرح الاقتراح ، أفلح واستراح .

وكان يقال : كُنْ بالرّضا عاملًا ، قبل أن تكون له معمولا ، وسر إليه عادلا وإلا سرت نحوه معدولًا .

وقيل للحسن : من أين أُتِيَ الخلق ؟ قال : مِنْ قلّة الرضا عن الله ، فقيل : ومِنْ أين دخلَتْ عليهم قلّة الرضا عن الله ؟ قال : من قلّة المعرفة بالله .

وقال صاحب[(١)] "سُلْوان المطاع" في الرّضا[(٢)]:

يا مفزعي فيما يجيء وراجِي فيما مضى
عندي لما تقضيه ما يرضيك من حُسْنِ الرضا
ومن القطيعة أستعيذُ مصرّحا ومعرّضا

وقال أيضا[(٣)]:

كُنْ من مدبّرك الحكيم عَلَا وَجَلَّ على وَجَلْ
وارْضَ القضاء فإنّهُ حتم أجل ، وله أجلْ

وقال أيضا[(٤)]:

يامن يرى حالي وأن ليس لي في غير قربي منه أوْطارُ[(٥)]
وليس لي ملتحَدٌ دونهُ ولا عليه لي أنصارُ
حاشا لذاك العزّ والفضل أنْ يهلك مَنْ أنت له جارُ
وإن تشأ هُلْكِي فهبْ لي رضًا بكلّ ما تقضي وتختارُ

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله عبد الله محمد بن محمد بن ظفر المكى ، المتوفى سنة ٥٦٥ .

(٢) سلوان المطاع ص ٦٦

(٣) سلوان المطاع ص ٦٦

(٤) سلوان المطاع ص ٦٦ ، ٦٧

(٥) في سلوان المطاع : في غير ما يرضيه أوطار .

عنـدى لأحكامِك يامالـكِى قلب كما أنعمت صبّــــارُ [1]
كلّ عذاب منـك مستعذَبٌ مالم يـكن سخطك والنّارُ [2]

***

ومنها العبودية ، وهى أمر وراء العبادة ؛ معناها التعبّد والتذلّل . قالوا : العبادة للعوامّ من المؤمنين ، والعبوديّة للخواصّ من السالـكين.

وقال أبو على الدّقاق : العبادة لمن له علم اليقين ، والعبوديّة لمن له عين اليقين .

وسئل محمد بن خفيف : متى تصحّ العبوديّة ؟ فقال : إذا طرح كلّه على مولاه ، وصَبَر معه على بلواه .

وقال بعضهم : العبوديّة معانقة ما أُمرت به ، ومفارقة مازجرت عنه .

وقيل : العبوديّة أن تسلِّم إليه كلّك ، وتحمل عليه كَلّك .

وفى الحديث المرفوع : « تعِس عبدُ الدّينار ، وتعِس عبدُ الخميصة » .

رأى أبو يزيد البِسطامىّ رجلا ، فقال له : ماحرفتك ؟ قال خَرْبنده ، قال : أمات الله حِمارك ؛ لتـكون عبداً لله ، لا عبداً للحمار.

وكان ببغـداد فى رِباط شيخ الشّيوخ ، صوفىّ كبير اللِّحيـة جدًّا ، وكان مغرًى ، ومعنًى بها أكثر زمانه ، يدهنها ويسرّحها ، ويجعلها ليلاً عند نومه فى كيس ، فقام بعض المريدين إليه فى الليل ، وهو نائم ، فقصّها من الأذن إلى الأذن ، فأصبحت كالصَّرِيم . وأصبح الصوفىّ شاكيا إلى شيخ الرِّباط ، فجَمع الصوفيّة وسألهم ، فقال المريد : أناقصصتُها ، قال : وكيف فعلت ، ويلك ذلك ! قال : أيّها الشيخ ، إنها كانت صنمَه ، وكان يعبدها من دون الله ، فأنـكرت ذلك بقلبى ، وأردتُ أن أجعلَه عبداً لله لا عبداً لِلّحية .

---

(١) هذا البيت ساقط من السلوان .

(٢) فى السلوان : بعدك والنار .

قالوا : وليس شيء أشرفَ من العبوديّة ، ولا اسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبوديّة ، ولذلك قال سبحانه فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله ليلة المعراج ، وكان ذلك الوقت أشرفَ أوقاته فى الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾(٢) ؛ فلو كان اسم أجلّ من العبودية لسمّاه به .

وأنشدوا :

لاتدعُنى إلّا بِياعَبْدَها فإنّه أشرَفُ أسمائى

***

ومنها الإرادة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾(٣) .

قالوا : الإرادة هى بَدْء طريق السالكين ، وهى اسم لأوّل منازل القاصدين إلى الله ، وإنّما سُمّيت هذه الصفة إرادة ، لأنّ الإرادة مقدّمة كلّ أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلمّا كان هذا الشأن أوّل الأمر لمن يسلك طريق الله سمّى إرادة ، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التى هو مقدّمتها .

قالوا : والمريد على موجب الاشتقاق: مَنْ له إرادة ؛ ولكنّ المريد فى هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له، فما لم يتجرّد عن إرادته لايكون مريداً، كما أنّ من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لايكون مريدا .

وقد اختلفوا فى العبارات الدالّة على ماهيّة الإرادة فى اصطلاحهم ، فقال بعضهم : الإرادة ترْك ما عليه العادة ، وعادة النّاس فى الغالب التّعريج على أوْطان الغفلة ،

(١) سورة الإسراء ١ .
(٢) سورة النجم ١٠ .
(٣) سورة الأنعام ٥٢ .

والركون إلى اتباع الشهوة ، والإخلاد إلى مادعتْ إليه المنيّة ، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة .

وقال بعضهم : الإرادةُ نهوض القلب ،فى طلب الربّ ؛ ولهذا قيل : إنّها لوعة تهوّن كلّ روعة .

وقال :أبو علىّ الدقّاق : الإرادةلوعةٌ فىالفؤاد ،ولذعةٌ فى القلب، وغرامٌ فىالضمير، وانزعاج فى الباطن ، ونيران تأجّج فى القلوب .

وقال ممشاذ الدينورىّ : مذعلمت أنّ أحوالَ الفقراءجِدٌ كلّها لم أمازح فقيراً،وذلك أنّ فقيراً قدم علىّ ، فقال : أيّها الشيخ ،أريد أن تتخذ لى عصيدة ، فجرى على لسانى «إرادة وعصيدة» ، فتأخر الفقير ولم أشعر،فأمرتُ باتخاذعصيدة ،وطلبته فلم أجده،فتعرّفتُ خبرَه، فقيل:إنّه انصرف من فوره ،وهو يقول «إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة!»،وهامَ علَى وجهِه ، حتّى خرج إلى البادية ، وهو يكرّر هذه الكلمة ، فما زال يقول ويردّدها حتى مات .

وحكى بعضُهم ، قال : كنتُ بالباديةِ وحدى ، فضاق صدْرى ، فصحتُ : ياإنْس كلّمونى ، ياجنّ كلّمونى ! فهتف هاتفٌ : أىّ شىء ناديت ؟ فقلت : الله ، فقال الهاتف: كذبتَ ، لو أردته لما ناديتَ الإنس ، ولا الجنّ .

فالمريد هو الّذى لايشغله عن الله شىء ، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهار ، فهو فى الظّاهر بنعت المجاهدات، وفى الباطن بوصف المكابدات ، فارق الفراش ،ولازم الانكماش، وتحمّل المصاعب ،وركب المتاعب ،وعالج الأخلاق ، ومارس المشاقّ ،وعانق الأهوال ، وفارق الأشكال ، فهو كما قيل :

ثمّ قطعتُ اللّيلَ فى مَهمَهٍ لاأسداً أخشَى ولا ذِيباً

يغلبني شوقي فأطوى السُّرَى ولم يزلْ ذو الشّوق مغـــــلوبا

وقيل : من صفات المريدين التحبّب إليه بالتوكّل ، والإخلاص في نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود في محبّته ، والتعرّض لـكلّ سبب يوصّل إليه ، والقناعة بالخمول ، وعدم القرار من القلب ، إلى أن يصلَ إلى الربّ .

وقال بعضهم : آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج ، وكتبه الحديث ، والأسفار .

وقيل : من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومُه غَلبة ، وأ كلُه فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة أن يشيرَ إلى الله فيجده مع الإشارة ، فقيل له : وأيّ شيء يستوعِبُ الإرادة ؟ فقال : أن يجد الله بلا إشارة .

وسئل الجُنَيد : ماللمريدين وسماع القصص والحـكايات ؟ فقال : الحـكايات جندٌ من جند الله تعالى ، يقوّى بها قلوبَ المريدين . فقيل له : هل في ذلك شاهد ؟ فتلا قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[1] .

وقال أصحابُ الطريقة : بين المريد والمُراد فَرْق ، فالمريد مَنْ سلك الرياضة طلبا للوُصول ، والمراد مَنْ فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء ، فـكان مخطوبا لا خاطبا ، وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم .

قالوا : كان مُوسى عليه السلام مريداً ، قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[2] وكان محمد صلى الله عليه وسلم مُرادا ، قال له : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[3] ؛ وسئل الجنيد عن

---

(١) سورة هود ١٢٠ .
(٢) سورة طه ٢٥ .
(٣) سورة الشرح ١ .

المريد والمراد ، فقال : المريد سائر ، والمراد طائر ، ومتى يلحقُ السائرُ الطائر !

أرسل ذو النون المصرىّ رجلا إلى أبى يزيد ، وقال له : إلَى مَتى النّومُ والرّاحة ! قد سارت القافلة ! فقال له أبو يزيد : قل لأخى : الرّجُل مَنْ ينامُ اللّيل كله ، ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هنيئا له ! هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا .

وقد تكلّم الحكماء فى هذا المقام ، فقال أبو علىّ بن سينا فى كتاب "الإشارات" : أوّل درجات حركات العارفين مايسمّونه همّ الإرادة ، وهو مايعترى المستبصر باليقين البرهانىّ ، أو الساكن النفس إلى العقد الإيمانىّ ، من الرغبة فى اعتلاق العروة الوثقى ، فيتحرّك سرّه إلى القدس ، لينال من روح الاتّصال ، فما دامت درجته هذه ، فهو مريد .

ثم إنه ليحتاجُ إلى الرّياضة ، والرّياضة ، موجّهة إلى ثلاثة أغراض :

الأوّل : تنحية مادون الحقّ عن متن الإيثار .

والثانى : تطويع النفس الأمّارة للنفس المطمئنة ، لتنجذب قوى التخيّل والوهم إلى التوهّمات المناسبة للأمر القدسىّ ، منصرفة من التوهّمات المناسبة للأمر السفلىّ .

والثالث : تلطيف السرّ لنفسه .

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقىّ ، والثانى يعينُ عليه عِدّة أشياء : العبادة المشفوعة بالفكرة ، ثم الألحان المستخدَمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكىّ ، بعبارة بليغة ، ونغمة رخيمة ، وسمتٍ رشيد . والثالث يعين عليه الفكر اللطيف ، والعشق العفيف ، الذى تتأمّر فيه شمائل المعشوق ، دون سلطان الشهوة

* * *

ومنها الاستقامة ، وحقيقتها الدّوام والاستمرار على الحال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ (١) .

وسئل بعضهم عن تارك الاستقامة ، فقال : قد ذكر الله ذلك فى كتابه ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (٢) .

وفى الحديث المرفوع : « شَيَّبَتْنِى هُود » ، فقيل له فى ذلك ، فقال قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (٤) ، فلم يقل « سقيناهم » بل ﴿ أَسْقَيْنَاهُمْ ﴾ ، أى جعلنا لهم سُقيا دائمة ، وذلك لأنّ مَنْ دام عَلَى الخدمة دامت عليه النعمة .

***

ومنها الإخلاص ، وهو إفراد الحقّ خاصّة فى الطاعة بالقَصْد والتقرّب إليه بذلك خاصة ، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شىء آخر من تصنّع لمخلوق ، أو اكتساب مَحْمَدَة بيْن النّاس ، أو محبّة مدح ، أو معنًى من المعانى ، ولذلك قال أربابُ هذا الفنّ : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال الخواصُ من هؤلاء القوم : نقصانُ كل مخلِصٍ فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلّص إخلاص عبد أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلَصا لا مخلِصا .

وجاء فى الأثر عن مكحول : ما أخلص عبدٌ لله أربعينَ صباحاً ؛ إلا ظهرتْ ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه

***

(١) سورة فصلت ٣٠ .
(٢) سورة النحل ٩٢
(٣) سورة هود ١١٢ .
(٤) سورة الجن ١٦ .

ومنها الصدق ، ويطلق على معنيين : تجنّب الكذِب ، وتجنّب الرياء ، وقد تقدّم القول فيهما .

* * *

ومنها الحياء ، وفي الحديث الصحيح : « إذا لم تستحْي فاصنَعْ ماشئت » .

وفي الحديث أيضا : « الحياء من الإيمان » ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾[1] ، قالوا : معناه ألم يستحي !

وفي الحديث أنه قال لأصحابه : « استحيوا منَ الله حقّ الحياء » قالوا : إنا لنستحيي ونحمد الله . قال : « ليس كذلك ؛ من استحيا من الله حقّ الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر الموت وطول البِلى ، وليترك زينَة الحياة الدنيا ، فمن فعَل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وقال ابنُ عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهبا لم يبق خير .

وقال ذو النون : الحبّ ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يقْلق .

وقال السريّ : الحياء والأنس يطرُقان القلب ، فإن وجدا فيه الزّهد والورع حطّا ، وإلّا رَحَلا .

وكان يقال : تعامل القرن الأوّل من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقّ الدين ، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فَنِيَت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قلّ الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرّغبة والرهبة .

---

(١) سورة العلق ١٤ .

وقال الفضيل : خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة فى القلب ، وجمود العين ، وقلّة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل .

وفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(1) إنّها كان لها صنم فى زاوية البيت ، فمضتْ فألقت على وجهه ثوباً ، فقال يوسف : ماهذا ؟ قالت : أستحيي منه ، قال : فأنا أولى أن أستحيي من الله !

وفى بعض الكتب القديمة : ماأنصفنى عبدى ايدعونى فأستحيي أن أردّه ، ويعصينى وأنا أراه ، فلا يستحيي منى .

***

ومنها الحرية ؛ وهو ألّا يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات ؛ لامن أغراض الدنيا ، ولا من أغراض الآخرة ؛ فيكون فرداً لفرد لايسترقّه عاجل دنيا ، ولا آجل مُنى ، ولا حاصل هوى ، ولا سؤال ، ولا قصد ، ولا أرَب .

قال له صلّى الله عليه وآله بعضُ أصحاب الصُّفّة : قد عزفتْ نفسى يارسولَ الله عن الدّنيا ، فاستوى عندى ذهبُها وحجَرُها . قال : صرتَ حراً .

وكان بعضهم يقول : لو صحّتْ صلاة بغير قرآن ، لصحّت بهذا البيت :

أتمنَّى علَى الزَّمانِ(2) مُحالًا ... أنْ ترى مقلتاىَ طلْعةَ حُرِّ

وسئل الجُنيد عمّن لم يبق له من الدّنيا إلا مقدار مصّ نواة ! فقال : المكاتب عبد ما بقِى عليه درهم .

***

ومنها الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾(3) .

---

(1) سورة يوسف ٢٤ .

(2) ب : « من الزمان » ، وما أثبته من ا .

(3) سورة الأحزاب ٤١ .

وروى أبو الدرداء أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، قال : ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند خالقكم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير من إعطائكم الذهب والفضّة فى سبيل الله ، ومن أن تلقَوْا عدوّكم فتضربوا أعناقَهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ »، قالوا : ما ذلك يارسول الله ؟ قال : « ذكر الله » .

وفى الحديث المرفوع : « لاتقوم السّاعة على أحدٍ يقول : الله الله » .

وقال أبو علىّ الدقاق : الذكر منشور الوِلاية ، فمن وفّق للذكر فقدأعطىَ المنشور ، ومن سلِب الذكر فقد عزل .

وقيل : ذكْر الله تعالى بالقلْب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم ، وإنّ البلاء إذا أظلّ العبدَ ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كلُّ ما يكرهه .

وفى الخبر المرفوع : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها» ،قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » .

وفى الخبر المرفوع : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » .

وسمع الشّبلىّ وهو يُنشد :

ذكرتُك لا أنّى نسيتُك لمحةً	وأيسر مافى الذّكْر ذكرُ لِسانِى
فكدت بلا وجدٍ أموت من الهوَى	وهامَ علىّ القلبُ بالخفقانِ
فلمّا أرانى الوجد أنك حاضِرى	شهدتك موجودا بكلّ مكانِ
فخاطبت موجوداً بغير تكلُّمٍ	ولاحظتُ معلوماً بغير عِيانِ

***

ومنها الفتوة ، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[1] .

وقال تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[2] .

وقد اختلفوا فى التعبير عن الفتوّة ما هى ؟ فقال بعضهم : الفتوّة ألّا ترَى لنفسك فضلا على غيرك .

وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عَثرات الإخوان .

وقالوا : إنّما هتف الملَك يوم أحد بقوله .

لا سيفَ إلا ذو الفقا ر ، ولا فتى إلّا علِيّ

لأنه كسر الأصنام، فسمّيَ بما سُمّيَ به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذاذاً .

قالوا : وصنمَ كلّ إنسان نفسُه ، فمن خالفَ هواه فقد كسر صنَمَه، فاستحقّ أن يطلق عليه لفظ الفتوّة .

وقال الحارث المحاسبيّ : الفتوّة أن تنصف ولا تنتصف .

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : سئل أبى عن الفتوة ، فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

وقيل : الفتوة ألّا تدخر ولا تعتذر .

سأل شقيق البلخى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن الفتوة ، فقال : ماتقول أنت ؟ قال : إن أُعطينا شكرنا ، وإن مُنعنا صبّرنا . قال : إنّ الكلابَ عندنا بالمدينة هذا شأنها ، ولكن قل : إن أُعطينا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء ٦٠ .

(١) سورة الكهف ١٣ .

ومنها الفراسة ، قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1].

أي للمتفرسين . وقال النبي صلى الله عليه وآله : «اتقوا فراسة المؤمن ، فإنها لا تخطئ» .

قيل : الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدها الحقُّ إياها ، وكلّ مَنْ كان أقوى إيماناً كان أشد فراسة .

وكان يقال : إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة .

* * *

ومنها حسن الخلق ، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه ، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أيّ المؤمنين أفضل إيماناً ؟ فقال : أحسنهم خُلُقاً ، وبالخلُق تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخَلقه مشهور بخُلُقِه .

وقال بعضهم : حسن الخلُق استصغار ما مِنْك ، واستعظام ما إليك .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنكم لن تسعُوا الناس بأموالكم ، فسعُوهم بأخلاقكم » .

قيل لذي النون : مَنْ أكبر الناس همّاً ؟ قال : أسوؤهم خُلُقاً .

وكان يقال : ما تخلّق أحد أربعين صباحا بخُلُقٍ إلا صار ذلك طبيعة فيه .

قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[3] أي وخلقك فحسن .

شتَم رجلُ الأحنف بن قيس ، وجعل يتبعه ويشتمه ، فلما قرب الحيّ وقف ، وقال: يا فتى ، إن كان قد بقيَ في قلبك شيء فقله ، كيلا يسمعك سفهاء الحيّ فيجيبوك .

---

(١) سورة الحجر ٧٥ .
(٢) سورة القلم ٤ .
(٣) سورة المدثر ٤ .

ويقال : إن معروفاً الكرخيّ نزل دِجلة ليسبح ، ووضع ثيابه ومصحفه ، فجاءت امرأة فاحتملتهما، فتبعها ، وقال : أنا معروف الكرخيّ ، فلا بأس عليك! ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : ألك بعل ؟ قالت : لا ، قال : فهاتى المصحف ، وخذى الثياب .

قيل لبعضهم : ما أدَب الخلق ؟ قال : ما أدب الله به نبيّه فى قوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ [1] .

يقال : إنّ فى بعض كتب النبوّات القديمة : ياعبدى اذكرنى حين تغضب، أذكرك حين أغضب .

قالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائى ! فقال : لقد وجدتِ اسمى الذى أضلّه أهل البصرة .

قال بعضهم ـ وقد سئل عن غلام سوء له : لِمَ يُمسكه ؟ قال : أتعلّم عليه الحِلْم .

وكان يقال : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : الحليمُ عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والصديق عند الحاجة إليه .

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [2]: الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة تصفية الخلُق .

الفُضَيل : لأنْ يصحبنى فاجر حَسَنُ الخلق أحبُّ إلىّ مِنْ أنْ يصحبَنِى عابد سيئْ الخلق .

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البرارىّ ، فاستقبله جندىّ فسأله : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجّه وأدماه ، فلمّا جاوزه قيل له: إنّ ذلك إبراهيم بن أدهم

---

(١) سورة الأعراف ١٩٩ .
(٢) سورة لقمان ٢٠ .

زاهدُ خراسان ! فردّ إليه يعتذر . فقال إبراهيم : إنّك لمّا ضربتَنى سألتُ الله لك الجنة . قال : لمَ سألت ذلك ؟ قال : علمتُ أنى أوجر على ضربك لى ، فلم أرد أن يكون نصيبى منك الخير ، ونصيبك منّى الشر .

وقال بعض أصحاب الجنيد : قدِمتُ من مكّة ، فبدأت بالشيخ كى لا يتعنّى إلىّ ، فسلّمت عليه ، ثم مضيت إلى منزلى ، فلمّا صلّيت الصبح فى المسجد ، إذا أنا به خَلْفى فى الصفّ ، فقلت : إنّما جئتك أمسِ لئلا تتعنّى ! فقال : ذلك فضلُك ، وهذا حقُّك .

كان أبو ذَرّ عَلَى حوضٍ يسقى إبله ، فزاحمه إنسانٌ فكسر الحوض ، فجلس أبو ذرّ ثم اضطجع فقيل له فى ذلك، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا غضب الرجل وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا فليضطجع » .

دعا إنسانٌ بعض مشاهير الصوفيّة إلى ضيافة، فلمّا حضر باب داره ردّه واعتذر إليه . ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة ، والصوفىّ لا يغضب، ولا يضجر ، فمدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخُلُق ، فقال : إنما تمدحنى على خلُقٍ تجد مثلَه فى الكلب ؛ إن دعوته حضر ، وإن زجرته انزجر .

مرّ بعضُهم وقت الهاجرة بسكّة ، فأُلقِىَ عليه من سطح طست رماد ، فغضب مَنْ كان فى صحبته ، فقال : لا تغضبوا ، من استحقّ أن يُصَبّ عليه النّار فصولح على الرماد، لم يَجُزْ له أن يغضب .

كان لبعض الخياطين جارٌ يدفع إليه ثيابا فيخيطها ، ويدفع إليه أجرتَها دراهم زُيوفا، فيأخذها ، فقام يوماً من حانوته ، واستخلف ولَده ، فجـاء الجار بالدّراهم الزائفة ، فدفعها إلى الولد فلم يقبلها ، فأبدلها بدراهم جيّدة، فلمّا جاء أبوه دفع إليه الدّراهم ، فقال : وَيْحك! هل جرى بينك وبينه أمر ؟ قال : نعم ، إنه أحضَر الدّراهم زُيوفا ، فرددتها فأحضرهذه،

فقال : بئس ماصنعت ! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه ، وألقيها في بئر ، كي لا يغترّ غيري بها !

وقيل : الخلُق السّيِّئ هو أن يضيقَ قلبُ الإنسان عنْ أن يتّسع لغير ماتحبُّه النفس وتؤثره ، كالمكان الضيّق لا يسع غير صاحبه .

وكان يقال : منْ سوء الخلق أن تقف على سُوء خُلُق غيرك وتعيبه به .

قيل لرسول الله : ادعُ اللهَ علَى المشركين ، فقال : « إنما بعثتُ رحمةً ، ولم أبعث عذاباً » .

دعا عليّ عليه السلام غلاماً له مرارا ؛ وهو لا يجيبه ، فقام إليه فقال : ألا تسمع ياغلام ! قال : بلى ، قال:فما حملك على ترك الجواب ؟ قال : أمْنِي لعقوبتك ، قال:اذهب فأنت حرّ .

***

ومنها الكتمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على أمورِكم بالكتمان » .

وقال السريّ : علامة الحبّ الصبر والكتمان ، ومن باح بسرّنا فليس منّا .

وقال الشاعر :

كتمتُ حُبّك حتّى مِنكَ تكرِمةً ... ثم استوَى فيك إسراري وإعلانِي

كأنه غاض حتى فاض عن جَسَدِي ... فصار سقمي به في جسم كِتمانى

وهذا ضدّ مايذهب إليه القوم من الكتمان ؛ وهو عذر لأصحاب السرّ والإعلان.

وكان يقال : المحبّة فاضحة ؛ والدمع نمّام .

وقال الشاعر :

لا جزَى الله دمع عينِيَ خَيْراً ... وجزى الله كلّ خيرٍ لسانى

فاض دمعى فليس يكتمُ شيئا　　ووجــــدتُ اللسانَ ذا كتمانِ

يقال : إن بعض العارفين ، أوصى تلميذه بكتمان مايطّلع عليه من الحال ، فلمّا شاهد الأمر غلب، فكان يطلع فى بئر فى موضع خالٍ ، فيحدّثها بما يشاهد ، فنبتت فى تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكى كلام ذلك التلميذ ، كما يحكى الصدا كلام المتكلّم ، فأسقط بذلك من ديوان الأولياء .

وأنشدوا :

أبدا تحنّ إليكمُ الأرواحُ　　ووصالكمْ ريحانُهـــا والرّاحُ

وقلوب أهلِ ودادكم تشتاقكمْ　　وإلى لقـــاء جمالكم ترتاحُ

وارحمةً للعاشقين تحمّـــلوا　　ثقلَ المحبّـــة والهوى فضّاحُ

بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم　　وكذا دماء البائحين تباحُ

وقال الحسين بن منصور الحلاّج :

إنى لأكتمُ من علمى جواهرَه　　كى لا يرى العلم ذو جهل فيفتِننا

وقد تقدّمنى فيـــه أبو حسن　　إلى الحسين ، وأوصى قبلَه الحسَنا

يارب مكنونِ علمٍ لو أبوحُ به　　لقيل لى أنتَ ممّن يعبدُ الوثنا !

ولَاستحلّ رجالٌ صالحونَ دمِى　　يرون أقبحَ ما يأتونَهُ حسنا

* * *

ومنها الجود والسّخاء والإيثار ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) :

وقال النبى صلى الله عليه وآله : السّخىّ قريبٌ من الله ، قريب من النــاس ،

---

(١) سورة الحشر ٩ .

والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيد من الناس. وإنّ الجاهل السخيّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل.

قالوا : لا فرق بين الجود والسَّخاء في اصطلاح أهل العربية ، إلّا أنّ الباري سبحانه لا يوصَف بالسّخاء ، لأنه يشعر بسماح النفس عَقِيب التردّد في ذلك ، وأمّا في اصطلاح أرباب هذه الطريقة ، فالسّخاء هو الرتبة الأولى ، والجود بعده ، ثم الإيثار ، فمَنْ أعطَى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السَّخاء ، ومَنْ أعطَى الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود ، والذي قاسى الضّرّاء وآثر غيره بالبُلْغَة فهو صاحب الإيثار .

قال أسماء بن خارجة الفزاريّ : ماأحبّ أنْ أردّ أحداً عن حاجة طَلَبها ؛ إن كان كريماً صُنْتُ عِرْضَه عن الناس ، وإن كان لئيماً صُنْتُ عنه عرضي .

كان مورّق العجليّ يتلطّف في برّ إخوانه ، يضع عندهم ألف درهم ، ويقول : امسكوها حتى أعودَ إليكم ، ثم يرسِل إليهم : أنتم منها في حلّ .

وكان يقال : الجود إجابة الخاطر الأول .

وكان أبو الحسن البوشنجيّ في الخلاء ، فدعا تلميذا له ، فقال انزع عنّي هذا القميص وادفعْه إلى فلان ، فقيل له : هلاّ صبرت ! فقال : لم آمن على نفسي أن تغير عَلَيّ ماوقع لي من التخلّق معه بالقميص .

رُئِيَ عليّ عليه السلام يوما باكيا ، فقيل له . لم تبكي ؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ؛ أخاف أن يكون الله قد أهانني.

أضاف عبد الله بن عامر رجلا فأحسن قِرَاه ، فلما أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه. فسئل عن ذلك ، فقال إنهم إنما يعينون مَنْ نزل علينا ، لا من ارتحل عنا .

* * *

ومنها الغَيْرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أحدَ أغيرُ من الله ، إنّما حرّم الفواحش ماظهر منها وما بطن لغيرته » .

وفى حديث أبى هريرة : « إنّ الله ليغار وإنّ المؤمن ليغار » .

قال : والغيْرة هى كراهية المشاركة فيما هو حقك .

وقيل : الغيْرة الأنفة والحمية .

وحكى عن السرى أنه قرئ بين يديه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا[1] ﴾ .

فقال لأصحابه : أتدرون ماهذا الحجاب ؟ ؟ هذا حجاب الغَيْرة ، ولاأحد أغيرمن الله.

قالوا : ومعنى حجاب الغَيْرة ، أنه لما أصرّ الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن .

وقال أبو على الدقّاق : إنّ أصحاب الكسل عن عبادته ، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان ، فاختار لهم البعد ، وأخرهم عن محل القرب ، ولذلك تأخّروا .

وفى معناه أنشدوا فقالوا :

أنا صبٌّ بمن هَوِيتُ وَلـكِن ْ ما احتيالِى فِى سُوءِ رأى الْموَالِى !

وفى معناه قالوا : سقيمٌ لا يعاد ، ومريد لا يراد .

وكان أبو على الدّقاق : إذا وقع شىء فى خلال المجلس يشوّش قلوبَ الحاضرين ، يقول : هذا من غَيْرة الحق ؛ يريدبه ألاّ يتم ماأمّلناه من صفاء هذا الوقت .

وأنشدوا فى معناه :

همّتْ بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المِراة نهاها وجهُها الحسنُ

وقيل لبعضهم : أتريد أن تراه ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال أنزّه ذلك الجمال عن نظر مثلى . وفى معناه أنشدوا :

إنّى لأحْسُدُ ناظرىّ عَلَيْكَ حتى أغضّ إذا نظرتُ إليكَ

---

(١) الإسراء : ٤٥ .

وأراك تخطر في شمائلك التي هي فتنتي ، فأغار منك عليكا

وسُئل الشِّبليّ : متى تستريح ؟ قال : إذا لم أر له ذاكرا .

وقال أبو علي الدقاق في قول النبيّ صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابيّ وأنّه استقاله فأقاله ، فقال الأعرابي : عمّرك الله ، فمن أنت ؟ قالَ صلى الله عليه وآله : « أنا امرؤ من قريش » ، فقال بعضُ الصحابة من الحاضرين للأعرابيّ : كَفَاكَ جَفَاءً ألّا تعرف نبيّك ! فكان أبو عليّ يقول : إنما قال : « امرؤ من قريش » غَيْرةً ونوعا من الأَنَفَة ، وإلّا فقد كان الواجب عليه أن يتعرّف لكل أحد أنه مَنْ هو ، لكن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابيّ التعريف للأعرابيّ بقوله : « كفاك جفاء ألّا تعرف نبيك ! »

وقال أصحاب الطريقة : مساكنة أحدٍ من الخلق للحقّ في قلبك تُوجِب الغَيْرة منه تعالى .

أذّن الشِّبليّ مرة ، فلما انتهى إلى الشهادتين ، قال : وحقّك لولا أنك أمرتني ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجلٌ رجلاً يقول : جلّ الله ! فقال له : أحبّ أن تجلّه عن هذا .

وكان بعض العارفين يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من قُرْط الأذن .

وقيل لأبي الفتوح السهرورديّ ـ وقد أُخِذ بحلَب ليصلب على خشبة : ما الذي أباحهم هذا منك ؟ قال : إنّ هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمداً شريكا لله في الربوبية ، فلم أفعل ، فقتلوني .

* * *

ومنها التفويض ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فاستوقف مَنْ عقل أمره عن الاقتراح عليه ، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه ، فالعاقل تارك للاقتراح ، على العالم بالصلاح .

وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٢) ؛ فبعث على تأكيد الرّجاء بقوله : ﴿ خَيْراً كَثِيراً ﴾ .

ولمّا فوّض مؤمن آل فرعون أمرَه إلى الله وقاه ﴿ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٣) كما ورد في الكتاب العزيز .

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحقّ سبحانه ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) ، فأسّ التفويض والباعث عليه هو اعتقاد العجز عن مغالبة القدر ، وأنّه لا يكون في الخير والشر ـ أعني الرّخص والصحّة وسعة الرزق والبلايا ، والأمراض والعِلل وضيق الرزق ، إلا ما أراد الله تعالى كونه ، ولا يصحّ التفويض ممّن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين .

وقد بالغ النبي صلى الله عليه وآله في التصريح به والنصّ عليه بقوله لعبد الله بن مسعود : « ليقلّ همّك ؛ ما قدّر أتاك وما لم يقدّر لم يأتك ؛ ولو جهد الخلق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جَهِدوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك » .

---

(١) سورة البقرة ٢١٦ .
(٢) سورة النساء ١٩ .
(٣) سورة غافر ٤٥
(٤) سورة التوبة ٥١

وفى صحيح مسلم بن الحجّاج أنه قال لأبى هريرة فى كلام له : « فإنْ أصابَك شىء فلا تقل : لَوْ فعلت كذا لكان كذا ، فإنّ « لو » تفتح عمل الشيطان، ولكن قل: ماقدر الله وما شاء فعل » .

وفى صحيح مسلم أيضاً عن البَرَاء بن عَازب : « إذا أخذت مضجَعك فقل كذا ... » إلى أن قال : « وجّهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك، لامنجى ولا ملجأ منك إلا إليك » .

وكان يقال : معارضة المريض طبيبَه ، توجب تعذيبَه . وكان يقال: إنّما الكيّس الماهر من أمسى(١) فى قبضة القاهر .

وكان يقال : إذا كانت مغالبة القَدَر مستحيلة ، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة .

وكان يقال : إذا التبست المصادر ، ففوّض إلى القادر .

وكان يقال : من الدّلالة على أنّ الإنسان مصرّف مغلوب ، ومدبّر مربوب ، أن يتبلّد رأيُه فى بعض الخطوب ، ويعمَى عليه الصواب المطلوب .

وإذا كان كذلك ، فربّما كان تدميره فى تدبيره ، واغتيالُه من احتياله ، وهلكته من حَرَكته .

وفى ذلك أنشدوا :

أيا مَنْ يعوّلُ فِى المُشْكِلَاتِ ... عَلَى ما رآه وما دبّرَهْ (٢)

إذا أعضلَ الأمرُ فافزعْ به ... إلى مَنْ يرى منه مالم ترَهْ

تكن بين عطفٍ يقيل الخطوبَ ... ولطفٍ يهوّنُ ماقدّرَهْ

إذا كنت تجهل عُقْبَى الأمورِ ... ومالك حولٌ ولا مقدرهْ

فلِمْ ذَا العَنَا ، وعلام الأسى ... وممّ الحِذار ، وفيم الشَّرهْ !

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « استسلم » .

(٢) الأبيات لابن ظفر ؛ وهى فى كتابه سلوان المطاع ٨ .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

يارب مغتبط ومغبوطٍ بأمرٍ فيه هلكه[1]
ومنافسٍ فى مُلكِ ما يشقيه فى الدارين مُلكه
علمُ العواقب دونَهُ ستر ، وليس يرامُ هتكه
ومعارضُ الأقدار با آراء سَىْء الحالِ ضنكه
فكن امرأ محض اليقينِ وزيفُ الشبهات سبكه
تفويضه توحيده وعناده المقدار شِرْكه

***

ومنها الولاية والمعرفة ، وقد تقدم القول فيهما .

ومنها الدّعاء والمناجاة ، قال الله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2] .

وفى الحديث المرفوع : « الدعاء مخ العبادة » .

وقد اختلف أربابُ هذا الشأن فى الدعاء ، فقال قوم : « الدعاء مفتاح الحاجة ، ومستروَح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرّين ، ومتنفّس ذوى المآرب .

وقد ذمّ الله تعالى قوماً فقال : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[3] فسّروه وقالوا : لا يمدّونها إليه فى السؤال .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : خلق الله الخلق ، وقال : تاجروا فىّ ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منّى ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى .

قالوا : وقد أثنى الله على نفسه ، فقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[4] ، قالوا : الدعاء إظهار فاقة العبوديّة .

---

(١) لابن ظفر ، سلوان المطاع ٨
(٢) سورة غافر ٦٠
(٣) سورة التوبة ٦٧ .
(٤) سورة النمل ٦٢

وقال أبو حاتم الأعرج : لأن أحرَم الدّعاء أشد عليّ من أن أحرَم الإجابة .

وقال قوم : بل السكوت والجمود تحتَ جريان الحكْم والرّضا بما سبق من اختيار الحكيم العالِم بالمصالح أوْلى ؛ ولهذا قال الواسطيّ : اختيار ماجَرَى لك فى الأزَل، خيرلك من معارضة الوقت .

وقال النبي صلى الله عليه وآله إخباراً عن الله تعالى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين » .

وقال قوم : يجب أن يكون العبدُ صاحب دعاء بلسانه ، وصاحب رضاً بقلبه، ليأتىَ بالأمرين جميعاً .

وقال قوم: إنّ الأوقاتَ تختلف، ففى بعض الأحوال يكون الدّعاء أفضل من السكوت، وفى بعض الأحوال يكون بالعكس، وإنّما يعرَف هذا فى الوقت ،لأنّ علم الوقت يحصل فى الوقت ، فإذا وجد فى قلبه الإشارة إلى الدّعاء فالدعاء أولى ، وإن وجـد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتمّ وأوْلى .

وجاء فى الخبر : « إنّ اللهَ يُبغِض العبدَ فيسرع إجابته بغضاً لسماع صوته ، وأنّه يحب العبد فيؤخّر إجابتهُ حباً لسماع صوته » .

* * *

ومن أدب الدعاء حضورُ القلب ، فقد روى عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله لا يستجيب دعاء قلب لاهٍ » .

ومن شروط الإجابة طِيب الطُّعمة وحلّ المكسب ؛ قال صلّى الله عليه وآله لسعد ابن أبى وقّاص : « أطِبْ كسبك تُستَجَبْ دعوتك » .

وينبغى أن يكون الدعاء بعد المعرفة ، قيل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : مابالُنا ندْعو فلا يستجاب لنا ! قال : لأنّكم تدعون مَنْ لا تعرفونه .

كان صالح المرّىّ يقول كثيرا : ادعوا : فمن أدْمَن قَرْع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له رابعة العدوية : ماذا تقول ؟ : أغُلِق هذا الباب حتى يستفتح ! فقال صالح : شيخ جَهِل ، وامرأة علمت .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلْق ، وإلّا فالرّب يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامّة بالأقوال ، ودعاء العابد بالأفعال ، ودعاء العارف بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ماهيّجه الأحزان والوجد .

وقيل : أقربُ الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطرار ؛ لقوله تعالى : ﴿ أمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دعاه ﴾ .

قال أصحاب هذه الطريقة : ألسنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء ، وألسنة المحققين الواصلين قد خرست عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك يقول : مادعوتهُ منذُ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوَ لى أحد .

وقيل : الدعاء سلّمَ المذنبين .

وقال من قال بنقيض هذا : الدعاء مراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقالوا : ألسنة المذنبين دمُوعهم .

وكان أبو على الدّقاق يقول : إذا بكى المذنب فقد راسل الله .

وفى معناه أنشدوا :

دُمُوعُ الْفَتَى عمّا يجنّ تترجمُ وأنفاسه تبدين ما القلبُ يكْتُمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين : أدعُ لى ، فقال : كفاك من الإجابة ألّا تجعل بينك وبينه واسطة .

***

ومنها التأسى ، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] أى فى مصابه وما نيل منه فى نفسه وفى أهله يوم أُحُد ، فلا تجزعوا إن أصيب بعضكم .

وجاء فى الحديث المرفوع : لاتنظروا إلى مَنْ فوقكم ، وانظروا إلى مَنْ دونكم ، فإنّه أجدر ألّا تزدروا نِعَم الله عليكم .

وقالت الخنساء ترثى أخاها :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِين حَوْلِى ... عَلَى إخوانِهِم لقَتَلْتُ نَفْسِى[2]

وَمَا يَبكُونَ مِثْلَ أخِى ولَكِنْ ... أُعَزِّى النَّفْسَ عَنهُ بالتأسِّى

وحقيقة التأسىِّ تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك ، ومن هو أرفعُ محلًّا منك .

وقد فسّر العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[3] ؛ قال : إنّه لايهون على أحدٍ من أهل النار عذابه ، وإنْ تأسّى بغيره من المعذّبين ، لأنّ الله تعالى جعل لهم التأسّى نافعاً فى الدنيا ، ولم يجعله نافعا لأهل النار مبالغة فى تعذيبهم ، ونفياً لراحة تصل إليهم .

***

(١) سورة الأحزاب ٢١ .
(٢) ديوانها ١٠٢
(٣) سورة الزخرف ٣٩

ومنها الفقر ، وهو شمار الصالحين ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « اللّهمّ أحْيِنِي مِسْكِيناً ، وأمتني مسكينا ، واحشرني مع المساكين » .

قال لعليّ عليه السلام : « إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العبادَ بأحسنَ منهما ، وهَبَ لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعا ، ويرضوْن بك إماما » .

وجاء في الخبر المرفوع : « الفقراء الصُّبُرُ جُلساء الله يوم القيامة » .

وسئل يحيى بن مُعاذ عن الفقرِ فقال : ألّا تستغنى إلا بالله .

وقال أبو الدّرداء : لأن أقعَ من فوق قصرٍ فأنحطم أحبّ إلىّ من مجالسة الغنيّ لأني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إياكُمْ ومجالسةَ الموتى » ، فقيل له : وما الموتى ؟ قال : الأغنياء .

قيل للربيع بن خثيم : قَدْ غَلا السّعر ، قال : نحنُ أهونُ على الله من أن يُجيعنا ، إنّما يجيع أولياءه .

وقيل ليحيى بن معاذ : ما الفقرُ ؟ قال : خوف الفقر .

وقال الشّبْلِيّ : أدنى علاماتِ الفقير أن لوْ كانت الدّنيا بأسرها لواحدٍ فأنفقها في يوم واحدٍ ، ثم خطر بباله : « لو أمسكت منها قوت يوم آخر ! » ، لم يصدق في فقره .

سئل ابن الجلاء عن الفقْر ، فسكت ثم ذهب قليلا ، وعاد فقال : كانت عندي أربعة دوانيق فضّة ، فاستحييت من الله أن أتكلّم في الفقر وهي عندي ، فذهبت فأخرجتها ، ثم قعد فتكلّم في الفقر .

وقال أبو علي الدّقاق في تفسير قوله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تَوَاضَع لِغنيّ ذهب ثلثا دينه ، إنّ المرء بقلبه ولسانه وجوارحه ، فمن تواضع لغنيّ بلسانه وجوارحه ، ذهب ثلثا دينه ، فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دينه كلّه .

* * *

ومنهـا الأدب ، قالوا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾[1] : حفظ أدب الحضرة .

قيل إنه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق المقام الّذِى أوصل إليه ليلة شاهد السِّدرة ، وهى أقصى مايمكن أن ينتهى إليه البشريّون .

وفى الحديث المرفوع : « أدّبنِى ربّى فأحسنَ تأديبى » .

وقيل : إنّ الجنيد لم يمدّ رجلَه فى الخلوة عشرين سنة ، وكان يقول : الأدب مع الله أَوْلَى من الأدب مع الخلق .

وقال أبو على الدقاق : مَنْ صاحب الملوك بغير أدبٍ ، أسلمه الجهلُ إلى القتل .

ومن كلامه عليه السلام : ترك الأدب يوجب الطّرد ، فمن أساء الأدب على البساط، ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ، ردّ إلى ساحة الدّوابّ .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر النّاس فى الأدب ، وعنـدى أنّ الأدب معرفة الإنسان بنفسه .

وقال الثورىّ : من لم يتأدّب للوقت ، فوقته مقت.

وقال أبو على الدّقاق فى قوله تعالى ، حكايةً عن أيوب : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2] . قال : لم يقل : « فارحَمْنِى » لأنه حفظ آداب الخطاب، وكذلك قال فى قول عيسى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾[3]، قال: لم يقل: « لم أقل » رعايةً لأدب الحضرة .

***

(١) سورة النجم ١٧
(٢) سورة الأنبياء ٨٣
(٣) سورة المائدة ١١٦

ومنها المحبّة ، وهى مقام جليل ، قالوا : المحبّة أن تهبَ كُلَّكَ لمن أحببتَ ، فلا يبقَ لك منك شىء .

قيل لبعض العرب : ماوجدت من حبّ فلانة ؟ قال : أرى القَمَر على جدارِها أحسنَ منه على جُدْران الناس .

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ : المحبّة أن تغار على محبوبك أن يحبّه غيرُك .

وقال النصراباذى : المحبّة نوعان: نوع يُوجب حَقْنَ الدّماء، ونوع يوجب سَفْكَ الدماء.

وقال يحيى بن معاذ : المحبّة الخالصة ألّا تنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبرّ .

وقيل للنصر اباذى : كيف حالك فى المحبّة ؟ قال : عدمتُ وصال المحبّين ، ورزقتُ حسراتهم ، فهو ذا أنا أحترق فيها . ثم قال : المحبّة مجانبة السلوّ على كلّ حال .

وأنشدوا :

وَمَنْ كان فى طول الهوى ذاق سَلْوةً ... فإنّىَ من ليـلَى لها غير ذائِقِ
وأكثر شىء نلتـه مِنْ وصالها ... أمانىّ لم تصـدُقْ كلمحـة بارق

وجاء فى الحديث المرفوع : «المرء معَ مَنْ أحبّ » ؛ ولما سمِعَ سمنون هذا الخبر، قال : فاز المحبّون بشرَف الدنيا والآخرة ، لأنّهم مع الله تعالى .

وفى الحـديث المرفوع : « لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ اللهَ ورسوله ، ويحبّه اللهُ ورسولُه » ، وهذا يتجاوز حدّ الجلالة والشرف .

وكان يقال : الحبّ أوّله خَتَلٌ ، وآخره قتل .

قيل: كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد :سكرت من كثرة ماشربت من محبته، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرِب بحور السّموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه خارج ، وهو يقول : هل من مزيد !

وأنشد :

عَجِبْتُ لمن يقولُ ذكرتُ حِبّي ... وهَــلْ أنسى فأذْكر مانسيتُ !

شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ ... فـــا نَفِد الشّراب ، ولا رَويتُ

وقيل : المحبّة سكر لا يصحو صاحبه إلّا بمشاهدة محبوبه ؛ ثمّ السكر الذى يحصلُ عند المشاهدة لا يوصف .

وأنشدوا :

فأسكرَ القــومَ دَوْرُ كأسٍ ... وكانَ سكرى مِن المُدِيرِ

* * *

ومنهـا الشوق ، جاء فى الخـبر المرفوع : إنّ الجنـة لتشتـاق إلى ثلاثة : علىّ ، وسلمان ، وعمّار .

الشوق مرتبة من مراتب القوم ، ومقام من مقاماتهم . سئل ابن عطاءٌ : الشوْق أعلَى أم المحبة ؟ فقال : المحبّة ، لأنّ الشوق منها يتولّد .

ومن الأدعية النبويّة المأثورة الدّعاء الذى كان يدعُو به عمّار بن ياسر رضى الله عنه : « اللهمّ بعلمك بالغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ماعلمت الحياةَ خيراً لى ، وتوفّني ما كانت الوفاة خيرا لِى . اللهمّ إنى أسألُكَ خشيَتك فى الغيْب والشّهادة ، وأسألك كَلِمَةَ الحقّ فى الرّضا والغضب ، وأسألك القصد فى الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا يَبِيد ، وقرة عينٍ لا تنقطع ، وأسألك الرّضا بعد القضاء ، وبَرْد العيش بعد الموت . وأسألك النّظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضرّاء مضرّة . اللهمّ زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » .

قالوا : الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب ، وعَلَى قدْر المحبّة يكون الشوق ، وعلامة الشّوق حب الموت .

وهذا هو السرّ في قوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) أى أنّ مَنْ كان صاحب محبة يتمنّى لقاء محبوبه ، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة .

قيل لبعض الصوفية : هل تشتاق إليه ؟ فقال : إنّما الشوق إلى غائب ، وهو حاضر لا يغيب .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾(٢) : إنه تطييب لقلوب المشتاقين .

ويقال : إنّه مكتوب في بعض كتب النبوّات القديمة : شوّقناكم فلم تشتاقوا ، وزَمَرْنا لكم فلم ترقصوا ، وخوّفناكم فلم ترهبوا ، ونُحْنا لكم فلم تحزنوا .

وقيل : إن شعيبا بكى حتى عمِيَ ، فردّ الله إليه بصره ، ثم بكى حتى عمِيَ ، فردّ عليه بصره ، ثم كذلك ثلاثا ، فقال الله تعالى : « إنْ كان هذا البكاء شوقاً إلى الجنة فقد أبحتُها لك ، وإن كان خوفاً من النار فقد أجرْتُك منها » . فقال : وحقّك لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقاً إليك ، فقال له : « لأجل ذلك أخدمتك نبيّي وكليمي عشر سنين » .

* * *

ومنها الزهد ورفض الدنيا ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٣) .

وجاء في الخبر أنّ يوسف عليه السلام كان يجوع في سِنِي الجدْب ، فقيل له : أتجوعُ وأنت على خزائن مصر ! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجياع .

وكذلك قال عليّ عليه السلام ، وقد قيل له : أهذا باسُك ، وهذا ما كولك ، وأنت أمير

---

(١) سورة البقرة ٩٤
(٢) سورة العنكبوت ٥
(٣) سورة طه ١٣١

المؤمنين ! فقال : نعم ، إن الله فرضَ عَلَى أئمة العدل أن يقدّروا لأنفسهم كضَعَفة النّاس، كيلاَ يتبيّغ (١) بالفقير فقره .

ومنع عمر بن الخطاب نفسَه عام الرّمادة الدّسم ، وقال : لا آكله حتى يصيبَه المسلمون جميعا .

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تنعّما ؛ قبل أن يلِيَ الخلافة ، قوّمت ثيابه حينئذ بألف دينار ، وقُوّمت وهو يخطب النّاس أيام خلافته بثلاثة دراهم .

***

واعلم أنّ بعض هذه المراتب والمقامات التى ذكرناها لقوم قد يكون متداخلا فى الظاهر ، وله فى الباطن عندهم فرق يعرفه مَنْ يأنس بكتبهم ، وقد أتينا فى تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم فى هذا الفصل بما فيه كفاية .

---

(١) يتبيغ به فقره : أى يغلبه ويحمله على الشر .

(٢١٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يَأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[1].

أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً ، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً . لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ

يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا أَنَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ !

أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقَظَةٌ ! أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ! فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ !

فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ ؛ وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ ؛ وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ !

فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ ، وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعاً ، وَبِذِكْرِهِ آنِساً .

وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ ، إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

---

(١) سورة الانفطار ٦

فتعالى من قوي ما أكرمه! وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته! وأنت في كنف ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب! فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين؛ في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته.

وايم الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقين في القوة، متوازيين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق، ومساوي الأعمال.

وحقاً أقول! ما الدنيا غرتك، ولكن بها اغتررت، ولقد كاشفتك العظات، وآذنتك على سواء.

ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، والنقص في قوتك، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرك. ولرب ناصح لها عندك متهم، وصادق من خبرها مكذب.

ولئن تعرفتها في الديار الخاوية، والربوع الخالية، لتجدنها من حسن تذكيرك، وبلاغ موعظتك، بمحلة الشفيق عليك، والشحيح بك! ولنعم دار من لم يرض بها داراً، ومحل من لم يوطنها محلاً!

وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم، إذا رجفت الراجفة، وحقت بجلائلها القيامة، ولحق بكل منسك أهله، وبكل معبود عبدته، وبكل مطاع أهل طاعته، فلم يجز في عدله وقسطه يومئذ خرق بصر في الهواء، ولا همس قدم في الأرض إلا بحقه. فكم حجة يوم ذاك داحضة، وعلائق عذر منقطعة!

فتحر من أمرك ما يقوم به عذرك، وتثبت به حجتك، وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له، وتيسر لسفرك؛ وشم برق النجاة، وارحل مطايا التشمير.

* * *

الشرح :

لقائل أن يقول:لو قال : «ماغرك بربك العزيز أو المنتقم» أو نحو ذلك،لكان أولَى لأنّ للإنسان المعاتب أن يقول : غرّنى كرمُك الّذى وصفتَ به نفسك !

وجواب هذا أنْ يقال : إنّ مجموع الصفات صار كشىء واحد ، وهو الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركّبك . والمعنى : ماغرّك بربٍّ هذه صفته ، وهذا شأنه،وهو قادر على أن يجعلك فى أى صورة شاء ! فما الذى يؤمّنك من أن يمسخك فى صورة القرَدةوالخنازير ونحوها من الحيوانات العجم . ومعنى الكريم هاهنا:الفيّاض على المواد بالصور ، ومَنْ هذه صفته ينبغى أن يُخاف منه تبديل الصورة .

قال عليه السلام : « أدحض مسئول حُجّة » المبتدأ محذوف ، والحجة الداحضة : الباطلة .

والمعذِرة بكسر الذال : العذر .

ويقال : لقد أبرح فلان جهالةً ،وأبرح لؤماً ، وأبرح شجاعة، وأتى بالبرْح من ذلك، أى بالشّديد العظيم . ويقال : هذا الأمر أبرحُ من هذا ، أى أشدّ ، وقتلوه أبْرَح قَتْل . وجهالةً منصوب على التمييز .

وقال القطب الرّاونديّ : مفعول به ، قال معناه : جلب جهالةً إلى نفسه ، وليس بصحيح ؛ وأبرح لا يتعدّى هاهنا وإنّما يتعدّى « أبرح » فى موضعين : أحدهما أبرحه الأمر ، أى أعجبه ، والآخر أبرحَ زيدٌ عمْرا ، أى أكرمه وعظّمه .

قوله : « ماجرّأك » بالهمزة ، وفلان جرئ القوم ، أى مقدّمهم .

وما أنّسك بالتشديد ، وروى:« ما آنسك »بالمدّ ؛ وكلاهما من أصل واحد،وتأنّست

بفلان واستأنستُ بمعنى ، وفلان آنيسى ومؤانسى ، وقد أنّسنى وآنسنى كلّه بمعنى ، أى كيف لم تستوحش من الأمور التى تؤدى إلى هلكة نفسك .

والبُلُول : مصدر بلّ الرجل من مرضه، إذا برِئ ، ويجوز « أبلّ » ، قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به ظنّ أنه نجا وبه الدّاء الّذِى هو قاتِلُهْ (١)

والضّاحى لحرّ الشمس: البارز . وهذا داء مُمضّ ، أى مؤلم ، أمضنى الجرح إمضاضاً، ويجوز « مَضّنِي » .

وروى : وجلدك عَلَى مَصَائبك » ، بصيغة الجمع .

وبيَات نقمة بفتح الياء : طروقُها ليلا ، وهى من ألفاظ القرآن العزيز (٢) .

وتورّط : وقع فى الورْطة ، بتسكين الرّاء ، وهى الهلاك ، وأصل الورطة أرضٌ مطمئنة لا طريق فيها ، وقد أورَطَه ، وورطه توريطا ، أى أوقعه فيها .

والمدارج : الطرق والمسالك ، ويجوز انتصاب « مدارج » ها هنا ، لأنها مفعول به صريح ، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه ، أى فى مدارج سطواته .

قوله : و « تَمثّل » أى وتصوّر .

ويتغمّدك بفضله ، أى يسترك بعفوه ، وسُمِّىَ العفو والصفح فضلًا ؛ تسمية للنّوع بالجنس .

قوله : « مَطْرَف عين » بفتح الراء ، أى زمان طرف العين ، وطرْفها : إطباق أحدِ

---

(١) الصحاح ٤ : ١٦٤٠ (من غير نسبة) .

(٢) منه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ .
٤ سورة الأعراف .

جفنيها على الآخر ، وانتصابُ «مطرف» هاهنا على الظرفية، كقولك : وردت مقدمَ الحاجّ ، أي وقت قدومهم .

قوله : « متوازِنَيْن في القُدرة » ، أي متساويين ، وروى : « متوازنين » بالنون .

والعظات: جمع عِظَة ، وهو منصوب على نزع الخافض، أي كاشفتك بالعظات، وروى « العظاتُ » بالرفع على أنّه فاعل . وروى : « كاشفتك الغطاء » .

وآذَنْتك ، أي أعلمتك .

وعلى سواء ، أي على عَدْل وإنصاف ، وهذا من الألفاظ القرآنية [١] .

والراجفة : الصيحة الأولى، وحقّتْ بجلائلها القيامة ، أي بأمورها العظام . والمنسِك: الموضع الذى تذبح فيه النسائك ، وهى ذبائح القربان ويجوز فتح السين ، وقد قرئْ بهما فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ [٢] .

فإن قلت : إذا كان يلحق بكلٍّ معبود عَبَدَتُه ؛ فالنصارى إذن تلحق بعيسى ، والغلاة من المسلمين بعليّ ، وكذلك الملائكة ، فما القول فى ذلك ؟

قلت ، لا ضرر فى التحاق هؤلاء بمعبوديهم ، ومعنى الالتحاق أن يؤمَر الأتباع فى الموقف بالتحيز إلى الجهة التى فيها الرؤساء ، ثم يقال للرؤساء : أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم ؟ فحينئذ يتبرءون منهم ، فينجو الرؤساء ، وتهلك الأتباع، كما قال سبحانه : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] ، أى إنّما كانوا يطيعون الشياطين المضلّة لهم ، فعبادتهم فى

---

(١) منه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ . ٥٨ سورة الأنفال .

(٢) سورة الحج ٦٧ .

(٣) سورة سبأ ٤١ .

الحقيقة للشياطين لا لنا ، وإنهم ما أطاعونا ، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين ، وإنما أطاعوا شياطينهم .

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾(١) من تخصيص العموم بالآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾(٢) .

فإن قلت : فما قولك في اعتراض ابن الزِّبَعْرَى على الآية ، هل هو وارد ؟

قلت : لا ، لأنه قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ و « ما » لما لا يعقل ، فلا يردُ عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة : والذي قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تكلّف غير محتاج إليه .

فإن قلتَ : فما الفائدة في أن قَرَن القوم بأصنامهم في النّار ؟ وأي معنى لذلك في زيادة التعذيب والسخط ؟

قلت : لأنّ النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب ، وإنّما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلُّوا بها ، فكلّما رأوها معهم زاد غمّهم وحسرتهم .

وأيضا فإنهم قدّروا أن يستشفعوا بها في الآخرة ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغضَ إليهم منها .

قوله : « فلم يَجْرِ » قد اختلف الرّواة في هذه اللفظة ، فرواها قوم « فلم يَجْرِ » وهو مضارع « جَرَى يجري » ، تقول : ما الذي جرى للقوم ؟ فيقول مَنْ سألته : قَدِم الأمير من السفر ، فيكون المعنى على هذا : فلم يكن ولم يتجدّد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلّا بالحقّ والإنصاف . وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

---

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .
(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

الحساب ﴾[1]، ورواها قوم « فلم يجز » ،مضارع « جازَ يجوز » ، أي لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحدمن المكلّفين في حركة من الحركات المحقرات المستصغرات ؛ إلا إذا كانت قد فعلها بحق ، وعلى هذا يجوز فعل مثلها .ورواها قوم : «فلم يَجُرْ» من «جار»،أي عدل عن الطريق ، أي لم يذهب عنه سبحانه ، ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شيء من أمر محقّرات الأمور إلّا بحقه ، أي إلا مالا فائدة في إثباته والمحاسبة عليه ، نحو الحركات المباحة والعبثيّة التي لاتدخل تحت التكليف .

وقال الراونديّ : « خَرْقُ بصَرٍ » مرفوع لأنه اسم مالم يسمّ فاعله ، ولا أعرف لهذا الكلام معنى .

والهمس : الصوت الخفيّ .

قوله : « فتحرّ منْ أمرك » ، تحرّيت كذا ، أي توخّيته وقصدته واعتمدته .

قوله : « وتيسّر لسفرك » ، أي هيّئ أسباب السّفر ، ولا تترك لذلك عائقا .

والشَّيْم : النظر إلى البرق .

ورحلت مطيتي ، إذا شددت على ظهرها الرّحل ، قال الأعشى :

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غـدْوَةً أجْمَالَهَا غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَاتَقولُ بِدَالَهَا[2]

والتّشمير : الجدّ والانكماش في الأمر .

ومعاني الفصل ظاهرة ، وألفاظه الفصيحة تعطيها وتدلّ عليها بما لوأراد المفسّر أن يعبّر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أوْلَى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسّر .

---

(١) سورة غافر ١٧

(٢) مطلع قصيدته ، ديوانه ٢٢ .

(٢١٩)

الأصـلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً ، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلالِ مُصَفَّداً ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا !

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً ، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ ، غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً ، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً ، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي ، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي ، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي ، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا ، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا ، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ ! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا ، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا ؛ كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا ، فَقُلْتُ : أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ! فَقَالَ : لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ : هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي ! أَمُخْتَبِطٌ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ ! وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا ، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ

مَافَعَلْتُهُ ؛ وَإِنَّ دُنْيَا كُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا .

مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى ؛ وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى ! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ .

* * *

الشَّرْحُ :

السَّعْدَان : نبتٌ ذو شوك ؛ يقال له : حَسَك السَّعْدان وحَسَكة السعْدان ؛ وتشبَّه به حلَمَة الثَّدي ، فيقال : سَعْدانة الثندُوَة ، وهذا النَّبت من أفضل مراعي الإبل ، وفي المثل « مَرْعًى ولا كالسَّعْدان » ؛ ونونه زائدة ، لأنه ليس في الكلام « فَعْلال » غير مضاعف ، إلّا « خَزْعال » وهو ظَلْع يلحق الناقة ، و « قَهْقَار » ، وهو الحجر الصلب ، و « قَسْطال » وهو الغبار .

والمسهَّد : الممنوع النوم ، وهو السهاد .

والأغلال : القيود . والمصفَّد : المقيَّد . والحُطَام : عروض الدنيا ومتاعها ، شبَّه لزواله وسرعة فنائه بما يتحطَّم من العيدان ويتكسَّر .

ثم قال : كيف أظلم الناس لأجل نَفْسٍ تموت سريعاً ـ يعني نَفْسه عليه السلام !

فإن قلت : أليس قوله : « عن نَفْسٍ يسرع إلى البلى قُفُولها » يشعر بمذهب من قال بقدم الأنفس ، لأنّ القفول الرجوع ، ولا يقال في مذهبه للمسافرة : قافلة إلا إذا كانت راجعة .

قلت : لا حاجةَ إلى القول بقدَم الأنفس محافظةً على هذه اللفظة ، وذلك لأنّ النفس إذا كانت حادثة فقد كان أصلها العدم ، فإذا مات الإنسان عدمت نفسه فرجعت إلى العدم الأصليّ ، وهو المعبّر عنه بالبِلَى .

وأملق : افتقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ (١) .

واستماحنى : طلب منّى أن أعطيَه صاعا من الحنطة ، والصاع أربعة أمداد ، والمُدّ رطل وثلث ، فمجموع ذلك خمسة أرطال ، وثلث رطل ، وجمع الصاع أصوع ، وإن شئت همزت . والصُّواع لغة فى الصاع ، ويقال : هو إناء يشرب فيه .

والعِظلِم ، بالكسرة فى الحرفين : نَبْت يصبغ به ما يراد اسوداده ، ويقال : هو الوَسمة :

وشعث الألوان ، أى غُبر .

واصفيت إليه : أملتُ سمعى نحوه .

وأتبع قياده : أطيعه وأنقاد له .

وأحميت الحديدة فى النار ، فهى محماة ، ولا يقال : حَميت الحديدة .

وذى دَنف ، أى ذى سقم مؤلم .

ومن ميسمها : من أثرها فى يده .

وثكلتك الثواكلُ ، دعاء عليه ، وهو جمع ثاكلة ، وفواعل لا يجىء إلا جمع المؤنث إلا فيما شذّ ، نحو فوارس ، أى ثكلتك نساؤك .

قوله : « أحماها إنسانُها » ، أى صاحبها ، ولم يقل « إنسان » ، لأنّه يريد أن يقابل هذه اللفظة بقوله : « جبّارها » .

وسَجَرها ، بالتخفيف : أوقدها وأحماها ، والسَّجور ما يسجر به التنّور .

قوله : « بملفوفة فى وعائها » ، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الحلواء تأنّق فيه ، وكان عليه السلام يُبغض الأشعث ، لأنّ الأشعث كان يُبغضه ، وظنّ الأشعث أنّه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوىّ كان فى نفس الأشعث ، وكان أمير المؤمنين

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

عليه السلام بفطِن لذلك ويعلمه ، ولذلك ردّ هديّة الأشعث ، ولولا ذلك لقبلها ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قبل الهديّة ، وقد قبل علىّ عليه السلام هدايا جماعةٍ من أصحابه ، ودعاه بعضُ مَنْ كان يأنس إليه إلى حَلْوَاء عملها يوم نوروز فأكلْ وقال : لم عَمِلْتَ هذا ؟ فقال : لأنه يوم نوروز ، فضحك . وقال : نَوْرِزُوا لنا فى كلّ يوم إن استطعتم .

وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسجاحة الشيمَ على قاعدة عجيبة جميلة ، ولكنه كان ينفر عن قومٍ كان يعلم من حالهم الشنآن له ، وعمّن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين ، وهيهات حتى يلين لِضرْس الماضغ الحجر !

وقال : بملفوفة فى وعائها ، لأنّه كان طبق مغطىّ .

ثم قال : « ومعجونة شَنِئْتُها » ، أى أبغضتها ونفرت عنها . كأنها عجنت بريق الحيّة أو بقيئها ، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من المأكول .

وقال الراوندىّ : وصفها بالطافة فقال : كأنها عُجِنَتْ بريق الحيّة ، وهذا تفسير أبعد من الصحيح .

قوله : « أصِلَةٌ ، أم زكاة أم صدقة ؟ فذلك محرم علينا أهل البيت ! » ، الصّلة : العطيّة لا يراد بها الأجر ، بل يراد وصلة التقرب إلى الموصول ، وأكثر ما تُفْعَل للذّكر والصّيت . والزّكاة : هى ما تجب فى النّصاب من المال .

والصدقة ها هنا هى صدقة التطوّع ، وقد تسمّى الزكاة الواجبة صدقة ، إلّا أنها هنا هى النافلة .

فإن قلت : كيف قال : « فذلك محرّم علينا أهل البيت » ، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ، ولا يحرم عليهم صدقة التطوّع ، ولا قبول الصّلات ؟ قلت : أراد بقوله : « أهل البيت » الأشخاصَ الخمسة : محمدا ، وعليًّا ، وفاطمة ، وحسنا ؛ وحسينا

عليهم السلام،فهؤلاء خاصّة دون غيرهم من بنى هاشم،يحرّم عليهم الصلة وقبول الصدقة،وأمّا غيرهم من بنى هاشم فلا يحرُم عليهم إلّا الزكاة الواجبة خاصّة .

فإن قلت : كيف قلت : إنّ هؤلاء الخمسة يحرُم عليهم قبول الصّلات ، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صِلَة معاوية ؟

قلت : كلاّ لم يقبلا صلته ، ومعاذ الله أن يقبلاها ! وإنما قبلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال ، فإنّ سهم ذوى القربى منصوص عليه فى الكتاب العزيز ، ولهما غير سهم ذوى القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم .

***

قوله : « هبلتك الهَبُول » أى ثكلتك أمّك،والهَبُول التى لها عادة بثكل الولد.

فإن قلت : ماالفرق بين مختبِط ، وذى جِنّة ، ويهجُر ؟

قلت : المختبط:المصروع من غَلَبة الأخلاط السوداويّة أو غيرها عليه،وذو الجِنّة مَنْ به مسٌّ من الشيطان . والذى يهجُر هو الذى يهذِى فى مرض ليس بصرَع كالمحموم والمبرسَم ونحوهما .

وجُلب الشّعيرة ، بضم الجيم : قشرها ، والُجلب والُجلبة أيضا جليدة تعلو الجرح عند البرء ، يقال منه : جلب الجرح يجلِب ويجلُب ، وأجلب الجرح أيضا ، ويقال للجليدة التى تجعل على القتب جُلْبة أيضا .

وتقضَمها بفتح الضاد ، والماضى قَضِم بالكسر .

***

[نبذ من أخبار عَقيل بن أبي طالب]

وعَقيل ، هو عَقِيل بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف ، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمّه وأبيه ، وكان بنو أبي طالب أربعة : طالب ، وهو أسنّ من عَقيل بعشر سنين ، وعَقِيل وهو أسنّ من جعفر بعشر سنين ، وجعفر وهو أسنّ من عليّ بعشر سنين ، وعليّ وهو أصغرهم سِنًّا ، وأعظمهم قَدْراً ، بل وأعظم النّاس بعد ابن عمّه قَدْراً .

وكان أبو طالب يحبّ عقيلاً أكثر من حبّه سائرَ بنيه ، فلذلك قال للنبيّ صلى الله عليه وآله وللعباس حين أتيَاه ليقتسما بَنِيه عامَ المحْل ، فيخفّفا عنه ثِقَلَهم : « دَعُوا لى عَقِيلاً ، وخذوا مَنْ شئتم » ، فأخذ العبّاس جعفراً ، وأخذ محمد صلّى الله عليه وآله عليا عليه السلام .

وكان عَقِيل يكنَى أبا يزيد ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا يزيد ، إنّى أحبّك حُبّين : حبًّا لقرابتك منّى ، وحبًّا لما كنت أعلم من حبّ عمّى إياك » .

أخرِج عَقِيلٌ إلى بدر مكرَهًا كما أخرِج العبّاس ، فأسِرَ وفُدِىَ ، وعاد إلى مكّة ، ثم أقبل مسلماً مهاجرا قبل الحديبية ، وشهد غزاة مُؤْتة مع أخيه جعفر عليه السلام ، وتوفّى فى خلافة معاوية فى سنة خمسين ، وعمره ست وتسعون سنة .

وله دارٌ بالمدينة معروفة ، وخرج إلى العراق ، ثم إلى الشّام ، ثم عاد إلى المدينة ، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئا من حروبه أيّام خلافتـه ، وعرض نفسَه وولده عليه فأعفاه ، ولم يكلّفه حضور الحرب .

وكان أنسَب قريشٍ وأعلمَهم بأيامها ، وكان مبغَضاً إليهم ، لأنه كان يعدّ مساوئهم .

وكانت له طِنْفِسة تطرَحُ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيصلّى عليها ، ويجتمع إليه النـاس فى علم النسب وأيّام العرب ، وكان حينئذ قد ذهب بصرُه ، وكان أسرع النّاس جوابا ؟ وأشدّهم عارضةً .

كان يقال : إنّ فى قريش أربعةً يُتحاكم إليهم فى علم النّسب وأيام قريش ، ويرجع إلى قولهم : عَقِيل بن أبى طالب ، ومَخرَمة بن نَوْفل الزّهرىّ ، وأبو الجهم بن حُذَيفة العدوىّ ، وحويطب بن عبد العُزّى العامرىّ .

واختلف الناس فى عَقِيل ؛ هل التحَق بمعاوية وأمير المؤمنين حىّ ؟ فقال قوم : نعم ، وروَوْا أنّ معاوية قال يوما وعقيل عنده : هذا أبو زيد ، لولا علمه أنّى خيرٌ له من أخيه لمـا أقام عندنا وتركه . فقال عَقِيل : أخى خيرٌ لى فى دينى ، وأنت خيرٌ لى فى دنيـاى ، وقد آثرتُ دنياى ، أسأل الله خاتمة خير .

وقال قوم : إنه لم يَفِدْ إلى مُعاوية إلّا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ واستدلّوا على ذلك بالكتاب الذى كتبه إليه فى آخر خلافته ، والجواب الذى أجابه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم ، وسيأتى ذكره أيضا فى باب كتبه عليه السلام ، وهذا القول هو الأظهر عندى .

***

وروى المدائنى ، قال : قال معاوية يوما لعَقِيل بن أبى طالب : هل مِن حاجة فأقضيها لك ؟ قال : نعم جارية عُرِضت علىّ وأبى أصحابُها أن يبيعوها إلّا بأربعين ألفا ، فأحبّ معاويةُ أن يمازحه فقـال : وما تصنع بجارية قيمتهـا أربعون ألفـا وأنت أعمى تجتزئ بجارية قيمتهـا خمسون درهما ! قال : أرجو أن أطـأها فتلد لى غلاما إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف . فضحك معاوية ؛ وقال : ما زحناك يا أبا يزيد ! وأمر فابتيعت له الجارية

التي أولد منها مُسلماً ، فلما أتت على مسلم ثماني عشرة سنة ـ وقد مات عَقِيل أبوه ـ قال لمعاوية : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ لي أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإني أُعطيتُ بها مائة ألف ، وقد أحببت أن أبيعك إياها ، فادفع إليّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ، ودفع الثمن إليه .

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية : أما بعدُ ، فإنك غررتَ غلاماً من بني هاشم ، فابتعتَ منه أرضا لا يملكها ، فاقبض من الغلام ما دفعتَه إليه ، واردد إلينا أرضَنا .

فبعث معاوية إلى مسلم ، فأخبره ذلك ، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : ارْدُدْ علينا مالنا ، وخذ أرضك ، فإنك بعتَ مالا تملك ، فقال مسلم : أمّا دونَ أن أضربَ رأسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية ضاحكا يضرب برجليه ، فقال : يا بنيّ ، هذا والله كلام قاله لي أبوك حين ابتعتُ له أمك .

ثم كتب إلى الحسين : إني قد رددت عليكم الأرض ، وسوّغتُ مسلما ما أخذ . فقال الحسين عليه السلام : أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرَما !

***

وقال معاوية لعَقِيل : يا أبا يزيد ، أين يكون عمّك أبولهب اليوم ؟ قال : إذا دخلت جهنم ، فاطلبه تجده مضاجعا لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية .

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة : يابني هاشم ، لايحبّكم قلبي أبدا ، أين عمّي؟ أين أخي ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ، ترى آنافهم الماء قبل شفاههم ، قال : إذا دخلت جهنم ، فخذي على شمالك .

سأل معاوية عَقيلا عن قصّة الحديدة المحمّاة المذكورة ، فبكى وقال : أنا أحدّثك يامعاوية عنه ، ثم أحدّثك عمّا سألت ، نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهما اشترى به خبزا ، واحتاج إلى الإدام فطلب من قَنبر خادمهم ، أن يفتح له زِقّا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلا ، فلمّا طلبها عليه السلام ليقسمها ، قال : ياقنبر ، أظنّ أنه حدث بهذا الزقّ حدث ! فأخبره ، فغضب عليه السلام ، وقال : علىّ بحسين افرفع عليه الدّرة ، فقال : بحقّ عمّى جعفر — وكان إذا سئل بحقّ جعفر سَكن — فقال له : ماحملك أنْ أخذت منه قبل القسمة ؟ قال : إنّ لنا فيه حقا ، فإذا أعطيناه رددناه ، قال : فداك أبوك ! وإن كان لك فيه حقّ ، فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم ! أما لولا أنى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّل ثنيّتك لأوجعتُك ضربا . ثم دفع إلى قنبر درهما كان مصرورا فى ردائه ، وقال : اشترِ به خير عسلٍ تقدر عليه .

قال عقيل : والله لكأنى أنظر إلى يدى علىّ ، وهى عَلَى فم الزّق ، وقنبر يقلِب العسل فيه ، ثم شدّه وجعل يبكى ، ويقول : اللهمّ اغفِرْ لحسين فإنه لم يعلم !

فقال معاوية : ذكرتَ من لا ينكر فضله ، رحم الله أبا حسن ، فلقد سبق مَنْ كان قبله ، وأعجز مَنْ يأتى بعده ! هلمّ حديث الحديدة .

قال : نعم ؛ أقويت وأصابتنى مخمصة شديدة ، فسألته فلم تندَ صَفاتُه ، فجمعت صبيانى وجئته بهم ، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم ، فقال : ائتنى عشيةً لأدفع إليك شيئا، فجئته يقودنى أحد ولدى ، فأمره بالتنحّى ، ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت — حريصاً قد غلبنى الجشع ، أظنها صرّة — فوضعتُ يدى عَلَى حديدة تلتهب نارا ، فلمّا قبضتها نبذتها ، وخُرت كما يخور الثور تحت يد جازره ، فقال لى : ثكلتك أمّك ! هذا من حديدة

أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبي غداً إن سُلِكنا في سلاسل جهنم ! ثم قرأ :
﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾[1] .

ثم قال : ليس لك عندي فوق حقِّك الذي فرضه الله لك إلاّ ماترى ، فانصرف إلى أهلك .

فجعل معاوية يتعجّب ، ويقول : هيهات هيهات ! عَقِمت النساء أن يلدْنَ مثله !

(١) سورة غافر ٧١ .

(٢٢٠)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللهمّ صُنْ وَجْهِي بِاليَسارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالإقْتَارِ ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي ، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي ، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

* * *

الشرح :

صُنْ وجهي باليسار ، أي استره بأن ترزقني يَساراً وثروة ، أستغني بهما عن مسألة الناس .

ولا تبذل جاهي بالإقتار ، أي لا تسقط مروءتي وحرمتي بين النّاس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفّف الناس .

* * *

وروى أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقّت حالُه في آخر عمره ، لأنّ عبد الملك جفاهُ ، فراح يوما إلى الجمعة ، فدعا فقال : اللهمّ إنك عوّدْتني عادة جريتُ عليها ، فإن كان ذلك قد انقضى ، فاقبضني إليك . فلم يلحق الجمعة الأخرى .

وكان الحسنُ بن علىّ عليه السلام يدعو فيقول : « اللهمّ وسّعْ علىّ فإنه لا يسعني إلّا الكثير » .

* * *

قوله: « فأسترزقَ » منصوب لأنه جواب الدعاء ، كقولهم: ارزقني بعيرا فأحجَّ عليه. بيّن عليه السلام كيفية تبذّل جاهه بالإقتار ، وفسّره فقال : بأن أطلب الرزق ممّن يطلب منك الرزق .

وأستعطف الأشرار من النّاس ، أى أطلب عاطفتهم وإفضالهم ، ويلزم من ذلك أمران محذوران :

أحدهما أن أبتلى بحمد المعطى .

والآخر أن أفتتن بذمّ المانع .

قوله عليه السلام : « وأنت من وراء ذلك كلّه » مثل يقال للمحيط بالأمر ، القاهر له ، القادر عليه ، كما تقول للملك العظيم : هو من وراء وزرائه وكتّابه ، أى مستعدّ متهيّئ لتتبّعهم وتعقّبهم ، واعتبار حركاتهم ، لإحاطته بها وإشرافه عليها .

وولىّ ، مرفوع بأنّه خبر المبتدأ ، ويكون خبراً بعد خبر ، ويجوز أن يكون « ولىّ » هو الخبر ، ويكون « من وراء ذلك » ، جملة مركّبة من جار ومجرور منصوبة الموضع ؛ لأنّه حال .

(٢٢١)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لاتَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا . أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالأَمَانُ مِنْهَا[1] مَعْدُومٌ ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا ، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَعْمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ آثَارًا ؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً ، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ ؛ الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا ، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ ؛ وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ ، وَدُنُوِّ الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى ، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى !

وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ .

فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ

(١) ب : « فيها » .

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [1] .

***

الشرح :

بالبلاء محفوفة : قد أحاط بها من كلّ جانب.

وتارات : جمع تارة ، وهي المرّة الواحدة . ومتصرّفة : منتقلة متحوّلة .

ومستهدِفة بكسر الدال: منتصبة مهيّأة للرمى،وروى : « مستهدَفة » بفتح الدال على المفعولية ، كأنها قد استهدفها غيرُها ، أى جعلها أهدافا .

ورياحهم راكدة : ساكنة . وآثارهم عافية : مندرسة .

والقصور المشيّدة . العالية ، ومن روى : « المَشِيدة » بالتخفيف وكسر الشين،فمعناه المعمولة بالشِّيد ، وهو الجِص .

والنمارق : الوسائد .

والقبور المُلْحَدَة : ذوات اللحود .

وروى : « والأحجار المسنّدة » بالتشديد .

قوله عليه السلام : « قد بُنِي على الخراب فناؤها »؛أى بنيت لالتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدنيا .

والكلاكل : الصدر ؛ وهو هاهنا استعارة .

والجنادل : الحجارة . وبعثرت القبور : أثيرت .

وتبلو كلّ نفس ما أسلفت : تخبر وتعلم جزاء أعمالها ، وفيه حذف مضاف ، ومن

---

(١) سورة يونس ٣٠ .

قرأ : «تتلو» بالتاء بنقطتين ، أى تقرأ كلّ نفس كتابها . وضلّ عنهم ما كانوا يفترون: بطل عنهم ما كانوا يدّعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء .

* * *

[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة فى ذم الدنيا]

ومن كلام بعض البلغاء فى ذم الدنيا : أمّا بعد ،فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرّفها ، وانبأت عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها ، ودلت على عوراتها بتغيّر حالاتها ، ونطقت ألسنةُ العِبَر فيها بزوالها ، وشهد اختلافُ شئونها على فنائها،ولم يبق لمرتاب فيها ريب ، ولا ناظر فى عواقبها شكّ ، بل عرَفها جلُّ مَنْ عرفها معرفة يقين ، وكشفوها أوضح تكشيف ، ثم اختلجتهم الأهواء عن منافع العلم ، ودلّتهم الآمال بغرور ، فلجّجت بهم فى غمرات العجز ، فسبحوا فى بحورها موقنين بالهلكة ، ورتعوا فى عِراصها عارفين بالخدْعة ، فكان يقينهم شكاً ، وعلمهم جهلا ، لا بالعلم انتفعوا ، ولا بما عاينوا اعتبروا . قلوبهم عالمة جاهلة ، وأبدانهم شاهدة غائبة ، حتى طرقتهم المنيّة ، فأعجلتهم عن الأمنيّة ، فبغتَتْهم القيامة ، وأورثتهم الندامة ، وكذلك الهوى حلَت مذاقتُه ، وممّت عاقبتُه ، والأمل يُنْسَى طويلا ، ويأخذ وشيكا ،فانتفع امرؤ بعلمه ، وجاهد هواه أن يضلّه ،وجانب أمله أن يغرّه ، وقَوِيَ يقينه على العمل ، ونفى عنه الشكّ بقطع الأمل ، فإنّ الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صرَعاه ، وإذا تعاونا على ذى غفلة خدعاه ، فصريعهما لا ينهض سالما، وخديعهما لا يزال نادما ، والقوىّ مَنْ قوِىَ عليهما ، والحازم من احترس منهما . ألبسنا الله وإيا كم جُنّة السلامة ، ووقانا وإيا كم سوء العذاب !

* * *

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾[1] .

قال منصور بن عمّار لأهل مجلسه : ماأرى إساءة تكبُرُ على عفو الله فلا تيأس ، وربما آخذ اللهُ على الصّغير فلا تأمن ، وقد علمتَ أنك بطول عفو الله عنك عمّرت مجالس الاغترار به ، ورضيت لنفسك المقام على سخطه ، ولو كنت تعاقِبُ نفسك بقدر تجاوُزه عن سيئاتك ، مااستمرّ بك لجاج فيما نُهيتَ عنه ، ولا قصرت دون المبالغة فيه ، ولكنك رهين غفلتك ، وأسير حَيْرتك .

* * *

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب : قدم علينا بعبّادان راهبٌ من الشام، ونزل ديرابن أبي كَبْشة، فذكروا حكمة كلامه، فحملني ذلك على لقائه ، فأتيته وهو يقول : إن لله عباداً سمَتْ بهم همَمُهم فهووا عظيم الذخائر ، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقا يُبلغهم سُمُوّ الهمم فإن استطعتم أيّهـا المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعضِ أمرهم ، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبَهم ، فلم تجد الدنيا فيها ملبساً ، فالحزن بثهم ، والدمع راحتهم ، والدءوب وسيلتُهم ، وحسن الظنّ قربانهم ، يحزنون بطول المكث فى الدنيا إذا فرح أهلها ، فهم فيها مسجونون ، وإلى الآخرة منطلقون .

فما سمعت موعظة كانت أنفعَ لى منها .

* * *

ومن جيد شعر أبى نواس فى الزهد[2] :

يابنى النَّقصِ والغِيَرْ ... وبنى الضَّعفِ والخوَرْ
وبنى البُعدِ فى الطِّبا ... ع على القُربِ فى الصُّوَرْ

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) ديوانه ١٩٥ .

والشُّكول الَّتِي تبـــا   ينُ في الطُّول والقِصَرْ
أينَ مَنْ كانَ قَبلَكُمْ   مِنْ ذَوِي البـأسِ والخطَرْ
سائِلوا عنهمُ المـــدَا   ئِنَ واستبحثُوا الخبرْ
سبقونا إلى الرَّحيـــلِ   وإنَّا بالأَثَرْ
مَنْ مَضَى عِبْرَةٌ لَنَا   وَغَداً نَحْنُ مُعْتَبَرْ
إنّ للموت أخـــذَةً   تسبـــق اللّمح بالبَصَرْ
فكأنِّي بكم غَـــداً   في ثيابٍ من المَـــدَرْ
قد نُقِلْتُمْ من القصُو   رِ إلى ظُلْمَةِ الحُفَرْ
حيث لا تضرب القِبا   بُ عليكم ولا الحُجَرْ
حيث لا تطربون منـــ   ـه لِلَهوٍ ولا سَمَرْ [1]
رحِـــمَ الله مسلماً   ذَكر الموت فازدَجرْ !
رحِـــمَ الله مؤمناً   خاف فاستشعر الحذَرْ !

* * *

ومن جيّد شعر الرضيّ أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها [2] :

وهل نحن إلا مرامي السِّها   م يحفزها نابلٌ دائبُ [3]
نُسَرُّ إذا جازنـــا طائشٌ   ونجزعُ إنْ مسَّنا صـــائبُ
ففي يومِنا قَدَرٌ لابـــدٌ   وعنـــد غدٍ قَدَرٌ واثِبُ [4]

---

(١) رواية الديوان :

حيثُ لا تظهرون فيـ   ـهِ لِلَهوٍ ولا سَمَرْ

(٢) ديوانه لوحة ٧١١ ، من قصيدة يرثي فيها عميد الجيوش أبا عليّ الحسن بن جعفر .
(٣) النابل : صاحب النبل . والدائب : المجد .
(٤) لابد : مقيم .

طرائد تطردُهــا النائبات ولا بدَّ أنْ يدركَ الطالِبُ
أرى المرء بفعل فعل الحديــــد وهْو غداً حَمَأٌ لازبُ(١)
عواريُّ من سَلَبِ المالـكينَ يمدّ يداً نحوهـــا السالبُ
لنا بالردى موعــــد صادقٌ ونيل المُنَى موعــدٌ كاذبُ
حبائــــلُ للدهرِ مبثوثةٌ يُرَدّ إلى جذبِهَا الهـــاربُ
وكيف نجـــاوِز غاياتِنا وقد بلغ المَوردَ القاربُ(٢)
نصبّح بالـكأسِ مجدحةً(٣) ذُعافاً ، ولا يعلم الشاربُ(٤)

***

وقال أيضا ، وهي من محاسن شعره :

ما أقلَّ اعتبارنَا بالزَّمَانِ وأشدَّ اغترارنا بالأماني !(٥)
وقفاتٌ على غرورٍ ، وإقدا م على مُزْلِقٍ من الحدَثَانِ
في حروب مع الردى فكأنا اليـ ـومَ في هُدْنَةٍ مع الأزمانِ
وكفانا مذكّراً بالمنـــايا عِلْمُنَا أننا من الحيَوانِ
كلَّ يوم رزيئةٌ بفـــلانٍ ووقوعٌ من الرَّدَى بفلانِ
كم تراني أضِـلُّ نفساً وألهو فـكأنّي وثقتُ بالوجدان
قل لهذي الموامل استوفِقِي السَّيْــ ـر أو استنشِدِي عن الأعطانِ
واستقيمي قد ضمّكِ اللَّقَمُ النَّهْـــج ، وغنّى وراءكِ الحادِيانِ(٦)

---

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . واللازب : الصلب اللازق .
(٢) المورد : مكان ورود الماء . والقارب : الذي يطلب الماء .
(٣) نصبح : نؤتى بها وقت الصبح . ومجدوحة : مخلوطة .
(٤) رواية الديوان :

* ولا علمَ لي أيّنـــا الشاربُ *

(٥) ديوانه لوحة ١٥٥ ، يرثي صديقاً له من بني العباس اسمه أبو عبد الله بن الإمام .
(٦) اللقم : معظم الطريق .

كم محيداً عن الطريق وقد ضـــرّح خَلجُ البُرى وجذب العِرَان
نتقى جازعين من عَـدْوة الدهْـ ـرِ ونرتاع للمنايا الرّوانى
جفلة السِّرب فى الظلام وقد ذُعـ ـذع روعاً من عَـدوة الذُّؤبانِ
ثم ننسى جرحَ الحِمَامِ وإنْ كا ن رغيباً يا قُرْب ذا النسيانِ !
كلّ يوم تزايلٌ مـن خليطٍ بالرّدى ، أو تباعدٌ من دانِ (١)
وسواء مضى بنا القـــدر الجِـــدّ عَجُولاً ، أو ماطل العَصْرانِ

***

وأيضا من هذه القصيدة :

قـد مررنا على الدّيار خُشـوعاً ورأينـا البنـا ، فأينَ البـانى !
وجهِلنا الرُّســومَ ثم عَلِمنا فذكرنا الأوطارَ بالأوطانِ
التفـاتاً إلى القُرون الخَوالِى هل ترى اليوم غـير قرْنٍ فانِ !
أين رب السّدير فالحـيرة البيـــضاء ، أم أين صاحبُ الإيوان !
والسّيوف الحـداد من آل بدرٍ والقنا الصمّ من بنى الرّيّانِ
طردتْهمْ وقائع الدّهر عـن لعـــلع طرد السَّفاف عن نجْرانِ
والمواضى من آل جفنَـة أرْسَى طُنُباً ملكهمْ على الجولانِ
يـكرعون العُقار فى فلق الإبـــريز كَرْع الظِّماء فى الغُدْرانِ (٢)
من أباة اللّعنِ الذين يُحيّو ن بهـا فى معـــاقدِ التيجانِ
تتراءاهمُ الوفود بعيـــداً ضاربين الصُّـــدور بالأذقانِ

---

(١) الخليط : الصديق ، والدانى : القريب
(٢) الفلق : القطعة من الجفان

فى رياضٍ من السّماح حَوالٍ ... وجبال من الحُلوم رِزانِ
ومُ الماء لذّ للناهل الظّمْآن بَرْداً والنّارُ للحيران
كُلُّ مستيقظِ الجنان إذا أظلَمَ ليلُ النّوّامة المِبْطان
يغتدى فى السّباب غيرَ شجاع ... ويُرى فى النّزال غير جبان
مانئت عنهم المنون يداً شو ... كاء أطرافُها من المرّانِ (١)
عَطَفَ الدّهرُ فرْعَهمْ فرآه ... بُعد بعد الذّرا قريب الجانى
وثنتهمْ بعدَ الجماح المنايا ... فى عِنَانِ التّسليم والإذعان
عُطّلت منهم المقارى وباخَتْ ... فى حمامْ مواقِدُ النّيران (٢)
ليس يَبْقى على الزّمانِ جرىء ... فى إباء ، أو عاجز فى هَوَانِ
لا شبوب من الصّوار ولا أعـ ... نق يرعى منابتَ الملْجَانِ
لا ولا خاضب من الرُّبْدِ يغتا ... ل بريَطٍ أحمّ غيرَ يمانِ (٣)
يرتمى وِجهةَ الرئال إذا آ ... نَسَ لون الإظلام والإدجان
وعُقاب اللاعِ تلحم فرْخَيْهَا بإزليقة زلول القِنَانِ
نائلا فى مطامح الجوّ هاتيـ ... لك وذا فى مهابط الغيطان

وهذا شعر فصيح نادر معرق فى العربية .

***

(١) المران : الرماح .
(٢) باخت : خمدت .
(٣) الربط : جمع ربطة .

ومن شعره الجيد أيضا فى ذكر الدنيا ومصائبها (١) :

أو ما رأيتَ وقائعَ الدّهرِ   أفــلا تسىء الظّنّ بالعُمْرِ !

بينــا الفتى كالطَّوْدِ تكنُفُه   هضباته ، والعضب ذى الأثْرِ

يأبَى الدنيــة فى عشيرته   ويجاذِبُ الأيدى على الفَخْرِ

وإذا أشارَ إلى قبـــائله   حُشِدت عليـه بأوجهٍ غُرِّ

يترادفون على الرماح فَهُمْ   سيل يعبُّ وعارضٌ يسرِى

إن نُهْنِهوا زادوا مقاربةً   فـكأنّمــا يُدعَوْنَ بالزَّجْرِ

عــدد النجوم إذا دُعِى بهمُ   يتزاحمون تزَاحُمَ الشّمر

عقــدوا على الجلّى مآزِرَهُمْ   سَبِطى الأنامل طَيِّبِى النّشْرِ

زل الزمانُ بوطء أخمَصِه   ومواطئُ الأقدام للعــثر

نزع الإباء وكان شملته   وأقرّ إقرارا على صُغْرِ

صَـدع الردى ، أعيـا تلاحمه   من ألحم الصدَفين بالقِطْرِ

جر الجيـاد على الوَجَى ومضَى   أممـا يدق السّهل بالوَعْرِ

حتى التقى بالشمس مُغْمَدَةً   فى قَعْر منقطعٍ من البَحْرِ

ثم انثنتْ كَفُّ المنون بهِ   كالضِّغْث بين النّاب والظُّفْرِ

لم تشتجرْ عنـه الرماح ولا   ردّ القضاء بماله الدَّثْرِ

جَمَع الجنود وراءه فـكأنّمـا   لاقتـه وهو مضيّع الظّهْرِ

وبنَى الحصون ممنَّعًا فـكأنّمـا   أمسى بمضيَعـةٍ وما يدرِى

وبرَى المعابل للعدا فـكأنّما   لحمامِه كانَ الّذى يبرِى

***

(١) من قصيدة يرثى بها أبا الحسن عبدالله بن محمد ، ديوانه لوحة ١٣٢ .

إن التوقّي فرط مَنعجزةٍ فدع القضَاء يَقُدّ أو يَفري

وحمى الطعام للبقا وذِي الـــآجال ملء فُروجها تجْرِي

لو كان حفظ النفس ينفعُنا كانَ الطّبيب أحقّ بالعُمْرِ

الموت داء لا دواء له سِيّانِ ما يوبي وما يُمْري

وهذا من حر الـــكلام وفصيحه ونادره ، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة ، وهذا القبس من تلك النار !

(٢٢٢)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

أَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الْآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ؛ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الاسْتِجَارَةِ بِكَ؛ عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

أَللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

أَللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

***

الشرح :

أنست : ضدّ وحشت، والإيناس : ضدّ الإيحاش، وكان القياس أن يقول : إنك آنس المؤنسين، لأن الماضي « أفعل » وإنما الآنسون جمع آنس، وهو الفاعل من أنست بكذا، لامن « آنست »؛ فالرواية الصحيحة، اذن « بأوليائك » أى أنت أكثرهم أنساً بأوليائك وعطفا وتحنّنا عليهم.

وأحضرهم بالكفاية، أى أبلغهم إحضارا لكفاية للتوكّلين عليهم، وأقومهم بذلك

تشاهدهم فى سرائرهم ، أى تطلع على غيبهم، والبصائر: العزائم، نفذت بصيرته فى كذا، أى حقّ عزمه .

وقلوبهم إليك ملهوفة ، أى صارخة مستغيثة .

وفهِهت عن مسألتى، بالكسر: عَيِيت ، والفهّة والفَهاهةُ : العىّ،رجل أفهّ ، ورجل فهّ أيضا ، وامرأة فَهِهة ، قال الشاعر :

فلم تُلفنى فَهّاً ولم تُلفِ حاجتِى ملجلَجةً أبغى لها مَنْ يقيمها [1]

وقد فَهِهْتَ يا رجل فَهَهاً ، أى عييت ، ويقال سفيه فهيه ، وفهه الله ، وخرجت لحاجة فأفهّنى عنها فلان ، أى أنسانيها .

ويروى: «أو عمهت » بالهاء والميم المكسورة، والعَمَه: التحيّر والتردّد، عَمِه الرجل، فهو عَمِه وعامِهٌ والجمع عُمّهٌ ، وأرض عَمْهاء: لا أعلام بها .

والنكر . العجب والبِدْع المبتدع ، ومنه قوله تعالى . ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [2] ؛ أى لم آت بما لم أسبق إليه .

ومثل قوله عليه السلام . « اللهم احمِلْنِى على عفوك ، ولا تحملنى على عَدْلك » قولُ المرْوانية للهاشميّة لما قُتل مروان فى خبرٍ قد اقتصصناه قديماً . ليسعْنا عدْلُكم ، قالت الهاشمية . إذنْ لا نُبقِى منكم أحداً ، لأنكم حاربتم عليا عليه السلام ، وسَممتم الحسن عليه السلام ، وقتلتم الحسين وزيدا وابنه ، وضربتم علىّ بن عبد الله ، وخنقتم إبراهيم الإمام فى جراب النورة .

قالت . قد يسعنا عفوكم ، قالت . أما هذا فنعم .

---

(١) الصحاح ١٢٤٥ من غير نسبة .
(٢) سورة الأحقاف ٩ .

[أدعية فصيحة من كلام أبي حيان التوحيدي]

ومن الدعوات الفصيحة المستحسَنة فصولٌ من كلام أبي حيان التوحيديّ نقلتها .

فمنها : اللهمّ إنّى أبرأ من الثقة إلّا بك ، ومن الأمل إلّا فيك ، ومن التسليم إلّا لك ، ومن التفويض إلّا إليك ، ومن التوكُّل إلّا عليك ، ومن الطلب إلّا منك ، ومن الرّضا إلّا عنك ، ومن الذلّ إلا فى طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعلَ الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكرَ على نعمك شعارِى ودثارى ، والنظَر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشُغلى ، والخوف منك أمْنِي وإيمانى ، واللِّياذَ بذكرك بهجتِى وسرورى .

اللهمّ تتابع برُّك ، واتّصل خيرُك ، وعَظُم رِفْدُك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدُك ، وبرّ قسَمُك ، وعمّت فواضلك ، وتمّت نوافلك ، ولم تبق حاجةٌ إلّا وقد قضيتَها ، أو تكفّلْتَ بقضائها ، فاختِم ذلك كلّه بالرضا والمغفرة ؛ إنّك أهلُ ذلك ، والقادر عليه ، والمليّ به .

* * *

ومنها : اللهمّ إنى أسألُك خفايا لطفك ، وفواتحَ توفيقك ، ومألوفَ برّك ، وعوائد إحسانك ، وجاه المقدّسين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفَين من رسلك ، ومكاثرة الأولياء من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك .

وأسألك القناعة برزقك ، والرّضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والوَرَع فى شبهاتك والقيامَ بحجتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليمَ لما أخفيت ، والإقبالَ على ما أمرت ، والوقوف عمّا زجرت ، حتى أتّخذ الحقّ حجة عندما خَفّ وثقل ، والصدق سنّة فيما عَسُر وَسُهل ، وحتى أرى أنّ شعار الزهد أعزّ شعار ، ومنظر الباطل أشوه منظر ،

فأتبختَرَ فى ملكوتك بفضفاض الرداء بالدّعاء إليك ، وأبلغَ الغاية القصوى بين خلْقك بالثناء عليك .

* * *

ومنها : اللهمّ إليك أرفع مُجْرِى ومُجْرِى ، وبك أستعين فى عُسْرِى ويُسرى ، وإيّاك أدعو رَغَباً ورَهَباً ، فإنّك العالم بتسويل النّفْس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ، وصرْف الدهر ، وتلون الصديق ، وبائقة الثّقة ، وقنوط القلب ، وضعف المُنّة ، وسوء الجزَع .

فقِنى اللّهم ذلك كلّه ، واجمع من أمرى شمله ، وانظِمْ من شأنى شتيتَه، واحرُسْنى عند الغنى من البَطَر ، وعند الفقر من الضّجَر ، وعند الكفاية من الغَفْلَة ، وعند الحاجة من الحسْرة ، وعند الراحة من الفسُولة ، وعند الطّلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان، وعند البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التّهمة لك .

وأسألك أن تجعل صدرى خِزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خَدَم طاعتك ؛ فإنه لا عزّ إلا فى الذلّ لك ، ولا غنَى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمْنَ إلا فى الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القَلَق نحوك ، ولا رَوح إلا فى الكرْب لوجهك ، ولا ثقةَ إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقَسْمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك .

* * *

ومنها : اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ؛ صلّ على محمد نبيّك نبى الرحمة، وقائد الأمّة ، وإمام الأئمة ، واحرس علىّ إيمانى بك بالتسليم لك، وخفف عنّى مؤنة الصبر على امتحانك ، وواصل لى أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقيّة عمرى فى غنًى عن خلقك ، ورضا بالمقدّم من رزقك .

اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفْت الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا، فإنك قلت: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا؛ وغلّ صدورنا؛ وفتنةَ أنفسنا، وطموحَ أبصارنا، ورفَث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفُحْش لجاجنا ، وقبح دعوانا، ونَتْن أشرارنا، وخُبْث أخيارنا ، وتلزّق ظاهرنا ، وتمزّق باطننا .

اللهم فارحمنا ، وارأفْ بنا ، واعطف علينا ، وأحسِن إلينا، وتجاوز عنّا، واقبل الميسورَ منّا ، فإنّنا أهلُ عقوبة ، وأنت أهل مغفرة ، وأنتَ بما وصفت به نفسَك أحقّ منّا بما وَسَمْنا به أنفسنا ، فإن فى ذلك ما اقترن بكرَمِك ، وأدّى إلى عفوك . ومن قبل ذلك وبعده ، فأَطِبْ عيشنا بنعمتك ، وأرحْ أرواحَنا من كدّ الأمل فى خلقك ، وخذ بأزمّتنا إلى بابك ، وألْهِ قلوبنا عن هذه الدار الفانية ، وازرع فيها محبّة الدار الباقية ، وقلّبنا على بساط لطفك ، وحُثّنا بالإحسان إلى كنَفك ، ورفِّهنا عن التماس ماعند غيرك ، واغضض عيونَنا عن ملاحظة ماحُجِب من غيرك ، وصِلْ بيننا وبين الرّضا عنك ، وارفع عناءونة العَرْض عليك ، وخفّف علينا كلّ ما أوصلنا إليك ، وأذِقْنا حَلاوة قُربك ، واكشف عن سرائرنا سواتر حُجُبك ، ووكّل بنا الحَفَظة ، وارزقنا اليَقَظة ، حتى لا نقترف سيّئة ، ولا نفارق حسنة ، إنّك قائم على كلّ نفس بما كسبت ، وأنت بما نخفى ومانعلن خبير بصير .

* * *

ومنها : اللهمّ أنت الحىّ القيّوم ، والأوّل الدائم ، والإله القديم ، والبارئ المصوّر، والخالق المقدّس ، والجبّار الرفيع ، والقهّار المنيع ، والملك الصَّفُوح ، والوهّاب المَنُوح ،

(١) سورة الأنعام ٤٥ .

والرحمن الرءوف ، والحنّان العطوف ، والمنّان اللطيف ، مالك الذوائب والنّواصي، وحافظ الأداني والأقاصي ، ومصرّف المطيع والعاصي .

اللهمّ أنت الظّاهر الذي لا يجحدك جاحد إلا زايلته الطّمأنينة ، وأسلمه اليأس ، وأوحشه القُنوط ، ورحلتْ عنه العِصْمة ، وتردّد بين رجاء قد نأى عنه التّوفيق، وأمل قد حفّت به الخيبة ، وطمع يحوم على أرجاء التكذيب ، وسرّ قد أطاف به الشّقاء ، وعلانية قد أناف عليها البلاء ، موهون المُنّة ، منسوخ العقدة ، مسلوب العدّة ، تشنؤه العين ، وتقليه النفس ، عَقْلُه عقلُ طائر ، ولبّه لُبٌّ حائر وحكمه حكم جائر ، لا يروم قرارا إلا أزعج عنه ، ولا يستفتح بابا إلا أرتِج دونه ، ولا يقتبس ضَرَماً إلا أجّج عليه ،عثرتُه موصولة بالعَثْرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة ، إن سمع زيّف ، وإن قال حرّف ، وإن قضى خرّف ، وإن احتجّ زخرف ، ولَوْ فاء إلى الحقّ لوجد ظلّه ظليلا ، وأصاب تحته مثوّى ومقيلا ،

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم ، ولا يحوم على حقيقتك حائم ، إلا غشيَه من نور إلٰهيّتك ، وعزّ سلطانك ، وعجيب قدرتك ، وباهر برهانك ، وغرائب غيوبك ، وخفيّ شأنك ، ومخوف سطوتك ، ومرجوّ إحسانك ، مايردّه خاسئا من مزحزَحه عن الغاية ، خجِلا مَبْهوراً ، ويردّه إلى عجزه ، ملتحفاً بالندم ، مرتديا بالاستكانة ،راجعاً إلى الصَّغار ، موقوفاً مع الذلّة . فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطرار، وباطنك يحيّر فيك لسعة فضاء الاعتبار ، وفعلك يدلّ عليك الأسماع والأبصار ، وحكمتك تعجب منك الألباب والأسرار . لك السلطان والمملكة ، وبيدك النّجاة والمهلكة ، فإليك المفرّ ، ومعك المقرّ ، ومنك صنوف الإحسان والبر ، أسألك بأصحّ سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة، وأتمّ إخلاص، وأشرف همّة ، وأفضل نيّة ، وأطهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تصدّ عنّي

كلّ مايصدّ عنك ،وتصلنى بكلّ مايصل بك ، وتحبّب إلىّ كلّ مايحبّب إليك ، فإنك الأوّل والثانى ، والمشار إليه فى جميع المعانى ، لا إله إلا أنت .

* * *

ومنها : اللهمّ إنى أسألك جدًّا مقرونا بالتوفيق ، وعلماً بريئا من الجهل ،وعملا عريًّا من الرياء ، وقولًا موشّحا بالصواب، وحالًا دائرة مع الحقّ ، وفطنةَ عقل مضروبة فى سلامة صدور ، وراحةَ جسم راجعةً إلى روح بال ، وسكونَ نفس موصولا بثبات يقين ، وصحّة حجّةٍ بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولةً بالأمثل فالأمثل ؛ وعاقبتى عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ؛ من حياة طيّبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلّغ إليه .

اللهم لا تخيّب رجاء هو منوطٌ بك ، ولا تُصفِرْ كفًّا هى ممدودة إليك، ولا تعذّب عيناً فتحتَها بنعمتك ، ولا تذلّ نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلُبْ عقلا هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تُخرس لسانا عوّدته الثناء عليك ، فكما كنت أوّلًا بالتفضّل ، فكن آخراً بالإحسان .

الناصيةُ بيدِك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقَّعٌ منك ، والمصير على كلّ حالٍ إليك .

ألبِسنى فى هذه الحياة البائدة ثوبَ العِصْمة ، وحلِّنى فى تلك الدّار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسى عن طلب العاجلة الزائدة ، وأجرِنى على العادة الفاضلة ، ولا تجعلنى ممّن سها عن باطن مالَك عليه ، بظاهر مالَك عنده ،فالشقىّ مَنْ لم تأخذ بيده ،ولم تؤمّنه من غده،والسعيد من آويته إلى كنَف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقَش فى الحساب، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنّك على ذلك قدير .

* * *

ومنها : اللّهمّ اجعل غدوّنا إليك مقروناً بالتوكّل عليك ، ورواحَنا عنك موصولاً

بالنجاح منك ، وإجابتنا لك راجعةً إلى التهالك فيك ، وذكرَنا إيّاك منوطاً بالسكون معك ، وثقتنا بك هاديةً إلى التفويض إليك ، ولا تخلنا من يدٍ تستوعب الشكر ، ومن شكر يعترى خلف المزيد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين ، وصنع يفوق ذَرْع الطالبين ، حتى نلقاك مبشَّرين بالرّضا ، محكَّمين فى المُنَى ، غير مناقَشين ولا مطرودين .

اللهم أعِذْنا من جَشَع الفقير ، وريبة المنافق ، وتجليح[1] المعاند ، وطيشة المَجُول ، وفَتْرة الكسلان ، وحيلة المستبدّ وفتور العقل[2] ، وحَيْرة المحرج ، وحَسْرة المحوَج ، وفلتة الذُّهول ، وحُرْقة الثُّكول[3] ، ورقّة الخائف ، وطمأنينة المغرور ، وغفلة الغرور .

واكفنا مؤنة أخٍ يرصدُ مسكوناً إليه ، ويمكر موثوقاً به ، ويخيس[4] معتمَداً عليه .

وصل الكفاية بالسَّلْوة عن هذه الدنيا ، واجعل التهافتنا عليها حنيناً إلى دار السلام ، ومحلّ القرار ، وغلّب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان ، واحرسنا من أنفسنا ، فإنّها ينابيعُ الشَّهوة ، ومفاتيح البلوى .

وأرِنا من قُدْرتك مايحفظ علينا هيبتك ، وأوضِحْ لنا من حكمتك ما يقلّبنا فى ملكوتك ، وأسبِغْ علينا من نعمتك مايكون لنا عوناً على طاعتك ، وأشِعْ فى صدورنا من نورك ماتتجلّى به حقائق توحيدك .

واجعل ديدَننا ذكرك ، وعادتنا الشَّوق إليك ، وعلّمنا النُّصح لخلقك ، واجعل غايتنا الاتّصال بك ، واحجبنا عن قول يبرئ من رضاك ، وعَمَل يُعمِي صاحبه عن هداك ، وألّفْ بيننا وبين الحقّ ، وقرّبنا من معادن الصِّدْق ، واعصمنا من بوائق الخلق ، وانقلنا من مضايق الرّقّ ، واهدنا إلى فوائد العِتْق .

اللهم إنّك بدأت بالصُّنْع وأنت أهله ، فعُدْ بالتوفيق فإنّك أهلُه .

---

(١) جلح فى الأمر : ركب رأسه .
(٢) ا : « الفعل » .
(٣) ب : « الثكول » ، وما أثبته من ا .
(٤) يخيس : يغدر .

اللهمّ إنا نتضاءلُ لك عند مشاهدة عظمتك، ونَدِلّ عليك عند تواتر برّك، ونذِلّ لك عند ظهور آياتك، ونلحّ عليك عند علمنا بجودك.

ونسألك من فضلك مالا يرزؤك ولا يتكَاءدك، ونتوسّل إليك بتوحيدٍ لا ينتمي إليه خَلْق، ولا يفارقه حقّ.

ومنها: اللهمّ عليك أتوكّل، وبك أستعين، وفيك أوالي، وبك أنتسب، ومنك أفرَق، ومعك أستأنس، ولك أجِدّ، وإياك أسأل: لسانًا سَمْحًا بالصدق، وصدرًا قد ملئ من الحقّ، وأمَلًا منقطعا عن الخلق، وحالًا مكنونها يبوّئ الجنة، وظاهرها يحقّق المِنّة، وعاقبةً تنسي ما سلف، وتتصل بما يُتمنّى ويُتوكّف.

وأسألك اللهمّ كبدًا رجوفًا خشوعًا، ودَمْعًا نَطُوفًا شوقًا إليك، ونفسًا عزوفًا إذعانًا لك، وسِرًّا ناقعًا ببَرْد الإيمان بك، ونهارا مشتملا على ما كسب من مرضاتك، وليلا مالئًا بما أزلف لديك.

أشكو إليك اللهمّ تلهّفي على ما يفوتني من الدّنيا، وأنّي في طاعة الهوى؛ جاهلًا بحقّك، ساهيا عن واجبك، ناسيًا ما تكرّره من وعظك وإرشادك، وبيانك وتنبيهك حتى كأنّ حلاوة وعدك لم تلج أذني، ولم تباشر فؤادي، وحتى كأنّ مرارة عتابك ولأْمك لم تهتك حجابي، ولم تعرض علىّ أوصابي.

اللهمّ إليك المفرّ من دارٍ منهومُها لا يشبع، وحائمها لا ينقع [1]، وطالبها لا يربع، وواجدها لا يقنع، والعيش عنك رقيق، وللأمل فيك تحقيق.

اللهمّ كما ابتليت بحكمتك الخفيّة التي أشكلت على العقول، وحارت معها البصائر، فعاف برحمتك اللطيفة التي تطاولت إليها الأعناق، وتشوّفت نحوها السرائر، وخذ معنا بالفضل الذي إليك هو منسوب، وعنك هو مطلوب؛ وافطِم نفوسنا من رضاع الدّنيا،

---

(١) الحائم: العطشان. ولا ينقع: لا يروى.

والطف بما أنت له أهلٌ ؛ إنّك على كلّ شيء قدير .

اللهم قُدْنا بأزمّة التوحيد إلى محاضر طاعتك ، واخْلِطنا فى زُمْرة المخلصين لذكرك ، واجعل إجابتَك من قبيل مايتصل بكرم عفْوك ، ولاتجعل خيبتنامن قِبَل جهلنا بقدْرك ، وإضرابنا عن أمرك ؛ فلا سائل أحوجُ منا ، ولا مسئول أجودُ منك .

اللهم احجز بيننا وبين كلّ ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك ببرهانك ، وانقلنا عن مواطن العجز ، مرتقياً بنا إلى شرفات العزّ ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت النفس ، وساءت العادة ، وكثر الصادّون عنك ، وقلّ الداعون إليك ، وذهب المراعون لأمرك ، وفقد الواقفون عند حُدودك ، وخلتْ ديار الحق من سُكّانها ، وبيع دينك بَيْع الخلَق ، واستهزئ بناشر مجدك ، وأُقصيَ المتوسل بك .

اللهم فأعد نضارةَ دينك ، وأفِضْ بين خلقِك بركاتِ إحسانك ، وامدد عليهم ظلّ توفيقك ، واقمع ذوى الاعتراض عليك ، واخسف بالمقتحمين فى دقائق غيبك ، واهتِك أستار المانكين لستْر دينك ، والقارعين أبوابَ سرك ؛ القائسين بينك وبين خلقك .

اللهمّ إنى أسألُك أن تخصّنى بإلهام أقتبس الحق منه ، وتوفيق يصحبنى وأصحبه ، ولطف لا يغيب عنى ولا أغيب عنه ؛ حتى أقول إذا قلت لوجهك ، وأسكت إذا سكت بإذنك ، وأسأل إذا سألتُ بأمرك ، وأبين إذا أبنتُ بحجتك ، وأبعُدُ إذا بعدت بإجلالك ، وأقرُبُ إذا قربت برحمتك ، وأعبُد إذا عبدت مخلصاً لك ، وأموت إذا متّ منتقلا إليك .

اللهمّ فلا تَكِلْنى إلى غيرك ، ولا تؤيّسنى من خيرك .

* * *

ومنها : اللهمّ إنا بك نعزّ كما أنّا بغيرك نذلّ ، وإياك نرجو كما أنّا من غيرك نيأس ، وإليك نفوّض ، كما أنّا من غيرك نعرض ، أذنت لنا فى دعائك ، وأدنيتنا إلى فِنائك ، وهيّأتنا لِعطائك ، وخصصتَنا بحبائك ، ووسمتنا بولائك ، وحمّيتنا بآلائك ، وغمسْتَنا فى نعمائك ، وناغيتَنا بألسُنِ ملكوتك عن دقائق ما فى عالمك ؛ ولاطفتنا بظاهر قولك

وتوليتنا بباطن فعلك ، فسمتْ نحوك أبصارُنا ، وشامت بروق جودك بصائرُنا، فلمّا استقرّ ما بيننا وبينك ، أرسلت علينا سماء فضلك مدرارا ، وفتحت لنا منّا أسماعا وأبصارا، فرأينا ماطاح معه تحصيلنا ، وسمعنا مافارقنا عنده تفضيلنا ، فلمّا صِرْنا إلى خلقك من ذلك ذَرْوا[1]، اتخذونا من أجله لعبا وهزوا فبقدرتك على بلوانا بهم ، أرِنا بك الغِنَى عنهم .

اللهم قَيِّض لنا فرجاً من عندك ، وأتِح لنا مخلَصا إليك ، فإنا قد تعبنا بخلقك ، وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقرب منّا إلى متابعتهم في موافقتك، لأنّه لا طاقةَ لنا بدهائهم ، ولا صَبْرَ لنا على بلوائهم ، ولا حيلةَ لنا في شفائهم ، فنسألك بالضَّراعة التامّة وبالإخلاص المرفود ، إلّا أخذتَ بأيدينا ، وأرسلت رحمتك علينا ، فما أقدرك على الإجابة ، وما أجودك بكل مصون ؛ ياذا الجلال والإكرام !

***

ومنها : اللهمّ إنّا قرُبنا بك فلا تُنئنا عنك ، وظهرنا لك فلا تبطنّا دونك، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعزفنا عن كلّ مالوانا عن بابك ، ووثقنا بكلّ ماوعدتنا في كتابك ، وتوكّلنا بالسرّ والعلَن على لطيف صنعك .

اللهم إليك نظرت العيون فعادت خاسئةً عَبْرَى ، وفيك تقسّمت الظنون فانقلبت يائسة حَسْرى ، وفي قدرتك حارت الأبصار ، وفي حكمتك طاحت البصائر ، وفي آلائك غرِقت الأرواح ، وعلى ما كان منك تقطّعت الأنفاس ، ومن أجلِ إعراضك التهبت الصدور ، ولذكر مامَضى منك هملت الدموع .

اللهم تولّنا فيما ولّيتَنا حتى لا نَتولّى عنك ، وأمِّنّا ممّا خوّفتَنا حتى نقرّ معك ، وأوسِعْنا رحمتك ، حتى نطمئنّ إلى ماوعدتنا في كتابك ، وفرّق بيننا وبين الغلّ حتى لانعامل به خلقك ، وأغنِنا بك حتى لانفتقر إلى عبادك ، فإنّك إذا يسّرت أمرا تيسّر ؛ ومهما بلوتنا فلا تبلُنا بهجرك ، ولا تجرّعنا مرارة سُخطك . قد اعترفنا بربوبيتك

(١) ذروا : طرفاً .

عبوديّة لك ، فعرّفنا حقيقتها بالعفو عنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا ، يارحيم !

* * *

ومنها: اللهم إنّ الرغبات بك منوطة، والوسائل إليك متداركة، والحاجات ببابك مرفوعة، والثقة بك مستحصفة (أى مستحكمة)، والأخبار بجودك شائعة، والآمال نحوك نازعة، والأمانىّ وراءك منقطعة، والثناء عليك متّصل، ووصفك بالكرم معروف، والخلائق إلى لطفك محتاجة، والرجاء فيك قوىّ، والظنون بك جميلة، والأعناق لعزّك خاضعة، والنفوس إلى مواصلتك مشتاقة، والأرواح لعظمتك مبهوتة؛ لأنك لإله العظيم، والربّ الرّحيم، والجوادالكريم، والسميع العليم ، تملك العالم كلّه ، وما بعده وماقبله ، ولك فيه تصاريف القدرة ، وخفيّات الحكمة ، ونوافذ الإرادة ، ولك فيه مالا ندريه ممّا تخفيه ولا تبديه ، جَلّت عن الإجلال ، وعظمت عن التعظيم ، وقد أزف ورودُنا عليك، ووقوفُنا بين يديك ، وظنُّنا ماقدعلمت ، ورجاؤنا ماقد عرفت ، فكن عند ظنّنا بك ، وحقق رجاءنا فيك ، فما خالفناك جرأة عليك ، ولا عصيناك تقحّما فى سخطك ، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك ، ولكن غلبت علينا جواذب الطّينة التى عجنتَنا بها ، وبذور الفِطْرة التى أنبتنا منها ، فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا ، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا ، ولسنا ندّعى حُجّة ، ولكن نسألك رأفة ، فبسترك السّابغ الذّيال ، وفضلك الذى يستوعب كلّ مقال ، إلا تممت ماسلَف منك إلينا ، وعطفتَ بجودك الفيّاض علينا ، وجذبت بأضباعنا ، وأقررت عيوننا ، وحققت آمالنا ؛ إنك أهل ذلك ، وأنت على كل شىء قدير !

* * *

تم الجزء الحادى عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثانى عشر

فهرس الخطب*

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني عشر

عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٧٨ هـ — ١٩٦٧ م)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٢٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

لله بلاد فلان ؛ فَلَقَدْ قوَّمَ الأَوَدَ ، وَدَاوَى الْعَمَدَ ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ ، وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ ! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ ، أَصَابَ خَيْرَهَا ، وَسَبَقَ شَرَّهَا .

أدّى إلى اللهِ طاعته ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ . رحَل وتركَهُمْ فِي طرق مُتَشَعِّبَةٍ ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالّ ، ولا يستيقنُ الْمُهْتَدِي .

* * *

الشرح :

العرب تقول : لله بلادُ فلان ، ولله دَرُّ فُلان ، ولله نادِي فُلَانٍ ، وَلله نائِحُ فلَانٍ ! والمراد بالأول : لِلهِ البِلَادُ الَّتِي أنشأتْهُ وأنبتَتْهُ ، وبالثّاني : لله الثَّدْيُ الذي أرْضَعَهُ وبالثالثِ : لله المجْلِسُ الَّذِي رُبِّيَ فيه ، وبالرابع : لله النَّائِحَةُ الَّتِي تَنُوحُ عَلَيْهِ وتَنْدُبه ! ماذا تَعْهَدُ من محاسِنِه

ويُروى : «لله بلاء فلان » ، أي لله ما صنع ! وفلان المكنِيّ عنه عمر بن الخطّاب؛ وقد وجدتُ النّسخة الّتي بخطّ الرضيّ أبي الحسن جامع "نهج البلاغة" ، وتحت «فلان» «عمر» ،

حدّثنى بذلك نخار بن معدّ الموسوى الأودىّ الشاعر ، وسألتُ عنه النقيب أباجعفر يحيى ابن أبى زيد العلوىّ ، فقال لى : هو عمر ، فقلت له أيُثنى عليه أميرُ المؤمنين عليه السّلام هذا الثناء ؟ فقال : نعم ؛ أمّا الإماميّة فيقولون : إنّ ذلك من التّقيّة واستصلاح أصحابه. وأمّا الصّالحيّون[1] من الزيْديّة فيقولون : إنه أثنى عليه حقّ الثناء ، ولم يضع المدح إلّا فى موضعه ونصابه . وأمّا الجاروديّة[2] من الزيديّة فيقولون : إنّه كلام قاله فى أمر عثمان أخرجه مُخرَجَ الذمّ له ، والتنقّص[3] لأعماله ، كما يُمدَحُ الآن الأميرُ الميّت فى أيام الأمير الحىّ بعده ، فيكون ذلك تعريضاً به .

فقلت له : إلّا أنّه لا يجوز التعريض والاستزادة للحاضر بمدح الماضى ، إلّا إذا كان ذلك المدح صدقًا لا يخالطه ريبٌ ولا شبهة . فإذا اعترف أميرُ المؤمنين بأنّه أقام السنّة ، وذهب نقىّ الثوب ، قليلَ العيب ، وأنّه أدّى إلى الله طاعتَه ، واتّقاه بحقّه ، فهذا غايةُ مايكون من المدح . وفيه إبطالُ قول مَنْ طعن على عثمان بن عفّان .

فلم يجبنى بشىء ، وقال : هو ماقلت لك !

فأمّا الراونديّ ، فإنّه قال فى الشرح : إنّه عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة ، وأنّ الفتنة هى التى وقعت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الاختيار والأثَرة.

وهذا بعيد ؛ لأنّ لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهراً بأنه يمدح والياً ذا رعيّة وسيرة، ألا تراه كيف يقول : « فلقدْ قوّم الأود ، وداوَى العمَد ، وأقام السّنة ، وخلّف الفتنة »!. وكيف يقول : « أصاب خيرها وسبق شرها » ! وكيف يقول : « أدّى إلى الله طاعته »! وكيف يقول : « رَحَل وتركهم فى طرق متشعّبة » !

---

(١) الصالحيون من الزيدية : أصحاب الحسن بن صالح . وانظر آراءهم فى الملل والنحل للشهرستانى ٢ ١٤

(٢) الجارودية من الزيدية ؛ أصحاب أبى الجارود زياد بن أبى زياد . الملل والنحل للشهرستانى ١٤٠

(٣) كذا فى ب ، وفى ا : « النقض » .

وهذا الضّمير ، وهو الهاء والميم فى قوله عليه السلام : « وتركهم » ، هل يصحّ أن يعود إلّا إلى الرعايا ! وهل يسوغُ أن يقال هذا الكلام لسوقة مِنْ عُرْض النـاس ! وكلّ من مات قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله كان سوقةً لا سلطان له ، فلا يصحّ أن يُحمَل هذا الكلام على إرادةِ أحدٍ من الذين قُتِلوا أو ماتوا قبل وفاةِ النبي صلى الله عليه وآله؛ كعثمان بن مظعون، أو مُصعب بن عمير، أو حمزة بن عبد المطلب، أو عبيدة بن الحارث، وغيرهم من الناس . والتأويلاتُ البارِدة الغثّة لا تعجبنى ، على أنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبريّ قد صرح أو كاد يصرّح بأنّ المعنىّ بهذا الكلام عمر ، قال الطبريّ: لما مات عمر بكته النّساء، فقالت إحدى نوادبه : واحَرّاه على عمر ! حزنًا انتشر ، حتى ملأ البشر [1] . وقالت ابنة أبي حثمة : واعمراه ! أقام الأَوَد ، وأبرأ العَمَد ، وأمات الفتن ، وأحيا السّنن . خرج نقيّ الثّوب ، بريئًا من العيب [2] .

قال الطبريّ : فروى صالح بن كيسان ، عن المغيرة بن شعبة [3] ، قال : لمّا دفن عمر أتيتُ عليًّا عليه السلام، وأنا أحبّ أن أسمعَ منه فى عمر شيئا ، فخرج ينفُض رأسه ولحيته، وقد اغتسَل ، وهو ملتحِفٌ بثوب لا يشكّ أنّ الأمر يصير إليـه ، فقال : رحم الله ابن الخطاب ! لقد صدقت ابنةُ أبي حَثْمة: « ذهب بخيرها، ونجا من شرها »، أما والله ما قالت، ولكن قُوّلت ! » .

وهذا كما ترى يقوّى الظنّ ؛ أن المراد والمعنىّ بالكلام إنّما هو عمر بن الخطاب .

* * *

(١) الطبرى : « واحرى على عمر ، حرا انتشر فملأ البشر » . وبعده : وقالت أخرى : « واحرى على عمر ، حرا انتشر حتى شاع فى البشر » .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ : ٢١٨ (طبعة دار المعارف) .

(٣) فى الطبرى : « حدثنى عمر ، قال : حدثنى على ، قال: حدثنا على ، قال : حدثنا ابن دأب وسعيد ابن خالد عن صالح بن كيسان عن المغيرة بن شعبة ... » .

قوله : « فلقد قوّم الأوَد »،أى العِوَج ، أوِد الشىء بالكسر يأوَدُ أوَداً،أى اعوجّ، وتأوّد العود ، يتأوّد .

والعَمَد : انفضاخُ [١] سنام البعير ، ومنه يقال للعاشق : عَمِيد القلب ومعموده .

قوله : « أصاب خيرَها » أى خير الولاية ، وجاء بضميرها ولم يجرِ ذكرها لعادة العرب فى أمثال ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [٢] .

وسبق شرّها،أى مات أو قتل قبل الأحداث والاختلاط الذى جرى بين المسلمين.

قوله : « واتّقاه بحقّه » ، أى بأداء حقه والقيام به .

فإن قلت:وأىّ معنى فى قوله : «واتقاه بأداء حقّه»؟وهل يتقى الإنسان الله بأداء الحقّ! إنما قد تكون التقوى علّة فى أداء الحقّ ، فأما أن يتقى بأدائه فهو غير معقول .

قلت : أراد عليه السلام أنه اتقى الله ، ودلّنا على أنه اتّقى الله بأدائه حقه ، فأداء الحقّ علّة فى علمنا بأنه قد اتّقى الله سبحانه .

ثم ذكر أنّه رَحَل وترك النّاس فى طرق متشعّبة متفرّقة ، فالضالّ لا يهتدى فيها ، والمهتدى لا يعلم أنه على المنهج القويم ، وهذه الصفات إذا تأمّلها المنصِف ، وأماط عن نفسه الهوى ، علم أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَعْنِ بها إلّا عمر ؛ لو لم يكن قد روى لنا توقيفاً ونقلا أنّ المعنىّ بها عمر ، فكيف وقد رويناه عمّن لا يتّهم فى هذا الباب !

***

[نكت من كلام عمر وسيرته وأخلاقه]

ونحن نذكر فى هذا الموضع نُكتا من كلام عمر وسيرته وأخلاقه .

---

(١) انفضخ سنام البعير : انشدخ .

(٢) سورة ص ٣٢ .

أُتِيَ عمرُ بمالٍ ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ياأميرَ المؤمنين ، لو حبستَ من هذا المال فى بيت المال لنائبةٍ تكون ، أو أمرٍ يحدث ! فقال : كلمة ماعرَض بها إلّا شيطان كفانى حُجّتها ، ووقانى فتنتها . أعصِى الله العامَ مخافة قابل ! أعدّ لهم تقوى الله ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَه مَخْرَجاً ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (١) .

* * *

استكتب أبو موسى الأشعرىّ نصرانيًّا ، فكتب إليه عمر : اعزله واستعمل بدلَه حَنيفيًّا، فكتب له أبو موسى: إنّ من غَنائه وخيره وخبرته كَيْت وكَيْت . فكتب له عمر: ليس لنا أنْ نأتمِنَهم ، وقد خوّنهم الله ، ولا أنْ نرفَعَهم وقد وضعهم الله ، ولا أن نستنصِحَهم فى الدّين وقد وتَرهم الإسلام ، ولا أن نعِزّهم وقد أُمِرنا بأن يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

فكتب أبو موسى : إنّ البلد لا يصلح إلّا به . فكتب إليه عمر : مات النصرانىّ والسلام .

* * *

وكتب إلى معاوية : إيّاك والاحتجاب دون الناس ، وائذن للضّعيف ، وأدْنِه حتّى ينبسط لسانه ، ويجترئ قلبه ، وتعهّد الغريب (٢) ، فإنه إذا طال حبسه ودام إذنه، ضعُف قلبُه ، وترك حقّه .

* * *

عزل عمر زياداً عن كتابة أبى موسى الأشعرىّ فى بعض قَدَماته عليه ، فقال له : عن عَجْزٍ أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن واحدةٍ منهما، ولكنّى أكره أن أحمِل على العامّة فضلَ عقلك .

---

(١) سورة الطلاق ٣ .

(٢) ب : « القريب » .

وقال : إنّي والله لا أدعُ حقا لله لشكاية تظهر، ولا لضِبٍ يحتمل ، ولا لمحاباة لبَشر. وإنّك والله ماعاقبتَ مَنْ عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

* * *

وكتب إلى سعد بن أبي وقّاص : ياسعد سعد بنى أُهَيب ! إنّ الله إذا أحبّ عبداً حبّبه إلى خلقه ، فاعتبرْ منزِلَتك من الله بمنزلتك من الناس . واعلمْ أنّ مالَكَ عند الله مثل مالله عندك .

* * *

وسأل رجلاً عن شيء ، فقال : الله أعلم ، فقال : قد شقِينا إن كنّا لا نعلم أنّ الله أعلم ! إذا سئِل أحدُكم عمّا لا يعلم ، فليقلْ : لا أدرى .

* * *

وقال عبدالملك [على المنبر][1]: أنصفونا يامعشر الرّعية، تريدون منّا سيرةَ أبى بكر وعمر ، ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا سيرة أبى بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كلًّا على كلٍّ .

* * *

ودخل عمرُ على ابنه عبد الله ، فوجد عنده لحما عَبيطا معلّقا[2]،فقال : ماهذا اللحم؟ قال : اشتهيتُ فاشتريت ، فقال : أوَكلّما اشتهيتَ شيئا أكلتَه ! كفى بالمرء سَرَفًا أن أكلَ كلَّ مااشتهاه .

* * *

مرّ عمر على مزبلة ، فتأذّى بريحها أصحابُه ، فقال : هـذه دنياكم التى تحرِصون عليها .

---

(١) من ا

(٢) لحم عبيط : طرى .

ومن كلامه للأحنف: ياأحنف ، مَنْ كثُرضحِكُه قلّت هيبتُه، ومَنْ مَزَح استُخِفَّ به ، ومَنْ أكثر من شيء عرِف به ، ومَنْ كثر كلامه كثر سقطُه ، ومَنْ كثر سقطُه قلَّ حياؤه ، ومن قَلَّ حياؤه قلَّ ورعُه ، ومَنْ قلَّ ورعُه مات قلبه .

وقال لابنه عبد الله : يابنيَّ اتقِ الله يقِكَ ، وأقرِض الله يجزِك ، واشكره يزِدْك . واعلم أنّه لامال لمن لا رِفق له ، ولا جديد لمن لاخَلَق له ، ولا عمل لمن لانيّة له .

* * *

وخطب يوم استخلِف ، فقال : أيّها النّاس ، إنّه ليس فيكم أحدٌ أقوَى عندى من الضّعيف حتى آخذ الحقّ له ، ولا أضعف من القويّ حتّى آخذ الحقّ منه .

وقال لابن عبّاس : ياعبدَ الله ، أنتم أهلُ رسولِ الله وآله وبنو عمّه ، فما تقول مَنع قومكم منكم ؟ قال : لاأدرى علّتها ، والله ماأضمرنا لهم إلّا خيرا . قال : اللّهمّ غَفْراً ، إنّ قومَكم كرهوا أن يجتمع لكم النبوّة والخلافة ، فتذهبوا فى السماء شمخا وبَذخاً ، ولعلكم تقولون : إنّ أبا بكر أوّل مَنْ أخّركم ،أما إنّه لم يقصد ذلك ، ولكن حضرأمرٌ لم يكن بحضرته أحزم ممّا فعل ، ولولا رأى أبى بكر فىّ لجعلَ لكم من الأمر نصيبا ، ولو فعل ماهنّأكم مع قومكم . إنّهم ينظرون إليكم نظرَ الثّور إلى جازره .

* * *

وكان يقول : ليت شعرِى مَتَى أشْفَى من غيظى ! أحين أقدر فيقال لى : لو عفوتَ، أم حين أعجِلُ فيقال: لوصبرت !

* * *

ورأى أعرابيّاً يصلّى صلاة خفيفةً ، فلمّا قضاها قال : اللهمّ زوّجنى الحورَ العِين . فقال له : لقد أسأت النَّقد ، وأعظمتَ الخِطْبة !

وقيل له : كان الناس فى الجاهليّة يدعُون على مَن ظَلَمهم فيُستجاب لهم ، ولسنا نرى

ذلك الآن . قال : لأنّ ذلك كان الحاجزَ بينهم وبين الظلم ، وأمّا الآن فالساعة موعدُهم والساعة أدهى وأمرّ.

* * *

ومن كلامه : مَنْ عرّض نفسه للتّهمة فلا يلومنّ مَنْ أساء به الظنّ ، ومَنْ كتم سرّه كانت الخِيَرة بيده.

ضع أمرَ أخيك على أحْسَنِه ، حتى يأتِيَك منه مايغلِبك ، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملا .

وعليك بإخوان الصِّدْق وكيّسِ أكياسهم ، فإنّهم زينة فى الرخاء ، وعُدّة عند البلاء ، ولا تهاونَنّ بالحَلِف فيهينك الله ، ولا تعترض بما لا يعنيك ، واعتزل عدوّك ، وتحفّظْ من خليلك إلا الأمين ، فإنّ الأمين من الناس لا يعادله شيء ، ولا تصحب الفاجرَ فيعلّمك من فجوره ، ولا تُفْشِ إليه[1] سرّك ، واستشِرْ فى أمرك أهل التقوى ، وكفى بك عيبا أن يبدُوَ لك من أخيك مايخفى عليك من نفسك ، وأن تؤذىَ جليسك بما تأتى مثله .

وقال : ثلاث يُصْفِين لك الوُدّ فى قلب أخيك : أن تبدأه بالسّلام إذا لقيته ، وأنْ تدعُوَه بأحبّ أسمائه إليه ، وأن توسّع له فى المجلس .

وقال : أحبّ أن يكون الرجل فى أهلِه كالصبىّ ، وإذا أُصِيبَ إليه كان رجلا .

* * *

بينا عُمر ذات يوم إذ رأى شابًّا يخطر بيديه ، فيقول: أنا ابنُ بَطْحاء مكةَ كُدَيِّها وكَدَاها[2] . فناداه عمر ، فجاء فقال : إن يكن لك دِينٌ فلك كرم ، وإن يكن لك عقل فلك مروءة ، وإن يكن لك مال فلك شرف ، وإلا فأنت والحمار سواء .

---

(١) ساقطة من ب .

(٢) كُدَى وكَدا : موضعان ، وقيل: هما جبلان بمكة ، وقد قيل : كدأ بالقصر . (اللسان) .

وقال : يامعشَر المهاجرين ، لا تكثروا الدخولَ على أهل الدنيا وأرباب الإمرة والولاية ،فإنهمسخطةٌ للربّ ، وإياكم والبِطنة؛ فإنها مَكسلة عن الصلاة ، ومَفْسدةللجسد، مورّثة للسّقَم ، وإن الله يُبغض الحَبْرَ السّمين ، ولكنْ عليكم بالقصد فى قوتكم ، فإنه أدنى من الإصلاح ، وأبعد من السّرف ، وأقوى على عبادة الله ، ولن يهلِكَ عبد حتى يؤْثر شهوتَه على دينه .

وقال : تعلّمُوا أنّ الطمع فقر ، وأن اليأس غِنًى ، ومن يئس من شىء استغنَى عنه ، والتُّؤَدة فى كلّ شىء خير إلّا ما كان من أمر الآخرة .

وقال : مَن اتقى الله لم يشفِ الله غيظَه ، ومَنْ خاف الله لم يفعل مايريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترَوْن .

وقال: إنّى لأعلم أجودَ الناس ، وأحلم الناس ،أجودُهم مَنْ أعطى مَنْ حَرَمَه ، وأحلمُهم مَنْ عفا عمّن ظلمه .

وكتب إلى ساكنى الأمصار : أمّا بعدُ ، فعلّموا أولادَكم العَوْم[1] والفروسيّة ، ورَوُّوهم ماسار من المثل وحَسُن من الشعر .

وقال : لا تزالُ العربُ أعزّة ماتزعت فى القَوْس ، ونزَتْ[2] فى ظهور الخيل .

وقال وهو يذكر النساء : أكثروا لهنّ من قول : «لا» فإنّ «نعم» مفسدةتغريهنّ على المسألة .

وقال : مابالُ أحدكم يثنِى الوسادة عند امرأة مِعْزبة[3] ، إنّ المرأة لحم على وضَم إلا ماذُبّ عنه .

(١) ب : « العلوم » تصحيف .
(٢) نزت : وثبت .
(٣) المعزبة : المرأة المتزوجة

وكتب إلى أبي موسى : أما بعد ، فإنّ للنّاس نفرةً عن سلطانهم ، فأعوذُ بالله أن يدركَنى وإياك عَمْياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متّبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود؛ واجلس للمظالم ولو ساعة من نهار ، وإذا عرَض لك أمران : أحدُهما لله ، والآخر للدنيا ، فابدأ بعمل الآخرة ، فإنّ الدّنيا تفنى ، والآخرة تبقى . وكن من مال الله عزّ وجلّ على حَذَرٍ ، واخِفْ الفُسّاق ، واجعلهمْ يدا ويدا ، ورجلا ورجلا ، وإذا كانت بين القبائل نائرة[1] يالفلان يالفلان ! فإنّما تلك نجوى الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وتكون دعواهم إلى الله ، وإلى الإسلام . وقد بلغنى أن ضبّة تدعو : يالضَبّة ! وإنى والله أعلم أنّ ضبّة ماساق الله بها خيرا قطّ ، ولا منَع بها من سوء قطّ . فإذا جاءك كتابى هذا فانهكهم[2] ضربا وعقوبة ، حتى يفرّقُوا إن لم يفقهوا ، والصق بغيلان بن خرَشة من بينهم . وَعُدْ مرضَى المسلمين ، واشهد جنائزَهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورَهم بنفسك ، فإنّما أنت رجلٌ منهم ، غير أنّ الله قد جعلك أثقلَهم حملا . وقد بلغنى أنه فشالك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلُها ، فإيّاك ياعبد الله بن قيس أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرّت بواد خصيب ، فلم يكن لها همة إلّا السِّمَن ، وإنّما حتفُها من السّمن لغيرها . واعلم أنّ للعامل مردًّا إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيّته ، وإن أشقَى الناس مَنْ شقيَتْ به نفسه ورعيّته . والسلام .

* * *

وخطب عمر ، فقال : أما بعد ، فإنى أوصِيكم بتقوى الله الّذِى يبقَى ويفنى ماسواه ، والّذى بطاعته ينفع أولياءه ، وبمعصيته يضرّ أعداءه . إنّه ليس لهالك هلك عذر فى تعمّد ضلالة حسبها هدًى ، ولا ترْكِ حقٍّ حسبه ضلالة . قد ثبتت الحجّة ، ووضحَت الطرق ، وانقطع العذر ، ولا حجّة لأحدٍ على الله عزّ وجلّ . ألا إنّ أحقّ ماتعاهد به الراعى

---

(١) النائرة : العداوة والدعوة للشر .

(٢) نهكه : بالغ فى ضربه وعقوبته .

رعيّته أن يتعاهدهم بالّذى لله تعالى عليهم فى وظائف دينهم الذى هداهم به ، وإنّما علينا أنْ نأمرَكم بالّذى أمركم الله بِهِ من طاعته ، وننهاكم عمّا نهاكم الله عنه من معصيته ،وأن نقيم أمر الله فى قريب النّاس وبعيدهم ، ولا نبالى على من قال الحق ، ليتعلّم الجاهل ، ويتّعظ المفرط ؛ ويقتدىَ المقتدى . وقد علمت أنّ أقواماً يتمنّوْن فى أنفسهم ، ويقولون: نحن نصلّى مع المصلّين، ونجاهد مع المجاهدين . ألَا إنّ الإيمان ليس بالتمنّى ولـكنّه بالحقائق. ألَا مَنْ قام على الفرائض ، وسدّد نيّتَه ، واتّقى الله ، فذلـكم الناجى . ومَنْ زاد اجتهادا وجد عندالله مزيدا .

وإنّما المجاهدون الذين جاهدوا أهواءهم ، والجهاد اجتناب المحارم. ألَا إنّ الأمر جِدٌّ، وقد يقاتل أقوام لايريدون إلّا الذِّكْر، وقد يقاتل أقوام لايريدون إلا الأجر ،وإنّالله يرضىَ منكم باليسير ،وأثابكم على اليسير الـكثيرَ .

الوظائف الوظائف ! أدّوها تؤدّكم إلى الجنّـة . والسنّة السّنة ! الزموها تُنْجِـكم من البدْعة .

تعلّموا ولا تَعجزوا ،فإنّ مَنْ عجز تـكلّف؛وإن شرارالأمور محدَثاتها.وإنّالاقتصاد فىالسنّة خيرٌ من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ماتوعَظون به، فإنّ الحرِيبَ من حُرِب[1] دينه ، وإنّ السّعيد مَنْ وعظ بغيره .

وقال : وعليكم بالسّمع والطاعة ، فإنّ اللهقضى لهما بالعزّة، وإياكم والتفرّق والمعصية، فإنّ الله قضى لهما بالذّلة .

أقول قولىهذا وأستغفر اللهالعظيم لى ولـكم .

* * *

بعث سَعد بن أبى وقّاص أيام القادسيّة إلى عمر قَباء كسرى وسيفَه ، ومِنْطقته ،

---

(١) حرب دينه : أى سلب .

وسراويله ، وتاجه ،وقيصه ، وخُفّيه ؛ فنظر عمر في وجوه القوم عنده ، فكان أجسَمهم وأمدّهم قامة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجيّ . فقال : ياسراق، قُمْ فالبس، قال سراقة: طمعت فيه فقمت فلبست ، فقال : أدبِرْ فأدبرت ، وقال : أقبِل ، فأقبلت ، فقال : بَخٍ بَخٍ ! أعرابيٌّ من بني مُدْلج ،عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخُفّاه! ربّ يوم ٍ ياسراقُ لوكان فيه دون هذا من متاع كسرى وآل كسرى لكان شرفاً لك ولقومك . انزِعْ ! فنزعتُ ، فقال : اللهمّ إنك منعت هذا نبيّك ورسولك، وكان أحبّ إليك منّي وأكرم ، ومنعتَه أبا بكر وكان أحبّ إليك منّي وأكرم ؛ ثم أعطيتنيه ، فأعوذ بك أن تكون أعطيتَنيه لتمكر بي . ثم بكى حتى رحِمه من كان عنده .

وقال لعبد الرحمن بن عوف : أقسمتُ عليك لمَا بعته ثم قسمتَه قبل أن تُمسِي ، فما أدركه المساء إلّا وقد بيع وقُسِم ثمنه على المسلمين .

* * *

جيء بتاج كِسْرى إلى عمر ؛ فاستعظم الناس قيمتَه ، للجواهر التي كانت عليه ، فقال: إنّ قوماً أدّوا هذا لأمناء! فقال عليّ عليه السلام: إنّك عَفَفْتَ فعفُّوا؛ ولو رتَعْتَ لرتَعُوا(١) .

* * *

كان عمر يَعُسّ ليلاً ، فنزلت رفقة من التجار بالمصلّى ، فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تحرسهم الليلة من السَّرَق ؟ فباتا يحرُسانهم ، ويصلّيان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبيّ ، فأصغى نحوه ، فطال بكاؤه ، فتوجّه إليه ، فقال لأمّه : اتقي الله وأحسِني إلى صبيّك . ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إلى أمّه ، فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فسمع بكاءه ، فأتى أمّه ، فقال : ويحك ! إني لأراك أمّ سوء ! لا أرى ابنك يقرّ منذ الليلة ! فقالت : ياعبد الله ، لقد آذيتني منذ الليلة ، إني أُريغه

---

(١) يقال : رتع فلان : إذا أكل وشرب ما شاء .

على الفطام فيأبى ؛ قال : ولم ؟ قالت : لأنّ عمر لا يفرض لرضيع ، وإنما يفرض للفطيم ، قال : وكم له ؟ قالت : اثنا عشر شهرا ، قال : ويحك لا تعجليه ! فصلّى الفجر وما يستبين النّاس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلمّا سلّم قال : يابؤسا لعُمَر ! كم قتل من أولاد المسلمين ، فطلب مناديا فنادى : ألا لا تُعجلوا صبيانكم عن الرّضاع ؛ ولا تفطموا قبل أوان الفطام ، فإنّا نفرض لكلّ مولود في الإسلام .

وكتب بذلك إلى سائر الآفاق[1] .

***

مرّ عمر بشابّ من الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاه ، فخاض له عسلًا ، فردّه ولم يشرب وقال : إنّي سمعتُ الله سبحانه ، يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾[2] فقال الفتى : إنّها والله ليست لك ، فاقرأ ياأمير المؤمنين ماقبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أفنحن منهم ! فشرب ، وقال : كلّ النّاس أفقه من عمر !

***

وأوصى عمر حين طعنه أبو لؤلؤة مَنْ يستخلفه المسلمون بعده من أهل الشورى ، فقال : أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ؛ اقبل من محسنهم ، وتجاوزْ عن مسيئهم . وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردء العدوّ ، وجُباة الفيء ، لا تحمل فيئهم إلى غيرهم إلّا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنّهم أصلُ العرب ، ومادّة الإسلام : أنْ يؤخذ من حواشي أموالهم ، فيردّ على فقرائهم ؛ وأوصيك بأهل الذمّة خيرا ، أن تقاتل

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٤٨ .
(٢) سورة الأحقاف ٢٠ .

مِن ورائهم ، ولا تكلّفهم فوق طاقتهم إذا أدّوا ماعليهم للمسلمين طوعا أو عن يدٍ وهم صاغرون .

وأوصيك بتقوى الله ، وشدّة الحَذَر منه ومخافة مقته ؛ أن يطّلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، ولا تخشى النّاس فى الله ، وأوصيك بالعدل فى الرعيّة، والتفرّغ لحوائجهم وثغورهم ، وألّا تمين غنيّهم على فقيرهم ، فإنّ فى ذلك بإذن الله سلامةً لقلبك ، وحطًّا لذنوبك ، وخيراً فى عاقبة أمرك . وأوصيك أن تشتدّ فى أمر الله وفى حدوده، والزّجر عن معاصيه ، على قريب النّاس وبعيدهم ، ولا تأخذْك الرأفة والرحمة فى أحدٍ منهم، حتى تنتهك منه مثل جُرْمه ، واجعل النّاس عندك سواء ، لا تبالِ على مَنْ وجب الحقّ ، لا تأخذك فى الله لومةُ لائم . وإيّاك والأثَرة والمحاباة فيما ولاك الله ممّاأفاء الله على المسلمين ، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسّعه الله عليك ، فإنّك فى منزلة من منازل الدنيا ، وأنت إلى الآخرةِ جدُّ قريب ، فإن صدقت فى دنياك عِفّةً وعدلا فيما بسط لك ، اقترفت رضوانا وإيمانا ، وإن غلبك الهوى ، اقترفت فيه سخط الله ومقته .

وأوصيك ألّا ترخّصَ لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمّة .

واعلم أنّى قد أوصيتُك وخصصتُك ونصحت لك ، أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة، ودللتُك على ما كنتُ دالّا عليه نفسى ، فإنْ عملت بالذى وعظتك ، وانتهيت إلى الذى أمرتُك؛ أخذتَ منه نصيبا وافرا ، وحظا وافياً ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم تعمل ولم تترك معاظم الأمور عند الّذى يرضى الله به سبحانه عنك ، يكن ذاك بك انتقاصا ، ويكن رأيك فيه مدخولا ، فالأهواء مشتركة ، ورأس الخطيئة إبليس الداعى إلى كلّ هَلَكة ، قد أضلّ القرون السالفة قبلك ، وأوردهم النّار ، ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرئٍ من دنياه موالاة عدوّ الله ، الداعى إلى معاصيه !

اركب الحقّ ، وخض إليه الغمراتِ ، وكن واعظا لنفسك .

وأنشدك لما ترحمت إلى جماعة المسلمين ، وأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم . لا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمرهم [1] فى البعوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل الأموال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قويهم ضعيفهم .

هذه وصيتى إياك ؛ وأشهد الله عليك . وأقرأ عليك السلام ، والله على كل شىء شهيد .

* * *

وخطب عمر فقال :

لا يبلغنى أن امرأة تجاوز صداقها صداق زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ارتجعت ذلك منها. فقامت إليه امرأة ، فقالت : والله ماجعل الله ذلك لك ، إنه تعالى يقول : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [2] . فقال : عمر : ألا تعجبون من إمام أخطأ ، وامرأة أصابت ! ناضلت إمامكم فنضلته [3] !

* * *

وكان يعس ليلة ، فمر بدار سمع فيها صوتا ، فارتاب وتسور ، فرأى رجلا عند امرأة وزق خمر ، فقال : ياعدو الله ، أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ! فقال : لا تعجل ياأمير المؤمنين ، إن كنت أخطأت فى واحدة فقد أخطأت فى ثلاث : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [4] وقد تجسست ، وقال : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [5] .

---

(١) جمر الجيش : حبسه فى أرض العدو ولم يقفلهم من الثغر . وفى الحديث : لا تجمروا الجيش فتفتنوهم .

(٢) سورة النساء ٢٠

(٣) نضلته : سبقته وغلبته .

(٤) سورة الحجرات ١٢

(٥) سورة البقرة ١٨٩ .

وقد تسوّرتَ ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا ﴾[١] وماسلّمت . فقال : هل عندك من خير إن عفوتُ عنك ؟ قال : نعم ، والله لا أعود ، فقال : اذهب فقد عفوت عنك .

* * *

وخطب يوما ، فقال : أيّها النّاس، ما الجزع ممّا لابدّ منه ! وما الطّمع فيما لايرجَى! وما الحيلة فيما سيزول ! وإنّما الشيء من أصله،وقد مضت قبلكم الأصول ونحن فروعها، فما بقاء الفرْع بعد ذهاب أصله !

إنما الناس فى هذه الدّنيا أغراضٌ تنتَبِل فيهم المنايا نُصُب المصائب ، فى كلّ جرعة شَرَق ، وفى كلّ أكلةٍ غَصَص ، لا تنالون نعمة إلّا بفراق أخرى ، ولا يستقبِل معمّر من عُمره يوما إلّا بهدم آخر من أجله ، وهم أعوان الحتُوف على أنفسهم ، فأين المهرب مما هو كائن ! ماأصغر المصيبة اليوم، مع عظم الفائدة غدا ! وما أعظم خَيْبة الخائب،وخسران الخاسر ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا مَن أتى الله بقلب سليم ﴾ !

وأكثر النّاس روى هذا الكلام لعليّ عليه السلام ، وقد ذكره صاحب " نهج البلاغة " وشرحناه فيما سبق .

* * *

حُمِل من العراق إلى عمر مالٌ فخرج هو ومولًى له ؛ فنظر إلى الإبل فاستكثرها،فجعل يقول : الحمد لله ؛ يكرّرها ويردّدها ، وجعل مولاه يقول : هذا من فضل الله ورحمته . ويكررها ويرددها .

فقال عمر : كذبْتَ لا أمّ لك ! أظنُّك ذهبت إلى أنّ هـذا هو ماعناه سبحانه ،

---

(١) سورة النور ٦١ .

بقوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ؛ وإنما ذلك الهدى ، أما تسمعه يقول : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [١] ! وهذا مما يجمعون .

***

وروى الأحنف بن قيس ، قال : قدمنا على عمر بفتح عظيم نبشّره به ، فقال : أين نزلتُم ؟ قلنا : فى مكان كذا ، فقام معنا حتّى انتهينا إلى مَنَاخ ركابنا ، وقد أضعَفها الكلال ، وجهَدها السير ، فقال : هلاّ اتقيتم الله فى ركابكم هذه ؟ أمَا علمتم أن لها عليكم حقًّا ! هلّا أرحتُمُوها ؟ هلاّ حللتم بها فأكلتْ من نبات الأرض ! فقلنا : ياأمير المؤمنين ، إنّا قَدِمنا بفتح عظيم ، فأحببنا التسرّع إليك وإلى المسلمين بما يسرّهم .

فانصرف راجعا ونحن معه ، فأتى رجل فقال : ياأميرَ المؤمنين إنّ فلانا ظلمنى ، فأعْدِنى [٢] عليه ، فرفع فى السماء دِرّته ، وضرب بها رأسه ، وقال : تدعُون عمر وهو معرّض لكم ، حتى إذا شغل فى أمر المسلمين أتيتموه : أعْدِنى أعْدِنى ! فانصرف الرّجل يتذمّر ، فقال عمر : علىّ بالرجل ، فجىء به فألقى إليه المخفقة [٣] ، فقال : اقتصّ ، قال : بل أدعه لله ولك ، قال : ليس كذلك ، بل تدعُه إمّا لله وإرادة ماعنده ، وإما تدعُه لى ، قال : أدعُه لله ، قال : انصرف . ثم جاء حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس فقال : يابن الخطاب ، كنتَ وضيعا فرفعك الله ، وكنتَ ضالًا فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزّك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجلٌ يستعديك على مَنْ ظلمه ، فضربتَه ، ماذا تقول لربّك غدا ! فجعل يعاتبُ نفسه معاتبةً ظننت أنه من خير أهل الأرض .

***

---

(١) سورة يونس ٥٨ .
(٢) أعدنى عليه : انصرنى وأعنى .
(٣) المخفقة : الدرة يضرب بها .

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلاّم في " غريب الحديث " أن رجلا أتى عمر يسأله، ويشكو إليه الفقر، فقال: هلكتُ ياأمير المؤمنين، فقال: أهلكتَ وأنت تَنِثُّ نَثِيثَ الحِيت(١)! أعطوه. فأعطوه رُبَعة(٢) من مال الصّدقة، تبِعها ظئراها. ثم أنشأ يحدّث عن نفسه، فقال: لقد رأيتُني وأختاً لي نرعَى على أبوينا ناضحا(٣) لنا، قد ألبستنا أمّنا نُقبتها(٤)، وزوّدتنا يَمنتيها هَبيدا(٥) فنخرج بناضحنا؛ فإذا طلعت الشمس، ألقيت النقبة إلى أختي، وخرجت أسعى عُريانَ، فنرجع إلى أمّنا، وقد جعلت لنا لَفِيتة(٦) من ذلك الهبيد، فياخِصْباه!

***

وروى ابنُ عباس رضي الله عنه، قال: دخلتُ على عُمَر في أول خلافته، وقد أُلقِيَ له صاعٌ من تمر على خَصَفة(٧)، فدعاني إلى الأكل، فأكلت تمرة واحدة، وأقبل يأكل حتّى أتى عليه، ثم شرب من جَرٍّ(٨) كان عنده، واستلقى على مِرْفقةٍ له، وطفق يَحْمَدُ الله يكرر ذلك، ثم قال: من أين جئتَ ياعبدالله؟ قلتُ: من المسجد، قال: كيف خلّفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلّفتُه يلعب مع أترابه، قال: لم أعنِ ذلك، إنّما عنيتُ عظيمكم أهلَ البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغَرْب(٩) على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: ياعبد الله، عليك دماء البُدْن إن كتمتنيها! هل بقيَ في نفسه

---

(١) قال ابن الأثير: نث الزق ينث: إذا رشح مافيه من السمن. أراد: أتهلك وجسدك كأنه يقطر دسماً! والنثيث: أن يرشح ويعرق من كثرة لحمه. ويروى: « تمث » بالميم. والحيت: الزق والنحى.

(٢) الربعة: مؤنث الربع، وهو الفصيل ينتج فى الربيع.

(٣) الناضح: البعير يستقى عليه؛ ثم استعمل فى كل بعير وإن لم يحمل الماء.

(٤) النقبة: ثوب كالإزار، يجعل له حجزة مخيطة. (٥) الهبيد: حب الحنظل.

(٦) اللفيتة: العصيدة المغلظة؛ لأنها تلفت، أى تلوى.

(٧) الخصفة، محركة: الجلة تعمل من الخوص للتمر.

(٨) الجر بفتح الجيم وتشديد الراء: آنية من خزف، الواحدة جرة.

(٩) الغرب: الدلو.

شيء من أمر الخلافة ؟ قلت : نعم ، قال : أيزعم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ عليه ؟ قلت : نعم ، وأزيدك ، سألت أبي عمّا يدّعيه ، فقال : صدق ، فقال عمر : لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره ذَرْوٌ[1] من قول لا يُثبتُ حُجّة ، ولا يقطع عذرا ، ولقد كان يربَع في أمره وقتاً ما ، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقا وحيطة على الإسلام ، لاوربّ هذه البنيّة لاتجتمع عليه قريش أبدا ! ولو وليها لانتقضتْ عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي علمت ما في نفسه ، فأمسك ، وأبى الله إلّا إمضاء ماحتم .

ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه ، مسندا .

* * *

ابتنى أبو سفيان داراً بمكة فأتى أهلها عمر ، فقالوا : إنه قد ضيّق علينا الوادي ، وأسالَ علينا الماء ، فأتاه عمر فقال : خذْ هذا الحجر فضعه هناك ، وارفع هذا واخفِض هذا ، ففعل ، فقال : الحمدُ لله الذي أذلّ أبا سفيان بأبطح مكّة .

* * *

وقال عمر : والله لقد لان قلبي في الله حتى لَهُوَ ألين من الزّبد ، ولقد اشتدّ قلبي في الله حتى لهوَ أشدّ من الحجَر .

* * *

كان عمر إذا أتاه الخصمان برَكَ على ركبتيه وقال : اللهمّ أعنّي عليهما . فإنّ كلًّا منهما يريدني عن ديني .

* * *

---

(١) ذرو : طرف .

وخطب عمر ، فقال : أيها الناس ، إنما كنا نعرفكم والنبيّ صلى الله عليه وآله بين أظهرِنا ، إذ ينزلُ الوحي ، وإذ ينبّئنا الله من أخباركم ، ألا وإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم قد انطلَق، والوحي قد انقطع ، وإنما نعرِفكم بمايبدُو منكم . مَنْ أظهرخيرا ظننّا بهخيرا، وأحببناه عليه ،ومن أظهر شرًّا ظننّا به شرًّا ،وأبغضناه عليه .سرائركم بينكم وبين ربكم . ألا إنّه قد أتى عليّ حينٌ، وأنا أحسب أنه لا يقرأ القرآن أحـدٌ إلّا يريدُ به وجه الله وما عند الله ، وقد خُيّل إليّ بأخَرة ، أنّ رجالًا قد قرءوه يريدون به ماعنـد الناس ، فأريدُوا الله بقراءتكم ، وأريدوا اللهَ بأعمالكم .

ألا وإنّي لا أرسلُ عُمّالي إليكم أيها الناس ليضربُوا أبشاركم ، ولا ليأخـذوا أموالـكم ، ولـكن أرسلُهم إليـكم ليعلّموكم دينَـكم وسنّتكم ، فمن فُعِل به سوى ذلك فليرفعه إليّ لأقتصّ له ، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقتصّ من نفسه .

ألا لاتضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقَهم فتفقروهم ، ولا تُنزلوهم الغِياضَ فتضيّعوهم .

* * *

وقال مرّة : قد أعياني أهلُ الكوفة ، إن استعملت عليهم ليّناً استضعفوه ، وإن استعملتُ عليهم شديداً شكوْه ! ولوددت أنّي وجدْتُ رجلا قويا أمينا أستعمله عليهم .. فقال له رجل : أنا أدلّك ياأميرَ المؤمنين على الرّجل القويّ الأمين ، قال : مَنْ هو ؟ قال: عبد الله بن عمر ، قال : قاتلك الله ! والله ماأردتَ الله بها ، لاها الله ! لاأستعمله عليها ولا على غيرها ، وأنت فقم فاخرج ، فذ الآن لا أسمّيك إلا المنافق . فقام الرجل وخرج.

وكتب إلى سعد بن أبي وقّاص أن شاور طُليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب فإنّ كلّ صانع أعلم بصنعته ، ولا تولّهما من أمر المسلمين شيئا .

* * *

وغضب عمر على بعض عماله ، فكلّم امرأة من نساء عمر في أن تسترضيه له. فكلمته فيه ، فغضب ، وقال : وفيمَ أنت من هذا ياعدوة الله ؟ إنما أنتِ لعبة ناصب بك وتفرّكين[1] .

* * *

ومن كلامه : أشكو إلى الله جَلَد الخائن ، وعجزَ الثقة .

قال عمرو بن ميمون : لقد رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يُصاب بأيام واقفا على حذيفة بن اليمان ، وعثمان بن حنيف ، وهو يقول لهما : أتخافان أن تكونا حمّلتما الأرض مالا تطيقه ؟ فقالا : لا : إنما حمّلناها أمراً هي له مُطيقة ، فأعاد عليهما القول : انظرا أن تكونا حمّلتما الأرض مالا تطيقه ! فقالا : لا ، فقال عمر : إن عشتُ لأدعَنّ أرامل العراق لا يحتجْن بعدى إلى رجل أبدا ، فما أتت عليه رابعة حتى أصيب .

* * *

كان عمر إذا استعمل عاملا كتب عليه كتابا ، وأشهد عليه رهطاً من المسلمين ألّا يركب بِرْذَوناً ، ولا يأكل نَقِيّاً[2] ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللهمّ اشهد .

* * *

واستعمل عمر النعمانَ بن عدىّ بن نضلة على مَيْسان ، فبلغه عنه الشعر الذى قاله ، وهو :

وَمَنْ مبلغ الحسناء أن حَليلَها ... بميسانَ يُسْقَى من زُجاجٍ وحَنْتَمِ ![3]

إذا شئتُ غنّتنى دَهاقينُ قريةٍ ... وصنّاجةٌ تحدُو على كلّ منسِم

---

(١) تفركين : تبغضين .

(٢) النقى : الشحم .

(٣) الحنتم : الجرة الخضراء .

فإن كنتَ ندماني، فبالأكبر اسقِني ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعلّ أميرَ المؤمنين يسوءه تنادُمُنا بالجوسق المتهدّم

فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ * ذِي ٱلطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١) أما بعد ، فقد بلغني قولك :

* لعلّ أمير المؤمنين يسوءه * البيت

وايمُ الله إنه ليسوءني ، فاقدَم فقد عزلتُك .

فلما قدم عليه ، قال : ياأميرَ المؤمنين ، والله ماشربتُها قطّ ، وإنّما هو شعر طَفَح على لساني وإني لشاعر .

فقال عمر : أظنّ ذاك ، ولكن لا تعمل لي على عمل أبدا .

***

استعمل عمر رجلا من قريش على عملٍ ، فبلغه عنه أنّه قال :

اسقِني شَرْبةً تُروّي عِظامي واسقِ بالله مثلَها ابنَ هشامِ

فأشخصه إليه ، وفطِن القرشيّ ، فضم إليه بيتا آخر ، فلما مثل بين يديه ، قال له أنت القائل :

* اسقني شَرْبةً تروّي عظامي *

قال : نعم ياأمير المؤمنين ، فهلّا أبلغك الواشي مابعده ؟ قال : ما الذي بعده ؟ قال :

عسلًا بارداً بماء غمامِ إنني لا أحبُّ شُرْبَ المُدامِ

قال : آللهِ آللهِ ! ثم قال : ارجع إلى عملك .

***

(١) سورة غافر ١ ــ ٣ .

قال عمر : أيّما عامل من عمّالى ظلم أحـداً ، ثم بلغتنى مظلمته ، فلم أغيّرها ، فأنا الذى ظلمته .

* * *

وقال للأحنف بن قيس ، وقد قدم عليه فاحتبسه عنده حولًا : ياأحنف ، إنّى قد خبرتك وبلوتك ، فرأيت علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثلَ علانيتك ، وإن كنّا لنحدّث أنه إنما يُهلك هذه الأمّة كلّ منافق عليم .

* * *

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص : إن « مترس »[1] بالفارسية هو الأمان ، فمن قلتم له ذلك ممن لا يفقهُ لسانكم فقد أمّنتموه .

* * *

وقال لأمير من أمراء الشام : كيف سيرتك ؟ كيف تصنع فى القرآن والأحكام ؟ فأخبره ، فقال : أحسنتَ ، اذهب ، فقد أقررتك على عملك . فلما ولّى رجع فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّى رأيت البارحة رؤيا أقصها عليك ، رأيت الشمس والقمر يقتتلان، ومع كلّ واحد منهما جنود من الكواكب ، فقال : فمع أيّهما كنت ؟ قال : مع القمر ، فقال : قد عزلتك ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[2]

* * *

كان عمر جالسا فى المسجد ، فمرّ به رجل ، فقال : ويل لك ياعمر من النار ! فقال : قرّبوه إلىّ ، فدنا منه ، فقال : لم قلت لى ما قلت ؟ قال : تستعمل عمالك ، وتشترط عليهم

(١) فى الألفاظ الفارسية لأدى شير ١٤٣ : « المتراس : ما يتستر به من حائط ونحوه من العدو ، وخشبة توضع خلف الباب » .
(٢) سورة الإسراء ١٢ .

ثم لا تنظر هل وَفَّوْا لك بشروطِ أم لا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر اشترطت عليه ، فترك ما أمرته به ، وارتكب ما نهيته عنه ، ثم شرح له كثيرا من أمره . فأرسل عمر رجلين من الأنصار ، فقال لهما : انتهيا إليه ، فاسألا عنه ، فإن كان كذب عليه فأعلماني ، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تملّكاه من أمره شيئا حتى تأتيا به ، فذهبا فسألا عنه ، فوجداه قد صدق عليه ، فجاءا إلى بابه ، فاستأذنا عليه ، فقال حاجبه : إنه ليس عليه اليوم إذن ، قالا : ليخرجَنّ إلينا أو لنحرقنّ عليه بابه . وجاء أحدهما بشعلة من نار ، فدخل الآذن ، فأخبره فخرج إليهما ، قالا : إنّا رسولا عمر إليك لتأتيه ، قال : إنّ لنا حاجةً ؛ تمهلانني لأتزوّد ، قالا : إنّه عزم علينا ألّا نمهلك ، فاحتملاه ، فأتيا به عمر ، فلمّا أتاه سلّم عليه فلم يعرفه ، وقال : مَنْ أنت ؟ — وكان رجلا أسمر ، فلمّا أصاب من ريف مصر ابيضّ وسمن — فقال : أنا عاملك على مصر ، أنا فلان ، قال : ويحك ! ركبت ما نُهيتَ عنه ، وتركت ما أُمِرتَ به ! والله لأعاقبنّك عقوبةً أبلغ إليك فيها ، آتوني بكساء من صوف ، وعصا وثلاثمائة شاة من غنم الصدقة ، فقال : البس هذه الدُّرّاعة[1] ، فقد رأيت أباك وهذه خير من دراعته ، وخذ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك ، واذهب بهذه الشياه فارعها في مكان كذا — وذلك في يوم صائف — ولا تمنع السابلة من ألبانها شيئا إلا آل عمر ، فإني لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئا .

فلمّا ذهب ردّه ، وقال : أفهمت ما قلت ! فضرب بنفسه الأرض ، وقال يا أمير المؤمنين ، لا أستطيع هذا ، فإن شئت فاضرب عنقي ، قال : فإن رددتُك فأيّ رجل تكون ؟ قال : والله لا يبلغك بعدها إلّا ما تحبّ . فردّه ، فكان نعم الرجل . وقال عمر : والله

---

(١) الدراعة ، كرمانة : جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف .

لأنزعنّ فلانا من القضاء حتى أستعمل عِوَضه رجلا إذا رآه الفاجرُ فَرِق .

***

وروى عبد الله بن بريدة ، قال : بينا عمر يعسّ ذات ليلة انتهى إلى باب متجافٍ ، وامرأةٍ تغنّي نسوة :

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خَمرٍ فأشْرَبها   أمْ هَل سَبيلٌ إلى نَصْرِ بن حَجّاجِ

فقال عمر : أمّا ماعشت فلا .

فلمّا أصبح دعا نصر بن حجاج — وهو نصر بن الحجاج بن عُلابط البهزيّ السُّلَميّ — فأبصره وهو من أحسن الناس وجهاً، وأصبحهم وأملحهم حسنا ، فأمر أن يُطَمّ[1] شعره، فخرجت جبهته فازداد حسنا ،فقال له عمر :اذهب فاعتمّ ،فاعتمّ فبدت وفرته[2]،فأمر بحلقها فازداد حسنا ، فقال له : فتنت نساء المدينة يابن حجّاج ! لاتجاورني في بلدة أنا مقيمٌ بها ، ثم سيّره إلى البصرة .

فروى الأصمعيّ ، قال : أبرد عمر بريداً إلى عُتبة بن أبي سفيان بالبصرة ، فأقام بها أيّاماً ، ثم نادى منادى عتبة : مَنْ أراد أن يكتُب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً ، فليكتب ، فإنّ بريد المسلمين خارجٌ .

فكتب النّاس ، ودسّ نصر بن حجاج كتاباً فيه :

لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نَصْر بن حجّاج ، سلام عليك ، أمّا بعد ، ياأمير المؤمنين :

لَعَمْري لئن سيَّرْتني أو حرمْتَني   لَما نلتَ من عِرْضِي عليك حَرامُ
أئِنْ غنَّتِ الذّلفاء يوماً بمُنيةٍ   وبعضُ أمانيِّ النّساءِ غَرامُ

---

(١) طم شعره : عقصه .
(٢) الوفرة : ما سأل على الأذنين من الشعر .

ظننتَ بى الظنَّ الذى ليس بعده بقاءٌ فمالى فى النَّدِىِّ كلامُ
وأصبحتُ منفيًّا على غير ريبةٍ وقَدْ كانَ لى بالمكَّتَيْنِ مُقامُ[1]
سيمنعنى مما تظنُّ تكرُّمى وآباء صدقٍ سالفون كِرامُ
ويمنعها مما تمنَّتْ صَلَاتُها وحالٌ لها فى دينها وصِيامُ
فهاتانِ حالَانا فهل أنت راجعٌ فقد جُبَّ مِنِّى كاهِلٌ وسَنامُ[2]

فقال عمر : أمّا ولى ولاية فلا . وأقطعه أرضا بالبصرة ودارا .

فلما قتِل عمر ركب راحلته ولحق بالمدينة .

وذكر المبرّد محمد بن يَزِيد الثُّمالِى، قال : كان[3] عمر أصلع ، فلمّا حلَق وفرةَ نصر ابن حجّاج[4]، قال نصر ، وكان شاعرا :

تَضِنّ ابنَ خطّابٍ علىّ بجُمَّةٍ إذا رُجِّلَتْ تَهْتَزُّ هزَّ السَّلاسِلِ
فصَلَّع رأسًا لم يصلّعْهُ ربُّهُ يرفّ رفيفًا بعد أسود جائِلِ[5]
لقد حَسَد الفُرْعانَ أصلعُ لم يكنْ إذا ما مَشَى بالفرع بالمتخايِلِ[6]

محمد بن سعيد ، قال : بينا يطوف عمر فى بعض سِكَك المدينة ، إذ سمع امرأة تهتف من خِدْرها:

هَلْ من سبيل إلى خمرٍ فأشرَبها أمْ هَلْ سبيلٌ إلى نَصْر بن حَجّاج

---

(١) أى مكة والمدينة ؛ مثنى على التغليب .

(٢) جب : قطع .
(٣) الكامل ٢ : ١٧٦ .

(٤) فى الكامل ٢ : ١٧٦ ، وفيه : « وكان نصر بن حجاج السلمى ثم البهزى جيلا ؛ فعثر عليه عمر بن الخطاب رحمه الله فى أمر — الله أعلم به — فحلق رأسه ، وكان عمر أصلع لم يبق من شعره إلا حفاف ؛ كذلك قال الأصمعى ؛ فقال نصر بن حجاج » ، وأورد الأبيات . .

(٥) الجائل : الشعر الكثير الملتف .

(٦) الفرعان : جمع أفرع ؛ وهو الوافى الشعر . قال المبرد : قوله : « بالفرع بالمتخايل » ليس أنه جعل « بالفرع » من صلة المتخايل ؛ فيكون قد قدم الصلة على الموصول ؛ ولكنه جعل قوله : « بالفرع » تبييناً ، فصار بمنزلة « بك » التى تقع بعد « مرحباً » للتبيين .

إلى فتًى ماجدِ الأعراق مقتبلٍ سهل المحيّا كريم غير مِلْجاَج[1]
تنميه أعراقُ صدقٍ حين تنسبه أخى قداحٍ عن المكروب فرّاجِ
سامِى النّوَاظرِ من بهزٍ له قدَمٌ تضيء صورته فى الحالك الدّاجى

فقال عمر : ألا لا أدرى معى رجلا يهتف به العواتق فى خدورهن ! علىّ بنصر ابن حجاج ، فأُتى به ، فإذا هو أحسنُ الناس وجها وعينا وشعرا ، فأمر بشعره فجزّ ، فخرجت له وَجْنتان كأنّه قمر ، فأمره أن يعتمّ فاعتمّ ،ففتن النساء بعينيه ، فقال عمر : لا والله لا تساكنّى بأرض أنا بها ، قال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو ما أقول لك ، فسيّره إلى البصرة .

وخافت المرأة[2] التى سمع عمر منها ما سمع أن يبدر إليها منه شىء ، فدسّت إليه أبياتا:

قل للأمير الّذى تُخشى بوادرُه مالى وللخمرِ أو نصر بن حَجّاج
إنى بُليتُ أبا حفص بغيرهما شرب الحليبِ وطرفٍ فاترٍ ساج
لا تجعل الظنّ حقًّا أو تبيّنَه إنّ السبيل سبيلُ الخائف الراجى
ما منيَةٌ قلتُها عرضاً بضائرةٍ والنّاس من هالكٍ قِدْماً ومن ناج
إنّ الهوى رِعْيَةُ التّقوى تقيّدُه حَتّى أقرّ بإلجامٍ وإسراجِ

فبكى عمر ، وقال : الحمدُ لله الذى قيّد الهوى بالتقوى .

وأتته يوماً أمّ نصر حين اشتدّت عليها غيبة ابنها،فتعرّضت لعمر بين الأذان والإقامة، فقعدتْ له على الطّريق ، فلما خرج يريد الصلاة هتفتْ به ، وقالت : يا أمير المؤمنين لأجاثينّك[3] غداً بين يدي الله عز وجل ، ولأخاصمنّك إليه ، يبيتُ عاصم وعبدالله إلى

---

(١) الملجاج : من الملاجة ، وهى التمادى فى الخصومة .
(٢) ذكروا أن المرأة المتمنية هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى .
(٣) الجثو : الجلوس على الركبتين للخصومة .

جانبيك وبينى وبين ابنى القَيافى والقفار ، والمفاوز والجبال ! قال : مَنْ هـذه ؟ قيـل : أمّ نصر بن حجّاج ، فقـال : يا أمّ نصر ، إن عاصما وعبد الله لم تهتِفْ بهما العواتق من وراء الخدور .

ويروى أنّ نصر بن الحجاج لما سيّره عمر إلى البصرة نزل بها على مُجاشع بن مسعود السُّلَمىّ ، وكان خليفة أبى موسى عليها ، وكانت له امرأة شابّة جميلة فهوِيتْ نصرا ، وهويَها فبينا الشيخ جالس ونصر عنـده إذ كتب فى الأرض شيئاً ، فقرأته المرأة ، فقـالت : « أنا والله » ، فقال مجاشع : ماقال لك ؟ قالت : إنه قال : ما أصفَى لَقْحتكم هذه ؟ فقال مجاشع : إنّ الـكلمة التى قلتِ ليست أختاً لهذا الـكلام ، عزمت عليك لَمَا أخبرتنى ! قالت : إنه قال : ما أحسن سوار ابنتكم هذه ؟ قال : ولا هذه ، فإنه كتب فى الأرض ، فرأى الخط فدعا بإناء فوضعه عليـه ، ثم أحضر غلاما من غِلمانه ، فقال : اقرأ ، فقرأه وإذا هو : أنا والله أحبّك ، فقال : هـذه لهذه ، اعتدّى أيتهـا المرأة ، وتزوّجها يابن أخى إن أردت .

ثم غدا على أبى موسى ، فأخبره ، فقال أبو موسى : أقسم ما أخرجه عمر عن المدينة من خير ، ثم طرده إلى فارس وعليها عثمان بن أبى العاص الثقفىّ ، فنزل على دهقانة ، فأعجبها فأرسلت إليه ، فبلغ خبرها عثمان ، فبعث إليه أن اخرج عن أرض فارس ، فإنك لم تخرج عن المدينة والبصرة من خـير ، فقال : والله لئن أخرجتمونى لألحقنّ ببلاد الشرك ، فـكتب بذلك إلى عمر ، فـكتب أن جزّوا شعرَه وشمّروا قيصـه ، وألزموه المساجد .

* * *

وروى عبد الله بن بُريدة أنّ عمر خرج ليلا يعسّ ، فإذا نسوة يتحدّثن ، وإذا هنّ

يقلن : أيّ فتيان المدينة أصبح ؟ فقالت امرأة منهنّ : أبو ذؤيب والله . فلما أصبح عمر سأل عنه ، فإذا هو من بنى سُلَيم ، وإذا هو ابن عمّ نصر بن حَجّاج ، فأرسل إليه، فحضر، فإذا هو أجملُ الناس وأملحُهم ، فلمّا نظر إليه قال : أنتَ والله ذئبها ! يكرّرها ويردّدها ، لا والذى نفسى بيده لا تجامعُنى بأرض أبدا .

فقال : ياأميرَ المؤمنين إن كنت لابدّ مسيّرى فسيّرنى حيث سيّرت ابن عمّى نصر ابن حجاج ، فأمر بتسييره إلى البصرة ، فأُشخص إليها .

***

خطب عمر فى الليلة التى دُفن فيها أبو بكر ، فقال : إنّ الله تعالى نهج سبيله، وكفانا برسوله ، فلم يبقَ إلّا الدعاء والاقتداء . الحمد لله الذى ابتلانى بكم وابتلاكم بى ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى،وأعوذ بالله أنْ أزلّ أو أضلّ،فأعادى له وليًّا،أو أوالى له عدوا.ألا إنّى وصاحبى كنفرٍ ثلاثة قفلُوا من طيبة ، فأخذ أحدهم مهلة إلى داره وقراره فسلك أرضا مضيئة متشابهة الأعلام ، فلم يزلّ عن الطريق ، ولم يحرَم السبيل ، حتى أسلمه إلى أهله ، ثم تلاه الآخر فسلك سبيله ، واتبع أثره ، فأفضى إليه ولقىَ صاحبه ، ثم تلاهما الثالث ، فإن سلك سبيلهما واتبع أثرهما أفضى إليهما ولاقاهما ، وإن زلّ يمينا أو شمالا لم يجامعْهما أبدا .

ألا وإنّ العرب جَمَل أنِفٌ(١) قد أُعطيتُ خِطامه ، ألا وإنى حاملُه على المحجّة ومستعين بالله عليه .

إلا وإنّى داعٍ فأمّنوا ،اللهمّ إنّى شحيح فسخّنى.اللهمّ إنى غليظٌ فليّنى . اللهمّ إنى ضعيف فقوّنى.اللهمّ أوجب لى بموالاتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك،وأبرئنى

---

(١) البعير الأنف : الذلول الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا .

من الآفات بمعاداة أعدائك ، وتوفّنى مع الأبرار،ولا تحشرنى فى زمرة الأشقياء . اللهمّ لا تُكثِرْ لى من الدنيا فأطغَى ، ولا تقلّل لى فأشقَى ، فإن ماقلّ وكفى خير مما كثُرَ وألْهى .

* * *

وفد على عمر قوم من أهل العراق ،منهم جرير بن عبد الله ، فأتاهم بجَفْنة قد صُنِعت بخلّ وزيت ، وقال: خذوا ، فأخذوا أخذا ضفيفا ، فقال : مابالكم تقرمون[1] قَرْمَ الشاة الكسيرة ! أظنّكم تريدونَ حُلواً وحامضا ، وحارًّا وباردا ، ثم قذفاً فى البطون،لوشئتُ أن أدهمق[2] لكم لفعلت،ولكنا نستبقى من دُنيَانا مانجده فى آخرتنا ، ولو شئنا أن نأمر بصغار الضّأن فتسمط[3]،ولُبَاب الخبز فيخبز ، ونأمر بالزبيب فينبَذ لنا[4] فى الأسعان[5] حتى إذا صار مثل عين اليعقوب[6]،أكلنا هذا وشربنا هذا لفعلت ! والله إنّى ماأعجزعن كراكر[7] وأسنمة وصلائق[8] وصناب[9] ، لكن الله تعالى قال لقوم عيّرهم أمراً فعلوه ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾[10] ، وإنى نظرتُ فى هذا الأمر ،

---

(١) القوم : الأكل .

(٢) فى اللسان : « دهمق الطحين : دققه ولينه ، وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو شئت أن يدهمق لى لفعلت ؛ ولكن الله تعالى عاب قوماً فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ، معناه : لو شئت أن يلين لى الطعام ويجود » .

(٣) يقال : سمط الجدى والحمل يسمطه ـ أى نتف عنه الصوف وتظفه من الشعر .

(٤) النبذ فى الأصل : طرحك الشىء من يدك أمامك أو وراءك ، قالوا : وإنما سمى النبذ نبيذاً ، لأن الذى يتخذه يأخذ تمراً أو زبيباً فينبذه ، أى يطرحه فى وعاء أو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور .

(٥) الأسعان : جمع سعن ، وهو قربة أو إداوة يقطع أسفلها ويشد عنقها وتعلق إلى خشبة أو جذع نخلة ثم ينبذ فيها ، ثم يبرد ، وهو شبيه بدلو السقائين . قال فى اللسان : ومنه حديث عمر : أمرت بصاع من زبيب فجعل فى سعن .

(٦) اليعقوب : ذكر الحجل .

(٧) الكركرة : الصدر من ذى الخف .

(٨) الصلائق : ما عمل بالنار طبخاً وشياً .

(٩) الصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب .

(١٠) سورة الأحقاف ٢٠ .

فجعلت إن أردتُ الدنيا أضررت بالآخرة ، وإن أردتُ الآخرة أضررتُ بالدنيا ، وإذا كان الأمر هكذا ؛ فأضرُّوا بالفانية .

***

خرج عمرُ يوماً إلى المسجد ، وعليه قميص فى ظهره أربع رقاع ، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾[1] ، فقال : ماالأبُّ ؟ ثم قال: إنّ هذا لهو التكلّف! وماعليك يابن الخطّاب ألّا تدرِي ما الأبّ !

***

وجاء قوم من الصحابة إلى حفصة فقالوا : لو كلّمتِ أباكِ فى أن يليِّن من عيشه ، لعلّه أقوى له على النَّظرِ فى أمور المسلمين ! فجاءته فقالت : إنّ ناساً من قومكَ كلّمُونى فى أنْ أكلّمك فى أن تليِّن من عيشك . فقال: يابُنيّة ؛ غششتِ أباكِ ، ونصحتِ لقومك .

***

وروى سالم بن عبد الله بن عمر ، قال : لمّا وُلّىَ عمر قعد على رِزْقِ أبى بكر الّذِى كان فرضه لنفسه ، فاشتدّت حاجته؛ فاجتمع نفرٌ من المهاجرين ؛ منهم على وعثمان وطلحة والزبير، وقالوا : لو قلنا[2] لعُمَر يزيد فى رزقه ! فقال عثمان : إنّه عمر ، فهلمّوا فلْنستبِنْ[3] ماعنده من وراء وراء ؛ نأتى حفصة فنكلّمها ونستكتِمُها أسماءنا . فدخلوا عليها ، وسألوها أن تكلّمَه ولا تخبره بأسماء مَنْ أتاها إلّا أن يقبل . فلقيتْ عمر فى ذلك ، فرأت الغضبَ فى وجهه ، وقال : مَنْ أتاكِ ؟ قالت : لاسبيلَ إلى ذلك ، فقال : لو علمتُ مَنْ هم لسوّت أوجههم ، أنت بينى وبينهم ! نشدتكِ الله ما أفضلُ ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وآله فى بيتِك من الملابس ؟ قالت : ثوبان ممشّقان[4] ، كان يلبسهما للوفد ، ويخطب

(١) سورة عبس ٣١ . وفى الكشاف ٤ : ٥٦٣ « الأب : المرعى ، لأنه يؤب ، أى يؤم وينتجع . وروى عن أبى بكر أنه سئل عن الأب ، فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به » !

(٢) ا : « كلنا عمر »

(٣) ب : « فلنستبرئ »

(٤) ثوب ممشق : مصبوغ .

فيهما فى الجمع ، قال : فأىّ طعامٍ ناله عنــدك أرفع ؟ قالت : خبزْنا مرة خَبْزة شعير ، فصبيت عيها ـ وهى حارّة أسفلها ـ عُــكّة[١] لنا كان فيها سَمْن وعسل ، فجعلتها هشّة حلوة دسمة ، فأكل منها فاستطابهــا ، قال : فأىّ مبسط كان يبسط عندك أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين كنّا نرقّعه فى الصّيف فنجعله تحيناً ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه ، وتدثّرْنا بنصفِه ، قال : فأبلغيهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدّر فوضع الفُضُول مواضعَها، وتبلّغ ماأبَرّ ؛ وإنّى قدرت فوالله لأضعنّ الفضولَ مواضعها، ولأتبلّغن ما أُبِرُّ حبّةً .

* * *

وفد على عمر وَفْدٌ فيه رجال الناس من الآفاق ، فوضع لهم بسطامن عَباء ، وقدّم إليهم طعاما غليظا ، فقالت له ابنتُه حفصة أمّ المؤمنين : إنّهم وجوهُ النّاس وكرام العرب ، فأحسِنْ كرامتهم . فقال : ياحفصة ، أخبريني بألْيَنِ فراش فرشتِه لرسول اللهصلى الله عليه وسلّم ، وأطيبِ طعام أكلَه عندكِ ؟قالت : أصبنا كساءملبّداً عام خَيْبر، فكنتأفرشهله فينام عليه ، وإنّى رفعته ليلة ،فلمّا أصبح قال : ما كان فراشِي الليلة ؟ قلت : فراشك كلّ ليلة ؛ إلّا أنّى الليلة رفعته لك ليكون أوطأ ، فقال : أعيدِيه لحالته الأولى ، فإن وطاءته منعتْنى الليلةمن الصلاة .

وكان لنا صاع من دقيق سُلْتٍ[٢]، فنخلته يوما وطبختته له ، وكان لنا قعب من سمن فصببتُه عليه ، فبينا هو عليــه السلام يأكلُ إذ دخل أبو الدّرداء ، فقال : أرى سمنَــكم قليلا ، وإنّ لنا لقَعْباً من سمن ، قال عليه السلام : فأرسِلْ فأت به ، فجاء بهفصبّه عليه فأكل ، فهذا أطيبُ طعام أكله عندِى رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم .

فأرسل عمر عينيه بالبكاء ، وقال لها : والله لاأزيدُهم على ذلك العَباء وذلك الطعام

---

(١) العكة : للسمن ، كالشكوة للبن ، وقيل : العكة أصغرمن القربة للسمن ، وهى زقيق صغير .
(٢) السلت ، بالضم : ضرب من الشعير ، أو هو الشعير بعينه .

شيئا وهذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وهذا طعامُه .

***

لما قدِم عُتْبة بن مرثد أذربيجان أُتىَ بالخبيص[1]، فلمّا أكله وجد شيئا حلوا طيّبا، فقال : لو صنعتَ من هذا لأمير المؤمنين ! فجعل له خبيصاً فى منقلين عظيمين ،وحملهما على بعيرَيْن إلى المدينة ، فقال عمر : ماهذا ؟ قالوا الخبيص[2] ، فذاقه فوجده حُلْواً ، فقال : للرسول : ويحك ! أكلّ المسلمين عندكم يشبع من هذا ؟ قال : لا ، قال : فارددهما . ثم كتب إلى عُتْبة : أمّا بعدُ ، فإن خَبيصَك الذى بعثته ليس من كدّ أبيك ولا من كدّ أمّك ،أشبِع المسلمين مما تشبع منه فى رَحْلك ولا تستأثر ؛ فإنّ الأثَرة شرّ والسلام .

***

وروى عُتْبة بن مَرْثَد أيضا ،قال : قدمتُ على عمر بحَلْواء من بلاد فارس ، فى سِلالٍ عظام ، فقال : ماهــذه ؟ قلت : طعام طيّب ، أتيتك به ، قال : ويْحك ! ولِمَ خصصتَنى به ؟ قلت : أنت رجلٌ تقضى حاجاتِ النّاس أوّلَ النهار ، فأحببت إذا رجعت إلى منزلك أن ترجع إلى طعامٍ طيّب ، فتصيبَ منه فتقوَى على القيام بأمرك . فكشف عن سَلّةٍ منها فذاق فاستطاب ، فقال : عزمتُ عليكَ ياعُتْبة إذا رجعت إلّا رزقت كلّ رجل من المسلمين مثله ! قلت : والّذى يصلحك يا أمير المؤمنين لو أنفقت عليه أموال قيس كلّها لما وسع ذلك ، قال : فلا حاجة لى فيه إذاً . ثم دعا بقَصْعةٍ من ثريد ، ولحم غليظ ، وخبز خَشِن ، فقال : كلْ ، ثم جعل يأكل أكلاً شهيًّا ، وجعلت أهوى إلى البَضْعة البيضاء أحسبها سناما ، وإذا هى عَصَبة ، وأهوى إلى البَضْعــة من اللحم أمضُغها ،

---

(١) الخبيص : ضرب من الحلواء .

(٢) ا : « هذا الخبيص » .

فلا أسيغها ، وإذا هي من عِلْباء العنق(١) ، فإذا غفل عنّي جعلتها بين الخوان والقصعة ، فدعا بعُسٍّ(٢) من نبيذ كاد يكون خَلًّا ، فقال : اشرَب ، فلم أستطِعه ولم أسِغه أن أشرب ، فشرب ، ثم نظر إليّ وقال : ويحك ! إنه ليس بدَرْمك(٣) العراق وَوَدَكه(٤) ، ولكن ماتأكله أنت وأصحابك .

ثم قال : اسمع إنّا ننحر كلّ يوم جزورا ، فأمّا أوراكها وَوَدَكُها وأطايبها فلِمَنْ حضرنا من المهاجرين والأنصار ، وأما عُنقها فلآل عمر ، وأمّا عظامها وأضلاعها فلفقراء المدينة ، نأكل من هذا اللحم الغثّ ، ونشرب من هذا النبيذ الخاثر(٥) ، وندع ليّن الطعام ليوم تذهَلُ كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعتْ ، وتضع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملها .

***

حضر عند عمر قومٌ من الصحابة ، فأثنوا عليه ، وقالوا : والله ما رأينا ياأميرَ المؤمنين رجلًا أقضى منك بالقِسْط ، ولا أقولَ بالحقّ ، ولا أشدّ على المنافقين منك ! إنك لخيرُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عوف بن مالك : كذبتمْ والله ، أبو بكر بعد رسول الله ، خيرُ أمته رأينا أبا بكر .

فقال عمر : صدق عوف والله وكذبتم ! لقد كان أبو بكر والله أطيَبَ من ريح المِسْك ، وأنا أضلّ من بعير أهلي .

***

لما أتى عمرَ الخبرُ بنزول رستمَ القادسية ، كان يخرج فيستخبر الركبانَ كلّ يوم عن أهل القادسيّة من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ، فلمّا جاء البشيرُ بالفتح ،

---

(١) العلباء عصبة صفراء في صفحة العنق .
(٢) العس : القدح الكبير .
(٣) الدرمك : دقيق الحوارى .
(٤) الودك ، محركة : الدسم من اللحم والشحم .
(٥) خثر النبيذ : ثخن واشتد .

لقيَه كما يلقى الرُّكبان من قبل ، فسأله فأخبره ، فجعل يقول : ياعبد الله ، إيه ! حدّثني ! فيقول له : هزم الله العدوّ ، وعمر يحثّ معه ، ويسأله وهو راجل ، والبشيرُ يسير على ناقته ولا يعرفه ، فلمّا دخل المدينَة إذا الناس يسلّمون عليه باسمه يإمْرَة المؤمنين ويهنئونه ؛ فنزل الرجل ، وقال : هلّا أخبرتني ياأمير المؤمنين رحمك الله ! وجعل عمر يقول: لاعليك يابنَ أخي ، لا عليك يابن أخي !

***

وروى أبو العالية الشاميُّ ، قال : قدم عمر الجابيَة ، على جمل أوْرَق[1]، تلوح صُلعته؛ ليس عليه قانسوة ؛ تصل رجلاه بين شعبتيْ رحله ، بغير ركاب ، وطاؤه كِساءأنبجانيٌّ[2] كثير الصوف ، وهو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، وحقيبته نمِرة محشوّة ليفاً، هي حقيبته إذاركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميصٌ من كرَابيس[3] قد دسم وتخرّق جيبه، فقال : ادعوا إليّ رأسَ القرية . فدعوه له ، فقال : اغسلوا قميصي هـذا وخيّطوه ؛ وأعيروني قميصا ريثما يجفّ قميصي ، فأتوه بقميص كتّان ، فعجب منه ، فقال : ماهذا؟ قالوا : كتّان . قال وما الكتّان ؟ فأخـبروه ، فلبسه ثم غسل قميصَه ، وأتِيَ به فنزعَ قميصهم ولبس قميصه ، فقال له رأس القرية : أنت ملك العرب ، وهذِه بلاد لا يصلح بها ركوب الإبل ، فأتِيَ ببرذَوْن[4] ، فطرحت عليه قطيفة بغير سرج فركبه ، فهملج[5] ، تحته ، فقال للناس : احبسوا ، فحبسوه ، فقال : ما كنت أظنّ الناس يركبون الشيطان قبل هذا ! قدّموا لي جملي . فجيء به فنزل عن البِرْذَون وركبه .

***

---

(١) الأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد . وقالوا : هو من أطيب الإبل لحماً ، لا سيرا وعملا.
(٢) أنبجاني ، منسوب إلى منبج ، على غير قياس .
(٣) الكرابيس : جمع كرباس ؛ وهو الثوب الخشن ؛ معرب « كرباس » بالفارسية .
(٤) البرذون : ضرب من الدواب دون الخيل وأقدر من الحمر ؛ يقع على الذكر والأنثى .
(٥) هملج البرذون : مشي مشية سهلة في سرعة ، والهملجة : حسن سير الدابة .

قدم عمرُ الشّام ، فلقيَه أمراء الأجناد وعظماء تلك الأرض ، فقال : وأين أخى ؟ قالوا : مَنْ هو ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : سيأتيك الآن ، فجاء أبو عبيدة على ناقة مخطومة بحَبْل ، فسلّم عليه ، وردّ له ، ثم قال للناس : انصرفوا عنّا ، فسار معه حتى أتى منزله ، فنزل عليه ، فلم يرَ فيه إلّا سيفا وتِرْساً ، فقال له : لو اتخذتَ متاع البيت ! قال : حسبى هــذا يبلّغنى المقيل .

* * *

وروى طارق بن شهاب ، أنّ عمر لما قدِم الشّام عرَضتْ له مخاضة[1] ، فنزل عن بعيره ، ونزع جُرْموقيه[2] فأمسكهما بيده ، وخاض الماء وزمام بعيره فى يده الأخرى ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليومَ صنيعاً عظيما عند أهلِ هــذه الأرض ! فصكّ فى صدره ، وقال : لو غيرُكَ قالها ياأبا عبيدة ! إنّــكم كنتم أذلّ الناس ، وأحقرَ الناس ، وأقلّ الناس ، فأعزّكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يرجعْــكم إلى الذلّ .

* * *

وروى محمد بن سعد صاحب الواقدىّ ، أنّ عمر قال يوماً على المنبر : لقد رأيتُنى ومالى من أكال[3] يأكله الناس ؛ إلّا أنّ لى خالات من بنى مخزوم ، فكنت أستعذِب[4] لهنّ الماء ، فيقبضْنَ لى القبضات من الزّبيب ، فلمّا نزل قيل له : ماأردتَ بهذا؟ قال: وجدتُ فى نفسى بأْواً[5] ؟ فأردت أن أطأطئْ منها .

* * *

---

(١) المخاضة : موضع الخوض من الماء .
(٢) الجرموق : ما يلبس فوق الخف وقاية له .
(٣) الأكال ، كسحاب : الطعام ، ويقولون : « ما ذقت أكالا » .
(٤) يستعذب الماء : أى يطلب الماء العذب . (٥) البأو : العجب والخيلاء .

ومن كلام عمر : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى .

* * *

قدم عمرو بن العاص على عُمر ، وكان واليا لمصر ، فقال له : فى كَمْ سرت ؟ قال: فى عشرين ، قال عمر : لقد سرت سير عاشقٍ ! فقال عمرو : إنى والله ما تأبطتنى الإماء ، ولا حملتنى فى غُبّرات المآلى ، فقال عمر : والله ماهذا بجواب الكلام الذى سألتك عنه ! وإنّ الدجاجة لتفحص فى الرّماد فتضعُ لغير الفحل؛ وإنما تنسب البَيْضة إلى طِرْقها. فقام عمرو مربدّ الوجه .

قلت : المآلِى : خِرَقٌ سودٌ يحملها النوائح ، ويسِرْنَ بها بأيديهنّ عند اللطم ، وأراد خرَق الحيض هاهنا ، وشبّهها بتلك ، وأنكر عمر فخره بالأمّهات، وقال : إنّ الفخر للأب الذى إليه النسب . وسألت النقيب أبا جعفر عن هذا الحديث فى عمر ، فقال : إنّ عمراً فَخَر على عمر ، لأنّ أمّ الخطاب زنجيّة ، وتعرف بباطحلى ، تسمّى صُهاكَ . فقلت له : وأمّ عمرو النّابغة أمَةٌ من سَبايا العرب ، فقال : أمّه عربية من عَنَزة ، سُبِيت فى بعض الغَارات ، فليس يلحقها من النقص عندهم مايلحق الإماء الزّنجيات . فقلت له : أكان عمرٌو يُقدِم على عمرَ بمثل ماقلت ؟ قال : قد يكون بلغه عنه قولٌ قدح فى نفسه فلم يحتمله له ، ونفث بما فى صدره منه ، وإن لم يكن جواباً مطابقا للسؤال .

وقد كان عمر مع خشونته يحتمل نحوهذا ، فقد جَبَهه الزبير مرّة ،وجعل يحكى كلامه يمطّطه ، وجبَهه سعدُ بن أبى وقاص أيضا ، فأغضى عنه . ومرّ يوما فى السوق على ناقة له فوثب غلام من بنى ضَبّة ، فإذا هو خلفه ، فالتفت إليه ، فقال : فمّن أنت ؟ قال :ضَبِّىّ ، قال : جَسُورٌ والله، فقال الغلام : على العدوّ ،قال عمر : وعلى الصَّدِيق أيضا، ماحاجتك؟ فقضى حاجتَه ، ثم قال : دع الآن لنا ظهر راحلتنا .

* * *

ومن كلام عمر : اخشع عند القبور إذا نظرْت إليها ، واستعصِ عند المعصية ، وذِلَّ عند الطاعة ، ولا تبذلَنّ كلامك إلّا عنـد من يشتهيه ويتّخِذه غُنْماً ، ولا تستعنْ على حاجتك إلّا بمن يحبّ نجاحها لك ، وآخِ الإخوانَ على التقوى ، وشاوِرْ في أمرِك كلّه ؛ وإذا اشترى أحدكم بعيرا فليشترِه جسيما ، فإنْ أخطأته النّجابة لم يخطئه السُّوق .

* * *

أوفدَ بشر بن مروان وهو على العراق رجلا إلى عبد الملك ، فسأله عن بِشْر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، هو اللّيِّن في غير ضَعْف ، الشديد في غير عُنْف ، فقال عبد الملك : ذاك الأحوذيّ (١) ابن حنتمة (٢) الذي كان يأمن عنده البريء ، ويخافه السقيم ، ويعاقب على الذّنب ، ويعرف موضع العقوبة ، لا بشر بن مروان !

* * *

أذن عمر يوما للناس ، فدخل شيخ كبير يعرُج ، وهو يقود ناقة رجيعاً (٣) يجاذبها ، حتى وقف بين ظهرانَيِ الناس ، ثم قال :

وإنّك مسترعًى وإنّا رَعيّـةٌ ... وإنّك مدعـوٌّ بسيماك ياعمرْ
لَدَى يومِ شرٍّ شرّه لشرارِه ... وخـير لمن كانت مؤانسَه الخيرْ

فقال عمر : لاحول ولا قوّة إلّا بالله ؛ مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن برّاقة ، قال : ويحك ! فما منعك أن تقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (٤) . ثم قرأها إلى آخرها ؛ وأمر بناقته فقبضت ، وحمله على غيرها ، وكساه وزوّده .

* * *

(١) الأحوذي : الرجل الذي يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها .
(٢) حنتمة : أم عمرو بن الخطاب .
(٣) ناقة رجيع سفر ، أي رجعت فيه مرات .
(٤) سورة الأنفال ٤١ .

بينا عمر يسير فى طريق مكة يوما إذا بالشّيخ بين يديه يرتجزُ ؛ ويقول :

ما إنْ رأيتُ كفَتَى الخطّابِ   أبرّ بالدّين وبالأحساب

* بعد النبيّ صاحب الكتاب *

فطعنه عمرُ بالسّوط فى ظهره ، فقال : ويلك ! وأين الصّدّيق ! قال : مالِى بأمره علمٌ يا أميرَ المؤمنين ، قال : أما إنّكَ لو كنت عالماً ، ثم قلت هذا لأوجعتُ ظهرك.

* * *

قال زيد بن أسلم : كنت عند عمر ، وقد كلّمه عمرو بن العاص فى الحطيئة ، وكان محبوساً ، فأخرجه من السجن ، ثم أنشده :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرَخٍ   زُغْبِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ[1]

ألقيتَ كاسِبهمْ فى قعرِ مُظلمةٍ   فاغفِرْ عليكَ سلامُ الله ياعمرُ

أنت الإمام الّذِى من بعد صاحبه   ألقَت إليه مقاليدَ النُّهى البشَرُ

ما آثروك بها إذ قدّموك لها   لكن لأنفسهم كانت بك الأثَرُ[2]

فبكى عمر لمّا قال له : « ماذا تقول لأفراخ » ! فكان عمرو بن العاص بعد ذلك يقول : ما أقلّتِ الغبراء ولا أظلّت الخضراء أتقى من رجل يبكى خوفاً من حَبْس[3] الحطيئة! ثم قال عمر لغلامه يرفأ : علىّ بالكرسىّ ، فجلس عليه ، ثم قال : علىّ بالطّست ، فأُتِىَ بها، ثم قال : علىّ بالمِخْصف ، لا بلْ علىّ بالسكين ، فأُتِىَ بها ، فقال : لا بل علىّ بالموسى؛ فإنها أوجى ، فأُتِىَ بموسى ، ثم قال : أشيروا علىّ فى الشاعر ، فإنه يقول الهُجْر ، وينسُب بالحُرَم ، ويمدح الناس ويذّمهم بغير مافيهم ، وما أرانى إلّا قاطعا لسانه ! فجعل الحطيئة يزيد خوفاً، فقال من حضر : إنّه لا يعود يا أميرَ المؤمنين ، وأشاروا إليه قل : لا أعود يا أمير المؤمنين، فقال : النّجاء النّجاء ! فلمّا ولّى ناداه : ياحطيئة ! فرجع مرعوبا ، فقال : كأنّى بك ياحُطَيئة

---

(١) ديوانه ٨ .   (٢) أى الخلافة . وفى الديوان : « لم يؤثروك » .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب : « حبسه » .

عند فتًى من قريش ، قد بسط لك نُمرقة ، وكسر لك أخرى، ثم قال: غَنِّنا ياحطيئة،فطفقت تغنّيه بأعراض النّاس . قال : ياأميرَ المؤمنين ، لا أعود ، ولا يكون ذلك .

قال زيد بن أسلم : ثمّ رأيتُ الحطيئة يوماً بعد ذلك عند عُبيد الله بن عمر ، قد بسط له نُمرقة وكسر له أخرى ، ثم قال : تغنّينا ياحطيئة ، وهو يغنّيه ، فقلت : ياحُطيئـــة ، أمَا تذكر قول عمر لك ! ففزع ، وقال : رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حيّاً مافعلنـــا هذا . قال : فقلت لعُبيـــد الله بن عمر : سمعت أباك يذكر كذا ، فـكنتَ أنت ذلك الفتى .

* * *

كان عمر يصادرُ خوَنة العمّال ، فصادر أبا موسى الأشعَريّ ، وكان عامله على البَصرة، وقال له : بلغنى أنّ لك جاريتيْن، وأنّك تُطعم النّاس من جَفْنتين ، وأعاده بعد المصادرة إلى عمله .

وصادر أبا هريرة ، وأغلظ عليه ، وكان عامله على البحرين ، فقال له : ألا تعلم أنّى استعملتُك على البحريْن، وأنت حافٍ لا نعل فى رجلك ! وقد بلَغنى أنّك بعتَ أفراساً بألف وستمائة دينار . قال أبو هريرة : كانت لنا أفراسٌ فتناتجتْ ، فقال : قد حبستُ لك رزقك ومؤنتك ، وهذا فضل . قال أبو هريرة : ليس ذلك لك ، قال : بلى ،والله وأوجعُ ظهرَك ! ثم قام إليه بالدرّة فضرب ظهره ، حتى أدماه ، ثم قال : ائت بها ،فلمّا أحضرها ، قال أبو هريرة : سوف أحتسبُها عند الله ، قال عمر : ذلك لو أخذتَها من حلٍّ ، وأدّيتَها طائعا ، أما والله مارَجَتْ فيك أُميمة أن تجبِيَ أموال هَجَر واليمامة وأقصى البحرين لنفسك؛ لا لله ولا للمسلمين ، ولم ترجُ فيك أكثر من رِعْيَة الحُمُر . وعزَله .

وصادر الحارث بن وهب أحدَ بنى ليث بكر بن كنانة ، وقال له : ماقِلاصٌ وأعبُدٌ بعتَها بمائة دينار ؟ قال : خرجتُ بنفقةٍ لى فاتّجرْتُ فيها ، قال : وإنّا والله مابعثناك للتّجارة ،

أدِّها، قال : أما والله لا أعمل لك بعدها . قال : أنا والله لا أستعملك بعدها. ثم صعد المنبر، فقال: يامعشرَ الأمراء ، إنّ هذا المال لو رأينا أنّه يحلّ لنا لأحللناه لكم، فأمّا إذْ لم نره يحلّ لنا وظَلَفْنا[1] أنفسنا عنه، فاظلفوا عنه أنفسَكم، فإنى والله ماوجدتُ لكم مثلا إلا عطشان ورد اللُّجّة ، ولم ينظر الماتح ، فلمّا روى غرق .

***

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو عامله فى مصر :

أمّا بعد ؛ فقد بلغَنى أنّه قد ظهر لك مالٌ من إبلٍ وغنم وخدمٍ وغلمان ، ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك ، فأنّى لك هذا ! ولقد كان لى من السابقين الأوّلين من هو خير منك ، ولكنى استعملتك لغَنائك ، فإذا كان عملُك لك وعلينا ، بم نؤثرك على أنفسنا ! فاكتب إلىّ من أين مالك ؟ وعجّل . والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص: قرأتُ كتابَ أمير المؤمنين، ولقد صدق، فأمّا ماذكره من مالِى ، فإنّى قدمت بلدة ؛ الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير ، فجمعت فضولَ ماحصل لى من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين . والله ياأميرَ المؤمنين ، لو كانت خيانتُك لنا حلالاً ماخنّاك ؛ حيث ائتمنتَنا، فأقصِرْ عنا عناك ، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن العمل لك ، وأمّا مَنْ كان لك من السابقين الأوّلين ، فهلا استعملتهم ! فوالله مادققت لك باباً .

فكتب إليه عمر : أمّا بعد ، فإنّى لست من تسطيرك وتشقيقك الكلام فى شىء ! إنكم معشرَ الأمراء أكلتم الأموال، وأخلدتم إلى الأعذار ، فإنما تأكلون النار، وتورّثون العار ، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرك على مافى يديك . والسلام .

---

(١) ظلف نفسه عن الشىء : منعها .

فلمّا قدم إليه محمد اتّخذ له طعاماً وقدّمه إليه ، فأبى أن يأكل ، فقال : مالك لا تأكل طعامنا ؟ قال : إنك عَمِلتَ لى طعاماً هو تقدمة للشرّ،ولو كنتَ عملتَ لى طعام الضّيْف لأكلته ، فأبعدْ عنّى طعامك ، وأحضر لى مالك . فلمّا كان الغد وأحضر ماله ، جعل محمد يأخذ شطرا ، ويعطى عمرا شطرا ، فلمّا رأى عمرو ماحاز محمد من المال ، قال : يامحمّد ، أقول ؟ قال : قل ماتشاء ، قال : لعن الله يوما كنتُ فيه واليا لابن الخطّاب ! والله لقد رأيته ورأيت أباه ، وإنّ على كلّ واحد منهما عباءة قطوانية ، مؤتزرا بهما ، ماتبلغ مأبِض (١) ركبتيه ، وعلى عنق كلّ واحد منهما حُزمة من حطب ، وإنّ العاص ابن وائل لفى مزرّرات الديباج . فقال محمد:إيها ياعمرو ! فعمر والله خير منك،وأمّا أبوك وأبوه ففى النار ، ووالله لولا مادخلتَ فيه من الإسلام لألفيت معتلفا شاة يسرّك غَزْرها، ويسوءك بكؤها . قال : صدقت ؛ فاكتم علىّ . قال : أفعل .

***

جاءت سُرِّيّة لعبيد الله بن عمر إلى عمر تشكوه ، فقالت : ياأمير المؤمنين،ألاتعذرنى من أبى عيسى ؟ قال : ومَنْ أبو عيسى ؟ قالت : ابنك عبيد الله ، قال : ويحك ! وقد تكنّى بأبى عيسى ! ودعاه ، وقال : إيهاً اكتنيت بأبى عيسى ! فحذر وفزع ، فأخذ يده فعضّها حتى صاح،ثم ضربه وقال : ويلك ! هل لعيسى أب ! أما تدرى ما كُنَى العرب ؟ أبو سلمة ، أبو حنظلة ، أبو عرفطة ، أبو مرّة .

كان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يشتفِ حتى يعضّ يده،وكان عبدالله بن الزبير كذلك يقال : إنه لم يلِ ولاية من ولد عمر والٍ عادل .

***

---

(١) المأبِض : كل ما يثبت عليه فخذك . ، وقيل : المأبضان ما تحت الفخذين .

وقال مالك بن أنس : إنّ عمر بن الخطاب استفرغ كلّ عدلٍ فى ولده ، فلم يعدل بعده أحدٌ منهم فى ولاية وليَها .

كان عمر ومن بعده من الولاة إذا أخذوا العُصاة نزعُوا عمائمهم ، وأقاموهم للناس ، حتى جاء زياد فضربهم بالسِّياط ، فجاء مُصعب فحلق مع الضرب ، فجاء بشر بن مروان ، فكان يصلب تحت الإبطين ، ويضرب الأكفّ بالمسامير . فكتب إلى بعض الجند قوم من أهله يستزيرونه ، ويتشوّقونه ، وقد أخرجه بشر إلى الرىّ فكتب إليهم :

لولا مخافةُ بشرٍ أوْ عقوبتُه ... أو أن يرى شانئ كفّى بمسمارِ
إذاً لعطّلتُ ثغرِى ثمّ زُرْتُكمْ ... إنّ المحِبَّ المعَنَّى جِدُّ زوّارِ

فلمّا جاء الحجاج قال : كلّ هذا لَعِبٌ ، فقتل العُصاة بالسّيف .

***

زيد بن أسلم ، عن أبيه ، قال : خلا عُمَرُ لبعضِ شأنه ، وقال : أمسِكْ علىّ الباب ، فطلع الزُّبير ، فكرهتُه حين رأيتُه ، فأرادَ أن يدخُلَ ، فقلتُ : هُو على حَاجةٍ ، فلمْ يلتفتْ إلىّ ، وأهْوَى ليدخُل ، فوضعتُ يدى فى صدْرِه ، فضرب أنفى فأدْماه ، ثم رجع ، فدخلتُ على عمر ، فقال : مابك ؟ قلت : الزُّبير !

فأرسل إلى الزُّبير ، فلمّا دخلَ جئتُ فقمتُ لأنظرَ مايقول له ، فقال : ماحملك على ماصنعت ; أدْمَيْتَنِى للناس . فقال الزُّبير يحكيه ويمطّط فى كلامه : « أدْميتَنِى ! » ، أتحتجب عنّا يابن الخطاب ! فوالله مااحتجب منّى رسول الله ، ولا أبُو بكر ! فقال عمر كالمعتذِر : إنى كنتُ فى بعض شأنى !

قال أسْلَم : فلمّا سمعتهُ يَعْتذِر إليه ، يئِستُ من أنْ يأخُذَ لِى بحقّى منه .

فخرج الزُّبير ، فقال عمر : إنه الزبير وآثاره ماتعلمَ ! فقلت : حقى حقك!

***

وروى الزبير بن بكاّر فى كتاب " الموفّقيات " ، عن عبد الله بن عباس قال : إنّى لأماشى عمر بن الخطاب فى سكّة من سِككَ المدينة ، إذ قال لى : يابن عباس ، ما أرى صاحبَك إلّا مظلوما ، فقلت فى نفسى : والله لا يسبقُنى بها ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، فاردُدْ إليه ظُلامته ، فانتزعَ يدَه من يدى ، ومضى يُهَمْهِم ساعة ، ثمّ وقف فلحقتُه ، فقال : يابنَ عباس ؟ ماأظنّهم منعهم عنه إلّا أنّه استصغره قومُه ! فقلت فى نفسى : هذه شرٌّ من الأولى ! فقلت : والله ما استصغره الله ورسوله حين أمَرَاه أن يأخذ براءة من صاحبك[1] .

فأعرض عنّى وأسرَع ، فرجعت عنه .

***

وقال ابن عباس : قلت لعمر ، لقد أكثرتَ التمنّى الموت ، حتى خشيت أن يكون عليك غير سهل عند أوانه ! فماذا سئمتَ من رعيّتك ؟ أن تعين صالحا ، أو تقوّم فاسدا!

قال : يابنَ عبّاس ، إنّى قائلٌ قولا فخذه إليك ، كيف لا أحبّ فراقهم ، وفيهم من هو فاتحٌ فاه للشّهوة من الدّنيا ، إمّا لحقّ لا ينوء به ، وإمّا لباطلٍ لا يناله ! والله لولا أنْ أُسألَ عنكم لبرئتُ منكم فأصبحت الأرض منى بلاقع ، ولم أقل : مافعل فلان وفلان !

***

جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب ، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ زوجى يصومُ

---

(١) انظر الرياض النضرة ٢ : ١٧٣ .

النَّهار ويقوم الليل ،وإنّى أكرَهُ أنْ أشكوَه وهو يعمل بطاعة الله فقال : نِعْمَ الزّوج زوجُك ! ؛ فجعلتْ تكرّر عليه القول ، وهو يكرّر عليها الجواب .

فقال له كعب بن سَوْر : ياأميرَ المؤمنين ، إنها تشكو زوجَها فى مباعدته إياها عن فراشه ، ففطِن عمر حينئذٍ ، وقال له : قد ولّيتُك الحكْمَ بينهما !

فقال كعب : علىّ بزوجها ، فأتِىَ به ، فقال : إنّ زوجتك هذه تشكوك ، قال : فى طعام أو شراب ؟ قال : لا ، قالت المرأة :

أيُّهَا القاضِي الحكيمُ رشَدُهْ ألْهى خليلى عن فراشِي مَسْجِدُهْ
زهّدَهُ فى مضجِعِي تَعَبُّدُهْ نهارُه وليلُهُ مايرقدُهْ
* فلستُ فى أمرِ النِّساء أحمَدُهْ *

فقال زوجها :

زَهّدنى فِى فَرْشِها وفى الحجَلْ أنّى امرؤٌ أذهلَنِي ماقدْ نزَلْ
فى سُورةِ النمل وفى السبع الطّوَلْ وفِى كتابِ اللهِ تخويفٌ جَلَلْ

قال كعب :

انّ لَهَا حَقًّا عَلَيْكَ يارَجُلْ نصيبُها من أرْبَع لمن عَقَلْ
* فأعْطِهَا ذَاكَ ودَعْ عَنْكَ العِلَلْ *

فقال لعمر : ياأمير المؤمنين ، إنّ الله أحلّ له من النِّساء مَثْنَى وثلاثَ ورُباع ، فله ثلاثة أيامٍ ولياليهنّ ، يعبُد فيها ربّه ، ولها يومٌ وليلة .

فقال عمر : والله ما أعلم من أىّ أمريك أعجب! أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما ! اذهب فقد ولّيتُك قضاء البصرة .

* * *

وروى زيد بن أسْلَمَ ، عن أبيه، قال : خرجتُ مع عمر بن الخطاب وهو يطوف بالليل،

فنظر إلى نار شرقيَّ حَرَّة المدينة ، فقال : إن هؤلاء الرَّكب لم ينزلوا هاهنا إلّا اللّيلة ! ثمّ أهوَى [١] لهم ، فخرجت معه حتى دنونا ، فسمعنا تضاغِيَ [٢] الصّبيان وبكاءهم .

فقال : السّلام عليكم يا أصحابَ الضوء ، هل ندنو منكم ! واحتبسنا قليلا ، فقالت امرأة منهم : ادنُوا بسلاَم ! فأقبلنا حتى وقفنا عليها ، فقال : مايُبكِى هؤلاء الصبيان ؟ قالت : الجوع ،قال : فما هذا القِدْر على النار ؟ قالت : ماء أعلّلهم به ، قال : انتظريني فإنى بالغك إن شاء الله ! ثم خرج يُهَرْوِل وأنا معه ،حتّى جئنا دار الدّقيق ـ وكانت داراً يطرح فيها مايجيء من دقيق العراق ومصر . وقد كان كتب إلى عمرو بن العاص وأبى موسى حين أمحلت السّنَة : الغوث ، الغوث ! احملوا إلىّ أحمَال الدقيق ، واجعلوا فيها جمائد الشحم . فجاء إلى عِدْلٍ منها ، فطأطأ ظهره ، ثم قال : احمله على ظهرى يا أسْلَم ! فقلت : أنا أحمله عنك ! فنظر إلىّ وقال : أنت تحمل عنّى وزْرِى يومَ القيامة ؟ لا أبالك ! قلت: لا ، قال : فاحمله على ظهرى إذاً ، ففعلت ، وخرج به يَدْلِجُ [٣] وأنا معه ؛ حتّى ألقاه عند المرأة .

ثم قال لى : ذُرّى [٤] عَلَىّ ذَرُور الدقيق لا يتعرّد وأنا أخزِر [٥] ،ثم أخذ المِسْواط [٦] يخزر ، ثم جعل ينفخ تحت البُرْمة ، وأنا أنظر إلى الدّخَان يخرج من خَلَل لحيته ، ويقول : لا تعجل حتى ينضج ، ثم قال : ألقِ علىّ من الشحم ، فإن القَفار يُوجع البطن .

---

(١) أهوى لهم : نزل عليهم . (٢) التضاغى : الصياح والتضور من الجوع .

(٣) الإدلاج : السير أول الليل . (٤) ذر الشيء : أخذه بأطراف أصابعه ، ثم نثره على الشيء .

(٥) الخزيرة . العصيدة .

(٦) السوط : خلط الشيء بعضه ببعض ، والمسوط والمسواط : ما سيط به .

ثم أنزل القِدْر ، وقال المرأة : لا تعجلي ، لا تعطيهم حارًّا ، وأنا أسطِّح لك ، فجعل يسطِّح بالمسْوَاط ، ويبرِّد طعامهم ، حتى إذا شبِعُوا ترك عندها الفضل ، ثم قال لها : ائتي أميرَ المؤمنين غدا ، فإنك عَسِيتِ أن تجدِيني قريباً منه ، فأشفعَ لك بخير ؛ وهي تقول : مَنْ أنتَ يرحمك الله ! وتدعُو له وتقول : أنت أوْلَى بالخلافة من أمير المؤمنين ؛ فيقول: قولِي خيرا يرحمك الله ! لا يزيدُ على هذا .

ثم انصرف حتى إذا كان قريبـا جلس فأقْعى ، وجعل يسمَع طويلا ، حتى سمع التضَاحُك منها ومن الصبيان ، وأنا أقول : ياأمير المؤمنين ، قد فرّغت من هذه، ولك شغل في غيرِها ، ويقول : لا تـكلِّمني ، حتى إذا هدأ حسُّهم قام فتمطّى وقال ؛ ويحك ! إنّي سمعتُ الجوع أسهرهم ، فأحببت ألّا أبْرَح حتى أسمع الشِّبَع أنامَهم !

***

ومن كلامه : الرجال ثلاثة : الـكامل ، ودون الـكامل ، ولا شيء . فالـكامل ذو الرأي يستشير الناس ، فيأخذ من آراء الرجال إلى رأيه ، ودون الـكامل من يستبدّ به ولا يستشير . ولا شيء مَن لا رأي له ولا يستشير .

والنساء ثلاث : تعين أهلَها على الدهر ولا تعين الدهر على أهلها ، وقلّما تجدها . وامرأة وعاء للولد ليس فيها غيره . والثالثة غُلٌّ قَمِلٌ (١) يجعله الله في رقبة مَنْ يشاء ، ويفكّه إذا شاء

***

لما أخرج عُمَر الحطيئة من حَبْسه قال له : إيّاكَ والشعر ! قال : لا أقدر على تركه ياأمير المؤمنين ؛ مأكلةُ عيالي ، ونملة تدِبّ على لساني . قال : فشبِّبْ بأهلك ، وإياك

---

(١) في اللسان : « في حديث عمر في صفة النساء : منهن غل قمل ؛ أي ذو قمل . كانوا يغلون الأسير بالقد وعليه الشعر فيقمل ، ولا يستطيع دفعه عنه بحيلة » .

وكل مدحة مُجحِفة . قال : وما المُجحفة ؟ قال : تقول : إن بنى فلان خير من بنى فلان ، امْدحْ ولا تفضّل أحداً ، قال : أنت والله ياأميرَ المؤمنين أشعر منّى !

* * *

وروى الزّبير فى « الموفقيات » عن عبدالله بن عباس ، قال : خرجت أريد عمر بن الخطاب ، فلقيتُه راكباً حماراً ، وقد ارتسنه بحَبْل أسود ، فى رجليه نعلان مخصوفتان ، وعليه إزار وقميص صغير ، وقد انكشفت منه رجلاه إلى ركبتيه ، فمشيت إلى جانبه ، وجعلت أجذب الإزارَ وأسوّيه عليه ، كلّما سترتُ جانبا انكشف جانب ، فيضحك ويقول : إنّه لا يطيعك ، حتى جئنا العالية ، فصلّينا ، ثمّ قدّم بعض القوم إلينا طعاما من خبز ولحم ، وإذا عمرُ صائم ، فجعل ينبذ(١) إلىّ طيّب اللحم ، ويقول : كلْ لى ولك ، ثمّ دخلنا حائطا فألقى إلىّ رداءه ، وقال اكفنيه ، وألقى قميصه بين يديه ، وجلس يغسله ، وأنا أغسل رداءه ، ثمّ جففْناها وصلّينا العصر ، فركب ومشيت إلى جانبه ، ولا ثالث لنا .

فقلت : ياأمير المؤمنين ، إنى فى خِطْبة فأشرْ علىّ ، قال : ومَنْ خطبتَ ؟ قلت : فلانة ابنة فلان ، قال : النَّسب كما تحبّ ، وكما قد علمت ، ولكن فى أخلاق أهلها دِقّة(٢) لا تعدمك أن تجدَها فى ولَدِك ! قلت : فلا حاجة لى إذاً فيها ، قال : فلمَ لا تخطبُ إلى ابنِ عمّك — يعنِي عليا ؟ قلت : ألم تسبقْنى إليه ؟ قال : فالأخرى ، قلت : هى لابن أخيه . قال : يابن عباس ، إنّ صاحبَكم إن ولِىَ هذا الأمر أخشى عُجْبه بنفسِه أن يذهب به ، فليتَنِي أراكم بعدى !

قلتْ : ياأميرَ المؤمنينَ ، إن صاحبَنا ماقد علمت : إنه ماغيّر ولا بدّل ، ولا أسخط رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أيّام صحبته له .

---

(١) ينبذ : يطرح .
(٢) الدقة : الخساسة .

قال : فقطع عليّ الكلام ، فقال : ولا فى ابنة أبى جهل ، لمّا أراد أن يخطبها على فاطمة !

قلت : قال الله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ له عَزْماً ﴾ (١) ، وصاحبُنا لم يعزِم على سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الخواطر التى لا يقدر أحدٌ على دفعها عن نفسه ، وربما كان من الفقيه فى دين الله ، العالم العامل بأمر الله .

فقال : يابنَ عباس ، مَنْ ظنّ أنه يردُ بحوركم فيغوص فيها معكم حتى يبلغ قعرها فقد ظنّ عجزا ! أستغفر الله لى ولك ، خذ فى غيرها .

ثم أنشأ يسألنى عن شىء من أمور الفُتْيا وأجيبه فيقول : أصبتَ أصاب الله بك ! أنت والله أحقُّ أن تُتّبع !

***

أشرف عبدُ الملك على أصحابه ، وهم يتذاكرون سيرةَ عمر ، فغاظه ذلك ، وقال : إيهاً عن ذِكْرِ سيرة عمر ! فإنها مَزْراة على الولاة ، مفسدة للرعيّة .

***

قال ابن عباس : كنت عند عمر ، فتنفّس نفساً ظننتُ أنّ أضلاعه قد انفرجت ، فقلت : ما أخرج هذا النَّفسَ منك يا أميرَ المؤمنين إلا همٌّ شديد ! قال : إى والله يا بنَ عباس ! إنى فكّرتُ فلم أدرِ فيمَنْ أجعلُ هذا الأمرَ بعدى ! ثم قال : لعلّك ترى صاحبَك لها أهلا ! قلت : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه ! قال : صدقت ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة ، قلت . فأين أنت عن طلحة ! قال : ذو البَأْو (٢) ، وبإصبعه المقطوعة ! قلت : فعبد الرحمن ؟ قال : رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه فى يد امرأته . قلت : فالزّبير ؟ قال : شكِسٌ لَقِسٌ (٣) يُلاطم فى النقيع فى صاعٍ

(١) سورة طه ١١٥ . (٢) البأو : العجب والتفاخر .

(٣) اللقس الشكس : سيء الخلق ؛ كذا فسره صاحب اللسان ؛ وأورد الخبر .

من بُرّ ! قلت : فسعد بن أبي وقّاص ؟ قال : صاحب سلاح ومِقْنَب[١] ، قلت : فعثمان ؟ قال : أوّه ! ثلاثا ، والله لئن وليَها ليحملَنَّ بني أبي مُعَيط على رقاب الناس ، ثم لتنبض العرب إليه .

ثم قال : يابن عباس ، إنه لا يصلُح لهذا الأمر إلا خَصِيف[٢] العقدة ، قليل الغرّة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ثم يكون شديدا من غير عنف ، ليّنا من غير ضعف ، سخيًّا من غير سرف ، ممسكاً من غير وكَف[٣] . قال ابن عباس : وكانت والله هي صفات عمر .

قال : ثمّ أقبل عليّ بعد أن سكت هُنَيهَةً ، وقال : أجرؤهم والله إن وليَها أن يحملهم على كتاب ربّهم وسنةِ نبيّهم لَصاحبُك ! أما إن ولىَ أمرهم حملهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم .

***

وروى عبد الله بن عمر قال : كنت عند أبي يوماً ، وعنده نفر من الناس ، فجرى ذكر الشعر ، فقال : مَنْ أشعرُ العرب ؟ فقالوا : فلان وفلان ، فطلع عبد الله بن عباس ، فسلم وجلَس ، فقال عمر : قد جاءكم الخبير ! مَنْ أشعرُ النّاس يا عبدَ الله ؟ قال : زهير ابن أبي سلمى ، قال : فأنشدْني مما تستجيده له . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّه مدح قوماً من غطفان ، يقال لهم بنو سِنان ، فقال :

لو كان يقْعُد فوق الشمس من كرمٍ ... قومٌ بأوّلهمْ أو مجدِهمْ قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تَنْسِبُهُمْ ... طابوا وطاب من الأولاد ما وَلَدُوا
إنسٌ إذا أمنوا ، جنٌّ إذا فزعوا ... مُرَزَّءون بهاليــلٌ إذا جُهِدوا

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .

(٢) قال المحب الطبري في الرياض النضرة ٢ : ٦٠ : « خصيف العقدة : مستحكمها ؛ واستخصف الشيء : استحكم ، والحصيف : الرجل المحكم العقل ؛ وكنى بذلك عمر عن الاشتداد في دين الله وقوة الإيمان به

(٣) الوكف : العيب .

محسّدون على ما كان من نعمٍ لا ينزع الله منهم ماله حُسِدوا

فقال عمر : والله لقد أحسن ، وما أرى هذا المدح يصلح إلّا لهذا البيت من هاشم ؛ لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن عباس : وفّقك الله ياأمير المؤمنين ، فلم تزل موفّقا ، فقال : يابن عباس ، أتدرى ما منع الناس منكم ؟ قال : لا ياأميرالمؤمنين ، قال : لكنى أدرى ، قال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : كرهتْ قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فيجخفوا جَخْفاً(١) ،فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت.(٢)

فقال ابن عباس : أيميط أمير المؤمنين عنّى غضبه فيسمع ! قال : قل ما تشاء ، قال : أمّا قول أمير المؤمنين : إن قريشا كرهت ، فإن الله تعالى قال لقوم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٣) .

وأمّا قولك : «إنّا كنّا نجخف» ، فلو جَخَفنا بالخلافة جَخَفْنابالقرابة ، ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقةمن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) ، وقال له : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

وأما قولك : « فإن قريشا اختارت » ، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ (٦) ، وقد علمتَ يا أمير المؤمنين أنّ الله اختار مِنْ خلقه لذلك مَن اختار ، فلو نظرتْ قريش من حيث نظر الله لها لوفّقت وأصابت قريش .

فقال عمر : على رِسْلِك يابنَ عباس ، أبتْ قلوبُكم يابنى هاشم إلّا غِشّا فى أمر قريش لا يزُول ، وحقدًا عليها لا يحُول ، فقال ابن عباس : مَهْلًا يا أمير المؤمنين !

---

(١) جخف : تكبر .
(٢) الشعر والخبرإلى هنا، فى ديوان زهير وشرحه ٢٨١ـ٢٨٣
(٣) سورة الأحزاب ١٩
(٤) سورة ن ٥
(٥) سورة الشعراء ٢١٥
(٦) سورة القصص ٦٨ .

لا تنسُب هاشماً إلى الغشّ ، فإنّ قلوبهم من قلب رسول الله الذى طهّره الله وزكّاه ،وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى لهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً ﴾(١) ؛ وأما قولك : «حقداً» فكيف لايحقد من غُصِبَ شيئه، ويراه فى يد غيره !

فقال عمر : أما أنت يابن عباس ، فقد بلغنى عنك كلامٌ أكره أن أخبرك به ، فتزولَ منزلتُك عندى ، قال : وما هوَ يا أمير المؤمنين ؟ أخبرنى به ، فإنْ يكُ باطلاً فمثلى أماطَ الباطلَ عن نفسه ، وإنْ يكُ حقّاً فإنّ منزلتى عندك لا تزولُ به .

قال : بلغنى أنّك لا تزال تقول: أُخِذَ هذا الأمر منك حسداً وظلما . قال: أمّاقولك يا أمير المؤمنين : « حسداً » ، فقد حسد إبليس آدم ، فأخرجه من الجنّة ، فنحن بنو آدم المحسود .

وأما قولك : « ظلما » فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقّ من هو !

ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ، ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول الله ، واحتجّت قريش على سائر العرب بحقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فنحن أحقُّ برسول الله من سائر قريش .

فقال له عمر : قم الآن فارجع إلى منزلك . فقام ، فلمّا ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إنّى على ما كان منك لراعٍ حقك !

فالتفت ابن عباس فقال : إنّ لى عليك يا أمير المؤمنين وعلى كلّ المسلمين حقّاً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ ، ومَنْ أضاعه فحقّ نفسه أضاع . ثم مضى .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

فقال عمر لجلسائه : واهاً لابن عباس ! مارأيته لاحى أحداً قط إلّا خصمه !

* * *

لما توفّيَ عبد الله بن أُبيّ ، رأس المنافقين فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء ابنه وأهله ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلِّيَ عليه ، فقام بين يدى الصفّ يريد ذلك ، فجاء عمر فجذبه من خلفه ، وقال : ألم يَنْهَكَ الله أن تصلّيَ على المنافقين ! فقال: إنى خُيِّرت فاخترت ، فقيل لى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لهم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾[1]، ولو أنّى أعلم أنّى إذا زدت على السبعين غفر له لزدت . ثم صلى رسول الله عليه ومشى معه ، وقام على قبره .

فعجب الناس من جراءة عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فلم يلبث الناس إلّا أن نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ.. ﴾[1] فلم يصلّ عليه السلام بعدها على أحدٍ من المنافقين[2] .

* * *

وروى أبو هريرة، قال : كنا قعوداً حولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى نفرٍ ، فقام من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، وخشينا أن يقطع دوننا فقُمْنا ـ وكنت أولَ مَنْ فزع ـ فخرجت أبتغيه حتى أتيتُ حائطاً[3] للأنصار لقوم من بنى النّجار ، فلم أجدله بابا إلّا ربيعا ، فدخلت فى جوف الحائط ـ والربيع الجدول ـ فدخلت منه بعد أن احتفرْتُه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أبو هريرة ! قلت : نعم ، قال : ماشأنك ؟ قلت : كنتَ بين أظهرنا ، فقمت فأبطأت عنّا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، ففزعنا ـ وكنتُ أوّل من فزِع ـ فأتيتُ هذا الحائطفاحتفرْتُه كما يحتفرُ الثعلب ، والناس من ورائى .

---

(١) سورة التوبة ٨٠ ، ٨٤ (٢) الرياض النضرة ١ : ١٤٠
(٣) الحائط هنا : البستان .

فقال : ياأبا هريرة ، اذهب بنعليّ هاتين ، فمن لقيته وراءهذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله ، مستيقنا بها قلبُه ، فبشّره بالجنّة . فخرجت ، فكان أوّلَ من لقيت عمر ، فقال : ماهذان النَّعلان ؟ قلت : نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى بهما ، وقال : مَنْ لقيته يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقناً بها قلبُه ، فَبَشِّرْه بالجنة .

فضرب عمر فى صدرى فخررت لاسْتِي ، وقال : ارْجِعْ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم .

فأجهشتُ بالبكاء راجعاً ، فقال رسول الله : مابالك ؟ قلت : لقيتُ عمر فأخبرته بالذى بعثتَنِي به ، فضرب صدرِى ضربةً خررت لاسْتِي ، وقال : ارجع إلى رسول الله .

فخرج رسول الله ، فإذا عمر ، فقال : ماحملك ياعمر على مافعلت؟ فقال عمر : أنت بعثت أبا هريرة بكذا ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعلْ ، فإنّى أخشى أن يتّكل الناس عليها فيتركوا العمل ، خَلّهم يعملون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلّهم يعملون .

* * *

وروى أبو سعيد الخُدْرىّ ، قال : أصابت النّاسَ مجاعةٌ فى غزاة تبوك ، فقالوا : يارسول الله ، لوأذنتَ لنا فذبحنا نواضِحَنا[1] ، وأكلنا شحمَها ولحمَها ! فقال : افعلوا ، فجاء عمر فقال : يارسول الله ، إنهم إن فعلوا قلّ الظّهر ، ولكن ادعهم بفضَلات أزْوادهم فاجمعها ، ثم ادعُ لهم عليها بالبركة ، لعل الله يجعل فى ذلك خيرا .

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه ؛ ثم استعمل فى كل بعير ، وإن لم يحمل الماء .

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأكل الخلق الكثير من طعام قليل ، ولم تُذبح النواضح .

* * *

وروى ابن عباس رضى الله عنه أن رجلا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكر له ذنبا أذنبه ، فأنزل الله تعالى فى أمره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾[1] فقال : يارسول الله ، لى خاصّة ، أم للناس عامّة !

فضرب عمر صدره بيده وقال : لا ، ولا نُعمى عين ! بل للنّاس عامّة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل للناس عامة .

* * *

وكان عمر يقول : وافقنى ربّى فى ثلاث : قلت : يارسول الله ، لواتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى ؟ فنزلت : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[2] .

وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر ، فلو أمرتهنّ أن يحتجبن ! فنزلت آية الحجاب .

وتمالأ عليه نساؤه غيرة ، فقلت له : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾[3] ؛ فنزلت بهذا اللفظ[4] .

* * *

وقال عبد الله بن مسعود : فَضَل عمر النّاس بأربع : برأيه فى أسارى بدر ، فنزل القرآن بموافقته : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾[5] ، وبرأيه فى حجاب نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ

(١) سورة هود ١١٤
(٢) سورة البقرة ١٢٥
(٣) سورة التحريم ٥
(٤) الرياض النضرة ١ : ٢٤٠
(٥) سورة الأنفال ٦٧

مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[1] وبدعوة النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم أيّد الإسلام بأحدِ الرجلين » ، وبرأيه في أبي بكر ، كان أول مَنْ بايعه[2].

***

وروت عائشة قالت : كنتُ آكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حَيْساً[3] قبل أن تنزل آية الحجاب ، ومرّ عمر فدعاه فأكل ، فأصابت يده إصبعي ، فقال : حَسِّ[4] لوأطاعُ فيكنّ مارأتـكنّ عين ! فنزلت آية الحجاب[5].

***

جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ، فقالا : ياخليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سَبِخة ليس فيها كلأٌ ولا منفعة ، فإنْ رأيت أن تُقطعناها ، لعلّنا نحرثُها أو نزرَعها ! ولعلّ الله أن ينفع بها بعداليوم ! فقال أبو بكر لمن حوله من الناس المسلمين: ماترون ؟ قالوا : لابأس ، فـكتب لهما بها كتابا ، وأشهد فيـه شهودا . وعمر ما كان حاضرا ، فانطلقا إليه ليشهد في الـكتاب ، فوجداه قائما يهنأ[6] بعيرا ، فقالا : إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لنا هـذا الـكتاب ، وجئناك لتشهد على مافيه ، أفتقرؤه أم نقرؤه عليك ؟ قال : أعلى الحال التي تريان ! إن شئتما فاقرآه ، وإن شئتما فانتظرا حتّى أفرغ .

قالا : بل نقرؤه عليك ، فلمّا سمع مافيه ، أخذه منهما، ثم تفَل فيه ، فمحاه ، فتذامرا وقالا مقالة سيّئة .

---

(١) سورة الأحزاب ٥٣

(٢) الرياض النضرة ١ : ٢٠٢ (٣) الرياض النضرة : « حيساً في قعب » .

(٤) قال المحب الطبري : « حس ، هي بكسر السين والتشديد : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه مامضه وأحرقه كالجمرة والضربة ونحوها . (٥) الرياض النضرة ١ : ٢٠٢

(٦) يهنأ بعيره : يطلبه بالقطران علاجاً له من الجرب .

فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يتألّفكما والإسلام يومئذ ذَليل ،وإنّ الله تعالى قد أعزّ الإسلام ، فاذهبا فاجْهَدا جهدكما ، لا رَعى الله عليكما إن رعيتما !

فذهبا إلى أبي بكر ، وهما يتذمران ، فقالا : والله ماندرى أنت أميرٌ أم عمر ؟ فقال : بل هو لو شاء كان .

***

وجاء عمر وهو مغضَب ، حتى وقف على أبي بكر ، فقال : أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتَها هذين الرّجُلين، أهي لك خاصّة ، أم بين المسلمين عامّة ! فقال : بين المسلمين عامّة ، قال : فما حمَلك على أن تخصّ بها هذين دون جماعة المسلمين : قال : استشرتُ الذين حولي ، فأشاروا بذلك ، فقال: أفكلّ المسلمين أوسعتَهم مشورة ورضاً ! فقال أبو بكر : فلقد كنتُ قلت لك : إنّك أقوى على هذا الأمر منّي ، لكنّك غلبتَنِي !

***

لمّا كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلم كتابَ الصُّلح في الحديبية بينَه وبين سُهيل ابن عمرو ، كان في الكتاب أنّ من خَرَج من المسلمين إلى قريش لا يُردّ ، ومَنْ خرج من المشركين إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُرَدّ عليهم ، فغضِب عمر وقال لأبي بكر : ماهذا يا أبا بكر ! أيردّ المسلمون إلى المشركين ! ، ثم جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجلس بين يديْه ،وقال يارسولَ الله ، ألستَ رسولَ الله حقّاً ! قال : بلى ، قال : ونحن المسلمون حقّاً ! قال : نعم ، قال : وهم الكافرون حقّاً ! قال : نعم ، قال : فعلامَ نعطِي الدنيّة في ديننا ! فقال رسول الله : أنا رسول الله، أفعل مايأمرُني به، ولن يضيّعَني .

فقام عمر مغضَبا ، وقال : لو أجد أعوانا ما أعطيتُ الدنيّة أبدا . وجاء إلى أبي بكر

فقال له : ياأبا بكر ، ألم يكن وعَدنا أننا سندخل مكّة ، فأين ماوعدنا به ؟ فقال أبو بكر : أقال لك : إنّه العام يدخلهـا ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلها، فقال : فما هذه الصحيفة التى كتبت ؟ وكيف نعطِى الدنيّة من أنفسنا ! فقال أبو بكر : ياهذا ، الزم غرزَه [١]، فوالله إنّه لَرَسولُ الله ، وإن الله لا يضيّعهُ .

فلمـا كان يوم الفتح وأخـذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم مفتاح الـكعبة ، قال : ادعوا لِى عمر ، فجاء فقال: هذا الذى كنتُ وعدتُـكم به [٢] !

* * *

لمّـا قُتِل المشركون يوم بدر أُسِرَ منهم سبعون أسيراً ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبا بكر وعمر ، فقـال أبو بكر : يارسولَ ، هؤلاء بنو العمّ والعشـيرة والإخوان ، وأرى أن تأخـذ منهم الفِدْية ، فيكون ماأخذنا منهم قوة لنا على المشركين ، وعسى أن يهديَهم الله بعد اليوم ، فيكونوا لنا عذراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ماتقول أنت ياعمر ؟ قال : أرى أن تمـكننى من فلان ــ قريب لعمر ــ فأضرب عنقه ، وتمـكن عليا من عَقِيل ، فيضرب عنقه ، وتمـكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين. اقتلهم يارسول الله ، فإنّهم صناديدهم وقادتهم. فلم يهوَ رسول الله ماقاله عمر .

قال عمر : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قاعداً وأبو بكر ، وهما يبكيان ، فقلت : مايبـكيـكما ؟ حدّثانى ، فإن وجدت بكاء بكيت وإلّا تباكيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبـكى لأخذ الفداء ، لقد عرض علىّ عذابـكم أدنى من هذه الشجرة ــ لشجرة قريبة منه .

---

(١) الزم غرزه ، أى أمره ونهيه

(٢) الرياض النضرة ٢ : ٤٤

قال عبد الله بن عمر : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كِدْنا أن يصيبنا شرٌّ في مخالفة عمر .

* * *

وقال عُمر في خلافته : لئن عشتُ إن شاء الله لأسيرنّ في الرعيّة حولًا ، فإني أعلمُ أنَّ للناس حوائجَ تقتطع دوني ، أمّا عمّا لهم فلا يرفعونها إليّ ، وأمّا هم فلا يصلون إليّ . أسيرُ إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيمُ بها شهرين ، ثم أسيرُ إلى مصر فأقيمُ بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيمُ بها شهرين ، ثم إلى البصرة فأقيمُ بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا !

* * *

وقال أسْلَمَ : بعثني عمر بإبل من إبل الصّدقة إلى الحِمَى ، فوضعت جهازي على ناقةٍ منها كريمة ، فلمّا أردتُ أن أصدرها قال : اعرضها عليّ ، فعرضتها عليه ، فرأى متاعي على ناقة حسناء ، فقال : لا أمّ لكَ ! عَمدت إلى ناقة تُغني أهلَ بيت من المسلمين ! فهلّا ابن لَبون[1] بوّال ، أو ناقة شَصوص[2] !

* * *

وقيل لعمر : إنّ ههنا رجلاً من الأحبار نَصرانيًا ، له بصر بالديوان ، لو اتّخذته كاتبا! فقال : لقد اتّخذتُ إذاً بطانةً من دون المؤمنين !

* * *

قال ، وقد خطب الناس : والذي بعث محمداً بالحق لو أنّ جملا هَلَك ضَيَاعا بشطّ الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب .

(١) ابن اللبون : ولد الناقة إذا كان في العام الثاني .

(٢) الشصوص : الناقة القليلة اللبن .

قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى بآل الخطاب نفسه ، مايعنى غيرها .

***

وكتب إلى أبى موسى : إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر ، فأكرم مَنْ قبلك من وجوه النّاس ، وبحسب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصَف فى الحكم وفى القَسْم .

***

أتى أعرابىّ عمر ، فقال : إنّ ناقتى بها نَقَباً ودَبَراً ، فاحملنى ، فقال له : واللهما ببعيرك من نَقَبٍ(١) ولا دَبَر(٢) ، فقال:

أقسم بالله أبو حفصٍ عُمَرْ ... مامَسّها مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبَرْ

* فاغفر له اللهمّ إن كان فَجَرْ *

فقال عمر : اللهم اغفر لى ، ثم دعاه فحمله .

***

جاء رجل إلى عمر وكانت بينهما قرابة يسأله ، فزَبره(٣) وأخرجه ، فكلّم فيه، وقيل : يا أميرَ المؤمنين زبرتَه وأخرجتَه . قال : إنّه سألنى من مال الله ، فما معذرتى إذا لقيتُه ملكا خائنا ؟ فلو سألَنِى من مالى !

ثم بعث إليه ألف درهم من ماله .

***

(١) نقب البعير : حفى ، وقيل : رقت أخفافه .
(٢) الدبر : إصابة البعير بالدبرة ، وهى قرحة من الرحل .
(٣) زبره : نهره .

وكان يقول فى عمّاله : اللهمّ إنّى لم أبعثهم ليأخذوا أموال المسلمين ، ولا ليضربوا أبشارهم ، مَنْ ظلَمه أميرُه فلا إمْرة عليه دونى !

* * *

بينا عمر ذات ليلة يُعسّ ، سمع صوت امرأة من سطح وهى تنشد :

تَطَاوَلَ هذا اللّيل وازْوَرَّ جانِبُهْ ... وليس إلى جنْبِى خليلٌ ألاعِبُهْ

فــوالله لولا اللهُ تُخشى عواقبُهْ ... لَزُعْزِعَ من هَذَا السَّرِير جوانبُهْ

مخافة رَبِّى والحيــاء يصــدُّنِى ... وأُكرم بَعْلِى أن تُنَالَ مراكبُهْ

[ولـكنّنِى أخْشَى رقيباً موكَّلا ... بأنفسنا لا يفتُرُالدّهرَ كاتِبُهْ][1]

فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا صنعت ياعمر بنساء المدينة !

ثم جاء فضرب على حَفْصة ابنتِه ، فقالت : ماجاء بك فى هذه الساعة ؟ قال : أخبرِينى كم تصبر المرأة المُغِيبة عن بعلها ؟ قالت : أقصاه أربعة أشهر .

فلمّا أصبح كتب إلى أمرائه فى جميع النواحى ألّا تجمّر[2] البعوث ، وألّا يغيب رجلٌ عن أهله أكثر من أربعة أشهر[3] .

* * *

وروى أسلم ، قال : كنتُ مع عمر ، وهو يُعسُّ بالمدينة ، إذ سمع امرأةً تقول لبنتها : قومى يابنيَّة إلى ذلك اللبن بعدالمشرقين فامذُقيه[4] ، قالت : : أو ماعلمت ما كان من عزْمة أمير المؤمنين بالأمس ؟ قالت : وماهو ؟ قالت : إنّه أمر مناديا فنادى ألّا يُشاب اللبن بالماء ، قالت : فإنك بموضع لا يراك أمير المؤمنين ولا منادى أميرالمؤمنين ! قالت :

---

(١) من الرياض النضرة (٢) تجمر : تحبس فى الغزو

(٣) ابن الجوزى ٦٠ ، والرياض النضرة ٢ : ٥٨

(٤) امذقيه ، أى اخلطيه بالماء .

والله ما كنت لأطيعه فى الملأ ، وأعصيه فى الخلاء — وعمر يسمع ذلك — فقال : يا أسلمُ ، اعرف الباب ، ثم مضى فى عسّه ، فلمّا أصبح ، قال : يا أسلم ، امض إلى الموضع ، فانظر مَن القائلة ومَن المقول لها ؟ وهل لهما من بَعْل ؟

قال أسلم : فأتيت الموضع ، فنظرت فإذا الجارية أيّم ، وإذا المتكلّمة بنت لها ، ليس لهما رجل .

فجئت فأخبرته ، فجمع عمر ولده ، وقال : هلْ يريدُ أحدٌ أن يتزوّج فأزوّجه امرأة صالحة فتاةً ، ولو كان فى أبيكم حركة إلى النساء لم يسبقه أحد إليها ؟ فقال عاصم ابنه : أنا ، فبعث إلى الجارية فزوّجها ابنه عاصماً ، فولدت له بنتاً هى المكنّاة أمّ عاصم ، وهى أمّ عمر بن عبد العزيز بن مروان .

***

حجّ عمر فلما كان بضجنان[1] قال : لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، المعطى مايشاء لمن يشاء ، أذكُر وأنا أرعى إبل الخطّاب بهذا الوادى فى مَدْرعة صوف — وكان فظًّا يُتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت — وقد أمسيت اليوم وليس بينى وبين الله أحدٌ ثم تمثّل :

لا شىء مِمّا يُرَى تَبقَى بشاشتُه   يبقى الإله ، ويودِى المالُ والولَدُ[2]
لم تُغنِ عن هرمزٍ يوما خزائنُه   والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلَدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرّياحُ له   والإنس والجنّ فيما بينها بردُ
أين الملُوكُ التى كانت منازلُها   مِنْ كُلّ أوبٍ إليها راكب يَفِدُ
حوض هنالِكَ مورودٌ بلا كَذِبٍ   لابدّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

***

(١) ضجنان : موضع بناحية مكة .
(٢) الرياض النضرة ٢ : ٥٠

وروى محمد بن سيرين أنّ عمرَ فى آخر أيامه اعتراه نسيان حتى كان ينسى عددَ ركعات الصلاة ؛ فجعل أمامه رجلًا يلقّنه ، فإذا أومَى إليه أن يقوم أو يركع ، فعل .

***

وسمع عمر منشدا ينشد قول طَرَفة :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِى(١)
فمنهنَّ سَبقِى العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ(٢)
وكَرِّى إذا نادى المضاف مُحنّبا ... كسِيدِ الغَضَا نبّهته المتوسِّدِ(٣)
وتقصيرُ يوم الدَّجْن والدَّجْنُ معجِبٌ ... ببهكَنَةٍ تحتَ الطِّرافِ المُمَدَّدِ(٤)

فقال : وأنا لولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى ، لم أحفِلْ متى قام عُوّدى ؛ أن أجاهدَ فى سبيل الله ، وأن أضع وجهى فى التراب لله ، وأن أجالس قوماً يلتقطون طيّب القول كما يُلتقط طيّب التمر .

***

وروى عبد الله بن بُريدة ، قال : كان عمر ربّما يأخذ بيد الصبىّ ، فيقول : ادعُ لى ، فإنّك لم تُذْنب بعد !

***

وكان عمر كثير المشاورة ، كان يشاور فى أمور المسلمين حتى المرأة .

***

وروى يحيى بن سعيد ، قال : أمر عمر الحسينَ بن على عليه السلام أن يأتيه

(١) المعلقة ــ بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .
(٢) الكميت من الخمر : التى تضرب إلى السواد .
(٣) كرى : عطفى . والمحنب : من التحنيب ، وهو أحديداب فى وظيفى يدى الفرس . والسيد : الذئب . والغضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب .
(٤) الدجن : إلباس الغيم السماء . والبهكنة : التامة الخلق .

فى بعض الحاجة ، فلقىَ الحسين عليه السلام عبدَ الله بن عمر ، فسأله من أين جاء ؟ قال : استأذنت على أبى فلم يأذن لى ، فرجع الحسين ولقيَه عمر من الغد ، فقال : مامنعك ياحسينُ أن تأتيَنى ؟قال : قد أتيتُك ،ولكن أخبرَنى ابنُكعبد الله أنّه لم يؤذَن لهعليك، فرجعتُ ، فقال عمر : وأنت عندى مثله ! وهل أنبتَ الشّعر على الرأس غيرُكم !

***

قال عمر يوما ، والناس حوله : واللهِ ماأدرى أخليفة أنا أم ملِك ! فإن كنتُ ملِكاً ، فقد ورّطتُ فى أمرٍ عظيم ، فقال له قائل : يا أميرَ المؤمنين إنّ بينهما فرقا ، وإنك إن شاء الله املى خير ، قال : كيف ؟ قال[1] : إن الخليفة لايأخذ إلا حقّا ولايضعه إلا فى حقّ ، وأنت بحمد الله كذلك ، والمَلِك يعسِف النّاس ويأخذ مال هذا فيعطيه هذا .

فسكت عمر وقال : أرجو أن أكونه .

***

وروى مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، أن عمر تعلّم سورة البقرة فى اثنتى عشرةسنة، فلمّا ختمها نحر جَزُوراً .

وروى أنس ، قال : كان يُطرح لعمر كلّ يوم صاعٌ من تمر ، فيأكله حتى حشَفه .

***

وروى يوسف بن يعقوب الماجشون ، قال: قال لى ابن شهاب ولأخ لى وابن عمٍّ لنا، ونحن صبيان أحداث : لاتحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإنّ عمر كان إذا نزَل به الأمر المعضل ، دعا الصبيان فاستشارهم، يبتغى حِدّة[2] عقولهم .

***

(١) ب : « قلت » : والصواب ما أثبته من ا .   (٢) ساقطة من ب .

وروى الحسن ، قال : كان رجل لا يزال يأخذ من لحية عمر شيئاً فأخذ يوماً من لحيته؛ فقبض على يده فإذا فيها بشيء ، فقال : إن المَلَق من الـكذب ثم عَلاه بالدِّرَّة .

***

انقطع شِسْع نعل عمر ، فاسترجع [1] وقال : كلّ ماساءك فهو مصيبة .

***

وقف أعرابيّ على عمر ، فقال له :

يابن خطّابٍ جُـزيتَ الجنّـهْ اكْسُ بُنَيَّاتِي وأمَّهُنَّهْ

* أقسم باللهِ لتفعلنّه *

فقال عمر : إن لم أفعل ، يكون ماذا ؟

قال :

* إذَنْ أبا حَفْصٍ لأمضينّـــهْ *

فقال : إذا مضيت يكون ماذا ؟

قال :

تـكون عن حالي لتُسألنّهْ يوم تـكونُ الأعطياتُ جُنَّهْ

والواقف المسئـولُ يُبْهَتَنَّهْ إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنَّـهْ

فبـكى عمر ، ثم قال لغلامه : أعطه قميصي هذا لذلك اليوم، لا لِشعره ، والله ماأملك ثوباً غيره .

***

وروى ابن عباس قال : قال لي عمر ليلة : أنشِدْني لشاعر الشعراء ، قلت : ومَنْ هو ؟ قال : زهير الذي يقول :

---

(١) استرجع أي قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

إذَا ابْتَدَرَتْ قيسُ بن عَيلان غايةً   من المجدِ مَنْ يسبق إليها يسودِ [1]

فأنشدته حتى برَق الفجر ، فقال : إيهاً الآن ! اقرأ ياعبد الله ، قلت : ما أقرأ؟ قال: سورة الواقعة .

* * *

سمع عمر صوت بكاء فى بيت ، فدخل وبيده الدِّرّة ، فمال عليهم ضربا حتى بلغ النائحة ، فضربها حتى سقط خِمارها ، ثم قال لغلامه : اضرب النائحة ، ويلك ! اضربها فإنها نائحةٌ لاحرمةَ لها ، لأنها لاتبكى بشجوكم ، إنها تُهَرِيق دموعَها على أخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم ، وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر ، وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه .

* * *

ومن كلامه : من اتّجَرَ فى شىء ثلاث مرات فلم يصِب فيه ؛ فليتحوّل عنه إلى غيره.

ومن كلامه : لو كنتُ تاجراً لما اخترت على العطر شيئاً ، إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه.

ومن كلامه : تفقّهوا قبل أن تسوَّدُوا .

ومن كلامه : تعلّموا المهنة ، فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته .

ومن كلامه : مكسبة فيها بعض الدناءة ، خير من مسألة الناس .

ومن كلامه : أعقلُ الناس أعْذَرُهم لهم .

* * *

رأى عمر ناسا يتبعون أُبىّ بن كعب ، فرفع عليه الدرّة ، فقال: ياأميرَ المؤمنين،اتق الله ، قال : فما هذه الجموع خلفك يابن كعب ! أماَ علمتَ أنها فتنة للمتبوع ، مذلّة للتابع.

* * *

جاء رجلٌ إلى عمر ، فقال : إنّ بنتاً لى وأريتُها فى الجاهليّة ، فاستخرجناها قبل أن

(1) ديوانه ٢٣٤.

تموتَ ، فأدركت معنا الإسلام ، فأسلمت ، ثم قارفتْ حدًّا من حدود الله ، فأخذت الشّفرة لتذبحَ نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها ، فداويناها حتى برئت ، وتابت توبةً حسنة ، وقد خطبها قوم ، أفأخبرهم بالذى كان من شأنها ؟ فقال عمر : أتعمِد إلى ما ستره الله فتبديَه ، والله لئن أخبرتَ بشأنها أحداً لأجعلنّك نكالا لأهل الأمصار ! أنكِحْها نكاح العفيفة السليمة .

* * *

أسلم غيلان بن سلَمة الثقفيّ عن عشر نسوة ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : اختَرْ منهنّ أربعا ، وطلّق ستا ، فلمّا كان على عهد عمر طلّق نساءه الأربع ، وقسّم ماله بين بنِيه ، فبلَغ ذلك عمر ، فأحضره فقال له : إنى لأظنّ الشيطان فيما يسترق من السمع ،سمع بموتك فقذفه فى نفسك ، ولعلك لا تمكث إلا قليلا ! وايمُ الله لتراجعنّ نساءك ، ولترجعنّ فى مالك ، أو لأورّثنهن منك ، ولآمرنّ بقبرك فيرجَم ، كما رجِم قبر أبى رِغال .

* * *

وقال عمر : إن الخرْق فى المعيشة أخوَف عندى عليكم من العِيال ، إنّه لا يبقى مع الفساد شىء ، ولا يقلّ مع الإصلاح شىء .

وكان عمر يقول : أدِّبُوا الخيل ، وانتضِلوا ، واقعدوا فى الشمس ، ولا يجاورنّكم الخنازير ، ولا تقعدوا على مائدةٍ يُشرب عليها الخمر ، أو يرفع عليها الصليب ، وإياكم وأخلاقَ العجم ، ولا يحلّ لمؤمنٍ[1] أن يدخل الحمّام إلّا مؤتزراً ، ولا لامرأة أن تدخُلَ الحمّام إلا من سَقَم ، فإذا وضعت المرأة خِمارها فى غير بيت زوجها ، فقد هتكت السِّتر بينها وبين الله تعالى .

(١) ا : « لأحد » .

وكان يكره أن يتزيَّا الرّجال بزيّ النساء ، وألّا يزال الرّجل يُرى مكتحلا مُدَّهنا ، وأن يحُفّ لحيته وشاربه كما تحُفّ المرأة .

* * *

سمع عمر سائلا يقول : مَنْ يعشّى السائل ؟ فقال : عَشّوا سائلكم ، ثم جاء إلى دار إبل[1] الصّدقة يعشّيها ، فسمع صوته مرة أخرى : من يعشّي السائل؟ فقال : ألم آمركم أن تعشوه ! فقالوا : قد عشّيناه ، فأرسل إليه عمر ، وإذا معه جرابٌ مملوء خبزا ، فقال: إنك لست سائلا ، إنما أنت تاجر تجمع لأهلك ، فأخذ بطَرَف الجراب فنبذَه بين يدَيِ الإبل.

* * *

وقال عمر : من مَزَح استُخِفّ به ، وقال : أتدرُون لم سمّى المُزاح مُزاحا ؟ لأنه أزاح الناس عن الحقّ .

ومن كلامه : لن يعطَى أحدٌ بعد الكفر بالله شرًّا من زوجةٍ حديدة اللسان ، سيّئة الخُلق ، عقيم . ولن يعطَى أحدٌ بعد الإيمان بالله خيرا من زوجةٍ كريمة ودود وَلُود ، حَسَنة الخُلق .

وكان يقول : إن شقاشق الكلام من شقاشق اللسان ، فأقلّوا ما استطعتم .

ونظر إلى شابّ قد نكّس رأسه خشوعا ، فقال : ياهذا ، ارفع رأسك ، فإنّ الخشوع لا يزيد على مافي القلب ، فمن أظهر للخَلْق خشوعا فوق مافي قلبه ، فإنما أظهر نفاقا .

ومن كلامه : إنّ أحبّكم إلينا مالم نركم أحسنكم أسماء ، فإذا رأيناكم فأحبّكم إلينا أحسنكم أخلاقا ، فإذا بلوناكم فأحبكم إلينا أعظمكم أمانة ، وأصدقكم حديثا .

* * *

وكان يقول : لا تنظروا إلى صلاة امرئ ولا صيامِه ، ولكن انظروا إلى عقله وصِدْقه .

---

(١) ب : « أهل » تحريف ، وصوابه من ا

ومن كلامه: إنّ العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمَته[1]، وقال له: انتعش نعشك الله ! فهو فى نفسه صغير ، وفى أعينِ الناس عظيم . وإذا تكبّر وعتاً وهَضه[2] الله إلى الأرض، وقال: اخْسَأْ ، خَسَأَك الله ! فهو فى نفسه عظيم ، وفى أعين الناس حقير ، حتى يكون عندهم أحقر من الخنزير .

وقال : الإنسان لا يتعلّم العلم لثلاث ، ولا يتركه لثلاث : لا يتعلّمه ليمارِيَ به ، ولا ليباهيَ به ، ولا ليرائيَ به. ولا يتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل بدلا منه .

وقال : تعلّموا أنسابكم تَصِلوا أرحامكم .

وقال : إنّى لا أخاف عليكم أحد الرّجُلين ، مؤمنا قد تبيّن إيمانُه ، وكافرا قد تبيّن كفره ، ولكن أخاف عليكم منافقا يتعوّذ بالإيمان ويعمل بغيره .

ومن كلامه : إن الرّجف[3] من كثرة الزنا ، وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجوْر .

وقال فى النساء : استعينوا عليهنّ بالعُرْيِ ، فإن إحداهُنّ إذا كثرتْ ثيابها، وحسنت زينتها ، أعجبها الخروج .

ومن كلامه : إن الجِبْت السّحر ، وإنّ الطاغوت الشيطان ، وإنّ الجبن والشجاعة غرائز تكون فى الرجال ، يقاتل الشجاع عمّن لا يعرف ، ويفرّ الجبان عن أمّه ، وإن كرَم الرّجل دينه ، وحسبَ الرّجُل خُلُقه ، وإن كان فارسيًّا أو نبطيًّا .

وقال : تفهّموا العربيّة ، فإنّها تشحذ العقل ، وتزيد فى المروءة .

وقال : النّساء ثلاث : امرأة هيّنة ليّنة عفيفة ، وَدُود ولود ، تعين بعلها على الدّهر، ولا تعينُ الدّهر على بعلها ، وقلّما تجدها . وأخرى وِعاء للولد لا تزيد على ذلك شيئا ، والثالثة غلٌّ قَمِلٌ ، يجعله الله فى عُنُق مَنْ يشاء ، وينزعه إذا شاء .

---

(١) الحكمة، بالتحريك: الشأن والأمر . (٢) الوهضة : المطمئن من الأرض (٣) الرجف : الاضطراب .

والرجال ثلاثة : رجل عاقل يوردِ الأمور ويصدرها، فيحسن إيراداً وإصداراً، وآخر يشاور الرجال ، ويقف عند آرائهم ، والثالث حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يُطيع مرشداً.

* * *

وقال : مايمنعكم إذا رأيتم السّفيه يخرق أعراضَ النساء أن تُعرّبوا [١] عليه ، قالوا : نخاف لسانه ، قال : ذاك أدنَى ألّا تكونوا شهداء .

ورأى رجلاً عظيمَ البطن ، فقال : ماهذا ؟ قال : بركة من الله .

وقال : إذا رُزقت مودّة من أخيك فتشبّث بها ما استطعت .

وقال لقوم يحصدون الزرع : إنّ الله جعل ما أخطأت أيديكم رحمةً لفقرائكم ، فلا تعودوا فيه .

وقال : ماظهرت قطُّ نعمة على أحدٍ إلا وجدتَ له حاسداً ، ولو أنّ امرأً كان أقوم من قِدْح ، لوجدتَ له غامزا .

وقال : إيّاكم والمدحَ ، فإنه الذّبح .

وقال لقَبيصة بن ذؤيب : أنت رجل حديث السنّ ، فصيح اللسان . وإنه يكون فى الرجل تسعة أخلاق حسنة ، وخلُق واحد سيّئ ، فيغلب الواحد التسعة ، فتوقَّ عثراتِ [٢] السيّئات .

وقال : بحسب امرئٍ من الغيّ أن يؤذيَ جليسه ، أو يتكلّف مالا يعنيه ، أو يعيب الناس بما يأتى مثله ، ويظهر له منهم مايخفى عليهم من نفسه .

وقال : احترسوا من النّاس بسوء الظنّ .

وقال فى خطبة له : لا يعجبنّكم من الرجل طنطنته ولكن مَنْ أدّى الأمانة ، وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرّجل .

وقال : الراحة فى مُهاجرة خلَطاء السوء .

---

(١) التعريب : أن يتكلم بالكلمة فيفحش فيها أو يخطىء ، فيقول له الآخر : ليس كذا ولكنه كذا للذى هو أصوب . كذا فسره صاحب اللسان ، وذكر قول عمر .

(٢) ب : « عشرات » ؛ وما أثبته من ا .

وقال : إنّ لؤماً بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه .

وأثنى رجل على رجل عند عمر ، فقال له : أعاملتَه ؟ قال :لا ، قال : أصحبتَه في السفر؟ قال : لا ، قال : فأنت إذاً القائل مالا يعلم .

وقال : لأن أموت بين شُعبتي رَحْلي ، أسعى في الأرض ،أبتغي من فضل الله كَفاف وجهي ، أحبّ إلى من أن أموت غازياً .

* * *

وكان عمر قاعداوالدِّرّة معه ، والناس حوله ،إذ أقبل الجارودالعامريّ ، فقال رجل: هذا سيّد ربيعة ، فسمعها عمر ومَن حوله ، وسمعها الجارود ، فلمّا دنا منه ، خفَقَه بالدِّرّة ! فقال : مالي ولك ياأمير المؤمنين ! قال : ويلك ! سمعتَها ! قال : وسمعتُها فـه ! قال : خشيت أن تخالط القوم ويقال : هذا أمير ، فأحببتُ أن أطأطئْ منك .

وقال : من أحبّ أن يصل أباه في قبره ، فليصلْ إخوان أبيه من بعده .

وقال : إنّ أخوَف ماأخاف أنْ يكون ، إعجابُ المرء برأيه ، فمن قال : إنّي عالم فهو جاهل ، ومن قال : إنّي في الجنّة فهو في النار .

* * *

وخرج للحجّ فسمع غناء راكبٍ يغنّي وهو مُحرِم ، فقيل : ياأمير المؤمنين ، ألاتنهاه عن الغناء وهو محرِم ؟ فقال : دعوه ، فإنّ الغناء زادُ الراكب .

* * *

وقال : يُثْغِر[1] الغلام لسبع ، ويحتلم لأربع عشرة ، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، ويكمل عقله لثمانٍ وعشرين ، ويصير رجلا كاملا لأربعين .

* * *

(١) أثغر الغلام : أي سقطت أسنانه

وروى سعيد بن المسيّب ، أنّ عمر لما صدَر من الحجّ فى الشهر الذى قتل فيه ، كوّم كَوْمةً من بطحاء ، وألقى عليها طرف ثوبه ، ثمّ استلقى عليها ؛ ورفع يديه إلى السّماء ، وقال : اللهمّ كبِرت سنّى ، وضعفت قوّتى ، وانتشرت[1] رعيّتى ، فاقبضنى إليك غيرَ مضيّع ولا مفرّط .

ثم قدم المدينة فخطب الناس ، فقال :

أيها النّاس قد فرضتُ لكم الفرائض ، وسَنَنْتُ لكم السُّنَن ، وتركتكم على الواضحة ، إلّا أن تضلّوا بالناس يمينا وشمالا . إيّاكم أن تنهوا عن آية الرّجْم ، وأن يقول قائل : لانجد ذلك حدًّا فى كتاب الله ، فقد رأيت رسول الله رجم ورجَمْنا بعده ، ولولا أن يقول الناس : إنّ ابن الخطاب أحدث آيةً فى كتاب الله لكتبتُها ، ولقد كنا نقرؤها : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة » ؛ فما انسلخ ذو الحجة حتى طُعِن .

* * *

دُفع إلى عمرَ صكٌّ[2] محلّه فى شعبان ، فقال : أىّ شعبان ؟ الّذى مضى أم الذى نحن فيه ؟ ثمّ جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : ضَعُوا للنّاس تاريخا يرجعون إليه ، فقال قائل منهم : اكتبُوا على تاريخ الرّوم ، فقيل : إنّه يطول ، وإنّه مكتوبٌ من عهد ذى القرنين . وقال قائل : بل اكتبُوا على تاريخ الفُرْس ، [فقيل إن الفرس][3] كلّما قام ملك طرحوا ما كان قبله . فقال علىّ عليه السلام : اكتبُوا تاريخكم منذ خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم من دَار الشّرك إلى دار النّصرة ، وهى دار الهجرة ، فقال عمر : نعم ما أشرت به ، فكتب للهجرة ، بعد مضىّ سنتين ونصف من خلافة عمر[4] .

---

(١) انتشرت الرعية : أى تفرقت فى شتى النواحى .

(٢) الصك : كتاب الإقرار بالمال . (٣) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٤) الخبر فى تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٣ (الحسينية) ، وفيه : « فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فوجدوه عشر سنين ، فكتب التاريخ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم » .

قال المؤرخون : إنّ عمر أوّل مَنْ سنّ قيام رمضان فى جماعة ، وكتب به إلى البلدان ، وأقام الحدّ فى الخمر ثمانين ، وأحرق بيت رُوَيشد الثقفىّ ، وكانَ نبّاذاً ، وأقام فى عمله بنفسه . وأوّل مَنْ حمل الدِّرّة وأدّب بها . وقيل بعده : كانت دِرّة عمر أهيَب من سيف الحجاج .

وهو أوّل مَنْ فتح الفتوح ، فتح العراق كلّه : السّواد والجبال وأذرَبيجان، وكوَر البصرة ، وكوَر الكوفة والأهواز ، وفارس ، وفتح الشّام كلّها ماخلا أجنادِين ، فإنها فُتِحت فى خلافة أبى بكر . وفتح كُور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية ، وقتله أبو لؤلؤة وخيله على الرّىّ .

وهو أوّل مَنْ مَسَح السّواد ووضع الخراج على الأرض ، والجزْية على جماجم أهل الذّمة فيما فتحه من البلدان ، وبلغ خراجُ السّواد فى أيامه مائة ألف ألف درهم وعشرين ألف ألف درهم بالوافية ، وهى وزن الدّينار من الذهب . وهو أوّل مَنْ مصّر الأمصار ، وكوّف الكوفة(١) ، وبصّر البصرة ، وأنزلها العرب ، وأوّل مَن استقضى القُضاة فى الأمصار ، وأوّل مَنْ دوّن الدواوين ، وكتب النّاس على قبائلهم ، وفرضَ لهم الأعطية ، وهو أوّل مَنْ قاسم العمّال وشاطرهم أموالهم ، وكان يستعمل قوماً ويدَع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ، وقال : أكره أن أدنّس هؤلاء بالعمل . وهو الّذِى هَدَم مسجد رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وزاد فيه ، وأدخل دار العباس فيما زاد . وهو الّذِى أخرج اليهود من الحجاز ، وأجلاهم عن جزيرة العرب إلى الشام. وهو الّذِى فتح البيت المقدس، وحضَر الفتح بنفسه . وهو الذى أخّر المقام إلى موضعه اليوم ، وكان مُلْصَقاً بالبيت. وحجّ بنفسه خلافتَه كلّها إلّا السّنَة الأولى ، فإنّه استخلف على الحجّ عبد الرحمن بن عوف. وهو

---

(١) فى اللسان عن المفضل : يقال : كوفوا هذا الرمل ، أى نحوه ، ومنه سميت الكوفة .

الذِي جاء بالحصى من العقيق فبسطه فى مسجد المدينة ، وكان النّاسُ إذا رفعوا رءوسهم من السجود نفضوا أيديَهم .

***

وروى أبو هريرة ، قال : قدِمتُ على عمر من عند أبي موسى بثمانمائة ألف درهم ؛ فقال لى : بماذا قدمت ؟ قلت : بثمانمائة ألف درهم ، فقال : ألم أقل لك إنّك يمانٍ أحمق ، ويحك! إنّما قدمتَ بثمانين ألف درهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنما قدِمت بثمانمائة ألف درهم ، فجعل يعجَب ويكرّرها ، فقال : ويحك! وكم ثمانمائة ألف درهم ؟ فعدَدْتُ مائة ألف ، ومائة ألف حتى بلغت ثمانية ، فاستعظم ذلك ، وقال: أطيِّبٌ هو ويحَك ! قلت : نعم ، فبات عمر ليلته تلك أرِقًا حتّى إذا نُودِىَ لصلاة الصبح ، قالت له امرأته : مانمتَ هذه الليلة ، قال: وكيف أنام وقد جاء الناسَ مالم يأتهم مثله منذ قام الإسلام ، فظنّت المرأة أنّها داهية ، فسألته ، فقال : مالٌ جَمّ ، حمله أبو موسى ، قالت : فما بالك ؟ قال : مايؤمِّنني لو متّ وهذا المال عندى لم أضعْه فى حقه ! فخرج يصلّى الصبح ، واجتمع النّاسُ إليه ، فقال لهم : قد رأيتُ فى هذا المال رأيًا فأشيروا علىّ ، رأيت أن أكيله للناس بالمكيال ، قالوا : لا يا أمير المؤمنين، قال : لا بل أبدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأهلِه ، ثم الأقرب فالأقرب ، فبدأ ببنى هاشم ، ثم ببنى المطّلب ، ثم بعبد شمس ونوفل ، ثمّ بسائر بطون قريش .

***

قسَم عمر مروطًا بين نساء المدينة فبقى مِرْطٌ[1] جيّد له فقال بعض من عنده : أعطِ هذا يا أمير المؤمنين ابنةَ رسول الله التى عندك ـ يعنون أمّ كلثوم ابنة علىّ عليه

---

(١) المرط ، بالكسر : كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به ، وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به .

السلام ـ فقال : أمّ سليط أحقّ به ، فإنها مِمَّن بايع رسول الله صلى عليه وسلم ، وكانت تَزْفِر لنا[١] [القِرب][٢] يوم أُحُد .

* * *

وروى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : خرجتُ مع عمر إلى السوق ، فلحِقته امرأة شابة ، فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، هَلَكَ زوجي ، وترك صِبْيَةً صغارا لا يُنْضِجون كُراعا[٣] ، لا زرع لهم ولا ضَرْع ، وقد خَشِيت عليهم الضّيْعة ، وأنا ابنة خِفاف بن أسماء الغِفَارِيّ ، وقد شهد أبي الحُديبيَة . فوقف عمر مَعها ولم يمضِ ، وقال : مرحبا بنسيبٍ قريب ! ثم انصرف إلى بعير ظهير[٤] كان مربوطا في الدّار ، فحمل عليه غِرَارتين ملأهما طعاما ، وجعل بينهما نفقة وثيابا ، ثم ناولها خِطامه وقال : اقتاديه فلن يفنَى هذا حتى يأتيكم الله بخير . فقال له رجل : لقد أكثرتَ لها ياأمير المؤمنين ! فقال : ثكلتك أمّك ! والله لكأنّي أرى أبا هذه وأخاها ، وقد حاصرا حصنا فافتتحاه . فافترقنا ، ثم أصبحنا نستفرِئ سُهْمانَنا فيه .

* * *

وروى الأوزاعيّ أنّ طلحة تبع عمر ليلةً ، فرآه دخل بيتا ثم خرج ، فلمّا أصبح ذهب طلحة إلى ذلك البيت ، فرأى امرأةً عمياء مقعدة ، فقال لها : مابال رجُلٍ أتاكِ الليلة ؟ قالت : إنّه رجلٌ يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلِحُني ، فقال طلحة : ثكلتْك أمّك ياطلحة ! تريد تَتَبُّع عمر !

خرج عمر إلى الشام ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابُه ، فأخبروه أنّ الوباء قد وقع بالشّام ، فقال لابن عباس : ادعُ لي المهاجرين ، فدعاهم فسألهم ، فاختلفوا عليه ، فقال بعضهم : خرجتَ لأمرٍ ولا نرى أن

(١) تزفر القرب : أي تحمل القرب مملوءة بالماء لتسق الناس . نهاية ابن الأثير واللسان ـ زفر .

(٢) من اللسان والنهاية .

(٣) الكراع : مستدق الساق : ويقال للضعيف الدفاع عن نفسه : ما ينضج كراعاً .

(٤) بعير ظهير : قوي .

ترجعَ عنه. وقال بعضهم : معك بقيّة النّاس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تقدِمَهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عنّى، ثم قال لابن عباس : ادعُ لى الأنصار ، فدعاهم فاستشارهم ، فاختلفوا عليه اختلافَ المهاجرين ، فقال لابن عباس : ادعُ لى مَنْ كان من مَشْيَخة قريش من مهاجِرة الفتح ، فدعاهم فقالوا بأجمعهم : نرى أن تَرْجِع بالنّاس ولا تقدِمهم على هـذا الوباء ، فنادى عمر فى الناس : إنى مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ ، فأصبحوا عليه ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدَر الله تعالى ! فقال عمر : لو غيرُكَ قالها ياأبا عبيدة ! نعمْ نفِرّ من قدَرِ الله إلى قدَرِ الله ، أرأيت لو كان لك إبلٌ فهبطت واديا له عُدْوتان ، إحداهما خِصْبة ، والأخرى جَدْبة ، أليس إنْ رعيتَ الخصْبة رعيتَها بقدَر الله ، وإن رعيت الجَدْبة رعيتَها بقدر الله ! فجاء عبد الرحمن بن عَوْف ــ وكان متغيّبا فى بعض حاجته ــ فقال : إنّ عندى مِنْ هذا علماً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا سمعتمُ به بأرضٍ فلا تُقدِموا عليه ، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » . فحمد عمرُ اللهَ عزّ وجلّ وانصرف إلى المدينة .

* * *

وروَى ابن عبّاس ، قال : خرجتُ مع عمر إلى الشّام فى إحـدى خرجاته ، فانفرد يوماً يسير على بعيره فاتبعتهُ ، فقال لى : يابنَ عباس ، أشكو إليك ابنَ عمّك ، سألتهُ أن يخرُج معى فلم يفعل ، ولم أزل أراه واجدا ، فيمَ تظنّ موجدته ؟ قلت : ياأمير المؤمنين ، إنّك لتعلم ، قال : أظنه لا يزال كئيبا لفوت الخلافة[1] ، قلت : هو ذاك ، إنه يزعُم أنّ رسول الله أراد الأمر له ، فقال : يابن عباس ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أمراً[2] ، وأراد

---

(١) كذا فى ، وفى ا : « على الخلافة » . (٢) ا : « ذلك » .

الله غيرَه ، فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مرادُ رسوله ، أوَكلَّما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم كان ! إنه أرادَ إسلامَ عمّه ولم يُرِدْه الله فلم يسلمْ !

وقد رُوِى معنى هذا الخبر بغير هذا اللفظ ، وهو قوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يذكره للأمر في مرَضِه ، فصددتُه عنه خوفاً من الفتنة ، وانتشار أمر الإسلام ، فعلم رسول الله مافى نفسى وأمسك ، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم .

* * *

وحدثني الحسين بن محمد السينيّ ، قال : قرأتُ على ظهر كتاب ، أنّ عمر نزلت به نازلة ، فقام لها وقعد ، وترنَّح لها وتقطّر(١) ، وقال لمن عنده : معشرَ الحاضرين ، ما تقولون في هذا الأمر ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزع ، فغضب وقال : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾(٢) ، ثم قال : أما والله إنى وإيّاكم لنعلم ابن بجدَتِهـا والخبيرَ بهـا ، قالوا : كأنك أردت ابن أبى طالب ! قال : وأنّى يعدَل بى عنه ، وهل طفحت حرّة مثله ! قالوا : فلو دعوتَ به يا أمير المؤمنين ! قال : هيهات ! إنّ هناك شمَخا من هاشم ، وأثرَةً من علم ، ولحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُؤتَى ولا يأتِي ، فامضو بنا إليه . فانقصَفُوا نحوه(٣) وأفْضَوْا إليه ، فألفَوْه في حائط له ، عليه تُبَّان(٤) ، وهو يتركّل(٥) على مسحاته ، ويقرأ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾(٦) إلى آخر السورة ، ودموعه تهمِي على خدّيه ، فأجهش النّاس لبكائه فبكَوْا ، ثمّ سكت وسكتوا ، فسأله عمر عن تلك الواقعة فأصدرَ جوابها ، فقال عمر : أما

---

(١) تقطر : شمخ برأسه كبراً .
(٢) سورة الأحزاب ٧٠ .
(٣) انقصفوا نحوه : اجتمعوا .
(٤) التبان : سراويل صغير .
(٥) يتركل على مسحاته : أى يضربها برجله لتغيب فى الأرض . والمسحاة : ما يسحى به الطين عن الأرض ؛ أى يجرف .
(٦) سورة القيامة ٣٦ .

والله لقد أرادك الحقّ ، ولـكن أبى قومُك ، فقال : يا أبا حفص ، خَفِّضْ عليك من هنا ومن هنا ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾(١) ، فوضع عمر إحدَى يديْه على الأخرى ، وأطرق إلى الأرض ، وخرج كأنّما ينظر فى رماد .

قلت : أجدر بهذا الخبر أن يـكون موضوعا ، وفيه ما يدلُّ على ذلك ، من كَوْنِ عمر أتى عليا يستفتيه فى المسألة ، والأخبار كثيرة بأنّه ما زال يدعوه إلى منزله وإلى المسجد ، وأيضاً فإنّ عليا لم يخاطب عمر منذ وَلِىَ الخلافة بالـكُنْية ، وإنما كان يخاطبه بإمرة المؤمنين ، هكذا تنطق كتب الحديث وكتب السِّير والتواريخ كلّها .

وأيضاً فإنّ هذا الخبر لم يُسْنَد إلى كتاب معيّن ، ولا إلى راوٍ معيّن ، بل ذكر ذلك أنه قرأه على ظهر كتاب ، فيكون مجهولا ، والحديث المجهول غيرُ الصحيح .

فأمّا ثناء عمر على أمير المؤمنين فصحيحٌ غيرُ منـكَرٍ ، وفى الروايات منه الـكثير الواسع ، ولـكنا أنـكرنا هذا الخبر بعينه خاصة ، وقد روى عن ابن عباس أيضاً ، قال : دخلتُ على عمرَ يوماً فقال : يابن العباس ، لقد أجهدَ هذا الرّجلُ نفسَه فى العبادة حتى نحلته ، رياء . قلت : مَنْ هو ؟ فقال : هذا ابنُ عمّك ــ يعنى عليا ــ قلت : وما يقصد بالرّياء أميرَ المؤمنين ؟ قال : يرشّح نفسَه بين الناس للخلافة ، قلت : ومايصنع بالتّرشيح ! قد رشّحه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصُرِفَتْ عنه . قال : إنّه كان شابًّا حَدَثًا ، فاستصغرتِ العرب سنَّه ، وقد كَمَل الآن ، ألم تعلم أنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا بعد الأربعين ! قلت : يا أميرَ المؤمنين ، أمّا أهلُ الحجى والنُّهى فإنهم ما زالوا يعدُّونه كاملا منذ رفع الله منارَ الإسلام ، ولـكنّهم يعدونه محروماً مَجْدوداً ، فقال : أما إنه سيليها بعد هِياط ومِياط(٢) ، ثم تزلّ فيها قدمه ، ولا يقضى منها أرَبه ، ولتـكونَنّ شاهدا ذلك يا عبد الله ، ثم يتبيّن الصُّبح لذى عينين ، وتعلم العرب صحّة رأى المهاجرين الأوّلين

(١) سورة النبأ ١٧ .

(٢) فى اللسان ، عن اللحيانى : « الهياط : الإقبال ، والمياط الإدبار » . وقال غيره : « الهياط : اجتماع الناس للصلح ، والمياط : التفرق عن ذلك » .

الَّذِينَ صرفوها عنه بادئ بدء ؛ فليتني أراكم بعدي يا عبد الله ! إنّ الحِرْص محرَمة ، وإنّ دُنياك كظلّك ، كلّما هممت به ازداد عنك بعدا .

نقلت هذا الخبر من " أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب " ، رحمه الله .

ونقلتُ منه أيضاً ما رواه عن ابن عبّاس ، قال : تبرّم عمرُ بالخلافة في آخر أيامه ، وخاف العجز ، وضجِر من سياسة الرعيّة ، فكان لا يزال يدعو الله بأن يتوفّاه . فقال لكعب الأحبار يوما وأنا عنده : إنّي قد أحببتُ أن أعهد إلى مَنْ يقوم بهذا الأمر ؛ وأظنّ وفاتي قد دنتْ ، فما تقول في عليّ ؟ أشرْ عليّ في رأيك وأذْكِرْني ما تجدونه عندكم ، فإنّكم تزعمون أنّ أمرَنا هذا مسطورٌ في كتبكم ، فقال : أما من طريق الرأي فإنّه لا يصلح ؛ إنه رجل متين الدّين ، لا يُغضي على عَوْرة ، ولا يحلُم عن زلّة ، ولا يعمل باجتهاد رأيه ، وليس هذا من سياسة الرعيّة في شيء ، وأمّا ما نجدُه في كتبنا فنجده لا يلِي الأمر ولا ولدُه ، وإن وليَه كان هَرْجٌ شديد ، قال : كيف ذاك ؟ قال : لأنه أراق الدماء ، فحرمه الله الملك . إن داود لما أراد أن يبنيَ حيطان بيت المقدس أوحَى الله إليه : إنك لا تبنيه ، لأنك أرقت الدماء ، وإنما يبنيه سليمان . فقال عمر : أليس بحقٍّ أراقها ؟ قال كعب : وداود بحقٍّ أراقها يا أميرَ المؤمنين . قال : فإلى مَنْ يُفضي الأمر تجدونه عندكم ؟ قال : نجدُه ينتقل بعد صاحب الشريعة والاثنين من أصحابه ، إلى أعدائه الّذين حاربهم وحاربوه ، وحاربهم علَى الدّين . فاسترجع عمر مرارا ، وقال : أتستمع يابنَ عباس ! أما والله لقدسمعتُ من رسول الله ما يشابه هذا ، سمعته يقول : « ليصعدَنّ بنو أميّة على مِنبَرِي ، ولقد أريتهم في منامي ينزون عليه نَزْوَ القردة » وفيهم أنزل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾[1]

***

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

وقد روى الزبير بن بكار فى " الموفّقيّات " ما يناسب هذا عن المغيرة بن شعبة ، قال : قال لى عمر يوما : يا مغيرةُ ، هل أبصرتَ بهذه عينك العوراء منذ أصيبتْ ؟ قلت : لا ، قال : أما والله لَيُعْوِرَنَّ بنو أمية الإسلام كما أُعْوِرَتْ عينك هذه ، ثم ليُعمينه حتى لا يدرى أين يذهب ولا أين يجىء ؟ قلت : ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟ قال : ثم يبعث الله تعالى بعد مائة وأربعين أو بعد مائة وثلاثين وفداً كوفد الملوك ، طيّبة ريحهم ، يعيدون إلى الإسلام بصره وشتاته . قلت : مَنْ هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : حجازىّ وعراقىّ ، وقليلا ما كان ، وقليلا ما دام .

* * *

وروى أبو بكر الأنبارىّ فى " أماليه " أنّ عليًّا عليه السلام جلس إلى عمر فى المسجد ، وعنده ناس ، فلمّا قام عرض واحد بذكره ، ونسبه إلى التّيه والعُجْب ، فقال عمر : حقّ لمثله أن يتيه ! والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام ، وهو بعدُ أقضى الأمّة وذو سابقتها وذو شرَفها ؛ فقال له ذلك القائل : فما منعكم يا أميرَ المؤمنين عنه ؟ قال : كرهناهُ على حداثة السّن وحبّه بنى عبد المطلب .

* * *

قلت : سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد ـ وقد قرأت عليه هذه الأخبار ـ فقلت له : ما أراها إلّا تكاد تكون دالّةً على النصّ ، ولكنى أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله على شخص بعينه ، كما استبعدنا من الصحابة على رد نصّه على الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدّين ، فقال لى رحمه الله : أبيتَ إلّا ميلاً إلى المعتزلة ! ثم قال : إن القوم لم يكونوا يذهبون فى الخلافة إلى أنّها من معالم الدين ، وأنّها جارية مجرى العبادات الشرعية ، كالصلاة والصوم ، ولكنهم كانوا يُجرونها مجرى الأمور الدنيويّة ، ويذهبون لهذا[1] ، مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعيّة ، وما كانوا يبالون فى أمثال هذا من مخالفة نصوصه صلى الله عليه وآله إذا رأوا المصلحة فى

(١) ا : « هذا » .

غيرها ؛ ألا تراه كيف نصّ على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة ، ولم يخرُجا لمّا رأيا أنّ في مقامهما مصلحةً للدولة[1] والملّة ، وحفظا للبيْضة، ودفعاً للفتنة، وقد كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله يخالَف وهو حيّ في أمثال ذلك فلا ينكره ، ولا يرى به بأسا. ألستَ تعلم أنّه نزَل في غزاة بدرٍ منزلًا على أن يحارب قريشاً فيه ، فخالفته الأنصار وقالت له: ليس الرّأيُ في نزولك هذا المنزل فاتركه ،وانزل في منزَل كذا،فرجع إلى آرائهم! وهو الذي قال للأنصار عام قَدِم إلى المدينة : « لا تؤبِّروا النخل » ، فعملوا على قوله فحالت نخلهم في تلك السنة ولم تُثْمِر حتى قال لهم : « أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينكم » ، وهو الّذِي أخذ الفِدَاء من أسارى بدْر ، فخالفه عمر ، فرجع إلى تصويب رأيه بعد أن فات الأمر وخلَص الأسرى ورجعوا إلى مكّة ،وهو الذي أراد أن يصالح الأحزاب على ثُلُث تَمْر المدينة ليرجعوا عنه ، فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فخالفاه ، فرجع إلى قولهما ، وقد كان قال لأبي هريرة: اخرُج فنادِ في الناس : « من قال لا إله إلا الله مخلصا بها قلبه دخل الجنة » ، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك فدفعه في صدره ،حتى وقع على الأرض،فقال: لا تقلْها ، فإنّك إنْ تقلْها يتّكلوا عليها ، ويدَعُوا العمل ، فأخبر أبو هريرة رسولَ الله صلى الله عليه وآله بذلك ، فقال : « لا تقلها وخلّهم يعملون » ، فرجع إلى قول عمر !

وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحدا على ترك كثير من النّصوص لمّا رأوا المصلحة في ذلك ، كإسقاطهم سهم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم ، وهذان الأمران أدخلُ في باب الدّين منهما في باب الدنيا ،وقد عملوا بآرائهم أمورا لم يكن لها ذكرٌ في الكتاب[2] والسنّة ، كحدّ الخمر فإنّهم عملوه اجتهادا ، ولم يحدّ رسول الله صلى الله عليه وآله شاربي الخمر ، وقد شربها الجمّ الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم ، ولقد كان أوصاهم في مرضه

(١) كذا في ا ، وفي ب : « لله » . (٢) ساقطة من : ب .

أن أخرِجوا نصارى نجْران من جزيرة العرب فلم يخرجوهم ، حتى مضى صدرٌ من خلافة عمر، وعملوا فى أيام أبى بكر برأيهم فى ذلك باستصلاحهم ، وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة، وحوّلوا المقام بمكّة ، وعمِلوا بمقتضى مايغلب فى ظنونهم من المصلحة ، ولم يقِفُوا مع موارد النصوص ، حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعدُ ، فرجّح كثير منهم القياس على النّصّ ، حتى استحالت الشريعة ، وصار أصحاب القياس أصحابَ شريعة جديدة .

قال النقيب: وأكثر مايعملون بآرائهم، فيما يجرى مَجْرى الولاياتِ والتأميروالتّدبير وتقريرقواعد الدّولة ، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيراته إذا رأوا المصلحة فى خلافها ، كأنّهم كانوا يقيّدون نصوصه المطلقة بقَيْد غير مذكور لفظا، وكأنّهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله ، وتقدير ذلك القيد : « افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة » .

قال : وأمّا مخالفتهم له فيما هو محض الشّرع والدّين ، وليس بمتعلّق بأُمور الدنيا وتدبيراتها ،فإنه يقلّ جدًّا ، نحو أن يقول: « الوضوء شرط فى الصلاة »، فيجمعوا على ردّ ذلك ويجيزوا الصلاة من غير وضوء ،أو يقول: «صوْم شهر رمضان واجب»،فيطبِقوا على مخالفة ذلك ويجعلوا شوّالًا عَوضا عنه ،فإنه بعيد ، إذ لاغرض لهم فيه ، ولا يقدِرون على إظهار مصلحة عثروا عليها خَفِيَتْ عنه صلى الله عليه وآله. والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أنّ العرب لاتطيع عليًّا عليه السلام ، فبعضها للحَسَد ، وبعضها للوِتْر والثأر ، وبعضها لاستحداثهم سِنَّه ،وبعضها لاستطالته عليهم ورفعه عنهم ، وبعضها كراهة اجتماع النبوّة والخلافة فى بيت واحدٍ ، وبعضها للخوف من شدّة وطأته وشدّته فى دين الله ، وبعضها خوفا لرجاء تداوُلِ قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتَصر بها على بيت مخصوص عليه، فيكون رجاء كل حىّ لوصولهم إليها ثابتا مستمرًّا ، وبعضها ببغضه ، لبغضهم من قرابته

لرسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهم المنافقون من النّاس، ومَنْ فى قلبه زيغٌ من أمر النبوّة ـ فأصفَق الكلّ إصفاقاً واحداً على صرْفِ الأمر عنه لغيره، وقال رؤساؤهم: إنّا خفنا الفتنة، وعلمنا أنّ العربَ لا تطيعه ولا تتركه، وتأوّلوا عند أنفسهم النصّ، ولا ينكر النصّ، وقالوا: إنه النصّ، ولكنّ الحاضر يرَى مالا يرى الغائب، والغائب قد يُترك لأجل المصلحة الكليّة، وأعانهم عَلَى ذلك مسارعةُ الأنصار إلى ادّعائهم الأمرَ، وإخراجهم سعد بن عُبادة من بيته وهو مريض، لينصّبوه خليفة ـ فيما زعموا ـ واختلط الناس، وكثر الخبْط، وكادت الفتنة أن تشتعِل[1] نارُها، فوثب رؤساء المهاجرين، فبايعوا أبا بكر وكانت فَلْتة ـ كما قال قائلهم ـ وزعموا أنّهم أطفئوا بها نائرة الأنصار، فمن سكت من المسلمين، وأغضى ولم يتعرّض، فقد كفاهم أمرَ نفسه، ومن قال سرّاً أو جهراً: إنّ فلانا قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذكره، أو نصّ عليه أو أشار إليه، أسكتوه فى الجواب؛ بأنّا بادرنا إلى عَقْد البيعة مخافة الفتنة، واعتذروا عنده ببعض ماتقدّم، إمّا أنّه حديث السنّ أو تبغِضه العرب، لأنه وترها وسفك دماءها، أو لأنه صاحب زَهْوٍ وتيهٍ، أو كيف تجتمع النبوّة والخلافة فى مغرِس واحد! بل قد قالوا فى العذر ماهو أقوى من هذا وأوكد، قالوا: أبو بكر أقوَى على هذا الأمر منه، لا سيما وعمر يعضُده ويساعده، والعرب تحبّ أبا بكر ويعجبها لينُه ورفقه، وهو شيخ مجرَّب للأمور لا يحسده أحدٌ، ولا يحقد عليه أحد، ولا يبغِضه أحد، وليس بذى شرف فى النّسب فيشمَخ على النّاس بشرفه، ولابذى قُربى من الرّسول صلى الله عليه وآله فيدِلَّ بقربه، ودعْ ذا كلّه، فإنه فضل مستغنًى عنه. قالوا: لو نصبنا عليّاً عليه السلام، ارتد النّاس عن الإسلام وعادت الجاهليّة كما كانت، فأيّما أصلح فى الدين؟ الوقوف مع النصّ المفضِى إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهليّة أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدّين، وإن كان فيه مخالفة النصّ!

---

(١) ا: «يضطرم».

قال رحمه الله : وسكت الناس عن الإنكار ، فإنّهم كانوا متفرّقين ، فمنهم من هو مبغض شانئٌ لعليّ عليه السلام ، فالذى تمّ من صرف الأمر عنه هو قرّة عينه ، وبَرْد فؤاده ، ومنهم ذو الدّين وصحّة اليقين ، إلّا أنه لمّا رأى كُبَراء الصحابة قد اتّفقوا على صرف الأمر عنه،ظنّ أنهم إنّما فعلوا ذلك لنصٍّ سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله ينسخ ما قد كان سمعه من النصّ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام ، لا سيّما مارواه أبو بكر من قول النبي صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قريش » ، فإنّ كثيرا من الناس توهّموا أنّه ناسخٌ للنصّ الخاصّ ، وأنّ معنى الخبر أنّكم مباحون فى نصْب إمامٍ من قريش ، من أىّ بطون قريش كان ، فإنّه يكون إماما .

وأكّد أيضا فى نفوسهم رفضَ النصّ الخاصّ ماسمعوه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ماراَه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »،وقوله عليه السلام : « سألت الله ألّا يجمع أمّتى على ضلال ، فأعطانيها ، فأحسِنوا الظنّ بعاقدى البيعة » .

وقالوا : هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله صلى الله عليه وآله من كلّ أحدٍ ، فأمسكوا وكفُّوا عن الإنكار،ومنهم فرقة أخرى،وهم الأكثرون،أعراب وجُفاة،وطَغام أتباعُ كلّ ناعق ، يميلون مع كلّ ريح ، فهؤلاء مقلّدون لا يسألون ولا ينكرون ، ولا يبحثون ، وهم مع أمرائهم وولاتهم،لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها،فلذلك أمحِق النصّ ، وخفى ودَرَس،وقويَت كلمة العاقدين لبيعة أبى بكر ، وقوّاها زيادة على ذلك اشتغالُ علىّ وبنى هاشم برسول الله صلى الله عليه وآله ، وإغلاقُ بابهم عليهم ، وتخليتهم الناسَ يعملون ماشاءوا وأحبّوا ، من غير مشاركة لهم فيما هم فيه،لكنّهم أرادوا استدراكَ ذلك بعد ما فات ، وهيهات الفائت لا رجعة له !

وأراد علىّ عليه السلام بعد ذلك نقْضَ البيعة،فلم يتمّ له ذلك ، وكانت العرب لاترى

الغَدْر ، ولا تنقض البيعة صواباً كانت أو خطأ ، وقد قالت له الأنصار وغيرها : أيها الرجل ، لو دعوتَنا إلى نفسك قبل البَيْعة لما عدَلنا بك أحداً ، ولكنّا قد بايعنا ، فكيف السبيل إلى نقض البيعة بعد وقوعها !

* * *

قال النقيب : ومما جرّأ عمر على بيعة أبي بكر والعدول عن عليّ — مع ما كان يسمعه من الرّسول صلى الله عليه وآله في أمره — أنّه أنكر مراراً عَلَى الرسول صلى الله عليه وآله أموراً اعتمدها فلم ينكِر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله إنكارَه ، بل رجع في كثير منها إليه ، وأشار عليه بأمور كثيرة نزل القرآن فيها بموافقته، فأطمعه ذلك في الإقدام عَلَى اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة ، مما هي خلاف النصّ ، وذلك نحو إنكاره عليه في الصّلاة عَلَى عبد الله بن أُبيّ المنافق ، وإنكاره فداء أسارى بدْر ، وإنكاره عليه تبرّجَ نسائه للناس ، وإنكاره قضية الحديبيَة ، وإنكاره أمانَ العبّاس لأبي سفيان ابن حرب ، وإنكاره واقعة أبي حُذيفة بن عتبة ، وإنكاره أمره بالنداء : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وإنكاره أمره بذبح النّواضح ، وإنكاره عَلَى النّساء بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله هيبتهنّ له دون رسول الله صلى الله عليه وآله ... إلى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمِلُ عليها كتبُ الحديث ، ولو لم يكن إلّا إنكاره قول رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه : « ائتوني بدَواة وكَتِفٍ أكتبْ لكم ما لا تضلّون بعدي » ، وقوله ما قال ، وسكوت رسول الله صلى الله عليه وآله عنه . وأعجب الأشياء أنّه قال ذلك اليوم : حسبنا كتاب الله ، فافترق الحاضرون من المسلمين في الدّار ، فبعضهم ، يقول : القول ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبعضهم يقول : القول ما قال عمر ، فقال رسول الله وقد كثر اللّغط ، وعلت الأصوات : « قوموا عنّي فما ينبغي لنبيّ أن يكون عنده هذا التنازع » ! فهل بقي للنبوّة مزيّة أو فضل إذا كان الاختلاف قد وقع بين القولين ، ومِيل

المسلمون بينهما ، فرجّح قوم هذا ، وقوم هذا ! فليس ذلك دالًّا على أن القوم سوّوا بينه وبين عمر ، وجعلوا القولين مسألة خلاف ، ذهب كلّ فريق إلى نصرة واحد منهما ، كما يختلف اثنان من غُرْض المسلمين فى بعض الأحكام ، فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون، فمن بلغت قوّته وهمّته إلى هذا ، كيف ينكر منه أنه يبايع أبا بكر لمصلحة رآها ، ويعدل عن النصّ ! ومَن الذى كان ينكر عليه ذلك ، وهو فى القول الذى قاله للرسول صلى الله عليه وآله فى وجهه غير خائف من الأنصار ، ولا ينكِر عليه أحدٌ ، لا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غيره ، وهو أشدّ من مخالفة النصّ فى الخلافة وأفظع وأشنع .

قال النقيب : على أنّ الرجل ما أهمل أمر نفسه ، بل أعدّ أعذاراً وأجوبة ، وذلك لأنه قال لقوم عرّضوا له بحديث النص : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر فى الصلاة مقامه ، وأوهمهم أنّ ذلك جارٍ مجرى النصّ عليه بالخلافة ، وقال يوم السقيفة : أيّكم يطيب نفسا أن يتقدّم قدمَين قدّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى الصلاة ! ثم أكّد ذلك بأن قال لأبى بكر ، وقد عرض عليه البيعة : أنت صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى المواطن كلها ، شدّتها ورخائها ، رضيك لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا!

ثم عاب عليًّا بخطبته بنت أبى جهل ، فأوهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كرهه لذلك ووجَد عليه ، وأرضاه عمرو بن العاص ، فروى حديثا افتعله واختلقه على رسول الله ، قال سمعته يقول : «إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء ، إنما وليّيَ الله وصالح المؤمنين» ، فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا مولاه » .

قلت للنقيب : أيصح النّسخ فى مثل هذا ؟ أليس هذا نسخاً للشيء قبل تقضّى وقت فعله ؟ فقال : سبحان الله ! مِن أينَ تعرف العرب هذا ؟ وأنّى لها أن تتصوّره فضلا عن أن تحكم بعدم جوازه ! فهل يفهم حُذّاق الأصوليين هذه المسألة ، فضلاً عن حَمْقى العرب ! هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة ، ويُستمالون بأضعف[1] سبب ، وتُبنَى الأمور معهم على ظواهر

---

(١) ا : « بأدنى » .

النصوص وأوائل الأدلة ، وهم أصحاب جهل وتقليد ، لا أصحاب تفضيل ونظر !

قال : ثم أكّد حسنَ ظنّ الناس بهم أنّهم أطلقوا أنفسهم عن الأموال،وزهِدوا فى متاع الدنيا وزخرفها ، وسلكوا مسلك الرّفض لزينتها ، والرغبة عنها والقناعة بالطّفيف النّزر منها ، وأكلوا الخشِن ، ولبسوا الكرابيس ، ولمّا ألقت إليهم الدنيا أفلاذ كبدها، وفرّقوا الأموال على الناس،وقسّموها بينهم،ولم يتدنّسوا منها بقليل ولا كثير،فمالت إليهم القلوب ، وأحبّتهم النفوس ، وحسُنت فيهم الظنون ، وقال من كان فى نفسه شبهة منهم، أو وقفة فى أمرهم : لو كان هؤلاء قد خالفوا النصّ لهوى أنفسهم لكانوا أهلَ الدنيا . ولظهر عليهم الميل إليها ، والرغبة فيها،والاستئثار بها . وكيف يَجمعون على أنفسهم مخالفة النصّ ، وترك لذات الدنيا ومآربها،فيخسروا الدنيا والآخرة ! وهذا لا يفعله عاقل، والقوم عقلاء ذوو ألباب وآراء صحيحة ؛ فلم يبق عند أحدٍ شكٌّ فى أمرهم ولا ارتياب لفعلهم ، وثبتت العقائد على ولايتهم ، وتصويب أفعالهم ، ونسوا لذّة الرياسة ، وإن أصحاب الهِمم العالية لا يلتفون إلى المأكل والمشرب والمنكح ، وإنما يريدون الرياسة ونفوذ الأمر ، كما قال الشاعر :

وقد رغبَتْ عن لَذّة المال أنفسٌ ... ومارغبت عن لذّة النّهى والأمرِ

قال رحمه الله : والفرق بين الرجلين وبين الثالث ، ماأصيب به الثالث ، وقُتل تلك القِتْلة،وخلَعه النّاس وحَصَروه ، وضيّقوا عليه،بعد أن توالَى إنكارهم أفعاله ، وجبهوه فى وجهه وفسّقوه ، وذلك لأنّه استأثر هو وأهله بالأموال ، وانغمسوا فيها واستبدّوا بها ، فكانت طريقته وطريقتهم مخالفةً لطريق الأولين ، فلم تصبر العرب على ذلك ، ولو كان عثمان سلك طريق عمر فى الزهد ، وجمع الناس،وردَع الأمراء والولاة عن الأموال،وتجنّب استعمال أهل بيته ، ووفّر أعراض الدّنيا وملاذّها وشهواتها على الناس ، زاهداً فيها،تاركا لها ، معرِضاً عنها ، لما ضرّه شيء قطّ ، ولا أنكر عليه أحد قطّ ، ولو حوّل الصلاة من

الكعبة إلى بيت المقدس ، بل لو أسقط عن الناس إحدى الصلوات الخمس ، واقتنع منهم بأربع ، وذلك لأنّ همم الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال ، فإذا وجدوها سكتوا ، وإذا فقدوها هاجوا واضطربوا ، ألست ترى رسول الله صلى الله عليه وآله كيفَ قسم غنائم هوازن على المنافقين ، وعلى أعدائه الذين يتمنّون قتله وموتَه ، وزوال دولته ، فلمّا أعطاهم أحبُّوه ، إمّا كلّهم أو أكثرهم ، ومَنْ لم يحبّه منهم بقلبه جامله وداراه ، وكفّ عن إظهار عداوته ، والإجلاب عليه ولو أنّ عليا صانع أصحابه بالمال ، وأعطاه الوجوه والرؤساء ، لكان أمره إلى الانتظام والاطّراد أقربَ ، ولكنه رفض جانبَ التدبير الدنيوى ، وآثر لزومَ الدّين ، وتمسّك بأحكام الشريعة ، والملك أمر آخر غير الدين ، فاضطرب عليه أصحابه ، وهرب كثير منهم إلى عدوّه .

وقد ذكرت فى هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبى جعفر ، ولم يكن إماميّ المذهب ، ولا كان يبرأ من السلف ، ولا يرتضى قول المسرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحثُ والجدل بينى وبينه ، على أن العلويّ لو كان كرّاميًا ، لابدّ أن يكون عنده نوعٌ من تعصّب وميل على الصحابة وإن قلّ .

* * *

ولنرجع إلى ذكر كلام عمر من خطبته وسيرته .

كتب عمر إلى أبى موسى ، لمّا استعمله قاضياً ، وبعثه إلى العراق :

من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى عبد الله بن قَيْس . سلام عليك ، أمّا بعد ، فإنّ القضاء فريضة محكمة وسنّة متبعة ، فافهم إذا أُدْلِيَ إليك ، فإنه لا ينفع تكلُّم بحقّ لا نفاذَ له . آسِ (١) بين الناس فى وَجْهِك وعدلِك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريفٌ فى

(١) قال أبو العباس المبرد : « قوله : آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ؛ أى سو بينهم . وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض » .

حيفك[1]، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك . البيّنة علَى مَن ادّعى واليمين على مَنْ أنكر، والصُّلح جائز بين المسلمين ، إلّا صُلحاً أحلّ حراما ، أو حرّم حلالًا . لا يمنعنّك قضاء قضيته اليومَ فراجعت فيه عقلَك ، وهُديتَ فيه لرشدِك ، أن ترجعَ إلى الحقّ ، فإنّ الحق قديم ، ومراجعةُ الحق خيرٌ من التمادِي فى الباطل . الفهمَ الفهمَ فيما تلجلَج[2] فى صدرِك مما ليس فى كتاب ولا سنّة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقِسِ الأمور عند ذلك ، واعمِدْ إلى أقربها إلى الله عزّ وجلّ ، وأشبهِها بالحقّ ، واجعل لمن ادّعى حقا غائبًا أو بيّنة أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقّه ، وإلّا استحْلَلْتَ عليه القضيّة ، فإنه أنفَى للشكّ وأجْلَى للعمى . المسلمون عدولٌ بعضُهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حدّ أو مجرّبًا عليه شهادة زور ، أو ظنينا[3] فى ولاء أو نسب ، فإنّ الله عزّ وجلّ تولّى منكم السرائر ، ودرأ عنكم[4] بالبيّنات والأيمان الشُّبُهات . إيّاك والقَلَق[5] والضّجَرَ والتأذِّىَ بالخصوم ، والتنكّرَ عند الخصومات ، فإنّ الحقّ فى مواطن الحقّ يُعظِم الله به الأجر ، ويحسن به الذُّخر ، فمن صحّت نيّته ، وأقبلَ على نفسه كفاه الله ما بينَه وبين الناس ، ومَنْ تخلّق للنّاس بما يعلم الله عزّ وجلّ منه أنّه ليس من نفسِه ، شانَهُ الله ، فما ظنُّك بثواب الله فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ! والسلام .

ذكر هذه الرّسالة أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الكامل[6] " وأطراها ، فقال : إنه جمع فيها جُمَل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتّخذونه ، إماما فلا يجد مُحقٌّ عنها مَعْدِلا ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً .

***

(١) حيفك : ميلك.

(٢) تلجلج : تردد .

(٣) الظنين : المتهم .

(٤) درأ بالبينات : دفع .

(٥) القلق : ضيق الصدر وقلة الصبر .

(٦) الكامل ١ : ١٢ — ١٤ (طبعة نهضة مصر) .

وكتب عمرُ إلى عمّاله يُوصيهم ، فقال في جملة الكتاب: ارتدُوا ، واتّزرُوا، وانتعلوا وألقوا الخفاف والسّراويلات وألقوا الركب[١]، وانزُوا نزواً على الخيل، واخشوشنوا، وعليكم بالمعدّية ـ أو قال: وتمعددوا ـ وارموا الأغراض، وعلّموا فتيانكم العوْم والرّماية، وذَرُوا التّنعم وزيّ العجم، وإيّاكم والحريرَ ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عنه، وقال: « لاتلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا » ، وأشار بأصبعه .

* * *

وكتب إلى بعض عماله : إنّ أسعد الرُّعاة مَنْ سعدت به رعيّته ، وإنّ أشقى الرُّعاة من شَقِيتْ به رعيّته، فإياك أن تَزِيغ فتزيغ رعيّتك ، فيكون مَثَلُك عندَ الله مِثْلَ البهيمة رأت الْخُضرة فى الأرض فرعتْ فيها تبغى السِّمَن ، وحتْفُها فى سِمَنها .

* * *

وكتب إلى أبى موسى وهو بالبَصْرة : بلغَنِى أنَّك تأذَنُ للنّاس الجمّاء[٢] الغفير، فإذا جاءك كتابى هذا فأْذَنْ لأهل الشرف وأهل القرآن والتّقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأْذَنْ للعامّة ، ولا تؤخّر عمل اليوم لغد ، فتتداكّ عليك الأعمال فتضيع ، وإيّاك واتّباعَ الهوى ، فإنّ للناس أهواء متّبعة ، ودنيا مؤْثرة ، وضغائن محمولة. وحاسب نفسَك فى الرّخاء قبل حساب الشّدّة ، فإنّه مَنْ حاسب نفسَه فى الرخاء قبل حساب الشدّة كان مرجعُه إلى الرضا والغِبْطة ، ومن ألهته حياته ، وشغلته أهواؤه ، عاد أمرُه إلى النّدامة والحَسْرة ، إنه لايقيم أمر الله فى الناس إلا حَصِيف العُقْدة[٣] بعيد القرارة لايحنق على جِرّة ، ولايطلع الناس منه على عورة، ولايخاف فى الحق لومة لائم . الزم أربع خصال يسلمْ لك دينك وتحيط بأفضل حظّك: إذا حضر الخصمان فعليك بالبيّنات العُدول والأيمان القاطعة، ثم ائذن

---

(١) الركب : جمع ركاب ؛ وهو للسرج كالغرز للرحل .
(٢) أى القوم مجتمعين .
(٣) أى الذى يحكم أمره .

للضَّعيف حتى ينبسط لسانُه ، ويجترئ قلبه ، وتعاهد الغَريب ، فإنه إذا طال حبسُه ترك حاجته وانصرف إلى أهله ، واحرص على الصُّلح مالم يبن لك القضاء ، والسلام عليك .

* * *

وكان رجلٌ من الأنصار لا يزال يهدى لعمر فخِذَ جزور إلى أن جاء ذات يوم مع خَصم له،فجعل فى أثناء الكلام يقول : ياأميرَ المؤمنين،افصِل القضاء بينى وبينه كما يفصل فَخِذ الجزور .

قال عمر : فما زال يردّدها حتى خِفت على نفسى.فقضيت عليه ، وكتبت إلى عمّالى: أمّا بعد فإيّاكم والهدايا ، فإنها من الرُّشا . ثم لم أقبل له هديّة فيما بعد ، ولا لغيره .

* * *

وكان عمر يقول : اكتبوا عن الزاهدين فى الدنيا مايقولون،فإنّ الله عزّ وجلّ وكّل بهم ملائكة ، واضعة أيديَهم على أفواههم ، فلا يتكلّمون إلا بما هيّأه الله لهم .

* * *

وروى أبو جعفر الطبرىّ فى تاريخه ، قال : كان عمر يقولُ : جرّدُوا القرآن ولا تفسّروه ، وأقلّوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا شريككم .

وقال أبو جعفر : وكان عمر إذا أراد أن ينهى النّاسَ عن شىء جمع أهله ، فقال : إنى عسِيت أن أنْهَى النّاس عن كذا ، وإنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطّير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجدُ أحداً منكم يفعل إلا أضعفت عليه العقوبة .

قال أبو جعفر :وكان عمر شديداً على أهل الرِّيَب،وفى حقّ الله،صليبا حتى يستخرجه، ولَيِّنا سهلا فيما يلزمه حتى يؤدّيه ، وبالضعيف رحيما .

* * *

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه أنّ نفرا من المسلمين كلّموا عبد الرحمن بن عوف ، فقالوا : كلّمْ لنا عمر بن الخطاب ، فقد والله أخشانا حتى لانستطيع أن نديم إليه أبصارَنا ، فذكر عبدالرحمن له ذلك ، فقال : أو قد قالوا ذلك ! والله لقد لِنْتُ لهم حتى تخوّفت الله فى أمرهم ، وقد تشدّدت عليهم حتى خفت الله فى أمرهم ، وأنا والله أشدّ فرَقاً لله منهم لى !

* * *

وروى جابر بن عبدالله ، قال : قال رجلٌ لعمر : ياخليفةَ الله ، قال : خالف الله بك، قال : جعلنى الله فداك ! قال : إذن يهينك الله .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : استشار عمر فى أمر المال كيف يقسمه ، فقال له على بن أبى طالب عليه السلام: تقسِم كلّ سنة مااجتمع معك من المال،ولا تمسِكْ منه شيئاً،وقال عثمان ابن عفان : أرى مالًا كثيرا يسعُ الناس،وإن لم يُحصَوْا حتى يعرفَ من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر . فقال الوليد بن هشام بن المغيرة : ياأميرَ المؤمنين ، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديوانًا، وجنّدوا جنودا ، وفرضوا لهم أرزاقا . فأخذ بقوله؛ فدعا عَقِيل بن أبى طالب ومَخرمة بن نَوْفل وجُبير بن مطعِم—وكانوا نسّاب قريش—وقال: اكتبوا النّاس على منازلهم،فكتبوا فبدءوا ببنى هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه،ثم عمر وقومه،على ترتيب الخلافة ؛ فلما نظر إليه قال:وددت أنّه كان هكذا ، لكن أبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وآله ، الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمرَ حيث وضعه الله .

قال أبو جعفر : جاءت بنوعدىّ إلى عمر ، فقالوا له : ياعمر ، أنت خليفةُ رسول الله

صلى الله عليه وسلم . قال : أو خليفة أبي بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وذاك ، فلو جعلت نفسَك حيث جعلك هؤلاء القوم ! فقال : بخ بخ يا بني عديّ ! أردتم الأكلَ على ظهري ، وأنْ أذهِب حسناتي لكم ! لا والله ولو كتبتم آخر الناس ، إنّ لي صاحبيْن سلكا طريقا ، فإن أنا خالفتُهما خُولف بي ، والله ما أدركنا الفضلَ في الدنيا إلا بمحمد ، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه أشرفُ العرب ثم الأقرب منه فالأقرب ، وما بيننا وبين أن نلقاه ثم لا نفارقه إلى آدم إلّا آباء يسيرة ، والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عملٍ فإنّهم أولى بمحمد صلى الله عليه وآله منّا يوم القيامة . لا ينظرَنَّ رجلٌ إلى قَرابته ، وليعمل بما عند الله ؛ فإنّ مَنْ قصر به عمله لم يُسْرِع به نسبُه .

***

وروى السائب بن يزيد ، قال : سمعتُ عمر بن الخطاب ، يقول : واللهِ ما من أحدٍ إلا له في هذا المال حقّ أعطيَه أو مُنِعه ، وما أحدٌ أحقّ به من أحدٍ إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلّا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، وقسْمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وغناؤه ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيتُ ليأتينّ الراعي بجبل صَنْعاء ، حظّه من المال وهو مكانه .

***

وروى نافع مولى آل الزُّبير ، قال : سمعتُ أبا هريرة يقول : رحم الله ابن حَنْتمة[1] ، لقد رأيته عامَ الرّمادة ، وإنّه لَيحمِلُ على ظهره جِرابين ، وعُكّة زيت في يده ، وإنه ليعتقِب[2] هو وأسلم ، فلما رآني قال : مِن أين يا أبا هريرة ؟ قلت : قريبا ، فأخذت

(١) حنتمة ، بفتح الحاء ، أم عمر بن الخطاب ، وبنت عبد الرحمن بن الحارث (القاموس) .
(٢) يعتقب ؛ أي يركب هذا عقبة وهذا عقبة ، والعقبة : النوبة .

أعقبه ، فحملناه حتى انتهينا إلى ضرار فإذا صِرْم[1] من نحو عشرين بيتا من محارب ، فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا : الجهد ، وأخرجوا لنا جِلْدَ الميتة مشويًّا كانوا يأكلونه ، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفّونها ، فرأيت عمر طرح رداءه ثم برز ، فما زال يطبخ لهم حتى شَبِعُوا ، وأرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبعرة فحملهم عليها ، ثم أنزلهم الجبّانة ، ثم كساهم ، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى كفى الله ذلك .

***

وروى راشد بن سعد أنّ عمر أُتِيَ بمال ، فجعل يقسم بين الناس ، فازدحموا عليه ، فاقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه ، فعلاه عمر بالدِّرة ، وقال : إنك أقبلت ، لا تهابنّ سلطان الله في الأرض ، فأحببتُ بأن أعلمك أنّ سلطانَ الله لا يهابُك .

***

وقالت الشفّاء ابنة عبد الله ـ ورأت فتيانا من النّساك يقتصدون في المشي ، ويتكلّمون رويدا : ما هؤلاء ؟ فقيل : نُسّاك ، فقالت كان عمرُ بن الخطّاب هو الناسك حقا ، وكان إذا تكلّم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع .

***

أعان عمرُ رجلاً على حَمْلِ شيء ، فدعا له الرّجل ، وقال : نفعك بنوك يا أمير المؤمنين ! قال : بل أغناني الله عنهم .

ومن كلامه : القوّة في العمل ألاّ يؤخّر عمل اليوم لغد ، والأمانة ألاّ تخالف سريرتُك علانيتَك ، والتقْوَى بالتوقّي ، ومن يتق الله يقِهِ .

---

(١) الصرم ، بالكسر : الجماعة .

وقال عمر : كنا نعد المُقرِض بخيلا ؛ إنما كانت المواساة .

* * *

أتى رهطٌ إلى عمر ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، كَثُر العيال ، واشتدّت المؤونة،فزِدْنا فى أعطياتنا[١] ، فقال : فعلتموها ! جمعتم بين الضرائر ،واتّخذتم الخدَم من مال الله!أما لوددت أنّى وإياكم فى سفينتين فى لُجّة البحر ، تذهب بنا شرقًا وغربا ، فلن يعجز النّاسَ أن يولّوا رجلًا منهم ، فإن استقـام اتّبعوه ، وإن جَنَف قتلوه . فقال طلحة : وما عليك لو قلت : وإن اعوجّ عزلوه ! فقال : القتلُ أرهبُ لمن بعده ، احذروا فتى قريش ، فإنّه كريمها الذى لا ينام إلا على الرّضا ، ويضحك عند الغضب ، ويتناول مافوقه من تحته .

* * *

وكان يقول فى آخر أيامه عند تبرّمه بالأمر وضَجَره من الرعيّة : اللهمّ ملّونى وملِلتهُم ، وأحسستُ من نفسي وأحسّوا منّي ! ولاأدرى بأيّنا يكون اللَّوْت[٢] ، وقد أعلم أنّ لهم قتيلا منهم فاقبضنى إليك .

* * *

وذكر قومٌ من الصّحابة لعمر رجلا ، فقالوا : فاضلٌ لا يعرف الشرّ ، قال : ذاك أوقع له فيه .

* * *

وروى الطبرىّ فى التاريخ ، أن عمرَ استعملَ عُتْبة بن أبى سفيان على عملٍ[٣] فقدِم منه بمال ، فقال له : ماهذا ياعتبة ؟ قال : مالٌ خرجت بهمعى وتجرِت فيه ، قال : ومالك تُخرج المال معك إلى هذا الوجه ؟ فأخذ المال منه فصيّره فى بيت المال، فلمّا قام عثمان قال لأبى سفيان :

---

(١) ب : « إعطائنا » (٢) اللوت : النقص .
(٣) الطبرى : « على كنانة » .

إنك إن طلبت ما أخذه عمر من عُتبة رددته عليك[١] ، فقال له أبو سفيان : إياك وماهممت به ، إنك إن خالفت صاحبك قبلك ساء رأيُ الناس فيك . إياك أن تردّ على مَنْ كان قبلك فيردّ عليك من بعدك[٢] .

***

وروى الطبريّ أيضاً أنّ هندا بنت عتبة بن ربيعة قامت إلى عمر ، فسألته أن يُقرِضها من بيت المال أربعة آلاف درهم تتّجر فيها وتضمنها . فخرجت بها إلى بلاد كلب ، فباعت واشترت ، وبلغها أنّ أبا سفيان قد أتى معاوية يستميحه ومعه ابنه عمرو بن أبي سفيان ، فعدلت إليه من بلاد كلْب ــ وكان أبو سفيان قد طلّقها ــ فقال معاوية : ما أقدَمك ياأمّــه ؟ قالت : النظر إليك يابنيّ ، إنه عمر ، وإنّما يعمل لله ، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تُخرج إليه من كلّ شيء ، وأهلُ ذلك هو ! ولــكن لا يعلم عمر من أين أُعطيتَه ، فيؤنّبوك ويؤنّبك ، ولا تستقبلها أبدا . فبعث معاوية إلى أبيه وأخيه مائة دينار ، وكساهما وحملهما . فسخطها عمر ، فقال أبو سفيان : لا تسخطها ، فإنها عطاء لم تغب عنه هند ، ورجع هو وابنه إلى المدينة ، فسأله عمر : بكم أجازك معاوية ؟ فقال : بمائة دينار ، فسكت عمر[٣] .

***

وروى الأحنف ، قال : أتى عبد الله بن عمير عمرَ ، وهو يُقرض الناس ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أقِرضْ لى ، فلم يلتفت إليه ، فنخسه ، فقال عمر : حَسِّ[٤] ، وأقبل عليه ، فقال : مَنْ أنت ؟ فقــال : عبد الله بن عمــير ــ وكان أبوه استُشهِدَ يوم حُنين ــ فقــال : يايَرْفأ ، أعطــه ستمائة ، فأعطــاه ستمائة فلم يقبلها ، ورجع إلى عمر فأخبره فقال : يايرفأ ، أعطــه

---

(١) الطبرى : « عليه »

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧٦٦ (طبع أوربا)

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧٦٧

(٤) حس : كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما أمضه

ستمائة حُلّة ، فأعطاه ، فلبس الحُلّة التى كساه عمر ، ورمى ما كان عليه ، فقال له : خذ ثيابك هذه ، فلتكن فى مِهْنَة أهلك ، وهذه لزينتك .

***

وروى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : مرّ عمر فى السُّوق ، ومعه الدِّرة ، فخفقنى خَفْقَةً ، فأصاب طرف ثوبى ، وقال: أمِطْ[(١)] عن الطريق ، فلمّا كان فى العام المقبل لقيَنى ، فقال : ياسلمة ، أتريد الحجّ ؟ قلت : نعم ، فأخذ بيدى وانطلق بى إلى منزله ، فأعطانى ستمائة دِرْهم ، وقال : استعِنْ بها على حَجّك ، واعلم أنّها بالخفقة التى خَفَقْتُك ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، ماذكرتها ، قال : وأنا مانسيتُها .

***

وخطب عمرُ فقال : أيّتُها الرعيّة ، إنّ لنا عليكم حقًّا ، النّصيحة بالغَيْب ، والمعاونة على الخير . إنّه ليس مِن حلم أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من حِلْم إمامٍ ورِفْقِه ، وليس من جهل أبغض إلى الله من جهل إمامٍ وخَرَفه[(٢)] ؛ أيّها الرعية إنه مَنْ يأخذ بالعافية من بين ظهرانَيْه فوّته الله العافية من فوقه .

وروى الرّبيع بن زياد ، قال : قدِمْتُ على عمر بمالٍ من البَحْرين ، فصلّيت معه العشاء ثم سلّمت عليه ، فقال : ماقدمت به ؟ قلت : خمسمائة ألف ، قال : ويحك ! إنما قدمت بخمسين ألفا ، قلت : بل خمسمائة ألف ، قال : كم يكون ذلك ؟ قلت : مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ، حتى عددت خمساً ، فقال : إنك ناعس ؛ ارجع إلى بيتك ، ثم اغدُ علىّ ، فغدوت عليه . فقال : ما جئت به ؟ قلت : ما قلتُه لك ، قال : كم هو ؟ قلت : خمسمائة ألف ، قال : أطيّب هو ؟ قلت : نعم ، لا أعلم إلّا ذلك ، فاستشار الصّحابة فيه ، فأشير عليه بنصْب الديوان فنصبَه ، وقسّم المالَ بين المسلمين ، ففضَلت عنده فَضْلة ،

(١) أمط : تنح .

(٢) الخرف : فساد العقل . وفى ا : « وخرقه » .

فأصبح تجمع المهاجرين والأنصار ، وفيهم علىّ بن أبى طالب ، وقال للناس: ماترون فى فَضْلٍ فَضَل عندنا من هذا المال ؟ فقال الناس . ياأمير المؤمنين ؛ إنّا شغلناك بولاية أمورنا عن أهلك وتجارتك وصنعتك ، فهو لك . فالتفت إلى علىّ فقال : ماتقول أنت ؟ قال : قد أشاروا عليك ، قال : فقل أنت ، فقال له : لم تجعلُ يقينَك ظناً ؟ فلم يفهم عمر قوله ، فقال : لتخرُجَنّ مما قلت ، قال : أجل والله ، لأخرجَنّ منه ، أتذكر حين بعثك رسول الله صلى الله عليه وآله ساعيا[1] ، فأتيت العبّاس بن عبد المطلب ، فمنعك صدَقته ، فكان بينكما شىء ، فجئتما إلىّ وقلتما : انطلق معنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فجئنا إليه ، فوجدناه خاثرا[2] فرجعنا ، ثم غدونا عليه ، فوجدناه طيّب النفس ، فأخبرتَه بالذى صنع العباس ، فقال لك : ياعمر ، أما علِمْت أنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه ! فذَكرنا له مارأينا ، من خُثوره فى اليوم الأول ، وطيب نفسه فى اليوم الثانى ، فقال : إنّكم أتيتم فى اليوم الأول ، وقد بقِىَ عندى من مال الصّدقة ديناران ، فكان مارأيتم من خُثُورى لذلك ، وأتيتم فى اليوم الثانى وقد وجّهتهما ، فذاك الذى رأيتم من طِيب نفسى . أشيرُ عليك ألّا تأخذ من هذا الفضل شيئا ، وأن تفضّه على فقراء المسلمين ، فقال : صدقت والله لأشكرنّ لك الأولى والأخيرة .

* * *

وروى أبو سعيد الخدرىّ قال : حَججْنا مع عمر أوّل حجة حَجّها فى خِلافته ، فلمّا دخل المسجدَ الحرام ، دنا من الحجر الأسود فقبّله واستلمه ، وقال : إنى لأعلم أنك حَجَر لا تضرّ ولا تنفعُ ، ولولا أنى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قبّلك واستلمك ، لما قبّلتك ولا استلمتُك ، فقال له علىّ : بلَى ياأمير المؤمنين ، إنه ليضرّ وينفع ، ولو علمتَ تأويل ذلك من كتاب اللهِ لعلمتَ أنّ الذى أقول لك كما أقول قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ

(١) الساعى : من يجمع الزكاة . (٢) خاثراً : فاتراً .

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ (١) . فلمّا أشهدهم وأقرّوا له أنه الربّ عزّ وجلّ ، وأنّهم العبيدُ ، كتبَ ميثاقهم في رَقّ ، ثم ألقمه هـذا الحجر ، وإن له لعينين ولسانا وشفتين ، تشهد لمن وافاه بالموافاة،فهو أمين الله عزّ وجلّ في هذا المكان.فقال عمر : لاأبقاني الله بأرض لستَ بها ياأبا الحسن .

قلت : قد وجَدْنا في الآثار والأخبار في سِيرة عمر أشياء تناسب قوله في هذا الحجر الأسود ، كما أمرَ بقطع الشّجرةالتي بويع رسولُ الله صلى الله عليه وآله تحتَها بيعة الرضوان في عُمْرة الحديبِيَة ، لأنّ المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله كانُوا يأتونها ، فيَقِيلون تحتها ، فلمّا تكرّر ذلك أوعدهم عمر فيها ، ثم أمر بها فقطعت .

وروى المُغيرة بن سُوَيد ، قال : خرجنا مع عمر في حَجّة حجها ، فقرأ بنا في الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (٢) ،و﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ (٣)،فلمّا فرغ رأى الناس يبادِرُون إلىمسجدٍ هناك،فقال : ما بالهم؟قالوا : مسجدٌ صلّى فيه النبي صلى الله عليه وسلّم والنّاس يبادرون إليه،فناداهم فقال:هكذا هَلَكَ أهلُ الكتابقبلكم ! اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعاً . مَنْ عَرَضَتْ له صلاة في هـذا المسجد فليُصَلِّ ، ومَنْ لم تعرِضْ له صلاة فليمضِ .

* * *

وأتى رجل من المسلمين إلى عمر ، فقال : إنّا لما فتحنا المدائن أصبنا كتاباً فيه علمٌ من علوم الفرس ، وكلام معجِب ، فدعا بالدِّرّة فجعل يضربه بها ، ثم قرأ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٤)،ويقول : ويلك!أقصصٌ أحسنُ من كتاب الله ! إنما هلك

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .
(٢) سورة الفيل : ١ .
(٣) سورة قريش : ٢
(٤) سورة يوسف ٣ .

مَنْ كان قبلكم ، لأنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم ، وتركوا التوراة والإنجيل حتى دَرَسا ، وذهب مافيهما من العلم .

* * *

وجاء رجلٌ إلى عمر ، فقال : إن صَُبيغا التميميّ لقِيَنا ياأميرَ المؤمنين،فجعل يسألناعن تفسير حرُوف من القرآن ، فقال : اللهمّ أمكنّي منه ، فبينا عمر يوما جالس يغدّي الناس إذ جاءه الضُّبيع ، وعليه ثياب وعمامة،فتقدّم فأكل ، حتى إذا فرغ ، قال:ياأمير المؤمنين، مامعنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً ﴾[1]؟قال : ويحك أنت هو! فقام إليه فحسَر عن ذراعيه ، فلم يزل يجلِدُه حتى سقطت عمامته ، فإذا له ضفيرتان ، فقال: والذى نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك ، ثم أمر به فجعل فى بيت ، ثم كان يُخرجه كلَّ يوم فيضربه مائة ، فإذا برأ أخرجه فضربه مائة أخرى ، ثم حمله على قَتَبٍ وسيّره إلى البصرة . وكتب إلى أبى موسى يأمره أن يحرّم على الناس مجالسته،وأن يقوم فى الناس خَطيبا ، ثم يقول : إنّ صُبيغا قد ابتغى العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعا فى قومه وعند الناس حتى هلك ، وقد كان من قبل سيّد قومه .

وقال عمر على المنبر:ألَا إنّ أصحاب الرأىأعداء السنن،أعيتهم الأحاديثأن يحفظوها، فأفتوْا بآرائهم،فضلّوا وأضلّوا.ألَا إنّا نقتدى ولا نبتدى ، ونتّبع ولا نبتدع ، إنه ماضَلَّ متمسِّكٌ بالأثر .

* * *

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : سمعتُ عمر يقول فى الحجّ : فيم الرَّمَلاَن[2] الآنَ والكَشْف عن المناكب ، وقد أظهر الله الإسلام ، ونفى الكفر وأهله ! ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

(١) سورة الذاريات : ١ ، ٢ .

(٢) الرملان : الهرولة حول البيت .

مرَّ عمرُ برجل فسلَّم عليه ، فردَّ عليه ، فقال : ما اسمُك؟ قال : جمرة ، قال : أبو من؟ قال : أبو شهاب ، قال: مِمّن ؟ قال : من الحُرَقة، قال : وأين مسكنُك ؟ قال : بحرّة النار، قال: بأيّها ؟ قال : بذات لَظَى ، فقال : ويحك ! أدرِكْ أهلَك فقد احترقوا . فمضى عليهم فوجدهم قد احترقوا .

***

وروَى اللّيثُ بنُ سعد ، قال : أُتِيَ عمرُ بفتًى أمرَد ، قد وجِد قتيلا ملقًى على وجه الطريق ، فسأل عن أمره واجتهد ، فلم يقف له على خبر ، فشقّ عليه ، فكان يدعو ويقول : اللهمّ أظفِرْنى بقاتله ، حتى إذا كان رأسُ الحول أو قريبا من ذلك ، وُجِد طفلٌ مولود ملقًى فى موضع ذلك القتيل ، فأُتِيَ به عمر ، فقال : ظفرت بدم القتيل ، إن شاء الله تعالى ! فدفع الطّفل إلى امرأة ، وقال لها : قومى بشأنه ، وخذى مِنّا نفقته، وانظرى مَنْ يأخذه منك ، فإذا وجدت امرأة تقبّله وتضمّه إلى صدرها فأعلمينى مكانَها ، فلمّا شبّ الصبيّ جاءت جارية ، فقالت للمرأة: إنّ سيدتى بعثتنى إليك لتبعثِى إليها بهذا الصبيّ ، فتراه وتردُّه إليك ، قالت : نعم ، اذهبى به إليها ، وأنا معك ، فذهبتْ بالصبيّ ، حتى دخلت على امرأة شابّة ، فأخذت الصبيّ ، فجعلت تقبّله وتُفَدّيه وتضمّه إليها ، وإذا هى بنت شَيْخٍ من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المرأة وأخبرت عمر ، فاشتمل على سيفه وأقبل إلى منزلها ، فوجد أباها متّكِئاً على الباب ، فقال له : ما الّذى تعلم من حال ابنتك ؟ قال : أعرَفُ النّاس بحق الله وحقّ أبيها ، مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها ، فقال : إنّى أحبّ أن أدخل إليها وأزيدَها رغبة فى الخير، فدخل الشيخ ، ثم خرج فقال : ادخل ياأمير المؤمنين ، فدخل وأمر أن يخرُج كلُّ مَنْ فى الدار إلا أباها ، ثم سألها عن الصبيّ ، فلجلجَت ، فقال : لَتصدُقِينى ، ثم انتضى السيف ، فقالت : عَلَى رِسْلك ياأمير المؤمنين! فوالله لأصدقنّك ! إنّ عجوزاً كانت تدخل علىّ فاتخذتها أمّا ، وكانت تقوم فى أمرى بما تقوم به الوالدة ، وأنا لها بمنزلة البنت ،

فمكثت كذلك حينا ، ثم قالت : إنه قد عرض لى سفر ، ولى بنت أتخوّف عليها بعدى الضَّيعة ، وأنا أحبّ أن أضمّها إليك حتى أرجعَ من سفرى ، ثم عمدَت إلى ابنٍ لها أمرد فهيّأته وزيّنته كما تزيّن المرأة وأتتنى به ، ولا أشك أنه جارية ، فكان يرى منّى ماترى المرأة من المرأة ، فاغتفلنى يوما وأنا نائمة فما شعرت به حتى علّانى وخالطنى ، فمددت يدى إلى شَفْرَةٍ كانت عندى فقتلتُه ، ثم أمرت به فألقِىَ حيث رأيت ، فاشتملتُ منه على هذا الصبىّ ، فلمّا وضعته ألقيته فى موضع أبيه ، هذا والله خبرهما على ماأعلمتُك !

فقال عمر : صدقتِ ، بارك الله فيك ! ثم أوصاها ووعظها وخرج .

وكان عمر يقول : لوأدركت عُروة وعَفْراء لجمعت بينهما .

* * *

ذكر عمرو بن العاص يوما عمر فترحّم عليه ، وقال : مارأيتُ أحداً أتقى منه ، ولا أعمَلَ بالحقّ منه ، لايبالى عَلَى مَنْ وقع الحقّ ، من ولدٍ أو والدٍ ، إنّى لفى منزلى بمصر ضحًى ، إذ أتانى آتٍ ، فقال : قدم عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر غازيَيْن ، فقلت : أين نزلا ؟ قال : فى موضع كذا ـ لأقصى مصر ـ وقد كان عمر كتب إلىّ : إياك وأن يقدُم عليك أحدٌ من أهل بيتى فتجيزه أو تحبُوَه بأمرٍ لاتصنعه بغيره ، فأفعلُ بك ماأنت أهلُه. فضقتُ ذَرْعاً بقدومهما ، ولا أستطيع أن أهدِىَ لهما ، ولا أن آتيَهما فى منزلهما ، خوفاً من أبيهما ، فوالله إنّى لعلى ماأنا عليه ، وإذا قائلٌ يقول : هذا عبد الرحمن بن عمر بالباب وأبو سروعة يستأذنان عليك ، فقلت : يدخلان ، فدخلا وهما منكسِران ، فقالا : أقم علينا حدّ الله ، فإنّا أصبْنا الّليلة شرابا فسكِرْنا ، فزبرتهما وطردتهما ، وقلت : ابن أمير المؤمنين وآخر معه من أهل بدر ! فقال عبد الرحمن : إنْ لم تفعلْ أخبرتُ أبى إذا قدمت عليه أنك لم تفعل ، فعلمت أنى إن لم أقمْ عليهما الحدّ غضب عمر وعزلنى ، فنحن عَلَى مانحن عليه ،

إذ دخل عبد الله بن عمر ، فقمت إليه ورحّبت به ، وأردت أن أجلِسه فى صدر مجلسى ، فأبى علىّ وقال : إنّ أبى نهانى أن أدخُلَ عليك إلاّ ألاّ أجدَ من الدخول بُدًّا ، وإنى لم أجد من الدخول عليك بُدًّا ، إن أخى لا يحلَق عَلَى رءوس الناس أبدا ، فأمّا الضّرب فاصنع ما بدا لك ـ قال : وكانوا يحلِقون مع الحدّ ـ فأخرجتُهما إلى صحن الدّار وضربتهما الحدّ ، ودخل عبد الله بن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدارِ فحلَق رأسه ، وحلق أبا سروعة ، والله ما كتبتُ إلى عمر بحرفٍ ممّا كان ، وإذا كتابه قد ورد :

من عبد الله عمر أميرَ المؤمنين ، إلى العاصى ابن العاصى ، عجبتُ لك يابن العاصى ولجراءتك علىّ ومخالفتك عهدى ! أما إنى خالفت فيك أصحابَ بدر ومَنْ هو خير منك ، واخترتُك وأنت الخامِل ، وقدّمتُك وأنت المؤخّر ، وأخبرَنى الناس بجراءتك وخلافك ، وأراك كما أخبروا ، وما أرانى إلّا عازلك فمسىء عزلَكَ . ويحك ! تضرب عبد الرحمن ابن عمر فى داخل بيتك ، وتحلقَ رأسَه فى داخل بيتك ، وقد عرفتَ أنّ فى هذا مخالفتى ! وإنما عبد الرحمن رجل من رعيّتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفتَ ألّا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عز وجلّ ، فإذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة عَلَى قَتَب ، حتى يعرف سوء ماصنع .

قال : فبعثت به كما قال أبوه ، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما ، وكتبت إلى عمر كتابا أعتذر فيه وأخبرته أنّى ضربته فى صَحْن الدار ، وحلفت بالله الّذى لايُحْلَف بأعظم منه ، أنه الموضع الذى أقيم فيه الحدود على المسلم والذّمىّ ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر . فذكر أسلم مولى عمر قال :

قدم عبدُ الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما ، فدخل عليه فى عَباءة ، وهو لا يقدِر على المشى من مَرْكبه ، فقال : يا عبد الرحمن ، فعلت وفعلت ! السّياط السّياط ! فكلّمه

عبد الرحمن بن عوف ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد أقيم عليه الحدّ مرة ، فلم يلتفت إليه وزبَره ، فأخذته السِّياط ، وجعل يصيح : أنا مريض وأنت والله قاتلي ! فلم يرق له ، حتى استوفى الحدّ وحبسه . ثم مرض شهرا ومات .

***

وروى الزبير بن بكار ، قال : خطب عمرُ أمّ كلثوم بنت عليّ عليه السلام ، فقال له: إنّها صغيرة ، فقال زوِّجْنيها يا أبا الحسن ، فإني أرصد من كرامتها مالا يرصده أحد ، فقال: أنا أبعثها إليك ، فإنْ رضيتَها زوّجتكها . فبعثها إليه ببُرْد ، وقال لها قولي: هذا البُرْد الذي ذكرتُه لك . فقالت له ذلك ، فقال : قولي له : قد رضيتُه رضي الله عنك - ووضع يده على ساقها - فقالت له : أتفعل هذا ! لولا أنّك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم جاءت أباها فأخبرته الخبر ، وقالت : بعثتني إلى شيخ سوء ! قال : مهلا يا بنيّة ، إنه زوجك ، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين في الروضة ، وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون، فقال : رفِّئوني [1] ، رفئوني ، قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزوّجت أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « كلّ سببٍ ونسب وصهر ينقطعُ يوم القيامة إلا سَبَبي ونسبي وصهري » .

***

وكتب عثمان إلى أبي موسى : إذا جاءك كتابي هذا فأعْطِ النّاس أعطياتِهم، واحمل ما بقي إليّ . ففعل ، وجاء زيد بن ثابت بالمال ، فوضعه بين يدي عثمان ، فجاء ابنٌ لعثمان، فأخذ منه أستاندانة من فضّه ، فمضى بها فبكى زيد ، قال عثمان : ما يبكيك ؟ قال : أتيت عمر مثل ما أتيتُك به ، فجاء ابنٌ له فأخذ دِرْهماً فأمر به فانتزع منه ، حتى أبكى

(١) رفأه : إذا قال له : بالرفاء والبنين .

الغلام ، وإنّ ابنك قد أخذ هذه فلم أرَ أحداً قال شيئاً . فقال عثمان : إنّ عمر كان يمنعُ أهلَه وقرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطِي أهلِي وأقاربي ابتغاء وجه الله ، ولن تلقَى مثل عمر .

***

وروى إسماعيل بن خالد،قال : قيل لعثمان : ألّا تكون مثل عمر ! قال : لاأستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم .

***

ذكرت عائشة عمرَ ، فقالت : كان أجودَنا ؛ نَسيجَ وحْدِه ، قد أعَدّ للأمور أقرانَها .

***

جاء عبد الله بن سَلاَم بعد أن صلّى النّاس على عمر، فقال : إن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه فلا تسبقوني بالثناء عليه ، ثم قال : نعم أخو الإسلام كنتَ ياعمر ! جواداً بالحقّ بخيلاً بالباطل ، ترضَى حين الرّضا ، وتسخَط حين السّخط ؛ لم تكن مدّاحاً ولا مِغياباً، طيّب الطّرَف ، عفيفَ الطّرْف .

***

وروى جُويرِية بن قُدامة ، قال : دخلتُ مع أهل العراق على عمرَ حين أصيب ، فرأيتُه قد عَصَب بطنَه بعمامة سوداء ، والدّم يسيل ، فقال له الناس : أوصِنا ، فقال عليكم بكتاب الله ، فإنّكم لنْ تضلّوا ما اتبعتموه . فأعدنا القول عليه ثانية:أوْصِنا، قال : أوصيكم بالمهاجرين ، فإنّ الناس سيكثُرون ويقلّون ، وأوصيكم بالأنصار ، فإنهم شِعْب الإسلام الذى لجأ إليه ، وأوصيكم بالأعراب ، فإنهم أصلكم الذى لجأتم إليه ومأواكم .وأوصيكم بأهل الذمّة ، فإنّهم عهد نبيّكم ورزق عيالكم ؛ قوموا عنّى .

فلم أحفظ من كلامه إلا هذه الكلمات .

* * *

وروى عمرو بن ميمون، قال : سمعتُ عمر وهو يقول ـ وقد أشار إلى الستّة، ولم يكلم أحدا منهم إلّا عليّ بن أبي طالب وعثمان ، ثم أمرهم بالخروج ، فقال لمن كان عنده : إذا اجتمعوا عَلَى رجل فمن خالف فلتضربَ رقبته ، ثم قال : إن يولّوها الأجلح[١] يسلك بهم الطريق ، فقال له قائل : فما يمنعك من العهد إليه ؟ قال : أكره أن أتحمّلها حيًّا وميتا .

* * *

[خطب عمرَ الطّوال]

وقال الجاحظ فى كتاب " البيان والتبيين " : لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيرا ، وإنما صاحب الخطب الطوال عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وقد وجدتُ أنا لعمر خطبا فيها بعض الطُّول ، ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ فى التاريخ .

* * *

فمنها خطبة خَطب بها حين وليَ الخلافة ، وهى بعد حَمْد الله والثّناء عليه وعَلَى رسوله :

أيّها الناس، إنّى ولّيتُ عليكم،ولولا رجاء أن أكون خيرَكم لكم ، وأقواكم عليكم، وأشدَّكم استضلاعا بما ينوب من مهمّ أموركم ، ماتولّيت ذلك منكم ، ولكنى عمر فيها مجزى[٢] العطاء موافقة الحساب ، بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعِها أين أضعها ،

---

(١) الجلح : انحسار الشعر عن جانبي الرأس ، ويريد بالأجلح على بن أبى طالب .
(٢) الطبرى : « ولكنى مهماً عزنا انتظار موافقة الحساب » .

وبالسِّيَر فيكم كيف أسير ! فربّى المستعان ، فإنّ عُمَر لم يصبح يثق بقوّة ولا حيلة ، إنْ لم يتداركه الله برحمته وعونه(١) .

أيّها الناس إن الله قد ولّانى أمرَكم ، وقد علمت أنفع مالكم ، وأسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يحرسنى عنده ، كما حرسنى عند غيره ، وأن يلهمنى العدل فى قَسْمكم كالذى أمر به ، فإنى امرؤ مسلم ، وعبد ضعيف إلّا ما أعان الله ، ولن يغيّر الذى وليت من خلافتكم من خُلُقى شيئاً إن شاء الله . إنما العظمةُ لله ، وليس للعباد منها شىء ، فلا يقولنّ أحدُكم إن عمر تغيّر منذ وَلِىَ ، وإنّى أعقِلُ الحقّ من نفسى ، وأتقدّم وأبيّن لكم أمرِى ، فأيّما رجلٍ كانت له حاجة أو ظلِم مظلمة أو عتب علينا فى خلق ، فليُؤْذِنّى ، فإنّما أنا رجلٌ منكم . فعليكم بتقوى الله فى سرّكم وعلانيتكم وحُرُماتكم وأعراضكم ، وأعطُوا الحقّ من أنفسكم ، ولا يحمِلْ بعضُكم بعضاً علىّ ألّا تتحاكموا إلىّ ، فإنّه ليس بينى وبين أحد هَوادة ، وأنا حبيبٌ إلىّ صلاحكم ، عزيز علىّ عَنَتُكم ، وأنتم أناس عامّتكم حضَر فى بلاد الله وأهل بلدٍ لا زرع فيه ولا ضَرْع إلّا ماجاء الله به إليه ، وإنّ الله عزّ وجلّ قد وعدكم كرامة كبيرة ، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ، ومطّلع عَلَى مايحضرنى بنفسى إن شاء الله ، لا أكِلُه إلى أحدٍ ، ولا أستطيع مابَعُد منه إلّا بالأمناء وأهل النّصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله(٢) .

***

وخطب عمر مرة أخرى ، فقال بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وآله :

---

(١) الطبرى ٥ : ٢٥ ، وهى آخر الخطبة هنا ، وما يليها خطبة أخرى .

(٢) تاريخ الطبرى ٥ : ٢٥ ، ٢٦ .

أيّها النّاس ، إنّ [بعض][1] الطّمع فقْر ، وإنّ بَعْض اليأس غنًى ، وإنكم تجمعون مالا تأكلون ، وتؤمّلون مالا تدركون ،وأنتم مؤجّلون فى دار غرور ، وقد كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله تؤخذون بالوحْى ،ومن أسرّ شيئاً أخِذ بسريرته ،ومَنْ أعلن شيئاً أخِذ بعلانيته ، فأظهرُوا لنا حسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه مَنْ أظهر لنا قبيحاً ، وزعم أن سريرته حسنة لم نصدّقه ،ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا [به حسنا][1].

واعلموا أنّ بعض الشحّ شُعبة من النّفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومَنْ يوقَ شحّ نفسِه فأولئك هم المفلحون.

أيّها الناس ، أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتّقوا الله ربّكم ، ولا تُلبِسُوا نساءكم القُباطىّ[2]، فإنّه إنْ لم يشفّ[3] فإنه يَصِف.

أيّها الناس ، إنى لوددت أن أنجوَ كفافا لالي ولا علىّ ، إنّى لأرجو إن عُمِّرت فيكم يسيرا أو كثيرا ، أن أعمل فيكم بالحق إن شاء الله ، وألّا يبقى أحدٌ من المسلمين ـ وإن كان فى بيته ـ إلا أتاه حقّه ونصيبه من مال الله ، وإن لم يعمِل إليه نفسَه ، ولم ينصِبْ إليه بدَنه ، فأصلِحوا أموالكم التى رزقكم الله ، فقليلٌ فى رفق خير من كثير فى عنف.

واعلموا أنّ القتلَ حتْفٌ من الحتوف يصيب البَرّ والفاجر ـ والشهيد من احتَسب نفسَه ، وإذا أراد أحدُكم بعيراً فليعمِدْ إلى الطّويل العظيم فليضربه بعصاه ، فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره[4].

* * *

وخطب عمر مرّة أخرى فقال :

---

(١) تكملة من تاريخ الطبرى

(٢) القباطى : ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل فى مصر.

(٣) يشف : يرق حتى يحكى ما تحته.

(٤) تاريخ الطبرى ٦ : ٢٦.

إنّ الله سبحانه قد استوجبَ عليكم الشكر ، واتّخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الدنيا والآخرة من غير مسألة منكم ، ولا رغبةٍ منكم فيه إليه ، فخلقكم — تبارك وتعالى — ولم تكونوا شيئاً لنفسِه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعلكم عامّة خلقه ، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخّر لكم ما في السّموات والأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وحملكم في البرّ والبحر ، ورزقكم من الطيّبات لعلّكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومِنْ نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمّ بها بني آدم ومنها نعمٌ اختصّ بها أهلَ دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصُّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النّعم نعمةٌ وصلت إلى امرىء خاصّة إلا لو قسمتم ما وصل منها بين الناس كلّهم أتعبهم شكرُها ، وفدحهم حقّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلَفون في الأرض قاهرون لأهلها ، قد نصرَ الله دينَكم فلم تصبح أمّة مخالفة لدينكم ، إلاّ أمّتين أمّة مستعبدة للإسلام وأهله ، يتجرون لكم ، تستصفون[1] معايشهم وكدائحهم ، ورشح جباههم ، عليهم المؤونة ، ولكم المنفعة ، وأمّة تنتظر وقائع الله وسطواته في كلّ يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رُعباً ، فليس لهم معقل يلجئون إليه ، ولا مهرب يتقّون به ، قد دهمتهم جنودُ الله ونزلت بساحتهم ، مع رفاغة[2] العيش واستفاضة المال ، وتتابع البعوث وسدّ الثغور بإذن الله ، في العافية الجليلة العامّة التي لم تكن الأمّة على أحسن منها منذ كان الإسلام ، والله المحمود مع الفتوح العظام في كلّ بلد ، فما عسى أن يبلغ شكر الشاكرين ، وذكر الذاكرين ، واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النّعم التي لا يُحصَى عددُها ، ولا يقدر قدرُها ، ولا يستطاع أداء حقّها إلا بعون الله ورحمته ولطفه ! فنسأل الله الذي أبلانا هذا أن يرزقَنا العملَ بطاعته ، والمسارعةَ إلى مرضاته . واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم ، واستتمّوا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنَى وفرادى ؛ فإنّ الله تعالى قال لموسى :

(١) استصفى الشيء : أخذ منه صفوه .　　(٢) الرفاغة : سعة العيش وطيبه .

﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾(١) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلّم : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾(٢) فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله وبدينه ، وترجون الخير فيما بعد الموت ؛ ولكنكم كنتم أشدّ الناس عيشة وأعظم الناس بالله جهالة ، فلو كان هذا الذى ابتلاكم به لم يكن معه حظٌّ فى دنياكم غير أنه ثِقَةٌ لَكُمْ فى آخرتكم التى إليها المعادُ والمنقلَب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه كنتم أحرِياءَ أن تشحوا على نصيبكم منه ، ون تظهروه على غيره فَبَلْه(٣). أما إنه قد جمع لكم فضيلَةَ الدّنيا وكرامة الآخرة ، أو لمن شاء أن يجمع ذلك منكم ، فأذكّركم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم إلّا ماعرفتم حقّ الله وعملتم له ، وسيّرتُم أنفسكم على طاعته ، وجمعتم مع السرور بالنِّعم خوفًا لزوالها وانتقالها ، ووجلًا من تحويلها ، فإنه لاشيء أسلبُ للنعمة مِنْ كفرانها ، وإنّ الشكر أمنٌ للغيَر ، ونماء للنّعمة ، واستجلاب للزّيادة ، وهذا علىّ فى أمركم ونهيكم واجب إن شاء الله .

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنّى فى كتاب " مقاتل الفرسان " قال: كتب عمر إلى سلْمان بن ربيعة الباهلىّ — أو إلى النّعمان بن مقرّن :

إنّ فى جندك رجلَين من العرب : عمرو بن معد يكرب وطُلَيحة بن خويلد ، فأحضِرْهما النّاس وأدْنِهما وشاوِرْهما فى الحرب ، وابعثهما فى الطّلائع ، ولاتولّهما عملا من أعمال المسلمين ، وإذا وضعت الحرب أوزارها ، فضمهما حيث وضعا أنفسهما. قال : وكان عمرٌو ارتدّ ، وطليحة تنبأ .

* * *

(١) سورة إبراهيم : ٥ (٢) سورة الأنفال : ٢٦ (٣) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك .

وروى أبو عُبيدة أيضاً فى هذا الكتاب ، قال : قدِم عمرو بن معد يكرب والأَجْلَح بن وقّاص الفهمىّ على عمر ، فأتياه وبين يديْه مالٌ يوزَنُ ، فقال : متَى قدمتما ؟ قالا : يومَ الخميس ، قال : فما حَبَسكما عنّى ؟ قالا : شغلنا المنزل يوم قدِمْنا ، ثم كانت الجمعة ، ثم غدوْنا عليك اليوم . فلمّا فَرَغ من وزن المال نحّاه ، وأقبل عليهما ، فقال : هيهِ ! فقال عمرو بن معد يكرب : ياأميرَ المؤمنين ، هـذا الأجلح بن وقّاص ، الشديد المِرّة ، البعيد الغرّة ، الوشيك الكَرّة ؛ والله مارأيت مثله حين الرجال صارعٌ ومصروع ! والله لكأنّه لايموت. فقال عمر للأَجلح ــ وأقبل عليه ، وقد عرف الغضب فى وجهه : هِيهِ ياأجْلَح ! فقال الأجلح : ياأميرَ المؤمنين ، تركتُ الناس خلفى صالحين ، كثيراً نسلُهم ، دارّة أرزاقهم ، خِصْبَةً بلادهم ، أجرياء على عدوّهم ، فأكلأ عدوّهم عنهم ، فسيمتّع الله بك ، فما رأينا مثلك إلّا مَنْ سبقك ، فقال : مامنعك أن تقول فى صاحبك مثل ماقال فيك ؟ قال : ما رأيتُ من وجهك ، قال : أصبْت ، أما إنّك لو قلت فيه مثل الذى قال فيك لأوجعتُكما ضرباً وعقوبة ، فإذ تركتك لنفسك فسأتركه لك ، والله لوددت لو سَلِمَتْ لكم حالكم ، ودامت عليكم أمورُكم . أما إنّه سيأتى عليك يوم تعضّه وينهشك ، وتهرّه وينبَحُك ، ولستَ له يومئذ وليس لك ، فإن لا يكن بعهدكم ، فما أقربَه منكم !

***

لما أُسِرَ الهُرمُزان صاحب الأهواز وتُنُصِّرَ وحمِل إلى عمرَ ، حُمل ومعه رجال من المسلمين ، فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك ، فأدخلوه فى المدينة فى هيئته ، وعليه تاجُه الذهب وكسوته ، فوجدوا عمر نائماً فى جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهَه ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ، قال : وأين حُرّاسه وحُجّابه ؟ قالوا : لا حارس له ولا حاجب ، قال : فينبغى أن يكون هذا نبيًّا ! قالوا : إنّه يعمل عمل الأنبياء .

فاستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ! قالوا : نعم ، قال : لا أكلّمه حتى لا يبقى عليه من حليته شيء ، فرمَوْا بالحلية وألبسوه ثوباً ضعيفاً ، فقال عمر : ياهرمزان ؛ كيف رأيتَ وبال الغدر ؟ ـ وقد كان صالحَ المسلمين مرة ثم نكث ـ فقال : ياعمر ، إنّا وإيّا كم في الجاهلية كنّا نغلبكم إذ لم يكن الله معكم ولا معنا ، فلمّا كان الله معكم غلبتمونا ، قال : فما عذرك في انتقاضك مرّة بعد مرة ؟ قال : أخاف إن قلتُ أن تقتلَني ، قال : لا بأس عليك ! فأخبرني ، فاستسقى ماء ، فأخذه وجعلتْ يده تَرْعَد ، قال : مالك ؟ قال: أخاف أن تقتلَني وأنا أشرب ، قال : لا بأس عليك حتى تشرَبه، فألقاه من يده ، فقال : مابالك ! أعيدوا عليه الماء ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : كيف تقتلني وقد أمّنتني ؟ قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، فقال أنس : صدَق ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك ياأنس ! أنا أؤمّن قاتل مَجزَأة بن ثور والبَراء بن مالك ! والله لتأتيَنّي بالمخرج أو لأعاقبنّك ! قال : إنّك قلت : « لا بأس عليك حتى تخبرَني ولا بأس عليك حتى تشرَب »! وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس ، فأقبل على الهُرمزان ، فقال : تخدعُني ! والله لا تخدعني إلّا أن تسلِم ، فأسلم ، ففرَض له ألفين ، وأنزله المدينة .

* * *

بعث عمرُ عميرَ بن سعيد الأنصاريّ عاملًا على حِمْص ، فمكث حولًا لا يأتيه خبره، ثم كتب إليه بعد حول : إذا أتاك كتابي هذا فأقبِلْ واحمل ماجبيْتَ من مال المسلمين ، فأخذ عمير جرابه ، وجعل فيه زاده وقَصْعته ، وعلّق أداته ، وأخذ عَنَزته[1] ، وأقبل ماشياً من حِمْص حتى دخل المدينة ، وقد شحَب لونُه ، واغبرّ وجهُه ، وطال شعره . فدخل على عمر فسلّم ، فقال عمر : ماشأنك ياعمير ؟ قال : ماترَى من شأني ، ألستَ ترانى صحيح البدن ، ظاهر الدّم ، معي الدنيا أجرّها بقرنَيْها ؟ قال : ومامعك ـ فظنّ عمر أنه قد جاء

(١) العنزة : عصا مثل الحربة .

بمالٍ ، قال : معى جرابى أجعل فيه زادى،وقَصْعَتى آكل فيها وأغسل منها رأسى وثيابى، وأداتى أحمل فيها وَضوئى وشرابى،وعَنَزتى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوًّا إن عَرَض لى . قال عمر :أفجئت ماشيا ؟ قال : نعم ، لم يكن لى دابّة ، قال : أفما كان فى رعيّتك أحد يتبرّع لك بدابّة تركبها ؟ قال : مافعلوا،ولا سألتُهم ذلك ، قال عمر : بئس المسلمون خرجتَ من عندهم ! قال عمير : اتّق الله ياعمر،ولا تقُلْ إلّا خيراً ، قد نهاك الله عن الغِيبة،وقد رأيتُهم يصلّون ! قال عمر:فماذا صنعت فى إمارتك ؟ قال : وماسؤالك ؟ قال : سبحان الله ! قال : أما إنّى لولا أخشى أن أعمل ما أخبرتك.أتيت البلد ، فجمعت صُلَحاء أهله فولّيتهم جبايته، ووضعَه فى مواضعه،ولو أصابك منه شىء لأتاك،قال : أفما جئت بشىء ؟ قال : لا ، فقال: جدِّدُوا لعميرٍ عهدا،قال : إنّ ذلك لشىء لا أعمله بَعْدُ لك،ولا لأحد بعدك،والله ما كدت أسْلَمَ ـ بل لم أسلَمْ،قلت لنصرانىّ معاهَد : أخزاك الله ، فهذا ماعرّضتنى له ياعمر ! إن أشقى أيّامى ليوم صحبتُك ! ثم استأذنه فى الانصراف ، فأذن له ، ومنزله بقُباء بعيداً عن المدينة، فأمهله عمر أياما ثمّ بعث رجلا يقال له الحارث ، فقال : انطلِق إلى عمير بن سعد وهذه مائة دينار ، فإنْ وجدتَ عليه أثرا فأقبل علىّ بها،وإن رأيت حالًا شديدة فادفع إليه هذه المائة،فانطلق الحارث فوجد عُميرا جالساً يفلّى قميصاً له إلى جانب حائط،فسلم عليه،فقال عمير: انزل رحمك الله ! فنزل فقال:مِنْ أين جئت؟قال:من المدينة،قال : كيف تركتَ أمير المؤمنين؟ قال : صالحا ، قال : كيف تركت المسلمين ؟ قال : صالحين ، قال : أليس عمرُ يقيم الحدود؟ قال : بلَى ، ضرب ابناً له على فاحشة فمات من ضَرْبه ، فقال عمير : اللهمّ أعِنْ عمر ، فإنى لا أعلمُه إلّا شديداً حبُّه لك ! قال : فنزل به ثلاثة أيام ، وليس لهم إلا قرصٌ من شعير كانوا يخصُّونه كلّ يوم به ويطوون ، حتى نالهم الجهد ، فقال له عمير : إنّك قد أجعتنا ، فإن رأيت أن تتحوّل عنّا فافعل ، فأخرج الحارث الدنانير فدفعها إليه ، وقال : بعث بها أمير المؤمنين ، فاستعِنْ بها ، فصاحَ وقال : ردّها ، لاحاجة لى فيها ، فقالت المرأة : خذها

ثم ضمها فى موضعها ، فقال : مالى شىء أجعلها فيه ! فشقّت أسفلَ درعها(١) فأعطته خِرْقة فشدّها فيها، ثم خرج فقسّمها كلّها بين أبناء الشهداء والفقراء، فجاء الحارث إلى عمر فأخبره، فقال : رحم الله عميرا ! ثم لم يلبث أن هَلَك ، فعظم مهلكه على عمر، وخرج مع رهط من أصحابه ماشين إلى بقيع الغَرْقد، فقال لأصحابه : ليتمنّيَنّ كلّ واحد منا أمنيّته، فكلّ واحد تمنى شيئاً، وانتهت الأمنيّة إلى عمر؛ فقال: وددت أن لى رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أمور المسلمين !

***

[نُبذ من كلام عمر]

ومن كلام عمر : إيّاكم وهذه المجازِرَ ، فإن لها ضَراوةً كضراوة الخمر .

وقال : إيّاكم والراحةَ فإنها غفلة .

وقال : السِّمَن غفلة .

وقال : لا تُسكِنُوا نساءكم الغُرَف، ولا تعلّموهنّ الكتابة، واستعينوا عليهنّ بالعُرْى، وعوّدوهنّ قول « لا » ، فإنّ « نعم » تجرّئهنّ على المسألة .

وقال : تبيّنْ عقلَ المرء فى كلّ شىء ، حتى فى عِلّته، فإذا رأيته يتوقّى على نفسه الصبر عن شهوته ، ويحتمى من مطعمه ومشربه ، عرفتَ ذلك فى عقله ؛ وما سألنى رجلٌ عن شىء قطّ إلا تبيّن لى عقله فى ذلك .

وقال : إنّ للناس حدوداً ومنازل، فأنزلوا كلّ رجلٍ منزلته ، وضعوا كلّ إنسان فى حدّه ، واحملوا كلّ امرئ بفعله على قدره .

وقال : اعتبروا عزيمة الرّجُل بحميّته ، وعقله بمتاع بيته . قال أبو عثمان الجاحظ: لأنه

---

(١) الدرع : القميص .

ليس من العقل أن يكون فرشه لِبْدا ومرقعتهُ طَبَرِيّة .

وقال : مَنْ يئِسَ من شيء استغنى عنه ، وعزُّ المؤمن استغناؤه عن النّاس .

وقال : لايقوم بأمر الله إلّا مَنْ لا يصانع ، ولا يصارع ، ولا يتبع المطامع .

وقال : لا تُضْعِفُوا هِمّتكم ، فإنّي لم أر شيئًا أقعدَ برجل عن مكرُمةٍ مِنْ ضعف هِمّته .

ووعظ رجلاً فقال : لا تلهِكَ النّاس عن نفسك ، فإنّ الأمور إليك تصلُ دونهم ، ولا تقطع النّهارَ سادِراً ، فإنه محفوظ عليك ، فإذا أسأت فأحسِنْ ، فإنى لم أرَ شيئا أشدّ طلبا ، ولا أسرع إدراكا من حسنةٍ حديثة لذنب قديم .

وقال : احذَر من فَلَتاتِ السّباب ، وكلّ ما أورثك النّبز [١] ، وأعلَقَك اللقب ، فإنه إن يعظم بعده شأنك يشتدّ على ذلك ندمك .

وقال : كلّ عمل كرهتَ من أجله الموت فاتركه ، ثم لا يضرك متى مِتّ .

وقال : أقلِلْ من الدَّيْن تعِش حرًا ، وأقلل من الذّنوب يهُنْ عليك الموت ، وانظر فى أىّ نصاب تضع ولدك ، فإنّ العِرْق دسّاس .

وقال : تركُ الخطيئة أسهلُ من معالجة التوبة .

وقال : احذروا النّعمة حذرَكم المعصيةَ ، وهى أخفُّهما عليكم عندى .

وقال : احذروا عاقبة الفَراغ ، فإنه أجمع لأبواب المكروه من السّكر .

وقال : أجودُ النّاس مَنْ يجود عَلَى من لا يرجو ثوابه ، وأحلمُهم مَنْ عفا بعد القدرة ، وأبخلهم مَنْ بخل بالسّلام ، وأعجزهم من عجز فى دعائه .

وقال : ربّ نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة أورثت حزنا دائما .

---

(١) النبز : اللقب المعيب ؛ ومنه قوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » .

وقال : ثلاث خصالٍ مَنْ لم تكنّ فيه لم ينفعه الإيمان : حِلْم يردّ به جهل الجاهل ، ووَرَعٌ يَحجُزه عن المحارم ، وخُلُق يدارِى به الناس .

***

[أخبار عمر مع عمرو بن معد يكرب]

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " مقاتل الفرسان " أنّ سعد بن أبى وقاص أوفَدَ عمرو بن معديكرب بعد فتح القادسيّة إلى عمر ، فسأله عمر عن سعد: كيف تركتَه ، وكيف رضا الناس عنه ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هو لهم كالأب يجمع لهم جَمْع الذَّرّة ، أعرابى فى نَمِرته(١) ، أسد فى تامورته(٢) ، نَبَطِىٌّ فى جِبايته ، يقسِم بالسويّة ، ويعدل فى القضيّة ، وينفِر فى السريّة .

وكان سعد كتب يُثْنِى على عمرو ، فقال عمر : لكأنّما تعاوضْتما الثناء ! كتبَ يُثْنى عليك ، وقدِمْتَ تثنى عليه ! فقال : لم أُثْنِ إلّا بما رأيت ، قال : دَعْ عنك سعدا ، وأخبرنى عن مَذْحِج قومك .

قال : فى كلٍّ فضلٌ وخيْر ، قال : ما قولُك فى عُلَة بن خالد ؟ قال : أولئك فوارس أعراضنا ، أحثّنا طلبا ، وأقلنا هرَبا ، قال : فسعد العشيرة ؟ قال : أعظمنا خِيساً(٣) ، وأكبرنا رئيسا ، وأشدّنا شَرِيساً(٤) . قال : فالحارث بن كعب ؟ قال : حَسَكَةٌ لا ترام ، قال : فمراد ؟ قال : الأتقياء البرَرَة ، والمساعير الفجَرة ، ألزمُنا قرارا ، وأبعدنا آثارا .

---

(١) النمرة : بردة من صوف يلبسها الأعراب .
(٢) قال فى اللسان : «وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب عن سعد فقال : أسد فى تامورته ، أى فى عرينه ، وهو بيت الأسد الذى يكون فيه، وهى فى الأصل الصومعة . فاستعارها للأسد»
(٣) الخيس : الجيش . (٤) شريساً ، أى شراسة .

قال : فأخبرني عن الحرب ، قال : مرّة المذاق ، إذا قلّصَتْ عن ساق ، مَنْ صبر فيها عرف ، ومن ضعف عنها تلِف ، وإنّها لكما قال الشاعر :

الحَرْبُ أوّلَ ما تَكُونُ فَتيّــةً تَسْعَى بزينَتِها لِـكلّ جَهُولِ[1]
حتى إذا استعرَتْ وشَبَّ ضِرامها عادتْ عجوزاً غير ذاتِ حليلِ
شَمطاء جَزّتْ رأسَها وتنـكّرتْ مَـكْرُوهةً للشّمِّ والتّقبيــــل

قال : فأخبِرْني عن السّلاح ، قال : سلْ عمّا شئت منه ، قال : الرّمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال النّبل ؟ قال : منايا تُخْطِئُ وتصيب ، قال : التُّرس ؟ قال : ذاك المِجنّ ، وعليه تدور الدوائر ، قال : الدرع ؟ قال : مشغَلَةٌ للراكب[2] ، متعَبةٌ للراجل ، وإنها لحِصْنٌ حَصين . قال : السيف ؟ قال : هناك قارعت أمّك الهَبَل ، قال : بل أمّك ، قال : بل أمّي ، والحمّى أضرَعتني[3] لك[4] .

* * *

عرض سليمان بن ربيعة الباهليّ جنده بأرمينيّة ، فكان لا يقبل من الخيل إلّا عتيقا ، فمرّ عمرو بن معد يكرب بفرس غليظ ، فردّه وقال : هذا هجين ، قال عمرو : إنه ليس بهجين ، ولكنه غليظ ، قال : بل هو هجين ، فقال عمرو : إنّ الهجين ليَعرِفُ الهجين . فكتب بكلمته إلى عمر ، فكتب إليه : أمّا بعد يابن معد يكرب ، فإنّك القائل لأميرك ما قلت ، فإنه بلغني أنّ عندك سيفا تسمّيه الصّمصامة ، وأنّ عندي سيفا أسمّيه مصمّما ، وأقسم بالله لئن وضعتُه بين أذنيك لا يقلع حتى يبلغ قحفَك .

---

(١) تنسب هذه الأبيات لامرئ القيس ، ديوانه ٣٥٣ .
(٢) في العقد : « مثقلة للراكب متعبة للفارس » .
(٣) أراد أن الإسلام قيده ، ولو كان في الجاهلية ما استطاع عمر أن يكلمه بهذا الكلام .
(٤) الخبر في العقد ١ : ٢١٠ ، عيون الأخبار ١ : ١٣٠ .

وكتب إلى سليمان بن ربيعة يلومُه في حِلمه عنه ، فلما قرأ عمرو الكتاب ، قال : مَنْ ترونه يعني ؟ قالوا : أنت أعلم ، قال : هدّدني بعليّ والله ، وقد كان صَلِيَ بناره مرّةً في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأفلت من يده بجُرَيْعة[1] الذّقن ، وذلك حين ارتدّت مذحِج ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أمّر عليها فَرْوة بن مسيك المراديّ ، فأساء السيرة ، ونابذ عمرو بن معد يكرب ففارقه في كثير من قبائل مَذْحِج ، فاستجاش فَرْوة عليه وعليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأرسل خالد بن سعيد بن العاص في سريّة وخالد بن الوليد بعده في سريّة ثانية ، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام في سريّة ثالثة ، وكتب إليهم : كلّ واحد منكم أمير من معه ، فإذا اجتمعتم فعليٌّ أميرٌ على الكلّ ، فاجتمعوا بموضع من أرض اليمن يقال له « كسر » ، فاقتتلوا هناك ، وصَمَد عمرو بن معديكرب لعليّ عليه السلام — وكان يظنّ أن لا يثبت له أحدٌ من شجعان العرب — فثبت له ، فعلا عليه ، وعاين منه مالم يكن يحتسبه ، ففرّ من بين يديْه هاربا ناجياً بحُشاشة نفسه ، بعد أن كاد يقتله ، وفرّ معه رؤساء مذحِج وفرسانهم ، وغَنِم المسلمون أموالَهم ، وسُبِيت ذلك اليوم ريحانة بنت معد يكرب أخت عمرو ، فأدّى خالد بن سعيد بن العاص فِداءها من ماله ، فأصابه عمرو أخوها الصّمْصامةَ ، فلم يزل ينتقل في بني أميّة ويتداولونه واحداً بعد واحدٍ حتى صار إلى بني العباس في أيام المهديّ محمد بن المنصور أبي جعفر .

***

[فصل فيما نقل عن عمر من الكلمات الغريبة]

فأما ما نقل عن عمر من الألفاظ الغريبة اللّغوية التي شرحها المفسرون ، فنحن نذكر من ذلك ما يليق بهذا الكتاب .

---

(١) أي قرب الموت منه كقرب الجريعة من الذقن ، وذلك إذا أشرف على التلف ثم نجا ، وهذا مثل يضرب في إفلات الجبان . والجريعة : بقية الروح . وانظر الميداني ٢ : ٦٩ .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه : روى عبد الرحمن بن أبي زيد ، عن عمران بن سودة الليثيّ ، قال : صلّيت الصبح مع عمر ، فقرأ « سبحان » وسورة معها، ثم انصرف ، فقمت معه ، فقال : أحاجة ؟ قلت : حاجة ، قال : فالحق ، فلحقت ، فلمّا دخل أذِن ، فإذا هو على رمال[1] سرير ، ليس فوقه شيء ، فقلت : نصيحة ! قال : مرحباً بالناصح غدوًّا وعشيًّا ، قلت : عابت أمّتك ـ أو قال رعيّتك ـ عليك أربعا ، قال : فوضع عود الدِّرّة ثم ذقَن عليها ـ هكذا روى ابن قتيبة ـ وقال أبو جعفر : « فوضع رأس دِرّته في ذَقْنه » ووضع أسفلها على فخذه ، وقال : هات ـ قال: ذكروا أنّك حرّمت المُتعة في أشهر الحج ـ وزاد أبو جعفر : « وهي حلال » ـ ولم يحرّمها[2] رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أبو بكر ، فقال: أجل ! إنّكم إذا اعتمرتم في أشهر حجّكم رأيتموها مجزئة عن حجّكم ، فقَرِع حجُّكم ، وكانت قابِيَة قُوب عامها والحجّ بهاء من بهاء الله ، وقد أصبتَ . قال : وذكروا أنّك حرّمت مُتْعة النساء ، وقد كان رُخصة من الله نستمتع بقبضة ، ونفارق عن ثلاث ، قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أحلّها في زمان ضرورة ، ورجع النّاس إلى السعة ، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عاد إليها ، ولا عمل بها ، فالآن مَنْ شاء نكح بقُبْضة ، وفارق عن ثلاثٍ بطلاق وقد أصبت .

وقال: ذكروا أنّك أعتقتَ الأمَةَ إذا وضعتْ ذا بطنها بغير عَتاقة سيّدها . قال: ألحقتُ حرمة بحرمة ، وما أردت إلّا الخير ، واستغفر الله .

قال : وشكَوْا منك عُنْف السّياق ، ونَهْرَ الرعية . قال : فنَزَعَ الدِّرّة ثم مسحها حتى أتى على سُيُورها ، وقال : وأنا زميل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة قرقرة

---

(١) ساقطة من تاريخ الطبري .　　(٢) الطبري : «ولم يفعل ذلك» .

الكَدَر ، فوالله إنى لأُرْتِع فَأُشْبِع ، وأسقى فأروى ، وإنى لأضرب العَرُوضَ ، وأزجر العَجُول ، وأُؤَدّب قَدَرِي ، وأسوق خَطْوتى ، وأردّ اللَّفُوت ، وأضُمّ العنود ، وأُكثِر الضّجر ، وأقِلّ الضرب ، وأشهر بالعصا ، وأدفع باليد ، ولولا ذلك لأعذرت .

قال أبو جعفر: فكان معاويةُ إذا حدّث بهذا الحديث يقول: كان والله عالما برعيّته[(١)] .

قال ابن قتيبة : رَمَلْت السرير وأرملته ، إذا نسجتَه بشريط من خُوصٍ أوليف .

وذَقّن عليها ، أى وضع عليها ذقنه يستمع الحديث .

وقوله : فقَرِع حَجُّكم ، أى خلَتْ أيّام الحجّ من الناس ، وكانوا يتعوذون مِن قَرَع الفِناء ، وذلك ألّا يكون عليه غاشية وزوّار ، ومِن قَرَع المراح ، وذلك ألّا يكون فيه إبل

والقابية : قشر البيضة إذا خرج منها الفرخ .

والقُوبُ : الفَرْخ ، قال الكميت :

لهنّ وللمشيب ومَنْ علاه ... من الأمثال قابيــة وقُوبُ

أراد أنّ النساء ينفرنَ من ذى الشيب ويفارقنه كما يفارق الفرخ البيضة ، فلا يعود إليها بعد خُروجِه منها أبدا . وروى عن عمر: إنّكم إذا رأيتم العُمرة فى أشهر الحجّ كافية من الحجّ خلت مكة من الحجّاج ، فكانت كبيضةٍ فارقها فرخها .

قوله: « إنّى لأُرتِعُ فأُشبِع، وأسقى فأروى » مثلٌ مستعار من رعيت الإبل، أى إذا أرتعت الإبل ، أى أرسلتها ترعى تركتها حتى تشبع ، وإذا سقيتها تركتها حتى تروى .

وقوله : « أضرب العَرُوض » ، العروض : النّاقة تأخذ يمينا وشمالا ، ولا تلزم المحجّة، يقول : أضربها حتى تعود إلى الطريق . ومثله قوله : « وأضم العنود » .

والعجول : البعير يندّ عن الإبل ، يركب رأسه عجلا ويستقبلها .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٥ (طبعة المعارف) .

قوله : « وأؤدِّب قَدْرِى » ، أى قدر طاقتى .

وقوله : « وأسوق خَطْوَتى » أى قدر خَطْوَتى .

واللَّفُوت : البعير يلتفِت يميناً وشمالا ويروغ ،

وقوله : وأكثِر الزَّجْر وأقِلّ الضرب » أى أنه يقتصر من التأديب فى السياسة على مايكتفى به ، حتى يضطر إلى ماهو أشدّ منه وأغلظ .

وقوله : « وأشهر بالعصا وأدفع باليد» ، يريد أنّه يرفع العصا يُرْهِب بهاولايستعملها، ولكنّه يدفع بيده .

قوله : « ولولا ذلك لأغْذَرْت » أى لولا هذا التدبير وهذه السياسة لخلفت بعض ما أسوق ، ويقال : أغْذَر الرّاعى الشاة والناقة إذا تركها ، والشاة العذيرة،وعذرتْ هى ، إذا تخلّفتْ عن الغنم .

قال ابن قتيبة ، وهذه أمثال ضربها ، وأصلها فى رِعْيَة الإبل وسوقها ، وإنّما يريد بها حُسْن سياسته للناس فى الغزاة التى ذكرها ، يقول : فإذا كنتُ أفعل كذا فى أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله مع طاعةِ الناس له ، وتعظيمهم إياه ، فكيفَ لاأفعله بعده!

وعندى أنّ ابنَ قتيبة غالطٌ فى هذا التأويل ، وليس فى كلام عمر ما يدلّ على ذلك وليس عمر فى غزاة قرقرة الكُدْر يسوسُ الناس ولا يأمرهم ولا ينهاهم ، وكيف ورسول الله صلى الله عليه وآله حاضرٌ بينهم ! ولا كان فى غزاة قرقرة الكدر حرب ، ولا مايُحتاج فيه إلى السّياسة ، وهل كان لعمر أو لغير عمر ورسول الله صلى الله عليه وآله حىّ أن يُرْتِع فيشبع، ويسقى فيروِى ! وهل تكون هذه الصّفات وما بعدها إلا للرئيس الأعظم! والذى أراده عمر ذكر حاله فى خلافته رادًّا على عمران بن سوادة فى قوله : « إنّ الرعيّة يشكون منك عُنْف السِّياقِ وشدة النَّهر » ، فقال : لَيشكون ! فوالله إنّى لرفيق بهم ، ومستقصٍ فى سياستهم،

ولا ناهكٍ لهم عقوبة ، وإنى لأقنع بالهيْبة والتهويل عليهم ، ولا أُعمِلُ العصا حيث يمكننى الاكتفاء باليد ، وإنى أردّ الشارد منهم وأعدل المائل . . . ، إلى غير ذلك من الأمور ، التى عدّدها وأحسن فى تعديدها .

وإنما ذكر قوله : « أنا زميل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى غزاة قرقرة الكدر » ، على عادة العرب فى الافتخار وقت المنافرة وعندما تجيش النّفس ويحمى القلب ، كما كان على عليه السلام يقول وقت الحاجة: «أنا عبد الله وأخو رسوله» ، فيذكر أشرف أحواله ، والمزيّة التى اختصّ بها عن غيره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله فى غزاة قَرْقرة الكدر أردَفَ عمر معه على بعيره ، فكان عمر يفخَرُ بها ويذكرها وقت الحاجة إليها .

* * *

وفى حديث عمر أنّه خرَج من الخلاء ، فدعا بطعام فقيل له : ألا تتوضّأ ؟ فقال: لولا التَّنطُّس ماباليت ألّا أغسل يدى[1] .

قال أبو عبيد القاسم بن سلّام : قال ابن عُلَيّة : التنطّس التقذُّر . وقال الأصمعىّ : هو المبالغة فى التطّهر ، فكلّ من أدقّ النظر فى الأمور فاستقصى علمها فهو متنطّس ، ومنه قيل للطبيب : النِّطاسىّ والنِّطِّيس لدقّة علمه بالطب .

* * *

وفى حديث عمر حين سأل الأسقفّ عن الخلفاء ، فحدّثه ، حتى إذا انتهى إلى الرابع ، فقال : صَدَع من حديد ، وقال عمر : وادفراه[2] !

قال أبو عبيدة ، قال الأصمعىّ : كان حمّاد بن سلمة يقول : «صدأ من حديد» ، وهذا أشبه بالمعنى ، لأنّ الصّدأ له ذَفَرٌ وهو النتن ، والصّدَع لا ذَفَر له ، وقيل للدنيا أمّ ذَفَر ، لما فيها من الدواهى والآفات ، فأمّا الدَّفَر بالدّال المعجمة وفتح الفاء فهو الريح الذكيّة من طيب أو نتن .

---

(١) الفائق ٣ : ١٠٤ (٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ٢٦ .

وعندي في هذا الحديث كلام ، والأظهر أن الرواية المشهورة هي الصحيحة، وهي قوله: « صدَع من حـديد » ، ولـكن بفتح الدال ، وهو ما كان من الوعول ؛ بين العَظِيم والشَّخْت ، فإن ثبتت الرواية بتسكين الدّال فغير ممتنع أيضاً ، يقال : رجل صَدْع ، إذا كان ضَرْباً من الرّجال ، ليس برَهْلٍ ولا غليظ .

ورابع الخلفاء هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وأراد بالأسقُفّ مدحه .

وقول عمر : «وادَفْراه!» إشارة إلى نفسه ، كأنه استصغرَ نفسَه وعابها بالنسبة إلى ما وصفه الأسقُفّ من مدح الرابع وإطرائه .

فأمّا تأويلُ أبي عُبيدة فإنه ظنّ أنّ الرابع عثمان، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله معدودا من الجملة ليصحّ كون عثمان رابعاً، وجعل الدَّفَر والنتن له، وصرف اللفظ عن الرواية المشهورة إلى غيرها ، فقال : «صَدَأ حديد»، ليطابق لفظة النَّتْن على ما يليق بها، فغير خاف ما فيه من التعسّف ، ورفض الرواية المشهورة .

وأيضاً فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز إدخالُه في لفظ الخلفاء ، لأنه ليس بخليفـة ، لأن الخليفة من يَخلفُ غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله مستخلِف الناس كلهم وليس بخليفة لأحد .

* * *

وفي حديث عمر ، قال عنـد موته : « لو أنّ لي ما في الأرض جميعاً لافتـديتُ به من هول المُطَّلَع »[1] .

قال أبو عُبيد: هو موضع الاطّلاع من إشراف إلى انحدار، أو من انحدار إلى إشراف، وهو من الأضداد ، فشبّه ما أشرف عليه من أمر الآخرة .

* * *

(١) الفائق ٢ : ٨٨ .

وفى حـديث عمر ، حين بعث حذيفـة وابن حُنَيف إلى السّواد ففَلَجا الجِزْية على أهله (١).

قال أبو عبيد : فلجا أى قَسَما بالفِلْج ، وأصله من الفِلْج،وهو المكيال الذى يقال له الفِلْج لأنّ خراجهم كان طعاماً .

***

وفى حديث عمر حين قال له حذيفة:إنّك تستعين بالرّجُل الذى فيه ـ وبعضهم يرويه بالرجل الفاجر ، فقال : « استعمله لأستعين بقوته ، ثم أكون على قَفّانه » (٢) .

قال أبوعبيد عن الأصمعىّ: قُفّان كلّ شىء جُمّاعه واستقصاء معرفته،يقول : أكونُ على تتبُّع أمره حتى أستقصِىَ علمه وأعرفه .

قال : أبو عُبيد : ولا أحسب هذه الكلمة عربية ، وإنما أصلها «قبّان»،ومنه قول العامة : فلان قبّان على فلان ، إذا كان بمنزلة الأمين عليـه والرئيس الذى يتتبّع أمره ويحاسبه ، وبه سمِّىَ هذا الميزان الذي يقال له القبّان .

***

وفى حديث عمر حين قال لابن عباس وقد شاوره فى شىء فأعجبه كلامه: نِشْنِشة [أعرفها] من أخشن ، هكذا الرواية ، وأما أهل العلم فيقولون : « شنشنة أعرفها من أخزم » (٣) .

والشّنشنة فى بعض الأحوال قد تكون بمعنى المُضْغة أو القطعة تُقطع من اللحم،والقول المشهور أنّ الشّنشنة مثل الطبيعة والسجيّة ، فأراد عمر إنى أعرف فيك مشابه من أبيك فى رأيه ، ويقال : إنّه لم يكن لقرشىّ مثل رأى العباس .

قال : وقد قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يجوز « شنشنة » و « نشنشة » ، وغيره ينكر « نشنشة » .

***

(١) الفائق ٢ : ٢٦٩ .

(٢) النهاية ٣ : ٢٩٦ . والفائق ٢ : ٣٦٥

(٣) النهاية ٢ : ٢٣٨ .

وفى حديث عمر يوم السقيفة ، قال : « وقد كنت زوّرت فى نفسى قالةً ، أقومُ بها بين يدى أبى بكر ، فلم يترك أبو بكر شيئاً مما زوّرته إلّا تكلّمَ به » .

قال أبو عُبيد : التّزوير إصلاح الكلام وتهيئته كالتزويق (١) .

***

وفى حديث عمر حين ضرب الرجل الذى أقسم على أمّ سلمة ثلاثين سوطا كلّها تَبْضَع وتَحْدُرُ (٢) .

قال أبو عبيد : أى تشقّ وتورم ، حَدَر الجلد يحدُره وأحدره غيرُه .

***

وفى حديثه أنه قال لمؤذّن بيت المقدس: «إذا أذّنت فترسّلْ» ، وإذا أقمت فاحذم (٣) .

قال أبو عُبيدة: الحذْم بالحاء المهملة الحدر فى الإقامة ، وقطع التّطويل،وأصله فى المشى، وهو الإسراع فيه ، وأن يكون مع هذا كأنه يهوِى بيده إلى خلفه ، والجذْم بالجيم أيضاً القطع ، وكذلك الخذْم بالخاء المعجمة .

***

وفى حديثه أنّه قال : « لا يقرّ رجل أنه كان يطأ جاريتَــه إلا ألحقتُ به ولدها ، فمن شاء فليُمسِكها ومن شاء فليُرْسلها » .

قال أبو عبيد:هكذا الروايةبالسين المهملة والمعروف أنه : «الإرشال» بالشين المعجمة، ولعله حوّل الشين إلى السين كما يقال سَمّتُّ العاطش ، أى شمّتّه :

***

وفى حديثه : « كذب عليكم الحجّ ، كذب عليكم العمرة ، كذب عليكم الجهاد،ثلاثة أسفار ، كذبتْ عليكم (٤) » .

---

(١) النهاية ٢ : ١٣٤ (٢) النهاية ٢ : ٨٣ (٣) النهاية ١ : ٢١٠ .

(٤) الفائق ٢ : ٤٠١ ، نهاية ابن الأثير ٤ : ١٢ ، اللسان (كذب) .

قال أبو عبيد : معنى كذب عليكم الإغراء ، أى عليكم به ، وكان الأصل فى هذا أن يكون نصباً ، ولكنه جاء عنهم بالرفع شاذا على غير قياس ، ومما يحقق أنه مرفوع قول الشاعر :

كذبت عليك لا تزالُ تَقُوفني ... كما قاف آثار الوثيقة قائِفُ

فقوله : « كذبت عليك » ، إنما أغراه بنفسه ، أى عليك بى ؛ فجعل « نفسه » فى موضع رفع ، ألا تراه قد جاء بالباء فجعلها اسمه .

وقال معقّر بن حمار البارقىّ :

وَذُبيانيّة وصّتْ بنيها ... بأنْ كذبَ القراطفُ والقُروفُ[1]

فرفع ، والشعر مرفوع ، ومعناه عليكم بالقراطف والقروف ، والقراطف : القطف واحدها قُرْطُف . والقروف : الأوعية .

ومما يحقّق الرفع أيضاً قول عمر « كذبت عليكم » ، قال أبو عبيد : ولم أسمع النصب فى هذا إلّا حرفا ، كان أبو عبيد يحكيه عن أعرابىّ نظر إلى ناقةِ نضو[2] لرجل ، فقال : كذب عليك البزرُ والنّوى[3] لم أسمع فى هذا نصبا غير هذا الحرف .

قال : والعربُ تقول للمريض : كذبَ عليك العسلُ[4] ، بالرفع ، أى عليك به .

* * *

وفى حديثه : « مايمنعكم إذا رأيتم الرّجُلَ يخرق أعراض النّاس ألا تعرّبوا عليه » ؟ قالوا : نخاف لسانه ، قال : « ذاك أدنى ألّا تكونوا شهداء »[5] .

قال أبو عبيد : « ألّا تعرّبوا » ، أى ألّا تُفسِدوا عليه كلامه وتُقبّحوه له .

* * *

وفى حديثه : أنّه نهى عن الفَرْس فى الذّبيحة[6]

(١) الفائق ٢ : ٤٠١ ، اللسان ٢ : ٢٠٥
(٢) نضو : هزيلة .
(٣) اللسان (كذب) .
(٤) اللسان (كذب) .
(٥) الفائق ٢ : ١٣٤
(٦) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

قال أبو عُبيد : قيل فى تفسيره : أن ينتهىَ بالذّبح إلى النّخاع وهو عَظْم فى الرقبة ، وربّما فسّر النّخاع بأنّه المخّ الذى فى فقَار الصُّلب متّصلا بالقفا ، فنَهى أن ينتهىَ بالذبح إلى ذلك .

وقيل فى تفسيره أيضا : أن يكسر رقبة الذّبيحة قبل أن تبرد ، ويؤكّد هذا التفسير قوله فى تمام الحديث : « ولا تعجّلوا الأنفس حتى تَزْهَق » .

***

وفى حديثه حين أتاه رجلٌ يسأله أيّام المَحْل ، فقال له : هَلَكْتُ وأهْلكتُ ، فقال عمر : « أهلكتَ وأنت تَنِثّ نَثِيثَ الحَميت ؛ أعطوه رُبَعة من الصّدقة » ، فخرجت يتبعها ظئْراها [١] .

قال أبو عبيد : قد روى : « تَمُثّ » بالميم [٢] والمحفوظ بالنون . وتَنِثّ ، أى ترشَح وتَعرق من سِمَنِك وكثرة لحمك .

والحَميت : النِّحْى وفيه الرُّبّ أو السّمْن أو نحوها . والرُّبَعة : ماولد فى أول النّتاج ، والذّكر رُبَع .

***

وفى حديثه أنّه خرَج إلى المسجد للاستسقاء فصعِد المنبر ، فلم يزدْ على الاستغفار حتى نزل فقيل : إنّك لم تَسْتَسْقِ ، فقال : « لقد استسقيتُ بمجاديح السماء » [٣] .

قال أبو عبيد : جعل الاستغفار استسقاء ، تأوّل فيه قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ [٤] . والمجاديح : جمع مِجْدَح وهو النّجم الذى كانت العرب تزعم أنها تُمطَر بهِ ، ويقال : مُجْدَح بضم الميم ، وإنّما قال عمر ذلك ، على أنّها كلمةٌ جارية على ألسنة العرب ، ليس على تحقيق الأنواء ، ولا التصديق بها

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٢٥ ، الفائق ٣ : ٢١٠ (٢) النهاية لابن الأثير ٤ : ٧٧ .
(٣) نهاية ابن الأثير ١ : ١٤٦ (٤) سورة نوح ١٠ ، ١١ .

وهـذا شبيهٌ بقول ابن عبّاس فى رجل جعل أمرَ امرأته بيدها ، فقالت له : أنتَ طالق ثلاثا ، فقال : خطّأ الله نوءها ! ألّا طلّقت نفسها ثلاثا ! ليس هـذا دُعاء منه ألّا تُمطِر ، إنّما ذلك على الكلام المقول .

ومما يبيّن أنّ عمر أراد إبطالَ الأنواء والتّـكذيب بها قوله:«لقداستسقيتُ بمجاديح السماء » ؛ التى يستسقى بها الغيث ، فجعل الاستغفار هو المجاديح لاالأنواء.

***

وفى حـديثه ، وهو يذكر حال صِباه فى الجاهليّة : لقد رأيتُنى مرةً وأختاً لى نرعى على أبوينا ناضحاً لنا ، قد ألبستنا أمّنا نُقبتها ، وزوّدتنا يُمَيْنَتَيْها من الهَبيدِ ، فنخرجُ بناضحنا ، فإذا طلعت الشمس ، ألقيت النُّقْبة إلى أختى ، وخرجت أسعى عُريان فنرجع إلى أمّنا ، وقد جعلتْ لنا لَفيتَةً من ذلك الهبيد ؛ فياخِصْباه ![1] .

قال أبو عُبَيد : النَّاضِح: البعير الذى يُسْنَى عليه فيسقى به الأرض ،والأنثى ناضحة، وهى السانية أيضاً ، والجمع سوانٍ ، وقد سَنَتْ تَسْنُو ، ولا يقال : ناضحٌ لغيرالمستقى.

والنُّقْبة أن تُؤخذ القطعة من الثوب قدْرالسراويل فيجعل لها حُجْزة مخيطة من غير نَيْفق[2]، وتُشَدُّ كما تشدّ حَجْزة السراويل ، فإن كان لها نَيْفَق وساقان ، فهى سراويل .

وقال : والذى وَرَدَتْ به الرّواية « زَوّدتْنَا يُمَيْنَتَيْهَا » ، والوجه فى الكلام أن يكون «يُمَيِّنَتَيْهَا » بالتشديد ، لأنه تصغير « يمين » بلا هاء؛ وإنما قال : « يمينتيها» ولم يقل : يديها ولا كفيها لأنه لم يرد أنها جمعت كفّيها ثم أعطتنا بهما ، وإنما أراد أنها أعطت كلّ واحدٍ كفًّا كفًّا بيمينها ، فهاتان يمينان .

الهبيد : حبّ الحنظل ، زعموا أنه يعالج حتّى يمكن أكله ويطيب .

---

(١) الفائق ٣ : ٢١١ . (٢) نيفق السراويل : المتسع منها .

واللَّفِيتة : ضرب من الطَّبيخ كالُحساء .

* * *

وفى حديثه : « إذا مرّ أحدكم بحائط فليأ كل منه ، ولا يتخذ ثِبانا »(١).

قال أبو عبيد : هُو الوعاء الّذِى يحَمَل فيه الشيء ؛ فإن حملتَه بين يديك فهو ثِبان ، وإن جعلتَه فى حُضْنك فهى خُبْنة .

* * *

وفى حديثه : «لو أشاءلدعوت بصِلَاء وصِنَابٍ وصلائق و كراكرة وأسْنِمة وأفلاذ»(٢).

قال أبو عبيد : الصِّلاء: الشّواء. والصِّناب: الخردل بالزبيب. والصَّلائق: الخبْزالرقيق، ومن رواه «سلائق» بالسين أرادمايسلَق من البقول وغيرها . والكراكر، كراكر الإبل. والأفلاذ : جَمع فِلْذ وهو القطْعة من الكَبد .

* * *

وفى حديثه : « لوشئتُ أن يُدَهْمَق لى لفعلت »(٣).

قال أبو عبيد : دهمقتُ الطعام ، إذا لَيَّنْتَه ورققته وطَيَّبته .

* * *

وفى حديثه : « لئن بقيتُ لأسَوِّيَنّ بين الناس ، حتى يأتىَ الرّاعىَ حقُّه فى صُفْنه لم يعرق جبينه »(٤).

الصُّفْن : خريطةٌ للرّاعى فيها طعامُه وما يحتاج إليه . وروى بفتح الصّاد ، ويقال أيضا « فى صَفِينه » .

* * *

(١) الفائق ١ : ١٤٢ (٢) الفائق ٢ : ٣٤ (٣) الفائق ١ : ٤٢١ (٤) النهاية ٢ : ٢٦٨

وفى حديثه: « لئن بقيتُ إلى قابل ، ليأتينّ كلّ مسلمٍ حقُّه ، حتى يأتىَ الراعى بسَرْوِ حِمْير ، لم يعرَق جبينه(١) ».

السّرو مثل الخَيْف ، وهو ماانحدرَ عن الجبل وارتفع عن المسيل .

***

وفى حـديثه : « لئنْ عشتُ إلى قابل ، لأُلحقنّ آخر الناس بأوّلهم ، حتى يـكونوا ببّانًا واحداً(٢) » .

قال أبو عبيد: قال ابنُ مهدىّ : يعنى شيئاً واحداً ، ولاأحسب هذه الـكلمَةعربيّة، ولم أسمعْها فى غير هذا الحديث .

***

وفى حديثه : أنّه خطب، فقال :« ألاإنّ الأُسَيْفِعَ(٢) ـ أُسَيْفِع جُهينة(٣) ـ رضىَ من دينه وأمانتِهِ بأن يقال : سابق الحاجّ ـ أو قال : سَبق الحاجّ ـ فادّان مُعرِضاً فأصبح قدْ رِينَ به ؛ فمن كان له عليه دَيْنٌ فليغدُ بالغداة ، فلنقسم ماله بينهم بالحصص»(٤) .

قوله : « فادّان مُعْرِضاً » أى استدان مُعْرِضاً ، وهو الّذِى يعترض الناس فيستدين ممّن أمكنه، وكلّ شىء أمكنك من عرضِهِ فهو معرِض لك ، كقوله : « وَالْبَحْرِ مُعْرِضاً والسَّدِير »(٥).

ورِين بالرّجل ، إذا وقع فيما لايمـكنه الخروج منه .

***

(١) النهاية لابن الأثير ؛ والخبر هناك : « لولا أن أترك الناس ببّاناً واحداً ما فتحت على قرية إلا قسمتها » ؛ أى أتركهم شيئاً واحداً .

(٢) قال الزمخشرى : « الأسيفع تصغير الأسفع ، صفة وعلما » .

(٣) جهينة : من بطون قضاعة . (٤) الفائق ١ : ٦٠٠ .

(٥) قطعة من بيت لعدى بن زيد ، والبيت بتمامه :

سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـــلِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرْ

وفى حديثه : أنه قال لمولاه أسلم ـ ورآه يحمل متاعه على بعير من إبل الصدقة ـ فقال : « فهلاّ ناقة شَصُوصاً أو ابنَ لبون بوّالًا ! »(١).

الشَّصُوص : التى قد ذهب لبنُها ، ووصف ابن اللّبون بالبول ، وإن كانت كلُّها تبولُ ، إنما أرادَ : ليس عنده سوى البول ، أى ليس عنده مما ينتفع به من ظَهْرٍ ولا له ضَرْعٌ فيحلب، لا يزيد على أنه بوّال فقط .

***

وفى حديثه حين قيل له : إنّ النساء قد اجتمعنَ يبكين على خالد بن الوليد ، فقال : « وما على نساء بنى المغيرة أن يسْفِكن من دموعهنّ على أبى سليمان ، ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَة ! »(٢) .

قيل : النقع ها هنا طعام المأتم ، والأشبه أنّ النَّقْع رفع الصوت ، واللَّقلقة مثله .

***

وفى حديثه : أنّ سلْمان بن ربيعة الباهلىّ شكا إليه عاملاً من عماله ، فضربه بالدِّرّة حتى أنهج(٣) .

قال أبو عبيد : أى أصابه النَّفَس والبُهْر من الإعياء .

***

وفى حديثه حين قَدِم عليه أحدُ بنى ثوْر ، فقال له : هلْ مِنْ مغرِّبَةِ خبر ؟ فقال : نعم أخذنا رجلا من العرب ، كَفَر بعد إسلامه فقدّمناه فضرْبنا عنقه ، فقال : « فهلا أدخلتموه جَوْف بيتٍ فألقيتُم إليه كل يوم رغيفاً ثلاثة أيام ، لعله يتوب أو يراجع ! اللهمّ لم أشهد ولم آمر ، ولم أرض إذْ بلغنى »(٤) .

(١) الفائق ١ : ٦٥٨ (٢) نهاية ابن الأثير ٤ : ٦٤ ، ١٧٢ .
(٣) نهاية ابن الأثير ٤ : ١٨٥ ، وقال فى شرحه : « أى وقع عليه الربو ـ يعنى عمر » .
(٤) الفائق ٢ : ٢٢١ .

يقال : هل من مغرِّبةٍ خبر بكسر الراء ، ويروى بفتحها ، وأصله البُعْد ، ومنه شأوٌ مُغرِّب .

***

وفي حديثه أنه قال : آللهِ ليضربنّ أحدكم أخاه بمثل آكلة اللحم ، ثم يرى أنه لا أُقيدُه ، واللهِ [١] لأُقيدنّه [٢] » .

قال أبو عبيد : آكلة اللحم : عصا محدّدة .

***

وفي حديثه : « أعضَل بي [٣] أهلُ الكوفة ، مايرضوْن بأمير ، ولا يرْضاهم أمير [٤] » .

هو من العُضَال ، وهو الدّاء والأمر الشديد الذي لا يقوم له صاحبه [٣] .

***

وفي حديثه : أنه خطب فذكر الرّبا ، فقال : « إنّ منه أبواباً لا تخفى على أحد ، منها السّلَم في السّنّ ، وأن تباع الثمرة وهي مغضِفة ولمّا تطب ، وأن يباع الذهب بالورِق نَسَاءً [٥] » .

قال أبو عبيد : السَّلَم في السّنّ أن يسلف الرجل في الرّقيق والدّواب وغيرها من الحيوان ، لأنه ليس له حدّ معلوم .

والمغضِفة : المتدلّية في شجَرها ، وكلّ مسترخٍ أغضَف ، أي تكون غير مدرِكة .

***

وفي حديثه : أنه خطب ، فقال : ألا لا تغالُوا في صَدَاق النّساء ، فإنّ الرجل يغالِي بصدَاق امرأته ، حتى يكون ذلك لها في قلبه عداوة ، تقول : جشِمت إليكَ عَرَق القِربة [٦] .

---

(١) في الفائق : « نقدِ » بالجر ، قال : وأصله : « أبالله » ، فأضمر الباء .

(٢) الفائق ١ : ٣٨ .

(٣) وفي رواية نقلها الزمخشري : « غلبني أهل الكوفة » .

(٤) الفائق ٢ : ١٦٣ ، وتمام الرواية : « أستعمل عليهم المؤمن فيضعف ، وأستعمل عليهم الفاجر فيفجر » .

(٥) نهاية ابن الأثير ٣ : ١٦٤ ، والفائق ١ : ٦١٨ .

(٦) الفائق ٢ : ١٣٥ .

قال : معناه تكلفت لك حتى عرقت عرق القربة ، وعرقها : سيلان مائها .

***

وفى حديثه : أنه رفع إليه غلام ابتهر جارية فى شعره ، فقال : « انظروا إليه ، فلم يوجد أنبت ، فدرأ عنه الحد[١] .

قال أبو عبيد : ابتهرها ، أى قذفها بنفسه ، فقال : فعلت بها.

***

وفى حديثه : أنه قضى فى الأرنب بحُلّانٍ إذا قتلها المحرم[٢] .

قال : الحُلّان : الجدى .

***

وفى حديثه : أنه قال : « حجة هاهنا ، ثم احدج هاهنا حتى تفنى »[٣] .

قال : يأمر بحجة الإسلام لا غير ، ثم بعدها الغزو فى سبيل الله .

حتى تفنى أى حتى تهرم .

***

وفى حديثه : أنه سافر فى عقب رمضان ، وقال : « إنّ الشهر قد تسعسع ، فلو صمنا بقيته »[٤] .

قال أبو عبيد : السين مكررة مهملة ، والعين مهملة ، أى أدبر وفنى .

وفى حديثه ـ وقد سمع رجلا خطب فأكثر ـ فقال : « إنّ كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان »[٥] .

الواحدة شقشقة ، وهو مايخرج من شدق الفحل عند نزوانه ، شبيهةبالرئة . والشيطان

(١) النهاية ١ : ١٠٠ (٢) الفائق ١ : ٢٨٦ .
(٣) النهاية ١ : ٢٠٨ (٤) الفائق ٢ : ١٧٥ .
(٥) الفائق ١ : ٦٧١ .

لا شقشقة له ، إنّما هذا مثل لما يدخل فى الخطب من الكلام المكذوب وتزوير الباطل.

***

وفى حديثه : أنه قدم مكّة ، فأذّن أبو محذورة ، فرفع صوتَه فقال له : « أما خشيت يأبا محذورة أن ينشقّ مُرَيْطاؤك[١] ! » .

قال : المُرَيطاء : مابين السرّة إلى العانة ، ويروى بالقصر .

***

وفى حديثه : أنه سئل عن المذى ، فقال هو الفَطْر ، وفيه الوضوء[٢] .

قال : سمّاه فَطرا[٣] من قولهم : فَطرْت الناقة فَطْرا ، إذا حلبتَها بأطراف الأصابع فلا يخرج اللّبن إلا قليلا ، وكذلك المَذْى ، وليس المَنِىّ كذلك ، لأنه يخرج منه مقدار كثير .

***

وفى حديثه : أنه سئل عن حدّ الأمة الزانية ، فقال : « إنّ الأمَة ألقت فَرْوة رأسها من وراء الدّار[٤] » .

قال : الفَرْوة : جلدة الرأس ، وهذا مثل ، إنما أراد أنها ألقت القناع وتركت الحجاب ، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع من الفجور ، نحو رعاية الغنم ؛ فكأنّه يرى أن لا حدّ عليها .

***

وفى حديثه ، أنّه أُتِىَ بشارب ، فقال لأبعثنّك إلى رجل لا تأخذه فيك هَوادة ، فبعث به إلى مطيع بن الأسْوَد العَدَوِىّ[٥] ، فقال : إذا أصبحتَ غداً فاضربه الحدّ ، فجاء عمر

---

(١) الفائق ٣ : ٢٠   (٢) الفائق ٢ : ٢٨٦ .

(٣) قال الزمخشرى : وروى « الفطر » بالضم   (٤) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

(٥) الفائق : « العبدى » .

وهو يضرِبه ضرباً شديدا ، فقال : قتلتَ الرجل ! كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال : « أقِصَّ عنه بعشرين[١] » .

قال : معناه اجعل شِدّة هـذا الضرب قِصاصاً بالعشرين التى بقَيت من الحـدّ فلا تضربه إياها .

***

وفى حديثه أنّ رجلا أتاه فذكر له أنّ شهادة الزور قد كثُرت فى أرضهم ، فقال : « لايؤسَرُ أحدٌ فى الإسلام بشهادة[٢] الزور ، فإنّا لانقبل إلاّ العدول »[٣] .

قال : لايؤسَرُ : لايحبس ، ومنه الأسير : المسجون .

***

وفى حديثه : أنه جَدَب السّمر بعدَ عَتمة[٤] .

جَدَبه[٥] ، أى عابه ووَصمه .

ومثل هذا الحديث فى كراهيته السّمر حديثه الآخر ؛ أنه كان ينُشّ الناس بعـد العشاء بالدِّرّة ، ويقول : انصرفو إلى بيوتـكم[٦] .

قال : هكذا روى بالشين المعجمة ، وقيل : إنّ الصحيح « ينُسّ » بالسين المهملة ، والأظهر أنه ينُوش النّاس بالواو ، من التّناوش ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾[٧] .

***

وفى حديثه : « هاجروا ولا تَهَجّروا ، واتقوا الأرنب أن يحذِفها أحدُكم بالعصا ، ولـكن ليذكِّ لـكُمُ الأسلُ ؛ الرماحُ والنَّبْل »[٨] .

---

(١) الفائق ٣ : ٢٢٩

(٢) الفائق : « لشهداء السوء » .

(٣) الفائق ١ : ٣١

(٤) الفائق : « الثمر » .

(٥) الفائق ١ : ١٦٤

(٦) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٤٠ .

(٧) سورة سبأ ٥٢

(٨) الفائق ٢ : ٤٤٥ .

قال : رواه زِرّ بن حُبيش ، قال : قدمت المدينة ، فخرجت فى يوم عيدٍ ، فإذا رجل متلبِّب أعسرُ أيْسَر ، يمشى مع النّاس كأنه راكب ، وهو يقول : كذا وكذا ، فإذاهو عمر ، يقول : هاجِروا وأخلصوا الهِجْرة ولا تَهَجَّرُوا .

ولا تشبّهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم ، كقولك : تحلّم الرجل ، وليس بحليم ، وتشجّع وليس بشجاع .

والذّكاة : الذبح . والأسَلُ أعمّ من الرماح ، وأكثر مايستعمل فى الرّماح خاصّة .

والمتلبّب : المتحزّم بثيابه .

وفلان أعسر يَسَر : يعمل بكلتا يديه ، والذى جاء فى الرواية « أيسر » بالهمزة .

* * *

وفى حديثه : أنّه أفطر فى رمضان ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم نظر فإذا الشمس طالعة ، فقال : « لانقضيه ؛ ماتجانفنا فيه الإثم » (١) .

يقول : لم نتعمّد فيه الإثم ، ولا مِلْنا إليه ، والجَنَف : الميل .

* * *

وفى حديثه : أنّه قال لما مات عثمان بن مَظْعون على فراشه : « هَبَتَهُ الموتُ عندى منزلة حين (٢) لم يمت شهيدا ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراشه وأبو بكر ، علمت أنّ موت الأخيارِ على فُرُشهم (٣) .

هَبَتَه ، أى طأطأه وحطّ من قدره .

* * *

وفى حديثه : أنّ رجلاً من الجنّ لقيَه ، فقال : هل لك أن تصارِعَنِى ، فإن صرعتنى

---

(١) الفائق ١ : ٢١٨

(٢) اللسان : « حيث لم يمت شهيدا » .

(٣) الفائق : ٣ : ١٨٩ .

علَّمتُك آيةً إذا قرأتَها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان . فصارعه فصرعه عمر، وقال له : إنّى أراك ضئيلا شَخِيتاً ، كأنّ ذراعيك ذراعا كلب ، أفهكذا أنتم كلُّكم أيها الجنّ ، أم أنت من بينهم ؟ فقال: إنّى من بينهم لضَلِيع ، فعاوِدْنى ، فصارعه فصرعه الإنسىّ، فقال: أتقرأ آية الكرسىّ ؟ فإنّه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيتَه إلّا خرج الشيطان منه، وله خَبَجٌ كخَبَجِ الحمار [١] .

قال : رواه عبدُ الله بن مسعود ، وقال : خرج رجلٌ من الإنس ، فلقيه رجلٌ من الجنّ . . . ثم ذكر الحديث ، فقيل له : هو عمر ، فقال : ومَنْ عسى أن يكون إلا عُمَر!

الشَّخِيت : النّحيف الجسم ، ومثله الشَّخْت .

والضَّليع : العظيم [٢] الخلق .

والخَبَج : الضّراط .

***

وفى حديثه : أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يقول: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [٣] ؛ ماله هِجِّيرَى غيرها [٤] .

قال : هِجِّيرَى الرجل : دَأْبُه ودَيْدَنه وشأنه [٥] .

ومثلها من قول عمر : لو أطِيقُ الأذانَ مع الخِلِّيقَى لأذنت .

ومثلها من قول عمر بن عبد العزيز : لا رِدِّيدَى فى الصدقة [٦] ، أى لا تردّ .

ومثلها قول العرب : كانت بينهم رِمِّيَّا، أى مراماة ، ثم حجزت بينهم حِجِّيزَى، أى محاجزة .

***

(١) الفائق ٢ : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) فى الفائق : « والضليع : الجفر الجنبين الوافر الأضلاع ، وقد ضلع ضلاعة .

(٣) سورة البقرة ٢٠١ .

(٤) الفائق ٣ : ١٩٥ .

(٥) ٣ : ١٩٤ .

(٦) الفائق ١ : ٤٧٥ .

وفى حديثه حين قال للرجل الذى وُجِد منبوذاً فأتاه به ، فقال : عسى الغوير أبؤسا[١] ! قال عريفه : ياأمير المؤمنين، إنّه وإنه...[٢] فأثنى عليه خيرا ، وقال: فهو حُرٌّ ، ولاؤه لك[٣] .

الأبؤس: جمع بأس[٤] والمثل قديم مشهور ، ومراد عمر : لعلك أنت صاحب هذا المنبوذ ! كأنّه اتّهمه وساء ظنّه فيه، فلمّا أثنى عليه عَرِيفه — أى كفيله — قال له : هذا المنبوذ حُرٌّ وولاؤه لك ، لأنّه بإنقاذه إيّاه من الهلكة كأنه أعتقه .

* * *

وفى حديثه : إنّ قريشا تريد أن تكونَ مُغْوِياتٍ لمال الله[٥] .

هكذا يروى بالتخفيف والكسر، والمعروف «مغويّاتٌ» بتشديد الياء وفتحها، واحدتها مُغوّاة ، وهى حُفرة كالزُّبية تحفر للذئب ، ويجعل فيها جَدْىٌ ؛ فإذا نظر إليها الذئب سقط يريده فيُصاد ، ولهذا قيل : لكلّ مَهلكة مُغوّاة .

* * *

وفى حديثه : « فرّقوا عن المنيّة ، واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة ، وأصلحوا مثاوِيَكم ، وأخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفكم ، واخشوشنوا ، واخشوشبوا وتمعددوا[٦] » .

---

(١) الفائق : « الغوير : ماء لكلب ؛ وهذا مثل ، أول من تكلم به الزباء الملكة حين رأت الإبل عليها الصناديق ، فاستنكرت شأن قصير إذ أخذ على غير الطريق ؛ أرادت : عسى أن يأتى ذلك الطريق بشر ، ومراد عمر رضى الله عنه اتهام الرجل بأن يكون صاحب المنبوذ ، حتى أثنى عليه عريفه خيراً » .

(٢) قال فى الفائق : « إنه إنه ؛ أراد أنه أمين وعفيف ؛ وما أشبه ذلك فحذف .

(٣) الفائق ٢ : ٢٣٩

(٤) الفائق : « وانتصابه بعسى على أنه خبره على ما عليه أصل القياس » .

(٥) الفائق ٢ : ٢٤٠

(٦) الفائق ٢ : ٢٦٥ .

قال: «فرّقوا عن المنيّة ، واجعلوا الرأس رأسين» ، أى إذا أراد أحدكم أن يشترىَ شيئاً من الحيوان كمملوك أو دابّة فلا يغالينّ به ، فإنّه لا يدرى ما يحدث فيه ، ولكن ليجعل ثمنه فى رأسَين ، وإن كان كلٌّ واحد منهما دون الأول ، فإن مات أحدهما بقى الآخر .

وقوله : « ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة » ، فالإلثاث الإقامة ، أى لا تقيموا ببلد يعجزكم فيه الرّزق ، ولكن اضطرِبُوا فى البلاد للكَسْب .

وهذا شبيه بحديثه الآخر : « إذا اتّجر أحدُكم فى شىء ثلاث مرّات فلم يرزَق منه فليَدَعْه » .

والمثاوِى : المنازل ، جمع مَثْوَى .

وأخيفوا الهوامّ ، أى اقتلوا ما يظهر فى دورِكم من الحيّات والعقارب لتخافكم ، فلا تظهر .

واخشوشنوا : أمر بالخشونة فى العَيْش ، ومثله «اخشوشبوا» بالباء ؛ أراد ابتِذال النّفس فى العمل والاحتفاء فى المشى ليغلظ الجلد ، ويجسو .

وتمعددوا ، قيل إنه من الغِلَظ أيضا ، يقال للغلام إذا أنبت وغلُظ : قد تمعدد .

وقيل : أراد تشبّهوا بمعدّ بن عدنان ، وكانوا أهل قشف وغِلَظٍ فى المعاش ، أى دعوا التنعُّم وزىّ العجم .

وقد جاء عنه فى حديث آخر مثله : « عليكم باللِّبسة المعدّيّة » .

* * *

وفى حديثه : أنّه كتب إلى خالد بن الوليد : «إنّه بلغنى أنك دخلت حمّاما بالشام ، وأنّ مَنْ بها من الأعاجم أعدُّوا لكم دَلُوكاً عُجِن بخمر ، وإنّى أظنّكم آل المغيرة ذَرْوُ النار »(١).

---

(١) الفائق ١ : ٤٠٧ .

الدَّلُوكُ : مايتدلّك به كالسَّحُور والفَطُور ونحوهما .

وذَرْو النار : خلق النار . ويروى : « ذرء النار » بالهمزة ، من ذرأ الله الناس ، أى صوّرَهم وأوْجَدهم .

* * *

وفى حديثه : « املكوا العجين ؛ فإنّه أحد الرَّيْعين »[1].

ملكت العجين : أجدت عَجْنه .

والرَّيع : الزيادة ، والريع الثانى مايزيدُ عند خَبْزه فى التَّنُّور .

* * *

وفى حديثه حين طُعِن ، فدخل عليه ابن عباس فرآه مغتمًّا بمن يستخلف بعده ، فذكر عثمان فقال : كَلِفٌ بأقاربه[2] ، قال : فعلىّ ؟ قال : فيه دُعَابة ، قال : فطلحة ؟ قال : لولا بَأْوٌ فيه[3] ، قال : فالزبير ؟ قال : وَعْقة لَقِس[4] . قال : فعبد الرحمن ؟ قال : أوّه ! ذكرت رجلا صالحاً ولكنّه ضعيف ، وهذا الأمر لايصلُح له إلّا اللّيّن من غير ضَعْف ، والقوىّ من غير عنف[5] ، قال : فسعد[6] ؟ قال : ذاك يكون فى مِقْنَبٍ من مقانبكم[7] .

قوله : « كَلِف بأقاربه » أى شديد الحبّ لهم .

والدَّعابة : المزاح .

---

(١) الفائق ١ : ٥١٨ .
(٢) الفائق : « وروى أخشى حقده وأثرته » .
(٣) الفائق : وروى أنه قال : « الأكنع له إن فيه بأوا أو نخوة » .
(٤) الفائق : « وروى ضرس ضبيس أو قال : ضميس » .
(٥) الفائق : وروى لا يصلح أن يلى هذا الأمر إلا حصيف العقدة ، قليل الغرة ، الشديد فى غير عنف ، اللين فى غير ضعف ، الجواد فى غير سرف ، البخيل فى غير وكف » .
(٦) ابن أبى وقاص . (٧) الفائق ٤ : ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

والبأو : الكِبْر والعظمة .

وقوله : « وعُقة لِقِس » ويروى « ضبيس » ، ومعناه كلّه الشراسة ؛ وشدّ الخلق وخُبْث النفس .

والمِقْنب : جماعة من الفرسان .

***

وفى حديثه : أنه قال عامَ الرمادة : لقد هممت أن أجعلَ مع كلّ أهل بيت من المسلمين مثلَهم ، فإنّ الإنسان لا يهلك على نِصْف شِبَعه ، فقال له رجل : لو فعلتَ يا أمير المؤمنين ما كنتَ فيها ابن ثأداء .

قال : يريد أنّ الإنسان إذا اقتصر على نصفِ شبعه ، لم يهلِكْ جوعا . وابن ثأداء[1] بفتح الهمزة : ابن الأمَة[2] .

***

وفى حديثه : أنه قرأ فى صلاة الفجر بالناس سورة يوسف ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3] ، بكى حتى سُمع نشيجُه[4] .

النّشيج : صوت البكاء ، يردّده الصبي فى صَدْره ولا يخرجه .

***

وفى حديثه أنّه أُتى فى نِساء — أو إماء — ساعياتٍ[5] فى الجاهليّة ، فأمر بأولادهنّ أن يقوّموا على آبائهم ، فلا يُسْتَرقُّوا[6] .

(١) فى الفائق بسكون الهمزة ، وقال : الثأداء : الأمة ؛ سميت بذلك لفسادها لوما ومهانة ، من قولهم ثئد المبرك على البعير ، إذا ابتل وفسد حتى لم يستقر عليه .

(٢) الفائق ١ : ١٤١ ، وفيه رواية أخرى : « إن رجلا قال له عام الرمادة : لقد انكشفت وما كنت فيها ابن ثأداء ، فقال : ذلك لو أنفقت عليهم من مال الخطاب » .

(٣) سورة يوسف : ٨٦

(٤) النهاية لابن الأثير ٤ : ١٤٣ .

(٥) الفائق : « ساعين » .

(٦) الفائق ١ : ٥٩٥ .

المساعاة : زنا الإماء خاصّة[١] . فقضى عمر فى أولادهنّ فى الجاهليّة أن يقوَّمن على آبائهم ، بدفع الآباء قيمتهم إلى سادات الإماء ، ويصير الأولاد أحراراً لاحق النسب بآبائهم .

* * *

وفى حديثه : «ليس على عربىّ مِلْك ، ولسنا بنازعين من يد رجلٍ شيئا أسلمَ عليهم، ولكنا نقوّمهم المِلّة خمساً من الإبل »[٢] .

قال : كانت العرب تَسبي بعضُها بعضاً فى الجاهلية ، فيأتى الإسلام والمسبِىّ فى يدِ الإنسان كالمملوك له ؛ فقضى عمر فى مثل هذا أن يردَّ حُرًّا إلى نسبه ، وتكون قيمته على نفسه يؤدّيها إلى الذى سباه ، لأنه أسلم وهو فى يده ، وقيمته كائناً ما كان خمسٌ من الإبل[٣] .

قوله : « والمِلّة » أى تقوم ملّة الإنسان وشرعها .

* * *

وفى حديثه لمّا ادّعى الأشعث بن قيس رقابَ أهلِ نجران ، لأنه كان سباهم فى الجاهليّة واستعبدهم تغلّبا فصاروا كمماليكه ، فلما أسلموا أبوْا عليه، فخاصموه عند عمر فى رقابهم، فقالوا: ياأميرَ المؤمنين ، إنّما كنّا له عبيدَ مملكة ، ولم نكن عبيد قِنّ . فتغيّظ عمر عليه ، وقال: « أردت أن تَتَغفّلني ! »[٤] .

يعنى أردت غَفْلتى .

(١) الفائق : « ساعاها فلان ، إذا فجر بها ، وهو من السعى ، كأن كل واحد منهما يسعى لصاحبه » .

(٢) النهاية : ٤ : ١٩ .

(٣) فى النهاية عن الأزهرى : « كان أهل الجاهلية يطئون الإماء ويلدن لهم ، فكانوا ينسبون إلى آبائهم ، وهم عرب ، فرأى عمر أن يردهم على آبائهم ، فيعتقون ، ويأخذ من آبائهم لمواليهم عن كل واحد خمساً من الإبل » .

(٤) الفائق ٢ : ٣٨٠ ، وقال : « وروى أن تعنتني » ، والتعنت طلب العنت .

وعبدِقِنّ مُلِكَ ومُلِكَ أبواه ، وعبد مملُكَة بفتح اللام وضمها : من غلِب عليه واستعبِد ، وكان فى الأصل حُرًّا ، فقضى عمر فيهم أن صيّرهم أحراراً بلا عِوَض ،لأنه ليس بسِباء على [1] الحقيقة .

***

وفى حديثه : أنه قضى فى ولد المغرور بغُرّة [2] .

قال : هو الرجل يزوّج رجلا آخر مملوكةً لإنسان آخر على أنّها حُرّة ، فقضى عمر أن يغرَم الزوج لمولى الأمَة غُرّة ، أى عبدا أو أمة ، ويكون ولده حُرّاً ، ثم يرجع الرجل الزوج على مَنْ غرّه بما غرِم .

***

وفى حديثه : أنه رأى جارية متكمكمة ، فسأل عنها فقالوا : أمَة آل فلان،فضربَها بالدِّرّة ضربات ، وقال : يالَكعاء ! أتشبّهين بالحرائر [3] !

قال : متكمكِمة : لابسةُ قناع ،أصله من الكُمّة ،وهى كالقنسوة ،والأصل مكمّمة ، فأعاد الكاف ، كما قالوا : كفكف فلان عن كذا ، وتصرصر الباب .

ولكعاء ولَكَاعِ بالكسر والبناء : شتْمٌ للأمَة ، وللرجل يقال : ياألْكَع .

***

وفى حديثه : « وَرِّع اللّص ولا تُراعه » [4].

يقول : ادفعه إذا رأيته فى منزلك واكْفُفه بما استطعت ،ولا تنتظرفيه شيئا ، وكلُّ

---

(١) ا : « فى الحقيقة » .
(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٥٦
(٣) الفائق ٢ : ٤٢٩
(٤) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٠٥

شيء كفَفتَه فقد ورّعته ، وكلُّ ما تنتظره فأنت تراعيه ؛ والمعنى أنه رخّص في الإقدام على اللصّ بالسلاح ، ونهى أن يمسك عنه نائما .

***

وفي حديثه : أنّ رجلا أتاه ، فقال : إنَّ ابنَ عمّي شُجّ مُوضِحة ، فقال : أمن أهل القُرى أم من أهل البادية ؟ قال : من أهل البادية ، فقال عمر : إنا لا نتعاقل المُضَّغ بيننا[1] .

قال : سمّاها مُضَغًا ، استصغاراً لها ولأمثالها كالسنّ والإصبع .

قال : ومثل ذلك لا تحمله العاقلة عند كثير من الفقهاء ، وكذلك كلّ ما كان دون الثُّلث .

***

وفي حديثه : أنه لمّا حَصّب المسجد ، قال له فلان : لم فعلت ؟ قال : هو أغفر للنُّخامة ، وألينُ في الموطىء[2] .

أغفر لها : أسْتَرُ لها .

وحَصّب المسجد : فَرَشه بالحصباء ؛ وهي رمل فيه حصًى صغار .

***

وفي حديثه : أنّ الحارث بن أوْس سأله عن المرأة تطوف بالبيت ، ثم تنفِر من غير أن تطوف طوافَ الصَّدَر إذا كانت حائضا ، فنهاه عمر عن ذلك ، فقال الحارث : كذلك أفتاني رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال عمر : أرِبَتْ يداك ! أتسألني ؛ وقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كي أخالفه[3] !

قال : دعا عليه بقطع اليدين ؛ من قولك : قطعت الشاة إرْبا إرْبا[4] .

***

---

(١) الفائق ٣ : ١٦٨ ، ومضغ الأمور ـ كصرد ـ صغارها. (٢) الفائق ٢ : ٢٦٥ .
(٣) الفائق ١ : ٢٣ . (٤) الإرب : العضو .

وفى حديثه أنه سمع رجلا يتعوّذ من الفِتَن ، فقال عمر : اللهمّ إنّى أعوذ بك من الضَّفَاطة ، أتسأل ربّك ألّا يرزقك مالا وولدا (١) !

قال : أراد قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٢). والضَّفَاطة: الحمق وضَعف العقل ، رجل ضَفيط ، أى أحمق .

***

وفى حديثه : « ما بالُ رجالٍ لا يزال أحدُهم كاسراً وسادة عند امرأة مُغْزِية، يتحدّث إليها وتتحدّث إليه ! عليكم بالجَنَبة فإنّها عَفَاف ، إنّما النساء لَحَمٌ على وَضَم إلا ماذُبّ عنه (٣) » .

قال : مُغزِية ، قد غزا زوجها ، فهو غائب عنها ، أغزَت المرأة ، إذا كان بعلها غازياً ، وكذلك أغابَتْ فهى مُغيبة .

وعليكم بالجَنَبة ، أى الناحية ، يقول : تنحَّوْا عنهن وكلّموهن من خارج المنزِل .
والوضَم : الخشبة أو البارِيّة يُجعل عليها اللّحم .

قال : وهذا مثل حديثه الآخر : « ألاَ لا يدخلنّ رجلٌ على امرأة وإن قيل حَمُوها ، ألا حَمُوها الموت » (٤) .

قال : دعا عليها . فإذا كان هذا رأيه فى أبى الزوج وهو مَحْرَمٌ لها فكيف بالغريب!

***

وفى حديثه : « إنّ بيعَة أبى بكر كانت فَلْتة وَقَى الله شرّها ، فلا بيعة إلّا عن مشورة؛ وأيّما رجل بايع رجلا عن غير مشورة فلا يؤمَّر واحدٌ منهما تَغِرّة أن يُقتلا (٥) » .

قال : التغِرّة : التغرير ، غرّرت بالقوم تَغريرا وتغِرّة ، كقولك : حلّلت اليمين تحليلاً

---

(١) النهاية ٣ : ٢٢
(٢) سورة التغابن : ١٥ .
(٣) الفائق ٢ : ٤١١
(٤) الفائق : ١ : ١٩٥
(٥) الفائق ٢ : ٢٩٧ .

وتحِـلّة ، ومثله في المضاعف كثير ، أي أنّ في ذلك تغريرا بأنفسهما وتعريضًا لهما أن يُقتلا.

***

وفي حديثه : « إنّ العبد إذا تواضع لله رفع اللهُ حَكَمَتَه ، وقال : انتعش نَعَشك الله ، وإذا تـكبّر وعَدا طورَه وَهَصَه الله إلى الأرض » (١) .

قال : وهَصه أي كسره . وعدَا طورَه ، أي قدْره .

***

وفي حديثه : « حجّوا بالذّرّية ، لاتأكلوا أرزاقَها ، وتَذَروا أرْباقَها في أعناقها » (٢) .

قال : أراد بالذُّرِّيّة هنا النساء ولم يرد الصبيان ، لأنه لاحجّ عليهم .

والأرباق : جمع رِبْق ، وهو الحبل .

***

وفي حديثه : أنّه وقف بين الحَرّتين — وهما داران لفلان — فقال : « شَوَّى (٣) أخُوك ، حتى إذا أنضج رَمَّد » (٤) .

هذا مثل يضرَب للرجل يصنع معروفًا ثم يفسده .

***

وفي حديثه : « السائبة والصّدقة ليومهما » (٥) .

قال : السّائبة : المعتَق .

---

(١) الفائق ١ : ٢٧٩ ، وقال : « الحكمة من الإنسان : أسفل وجهه ، ورفع الحكمة ، كناية عن الإعزاز ، لأن من صفة الذليل أن ينكس ويضرب بذقنه وصدره . وقيل : الحكمة : القدر والمنزلة من قولهم : لا يقدر على هذا من هو أعظم حكمة منك » .

(٢) الفائق ١ : ٤٢٨ .

(٣) في الأصول : « ثوى » ، وما أثبته من الفائق ، وشوى ، أي ألقى الشواء في النار ، قال الزمخشري : « وهذا مثل ، نحوه قولهم : « المنة تهدم الصنيعة » .

(٤) رمد : ألقاه في الرماد ، والخبر في الفائق ١ : ٥٠٧ .

(٥) الفائق ١ : ٦٣٠ .

وليومهما : ليوم القيامة الذى فعل مافعله لأجله .

* * *

وفى حديثه : « لاتشتروا رقيقَ أهلِ الذمّة ، فإنّهم أهل خراج يؤدّى بعضهم عن بعض : وأرضَهم فلا تتنازعوها ، ولا يقِرّنَّ أحدكم بالصَّغار بعد إذ نجّاه الله » .

قال : كره أن يشترىَ أرضَهم المسلمون وعليها خراج ، فيصير الخراج منتقلا إلى المسلم ، وإنّما منع من شراء رقيقهم ، لأنّ جزيتهم تكثر على حسب كثرة رقيقهم ، فإذا ابتيع رقيقُهم قلّت جزيتُهم ، وإذا أقلّت جزيتهم يقلّ بيت المال .

* * *

وفى حديثه فى قنوت الفجر : « وإليك نسعى ونحفِد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إنّ عذابك بالكفار ملحِق » [١] .

قال : حَفَد العبد مولاه يحفِد أى خدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [٢] أى خدماً .

وملحِق : اسم فاعل بمعنى لاحق من ألحق ، وهو لغة فى لحِق ، يقال : لحقت زيداً ، وألحقتُه بمعنى .

* * *

وفى حديثه : « لاتشتروا الذّهب بالفضّة إلّا يداً بيد ، هاء وهاء ، إنّى أخاف عليكم الرَّمَاء » [٣] .

قال : الرَّمَاء : الزيادة وهو بمعنى الرّبا ، يقال : أرميتُ على الخمسين ، أى زدت عليها .

* * *

---

(١) النهاية ١ : ٢٣٩ (٢) سورة النحل ٧٢ .

(٣) النهاية ٢ : ١٠٧ هاء وهاء : صوت بمعنى خذ .

وفى حديثه : مَنْ لَبّد أو عَقص أو ضَفّر ، فعليه الحَلْق »[١] .

قال : التلبيد أن تجعل فى رأسك شيئاً من صَمْغ أو عَسل يمنع من أن يقمل .

والعَقْص والضَّفْر : فَتْل الشعر ونَسْجُه .

***

وفى حديثه : « ماتصَعّدتْنِى خِطْبة[٢] كما تصعَّدَتْنِى خِطْبة النـكاحِ »[٣] .

قال : معناه ماشقّ علىّ ، وأصلُه من الصَّعود ، وهى العقبة المنـكرة ، قال تعـالى : ﴿ سأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾[٤] .

***

وفى حديثه أنه قال لمالك بن أوس : « يامالك ، إنَّه قد دفّت علينا من قومك دافّة، وقد أمرنا لهم برضْخٍ فاقسمه فيهم »[٥] .

قال : الدافّة : جماعة تسير سيراً ليس بالشديد .

***

وفى حديثه : أنه سأل جيشاً ، فقال : « هل ثبت لـكم العدوّ قدرَ حَلْب شاة بكيئة[٦] ؟ »

قال : البَـكِيئة : القليلة اللبن .

***

وفى حديثه أنه قال فى مُتْعة الحجّ : « قد علمت أن رسول الله صلى الله عليـه وسلّم فعلها وأصحابه ، ولـكن كرهت أن يظلّوا بهنّ مُعرِسين تحت الأراك ، ثم يلبُّون بالحجّ تقطر رءوسهم »[٧] .

---

(١) الفائق ٢ : ٤٤٦ .

(٢) الفائق : « شىء » ، وفى اللسان : « ما تـكاءدنى شىء ما تـكاءدنى خطبة النكاح » .

(٣) الفائق ٢ : ٢٤

(٤) سورة المدثر ١٧ .

(٥) الفائق ١ : ٤٠٢

(٦) نهاية ابن الأثير ١ : ٩٠ .

(٧) الفائق ٢ : ١٣٦ .

قال : المعرِّس : الذى يَغْشَى امرأته . قال : كره أن يحلّ الرجل من عُمْرته ، ثم يأتى النّساء ، ثم يهلّ بالحج .

***

وفى حديثه : « نعم المرء صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .

قال : المعنى أنّه لا يتركُ المعصية خوفَ العقاب ، بل يتركُها لقبحها ، فلو كان لا يخاف عقوبة الله لترك المعصية .

***

وفى حديثه : أنّه أُتِيَ بسكران فى شهر رمضان ، فقال : للمنخرَيْن للمنخرين ، أصبياننا صيام وأنت مفطر ! .

قال : معناه الدعاء عليه ، كقولك : كبّه الله للمنخرَيْن ! وكقولهم : لليدين وللفم !

***

وفى حديثه أنه قال لما توفِّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قام أبو بكر فتلا هذه الآية فى خطبته : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾(١) . قال عمر : فعقِرْتُ حتى وقَعْتُ إلى الأرض (٢) .

قال : يقال للرجل : إذا بُهِتَ وبقِيَ متحيِّرا دهشا : قد عقر ، ومثله بعِل وخرِق .

***

وفى حديثه أنّه كتَب إلى أبى عبيدة وهو بالشام حين وقع بها الطاعون : « إنّ الأردنّ أرض غَمِقة ، وإنّ الجابية أرض نزِهة ، فأظهِرْ بمن معك من المسلمين إلى الجابية » (٣) .

---

(١) سورة الزمر ٣٠

(٢) النهاية ٣ : ١١٤

(٣) الفائق ٢ : ٢٣٦ .

قال : القَمِقة : الكثيرة الأنداء والوباء ، والنَّزِهة : البعيدة من ذلك .

* * *

وفي حديثه : أنه قال لبعضهم في كلام كلّمه به : « بل تحوسُك فتنة » [١] .

قال : معناه تخالطك وتحثُّك على ركوبها . قال : وتحُوس مثل : تجوس، بالجيم ؛ قال تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ [٢] .

* * *

وفي حديثه حين ذكر الجراد ، فقال : « وددت أن عندنا منه قَفْعة أو قَفْعَتين » [٣] .

قال : القفعة : شيء شبيه بالزّنبيل ، ليس بالكبير، يعمل من خوصٍ ليس له عُرًى ؛ وهو الذي يسمّى القُفّة .

* * *

وفي حديثه: أن أذينة العبدي أتاه يسأله ، فقال: إنّي حَجَجْت من رأس هزا وخارِك ، أو بعض هذه المزالف ، فمن أين أعتمر ؟ فقال : ائت عليا ، فاسأله ، فسألته ، فقال : من حيث ابتدأت [٤] .

قال : رأس هزا وخارك موضعان من ساحل فارس ، والمزالف : كلّ قرية تكون بين البرّ وبلاد الريف ، وهي المزارع أيضا ، كالأنبار وعين التمر والحيرة .

* * *

وفي حديثه : أنه نَهى عن المكايلة [٥] .

قال : معناه مكافأة الفعل القبيح بمثله !

* * *

---

(١) النهاية ١ : ١٧٠ .
(٢) سورة الإسراء ٥ .
(٣) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٦٨ .
(٤) الفائق ١ : ٤٤٣ .
(٥) النهاية لابن الأثير ٤ : ٤٢ .

وفى حديثه : « ليس الفقير الذى لامال له ، إنما الفقير الأخلق الكسب »(١) .

قال : أرادالرجل الذى لايُرزأ فى ماله ،ولا يصاب بالمصائب ، وأصله أن يقالللجبل المصمَت الذى لايؤثر فيه شىء : أخلَق . وصخرة خلْقاء ، إذا كانت كذلك ، فأراد عمر أنّ الفقر الأكبر إنّما هو فقْر الآخرة ، لمن لم يقدّم من ماله لنفسه شيئاً يثاب عليه هناك .

وهـذا نحو قول النبى صلى الله عليـه وآله : « ليس الرّقوب(٢) الذى لايبقى له ولد ، إنماالرّقوب الذى لم يقدم من ولده أحداً » .

فهذا مالخصته من غريب كلام عمر من كتاب أبى عبيد .

* * *

وأمّا ما ذكره ابن قتيبة من غريب حديثه فى كتابه ، فأنا ألخّص منه ما أنا ذاكره .

قال ابنُ قُتيبة : فمن غريب حـديث عمر أنه خطب ، فقال : إنّ أخوف ما أخاف عليكم أن يؤخذ الرّجل المسلم البرىء عند الله فيدْسَر كما يدْسر الجزور ، ويشاط لحمه كما يُشاط لحم الجزور ، يقال : عاصٍ وليس بعاص . فقال علىٌّ عليه السلام : فكيف ذاك ولمّا تشتدّ البليّة ، وتظهر الحميّة ، وتسبى الذرّية ، وتدقّهم الفتن دقّ الرحى بثِفالها(٣) !

قال ابن قتيبة : يدْسَر أى يُدْفع ، ومنه حديث ابن عباس : ليس فى العنبر زكاة ، إنما هو شىء يدْسُره البحر(٤) .

ويُشاط لحمه، أى يقطع ويُبْضَع، والأصل فى الإشاطة الإحراق ، فاستعير ،وفى الحديث: « إنّ زيد بن حارثة قاتل يوم مُؤتة حتى شاط فى رماح القوم » .

والثِّفَال : جلْدة تبسط تحت الرّحى فيقع عليها الدقيق .

* * *

(١) الفائق ١ : ٣٦٦ (٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ٩٥ .

(٣) الفائق ١ : ٣٩٧ . (٤) الفائق ١ : ٣٩٧ وفيه : « سره البحر »

وفى حديث عمر : « القَسامة[1] تُوجِب العَقْل ، ولا تُشِيط الدم »[2].

قال ابن قتيبة : العَقْل : الدية ، يقول: إذا حلفتْ فإنما تجب الدِّية لا القَوَد ، وقد روى عن ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز أنّهما أقادا بالقَسامة .

***

وفى حديثه : « لا تفطروا حتى تروا الليل يغسق على الظِّراب »[3].

قال : يغسِق ، أى يظلم .

والظِّرَاب : جمع ظَرِب ، وهو ما كان دون الجبل ، وإنما خَصّ الظِّراب بالذِّكر لقصرها ، أراد أنّ ظلمة الليل تقربُ من الأرض .

***

وفى حديثه : أنّ رجلا كُسِرَ منه عظم فأتى عمر يطلب القَوَد ، فأبى أن يقتصّ له ، فقال الرجل : فكاسِرُ عظمى إذن كالأرقم ، إن يقتل يَنْقَم ، وإن يترك يَلْقَم ، فقال عمر : « هو كالأرقم »[4].

قال : كانت الجاهلية تزعم أنّ الجن يتصوّر بعضهم فى صُورة الحيَّات ، وأنّ من قتل حيّة منها طلبت الحيّة بالثأر ، فربّما مات أو أصابه خبَل ، فهذا معنى قوله : « إن يقتل ينقم » . ومعنى « يلقم » يقول : إن تركتَه أكلك ، وهذا مثل يضرب للرجل يجتمع عليه أمران من الشرّ لا يدرى كيف يصنع فيهما ، ونحوه قولهم : هو كالأشقر إن تقدّم عَقَر وإن تأخر نحر .

---

(١) فى الفائق : « القسامة مخرجة على بناء الغرامة والحمالة لما يلزم أهل المحلة إذا وجد قتيل فيها لا يعلم قاتله من الحكومة بأن يقسم خمسون منهم ، ليس فيهم صبي ولا مجنون ولا امرأة ولا عبد ؛ يتخيرهم الوالى وقسمهم أن يقولوا : بالله ما قتلنا ولا علمنا له قاتلا ، فإذا أقسموا قضى على أهل المحلة بالدية ، وإن لم يكملوا خمسين كررت عليهم الأيمان حتى تبلغ خمسين يميناً » .

(٢) الفائق ٢ : ٣٤٥ .

(٣) الفائق ٢ : ٢٢٦ .

(٤) النهاية ٤ : ٦٤ ، ١٧٣ .

قال : وإنما لم يقده لأنه يخاف من القصاص في العظم الموتَ ، ولكن فيه الدِّيَة .

***

وفي حديثه : أنه أتى مسجد قُباء ، فرأى فيه شيئاً من غُبار وعنكبوت، فقال لرجل: « ائتني بجريدة واتق العوَاهِن » ، قال : فجئته بها، فربط كُمّيه بوذَمة ، ثم أخذ الجريدة، فجعل يتتبع بها الغبار [١] .

قال : الجريدة : السَّعفة ، وجمعها جريد .

والعواهن : السعَفات التي يلِينَ القِلَبة ، والقِلَبة جمع قُلْب ، وأهل نجد يسمّون العواهن الخَوافِي ، وإنما نهاه عنها إشفاقا على القلب أن يضرّ به قطعُها.

والوَذَمة : سيرٌ من سيور الدلو يكون بين آذان الدلو والعَراقي .

***

وفي حديثه : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم ، ولا تجمّروهم فتفتنوهم » [٢] .

قال : التجمير : ترك الجيش في مغازيهم لا يقفُلون .

***

وفي حديثه : أنه أُتِيَ بِمُرُوط ، فقسّمها بين نساء المسلمين ، ورفع مِرْطاً بقِيَ إلى أمّ سَليط الأنصاريّة ، وقال : « إنها كانت تَزْفِر القِرَب يوم أحُد تسقي المسلمين » .

قال : تَزْفِرُها : تحملها ، ومنه زُفَر ، اسم رجل كان يحمِل الأثقال .

***

---

(١) الفائق ١ : ١٨٥ .
(٢) نهاية ابن الأثير ٢ : ١٢٧ .

وفى حديثه أنه قال : « أعطُوا من الصَّدَقة مَنْ أبقت له السَّنة غنما ، ولا تعطوا مَنْ أبقت له السّنة غنمين »[١] .

قال : السنة : هاهنا الأزمنــة ، ومنه قوله تعــالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾[٢] .

قال : وكان عمر لايجيز نــكاحا فى عام سنة ، يقول : « لعلّ الضَّيعة تحمِلُهم على أن ينــكحوا غيرَ الأكفاء » .

وكان أيضاً لايقطع سارقاً فى عام سنة .

وقوله : « غنما » أى قطعة من الغنم ، يقال لفلان : غَنَمَان ، أى قطعتــان من الغنم ، وأراد عمر أنّ مَنْ له قطعتان غَنِيّ لايعطَى من الصدقة شيئاً ؛ لأنها لم تــكن قطعتــين إلا لــكثرتها .

***

وفى حديثــه أنه انــكفأ لونُه فى عام الرّمادة حين قال : « لا آكل سمنا ولا سمينا، وأنه اتّخذ أيامَ كان يطعِم النَّاس قِدْحاً فيه فرْض ، فــكان يطوف على القِصاَع فيغمز القِدْح ، فإن لم تبلغ الثريدة الفَرْض قال : فانظر ماذا يفعل[٣] بصاحب الطعام[٤] .

قال : انــكفأ : تغيّر عن حاله ، وأصله الانقلاب ، من كفأتُ الإناء .

وسمِّيَ عام الرّمادة من قولهم : أرمَد الناس ، إذا جُهدوا ، والرمد : الهلاك .

والقِدْح : السّهم . والفَرْض : الحزّ ، جعــل عمر هــذا الحزّ علامة لِعُمْق الثّريد فى الصّحفة .

***

---

(١) الفائق ١ : ٢ ٦١٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٣) الفائق : « بالذى ولى الطعام » .

(٤) الفائق ٢ : ٤١٧ ، ٤١٨ .

وفى حديثه : أنّ عطاء بن يسار ، قال : قلت للوليد بن عبد الملك : رُوِى لى أنّ عمر بن الخطاب قال : ودِدْتُ أنّى سلمت من الخلافة كَفافًا لا علىّ ولالى ، فقال : كذبت[١] ! الخليفة يقول هذا ! فقلت : أو كُذِبتُ ؟ فأفلَتُّ منه بجُرَيعة الذَّقَن[٢] .

قال يقال خلص من خصمه كَفافا ، أى كفّ كلّ واحد منهما عن صاحبه ، فلم ينل أحدهما من الآخر شيئا[٣] .

وأفلتَ فلان بجُرَيعة ذَقَن ، أى أنّ نفسه قد صارت فى فيه . وجُرَيْعة : تصغير جُرْعة .

قلت : وإنما استعظم الوليد ذلك ، لأن بنى أميّة كانوا يرون أنّ مَنْ وَلِىَ الخلافة فقد وجبت له الجنّة ، ولهذا خطب هشام يوم ولِىَ ، فقال : الحمد لله الذى أنقذنى من النّار بهذا المقام .

***

وفى حديثه : أنّ سِماك بن حَرْب ، قال : رأيت عمر ، فرأيت رجلا أرْوَح كأنه راكبٌ ، والنّاس يمشون كأنه من رجال بنى سَدُوس[٤] .

قال : الأرْوَح الذى تتدانى عقِباه ، وتتباعد صدورُ قدميْه ، يقال : أروح : بيّن الرَّوح ، والأفحج : الذى تتدانى صدور قدميْه ، وتتباعد عَقِباه وتتفحّج ساقاه ، والأوْكم : الذى يميل إبهام رجله على أصابعه حتى يزول ، فيرى شخص أصلها خارجا ، وهو الوكَم ، ومنه أمةٌ وكْماء .

وبنو سَدُوس : فَخِذ من بنى شيبان ، والطُّول أغلب عليهم .

***

---

(١) الأصول : « كذب » ، وصوابه ما فى الفائق .

(٢) الفائق ٢ : ٤٢١

(٣) فسره صاحب الفائق ، وقال : « أى رأساً برأس لا أرزأ منك ولا ترزأ منى وحقيقته ، أكف عنك وتكف عنى » .

(٤) النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٠ .

وفى حديثه عن ابن عبّاس ، قال : دعانى فإذا حصير بين يديه ، عليه الذهب منثور نثر الحَثا ، فأمرنى بقسمه (١) .

قال : الحَثا : التّبن (٢) مقصور ، قال الراجز يهجو رجلا :

ويأكل التمر ولا يلقى النَّوَى ... ولا يوارى فَرْجَه إذا اصطلَى

* كأنّه غرارةٌ ملأى حَثا *

* * *

وفى حديثه أنه قال : « النّساء ثلاث ، فهيّنة ليّنة عفيفة مسلمة ، تعين أهلَها على العيش ، ولا تعينُ العيشَ على أهلها ، وأخرى وعاء للولَد ، وأخرى غُلٌّ قَمِل يضعهُ الله فى عنق من يشاء ، ويفكّهُ عمّن يشاء . والرجال ثلاثة : رجل ذو رأى وعقل ، ورجل إذا حَزَبهُ أمر أتى ذَا رأيٍ فاستشاره ، ورجل حائر بائر ، لا يأتمر رَشَدا ، ولا يطيع مرشدا » (٤) .

قال البائر : الهالك ، قال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ (٥) . والأصل فى قوله : « غُلّ قَمِل » ، أنهم كانوا يغلّون بالقِدّ وعليه الشعر ، فيقمُل على الرّجال .

ولا يأتمر رشدا ، أى لا يأتى برشدٍ من ذات نفسه ، يقال لمن فعل الشىء من غير مشاورة : قد ائتمر ، وبئس ما ائتمرت لنفسك ، قال النّمر بن تَوْلب :

واعلمنْ أنّ كلّ مؤتمرٍ ... مخطئٌ فى الرأى أحيانا

* * *

وفى حديثه أنه خرج ليلةً فى شهر رمضان ، والنّاس أوزاع ، فقال : « إنى لأظنّ لو جمعتهم على قارئٍ واحد كان أفضلَ » ، فأمر أبىّ بن كعب فأمّهم ، ثم خرج ليلة وهم

(١) النهاية ١ : ٢٠١ .
(٢) النهاية : « دقاق التبن » .
(٣) اللسان ١٨ : ١٧٩ ، وذكر قبله :
تَسْأَلُنِي عَنْ زَوْجِها أىّ فَتَى ... خبٌّ جروزٌ وإذا جاعَ بَكى
(٤) الفائق ٣ : ٢٢٤ .
(٥) سورة الفتح ١٢ .

يصلّون بصلاته ، فقال : «نعم البدعة هذه ! والتى ينامون عنها أفضلُ من التى يقومون»[(١)].

قال : الأوزاع : الفِرَق ، يريد أنهم كانوا يصلّون فرادى[(٢)] ، يقال وزعتُ المال بينهم ، أى فرّقته .

وقوله : « والتى ينامون عنها أفضل » ، يريد صلاة آخر الليل ، فإنها خير من صلاة أوّله .

***

وفى حديثه أنّ أصحابَ محمّد صلى الله عليه وآله تذاكروا الوِتْر ، فقال أبو بكر : أمّا أنا فأبدأ بالوِتْر ، وقال عمر : لـكنّى أوتِر حين ينام الضَّفْطَى[(٣)] .

قال : هو جمع ضَفِيط ، وهو الرّجُل الجاهل الضعيف الرأى .

ومنه ماروِى عن ابن عباس ، أنه قال : لو لم يطلب النّاس بدمِ عثمان لرُمُوا بالحجارة من السماء ، فقيل : أتقول هذا وأنت عامل لفلان ؟ فقال: إن فىّ ضَفَطات ، وهذه إحدى ضَفَطاتى[(٤)] .

***

وفى حديثه أنه قال فى وصيته : « إن تُوُفّيت وفى يدى صِرْمة ابن الأكوع ؛ فسنّتُها سنّةُ ثمغ[(٥)] .

---

(١) الفائق ٣ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢) فى الفائق : « يريد أنهم كانوا يتنفلون بعد صلاة العشاء فرقاً ، قال المسيب بن علس :

أحْلَلْتَ بيتَكَ بالجميع وبعضُهُمْ متفرّق لِيَحُلَّ فى الأوزاعِ

(٣) الفائق ٣ : ٦٧

(٤) الفائق ٣ : ٦٧ .

(٥) الفائق ٢ : ٢١

قال : الصِّرْمة هاهنا : قطعة من النخل ، ويقال للقطعة الخفيفة من الإبل : صِرْمة ، ويقال لصاحبها مُصْرِم ، ولعله قيل المقلّ ، مُصْرِم من هذا .

وثَمْغ : مال كان لعمر ، ووقفه .

* * *

وفى حديثه : أنه لما قدم الشام تفحّل له أمراء الشام[1] .

قال : أى اخشوشنوا له فى الزّى واللباس والمطعم تشبّها به ، وأصله من الفحْل ، لأنّ التصنّع فى اللباس والقيام على النفس ، إنما هو عندهم للإناث لا للفحول .

* * *

وفى حديثه : أنه قدم مكّة ، فسأل من يعلم موضع المقام ـ وكان السَّيل احتمله من مكانه ـ فقال المطّلب بن أبى وداعة السهمىّ : يا أميرَ المؤمنين ، قد كنت قدّرته وذرعته بمِقاطٍ عندى[2] .

قال : المِقاط : الحبل ، وجمعه مُقُط .

* * *

وفى حديثه أنه قال للذى قتل الظبى وهو محرِم : « خذ شاةً من الغَنَمِ فتصدّق بلحمها ، وأسق إهابها »[3] .

قال : الإهاب : الجلد .

وأسقه ، أى اجعله سِقَاء لغيرك ، كما تقول : أسقِنى عسلا ، أى اجعله لى سِقاء وأقِدْ بى خيلًا ، أى أعطنى خيلا أقودها ، وأسقنى إبلا : أعطنى إبلا أسوقها .

---

(١) الفائق ٢ : ٢٥٠

(٢) الفائق ٣ : ٤١ .

(٣) النهاية ٢ : ١٧٠ .

وقالت بنو تميم للحجّاج : أقبِرْنا صالحاً ، يعنون صالح بن عبد الرحمن ، وكان قتله وصلبه ، فسألوه أن يمكّنهم من دفنه .

***

وفى حديثه : أنّه ذُكِر عنده التّمر والزبيب : أيّهما أفضل ؟ ويروى أنه قال لرجل من أهل الطائف : الحَبْلة أفضل أم النخلة ؟ فأرسل إلى أبى حَثْمة الأنصاريّ، فقال: إن هؤلاء اختلفوا فى التمر والزبيب أيّهما أفضل .

وفى رواية أخرى : وجاء أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن الأنصاريّ، فقال أبو حَثْمة: ليس الصَّقْر فى رءوس الرَّقْل ، الراسخات فى الوحْل ، المطعمات فى المحْل ، تعلّة الصبيّ ، وقِرَى الضيف ، وبه يُحترَش الضبّ فى الأرض الصلعاء ، كزبيب إن أكلته ضرست ، وإن تركته غرثت .

وفى الرواية الأخرى : فقال أبو عَمْرة : الزَّبيب إن آكلْه أضرَس ، وإن أتركه أغرث ، ليس كالصقر فى رءوس الرَّقل ، الراسخات فى الوحْل ، والمطعمات فى المحْل ، خُرفة الصائم ، وتحفة الكبير ، وصُمْتة الصغير ، وخُرْسة مريم ، ويُحْتَرش به الضِّباب من الصّلعاء [1] .

قال: الحَبْلة ، بفتح الحاء وتسكين الباء : الأصل من الكَرْم، وفى الحديث: إنّ نوحا لمّا خرج من السفينة غَرَس الحَبْلة ، وكانت لأنس بن مالك حَبْلة تحمل كذا ، وكان يسمّيها أمّ العيال ، فأما الحُبْلة بالضم فثمر العضاه ، ومنه الحديث : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومالنا طعام إلا الحُبْلة ، وورق السَّمُر . والحُبلة بالضم أيضاً : ضرب من الحَلْى يجعل فى القلائد ، شبّه بورق العضاه ، لأنه يصاغ على صورته .

وأغرث : أجوع ، والغرَث : الجوع .

---

(١) الفائق ١ : ٢٣١ .

والصَّقْر : عسل الرُّطَب .

والرَّقْل : جمع رَقْلة ، وهى النخلة الطويلة .

وقوله : « خرْفة الصائم » اسم لما يخترَف ، أى يجتنَى ، ونسبها إلى الصائم ، لأنهم كانوا يحبُّون أن يفطروا على التمر .

وقوله : « وصُمْتة الصغير » ؛ لأنّ الصغير كان إذا بكى عندهم سكّتوه به . وتعلّة الصبيّ نحوه ، من التعليل .

وخُرْسة مريم ، الخُرْسة ما تطعَمه النُّفَساء عند ولادتها ، أشار إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[1]، فأما الخُرْس بغيرهاء فهو الطعام الذى يصنع لأجل الولادة ، كالإعذار للختان ، والنَّقِيعة للقادم ، والوكِيرة للبناء .

ويُحترَش به الضّبّ أى يصطاد ، يقال إنّ الضبّ يعجب بالتمر ، والحارش : صائد الضباب .

والصَّلْعاء : الصحراء التى لانبات بها كرأس الأصلع .

***

وفى حديثه أنه قال للسائب : « وَرِّع عنِّى بالدرهم والدرهمين »[2] .

قال : أى كفّ الخصوم عنّى فى قدر الدرهم والدرهمين بأن تنظر فى ذلك ، وتقضىَ فيه بينهم ، وتنوب عنّى . وكلّ مَنْ كففتَه فقد ورّعته ، ومنه الورَع فى الدين ، إنّما هو الكفّ عن المعاصى . ومنه حديث عمر : لاتنظروا إلى صلاة الرَّجُل وصيامه ، ولكن من إذا حدّث صدق ، وإذا ائتُمن أدّى ، وإذا أشفى ورّع ، أى إذا أشرف على المعصية كفّ عنها .

***

(١) سورة مريم : ٢٥

(٢) الفائق ٣ : ١٥٦

وفى حديثه أنّه خطب الناس ، فقال : « أيّها النّاس ؛ لينكح الرّجل منكم لُمَته من النّساء ، ولتنكح المرأة لُمَتها من الرجال » (١) .

قال : لُمَة الرجل من النساء مثله فى السنّ ، ومنه ماروىَ أنّ فاطمة عليها السلام خرجت فى لُمَة من نسائها [تتوطأ ذيلها] (٢) ، حتى دخلت على أبى بكر (٣) .

وأراد عمر بن الخطاب : لاتنكح الشابّة الشيخ الكبير ، ولا ينكح الشابّ العجوزَ ، وكان سبب هذه الخطبة أنّ شابّة زوّجها أهلُها شيخاً فقتلته .

***

وفى حديثه: أنّ رجلًا أتاه يشكو إليه النِّقرِس، فقال : كذبتك الظهائر (٤) .

قال : الظهائِر : جمع ظَهيرة ، وهى الهاجرة ، ووقت زوال الشمس .

وكذبتك ، أى عليك بها ، وهى كلمة معناها الإغراء ، يقولون : كذبك كذا ، أى عليك به .

ومنه الحديث المرفوع : [الحجامة على الريق فيها شفاء وبركة] ، فمن احتجم فى يوم الخميس ويوم الأحد ، كذباك ! (٥)

أى عليك بهما ، وإنما أمر عمر صاحب النّقرس أن يبرز للحرّ فى الهاجرة ويمشى حافياً ، ويبتذل نفسه ، لأن ذلك يُذهب النّقرس .

***

وفى حديثه أنه قال : « مَنْ يدلّنى على نسيج وحده ؟ » ، فقال أبو موسى : مانعلمه غيرك ، فقال : ماهى إلا إبل مُوَقَّعٌ ظهورها (٦) .

قال : معنى قولهم : « نسيج وحده » أى لاعيب فيه ، ولا نظير له . أصله من الثوب النّفيس ، لاينسج على منواله غيره .

---

(١) الفائق ٢ : ١٥٦
(٢) من الفائق .
(٣) الفائق ٢ : ٤٧٦
(٤) الفائق ٢ : ٤٠٠ .
(٥) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٢ والتكملة من هناك .
(٦) الفائق ٣ : ٨٦ .

والبعير الموقّع الذى يكثر آثار الدَّبَر بظهره ، لكثرة ما يركب ، وأراد عمر أنّا كلّنا مثل ذلك فى العيب .

***

وفى حديثه : إن الطبيب الأنصاريّ سقاه لبنا حين طُعِن ، فخرج من الطعنة أبيضَ يصلِد (١) .

قال : أى يبرق ولم يتغيّر لونه .

***

وفى حديثه أنّ نادبة عمر ، قالت : واعمراه ! أقام الأَوَد ، وشفَى العَمَد . فقال علىّ عليه السلام : أما والله ماقالته ولكن قُوِّلَتْه (٢) .

والعَمَد : ورم ودَبَر يكون فى ظَهر البعير ، وأراد علىّ عليه السلام أنه كأنما أُلقى هذا الكلام على لسانها لصحّته وصدقه .

***

وفى حديثه : أنّه استعمل رجلًا على اليمن ، فوفد إليه ، وعليه حلّة مُشَهَّرة ، وهو مرجَّل دَهِين ، فقال : أهكذا بعثناك ! ثم أمر بالحُلّة فنزعت عنه ، وأُلبِس جُبّة صوف ، ثم سأل عن ولايته فلم يذكر إلّا خيراً فردّه على عمله ، ثم وفد إليه بعد ذلك ، فإذا أشعث مغبّر عليه أطلاس ، فقال : ولا كلّ هذا ، إن عاملنا ليس بالشَّعِث ولا العافى ، كلوا واشربوا وادّهنوا ؛ إنّكم لتعلمون الذى أكره من أمركم (٣) !

قال : ثياب أطلاس ، أى وسخة ، ومنه قيل للذئب : أطلس .

---

(١) الفائق ٢ : ٣٥ (٢) الفائق ١ : ٥٠
(٣) الفائق ١ : ٦٨٣

والعافى : الطويل الشّعر ؛ يقال : عَفَى وبرُ البعير ، إذا طال ، ومنه الحديث المرفوع : « أمر أن تُعفَى اللّحَى وتُحْفَى الشّوارب » .

* * *

وفى حديثه أنه قال للرجل:أمَا ترانى لو شئت أمرت بشاة فتيّة سمينة [أو قنيّة] [١] فألقى عنها صوفها ، ثم أمرت بدقيق فنخِل فى خرقة،فجعِل منه خبز مرقّق ، وأمرت بصاع من زبيب فجعل فى سُعُن حتى يكون كدم الغزال [٢] .

قال : السُّعُن : قربة أو إداوة ينتبَذ فيها وتعلّق بجِذْع .

* * *

وفى حديثه : أنه رأى رجلا يأنِح ببطنه ، فقال : ماهذا ؟ قال : بركة من الله ، قال: بل هو عذاب من الله يعذّبك به [٣] .

قال:يأنح : يصوّت،وهو مايعترى الإنسان السمين من البُهْر إذا مشى،أنَح يأنِح أنوحا

* * *

وفى حديثه أنّه لما دنا من الشام ولَقِيَه الناس ، جعلوا يتراطنون ، فأشكَعَهُ ذلك وقال لأسلم مولاه : إنّهم لم يروا على صاحبك بِزّة قوم غضب الله [٤] عليهم .

قال : أشكَعه : أغضبه،قال : أراد أنّهم لم يتحاموا عنه اللغط ، والكلام بالفارسية والنّبطية بحضرته ، لأنهم لم يَرَوْه بعين الإمارة والسلطان ، كما يرَوْن أمراءهم ، لأنهم لم يروا عليه بزّة الأمراء وزيّهم .

* * *

---

(١) من الفائق ، قال : « القنية : ما اقتنى من شاة أو ناقة »

(٢) الفائق ٢ : ٣٧٩

(٣) النهاية ١ : ٤٦

(٤) الفائق ١ : ٤٨

وفى حديثه : أنّ عاملا على الطائف كتب إليه: إن رجالا منهم كلّمونى فى خلايا لهم، أسلموا عليها ، وسألونى أن أحميها لهم . فكتب إليه عمر : « إنها ذُباب غَيْث ؛ فإنْ أدَّوْا زكاته فاحمه لهم » [١] .

قال : الخلايا موضع النَّحل التى تعسل ، الواحدة خليّة ، وأراد بقوله : « إنّها ذُباب غيث » أنها تعيش بالمطر؛ لأنّها تأكل ماينبت عنه ، فإذا لم يكن غيث فقدتْ ماتأكل ، فشبّهها بالسَّائم من النَّعم لا مؤنة على صاحبها منها ، وأوجب فيها الزكاة .

* * *

وفى حديثه : أنّ سعد بن الأخْرَم ،قال : كان بين الحىّ وبين عدىّ بن حاتم تشاجُرٌ فأرسلونى إلى عمر فأتيته وهو يطعم الناس من كسور إبل ، وهو قائم متوكّئٌ على عصا ، مؤتزر إلى أنصاف ساقيه ، خِدَبّ من الرجال كأنه راعى غنم ، وعلىّ حلة ابتعتُها بخمسمائة درهم ، فسلّمت عليه ، فنظر إلىّ بذَنَب عينه ، وقال لى : أمالك مِعْوز ؟ قلت : بلى ، قال: فألقها ، فألقيتُها وأخذت مِعْوزاً ، ثم لقيته فسلّمت ، فردّ علىّ السلام [٢] .

قال : كسور [٣] الإبل : أعضاؤها .

والخِدَبّ : العظيم الجافى وكأنّه راعى غنم ، يريد فى الجفاء والبذاذة وخشونة الهيئة واللّبسة .

والمِعْوز : الثوب الخَلَق ، والميم مكسورة؛وإنّما ترك ردّ السلام عليه أولا،لأنه أشهر الحُلّة ، فأدّبه بترك ردّ السلام ، فلمّا خلعها ولبس المِعْوز ردّه عليه .

* * *

---

(١) الفائق ١ : ٣٦٦ . (٢) الفائق ٢ : ٤١١ .

(٣) واحده كسر ، بالفتح والكسر .

وفى حديثه : أنه ذكر فِتْيان قريش وسَرَفهم فى الإنفاق ، فقال : لَحِرْفة أحدهم أشدّ عَلَىّ من عَيْلته(١) .

قال : الحرْفة ها هنا، أن يكون الرّجل لا يتّجر ولا يلتمس الرّزق، فيكون محدودا لا يرزق إذا طلب ، ومنه قيل : فلان محارَف . والعَيْلة : الفقر .

وفى حديثه : أنّه قال لرجل : ما مالُكَ ؟ قال : أقرُنٌ لى وآدِمة فى المَنيئة ، قال : قوِّمْها وزكّها(٢) .

قال : الأقرن : جمع قرْن ، وهى جعبة من جُلُود تـكون للصيّادين يشقّ منها جانب ليدخلها الريح فلا يفسد الريش .

وآدمة : جمع أدِيم ، كجرِيب وأجْرِبة .

والمَنيئة : الدّباغ ، وإنما أمره بتزكيتها ، لأنها كانت للتجارة .

***

وفى حديثه أنّ أبا وجْزة السعدىّ ، قال : شهدته يستقى ، فجعل يستغفر ، فأقول : ألا يأخذ فيما خرج له ! ولا أشعر أنّ الاستسقاء هو الاستغفار ، فقلَدتنا السماء قِلْدا كلّ خمس عشرة ليلة ، حتى رأيت الأرنبة يأكلها صغار الإبل من وراء حِقاق العُرْفط(٣) .

قال : فقلِدتنا : مطرتنا لوقت معيّن ، ومنه قِلْد الحمّى ، وقلْد الزرع ، سقيه لوقت وهو وقت الحاجة .

وقال : رأيت الأرنب يحتملها السّيل حتى تتعلق بالعُرْفط ، وهو شجر ذو شوك ، وزاد فى الأرنب هاء ، كما قالوا: عقرب وعقربة ، وحِقَاق العُرفط: صغارها ، وقيل : الأرنب

---

(١) الفائق ١ : ٢٥٢
(٢) الفائق ٢ : ٣٣٢
(٣) الفائق ٢ : ٣٧١

ضرب من النبت ، لا يكاد يطول ، فأراد أنه طال بهذا المطر حتى أكلته صغار الإبل من وراء شجر العُرْفط .

***

وفى حديثه : أنه قال : ما وَلِىَ أحدٌ إلّا حامَى[١] على قَرابته ، وقَرَى فى عيبته ، ولن يلىَ الناس قرشىٌّ عضّ على ناجذه[٢] .

قال : حامىَ عليهم: عطف عليهم ، وقَرَى فى عيبته ، أى اختان ، وأصل قَرَى : جمع .

***

وفى حديثه : لن تخور قوًى ما كان صاحبها ينزع وينزو[٣] .

يخور : يضعف . والنَّزْع فى القوس ، والنَّزْو على الخيل .

وروى أن عمر كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليسرى ، ثم يجمع جراميزه ويثِب ، فكأنما خلِق على ظهر فرسه .

***

وفى حديثه : « تعلّموا السنّة والفرائض واللّحن ، كما تتعلمون القرآن »[٤] .

قال : اللّحن ها هنا : اللغة والنحو .

***

وفى حديثه : أنه مرّ على راعٍ ، فقال : يا راعى ، عليك بالظَّلِف [من الأرض][٥] لا ترمِّض ، فإنّك راعٍ وكلّ راعٍ مسئول[٦] :

قال : الظّلف : المواضع الصلبة ، أمره أن يرعى غنمه فيها ، ونهاه أن يرمّض ، وهو أن يرعى غنمه فى الرّمضاء وهى تشتدّ جدا فى الدّهاس والرمل ، وتخفّ فى الارض الصلبة .

***

(١) الفائق : « حلم » .
(٢) الفائق ١ : ٣١١ .
(٣) الفائق ١ : ٣٧٦ .
(٤) الفائق ٢ : ٤٥٧ .
(٥) من الفائق .
(٦) الفائق ٢ : ١٠١

وفى حديثه : أنّ رجلا قرأ عليه حرفا ، فأنكره ، فقال : مَنْ أقرأك هذا ؟ قال : أبو موسى ، فقال : إنّ أبا موسى لم يكن من أهل البَهْش(١) .

قال : البَهْش المُقل الرطب ، فإذا يبس فهو الخشل ، وأراد أنّ أبا موسى : ليس من أهل الحجاز ، لأنّ المُقل بالحجاز نبت ، والقرآن نزل بلغة الحجاز

* * *

وفى حديثه : أنّ عقبة بن أبى مُعَيط ، لمّا قال للنبىّ صلى الله عليه وآله : أأقتل مَن بين قريش ؟ فقال عمر : حَنّ قِدْح ليس منها(٢) .

قال : هذا مثل يضرب للرجل يُدخل نفسه فى القوم وليس منهم ، والقِدْح : أحد قِداح الميسر ، وكانوا يستعيرون القِدْح يدخلونه فى قِداحهم يتيمّنون به ويثقون بفوزه .

* * *

وفى حديثه : أنّ أهل الكوفة لمّا أوفدوا العِلْباء بن الهيثم السّدوسىّ إليه، فرأى عمر هيئته رثّة ، وأعجبه كلامه وعمله ، قال : لكلّ أناس فى جميلهم خبر .

قال : هذا مثل ، والمراد أنهم سوّدوه على معرفةٍ منهم بما فيه من الخلال المحمودة ، والمعنى أن خُبْره فوق منظره .

* * *

وفى حديثه : أنه أخذ من القِطْنيّة الزكاة(٣) .

قال : هى الحبوب كالعدس والحِمّص ، وفى أخذ الزكاة منها خلاف بين الفقهاء .

---

(١) الفائق ١ : ١١٨
(٢) الفائق ١ : ٣٠٠ .
(٣) النهاية ٣ : ٢٦٥ .

وفى حديثه : أنّه كان يقول للخارص[1] : «إذا وجدْت قوماً قد خرَفوا فى حائطهم، فانظر قدْر ماترى أنّهم يأكلونه ، فلا تخرِصه »[2] .

قال : خَرفُوا فيه ، أى نزلوا فيه أيام اختراف الثّمرة .

***

وفى حديثه : « إذا أجريت الماء على الماء جَزَى عنك »[3] .

قال : يريدصبَّ الماءعلى البوْل فى الأرض، فإنه يطهِّر المكان ، ولا حاجة إلى غسله . وجَزَى : قضى وأغنى ، من قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾[4] ، فإن أدخلت الألف قلت : « أجزأك » وهمزت ، ومعناه كفاك .

***

وفى حديثه أنه قال : « لا يعطى من المغانم شىء حتى تقسّم ؛ إلا لراع ؛ والدليل غيرُ مُولِيه »[5] .

قال : الراعى هاهنا الطليعة ، لأنه يرعَى القوم ؛ أى يحفظهم .

وقوله : « غير مُولِيه » ، أى غير مُعْطِيه شيئا لا يستحقه .

***

وفى حديثه : « إنّ من الناس مَنْ يقاتل رياءوسمعة ،ومنهم مَنْ يقاتل وهوينوى الدّنيا ، ومنهم مَنْ ألجه القتال فلم يجد بدًا ، ومنهم مَنْ يقاتل صابرا محتسبا ، أولئكم الشهداء».

قال : ألجه القتال، أى رهقه وغشِيه ، فلم يجد مخلصاً .

***

---

(١) خرص النخلة : إذا حزر ما عليها من الرطب ؛ من الخرص ؛ وهو الظن .
(٢) الفائق ١ : ٣٣٧
(٣) النهاية لابن الأثير ١ : ١٦٢ .
(٤) سورة البقرة ١٢٣
(٥) النهاية ٢ : ٨٨ ، ٤ : ٢٣٢ .

وفى حديثه : أنه أرسل إلى أبى عبيدة رسولا فقال له حين رجع : فكيف رأيتَ أبا عبيدة ؟ قال : رأيتُ بللا من عيش فقصّرَ من رزقه ، ثم أرسل إليه ، وقال للرسول حين قدم : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيته حَفُوفًا ، قال : رحم الله أبا عبيد ، بسطْنا له فبَسط، وقبضنا له فقبض[١].

قال : الحَفُوف والحَفَف واحد ، وهو ضِيق العيش وشدّته ، يقال : ماعليهم حَفَفٌ ولا ضَفَف ، أى ماعليهم أثر عَوَزٍ ، والشَّظَف : مثل الحَفَف .

***

وفى حديثه : أنه رئى فى المنام ، فسئل عن حاله ، فقال : « ثُلَّ عَرْشى[٢] لولا أنى صادفت ربّى رحيما » .

قال : ثلّ عرشُه ، أى هدم .

***

وفى حديثه :أنه قال لأبى مريم الحنفىّ : « لأنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدم »،قالوا: كان عمر عليه غليظاً ، كان قاتلَ زيد بن الخطاب أخيه ، فقال : أينقُصُنِى ذلك من حقّى شيئا ؟ قال : لا ، قال : فلا ضَيْرَ[٣].

قال : هذا مثل ، لأن الأرض لايغوص فيها الدم كما يغوص الماء ، فهذا بغض الأرض له ، ويقال : إنّ دم البعير تنشِفه الأرض وحده .

***

وفى حديثه : « إنّ اللبن يشبّه عليه »[٤].

---

(١) الفائق ١ : ١١١ .

(٢) فى النهاية : « كاد يثل عرشى » .

(٣) النهاية ١ : ٣٢ .

(٤) الفائق ١ : ٦٣٤ .

قال : معناه أنّ الطّفل ربما نزع به الشّبه إلى الظّئر من أجل لبنها ، فلا تسترضعوا إلّا مَنْ ترضون أخلاقها .

***

وفى حديثه : « اغزوا ، والغَزْو حلو خضِر ، قبل : أن يكون ثُماما ، ثم يكون رُماما ، ثم يكون حُطاما »[1] .

قال : هذا مثل ، والثُّمام : نبت ضعيف .

والرُّمام ، بالضم والرميم واحد ، مثل طُوال وطويل .

والحُطام : يبس النبت إذا تكسّر ، ومعنى الكلام أنّه أمرهم بالغزو حين عزائمهم قويّة ، وبواعثهم إليه شديدة ، فإنّ مع ذلك يكون الظفر قبل أن يهِى ويضعُف ، فيكون كالثُّمام الضعيف ، ثم كالرميم ، ثم يكون حُطاما فيذهب .

***

وفى حديثه : « إذا انتاطت المغازى ، واشتدّت العزائم ، ومنعت الغنائم أنفسها ، فخير غزوكم الرّباط » .

قال : انتاطت : بعدت ، والنّطىء : البعيد .

واشتدّت العزائم : صعبت ومنعت الغنائم أنفسها ، فخير غزوكم الرّباط فى سبيل الله .

***

وفى حديثه أنه وضع يده فى كُشْية[2] ضبّ ، وقال : إنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يحرّمه ، ولكن[3] قذِره .

قال : كُشْية الضّبّ : شحم بطنه .

---

(١) الفائق ١ : ٣٥٢ .
(٢) ويروى : « كشة » .
(٣) الفائق ١ : ١٦٩ .

وقوله : « وضع » أى أكل منه .

***

وفى حديثه : « لأوتَى بأحدٍ انتقص من سبل المسلمين إلى مثاباته شيئا إلّا فعلت به كذا »[1] .

قال : المثابات هاهنا : المنازل يثوب أهلها إليها ، أى يرجعون ، والمرادُ مَنْ اقتطعَ شيئا من طريق المسلمين وأدخله فى داره .

***

وفى حديثه : أنه كره النِّير[2] .

قال : هو عَلَم الثوب ، وأظنه كرهه إذا كان حريرا .

***

وفى حديثه : أنه انكسرت قَلُوص من إبل الصدقة فجَفَنها[3] .

قال : اتّخذ منها جَفْنة من طعام ، وأجمع عليه[4] .

***

وفى حديثه : « عجبت لتاجر هَجَر ، وراكب البحر »[5] !

قال : عجب كيف يختلف إلى هَجَر مع شدّة وبائها ، وكيف يركب البحر مع الخطار بالنفس !

***

وفى حديثه : أنه قال ليلةً لابن عباس فى مسيرله :أنشِدْنا لشاعر الشعراء ،قال : ومَنْ

---

(١) الفائق ١ : ١٦٣

(٢) الفائق ٣ : ١٣٩ .

(٣) النهاية ١ : ١٦٨

(٤) النهاية : « وجمع الناس عليه » .

(٥) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٤٠ .

هو ؟ قال : الذى لم يعاظِلْ بين القول ، ولم يتّبع حُوشِيّ الكلام ، قال : ومَنْ هو ؟ قال: زهير ، فجعل يُنشِد إلى أن برَق الصبح [١] .

قال : هو مأخوذٌ من تعاظُل الجراد ، إذا ركب بعضُه بعضا .

وحُوشِيّ الكلام : وحشيُّه .

* * *

وفى حديثه أنّ نائلاً مولى عثمان ، قال : سافرتُ مع مولاىَ وعمر فى حَجّ أو عُمرة، فكان عمر وعثمان وابن عمر لِفًّا ، وكنت أنا وابنُ الزّبير فى شَبَبَةٍ معنا لِفًّا ، فكنّا نتمازَح ونترامَى بالحنظل ، فما يزيدنا عمر على أن يقول لنا : كذاكَ لاَ تذْعَرُوا علينا ، فقلنا لرَباح بن المعترف [٢] : لو نصَبْت لنا نصْب العرب ! فقال : [أقول] [٣] مع عمر فقلنا : افعل وإن نهاكَ فانتهِ ، ففعل ولم يقل عمر شيئا ، حتى إذا كان فى وجه السَّحر ناداه : يارَباح ، إيهاً ، اكفُفْ فإنها ساعة ذِكْر [٤] !

قال : لِفًّا ، أى حزبا وفِرْقة .

وشَبَبة : جمع شابّ ، مثل كاتب وكَتَبة ، وكاذب وكَذَبة ، وكافر وكَفَرة .

وقوله : « كذاكَ » أى حَسْبُكم .

وقوله : « لاتذْعَرُوا علينا » ، أى لاتنفروا إبلنا .

ونصْب العرب : غناء لهم يشبه الحُداء ، إلاّ أنه أرقّ منه .

* * *

وفى حديثه : أنه كتب فى الصّدقة إلى بعض عمّاله كتابا فيه: «ولا تحبِس الناس أوّلهم على آخرهم ، فإنّ الرَّجْن للماشية عليها شديد ، ولها مُهْلِك ، وإذا وقف الرّجل عليكَ غنَمه فلا تَعْتَمْ من غنمِه ، ولا تأخذ من أدناها ، وخذ الصدقة من أوسطها ، وإذا وجَبَ على

(١) الفائق : ١٦٥

(٢) الفائق : المقترف.

(٣) من الفائق .

(٤) الفائق ٢ : ٤٦٩ .

الرّجل سنٌّ لم تجدها فى إبله فلا تأخذ إلا تلك السنّ من شَرْوَى إبله أو قيمة عدْل، وانظر ذوات الدَّرّ والماخِض، فتنكّب عنها؛ فإنّها ثمال حاضِرِيهم »[١] .

قال : الرَّجْن : الحبس ؛ رجَن بالمكان : أقام به ، ومثله دَجَن ، بالدّال .

ولا تعتم : لا تختر، اعتام اعتياما، أى اختار .

من شَرْوَى إبله ، أى من مِثْلها

وذوات الدّرّ : ذوات اللَّبن .

والماخِض : الحامل .

وثمال حاضريهم : عصمتهم وغياثهم ، وحاضريهم : مَنْ يسكن الحضَر .

***

وفى حديثه : أنه كان يلقط النّوَى من الطريق والنِّكْث ؛ فإذا مرّ بدار قوم ألقاها فيها ، وقال : « ليأ كل هذا داجنتكم وانتفعوا بباقيه »[٢] .

قال : الداجنة مايعلفه الناس فى منازلهم ، من الشّاة والدّجاج والطّير .

والنِّكْث : الخيوط الخلَق من صوف أو شعر أو وَبَر .

***

وفى حديثه : « ثلاثٌ من الفَواقر : جار مُقامة ؛ إن رأى حسنةً دفنها ، وإن رأى سيّئة أذاعها ، وامرأة إن دخلتَ عليها لسَنَتْك ، وإن غِبت عنها لم تأمنها ، وإمام إن أحسنتَ لم يرضَ عنك ، وإن أسأت قتلك »[٣] .

***

---

(١) الفائق ١ : ٤٦٦ .

(٢) الفائق ٣ : ١٣٤ .

(٣) الفائق : ٢٩٠ .

قال : الفواقر : الدواهي ، واحدتها فاقِرة ، لأنها تكسر فقار الظّهر .

ولسنتك : أخذتك بلسانها .

* * *

وفى حديثه فى خطبة له : « مَنْ أتى هذا البيت لا ينهره إليه غيره، رجع وقدغفر له».

قال : ينهره : يدفعه ، يريد من حجّ لا ينوى بالحجّ إلا الطاعة غفر له .

* * *

وفى حديثه : « اللبن لا يموت » .

قال : قيل فى معناه : إن اللبن إذا أخذ من ميتة لم يحرم ، وكلّ شيء أخذ من الحيّ فلم يحرم فإنه إن أخذ من الميت لم يحرم .

وقيل فى معناه : إنْ رَضَع الطّفل من امرأة ميّتة حَرُم عليه من أولادها وقرابتها مَنْ يحرم عليها منها لو كانتْ حيّة .

وقيل: معناه : إنّ اللبن إذا انفصل من الضّرع فأوجر به الصبيّ أو أدم به أو دِيف له فى دواء وسُقِيَه ، فإنه إن لم يسمّ فى اللغة رضاعا، إلا أنّه يحرم به ما يحرم بالرضاع ؛ فقال : اللبن لا يموت ، أى لا يبطل عمله بمفارقة الثدى .

* * *

وفى حديثه : « من حظّ المرء نَفاق أيِّمه وموضع خُفِّه»[١] .

قال : الأيّم التى لا بعل لها، والخفّ : الإبل، كما تُسمّى الحمر والبغال حافراً، والبقر والغنم ظِلْفا ، يريد من حظ الإنسان أن يخطب إليه ويتزوّج بناته وأخواته وأشباههنّ ، فلا يَبُرْن ،

(١) النهاية ١ : ٢٧٠ ، وفيه : « موضع حقه » ، وقال فى شرحه : « وأن يكون حقه فى ذمة مأمون جحوده وتهضمه » .

ومن حظه أيضاً أن ينفق إبله، حتى ينتابه التجار وغيرهم فيبتاعوها فى مواضعها، يستطرقونه لا يحتاج أن يعرضها عليهم.

***

وفى حديثه: أنّ العباس بن عبد المطلب سأله عن الشعراء، فقال: امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عَيْن الشعر؛ فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصحّ بَصَرٍ (١).

قال: خسف لهم، من الخسِيف، وهى البئر تحفر فى حجارة، فيخرج منها ماء كثير، وجمعها خُسُف.

وقوله: « افتقر » أى فتح، وهو من الفقير، والفقير: فم القناة.

وقوله: « عن معانٍ عور » يريد أنّ امرأ القيس من اليمن، واليمن ليست لهم فصاحة نزار، فجعل معانيهم عُوراً، وفتح امرؤ القيس عنها أصحّ بصر.

***

[ذكر الأحاديث الواردة فى فضل عمر]

فأما الحديث الوارد فى فضل عمر، فمنه ماهو مذكور فى الصّحاح، ومنه ماهو غير مذكور فيها. فمما ذكر فى المسانيد الصحيحة من ذلك، ماروت عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « كان فى الأمم محدَّثون، فإن يكن فى أمّتى فعمر ». أخرجاه فى الصحيحين.

وروى سعد بن أبى وقّاص، قال: استأذن عُمر على رسول الله صلى الله عليه وآله، وعنده نساء من قريش يكلّمنه، عاليةٌ أصواتهنّ، فلمّا استأذن قُمْنَ يبتدِرْن الحجاب، فدخل ورسول الله صلى الله عليه وآله يضحَك، قال: أضحَك الله سِنَّكَ يارسول الله! قال: عجبتُ مِنْ هؤلاء اللّواتِى كنّ عندى فلمّا سَمِعْنَ صوتَك ابتدرْنَ الحِجاب. فقال عمر: أنت

(١) الفائق ٦ : ٣٤٣.

أحقّ أن يهبْنَ ، ثم قال : أى عَدُوّاتِ أنفسهنّ ، أتهبْنَنى ولا تهبْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظّ،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « والّذِى نفسى بيده ، مالقيَكَ الشّيْطان قطّ سالـكاً فَجًّا إلا سلك فَجًّا غير فَجّك » ، أخرجاه فى الصحيحين .

وقد روى فى فضله من غير الصحاح أحاديث :

منها : « إنّ السكينة لتنطِق على لسان عمر » .

ومنها : « إنّ الله تعالى ضرب بالحقّ على لسان عمر وقلبه » .

ومنها : « إنّ بين عينىْ عمر مَلَـكا يسدّده ويوفّقه » .

ومنها : « لو لم أبْعَثْ فيكم لبعِث عمر » .

ومنها : « لو كان بعدى نبىّ لـكان عمر » .

ومنها : « لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلّا عمر » .

ومنها : « ما أبطأ عنّى جبريل إلّا ظننت أنه بعِث إلى عمر » .

ومنها : « سراج أهل الجنّة عمر » .

ومنها : أن شاعراً أنشدَ النبىّ صلى الله عليه وآله شعرا ، فدخل عمر ، فأشار النبىّ صلى الله عليه وآله إلى الشاعر أن اسكُتْ ، فلمّا خرج عمر ، قال له : عُدْ فعاد ، فدخل عمر فأشار النبى صلى الله عليه وآله بالسكوت مرّة ثانية ، فلما خرج عمر سأل الشاعرُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله عن الرّجل ، فقال : « هـذا عمر بن الخطاب ، وهو رجل لا يحبّ الباطل » .

ومنها : أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال : « وُزِنتُ بأمّتى فرجَحْت ، ووزن أبو بكر بها فرجح ، ووزن عمر بها فرجح ، ثم رجح ، ثم رجح » .

* * *

وقد رووا فى فضله حديثا كثيرا غير هذا ، ولكنّا ذكرنا الأشهر. وقد طعن أعداؤه ومبغضوه فى هذه الأحاديث ، فقالوا : لو كان محدَّثا وملهما لما اختار معاوية الفاسقَ لولاية الشام ، ولكان الله تعالى قد ألهمه وحدّثه بما يُواقِع من القبائح والمنكرات والبَغى والتغلّب على الخلافة ، والاستئثار بمال الفىء ، وغير ذلك من المعاصى الظاهرة .

قالوا : وكيف لايزال الشّيطانُ يسلك فجّا غير فجّه ، وقد فرّ مراراً من الزحف فى أحُدٍ وحُنَين وخَيْبر ، والفِرار من الزّحْف من عمل الشيطان وإحدى الكبائر الموبقة !

قالوا : وكيف يُدّعى له أنّ السكينة تنطِق على لسانه ! أترى كانت السّكينةُ تَلاحِيَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الُحديبية ، حتى أغضبه !

قالوا : ولو كان ينطق على لسانه ملَكٌ أو بين عينيه مَلَكٌ يسدّده ويوفّقه ،أوضرب الله بالحقّ على لسانه وقلبه ، لكان نظيرا لرسول الله صلى الله عليه وآله ، بل كان أفضلَ منه ؛ لأنّه صلى الله عليه وآله كان يؤدّى الرسالة إلى الأمّة عنْ مَلك من الملائكة ، وعمر قد كان ينطق على لسانه مَلَك ، وزيدَ ملَكا آخر بين عينيه يسدّده ويوفقه ، فهذا الملك الثانى ممّا قد فضّل بهعلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كان حكم فى أشياء فيخطئ فيها حتى يُفهمه إياها علىّ بن أبى طالب ومُعاذ بن جبل وغيرهما ، حتى قال : لولَا علىّ لهلك عمر ، ولولا معاذ لهلك عمر . وكان يُشكل عليه الحكم ، فيقول لابن عباس : غُصْ ياغوّاص ، فيفرّج عنه ، فأين كان المَلَك الثانى المسدّد له ! وأين الحقّ الذى ضُرب به على لسان عمر ؟ ومعلوم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر فى الوقائع نزولَ الوحى . وعمر على مقتضَى هذه الأخبار لاحاجة به إلى نزولِ ملَك عليه ، لأنّ المَلَكين معه فى كلّ وقت وكلّ حال ، ملَك ينطق على لسانه وملك آخر بين عينيه يسدّده ويوفقه . وقدْ عزّزا بثالث وهى السكينة ، فهو إذاً أفضلُ من رسول الله صلى الله عليه وآله!

وقالوا : والحديث الذى مضمونه : لو لم أبعث فيكم لبعث عمر ، فيلزم أن يكون رسولُ الله صلى الله عليه وآله عذابا على عمر ، وأذًى شديدا له ، لأنه لو لم يبعث لبعث عمر نبيًّا ورسولا ، ولم تعلُ رتبةٌ أجلّ من رتْبة الرساله ، فالمزيل لعمر عن هذه الرّتبة التى ليس وراءها رتبة ، ينبغى ألاّ يكون فى الأرض أحدٌ أبغض إليه منه !

قالوا : وأمّا كونه سراج أهل الجنّة ؛ فيقتضى أنّه لو لم يكن تجلّى عمر لكانت الجنّة مظلمة لاسراجَ لها .

قالوا : وكيف يجوز أن يقال : لو نزل العذابُ لم ينجُ منْه إلا عمر ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (١) .

قالوا : وكيف يجوز أن يقال : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله كان يسمع الباطل ويحبّه ويشهده ، وعمر لا يسمع الباطل ولا يشهده ولا يحبّه ! أليس هذا تنزيهاً لعمر عمّا لم ينزّهْ عنه رسول الله صلى الله عليه وآله !

قالوا : ومن العَجَب أنْ يكون النبى صلى الله عليه وآله أرجحَ من الأمة يسيرا ، وكذلك أبو بكر ، ويكون عمر أرجح منهما كثيرا ! فإن هذا يقتضى أن يكون فضلُه أبينَ وأظهرَ من فضل أبى بكر ومن فَضْل رسول الله صلى الله عليه وآله !

والجواب أنه ليس يجب فيمن كان محدّثا ملهماً أن يكون محدّثا ملهماً فى كلّ شىء بل الاعتبار بأكثر أفعاله وظنونه وآرائه ، ولقد كان عمر كثيرَ التوفيق ، مصيبَ الرأى فى جمهور أمره ، ومَنْ تأمّل سيرتَه علم صحّة ذلك ، ولا يقدَح فى ذلك أن يختلف ظنُّه فى القليل من الأمور .

وأما الفرار من الزّحْف ، فإنه لم يفرّ إلّا متحيّزاً (٢) إلى فئة ، وقد استثنى الله تعالى ذلك تخرج به عن الإثم .

---

(١) سورة الأنفال ٣٣

(٢) هو قوله تعالى فى سورة الأنفال ١٦ : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

وأمّا باقي الأخبار فالمراد بالملَك فيها الإخبار عن صحة ظنّه، وصدق فراسته، وهو كلام يجري مجرى المثل، فلا يَقدح فيه ماذكروه.

وأما قوله صلى الله عليه وآله: «لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلّا عمر»، فهو كلام قاله عَقيب أخذ الفدية من أسارى بدر، فإنّ عمر لم يُشِرْ عليه، ونهاه عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [1]. وإذا كان القرآن قد نطق بذلك وشهد، لم يُلتفتْ إلى طعن مَنْ طعن في الخبر.

وأما قوله عليه السلام: «سراج أهل الجنّة عمر»، فمعناه سراج القوم الذين يستحقّون الجنّة من أهل الدنيا أيام كونهم في الدّنيا مع عمر، أي يستضيئون بعلمه، كما يستضاء بالسراج.

وأما حديث مَنْع الشّاعر، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله خاف أن يذكر في شعره مايقتضي الإنكار فيعنُف به عمر، وكان شديد الغلظة، فأراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن ينكر هو على الشّاعر إن قال في شعره مايقتضي ذلك على وجه اللّطف والرّفق، وكان عليه السلام رءوفا رحيما، كما قال الله تعالى [2].

وأما حديث الرجحان، فالمراد به الفتوح ومُلْك البلاد، وتأويله أنّه عليه السلام أُرِيَ في منامه مايدلّ على أنه يفتح الله عليه بلاداً وعلى أبي بكر مثله، ويفتح على عمر أضعاف ذلك، وهكذا وقع.

واعلم أن مَنْ تصدّى للعيب وجَده، ومن قصَر همّته على الطّعن على الناس انفتحت

---

(١) سورة الأنفال ٦٨.

(٢) وهو قوله تعالى في سورة التوبة ١٢٨ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

له أبواب كثيرة ، والسعيد مَنْ أنصف من نفســه ، ورفض الهوى ، وتزوّد التقوى ، وبالله التوفيق !

***

[ذكر ماورد من الخبر عن إسلام عمر]

وأمّا إسلام عمر ، فإنه أسلم، فكان تمام أربعين إنساناً فى أظهر الروايات ، وذلك فى السنة السادسة من النبوة، وسنّه إذ ذاك ست وعشرون سنة،وكان عمر ابنه عبدالله يومئذ ستّ سنين .

وأصحّ ماروِىَ فى إسلامه رواية أنس بن مالك عنه ، قال : خرجتُ متقلّداً سيفى ، فلقيت رجلاً من بنى زُهْرة ، فقال : أين تعمد ؟ قلت : أقتل محمدا ، قال : وكيف تأمنُ فى بنى هاشم وبنى زهرة ؟ فقلت : ماأراك إلا صَبَوْتَ ! قال : أفلا أدلُّك على العَجَبِ ! إنّ أختك وزوجها قد صَبَوَا.فمشى عمر فدخل عليهما ذامراً،وعندهما رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقال له : خبّاب بن الأرتّ ، فلما سمع خَبّاب حِسّ عمر توارَى ، فقال عمر : ماهذه الهينمة [1] التى سمعتها عندكم ؟ وكانوا يقرءون « طه » على خَبّاب،فقال:ماعندنا شىء،إنّما هو حديثٌ كنّا نتحدّثه بيننا،قال:فلعلّكما قد صَبوتما [2] فقال له خَتَنُه:أرأيت ياعمر إن كان الحق فى غير دينك ! فوثب عمر على ختنه فوطِئه وطئا شديدا ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها ، فنفحها بيده ، فأدمى وجهها ، فجاهرته،فقالت : إنّ الحقّ فى غير دينك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فاصنع مابدا لك!فلما يئس قال:أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه—وكان عمر يقرأ الخطّ—

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى .

(٢) صبا ، أى خرج عن دينه .

فقالت له أخته : إنك رجْس ؛ وإنّ هذا الكتاب لا يمسُّه إلّا المطهرون،فقمْ فتوضأ،فقام فأصاب ماء ، ثم أخذالكتاب ،فقرأ ﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى﴾ إلى قوله : ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ، فقال عمرُ : دُلّوني على محمّد ، فلما سمع خبّابٌ قول عمر ، ورأى منه الرّقة ، خرج من البيت ، فقال : أبشرْ ياعمر ، فإنّى لأرجو أن تكون دعوةُ رسول الله صلّى الله عليه وآله ليلةَ الخميس لك ،سمعته يقول : « اللهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » ـ قال : ورسول الله صلى الله عليه وآله فى الدّار التى فى أصْلِ الصّفا ـ فانطلق عمر حتى أتى الدّار ، وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وناس من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا رأى النّاس عمرَ قد أقبلَ ، كأنهم وجِدوا ، وقالوا : قدجاءعمر، فقال حمزة : قد جاء عمر ، فإن يرد الله به خيرا يُسْلِم ، وإن يرد غير ذلك كان قتلُه علينا هيّناً ، قال : والنبي صلى الله عليه وآله مِنْ داخل البيت يُوحَى إليه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله كلامَ القوم ، فخرج مسرعا حتى انتهى إلى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : ما أنت منتهيا ياعمر حتى ينزل الله بك ـ يعنى من الخزى والنّكال ـ ما أنزل بالوليد بن المغيرة . ثم قال:اللّهم هذاعمر،اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر ! فقال : أشهد أن لا إله إلا الله،وأشهد أنك رسول الله . فكبّر أهل الدار ،ومن كان على الباب ، تكبيرةً سمعها مَنْ كان فى المسجد من المشركين[1] .

وقد روى أن عمر كان موعوداً ومبشّرا بما وصل إليه من قبل أن يظهر أمر الإسلام. قرأت فى كتاب من تصانيف أبى أحمد العسكرى رحمه الله ، أنّ عمر خرج عَسِيفاً[2] مع الوليد ابن المغيرة إلى الشام فى تجارة للوليد ، وعمر يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، فكان يرعى

(١) الرياض النضرة ١ : ١٩١ ، ١٩٢ (٢) العسيف : الأجير .

الوليد إبله ، ويرفع أحماله ، ويحفظ متاعه ، فلما كان بالبلقاء لقيه رجل من علماء الروم ، فجعل ينظر إليه ، ويطيل النظر لعمر ، ثم قال : أظن اسمك يا غلام « عامرا » أو « عمران » أو نحو ذلك ؟ قال : اسمي « عمر » ، قال : اكشف عن فخذيك ، فكشف فإذا على أحدهما شامة سوداء فى قدر راحة الكف ، فسأله أن يكشف عن رأسه ، فكشف فإذا هو أصلع ، فسأله أن يعتمل بيده ، فاعتمل فإذا أعسر أيسر ، فقال له : أنت ملك العرب ، وحق مريم البتول ! قال : فضحك عمر مستهزئا ، قال : أو تضحك ! وحق مريم البتول إنك ملك العرب ، وملك الروم ، وملك الفرس ! فتركه عمر وانصرف مستهيناً بكلامه ، وكان عمر يحدث بعد ذلك ، ويقول : تبعني ذلك الرومي وهو راكب حمارا ، فلم يزل معى حتى باع الوليد متاعه ، وابتاع بثمنه عطراً وثياباً ، وقفل إلى الحجاز ، والرومي يتبعنى ، لا يسألنى حاجة ، ويقبل يدى كل يوم إذا أصبحت كما تقبل يد الملك ، حتى خرجنا من حدود الشام ، ودخلنا فى أرض الحجاز راجعين إلى مكة ، فودعنى ورجع . وكان الوليد يسألنى عنه فلا أخبره ، ولا أراه إلا هلك ، ولو كان حيًّا لشخص إلينا .

***

[تاريخ موت عمر والأخبار الواردة فى ذلك]

فأما تاريخ موته ، فإن أبا لؤلؤة طعنه يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى الحجة من سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر ، وهو ابن ثلاث وستين فى أظهر الأقوال ، وقد كان قال على المنبر يوم جمعة ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وأبا بكر : إنى قد رأيت رؤيا ، أظنها لحضور أجلى ، رأيت كأن ديكا نقرنى نقرتين ، فقصصتها على أسماء

(١) الأعسر : الذى يعمل بيده اليسرى ، وفى النهاية لابن الأثير : ٤ : ٢٦٥ : « كان عمر أعسر أيسر » ، هكذا يروى ، والصواب «أعسر يسر» وهو الذى يعمل بيديه جميعا ، ويسمى الأضبط » .

بنت عُمَيس، فقالت: يقتلك رجلٌ من العَجَم ؛ وإنى أفكرتُ فيمن أستخلف ، ثم رأيتُ أنّ الله لم يكن ليضيّع دينَه وخلافته التى بعث بها رسوله .

وروى ابنُ شهاب ، قال : كان عمر لا يأذن لصبيٍّ قد احتلم فى دخول المدينة ، حتى كتب المغيرة ، وهو على الكوفة ، يذكر له غلاماً صَنَعاً عنده ، ويستأذنه فى دخول المدينة ، ويقول : إنّ عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس ، إنه حدّاد نقّاش نجّار . فأذن له أن يرسل به إلى المدينة ، وضربَ عليه المغيرة مائة دِرْهم فى كلّ شهر ، فجاء إلى عمر يوماً يشتكى إليه الخراج ، فقال له عمر : ماذا تحسنُ من الأعمال ؟ فعدّ له الأعمال التى يحسن ، فقال له: ليس خراجُك بكثير فى كُنْه عملك .

هـذا هو الذى رواه أكثر الناس من قوله له ، ومن الناس مَنْ يقول : إنه جَهَر بكلام غليظ ، واتفقوا كلُّهم على أنّ العبد انصرف ساخطاً يتذمّر ، فلبث أياماً ثم مرّ بعمر فدعاه ، فقال : قد حُدّثت أنك تقول : لو أشاء لصنعتُ رحاً تطحَنُ بالريح ، فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر ، ومع عمر رهط من الناس ، فقال : لأصنعنّ لك رحاً يتحدّث الناس بها ، فلما ولّى أقبل عمر على الرَّهط ، فقال : ألا تسمعون إلى العبد! ما أظنه إلا أوعدنى آنفا ! فلبث ليالى ، ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خِنْجَرٍ ذى رأسين ، نصابُه فى وسَطه ، فكَمَن فى زاوية من زوايا المسجد فى غلَس السّحر ، فلم يزل هنالك حتى جاء عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر ، كما كان يفعل، فلما دنا منه وثبَ عليه ؛ فطعنه ثلاثَ طعنات : إحداهنّ تحت السّرّة ، قد خرقت الصّفاق[1] ــ وهى التى قتلته ــ ثم انحاز إلى أهل المسجد ، فطعن فيهم مَنْ يليه حتى طعن أحدَ عشر رجلا سوى عمر ، ثم انتحر بخِنْجره ، فقال عمر حين أدركه النّزف: قولوا لعبد الرحمن بن عوف؛ فليصلّ بالناس ، ثم غلبه النّزف فأغمِيَ عليه،

---

(١) الصفاق : الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر .

فاحتُمل حتى أدخل بيته ، ثم صلّى عبد الرحمن بالنّاس ، قال ابن عباس : فلم أزلْ عند عمر وهو مغمّى عليه لم يزل فى غَشْيةٍ واحدة ،حتى أسفر ، فلمّا أسفرأفاق ، فنظرف وجوه مَنْ حوله ، وقال : أصلّى الناس ؟ فقيل : نعم ، فقال : لا إسلام لمن تَرَكَ الصلاة ، ثم دعا بوضوء فتوضّأ وصلّى ، ثم قال: اخرج يابنَ عباس ، فاسأل مَنْ قتلنى ؟ فجئت حتى فتحت باب الدار ، فإذا النّاس مجتمعون ،فقلت : مَنْ طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه أبولؤلؤة غلام المغيرة ، قال ابن عباس : فدخلتُ فإذا عمر ينظار إلى الباب يستأنى خبرَ مابعثنى له ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، زعم الناس أنه عدوّ اللهأبو لؤلؤة غلامالمغيرة بن شعبة، وأنّهطعن رهطاً ثم قتل نفسه ، فقال: الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجّنى عند الله بسجْدة سجدهاله قطّ ، ما كانتالعرب لتقتُلَنى ،ثم قال: أرسلوا إلى طبيبينظر جَرْحى،فأرسلواإلىطبيب من العرب ، فسقاه نبيذاً فخرجمن الجرح ، فاشتبه عليهم الدمبالنبيذ ، ثم دَعَوْا طبيبا آخر فسقاه لبنا ، فخرج اللبن من الطعنة صَلْداً أبيض ، فقال الطّبيب : اعْهَد ياأمير المؤمنين عهدَكَ ، فقال :لقد صدقنى ، ولو قالغير ذلك لكذب ،فبكى عليه القوم حتىأسمعوامَنْ خارج الدار ، فقال : لاتبكوا علينا ، ألا ومَنْ كان باكيا فليخرج ، فإن النبى صلى الله عليه وآله قال : « إن الميّت ليعذّب ببكاء أهله عليه » .

وروى عنعبد الله بن عمر، أنهقال :سمعتُ أبى يقول: لقد طعننى أبو لؤلؤةطعنتيْن، وما أظنّه إلّا كابّاً حتى طعننى الثالثة .

وروى أن عبد الرحمن بن عوف طرح على أبى لؤلؤة بعدأن طعن الناس خَميصة(١) كانت عليه، فلما حصل فيها نحر نفسه ، فاحتزّعبد الرحمن رأسهواجتمع البدريّونوأعيان المهاجرين والأنصار بالباب ، فقال عمر لابنعباس : اخرج إليهم ، فاسألهم أعن ملأٍ منكم

---

(١) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان ، فإن لم يكن معلماً فليس بخميصة .

كان هذا الذى أصابنى ؟ فخرج يسألهم ، فقال القوم : لا والله ، ولوددنا أنّ الله زاد فى عمره من أعمارنا !

وروى عبد الله بن عمر ، قال : كان أبى يكتبُ إلى أمراء الجيوش : لا تجلبُوا إلينا من العلُوج أحداً جرَتْ عليه المواسى ، فلمّا طعنه أبو لؤلؤة ، قال : منْ بى ؟ قالوا : غلام المغيرة ، قال : ألم أقل لكم : لا تجلبوا إلينا من العُلوج أحدا ، فغلبتمونى !

وروى محمد بن إسماعيل البخاريّ فى صحيحه عن عمرو بن ميمون ، قال : إنّى[(١)] لقائم ما بينى وبين عمر إلا عبدُ الله بن عباس غداةَ أصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصفّين ، قال : استوُوا ؛ حتى إذا لم ير بيننا[(٢)] خللاً تقدم فكبّر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل فى الركعة الأولى [أو نحو ذلك فى الركعة الثانية][(٣)] حتى يجتمع الناس ، فما هو إلّا أنْ كبّر ، فسمعته يقول : قتلنى ــ أو أكلنى ــ الكلب ؛ وذلك حين طعنه العِلْجُ بسكّين ذات طرفين ؛ لا يمرُّ على أحد يمينا ولا شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم ستّة[(٤)] ، فلمّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه بُرْنساً ، فلما ظن العِلْج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر بيده عبد الرحمن بن عوف ، فقدّمه ، فمن يلى عمر ، فقد رأى الذى رأى ، وأمّا نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر ، فهم يقولون : سبحان الله ! فصلّى عبد الرحمن صلاة خفيفةً ، فلمّا انصرفوا قال : يابن عباس ، انْظُر مَنْ قتلنى ؟ فجال ساعةً ؛ ثم جاء فقال : غلام المغيرة ؛ قال : الصَّنَع ! قال : نعم ،

---

(١) صدر الحديث كما فى البخارى « رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف ؛ قال : كيف فعلتما ؟ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض مالا تطيق ؟ قالا : حملناها أمراً هى له مطيقة ، ما فيها كبير فضل ؛ قال : انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ؟ قالا : لا ؛ فقال عمر : لئن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً . قال : فما أتت عليه رابعة حتى أصيب ؛ قال : إنى لقائم . . . » .

(٢) البخارى : « فيهن » (٣) من رواية البخارى

(٤) البخارى : « سبعة » .

قال : قاتله الله ؛ لقد أمرتُ به معروفاً ، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى(١) بيد رجل يدّعى الإسلام ، وقد كنت أنت وأبوك تحبّان أن يكثر العُلوج ـ وكان العباس أكثرهم رقيقاً ـ فقال : إن شئت فعلنا(٢) ؛ أى قتلناهم ، قال : كذبت بعد أن تكلّموا بلسانكم وصلّوا قبلتكم ، وحجّوا حجكم ! فاحتُمِل إلى بيته ، وانطلقنا معه ، وكأنّ الناس لم تصبهم مصيبة قبلَ يومئذ ، فقائل : يقول : لا بأس عليه ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأُتِىَ بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أُتِىَ بلَبَن فشربه فخرج من جَوْفه ، فعلموا أنه ميّت ، فدخل الناس يثنون عليه ، وجاء [رجل](٣) شابٌّ ؛ فقال : أبشر يا أميرَ المؤمنين ببشرى الله ، لك صحبة برسول الله وقدمٌ فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وُلِّيت فعدلْت ، ثم الشهادة . فقال عمر : وددت أنّ ذلك كلّه كان كفافاً ، لا علىّ ولالى ، فلمّا أدبر إذا رداؤه(٤) يمسّ الأرض ، فقال : ردُّوا علىّ الغلام ، فردوه ، فقال : يابن أخى ، ارفع ثوبك ، فإنه أبقى لثوبك ، وأتقَى لربك ؛ ياعبد الله بن عمر ، انظر ماعلىّ من دَيْن ؛ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، فقال : إن وَفَى به مال آل عمر فأدِّه من أموالهم ، وإلّا فسَلْ فى بنى عدىّ بن كعب ، فإن لم تَفِ به أموالهم ، فسلْ فى قريش ولا تعدُهم إلى غيرهم ؛ وأدِّ عنّى هذا المال ، انطلق إلى عائشة ، فقل لها : يقرأ عليك السّلام عمر ـ ولا تقل « أمير المؤمنين » ، فإنى اليومَ لستُ للمؤمنين أميرا ـ وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفَن مع صاحبيه ، فمضى وسلّم ، واستأذنَ ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر السّلام ويستأذن أن يدفَن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ـ يعنى الموضع ـ ولأوثرنّه اليوم على نفسى . فلمّا أقبل قيل : هذا عبد الله قد جاء ، قال : ارفعونى ، فأسندوه إلى رجل منهم ، قال : ياعبد الله مالديك ؟ قال : الذى تحبّ يا أميرَ المؤمنين ، قد أذنتْ ، قال : الحمد لله ، ما كان شىء أهم إلىّ من

---

(١) البخارى : « ميتتى » .
(٢) البخارى : « فعلت » .
(٣) من صحيح البخارى .
(٤) البخارى : « إزاره » .

ذلك ، إذا أنا قبضت فاحملني ، ثم سلِّم عليها ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإنْ أذنَتْ لي فأدخلوني ، وإن ردّتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين ، وادفنوني بين المسلمين

وجاءت ابنتُه حفصة ، والنّساء معها، قال : فلمّا رأيناها قُمْنا ، فولجت عليه فبكتْ عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجتْ بيتا داخلاً لهم ، فسمعنا بكاءها من البيت الدّاخل فقال : أوصِ ياأمير المؤمنين واستخلِفْ ، فقال : ما أجِدُ أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر ـ أو قال : الرهط ـ الّذين توفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عنهم راضٍ، فسمَّى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن ، وقال : يَشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء ـ كهيئة التعزية له ـ فإن أصابت الإمارة [1] سعداً ، فهو أهلٌ لذلك ، وإلّا فليستعِنْ به أيّكم أمِّر ، فإني لم أعزِله عن عجز ولا عن خيانة ، ثم قال : أوصِي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين ؛ أن يعرف لهم حقّهم ، ويحفظ لهم حُرْمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدّار والإيمان من قبلهم؛ أن يقبَل من محسنهم وأن يعفوَ عن مسيئهم، وأوصيه بأهلِ الأمصار خيراً، فإنهم رِدْء الإسلام وجباة الأموال ، وغَيْظ العدوّ؛ ألّا يأخذ منهم إلا فضلهم ، عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنّهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ؛ أن يؤخذ من حواشي أموالهم ، ويردّ على فقرائهم ، وأوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل مَنْ وراءهم ، وألّا يكلفوا إلا طاقتهم .

قال : فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلّم عبد الله بن عمر ، وقال : يستأذن عمر ابن الخطاب ، فقالت : أدخلوه ، فأدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه [2] .

* * *

(١) البخاري : « الإمرة » .

(٢) صحيح البخاري ٢ : ٢٩٧، ـ ٢٩٩ ، وبقية الحديث : « فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : جعلت أمري إلى عليّ ؛ فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا فنجعله إليه والله عليه ، والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه ؟ فأسكت الشيخان ؛ فقال =

وقال ابنُ عباس : أنا أوّل مَنْ أتى عمر حين طُعِن ، فقال : احفظ عنّى ثلاثاً ، فإنّى أخاف ألّا يدركنى الناس ، أمّا أنا فلم أقض فى الـكلالة ، ولم أستخلف على الناس ، وكلّ مملوك لى عتيق ، فقلت له : أبشر بالجنة ، صاحبتَ رسول الله صلى الله عليه وآله فأطلت صحبتَه ، ووليت أمر المسلمين فقويت عليه ، وأدّيت الأمانة .

قال : أما تبشيرك لى بالجنّة،فوالله الذى لا إله إلا هو،لو أن لى الدنيا بمافيها لافتديت به من هَوْل ما أمامى قبل أن أعلم ما الخبر ، وأمّا ماذكرت من أمر المسلمين فلوددتْ أنّ ذلك كان كَفافا لا علىّ ولا لى ، وأما ماذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليـه وآله فهو ذلك .

وروى معمر ، عن الزهرىّ،عن سالم عن عبد الله ، قال : دخلتُ على أبى ، فقلت : سمعتُ الناس يقولون مقالة ـ وآليت أنْ أقولها لك ـ زعموا أنك غير مستخلِف ، وأنه لو كان لك راعى إبل أو غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيّع ، فرعاية النـاس أشدّ ، فوضع رأسه ثم رفعه ، فقال : إنّ الله تعالى يحفظ دينَه ، إن لم أستخلِف فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستخلِفْ ، وإن استخلفتُ فإن أبا بـكر قد استخلف . فوالله ماهو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر ، فعلمت أنه لم يكن يعدِل برسول الله صلى الله عليهوآله أحداً ، وأنه غير مستخلِف .

وروى أنه قال : وقد أذِنَتْ لىعائشة فى أن يدفن فى بيتها : إذا متّ فاستأذنوهامرّةً ثانية ، فإن أذنت ، وإلا فاتركوها ، فإنّى أخشى أن تـكونَ أذنت لى لسلطانى ، فاستأذنوها بعد موته فأذنت .

= عبدالرحمن : أتجعلونه إلىّ ، والله علىّ ألا آلوا عن أفضلـكم ؟ قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهمافقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليـه وسلم والقدم فى الإسلام ما قد علمت ؟ فالله عليك لئن أمرتك لتعدلنّ ! ولئن أمرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعن ! ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ؟ فلمـا أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علىّ ، وولج أهل الدار فبايعوه » .

وروى عمر بن ميمون ، قال : لما طعن عمر ، دخل عليه كعب الأحبار ، فقال : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (١) ، قد أنبأتك أنك شهيد ، فقال : من أين لى بالشهادة وأنا بجزيرة العرب !

وروى ابنُ عبّاس ، قال : لما طُعِن عمر وجئته بخبر أبي لؤلؤة أتيته والبيت ملآن . فكرهت أن أتخطّى رقابهم ـ وكنت حديث السنّ ـ فجلست وهو مسجًّى ، وجاء كعب الأحبار ، وقال : لئن دعا أمير المؤمنين ليبقيَه الله لهذه الأمّة حتى يفعل فيها كذا وكذا ! حتى ذكر المنافقين فيمن ذكر ، فقلت : أبلغه ماتقول : قال : ماقلت إلا وأنا أريد أن تبلغه ، فتشجّعت وقمت ، فتخطّيت رقابَهم ، حتى جلست عند رأسه ، وقلت : إنّك أرسلتنى بكذا ، إنّ عبد المغيرة قتلك وأصاب معك ثلاثة عشر إنسانا ، وإن كعبا هاهنا وهو يحلف بكذا ، فقال : ادعو إلى كعبا ، فدُعِيَ فقال : ماتقول؟ قال: أقول كذا ، قال : لا والله لاأدعو ، ولكن شَقِيَ عمر إن لم يغفر الله له .

وروى المِسْوَرِين مخرَمة ، أنّ عمر لما طعن أُغْمِيَ عليه طويلا ، فقيل إنكم لم توقظوه بشيء مثل الصّلاة إن كانت به حياة ! فقالوا ! الصلاة : ياأمير المؤمنين ، الصلاة قد صُلّيت ! فانتبه ، فقال : الصّلاة ، لاها اللهِ لا أتركها ، لاحظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة ! فصلّى ، وإن جرحه لينثعب (٢) دما .

وروى المِسْور ابن مخرمة ، أيضا ، قال : لما طُعِن عمر ، جعل يألم ويجزَع ، فقال ابن عباس : ولا وكلّ ذلك ياأمير المؤمنين ، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله، فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راضٍ ، وصحبت أبا بكر وأحسنت صحبتَه ، وفارقك وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت إليهم وفارقتهم وهم عنك راضون .

---

(١) سورة البقرة ١٤٧

(٢) ينثعب : يسيل .

قال : أمّاماذكرتَ من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر فذلك ، ممّا منّ الله به عليّ ، وأما ما ترى من جزعى فوالله لو أنّ لى بما فى الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه ـ وفى رواية لافتديت به من هول المطلع . وفى رواية : المغرور مَنْ غررتموه! لو أنّ لى ماعلى ظهرها من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع . وفى رواية : فى الإمارة عليّ تثنى يابن عباس ! قلتُ : وفى غيرها ، قال : والذى نفسى بيده لوددت أنّى خرجت منها كما دخلت فيها ، لا حَرَج ولا وزر . وفى رواية : لو كان لى ماطلعت عليه الشمس لافتديتُ به من كَرْب ساعة ـ يعنى الموت ـ كيف ولم أرد النّاس بعد ! وفى رواية : لو أن لى الدنيا وما فيها لافتديت به من هَوْل ماأمامى ، قبل أن أعلم ما الخبر .

قال ابن عباس : فسمعنا صوت أمّ كلثوم : واعمراه ! وكان معها نسوة يبكين ، فارتجّ البيت بكاء ، فقال عمر : ويلٌ عمر ، إن الله لم يغفر له ! فقلت : والله إنى لأرجو ألّا تراها إلا مقدار ماقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (١) ؛ إن كنتَ ـ ماعلمنا ـ لأميرَ المؤمنين ، وسيّدَ المسلمين ، تقضِى بالكتاب ، وتقسم بالسويّة .

فأعجبه قولى ، فاستوى جالسا فقال : أتشهد لى بهذا يابن عباس ؟ فكَعَعْت ـ أى أى جبنت ـ فضرب عليّ عليه السلام بين كتفى ، وقال : اشهد . وفى رواية لِمَ تجزع يأمير المؤمنين ؟ فوالله لقد كان إسلامك عزّاً وإمارتك فتحاً ، ولقد ملأْت الأرض عدلا فقال : أتشهد لى بذلك يابن عباس ؟ قال : فكأنه كَرِه الشهادة ، فتوقّف ، فقال له عليّ عليه السلام : قل : نعم ، وأنا معك ، فقال : نعم .

وفى رواية أنه قال : مسست جلده وهو ملقى ، فقلت : جلدا لا تمسّه النّار أبدا ، فنظر إلىّ نظرة جعلت أرثِى له منها ، قال : وما علمك بذلك ؟ قلت : صحبت رسولَ الله صلى الله عليه وآله فأحسنتَ صحبتَه . . . الحديث ، فقال : لو أنّ لى مافى الأرض لافتديت

---

(١) سورة مريم ٧١ .

به من عذاب الله قبل أن ألقاه أو أراه .

وفى رواية ، قال : فأنكرنا الصّوت ، وإذا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : طُعِن أمير المؤمنين . فانصرف الناس وهو فى دمه مسجًّى ، لم يصلّ الفجر بعد ، فقيل : ياأمير المؤمنين : الصّلاة ! فرفع رأسَه، وقال: لاهاالله إذنْ، لاحظّ لامرئ فى الإسلام ضيّع صلاته. ثم وثب ليقوم فانبعث جرحُه دما ، فقال : هاتوا لى عمامة ، فعصب بها جُرحه، ثم صلّى وذكر، ثم التفت إلى ابنه عبد الله ، وقال : ضع خدّى إلى الأرض ياعبد الله ، قال عبد الله : فلم أعُجْ بها ، وظننت أنّها اختلاس من عقله ، فقالها مرة أخرى : ضع خدّى إلى الأرض يابنىّ فلم أفعل ، فقال الثالثة : ضَعْ خدّى إلى الأرض ، لا أمّ لك ! فعرفت أنه مجتمع العقل ، ولم يمنعه أن يضعه هو إلّا مابه من الغَلبة ، فوضعت خدّه إلى الأرض، حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجةً من أضعاف التراب ، وبكى حتى نظرت إلى الطّين قد لصق بعينه ، فأصغيت أذنى لأسمع ما يقول ، فسمعته يقول : ياويلَ عمر ! وويل أمّ عمر ، إن لم يتجاوز الله عنه !

وقد جاء فى رواية ، أنّ عليا عليه السلام جاء حتى وقف عليه ، فقال: ماأحدٌ أحبَّ إلىّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى !

ورُوِى عن حفصة أم المؤمنين ، قالت : سمعت أبى يقول فى دعائه : اللهمَّ قتلًا فى سبيلك ، ووفاة فى بلد نبيّك ! قلت : وأنّى يكون هذا ؟ قال : يأتى به الله إذا شاء .

ويروَى أن كعبا كان يقول له : نجدُك فى كتبنا تموت شهيدا ؛ فيقول : كيف لى بالشهادة وأنا فى جزيرة العرب !

وروى المِقْدام بن مَعْدِ يكرب ، قال : لما أصيب عمر دخلتْ عليه حفصة ابنته ، فنادتْ : ياصاحبَ رسول الله ، وياصهرَ رسول الله ، وياأميرَ المؤمنين ! فقال لابنه عبدالله: أجلِسْنى ، فلا صبْرَ لى على ما أسمع ، فأسنده إلى صدره ، فقال لها : إنّى أحرِّج عليك

بمالِي عليكِ من الحقّ أن تندبيني بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلنْ أملكَها ، إنه ليس من ميّت يُندب عليه بما ليس فيه ، إلا الملائكة تمقته !

وروى الأحنف ، قال : سمعت عمر يقول : إن قريشاً رءوس الناس، ليس أحد منهم يدخل من باب إلا دخل معه طائفة من الناس ، فلمّا أصيب عمر أمر صُهيباً أن يصلّيَ بالناس ثلاثة أيام ويُطعمهم ، حتى يجتمعوا على رجلٍ ، فلما وُضِعت الموائد كفَّ الناس عن الطعام ، فقال العباس بن عبد المطلب : أيّها الناس ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات فأكلْنا بعده ، ومات أبو بكر فأكلْنا بعده ، وإنه لابدّ للناس من الأكل ، ثم مدّ يده فأكل من الطعام ، فعرفت قول عمر .

ويروى كثير من النـاس الشعر المذكور فى الحماسة ، ويزعم أن هاتفا من الجنّ هتف به وهو :

جُزِيتَ عن الإسلام خيراً وباركتْ ... يدُ الله فِي ذاك الأديم الممزَّقِ (١)

فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ ... ليدرك ماقدّمت بالأمس يُسْبَقِ

قضيتَ أموراً ثم غادرت بعدَها ... بوائقَ فى أكمامها لم تُفتَّقِ (٢)

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ ... له الأرض تهتزّ العضاه بأسوُقِ ! (٣)

وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته ... بكَفّىْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطْرِق (٤)

تظلّ الحصان البِكْر يُلقِي جنينَها ... نثَا خبرٍ فوق المطيّ مُعلّقِ

والأكثرون يروونها لمزرّد أخى الشّماخ ، ومنهم من يرويها للشماخ نفسه .

* * *

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوق ٣ : ١٠٩٠ ونسبها إلى الشماخ .
(٢) البوائق : الدواهى العامة . (٣) العضاه : شجر .
(٤) السبنتى ، أصله فى النمر ، ويستعمل فى الجرئ المقدم . والمطرق : الغليظ الجفن الثقيله .

[فصل فى ذكر ماطعن به على عمر ، والجواب عنه]

ونذكر فى هذا الموضع ماطعن به على عمر فى " المُغنى " من المطاعن، وما اعترض به الشريف المرتضى على قاضى القضاة ، وما أجاب به قاضى القضاة ، فى كتابه المعروف " بالشافى "، ونذكر ماعندنا فى البعض من ذلك .

***

الطعن الأول

قال قاضى القضاة : أول ماطعِن به عليه قول من قال : إنّه بلغ من قلّة علمه أنه لم يعلم أنّ الموت يجوز على النبى صلى الله عليه وآله ، وأنه أسوة الأنبياء فى ذلك ، حتى قال : والله ما مات محمد ، ولا يمُوت حتى تُقطع أيدى رجال وأرجلهم ، فلما تلا عليه أبو بكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ... ﴾[2] الآية ، قال: أيقنت بوفاته ؛ وكأنّى لم أسمع هذه الآية ، فلو كان يحفظ القرآن أو يفكّر فيه لما قال ذلك ، وهذا يدلُّ على بعده من حفظ القرآن وتلاوته ، ومَنْ هذا حاله لايجوز أن يكون إماما .

قال قاضى القضاة : وهذا لا يصحّ لأنّه قد روى عنه أنه قال : كيف يموت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ﴾[3] وقال : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[4] ؛ ولذلك نفى موته عليه السلام ، لأنّه حمل الآية على أنها خبر عنه فى حال حياته

(١) سورة المؤمنين ١٥
(٢) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٣) سورة التوبة ٣٣
(٤) سورة النور ٥٥ .

حتى قال له أبو بكر : إنّ الله وعده بذلك وسيفعله ، وتلا عليه ماتلا ، فأيقن عند ذلك بموته ، وإنما ظنّ أن موته يتأخّرُ عن ذلك الوقت ؛ لا أنّه منعٌ من موته .

ثم سأل [١] قاضي القضاة نفسَه ، فقال : فإنْ قيل : فلِمَ قال لأبي بكر عند قراءة الآية : كأنّى لم أسمعْها ، ووصف نفسه بأنه أيقن بالوفاة !

وأجاب بأن قال : لمّا كان الوجه فى ظنّه ماأزال أبو بكر الشّبهة فيه ، جاز أن يتيقّن .

ثم سأل نفسه عن سبب يقينه فيما لايُعلم إلا بالمشاهدة .

وأجاب بأنّ قرينة الحال عند سماع الخبر أفادته اليقين ، ولو لم يكن فى ذلك إلّا خبر أبى بكر وادّعاؤه لذلك ، والناس مجتمعون ؛ لحصل اليقين .

وقوله : كأنّى لم أقرأ هذه الآية ، أو لم أسمعها ، تنبيه على [٢] ذهوله عن الاستدلال بها ، لا أنّه على الحقيقة لم يقرأها ولم يسمعها ، ولا يجب فيمن ذهب عن بعض أحكام الكتاب ألا يعرف القرآن ، لأنّ ذلك لو دلّ ، لوجب ألا يحفظ القرآن إلا من يعرف جميع أحكامه . ثم ذكر أنّ حفظ القرآن كلّه غير واجب ، ولا يقدح الإخلال به فى الفضل .

وحكى عن الشيخ أبى علىّ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يُحطْ علمُه بجميع الأحكام ، ولم يمنع ذلك من فضله ، واستدلّ بما روى من قوله : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله حديثاً نفعنى الله به ماشاء أنْ ينفعنى ، وإذا حدّثنى غيره أحلفته ، فإن حلف لى صدّقته ، وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر . وذكر أنه لم يعرف أىّ موضع يدفن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى رجع إلى مارواه أبو بكر ، وذكر قصة الزبير فى موالى صفيّة ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأخذ ميراثهم ، كما أن عليه أن يحمل عقلَهم حتى أخبره عمر بخلاف ذلك من أنّ الميراث للابن ، والعقل على العصبة .

---

(١) الشافى : « ثم قال » . (٢) الشافى : « تنبيه عن ذهابه عن الاستدلال » .

ثم سأل نفسه فقال : كيف يجوز ماذكرتم على أمير المؤمنين عليه السلام ، مع قوله : « سَلُونى قبل أن تفقدونى » ، وقوله : إن هاهنا علما جمًّا » ، يومىء إلى قلبه ، وقوله : « لو ثنيت لى الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزّبور بزبورهم ، وبين أهل القرآن بقرآنهم » . وقوله : « كنت إذا سئلت أجبت وإذا سكت ابتديت » .

وأجاب عن ذلك بأنّ هذا إنّما يدلُّ على عظم المحلّ فى العلْم ، من غير أن يدلّ على الإحاطة بالجميع .

وحكى عن أبى علىّ استبعاده ماروى من قوله : « لو ثنيت الوسادة » ، قال : لأنه لا يجوز أن يصف نفسه بأنّه يحكم بما لا يجوز ، ومعلوم أنه عليه السلام لا يحكم بين الجميع إلا بالقرآن ، ثنيت له الوسادة أو لم تُثْن ، وهذا يدلّ على أن الخبر موضوع .

***

فاعترض الشريف المرتضى ، فقال : ليس يخلو خلاف عمر فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كلّ حال ، والاعتقاد بأنّ الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه ، أو يكون منكرا لموته فى تلك الحال ، من حيث لم يُظْهر دينَه على الدّين كله ، وما أشبه ذلك مما قال صاحب الكتاب : إنها كانتْ شبهة فى تأخّر موته عن تلك الحال .

فإن كان الوجه الأوّل ، فهو ممّا لا يجوز خلاف العقلاء فى مثله ، والعلم بجواز الموت على سائر البشر لا يشكّ فيه عاقل ، والعلم من دينه عليه السلام بأنّه سيموت كما مات مَن قبله ضرورىّ ، وليس يحتاج فى مثل هذا إلى الآيات التى تلاها أبو بكر ، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، وما أشبهها .

وإن كان خلافه على الوجه الثانى ، تأوّل مافيه أنّ هذا الخلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ؛ لأنه لم ينكر على هذا جواز الموت ، وإنما خالف فى تقدّمه ، وقد كان يجب أن يقول له : وأى حُجّة فى هذه الآيات عَلَى

مَنْ جوّز عليه صلى الله عليه وآله الموت فى المستقبل ، وأنكره فى هذه الحال !

وبعد ، فكيف دخلت الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق ! ومن أين زعم أنه لا يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم ! وكيف حمل معنى قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ على أنّ ذلك لا يكون فى المستقبل بعد الوفاة ! وكيف لم يخطر هذا إلّا لعمر وحده ، ومعلوم أنّ ضعف الشبهة إنما يكون من ضعف الفكرة ، وقلّة التأمل والبصيرة ! وكيف لم يوقن بموته لمّا رأى ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد موته ، وما ركبهم من الحزن والكآبة لفقده ! وهلّا دفع بهذا اليقين ذلك التأويل البعيد ، فلم يحتج إلى مُوقف ومعرِّف ! وقد كان يجب — إن كانت هذه شبهة — أن يقول فى حال مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد رأى جزع أهله وأصحابه وخوفهم عليه من الوفاة ، حتى يقول أسامة بن زيد معتذرا من تباطئه[1] عن الخروج فى الجيش الذى كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرّر ويردّد الأمر حينئذ بتنفيذه : لم أكن لأسأل عنكَ الرّكب — : ما هذا الجزع والهلع ، وقد أمنكم الله من موته بكذا فى وجه كذا ! وليس هذا من أحكام الكتاب التى يعذر من لا يعرفها على ماظنّه صاحب الكتاب[2] .

***

قلت : الذى قرأناه وَرَوَيْناه من كتب التواريخ ، يدلّ على أن عمر أنكر موت رسول الله صلى الله عليه وآله من الوجهين المذكورين ؛ أنكر أوّلاً أنْ يموت إلى يوم القيامة ، واعتقد عمر أنه يعمّر كما يعتقد كثير من الناس فى الخضر ، فلمّا حاجّه أبو بكر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[3] ، وبقوله : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾[4] . رجع عن ذلك الاعتقاد .

وليس يَرِدُ على هذا ما اعترض به المرتَضى ؛ لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه كاستحالة الموت على البارئ تعالى — أعنى الاستحالة الذاتية — بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم

---

(١) الشافى : « من تأخره » .
(٢) الشافى ٢٥٢ .
(٣) سورة الزمر ٣٠
(٤) سورة آل عمران ١٤٤ .

القيامة ، مع كون الموت جائزاً فى العقل عليه ، ولا تناقض فى ذلك ، فإنّ إبليس يبقى حيًّا إلى يوم القيامة ، مع كونِ موتِه جائزا فى العقل ، وما أورده أبو بكر عليه لازم على أن يكون نفيه الموت على هذا الوجه .

وأما الوجه الثانى ، فهو أنّه لمّا دفعه أبو بكر عن ذلك الاعتقاد وقف مع شبهة أخرى ، اقتضت عنده أنّ موته يتأخّر ، وإن لم يكن إلى يوم القيامة ، وذلك أنّه تأوّل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (١) ، فجعل الضمير عائدا على الرسول لا على الدين ، وقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يظهر بعدُ على سائر الأديان ، فوجب أن تستمرّ حياته إلى أن يظهر على الأديان بمقتضى الوعد الذى لا يجوز عليه الخلف والكذب ، فحاجّه أبو بكر من هذا المقام ، فقال له : إنّما أراد: ليظهر دينَه وسيظهِره فيما بعد ، ولم يقل : « ليظهره الآن » ، فمن ثَمّ قال له : ولو أراد ليظهر الرسولَ صلى الله عليه وآله على الدين كلّه لكان الجواب واحداً ، لأنّه إذا ظهر دينه فقد أظهره هو .

فأمّا قولُ المرتضَى رحمه الله : « وكيف دخلت هذه الشُّبْهة على عمر من بين الخلق؟ » ، فهكذا تكون الخواطر والشُّبَه ! والاعتقادات تسبق إلى ذهن واحد دون غيره ، وكيف دخلت الشُّبهة على جماعة منعوا الزكاة ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (٢) دون غيرهم من قبائل العرب ! وكيف دخلت الشبهة على أصحاب الجمل وصِفِّين دون غيرهم ! وكيف دخلت الشبهة عَلَى خوارج النَّهْروان دون غيرهم ! وهذا باب واسع .

فأمّا قوله : « ومِنْ أين زعم أنه لا يموت حتى تُقطع أيدى رجال وأرجلهم » ، فإنّ الذى

---

(١) سورة التوبة ٣٣

(٢) سورة التوبة ٩٦ .

ذكره المؤرخون أنه قال : ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّما غاب عنا كما غاب موسى عن قومه ، وسيعود فتُقطع أيدِي رجال وأرجلهم ممّن أرجف بموته ، وهذه الرواية تخالف ما ذكره المرتضَى .

فأمّا قوله : وكيف حمل معنى قوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (١) على أنّ ذلك لا يكون فى المستقبل ! فقد بينّا الشّبهة الداخلة عليه فى ذلك ، وكونه ظنّ أن ذلك ، يكون معجّلا على الفور ، وكذلك قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (١) ، فإنه ظنّ أنّ هذا العموم يدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه سيّد المؤمنين ، وسيّد الصالحين ، أو أنّه لفظٌ عام ، والمراد به رسول الله وحده ، كما ورد فى كثير من آيات القرآن مثل ذلك ، فظنّ أنّ هذا الاستخلاف فى جميع الأرض ، وتبديل الخوف بالأمن إنّما هو على الفور لا على التراخى ، وليست هذه الشبهة بضعيفة جدًّا كما ظنّ المرتضى ، بل هى موضع نظر .

فأمّا قوله : « كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة النّاس وحزنهم! » فلأنّ النّاس يبنون الأمْر على الظّاهر ، وعمر نظر فى أمرٍ باطن دقيق ، فاعتقد أن الرسول لم يمُتْ ، وإنما ألقى شبهَه على غيره ، كما ألقى شبَه عيسى على غيره ، فصلِبَ ، وعيسى قد رفع ولم يصلب.

واعلم أنّ أوّل مَنْ سنّ لأهلِ الغيبة من الشيعة القول بأنّ الإمام لم يمُت ولم يقتل ، وإنْ كان فى الظاهر وفى مرأى العين قد قتل أو مات ؛ إنّما هو عمر ؛ ولقد كان يجب على المرتضَى وطائفته أن يشكروه على ما أسّس لهم من هذا الاعتقاد .

---

(١) سورة النور ٥٥ .

فأمّا قوله : فهلّا قال فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا رأى جزعهم لموته: « قدأمّنكم اللهمن موته» افغيرلازم ،لأنّ الشبهة لاتجبأن تخطر بالبال فى كلّ الأوقات ، فلعلّه قد كان فى ذلك الوقت غافلًا عنها مشغول الذهن بغيرها ، ولو صحّ للمرتضى هذا لوجب أن يدفع ويبطل كلّ مايتجدّد ويطرأ على الناس من الشبهة فى المذاهب والآراء ، فنقول : كيف طرأت عليهم هذه الشبهات الآن ، ولم تطرأ عليهم من قبل ؟ وهذا من اعتراضات المرتضى الضعيفة ، على أنا قد ذكرنا نحن فى الجزء الأول من هذا الكتاب ماقصده عمر بقوله : « إنّ رسول الله لم يمُتْ » ، وقلنافيه قولاشافيا لم نسبَق إليه،فليعاوَد.

ثم قال المرتضى : فأمّا مارُوِىَ عن أمير المؤمنين عليه السلام من خَبر الاستحلاف فى الأخبار ، فلا يدلّ على عدم عِلْم أمير المؤمنين بالحكم ، لأنه يجوز أن يكون استحلافه ليرهب المخبِر ويخوّفه من الكذب على النبى صلى الله عليه وآله ، لأنّ العلم بصحّةالحكم الذى يتضمّنه الخبر لايقتضى صدق المخبر ، وأيضاً فلا تاريخ لهذا الحديث (١) ، ويمكنأن يكون استحلافه عليه السلام للرّواة (٢) إنما كان فى حياة رسول اللهصلى اللهعليهوآله،وفى تلك الحال لم يكن محيطا بجميع الأحكام .

فأمّا حديثُ الدّفن وإدخاله فى باب أحكام الدين التى يجب معرفتها فطريف ، وقد يجوز أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام سمِع من النبى صلى الله عليه وآله فى باب الدّفن مثل ماسمعه أبو بكر ، وكان عازما على العمل به ، حتى روىأبو بكر مارواه فعمِل بما كان يعلمه لامن طريق أبى بكر ، وظنّ الناس أنّ العمل لأجله . ويجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله خيّر وصيّه عليه السلام فى موضع دفنه ، ولم يعيّن له موضعا بعينه ، فلمّا روى أبو بكر مارواه رأى موافقته ، فليس فى هذا دلالة على أنّه عليه السلام استفاد حكما لم يكن عنده .

---

(١) الشافى : « الخبر » . (٢) الشافى : « فى الأخبار » .

وأمّا موالى صفيّة لحكم الله فيهم ما أفتى به أمير المؤمنين عليه السلام،وليس سكوته حيث سكت عند عمر رجوعاً عمّا أفتى به ، ولكنه كسكوته عن كثير من الحقّ تقيّةً ومداراة للقوم .

وأما قوله عليه السلام : « سلُونِى قبل أن تفقِدونى » ، وقوله : « إنّ هاهنا لعِلْماً جَمّا » ، إلى غير ذلك ، فإنه لايدلّ على عِظَم المحلّ فى العلم فقط ، على ماظنّه صاحب الكتاب ، بل هو قول واثق بنفسه ، آمن من أن يُسأل عمّا لايعلمه ، وكيف يجوز أن يقول مثله على رءوس الأشهاد وظهور المنابر : « سلونى قبل أن تفقدونى » ، وهويعلمأنّ كثيرا من أحكام الدين يعزب عنه [1] ! وأين كان أعداؤه والمتهزون لفرصته وزلّته عن سؤاله عن مشكل المسائل ، وغوامض الأحكام ! والأمر فى هذا ظاهر .

فأمّا استبعاد أبى علىّ لما روى عنه عليه السلام من قوله : « لو ثُنيت لى الوسادة » للوجه الذى ظنّه فهو البعيد ، فإنه لم يفطن لغرضه عليه السلام ، وإنما أراد : أنّى كنت أقاضيهم إلى كتبهم الدالّة على البشارة بنبيّنا صلى الله عليه وآله وصحّة شرعه ، فأكون حاكما حينئذ عليهم بما تقتضيه كتبهم من هذه الشريعة وأحكام هذا القرآن ، وهذا من جليل الأغراض وعظيمها [2] .

***

الطعن الثانى

أنه أمَرَ برجْم حاملٍ حتّى نبّهه مُعاذ ، وقال : إن يكن لك عليها سبيلٌ فلا سبيلَ لك على مافى بطنها ، فرجع عن حكمه ، وقال : لولا مُعاذ لهلك عمر . ومَنْ يجهل هذا القدر لايجوز أن يكون إماماً ، لأنه يجرى مجرى أصول الشرع ، بل العقل يدلّ عليه ؛ لأنّ الرّجم عقوبة ، ولا يجوز أن يعاقب من لايستحقّ .

(١) الشافى : « يعزب » .
(٢) الشافى ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

اعتذر قاضى القضاة عن هذا ، فقال : إنّه ليس فى الخبَر أنه أمر برجْمها ، مع علمه بأنّها حامل ، لأنه ليس ممّن يخفى عليه هذا القدر ، وهو أنّ الحامل لا تُرْجَم حتى تضع ، وإنما ثبت عنده زناها ، فأمر برجمها على الظاهر ، وإنما قال ماقال فى معاذ لأنه نبّهــه على أنها حامل .

ثم سأل[1] نفسه فقال : فإن قيل : إذا لم تكن منه معصية، فكيف يهلك لولا مُعاذ! وأجاب بأنه لم يرد : لهلك من جهة العــذاب ، وإنّما أراد : أنه كان يجرى بقوله قتل من لا يستحقّ القتل . ويجوز أن يريد بذلك تقصيره فى تعرّف حالها ، لأنّ ذلك لا يمتنع أن يكون بخطيئة وإن صغرت .

اعترض المرتَضى على هذا الاعتذار ، فقال : لو كان[2] الأمر على ماظننته لم يكن تنبيه معاذ له على هذا الوجه ، بل كان يجب أن ينبّهه بأن يقول له : هى حامل ، ولا يقول له : إن كان لك سبيلٌ عليها فلا سبيل لك على مافى بطنها ؛ لأنّ هذا قول من عنده أنه أمر برجمها مع العلم بحملها، وأقلّ مايجب لو كان الأمر كما ظنّه صاحب الكتاب أن يقول لمعاذ: ماذهب علىّ أن الحامل لا تُرجم ، وإنما أمرْت برجمها لفقد علمى بحَمْلها ،فكان ينفى بهذا القول عن نفسه الشبهة ! وفى إمساكه عنه مع شدّة الحاجة إليه دليل على صحّة قولنا. وقد كان يجب أيضا أن يسأل عن الحَمْل ، لأنه أحدُ الموانع من الرّجْم، فإذا علم انتفاءه وارتفاعه أمَرَ بالرجم ، وصاحب الكتاب قد اعترف بأن ترك المسألة عن ذلك تقصير وخطيئــة ، وادعى أنها صغيرة ، ومن أين له ذلك ولا دليل يدلّ عنده فى غير الأنبياء عليهم السلام أن معصيةً بعينها صغيرة .

فأمّا إقراره بالهلاك لولا تنبيه مُعاذ ، فإنه يقتضى التعظيم والتفخيم لشأن الفعل، ولا يليق ذلك إلا بالتقصير الواقع ؛ إمّا فى الأمر برجمها مع العلم بأنّها حامل ؛ أو ترك البحث عن ذلك

---

(١) الشافى : « قال : « فإن قيل » . (٢) الشافى : « يقال له : ما تأولت به فى الخبر من التأويل البعيد ؛ لأن لو كان الأمر على ما ظنه . . . . » .

والمسألة عنه ، وأىّ لوم عليه فى أن يجرى بقوله قتل من لا يستحق القتل إذا لم يكن ذلك عن تفريط منه ولا تقصير[1] !

* * *

قال : أمّا ظاهر لفظ مُعاذ فيشعر بما قاله المرتضَى ؛ ولم يمتنع أن يكون عمر لم يعلَم أنّها حامل وأنّ معاذا قد كان من الأدب أن يقول له : حامل يا أمير المؤمنين ، فعدَل عن هذا اللفظ بمقتضى أخلاق العرب وخشونتهم ، فقال له : إنْ كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك عَلَى ما فى بطنها ؛ فنبّهه على العلة والحكم معا ، وكان الأدب أن ينبّهه على العلّة فقط .

وأمّا عدول عمر عن أن يقول : أنا أعلم أنّ الحامل لا تُرْجَم ، وإنما أمرت برجمها ، لأنى لم أعلم أنها حامل ، فلأنه إنما يجب أن يقول مثل هذا مَنْ يخاف من اضطراب حاله ، أو نقصان ناموسه وقاعدته إن لم يقله ، وعمر كان أثبتَ قدماً فى ولايته ، وأشد تمكنا من أن يحتاج إلى الاعتذار بمثل هذا .

وأما قول المرتَضى : كان يجب أن يسأل عن الحَمْل ، لأنه أحدُ الموانع من الرَّجْم ، فكلام صحيح لازم ، ولا ريب أنّ ترك السؤال عن ذلك نوع من الخطأ ، ولكن المرتضى قد ظلم قاضي القضاة ، لأنه زعم أنه ادّعى أنّ ذلك صغيرة ، ثم أنكر عليه ذلك ، ومن أين له ذلك! وأىّ دليل دلّ على أنّ هذه المعصية صغيرة ؛ وقاضي القضاة ما ادّعى أنّ ذلك صغيرة ! بل قال : لا يمتنع أن يكون ذلك خطيئة وإن صَغُرت . والعجب أنّه حكَى لفظ قاضى القضاة بهذه الصورة ، ثم قال : إنّه ادّعى أنّها صغيرة ، وبين قول القائل : « لا يمتنع أن يكون صغيرة » ، وقوله : « هى صغيرة » لا محالة فرق عظيم .

وأما قول عمر : لولا مُعاذ لهلَكَ عمر ، فإنّ ظاهر اللفظ يُشعِر بما يريده المرتَضى ، وينحو إليه ؛ ولا يمتنع أن يكون المقصود به ما ذكره قاضي القضاة وإن كان مرجوحا ؛ فإن القائل خطأ

(١) الشافى ٣٥٣ .

قد يقول : هلكت،ليس يعنى به العقاب يوم القيامة،بل لوم النّاس وتعنيفهم إيّاه على ترك الاحتراس وإهمال التثبّت .

***

الطعن الثالث

خبر المجنونة التى أمر برجمها ، فنبّهه أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : إنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يُفِيق . فقال : لولا علىّ لهلكَ عمر[1]!وهذا يدلّ على أنّه لم يكن يعرف الظّاهِرَ من الشريعة .

أجاب قاضى القضاة فقال : ليس فى الخبر أنّه عرف جنونها ؛ فيجوز أن يكون الذى نبّه عليه هو جنونها دون الحكم،لأنه كان يعلم أنّ الحدّ لايقام فى حال الجنون؛وإنما قال:لولا علىّ لهلك عمر ، لامن جهة المعصية والإثم ، لكن لأنّ حكمه لو نفذ لعظُم غمّه ، ويقال فى شدّة الغمّ:إنه هلاك ، كما يقال فى الفقر وغيره،وذلك مبالغة منه لما كان يلحقه من الغمّ الذى زال بهذا التنبيه . على أنّ هذا الوجه ممّا لا يمتنع فى الشرع أن يكون صحيحا ، وأن يقال: إذا كانت مستحقّة للحدّ ، فإقامته عليها تصح ، وإن لم يكن لها عقل ؛ لأنّه لايخرج الحدّ من أن يكون واقعاً موقعه،ويكون قوله عليه السلام:« رفع القلم عن ثلاث » ، يراد به زوالُ التكليف عنهم دون زوال إجراء الحكم عليهم،ومن هذه حالُه لايمتنع أن يكونَ مشتبها، فرجع فيه إلى غيره ، ولا يكون الخطأ فيه ممّا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة .

***

اعترض الشريف المرتضى هذا فقال : لو كان أمر برجم المجنونة من غير علم بجنونها لمّا قال له أمير المؤمنين: أما علمت أنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يفيق ! بل كان يقول له بدلا من ذلك:هى مجنونة ؛ وكان ينبغى أن يقول عمر متبرّئاً من الشبهة:ماعلمت بجنونها؛ ولست ممن يذهب عليه أن المجنون لايرجم ، فلمّا رأيناه استعظم ما أمر به ، وقال : لولا

(١) بعدها فى الشافى : « ويروى ذلك لمعاذ » .

عليٌّ لهلك عمر؛دلّنا على أنه كان تأثّم وتحرّج بوقوع الأمر بالرجم،وأنه مما لايجوز ولايحلّ؛ وإلّا فلا معنى لهذا الكلام . وأمّا ذكر الغمّ،فأي غمٍّ كان يلحقه إذا فعل ماله أن يفعله ! ولم يكن منه تفريط ولا تقصير؛لأنّه إذا كان جنونها لم يعلم به ؛ فكانت المسألة عن حالها والبحث لا يجبان عليه؛فأيّ وجه لتألمه وتوجّعه واستعظامه لما فعله ! وهل هذا إلّا كرجْم المشهود عليه بالزّنا فى أنّه : لو ظهر للإمام بعد ذلك براءة ساحته لم يجب أن يندَم على فعله ويستعظمه ؛ لأنه وقع صوابا مستحقا .

وأما قوله : إنّه كان لايمتنع فى الشرع أن يقام الحدّ عَلَى المجنون،وتأوّله الخبر المرويّ على أنه يقتضى زوال التكليف دون الأحكام ؛ فإنْ أراد أنّه لايمتنع فى العقل أن يقام على المجنون ماهو من جنس الحدّ بغير استخفاف ولا إهانة ، فذلك صحيح ، كما يقام على التائب وأمّا الحدّ فى الحقيقة،وهو الذى تضمّنه الاستخفاف والإهانة فلا يجوز إلّا على المكلّفين ومستحقّ العقاب ، وبالجنون قد أزيلَ التكليف ، فزال استحقاقُ العقاب الذى تبعه الحدّ .

وقوله : لايمتنع أن يرجع فيما هذه حاله من المشتَبه إلى غيره ، فليس هذا من المشتَبه الغامض ، بل يجبُ أن يعرفَه العوّام فضلا عن العلماء ، عَلَى أنّا قد بيّنا أنه لا يجوز أن يرْجع الإمام فى جَليٍّ ولا مشتَبه من أحكام الدين إلى غيره .

وقوله : إنّ الخطأ فى ذلك لا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة ، اقتراح بغير حُجّة لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيلَ للقطع على أنه صغير [١] .

***

قلت:لو كان قد نُقل أنّ أمير المؤمنين قال له:« أماعلمت »،لكان قول المرتضى قويًّا ظاهرا،إلا أنه لم ينقل هذه الصيغة بعينها،والمعروف المنقول:أنه قال له:قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «رُفِـع القلم عن ثلاث» ؛ فرجع عن رَجْمها،ويجوز أن يكون أشعَره بالعلة

(١) الشافى ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

والحُكم معاً ، لأنّ هذا الموضع أكثر اشتباها من حديث رَجْم الحامل ، فغلب على ظنّ أمير المؤمنين أنه لو اقتصر على قوله : إنها مجنونة لم يكن ذلك دافعاً لرجمها ، فأكّده برواية الحديث . واعتذار قاضي القضاة بالغمّ جيّد ، وقول المرتضى : أىّ غمٍّ كان يلحقه إذا فعل ماله أن يفعله ! ليس بإنصاف ، ولا مثل هذا يقال فيه إنه فعل ماله أن يفعله ، ولا يقال فى العرف لمن قتل إنسانا خطأ : إنه فعل ماله أن يفعله ، والمرجوم فى الزنا إذا ظهر للإمام بعد قتله براءة ساحته قد يغتمّ بقتله غمّاً كثيرا بالطبع البشرىّ ، ويتألم وإنْ لم يكن آثما ، وليس من توابع الإثم ولوازمه .

وقول المرتضى : لم يجب أن يندم على مافعلَهُ كلامٌ خارج عمّا هو بصدده ؛ لأنّه لم يجرِ ذكر للندم ، وإنما الكلام فى الغمّ ولا يلزم أن يكون كلّ مغتمٍّ نادما .

وأمّا اعتراضُه على قاضي القضاة فى قوله : لا يمتنع فى الشّرع أن ترجم المجنونة ، فلما اشتبه على عمر الأمر سأل غيره عنه بقوله : « إن أردت الحدّ الحقيقى فمعلوم ، وإن أردت ما هوجنسُ الحدّ فمسلَّم » فليس بجيّد ، لأن هذا إنما يكون طعناً على عمر بتقدير ثلاثة أمور : أحدها أن يكون النبي صلى الله عليه وآله قد قال : « أقيموا الحد على الزانى » بهذا اللفظ ، أعنى أن يكون فى لفظ النصّ ذكر الحدّ ، وثانيها أن يكون الحدّ فى اللغة العربية أو فى عرف الشرع الذى يتفاهمه الصّحابة هو العقوبة المخصوصة التى يقارنها الاستخفاف والإهانة . وثالثها ألا يصحّ إهانة المجنون والاستخفاف به ، وأنْ يعلم عمر ذلك ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ثم أمر عمر بأن يقام الحدّ على المجنونة فقد توجّه الطعن ، ومعلوم أنه لم تجتمع هذه الأمور الثلاثة ، فإنه ليس فى القرآن ولا فى السنّة ذكر الحدّ بهذا اللفظ ، ولا الحد فى اللغة العربية هو العقوبة التى يقارنها الاستخفاف والإهانة ولاعُرْف الشرع ومواضعة الصّحابة يشتمل على ذلك ، وإنما هذا شيء استنبطه المتكلّمون المتأخرون بأذهانهم وأفكارهم ؛ ثم بتقدير تسليم هذين المقامين لم قال : إن المجنون

لا يصحّ عليه الاستخفاف والإهانة ؟ فمن الجائز أن يصحّ ذلك عليه وإنْ لم يتألم بالاستخفاف والإهانة كما يتألم بالعقوبة ، وإذا صحّ عليه أن يألم بالعقوبة صح عليه أن أن يألم بالاستخفاف والإهانة ؛ لأنّ الجنون لا يبلغ ـ وإن عظم ـ مبلغاً يبطل تصوّر الإنسان لإهانته ولاستخفافه ؛ وبتقدير ألا يصح على المجنون الاستخفاف والإهانة ، من أين لنا أن عمر علم أن ذلك لا يصحّ عليه ! فمن الممكن أن يكون ظنّ أنّ ذلك يصحّ عليه ، لأن هذا مقام اشتباه والتباس .

فأمّا قوله : « قد بينا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام أصلا إلى غيره » ، فهو مبنيٌّ على مذهبهم وقواعدهم . وقوله معترضاً على كلام قاضى القضاة : إن الخطأ فى ذلك قد لا يعظمُ ليمنع من صحّة الإمامة إنّ هذا اقتراح بغير حجة ، لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل إلى القطع على أنّه صغير غير لازم ، لأن قاضى القضاة لم يقطع بأنه صغير ، بل قال : لا يمتنع ، وإذا جاز أن يكون صغيراً لم نكن قاطعين على فساد الإمامة به .

فإن قال المرتضى : كما أنكم لا تقطعون على أنه صغير ، فتكون الإمامة مشكوكاً فيها ؛ قيل له : الأصل عدم الكبير ، فإذا حصل الشكّ فى أمر : هل هو صغير أم كبير ؟ تساقط التعارضُ ، ورجعنا إلى الأصل ؛ وهو عدم كون ذلك الخطأ كبيرا ، فلا يمنع ذلك من صحّة الإمامة .

* * *

الطعن الرابع

حديث أبى المجفاء ، وأنّ عمر منع من المغالاة فى صدُقات النّساء ، اقتداء بما كانَ من النبي صلى الله عليه وآله فى صَدَاقِ فاطمة ، حتى قامت المرأة ونبهته بقوله تعالى : ﴿ وآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً ﴾ [1] ؛ على جواز ذلك ، فقال : كلّ النساء أفقه من عمر !

(١) سورة النساء ٢٠ .

وبما روِىَ أنه تسوّر على قوم ، ووجدهم على منكر ، فقالوا له : إنّك أخطأت من جهات: تجسّست ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (١) ، ودخلت بغير إذن ، ولم تسلّم (٢) .

أجاب قاضى القضاة ، فقال : علمنا بتقدّم عمر فى العلم وفضله فيه ضرورىّ ، فلا يجوز أن يقدَح فيه بأخبار أحاديث غير مشهورة ، وإنما أراد فى المشهور أنّ المستحبّ الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ المغالاة فيها ليس بمكرُمة ، ثم عند التنبيه، علِم أنّ ذلك مبنىٌّ على طيب النفس ، فقال ما قاله على جهة التواضع ، لأنّ مَنْ أظهر الاستفادة من غيره - وإن قلّ علمُه - فقد تعاطَى الخضوع ، ونبّه على أنّ طريقَه أخذ الفائدة أينما وجدها؛ وصيّر نفسَه قدوةً فى ذلك وأُسْوة ، وذلك حَسَن من الفضلاء . وأما حديث التجسّس فإن كان فعله فقد كان له ذلك ، لأنَّ للإمام أن يجتهد فى إزالة المنكر بهذا الجنس من الفعل، وإنّما لحقه - على ما (٣) يروى فى الخبر - الخجل ، لأنه لم يصادف الأمر على ما أُلقِىَ إليه فى إقدامهم على المنكر .

***

اعترض المرتضَى على هذا الجواب ، فقال له : أمّا تعويلُك على العلْم الضرورىّ بكونه من أهل العلم والاجتهاد ؛ فذلك إذا صحّ لم ينفعْك ، لأنّه قد يذهب على مَنْ هو بهذه الصفة كثيرٌ من الأحكام حتى ينبّه عليها ويجتهد فيها ، وليس العلم الضرورىُّ ثابتاً بأنّه عالم بجميع أحكام الدّين ، فيكون قاضياً على هذه الأخبار . فأما تأوّله الحديث وحمله على الاستحباب فهو دفع للعيان ، لأن المروىّ أنه منَع من ذلك وحَظره حتى قالت المرأة ما قالت، ولو كان غيرَ حاظرٍ للمغالاة لما كان فى الآية حُجَة، ولا كان لكلام المرأة موقع، ولا كان يعترف لها بأنّها أفقهُ منه ، بل كان الواجب أن يردَّ عليها ويوبّخها ويعرفها أنه ما حظر ذلك، وإنما تكون

(١) سورة الحجرات ١٢ .

(٢) ا : « ودخلت ولم تسلم » .

(٣) ا : « روى » .

الآية حُجَّةً عليه لو كان حاظر مانعاً ، فأمّا التواضع فلا يقتضى إظهارَ القبيح وتصويب الخطأ. ولو كان الأمر على ما توهّمه صاحبُ الكتاب لكان هو المصيب والمرأة مخطئة ، فكيف يتواضع بكلام يُوهِم أنه المخطئ ، وهى المصيبة ! فأمّا التجسّس فهو محظور بالقرآن والسّنّة، وليس للإمام أن يجتهد فيما يؤدّى إلى مخالفة الكتاب والسنّة ، وقد كان يجب إن كان هذا عذرا صحيحا أن يعتذر به إلى من خطّأه فى وجهه وقال له: إنك أخطأت السنّة من وجوه؛ فإنه بمعاذير نفسه أعلم من صاحب الكتاب ، وتلك الحال حال تدعو إلى الاحتجاج وإقامة العُذْر [1] .

***

قلت : قُصارى هذا الطعن أنّ عمر اجتهد فى حُكْم أو أحكام فأخطأ ، فلمّا نُبِّه عليها رجع ، وهذا عند المعتزلة وأكثر المسلمين غير منكَر ، وإنّما ينكر أمثال هذا من يبطِلُ الاجتهاد ، ويوجِب عصمة الإمام ، فإذن هذا البحث ساقط على أصول المعتزلة ، والجواب عنه غير لازم علينا .

***

الطعن الخامس

أنه كان يعطِى من بيت المال مالا يجوز ، حتّى إنه كان يعطى عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم فى كلّ سنة ، ومنَع أهل البيت خمسهم الذى يجرى مجرى الواصل إليهم من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وآله . وأنّه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القَرْض .

أجاب قاضى القضاة ، بأنّ دفعه إلى الأزواج جائز من حيث إنّ لهنّ حقّاً فى بيت

---

(١) الشافى ٢٥٤ ، وزاد بعدها : « وكل هذا تلزيق وتلفيق » .

المال، وللإمام أن يدفع ذلك على قَدْر مايراه ، وهذا الفعل قد فعلَه من قبله ومن بعده، ولو كان منكرا لما استمرّ عليه أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد ثبت استمرارُه عليه ، ولو كان ذلك طعناً لوجب ـ إذا كان يدفع إلى الحسن والحسين وإلى عبد الله بن جعفر وغيرهم من بيت المال شيئاً ـ أن يكونَ فى حكم الخائن ، وكلّ ذلك يبطِل ماقالوه ، لأنّ بيت المال إنما يُراد لوضع الأموال فى حُقوقها ثمّ الاجتهاد وإلى المتولّى للأمر فى الكثرة والقلّة .

فأمّا أمر الخمس فمن باب الاجتهاد ، وقد اختلف النّاس فيه ، فمنهم مَنْ جعله حقّاً لذوى القربى وسهما مفرداً لهم على مايقتضيه ظاهر الآية ، ومنهم مَنْ جعله حقّاً لهم من جهة الفقر، وأجراهم مجرَى غيرهم ، وإن كانوا قد خُصُّوا بالذكر ، كما أجرى الأيتام ـ وإن خُصّوا بالذكر ـ مجرى غيرهم فى أنهم يستحقّون بالفقر . والكلام فى ذلك يطول ، فلم يخرجْ عمر بما حَكَم به عن طريقة الاجتهاد ، ومَنْ قَدَح فى ذلك فإنّما يقدح فى الاجتهاد الذى هو طريقة الصحابة .

فأمّا اقتراضُه من بيت المال ، فإنْ صحّ فهو غير محظور ؛ بل ربّما كان أحوَط، إذا كان على ثقةٍ من ردّه بمعرفة الوجه الذى يمكنه منه الردّ ، وقد ذكر الفقهاء ذلك ، وقال أكثرهم : إنّ الاحتياط فى مال الأيتام وغيرهم أن يجعَل فى ذمّة الغنىّ المأمون ، لبعده عن الخطر، ولا فرق بين أن يقرض الغير أو يقترضه لنفسه . ومَنْ بلغ فى أمره أن يطعن على عمر بمثل هذه الأخبار ـ مع مايعلم من سريرته وتشدّده فى ذات الله واحتياطه فيما يتّصل بمال الله ، وتنزّهه عنه ؛ حتى فعل بالصبىّ الذى أكل من تمر الصدقة واحدة مافعل ، وحتى كان يرفع نفسه عن الأمر الحقير ويتشدّد على كلّ أحد ، حتى على ولده ـ فقد أبعدَ فى القول.

***

اعترض المرتَضَى ، فقال : أمّا تفضيلُ الأزواج ، فإنه لا يجوز ، لأنه لاسبب فيهنّ

يقتضى ذلك ، وإنما يفضّل الإمام فى العطاء ذوى الأسباب المقتضية لذلك ، مثل الجهاد وغيره من الأمور العامّ نفعها المسلمين .

وقوله : إنّ لهنّ حقًّا فى بيت المال صحيح ، إلا أنه لا يقتضى تفضيلهنّ على غيرهنّ ، وما عِيبَ بدفع حقهنّ إليهنّ ، وإنما عِيب بالزيادة عليه ، وما يُعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استمرّ على ذلك — وإن كان صحيحاً كما ادّعى — فالسّبب الداعى إلى الاستمرار عليه، هو السبب الداعى إلى الاستمرار على جميع الأحكام ، فأمّا تعلّقه بدفع أمير المؤمنين إلى الحسن والحسين وغيرهما شيئاً من بيت المال فعَجَب ! لأنه لم يفضّل هؤلاء فى العطيّة فيشبه ماذكرناه فى الأزواج ، وإنما أعطاهم حقوقَهم ، وسوّى بينهم وبين غيرهم .

فأما الخمس ، فهو للرّسول ولأقربائه ، على مانطق به القرآن ، وإنما عنى تعالى بقوله : ﴿ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[1] من كَانَ مِنْ آلِ الرسول خاصّة ؛ لأدلّة كثيرة لاحاجة بنا إلى ذكرها هاهنا . وقد روى سُليم بن قيس الهلالىّ، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : نحن والله الذين عَنَى الله بذى القربى ، قرنهم الله بنفسه ونبيّه صلى الله عليه وآله ، فقال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[2] ؛ كلّ هؤلاء منّا خاصّة ، ولم يجعل لنا سهماً فى الصدقة، أكرم الله تعالى نبيّه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ مافى أيدى الناس . وروى يزيد بن هرمز ، قال : كتب نجدة إلى ابن عباس ، يسأله عن الخمس لمن هو ؟ فكتب إليه : كتبت تسألنى عن الخمس لمن هُو ؟ وإنّا كنا نزعم أنّه لنا، فأبى قومُنا علينا ذلك ، فصبرنا عليه .

قال : وأمّا الاجتهاد الذى عوّل عليه ، فليس عذراً فى إخراج الخمس عن أهله فقد أبطلناه .

---

(١) سورة الأنفال ٤١ (٢) سورة الحشر ٧ .

وأما الاقتراض من بيت المال فهو ممّا يدعو إلى الريبة ، ومَنْ كانَ من التشدّدو التحفّظ والتقشّف على الحدّ الذى ذكره ؛ كيف تطيب نفسه بالاقتراض من بيت المال ، وفيه حقوق وربّما مسّت الحاجة إلى الإخراج منها، وأىّ حاجة لمن كان جَشِب المأكل ، خشنَ الملبس، يتبلّغ بالقوت إلى اقتراض الأموال !

فأمّا حكايته عن الفقهاء ؛ أنّ الاحتياط أن يحفَظ مال الايتام فى ذمّة الغَنِىّ المأمون ؛ فذلك إذا صحّ لم يكن نافعا له ، لأن عمرَ لم يكن غنيّاً ، ولو كان غنيًّا لما اقترض ، فقد خرج اقتراضهُ عن أن يكون من باب الاحتياط ، وإنما اشترط[1] الفقهاء مع الأمانة الغِنَى، لئلا تمسّ الحاجة إليه ، فلا يمكن ارتجاعه ، ولهذا قلنا : إنّ اقتراضَه لحاجته إلى المال لم يكن صواباً وحسنَ نظر المسلمين[2] .

***

قلت : أما قوله : لا يجوز للإمام أن يفضّل فى العطاء إلا لسبب يقتضى ذلك كالجهاد ؛ فليست أسبابُ التفضيل مقصورةً على الجهاد وحدَه ، فقد يستحقّ الإنسان التفضيل فى العطاء على غيره لكثرة عبادته ، أو لكثرة علمه ، أو انتفاع النّاس به ، فلم لا يجوز أن يكونَ عمر فضّل الزوجات لذلك !

وأيضا : فإنّ الله تعالى فرضَ لذوِى القربى مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله نصيباً فى الفىء والغنيمة ، ليس إلا لأنهم ذوو قرابته فقط ، فما المانع من أن يقيس عمر عَلَى ذلك مافعله فى العطاء ، فيفضّل ذوِى قرابة رسول فى ذلك عَلَى غيرهم، ليس إلّا لأنهم ذوُو قرابته، والزوجاتُ وإن لم يكن لهنّ قُربى النّسب فلهنّ قُربى الزوجيّة ! وكيف يقول المرتضَى : ما جاز أن يفضّل أحدا إلا بالجهاد ! وقد فضّل الحسن والحسين على كثير من أكابر المهاجرين والأنصار وهما صبيّان ، ماجاهدا ! ولا بلغا الحُلم بعد ، وأبوهما أمير المؤمنين

(١) الشافى : « شرط » .
(٢) الشافى ٢٥٥ ، وبعدها : « وفيه كفاية » .

موافق على ذلك ، راضٍ به ، غير منكِر له ! وهل فعل عمرُ ذلك إلا لقُربهما من رسول الله صلى الله عليه وآله !

ونحن نذكر مافعله عمر فى هذا الباب مختصَراً نقلناه من كتاب أبى الفرج عبد الرحمن ابن على بن الجوزى المحدّث فى « أخبار عمر وسيرته » .

روى أبو الفرَج ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ،قال : استشار عمر الصحابة بمن يبدأ فى القَسْم والفريضة ، فقالوا : ابدأ بنفسك ، فقال : بل أبدأ بآل رسول الله صلى الله عليه وآله وذَوِى قرابته ، فبدأ بالعباس .

قال ابن الجوزىّ : وقد وقع الاتّفاق على أنّه لم يفرِضْ لأحدٍ أكثر مما فرَض له .

وروى أنه فرَض له اثنى عشر ألفا ، وهو الأصحّ ، ثم فرض لزوجاتِ رسول الله صلى الله عليه وآله لكلٍّ واحدة عشرة آلاف ، وفضّل عائشة عليهن بألفين فأبت ، فقال : ذلك بفضل منزلتك عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإذا أخذتِ فشأنك . واستثنى من الزوجات جُويرِيَة وصفيّة وميمونة، ففرض لكلّ واحدةٍ منهنّ ستة آلاف،فقالت عائشة : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعدِل بيننا ، فعدَل عمر بينهنّ ،وألحق هؤلاء الثلاث بسائرهنّ ، ثم فرض المهاجرين الّذين شهدوا بدرا لكلّ واحد خمسة آلاف ، ولمن شهدها من الأنصار لكلّ واحد أربعة آلاف[1] .

وقد روى أنه فرض لكلّ واحدٍ ممّن شهد بدراً من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف ، ثم فرض لمن شهد أحُدا وما بعدها إلى الحديبية أربعة آلاف ، ثم فرض لكلّ مَنْ شهد المشاهد بعد الحديبية ثلاثة آلاف ، ثم فرضَ لكلّ مَنْ شهد المشاهدبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ألفين وخمسمائة، وألفين،وألفا

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٨٠ .

وخمسمائة ، وألفا واحدا إلى مائتين ، وهم أهل هَجَر ؛ ومات عمر على ذلك [١] .

قال ابن الجوزيّ : وأدخل عمر فى أهلِ بدر ممّن لم يحضر بدراً أربعة ، وهم الحسن ، والحسين ، وأبو ذَرّ ، وسلْمان ، ففرض لكلّ واحد منهم خمسة آلاف .

قال ابن الجوزيّ : وروى السّدىّ أن عمرَ كسا أصحابَ النبى صلى الله عليه وآله ، فلم يرتضِ فى الكسوة مايستصلحه للحسن والحسين عليهما السلام ،فبعث إلى اليمن، فأتِىَ لهما بكسوة فاخرة ، فلمّا كساهما قال : الآن طابتْ نفسى .

قال ابن الجوزى : فأمّا مااعتمده فى النّساء فإنه جعل نساءأهلِ بدرعلى خمسمائة،ونساء مَنْ بعد بدر إلى الحديبية على أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك على ثلاثمائة ،وجعل نساءأهل القادسيّة على مائتين مائتين ، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك .

ولو لم يدلّ على تصويب عمر فيما فعلَه إلا إجماع الصحابة واتفاقهم عليه وترك الإنكار لذلك كان كافيا .

فأما الخمس والخلاف فيه فإنها مسألة اجتهادية ، والذى يظهر لنا فيه ويغلب [٢] عندنا من أمرها ؛ أنّ الخمس حقٌّ صحيح ثابت ، وأنّه باقٍ إلى الآن على مايذهب إليه الشافعىّ ، وأنّه لم يسقط بموت رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولكنّا لانرى مايعتقده المرتضَى مِنْ أنّ الخمس لآل الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّ الأيتام أيتامهم ، والمساكين مساكينهم وابن السبيل منهم ، لأنه على خلاف مايقتضيه ظاهر الآية والعطف ، ويمكن أن يحتجّ على ذلك بأن قوله تعالى فى سورة الحشر : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ﴾ يبطل هذا القول ، لأن هذه اللام لابدّ أن تتعلق بشىء ، وليس قبلها ما تتعلّق به أصلا ، إلا أن تجعل بدلا من اللام التى قبلها فى قوله : ﴿ مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

(١) سيرة عمر بن الخطاب ٨١ (٢) ب : « يتغلب » .

وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(1) . وليس يجوز أن تكون بدلا من اللام فى «لله» ، ولا من اللام فى قوله : «وللرسول» فبقىَ أن تكون بدلا من اللام فى قوله « ولذى القربى » ، أما الأول فتعظيما له سبحانه ، وأما الثانى فلأنه تعالى قد أخرج رسولَه من الفقراء بقوله : ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ولأنه يجب أن يرفع رسول الله صلى الله عليه وآله عن التّسمية بالفقير . وأمّا الثالث ، فإمّا أن يفسّر هذا البدَل وماعطف عليه المبدل منه ، أو يفسّر هذا البدل وحده دون ماعُطِف عليه المبدل منه، والأوّل لا يصحّ لأنّ المعطوف على هـذا البدل ليس من أهل القرى وهم الأنصار ، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ... ﴾(2) الآية، ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (3) وهم الأنصار . وإنْ كان الثانى صار تقدير الآية أنّ الخمس لله وللرسول ولذى القربى الذينَ وصفهم الله ونَعتهم بأنّهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وللأنصار ؛ فيكون هذا مبطلاً لما يذهب إليه المرتضى فى قصر الخُمُس عَلَى ذوى القربى .

ويمكن أن يعترضَ هذا الاحتجاج ، فيقال : لم لايجوز أنْ يكون قوله :﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ ﴾ ، ليس بعطف ، ولكنّه كلام مبتدأ ، وموضع « الّذينَ » رفع بالابتداء وخبره « يحبون » ؟

وأيضا فإنّ هـذه الحجّة لا يمكن التّمسّك بها فى آية الأنفال ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ (4) .

فأما رواية سُلَيم بن قيس الهلالىّ ، فليست بشىء ، وسُليم معروف المذهب ، ويكفى فى ردّ روايته كتابه المعروف بينهم المسمى « كتاب سُلَيم » .

---

(1) سورة الحشر ٧
(2) سورة الحشر ٨ .
(3) سورة الحشر ٩
(4) سورة الأنفال ٤١ .

على أنّي قد سمعت من بعضهم مَنْ يذكر أنّ هـذا الاسم على غير مسمّى ، وأنه لم يكن فى الدنيا أحدٌ يعرَف بسليم بن قيس الهلالىّ ، وأن[1] الكتاب المنسوب إليه منحول موضوع لا أصل له ، وإن كان بعضُهم يذكره فى اسم الرجال ، والرواية المذكورة عن ابن عباس فى كتابه إلى نَجْدة الحرورىّ صحيحة ثابتة ، وليس فيها ما يدلّ على مذهب المرتضى من أن الخمس كلّه لذوى القربى ، لأنّ نجدة إنما سأله عن خمس الخمس لا عن الخمس كله .

وينبغى أن يذكر فى هذا الموضع اختلافُ الفقهاء فى الْخُمُس :

أمّا أبو حنيفة فعنده أنّ قسمة الْخمس كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وسهم لذوِى قرباه من بنى هاشم وبنى المطلب دون بني عبد شمس ونوفل ، استحقّوه حينئذ بالنّصرة والمظاهرة ، لما روى عن عثمان بن عفّان وجُبَير بن مطعم أنّهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وآله : هؤلاء إخوتُك من بنى هاشم لاننكر فضلهم ، لمكانك الّذِى جعلك الله منهم ؛ أرأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا ! وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة . فقال صلى الله عليه وآله : « إنّهم لم يفارقونا فى جاهليّة ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » وشبَّك بين أصابعه . وثلاثة أسهم ليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم ، وأمّا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فسهْمه ساقط بموته ، وكذلك سَهْم ذوى القربى ، وإنما يُعطَوْن لفقرهم ، فهم أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى أغنياؤهم ؛ فيقسَّم الخمس إذن على ثلاثة أسهم : اليتامى ، والمساكين وابن السبيل .

وأما الشافعىّ فيقسّم الخمس عنده بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على خَمْسَةِ أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وآله يُصْرف إلى ما كان يصرفه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أيّام حياته من مصالح المسلمين ، كعُدّة الغزاة من الكراع والسلاح

(١) ب : « فإن » .

ونحو ذلك ، وسهمٌ لذوى القُرْبَى من أغنيائهم وفقرائهم ، يقسّم بينهم للذَّكَرِ مثل حظّ الأنثيين من بنى هاشم وبنى المطلب ، والباقى للفرق الثلاث .

وأمّا مالك بن أنس ، فعنده أنّ الأمر فى هذه المسألة مفوّض إلى اجتهاد الإمام ، إن رأى قسّمه بين هؤلاء ، وإن رأى أعطاه بعضَهم دون بعض ، وإن رأى الإمام غيرَهم أولى وأهمّ ، فغيرهم .

وبقِىَ الآن البحث عن معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، وما المراد بسهم الله سبحانه ؟ وكيف يقول الفقهاء : الخمس مقسوم خمسة أقسام ، وظاهر الآية يدلّ على ستّة أقسام ؟ فنقول :

يحتمل أن يكون معنى قوله سبحانه : ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ لرسول الله ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [1] ، أى ورسول الله أحقّ ؛ ومذهب أبى حنيفة والشافعىّ يجىء على هذا الاحتمال .

ويحتمل أن يريد بذكره إيجاب سهم سادس يصرَف إلى وجهٍ من وجوه القُرَب ، ومذهب أبى العالية يجىء على هذا الاحتمال ، لأنه يذهب إلى أنّ الخمس يقسّم ستة أقسام : أحدها سهمه تعالى يُصْرَف إلى رتاج الكعبة ، وقدرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه قَبْضة فيجعلها للكعبة ، ويقول : سهم الله تعالى ، ثم يقسم ما بقى على خمسة أقسام .

وقال : قوم سهم الله لبيتِ الله .

ويحتمل احتمالا ثالثاً ، وهو أن يراد بقوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أنّ من حقّ الخمس أن يكون متقرَّباً به إليه سبحانه لاغير ، ثم خصّ من وجوه القُرَب هذه الخمسة ، تفضيلا لها

---

(١) سورة التوبه ١٣ .

على غيرها ، كقوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [1] . ومذهب مالك يجيء على هذا الاحتمال .

وقد رُوِيَ عن ابن عبّاس رضى الله عنه أنّه كان على ستّة : لله وللرّسل سهمان ، وسهم لأقاربه ، وثلاثة أسهم للثلاثة ، حتى قبض عليه السلام ، فأسقط أبو بكر ثلاثة أسهم ، وقسم الخمس كلّه على ثلاثة أسهم ، وكذلك فعل عمر .

ورُوِيَ أنّ أبا بكر مَنَع بنى هاشم الخمس،وقال : إنّما لكم أن نعطيَ فقيرَكم ،ونزوّج أيّمكم ، ونخدُم من لا خادم له منكم ، وأمّا الغنيّ منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنيّ،لا يعطى شيئاً ، ولا يتيم مُوسر .

وقد روى عن زيد بن علىّ عليه السلام مثل ذلك ، قال : ليس لنا أن نبنيَ منه القصور ، ولا أنْ نركب منه البراذين . فأمّا مذهب الإماميّة ، فإنّ الخمس كلّه للقرابة .

ويروون عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه قال : أيتامنا ومساكيننا ! فإنْ صحّ عنه ذلك ، فقوله عندنا أولَى بالاتّباع ، وإنما الكلام فى صحته .

فأما اقتراض عمر من بيت المال ثمانين ألفاً،فليس بمعروف،والمعروف المشهور أنه كان يَظْلِف [2] نفسه عن الدّرهم الواحد منه .

وقد روى ابن سعد فى كتاب " الطبقات " أنّ عمر خطب ، فقال : إنّ قوما يقولون : إنّ هذا المال حلال لعمر،وليس كما قالوا ، لاها الله إذن ! أنا أخبركم بما أستحلّ منه ؛ يحل لى منه حُلّتان : حُلّة فى الشتاء ، وحُلّة فى القَيْظ ، وما أحجّ عليه وأعتمر من الظَّهر ، وقوتِى وقوتُ أهلى كقوتِ رجل من قريش ، ليس بأغنام ولا أفقرهم ، ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يُصيبُنى ما أصابهم [3] .

---

(١) سورة البقرة ٩٨ . (٢) يظلف نفسه يمنعها .
(٣) نقله ابن الجوزى فى كتابه سيرة عمر ص ٧٥ ، ٧٦ .

وروى ابنُ سعد أيضاً أنّ عمر كان إذا احتاج أتى إلى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربّما عسر عليه القضاء،فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه ، فيحتال له ، وربما خرج عطاؤه فقضاه ، ولقد اشتكى مرّةً فوصف له الطبيبُ العسَل ، فخرج حتّى صعد المنبر، وفى بيت المال عُكّة (١) ، فقال : إن أذنتم لى فيها أخذتُها ، وإلّا فهى علىّ حرام ، فأذنوا له فيها، ثم قال : إنّ مَثَلِي وَمَثَلكم كقومٍ سافروا ، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم لينفق عليهم، فهل يحلّ له أن يستأثر منها بشيء !

وروى ابن سعد أيضاً ، قال : مكث عمر زمانا لا يأكل من مال المسلمين شيئاً ، حتى أصابته خَصَاصة ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاستشارهم فقال لهم : قد شَغَلْتُ نفسِي بأمركم ، فما الذى يصلح أن أصيبَه من مالكم ؟ فقال عثمان : كلْ واطعم،وكذلك قال سعيدبن زيدبن عمروبن نفيل،فتركهما وأقبل على علىٍّ عليه السلام، فقال : ماتقول أنت ؟ قال : غداء وعشاء ، قال : أصبت ، وأخذ بقوله (٢) .

وروى أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب " سيرة عمر " عن نائلة عن ابن عمر ،قال : جمع عمر النّاس لما انتهى إليه فتح القادسيّة ودمشق ، فقال:إنّى كنتُ امرأ تاجرا يغنى الله عيالى بتجارتى ، وقد شغلتمونى عن التّجارة بأمركم ، فما ترون أنه يحلّ لى من هذا المال ؟ فقال القوم فأكثروا ، وعلىٌّ عليه السلام ساكت ، فقال عمر : ماتقول أنت ياأبا الحسن؟ قال : ماأصلحَك وأصلَح عيالك بالمعروف ، وليس لك من هذا المال غيره ، فقال : القول ماقاله أبو الحسن ؛ وأخذ به (٢) .

وروى عبد الله بن زيد بن أسلم،عن أبيه ، عن جدّه أنّ عبد الله وعبيد الله ابنىْ عمر مرّا بأبى موسى،وهو على العراق وهما مقبلان من أرض فارس،فقال : مرحبا بابْنَيْ أخى،

---

(١) العكة : زقيق صغير .

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى ٧٦ .

لو كان عندى شىء ، ولى قد اجتمع هذا المال عندى : فخذاه واشتريا به متاعاً،فإذا قدمتما فبيعاه ولكما ربحه ، وأدّيا إلى أمير المؤمنين رأس المال ، ففعلا ، فلمّا قدما على عمر بالمدينة أخبراه ، فقال : أ كلّ أولاد المهاجرين يصنع بهم أبو موسى مثل ذلك ! فقالا :لا،قال: فإنّ عمر يأبى أن يجيز ذلك وجعل قرضاً .

وروِىَ عن قتادة ، قال : كان معيقيب على بيت المال لعمر ، فكسح عمر بيت المال يوماً ، وأخرجه إلى المسلمين ، فوجدَ معيقيب فيه درهماً ، فدفعه إلى ابن عمر ، قال معيقيب : ثم انصرفت إلى بيتى ، فإذا رسول عمر قد جاء يدعونى ، فجئت فإذا الدّرهم فى يده ، فقال : ويحك يامعيقيب ! أوجَدْتَ علىّ فى نفسك شيئاً ! قلت : وما ذاك ؟ قال : أردت أن تخاصِمَنى أمّة محمد فى هذا الدرهم يوم القيامة [1] !

وروى عمر بن شبَّة ، عن عبد الله بن الأرقم ـ وكان خازن عمر ـ فقال : إنّ عندنا حِلْيَةً من حلية جلولاء وآنية من فضة ، فانظر ماتأمر فيها ؟ قال : إذا رأيتَنى فارغا فآذِنّى ، فجاءه يوما فقال : إنى أراك اليوم فارغا ، فما تأمر بتلك الحلية ؟ قال : ابسط لى نِطَعاً ، فبسطه ثم أتى بذلك المال ، فصبّ عليه ، فرفع يديه وقال : اللهمّ إنك ذكرت هذا المال ،فقلت : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ [1] ثم قلت : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [2] اللهمّ إنا لانستطيع إلّا أن نفرح بما زيّنت لنا.اللهمّ إنى أسألك أن تضعه فى حقه ، وأعوذ بك من شرّه ، ثم ابتدأ فقسمه بين الناس ، فجاءه ابن بنت له ،فقال:ياأبتاه! هب لى منه خاتما ، فقال : اذهب إلى أمّك تَسْقِك سَوِيقاً ، فلم يعطه شيئاً [3] .

وروى الطبرىّ فى تاريخه أنّ عمرَ خطبَ أمّ كلثوم بنت أبى بكر ، فأرسل فيها إلى

---

(١) سورة آل عمران ١٤ (٢) سورة الحديد ٢٣ .
(٣) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ٧٨ .

عائشة ،فقالت : الأمر إليها، فقالت أمّ كلثوم : لاحاجة لى فيه ، قالت لهاعائشة : ويلك ! أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إنّه يغلِق بابه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابسا ، ويخرج عابسا ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص ، فأخبرته ، فقال : أنا أكفيك ، فأتى عمر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، بلغنى خبرٌ أعيذك بالله منه ! قال:ماهو؟ قال: خطبتَ أمّ كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال : نعم ، أفترغب بى عنها أم ترغبُ بهاعنّى؟قال:لاواحدة، ولكنها حَدَثة ، نشأتْ تحت كنَف أمّ المؤمنين فى لينٍ ورفق ،وفيك غلظة ونحن نهابُك، ولا نستطيع أن نردّك عن خُلقٍ من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ! كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير مايحقّ عليك ، قال : فكيف لى بعائشة وقد كلّمتها فيها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلّك على خيرٍ منها ، أمّ كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب، تعلّقْ منها بسببٍ من رسول الله . فصرَفه عنها إلى أم كلثوم بنت فاطمة .

وروى عاصم بن عمر ، قال : بعث إلىّ عمر عند الهاجرة ــ أو قال عند صلاة الصبح ــ فأتيتهُ ، فوجدته جالساً فى المسجد فقال : يابنىّ ، إنى لم أكن أرى شيئاً من هذا المال يحل لى قبل أن ألِيَ إلّا بحقه ، وما كان أحرم علىّ منه حين وليته ،فعاد أمانتى،وإنى كنت أنفقت عليك من مال الله شهرا ، ولست بزائدك عليه ، وقد أعطيتك ثمْرى بالعالية ، فبعه وخذ ثمنه ، ثم ائت رجلا من تجّار قومك ، فكن إلى جانبه ، فإذا ابتاع شيئاً فاستشركه ، وأنفق ماربحه عليك وعلى أهلك . قال : فذهبت ففعلت [1] .

وروى الحسن البصرىّ أنّ عمر كان يمشى يوماً فى سكّة من سِكك المدينة ، إذ صبيّة تَطِيش على وجه الأرض ، تقعد مرّة ، وتقوم أخرى من الضّعف والجهد ، فقال عمر : ما بال هذه ؟ قال عبد الله ابنه : أما تعرف هذه ؟ قال : لا ، قال إنّها إحدى بناتِك،

---

(١) سيرة عمر ٧٨ .

فأنكر عمر ذلك، فقال : هذه ابنتي من فلانة ! قال : ويحك وما صيّرها إلى ماأرى؟ قال: منعك [ماعندك][1] ، قال : أنا منعتُك ماعندى ،فما الذى منعك أن تطلب لبناتك مايكسب الأقوام[2] لبناتهم ! إنّه والله مالكَ عندى غيرُ سهمك فى المسلمين ؛وسعَك أو عجزعنك، وكتاب الله بينى وبينك[3] .

وروى سعيد بن المسيّب ، قال . كتب عمر لما قسّم العطاء وفضل مَنْ فضّل المهاجرين الذين شهدُوا بدراً خمسة آلاف ، وكتب لمن لم يشهد بدرا أربعة آلاف ؛ فكان منهم عمر بن أبى سلمة المخزوميّ ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ومحمد بن عبد الله بن جحش ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب . فقال عبد الرحمن بن عوف ـ وهو الذى كان يكتبُ:ياأميرَ المؤمنين ، إنّ عَبد الله بن عمر ؛ ليس من هؤلاء ، إنّه وإنه ... يُطريه ويُثنى عليه ،فقال له عمر : ليس له عندى إلا مثل واحد منهم ، فتكلّم عبد الله وطلب الزيادة،وعمرساكت، فلمّا قضى كلامَه ، قال عمر لعبد الرحمن : ا كتبه على خمسة آلاف ،وا كتبنى على أربعة آلاف ، فقال عبد الله : لاأريد هذا ، فقال عمر: والله لاأجتمع أنا وأنت على خمسة آلاف ، قمْ إلى منزلك ؛ فقام عبد الله كئيبا .

وقال أبو وائل : استعملنِي ابنُ زياد على بيت المال بالكوفة ، فأتانى رجلٌ بصكّ يقول فيه : أعطِ صاحب المطبخ ثمانمائة درهم ، فقلت له : مكانكَ. ودخلتُ على ابن زياد، فقلت له : إنّ عمر استعمل عبد الله بن مسعود بالكوفة على القضاء وبيت المال،واستعمل عثمان بن حُنَيف عل سِقْى الفرات ، واستعمل عمّار بن ياسر على الصلاة والجند ،فرزقهم كلّ يوم شاة واحدة ، فجعل نصفها وسقطها وأكارعها لعمّار ؛لأنه كان على الصلاة والجند، وجعل لابن مسعود رُبعها ، ولابنُ حُنيف ربعها ، ثم قال : إنّ مالاً يؤخذ منه كلّ يوم شاة، إنّ ذلك فيه لسريع، فقال ابن زياد : ضع المفتاح فاذهب حيث شئت .

---

(١) من سيرة عمر . (٢) سيرة عمر : « الأقواه » . (٣) سيرة عمر ٧٧ ، ٧٨ .

وروى أبو جعفر الطبرى فى التاريخ ، أنّ عمر بعث سلمة بن قيس الأشجعىّ إلى طائفة من الأكراد ، كانوا على الشِّرْك ، فخرج إليهم فى جيش سرّحه معه من المدينة ، فلمّا انتهى إليهم ، دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية ، فأبَوْا،فقاتلهم،فنصره الله عليهم؛ فقتل المقاتلة وسَبَى الذريّة ، وجمع الرِّثّة [1] ، ووجد حلية وفصوصا وجواهر،فقال لأصحابه: أتطيب أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين ؟ فإنه غير صالح لكم ، وإنّ عَلَى أمير المؤمنين لمؤونة وأثقالا ! قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا ، فجعل تلك الجواهر فى سَفَط ، وبعث به مع واحد من أصحابه ، وقال له : سِرْ ، فإذا أتيتَ البصرة ، فاشترِ راحلتين فأوْقِرْهما زاداً لك ولغلامك ، وسِرْ إلى أمير المؤمنين. قال : ففعلت، فأتيت عمر وهو يغدّى الناس ، قائما متكئا على عصا كما يصنع الراعى ، وهو يدور على القِصاع،فيقول:يايَرْفأ زِدْ هؤلاء لحماً ، زِدْ هؤلاء خبزاً ، زِدْ هؤلاء مَرَقة ، فجلست فى أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة ، طعامى الذى معى أطيب منه ، فلمّا فرغ أدبر فاتّبعته ، فدخل داراً فاستأذنت ، ولم أعلِم حاجبه مَنْ أنا ، فأذن لى ، فوجدته فى صُفّة جالسا على مِسْح ، متّكئا على وسادتين من أدَم محشوّتين ليفاً ، وفى الصُّفّة عليه سِتْر من صوف ، فنبذ إلىّ إحدى الوسادتين ، فجلست عليها ، فقال : ياأمّ كلثوم ، ألا تغدّوننا ! فأخرج إليه خُبْزة بزيت فى عرضها ملح لم يدقّ ، فقال : ياأمّ كلثوم ، ألا تخرُجين إلينا تأكلين معنا ؟ فقالت : إنّى أسمع عندك حِسّ رجل ،قال :نعم ، ولا أراه من أهل هذا البلد ـ قال : فذاك حين عرفت أنه لم يعرفنى ـ فقالت : لو أردت أن أخرج إلى الرّجال لكسوتنى كما كسا الزّبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته ، قال : أو مايكفيك أنك أمّ كلثوم ابنة علىّ بن أبى طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ! قالت : إنّ ذاك عنّى لقليل الغَناء ، قال : كلْ ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيبَ من هذا ، فأكلتُ قليلا ، وطعامى الذى معى أطيب منه،

---

(١) الرِّثّة : المتاع .

وأكل ، فما رأيت أحداً أحسنَ أكلاً منه ، مايتلبَّس طعامه بيده ولا فه . ثم قال : اسقونا ، فجاءوا بعُسٍّ من سُلْت[1] ، فقال : أعط الرَّجُل ، فشربت قليلاً ، وإنّ سَويق الذى معى لأطيبُ منه ، ثم أخذه فشربه حتى قرَع القدَحُ جبهته ، ثم قال : الحمد لله الذى أطعمنا فأشبعنا ، وسقانا فأروانا ، إنّك ياهذا لضعيف الأكل ، ضعيف الشرب، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ لى حاجة ، قال : ماحاجتُك ؟ قلت : أنا رسول سلمة بن قيس، فقال : مرحباً بسلَمة ورسوله ! فكأنما خرجتَ من صُلبه ، حَدِّثنى عن المهاجرين كيف هم ؟ قلت : كما تحبُّ ياأميرَ المؤمنين ؛ من السلامة والظّفر والنّصر على عدوّهم ، قال : كيف أسعارهم ؟ قلت : أرخص أسعار ، قال : كيف اللّحم فيهم ، فإنه شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلّا على شَجَرتها ؟ قلت : البقرة فيهم بكذا ، والشاة فيهم بكذا ، ثم سِرْنا ياأميرَ المؤمنين حتى لقِينا عدوّنا من المشركين ، فدعوناهم إلى الّذى أمَرْت به من الإسلام فأبوْا ، فدعوناهم إلى الخراج فأبَوْا ، فقاتلناهم فنصرَنا الله عليهم ، فقتلنا المقاتِلة ، وسبيْنا الذرّيّة وجمعنا الرِّثّة[2] ، فرأى سلمة فى الرِّثّة حِلْية ، فقال للناس : إنّ هذا لا يبلغُ فيكم شيئاً ، أفتطيب أنفسكم أن أبعثَ به إلى أمير المؤمنين ؟ قالوا : نعم ، ثم استخرجت سَفَطِى[3] ففتحته . فلمّا نظر إلى تلك الفُصوص،من بين أحمروأخضر وأصفر؛وثب وجعل يده فى خاصرته يصيح صياحا عاليا ، ويقول : لا أشبع الله إذنْ بطن عمر ! يكرّرها، فظنّ النّساء أنى جئت لأغتاله ؛ فجئن إلى السّتر فكشفنه ، فسمعنه يقول : لفّ ماجئت به يايرفأ جأْ عنقه[4] ، قال : فأنا أصْلِحُ سفَطِى ، ويرفأ يجأ عنقى . ثم قال : النّجاء النّجاء ! قلت : ياأمير المؤمنين انزعْ بى فاحملنى ، فقال : يايرفأ ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة ،

---

(١) السلت : شعير لا قشر له ، يجرد بسويقه .

(٢) الطبرى : « الرثة » .

(٣) السفط : وعاء كالجوالق .

(٤) جأ : اضرب .

فإذا لقيت أفقر إليهما منك فادفعهما إليه ، وقال : أظنّك ستبطئ ، أما والله لئن تفرّق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يُقسم هذا فيهم ، لأفعلنّ بك وبصاحبك الفاقرة [١] .

قال : فارتحلت حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس ، فقلت : مابارك الله فيما اختصصتنى به، اقسِمْ هذا فى الناس قبل أن تصيبنى وإياك فاقرة ، فقسمه فيهم . فإنّ الفص ليباع بخمسة دراهم وبستّة ، وهو خير من عشرين ألفا [٢] .

وجملة الأمر أنّ عمر لا يجوز أن يُطعَن فيه بمثل هذا ، ولا ينسب إلى شَرَهٍ وحبٍّ للمال ، فإنّ طريقته فى التعفّف والتقشّف وخشونة العيش والزهد أظهرُ من كلّ ظاهر ، وأوضح من كلّ واضح،وحاله فى ذلك معلومة ، وعلى كلّ تقدير ؛ سواء كان يفعل ذلك ديناً أو ورعا ــ كما هو الظاهر من حاله ــ أو كان يفعل ذلك ناموساً وصناعة ورياء وحيلة، ــ كما تزعم الشّيعة ــ فإنه عظيم ،لأنه إمّا أن يكون على غاية الدّين والتّقى ، أو يكون أقوى النّاس نفساً ، وأشدّهم عزماً ؛ وكلا الأمرين فضيلة .

والّذى ذكره المحدّثون وأرباب السِّيَر أنّ عمر لما طُعِن واحتُمل فى دمه إلى بيته ، وأوصَى بما أوصَى ، قال لابنه عبد الله : انظروا ماعلىّ من دَيْن ، فحسبوه فوجدوه ستمائة وثمانين ألف درهم ، هكذا ورد فى الأخبار أنها كانت ديونا المسلمين ، ولم تكن من بيتِ المال . فقال عمر : انظرْ ياعبدَ الله ، فإن وفّى به مالُ آل عمر ، فأدّه من أموالهم ، وإلّا فسَلْ فى بنى عدىّ بن كعب ، فإن لم تفِ به أموالُهم ، فسلْ فى قريش ، ولا تعدُهم إلى غيرهم . فهكذا وردت الرواية ، فلذلك قال قاضى القضاة : فإنّ صحّ فالعذر كذا وكذا ، لأنه لم يثبت عنده صحّة اقتراضه هذا المقدار من بيت المال .

وقد رُوِىَ أنّ عمر كان له نخل بالحجاز غَلّته كلّ سنة أربعون ألفا ، يُخرجها فى

---

(١) الفاقرة : الداهية . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٧١٣ـ٢٧٢١ (طبع أوربا) مع اختلاف فى الرواية .

النّوائب والحقوق، ويصرِفها إلى بنى عدىّ بن كعب إلى فقرائهم وأراملهم وأيتامهم، روى ذلك ابن جرير الطبرى فى التاريخ .

فأما قول المرتَضَى : أىّ حاجة بخشن العيش وجَشِب المأكل إلى اقتراض الأموال؟ فجوابه أنّ المتزهّد المتقشّف قد يضيّق على نفسه ويوسّع على غيره ، إمّا من باب التكرّم والإحسان، أومن باب الصدقة وابتغاء الثواب ، وقد يصل رحمه وإنْ قَتّرَ على نفسه .

وقد روى الطبرىّ أنّ عمر دفع إلى أمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام صداقها يوم تزوّجها أربعين ألف درهم ؛ فلعلّ هذا الاقتراض من الناس كان لهذا الوجه ولغيره من الوجوه التى قلّ أن يخلوَ أحد منها .

***

الطعن السادس

إنه عطّل حدّ الله فى المغيرة بن شعبة ، لما شَهِد[1] عليه بالزّنا ، ولقّنَ الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة ، اتّباعا لهواه ، فلما فعل ذلك عاد إلى الشهود فحدّهم وضربهم[2] ، فتجنّب أن يفضح المغيرة ، وهو واحد ، وفضح الثلاثة مع تعطيله لحكم الله ، ووضعه فى غير موضعه .

أجاب قاضى القضاة ، فقال : إنه لم يعطّل الحدّ إلّا من حيثُ لم تكمل الشهادة وبإرادة الرابع ، لئلا يشهد لا تكمل البيّنة ، وإنما تكمل بالشهادة .

وقال : إن قوله : « أرى وجهَ رجل لا يفضحُ الله به رجلا من المسلمين » ، يجرى فى أنه سائغ صحيح مجرّى ما روِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وآله من أنه أُتى بسارقٍ، فقال: «لا تقِرّ».

---

(١) الشافى : « شهدوا » .
(٢) كذا فى الشافى ، وفى الأصول : « فضحهم » .

وقال عليه السلام لصفوان بن أميّة لما أتاه بالسارق ، وأمر بقطعه ، فقال : هوله ـ يعنى ماسرق : هلاّ قبل أن تأتِيَني به ! فلا يمتنع من عمر ألّا يحبّ أن تكمل الشهادة وينبه الشاهد على ألّا يشهد ، وقال : إنه جلد الثلاثة من حيث صارُوا قَذَفة ، وإنه ليس حالهم ـ وقد شهدُوا ـ كحالِ مَنْ لم تتكامل الشهادة عليه ، لأنّ الحيلة فى إزالة الحدّ عنه ـ ولمّا تتكامل الشهادة عليه ـ ممكِنة بتلقين وتنبيه غيره ، ولا حيلة فيما قد وقع من الشهادة ، فلذلك حدّهم .

قال : وليس فى إقامة الحدّ عليهم من الفضيحة مافى تكامل الشّهادة على المغيرة ، لأنه يتصوّر بأنه زانٍ ، ويحكم بذلك ، وليس كذلك حال الشهود ، لأنهم لايتصوّرون بذلك ، وإن وجبَ فى الحُكم أن يُجعلوا فى حُكم القَذَفة .

وحكى عن أبى علىّ أنّ الثلاثة ، كان القذف قد تقدّم منهم للمغيرة بالبصرة ، لأنهم صاحوا به من نواحى المسجد : بأنا نشهد أنك زانٍ ، فلو لم يعيدوا الشهادة لكان يحدّهم لا محالة ، فلم يمكن فى إزالة الحدّ عنهم ماأمكن فى المغيرة .

وحكى عن أبى علىّ فى جواب اعتراضه عن نفسه بما روى عن عمر أنه كان إذا رآه يقول : لقد خفتُ أن يرميَنى الله عزّ وجلّ بحجارة من السماء ؛ أنّ هذا الخبر غيرصحيح، ولوكان حقاً لكان تأويله التخويف ، وإظهار قوة الظّن ؛ لصدق القوم الذين شهدوا عليه ، ليكون ردعاً له . وذكر أنّه غيرُ ممتنع أن يحبّ ألّا يفتضح لما كان متوليا للبصرة من قِبَلِه .

ثم أجاب عن سؤال مَنْ سأله عن امتناع زياد من الشهادة ، وهل يقتضى الفسق أم لا؟ فإن قال : لا نعلم أنّه كان يتمّ الشهادة ؛ ولو علمنا ذلك لكان حيث ثبت فى الشرع أنّ له

السكوت؛ لا يكون طعنا، ولو كان ذلك طعنا، وقد ظهر أمرُه لأمير المؤمنين عليه السلام لمّا ولاه فارس، ولمّا ائتمنه على أموال الناس ودمائهم.

***

اعترض المرتضى فقال: إنّما نسِب إلى تعطيل الحدّ من حيث كان فى حكم الثابت، وإنما بتلقينه لم تكمُل الشهادة، لأن زيادا ماحضر إلا ليشهد بما شهد به أصحابه، وقد صرّح بذلك كما صرّحوا قبل حضورهم، ولو لم يكن هذا لما شهد القوم قبلَه وهم لايعلمون: هل حاله فى ذلك الحكم كحالهم، لكنّه أحجم فى الشّهادة لمّا رأى كراهَية متولّى الأمر لكمالها، وتصريحه بأنّه لايريد أن يعمل بموجبها.

ومن العجائب أن يطلبَ الحيلة فى دفع الحدّ عن واحدٍ، وهو لايندفع إلّا بانصرافه إلى ثلاثة، فإن كانَ درْء الحدّ والاحتيال فى دفعه من السُّنن المتّبعة، فدرؤُه عن ثلاثة أوْلَى من درئه عن واحد!

وقوله: إنّ دفع الحدّ عن المغيرة ممكنٌ ودفعه عن ثلاثة ـ وقد شهدوا ـ غيرُ ممكن، طَريف، لأنّه لو لم يلقّن الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة لاندفع الحدّ عن الثلاثة، وكيف لاتكون الحيلة ممكنة فيما ذكره!

وقوله: إن المغيرة يُتصوّر بصورة زانٍ لو تكاملت الشهادة، وفى هذا من الفضيحة ماليس فى حدّ الثلاثة غيرُ صحيح، لأنّ الحكم فى الأمرين واحدٌ، لأنّ الثلاثة إذا حُدُّوا يُظَنّ بهم الكذب، وإن جُوِّز أن يكونوا صادقين، والمغيرة لو تكاملت الشهادة عليه بالزّنا لظُنّ به ذلك مع التجويز لأنْ يكون الشُّهود كَذَبة، وليس فى أحدٍ إلّا مافى الآخر.

وما روى عنه عليه السلام من أنّه أُتِيَ بسارق، فقال له: «لاتُقِرّ» إن كان صحيحا لايشبه مانحن فيه، لأنه ليس فى دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره فى المكروه.

وقصّة المغيرة تخالف هذا لما ذكرناه.

فأما قوله عليه السلام : « هلاّ قبل أنْ تأتيني به ! » فلا يشبه كلّ مانحن فيه ، لأنّه بيّن أن ذلك القول يُسقط الحدّ لو تقدّم ، وليس فيه تلقين يوجب إسقاطَ الحدّ .

فأمّا ماحكاه عن أبي عليّ من أنّ القذف من الثلاثة كان قد تقدّم ، وأنّهم لو لم يُعيدوا الشهادة لـكان يحدّم لامحالة ، فغير معروف ، والظاهر المرويّ خلافُه ، وهو أنه حدّم عنـد نُـكول زيادٍ عن الشهادة ، وأنّ ذلك كان السّبب في إيقاع الحـدّ بهم .

وتأوّله[1] عليه : لقدخفتُ أن يرميَني اللهُ بحجارة من السّماء ، لايليق بظاهر الـكلام ، لأنّه يقتضي التندّم والتأسّف على تفريطٍ وقع ، ولِمَ يخافُ أن يرمَى بالحجارة وهو لم يدرأ الحدّ عن مستحق له ! ولو أراد الرّدْع والتخويف للمغيرة لأتى بكلام يليق بذلك ، ولا يقتضي إضافة التّفريط إلى نفسـه . وكونه والياً من قِبَله لايقتضي أن يدرأ عنه الحدّ ، ويعدِل به إلى غيره .

وأما قوله : إنّا ما كنّا نعلم أنّ زياداً كان يتمّ الشهادة ، فقد بيّنـا أنّ ذلك كان معلوماً بالظاهر ، ومَنْ قرأ ماروِي في هذه القصّة علم بلا شكٍّ أن حال زياد كحال الثلاثة ، في أنّه إنّما حضر للشهادة ، وإنما عدل عنها لـكلام عمر .

وقوله : إنّ الشّرع يبيح السكوت ، ليس بصحيح ، لأنّ الشرع قد حظَر كتمان الشهادة .

فأمّا استدلالُه على أنّ زيادا لم يفسُق بالإمساك عن الشهادة بتولية أمير المؤمنين عليه السلام له فارسَ ، فليس بشيء يُعتَمد ، لأنه لايمتنع أن يكون قد تاب بعد ذلك ، وأظهر توبَته لأمير المؤمنين عليـه السلام ، فجاز أن يولّيَه . وقد كان بعضُ أصحـابنا يقول في قصّة المغيرة شيئاً طيّبا ، وإن كان معتملًا في باب الحجّة ، كان يقول : إنّ زيادا إنّما امتنع من التصريح بالشهادة المطلوبة في الزنا ، وقد شهد بأنه شاهدَه بين شُعَبها الأربع ، وسمع نَفَساً عاليا ، فقد صح على المغيرة بشهادة الأربع جلوسُـهُ منها مجلس الفاحشة ، إلى غيرذلك

---

(١) الشافي : « وما تأول عليه » .

من مقدّمات الزنا وأسبابه . فهلّا ضمّ عمر إلى جلد الثلاثة تعزيرَ هذا الذى قد صحّ عنده بشهادة الأربعة ماصحّ من الفاحشة ، مثل تعريك أذنه ، أو مايجرى مجراه من خفيف التعزيز ويسيره ! وهل فى العدول عن ذلك ــ حتى عن لومه وتوبيخه والاستخفاف به إلّا ماذكروه من السبب الذى يشهد الحال به (١) !

* * *

قلت : أمّا المغيرة فلا شكّ عندى أنه زنَى بالمرأة ، ولكنى لست أخطّئ عمرَ فى دَرْء الحدّ عنه ، وإنّما أذكر أولا قصته من كتابىْ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، وأبى الفرج على بن الحسن الأصفهانىّ ، ليعلم أنّ الرجل زَنَى بها لامحالة ، ثم أعتذر لعمر فى دره الحدّ عنه .

قال الطبرى فى تاريخه (٢) : وفى هذه السّنة ــ يعنى سنة سبع عشرة ــ ولّى عمر أبا موسى البصرة ، وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة ، وذلك لأمر بلغه عنه . قال الطبرىّ : حدّثنى محمد بن يعقوب بن عتبة ؛ قال : حدثنى أبى ، قال : كان المغيرة يخالف إلى أمّ جميل ، امرأة من بنى هلال بن عامر ، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك ، يقال له الحجاج بن عبيد ، وكان المغيرة ــ وكان أميرَ البصرة ــ يختلف إليها سرًّا ، فبلغ ذلكَ أهلَ البصرة ، فأعظموه ، فخرج المغيرة يوماً من الأيام إلى المرأة ، فدخل عليها وقد وضعوا عليهما الرَّصَد ، فانطلق القوم الذين شهدوا عند عمر فكشفوا السّتر ، فرأوْه قد واقعها ؛ فكتبوا بذلك إلى عمر ، وأوفدوا إليه بالكتاب أبا بَكْرة . فانتهى أبو بكرة إلى المدينة ، وجاء إلى باب عمر فسمع صوته وبينه وبينه حجاب ، فقال : أبو بكرة ! فقال : نعم ، قال : لقد جئت لشَرّ ! قال : إنما جاء به المغيره ، ثم قصّ عليه القصة ، وعرض عليه الكتاب ، فبعث أبا موسى عاملًا ، وأمره

(١) الشافى ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٢٥٢٩ ــ ٢٦١ (طبع أوربا) .

أن يبعث إليـه المغيرة ، فلمّا دخل أبو موسى البصرة ، وقعد فى الإمارة ،أهدى إليه المغيرة عقيلَة ، وقال : إنّى قد رضيتها لك ، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر.

قال الطبرىّ : وروى الواقدىّ ، قال : حدّثنى عبدالرحمن بن محمدبن أبى بكربن عمرو ابن حزم الأنصارى ، عن أبيه ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قدم المغيرة على عمر ، فتزوّج فى طريقه امرأةً من بنى مُرّة ، فقال له عمر : إنّك لفارغ القلب ، شـديد الشَّبَق . طويل الغُرمول ، ثم سأل عن المرأة فقيل [1] له ـ يقال لها الرقطاء: كان زوجها من ثقيف وهى من بنى هلال .

قال الطبرىّ : و كتب إلىّ السرىّ ، عن شعيب ، عن سيف ، أنّ المغيرة كان يُبغض أبا بَـكْرة وكان أبو بكرة يُبغضه ، ويناغى [2] كلّ واحد منهما صاحبَه وينافره عند كلّ مايكون منه ، وكانا متجاورين بالبصرة ، بينهما طريق ، وهما فى مشربتين متقابلتين،فهما فى داريهما فى كلّ واحـدة منهما كُوّة مقابلة الأخرى ، فاجتمع إلى أبى بـكْرة نفَرٌ يتحدّثون فى مَشْربته ، فهبّت ريح ففتحت باب الـكُوّة ، فقام أبو بـكْرة ليُصْفِقه [3] ، فبصر بالمغيرة وقد فتَحت الرّيح باب الـكُوّة التى فى مَشْرَبته ،وهو بين رِجْلَى امرأة،فقال للنفر: قوموا فانظروا ، فقاموا فنظروا ، ثم قال : اشهدوا ، قالوا : ومَنْ هذه ؟ قال : أمّ جميل، إحدى نساء بنى عامر بن صعصعة ، فقالوا : إنما رأينا أعجازا ولا ندرى الوجوه!فلمّا قامت صَمّموا ، وخرج المغيرة إلى الصلاة ، فحال أبو بكْرة بينه وبين الصلاة ، وقال : لاتصلّ بنا . وكتبوا إلى عمر بذلك ، وكتب المغيرة إليه أيضا ، فأرسل عمر إلى أبى موسى ، فقال : ياأبا موسى ، إنّى مستعمِلك ، وإنى باعثُك إلى الأرض التى قد باضَ بها الشيطان وفرّخ، فالزمْ ماتعرِف ، ولا تستبدلْ فيستبدل الله بك . فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أعنىّ بعدّة من

---

(١) الطبرى : « فقال » . (٢) كذا فى الطبرى ، ويناغيه : يباريه . وفى الأصول : « يباغيه » .
(٣) أصفق الباب : رده .

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم من المهاجرين والأنصار ، فإنّى وجدتهم فى هذه الأمّة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلّا به . قال عمر : فاستعِنْ بمن أحببتَ ، فاستعان بتسعة وعشرين رجلا ، منهم أنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، وهشام بن عامر . وخرج أبو موسى بهمْ حتى أناخ بالبصرة فى المِرْبد ، وبلغ المغيرةَ أنّ أبا موسى قد أناخ بالمِرْبد ، فقال : والله ماجاء أبو موسى زائراً ، ولا تاجرا ، ولكنّه جاء أميرا . فإنّهم لَفِى ذلك إذْ جاء أبو موسى ، حتى دخَل عليهم ، فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر ، إنه لأوجز كتابٍ كتب به أحدٌ من الناس ؛ أربع كَلِم ، عزل فيها وعاتب ، واستحثّ وأمّر : « أما بعدُ ، فإنه بلَغنى نبأٌ عظيم ، فبعثتُ أبا موسى ، فسلِّم مافى يديك إليه ، والعَجَل ».

وكتب إلى أهل البَصْرة : « أمّا بعد ، فإنّى قد بعثتُ أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخذ لضعيفكم من قويّكم ، وليقاتل بكم عدوّكم وليدفع عن ذِمّتكم ، وليجْبِى [1] لكم فيئكم ، وليقسم فيكم ، وليحمىَ [2] لكم طُرقكم » .

فأهدى إليه المغيرة وليدةً من مولّدات الطائف تدعى عَقيلة، وقال : إنى قد رضيتُها لك —وكانت فارهة— وارتحل المغيرة ، وأبو بكْرة ، ونافع بن كَلَدَة ، وزياد ، وشِبْل بن معبَد البَجَلِىّ ، حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، فقال المغيرة : ياأميرَ المؤمنين ، سَلْ هؤلاء الأعبد : كيف رأَوْنى ؟ مستقبلَهم أم مستدبرهم ! وكيف رأوا المرأة وعرفوها فإن كانوا مستقبلىّ فكيف لم أستتر ! وإن كانوا مستدبرىّ فبأىّ شىء استحلّوا النّظر إلىّ فى منزلى على امرأتى ! والله ما أتيتُ إلّا امرأتى ، فبدأ بأبى بَكْرة فشهد عليه أنه رآه بين رجلىْ أمّ جميل ، وهو يدخِله ويخرجه ، قال عمر : كيف رأيتَهما ؟ قال : مستدبرَهما ، قال : كيف استثبتَّ رأسها ؟ قال : تحافيتُ . فدعا بِشِبْل بن معبد ، فشهد مثل ذلك ، وقال : استقبلتُهما واستدبرتُهما . وشهد نافع بمثل شهادة أبى بَكْرة ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم . قال :

(١) الطبرى : « ليحمى » . (٢) الطبرى : « لينقى » .

رأيته جالساً بين رجلي امرأة ، ورأيت قدمين مرفوعتين تخفقان ، واستَين مكشوفتين ؛ وسمعت حَفَزاً شديداً [١] ، قال عمر : فهل رأيته فيها كالمِيل فى المكحلة ؟ قال : لا ، قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال: لا ، ولكن أشبّهها ، فأمر عمر بالثلاثة فجُلدوا الحدّ، وقرأ : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [٢]. فقال المغيرة : الحمد لله الذي أخزاكم ! فصاح به عمر : اسكتْ أسكت الله نأمتك ! أما والله لو تمّت الشهادة لرجمتك بأحجارك . فهذا ماذكره الطبرى .

وأما أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانيّ ، فإنه ذكر فى كتاب الأغانى [٣] أنّ أحمد بن عبد العزيز الجوهرى، حدّثه عن عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمد ، عن قتادة ، قال: كان المغيرةُ بن شُعبة ـ وهو أمير البصرة ـ يختلف سرًّا إلى امرأة من ثَقِيف ، يقال لها الرقطاء ، فلقيَه أبو بَكْرة يوماً ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أزور آل فلان ، فأخذ بتلابيبه ، وقال : إن الأمير يُزار ولا يَزور .

قال أبو الفرج : وحدّثنى بحديثه جماعة ـ ذكر أسماءهم بأسانيد مختلفة ، لا نرى الإطالة بذكرها ـ أنّ المغيرة كان يخرج من دار الإمارة وَسَط النهار ، فكان أبو بَكْرة يلقاه ، فيقول له : أين يذهب الأمير ؟ فيقول له : إلى حاجة ، فيقول : حاجة ماذا ؟ إنّ الأميرَ يُزار ولا يَزور !

قالوا : وكانت المرأة التى يأتيها جارةً لأبى بَكْرة ، فقال : فبينا أبو بكرة فى غُرفة له مع أخويه : نافع وزياد ورجل آخر يقال له شِبْل بن معبد ـ وكانت غرفة جارته تلك محاذيةً غرفة أبى بكرة ـ فضربت الريح باب غرفة المرأة، ففتحته ؛ فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة يَنكحها ، فقال أبو بكرة : هذه بليّة قد ابتليتم بها ، فانظروا ، فنظروا حتى أثبتوا [٤] ،

---

(١) الطبرى : « حفزانا » .   (٢) سورة النور ١٣ .

(٣) الأغانى ١٦ : ٧٧ ـ ١٠٠ (طبع دار الكتب) .

(٤) أثبتوا : تيقنوا .

فنزل أبو بكْرة ، فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة ؛ فقال له أبو بَكْرة : إنه قد كان من أمرك ما قد علمت ، فاعتزلنا . فذهب المغيرة وجاء ليصلّي بالناس الظهر ، فمنعه أبو بكْرة وقال : لا والله لا تصلّ بنا ، وقد فعلت ما فعلت ! فقال الناس : دعوه فليصلِّ ، إنه الأمير ! وا كتبوا إلى عمر ، فكتبوا إليه ، فورد كتابه أن يقدَموا عليه جميعاً ؛ المغيرة والشهود.

قال أبو الفرج : وقال المدائنيّ في حديثه : فبعث عمر بأبي موسى ، وعزم عليه ألّا يضع كتابه من يده حتى يرحّل المغيرة .

قال أبو الفرج : وقال عليّ بن هاشم في حديثه : إنّ أبا موسى قال لعمر لما أمره أن يرحّل المغيرة من وقته : أوَ خيرٌ من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ نتركه فيتجهّز ثلاثاً ثم يخرج .

قالوا : فخرج أبو موسى حتى صلّى صلاة الغداة بظهر المِرْبد ، وأقبل إنسان فدخل على المغيرة ، فقال : إنّي رأيتُ أبا موسى قد دخل المسجد الغداة ، وعليه بُرنس ؛ وها هو في جانب المسجد ، فقال المغيرة : إنه لم يأت زائراً ولا تاجراً .

قالوا : وجاء أبو موسى ، حتى دخل على المغيرة ومعه صَحيفة ملء يده ، فلمّا رآه قال : أمير ! فأعطاه أبو موسى الكتاب ، فلمّا ذهب يتحرّك عن سريره قال له : مكانك ! تجهّز ثلاثاً .

قال أبو الفرج : وقال آخرون : إنّ أبا موسى أمره أن يرحَل من وقته ، فقال المغيرة : قد علمت ما وجّهت له ، فألّا تقدمت وصلّيت ! فقال : ما أنا وأنت في هذا الأمر إلّا سواء ، فقال المغيرة : إنّي أحبّ أن أقيم ثلاثاً لأتجهّز ، فقال أبو موسى : قد عزم عليّ أمير المؤمنين ألّا أضع عهدي من يدي ، إذا قرأته حتى أرحّلك إليه . قال : إن شئت شفّعتني ، وأبررت قَسَم أمير المؤمنين بأن تؤجّلني إلى الظهر ، وتمسك الكتاب في يدك .

قالوا : فلقد رُئيَ أبو موسى مقبلا ومدبراً ، وإنّ الكتاب في يده معلّق بخيط ، فتجهّز المغيرة ، وبعث إلى أبي موسى بعَقيلة ؛ جارية عربية من سَبي اليمامة ، من

بنى حنيفة ، ويقال : إنها مولّدة الطائف ، ومعها خادم ، وسار المغيرة حين صلّى الظهر ، حتى قدم على عمر .

قال أبو الفرج : فقال محمد بن عبد الله بن حزم فى حديثه : إنّ عمر قال له لما قدم عليه : لقد شُهِد عليك بأمرٍ ، إن كان حقًّا لأَنْ تكون متَّ قبل ذلك كان خيراً لك!

قال أبو الفرج : قال أبو زيد عُمر بن شبّة : فجلس له عمر ، ودعا به وبالشهود ، فتقدّم أبو بَكْرة ؛ فقال: أرأيتَه بين فخذيها ؟ قال : نعم والله ؛ لكأنّى أنظر إلى تَشْريم جدرىّ بفخذيها ، قال المغيرة : لقد ألطفت النّظر . قال أبو بَكْرة : لم آلُ أن أثبت مايخزيك الله به ! فقال عمر : لاوالله حتى تشهد : لقدرأيتَه يلجُ فيها كايلج المِرْودفى المكحلة؛ قال: نعم أشهد على ذلك ، فقال عمر : اذهبْ عنك مغيرة ، ذهب رُبْعك .

قال أبو الفرج : ويقال إن عليًّا عليه السلام هو قائل هذا القول . ثم دعا نافعاً فقال: علام تشهد ؟ قال : على مثل شهادة أبى بكْرة ، فقال عمر : لاحتّى تشهد أنك رأيته يلج فيها ولوجَ المِرْود فى المكحلة ، قال : نعم ، حتى بلغ قُذَذه (١) فقال: اذهب عنك مغيرة، ذهب نصفُك ، ثم دعا الثالث وهو شِبْل بن معبد ، فقال : علام تشهد ؟ قال : علَى مثل شهادة صاحبىّ ، فقال : اذهب عنك مغيرة ، ذهب ثلاثةُ أرباعك .قال :فجعل المغيرة يبكى إلى المهاجرين ، وبكى إلى أمّهات المؤمنين حتى بكين معه ، قال : ولم يكن زيادٌ حضر ذلك المجلس ، فأمر عمر أن ينحّى الشهود الثلاثة ، وألّا يجالسهم أحدٌ من أهل المدينة ، وانتظر قدومَ زياد ، فلمّا قدم جلس فى المسجد ، واجتمع رءوس المهاجرين والأنصار . قال المغيرة : وكنت قد أعددت كلمةً أقولها ، فلمّا رأى عمر زيادامقبلاً ،قال: إنّى لأرَى رجلاً لن يخزىَ الله على لسانه رجلاً من المهاجرين .

---

(١) قذذه : جمع قذة ؛ وهى جانب الخباء.

قال أبو الفرج : وفى حديث أبى زيد بن عمر بن شبّة ؛ عن السرىّ ، عن عبد الكريم ابن رشيد ، عن أبى عثمان النّهدىّ ، أنه لما شهد الشاهد الأول عند عمر ؛ تغيّر لذلك لونُ عمر ، ثم جاء الثانى فشهِد ، فانكسر لذلك انكساراً شديدا ، ثم جاء الثالث فشهِد ، فكأنّ الرّماد نُثر على وجه عمر ، فلمّا جاء زياد ، جاء شابٌّ يخطِر بيديه، فرفع عمر رأسه إليه وقال : ماعندك أنت ياسَلْح العُقاب ـ وصاح أبو عثمان النهدىّ صيحةً تحكِى صيحة عمر ـ قال عبد الكريم بن رشيد : لقد كدتُ أن يُغْشَى علىّ لصيحته .

قال أبو الفرج : فكان المغيرة يحدّث ، قال : فقمتُ إلى زياد ، فقلت : لامخبّأ لِعطْرٍ بعد عَرُوس يازياد ، أذكّرك الله وأذكّرك موقفَ القيامة وكتابه ورسوله ، أن تتجاوز إلى مالم ترَ ! ثم صحت : ياأمير المؤمنين إنّ هؤلاء قد احتقروا دمى فالله الله فى دمى ! قال : فترنّقت عينا زياد واحمرّ وجهه ، وقال : ياأمير المؤمنين ، أما إنّ أحقّ ما حقّ القوم ، فليس عندى، ولكنى رأيت مجلساً قبيحا ، وسمعت نَفَساحثيثا، وانبهارا، ورأيته متبطّنها، فقال عمر : أرأيته يدخِل ويخرج كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا !

قال أبو الفرج : وروى كثير من الرواة أنه قال : رأيته رافعاً برجليها ، ورأيت خُصيتيه متردّدتين بين فخذيها ، وسمعت حَفْزاً شديداً ، وسمعت نفَساً عاليا ؛ فقال عمر : أرأيتَه يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا ، فقال عمر : الله أكبر ! قم يامغيرة إليهم فاضربهم ، فجاء المغيرة إلى أبى بكرة فضربه ثمانين وضرب الباقين .

وروى قومٌ أن الضارب لهم الحدّ لم يكن المغيرة ، وأعجب عمر قولُ زيادٍ ، ودرأ الحدّ عن المغيرة ، فقال أبو بكرة بعد أن ضُرِب : أشهد أنّ المغيرة فعَل كذاوكذا ! فهمّ عمر بضربه ، فقال له علىّ عليه السلام : إنْ ضربته رجمت صاحبَك ! ونهاه عن ذلك .

قال أبو الفرج : يعنى إنْ ضربه تصير شهادته شهادتين ، فيوجب بذلك الرّجمَ على المغيرة .

قال : فاستتاب عمر أبا بكْرة ، فقال : إنّما تستتيبنى لتقبل شهادتى ، قال :أجل!قال: فإنّى لاأشهد بين اثنين مابقيتُ فى الدنيا ! قال : فلمّا ضُرِبوا الحدّ قال المغيرة :اللهأ كبر ، الحمد لله الذى أخزاكم ! فقال عمر : اسكت أخزى الله مكانا رأوْك فيه !

قال : وأقام أبو بكْرة على قوله ، وكان يقول:والله ماأنسى قطفخِذيْها،وتاب الاثنان، فقبل شهادتهما ، وكان أبو بكْرة بعد ذلك إذا طُلب إلى شهادة قال : اطلبوا غيرى،فإنّ زياداً أفسد علىّ شهادتى .

وقال أبو الفرج : وروى إبراهيم بن سعيد ، عن أبيه ، عن جده ، قال : لما ضُرِب أبو بكرة أمرت أمّه بشاة فذبحت وجعل جِلْدَها على ظهره ، قال إبراهيم : فكان أبى يقول : ماذاك إلّا من ضربٍ شديد .

قال أبو الفرج : فحدّثنا الجوهرىّ ، عن عمر بن شبّة ، عن علىّ بن محمد عن يحيى بن زكريا ، عن مجالد ، عن الشعبىّ ، قال : كانت الرقطاء التى رُمِى بها المغيرة تختلف إليه فى أيّام إمارته الكوفة ، فى خلافة معاوية فى حوائجها ، فيقضيها لها .

قال أبو الفرج : وحجّ عمر بعد ذلك مَرّةً ، فوافق الرقطاء بالموسم،فرآها،وكان المغيرة يومئذ هناك ، فقال عمر للمغيرة : ويحك ! أتتجاهل علىّ ! والله ماأظنّ أبا بكْرة كذَب عليك ، وما رأيتكَ إلّا خفت أن أرمى بحجارة من السماء !

قال : وكان علىٌّ عليه السلام بعد ذلك يقول : إن ظفرتُ بالمغيرة لأتبعتُه الحجارة.

قال أبو الفرج : فقال حسّان بن ثابت يهجو المغيرة ويذكر هذه القصّة :

لو انّ اللؤمَ ينسَبُ كان عبداً قبيحَ الوجه أعورَ من ثقيفِ

تركتَ الدين والإسلام لمّا   بدت لك غُدْوة ذاتُ النَّصيفِ
وراجعت الصِّبا وذكرت لهواً[1]   مع القَينات فى العُمْرِ اللّطيف

قال أبو الفرج : وروى المدائنيّ أنّ المغيرة لمّا شخص إلى عمر فى هذه الوقعة ، رأى فى طريقه جاريةً فأعجبتــه ، فخطبها إلى أبيها ، فقال له : وأنت على هــذه الحال ! قال : وما عليك ! إن أبقَ[2] فهو الذى تريد ، وإن أقتل تَرِثْنِي . فزوّجه .

وقال أبو الفرج : قال الواقدىّ : كانت امرأة من بنى مُرّة ، تزوّجها بالرَّقم[3]، فلمّا قدِم بها على عُمر ، قال : إنك لفارغ القلب ، طويل الشَّبَق .

فهذه الأخبـار كما تراها تدلّ متأمّلها على أنّ الرجل زَنَى بالمرأة لامحالة ، وكلّ كتب التواريخ والسِّيَر تشهد بذلك ، وإنما اقتصرنا نحنُ منها على مافى هذين الكتابين.

وقد روى المدائنيّ أنّ المغيرة كان أزنَى الناس فى الجاهليّة ، فلمّا دخـل فى الإسلام قيّده الإسلام ، وبقيتْ عنده منه بقية ظهرت فى أيام ولايته البصرة .

وروى أبو الفرج فى كتاب الأغانى عن الجاحظ أبى عثمان عمرو بن بحر ،قال : كان المغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وجَرير بن عبد الله البجَلىّ يوما متوافِقين بالكُناسة فى نفر ، وطلع عليهم أعرابىّ ، فقال لهم المغيرة : دعونى أحرّكه ، قالوا : لاتفعل ، فإنّ للأعراب جواباً يُؤْثَر ، قال : لابدّ ، قالوا : فأنت أعلم ، فقال له: ياأعرابىّ،أتعرف المغيرة ابن شعبة ؟ قال : نعم أعرفه ، أعورَ زانيا ، فوجَم ثمّ تجلّد ، فقال : أتعرف الأشعث بن قيس ؟ قال : نعم ذاك رجـل لايقْرِى قومه ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّهم حاكة . قال : فهل تعرف جرير بن عبد الله ؟ قال : كيف لاأعرف رجلاً لولاه ماعرفت عشيرته! فقالوا : قبّحك الله ، فإنك شرّ جليس ، هل تحبّ أن يُوقَر لك بعيرُك هذا مالًا وتموت

---

(١) الأغانى : « عهد » .   (٢) الأغانى : « أعف » .
(٣) الرقم : موضع بالحجاز قريب من وادى القرى .

أكرم العرب موتة ؟ قال : فمن يبلّغه إذن أهلي ؟ فانصرفوا عنه فتركوه [1] .

قال أبو الفرج : وروى عليّ بن سليمان الأخفش ، قال : خرج المغيرة بن شعبة وهو يومئذ على الكوفة ، ومعه الهيثم بن التيّهان النَّخَعِيّ غبّ مطر يسير ، فى ظهر الكوفة والنَّجَف ؛ فلقي ابن لسان الحُمَّرَة ، أحد بنى تيم الله بن ثعلبة ، وهو لا يعرف المغيرة ولا يعرفه المغيرة ، فقال له : من أينَ أقبلت ياأعرابيّ ؟ قال : من السَّماوة ؟ قال : كيف تركتَ الأرض خلفك ؟ قال : عريضة أريضة [2] ، قال : فكيف كان المطر ؟ قال : عَفّى الأثر، وملأ الحُفَر ، قال : فمن أنتَ ؟ قال : من بكر بن وائل ، قال : كيف علمك بهم ؟ قال: إن جهلتُهم لم أعرف غيرَهم ، قال : فما تقول فى بنِي شيبان ؟ قال : سادتنا وسادة غيرنا ، قال : فما تقول فى بنى ذُهْل ؟ قال : سادة نَوْكَى ، قال : فقيس بن ثعلبة ؟ قال : إن جاورتَهم سرقوك ، وإن ائتمنتَهم خانوك ، قال : فبنو تَيْمِ الله بن ثعلبة ؟ قال: رعاء النَّقَد [3] وعراقيب الكلاب ، قال فبنى يَشْكُر ؟ قال : صريح تحسبُه مولًى .

قال هشام بن الكلبي : لأنَّ فى ألوانهم حُمرة . قال : فعِجْل ؟ قال : أحلاس [4] الخيل ، قال : فعبد [5] القيس ؟ قال : يطعمون الطّعام ويضربون الهام ، قال : فعَنَزَة ؟ قال : لاتلتقى بهم الشفتان لؤما ، قال : فضُبَيعة أضجَم ؟ قال : جَدْعاً وعَقْرا [6] ! قال: فأخبرنى عن النّساء ، قال : النساء أربع : ربيع مُرْبِع ، وجميع مجمع ، وشيطان سَمَعْمَع ، وغلّ لايخلَع ، قال فسِّر ، قال : أما الربيع المربع ، فالّتي إذا نظرتَ إليها سرّتك ، وإذا أقسمْت عليها برّتك ، وأما التى هى جَميع مجمع ، فالمرأة تتزوّجها ولها نسب فيجتمع نسبُها إلى نسبك ، وأما الشيطان السَّمعمع فالكالحة فى وجهك إذا دخلْت ، المولولة فى أثرك

---

(١) الأغانى ١٦ : ٨٩ .

(٢) الأريضة : المعشبة .

(٣) النقد : صغار الغنم ، وفى الأغانى : « البقر » .

(٤) أحلاس الخيل : شجعان فرسان ملازمون لركوب الخيل .

(٥) الأغانى : « حنيفة » .

(٦) دعا عليهم بالجدع والعقر ؛ يريد أصابهم الاستئصال .

إذا خرجت ، وأما الغُلّ الذى لا يُخلع ؛ فبنت عمّك السّوداء القصيرة ، الفوهاء الدّميمة ، التى قد نثرت لك بطنَها ، إن طلقتَها ضاع ولدُك ، وإن أمسكتها فعلى جَدْع أنفك. قال[1] المغيرة : بل أنفُك . قال : فما تقول فى أميرك المغيرة بن شعبة ؟ قال : أعور زانٍ ، فقال الهيثم بن الأسود : فضّ الله فاك ! ويلك إنه الأمير المغيرة ! قال : إنها كلمة تقال . فانطلق به المغيرة إلى منزله ، وعنده يومئذ أربع نسوة وستّون ـ أو سبعون ـ أمَة ، وقال : ويحك! هل يزنى الحرّ وعنده مثل هؤلاء ! ثم قال لهنّ : ارمين إليه بحُليكنّ[2] ، ففعلن ؛ فخرج بملء كسائه ذهبا وفضة[3] .

وإنما أوردنا هذين الخبرين ليعلم السامع أنّ الخبر بزناه كان شائعاً مشهورا مستفيضاً بين الناس ، ولأنهما يتضمّنان أدبا ، وكتابنا هذا موضوع للأدب .

وإنما قلنا : إن عمر لم يخطئ فى درء الحدّ عنه ، لأن الإمام يستحبُّ له ذلك ، وإن غلب على ظنّه أنه قد وجب الحدّ عليه ، روى المدائنىّ أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السلام أُتِىَ برجلٍ قد وجب عليه الحدّ ، فقال : أهاهنا شهود ؟ قالوا : نعم ، قال : فأتونى بهم إذا أمسيتم ، ولا تأتونى إلّا معتمّين ، فلمّا أعتموا جاءوه ، فقال لهم : نشدت الله رجلاً مالى عنده مثل هـــذا الحدّ إلا انصرف ! قال : فما بَقِىَ منهم أحدٌ . فدرأ عنه الحدّ

ذكر هذا الخبر أبو حيّان فى كتاب " البصائر " فى الجزء السادس منه .

والخبر المشهور الّذى كاد يكون متواتراً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ادرءوا الحدود بالشبُهات » . ومَنْ تأمّل المسائل الفقهيّة فى باب الحدود ، علم أنها بنيتْ على الإسقاط عند أدنى سببٍ وأضعفه ، ألا ترى أنه لو أقرّ بالزنا ثم رجع عن إقراره قبل إقامة الحدّ ، أو فى وسطه قبل رجوعه وخلّى سبيله !

---

(١) الأغانى : «فقال» (٢) الأغانى : « بحلاكنّ » (٣) الأغانى ١٦ : ٩٠ ، ٩١ .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يستحبّ للإمام أن يلقّن المقرّ الرجوع ، ويقول له :تأمّل ماتقول ، لعلك مَسَستها ، أو قبّلتها . ويجب على الإمام أن يسأل الشهود :ماالزنا؟وكيف هو ؟ وأين زنى ؟ وبمن زنى ؟ ومتى زنى ؟ وهل رأوه وطئها في فرجها كالميل في المكحلة؟ فإذا ثبت كلّ ذلك سأل عنهم ، فلا يقيم الحدّ حتى يعدّلهم القاضي في السرّ والعلانية،ولا يقام الحدّ بإقرار الإنسان على نفسه ، حتى يقرّ أربعَ مرات في أربعة مجالس ، كلما أقرّ ردّه القاضي ، وإذا تمّ إقراره سأله القاضي عن الزّنا ؟ ماهو ؟ وكيف هو ؟ وأين زنى؟وبمن زنى ؟ ومتى زنى ؟

قال الفقهاء : ويجب أن يبتدئ الشهود برجمه إذا تكاملت الشهادة ، فإن امتنعوا من الابتداء برجمه سقط الحدّ .

قالوا : ولا حدّ على مَنْ وطئ جارية ولده ، أو ولد ولده ، وإن قال :علمت أنها علَيّ حرام ، وإن وطئ جارية أبيه أو أمه أو أخته ، وقال : ظننت أنها تحلّ لى فلا حدّ عليه، ومَنْ أقرّ أربعَ مرات في مجالسَ مختلفة بالزّنا بفلانة ، فقالت هي : بل تزوّجني ، فلا حدّ عليه ، وكذلك إن أقرّت المرأة بأنّه زنى بهافلانٌ ،فقال الرجل:بل تزوّجتها ،فلاحدّ عليها ، قالوا : وإذا شَهِد الشهود بحدّ متقادم من الزّنا لم يمنعهم عن إقامته بعدُهم عن الإمام ، لم تقبل شهادتهم إذا كان حدّ الزنا ، وإن شهدوا أنه زنى بامرأة ولا يعرفونها لم يحدّ ؛ وإن شهد اثنان أنّه زنى بامرأةٍ بالكوفة ، وآخران أنه زنَى بالبصرة دُرِئ الحدُّ عنهما جميعاً ، وإن شهد أربعة على رجل أنه زنى بامرأة بالنُّخَيلة عند طلوع الشمس من يوم كذا وكذا ، وأربعة شهدُوا بهذه المرأة عند طلوع الشمس ذلك اليوم بدير هند دُرِئ الحدّ عنه وعنها وعنهم جميعا ، وإن شهد أربعة على شهادة أربعة بالزنا لم يحدُّ المشهود عليه .

وهذه المسائل كلُّها مذهب أبى حنيفة ، ويوافقه الشافعىّ فى كثير منها ،ومَنْ تأمّلها علم أنّ مبنى الحدود على الإسقاط بالشبهات ، وإن ضعفت .

فإن قلت : كلّ هذا لايلزم المرتضى ، لأن مذهبه فى فروع الفقه مخالف لمذهب الفقهاء.
قلت : ذكر محمد بن النعمان — وهوشيخ المرتضَى ، الذى قرأ عليه فقه الإماميّة — فى كتاب "المقنعة" ، أن الشهود الأربعة إن تفرقوا فى الشهادة بالزنا ولم يأتوا بها مجتمعين فى وقت فى مكانٍ واحد ، سقط الحدّ عن المشهود عليه ، ووجب عليهم حدّ القذف .

قال : وإذا أقرّ الإنسان على نفسه بالزنا أربعَ مرات على إختيارٍ منه للإقرار وجب عليه الحدّ ، وإن أقرّ مرّة أو مرّتين أو ثلاثا لم يجبْ عليه الحدّ بهذا الإقرار ، وللإمام أن يؤدّبه بإقراره على نفسه حسب مايراه ، فإن كان أقرّ على امرأة بعينها جُلد حدّ القذف .

قال : وإن جعل فى الحفرة ليرجَم وهو مقرٌّ على نفسه بالزنا ففرّ منها ، ترك ولم يردّ ، لأن فِراره رجوعٌ عن الإقرار ، وهو أعلم بنفسه .

قال : ولا يجب الرّجم على المحصَن الذى يعدّه الفقهاء محصَناً ، وهو من وطىء امرأة فى نكاحٍ صحيح ، وإنما الإحصان عندنا مَنْ له زوجة أو مِلْك يمينٍ يستغنِى بها عن غيرها ، ويتمكّن من وطئها ، فإن كانت مريضةً لا يصل إليها بنكاح ، أو صغيرة لا يوطأ مثلها ، أو غائبة عنه أو محبوسة لم يكن محصَناً بها ، ولا يجب عليه الرّجم .

قال : ونكاح المتعة لا يحصّن عندنا ، وإذا كان هذا مذهب الإماميّة ؛ فقد اتّفق قولهم وأقوال الفقهاء فى سقوط الرّجم بأدنى سبب ، والذى رواه أبو الفرج الأصفهانى : إن زيادا لم يحضر فى المجلس الأول ، وأنه حضر فى مجلس ثانٍ ، فلعلّ إسقاط الحدّ كان لهذا .

ثم نعود إلى تصفّح مااعترض به المرتضى كلام قاضى القضاة .

أما قوله : كان الحدّ فى حكم الثابت ، فإن الله تعالى لم يوجب الحدّ إلا إذا كان ثابتا ، ولم يوجبه إذا كان فى حكم الثابت ، ويسأل عن معنى قوله : «فى حكم الثابت» : هل المراد بذلك أنه قريب من الثبوت ، وإن لم يثبت حقيقة ، أم المراد أنه قد ثبت وتحقق ؟ فإن أراد الثانى ، قيل له : لا نُسلّم أنه ثبت ، لأن الشهود لم تتمّ ، وقد اعترف المرتضى بذلك ، وأقرّ بأن الشهادة لم تكمُل ، ولكنه نسب ذلك إلى تلقين عمر ، وإن أراد الأوّل قيل له : ليس يكفى فى وجوب الحدّ أن يكون قريباً إلى الثبوت ؛ لأنه لو كفى ذلك لحدّ الإنسانُ بشهادة ثلاثة من الشهود .

وأما قوله : إنّ عمر لقّنه وكره أن يشهد ، فلا ريب أنّ الأمر وقع كذلك ، وقد قلنا : إنّ هذا جائز بل مندوب إليه ، ورويّنا عن أمير المؤمنين ما رويناه ، وذكرنا قول الفقهاء فى ذلك وأنهم استحبُّوا أن يقول القاضى المقرّ بالزنا : تأمّل ما تقوله ، لعلك مسستَها أو قبّلتها !

فأما قول المرتضى : إنه درأ الحدّ عن واحد ، وكان درؤه عن ثلاثة أولى ؛ فقد أجاب قاضى القضاة عنه بأنّه ما كان يمكن دفعه عنهم .

فأما قول المرتضى : بل قد كان يمكن دفعه عنهم ، بألّا يلقّن الرابع الامتناع من الشهادة ، فقد أجاب قاضى القضاة عنه : بأنّ الزّنا ووسْم الإنسان به أعظم وأشنعُ وأفحشُ من أن يوسَم بالكذب والافتراء ، وعقوبة الزانى أعظم من عقوبة الكاذب القاذف عند الله تعالى فى دار التكليف ، يبيّن ذلك أنّ الله تعالى أوجبَ جلْد ثلاثة من المسلمين ، لتخليص واحد شهد الثلاثةُ عليه بالزّنا ، فلو لم يكن هذا المعنى ملحوظاً فى نظر الشّارع لما أوجبه ، فكيف يقول المرتضى : ليس لأحدِ الأمرين إلّا ما فى الآخر !

وأما خبرُ السارق الذى رَواه قاضى القضاة ، وقول المرتضى فى الاعتراض عليه : ليس فى دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره فى المكروه ، وقصّة المغيرة تخالف هذا ، فليس بجيّد

لأنّ فى دفع الحدّ عن السارق إضاعة مال المسلم الذى سرق السارق فى زمانه . وفيه أيضاً إغراء أهل الفساد بالسَّرِقة ؛ لأنّهم إذا لم يقم الحدّ عليهم لمكان الجحود أقدموا على سرِقة الأموال ، فلو لم يكن عناية الشارع بالدماء أكثر من عنايته بغيره من الأموال والأبشار لما قال المكلّف : لا تقرّ بالسرقة ولا بالزنا ، ولما رجّح واحدا على ثلاثة ، وهان فى نظره أن تضرَب أبشارهم بالسّياط ، وهم ثلاثة حفظا لدم واحد .

وأمّا حديثُ صَفْوان وقول المرتَضَى فلا يشبه كلّ مانحن فيه ، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله بيّن أن ذلك القوْل يسقط الحدّ لو تقدم ، وليس فيه تلقين يوجب إسقاط الحدّ.

فجوابه أنّ قاضى القضاة لم يقصد بإيراد هذا الخبر إلّا تشييدَ قول عمر : أرى وجهَ رجلٍ لا يفضح الله به رجلاً من المسلمين ؛ لأن عمر كرِه فضيحة المغيرة ، كما كره رسول الله صلى الله عليه وآله فضيحة السارق الذى قال صفوان: « هو له »، وقال عليه السلام: « هلّا قبل أن تأتينى به ! » أى هلاّ قلتَ ذلك قبل أن تحضره ، فلم يفتضح بين الناس ! فإنّ قولك: « هو له » ، وإن درأ الحدّ إلّا أنّه لا يدرأ الفضيحة !

فأمّا ما حكاه قاضى القُضاة عن أبى علىّ ، من أن القذف قد كان تقدّم منهم وهم بالبصرة ، فقد ذكرنا فى الخبر ما يدلّ على ذلك ، فبطل قول المرتضى : إن ذلك غير معروف ، وإنّ الظاهر المروىّ خلافه .

وأما قول عمر للمغيرة : ما رأيتُكَ إلّا خفت أن يرميَنى الله بحجارة من السماء ؛ فالظاهر أنّ مراده ماذكره قاضى القضاة من التّخويف وإظهار قوة الظنّ بصدق الشهود ، ليكونَ ردْعاً له ؛ ولذلك وَرَد فى الخبر : ما أظنّ أبا بَكْرة كذب عليك ، تقديره : أظنّه لم يكذب ، ولو كان كما قال المرتضى ندما وتأسّفا على تفريط[1] وقع ، لأقام الحدّ عليه ، ولو بعد حين ؛ ومَن الّذى كان يمنعه من ذلك لو أراده !

---

(١) ساقطة من : ب .

وقوله : لِمَ يخافُ أن يرمَى بالحجارة وهو لم يدرأ الحدّ عن مستحق له ؟ جوابه أنّ هـذا القول يجرى مجرى التّهويل والتخويف المغيرة ، كيلا يقدم على أن يعرّض نفسه لشبهة فيا بعد .

فأما قول قاضي القضاة : إنّه غيرُ ممتنع أن يحبّ ألّا يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قبَله ، وقول المرتضى معترضا عليه : إن كونه والياً من قبَله لايقتضى أن يدرأ عنه الحدّ ، فغير لازم ، لأنّ قاضي القضاة ماجعل كونه واليا من قبَله مقتضيا أن يدَرأ عنه الحدّ ؛ وإنما قاله فى جواب مَنْ أنـكر على عمر محبّته لدرء الحدّ عنه ، فقال : إنه غير قبيح ، ولايحرم محبّة درء الحدّ عنه لأنه والٍ من قبَله ! فجعل الولاية للبصرة مسوّغة لمحبّة عمر لدفع الحدّ عنه ، لامسوّغة لدفع الحدّ عنه ، وبين الأمرين فرق واضح .

وأما قول المرتضى : إنّ الشرع حظَر كتمان الشهادة ؛ فصحيح فيا عدا الحدود، فأما فى الحدود فلا ، وقد وَرَد فى الخبر الصحيح : « مَنْ رأى على أخيه شيئا من هذه القاذورات وستر ، ستره الله يوم يفتضح المجرمون » .

فأما قول المرتَضى : هب أنّ الحدّ سقط ، أما اقتضت الحال تأديبَ المغيرة بنوع من أنواع التعزير وإن خفّ ! فـكلام لازم لاجواب عنه ، ولو فعله عمر لبرئ من التهمة براءة الذئب من دم يوسف ، وما أدرى كيف فاته ذلك مع تشدّده فى الدين وصلابته فى السياسة ! ولعله كان له مانع عن اعتماد ذلك لانعلمه !

* * *

الطعن السابع

أنه كان يتلوّن فى الأحكام ، حتى رُوِى أنّه قضَى فى الجدّ بسبعين قضيّة ـ ورُوِى

مائة قضيّة ـ وأنّه كان يفضّل فى القسمة والعطاء وقد سوّى الله تعالى بين الجميع ، وأنه قال فى الأحكام من جهة الرأى والحَدْس[1] والظنّ .

أجاب قاضى القضاة عن ذلك ، فقال : مسائل الاجتهاد يسوغ فيها الاختلاف والرجوع عن رأى إلى رأى ، بحسب الأمارات وغالب الظنّ ، وقد[2] ذكر أنّ ذلك طريقة أمير المؤمنين عليه السلام فى أمّهات الأولاد ، ومقاسمة الجدّ مع الإخوة ، ومسألة الحرام .

قال : وإنما الكلام فى أصل القياس والاجتهاد ، فإذا ثبت ذلك خرج من أن يكون طعناً ، وقد ثبت أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يولّى من يرى خلاف[3] رأيه ، كابن عباس وشُريح ، ولا يمنع زيدا وابن مسعود من الفُتْيا مع الاختلاف بينه وبينهما .

فأما ما رُوِى من السبعين قضيّة ، فالمراد به فى مسائل من الجدّ ، لأنّ مسألة واحدة لا يوجَد فيها سبعون قضيّة مختلفة ؛ وليس فى ذلك عيب ، بل يدلّ على سعة علمه .

وقال : قد صحّ فى زمان الرسول صلى الله عليه وآله مثلُ ذلك ، لأنّه لمّا شاور فى أمر الأسرى أبا بكر أشار ألّا يقتلهم ، وأشار عمر بقتلهم ، فمدحهما جميعا ، فما الذى يمنع من كون القولين صوابا من المجتهدين ، ومن الواحد فى حالين ؟

وبعد ، فقد ثبت أنّ اجتهاد الحسن عليه السلام فى طلب الإمامة كان بخلاف اجتهاد الحسين عليه السلام ، لأنّه سلّم الأمر وتمكّنه أكثرُ من تمكّن الحسين عليه السلام ، ولم يمنع ذلك من كونهما عليهما السلام مُصيبيْن .

---

(١) فى الأصول : « الحدّ » ، والصواب ما أثبته من الشافى .
(٢) الشافى : « وادّعى أن ذلك طريقة أمير المؤمنين » .
(٣) الشافى : « خلافه » .

اعترض المرتضى هذا الجواب، فقال[1] : لا شكّ أنّ التلوّن فى الأحكام والرجوع من قضاء إلى قضاء، إنما يكون عَيْباً وطعنا إذا أبطِل الاجتهاد الذى يذهبون إليه فأمّا لو ثبت لم يكن ذلك عيبا، فأما الدعوى على أمير المؤمنين عليه السلام أنه تنقّل فى الأحكام ورجع مِنْ مذهب إلى آخر، فإنها غيرُ صحيحة، ولا نسلّمه، [2] ونحن ننازعه فيها[2]، وهو لا ينازعنا فى تلوّن صاحبِه وتنقّله؛ فلم يشتبه الأمران.

وأظهرُ ماروِى فى ذلك خَبَرُ أمّهات الأولاد، وقد بينا فيما سلف من الكتاب مافيه، وقلنا : إنّ مذهبه فى بيعهنّ كان واحدا غير مختلف، وإن كان قد وافق عمر فى بعض الأحوال لضرب من الرّأى، فأمّا توليتُه لمن يرى خلاف رأيه، فليس ذلك لتسويغه الاجتهاد الذى يذهبون إليه، بل لما بيّناه من قبل؛ أنّه عليه السلام كان غير متمكّن من اختياره، وأنه يجرى أكثر الأمور مجراها المتقدّم للسياسة والتدبير، وهذا السّبب فى أنّه لم يمنع مَنْ خالفه فى الفُتيا.

فأما قوله : إنّ السّبعين قضيّة لم تكن فى مسألة واحدة، وإنّما كانت فى مسائل من الجدّ؛ فكلا الأمرين واحد فيما قصدناه، لأنّ حكم الله تعالى لا يختلِف فى المسألة الواحدة والمسائل، فأمّا أمرُ الأسارَى فإنْ صحّ فإنّه لا يشبه أحكام الدين المبنية على العلم واليقين، لأنّه لا سبيلَ لأبى بكر وعمر إلى المشورة فى أمر الأسارى إلّا من طريق الظنّ والحُسْبان، وأحكامُ الدين معلومة وإلى العلم بها سبيل.

وما ادّعاه من اجتهاد الحسن بخلاف اجتهاد الحُسين ليس على ماظنّه، لأنّ ذلك لم يكن عن اجتهاد وظنّ، بل كان عن علمٍ ويقين، فن أين له أنهما عملا على الظّن! فما نراه اعتمد على حُجّة! ومن أينَ له أنّ تمكُّنَ الحسَن كانأكثر من تمكن الحسين!

---

(١) الشافى : « يقال له » . (٢-٢) الشافى : « ونحن ننازعه فى ذلك كلّ النزاع، وندفعه إلى دفعه أشدّ الدفع؛ وهو لا ينازعنا فى تلون صاحبه فى الأحكام، فلم يشتبه الأمران » .

عَلَى أنّ هذا لو كان عَلَى ماقاله لم يحسن من هذا التّسليم ومن ذاك القتال ، لأنّ المقاتل قد يكون مغرّرا مُلقياً بيديْه إلى التهلكة ،والمسالم مضيّعا للأمر مفرّطا ،وإذا كان عند صاحب الكتاب التّسليم والقتال إنّما كانا عن ظنّ وأمارات فليس يجوز أن يغلِب على الظنّ بأنّ الرأى فى القتال مع ارتفاع أمارات التّمكن ، ولا أن يغلب فى الظنّ المسالمة مع قوّة أمارات التمكن(١).

* * *

قلت : أمّا القولُ فى صحّة الاجتهاد وبطلانه، فله مواضع غير هذا الموضع ، وكذلك القول فى تقيّة الإمام واستصلاحه وفعله مالا يسوغ لضرب من السّياسة والتدبير .

وأمّا مسائل الجدّ فلم يعترض المرتضى قولَ قاضى القضاة فيها ، وأمّا قاضى القُضاة فقد استبعد ، بل أحال أن تكون مسألة واحدة بعينها تحتمل سبعين حُكما مختلفة ، فحمل الحديث على أنّ عُمر أفتى فى باب ميراث الأجداد والجدّات بسبعين فتيا فى سبعين مسألة مختلفة الصّور ، وذلك دليل على علمه وفقهه ،وتمكّنه من البحث فى تفاريع المسائل الشرعية.

هذا هو جواب قاضى القضاة ، فكيف يعترض بقوله : كلا الأمرين واحد فيما قصدناه ؛ لأن حكم الله لا يختلف فى المسألة الواحدة والمسائل المتعددة ؛ أليس هذا اعتراض مَنْ ظَنّ أنّ قاضى القضاة قد اعترض بتناقض أحكامه ، ولكن لا فى مسألة بعينها ، بل فى مسائل من باب ميراث الجدّ ! ولم يقصد قاضى القضاة ماظنّه ، والوجه أن يعترض قاضى القضاة فيقال : إنّ الرّواة كلّهم اتفقوا على أنّ عمر تلوّن تلونا شديدا فى الجدّ مع الإخوة كيف يقاسمهم ؟ وهى مسألة واحدة ، فقضى فيها بسبعين قضيّة ، فأخرجوا الرواية مخرج التعجّب من تناقض فتاويه ، ولم يخرج أحدٌ من المحدّثين الرواية مخرج المدح له بسعة تفريعه فى الفقه والمسائل ، فلا يجوز صرفُ الرّواية عن الوضع الذى وردت عليه .

---

(١) الشافى ٢٥٦ .

وقول قاضي القضاة : كيف تحتمل مسألة واحدة سبعين وجها ! جوابه أنّه لم يقع الأمر بموجب ماتوهّمه ، بل المراد أنّ قوماً تحاكموا إليه فى هذه المسألة مثلا اليوم ، فأفتى فيها بفُتيا ، نحو أن يقول فى جدّ وبنت وأخت : للبنْت النّصف والباقى بين الجدّ والأخت ؛ للذَّكَر مثل حظ الأنثيين ، وهو قول زيد بن ثابت ، ثم يتحاكم إليه بعد أيام فى هذه المسألة بعينها ، قد وقعت لقوم آخرين ، فيقول : للبنت النصف وللجدّ السدس ، والباقى للأخت ، وهو المذهب المحكىّ عن علىٍّ عليه السلام ، وذلك بأن يتغلّب على ظنّه ترجيحُ هذه الفُتيا على ما كان أفتى به من قبل ، ثم تقع هذه المسألة بعينها بعد شهر آخر ، فيفتِى فيها بفتيا أخرى ، فيقول : للبنت النصف والباقى بين الجدّ والأخت نصفيْن ، وهو مذهب ابن مسعود ، ثم تقع المسألة بعينها بعد شهر آخر ، فيقضى فيها بالفُتيا الأولى ، وهى مذهب زيد ، بأنْ يعود ظنُّه مترجّحاً متغلّبا لمذهب زيد ، ثم تقع المسألة بعينها بعد وقت آخر ، فيفتى فيها بقول علىّ عليه السلام ، وهكذا لاتزال المسألة بعينها تقع ، وأقواله فيها تختلف ، وهى ثلاثة لامزيد عليها ، إلّا أنه لايزال يفتى فيها فتاوَى مختلفة ، إلى أن توفِّىَ فأحصيت ؛ فكانت سبعين فتيا .

فأمّا احتجاجُ قاضى القضاة بقصّة أسرى بدر فجيّد ، وأمّا ما اعترض به المرتضى فليس بجيّد ؛ لأن المسألة من باب الشّرع ، وهو قتل الأسرى أو تخليتُهم بالفداء ، والقتل وإراقة الدّم من أهم المسائل الشرعية ، وقد علم من الشّارع شدّة العناية بأمر الدّنيا ، فإن كانت أحكام الشرع لايجوز أن تتلقّى ، وأن يفتى فيها إلا بطريق معلومة ، وأنّ الظنّ والاجتهاد لامدخلَ له فى الشّرع ـ كما يذهب إليه المرتضَى ـ فكيف جازَ من رسول الله صلى الله عليه وآله أنْ يشاورَ فى أحكام شرعيّة مَنْ لاطريق له إلى العلم ، وإنّما قصارَى أمره الظنّ والاجتهاد والحسبان ! وكيف مدحهما جميعاً ، وقد اختلفا ، ولابد أن يكون أحدهما مخطئاً !

وأما قول المرتضى : مِنْ أينَ لقاضى القُضاة أنّ مااعتمـدَه الحسنُ والحسين من الكفّ والإقدام كان عن الاجتهاد ! فجيّد ، وجواب صحيح على أصول الإماميّة؛ لأنه ليس بمستحيل أن يعتمدا ذلك بوصيّة سابقة من أبيهما عليهما السلام .

وأما قوله لقاضى القضاة : كلامُك مضطرب ، لأنك أسندت مااعتمداه إلى الاجتهاد، ثم قلت : وقد كان تمكُّن الحسن أكثر من تمكن الحسين عليه السلام ، وهذا يؤدّى إلى أنّ أحدهما غرّر بنفسه والآخر فرّط فى تسليم حقّه؛ فليس بجيّد. والذى أراده قاضى القضاة الدلالة على جواز الاجتهاد ، وأنه طريقة المسلمين كلهم ؛ وأهل البيت عليهم السلام ، وأومأ إلى ما اعتمده الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية ، وما اعتمده الحسين من مُنازعة يزيد الخلافة ، فعملا فيها بموجب اجتهادهما ، وما غلَب على ظنونهما من المصلحة ؛ وقد كان تمكن الحسن عليه السلام فى الحال الحاضرة أكثر من تمكن الحسين عليه السلام فى حالِه الحاضرة ، لأن جند الحسن كان حوله ومُطيفاً به ـ وهم كما روى مائة ألف سيف ـ ولم يكن مع الحسين عليه السلام ممّن يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس؛ ولكن ظنهما فى عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً ، فكان الحسن يظنّ خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب ، وكان الحسين عليه السلام يظنّ نُصرة أصحابه عند اللقاء والحرب، فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر ؛ فقد بان أنّ قول قاضى القضاة غيرُ مضطرب ولا متناقض .

***

الطعن الثامن

ماروى عن عمر من قوله: «مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما » ؛ وهذا اللفظ قبيح لو صحّ المعنى ، فكيف إذ فسَد ! لأنه ليس ممن

يشرّع فيقول هذا القول ، ولأنه يُوهم مساواة الرسول صلى الله عليه وآله في الأمر والنّهى ، وأنّ اتّباعه أوْلى من اتّباع رسول الله صلى الله عليه وآله .

أجاب قاضي القضاة ، فقال : إنه إنما عَنَى[1] بقوله : «وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» كراهتَه لذلك ، وتشدّده فيه ، من حيث نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بعد أن كانتا في أيامه ، منبِّهاً بذلك على حصول النَّسْخ فيهما وتغيُّر الحُكْم ، لأنّا نعلم أنه كان متبعاً للرّسول ، متديّناً بالإسلام ، فلا يجوز أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله . وحكى عن أبي عليّ أنّ ذلك بمنزلة أن يقول : إني أعاقب مَنْ صلَّى إلى بيت المقدس ، وإن كان صُلِّيَ إلى بيت المقدس في حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله . واعتمد في تصويبه على كفّ الصحابة عن النّكير عنه . وادّعى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أنكر على ابن عباس إحلال المُتْعة ، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله تحريمها ؛ فأمّا مُتْعة الحج فإنما أراد ما كانو يفعلون من فَسْخ الحجّ ، لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع ، ولم يرد بذلك التمتع الّذِي يجري مجرى تقدّم العمرة وإضافة الحجّ إليها بعد ذلك ، لأنّه جائز لم يقع فيه قبح .

* * *

اعترض المرتضى هذا الكلام[2] فقال : ظاهر الخبر المرويّ عن عمر في المتعتَيْن يبطل هذا التأويل ، لأنه قال : « مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما » ، فأضاف النّهى إلى نفسه ، ولو كان الرسول نَهَى عنهما لأضاف النّهى إليه ، فكان آكد وأوْلَى ، فكان يقول : فنهى عنهما أو نسخهما وأنا من بعده أنهى عنهما وأعاقب عليهما . وليس يشبه ما ذكره من الصّلاة إلى بيت المقدس ، لأنّ نسخ

(١) الشافي : « وهذا غير لازم ، لأنه عنى بقوله : أنا انهى عنها » .
(٢) الشافي : « يقال له : ظاهر الخبر المروى . . . » .

الصلاة إلى بيت المقدس معلومٌ ضرورةً من دينه صلى الله عليه وآله ، وليس كذلك المتعة ، على أنّه لو قال : إنّ الصلاة إلى بيت المقدس كانت فى أيام النبي صلى الله عليه وآله جائزةً وأنا الآن أنهى عنها لكان قبيحاً شنيعاً ، مثل ما استقبحنا من القول الأوّل ، وليس هذا القول منه ردًّا على الرسول صلى الله عليه وآله ، لأنه لا يمتنع أن يكون استحسن حَظْرها فى أيّامه لوجهٍ لم يكن فيما تقدم ، واعتقد أنّ الإباحة فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كان لها شرط لم يوجَد فى أيامه ، وقد روى عنه أنّه صرّح بهذا المعنى ، فقال : إنما أحلَّ الله المتعةَ للنّاس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والنساء يومئذ قليلة ، ولذلك روى عنه فى مُتْعة الحجّ أنّه قال : قد علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فعلَها وأصحابه ، ولكن كرهت أن يظلّوا بها معرِسين تحت الأراك ، ثم يرجعوا بالحجّ تقطر رؤوسهم .

وأمّا[1] اعتمادُه على الكفّ عن النكير ، فقد تقدّم أنه ليس بحجّة إلا على شرائط شرحناها ؛ عَلَى أنّه قد رُوِى أنّ عمر قال بعد نهيه عن المتعة : لا أوتَى بأحدٍ تزوّج متعة إلا عذّبته بالحجارة ، ولو كنت تقدمت فيها لرجمت . وما وجدنا أحداً أنكر عليه هذا القول ، لأنّ المتمتّع عندهم لا يستحقّ الرّجم ، ولم يدل ترك التّنكير على صوابه .

فأما ادّعاؤه على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أنكر على ابن عباس إحلالها ؛ فالأمر بخلافه وعكسه ، فقد روى عنه عليه السلام من طرق كثيرة أنّه كان يفتى بها ، وينكر على محرّمها والناهى عنها ، وروى عمر بن سعد الهمدانيّ ، عن حُبيش بن المعتمر ، قال : سمعتُ عليًّا عليه السلام يقول : لولا ما سبق من ابن الخطاب فى المُتعة مازنى إلا شقيّ . وروى أبو بصير ، قال : سمعتُ أبا جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام يروى عن جدّه أميرَ المؤمنين عليه السلام : لولا ماسبقنى به ابن الخطاب مازنى إلا شقّى . وقد أفتى بالمتعة

---

(١) الشافى : « فأما » .

جماعة من الصحابة والتّابعين كعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ ، وسلمة بن الأكوع ، وأبي سعيد الخدريّ ، وسعيد بن جُبَير ، ومجاهد ، وغير ما ذكرناه ممّن يطول ذكره ، فأمّا سادةُ أهلِ البيت عليهم السلام وعلماؤهم فأمرهم واضح فى الفُتْيا بها ، كعليّ بن الحسين زين العابدين ، وأبي جعفر الباقر عليه السلام ، وأبي عبد الله الصادق عليه السلام ، وأبي الحسن موسى الكاظم ، وعليّ بن موسى الرضا عليهما السلام . وما ذكرنا من فُتْيا مَنْ أشرنا إليه من الصحابة بها يدلّ على أوضح بطلان ما ذكره صاحب الكتاب من ارتفاع التّنكير لتحريمها ؛ لأنّ مقامهم على الفُتْيا بها نكير .

فأمّا مُتعة الحجّ فقد فعلها النبي صلى الله عليه وآله والنّاس أجمع من بعده ، والفقهاء فى أعصارنا هذه لا يرونها خطأ بل صواباً .

فأمّا قول صاحب الكتاب : إنّ عمر إنما أنكر فسخ الحجّ فباطل ؛ لأن ذلك أوّلا لا يسمى مُتْعة ، ولأن ذلك ما فعل فى أيام النبي صلى الله عليه وآله ، ولا فعله أحدٌ من المسلمين بعده ، وإنما هو من سُنَن الجاهلية ، فكيف يقول عمر : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وكيف يغلظ ويشدد فيما لم يفعل ، ولا فعل[1] !

* * *

قلت : لا شبهة أنّ الظاهر من كلام عمر إضافة النّهى إلى نفسه ، لكنّا يجب علينا أن نتركَ ظاهر اللفظ إذا علمنا من قائله ما يوجب صرف اللفظ عن الظاهر كما يعتمده كلُّ أحد فى القرائن المقترنة بالألفاظ ، والمعلوم من حال عمر أنّه لم يكن يدّعى أنه ناسخ لشريعة

(١) الشافى ٢٥٧ ، وفيه : « ولا يفعل » .

الرسول صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان متديّناً بالإسلام وتابعاً للرسول الذى جاء به ، فوجب أن يحمَل كلامُه على أنّه أراد أنهما كانتا ثم حُرّمتا ، ثم أنا الآن أعاقب مَنْ فعلهما ، لأنه قد كان بلَغه عن قوم من المسلمين بعد علمهم بالتحريم . وقول المرتضى : لعلّه كان اعتقدَ أنّ الإباحة أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله كانت مشروطةً بشرط لم يُوجد فى أيامه ، قولٌ يبطل طعنه فى عمر ، ويمهّد له عذراً ويصيّر المسألة اجتهاديّة .

وأمّا طعنُه فى الاحتجاج على تصويب عمر بترك الإنكار عليه وقوله:فهلاّ أنكروا عليه قوله : لا أرى أحداً يستمتع إلّا رجمته ، فليس بطعن مستقيم ، وإنما يكون طعناً صحيحا لو كان أُتِيَ بمتمتّع فأمر برجمه ، فأمّا أن ينكروا عليه وعيدَه وتهديده ، لا لإنسان معيّن ، بل كلاما مطلقا ، وقولا كليًّا يقصد به حَسْم المادة فى المتعة ، وتخويف فاعلها ، فإنه ليس بمحلّ للإنكار عليه ، وما زالت الأئمة والصالحون يتوعّدون بأمرٍ ليس فى نفوسهم فعله، على طريق التأديب والتهذيب ؛ على أنّ قوما من الفقهاء قد أوجبوا إقامة الحدّ على المتمتّع ، فلا يمتنع أن يكون عمر ذاهبا إلى هذا المذهب .

فأما ماروَاه عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن الطّاهرين من أولاده ، من تحليل المتعة ، فلسنا فى هذا المقام نناكره فى ذلك وننازعه فيها،والمسألة فقهيّة من فروع الشريعة، وليس كتابنا موضوعا لذكره ، ولا الموضع الذى نحن فيه يقتضى الحِجاج فيها،والبحث فى تحليلها وتحريمها ، وإنّما الموضع موضع الكلام فى حال عمر ، ومانقل عنه من الكلمة؛ هل يقتضى ذلك الطعن فى دينه أم لا ؟

فأمّا متعة الحجّ فقد اعتذر لنفسه ، وقال ماقدّمنا ذكره ، من أن الحجّ بهاء من بهاء الله ، وأن التمتّع يكسفه ويذهب نوره ورونقه ، وأنهم يظلون معرِسين تحت الأراك ،ثم

يُهلون بالحجّ ورءوسهم تقطر ، وإذا كان قد اعتذر لنفسه فقد كفانا مؤنة الاعتذار .

* * *

الطعن التاسع

ماروى عنه من قصّة الشورى ، وكونه خرج بها عن الاختيار والنصّ جميعاً ، وأنه ذمّ كلّ واحد ، بأن ذكر فيه طعنا ثم أهّله للخلافة بعد أنْ طَعن فيه ، وأنّه جعل الأمر إلى ستّة ، ثم إلى أربعة [1] ؛ ثم إلى واحد ، قد وصفَه بالضعف والقُصور ، وقال : إن اجتمع علىّ وعثمان فالقول ماقالاه ، وإن صاروا ثلاثة وثلاثة فالقولُ للذين فيهم عبد الرحمن ، وذلك لعلمه بأن عليا وعثمان لا يجتمعان ، وأنّ عبد الرحمن لا يكاد يعدل بالأمر عَنْ ختَنه وابن عمه ، وأنه أمر بضرب أعناقهم إن تأخروا عن البيعة فوق ثلاثة أيام ، وأنه أمر بقتل مَنْ يخالف الأربعة منهم أو الذين فيهم عبد الرحمن .

أجاب قاضى القضاة عن ذلك ، فقال : الأمور الظاهرة لا يجوز أن يعترض عليها بأخبارٍ غيرِ صحيحة ، والأمر فى الشّورى ظاهرٌ ، وإنّ الجماعة دخلتْ فيها بالرّضا ، ولا فرْق بين من قال فى أحدهم : إنّه دخل فيها لا بالرضا وبين من قال ذلك فى جميعهم ، ولذلك جعلنا دخولَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الشّورى أحد مايعتمد عليه فى أن لانصّ يدل عليه ، أنه المختصّ بالإمامة ، لأنه قد كان يجب عليه أن يصرّح بالنصّ على نفسه ، بل يحتاج إلى ذكر فضائله ومناقبه ، لأنّ الحال حالُ مناظرة ، ولم يكن الأمر مستقرّا لواحد ، فلا يمكن أن يتعلّق بالتقيّة ، والمتعالَم من حاله أنّه لو امتنع من هذا الأمر فى الشورى أصلاً لم يلحقه الخوف فضلا عن غيره ، ومعلوم أنّ دلالة الفعل أحسنُ من دلالة القول ، من حيث كان الاحتمال فيه أقلّ ، والمرويّ أن عبدالرحمن [2] أخذ الميثاق على الجماعة

---

(١) الشافى : « ثم جعل الأمر الى ستة ، ثم إلى أربعة » .

(٢) فى الأصول : « عمر » ، والصواب ما أثبته من الشافى .

بالرضا بمن يختاره ، ولا يجب القدح فى الأفعال بالظنون ، بل يجبُ حملُها على ظاهر الصحّة دون الاحتمال ، كما يجب مثله فى غيرها ، ويجب إذا تقدمت للفاعل حالةٌ تقتضى حسنَ الظنّ به ، أن يُحمل فعلُه على مايطابقها ، وقد علمنا أن حالَ عمر وما كان عليه من النّصيحة للمسلمين ، منع من صَرْف أمره فى الشورى إلى الأغراض التى يظنّها أعداؤه،فلا يصحّ لهم أن يقولوا : كان مراده فى الشورى بأن يجعل الأمر إلى الفِرقة التى فيها عبد الرحمن عند الخلاف ، أن يتم الأمر لعثمان ؛ لأنه لو كان هذا مرادَه لم يكن هناك مايمنعه من النصّ على عثمان ، كما لم يمنع ذلك أبا بكر ، لأنّ أمره إن لم يكن أقوى من أمر أبى بكر لم ينقص عنه ؛ وليس ذلك بدعة ، لأنه إذا جاز فى غير الإمام إذا اختار أن يفعل ذلك ، بأن ينظر فى أماثل القوم فيعلم أنهم عشرة ، ثم ينظر فى العشرة ؛ فيعلم أنّ أمثلَهم خمسة ، ثم ينظر فى واحد من الخمسة ؛ فما الذى يمنع من مثله فى الإمام؛ وهو فى هذا الباب أقوى اختياراً،لأنّ له أن يختار واحداً بعينه !

ثم ذكر أنّه إنما حصره فى الجماعة الذين انتهى إليهم الفضْل ، وجعله شورى بينهم ، ثم بيّن أنّ الانتقال من السّتة إلى الأربعة ، ومن الأربعة إلى الثلاثة ، لا يكون متناقضاً ، لأنّ الأقوال مختلفة ؛ وليست واحدة ، ولو كانت أيضاً واحدة لكان كالرجوع؛وللإمام أن يرجع فى مثل ذلك ، لأنّه فى حكم الوصيّة .

قال : وقولهم : إنّه كان يعلم أنّ عثمان وعليا لا يجتمعان ، وأنّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان، قلّةُ دين ، لأنّ الأمور المستقبلة ، لا تُعلَم وإنما يحصل فيها أمارة . قال : والأمارات توجب أنه لم يكن فيهم حرص شديد على الإمامة ، بل الغالب من حالهم طلب الاتفاق والائتلاف والاسترواح إلى قيام الغير بذلك . وإنما جعل عمر الأمر إلى عبد الرحمن عند الاختلاف ، لعلمه بزهده فى الأمر ؛ وأنّه لأجل ذلك أقرب أن يتثبّت ، لأنّ الراغب

عن الشيء يحصل له من التثبّت مالا يحصل للراغب فيه ، ومَنْ كانت هذه حاله كان القوم إلى الرضا به أقرب .

وحكى عن أبى علىّ أنّ المخادعة إنما تظنّ بمن قصْده فى الأمور طريق الفساد ،وعُمر برىء من ذلك .

قال : والضعف الذى وُصِف به عبدالرحمن،إنما أرادَ به الضّعف عن القيام بالإمامة، لا ضعف الرأى ؛ ولذلك ردّ الاختيار والرأى إليه . وحكى عن أبى علىّ ضَعْف ماروى من أمره بضرب أعناق القوم إذا تأخّروا عن البيعة ، وأنّ ذلك لو صحّ لأنكره القوم ، ولم يدخلوا فى الشورى بهذا الشرط ؛ ثم تأوّله إذ سلم صحّته ، على أنّهم إن تأخّروا عن البَيْعة على سبيل شقّ العصا وطلب الأمر من غير وجهه . وقال : ولا يمتنع أن يقول ذلك على طريق التّهديد ، وإن بعدُ عنده أن يقدموا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

***

اعترض المرتضى هذا الكلام ، فقال : إنّ الذى رتّبه عمر فى قصّة الشورى، من ترتيب العدد واتفاقه واختلافه ، يدلّ أوّلا على بُطْلان مذهب أصحاب الاختيار فى عدد العاقدين للإمامة ، وأنه يتمّ بعقد واحد لغيره برضا أربعة ، وأنه لا يتمّ بدون ذلك؛ فإنّ قصّة الشُّورى تصرّح بخلاف هذا الاعتبار ؛ فهذا أحد وجوه المطاعن فيها .

ومن جملتها أنه وصف كلّ واحد منهم بوصفٍ زعم أنه يمنع من الإمامة ، ثم جعل الأمر فيمن له تلك الأوصاف، وقد روى محمد بن سعد ، عن الواقدىّ ، عن محمد بن عبدالله الزهرىّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، عن ابن عباس ، قال: قال عمر : لا أدرى ما أصنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك قبل أن يُطعَن، فقلت : ولِمَ تهتمّ وأنت تجد مَن تستخلفه

عليهم ؟ قال : أصاحبُكم ؟ يعني عليًا ، قلت : نعم ؛ هولها أهل ، فى قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصهره وسابقته وبلائه ، قال : إنّ فيه بَطالة [١] وفكاهة ،فقلت : فأين أنت من طلحة ؟ قال : فأين الزّهو والنّخوة ! قلت : عبد الرحمن ؟ قال : هو رجل صالح على ضَعْفٍ فيه ، قلت : فسعد ، قال : ذاك صاحب مِقْنَبٍ [٢] وقتال لايقوم بقرْية لو حمل أمرها ، قلت : فالزبير ، قال : وعْقة لَقِس [٣] مؤمن الرِّضا، كافر الغضب،شحيح؛ وإنّ هذا الأمر لا يصلح إلّا لقوىّ فى غير عنف ، رفيق فى غير ضعف ، وجواد فى غير سرَف ، قلت : فأين أنت عن عثمان ؟ قال : لو وليها لحمل بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس، ولو فعلها لقتلوه [٤] .

وقد يُروَى من غير هذا الطّريق أنّ عمر قال لأصحاب الشورَى : رُوحوا إلىّ ؛ فلمّا نظر إليهم قال : قد جاءنى كلّ واحدٍ منهم يهزّ عِفريتَه ، يرجو أن يكون خليفة ، أما أنت ياطلحة ؛ أفلست القائل : إن قُبِض النبي صلى الله عليه وآله أنكح أزواجه من بعده ؟ فما جعل الله محمداً أحقّ ببنات أعمامنا منّا ، فأنزل الله تعالى فيك : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ﴾[٥]. وأمّا أنت يازبير، فوالله مالَانَ قلبُك يوماً ولا ليلةً . وما زلت جِلْفاً [٦] جافيا ؛ وأمّا أنت ياعثمان، فوالله لَرَوثة [٧] خير منك ، وأمّا أنت ياعبد الرحمن ، فإنّك رجل عاجز تحبّ قومك جميعاً، وأما أنت ياسعد ، فصاحب عصبيّة وفتنة ،وأمّا أنت ياعلىّ ،فوالله لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرجَحهم ، فقام علىّ مولّيا يخرج ، فقال عمر: والله إنّى لأعلم مكان رجلٍ لو ولّيتموه

---

(١) الفائق : « ذاك رجل فيه دعابة » . (٢) المقنب من الخيل : الأربعون أو الخمسون .
(٣) فى الفائق : « رجل وعقة ولقة » ، إذا كان فيه حرص ووقوع فى الأمر ، بجهل وضيق نفس وسوء خلق » .
(٤) خبر ابن عباس مع عمر فى الفائق ٢ : ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، مع اختلاف فى العبارة .
(٥) سورة الأحزاب ٥٣ (٦) الجلف : الرجل الجافى الغليظ .
(٧) الروثة : واحدة الروث ، وهو سرجين الفرس .

أمرَ كم لحكم على الحجّة البيضاء ، قالوا : مَنْ هو ؟ قال : هذا المولَى من بينكم ، قالوا : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : ليس إلى ذلك سبيل .

وفى خبر آخر ؛ رواه البلاذرىّ فى تاريخه ؛ أنّ عمر لما خرج أهل الشورى من عنده ؛ قال : إنْ ولّوْها الأجلحَ [(١)] سلك بهم الطريق ، فقال عبدالله بن عمر : فما يمنعك منه ياأمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أتحمّلها حيًّا وميّتا .

فوصف كما ترى كلّ واحد من القوم بوصف قبيح يمنع من الإمامة ؛ ثم جعلها فى جملتهم ، حتى كأنّ تلك الأوصاف تزول فى حال الاجتماع ؛ ونحن نعلم أنّ الذى ذكره إن كان مانعا من الإمامة فى كلّ واحد على الانفراد ، فهو مانع من الاجتماع ؛ مع أنّه وصف عليا عليه السلام بوصفٍ لايليق به ، ولا ادّعاه عدوٌّ قطّ ، بل هو معروف بضدّه ، من الرّكانة والبعد عن المُزاح والدُّعابة ، وهذا معلوم ضرورة لمن سمع أخباره عليه السلام ؛ وكيف يُظنّ به ذلك ؛ وقد رُوِى عن ابن عبّاس أنه قال : كان أمير المؤمنين علىٌّ عليه السلام إذا أتى هِبْنا أن نبتدئه بالكلام ؛ وهذا لايكون إلا من شدّة التزمّت والتوقّر ؛ وما يخالف الدُّعابة والفكاهة .

ومما تضمَّنتْهُ قصّة الشورى من المطاعن ، أنه قال : لاأتحمّلها حيًّا وميتا ، وهذا إن كان علّة عدوله عن النصّ إلى واحدٍ بعينه ؛ فهو قول متلمس متخلّص ، لايفتات على الناس فى آرائهم ، ثم نقض هذا بأن نصّ على ستّةٍ من بين العالم كلّه ، ثم رتّب العدد ترتيبا مخصوصاً ، يؤول إلى أنّ اختيار عبدالرحمن هو المقدّم ؛ وأىّ شىء يكون من التحمّل أكثر [(٢)] من هذا ! وأىّ فرق بين أن يتحمّلها ، بأنْ ينصّ على واحدٍ بعينه ، وبين أن يفعل مافعله من الحصر والترتيب !

---

(١) الجلح : ذهاب الشعر من مقدم الرأس . (٢) ب : « أكبر » .

ومن جملة المطاعن أنَّه أمر بضرب الأعناق إن تأخَّروا عن البيعة أكثر من ثلاثة أيام ؛ ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقُّون القتل ، لأنهم إذا كانوا إنما كُلِّفُوا أن يجتهدوا آراءهم فى اختيار الإمام ، فربما طال زمان الاجتهاد ، وربما قصر بحسب ما يعرض فيه من العوارض ، فأىّ معنًى للأمر بالقتل إذا تجاوزوا الأيَّام الثلاثة ! ثم إنه أمر بقتل مَنْ يخالف الأربعة ، ومَنْ يخالف العدد الذى فيه عبد الرحمن ، وكلُّ ذلك ممّا لا يستحقّ به القتــل .

فأما تضعيف أبى علىّ لذكر القَتْل فليس بحجّة ، مع أنّ جميع مَنْ روى قصة الشورى روى ذلك ؛ وقد روى الطبرى [ذلك] [1] فى تاريخه وغيره .

فأمّا تأوّله الأمر بالقتل على أنّ المراد به إذا تأخَّروا على طريق شقّ العصا ، وطلب الأمر من غير وجهه ، فبعيد من الصواب ، لأنه ليس فى ظاهر الخبر ذلك ، ولأنهم إذا شقُّوا العصا ، وطلبوا الأمر من غير وجهه من أول يوم ، وجب أن يُمنَعوا ويقاتلوا ، فأىّ معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً !

فأما تعلّقه بالتهديد ، فكيف يجوز أن يتهدّد الإنسان على فعل بما لا يستحقّه ، وإن علم أنه لا يعزم عليه !

فأما قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [2] ، فيخالف ما ذكر ؛ لأنّ الشرك يستحقّ به إحباط الأعمال ، وليس يستحقّ بالتأخير عن البيعة القتل .

فأمّا ادّعاء صاحب الكتاب أنّ الجماعة دخلوا فى الشّورى على سبيل الرضا ، وأنّ عبد الرحمن أخذ عليهم العهد أن يرضوْا بما يفعله ، فمن قرأ قصّة الشورى على وجهها ، وعدَل عمَّا تُسوّله النفس من بناء الأخبار على المذاهب ؛ علم أنّ الأمر بخلاف ما ذكر . وقد روى الطبرىّ فى تاريخه عن أشياخه من طرق مختلفة ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال حين خرج من عند عمر بعد خطابه للجماعة بما تقدّم ذكره لقوم كانوا معه من بنى هاشم : إنْ طمع فيسكم قومكم لم تؤمَّرُوا أبدا . وتلقّاه العبّاس بن عبد المطلب ،

(١) من الشافى .

(٢) سورة الزمر ٦٥ .

فقال : يا عمّ عدلت عنّا ! قال : وما علمك ؟ قال : قُرِن بي عثمان ، وقال : كونوا مع الأكثر ، وإن رضي رجلان رجلاً ، ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ؛ فسعد لا يخالف ابنَ عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيوليها عبدُ الرحمن عثمان ، أو يوليها عثمانُ عبد الرحمن ، فلو كانَ الآخران معي لم ينفعاني بَلْهَ أني لا أرجو إلا أحدهما . فقال له العباس : لم أدفعك عن شيء إلّا رجعتَ إليّ مستأخراً ! أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسأله فيمن هذا الأمر ؟ فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجِل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ألّا تدخل معهم ، فأبيت ! فاحفظ عليّ واحدة ؛ كلّما عرَض عليك القوم فقلْ : لا ؛ إلا أن يولّوك ، واحذر هؤلاء الرهط ، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر ، حتى يقوم لنا به غيرنا وغيرهم ، وايمُ الله لا تناله إلا بشرٍّ لا ينفع معه خير .
فقال عليّ عليه السلام : أما والله لئن بقيَ عمر لأذكّرنه ما أتى إلينا ، ولئن مات ليتداولُنّها بينهم ، ولئن فعلوا ليجدُنّني حيث يكرهون ، ثم تمثّل :

حلفتُ بربّ الرّاقصاتِ عشيّةً   غدَوْنَ خِفافاً فابتدرن المحصّبا
ليَحتلبنْ رهط ابن يعمرَ مارئاً   نجيعا ، بنو الشُّدّاخ وردا مصلّبا

فالتفت فرأى أبا طلحة الأنصاريّ فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا تُرَع أبا حسَن (١) .

قال المرتضى : فإن قال قائل : أيّ معنى لقول العبّاس : إني دعوتُك إلى أنْ تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن هذا الأمر من قبل وفاته ؟ أليس هذا مبطلا لما تدعونه من النص !

قلنا : غير ممتنع أن يريد العباس سؤالَه عمّن يصير الأمر إليه ، وينتقل إلى يديه ،

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٥ (المطبعة الحسينية) .

لأنه قد يستحقه من لا يصل إليه ، وقد يصل إلى مَنْ لا يستحقه ، وليس يمتنع أن يريد : إنما كنّا نسأله صلى الله عليه وآله إعادة النصّ قبل الموت ، ليتجدّد ويتأكّد ، ويكونَ لقرب العهد إليه بعيداً من أن يُطْرح .

فإن قيل : أليس قد أنكرتُم على صاحب الكتاب من التأويل بعينه فيما استعمله من الرّواية عن أبي بكر من قوله : ليتني كنت سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل للأنصار في هذا الأمر حق ؟

قلنا : إنما أنكرناه في ذلك الخبر ، لأنه لا يليق به من حيث قال ؛ فكنّا لا ننازعه أهلَه ، وهذا قول مَنْ لا علم له بأنه ليس للأنصار حقٌّ في الإمامة ، ومن كان يرجع في أن لهم حقًّا في الأمر أو لا حقّ لهم فيه ، إلى ما يسمعه مستأنفا ، وليس هذا في الخبر الذي ذكرناه (١) .

وروى العباس بن هشام الكلبيّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، في إسناده ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام شكا إلى العباس ما سمع من قول عمر : كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف ، وقال : والله لقد ذهب الأمر منّا ، قال : وكيف قلت ذلك يا بن أخي ! قال: إنّ سعدا لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره ، فأحدهما يختار لصاحبه لا محالة ، وإن كان الزّبير وطلحة معي ، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين .

قال ابن الكلبيّ : عبد الرحمن زوج أمّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط ، وأمّها أرْوَى بنت كريز ، وأرْوَى أمّ عثمان ، فلذلك قال : صهره .

وفي رواية الطبريّ أنّ عبد الرحمن دعا عليا عليه السلام ، فقال : عليك عهدُ الله

---

(١) الشافي ٢٠٩ .

وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنّة رسوله ، وسيرة الخليفتين ؟ فقال : أرجو أن أفعلَ وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي [(١)] .

وفي خبر آخر عن أبي الطفيل ، أنّ عبد الرحمن قال لعليّ عليه السلام : هلمّ يدكَ خذها بما فيها ، على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر ، فقال : آخذها بما فيها ، عَلَى أن أسيرَ فيكم بكتاب الله وسنة نبيّه جهدي . فترك يده ، وقال : هلمّ يدك ياعثمان ، أتأخذها بما فيها على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر ؟ قال : نعم ، قال : هي لك ياعثمان .

وفي رواية الطبريّ أنه قال لعثمان مثل قوله لعليّ ، فقال : نعم ، فبايعه ، فقال عليّ عليه السلام : خُتونة حنّت دهرا [(٢)] .

وفي خبر آخر : نفعت الختونة يابن عوف ! ليس هذا أوّل يوم تظاهرتُمْ فيه علينا ! ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، والله ما ولّيتَ عثمان إلا ليردّ الأمر إليك ، والله كلّ يوم هو في شأن .

وفي غير رواية الطبريّ أنّ عبد الرحمن قال له : لقد قلتَ ذلك لعمر ، فقال عليه السلام : أوَ لَمْ يكُن ذلك كما قلت !

وروى الطبريّ أن عبد الرحمن قال : لاتجعلنّ ياعليّ عَلَى نفسك سبيلا ، فإنّي نظرتُ وشاورت النّاس ، فإذا هم لايعدِلون بعثمان ، فقام عليٌّ عليه السلام ، وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجَله [(٣)] .

وفي رواية الطبريّ أنّ الناس لمّا بايعوا عثمان تلكّأ عليٌّ عليه السلام ، فقال عثمان : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٦ (الحسينية) .
(٢) الطبري : « حبوته حبوة دهر » ، والختونة المصاهرة .
(٣) تاريخ الطبري ٥ : ٣٧ (الحسينية) .

عَظِيماً ﴾ (١) . فرجع علىٌّ عليه السلام حتى بايعه ، وهو يقول : خُدْعة وأىّ (٢) خدعة (٣) !

وروى البلاذرىّ فى كتابه ، عن ابن الكلبىّ ، عن أبيه ، عن أبى مِخنف، فى إسناده، أن عليا عليه السلام لما بايع عبدُ الرحمن عثمان كان قائما ، فقال له عبد الرحمن : بايِع وإلّا ضربتُ عنقَك ، ولم يكن يومئذ مع أحد سيف غيره ، فخرج علىّ مغضباً ، فلحقه أصحاب الشورى ، فقالوا له : بايع وإلّا جاهدناك . فأقبل معهم يمشى حتى بايع عثمان .

قال المرتضَى : فأىّ رضاً هاهنا ، وأىّ إجماع ! وكيف يكون مختارا من تُهدِّد بالقتل وبالجهاد ! وهذا المعنى وهو حديث ضرب العنق لو روتْه الشّيعة لتضاحك المخالفون منه وتغامزوا ، وقالوا : هذا من جملة ماتدّعونه من المحال ، وتروونه من الأحاديث، وقد أنطق الله به رواتهم ، وأجراه على أفواه ثقاتهم ، ولقد تكلّم المِقداد فى ذلك اليوم بكلام طويل، يفنّد فيه مافعلوه من بَيعة عثمان ، وعدولهم بالأمر عن أمير المؤمنين إلى أنْ قال له عبد الرحمن: يامقداد ، اتّق الله ، فإنّى خائف عليك الفتنة . ثم إنّ المقداد قام فأتى عليًّا ، فقال: أتقاتل فنقاتل معك ؟ فقال علىّ : فبمن أقاتل ! وتكلّم أيضا عمّار ـ فيما رواه أبو مخنف ـ فقال: يامعشرَ قريش ، أين تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيّكم ؟ تحوّلونه هاهنا مرة وهاهنا مرة ! أما والله ماأنا بآمن أن ينزعه الله منكم فيضعَه فى غيركم كما انتزعتموه من أهله ، ووضعتموه فى غير أهله . فقال له هشام بن الوليد : يابن سميّة ، لقد عدوت طورَك ، وما عرفت قدرَك ، وما أنت وما رأته قريش لأنفسها إنّك لست فى شىء من أمرها وإمارتها، فتنحَّ عنها . وتكلّمت قريش بأجمعها ، وصاحت بعمّار وانتهرته ، فقال : الحمد لله مازال أعوانُ الحقّ قليلا .

روى أبو مخنف أيضا أن عمّاراً قال هذا البيت ذلك اليوم:

---

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) الطبرى : « أيما » .
(٣) تاريخ الطبرى ٥ : ٤١ .

يا ناعيَ الإسلام قُمْ فانْعَهُ قَدْ مات عُرْفٌ وأتى منكَرُ!

أما والله لو أنّ لى أعواناً لقاتلتهم ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : لئن قاتلتهم بواحدٍ لأكونَنّ ثانيا ، فقال : والله ما أجدُ عليهم أعواناً ، ولا أحبّ أن أعرّضكم لما لا تطيقون .

وروى أبو مخنف ، عن عبد الرحمن بن جُندَب ، عن أبيه ، قال : دخلت على علىٍّ عليه السلام ، وكنت حاضراً بالمدينة يوم بويع عثمان ، فإذا هو واجم كئيب ، فقلت : ما أصاب قوم صَرَفوا هذا الأمر عنكم ! ، فقال صَبْرٌ جَمِيلٌ ! فقلت : سبحان الله ! إنك لصبور ! قال : فأصنع ماذا ؟ قلت : تقوم فى النّاس خطيبا فتدعوهم إلى نفسك ، وتخبرُهم أنك أوْلى بالنبيّ صلى الله عليه وآله بالعمل والسابقة ، وتسألهم النَّصر على هؤلاء المتظاهرين عليك ، فإنْ أجابَك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المائة ، فإن دانُوا لك كان ما أحببت ، وإنْ أبوْا قاتلتهم ، فإنْ ظهرت عليهم فهو سلطان الله آتاه نبيّه صلى الله عليه وآله ، وكنتَ أوْلَى به منهم إذ ذَهَبوا بذلك ، فردّه الله إليك ، وإن قتِلتَ فى طلبه فقتلتَ شهيدا ، وكنت أولى بالعذر عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة . فقال عليه السلام: أوَ تراه كان تابعى من كلّ مائة عشرة ! قلت : لأرجو ذلك ، قال : لكنّى لا أرجو ولا والله من المائة اثنين ، وسأخبرك من أين ذلك ! إنّ الناس إنّما ينظرون إلى قريش ؛ فيقولون : هم قوم محمد صلى الله عليه وآله وقبيلته ، وإنّ قريشا تنظر إلينا فتقول : إنّ لهم بالنبوّة فضلا عَلَى سائر قريش ، وإنّهم أولياء هذا الأمر دون قريش والناس ، وإنّهم إن ولّوه لم يخرج هذا السلطان منهم إلى أحدٍ أبدا ، ومتى كان فى غيرهم تداولتموه بينكم ، فلا والله لاتدفع قريش إلينا هذا السلطان طائعة أبدا. قلت: أفلا أرجع إلى المِصر فأخبر الناس بمقالتك هذه ، وأدعو النّاس إليك! فقال : ياجندَب ؛ ليس هذا زمان ذلك ، فرجعت فكلّما ذكرت للناس شيئاً من فضل علىٍّ زبرُونى

ونهرونى ، حتى رفع ذلك من أمرى للوليد بن عُقْبة ، فبعث إلىّ فحبسنى .

قال : وهذه الجملة التى أوردناها قليل من كثير ، فى أن الخلاف كان واقعاً ، والرضا كان مرتفعا ، والأمر إنّما تمّ بالحيلة والمكر والخداع ؛ وأوّلُ شىء مكَر به عبد الرحمن أنّه ابتدأ فأخرَج نفسه من الأمر ، ليتمكّن من صَرْفه إلى من يريد ، وليقال : إنّه لولا إيثاره الحقّ ، وزهده فى الولاية لما أخرج نفسه منها ، ثم عرض على أمير المؤمنين عليه السلام مايعلم أنه لايجيب إليه ، ولا تلزمه الإجابة إليه ؛ من السّيْر فيهم بسيرة الرجلين ، وعلم أنه عليه السلام لايتمكّن من أن يقول : إنّ سيرتهما لاتلزمنى، لئلا ينسَب إلى الطعن عليهما. وكيف يلزم سيرتهما ، وكلّ واحدمنهما لم يسِرْ بسيرة الآخر ! بل اختلفا وتباينا فى كثير من الأحكام ، هذا بعد أنْ قال لأهل الشورى : وثقوا إلىّ من أنفسكم بأنّكم ترضون باختيارى إذا أخرجت نفسى ، فأجابوه ـ على مارواه أبو مخنف بإسناده ـ إلى ماعرض عليهم، إلّا أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه قال : أنظر ، لعلمه بما يجرّ هذا المكر ، حتى أتاهم أبو طلحة ، فأخبره عبد الرحمن بما عرض وماجاء به القوم إياه إلا عليًّا ، فأقبل أبو طلحة على علىٍّ عليه السلام ، فقال : ياأبا الحسن ، إنّ أبا محمد ثقة لك وللمسلمين ، فما بالك تخالفه وقد عدَل بالأمر عن نفسه ، فلن يتحمّل المأثم لغيره ! فأحلَف علىٌّ عليه السلام عبدَ الرحمن بما عرض ألّا يميل إلى الهوى وأن يؤثر الحقّ ويجتهد للأمة ، ولا يحابى ذا قَرابة ، فحلَف له ، وهذا غاية مايتمكّن[1] منه أمير المؤمنين عليه السلام فى الحال ، لأنّ عبد الرحمن لمّا أخرج نفسه من الأمر ، وظنّت به الجماعة الخير ، وفوّضت[2] إليه الاختيار لم يقدر أمير المؤمنين عليه السلام على أن يخالفهم وينقض مااجتمعوا عليه ، فكان أكثر مايتمكّن منه أن أحلفَه ، وصرّح بما يخافه من جهته ، من الميل إلى الهوى ، وإيثار القرابة ، غير أنّ ذلك كلّه لم يغْنِ شيئاً !

(١) الشافى : « تمكن » . (٢) الشافى : « وفوضوا » .

قال : وأما قولُ صاحب الكتاب: إنَّ دخولَه فى الشُّورى دلالة على أنَّه لانصّ عليه بالإمامة ، ولو كان عليه نصٌّ لَصرّح به فى تلك الحال ، وكان ذِكْرُه أوْلَى من ذكر الفضائل والمناقب ، فإنّ المانع من ذكْر النصّ كونه يقتضِى تضليل مَنْ تقدّم عليه وتفسيقهم ،وليس كذلك تمديد المناقب والفضائل .

وأما دخوله عليه السلام فى الشُّورى ، فلو لم يدخل فيها إلّا ليحتجّ بما احتجّ به من مقاماته وفضائله ودرايته[1] ووسائله إلى الإمامة وبالأخبار الدالة عندنا عليها على النصّ والإشارة بالإمامة إليه ، لكان غرضاً صحيحاً ، وداعيا قويًّا . وكيف لايدخل فى الشُّورى وعندَهم أن واضعها قد أحسن النّظر للمسلمين ، وفعل مالم يسبَق إليه من التحرز للدِّين !

فأوّلُ ما كان يقال له لو امتنعَ منها : إنّك مصرّح بالطعن على واضعها وعلى جماعة المسلمين بالرّضا بها ، وليس طعنُك إلا لأنّك ترى أنّ الأمر لك ، وأنك أحقُّ به ! فيعود الأمر إلى ما كان عليه السلام يخافُه ، من تفرّق الكلمة[2] ووقوع الفتنة[3] .

قال : وفى أصحابنا القائلين بالنصّ مَنْ يقول : إنه عليه السلام إنّما دخل فى الشّورى لتجويزه أن ينال الأمر منها ، وعليه أنْ يتوصّل إلى مايلزمه القيامُ به من كلّ وجه يظن أن يوصّله إليه .

قال : وقولُ صاحب الكتاب إنّ التقيّة لايمكن أن يتعلّق بها ،لأنّ الأمر لم يكن استقرّ لواحد طَريف ، لأنّ الأمر وإن لم يكن فى تلك الحال مستقرًّا لأحد ، فمعلوم أنّ الإظهار بما يطعن فى المتقدمين من ولاة الأمر لايمكن منه ، ولا يرضى به ، وكذلك

---

(١) الشاف : « وذرائعه » . (٢) الشاف : « الأمة »
(٣) بعدها فى الشاف : « وتشتت الكلمة » .

الخروجُ مما يتفق أكثرهم عليه ، ويرضَى جمهورهم به ،ولا يُقرُّون أحداً عليه ،بل يعدّونه شذوذاً عن الجماعة ، وخلافا على الأمّة .

فأمّا قوله : إنّ الأفعال لا يقدَح فيها بالظنون ، بل يجب أن تحمل على ظاهر الصحّة ، وإنّ الفاعل إذا تقدّمت له حالة تقتضى حسنَ الظنّ به ، يجب أن تحمَل أفعاله على مايطابقها، فإنّا متى سلّمنا له بهذه المقدّمة لم يتمّ قصدُه فيها ، لأنّ الفعل إذا كان له ظاهر وجب أن يحمَل على ظاهره ، إلّا بدليل يعدل بنا عن ظاهره ، كما يجب مثلُه فى الألفاظ،وقد بيّنا أنّ ظاهر الشّورى وما جَرى فيها ؛ يقتضى ماذكرناه للأمارات اللائحة ، والوجوه الظاهرة ، فما عدلْنا عن ظاهر إلى محتمَل ، بل المخالف هو الذى يسومُنا أن نعدِل عن الظاهر ، فأمّا الفاعل وما تقدّم له من الأحوال ، فمتى تقدّم للفاعل حالة تقتضى أن يُظنّ به الخير من غير علم ولا يقين ، فلا بدّ أن يؤثّر فيها ، ويقدح أن يرى له حالة أخرى تقتضى ظنّ القبيح به ، لدلالة ظاهرها على ذلك . وليس لنا أن نقضىَ بالأولى على الثانية ، وهما جميعامظنونتان، لأنّ ذلك بمنزلة أن يقول قائل : اقضوا بالثانية على الأولى ؛ وليس كذلك إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضى بالخير منه ، ثم تليها حالة تقتضى ظنّ القبيح به ، لأنّا حينئذ نقتضى بالعلم على الظنّ ، ونبطل حكمه لمكان العلم ، وإذا صحّت هذه الجملة فما تقدّمت لمن ذكر حالة تقتضى العلم بالخير ، وإنما تقدم ما يقتضى حسن الظنّ ، فليس لنا ألّا نسىء الظنّ به عند ظهور أمارات سوء الظنّ ، لأنّ كلّ ذلك مظنون غير معلوم .

وقوله : لو أراد ذلك مامنَعه من أن ينصّ على عثمان مانع ، كما لم يمنع ذلك أبا بكر من النصّ عليه ، فليس بشىء ؛ لأنّه قد فعل مايقوم مقام النصّ على مَنْ أراد إيصاله إليه، وصرفه عمّن أراد أن يصرفه عنه ، من غير شناعة التصريح ، وحتى لا يقال فيه ماقيل فى أبى بكر ، ويراجَع فى قصته كما رُوجع أبو بكر ، ولِمَ يتعسّف أبعد الطريقين وغرضه يتمّ من أقربهما !

قال : فأمّا بيانُ صاحب الكتاب أنّ الانتقال من الستّة إلى الأربعة في الشورى ، ومن الأربعة إلى الثلاثة ، لا يكون تناقضا ، فهو ردٌّ على مَنْ زعم أنّ ذلك تناقض، وليس من هذا الوجه طعنًا ، بل قد بينّا وجوه المطاعن وفصّلناها .

وأمّا قوله : إنّ الأمور المستقبلة لا تعلم ، وإنما يحصُل فيها أمارة ردًّا على من قال : إن عمر كان يعلم أن عليًّا عليه السلام وعثمان لا يجتمعان ، وأنّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان، فكلام في غير موضعه ، لأنّ المراد بذلك الظنُّ لا العلم ، وإنّ عُبّر عن الظنّ بالعلم على طريقةٍ في الاستعمال معروفة ، لا يتناكرها المتكلمون . ولعلّ صاحب الكتاب قد استعمل العلم في موضع الظنّ فيما لا يحصى كثرة من كتابه هذا وغيره ، وقد بينّا فيما ذكرْناه من رواية الكلبيّ عن أبي مخنف ، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أوّل مَنْ سبق إلى هذا المعنى في قوله للعباس شاكيًا إليه: ذهبَ والله الأمر منّا ، لأن سعدا لا يخالف ابنَ عمّه عبدالرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان ، فأحدهما مختار لصاحبه لا محالة ، وإن كان الزُّبير وطلحة معي ، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابنُ عوف في الثلاثة الآخرين .

فأما قوله : إن عبد الرحمن كان زاهداً في الأمر ، والزاهد أقربُ إلى التثبّت ؛ فقد بينّا وجه إظهاره الزهد فيه ، وإنهُ جعله الذريعة إلى مراده .

فأمّا قولُ صاحبِ الكتاب : إنّ الضعفَ الّذي وصفه به إنّما أراد به الضّعف عن القيام بالإمامة لا ضعفَ الرأي ؛ فهب أنّ الأمر كذلك ، أليس قد جعله أحد مَنْ يجوّز أن يُختار للإمامة ، ويفوّض إليه مع ضعفه عنها ! وهذا بمنزلة أن يصفَه بالفسق ، ثم يدخله في جملة القوم ؛ لأنّ الضعف عن الإمامة مانع منها ، كما أنّ الفِسْق كذلك .

***

قلت : الكلامُ فى الشُّورى والمطاعن فيها طويل جدًّا ، وقد ذكرت من ذلك فى كتبى الكلامية وتعليقاتى ماقاله النَّاسُ ومالم أُسبَق إليه ، ولا يحتمل هذا الكتاب الإطالة باستقصاء ذلك ، لأنه ليس بكتاب حِجاج ونظر ؛ ولكنى أذكر منه نُكتاً يسيرة ، فأقول :

إن كانت أفعالُ عمر وأقواله قد تناقضتْ فى واقعة الشورى ـ كما زعم المرتضى رحمه الله ـ فكذلك أفعال أمير المؤمنين ـ إن كان منصوصاً عليه كما تقوله الإمامية ـ قد تناقضت أيضاً . أمَّا أوَّلا فإن كان منصوصا عليه ، فكيف أدخل نفسه فى الشورى المبنية على صحة الاختيار وعدم النصّ ! أليس هذا إيهاماً ظاهرا لأكثر المسلمين ، خصوصا الضَّعَفة منهم ، ومَنْ لانظر له فى دقائق الأمور عنده أنه غير منصوص عليه ! فكيف يجوز له إضلال المكلَّفين وأن يوقع فى نفوسهم عدم النصِّ مع كون النصِّ كان حاصلا !

وأمَّا عذر المرتضَى عن هذا ، بأنَّه دخل فى الشورى ، ليتمكّن من الاحتجاج على أهل الشورى بمقاماته وفضائله ، فيقال له : قد كان الدَّهرَ الأطول مخالطاً لأهل الشورى وغيرهم ، مجتمعاً معهم فى المسجد وغيره من مواطن كلّ يوم بل كلّ ساعة ؛ فلا يجوز أن يقال : دخل ليضمّه وإيّاهم أو يظلّهم سقف ، فيتمكّن بذلك من ذكر مقاماته وفضائله بينهم ؛ لأنَّ العاقل لايجوز أن يرتكبَ أمراً يُوهِم القبيح ، ليفعل فعلا قد كان من قبله بثلاث عشرة سنة متمكّنا من أن يفعله من غير أن يرتكب ذلك الأمر الموهم للقبيح ؛ وليت شعرى مَن الَّذِى كان يمنعه أيَّام أبى بكر وعمر من أن يذكر مقاماته وفضائله ويفتخر بها ! وَلِمَ انفك عليه السلام من ذكر فضائله والفخر بمناقبه فى تلك المدة الطويلة وقد كان عمر وهو المعروف المشهور بالغلظة والفظاظة يذكر فضائله ويعترف بها ! فلست أرى لعذر المرتضى أصلًا بهذا الوجه أو معنى !

فأما عـذره الثانى عن دخوله فى الشورى بقوله : لو لم يدخل فيها لقيل له : إنك قد طمنت على واضع الشورى ، وليس ذلك إلا لأنك ترى الأمر لك ، فليس بعذر جيّد ؛ لأنه لو امتنعَ من الدخول فيها على وجه الزُّهد وقلّة الالتفات إلى الولاية والإعراض عن السلطان والإمرة لما نسبَه أحدٌ إلى ماذكره المرتضَى أصلا ، ولقال الناس : رجلٌ زاهد لايريد الدنيا ، ولا يرغب فى الرّياسة ؛ ثم ما المانع من أن يقول لعمر وهو حىٌّ : نشدتُك الله لا تدخِلْنى فيها ؛ فإنّى لا أريدها ولا أوثرها ! أتراه كان فى جواب هـذا الـكلام يأمر بقتله ، ويقول له : إنما امتناعك لأنّك تدّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ عليك ؛ فلا ترى أخذ الأمر من جهتى وتولّيه من طريقى ، وإنّما تريده بمحض النصّ الأول لاغير ! ما أظنّ أن عاقلًا يخطر له أنّ ذلك كان يكون ، فهذا العذر بارد لامعنى له كالعذر الأول .

فأما عذرُه الثالث ، وهو قوله : إنّه كان يجب عليـه أن يتوصّل إلى القيام بالأمر بكلّ طريق ، لأنه يلزمه القيام به ، فعذرٌ جيد لا بأس به .

وأما ثانيا فيقال للمرتَضَى : هب أنّا نزلنا عن الدخول فى الشورى ، هـلّا عرض للجماعة وهم مجتمعون ، وهو يعدُّ لهم مناقبَه وفضائله بذكر النصّ ؛ وذلك بأن يكنّى عنه كنايةً لطيفة، فيقول لهم : قد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس فى حقّى ماتعلمون! أتراهم كانوا فى جواب هـذه الـكلمة يقتلونه ! ماأظنّ أنهم كانوا يجتمعون على ذلك . ولا بدّ لو عرّض بشىء من ذلك كان من كلام يدور بينهم فى المعنى ، نحو أن يقولوا : إنّ ذلك النصّ رجع عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو يقولوا : رأى المسلمون تركه للمصلحة ،أو يجرى بينه وبينهم جِدال ونزاع؛ ولم يكن هناك خليفة يخاف جانبَه؛ وإنما كان مجلس مناظرة وبحث ، ولم يستقرّ الأمر لأحد .

وقول المرتضى: إنه وإن كان كذلك؛ إلا أنّهم كانوا لايرضون أن يطعن فى المتقدّمين

منهم، ويكرهون منه ذلك ، ولا يُقِرّونه عليه ، ويعدّونه شذوذاً له عن الجماعة، وخلافاً للأمّة قول صحيح ، إذا كان القائل يقوله على وجه شقّ العصا والمنابذة، وكشف القناع، وإذا قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والادّكار بما عساهم نسُوه ، وحسن التلطّف والرفق بهم ، والاستمالة لهم ، وتذكيرهم حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله ، وميثاقه الذى واثقهم به، فإنه لا يقع منهم فى مقابلة ذلك قتله ، ولا قطع عضو من أعضائه ، ولا إقامة الحدّ عليه . وأقصى ما فى الباب أنّهم كانوا يردّون ذلك عليه بكلامٍ مثل كلامه ، ويجيبونه بجواب يناسب جوابَه ، ويدفعونه عمّا يرومُه بوجهٍ من وجوه الدفع ، إن كانوا مقيمين على الإصرار على غصب الحقّ منه .

وأما ثالثا ، فإن كان عليه السلام — كما تقوله الإماميّة — منصوصاً عليه ، فما الذى منعه لمّا قال له عبد الرحمن : أبايعك على أن تسيرَ فينا بسيرة الشيخين ، أن يقول : نعم ! فإنه لو قال : نعم ، لبايعه عبدُ الرحمن ، ووصل إلى الأمر الذى يلزمه القيام به ؛ وإلى الحال التى كان يتوصّل بكلّ طريق إلى الوصول إليها .

وقول المرتضى : إن سيرتَيهما كانت مختلفة ، لأنّ أحدهما حكَم بكثير مما حكم الآخر بضدّه ليس بجَيِّد ، لأنّ السيرة التى كان عبد الرحمن يطلبُها ذلك اليوم ، هو الأمر الكلّىّ فى إيالة الرعيّة وسياستهم ، وجباية الفىء ، وظَلَف الوالى نفسَه وأهلَه عنه وصرفِه إلى المسلمين، ورمّ الأمور ، وجمع العمّال، وقهر الظلَمة، وإنصاف المظلومين، وحماية البَيْضة، وتسريب الجيوش إلى بلاد الشّرك ، هذه هى السيرة التى كان عبد الرحمن يشترِطها ، وهى التى طلبها الناس بعد ذلك ، فقالوا لمعاوية فى آخر أيامه ، ولعبد الملك ولغيرهما وصاحوا بهم تحت المنابر : نطلب سيرة العُمَرَيْن ؛ ولم يريدوا فى الأحكام والفتاوَى الشرعية ، نحو القول فى الجدّ مع الإخوة،

والقول فى الكلالة ، والقول فى أمهات الأولاد ؛ فما أعلم الذى منع أمير المؤمنين عليه السلام من أن يقول لعبد الرحمن : نعم ، فيأخذها ! ثم كان إذا أخذها أقدر الناس على هذه السيرة ، وأقوام عليها . فواعجبا ! بيناهو يطالب الخلافة أشدّ الطلب ، فإذا هو ناكص عنها ، وقد عرضت عليه على أمرٍ هو قيّم به ! ولهذا كان الرأى عندى أن يدخل فيها حينئذ ، ومَن الذى كان يناظره بعد ذلك ويجادله ، فيقول : قد أخللتَ بشىء من سيرة أبى بكر وعمر ! كلّا إن السّيف لِضاربه ، والأمر لمالكه ، والرعيّة أتباع ، والحُكم لصاحب السلطان منهم !

ومن العجب أنْ يقول المرتضَى : إنه لأجل التقيّة وافق عَلَى الرّضا بالشّورى ! فهلّا اتّقى القوم ، وقد ذكروا له سيرة الشيخين فأباها وكرهها ! ومَنْ كان يخاف على نفسه أن لو أظهر الزّهد فى الخلافة والرغبة عن الدخول فى أمر الشورى ! كيف لم يخفْ على نفسه، وقد ذكرت له سيرة الشيخين فتركها ، ولم يوافق عليها ، وقال : لا بل عَلَىَّ أن أجتهد رأيى !

وأما قول المرتضى : إنه وصف القوم بصفاتٍ تمنع من الإمامة ، ثم عيّنهم للإمامة ، فنقول فى جوابه : إنّ تلك الصفات لا تمنع من الإمامة بالكليّة ، بل هى صفات تنقص فى الجملة ، أى لو لم تكن هذه الصفات فيهم ، لكانوا أكمل ، ألَا ترى أنه قال فى عبد الرحمن : رجل صالح عَلَى ضعف فيه ! فذكر أنّ فيه ضعفاً يسيرا ، لأنه لو كان يرى ضعفه مانعاً من الإمامة لقال : ضعيف عنها جدًّا ، أو لا يصلح لها لضعفه . وكذلك قوله فى أمير المؤمنين : فيه فُكاهة ، لأن ذلك لا يمنع من الإمامة ، ولا زهو طلحة ونخوته ، ولا ما وصف به الزبيرُ من أنه شديد السّخط وقت غضبه ، وأنه بخيل ، ولا تولّيه الأقارب عَلَى رقاب الناس إذا لم يكونوا افتاقا. وأقوى عيب ذكره ما عاب به سعداً فى قوله : صاحب

مِقْنب وقتال ، لا يقوم بقَرْيَةٍ لو حَمَل أمرها . ويجوز أن يكون قال ذلك عَلَى سبيل المبالغة فى استصلاحه ، لأن يكون صاحب جيش يقاتل به بين يدى الإمام ، وأنه ليس له دُرْبة ونظر فى تدبير البلاد والأطراف ، وجباية أموالها ؛ ألا تراه كيف قال : لا يقوم بقرْيةٍ ! ويجوز أن يلىَ الخلافة مَنْ هذه حاله ، ويستعين فى أمر العباد والبلاد وجباية الأموال بالكُفاة الأمناء .

فأما الرواية الأخرى التى قال فيها لعثمان : لَرَوْثة خير منك ! فهى من روايات الشّيعة ، ولسنا نعرفها من كتب غيرهم .

فأما قوله : كيف قال : لا أتحمّلها حيًّا وميّتا ؛ فحصر الخلافة فى العدد المخصوص ، ثم رتّبها ذلك الترتيب ، إلى أن آلت إلى [اختيار] عبد الرحمن وحدَه ! فنقول فى جوابه : إنه كان يحبّ ألّا يستقلّ وحده بأمر الخلافة ، وأن يشاركه فى ذلك غيرُه من صلحاء المهاجرين ، ليكون أعذرَ عند الله تعالى وعند الناس ، وإذا كان قد وضع الشورى عَلَى ذلك الوضع المخصوص ، فلم يتحمّلها استقلالا ، بل شَرَكه فيها غيره ، فهو أقلّ ؛ لتحمله أمرها لو كان عيّن عَلَى واحد بعينه .

وأما حديث القتل ، فليس مراده إلّا شقّ العصا ، ومخالفة الجماعة ، والتوثّب على الأمر مغالبة .

وقول المرتضَى : لو كان ذلك من أوّل يوم لوجب أن يمنع فاعله ويقاتل ، فأىّ معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً ! فإنه يقال له : إنّ الأجل المذكور لم يضرَبْ لقتل مَن يشقّ العصا ، وإنما ضُرِب لإبرامهم الأمر وفصله قبل أن تتطاول الأيام بهم ؛ ويتسامع مَنْ بَعُدَ عن دار الهجرة أن الخليفة قد قتل ، وأنهم مضطربون إلى الآن ، لم يقيموا لأنفسهم خليفةً بعده ، فيطمع أهل الفساد والدَّعارة[1] ، ولا يؤمَن وقوع الفتن ،

(١) الدعارة (بالفتح والكسر) : الخبث والشر .

ولا يؤمَن أيضا أن يستردّ الروم وفارس بلاداً قد كان الإسلام استولى عليها ، لأنّ عدم الرئيس مطمِعٌ للعدوّ فى ملكه ورعيّته .

* * *

فأمّا الأخبار والآثار التى ذكرها المرتضَى فى مبايعة علىّ عليه السلام لعثمان ، وأنّه كان مكرَهاً عليها أو كالمكرَه ، وأنّ الرّضا كان مرتفعاً ، والخلاف كان واقعا ، فكلام فى غير موضعه ، لأنّ قاضى القضاة لم ينحُ بكلامه هذا النّحو ، ولا قصد هذا القصد ، ليناقضه بما رواه وأسنده من الأخبار والآثار ، ولا هـذا الموضع من كتاب " المغنى " موضع الكلام فى بيعة عثمان وصحّتها ووقوع الرّضا بها ، فيطعن المرتضى فى ذلك بما رواه من الأخبار والآثار الدّالة على تهضّم القوم لأمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه وشيعته وتهدّدهم ، وإنما الرضا الذى أشار إليه قاضى القضاة ، فهو رضا أمير المؤمنين عليه السلام بأن يكون فى جملة أهل الشورى ، لأن هذا الباب من كتاب " المغنى " هو باب نفى المطاعن عن عمر ، وقد تقدّم ذكر كثير منها .

ثم انتهى إلى هذا الطّعن ، وهو حديث الشورى ؛ فذكر قاضى القضاة أنّ الشورى مِمّا طُعِن بها عليه ، وادّعِى أنّها كانت خطأ من أفعاله ، لأنها لا نصّ ولا اختيار ، ألا تراه كيف قال فى أوّل الطعن : تخرج بها عن النصّ والاختيار ! فنقول فى الجواب :

لو كانت خطأ لما دخَل علىٌّ عليه السلام فيها ، ولا رَضِىَ بها ، فدخوله فيها ورضاه بها دليل عَلَى أنها لم تكن خطأ ، وأين هـذا من بيْعة عثمان ، حتى يخلط أحد البابين بالآخر !

فأمّا دعواه أنّ عمر عمل هذا الفعل حيلةً ، ليصرف الأمر عن علىّ عليه السلام من حيث علم أنّ عبد الرحمن صهرُ عثمان ، وأنّ سعداً ابنُ عمّ عبد الرحمن فلا يخالفه ؛ فجعل

الصواب فى الثلاثة الذين يكون فيهم عبد الرحمن ، فنقول فى جوابه :

إنّ عمر لو فعل ذلك وقَصَده لـكان أحمق النّاس وأجهلَهم ، لأنه من الجائز ألّا يوافق سعدٌ ابنَ عمّه لعداوة تكون بينهما ، خصوصا من بنى العمّ ، ويمكن أن يستميل علىٌّ عليه السلام سعداً إلى نفسه ، بطريق آمنة بنت وهب ، وبطريق حمزة بن عبد المطلب ، وبطريق الدّين والإسلام ، وعهد الرسول صلى الله عليه وآله ؛ ومن الجائز أن يعطف عبدُ الرحمن عَلَى علىٍّ عليه السلام لوجهٍ من الوجوه ، ويعرض عن عثمان ، أو يبدوَ من عثمان فى الأيام الثلاثة أمرٌ يكرهه عبد الرحمن ، فيتركه ويميل إلى علىٍّ عليه السلام . ومن الجائز أن يموتَ عبد الرحمن فى تلك الأيام ، أو يموت سعد ، أو يموت عثمان ، أو يقتل واحد منهم فيخلص الأمر لعلىّ عليه السلام ، ومن الجائز أن يخالف أبو طلحة أمرَه له أن يعتمِد عَلَى الفرْقة التى فيها عبد الرحمن ، ولا يعمل بقوله ، ويميل إلى جهة علىٍّ عليه السلام ، فتبطل حيلته وتدبيره !

ثم هب أنّ هذا كلّه قد أسقطناه، مَن الذى أجبر عمر وأكرهَه وقَسرَهُ عَلَى إدخال علىٍّ عليه السلام فى أهل الشورى ؟ وإن كان مراده — كما زعم المرتضى — صرفَ الأمر بالحيلة ، فقد كان يمكنه أن يجعل الشورى فى خمسة ، ولا يذكر عليا عليه السلام فيهم ، أتراه كان يخاف أحداً لو فعل ذلك ! ومَنِ الذى كان يجسر أن يراجعه فى هذا أو غيره ! وحيث أدخله مَنِ الذى أجبره عَلَى أن يقول : إن وليَها ذلك لحمَلهم عَلَى الحجّة البيضاء ، وحمَلهم عَلَى الصراط المستقيم ، ونحو ذلك من المدح ! قد كان قادرا ألّا يقول ذلك ؛ هـ الـكلام الغثّ البارد لا أحبّه .

فأما قوله : إنّ عبدالرحمن فَعل مافعَل من إخراج نفسه من الإمامة حيلة ليسلّم الأمر إلى عثمان ، ويصرفه عن علىٍّ عليه السلام ؛ فكلام بعضُه صحيح وبعضه غير صحيح . أما الصحيح منه فميلُ عبد الرحمن إلى جهة عثمان ، وانحرافُه عن علىّ عليه السلام قليلا ،

وليس هـذا بمخصوص بعبد الرحمن ، بل قريش قاطبة كانت منحرفةً عنه .

وأمّا الذي هو غير صحيح ، فقوله : إنه أخرج نفسَه منها لذلك ؛ فإنّ هذا عندي غيرُ صحيح ، لأنه قد كان يمكنه ألّا يخرج نفسه منها ، ويبلغ غرضه ، بأن يتجاوز هو وابن عمّه إلى عثمان ، ويَدَع عليا وطلحة والزبير طائفة أخرى ، فيولّى المسلمون الأمر الطائفة التي فيها عبد الرحمن ، بمقتضى نصّ عمر عَلَى ذلك ، ثم يعتمد عبد الرحمن بعد ذلك مايشاء ، إن شاء وليَها هو أو أحد الرجلَين ؛ فأى حاجةٍ كانت به إلى أن يخرج نفسه منهـا ليبلغ غرضا قد كان يمكنه الوصول إليه بدون ذلك !

وأيضا فإن كان غرضه ذلك ، فإنه من رجال الدنيا قد كان لا محالة ، ولم يـكن من رجال الآخرة ، ومَنْ هو من رجال الدنيا ومحبِّيها كيف تسمح نفسه بترك الخلافة ليعطيها غيره ! وهلاّ واطأ سعداً ابن عمّه ، وطلحة صديقه ، على أن يولّياه الخلافة،وقد قال عمر : كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ، لا سيّما وطلحة منحرفٌ عن عليٍّ عليه السلام وعثمان ، لأنهما ابناَ عبد مناف ، وكذلك سعد وعبدالرحمن منحرفان عنهما لذلك أيضا ، ولما اختصّا به من صِهْر رسول الله صلى الله عليه وآله . والصّحيح أنّ عبد الرحمن أخرج نفسَه منها ، لأنه استضعف نفسه عن تحمّل أثقالها وكُلَفها ، وكرِه أن يدخل فيها،فيقصّر عن عمر ، ويراه الناس بعين النقص ، ولا يستطيع أن يقوم بما كان عمر يقوم به ، وكان عبد الرحمن غنيًّا موسراً كثير المـال ، وشيخاً قد ذهب عنه ترفُ الشّباب ، فنفض عنها يده ، استغناء عنها ، وكراهيَة لخلل يدخل عليه إن وليَها .

وأما ميلُه عن عليٍّ عليه السلام ، فقد كان منه بعضُ ذلك ، والطباع لا تملَك ، والحسد مستقرٌّ فى نفوس البشر ، لا سيّما إذا انضاف إليه مايقتضى الازدياد فى الأمور .

فأما تنزيه المرتضَى لعليٍّ عليه السلام عن الفُكاهة والدّعابة فحقّ ، ولقد كان عليه

السلام على قَدَمٍ عظيمة من الوقار والجدّ والسَّمْت العظيم ، والمدى الرّصين ، ولكنّه كان طَلْقَ الوجهِ ، سمْحَ الأخلاق ، وعمر كان يريد مثلَه من ذوى الفظاظة والخشونة ، لأنّ كلّ واحد يستحسن طبعَ نفسِه ، ولا يستحسن طبع مَنْ يباينه فى الخُلق والطبع . وأنا أعجب من لفظة عمر ـ إن كان قالها : « إنّ فيه بَطالة(١) » ؛ وحاش لله أن يوصفَ علىٌّ عليه السلام بذلك ! وإنّما يوصَف به أهل الدُّعابة واللهو ، وما أظنّ عمر ـ إن شاء الله ـ قالها ، وأظنّها زِيدت فى كلامه ، وإنّ الكلمة هاهنا لدالّةٌ على انحراف شديد .

فأما قول أمير المؤمنين عليه السلام للعبّاس ولغيره : ذهب الأمر منّا ؛ إنّ عبد الرحمن لا يخالِف ابن عمّه ، فليس معناه أنّ عمر قصد ذلك ، وإنّما معناه أنّ من سوء الاتفاق أن وقع الأمر هكذا ، ويوشك ألّا يصل إلينا حيث قد اتّفق فيه هذه النكتة .

فأما قول قاضى القضاة : إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضى حسنَ الظنّ ، وجب أن يحمَل فعله على مايطابقها ، واعتراض المرتضَى عليه بقوله : إن ذلك إنما يجب إذا كان الخير معلوما منه فيما تقدّم لا مظنونا ، ومتَى كان مظنونا ثم وجدنا له فعلا يظنّ به القبيح لم يكن لنا أن نقضِىَ بالسابق على اللاحق ؛ فنقول فى جوابه : إنّ الإنسان إذا كان مشهوراً بالصّلاح والخير ، وتكرّر منه فعل ذلك مدّة طويلة ، ثم رأيناه قد وقعت منه حركة تنافِى ذلك فيما بعد ، فإنه يجب علينا أن نحمِلها على مايطابق أحواله الأولى ما وجدنا لها محمَلا ، لأن أحواله الأولى كثيرة ؛ وهذه حالة مفردة شاذّة ؛ وإلحاق القليل بالكثير وحمله عليه أولى من نقض الكثير بالقليل ، وقد كانت أحوال عمر مدّة عشرين سنة منتظمة فى إصلاح الرعيّة ومناصحة الدّين ، وهذا معلوم منه ضرورة ـ أعنى ظاهرَ أحواله ـ فإذا وقعت عنه حالةٌ واحدة ، وهى

---

(١) البطالة (بفتح الباء) : التعطل والتفرغ من العمل .

قصة الشُّورى فيها شبهةٌ ما ، وجب أن نتأوّلها ماوجدنا لها فى الخير محملا ، ونلحقها بتلك الأحوال الكثيرة التى تكرّرت منه فى الأزمان الطويلة ، ولا يجوز أن نضع اليدَ عليها ونقول : هذه لاغيرها ، ونقبّحها ، ونهجّنها ، ونسدّ أبواب هذه التأويلات عنها، ثم نحمل أفعاله الكثيرة المتقدمة كلَّها عليها فى التقبيح والتهجين ؛ فهذا خلاف الواجب ، فقد بان صحَة ماذكره قاضى القضاة ، لأنه لا حاجة بنا فى القضاء بالسّابق على اللاحق ؛ إلاّ أن يكون خبرُه معلوماً ، وعلِم علماً يقينا ؛ فإنّ الظنّ الغالب كافٍ فى هذا المقام على الوجه الذى ذكرناه .

وأما قوله عن عمر : إنّه بلغ مافى نفسه من إيصال الأمر إلى مَنْ أراد ، وصرْفه عمّن أراد ؛ من غير شناعة بالتصريح ، وحتى لا يقال فيه ماقيل فى أبى بكر ، أو يراجع فى نصّه كما روجع أبو بكر ، ولأى حال يتعسّف أبعد الطريقين ، وغرضه يتمّ من أقربهما؛ فقد قلنا فى جوابه ما كفى ، وبيّنا أنّ عمر لو أراد ماذُكر لصرَف الأمر عمّن يريد صرفَه عنه ، ونصّ على مَنْ يريد إيصال الأمر إليه ، ولم يبال بأحدٍ ، فقد عرف النّاس كلُّهم كيف كانت هيبته وسطْوته وطاعة الرعيّة له ؛ حتى إنّ المسلمين أطاعوه أعظَم من طاعتهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى حياته ، ونفوذ أمره فيهم أعظم من نفوذ أمره عليه السلام ، فمن الذى كان يجسُر أو يقدر أن يراجعَه فى نصّه ، أو يرادّه ، أو يلفظ عنده أو غائباً عنه بكلمة تنافى مراده ! وأىّ شىء ضرّ أبا بكر من مراجعة طلحة له حيث نصّ ؛ ليقول المرتضى : خاف عمر من أن يراجَع كما روجع أبو بكر ، وقد سمع الناس ماقال أبو بكر لطلحة لما راجعه ، فإنّه أخزاه وجبّهه ، حتى دخل فى الأرض ، وقام مِنْ عنده وهو لايهتدى إلى الطريق ! وأين كانت هيبةُ الناس لأبى بكر من هيبتهم لعمر ! فلقد كان أبو بكر وهو خليفة يهابُه وهو رعيّة وسُوقة بين يديه ، وكلُّ أفاضل الصحابة كان يهابه، وهو بعدُ لم يل الخلافة ، حتى إن الشّيعة تقول : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله يهابه ، فمن

كانت هذه حاله وهو رعيةٌ وسُوقة ، فكيف يكونُ وهو خليفة ، قد ملك مشارق الأرض ومغاربها ، وخُطب له على مائة ألف منبر ! ولو أراد عمر أن يخطُب بالخلافة لأبي هريرة لما خالفه أحدٌ من الناس أبدا ! فكيف يقول المرتضى : لماذا يتعسّف عمر أبعدَ الطريقين ، وغرضه يتمّ من أقربهما !

والعجَب منه كيف يقول : خاف شناعةَ التصريح ، فمن لم يخَفْ عندهم شناعة المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو يعلم أنّ المسلمين يعلمون أنه مخالف لله تعالى ولرسوله قائم فى مقام لم يجعله الله تعالى له ، كيف يخاف شناعة التصريح باسم عثمان لو كان يريد استخلافه ! إنّ هذا لأعجبُ من العَجَب !

***

الطعن العاشر

قولهم : إنه أبدع فى الدين ما لا يجوز ، كالتراويح ، وما عمله فى الخراج الذى وضعه على السّواد ، وفى ترتيب الجزْية ، وكلّ ذلك مخالف للقرآن والسّنّة ، لأنه تعالى جعَل الغنيمة للغانمين ، والخمس منها لأهل الخُمُس ، فخالف القرآن ، وكذلك السنّة تنطق فى الجزية أنّ على كلّ حالم دينارا ، فخالف فى ذلك السنة ، وأنّ الجماعة لا تكون إلّا فى المكتوبات ، فخالف السنة .

أجاب قاضى القضاة عن ذلك ، بأنّ قيام شهر رمضان ، قد رُوِى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه عمله ثم تركه ، وإذا علِم أن الترك ليس بنسْخ ، صار سنّة يجوز أن يعمل بها ، وإذا كان مالأجله تركه[1] من التنبيه بذلك على أنه ليس بفرض ، ومِنْ تخفيف التعبدّ

---

(١) الشاق : « ترك » .

ليس بقائم فى فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه ، وإذا كان فيه الدّعاء إلى الصلاة والتشدّد فى حفظ القرآن ، فما الذى يمنع أن يعمل به !

فأمّا أمر الخراج ، فأصله السّنّة ، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله بيّن أنّ لمن يتولّى الأمر ضرباً من الاختيار فى الغنيمة ، ولذلك فصّل بين الرجال والأموال ، فجعل الاختيار فى الرجال إلى الإمام فى القتل والاسترقاق والمفاداة ؛ وفصّل بينه وبين المال ، وإن كان الجميع غنيمةً .

ثم ذكر أنّ الغنيمة لم تُضَف إلى الغانمين إضافة الملك ، وإنما المراد أنّ لهم فى ذلك من الاختصاص والحقّ ماليس لغيرهم ؛ فإذا عرض ما يقتضى تقديم أمرٍ آخر ، جاز للإمام أن يفعله ، ورأى عمر فى أمر السّواد الاحتياط للإسلام ، بأن يقرّ فى أيديهم على الخراج الذى وضعه ، وإن كان فى النّاس مَنْ يقول : فعل ذلك برضا الغانمين ، وبأن عوّض . ويدلّ على صحّة فعله إجماع الأمة ورضاهم به ، ولمّا أفضى الأمرُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام تركه على جملته ، ولم يغيّره .

ثم ذكر فى الجزية أن طريقها الاجتهاد ؛ فإن الخبر المروىّ فى هذا الباب ليس بمقطوع به ، ولا معناه معلوم .

***

اعترض المرتَضى هذا الجواب ، فقال : أمّا التراويح فلا شبهة أنها بِدْعة ، وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « أيها الناس ، إنّ الصلاة باللّيل فى شهر رمضان من النافلة جماعة بدعة وصلاة الضحى بدعة ، ألا فلا تجتمعوا ليلا فى شهر رمضان فى النافلة ، ولا تصلّوا صلاة الضحى فإنّ قليلا فى سنّة خير من كثير فى بِدْعة ، ألا وإنّ كلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ضلالة سبيلها فى النار » .

وقد روى : أنّ عمرَ خرج فى شهر رمضان ليلاً ، فرأى المصابيح فى المسجد ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له : إنّ الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوّع ، فقال : بِدْعة ، فنعمتِ البِدْعة ! فاعترف كما ترى بأنّها بِدعة ، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وآله أنّ كل بدعةٍ ضلالة .

وقد رُوِىَ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا اجتمعوا إليه بالكوفة ، فسألوه أن ينصب لهم إماما يصلّى بهم نافلة شهر رمضان ، زجرهم وعرّفهم أنّ ذلك خلاف السنّة ، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم، وقدّموا بعضهم،فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام،فدخل عليهم المسجد ، ومعه الدِّرّة ؛ فلمّا رأوْه تبادروا الأبواب ، وصاحوا : واعمراه !

قال : فأمّا ادّعاؤه أنّ قيام شهر رمضان كان فى أيّام الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم تركه فمغالطة منه،لأنّا لا ننكر قيام شهر رمضان بالنوافل على سبيل الانفراد ، وإنّما أنكرنا الاجتماع على ذلك ، فإن ادّعى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله صلاّها جماعةً فى أيامه ، فإنّها مكابَرة ما أقدم عليها أحدٌ ، ولو كان كذلك ماقال عمر : إنّها بدعة،وإن أراد غير ذلك فهو ممّا لا ينفعه ، لأنّ الذى أنكرناه غيره .

قال : والذى ذكره من أنّ فيه التشدّد فى حفظ القرآن ، والمحافظة على الصّلاة؛ليس بشىء ، لأنّ الله تعالى ورسوله بذلك أعلم ، ولو كان كما قاله لكانا يسنّان هذه الصلاة، ويأمران بها ، وليس لنا أن نبدع فى الدِّين بما نظنّ أنّ فيه مصلحة ، لأنه لا خلاف فى أنّ ذلك لا يسوغ ولا يحلّ .

وأمّا أمر الخراج فهو خلاف لنصِّ القرآن ؛ لأن الله تعالى جعل الغنيمة فى وجوهٍ مخصوصة ، فمَنْ خالفها فقد أبدع ،وليس للإمام ولا لغيره أن يجتهد فيخالف النصّ،فبطل قوله : إنه رأى من الاحتياط للإسلام أن يقرّ فى أيديهم على الخراج ؛ لأنّ خلاف النصّ

لايكون من الاحتياط ورسوله أعلم بالاحتياط منه ؛ ولو كان لرضا الغانمين عن ذلك أو عِوَضهم منه على ما ادّعاه صاحب الكتاب لوجب أن يظهر ذلك ويُعْلَمَ ، وما عرفنا فى ذلك شيئا ، ولا نقله الناقلون .

وأما ما ادّعاه من الإجماع ، فمعوّله فيه على ترك النكير ، وقد تقدم الكلام عليه وتكرّر ، وكذلك قد تقدّم الكلام فى وجه إقرار أمير المؤمنين عليه السلام ماأقرّه من أحكام القوم ، وما ادّعاه أنّ خبر الجزية غير معلوم ولا مقطوع به ، فهبْ أنّ ذلك مسلّم على مافيه ، أليس من مذهبه أنّ أخبار الآحاد فى الشريعة يعمل بها ، وإن لم تكن معلومة ! فهلّا عمل عمرُ بالخبر المروىّ فى هذا الباب ، وعدل عن اجتهاده الذى أدّاه إلى مخالفة الله تعالى[1] !

***

[2] أما كونُ صلاة التّراويح بدعة وإطلاق عمر عليها هذا اللفظ ؛ فإنّ لفظ البدعة يطلق على مفهومين :

أحدهما ماخولف به الكتاب والسنّة ، مثل صوم يوم النحر وأيام التّشريق ، فإنه وإن كان صوماً إلّا أنه منهىٌّ عنه .

والثانى مالم يردْ فيه نصٌّ ، بل سُكِت عنه ، ففعله المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله . فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعةً للمفهوم الأوّل ، فلا نسلّم أنّها بدعة بهذا التفسير ، والخبر الذى رواه المرتضى غير معروف ، ولا يمكنه أن يسنده إلى كتاب من كتب المحدّثين ، ولو قدَر على ذلك لأسنده ، ولعلّه من أخبار أصحابه من محدّثى الإماميّة والأخباريين منهم ، والألفاظ التى فى آخر الحديث ، وهى : « كلّ بدعة ضلالة ، وكلّ ضلالة

---

(١) الشافى ٢٦٢ .
(٢) من هنا بدء رد المؤلف على قول المرتضى .

فى النار » مرويّة مشهورة ، ولـكنْ على تفسير البـدعة بالمفهوم الأول . وقول عمـر : « إنها لَبِدعة » خبر مرويٌّ مشهور ، ولـكن أراد به البدعة بالتفسير الثانى؛ والخبر الّذى رواهُ أمير المؤمنين عليـه السلام ينفرد هو وطائفته بنقـله ، والمحدّثون لا يعرفون ذلك ولا يثبتونه .

فأمّا إنـكاره أن تـكون نافلة شهر رمضان صلّاها رسول الله صلى الله عليـه وآله فى جماعة ، فإنـكارٌ لست أرتضيه لمثله ؛ فإنّ كتبَ المحدّثين مشحونة برواية ذلك ، وقد ذكره أحمـد بن حنبل فى مسنده غير مرّة بعـدة طرق ، ورواه الفقهاء ، ذكره الطّحاوى فى كتاب '' اختـلاف الفقهاء '' ؛ وذكره أبو الطيب الطبرىّ الشافعىّ فى شرحه كتاب المزنىّ ، وقد ذكره المتأخرون أيضاً ؛ ذكره الغزالى فى كتاب '' إحياء علوم الدين '' وقال : إنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله صلّى التراويح فى شهر رمضان فى جماعة ليلتين أو ثلاثا ، ثم ترك ، وقال : أخاف أن يوجب عليـكم . وأجاز لى الشيخُ أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزىّ ، بروايته عن شيخه محمد بن ناصر ، عن شيوخه ورجاله ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى نافلة شهر رمضان فى جماعة يأتمّون به ليالى ثم لم يخرج وقام فى بيته ، وصلّى الناس فرادَى بقيّة أيامه وأيام أبى بكر وصَـدْراً من خلافة عمر ، فخرج عمر ليلة ، فرأى الناس أوزاعاً يصلّون فى المسجد ، فقال : لو جمعتهم على إمام ! فأمر أبىّ بن كعب أن يصلِّىَ بهم ، فصلّى بهم تلك الليلة ثم خرج ، فرآهم مجتمعين إلى أبىّ بن كعب يصلِّى بهم ، فقال : بدعة ونعمة البدعة ! أما إنها لفضلٌ ، والتى ينامون عنها أفضل .

قال : يعنى قيام آخر الليل ، فإنه أفضل من قيام أوله .

وأما قول قاضى القضاة إنّ فى التراويح فائدة وهى التشدّد فى حفظ القرآن والدعاء إلى الصلاة ، واعتراض المرتضى إياه بقوله : الله أعلم بالمصلحة ؛ وليس لنا أن نسنّ مالم يسنّه

الله ورسوله ، فإنه يقال له : أليس يجوز للإنسانِ أن يخترع من النَّوافل صلواتٍ مخصوصة بكيفيَّات مخصوصة، وأعدادِ ركعات مخصوصة، ولا يكون ذلك مكروها ولا حراماً، نحو أن يصلّى ثلاثين ركعة بتسليمة واحدة ، ويقرأ فى كلّ ركعة منها سورةً من قِصار المفصّل !أفيقول أحدٌ : إنّ هذا بدعة ، لأنه لم يرد فيه نصّ ولا سبق إليه المسلمون من قبل !فإن قال: هذا يسوغ ؛ فإنه داخل تحت عموم ماورد فى فضل صلاة النافلة ، قيل له : والتراويح جائزة ومسنونة لأنها داخلة تحت عموم ماورَد فى فضل صلاة الجماعة .

فإن قال : كيف تكون نافلة ، وهى جماعة !قيل له :قدرأينا كثيرامن النَّوافل تصلّى جماعة ، نحو صلاة العيد ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الجنازة ،إذا لم يتعيّن للمصلّى بأن يقوم غيره مقامه فيها .

فأمّا ما أشار إليه قاضى القضاة من التشدّد فى حفظ القرآن ، فهو أنّه روى أنّ عمر أُتِىَ بسارق ، فأمر بقطعه ، فقال : لم أعلم أنّ الله أوجب القطع فى السَّرِقة ، ولو علمت لم أسرق ، فأحلفه على ذلك . وسنّ التراويح جماعة ليتكرّر سماع القرآن على أسماع المسلمين.

وقد اختلف الفقهاء أيّما أفضل فى نافلة شهر رمضان ؟ الاجتماع عليها أم صلاتها فرادى ؟ فقال قوم : الجماعة أفضل لأنّ الاجتماع بركة وله فضيلة ، ولولا فضيلته لم يسنّ فى المكتوبة ، ولأنه ربّما يكسل فى الانفراد ، وينشط عند مشاهدة الجمع.

وقال قوم : الانفراد أفضل،لأنّهاسنّةليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بتحيّة المسجد أوْلَى ، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معا ، ثم لم يصلّوا التحيّة بالجماعة .

وروى القائلون بهذا القول عن النبى صلى الله عليه وآله أنّه قال :«فضل صلاة المتطوّع فى بيته على صلاة المتطوّع فى المسجد ، كفضلِ صلاة المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت » .

وقد روى عنه عليه السلام ؛ أنّ أفضل النوافل ركعتان يصلّيهما المسلم فى زاوية بيته لايعلمهما إلا الله وحده .

قالوا : ولأنّها إذا صلّيت فرادَى كانت الصلاة أبعَد من الرّياء والتصنّع . وبالجملة الاختلاف فى أيّهما أفضل ، فأما تحريم الصلاة ولزوم الإثم بفعلها ، فمّا لم يذهب إليه إلّا الإمامية ، وقد روى الرواة أن عليًّا عليه السلام خرج ليلًا فى شهر رمضان فى خلافة عثمان بن عفان ، فرأى المصابيح فى المساجد ، والمسلمون يصلّون التراويح ، فقال : نوّر الله قبر عمر كما نوّر مساجدنا ! والشّيعة يروون هذا الخبر ، ولكن يحمل اللفظ على معنى آخر .

فأما حديث الخراج فقد ذكره أربابُ علم الخراج والكتّاب ، وذكره الفقهاء أيضا فى كتبهم ، وذكره أرباب السيرة وأصحاب التاريخ . قال قدامة بن جعفر فى كتاب " الخراج " : اختلف الفقهاء فى أرض العَنْوة ، فقال بعضهم : تخمّس ، ثم تقسّم أربعة أخماس على الّذين افتتحُوها ، وقال بعضهم : ذلك إلى الإمام ، إن رأى أن يجعلَها غنيمة ليخمّسها ويقسم الباقى كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر فذلك إليه ؛ وإن رأى أن يجعلَها فيئا فلا يخمّسها ولا يقسمها ، بل تكون موقوفةً على سائر المسلمين ، كما فعل عمر بأرض السّوَاد وأرض مصر وغيرها ، ممّا افتتحه عَنْوةً ، فعلى الوجهين جميعا ؛ فيهما قدوة ومتّبع ، لأن النبىّ صلى الله عليه وآله قسّم خيبر وصيّرها غنيمة ، وأشار الزّبير بن العوام على عُمر فى مصر وبلاد الشام بمثل ذلك ، وهو مذهب مالك بن أنس ، وجعل عمر السواد وغيره فيئاً موقوفاً على المسلمين ، مَنْ كان منهم حاضرا فى وقته ، ومَنْ أتى بعده ولم يقسمه ، وهو رأىٌ رآه علىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعاذ ابن جبل ، وأشارا عليه ، وبه كان يأخذ سُفيان بن سعيد ، وذلك رأى مَنْ جعل الخيار إلى الإمام فى تصيير أرض العَنْوة غنيمة أو فيئا راجعا للمسلمين فى كل سنة .

قال قدامة رحمه الله : فأمّا مافعله رسول الله صلى الله عليه وآله من تصييره خيبر غنيمة، فإنه عليه السلام اتبع فيه آيةً محكمة، وهى قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] فهذه آية الغنيمة وهى لأهلها دون الناس ، وبها عمل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّا الآية التى عمل بها عمر وذهب إليها على عليه السلام ومعاذ بن جبل فيما أشارا عليه به ، فهى قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[2]. انتهت ألفاظ قدامة .

وروى محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أنّ عمر همّ أن يقسم أرضَ السّواد بين الغانمين ، كما يقسم الغنائم ، ثم قال : فكيف بالآجام ومناقع المياه والفياض والمضب المرتفع والغائط المنخفض ؟ وكيف يصنع هؤلاء بالماء وقسمته بينهم ؟ أخاف أن يضرب بعضهم وجوهَ بعض! ثم جمع الغانمين فقال لهم : ذلك ، فرضُوا أن تقرّ الأرض حبيساً لهم يولونها مَنْ تراضوْا عليه ، ثم يقتسمون غلّتها كلّ عام ، فقال عمر : اللهمّ إنّى قد اجتهدت ، وقد قضيت ماعلىّ ، اللهم إنى أشهدُك عليهم فاشهد .

فأما قول قاضى القضاة : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله جعل لمتولّى أمر الأمّة ضرباً من الاختيار فى الغنيمة ، وما ذكره من الفرق بين الرّجال والأموال ، وماذكره من أنّ الغانمين ليسوا مالكِى الغنيمة ملكاً صريحا ، وإنما هو ضرب من الاختصاص ، فكلّه جيّد لا كلام عليه ، ولم يعترضه المرتضى بشىء ولا تعرّض له .

وأما قول قاضى القضاة : إنه رُوِىَ أنّ عمر فعل مافعل برضا الغانمين ، وبأن عوّضهم

(١) سورة الأنفال ٤١

(٢) سورة الحشر ٧ ـ ١٠ .

عنه ، وإنكار المرتضى وقوعَ ذلك ، وقوله : إنه لم ينقل ، فقد بينا أن الطبرىّ ذكر فى تاريخه أنّ عمر فعل ذلك برضا الغانمين ، وبعد أن جمعهم وقال لهم ما استصلحه ، وما أدّى إليه اجتهاده ، فرضُوا به ، وأشهدوا الله عليهم والحاضرين.

وقد ذكر كثير من الفقهاء أنّ عمر عوّض الغانمين عن أرض السّواد ، ووقفه على مصالح المسلمين ، وهذا ما رواه الشافعىّ ، وذكر حديث التّعويض أبو الحسن علىّ بن حبيب الماوردىّ فى كتاب " الحاوى " فى الفقه ، وذكره أيضا أبو الطّيب طاهر بن عبد الله الطبرىّ فى " شرح المزنىّ " .

وأما تعلّق قاضى القضاة بإجماع المسلمين ، فتعلّقٌ صحيح ، وطعن المرتضى فيه بالتقيّة وموافقة الإمام المعصوم عَلَى الباطل طعنٌ يسمُج التعلّق به ، وللبحث فيه سبح طويل .

وأمّا أمر الجزية ، فطريقه الاجتهاد ، وللإمام أن يرى فيه رأيه بمشاورة الصلحاء والفقهاء ، وقد قال قاضى القضاة : إنّ الخبر الذى ذكره المرتضى ، وذكر أنه مرفوع ، وهو « عَلَى كلّ حالمٍ دينار » خبر مظنون غير معلوم ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : هب أنّ الأمر كذلك ، ألستم تزعمون أنّ خبر الواحد معمول عليه فى الفروع ! فهلّا عمِل عمر بهذا الخبر ، وإن كان خبر واحد — اعتراض ليس بلازمٍ ، لأنه إذا كان خبرَ واحد عندنا لم يلزم أن يكون أيضا خبر واحد عند عمر ، بل من الجائز أن يكون مفتعلا بعد وفاة عمر ، ولو كان قد ثبت أن عمر سمع هذا الخبر من واحدٍ أو اثنين من الصحابة ، ثم لم يعمل به ، كان لاعتراض لازماً ، ولكنّ ذلك ممّا لم يثبت .

تم الجزء الثانى عشر من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثالث عشر

فهرس الموضوعات

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث عشر

مؤسسة اسماعيليان
للطباعة والنشر والتوزيع
قم ايران - تلفون ۲۵۲۱۲

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٢٢٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في وصف بيعته بالخلافة ، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا ، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا ، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا ، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ ، وَوُطِئَ الضَّعِيفُ ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ .

***

الشرح :

التداكّ : الازدحام الشديد . والإبل الهيم : العطاش .

وهدج إليها الكبير : مشى مشياً ضعيفاً مرتعشا ، والمضارع يهدِج ، بالكسر .

وتحامل نحوها العليل : تكلّف المشي على مشقّة .

وحَسَرتْ إليها الكَعاب : كشفتْ عن وجهها حِرْصاً على حضور البيعة ، والكَعاب: الجارية التى قد نَهَد ثديُها ، كَعَبت تكعُب ، بالضمّ .

قوله : « حتى انقطع النعل وسقط الرداء » ، شبيه بقوله فى الخطبة الشِّقْشِقية : « حتى لقد وُطِىء الحسَنان وشُقّ عِطْفايَ [1] » .

وقد تقدّم ذكر بيعتِه عليه السلام بعد قَتْلِ عثمان و إطباق الناس عليها ، وكيفيّة الحال فيها ، وشُرِح شرحا يستغنَى عن إعادته .

(١) الجزء الأول ص ٢٠٠ .

(٢٢٥)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو ٱلْهَارِبُ ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ .

فَاعْمَلُوا وَٱلْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَٱلتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَٱلدُّعَاءُ يُسْمَعُ ، وَٱلْحَالُ هَادِئَةٌ وَٱلْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ .

وَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَا كِساً ، أَوْ مَرَضاً حَابِساً ، أَوْ مَوْتاً خَالِساً ؛ فَإِنَّ ٱلْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ . زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ ، وَٱحْتِدَامُ عِلَلِهِ ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ ، وَخُشُونَةُ مَذَاقِهِ . فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ ، وَعَفَّى آثَارَكُمْ ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ .

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ ، وَٱلتَّأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ ، وَٱلتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ ، وَٱلْقُرُونِ ٱلْخَالِيَةِ ، ٱلَّذِينَ ٱحْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا ،

وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً ، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ .

فاحْذَرُوا الدُّنْيا فإنَّهاغَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ ، لَايَدُومُ رَخَاؤُهَا ، وَلَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا ، وَلَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا .

***

الشَّرْحُ :

عِتق من كلّ ملَكة ، هو مثل قوله عليه السلام : « التوبة تجبُّ ماقبلها » ، أىْ كلّ ذنب موبِق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه ، فإنّ تقوى الله تعتِق منه ، وتكفّر عقابه ، ومثله قوله : « ونجاةٌ من كلّ هَلَكة » .

قوله عليه السلام : « والعمل ينفع » ، أى اعملوا فى دارِ التَّكليف ، فإنّ العمل يوم القيامة غير نافع .

قوله عليه السلام : « والحال هادئة » ، أى ساكنة ليس فيها ماق أحوال الموقف من تلك الحركات الفظيعة ، نحو تطاير الصحف ، ونطق الجوارح ، وعنف السياق إلى النار .

قوله عليه السلام : « والأقلام جارية » ، يعنى أنّ التكليف باقٍ ، وأنّ الملائكة الحفَظة تكتب أعمال العباد ، بخلاف يوم القيامة ، فإنه يبطل ذلك ، ويستغنى عن الحفظة لسقوط التكليف .

قوله : « عمراً ناكسا » ، يعنى الهرَم ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ [1] ، لرجوع الشيخ الهرِم إلى مثل حال الصبىّ الصغير فى ضعف العقل والبنية .

(١) سورة يس ٦٨ .

والموت الخالس : المختطِف . والطِّيَّات : جمع طِيَّة بالكسر ، وهى منزل السفر .

والواتر : القاتل ، والوِتْر ، بالكسر : الذَّحْل .

وأعلقتكم حبائله . جعلتكم متعلِقين فيها ، ويروى : « قد عَلِقتكم » بغير همز .

وتكنفتكم غوائله : أحاطت بكم دواهيه ومصائبه . وأقصدتكم : أصابتكم .

والمعابل : نصال عِرَاض ، الواحدة مِعْبَلة ، بالكسر .

وعَدْوته ، بالفتح : ظلمه . ونَبْوَته : مصدر نَبَا السَّيف إذا لم يؤثِّر فى الضريبة .

ويوشِك ، بالكسر : يقرب . وتَغْشاكم : تحيط بكم .

والدَّواجى : الظُّلَم ، الواحدة داجية . والظُّلل : جمع ظُلَّة ، وهى السحاب . والاحتدام: الاضطرام . والحنادس : الظلمات .

وإرهاقه : مصدر أرهقته أى أعجلته ، ويروى : « إزهاقه » بالزاى .

والأطباق : جمع طَبَق ، وهذا من باب الاستعارة ، أى تكاثف ظلماتها طبق فوق طبق .

ويروى « وجُشوبة مذاقه » بالجيم والباء ، وهى غلظ الطعام .

والنَّجِىّ : القوم يتناجون . والندىّ : القوم يجتمعون فى النادى .

واحتلبوا دِرّتها : فازوا بمنافعها ، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن .

وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام ، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمّل .

***

الأصْـلُ :

منها فى صفة الزهاد :

كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا ،

عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا ، يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ .

***

الشَّرْحُ :

بين ظهرانَىْ أهل الآخرة ، بفتح النون ، ولا يجوز كسرها ، ويجوز بين ظهرَىْ أهل الآخرة لو روى ، والمعنى فى وسطهم .

قوله عليه السلام : « كانوا قوما من أهل الدنيا وليسوا من أهلها » أى همْ من أهلها فى ظاهر الأمر وفى مرأى العيْن وليسوا من أهلها ، لأنه لارغبة عندهم فى ملاذّها ونعيمها ، فكأنّهم خارجون عنها .

قوله : « عملوا فيها بما يبصرون » ، أى بما يرونه أصلح لهم ، ويجوز أن يريد أنّهم لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل ، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء وهذا كقوله عليه السلام : « لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينا » .

قوله عليه السلام : « وبادروا فيها ما يحذرون » ، أى سابقوه ، يعنى الموت .

قوله عليه السلام : « تقلب أبدانهم » ، هذا محمول تارة على الحقيقة ، وتارة على المجاز ، أما الأول فلأنّهم لا يخالطون إلّا أهلَ الدين ولا يجالسون أهل الدنيا ، وأمّا الثانى فلأنّهم لمـا استحقّوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه ، فأبدانُهم تتقلّب بين ظهرانَىْ أهل الآخرة ، أى بين ظهرانَىْ قوم هم بمنزلة أهل الآخرة ، لأنّ المستحقَّ للشىء نظيرٌ لمن فعل به ذلك الشىء .

ثم قال : هؤلاء الزّهّاد يرون أهل الدنيا إنمـا يستعظمون موت الأبدان ، وهم أشدُّ استعظاما لموت القلوب ، وقد تقدّم من كلامنا فى صفات الزهاد والعارفين مافيه كفاية .

(٢٣٦)

الأصْلُ :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذى قار، وهو متوجه إلى البصرة ، ذكرها الواقدىّ فى كتاب « الجمل » :

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ ، وَبَلَّغَ رِسالاتِ رَبِّهِ ، فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ ، وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحامِ بَعْدَ الْعَداوَةِ الْواغِرَةِ فِي الصُّدُورِ ، وَالضَّغائِنِ الْقادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ .

***

الشَّرْحُ :

ذو قار : اسم موضع قريب من البصرة ، وفيه كانت وقعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام .

وصدع بما أمر به ، أى جهر ، وأصل الصَّدْع الشقّ .

ولمّ به : جمع . ورتق : خاط وألحم .

والعداوة الواغرة : ذات الوغرة ، وهى شدة الحرّ .

والضغائن : الأحقاد .

والقادحة فى القلوب ؛ كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النّار بالمِقْدَحة .

(٢٢٧)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة ، وهو من شيعته ، وذلك أنه قدم عليه فى خلافته يطلب منه مالا ، فقال عليه السلام :

إنَّ هَذَا المَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

***

الشَّرْحُ :

هو عبد الله بن زمعة ، بفتح الميم لا كما ذكره الراوندى ، وهو عبد الله بن زَمَعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ .

كان الأسود من المستهزئين الّذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل ، وابنه زَمَعة ابن الأسود ، قُتِل يوم بدر كافراً ، وكان يدعَى زاد الركب ، وقتل أخوه عقيل بن الأسود أيضاً كافرا يوم بَدْر ، وقتل الحارث بن زَمَعة أيضاً يوم بدر كافرا ، والأسود هو الذى سمع امرأة تبكى على بعير تضلّه بمكة بعد يوم بدر ، فقال :

أتبكِي أنْ يَضِلّ لها بعيرٌ ويمنعُها من النّوم السّجودُ[1]

---

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٧٣ .

ولا تبكى عَلَى بَدْرٍ ولكنْ ... عَلَى بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجدودُ
ألَا قَدْ سادَ بعدهمُ أناسٌ ... ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

وكان عبد الله بن زَمَعة شيعةً لعلىّ عليه السلام . ومن أصحابه ؛ ومن ولد عبد الله هذا أبو البخترىّ القاضى ؛ وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زمعة ، قاضى الرشيد هارون بن محمد المهدىّ ، وكان منحرفاً عن علىّ عليه السلام ، وهو الذى أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذى كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام ، وأخذه بيده فمزّقه .

وقال أميّة بن أبى الصلت يرثى قتلى بدر ، ويذكر زَمَعة بن الأسود :

عَيْنِ بكّى لنوفلٍ ولعمرٍو ... ثم لا تبخلِي على زَمَعَه (١)

نوفل بن خويلد من بنى أسد بن عبد العزى ، ويعرف بابن العدويّة ، قتله على عليه السلام ، وعمرو أبو جهل بن هشام ، قتله عوف بن عَفْراء ، وأجهز عليه عبد الله ابن مسعود .

قوله عليه السلام : « وجَلْب أسيافهم » أى ماجلبتْه أسيافهم وساقته إليهم ، والجلْب : المال المجلوب . وجَناة الثمر ما يُجْتَنَى منه ، وهذه استعارة فصيحة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٧ — بشرح الشيخ محمد محيى الدين ؛ ورواية البيت فيه :

عَيْنُ بَكّى بالمسبلاتِ أبا الحا ... رِثِ لا تَذْخَرِى عَلَى زَمَعَهْ

(٢٢٨)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ .

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِدْهَانِ ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَقَارِنُهُمْ مُمَاذِقٌ ، لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ .

***

الشرح

بَضْعة من الإنسان قطعة منه ، والهاء فى « يسعده » ترجع إلى اللسان .

والضمير فى « امتنع » يرجع إلى الإنسان ، وكذلك الهاء فى « لا يمهله » يرجع إلى اللسان .

والضمير فى « اتسع » يرجع إلى الإنسان ، وتقديره : فلا يُسعِد اللسان القول إذا امتنع الإنسان عن أن يقول ، ولا يمهل اللسان النطق إذا « اتّسع » للإنسان القول ، والمعنى : إن اللسان آلةٌ للإنسان ، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام ، لم يكن اللسان

ناطقاً ، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللّسان بما في ضمير صاحبه .

وتنشبت عروقه ، أى علقت ، وروى « انتشبت » والرواية الأولى أدخل في صناعة الكلام ، لأنها بإزاء تهدّلت ، والتهدّل التدلّى ، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراسانى ، فخطب بها فى خطبةٍ مشهورة من خطبه .

***

[ذكر من أرتج عليهم أو حَصِروا عند الكلام]

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام فى واقعة اقتضت أن يقوله ، وذلك أنه أمر ابن أخته جَعْدة بن هُبيرة المخزومىّ أن يخطب الناس يوما ، فصعد المنبر ، فحَصِر ولم يستطع الكلام ، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسنّم ذِرْوة المنبر ، وخطب خطبة طويلة ، ذكر الرضىّ رحمه الله منها هذه الكلمات ، وروى شيخنا أبو عثمان فى كتاب "البيان والتبيين" أن عثمان صعِد المنبر فأرتج عليه فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطبة على وجهها»[1] . ثم نزل .

قال أبو عثمان : وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : صعد ابن لعدىّ[2] بن أرطاة المنبر فلمّا رأى الناس حَصِر فقال : « الحمد لله الذى يُطعم هؤلاء ويسقيهم »[3] .

وصعِد رَوْح بن حاتم المنبر ، فلمّا رأى الناس قد رشقوه[4] بأبصارهم ، وصرفوا أسماعهم

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .

(٢) كذا فى الأصول ؛ وفى البيان والتبيين : « صعد عدىّ بن أرطاة » .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .

(٤) البيان : « شفنوا أبصارهم » ، والشفن : أن يرفع المرء طرفه ناظرا إلى الشىء كالمتعجب له .

نحوه ، قال : نكّسوا رءوسكم ، وغضّوا أبصاركم ، فإنّ أوّل مركب صعْب ، فإذا يسّر الله عزّ وجلّ فتْحَ قُفْلٍ تيسّر »[١] . ثم نزل .

وخطب مُصْعب بن حيّان أخو مقاتل بن حيّان خطبة نكاح فحصِر ، فقال : « لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله » ، فقالت أم الجارية : عجّل الله موتك ، ألهذا دعوناك[٢] !

وخطب مروان بن الحكم فحصِر ، فقال : « اللهم إنّا نحمدك ونستعينك ولا نشرك بك » .

ولمّا حَصِر عبد الله بن عامر بن كُريز على المنبر بالبصرة ـ وكان خطيبا ـ شقّ عليه ذلك ، فقال له زياد بن أبيه ، وكان خليفته : أيها الأمير لا تجزع فلو أقمت على المنبر عامّة مَنْ ترى أصابهم أكثر مما أصابك . فلمّا كانت الجمعة تأخّر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس : إنّ الأمير اليوم موعوك ، فقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل : قم فاصعَد المنبر ، فلما صعد حَصِر ، فقال : الحمد لله الذى يرزق هؤلاء ، وبقىَ ساكتا ، فأنزلوه ، وأصعدوا آخر من الوجوه ، فلمّا استوى قائما قابل بوجهه النّاس ، فوقعت عينه على صَلعة[٣] رجل ، فقال: أيّها الناس ، إنّ هذا الأصلع قد منعنى الكلام ، اللهمّ فالعن هذه الصلعة . فأنزلوه . وقالوا لوازع اليشكرى: قم إلى المنبر فتكلّم ، فلمّا صعِد ورأى الناس قال : أيّها الناس إنى كنت اليوم كارها لحضور الجمعة ، ولكن امرأتى حملتنى على إتيانها، وأنا أشهدكم أنّها طالق ثلاثا ، فأنزلوه ، فقال زياد لعبد الله بن عامر : كيف رأيت ؟ قم الآن فاخطب النّاس[٤] .

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٤٩ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٥٠ .
(٣) الصلعة : موضع الصلع .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٥١

وقال سهل بن هارون : دخل قطرب النحوىّ على المخلوع (١) ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، كانت عِدتُك أرفع من جائزتك ـ وهو يتبسّم ـ فاغتاظ الفضل [بن الربيع] (٢) فقلت له : إنّ هذا من الحصَر والضّعف ، وليس من الجلَد والقوّة ، أما تراه يفتلُ أصابعَه ويَرْشح جبينه (٣) !

ودخل معبد بن طوْق العنبرىّ على بعض الأمراء ، فتكلّم وهو قائم فأحسن ، فلمّا جلس تَلَهْيَع (٤) فى كلامه ، فقال له : ماأظرفك قائماً ، وأموقك (٥) قاعداً ! قال : إنّى إذا قُمت جَددْت ، وإذا قعدت هَزَلْت ، فقال : ماأحسن ماخرجت منها (٦) !

***

وكان عمرو بن الأهتم المِنقرىّ والزّبرقان بنُ بدْر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فسأل عليه السلام عَمْراً عن الزّبرقان فقال : يارسولَ الله ؛ إنّه لمانعٌ لحوزته ، مطاعٌ فى أدانيه ، فقال الزّبرقان : حسدنى يارسولَ الله ! فقال عمرو : يارسول الله ، إنّه لزِمِر المروءة ، ضيّق العطن ، لئيم الخال ، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى وَجْه عمرو ، فقال : يارسولَ الله ؛ رضيتُ فقلت أحسن ماعلمتُ ، وغضبتُ فقلت أقبحَ ماعلمت ، وما كذبتُ فى الأولى ، ولقد صدقتُ فى الأخرى . فقال عليه السلام : إنّ من البيان لسحراً .

وقال خالد بن صَفْوان : ما الإنسان لولا اللّسان إلاّ صورة ممثّلة أو بهيمة مهمَلة .

---

(١) الخليفة المخلوع هو الأمين .

(٢) من البيان والتبيين (٣) البيان والتبيين ١ : ٣٤٦ .

(٤) تلهيع : أفرط ، وفى البيان « تتعتع » .

(٥) اللسان : « أموتك » .

(٦) البيان والتبيين ١ : ٣٤٨ ، واللسان ١٠ : ٢٠٣

وقال ابن أبي الزّناد : كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : إنّه يخيّل إليّ أنّي لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ : أضأناً أم معزاً ؟ فإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إليّ : أذكراً أم أنثى ! وإذا كتبت إليك بأحدهما ، كتبت إليّ : صغيراً أم كبيراً ! فإذا كتبتُ إليك في مظلمة ، فلا تراجعني والسلام (١) .

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدم دور مَنْ خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعَقْر نخلهم ، فكتب إليه : بأيّهما أبدأ [بالدّور أم بالنّخل] (٢) يا أمير المؤمنين ؟ فكتب إليه : لو قلت لك بالنّخل لكتبت إليّ بماذا أبدأ ؟ بالشّهريز أم بالبَرْنيّ (٣) ؟ وعزله ، وولى محمد بن سليمان (٤) .

***

وخطب عبد الله بن عامر مرّة فأرتج عليه ، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى ، فقال : لا أجمع عليكم عيّاً ولؤماً : مَنْ أخذ شاة من السّوق فهي له وثمنها عليّ .

وخطب السّفّاح أوّل يوم صعد فيه المنبر فأرتج عليه ، فقام عمّه داود بن عليّ ، فقال : أيّها النّاس إنّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فيكم فعله ، ولأثر الأفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال ، وحسبكم كتاب الله علما فيكم ، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله خليفةً عليكم .

قال الشاعر :

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٠ (٢) من البيان والتبيين .
(٣) الشهريز : ضرب من التمر ، والبرنيّ : ضرب من التمر أيضا أصفر مدور ؛ وهو أجود التمر
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢٨٣

وما خيرُ مَنْ لا ينفع الدّهر عيشه ... وإن مات لم يحزَن عليه أقاربُهْ

كَهامٌ على الأقصى كليلٌ لسانُه ... وفى بَشَرِ الأدنى حديدٌ مخالبُهْ

وقال أُحَيحة بن الجُلاح :

والصمت أجملُ بالفتى ... مالم يكن عِيٌّ يشينُهْ (١)

والقولُ ذو خَطَلٍ إذا ... مالم يكن لبٌّ يزينُهْ

(١) البيان والتبيين ٢ : ٢٧٥ .

(٢٢٩)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

روى ذعلب اليمامى عن أحمد بن قتيبة ، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية ، قال : كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس :

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مبادِئُ طِينِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا ، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا ، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ؛ وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلافِها يَتفاوَتُون ، فتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ ، ومادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ . وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بعِيدُ السَّبْرِ ، ومعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ ، وتائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ . وَطَلِيقُ اللِّسانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ .

***

الشَّرْحُ :

ذعلب وأحمد وعبد الله ومالك ، رجال من رجال الشيعة ومحدّثيهم . وهذا الفصل عندى لا يجوز أن يحمل على ظاهره ، وما يتسارع إلى أفهام العامة منه ، وذلك لأن قوله : « أنهم كانوا فِلْقة من سَبَخ أرض وعَذْبها » ؛ إمّا أن يريد به أنّ كلّ واحد من النّاس ركّب من طين ، وجعل صورة بشرية طينيّة برأس و بطن و يدين ورجلين ، ثم نفخت فيه الروح كما فعل بآدم ، أو يريد به أنّ الطّين الذى ركّبت منه صورة آدم فقط كان مختلطا من سَبَخ وعَذْب ، فإن أريد الأول فالواقع خلافه ، لأنّ البَشر الذين نشاهدهم ، والذين بلغتنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم ، وإنّما خلقوا من نُطَفِ آبائهم . وليس لقائل أن يقول : لعلّ تلك النطف

افترقت لأنّها تولّدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة ، وذلك لأنّ النطفة لا تتولّد من غذاء بعينه ، بل من مجموع الأغذية ، وتلك الأغذية لا يمكن أن تكون كلّها من أرض سَبِخة محضة فى السبخيّة ، لأنّ هذا من الاتّفاقات التى يعلم عدم وقوعها ، كما يعلم أنّه لا يجوز أن يتفق أن يكون أهل بغداد فى وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلّا السكباج خاصة ، وأيضاً فإنّ الأرض السَّبِخة ، أو التى الغالب عليها السبخيّة ، لا تنبت الأقوات أصلا . وإن أريد الثانى ، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً فى جوهره ، مختلفاً فى طبائعه ، فلمَ كان زيدٌ الأحمق يتولّد من الجزء السبخىّ وعمرو العاقل يتولّد من الجزء العذبى بأولَى من العكس ؟ وكيف يؤثّر اختلاف طين آدم من ستّة آلاف سنة فى أقوام يتوالدون الآن .

والذى أراه أنّ لكلامه عليه السلام تأويلًا باطنا ، وهو أن يريد به اختلاف النّفوس المدبّرة للأبدان ، وكنَى عنها بقوله : « مبادئ طينهم » ، وذلك أنّها لمّا كانت الماسكة للبدن من الانحلال ، العاصمة له من تفرّق العناصر ، صارت كالمبدأ وكالعلة له من حيث إنّها كانت علّة فى بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض ، ولذلك إذا فارقت عند الموت افترقت العناصر ، وانحلت الأجزاء ، فرجع اللطيف منها إلى الهواء ، والكثيف إلى الأرض .

وقوله : « كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها ، وحَزْن تربة وسهلها » تفسيره أنّ البارى جلّ جلاله لمّا خلق النّفوس ، خلَقها مختلفة فى ماهيّتها ، فمنها الزكيّة ومنها الخبيثة، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة ، ومنها القويّة ومنها الضعيفة ، ومنها الجريئة المقدِمة ، ومنها الفَشِلة الذليلة[1] ، إلى غير ذلك من أخلاق[2] النفوس المختلفة المتضادّة .

ثم فسّر عليه السلام وعلّل تساوى قوم فى الأخلاق وتفاوت آخرين فيها ، فقال :

---

(١) ساقطة من ا (٢) ا : « اختلاف » .

إنّ نفس زيد قد تكون مشابهةً أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو، فإذاهما فى الأخلاق متساويتان، أو متقاربتان، ونفس خالد قد تكون مضادّة لنفس بكر أو قريبة من المضادّة، فإذاهما فى الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة.

والقول باختلاف النفوس فى ماهيّاتها هو مذهب أفلاطون، وقد اتّبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء، وقال به كثير من مثبِتِى النفوس من متكلّمى الإسلام.

وأمّا أرسطو وأتباعه، فإنّهم لا يذهبون إلى اختلاف النفوس فى ماهيّتها. والقول الأوّل عندى أمثل.

ثم بيّن عليه السلام اختلاف آحاد الناس، فقال: منهم من هو تام الرّواء، لكنه ناقص العقل. والرّواء بالهمز والمدّ: المنظر الجميل، ومن أمثال العرب: «ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل».

وقال الشاعر:

عقله عقل طائرٍ   وهو فى خِلْقَة الجملِ

وقال أبو الطيب:

وما الحسنُ فى وجهِ الفَتَى شرفٌ له   إذا لم يكن فى فِعْلِهِ والخلائقِ (١)

وقال الآخر:

وما ينفع الفتيانَ حُسْنُ وجوهِهِمْ   إذا كانت الأخلاق غيرَ حِسانِ

فلا يغررنْكَ المرء راق رُواؤه   فما كلّ مصقول الغِرارِ يمانى

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠

ومن شعر الحماسة :

لقومىَ أرعَى للعُـــلَا مِنْ عِصابَةٍ ... من النّاس ياحار بن عمرو تسودُها (١)

وأنتم سماء يُعجِب الناس رِزُّها ... بآبدةٍ تُنحِي شديدٍ وئيـــدُها (٢)

تقطّع أطناب البيوت بحاصبٍ ... وأكذب شيء برقُها ورعودُها

فويل امّها خيـــلاً بهاء وشارة ... إذا لاقتِ الأعـــداء لولا صدُودُها !

ومنه أيضا :

وكائن بسعـــدٍ إنّ سعدا كثيرةٌ ... ولا ترجُ من سَعْدٍ وفاء ولا نَصْرا (٣)

يروعُكَ من سَعْدِ بن زيد جسومُها ... وتزهَـــدُ فيها حين تَقتُلُها خُبْرا

***

قوله عليـه السلام : « ومادّ القامة قصير الهمّة » ؛ قريب من المعنى الأول ، إلّا أنه خالف بين الألفاظ، فجعل الناقص بإزاء التامّ ، والقصير بإزاء المادّ . ويمكن أن يجعل المعنيان مختلفين ، وذلك لأنّه قد يكون الإنسان تامّ العقل ، إلّا أنّ همته قصيرة ، وقد رأينا كثيرا من النّاس كذلك ، فإذَنْ هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأوّل .

قوله عليه السلام : « وزاكى العمل قبيح المنظر » يريد بزكاء أعماله حسنَها وطهارتَها، فيكون قد أوقع الحسَن بإزاء القبيح ، وهذا القسم موجود فاشٍ بين الناس .

قوله : « وقريب القعر بعيد السَّبْر » ، أى قد يكون الإنسان قصير القامة ، وهو مع ذلك داهية باقعة، والمراد بقربِ قعره تقارب ما بين طرفيْه ، فليست بطنه بعديدة ولا مستطيلة،

---

(١) لقراد بن حنش الصاردى ـ ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوق ٣ : ١٤٣٠ .

(٢) السماء هنا : السحاب . والرز والوئيد جيما : الصوت. ومعنى : « تنحى » تقبل .

(٣) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوق ٣ : ١٥٢٢ ، وهناك بعد هذا البيت :

وَلَا تَدْعُ سَعْدًا لِلْقِرَاعِ وَخَلِّهَا ... إِذَا أَمِنَتْ وَنَعْتُهَا الْبَـلَدَ الْقَفْرَا

وهى قعره ، وإذا سبرته واختبرت ماعنــده وجدته لبيبا فَطِنا ، لا يوقَف على أسراره ، ولا يدرك باطنه ، ومن هذا المعنى قول الشاعر (١) :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتزدَرِيه ... وفى أثوابه أَسَــدٌ مَزِيرُ (٢)
ويعجبُك الطَّرِيرُ فتبتليــهِ ... فيخلف ظنَّك الرجلُ الطَّرِيرُ (٣)

وقيل لبعض الحكماء : مابال القصارِ من الناس أدهى وأحذق ؟ قال : لقرْب قلوبهم من أدمغتهم .

ومن شعر الحماسة :

إلّا يكن عظمِي طويــلاً فإنّنِى ... له بالخصال الصالحات وصولُ (٤)
ولا خيرَ فى حُسْنِ الجسوم وطولها (٥) ... إذا لم تَزِنْ حسنَ الجسوم عقولُ

ومن شعر الحماسة أيضا وهو تمام البيتين المقدّم ذكرهما :

فمــا عِظَمُ الرجال لهم بفخرٍ ... ولــكن فخرُهمْ كرم وخيرُ
ضِعاف الطــير أطولُها جسوما ... ولم تَطُــلِ البزاة ولا الصُّقُور
بُغاث الطــير أكثرها فِراخا ... وأمّ الصقر مِقْلاتٌ نَزُور (٦)
لقــد عَظُمَ البعير بغير لُبّ ... فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَم البعــيرُ

***

قوله عليه السلام : « ومعروف الضريبة منكر الجليبة » ، الجليبة هى الخلُق الّذى

---

(١) للعباس بن مرداس ، ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوق ٣ : ١١٥٣ .
(٢) المزير : الجلد الخفيف النافذ فى الأمور .
(٣) الطرير : الشاب الناعم .
(٤) ديوان الحماسة ٣ : ١١٨١ ـ بشرح المرزوق ونسبه إلى بعض الفزاريين .
(٥) الحماسة : « ونبلها » .
(٦) المقلات ، من القلت وهو الهلاك . والنزور : القليلة الأولاد من النزر ، وهو القليل .

يتكلّفه الإنسان و يستجلبه ، مثل أن يكون جبا ناً بالطبع فيتكلّف الشجاعة ، أو شحيحا بالطبع فيتكلف الجود ، وهذا القسم أيضا عام فى النّاس .

ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوِى الأخلاق والطباع المتناسبة المتلائمة، فقال : « وتائه القلب متفرق اللّب » ، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادّان .

ثم قال : « وطليق اللّسان حديد الجنان » ، وهذان الوصفان أيضا متناسبان ، وهما متضادان للوصفين قبلهما ، فالأوّلان ذمٌّ ، والآخران مدح .

(٢٣٠)

الأَصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام : قاله وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَارَسُولَ اللهِ ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَالَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً ، وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً ، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً ، وَقَلَّا لَكَ ! وَلَكِنَّهُ مَالَا يُمْلَكُ رَدُّهُ ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ !

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ !

***

الشَّرْحُ :

بأبى أنت وأمّى ! أى بأبى أنت مفدًّى وأمّى .

والإنباء : الإخبار ، مصدر أنبأ ينبىء ، وروى : « والأنباء » بفتح الهمزة جمع نَبَأ ، وهو الخبر . وأخبار السماء : الوحى .

قوله عليه السلام : « خصّصت وعمّمت » ، أى خصّت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك من المصائب ، ولا بما أصابهم من قَبْل ، وعمّت هذه

المصيبة أيضا النّاس ، حتى استوى الخلائق كلُّهم فيها ، فهى مصيبة خاصّة بالنسبة ، وعامّة بالنسبة .

* * *

ومثل قوله : « حتى صرت مسلّيا عمّن سواك » قول الشاعر :

رُزِئنا أبا عمرٍو ولا حيّ مثــلُه ... فلله درُّ الحــادثات بمن تقعْ !
فإن تكُ قــد فارقتنا وتركتَنا ... ذوى خَلّة مافى انسدادٍ لها طمعْ
لقــد جرّ نفعا فقدُنا لك أننا ... أمنّا على كلّ الرزايا من الجزَعْ

وقال آخر :

أقول للموتِ حين نازله ... والموت مِقْــدامة على البُهَمِ
اظفرْ بمن شئتَ إذ ظفرتَ به ... مابعــد يحيي للموت من ألمِ

ولى فى هذا المعنى كتبته إلى صديق غاب عنى من جملة أبيات :

وقد كنت أخشى من خطوبٍ غوائلٍ ... فلمّا نأى عنّى أمنتُ من الحــذر
فأعجب لجسمٍ عاش بعــد حياتِهِ ... وأعجب لنفعٍ حاصــل جرّه ضررْ

* * *

وقال إسحاق بن خَلَف يرثى بنتا له [١] :

أمست أميمــة معمورا بها الرَّجمُ ... لَقًا صعيدٍ عليهــا التّرب مرتِكمُ [٢]
ياشِقّة النّفسِ إنّ النفس والهــةٌ ... حرّى عليك ، وإنّ الدّمع منسجمُ [٣]
قــد كنتُ أخشى عليها أن تُقدِّمَني ... إلى الحِمام فيبدى وجهها العــدمُ
فالآن نمتُ ، فــلا همٌّ يؤرّقُنِي ... تهدا العيون إذا ما أودت الحرَمُ [٤]

(١) الكامل ٤ : ٢٠

(٢) الرجم : القبر ، واللقى : الشيء الملقى .

(٣) الشقة : نصف الشيء .

(٤) أودت : هلكت .

للموت عندي أيادٍ لست أكفرُها أحيا سروراً وبي مما أتى ألمُ

* * *

وقال آخر :

فلو أنها إحدى يديّ رزيتها ولكن يدي بانت على إثرها يدي

فآليتُ لا آسى على إثر هالكٍ قدِي الآن من حُزنٍ على هالكٍ قدِي

* * *

وقال آخر :

أجاريَ ما أزداد إلّا صبابة عليكَ ؛ وما تزداد إلّا تنائيا

أجاريَ لو نفس فدت نفسَ ميِّتٍ فديتُك مسرورا بنفسِي ماليَا

وقد كنت أرجو أن أملّاك حقبة فحالَ قضاه الله دونَ رجائيا

ألا فليمُتْ مَنْ شاء بعدك إنّما عليك من الأقدار كان حذاريا

* * *

وقال آخر :

لتغدُ المنايا حيث شاءت فإنّها محلّلة بعد الفتى ابن عَقِيلِ

فتًى كان مولاه يحلّ بنجوةٍ فحلّ الموالى بعده بمسيلِ

* * *

قوله عليه السلام : « ولكان الداء مماطلا » ؛ أى مماطلا بالبرء ، أي لا يجيب إلى الإقلاع .

والإبلال : الإفاقة .

* * *

[ذكر طرف من سيرة النبي عليه السلام عند موته]

فأما وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وما ذكره أرباب السيرة فيها فقد ذكرنا طرفا منه فيما تقدّم؛ ونذكر هاهنا طرفا آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه.

قال أبو جعفر : روى أبو مويهبة [1] مولَى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال أرسل [2] إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جوف الليل ، فقال : « يا أبا مُوَيهبة ، إنّي قد أمِرْت أن أستغفرَ لأهل البقيع، فانطلقْ معي » ، فانطلقت معه ، فلمّا وقف بين أظهرهم ، قال : « السّلام عليكم يا أهلَ المقابر ، ليهنِ لكم ما أصبحتُمْ فيه ممّا أصبَح النّاس فيه ! أقبلتِ الفِتَن كقِطَع اللّيل المظلم ، يتبع آخرُها أوّلَها ، الآخرة شرٌّ من الأولى » . ثم أقبل عليّ ، فقال : « يا أبا مُوَيهبة إني قد أُوتيتُ [3] مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلد فيها والجنّة [4] ، فخُيِّرتُ بينها وبين الجنّة ، فاخترت الجنّة » ، فقلت : بأبي أنتَ وأمّي ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنّة جميعا ، فقال : « لا يا أبا مويهبَة ، اخترت لقاء ربّي » ، ثم استغفَر لأهل البقيع وانصرف ، فبدأ بوجعه الذي قبضه الله فيه [5] .

وروى محمدُ بن مسلم بن شهاب الزهريّ ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، عن عائشة ، قالت : رجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله تلك اللّيلة من البقيع ، فوجدني وأنا أجِدُ صُداعاً في رأسي ، وأقول : وارأساه ! فقال : بل أنا وارأساه ! ثم قال : « ماضرّكِ لو مِتِّ قبلي ، فقمت عليكِ فكفّنتكِ ، وصلّيت عليك ودفنتكِ » ! فقلت : والله لكأنّي

---

(١) ذكره الطبرى ١ : ١٧٨٠ (طبع أوربا) . في موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : « قيل إنه كان من مولدى مزينة ، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه » .

(٢) الطبرى : « بعثنى » . (٣) الطبرى : « أتيت » .

(٤) الطبرى : « ثم الجنة » . (٥) تاريخ الطبرى ١ : ١٧٩٩ ، ١٨٠٠

بك ـ لو كانَ ذلك ـ رجعتَ إلى منزلى ، فأعرستَ ببعض نسائك ! فتبسّم عليه السلام ، وتتامّ به وجعُه ، وهو مع ذلك يدور على نسائه ، حتى استُعِزَّ[1] به ؛ وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرّض فى بيتى ، فأذنّ له ، فخرج بين رجلين من أهله ، أحدهما الفضل ابن العبّاس ورجل آخر ، تخطّ قدماه فى الأرض ، عاصباً رأسه حتى دخل بيته .

قال عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة : فحدّثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث ، فقال : أتدرِى مَن الرجل الآخر ؟ قلت : لا ، قال : علىّ بن أبى طالب ، لكنّها كانت لا تقدرُ أن تذكره بخير وهى تستطيع . قالت : ثم غُمِرَ[2] رسول الله صلى الله عليه وآله واشتدّ به الوجع ، فقال : « أهرِيقوا علىّ سبعَ قِرَبٍ من آبارشتّى حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » ، قالت : فأقعدته فى مِخْضَب لحفصة بنت عمر ، وصببنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده : « حسبُكم حسبكم[3] » :

قلت : المخضب : المِركَن[4] .

وروى عطاء ، عن الفضل بن عباس رحمه الله : قال : جاءنى رسُول الله صلى الله عليه وآله حين بدأ به مرضُه ، فقال : اخرج ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً قد عصِب رأسه ، فقال : خذ بيدى ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد فى النّاس ، فصِحْت فيهم فاجتمعوا إليه ، فقال : « أيّها الناس ، إنى أحمَد إليكم الله ، إنه قدْ دَنا منّى حقوق من بين أظهركم ؛ فمنْ كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقِدْ منه ، ومَنْ كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عِرْضى فليستقدْ منه ، ومن كنت أخذتُ له مالا فهذا مالى فليأخذْ منه ، ولا يقلْ : رجلٌ إنى أخاف الشّحناء مِنْ قِبَل رسول الله . ألَا وإنّ الشَّحْناء ليست من طبيعتى ولا من شأنى ، ألَا وإنّ أحبّكم إلىّ مَنْ أخذ منّى حقا

---

(١) استعز به : اشتد عليه وجعه وغلبه على نفسه . (٢) غمر : اشتد به الوجع
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . (٤) المركن : الإجانة التى تغسل فيها الثياب

إن كان له ، أو حلّفني فلقيتُ الله وأنا طيّب النفس ، وقد أرانى أنّ هذا غيرُ مغنٍ عنّى حتى أقوم فيكم به مرارا » . ثم نزل فصلّى الظهر . ثم رجعَ فجلس على المنبر ، فعاد لمقالته الأولى فى الشّحناء وغيرها ، فقام رجلٌ ، فقال : يارسولَ الله ، إنّ لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : إنّا لا نكذّب قائلا ولا نستحلفه على يمين ، فيم كانتْ لك عندى ؟ قال : أتذكُر يارسولَ الله يوم مرّ بك المسكين ، فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم ؟ قال : أعطِه يافضل ، فأمرتُه فجلس ، ثم قال : « أيّها الناس مَنْ كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقلْ : فضُوح الدّنيا ؛ فإن فضوح الدنيا أهونُ من فضُوح الآخرة » . فقام رجل فقال : يارسولَ الله ، عندى ثلاثة دراهم غللتُها فى سبيل الله ، قال : ولم غللتَها ؟ قال : كنت محتاجا إليها ، قال : خذْها منه يافضل . ثم قال : « أيّها النّاس ، مَنْ خشىَ من نفسه شيئاً فليقم أدعو له » ، فقام رجلٌ فقال : يارسولَ الله ، إنّى لكذّاب ، وإنّى لفاحش ، وإنى لنئوم . فقال : « اللهم ارزقه صِدْقاً وصلاحاً[1] ، وأذهب عنه النوم إذا أراد » . ثم قام رجل ، فقال : يارسولَ الله ، إنّى لكذّاب ، وإنى لمنافق ، وما شيء — أو قال : وإن من شيء — إلا وقد جئته[2] . فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحتَ نفسك أيّها الرجل ! فقال النبي صلى الله عليه وآله : « يابن الخطّاب : فضُوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وإيمانا وصيّر أمرَه إلى خير »[3] .

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : نَعَى إلينا نبيّنا وحبيبُنا نفسَه قبل موته بشهر ، جمعنا فى بيت أمنا عائشة فنظر إلينا [وشدّد][4] ودمعت عينه ، وقال : مرحبا بكم ! حيّاكم الله ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، نفعكم الله ،

---

(١) الطبرى : « وإيمانا » . (٢) الطبرى : « جنيته » .

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠١ — ١٨٠٣ ، وبقية الخبر : « فقال عمر : كلمة ، فضحك رسول الله ، ثم قال : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان » .

(٤) من تاريخ الطبرى .

وفقكم الله ، رزقكم الله ، هداكم الله ، نصركم الله، سلمكم الله ، تقبلكم الله ! أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إني لكم منه نذير و بشير ، ألا تعلوا على الله في عباده و بلاده ، فإنه قال لى ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . فقلنا : يارسولَ الله ، فمتى أجلك ؟ قال : «قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، والرفيقِ الأعلى وجنّة المأوى والعيش المهنّا» ، قلنا : فمن يغسّلك يارسول الله ؟ قال : « أهلي الأدنى فالأدنى» ، قلنا : ففيم نكفّنك ؟ قال : «في ثيابي هذه إن شئتم ، أوفي بياض مصر ، أو حلّة يمنيّة » ، قلنا : فمَنْ يصلّى عليك ؟ فقال : « إذا غسّلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا ، على شفير قبري ، ثم اخرجوا عنّي ساعة ، فإنّ أولَ مَنْ يصلّى عليّ جليسي وحبيبي وخليلي جبرئيل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملَك الموت مع جنوده من الملائكة ، ثم ادخلوا عليّ فوجا فوجا فصلّوا عليّ وسلموا ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجّة ولا رنّة ، وليبدأ بالصّلاة عليّ رجالُ أهل بيتي ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرئوا أنفسكم منّي السلام ، ومَنْ غاب من أهلي فأقرئوه منّي السّلام ، ومَنْ تابعكم بعدى على ديني فأقرئوه منّي السلام ، فإني أشهدكم أني قد سلّمت على من بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة » . قلنا : فمَنْ يدخلُك قبرَك يارسول الله ؟ قال : «أهلي مع ملائكة كثيرة يرونكم ولا ترونهم» (٢) .

قلت : العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك السّاعة : فمَنْ يلي أمورنا بعدك ! لأنّ ولاية الأمر أهمّ من السؤال عن الدّفن ، وعن كيفية الصلاة عليه ، وما أعلم ما أقول في هذا المقام !

قال أبو جعفر الطبريّ: وَرَوى سَعيد بن جُبَير ، قال : كان ابنُ عبّاس رحمه الله يقول :

---

(١) سورة القصص ٨٣ . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٤ — ١٨٠٦ .

يومُ الخميس ومايومُ الخميس ! ثم يبكى حتى تبلّ دموعُه الحصْباء ، فقلنا له : وما يوم الخميس؟ قال : يوم اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله وجعُه ، فقال : « ائتونى باللّوْح والدّواة — أو قال : بالكتِف والدواة — أكتب لكم مالا تضلّون بعدى ، فتنازعوا ، فقال : اخرجُوا ولا ينبغى عند نبىّ أن يتنازع ، قالوا : ماشأنه ، أهجَر[1] ؟ استفهموه ، فذهبوا يُعيدون عليه ، فقال : « دعونى فما أنا فيه خير مما تدعوننى إليه » ، ثم ، أوصى بثلاث ؛ قال : « أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفدَ بنحوٍ مما كنت أجيزهم » ، وسكت عن الثالثة عَمْدا ، أو قالها ونسيتها[2] .

وروى أبو جعفر ، عن ابن عبّاس . قال : خرج علىّ بن أبى طالب عليه السلام من عندِ رسول صلى الله عليه وآله فى وَجَعِه الّذِى تُوُفِّىَ فيه ، فقال له الناس : ياأبا الحسن ، كيف أصبَح رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئا . فأخذ العبّاس بيده ، وقال : ألا ترَى أنك بعد ثلاث عبدُ العصا ! إنّى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله صلّى الله عليهِ وآله فَسَلْه فيمنْ يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا وصّى بنا ، فقال علىّ : أخشى أن أسأله فيمنعناها فلا يعطيناها الناسُ أبدا[3] .

وروت عائشة قالت : أغمِىَ على رسول الله صلى الله عليه وآله والدّار مملوءةٌ من النّساء : أمّ سلمة ، وميمونة ، وأسماء بنت عُميس ، وعندنا عمّه العبّاس بن عبد المطلب ، فأجمعوا على أن يلدُّوه ، فقال العباس : لا ألدُّه ، فلدُّوه ، فلمّا أفاق قال : مَنْ صنع بى هذا ؟ قالوا : عمّك قال لنا : هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض — وأشار إلى أرض الحبشة — قال : فلم فعلتمْ ذلك ؟ فقال العبّاس : خشينا يارسولَ الله ، أن يكون بك ذات الجَنب ، فقال : « إنّ ذلك

---

(١) هجر ، أى اختلف كلامه .
(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٦ .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٧ .

لداللا ما كان الله ليقذفنى به ، لا يبقى أحدٌ فى البيت إلا لُدّ إلا عمّى » . قال : فلقد لُدّت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله صلى الله عليه وآله عقوبة لهم بما صنعوا .

قال أبو جعفر : وقد وردت رواية أخرى عن عائشة ، قالت : لَدَدْنا رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى مرضه ، فقال : لا تلدّونى، فقلنا : كراهية المريض للدواء ؛ فلما أفاق قال : لا يبقى أحدٌ إلا لُدّ غير العباس عمّى فإنه لم يشهدكم .

قال أبو جعفر : والذى تولّى اللَّدُود[1] بيده أسماء بنت عُميس .

قلت : العَجَب من تناقُض هذه الروايات ! فى إحداها أن العباس لم يشهد اللدود ، فلذلك أعفاه رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يُلَدّ ولُدّ مَنْ كان حاضراً ، وفى إحداها أنّ العباس حضر لدّه عليه السلام، وفى هذه الرواية التى تتضمن حضور العباس فى لَدّه كلام مختلف ، فيها أنّ العباس قال: لا ألدّه ، ثم قال : فلدّ فأفاق ، فقال : مَنْ صنع بى هذا ؟ قالوا : عمّك ، إنه قال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجَنْب؛ فكيف يقول : لا ألدّه ، ثم يكون هو الذى أشار بأن يلدّ ، وقال : هـذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا !

وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن أبى زيد البصرىّ عن حديث اللدود ، فقلت : ألُدّ علىّ بن أبى طالب ذلك اليوم ؟ فقال : معاذ الله ! لو كان لُدّ لذكرتْ عائشة ذلك فيما تذكره وتنعاه عليه . قال : وقد كانت فاطمة حاضرةً فى الدار ، وابناها معها ، أفتراها لُدّت أيضا ، ولدّ الحسنُ والحسين ! كلّا ، وهذا أمر لم يكن ، وإنما هو حديث ولّده مَنْ ولّده تقربا إلى بعض النـاس ، والذى كان أنّ أسماء بنت عُميس أشارت بأنْ يُلدّ ، وقالت : هـذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبى طالب ، وكان بعلها ،

(١) اللدود ، بالفتح من الأدوية : مايسقاه المريض فى أحد شق الفم .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ .

وساعدتْها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث، فلُدّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا أفاق أنكره ، وسأل عنه فذكر له كلام أسماء ، وموافقة ميمونة لها ، فأمر أن تُلَدّ الامرأتان لا غير ، فلُدّتا ولم يجرِ غير ذلك . والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر .

وروت عائشة ، قالت : كثيراً ما كنتُ أسمع رسول الله يقول : إن الله لم يقبض نبيًّا حتى يخيّره ، فلما احتضِر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتُها منه : « بل الرفيق الأعلى » ، فقلت : إذاً والله لا يختارنا ، وعلمتُ أنّ ذلك ما كان يقوله من قبل [1] .

وروى الأرقم بن شُرَحبيل ، قال : سألتُ ابنَ عباس رحمه الله : هل أوصَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ، قلت : فكيف كان ؟ فقال : إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال في مرضه : « ابعثوا إلى عليٍّ فادعوه » ، فقالت عائشة : لو بعثتَ إلى أبي بكر ! وقالت حفصة : لو بعثتَ إلى عمر ! فاجتمعوا عنده جميعاً ـ هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبريّ في التاريخ ، ولم يقل : « فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما » ـ قال ابن عباس : فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « انصرفوا ، فإن تكن لي حاجة أبعثْ إليكم » ، فانصرفوا . وقيل لرسول الله : الصلاة ! فقال : « مروا أبا بكرٍ أن يصلّيَ بالناس » ، فقالت عائشة : إنّ أبا بكر رجل رقيق فمر عمر ، فقال : مروا عمر ، فقال عمر : ما كنت لأتقدّم وأبو بكر شاهد ، فتقدّم أبو بكر ، فوجد رسولُ الله صلّى الله عليه وآله خفّة ، فخرج ، فلمّا سمع أبو بكر حركتَهُ تأخّر ، فجذب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقامه مكانه ، وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر [2] .

قلت : عندي في هذه الواقعة كلام ، ويعترضني فيها شكوك واشتباه ؛ إذا كان قد

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٠ .
(٢) تاريخ الطبري : ١٨١١ ، ١٨١٢ .

أراد أن يبعث إلى عليّ ليوصِيَ إليـه ، فنفسَتْ عائشة عليـه ، فسألت أن يحضُر أبوها ، ونفَسَت حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها ، ثم حضرا ولم يُطْلبا ، فلا شبهة أنّ ابنتيهما طلبتاهما . هذا هو الظاهر ، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اجتمعوا كلّهم عنده : « انصرفوا فإنْ تـكن لى حاجة بعثت إليـكم » ، قول مَنْ عنده ضَجَر وغضب باطن لحضورها ، وتُهمة للنّساء فى استدعائهما ، فـكيف يطابق هذا الفعل وهـذا القول ما روِيَ من أنّ عائشة قالت لمـا عيّن على أبيها فى الصلاة : إنّ أبى رجلٌ رقيـق ، فمُر عمر ! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفـاء والاستقالة ! وهذا يُوهم صحّة ماتقوله الشّيعة من أنّ صلاة أبى بكر كانت عن أمرِ عائشة ، وإن كنت لا أقول بذلك ، ولا أذهب إليه ، إلا أنّ تأمّل هذا الخبر ولَمْحَ مضمونه يُوهِم ذلك ، فلعلّ هذا الخبر غير صحيح . وأيضا ففى الخبر مالا يجيزه أهلُ العدل ، وهو أن يقول : « مروا أبا بكر » ، ثم يقول عَقِيبة : « مروا عمر » ، لأنّ هذا نسخُ الشىء قبل تقضِى وقت فعله .

فإن قلتَ : قد مضى من الزمان مقدارُ ما يمكّن الحاضرين فيه أن يأمروا أبا بكر ، وليس فى الخبر إلّا أنه أمرهم أن يأمروه ، ويكفى فى صحة ذلك مضىّ زمان يسير جدا يمكن فيه أن يقال : ياأبا بكر صلّ بالناس .

قلتُ : الإشكال ما نشأ من هذا الأمر ، بل من كون أبى بكر مأموراً بالصلاة ، وإن كان بواسطة ، ثم نُسِخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضىّ وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة .

فإن قلتَ : لم قلتَ فى صدر كلامك هذا : إنه أراد أن يبعث إلى علىّ ليوصِىَ إليه ؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له ؟

قلت : لأنّ مخرج كلام ابن عبّاس هـذا المخرج ، ألا ترى أنّ الأرقم بن شُرحبيل الراوى لهذا الخبر قال : سألتُ ابن عباس : هلْ أوصى رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله ؟ فقال : لا ، فقلت : فـكيف كان ؟ فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال فى مرضه:

«ابعثوا إلى عليّ فادعُوه» ، فسألته المرأة أن يبعث إلى أبيها ، وسألته الأخرى أن يبعث إلى أبيها ، فلولا أنّ ابنَ عباس فَهِم من قوله صلى الله عليه وآله : «ابعثوا إلى عليّ فادعوه» أنه يريد الوصيّة إليه ، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متّصلا بسؤاله عن الوصية معنى .

وروى القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عن عائشة ، قالت : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يموت وعنده قَدَحٌ فيه ماء يُدخل يده فى القَدَح ثم يمسح وجهه بالماء ، ويقول : « اللهم أعنّى على سَكْرة الموت[1] ! » .

وروى عُروة عن عائشة ، قالت : اضطجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم موتِه فى حِجْرى ، فدخل علىّ رجلٌ من آل أبى بكر ، فى يدِه مسواك أخضر ، فنظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إليه نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت له :أتحبّ أن أعطيَك هذا المسواك ؟ قال : نعم ، فأخذته فمضغتُه حتى ألنته ثم أعطيته إياه ، فاستنّ به كأشدّ مارأيته يستنّ بسواك قبله ، ثم وضعه ، ووجدتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يثقُل فى حِجْرى،فذهبت أنظر فى وجهِه ، فإذا بصرُه قد شخص ، وهو يقول : «بل الرفيق الأعلى من الجنة» ! فقلت : لقد خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحقّ ! وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

قال الطّبرىّ : وقد وقع الاتّفاق على أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، واختلف فى أىّ الأثانين كان ؟ فقيل : لليلتين خَلَتا من الشهر ، وقيل : لاثنتىْ عشرة[3] خَلَتْ من الشهر . واختلف فى تجهيزه أىّ يوم كان ! فقيل: يوم الثلاثاء الغد من وفاته ، وقيل : إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام ، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة .

وقد روى الطبرىّ مايدلّ عَلَى ذلك عن زياد بن كُلَيب ، عن إبراهيم النَّخَعِىّ أنّ

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٨١٢ . (٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٤

(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨١٥ .

أبا بكرٍ جاء بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد اربدّ بطنُه ، فكشف عن وجهه ، وقبّل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمّي ! طبت حيًّا وطبت ميّتا [١] !

قلت : وأنا أعجبُ من هذا ! هبْ أنّ أبا بكر ومَنْ معه اشتغلوا بأمر البيعة ، فعليّ بن أبي طالب والعبّاس وأهل البيت بماذا اشتغلُوا حتى يبقَى النبيّ صلى الله عليه وآله مسجًّى بينهم ثلاثة أيامٍ بلياليهنّ لا يغسلونه ولا يمسّونه !

فإن قلت : الرواية الّتي رواها الطبريّ في حديث الأيام الثلاثة ، إنّما كانت قبل البيعة ؛ لأن لفظ الخبر عن إبراهيم ، وأنّه لما قبض النبيّ صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائبا فجاء بعد ثلاث ، ولم يجترئ أحدٌ أن يكشِفَ عن وجهه عليه السلام حتى ازبدّ بطنه ، فكشف عن وجهه وقبّل عينيه ، وقال : بأبي أنت وأمّي ! طبْت حيًّا وطبت ميّتا ، ثم خرج إلَى الناس ، فقال : مَنْ كان يعبدُ محمّداً فإنّ محمدا قد مات ... الحديث بطوله .

قلت : لَعمري ، إنّ الرواية هكذا أوردها ، ولكنها مستحيلة ، لأن أبا بكرٍ فارق رسولَ الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ ، ومضى إلى منزله بالسُّنح في يوم الاثنين ، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنّه رآه بارئا صالح الحال . هكذا روى الطبريّ في كتابه ، وبين السُّنح وبين المدينة نصف فرسخ ، بل هو طائفة من المدينة ، فكيف يبقَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ميّتاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر ، وبينهما غَلْوة ثلاثة أسهم ! وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترئ أحدٌ منهم أنْ يكشِف عن وجهه ، وفيهم عليّ بن أبي طالب وهو رُوحه بين جنبيه ، والعبّاس عمّه القائم مقام أبيه ، وابنا فاطمة ، وهما كولديه ، وفيهم فاطمة بَضْعة منه ، أفما كان في هؤلاء مَنْ يكشف عن وجهه ، ولا مَنْ يفكّر في جهازه ، ولا مَنْ يأنف له من

(١) تاريخ الطبري ١ : ١٨١٧ .

انتفاخ بطنه واخضرارها و ينتظر بذلك حضورَ أبي بكر ليكشِفَ عن وجهه !

أنا لا أصدّق ذلك ، ولا يسكنُ قلبي إليه . والصحيح أنّ دخول أبي بكر إليه وكشفه عن وجهه ، وقوله ماقال ، إنما كان بعد الفراغ من البيْعة ، وأنهم كانوا مشتغلين بها كما ذكر في الرواية الأخرى .

و بقي الإشكال في قعود عليّ عليه السلام عن تجهيزه . إذا كان أولئك مشتغلين بالبيْعة ، فما الذي شغله هو ؟

فأقول : يغلب على ظنّي - إنْ صحّ ذلك - أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه ، حيث فاته الأمر ، واستُؤثر عليه به ، فأراد أن يتركه صلى الله عليه وآله بحاله لا يحدث في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أنّ الدنيا شغلتهم عن نبيّهم ثلاثة أيام ، حتى آل أمره إلى ما ترون ؛ وقد كان عليه السلام يتطلّب الحيلة في تهجين أمرِ أبي بكر حيث وقع في السقيفة ماوقع بكلّ طريق ، ويتعلّق بأدنى سبب من أمورٍ كان يعتمدها ، وأقوالٍ كان يقولها ، فلعلّ هذا من جُملة ذلك ، أو لعلّه إنْ صحّ ذلك ، (١ فإنما تركه صلى الله عليه وآله بوصيّة منه إليه وسرٍّ كانا يعلمانه في ذلك .

فإن قلت : فلم لا يجوز أن يقال - إنْ صَحّ ذلك : إنه ١) أخّرَ جهازه ليجتمع رأيه ورأى المهاجرين على كيفيّة غسله وتكفينه ، ونحو ذلك من أموره ؟

قلت : لأنّ الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال ، وهي قوله صلى الله عليه وآله لهم قبل موته : « يغسلني أهلي الأدنى منهم فالأدنى ، وأكفّن في ثيابي أو في بياض مصر أو في حلّة يمنيّة » .

قال أبو جعفر : فأمّا الذين تولوا غَسْله فعليّ بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبدالمطلب ، والفضل بن العباس ، وقُثَم بن العبّاس ، وأسامة بن زيد ، وشُقْران مولى رسول الله صلى الله

(١-١) ساقط من ب ، وأثبته من ا

عليـه وآله ، وحضر أوس بن خولىّ أحد الخزرج ، فقال لعلىّ بن أبى طالب : أنشدك الله ياعلىّ وحظّنا من رسول الله ! وكان أوس من أصحاب بدر ، فقال له : ادخل، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام ، وصبّ الماء عليه أسامة وشُقران ، وكان علىّ عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصُه يدلّكه من ورائه ، لا يفضِى بيده إلى بدن رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وكان العباس وابناه الفضل وقُثَم يساعدونه على قَلْبه من جانب إلى جانب [1] .

قال أبو جعفر : وروت عائشة أنّهم اختلفوا فى غَسْله: هل يجرّد [2] أم لا ؟ فألقى الله عليهم السِّنة حتى مامنهم رجل إلّا وذقنه على صدره ، ثم كلّمهم متكلّم من ناحية البيت لا يدرَى مَنْ هو : غسّلوا النبىّ وعليه ثيابه . فقاموا إليه فغسلوه ، وعليـه قميصه فـكانت عائشة تقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرتُ ماغسله إلا نساؤه [3] .

قلت : حضرتُ عند محمّد بن معد العلوىّ فى داره ببغداد ، وعنـده حسن بن معالى الحِلّى المعروف بابن الباقلاوىّ وهما يقرآن هذا الخبر ، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبرى ، فقال محمد بن معدّ لحسن بن معالى : ماتراها قصدَتْ بهـذا القول ؟ قال : حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غَسْل رسول الله صلّى الله عليه وآله ! فضحك محمد ، فقال : هبْها استطاعت أن تزاحمه فى الغسل ، هل تستطيع أن تزاحمه فى غيره من خصائصه !

قال أبو جعفر الطبرىّ : ثم كُفّن عليـه الصلاة والسلام فى ثلاثة أثواب : ثوبين صُحاريّين [4] وبُرْد حبرة [5] . أدرج [6] فيهمـا إدراجاً ، ولُحِد له على عادة أهل المدينة ، فلمّا فرغوا منه وضعوه على سريره [7] .

* * *

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٠ ، ١٨٣٣ . (٢) الطبرى : « أنجرد » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ . (٤) صحاريان : منسوبان إلى صحار ، قرية باليمن.
(٥) حبرة بوزن عنبة ، أى مخطط ، وهو برد يمان أيضا على الوصف أو الإضافه .
(٦) أى لفّ فيه . (٧) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣١ .

واختلفوا فى دَفْنه ، فقال قائل : ندفنه فى مسجدِه ، وقال قائل : ندفنه فى البَقيع مع أصحابه ، وقال أبو بكر : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : «ماقُبِض نبىٌّ إلا ودُفن حيث قُبِض» ، فرفِع فراش رسول الله الذى تُوُفّىَ فيه ، فحُفِرَ له تحته .

قلت : كيف اختلفوا فى موضع دفنه ، وقد قال لهم : «فضعونى على سريرى فى بيتى هذا ، على شفير قبرى» ، وهذا تصريح بأنّه يُدفن فى البيت الذى جمعهم فيه ، وهو بيت عائشة ؛ فإمّا أن يكونَ ذلك الخبر غيرَ صحيح ، أو يكون الحديث الذى تضمّن أنّهم اختلفوا فى موضع دفنه ، وأنّ أبا بكر رَوَى لهم أنه قال : «الأنبياء يدفنون حيث يموتون» غيرَ صحيح ، لأنّ الجمع بين هذين الخبرين لا يمكن .

وأيضاً ، فهذا الخبر ينافِى ماورَد فى موت جماعةٍ من الأنبياء نُقِـلوا من موضع موتهم إلى مواضع أُخَر ، وقد ذكر الطّبرىّ بعضهم فى أخبار أنبياء بنى إسرائيل .

وأيضاً فلو صحّ هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفن النبىّ صلّى الله عليه وآله حيث قُبِض ، لأنّه ليس بأمرٍ بل هو إخبـار محض ، اللهمّ إلا أن يكونوا فهمُوا من مخرج لفظه عليه السلام ومن مقصده أنّه أراد الوصيّة لهم بذلك ، والأمر بدفنه حيث يقبض .

قال أبو جعفر : ثم دخل[1] النّاس فصلّوا عليـه أرسالًا ، حتى إذا فرغ الرّجال أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النّساء أدخل الصبيـان ، ثم أدخِل العبيد ، ولم يؤمّهم[2] إمام ، ثم دفن عليه السلام وَسَط الّليل من ليلة الأربعاء[3] .

قال أبو جعفر : وقد روت عَمْرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة ، عن عائشة قالت : ما علمْنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى سمعنا صوت المساحى فى جَوْف الليل ، ليلةَ الأربعاء[4] .

(١) الطبرى : « ودخل » .
(٢) الطبرى : « ولم يؤم الناس » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٢ .
(٤) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ .

قلت : وهـذا أيضا من العجائب ، لأنه إذا مات يوم الاثنين وقتَ ارتفاع الضُّحَى — كما ذكر فى الرواية — ودفن ليلة الأربعاء وسَط الليل ، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد فى تلك الرواية .

وأيضا فمن العجَب كون عائشة، وهو فى بيتها لاتعلم بدفنه حتى سمعتْ صوتَ المساحى، أتراها أين كانت ! وقد سألتُ عن هـذا جماعة ، فقالوا : لعلّها كانت فى بيت يجاور بيتها عندها نساء كما جرت عادة أهل الميّت ؛ وتـكون قد اعتزلت بيتَها وسكنت ذلك البيت ، لأنّ بيتَها مملوء بالرجال من أهل رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرهم من الصحابة ، وهذا قريب ، ويحتمل أن يكون .

قال الطبرىّ : ونزل فى قبر رسول الله صلى الله عليـه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، والفضل بن عباس ، وقُثَم أخوه ، وشُقْران مولاهم . وقال أوس بن خولىّ لعلى عليه السلام : أنشدُكَ اللهَ ياعلىّ وحَظّنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال له : انزل ، فنزل مع القوم ، وأخذ شُقران قطيفة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسها ، فقذفها معه فى القبر ، وقال : لا يلبَسُها أحد بعده (١) .

قلت : مَنْ تأمّل هذه الأخبار ، علم أنّ عليا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وجهـازه ، ألا ترى أنّ أوسَ بن خولىّ لا يخاطب أحداً من الجماعة غيرَه ، ولا يسأل غيره فى حضور الغسل والنّزول فى القبر ! ثم انظر إلى كرم علىّ عليه السـلام وسَجَاحة أخلاقه وطهارة شيمته ، كيف لم يضنّ بمثـل هذه المقامات الشريفة عن أوس ؛ وهو رجل غريب من الأنصار ، فعرف له حقّه وأطلبه (٢) بما طلبه ! فـكم بين هذه السجيّة الشريفة ، و بين قول مَنْ قال : لو استقبلتُ من أمرى مااستدبرت

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ .

(٢) أطلبه : أجابه إلى ما طلب .

ما غسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلّا نساؤه ! ولو كان فى ذلك المقام غيره من أولى الطباع الخشنة ، وأرباب الفظاظة والغلظة ، وقد سأل أوس ذلك ـ لزجر وانتهر ورجع خائباً !

قال الطبرى : وكان المغيرة بن شعبة يدّعى أنّه أحدثُ النّاس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقول للناس : إننى أخذت خاتمى فألقيته فى القبر ، وقلت : إنّ خاتمى قد سقط منّى ، وإنّما طرحته عمدًا ؛ لأمسّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأكون آخر الناس به عهدا (١) .

قال الطبرىّ : فروَى عبد الله بن الحارث بن نوفل ، قال : اعتمرتُ مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى زمان عمر ـ أو عثمان ـ فنزل على أخته أمّ هانئ بنت أبى طالب ، فلمّا فرغ من عُمرته رجع وقد سكب له غسل ، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفرٌ من أهل العراق ، فقالوا : يا أبا الحسن ، جئناك نسألك عن أمر نحبّ أن تخبرنا به ! فقال : أظنّ المغيرة يحدّثكم أنّه أحدَثُ الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله ! قالوا : أجل ، عن ذا جئنا نسألك ! قال : كذب ! أحدثُ النّاس عهداً برسول الله صلى الله عليه وآله قُثَم بن العباس ، كان آخرنا خروجاً من قبره (٢) .

قلت : بحقّ ما عاب أصحابُنا رحمهم الله المغيرة وذمّوه وانتقصوه ! فإنه كان على طريقة غير محمودة ، وأبى الله إلّا أن يكونَ كاذباً على كلّ حال ، لأنّه إن لم يكن أحدثهم بالنبىّ عهدا ، فقد كذب فى دعواه أنّه أحدثهم به عهدا ، وإن كان أحدثهم به عهدا كما يزعم فقد اعترف بأنّه كذب فى قوله لهم : « سقط خاتمى منّى » ؛ وإنما ألقاه عمداً ، وأين المغيرةُ ورسول الله صلى الله عليه وآله ليدّعى القرب منه ، وأنّه أحدث الناس عهدا به !

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٣ ، ١٨٣٤ .

وقد علم الله تعالى والمسلمون أنّه لولا الحدَثُ الّذى أحدث ، والقوم الذين صحبهم فقتلهم غَدْراً ، واتخذ أموالهم ؛ ثم التجأ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليعصِمَه لم يُسلم ، ولا وطئ حصا المدينة .

***

قال الطبريّ : وقد اختلف فى سن ّرسول الله صلى الله عليه وآله، فالأكثرون أنه كان ابنَ ثلاث وستين سنة ، وقال قوم . ابن خمس وستين سنة ، وقال قوم : ابن ستين .

فهذا ما ذكره الطبرى فى تاريخه (١) .

وروى محمّد بن حبيب فى " أماليه " قال : تولّى غسل النبيّ صلى الله عليه وآله على عليه السلام والعبّاس رضى الله عنه .

وكان عليّ عليه السلام يقول بعد ذلك :ما شممت أطيبَ من ريحه ، ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذ ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى .

قال محمد بن حبيب : فلمّا كشف الإزار عن وجهه بعد غَسْله انحنى عليه فقبّله مرارا ؛ وبكى طويلا : وقال بأبى أنت وأمّى ! طبت حيا وطبت ميتًا ! انقطع بموتك مالم ينقطِعْ بموت أحد سواك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء ! خصّصت حتى صرت مسلّيا عمن سواك ؛ وعمّمت حتى صارت المصيبة فيك سواء ! ولولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون ؛ ولكن أنى مالا يُدفَع ! أشكو إليك كمداً وإدبارا مخالفين وداء الفتنة ، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم ! بأبى أنت وأمى اذكرنا عند ربّك ، واجعلنا من بالك وهمّك !

ثم نظر إلى قَذَاة فى عينه فلفظها بلسانه ، ثم ردّ الإزار على وجهه .

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ .

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباها يومَ موته و بعد ذلك اليوم ، وهي ألفاظ معدودة مشهورة ، منها: «ياأبتاه ! جنّة الخلد مثواه ، يا أبتا ! عند ذي العرش مأواه ! ياأبتاه ! كان جبرائيل يغشاه ! ياأبتاه لست بعد اليوم أراه ! ».

ومن الناس من يذكر أنها كانت تشوبُ هـذه الندبة بنوع من التظلّم والتألّم لإمر يغلبها . والله أعلم بصحّة ذلك .

والشّيعة تروى أن قوماً من الصحابة أنـكروا بكاءها الطويل، ونهوْها عنه ، وأمروها بالتنحّى عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطرف المدينة .

وأنا أستبعد ذلك ، والحديث يدخله الزيادة والنقصان ، ويتطرقُ إليـه التحريف والافتعال ، ولا أقول أنا فى أعلام المهاجرين إلا خيراً !

(٢٣١)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ .

الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ .

وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ ، وَدَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ .

تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ . لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا . وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا .

لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً ، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا ، بَلْ كَبُرَ شَأْنًا وَعَظُمَ سُلْطَانًا .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ ، وَإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا ، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا ، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الِاهْتِدَاءِ ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً ، وَعُرَا الْإِيمَانِ وَثِيقَةً .

***

الشَّرح

الشواهد هاهنا ، يريد بها الحواسّ ، وسمّاها «شواهد» إما لحضورها ؛ شهد فلان كذا أى حضره ، أو لأنها تشهد على ماتدركه وتثبته عند العقل ، كما يشهد الشاهد بالشئ ويثبته عند الحاكم .

والمشاهد هاهنا : المجالس والنوادى ، يقال : حضرت مشهد بنى فلان ، أى ناديهم ومجتمعهم .

ثم فسّر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله : « ولا تراه النواظر » ،وفسّر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها ، فقال : « ولا تحجبه السواتر » .

ثم قال : «الدّال على قدَمه بحدُوث خلقه ، و بحدوث خلقه على وجوده» ؛هذا مشكل ، لأن لقائلٍ أن يقول : إذا دلّ على قدَمه بحدوث خلقه ، فقد دخل فى جملة المدلول كونُه موجوداً ، لأنّ القديم هو الموجود ولم يزل ، فأىّ حاجة إلى أن يعود فيقول : و بحدوث خَلْقه على وجوده !

والمجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبى هاشم ، فيقول : لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنّه لا بدّ من محدِث قديم كونهموجودا ؛ لأنّ عندهمأنّ الذات المعدومة قد تتّصف بصفات ذاتيّة ، وهى معدومة ، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادرا حيًّا أن يكون موجوداً ، بل لا بدّ من دلالة زائدة ، على أنّ له صفة الوجود وهى والدلالة التى يذكرونها ، من أنّ كونه قادرا عالماً تقتضى تعلّقه بالمقدور والمعلوم ، وكل ذاتٍ متعلّقة ، فإن عدمها يخرجها عن التعلّق كالإرادة ، فلو كان تعالى معدوماً لم يجز أن يكون متعلقا ، فحدوث الأجسام إذاً قد دلّ على أمرين من وجهين مختلفين :

أحدهما أنّه لا بدّ من صانع له ، وهذا هو المعنىُّ بقدمه .

والثانى أنّ هذا الصانع له صفة ، لأجلها يصحّ على ذاته أن تكون قادرة عالمة ، وهذا هو المعنىّ بوجوده .

فإن قلت : أيقول أصحابُ شيخكم أبى هاشم إنّ الذات المعدومة التى لا أوّل لها تسمّى قديمة ؟

قلت : لا ، والبحث فى هذا بحث فى اللفظ لا فى المعنى .

والمراد بقوله عليه السلام : « الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه » ، أى على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل ، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل ، بل مجرد الذاتيّة لم يزل .

ثم يستدّل بعد ذلك بحدوث الأشياء على أنّ له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرّد الذاتيّة ، وتلك الصفة هى وجوده . فقد اتّضح المراد الآن .

فإن قلت : فهل لهذا الكلام مساغٌ على مذهب البغداديين ؟ قلت : نعم ، إذا حمل على منهج التأويل بأن يريد بقوله : « وبحدوث خلقه على وجوده » ، أى على صحّة إيجاده له فيا بعد، أى إعادته بعد العدَم يوم القيامة ، لأنه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداء صحّ منه إيجاده ثانيا على وجه الإعادة ، لأنّ الماهيّة قابلة للوجود والعدم ، والقادر قادرٌ لذاته ، فأمّا من روى بحدوث خلقه على جوده ، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها .

والمعنى على هذا ظاهر لأنه تعالى دلّ المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم ، ومذهب أكثر المتكلّمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاما وإحسانا إليهم .

قوله عليه السلام : « وباشتباههم على أن لا شبَه له » هذا دليل صحيح ، وذلك لأنّه إذا ثبت أن جسماما محدَث ، ثبت أنّ سائر الأجسام محدَثة ؛ لأن الأجسام متماثلة ، وكلّ ماصحّ على الشئ صحّ على مثله ، وكذلك إذا ثبت أنّ سواداً مّا أو بياضاً مّا محدَث ، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدَثة ، لأن حكم الشىء حكم مثله ، والسّواد فى معنى

كونه سوادا غير مختلف ، وكذلك البياض ، فصارت الدلالة هكذا الذوات التى عندنا يشبه بعضها بعضاً ، وهى محدَثة ؛ فلو كان البارى سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها ، ولكان محدَثا لأنّ حكم الشىء حكم مثله ، لكنه تعالى ليس بمحدَث ، فليس بمشابه لشىء منها ؛ فقد صحّ إذاً قوله عليه السلام : « و باشتباههم على أن لا شبه له » .

قوله عليه السلام : « الذى صدق فى ميعاده » ، لا يجوز ألا يصدق ، لأنّ الكذب قبيحٌ عقلا ، والبارى تعالى يستحيل منه من جهة الدّاعى والصارف أن يفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وارتفع عن ظلم عباده » ، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه ؛ وهو أستاذهم وشيخهم فى العدل والتوحيد ، فأمّا الأشعرية ، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأنّ الله تعالى يظلم العباد إلّا أنها تعطى المعنى فى الحقيقة ؛ لأن الله عندهم يكلّف العباد مالا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يكلّفهم إلا مالا يطيقونه ، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلّفهم مايطيقونه ، وذلك لأنّ القدرة عندهم مع الفعل ، فالقاعد غير قادر على القيام ، و إنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام ، ويستحيل عندهم أن يوصَف البارى تعالى بإقدار العبد القاعد على القيام ، وهو مع ذلك مكلِّف له أن يقوم ، وهذا غاية مايكون من الظُّلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها .

ثم أعاد الكلام الأول فى التوحيد تأكيدا ، فقال : حدوث الأشياء دليل على قدمه ، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته ، وكونها فانية دليل على بقائه .

فإن قلت : أمّا الاستدلال بحدُوث الأشياء على قدمه فمعلوم ، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الأخيرين !

قلت : إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات في كونه موجودا ، وافترقا في أنّ أحدهما لا يصح منه فعل الجسم ، ولا السكون ، ولا الحياة ،ولا الوجود المحدَث ـ ويصحّ ذلك من الموجودات القديمة ـ دلّ على افتراقهما في أمرٍ لأجله صَحّ من القديم ذلك ، وتعذّر ذلك على المحدَث ، وذلك الأمر هو الذى يسمّى من كان عليه قادرا ، وينبغى أن تحمل لفظة «العجز» هاهنا على المفهوم اللغوىّ ،وهو تعذّر الإيجاد ، لا على المفهوم الكلامىّ.

وأما الاستدلال الثانى ، فينبغى أن يحمل الفناء هاهنا على المفهوم اللّغوىّ ، وهو تغير الصفات وزوالها ،لا على المفهوم الكلامىّ ، فيصير تقدير الكلام : لما كانت الأشياء التى بيننا تتغير وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حال ، وعلمنا أنّ العلّة المصحّحة لذلك كونها محدثة ، علمنا أنّه سبحانه لا يصحّ عليه التنقّل والتغيّر ، لأنه ليس بمحدَث .

ثم قال : « واحد لا بعدد » لأنّ وحدته ذاتيّة ، وليست صفة زائدة عليه ، وهذا من الأبحاث الدقيقة فى علم الحكمة ، وليس هذا الكتاب موضوعا لبسط القول فى أمثاله .

ثم قال : « دائم لا بأمَد» ، لأنه تعالى ليس بزمانىّ ولا داخل تحت الحركة والزمان ، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهىّ ، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به ، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفيْض المقدّس والأنوار الربانيّة .

ثم قال : « قائم لا بعَمد » ، لأنّه لما كان فى الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمِد عليه ، أبان عليه السلام تنزيهَه تعالى عن المكان ، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه مستقرٌّ على عرشه بهذه اللفظة . ومعنى القائم هاهنا ليس مايسبق إلى الذهن من أنه المنتصب؟ بل ماتفهمه من قولك : فلان قائم بتدبير البلد ، وقائم بالقسط .

ثم قال : « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » ، أى تتلقاه تلقّياً عقليا ، ليس كما يتلقى الجسم الجسمَ بمشاعره وحواسّه وجوارحه ، وذلك لأن تعقّل الأشياء وهو حصول صورها

فى العقل بريئة من المادة ، والمراد بتلقّيه سبحانه هاهنا تلقّى صفاته ، لا تلقّى ذاته تعالى، لأنّ ذاته تعالى لا تتصوّرها العقول ، وسيأتى إيضاح أنّ هذا مذهبه عليه السلام .

ثم قال : « وتشهد له المرائى لا بمُحاضرة » ، المرائى : جمع مرئىّ ، وهو الشىء المدرَك بالبصر ، يقول : للمرئيّات تشهدُ بوجود البارى ، لأنه لولا وجوده لما وُجدت ، ولو لم توجد لم تكن مرئيّات، وهى شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار ، لأنّها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها . وأمّا شهادتها بوجود البارى فليستْ بهذه الطريق ، بل بماذكرناه. والأولى أن يكون «المرائى» هاهنا جمع «مَرْآة» بفتح الميم ، من قولهم : هو حسن فى مَرآة عينى ، يقول : إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود البارى من غير محاضرة منه للحواس .

قوله عليه السلام : « لم تُحط به الأوهام » إلى قوله عليه السلام « و إليها حاكمها » ، هذا الكلام دقيق ولطيف ، والأوهام هاهنا هى العقول ، يقول : إنّه سبحانه لم تحط به العقول ، أى لم تتصور كنهَ ذاته ، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول ، وتجلّيه هاهنا هو كشف مايمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبيّة لا غير، وكشف مايمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته ؛ فأمّا غير ذلك فلا؛ وذلك لأنّ البحث النظرىّ قد دلّ على أنّا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب ، أما الإضافة فكقولنا : عالم قادر ، وأمّا السّلب فكقولنا : ليس بجسم ولا عرَض ولا يُرى ، فأمّا حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هى هى ، فإنّ العقل لا يتصوّرها ، وهذا مذهب الحكماء و بعض المتكلّمين من أصحابنا ومن غيرهم .

ثم قال : « و بالعقول امتنع من العقول » ، أى و بالعقول و بالنظر؛ علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول .

ثم قال : « و إلى العقول حاكَم العقول » ، أى جعل العقول المدعية أنهـا أحاطت

به وأدركته كالخصم له سبحانه ، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر ، فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلًا له .

واعلم أنّ القول بالحيرة فى جلال ذات البارى والوقوف عند حدٍّ محدود لا يتجاوزه العقل قولٌ مازال فضلاء العقلاء قائلين به .

***

[من أشعار الشارح فى المناجاة]

ومن شعرى الذى أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلَواتى وانقطاعى بالقلب إليه سبحانه قولى :

واللهِ لا موسى ولا عيـ سى المسيحُ ولا محمّدْ
علمُوا ولا جبريل وهْـو إلى محلّ القدس يصعَدْ
كلاّ ولا النفس البسيـ طة ، لا ولا العقْل المجرّدْ
من كُنْه ذاتك غير أنّـك واحدىّ الذات سرْمدْ
وَجدُوا إضافاتٍ وسلْـ باً والحقيقة ليس توجَدْ
ورأوا وجوداً واجبـاً يفنَى الزّمان وليس ينْفَدْ
فلتخسأِ الحكماء عَنْ جِرْمٍ له الأفلاك تَسْجدْ
مَنْ أنت يارِسْطو و مَنْ أفلاطُ قبلك يامبلّدْ !
ومَن ابنُ سينا حين قرّر ما بنيت له وشيّدْ
هل أنتمُ إلا الفرا ش رأى الشّهابَ وقد توقّدْ
فدنا فأحرَق نفْسهُ ولو اهتدى رُشْداً لأبعدْ

***

ومما قلته أيضا فى قصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى :

فيك ياأعجوبة الكون غـدا الفكر قليـلَا
أنت حيّرت ذوى اللُّب وبلبلتَ العُقولَا
كلّما أقدم فِكْرِى فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصا يخبط فى عمْـ ياء لا يهدى السَّبيلا

***

ولى فى هذا المعنى :

فيك ياأغلوطة الفكرِ تاه عقلِى وانقضى عُمُرِى
سافرتْ فيك العقولُ فما ربحتْ إلا أذى السَّفرِ
رجعتْ حَسْرَى وماوقفتْ لا على عينٍ ولا أثرِ
فلحَى الله الأُلَى زعمُوا أنّك المعلومُ بالنَّظرِ
كذبوا إنّ الذى طلبُوا خارجٌ عن قوّة البَشرِ

***

وقلت أيضا فى المعنى :

أفنيت خمسين عاما معمِلًا نظرِى فيه ؛ فلم أدر ما آتى وما أذرُ
مَنْ كانَ فوق عقول القايسين فمَا ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظرُ

***

ولى أيضاً

حبيبى أنت لا زيدٌ وعمرٌو وإن حَيَّرْتَنِى وفتنْتَ دِينِى
طلبتك جاهداً خمسين عاما فلم أحصُلْ على بردِ اليقينِ

فهل بعد الممات بك اتّصالُ فأعلمُ غامض السّرّ المصونِ!
نوًى قُذُفٌ وكم قد مات قبلي بحسرته عليك من القرون!

* * *

ومن شعري أيضا في المعنى، وكنت أنادي به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من النّاس، بصوت رفيع، وأجدح قلبي أيام كنت مالكا أمري، مطلقاً من قيود الأهل والولَد وعلائق الدنيا:

يامدهش الألباب والفِطَنِ ومحيِّرَ التقْوالةِ اللّسِنِ
أفنيتُ فيك العمرَ أنفقهُ والمال مجّانا بلا ثمنِ
أتتبّع العلماءَ أسألهمْ وأجولُ في الآفاق والمُدُنِ
وأخالِطُ المِلَلَ التي اختلفَتْ في الدّين حتى عابدَ الوَثنِ
وظننتُ أني بالغٌ غَرَضِي لما اجتهدت ومبرئٌ شَجَنِي
ومطَهّرٌ من كلّ رجس هوى قلبي بذاك، وغاسِلٌ دَرَنِي
فإذا الذي استكثرت منه هو الـ ـجاني عليّ عظائمَ المِحَنِ
فضللتُ في تيهٍ بلا علَمٍ وغرقت في يَمٍّ بلا سُفُنِ
ورجعت صِفْرَ الكفّ مكتئباً حيرانَ ذا هَمٍّ وذا حزَنِ
أبكي وأنكت في الثرى بيدِي طوراً وأدعم تارةً ذَقَنِي
وأصيح يامَنْ ليس يعرِفُهُ أحدٌ مدَى الأحقاب والزّمَنِ!
يامَنْ له عَنَتِ الوجوهُ ومَنْ قرنت له الأعناق في قرَنِ
أمّنت ياجذر الأصمّ من الـ أعداد بل يافتنة الفِتَنِ
أن ليس تدرِكُك العيون وأنّ الرّأى ذو أفْنٍ وذو غَبَنِ

والكلّ أنت فكيف يدركه بعضٌ وأنت السرّ فى العلَنِ !

***

ومما قلته فى المعنى :

ناجيته ودعوتُه اكشف عن عشا قلبي وعن بصرى وأنت النّورُ
وارفعْ حجابا قد سَدَلْتَ ستُورَه دونى ، وهل دون المحبّ ستور !
فأجابنى : صهْ ياضعيف فبعض ذَا قد رامه مُوسى فـدُكّ الطّور

أعجبنى هذا المعنى ، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت :

حَبِيبِى أنْتَ مِنْ دُونِ البَرايَا وإن لم أحظَ منك بما أريدُ
قنعت من الوصال بكشف حالٍ فقيل ارجعْ فمطلبها بعيدُ
ألم تسمعْ جوابَ سؤال موسى وليس على مكانته مزيدُ
تعرّض للذى حاوَلْتَ يوماً فدُكَّ الصخر واضطرم الصّعيدُ

ولى فى هذا المعنى أيضاً :

قد حار فى النّفس جميعُ الورى والفكر فيها قد غدا ضائعا
وبرْهَنَ الكُلّ على ما ادّعوْا وَلَيْسَ بُرْهانُهُمُ قَاطِعَا
مَنْ جَهِلَ الصَّنْعَةَ عجزاً فما أجدرهُ أن يجهل الصَّانِعاَ !

***

ولى أيضاً فى الردّ على الفلاسفة الذين علّلوا حركة الفَلَك بأنه أراد استخراج الوضع أولا ؛ ليتشبه بالعقل المجرّد فى كماله ، وأنّ كلّ ماله بالقوة فهو خارج إلى الفعل :

تحيّر أربابُ النُّهى وتعجَّبُوا من الفَلَكِ الأقصى لماذا تحرّكا
فقيل بطبعٍ كالثقيل إذا هَوَى وقيل اختياراً والمحقق شكّكا
فردَّ حديث الطبع إذ كان دائراً وليس على سَمْتٍ قويمٍ فيسلكا

وقيل لمن قال اختيارا فما الّذِى ... دعاه إلى أن دار ركضاً فأوْشَكَا
فقالوا لوضع حادثٍ يستجدّه ... يعاقب منه مطلباً ثم متركَا
فقيل لهم : هذا الجنون بعينه ... ولو رامه منّا امرؤ كان أعْفَكَا[1]
ولو أن إنسانا غدا ليس قصده ... سوى الوضع واستخراجه عُدّ مضحكَا

* * *

ولى أيضاً فى الردّ على مَنْ زعم أنّ النبى صلى الله عليه وآله رأى الله سبحانه بالعين ، وهو الذى أنكرته عائشة ، والعجَب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب :

عجبتُ لقومٍ يزعمون نبيّهمْ ... رأى ربّهُ بالعين ، تبًّا لهمْ تبًّا !
وهل تُدرِكُ الأبصارُ غيرَ مكيَّفٍ ... وكيف تبيحُ العينُ ما يمنَعُ القلبا !
إذا كان طرف القلب عن كنهه نَبا ... حَسيراً ، فطرف العين عن كنهه أنْبَى!

والمقطَّعات التى نظمتها فى إجلال البارى سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة ، موجودة فى كتبى ومصنَّفاتى ، فلتُلمح من مظانّها ، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشييدا لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام علىّ فى هذا الباب .

* * *

قوله عليه السلام : « ليس بذى كِبَرٍ » إلى قوله « وعظُم سلطانا » ، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم ، وقد ورد بهما القرآن العزيز ، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم : هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم ، بل المراد عِظمُ شأنه وجلالة سلطانه .

والفَلَج : النُّصرة ، وأصله سكون العين ، وإنّما حرّكه ليوازن بين الألفاظ ، وذلك

---

(١) الأعفك : الذى لايحسن العمل .

لأن الماضي، منه فَلَج الرجلُ على خَصمه بالفتح ، ومصدره الفَلْج بالسكون ، فأما من روى : « وظهور الفُلُج » بضمتين فقد سقط عنه التأويل ، لأن الاسم من هذا اللفظ : « الفُلج » بضم أول الكلمة ، فإذا استعملها الكاتب أو الخطيب جاز له ضمّ الحرف الثاني .

وصادعاً بهما : مظهراً مجاهداً ، وأصله الشق .

والأمراس : الحبال ، والواحد مَرَس ؛ بفتح الميم والراء .

***

الأصْـلُ :

منها في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان :

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ، وَلٰكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ . أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ !

انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا ، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا ، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ ؛ كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا ، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا ، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا ، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا ، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا ، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا ؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا ، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا ؛ لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ !

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا ، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا ، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا ، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا ، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً ، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً !

فَتَعَالَى ٱلَّذِى أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا ؛ وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا ! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ .

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ ٱلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ ٱلنَّخْلَةِ ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَغَامِضِ ٱخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ .

وَمَا ٱلْجَلِيلُ وَٱللَّطِيفُ ، وَٱلثَّقِيلُ وَٱلْخَفِيفُ ، وَٱلْقَوِيُّ وَٱلضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ .

وَكَذَلِكَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ ، وَٱلرِّيَاحُ وَٱلْمَاءُ . فَٱنْظُرْ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ ، وَٱلنَّبَاتِ وَٱلشَّجَرِ ، وَٱلْمَاءِ وَٱلْحَجَرِ ، وَٱخْتِلَافِ هَٰذَا ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَتَفَجُّرِ هَٰذِهِ ٱلْبِحَارِ ، وَكَثْرَةِ هَٰذِهِ ٱلْجِبَالِ ، وَطُولِ هَٰذِهِ ٱلْقِلَالِ ، وَتَفَرُّقِ هَٰذِهِ ٱللُّغَاتِ ، وَٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَاتِ .

فَٱلْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلْمُقَدِّرَ ، وَجَحَدَ ٱلْمُدَبِّرَ !

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَٱلنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِٱخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ٱدَّعَوْا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا دَعَوْا ، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !

***

الشرح :

مدخولة : معيبة . وفَلَق : شقّ وخلق . والبَشَر : ظاهر الجلد .

قوله عليه السلام : « وصُبّت على رزقها » ، قيل : هو على العكس ، أى وصبّ رزقُها عليها ، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا ، والمراد : كيف همّت حتى انصبّت على رزقها انصباباً ؟ أى انحطت عليه . ويروى : « وضنّت على رزقها » بالضاد المعجمة والنون ، أى بخلت . وجُحْرها : بيتها .

قوله عليه السلام : « وفى وِرْدِها لصَدَرها » ، أى تجمع فى أيام التمكّن من الحركة لأيام العجز عنها ، وذلك لأنّ النمل يظهر صيفا ويخفى فى شدّة الشتاء لعجزه من ملاقاة البرد .

قوله عليه السلام : « رزقُها وفقها[1] » ، أى بقدر كفايتها ، ويروى « مكفول برزقها ، مرزوقة بوفقها » .

والمنّان : من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية ، أى هو كثير المنّ والإنعام على عباده .

والديّان : المجازى للعباد على أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[2] أى مجزيّون .

والحجَر الجامس : الجامد . والشراسيف : أطراف الأضلاع المشرفة على البطن .

* * *

[فصل فى ذكر أحوال الذرّة وعجائب النملة]

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد فى كتاب " الحيوان " فى باب النّملة والذرّة — وهى الصغيرة جدًّا من النّمل — كلاماً يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام أصله ، ولكنّ أبا عثمان قد فرّع عليه .

قال : الذرّة تدّخر فى الصيف للشتاء ، وتتقدّم فى حال المهلة ، ولا تُضيع أوقات إمكان الحزم ، ثم يبلغ من تفقّدها وصحّة تمييزها[3] ، والنظر فى عواقب أمورها[4] ؛ أنّها تخاف على الحبوب التى ادّخرتها للشتاء [فى الصيف][5] ، أن تعفّن وتسوّس فى بطن الأرض

---

(١) كذا فى ا ، ب ؛ وما ورد فى أصل النهج يوافق ما فى الرواية التالية .

(٢) سورة الصافات ٥٣

(٣) الحيوان : « وحسن خبرها » . (٤) الحيوان : « أمرها » .

(٥) من الحيوان .

فتخرجها إلى ظهرها لتنثرها[1] وتعيد إليها جفوفها ، ويضرّ بها النسيم فينفى عنها اللَّخَن والفساد .

ثم ربما – بل فى الأكثر – تختار ذلك العمل ليلًا ، لأن ذلك أخْفَى ، وفى القمر لأنها فيه أبصر ، فإن كان مكانها نديًّا وخافت أن تنبت الحبّة نقرت موضع القِطْمير[2] من وسطها ؛ لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت ، وربما فلقت الحبّة نصفين . فأمّا إن كان الحبّ من حب الكُزْبَرة فإنّها تفلقه أرباعًا ، لأنّ أنصاف حبّ الكزبرة تنبت من بين جميع الحبوب، فهى من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات ، حتى ربّما كانت فى ذلك أحزم من كثير من الناس،ولها مع لطافة شخصها وخفّة وزنها فى الشمّ والاسترواح ماليس لشىء، فربّما أكل الإنسان الجراد أو بعض مايشبه الجراد ، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة،وليس بقربه ذَرّة ولا له عهد بالذرّ فى ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذَرّة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فترومها وتحاول نقلها وجرّها إلى جُحْرها ، فإذا أعجزتها بعد أن تُبلِيَ عُذْراً مضت إلى جُحْرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلْفها كالخيطِ الأسود الممدود ، حتى يتعاونّ عليها فيحملْنَها . فاعجب من صدق الشمّ لما لا يشمّه الإنسان الجائع! ثم انظر إلى بُعد الهمّة والجرأة على محاولة نقل شىء فى وزن جسمها مائةمرة، وأكثر من مائة مرّة ، بل أضعاف أضعاف المائة ، وليس شىء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مرارا كثيرة غيرها .

فإن قال قائل[3] : فمن أين علمتم أنّ التى حاولت نقل الجرادة فعجزت هى التى أخبرت صواحباتها من الذرّ ، وأنها التى كانت على مقدّمتهن ؟

قيل له : لطول التجربة ، ولأنّا لم نرقطّ ذرّةً حاولت جرّ جرادة فعجزت عنها ، ثم

---

(١) الحيوان : « لتيبسها » .

(٢) القطمير : شق النواة .

(٣) الحيوان : « فإن قلت » .

رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك ، وإن كنّا لا نفصل فى مرأى العين بينهـا وبين أخواتها ، فإنّه ليس يقع فى القلب غـير الذى قلنا ، فدلّنا ذلك على أنّها فى رُجوعها عن الجرادة أنّها إنما كانت لأشباهها كالرائد الذى لا يـكذب أهله .

قال أبو عثمان : ولا يُنـكر قولُنا : إنّ الذرّة توحى إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذّب القرآن ، فإنه تعالى قال فى قصّة سليمان : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾[1]، فهل بعد هذا ريب أو شكٌّ فى أن لها قولا وبيانا وتمييزا !

فإن قلت : فلعلّها مكلّفة ، ومأمورة ومنهيّة ، ومطيعة وعاصية !

قيل : هذا سؤال جاهل ، وذلك أنّه لا يلزم أن يكون كلّ ذى حسٍّ ، وتمييز مكلّفا مأمورا منهيًّا ، مطيعا عاصيا ، لأنّ الإنسان غـير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيرا من الآثار ، وضروبا من الأخبار ، ويشترى ويبيع ، ويخدع الرجالَ ويسخَر بالمعلّمين ، وهو غير مكلَّف ولا مأمور ، لا منهىٌّ ولا عاصٍ ولا مطيع ، فلا يلزم بما قلناه فى الذرّة أن تـكون مكلّفة[2] .

قال أبو عثمان : ومن عجيب ما سمعتُه من أمر النّملة ، ماحدّثنى به بعضُ المهندسين عن رجل معروفٍ بصنعة الإسطرلابات[3] ، أنه أخرج طوْقًا من صُفْر ـ أو قال من حديد ـ من الـكِير ، وقد أحماه ، فرمَى به على الأرض ليبرد ، فاشتمل الطّوْق على نملة ، فأرادت أن تنفر يمنةً فلقيها وهجُ النار ، فأخذت يَسْرةً فلقيَها وهجُ النّار ، فمضت قُدُما فـكذاك ، فرجعت إلى خلفها فـكذلك ، فرجعت إلى وسط الدائرة ، فوجدها قد ماتت فى موضع رجل البِرْكار[4] من الدائرة ، وهذا من العجائب .

قال أبو عثمان: وحدّثنى أبو عبيد الله الأفوَه ، وما كنت أقدّم عليه فى زمانه من مشايخ

---

(١) سورة النمل ١٨ ، ١٩ . (٢) الحيون ٤ : ٥ وما بعدها .
(٣) الأسطرلابات : جمع اسطرلاب ، وهى آلة يعرف بها الوقت انظر شفاء الغليل للخفاجى : ٥١
(٤) البركار: اسم لآلة معروفة. قال صاحب شفاء الغليل: هو معرب «فرجار» . وقال: إنه لم يرد فى شعر قديم .

المعتزلة إلا القليل ، قال : قد كنت ألقى من الذرّ والنمل فى الرُّطب يكون عندى وفى الطعام عنتا كثيرا ، وذلك لأنى كنت لا أستقذر النملة ولا الذّرة ، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت فى قارورة بانٍ أو زئبق أو خِيريّ ، فسد ذلك الدّهن وزنخ ، فقذرتها ونفرت منها ، وقلت : أخلِقْ بطبيعتها أن تكون فاسدةً خبيثة ، وكنت أرى لها عضًّا منكرا ، فأقول: إنّها من ذوات السّموم ، ولو أنّ بدَن النملة زيد فى أجزائه حتى يلحَق ببدن العقرب ، ثم عضّت إنسانًا لكانت عضّتُها أضرّ عليه من لَسْعَةِ العقرب .

قال : فاتخذت عند ذلك لطعامى منملة وقيّرتُها ، وصببتُ فى خندقها الماء ، ووضعت سلّة الطعام على رأسها ، فغبرت أياما أكشف رأس السلّة بعد ذلك ، وفيها ذرٌّ كثير ، ووجدت الماء فى الخندق على حاله ، فقلت : عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها ، وأكل مما فيها ! وطال مكثها فى الأرض، وقد دخلها الذرّ ثم أعيدت على تلك الحال ، وتكلمتُ فى ذلك وتعرّفت الحال فيه ، فعرفت البراءة فى عذرهم ، والصّدق فى خبرهم ، فاشتد تعجّبى، وذهبتْ بى الظّنُون والخواطر كلّ مذهب ، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها ، وأتثبت فى أمرى ، وأتعرّف شأنى ، فإذا هى بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانبا ، وصعدت فى الحائط ، ثم مرّت عَلَى جِذْعِ السقف ، فلما صارت محاذيةً للسّلّة أرسلت نفسها فقلت فى نفسى : انظر كيف اهتدتْ إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة ! ثم قلت : وما عليها أنْ تبقى محصورة ؟ بل أىّ حصار على ذَرّةٍ وقد وجدت ماتشتهى .

قال أبو عثمان : ومن أعاجيب الذّرّة أنّها لا تعرض لجُعَلٍ ولا لجرادة ولا لخُنفساء ولا لبنت وَرْدان ، مالم يكن بها حبل أو عقر أو قطع رجل أو يد ، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علّة ، وثبتْ عليها ، حتى لو أن حيّة بها ضربة أو خَرْق أو خدش ، ثم كانت من

ثعابين مِصْر، لوثب عليها الذرّ حتى يأكلها، ولا تكاد الحيّة تسلَمُ من الذّرّ إذا كان بها أدنى عقر.

قال أبو عثمان: وقد عذّب الله بالذّرّ والنّمل أمما وأمما، وأخرج أهل قرًى من قراهم، وأهل دُروبٍ من دروبهم.

وحدّثني بعضُ مَنْ أصدّق خبره، قال: سألتُ رجلًا كان ينزل ببغداد في بعض الدروب التي في ناحية باب الكوفة التي جلا أهلها عنها، لغلَبة النّمل والذرّ عليها، فسألته عن ذلك، فقال: وما تصنعْ بالحديث! امضِ معى إلى دارِى التى أخرجنى منها النّمل.

قال: فدخلتُها معه فبعث غلامه، فاشترى رءوسا من الرأّسين ليتغذى بها، فانتقلنا هربا من النمل فى أكثر من عشرين مكانا، ثم دعا بطسْتٍ ضخمة، وصبّ فيها ماء صالحا، ثم فرّق عظام الرءوس في الدّار، ومعه غلمانه، فكان كلّما اسودّ منها عظم لكثرة النّمل واجتماعه عليه — وذلك فى أسرع الأوقات — أخذه الغلام ففرّغه فى الطّست بعود ينثُر به ماعليه فى جوف الطّسْت، فما لبثنا مقدار ساعة من النّهار حتى فاضت الطست نملاً، فقال: كم تظنّ أنى فعلت مثل هــذا قبل الجلاء طمعا فى أن أقطع أصلها! فلما رأيت عددها إمّا زائدا، وإما ثابتا، وجاءنا مالا يصبِر عليه أحد، ولا يمكن معه مقام، خرجت عنها.

قال أبو عثمان: وعذّب عمرُ بن هُبيرة سعيدَ بن عمرو الحَرَشِيّ بأنواع العذاب، فقيل له: إن أردت ألّا يفلح أبدا فمُرْهم فلينفخوا فى دُبره النّمل، ففعلوا فلم يفلح بعدها (١).

---

(١) الحيوان ٤ : ٣٣

قال أبو عثمان : ومن الحيوان أجناسٌ يشبه الإنسان فى العقل والرويّة والنّظر فى العواقب والفكر فى الأمور ، مثل النمل ، والذرّ ، والفأر ، والجِرْذان ، والعنكبوت ، والنحل ، إلّا أنّ النحل لا يدّخر من الطّعم إلا جنسا واحدا وهو العسل (١) .

قال : وزعم البقطرىّ أنك لو أدخلت نَمْلةً فى جُحْر ذرٍّ لأكلتها حتى تأتىَ على عامّتها ، وذكر أنه قد جرّب ذلك .

قال : وزعم صاحب المنطق أنّ الضّبُع تأكل النّمل أكلا ذريعا ، لأنّها تأتى قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية ، فتلحس بذلك النّمل كلّه بلسانها ، بشهوة شديدة وإرادة قوية .

قال : وربّما أفسدت الأرَضة على أهل القرى منازلهم ، وأكلت كلّ شىء لهم ، فلا تزال كذلك حتى ينشأ فى تلك القرى النمل ، فيسلّط الله عزّ وجلّ ذلك النمل على تلك الأرَضة ، حتى تأتى على آخرها ، على أنّ النمل بعد ذلك سيكون له أذًى ، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيدا ، وما أكثر مايذهب النمل أيضا من تلك القُرى ، حتى يتمّ لأهلها السلامة من النوعين جميعا .

قال : وقد زعم بعضهم أنّ تلك الأرَضة بأعيانها تستحيل نملا ، وليس فناؤها لأكل النّمل لها ، ولكنّ الأرَضة نفسها تستحيل نملا ، فعلى قدر مايستحيل منها يرى الناس النقصان فى عددها ومضرّتها على الأيام (٢) .

قال أبو عثمان : وكان ثُمامة يرى أنّ الذرّ صغار النمل ، ونحن نراه نوعا آخر كالبقر والجواميس .

قال : ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته ، وقال الشاعر :

وإذا استوتْ للنّمل أجنحةٌ   حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

---

(١) الحيوان ٤ : ٣٤

(٢) الحيوان ٤ : ٣٤ ، ٣٥

وكان فى كتاب عبد الحميد إلى أبى مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحا، فيقال: إن أبا مسلم لمّا قرأ هـذا الـكلام فى أول الـكتاب لم يتمّ قراءته وألقاه فى النار، وقال: أخاف إن قرأته أن ينخب قلبى.

قال أبو عثمان: ويُقتل النمل بأن يصبّ فى أفواه بيوتها القَطِران والـكِبْريت الأصفر، وأن يدسّ فى أفواهها الشّعر، على أنّا قد جرّبنا ذلك فوجدناه باطلاً.

فأما الحـكماء، فإنهم لا يثبتون للنّمل شَراسيف ولا أضلاعاً، ويجب إن صحّ قولهم أن يحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيّله وتتوهّمه حقًّا، وكذلك لا يثبت الحـكماء للنّمل آذانا بارزة عن سطوح رءوسها، ويجب إنْ صحّ ذلك أن نحمـل كلام أمير المؤمنين عليـه السلام عَلَى قوّة الإحساس بالأصوات، فإنه لا يمـكن الحـكماء إنـكار وجود هذه القوّة للنمل، ولهـذا إذا صيح عليهنّ هربن.

ويذكر الحـكماء من عجائب النمل أشياء، منها أنّه لا جلد له، وكذلك كلّ الحيوان المخرّز.

ومنها أنه لا يوجد فى صقلّيّة نمل كبار أصلا.

ومنها أنّ النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر.

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شىء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت عَلَى العضُد منعت من النوم.

***

قوله عليه السلام: «ولو ضربت فى مذاهب فكرك لتبلغ غاياته»، أى غايات فكرك، وضربت بمعنى سرت، والمذاهب: الطرق. قال تعـالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

ٱلْأَرْضِ »(١) وهذا الكلام استعارة .

قال : لو أمعنتَ النّظرَ لعلمتَ أنّ خالق النملة الحقيرة هو خالق النّخلة الطويلة لأن كلّ شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق ، واختلاف تلك الأجسام فى أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلافٌ غامض السبب ، فلا بدّ للكلّ من مدبّر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله ، على حسب ما يعلمه من المصلحة .

ثم قال : وما الجليل والدقيق فى خلْقه إلا سواء ! لأنه تعالى قادر لذاته ، لا يعجزه شيء من الممكنات .

ثم قال : « فانظر إلى الشمس والقمر » إلى قوله : « والألسن المختلفات » ، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع . والطرق إليه أربعة :

أحدها الاستدلال بحدوث الأجسام .

والثانى الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام .

والثالث الاستدلال بحدوث الأعراض .

والرابع الاستدلال بإمكان الأعراض .

وصورة الاستدلال هو أنّ كلّ جسم يقبل ـ للجسميّة المشتركة بينه و بين سائر الأجسام ـ ما يقبله غيره من الأجسام ، فإذا اختلفت الأجسام فى الأعراض فلابدّ من مخصّص خصّص هذا الجسم بهذا العرَض دون أن يكون هذا العرَض لجسم آخر ، ويكون لهذا الجسم عرَض غير هذا العرَض ، لأن الممكنات لابدّ لها من مرجّح يرجّح أحد طرفيها على الآخر ، فهذا هو معنى قوله : « فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرّق هذه اللغات ، والألسن المختلفات » ، أى أنه يمكن أن تكون هيئة

(١) سورة النساء ١٠١

الشمس وضوءها ومقدارها حاصلًا لجِرْم القمر ، ويمكن أن يكون النّبات الّذى لاساقَ له شجرا ، والشجر ذو الساق نباتا ، ويمكن أن يكون الماء صُلْبا والحجر مائعا ، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيئا وزمان النهار مظلما ، ويمكن ألّا تكون هذه البحار متفجّرة بل تكون جبالا ، ويمكن ألّا تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرةً ، ويمكن ألّا تكون هذه القلال طويلة . وكذلك القول فى اللغات واختلافها . وإذا كان كل هذا ممكنا فاختصاصُ الجسم المخصوص بالصّفات والأعراض والصّوَر المخصوصة لا يمكن أن يكون لمجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها ، فلابدّ من أمرٍ زائد ، وذلك الأمر الزائد هو المعنىّ بقولنا : صانع العالم .

ثم سفّه آراء المعطِّلة ، وقال : « إنهم لم يعتصموا بحجّة ، ولم يحقِّقوا ما وعوْه » أى لم يرتّبوا العلوم الضروريّة ترتيباً صحيحا يفضى بهم إلى النتيجة التى هى حقّ .

ثم أخذ فى الردّ عليهم من طريق أخرى ، وهى دعوى الضَّرُورة ، وقد اعتمد عليها كثيرٌ من المتكلّمين ، فقال : نعلم ضرورة أنّ البناء لابدّ له من بانٍ .

ثم قال : « والجناية لابدّ لها من جانٍ » ، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة ، والمرادعموم الفعليّة لاخصوص الجناية ، أى مستحيل أن يكون الفعلُ من غير فاعل ، والذين ادَّعَوْا الضرورة فى هذه المسألة من المتكلِّمين استغنوْا عن الطرق الأربع التى ذكرناها ، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أوّلا على طريق واحدة ، ثم جنح ثانيا إلى دعوى الضرورة ، وكلا الطريقين صحيح .

* * *

الأصْلُ

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ، وَأَسْرَجَ لَهَا

حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ ؛ وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ ؛ وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا ، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا ؛ وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعًا مُسْتَدِقَّةً .

فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً ، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهاً ؛ وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْماً وَضَعْفاً ، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً !

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسِ ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبَسِ ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا ، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا ؛ فَهَذَا غُرَابٌ ، وَهَذَا عُقَابٌ ؛ وَهَذَا حَمَامٌ ، وَهَذَا نَعَامٌ ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ .

وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا ، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا ، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا .

***

الشَّرْحُ :

قوله : « وأسرج لها حدقتين » أى جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج ، ويقال : حدقة قمراء أى منيرة ، كما يقال : ليلة قمراء أى نيّرة بضوء القمر .

و « بهما تقرِض » أى تقطع ، والراء مكسورة .

والمنجلان : رجلاها ؛ شبّهما بالمناجل لعوجهما وخشونتهما .

ويرْهبها : يخافها . ونزواتها : وثباتها . والجدْب : المحل .

***

[ذكر غرائب الجرادة وما احتوت عليه من صنوف الصنعة]

قال شيخنا أبو عثمان فى كتاب "الحيوان" : من عجائب الجرادة التماسُها لبيضها الموضعَ الصلْد ، والصخور الملس ، ثقةً منها أنها إذا ضرَبتْ بأذنابها فيها ، انفرجت لها ، ومعلوم أنّ ذنَبَ الجرادة ليس فى خلقة المنشار(١) ولا طرف ذنبه كحدّ السنان ، ولا لها من قوّة الأسْر ، ولا لذنبها من الصّلابة ما إذا اعتمدتْ به على الكُدْية(٢) خرج(٣) فيها ، كيف وهى تتعدّى إلى ماهو أصلبُ من ذلك ، وليس فى طَرَفها كإبرة العقرب .

وعلى أنّ العقربَ ليس تخرِقُ القُمْقُم(٤) ، من جهد الأيْد وقوّة البدن ، بل إنّما ينفرج لها بطبيع مجعول هناك ، وكذلك انفراج الصُّخور لأذناب الجراد .

ولو أنّ عُقاباً أرادت أن تخرِق جلد الجاموس لما انخرق لها إلّا بالتكلّف الشديد ، والعُقاب هى التى تنكدر(٥) على الذئب [الأطلس](٦) ؛ فتقدّ بدابرتها مابين صَلاهُ إلى موضع الكاهل(٧) .

فإذا غرّزت(٨) الجرادة ، وألقت بيضَها ، وانضمّت عليها تلك الأخاديد التى هى أحدثْها ، وصارت كالأفاحيص لها صارت حاضنةً لها ومربّية ، وحافظة وصائنة وواقية ، حتى إذا جاء وقت دَبيب الروح فيها حدث عَجَب آخر ، وذلك لأنه يخرج من بيضه أصهب إلى

---

(١) الحيوان : « المسمار » .

(٢) الكدية : الصفاة العظيمة . وفى الحيوان : « الكدية والكذانة » ، واحدة الكذان ؛ وهى حجارة كأنها المدر فيها رخاوة .

(٣) الحيوان : « جرح » .

(٤) القمقم : ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ، ويكون ضيق الرأس .

(٥) تنكدر : تنقضّ .

(٦) من الحيوان .

(٧) تقدّ : تقطع . والدابرة : الإصبع التى من وراء رجلها . والصلا بالفتح : وسط الظهر . والكاهل : مقدّم أعلى الظهر .

(٨) غرّزت الجرادة : أثبتت ذنبها فى الأرض لتبيض .

البياض ، ثم يصفرّ وتتلون فيه خطوط إلى السواد ، ثم يصير فيه خطوط سودٌ و بيض ، ثم يبدو حَجْم جناحه ، ثم يستقلّ فيموجُ بعضه فى بعض[1] .

قال أبو عثمان ، ويزعمُ قوم أنّ الجرَاد[2] قد يريد الخضرة ودونه النهر الجارى ، فيصير بعضه جسرا لبعض حتى يعبر إلى الخضرة ، وأن ذلك حيلة منها .

وليس كما زعموا ، ولكن الزحف الأوّل من الدّبا يريد الُخضرة فلا يستطيعُها إلّا بالعبور إليها ، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت لعمرى أرضاً للزحف الثانى الذى يريد الخضرة ، فإن سمّوا ذلك جسرا استقام ، فأما أن يكون الزّحف الأول مهّد للثانى ومكّن له وآثره [بالكفاية] فهذا مالا يعرف ، ولو أنّ الزحفين جميعا أشرفا على النّهر ، وأمسك أحدهما عن تكلف العبور حتى يمهّد له الآخر لكان لما قالوه وجه[3] .

قال أبو عثمان : ولعاب الجراد سمٌّ على الأشجار لا يقع على شئ إلا أحرقه .

فأمّا الحكماء فيذكرون فى كتبهم أنّ أرجل الجراد تقلع الثآليل ، وأنه [إذا] أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رءوسها وأطرافها ، وجعل معها قليل آس يابس ، وشربت للاستسقاء كما هى ، نفعت نفعا بيّنا ؛ وأن التبخّر بالجراد ينفع من عسر البول ، وخاصّة فى النساء ، وأن أكله ينفع من تقطيره ، وقد يبخّر به للبواسير ، وينفع أكله من لَسْعة العقرب .

ويقال : إن الجراد الطوال إذا عُلّق على مَنْ به حُمّى الرِّبْع نفعه .

---

(١) الحيوان ٥ : ٥٤٩ ، ٥٥٥ (٢) الحيوان : « الدبا » .
(٣) الحيوان ٥ : ٥٦٢

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام : في التوحيد ، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة غيرها :

ما وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أصابَ مَنْ مَثَّلَهُ ، ولا إيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ ، ولا صَمَدَهُ مَنْ أشارَ إلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ ، وَكُلُّ قائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ .

فاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ ؛ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ ؛ لَا تَصْحَبُهُ الأوْقاتُ ؛ ولا تَرْفِدُهُ الأدواتُ ، سَبَقَ الأوْقاتَ كَوْنُهُ ، والعَدَمَ وُجُودُهُ ، والابْتِدَاءَ أزَلُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يشتمل على مباحثَ متعدِّدة :

أولها قوله : « ما وحَّدَهُ مَنْ كَيَّفه » ، وهذا حقّ لأنه إذا جعله مكيَّفاً جعله ذا هيئة وشكل ، أو ذا لونٍ وضوء ، إلى غيرها من أقسام الكَيْف ، ومتى كان كذلك كان جسما ولم يكن واحدا ، لأنّ كلّ جسم قابل للانقسام، والواحد حقا لا يقبل الانقسام ، فقد ثبت أنه ما وحّده مَنْ كيّفه .

وثانيها قوله : « ولا حقيقته أصاب مَنْ مثّله » وهذا حقّ ، لأنّه تعالى لا مثل له ، وقد دلّت الأدلّة الكلاميّة والحُكْميّة على ذلك ، فمَن أثبت له مثلا ، فإنه لم يصب

حقيقته تعالى ، والسَّجعة الأخرى تعطى هـذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه ، وهى قوله عليه السلام : ولا إيّاه عَنَى مَنْ شبّهه » ولهـذا قال شيوخنا : إنّ المشبِّـه لا يعرف الله ، ولا تتوجّه عباداتُه وصلواته إلى الله تعالى ؛ لأنّه يعبد شيئاً يعتقده جسماً ، أو يعتقده مشابهاً لبعض هذه الذوات المحدَثة ، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد، فإذا قُصِد بها غيرُ الله تعالى لم يكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه ، وإنّما يتخيّل ويتوهّم أنه قد عرفه وعبده ، وليس الأمر كما تخيّل وتوهّم .

وثالثها قوله عليه السلام : « ولا صَمَده مَنْ أشار إليه » أى أثبته فى جهة ، كما تقول الـكرّامية . الصَّمَد فى اللغة العربيّـة : السّيِّد . والصمَد أيضاً الذى لاجوف له ، وصار التّصميد فى الاصطلاح العرفىّ عبارة عن التنزيه ، والذى قال عليه الســلام حقّ ، لأنّ مَنْ أشار إليه ـ أى أثبته فى جهة كما تقوله الـكرّامية ـ فإنه ما صَمَده ، لأنّه ما نزّهه عن الجهات ، بل حكم عليه بما هو من خواصّ الأجسام ، وكذلك مَنْ توهّمه سبحانه ، أى مَنْ تخيّل له فى نفسه صورة أو هيئة أو شـكلًا ، فإنّه لم ينزهه عمّا يجب تنزيهه عنه .

ورابعها قوله : « كلّ معروف بنفسه مصنوع »، هذا الـكلام يجب أن يتأوّل ، ويحمل على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع ، وذلك لأنّ البارى سبحانه معروف من طريقين : إحداهما من أفعاله ، والأخرى بنفسه ؛ وهى طريقة الحـكماء الّذين بحثُوا فى الوجود من حيث هو وجود ، فعلموا أنّه لابدّ من موجودٍ واجبِ الوجود ، فلم يستدلّوا عليـه بأفعاله ، بل أخرج لهم البحث فى الوجود أنه لابدّ من ذات يستحيل عدمهـا من حيث هى هى .

فإن قلت : كيف يحمل كلامُه على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان ؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية،

وهى قوله عليه السلام : « وكلّ قائم فيما سواه معلول » لأنها للأعراض خاصّة ، فيدخل أحد مدلول الفقرتين فى الأخرى ، فيختلّ النظم !

قلت : يريد عليه السّلام بالفقرة الأولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدةمستقلا بذاته ، غير مفتقر فى تقوّمه إلىغيرهفهو مصنوع ، وهذا يختصّ بالأجسام خاصّة ، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه ، لأنّها متقوّمة بمحالها .

وخامسها قوله :« وكلّ قائم فى سواه معلول » ، أى وكلّ شىء يتقوّم بغيره فهومعلول، وهذا حقّ لا محالة ، كالأعراض لأنّها لوكانت واجبة لا ستغنت فى تقومها عن سواها ، لـكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذى يتقوّم به ذواتها ؛ فإذا هى معلولة، لأنّ كلّ مفتقر إلى الغير فهو ممكن ، وكلّ ممكن فلابدّ له من مؤثّر .

وسادسها قوله : « فاعل لاباضطراب آلة » هذا البيان الفرق بينه و بيننا ، فإنّنا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة .

وسابعها قوله : « مقدّر لابجول فكرة »، هذا أيضاً للفرق بيننا و بينه ، لأنّا إذا قدّرنا أجلنا أفكارنا ، وتردّدت بنا الدواعى ، وهو سبحانه يقدّر الأشياء على خلاف ذلك .

وثامنها قوله : « غنى لا باستفادة » ، هذا أيضاً للفرق بيننا و بينه ، لأن الغنىّ منّا مَنْ يستفيد الغنى بسبب خارجى ، وهو سبحانه غنىّ بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنيا ، والمراد بكونه غنياً أنّ كلّ شىء من الأشياء يحتاج إليه ، وأنه سبحانه لا يحتاج إلى شىء من الأشياء أصلا .

وتاسعها قوله : « لا تصحبه الأوقات » ، هذا بحث شريف جداً، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة ، فذاته فوق الزمان والدهر ؛ أمّا المتكلمون فإنهم يقولون:

إنه تعالى كان ولا زمان ولا وقت ، وأمّا الحكماء فيقولون : إنّ الزمان عَرَض قائم بعرَض آخر ، وذلك العرَض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه ، فالزمان عندهم ـ وإن كان لم يزل ـ إلّا أنّ العلّة الأولى ليست واقعة تحته ، وذلك هو المراد بقوله : « لا تصحبه الأوقات » إن فسّرناه على قولهم ، وتفسيره على قول المتكلّمين أولَى .

وعاشرها قوله : « ولا تَرْفِدُه الأدوات » ، رفدت فلانا إذا أعنته ؛ والمراد الفرق بيننا وبينه لأنّنا مرفودون بالأدوات ، ولولاها لم يصحّ منا الفعل ، وهو سبحانه بخلاف ذلك .

وحادى عشرها قوله : « سبق الأوقات كونه ... » إلى آخر الفصل ، هذا تصريح بحدوث العالم .

فإن قلت : مامعنى قوله: « والعدم وجوده » ، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم فى الأزَل لا أوّلَ له ؟

قلت : ليس يعنى بالعدم هاهنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه، أى غلب وجود ذاته عدمها وسبقها ، فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم إليه أزلا وأبدا بخلاف الممكنات ، فانّ عَدمها سابق بالذّات على وجودها ، وهذا دقيق !

***

الأصْلُ :

بِتَشْعِيرِهِ المَشاعِرَ عُرِفَ أنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وبِمُضادَّتِهِ بَيْنَ الأمُورِ عُرِفَ أن لَا ضِدَّ لَهُ ، وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأشْياءِ عُرِفَ أنْ لَا قَرِينَ لَهُ .

ضادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ ، والجُمُودَ بِالْبَلَلِ ، وَالحَرُورَ بِالصَّرْدِ .

مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ، ولا يُحْسَبُ بِعَدٍّ ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ؛ وَتُشِيرُ الآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا .

***

الشَّرْحُ :

المشاعر الحواسّ ، قال بَلْعاء بن قيس :

والرَّأسُ مُرْتَفِعٌ فيهِ مشاعِرُهُ   يَهْدِى السَّبيلَ له سَمعٌ وعَيْنَانِ (١)

قال: بجعله تعالى المشاعر عُرِف أن لا مشعرَ له ؛ وذلك لأنّ الجسم لا يصحّ منه فعل الأجسام ، وهذا هو الدليل الذى يعوّل عليه المتكلّمون فى أنه تعالى ليس بجسم .

ثم قال : « و بمضادّته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له » ، وذلك لأنّه تعالى لما دلّنا بالعقل على أن الأمور المتضادّة إنّما تتضادّ على موضوع تقوم به وتحلّه كان قد دلّنا على أنّه تعالى لا ضدّ له ، لأنه يستحيل أن يكون قائما بموضوع يحلّه كما تقوم المتضادّات بموضوعاتها .

ثم قال : « و بمقارنته بين الأشياء عُرِف أن لا قرين له » ، وذلك لأنّه تعالى قَرن بين العَرَض والجوْهر ، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر ، وقَرَن بين كثير من الأعراض ، نحو مايقوله أصحابنا فى حياتَي القلب والكبد ، ونحو الإضافات التى يذكرها الحكماء كالبنوّة والأبوّة والفوقيّة والتحتيّة ، ونحو كثير من العلل والمعلولات ، والأسباب والمسبّبات ، فيما ركبه فى العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين

(١) صحاح الجوهرى ٦٩٩

عن الآخر ، علمنا أنّه لا قرينَ له سبحانه ، لأنه لو قارن شيئا على حسب هـذه المقارنة لاستحال انفـكاكه عنه ، فـكان محتاجاً فى تحقق ذاته تعالى إليه ، وكلّ محتاج ممكن ، فواجب الوجود ممكن ! هذا محال .

ثم شرع فى تفصيل المتضادّات ، فقال : « ضادّ النّور بالظُّلْمة » ، وهما عَرَضان عنـد كثير من النّاس ، وفيهم مَنْ يجعل الظلمة عدميّة .

قال : « والوضوح بالبُهْمة » يعنى البياض والسواد .

قال : « والجود بالبَلَل » ، يعنى اليبوسة والرطوبة .

قال : « والحَرور بالصَّرْد » يعنى الحرارة والبرودة ، والحرور هاهنا مفتوح الحاء ، يقال : إنى لأجد لهذا الطعام حَرورا وحَرورة فى فى ، أى حرارة ، ويجوز أن يـكون فى الـكلام مضاف محذوف ، أى وحَرارة الحَرور بالصَّرْد؛ والحرور هاهنا يكون الريح الحارّة، وهى بالليل كالسَّموم بالنهار ، والصَّرْد : البرد .

ثم قال : وإنّه تعالى مؤلِّف بين هذه المتباعدات ، المتعاديات المتباينات ، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إيّاها فى مكان واحد ، كيف وذلك مستحيل فى نفسِه ، بل هو سبحانه مؤلّف لها فى الأجسام المركّبة حتى خلع منها صورة مفردة ، هى المزاج ، ألا ترى أنّه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس ، فمزجه مَزْجاً مخصوصا حتى انتزع منه طبيعة مفردة ، ليست حارّة مطلقة ، ولا باردة مطلقة ، ولا رطبة مطلقة ، ولا يابسة مطلقة ، وهى المِزاج ، وهو محدود عند الحكماء ؛ بأنّه كيفيّة حاصلة من كيفيّات متضادّة ، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه .

والعَجب من فصاحته فى ضمن حكمته ، كيف أعطى كلّ لفظةٍ من هـذه اللفظات ما يناسبُها ويليق بها ، فأعطى المتباعدات لفظة « مقرّب » ؛ لأنّ البعد بإزاء القرب ،

وأعطى المتباينات لفظة « مقارن » ، لأنّ البينونة بإزاء المقارنة ، وأعطى المتعاديات لفظة « مؤلّف » لأنّ الائتلاف بإزاء التعادى .

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، فجعل الفساد بإزاء الكَوْن ، وهذا من دقيق حكمته عليه السلام ، وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد ، فلما أوضح ما أوضح فى الكَوْن والتركيب والإيجاد ، أعقبه بذكر الفساد والعدم ، فقال : « مفرّق بين متدانياتها » ، وذلك لأنّ كلّ جسم مركّب من العناصر المختلفة الكيفيّات المتضادّة الطبائع ، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق .

ثم قال : « لا يشمَل بحدّ » ، وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركّبا من جنس وفصل ، والبارى تعالى منزّه عن ذلك ، لأنه لو شمِله الحدّ على هذا الوجه يكون مركّبا ، فلم يكن واجب الوجود ، وقد ثبت أنّه واجب الوجود ، ويجوز أن يعنى به أنّه ليس بذى نهاية ، فتحويه الأقطار وتحدّه .

ثم قال : « ولا يحسب بعدّ » ، يحتمل أن يريد : لا تحسب أزليّته بعد ، أى لا يقال له : منذ وُجد كذا وكذا ، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد ، ويحتمل أن يريد به أنّه ليس مماثلا للأشياء فيدخل تحت العدد ، كما تعدّ الجواهر ، وكما تعدّ الأمور المحسوسة .

ثم قال : « وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها » ، هذا يؤكّد معنى التفسير الثانى ، وذلك لأنّ الأدواتِ كالجوارح ، إنّما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير ، وكذلك إنّما تشير الآلات وهى الحواسّ إلى ما كان نظيرا لها فى الجسمية ولوازمها ، والبارى تعالى ليس بذى مقدار ولا جسم ، ولا حالّ فى جسم ، فاستحال أن تحدّه الأدوات ، وتشير إليه الآلات .

***

الأصْلُ :

مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَة ، وَحَمَتْهَا قَدُ الْأَزَلِيَّةَ ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَاهُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَاهُوَ أَحْدَثَهُ !

إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ ؛ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ ؛ وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الِامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَايُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد اختلف الرواة فى هذا الموضع من وجهين :

أحدها قول مَنْ نصب « القِدمة » و « الأزليّة » و « التكملة » ، فيكون نصبها عنده على أنّها مفعول ثانٍ ، والمفعول الأوّل الضمائر المتصلة بالأفعال ، وتكون « منذ » و « قد » و « لولا » فى موضع رفع بأنّها فاعلة ، وتقدير الكلام : إنّ إطلاق لفظة « منذ » على الآلات والأدوات يمنعها عن كونها قديمة ، لأنّ لفظة « منذ » وضعت لابتداء الزمان كلفظة « من » لابتداء المكان ، والقديم لا ابتداء له ، وكذلك إطلاق لفظة « قد » على الآلات ، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزليّة ، لأن « قد » لتقريب الماضى من الحال ، تقول : قد قام زيد ، فقد دلّ على أن قيامه قريب من الحال التى أخبرت فيها

بقيامه ، والأزلىّ لا يصحّ ذلك فيه، وكذلك إطلاق لفظة « لولا » على الأدوات والآلات يجنّبها التكملة ، ويمنعها من التمام المطلق ، لأنّ لفظة « لولا » وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره ، كقولك: لولا زيد لقام عمرو ، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد ، وأنت تقول في الأدوات والآلات وكلّ جسم : ماأحسنه لولا أنه فانٍ ! وما أتمّه لولا كذا ! فيكون المقصد والمنحى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدَثة ناقصة ، والمراد بالآلات والأدوات أربابُها .

الوجه الثانى : قول مَنْ رفع « القِدمة » و « الأزلية » و « التكملة » فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلا ، وتكون الضمائر المتّصلة بالأفعال مفعولا أوّلا ، و «منذ» و «قد» و « لولا » مفعولا ثانيا ، ويكون المعنى أنّ قِدَم البارى وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة « منذ » و « قد » و « لولا » عليه سبحانه ، لأنه تعالى قديم كامل ، ولفظتا « منذ » و « قد » لا يطلقان إلّا على محدَث ، لأنّ إحداهما لابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضى من الحال ، ولفظة « لولا » لا تطلق إلّا على ناقص ، فيكون المقصد والمنحّى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قِدَم البارى تعالى وكماله ، وأنّه لا يصحّ أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنّقص .

* * *

قوله عليه السلام : « بها تجلّى صانعها للعقول ، وبها امتنع عن نظر العيون » ، أى بهذه الآلات والأدوات التى هى حواسّنا ومشاعرنا ، وبخلقه إياها ، وتصويره لها ، تجلّى للعقول وعُرِف ، لأنه لو لم يخلقها لم يعرف ، وبها امتنع عن نظر العيون ، أى بها استنبطنا استحالة كونه مرئيًّا بالعيون ، لأنّا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا ، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنّه لا تصحّ رؤيته ، فإذن بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلا ، وبذلك

أيضا عرفنا أنه يستحيل أن يعرَف بغير العقل ، وأنّ قول من قال : إنا سنعرفه رؤيةً ومشافهة بالحاسّة باطل .

قوله عليه السلام : « لا تجرى عليه الحركة والسكون » ، هذا دليلٌ أخذَه المتكلّمون عنه عليه السلام فنظموه فى كتبهم وقرروه ، وهو أنّ الحركة والسكون معانٍ محدَثة ، فلو حلّت فيه لم يخلُ منها ، وما لم يخلُ من المحدَث فهو محدث .

فإن قلت : إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج ، وإنما قال كيف يجرى عليه ما هو أجراه ، وهذا نَمطٌ آخر غير ما يقرّره المتكلّمون !

قلت : بل هو هو بعينه ، لأنّه إذا ثبت أنّه هو الّذى أجرَى الحركة والسكون ، أى أحدثهما لم يجز أن يجريا عليه ، لأنهما لو جرَيا عليه لم يخلُ إمّا أن يجرِيا عليه على التعاقب، وليسا ولا واحد منهما بقديم ، أو يجريا عليه على أنّ أحدَهما قديم ثم تلاه الآخر ، والأوّل باطل بما يبطل به حوادث لا أوّل لها ، والثانى باطل بكلامه عليه السلام ، وذلك لأنّه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه ، لكن قد قلنا : إنّه أجراه ، أى أحدثه ، وهذا خُلْف محال . وأيضا فإذا كان أحدُهما قديماً معه لم يَجُزْ أن يتلوَه الآخر ، لأنّ القديم لا يزول بالمحدَث .

ثم قال عليه السلام : « إذا لتفاوتت ذاتُه ، ولتجزّأ كُنهه ، ولامتنع من الأزَل معناه » ، هذا تأكيد لبيان استحالة جرَيان الحركة والسّكون عليه ، تقول: لو صحّ عليه ذلك لكان محدَثاً ، وهو معنى قوله : « لامتنع من الأزَل معناه » ، وأيضا كان ينبغى أن تكون ذاته منقسمة ، لأنّ المتحرّك الساكن لابدّ أن يكون متحيّزا ، وكلّ متحيّز جسم ، وكلّ جسم منقسم أبدا ، وفى هذا إشارة إلى نفى الجوهر الفرد .

ثم قال عليه السلام : « ولكان له وراء إذا وُجِد له أمام » هذا يؤكد ماقلناه إنه إشارة إلى نفى الجوهر الفرد ، يقول : لو حلّته الحركة لكان جرما وحجما ؛ ولكان أحدُ وجهيه غيرَ الوجه الآخر لا محالة ، فكان منقسماً ، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفى الجوهر الفرد ، لأنّ مَنْ أثبته يقول : يصحّ أن تحلّه الحركة ، ولا يكون أحد وجهيه غير الآخر ، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام .

ثم قال عليه السلام : « ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان » ، هذا إشارة إلى مايقوله الحكماء ، من أنّ السكون عدم ونقص ، والحركة وجود وكمال ، فلو كان سبحانه يتحرك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله ، فكان ملتمساً كماله بالحركة الطارئة على السكون ، وواجب الوجود ، يستحيل أن يكون له حالة نقصان ، وأن يكون له حالة بالقوّة وأخرى بالفعل .

قوله عليه السلام : « إذا لقامت آية المصنوع فيه » ، وذلك لأنّ آية المصنوع كونه متغيّراً منتقلا من حال إلى حال ، لأنا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، فلو كان تعالى متغيراً متحركا منتقلا من حال إلى حال لتحقّق فيه دليل الحدوث ، فكان مصنوعاً ، وقد ثبت أنه الصّانع المطلق سبحانه .

قوله عليه السلام : « ولتحوّل دليلا بعد أن كان مدلولاً عليه » ، يقول : إنا وجدنا دليلنا على البارى سبحانه ، إنما هو الأجسام المتحركة ، فلو كان البارى متحركاً لكان دليلا على غيره ، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه ، لكنه سبحانه لا صانعَ له ولا ذات فوق ذاته ، فهو المدلول عليه والمنتهى إليه

قوله عليه السلام : « وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ماأثر فى غيره » ، فى هذا الكلام يتوهم سامعه أنه عطف على قوله : « لتفاوتت » و « لتجزأ » و « لامتنع »

و « لكان له » « ولالتمس » و « لقامت » و « لتحوّل » وليس كذلك ، لأنه لو كان معطوفا عليها لاختلّ الكلام وفسد ، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى ، والمراد لو تحرك لزم هذه الحالات كلها .

وقوله : «وخرج بسلطان الامتناع» ليس من المستحيلات عليه ، بل هو واجب له، ومن الأمور الصادقة عليه ، فإذا فسد أن يكون معطوفا عليها وجب أن يكون معطوفا على ما كان مدلولا عليه ، وتقدير الكلام : كان يلزم أن يتحوّل البارى دليلا على غيره ، بعد أن كان مدلولا عليه ، و بعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ماأثّر فى غيره، وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيّز ولا حالّ فى المتحيّز ، فهذا هو سلطان الامتناع الذى به خرج عن أن يؤثّر فيه ما أثّر فى غيره من الأجسام والممكنات .

***

الأصلُ :

ٱلَّذِى لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْأُفُولُ . لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا ، وَلَمْ يُولَدْ فَيصِيرَ مَحْدُوداً . جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ ٱلْأَبْنَاءِ ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ ٱلنِّسَاءِ ، لَا تَنَالُهُ ٱلْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ ، وَلَا تَلْمِسُهُ ٱلْأَيْدِى فَتَمَسَّهُ ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِى ٱلْأَحْوَالِ ، وَلَا تُبْلِيهِ ٱللَّيَالِى وَٱلْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ ٱلضِّيَاءُ وَٱلظَّلَامُ .

***

الشَّرحُ :

هذا الفصل كلّه واضح مستغنٍ عن الشرح ، إلا قوله عليه السلام : « لم يلد

فيكون « مولودا » ، لأنّ لقائل أن يقول : كيف يلزم من فرض كونه والدا أن يكون مولودا ؟ فنقول فى جوابه : إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر ، وكيف وآدم والد وليس بمولود ! وإنّما المراد أنه يلزم من فرض صحّة كونه والداً صحّة كونه مولودا ، والتالى محال ، والمقدّم محال ، وإنما قلنا : إنه يلزم من فرض صحّة كونه والدا صحة كونه مولودا ، لأنه لو صحّ أن يكون والدا على التفسير المفهوم من الوالديّة ، وهو أن يتصوّر من بعض أجزائه حيّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله فى النُّطفة المنفصلة المستحيلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى ؛ حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأوّل لصحّ عليه أن يكون هو مولودا من والد آخر قبله ، وذلك لأنّ الأجسام متماثلة فى الجسميّة ، وقد ثبت ذلك بدليل عقليّ واضح فى مواضعه التى هى أملك به ، وكلّ مِثْلَيْن فإنّ أحدهما يصحّ عليه ما يصحّ على الآخر ، فلو صحّ كونُه والدا يصحّ كونه مولودا .

وأمّا بيان أنّه لا يصحّ كونه مولودا ، فلانّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزّمان ، وكلّ متأخر عن غيره بالزّمان محدَث ، فالمولود محدَث والبارى تعالى قد ثبت أنّه قديم ، وأنّ الحدوث عليه محال ، فاستحال أن يكون مولودا ، وتمّ الدليل .

***

الأصْلُ :

وَلَا يُوصَفُ بِشَىْءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ ، ولا بِالجَوَارِحِ والأعْضاءِ ، ولا بِعرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ ، ولَا بِالغَيْرِيَّةِ والأبعاضِ ، وَلا يُقالُ : لَهُ حَدٌّ ولا نِهايَةٌ ، ولا انقِطاعٌ ولا غايَةٌ ؛ ولا أنّ الأشياء تَحْوِيهِ ؛ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيهِ ، أَوْ أَنّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ

أوْ يُعَدِّلَهُ . لَيْسَ فِي الأشياء بِوالِجٍ ، ولا عَنها بِخارِجٍ .

يُخْبِرُ لا بِلِسانٍ ولَهَواتٍ ، ويَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وأَدَواتٍ ، يَقُولُ ولا يَلْفِظُ ، ويَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ ، ويُرِيدُ ولا يُضْمِرُ .

يُحِبُّ ويَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ، يَقُولُ لِمَنْ أَرادَ كَوْنَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

لا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، ولا بِنِداءٍ يُسْمَعُ ، وَإِنَّما كَلامُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كائِناً ، ولَوْ كانَ قَدِيماً لَكانَ إلهاً ثانِياً .

***

الشرح :

في هذا الفصل مباحث :

أولها : أنّ البارى سُبحانه لا يوصَف بشيء من الأجزاء ، أى ليس بمركّب ؛ لأنه لو كان مركّبا لافتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه ليست نفس هويّته ، وكلّ ذاتٍ تفتقر هويّتها إلى أمر من الأمور فهى ممكنة ؛ لكنّه واجب الوجود ، فاستحال أن يوصَف بشيء من الأجزاء .

وثانيها: أنّه لا يوصَف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة ، وذلك لأنّه لو كان كذلك لكان جسماً ، وكلّ جسم ممكن ، وواجب الوجود غير ممكن .

وثالثها : أنّه لا يوصَفُ بعرَض من الأعراض كما يقوله الكرّاميّة ؛ لأنه لو حلّه العرَض لكان ذلك العرَض ليس بأنْ يَحُلّ فيه أولى من أن يحلّ هو فى العرَض ، لأنّ معنى

الحلول حصول العَرَض فى حيّز المحلّ تبعا لحصول المحلّ فيه ، فما ليس بمتحيّز لا يتحقق فيه معنى الُحلول ، وليس بأن يجعَل محلا أوْلَى من أن يجعَل حالًا !

ورابعها : أنّه لا يوصف بالغيريّة والأبعاض ، أى ليس له بَعْض ، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر ، وهذا يرجع إلى البحث الأوّل .

وخامسها: أنّه لاحدّ له ولا نهاية ، أى ليس ذا مقدار ، ولذلك المقدار طرَف ونهاية ، لأنه لوكان ذا مقدار لـكان جسما ، لأنّ المقدار من لوازم الجسميّة ، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بجسم .

وسادسها : أنّه لا انقطاع لوجوده ، ولا غاية، لأنه لوجاز عليه العدم فى المستقبَل لـكان وجوده الآن متوقفا على عدم سبب عدمه ، وكلّ متوقف على الغير فهو ممكن فى ذاته ، والبارى تعالى واجب الوجوب ، فاستحال عليه العدَم ؛ وأن يكون لوجوده انقطاع ، أو ينتهى إلى غاية يعدم عندها .

وسابعها : أنّ الأشياء لا تحويه فتقلّه؛ أى ترفعه، أو تهويه ؛ أى تجعله هاويًا إلى جهة تحت ، لأنه لوكان كذلك لـكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشىء الحاوى له ، لـكنْ قد بيّنا أنه يستحيل عليه المقادير ، فاستحال كونه محويًّا .

وثامنها : أنّه ليس يحمله شىء فيميله إلى جانب ، أو يعدّ له بالنّسبة إلى جميع الجوانب ، لأنّ كلّ محمول مقدّر ، وكل مقدّر جسم ، وقد ثبت أنّه ليس بجسم .

وتاسعها : أنه ليس فى الأشياء بوالج ، أى داخل . ولا عنها بخارج، هذا مذهب الموحّدين ؛ والخلاف فيه مع الـكرّامية والمجسّمة ، وينبغى أن يفهم قوله عليه السلام: « ولا عنها بخارج» أنّه لا يريد سلبَ الوُلوج ، فيكون قد خلا من النّقيضين ، لأنّ ذلك محال ، بل المراد بكونه ليس خارجا عنها أنّه ليس كما يعتقده كثيرٌ من الناس ؛ أنّ الفلك الأعلى المحيط لا يحتوي

عليه ؛ ولكنّه ذاتٌ موجودة متميّزة بنفسها ، قائمة بذاتها ، خارجة عن الفَلَك فى الجهة العليا ، بينها و بين الفلك بعدٌ ، إمّا غير متناهٍ ـ على مايحكى عن ابن الهيصم ـ أو متناهٍ على مايذهب إليه أصحابه ؛ وذلك أنّ هذه القضيّة ، وهى قولنا : البارى خارج عن الموجودات كلّها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضيّة الأولى ، وهى قولنا : البارى داخل العالم ، ليكون القول بخلوّه عنهما قولًا بخلوّه عن النقيضيْن ، ألا ترى أنّه يجوز أن تكون القضيّتان كاذبتين معا ، بألّا يكون الفلك المحيط محتويا عليه ، ولا يكون حاصلا فى جهة خارج الفلك ، ولو كانت القضيتان متناقضتيْن لما استقام ذلك ، وهذا كما تقول : زيد فى الدار زيد فى المسجد ، فإنّ هاتين القضيّتيْن ليستا متناقضتيْن ، لجواز ألّا يكون زيد فى الدار ، ولا فى المسجد ، فإنّ هاتين ولو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضيْن ، لكن المتناقض : «زيد فى الدار ، زيد ليس فى الدار» ، والذى يستشنعه العوامّ من قولنا : «البارى لا داخل العالم ولا خارج العالم» غلط مبنىّ على اعتقادهم وتصوّرهم أنّ القضيتيْن تتناقضان ، وإذا فهم ماذكرناه بانَ أنّه ليس هذا القول بشنيع ؛ بل هو سهل وحقّ أيضا ، فإنّه تعالى لا متحيّز ولا حالّ فى المتحيّز ، وما كان كذلك استحال أن يحصُل فى جهة ؛ لا داخل العالم ولا خارج العالم ، وقد ثبت كونُه غير متحيّز ولا حالّ فى المتحيّز ، من حيث كان واجب الوجود ، فإذن القولُ بأنّه ليس فى الأشياء بوالج ولا عنها بخارج صواب وحقّ .

وعاشرها : أنّه تعالى يخبر بلا لسان ولهَوات ؛ وذلك لأنّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلا للخبر ، كما أنّ كونه ضاربا هو كونه فاعلا للضرب ، فكما لا يحتاج فى كونه ضاربا إلى أداة وجارحة يَضرب بها كذلك لا يحتاج فى كونه مخبرا إلى لسان ولهَوات يخبر بها .

وحادى عشرها : أنّه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات ، وذلك لأنّ البارى سبحانه حىٌّ لا آفة به ؛ وكلّ حىٍّ لا آفة به ؛ فواجب أن يَسمع المسموعات ، ويبصر المبصرات ، ولا

حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات ، كما نحتاج نحن إلى ذلك ، لأنّا أحياء بحياة تحلّنا ، والبـــاري تعالى حيٌّ لذاته ، فلمّا افترقنا فيما به كان سامعا ومبصرا ، افترقنا في الحاجة إلى الأدوات والجوارح .

وثاني عشرها : أنّه يقول ولا يتلفّظ، هذا بحث لفظيّ، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلا، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة ، نحو قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى﴾ (1) ﴿وقال الله إنّي معكم﴾ (2) ،ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفّظا عليه، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جارحة ، فوجب الاقتصار على ما ورد ، وترك مالم يرد .

وثالث عشرها : أنّه تعالى يحفظُ ولا يتحفّظ؛ أمّا كونه يحفظ فيطلَق على وجهين : أحدها أنه يحفظ بمعنى أنه يحصي أعمال عباده ويعلمها ، والثاني كونه يحفظُهم ويحرسهم من الآفات والدّواهي . وأمّا كونه لا يتحفّظ فيحتمل معنيين . أحدهما أنّه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفّظ الكلام ، أي يتــكلّف كونه حافظا له ، ومحيطا وعالما به ، كالواحد منـا يتحفّظ الدرس ليحفَظه ، فهو سبحانه حافظٌ غير متحفّظ . والثاني أنه ليس بمتحرّز ولا مشفق على نفسه خوفا أن تبدر إليه بادرة من غيره .

ورابع عشرها : أنه لا يريد ولا يضمر ، أمّا كونه مريداً فقد ثبت بالسّمع نحو قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ (3) ، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة ، وكيفيّات مخصوصة ، جاز أن تقع على خلافها ، فلا بدّ من مخصّص لهـا بما اختصّت به ؛ وذلك كونه مريدا ، وأمّا كونه لا يضمر فهو إطلاق لفظيّ لم يأذن فيه الشّرع ، وفيه إيهام كونه ذا قلب ، لأنّ الضمير في العرف اللغويّ ما استكنّ في القلب، والباري ليس بجسم .

---

(1) سورة المائدة ١١٠

(2) سورة المائدة ١٢

(3) سورة البقرة ١٨٥

وخامس عشرها : أنه يحبّ ويرضى من غير رقّة ، ويبغض ويغضب من غير مشقّة ، وذلك لأنّ محبته للعبد إرادته أن يثيبه ، ورضاه عنه أن يحمّد فعله ، وهذا يصحّ ويطلق على البارى ، لا كإطلاقه علينا ، لأنّ هذه الأوصاف يقتضى إطلاقها علينا رِقّة القلب ، والبارى ليس بجسم ، وأما بغضه للعبد فإرادة عقابه وغضبه كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به ، وفى الأغلب إنما يطلق ذلك علينا ويصحّ منا مع مشقّة تنالنا من إزعاج القلب وغَلَيان دمه ، والبارى ليس بجسم .

وسادس عشرها : أنه يقول لما أراد كونه: كن؛ فيكون من غير صوت يقرع ، ولا نداء يسمع ، هـذا مذهب شيخنا أبى الهذيل ، وإليه يذهب الكرّامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم ، والظّاهر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أطلقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن فى مخاطبة النـاس بمـا قد سمعوه وأنسوا به ، وتكرّر على أسماعهم وأذهانهم ، فأمّا باطن الآية وتأويلها الحقيقىّ فغير ما يسبق إلى أذهان العوامّ ، فليُطلب من موضعه .

وسابع عشرها : أنّ كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا ، ولو كان قديما لـكان إلٰها ثانيا، هذا هو دليل المعتزلة على نفى المعانى القديمة الّتى منها القرآن ، وذلك لأنّ القِدَم عندهم أخصّ صفات البارى تعالى ، أو موجب عن الأخصّ ، فلو أنّ فى الوجود معنى قديما قائما بذات البارى ؛ لـكان ذلك المعنى مشاركا للبارى فى أخصّ صفاته ، وكان يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للبارى من الصّفات، نحو العالميّة والقـادريّة وغيرهما ، فـكان إلٰهاً ثانياً .

***

فإن قلت : مامعنى قوله عليه السلام « ومثّله » ؟

قلت : يقال: مثّلت له كذا تمثيلا ، إذا صوّرت له مثاله بالـكتابة أو بغيرها ، فالبارى مثّل القرآنَ لجبريل عليه السلام بالـكتابة فى اللّوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه

وآله . وأيضاً يقال : مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائما ، ومثّله بين يدي زيد أي أحضرته منتصبا ، فلمّا كان الله تعالى فعل القرآن واضحا بيّنا كان قد مثّله للمكلّفين . ..

* * *

الأصل :

لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ .

خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوَدِ وَالِاعْوِجَاجِ ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالِانْفِرَاجِ .

أَرْسَى أَوْتَادَهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا ، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا ؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ .

* * *

الشّرح :

عاد عليه السلام إلى تنزيه البارى تعالى عن الحدُوث ، فقال : لا يجوز أن يوصَف به فتجرى عليه الصّفات المحدَثات كما تجرى على كلّ محدَث ، وروى : « فتجرى عليه صفات المحدَثات » وهو أليق ، ليعود إلى المحدَثات ذوات الصفات مابعده ؛ وهو قوله عليه السلام : « ولا يكون بينه و بينها فصل » ، لأنّه لا يحسن أن يعود الضمير فى قوله : « و بينها » إلى « الصفات » بل إلى « ذوات الصفات » .

قال : لو كان محدَثا لجرت عليه صفات الأجسام المحدَثة ، فلم يكن بينه و بين الأجسام المحدَثة فرْق ، فكان يستوى الصانع والمصنوع ، وهذا محال .

ثم ذكر أنّه خلق الخلْق غير محتذٍ لمثال ، ولا مستفيد من غيره كيفيّة الصنعة ، بخلاف الواحد منّا ، فإنّ الواحد منّا لابدّ أن يحتذِىَ فى الصّنعة ، كالبنّاء والنّجّار والصّانع وغيرها .

قال عليه السلام : « ولم يستعنْ على خلْقها بأحدٍ من خلقه » ، لأنه تعالى قادر لذاته لا يُعجِزه شىء .

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض ، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمساكها ، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته ؛ ليس كالواحد منّا يمسك الثقيل فيشتغل بإمساكه عن كثير من أموره .

قال : « وأرساها » ، جعلها راسية على غير قرار تتمكّن عليه ، بل واقفة بإرادته التى اقتضت وقوفها ، أو لأنّ الفلك يجذبها من جميع جهاتها — كما قيل — أو لأنّه يدفعها من جميع جهاتها ، أو لأنّ أحد نصفيها صاعد بالطّبع ، والآخر هابط بالطبع ، فاقتضى التعادل وقوفها ، أو لأنّها طالبة للمركز فوقفتْ .

والأوَد : الاعوجاج ، وكرّر لاختلاف اللفظ .

والتهافت : التساقط . والأسداد : جمع سدّ ، وهو الجبَل ، ويجوز ضم السين .

واستفاض عيونها ، بمعنى أفاض ، أى جعلها فائضة .

وخدّ أوديتها ، أى شقها . فلم يهن ما بناه ، أى لم يضعف .

***

الأصْـلُ :

هُوَ ٱلظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ ٱلْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَٱلْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ ٱلسَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ .

خَضَعَتِ ٱلْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لَا تَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ، وَلَا كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ .

هُوَ ٱلْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا ، وَلَيْسَ فَنَاءُ ٱلدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا . وَكَيْفَ وَلَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا ـ مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا ، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا ـ عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا ، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً ، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا ، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا !

***

الشَّـرحُ :

الظاهر : الغالب القاهر ، والباطن : العالم الخبير .

والمُراح بضم الميم : النَّعم تَرِد إلى المُراح ،بالضمّ أيضا ؛ وهو الموضع الذى تأوى إليه النَّعم ، وليس المُراح ضدّ السائم على مايظنّه بعضهم ، ويقول: إنّ عطف أحدهما على الآخر عطف

على المختلف والمتضادّ ، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المئلوفة ، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب فى الخطابة ، ومثله فى القرآن كثير ، نحو قوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١) .

وأسناخها : جمع سِنْخ بالكسر ، وهو الأصل .

وقوله : « لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة » ، هو معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ (٢) .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا تستطيع الهربَ من سُلْطانه إلى غيره فتمتنع مِنْ نَفْعِه وضرّه »؟ وهلّا قال : « من ضرّه » ؟ ولم يذكر النفع ، فإنه لا معنى لذكره هاهنا !

قلت : هذا كما يقول المعتصم بمعقل حصين عن غيره: مايقدر اليوم فلان لى على نفع ولا ضرّ ، وليس غرضه إلّا ذكر الضّرر ، وإنما يأتى بذكر النّفع على سبيل سلْب القدرة عن فلان على كلّ مايتعلّق بذلك المعتصم ، وأيضا فإنّ العفو عن المجرم نفعٌ له ، فهو عليه السلام يقول : إنه ليس شىء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى ، ويستغنى عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه .

***

الأصْـلُ :

وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْـدَهُ لَا شَىْءَ مَعَهُ ، كَمَا كَانَ قَبلَ ابْتِدَائِهَا ، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا؛ بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَـكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْـدَ ذَلِكَ الْآجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ ، فَلَا شَىْءَ

---

(١) سورة فاطر ٣٥ (٢) سورة الحج ٧٣

إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؛ الَّذِى إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ .

بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا ، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا ، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا .

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَىْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ ، وَلَا لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ ، وَلَا لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلَا لِلازْدِيَادِ بِهَا فِى مُلْكِهِ ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِى شِرْكِهِ ، وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا . ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا ؛ لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِى تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا ، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا لِثِقَلِ شَىْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ ، لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَىْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا ، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ ؛ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ ؛ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

شرع أوّلا فى ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة ، وذلك لأنّ الكتاب العزيز قد ورد به ، نحو قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾[1] ؛ ومعلوم أنه بدأه عن عدم ، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضا. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾[2] ؛ وإنما كان أوّلا لأنه كان موجودا ، ولا شىء من

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ (٢) سورة الحديد ٣

الأشياء بموجود ، فوجب أن يكون آخرا كذلك ، هـذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين .

ثم ذكر أنّه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان ، ولا حينٍ ولا زمان ، وذلك لأنّ المكان إمّا الجسم الذى يتمكّن عليه جسم آخر ، أو الجهة ، وكلاهما لاوجود له بتقدير عدم الأفلاك وما فى حشوها من الأجسام ، أما الأوّل فظاهر ، وأما الثانى فلأنّ الجهة لا تتحقّق إلا بتقدير وجود الفلك ، لأنها أمرٌ إضافىٌّ بالنسبة إليه ، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقّق أصلا ، وهذا هو القول فى عدم المكان حينئذ ، وأما الزّمان والوقت والحين فكلّ هذه الألفاظ تعطى معنًى واحدا ، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك ، لأنّ الزمان هو مقدار حركة الفلك ، فإذا قدّرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان .

ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكّده ، فقال : « عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات » ، لأنّ الأجل هو الوقت الذى يحلّ فيه الدّيْن أو تبطل فيه الحياة ، وإذا ثبتَ أنّه لا وقت ، ثبت أنه لا أجل ، وكذلك لاسنَة ولا ساعة ، لأنها أوقات مخصوصة .

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا ، فقال : « بلا قدرة منها كان ابتداء خلْقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » ؛ يعنى أنّها مسخّرة تحت الأمر الإلٰهى .

قال : « ولو قدَرت على الامتناع لدام بقاؤها » ، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه فى مراده ، وإنّما تمانعه فى مراده لو كانت قادرة لذاتها ، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت .

قوله عليه السلام : « لم يتكاءده » بالمدّ أى لم يشقّ عليه ؛ ويجوز « لم يتكأّده » بالتشديد والهمزة ، وأصله من العقبة الكئود ، وهى الشاقة .

قال : « ولم يؤده » أى لم يثقله .

ثم ذكر أنّه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانه،ولالخوفه من زوال أونقص يلحقه، ولا ليستعين بها على ندٍّ مماثل له ، أو يحترز بها عن ضدٍّ محارب له ، أو ليزداد بها ملكه ملكا ، أو لِيُكاثر بها شريكاً فى شركته له ، أو لأنّه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بِمَنْ خلق .

ثم ذكر أنه تعالى : « سيُفنيها بعد إيجادها » لالضجر لِحقه فى تدبيرها ، ولالراحة تصلُه فى إعدامها ، ولا لثقل شىء منها عليه حال وجودها ، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها .

ثم عاد عليه السلام ، فقال : إنّه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء ، لا لحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض ، ولا لأنّه استوحش حال عدمها فأحبّ أن يستأنس بإعادتها ، ولا لأنه فقد علما عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم ، ولا لأنّه صار فقيراً عند إعدامها فأحبّ أن يتكثّر ويثرِى بإعادتها ، ولا لذلٍّ أصابه بإفنائها فأراد العزّ بإعادتها .

فإن قلت : إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا ، وكان من قبلُ أوجدها لا لكذا ولا لكذا ، ثم قلتم : إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا ، فلأىّ حال أوجدها أولًا ، ولأىّ حال أفناها ثانيا ، ولأىّ حال أعادها ثالثاً ؟ خبِّرُونا عن ذلك ، فإنكم قد حكيتم عنه عليه السلام الحكم ولم تحكوا عنه العلّة !

قلت : إنما أوجدها أولا للإحسان إلى البشر ليعرفوه ، فإنّه لولم يوجدهم لبقىَ مجهولا لا يعرف ، ثم كلّف البشر ليعرّضهم للمنزلة الجليلة التى لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهى الثواب ، ثم يفنيهم لأنّه لابدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاقّ التكاليف ؛ وإذا كان لابدّ من انقطاعه فلا فرقَ بين انقطاعه بالعدم المطلق ،

أو بتفريق الأجزاء ، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع ، وفيه لطف زائد للمكلّفين ، لأنّه أردع وأهيب فى صدورهم من بقاء أجزائهم ، واستمرار وجودها غير معدومة .

ثم إنه سبحانه يعثهم ويعيدُهم ليوصّل إلى كلّ إنسان مايستحقّه من ثواب أوعقاب، ولا يمكن إيصال هذا المستحقّ إلا بالإعادة ، وإنّما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليلات ، لأنّه قد أشار إليها فيما تقدّم من كلامه ، وهى موجودة فى فرش خُطَبه ، ولأنّ مقام الموعظة غير مقام التعليل ، وأمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة يسلُك مسلك الموعظة فى ضمْن تمجيد البارى سبحانه وتعظيمه ، وليس ذلك بمظنّة التعليل والِحجاج .

(٢٣٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام : تختص بذكر الملاحم :

أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ ! أَسْماؤُهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ . أَلَا فَتَوَقَّعُوا ما يَكُونُ مِنْ إِدبارِ أُمُورِكُمْ ، وَانْقِطاعِ وُصَلِكُمْ ، وَاسْتِعْمالِ صِغارِكُمْ .

ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى المُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ ! ذاكَ حَيْثُ يَكُونُ المُعطَى أَعظَمَ أَجراً مِنَ المُعطِي ؛ ذاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرابٍ ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضطِرارٍ ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْراجٍ ؛

ذاكَ إِذا عَضَّكُمُ البَلاءُ ، كَما يَعَضُّ القَتَبُ غارِبَ البَعِيرِ . ما أَطْوَلَ هَذا العَناءَ ! وَأَبْعَدَ هَذا الرَّجاءَ !

أَيُّها النّاسُ ، أَلْقُوا هَذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُها الأَثْقالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، وَلا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعالِكُمْ ، وَلا تَقْتَحِمُوا ما اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نارِ الفِتْنَةِ ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِها ، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَها ؛ فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ في لَهَبِها المُؤْمِنُ ، وَيَسْلَمُ فِيها غَيْرُ المُسْلِمِ . إِنَّما مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّراجِ في الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَها .

فاسْمَعُوا أَيُّها النّاسُ وَعُوا ، وَأَحْضِرُوا آذانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا .

***

الشَّرْحُ :

الإمامية تقول : هذه العدّة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام . وغيرهم يقول : إنه عَنَى بالأبدال الذين هم أولياء الله فى الأرض ، وقد تقدّم منّا ذكر القطب والأبدال ، وأوضحنا ذلك إيضاحا جليًّا .

قوله عليه السلام : « أسماؤهم فى السماء معروفة » ، أى تعرفها الملائكة المعصومون ، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم .

وفى الأرض مجهولة ، أى عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشر .

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته فى ذكر الملاحم والفتن الكائنة فى آخر زمان الدنيا ، فقال لهم : توقّعوا مايكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وُصَلكم ، جمع وُصْلة .

واستعمال صغاركم ، أى يتقدّم الصغار على الكبار ، وهو من علامات الساعة .

قال : ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقل مشقة من احتمال المشقة فى اكتساب درهم حلال ، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت ، وغلب الحرام والحلال فيها .

قوله : « ذاك حيث يكون المعطَى أعظم أجرا من المعطِى »، معناه أن أكثر من يعطى ويتصدّق فى ذلك الزمان يكون ماله حراما فلا أجرَ له فى التصدّق به ، ثم أكثرهم يقصِد الرّياء والسُّمعة بالصدقة أو لهوًى نفسه ، أو لخطرة من خطراته ، ولا يفعل الحسن لأنّه حَسَن ، ولا الواجب لوجوبه ، فتكون اليدُ السفلى خيراً من اليد العليا ، عكس ماورد فى الأثر ، وأمّا المعطَى فإنه يكون فقيرا ذا عيال ، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال ! فإذا أخذه ليسدّ به خلّته ، ويصرفه فى قوت عياله ، كان أعظم أجراً ممن أعطاه .

وقد خطر لى فيه معنى آخر ، وهو أنّ صاحب المال الحرام إنما يصرفه فى أكثر الأحوال وأغلبها فى الفساد وارتكاب المحظور، كما قال : « من اكتسب مالا من مَهاوش ، أذهبه الله فى نهابر »[1] . فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوّت عليه صرفه فى تلك القبائح والمحظورات التى كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير ، فإذاً قد أحسن الفقير إليه بكفّه عن ارتكاب القبيح ، ومن العصمة ألّا يقدر فكان المعطَى أعظمُ أجرا من المعطِى .

قوله عليه السلام : « ذاك حيث تسكرون من غير شراب ، بل من النَّعمة » ، بفتح النون ، وهى غضارة العيش ، وقد قيل فى المثل : سُكْرُ الهوى أشدّ من سُكْر الخمر .

قال : « تحلفون من غير اضطرار » أى تتهاونون باليمين وبذكر الله عزّ وجلّ .

قال : « وتكذبون من غير إحراج » أى يصير الكذب لكم عادة ودُرْبة ، لا تفعلونه لأنّ آخر منكم قد أحرجكم واضطركم بالغيظ إلى الحلف ، وروى من غير « إحواج » بالواو أى من غير أن يُحوجكم إليه أحد .

قال : ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعضّ القتبُ غاربَ البعير . هذا الكلام غير متصل بما قبله ، وهذه عادة الرضيّ رحمه الله يلتقط الكلام التقاطا ، ولا يتلو بعضه بعضا ، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأُول ، وقبل هذا الكلام ذكر ماينالُه شيعتُه من البؤس والقنوط ومشقّة انتظار الفرج .

قوله عليه السلام : « ماأطول هذا العناء ، وأبعد هذا الرجاء ! » هذا حكاية كلام شيعته وأصحابه .

---

(١) التهاوش : المظالم ؛ والنهابر : المهالك ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٨٦

ثم قال مخاطبا أصحابه الموجودين حوله : أيها الناس ، ألقوا هذه الأزمّة التى تحمل ظهورُها الأثقال عن أيديكم ، هذه كناية عن النّهى عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب . والظهور هاهنا : هى الإبل أنفسها . والأثقال : المآثم . و إلقاء الأزمّة : ترك اعتماد القبيح ، فهذا عمومه ، وأمّا خصوصه فتعريض بما كان عليه أصحابه من الغدْر ومخامرة العدوّ عليه ، وإضمار الغِل والغشّ له ، وعصيانه والتلوّى عليه ، وقد فسّره بما بعده فقال : « ولا تصدّعوا عن سلطانكم » أى لا تفرّقوا « فتذمّوا غِبّ فعالكم » ، أى عاقبته .

ثم نهاهم عن اقتحام مااستقبلوه من فَوْر نارِ الفتنة ، وفَوْر النار : غَلَيانها واحتدامُها ، ويروى : « مااستقبلكم » .

ثم قال : « وأميطوا عن سَنَنِها » أى تنحَّوْا عن طريقها ، وخلّوا قصْد السبيل لها ، أى دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها .

ثم ذكر أنّه قد يهلك المؤمن فى لَهبها ، ويسلَم فيه الكافر ؛ كما قيل : المؤمن ملقًى والكافر موقًّى .

ثم ذكر أن مثله فيهم كالسُّرُج يستضىء بها من وَلَجها ؛ أى دخل فى ضوءها .

وآذانُ قلوبكم ؛ كلمة مستعارة ، جعل للقلب آذانا كما جعل الشاعر للقلوب أبصارا ، فقال :

يَدِقّ على النواظر مأأتاهُ فتُبصِره بأبصار القلوبِ

(٢٣٤)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

أُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْوَى اللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلاَئِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلاَئِهِ لَدَيْكُمْ، فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلاَلِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ؛ فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا، لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً، وَلاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً، أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُم.

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ.

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشَّرْحُ :

أعورتم ، أى انكشفتم و بدتْ عوراتكم ، وهى المَقاتِل ، تقول : أعور الفارس إذا بدت مَقاتلُه ، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه .

قوله عليه السلام : « أوْحَشوا ما كانوا يوطنون ، وأوطنوا قبورهم التى كانوا يوحشونها » .

قوله عليه السلام : « واشتغلوا بما فارقوا » ، أى اشتغلوا وهم فى القبور بما فارقوه من الأموال والقينات ، لأنها أذى وعقاب عليهم فى قبورهم ، ولولاها لكانوا فى راحة . و يجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد فى الدنيا ، أى اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه ، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه .

ثم ذكر أنهم لا يستطيعون فعل حسنة، ولا توبةً من قبيح ، لأنّ التكليف سقط ، والمنازل التى أمروا بعمارتها ، المقابر ، وعمارتها الأعمال الصالحة .

وقوله عليه السلام : « إن غدا من اليوم قريب » كلام يجرى مجرى المثل ، قال :

* غدٌ ماغدٌ ما أقرب اليوم من غدِ *

والأصل فيه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ[1] ﴾ .

وقوله عليه السلام : « ما أسرع الساعات فى اليوم ... » إلى آخر الفصل ، كلام شريف وجيز بالغ فى معناه ، والفصل كلّه نادر لا نظير له .

(١) سورة هود ٨١

(٢٣٥)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَمِنَ الإِيمانِ ما يَـكُونُ ثابِتاً مُسْتَقِرًّا فى القُلُوبِ ، وَمِنْهُ ما يَـكُونُ عَوارِىَ بَيْنَ القُلُوبِ وَالصُّدُورِ ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ ، فَإِذَا كانَتْ لَـكُمْ بَراءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ المَوْتُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ البَرَاءَةِ .

وَالهِجْرَةُ قائِمَةٌ على حَدِّها الأَوَّلِ ، ما كانَ لِلّهِ فى أَهْلِ الأَرْضِ حاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الأُمَّةِ وَمُعْلِنِها ، لَا يَقَعُ اسْمُ الهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الحُجَّةِ فى الأَرْضِ ، فَمَنْ عَرَفَها وَأَقَرَّ بِها فَهُوَ مُهاجِرٌ ، وَلَا يَقَعُ اسْمُ الاسْتِضْعافِ على مَنْ بَلَغَتْهُ الحُجَّةُ فَسَمِعَتْها أُذُنُهُ ، وَوَعاها قَلْبُهُ .

إِنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمانِ ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ .

أَيُّها النَّاسُ . سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَأَنا بِطُرُقِ السَّماءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ ؛ قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِها فِتْنَةٌ تَطَأُ فِى خِطامِها ، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِها .

***

الشَّـرْحُ :

هذا الفصل يشتمل على عدة مباحث :

أولها قوله عليه السلام : فمن الإيمان ما يكون كذا . فنقول : إنه قسّم الإيمان إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : الإيمان الحقيقىّ ، وهو الثابت المستقرّ فى القلوب بالبرهان اليقينىّ .

الثانى : ماليس ثابتاً بالبرهان اليقينىّ بل بالدليل الجدَلىّ ، كإيمان كثير ممن لم يحقّق العلوم العقلية ، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدليّة لا تبلغ إلى درجة البرهان ، وقد سمّى عليه السلام هذا القسم باسم مفرد ، فقال : إنه عوارىّ فى القلوب ، والعوارىّ : جمع عاريّة أى هو وإن كان فى القلب وفى محل الإيمان الحقيقىّ إلا أن حكمه حكم العاريّة فى البيت ، فإنّها بعرضة الخروج منه ، لأنها ليست أصلية كائنة فى بيت صاحبها .

والثالث: ماليس مستندا إلى برهان ولا إلى قياس جدلىّ ، بل على سبيل التقليد وحسن الظن بالأسلاف، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابدٍ أو زاهد أو ذى وَرَع ، وقد جعله عليه السلام عوارىَ بين القلوب والصدور لأنه دون الثانى ، فلم يجعله حالًا فى القلب ، وجعله مع كونه عاريّة حالًا بين القلب والصدر . فيكون أضعفَ مما قبله .

فإن قلت : فما معنى قوله : « إلى أجل معلوم » ؟

قلت : إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين ؛ لأنّ من لا يكون إيمانُه ثابتا بالبرهان القطعىّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعيا ، بأن ينعم النظر ويرتّب البرهان ترتيبا مخصوصا، فينتج له النتيجة اليقينيّة ، وقد يصير إيمان المقلّد إيماناً جدليًّا فيرتقى إلى مافوقه مرتبة ، وقد يصير إيمان الجدلىّ إيمانا تقليديا بأن يضعف فى نظره ذلك القياس الجدلىّ ، ولا يكون عالما بالبرهان ، فيؤول حالُ إيمانه إلى أن يصير تقليديًّا ، فهذا هو فائدة قوله : « إلى أجل معلوم » فى هذين القسمين .

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم ، لأنّ مَنْ ظفر بالبرهان استحال أن ينتقل عن اعتقاده ، لا صاعدا ولا هابطا ؛ أمّا لا صاعدا ، فلأنّه ليس فوق البرهان مقام آخر ، وأما لا هابطا ، فلأنّ مادّة البرهان هى المقدّمات البديهيّة

والمقدّمات البديهيّة يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدليًا أو تقليديا .

***

وثانيها قوله عليه السلام : « فإذا كانت لكم براءة » ، فنقول : إنّه عليه السلام نهى عن البراءة من أحدٍ مادام حيًّا ، لأنه وإن كان مخطئا فى اعتقاده ، لكن يجوز أن يعتقد الحقّ فيما بعد ، وإن كان مخطئا فى أفعاله ، لكن يجوز أن يتوبَ . فلا تحلّ البراءة من أحدحتى يموت على أمرٍ ؛ فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه ، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظَر ؛ وينبغى أن تحمل هذه البراءة التى أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة ، لاعلى كلّ براءة ، لأنا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حيٌّ ، ومن الكافر وهو حيٌّ ، لكن بشرط كونه فاسقاً ، وبشرط كونه كافرا ، فأما مَنْ مات ونعلم مامات عليه فإنا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة .

***

وثالثها قوله : « والهجرة قائمة على حدّها الأوّل » ، فنقول : هذا كلام يختصّ به أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو من أسرار الوصيّة ، لأنّ الناس يروُون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لاهجرة بعد الفتح » فشفع عمّه العباس فى نعيم بن مسعود الأشجعيّ أن يستثنيَه ، فاستثناه ، وهذه الهجرة التى يشيرُ إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة ، بل هى الهجرة إلى الإمام ، قال : إنها قائمة على حدها الأوّل ما دام التكليف باقيا ، وهو معنى قوله : « ما كان لله تعالى فى أهل الأرض حاجة » .

وقال الراوندى : ما هاهنا نافية ، أى لم يكن لله فى أهل الأرض من حاجة ، وهذا ليس بصحيح ، لأنّه إدخال كلام منقطع بين كلامين متّصل أحدهما بالآخر .

ثم ذكر أنّه لا يصحّ أن يعدّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه ، وهو

معنى قوله : « إلّا بمعرفة الحجّة فى الأرض » . قال : « فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر » .

قال : ولا يجوز أن يسمّى مَنْ عرف الإمام مستضعفا ، يمكن أن يشير به إلى آيتين فى القرآن :

إحداهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾(١) ، فالمراد على هذا أنّه ليس من عرف الإمام و بلغه خبره بمستضعَف كما كان هؤلاء مستضعَفين ، و إن كان فى بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشّم مشقّة السفر .

ثانيهما قوله تعالى فى الآية التى تلى الآية المذكورة : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى ٱللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾(٢) فالمراد عَلى هذا أنه ليس من عرف الإمام و بلغه خبره بمستضعَف كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين ، لأنّ أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم ، وعُفِىَ عن ذوى العجْز عن الحركة منهم ، وشيمة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم ، بل تكفى معرفتهم به وإقرارهم بإمامته ، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم .

فإن قلت : فما معنى قوله : «من مستسرّ الأمّة ومعلنها » ، و بماذا يتعلّق حرف الجر ؟

قلت : معناه ، مادام لله فى أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده والمعلن حاجة ، فمن على هذا زائدة ، فلو حذفت لجر المستسرّ بدلا من أهل الأرض ، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلّق ، نحو قولك ماجاءنى من أحد .

* * *

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة النساء ٩٨ ، ٩٩

ورابعها : قوله عليه السلام : « إن أمرَنا هــذا صعب مستصعَب » ويروى : « مستصعِب ــ بكسر العين ــ لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبَه للإيمان »، هذه من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) ، وهو من قولك : امتحِن فلان لأمر كذا وجُرّب ودُرِّب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه ، والمعنى أنهم صبروا على التقوى أقوياء على احتمال مشاقّها ، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأنّ تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبَهم للتقوى ، فيتعلّق اللام بمحذوف ، أى كائنة له ، وهى اللام التى فى قولك : أنت لهذا الأمر ، أى مختص به كقوله :

* أعداء مَنْ لليعمَلات على الوَجا *

وتـكون مع معمولها منصوبة على الحال ، ويجوز أن يكون المعنى : ضرب الله قلوبَهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة ، لأجل التقوى ، أى لتثبت فيظهر تقواها ، ويعلم أنهم متقون ، لأنّ حقيقة التقوى لا تعلم إلّا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها . ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلصَ قلوبهم للتقوى ، من قولهم : امتحن الذّهب ، إذا أذابه فخلّص إبريزه من خَبَثه ونقّاه .

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً ، ووقفت فى بعض الكتب على خُطبة من جملتها : إنّ قريشا طلبت السعادة فشقِيتْ ، وطلبت النجاة فهلـكَت ، وطلبت الهدَى فضلّت ، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (٢)؟ فأين المعدَل والمنزع عن ذرّية الرسول ، الذين شيّد الله بنيانهم فوق بنيانهم ، وأعلى رءوسهم فوق رءوسهم ، واختارهم عليهم ! ألا إنّ الذرّية أفنانٌ أنا شجرتها ، ودوحةٌ أنا ساقها ، وإنى من أحمدَ بمنزلة الضّوء من الضّوء ، كنّا ظلالا تحت العرش قبل خلق البشر ،

(١) سورة الحجرات ٣ — (٢) سورة الطور ٢١

وقبل خلق الطِّينة التى كان منها البشر ، أشباحاً عالية، لا أجساما نامية . إنّ أمرنا صعب مستصعَب ، لا يعرف كنهه إلا ثلاثة : ملك مقرّب ، أو نبيٌّ مرسَل ، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان ، فإذا انكشف لكم سرٌّ ، أووضح لكم أمر فاقبلوه ، وإلّا فاسكُتوا تسلموا، وردُّوا علمَنا إلى الله ، فإنّكم فى أوسع مما بين السماء والأرض .

***

وخامسها : قوله : « سلُونى قبل أن تفقِدونى » ، أجمع النّاس كلُّهم على أنّه لم يقلْ أحد من الصحابة ، ولا أحد من العلماء : « سلونى » غير علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدّث فى كتاب " الاستيعاب " .

والمراد بقوله : « فلأنا أعلم بطرُق السّماء منّى بطرق الأرض» ، مااختصّ به من العلم بمستقبل الأمور ، ولا سيّما فى الملاحم والدّول ، وقد صدّق هذا القولَ عنه ماتواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكرّرة ، لا مرة ولا مائة مرة ، حتى زال الشكّ والرّيب فى أنه إخبار عن علم ، وأنه ليس على طريق الاتفاق ، وقد ذكرنا كثيرا من ذلك فيما تقدّم من هذا الكتاب .

وقد تأوّله قوم على وجه آخر قالوا : أراد أنا بالأحكام الشرعيّة والفتاوى الفقهية أعلمُ منّى بالأمور الدنيويّة ؛ فعبّر عن تلك بطرق السماء ، لأنها أحكام إلهيّة ، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضيّة . والأوّل أظهر ، لأنّ فحوى الكلام وأوّله يدلّ على أنه المراد .

***

[قصة وقعت لأحد الوعّاظ ببغداد]

وعلى ذكر قوله عليه السلام : « سلونى » ، حدّثنى مَنْ أثق به من أهل العلم حديثا ، وإنْ كانَ فيه بعض الكلمات العاميّة ، إلّا أنّه يتضمّن ظَرَفاً ولطفا ، ويتضمّن أيضا أدبا .

قال : كان ببغداد فى صدْرَ أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء بالله ، واعظ مشهور بالِحذْق ومعرفة الحديث والرجال ، وكان يجتمع إليه تحت منبره خَلْق عظيم من عوامّ بغداد ومن فضلائها أيضا ، وكان مشتهرا بذمّ أهل الكلام وخصوصا المعتزلة وأهل النظر ، على قاعدة الحشوِيّة ، ومبغضى أرباب العلوم العقلية ، وكان أيضا منحرفاً عن الشِّيعة برضا العامّة بالميل عليهم ، فاتفق قوم من رؤساء الشّيعة عَلَى أن يضعوا عليه مَنْ يبكِّته ويسأله تحت منبره ، ويُخجله ويفضحه بين الناس فى المجلس ، وهذه عادة الوعّاظ ؛ يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلفون الجواب عنها ، وسألوا عمّن ينتدب لهذا ، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزىّ ، كان له لَسَن ، ويشتغل بشىء يسير من كلام المعتزلة ، ويتشيّع ، وعنده قِحة ، وقد شدا أطرافا من الأدب ، وقد رأيت أنا هذا الشَّخْص فى آخر عمره ، وهو يومئذ شيخ ، والنّاسُ يختلفون إليه فى تعبير الرؤيا ، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك ، فأجابهم ، وجلس ذلك الواعظ فى يومه الذى جرت عادته بالجلوس فيه ، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم ، حتى امتلأت الدنيا بهم ، وتكلّم على عادته فأطال ، فلما مرّ فى ذكر صفات البارى سبحانه فى أثناء الوعظ ، قام إليه الكزىّ ، فسأله أسئلة عقليّة ، على منهاج كلام المتكلّمين من المعتزلة ، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظرىّ ، وإنما دفعه بالخطابة والجدل ، وسجع الألفاظ ؛ وتردّد الكلام بينهما طويلا ، وقال الواعظ فى آخر الكلام : أعيُن المعتزلة حُولٌ ، وأصواتى

فى مسامعهم طُبول ، وكلامى فى أفئدتهم نُصول ، يامن بالاعتزال يصول ، ويحك كم تحوم وتجول ، حولَ من لا تدركه العقول ! كم أقول كم أقول ، خلّوا هذا الفضول !

فارتجّ المجلس ، وصرخ الناس ، وعلت الأصوات ، وطاب الواعظ وطرب ، وخرج من هذا الفصل إلى غيره فشطَح شَطْح الصوفيّة ، وقال : سلونى قبل أن تفقدونى ، وكرّرها ؛ فقام إليه الكزىّ ، فقال : ياسيّدى ماسمعنا أنه قال هذه الكلمة إلّا على بن أبى طالب عليه السلام ، وتمام الخبر معلوم . وأراد الكزّىّ بتمام الخبر قوله عليه السلام : « لايقولها بعدِى إلّا مدّع » .

فقال الواعظ وهو فى نشوة طربه ، وأراد إظهار فضله ومعرفته برجال الحديث والرواة : مَنْ علىّ بن أبى طالب ؟ أهو على بن أبى طالب بن المبارك النيسابورىّ ؟ أم علىّ بن أبى طالب ابن إسحاق المروزىّ ؟ أم على بن أبى طالب بن عثمان القيروانىّ ؟ أم على بن أبى طالب ابن سليمان الرازىّ ؟ وعدّ سبعة أو ثمانية من أصحاب الحديث ، كلّهم على بن أبى طالب .

فقام الكزىّ ، وقام مِنْ يمين المجلس آخر ومن يسار المجلس ثالث ، انتدبوا له ، وبذلوا أنفسهم للحميّة ووطّنوها عَلَى القتل .

فقال الكزىّ : أشّا ياسيدى فلان الدين ، أشّا ! صاحب هذا القول هو على بن أبى طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام ، وإن كنتَ ماعرفته بعد بعينه ، فهو الشخص الذى لما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأتباع والأذناب آخى بينه وبين نفسه ، وأسجل عَلَى أنّه نظيره ومماثله ، فهل نقل فى جهازكم أنتم من هذا شىء ؟ أو نبت تحت خَيْسكم من هذا شىء ؟

فأراد الواعظ أن يكلّمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن ، وقال : ياسيدى فلان الدين ، محمد بن عبد الله كثير فى الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزّة :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[١].

وكذلك على بن أبى طالب كثير فى الأسماء ، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى » .

وقد تلتقِى الأسماء فى الناس والكُنَى   كثيراً ولكن مُيِّزوا فى الخلائقِ

فالتفت إليه الواعظ ليكلّمه ، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر ، وقال : ياسيّدى فلان الدين ، حقّك تجهله ، أنت معذور فى كونك لاتعرفه :

وإذا خفيتُ على الغبىّ فعاذرٌ   ألّا ترانى مقلة عمياء

فاضطرب المجلس وماج كما يموج البحر ، وافتتن الناس ، وتواثبت العامّة بعضها إلى بعض ، وتكشفت الرءوس ، ومزّقت الثياب ، ونزل الواعظ ، واحتُمل حتى أُدخل دارا أغلق عليه بابها ، وحضر أعوان السلطان فسكّنوا الفتنة ، وصرفوا النّاس إلى منازلهم وأشغالهم ، وأنفذ الناصرلدين الله فى آخر نهار ذلك اليوم، فأخذ أحمدبن عبد العزيزالكزى والرجلين اللّذين قاما معه فحبسهم أياما لتطفأ نائرة الفتنة . ثم أطلقهم .

---

(١) سورة النجم ..

(٢٣٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ ، عَزِيزَ ٱلْجُنْدِ ، عَظِيمَ ٱلْمَجْدِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ ، جِهَادًا عَنْ دِينِهِ ، لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ ٱجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَٱلْتِمَاسٌ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ .

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى ٱللَّهِ ؛ فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذِرْوَتُهُ . وَبَادِرُوا ٱلْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ ، وَٱمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ ؛ فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ ٱلْقِيَامَةُ ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهِلَ . وَقَبْلَ بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ ٱلْأَرْمَاسِ ، وَشِدَّةِ ٱلْإِبْلَاسِ ، وَهَوْلِ ٱلْمُطَّلَعِ ، وَرَوْعَاتِ ٱلْفَزَعِ ، وَٱخْتِلَافِ ٱلْأَضْلَاعِ ، وَٱسْتِكَاكِ ٱلْأَسْمَاعِ ، وَظُلْمَةِ ٱللَّحْدِ ، وَخِيفَةِ ٱلْوَعْدِ ، وَغَمِّ ٱلضَّرِيحِ ، وَرَدْمِ ٱلصَّفِيحِ .

فَاللَّهَ ٱللَّهَ عِبَادَ ٱللَّهِ ! فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ ، وَأَنْتُمْ وَٱلسَّاعَةَ فِي قَرَنٍ ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا ، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا ، وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا ، وَٱنْصَرَفَتِ ٱلدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا ، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى ، وَشَهْرٍ ٱنْقَضَى ، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًّا ، وَسَمِينُهَا غَثًّا .

فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ ٱلْمَقَامِ ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا ، عَالٍ لَجَبُهَا ، سَاطِعٍ لَهَبُهَا ، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا ، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا ، بَعِيدٍ خُمُودُهَا ، ذَاكٍ وُقُودُهَا ، مَخُوفٍ

وَعِيدُهَا ، عَمٍ قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا ، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا ، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا . ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ .

قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً ، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا ، تَخَشُّعًا وَاسْتِغْفَارًا ؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا ؛ تَوَحُّشًا وَانْقِطَاعًا فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآبًا ، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ ؛ وَنَعِيمٍ قَائِمٍ .

فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ ، وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ ، فَلَا رَجْعَةً تَنَالُونَ ، وَلَا عَثْرَةً تُقَالُونَ .

اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ .

الْزَمُوا الْأَرْضَ ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا ، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا .

***

الشرح :

وظائف حقوقه : الواجبات المؤقتة ، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ، والوظيفة ما يُجعل للإنسان فى كلّ يوم ، أو فى كل شهر ، أو فى كلّ سنة ، من طعام ، أو رزق .

وعزيز منصوب ، لأنه حال من الضمير فى « أشتميته » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور فى « حقوقه » وإضافة « عزيز » إلى « الجند » إضافة فى تقدير الانفصال ؛ لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالا .

وقاهر أعداءه : حاربهم ، وروى « وقهر أعداءه » .

والمعقل : مايعتصم به . وذروته : أعلاه .

وأمهدوا له : اتخذوا مهاداً ، وهو الفراش ، وهذه استعارة .

قوله عليه السلام : « فإنّ الغاية القيامة » أى فإنّ منتهى كلّ البشر إليها، ولا بدّ منها ؛

والأرماس : جمع رَمْس وهو القبر . والإبلاس مصدر « أبلس » أى خاب ويئس ، والإبلاس أيضا : الانكسار والحزن .

واستكاك الأسماع : صممها .

وغمّ الضريح : ضيق القبر وكَرْبه . والصفيح : الحجَر ، وردمُه : سدّه .

والسَّنَن : الطريق . والقرَن : الحبلُ .

وأشراط الساعة : علاماتها . وأزفت : قربت : وأفراطها : جمع فَرَط ، وهم المتقدّمون السابقون من الموتى ، ومن روى « بإفراطها » فهو مصدر أفرط فى الشىء ، أى قربت الساعة بشدّة غلوائها و بلوغها غاية الهول والفظاعة ، ويجوز أن تفسّر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة ، كالدّجال ودابّة الأرض ونحوها ، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى ، وهى أشراطها ، وإنما يختلف اللفظ .

والكلاكل : جمع كلكل ، وهو الصدر ، ويقال للأمر الثقيل : « قد أناخ عليهم بكلكله » ، أى هدمهم ورضّهم كما يهدّ البعير البارك من تحته إذا أنحى عليه بصدره .

قوله عليه السلام : « وانصرفت الدنيا بأهلها » أى ولّت ، ويروى « وانصرمت » أى انقضت .

والحِضْن ، بكسر الحاء : مادون الإبط إلى الكَشْح .

والرّثّ: الخلَق ، والغثّ : الهزيل .

ومقام ضَنْك ، أي ضيّق .

وشديد كلَبها ، أي شرّها وأذاها . واللجَب: الصوت . ووُقودها هاهنا، بضم الواو ؛ وهو الحدَث ، ولا يجوز الفتح لأنه مايوقد به كالحطب ونحوه ، وذاك لا يوصف بأنه ذاك .

قوله عليه السلام : « عَمٍ قرارُها » ، أي لا يهتدَى فيه لظلمته ، ولأنه عميق جدا ، ويروى : « وكأنّ ليلهم نهار » وكذلك أختها على التشبيه .

والمـآب : المرجع ، ومدينون : مجزيّون .

قوله عليه السلام: « فلا رجعة تُنالون » الرّواية بضم التاء ، أي تعطوْن ، يقال : أنلت فلانا مالا ، أي منحته . وقد روى : « تَنالون » بفتح التاء .

ثم أمر أصحابه أن يثبتُوا ولا يعجلوا فى محاربةِ مَنْ كان مخالطا لهم من ذوى العقائد الفاسدة كالخوارج ، ومَن كان يُبطِن هَوى معاوية ، وليس خطابه هذا تثبيطاً لهم عن حرب أهل الشام ، كيف وهو لا يزال يقرّعُهم و يوبّخُهم عن التقاعد والإبطاء فى ذلك ! ولـكنّ قوما من خاصّته كانوا يطّلعون على ماعند قوم من أهل الكوفة ، ويعرفون نفاقهم وفسادهم ، ويرومون قتلهم وقتالهم ، فنهاهم عن ذلك ، وكان يخاف فرقة جُنْده وانتشار حَبْل عسكره ، فأمرهم بلزوم الأرض ، والصبر على البلاء .

وروى بإسقاط الباء من قوله : « بايديكم » ومَنْ رَوى الـكلمة بالباء جعلها زائدة ، ويجوز ألّا تكون زائدة ، ويكون المعنى : ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفـكم فى هوى ألسنتكم ، فحذف المفعول .

والإصلات بالسيف : مصدر أصلت ، أي سلّ .

***

واعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خُطَبه عليه السلام ، ومن ناصع كلامه ونادره ، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسَنة البريئة من التكلّف مالا يخفى ، وقد أخذ ابنُ نُباتة الخطيب كثيرا من ألفاظها فأودعها خطبه ، مثل قوله : « شديد كلَبُها ، عال لجبها ، ساطع لهبها ، متغيّظ زفيرها ، متأجّج سعيرها ، بعيد خمودها ، ذاكٍ وقودها ، مخوف وعيدها ، عمٍ قرارها ، مظلمة أقطارُها ، حامية قدورها ، فظيعة أمورها » ؛ فإنّ هذه الألفاظ كلّها اختطفَها ، وأغار عليها واغتصبها ، وسمّطَ بها خطبه ، وشذّر بها كلامه .

ومثل قوله : « هول المطّلع ، وروعات الفزع ، واختلاف الأضلاع ، واستكاك الأسماع ، وظلمة اللّحد ، وخيفة الوعد ، وغمّ الضريح ، وردم الصفيح » . فإن هذه الألفاظ أيضا تمضي في أثناء خطبه ، وفي غضون مواعظه .

(٢٣٧)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلْفَاشِي فِي ٱلْخَلْقِ حَمْدُهُ ، وَٱلْغَالِبِ جُنْدُهُ ، وَٱلْمُتَعَالِي جَدُّهُ ؛ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ ٱلتُّؤَامِ ، وَآلَائِهِ ٱلْعِظَامِ ، ٱلَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا ، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى ، وَعَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَىٰ ، مُبْتَدِعِ ٱلْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ ، بِلَا ٱقْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ ؛ وَلَا ٱحْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ ، وَلَا إِصَابَةِ خَطَإٍ ، وَلَا حَضْرَةِ مَلَإٍ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، ٱبْتَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ ٱلْحَيْنِ ، وَٱسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ ٱلرَّيْنِ .

عِبَادَ ٱللّٰهِ ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللّٰهِ فَإِنَّهَا حَقُّ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ ؛ وَٱلْمُوجِبَةُ عَلَى ٱللّٰهِ حَقَّكُمْ ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِٱللّٰهِ ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى ٱللّٰهِ ؛ فَإِنَّ ٱلتَّقْوَى فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْحِرْزُ وَٱلْجُنَّةُ ، وَفِي غَدٍ ٱلطَّرِيقُ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ؛ مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ . لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِينَ مِنْكُمْ ، وَٱلْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا ، إِذَا أَعَادَ ٱللّٰهُ مَا أَبْدَى ، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى . فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا ، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا ! أُولَئِكَ ٱلْأَقَلُّونَ عَدَدًا ، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ ٱللّٰهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(١) .

فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا ، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا ، وَٱعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفًا ؛ وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا .

---

(١) سورة سبأ ١٣

أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ ؛ وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا .

أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا ، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهًا ؛ وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهًا ، وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا ، وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا ، وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا ، وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا ، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا ، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ .

أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ ؛ حَالُهَا انْتِقَالٌ ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ .

دَارُ حَرْبٍ وَسَلَبٍ ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ ، قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا ، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ ؛ فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ ، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ .

وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا ، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾[1] .

***

(١) سورة الدخان ٢٩

الشـرح :

الفاشى : الذائع ، فشا الخبرُ يفشو فشوًا ، أى ذاعَ ، وأفشاه غـيرُه . وتفشّى الشىء ، أى اتّسع ، والفواشى : كلُّ منتشر من المـال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرها ، ومنـه الحديث : « ضمُّوا فواشيَكم حتى تذهب فحمة العشاء » ، فيجوز أن يكون عَنَى بفشوّ حمده إطباق الأمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته ، ويجوز أن يريد بالفاشى سبب حمده ، وهو النّعم التى لايقدر قدرها ، فحذف المضاف .

قوله : « والغالب جنـده » فيـه معنى قوله تعـالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾[1] .

قوله : « والمتعالى جَدّه » فيه معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾،[2] والجدّ فى هذا الموضع وفى الآية : العظمة .

والتؤام : جمع توءم على فَوْعل ، وهو الولد المقارن أخاه فى بطن واحد ، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك ، فهى متئم ، فإن كان ذلك عادتها فهى مِتْـآم ، وكلّ واحد من الولدين توءم ، وهما توءمان ، وهذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، والجمع توائم ، مثل قشم وقشاعم ، وجاء فى جمعه « تُؤَام » على « فُعال » وهى اللفظة التى وردت فى هذه الخطبة ، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا فى مواضع معدودة ، وهى : عرْق العظم يؤخذ عنه اللحم وعُراق ، وشاة رُبَّى للحديثة العهد بالولادة وغنم رُباب ، وظئر للمرضعة غير ولدها وظُؤار ، ورَخل للأنثى من أولاد الضأن ورُخال ، وفرير لولد البقرة الوحشية ، وفُرار[3] .

والآلاء : النّعم .

---

(١) سورة المائدة ٥٦ (٢) سورة الجن ٣

(٣) انظر صحاح الجوهرى ٤ : ١٥٢٣

قوله عليه السلام: «مبدِع الخلائق بعلمه»، ليس يريد أنّ العلم علة فى الإبداع، كما تقول: هوى الحجَر بثقله، بل المراد: أبدع الخلق وهو عالم، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أى خرج متسلّحاً، فوضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحاليّة، وكذلك القول فى: «ومنشئهم بحُكْمِه» والحُكْم هاهنا: الحِكْمة.

ومنه قوله عليه السلام: «إنّ من الشّعر لحكمة».

قوله: «بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء» قد تكرّر منه عليه السلام أمثاله مراراً.

قوله: «ولا إصابة خطأ» تحته معنى لطيف، وذلك لأنّ المتكلّمين يورِدون على أنفسهم سؤالًا فى باب كونه عالما بكلّ معلوم إذا استدلّوا على ذلك، فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلا، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال، فوجب أن يعلم سائرها، لأنه لا مخصّص، فقالوا لأنفسهم: لم زعمتم ذلك؟ ولم لا يجوز أن يكون فَعل أفعاله مضطربة، فلمّا أدركها علم كيفيّة صنعها بطريق كونه مدركا لها فأحكمها بعد اختلالها واضطرابها! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بدّ أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس، ويكفى ذلك فى كونه عالماً بما لم يتطرّق إليه، ثم يعود الاستدلال المذكور أوّلا.

قوله عليه السلام: «ولا حَضَره مَلأٌ» الملأ: الجماعة من النّاس وفيه معنى قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (1).

قوله: «يضربون فى غَمْرة»، أى يسيرون فى جَهْل وضلالة، والضرب: السير السريع.

والحَيْن: الهلاك. والرَّين: الذنب عَلَى الذنب حتى يسودّ القلب، وقيل: الرَّيْن:

(1) سورة الكهف ٥١

الطَّبع والدنس ، يقال : رانَ عَلَى قلبه ذنبُه ، يرِين رَيْناً ، أى دنّسه ووسّخه ، واستغلقت أقفالُ الرَّيْن عَلَى قلوبهم : تعسّر فتحها .

قوله : « فإنّها حقُّ الله عليكم، والموجِبة عَلَى الله حقّكم» ؛ يريدُ أنّها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجبَ عَلَى الله أن يجازيَكم عنها بالثّواب، وهذا تصريح بمذهب المعتزلة فى العدْل ، وأنّ من الأشياء مايجب عَلَى الله تعالى من باب الحكمة .

قوله : « وأنْ تستعينوا عليها بالله ، وتستعينوا بها عَلَى الله » ، يريد : أوصيكم بأنْ تستعينوا بالله عَلَى التقوى بأن تدْعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها ، ويوفّقكم لها وييسّرها ويقوّى دواعيَكم إلى القيام بها ، وأوصيكم أن تستعينوا بالتّقوى عَلَى لقاء الله ومحاكمته وحسابه ، فإنّه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ [1] ، فالسعيدُ مَن استعان عَلَى ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى فى دار التكليف ، فإنّها نعم المعونة ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

والجُنّة : ما يستتر به .

قوله : «ومستودَعها حافظ» ، يعنى الله سبحانه ، لأنّه مستودع الأعمال ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [2] ، وليس ما قاله الراوندىّ من أنه أراد بالمستودَع قلب الإنسان بشىء .

قوله : « لم تبرح عارضةً نفسها » كلام فصيح لطيف ، يقول : إنّ التقوى لم تزل عارضةً نفسها عَلَى مَنْ سلف من القرون ، فقبِلها القليل منهم ، شبّهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحا على قومٍ فرغب فيها مَنْ رغب ، وزَهِد مَنْ زهد ، وعلى الحقيقة ليست

---

(١) سورة الجاثية ٢٨
(٢) سورة الكهف ٣٠

هي العارضة نفسَها ، ولـكنّ المـكلّفين ممـكّنون من فعلها ومرغّبون فيهـا ، فصارت كالعارضة .

والغابر هاهنا . الباق ، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباق ، و بمعنى الماضى .

قوله عليه‌السلام : إذا أعاد الله مابَدا»،يعنى أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالكَ الملوك فلم يبقَ فى الوجود مَنْ له تصرُّف فى شيء غيره كما قال : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(١) . وقيل فى الأخبار والحديث : إنّ الله تعالى يجمع الذهب والفضة كلَّ ما كان منه فى الدنيا ، فيجعله أمثالَ الجبال ، ثم يقول : هذا فتنة بنى آدم ، ثم يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاوىَ لجباه المجرمين .

«وسأل عمّا أسدى » ؛ أى سأل أرباب الثروة عمّا أسدى إليهم من النعم فيمَ صرفوها ؟ وفيم أنفقوها ؟

قال عليه السلام : « فما أقلّ مَنْ قبلها ! » ، يعنى ما أقلّ مَنْ قبل التقوى العارضة نفسها على الناس .

وإذا فى قوله : « إذا أعاد الله »؛ ظرف لحاجتهم إليها ، لأنّ المعنى يقتضيه ، أى لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق ؛ وليس كما ظنّه الراوندى أنه ظرْف لقوله : « فماأقل مَنْ قَبِلها » ، لأنّ المعنى على ما قلناه ، ولأنّ ما بعـد الفاء لا يجوز أن يكون عاملا فيما قبلها .

قوله : « فأهطعوا بأسماعكم » ، أى أسرعوا ، أهطع فى عَدْوه أى أسرع .

ويروى : « فانقطعوا بأسماعكم إليها » ، أى فانقطعوا إليها مصغين بأسماعكم .

قوله : « وألِظّوا بجدّكم » ، أى ألحّوا ، والإلظاظ :الإلحاح فى الأمر ، ومنه قول ابن

---

(١) سورة غافر ١٦

ابن مسعود : ألِظّوا فى الدعاء بياذا الجلال والإكرام ، ومنه الملاظّة فى الحرب ، ويقال : رجل مِلَظّ ومِلْظاظ ، أى ملحاح ، وألظّ المطر ، أى دام .

وقوله: « بجدّكم » أى باجتهادكم ،جددتُ فى الأمر جدًّا بالفت واجتهدت ،ويروى : «واكظوا بجدّكم » والمواكظة : المداومة على الأمر . وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾(١) قال : أى مواكظا .

قوله : « وأشعروا بها قلوبكم » يجوز أن يريد : اجعلوهاشعاراً لقلوبكم ، وهو ما دون الدّثار وألصق بالجسد منه ، ويجوز أن يريد : اجعلوها علامةً يعرف بها القلب التقىّ من القلب المذنب كالشّعار فى الحرب يعرف به قوم من قوم ، ويجوز أن يريد أخرِجوا قلوبَكم بها من أشعار البدن ،أى طهروا القلوب بها ، وصفّوها من دَنَس الذنوب ، كما يصفّى البدن بالفصاد من غَلبة الدم الفاسد ؛ ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام ، من أشعرت زيداً بكذا ، أى عرّفته إياه ؛ أى اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها .

قوله : « وارحَضُوا بها » أى اغسلوا ، وثوب رَحِيض ومَرْحوض ، أى مغسول .

قال : « وداووا بها الأسقام » ، يعنى أسقام الذّنوب .

و بادروا بها الحِمام : عجّلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متّقين .

واعتبِروا بمن أضاع التقوى فهلك شقيًّا ، ولا يعتبرنّ بكم أهلُ التقوى ، أى لا تكونوا أنتم لهم معتبرا بشقاوتكم وسعادتهم .

ثم قال : « وصونوا التّقوى عن أن تمازجها المعاصى ، وتصوّنوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافى العدالة .

والنُّزّه : جمع نَزِيه ، وهو المتباعد عمّا يوجب الذمّ .والوُلّاه : جمع وَالِه ، وهو المشتاق ذو الوجد حتى يكاد يذهب عقله .

ثم شرع فى ذكر الدّنيـا ، فقال : « لا تشيموا بارقَها » الشَّيْم : النظر إلى البرق انتظاراً للمطر .

ولا تسمعوا ناطقها : لا تصغوا إليها سامعين ، ولا تجيبوا مناديَها .

والأعلاق : جمع عِلْق وهو الشيء النفيس . وبرقٌ خالب وخُلّب : لا مطرَ فيه ، وأموالها محروبة ، أى مسلوبة .

قوله عليـه السلام : « ألَا وهى المتصدّية العَنُون » ؛ شبّهها بالمرأة المومِس تتصدّى للرجال تريد الفجور . وتتصدّى لهم : تتعرّض . والعَنُون : المتعرّضة أيضا ، عنّ لى كذا أى عرض .

ثم قال : « والجامحة الحَرُون » شبهها بالدّابة ذات الجِماح ، وهى التى لا يَستطاع ركوبها لأنّها تعثرُ بفارسها وتغلبه ، وجعلها مع ذلك حَرُونا وهى التى لا تنقاد .

ثم قال : « والمائنة الخَئُون » ، مان ، أى كذب ، شبّهها بامرأة كاذبة خائنة .

والجحود الـكَنُود ، جحد الشيء أنـكره ، وكَنَد النّعمة : كفرها ، جعلها كامرأة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتـكفر النعمة . ويجوز أن يكون الجحُود من قولك : رجل جَحِد وجَحْد ، أى قليل الخير ، وعام جَحْد ، أى قليل المطر ، وقد جحد النَّبْت ، إذا لم يَطُل .

قال : والعَنُود : الصَّدُود ، العَنُود : الناقة تعدل عن مرعى الإبل وترعى ناحيـة ، والصَّدُود : المعرضة ، صدّ عنه ، أى أعرض ؛ شبّهها فى انحرافها وميلها عن القصد بتلك .

قال : والحَيُود المَيُود ؛ حادت الناقة عن كذا تحيد فهى حَيُود ، إذا مالت عنه . ومادت تميد فهى مَيُود ، أى مالت ، فإن كانت عادتهـا ذلك سُمّيت الحَيُود المَيُود فى كلّ حال .

قال : « حالها انتقال » ؛ يجوز أن يعنى به أنّ شيمتها وسجيّتها الانتقال والتغيّر ، ويجوز أن يريد به معنًى أدقّ وهو أنّ الزمان على ثلاثة أقسام : ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، فالماضى والمستقبل لا وجود لهما الآن ، وإنّما الموجود أبدا هو الحاضر ؛ فلمّا أراد المبالغة فى وصف الدنيا بالتغيّر والزّوال قال : « حالها انتقال » ، أى أنّ الآن الذى يحكم العقلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة ، بل هو سيّال متغيّر ، فلا ثبوت إذاً لشىء منها مطلقا . ويروى : « وحالُها افتعال » ، أى كذب وزور ، وهى رواية شاذّة .

قال : « ووطأتها زلزال » ، الوطأة كالضَّغْطة ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله : « اللهمّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَر » ، وأصلها موضع القدم . والزلزال : الشدّة العظيمة ، والجمع زَلَازِل .

وقال الراوندى فى شرحه : يريد أنّ سكونها حركة ، من قولك : وَطُؤَ الشىء ، أى صار وطيئاً ذا حال ليّنة ، وموضعٌ وطِىء ، أى وثير ، وهذا خطأ ، لأن المصدر من ذلك وطاءة بالمد ، وهاهنا وطْأة ساكن الطاء ، فأين أحدهما من الآخر !

قال : « وعُلوّها سُفْل » ، يجوز ضمّ أوّلها وكسره .

قال : « دار حَرْب » الأحسن فى صناعة البديع أن تكون الرّاء هاهنا ساكنة ليوازى السكون هاء « نهْب » ومن فتح الراء ، أراد السلب ، حربْتُهُ أى سلبت ماله .

قال : « أهلها على ساق وسياق » يقال : قامت الحرب على ساق ، أى على شدّة ومنه قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ (١) والسِّياق : نَزْع الروح ، يقال: رأيت فلانا يسوق ، أى ينزع عند الموت ، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقا وسياقا .

وقال الراوندى فى شرحه : يريد أنّ بعض أهلها فى أثر بعض كقولهم : ولَدت فلانة

---

(١) سورة القلم ٤٢

ثلاثة بنين على ساقٍ ، وليس ماقاله بشيء ، لأنّهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى ، ولا يقال ذلك فى مطلق التّتابع : أين كان .

قال عليه السلام : « ولَحَاق وفراق » اللام مفتوحة ، مصدر لَحَق به ، وهذا كقولهم : « الدّنيا مولود يولَد ، ومفقود يفقَد » .

قال عليه السلام : «قد تحيَّرت مذاهبها» ، أى تحيّر أهلها فى مذاهبهم ، وليس يعنى بالمذاهب هاهنا الإعتقادات ، بل المسالك .

وأعجزت مهاربها : أى أعجزتهم جعلتهم عاجزين ، فحذف المفعول .

وأسلمتهم المعاقل : لم تحصّنهم .

ولفَظَتهم ، بفتح الفاء : رَمَت بهم وقذفتهم .

وأعيتهم المحاول ، أى المطالب .

ثم وصف أحوال الدنيا فقال : « فمن ناجٍ معقور » ، أى مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه ، وقد جرح بدنه .

ولحم مجزور ، أى قتيل قد صار جَزَراً للسباع .

وشِلْوٍ مذبوح : الشّلْو ، العضو من أعضاء الحيوان ؛ المذبوح أو الميّت .

وفى الحديث : « ائتونى بشِلْوها الأيْمن » .

ودم مسفوح ، أى مسفوك . وعاضّ عَلَى يديه ، أى ندما .

وصافقٍ بكفّيه ، أى تعسفا أو تعجبا .

ومرتفق بخدّيه : جاعل لهما عَلَى مرفقيه فكراً وهمّا .

وزارٍ على رأيه ، أى عائب ، أى يرى الواحد منهم رأيا ويرجع عنه ويعيبه ، وهو البَداء الذى يذكره المتكلّمون . ثم فسّره بقوله : « وراجع عن عزمه » .

فإن قلت : فهل يمكن أن يفرق بينهما ، ليكون الكلام أكثر فائدة ؟

قلت : نعم ، بأنْ يريدَ بالأول مَنْ رأى رأيا وكشفه لغيره ، وجامعه عليه ثم بدَا له وعابه ، ويريد بالثانى مَنْ عزم نفسه عزما ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه ، ويمكن أيضا بأن يفرّق بينهما بأن يعنى بالرّأى الاعتقاد ، كما يقال : هذا رأى أبى حنيفة ، والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك ، وهو مايعزم عليه الإنسان من أمور نفسه ، ولا يقال : عزم فى الاعتقادات .

ثم قال عليه السلام : « وقد أدبرت الحيلة » : ولّت ، وأقبلت الغِيلة ، أى الشرّ ، ومنه قولهم : فلان قليل الغائلة . أو يكون بمعنى الاغتيال ، يقال : قتله غيلة ، أى خديعة . يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله .

قال عليه السلام : « ولاتَ حين مناص » ، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز[1] ، قال الأخفش : شبّهوا «لات» بليس ، وأضمروا فيها اسم الفاعل ؛ قال : ولا تكون « لات» إلا مع «حين» ، وقد جاء حذف«حين» فى الشعر ، ومنه المثل : « حنّت ولات هنّت» ، أى ولات حين حنّت ، والهاء بدل من الحاء ، فحذف الحين وهو يريده . قال : وقرأ بعضهم ﴿ وَلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ ﴾ بالرفع ، وأضمر الخبر . وقال أبو عبيد : هى لا ؛ والتاء إنّما زيدت فى « حين » ، لا فى « لا » ، وإن كتبت مفردة ، والأصل « تحين » كما قال فى « ألآن » « تلان » . فزادوا التاء ، وأنشد لأبى وجزة .

العاطفون تَحِينَ ما من عاطف   والمطعمون زمان أين المطعم[2]

وقال المؤرّج : زيدت التاء فى «لات» كما زيدت فى « ربّت» و « ثمّت» .

والمناص : المهرب ، ناص عن قرنه ينوص نوْصا ومناصا ، أى ليس هذا وقت الهرب والفرار .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة ص ٣ : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

(٢) الصحاح ١ : ٢٢٦

ويكون المناص أيضا بمعنى الملجأ والمفزع ، أى ليس هذا حين تجد مفزعا ومعقلا تعتصم به .

هيهات : اسم للفعل ومعناه بَعُد ، يقال : هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر ، والمعنى يعطى الفعلية ، والتاء فى « هيهات » مفتوحة مثل كيف ، وأصلها هاء ، وناس يكسرونها على كلّ حال بمنزلة نون التثنية ، وقال الراجز :

هيهات من مصبَحها هيهاتِ   هيهات حُجْر من صُنَيْعاتِ[1]

وقد تبدل الهاء همزة ، فيقال « أيهات » مثل هراق وأراق ، قال :

* أيهات منك الحياة أيهاتا[2] *

قال الكسائىّ : فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء ، فقال : «هَيْهاه» ، ومَنْ فتحها وقف إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء .

قوله عليه السلام: « ومضت الدنيا لحال بالِهاَ » ، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره ، ومعناها مضى بما فيه إن كان خيرا ، وإن كان شرًّا .

قوله عليه السلام : « فما بكت عليهم السماء » ؛ هو من كلام الله تعالى ؛ والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنّهم لايستحقون أن يتأسّف عليهم ، وقيل : أراد المبالغة فى تحقير شأنهم لأنّ العرب كانت تقول فى العظيم القدر يموت : بكته السماء ، وبكته النجوم ، قال الشاعر :

فالشَّمْسُ طالعةٌ لَيْسَتْ بكاسِفَةٍ   تَبْكِي عَلَيْك نُجُومُ اللَّيْلِ والقمرا[3]

فنفى عنهم ذلك ، وقال : لبسوا من يقال فيه مثل هذا القول ، وتأوّلها ابن عبّاس رضى الله عنه لما قيل له : أتبكى السّماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم يبكيه مصلّاه فى الأرض ومصعد عمله فى السماء ؛ فيكون نفى البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم فى الأرض عمل صالح يرفع منهما إلى السماء .

---

(١) اللسان ١٧ : ٤٥١ من رجز نسبه الى حميد الأرقط .

(٢) انظر اللسان ١٧ : ٤٥٢   (٣) لجرير ، ديوانه ٣٠٤

(٢٣٨)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

(ومن الناس مَنْ يسمّي هذه الخطبة بالقاصعة ، وهي تتضمن ذمَّ إبليس لعنه الله ، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية . وتحذيرَ الناس من سلوك طريقته):

الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ ٱلعِزَّ وَٱلكِبْرِيَاءَ ؛ وَٱخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمَا حِمًى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ ، وَٱصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ ، وَجَعَلَ ٱللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ .

ثُمَّ ٱخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ ٱلمُقَرَّبِينَ ؛ لِيَمِيزَ ٱلمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ ٱلمُسْتَكْبِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ ٱلعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ ٱلقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ ٱلغُيُوبِ : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ ٱلمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾(1) ؛ ٱعْتَرَضَتْهُ ٱلحَمِيَّةُ ، فَٱفْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ ، فَعَدُوُّ ٱللهِ إِمَامُ ٱلمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفُ ٱلمُسْتَكْبِرِينَ ؛ ٱلَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ ٱلعَصَبِيَّةِ ، وَنَازَعَ ٱللهَ رِدَاءَ ٱلجَبْرِيَّةِ ، وَٱدَّرَعَ لِبَاسَ ٱلتَّعَزُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ ٱلتَّذَلُّلِ .

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ ٱللهُ بِتَكَبُّرِهِ ، وَوَضَعَهُ ٱللهُ بِتَرَفُّعِهِ ؛ فَجَعَلَهُ فِي ٱلدُّنْيَا مَدْحُورًا ، وَأَعَدَّ لَهُ فِي ٱلآخِرَةِ سَعِيرًا !

***

---

(1) سورة ص ٧١ ــ ٧٤

الشَّرحُ :

يجوز أن تسمّى هذه الخطبة « القاصعة » من قولهم : قَصَعت النـاقة بجِرّتها ، وهو أن تردّها إلى جوفها ، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها ، فلمّا كانت الزواجر والمواعظ فى هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها ،شبّهها بالناقة التى تقصع الجِرّة . ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبيّـة ، من قولهم: قَصَعت القملة ، إذا هشمتَها وقتلتها . ويجوز أن تسمّى القاصعة ، لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كِبْره ونخوته ، فيكون من قولهم : قصع المـاء عطشه ، أى أذهبه وسكنه ، قال ذو الرُّمّة بيتا فى هذا المعنى :

فَانْصَاعَتِ الْحُقْبُ لم تَقْصَعْ صرائرَها وقد تشـح فَلَا رِيٌّ ولا هِيمُ (١)

الصّرائر : جمع صَرِيرة ، وهى العطش ؛ ويجوز أن تسمّى القاصعة ، لأنّهـا تتضمّن تحقير إبليس وأتباعَه وتصغيرَهم ، من قولهم : قصعت الرجل إذا امتهنتَـه وحقّرتَه ، وغلام مقصوع ، أى قمِىء لا يشِبّ ولا يَزداد .

والعصبيّة على قسمين : عصبيّة فى الله وهى محمودة ، وعصبيّة فى الباطل وهى مذمومة ؛ وهى التى نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها ، وكذلك الحَمِيّة .وجاء فى الخبر : «العصبيّة فى الله تورث الجنة ، والعصبية فى الشيطان تورث النار » ؛ وجاء فى الخبر : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته » ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : « اختارهما لنفسه دون خلْقه ... » إلى آخر قوله : « من عباده » .

قال عليه السلام : « ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين مع علمه بمضمراتهم » ؛ وذلك لأنّ اختباره سبحانه ليس ليعلم بل ليعلم غيره من خلقه طاعة مَنْ يطيع وعصيان من يعصى، وكذلك ، قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

(١) ديوانه ٥٨٨ . انصاعت : ذهبت هاربة . والحقب : الحمر الوحشية . وروايته : « وقد نشحن »

﴿ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1]، النون فى « لنعلم » نون الجمع لا نون المعظمة، أى لتصير أنت وغيرك من المكلّفين عالمين لمن يطيع ومن يعصى ، كما أنا عالم بذلك فتكونوا كأنكم مشاركين لى فى العلم بذلك .

فإن قلت : وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به ؟

قلت : ليس بممتنع أن يكون ظهورُ حال العاصى والمطيع وعلم المكلَّفين أو أكثرهم أو بعضهم به يتضمّن أُلطافاً فى التكليف !

فإن قلت : إنّ الملائكة لم تكن تعلم ما البشر ، ولا تتصور ماهيّته ، فكيف قال لهم ﴿إنّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ ؟

قلت : قد كان قال لهم : إنى خالق جسماً من صفته كيت وكيت ، فلمّا حكاه اقتصر على الاسم . ويجوز أن يكون عرّفهم من قَبْلُ أنّ لفظة « بشر » على ماذا تقع ، ثم قال لهم : إنّى خالقٌ هذا الجسم المخصوص الذى أعلمتكم أن لفظة « بَشَر » واقعةٌ عليه من طين .

قوله تعالى : ﴿فإذَا سَوَّيْتُه﴾ ، أى إذا أكملت خلقه .

فقعوا له ساجدين : أمرهم بالسجود له . وقد اختلف فى ذلك فقال قوم : كان قبلة ، كما الكعبة اليوم قبلة ، ولا يجوز السّجود إلا لله . وقال آخرون : بل كان السُّجود له تكرمةً ومحنة ، والسجود لغير الله غير قبيح فى العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة .

وقوله تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، أى أحللتُ فيه الحياة ، وأجريت الرُّوح إليه فى عروقه ، وأضاف الروح إليه تبجيلا لها ، وسمّى ذلك نفخا على وجه الاستعارة ، لأنّ العرب تتصوّر من الروح معنى الريح ، والنّفخ يصدق على الريح ، فاستعار لفظة « النفخ » توسُّعا .

---

(١) سورة البقرة ١٤٣

وقالت الحكماء : هذا عبارة عن النفس الناطقة .

فإن قلت : هل كان إبليس من الملائكة أم لا ؟

قلت : قد اختُلف فى ذلك ، فمن جعله منهم احتجّ بالاستثناء ، ومَنْ جعله من غيرهم احتجّ بقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ، وجعل الاستثناء منقطعا ، وبأنّ له نسلا وذرّية ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ [1] ، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرّية ، وبأنّ أصله نار والملائكة أصلها نور ، وقد مرّ لنا كلام فى هذا فى أول الكتاب .

قوله : « فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصّب عليه لأصله » ، كانت خلقتُه أهونَ من خلقة آدم عليه السلام ، وكان أصلُه من نار وأصل آدم عليه السلام من طين .

فإن قلت : كيف حكم على إبليس بالكفر ، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر ، ومعلوم أنّ تارك الأمر فاسق لا كافر !

قلت : إنّه اعتقد أنّ الله أمره بالقبيح ولم ير أمره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة ، وامتنع من السجود تكبّرا ، وردّ على الله أمره ، واستخفّ بمن أوجب الله إجلاله ، وظهر أنّ هذه المخالفة عن فساد عقيدة ، فكان كافراً .

فإن قلت : هل كان كافرا فى الأصل أم كان مؤمنا ثمّ كفر ؟

قلت : أمّا المرجئة فأكثرهم يقول : كان فى الأصل كافرا ، لأنّ المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر ، وأمّا أصحابنا فلمّا كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقفوا فى حال إبليس ، وجوّزوا كلا الأمرين .

---

(١) سورة الكهف ٥٠ .

قوله عليه السلام : « رداء الجبَرِيَّة » الباء مفتوحة ، يقال : فيه جبرِيَّة ، وجبروّة ، وجَبَروت ، وجبُّورة ، كفرّوجة أى كِبْر ، وأنشدوا :

فإنّك إن عاديتَنى غَضِب الحصا ... عليك وذو الجُبُّورة المتغطرِفُ (١)

وجعله مدحورا ، أى مطرودا مبعداً ، دحره الله دُحورا ، أى أقصاه وطرده .

***

الأصـل :

وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ ٱلْأَنْفَاسَ عَرْفُه ، لَفَعَلَ ؛ وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ ٱلْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ، وَلَخَفَّتِ ٱلْبَلْوَى فِيهِ عَلَى المَلَائِكَةِ ، وَلٰكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ ٱبْتَلَى خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ ، فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلْآخِرَةِ ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ !

كَلَّا مَا كَانَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً ، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ ، وَمَا بَيْنَ ٱللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ .

***

الشّـرح :

خَطِفت الشىء بكسر الطاء ، أخطفه ، إذا أخذته بسرعة استلاباً ، وفيه لغة أخرى :

(١) لمتلس بن لقيط الأسدى ، وانظر الصحاح وحواشيه (جبر) .

خَطَف بالفتح، ويخطَف بالفتح ويخطِف بالكسر، وهى لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف، وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾[1].

والرُّواء، بالهمزة والمد: المنظر الحسن. والعَرْف: الريح الطيبة.

والخُيلاء، بضم الخاء وكسرها: الكِبْر، وكذلك الخالُ والمخيلة، تقول: اختال الرجل وخال أيضا، أى تكبّر.

وأحبِط عمله: أبطل ثوابه، وقد حبط العمل حَبْطا بالتسكين وحُبوطا. والمتكلّمون يسمُّون إبطال الثواب إحباطا وإبطال العقاب تكفيراً.

وجَهده بفتح الجيم: اجتهاده وجِدّه، ووصفه بقوله: « الجَهد » أى المستقصى، من قولهم: مرعى جَهِيد، أى قد جَهده المال الراعى واستقصى رَعْيه.

وكلامه عليه السلام يدلّ على أنّه كان يذهب إلى أنّ إبليس من الملائكة لقوله: « أخرج منها مذكا ».

والهوادة: الموادعة والمصالحة، يقول: إن الله تعالى خلق آدم من طين، ولو شاء أن يخلقه من النور الذى يخطف أو من الطيب الذى يعبق لفَعل، ولو فعل لهال الملائكة أمرُه وخضعوا له، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسجود له خفيفا عليهم، لعظمته فى نفوسهم، فلم يستحقُّوا ثواب العمل الشاقّ، وهذا يدلُّ على أنّ الملائكة تشمّ الرائحة كما نشمّها نحن، ولكنّ الله تعالى يبتلى عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم.

فإن قلت: مامعنى قوله عليه السلام: « تمييزا بالاختبار لهم ».

قلت: لأنه ميّزهم عن غيرهم من مخلوقاته، كالحيوانات العُجْم، وأبانهم عنهم، وفَضّلهم عليهم بالتكليف والامتحان.

---

(١) سورة البقرة ٢٠.

قال : « ونفيا للاستكبار عنهم » ؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلّة ، ففيها نفي الخُيلاء والتكبّر عن فاعليها ، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذى عَبَد الله ستة آلاف سنَة ؛ لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدنيا أم من سني الآخرة ! وهذا يدلّ على أنه قد سمع فيه نصًّا من رسول الله صلى الله عليه وآله مجملًا لم يفسّره له ، أو فسّره له خاصة ، ولم يفسّره أميرُ المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه فى كتمانه عنهم من المصلحة .

فإن قلت : قوله : « لا يُدْرَى » على مالم يسمّ فاعله يقتضى أنه هو لا يدرِى .

قلت : إنه لا يقتضى ذلك ، ويكفى فى صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون .

فأمّا القولُ فى سِنِي الآخرة كم هى ؟ فاعلم أنه قد وَرَدَ فى الكتاب العزيز آيات مختلفات :

إحداهن قوله : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (١) .

والأخرى قوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثم يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢) .

والثالثة قوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٣) .

وأوْلَى ماقيل فيها أنّ المراد بالآية الأولى مدّة عمر الدنيا ، وسمّى ذلك يوما ، وقال : إنّ الملائكة لا تزال تعرُج إليه بأعمال البشر طول هذه المدّة حتى ينقضى التكليف ، وينتقل الأمر إلى دار أخرى . وأمّا الآيتانِ الأخيرتان فضمونهما بيان كميّة أيام الآخرة ، وهو أنّ كل يوم منها مثل ألف سنة من سِنِي الدنيا .

---

(١) سورة المعارج ٤ (٢) سورة السجدة ٥
(٣) سورة الحج ٤٧

فإن قلت : فعلى هذا كم تكون مدّة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سني الآخرة ؟

قلت : يكون مايرتفع من ضرب أحد المضروبين فى الآخر ، وهو ألفا ألف ألف ، ثلاث لفظات ، الأولى منهنّ مثناة ، ومائةألف ألف لفظتان ، وستون ألف ألف سنةلفظتان أيضا من سِنِي الدنيا . ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيما جدا عِلم أنّ أذهان السامعين لا تحتمله ، فلذلك أبْهَم القول عليهم ، وقال : « لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدّنيا أم مِنْ سِنِي الآخرة » .

فإن قلت : فإذا كنتم قد رجَّحتم قولَ مَنْ يقول : إنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، فكم يكون عمرُها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سنى الآخرة ؟ لأنّه لا يؤمَن أن يكونَ أراد ذلك إذا كانت السّنة عنده عبارة عن مدّة غير هذه المدة التى قد اصطلح عليها الناس ؟

قلت : يكون مايرتفع من ضرب خمسين ألفا فى ثلثمائة وستين ألف سنة من سِنِى الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف ألف سنة من سِنِى الدنيا ثلاث لفظات ، وهذا القول قريب من القول المحكىّ عن الهند .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تاريخه رواياتٍ كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصّحابة أنّ إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض ، وكان من قبيلةٍ من الملائكة يقال لهم الجنّ ، وإنما سُمّوا الجن لأنّهم كانوا خُزّان الجنان ، وكان إبليس رئيسهم ومقدّمهم . وكان أصلُ خَلْقهم من نار السَّموم ، وكان اسمه الحارث ، قال : وقد روى أنّ الجنّ كانت فى الأرض ، وأنهم أفسدوا فيها ، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار ، ثم تكبّر فى نفسه ، ورأى أنه قد صنع شيئا عظيما لم يصنعه غيره . قال : وكان شديد الاجتهاد فى العبادة .

وقيل : كان اسمه عزازيل ، وأنّ الله تعالى جعله حَكماً وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم ، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه فى سكان الأرض وقضائه بينهم ، فانطوى على المعصية حتى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان .

قلت : ولا ينبغى أن نصدّق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ما ورد فى القرآن العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو فى السّنّة ، أو نقل عمّن يجب الرجوع إلى قوله ، وكلّ ماعدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق ، والباب مفتوح ، فليقل كلُّ أحدٍ فى أمثال هذه القصص ماشاء .

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين فى هذا الفصل يطابقُ مذهبَ أصحابنا فى أنّ الجنّة لا يدخلها ذو معصية ، ألا تسمع قوله : « فمن بَعْدَ إبليس يسلم على الله بمثل معصيته كلّا ، ما كان الله ليُدخِل الجنة بشرا بأمرٍ أخرج به منها ملكاً ، إنّ حكمه فى أهل السماء وأهل الأرض لواحد » .

فإن قلت : أليس من قولكم إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة ! فهذا صاحب معصية وقد حكمتم له بالجنّة ؟

قلت : إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص .

فإن قلت إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « فمن ذا بعد إبليس يَسْلَم على الله بمثل معصيته » ، ولم يقل : « بالمعصية » المطلقة ؛ والمرجئة لا تخالف فى أنّ مَنْ وافى القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنّة .

قلت : كلّ معصية كبيرة فهى مثل معصيته ، ولم يكن إخراجه من الجنّة لأنه كافر ، بل لأنه عاصٍ مخالف للأمر ، ألا ترى أنه قال سبحانه : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾(١) ، فعلّل إخراجَه من الجنة بتكبّره لا بكفرِه .

فإن قلت : هذا مناقض لما قدّمت فى شرح الفصل الأول .

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٠

قلت : كلّا ، لأنى فى الفصل الأوّل علّلت استحقاقه اسم الكفر بأمرٍ زائد على المعصية المطلقة ، وهو فساد اعتقاده ، ولم أجعل ذلك علّة فى خروجه من الجنة ، وهاهنا عللت خروجه من الجنّة بنفس المعصية ، فلا تناقض .

فإن قلت : ما معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام : « ما كان الله ليدخل الجنّة بشرا بأمرٍ أخرج به منها مَلَكا » ؟ وهل يظنّ أحد أو يقول: إنّ الله تعالى يُدخل الجنة أحداً من البشر بالأمر الذى أخرج به هاهنا إبليس ! كلّا ، هذا مالا يقوله أحد ، وإنما الذى يقوله المرجئة: إنّه يدخل الجنة مَنْ قد عصى وخالف الأمر ـ كما خالف الأمر إبليس ـ برحمته وعفوه ، وكما يشاء ، لاأنّه يدخِله الجنّة بالمعصية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى نفىَ دخول أحد الجنّة بالمعصية لأنّ الباء للسببية ؟

قلت الباء : هاهنا ليست للسببية كما يتوهّمه هذا المعترض ؛ بل هى كالباء فى قولهم : خرج زيد بثيابه ، ودخل زيد بسلاحه ، أى خرج لابساً ، ودخل متسلّحاً ، أى يصحبه الثياب ويصحبه السلاح ، فكذلك قوله عليه السلام : « بأمر أخرج به منها ملَكاً » ، معناه أنّ الله تعالى لايدخِل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به مَلَكا منها .

***

الأصْلُ :

فاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ عَدُوَّ اللهِ أنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ، فَلَعَمْرِى لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ ، وأغْرَقَ إلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ بِمَا أغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1] ، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ ، وَرَجْماً بِظَنٍّ

---

(١) سورة الحجر : ٣٩

غَيْرِ مُصِيبٍ؛ صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزًّا فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ، إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ.

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُمْ. فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ؛ وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ. يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلَاءٍ.

فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجْلاً وَفُرْسَاناً؛ وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ، سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَبِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

***

الشَّرْحُ :

موضع « أن يُعدِيَكم » نصب على البدَل من « عدو الله » . وقال الراونديّ : يجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، وهذا ليس بصحيح لأن « حذر » لا يتعدى إلى المفعولين ، والعَدْوَى : مايُعدِي من جرَبٍ أو غيره ، أعدى فلانٌ فلانا من خُلُقه أو من علّته ، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره ، وفى الحديث : « لا عَدْوَى فى الإسلام » .

فإن قلت : فإذا كان النّبيّ صلى الله عليه وآله قد أبطل أمر العَدْوَى ، فكيف قال أمير المؤمنين : « فاحذروه أن يُعدِيَكم » ؟

قلت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله أبطلَ ما كانت العرب تزعُمه من عَدْوَى الجرَب فى الإبل وغيرها ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام حذّر المكلّفين من أن يتعلّموا من إبليس الكِبْرَ والحميّة ، وشبّه تعلّمهم ذلك منه بالعَدْوَى لاشتراك الأمرين فى الانتقال من أحدِ الشّخْصين إلى الآخر .

قوله عليه السلام : « يستفزّكم » أى يستخفّكم ، وهو من ألفاظ القرآن : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ (١) أى أزعجه واستخفّه وأطِرْ قلبه . والخيل : الخيّالة ، ومنه الحديث : « ياخَيْلَ اللهِ اركَبِي » .

والرَّجْل : اسم جَمْع لراجل كرَكْب اسم جمع لراكِبٍ ، وصَحْب اسم جمع لصاحبٍ وهذه أيضا من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ (٢) وقرئ ﴿ ورَجِلِكَ ﴾ (٣) بكسر الجيم على أن « فعِلاً » بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِب وتاعِب ،

---

(١) سورة الإسراء ٦٤ (٢) سورة الإسراء ٦٤
(٣) هى قراءة حفص ؛ وانظر تفسير القرطبى ١٠ : ٢٨٨

ومعناه ، وقد تضمّ الجيم أيضا ، فيكون مثل قولك رجل حَدِث وحَدُث ونَدِس ونَدُس .

فإن قلت : فهل لإبليس خيل تركبها جنده ؟

قلت : يجوز أن يكون ذلك ، وقد فسّره قوم بهذا . والصحيح أنه كلام خرج مخرج المَثَل ، شبّهت حاله فى تسلّطه على بنى آدم بمن يُغِير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم . وقيل: بصوتك، أى بدعائك إلى القبيح . وخيله ورجله: كلّ ماش وراكب من أهل الفساد من بنى آدم .

قوله : « وفوّقت السهم » جعلت له فُوقًا ، وهو موضع الوَتَر ، وهذا كناية عن الاستعداد ، ولا يجوز أن يفسّر قوله : « فقد فوّق لكم سهم الوعيد » بأنّه وضع الفُوق فى الوتر ليرمَى به ، لأنّ ذاك لا يقال فيه قد فوّق ، بل يقال : أفقت السَّهْم وأوفقته أيضا ، ولا يقال : أفوقته ، وهو من النوادر .

وقوله : « وأغرق إليكُمْ بالنَّزْع » ، أى استوفى مدّ القوس وبالغ فى نَزْعِها ليكون مرماه أبعدَ ، ووقعُ سهامِه أشدّ .

قوله : « ورماكم من مكان قريب » ، لأنه كما جاء فى الحديث : « يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، ويخالط القلب » ، ولا شىء أقرب من ذلك .

والباء فى قوله : « بما أغويتَنِى » متعلّق بفعل محذوف تقديره : أجازيك بما أغويتَنِى تزيينى لهم القبيح ، فـ«ما» على هذا مصدريّة أى أجازيك بإغوائك لى تزيينى لهم القبيح ، فحذف المفعول . ويجوز أن يكون الباء قسماً كأنّه أقسم بإغوائه إياه ليزيّنَنّ لهم .

فإن قلت : وأىّ معنى فى أن يقسم بإغوائه ؟ وهل هذا مما يقسم به ؟

قلت : نعم ،لأنه ليس إغواء الله تعالى إيّاه خلق الغَىّ والضلال فى قلبه ، بل تكليفه

إيّاه السّجود الذى وقع الغىّ عنده من الشيطان، لا من الله، فصار حيث وقع عنده، كأنه موجب عنه، فنسب إلى البارى، والتّكليف تعريض للثّواب ولذّة الأبد، فكان جديرا أن يقسم به، وقد أقسم فى موضع آخر، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، فأقسم بالعزّة، وهاهنا أقسم بالأمر والتّكليف. ويجوز فيه وجه ثالث، وهو ألّا تكون الباء قَسَماً، ويقدّر قَسَمٌ محذوف، ويكون المعنى: بسبب ما كلّفتنى فأفضى إلى غوايتى، أقسمُ لَأفعلنّ بهم نحو ما فعلتَ بى، وهو أن أزيّنَ لهم المعاصىَ التى تكون سبب هلاكهم.

فإن قلت: ليس هذا نحو ما فعله البارى به، لأنّ البارى أمره بالحسن فأباه، وعَدَل عنه إلى القبيح، والشّيطان لا يأمرنا بالحسن فنكرهه ونعدل عنه إلى القبيح، فكيف يكون ذلك نحو واقعته مع البارى!

قلت: المشابهة بين الواقعتين فى أنّ كلّ واحدةٍ منهما تقع عندها المعصية، لا على وجه الإجبار والقَسْر، بل على قَصْد الاختيار، لأنّ معصية إبليس كانت من نفسه، ووقعت عند الأمر بالسجود اختياراً منه لا فعلا من البارى، ومعصيتنا نحن عند التّزيين والوسوسة تقع اختيارا مِنّا لا اضطرارا يضطرنا إبليس إليه، فلمّا تشابهت الصورتان فى هذا المعنى حَسُن قوله: « بِمَا فَعَلْتَ بى كذا لأفعلنّ بهم نحوه ».

فإن قلت: ما معنى قوله: « فى الأرض »؟ ومن أين كان يعلم إبليس أنّ آدم سيصير له ذرّيّة فى الأرض؟

قلت: أمّا علمه بذلك فمن قول الله تعالى له وللملائكة: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2]، أما لفظة «الأرض»، فالمراد بها هاهنا الدنيا التى هى دار التكليف، كقوله تعالى:

---

(١) سورة ص ٨٢ (٢) سورة البقرة ٣٠

﴿ وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (١) ،ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملاذّ وهوى الأنفس .

قوله عليه السلام : « قَذْفاً بغَيْبٍ بعيد » ، أى قال إبليس هذا القول قَذْفاً بغيب بعيد ، والعرب تقول للشيء المتوهّم على بعد : هَذَا قَذْفٌ بغيب بعيد ، والقذفُ فى الأصل: رَمْى الحجر وأشباهه ، والغَيْب الأمر الغائب ، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية ، قال الله تعالى فى كفّار قريش :﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (٢) ،أى يقولون : هذا سحر : أو هذا من تعليم أهل الكتاب ، أو هذه كهانة ، وغير ذلك مما كانوا يرمُونه عليه الصلاة والسلام به .وانتصب « قَذْفاً » على المصدر الواقع موقع الحال ،وكذلك « رَجْماً » . وقال الراوندىّ : انتصبا لأنّهما مفعول له ، وليس بصحيح ، لأنّ المفعول له ما يكون عذراً وعلّة لوقوع الفعل ، وإبليس ماقال ذلك الكلام لأجل القَذْف والرَّجْم ، فلا يكون مفعولا له .

فإن قلت : كيف قال عليه السلام : « قَذْفاً من مكان بعيد ، ورَجْماً بظنّ غير مصيب » ، وقد صحّ ماتوهّمه وأصاب فى ظنّه ، فإن إغواءه وتزيينه تمّ على النّاس كلّهم إلا على المخلصين .

قلت : أمّا أولا فقد رُوى : « ورجما بظنّ مصيب » بحذف « غير » ، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا ﴾ (٣) وأما ثانيا على الرواية التى هى أشهر فنقول : أما قَذْفاً من مكان بعيد ، فإنه قال ماقال على سبيل التوهّم والحسبان لأمر مستبعَد لا يعلم صحته ولا يظنها ،وليس وقوع ماوقع من المعاصى وصحة ماتوهّمه بمخرج لـكون قوله الأول: « قذفا بغيب بعيد »،وأمّا « رَجْماً بظنّ غير مصيب»،

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦
(٢) سورة سبأ ٥٣
(٣) سورة سبأ ٢٠

فيجب أن يحمل قوله : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(١) ﴾ على الغواية بمعنى الشِّرْك أو الكفر ؛ ويكون الاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(١)﴾ معناه : إلّا المعصومين من كلّ معصية ، وهذا ظنٌّ غير مصيب لأنه ماأغوى كلّ البشر الغواية التي هي الكفر والشّرك إلّا المعصومين العصمة المطلقة ، بل أغوى بعضهم كذلك ، وبعضهم بأنْ زيَّنَ له الفسق دون الكفر ، فيكون ظنّه أنّه قادر على إغواء البشر كافّة بمعنى الضَّلال بالكفر ظنًّا غير مصيب .

قوله : « صدّقه به أبناء الحَيّة »، موضع « صدّقه » جر لأنه صفة «ظنّ»، وقد روى: « صدّقه أبناء الحَيّة » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومَنْ رواه بالجارّ والمجرور كان معناه: صدقه فى ذلك الظن أبناء الحَيّة ، فأقام الباء مقام « فى » .

قوله : « حتى إذا انقادت له الجامحة منكم » ، أى الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة.

قوله « فنَجمت فيه الحال » أى ظهرت ، وقد روى : « فنجمت الحال من السرّ الخفىّ » من غير ذكر الجار والمجرور ، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى : فنجمت الحال فى هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجَلاء .

واستفحل سلطانه : قوىَ واشتدّ وصار فَحْلاً ، واستفحل جواب قوله : « حتى إذا».

دلف بجنوده : تقدّم بهم .

والولَجات : جمع ولَجَة بالتحريك ، وهى موضع ، أو كهف يستتِر فيه المارّة من مطر أو غيره .

وأقحموكم : أدخلوكم . والورْطة : الهلَكة .

قوله : « وأوطأوكم إثخان الجراحة » ، أى جعلوكم واطئين لذلك ، والإثخان : مصدر أثخَن فى القتل ، أى أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه ، وصار كالشىء الثَّخين ، ومعنى

---

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣

إيطاء الشيطان بنى آدم ذلك إلقاؤه إيّاهم فيه ، وتوريطهم وحمله لهم عليه. فالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ ؛ لا كما زعم الراوندى أنه انتصب بحذف حرف الخفض .

قوله عليه السلام : « طَعْناً فى عيونكم » ، انتصب « طعنا » على المصدر ، وفعله محذوف ، أى فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم فى عيونكم طعنا ، فأمّا من روى : « وأوطأوكم لإثخان الجراحة » باللّام فإنه يجعل « طعنا » منصوبا على أنّه مفعول به ، أى أوطأوكم طعناً وحزًّا ، كقولك : أوطأته ناراً ، وأوطأته عَشْوَةً ، ويكون « لإثخان الجراحة » مفعولا له ، أى أوطأوكم الطعن ليثخنوا جراحكم . وينبغى أن يكون « قصدا » و « سوقا » خالصَيْن للمصدرية ، لأنه يبعد أن يكون مفعولا به .

واعلم أنّه لمّا ذكر الطعنَ نسبه إلى العيون ، ولمّا ذكر الحزّ ، وهو الذبح نسبه إلى الحلوق ، ولما ذكر الدقّ ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر ، وهذا من صناعة الخطابة التى علّمه الله إيّاها بلا تعليم ، وتعلّمها الناس كلّهم بعده منه .

والخزائم : جمع خزامة ، وهى حلقة من شعر تجعل فى وَتَرة أنف البعير فيشدّ فيها الزمام .

وتقول : قد وَرَى الزّند ، أى خرجت ناره ، وهذا الزند أوْرَى من هذا ، أى أكثر إخراجا للنار . يقول : فأصبح الشيطان أضرّ عليكم وأفسد لحالكم من أعدائكم الّذين أصبحتم مناصبين لهم ، أى معادين ، وعليهم متألبين ، أى مجتمعين .

فإن قلت : أمّا أعظم فى الدين حرجاً فمعلوم ، فأى معنى لقوله : « وأورى فى دنياكم قَدْحا » ، وهل يُفسِد إبليسُ أمرَ الدّنيا كما يفسد أمر الدين ؟

قلت: نعم ، لأنّ أكثر القبائح الدينيّة مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيويّة ، ألا ترى أنه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسدَ حال السارق من جهة الدّين وحال المسروق منه من جهة الدّنيا ،

وكذلك القول في الغضب والقتل وما يحدث من مضارّ الشرور الدنيويّة من اختلاط الأنساب واشتباه النسل، وما يتولد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنها من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقذفاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهها.

قوله عليه السلام: «فاجعلوا عليه حدّكم» ، أى شباتكم وبأسكم.

وله جِدّكم: من جددت فى الأمر جدّاً، أى اجتهدت فيه وبالغت.

ثم ذكر أنّه فَخَر على أصلِ بنى آدم، يعنى أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال: «أنا خير منه».

ووقع فى حَسَبِكم: أى عاب حَسَبَكم وهو الطين، فقال: إنّ النّار أفضلُ منه.

ودفع فى نسبكم مثله.

وأجلب بخيله عليكم، أى جمع خيّالته وفُرسانه وألّبها.

ويقتنصونكم: يتصيّدونكم. والبَنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحدته بَنانة، ويجمع فى القلة على بَنانات، ويقال: بنان مخضّب، لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يذكّر ويوحّد.

والحَوْمة: معظم الماء والحرب وغيرها، وموضع هذا الجار والمجرور نصب على الحال، أى يقتنصونكم فى حومة ذلّ.

والجَولة: الموضع الّذى تجول فيه.

وكَمَن فى قلوبكم: استتر، ومنه الكمين فى الحرْب.

ونزغات الشيطان: وساوسه الّتى يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: «واعتمدوا وضع التذلّل على رءوسكم، وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم» كلامٌ شريف جليل المحلّ، وكذلك قوله عليه السلام: «واتخذوا التّواضع مسلحةً بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده» ، والمسلحة: خيلٌ معدّة للحماية والدفاع.

ثم نهاهم أن يكونوا كقابيل الذى حسد أخاه هابيل فقتله ، وهما أخوان لأب وأمّ ، وإنما قال : « ابن أمّه » ، فذكر الأمّ دون الأب ، لأنّ الأخوين من الأمّ أشدّ حُنُوًّا ومحبّة والتصاقا من الأخوين من الأب ، لأنّ الأمّ هى ذات الحضانة والتربية .

وقوله : «من غير مافضل» ؛ ماهاهنا زائدة ، وتعطى معنى التأكيد ؛ نهاهم عليه السلام أن يحسدوا النعم ، وأن يبغوا ويفسدوا فى الأرض ، فإنّ آدم لما أمر ولده بالقربان قرّب قابيلُ شرّ ماله ـ وكان كافراً ـ وقرّب هابيل خيْرَ ماله ـ وكان مؤمنا ـ فتقبّل الله تعالى من هابيل ، وأهبط من السماء ناراً فأكلته ، قالوا : لأنه لم يكن فى الأرض حينئذ فقير يصل القربان إليه ، فحسده قابيل ـ وكان أكبر منه سنًّا ـ فقال : لأقتلنك ، قال : هابيل إنما يتقبل الله من المتقين ، أى بذنبك وجرمك كان عدم قبول قُربانك لانسلاخك من التقوى ، فقتله فأصبح نادماً ، لا ندم التوبة بل ندم الحيْرة ورقة الطبع البشرىّ ، ولأنه تعب فى حمله كما ورد فى التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب .

قوله عليه السلام : «وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة » ، لأنه كان ابتدأ بالقتل ، ومَنْ سنّ سنّة شرّ كان عليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، كما أنّ مَنْ سَنّ سنّة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، أنّ الروايات اختلفت فى هذه الواقعة ، فروى قوم أنّ الرجلين كانا من بنى إسرائيل وليسا من ولد آدم لصُلبه ، والأكثرون خالفوا فى ذلك .

ثم اختلف الأكثرون ، فروى قوم أنّ القربان من قابيل وهابيل كان ابتداء ، والأكثرون قالوا : بل أراد آدم عليه السلام أن يزوّج هابيل أخت قابيل توءمته، ويزوّج

قابيل أخت هابيل تومته ، فأبى قابيل ، لأنَّ تومته كانت أحسنَ ، فأمرهما أبوهما بالقربان ، فمن تُقبّل قربانه نكح الحسناء . فتقبّل قربان هابيل ، فقتله أخوه كما ورد فى الكتاب العزيز .

وروى الطبرى مرفوعا أنه صلى الله عليه وآله قال : « مامن نفس تُقتل ظلما إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأوّل كِفل منها ، وذلك بأنه أول من سنَّ القتل » ، وهذا يشيّد قول أمير المؤمنين عليه السلام .

***

الأصْلُ :

أَلا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِى ٱلْبَغْىِ ، وَأَفْسَدْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ، مُصارَحَةً لِلَّهِ بِالْمُناصَبَةِ ، وَمُبارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحارَبَةِ . فَاللَّهَ اللَّهَ فِى كِبْرِ ٱلْحَمِيَّةِ ، وَفَخْرِ ٱلْجاهِلِيَّةِ ! فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ ٱلشَّنَآنِ ، وَمَنافِخُ ٱلشَّيْطانِ ؛ ٱلَّتِى خَدَعَ بِهَا ٱلْأُمَمَ ٱلْماضِيَةَ ، وَٱلْقُرُونَ ٱلْخالِيَةَ ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِى حَنادِسِ جَهالَتِهِ ، وَمَهاوِى ضَلالَتِهِ ، ذُلُلًا عَنْ سِياقِهِ ، سُلُسًا فِى قِيادِهِ ؛ أَمْراً تَشابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ ؛ وَتَتابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْهِ ؛ وَكِبْراً تَضايَقَتِ ٱلصُّدُورُ بِهِ .

أَلا فَالْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ مِنْ طاعَةِ ساداتِكُمْ وَكُبَرائِكُمْ ! ٱلَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ، وَأَلْقَوُا ٱلْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَجاحَدُوا اللَّهَ عَلَى ماصَنَعَ بِهِمْ ؛ مُكابَرَةً لِقَضائِهِ ، وَمُغالَبَةً لِآلائِهِ ، فَإِنَّهُمْ قَواعِدُ أَساسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَدَعائِمُ أَرْكانِ ٱلْفِتْنَةِ ، وَسُيُوفُ اعْتِزاءِ ٱلْجاهِلِيَّةِ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْداداً ، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسّاداً ،

ولَا تُطِيعُوا الأَدْعِياءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وأَدْخَلْتُمْ فى حَقِّكُمْ باطِلَهُمْ، وَهُمْ آساسُ الْفُسُوقِ، وأَحْلاسُ الْعُقُوقِ؛ اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطايا ضَلَالٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ على النَّاسِ، وَتَراجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِراقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فى عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فى أَسْماعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

فاعْتَبِرُوا بِما أَصابَ الأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بأْسِ اللهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقائِعِهِ وَمَثُلاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثاوِى خُدُودِهِمْ، وَمَصارِعِ جُنُوبِهِمْ، واسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

***

الشَّرْحُ:

أمعنتم فى البغى: بالغتم فيه، من أمعن فى الأرض؛ أى ذهب فيها بعيدا. ومصارحةالله، أى مكاشفة.

والمناصبة: المعاداة.

وملاقح الشنآن: قال الراوندىّ: الملاقح هى الفُحول التى تلقح؛ وليس بصحيح، نصّ الجوهرىّ على أنّ الوجه لواقح كما جاء فى القرآن: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1].

وقال: هو من النّوادر، لأن الماضى رباعى. والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع مَلْقح وهو المصدر، من لَقِحت كضربت مضربا وشربت مشربا.

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها؛ وهو البغض.

ومنافخ الشيطان: جمع مَنْفَخ، وهو مصدر أيضا، من نفخ، ونَفْخ الشّيطان ونَفْثه

واحد ، وهو وسوسته وتسويله ، ويقال للمتطاول إلى ماليس له : قد نفخ الشيطان فى أنفه. وفى كلامه عليه السلام ، يقوله لطلحة وهو صريع ، وقد وقف عليه ، وأخذ سيفه : « سيفٌ طالما جلىّ به الكَرْب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الشيطان نفخ فى أنفه ! » .

قوله : وأعنقوا : أسرعوا ، وفرس مِعْناق ، والسَّيْر العَنَق ، قال الراجز :

يَانَاقُ سِيرى عَنَقًا فَسِيحَا إلى سُلَيمانَ فنستريحَا

والحنادس : الظلَم .

والمهاوى : جمع مَهْواة بالفتح ؛ وهى الهُوَّة يتردّى الصيد فيها ، وقد تهاوَى الصَّيد فى المهواة ، إذا سقط بعضه فى أثر بعض .

قوله عليه السلام : « ذللا عن سياقه » ، انتصب على الحال ، جمع ذَلُول ، وهو السهل المقادة ، وهو حال من الضمير فى « أعنقوا » ، أى أسرعوا منقادين لسوْقه إياهم .

وسُلسا : جمع سَلِس ، وهو السَّهل أيضا ، وإنما قسم « ذللا » و « سلسا » بين «سياقه» و « قياده » لأنّ المستعمل فى كلامهم : قدتُ الفرس فوجدته سَلِسًا أو صعبا ، ولا يستحسنون : سقته فوجدته سلسا أو صعبا ، وإنّما المستحسَن عندهم : سقته فوجدته ذَلُولا أو شَمُوسا .

قوله عليه السلام : « أمراً » منصوب بتقدير فعل ، أى اعتمدوا أمراً ، « وكبرا » ، معطوف عليه ، أو ينصب « كبرا » على المصدر بأن يكون اسما واقعا موقعه ، كالعطاء موضع الإعطاء .

وقال الراوندى : «أمرا» منصوب هاهنا لأنّه مفعول به . وناصبه المصدر الذى هو سياقه وقياده ، تقول : سقطت سياقا وقدت قيادا ، وهذا غير صحيح لأنّ مفعول هذين المصدرَيْن محذوف تقديره : عن سياقه إيّاهم وقياده إيّاهم ؛ هذا هو معنى الكلام ، ولو فرضنا مفعول

أحد هذين المصدرين « أمرا » لفسد معنى الكلام. وقال الراوندى أيضا : ويجوز أن يكون « أمرا » حالا . وهذا أيضا ليس بشيء ، لأنّ الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول ، و « أمرا » ليس كذلك .

قوله عليه السلام : « تشابهت القلوب فيه » ، أى أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبيّة ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها .

وتتابعت القُرون عليه : جمع قَرْن بالفَتح ؛ وهى الأمّة من الناس .

وكِبْرا تضايقت الصدور به أى كبر فى الصدور حتى امتلأت به وضاقت عنه لكثرته .

ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (١) .

وقد كان أمرَ فى الفصل الأوّل بالتواضع لله ، ونهى هاهنا عن التواضع للرؤساء ، وقد جاء فى الخبر المرفوع : « ما أحسنَ تواضع الأغنياء للفقراء ! وأحسنُ منه تكبّر الفقراء على الأغنياء » .

الذين تكبّروا عن حسبهم ، أى جهلوا أنفسهم ، ولم يفكّروا فى أصلهم من النُّطَف المستقذَرة من الطين المنتن ، قال الشاعر :

مابال من أوّله نُطْفَةٌ وجيفةٌ آخرُه يَفْخَرُ
يصبح لا يملك تقديمَ ما يرجُو ولا تأخير مايحذَرُ

قوله عليه السلام : « وألقوا الهُجَينة على ربهم » روى « الهَجِينة » على « فَعِيلة » ، كالطبيعة والخليقة، وروى «الهُجْنَة» على « فُعْلة » ، كالمضغة واللُّقمة ، والمراد بهما الاستهجان ، من قولك : هو يهجّن كذا أى يقبّحه ، ويستهجنه أى يستقبحه . أى نسبوا مافى الأنساب

---

(١) سورة الأحزاب ٦٧

من القبح بزعمهم إلى ربّهم ، مثل أن يقولوا للرجل : أنت عجميّ ونحن عرب ، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان ، بل هو إلى الله تعالى ، فأيّ ذنب له فيه !

قوله : « وجاحدوا الله » ، أى كابروه وأنكروا صنعَه إليهم .

وآساس بالمد : جمع أساس .

واعتزاء الجاهلية : قولهم : يالَفلان ! وسمع أبيّ بن كعب رجلاً يقول : يالفلان ! فقال : عَضَضْتَ بهَنِ أبيك ! فقيل له : ياأبا المنذر ما كنت فحّاشا ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ تَعَزَّى بعزاء الجاهليّة فأعِضّوه بهَنِ أبيه ولا تكْنُوا » .

قوله : « فلا تكونوا لنعمة الله أضدادا » ؛ لأنّ البغيَ والكِبْر يقتضيان زوالَ النعمة وتبدّلها بالنقمة .

قوله : « ولا تطيعوا الأدعياء » ، مراده هاهنا بالأدعياء ، الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق .

ثم وصفهم فقال : « الذين شربتم بصفوكم كدَرَهم » ، أى شربتم كدَرَهم مستبدلين ذلك بصفوكم . ويروى : « الذين ضربتم » ، أى مزجتم . ويروى : « شَرَيْتُمْ » أى بعتم واستبدلتم .

والأحلاس : جمع حِلْس ، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له ، فقيل لكل ملازم أمر : هو حِلْس ذلك الأمر .

والتَّرجمان ، بفتح التاء : هو الّذى يفسّر لسانا بلسان غيره ، وقد تُضَمّ التاء . ويروى : « ونثّا فى أسماعكم » من نثّ الحديث ، أى أفشاه .

***

الأصْلُ :

فَلَوْ رَخَّصَ ٱللهُ فِي ٱلْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ ٱلتَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ ٱلتَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي ٱلتُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ؛ قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَٱبْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَحَّصَهُمْ بِالْمَكَارِهِ.

فَلَا تَعْتَبِرُوا ٱلرِّضَا وَٱلسُّخْطَ بِالْمَالِ وَٱلْوَلَدِ، جَهْلًا بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ، وَٱلِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ ٱلْغِنَى وَٱلْإِقْتَارِ؛ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

***

الشَّرْحُ :

التكابر : التعاظُم ، والغرض مقابلة لفظة « التواضع » لتكون الألفاظ مزدوجةً .

وعفّر وجهَه : ألصقه بالعفَر .

وخَفَضُوا أجنحتهم : ألانوا جانبَهم .

والمخمَصَة : الجوع . والمجهدة : المشقّة ، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال لمفعل ومَفْعَلة بمعنى المصدر ، إذا تصفّحت كلامه عرفت ذلك .

ومحّصهم ، أى طهّرهم ، وروى «مخضهم» بالخاء والضاد المعجمة ، أى حرّكهم وزلزلهم .

---

(١) سورة المؤمنون ٥٥ ، ٥٦

ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالا وولدا ؛ فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار .

وقوله تعالى : ﴿أيحسبون ...﴾ ، الآية دليل على ماقاله عليه السلام ، والأدلة العقلية أيضا دلّت على أنّ كثيرا من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى ، للألطاف والمصالح . وما الموصولة فى الآية يعود إليها محذوف ومقدّر لا بدّ منه ؛ وإلّا كان الكلام غير منتظم ، ولا غير مرتبط بعضه ببعض ، وتقديره : نسارع لهم به فى الخيرات .

***

الأَصْلُ :

فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ ؛ وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِمَا ـ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ ٱلصُّوفِ ، وَبِأَيْدِيهِمَا ٱلْعِصِيُّ ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ ، وَدَوَامَ عِزِّهِ ؛ فَقَالَ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ ٱلْعِزِّ ، وَبَقَاءَ ٱلْمُلْكِ ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ ٱلْفَقْرِ وَٱلذُّلِّ ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ؛ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَٱحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ !

وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ ٱلذِّهْبَانِ ، وَمَعَادِنَ ٱلْعِقْيَانِ ، وَمَغَارِسَ ٱلْجِنَانِ ؛ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ ٱلسَّمَاءِ ، وَوُحُوشَ ٱلْأَرَضِينَ ؛ لَفَعَلَ ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ ٱلْبَلَاءُ ، وَبَطَلَ ٱلْجَزَاءُ ، وَٱضْمَحَلَّتِ ٱلْأَنْبَاءُ ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ ٱلْمُبْتَلَيْنَ ؛ وَلَا ٱسْتَحَقَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ ٱلْمُحْسِنِينَ ، وَلَا لَزِمَتِ ٱلْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا ؛ وَلٰكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ ؛ وَضَعَفَةً فِيمَا

تَرَى ٱلْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ ٱلْقُلُوبَ وَٱلْعُيُونَ غِنًى ، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ ٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَسْمَاعَ أَذًى .

* * *

الشَّرْحُ :

مدارع الصوف : جمع مِدْرَعة ، بكسر الميم ، وهى كالكساء ، وتدرّع الرجل وتمدْرع إذا لبسها . والعِصىّ : جمع عصا .

وتقول : هذا سِوار المرأة ، والجمع أسوِرة ، وجمع الجمع أساورة ، وقرئ ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(١) . وقد يكون جمع أساور ، قال سبحانه : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(٢) ، قال أبو عمرو بن العلاء : أساور هاهنا : جمع إسوار وهو السِّوار .

والذِّهبان بكسر الذال : جمع ذهب ، كخَرَب لذكر الحُبارى وخِرْبان . والعِقْيان الذهب أيضا .

قوله عليه السلام : « واضمحلّت الأنباء » أى تلاشت وفنِيت . والأنْباء : جمع نَبأ ، وهو الخبر ، أى لسقط الوعد والوعيد وبطلا .

قوله عليه السلام : « ولا لزمت الأسماء معانيَها » ، أى مَنْ يسمّى مؤمنا أو مسلما حينئذ ، فإنّ تسميتَه مجاز لا حقيقة ؛ لأنّه ليس بمؤمن إيمانا مِنْ فعله وكَسْبه ، بل يكون ملجأً إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة .

والمبتلَيْن ، بفتح اللاّم : جمع مبتلًى ، كالمعطَيْن والمرتضَيْن ، جمع معطى ومرتضى .

والخصاصة : الفقر .

---

(١) سورة الزخرف ٥٣ (٢) سورة الحج ٢٣

وهـذا الكلام هو مايقوله أصحابنا بعينه فى تعليل أفعال البارى سبحانه بالحكمة والمصلحة ، وأنّ الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب ، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء ، ومِنْ أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه ، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ ؛ أنّ موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فرْعون ، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقفَا على بابه يلتمسان الإذْن عليه ، فمكثا سنين يغدُوَان على بابه ويروحان ، لا يعلم بهما ؛ ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما ــ وقد كانا قالا لمن بالباب : إنّا رسولَا ربّ العالمين إلى فرعون ــ حتى دخل عليه بطّال له يلاعبه ويضحكه ، فقال له : أيّها الملك إنّ على الباب رجلا يقول قولا عجيبا عظيما ، ويزعم أن له إلهاً غيرك ، قال : ببابى ! قال : نعم ، قال : أدخِلوه ، فدخل وبيده عصاه ، ومعه هارون أخوه ، فقال : أنا رسول رب العالمين إليك ... وذكر تمام الخبر .

فإن قلت : أىّ خاصيّة فى الصوف ولُبْسه ؟ ولم اختاره الصالحون على غيره ؟

قلت : ورد فى الخبر أنّ أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قيّضه الله له ، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويلبس صوفه ؛ لأنّه أهبط عريانَ من الجنة فذبحه ، وغزلت حواء صوفَه ، فلبس آدم منه ثوباً ، وألبس حواء ثوبا آخر ، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفيّة .

***

الأصْلُ :

وَلَوْ كانَتِ الأَنْبِياءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَاتُرَامُ ، وَعِزَّةٍ لاتُضامُ ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْناقُ الرِّجالِ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحالِ ؛ لَكانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ على الْخَلْقِ فِي الاعْتِبارِ ، وَأَبْعَدَ لَهمْ مِنَ الاسْتِكْبارِ ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قاهِرَةٍ لَهُمْ ، أَوْ رَغْبَةٍ مائِلَةٍ بِهِمْ ، فَكانَتِ النِّيّاتُ مُشْتَرَكَةً ، وَالْحَسَناتُ مُقْتَسَمَةً ؛ وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أَرادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّباعُ لِرُسُلِهِ ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ ، والاسْتِكانَةُ لِأَمْرِهِ ، وَالاسْتِسْلَامُ لِطاعَتِهِ ؛ أُمُوراً لَهُ خاصَّةً ، لَا يَشُوبُها مِنْ غَيْرِها شائِبَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

تمدّ نحوه أعناق الرجال ، أي لعظمته ؛ أي يؤمّله المؤمّلون ويرجوه الراجون ، وكلّ مَنْ أمّل شيئاً فقد طمَح ببصره إليه معنًى لاصورة ، فكنَى عن ذلك بمدّ العنق .

وتُشدّ إليه عُقَد الرحال : يسافر أربابُ الرغبات إليه ، يقول : لو كانَ الأنبياء ملوكا ذوى بأس وقهر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم ، لأنّ الإيمان فى نفسه واجب عقلا ، بل كان لرهبة لهم أورغبة فيهم ، فكانت النيات مشتركة . هذا فرض سؤال وجواب عنه ، كأنه قال لنفسه : لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هذا التقدير لوجوبه ، ولخوف ذلك النبى ، أو لرجاء نفع ذلك النبى صلى الله عليه وآله ؟ فقال : لأنّ النيات تكون حينئذ مشتركة ، أى يكون المكلّف قد فعل الإيمان لكلا الأمرين . وكذلك تفسير قوله : « والحسنات مقتسمة » : قال : ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعل إلّا لكونها طاعة له لاغير ، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة .

فإن قلت : ما معنى قوله : « لـكان ذلك أهون على الخلق فى الاعتبار ، وأبعد لهم من الاستكبار » ؟

قلت : أى لو كان الأنبياء كالملوك فى السطْوة والبطش ؛ لـكان المكلّف لا يشقّ عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقّته عليه إذا تركه لقبحه لا لخوف السيف ، وكان بعدُ المكافين عن الاستكبار والبغى لخوف السيف والتأديب أعظمَ من بعدهم عنهما إذا تركوهما لوجه قبحهما ، فكان يكون ثواب المكلّف ؛ إمّا ساقطا ، وإمّا ناقصا .

***

الأصْلُ :

وَكُلَّمَا كانَتِ الْبَلْوَى وَالاخْتِبارُ أعْظَمَ ، كانَتِ المَثُوبَةُ وَالجَزاءُ أجْزَلَ ؛ ألا تَرَوْنَ أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ اخْتَبَرَ الأوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ إلَى الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعالَمِ ؛ بِأحْجارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنفَعُ ، وَلا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِى جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ قِياماً ، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأوْعَرِ بِقاعِ الأرْضِ حَجَراً ، وَأقَلِّ نَتائِقِ الدُّنْيا مَدَراً ، وَأضْيَقِ بُطُونِ الأوْدِيَةِ قُطْراً . بَيْنَ جِبالٍ خَشِنَةٍ ، وَرِمالٍ دَمِثَةٍ ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ ؛ لَا يَزْكُو بِها خُفٌّ ، وَلَا حافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ ، ثُمَّ أمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أنْ يَثْنُوا أعْطافَهُمْ نَحْوَهُ ؛ فَصارَ مَثابَةً لِمُنْتَجَعِ أسْفارِهِمْ ، وَغايَةً لِمُلْقَى رِحالِهِمْ ، تَهْوِى إلَيْهِ ثِمارُ الأفْئِدَةِ ؛ مِنْ مَفاوِزِ قِفارٍ سَحِيقَةٍ ، وَمَهاوِى فِجاجٍ عَمِيقَةٍ ، وَجَزائِرِ بِحارٍ مُنْقَطِعَةٍ ، حَتَّى يَهُزُّوا مَناكِبَهُمْ ذُلُلاً ، يُهَلِّلُونَ لِلّهِ حَوْلَهُ ، وَيَرْمُلُونَ على أقْدامِهِمْ ، شُعْثاً غُبْراً لَهُ ، قَدْ نَبَذُوا السَّرابِيلَ وراء ظُهُورِهِمْ ، وَشَوَّهُوا بِإعْفاءِ الشُّعُورِ مَحاسِنَ خَلْقِهِمْ ، ابْتِلاءً عَظِيماً ، وَامْتِحاناً شَدِيداً ، وَاخْتِباراً مُبِيناً ، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً ، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ ، وَوُصْلَةً إلَى جَنَّتِهِ .

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ ، جَمَّ الْأَشْجَارِ ، دَانِيَ الثِّمَارِ ، مُلْتَفَّ الْبُنَى ، مُتَّصِلَ الْقُرَى ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ .

وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا ، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا ؛ مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ ، إِخْرَاجًا لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فُتُحًا إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسْبَابًا ذُلُلًا لِعَفْوِهِ .

***

الشَّرْحُ :

كانت المثوبة ، أى الثواب .

وأجزل : أكثر ، والجزيل : العظيم ، وعطاء جَزْل وجَزيل والجمع جزال ، وقد أجزلت له من العطاء ، أى أكثرت .

وجعله للناس قياما ، أى عمادا ، وفلان قيام أهله، أى يقيم شئونهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) .

وأوعرُ بقاع الأرض حجراً ، أى أصعبها ، ومكانٌ وعر ، بالتسكين : صعب المسلك أو المقام .

---

(١) سورة النساء ٥

وأقلُّ نتائق الدُّنيا مدَراً ؛ أصل هذه اللفظة من قولهم : « امرأة منتاق »، أى كثيرة الحبل والوِلادة، ويقال : ضيعة مِنْتاق أى كثيرة الرَّيع ، فجعل عليه السلام الضِّياع ذوات المدَر التى تثار للحرْث نتائق ، وقال : إنّ مكّة أقلها صلاحاً للزرع ، لأنّ أرضها حجرية .

والقُطْر : الجانب ، ورمالٌ دمِثة : سهلة ، وكلّما كان الرَّمْل أسهَل ؛ كان أبعد عن أن ينبت .

وعيون وشِلة ، أى قليلة الماء ، والوَشَل ، بفتح الشين : الماء القليل ، ويقال : وشَل الماء وَشَلاناً ، أى قطر .

قوله : « لا يزكو بها خُفّ » ، أى لا تزيد الإبل فيها أى لا تسمن ، والخُفّ هاهنا هو الإبل ، والحافر : الخيل والحمير ، والظِّلف : الشاة ، أى ليس حولها مرعًى يرعاه الغنم فتسمَن .

وأن يَثْنُوا أعطافهم نحوه ، أى يقصِدُوه ويحجّوه ، وعِطْفا الرَّجل : جانباه .

وصار مثابة ، أى يُثاب إليه ويُرْجَع نحوه مرّة بعد أخرى ، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز (١) .

قوله عليه السلام : « لمنتجَع أسفارِهم » ، أى لنُجْعتها ، والنُّجعة : طلب الكلأ فى الأصل ، ثم سمى كلّ مَنْ قصد أمرا يروم النفع منه منتجِعا .

قوله : « وغاية لمُلقَى رحالهم »، أى صار البيت هو الغاية التى هى الغرض والمقصد ، وعنده تلقى الرِّحال ؛ أى تحطّ رحال الإبل عن ظهورها ، ويبطل السفر ، لأنهم قد انتهوْا إلى الغاية المقصودة .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .

قوله : « تَهْوِى إليه ثمار الأفئدة » ، ثمرة الفؤاد : هو سويداء القلْب ، ومنه قولهم للولد : هو ثمرة الفؤاد ، ومعنى « تهوِى إليه » أى تتشوّقه وتحنّ نحوه .

والمفاوز : هى جمع مَفَازة ، الفلاة سُمّيتْ مَفَازة ، إمّا لأنها مهلكة ، من قولهم : فَوّز الرّجُل ، أى هلك ، وإمّا تفاؤلاً بالسلامة والفوز ، والرّواية المشهورة . « من مفاوزِ قفار » بالإضافة . وقد روى قوم : « من مفاوزَ » بفتح الزاء ، لأنه لاينصرف ، ولم يضيفوا ، جعلوا « قفار » صفة .

والسحيقة : البعيدة .

والمهاوِى : المساقط .

والفِجاج : جمع فَجّ ، وهو الطريق بين الجَبَلين .

قوله عليه السلام : « حتّى يهزّوا مناكبهم » ، أى يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه ، فكَنَى عن السّفر بهزّ المناكب .

وذُللا ، حال ، إمّا منهم وإمّا من المناكب ، وواحد المناكب ، منكِب بكسر الكاف ، وهو مجمع عظم العَضُد والكتف .

قوله : « ويهلّلون » ، يقولون : لا إله إلا الله ، وروى : « يُهِلُّون لله » أى يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها .

ويرمُلون ، الرّمَل : السعى فوقَ المشى قليلا .

شُعْثا غُبْراً ؛ لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم ، قد نبذوا السرابيل ، ورموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة .

وشوّهوا بإعفاء الشعور ، أى شيّنوا وقبحوا محاسن صورهم ، بأنْ أعفَوْا شعورهم فلم يحلِقوا مافضل منها وسقط على الوجه ونبت فى غيره من الأعضاء التى جرت العادة بإزالتها عنها .

والتمحيص : التَّطْهير ، من محّصت الذهب بالنار إذا صفّيته مما يشوبه ، والتمحيص أيضا : الامتحان والاختبار . والمشاعر : معالم النُّسُك .

قوله : «وسهل وقرار» ، أى فى مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقة.

وجمّ الأشجار : كثيرها . ودانى الثمار : قريبها .

وملتفّ البِنَى : مشتبك العمارة .

والبُرّة : الواحدة من البُرّ ، وهو الحنطة .

والأرياف . جمع ريف وهو الخِصْب والمرعى فى الأصل، وهو هاهنا السّواد والمزارع .

ومحدِقة : محيطة . ومغدِقة : غزيرة ، والغَدَق : الماء الكثير .

وناضرة : ذات نضارة وَرَوْنق وحُسْن .

قوله : « ولو كانت الإساس[1] » ، يقول: لو كانت إساس البيت التى حمل البيت عليها وأحجاره التى رفع بها من زمردة وياقوتة فالمحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان ، لأنهما صفة اسم كان والخبر «من زمردة» ، وروى : « بين زمردة » ، ويجوز أن تحمل لفظتى المفعول وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت ، فيكون قائما مقام اسم الفاعل ، ويكون موضع الجار والمجرور نصباً ، ويجوز ألّا تحملهما ذلك الضمير ، ويجعل الجار والمجرور هو السادّ مسدّ الفاعل ، فيكون موضعه رفعا .

وروى : « مضارعة الشّك » بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس ، وأصله من مضارعة القِدْر إذا حان إدراكها ، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب .

وقال الراوندى فى تفسير هذه الكلمة : من مضارعة الشك ، أى مماثلته ومشابهته ، وهذا بعيد ، لأنه لا معنًى للمماثلة والمشابهة هاهنا ، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة .

قوله عليه السلام : « ولَنَفَى متعلَج الرَّيب » ، أى اعتلاجه ، أى ولنفى اضطراب الشكّ فى القلوب . وروى « يستعبدهم » و « يتعبّدهم » ، والثانية أحسن .

---

(١) الإساس ، بالكسر : جمع أس .

والمَجاهد : جمع مَجْهدة ، وهى المشقّة .

وأبوابا فُتُحا ، أى مفتوحة. وأسبابا ذُللا ، أى سهلة .

***

واعلم أنّ محصول هذا الفصل أنه كلّما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم ، ولو أنّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلّفين لما استحقّوا عليها من الثواب إلّا قدراً يسيرا ، بحسب ما يكون فيها من المشقّة اليسيرة .

فإن قلت : فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام ، ثم أمر آدم وولده أن يَثنوا أعطافهم نحوه ؟

قلت : نعم هكذا روى أرباب السِّيرَة وأصحاب التواريخ ؛ روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى " تاريخه " عن ابن عباس ، أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم لمّا أهبطه إلى الأرض: أنّ لى حَرَماً حِيال عَرْشى ، فانطلِق فابنِ لى بيتاً فيه ، ثم طُفْ به كما رأيت ملائكتى تحفّ بعرشى ، فهنالك أستجيبُ دعاءك ودعاء مَنْ يحفّ به من ذُرّيتك . فقال آدم : إنّى لستُ أقوى على بنائه ، ولا أهتدى إليه ، فقيّض الله تعالى له مَلَكا ، فانطلق به نحو مكّة ـ وكان آدم فى طريقه كلّما رأى روضة أومكانا يعجبه سأل الملك أن ينزل به هناك ليبنى فيه ـ فيقول الملك : إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكّة ، فبنى البيت من خمسة جبال : طور سيناء ، وطور زيتون ، ولُبنان ، والجوديّ ، و بنى قواعدَه من حِراء ؛ فلمّا فرغ خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسكَ كلّها التى يفعلها الناس اليوم ، ثم قدِم به مكة وطاف بالبيت أسبوعا ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات .

وروى الطبرى فى التّاريخ أن آدم حجّ من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجّة على رجليه .

وقد روى أنّ الكعبة أنزلت من السماء وهى يا قوتة أولؤلؤة ؛ على اختلاف الروايات، وأنها بقيَتْ على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصى أيّام نوح ، وجاء الطوفان فرفع البيت ، وبنى إبراهيم هذه البنيّة على قواعده القديمة .

وروى أبو جعفر ، عن وهب بن منبّه أنّ آدم دعا ربّه فقال : ياربّ أما لأرضك هذه عامرٌ يسبّحك ويقدّسك فيها غيرى ! فقال الله : إنّى سأجعل فيها من ولدك من يسبّح بحمدي ويقدّسنى ، وسأجعل فيها بيُوتاً ترفَع لذكرى ، يسبّحنى فيهما خلقى ، ويُذكر فيها اسمى ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصّه بكرامتى ، وأوثره باسمى ، فأسمّيه بيتى ، وعليه وضعت جلالتى وخصصتُه بعظمتى ، وأنا مع ذلك فى كلّ شىء ، أجعل ذلك البيت حرَماً آمنا يحرّم بحرمته من حوله ، ومن تحته ، ومَنْ فوقه ، فمَنْ حرمّه بحُرْمتى استوجب كرامتى ، ومن أخاف أهلَه فقد أباح حُرْمتى ، واستحقّ سَخَطِى ؛ وأجعله بيتا مُباركاً يأتيه بنُوك شُعْثاً غُبْراً على كلّ ضامر من كلّ فجّ عميق ، يرجّون بالتلبيـة رَجِيجا ؛ ويعجّون بالتـكبير عجيجا ، من اعتمده لا يريد غيره ووفد إلىّ وزارنى واستضاف بى ، أسعفته بحاجته ؛ وحقٌّ على الكريم أن يكرم وفدَه وأضيافه ؛ تعمره يا آدم مادمت حيًّا، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة ، وقرنا بعد قرن .

قال : ثم أمر آدم أن يأتى إلى البيت الحرام الذى أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش ، وكان البيت حينئذ من دُرّة أومن ياقوتة ، فلمّا أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه ، وبقى أساسه فبوّأه الله لإبراهيم فبَناه .

***

الأَصْلُ :

فَاللهَ اللهَ فى عاجِلِ الْبَغْىِ ؛ وَآجِلِ وَخامَةِ الظُّلْمِ ؛ وسُوءِ عاقِبَةِ الْكِبْرِ ، فإِنَّها مَصْيَدَةُ إِبليسَ الْعُظْمى ، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرى ؛ الَّتِي تُساوِرُ قُلُوبَ الرِّجالِ مُساوَرَةَ السُّمُومِ القاتِلَةِ ، فَما تُكْدِى أَبَداً ، ولا تُشْوِى أَحَداً ؛ لاعالِماً لِعِلْمِهِ ، ولا مُقِلًّا فى طِمْرِهِ .

وَعَنْ ذَلِكَ ما حَرَسَ اللهُ عِبادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ ، وَمُجاهَدَةِ الصِّيامِ فى الأَيَّامِ الْمَفْرُوضاتِ ، تَسْكِيناً لِأَطْرافِهِمْ ، وَتَخْشِيعاً لِأَبْصارِهِمْ ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ ، وَإِذْهاباً لِلْخُيَلاءِ عَنْهُمْ ، وَلِما فى ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرابِ تَواضُعاً ، وَالْتِصاقِ كَرائِمِ الْجَوارِحِ بِالأَرْضِ تَصاغُراً ، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيامِ تَذَلُّلاً ؛ مَعَ مافى الزَّكاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَراتِ الأَرْضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ .

اُنْظُرُوا إِلَى مافى هَذِهِ الأَفْعالِ مِنْ قَمْعِ نَواجِمِ الْفَخْرِ ، وَقَدْعِ طَوالِعِ الْكِبْرِ !

* * *

الشَّرْحُ :

بلدة وخمة ووخيمة : بيّنة الوخامة ، أى وبيئة .

مَصْيَدَةُ إبليس ، بسكون الصاد وفتح الياء : آلته التى يصطاد بها .

وتُساوِرُ قلوب الرجال : تواثبها ، وسار إليه يسُور ، أى وثب ، والمصدر السَّوْر ، ومصدر «تساور» المساورة ، ويقال : إنّ لغضبه سَوْرة ، وهو سَوّار ، أىْ وثّاب معربد ،

وسَوْرة الشراب : وثوبه فى الرأس ، وكذلك مساورة السموم التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام .

وماتـكدِى : ماتردّ عن تأثيرها، من قولك : أكدى حافر الفرس، إذا بلغ الـكُدْية، وهى الأرض الصُّلبة ، فلا يمكنه أنْ يحفر .

ولا تُشوِى أحدا : لا تخطئ المَقتَـل وتصيب غيره ؛ وهو الشَّوَى ، والشوى : الأطراف ، كاليد والرجل .

قال : لا تردّ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه ، ولا عن فقير لطمْره ، والطِّمْر : الثوب الخلَق .

و «ما» فى قوله : « وعن ذلك ما حرس الله» زائدة مؤكدة ، أى وعن هذه المكايد التى هى البغى والظلم والـكِبْر حرَس الله عباده ، ف «عن» متعلقة ب «حرس» . وقال الراوندى : يجوز أن تـكون مصدرية ، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء ، وخبر المبتدأ قوله : « لما فى ذلك ». وقال أيضاً : يجوز أن تـكون نافية ، أى لم يحرس الله عباده عن ذلك إلجاء وقهراً ، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم ، والوجه الأول باطل ، لأن « عن » على هذا التقدير تـكون من صلة المصدر ، فلا يجوز تقديمها عليه ، وأيضاً فإنّ لمـا فى ذلك لو كان هو الخبر ، لتعلّق لام الجر بمحذوف ، فيكون التقدير : حراسة الله لعباده عن ذلك كائنة لمـا فى ذلك من تعفير الوجوه بالتراب ؛ وهذا كلام غير مُفِيد ولا منتظم إلاّ على تأويل بعيد لا حاجة إلى تسفه ، والوجه الثانى باطل ، لأنّ سيـاقة الـكلام تدلّ على فسـاده ، ألا ترى قوله : «تسكينا وتخشيعا» ، وقوله : « لما فى ذلك من كذا »، وهذ كلُّه تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفى المعدوم .

ثم بيّن عليه السلام الحـكمة فى العبادات ، فقال : إنه تعالى حرَس عباده بالصلوات

التى افترضها عليهم من تلك المكايد ، وكذلك بالزكاة والصوم ليسكّن أطرافهم ، ويخشّع أبصارهم ، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلّة للحراسة ، ونصب اللفظات على أنّها مفعول له .

ثم علل السكون والخشوع الذى هو علّة الحراسة لما فى الصلاة من تعفير الوجه على التراب ، فصار ذلك علّة العلة . قال : وذلك لأن تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعا يوجب هَضْم النفس وكسرها وتذليلها .

وعتاق الوجوه : كرائمها .

وإلصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والاستسلام ، والجوع فى الصوم الذى يلحق البطن فى المتن يقتضى زوال الأَشَر والبطَر ، ويوجب مذلّة النفس وقمْعها عن الانهماك فى الشهوات ، وما فى الزكاة من صَرْف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجبُ تطهيرَ النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمحُ به النفوس من الأموال ، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات ، ففى ذلك كلّه دفع مكايد الشيطان .

وتخفيض القلوب : حطها عن الاعتلاء والتيه .

والخُيَلاء : التكبّر . والمسكنة : أشدّ الفقر فى أظهر الرأيين . والقَمْع القهر .

والنواجم : جمع ناجمة ، وهى مايظهر و يطلع من الكبر وغيره .

والقَدْع ، بالدال المهملة : الكفّ ، قدعت الفرس ، وكبحته باللجام ، أى كففته .

والطوالع ، كالنواجم .

***

الأَصْلُ :

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ ٱلْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ. وَأَمَّا ٱلْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ ٱلْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

فَإِنْ كَانَ لَابُدَّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ ٱلْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ ٱلْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ ٱلْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا ٱلْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ ٱلْعَرَبِ، وَيَعَاسِيبِ ٱلْقَبَائِلِ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيبَةِ، وَٱلْأَحْلَامِ ٱلْعَظِيمَةِ، وَٱلْأَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ، وَٱلْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ.

فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ ٱلْحَمْدِ مِنَ ٱلْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَٱلْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَٱلْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَٱلْكَفِّ عَنِ ٱلْبَغْيِ، وَٱلْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَٱلْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَٱلْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَٱجْتِنَابِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ.

***

الشَّرْحُ :

قد روى : « تحتمل » بالتاء، وروى « تحمل »، والمعنى واحد.

والتمويه: التلبيس من موّهت النّحاس، إذا طليته بالذهب ليخفى.

ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط، أي التصق.

والمترَف : الذي أطغته النعمة.

وتفاضلت فيها ، أى تزايدت .

والمُجداء : جمع ماجد ، والمجْد الشرف فى الآباء ، والحسب والكرم يكونان فى الرّجل وإن لم يكونا فى آبائه . هكذا قال ابنُ السّكّيت ، وقد اعترِض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾[1] على قراءة مَنْ رفع ، والله سبحانه يتعالى عن الآباء ، وقد جاء فى وصف القرآن المجيد ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾[2] .

والنُّجداء : الشجعان ، واحدهم نَجِيد ، وأمّا نَجِد ونَجُد ، بالكسر والضم ، فجمعه أنجاد ، مثل يَقِظ وأيقاظ .

و بيوتات العرب : قبائلها . و يعاسيب القبائل : رؤساؤها ، واليَعسوب فى الأصل : ذكَر النحل وأميرها .

والرغيبة : الخصلة يُرغَب فيها .

والأحلام : العقول . والأخطار : الأقدار .

ثم أمرهم بأن يتعصبّوا لخلال الحمد وعددها ، وينبغى أن يحمل قوله عليه السلام : « فإنكم تتعصّبون لأمر مايعرف له سبب ولا علّة » ، على أنّه لا يعرف له سبب مُناسب ، فكيف يمكن أن يتعصّبوا لغير سبب أصلا !

وقيل : إنّ أصل هذه العصبية ، وهذه الخطبة ؛ أنّ أهلَ الكوفة كانوا قد فسدُوا فى آخر خلافة أمير المؤمنين ، وكانوا قبائلَ فى الكوفة ، فكان الرّجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى ، فينادِى باسم قبيلته : ياللنَّخَع ! مثلا ، أو ياللكِندة ! نداء عالياً يقصد به الفتنة و إثارة الشرّ ، فيتألّب عليه فتيان القبيلة التى مر بها فينادون : ياللتميم !

---

(١) سورة البروج ١٥ (٢) سورة البروج ٢١

وبالرَّبيعة ! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضى إلى قبيلته فيستصرخها ، فتُسلُّ السيوف وتثور الفِتَن ، ولا يكون لها أصل فى الحقيقة إلّا تعرُّض الفِتْيان بعضهم ببعض .

***

الأصل :

وَٱحْذَرُوا مَانَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ ٱلْأَفْعَالِ ، وَذَمِيمِ ٱلْأَعْمَالِ . فَتَذَكَّرُوا فِى ٱلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ ، وَٱحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ؛ فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِى تفَاوُتِ حَالَيْهِمْ ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ ٱلْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ ، وَزَاحَتِ ٱلْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ، وَمُدَّتِ ٱلْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَٱنْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَوَصَلَتِ ٱلْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ ؛ مِنَ ٱلِاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ ، وَٱللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا ، وَالتَّوَاصِى بِهَا .

وَٱجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ؛ مِنْ تَضَاغُنِ ٱلْقُلُوبِ ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ ، وَتَخَاذُلِ ٱلْأَيْدِى .

***

الشرح :

المَثُلات : العُقوبات .

وذميم الأفعال : مايذمّ منها .

وتفاوت حاليْهم : اختلافهما . وزاحت الأعداء : بعدت . وله ، أى لأجله .

والتحاضّ عليها : تفاعل يستدعى وقوعَ الحضّ ، وهو الحثّ من الجهتين ، أى يحثّ بعضهم بعضاً .

والفِقْرة: واحدة فِقَر الظّهر ، و يقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة : قد كُسرت فِقرته .

والمُنّة : القوّة .

وتضاغُن القلوب وتشاحنها واحد . وتخاذل الأيدى : ألّا ينصُر النّاس بعضهم بعضا .

***

الأصْـلُ :

وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ ؛ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلَاءِ ! أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً ، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً ، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا ! اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ ؛ لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ ، وَالِاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً ، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً ، وَأَئِمَّةً أَعْلَاماً ، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ ، مَا لَمْ تَذْهَبِ الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ .

***

الشّـرْحُ :

تدبّروا ، أى تأمّلوا . والتّمحيص : التطهير والتصفية .

والأعباء : الأثقال ، واحدها عِبْء .

وأجهد العباد : أتعبهم .

والفراعنة : العُتاة ، وكلّ عاتٍ فرعون .

وساموهم سوء العذاب : ألزموهم إيّاه ؟ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾(١) .

والمُرار : بضمّ الميم : شجر مرٌّ فى الأصل ، واستعير شرب المُرار لكلّ مَنْ يلقى شديد المشقّة .

ورأى الله منهم جدّ الصبر ، أى أشدّه .

وأئمة أعلاما ، أى يُهتدَى بهم ، كالعَلَم فى الفَلَاة .

* * *

الأصل :

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً ، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً ، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَالْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً . أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرَضِينَ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ !

فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ ، وَتَشَتَّتَتِ الْأُلْفَةُ ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ ؛ تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ .

* * *

الشرح :

الأملاء : الجماعات ، الواحد ملأ .

---

(١) سورة البقرة ٤٩

ومترادفة : متعاونة . البصائر نافذة ، يقال: نفذت بصيرتى فى هذا الخبر ، أى اجتمع همّى عليه ، ولم يبق عندى تردّد فيه ، لعلمى به وتحقيق إياه .

وأقطار الأرَضين : نواحيها ، وتشتّتت. تفرّقت .

وتشعّبوا : صاروا شُعوبا وقبائل مختلفين .

وتفرّقوا متحزّبين : اختلفوا أحزابا ، وروى : « متحاز بين » .

وغضارة النّعمة : الطيِّب اللّيِّن منها .

والقَصَصُ : الحديث .

يقول : انظروا فى أخبار مَنْ قبلكم من الأمم ، كيف كانت حالهم فى العزّ والمُلْك لمّا كانت كلمتُهم واحدة ، وإلى ماذا آلتْ حالهم حين اختلفت كلمتُهم ! فاحذروا أن تكونوا مثلَهم ، وأن يحلّ بكم إن اختلفتم مثل ماحلّ بهم .

***

الأصْلُ :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ !

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفَاقِ ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا ، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ ، وَمَهَافِي الرِّيحِ ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ ؛ فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ . أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً ، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً ، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا ، فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ ؛ فِي بَلَاءِ أَزْلٍ ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ ؛ مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ .

***

الشرح :

لقائل أن يقول : مانعرف أحداً من بنى إسحاق و بنى إسرائيل احتازتْهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشِّيح ، إلاّ أن يقال : يهود خيبر والنَّضير و بنى قُرَيظة و بنى قَيْنُقَاع ، وهؤلاء نفرٌ قليل لا يعتدّ بهم . و يُعلَم من فَحْوَى الخطبة أنّهم غيرُ مرادين بالكلام ، ولأنّه عليه السلام قال : تركوهم إخوان دَبَر وَوَبَر ، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبَر والدَّبَر ، بل من أهل المَدَر ؛ لأنهم كانو ذوِى حصون وآطام . والحاصل أنّ الذين احتازتْهم الأكاسرة والقياصِرة من الرّيف إلى البادية ، وصاروا أهل وَبَر ولدُ إسماعيل؛ لا بنو إسحاق و بنو إسرائيل !

والجواب أنه عليه السلام ذكر فى هذه الكلمات ، وهى قوله : « فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبنى إسحاق و بنى إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعاً » ؛ أما المقهورون فبنو إسماعيل، وأما القاهرون فبنو إسحاق و بنو إسرائيل، لأن الأكاسرة من بنى إسحاق ؛ ذكر كثير من أهل العلم أنّ فارس من ولد إسحاق ، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً ، لأنّ الرّوم بنو العِيص بن إسحاق ، وعلى هذا يكون الضمير فى «أمرهم» ، و « تشتتهم » و « تفرقهم » يرجع إلى بنى إسماعيل خاصة .

فإن قلت : فبنو إسرائيل ، أىّ مدْخلٍ لهم هاهنا ؟

قلت : لأنّ بنى إسرائيل لمّا كانوا ملوكاً بالشّام فى أيام أجاب الملك وغيره ، حاربوا العرب من بنى إسماعيل غير مرّة ، وطردوهم عن الشام ، وألجئوهم على المقام ببادية الحجاز . و يصير تقدير الكلام : فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بنى إسحاق و بنى إسرائيل ؛ فجاء بهم فى صدر الكلام على العموم ، ثم خصّص فقال : الأكاسرة والقياصرة ؛ وهم داخلون فى عموم ولد إسحاق ، و إنما لم يخصّص عموم بنى إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك

ولد يعقوب ، فيذكر لهم أسماءهم فى الخطبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بنى ساسان ومن بنى الأصفر .

* * *

قوله عليه السلام « فما أشدّ اعتدال الأحوال ! » ، أى ما أشبه الأشياء بعضها ببعض ! وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم .

قوله : « يحتازونهم عن الريف » يبعدونهم عنه ، والريف : الأرض ذات الخِصْب والزّرع ، والجمع أرياف ؛ ورافت الماشية أى رعت الرِّيف ، وقد أرفنا أىْ صرنا إلى الريف ، وأرافت الأرض أى أخصبت ، وهى أرض ريِّفة ، بتشديد الياء .

وبحر العِراق : دجلة والفرات ، أمّا الأكاسرة فطردُوهم عن بَحْر العراق ، وأما القياصرة فطردُوهم عن ريف الآفاق ، أى عن الشام وما فيه من المرعَى والمنتجَع .

قوله عليه السلام : « أربابًا لهم » ، أى ملوكًا ، وكانت العرب تسمِّى الأكاسرة أربابًا ، ولمّا عظم أمر حُذَيفة بن بدر عندهم سمّوه ربَّ مَعَدّ .

ومنابت الشِّيح : أرض العرب ، والشِّيحُ : نَبْت معروف .

ومَهافِى الريح : المواضع التى تهفو فيها ، أى تهبّ وهى الفيافى والصحارى .

ونَكَد المعاش : ضيقه وقلّته .

وتركوهم عالَةً ، أى فقراء ، جمع عائل ، والعائل ذو العَيْلة ، والعَيْلة : الفقر ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[1] ، قال الشاعر :

تُعَيِّرنا أننــا عالةٌ صَعَاليكُ نحن وأنتمْ ملوكُ

---

(١) سورة التوبة ٢٨

نظيره قائد وقادة ، وسائس وساسة .

وقوله : « إخْوانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ » الدَّبَر مصدر دَبِر البعيرُ ، أى عقره القَتَب . والوبَر للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز .

قوله : « أذلّ الأمم دارا » ؛ لعدم المعاقل والحصون المنيعة فيها .

وأجدبهم قرارا ، لعدم الزَّرع والشجر والنخل بها . والجدْب : المحْل .

ولا يأوون : لا يلتجئون ولا ينضمّون .

والأزْل : الضِّيق . وأطباق جهل : جمع طَبَق ،أى جَهْل متراكم بعضُه فوق بعض .

وغارات مشنونة : متفرّقة ، وهى أصعب الغارات .

***

[فصل فى ذكر الأسباب التى دعت العرب إلى وأد البنات

مِنْ بنات موءودة ؛ كان قومٌ من العرب يئِدُون البنات ، قيل : إنهم بنو تميم خاصّة ، وإنه استفاض منهم فى جيرانهم . وقيل : بل كان ذلك فى بنى تميم ، وقيس ، وأسد ، وهُذَيل ، وبكر بن وائل ، قالوا : وذلك أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دعا عليهم ، فقال : « اللهمّ اشدد وطأتك على مُضَر ، واجعل عليهم سنين كسِنِي يوسفَ » ، فأجدَبُوا سبع سنين حتى أكلوا الوَبَر بالدم ، وكانوا يسمُّونه العِلْهِز ، فوأدوا البناتِ لإملاقهم وفقرهم ، وقد دلّ على ذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ [1] ، قال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ [2] .

وقال قوم : بل وأدوا البنات أنَفَةً ، وزعموا أنّ تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من

---

(١) سورة الإسراء ٣١ (٢) سورة الممتحنة ١٢

السنين ، فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر ، وجُلّ مَنْ معه من بَكْر بن وائل ، فاستاق النَّعَم وسَبَى الذرارِيّ ، وفى ذلك يقول بعض بنى يَشْكُر :

لمّا رأوْا رايةَ النُّعمان مقبِـــلةً ... قالوا : ألَا لَيْتَ أدْنَى دارِنا عَـدَنُ !
ياليتَ أمّ تميمٍ لم تـكن عَرَفَتْ ... مُرًّا ، وكانت كمن أودَى به الزّمَنُ
إنْ تَقْتُـلونا فأعيارٌ مخـــدّعةٌ ... أو تُنعِموا فقــديماً منكم المِنَنُ
منكم زُهَـــيرٌ وعتّاب ومحتضِنٌ ... وابنا لَقِيطٍ وأوْدى فى الوغَى قَطَنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان ، واستعطفوه ، فرقّ عليهم ، وأعاد عليهم السَّبْى ، وقال : كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلّهن اخترن آباءهنّ ، إلّا ابنةَ قيس بن عاصم ، فإنهـا اختارت مَنْ سباها ، وهو عمرو بن المشمرخ اليشكريّ ، فنذر قيس بن عاصم المِنقريّ التميمىّ ألّا يولد له بنت إلا وأدها ، والوأد أن يخنُقها فى التّراب ويُثقِل وجهها به حتى تموت ، ثم اقتدى به كثير من بنى تميم ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] ، أى على طريق التبكيت والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه ، كما قال سبحانه : ﴿ ياعيسَى بنَ مريمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ[2] ﴾ .

ومن جيّد شعر الفرزدق قوله فى هجاء جرير :

ألَمْ ترَ أنّا بَنِى دارِمٍ ... زُرارة مِنّا أبو مَعْبَـــدِ[3]
ومنّا الّذى منع الوائـــداتِ ... وأحيا الوليـــدَ فلم يُوأَدِ[4]
ألسنا بأصحاب يوم النِّـــسارِ ... وأصحاب ألوِيَةِ المِرْبَدِ

---

(١) سورة التكوير ٨ ، ٩
(٢) سورة المائدة ١١٦
(٣) ديوانه ٢٠٢ ، ٢٠٣
(٤) يعنى جدّه صعصعة بن ناجية .

أليسَ الّذين تميمٌ بهمْ | تَسامَى وتفخر فى المشهَدِ !
وناجية الخير والأقرَعا | نِ وقبرٌ بكاظمة المَوْرِدِ (١)
إذا ما أتى قبرَه عائذٌ | أناخ على القبرِ بالأسْعَدِ (٢)
أيطلب مجد بنى دارمٍ | عطيّةُ كالجُعَل الأسْودِ !
قُرَنْبَى يَحُكُّ قَفَا مُقْرِفٍ | لئيمٍ مآثره قُعْدُدِ (٣)
ومجد بنى دارم فوقَهُ | مكان السِّماكَيْن والفَرْقَدِ

وفى الحديث : أنّ صَعصعة بن ناجية بن عِقال لمّا وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : يارسولَ الله ، إنّى كنتُ أعملُ فى الجاهليّة عملا صالحا ، فهل ينفعنى ذلك اليوم ؟ قال عليه السلام : وما عملت ؟ قال : ضَلّت ناقتين عُشَرَاوين ، (٤) فركبت جَمَلا ومضيت فى بُغائهما (٥) ، فرفع لى بيت حَريد (٦) ، فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفنائه فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما (٧) ؟ قلت : مِيسم بنى دارم ، قال : هما عندى ، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مُضَر ، فجلست معه ليخرجهما إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت ، فقال لها : ما وضعتْ ، فإن كان سَقْباً (٨) شاركنا فى أموالنا ، وإن كان حائلا (٩) وَأَدْناها ، فقالت العجوز: وضعت أنثى ، فقلت له : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادَها ! قلت: إنّما أشترى حياتَها ، ولا أشترى رقّها ، قال ؛ فبكم ؟ قلت : احتَكِم ، قال : بالناقتين والجمل ، قلت: ذاك لك على أن يبلغنى الجمل وإياها ! قال : بعتُك ، فاستنقذتها

(١) ناجية ؛ هو ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . والأقرعان : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال .
(٢) الأسعد : نجم طالعه سعد .
(٣) القرنبى : ضرب من الخنافس أرقط طويل القوائم ، والقعدد : اللئيم الآباء .
(٤) العشراء من النياق : التى مضى لحملها عشرة أشهر ، كالنفساء .
(٥) فى بغائهما : فى طلبهما . (٦) الحريد : المعتزل المتنحى .
(٧) فى النهاية واللسان : ما ناراهما ؛ والنار هنا : السمة بالمكوى ؛ سميت باسم النار .
(٨) السقب : ولد الناقة ساعة يولد ؛ وهو خاص بالذكر .
(٩) الحائل : الأنثى من ولد الناقة ساعة تولد ؛ ولا يقال : « سقبة » .

منه بالجمل والناقتين ، وآمنت بك يارسول الله ، وقد صارتْ لى سنّة فى العرب أن أشترى كلّ موءودَة بناقتين عُشَراوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتهنّ ، فقال عليه السلام: «لا ينفعك ذاك لأنك لم تبتغ به وجهَ الله ، وإنْ تعمل فى إسلامك عملاً صالحا تثب عليه»(١).

وروى الزُّبير فى ‹‹ الموفقيّات ›› أنّ أبا بكر قال فى الجاهليّة لقيس بن عاصم المِنقرىّ : ماحملك على أن وأدت ؟ قال : مخافة أن يخلف عليهن مثلك .

***

الأصلُ :

فَانظُروا إلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولًا ، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِى عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا ، فَأَصْبَحُوا فِى نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ ، وَفِى خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَاكِهِينَ ؛ قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ ، فِى ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ ، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِى ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ ؛ فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمُلُوكٌ فِى أَطْرَافِ الْأَرَضِينَ ، يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ ، لَا تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ ، وَلَا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ .

***

الشّرحُ :

لمّـا ذكر ما كانت العرب عليه من الذلّ والضّيْم والجهل ، عاد فذكر ما أبدل الله

---

(١) انظر الفائق ٣ : ١٣٣

به حالهم ، حين بعث إليهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فعقد عليه طاعتهم كالشئ المنتشر المحلول ، فعقدها بملة محمد صلى الله عليه وآله .

والجداول : الأنهر .

والتفّت الملة بهم ، أى كانوا متفرّقين فالتفّت ملّة محمّد بهم ، أى جمعتهم ، ويقال : التفّ الحبل بالحطَب ، أى جمعه ، والتفّ الحطب بالحبل ، أى اجتمع به .

و«فى» فى قوله : « فى عوائد بركتها » متعلّقة بمحذوف ؛ وموضع الجار والمجرور نصب على الحال ، أى جمعتهم الملة كائنةً فى عوائد بركتها ، والعوائد : جمع عائدة ، وهى المنفعة . تقول: هذا أعْوَدُ عليك ، أى أنفع لك . وروى : « والتقت الملة » بالقاف أى اجتمعت بهم ، من اللقاء . والرواية الأولى أصح .

وأصبحوا فى نعمتها غرقين ، مبالغة فى وصف ماهم فيه من النعمة .

وفاكهين : ناعمين . وروى «فكهين» أى أشِرين ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾(١) وقال الأصمعىّ : فاكهين : مازحين ، والفاكهة المازحة ، ومن أمثالهم : « لا تفاكِهْ أمَة ، ولا تَبُلْ عَلَى أكَمة » ؛ فأما قوله تعالى : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾(٢) ، فقيل : تندمون ، وقيل : تعجبون .

و«عن» فى قوله : « وعن خضرة عيشها » متعلّقة بمحذوف ، تقديره : فأصبَحوا فاكهين فكاهة صادرة عن خضرة عيشها ، أى خضرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمُزاح عنه .

وتربعت الأمور بهم ، أى أقامت ، من قولك : ربَع بالمكان ، أى أقام به .

---

(١) سورة الدخان ٢٧

(٢) سورة الواقعة ٦٥

وآوتهم الحال؛ بالمدّ أى ضمتهم وأنزلتهم ، قال تعالى : ﴿ آوَى إليه أخاه[1] ﴾، أى ضمّه إليه وأنزله ، ويجوز «أوتهم» بغير مدّ. أفعلت فى هذا المعنى وفعلت واحد؛ عن أبى زيد.

والكَنَف :الجانب ، وتعطّفت الأمور عليهم : كناية عن السيادة والإقبال ، يقال :قد تعطّف الدّهر على فلان ، أى أقبل حظّه وسعادته ، بعد أنْ لم يكن كذلك .

وفى ذُرَا مُلْكٍ : بضم الذال أى فى أعاليه ، جمع ذروة ، ويكنى عن العزيز الذى لا يُضام ، فيقال : لا يغمز له قناة،أى هو صلب . والقناة إذا لم تلن فى يد الغامز كانت أبعدَ عن الحطم والكَسْر .

ولا تُقْرع لهم صفاة؛ مثَل يضرب لمن لا يطمع فى جانبه لعزّته وقوّته .

***

الأصْلُ :

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ ، وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ ٱللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱمْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ؛ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هٰذِهِ ٱلْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا ، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً ، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ ٱلْهِجْرَةِ أَعْرَاباً ، وَبَعْدَ الْمُوَالَاةِ أَحْزَاباً ، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَّا بِٱسْمِهِ ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ ، تَقُولُونَ : النَّارَ وَلَا ٱلْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا ٱلْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ ٱنْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ ٱللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ ، وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ .

وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ ٱلْكُفْرِ ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلَ

---

(١) سورة يوسف ٦٩ .

وَلَا مِيكَائِيلَ، وَلَا مُهَاجِرِينَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ، إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي!

***

الشَّرْحُ:

نفضتم أيديكم: كلمة تقال فى اطّراح الشيء وتركه، وهى أبلغ من أن تقول: تركتم حبلَ الطاعة، لأنّ مَنْ يخلي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدّ تخلية له ممن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط، لأن نفضها إشعار وإيذان بشدّة الاطّراح والإعراض.

والباء فى قوله: «بأحكام الجاهليّة» متعلقة بـ «ثلمتُم»، أى ثلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التى حكمتم بها فى ملّة الإسلام.

والباء فى قوله: «بنعمة لا يَعرِف»، متعلقة بـ «امتنّ». و«فى» من قوله «فيما عقد» متعلّقة بمحذوف، وموضعها نصب على الحال، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(١). وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٢).

وروى: «تتقلّبون فى ظلها».

(١) سورة الأنفال ٦٣

(٢) سورة آل عمران ٧٩

قوله: « صرتم بعد الهجرة أعرابا »؛ الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مَنْ آمن به من أهل البادية، ولم يهاجر إليه، وهم ناقصو المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحّشهم، ونشئهم فى بُعْدٍ من مخالطة العلماء، وسماع كلام الرسول صلى الله عليه وآله، وفيهم أنزل: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾[١]؛ وليست هذه الآية عامة فى كلّ الأعراب بل خاصّة ببعضهم، وهم الّذين كانوا حول المدينة، وهم جُهينة، وأسلم، وأشجع، وغِفَار، وإليهم أشار سبحانه بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾[٢]. وكيف يكون كلُّ الأعراب مذموما، وقد قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ ٱللَّهِ ﴾[٣]، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل.

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصْلَبِيّ[٤] ... أَرْوَعَ خَرَّاجٍ من الدَّوِّيِّ[٥]

* مهاجر ليس بأعرابى[٦] *

وقال عثمان لأبى ذرّ: أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابيًّا.

وروى: « ولا يعقلون من الإيمان ».

وقولهم: « النارَ ولا العارَ »، منصوبتان بإضمار فعل، أى ادخلوا النار ولا تلتزموا العار، وهى كلمة جارية مجرى المثل أيضا، يقولها أرباب الحميّة والإباء، فإذا قيلت فى حقٍّ كانت صوابا، وإذا قيلت فى باطل كانت خطأ.

وأكفأت الإناء وكفأته: لغتان، أى كببتُه.

---

(١) سورة التوبة ٩٧

(٢) سورة التوبة ١٠١

(٣) سورة التوبة ٩٩

(٤) العصلبى: الشديد الخلق.

(٥) أروع: أى ذكىّ. يقول: خرّاج من كل غماء شديدة، ويقال للصحراء: دوّيّة، وهى التى لا تكاد تنقضى، منسوبة إلى الدوّ، والدوّ: صحراء ملساء لا علم بها.

(٦) الكامل للمبرد ١: ٣٨١ (طبعة نهضة مصر).

قوله : « ثم لاجبرائيلَ ولا ميكائيلَ ولامهاجرين » ، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة ، كقولهم : معضلة ولا أبا حسن لها . قال الراجز :

* لا هيثمَ الليلة للمطيّ *

وقد روى بالرفع فى الجميع .

والمقارعة منصوبة على المصدر . وقال الراوندى : هى استثناء منقطع ، والصواب ما ذكرناه ، وقد روى : « إلّا المقارعةُ » بالرفع ، تقديره : ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة .

والأمثال التى أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هى ما تضمّنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١) .

والتناهى : مصدر تناهى القوم عن كذا ، أى نهى بعضهم بعضا ، يقول : لعن الله الماضين من قبلكم ،لأنّ سفهاءهم ارتكبوا المعصية ، وحلماءهم لم ينهوهم عنها ،وهذا من قوله تعالى:﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

* * *

الأصل :

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ .

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ ،

---

(١) سورة إبراهيم ٤٥ (٢) سورة المائدة ٧٩

وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ؛ وَلَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ ، لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّرًا .

* * *

الشَّرْحُ :

قد ثبت عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال له عليه السلام : « ستقاتلُ بعدِي النّاكثين والقاسطين والمارقين » ، فكان النّاكثون أصحابَ الجمل ، لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام ، وكان القاسطون أهلَ الشّام بصفّين ، وكان المارقون الخوارجَ في النّهروان ، وفي الفرق الثلاث ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (٢) ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « يخرج من ضِئْضِئ هذا قوم يمرُقون من الدين كما يمرق السّهم من الرميّة ؛ ينظر أحدكم في النّصل فلا يجد شيئا ، فينظر في الفُوق (٣) ، فلا يجد شيئا ، سبق الفرث والدم » . وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب .

وأمّا شيطانُ الرَّدْهة ، فقد قال قوم : إنّه ذُو الثُّدَيّة صاحب النّهروان ، ورووْا في ذلك خبرا عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وممّن ذكر ذلك واختاره الجوهريّ صاحب "الصّحاح (٤)" ، وهؤلاء يقولون : إنّ ذا الثُّدَيّة لم يقتَلْ بسيف ، ولكنّ الله رماه يوم النّهروان بصاعِقة ، وإليها أشار عليه السلام بقوله : « فقد كُفيته بصَعْقة سمِعت لها وَجْبَة

---

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الجن ١٥

(٣) الفوق : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

(٤) الصحاح ٨ : ٢٢٣٢ ، وفيه : قال الخليل : الردهة : شبه أكمة كثيرة الحجارة . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ذكر المقتول بالنهروان ، فقال : « شيطان الردهة » .

قلبه » ، وقال قوم : شيطان الرَّدْهة أحد الأبالسة المَرَدَة من أعوان عدوّ الله إبليس ، ورووْا فى ذلك خبرا عن النبىّ صلى الله عليه وآله ، وأنّه كان يتعوّذ منه . والرَّدْهة : شبه نُقْرة فى الجَبَل يجتمع فيها الماء ، وهذا مثل قوله عليه السلام : « هذا أزبّ العقبة » ، أىْ شيطانُها ، ولعلّ أزبّ العَقَبة هو شيطان الرَّدْهة بعينه ، فتارة يردُ بهذا اللّفظ ، وتارة يردُ بذلك اللفظ . وقال قوم :شيطان الرَّدْهة ماردٌ يتصوّر فى صورة حيّة،ويكون عَلَى الرَّدْهة. وإنما أخذوا هذا من لَفْظة « الشيطان » لأنّ الشيطان الحيّة ، ومنه قولهم : شيطان الحماطة، والحماطة شجرة مخصوصة ، ويقال : إنها كثيرة الحيّات .

قوله : « ويتشذّر فى أطراف الأرض » ، يتمزّق ويتبدّد ، ومنه قولهم : ذهبُوا شَذَرَ مَذَر .

والبقيّة التى بقِيَتْ من أهل البغى : مُعاوية وأصحابه ، لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم ، وإنّما وقفت الحربُ بينه وبينهم بمكيدة التحكيم .

قوله عليه السلام : « ولئن أذنَ الله فى الكَرّة عليهم » ، أى إن مُدّ لى فى العمر لأديلنّ منهم ، أى لتكوننّ الدّوْلة لى عليهم ، أدلت من فلان أى غلبته وقهرته ، وصرت ذَا دولةٍ عليه .

***

[استدلال قاضى القضاة على إمامة أبى بكر وردّ المرتضى عليه]

واعلم أن أصحابنا قد استدلوا على صحّة إمامة أبى بكر بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ (١) ﴾ ثم قال قاضى القضاة فى المغنى : وهذا خبر من الله تعالى ، ولابدّ أن يكون كائنا على ماأخبر به ، والذين قاتلوا المرتدّين هم أبو بكر وأصحابه ، فوجب أن يكونوا هم الّذين عنَاهم الله سبحانه بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وذلك يوجب أن يكونوا على صواب .

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج فى " الشافى " فقال : من أينَ قلت : إنّ الآية نزلتْ فى أبى بكر وأصحابه ؟ فإن قال : لأنّهم الّذين قاتلوا المرتدّين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا أحدَ قاتلهم سواهم ، قيل له : ومَنِ الّذى سلّم لك ذلك ؟ أوَ ليس أميرُ المؤمنين عليه السلام قد قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدّون عن الدين ؟ و يشهد بصحّة التأويل زائدا على احتمال القول له ، مارُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة : والله ماقوتل أهلُ الآية حتى اليوم ، وتلاها ، وقد رُوى عن عمّار وحُذيفة وغيرهما مثل ذلك .

فإن قال : دليلى على أنّهـا فى أبى بكر وأصحابه قولُ أهل التفسير ، قيل له : أوَ كلّ أهل التفسير قال ذلك ؟ فإن قال : نعم ، كابَر لأنّه قد رُوى عن جماعةٍ التأويل الذى ذكرناه ، ولو لم يكن إلّا مارُوِى عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين ذكرناهم لكفى ، و إن قال: حجّتى قولُ بعض المفسرين ، قلنا : وأىّ حجّة فى قول البعض ! ولم صار البعضُ الّذى قال ما ذكرت أوْلَى بالحقّ من البعض الذى قال ماذكرنا !

ثم يقال له : قدْ وجدْنا الله تعالى قد نعت المذكورين فى الآية بنعوت يجب أن

(١) سورة المائدة ٥٤

نزاعيها ، لنعلم أفى صاحبنا هى أم فى صاحبك ! وقد جعله الرّسولُ صلى الله عليه وآله فى خَيْبر حينَ فرّ مَنْ فرّ من القوم عن العدوّ صاحب هذه الأوصاف ، فقال : لأعطينَ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسولَه ، ويحبّه الله ورسولُه ، كرّارا غير فرّار ؛ فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

ثم قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴾[1] ، يقتضى ماذكرنا ، لأنه من المعلوم بلا خلاف حالُ أمير المؤمنين عليه السلام فى التّخاشع والتواضع ، وذمّ نفسه ، وقمع غضبه ، وأنه مارُئى قطّ طائشاً ولا متطيّرا فى حالٍ من الأحوال ، ومعلوم حال صاحبَيْكم فى هذا الباب ، أمّا أحدُهما فإنه اعترف طوعاً بأنّ له شيطانا يعتريه عند غضبه ، وأمّا الآخر فكان معروفاً بالجدّ والعجلة ، مشهورا بالفظاظة والغِلظة ، وأما العزّة على الكافرين ، فإنما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم ، وهذه حالٌ لم يسبق أميرَ المؤمنين عليه السلام إليها سابق ، ولا لحقه فيها لاحق .

ثم قال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾[1] ، وهذا وصفُ أمير المؤمنين المستحقّ له بالإجماع ، وهو منتفٍ عن أبى بكر وصاحبه إجماعا ، لأنه لا قتيل لهما فى الإسلام ، ولا جهاد بين يدى الرّسُول صلّى الله عليه وآله ، وإذا كانت الأوصاف المراعاة فى الآية حاصلة لأمير المؤمنين عليه السلام ، وغير حاصلة لمن ادّعيتم ، لأنها فيهم على ضربين : ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد ، وضَرْب مختلَف فيه كالأوصاف التى هى غير الجهاد ، وعلى مَنْ أثبتها لهم الدّلالة على حصولها ، ولا بدّ من أن يرجع فى ذلك إلى غير ظاهر الآية ، لم يبق فى يده من الآية دليل .

هذه جُملة ماذكره المرتضى رحمه الله ، ولقد كان يمكنه التخلّص من الاحتجاج بالآية

---

(١) سورة المائدة : ٥٤

على وجهٍ ألطفَ وأحسن وأصحَّ مما ذكره ، فيقول : المراد بها مَن ارتدَّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة الأسود العنسيّ باليمن ، فإنَّ كثيرا من المسلمين ضلّوا به وارتدّوا عن الإسلام ، وادّعوا له النبوّة ، واعتقدوا صدقَه ، والقوم الّذين يحبّهم الله ويحبونه : القوم الّذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله ، والفتك به ، وهم فيروز الديلميّ وأصحابُه . والقصّة مشهورة .

وقد كان له أيضاً أن يقول:لم قلت : إنَّ الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابُه كانوا مرتدّين! فإنَّ المرتدَّ من ينكر دينَ الإسلام بعد أن كان قد تديّن به ، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصلَ دينِ الإسلام ، وإنّما تأوّلوا فأخطئوا ؛ لأنهم تأوّلوا قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾[1] ؛ فقالوا : إنّما ندفع زكاة أموالنا إلى مَنْ صلاته سَكَنٌ لنا ، ولم يبق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مَنْ هُوَ بهذه الصفة ، فسقط عنّا وجوب الزكاة ، ليس هذا من الردّة في شيء ، وإنما سمّاهم الصحابة أهلَ ردّة على سبيل المجاز ، إعظاماً لما قالوه وتأوّلوه .

فإن قيل : إنّما الاعتمادُ على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيلمة وطُلَيحة اللّذَيْن ادّعيا النبوّة ، وارتدَّ بطريقهما كثيرٌ من العرب ، لا على قتال مانعي الزكاة !

قيل : إنَّ مُسَيلِمة وطُلَيحة جاهَدهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله قبل موته بالكُتُب والرّسل ، وأنفذ لقتلهما جماعةً من المسلمين ، وأمرهم أن يفتكوا بهما غِيلةً إن أمكنهم ذلك ؛ واستنفر عليهما قبائلَ من العرب ، وكلُّ ذلك مفصّل مذكور في كتب السِّيَر والتواريخ ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النفر الّذين بعثهم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله للفتك بهما ، هم المعنيّون بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ إلى آخر الآية ! ولم يقلْ في الآية : «يجاهدون

---

(١) سورة التوبة ١٠٣

فيقتلون » ، وإنّما ذكر الجهاد فقط ، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلا وإن لم يبلغوا الغرض ، كما كان الجهاد حاصلا عند حِصار الطائف وإنْ لم يبلغ فيه الغرض .

وقد كان له أيضا أن يقول : سياقُ الآية لا يدلّ على ماظنّه المستدِلّ بها ؛ من أنّه مَنْ يرتدد عن الدّين ، فإن الله يأتى بقوم يحبّهم ويحبّونه يحاربونه لأجل رِدّته ، وإنما الذى يدلّ عليه سياق الآية أنّه مَنْ يرتدّ منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله – وسمّاه ارتداداً على سبيل المجاز – فسوف يأتى الله بقوم يحبّهم ويحبّونه ، يجاهدون فى سبيل الله معه عِوَضاً عنكم ، وكذلك كان كلّ مَنْ خذَل النبىّ صلى الله عليه وآله وقعَد عن النهوض معه فى حروبه ، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه !

وأما قول المرتضى رحمه الله : إنها أنزلت فى النا كثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فبعيد ، لأنّهم لا يطلق عليهم لفظ «الردّة» عندنا ، ولا عند المرتضى وأصحابه ، أما اللّفظ فبالاتّفاق ، وإن سمّوهم كفارا . وأمّا المعنى فلأنّ فى مذهبهم أنّ من ارتدّ – وكان قد ولد على فطرة الإسلام – بانت امرأتُه منه ، وقسم ماله بين ورثته ، وكان على زوجته عدّة المتوفّى عنها زوجها ؛ ومعلوم أنّ أكثر محاربى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد وُلِدُوا فى الإسلام ، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام .

وقوله : « إنّ الصفات غير متحقّقة فى صاحبكم » ، فلَعمرى إنّ حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحظُّ الأوفى ، ولكن الآية ما خصّت الرئيس بالصّفات المذكورة ، وإنما أطلقها على المجاهدين ، وهم الذين يباشرون الحرب ؛ فهب أنّ أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات ، لم لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهدين أيديهما من المسلمين ، وباشر الحرب ، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الّذين فتحُوا الفتوح ، ونشروا الدّعوة ، وملكوا الأقاليم !

وقد استدلّ قاضي القضاة أيضا على صحة إمامة أبي بكر ؛ ــ وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي عليّ ــ بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾(٣) ، يعني قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٤) ، فبيّن أنّ الذي يدعو هؤلاء المخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولي بأس شديد غير النبيّ صلّى الله عليه وآله ، لأنّه تعالى قد بيّن أنّهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون معه عدوًّا ، بآية متقدّمة ، ولم يدعُهم بعد النبي صلى الله عليه وآله إلى قتال الكفّار إلا أبو بكر وعمر وعثمان ، لأنّ أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غيرَ وجهين من التأويل ، فقال بعضهم : عَنَى بقوله : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، بني حنيفة ، وقال بعضهم : عَنَى فارس والرّوم ؛ وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقتال آل فارس والروم ، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والرّوم عُمر ، فإذا كان الله تعالى قد بيّن أنهم بطاعتهم لهما يؤتهم أجرا حسنا ، وإن تولّوا عن طاعتهما يعذبهم عذابا أليما ، صحّ أنّهما على حقّ ، وأنّ طاعتهما طاعةٌ لله تعالى ، وهذا يوجب صحّة إمامتهما .

---

(١) سورة الفتح ١١
(٢) سورة التوبة ٨٣
(٣) سورة الفتح ١٥
(٤) سورة الفتح ١٦

فإن قيل : إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصِفّين !

قيل:هذا فاسد من وجهين : أحدُهما قوله تعالى : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام ، ولم يقاتلوا على الكفر .والوجه الثانى أنّا لانعرف مِن الذين عناهم الله تعالى بهذا مَنْ بقى إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام ، كما علمنا أنهم كانوا باقين فى أيام أبى بكر .

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين : أحدهما أنّه نازع فى اقتضاء الآية، داعياً يدعو هؤلاء المخلّفين غير النبى صلى الله عليه وآله ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَالَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۞ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (١) إنما أراد به سبحانه الذين تخلفوا عن الحُدَيبيَة بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسّرين.

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) ، وإنما التمس هؤلاء المخلّفون أن يخرجُوا إلى غنيمة خيبر ، فمنعهم الله تعالى من ذلك ، وأمر نبيّه أن يقول لهم : لن تتبعونا إلى هذه الغزاة ، لأنّ الله تعالى كان حكَم من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ، وأنه لا حظّ لمن لم يشهدها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ

---

(١) سورة الفتح ١١ ، ١٢

مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، وإنما أراد أنّ الرسولَ سيدعُوكم فيما بعد إلى قتال قوم ٍ أولى بأس ٍ شديد ، وقد دعاهم النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك إلى غزَوات كثيرة ، إلى قوم ٍ أولِي بأس ٍ شديد ، كمُؤتة وحُنَين وتَبُوك وغيرها ، فمن أين يجب أن يكونَ الداعي لهؤلاء غير النبي صلى الله عليه وآله ، مع ماذكرناه من الحروب التي كانت بعد خيبر !

وقوله : إن معنى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، إنّما أراد به مابيّنه فى قوله : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ ؛ بتبوك سنة تسع ، وآية الفتح نزلت فى سنة ستّ ، فكيف يكون قبلها !

وليس يجب أن يقال فى القرآن بالإرادة ، وبما يحتمل من الوجوه فى كلّ موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآي ِ، والأسباب التى وردت عليها ، وتعلّقت بها .

ومما يبيّن لك أنّ هؤلاء المخلّفين غيرُ أولئك لو لم نرجع فى ذلك إلى نقل وتاريخ ، قوله تعالى فى هؤلاء : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] ، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية ، بل ذكر الوعد والوعيدَ عَلَى مايفعلونه من طاعة أو معصية ، وحكم المذكورين فى آية سورة التوبة بخلاف هذه ، لأنه تعالى بعد قوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[2] ، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدلّ

---

(١) سورة الفتح : ١٦

(٢) سورة التوبة : ٨٣ ـ ٨٥ .

على اختلافهم ، وأنّ المذكورين فى آية سورة الفتح غيرُ المذكورين فى آية سورة التوبة .

وأما قوله : لأنّ أهلَ التأويل لم يقولوا فى هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرهما باطل ؛ لأنّ أهلَ التأويل قد ذكروا شيئا آخر لم يذكره ، لأنّ ابن المسيَّب روى عن أبى رَوْق عن الضحّاك فى قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ... ﴾ الآية ، قال : هم ثَقيف . وروى هُشَيم عن أبى يَسَر ، عن سَعيد بن جُبَير ، قال : هم هَوَازن يوم حُنَين .

وروى الواقدىّ ، عن معمر ، عن قتادة، قال : هم هوازن وثَقيف ، فكيف ذكر من أقوال المفسرين مايوافقه مع اختلاف الرواية عنهم ! على أنّا لا نرجع فى كلّ مايحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسِّرين ، فإنهم ربما تركوا مما يحتمله القول وجهاً صحيحا ؛ وكم استخرج جماعةٌ من أهلِ العدل فى متشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التى ظاهر التنزيل بها أشبه ، ولها أشدّ احتمالا ، ممّا لم يسبق إليه المفسرون ، ولا دخل فى جملة تفسيرهم وتأويلهم .

والوجه الثانى سلّم فيه أنّ الداعى هؤلاء المخلفين غير النبىّ صلى الله عليه وآله ، وقال: لا يمتنعُ أن يعنى بهذا الدّاعى أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّه قاتل بعدَه النّاكثين والقاسطين والمارقين . وبشّره النبى صلى الله عليه وآله بأنّه يقاتلهم ، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة .

قال : فأمّا تعلق صاحب الكتاب بقوله : ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ، وأنّ الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين ، فأوّل ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه؛ لأنّ الكبائر تُخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمان هو الإسلام

على مذهبهم . ثم إنّ مذهبنا فى محاربى أمير المؤمنين عليه السلام معروفٌ ، لأنهم عندنا كانوا كفارا بمحاربته لوجوه :

الأول منها : أن مَنْ حاربه كان مستحلاً لقتاله ، مظهرا أنّه فى ارتكابه على حقّ ؛ ونحن نعلم أنّ مَنْ أظهر استحلال شرب جُرْعة خمر هو كافر بالإجماع ؛ واستحلال دماء المؤمنين فضلا عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله ، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفّارا .

الثانى : أنّه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل : « حَرْبك ياعلىّ حَرْبى ، وسِلْمك سلمى » ، ونحن نعلم أنّه لم يرد إلّا التشبيه بينهما فى الأحكام ، ومن أحكام محاربى النبى صلى الله عليه وآله الكفر بلا خلاف .

الثالث :أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قال له بلا خلاف أيضاً : «اللهمّ والِ مَنْ وَالاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر مَنْ نصره ، واخذل من خذله » ، وقد ثبت عندنا أنّ العداوة من الله لا تكون إلّا للكفّار الذين يعادونه دون فُسّاق أهل الملّة .

الرابع : قوله : إنّا لا نعلمُ بقاء هؤلاء المخلّفين إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشىء ، لأنّه إذا لم يكن ذلك معلوما ومقطوعا عليه ، فهو مجوّز وغير معلوم خلافه ، والجواز كافٍ لنا فى هذا الموضع .

ولو قيل له : مِنْ أين علمتَ بقاء المخلّفين المذكورين فى الآية على سبيل القطع إلى أيام أبى بكر ؟ لكان يفزع إلى أن يقول : حكم الآية يقتضى بقاءهم حتى يتمّ كونُهم مدعوّين إلى قتال أولى البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة ،وهذا بعينه يمكن أن يقال له ، ويعتمد فى بقائهم إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام على مايوجبه حكم الآية .

فإن قيل : كيف يكونُ أهل الجمل وصِفّين كفّاراً ولم يسرْ أميرُ المؤمنين عليه السلام

فيهم بسيرة الكفّار ، لأنّه ماسباهم ، ولا غنِم أموالهم ، ولا تبع مولّيهم !

قلنا : أحكام الكفر تختلف ، وإن شمِلهم اسم «الكفر» ، لأنّ فى الكفار مَنْ يُقتل ولا يستبقى ، وفيهم مَنْ يُؤخذ منه الجزية ولا يحلّ قتله إلا بسبب طارئ غير الكفر ، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين ، فعلى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كُفّاراً ، وإن لم يسِرْ فيهم بجميع سيرة أهل الكفر ، لأنّا قد بيّنا اختلاف أحكام الكفّار ، ويرجع فى أنّ حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم . على أنّا لا نجدُ فى الفُسّاق مَنْ حكمه أن يقتل مقبِلاً ، ولا يقتل مولّيا ، ولا يُجهز على جريحه، إلى غير ذلك من الأحكام التى سيّرها فى أهل البَصْرة وصِفّين .

فإذا قيل فى جواب ذلك : أحكامُ الفسق مختلفة ، وفعلُ أمير المؤمنين هو الحجّة فى أنّ حكم أهل البصرة وصفّين مافعله .

قلنا مثل ذلك حرفا بحرف ، ويمكن مع تسليم أنّ الداعى لهؤلاء المخلّفين أبو بكر ، أن يقال : ليس فى الآية دلالةٌ على مدح الداعى ولا على إمامته ، لأنّه قد يجوز أن يدعوَ إلى الحقّ والصواب مَنْ ليس عليهما ، فيلزم ذلك الفعل مِنْ حيث كان واجبا فى نفسه ، لا لدعاء الدّاعى إليه ، وأبو بكر إنّما دعا إلى دفع أهل الرّدّة عن الإسلام ، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاء داع ، والطاعة فيه طاعة لله تعالى ، فمِنْ أين له أنّ الداعى كان على حقٍّ وصواب ! وليس فى كونِ مادعا إليه طاعةً مايدلّ على ذلك .

ويمكن أيضا أن يكون قوله تعالى : ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم ، لأنه إذا دلّهم على وجُوب قتال المرتدّين ، ورفعهم عن بيضة الإسلام ، فقد دعاهم إلى القتال ، ووجَبت عليهم الطاعة ، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا ، وهذ أيضا تحتمله الآية .

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله فى هذا الموضع؛ وأكثره جيّد لا اعتراض عليه ؛ وقد كان يمكنه أن يقول: لو سلّمنا بكلّ هذا لكان ليس فى قوله : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ الآية ما يدلّ على أنّ النبى صلى الله عليه وآله لا يكون هو الداعى لهم إلى القوم أولى البأس الشديد ، لأنه ليس فيها إلا محض الإخبار عنهم بأنّهم لا يخرجون معه ، ولا يقاتلون العدوّ معه ، وليس فى هذا ماينفى كونه داعيا لهم ، كما أنه عليه السلام قال : «أبو لهب لا يؤمن بى » ، لم يكن هذا القول نافيا لكونه يدعوه إلى الإسلام .

وقوله : ﴿ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ليس بأمر على الحقيقة ، وإنما هو تهديد كقوله : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (١) ولا بدّ للمرتضى ولقاضى القضاة جميعا من أن يحملا صيغة « افعل » على هذا المحمل ، لأنه ليس لأحدهما بمسوغ أن يحمل الأمر على حقيقته ، لأنّ الشارع لا يأمر بالقعود وترك الجهاد مع القدرة عليه ، وكونه قد تعيّن وجوبه .

فإن قلت : لو قدّرنا أنّ هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، أنزلت بعد غزوة تبوك ، وبعد نزول سورة «براءة» ، التى تتضمّن قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ، وقدرنا أنّ قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ليس إخبارا محضا كما تأوّلته أنت وحملت الآية عليه ، بل معناه لا أخرجكم معى ولا أشهدكم حرب العدوّ ، هل كان يتم الاستدلال ؟

قلت : لا ؛ لأنّ للإماميّة أن تقولَ : يجوز أن يكون الداعى إلى حرب القوم أولى البأس الشديد مع تسليم هذه المقدّمات كلّها هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه دعاهم إلى حرب الرّوم فى سَرِيّة أسامة بن زيد فى صفر من سنة إحدى عشرة ، لما سيّره إلى البلقاء ، وقال له : سرْ إلى الروم إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيولَ ، وحشد معه أكثر المسلمين ، فهذا الجيش قد دُعِيَ فيه المخلّفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد

(١) سورة الشورى : ٤٠

فى غزاة تبوك إلى قوم أولى بأس شديد ، ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا حاربوا معه عدوًّا .

فإن قلت : إذا خرجوا مع أسامة ، فكأنما خرجوا مع رسول الله ، وإذا حاربوا مع أسامة العدوّ ، فكأنما حاربوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كان سبق أنّهم لايخرُجون مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحاربون معه عَدُوًّا .

قلت : وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره فى أيام أبى بكر ، ومع أبى عُبيدة وسعد فى أيام عمر ؛ فكأنما خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحاربوا العدوّ معه أيضاً .

فإن اعتذرت بأنّه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلّا أنّه على الحقيقة ليس معه ، وإنما هو مع امرئ من قبل خلفائه .

قيل لك : وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدوّ معه ، وإن شابه الخروج مع النبي ومحاربة العدوّ معه ، إلا أنه على الحقيقة ليس معه ، وإنّما هو مع بعض أمرائه .

ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية ، فيقال : لا يجوز حملُها على بنى حنيفة ، لأنّهم كانوا مسلمين ، وإنّما منعوا الزكاة مع قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » صلى الله عليه وآله ، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عن الإسلام عند المرجئة ، والإماميّة مرجئة ؛ ولا يجوز حملها على فارسَ والرّوم ؛ لأنه تعالى أخبر أنّه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم ، كما تقول : إمّا كذا وإمّا كذا ، فيقتضى ذلك نفى الواسطة ، وقتال فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة ، وهو دفع الجزية ، وإنما تنتفى هذه الواسطة فى قتال العرب ، لأنّ مشركى العرب لا تؤخذ منهم الجزية ، فالآية إذنْ دالّة على أنّ المخلّفين سيُدْعَوْن إلى قوم أولى بأس شديد الحكم فيهم ، إمّا قتالهم وإمّا إسلامهم ، وهؤلاء هم مشركو العرب ، ولم يحارب مشركى العرب إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالدّاعى لهم إذاً هو رسولُ الله ، وبطل الاستدلال بالآية .

***

الأصل :

أَنَا وَضَعْتُ فِي ٱلصِّغَرِ بِكَلَاكِلِ ٱلْعَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ بِالْقَرَابَةِ ٱلْقَرِيبَةِ ، وَٱلْمَنْزِلَةِ ٱلْخَصِيصَةِ ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ ، وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ ؛ وَكَانَ يَمْضَغُ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ .

وَلَقَدْ قَرَنَ ٱللهُ بِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ ٱلْمَكَارِمِ ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ ٱلْعَالَمِ ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ .

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً ، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي ، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا ، أَرَى نُورَ ٱلْوَحْيِ وَٱلرِّسَالَةِ ، وَأَشُمُّ رِيحَ ٱلنُّبُوَّةِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ ٱلشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ ٱلْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقُلْتُ : يَارَسُولَ ٱللهِ ، مَاهَذِهِ ٱلرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ : هَذَا ٱلشَّيْطَانُ ، قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ ، وَتَرَى مَا أَرَى ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ، وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ .

***

الشرح :

الباء في قوله : « بكلاكل العرب » زائدة . والكلاكل : الصُّدُور، الواحد كَلْكَل، والمعنى أنّي أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض .

ونواجم قرون ربيعة ومضر : مَنْ نجم منهم وظهر ، وعلا قدرُه ، وطار صيته .

فإن قلت : أمّا قهره لِمضرَ فعلوم ، فما حال ربيعة ، ولم نعرف أنه قتل منهم أحدا ؟ قلت : بلَى قد قتل بيده وبجيشه كثيرا من رؤسائهم فى صِفّين والجمل ، فقد تقدم ذكر أسمائهم من قبل ، وهذه الخطبة خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان .

والعَرْف بالفتح : الرّيح الطّيبة ، ومضَغ الشىء يمضَغه بفتح الضاد .

والخطْلة فى الفعل : الخطأ فيه ، وإيقاعه على غير وجهه . وحِراء : اسم جبل بمكّة معروف .

والرّنة : الصوت .

* * *

[ذكر ما كان من صلة علىّ برسول الله فى صغره]

والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله دون غيره من الأعمام ، كونه ربّاه فى حِجْره ، ثم حامَى عنه ونصَره عند إظهار الدّعوة دونَ غيره من بنى هاشم ، ثمّ ما كان بينهما من المُصاهرة التى أفضتْ إلى النّسل الأطْهر دون غيره من الأصهار . ونحن نذكر ماذكره أرباب السِّيَر من معانى هذا الفصل .

روى الطبرىّ فى تاريخه ، قال : حدّثنا ابن حُميد ، قال : حدّثنا سلَمة ، قال : حدّثنى محمد ابن إسحاق قال: حدثنى عبدُ الله بن نَجيح ، عن مجاهد ، قال : كان من نعمة الله عزّ وجلّ على علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وما صنع الله له ، وأراده به من الخير ، أنّ قريشا أصابتْهم أزْمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثير ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله للعبّاس — وكان من أيسر بنى هاشم — ياعبّاس ، إنّ أخاك أبا طالب كثيرُ العيال ، وقد ترَى ما أصاب النّاسَ من هذه الأزمة ، فانطلق بنا ، فلنخفّف عنه من عِياله ، آخذُ من بيته واحدا ، وتأخذُ واحداً ،

فنكفيهما عنه . فقال العبّاس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشفَ عن النّاس ماهم فيه ، فقال لهما: إنْ تركتما لي عَقيلاً فاصنعا ماشئتما ، فأخذ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عليّاً فضمّه إليه ، وأخذ العباس جعفراً رضي الله عنه ، فضمّه إليه ، فلم يزل عليّ بن أبي طالب عليه السلام مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله حتى بعثه الله نبيّاً ، فاتّبعه عليٌّ عليه السلام ، فأقرّ به وصدّقه ، ولم يزل جعفرٌ عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه (١) .

قال الطبريّ : وحدّثنا ابنُ حميد ، قال :حدّثنا سَلمة ، قال : حدّثنا محمد بن إسحاق، قال : كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إذا حضرت الصّلاة خرَج إلى شعاب مكّة ، وخرج معه عليّ بن أبي طالب عليه السلام مستخفياً من عمّه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصلّيان الصّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجَعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا .

ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما وهُما يصلّيان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله : يابنَ أخي ، ماهذا الذي أراك تدين به ؟ قال : ياعمّ هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ـ أو كما قال ـ بعثني الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت ياعمّ أحقّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ، ودعوتُه إلى الهدى ، وأحقّ مَنْ أجابني إليه ، وأعانني عليه ـ أو كما قال . فقال أبُو طالب: يابنَ أخي ، إنّي لا أستطيع أن أفارقَ ديني ودين آبائي ، وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلُص إليك شيء تكرهُه مابقيتُ .

قال الطبري : وقد روى هؤلاء المذكورون أنّ أبا طالب قال لعليّ عليه السلام : يابنيّ ، ماهذا الذي أنت عليه ؟ فقال : ياأبتِ ، إنّي آمنتُ بالله وبرسوله ، وصدّقته بما

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٣ (طبعة المعارف)

جاء به ، وصلّيت لله معه ، قال : فزعموا أنه قال له : أمَا إنّه لا يدعُو إلّا إلى خير ، فالزمه (١) .

وروى الطّبرِيّ في تاريخه أيضا ، قال : حدّثنا أحمدُ بن الحسين التّرمِذِيّ ، قال : حدّثنا عبد الله بن موسى ، قال : أخبرنا العَلاء ، عن المِنهال بن عمر ، وعن عبد الله بن عبد الله قال : سمعتُ عليّاً عليه السلام ، يقول : أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، وأنا الصِّدّيق الأكبر ، لا يقولُها بعدي إلا كاذب مُفْتَرٍ ؛ صَلّيْتُ قَبْلَ النّاس بِسبْع سنين (٢) .

وفي غير رواية الطبريّ : أنا الصِّدّيق الأكبر وأنا الفاروق الأوّل ، أسلمت قبل إسلام أبي بكر ، وصلّيت قبل صلاته بسبع سنين . كأنّه عليه السلام لم يرتَضِ أنْ يذكر عمر ولا رآه أهلًا للمقايسة بينه و بينه ؛ وذلك لأنّ إسلام عمر كان متأخّراً .

وروى الفضلُ بن عبّاس رحمه الله ، قال : سألتُ أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذّكور ، أيّهم كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله له أشدَّ حبّاً ؟ فقال : عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقلت له : سألتك عن بَنِيه ، فقال : إنه كان أحبّ عليه من بنيه جميعا وأرأف ، ما رأيناه زايله يوما من الدّهر منذ كان طِفلًا ، إلّا أنْ يكون في سفر لخديجة ، وما رأينا أبا أبرّ بابنٍ منه لعليّ ، ولا ابناً أطوع لأبٍ من عليّ له .

وروى الُحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : سمعتُ زيداً أبي عليه السلام يقول : كان رسول الله يمضغ اللّحمة والتّمرة حتى تلِين ، ويجعلهما في فم عليّ عليه السلام وهو صغير في حِجْره ؛ وكذلك كان أبي عليّ بنُ الحسين عليه السلام يفعل بي ؛ ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة ، فيبرّده في الهواء ، أو ينفخ عليه حتى يبرد ، ثم يُلْقِمُنِيه ؛ أفيشفقُ عليّ من حرارة لقمة ولا يشفق عليّ من النار ! لو كان أخي إماماً بالوصيّة كما يزعم هؤلاء ، لكان أبي أفضَى بذلك إليّ وَوَقاني من حرّ جهنم .

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٤ (المعارف) (٢) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٠ (المعارف)

وروى جبير بن مُطعِم ، قال : قال أبي مُطعِم بن عديّ لنا ونحن صبيان بمكة: ألا ترون حبّ هذا الغلام ـ يعني عليّاً ـ لمحمد واتّباعه له دون أبيه ! واللّات والعُزّى، لوددتُ أنّ ابني بفتيان بني نوفل جميعا !

وروى سَعيد بن جُبير ، قال : سألت أنسَ بن مالك ، فقلت : أرأيتَ قولَ عمر عن الستّة : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راض ؟ ألم يكن راضيًا عن غيرهم من أصحابه ؟ فقال : بلَى ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين ؛ ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضاً ، فقلت له : فأيّ الصّحابة كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله له أحمَد ؟ أو كما قال ـ قال : ما فيهم أحدٌ إلّا وقد سخط منه فعلًا ، وأنكر عليه أمراً ، إلا اثنان : عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة ، فإنهما لم يقترفا منذ أتى الله بالإسلام أمراً أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله .

***

[ذكر حال رسول الله عند نشوئه]

وينبغي أنْ نذكُر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وعِصْمته بالملائكة، ليكونَ ذلك تقريرا وإيضاحا لقوله عليه السلام : «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيما أعظم ملكٍ من ملائكته» ، وأن نذكر حديث مُجاورته عليه السلام بحراء ، وكون عليّ عليه السلام معه هناك ؛ وأنَ نذكر ما وردَ في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غيرَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وعليًّا وخديجة، وأن نذكرَ ماورد في سماعه رنّة الشيطان، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيراً للمصطفى صلوات الله عليه .

أمّا المقام الأول فروى محمّد بن إسحاق بن يسار في كتاب "السيرة النبوية" ، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري في تاريخه ، قال : كانتْ حليمة بنت أبي ذُؤَيب السّعْدية

أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله التى أرضعته تحدّث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجها وابنٌ لها ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن الرُّضَعاء (١) بمكّة ، فى سنة شَهْباء (٢) لم تُبْقِ شيئاً ، قالت : فخرجتُ على أتان لنا قَمْراء (٣) عجفاء ، ومعنا شارفٌ (٤) لنا ؛ ما تَبِضُّ (٥) بقطرة ، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيّنا الذى معنا من الجوع ، ما فى ثدييّ ما يُغنيه ولا فى شارفنا ما يغذّيه (٦) ، ولكنّا نرجو الغيث والفرَج . فخرجت على أتانى تلك ، ولقد أراثت بالركب ضعفا وعَجَفا (٧) ، حتى شقّ ذلك عليهم ، حتى قدمْنا مكة نلتمس الرُّضَعاء (٨) فما منّا امرأة إلّا وقد عُرِض عليها محمد صلى الله عليه وآله فتأباه إذا قيل لها إنّه يتيم ؛ وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروف من أبى الصبيّ ، فكنا نقول : يتيم ، ما عسى أن تصنع أمّه وجدّه ! فكنّا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة ذهبتْ معى إلا أخذتْ رضيعاً غيرى ؛ فلمّا اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجعَ من بين صواحبى لم آخذ رضيعاً ؛ والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ، قال : لا عليك أن تفعلى ! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت إليه فأخذته ؛ وما يحملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره . قالت : فلمّا أخذته رجعت إلى رَحْلِي ، فلمّا وضعته فى حِجْرى أقبل عليه ثدْيايَ بما شاء من لبن فرضع حتى رَوِيَ وشرب معه أخوه حتى روِيَ . وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبيّنا جوعا ، فنام ؛ وقام زوجى إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنّها حافِل (٩) ؛ فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريًّا وشبعا ؛ فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول

---

(١) ابن هشام : « تلتمس الرضعاء » .
(٢) سنة شهباء ، تريد بها سنة الجدب ، وذلك أن الأرض حينئذ تكون بيضاء لا نبات فيها .
(٣) القمرة بالضم : لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة ، وحمار أقمر ، وأتان قمراء . القاموس .
(٤) الشارف : الناقة المسنة .
(٥) قال أبو ذر الخشنى : ما تبض ، بالضاد المعجمة ، معناه : ما تنشغ ولا ترشح ، ومن رواه بالصاد المهملة ، فمعناه : « لا يبرق عليها أثر لبن » من البصيص ، وهو اللمعان » .
(٦) قال ابن هشام : « ما يغذيه » .
(٧) ابن هشام : « فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً » .
(٨) ابن هشام : « الرضعاء » .
(٩) حافل : أى ممتلئة الضرع .

صاحبي حين أصبحنا : أتعلمين (١) والله يا حليمة لقد أخذت نَسَمةً مباركة ، فقلت : والله إني لأرجُو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتاني تلك ، وحملتُه معي عليها ، فوالله لقطعتُ بالرَّكب ما يقدر عليها شيء من حميرهم (٢) حتى إنّ صواحبي ليَقُلن لي : ويحكِ يابنت أبي ذؤيب ! اربَعِي (٣) علينا ، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ! فأقول لهن : بلَى والله ، إنها لهي ، فيقلن : والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ـ وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجدب منها ـ فكانت غنمي ترُوح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى (٤) لبنا ، فكنا نحتلب ونشرب ؛ وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضَرْع ، حتى إنّ الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم : ويلكم ! اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب ! فيفعلون ، فتروح أغنامُهم جياعا ما تُبِضّ بقطرة ، وتروح غنمي شباعاً لبنا ، فلم نزلْ نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصَلْتُه ، فكان يشِبّ شَبابا لا يشبِهه الغلمان [فلم يبلغ سنتيه] (٥) ، حتى كان غلاما جَفْراً (٦) ، فقدمنا به على أمّه آمنة بنت وهب ، ونحن أحرصُ شيء على مكثه فينا ، لما كنّا نرى من بركته ، فكلّمنا أمّه ، وقلنا لها : لو تركتِه عندنا حتى يغلظ ! فإنا نخشى عليه (٧) وباء مكّة ، فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد ، فوالله إنّه لبَعْد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بَهْمٍ (٨) لنا خلف بيوتنا ؛ إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لي ولأبيه : هاهو ذاك أخي القرشيّ ؛ قدجاءه

---

(١) ابن هشام : « تعلمي » . (٢) ابن هشام : « حمرهم » .
(٣) اربعي علينا ، أي أقيمي وانتظري ، يقال : ربع فلان على فلان ، إذا أقام عليه وانتظره .
(٤) ابن هشام : « لبناً » بالتشديد ، أي غزيرات اللبن .
(٥) من ابن هشام (٦) جفراً ، أي قويا شديداً .
(٧) الوباء ، مهموز ومقصور : كثرة الأمراض والموت .
(٨) البهم : الصغار من الغنم ، واحدها بهمة .

رجلان عليهما ثياب بياض ، فأضجعاه وشقّا بطنه ، فهما يَسُوطانه (١) . قالت : فخرجت أنا وأبوه نشتدّ نحوه ، فوجدناه قائماً (٢) ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ،وقلنا : مالك يا بنيّ ! قال : جاءنى رجُلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى ثم شقّا بطنى ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى ماهو !

قالت : فرجعنا به إلى خِبائنا ، وقال لى أبوه : ياحليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله .

قالت : فاحتملته حتى قدمتُ به على أمّه ، فقالت : ما أقدمك به ياظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت لها : قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الّذى علىّ ، وتخوّفت عليه الأحداث ، وأدّيته إليك كما تحبّين . قالت : أتخوّفتِ عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ، قالت : كلّا والله ما للشيطان عليه من سبيل ؛ وإن لابنى شأنا ، أفلا أخبرك خبرَه ؟ قلت : بلى ، قالت : رأيت حين حملتُ به أنّه خرج منّى نورٌ أضاءت له قصورُ بُصْرَى من (٣) الشّام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت حَمْلًا قطّ كان أخفّ ولا أيسرَ منه ، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ، ورافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة (٤) .

قال : وروَى الطّبرى فى " تاريخه " عن شدّاد بن أوْس ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّث عن نفسِه ؛ ويذكر ما جرى له وهو طِفْلٌ فى أرض بنى سعد بن بكر ، قال : لمّا وُلدت استرضِعتُ فى بنى سعد ، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من

(١) يسوطانه ، قال أبو ذرّ الخشنى : يقال : « سطت اللبن والدم وغيرهما أسوطه ، إذا ضربت بعضه ببعض وحركته ، واسم العود الذى يضرب به المسوط » .

(٢) ممتقعاً : متغيراً ، وفى ابن هشام : « منتقعاً » ، وهما سواء .

(٣) قال السهيلى : « ذلك ما فتح الله عليه من تلك البلاد ، حتى كانت الخلافة فيها مدة بنى أمية ، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنوره صلى الله عليه وسلم » .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٣ — ١٧٧ (نشرة المكتبة التجارية) .

أهلى فى بطن وادٍ مع أترابٍ لى من الصبيان ، نتقاذف بالجلّة؛ إذ أتانى رهط ثلاثة ؛ معهم طَسْت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هُرّابًا حتى انتهوْا إلى شفير الوادى ، ثم عادوا إلى الرَّهْط ، فقالوا : ما أرَبُكُم إلى هـذا الغلام ، فإنه ليس منّا ! هذا ابن سيّد قريش ، وهو مسترضَع فينا ؛ غلام يتيم ليس له أب ، فماذا يردُّ عليكم قتلُه ، وماذا تصيبون من ذلك ! ولـكن إن كنتم لابدّ قاتليـه ، فاختاروا منّا أيّنا شِئْتم فاقتلوه مكانه ، ودَعُوا هذا الغلام ، فإنه يتيم .

فلمّا رأى الصّبيان أنّ القوم لا يُحِيرون لهم جوابا ، انطلقوا هُرّابا مسرعين إلى الحىّ يؤذنونهم و يستصرخونهم على القوْم ، فعمَد أحدهم ، فأضجعنى إضجاعا لطيفا ، ثم شقّ مابين مفرقِ صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حِسًّا ، ثم أخرج بطنِى فغسلها بذلك الثّلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قام الثانى منهم ، فقال لصاحبه : تنحَّ ، فنحّاه عنّى ، ثم أدخل يده فى جوفِى ، وأخرج قلبى ؛ وأنا أنظر إليه، فصدَعه ثم أخرج منه مُضغة سوداء فرَماها ، ثم قال بيده : يمنةً [1] منه وكأنه [2] يتناول شيئاً ، فإذا فى يده خاتم من نور ، تحارُ أبصار الناظرين دونه ، فختم به قلبى ، ثم أعاده مكانه فوجدتُ برْدَ ذلك الخاتم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث لصاحبه : تنحّ عنه ، فأمرّ يدَه مابين مفرق صـدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشقّ ، ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، وقال للأوّل الّذى شقّ بطنى : زنه بعشَرة من أمّته ، فوزننى بهم فرجحتهم ، فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمّته كلّها لرجحهم ، ثم ضمُّونى إلى صدرهم ، وقبّلوا رأسى ومابين عينىّ ، وقالوا : ياحبيبَ الله ، لا ترُعْ ، إنك لو تدرِى ما يُراد بك من الخير لقرّت عيناك ! فبينا أنا كذلك إذا أنا بالحىّ قد جاءوا بحذافيرهم ، وإذا أمّى – وهى

---

(١) فى الأصول : « نمبه » تصحيف . (٢) الطبرى : «وكأنه» .

ظئرى — أمام الحىّ تهتف بأعلى صوتها ، وتقول : ياضعيفاه ! فانكبّ علىّ أولئك الرّهط فقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا : حبّذا أنت من ضعيف ! ثم قالت ظئرى : ياوحيداه ! فانكبُّوا علىّ ، وضمّونى إلى صدورهم ، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، ثم قالوا : حبّذا أنتَ من وحيد ! وما أنت بوحيد ! إنّ الله وملائكته معك والمؤمنين من أهل الأرض ، ثم قالت ظئرى : يايتيماه ! استضعِفْتَ من بين أصحابك ، فقتِلْتَ لضعفك ، فانكبوا علىّ وضمّونى إلى صُدورهم ، وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، وقالوا : حبّذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله لو تعلَمُ مايراد بك من الخير ! قال : فوصَل الحىّ إلى شفير الوادى ، فلمّا بَصُرَتْ بى أمّى — وهى ظئرى — نادتْ : يابنىّ ، ألا أراك حيًّا بعد ! فجاءت حتى انكبّت علىّ ، وضمّتنى إلى صدرها ، فوالّذى نفسى بيده ، إنّى لفى حَجرها قد ضمّتنى إليها ، وإنّ يدى لفى يد بعضهم ، فجعلت ألتفت إليهم ، وظننت أنّ القوم يبصرونهم ، فإذاهم لايبصرونهم ، فيقول بعض القوم : إنّ هذا الغلام قد أصابه لَمَم ، أو طائف من الجنّ ، فانطلقوا به إلى كاهن بنى فلان ، حتى ينظر إليه ويداويه ، فقلت : مابى شىء ممّا يذكرون ، نفسى سليمة ، وإن فؤادى صحيحٌ ؛ ليست بى قَلَبة [1] . فقال أبى — وهو زوج ظئرى : ألا ترون كلامَه صحيحًا ! إنى لأرجو ألّا يكونَ على ابنى بأس .

فاتفق القوم على أن يذهبُوا إلى الكاهن بى ، فاحتملونى حتى ذهبوابى إليه ، فقصّوا عليه قصّتى ، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فهو أعلمُ بأمره منكم ، فسألنى فقصصتُ عليه أمرى ، وأنا يومئذ ابن خمس سنين ، فلمّا سمع قولى وَثَب وقال : ياللعرب ! اقتُلوا هذا الغلام فهو واللّات والعُزّى لئن عاش ليبدِّلنّ دينَكم ، وليخالِفَنّ أمرَكم ، وليأتينّكم بما لم تسمعوا به قطّ ، فانتزعتنى ظئرى من حجره ، وقالت : لو علمت أنّ هذا يكون من قولك ماأتيتُك به ،

---

(١) ليس بى قلبة ، أى ليس به شىء ، وأصله من القلاب ، وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها ، فيقلبها إلى فوق ، قال فى اللسان : « ولا يستعمل إلا فى النفى » .

ثم احتملونى فأصبحتُ وقد صار فى جَسَدِى أثر الشقّ ، مابين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشِّراك (١) .

ورُوِى أنّ بعض أصحاب أبى جعفر محمد بن علىّ الباقر عليه السلام سأله عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّه يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ (٢) . فقال عليه السلام : يوكّل الله تعالى بأنبيائه ملائكةً يُحصُون أعمالهم ، ويؤدُّون إليه تبليغَهم الرّسالة ، ووكّل بمحمّد صلّى الله عليه وآله مَلَكا عظيما منذ فُصِل عن الرّضاع يُرشِده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق ، وهو الذى كان يناديه : السّلام عليك يامحمد يارسول الله وهو شابٌّ لم يبلغ دَرَجة الرّسالة بعد ، فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض ، فيتأمّل فلا يرى شيئا .

وروى الطبرىّ فى " التاريخ " عن محمّد بن الحنفيّة ، عن أبيه علىّ عليه السلام ، قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ماهممت بشىء مما كان أهل الجاهليّة يعملون به غير مرّتين ، كلّ ذلك يحولُ الله تعالى بينى و بين ماأريد من ذلك ، ثمّ ماهممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته ، قلت ليلةً لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكّة : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمُرَ بها كما يسمرُ الشّباب ، فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أوّل دارٍ من دُور مكة ، سمعت عزَفاً بالدُّف (٣) والمزامير ، فقلت : ماهذا؟ قالوا : هذا فلان تزوّج ابنة فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أذنى فنِمْت ، فما أيقظنى إلّا مَسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فقال : مافعلت ؟ فقلت : ماصنعتُ شيئاً ، ثم أخبرته الخبرَ ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين دخلت مكّة مثلَ ماسمعت حين دخلتُها تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرَب الله على

---

(١) الخبر بتفصيل أوفى فى الطبرى : ٢ : ١٦١ ـ ١٦٥ (طبع المعارف) .

(٢) سورة الجن ٢٧ .

(٣) الطبرى : « بالدفوف » .

أذنى ، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبى ، فأخبرته الخبر ، ثم ماهممتُ بعدها بسوء ، حتى أكرمنى الله برسالته (١) .

وروى محمد بن حبيب فى " أماليه " قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : أذكر وأنا غلام ابن سبع سنين ، وقد بنى ابن جُدْعان داراً له بمكّة ، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدرَ فى حُجورنا فننقله ، فملأت حِجْرى تُرابا فانكشفت عورتِى ، فسمعت نداء من فوق رأسى : يامحمّد ، أرْخِ إزارك ، فجعلت أرفع رأسى فلا أرى شيئاً ، إلّا أنى أسمع الصوت ، فتماسكت ولم أرْخِه ، فكأنّ إنسانا ضربنى عَلَى ظَهرى ، فخررت لوجهى ، وانحلّ إزارى فسترنى ، وسقط التراب إلى الأرض ، فقمت إلى دار أبى طالب عمّى ولم أعد .

***

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بحِراء فمشهور ، وقد ورد فى الكُتب الصحاح أنّه كان يجاور فى حِراء من كلّ سنة شهرا ، وكان يُطعِم فى ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من حِراء ، كان أوّل مايبدأ به إذا انصرف أن يأتىَ باب الكعبة قبل أن يدخُلَ بيته ، فيطوفَ بها سبعاً ، أو ماشاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى جاءت السّنَة الّتى أكرمه الله فيها بالرسالة ، فجاور فى حِراء شهر رمضان ، ومعه أهلُه : خديجة وعلى بن أبى طالب وخادم لهم ، فجاءه جبريل بالرسالة ، وقال عليه الصلاة والسلام : جاءنى وأنا نائم بنَمَط فيه كتاب ، فقال : أقرأ ، قلت : ما أقرأ ، فغتّنى (٢) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الّذِى خَلَقَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٧٩ (المعارف) .

(٢) غتنى ، قال ابن الأثير : « الغت والغط سواء ، كأنه أراد : عصرنى عصرا شديدا حتى وجدت منه المشقة كما يجد من يغمس فى الماء قهرا . النهاية ٣ : ١٤٩ .

مالَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] . فقرأته ، ثم انصرف عنّى فانتبهت من نوى ، وكأنما كتِبَ فى قلبى كتاب ، وذكر تمام الحديث .

***

وأما حديث أنّ الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحدٌ يومئذ إلا النبي وهو – عليهما السلام – وخديجة ، فخبر عفيف الكندىّ مشهور ، وقد ذكرناه من قبل ، وأنّ أبا طالب قال له : أتدرِي من هذا ؟ قال : لا قال : هذا ابنُ أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب ؛ وهذا ابنى علىّ بن أبى طالب ، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد ؛ زوجة محمد ابن أخى ، وايمُ الله ماأعلم على الأرض كلّها أحداً على هذا الدّين غير هؤلاء الثلاثة .

وأمّا رنّة الشيطان ، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل فى مُسنَده ، عن على بن أبى طالب عليه السلام ، قال : كنتُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله صبيحةَ اللّيلة التى أُسرِىَ به فيها ، وهو بالحجر يصلّى ، فلما قضى صلاته ، وقضيتُ صلاتى ، سمعت رَنّةً شديدةً ، فقلت : يارسول الله ، ماهذه الرّنة ؟ قال : ألا تعلم ! هذه رنّة الشيطان ، علم أنّى أُسرِىَ بى الليلة إلى السماء ، فأيس من أن يُعبَد فى هذه الأرض .

وقد رُوِىَ عن النبي صلى الله عليه وآله مايشابه هذا ، لما بايعه الأنصار السّبعون ليلة العَقبة سمِع من العقبة صوتٌ عال فى جوف الليل : يا أهلَ مكّة ، هذا مذمّم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله للأنصار : ألا تسمعون مايقول ! هذا أزَبُّ العقبة – يعنى شيطانها ، وقد روى : « أزبب العقبة » . ثم التفت إليه ، فقال[2] : استمع ياعدوَّ الله ، أما والله لأفرغنّ لك .

---

(١) سورة اقرأ : ٥ .

(٢) فى اللسان : « كانت العرب تسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ، ويسمون من دخل فى دين الإسلام مصبوًّا ، لأنهم كانوا لا يهمزون ، فأبدلوا من الهمزة واوا ، ويسمون المسلمين الصباة بغير همز ، كأنه جمع الصابى » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، قال : كان عليٌّ عليه السلام يرى مع رسول الله صلّى الله عليه وآله قبلَ الرسالة الضَوْء ويسمع الصوت ، وقال له صلى الله عليه وآله : « لولا أنّى خاتم الأنبياء لكنتَ شريكا فى النبوّة ، فإن لا تكن نبيًّا فإنك وصىّ نبىّ ووارثه ، بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء » .

وأما خبر الوزارة ، فقد ذكره الطبرى فى تاريخه ، عن عبد الله بن عباس عن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، قال لما أنزلت هذه الآية : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] ؛ عَلَى رسول الله صلّى الله عليه وآله دعانى ، فقال : ياعلىّ ، إنّ الله أمرنى أن أنذر عشيرتك الأقربين ، فضقت بذلك ذرعا ، وعلمت أنّى متى أنادهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره ، فصمتُّ حتى جاءنى جبريل عليه السلام ، فقال : يامحمّد ، إنّك إن لم تفعل ماأمِرْتَ به يعذّبك ربُّك ؛ فاصنع لنا صاعاً من طعام ، واجعل عليه رِجْلَ شاة ، واملأ لنا عُسًّا من لَبَن ، ثم اجمع بنى عبد المطلب حتى أكلّمهم ، وأبلّغهم ما أمرت به . ففعلت ما أمرنى به ، ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلا ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، وفيهم أعمامه : أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب ؛ فلمّا اجتمعوا إليه دعا بالطّعام الّذى صنعت لهم ، فجئت به ، فلمّا وضعتُه تناول رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بَضْعةً[2] من اللّحم فشقّها بأسنانه ، ثم ألقاها فى نَواحى الصَّحْفة ، ثم قال : كلُوا باسم الله ، فأكلوا حتى مالهم إلى شىء من حاجة ، وايمُ الله الّذى نفس علىّ بيده ، إن كان الرّجُل الواحد منهم ليأكل ماقدّمته لجميعهم ، ثم قال : اسقِ القومَ ياعلىّ ، فجئتهم بذلك العُسّ فشربوا منه ، حتى رووا جميعا ، وايمُ الله إنْ كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلمّا أراد رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أن يكلّمهم بدره أبو لهب إلى الكلام ، فقال : لَشَدّ ماسحرَكم صاحبُكم ! فتفرّق القومُ ، ولم يكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال من الغد : ياعلىّ ، إنّ هذا الرّجل قدسبقنى

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .
(٢) البضعة بالفتح ، وقد تكسر : القطعة من اللحم .

إلى ماسمعت من القول ، فتفرق القوم قبل أن أكلّمهم ، فعدلنا اليوم إلى مثل ماصنعت بالأمس ، ثم اجمعهم لى . ففعلت ثم جمعتهم ، ثم دعانى بالطّعام ، فقرّبته لهم ، ففعل كما فعل بالأمس ، فأكلوا حتى مالهم بشىء حاجة ، ثم قال : اسقِهم ، فجئتهم بذلك العُسّ ، فشرِبوا منه جميعا ، حتى رووا ، ثم تكلّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يابنى عبدِ المطلب ، إنى والله ماأعلمُ أنّ شابًا فى العرب جاء قومه بأفضل مِمّا جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدُّنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله أن أدعوَكم إليه ، فأيّكم يوازرنى على هذا الأمر ، عَلَى أن يكون أخى ووصيّى وخليفتى فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت أنا[1] — وإنّى لأحدَثهم سِنًا وأرمصُهم[2] عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمَشُهم[3] ساقا : أنا يارسول الله أكونُ وزيرَك عليه ، فأعاد القول ، فأمسكوا وأعدتُ ماقلت ، فأخذ برقبتِى ، ثم قال لهم : هذا أخى ووصيّى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[4] .

ويدلّ على أنّه وزيرُ رسول الله صلّى الله عليه وآله من نصّ الكتاب والسنة قول الله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾[5] . وقال النبى صلى الله عليه وآله فى الخبر المجمع عَلَى روايته بين سائرِ فرَق الإسلام : « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى » ؛ فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى ، فإذن هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشادّ أزره ، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكا فى أمره .

---

(١) ساقطة من التاريخ .

(٢) الرمص فى العين : كالقمص ، وهو قذى تلفظ به ؛ كناية عن صغر سنه .

(٣) حمش الساقين : رفيعهما .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٣١٩ — ٣٢١ (المعارف) ، وتفسير الطبرى ١٩ : ٧٤ ، ٧٥ (بولاق) ، بتفصيل أوفى .

(٥) سورة طه ٢٩ — ٣١ .

وروى أبو جعفر الطبرى أيضا فى " التاريخ " ؛ أنّ رجلا قال لعلىّ عليه السلام : يا أميرَ المؤمنين ، بم ورثت ابن عمّك دون عمّك ؟ فقال علىّ عليه السلام : هاؤم ثلاث مرات ، حتى اشرأبّ الناس ، ونشَرُوا آذانهم ، ثم قال : جمع رسول الله صل الله عليه وآله بنى عبد المطّلب بمكّة ، وهم رهطه [1] كلهم ، يأكل الجذعة ، ويشرب الفِرْق [2] ، فصنع مُدًّا من طعام ، حتى أكلوا وشبعوا وبقِىَ الطعام كما هو ، كأنه لم يمسّ ، ثم دعا بغُمَر [3] ، فشربوا ورَووا ؛ وبقى الشراب كأنه لم يشرب ، ثم قال : يابنى عبد المطّلب ، إنّى بعثت إليكم خاصّة ، وإلى النّاس عامّة ، فأيكم يبايعُنى على أن يكون أخى وصاحبى ، ووارثى ؟ فلم يقمْ إليه أحدٌ ، فقمت إليه ، وكنت مِنْ أصغر القوم ، فقال : اجلس ، ثم قال : ذلك ثلاث مرّات ، كلّ ذلك أقوم إليه ، فيقول : اجلس ؛ حتى كان فى الثالثة ، فضرب بيده على يدَى ، فعند ذلك ورثتُ ابنَ عمّى دون عمّى [4] .

***

الأصْـلُ :

وَلَقَدْ كُنتُ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ، وَنَحْنُ نَسأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ .

فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا تَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ؛ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا ، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ . فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ

---

(١) فى الأصول : « رهط » ، وأثبت ما فى الطبرى .
(٢) الفرق ، بكسر الفاء ، وبعضهم يقول بالفتح : مكيال كبير لأهل المدينة يكال به اللبن .
(٣) الغمر : القدح الصغير .
(٤) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٢

شَيْءٍ قَدِيرٌ ؛ فَإِنْ فَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ ذٰلِكَ ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِٱلْحَقِّ ! قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي ٱلْقَلِيبِ ، وَمَنْ يُحَزِّبُ ٱلْأَحْزَابَ . ثُمَّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا أَيَّتُهَا ٱلشَّجَرَةُ ، إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ ، فَٱنْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ ٱللهِ ؛ وَٱلَّذِي بَعَثَهُ بِٱلْحَقِّ لَٱنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا ، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ ٱلطَّيْرِ ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرَفْرِفَةً ؛ وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا ٱلْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي ؛ وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ ٱلْقَوْمُ إِلَى ذٰلِكَ ، قَالُوا عُلُوًّا وَٱسْتِكْبَارًا : فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ؛ وَيَبْقَى نِصْفُهَا ، فَأَمَرَهَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا ، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُوًّا : فَمُرْ هٰذَا ٱلنِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ ، كَمَا كَانَ ، فَأَمَرَهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ ، فَقُلْتُ أَنَا : لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ ٱلشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ ٱللهِ تَعَالَى تَصْدِيقًا بِنُبُوَّتِكَ ؛ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ . فَقَالَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ : بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، عَجِيبُ ٱلسِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ ؛ وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هٰذَا ! يَعْنُونَنِي — وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ؛ سِيمَاهُمْ سِيمَا ٱلصِّدِّيقِينَ ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ ٱلْأَبْرَارِ ؛ عُمَّارُ ٱللَّيْلِ ، وَمَنَارُ ٱلنَّهَارِ ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ ٱلْقُرْآنِ ، يُحْيُونَ سُنَنَ ٱللهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْلُونَ ؛ وَلَا يَغُلُّونَ وَلَا يُفْسِدُونَ ، قُلُوبُهُمْ فِي ٱلْجِنَانِ ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي ٱلْعَمَلِ .

***

الشَّرْحُ :

الملأُ الجماعة . ولا تفيئون : لا ترجعون . ومن يُطْرح فى القَليب ، كعُتْبة وشَيْبة ابنى ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة ، المكنّى أبا جهل وغيرهم ، طُرحوا فى قَليب بدْر بَعد انقضاء الحرْب ، ومن يحزّب الأحزاب ، أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة .

والقَصْف والقصيف : الصوت . وسيماهم : علامتهم ، ومثله « سيمياء » .

ومعنى قوله عليه السلام : « قلوبهم فى الجنان ، وأجسادهم فى العمل » ، أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصبة بالعبادة .

وأمّا أمرُ الشجرة التى دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض ، قد ذكره المحدّثون فى كتبهم ، وذكره المتكلّمون فى معجزات الرسول صلى الله عليه وآله ، والأكثرون رووا الخبر فيها على الوَضْع الّذى جاء فى خطبة أمير المؤمنين ، ومنهم من يروى ذلك مختصرا أنه دعا شجرة فأقبلت تخُدّ إليه الأرض خدًّا .

وقد ذكر البيهقى فى كتاب "دلائل النبوة" حديث الشجرة ، ورواه أيضا محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة والمغازى على وجه آخر ، قال محمد بن إسحاق : كان رُكانة[1] بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدَّ قريش كلّها ، فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وآله فى بعض شِعاب مكّة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يا رُكانة ، ألا تتقى الله ، وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : لو أعلم أنّ الذى تقول حقٌّ لاتبعتك ، قال : أفرأيت إن صرعتُك ؛ أتعلم أنّ ما أقول لك حقّ ؟ قال : نعم ، قال : فقم حتى أصارعَك ، فقام رُكانة ، فلمّا بطش به رسولُ الله صلى الله عليه وآله أضجعه لا يملك مِنْ نفسه شيئاً ، فقال : عُدْ يا محمد ، فعادَ فصرعه ، فقال : يا محمّد ، إن هذا لعجبٌ حينَ[2] تصرعُنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأعجب من ذلك إن شئت أريتُكه ، إن اتقيتَ الله ، واتبعتَ أمرى ،

---

(١) كذا ضبطه صاحب الاشتقاق ٧٨ ، بضم الراء .

(٢) ب : « حق » ، تصحيف ، وفى ابن هشام : « أتصرعنى » .

قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هــذه الشجرة التى تراها ، فتأتى ، قال : فادْعُها ؛ فدعاها ، فأقبلت حتى وقفت بين يدىْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : ارجعى إلى مكانك، فرجعتْ إلى مكانها ، فرجع رُكانة إلى قومه ، وقال : يابنى عبد مناف ، ساحِروا[1] بصاحبكم أهلَ الأرض ! فما رأيت أسحَر منــه قطّ ، ثم أخبرهم بالذى رأى ، والذى صنع[2] .

***

[القول فى إسلام أبى بكر وعلىّ وخصائص كلٍّ منهما]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع ملخّص ماذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ فى كتابه المعروف بكتاب '' العثمانيّة '' فى تفضيل إسلام أبى بكر على إسلام على عليــه السلام ، لأنّ هذا الموضع يقتضيه ، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله : وهل يصدقك فى أمرك إلا مثل هذا ! لأنّهم استصغروا سنّه ؛ فاستحقروا أمر محمّد رسول الله صلّى الله عليــه وآله حيث لم يصدّقه فى دعواه إلا غلام صغير السنّ ، وشُبْهة العُثْمانيّة التى قررها الجاحظ من هذه الشُّبْهة نشأت ، ومن هــذه الكلمة تفرّعت ، لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة ، وعلىّ أسلم ولم يبلغ الحُلم ، فكان إسلام أبى بكر أفضل .

ثم نذكر ما اعترض به شيخنــا أبو جعفر الإسكافىّ على الجاحظ فى كتابه المعروف بـ '' نقض العثمانية '' ؛ ويتشعّب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث فى الإسلامين إلى البحث فى أفضليّة الرّجُلين وخصائصهما ؛ فإنّ ذلك لا يخلو عن فائدة جليلة ، ونكتة

---

(١) ساحروا : أى غالبوهم بالسحر .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٤١٨ (نشرة المكتبة التجارية) .

لطيفة ، لا يليق أن يخلو كتابُنا هذا عنها ؛ ولأنّ كلامهما بالرسائل والخطـابة أشبه ، وفى الـكتابة أقصد وأدخل ، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله .

قال أبو عثمان : قالت العثمانية : أفضل الأمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبى قُحافة عليه ما عليه لإسلامه على الوجه الذى لم يسلِمْ عليه أحد فى عصره؛ وذلك أنّ النّاس اختلفوا فى أوّل النّاس إسلاما ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : زيد بن حارثة ، وقال قوم : خبّاب بن الأرتّ .

وإذا تفقدّنا أخبـارَهم ، وأحصينا أحاديثَهم ، وعددنا رجالهم ، ونظرنا فى صحّـة أسانيدهم ، كان الخبر فى تقدّم إسلام أبى بكر أعمّ ورجاله أكثر ، وأسانيـده أصحّ ، وهو بذاك أشهر ، واللفظ فيه أظهر ، مع الأشعار الصحيحة ، والأخبار المستفيضة فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله وبعد وفاته ، وليس بين الأشعار والأخبار فرْق إذا امتنع فى مجيئها ، وأصل مخرجها التّباعد والاتّفاق والتّواطؤ ، ولـكن ندَع هـذا المذهب جانباً ، ونضرب عنه صفحا ، اقتدارا على الحجّة ، ووثوقا بالفَلَج والقوّة ، ونقتصر على أدنى نازل فى أبى بكر ، وننزل على حكم الخصْم ؛ فنقول : إنا وجدْنا مَنْ يزعم أنه أسلم قبـل زيد وخبّاب ، ووجدنا من يزعُم أنهما أسلما قبله ، وأوسط الأمور أعدلُها ، وأقربها من محبّـة الجميع ، ورضا المخالف؛ أن نجعل إسلامهم كان معا ، إذ الأخبار متكافئة ،والآثار متساوية على ما تزعمون ، وليستْ إحدى القضيّتين أولَى فى صحّة العقل من الأخرى ؛ ثم نستدّل على إمامة أبى بكر بما ورد فيه من الحديث ؛ وبما أبانه به الرّسول صلّى الله عليـه وآله من غيره .

قالوا : فمّا روِىَ من تقدّم إسلامه ماحدّث به أبو داود وابن مهدىّ عن شعبة ، وابن عيينة ، عن الجريرىّ ، عن أبى هريرة ، قال : أبو بكر : أنا أحقّكم بهذا الأمر ـ يعنى الخلافة ـ ألستُ أولَ مَنْ صلّى !

روى عباد بن صُهَيب ، عن يحيى بن عمير ، عن محمد بن المنكدِر ، أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله قال : « إن الله بعثنى بالهدى ودين الحقّ إلى الناس كافة ، فقالوا : كذبت ، وقال أبو بكر صدقت » .

وروى يعلَى بنُ عُبَيد ، قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس ، فسأله : مَنْ كان أوّل النّاس إسلاما : فقال : أما سمعت قول حسان بن ثابت !

إذا تذكّرتَ شجواً من أخى ثقةٍ فاذْكُر أخاك أبا بكرٍ بما فَعَلا[1]

الثانىَ التالىَ المحمودَ مشهدُه وأوّلَ النّاسِ منهم صدّق الرسلا[2]

وقال أبو مِحْجَن :

سبقتَ إلى الإسلام والله شاهدٌ وكنتَ حبيبا بالعريش المشهرِ[3]

وقال كعب بن مالك :

سبقتَ أخا تَيمٍ إلى دين أحمدٍ وكنتَ لدى الغيرانِ فى الكهف صاحبا[4]

وروى ابنُ أبى شَيْبَة ، عن عبد الله بن إدريس ووكيع ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرّة ، قال : قال النّخعىّ : أبو بكر أوّلُ مَنْ أسلم .

وروى هيثم عن يعلَى بن عطاء ، عن عمرو بن عنبسة ، قال : أتيتُ النبىَّ صلى الله عليه وآله وهو بعكاظ ، فقلت : مَنْ بايعك على هذا الأمر ؟ فقال: بايعنى حُرٌّ وعبدٌ ، فلقد رأيتُنى يومئذ وأنا رابعُ الإسلام .

---

(١) ديوانه ٢٩٩ ، والعثمانية ١١١ (٢) بعده فى الديوان والعثمانية :

وثانىَ اثنين فى الغار المنيف وقدْ طافَ العداةُ به إذْ صعّد الجبلا

خيرَ البريّةِ أتقاها وأطهرها إلا النبىَّ وأوفاها بما حملا

(٣) فى الأصول : « المشهرا » ، وأثبت ما فى العثمانية ، من أبيات ثلاثة أوردها على قافية الراء المكسورة

(٤) العثمانية ١١١

قال بعضُ أصحاب الحديث : يعنى بالحرّ أبا بكر و بالعبد بلالا .

وروى اللّيث بن سعد ، عن معاوية بن صالح ، عن سليم بن عامر ، عن أبى أمامة ، قال : حدّثنى عمرو بن عَنبسة ، أنه سأل النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو بعكاظ ، فقال له : مَنْ تَبِعك ؟ قال : تبِعنى حرٌّ وعبد : أبو بكر و بلال .

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشميّ ، عن عبد الملك بن عُمَير ، عن أسيد بن صَفْوان ؛ صاحب النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : لما قُبِضَ أبو بكر جاء علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقال : رحمك الله أبا بكر ! كنتَ أوّلَ النّاس إسلاما .

وروى عبّادٌ ، عن الحسن بن دينارٍ ، عن بشر بن أبى زينب ، عن عِكرِمة مولى ابن عبّاس ، قال : إذا لقيت الهاشميّين قالوا : علىّ بن أبى طالب أوّل مَنْ أسلَمَ ؛ و إذا لقيت الّذين يعلمون ، قالوا : أبو بكر أوّل مَنْ أسلم .

* * *

قال أبو عثمان الجاحظ : قالت العثمانية : فإن قال قائل : فما بالُكم لم تذكُروا علىّ بن أبى طالب فى هذه الطبَقة ، وقد تعلمون كثرة مقدِّميه والرواية فيه ؟

قلنا : قد علمْنا الرواية الصحيحة ، والشهادة القائمة ؛ أنّه أسلَمَ وهو حَدَثٌ غرير ، وطفل صغير ، فلم نُكذِّب الناقلين ، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأنّ المقلّل زعم أنّه أسلم ، وهو ابن خمس سنين ، والمكثر زعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين ، فالقياسُ أنْ يؤخذ بالأوسط بين الروايتين ، و بالأمر بين الأمرين ، و إنّما يُعْرَفُ حقُّ ذلك من باطله ، بأنْ نحصى سنيه التى ولى فيها الخلافة ، وسِنِى عمر ، وسنى عثمان ، وسنى أبى بكر ، ومقام النبى صلى الله عليه وآله بالمدينة ، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة ، فإذا فعلنا ذلك صحّ أنه أسلم وهو ابن سبع سنين ، فالتاريخ المجمع عليه أنّه قُتِل عليه السلام فى شهر رمضان سنة أربعين .

***

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي[1] : لولا ما غلبَ على النّاس من الجهل وحبّ التقليد ، لم نحتجْ إلى نقض ما احتجّت به العثمانية ، فقد علم النّاس كافّةً ؛ أنّ الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم ، وعرف كلّ أحدٍ علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم ، وظهور كلمتهم ، وقهر سلطانهم وارتفاع التقيّة عنهم والكرامة ، والجائزة لمنْ روى الأخبار والأحاديث فى فضل أبي بكر ، وما كان من تأكيد بنى أمية لذلك ، وما ولّده المحدّثون من الأحاديث طلبا لما فى أيديهم ، فكانوا لا يألونَ جهداً فى طول ما ملكوا أن يُخمِلوا ذكرَ علىّ عليه السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ، ويكتموا فضائلهم ومناقبَهم وسوابقهم ، ويحملوا على شتمهم وسبّهم ولعنهم على المنابر ؛ فلم يزل السيف يقطرُ من دمائهم ، مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم ، فكانوا بين قتيلٍ وأسير ، وشريد وهارب ، ومستخفٍ ذليل ، وخائف مترقّب ، حتى إنّ الفقيه والمحدّث والقاضى والمتكلّم ، ليتقدّم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة ، أن لا يذكروا شيئاً من فضائلهم ، ولا يرخصوا لأحدٍ أن يُطيف بهم ، وحتى بلغ من تقيّة المحدّث أنّه إذا ذكر حديثا عن على عليه السلام كَنَى عن ذكره ، فقال : قال رجلٌ من قريش ، وفعل رجل من قريش ، ولا يذكر عليا عليه السلام ، ولا يتفوّه باسمه .

ثم رأينا جميعَ المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله ، ووجّهوا الحِيَل والتأويلات نحوها ، من خارجىّ مارق ، وناصب حَنِق ، وثابت مستبهم ، وناشئٌ معاند ، ومنافق مكذّب ، وعثمانىّ حسود ، يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلى قد نقض فى الكلام ، وأبصر علم الاختلاف ،

(١) هو محمد بن عبد الله أبو جعفر المعروف بالإسكافى ، ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد ٥ : ٤١٦ ، وقال عنه : « أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين ، وله تصانيف معروفة . . . وبلغنى أنه مات فى سنة أربعين ومائتين » .

وعرف الشّبه ومواضع الطّعن وضروب التأويل ، قد التمس الحِيلَ فى إبطال مناقبه وتأوّل مشهور فضائله ، فمرّة يتأوّلها بما لا يحتمل ، ومرّة يقصد أن يضع مِنْ قدرها بقياس منتقضٍ ، ولا يزداد مع ذلك إلّا قوّة ورفعة ، ووضوحا واستنارة ؛ وقد علمت أنّ معاوية ويزيد ومَنْ كان بعدهما من بنى مرْوان أيام ملكهم — وذلك نحو ثمانين سنة — لم يدَعُوا جهدا فى حَمْل الناس على شتمه ولعْنه وإخفاء فضائله ، وستْر مناقبه وسوابقه .

روى خالد بن عبد الله الواسطىّ ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن هلال بن يساف ، عن عبد الله بن ظالم قال : لما بُويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون عليا عليه السلام ، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : ألا ترَوْن إلى هذا الرجل الظّالم يأمر بلعْن رجلٍ من أهل الجنّة !

روى سليمان بن داود ، عن شعبة ، عن الحرّ بن الصبّاح ، قال : سمعتُ عبد الرحمن بن الأخنس ، يقول : شهدتُ المغيرة بن شعبة خطب فذكر عليًّا عليه السلام ، فنال منه .

روى أبو كُريب ، قال : حدّثنا أبو أسامة ، قال : حدّثنا صدقة بن المثنّى النّخَعىّ عن رياح بن الحارث ، قال : بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر ، وعنده ناس إذ جاءه رجلٌ يقال له : قيس بن علقمة ، فاستقبل المغيرة ، فسبّ عليا عليه السلام .

روى محمد بن سعيد الأصفهانىّ ، عن شريك ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن على ابن الحسين ، عن أبيه على بن الحسين عليه السلام ، قال : قال لى مرْوان : ما كان فى القوم أدفع عن صاحبنا مِن صاحبكم . قلت : فما بالكم تسبّونه على المنابر ؟ قال : إنه لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك .

روى مالك بن إسماعيل أبو غسّان النّهدىّ ، عن ابن أبى سيف ، قال : خطب مرْوان والحسن عليه السلام جالسٌ فنال من علىٍّ عليه السلام ، فقال الحسن : ويلك يامروان ! أهذا الذى تشتم شرّ الناس ! قال : لا ، ولكنّه خيرُ الناس .

وروى أبو غسّان أيضاً ، قال : قال عمرُ بن عبد العزيز : كان أبي يخطُب فلا يزال مستمرّاً فى خطبته ؛ حتى إذا صار إلى ذكر علىّ وسبّه تقطّع لسانه ، واصفرّ وجهه ، وتغيّرت حاله ، فقلت له فى ذلك ، فقال : أوقد فطنتَ لذلك؟ إنّ هؤلاء لو يعلمون من علىٍّ ما يعلمه أبوك ماتبِعنا منهم رجل .

وروى أبو عثمان ، قال : حدّثنا أبو اليقظان ، قال : قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عرَفة ، فقال : إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب .

وروى عمرو بن القنّاد ، عن محمد بن فُضَيل ، عن أشعث بن سوّار ، قال : سبّ عدى بن أرطاة عليًّا عليه السلام على المنبر ، فبكى الحسن البصرىّ وقال: لقد سبّ هذا اليوم رجلٌ إنه لأخو رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فى الدّنيا والآخرة .

وروى عدىّ بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم ، قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسيْن فى الجمعة ممّا يلى أبواب كندة ، فخرج المغيرة فخطب ، فحمِد الله ، ثم ذكر ما شاء أن يذكُر ، ثم وقع فى علىّ عليه السلام ، فضرب إبراهيم على فخذى أو ركبتى ، ثم قال : أقبلْ علىّ ، فحدّثنى فإنا لسنا فى جمعة ، ألا تسمع ما يقول هذا !

وروى عبد الله بن عثمان الثّقفىّ ، قال : حدّثنا ابنُ أبي سيف ، قال : قال ابن لعامر ابن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بُنَىّ عليا إلا بخير ؛ فإن بنى أميّة لعنوه على منابرهم ثمانين سنة ، فلم يزِده الله بذلك إلا رفعة ، إن الدنيا لم تبْنِ شيئاً قطّ إلا رجعت على مابَنَتْ فهدمته ، وإن الدّين لم يبْنِ شيئاً قطّ وهدَمه .

وروى عثمان بن سعيد ، قال : حدّثنا مطّلب بن زياد ، عن أبي بكر بن عبد الله الأصبهانىّ ، قال : كان دعىّ لبنى أمية يقال له خالد بن عبد الله ؛ لا يزال يشتُم عليا عليه

السلام ، فلمّا كان يوم جمعة ، وهو يخطب الناس ، قال : والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه لَيعلم ما هو ! ولكنه كان ختَنه ، وقد نعس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه ، ثم قال : ويحكم ! ماقال هذا الخبيث رأيت القبر انصدَع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : كذبت ياعدوّ الله !

وروى القناد ، قال : حدّثنا أسباط بن نصر الهمدانيّ ، عن السّديّ ، قال : بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزّيت ، إذ أقبل راكب على بعير ، فوقف فسبّ عليا عليه السلام ، فحفّ به الناس ينظرُون إليه ، فبينا هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقّاص ، فقال : اللهمّ إن كان سبّ عبداً لك صالحا ، فأرِ المسلمين خزيه ، فما لبث أن نفَرَ به بعيرُه فسقط ، فاندقّت عنقه .

وروى عثمان بن أبي شيبة ، عن عبد الله بن موسى ، عن فطر بن خليفة ، عن أبي عبد الله الجدَليّ ، قال : دخلتُ على أمّ سلمة رحمها الله فقالت لي : أيسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأنّى يكون هذا ؟ قالت : أليس يسبّ علي عليه السلام ومَنْ يحبّه !

وروى العبّاس بن بَكّار الضّبيّ ، قال : حدّثني أبو بكر الهُذَليّ ، عن الزهريّ ، قال : قال ابنُ عبّاس لمعاوية : ألا تكفّ عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل حتى يربوَ عليه الصغير ويهرَم فيه الكبير . فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه ، فقال الناس : ترك السنّة .

قال : وقد روى عن ابن مسعود إمّا موقوفا عليه أو مرفوعا : كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير ، يجرى عليها النّاس فيتخذونها سنّة ، فإذا غير منها شيء قيل : غيّرت السنّة !

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولًا، أو دينًا لهوًى فيحملون النّاس على ذلك ؛ حتى لا يعرفون غيره ، كنحو ما أخذ النّاسَ الحجّاجُ بن يوسف بقراءة عثمان ، وترك قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب ، وتوعدّ على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بنى أميّة وطغاة بنى مَرْوان بولد على عليه السلام وشيعته ، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة ، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهلُ العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها ؛ لإمساك الآباء عنها ، وكفّ المعلمين عن تعليمها ؛ حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبيّ ما عرفوها ، ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول الجهالة ؛ لأنه إذا استولت على الرعيّة الغلَبة ، وطالت عليهم أيام التسلّط ، وشاعت فيهم المخافة ، وشملتهم التقيّة ؛ اتفقوا على التخاذل والتساكُت فلا تزال الأيّام تأخذ من بصائرهم ؛ وتنقص من ضمائرهم ، وتنقض من مرائرهم ، حتى تصير البدْعة التى أحدثوها غامرة للسّنة التى كانوا يعرفونها ؛ ولقد كان الحجّاج ومَنْ ولّاه ، كعبد الملك والوليد ومَنْ كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بنى أميّة على إخفاء محاسن علىّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته ، وإسقاط أقدارهم ، أحرصَ منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأُبَىّ ؛ لأنّ تلك القراءات لا تكون سببًا لزوال ملكهم ، وفساد أمرهم ، وانكشاف حالهم ؛ وفى اشتهار فضل علىّ عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارُهم ، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ؛ فحرصوا واجتهدوا فى إخفاء فضائله ، وحملوا النّاس على كتْمانها وسترها ؛ وأبى الله أن يزيد أمرُه وأمر ولده إلّا استنارة وإشراقا ، وحبُّهم إلّا شغَفا وشدة ، وذكرُهم إلا انتشارا وكثرة ، وحجّتهم إلّا وضوحا وقوّة ، وفضلهم إلّا ظهوراً ، وشأنُهم إلا عُلوًّا ؛ وأقدارهم إلا إعظاما ، حتى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزاء ؛ وبإماتتهم ذكرهم أحياء ؛ وما أرادوا به وبهم من الشرّ تحوّل خيرا ، فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه مالم يتقدّمه السابقون ؛ ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون ؛ ولولا أنّها كانت

كالقِبْلة المنصوبة فى الشُّهرة ، وكالسُّنن المحفوظة فى الكثرة ؛ لم يصلْ إلينا منها فى دهرنا حرف واحد ؛ إذ كان الأمر كما وصفناه .

قال : فأمّا ما احتجّ به الجاحظ بإمامة أبى بكر ، بكوْنه أوّل النّاس إسلاما ، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحا ، لاحتجّ به أبو بكر يوم السقيفة ، وما رأيناه صنَع ذلك لأنّه أخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة بن الجراح ، وقال للناس : قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرَّجُلين ؛ فبايعوا منهما مَنْ شئتم ، ولو كان هذا احتجاجا صحيحاً لما قال عمر : كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله شرها ، ولو كان احتجاجا صحيحاً لادّعى واحدٌ من النّاس لأبى بكر الإمامة فى عصره أو بعد عصره ، بكونه سبق إلى الإسلام ؛ وما عرفنا أحداً ادّعى له ذلك ، على أن جمهورَ المحدّثين لم يذكروا أنّ أبا بكر أسلم إلّا بعد عدّة من الرّجال ؛ منهم علىّ ابن أبى طالب ، وجعفر أخوه ، وزيد بن حارثة ، وأبو ذرّ الغفارى ، وعمرو بن عَنْبسة السلمىّ ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وخبّاب بن الأرتّ ؛ وإذا تأمّلنا الرّوايات الصحيحة ، والأسانيد القويّة الوثيقة ، وجدناها كلّها ناطقةً بأنّ عليًّا عليه السلام أوّلُ مَنْ أسلم .

فأمّا الرواية عن ابن عباس أنّ أبا بكر أولهم إسلاما فقد روى عن ابن عبّاس خلاف ذلك بأكثر مما رووا وأشهر ، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حمّاد ، عن أبى عوانة وسعيد ابن عيسى ، عن أبى داود الطيالسىّ ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عبّاس ؛ أنه قال : أوّلُ مَنْ صلّى من الرّجال علىٌّ عليه السلام .

وروى الحسن البصرىُّ ، قال : حدّثنا عيسى بن راشد ، عن أبى بصير ، عن عِكْرمة ، عن ابن عبّاس ، قال : فرض الله تعالى الاستغفار لعلىٍّ عليه السلام فى القرآن

على كلّ مسلم ، بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾[1] ؛ فكلّ مَنْ أسلم بعد علىّ فهو يستغفر لعلىّ عليه السلام .

وروى سفيان بن عُيينة ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ؛ عن ابن عبّاس ، قال : السُّبّاق ثلاثة : سَبق يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب « يس » إلى عيسى ، وسبق علىُّ بن أبى طالب إلى محمد عليه وعليهم السّلام .

فهذا قول ابن عبّاس فى سبْق علىّ عليه السلام إلى الإسلام ، وهو أثبت مِنْ حديث الشّعبىّ وأشهر ، على أنّه قد رُوِىَ عن الشعبىّ خلاف ذلك من حديث أبى بكر الهذلىّ وداود بن أبى هند عن الشعبىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام : « هذا أوّل مَنْ آمن بى وصدّقنى وصلّى معى » .

قال : فأمّا الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة فى الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها ، فمنها ماروى شَريك بن عبد الله ، عن سليمان بن المغيرة ، عن زيد ابن وهب ، عن عبد الله بن مسعود ، أنّه قال : أوّلُ شىء علِمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنى قدمت مكّة مع عمومة لى وناس من قومى ، وكان من أنفسنا شراء عِطْر ، فأرشِدْنا[2] إلى العبّاس بن عبد المطلب ، فانتهينا إليه ، وهو جالس إلى زمزم ، فبينا نحن عنده جلوسا ، إذ أقبل رجلٌ من باب الصّفا ، وعليه ثوبان أبيضان ، وله وفْرة إلى أنصاف أذنيه ؛ جَعدة ، أشمّ أقنى ، أدعَجُ العينين ، كثّ اللحية ، برّاق الثنايا ، أبيض تعلوه حمرة ، كأنّه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مُراهِق أو محتلم ، حسن الوجه ، تقفوهم امرأة ، قد سترت محاسنَها ، حتى قصدوا نحو الحِجْر ، فاستلمه واستلمه الغلام ، ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا ، والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحِجْر ،

---

(١) سورة الحشر ١٠ (٢) « فأرشدونا » .

فقام ورفع يديه وكبّر ، وقام الغلام إلى جانبه ، وقامت المرأة خلفهما ، فرفعت يديها ، وكبّرت ، فأطال القنوت ، ثم ركع وركع الغلام والمرأة ، ثم رفع رأسه فأطال ، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع ، فلمّا رأينا شيئاً ننكره ، لا نعرفه بمكة ، أقبلنا على العباس ، فقلنا : ياأبا الفضل ، إنّ هـذا الدّين ما كنّا نعرفه فيكم ، قال : أجلْ والله ، قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابنُ أخى ، هذا محمّد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخى أيضا ؛ هذا علىّ بن أبى طالب ، وهذه المرأة زوْجة محمّد ، هذه خديجة بنت خويلد ، والله ماعَلَى وجهِ الأرض أحدٌ يَدِين بهذا الدين ؛ إلا هؤلاء الثلاثة .

ومنْ حديث موسى بن داود ، عن خالد بن نافع ، عن عُفَيف بن قيس الكِندىّ ، وقد رواه عن عُفَيف أيضا ، مالك بن إسماعيل النهدىّ والحسن بن عَنْبسة الورّاق وإبراهيم ابن محمّد بن ميمونة ، قالوا جميعا : حدّثنا سعيد بن جُشَم ، عن أسَد بن عبدالله البَجَلىّ ، عن يحيى بن عُفَيف بن قيس ، عن أبيه ، قال : كنتُ فى الجاهلية عطّارا ، فقدمت مكّة ، فنزلت على العبّاس بن عبد المطلب ، فبينا أنا جالس عنده ، أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلّقت الشمس فى السماء ، أقبل شابٌ كأنّ فى وجهه القمر ، حتى رَمَى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصفّ قدميه يصلّى ، فخرج على أثره فتًى كأنّ وَجْهه صفيحة يمانيّة ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلفّفة فى ثيابهـا ، فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعا ، فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً ، فسجدا معه ، فقلت للعباس : ياأبا الفضْل ، أمر عظيم ! فقال : أمر والله عظيم ! أتدرى مَنْ هذا الشّاب ؟ قلت : لا ، قال هذا ابنُ أخى ، هذا محمّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب ؛ أتدرى مَنْ هـذا الفتى ؟ قلت: لا ، قال : هذا ابن أخى علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب ؛ أتدرىَ من المرأة ؟ قلت: لا ، قال : هذه ابنة خُويلِد بن أسَد بن عبد العزّى ، هذه خديجة زوْج محمّد هذا[1] ، وإنّ محمداً هذا يذكر أنّ إلهه إله السماء والأرض ، وأمره بهذا الدّين ، فهو عليه كما ترى ،

---
(١) ا : « زوج هذا » .

ويزعم أنّه نبيّ ، وقد صدّقه على قوله عليٌّ ابن عمه هذا الفتى، وزوجته خديجة ، هذه المرأة ؛ والله ما أعلمُ على وجه الأرضِ كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة : قال عُفَيف : فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ ما يصنع ! يعني أبا طالب أخاه .

وروى عُبيد الله بن موسى ، والفضل بن دُكين ، والحسن بن عَطيّة ، قالوا : حدّثنا خالد بن طَهمان ، عن نافع بن أبي نافع ، عن معقل بن يسار ، قال : كنت أوصي النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال لي : هل لك أن نَعود فاطمة ؟ قلت : نعم يارسول الله ، فقام يمشي متوكّئا عليّ ، وقال : أما إنّه سيحمل ثقلها غيرُك،ويكون أجرُها لك ، قال : فوالله كأنّه لم يكن عليّ من ثقل النبي صلى الله عليه وآله شيء ؛ فدخلنا عَلَى فاطمة عليها السلام ، فقال لها صلّى الله عليه وسلم : كيف تجدينك ؟ قالت : لقد طال أسفي ، واشتدّ حُزني ،وقال لي النساء : زوّجك أبوك فقيرا لا مال له ! فقال لها : أما ترضَينَ أني زوّجتك أقدم أمتي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأفضلهم حلماً ! قالت : بلى رضيت يارسول الله .

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحيد ، وعبد السّلام بن صالح ، عن قيس بن الربيع ، عن أبي أيوب الأنصاريّ ، بألفاظه أو نحوها .

وروى عبد السلام بن صالح، عن إسحاق الأزرق ، عن جعفر بن محمد ، عن آبائه، أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لمّا زوّج فاطمة ، دخل النساء عليها ، فقلن : يابنتَ رسول الله ، خَطَبك فلانٌ وفلان ، فردّهم عنك ، وزوّجك فقيراً لا مالِ له ، فلمّا دخل عليها أبُوها صلّى الله عليه وآله رأى ذلك في وجهها ، فسألها فذكَرتْ له ذلك ، فقال : يافاطمة ، إنّ الله أمرني فأنكحتُك أقدمَهم سلما ؛ وأكثرهم عِلمًا ، وأعظمهم حِلمًا ؛ وما زوّجتك إلاّ بأمرٍ من السماء ؛ أما علمت أنه أخي في الدنيا والآخرة !

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظُهَيْر ، عن السدىّ ؛ أنّ أبا بكر وعمر خطبا فاطمةَ عليها السلام ، فردّهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : لم أومَرْ بذلك ، فخطبها علىّ عليه السلام ، فزوّجه إياها ، وقال لها : زوّجتك أقدمَ الأمةِ إسلاما . . وذكر تمام الحديث . قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة ، منهم أسماء بنت عُميس ، وأمّ أيمن ، وابنُ عبّاس وجابر بن عبد الله .

قال : وقد روى محمد بن عبد الله بن أبى رافع ، عن أبيه ، عن جدّه أبى رافع ، قال : أتيتُ أبا ذرّ بالرَّبَذة أودّعه ، فلما أردت الانصراف ، قال لى ولأناسٍ معى : ستكون فتنة ، فاتّقوا الله ، وعليكم بالشيخ على بن أبى طالب ، فاتّبعوه ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول له : « أنت أوّل مَنْ آمن بى ، وأول مَنْ يصافحنى يوم القيامة ، وأنت الصدّيق الأكبر ، وأنت الفاروق الذى يفرِق بين الحقّ والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ؛ والمال يعسوب الكافرين ؛ وأنت أخى ووزيرى ، وخير مَنْ أترك بعدى ، تقضى دَيْنى وتنجِز موعدى » .

قال : وقد روى ابن أبى شيبة ، عن عبد الله بن نُمَيْر ، عن العَلاء بن صالح ، عن المِنْهال بن عمرو ، عن عبّاد بن عبدالله الأسدىّ ، قال : سمعتُ علىّ بن أبى طالب ، يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصّدّيق الأكبر ، لا يقولها غيرى إلّا كذّاب ، ولقد صلّيت قبل النّاس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدَويّة ، قالت : سمعتُ عليا عليه السلام ، يخطب على مِنبر البصرة ، ويقول : أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبّة بن جُوين العُرَنىّ أنّه سمع عليا عليه السلام ، يقول : أنا أوّلُ رجل أسلم

مع رسول الله صلى الله عليه وآله . رواه أبو داود الطيالسيّ ، عن شعبة ، عن سفيان الثوريّ ، عن سلمة بن كُهَيل، عن حبّة بن جُوَين .

وروى عثمان بن سعيد الخرّاز[1] ، عن على بن حزّار ، عن على بن عامر؛ عن أبي الحجّاف ، عن حكيم مولى زاذان ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : صلّيتُ قبل الناس سبعَ سنين ، وكنّا نسجُد ولا نركع ، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاةُ العصر ، فقلت : يارسولَ الله ، ماهذا ؟ قال : أُمِرْتُ به .

وروى إسماعيل بن عمرو ، عن قيس بن الربيع ، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل ، عن جابر بن عبد الله ، قال : صلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يوم الاثنين ؛ وصلّى علىّ يوم الثلاثاء بعده. وفى الرواية الأخرى ، عن أنس بن مالك : استُنبِئَ النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وأسلَمَ علىّ يوم الثلاثاء بعده .

وروى أبو رافع أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صلّى أوّل صلاة صلّاها غداة الاثنين ، وصلّت خديجة آخر نهار يومها ذلك ، وصلّى على عليه السلام يوم الثلاثاء غدا ذلك اليوم .

قال :وقد رُوِى بروايات مختلفة كثيرة متعددة، عن زيد بن أرقم ؛ وسلمان الفارسىّ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ؛ أنّ عليا عليه السلام : أوّل مَنْ أسلم ؛ وذكر الروايات والرجال بأسمائهم .

وروى سلمة بن كُهَيل ، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر فى الكتاب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : «أوّلكم وروداً علىّ الحوض ، أوّلكم إسلاما علىّ بن أبي طالب».

وروى ياسين بن محمد بن أيمن ، عن أبى حازم ؛ مولى ابن عباس عن ابن عباس ،

---

(١) ب : « الحرار » .

قال : سمعتُ عمرَ بن الخطاب وهو يقول : كفُّوا عن علىّ بن أبى طالب ؛ فإنى سمعتُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله يقول[1] فيه خِصالا ، لو أنّ خصلة منها فى جميع آل الخطاب ، كان أحبّ لى مما طلعت عليه الشمس ؛ كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله نطلبه ، فانتهينا إلى باب أمّ سلمة ، فوجدنا عليًّا متكئا على نِجاف[2] الباب ؛ فقلنا : أردنا رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ فقال : هو فى البيت ، رويدكم ! فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله فسِرْنا حوله، فاتّكأ على علىّ عليه السلام، وضرب بيده على منكبه ، فقال : أبشرْ ياعلىّ ابن أبى طالب، إنك مخاصَم، وأنك تخصم[3] الناس بسبع لا يجاريك أحدٌ فى واحدة منهنّ ، أنت أوّلُ النّاس إسلاماً ، وأعلمهم بأيام الله .. » وذكر الحديث .

قال : وقد روى أبو سعيد الخدرىّ ، عن النبى صلى الله عليه وآله مثل هذا الحديث .

قال : روى أبو أيوب الأنصارىّ ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنه قال : « لقد صلّت الملائكة علىّ وعلى علىّ عليه السلام ، سبعَ سنين » ؛ وذلك أنّه لم يصلّ معى رجل فيها غيره .

قال أبو جعفر : فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وآله : « إنّما تبعنى حرّ وعبد » ، فإنه لم يسمّ فى هذا الحديث أبا بكر و بلالًا ، وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالًا إلا بعد ظهور الإسلام بمكّة ؛ فلما أظهر بلال إسلامه عذّبه أميّة بن خلَف ! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله الدّعوة ، ولا فى ابتداء أمر الإسلام ؛

---

(١) ساقطة من ا

(٢) النجاف : هو ما بنى ناتئاً فوق الباب .

(٣) تخصم الناس : تغلبهم فى الخصومة .

وقد قيل : إنه عليه السلام إنما عَنَى بالحرّ علىّ بن أبى طالب ، وبالعبد زيد بن حارثة .

وروى ذلك محمد بن إسحاق ، قال : وقد روى إسماعيل بن نصر الصفّار ، عن محمد ابن ذَكْوان ، عن الشعبىّ ؛ قال : قال الحجّاج للحسن ، وعنده جماعة من التابعين وذكر على بن أبى طالب : ما تقول أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ! هو أوّل مَنْ صلّى إلى القِبْلة ، وأجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ لعلىّ منزلةً من ربّه ، وقرابة من رسوله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ . فغضب الحجاج غضبا شديدا ، وقام عن سريره ، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا .

قال الشعبىّ : وكنا جماعةً مامنّا إلّا مَنْ نال من علىّ عليه السلام مقاربةً للحجّاج ، غير الحسن بن أبى الحسن رحمه الله .

وروى محرز بن هشام ، عن إبراهيم بن سلمة ، عن محمد بن عبيد الله ، قال : قال رجل للحسن : مالنا لا نراك تُثنى على علىّ وتقرّظه ! قال : كيف وسيفُ الحجاج يقطر دماً ! إنّه لأوّلُ مَنْ أسلم ، وحسبُكم بذلك !

قال : فهذه الأخبار .

وأما الأشعار المرويّة فمعروفة كثيرة منتشرة ؛ فمنها قول عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيبا للوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط :

وإنّ ولىّ الأمر بعد محمدٍ ... علىٌّ وفى كلّ المواطن صاحبُهْ
وصىُّ رسول الله حقًّا وصنُوه ... وأوّل مَنْ صلّى ومَنْ لان جانبُهْ

وقال خزيمة بن ثابت فى هذا :

وصِىُّ رسولِ الله مِنْ دون أهلِهِ ... وفارسُه مُذْ كان فى سالف الزّمَنْ
وأوّلُ مَنْ صلّى من الناس كلّهمْ ... سوى خيرة النّسوان واللهُ ذو مَنَنْ

وقال أبو سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس ، حين بويع أبو بكر :

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حَسَنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتهمْ وأعلمَ النّاس بالأحكام والسُّنَنِ !

وقال أبو الأسود الدؤليّ يهدّد طلحة والزبير :

وإن عليًّا لكم مُصْحِرٌ يماثله الأسد الأسوَدُ
أما إنّه أوّلُ العابدين بمكّة والله لا يعبد !

وقال سعيد بن قيس الهَمْدانيّ يرتجز بصفين :

هذا عليٌّ وابنُ عمّ المصطفى أوّل مَنْ أجابه فيما روَى
* هو الإمام لا يبالي مَنْ غوَى *

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسديّ :

فحُوطُوا عليًّا وانصروه فإنّه وصيٌّ وفي الإسلام أوّل أوّلُ
وإن تخذلوه والحوادث جمّة فليس لكم عن أرضكم متحوّلُ

قال : والأشعار كالأخبار ، إذا امتنع في مجيْ القبيلين التواطؤ والاتفاق ، كان ورودها حجة .

***

فأمّا قولُ الجاحظ : فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معا ، فقد أبطل بهذا ما احتجّ به لإمامة أبي بكر ، لأنه احتجّ بالسَّبْق ، وقد عدل الآن عنه .

قال أبو جعفر : ويقال لهم : لسْنا نحتاج من ذكر سبق عليّ عليه السلام إلا مجامعتكم إيّانا على أنّه أسلم قبل النّاس ؛ ودعوَاكم أنّه أسلم وهو طفل دعوَى غير مقبولة لا بحجة .

فإن قلتم : ودعوتكم أنّه أسلم وهو بالغ دعوَى غير مقبولة إلا بحجّة !

قلنا : قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم ؛ ولو كان طفلاً لكان فى الحقيقة غير مسلم ، لأنّ اسم الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنّما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين ؛ وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه اسم الإسلام ، فالأصل فى الإطلاق الحقيقة ، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « أنت أوّل مَنْ آمن بى ، وأنت أوّل مَنْ صدّقنى » . وقال لفاطمة : « زوّجتك أقدمهم سِلْما — أو قال : إسلاما — » فإن قالوا : إنّما دعاه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الإسلام على جهة العَرْض لا التكليف .

قلنا : قد وافقتمونا على الدّعاء ، وحكم الدّعاء حكم الأمر والتكليف . ثم ادّعيتم أنّ ذلك كان على وجه العرْض ، وليس لكم أن تقبلوا معنى الدّعاء [عن وجهه[1]] إلّا لحجة .

فإن قالوا : لعلّه كان على وجه التّأديب والتّعليم ، كما يُعتمد مثل ذلك مع الأطفال !

قلنا : إنّ ذلك إنّما يكون إذا تمكّن الإسلام بأهله ، أو عند النشوء عليه والولادة فيه ، فأمّا فى دار الشّرْك فلا يقع مثل ذلك ؛ لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم ، على أنه ليس من سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم و بين آبائهم ، قبل أن يبلغوا الحلم .

وأيضاً فمِنْ شأن الطفل اتّباع أهله ، وتقليدُ أبيه ، والمضىُّ على منشئه ومولده ، وقد كانتْ منزلة النبيّ صلى الله عليه وآله حينئذ منزلة ضيق وشدّة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلّا مَنْ ثبت الإسلام عنده بحجّة ، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة .

فإن قالوا : إنّ عليّاً عليه السلام كان يألفُ النبيّ صلى الله عليه وآله ، فوافقه على طريق المساعدة له .

قلنا : إنه وإن كان يألفه أكثرَ من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته ، ولم يكن الإلف ليخرجَه عمّا نشأ عليه ، ولم يكن الإسلام مما غُذّىَ[2] به وكرر على سمعه ،

---

(١) تكملة من ا . (٢) ب : « عذى » ، تصحيف ، وأثبت ما فى ا .

لأنّ الإسلام هو خلع الأنداد والبراءة ممّن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع فى اعتقاد طفل .

ومن العجَب قولُ العبّاس لعُفيف بن قيس : ننتظر الشّيخ وما يصنع ! فإذا كان العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب ، ويصدُران عن رأيه ، فكيف يخالفه ابنُه ، ويؤثر القلّة على الكثرة ، ويفارق المحبوبَ إلى المكروه ، والعزّ إلى الذلّ ، والأمْن إلى الخوف، عن غير معرفة ولا علم بما فيه !

* * *

فأمّا قوله : إنّ المقلّل يزعُم أنه أسلَمَ وهو ابن خمس سنين ، والمكثِر يزعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين ؛ فأول ما يقال فى ذلك : إنّ الأخبار جاءت فى سِنّه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه فى قسمين :

القسم الأوّل : الّذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة . حدّثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسَدىّ ، عن إسحاق بن بشر القرشىّ ، عن الأوزاعى ، عن زمرة بن حبيب ، عن شدّاد بن أوس ، قال : سألتُ خبّاب بن الأرتّ عن إسلام علىّ ، فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيتُه يصلّى قبل النّاس مع النبىّ صلى الله عليه وآله وهو يومئذ بالغٌ مستحكم البلوغ . وروى عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن ، أنّ أوّل مَنْ أسلم علىّ بن أبى طالب ، وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثانى : الّذين قالوا إنّه أسلم وهو ابن أربعَ عشرة سنة ، رواه أبو قتادة الحرّانىّ ، عن أبى حازم الأعرج ، عن حُذَيفة بن اليمان ، قال : كنّا نعبد الحجارة ، ونشربُ الخمر وعلىٌّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلّى مع النبىّ صلّى الله عليه وآله ليلاً ونهارا ، وقريش يومئذ تسافِه رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، مايذُبّ عنه إلا علىّ

عليه السلام . وروى ابن أبي شَيْبة عن جَرِير بن عبد الحميد ، قال : أسلم عليّ وهو ابن أربع عشرة سنة .

القسم الثالث : الّذين قالوا : أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة . رواه إسماعيل بن عبد الله الرَّقّيّ ، عن محمد بن عمر ، عن عبد الله بن سمعان ، عن جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه عن محمد بن علي عليه السلام، أنّ عليا حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة . وروى عبدُ الله بن زياد المدنيّ ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام ، قال : أوّلُ مَنْ آمن بالله عليّ ابن أبي طالب، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة .

القسم الرابع الّذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين . رواه نوح بن درّاج ، عن محمد بن إسحاق ، قال : أوّل ذكرٍ آمَنَ وصدّق بالنبوّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وهو ابن عشرِ سنين ، ثمّ أسلم زيد بن حارثة ، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ستٍّ وثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم الخامس : الّذين قالوا إنّه أسلَمَ وهو ابن تسع سنين ، رواه الحَسَن بن عِنْبسة الورّاق ، عن سليم مولى الشّعبيّ ، عن الشعبيّ ، قال : أوّلُ مَنْ أسلم من الرّجال عليّ ابن أبي طالب وهو ابن تسع سنين ، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تسعٌ وعشرون سنة .

***

قال شيخنا أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها ، فإمّا أن يكونَ الجاحظ جهلها أو قصد العناد .

فأمّا قوله : «فالقياسُ أن نأخذ بأوسط الأمرين من الرّوايتين» ، فنقول : إنه أسلم وهو ابن سبع سنين . فإنّ هـذا تحكّم منه ، ويلزمه مثله في رجلٍ ادّعى قِبَل رجل عشرة

دراهم ، فأنكر ذلك وقال : إنما يستحقُّ قِبلى أربعة دراهم ، فينبغى أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ، ويلزمه فى أبى بكر حيث قال قوم : كان كافرا ، وقال قوم : كان إماما عادلا أنْ نقول : أعدلُ الأقاويل أوسطُها وهو منزلة[1] بين المنزلتين ، فنقول : كان فاسقاً ظالمـا ، وكذلك فى جميع الأمور المختلَف فيها .

فأما قولُه : وإنّمـا يُعرف حقّ ذلك من باطله ، بأن نحصىَ سِنِى ولاية عثمان وعمر وأبى بكر وسِنِى الهجرة ، ومُقَام النبىّ صلى الله عليه وآله بمكّة بعد الرّسالة إلى أن هاجر ، فيقال له : لو كانت الروايات متّفقة على هذه التاريخات ، لـكان لهذا القول مساغٌ ، لـكن الناس قد اختلفوا فى ذلك ، فقيل : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أقام بمكّة بعد الرّسالة خمس عشرة سنة ، رواه ابنُ عباس ، وقيل ثلاث عشرة سنة ؛ وروى عن ابنُ عبّاس أيضا ، وأكثر الناس يروونه . وقيل عشرة سنين ، رواه عُرْوة بن الزبير ، وهو قول الحسَن البَصْرىّ وسعيد بن المسيّب . واختلفوا فى سنّ رسول الله صلّى الله عليـه وآله ، فقال قوم : كان ابنَ خمس وستين ، وقيل كان ابنَ ثلاث وستين ، وقيل : كان ابن ستّين . واختلفوا فى سنّ علىّ عليه السلام ، فقيل : كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين . وقيل ابن ثلاث وستين وقيل : ابن ستين ، وقيل ابن تسع وخمسين .

فـكيف يمكنُ مع هذه الاختلافات تحقيقُ هذه الحال ! وإنّما الواجبُ أن يرجع إلى إطلاق قولهم : أسلم علىّ ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقا إلاّ على البالغ ، كما لا يطلَق اسم الـكافر إلّا على البالغ ، على أنّ ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً ، ويولدُ له الأولاد ، فقـد رَوَت الرّواة أن عمرو بن العـاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله

(١) ا : « أن نتركه » .

إلّا باثنتى عشرة سنة ، وهذا يوجب أنّه احتلم وبلغ فى أقلّ من إحدى عشرة سنة .

وروى أيضا أنّ محمد بن عبد الله بن العباس ، كان أصغرَ من أبيه علىّ بن عبد الله ابن العباس بإحدى عشرة سنة ، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العبّاس حين مات رسول الله صلى الله عليه وآله غير مسلم على الحقيقة ، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام ، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين . رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا ابن عشر سنين .

***

قال الجاحظ : فإن قالوا : فلعلّه وهو ابن سبع سنين [1] أو ثمانى سنين [1] ، قد بلغ من من فطنَتِه وذكائه وصحة لُبه وصدق حَدْسه [2] وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرّب الأمور ، ولا فاتح الرّجال ، ولا نازع الخصوم ، مايعرف به جميع مايجب على البالغ معرفتُه والإقرار به !

قيل [3] لهم : إنما نتكلّم على ظواهر الأحوال ، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال ، فإنا وجدْنا حكمَ ابن سبع سنين أو ثمان ـ مالم يعلم باطن أمره وخاصّة طبعه ـ حكمَ الأطفال ، وليس كنا أن نُزيل ظاهرَ حكمه والذى نعرف من حال أبناء جنسه بلعلّ وعسى ، لأنا وإن كنّا لا ندرى ، لعلّه قد كان ذا فضيلة فى الفِطنة ، فلعلّه قد كان ذا نقص فيها !

هذا على تجويز أن يكون علىّ عليه السلام فى الغيب [4] قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلامَ البالغ ، غير أنّ الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الّذين أسلموا وهم فى مثل سنّه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن ، وتلقين القيّم ، ورياضة السائس .

فأمّا عند التحقيق ، فإنّه لا نجوز لمثل ذلك ، لأنّه لو كان أسلم ، وهو ابن سبع

(١ ـ ١) ساقط من ا
(٢) الثانية : « حسه » .
(٣) الثانية : « قيل » .
(٤) الثانية « المغيب » .

أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة، وفرق ما بين الرسل والسحرة، وفرق ما بين خبر النبيّ والمنجّم، وحتى عرف كيد الأريب (١)، وموضع الحجّة، و(٢) بعد غور المتنبي (٢)، كيف يلبّس على العقلاء، وتستمال عقول الدّهماء، وعرف الممكن في الطّبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاق مما يحدث بالأسباب، وعرف قدر القُوى وغاية الحيلة ومنتهى التّمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلاّ الخالق سبحانه، وما يجوز على الله في حكمته مما لا يجوز، وكيف التحفّظ من الهوى والاحتراس من الخداع؛ لكان كونُه على هذه الحال وهذه مع فرط الصّبا والحداثة وقلّة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف مما عليه تركيب هذه الخلقة، وليس يصلُ أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبئ، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها، والأسباب التي وصفناها وفصّلناها، ولو كان عليٌّ عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجّةً على العامّة، وآية تدلّ على النبوّة، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يحتجّ بها، ويجعلها قاطعةً لعذر الشّاهد وحجة على الغائب. ولولا أنّ الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنه أتاه الحكم صبيا، وأنه أنطق عيسى في المهد ما كانا في الحكم [ولا في المغيّب] (٢)، إلا كسائر الرّسل، وما عليه جميع البشر. فإذ لم ينطق لعليّ عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبرُ به مجيء الحجّة القاطعة والمشاهدة القائمة، فالمعلوم عندنا في الحكم أن طباعه كطباع عمّيْه حمزة والعباس، وهما أمسّ بمعدن جماع الخير منه، أو كطباع جعفر وعقيل من رجال قومه، وسادة رهطه. ولو أنّ إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعميّه حمزة والعباس، ما كان عندنا في أمره إلاّ مثل ما عندنا فيه (٣).

* * *

أجاب شيخُنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلّه مبنيٌّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بيّنا أنّه أسلم بالغا ابن خمس عشرة سنَة أو ابن أربع عشرة سنة؛ على

---

(١) العثمانية: «المريب».
(٢) من العثمانية
(٢-٢) في الأصول: «وفقد التميز»، وأثبت ما في العثمانية.
(٣) العثمانية ٦ - ٨.

أنا لو نزلنا على حُكْم الخصوم ، وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية ؛ وهو أنه أسلَمَ وهو ابن عشرٍ لم يلزم ما قاله الجاحظ ، لأنّ ابن عشرٍ قد يستجمع عقله ، ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيرا من الأمور المعقولة ؛ ومتى كان الصبيّ عاقلًا مميّزا كان مكلّفًا بالعقليّات ؛ وإن كان تكليفُه بالشرعيّات موقوفًا على حدّ آخر وغاية أخرى ، فليس بمنكَرٍ أن يكون عليٌّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة ، فلزمه الإقرار بالنبوّة ، وأسلم إسلام عالم عارف، لا إسلام مقلّد تابع ؛ وإن كان ما نسّقه الجاحظ وعدّده من معرفة السّحر والنّجوم والفصل بينهما وبين النبوّة ، ومعرفة ما يجوز فى الحكمة ممّا لا يجوز ، ومالا يحدِثه إلّا الخالق ، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقُدْرة ، ومعرفة التّمويه والخديعة ، والتّلبيس والمماكرة، شرطًا فى صحّة الإسلام لما صحّ إسلام أبى بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب ؛ وإنّما التّكليف لهؤلاء بالجمل ومبادئ المعارف لا بدقائقها والغامض منها ، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرّجال وجرّب الأمور ونازع الخصوم ؛ وإنما يفتقر إلى صحّة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة ؛ ألا ترى أنّ طفلًا لو نشأ فى دارٍ لم يعاشر النّاس بها ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ؛ ثم كَمَل عقلُه ، وحصلت العلوم البديهيّة عنده ، لكان مكلّفا بالعقليات !

فأمّا توهّمه أنّ عليًّا عليه السلام أسلَمَ عن تربية الحاضن ، وتلقين القيّم ، ورياضة السّائس ؛ فلَعمرِى إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان حاضنَه وقيّمه وسائسه ، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبى طالب ، ولا عن إخوته طالب وعَقِيل وجعفر ، ولا عن عُمومته وأهلِ بيته ، وما زال مخالطاً لهم ، ممتزجاً بهم ، مع خدمته لمحمّد صلى الله عليه وآله ، فما باله لم يمِلْ إلى الشّرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله ، وهم كثير ، ومحمد صلى الله عليه وآله واحد ! وأنت تعلم أن الصبيّ إذا كان له أهلٌ ذوو كثرة ، وفيهم واحد

يذهب إلى رأى مفرد ، لا يوافقه عليه غيره منهم ، فإنه إلى ذوى الكثرة أميلُ ، وعن ذى الرأى الشاذ المنفرد أبعَد ، وعلى أنّ عليًّا عليه السلام لم يولَد فى دارِ الإسلام ، وإنما ولد فى دار الشرك ورُبّيَ بين المشركين ، وشاهد الأصنامَ ، وعاين بعينيه أهلَه ورهطه يعبدونها ؛ فلو كان فى دار الإسلام لكان فى القول مجالٌ ، ولقيل إنه ولد بين المسلمين ، فإسلامه عن تلقين الظِّئْر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيرَه ، ولا خطر بباله سواه ، فلمّا لم يكن ولد كذلك ، ثبت أنّ إسلامه إسلام المميّز العارف بما دخل عليه . ولولا أنه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزويجه بقوله لها : زوّجتك أقدمَهم سِلْمًا ، ولا قرن إلى قوله : « وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما » ، والحلم : العقل ، وهذان الأمرانِ غاية الفضل ، فلولا أنه أسلم إسلامَ عارف عالم مميّز لما ضمّ إسلامه إلى العلم والحلم اللّذيْن وصفه بهما ! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مُثابًا عليه ، ولا معاقبا به لو تركه ، ولو كان إسلامُه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام [به][1] على رءوس الأشهاد ، ولا خطب على المنبر ؛ وهوَ بين عدوٍّ ومحارب ، وخاذل منافق ، فقال : أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ؛ صلّيتُ قبلَ النّاس سبع سنين ، وأسلمت قبل إسلام أبى بكر ، وآمنت قبل إيمانه ! فهل بلغكم أنّ أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابَهُ أو ادّعاه لغيره ، أو قال له : إنما كنتَ طفلا أسلمت على[2] تربية محمد صلى الله عليه وآله ذلك ، وتلقينه إيّاك ، كما يُعلّم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعا ! فلا فخر له فى تعلم ذلك ، وخصوصاً فى عصرٍ قد حارب فيه أهلَ البصرة والشام والنّهروان ، وقد اعتورته الأعداء وهَجَتْه الشعراء ، فقال فيه النّعمان بن بشير :

---

(١) تكملة من ا . (٢) « عن » .

لَقدْ طَلَبَ الخلافة من بعيـــدٍ وسارعَ فى الضَّلالِ أبو تُرابِ
معاوية الإمامُ وأنت مِنْهــــا على وتح بمنقطَع السرابِ (١)

وقال فيه أيضا بعض الخوارج :

دَسَسْنا له تحتَ الظلام ابنَ مُلْجَمٍ جزاء إذا ماجاء نفساً كتابُها
أبا حسن خذها على الرأس ضَرْبَةً بكفّ كريمٍ ؛ بعد موتٍ ثوابُها

وقال عِمران بن حِطّان يمدح قاتله :

ياضربةً مِنْ تقيٍّ ماأراد بها إلّا ليبلُغَ من ذِي العرش رضوانا
إنى لأذْكره حيناً فأحسِبُــه أوْفَى البريّة عنــــد الله ميزانا

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دَحْض حجة فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه لبدءوا بذلك ، وتركوا مالا معنى له .

وقد اوردنا ما مدحه الشعراء به مِنْ سبقه إلى الإسلام ، فكيف لم يَرُدّ على هؤلاء الذين مدحُوه بالسّبق شاعرٌ واحد من أهل حرْبه . ولقد قال فى أمّهات الاولاد قولا خالف فيه عمر ، فذكروه بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به ممّا لا فخر فيه عندهم ، وعابوه بقوله فى أمّهات الأولاد .

ثم يقال له : خَبّرنا عن عبدالله بن عمر ، وقد أجازه النبيُّ صلى الله عليه وآله يوم الخَنْدق ، ولم يجزه يوم أُحُد ، هل كان يُميّز ما ذكرته ؟ وهل كان يعلم فَرْق ما بين النبيّ والمتنبى ، ويفصل بين السِّحر والمعجزة ، إلى غيره مما عدّدت وفصّلت !

فإن قال : نعم وتجاسر على ذلك ، قيل له : فعلىٌّ عليه السلام بذلك أوْلى من ابن عمر ، لأنّه أذْكَى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء ، وأنّى يُشكّ فى ذلك ، وقد رويتم أنه

---

(١) الوتح : القليل .

لم يميّز بين الميزان والعُود بعد طُول السنّ ، وكثرة التجارب ، ولم يميز أيضا بين إمام الرّشد وإمام الغىّ ، فإنه امتنع من بَيْعة على عليه السلام . وطرَق على الحجّاج بابه ليـلا ليبايع لعبد الملك ؛ كيلا يبيت تلك الليلة بلا إمام ، زعم . لأنه روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية » ، وحتى بلغ من احتقار الحجّاج له واسترذاله حاله ، أن أخرج رجله من الفراش ، فقال : أصفق بيدك عليها ، فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره فى الأئمة ، وحال على عليه السلام فى ذكائه وفطنته ، وتوقّد حسّه ، وصدق حدْسه ، معلومة مشهورة ، فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر ، ويقال عنـه إنه عرف تلك الأمور التى سردها الجاحظ ونسّقها، وأظهر فصاحته وتشدُّقه فيها ،فعلىّ بمعرفة ذلك أحقّ ، وبصحة إسلامه أوْلَى .

وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلمُ ويعرف ذلك ، فقد أبطل إسلامه،وطعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق ؛ لأنه عليه السلام كان قال : لا أجيز إلّا البالغ العاقل ، ولذلك لم يجزه يوم أُحُد .

ثم يقال له : إنّ مانقوله فى بلوغ علىٍّ عليـه السلام الحدّ الذى يحسن فيه التـكليف العقلىّ بل يجب ــ وهو ابن عشر سنين ــ ليس بأعجب من مجىء الولد لستّة أشهر ، وقد صحّح ذلك أهلُ العلم ، واستنبطوه من الـكتاب ، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة . وكذلك مجىء الولد لسنتيْن خارج أيضا عن التعارف والعادة ، وقد صحّحه الفقهاء والناس .

ويُرْوَى أنّ معاذاً لمّا نهى عمر عن رَجْم الحامل تركها حتى ولدتْ غلاما قد نبتت ثنيّتاه ، فقال أبوه : ابنى وربّ الـكعبة ! فثبت ذلك سنّة يعمل بها الفقهاء ، وقد وجدنا العادة تقضى بأنّ الجارية تحيض لاثنتىْ عشرة سنة ، وأنه أقلّ سنٍّ تحيض فيه المرأة ، وقد

يكون فى الأقلّ نساء يحِضْن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعىّ فى اللّعان : لو جاءت المرأة بحمل وزوجها صبىّ له دون عشر سنين لم يكن ولدا له ، لأنّ من لم يبلغ عشر سنين من الصِّبْيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له ، وكان بينهما لِعان إذا لم يقرّ به .

وقال الفقهاء أيضا : إن نساء تهامة يحضْنَ لتسع سنين ؛ لشدّة الحرّ ببلادهنّ .

* * *

قال الجاحظ : ولو لم يعرف باطل هذه الدّعوى مَنْ آثر التقوى ، وتحفّظ من الهوى ، إلا بترك علىّ عليه السلام ذكرَ ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خصمه ، وقد نازع الرجالَ وناوَى الأكفاء ، وجامعَ أهلَ الشّورى ؛ لكان كافيا ، ومَتى لم تصحّ لعلى عليه السلام هذه الدعوى فى أيّامه ، ولم يذكرْها أهلُ عصره ، فهى عن ولده أعجز ، ومنهم أضعف !

ولم ينقل أنّ عليًّا عليه السلام احتجّ بذلك فى موقف ، ولا ذكره فى مجلس ، ولا قام به خطيبا ، ولا أدْلَى به واثقًا ، لا سيّما وقد رضيَه الرّسولُ صلى الله عليه وآله عندكم مفزعا ومعلّما ، وجعله للناس إماما . ولا ادّعى له أحدٌ ذلك فى عصره ، كما لم يدّعه لنفسه ؛ حتى يقول إنسان واحد : الدليل عَلَى إمامته أنّ النبى صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام أو كلّفه التصديق قبل بلوغه ، ليكون ذلك آيةً للنّاس فى عصره ، وحجّة له ولولده من بعده ؛ فهذا كان أشدّ على طلحة والزبير وعائشة من كلّ ما ادّعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته (١) .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إنّ مثلَ الجاحظ مع فضله وعلمه؛ لا يخفى عليه كذب

---

(١) العثمانية ٩ — ١٢ ، مع تصرف واختصار .

هذه الدّعوى وفسادها ، ولـكنّه يقول مايقوله تعصّباً وعنادا ، وقد روى الناس كافّة، افتخارَ علي عليه السلام بالسّبْق إلى الإسلام ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله استُنبِئ يوم الاثنين ، وأسلم عليٌّ يومَ الثلاثاء ، وأنه كان يقول : صلّيت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول: أنا أوّلُ مَنْ أسلمَ ، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته فى عصره و بعد وفاته . والأمر فى ذلك أشهرُ من كلّ شهير ، وقد قدّمنا منه طرَفاً ، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخفّ بإسلام عليّ عليه السلام ، ولا تهاوَن به ، ولا زعم أنه أسلم إسلام حَدَثٍ غرير ، وطفل صغير . ومن العَجَب أن يكون مثل العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ، ليُصدِرا عن رأيه ، ثم يخالفه عليّ ابنه لغير رغبة ولا رهبة ؛ يؤثر القلّة على الـكثرة ، والذّلّ على العزّة من غير علمٍ ولا معرفة بالعاقبة .

وكيف ينـكر الجاحظُ والعثمانيّة أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دَعاه إلى الإسلام وكلّفه التّصديق !

وقد روى فى الخبر الصّحيح أنّه كلّفه فى مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكّة أن يصنَع له طعاماً ، وأن يدعوَ له بنى عبد المطّلب ، فصنع له الطعام ، ودعاهم له ، فخرجوا ذلك اليوم ، ولم ينذرهم صلّى الله عليه وآله لـكلمة قالها عمّه أبو لهب ، فـكلّفه فى اليوم الثانى أن يصنَع مثل ذلك الطعام ، وأنْ يدعوَهم ثانية ، فصنعه ، ودعاهم فأكلوا ، ثم كلّمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدّين ، ودعاه معهم لأنّه من بنى عبد المطلب ، ثم ضمن لمن يوازره منهم وينصره على قوله ، أن يجعَله أخاه فى الدين ، ووصيّه بعد موته ، وخليفتَه من بعده ، فأمسكوا كلُّهم وأجابه هو وحده ، وقال : أنا أنصرُك على ماجئت به ، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لمّا رأى منهم الخِذْلان ، ومنه النصر ، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة ، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة : هـذا أخى ووصيّى وخليفتى من بعـدى ، فقاموا يسخرون ويضحكون ، ويقولون لأبي طالب : أطِعْ ابنَك ، فقـد أمّره عليك ، فهل يكلّف عمل

الطعام ودعاء القوم صغير مميّز وغِرٌّ غير عاقل ! وهل يؤتمن على سرّ النبوة طفلٌ ابن خمس سنين أو ابن سبع ! وهل يُدْعى فى جملة الشيوخ والكهول إلّا عاقل لبيب !. وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده فى يده ، و يعطيه صَفْقَة يمينه ؛ بالأُخُوّة والوصيّة والخلافة إلّا وهو أهلٌ لذلك ، بالغٌ حدّ التكليف ، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه ! وما بالُ هـذا الطفل لم يأنس بأقرانه ، ولم يلصَقْ بأشكاله ، ولم يُرَ مع الصبيان فى ملاعبهم بعـد إسلامه ، وهو كأحدهم فى طبقته ، كبعضهم فى معرفته !

وكيف لم ينزِع إليهم فى ساعة من ساعاته ، فيقـال : دعاه داعى الصِّبا وخاطر من خواطر الدنيا ، وحملته الغِرّة والحداثة على حضور لهوهم والدخول فى حالهم ، بل ما رأيناه إلّا ماضيا على إسلامه ،مصمّما فى أمره ، محقّقاً لقوله بفعله ؛ قد صدّق إسلامه بعفافه وزُهْده ؛ ولصق برسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع مَنْ بحضرته ؛ فهو أمينه وأليفه فى دنياه وآخرته ؛ وقد قهر شهوته ، وجاذب خواطره ، صابراً على ذلك نفسَه؛ لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة ، وقد ذكر هو عليه السلام فى كلامه وخُطَبه بدء حاله ، وافتتـاحَ أمره ، حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشّجرة ، فأقبلت تخـدّ الأرض ؛ فقالت قريش : ساحر خفيف السّحر ! فقال علىٌّ عليه السلام : يا رسولَ الله ، أنا أوّل مَنْ يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدّقتك فيما جئتَ به ، وأنا أشهد أنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمرِ الله ، تصديقاً لنبوّتك ، و برهانا على صحّة دعوتك ؛ فهل يكون إيمان قطّ أصحّ من هذا الإيمان وأوثقَ عُقْدةً ، وأحكم مِرّة ! ولـكن حَنَقُ العثمانية وغيظُهم ، وعصبيّـة الجاحظ وانحرافه مما لا حيلة فيه . ثم لينظر المنصف وليدَع الهوى جانبا ، ليعلم نعمة اللهعلى علىّ عليه السلام بالإسلام حيث أسلَمَ على الوضع الّذى أسلم عليه ، فإنه لولا الألطاف التى خُصّ بها ، والهداية التى مُنِحَها ، لما كان إلّا كبعض أقارب محمد صلى الله عليـه وأهله ، فقد كان ممازجاً له كممازجته ، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه ،ولم يستجبْ منهم

أحدٌ له إلّا بعد حين . ومنهم من لم يستجبْ له أصلا ؛ فإنّ جعفراً عليه السلام كان ملتصقاً به ، ولم يُسلم حينئذ ، وكان عُتْبة بن أبى لهب ابن عمّه وصهره زوج ابنته ولم يصدّقه، بل كان شديدا عليه ، وكان لخديجة بنون من غيره ، ولم يسلموا حينئذ ، وهم ربائبه[١] ومعه فى دار واحدة . وكان أبو طالب أباه فى الحقيقة وكافله وناصرَه ، والمحامِىَ عنه ، ومَنْ لولاه لم تقم له قائمة ، ومع ذلك لم يُسلم فى أغلب الروايات ، وكان العبّاس عمّه وصنو أبيه ، وكالقرين له فى الولادة والمنشأ والتربية ، ولم يستجبْ له إلّا بعد حين طويل، وكان أبولهب عمّه، وكدمِه ولحمه ، ولم يسلم ، وكان شديدا عليه ، فكيف ينسب إسلام علىّ عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللّحمة والتلقين والحضانة ، والدار الجامعة ، وطول العشرة والأنس والخلوة ! وقد كان كلّ ذلك حاصلًا لهؤلاء أو لكثير منهم ، ولم يهتد أحدٌ منهم إذ ذاك ، بل كانوا بين [من][٢] جحد وكفر ومات على كفره ، ومَنْ أبطأ وتأخّر ، وسُبق بالإسلام وجاء سُكَيْتا[٣] ؛ وقد فاز بالمنزلة غيرُه .

وهل يدلّ تأمل حال علىّ عليه السلام مع الإنصاف إلّا على أنّه أسلم ، لأنه شاهد الأعلام ، ورأى المعجزات ، وشمّ ريح النبوة ، ورأى نور الرسالة ، وثبت اليقينُ فى قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح ؛ لا بتقليد ولا حَمِيَّةٍ ، ولا رغبة ولا رهبة ، إلا فيما يتعلّق بأمور الآخرة .

* * *

قال الجاحظ : فلو أنّ عليا عليه السلام كان بالغا حيث أسلم ؛ لكان إسلام أبى بكر وزيد بن حارثة وخبّاب بن الأرتّ أفضلَ من إسلامه ، لأن إسلام المقتضب[٤] الّذى لم يعتدّ به ولم يعوّده ، ولم يمرّن عليه ،أفضلُ من إسلام الناشىء الذى رُبِّىَ فيه ، ونشأ وحبّب

---

(١) الربائب : أولاد الزوج .
(٢) من ا
(٣) السكيت : آخر الحلبة .
(٤) المقتضب : غير المستعد للشىء .

إليه ، وذلك لأنّ صاحب التربية يبلُغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الرّوية والخاطر ، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس ، وزيد وخبّاب وأبو بكر يعانون من كُلفة النظر ومؤنة التأمّل ومشقة الانتقال من الدّين الذى قدطال الفهم لهماهو غير خاف .

ولو كان علىّ حيث أسلم بالغا مقتضبا كغيره ممّنْ عددنا ، كان إسلامُهم أفضلَ من إسلامه ، لأنّ منْ أسلم وهو يعلم أنّ له ظهراً كأبى طالب ، وردءا كبنى هاشم ، وموضعا فى بنى عبد المطلب ، ليس كالحليف والمولَى ، والتّابع والعَسِيف[1] ، وكالرجل من عُرْض قريش[2] ، أو لستَ تعلم أنّ قريشا خاصّةً وأهل مكة عامّة لم يقدروا على أذى النبىّ صلى الله عليه وآله ، ما كان أبو طالب حيًّا ! وأيضا فإنّ أولئك اجتمع عليهم مع فراق الإلف مشقّة الخواطر ، وعلىّ عليه السلام كان بحضرة الرّسول صلى الله عليه وآله ، يشاهد الأعلام فى كلّ وقت ، ويحضر منزل الوحى ، فالبراهين له أشدُّ انكشافا ، والخواطر على قلبه أقلُّ اعتلاجا ، وعلى قَدْر الكُلفة والمشقة يعظُم الفضل ، ويكثر الأجر[3] .

***

قال أبو جعفر رحمه الله : ينبغى أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصْل ، ويقفوا على قول الجاحظ والأصمّ فى نصرة العثمانية واجتهادهما فى القصد إلى فضائل هذا الرجل ، وتهجينها ، فمرّة يبطِلان معناها ، ومرّة يتوصّلان إلى حطّ قدرها ، فلينظر فى كلّ باب اعترضا فيه ، أين بلغت حيلتهما ، وما صنعا فى احتيالهما فى قصصهما وسجعهما ! أليس إذا تأملتها علمتَ أنّها ألفاظٌ ملفقة بلا معنى ، وأنّها عليها شجًى وبلاء ! وإلا فما عسى أن تبلغَ حيلةُ الحاسد ويغنى كيد الكائد الشانىء[4] لمن قد جلّ قدره عن النقص ، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس ! وأين قول الجاحظ ، من دلائل السماء ، وبراهين الأنبياء ، وقد علم

---

(١) العسيف : الأجير .

(٢) من عرض قريش ؛ أى من دهمائهم

(٣) العثمانية ٢٢ ـ ٢٤ ، مع تصرف واختصار كبير

(٤) ب « الثانى » ، تحريف وصوابه من ا .

الصغيرُ والكبير ، والعالم والجاهل ، ممّن بلغه ذكرُ عليّ عليه السلام ، وعلم مبعثَ النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ عليا عليه السلام لم يولد فى دارِ الإسلام ، ولا غُذّى فى حِجْر الإيمان ، وإنما استضافه رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سَنَة القَحْط والمجاعة ، وعمْره يومئذ ثمانى سنين ، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرائيل بالرسالة ، فدعاه وهو بالغ كاملُ العقل إلى الإسلام ، فأسلَمَ بعد مشاهدة المعجزة ، وبعد إعمال النّظر والفكرة ، وإن كان قد ورد فى كلامه أنه صلّى سبعَ سنين قَبْل الناس كلّهم ، فإنما يعنى مابين الثمان والخمس عشرة ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ، ولا ادّعاء نبوّة؛ وإنما كان رسول الله صلى عليه وآله يتعبّد على ملّة إبراهيم ودين الحنيفيّة ، ويتحنّث ويجانب الناس ، ويعتزل ويطلب الخلْوة ، وينقطع فى جبل حراء ، وكان علىّ عليه السلام معه كالتّابع والتلميذ ، فلمّا بلغ الحُلُم ، وجاءت النبيّ صلى الله عليه وآله الملائكةُ ، وبشّرته بالرّسالة ، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة ؛ فكيف يقول الجاحظ إن إسلامَه لم يكن مقتضبا !

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره فى الفضيلة لِمَا كان يمرّن عليه من التعبّد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدّعوة ، لتكونَنَّ طاعة كثير من المكلّفين أفضلَ من من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين ، لأنّ العصمة عند أهلِ العدْل لطف يمنع من اختصّ به من إرتكاب القبيح، فمن اختصّ بذلك اللّطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابُه أنقصَ من ثواب مَن أطاع مع تلك الألطاف !

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقصٌ عن إسلام غيره ، وقد جاء فى الخبر أنّه أسلم يومَ الثلاثاء ، واستنبِئْ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، فمَن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوّة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخفّ محنته ، ويسقط ثقل تكليفه ، بل بان فضلُه ، وظهر حسنُ اختياره لنفسه ، إذ أسلم فى حال بلوغه ، وعانى نوازعَ طبعه ، ولم يؤخّر ذلك بعد سماعه .

وقد غمر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورا ، ورئيسا معروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكّة فينشدون الأشعار ، ويتذاكرون الأخبار، ويشربون الخمر ، وقد كان سمع دلائل النبوّة ، وحُجج الرّسل ، وسافر إلى البلدان ، ووصلت إليه الأخبار ، وعرف دعوى الكَهَنة وحِيَل السحرة؛ ومَن كان كذلك كان انكشافُ الأمور له أظهر والإسلامُ عليه أسهل ، والخواطر على قلب أقلّ اعتلاجا ، وكلُّ ذلك عوْنٌ لأبي بكر على الإسلام ، ومسهِّل إليه سَبيله ، ولذلك لمّا قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: « أتيتُ بيتَ المقدس» سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه ، فصدّقه وبان له أمرُه ، وخفّت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت ، فخرج إذاً إسلام أبي بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب . وفي ذلك رويتم عَنْهُ صلّى الله عليه وآله أنه قال : مادعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردّد ونَبْوَة ، إلا ما كان من أبي بكر ، فإنّه لم يتلعثم حتى هجَم به اليقينُ إلى المعرفة والإسلام ، فأين هذا وإسلام من خُلِّيَ وعقله ، وألجئ إلى نظره ، مع صغَر سنّه ، واعتلاج الخواطر على قلبِه وانشأته ، في ضدّ مادخل فيه ، والغالب على أمثاله وأقرانه حبُّ اللعب واللهو ، فلجأ إلى ماظهر له من دلائل الدّعوة ، ولم يتأخّر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية ، فقهر شهوته ، وغالب خواطِرَه ، وخرج من عادته وما كان غُذِّيَ به لصحّة نظره ، ولطافة فِكره ، وغامض فهمه ، فعظُم استنباطُه ، ورجح فضلُه ، وشرُف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ؛ ولا تنعّم فيها بنعيم حَدَثا ولا كبيرا ، وحمى نفسَه عن الهوَى ، وكسر شِرّة حداثته بالتّقْوى ، واشتغل بهمّ الدين عن نعيم الدنيا ، وأشغل همّ الآخرة قلبَه ، ووجّه إليه رغبته ؛ فإسلامه هو السّبيلُ الذى لم يُسلم عليه أحدٌ غيره ، وما سبيله في ذلك إلا كسبيلِ الأنبياء ، ليعلم أن منزلته من النبيّ صلى الله عليه وآله كمنزلةِ هارون من موسى ، وأنّه وإن لم يكن نبيًّا ؛ فقد كان في سبيل الأنبياء سالكا ، ولمنهاجهم متبعا ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام ؛ فإنّ

أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيراً جعلته أمه في سرب لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : من ربي؟ قالت : أبوك ، قال : فمن رب أبي ؟ فزبرته ونهرته ؛ إلى أن طلع من شق السرب ، فرأى كوكبا ، فقال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ؛ فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : ياقوم إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾(١) ، وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر عليه السلام ، لسنا نقول إنه كان مساويا له في الفضيلة ، ولكن كان مقتدياً بطريقه على ماقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) . وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبي طالب وردءاً كبني هاشم ، فإنه يوجب عليه أن تكون محنة أبي بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأن أبا طالب ظهره ، وبني هاشم ردؤه ؛ وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حط قدر علي عليه السلام إلا بحطه من قدر رسول الله صلى الله عليه وآله ! ولم يكن أحد أشد على رسول صلى الله عليه وآله من قراباته ، الأدنى منهم فالأدنى ، كأبي لهب عمه وامرأة أبي لهب ؛ وهي أم جميل بنت حرب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف ، ثم ما كان من عقبة بن أبي معيط ، وهو ابن عمه ، وما كان من النضر بن الحارث ، وهو من بني عبد الدار بن قصي ، وهو ابن عمه أيضاً ، وغير هؤلاء ممن يطول تعداده ، وكلهم كان يطرح الأذى في طريقه ، وينقل أخباره ، ويرميه بالحجارة ، ويرمي الكرش

---

(١) سورة الأنعام ٧٥ (٢) سورة آل عمران ٦٨

والفَرْث عليه ، وكانوا يؤذُون عليًّا عليه السلام كأذاه ، ويجتهدون فى غمّه ويستهزئون به ، وما كان لأبى بكر قرابة تؤذيه كقرابة علىّ ، ولما كان بين علىّ وبين النّبىّ صلى الله عليه وآله من الاتّحاد والإلف والاتفاق ، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذَى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفاً من سيفه ، ولأنه صاحب الدار والجيش ، وأمرُه مطاع ، وقوله نافذ ، فخافوا على دمائهم منه ، فاتّقوْه ، وأمسكوا عن إظهار بغضه ، وأظهروا بغضَ عَلِىٍّ عليه السلام وشنآنه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى حقه فى الخبر الّذِى روى فى جميع الصّحاح : «لا يحبُّك إلا مؤمن ، ولا يُبغِضك إلا منافق» . وقال كثير من أعلام الصحابة كما رُوِىَ فى الخبر المشهور بين المحدّثين : « ما كنا نعرِف المنافقين إلّا ببغضِ علىّ ابن أبى طالب» . وأين كان ظهر أبى طالب عن جعفر ؛ وقد أزعجه الأذى عن وطنه ؛ حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر ، أيتوهّمَ الجاحظ أن أبا طالب نصر عليا ، وخذل جعفرا !

***

قال الجاحظ: ولأبى بكر فضيلة فى إسلامه أنّه كان قبل إسلامه كثير الصّديق ، عريضَ الجاه ، ذا يسارٍ وغِنًى، يعظَّم لماله ، ويستفاد من رأيه ، فخرج من عزّ الغِنَى وكثرة الصديق إلى ذُلّ الفاقة وعجز الوحدة ، وهذا غير إسلام مَنْ لا حَرَاكَ به ، ولا عزّ له ، تابع غير متبوع ، لأنّ مِنْ أشدّ مايبتلَى الكريم به ، السبّ بعد التحيّة ، والضّرب بعد الهيبة ، والعُسْر بعد اليسر . ثم كان أبو بكر داعيةً من دعاة الرّسول ، وكان يتلوه فى جميع أحواله؛ فكان الخوف إليه أشدّ ، والمكروه نحوه أسرع ، وكان مِمّن تحسُن مطالبته ، ولا يستحيي من إدراك الثأر عنده ، لنباهته ، وبعد ذكره ، والحدَث الصغير يزدرى ويحتقر لصِغَر سنّه وخمول ذكره(١) .

***

(١) العثمانية ٢٥ ، ٢٦ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا ماذُكِر من كثرة المال والصديق ، واستفاضة الذِّكْر وبعد الصِّيت وكِبَر السنّ ، فكلّه عليه لا له ، وذلك لأنه قد علِم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظَ الصديق والوفاء بالذّمام والتهيّب لذى الثّرْوة واحترام ذى السنّ العالية ، وفى كلّ هذا ظَهْر شديد ، وسَنَد وثقة يعتمد عليها عند المحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه ، واستحيا منه ، وكان ذلك سببا لنجاتِه والعفو عنه ، عَلَى أنّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام إنْ لم يكن شهره سنُّه ، فقد شهره نسبُه وموضعه من بنى هاشم ، و إن لم يستفِضْ ذكره بلقاء الرّجال ، وكثرة الأسفار استفاض بأبى طالب، فأنتم تعلمون أنه ليس تَيْم فى بعد الصِّيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب ، وعلى حَسَب ذلك يعلُو ذكر الفتى على ذى السنّ ويبعد صيت الحدَث على الشيخ ، ومعلومٌ أيضا أنّ عليا على أعناق المشركين أثقلُ إذ كان هاشميًّا ، و إن كان أبوه حامىَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمانعَ لحوزته ، وعلىٌّ هو الّذى فتح عَلَى العرب باب الخلاف ، واستهان بهم ، بما أظهر من الإسلام والصلاة ، وخالف رهطه وعشيرته ، وأطاع ابن عمّه فيما لم يعرَفْ من قبلُ ، ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) . ثم كان بعدُ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومشتكَى حزَنه ، وأنيسه فى خَلْوتِهِ ، وجليسَه وأليفه فى أيّامه كلّها ، وكلّ هذا يوجب التحريضَ عليه ، ومعاداة العرب له ، ثم أنتمْ معاشرَ العثمانيّة ، تُثْبِتُون لأبى بكر فضيلةً بصحبة الرّسول صلى الله عليه وآله من مكّة إلى يثرب ، ودخوله معه فى الغار ، فقلتم : مرتبة شريفة وحالة جليلة ، إذ كان شريكَه فى الهجرة ، وأنيسَه فى الوَحشة ، فأين هذه من صُحْبة علىّ عليه السلام لَهُ فى خَلْوته ، وحيث لا يجد أنيساً غيره ؛ ليلَه ونهاره ، أيام مُقامِه بمكّة يعبد الله

---

(١) سورة يس ٦

معه سرًّا، ويتكلّف له الحاجة جَهْراً ، ويخدمه كالعبْد يخدم مولاه ، ويشفِقُ عليه ويحوطه، وكالولد يبرّ والده ، ويعطف عليه . ولمّا سئلت عائشة مَنْ كان أحبّ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : أمّا مِن الرجال فعليّ ، وأمّا من النِّساء ففاطمة .

* * *

قال الجاحظ : وكان أبو بكر من المفتونين المعذّبين بمكّة قبل الهجرة ، فضرب به نوفل ابن خويلد المعروف بابن العَدَوِيّة مرتين ، حتى أدماه وشدّه مع طلحة بن عبيدالله فى قَرَن، وجعلهما فى الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة، ولذلك كانا يُدعيان القرينين، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقُه عسيراً ، وبلوغ منزلته شديدا، ولو كان يوماً واحدا لكانَ عظيماً ، وعليّ بن أبى طالب رافِهٌ وادع ، ليس بمطلوب ولا طالب ، وليس أنه لم يكن فى طبعه الشّهامة والنّجْدة ، وفى غريزته البَسالة فى الشّجاعة ، لكنّه لم يكن قد تمّت أداته ، ولا استكملت آلته ، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يُغمصون ذا الحَداثة ويزدرون بذى الصِّبا والغرارة ، إلى أن يلحق بالرجال ، ويخرج من طَبْع الأطفال(١) .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا القولُ فممكن والدعوى سهلة؛ سيّما على مثل الجاحظ ، فإنّه ليس على لسانه من دينه وعَقْله رقيب ؛ وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد ، فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ؛ وكلامه لعبٌ ولهو ؛ يقول الشيء وخلافه ، ويحسِنُ القول وضدّه ؛ ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حدٌّ قائم ، وإلّا فكيف تجاسر على القول بأنّ عليا حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالبا ؛ وقد بيّنا بالأخبار الصحيحة ، والحديث المرفوع المسنَد أنه كان يوم أسلم بالغًا كاملًا منابذا بلسانه وقلبه لمشركى قريش ، ثقيلًا على قلوبهم؛

(١) العثمانية ٢٧ ، ٢٨ .

وهو المخصوص دون أبي بكر بالحِصار في الشِّعب ؛ وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الظلمات ، المتجرّع لغصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما ، والمصطلِي لكلّ مكروه ، والشَّريك لنبيّه في كلّ أذى ؛ قد نهض بالحِمْل الثَّقيل ، وبان بالأمر الجليل ؛ ومَنِ الذي كان يخرج ليلا من الشِّعب على هيئة السارق ، ويخفِي نفسه ، ويضائل شخصه ؛ حتى يأتيَ إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبَراء قريش ، كمطعِم بن عديّ وغيره ؛ فيحمل لبنى هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح ؛ وهو على أشدّ خوف من أعدائهم ، كأبي جهل وغيره ، لو ظفروا به لأراقوا دَمه . أعليٌّ كان يفعل ذلك أيّام الحصار في الشِّعب ، أم أبو بكر ؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ ، فقال في خطبة له مشهورة : فتعاقدوا ألّا يعاملونا ولا ينا كحونا ، وأوقدت الحرب علينا نيرانَها ، واضطرونا إلى جبل وَعْر ؛ مؤمننا يرجُو الثواب ، وكافرُنا يحامى عن الأصل ؛ ولقد كانَتِ القبائلُ كلُّها اجتمعت عليهم ، وقطعوا عنهم المارّة والميرة ، فكانوا يتوقّعُون الموت جوعاً ، صباحا ومساء ؛ لا يرونَ وجهاً ولا فَرَجا ، قد اضمحلّ عزمهم ، وانقطع رجاؤهم ، فَمَنِ الذي خلص إليه مكروه تلك المحَن بَعد محمد صلى الله عليه وآله إلّا عليٌّ عليه السلام وحدَه ! وماعسى أن يقول الواصف والمطنِب في هذه الفضيلة ، مِنْ تقصّى معانيها ، وبلوغ غاية كُنْهها ؛ وفضيلة الصابر عندها ! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاثَ سنين ، حتى انفرجت عنهم بقصّة الصحيفة ، والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقولَ في عليّ عليه السلام : إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافها ، لم يكن مطلوباً ولا طالبا ، وهو صاحب الفِراش الّذِي فَدَى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، ووقاه بمهجته ، واحتمل السّيوف ورضْخ الحجارة دونه . وهل ينتهى الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح بمزيّة هذه الخصيصة !

فأمّا قوله : إنّ أبا بكرٍ عُذِّبَ بمكّة ، فإنا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعاً إلا بعبدٍ أو عسيفٍ[1] ، أو لمن لا عشيرة له تمنعه ، فأنتم فى أبى بكر بين أمرين : تارة تجعلونه دخيلًا ساقطا ، وهجينا رذيلًا مستضعفا ذليلا ، وتارة تجعلونه رئيساً متّبعا ، وكبيرا مطاعاً ، فاعتمدوا على أحد القولين لنكلّمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم . ولو كان الفضلُ فى الفتنة والعذاب ، لكان عمّار وخبّاب وبلال وكلّ معذّب بمكّة أفضلَ من أبى بكر ، لأنّهم كانوا من العذاب فى أكثر ممّا كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن مالم ينزل فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾[2] ؛ قالوا : نزلت فى خبّاب وبلال ، ونزل فى عمّار قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾[3] ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ على عمّار وأبيه وأمّه ، وهم يعذّبون ، يعذّبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : « صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة » ؛ وكان بلال يقلّب على الرّمضاء ، وهو يقول : أحد أحد ! وما سمعنا لأبى بكر فى شىء من ذلك ذكرا ، ولقد كان لعلى عليه السلام عنده يد غرّاء ، إن صحّ ما رويتموه فى تعذيبه ، لأنه قتل نوفلَ بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بدْر ، ضرب نوفلا فقطع ساقه ، فقال : أذكّرك الله والرحم ! فقال : قد قطع الله كلّ رَحِمٍ وصِهرٍ إلّا مَنْ كان تابعاً لمحمّد ، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسُه ، وصمد لعمير بن عثمان التّيميّ ، فوجده يروم الهرَب ، وقد ارتجّ عليه المسلك، فضربه على شراسيفِ صدره ، فصار نصفُه الأعلى بين رجليه ، وليس أنّ أبا بكر لم يطلب بثأره منهما ، ويجتهد ؛ لكنّه لم يقدر على أن يفعل فعلَ علىٍّ عليه السلام ، فبان علىٌّ عليه السلام بفعله دونه .

* * *

قال الجاحظ : ولأبى بكر مراتبُ لا يشركه فيها علىٌّ ولا غيره ، وذلك قبلَ الهجرة

---

(١) العسيف : الأجير .

(٢) سورة النحل ٤١

(٣) سورة النحل ١٠٦

فقد علم النّاس أنّ عليا عليه السلام إنّما ظهر فضلُه ، وانتشر صيتُه ، وامتحِن ولقِيَ المشاقّ منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل فى الزّمان الذى استوى فيه أهل الإسلام ، وأهل الشرك ، وطمِعوا فى أن يكون الحرب بينهم سِجالا ، وأعلمهم الله تعالى أنّ العاقبَة للمتقين ، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذّباً ومطرودا مشرّدا ، فى الزمان الذى ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر فى خلافته : طوبَى لمن مات فى فأفأة الإسلام ! يقول : فى ضعفه[1] .

***

قال أبو جعفر رحمه الله : لا أشُكّ أنّ الباطل خانَ أبا عثمان ، والخطأ أقعده، والخذلان أصاره إلى الحَيْرَة ، فما علم وعرف حتى قال ماقال ، فزعم أنّ عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاقّ ؛ وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحَن الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسىَ الحصار فى الشِّعب ، وما مُنِي به منه ، وأبو بكر وادع رافِهٌ ، يأكل مايريد ، ويجلس مع من يحبّ ؛ مخلَّى سِربُهُ ، طيّبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلىّ يقاسى الغَمَرات ، ويكابد الأهوال ، ويجوع ويظمأ ، ويتوقّع القتل صباحا ومساء ، لأنه كان هو المتوصّل المحتال فى إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرّا ، ليقيم به رمَق رسول الله صلى الله عليه وآله وبنى هاشم ، وهم فى الحصار ، ولا يأمن فى كلّ وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله له بالقَتْل ، كأبى جهل بن هشام وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، والوليد بن المغيرة ، وعُتْبة ابن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها ، ولقد كان يجيع نفسه ويطعِم رسولَ الله صلى الله عليه وآله زاده ؛ ويظمّئ نفسه ويسقيه ماءه ، وهو كان المعلّل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش؛ وأبو بكر بنجْوة عن ذلك لا يمسّه مما يمسّهم ألم ؛ ولم يلحقه مما يلحقهم مشقّة ، ولا يعلم بشىء من أخبارهم وأحوالهم ، إلّا على سبيل الإجمال دون التفصيل ؛ ثلاث سنين ، محرّمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم ، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج

(١) العثمانية ٣٩ ، ٤٠ مع تصرف واختصار .

والتصرّف فى أنفسهم ، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة ، ونسىَ هذه الخصيصة ، ولا نظير لها ! ولكن لا يبالى الجاحظ بعد أن يُسوّغ له لفظُه ، وتنسق له خطابته ، ماضيّع من المعنى ، ورجع عليه من الخطأ !

فأمّا قولُه : واعلموا أنّ العاقبة للمتقين ، ففيه إشارة إلى معنى غامضٍ قصده الجاحظ ـ يعنى أن لا فضيلة لعلىٍّ عليه السلام فى الجهاد ؛ لأنّ الرسول كان أعلمه أنه منصور ، وأنّ العاقبة له ـ وهذا من دسائس الجاحظ وهَمَزاته ولمزاته ، وليس بحقٍّ ما قاله ، لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابه جملةً أنّ العاقبة لهم ؛ ولم يُعلم واحدا منهم بعينه أنّه لا يُقتل ، لا عليا ولا غيره ، وإن صحّ أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل ، فلم يعلمه أنّه لا يقطع عضو من أعضائه ؛ ولم يعلمه أنه لا يمسّه ألم الجراح فى جسده ، ولم يعلمه أنّه لا يناله الضرب الشديد. وعلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر ـ وهو يومئذ بمكّة ـ أنّ العاقبة لهم ، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك ، فإن لم يكن لعلىٍّ والمجاهدين فضيلة فى الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم ذلك ؛ فلا فضيلة لأبى بكر وغيره فى احتمال المشاقّ قبل الهجرة ؛ لإعلامه إيّاهم بذلك ، فقد جاء فى الخبر أنّه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنّصر ، وأنه قال له : أرسلت إلى هؤلاء بالذّبح ، وإن الله تعالى سيغنّمنا أموالَهم ، ويملّكنا ديارهم ، فالقول فى الموضعين متساوٍ ومتفق .

* * *

قال الجاحظ : وإنّ بين المحنة فى الدهر الذى صار فيه أصحاب النبى صلى الله عليه وآله مقرّنين لأهل مكة ومشركى قريش ، ومعهم أهلُ يثرِب أصحاب النخيل والآطام والشجاعة والصبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة والعدد الدَّثْر ، والفعل الجَزْل ، وبين الدهر الذى كانوا فيه بمكّة يُفتَنون ويُشتَمون ، ويضربون ويشرّدون ، ويجوعون ويعطشون ،

مقهورين لا حراك بهم ، وأذلّاء لا عزّ لهم ، وفقراء لا مالَ عندهم ، ومستخفِين لا يمكنهم إظهار دعوتهم ؛ لَفرقاً واضحا ؛ ولقد كانوا فى حالٍ أحوجت لوطاً وهو نبيّ إلى أن قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [1] ؛ وقال النبى صلى الله عليه وآله : «عجبت من أخى لوط ، كيف قال : أو آوى إلى ركن شديد ، وهو يأوى إلى الله تعالى !» ثم لم يكن ذلك يوما ولا يومين ولا شهرا ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السنين بعد السنين . وكان أغلَظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، لأنه أقام بمكّة ماأقام رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة ، وهوأوسط ماقالوا فى مُقام النبى صلى الله عليه وآله [2] .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما نَرى الجاحظ احتجّ لكون أبى بكر أغلظهم وأشدّهم محنة ، إلا بقوله : لأنه أقام بمكّة مدّة مُقام الرّسول صلى الله عليه وآله بها ، وهذه الحجّة لا تخصّ أبا بكر وحده ، لأنّ عليا عليه السلام أقام معه هذه المدّة ، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخَبّاب وغيرهم ، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحدَه بحجّةٍ تدلّ على أنّه كان أغلظَ الجماعة ، وأشدّهم مِحْنَةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالاحتجاج فى نفسه فاسد .

ثم يقال له : ما بالك أهملتَ أمر مَبيت علىّ عليه السلام على الفراش بمكّة ليلة الهجرة ! هل نسيته أم تناسيتَه ! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة الّتي متى امتحنها الناظر ، وأجال فكره فيها ، رأى تحتها فضائل متفرّقة ومناقب متغايرة ، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله مجمع على الخروج من بينهم للهجرة

---

(١) سورة هود ٨٠ (٢) العثمانية ٤١

إلى غيرهم قصدوا إلى معاجلته ، وتعاقدوا على أن يبيّتوه فى فِرَاشه ، وأن يضربُوه بأسياف كثيرة ، بيد كلّ صاحب قبيلة من قريش سيف منها، ليضيع دمُه بين الشعوب ، ويتفرّق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلةً واحدة بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على تلك الليلة ، واجتمعوا عليها ، فلمّا علم رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من أمرهم ، دعا أوثق النّاس عنده ، وأمثلهم فى نفسه ، وأبذلهم فى ذات الإله لمهجته ، وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إنّ قريشا قد تحالفَتْ على أن تبيّتنى هذه الليلة ، فامض إلى فراشى ، ونَمْ فى مضجعى ، والتفّ فى بُرْدِى الحضْرمىّ ليروا أنى لم أخرج ، وإنّى خارج إن شاء الله ، فمنعه أوّلًا من التحرّز وإعمال الحيلة ، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التى يحتاط بها النّاس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يعرّض نفسه لظُبَاتِ السّيوف الشّحِيذة من أيدى أرباب الحنَق والغيظة ، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطِيعاً طيّبة بها نفسُه ، ونام على فراشه صابرا محتسباً ، واقياً له بمهجته، ينتظر القتل ،ولا نعلم فوق بذل النفس درجةً يلتمسها صابر ، ولا يبلغها طالب ؛ « والجود بالنّفس أقصى غاية الجود» ؛ ولولا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله علم أنه أهلٌ لذلك ، لَمَا أهّلَه ، ولو كان عنده نقصٌ فى صبره أو فى شجاعته أو فى مناصحته لابن عمّه ، واختير لذلك لكان من اختاره صلّى الله عليه وآله منقوضاً فى رأيه ، مضرًّا فى اختياره ، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام ، وكلُّهم مجمعون على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله عمل الصواب ، وأحسن فى الاختيار .

ثم فى ذلك — إذا تأمله المتأمّل — وجوهٌ من الفَضْل :

منها أنه وإن كان عندَهُ فى موضع الثّقة فإنه غيرُ مأمونٍ عليه ألا يضبط السرّ فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء .

ومنها أنّه وإن كان ضابطا للسرّ وثقة عند من اختاره ؛ فغيرُ مأمونٍ عليه الجُبْن عند

مفاجأة المكروه ، ومباشرة الأهوال ، فيفرّ من الفراش فيفطَنُ لموضع الحيلة ؛ ويطلب رسولَ الله صلى الله عليه وآله فيظفر به .

ومنها أنّه وإن كان ثقةً ضابطا للسرّ ، شجاعا نجْدا ؛ فلعلّه غير محتمل للمبيت على الفراش ؛ لأنّ هذا أمرٌ خارج عن الشّجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع ؛ بل هو أشدُّ مشقّة من المكتوف الممنوع ؛ لأنّ المكتوفَ الممنوع يعلَم من نفسه أنّه لا سبيل له إلى الهربَ ، وهذا يجدُ السّبيل إلى الهرب وإلى الدّفع عن نفسه ، ولا يهرُب ولا يدافع .

ومنها أنّه وإن كان ثقةً عنده ، ضابطا للسرّ ، شجاعا محتملا للمبيت على الفراش ، فإنه غير مأمون أن يذهب صبرُه عند العقوبة الواقعة ، والعذاب النازل بساحتِه ، حتى يبوح بما عندَهُ ؛ ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنّه أخذ طريقَ كذا فيطلب فيؤخذ ، فلهذا قال علماء المسلمين : إنّ فضيلةَ عليّ عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها ، إلّا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذّبح ، ولولا أنّ الأنبياء لا يفضلُهم غيرهم لقلنا : إنّ محنة عليّ أعظمُ ، لأنه قد روى أن إسحاق تلكّأ لما أمرَه أن يضطجع ، وبكى عَلَى نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أنّ عنده فى ذلك وقفة ، ولذلك قال له : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾(١) ؛ وحال عليّ عليه السلام بخلاف ذلك ، لأنه ماتلكّأ ولا تتعتع ، ولا تغيّر لونُهُ ، ولا اضطربت أعضاؤه ، ولقد كان أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وآله يُشيرون عليه بالرأى المخالف لما كان أمر به ، وتقدّم فيه ، فيتركه ويعمل بما أشاروا به ، كما جرى يومَ الخندق فى مصانعتِه الأحزاب بثلث تمرَ المدينة ، فإنّهم أشاروا عليه بتركِ ذلك ، فتركه ، وهذه كانت قاعدتُه معهم ، وعادته بينهم ، وقد كان لعليّ عليه السلام أن يعتلّ بعلّة ، وأن يقفَ ويقول : يارسول الله ، أكون معك أحميك من العدوّ ، وأذبّ بسيفي عنك ، فلستَ

(١) سورة الصافات ١٠٢ .

مستغنياً فى خروجك عن مثلى ، ونجعلُ عبداً من عبيدنا فى فراشك ، قائماً مقامك ، يوهم القوم ـ برؤيته نائماً فى بُرْدِك ـ أنك لم تخرج ، ولم تفارق مركزك ؟ فلم يقل ذلك ، ولا تحبّس ولا توقّف ، ولا تلعثم ، وذلك لعلم كلٍّ واحدٍ منهما صلى الله عليه وآله أنّ أحداً لا يصبر على ثِقَلِ هذه المحنة ، ولا يتورّط هذه المهلكة ؛ إلا مَنْ خصّه الله تعالى بالصّبْر عَلَى مشقّتها ، والفوزِ بفضيلتها، وله من جِنْس ذلك أفعالٌ كثيرة ، كيوم دعا عمرو بن عبد وُدّ المسلمين إلى المبارزة ، فأحجم النّاس كلُّهم عنه ، لما علوا من بأسه وشدّته ، ثم كرّر النداء، فقام علىٌّ عليه السلام ، فقال : أنا أبرزُ إليه ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : إنّه عمرو ! قال: نعم ، وأنا علىّ ! فأمره بالخروج إليه ، فلمّا خرجَ قال صلى الله عليه وآله : « برز الإيمانُ كلّه إلى الشِّركِ كلّه » ، وكيوم أُحُد حيث حَمَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله من أبطال قُرَيش وهم يقصدون قتله ، فقتلهم دونَه ، حتى قال جبريل عليه السلام : « يامحمّد إنّ هذه هى المواساة » ، فقال : « إنه منى وأنا منه » ، فقال جبريل : « وأنا منكما » .

ولو عددنا أيامه ومقاماته الّتِي شَرَى فيها نفسَه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا .

* * *

قال الجاحظ : فإن احتجّ محتجٌّ لعلىٍّ عليه السلام بالمبيت على الفراش ، فبيْن الغارِ والفِراش فَرْقٌ واضح،لأنّ الغارَ وصحبة أبى بكر للنبىّ صلى الله عليه وآله قد نَطَق به القرآن، فصار كالصّلاة والزّكاة وغيرهما ، ممّا نطق به الكِتاب ، وأمْر علىّ عليه السلام ونومُه على الفراش ، وإن كان ثابتاً صحيحا ، إلّا أنّه لم يذكَرْ فى القرآن ، وإنّما جاء بمجىء الروايات والسِّيَر ، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله(١) .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هـذا فرق غير مؤثّر ، لأنه قد ثبتَ بالتواترُ حديث

(١) العثمانية ٤٤ .

الفِراش ، فلا فرق بينه و بين ما ذكر في نصّ الكتاب ، ولا يجحدُه إلّا مجنون أو غير مخالِطٍ لأهل الملّة ، أرأيت كونَ الصلواتِ خمساً ، وكون زكاة الذّهب ربعَ العشر ، وكون خروج الريح ناقضا للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواترُ حكمُه ؟ هل هو مخالف لما نصّ في الكتاب عليه من الأحكام ! هذا ممّا لا يقوله رشيد ولا عاقل ، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي بكر في الكتاب ، وإنما قال : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾[1] ، وإنّما علمنا أنّه أبو بكر بالخبر وما ورد في السيرة ، وقدقال أهل التفسير : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] كناية عن عليّ عليه السلام ، لأنّه مكر بهم ، وأوّل الآية : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] ، أُنزلتْ في ليلة الهجرة ، ومكرُهم كان توزيعَ السّيوف على بطون قريش ، ومكرُ الله تعالى هو منامُ عليّ عليه السلام على الفِراش ، فلا فرق بين الموضعين في أنّهما مذكوران كِنايةً لا تصريحاً . وقد روى المفسّرون كلُّهم أن قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾[3] ، أنزلت في عليّ عليه السلام ليلةَ المبيت على الفِراش ، فهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ ، لا فرق بينهما .

* * *

قال الجاحظ : وفرقٌ آخر ، وهو أنّه لو كان مبيتُ عليّ عليه السلام على الفِراش ، جاء مجيء كون أبي بكر في الغار ، لم يكن له في ذلك كبير طاعة ، لأنّ الناقلين نقلوا أنّه صلّى الله عليه وآله قال له : « نَمْ فلَنْ يخلُص إليك شيء تكرهه » ، ولم ينقلْ ناقل أنه

---

(١) سورة التوبة ٤٠ (٢) سورة الأنفال ٣٠
(٣) سورة البقرة ٢٠٧

قال لأبي بكر فى صُحبته إياه وكونه معه فى الغار مثل ذلك ، ولا قال له : أنفِقْ وأعتِق ، فإنك لن تفتقر ، ولن يصلَ إليك مكروه[1] .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله ، هذا هو الكذب الصُّراح ، والتّحريف والإدخال فى الرّواية ماليس منها ، والمعروف المنقول أنّه صلى الله عليه وآله قال له : اذْهَبْ فاضطجع فى مضجعى ، وتَغَشّ بِبُردِى الحضرمىّ ، فإنّ القوم سيفقدوننى ، ولا يشهدون مضجعى ، فلعلّهم إذا رأوك يسكِنهم ذلك حتى يصبحوا ، فإذا أصبحت فاغدُ فى أداء أمانتى ؛ ولم ينقل ماذكره الجاحظ ، وإنما ولّده أبو بكر الأصمّ ، وأخذه الجاحظ ، ولا أصلَ له ، ولو كان هذا صحيحا لم يصلْ إليه منهم مكروه ، وقد وقع الاتّفاق على أنّه ضُرِب ورمى بالحجارة قبل أنْ يعلموا مَنْ هو حتى تضوّر ، وأنهم قالوا له : رأينا تضوّرك ، فإنا كنا نرمى محمدا ولا يتضوّر ، ولأنّ لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتْل ، فهب أنه أمِن القتل ، كيف يأمن من الضّرب والهوان ، ومنْ أن ينقطع بعض أعضائه ، و بأن سلمت نفسه ! أليس الله تعالى قال لنبيّه : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2] ومع ذلك فقد كسرت رَباعيتُه وشجّ وجهه ، وأدمِيت ساقه ، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصّة ، وكذلك المكروه الذى أومن على عليه السلام منه ـ إن كان صحّ ذلك فى الحديث ـ إنما هو مكروه القتل .

ثم يقال له : وأبو بكر لا فضيلة له أيضا فى كونه فى الغار ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، ومَنْ يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كلّ سوء ، فكيف قلت : ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر فى الغار مثل ذلك ! فكلّ ماتجيب به عن هذا فهو جوابنا عمّا أورده ، فنقول له : هذا ينقلبُ عليك فى النبيّ صلى الله عليه

(١) العثمانية ٤٥ (٢) سورة المائدة ٦٧

وآله ، لأنّ الله تعالى وعده بظهور دينه ، وعاقبة أمرِه ، فيجب على قولك ألا يكونَ مثاباً عنــد الله تعالى على مايحتمله من المكروه ، ولا مايصيبه من الأذى ، إذ كان قد أيقنَ بالسّلامة والفتح في عِدّته .

***

قال الجاحظ : ومَنْ جحد كون أبي بكرٍ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كفَر ، لأنه جَحَد نصِّ الكتاب ، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [1] من الفضيلة لأبي بكر، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله في كون الله تعالى معه و إنزال السكينة ، قال كثير من الناس: إنه في الآية مخصوص بأبي بكر، لأنه كان محتاجا إلى السكينة لما تداخَله من رقّة الطبع البشريّ ، والنبي صلى الله عليه وآله كان غيرَ محتاجٍ إليها ، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعـالى ، فلا معنى لنزول السكينة عليـه ، وهـذه فضيلة ثالثة لأبي بكر .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمـه الله : إن أبا عثمان يجرّ عَلَى نفسه مالاطاقةَ له به من مطاعِن الشّيعة ، ولقد كان في غُنْية عن التعلّق بما تعلّق به ، لأنّ الشيعة تزعمُ أنّ هذه الآية، بأن تـكون طعناً وعيبا على أبي بكر ، أوْلى من أن تـكون فضيلة ومنقبة له ، لأنه لمّا قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ دلّ على أنه قد كان حزن وقنِط وأشفق على نفسه ، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين ، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعةً ، لأنّ الله تعالى لا ينهى عن الطاعة ، فلو لم يكن ذنبا لم ينهَ عنه ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾؛ أي إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشكّ ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرنّ سوءاً ولا تنوينَ قبيحا ، فإنّ الله تعالى يعلم مانسِرّه وما نعلنه ، وهـذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ﴾ [2] ، أي هو عالم بهم ، وأمّا السّكينة

---

(١) سورة التوبة ٤٠

(٢) سورة المجادلة ٧

فكيف يقول : إنها ليستْ راجعةً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله و بعدها قوله : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ، أترى المؤيَّد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وآله !

وقوله : إنّه مستغن عنها ، ليس بصحيح ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه ، وقد قال الله تعالى فى قصّة حُنين : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [1] صلى الله عليه وآله .

وأما الصّحبة فلا تدلّ إلاّ على المرافقة والاصطحاب لا غير ، وقد يكون حيث لا إيمان ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ ، ونحن وإنْ كنّا نعتقد إخلاص أبى بكر وإيمانه الصّحيح السّليم وفضيلته التّامة ، إلّا أنّا لا نحتجّ له بمثل ما احتجّ به الجاحظ من الحجج الواهية ، ولا نتعلّق بما يجرّ علينا دواهى الشّيعة ومطاعنها .

***

قال الجاحظ : وإن كان المبيتُ على الفراش فضيلة ، فأين هى من فضائل أبى بكر أيام مكّة ، من عِتق المعذّبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين ، مع فرْق ما بين الطاعتيْن ، لأنّ طاعةَ الشابّ الغرير والحدَث الصغير الذى فى عزّ صاحبه عزّه ، ليست كطاعة الحليم الكبير الذى لا يرجع تسويدُ صاحبه إلى رهطه وعشيرته .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا كثرة المستجيبين ، فالفضل فيها راجع إلى المجيب

(١) سورة التوبة ٢٥ ، ٢٦

لا إلى المجاب ، على أنّا قد علمنا أنّ من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممّن استجاب لنوح عليه السلام ، وثواب نوح أكثر ، لصبره على الأعداء ، ومقاساة خلافهم وعَنَتهم . وأمّا إنفاق المال؛ فأين مِحْنَة الغَنِيّ من محنة الفقير ! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غنيّ ؛ إن جاع أكل ، وأن أعيا ركب ، وإن عرِيَ لبس ، قد وثق بيساره واستغنى بماله ، واستعان على نوائب الدنيا بثروته ، ممّن لا يجد قوتَ يومه ، وإن وجد لم يستأثر به ، فكان الفقرُ شعاره ، وفى ذلك قيل : الفقر شعار المؤمن . وقال الله تعالى لموسى : « ياموسَى إذا رأيت الفقر مقبلًا ، فقل : مرحبا بشعار الصالحين » ، وفى الحديث : « إن الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ احشرنى فى زمرة الفقراء » ، ولذلك أرسَل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً ، وكان بالفقر سعيداً ، فقاسى مِحْنة الفقر ومكابدة الجوع ، حتى شدّ الحجر على بطنه ، وحسبك بالفقر فضيلة فى دين الله لمن صبَر عليه ، فإنّك لا تجدُ صاحبَ الدنيا يتمنّاه ، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها ؛ وإنما هو شعار أهل الآخرة .

وأما طاعةُ عليّ عليه السلام ، وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأنّ فى عزّ محمد عزّه وعزّ رهطه ، بخلاف طاعة أبى بكر ، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عُبيدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة ؛ بل لعلّ محاماة المهاجرين من قُريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانت لأنّ فى دولته دولتهم ، وفى نصرته استجدادَ ملكٍ لهم ، وهذا يجرّ إلى الإلحاد ، ويفتح باب الزندقة ، ويُفضى إلى الطعن فى فى الإسلام والنبوة .

***

قال الجاحظ : وعلى أنّا لو نزلنا إلى ما يريدونه ، جعلنا الفراش كالغارِ ، وخلصت فضائل أبى بكر فى غير ذلك عن معارض .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : قد بيّنا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصُّحبة

فى الغار ، بما هو واضح لمن أنصف، ونزيد هاهنا تأكيدا بما لم نذكره فيما تقدّم ، فنقول : إنّ فضيلة المبيت على الفراش على الصُّحبة فى الغار لوجهين :

أحدهما : أنّ عليا عليه السلام قد كان أنِس بالنبيّ صلى الله عليه وآله وحصل له بمصاحبته قديماً أنسٌ عظيم ، وإلف شديد ، فلمّا فارقه عُدِم ذلك الأنس ، وحصل به أبو بكر ، فكان مايجده على عليه السلام من الوَحشة وألم الفرقة موجباًزيادة ثوابه ، لأنّ الثواب على قدر المشقة .

وثانيهما : أنّ أبا بكر كان يؤثر الخروجَ من مكّة ، وقد كان خرج من قبل فرْدا ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه ، ومحبوبَ نفسه ، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازى فضيلة مَن احتمل المشقّة العظيمة ، وعرّض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضخ الحجارة ، لأنّه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب .

***

قال الجاحظ : ثمّ الذى لقى أبو بكر فى مسجده الّذى بناه على بابه فى بنى جُمَح ، فقد كان بَنَى مسجدا يصلّى فيه ، ويدعو النّاس إلى الإسلام ، وكان له صوتٌ رقيق ، ووجه عتيقٌ ، وكان إذا قرأ بكى ، فيقف عليه المارّة من الرجال والنساء والصبيان والعَبيد ، فلمّا أوذِىَ فى الله ، ومُنِـع من ذلك المسجد، استأذن رسولَ اللهصلى الله عليه وآله فى الهجرة ، فأذن له ، فأقبل يريد المدينة ، فتلقّاه الـكنانىّ [1] ، فعقد له جواراً ،وقال : والله لا أدعُ مثلك يخرج من مكة ، فرجع إليها وعاد لصنيعه فى المسجد ، فمشت قريش إلى جاره الـكنانىّ ، وأجلبوا عليه ، فقال له : دع المسجد وادخل بيتَك ، واصنع فيه مابدا لك [2] .

***

(١) الكنانىّ : هو مالك بن الدغنة ، أحد بنى الحارث بن بكر بن عبد مناة .
(٢) العثمانية ٢٨، ٢٩ مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : كيف كانت بنو جُمَح تؤذى عثمان بن مَظعون وتضربه ، وهو فيهم ذو سَطْوة وقَدْر ، وتترك أبا بكر يبنى مسجداً يفعل فيه ماذكرتم ، وأنتم الذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال : «ماصلّينا ظاهرين حتّى أسلم عمر بن الخطاب» ، والذى تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر ، فكيف هذا !

وأما ماذكرتم من رقّة صوته وعَتاق وجهه ، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدىّ وغيره أنّ عائشة رأتْ رجلا من العرب خفيفَ العارضَيْن، معروقَ الخدّين ، غائر العينين ، أجْنأ[1] لا يمسك إزاره ، فقالت : مارأيت أشبَه بأبى بكر من هذا ؟ فلا تراها دلّت على شئ من الجمال فى صفته !

* * *

قال الجاحظ : وحيث ردّ أبو بكر جوارَ الكنانىّ ، وقال : لا أريد جاراً سوى الله ، لقىَ من الأذى والذلّ والاستخفاف والضّرْب مابلغكم ، وهذا موجود فى جميع السِّير ، وكان آخر مالقىَ هو وأهله فى أمر الغار ، وقد طلبته قريش وجعلتْ فيه مائة بعير ، كما جعلت فى النبىّ صلى الله عليه وآله ، فلقى أبو جهل أسماء بنت بكر ، فسألها فكتمتْه ، فلطمها حتى رَمَتْ قُرْطاً كان فى أذنها[2] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا الكلام وهُجْر السّكران سواء، فى تقارب المخرَج ، واضطراب المعنى ، وذلك أنّ قريشا لم تقدر على أذى النبىّ صلى الله عليه وآله، وأبوطالب حَىٌّ يمنعه؛ فلما مات طلبته لتقتله، فخرج تارةً إلى بنى عامر ، وتارة إلى ثقيف ، وتارة إلى بنى شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستتراً، حتى أجاره مطعِم بن عدىّ ، ثم خرج إلى المدينة ، فبذلتْ فيه مائة بعير لشدّة حَنَقِها عليه حين فاتها ، فلم تقدر عليه ، فما بالها بذلت فى أبى بكر مائة بعير أخرى ، وقد كان ردّ الجوار ، وبقى بينهم فرْداً لا ناصر له

(١) الأجنأ ، من الجنأ وهو ميل الظهر (٢) العثمانية ٢٩ ، مع تصرف واختصار .

ولا دافع عنده ، يصنعون به مايريدون ! إمّا أن يكونوا أجهلَ البريّة كلّها أو يكون العثمانية أكذبَ جيلٍ فى الأرض وأوقحه وجها ! فهذا مما لم يذكر فى سيرة ولا رُوِى فى أثرٍ ، ولا سمع به بَشَر ، ولا سبق الجاحظَ به أحد !

***

قال الجاحظ : ثمّ الذى كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجِه ؛ حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، لأنه ساعة أسلَمَ دعا إلى الله وإلى رسوله[1] .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما أعجب هذا القول ؛ إذ تدّعى العثمانية لأبى بكر الرّفق فى الدّعاء وحسن الاحتجاج ، وقد أسلم ومعه فى منزله ابنهُ عبد الرحمن ، فما قدر أن يُدخله فى الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كَرْهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه ، ولا كان لأبى بكر عند ابنه عبد الرحمن من القَدْر مايطيعه فيما يأمره به ، ويدعوه إليه ؛ كما روى أنّ أبا طالب فقد النبي صلى الله عليه وآله يوماً ، وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه ، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلُبان النبيّ صلى الله عليه وآله ، فوجده قائما فى بعض شِعاب مكّة يصلّى ، وعلىّ عليه السلام مَعَه عن يمينه ، فلما رآهما أبو طالب ، قال لجعفر : تقدّم وصِلْ جناح ابن عمّك ، فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وآله ، فلما صاروا ثلاثة تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وتأخّر الأخَوان ، فبكى أبو طالب ، وقال :

إنّ عليـــا وجعفرا ثقتى — عند مُلِمّ الخطوب والنُّوَبِ
لا تخذلا وانصرا ابن عمّكما — أخى لأمّى من بينهم وأبِى
والله لا أخذل النبيّ وَلا — يخذله من بنىّ ذو حَسَبِ

---

(١) العثمانية ٣١ مع تصرف واختصار .

فتذكر الرواة أنّ جعفراً أسلم منذ ذلك اليوم؛ لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره؛ وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن فى الإسلام حتى أقام بمكّة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أُحُدُ فى عسكر المشركين ينادى : أنا عبد الرحمن بن عَتِيق، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كُفْره، حتى أسلم عام الفتح، وهو اليوم الذى دخلتْ فيه قريش فى الإسلام طوعا وكرها، ولم يجد أحدٌ منها إلى ترك ذلك سبيلا! وأين كان رفق أبى بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبى قُحافة وهما فى دار واحدة! هلّا رفَق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم! وقد علمتم أنه بقىَ على الكُفْر إلى يوم الفتح، فأحضره ابنهُ عند النبى صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة[1]، فنفر رسول الله صلى الله عليه وآله منه، وقالَ : غيِّرُوا هذا؛ فخضبوه، ثم جاءوا به مرة أخرى، فأسلم. وكان أبو قحافة فقيراً مدقِعاً سيّئ الحال، وأبو بكر عندهم كان مثرياً فائض المال، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنّفقة والإحسان، وقد كانت امرأة أبى بكر أمّ عبد الله ابنه — واسمها نَمْلة بنت عبد العُزّى بن أسعد عبد بن ودّ العامرية — لم تسلم، وأقامت على شركها بمكّة، وهاجر أبو بكر وهى كافرة، فلمّا نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾[2]، فطلقها أبو بكر، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرماء أعجز، ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج، ولا خوفا من قطع النفقة عنهم، وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقلُّ قبولا منه، وأكثر خلافا عليه!

***

قال الجاحظ : وقالت أسماء بنت أبى بكر : ماعرفتُ أبى إلاّ وهو يَدِين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلَمَ، فدعانا إلى الإسلام، فما رِمْنا حتى أسلمْنا، وأسلم أكثرُ جلسائه، ولذلك قالوا : مَنْ أسلم بدعاء أبى بكر أكثرُ ممن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا فى ذلك إلى العدد؛ بل عَنوْا الكثرة فى القَدْر، لأنه أسلم على يديه خمسةٌ من أهل الشُّورى،

(١) الثغام : كسحاب : ضرب من النبات أبيض . (٢) سورة الممتحنة ١٠

كلهم يصلُح للخلافة ، وهم أكفاء علىّ عليه السلام ، ومنازعوه الرّياسة والإمامة ، فهؤلاء أكثرُ من جميع الناس[1] :

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا مَنْ هذا الّذى أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبى بكر ؟ إذا كانت امرأته لم تسلِمْ وابنهُ عبدالرحمن لم يسلِم ، وأبوقحافة لم يسلم ، وأخته أمّ فَرْوة لم تسلِم ، وعائشة لم تكن قد ولدَتْ فى ذلك الوقت ، لأنها وُلِدت بعد مبعث النبىّ صلى الله عليه وآله بخمس سنين ، ومحمد بن أبى بكر ولِدَ بعد مَبْعثِ رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة ، لأنّه ولد فى حَجّة الوداع ، وأسماء بنت أبى بكر الّتى قد رَوَى الجاحظ هذا الخبرَ عنها كانت يوم بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنتَ أربع سنين — وفى رواية مَنْ يقول : بنت سنتين — فمن الّذى أسلم من أهل بيته يوم أسلَمَ ! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة ! وكيف أسلَم سَعْدٌ والزُّبير وعبد الرحمن بدعاء أبى بكر وليسوا من رهطه ولامن أتْرَابِهِ ولا من جُلَسائه ، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدّمة ، ولاأنس وَكِيد ! وكيف ترك أبو بكر عُتْبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، لم يدخلهما فى الإسلام برفقه وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنّهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه ! وما باله لم يدخل جبير بن مطعِم فى الإسلام ، وقد ذكرتم أنه أدّبه وخرّجه ، ومنه أخذ جُبَير العلم بأنساب قريش ومآثرها ! فكيف عجَز عن هؤلاء الذين عَدَدْنام ، وهم منه بالحال التى وصفنا، ودعا من لم يكن بينه وبينه أُنس ولا معرفة ، إلا معرفة عيان ! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب ، وقد كان شكلَه ، وأقربَ النّاس شبهاً به فى أغلب أخلاقه ! ولئن رجعتم إلى الإنصاف لتعلمنّ أنّ هؤلاء لم يكن إسلامُهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله لهم، وعلى يديه أسلموا ؛ ولو فكّرتم فى حسن التأتّى فى الدعاء ؛ لَيصحّنّ لأبى طالب فى ذلك

---

(١) العثمانية ٣١-٣٢ ، مع تصرف واختصار .

على شِرْكه أضعاف ماذكرتموه لأبي بكر ، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام : يابنيّ الزمْه ، فإنه لن يدعوَك إلا إلى خير ، وقال لجعفر : صِلْ جناحَ ابن عمّك ، فأسلم بقوله ، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة من بني مخزوم ، وبني سَهْم ، وبني جُمَح ، ولأجله صَبَر بنو هاشم على الحصار في الشِّعب ، وبدعائه وإقباله عَلَى محمد صلى الله عليه وآله أسلمت امرأتُه فاطمة بنت أسَد ، فهو أحسن رِفقاً ، وأيمن نَقيبَةً من أبي بكر وغيره ، وإنّما منعه عن الإسلام أنْ ثبت أنّه لم يسلِم إلّا تقيّة ، وأبو بكر لم يكن له إلا ابنٌ واحد ، وهو عبد الرحمن ، فلم يمكنْه أن يدخله في الإسلام ، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلّة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أنزل : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [1] ، وإنما يعرف حسن رِفْق الرجل وتأتّيه بأن يصلح أوّلا أمرَ بيته وأهله ، ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما بُعِث كان أوّل مَنْ دعا زوجته خديجة ، ثم مكفوله وابن عمّه عليا عليه السلام ، ثم مولاه زيدا ، ثم أمّ أيمن خادمته ؛ فهل رأيتم أحداً ممّن كان يأوي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسارعْ؟ وهل التاث عليه أحد من هؤلاء ! فهكذا يكون حسن التأتّي والرِّفق في الدّعاء ! هذا ورسول الله مُقِلٌّ ، وهو من جُمْلة عيال خديجة حينَ بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كان مُوسِراً ، وكان أبوه مقترا ، وكذلك ابنه وامرأته أمّ عبد الله ، والموسر في فِطْرة العقول أولى أن يتبع من المقتِر ، وإنّما حُسْن التأتّي والرّفق في الدّعاء ماصنعه مُصْعب بن عمير لسعد بن مُعاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن مُعاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وماصنع بُريدة بن الحصيب بأسلم لمّا دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه ،

---

(١) سورة الأحقاف ١٧

وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سَعْدٍ فى يوم واحد ، وأمّا من لم يسلم ابنه ولا امرأتُه ، ولا أبوه ولا أختُه بدعائه فهيهات أن يوصفَ ويذكر بالرفق فى الدعاء وحسن التأنّى والأناة !

قال الجاحظ : ثم أعتق أبو بكرٍ بعد ذلك جماعةً من المعذّبين فى الله ، وهم ستّ رقاب ، منهم بلال ، وعامر بن فُهيرة ، وزِنّيرة النّهدية، وابنتها . ومرّ بجارية يعذّبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه ، وأعتقها ، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ... ﴾ (١) ، إلى آخر السورة .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا بلال وعامر بن فُهيرة ، فإنّما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، روى ذلك الواقدىّ وابن إسحاق وغيرهما ، وأمّا باقى مواليهم الأربعة ، فإن سامحناكم فى دعواكم لم يبلغ ثمنهم فى تلك الحال لشدّة بغض مواليهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها ، فأىّ فخرٍ فى هذا ! وأما الآية فإنّ ابن عباس قال فى تفسيرها : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، أى لأن يعود .

وقال غيرُه : نزلت فى مُصْعَب بن عمير .

* * *

قال الجاحظ : وقد علمتم ماصنَع أبو بكر فى مالِه ، وكان ماله أربعين ألف درهم ؛ فأنفقه فى نوائبِ الإسلام وحقوقه ، ولم يكن خفيفَ الظّهر ، قليل العيال والنّسْل ، فيكون فاقد جميع اليسارَيْن ، بل كان ذا بنين و بنات وزوجة وخدم وحشم ، و يعول والديه وما ولدا ، ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وآله قبل ذلك عنده مشهورا ، فيخاف العارَ فى تركِ مواساته ، فكان إنفاقه على الوجْه الذى لا نجد فى غاية الفضل مثلَه ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وآله : « ما نفعنى مال كما نفعنى مال أبى بكر » .

---

(١) سورة الليل ٥

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أخبرونا على أيّ نوائب الإسلام أنفق هـذا المال ، وفى أى وجه وضعه ؟ فإنه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرُس حتى يفوتَ حِفظه ، وينسى ذكره ، وأنتم فلم تقفوا على شيء أكثر من عِتقه بزعمكم ستّ رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها فى ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدّعى له الإنفاق الجليل ، وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وآله بعيرَين عند خروجه إلى يثرب ، وأخذ منه الثمن فى مثل تلك الحال ، وروى ذلك جميع المحدّثين ، وقد رويتم أيضا أنّه كان حيث كان بالمدينة غنيًّا موسرا ، ورويتم عن عائشة أنّها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم ، وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى ٱلْقُرْبَى ﴾ (١) ، قلتم : هى فى أبى بكر ومِسطح بن أثاثة ، فأين الفقر الذى زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة ! ورويتم أنّ لله تعالى فى سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة . وأنّ النبى صلى الله عليه وآله رآهم ليلة الإسراء ، فسأل جبرائيل عنهم فقال : هؤلاء ملائكة تأسّوا بأبى بكر بن أبى قُحافة صديقك فى الأرض ، فإنه سينفق عليك ماله ، حتى يخلّل عباءه فى عنقه ، وأنتم أيضا رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٢) ، الآية لم يعمل بها إلّا علىّ ابن أبى طالب وحدَه ، مع إقراركم بفقره وقلّة ذات يده ، وأبو بكر فى الحال التى ذكرنا من السّعة أمسك عن مناجاته ، فعاتب الله المؤمنين فى ذلك ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فجعله سبحانه ذنبا يتوب عليهم منه ، وهو إمساكهم عن تقديم الصّدقة ، فكيف سخَتْ نفسُه بإنفاق أربعين ألفا ، وأمسك عن مُناجاة الرّسول ، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين !

وأما ماذُكر من كثرة عياله ونفقته عليهم ، فليس فى ذلك دليل على تفضيله ، لأنّ

(١) سورة النور ٢٢ (٢) سورة المجادلة ١٢

نفقته على عياله واجبة ، مع أن أرباب السِّيرة ذكروا أنّه لم يكن ينفِقُ على أبيه شيئا ، وأنّه كان أجيراً لابن جُدْعان على مائدته يطرد عنها الذّباب .

* * *

قال الجاحظ : وقد تعلمون ما كان يلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ببطن مكّة من المشركين ، وحسن صنيع كثيرٍ منهم ؛ كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسِه ففلَق هامَته ، وأبو جهل يومئذ سيّد البطحاء ورئيس الكُفْر ، وأمنع أهل مكة ، وقد عرفتم أنّ الزُّبير سلّ سيفَه ، واستقبل به المشركين ،لمّا أرجِفَ أنّ محمدا صلى الله عليه وآله قد قتِل ، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم : لا يعبَد الله سرًّا بعد اليوم ، وأنّ سعدا ضرب بعض المشركين بلحْيِ جمل ، فأراق دمَه ، فكلُّ هذه الفضائل لم يكن لعلى بن أبى طالب فيها ناقة ولا جمل ، وقد قال الله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [1] ؛ فإذا كان الله تعالى قد فضَّل مَنْ أنفق قبل الفتح ، لأنه لاهجرة بعد الفتح ، على مَنْ أنفق بعد الفتح ، فما ظنُّكم بمَنْ أنفق من قبل الهجرة ، ومن لَدُنْ مَبْعَث النّبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة [2] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : إنّنا لا ننكِرُ فَضْلَ الصَّحابة وسوابقَهم ، ولسنا كالإماميّة الذين يحملهم الهوى على جَحْد الأمور المعلومة ، ولكنّنا ننكر تفضيلَ أحدٍ من الصَّحابة على علىّ بن أبى طالب ، ولسنا ننكِرُ غير ذلك ، وننكر تعَصُّب الجاحظ للعثمانيّة ، وقصدَه إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالردّ والإبطال . وأمّا حَمزة فهو عندنا ذو فضلٍ عظيم ، ومقامٍ جليلٍ ، وهو سيّد الشهداء الذين استشهدوا على عهدِ رسول الله

(١) سورة الحديد ٢٠

(٢) العثمانية ٣٢ ، مع تصرف واختصار

صلى الله عليه وآله ، وأمّا فضل عُمر فغيرُ منكر ، وكذلك الزُّبَيْر وسعد ، وليس فيما ذكر مايقتضي كونَ علي عليه السلام مفضولاً لهم أو لغيرهم ، إلا قوله : « وكلّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ عليه السلام فيها ناقةٌ ولا جَمَل » ، فإنّ هذا من التعصّب البارد ، والحَيْف الفاحش ، وقد قدّمنا من آثار عليّ عليه السلام قَبْل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ، ماهو أفضلُ وأعظم وأشرف من جميع ماذكر لهؤلاء ، على أنّ أرباب السِّيرة يقولون : إنّ الشَّجّة التي شُجّها سعدٍ ، وإنّ السيف الذى سلّه الزبير ، هو الذى جلب الحصارَ في الشِّعب على النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهو الذى سَيَّر جعفراً وأصحابه إلى الحبشة ، وسلُّ السيف في الوقت الذى لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (١) ، فتبيّن أنّ التكليف له أوقات ، فمنها وقت لا يصلح فيه سلّ السيف ، ومنها وقت يصلُح فيه ويجب ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ ﴾ ، فقد ذكرنا ماعندنا من دعواهم لأبي بكر إنفاقَ المال . وأيضا فإنّ الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفردا ، وإنّما قرن به القتال ، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحَرْب ، فلا تشمله الآية ، وكان علي عليه السلام صاحبَ قتال وإنفاق قبل الفَتْح ، أما قتاله فمعلومٌ بالضرورة ، وأمّا إنفاقه فقد كان على حَسَب حاله وفقره ، وهو الذى أطعم الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا ، وأُنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورةٌ (٢) كاملة من القرآن ، وهو الّذى ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهماً سرًّا ودرهما علانية ليلا ، ثم أخرج منها في النهار درهما سرا ودرهما علانية ، فأنزل فيه قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٣) ، وهو الذى قدم بين يدى نجواه صدقة

---

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) زعم بعض غلاة الشيعة ، أنه أنزلت فيهم سورة مختلفة ، وانظر فصل الخطاب لحسين بن محمد الطبرسي ١٠٦ ، وحواشي ملحق العثمانية ٣١٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٤٧

دون المسلمين كافة ، وهو الذى تصدق بخاتمه وهو راكع ، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (١) .

* * *

قال الجاحظ : والحجّة العظمى للقائلين بتفضيل علىّ عليه السلام قتلُه الأقران ، وخوضُه الحربَ ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة؛ لأنّ كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشدّ المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدّم ، لوجب أن يكون للزّبير وأبى دُجانة ومحمّد بن مسلمة ، وابن عَفْراء ، والبَرَاء بن مالك من الفَضْل ماليس لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحدا ولم يحضر الحرب يوم بدر ، ولا خالط الصفوف ، وإنما كان معتزلا عنهم فى العريش ومعه أبو بكر ، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران ، ويجندِل الأبطال ، وفوقه من العسكر مَنْ لا يقتل ولا يبارز ، وهو الرئيس أو ذو الرأى ، والمستشير فى الحرب ، لأنّ للرّؤساء من الاكتراث والاهتمام وشَغْل البال والعناية والتفقّد ماليس لغيرهم ، ولأنّ الرئيس هو المخصوص بالمطالبة ، وعليه مدارُ الأمور ، وبه يستبصر المقاتل ، ويستنصر ، وباسمه ينهزم العدوّ ، ولو لم يكن له إلا أنّ الجيش لو ثبت وفرّ هُو لم يغن ثبوت الجيش كلّه ، وكانت الدّبْرة عليه ولو ضيّع القوم جميعا وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له ، ولهذا لا يضافُ النّصر والهزيمة إلّا إليه ، ففضل أبى بكر بمقامه فى العريش مع رسول الله يوم بدر أعظمُ من جهاد علىّ عليه السلام ذلك اليوم ، وقتله أبطال قريش .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : لقد أعطِى أبو عثمان مقولا ، وحُرِم معقولا ، إن كان

---

(١) سورة المائدة ٥٥

يقول هذا على اعتقاد وجدّ ، ولم يذهب به مذهب اللعب والهزل ، أو على طريق التفاصح والتشادق وإظهار القوّة ، والسلاطة وذلاقة اللسان وحدّة الخاطر والقوّة على جدال الخصوم؛ ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كانَ أشجعَ البَشر ، وأنّه خاضَ الحرُوب ، وثبت في المواقف التي طاشتْ فيها الألباب ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ فمنها يوم أُحُد ، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم ، ولم يبق معه إلا أربعة : عليّ ، والزُّبير ، وطلْحة ، وأبو دُجانة ، فقاتل ورمى بالنَّبْل حتى فَنيَتْ نبله ، وانكسرت سِيَةُ قوسِه ، وانقطع وَتَرُه ، فأمر عُكَّاشة بن مِحْصن أن يوتِرَها ، فقال : يارسول الله : لا يبلغ الوتَر ، فقال : أوتر مابلغ . قال عكاشة : فوالذى بعثه بالحقّ لقد أوترت حتى بلغ ، وطويت منه شبراً على سِيَة القوس ، ثم أخذها فما زال يرميهم ، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطّمت . وبارز أُبيّ بن خلف ، فقال له أصحابه : إن شئتَ عطف عليه بعضُنا ! فأبى ، وتناولَ الحربة من الحارث بن الصِّمّة ثم انتفضَ بأصحابه ، كما ينتفِض البعير ، قالوا : فتطايرْنا عنه تطايُرَ الشّعارير[1] ، فطعنه بالحرْبة ، فجعل يخورُ كما يخور الثور ، ولو لم يدلّ على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾[2] ، فكونُه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوونَ ، هاربين ؛ دليل على أنّه ثبت ولم يفرّ ، وثبت يوم حُنَين في تسعة من أهلِه ورهطه الأدنَين ، وقد فرّ المسلمون كلّهم والنّفر التِّسعة محدقون به : العباس آخذ بحكَمة بغلتِه ، وعليّ بين يديه مصلِت سيفه ، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يَمْنةً ويَسْرة ، وقد انهزم المهاجرون والأنصار ، وكلّما فرُّوا أقدم هُو صلى الله عليه وآله وصمّم مستقدماً ، يلْقَى السيوف والنّبال بنحرِه وصدره ، ثم أخذ كفًّا من

---

(١) الشعارير : ما يجتمع على دبرة البعير من الذبان ، فإذا هيجت تطايرت عنها.
(٢) سورة آل عمران ١٥١

البَطْحاء ، وحَصبَ المشركين ، وقال : شاهت الوجوه ! والخبر المشهور عن علىّ عليه السلام ، وهو أشجع البَشَر : « كنّا إذا اشتد البأس ، وحَمِى الوطيسُ ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولُذْنا به » ، فكيف يقول الجاحظ : إنه ماخاضَ الحرْب، ولا خالطَ الصُّفوف ! وأىّ فِرْية أعظمُ من فِرْية مَنْ نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب ! ثم أىّ مناسبة بين أبى بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله فى هذا المعنى ليقيسَه وينسُبَه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدعوة ، ورئيس الإسلام والملّة ، والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسِّيادة ، وإليه الإيماء والإشارة ، وهو الذى أحنَق قريشاً والعرب ، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم ، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعدُ بقتل رؤسائهم وأكابرهم ! وحقّ لمثله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل ، لأنّ ذلك شأن الملوك والرؤساء ، إذا كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم ، فمتى هلك الملك هلك الجيش ، ومتى سلِم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكُه ، وإن عَطِب جيشُه فإنّه يستجدّ جيشا آخر ؛ ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه ، وخطّئوا الإسكندر لما بارز فوسرا ملك الهند ، ونسبوه إلى مجانبة الحِكْمة ومفارقة الصواب والحَزْم ، فليقلْ لنا الجاحظ : أىُّ مدخل لأبى بكر فى هذا المعنى ؟ ومَن الذى كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل ؟ وهل هو إلا واحدٌ من عُرْض المهاجرين ، حُكْمه حكم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وغيرهما ! بل كان عثمانُ أكثر منه صيتاً ، وأشرفَ منه مركباً ، والعيون إليه أطمح ، والعدوّ إليه أحنَق وأكلب ؛ ولو قتِل أبو بكر فى بعض تلك المعارك ، هَلْ كان يؤثر قتله فى الإسلام ضَعْفاً ، أو يحدث فيه وَهْنا ! أو يخاف على الملّة لو قتل أبو بكر فى بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفَى آثارُها ، وينطمس منارها ! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله فى مجانبة الحروب واعتزالها ، نعوذ بالله من الخذلان ! وقد علم العقلاء كلّهم ممن له

بالسِّيَر معرفة، وبالآثار والأخبار ممارسة، حال حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت ، وحاله عليه السلام فيها كيف كان ، ووقوفه حيث وقف ، وحربه حيث حارب، وجلوسه فى العريش يوم جَلَس ، وإنّ وقوفه صلى الله عليه وآله وقوف رياسة وتدبير ، ووقوف ظهر وسَنَد ؛ يتعرّف أمور أصحابه ، ويحرس صغيرَهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم ، وتخلّفه عن التقدّم فى أوائلهم ، لأنّهم متى علموا أنّه فى أخراهم اطمأنّتْ قلوبهم ، ولم تتعلّق بأمره نفوسهم ، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوّهم ، ولا يكون لهم فئة يلجئون إليها ، وظَهْر يرجعون إليه، ويعلمون أنّه متى كان خلْفهم تفقّد أمورهم ، وعلِم مواقفهم ، وآوى كلَّ إنسان مكانه فى الحماية والنّكاية وعند المنازلة فى الكرّ والحملة ، فكان وقوفُه حيث وقف أصلحَ لأمرهم ، وأحمى وأحرس لبيْضتهم ؛ ولأنه المطلوب من بينهم ؛ إذهو مدبّر أمورهم، ووالى جماعتهم ؛ ألا ترَوْن أنّ موقف صاحب اللّواء موقف شريفٌ ، وأنّ صلاح الحرب فى وقوفه ، وأن فضيلته فى ترك التقدّم فى أكثر حالاته ؛ فللرئيس حالات :

الأولى : حالة يتخلّف ويقف آخرا ليكون سَنداً وقوّة ، ورِدءاً وعدّة ، وليتولّى تدبير الحرب ، ويعرف مواضع الخلل .

والحالة الثانية : يتقدّم فيها فى وسط الصفّ ليقوى الضعيف ، ويشجّع الناكص[1] .

وحالة ثالثة : وهى إذا اصطدم الفيلقان ، وتكافَحَ السّيفان ، اعتمد ما تقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح ، أو من مباشرة الحرب بنفسه ؛ فإنها آخر المنازل ؛ وفيها تظهر شجاعة الشُّجاع النَّجِد ، وفَسَالَة الجبان المموّه .

فأين مقام الرّئاسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله ! وأين منزلة أبى بكر ليسوّىَ بين المنزلتين ، ويناسب بين الحالتين !

ولو كان أبو بكر شريكا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى الرّسالة ، وممنوحا من الله

---

(١) ب : « الناكس » .

بفضيلة النبوّة ،وكانت قُرَيش والعرب تطلبه كما تطلب محمّداً صلى الله عليه وآله ، وكان يدبّر من أمرِ الإسلام وتَسْرِيب العساكر وتجهيز السّرَايا ، وقتل الأعداء ، ما يدبّره محمّد صلى الله عليه وآله ، لكان للجاحظ أن يقول ذلك ، فأمّا وحاله حاله ، وهو أضعف المسلمين جناناً ، وأقلّهم عند العرب ترةً ، لم يَرْمِ قطُّ بسَهْمٍ ، ولا سلّ سيفاً ، ولا أراق دماً ؛ وهو أحد الأتباع ، غير مشهور ولا معروف ، ولا طالب ولا مطلوب ؛ فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلته ! ولقد خرج ابنه عبدُ الرحمن مع المشركين يوم أحُد فرآه أبو بكرٍ ؛ فقام مغيظاً عليه ، فسلّ من السّيْف مقدار أصبع ؛ يريد البرُوز إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : «يا أبا بكر ، شِمْ سيفك [1] وأمْتِعْنا بنفسك » ، ولم يقل له : « وأمتعنا بنفسك » إلّا لعلمه بأنّه ليس أهلاً للحرب وملاقاة الرجال ، وأنّه لو بارز لقُتِل .

وكيف يقول الجاحظ : لا فضيلة لمباشرة الحرب، ولقاء الأقران، وقتل أبطال الشرك! وهل قامت عُمُد الإسلام إلّا على ذلك !وهل ثبت الدِّينُ واستقرّ إلا بذلك ! أتراه لم يسمع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [2] ! والمحبّة من الله تعالى هى إرادة الثواب ؛ فكلُّ مَنْ كان أشدّ ثبوتاً فى هذا الصفّ ، وأعظم قتالاً ، كان أحبّ إلى الله ؛ ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً ، فعليّ عليه السلام إذاً هو أحبُّ المسلمين إلى الله ، لأنّه أثبتُهم قدماً فى الصفّ المرصوص ، لم يفرّ قطُّ بإجماع الأمّة ، ولا بارزه قِرْن إلا قتله .

أتراه لم يسمع قول الله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ

---

(١) شم سيفك ، أي أغمده ؛ وهو من الأضداد .

(٢) سورة الصف ٤ . (٣) سورة النساء ٩٥.

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ ﴾[1]، ثم قال سبحانه مؤكّدا لهذا البيع والشراء: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾[2].

فمواقف النَّاس فى الجهاد على أحوال؛ وبعضهم فى ذلك أفضلُ من بعض؛ فمن دَلَفَ إلى الأقران، واستقبل السُّيوف والأسِنّة؛ كان أثقلَ على أكتاف الأعداء، لشدّة نِكايته فيهم، ممّن وقف فى المعركة، وأعان ولم يُقدِم، وكذلك مَنْ وقف فى المعركة، وأعان ولم يُقدِم؛ إلا أنه بحيث تناله السهام والنّبل أعظم غَناء، وأفضل ممّن وقف حيث لا يناله ذلك، ولو كان الضَّعيف والجبان يستحقّان الرياسة بقلّة بَسْط الكَفّ وترك الحرب؛ وأنّ ذلك يشاكل فِعلَ النبيّ صلى الله عليه وآله، لكان أوفرَ النّاس حظًّا فى الرياسة، وأشدّهم لها استحقاقا حسّان بن ثابت، وإن بَطَل فضلُ عليّ عليه السلام فى الجهاد؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان أقلّهم قتالا، كما زعم الجاحظُ ليبطلنّ على هذا القياس فضلُ أبى بكر فى الإنفاق، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أقلّهم مالا!

وأنت إذا تأمّلتَ أمرَ العرب وقريش، ونظرت السِّيَر، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمّداً صلى الله عليه وآله وتقصِدُ قَصْده، وتروم قتلَه، فإن أعجزها وفاتها طلبتْ عليًّا عليه السلام، وأرادت قتله، لأنّه كان أشبَههم بالرّسول حالاً، وأقربهم منه قربا، وأشدّهم عنه دفعا، وأنهم متى قصدُوا عليًّا فقتلوه أضعفوا أمرَ محمّد صلى الله عليه وآله وكسروا شوكته، إذْ كان أعلى مَنْ ينصرُه فى البأس والقوّة والشجاعة

(١) سورة التوبة ١١١ .
(٢) سورة التوبة ١٢٠ .

والنّجـدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عُتْبة بن ربيعة يوم بدر ، وقد خرج هو وأخوه شَيْبَة وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليه الرّسولُ نفراً من الأنصار ، فاستنسبوهم فانتسبوا لهم ، فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا : يامحمّد أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومِنا، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأهله الأدنين : قومُوا يابنِي هاشم ، فانصرُوا حقّكم الذى آتاكم الله على باطل هؤلاء ، قُمْ ياعليّ ، قم ياحمزة ، قمْ ياعبيدة ، ألا ترى ماجعلتْ هندبنت عتبة لمن قتله يوم أحد ؛ لأنه اشترك هو وحمزة فى قتل أبيها يوم بدر ؛ ألم تسمع قولَ هنـد ترثى أهلها :

مَا كَانَ عَنْ عُتْبة لِي مِنْ صَبْرِ ... أبِي وعمّي وشقِيق صَدْرِى

أخى الذى كان كضوء البـدرِ ... بهِمْ كسرتَ ياعليُّ ظهرِى

وذلك لأنه قتل أخاها الوليدَ بن عُتبة ، وشرك فى قتل أبيها عُتْبة ، وأمّا عمّها شيبة ، فإنّ حمزة تفرّد بقتله .

وقال جُبير بن مطعِم لوحشيّ مولاه يوم أحُد : إن قتلت محمّداً فأنت حرٌّ ، وإن قتلت عليًّا فأنت حرٌّ ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ ، فقال : أمّا محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما عليٌّ فرجلٌ حذِر كثير الالتفات فى الحرب ، ولكنّى سأقتل حمزة ، فقعد له وزَرَقه بالحرْبة فقتله .

ولما قلنا من مقاربة حال عليّ عليه السلام فى هذا الباب لحالِ رسول الله صلى الله عليه وآله ومُناسبتها إيّاها ماوجدناه فى السِّيَر والأخبار ، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله وحذرِه عليه ، ودعائه له بالحفْظ والسلامة ، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق ، وقد برز عليّ إلى عمرو ، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه : «اللهمّ إنك أخذتَ منّى

حمزة يوم أحُـد ، وعُبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم علىّ عليًا : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾[1] » ، ولذلك ضنّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو النّاس إلى نفسه مرارا ، في كلّها يحجمون ويُقدِم علىّ ، فيسأل الإذنَ له في البراز حتّى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّه عمرو ! » ، فقال : « وأنا علىّ » ، فأدناه وقبّله وعمّمه بعمامته ، وخرج معه خطواتٍ كالمودّع له ، القلِق لحاله ، المنتظر لما يكون منه ، ثم لم يزل صلّى الله عليه وآله رافعا يديْه إلى السّماء ، مستقبلًا لها بوجهه ، والمسلمون صُموتٌ حوله ؛ كأنّما على رءوسهم الطّيْر ، حتى ثارت الغَبَرة ، وسمعوا التّكبير من تحتها ، فعلموا أنّ عليا قتلَ عمراً ، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وكبّر المسلمون تكبيرةً سمعها منْ وراء الخندق من عساكر المشركين ، ولذلك قال حُذَيفة بن اليمان : لو قُسمت فضيلة علىّ عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بَيْن المسلمين بأجمعهم لوسعتْهم . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ ؛ قال : بعلىّ بن أبي طالب[2] .

* * *

قال الجاحظ : عَلَى أنّ مشيَ الشّجاع بالسيف إلى الأقران ، ليس على ماتوهّمه من لا يعلم باطن الأمر ، لأنّ معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرُها النّاس ، وإنّما يقضون على ظاهر مايروْن من إقدامه وشجاعته ، فربّما كان سبب ذلك الهوَج ، وربما كان الغرارةَ والحداثة ، وربّما كان الإحراج والحميّة ، وربما كان لمحبّة النفخ والأحدوثة ، وربما كان طباعا كطباع القاسي والرحيم والسخىّ والبخيل[3] .

* * *

(١) سورة الأنبياء ٨٩ . (٢) سورة الأحزاب ٢٥ .
(٣) العثمانية ٤٧ ، مع تصرف واختصار .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال للجاحظ : فعلى أيّها كان مشى علىّ بن أبى طالب إلى الأقران بالسيف ؟ فأيّما قلت من ذلك بانت عداوتُك لله تعالى ولرسوله ، وإن كان مشيُه ليس على وجهٍ مما ذكرت ، وإنما كان على وجه النُّصرة والقَصْد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإعزاز الدّين ، كنتَ بجميع ماقلت معانداً ، وعن سبيل الإنصاف خارجا ، وفى إمام المسلمين طاعناً ، وإن تطرّق مثلُ هذا الوهم على علىّ عليه السلام ليَتطرّقنّ مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال ، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهم ووقوْه بمُهَجِهم ، وفدوْه بأبنائهم وآبائهم ، فلعلّ ذلك كان لعلّة من العلل المذكورة ، وفى ذلك الطّعنُ فى الدّين ، وفى جماعة المسلمين .

ولو جاز أن يتوهّم هذا فى علىّ عليه السلام وفى غيره ، لما قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى لأهل بدر : « اعْمَلُوا مَا شِئتم فَقَدْ غفرتُ لَكُمْ » ، ولا قال لعلى عليه السلام : « برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه » ، ولا قال : « أوجَب طلحة »(١) .

وقد علمنا ضرورةً من دين الرسول صلى الله عليه وآله تعظيمه لعلىّ عليه السلام تعظيماً دينيا ، لأجل جهاده ونُصرته ، فالطاعن فيه طاعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إذ زعم أنه قد يمكن أن يكونَ جهاده لا لوجه الله تعالى ؛ بل لأمر آخر من الأمور التى عدّدها ، وبعثه على التفوّه بها إغواء الشيطان وكيدُه ، والإفراط فى عَداوة من أمر الله بمحبّته ، ونهى عن بغضه وعداوته .

---

(١) أوجب طلحة ، أى عمل عملا يدخله الجنة .

أترى رسول الله صلى الله عليه وآله خفِيَ عليه من أمر عليٍّ عليه السلام مالاح للجاحظ والعثمانيّة ، فمدحه وهو غير مستحقٍّ للمدح !

* * *

قال الجاحظ : فصاحبُ النفس المختارة المعتدلة يكون قتالُه طاعة ، وفراره معصيــة ، لأنّ نفسه معتدِلة ، كالميزان فى استقامة لسانه وكفّتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامُه طباعاً ، وفراره طباعا[1] .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : فيقال له : فلعلّ إنفاق أبى بكر على ما تزعم أربعينَ ألف درهم لا ثوابَ له ، لأنّ نفسَه ربّما تـكون غـير معتدلة ، لأنّه يكون مطبوعا على الجود والسّخاء ، ولعلّ خروجه مع النبى صلى الله عليــه وآله يوم الهجْرة إلى الغار لا ثوابَ له فيــه ، لأن أسبابه كانتْ له مهيّجة ، ودواعيه غالبة ، محبّة الخروج ، و بغض المقام ؛ ولعلّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى دعائه إلى الإسلام و إكبابه على الصّلوات الخمس فى جوف الليــل ، وتدبيره أمرَ الأمّة لا ثواب له فيه ، لأنّه قد تـكون نفسه غـير معتدلة ، بل يكون فى طباعه الرياسة وحبّها ، والعبادة والالتذاذ بهـا ، ولقد كنّا نعجَب من مذهب أبى عثمان أنّ المعارف ضرورة ، وأنّها تقعُ طباعاً ؛ وفى قوله بالتولّد وحركة الحجْر بالطّبْع ! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه ، فزعم أنّه ربما يكون جهادُ علىّ عليه السلام وقتْلُه المشركين لا ثوابَ له فيه ؛ لأنه فعله طَبْعاً ، وهــذا أطرف من قوله فى المعرفة وفى التولّد .

* * *

قال الجاحظ : ووجهٌ آخر أنّ عليا لو كان كما يزعمُ شيعتُه ، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة ، ولا عظيم طاعة ، لأنه قد روىَ عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال له :

---

(١) انظر العثمانية ٤٧ ، ٤٨ .

« ستقاتل بعدى النّاكِثِين والقاسِطين والمارقين » ، فإذا كان قد وعدَه بالبقاء بعده فقد وثِق بالسّلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعَلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظمَ طاعةً منه [1] .

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : هذا راجع على الجاحظ فى النبيّ صلى الله عليه وآله ، لأنّ الله تعالى قال له : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [2] ، فلم يكن له فى جهاده كبير طاعة، وكثير طاعة ، وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وآله : « اقتدوا باللّذَين من بعدى أبى بكر وعمر » ، فوجب أن يبطل جهادهما ، وقد قال للزبير : « ستقاتل عليًّا ، وأنت ظالم له » ، فأشعره بذلك أنّه لا يموت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال فى الكتاب العزيز لطلحة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ قالوا : نزلت فى طلحة ، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده ، فوجب ألّا يكون لهما كبير ثواب فى الجهاد ، والذى صحّ عندنا من الخبر وهو قوله : « ستقاتل بعدى الناكثين » ، أنه قاله لمّا وضعت الحرب أوزارها ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا ، ووضعت الجزية ، ودانت العرب قاطبة .

* * *

قال الجاحظ : ثم قصد النّاصرون لعلىّ ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الّذين قتلهم فأطروهم وغلوْا فيهم ، وليسوا هناك ! فمنهم عمرو بن عبد ود تركتموه أشجع من عامر ابن الطفيل وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس ، وقد سمعنا بأحاديث حُروب الفجار وما كان بين قريش ودَوْس وحِلْف الفُضُول ، فما سمعتُ لعمرو بن عبدودّ ذكرا فى ذلك [3] .

---

(١) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(٣) انظر العثمانية ٤٩ ، ٥٠ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمرُ عمرو بن عبدوَدّ أشهر وأكثر من أن يُحتجَ له ، فلتتلمّح كتب المغازى والسِّيَر ، ولينظر مارثته به شعراء قريش لما قتل ، فمن ذلك ماذكره محمد بن إسحاق فى مغازيه ، قال : وقال مُسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حُذافة بن جُمَح يبكى عمرو بن عبد الله بن عبد ودحين قتله على بن أبى طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد(١) أى قطع الخندق .

عمرو بن عبدٍ كان أول فارسٍ ... جَزَع المذاد وكان فارس مَلْيَلِ(٢)
سمحُ الخلائق ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ ... يبغى القتالَ بشكّة لم يَنْكُلِ(٣)
ولقد علمتم حينَ ولّوْا عنكمُ ... أنّ ابن عبدٍ منهمُ لم يَعْجل(٤)
حتّى تكنّفَهُ الكُماة وكلُّهم ... يبغِى القتال له وليس بمؤتَل(٥)
ولقد تكنّفت الفوارسُ فارساً ... بجنوبِ سَلْعٍ غيرِ نِكْسٍ أَمْيلِ(٦)
سال النّزال هناك فارس غالب ... بجنوب سَلْعٍ ليته لم ينزلَ
فاذهب علىٌّ ماظفرتَ بمثلِها ... فخراً ولو لاقيت مثل المعضَلِ(٧)
نفسى الفداء لفارسٍ من غالب ... لاقَى حِمام الموت لم يتحلْحَلِ(٨)
أعنِى الّذِى جزَع المذاد ولم يكن ... فَشِلاً وليس لَدَى الحروب بزُمَّلِ(٩)

وقال هُبيرة بن أبى وهب المخزومىّ ، يعتذر من فراره عن علىّ بن أبى طالب ، وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه :

---

(١) المذاد ، بالذال المعجمة : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، وفى ط : « المزار » تصحيف ، وجزع ، أى قطع .

(٢) مليل ، واد ببدر .

(٣) المرة : القوة ، والشكة : السلاح .

(٤) ابن هشام : « فيهم » .

(٥) تكنفه الكماة : أحاطوا به والتفوا حوله . وليس بمؤتل ؛ أى ليس بمقصر .

(٦) سلع : جبل بالمدينة . والنكس : الدنىء من الرجال . والأميل : الذى لا رمح معه .

(٧) المعضل : الأمر الشديد .

(٨) لم يتحلحل : لم يبرح مكانه .

(٩) الزمل : الضعيف الجبان .

لعمرُك ما ولّيت ظهرى محمّداً ... وأصحابه جُبْناً ولا خيفةَ القتلِ (١)
ولكنّنى قلّبت أمرى فلم أجِدْ ... لسيفى غَناءً إن وقفتُ ولا نَبلِى
وقفتُ فلمّا لم أجد لى مقدَّماً ... صدرتُ كضِرغامٍ هزبرٍ إلى شِبْلِ (٢)
ثَنَى عِطفَه عن قِرْنه حين لم يجد ... مجالا(٣) وكان الحزم والرأى من فِعْلِى
فلا تَبْعَدَنْ يا عَمْرُو حيًّا وهالكاً ... فقد مِتَّ محمودَ الثَّنا ماجدَ الفعلِ (٤)
ولا تبعدنْ يا عمرو حيًّا وهالكا ... فقد كنتَ فى حرب العِدَا مُرهَفَ النَّصْلِ
فمن لِطرادِ الخيلِ تُقْدَعُ بالقنَا ... وللبذل يوما عند قرقرة البُزْلِ (٥)
هنالك لو كان ابن عمرٍو لزارها ... وفرّجها عنهم فتًى غير ما وغْلِ
كفتك علىّ لن ترى مثل موقفٍ ... وقفتَ على شِلْو المقدَّم كالفحلِ (٦)
فما ظفرت كفّاك يوماً بمثلها ... أمنتَ بها ما عشت من زلّةِ النَّعْلِ

وقال هُبيرة بن أبى وهب أيضا ، يرثى عَمْرا ويبكيه :

لقد علمتْ عُليا لؤىّ بنِ غالبٍ ... لفارسها عمرٌو ، إذا ناب نائبُ (٧)
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه ... علىّ وإن الموت لاشك طالب (٨)
عشيّة يدعوه علىٌّ وإنّه ... لفارسُها إذ خام عنه الكتائب (٩)

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٢) مقدما ، أى لم أجد من يقدمنى . وصدرت : رجعت . الضرغام : الأسد . الهزبر : الشديد . والشبل : ابن الأسد
(٣) ابن هشام : « لم يجد مكرا » .
(٤) الثنا : الذكر الطيب . والماجد : الشريف .
(٥) تقدع : تكف . والقرقرة : أصوات فحول الإبل . والبزل : جمع بازل ؛ وهو فى الأصل البعير الذى فطر نابه ، وذلك زمان اكتمال قوته .
(٦) ابن هشام : « فعنك على » .
(٧) إذا ناب نائب ، أى إذا عرض أمر مكروه .
(٨) ابن هشام : « لفارسها عمرو إذا ما يسومه » .
(٩) خام : جبن ورجع هيبة وخوفا .

فيالهف نفسى ، إنَّ عمراً لكائنٌ بيثرب ، لا زالت هناك المصائبُ
لقـد أحرز العَلْيا علىٌّ بقتــله وللخــير يوما لا محالة جالبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصارى يذكر عمرا :

أمسى الفتى عمرو بن عبــدٍ ناظراً كيف العُبور وليتَــه لم ينظُرِ (١)
ولقد وجدت سيوفنــا مشهورةً ولقــد وجدت جيادنا لم تُقْصَرِ (٢)
ولقد لقيتَ غداة بدرٍ عُصْبــةً ضَرَبوك ضَرْباً غــير ضرب الحسَّرِ
أصبحتَ لا تُدْعَى ليومٍ عظيمــةٍ يا عَمــرُو أو لجسيم أمرٍ مُنْكَرِ (٣)

وقال حسان أيضا :

لقد شقيَتْ بنو جُمَــح بنِ عمرو ومخزوم وتَيْمٌ ما نُقِيــلُ
وعمرو كالحسام فــتى قريش كأن جبينَه سيف صقيــلُ
فتًى من نســل عامرٍ أريحىٌّ تطاوله الأسنَّــةُ والنُّصُولُ
دعاه الفارس المقــدام لمّا تــكشّفتِ المقانِبُ والخُيُولُ
أبو حسنٍ فقنّعــه حُسَاما جُرازا لا أفــلُّ ولا نَكُولُ
فغــادره مــكبًّا مُنْلَحِبًا على عَفْراء ، لا بَعِدَ القتيــلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض (٥) ماقيل فيه .

وأمّا الآثار والأخبار ، فموجودة فى كتب السِّيَر وأيام الفرسان ووقائعهم ، وليس

(١) رواية البيت فى ابن هشام :

أمسَى الفتَى عمرو بن عبدٍ يبتغِى بجنوبِ يثربَ ثأرَهُ لم يَنظُرِ

(٢) مشهورة أى قد شهرها أصحابها . ولم تقصر : لم تكف ولم تحبس عن التجوال .
(٣) قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان » .
(٤) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٩٨ — ٣٠٤ (نشرة المكتبة التجارية) .

أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال : كان فارسَ قريش وشُجاعها ، وإنما قال له حسان :

* ولقد لقيتَ غَداةَ بدرٍ عصبـة *

لأنه شهد مع المشركين بدْراً ، وقتل قوماً من المسلمين . ثم فرّ مع مَنْ فرّ ، ولحق بمكّة ، وهو الذى كان قال وعاهدَ الله عنـد الكعبة ألا يدعوَهُ أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه . وآثاره فى أيام الفِجار مشهورة تنطِق بها كتُبُ الأيّام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم : عُتْبة و بِسْطام وعامر ، لأنهم كانوا أصحابَ غاراتٍ ونَهْب ، وأهلَ بادية ، وقريش أهل مدينة وساكنو مَدَرٍ وحجر ، لا يروْن الغارات ، ولا ينهبون غيرَهم من العرب ، وهم مقتصِرون على المقام ببلدتهم وحماية حَرَمهم ؛ فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء .

ويقال له : إذا كان عمرو كما تذكُر ليس هناك ، فما باله لما جزَع الخندق فى ستّة فرسان هو أحدُهم ، فصار مع أصحاب النبى صلى الله عليه وآله على أرض واحدة ، وهم ثلاثة آلاف ، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحدٌ منهم للخروج إليه ، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه ، حتى وبخهم وقرّعهم ، وناداهم : ألستم تزعمون أنه مَنْ قُتل منّا فإلى النار ، ومَنْ قتِل منكم فإلى الجنة ! أفلا يشتاقُ أحدُكم إلى أنْ يذهب إلى الجنة ، أو يقدِّم عدوّه إلى النار ! فجبنوا كلُّهم ونكلوا ، وملكهم الرّعب والوَهل ، فإمّا أن يكون هذا أشجع الناس كما قد قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلّهم أجبنَ العرب وأذلّهم وأفشلهم ! وقد روى النّاس كلّهم الشّعر الذى أنشدَه لمّا نكل القوم بجمعهم عنه ، وأنّه جالَ بفرسه واستدار وذهب يَمْنة ، ثم ذهب يَسْرة ، ثم وقف تُجاه القوم ، فقال :

ولقد بححتُ من النِّـدا ء بجَمْعِهِمْ : هل من مبارزْ !

ووقفتُ إذ جَبُن المشيَّـــع وِقفة القِرْن المناجزْ
وكذاك أنى لم أزلْ متسرّعاً نحو الهزاهِزْ
إن الشجاعة فى الفتَى والجودَ من خيرِ الغرائزْ

فلما برز إليه علىّ أجابه، فقال له:

لا تعجلنّ فقـــدْ أتا كَ مجيب صوتِك غيرعاجزْ
ذُو نيَّةٍ وبصـــــيرةٍ يرجُو الغـــداةَ نجاةَ فائزْ
إنى لأرجـــو أن أقِـ يمَ عليك نائحـــة الجنائزْ
من ضربةٍ تفنى ويَبْـ قَى ذكرُها عند الهزائزْ

ولعمرى لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جُهّال الأنصارى، لمّا رجع رسول الله من بدر، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرا: إن قتلنا إلا عجائز صُلْعا! فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «لا تقل ذلك يابن أخ، أولئك الملأ!».

***

قال الجاحظ: وقد أكثروا فى الوليد بن عُتْبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضر حرْباً قطّ قبلها، ولا ذكر فيها (١).

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كلُّ مَنْ دوّن أخبارَ قريش وآثار رجالها، وصف الوليد بالشّجاعة والبَسالة، وكان مع شجاعته أنّه يصارِع الفتيان فيصرعُهم، وليس لأنّه لم يشهد حَرْباً قبلها مايجب أن يكون بطلاً شجاعا؛ فإنّ عليا عليه السلام لم يشهدْ قبل بدرٍ حربا، وقد رأى الناس آثاره فيها.

***

(١) العثمانية ٥٩.

قال الجاحظ : وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ، كما ثبت عليّ ، فلا فخرَ لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم[١] .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أمّا ثباته يومَ أُحُـد ، فأكثر المؤرّخين وأربابُ السِّيَر ينكِرُونه ، وجمهورهم يروِي أنه لم يبقَ مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلا عليّ وطلحة والزبير ، وأبو دُجَانة ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ولهم خامسٌ وهو عبد الله بن مسعود ، ومنهم مَنْ أثبت سادساً ، وهو المقداد بن عمرو ، وروى يحيى بن سلمة بن كُهَيل قال : قلت لأبي، كم ثبتَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد ؟ فقال : اثنان ، قلت: مَنْ هُما ؟ قال : عليّ وأبو دُجانة .

وهب أنّ أبا بكر ثبت يوم أُحُد كما يدّعيه الجاحظ ، أيجوز له أن يقول ثبت : كما ثبت عليّ ، فلا فخر لأحدِهما على الآخر ، وهو يعلم آثار عليّ عليـه السلام ذلك اليوم ، وأنّه قتل أصحاب الألوية من بنى عبد الدّار : منهم طلحة بن أبي طلحة ، الّذي رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله في منامِه أنه مردِفٌ كبشا ، فأوّله وقال : كبش الـكتيبة نقتلُه . فلما قتله عليّ عليه السلام مبارزةً ـ وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليـوم ـ كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « هـذا كبش الـكتيبة » .

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد فرّ الناس وأسلموه ، فتصمد له كتيبة من قريش ، فيقول : « ياعليّ ، اكفني هذه » فيحمل عليها فيهزمها ، ويقتل عميدَها ، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قِبَل السّماء .

لا سَيْفَ إلا ذو الفقا ... رِ ولا فتًى إلا علِي

وحتّى قال النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ماقال .

أتـكون هذه آثاره وأفعاله ، ثم يقول الجاحظ : لا فخر لأحدهما على صاحبه !

---

(١) العثمانية ٦٢ .

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[1].

***

قال الجاحظ : ولأبى بكر فى ذلك اليوم مقام مشهور ، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفَّراً[2] فى الحديد ، يسأل المبارزة ، ويقول : أنا عبدُ الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر يَسْعَى بسيفه ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله : « شِمْ سيفَك وارجع إلى مكانك ، ومتّعنا بنفسك[3] » .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبى بكر ، فإنّه لو تسمعُه الإمامية لاضافته إلى ماعندها من المثالب ، لأنّ قول النبي صلى الله عليه وآله: « ارجع » دليل على أنّه لا يحتمِل مبارزة أحدٍ ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه ، وأنت تعلم حنوّ الابن على الأب وتبجيله له ، وإشفاقه عليه وكفّه عنه ، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبيّ .

وقوله له : « ومتعنا بنفسك »؛ إيذان له بأنّه كان يقتَلُ لو خرج ، ورسول الله كان أعرفَ به من الجاحظ ، فأين حالُ هذا الرّجل من حال الرجل الذى صَلِيَ بالحرب ، ومشى إلى السيف بالسيف ، فقتَل السادَة والقادَة والفُرسان والرّجّالة !

***

قال الجاحظ : على أن أبا بكر — وإن لم تكن آثاره فى الحرب كآثار غيره — فقد بذل الجهد ، وفعل مايستطيعه وتبلغه قوّته ، وإذا بذل المجهودَ فلا حال أشرف من حاله[4] .

---

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٢) أى مستترا .

(٣) العثمانية ٦٢ .

(٤) العثمانية ٦٢ .

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله : أما قوله إنه بذل الجهد ، فقد صدق ، وأما قوله : « لا حال أشرف من حاله » ؛ فخطأ ، لأنّ حال من بلغت قوته فأعملها فى قتل المشركين أشرفُ من حال من نَقَصَتْ قوّته عن بلوغ الغاية ؛ ألَا تَرَى أن حال الرجل أشرفُ فى الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأَيِّد أشرف من حال الصبىّ الضعيف !

* * *

فهذه جملة ماذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى رحمه الله فى نقض العثمانية ، اقتصرنا عليها هاهنا ؛ وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه ، إذا اقتضت الحال ذكره[1] .

---

(١) قام الأستاذ عبد السلام هارون بطبع كتاب العثمانية ، طبعة علمية محققة ، وألحق بها ما عثر عليه من نقضها للاسكافى ؛ وطبعت فى دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٥ .

(٢٣٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله لعبد اللهِ بن عباسٍ ، وقد جاءه برسالةٍ من عثمانَ ، وهو محصورٌ يسأله فيها الخروجَ إلى مالِهِ بينبُع ، ليقلّ هتفُ الناسِ باسمهِ للخلافةِ ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل .

فقال عليه السلام :

يَابْنَ عَبَّاسٍ ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ ، أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً .

* * *

الشرح :

ينبُع على « يفعلُ » مثل يحلُم ويحكم : اسم موضع ، كان فيه نخلٌ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وينبُع الآن بلد صغير من أعمال المدينة .

وهتف الناس باسمه : نداؤهم ودعاؤهم ، ولعلّه الصوت ، يقال : هَتَف الحمامُ يهتفِ هَتْفاً ، وهَتَف زيد بعمرو هُتافا ، أى صاح به ، وقوس هتّافة وهَتَفى ، أى ذات صوت .

والناضح : البعير يستقى عليه ، وقال معاوية لقيس بن سعد ـ وقد دخل عليه

فى رَهْطٍ من الأنصار ـ : مافعلت نواضحكم ! يهزأ به ، فقال : أنصبناها فى طلب أبيك يوم بدر .

والغرْب : الدلو العظيمة .

قوله : أقبِلْ وأدبر ، أى يقول لى ذلك ، كما يقال : للناضح ، وقد صرّح العبّاس بن مِرْداس بهذه الألفاظ فقال :

أرَاكَ إذا أصبحتَ للقوم ناضحاً يقال له بالغرب أدبر وأقبـــل

قوله : « لقـد دفعتُ عنه حتّى خشيتُ أن أكونَ آثماً » ، يحتمل أن يريدَ بالغتُ واجتهدت فى الدّفاع عنه ، حتى خشيت أن أكون آثمـا فى كثرة مبالغتى واجتهادى فى ذلك ، وإنّه لا يستحقّ الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه ، وهذا تأويل مَنْ ينحرِف عن عثمان، ويحتمل أن يريد : لقد دفعتُ عنه حتى كدت أن أُلقِيَ نفسى فى المهلكة ؛ وأن يقتلنى النّاس الذين ثاروا به ، فخِفْتُ الإثم فى تغريرى بنفسى وتوريطها فى تلك الورْطة العظيمة، ويحتمل أن يريد : لقد جاهدت الناس دونه ودفعتهم عنه ، حتى خشيت أن أكونَ آثما بما نلتُ منهم من الضّرب بالسَّوْط ، والدفع باليد ، والإعانة بالقول ، أى فعلت من ذلك أكثرَ مما يجب .

* * *

[وصيّة العباس قبل موته لعلىّ]

قرأتُ فى كتاب صنّفه أبو حيّان التوحيدىّ فى تقريظ الجاحظ ، قال : نقلت من خَطّ الصُّولىّ : قال الجاحظ : إنّ العبّاس بن عبد المطلب أوصَى علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى عِلّته التى مات فيها ، فقال : أى بنىّ إنى مُشْفِقٌ على الظّمن عن الدُّنيا إلى الله ، الذى فاقتى إلى عفوه وتجاوزه أكثرمن حاجتى إلى ماأنصحك فيه ، وأشير عليك به ،

ولكنّ العِرق نَبُوض (١) ، والرّحم عَرُوض ، وإذا قضيتُ حقّ العمومة ، فلا أبالى بعدُ إنّ هذا الرجل ـ يعنى عثمان ـ قد جاءنى مراراً بحديثك ، وناظرنى ملايناً وخاشنا فى أمرك؛ ولم أجِدْ عليك إلا مثل ماأجِد منك عليه ، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ماأجدُ منك له ، ولستَ تؤتَى من قلّة علم ، ولكن من قلّة قَبُول ، ومع هذا كلّه فالرأى الّذى أودعك به أن تمسك عنه لسانَك ويدك ، وهمْزك وغمْزك ، فإنّه لا يبدؤك مالم تبدأه ، ولا يجيبُك عمّا لم يبلغه ، وأنت المتجنّى وهو المتأنّى ، وأنت العائب وهو الصامت . فإن قلت : كيف هذا وقد جلَس مجلساً أنابه أحقّ ، فقد قاربتَ ! ولكنّ ذاك بما كسبتْ يداك ، ونكَص عنه عَقِباك ، لأنّك بالأمس الأدنى ، هرولت إليهم تظنّ أنّهم يحُلّون جيدَك ، ويختّمون أصبعَك ، ويطئون عَقِبك ، ويرون الرُّشْد بك ، ويقولون : لابدّ لنا منك ، ولا معدَل لنا عنك ، وكان هذا من هفواتِك الكُبَر ، وهناتِك التى ليس لك منها عذر ، والآن بعد ماثللت عرشَك بيدك ، ونبذْتَ رأى عمّك فى البيداء يتدهْدَه (٢) فى السّافياء (٣) ؛ خذ بأحزم ممّا يتوضّح به وجهُ الأمر ، لا تشارِ (٤) هذا الرجل ولا تماره (٥) ، ولا يبلغنه عنك مايُحنِقه عليك ، فإنه إنْ كاشفَك أصاب أنصارا ، وإن كاشفتَه لم ترَ إلا ضرارا ، ولم تستلج (٦) إلا عثارا ، واعرِفْ مَنْ هو بالشام له ، ومن هاهنا حوله من يطيع أمرَه ، ويمتثل قوله ؛ لا تغترِرْ بناسٍ يُطِيفون بك ، ويدّعون الحنوّ عليكَ والحبّ لك ، فإنهم بين مولًى جاهلٍ ، وصاحبٍ متمنٍّ ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضَر ، ولو ظنّ النّاس بك ماتظنّ بنفسك لكان الأمر لك ، والزِّمام فى يدك ، ولكنْ هذا حديثٌ يوم مَرَض رسول الله صلى الله عليه وآله فاتَ ، ثم حَرُم الكلام فيه حين مات ، فعليك الآن بالعُزوف عن شىء عَرَضك

---

(١) كذا فى ا ، ونبوض : من نبض العرق ينبض نبوضاً ، وهو ضربانه وفى ب : « بيوض » .

(٢) يتدهده : يتدحرج (٣) السافياء : الريح التى تحمل التراب .

(٤) يقال : شاراه مشاراة ، إذا لاجه . (٥) تماره : تجادله . (٦) تستلج : تدخل

له رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فلمْ يتمّ ، وتصدّيْتَ له مرّة بعد مرّة فلم يستقمْ ، ومن ساوَرَ الدّهر غَلَب ، ومَنْ حرَص على ممنوع تَعِب ، فعلى ذلك فقد أوصيتُ عبدَ الله بطاعتك ، و بعثتُه على متابعتك ، وأوجَرْته محبّتَك ، ووجدت عنده من ذلك ظنّي به لك، لا توترْ قوسَك إلا بعد الثّقة بها ، وإذا أعجبتك فانظر إلى سيّتها ، ثم لا تفوّق إلا بعد العلم ولا تغرق فى النّزْع إلا لتصيب الرميّة ، وانظر لا تطرف يمينُك عينَك ، ولا تجنِ شمالُك شينكَ ، ودّعْنِي بآياتٍ من آخر سورة الكهف ، وقم إذا بدا لك .

قلت: النّاس يستحسِنُون رأيَ العبّاس لعلى عليه السلام فى ألّا يدخل فى أصحاب الشورى ؛ وأمّا أنا فإنّى استحسنه إن قصد به معنًى، ولا أستحسنه إن قصد به معنًى آخر ، وذلك لأنّه إن أجرى بهذا الرّأى إلى ترفّعه عليهم ، وعلوّ قدره عن أن يكون مماثلا لهم ، أو أجرى به إلى زُهده فى الإمارة ، ورغبته عن الولاية ؛ فكلّ هذا رأى حسنٌ وصواب ، وإن كان منزَعه فى ذلك إلى أنّك إن تركت الدخول معهم ، وانفردت بنفسك فى دارك ، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك ، فإنّهم يطلبونك ، و يضربون إليك آباط الإبل ، حتّى يولّوك الخلافة ؛ وهذا هو الظاهر من كلامه ، فليس هذا الرّأى عندى بمستحْسَن ، لأنّه لو فعل ذلك لولّوا عثمان أو واحداً منهم غيره ، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبعثهم على طلبه ، بل كان تأخّره عنهم قرّة أعينهم ، وواقعاً بإيثارهم ، فإنّ قريشا كلّها كانت تُبغضه أشدّ البغض ، ولو عمّر عمر نوح ، وتوصّل إلى الخلافة بجميع أنواع التوصّل ، كالزهد فيها تارة ، والمناشدة بفضائله تارة ، و بما فعله فى ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلا إلى بيوت الأنصار ، و بما اعتمده إذ ذاك من تخلّفه فى بيته ، وإظهار أنّه قد انعكف على جمع القرآن ، و بسائر أنواع الحِيَل فيها ، لم تحصل له إلّا بتجريد السيف ، كما فعل فى آخر الأمر ، ولست ألوم العربَ ، لا سيّما قريشا فى بغضها له ، وانحرافها عنه ، فإنّه وَتَرها ، وسفك دماءها ، وكشفَ القناع فى منابذتها ، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم ،

وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد فى النفوس ، كما نشاهده اليوم عيانا ، والناس كالناس الأول ، والطبائع واحدة ، فأحسب أنك كنت من سنتين أو ثلاث جاهلياً أو من بعض الروم ، وقد قتل واحدٌ من المسلمين ابنك أو أخاك ، ثم أسلمت ، أكان إسلامُكَ يُذهب عنك ما تجدُه من بغض ذلك القاتل وشنآنه ؟ كلّا إنّ ذلك لغيرُ ذاهب ، هذا إذا كان الإسلام صحيحا ، والعقيدة محققة ، لا كإسلام كثير من العرب ، فبعضهم تقليدا ، وبعضهم للطمع والكسب ، وبعضهم خوفا من السيف ، وبعضهم على طريق الحمية والانتصار ، أو لعداوة قوم آخرين من أضداد الإسلام وأعدائه .

***

واعلم أنّ كلّ دمٍ أراقه رسولُ الله صلى الله عليه وآله بسيفِ علىّ عليه السلام وبسيف غيره ، فإنّ العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام وحده ، لأنه لم يكن فى رهطه مَنْ يستحقّ فى شرعهم وسنّتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعلىٍّ وحده ، وهذه عادة العرب إذا قُتِل منها قتلى طالبتْ بتلك الدماء القاتل ، فإن مات، أو تعذّرت عليها مطالبتُه ، طالبت بها أمثَل الناس من أهله .

لما قتل قوم من بنى تميم أخاً لعمرو بن هند ، قال بعض أعدائه يحرّض عمرا عليهم (١) :

مَنْ مبلغٌ عمراً بأنّ المرْءَ لَمْ يُخْلَقْ صُبَارَهْ (٢)
وحوداثُ الأيّام لا يَبْقَى لهـا إلّا الحجارهْ
ها إنّ عجْزَةَ أمّهِ بالسّفحِ أسفَل من أُوارَهْ (٣)
تسفِى الرياحُ خلالَ كَشْحَيْه وقد سَلَبُوا إزارَهْ
فاقتلْ زُرارةَ لا أرى فى القوم أمثَلَ من زُرارَهْ

(١) هو عمرو بن ملقط الطائى ، والأبيات فى تاريخ ابن الأثير ١ : ٣٣٥ ، ضمن خبره عن يوم أوارة الثانى ، وهى أيضا فى اللسان ٦ : ١١١ .
(٢) الصبارة : الحجارة الملس ، كأنه يقول : ليس الإنسان بحجر فيصبر على مثل هذا .
(٣) أول ولد المرأة يقال له زكمة ، والآخر عجزة .

فأمره أن يقتل زُرارة بن عُدَس رئيس بنى تميم ، ولم يكن قاتلا أخا الملك ولا حاضرا قَتْله .

ومَنْ نظر فى أيّام العرب ووقائعها ومَقاتِلها عرف ما ذكرناه .

***

سألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبى زيد رحمه الله ، فقلت له : إنّى لأعجبُ من علىّ عليه السلام كيف بَقِىَ تلك المدّة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكيف ما اغتيل[1] وفُتِك به فى جَوْفِ منزله ، مع تلظّى الأكباد عليه !

فقال : لولا أنّه أرغم أنفه بالتّراب ، ووضع خَدّه فى حضيض الأرض لقتل ، ولكنه أخمَلَ نفسه ، واشتغل بالعبادة والصّلاة والنّظر فى القرآن ، وخرج عن ذلك الزىّ الأوّل ؛ وذلكِ الشّعار ونسىَ السيف ، وصار كالفاتك يتوب ويصير سائحا فى الأرض ، أو راهباً فى الجبال ، ولما أطاع القوم الذين وَلوا الأمر ، وصار أذلّ لهم من الحذاء ، تركوه وسكتوا عنه ، ولم تكن العرب لتقدُم عليه إلّا بمواطأةٍ من متولّى الأمر ، وباطنٍ فى السرّ منه ، فلمّا لم يكن لولاة الأمر باعثٌ وداعٍ إلى قتله وَقَع الإمساك عنه ، ولولا ذلك لقُتِل[2] ، ثم أجَلَ بعد معقل حصين .

فقلت له : أحق ما يقال فى حديث خالد ؟ فقال : إنّ قوما من العلَوِيّة يذكرون ذلك .

ثم قال : وقد روى أنّ رجلًا جاء إلى زفر بن الهُذَيل ، صاحب أبى حنيفة ، فسأله عمّا يقول أبو حنيفة فى جواز الخروج من الصّلاة بأمرٍ غير التّسليم ، نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدَث ! فقال : إنّه جائز ، قد قال أبو بكر فى تشهُّده ما قال ، فقال الرجل :

---

(١) ب : « ما قتل » ، وأثبت ما فى ا

(٢) ب : « لقتله » .

نوما الّذِى قاله أبو بكر ؟ قال : لاعليك ، فأعاد عليه السؤال ثانيةً وثالثةً ، فقال: أخرجوه أخرجوه ، قد كنت أحدّث أنّه من أصحاب أبي الخطاب .

قلت له : فما الذى تقوله أنت ! قالَ : أنا استبعدُ ذلك وإن روته الإماميّة .

ثم قال : أمّا خالدٌ فلا استبعد منه الإقدام عليه بشجاعته فى نفسِه ، ولبغضه إيّاه ، ولـكنّي أستبعده من أبي بكر ، فإنّه كان ذا ورعٍ ، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فدَكَ ، وإغضاب فاطمةَ وقَتْل عليّ عليه السلام ؛ حاش لله من ذلك ! فقلت له : أكان خالدٌ يقدِرُ على قتله ؟ قال : نعم ؛ ولِمَ لا يقدر على ذلك ، والسيف فى عنقه ، وعلىّ أعزَلُ غافل عمّا يراد به ، قد قتله ابن ملجم غيلةً ، وخالد أشجعُ من ابن ملجم !

فسألتُه عمّا ترويه الإمامية فى ذلك ، كيف ألفاظه ؟ فضحك وقال :

* كم عالِمٍ بالشيء وهو يسائلُ *

ثم قال : دعنا من هذا ، ما الذى تحفظُ فى هذا المعنى ؟ قلت : قول أبي الطيِّب :

نَحْنُ أدْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْـدٍ أطويـلٌ طريقُنَا أم يطُولُ [1]

وكثيرٌ مِن السُّؤالِ اشتيـاقٌ وكثيرٌ من ردِّهِ تعليـلُ

فاستحسن ذلك ، وقال : لمن عَجُزُ البيت الذى استشهدتَ به ؟ قلت : لمحمد بن هانئ المغربى ، وأوله :

فى كلّ يوم أستزيدُ تجـارِباً كم عالِمٍ بالشّيء وهو يسائلُ [2] !

فبارك علىّ مرارا ، ثم قال : نترك الآن هذا ونتمم ما كنّا فيه ، وكنت أقرأ عليه فى ذلك الوقت " جمهرة النسب " لابن الـكلبيّ ، فعدنا إلى القراءة ، وعدَلْنا عن الخوض عمّا كان اعترض الحديث فيه .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٥١ ، ١٥٢

(٢) ديوانه ١١٤

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به :

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مأْخَذَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرْجِ .

في كلام طويل

***

قالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَأَطَأُ ذِكْرَهُ » ، مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي رُمِيَ بِهِ إِلَى غايَتَيِ الإِيجازِ والْفَصاحَةِ ، أَرادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطَى خَبَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلى أن انتهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَكَنَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنايَةِ الْعَجِيبَةِ .

***

الشَّرْحُ :

العَرْج : منزل بين مكّة والمدينة ، إليه ينسب العَرْجيّ الشاعر ، وهو عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس .

قال محمد بن إسحاق في كتاب « المغازى » : قال لم يعلمْ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهِجْرة إلّا عليّ بن أبي طالب وأبا بكرِ بن أبي قحافة ، أمّا عليّ ، فإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أخبرَه بخروجه ، وأمره أن يبيتَ على

فراشه ، يُخادِع المشركين عنه ليروْا أنه لم يبرحْ فلا يطلبوه ، حتى تبعُد المسافة بينهم و بينه ، وأنْ يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّىَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع الّتي عنده للناس ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله استودَعه رجالٌ من مكّة ودائعَ لهم ، لمايعرفونه من أمانته ، وأما أبو بكر فخرج معه .

***

وسألتُ النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسنيّ ، رحمه الله فقلت : إذا كانتْ قُريش قد محصت رأيها ، وألقى إليها إبليس ـ كما رُوِى ـ ذلك الرأى ، وهو أن يضربوه بأسيافٍ من أيدي جماعة من بُطون مختلفة ، ليضيع دمُه فى بُطُون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف ، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصّبح ! فإنّ الرواية جاءت بأنّهم كانوا تسوّروا الدّار ، فعاينوا فيها شخصاً مسجّى بالبُرْد الحضرمىّ الأخضر ، فلم يشكّوا أنّه هو فرصدوه إلى أن أصبحوا ، فوجدوه عليّاً ، وهذا طريفٌ ، لأنّهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة ، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشّخص المسجّى ، وانتظارهم به النّهار دليل على أنّهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة ؟

فقال فى الجواب : لقد كانوا همّوا من النّهار بقتله تلك الليلة ، وكان إجماعهم على ذلك ، وعزمُهم فى حَقْنه من بنى عبد مناف ، لأنّ الذين محصوا هذا الرأى واتفقوا عليه : النّضْر بن الحارث من بنى عبد الدّار ، وأبو البختَرىّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وزَمْعة بن الأسود ابن المطلب ؛ هؤلاء الثلاثة من بنى أسد بن عبد العُزّى ، وأبو جهل بن هشام ، وأخوه الحارث ، وخالد بن الوليد بن المغيرة ، هؤلاء الثلاثة من بنى مخزوم ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج ، وعمرو بن العاص ؛ هؤلاء الثلاثة من بنى سَهْم ، وأميّة بن خلَف وأخوه أبىّ بن خلَف ، هذان من بنى جُمَح ، فنَمَا هذا الخبرُ من اللّيْل إلى عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فلقىَ منهم قوماً ، فنهاهم عنه ، وقال : إنّ بنى عبد مناف لا تمسِك عَنْ دمِه ، ولكن صفّدُوه

في الحديد ، واحبسوه في دارٍ من دوركم ، وتربَّصُوا به أن يصيبَه من الموت ماأصاب أمثالَه من الشعراء . وكان عتْبة بن ربيعة سيّد بني عبد شمس ورئيسهم ، وهم من بني عبد مناف ، وبنو عمّ الرجل ورهطُه ،فأحجم أبو جهل وأصحابُه تلك الليلة عن قتْله إحجاماً ، ثم تسوّروا عليه ، وهم يظنّونه في الدّار ، فلما رأوا إنساناً مسجًّى بالبُرْد الأخضر الحضرميّ لم يشكُّوا أنّه هُوَ ؛ وائتمروا في قتله ، فكان أبو جهل يذمُرهم (١) عليه فيهمُّون ثم يحجمون . ثم قال بعضهم لبعض : ارمُوه بالحجارة ،فرموْه ، فجعل عليٌّ يتضوّر منها ، ويتقلّب ويتأوّه تأوُّهاً خفيفاً، فلم يزالوا كذلك في إقدامٍ عليه وإحجامٍ عنه ، لما يريده الله تعالى من سلامته ونجاته ،حتّى أصبح وهو وقيذ (٢) من رَمْيِ الحجارة ، ولو لم يخرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إلى المدينة ، وأقام بينهم بمكّة ، ولم يقتلوه تلك الليلة ، لقتلوه في الليلة التي تليها ، وإنْ شبّت الحرب بينهم وبين عبد مناف ، فإنّ أبا جهل لم يكنْ بالّذي ليمسِك عن قتله ، وكان فاقدَ البصيرة ، شديدَ العزْم على الولوغ في دمه !

قلت للنقيب : أفعلِم رسول الله صلى الله عليه وآله وعليٌّ عليه السلام بما كان من نهيِ عُتْبة لهم ؟ قال : لا ، إنّهما لم يعلَما ذلك تلك الليلة ، وإنّما عرفاه من بعد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، لمّا رأى عتبةَ وما كان منه : إن «يكنْ في القوم خيرٌ ففي صاحب الجمل الأحمر»،ولو قدّرنا أن علياعليه السلام علم ماقال لهم عُتْبة لم يسقط ذلك فضيلته في المبيت ، لأنه لم يكن على ثقةٍ من أنّهم يقبلون قول عُتْبة ، بل كان ظنّ الهلاك والقتل أغلَب .

وأما حالُ علي عليه السلام ، فلمّا أدّى الودائع ، خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النبي

---

(١) يذمرهم : يحضهم .
(٢) الوقيذ : المشرف على الهلاك .

صلى الله عليه وآله ، فجاء إلى المدينة راجلا قد تورّمت قدماه ، فصادف رسولَ الله صلى الله عليه وآله نازلا بقُباء على كُلثوم بن الهدم ، فنزل معه فى منزله ، وكان أبو بكر نازلا بقُباء أيضا فى منزل حبيب بن يساف ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهما معه من قُباء ، حتى نزل بالمدينة على أبى أيّوب خالد بن يزيد الأنصارىّ ، وابتنى المسجد .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى ، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى ، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ . فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ ، امْرُؤٌ خَافَ اللَّهَ . وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا ، وزَمَّها بزِمامِها ، فأمسكها بِلِجامِها ، عَنْ مَعاصِي اللهِ ، وَقَادَهَا بِزِمامِها إِلَى طاعَةِ اللهِ .

***

الشرح :

في نفس البقاء ، بفتح الفاء ، أي في سعته ، تقول : أنت في نَفَسٍ من أمرك ، أي في سَعَة .

والصحف منشورة ، أي وأنتم بعد أحياء ؛ لأنّه لا تطوى صحيفة الإنسان إلاّ إذا مات . والتوبة مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم ، ولا مردودة عليكم إن فعلتم ، كما ترد على الإنسان توبته إذا احتضر .

والمدبِر يدعَى ، أي مَنْ يدبِر منكم ، ويولّي عن الخير يُدعَى إليه ، وينادي : يافلان أقبل على ما يُصلِحك !

والمسىء يُرجَى ، أى يرجَى عوده وإقلاعه .

قبل أن يجمد العمل ، استعارة مليحة ، لأنّ الميت يجمد عمله ويقف . ويروى « يخمد » بالخاء ، من خمدت النار ، والأول أحسن .

وينقطع المهل ، أى العمر الذى أمهلتم فيه .

وتصعد الملائكة ، لأنّ الإنسان عند موته تصعد حفَظته إلى السماء ، لأنه لم يبق لهم شغل فى الأرض .

قوله : « فأخذ امرؤ » ماض يقوم مقام الأمر ، وقد تقدّم شرحُ ذلك ، والمعنى أنّ مَنْ يصوم ويصلّى فإنّما يأخذ بعض قوّة نفسه بما يلقَى من المشقة . لنفسه أى عدة وذخيرة لنفسه يوم القيامة ، وكذلك من يتصدّق ، فإنه يأخذ من ماله ، وهو جار مجرى نفسه لنفسه .

وأخذ من حىّ لميت ، أىْ من حال الحياة لحال الموت ، ولو قال : من ميّت لحىّ ، كان جيّدا أيضا ، لأنّ الحىّ فى الدّنيا ليس بحىّ على الحقيقة وإنّما الحياة حياة الآخرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[1] .

وروى : « أمسكها بلجامها » بغير فاء .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٢٤٢)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام:

جُفَاةٌ طَغَامٌ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ، فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ.

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ.

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى!

***

الشرح:

جفاة: جمع جافٍ، أي هم أعراب أجلاف. والطَّغام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء.

ويقال للأشرار واللئام: عبيد، وإن كانوا أحراراً.

والأقزام ، بالزاى : رذال الناس وسِفلتهم ، والمسموع قزَم ، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء ، لأنه فى معنى المصدر قال الشاعر :

وهُمْ إذا الخيل جالُوا فى كتائبها فوارسُ الخيل لا مِيلٌ ولا قزَمُ[1]

ولكنه عليه السلام قال : « أقزام » ليوازن بها قوله : « طغام » ، وقد روى : « قِزَام » ، وهى رواية جيّدة ، وقد نطقت العرب بهذه اللفظة وقال الشاعر :

أحصنُوا أمّهمُ من عَبْدِهِمْ تلك أفعال القِزام الوَكَعه[2]

وجُمعوا من كلّ أوب ، أى من كلّ ناحية .

وتُلقّطُوا من كلّ شوب ، أى من فِرَقٍ مختلطة .

ثم وصف جهلهم وبعدَهم عن العِلم والدّين ، فقال : ممّن ينبغى أن يفقّه ويؤدّب ، أى يعلّم الفقه والأدب . ويدرّب ، أى يعوّد اعتماد الأفعال الحسَنة والأخلاق الجميلة .

ويولّى عليه ، أى لا يستحقّون أن يولّوا أمراً ، بل ينبغى أن يحجَر عليهم كما يحجر على الصبيّ والسّفيه لعدم رُشْده .

وروى : « ويولَى عليه » بالتّخفيف . ويؤخذ على يديه ، أى يمنع من التصرّف .

قوله عليه السلام : « ولا الذين تبوءوا الدّار والإيمان » ، ظاهر اللفظ يشعر بأنّ الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين ، لأنّ الّذين تبوءوا الدّار والإيمان الأنصار ، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيدا ، وأيضا فإنّ لفظة « الأنصار » واقعة على كلّ مَنْ كان من الأوس والخزرج ، الذين أسلَموا على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والذين تبوءوا الدار

---

(١) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، ونسبه إلى زياد بن منقذ .
(٢) الصحاح ٥ : ٢٠١٠ ، من غير نسبة ، وأحصنوا ، أى زوّجوا .

والأيمان فى [1] الآية ، قوم مخصوصون منهم ، وهم أهل الإخلاص والإيمان التام فصار ذكرُ الخاصّ بعد العام ، كذكره تعالى جبريل وميكائيل ؛ ثم قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [2] ، وهما من الملائكة . ومعنى قوله : « تبوءوا الدار والإيمان » سكنوها ، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل ، لكنهم لما ثبتوا عليه ، واطمأنوا سماه منزلا لهم ومتبوءاً ، ويجوز أن يكون مثل قوله :

وَرَأَيْتُ زَوجَكِ فِي الوَغى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحَا

ثم ذكر عليه السلام أنّ أهل الشام اختارُوا لأنفسهم أقربَ القوم مما يحبّونه ، وهو عمرو بن العاص ، وكرّر لفظة « القوم » ، وكان الأصل أن يقول : ألا وإنّ القومَ اختاروا لأنفسهم أقربَهم مما يحبُّون ، فأخرجه مخرج قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [3] . والذى يحبّه أهل الشام هو الانتصار على أهلِ العراقِ والظَّفَرُ بهم ، وكان عمرو بن العاص أقربَهم إلى بلوغ ذلك ، والوصول إليه بمكره وحيلته وخدائعه .

والقوم فى قوله ثانياً « أقربُ القومِ » ، بمعنى النّاس كأنّه قال : واخترتم لأنفسكم أقربَ الناس ، ممّا تكرهونه ، وهو أبو موسى الأشعرى ، واسمه عبد الله بن قيس ، والذى يكرهه أهلُ العراق هو ما يحبّه أهل الشام ، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم ، واستيلاء أهل الشام عليهم ، وكان أبو موسى أقرَب النّاس إلى وقوع ذلك ، وهكذا وقع لَبلهِه وغفْلته وفساد رأيه ، وبغضه عليا عليه السلام من قبل .

ثم قال : أنتم بالأمس ، يعنى فى واقعة الجمل ، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحشر ٩ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

(٢) سورة التحريم ٤ .

(٣) سورة المائدة ٧ .

عن نُصْرَتى ، ويقول لهم : هذه هى الفتنة التى وعدنا بها ، فقطّعوا أوتار قِسيِّكم . وشيموا سيوفكم ، أى أغمدوها فإن كان صادقا فما باله سار إلىّ ، وصار معى فى الصفّ ، وحضر حرب صِفّين ، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب ، ولم يسلّ السيف ، فإنّ مَنْ حضر فى إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب ، وإن كان كاذبا فيما رواه من خبر الفتنة فقد لزمته التُّهمة وقُبح الاختلاف إليه فى الحكومة ، وهذا يؤكّد صحّة إحدى الروايتين فى أمرِ أبى موسى ، فإنه قد اختلفت الرواية : هل حضر حرب صِفِّين مع أهل العراق أم لا ؟ فمن قال : حضر ، قال : حضرولم يحارب، وماطلبه اليمانيّون من أصحاب على عليه السلام ليجعلوه حَكَما كالأشعث بن قيس وغيره إلا وهو حاضرٌ معهم فى الصفّ ، ولم يكن منهم على مسافة ، ولو كان على مسافة لما طلبوه ، ولكان لهم فيمن حضر غَناء عنه ، ولو كان على مسافة لمَا وافق علىّ عليه السلام على تحكيمه ، ولا كان علىٌّ عليه السلام ممّن يحكِّم من لم يحضر معه .

وقال الأكثرون، إنه كان معتزلا للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام .

فإن قلت : فلم لا يُحمَلُ قوله عليه السلام : « فإن كان صادقا فقد أخطأ بسيره غير مستكرَه » على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه ليفوّضوا إليه أمرَ الحُكومة ؟

قلت : لو حملْنا كلامَه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبى موسى ، وكان الجواب عنه هيّناً ، وذلك لأنّ أبا موسى يقول : إنما أنكرت الحربَ وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب ، ولا لأغرِى بالحرْب ، وإنما سرتُ للإصلاح بيْن النّاس ، وإطفاء نائرة الفتنة ، فليس يناقض ذلك ماروْيتُه عن الرسول من خبر الفتنة ، ولا ماقلته فى الكوفة فى واقعة الجمل : « قطّعوا أوتار قِسِيِّكُمْ » .

***

قوله عليه السلام : « فادفعوا فى صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس » ، يقال لمن يرام كفّه عن أمر يتطاول له : ادفع فى صدره ، وذلك لأنّ من يقدم على أمر ببدنه فيدفع دافع فى صدره حقيقة فإنه يردّه أو يكاد ، فنقل ذلك إلى الدفع المعنوىّ .

قوله عليه السلام : « وخذوا مَهَل الأيّام » ، أى اغتنموا سَعَة الوقت . وخذوه مناهبَةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت .

قوله عليه السلام : « وحوطوا قواصىَ الإسلام » : مابَعُد من الأطراف والنواحى .

ثم قال لهم : « ألا ترون إلى بلادكم تُغْزَى ! » ، هذا يدلّ عَلَى أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمرِ التحكيم ، لأن معاوية بعد أن تمّ عَلَى أبى موسى من الخديعة ماتمّ استعجل أمرَه ، وبعث السّرايا إلى أعمال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام .

وتقول : قد رمى فلان صَفَاة فلان ، إذا دهاه بداهية قال الشاعر :

والدَّهْرُ يُوتِر قوسَه يرمى صَفاتِك بالمعابِلْ

وأصل ذلك الصخرة الملساء ، لا يؤثّر فيها السهام ولا يرميها الرامى ، إلا بعد أن تَبلَ غيرها ، يقول : قد بلغتْ غاراتُ أهل الشام حدودَ الكوفة التى هى دار الملك وسرير الخلافة ، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان فى غيرها من الأطراف .

* * *

[فصل فى نسب أبى موسى والرأى فيه عند المعتزلة]

ونحن نذكر نسب أبى موسى وشيئا من سيرته وحاله نقلا من كتاب " الاستيعاب " لابن عبد البر المحدّث ، ونتبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور . قال ابن عبد البر : هو عبد الله بن قيس بن سُلَيم بن حضاره بن حَرْب بن عامر بن عَنز بن بكر بن عامر

ابن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر ، وهو نَبت بن أدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن كَهلان بن سَبَأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ، وأمّه امرأة من عَكّ ، أسلمت وماتت بالمدينة ، واختلف فى أنّه هل هو من مهاجِرة الحبشة أم لا ؟ والصحيح أنّه ليس منهم ، ولكنه أسلَمَ ثم رجع إلى بلاد قومه ، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريّين على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوافق قدومُهم قدومَ أهل السفينتين جعفر ابن أبى طالب وأصحابه من أرض الحبشة ، فوافَوْا رسول الله صلى الله عليه وآله بخيبر ، فظنّ قومٌ أنّ أبا موسى قدِم من الحبشة مع جعفر .

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة ، وإنّما أقبل فى سفينة مع قوم من الأشعريّين ، فرمت الريح سفينَتهم إلى أرض الحبشة ، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه ، فكان قدومهم معاً ، فظنّ قومٌ أنه كان من مهاجرة الحبشة .

قال : وولّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله من مَخاليف اليمن زَبيد ، وولّاه عمر البصرة ، لمّا عزل المغيرة عنها ، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها ، وولّاها عبدَ الله بن عامر بن كُريز ، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ ، وسكنها ، فلمّا كره أهلُ الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها ، ولَّوْا أبا موسى ، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيَه ، فأقرّه على الكوفة ، فلما قتل عثمان عزله علىّ عليه السلام عنها ، فلم يزل واجداً لذلك على علىّ عليه السلام ، حتى جاء منه ماقال حذيفة فيه ، فقد روى حُذَيفة فيه كلاما كرهت ذكرَه والله يغفر له (١) .

قلت : الكلام الذى أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ ولم يذكره قوله فيه ، وقد ذكر عنده بالدّين ، أما أنتم فتقولون ذلك ، وأمّا أنا فأشهد أنّه عدوّ لله ولرسوله ، وحرب لهما فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللّعنة ولهم

---

(١) الاستيعاب ٣٨٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

سوء الدار . وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين ، أسرَّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَهم ، وأعلمه أسماءهم .

وروى أن عمارا سئل عن أبي موسى ، فقال : لقد سمعتُ فيه من حُذَيفة قولاً عظيما ، سمعته يقول : صاحب البُرْنس الأسود ، ثم كلَح كُلُوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

وروى عن سويد بن غفلة : قال : كنت مع أبي موسى على شاطىء الفرات فى خلافة عثمان ، فروى لى خبرا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعته يقول : « إن بنى إسرائيل اختلفوا ؛ فلم يزل الاختلاف بينهم ، حتى بعثوا حَكَمين ضالّين ضلّا وأضلّا مَن اتبعهما ، ولا ينفكّ أمر أمّتى حتى يبعثوا حكَمين يضِلّان و يُضلّان من تبعهما» ، فقلت له : احذر ياأبا موسى أن تكون أحدَهما ! قال : فخلع قميصه ، وقال : أبرأ إلى الله من ذلك ، كما أبرأ من قميصى هذا .

***

فأما ماتعتقده المعتزلة فيه، فأنا أذكر ماقاله أبو محمد بن متويه فى كتاب " الكفاية " قال رحمه الله :

أما أبو موسى فإنه عظم جُرْمه بما فعله ، وأدّى ذلك إلى الضرر الذى لم يخف حالُه ، وكان علىٌّ عليه السلام يقنتُ عليه وعلى غيره ، فيقول : اللهمّ العنْ معاوية أولا وعمْراً ثانيا، وأبا الأعور السُّلمىّ ثالثا ، وأبا موسى الأشعرىّ رابعا .

روى عنه عليه السلام : أنه كان يقول فى أبي موسى : صبغ بالعلم صبغا وسلخ منه سلخا .

قال : وأبو موسى هو الذى روى عن النبىّ صلى الله عليه وآله أنه قال : كان فى

بنى إسرائيل حكمان ضالّان ، وسيكون فى أمتى حكمان ضالّان ، ضالّ من اتبعهما ، وأنه قيل له : ألا يجوز أن تكون أحدهما ؟ فقال : لا أو كلاماً ، ماهذا معناه ، فلمّا بُلِىَ به ، قيل فيه : البلاء موكّل بالمنطق ، ولم يثبت فى توبته ما ثبت فى توبة غيره ، وإن كان الشيخ أبو علىّ قد ذكر فى آخر كتاب الحكمين أنه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فى مرض الحسن بن علىّ ، فقال له : أجئتنا عائدا أم شامتا ؟ فقال : بل عائدا ، وحدّث بحديث فى فضل العيادة .

قال ابن متويه : وهذه أمارة ضعيفة فى توبته .

انتهى كلام ابن متويه ، وذكرته لك لتعلم أنّه عند المعتزلة من أرباب الكبائر ، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها .

***

قال أبو عمر بن عبد البرّ : واختلف فى تاريخ موته ، فقيل : سنة اثنتين وأربعين ، وقيل : سنة أربع وأربعين ، وقيل : سنة خمسين ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين .

واختلف فى قبره ، فقيل : مات بمكّة ودفن بها ، وقيل مات بالكوفة ودفن بها(1) .

(٢٤٣)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله :

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ، يُخبرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ باطِنِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ . لَا يُخالِفُونَ الْحَقَّ ، وَلَا يَخْتلِفُونَ عَلَيْهِ ، وَهُمْ دَعَائِمُ الإِسْلَامِ ، وَوَلَائِجُ الاعْتِصَامِ ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إلَى نِصَابِهِ ، وانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مقامه ، وانْقَطَعَ لِسانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وعَايةٍ وَرِعَايةٍ ، لا عَقْلَ سَمَاعٍ ورواية ، فإن رُوَاةَ الْعِلْمِ كثير ، ورُعَاتَهُ قَلِيلٌ .

***

الشرح :

يقول : بهم يحيا العلم ويموت الجهل : فسمّاهم حياة ذاك ، وموت هـذا ، نظرا إلى السببيّة ؛ يدلّكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم ، ويدلّكُمْ ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة ، على مابطن من إخلاصهم ، ويدلّكم صمتهم وسكوتُهم عمّا لا يعنيهم ، عن حكمة منطقهم .

ويروى : « ويدلّكم صمتُهم على منطقهم » ؛ وليس فى هـذه الرواية لفظة « حكم » .

لا يخالفون الحقّ : لا يعدلون عنه ، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب ؛ فمنهم من له فى المسألة قولان وأكثر ، ومنهم من يقول قولا ثم يرجع عنه ، ومنهم من يرى فى أصول الدين رأيا ثم ينفيه ويتركه .

ودعائم الإسلام : أركانه .

والولائج : جمع وَلِيجة ، وهى الموضع يدخل إليه ويستَتر فيه ، ويعتصم به .

وعاد الحق إلى نصابه : رجع إلى مستقرّه وموضعه : وانزاح الباطل : زال . وانقطع لسانه : انقطعت حجّته .

عقلوا الدين عقل رعاية ، أى عرفوا الدين وعلموه معرفة مَن وعى الشىء وفهمه وأتقنه .

ورعاية ، أى وعوا الدين وحفظوه وحاطوه ، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية ، فإن من يروى العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير ، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدراك ، أصالةً لا تقليداً قليل .

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ؛

ويليه الجزء الرابع عشر

فهرس الموضوعات

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الرابع عشر

مؤسسة اسماعيليان
للطباعة والنشر والتوزيع
قم ايران - تلفون ٢٥٢١٣

باب
الكتب والرسائل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

الأصل :

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياء[1] بلاده، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه

الشرح :

لمّا فرَغ من إيراد المختار من خطَب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجارى مَجْرَى الُخطب من المواعظ والزواجر ، شرع فى إيراد بابٍ من مختار كلامه عليه السلام ، وهو ما كان جارياً مَجْرَى الرّسائل والكُتب ، ويدخل فى ذلك العُهود والوصايا . وقد أورد فى هذا الباب ماهو بالباب الأوّل أشبَه، نحو كلامه عليه السلام لشُرَيح القاضى لما اشترى دارا ، وكلامه لشريح بن هانئ لما جعله على مقدّمته إلى الشام .

وسمى ما يكتب للولاة عهدا اشتقاقا من قولهم : عهدت إلى فلان ، أى أوصيته .

(١) ا : « وأمراء بلاده » .

(١)

الأصلُ :

من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة :

مِنْ عبدِ اللهِ عَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ ، جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ.

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ .

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ ، وَأُقِلُّ[1] عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ . وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ ، وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ . إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشرحُ :

قوله : « جبهة الأنصار » ؛ يمكن أن يريد جماعة الأنصار ، فإنّ الجبهة في اللغة الجماعة ، ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرافهم ، لأنّ جبهة الإنسان أعلى أعضائه ، وليس يريد بالأنصار هاهنا بني قَيْلة[2] ، بل الأنصار هاهنا الأعوان .

---

(١) مخطوطة النهج : « فأقل » . (٢) هي قيلة أم الأوس والخزرج .

قوله عليه السلام : « وسَنام العرب » ؛ أى أهل الرفعة والعلوّ منهم ، لأنّ السّنام أعلى أعضاء البعير .

قوله عليه السلام : « أ كثر استعتابه وأُقلّ عتابه » ، الاستعتاب: طلب العُتبَى، وهى الرّضا ، قال : كنت أ كثر طلبَ رضاه ، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور ، وأمّا طلحة والزبير فكانا شديدَيْن عليه .

والوجيف : سير سريع ، وهـذا مَثَلٌ للمشمرين[1] فى الطعن عليه ، حتى إنّ السّير السريع أبطأ ما يسيران فى أمره ، والحِداء العنيف أرفق مايحرّضان به عليه .

ودار الهجرة : المدينة .

وقوله : «قد قلعت بأهلها وقلعوا بها» ، الباء هاهنا زائدة فى أحد الموضعين ، وهو الأول، و بمعنى « من » فى الثانى ، يقول : فارقت أهلها وفارقوها ، ومنه قولهم : «هذا منزل قلعة» أى ليس بمستوطن .

وجاشت : اضطربت . والمِرْجل : القِدْر .

ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام : «فـكنت رجلا من المهاجرين » ،فإنّ فى ذلك من التخلّص والتبرّى مالا يخفى على المتأمّل،ألا ترى أنّه لم يبق عليه فى ذلك حجّة لطاعن ، حيث كان قد جعل نفسه كواحـدٍ من عُرْض المهاجرين ، الذين بنفرٍ يسير منهم انعقدت خلافة أبى بكر ،وهم أهل الحلّ والعقد ، و إنما كان الإجماع حجّةً لدخولهم فيه .

ومن لطيف الـكلام أيضا قوله : « فأتيح له قوم فقتلوه » ، ولم يقل : « أتاح الله له قوما» ، ولا قال : « أتاح له الشيطان قوماً » ، وجعل الأمر مبهما .

وقد ذكر أنّ خط الرضىّ رحمه الله « مستـكرِهين » بكسر الراء ، والفتح أحسن وأصوب ، وإن كان قد جاء : استـكرهتُ الشىء بمعنى كرهته .

---

(١) ا : « وهذا مثل فى العرب للمشمر فى الطعن عليه » .

وقال الراونديّ : المراد بدار الهجرة هاهنا الكوفة التي هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها ، وليس بصحيح ، بل المراد المدينة ، وسياق الكلام يقتضي ذلك ، ولأنّه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم ، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم .

***

[أخبار عليّ عند مسيره إلى البصرة ، ورسله إلى أهل الكوفة]

وروى محمّد بن إسحاق عن عمّه عبد الرحمن بن يسار القرشيّ ، قال : لمّا نزل عليّ عليه السلام الرّبذة متوجّها إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمّد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق ، وكتب إليهم هذا الكتاب ، وزاد في آخره :

فحسبي بكم إخواناً ، وللدّين أنصاراً ، فـ ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وروى أبو مِخْنف ، قال : حدّثني الصَّقْعب ، قال : سمعتُ عبد الله بن جُنادة يحدّث أنّ عليا عليه السلام لمّا نزل الرَّبَذة بعث هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص إلى أبي موسى الأشعريّ ، وهو الأمير يومئذ على الكوفة ، لينفِر إليه النّاس ، وكتب إليه معه :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . أمّا بعد ، فإنّي قد بعثت إليك هاشم بن عُتْبة لتُشْخِص إليّ مَنْ قِبَلك من المسلمين ليتوجّهوا إلى قوم نكثوا بيعتي ، وقتلوا شيعتي ، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدَث العظيم ، فاشخَص بالنّاس إليّ معه حين يقدم عليك ، فإني لم أولِّك المصر الذي أنت فيه ، ولم أقرّك عليه إلّا لتكون من أعواني على الحقّ ، وأنصاري على هذا الأمر ، والسّلام .

---

(١) سورة التوبة ٤١

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال : لمّا قدِم محمد بن جعفر ومحمد بن أبى بكر الكوفة ، استنفرا[1] النّاس ، فدخل قومٌ منهم على أبى موسى ليلًا ، فقالوا له : أشِرْ علينا برأيك فى الخروج مَعَ هذين الرجلين إلى علىّ عليه السلام ، فقال : أمّا سبيلُ الآخرة فالزموا بيوتكم ، وأمّا سبيلُ الدنيا فاشخصوا معهما . فمنع بذلك أهلَ الكوفة من الخروج. وبلغ ذلك المحمدين ، فأغلظا لأبى موسى ، فقال أبو موسى : والله إنّ بيعة عثمان لفى عنق علىّ وعنقى وأعناقكما ، ولو أردنا قتالًا ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان . فخرجا من عنده ، فلحقا بعلىّ عليه السلام ، فأخبراه الخبر .

وأمّا رواية أبى مِخْنف ؛ فإنه قال : إنّ هاشم بن عُتْبة لما قدِم الكوفة ، دعا أبو موسى السّائبَ بن مالك الأشعرىّ ، فاستشاره ، فقال : اتبع ما كتب به إليك . فأبى ذلك ، وحبس الكتاب ، وبعث إلى هاشم يتوعّده ويخوّفه .

قال السائب : فأتيتُ هاشمًا فأخبرته برأى أبى موسى ، فكتب إلى علىٍّ عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من هاشم بن عتبة . أمّا بعدُ يا أميرَ المؤمنين ؛ فإنى قدمت بكتابك على أمرئ مشاقّ بعيد الوُدّ ، ظاهر الغلّ والشنآن ، فتهدّدنى بالسجن ، وخوّفنى بالقتل ، وقد كتبتُ إليك هذا الكتاب مع المحلّ بن خليفة ، أخى طيّئ ، وهو من شيعتك وأنصارك ، وعنده علمُ ما قِبَلنا ، فاسأله عمّا بدا لك ، واكتب إلىّ برأيك والسلام .

قال : فلما قدم المحلّ بكتاب هاشم على علىٍّ عليه السلام سلّم عليه ، ثم قال : الحمدُ لله الّذى أدّى الحقّ إلى أهله ، ووضعه موضعه ؛ فكرِه ذلك قوم قد والله كرهوا نبوّة محمد صلى الله عليه وآله ، ثم بارزوه وجاهدوه ، فردّ الله عليهم كيدَهم فى نحورهم ، وجعل دائرة السَّوْء عليهم . والله يا أميرَ المؤمنين لنجاهدنّهم معك فى كلّ موطن ؛ حفظًا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى أهل بيته ، إذ صاروا أعداءً لهم بعده .

---

(١) ا : « واستنفرا » ، وما أثبته من ب .

فرحّب به علىّ عليه السلام ، وقال له خيرا ، ثم أجلسه إلى جانبه ، وقرأ كتاب هاشم ، وسأله عن النّاس وعن أبى موسى ، فقال : والله يا أميرَ المؤمنين ، ما أثقُ به ولا آمَنه على خلافك ، إن وجد مَنْ يساعده على ذلك . فقال علىٌّ عليه السلام : والله ما كان عندى بمؤتَمَن ولا ناصح ، ولقد أردت عَزْله فأتانى الأشتر ، فسألنى أن أقرّه ، وذكر أنّ أهل الكوفة به راضون فأقررتُه .

* * *

وروى أبو مِخْنَف ، قال : وبعث علىٌّ عليه السّلام من الرَّبذة بعد وصول المحلّ بن خليفة ، (١أخى طيّئ١) ، عبدَ الله بن عباس ومحمدَ بن أبى بكر إلى أبى موسى ؛ وكتب معهما :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، أمّا بعد يابن الحائك ، ياعاضّ أيْرِ أبيه ، فوالله إنى كنت لأرى أن بُعْدك من هذا الأمر الذى لم يجعلك الله له أهلا ، ولا جعل لك فيه نصيبا ، سيمنعك من ردّ أمرى والانتزاء(٢) علىّ ، وقد بعثت إليك ابنَ عباس وابنَ أبى بكر فخلّهما والمصر وأهله ، واعتزل عملنا مذءوما مدحورا . فإن فعلت وإلّا فإنّى قد أمرتُهما أن ينابذاك على سواء ، إنّ الله لا يهدى كيدَ الخائنين . فإذا ظهرا عليك قطّعاك إرْباً إرْباً ، والسلام ، على مَنْ شكر النعمة ، ووفّى بالبيْعة ، وعمِل برجاء العاقبة .

قال أبو مخنف : فلمّا أبطأ ابنُ عباس وابنُ أبى بكر عن علىّ عليه السلام ، ولم يدرِ ماصنعا ، رحل عن الرَّبذة إلى ذى قارٍ فنزلها ، فلمّا نزل ذا قارٍ ، بعث إلى الكوفة الحسنَ ابنَه عليه السلام ، وعمّارَ بن ياسر وزيد بن صُوحان ، وقيسَ بن سعد بن عُبادة ، ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة . فأقبلوا حتى كانوا بالقادسيّة ، فتلقّاهم النّاس ، فلما دخلوا الكوفة قرءوا كتاب علىّ ، وهو :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين ، إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين .

(١ – ١) ساقط من ب (٢) الانتزاء : الوثوب .

أمّا بعدُ ؛ فإنى خرجت مخرجى هذا ؛ إمّا ظالما، و إمّا مظلوما، و إما باغيا ، ، و إما مبغيًّا علىّ ، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابى هذا إلّا نفر إلىّ ، فإن كنتُ مظلوما أعاننى ، وإن كنت ظالما استعتبنى . والسلام .

قال : أبو مخنف : فحدّثنى موسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن أبيه ، قال : أقبلنا مع الحسن وعمّار بن ياسر من ذى قار ، حتى نزلنا القادسيّة ، فنزل الحسن وعمّار ، ونزلنا معهما ، فاحتبى عمّارٌ بحمائل سيفه ، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم ، ثم سمعتهُ يقول : ما تركت فى نفسى حزّة أهمّ إلىّ من ألاّ نكون نبشنا عثمان من قبره ، ثم أحرقناه بالنار .

قال : فلمّا دخلَ الحسن وعمّار الكوفة ، اجتمع إليهما النّاس ، فقام الحسن ، فاستنفر النّاس ، فحمِد الله وصلّى على رسوله ، ثم قال : أيها النّاس ، إنّا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنّة رسوله ، وإلى أفقه مَنْ تفقّه من المسلمين ، وأعدل مَنْ تعدّلون ، وأفضل من تفضّلون ، وأوْفَى مَنْ تبايعون ، مَنْ لم يَعِبْه القرآن ، ولم تُجهِّله السنّة ، ولم تقعد به السابقة ، إلى مَنْ قرّبه الله تعالى إلى(١) رسوله قرابتين : قرابة الدين وقرابة الرّحِم ، إلى مَنْ سبق النّاس إلى كلّ مأثُرة ، إلى مَنْ كفى الله به رسوله والنّاس متخاذلون ؛ فقرب منه وهم متباعدون ، وصلّى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، و بارز معه وهم محجمون ، وصدّقه وهم يكذّبون . إلى مَنْ لم تردّ له رواية ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النّصر ، و يدعوكم إلى الحقّ ، و يأمركم بالمسير إليه ، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا أهْلَ الصلاح من أصحابه ، ومثّلوا بعمّاله ، وانتهبوا بيت ماله . فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف وانهَوْا عن المنكر ، واحضُروا بما يحضر به الصالحون(٢) .

قال أبو مخنف : حدثنى جابر بن يزيد ، قال حدثنى تميم بن حذيم الناجى ، قال : قدم علينا

---

(١) ا : « ورسوله » .

(٢) تاريخ الطبرى . . .

الحسنُ بن على عليه السلام وعمّار بن ياسر ، يستنفران النّاس إلى علىّ عليه السلام ، ومعهما كتابه، فلما فرغا من قراءة كتابه، قام الحسن ـ وهو فتىً حَدَث ، والله إنى لأرثى له من حداثة سنّه وصعوبة مقامه ـ فرماه النّاسُ بأبصارهم وهم يقولون : اللهمّ سدّد منطق ابن بنت نبيّنا ! فوضع يده على عمود يتساند إليه ، وكان عليلا من شكوى به ، فقال: الحمدُ لله العزيز الجبّار ، الواحد القهّار، الكبير المتعال ، ﴿سواءٌ منكم من أسرَّ القول ومَنْ جَهر به و مَنْ هو مستخفٍ بالّليل وساربٌ بالنهار﴾ . أحمَدُه على حسن البلاء ، وتظاهر النّعماء ، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدّة ورخاء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، امتنّ علينا بنبوّته ، واختصّه برسالته ، وأنزل عليه وحيَه ، واصطفاه على جميع خَلْقِه ، وأرسله إلى الإنس والجنّ ، حين عُبِدت الأوثان وأطيع الشيطان ، وجُحِد الرحمن ، فصلّى الله عليه وعلى آله وجزاه أفضل ماجزى المسلمين . أمّا بعد فإنى لا أقول لكم إلّا ماتعرفون ، إن أميرَ المؤمنين على بن أبى طالب ـ أرشدَ الله أمرَه ، وأعزّ نصره ـ بعثنى إليكم يدعوكم إلى الصواب ، وإلى العمل بالكتاب ، والجهاد فى سبيل الله ، وإن كان فى عاجل ذلك ماتكرهون ، فإنّ فى آجله ماتحبّون إن شاء الله . ولقد علمتم أنّ عليًّا صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحدَه ، وإنه يومَ صَدّق به لفى عاشرة من سنّه ، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميعَ مشاهده . وكان من اجتهاده فى مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة فى الإسلام ماقد بلغكم ، ولم يزل رسولُ الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه ، حتى غمّضه بيدِه وغسله وحده ، والملائكة أعوانه ، والفضل ابن عمّه ينقل إليه الماء ، ثم أدخله حفرته ، وأوصاه بقضاء دَيْنه وعِدَاته ، وغير ذلك من أموره ، كلّ ذلك من منّ الله عليه . ثم والله مادعا إلى نفسه ، ولقد تداكّ الناس عليه تداكّ الإبل الهِيم عند ورُودها ، فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدَثٍ أحدَثه ، ولا خلافٍ أتاه، حسداً له وبغياً عليه . فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعتِه ، والجدّ والصبر والاستعانة بالله ،

والخفوف إلى مادعاكم إليه أمير المؤمنين . عَصَمنا الله وإيَّاكم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته ، وألهمنا وإيَّاكم تقواه ، وأعاننا وإيَّاكم على جهاد أعدائه . وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

ثم مضى إلى الرُّحبة فهيَّأ منزلا لأبيه أمير المؤمنين .

قال جابر : فقلت لتميم : كيف أطاق هذا الغلام ماقد قصصتَه من كلامه ؟ فقال : ولَمَا سقط عَنىّ من قوله أكثر ، ولقد حفظت بعض ماسمعت .

* * *

قال : ولمّا نزل علىٌّ عليه السلام ذا قارٍ ، كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر : أمّا بعد ، فإنى أخبرك أنّ عليًّا قد نزل ذا قارٍ ، وأقام بها مرعوبًا خائفا لما بلغه من عُدّتنا وجماعتنا ، فهو بمنزلة الأشقر ؛ إن تقدم عُقِر ، وإن تأخّر نُحِر ، فدعت حفصة جواريَ لها يتغنّين ويضربن بالدّفوف ، فأمرتهنّ أن يقلن فى غنائهنّ : ما الخبر ما الخبر ، علىّ فى السفر ، كالفرس الأشقر ، إن تقدم عُقِر ، وإن تأخر نُحِر .

وجعلتْ بناتِ الطُّلَقاء يدخلْن على حفْصة ، ويجتمعن لسماع ذلك الغناء .

فبلغ أمّ كلثوم بنت علىّ عليه السلام ، فلبست جلابيبها ، ودَخلت عليهنّ فى نسوة متنكِّرات ، ثم أسفرتْ عن وجهِها ، فلمّا عرفتها حَفْصة خجلت ، واسترجعت ، فقالت أم كلثوم : لئن تظاهرتُما عليه منذُ اليوم ، لقد تظاهرتما على أخيه من قبل ، فأنزل الله فيكما ما أنزل !

فقالت حَفصة : كُفّى رحمك الله ، وأمرتْ بالكتاب فمزّق ، واستغفرت الله .

قال أبو مخنف : روى هذا جرير بن يزيد ، عن الحكم ، ورواه الحسن بن دينار ، عن الحسن البصرىّ .

وذكر الواقدىّ مثل ذلك ، وذكر المدائنىّ أيضا مثله ، قال : فقال سهلُ بن حُنَيف فى ذلك هذه الأشعار :

عَذَرْنَا الرِّجَالَ بِحَرْبِ الرِّجالِ   فَما للنساءِ وما للسِّبابِ !
أمَا حسبُنَا ما أتينا به ؟   لكِ الخيرُ من هتْكِ ذاكِ الحِجابِ
ومخرجُها اليومَ مِنْ بيتِها   يُعرِّفُها الذَّنْبَ نَبْحُ الكِلابِ
إلى أن أتانا كتابٌ لها   مشومٌ ، فياقُبْحَ ذاكَ الكتابِ !

قال : فحدّثنا الكلبيّ ، عن أبى صالح أنّ عليا عليه السلام ؛ لمّا نزل ذا قارٍ فى قلّة من عسكره ، صعِد الزُّبيرُ مِنْبَرَ البصرة ، فقال : ألا ألف فارس أسير بهم إلى علىّ ، فأبيته بياتا ، وأصبّحه صباحا ، قبلَ أن يأتِيَه المدد ! فلم يجبه أحدٌ ، فنزل واجماً ، وقال : هذه والله الفتنة التى كُنّا نحدَّث بها ! فقال له بعض مواليه : رحمك الله يا أبا عبد الله ! تسمّيها فتنة ثم تقاتل فيها ! فقال : ويحك ! والله إنا لَنُبْصِرُ ثمّ لا نَصْبِر . فاسترجع المولَى ثم خرج فى الليل فارًّا إلى علىٍّ عليه السلام ، فأخبره فقال : اللهمّ عليك به !

***

قال أبو مِخْنف : ولمّا فرغ الحسن بن علىّ عليه السلام من خُطبته ، قام بعده عمّار ، فحمِد الله وأثنَى عليه ، وصلّى على رسوله ، ثم قال : أيّها النّاس ، أخو نبيّكم وابن عمّه يستنفركم لنصر دين الله ، وقد بلاكم الله بحقّ دينكم ، وحرمة أمّكم ، فحقّ دينكم أوجبُ ، وحرمته أعظم . أيّها الناس ، عليكم بإمام لا يؤدَّب ، وفقيه لا يعلَّمُ ، وصاحب بأس لا ينكِل ، وذى سابقة فى الإسلام ليست لأحد ، وإنّكم لو قد حضرتموه بيّن لكم أمرَكم إن شاء الله .

قال : فلمّا سمع أبو موسى خطبة الحسَن وعمّار ، قام فصعِد المنبر ، وقال : الحمدُ لِلّهِ الّذى أكرَمنا بمحمّد ، فجمعنا بعد الفُرْقة ، وجعلنا إخوانًا متحابّين بعد العداوة ، وحرّمَ علينا دماءنا وأموالنا ، قال الله سُبحانه : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقره ١٨٨

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ (١) . فاتقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفُّوا عن قتال إخوانكم .

أمّا بعد ياأهلَ الكوفة ، إن تطيعوا الله بادياً ، وتطيعونى ثانيا ، تكونوا جُرثومةً من جرائيم العرب ، يأوِى إليكم المضطر ، ويأمَنُ فيكم الخائف . إنّ عليا إنّما يستنفِركم لجهاد أمّكم عائشة وطلحة والزُّبير حوارىّ رسول الله ومَنْ معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفِتَن أنها إذا أقبلت شَبّهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إنّى أخاف عليكم أن يلتقى غارّان منكم فيقتتلا ثم يتركا كالأحلاس الملقاة بنجوةٍ من الأرض ، ثم يبقى رِجْرِجة (٢) من النّاس ، لا يأمُرُون بالمعروف ، ولا ينهوْن عن منكر . إنها قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدرى من أين تؤتى ! تترك الحليم حيران ! كأنّى أسمعُ رسولَ الله صَلّى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفِتَن ، فيقول : « أنت فيها نائماً خيرٌ منك قاعدا ، وأنت فيها جالساً خير منك قائما ، وأنت فيها قائماً خيرٌ منك ساعياً » . فثلّوا سيوفكم وانصِلوا (٣) وقصفوا رماحكم ، سهامَكم ، وقطّعوا أوتارَكم ، وخلُّوا قريشا ترتُقْ فتقها ، وترأبْ صَدْعها ، فإن فعلتْ فلأَنفسها ما فعلت ، وإن أبت فعلى أنفسِها ما جَنَتْ ، سمنُها فى أديمها . استنصحونى ولا تستغشّونى ، وأطيعونى ولا تعصونى ، يتبيّن لكم رشدُكم ، ويَصْلَى هذه الفتنة مَنْ جناها .

فقام إليه عمّار بن ياسر ، فقال : أنت سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك ! قال : نعم هذه يدى بما قلت ، فقال : إن كنت صادقاً فإنّما عَنَاك بذلك وحدك ، واتّخذ عليك الحجّة ، فالزم بيتَك ولا تدخلنّ فى الفتنة ، أما إنّى أشهدُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر عليًّا بقتال الناكثين ، وسمّى له فيهم مَنْ سمّى ، وأمره بقتال القاسطين ، وإن شئت لأقيمنّ لك شهودا يشهدونَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) سورة النساء ٩٣ (٢) الرجرجة : البقية ، وأصله فى الماء .
(٣) أنصل السهم : أزال عنه النصل .

إنّما نهاك وحدك ، وحذّرك من الدخول فى الفتنة . ثم قال له : أعطنى يدك على ما سمعت ، فمدّ إليه يده ، فقال له عمّار : غلب الله مَنْ غالبه وجاهده ! ثم جذبه فنزل عن المنبر .

***

وروى محمد بن جرير الطبرى فى " التاريخ " قال : لما أتى عليًا عليه السلام الخبرُ وهو بالمدينة بأمْرِ عائشة وطلحة والزبير ، وأنّهم قد توجّهوا نحو العراق ، خرج يُبادر(١) ، وهو يرجو أن يدرِكهم ويردّهم ، فلمّا انتهى إلى الرَّبذة أتاه عنهم أنّهم قد أمعنوا ، فأقام بالرَّبذة أيامًا ، وأتاه عنهم أنّهم يريدون البَصْرة ، فسُرّ بذلك ، وقال : إنّ أهل الكوفة أشدُّ لى حُبًّا ، وفيهم رؤساء العرب وأعلامهم . فكتب إليهم : إنّى قد اخترتكم على الأمصار ، وإنى بالأثر(٢) .

***

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله : كتب علىٌّ عليه السلام من الرَّبذة إلى أهل الكوفة : أما بعد ، فإنى قد اخترتُكم ، وآثرت النُّزولَ بين أظهركم ، لما أعرف من مودّتكم وحبّكم لله ورسوله ، فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحقّ ، وقضى الذى عليه .

قال أبو جعفر : فأوّلُ مَنْ بعثه علىٌّ عليه السلام من الرَّبذة إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر ، فجاء أهلُ الكوفة إلى أبى موسى ، وهو الأمير عليهم ليستشيروه(٣) فى الخروج إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقال لهم : أمّا سبيلُ الآخرة فأنْ تقعدُوا وأمّا سبيلُ الدنيا فأن تخرجُوا .

وبلغ المحمديْن قولُ أبى موسى الأشعرىّ ، فأتياه وأغلظا له ، فأغلظ لهما ، وقال :

---

(١) تاريخ الطبرى يبادرهم

(٢) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٠٦

(٣) ب : « يستشيرونه » .

لا يحلّ لك القتال مع علىّ حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلّا قتل حيث كان .

وقالت أخت علىّ بن عدىّ ، من بنى عبد العُزّى بن عبد شمس ، وكان أخوها علىّ ابن عدىّ من شيعة على عليه السلام ، وفى جملة عسكره :

لاهمّ فاعقِرْ بعلىّ جَمَـلَهْ ولا تبارِكْ فى بعيرٍ حَمَلَهْ

* ألّا علىّ بن عدىّ ليس لَهْ [(١)] *

قال أبو جعفر : ثم أجمع علىٌّ عليه السلام على المسير من الرَبَذة إلى البصرة ، فقام إليه رفاعة بن رافع ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أىّ شىء تريد ؟ وأين تذهب بنـا ؟ قال : أمّا الذى نريد وننوى فإصلاح ؛ إن قبلوا منّا وأجابوا إليه ، قال : فإن لم يقبـلوا ، قال : ندعُوهم ونعطيهم من الحقّ ما نرجو أن يرضَوْا به [(٢)] ، قال فإن لم يرضوا ، قال : تَدَعُهم ما تركونا : قال : فإن لم يتركونا ، قال : نمتنع منهم ، قال : فنعَمْ إذا .

وقام الحجّاج بن غَزِيّة الأنصارىّ ، فقال : والله يا أميرَ المؤمنين لأرضينّك بالفعـل ، كما أرضيتَنى منذ اليوم بالقول . ثم قال :

دَرَاكِها دَرَاكِها قَبْلَ الفَوْتْ وانفرْ بنا واسمُ بِنَا نحوَ الصَّوتْ

* لا وألتْ نفسى إن خفت الموتْ *

والله لننصرن الله عزّ وجلّ كما سمّانا أنصارا .

قال أبو جعفر رحمه الله : وسار علىٌّ عليه السلام نحو البَصْرة ، ورايتُه مع ابنه محمّد ابن الحنفيّة ، وعلى ميمنته عبدُ الله بن عباس ، وعلى ميسرته عُمَر بن أبى سَلَمـة ، وعلىٌّ عليه السلام فى القلب على ناقة حَمْراء ، يقودُ فرساً كُمَيْتا [(٣)] . فتلقّاه بِفَيْـدٍ غلامٌ من

---

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٣٩ ، مع تصرف واختصار .

(٢) الطبرى : « ونعطيهم الحق ونصبر » .

(٣) الكميت من الخيل : الذى خالط حمرته قنوء ؛ أى سواد غير خالص .

بنى سعد بن ثعلبة ، يدعى مُرّة ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قيل : هـذا أمير المؤمنين ، فقال : سَفرةٌ قانية ، فيها دماء من نفوس فانية . فسمعها علىٌّ عليه السلام فدعاه ، فقال : مااسمُك؟ قال: مُرّة ،قال:أمرّ اللهُ عيشك! أ كاهن سائر اليوم؟ قال: بل عائف، فخلّى سبيله. ونزل بَفيْد فأتته أسدٌ وطيّئٌ ، فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : الزموا قراركم ، ففى المهاجرين كفاية .

وقدِم رجلٌ من الـكوفة فَيْداً ، فأتى عليا عليه السلام ، فقـال له : من الرّجل ؟ قال : عامر بن مطرّف ، قال : الليثى ؟ قال : الشّيْبانىّ ، قال : أخبرْنى عمّا وراءك ؟ قال : إن أردتَ الصّلح فأبو موسى صاحبُك ، وإن أردتَ القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب. فقال عليه السلام : ماأريد إلّا الصلح إلّا أن يُردّ علينا(١) .

قال أبو جعفر : وقدم عليه عُثمان بن حُنَيف ، وقد نتف طلحـة والزبير شعرَ رأسه ولحيتَه وحاجبيْه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بعثتَنى ذا لحية ، وجئتك أمرد ، فقال : أصبت خيرا وأجرا . ثم قال : أيُّها النّاس ، إنّ طلحة والزُّبير بايعانى ، ثم نـكثانى بيعتى ، وألّبا علىّ النّاس ، ومن العجَب انقيادهما لأبى بكر وعمر وخلافهما علىّ ، والله إنّهما ليعلمان أنّى لستُ بدونهما(٢) . اللهمّ فاحلُلْ ماعَقَدا ، ولا تبرم ما أحْـكما فى أنفسهما ، وأرِهما المساءة فيما قد عملا (٣) .

قال أبو جعفر : وعاد محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر إلى علىّ عليه السلام ، فلقياه وقد انتهى إلى ذى قارٍ ، فأخبراه الخبر ، فقال علىّ عليه السلام لعبد الله بن العباس : اذهب أنت إلى الـكوفة ، فادعُ أبا موسى إلى الطاعة ، وحَذّره من العصيان والخلاف ، واستنفِر النّاس . فذهب عبد الله بن عباس حتى قدِم الـكوفة ، فلقىَ أبا موسى ، واجتمع الرؤساء من أهل الـكوفة . فقام أبو موسى فخطبهم ، وقال : إنّ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم صحبوُه فى مواطن كثيرة ، فهم أعلم بالله ممّن لم يصحبْه ، وإنّ لـكم علىّ حقًّا ،

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٤١ – ٣١٤٣ (٢) الطبرى : « بدون رجل » .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٤٣ ، ٣١٤٤ .

وأنا مؤدّيه إليكم ، أمر ألّا تستخفّوا بسلطان الله ، وألّا تجترئوا [على الله] وأن تأخذوا كلّ مَنْ قدم عليكم من أهل المدينة فى هذا الأمر ، فتردُّوه إلى المدينة ، حتى تجتمع الأمّة على إمام ترتضى به ؛ إنها فتنة صمّاء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا جُرثومةً من جرائيم العرب ، أغمِدوا سيوفَكم ، وأنصلوا أسنّتكم ، واقطعوا أوتار قسيّكم ، حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلِيَ هذه الفتنة .

قال أبو جعفر رحمه الله : فرجع ابن عبّاس إلى علىٍّ عليه السلام ، فأخبره، فدعا الحسنُ ابنَه عليه السلام وعمّار بن ياسر ، وأرسلهما إلى الكوفة ، فلمّا قدماها كان أوّل مَنْ أتاهما مسروق بن الأجدَع ، فسلّم عليهما ، وأقبل على عمّار ، فقال : يا أبا اليقظان ، علامَ قتلتم أمير المؤمنين ؟ قال : علَى شتمِ أعراضنا ، وضربِ أبشارنا قال : فوالله ماعاقبتم بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين . ثم خرج أبو موسى فلقىَ الحسن عليه السلام فضمّه إليه ، وقال لعمّار : ياأبا اليقظان ، أغدوتَ فيمَنْ غدَا على أمير المؤمنين[(١)] ، وأحللت نفسك مع الفُجّار ؟ قال : لم أفعل ، ولِمَ تَسُوءنى ؟ فقطع عليهما الحسن ، وقال لأبى موسى : ياأباموسى ، لم تثبِّطُ النّاس عنّا ، فوالله ماأردنا إلا الإصلاح، وما مثل أميرالمؤمنين يخاف على شىء ، قال أبو موسى : صدقت بأبى وأمّى ! ولكنّ المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ستكونُ فتنةٌ[(٢)] .. » وذكر تمام الحديث . فغضب عمار وساءه ذلك ، وقال : أيّها الناس، إنّما قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ذلك له خاصّة ، وقام رجلٌ من بنى تميم فقال لعمّار : اسكت أيّها العبد !أنت أمسِ مع الغوغاء ، وتسافِه أميرنا اليوم ! وثار زيد بن صُوحان وطَبَقته ، فانتصروا لعمّار ، وجعل أبو موسى يكفّ النّاس ويردعُهم عن الفتنة . ثم انطلق حتى صعِد المنبر ، وأقبل زيد بن صُوحان ومعه كتاب من عائشة إليه خاصّة ، وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامّة ، تثبّطهم عن نُصرة

(١) الطبرى : « أعدوت فيمن عدا »   (٢) بقية الحديث : « القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى والماشى خير من الراكب » .

عليّ ، وتأمرهم بلزوم الأرض ، وقال : أيُّها الناس ، انظروا إلى هذه ، أُمِرَتْ أن تقرّ في بيتها ، وأُمِرنا نحن أن نقاتِل ، حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أُمِرتْ به ، وركبت ما أُمِرنا به ، فقام إليه شَبَث بن رِبْعيّ . فقال له : وما أنت وذاك أيها العُمانيّ الأحمق ! سرَقْتَ أمس بجَلولاء فقطعَكَ الله ، وتسبّ أم المؤمنين ! فقام زيد ، وشال يدَه المقطوعة وأومأ بيده إلى أبي موسى وهو على المِنبر ، وقال له : ياعبدَ الله بن قَيْس ، أتردّ الفرات عن أمواجه ! دَعْ عنك ما لست تدركه ، ثم قرأ : ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ... ﴾[1] الآيتين ، ثم نادى : سيرُوا إلى أمير المؤمنين وصراط سيّد المرسلين ، وانفرُوا إليه أجمعين . وقام الحسن بن عليّ عليه السلام ، فقال : أيُّها الناس ، أجيبوا دعوةَ إمامكم ، وسيرُوا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر مَنْ ينفر إليه ، والله لأن يليه أولُو النّهى أمثلُ في العاجلة ، وخيرٌ في العاقبة ، فأجيبوا دعوتَنا ، وأعينونا على أمرنا ؛ أصلحكم الله !

وقام عبد خير فقال : ياأبا موسى ، أخبِرْني عن هذين الرجلَيْن ، ألم يبايعا عليا ! قال : بلَى ، قال : أفأحدَث عليّ حدثا يحلّ به نقض بيعته . قال : لا أدرى ، قال : لا دَرَيت ولا أتيت ! إذا كنت لا تدرى فنحن تاركوك حتى تدرى . أخبرني : هل تعلم أحداً خارجا عن هذه الفرق الأربع : عليّ بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة رابعة بالحجاز قعُود لا يجبى بهم فَىْء ، ولا يقاتَل بهم عدو ! فقال أبو موسى : أولئك خيرُ الناس ، قال عبد خير : اسكت ياأبا موسى ، فقد غلب عليك غشُّك[2] .

***

قال أبو جعفر : وأتت الأخبار عليًّا عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة ، فقال للأشتر : أنت شفعتَ في أبي موسى أن أُقِرّه على الكوفة ، فاذهب فأصلِحْ ما أفسدتَ ،

---

(١) سورة العنكبوت ١ ـ ٣ (٢) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٤٦ ـ ٣١٤٢ مع تصرف واختصار .

فقام الأشتر ، فشخص نحو الكوفة ، فأقبل حتى دخلها والناس فى المسجد الأعظم ، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلّا دعاهم ، وقال : اتّبعونى إلى القصر ، حتى وصل القصر ، فاقتحمه وأبو موسى يومئذ يخطب النّاس على المنبر ، ويثبّطهم ، وعمار يخاطبه ، والحسن عليه السلام يقول : اعتزل عملنا وتنحّ عن منبرنا ، لا أمّ لك !

قال أبو جعفر : فروى أبو مريم الثقفىّ ، قال : والله إنّى لفى المسجدِ يومئذ إذْ دخل علينا غِلمان أبى موسى يشتدّون ويبادرون[1] أبا موسى : أيّها الأمير ، هذا الأشتر قد جاء ، فدخل القصر ، فضربنا وأخرجنا . فنزل أبو موسى من المِنْبَر ، وجاء حتى دخل القصر ، فصاح به الأشتر : اخرُج من قصرنا لا أمّ لك ، أخرج الله نفسك ! فوالله إنّك لمن المنافقين قديماً . قال : أجّلنى هذه العشيّة ، قال : قد أجّلتك ، ولا تبيتنّ فى القصر [الليلة][2] . ودخل النّاسُ ينتهبون متاعَ أبى موسى ، فمنعهم الأشتر ، وقال : إنّى قد أخرجتهُ وعزلتُه عنكم ، فكفّ الناس حينئذ عنه[3] .

* * *

قال أبو جعفر : فروى الشعبىّ ، عن أبى الطُّفيل ، قال : قال على عليه السلام : يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجُل واحد ، فوالله لقعدت على نَجَفَة[4] ذى قار ، فأحصيتهم واحدا واحدا ، فما زادوا رجلًا ، ولا نقصوا رجلًا[5] .

* * *

[فصل فى نسب عائشة وأخبارها]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع طرفا من نَسب عائشة وأخبارها ، ومايقوله أصحابنا المتكلّمون فيها ، جرياً على عادتنا فى ذكر مثل ذلك كلّما مررنا بذكر أحد من الصحابة .

---

(١) الطبرى : « ينادون » .　(٢) من الطبرى　(٣) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٥٣ ، ٣١٥٤

(٤) فى الأصول : « لجفة » ، والصواب ما أثبته من الطبرى . والنجفة : المكان المشرف على ماحوله من الأرض .　(٥) تاريخ الطبرى ١ : ٣١٧٣ ، ٣١٧٤ .

أمّا نسبها ، فإنها ابنةُ أبي بكر ، وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم ، وأمُّها أم رُومان ابنة عامر بن عُوَيمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سُبيع بن دُهمان بن الحارث بن تميم بن مالك بن كنانة . تزوجها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بمكّة قبل الهجرة بسنتين – وقيل بثلاث – وهي بنت ست سنين – وقيل بنت سبع سنين – و بنىَ عليها بالمدينة وهي بنت تسع ، لم يختلفوا في ذلك .

وكانت تذكر لجبير بن مطعِم ، وتسمّىَ له ، وورد في الأخبار الصّحيحة أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله أرِيَ عائشة في المنام في سَرَقةٍ حرير ، متوفّى خديجة رضى الله عنها ، فقال : إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ ؛ فتزوّجها بعد موت خديجة بثلاث سنين ، وتزوّجها في شوّال ، وأعرس بها بالمدينة في شوّال ، على رأس ثمانية عشر شهرا من مهاجَره إلى المدينة(١) .

وقال ابن عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " : كانت عائشة تحبّ أن تدخُل النّساء من أهلها وأحبّتها في شوال على أزواجهنّ ، وتقول : هلْ كان في نسائه أحظَى عنده منّي وقد نكحَني و بنى عليّ في شوال(١) !

قلت : قرئَ هذا الكلام على بعض الناس ، فقال : كيف رأت الحال بينها و بين أحمائها وأهل بيت زوجها !

وروى أبو عمر بن عبدالبرّ ، في الكتاب المذكور : أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله تُوفِّيَ عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة ، فكان سنّها معه تسع سنين ، ولم ينكح بِكْراً غيرها ، واستأذنتْ رسول الله صلى الله عليه وآله في الكُنية ، فقال لها : اكتَني بابنك عبدالله بن الزّبير – يعني ابن أختها – فكانت كنيتُها أم عبد الله ، وكانت فقيهةً عالمة بالفرائض والشّعر والطبّ(١) .

---

(١) الاستيعاب ٤٧٤

وروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ، قال : « فضلُ عائشة على النّساء كفضلِ الثّريد على الطعام » ، وأصحابنا يحملون لفظة النّساء فى هذا الخبر على زوجاته ، لأنّ فاطمة عليها السلام عندهم أفضلُ منها ، لقوله صلى الله عليه وآله : « إنّها سيّدة نساء العالمين » .

وقذِفت بصفوان بن المعطل السُّلَمِيّ فى سنة ستّ ، منصَرفَ رسول الله صلى الله عليه وآله من غزاة بنى المصطلق ـ وكانت معه ـ فقال فيها أهل الإفك ماقالوا ، ونزل القرآن ببراءتها .

وقوم من الشّيعة زعموا أنّ الآيات التى فى سورة النور لم تنزل فيها ، وإنما أنزلت فى مارِيَة القبطيّة ، وما قذفت به مع الأسود القبطيّ . وجحدهم لإنزال ذلك فى عائشة جحدٌ لما يعلم ضرورة من الإخبار المتواترة ، ثم كان من أمرها وأمر حفصة وما جرى لهما مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى الأمر الّذى أسرّه على إحداهما ما قد نطق الكتاب العزيز به . واعتزل رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه كلهنّ ، واعتزلها معهنّ ثم صالحهنّ ، وطلّق حفصة ثم راجعها ؛ وجرت بين عائشة وفاطمة إبلاغات ، وحديث يُوغر الصُّدور ، فتولّد بين عائشة و بين علىّ عليه السلام نوع ضغينة ، وانضمّ إلى ذلك إشارته على رسول الله صلى الله عليه وآله فى قصّة الإفك بضرب الجارية وتقريرها ، وقوله : « إنّ النّساء كثير » .

ثم جرى حديث صلاة أبى بكر بالنّاس ، فتزعم الشِّيعة أنَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لم يأمر بذلك ، وأنّه إنّما صلّى بالناس عن أمر عائشة ابنته ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج متحامِلاً وهو مثقَل ، فنحّاه عن المحراب . وزعم معظم المحدّثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله . وقوله ثم اختلفوا ، فمنهم من قال : نحّاه وصلّى هُوَ بالناس ، ومنهم من قال : بل ائتمّ بأبى بكر كسائر الناس ، ومنهم

من قال : كان النـاس يصلّون بصلاة أبى بكر ، وأبو بكر يصلّى بصلاة رسول الله صلى عليه وآله .

ثم كان منها فى أمر عثمان ، وتضريب النّاس عليه ، ماقد ذكرناه فى مواضعه ، ثم تلا ذلك يوم الجمل .

***

واختلف المتـكلمون فى حالها وحال مَنْ حضر واقعة الجمل ، فقالت الإماميّة : كَفَر أصحابُ الجمل كلُّهم ؛ الرؤساء والأتباع . وقال قوم من الحشْويّة والعـامّة : اجتهدوا فلا إثم عليهم ، ولا نحكم بخطئهم ولاخطأ علىّ عليه السلام وأصحابه .

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول : أصحاب الجمل أخطئوا ، ولـكنه خطأ مغفور ، وكخطأ المجتهـد فى بعض مسائل الفروع عند مَنْ قال بالأشبـه ؛ وإلى هـذا القول يذهب أكثر الأشعريّة .

وقال أصحابنا المعتزلة : كلّ أهلِ الجمل هالـكون إلّا مَنْ ثبتت توبته منهم ، قالوا : وعائشة ممّن ثبتت توبتهـا ، وكذلك طلحة والزبير ، أمّا عائشة فإنّها اعترفت لعلىّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ ، وسألته العفوَ ، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم ، وأنّها كانت تقول : ليتَه كان لى من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة ، كلّهم مثل عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ـ وثـكلتُهم ـ ولم يكن يومُ الجمل ! وأنّها كانت تقول : ليتنى مِتّ قبل يوم الجمل ، وأنّها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها . وأمّا الزبير فرجع عن الحرب معترفا بالخطأ لمّا أذكره على عليه السلام ما أذكره . وأمّا طلحة فإنّه مرّ به ـ وهو صريع ـ فارس ، فقال له : قف ، فوقف ، قال : من أىّ الفريقين أنت ؟ قال : من أصحابِ أمـير المؤمنين ، قال: أقعِدنى ، فأقعده ، فقال : امدُد يدَك أبايعْك لأمير المؤمنين ، فبايعه .

وقال شيوخنا : ليس لقائل أن يقولَ : مايروى من أخبار الآحاد بتوبتهم لايعارض ماعلم قطعا من معصيتهم . قالوا : لأنّ التوبة إنما يحكم بها للمكلّف على غالب الظنّ فى جميع المواضع ، لا على القطع ، ألا ترى أنا نجوّز أن يكون من أظهر التوبة منافقاً وكاذبا ، فبان أن المرجَع فى قبولها فى كلّ موضع إنمـا هو إلى الظنّ ، فجاز أن يعارض ماعلم من معصيتهم بما يظنّ من توبتهم .

(٢)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة :

وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

* * *

الشَّرْحُ :

موضع قوله : « من أهل مصر » نصب على التمييز ، ويجوز أن يكون حالا .

فإن قلت : كيف يكون تمييزا وتقديره : وجزاكم الله متمدِّنين أحسن ما يجزى المطيع ؛ والتمييز لا يكون إلا جامداً ، وهذا مشتقّ !

قلت : إنهم أجازوا كونَ التمييز مشتقا فى نحو قولهم : « ما أنت جارةً » ، وقولهم : « ياسيّداً ماأنت من سيّد » .

وما ، يجوز أن تكون مصدرية ، أى أحسن جزاء العاملين ، ويجوز أن تكون بمعنى الذى ، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول ، وتقديره أحسن الذى يجزى به العاملين .

(٣)

الأَصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه :

ورُوِيَ أنَّ شُرَيْحَ بن الحَارِث قاضِيَ أَمِيرِ المُؤْمنين عليْـهِ السَّلام اشْتَرَى على عَهْـدِهِ داراً بِثَمانِينَ دِيناراً ؛ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فاسْتَدْعَى شُرَيْحاً ، وقال له : بَلَغَنِي أنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمانِينَ دِيناراً ، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتاباً ، وأَشْهَدْتَ فِيـهِ شُهُوداً . فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ : قَد كَانَ ذلكَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، قال : فنظر إِلَيْهِ نَظَرَ المُغْضَبِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ :

يا شُرَيْحُ ، أَمَا إنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتابِكَ ، ولا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شاخِصاً ، ويُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خالِصاً . فانْظُرْ ياشُرَيْحُ لا تَـكُون ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مالِكَ ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَـيْرِ حَلالِكَ ؛ فإِذاً أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيا وَدَارَ الآخِرَةِ .

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنتَ أَتَيْتَـنِي عِنْدَ شِرَائِكَ ما اشْتَرَيْتَ ، لَـكَتَبْتُ لَكَ كِتاباً عَلَى هَـذِه النُّسْخَةِ ، فلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بالدِّرْهَمِ [١] فَما فَوْقُ ، والنسخَةُ هَذِهِ :

« هَذَا ما اشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِـجَ لِلرَّحِيلِ . اشْتَرَى مِنْهُ داراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ ، مِنْ جانِبِ الْفانِينَ ، وَخِطَّةِ الْهالِـكِينَ . وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ : الحَدُّ الأَوَّلُ يَنْتَهِـي إِلَى دَوَاعِي الآفاتِ ، وَالحَـدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي المُصِيباتِ ؛ وَالحَـدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى المُرْدِي ، والحَـدُّ الرَّابِـعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطانِ المُغْوِي . وَفِيهِ يُشْرَعُ بابُ هَذِهِ الدَّارِ . اشْتَرَى هَذَا المُغْتَرُّ بِالأَمَلِ ، مِنْ هَذَا

(١) مخطوطة النهج : « بدرهم » .

الْمُزْعِجِ بِالأَجَلِ هَـذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ ، والدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ والضَّرَاعَةِ ؛ فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ . فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ ، وسالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ ، وَمَنْ جَمَعَ الْمالَ عَلَى الْمالِ فَأَكْثَرَ ، وَمَنْ بَنَى وشَيَّدَ ، وزَخْرَفَ وَنَجَّدَ ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ - إِشْخاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسابِ ، الثَّوَابِ وَالْعِقابِ وَمَوْضِعِ إِذَا وَقَعَ الأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضاءِ ، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ . شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى ، وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا » .

* * *

الشّرح :

[نسب شريح وذكر بعض أخباره]

هو شُرَيح بن الحارث بن المنتجع بن معاوية بن جَهْم بن ثَوْر بن عُفير[1] بن عدىّ ابن الحارث بن مُرّة بن أدد الكنديّ ؛ وقيل إنه حليف لكِنْدة من بنى الرائش .

وقال ابنُ الكلبيّ : ليس اسم أبيه الحارث ، وإنّما هو شريح بن معاوية ابن ثَوْر .

وقال قوم : هو شريح بن هانئ .

وقال قوم : هو شريح بن شَرَاحيل . والصحيح أنّه شريح بن الحارث ، ويكنى أبا أميّة . استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة ، فلم يزل قاضيا ستّين سنة ، لم يتعطّل فيها إلا ثلاث سنين فى فِتْنة ابن الزّبير ؛ امتنع فيها من القضاء ، ثم استعفى الحجاجَ من

(١) ب : « عقر » ، والصواب ما أثبته من الاستيعاب .

العمل فأعفاه ، فلزم منزله إلى أن مات ، وعُمّر عمراً طويلا ، قيل : إنه عاش مائة سنة وثمانيا وستين ، وقيل مائة سنة ، وتوفّيَ سنة سبع وثمانين .

وكان خَفيف الرّوح ، مَزّاحا ، فقدم إليه رجلان فأقرّ أحدهما بما ادّعى به خصمه ، وهو لا يعلم فقضى عليه ، فقال لشريح : مَنْ شهد عندك بهذا ؟ قال : ابن أخت خالك .

وقيل : إنه جاءته امرأته تبكى وتتظلّم على خَصْمها ، فما رقّ لها حتى قال له إنسان كان بحضرته : ألا تنظر أيّها القاضى إلى بكائها ! فقال : إنّ إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

وأقرّ علىّ عليه السلام شُرَيحاً على القضاء ، مع مخالفته له فى مسائل كثيرة من الفقه مذكورة فى كتب الفقهاء .

واستأذنه شُرَيح وغيره من قُضاة عثمان فى القضاء أوّل ما وقعت الفُرْقة ، فقال : اقضوا كما كنتم تَقْضُون حتى تكون للناس جماعة ، أو أموت كما مات أصحابى .

وسخط علىّ عليه السلام مرّة عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء ، وأمره بالمقام ببانِقْيا ــ وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنها اليهود ــ فأقام بها مدّة ، حتى رضى عنه وأعاده إلى الكوفة .

وقال أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " : أدرك شُرَيح الجاهليّة ، ولا يعدّ من الصحابة ، بل من التابعين ، وكان شاعرا محسنا ، وكان سِناطاً لا شعر فى وجهه [1] .

* * *

قوله عليه السلام : « وخِطّة الهالكين » بكسر الخاء ، وهى الأرض التى يختطها الإنسان ،

---

(١) الاستيعاب ٥٩٠ ، وذكر أنه توفى سنة سبع وثمانين وهو ابن مائة سنة ؛ وولى القضاء ستين سنة من زمن عمر إلى زمن عبد الملك بن مروان .

أى يُعْلِم عليهـــا علامة بالخطّ ليعمرها ؛ ومنــه خطط الـكوفة والبصرة .

وزخرف البناء ، أى ذهّب جدرانه بالزّخرف ، وهو الذهب .

ونجّد : فرش المنزل بالوسائد ، والنّجّاد: الذى يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما، والتنجيد : التزيين بذلك ، ويجوز أن يريد بقوله : « نجّد » رفع وعلا ، من النّجْــد ، وهو المرتفع من الأرض .

واعتقد : جعل لنفسه عُقدة كالضّيعة أو الذّخيرة من المال الصامت .

« وإشخاصُهم » مرفوع بالابتداء وخبره الجار المجرور المقدّم ، وهو قوله : « فسلى مبلبل أجسام الملوك »، وموضع الاستحسان من هذا الفصل ـ وإن كان كله حسناً ـ أمران :

أحدُهما :أنه عليه السلام نظر إليه نظر مغضَب ؛ إنـكارا لابتياعه داراً بثمانين دينارا ، وهذا يدلّ على زهد شديد فى الدنيا واستـكثار للقليل منها ،ونسبه هذا المشترى إلى الأسراف، وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام .

الثانى : أنه أملى عليه كتابا زهديًا وعظيا ، مماثلا لـكتب الشُّروط التى تـكتب فى ابتياع الأملاك ، فإنهم يكتبون : « هذا ما اشترى فلان من فلان ، اشترى منــه دارا من شارع كذا وخطة كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة، فحدّ منها ينتهى إلى دار فلان ،وحدٌ آخر ينتهى إلى ملك فلان ، وحدّ آخر ينتهى إلى ما كان يعرف بفلان ، وهو الآن معروف بفلان ، وحدٌ آخر ينتهى إلى كذا . ومنه شروع باب هذه الدار ،وطريقها : « اشترى هذا المشترى المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا دينارا ، أودرها ؛ فما أدرك المشترى المذكور من درك فرجوع به على من يُوجب الشرع الرجوع به عليه » . ثم تـكتب الشهود فى آخر الـكتاب . شهد فلان ابن فلان بذلك ، وشهد فلان ابن فلان به أيضاً ؛ وهذا يدلُّ على أنّ الشروط المكتوبة الآن قد كانت

فى زمن الصحابة تكتب مثلها أو نحوها ؛ إلا أنّا ما سمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط الفقهىّ إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام ، ولا غرْو فما زال سبّاقًا إلى العجائب والغرائب !

فإن قلت : لم جعل الشيطان المغوى فى الحدّ الرابع ؟

قلت : ليقول : وفيه يشرع باب هذه الدار ، لأنه إذا كان الحدّ إليه ينتهى كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال .

(٤)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه :

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ ، فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ ، عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ ؛ فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ .

***

الشَّرْحُ :

انهد : أى انهض . وتقاعس ، أى أبطأ وتأخر .

والمتكاره : الذى يخرج إلى الجهاد من غير نية و بصيرة ، و إنما يخرج كارها مرتابا ، ومثل قوله عليه السلام : « فإن المتكاره مغيبه خير من مشهده ، وقعوده أغنى من نهوضه » قوله تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة ٤٧ :

(٥)

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس ، وهو عامل آذربيجان :

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ . وَالسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم .

وأذربيجان : اسم أعجمي غير مصروف ، الألف مقصورة ، والذال ساكنة . قال حبيب :

وأذربيجان اختيال ، بعد ما   كانت معرَّس عِبرة ونكال[1]

وقال الشماخ :

تَذَكَّرتُها وَهْنًا وقد حال دونها   قُرَى أذرَبيجانَ المسالحُ والجالُ

والنّسبة إليه أذْرِيّ بسكون الذال ، هكذا القياس ، ولكن المرويّ عن أبي بكر في الكلام الذي قاله عند موته : « ولتألمنّ النّوم على الصُّوف الأذَرِيّ » بفتح الذال .

والطُّعمة بضم الطاء المهملة : المأكلة ، ويقال : فلان خبيث الطعمة ، أي رديء الكسب . والطِّعمة بالكسر لهيئة التطعّم ، يقول : إنّ عملك لم يسوّغه الشرع ، والوالي من قِبَلي إياه ؛

(١) ديوانه ٢٦٠

ولا جعله لك أكلاً؛ ولكنه أمانة فى يدك وعنقك للمسلمين ، وفوقك سلطان أنتَ له رعيّة فليس لك أن تفتاتَ فى الرعيّة الذين تحت يدك ، يقال : افتاتَ فلان على فلان ، إذا فعل بغير إذنه ماسبيلُه أن يستأذنَه فيه ، وأصلُه من الفَوْت وهو السَّبْق، كأنّه سبقه إلى ذلك الأمر .

وقوله : « ولا تخاطرْ إلاّ بوثيقةٍ » ، أى لا تُقدِم على أمرٍ مَخوفٍ فيما يتعلّق بالمال الذى تتولاّه إلا بعد أن تتوثّق لنفسك ، يقال : أخذ فلان بالوثيقة فى أمره ، أى احتاط .

ثم قال له : « ولعلّى لا أكون شرّ ولاتِك » ، وهو كلام يطيِّب به نفسَه ويسكِّن به جأشَه ، لأنّ فى أوّل الكلام إيحاشا له، إذ كانت ألفاظه تدلّ على أنّه لم يره أمينا على المال ، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة ، أى ربّما تحمد خلافتى وولايتى عليك ، وتصادف منّى إحسانًا إليك ، أى عسى ألّا يكون شكرُك لعثمان ومَنْ قبله أكثرَ من شكرك لى ، وهذا من باب وعدك الخفىّ ، وتسمّيه العرب الملث .

وأول هذا الكتاب :

« من عبد الله علىٍّ أميرِ المؤمنين إلى الأشعث بن قيس . أمّا بعدُ ، فلولا هَنات وهَنات كانت منك ، كنت المقدّم فى هذا الأمر قبل الناس ، ولعلّ أمرا كان يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله عزّ وجلّ ، وقد كان من بيعة النّاس إيّاى ماقدعلمت ، وكان من أمر طلحة والزبير ماقد بلغكَ ، فخرجت إليهما ، فأبلغت فى الدُّعاء ، وأحسنت فى البقيّة ، وإن عملك ليس لك بطعمة ... » ، إلى آخر الكلام ، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث ابن قيس ، بعد انقضاء الجمل .

(٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ، فَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَٰلِكَ لِلهِ رِضاً ، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَاخَرَجَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّاهُ ٱللهُ مَاتَوَلَّى .

وَلَعَمْرِي يَامُعَاوِيَةُ ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ ، إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى ؛ فَتَجَنَّ مَابَدَا لَكَ ! وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم ذكرُ هذا الكلام فى أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام معاويةَ بجرير بن عبد الله البَجَليّ ، وقد ذكره أرباب السِّيرة كلُّهم ، وأورده شيوخنا المتكلِّمون فى كتبهم احتجاجا على صحة الاختيار ، وكونه طريقا إلى الإمامة ، وأول الكتاب :

« أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ، لأنه بايعنِي القومُ الّذين بايعوا.. » ، إلى آخر الفصل .

والمشهور المرويّ : « فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن أو رغبة » ، أى رغبة عن ذلك الإمام الذى وقع الاختيار له .

والمرويّ بعد قوله : « ولّاه الله ما تولّى » : « وأصلاه جهنّمَ وساءت مصيرا . وإنّ طلحةَ والزُّبيرَ بايعانى ثم نقضَا بَيْعتى ، فكان نقضُهما كرِدَّتهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما دخلَ فيه المسلمون ، فإنّ أحبَّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلّا أن تتعرّض للبلاء ، فإن تعرّضْتَ له قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل النّاسُ فيه ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملْك وإيّاهم على كتاب الله ، فأمّا تلك الّتى تريدها فخدْعة الصبيّ عن اللّبن ، ولعمرى يامعاوية إن نظرت بعقلك . . . » إلى آخر الكلام .

وبعده : « واعلم أنك من الطُّلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة ، ولا تعترض بهم الشورى ، وقد أرسلتُ إليك جريرَ بنَ عبد الله البجَليّ ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله » .

واعلم أنّ هذا الفصلَ دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقا إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلّمون ، لأنه احتجّ على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعَقْد له ، ولم يراعِ فى ذلك إجماعَ المسلمين كلّهم ، وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقد لأبى بكر ، فإنه ما رُوعِىَ فيها إجماع المسلمين ، لأنّ سعد بن عُبادة لم يبايعْ ، ولا أحدٌ من أهل بيته وولده ، ولأنّ عليًّا وبنى هاشم ومَنِ انضوَى إليهم لم يبايعوا فى مبدأ الأمر ، وامتنعوا ؛ ولم يتوقّف المسلمون فى تصحيح إمامة أبى بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم ، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقا إلى الإمامة ، وأنّه لا يقدح فى إمامته عليه السلام امتناعُ معاوية من البيعة وأهل الشام ؛ فأما الإماميّة فتحملُ هذا الكتابَ منه عليه السلام على التقيّة ، وتقول : إنّه ما كان يمكنه

أن يصرّح لمعاوية فى مكتوبه بباطن الحال ، ويقول له : أنا منصوص علىّ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفةً فيهم بلا فصل ، فيكون فى ذلك طعن على الأئمة المتقدّمين ، وتفسد حاله مع الذين بايعوه من أهل المدينة ؛ وهذا القول من الإماميّة دعوى لو عضدَها دليل لوجب أن يقال بها ، ويُصار إليها ؛ ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأصول التى تسوقهم إلى حَمْلِ هذا الكلام على التقيّة .

فأما قوله عليه السلام : «وقد أكثرتَ فى قَتَلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله » ، فيجب أن يذكر فى شرحه ما يقول المتكلّمون فى هذه الواقعة .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : هذا الكلام حقّ وصواب ، لأن أولياء الدّم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته ، ثم يرفعوا خصومهم إليه ، فإنْ حكَم بالحقّ استديمت إمامته ، وإن حادَ عن الحق انقضت خلافته ، وأولياء عثمان الذين هم بنُوه لم يبايعوا عليًّا عليه السلام ، ولا دَخلوا تحت طاعته ثمّ ، وكذلك معاويةُ ابنُ عمّ عثمان لم يبايِع ولا أطاع ؛ فطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلى عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان .

فإن قلت : هب أنّ القصاص من قتلة عثمان موقوفٌ على ما ذكره عليه السلام ؛ أما كان يجبُ عليه لامن طريق القصاص أن ينهى عن المنكر ! وأنتم تذهبون إلى أنّ النّهى عن المنكر واجب على مَنْ هو سُوقة ، فكيف على الإمام الأعظم !

قلت : هذا غير وارد هاهنا ، لأنّ النهى عن المنكر إنّما يجب قبل وقوع المنكر ، لكيلا يقع ؛ فإذا وقع المنكر ، فأىّ نهى يكونُ عنه ! وقد نهى علىّ عليه السلام أهلَ مصر وغيرَهم عن قتلِ عثمان قبل قتلِه مرارا ، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغنِ

شيئاً ، وتفاقم الأمر حتى قُتِل ؛ ولا يجب بعد القتل إلّا القصاص ، فإذا امتنع أولياء الدم من طاعة الإمام لم يجبْ عليه أن يقتصّ من القاتلين ، لأنّ القصاص حقّهم ، وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته . وقد قلنا نحن فيما تقدّم : إنّ القصاص إنّما يجب على مَنْ باشر القتل ؛ والذين باشروا قتل عثمان قُتِلوا يوم قتل عثمان فى دار عثمان ، والذين كان معاوية يطالبُهم بدم عثمان لم يباشروا القتل ، وإنّما كثّروا السّواد وحَصَروا عثمان فى الدار ، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعّدوه ، ومنهم مَنْ تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه ، ومنهم مَنْ نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه ، وكلّ هؤلاء لا يجب عليهم القصاص فى الشّرع .

* * *

[جرير بن عبد الله البجلىّ عند معاوية]

وقد ذكرنا فيما تقدّم شرحَ حال جرير بن عبد الله البَجَلىّ فى إرسال علىّ عليه السلام إيّاه إلى معاوية مستقصى . وذكر الزُّبير بن بكّار فى " الموفقيات " أنّ عليا عليه السلام لما بعث جريرا إلى معاوية ، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه ، قال : فقدمت على معاوية فوجدتُه يخطب النّاس وهم حوله يبكون حول قميص عثمان وهو معلّق على رُمح مخضوب بالدّم ؛ وعليه أصابع زوجته نائلة بنت الفَرافصة مقطوعة ، فدفعت إليه كتاب علىّ عليه السلام ، وكان معى فى الطريق رجلٌ يسير بسيرى ، ويقيم بمقامى ، فمَثُل بين يديه فى تلك الحال وأنشده :

إنّ بنى عمّك عبدِ المطّلبْ　　همْ قتلُوا شيخَكُمُ غيرَ كَذِبْ

* وأنت أوْلى النّاس بالوَثْب فثِبْ *

وقد ذكرنا تمامَ هذه الأبيات فيما تقدم .

قال ثم دفع إليه كتابا من الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط؛ وهو أخو عثمان لأمه، كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سرا أوله:

* مُعاوِيَ إنّ المُلكَ قد جُبَّ غارِبُهْ *

الأبيات التي ذكرنا فيما تقدم.

قال: فقال لي معاوية: أقمْ فإنّ الناس قد نفروا عند قتل عثمان حتى يسكنُوا. فأقمت أربعة أشهر، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عُقْبة، أوّله:

ألا أبلغْ معاويةَ بنَ حَرْبٍ ... فإنّكَ مِن أخِي ثقةٍ مُلِيمُ [(١)]

قَطَعْتَ الدّهرَ كالسَّدِمِ المعنَّى ... تهدر في دمشقَ ولا تَرِيمُ [(٢)]

وإنّك والكتابَ إلى علىٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ [(٣)]

فلو كنتَ القتيلَ وكان حيّاً ... لَشَمّرَ لا ألفُّ ولا سَئُومُ [(٤)]

قال: فلمّا جاءه هذا الكتاب وصل بين طُومارين [(٥)] أبيضين، ثم طواهما وكتب عنوانهما.

---

(١) المليم: من وقع منه ما يلام عليه.

(٢) السدم في الأصل: الذي يرغب عن خلته، فيحال بينه وبين الآفة؛ والبيت في اللسان ١٥: ١٧٦

(٣) يقول: أنت تسعى في إصلاح أمر قد تم فساده كالمرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلمة (وهي دودة) فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به. وقد وردت الأربعة في اللسان (حلم)، وذكر بعدها:

لكَ الوَيْلاتُ أَقْحِمْهَا عليهِمْ ... فَخَيْرُ الطّالِبِي التِّرَةِ الغَشُومُ

فَقَوْمُكَ بالمدينةِ قد تَرَدَّوْا ... فَهُمْ صَرْعَى كَأَنَّهُمُ الهَشِيمُ

(٤) رواية هذا البيت في اللسان:

فَلَوْ كُنْتَ المُصابَ وَكانَ حَيًّا ... تجرّدَ، لا ألفُّ وَلا سَئُومُ

(٥) الطومار: الصحيفة.

« من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب » .

ودفعهما إليّ ، لا أعلم ما فيهما ، ولا أظنّهما إلا جواباً ، وبعث معي رجلاً من بني عَبْس لا أدري ما معه ، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة ، واجتمع النّاس في المسجد ، لا يشكُّون أنّها بيعة أهل الشام ؛ فلما فتح عليّ عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً ، وقام العبسيّ ، فقال: مَنْ هاهنا من أحياء قيس ، وأخصّ من قيس غطفان ، وأخصّ من غَطَفان عَبْسا ؟ إنّي أحلف بالله لقد تركت تحت قميص عثمان أكثرَ من خمسين ألف شيخ خاضبٍ لحاهم بدموعٍ أعينهم ، متعاقدين متحالفين ، ليقتُلن قَتَلَته في البرّ والبحر ، وإنّي أحلف بالله ليقتحمنَّها عليكم ابنُ أبي سفيان بأكثر من أربعين ألفا من خِصْيان الخيل ، فما ظنّكم بعد بما فيها من الفُحول . ثم دفع إلى عليّ عليه السلام كتابا من معاوية ففتحه فوجد فيه :

أتانيَ أمرٌ فيه للنفس غُمّةٌ ... وفيه اجتداعٌ للأنوف أصيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وَهَدّةٌ ... تكادُ لها صُمُّ الجبالِ تزولُ

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدّم .

(٧)

الأصْلُ :

ومن كتاب منه عليه السلام إليه أيضا :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَتْنِي مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ ، نَمَّقْتَهَا بِضَلالِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ . وَكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ ، وَلا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ ، وَقَادَهُ الضَّلالُ فَاتَّبَعَهُ ، فَهَجَرَ لاغِطاً ، وَضَلَّ خَابِطاً .

* * *

الشَّرْحُ :

موعظة موصّلة ، أى مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا ، وذلك عيب فى الكتابة والخطابة ، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولا فصلًا ، أو يَروِى فيأتى بالبديع المستحسَن وهو فى الحالَيْن كلاهما يُنفِق من كِيسه ، ولا يستعير كلامَ غيره .

والرسالة المحبّرة : المزيّنة الألفاظ ؛ كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلّف والتصنّع .

والتّنميق : التزيين أيضاً .

وهَجَر الرّجل ،أى هَذَى ، ومنه قوله تعالى فى أحد التفسيرين : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾(١) .

واللّاغط : ذو اللغط ، وهو الصوت والجلبة .

---

(١) سورة الفرقان ٣٠

وخَبَط البعير فهو خابط ، إذا مشى ضالًّا فخبط بيديه كلَّ ما يَلقاه ، لا يتوقّى شيئاً .

***

وهذا الكتاب كتبه عليٌّ عليه السلام جواباً عن كتاب كتبه معاويةُ إليه فى أثناء حرب صِفّينَ بل فى أواخرها ، وكان كتاب معاوية :

« من عبد الله معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، أما بعد ، فإنّ الله تعالى يقول فى محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) ، وإنى أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشقّ عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها ، فاتق الله واذكر موقف القيامة ، وأقلع عمّا أسرفتَ فيه من الخوض فى دماء المسلمين ، وإنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لو تمالأ أهلُ صنعاء وعدَن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبّهم الله على مناخرهم فى النار » ، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين ، بلهَ ماطَحنتْ رَحاَ حربه من أهل القرآن ، وذى العبادة والإيمان ، من شيخ كبير ، وشابٍّ غرير ، كلّهم بالله تعالى مؤمن ، وله مخلص ، وبرسوله مقرّ عارف ! فإن كنتَ أبا حسن إنما تحارب على الإمْرة والخلافة ، فلَعَمْرى لو صحّت خلافتك لكنتَ قريباً من أن تعذَر فى حرب المسلمين ، ولكنّها ماصحّت لك ؛ أنّى بصحّتها وأهلُ الشام لم يدخلوا فيها ، ولم يرتضوا بها! وخف الله وسَطَواته ، واتّق بأسه ، ونكاله ، وأغمِدْ سيفك عن الناس ، فقد والله أكلتْهم الحرب ، فلم يَبقَ منهم إلا كالثّمد فى قرارة الغدير والله المستعان » .

فكتب علىّ عليه السلام إليه جوابا عن كتابه :

---

(١) سورة الزمر : ٦٥

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان : « أمّا بعد فقد أتتني منك موعظةٌ موصّلة ، ورسالة محبّرة ، نمّقتها بضلالك ، وأمضيتها بسوء رأيك ، وكتاب امرئٍ ليس له بصرٌ يهديه ، ولا قائد يُرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فاتّبعه ، فهجَر لاغطاً ، وضلّ خابطاً ، فأمّا أمرُك لي بالتقوى فأرجو أن أكونَ من أهلها ، وأستعيذ بالله من أن أكونَ من الّذين إذا أُمِرُوا بها أخذتْهم العزّة بالإثم . وأمّا تحذيرُك إيّاي أن يحبَط عملي وسابقتي في الإسلام ، فلعمري لو كنتُ الباغيَ عليك ، لكان لك أن تحذّرني ذلك ، ولكنّي وجدت الله تعالى يقول : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾(١) ، فنظرنا إلى الفئتين ، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها ، لأن بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ، كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام ، وكما لزمتْ يزيد أخاك بيعةُ عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام . وأمّا شق عصا هذه الأمّة ، فأنا أحقّ أن أنهاك عنه . فأمّا تخويفُك لي من قتل أهلِ البغْي ، فإن رسول الله صلى عليه وآله أمرني بقتالهم وقتْلهم ، وقال لأصحابه : « إنّ فيكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » ، وأشار إليّ وأنا أَوْلَى من اتبع أمره .

وأما قولك: إنّ بيعتي لم تصحّ لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها ! كيف وإنما هي بيعة واحدة ، تلزم الحاضر والغائب ، لا يُثنّى فيها النظر ، ولا يستأنف فيها الخيار ، الخارج منها طاعنٌ ، والمروِّي فيها مُداهن . فاربَعْ على ظَلْعِك ، وانزِعْ سِربالَ غَيِّك ، واترك مالا جَدْوَى له عليك ، فليس لك عندي إلّا السيف ، حتى تفيء إلى أمر الله صاغرا ، وتدخل في البَيعة راغما . والسلام » .

---

(١) سورة الحجرات

الأصْلُ :

ومن هذا الكتاب :

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ ، الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ ، وَالْمُرَوِّى فِيهَا مُدَاهِنٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

لا يثنّى فيها النظر ، أى لا يعاود ولا يراجع ثانية . ولا يستأنف فيها الخيار : ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم ، لأنها تلزم غير العاقدين كما تلزم العاقدين ، فيسقط الخيار فيها ، الخارج منها طاعن على الأمّة ، لأنهم أجمعوا على أنّ الاختيار طريق الإمامة .

والمروّى فيها مداهن ، أى الذى يرتئى ويبطئ عن الطاعة ويفكّر ، وأصله من الروية ، والمداهن : المنافق .

(٨)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى جرير بن عبدالله البجلي لما أرسله إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى ٱلْفَصْلِ ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ ٱلْجَزْمِ ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ ، فَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلْحَرْبَ فَٱنْبِذْ إِلَيْهِ ، وَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلسِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ . وَٱلسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكر نسب جرير بن عبد الله البَجَلِيّ .

وقوله عليه السلام : « فاحمل معاوية على الفَصْل » ، أى لا تتركه متلكّئا متردّدا ، يُطْمِعُك تارة ويؤيسك أخرى ، بل احمله على أمر فَيْصَلٍ ، إمّا البَيْعة ، أو أن يأذَن بالحرب .

وكذلك قوله : « وخذه بالأمر الجزم » ، أى الأمر المقطوع به ، لا تكنْ ممّنْ يُقدِّم رِجْلا ويؤخِّر أخرى ، وأصل الجَزْم القطع .

وحرب مُجْلِيَة : تُجْلِي المقهورين فيها عن ديارهم ، أى تُخرِجهم .

وسِلْم مخزية ، أى فاضحة ؛ وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولا من البَيْعة ؛ فإذا دخل فى السِّلْم فإنما يدخل فيها بالبيعة ، وإذا بايع بعد الامتناع ؛ فقد دخل تحت الهَضْم ورَضِيَ بالضَّيم ؛ وذلك هو الخِزْى .

قوله « فانبذ إليه » من قوله تعالى: ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾[1] وأصله العهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين ، ثم يبدو لهما فى ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدُهما إلى الآخر عهده ، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدُهما يوم الحرب وأبطله ، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة ، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها .

(١) سورة الأنفال ٥٨

(٩)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا ، وَاجْتِيَاحَ أَصْلِنَا ، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ ، وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ .

فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حَوْمَتِهِ ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ ، وَمَنِيَّتَهُ أُخِّرَتْ .

فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا ، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ ، وَلَا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ .
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ ، لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ ، وَلَا جَبَلٍ

وَلَا سَهْلٍ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءكَ وِجْدَانُه ، وَزَوْرٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ . وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « فأراد قومنا » ، يعني قريشا .

والاجتياح : الاستئصال ، ومنه الجائحة وهى السَّنَة ، أو الفتنة التى تجتاح المال أو الأنفس .

قوله : « ومنعونا العذب » ، أى العيش العذب . لا أنهم منعوهم الماء العَذْب ، على أنه قد نقل أنهم منعوا أيام الحصار فى شِعْب بنى هاشم من الماء العذب .

وسنذكر ذلك .

قوله : « وأحلسونا الخوف » ، أى ألزموناه . والحِلْس : كساء رقيق يكون تحت بردعة البعير .

وأحلاس البيوت : ما يُبسَط تحت حُرّ الثياب ، وفى الحديث: « كن حِلْس بيتك » ، أى لا تخالط النّاس واعتزلْ عنهم ، فلما كان الحِلْس ملازماً ظهرَ البعير ، وأحلاس البيوت ملازمة لها ، قال : « وأحلسونا الخوف » ؛ أى جعلوه لنا كالحِلْس الملازم .

قوله : « واضطرونا إلى جبل وعر » ، مَثَل ضرَبَه عليه السلام لخشونة مُقامهم وشَظَف منزلهم ، أى كانت حالنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وَعْر ، ويجوز أن يكون حقيقة لا مثلا ، لأن الشِّعب الذى حصروهم فيه مَضِيق بين جبلين .

قوله : « فعزم الله لنا » ، أى قضى الله لنا ، ووفّقنا لذلك ، وجعلنا عازمين عليه .

والحوْزة : الناحية ، وحوزة الملك : بَيْضته .

وحومة الماء والرمل : معظمه .

والرمى عنها : المناضلة والمحاماة ، ويروى : « والرمى من وراء حرمته » ، والضمير فى « حوزته » و « حومته » راجع إلى النبى صلى الله عليه وآله ، وقد سبق ذكره ، وهو قوله: « نبينا » ، ويروى « والرَّميا » .

وقال الراوندى : « وهموا بنا الهمومَ » ، أى همُّوا نزول الهمّ بنا ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وليس ماقاله بجيّد بل « الهموم » منصوب هاهنا على المصدر ، أى هموا بنا هموماً كثيرة ، وهموا بنا أى أرادوا نهبَنا ، كقوله تعالى : ﴿ وهَمَّ بِهَا ﴾[1]، على تفسير أصحابنا ، وإنما أدخل لام التعريف فى الهموم ، أى همُّوا بنا تلك الهموم التى تعرفونها ، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر فى الصُّدور من تنكيرها ، أى تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين فى أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع .

وقوله : « وفعلوا بنا الأفاعيل » ، يقال لمن أثروا آثارا منكرة : فعلوا بنا الأفاعيل ، وقلّ أن يقالَ ذلك فى غير الضرر والأذى ، ومنه قول أميّة بن خلَف لعبد الرحمن بن عوف وهو يذكر حمزة بن عبد المطلب يوم بدر : « ذاك الّذى فعل بنا الأفاعيل » .

قوله : « يحامى عن الأصل » ، أى يدافع عن محمد ويذبُّ عنه حميّةً ومحافظة على النسب .

قوله : « خِلْو مما نحن فيه » ، أى خال . والحِلْف : العهد .

واحمرّ البأس ، كلمة مستعارة ، أى اشتدّت الحرب حتى احمرّت الأرض من الدم ، فجعل البأس هو الأحمر مجازا ، كقولهم : الموت الأحمر .

---

(١) سورة يوسف ٢٤ .

قوله : « وأحجم الناس» ، أى كَفُّوا عن الحرب وجَبُنوا عن الإقدام ، يقال : حجمت فلانا عن كذا أحجُمه بالضمّ ، فأحجم هُوَ ، وهــذه اللفظة من النوادر ، كقولهم : « كببته فأ كبّ ».

ويوم مؤتة بالهمز ، ومؤتة : أرض معروفة .

وقوله : « وأرادَ مَنْ لو شئتُ لذكرت اسمَه » ، يعنى به نفسَه .

قوله : « إذ صرتُ يقرَنُ بى مَنْ لم يَسْعَ بقدمى » إشارة إلى معاوية فى الظّاهر ، وإلى مَنْ تقدّم عليه من الخلفاء فى الباطن ، والدليل عليه قوله : « التى لا يُدْلِى أحد بمثلها » ، فأطلق القول إطلاقا عامًّا مستغرقا لــكلّ الناس أجمعين .

ثم قال : « إلّا أنْ يدّعِيَ مدّعٍ مالا أعرفه ، ولا أظن الله يعرفه » ، أى كلّ من ادّعى خلاف ماذكرته فهو كاذب ، لأنه لو كان صادقا لــكان علىّ عليه السلام يعرفه لا محالة ، فإذا قال عن نفسه : إنّ كل دعوى تخالف ماذكرت فإنّى لا أعرف صحّتها ، فمعناه أنها باطلة .

وقوله : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، فالظنّ هاهنا بمعنى العلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾(١) ، وأخرج هــذه الــكلمة مخرج قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٢) ، وليس المراد سلْب العلم بل العلم بالسلب ، كذلك ليس مراده عليه السلام سَلْبَ الظّنّ الذى هو بمعنى العلم ، بل ظنّ السلب ، أى علم السلب، أى واعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه ، وكلّ ما يعلم اللهُ انتفاءه فليس بثابت .

وقال الراوندى : قوله عليــه السلام : « ولا أظنّ الله يعرفه » ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّــكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْــكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الــكهف ٥٣ — (٢) سورة يونس ١٨

(٣) سورة محمد ٣١ .

والله يعلم كلّ شيء قبل وجوده ، وإنما معناه : حتّى نعلم جهادهم موجودا ، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثالا لها ، ولكنّ الراوندىّ يتكلّم بكلّ مايخطر له من غير أن يميّز مايقول .

وتقول : أدلَى فلان بحجته ، أى احتجّ بها ، وفلان مُدلٍ برَحِمه ، أى مَتَّ بها . وأدْلَى بماله إلى الحاكم : دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه ، فأمّا الشّفاعة فلا يقال فيها : « أدليت » ، ولكن « دلوت بفلان » أى استشفعت به ، وقال عمر لمّا استسقَى بالعبّاس رحمه الله : اللهمّ إنّا نتقرّب إليك بعمّ نبيّك وقفيّة آبائه ، وكُبْر رجاله ، دلوْنا به إليك مستشفعين »[1] .

قوله عليه السلام : « فلم أره يسعُنى » ، أى لم أرَ أنّه يحلّ لى دفعهم إليك . والضمير فى « أرَهُ » ضمير الشأن والقصّة ، و «أره» من الرأى لا من الرؤية ، كقولك : لم أرَ الرّأى الفلانىّ .

ونزع فلان عن كذا ، أى فارقه وتركه ، ينزِع بالكسر ، والغىّ : الجهل والضلال . والشّقاق : الخلاف .

والوجْدان : مصدر وجدت كذا ، أى أصبته . والزّوْر : الزائر .

واللُّقيان : مصدر لقيت ، تقول : لقيته لقاء ولقيانا .

ثم قال : « والسلام لأهله» لم يستجز فى الدين أن يقول له : « والسلام عليك » لأنّه عنده فاسق لا يجوز إكرامه ،فقال : « والسلام لأهله »، أى على أهله .

ويجب أن نتكلّم فى هذا الفصل فى مواضع :

منها ذكر ماجاء فى السيرة من إجلاب قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وبنى هاشم وحَصْرهم فى الشعب .

(١) الفائق ٢ : ٣٦٦ . قفية آبائه : تلوهم . وكبر قومه أقعدهم فى النسب .

ومنها : الكلام فى المؤمنين والكافرين من بنى هاشم الّذين كانوا فى الشِّعْب محصورين معه صلى الله عليه وآله مَنْ هم .

ومنها : شرح قصّة بدر .

ومنها : شرح غزاة أُحُد .

ومنها : شرح غزاة مُؤْتة .

***

[إجلاب قريش على بنى هاشم وحصرهم فى الشعب]

فأما الكلام فى الفصل الأول فنذكر منه ماذكره محمد بن إسحاق بن يَسار فى كتاب " السيرة " والمغازى ، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرّخين ، ومصنّفه شيخ الناس كلهم .

قال محمد بن إسحاق رحمه الله : لم يسبق عليا عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد صلى الله عليه وآله أحدٌ من الناس ، اللّهم إلّا أن تكون خديجة زوجةُ رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وقد كان صلّى الله عليه وآله يخرج ومعه علىّ مستخفيين من النـاس ، فيصلّيـان الصلواتِ فى بعض شِعاب مكة ، فإذا أمسيا رَجعا فمكثا بذلك ماشاء الله أن يمكثا ، لا ثالث لهما . ثم إنّ أبا طالب عَثَر عليهما يوماً وهما يصلّيان ، فقال لمحمد صلى الله عليه وآله : يابن أخى ، ما هذا الذى تفعله ! فقال : « أىْ عمّ هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ، ودين أبينا إبراهيم ــ أو كما قال عليه السلام ــ بعثنى الله به رسولا إلى العبـاد ، وأنت أى عمّ أحقُّ من بذلتُ له النصيحـة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحقّ مَنْ أجابنى إليه ، وأعاننى عليه » . أو كما قال . فقال أبو طالب : إنى لا أستطيع يابنَ أخى أنْ أفارِق

دينى ودين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص[1] إليك شىء تكرهه مابقيتُ .
فزعموا[2] أنه قال لعلىّ : أىْ بنىّ ، ماهذا الذى تصنع ؟ قال : ياأبتاه ، آمنتُ بالله ورسوله وصدّقتُه فيما جاء به ، وصليتُ إليه ، واتبعت قول نبيّه . فزعموا أنّه قال له : أما إنه لا يدعوك ـ أو لن يدعوك ـ إلّا إلى خير ، فالزمه .

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيدُ بن حارثة مولى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فكان أوّل مَنْ أسلمَ ، وصلّى معه بعد علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

ثم أسلم أبو بكر بن أبى قُحافة ، فكان ثالثا لهما ، ثم أسلم عثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعد بن أبى وقّاص ، فصاروا ثمانية ؛ فهم الثمانية الذين سبقوا النّاس إلى الإسلام بمكّة ، ثم أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو سلمةَ بن عبد الأسد وأرقم بن أبى أرقم ، ثم انتشر الإسلام بمكّة ، وفشا ذكره ، وتحدّث النّاس به ، وأمر الله رسولَه أن يصدَع بما أمر به ، فكانت مدّة إخفاء رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين فيما بلغنى[3] .

قال محمد بن إسحاق : ولم تكن قريش تنكِر أمرَه حينئذ كلّ الإنكار ، حتّى ذكر آلهتهم وعابَها ، فأعظموا ذلك وأنكروه ، وأجمعوا على عداوته وخلافه ، وحدب عليه عمّه أبو طالب فمنَعه ، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يردّه عنه شىء . قال : فلمّا رأتْ قريش محاماةَ أبى طالب عنه وقيامَه دونه ، وامتناعَه من أن يسلمه ، مشى إليه رجالٌ من أشراف قريش ؛ منهم عُتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حَرْب ، وأبو البختَرىّ بن هشام ، والأسود بن المطّلب ، والوليد بن المُغيرة ، وأبو جهل عمرو بن هشام ،

---

(١) لا يخلص إليك بشىء ؛ أى لا يوصل إليك ؛ يقال : خلصت إليه ، أى وصلت إليه .
(٢) ابن هشام : « وذكروا »
(٣) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٥

والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج؛وأمثالهم من رؤساء قريش. فقالوا: ياأبا طالب، إنّ ابنَ أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامَنا ،وضلّل آراءنا ؛ فإمّا أنْ تكفّه عنّا ، وإمّا أن تُخَلِّيَ بيننا وبينه . فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقا ، وردّهم ردّاً جميلا ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عَلَى ماهو عليه ، يظهرُ دينَ الله ، ويدعو إليه ، ثم شرّق[1] الأمرُ بينه وبينهم ، تباعدا وتضاغنا[2] ، حتى أكثرت قريش ذكرَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله بينها ، وتذامروا فيه ، وحضّ بعضُهم بعضاً عليه ، فمشوْا إلى أبي طالب مرةً ثانية ، فقالوا : ياأبا طالب ، إنّ لك سنًّا وشرَفًا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنْهيناك من ابن أخيك فلم تنهَه عنّا ، وإنا والله لا نصبر على شتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيْب آلهتنا ، فإمّا أن تكفَّه عنّا أو ننازله وإيّاك[3] حتى يهلك أحدُ الفريقين . ثم انصرفوا ، فعظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم ، ولم تطِبْ نفسه بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه ، فبعث إليه فقال : يابنَ أخي ، إنّ قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا — للذى قالوا — فأبق علىّ وعَلَى نفسِك ، ولا تحمِّلْنى من الأمرمالا أطيقه . قال : فظنّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنّه قد بدا لعمّه فيه بَداء ، وأنّه خاذله ومسلِمه ، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه ، فقال : ياعمّ ، والله لو وضعوا الشّمس فى يمينى والقمر فى شِمالى على أنْ أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلِك . ثم استعبر باكياً وقام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب : أقبل يابن أخى ، فأقبَل راجعا ، فقال له : اذهب يابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا[4] .

---

(١) ابن هشام : « ثم شرى الأمر بينه وبينهم » ، قال أبو ذر : معناه « كثر وتزايد » ، وأصله فى البرق ، يقال : شرى البرق : اذا كثر لمعانه .

(٢) التضاغن : المعاداة . (٣) ننازله وإياك : أى نحاربكما .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٦ — ٢٧٨

قال ابن إسحاق: وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قريش من حَرْبه لمّا قام بنصر محمد صلى الله عليه وآله :

واللهِ لنْ يَصِلُوا إليك بجمعِهمْ ... حتى أُوَسَّدَ في التّراب دفينا[1]
فانفذْ لأمرك ما عليك مخـــافةٌ ... وابشر وقرَّ بذاك منـــه عيونا
ودعوتَني وزعمت أنّك ناصحي ... ولقد صدقت وكُنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنّه ... من خيرِ أديان البرّية دِينــاً
لولا الملامَةُ أو حـــذاري سُبّةً ... لوجدتَني سَمحاً بذاك مبينـــا

قال محمد بن إسحاق : ثم إنّ قريشا حين عرفت أنّ أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله صلى الله عليه وآله و إسلامه إليهم ورأوا إجماعَه على مفارقتهم وعداوتهم ، مشَوْا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ ـ وكان أجمل فتىً في قريش ـ فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عُمارة بن الوليد ، أبهى[2] فتىً في قُريش وأجمله ، فخذه إليك[3] ، فاتخذه ولداً فهو لك ، وأسلِم لنا هذا ابن أخيك الذي قد خالف دينَك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك ، فنقتله ، فإنّما هو رجلٌ برجل . فقال أبو طالب ! والله ما أنصفتمُوني[4] ! تعطوني ابنكم أغذُوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا . فقال له المطعِم بن عديّ بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ والله يا أبا طالب ما أراك تريدُ أن تقبل من قومك شيئاً ! لعمري قد جهدوا في التخلص ممّا تكره وأراك لا تُنصفهم ! فقال أبو طالب : والله ما أنصفوني ولا أنصفتني ؛ ولكنّك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة[5] القوم عليّ ! فاصنع ما بدا لك[6] !

---

(١) ديوانه ١٧٦ ، ١٧٧ (٢) ابن هشام : « أنهد فتى » أي أشده وأقواه .

(٣) ابن هشام : « تخذه فلك عقله ونصره » .

(٤) ابن هشام : « والله لبئس ما تسومونني » .

(٥) مظاهرة القوم ، يريد إعانتهم . (٦) سيرة ابن هشام ١ : ٢٧٥

قال : فعندذلك تنابذَ القوم وصارت الأحقاد ، ونادى بعضهم بعضاً ، وتذامروا بينهم على مَن في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وآله . فوثبت كلُّ قبيلة عَلى منْ فيها منهم ، يعذّبُونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنعَ الله رسوله منهم بعمّه أبي طالب ، وقام في بني هاشم وبني عبد المطلب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع ، فدعاهم إلى ماهو عليه من مَنْع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى مادعاهم إليه من الدّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا ما كان من أبي لهب ، فإنه لم يجتمع معهم على ذلك ، فكان أبو طالب يرسل إليه الأشعار ، ويناشده النصر ، منها القطعة التي أولها :

حـــديثٌ عن أبي لَهَبٍ أتانا وكانَفَـهُ على ذَاكُمْ رجالُ

ومنها القطعة التي أولها :

أظننت عَـــنّي قد خـذلت وغالني منك الغوائلُ بعـد شيب المكبرِ

ومنها القطعة التي أولها :

تستعرض الأقوامِ توسعهمْ عُذْراً وما إن قلتَ مِن عُذرِ

قال محمد بن إسحاق : فلم يؤثَر عن أبي لهب خـير قطّ إلا ما يروى أنّ أبا سلمة بن عبـد الأسد المخزوميّ ؛ لمّا وثب عليـه قومه ليعذّبوه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم ؛ فاستجار بأبي طالب ، وأمّ أبي طالب مخزوميّة ، وهي أمّ عبد الله والد رسول الله صلّى الله عليه وآله فأجاره ، فمشى إليه رجالٌ من بني مخزوم ، وقالوا له : ياأبا طالب ، هَبْكَ منعتَ منّا ابنَ أخيك محمّداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منّا ! قال : إنّه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنالم أمنع ابنَ أختي لم أمنع ابن أخي ؛ فارتفعت أصواتهم وأصواته ، فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها ، فقال : يا معشرَ قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا

الشيخ ، لا تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ! أمَا والله لتنتهُنّ عنه أو لنقومن معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فقالوا : بل ننصرف عمّا تكره يا أبا عُتْبة : فقاموا فانصرفوا ، وكان وليًّا لهم ومعينا على رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى طالب ، فاتقوه وخافوا أن تحمله الحميّة على الإسلام ، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال ، وأمّل أن يقوم معه فى نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال يحرّضه على ذلك :

وإن امرأً أبو عُتَيبة عمُّه ... لَفِى مَعْزِلٍ من أن يُسام المظالما[1]
ولا تقبلنّ الدهرَ ما عشتَ خطّةً ... تُسبّ بها إمّا هبطتَ المواسما[2]
أقول له وأين منهُ نصيحتى ... أبا عُتْبَة ثَبّتْ سوادَك قائما
وولّ سبيل العجز غيرك منهمُ ... فإنك لم تُخلَقْ على العجز لازما
وحاربْ فإنّ الحرب نصف ولن ترى ... أخا الحرب يُعطى الخسف حتى يُسالما
كذبتم وبيت الله نَبزَى محمدا ... ولمّا تروْا يوما من الشعْب قائما

وقال يخاطب أبا لهب أيضاً :

عجبتُ لحلمٍ يا بن شيبة عازبٍ ... وأحلام أقوامٍ لديك سِخافِ[3]
يقولون شايِع مَنْ أراد محمّدا ... بظلم وقُمْ فى أمره بخلافِ
أضاميمُ إما حاسد ذو خيانة ... وإما قريب عنك غير مصاف
فلا تركبنّ الدهر منه ذِمامةً ... وأنت امرؤٌ من خير عبد مناف
ولا تتركنْه ما حييت لمعظمٍ ... وكنْ رَجُلًا ذا نجدةٍ وعَفافِ
يذودُ العدا عن ذروةٍ هاشميّةٍ ... إلافهمُ فى النّاس خيرُ إلافِ
فإنّ له قُرْبى لديكَ قريبةً ... وليس بذى حِلْفٍ ولا بمُضافِ
ولكنّه من هاشمٍ ذى صميمها ... إلى أبحُرٍ فوق البُحور طوافِ

---

(١) ديوانه ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) ديوانه ٩٠ (٣) ديوانه : « أبا معتب » .

وزاحمْ جميع الناس عنه وكنْ له ... وزيراً على الأعداء غير مجافِ
وإن غضبت منه قريشٌ فقلْ لها ... بني عمّنا ما قومُكُمْ بضعافِ
وما بالُكمْ تغشَوْنَ منه ظُلامَةً ... وما بالُ أحقادٍ هناك خوافِ
فما قومُنا بالقوم يخشَوْن ظلمنا ... وما نحنُ فيما ساءهم بخفافِ
ولكننا أهل الحفائظ والنّهى ... وعزٍّ ببطحاء المشاعر وافِ

قال محمد بن إسحاق : فلمّا طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب ، وارتدّ كثير عن الدين باللسان لا بالقلب ، كانوا إذا عذّبوهم يقولون : نشهد أنّ هذا الله ، وأن اللّات والعُزّى هى الآلهة ، فإذا خلوْا عنهم عادوا إلى الإسلام ، فحبسوهم وأوثقوهم بالقِدّ ، وجعلوهم فى حرّ الشّمس على الصّخْر والصّفا ، وامتدّت أيّام الشقاء عليهم ولم يَصِلوا إلى محمّد صلى الله عليه وآله لقيام أبى طالب دونه ، فأجمعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بنى هاشم صحيفةً يتعاقدون فيها ألّا يناكحوهم ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ؛ فكتبوها وعلّقوها فى جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم ؛ وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ . فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطّلب ، فدخلوا كلّهم مع أبى طالب فى الشّعب ، فاجتمعوا إليه ، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه .

قال محمد بن إسحاق : فضاق الأمر ببنى هاشم وعدموا القوت ، إلّا ما كان يحمل إليهم سرّاً وخفية ؛ وهو شىء قليل لا يُمْسِك أرماقهم ، وأخافتهم قريش ؛ فلم يكن يظهر منهم أحدٌ ، ولا يدخل إليهم أحد ، وذلك أشدّ مالقِيَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بمكة .

قال محمد بن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ألّا يصل إليهم

شيء إلا القليل سرًّا ممّن يريد صلتهم من قريش ؛ وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حَكيم ابن حزام بن خُويلد بن أسَد بن عبد العُزّى ، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة بنت خويلد ــ وهي عند رسول الله محاصَرة في الشِّعب ــ فتعلق به ، وقال : أتحمل الطّعام إلى بني هاشم ! والله لا تبرح أنت وطعامُك حتى أفضحك بمكة ! فجاءه أبو البختريّ العاص ابن هشام بن الحارث بن أسَد بن عبد العُزّى ، فقال : مالك وله ! قال : إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم ، فقال أبو البختريّ : يا هذا ، إنّ طعاما كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ؛ أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خلّ سبيل الرّجل ، فأبى أبو جهل حتى نال كلٌّ منهما مِنْ صاحبه، فأخذ له أبو البختريّ لَحْيَ بعيرٍ فضربه به فشجّه ووطئه وطأً شديداً . فانصرف وهو يكره أنْ يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو هاشم بذلك ، فيشمتوا ، فلما أراد الله تعالى من إبطال الصّحيفة، والفَرَج عن بني هاشم من الضِّيق والأزْل الذي كانوا فيه ، قام هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ في ذلك أحسن قيام ، وذلك أنّ أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضْلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ من أمه ، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلًا ببني هاشم ؛ وكان ذا شرفٍ في قومه بني عامر بن لؤي ، فكان يأتي بالبعير ليلا وقد أوْقره طعاما ، وبنو هاشم وبنو المطّلب في الشِّعب ، حتى إذا أقبل به فم الشِّعب قمع بخطامه من رأسه ، ثم يضربه علَى جَنْبه ، فيدخل الشّعب عليهم ثم يأتي به مرّة أخرى ، وقد أوقره تمراً ، فيصنع به مثل ذلك .

ثم إنّه مشى إلى زُهير بن أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ ، فقال : يا زهير ، أرضيتَ أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وتلبس الثّياب ، وتنكح النّساء ؛ وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، ولا يواصلون ولا يزارون ! أما إنّي أحلف لو كان أخوالك أبو الحكم بن هشام ودعوتَه إلى مثل ما دعاك

إليه منهم ما أجابك أبداً . قال : ويحكَ يا هشام ! فما ذا أصنع ! إنّما أنا رجلٌ واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمتُ في نقض هـذه الصحيفة القاطعـة . قال : قد وجدت رجلًا ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال زهير : ابغنا ثالثا ، فذهب إلى المطعِم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا مطعِم ، أرضيت أن يهلك بطنان من عبـد مناف جوعاً وجَهْداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنّ قريشا إلى مساءتكم في غيره سريعة . قال : ويحك ! ماذا أصنع ! إنما أنا رجل واحد ،قال : قدوجدتُ ثانيا ، قال: مَنْ هو ؟قال : أنا قال : ابغني ثالثا ، قال : قدوجدت، قال :مَنْ هو؟ قال : زهير بن أميّة ، قال أنا ، قال : ابغنا رابعا ، فذهب إلى أبي البختريّ بن هشام ،فقال له نحو ما قال المطعم ، قال : وهل مِنْ أحدٍ يعين على هذا ؟ قال : نعم وذكرهم ، قال : فابغنا خامسا ، فمضى إلى زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلّمه ، فقـال : وهل يعين على ذلك من أحد ؟ قال : نعم ؛ ثم سمّى له القوم ، فاتّعدُوا خَطْم الحَجُون ليلًا بأعلى مكة ، فأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصّحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير : أنا أبدؤكم وأكون أوّلكم يتكلّم ، فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهـيرا بن أبي أميّة عليـه حلّة له . فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكّة ، أنأكل الطعام ، ونشرب الشراب ، ونلبس الثيـاب وبنو هاشم هَلْكى ! والله لا أقعـد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! وكان أبو جهل في ناحية المسجد ، فقال : كذبت والله لا تشقّ ! فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل : والله أنتَ أكذب ، ما رضينا والله بها حين كُتِبتْ . فقـال أبو البختريّ معه : صدق والله زَمْعة ، لا نرضى بها ولا نقرّ بمـا كتب فيها ! فقال المطعِم بن عديّ: صدَقا والله ، وكذب مَنْ قال غـير ذلك ؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو مثل قولهم ، فقال أبو جهل : هـذا أمر قضيَ بليل ، وقام مطعِم بن عديّ إلى الصحيفـة فحطّها وشقّها ، فوجد الأرَضة قد أكلتْها ، إلا

ما كان من «باسمك اللهم»، قالوا: وأمّا كاتبها منصور بن عكرمة فشلّت يده . فيما يذكرون. فلمّا مزّقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشّعب .

قال محمد بن إسحاق : فلم يزل أبو طالب ثابتًا صابرا مستمرًا على نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وحمايته والقيام دونه ، حتى مات فى أوّل السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله فطمعت فيه قريش حينئذ ، ونالت منه ، فخرج عن مكّة خائفا بطلُب أحياء العرب ، يعرض عليهم نفسه ، فلم يزل كذلك حتى دخل مكة فى جوار المطعِم بن عدىّ ؛ ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة .

قال : ومن شعر أبى طالب الذى يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وقيامه دونه :

أرِقتَ وقدْ تَصوّبتِ النُّجُومُ ... وبتّ ولا تسالُمك الهمومُ [1]

لِظُلم عشيرةٍ ظلموا وعَقّوا ... وغِبّ عقوقهم لهمُ وخيمُ

همُ انتهكوا المحارمَ من أخيهمْ ... وكلّ فعالهم دَنِسٌ ذميمُ

وراموا خطّة جوراً وظُلْماً ... وبعضُ القول ذو جَنَفٍ مُليمُ

لتخرجَ هاشماً فتكونَ منها ... بلاقعَ بطنُ مكّة فالحطيمُ

فمهلاً قومنا لا تركبُونَا ... بمظلمة لها خَطْبٌ جَسِيمُ !

فيندمَ بعضُكم ويذِلّ بعضٌ ... وليس بمفلحٍ أبداً ظَلُومُ

أرادوا قتل أحمدَ زاعِميه ... وليس بقتلِه منهمْ زَعِيمُ

وَدُونَ مُحَمَّدٍ منّا ندىٌّ ... همُ العِرنين والعُضْوُ الصَّمِيمُ

ومن ذلك قوله :

وقالوا لأحمد أنت امرُؤٌ ... خَلُوفُ الحديثِ ، ضَعيفُ السَّبَبْ

(١) ديوانه ١٤٩

وإن كان أحمدُ قد جاءهُمْ ... بصدقٍ ولم يأتِهِمْ بالكَذِبْ
فإنّا ومَنْ حجَّ مِنْ راكبٍ ... وكعبة مكة ذات الحُجُبْ
تنالون أحمدَ أو تصطلوا ... ظُباةَ الرِّماحِ وحدَّ القُضُبْ
وتغترفوا بين أبياتِكُمْ ... صُدورَ العوالِي وخيْلًا شُزُبْ
تراهنّ من بين ضافِ السَّبِيبِ ... قصير الحِزَامِ طويل اللَّبَبْ
عليها صناديدُ مِنْ هاشِمٍ ... همُ الأنجُبون مع المنتجَبْ

* * *

وروى عبد الله بن مسعود ، قال : لمّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من قتلى بدر ، وأمر بطرحِهِم في القَليب ، جعل يتذكّر من شعر أبي طالب بيتا فلا يحضرُه ، فقال له أبو بكر : لعلّه قولُه يارسول الله :

وإنّا لعمرُ الله إنْ جدَّ جِدُّنا ... لتلتبسنْ أسيافُنا بالأماثل (١)

فسُرّ بظفرِه بالبيت ، وقال : إي لعمر الله ، لقد التبست .

ومن شعر أبي طالب قوله :

ألا أبلغا عنّي لؤيًّا رسالةً ... بحقٍّ وما تغني رسالةُ مرسلِ (٢)
بني عمِّنا الأدْنَيْن فيما يخصُّهُمْ ... وإخواننا من عبدِ شمس ونوفلِ
أظاهرتُمُ قوما علينا سفاهةً ... وأمرا غويًّا من غُواةٍ وجُهَّلِ
يقولون لو أنّا قتلْنا محمّداً ... أقرّتْ نواصِي هاشم بالتذلُّلِ
كذبتم وربِّ الهَدْيِ تدمى نحورُه ... بمكّة ، والبيتِ العتيقِ المُقبَّلِ
تنالونَهُ ، أو تصطلوا دونَ نيْلِهِ ... صوارمَ تفْرِي كلَّ عُضْوٍ ومفصِلِ
فمهلًا ولمّا تنتج الحربُ بكْرَها ... بخيلٍ تمام ، أو بآخر مُعجِلِ

---

(١) ديوانه ١١١ (٢) ديوانه ١٣٧

وتلقوْا ربيــــع الأبطحين محمّداً … على رَبْوَةٍ فى رأس عَنقاء عَيْطَلِ
وتأوِى إليـــه هاشمٌ، إنّ هاشما … عَرانين كعبٍ آخرٌ بَعْدَ أوّلِ
فإن كنتمُ ترجون قتــــلَ محمّدٍ … فرُوموا بمــــا جمّعتمُ نقلَ يَذْبُلِ
فإنّا سنحميـــــه بكُلِّ طِمِرّةٍ … وذى مَيْعةٍ نَهْدِ المراكِلِ هَيْكَلِ
وكلِّ رُدَيْنِيٍّ ظِماءٍ كعوبُهُ … وعضبٍ كإيماض الغَمامة مِفصَلِ

***

قلت : كان صديقنا علىّ بن يحيى البطريق رحمه الله ، يقول : لولا خاصّة النبوّة وسرّها لما كان مثلُ أبى طالب — وهو شيخ قريش ورئيسُها وذو شرفها — يمدح ابنَ أخيه محمدا ، وهو شابٌّ قد رُبِّىَ فى حِجْره وهو يتيمه ومكفوله ، وجارٍ مجرَى أولادِه بمثل قوله :

وتلقوا رَبيعَ الأبطحين محمّـــــداً … على رَبْوةٍ فى رأسِ عَنْقاء عَيْطَلِ
وتأوى إليـــــــه هاشم ، إنّ هاشما … عرانين كعبٍ آخرٌ بعـــــدَ أوّلِ

ومثل قوله :

وأبيَضَ يُسْتَسقَى الغمامُ بوجهِهِ … ثِمَالُ اليتامَى عِصْمَةٌ للأرامِـــلِ
يُطيف به الهُـــلّاكُ من آل هاشمٍ … فهم عنده فى نعمةٍ وفواضــــــــلِ

فإن هـذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذّنابى من الناس ، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء ، فإذا تصوّرت أنّه شعر أبى طالب ، ذاك الشيخ المبجّل العظيم فى محمد صلى الله عليه وآله ، وهو شابٌّ مستجير به ، معتصم بظلّه من قريش ، قد رباه فى حِجْره غُلاما ، وعلى عاتقه طفلا ، وبين يديه شابًّا ، يأكل من زاده ، ويأوى إلى داره ، علمت موضع خاصّيّة النبوّة وسرّها ، وأن أمره كان عظيما ، وأنّ الله تعالى أوقع فى القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكانا جليلا .

***

وقرأت فى " أمالى أبى جعفر محمد بن حبيب " رحمه الله ، قال : كان أبو طالب إذا رأى رسولَ الله صلى الله عليه وآله أحياناً يبكي ويقول : إذا رأيتُه ذكرت أخى ، وكان عبد الله أخاه لأبويه ، وكان شديد الحُبّ والحنوّ عليه ، وكذلك كان عبدُ المطّلب شديدَ الحبّ له ، وكان أبو طالب كثيرا مايخاف على رسول الله صلى الله عليه وآله البيات إذا عرف مضجعه ، فكان يقيمُه ليلا من منامه ، ويُضجِع ابنَه عليا مكانَه ، فقال له علىٌّ ليلة : ياأبتِ ، إنّى مقتول ، فقال له :

اصبرنْ يا بُنيّ فالصبر أحْجَى ... كلّ حيٍّ مصيرُه لِشَعُوبِ (١)
قدّر اللهُ والبلاء شديدٌ ... لفداء الحبيب وابن الحبيبِ
لِفِداء الأغرّ ذى الحسَب الثا ... قب والباع والكريم النجيبِ
إن تصبْك المنون فالنبل تَبْرِى ... فمصيبٌ منها ، وغيرُ مصيبِ
كلُّ حيّ وإن تملّى بعمرٍ ... آخذٌ من مَذاقِها بنصيبِ

فأجاب على عليه السلام ، فقال له :

أتأمرنى بالصّبْرِ فى نصرِ أحمدٍ ... ووالله ماقلت الّذى قلت جازعا (٢)
ولكنّنى أحببت أن ترى نصرتى ... وتعلم أنّى لم أزلْ لك طائعاَ
سأسعى لوجه اللهِ فى نصر أحمدٍ ... نبىّ الهدى المحمود طِفلاً ويافِعاَ

* * *

[القول فى المؤمنين والكافرين من بنى هاشم]

الفصل الثانى : فى تفسير قوله عليه السلام « مؤمننا يبغى بذلك الأجر ، وكافرنا يحامى عن الأصل ، ومن أسلم من قريش خلوٌ ممّا نحن فيه لحلف يمنعُه ، أو عشيرة تقوم دونه ،

(١) ديوانه ٤١ ، وشعوب : المنية .
(٢) ديوان أبى طالب ٤١

فهم من القتل بمكان أمن » ، فنقول : إنّ بنى هاشم لما حُصِروا فى الشِّعب بعد أن مَنَعُوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قُريش ، كانوا صِنْفين : مسلمين وكفارا ، فكان علىٌّ عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمين .

واختلف فى جعفر بن أبى طالب : هل حُصِر فى الشِّعب معهم أم لا ؟ فقيل : حُصِر فى الشِّعب معهم ، وقيل : بل كان قد هاجر إلى الحبشة ، ولم يشهد حِصَار الشِّعب ، وهذا هو القول الأصحّ . وكان من المسلمين المحصورين فى الشِّعب مع بنى هاشم عُبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف ؛ وهو وإن لم يكن من بنى هاشم إلّا أنّه يجرى مجراهم ، لأنّ بنى المطّلب وبنى هاشم كانوا يداً واحدة ، لم يفترقوا فى جاهليّة ولا إسلام .

وكان العبّاس رحمه الله فى حِصَار الشِّعب معهم إلّا أنّه كان على دين قومه ، وكذلك عَقِيل بن أبى طالب ، وطالب بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ــ وكان شديداً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، يُبغضه ويَهْجوه بالأشعار ، إلّا أنه كان لا يرضى بقتله ، ولا يقارّ قريشاً فى دمه ؛ محافظة على النسب ــ وكان سيّد المحصورين فى الشِّعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطّلب ، وهو الكافل والحامى .

***

[اختلاف الرأى فى إيمان أبى طالب]

واختلف الناس فى إيمان أبى طالب[1] ، فقالت الإمامية وأكثر الزّيدية : ما مات إلّا مسلما .

(١) ب : « فيه » ، وما أثبته من ا .

وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك ، منهم الشيخ أبو القاسم البلخى وأبو جعفر الإسكافى وغيرهما .

وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعامّة من شيوخنا البصريين وغيرهم : مات على دين قومه ، ويروُون فى ذلك حديثا مشهورا ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عند موته : قُلْ ياعمّ كلمةً أشهد لك بها غداً عند الله تعالى ، فقال : لولا أن تقول العرب : إنّ أبا طالب جَزِع عند الموت لأقررت بها عينَك .

وروى أنّه قال : أنا على دين الأشياخ .

وقيل إنّه قال : أنا على دين عبد المطلب . وقيل غير ذلك .

وروى كثير من المحدّثين أنّ قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ... ﴾(١) الآية ، أُنزلت فى أبى طالب ، لأنّ رسول الله استغفر له بعد موته .

ورووْا أنّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾(٢) نزلت فى أبى طالب .

ورووْا أنّ عليا عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موت أبى طالب ، فقال له : إنّ عمك الضالّ قد قضَى ، فما الّذى تأمرنى فيه ؟

واحتجُّوا بأنه لم يَنقُل أحدٌ عنه أنّه رآه يصلّى ، والصلاة هى المفرّقة بين المسلم والكافر ، وأنّ عليا وجعفرا لم يأخذا من تركته شيئاً ، ورووا عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : « إنّ الله قد وعدنى بتخفيف عذابه لِمَا صنَع فى حقّى ، وإنّه فى ضحضاح من نار » .

ورووا عنه أيضاً أنّه قيل له : لو استغفرتَ لأبيك وأمّك ! فقال : « لو استغفرتُ لهما لاستغفرتُ لأبى طالب ؛ فإنه صنع إلىّ مالم يصنعا ، وإنّ عبد الله وآمنة وأبا طالب جمراتٌ من جمرات جهنّم » .

---

(١) سورة التوبة ١١٣، ١١٤ (٢) سورة القصص ٥٦

فأما الّذين زعموا أنه كان مسلماً، فقد رووْا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال لى جبرائيل: إنّ الله مشفّعك فى ستّة: بطنٍ حملتْك؛ آمنة بنت وهب، وصُلْب أنزلك؛ عبد الله بن عبد المطلب، وحِجْر كَفَلك؛ أبى طالب، و بيتٍ آواك؛ عبد المطلب، وأخ كان لك فى الجاهلية – قيل: يارسولَ الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخيًّا يطعم الطعام، و يجود بالنّوال – وثدْى أرضعتْك؛ حليمة بنت أبى ذؤيب.

قلت: سألتُ النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبى زيد عن هذا الخبر، وقد قرأتُه عليه: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله أخٌ من أبيه أو من أمّه أو منهما فى الجاهليّة؟ فقال: لا، إنما يعنى أخًا له فى المودّة والصحبة، قلت له: فمن هو؟ قال: لا أدرى.

قالوا: وقد نقل النّاس كافّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: نقِلْنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكيّة. فوجب بهذا أن يكون آباؤه كلُّهم منزّهين عن الشّرْك، لأنهم لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرين.

قالوا: وأمّا ماذكر فى القرآن من إبراهيم وأبيه آزر، وكونه كان ضالًّا مشركا، فلا يقدح فى مذهبنا، لأنّ آزر كان عمّ إبراهيم؛ فأمّا أبوه فتارخ بن ناحور، وسُمّىَ العمّ أبا، كما قال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ﴾ (١)، ثم عدّ فيهم إسماعيل وليس من آبائه، ولكنّه عمّه.

قلت: وهذا الاحتجاج عندى ضعيف، لأن المراد من قوله: « نقلنا من الأصلاب الطّاهرة إلى الأرحام الزكيّة » تنزيه آبائه وأجداده وأمّهاته عن السِّفاح لا غير؛ هذا مقتضى

(١) سورة البقرة ١٣٣

سياقة الكلام ، لأنّ العرب كان يعيبُ بعضها بعضا باختلاط المياه واشتباه الأنساب ونكاح الشبهة .

وقولهم : لو كانوا عبدة أصنام لما كانوا طاهرين ؛ يقال لهم : لم قلتم : إنهم لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرى الأصلاب ! فإنه لا منافاةَ بين طهارة الأصلاب وعبادة الصنم ، ألا ترَى أنّه لو أراد مازعموه لما ذكر الأصلاب والأرحام ، بل جعل عوَضها العقائد . واعتذارُهم عن إبراهيم وأبيه يقدح فى قولهم فى أبى طالب ، لأنه لم يكن أبا محمد صلى الله عليه وآله ، بل كان عمّه ، فإذا جاز عندهم أن يكون العمّ - وهو آزر- مشركا كما قد اقترحوه فى تأويلهم ، لم يكن لهم حُجّة من هذا الوجه على إسلام أبى طالب .

واحتجّوا فى إسلام الآباء بما روى عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال : يبعث الله عبدَ المطّلب يوم القيامة وعليه سِيما الأنبياء وبهاء الملوك .

وروى أنّ العبّاس بن عبد المطلب قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة : يارسولَ الله ، ماترجو لأبى طالب؟ فقال : أرجو له كلّ خير من الله عزّ وجلّ .

وروى أنّ رجلاً من رجال الشّيعة ، وهو أبان بن محمود كتب إلى علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام : جُعلتُ فداك ! إنى قد شككتُ فى إسلام أبى طالب ! فكتب إليه : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تبيّن له الهدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سبيل المؤمنين[1] ...﴾ الآية ، وبعدها إنك إن لم تقرّ بإيمان أبى طالب كان مصيرُك إلى النار .

وقد روى عن علىّ بن محمد الباقر عليه السلام أنه سئل عمّا يقوله الناس : إنّ أبا طالب فى ضَحْضاح من نار؛ فقال : لو وضع إيمان أبى طالب فى كفّة ميزان وإيمان هذا الخلق فى الكفّة الأخرى لرجح إيمانه . ثم قال : ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السلام كان يأمر أن يحَجّ عن عبد الله وأبيه[2] وأبى طالب فى حياته ، ثم أوصى فى وصيته بالحجّ عنهم !

وروى أنّ أبا بكر جاء بأبى قُحافة إلى النبىّ صلّى الله عليه وآله عامَ الفتح يقوده ،

---

(١) سورة النساء :

(٢) فى الأصول : « وابنه » .

وهو شيخ كبير أعمى ، فقال رسول الله : ألا تركت الشيخ حتى نأتيه ! فقال : أردتُ يارسول الله أن يأجره الله! أما والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشدّ فرحا بإسلام عمّك أبي طالب منّي بإسلام أبي ، ألتمس بذلك قُرّة عينك ، فقال : صدقت .

ورُوِيَ أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام سئِل عن هذا ، فقال : واعجبا ! إن الله تعالى نَهَى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر ، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السّابقات إلى الإسلام ، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات .

ويَروِي قوم من الزيديّة أنّ أبا طالب أسند المحدّثون عنه حديثا ينتهي إلى أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سمعتُ أبا طالب يقول بمكة : حدّثني محمد بن أخي أنّ ربّه بعثه بصلَة الرّحم ، وأن يعبده وحده لا يعبد معه غيره ، ومحمد عندي الصادق الأمين .

وقال قوم : إنّ قولَ النبيّ صلّى الله عليه وآله : «أنا وكافلُ اليتيم كهاتين في الجنة» إنما عنى به أبا طالب .

وقالت الإماميّة : إنّ مايرويه العامّة من أنّ عليا عليه السلام وجعفرا لم يأخذا من تركة أبي طالب شيئاً حديث موضوع ، ومذهب أهلِ البيت بخلاف ذلك ، فإن المسلِم عندهم يرثُ الكافر ، ولا يرثُ الكافرُ المسلِم ، ولو كان أعلى درجة منه في النسب .

قالوا : وقوله صلى الله عليه وآله : «لا توارث بين أهل ملّتين» ، نقول بموجبه ، لأنّ التوارث تفاعل ، ولا تفاعلَ عندنا في ميراثهما ، واللفظ يستدعِي الطّرَفين ، كالتضارب لا يكون إلّا من اثنين ، قالوا : وحُبُّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله لأبي طالب معلوم مشهور ، ولو

كان كافرا ماجاز له حبّه لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾[1] الآية .

قالوا : وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله صلى الله عليه وآله لعقيل : « أنا أحبّك حُبّين : حبًّا لك ، وحبًّا لحبّ أبي طالب فإنه كان يحبّك » .

قالوا : وخطبة النّكاح مشهورة ، خطبها أبو طالب عند نكاح محمد صلى الله عليه وآله خديجة ، وهى قوله: « الحمدُ لله الذى جعلنا من ذرّيّة إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكّام على الناس . ثم إنّ محمد بن عبد الله أخي مَنْ لا يوازَن به فتًى من قريش إلا رجّح عليه برًّا وفضلا، وحزما وعقلا ، ورأيا ونُبلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ فإنما المال ظلٌّ زائل ، وعاريةٌ مسترجَعة ، وله فى خديجة بنت خُوَيلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصّداق فعليّ ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل » .

قالوا : أفتراه يعلم نبأه الشائع وخطبه الجليل ، ثم يعانده ويكذّبه ، وهو من أولى الألباب ، هذا غير سائغ فى العقول !

قالوا : وقد روى عن أبي عبدالله جعفر بن محمد عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنّ أصحابَ الكهف أسرُّوا الإيمان ، وأظهروا الكفر فآتاهم الله أجرهم مرتين ، وإنّ أبا طالب أسرّ الإيمان ، وأظهر الشرك ، فآتاه الله أجره مرتين .

وفى الحديث المشهور : إنّ جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب : اخرج منها فقد مات ناصرُك .

قالوا : وأما حديث الضّحضاح من النار ، فإنما يرويه النّاس كلّهم عن رجل واحد ، وهو المغيرة بن شعبة ، وبغضه لبنى هاشم وعلى الخصوص لعليّ عليه السلام مشهور معلوم ، وقصته وفسقه غير خاف .

(١) سورة المجادلة ٢٢

وقالوا: وقد رُوِىَ بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب ، و بعضها عن أبى بكر بن أبى قُحافة، أنّ أبا طالب مامات حتى قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله . والخبر مشهور أنّ أباطالب عند الموت قال كلاما خفيًا ، فأصغى إليه أخوه العباس ، ثمّ رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يابن أخى ، والله لقد قالها عمُّك ، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته .

وروى عن على عليه السلام أنه قال : مامات أبو طالب حتّى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من نفسه الرّضا .

* * *

قالوا : وأشعار أبى طالب تدلّ على أنه كان مسلما ، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمنا إقرارا بالإسلام ، ألا ترى أنّ يهوديًا لو توسّط جماعة من المسلمين ، وأنشد شعرا قد ارتجله ونظمه يتضمّن الإقرار بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ، لكنّا نحكم بإسلامه كما لو قال : أشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله ! فمن تلك الأشعار قوله[1] :

يُرجُّون منّا خطــــة دون نيلِها ضِرابٌ وطعنٌ بالوشيجِ المقوَّمِ
يرجُّون أن نسخَى بقتــــلِ محمّد ولم تختضب سمرُ العوالى من الدّمِ
كذبتم وبيتِ الله حتى تَفلّقوا[2] جماجِمَ تُلقَى بالحطــــيم وزمزم
وتُقطَع أرحامٌ وتَنسى حليــــلةٌ حليلاً ، ويُغشى محرَمٌ بعد محرَمِ
على مامضى من مقتكم وعقوقــكم وغشيانكم فى أمرِكم كلّ مأثمِ
وظلم نبىّ جاء يدعو إلى الهــدى وأمرٍ أتى مِنْ عند ذى العرش قيِّمِ

---

(١) ديوانه ١٥٢ ـ ١٥٤ ؛ من قصيدة أولها :

أَلا مَنْ لِهمٍّ آخرَ اللّيلِ مُعْتِمِ طوانى وأخرى النجم لمّا تقحّمِ

(٢) الديوان : « تعرفوا » .

فَلاَ تحسبونا مُسلِميه فمِثـلُه إذا كان فى قوم فليس بمسلَمِ

* * *

ومن شعر أبى طالب فى أمر الصحيفة التى كتبتها قريش فى قطيعة بنى هاشم :

ألَا أبلغَا عنّى على ذاتِ بينِهـا لؤيًّا وخُصًّا من لؤىّ بنى كعبِ (١)
ألم تعلمُوا أنّا وجـدْنا محمّدا رسولًا كموسى خُطّ فى أوّل الكتبِ
وأنّ عليـه فى العباد محبّـة ولا حيْف فيمن خصّه الله بالحبّ (٢)
وأنّ الذى رَقّشْتُمُ فى كتابكم يكون لكم يوماً كراغيةِ السَّقْب (٣)
أفيقوا أفيقوا قبـل أن تُحفَر الزُّبَى ويصبحَ من لم يجنِ ذنبا كذى ذنب
ولا تتبعوا أمر الغـواة وتقطعُوا أواصرَنا بعـد المودّة والقرب
وتستجلبوا حَرْباً عَوَاناً وربّمـا أمرّ على مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الحربِ
فلسنا وبيتِ الله نُسلِمُ أحمـدا لِعَزّاء من عَضّ الزّمان ولا كرب
ولمّا تَبِنْ مِنّا ومنكمْ سوالفٌ وأيدٍ أُترّت بالمهنّـدة الشُّهْب (٤)
بمعترَكٍ ضَيْق ترى قِصَـد القَنا بهوالضباعَ العُرْجَ تعكِف كالشَّرْب (٥)
كأنّ مجال الخيـل فى حَجَراته وغمغمة الأبطال معركة الحـرب
أليسَ أبونا هاشم شـدّ أزرَهُ وأوصى بنيـه بالطِّعان وبالضرب !
ولسنا نملّ الحـرب حتى تملّنـا ولا نشتكى ممّا ينوب من النُّكْبِ (٦)

---

(١) ديوانه ٢٠ ـ ٢٤ (٢) الديوان : « ولا خير ممن خصه الله » .

(٣) الرغاء : صوت الإبل . والسقب : ولد الناقة .

(٤) أترت : قطعت . والمهندة : السيوف .

(٥) قصد القنا : قطع الرماح المتكسرة .

(٦) النكب والنكبة : المصيبة .

ولكننا أهـــلُ الحفائظ والنُّهى   إذا طار أرواح الكُماة من الرُّعبِ

ومن ذلك قوله :

فلا تَسفِهوا أحلامَكم في محمّدٍ   ولا تَتْبعوا أمرَ الغُواة الأشائمِ (١)

تمنيتمُ أن تقتـــلوه وإنما   أمانيّكم هذي كأحلام نائمِ

وإنّكمُ والله لا تقتـــلونَهُ   ولمّا تروا قَطْفَ اللّحى والجماجمِ (٢)

زعمتم بأنّا مسلمون محمّـــداً   ولمّا نقاذف دونه ونزاحمِ

من القومِ مفضالٌ أبيٌّ على العِدَا   تمكّن في الفرعين من آل هاشمِ

أمينٌ حبيبٌ في العباد مسوّم   بخاتم ربٍّ قاهرٍ في الخـــواتمِ

يَرَى الناسُ برهانا عليه وهيبةً   وما جاهلٌ في قومه مثـــلُ عالمِ

نبيٌّ أتاه الوحْيُ من عنـــد ربّه   ومن قال لا يقرع بها سنَّ نادمِ

ومن ذلك قوله ـ وقد غضب لعثمان بن مظعون الجمحيّ ، حين عذّبته قريش ونالت منه :

أمِنْ تذكّر دهـــر غـــير مأمونِ   أصبحتَ مكتئبا تبكي كمحزونِ (٣)

أمْ مِنْ تذكُّر أقوام ذوي سفـــهٍ   يغشوْن بالظّلم مَنْ يدعو إلى الدّينِ

ألا ترون ـ أذلّ الله جمعكمُ   أنّا غضبنـــا لعثمان بن مَظْعُونِ

ونمنع الضّيْم مَنْ يبغي مَضَامَتَنا   بكلّ مطّردٍ في الكفّ مسنُونِ

ومُرْهفاتٍ كأنّ المِلْحَ خالَطهـــا   يُشْفَى بهـــا الدّاء من هام المجانين

حتى تُقرّ رجالٌ لا حـــلومَ لها   بعـــد الصُّعوبة بالإسماح واللّينِ

---

(١) ديوانه ١٥٥ ـ ١٥٨ ، من قصيدة مطلعها :

لِمَنْ أرْبُعٌ أقْوَيْنَ بَيْنَ القَوَائمِ   أقَمْنَ بِمَدْحَاةِ الرِّيَاحِ التَّوَائمِ

(٢) الديوان : « التلاصم » .

(٣) ديوانه ١٧٣ .

أو تؤمنوا بكتابٍ مُنْزَلٍ عَجَبٍ   عَلَى نبيٍّ كموسَى أو كذِي النّونِ (١)

قالوا : وقد جاء فى الخبر أنّ أبا جهل بن هشام جاء مرّة إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وهو ساجد و بيده حَجَر يريد أن يَرْضَخ به رأسَه، فلصق الحجرُ بكفّه فلم يستطع ماأراد ، فقال أبو طالب فى ذلك من جملة أبيات :

أفيقُوا بنى عَمّنا وانتهُوا   عن الغَىّ من بعضِ ذا المنطقِ (٢)

وإلّا فإنى إذاً خائف   بوائقَ فى داركمْ تلتقِى (٣)

كما ذاق مَنْ كان من قبلِكم   ثمود وعاد ومَاذَا بَقِى !

ومنها :

وأعجب من ذاك فى أمركمْ   عجائب فى الحجَرِ المُلصَقِ

بكفّ الذى قام من حينه   إلى الصابر الصادق المتّقِى

فأثبته الله فى كفِّه   على رَغْمَةِ الخائن الأحمقِ

قالوا : وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنّه كان يقول : أسلم أبو طالب واللهِ بقوله :

نصرت الرّسولَ رسولَ المليكِ   ببيضٍ تلالا كلمع البروقْ (٤)

أذُبُّ وأحمِى رسولَ الإلهِ   حماية حامٍ عليه شفيقْ

وما إنْ أذبُّ لأعدائه   دبيبَ البِكار حذار الفَنِيقْ (٥)

ولكن أزيرُ لهمْ سامياً   كما زار ليثٌ بغِيلٍ مضيقْ

(١) بعده فى الديوان :

يأتِى بأمْرٍ جَلِيٍّ غيرِ ذِى عِوَجٍ   كما تبيَّنَ فى آياتِ ياسينِ

(٢) ديوانه ٩٤   (٣) بعده فى الديوان :

تكونُ لغيرِكمُ عبرةً   وربِّ المَغارِبِ والمشرقِ

(٤) ديوانه ٩٨

(٥) الفنيق : الفحل المكرم على أهله .

قالوا : وقد جاء فى السِّيرَة ، وذكره أكثر المؤرخين ، أنّ عمرو بن العاص لمّا خرج إلى بلاد الحبشة ليكيد جعفرَ بن أبى طالب وأصحابَه عند النجاشىّ ، قال :

تقول ابنتى أين أين الرحيلُ   وما البينُ منّى بمستنكَرِ
فقلتُ دعينى فإنى امرؤٌ   أريدُ النّجاشىّ فى جَعْفَرِ
لأكويَه عنده كَيَّةً   أقيمُ بها نخوة الأصعَرِ
ولن أنثنى عن بَنِى هاشمٍ   بما اسطعت فى الغَيْب والمحضَرِ
وعن عائب اللّات فى قوله   ولولا رضا اللّات لم تمطرِ
وإنى لأشْنَى قريشٍ له   وإن كان كالذّهب الأحمرِ

قالوا : فكان عمرو يُسمى الشانئ ابن الشانئ ، لأن أباه كان إذا مرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة يقول له : والله إنّى لأشنؤك ، وفيه أنزل : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾(١) . قالوا : فكتب أبو طالب إلى النجاشىّ شعرا يحرّضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عمّا يقوله عمرو فيه وفيهم ، من جملته :

ألا ليتَ شعرى كيف فى الناس جعفرٌ   وعمرو وأعداء النّبى الأقاربُ ! (٢)
وهل نال إحسانُ النجاشىّ جعفرا   وأصحابه ، أمْ عاق عن ذاك شاغبُ !

فى أبيات كثيرة .

* * *

قالوا : وروى عن علىّ عليه السلام أنه قال : قال لى أبى : يابنىّ الزم ابنَ عمك ، فإنك تسلم به من كلّ بأس عاجل وآجل ، ثم قال لى :

إنّ الوثيقة فى لزومِ محمّد   فاشدد بصحبته على أيديكا

---

(١) سورة الكوثر.   (٢) ديوانه ٢٥

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله :

إن عليــــا وجعفرا ثقتي عند ملمّ الزّمانِ والنُّوَبِ[1]

لا تخذلا وانصرا ابنَ عمّكما أخي لأمّي من بينهم وأبي

والله لا أخـــذل النبيّ ولا يخذله من بنيّ ذو حَسَبِ

***

قالوا : وقد جاءت الرّواية أنّ أبا طالب لمّا مات جاء عليٌّ عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فآذنه بموته ، فتوجّع عظيما وحزن شديدا ، ثم قال له : امض فتولّ غسله ، فإذا رفعته على سريره فأعلمني ، ففعل فاعترضه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رءوس الرّجال ، فقال : وصلتْك رَحِم ياعمّ ، وجُزيت خيرا ! فلقد ربّيْت وكَفَلْت صغيرا ، ونصرت وآزرت كبيرا ؛ ثم تبعه إلى حفرته ، فوقف عليــه ، فقال : أما والله لأستغفرنّ لك ، ولأشفعنّ فيك شفاعةً يعجب لها الثقلان .

قالوا : والمسلم لا يجوز أن يتولّى غسل الكافر ، ولا يجوز للنبيّ أن يرقّ لـكافر ، ولا أن يدعوَ له بخير ، ولا أن يعدَه بالاستغفار والشفاعة ، وإنما تولّى عليٌّ عليه السلام غسله ، لأن طالبا وعَقِيلا لم يكونا أسلما بعد ، وكان جعفر بالحبشة ، ولم تكُنْ صلاة الجنائز شُرعت بعد ، ولا صلى رسول الله صلى الله عليــه وآله على خديجة ، وإنما كان تشييعٌ ورقّةٌ ودعاء .

قالوا : ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة ، وكان يكنى أبا يعلى :

فصبرا أبا يعلَى على دين أحمـدٍ وكن مظهرا للـدين وفّقت صابرًا

وحُطْ من أتى بالحق من عنـد ربه بصدقٍ وعزم لا تكن حمزُ كافرا

فقــد سرّني إذ قلت إنك مؤمنٌ فكن لرســول الله في الله ناصرًا

---

(١) ديوانه ٤٢

وبادِ قريشاً بالّذى قد أتيتـــــه جهاراً وقل ما كان أحمـد ساحرا

قالوا : ومن شعره المشهور :

أنت النبيُّ محمـدُ قَرْمٌ أعزّ مسوّدُ (١)
لمسـوّدين أكارمٍ طابوا وطـاب المولدُ
نعم الأرومة أصلُها عمرو الخِضَمّ الأوحدُ (٢)
هشَم الرّبيكة فى الجِفا ن وعيشُ مكةَ أنكدُ (٣)
فجرت بذلك سُنّـةٌ فيهـا الخبيزة تثردُ (٤)
ولنا السقاية للحجيـــج بها يُماث العُنجدُ (٥)
والمأزِمان وما حوتْ عرَفاتُهـا والمسجـدُ
أنى تضامُ ولم أمُتْ وأنا الشُّجاعُ العِرْبدُ (٦)
وبطاح مكّة لا يُرى فيها نجيعٌ أسودُ
وبنو أبيـك كأنّهمْ أسدُ العـرين توقّدُ
ولقـد عهدتك صادقاً فى القـوْل لا تتزيّد
ما زالت تنطق بالصوا ب وأنت طِفْل أمردُ

قالوا : ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمـدا ، ويسكّن جأشـه ، ويأمره باظهار الدعوة :

لا يمنعنّـك من حقٍّ تقوم به أيدٍ تصولُ ولا سَلْق بأصوات (٧)

---

(١) ديوانه ٧٠ ــ ٧٢

(٢) الخضمّ : الـكثير العطاء . (٣) الربيكة : طعم يعمل من تمر وأقط وسمن .

(٤) الخبيزة : الخبز ، وفى الأساس : « تردت الخبز أثرده ؛ وهو أن تفته ثم تبله بمرق » .

(٥) العنجد : الزبيب . (٦) العربد فى الأصل : الحية ؛ وهو كناية عن الشجاعة

(٧) ديوانه ٥٠

فإن كفك كفى إن بليت بهم   ودون نفسك نفسى فى الملمّاتِ

ومن ذلك قوله ، ويقال إنها لطالب بن أبى طالب :

إذا قيل مَن خيرُ هذا الورى   قبيلاً وأكرمُهم أسرهْ(١) ؟

أناف لعبدِ مناف أبٌ   وفضّله هاشم العزّهْ

لقد حلّ مجد بنى هاشمٍ   مكان النعائم والنّثرهْ

وخير بنى هاشم أحمد   رسول الإله على فترهْ

ومن ذلك قوله :

لقد أكرم الله النبيّ محمدا   فأكرمُ خلق الله فى النّاس أحمدُ(٢)

وشقّ له مِنْ اسمِهِ ليجُلّه   فذُو العرش محمود وهذا محمّد

وقوله أيضا ، وقد يروى لعلى عليه السلام :

ياشاهد الله علىّ فاشهدِ(٣)   أنّى على دين النبيّ أحمدِ

* مَنْ ضلّ فى الدين فإنى مهتدِ *

قالوا : فكلّ هذه الأشعار قدجاءت مجىء التواتر ، لأنه إن لم تكن آحادها متواترة، فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك ؛ وهو تصديق محمد صلى الله عليه وآله ، ومجموعها متواتر كما أنّ كلّ واحدة من قتلات على عليه السلام الفرسان منقولة آحادا ، ومجموعها متواتر ، يفيدنا العلم الضّروريّ بشجاعته ، وكذلك القول فيما رُوِى من سخاء حاتم ، وحلْم الأحنف ومعاوية ، وذكاء إياس وخلاعة أبى نواس ، وغير ذلك ، قالوا : واتركوا هذا كلّه جانبا ، ما قولكم فى القصيدة اللاّمية التى شهرتها كشهرة " قفانبك " وإن جاز الشكّ فيها أوفى شىء من أبياتها ، جاز الشك فى " قفانبك " وفى بعض أبياتها، ونحن نذكر منها هاهنا قطعة وهى قوله :

---

(١) ديوانه ٥٠

(٢) ديوانه ٧٥

(٣) ديوانه ٧٥

أعُوذ بربّ البيْت من كلّ طاعنٍ ... علينا بسوء أو يلوح بباطلِ (١)
ومن فاجر يغتابُنا بمغيبــةٍ ... ومنْ ملحق فى الدّين مالم نحاولِ
كَذَبْتُم وبيتِ الله يُبزَى ... ولمّا نطاعنْ دونه ونناضل (٢)
وننصره حــتى نصرّعَ دُونه ... ونَذْهَل عن أبنائنا والحلائلِ
وحتى نرى ذا الرّدْع يركب رَدْعَهُ ... من الطّعن فعل الأنكب المتحامل (٣)
وينهض قومٌ فى الحديد إليكمُ ... نهوض الرّوايا تحت ذات الصّلاصل (٤)
وإنّا وبيت الله مَنْ جَدّ جدّنا ... لتلتبسنْ أسيافُنا بالأماثل (٥)
بكلّ فتًى مثلِ الشّهاب سَمَيْذَعٍ ... أخِى ثقة عندَ الحفيظة باسلِ
وما تَرْكُ قومٍ لا أبالك سيّداً ... يحُوط الذّمار غير نِكْسٍ مواكلِ (٦)
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثِمَالُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل (٧)
يَلُوذُ به الهُلّاكُ من آل هاشمٍ ... فهم عنده فى نعمــة وفواضلِ
وميزان صِدْقٍ لا يخيس شَعيرة ... ووزّان صدق وزنه غير عائل (٨)
ألم تعلموا أن ابننا لا مكذّب ... لدَيْنا، ولا يعبا بقول الأباطلِ !
لعمرى لقد كلّفت وجدا بأحمدٍ ... وأحببته حبّ الحبيب المواصِــل
وجُــدتُ بنفسى دونه لحميتهُ ... ودافعتُ عنه بالذّرَى والكواهل
فلا زال للدّنيا جمالا لأهلهـا ... وشَيْناً لمنْ عادَى وزينَ المحافل
وأيّده ربُّ العبــاد بنصره ... وأظهر ديناً حقّه غــير باطل

***

(١) ديوانه ١٠٠ ــ ١٣٤ (٢) نبزى ، أى تغلب
(٣) يركب ردعه : يخرّ لوجهه على دمه ، والردع : اللطخ والأثر من الدم .
(٤) الروايا : جمع راوية ؛ وهو البعير يستقى عليه . وذات الصلاصل : المزادة التى ينقل فيها الماء ، والصلاصل جمع صلصلة ، وهى بقية الماء فى الإداوة .
(٥) الأماثل : الأشراف (٦) الديوان : « غير ذرب » .
(٧) ثمال اليتامى : عمادهم . (٨) يقال : عال الميزان يعول ، إذا مال .

وورد فى السيرة والمغـازى أنّ عتبة بن ربيعة أو شيبة لمّا قطع رجْل عبيدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر أشبل[1] عليه عليّ وحمزة فاستنقذاه منه وخبطا عتبة بسيفهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش ، فألقياه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ مخّ ساقه ليسيل ، فقال : يارسولَ الله ، لوكان أبو طالب حيًّا لعلم أنه قد صدق فى قوله :

كَذبتمْ وبيتِ الله نُخلى محمـدا ولمّا نطاعِنْ دُونَه ونـنـاضِل
وننصرُه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنـائنا والحـلائل

فقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وآله استغفر له ولأبى طالب يومئذ ، وبلغ عبيدة مع النبى صلى الله عليه وآله إلى الصَّفْراء فمات فدفن بها .

قالوا : وقد روى أنّ أعرابيًّا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فى عام جَـدْب ، فقال : أتيناك يارسول الله ولم يبق لنا صبىٌّ يرتضع ، ولا شارف[2] يجتر ثم أنشده :

أتيناك والعـذراء تَدمَى لبانُـها وقد شغلت أمّ الرضيع عن الطِّفْلِ
وألقى بكفّيهِ الفتى لاستـكانةٍ من الجوع حتى ما يُمِرُّ ولا يُحْـلِى
ولا شىءَ مما يأكل النّاس عندنا سوى الحنظل العامِىِّ والعِلهزِ الفَسْلِ
وليس لنا إلا إليـــك فرارُنا وأين فرار الناس إلاّ إلى الرسل !

فقام النبى صلى الله عليه وآله يجرّ رداءه ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريئا هنيئا ، مريعا سَحًّا سجالا ، غدقًا طبقًا قاطبا ، دائما درًّا تحيى به الأرض ، وتنبت به الزرع ، وتدرّ به الضَّرع ، واجعله سقيا نافعا عاجلاً غير رائث » . فوالله ، ماردّ رسول الله صلى الله عليـه وآله يدَه إلى نحره حتى ألقت السّماء

(١) أشبل : عطف
(٢) الشارف : الناقة .

أرْواقها ، وجاء الناس يضجّون: الغرقَ الغرقَ يارسول الله ! فقال : اللهمّ حوالَينا ولاعلينا، فانجاب السَّحاب عن المدينة حتى استدارَ حولها كالإكليل .

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : لله درُّ أبي طالب ! لو كان حيًّا لقرّت عينه . منْ يُنشِدنا قوله ؟ فقام عليّ فقال : يارسولَ الله ، لعلك أردت :

* وأبيض يُسْتَسقَى الغمامُ بوجهه *

قال : أجل ، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة ، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر ؛ ثم قام رجل من كنانة فأنشده :

لك الحمدُ والحمدُ ممّن شَكَرْ ... سُقينا بوجهِ النبيّ المَطَرْ
دعا الله خالقَه دعوةً ... إليه ، وأشخصَ منه البصرْ
فما كانَ إلّا كما ساعةٍ ... أو اقصرَ حتى رأينا الدِّرَر
دِفاقَ العزالِي وَجمّ البعاق[(١)] ... أغاثَ به الله عُليا مُضَرْ
فكان كما قاله عمّه ... أبو طالبٍ ذُو رُواء غُرَرْ
به يَسّر اللهُ صوْبَ الغمامِ ... فهذا العِيانُ وذاك الخَبَرْ
فمن يَشْكُرِ الله يَلْقَ المزيدَ ... وَمَنْ يَكْفُرِ الله يَلْقَ الغِيَرْ

فقال رسول الله : إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت .

قالوا : وإنّما لم يظهِر أبو طالب الإسلامَ ويجاهر به ، لأنه لو أظهره لم يتهيّأ له من نُصْرة النبيّ صلّى الله عليه وآله ماتهيّأ له ، وكان كواحدٍ من المسلمين الّذين اتبعوه ، نحو أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهما ممّن أسلم ، ولم يتمكّن من نُصْرته والقيام دونه

(١) العزالى : جمع عزلاء ، وهى فى الأصل : مصب الماء من القربة والراوية ، ويقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر : قد حلت عزاليها ، وأرسلت عزاليها . والبعاق : المطر الذى ينبعق بالماء .

حينئذ ، وإنّما تمكّن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات فى الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام؛ كما لو أنّ إنسانا كان يُبْطِن التشيّع مثلا ، وهو فى بلد من بلاد الكرّامية ، وله فى ذلك البلد وَجاهة وقدَم ، وهو يُظْهر مذهبَ الكرّامية ، ويحفظُ ناموسه بينهم بذلك ، وكان فى ذلك البلد نفرٌ يسير من الشّيعة لا يزالون يُنالون بالأذى والضّرر من أهل ذلك البلد ورؤسائه ، فإنّه مادام قادرا على إظهار مذهب أهلِ البلد ، يكون أشدّ تمكّنا من المدافعة والمحاماة عن أولئك النّفر ، فلو أظهر مايجوز من التشيّع ، وكاشف أهل البلد بذلك، صار حكمُهُ حكم واحد من أولئك النّفر ، ولحقه من الأذى والضّرر مايلحقهم ، ولم يتمكّن من الدفاع أحيانا عنهم كما كان أولا .

قلت : فأمّا أنا فإنّ الحال ملتبسةٌ عندى ، والأخبار متعارضة ؛ والله أعلم بحقيقة حاله كيف كانت (١) .

ويقف فى صدرى رسالة النفس الزكية (٢) إلى المنصور ، وقوله فيها : « فأنا ابنُ خير الأخيار ، وأنا ابن شرّ الأشرار ، وأنا ابن سيّد أهل الجنّة ، وأنا ابن سيّد أهل النار » .

فإنّ هذه شهادة منه على أبى طالب بالكفر ، وهو ابنه وغير متّهم عليه ، وعهده قريب من عهد النّبىّ صلّى الله عليه وآله ، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلا .

وجملة الأمر أنه قد رُوِى فى إسلامه أخبار كثيرة ، وروى فى موته على دين قومه أخبار كثيرة ، فتعارَض الجرْح والتّعديل ، فكان كتعارض البيّنتين عند الحاكم ، وذلك يقتضى التوقّف ، فأنا فى أمره من المتوقّفين .

---

(١) وضع الشيخ المفيد رسالة فى إيمان أبى طالب ، طبعت فى مجموعة نفائس المخطوطات ، العدد الثالث من المجموعة الأولى . طبعت فى النجف سنة ١٩٥٦ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الملقب بالأرقط وبالمهدى وبالنفس الزكية ، خرج على المنصور ثائرا لمقتل أبيه بالكوفة فى مائتين وخمسين رجلا ، فقبض على أمير المدينة ، وبايعه أهلها فانتدب المنصور لقتاله ولىّ عهده عيسى بن موسى ، فسار إليه ، وانتهى الأمر بقتله سنة ١٤٥ . (مقاتل الطالبيين ٢٣٢) .

فأمّا الصلاة وكونه لم يُنقل عنه أنّه صلّى، فيجوز أن يكون لأنّ الصلاة لم تكن بعد قد فرضت، وإنّما كانت نفلا غير واجب، فمن شاء صلّى، ومن شاء ترك، ولم تفرض إلّا بالمدينة، ويمكن أنْ يقول أصحابُ الحديث: إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه، فالترجيح عند أصحاب أصولِ الفقه لجانب الجرح، لأن الجارح قد اطّلع على زيادة لم يطّلع عليها المعدِّل.

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول: إنّ هذا إنما يقال ويذكر فى أصول الفقه فى طعن مفصّل فى مقابلة تعديل مجمل، مثاله أن يروِيَ شُعبةُ مثلا حديثا عن رجل، فهو بروايته عنه قد وثّقه، ويكفى فى توثيقه له أن يكون مستور الحال، ظاهرُه العدالة، فيطعن فيه الدّارقطنيّ مثلا بأن يقول: كان مدلّسا، أو كان يرتكب الذّنب الفلانيّ، فيكون قد طعن طعنا مفصلا فى مقابلة تعديل مجمل، وفيما نحن فيه وبصدده الرّوايتان متعارضتان تفصيلا لا إجمالا، لأن هؤلاء يروُون أنّه تلفظ بكلمتَى الشهادة عند الموت، وهؤلاء يروُون أنّه قال عند الموت: أنا على دين الأشياخ.

وبمثل هذا يجاب مَنْ يقول من الشيعة: روايتنا فى إسلامه أرجح، لأنا نروِى حكما إيجابيا ونشهد على إثبات، وخصومنا يشهدون على النّفى، ولا شهادة على النفى، وذلك أنّ الشهادة فى الجانبيْن معا، إنما هى على إثبات، ولكنه إثبات متضادّ.

وصنّف بعض الطالبيين فى هذا العصر كتاباً فى إسلام أبى طالب، وبعثه إلىّ، وسألنى أن أكتب عليه[1] بخطّى نظما أو نثرا أشهد فيه بصحّة ذلك، وبوثاقة الأدلّة عليه، فتحرّجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً، لما عندى من التوقّف فيه، ولم أستجز أنْ أقعدَ عن تعظيم أبى طالب، فإنّى أعلم أنّه لولاه لما قامت للإسلام دِعامة. وأعلم أنّ حقّه واجب على كلّ مسلم فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة، فكتبت على ظاهر المجلّد:

---

(١) ساقطة من ب.

ولَوْلَا أبو طـــالبٍ وابنُهُ ... لما مُثِّل الدِّين شَخْصاً فقاما
فذاك بمكّةَ آوى وحامَى ... وهذا بيثرِبَ جسّ الحِمـاما[1]
تـكفَّلَ عبدُ مناف بأمرٍ ... وأودى فكان علىٌّ تماما
فقل فى ثَبِيرٍ مضى بعد ما ... قَضَى ماقضاه وأبقى شَمـاما
فلله ذا فاتحاً للـــهُدَى ... ولله ذا للمعالى خِتـــاما
وما ضَرَّ مجدَ أبى طالب ... جهولٌ لغَـا أو بصيرٌ تعامَى
كما لا يضرُّ إياةَ الصباحِ[2] ... مَنْ ظنَّ ضوء النهار الظلاما

فوفَّيته حقَّه من التعظيم والإجلال ، ولم أجزم بأمر عندى فيه وقفة .

[قصة غزوة بدر]

الفصل الثالث : فى شرح القصّة فى غزاة بدر ، ونحن نذكر ذلك من كتاب " المغازى " لمحمد بن عمر الواقدىّ ، ونذكر ماعساه زاده محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " ، وما زاده [أحمد بن][3] يحيى بن جابر البلاذُرىّ فى " تاريخ الأشراف " .

قال الواقدىّ : بلغ[4] رسولَ الله صلى الله عليه وآله أنّ عِيرَ قريشٍ قد فصَلت من مكّة تريد الشّام ، وقد جمعت قريش فيها أموالَها ، فندب لها أصحابه ، وخرج يعترضُها على رأس ستّة عشر شهراً من مهاجَرِه عليه السلام ، فخرج فى خمسين ومائة ـ ويقال فى مائتين ـ فلم يلقَ العير ؛ وفاتته ذاهبةً إلى الشام . . وهذه غزاة ذى العُشَيرة ، رجع منها إلى المدينة فلم يلقَ حربا ، فلما تحيّن انصراف العِير من الشام قافلةً ندب أصحابه لها ، وبعث طلحة بن عُبيد الله وسَعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل قبـل خروجه من المدينة بعشرِ ليـال ،

---

(١) ا : « حسن » .
(٢) إياة الصبح : ضوءه ، وأصله فى الشمس .
(٣) من ا
(٤) مغازى الواقدى ص ١١ وما بعدها .

يتجسّسان خبر العير ، حتى نزلا على كشد [1] الجهنيّ بالموضع المعروف بالنخبار [2] ، وهو من وراء ذِي المَرْوة على السّاحل ، وفأجارهما وأنزلهما ، فلم يزالا مقيمين فى خِباء وبَرٍ حتى مرّت العير ، فرفعهما على نَشَزٍ من الأرض ، فنظرا إلى القوم وإلى ماتحمل العير ، وجعل أهل العير يقولون لكشد : يا كشد ، هل رأيتَ أحدا من عيون محمد ؟ فيقول : أعوذ بالله، وأنّى لمحمد عيون بالنخبار ! فلمّا راحت العير باتاحتى أصبحا ثم خرجا ، وخرج معهما كشد خفيرا ، حتى أوردهما ذا المَرْوَة ، وساحلت العير فأسرعت ، وسار بها أصحابُها ليلاً ونهارا، فَرَقاً من الطّلب ، وقدم طلحة وسعيد المدينة فى اليوم الّذِي لَقِيَ رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً ببدر ، فخرجا يعترضان رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فلقياه بتربان — وتُربان بين مَلَلٍ والسّيالة على المحجّة ، وكانت منزل عروة ابن أذينة الشاعر — وقدِم كشد بعد ذلك على النبي صلى الله عليه وآله ، وقد أخبر طلحة وسعيد رسول الله صلى الله عليه وآله بما صَنَع بهما ، فحباه وأكرمه ، وقال : ألا أقطع لك ينبع ؟ قال : إنى كبير : وقد نفد عمرى ، ولكن أقطِعها لابن أخى ، فأقطَعَها له [3] .

قالوا : وندب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين ، وقال : هذه عِير قريش ، فيها أموالُهم : لعلّ الله أن يغنّمكموها ، فأسرع مَنْ أسرع ، حتى إنْ كان الرجل ليساهِم أباه فى الخروج ، فكان ممّن ساهم أباه سعد بن خَيْثمة ، فقال سعد لأبيه : إنّه لو كان غير الجنة آثرتك به ، إنّى لأرجُو الشهادة فى وجهى هذا ، فقال خيثمة : آثرنى وقرّ مع نسائك ، فأبى سعد ، فقال خيثمة : إنه لابدّ لأحدنا من أن يقيم ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فقتل ببدر . وأبطأ عن النبي صلى الله عليه وآله بشرٌ كثير من أصحابه ، وكرهوا خروجَه ، وكان فى ذلك كلام كثير ، واختلاف ، وبعضهم تخلّف من أهل النّيات والبصائر ، لم يظنّوا أنه يكون قتال ، إنّما هو الخروجُ للغنيمة ، ولو ظنّوا أنه يكون قتال لما تخلّفوا ؛ منهم أسَيْد

(١) فى الإصابة : كسد بالسين المهملة وما أثبته من الأصول يوافق ما فى المغازى .

(٢) فى مغازى الواقدى : « النخبار من وراء ذى المروة على الساحل » .

(٣) الخبر فى الإصابة ٣ : ٣٧٧ .

ابن حُضَير ، فلما قدِم رسول الله صلى الله عليـه وآله ، قال أُسَيْد : الحمد لله الّذى سرّك وأظهرك على عدوّك ، والّذى بعثك بالحقّ ماتخلّفتُ عنك رغبةً بنفسِى عن نفسك ، ولا ظننت أنّك تلاقى عَدُوًّا ، ولا ظننتُ إلّا أنها العِير ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : صدقت .

قال : وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليـه وآله ، حتّى انتهى إلى المكان المعروف بالبُقْع [(١)] وهى بيوت السُّقيا [(٢)] ، وهى متصلة ببيوت المدينة ، فضرب عسكره هناك ، وعرض المقاتلة ، فعرض عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، والبَرَاء بن عازب ، وأُسَيد بن ظُهَير ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، فردّهم ولم يُجِزْهُم .

قال الواقدىّ : فحدّثنى أبو بكر بن إسماعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : رأيتُ أخِى عمير بن أبى وقّاص قبل أن يعرضَنا رسولُ الله صلى الله عليـه وسلّم يتوارَى ، فقلت : مالك ياأخى ؟ قال : إنّى أخافُ أن يَرانى رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرَنى ، فيردّنى ، وأنا أحبّ الخروجَ ، لعلّ الله أن يرزقَنِى الشهادة . قال : فعُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستصغره ، فقال : ارجِـعْ ، فبكى [عمير] [(٣)] ، فأجازه .

قال : فـكان سعد يقول : كنت أعقِد له حمائلَ سيفهِ من صِغَرِه ، فقتِل ببدر وهو ابن ستّ عشرةَ سنة .

قال : فلمّا نزلَ عليه السلام بيوت السُّقْيا أمرَ أصحابَه أن يستقُوا [(٤)] من بئرهم ، وشرب عليه السلام منها ، كان أوّل مَنْ شرِب وصلّى عندها ، ودعا يومئذ لأهل المدينة ، فقال :

---

(١) قال ياقوت « البقع : اسم بئر بالمدينة » ، وقال الواقدى : « البقع من السقيا التى بنقب بنى دينار بالمدينة »

(٢) فى ياقوت : « عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقى الماء العذب من بيوت السقيا ، وفى حديث آخر : كان يستعذب الماء العذب من بيوت السقيا ، والسقيا : قرية جامعة من عمل الفرع ، بينهما مما يلى الجحفة تسعة عشر ميلا ... وقال ابن الفقيه : السقيا من أسافل أودية تهامة .

(٣) من ا والواقدى .

(٤) ب : « يستسقوا » ، وأثبت ما فى ا والواقدى .

اللهمّ إنّ إبراهيم عبدُك وخليلُك ونبيّك ، دعاك لأهلِ مكة ، وإنّى محمد عبدُك ونبيّك ، أدعوك لأهلِ المدينة ، أن تبارك لهم فى صاعِهم ومُدّهم وثمارهم ، اللهمّ حَبِّب إلينا المدينة ، واجعل مابها من الوباء بخُمّ . اللهمّ إنى حرّمت مابين لابَتَيْها ، كما حرّم إبراهيم خليلك مكة .

قال الواقدىّ : وخُمّ على ميلين من الجحفة .

وقدّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمامه عدىّ بن أبى الزّغباء ، وبسبس بن عمرو ، وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حزام ، فقال : يارسولَ الله ، لقد سرّنى منزلُك هذا ، وعرضُك فيه أصحابَك ، وتفاءلت به ، إنّ هذا منزلنا بنى سلِمة ، حيث كان بيننا وبين أهل حُسَيكة ما كان .

قال الواقدىّ : هى حُسَيكة [1] الذّباب ، والذّباب [2] : جبل بناحية المدينة ، وكان بحُسَيكةَ يهود ، وكان لهم بها منازل .

قال عبد الله بن عمرو بن حزام : فعرضنا يارسولَ الله هاهنا أصحابنا ، فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح ، ورددْنا مَنْ صغُر عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حُسَيكة ، وهم أعزّ يهود كانوا يومئذ ، فقتلناهم كيف شئنا ، فذلّت لنا سائرُ [3] يهود إلى اليوم ، وأنا أرجو يارسولَ الله أن نلتقِىَ نحن وقريش ، فيقرّ الله عينَك منهم .

قال الواقدىّ : وكان خلّاد بن عمرو بن الجموح لمّا كان من النّهار رجع إلى أهله بخُرْباء ، فقال له أبوه عمرو بن الجموح : ماظننت إلّا أنكم قد سِرْتم ، فقال : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يعرِض الناس بالبقيع ، فقال عمرو : نعم الفأل ! والله إنى لأرجو أن تغنموا وأن تظفرُوا بمشركى قريش ، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حُسَيكة . قال : فإنّ

---

(١) حسيكة ، ضبطه ياقوت بالتصغير ، وقال : هو موضع بالمدينة فى طرف ذباب .

(٢) ضبطه ياقوت : « بكسر أوله وباءين » ، وقال : جبل بالمدينة له ذكر فى المغازى والأخبار .

(٣) ب : « اليهود » .

رسول الله صلى الله عليه وآله قد غيّر اسمه ، وسمّاه السقيا . قال : فكانت في نفسي أن اشتريها ، حتى اشتراها سعدُ بن أبي وقّاص ببَكْرين ، ويقال بسبع أواق ، فذكِر للنبي صلى الله عليه وآله أنّ سعدا اشتراها ، فقال : ربح البيع !

قال الواقديّ : فراح رسولَ الله صلى الله عليه وآله من بيوت السّقْيا ، لاثنتي عشرة ليلة [١] مضت من رمضان ، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة ، وتخلّف ثمانية، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، فكانت الإبل سبعين بعيراً ، وكانوا يتعاقبون الإبل: الاثنين ، والثلاثة ، والأربعة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى بن أبي طالب عليه السلام ومَرْثد بن أبي مَرْثد ـ ويقال زيد بن حارثة مكان مَرْثَد ـ يتعاقبون بعيراً واحدا ، وكان حمزة بن عبد المطلب ، وزيد ابن حارثة ، وأبو كبشة ، وأنسة ، موالى النبي صلى الله عليه وآله على بعير ، وكان عُبيدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث ، ومسطح بن أُثاثة على بعير لعبيدة بن الحارث ناضح [٢] ابتاعه من أبي داود المازنيّ ، وكان مُعاذ وعوف ومعوّذ بنو عفراء ومولاهم أبو الحمراء على بعير ، وكان أبيّ بن كعب وعُمارة بن حِزام وحارثة بن النّعمان على بعير ، وكان خِراش ابن الصِّمّة وقُطْبة بن عامر بن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير ، وكان عُتْبة ابن غَزْوان وطليب بن عمير على جَمَلٍ لعتبة بن غزوان يقال له العَبْس ، وكان مصعب ابن عمير وسُويبط بن حَرْملة ومسعود بن ربيع على جمل لمُصعب ، وكان عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود على بعير ، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازنيّ وسليط بن قيس على جملٍ لعبد الله بن كعب ، وكان عثمان بن عفّان وقُدامة بن مظعون وعبد الله بن مَظْعون والسائب بن عثمان على بعير يتعاقبون ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف على بعيرٍ ، وكان سعد بن مُعاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوْس والحارث بن أنس على جمل لسعْد بن مُعاذ ناضحٍ يقال له الذيّال ، وكان سعيد بن زيد ، وسلمة بن

---

(١) ساقطة من ب

(٢) الناضح : البعير يستقى عليه الماء .

سلامة بن وقش ، وعباد بن بشر ، ورافع بن يزيد على ناضحٍ لسعيد بن زيد ، ماتزوّدُوا إلّا صاعاً من تمر .

قال الواقدىّ : فروى مُعاذ بن رفاعة ، عن أبيه ، قال : خرجت مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بدر ، وكان كلّ ثلاثة يتعاقبون بعيراً ، فكنت أنا وأخى خلّاد بن رافع على بكْرٍ لنا ومعنا عُبيدة بن يزيد بن عامر ،فكنّا نتعاقب ، فسِرْنَا حتّى إذا كنّا بالرَّوْحاء إذ مرّ بنا بَكْرنا و برك علينا وأعيا، فقال أخى : اللهمّ إن لك علىّ نذراً ، لئن رددتَنا إلى المدينة لأنحرنّه ، فمرّ بنا النبىّ صلى الله عليه وآله ونحن على تلك الحال ، فقلنا : يارسول الله برك علينا بكرُنا ، فدعا بماء فتمضمض وتوضّأ فى إناء ، ثم قال : افتحا فاه ، ففعلنا فصبّه فى فيه ، ثم على رأسه ثم على عنقه ، ثم على حاركه ، ثم على سَنَامه ، ثم على عَجُزه ، ثم على ذَنَبه ، ثم قال : اركبا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله فلحقناه أسفلَ من المنصرف ، وإنّ بكرنا لينفِر بنا ، حتى إذا كنّا بالمصلّى راجعين من بدر ، برك علينا ، فنحرَه أخى ، فقسّم لحمَه وتصدّق به .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أنّ سعد بن عُبادة حَمَل فى بدر على عشرين جملا .

قال : ورِوى عن سعد بن أبى وقّاص ، أنّه قال : فخرجنا إلى بَدْرٍ مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومعنا سبعون بعيرا فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على بعير ، وكنتُ أنا من أعظم أصحابِ النبى عليه السلام عنه غَناء ، وأرجلهم رُجْلَة(١) ، وأرْمَاهم لِسَهْمٍ ، لم أركب خطوة ذاهبا ولا راجعا .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين فصل من بيوت السقيا : اللهمّ إنهم حُفاةٌ فاحمِلهم ، وعراةٌ فاكسُهم ، وجياع فأشبِعهم ، وعالةٌ فأغنِهم من فضلك؛ فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلّا وجد ظهراً ، للرّجُل البعير والبعيران ، واكتسى

---

(١) الرجلة بالضم : القوة على المشى

مَنْ كانَ عارياً ، وأصابوا طعاما من أزوادهم ، وأصابوا فداء الأسرى[١] ، فأغنى به كلّ عائل .

قال : واستعمل رسولُ الله صلى الله عليه وآله على المشاة قيس بن أبي صعصعة ـ واسم أبي صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبذول ـ وأمره النبيّ صلّى الله عليه وآله حين فصَل من بُيُوت السقيا أن يعدّ المسلمين ، فوقف لهم ببئر أبي عبيدة يعدّهم ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وآله ، وخرج من بُيوت السقيا ، حتى سلك بطن العقيق ، ثم سلك طريق المكيمن[٢] ، حتى خرج على بطحاء بن أزهر ؛ فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك ، فبنى منها مسجدا ، فصلّى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ؛ ثم صار إلى بطن مَلَل وتُرْبان بين الحفيرة ومَلَل .

قال الواقديّ : فكان سعد بن أبي وقّاص ، يقول : لما كنّا بتُرْبان ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : يا سعد ، انظر إلى الظّبي ، فأفوّق له بسهم ، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله فوضع رأسه بين مَنكِبي وأذني ، ثم قال : اللهمّ سدّد رميته ـ قال: فما أخطأ سهمي عن نحره ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرجت أعدُو فأخذته و به رَمَق فذكّيته[٣] ، فحملناه حتى نزلنا قريباً ، أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله فقسِم بين أصحابه .

قال الواقديّ : وكان معهم فرَسان : فرس لمرثَد بن أبي مرثَد الغنويّ، وفرس للمقداد ابن عمرو البهرانيّ ، حليف بني زُهرة ، ويقال فرس للزبير؛ ولم يكن إلّا فرَسان لا اختلاف عندهم[٤]، أنّ المقداد له فرس ؛ وقد روى عن ضُباعة بنت الزُّبير عن المقداد ،

(١) ا : « للأسرى » .
(٢) المكيمن ، ضبطه ياقوت على التصغير ، وقال : « عقيق المدينة » وفي الواقدي : « المكتمن » .
(٣) ذكيته . ذبحته .
(٤) الواقدي : « عندهم » .

قال : كان معى يوم بَدْر فرس يقال له سبحة . وقد روى سعد بن مالك الغَنَوىّ عن آبائه أن مرثد بن أبى مرثد الغَنَوى شهد بدراً على فرس له يقال له السّيل .

قال الواقدىّ : ولحقت قريش بالشام فى عيرها ، وكانت العير ألفَ بعير ، وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكّة قرشىٌّ ولا قرشيّة له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى العِير ؛ حتى إنّ المرأة لتبعثُ بالشىء التافه ، وكان يقال : إن فيها لخمسين ألف دينار . وقالوا : أقلّ ، وإن كان ليقال : إنّ أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبى أُحَيْحة إمّا مال لهم أو مال مع قوم قراض على النّصف ، وكان عامّة العير لهم ؛ ويقال : بل كان لبنى مخزوم فيها مائتا بعير وخمسةأوأربعة آلاف مثقال ذهبا ، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفَا مثقال .

قال الواقدىّ : وحدّثنى هشام بن عمارة بن أبى الحويرث ، قال: كان لبنى عبدمناف فيها عشرة آلاف مثقال ، وكان مَتْجَرُهم إلى غَزّة من أرض الشام .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الله بن جعفر ، عن أبى عوْن مولى المسور ، عن مَخْرمة ابن نوفل ، قال : لما لحقنا بالشّام أدركنا رجلٌ من جُذام ، فأخبرنا أنّ محمدا قد كان عرض لعيرنا فى بدأتنا ، وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتنا ، قد حالف علينا أهلَ الطريق ووادَعهم . قال مخرمة : فخرجنا خائفين نخاف الرّصَد ، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فَصَلْنا من الشام .

قال الواقدىّ : وكان عمرو بن العاص مع العير ، وكان يحدّث بعد ذلك يقول : لما كنا بالزّرقاء ــ والزرقاء بالشام من أذرِعات على مرحلتين ــ ونحنُ منحدرون إلى مكّة لقينا رجلًا من جُذام ، فقال : قد كان عرض محمد لكم فى بدأتكم فى أصحابه ، فقلنا : ما شعرنا ، قال : بلى ، فأقام شهرا ، ثم رجع إلى يثرب ، وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفّون فهو الآن أحرى أن يعرِض لكم ؛ إنّما يَعُدّ لكم الأيام عدًّا ، فاحذروا على عيركم ،

وارتئوا آراءكم ، فوالله ما أرى من عَدد ولا كُراع ولا حَلْقة(١) . فأجمع القوم أمرهم ، فبعثوا ضمضم بن عمرو ، وكان في العير ، وقد كانت قريش مرّت به وهو بالساحل ، معه بكران ، فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أنّ محمدا قد عرَض لعيرهم ، وأمره أن يجدَع بعيره إذا دخل ، ويحوّل رحله ، ويشقّ قميصَه من قُبُلِه ودُبُره ، ويصيح : الغوثَ الغوثَ ! ويقال : إنّما بعثوه من تَبُوك ، وكان في العير ثلاثون رجلا من قريش ؛ فيهم عمرو بن العاص ، ومَخرمة بن نوفل .

قال الواقديّ : وقد كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأتْ قبل مجيء ضمضم بن عمرو رؤيا أفزعتْها ، وعظُمت في صدرها ، فأرسلت إلى أخيها العباس ، فقالت : يا أخي ، لقد والله رأيت رؤيا أفزعتْني(٢) وتخوّفتُ أن يدخل على قومِك منها شرّ ومصيبة ، فاكتم عليّ ما أحدّثك منها ، رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته يا آل غُدَر ، انفروا إلى مصارعكم في ثلاث ، فصرخ بها ثلاث مرات : فأرَى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد ، والناس يتبعونه إذ مثَل به بعيرُه على ظهر الكعبة ، فصرخ مثلها ثلاثا ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ثلاثاً ، ثم أخذ صخرةً من أبي قبيس فأرسلها ، فأقبلت تهوِي ، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضّت ، فما بقي بيت من بيوت مكّة ولا دارٌ من دورها إلا دخلتْه منه فلذة(٣) .

قال الواقديّ : وكان عمرو بن العاص يحدّث بعد ذلك فيقول : لقد رأيتُ كلّ هذا ، ولقد رأيت في دارنا فلْقة من الصّخرة التي انفلقت من أبي قبيس ، ولقد كان ذلك عبرة ، ولكن الله لم يرِدْ أن نُسلم يومئذ ، لكنه أخّر إسلامنا إلى ما أراد .

قلت : كان بعض أصحابنا يقول : لم يكفِ عمراً أن يقول : رأيتُ الصّخرة في دُور مكّة عِيانا ، فيخرج ذلك مخرج الاستهزاء باطنا على وَجْه النفاق واستخفافه بعقول المسلمين ،

---

(١) الحلقة هنا : السلاح .

(٢) الواقدى : « أفظعتها » .

(٣) الفلذة : القطعة من الحجارة

زعم حتى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصُّراح فيقول : إنّ الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذ .

قال الواقديّ : قالوا : ولم يدخل دارا ولا بيتا من دُور بني هاشم ولا بني زُهرة من تلك الصخرة شيء ! قال : فقال العبّاس : إنّ هذه لرؤيا ، فخرج مغتمّا ، حتى لقي الوليد بن عتبة ابن ربيعة — وكان له صديقاً — فذكرها له واستكتمه ؛ ففشا الحديث في الناس ، قال العباس : فغدوتُ أطوف بالبيت، وأبو جهل في رَهْطٍ من قريش يتحدّثون برؤيا عاتكة، فقال أبو جهل : ما رأت عاتكة هذه ؟ فقلت : وما ذاك ؟ فقال : يابني عبد المطّلب ، أما رضيتم بأن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! زعمت عاتكة أنّها رأت في المنام كذا وكذا للذى رأت — فستربّص بكم ثلاثا ، فإن يكن ما قالت حقّاً فسيكون ، وإن مضت الثلاث ولم يكن ، نكتبْ عليكم أنّكم أكذبُ أهل بيت في العرب ! فقال له العباس : يامصفّر استه ، أنت أوْلى بالكذب واللؤم منّا ! فقال أبو جهل : إنا استبقْنا المجد وأنتم ، فقلتم : فينا السقاية ، فقلنا : لانبالى ، تسقون الحجاج ، ثم قلتم : فينا الحجابة ، فقلنا: لانبالى تحجبون البيت ، ثم قلتم : فينا النّدْوة ، قلنا : لا نبالى يكون الطعام فتطعمون الناس . ثم قلتم : فينا الرِّفادة ، فقلنا : لانبالى ، تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف ، فلمّا أطعمنا الناس وأطعمتم ، وازدحمت الرّكب واستبقْنا المجد ، فكنا كفرسَىْ رِهان ، قلتم : منا نبيٌّ ، ثم قلتم : منّا نبيّة ! فلا واللّات والعُزّى لا كان هذا أبدا !

قلت : لا أرى كلام أبي جهل منتظما ؛ لأنه إذا سلّم للعباس أنّ هذه الخصال كلّها فيهم ، وهي الخصال التي تشرُف بها القبائل بعضُها على بعض ، فكيف يقول : لانبالى لانبالى ! وكيف يقول : فلمّا أطعمنا للناس وأطعمتم ، وقد كان الكلام منتظما ، لو قال : ولنا بإزاء هذه المفاخر كذا وكذا ، ثم يقول بعد ذلك : استبقنا المجد فكنّا كفرسَىْ رهان ، وازدحمت الرّكب ؛ ولم يقل شيئاً ولا عدّ مآثره ، ولعلّ أبا جهل قد قال مالم ينقل .

قال الواقدىّ : قال العبّاس : فوالله ما كان منّى غير أنّى جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً ، فلما أمسيتُ لم تبق امرأة أصابتْها ولادة عبد المطلب إلا جاءت ، فقلن لى : أرضيتم بهذا الفاسق الخبيث يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول نساءكم ! ولم تكن لك عند ذلك غيرة ! فقلت : والله ما قلت إلا لأنّى لا أبالى به ، ولأيمُ الله لأعرِضنّ له غدا ، فإن عاد كفيتُكُنّ إياه . فلما أصبحوا من ذلك اليوم الّذى رأت فيه عاتكة ما رأتْ ، قال أبو جهل : هذه ثلاثة أيام مابقى . قال العباس: وغدوتُ فى اليوم الثالث ،وأنا حديد مغضَب، أرى أن قدفاتنى منه أمر أحبّ أن أدركه، وأذكر ما أحفظنى به النساء من مقالتهنّ، فوالله إنى لأمشى نحوه ــ وكان رجلاً خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ــ إذ خرج نحو باب بنى سَهْم يشتدّ ، فقلت : مابالُه لعنه الله ! أ كلّ هذا فَرَقا من أن أشاتمه ! فإذا هو قد سمع صوت ضَمْضَم بن عمرو وهو يقول : يا معشر قريش ، يا آل لؤىّ بن غالب ، اللَّطيمة قد عرض لها محمد فى أصحابه ! الغوث الغوث ! والله ما أرى أن تدركوها ، وضمضم ينادى بذلك فى بطن الوادى ، وقد جَدَع أذنى بعيره وشقّ قميصه قُبُلًا ودبُرا ، وحوّل رحله ، وكان يقول : لقد رأيتُنى قبل أن أدخل مكّة وإنى لأرى فى النّوم وأنا على راحلتى كأنّ وادى مكّة يسيل من أسفله إلى أعلاه دما ، فاستيقظت فزعاً مذعورا ، فكرهتُها لقريش ، ووقع فى نفسى أنّها مصيبة فى أنفسهم .

قال الواقدىّ : وكان عمير بن وهب الُجمَحىّ يقول : مارأيت أعجبَ من أمر ضمضم قطّ ، وما صرّح على لسانه إلاّ شيطان ! كأنه لم يملّكنا من أمورنا شيئاً ، حتى نفَرنا على الصّعب والذلول ،وكان حكيم بن حزام يقول : ما كان الّذى جاءنا فاستنفرنا إلى العير إنسانا! إن هو إلا شيطان ، قيل : كيف ياأبا خالد ؟ قال : إنى لأعجب منه ، ماملكنا من أمرنا شيئاً .

قال الواقدىّ : فجهز النّاس وشُغل بعضهم عن بعض ، وكان النّاس بين رجلين : إمّا خارج وإما باعث مكانه رجلا ، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة ، وسرّ بنو هاشم .

وقال قائلهم : كلاّ ، زعمتم أنّا كذبنا وكذبتْ عاتكةُ ! فأقامت قريش ثلاثا تتجهّز — ويقال : يومين — وأخرجت أسلحتَها واشترَوا سلاحا، وأعان قويُّهم ضعيفَهم ، وقام سُهَيل ابن عمرو فى رجال من قريش ، فقال : يامَعشرَ قريش ، هذا محمّد والصُّباة معه من شبّانكم وأهل يثرب قد عرضوا العيركم ولطيمتكم(١) ، فمن أراد ظهرا فهذا ظهر ، ومَنْ أراد قوّة فهذه قوّة . وقام زمعــة بن الأسود ، فقال : إنّه واللّات والعزّى مانزل بكم أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرِضوا لعيركم فيها خزائنــكم ؛ فأوعِبوا(٢) ولا يتخلّف منــكم أحد ، ومَنْ كان لا قوّة له فهــذه قوة ، والله لئن أصابها محمّد وأصحابه لا يروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليــكم بيوتَــكم . وقال طُعيمة بن عدىّ : يامعشر قريش ، والله مانزل بكم أمرٌ أجلّ من هذه! أن يستباح عيركم، ولطيمة قريش فيها أموالــكم وخزائنكم ؛ والله ماأعرف رجلاً ولا امرأة من بنى عبدمناف له نَشٌّ(٣) فصاعدا إلا وهو فى هذه العير، فمن كان لا قوّة به فعندنا قوّة نحمله ونقوّيه . فحمل على عشرين بعيرا وقوّاهم ، وخلّفهم فى أهلهم بمعونة. وقام حنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فحضّا النــاس على الخروج ، ولم يدعَوا إلى قوة ولا حُملان ؛ فقيل لهما : ألا تدعُوان إلى مادعا إليه قومكما من الحملان ؟ قالا : والله مالنــا مال، وما المال إلا لأبى سفيان . ومشى نوفل بن معاوية الديلىّ إلى أهل القوّة من قريش ، وكلّمهم فى بذل النفقة والُحملان لمن خرج ، فــكلّم عبد الله بن أبى ربيعة ، فقال : هذه خمسمائة دينار تضعُها حيث رأيت ، وكلّم حُوَيطب بن عبد العزى ، فأخذ منه مائتى دينار أو ثلثمائة ، ثم قوىَ بها فى السلاح والظهر .

قال الواقدىّ : وذكروا أنّه كان لا يتخلّف أحدٌ من قريش إلا بعث مكانه بَعثا ، فمشت قريش إلى أبى لهب ، فقالوا له : إنك سيّد من سادات قريش ، وإنّك إن تخلّفت عن

---

(١) اللطيمة : التجارة ؛ وقيل : اللطيمة : العطر خاصة .

(٢) أوعبوا : استعدوا .

(٣) النش : وزن نواة من ذهب .

النفير يعتبر بك غيرُك من قومك،فاخرج أو ابعث رجلاً ، فقال : واللّات والعُزّى لا أخرجُ ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال : أقم ياأبا عتبة ، فوالله ماخرجنا إلا غضبا لدينك ودين آبائك ! وخاف أبو جهل أن يُسْلِم أبو لهب، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث، وما منع أبا لهب أن يخرج إلا الإشفاقُ من رُؤْيا عاتكة ، كان يقول: إنما رؤيا عاتكة أخذ باليد ، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه دين ، فقال : اخرج ودينى عليك لك ، فخرج عنه .

* * *

وقال محمد بن إسحاق فى المَغازى : كان دَيْن أبى لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم ، فمطله بها ، وأفلس فتركها له على أن يكون مكانه ، فخرج مكانه .

قال الواقدىّ : وأخرج عُتْبة وشيبة دروعاً لهما فنظر إليهما مولاهما عدّاس وهما يصلِحان دروعهما وآلةَ حربهما ، فقال : ماتريدان ؟ فقالا : ألم تر إلى الرّجل الذى أرسلناك إليه بالعنَب فى كَرْمنا بالطّائف ؟ قال : نعم ، قالا : نخرج فنقاتله ، فبكى ، وقال : لا تخرجا فوالله إنه لنبىّ ، فأبيا فخرجا ، وخرج معهما فقُتِل ببدر معهما .

قلت : حديث العِنب فى كَرْم ابنى ربيعة بالطائف ، قد ذكره أرباب السيرة،وشرحه الطّبرى فى التاريخ ، قال : لما مات أبو طالب بمكة طمِعت قريش فى رسول الله صلى الله عليه وآله ونالت منه مالم تكن تناله فى حياة أبى طالب ، فخرج من مكة خائفا على نفسه مهاجرا إلى ربّه يؤمّ الطائف ، راجياً أن يدعوَ أهلَها إلى الإسلام فيجيبوه ، وذلك فى شوال من سنة عشر من النبوة ، فأقام بالطائف عشرة أيام ، وقيل شهرا ، لايدع أحداً من أشراف ثقيف إلا جاءه وكلّمه ، فلم يجيبوه ، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم ، ويلحق بمَجاهل الأرض وبحيث لا يعرف ، وأغرَوْا به سفهاءهم ، فرمَوْه بالحجارة ، حتى إنّ رجليْه لتدْمَيان ، فكان معه زيد بن حارثة ، فكان يقيه بنفسه ، حتى لقد شُجّ فى رأسه .

والشّيعة تروى أنّ على بن أبى طالب كان معه أيضا فى هجرة الطائف ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثقيف وهو محزون ، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب بنى عمرو بن عمير ، وهم يومئذ سادة ثقيف ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله و إلى نصرته والقيام معه على قومه ، فقال له أحدهم : أنا أمرُط [1] بباب الكعبة ، إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحدا أرسلَه غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلّمك كلمة أبدا ، لئن كنتَ رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظمُ خطراً من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنتَ كاذبا على الله ماينبغى أن أكلمك . فقام رسول الله صلى الله عليه وآله من عندهم ، وقد يئس من خَيْر ثقيف ، واجتمع عليه صبيانهم وسفهاؤهم ، وصاحوا به وسبّوه وطردوه ، حتى اجتمع عليه الناس يعجبون منه ، وألجئوه بالحجارة والطّرد والشّتم إلى حائط [2] لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما يومئذ فى الحائط ، فلمّا دخل الحائط رجع عنه سفهاء ثقيف ، فعَمَد إلى ظلّ حَبَلة [3] منه فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران ويريان مالقىَ من سفهاء ثقيف .

قال الطبرىّ : فلمّا اطمأن به قال – فيما ذُكِر لى : اللهمّ إليك أشكو ضعفَ قوّتى وقلّة حيلتى وهوانى على النّاس ؛ ياأرحمَ الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّى ، إلى من تكلُنى ! إلى بعيد فيتجهّمنى ، أم إلى عدوّ ملّكتَه أمرى ، فإن لم يكن منك غضب علىّ فلا أبالى ! ولكن عافيتُك هى أوسع لى ، أعوذ بنورِ وجهك الّذى أشرقَتْ به الظُّلمات ، وصلَح عليه أمرُ الدّنيا والآخرة ، من أن ينزِل بى غضبُك ، أو يحلّ علىّ سَخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك !

فلمّا رأى عُتبة وشيبة مالقىَ تحرّكت له رحِمُهما ، فدعَوا غلاما نصرانيًّا لهما ، يقال له

---

(١) فى الطبرى : « هو يمرط ثياب الكعبة » ، أى يمزقها . (٢) الحائط هنا : البستان .
(٣) الحبلة : الكرمة .

عدّاس ، فقالا له : خذ قِطْفا[١] من هذا العنب وضعْه فى ذلك الطّبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، وقل له فليأكل منه ، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه ، فوضع يده فيه ، فقال : بسم الله ، وأكل ، فقال عدّاس : والله إنّ هذه الكلمة لا يقولها أهلُ هذه البلدة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : مِنْ أىّ البلاد أنت ؟ وما دينُك ؟ قال : أنا نصرانىّ من أهل نينوى ، قال : أمِنْ قرية الرجل الصالح يونس بن متّى ؟ قال : وما يدريك مَنْ يونس بن متّى ؟ قال : ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبىّ . فأكبّ عدّاس على يديه ورجليه ورأسه يقبّلها ، قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسدَه عليك ، فلمّا جاءهما قالا : ويلك ياعدّاس ! مالك تقبّل رأسَ هـذا الرجل ويديْه وقدميه ! قال : ياسيّدى ، مافى الأرض خير من هذا ، فقد أخبرنى بأمرٍ لا يعلمه إلّا نبىّ[٢] .

***

قال الواقدىّ : واستقسمت قريش بالأزلام عنـد هُبَل للخروج ، واستقسم أميّة بن خلَف وعُتْبة وشَيْبة بالآمر والناهى ، فخرج القِدْح[٣] الناهى ، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل ، فقال : مااستقسمتُ ولا نتخلّف عن عِيرنا .

قال الواقدىّ : لما توجّه زمْعة بن الأسود خارجا ، فـكان بذى طُوًى أخرج قِداحه ، واستقسم بها فخرج النّاهى عن الخروج ، فلقى غيظا ، ثم أعادها الثـانية فخرج مثل ذلك فـكسرها ، وقال : مارأيت كاليوم قِدْحا أكذب ! ومرّ به سُهَيل بن عمرو وهو على تلك الحال ، فقال : مالى أراك غضبان ياأبا حُـكَيمة ؟ فأخبره زمْعة ، فقال : امضِ عنك أيّها الرجل ، قد أخبرنى عُمير بن وهب أنّه لقيَه مثل الّذى أخبرتنى ، فضوا على هـذا الحديث[٤] .

---

(١) القطف : عنقود العنب . وهو فى الأصل : اسم لـكل ما يقطف .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٤٥ ، ٣٤٦ (طبعة المعارف) .

(٣) القدح هنا : السهم الذى كانوا يستقسمون به . (٤) مغازى الواقدى ٢٧ .

قال الواقدىّ : وحدّثنى موسى بن ضمرة بن سعيد ، عن أبيه ، قال: قال أبو سفيان بن حرب لضمضم : إذا قدمت على قريش فقل لها : لا تستقسم بالأزلام .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن الزّهرىّ ، عن أبى بكر بن سُليم بن أبى خَيْثمة ، قال : سمعتُ حكيم بن حزام يقول : ماتوجّهتُ وجها قطّ كان أكرهَ إلىّ من مسيرى إلى بدر ولا بان لى فى وجه قطّ مابان لى قبل أن أخرج ، ثم قال: قدم ضمضم فصاح بالنّفير فاستقسمت بالأزلام ، كلُّ ذلك يخرج الذى أكره ، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مَرّ الظّهران ، فنحَر ابنُ الحنظليّة جَزورا منهـا بها حياة ، فما بقىَ خِباء من أخبية العسكر إلّا أصابه من دمها ، فكان هذا بيّن[1] ، ثم هممتُ بالرجوع ، ثم أذكر ابن الحنظليّة وشؤمه ؛ فيردّنى حتى مضيت لوجهى . وكان حكيم يقول : لقد رأينا حين بلغنا الثنيّة البيضاء ـ وهى الثنية التى تهبطك على فخّ وأنت مقبل من المدينة ـ إذا عدّاس جالس عليها ، والناس يمرّون، إذ مَرّ علينا ابنا ربيعة ، فوثب إليهما ، فأخذ بأرجلهما فى غَرْزِهما ، وهو يقول : بأبى أنتما وأمّى ! والله إنه لرسولُ الله صلى الله عليه ، وما تُساقانِ إلّا إلى مصارعكما ! وإن عينيه لتسيل دمعا على خدّيه ، فأردت أن أرجع أيضا ، ثم مضيت، ومرّ به العاص بنُ منبّه بن الحجاج ، فوقف عليه حين ولّى عُتْبة وشَيْبة ، فقال : مايبكيك ؟ قال : يبكينى سيّدى ـ أو سيّدا أهل[2] الوادى ـ يخرجان إلى مصارعهما ، ويقاتلان رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال العاص : وإنّ محمدا لرسول الله ! فانتفض عدّاس انتفاضة واقشعرّ جلدُه ، ثم بكى ، وقال : إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافّة . قال : فأسلم العاص بن منبّه ، ومضى وهو على الشكّ ، حتى قُتِل مع المشركين على شكّ وارتياب . ويقال : رجع عدّاس ولم يشهد بدرا ، ويقال : شهد بدرا وقتل .

قال الواقدىّ : والقول الأوّل أثبت عندنا .

---

(١) فى الأصول : « بينه » والتصويب من الواقدى .

(٢) الواقدى ٢٨ : « يبكينى سيداى وسيدا أهل الوادى »

قال الواقدىّ : وخرج سعد بن مُعاذ معتمرا قَبْل بدر ، فنزل على أميّة بن خلف ، فأتاه أبو جهل ، وقال : أتترك هـذا وقد آوَى محمدا وآذنَنا بالحرب ! فقال سعد بن معاذ : قل ماشئت ، أما إنّ طريق عيركم علينا ، قال أميّة بن خلف: مَهْ ! لا تقلْ هذا لأبى الحكم فإنه سيّد أهل الوادى . قال سعد بن معاذ : وأنت تقول ذلك يأميّة ؟ أما والله لَسمِعت محمدا يقول : لأقتلنّ أمية بن خلَف ، قال أميّة : أنت سمعتَه ؟ قال سعد بن معاذ : فقلت : نعم ، قال : فوقع فى نفسه ، فلما جاء النّفير أبَى أميّة أن يخرج معهم إلى بدر ، فأتاه عُقْبة بن أبى مُعَيْط وأبو جهل ، ومع عقبة مجْمَرة فيها بخور ، ومع أبى جهل مكحلة ومِرْود ، فأدخلها عقبة تحته ، فقال : تبخّر ، فإنما أنت امرأة ، وقال أبو جهل : اكتحل فإنما أنت امرأة . فقال أميّة : ابتاعوا لى أفضل بعيرٍ فى الوادى ، فابتاعوا له جملا بثلثمائة دينار من نَعَم بنى قُشير ، فغنِمه المسلمون يوم بَدْر ، فصار فى سهم خُبَيب [١] بن يساف .

قال الواقدىّ : وقالوا ما كان أحد ممّن خرج إلى العِير أكرَه للخروج من الحارث ابن عامر ، وقال : ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالى فى العير تلف ومال بنى عبد مناف أيضا ، فيقال له: إنّك سيّدٌ من ساداتها ، أفلا تردعها عن الخروج ؟ قال : إنى أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ، ولا أرى أحدا به طِرْق [٢] تخلّف إلّا من علة، وأنا أكره خلافها ، وما أحبّ أن تعلم قريش ماأقول ، على أنّ ابن الحنظليّة رجل مشئوم على قومه ، ماأعلمه إلاّ يحرز قومه أهل يثرب ، ولقد قسم الحارث [٣] مالاً من ماله بين ولده ، ووقع فى نفسه أنه لا يرجع إلى مكة ، وجاءه ضمضم بن عمرو ، وكانت للحارث عنده أياد ، فقال : أباعامر ، إنى رأيت رؤيا كرهتُها ، وإنّى لـكاليَقْظان على راحلتى وأراكم أنّ واديَكم يسيل دماً من أسفله إلى أعلاه ، فقال الحارث: ما خرج أحـد وجهـاً من الوجوه أكرَه له من وجهى هذا ، قال : يقول ضمضم : والله إنّى لأرى لك أن تجلس ، فقال الحارث : لو سمعت

---

(١) الواقدى ٢٩ ، وفى الأصول « حبيب » ، والتصويب من الواقدى والإصابه .
(٢) طرق ، أى قوة (٣) ساقطة من الواقدى .

هـذا منك قبل أن أخرُج ماسرت خطوة ، فاطوِ هـذا الخبر أن تعلمه قريش ، فإنهـا تتّهم كلّ مَنْ عوّقهـا عن المسير ـ وكان ضمضم قد ذكر هـذا الحديث للحارث ببطن يأجج(١) ـ قالوا : وكرهت قريش أهل الرّأى منهم المسيرَ ، ومشى بعضُهم إلى بعض ، وكان ممن أبطأ بهم من ذلك الحـارث بن عامر ، وأميّة بن خلف ، وعُتْبة وشيبة ابنا ربيعة ، وحكيم بن حزام وأبو البَخْترىّ ، وعلىّ بن أميّة بن خلف ، والعاص بن منبّه ، حتى بكّتهم أبو جهل بالجبن ، وأعانه عُقْبة بن أبى مُعيط والنّضر بن الحارث بن كَلَدة ، وحضُّوهم على الخروج ، وقالوا : هذا فعل النساء . فأجمعوا المَسير ، وقالت قريش : لا تدَعُوَا أحدا من عدوّكم خَلْفـكم(٢) .

قال الواقدىّ : وممّا استدلّ به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعُتْبة وشَيْبة ، أنّه ماعرض رجل منهم حُملانا ، ولا حملوا أحداً من الناس ، وإن كان الرجل ليأتيهم حليفاً أو عديدا ، ولا قوّة له ، فيطلب الحملان منهم ، فيقولون : إن كان لك مال وأحببتَ أن تخرج فافعل وإلاّ فأقم ، حتى كانت قريش تعرف ذلك منهم .

قال الواقدىّ : فلمّا اجتمعت قريش إلى الخروج والمسير ، ذكروا الذى بينهم وبين بنى بَكْر من العداوة ، وخافوهم على مَنْ يخلفونه ، وكان أشدّهم خوفا عُتْبة بن ربيعة ، وكان يقول : يامعشر قريش ، إنّكم وإن ظفرتم بالّذى تريدون ، فإنّا لا نأمن على مَنْ نخلّف ، إنّمـا نخلّف نساء ولاذرّيّة ومن لا طُعم به فارتئوا آراءكم(٣) ، فتصوّر لهم إبليس فى صورة سُراقة بن جعشم المدلجىّ فقال : يامعشر قريش ، قد عرفتم شرفى ومكانى فى قومى، أنا لـكم جار أن تأتيـكم كنانة بشىء تـكرهونه ، فطابت نفس عُتْبة ، وقال له أبو جهل:

---

(١) الأصول : « تأجج » ، وأثبت ما فى الواقدى .

(٢) الواقدى ٣٠ (٣) الواقدى : « رأيكم » .

فما تريد ؟ هـذا سيّد كنانة ، هولنا جارٌ لَنا(١) من نخلّف ، فقال عتبة : لا شئ أنا خارج(٢) .

قال الواقدىّ : وكان الّذى بين بنى كنانة وقريش أنّ ابناً لحفص بن الأحنف أحد بنى مُعَيط بن عامر بن لؤى ، خرج يبغِى ضالّة ، وهو غلام فى رأسه ذؤابة ، وعليه حُلّة ، وكان غلاما وضيئا ، فمرّ بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح بن يعمر ، أحد رؤساء بنى كنانة ـ وكان بضَجْنان ـ فقال : مَنْ أنت ياغلام ؟ قال : ابن لحفص بن الأحنف ، فقال : يابنى بكر ، ألكم فى قريش دم ؟ قالوا : نعم قال : ما كان رجل يقتل هـذا برجله إلاّ استوفى ، فاتبعه رجلٌ من بنى بكر فقتله بدمٍ له فى قريش ؛ فتكلّمت فيه قريش ، فقال عامر ابن يزيد : قد كانت لنا فيكم دماء ، فإن شئتم فأدُّوا مالنا قبلكم ونؤدّى إليكم ما كان فينا ، وإن شئتم فإنّما هو الدّم ؛ رجل برجل ؛ وإن شئتم فتجافَوْا عنّا فيما قِبلنا ، ونتجافى عنكم فيما قبلكم . فهان ذلك الغلام على قريش ، وقالوا : صدق ! رجل برجل ؛ فلهَوْا عنه أن يطلبوا بدمه ، فبينا أخوه مكرز بن حفص بمرّ الظّهران ، إذ نظر عامر بن يزيد وهو سيّد بنى بكر على جمل له ؛ فلما رآه قال : ما أطلب أثراً بعد عين ! وأناخ بعيره ، وهو متوشّح سيفَه ، فعلاه به حتى قتله ، ثم أتى مكّة من الليل ، فعلّق سيف عامر بن يزيد بأستار الكعبة ، فلما أصبحت قريش رأوْا سيف عامر بن يزيد ، فعرفوا أنّ مكْرز بن حفص قتله ، وقد كانت تسمع من مكْرز فى ذلك قولاً ، وجزعت بنو بكْر من قتل سيّدها ، فكانت معدّة لقتل رجلين من قريش سيّدين أو ثلاثة من ساداتها ، فجاء النّفير وهم على هذا الأمر ، فخافوهم على مَنْ تخلّف بمكّة من ذراريّهم ، فلما قال سراقة ماقال ، وهو ينطق بلسان إبليس شجُع القوم(٣) .

---

(١) الواقدى : « علام تتخلف ! » . (٢) الواقدى ٣١ ، ٣٢

قال الواقدىّ : وخرجت قريش بِسراعا ، وخرجوا بالقيان والدّفوف ؛ سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزّة مولاة أسود بن المطلب ، وفلانة مولاة أميّة بن خلَف ، يغنّين فى كلّ منهل ، وينحرون الُجزر ، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحراب ، وخرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلا ، وقادوا مائة فَرَس ، بطراً ورئاء الناس ؛ كما ذكر الله تعالى فى كتابه[١] ؛ وأبو جهل يقول أيظنّ محمد أن يصيب منّا ما أصاب بنخلة وأصحابه ؛ سيعلم أنمنع[٢] عيرنا أم لا[٣] .

قلت : سريّة نخلة سريّة قبل بَدْر ، وكان أميرها عبدَ الله بن جَحْش قتل فيها عمرو ابن الحضرمىّ ، حليف بنى عَبْد شمس ، قتله واقد بن عبد الله التميمىّ ؛ رماه بسهم فقتله ، وأسر الحكم بن كَيْسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، واستاق المسلمون العير ؛ وكانت خمسمائة بعير فخمّسها رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقسم أربعمائة فيمنْ شهدها من المسلمين ؛ وهم مائتا رجل ، فأصاب كلّ رجل بعيران .

قال الواقدىّ : وكانت الخيل لأهل القوّة منهم ، وكان فى بنى مخزوم منها ثلاثون فرسا ، وكانت الإبل سبعمائة بعير ، وكان أهل الخيل كلّهم دارع ، وكانوا مائة ؛ وكان فى الرّجالة دروع سوى ذلك[٣] .

قال الواقدىّ : وأقبل أبو سفيان بالعير ، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوْا من المدينة ، واستبطئوا ضمضما والنّفير ، فلمّا كانت الليلة التى يُصْبحون فيها على ماء بدر ، جعلت العير تقبِلُ بوجوهها إلى ماء بدر ؛ وكانوا باتوا من وراء بدر آخرَ ليلتهم ، وهم على

---

(١) ذكر الواقدى بعدها الآية : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ . . . ﴾ . إلى آخر الآية .

(٢) الواقدى : « أمنع » .

(٣) الواقدى ٣٢ ، ٣٣

أن يُصبحوا بدرا ؛ إن لم يعترض لهم ؛ فما أقرّتهم العير حتى ضربوها بالعُقُل (١) على أن بعضها ليُثْنَى بعِقَالين ، وهى ترجّع (٢) الحنين ، تواردا إلى ماء بدر ؛ وما إنّ بها إلى الماء من حاجة ، لقد شربت بالأمس ؛ وجعل أهل العير يقولون : إن هذا شيء ماصَنَعَتْه الإبل منذ خرجنا ، قالوا : وغشينا تلك الليلة ظُلمة شديدة حتى مانبصر شيئاً (٣) .

قال الواقدىّ : وكان بسبس بن عمرو وعدىّ بن أبى الزّغباء وَرَدَا على مجدىّ بدراً يتجسّسان (٤) الخبر ، فلما نزلا ماء بدر ، أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء ، ثم أخذا أسقيتهما ، يسقيان من الماء ، فسمعا جاريتين من جوارى جُهينة ، يقال لإحداها برزة وهى تلزم صاحبتها فى درهم ، كان لها عليها وصاحبتها تقول : إنّما العير غدًا أو بعد غد قد نزلت ؛ ومجدىّ بن عمر يسمعها ، فقال : صدقت ، فلما سمع ذلك بسبس وعدىّ انطلقا راجعين إلى النبى صلى الله عليه وآله حتى أتياه بعرق الظبية ، فأخبراه الخبر (٣) .

قال الواقدىّ : وحدّثنى كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المُزَنىّ ، عن أبيه ، عن جدّه — وكان أحدَ البكّائين — قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : لقد سلك فجّ الرّوحاء موسى النبى عليه السلام فى سبعين ألفاً من بنى إسرائيل وصلُّوا فى المسجد الذى بعِرق الظَّبْية (٣) .

قال الواقدىّ : وهى من الرّوْحاء على ميلين مما يلى المدينة ؛ إذا خرجت على يسارك .

قال الواقدىّ : وأصبح أبو سفيان ببدْر ، قد تقدم العِير وهو خائف من الرّصَد فقال : يامجدىّ ، هل أحسست أحدًا ! تعلّم والله ما بمكة قرشىّ ولا قرشية له نَشّ (٦)

---

(١) العقل : جمع عقال ؛ وهو الرباط الذى تعقل به الدابه . (٢) الواقدى : « ترجع » .
(٣) الواقدى ٣٣ ، ٣٤ (٤) الواقدى : « يتحسسان » .
(٥) قال الواقدى : « وهى من الروحاء على ميلين مما يلى المدينة إذا خرجت على يسارك .
(٦) قال الواقدى : « والنش : نصف أوقية ، وزن عشرين درهما » .

فصاعدا — والنّش نصف أوقية وزن عشرين درهما — إلّا وقد بعث به معنا ! ولئن كتمتَنا شأن عدوّنا لا يصالحك رجلٌ من قريش مابلّ بحرٌ صوفة[١] . فقال مجديّ : والله ما رأيت أحدا أنكره ، ولا بينك و بين يثرب من عدوّ ، ولو كان بينك و بينها عدوّ لم يخفَ علينا، وما كنت لأخفيَه عنك؛ إلّا أنى قد رأيت راكبَيْن أتيا إلى هذا المكان — وأشار إلى مناخ عديّ و بسبس — فأناخا به ، ثم استقيا بأسقيتهما ؛ ثم انصرفا . فجاء أبو سفيان مناخهما ، فأخذ أبعاراً من أبعار بعيريهما ففتّها ؛ فإذا فيها نوًى ، فقال :هذه والله علائف يثرب ! هذه والله عيون محمد وأصحابه ؛ ما أرى القوم إلا قريباً ، فضرب وجه عيره فساحل[٢] بها ، وترك بدْراً يسارا وانطلق سريعاً ، وأقبلت قريش من مكّة ينزلون كلّ منهل يطعمون الطعام مَنْ أتاهم ، وينحرون الجزور ، فبيناهم كذلك فى مسيرهم إذ تخلّف عُتْبة وشَيْبة ؛ وهما يتردّدان ، قال أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ! لقد خشيت[٣]، منها ؛ قال الآخر : فاذكرها ؛ وذكرها، فأدركهما أبو جهل ، فقال : ما تتحادثون به ؟قالا : نذكر رؤيا عاتكة ، قال : يا عجباً من بنى عبد المطّلب ! لم يرضَوْا أن تتنبّأ علينا رجالهم حتى تنبأت علينا النساء ! أما والله لئن رجعنا إلى مكّة لنفعلنّ بهم ولنفعلنّ ! قال عتبة : إنّ لهم أرحاماً وقرابة قريبة . ثم قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن ترجع ؟ قال أبو جهل : أترجعان بعد ماسرنا فتخذلان قومكما ، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم ثأركم بأعينكم ! أتظنّان أنّ محمدا وأصحابه يلاقونكما ! كلاّ والله ، إنّ معى مِنْ قومى مائة وثمانين كلّهم من أهل بيتى يُحلّون إذا أحللت ، ويرحلون إذا رحلت ، فارجعا إن شئتما . قالا : والله لقد هلكت وأهلكت قومك .

ثم قال عتبة لأخيه شيبة : إن هذا رجل مشئوم — يعنى أبا جهل — وإنه لا يمسّه من قرابة محمد ما يمسّنا ؛ مع أنّ محمدا معه الولد فارجع بنا ودع قوله[٤] .

---

(١) فى اللسان : « صرف البحر شيء على شكل هذا الصوف الحيوانى واحدته صوفة ، ومن الأبيات قولهم : « لا آتيك ما بل بحر صوفة » .

(٢) سار بها نحو الساحل .

(٣) ب : «سمت » وأثبت ما فى ا والواقدى

(٤) الواقدى ٣٣ ، ٣٥

قلت : مراده بقوله « مع أن محمـداً معه الولد » ، أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة ، كان أسلم وشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : فقال شيبة : والله تـكون علينا سُبّة ياأبا الوليـد أن نرجع الآن بعد ماسرنا فمضينا . ثم انتهى إلى الُجحفة عشاء، فنام جُهيم بن الصّلْت بن مخرمة بن عبد المطلب ابن عبد مناف ، فقال : إنى لأرى بين النائم واليقظان؛ أنظرُ إلى رجل أقبل على فرسٍ معه بعير له ، حتى وقف علىّ ، فقال : قُتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وزمعـة بن الأسود ، وأميّة بن خلف ، وأبو البخترىّ ، وأبو الحـكم ، ونوفل بن خويلد ، فى رجال سمّاهم من أشراف قريش ؛ وأسر سهيل بن عمرو ، وفرّ الحارث بن هشام عن أخيه ، قال : وكأنّ قائلا يقول : والله إنى لأظنّهم الذين يخرجون إلى مصارعهم . ثم قال : أراه ضرب فى لَبّة بعيره فأرسله فى العسكر ، فقال أبو جهل : وهذا نبىّ آخر من بنى عبد مناف ! ستعلم غـدا مَن المقتول ؛ نحن أو محمد وأصحابه ! وقالت قريش لجُهيم : إنّما يلعب بك الشيطان فى منامك ، فسترى غداً خلافَ مارأيت! يُقتَل أشراف محمد ويؤسرون . قال : فخلا عتبة بأخيه شيبة ، فقال له : هل لك فى الرّجوع ؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتـكةَ ، ومثل قول عدّاس ، والله ما كذبنَا عدّاس؛ ولعمرى لئن كان محمد كاذباً إنّ فى العرب لمن يكفيناه ، ولئن كان صادقاً إنّا لأسعد العرب به لَلُحمته . فقال شيبة : هو على ماتقول ؛ أفنرجع من بين أهل العسكر ؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال : ماتريدان ؟ قالا : الرجوع ؛ ألا ترى إلى رؤيا عاتـكةَ ؛ وإلى رؤيا جُهيم بن الصلت مع قول عدّاس لنا ! فقال : تَخذُلان والله قومكما وتقطعان بهم . قالا : هلـكت والله وأهلـكت قومَك ! فمضيا على ذلك .

قال الواقدىّ : فلما أفلت أبو سفيان بالعير ، ورأى أنْ قد أحرزها وأمِن عليها ، أرسل إلى قريش قيسَ بن امرئ القيس ـ وكان مع أصحاب العير ـ خرج معهم من مكّة ، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع ، ويقول : قد نجتْ عيرُكم وأموالُكم ، فلا تحرزوا أنفسَكم

أهل يثرب ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، إنما خرجتم لتمنعوا عِيرَكم وأموالكم ، وقد نجّاها الله . فإن أبوا عليك فلا يأبَوْن خَصْلة واحدة ؛ يردّون القيان [١] . فعالج قيس بن امرئ القيس قريشاً ، فأبت الرجوع . قالوا : أمّا القِيان فسنردّهن ؛ فردّوهن من الجحفة [٢] .

قلت : لا أعلم مراد أبي سفيان بردّ القيان ، وهو الذى أخرجهنّ مع الجيش يوم أُحُد يحرّضن قريشا على إدراك الثأر ، ويغنّين ، ويضربن الدّفوف ، فكيف نهى عن ذلك فى بدر وفعله فى أُحُد ! وأقول : مَنْ تأمّل الحال علم أنّ قريشا لم يمكن أن تنتصرَ يوم بدر ، لأنّ الذى خالطها من التخاذُل والتّواكل وكَراهيَة الحرب وحبّ الرجوع وخوف اللقاء وخُفوق الهِمَم وفتور العزائم ، ورجوع بنى زُهرة وغيرهم من الطريق ، واختلاف آرائهم فى القتال ، يكفى بعضه فى هلاكهم وعدم فلاحهم ، لو كانوا قد لقُوا قوما جُبناء ، فكيف وإنما لقُوا الأوْس والخزْرج ، وهم أشجع العرب ، وفيهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام وحَمْزة بن عبد المطلب ، وهما أشجع البشَر ، وجماعة من المهاجرين أنجاد أبطال ، ورئيسهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، الداعى إلى الحق والعدل والتوحيد ، المؤيّد بالقوّة الإلهيّة ، دع ماأضيف إلى ذلك من ملائكة السماء ، كما نطق به الكتاب !

قال الواقدىّ : ولحِق الرسول أبا سفيان بالهَدّة — والهَدّة على سبعة أميال من عُقبة عُسفان ، على تسعة وثلاثين ميلا من مكّة — فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو بن هشام ، يكره أن يرجع لأنه قد ترأّس عَلَى النّاس وبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، والله لئن أصاب أصحابَ محمد النّفير ذللنا إلى أن يدخل مكّة علينا .

قال الواقدىّ : وقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرا — وكانت بدر موسما

---

(١) بعدها فى الواقدى : « فإن الحرب إذا أكلت انكلت » .
(٢) الواقدى ٣٦

من مواسم العرب فى الجاهليّة ، يجتمعون بهـا وفيها سوق ـ تسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فنقيم على بَدْر ثلاثا، ننحر الجزُر ونطعم الطّعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، فلن تزال العرب تهابنا أبدا .

قال الواقدىّ : وكان الفرات بن حيّان العِجلىّ أرسلته قريش حين فَصَلت من مكّة إلى أبى سفيـان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولهـا ، وماقد حشـدت ، فخالف أبا سفيان فى الطريق ، وذلك أنّ أبا سفيان لصِق بالبحر ، ولزم الفُرات بن حيّان المحجّة ، فوافَى المشركين بالُجحْفة ، فسمع كلام أبى جهل ، وهو يقول : لانرجع ، فقال : مابأنفسِهم عن نفسك رغبة ! وإنّ الذى يرجع بعـد أن رأى ثأره من كَثَب لضعيف ، فمضى مع قريش ، فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بَدْر جراحات كثيرة ، وهرب على قدميْه ، وهو يقول : مارأيت كاليوم أمراً أنـكد [(١)] ! إنّ ابن الحنظليّة لغير مُبارك الأمر .

قال الواقدىّ : وقال الأخنس بن شريق [(٢)] ـ واسمه أُبىّ ، وكان حليفاً لبنى زهرة : يابنى زهرة ، قد نجّى الله عِيرَكم ، وخلّص أموالـكم ، ونجّى صاحبَـكم مَخرمة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله ، وإنمـا محمد رجل منـكم ، ابن أختـكم ؛ فإن يك نبيًّا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا يلى قتله غـيركم خير من أن تَلُوا قتل ابن أختـكم ، فارجعوا واجعلوا خَبْنَهـا لى ، فلا حاجة لـكم أن تخرجوا فى غير مايهمّـكم ، ودعوا مايقوله هـذا الرجل ـ يعنى أبا جهل ـ فإنه مهلِك قومَه ، سريع فى فسادهم ، فأطاعته بنو زُهرة ، وكان فيهم مُطاعا ، وكانوا يتيمّنون به ، فقالوا : فـكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟ فقال الأخنس : نسير مع القوم ، فإذا أمسيت سقطت عن بعيرى ، فيقولون : نحل [(٣)] الأخنس ، فإذا أصبحوا فقالوا : سيروا ، فقولوا : لا نفارق صاحبَنا ، حتى نعلم أحىّ هو أم ميت ،

(١) فى الأصول آكد، وأثبت ما فى الواقدى ٣٦

(٢) الواقدىّ : « وكان أعرابياً » . (٣) الواقدى : « نهش » .

فندفنه ،فإذا مضوا رجعنا إلى مكة . ففعلت بنو زهرة ذلك ، فلمّا أصبحوا بالأبواء راجعين تبيّن للناس أنّ بنى زُهرة رجعوا فلم يشهدها زُهريّ [١] البتّة ، وكانوا مائة ، وقيل : أقلّ من مائة وهو أثبت . وقال قوم : كانوا ثلثمائة ولم يثبت ذلك .

قال الواقديّ : وقال عدى بن أبى الزغباء منحدَرَه [٢] من بدر إلى المدينة ؛ [وانتشرت الركاب عليه ، فجعل عدىّ يقول] [٣] :

أقمْ لهـــا صدورَها يابسْبَسُ ... إنّ مَطَايا القـــومِ لا تُحبَّسُ

وَحَمْلُها على الطَّرِيقِ أكْيَسُ ... قـد نصرَ الله وفرّ الأخنسُ [٤]

قال الواقدىّ : وذكر أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أنّ بنى عدىّ خرجوا من النَّفير حتى كانوا بثَنية لَفْت [٥] ، فلمـا كان فى السَّحَر عدلوا فى الساحل منصرفين إلى مكّة ، فصادفهم أبو سفيان ، فقـال : كيف رجعتم يابنى عدىّ ! ولا فى العير ولا فى النفير ! قالوا : أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، فرجع مَنْ رجع ومضى من مضى ، فلم يشهدها أحد من بنى عدىّ . ويقال : إنه لاقاهم بمرّ الظَّهران ، فقال تلك المقالة لهم .

قال الواقدىّ : وأمّا رسولُ الله صلى الله عليه وآله [٥] ، فـكان صبيحة أربع عشرة من شهر رمضان بعرق الظَّبْية ، فجاء أعرابىٌّ قد أقبل من تهامة ، فقال له أصحـاب النبى صلى الله عليه وآله : هل لك علم بأبى سفيان بن حرب ؟ قال : مالى بأبى سفيان عِلْم ، قالوا : تعال ، فسلم على رسول الله صلى الله عليـه وآله ، قال : أوَفيـكم رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فأيّـكم رسول الله ؟ قالوا : هذا ، فقال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم ، قال فما فى

---

(١) الواقدى : « أحد من بنى زهرة » . (٢) الواقدى : « فى منحدره » .
(٣) من الواقدى (٤) الواقدى ٣٨
(٥) الواقدى : « ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بطن ناقتي هذه إن كنت صادقاً ؟ فقال سلمة بن سلامة بن وقش : نكحتها وهي حُبلى منك ! فكره رسول الله صلى الله عليه وآله مقالته وأعرض عنه .

قال الواقدي : وسار رسولُ الله صلى الله عليه وآله حتى أتى الرَّوحاء ليلةَ الأربعاء ، للنّصف من شهر رمضان ؛ فقال لأصحابه : هذا سجاسج - يعني وادي الروحاء - هذا أفضل أودية العرب[1] .

قال الواقدي : وصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالرَّوحاء ، فلمّا رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره لعنَ الكفَرة ، ودعا عليهم ، فقال : اللهمّ لا تفلتنّ أبا جهل ابن هشام فِرْعون هذه الأمة ، اللهمّ لا تفلتنّ زَمْعة بن الأسود ، اللهمّ أسخِنْ عين أبي زَمْعة ! اللهمّ أعمِ بصر أبي دبيلة[2] ، اللهمّ لا تفلتنّ سهيل بن عمرو ! ثم دعا لقوم من قريش ، فقال : اللهم أنجِ سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ؛ ولم يدع للوليد بن المغيرة يومئذ ؛ وأسر ببدر ، ولكنّه لما رجع إلى مكّة بعد بدر أسلم وأراد أن يخرج إلى المدينة فحبس ، فدعا له النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك .

قال الواقدي : وكان خُبيب بن يساف رجلا شجاعا ، وكان يأبَى الإسلام ، فلما خرج النبيّ صلى الله عليه وآله إلى بدْر خرج هو وقيس بن محرّث - ويقال ابن الحارث - وهما على دين قومهما ؛ فأدركا رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقيق ؛ وخُبَيب مقنّع في الحديد ، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من تحتِ المِغفَر ، فالتفت إلى سعيد بن معاذ وهو يسير إلى جَنْبه ، فقال : أليس بخُبيب بن يساف ؟ قال : بلى ، فأقبل خُبيب حتى أخذ

(١) الواقدي ٣٩

(٢) الواقدي : « واعم بصر أبي زمعة » .

ببِطان[١] ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال له ولقيس بن محرّث : ماأخرجكما ؟ قال : كنتَ ابنَ اختنا وجارنا، وخرجنا مع قومنا للغنيمة ، فقال صلى الله عليه وآله : لا يخرجنّ معنا رجلٌ ليس على ديننا ، فقال خُبَيب : لقد علم قومى أنّى عظيم الغَناء فى الحرب ، شديد النِّكاية ، فأقاتِل معك للغنيمة ولا أسلِم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا ولكن أسلِمْ ثم قاتل ؛ فلمّا كان بالروحاء جاء فقال : يارسولَ الله ، أسلمت لربِّ العالمين، وشهدت أنك رسول الله ، فسرّ بذلك ، وقال : امضِه ، فكان عظيم الغَناء فى بدْر وفى غير بدر . وأمّا قيس بن الحارث فأبى أن يُسلم ، فرجع إلى المدينة ، فلما قدم النبيّ صلى الله عليه وآله من بَدْر أسلم وشهد أحُدا فقتل .

قال الواقدىّ : ولما خرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله صامَ يوما أو يومين ، ثم نادى مناديه : يامعشرَ العصاة ، إنّى مفطر ، فأفطِرُوا ؛ وذلك أنّه قد كان قال لهم قبل ذلك : أفطروا فلم يفعلوا[٢] .

قلت : هـذا هو سرّ النبوّة وخاصّيتها ؛ إذا تأمّل المتأملون ذلك ، وهو أن يبلغ بهم حبُّه وطاعتهُ وقبولُ قوله على أن يكلّفهم مايشقّ عليهم فيمتثلوه امتثالا صادرا عن حبّ شديد وحرص عظيم على الطاعة ، حتى إنّه لينسخه عنهم ويسقط وجوبَه عليهم ، فيكرهون ذلك ولا يُسقِطونه عن أنفسهم ، إلاّ بعد الإنكار التّام ؛ وهذا أحسن من المعجزات الخارقة للعادات ، بل هـذا بعينه معجزة خارقة للعادة أقوى وآكد من شقّ البحر وقلب العصا حيّة !

قال الواقدىّ : ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله حتى إذا كان دُوَيْن بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بمسيرهم ، واستشار النّاس

---

(١) البطان : حزام القتب .

(٢) الواقدى ٤٠ ، ٤١

فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قال : يارسولَ الله ؛ إنها قريش وعزّها والله ماذلّت منذ عزّت ، ولا آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزّها أبدا ، ولتقاتلنّك فاتّهب لذلك أهبته ، وأعدّ عدّته ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال : يارسولَ الله لأمر الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيّها : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنا قَاعِدُون ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحقّ لو سرتَ بنا إلى بِرك الغِماد لسرنا .

قال الواقدى : بِرْكُ الغِماد من وراء مكّة بخمس ليال من وراء السّاحل ممّا يلى البحر ، وهو على ثمان ليال من مكّة إلى اليمن .

فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله خيرا ، ودعا له بخير ، ثم قال صلّى الله عليه وآله : أشيروا علىّ أيّها الناس ـ وإنما يريد الأنصار ، وكان يظنّ أنّ الأنصار لا تنصره إلاّ فى الدار ، وذلك أنهم شرطوا أن يمنعوه ممّا يمنعون منه أنفسهم وأولادهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أشيرُوا علىّ ، فقام سعد بن مُعاذ ، فقال : أنا أجيب عن الأنصار ، كأنك يارسولَ الله تريدنا ! قال : أجل ، قال : إنك عسى أن تكون خرجت عن أمرٍ قد أوحِيَ إليك ، وإنّا قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ماجئت به حقّ ، وأعطيناك مواثيقَنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يانبىّ الله لما أردت ، فوالّذى بعثكَ بالحقّ لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك مابقيَ منّا رجل ، وصِلْ مَنْ شئت ، وخذ من أموالنا ماأردت ، فما أخذته من أموالنا أحبُّ إلينا ممّا تركتَ ، والذى نفسى بيده ما سلكت هذه الطريق قطّ ، ومالى بها من علم ، وإنا لا نكره أن نلقَى عدوّنا غداً ؛ إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُق عند اللّقاء ، لعل الله يريك منّا بعضَ ماتقرّ به عينك (١) .

---

(١) الواقدى ٤٤ وفيه : « ما تقربه عينيك » .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد قال : قال سعد بن مُعاذ يومئذ : يارسولَ الله ، إنا قد خَلّفنا من قومنا قوماً مانحنُ بأشدّ حبًّا لك منهم ، ولا أطوعَ لهم رغبة ونيّة فى الجهاد ، ولو ظنّوا أنّك يارسولَ الله ملاقٍ عدوًّا ماتخلّفوا عنك ، ولكن إنّما ظنوا أنّها العِير . نبنى لك عريشا ، فتكونُ فيه ونُعِدّ عندك رواحلك ، ثم نلقى عدونا ، فإنْ أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن تكن الأخرى ، جلستَ على رواحِلك ، فلحقتَ مَنْ وراءنا . فقال له النبىّ صلى الله عليه وآله خيرا ، ثم قال : أو يقضى الله خيرا ياسعد[1] !

قال الواقدىّ : فلمّا فرغ سعد من المشُورة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : سيرُوا على بركةِ الله ، فإنّ الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، واللهِ لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم .

قال الواقدىّ : وقالوا : لقد أرانا رسول الله صلى الله عليه وآله مصارعَهم يومئذ ، هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، فما عدا كلّ رجل منهم مصرعه ، قال : فعلم القوم أنّهم يلاقون القتال ، وأنّ العير تفلّتُ ، ورجا القوم النّصر لقول النبى صلى الله عليه وآله[1] .

قال الواقدىّ : فمن يومئذ عَقَد رسول الله صلى الله عليه وآله الألوية ، وكانت ثلاثة ، وأظهر السّلاح ، وكان خرج من المدينة على غيرِ لواء معقودٍ ، وسار فلقىَ سُفيان الضَّمْرىّ ، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله قتادة بن النّعمان ومعاذ بن جبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من الرّجل ؟ فقال الضّمرىّ : بل ومَنْ أنتم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : تخبرُنا ونخبرُك ، فقال الضّمرى : وذاك بذاك ؟ قال : نعم ، قال الضَّمْرىّ : فاسألوا عمّا شئتم ، فقال له صلى الله عليه وآله : أخبِرْنا عن قُريش ، قال الضّمرىّ : بلغنى أنّهم خرجوا يوم كذا من مكة ، فإن كان الخبر صادقا ، فإنهم بجنْبِ هذا الوادى ، ثم قال

(١) مغازى الواقدى ٤٥

الضَّمْرِى: فمن أنتم ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : نحن مِنْ ماء ، وأشار بيده نحو العِراق ، فجعل الضَّمْرِىّ يقول : من ماء . من أى ماء ؟ من العراق أم من غيره ؟ ثم انصرفَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى أصحابه .

قال الواقدىّ : فبات الفريقانِ كلّ منهم لا يعلم بمنزل صاحبه ، إنما بينهم قَوْز (١) من رمل (٢) .

قال الواقدىّ : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بجَبلين ، فسأل عنهما فقالوا : هـذا مُسْلِح (٣) ومُخرِئ ، فقال: مَنْ ساكنهما ؟ فقيل : بنو النّار و بنو حرّاق ، فانصرف عنهما وجعلهما يساراً (٤) ، ولقيه بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء فأخبراه خبرَ قريش ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادى بدْر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ، فبعث عليا عليه السلام والزّبير وسعد بن أبى وقاص وبَسْبس بن عمرو يتحسّسون (٥) على الماء ، وأشار لهم إلى ظُرَيب (٦) ، وقال : أرجو أن تجدُوا الخبر عند القليب الذى (٧) يَلى هذا الظّريب (٨) ، فاندفعوا تلقاءه ، فوجدوا على تلك القليب رَوايا قريش فيها سُقّاؤهم ، فأسروهم ، وأفلت بعضُهم ، فكان مِمّن عرف أنه أفلت عجير ، فكان أوّلَ مَنْ جاء قريشا بخبر النبى صلى الله عليه وآله وأصحابه ، فنادى : يا آل غالب ! هـذا ابنُ أبى كبْشة وأصحابه ، وقد أخذوا سُقّاءكم ، فماج العسكر وكرِهُوا ماجاء به (٩) .

(١) القوز من الرمل : العالى كأنه جبل ، وتشبه به أرداف النساء .
(٢) الواقدى ٤٦ ، وبعدها : « وكان قد صلى بالدبة ، ثم صلى بسير ، ثم صلى بذات أجدال ، صلى بخيف عين العلا ، ثم صلى بالخبيرين ، ثم نظر إلى جبلين . . . »
(٣) الأصول : « مصلح » ، والتصويب من الواقدى .
(٤) الواقدى : « فانصرف من عنـد الخبيرين ، فمضى حتى قطع الخيرف ، وجعلها يسارا حتى سلك فى المعترضة » .
(٥) كذا فى الواقدى : وفى الأصول « يتجسسون » بالجيم ، تصحيف .
(٦) كذا فى الواقدى .
(٧) الأصول : « التى » ، والتصويب من الواقدى
(٨) قال الواقدى : « والقليب : بئر بأصل الظريب ، والظريب : جبل صغير .
(٩) الواقدى ٤٦ ، ٤٧

قال الواقديّ : فكان حكيم بن حزام يحدّث ، قال : كنّا يومئذ فى خِباء لنا على جَزُور نشوِى من لحمها ، فما هو إلا أنْ سمِعْنا الخبر ، فامتنع الطعام منّا ، ولقى بعضُنا بعضا ، ولقيني عُتْبة بن ربيعة ، فقال : ياأبا خالد ، ما أعلم أحداً يسير أعجبَ من مسيرنا ، إنّ عيرنا قد نجتْ ، وإنا جئنا إلى قومٍ فى بلادهم بغياً عليهم ، فقلت : أراه لأمرٍ حُمّ ، ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شؤم ابن الحنظليّة ،فقال عتبة : أبا خالد ، أتخاف أنْ تبيّتنا القوم ؟ قلت: لأنت آمن من ذلك ، قال : فما الرأى ياأبا خالد ؟ قلت : نتحارس حتى نصبِح وترون رأيكم .

قال عتبة : هذا الرأى ، قال : فتحارسْنا حتى أصبحنا ، فقال أبو جهل : هذا عن أمرِ عُتْبة كره قتال محمد وأصحابه ، إنّ هذا لهو العجب ، أتظنون أنّ محمدا وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله لأتنحينّ ناحية بقومى فلا يحرسنا أحد ، فتنحّى ناحية ، وإنّ السماء لتمطِرُ عليه ، قال : يقول عتبة : إنّ هذا لهو النَّكَد(١) .

قال الواقديّ : أخِذ من السُّقّاء من على القَلِيب يَسار غلام سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبّه بن الحجّاج، وأبو رافع غلام أميّة بن خلف ، فأُتى بهم النبيّ صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلّى ، فسألهم المسلمون ، فقالوا : نحن سُقّاء قريش ، بعثونا نسقِيهم من الماء ، فكره القوم خبرَهم ، ورجوا أن يكونوا لأبى سفيان وأصحاب العير ، فضربوهم ، فلمّا أذلقوهم (٢) بالضَّرْب ، قالوا : نحن لأبى سفيان ، ونحن فى العِير ، وهذا العير بهذا القَوْز ، فكانوا إذا قالوا ذلك يُمسِكون عَنْ ضربهم ، فسلّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله من صلاته ، ثم قال : إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم ! فقال أصحابُه عليه السلام : إنّهم يارسولَ الله يقولون : إنّ قريشا قد جاءت ، فقال : لقد صدقوكم ! خرجت قريش تمنعُ عيرها وخافوكم عليها ، ثم أقبلَ صلى الله عليه وآله على السُّقّاء ، فقال : أين

---

(١) الواقدى ٤٧

(٢) أذلقوهم : أوجعوهم ضرباً .

قريش ؟ فقالوا : خلف هـذا الـكثيب الّذي ترى ، قال : كم هم ؟ قالوا : كثير ، قال : كم عددهم ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : كم ينحرُون ؟ قالوا : يوما عشرة و يوما تسعة ، فقال: القوم مابين الألف والتسعمائة ، ثم قال للسُّقّاء : كم خرج من أهلِ مكة ؟ قالوا : لم يبق أحدٌ به طعم إلا خرج ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على النّاس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ، ثم سألهم رسول الله صلى الله عليه وآله : هل رجع منهم أحد ؟ قالوا : نعم رجع ابن أبي شريق ببني زهرة ، فقال صلى الله عليه وآله: راشدهم[١]، وما كان برشيد، وإن كان ماعلمت لمعادياً لله ولكتابه . ثم قال: فأحد غيرهم ؟ قالوا : نعم بنو عديّ بن كعب، فتركهم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال لأصحابه : أشيروا عليّ في المنزل ، فقال الحُباب بن المنذر : يارسول الله ، أرأيت منزلك هذا ، أهو منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه ، أم هو الرّأى والحرْب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرّأيُ والحرْب والمكيدة ، قال : فإنّ هذا ليس بمنزل ! انطلق بنا إلى أدْنى مياه القوم ، فإنّي عالم بها وبقُلُبها ، فإن بها قليباقد عرفت عذوبة مائها، وماؤها كثير لا ينزح ؛ نبني عليها حوْضاً ، ونقذف فيها بالآنية فنشرب ، ونقاتل ، ونعوّر[٢] ماسواها من القُلُب .

قال الواقديّ : فكان ابن عباس يقول : نزل جبريل عَلَى النبي صلى الله عليه وآله فقال : الرأى ماأشار به الُحباب فقال : ياحباب، أشرت بالرّأى ، ونهض ، وفعل كلّ ذلك[٣] .

قال الواقديّ : و بعث الله السماء ، وكان الوادى دهساً ، أى كثير الرمل ، فأصاب المسلمين مالبد الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً مالم يقدروا معه أن يرتحلوا منه ، و إنما بين الطائفتين قوْز من رمل .

قال الواقديّ : وأصاب المسلمين تلك الليلة النّعاس ألقيَ عليهم ، فناموا ولم يصبهم من المطر مايؤذيهم .

---

(١) الواقدى : « أرشدهم » .

(٢) يقال : عوّر البئر ؛ إذا كبسها بالتراب .

(٣) الواقدى ٤٨

قال الزُّبير بن العوام : لقد سلَّط الله عليهم النعاس تلك الليلة ، حتى إنّى كنت لأتشدّد ، والنّعاس يجلد بى الأرض فما أطيق إلا ذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه على مثل ذلك الحال . وقال سعدُ بن أبى وقاص : لقد رأيتُنى ، وإن ذَقَنى بين ثديى ، فما أشعر حتى أقع على جنبى .

وقال رفاعة بن رافع بن مالك : لقد غلبنى النوم ، فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل[1] .

قال الواقدىّ : فلمّا تحوّل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المنزل بعد أن أخذ السّقاء ، أرسل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، فأطافا بالقوم ، ثم رجعا إليه فقالا له : يارسولَ الله ، القوم مذعورون فزِعون ، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه ، مع أن السماء تَسُحُّ عليهم[2] .

قال الواقدىّ : فلمّا أصبحوا قال منبّه بن الحجاج ـ وكان رجلا يبصر الأثر ـ هذا والله أثرُ ابنِ سُمَيّة ، وابن أم عبد ، أعرفهما ، لقد جاءنا محمد بسفهائنا وسفهاء أهل يثرب ، ثم قال :

لم يترك الجوع لنا مبيتا لا بدّ أن نموت أو نُميتا[3]

يامعشرَ قريش ، انظروا غداً إن لقينا محمد وأصحابه ، فاتقوا على شبّانكم وفتيانكم ،

---

(١) الواقدى ٤٩ ، ٥٠ (٢) الواقدى ٥٠

(٣) بعدها فى الواقدىّ : قال أبو عبد الله : قد ذكرت قول منبه بن الحجاج :

﴿ لَمْ يَتْرُكِ الْجُوعُ لَنَا مَبِيتاَ ﴾

لمحمد بن يحيي بن سهل بن أبى حثمة ، فقال : لعمرى لقد كانوا شباعاً ؛ لقد أخبرنى أبى أنه سمع نوفل ابن معاوية يقول : نحرنا تلك الليلة عشر جزائر ؛ فنحن فى خباء من أخبيتهم نشوى السنام والكبد وطيبة اللحم ونحن نخاف من البيات فنحن نتحارس إلى أن أضاء الفجر ، فأسمع منبهاً يقول بعد أن أسفر : هذا ابن سمية وابن مسعود ، وأسمعه يقول :

لم يتركِ الخوفُ لنا مبيتاَ لاَ بُدَّ أنْ نمُوتَ أوْ نُميتاَ

بأهل يثرب ، فإنا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا من ضلالتهم مافارقوا من دين آبائهم [١] .

قال الواقدىّ : ولما نزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله على القَليب بُنى له عريش من جَريد ، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشّحًا سيفَه ، فدخلَ النبىّ صلى الله عليه وآله وأبو بكر [١] .

قلت : لأعجبُ من أمرِ العريش ، من أين كان لهم ، أو معهم من سَعفِ النّخل مايبنون به عريشا ، وليس تلك الأرض ـ أعنى أرض بدر ـ أرضَ نخل ؛ والّذى كان معهم من سَعَف النخل يجرى مجرى السّلاح كان يسيرا جدا ! قيل إنه كان بأيدى سبعة منهم سِعاف عوَضَ السيوف ، والباقون كانوا بالسّيوف والسهام والقِسىّ ، هذا قول شاذّ ، والصحيح أنه ماخلا أحدٌ منهم عن سلاح ، اللهمّ إلا أنْ يكونَ معهم سَعَفات يسيرة ، وظلّل عليها بثوب أو سِتْر ، وإلّا فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجها !

قال الواقدىّ : وصفَ رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه قبل أن تنزل قريش ، فطلعت قريش ورسول الله صلى الله عليه وآله يصفُّ أصحابه ، وقد أترعوا حوضًا يفرطون فيه من السحر ، وقذفت فيه الآنية ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله رايتَه إلى مصعب بن عمير ، فتقدم بها إلى الموضع الّذى أمره أن يضعها ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى الصفوف ، فاستقبل المغرب ، وجعل الشمس خلفَه ، وأقبل المشركون ، فاستقبلوا الشمس ، ونزل بالعُدْوة الدّنيا من الوادى ، ونزلوا بالعُدْوة [٢] اليمانيّة ، وهى القصوى ، وجاءه رجل من أصحابه فقال : يارسولَ الله ، إن كان هذا عن وحىٍ فامض له ، وإلّا فإنّى

---

(١) الواقدى ٥٠ .

(٢) فى الواقدى : « عدوتا النهر والوادى : جنبتاه » .

أرى أن تعلوا الوادى ؛ فإنى أرى ريحاً قد هاجت من أعلاها ، وأراها بعثت بنصرك . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « قد صففت صفوفى ووضعت رايتى ، فلا أغيّر ذلك » ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأمدّه الله بالملائكة(١) .

قال الواقدىّ : وروى عروة بن الزبير ، قال : عَدّل رسول الله صلى الله عليه وآله الصّفوف يومئذ ، فتقدم سواد بن غَزِيّة أمام الصفّ ، فدفع النبى صلى الله عليه وآله بقِدْح فى بطنه ، وقال : استوِ يا سواد ، فقال : أوجعتنى والذى بعثك بالحقّ ، أقِدْنى ، فكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه ، وقال : استقِدْ ، فاعتنقه وقبّله ، فقال : ماحملك على ماصنعت؟ قال : حَضَر يارسول الله من أمر الله ماقد ترى ، وخشِيت القتل ، فأردت أن يكون آخرَ عهدى بك ، وأن أعتنقك(٢) .

قال الواقدىّ : فحدثنى موسى بن يعقوب ، عن أبى الحويرث ، عن محمد بن جبير بن مُطعِم ، عن رجل من بنى أوْد قال : سمعت علياً عليه السلام يخطب على منبر الكوفة ، ويقول بينا أنا أميح(٣) فى قَلِيب بدر جاءت ريح لم أرَ مثلها قطّ شدّة ، ثم ذهبت فجاءت أخرى لم أرَ مثلها إلّا التى كانت قبلها ، ثم جاءت ريح أخرى لم أرَ مثلها إلا الأوليَيْن ، فكانت الأولى جبريل فى ألف مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، والثانية ميكائيل فى ألف عن ميمنته ، والثالثة إسرافيل فى ألف عن مَيْسرته ، فلمّا هزَم الله أعداءه ، حملنى رسول الله صلى الله عليه وآله على فرس ، فجرتْ بى ، فلمّا جرتْ بى خررتُ على عنقهما ، فدعوت ربّى ، فأمسكنى حتى استويتُ ، ومالى وللخيل ، وإنما كنت صاحب الغنم ، فلما استويت طعنت فيهم بيدى هذه حتى اختضبتْ منى(٤) ذى — يعنى إبطه(٥) —

---

(١) فى الواقدى ٥١ : « فنزل عليه جبريل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ، بعضهم على إثر بعض . (٢) الواقدى ٥٢

(٣) فى الأصول : « أمتح » . وفى الواقدى : « أميح يعنى أستقى ، وهو من ينزع الدلاء ، وهو المتح أيضاً » . (٤) الواقدى : « ذه » (٥) الواقدى ٥٢ ، ٥٣

قلت : أكثر الرواة يروُونه: «فحملني رسول الله على فرسِه»، والصحيح ماذكرناه ، لأنه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله فرس يوم بدر ، وإنما حضرها راكب بعير ، ولكنه لمّا اصطدم الصفّان ، وقتل قوم من فرسان المشركين ، حملَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًّا عليه السلام على بعض الخيل المأخوذة منهم .

قال الواقديّ : قالوا : كان على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر ، وكان على ميسرته على بن أبي طالب عليه السلام، وكان على ميمنة قريش هُبيرة بن أبي وهب المخزومى ، وعَلَى ميسرتهم عمرو بن عبد ودّ . قيل : كان زمعة بن الأسود عَلَى ميسرتهم ، وقيل : بل كان على خيل المشركين ، وقيل : الذى كان على الخيل الحارث بن هشام ، وقال قوم : لم يكن هبيرة على الميمنة ، بل كان عليها الحارث بن عامر بن نوفل [1] .

قال الواقديّ : وحدّثني محمد بن صالح عن يزيد بن رُومان وابن أبي حَبيبة ، قالا : ما كان على ميمنة النبي صلى الله عليه وآله يوم بَدْر ولا على ميسرته أحدٌ يسمّى ، وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم ماسمعنا فيها بأحد [1] .

قال الواقديّ : وهذا هو الثّبت عندنا قال : وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ الأعظم لواء المهاجرين مع مُصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الُحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، وكان مع قريش ثلاثة ألوية ، لواء مع أبي عزيزة ، ولواء مع المنذر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة [1] .

قال الواقديّ : وخطب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين يومئذ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنى أحثّكم على ماحثّكم الله عليه ، وأنهاكم عمّا نهاكم الله عنه فإنّ الله عظيمٌ شأنه ، يأمر بالحقّ ، ويحبّ الصدق ، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده

---

(١) الواقدى ٥٣ ، ٥٤

به يذكرون ، و به يتفاضلون ، و إنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحقّ؛ لا يقبل الله فيه من من أحدٍ إلا ماابتغى به وجهه . وإنّ الصبر فى البأس مما يفرّج الله به الهمّ ، وينجّى به من الغمّ ، تدركون به النّجاة فى الآخرة، فيكم نبيّ الله يحذّركم و يأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شئ من أمركم يمقتكم عليه ، فإنه تعالى يقول : ﴿لَمَقْتُ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] ؛ انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وما أعزّكم به بعد الذّلة ، فاستمسكوا به يرضَ ربّكم عنكم ، وابلُوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الّذى وَعدكم من رحمته ومغفرته ، فإنّ وعده حقّ ، وقوله صدق ؛ وعقابه شديد ، و إنما أنا وأنتم بالله الحىّ القيّوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، و به اعتصمنا، وعليه توكّلنا ، و إليه المصير ، ويغفر الله لى والمسلمين[2] .

قال الواقدىّ : ولمّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله قريشاً تصوّب من الوادى ، وكان أوّل مَنْ طلع زَمْعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه ، فاستجال بفرسه، يريد أن يبئُوا للقوم منزلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهمّ إنك أنزلتَ علىّ الكتاب ، وأمرتنى بالقتال ، ووعدتَنِى إحدَى الطائفتين ، وأنت لاتخلِف الميعاد . اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها ، تحادِلُ وتكذّب رسولك . اللهمّ نصرَك الذى وعدتَنِي . اللّهمّ أحِنهم الغداة ! وطلع عُتبة بن ربيعة على جَمَلٍ أحمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنْ يكُ فى أحدٍ من القوم خيرٌ ففى صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشُدوا .

قال الواقدىّ : وكان إيماء بن رَحَضَة قد بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر حين مرُّوا به أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن يمدّكم بسلاح ورجال فإنّا معدّون لذلك ، مؤدون فعلنا ، فأرسلوا : أن وصلتْك رحِم ، قد قضيتَ الّذى عليك ، ولعمرى لئن

---

(١) سورة غافر ١٠

(٢) مغازى الواقدى ٥٣

كنّا إنّما نقاتل الناس مابنا ضعف عنهم ؛ ولئن كنّا نقاتل الله بزعم محمد ، فما لأحدٍ بالله طاقة (١) .

قال الواقدى : فروى خفاف بن إيماء بن رحْضة ، قال : كان أبى ليس شىء أحبّ إليه من إصلاح بين الناس ، موكّلًا بذلك؛ فلمّا مرّت به قريش أرسلنى بجزائر عشر هدية لها ، فأقبلتُ أسوقها ، وتبعنى أبى ، فدفعتها إلى قريش فقبلوها ووزّعوها فى القبائل ، فمرّ أبى على عُتْبة بن ربيعة ، وهو سيّد الناس يومئذ ، فقال : يا أبا الوليد ، ما هذا المسير ؟ قال : لا أدرى والله غُلِبت ، قال : فأنت سيّد العشيرة ، فما يمنعك أن ترجع بالناس ، وتحمل دم حليفك ، وتحمل العير التى أصابوا بنخْلة ، فتوزّعها على قومك! فوالله مايطلبون قبل محمد إلّا هذا ؛ والله يا أبا الوليد ماتقتلون بمحمد وأصحابه إلّا أنفسكم (٢) !

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابن أبى الزّناد ، عن أبيه ، قال : ما سمعنا بأحدٍ سار بغير مالٍ إلا عتبة بن ربيعة (٢) .

قال الواقدىّ : وروى محمد بن جبير بن مطعِم ، قال : لما نزل القومُ أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب إلى قريش ، فقال : ارجعوا ؛ فلأن يلى هذا الأمرَ منّى غيرُكم أحبّ إلىّ من أن تلُوه منّى ؛ وأن ألِيَه من غيركم أحبّ إلىّ من أن أليه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نَصَفاً ، فلبّوه (٣) ؛ والله لا تُنصَرون عليه بعد أن عرض عليكم من النَّصَف ماعَرَض . وقال أبو جهل : لانرجع بعد أن أمكننا الله منهم ، ولا نطلب أثراً بعد عَيْن ، ولا يعرض (٤) لعيرنا بعد هذا أبدا .

قال الواقدىّ : وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوضَ ، منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون تنحيتهم (٥) عنه ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : دعوهم ؛ فوردُوا الماء ،

---

(١) مغازى الواقدى ٥٥ (٢) الواقدى ٥٦ . (٣) الواقدى : « فاقبلوه » .

(٤) الواقدى : « يعترض » . (٥) الواقدى: « تخليتهم » ؛ قال : « يعنى طردهم » .

فشربوا ، فلم يشرب منهم أحد إلّا قتِل ؛ إلّا ما كان من حكيم بن حِزام[١] .

قال الواقدىّ : فكان سعيد بن المسيّب ، يقول : نجا حكيم من الدّهر مرتين ، لما أراد الله تعالى به من الخير ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على نفر من المشركين وهم جلُوس يريدونه ، فقرأ « يس » ؛ ونثر على رءوسهم التراب ، فما أفلت منهم أحدٌ إلا قتل ، ماعدا حكيم بن حزام . وورد الحوض يوم بدر مع مَنْ ورده من المشركين ، فما ورده إلا من قتل إلا حكيم بن حزام .

قال الواقدىّ : فلمّا اطمأنّ القوم بعثوا عُمير بن وهب الجُمحىّ ، كان صاحب قِداح ، فقالوا : أُحزُر[٢] لنا محمدا وأصحابه ، فاستجال بفرسه حول العسكر ، وصوّب فى الوادى وصعّد ، يقول : عسى أن يكون لهم مدد أو كمين ! ثم رجع فقال : لا مدد ولا كمين ، والقوم ثلثمائة ، إن زادوا قليلا ، ومعهم سبعون بعيرا ومعهم فرسان ، ثم قال : يا معشرَ قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ؛ قوم ليس لهم مَنَعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم ؛ ألا ترونهم خُرْساً لا يتكلّمون ، يتلمّظون تلمّظ الأفاعى ! والله ما أرى أن يقتَل منهم رجل حتى يقتُل رجُلًا ، فإذا أصابوا منكم عددهم ؛ فما خيرٌ فى العيش بعد ذلك ! فروْا رأيكم[٣] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى يونس بن محمد الظَّفرىّ ، عن أبيه ، أنه قال : لما قال لهم عُمير بن وهب هذه المقالة ، أرسلوا أبا أسامة الجُشَمِىّ ، وكان فارسا ، فأطاف بالنبىّ صلى الله عليه وآله وأصحابه ، ثم رجع إليهم ، فقالوا له : ما رأيت ؟ قال : والله ما رأيتُ جَلَداً ولا عددا ولا حَلْقة[٤] ولا كُراعا ، ولكنّى والله رأيت قوماً لا يريدون أن يردُّوا إلى أهليهم ! رأيت قوما مستميتين ، ليست معهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زُرْق العيون ،

---

(١) الواقدى ٥٦

(٢) فى الأصول : « احذر » تصحيف .

(٣) الواقدى ٥٩

(٤) الحلقة هنا : السلاح .

كأنهم الحصا تحت الحجَف[١] ، ثم قال : أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد ، فصوّب فى الوادى ثم صعّد ، ثم رجع إليهم ، فقال : لا كمين ولامَدد ! فروْا رأيكم[٢] .

قال الواقدىّ : ولما سمع حكيم بن حزام ماقال عُمير بن وهب ، مشى فى النـاس ، فأتى عتبة بن ربيعة ، فقال : ياأبا الوليد ، أنت كبير قريش وسيّدها والمطاع فيها ، فهـل لك ألّا تزال تُذكر فيها بخير آخر الدهر ، مع ما فعلت يوم عُـكاظ ! وعتبة يومئذ رئيس الناس ، فقـال : وما ذاك يا أبا خالد ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل دم حليفـك ، وما أصابه محمد من تلك العِير ببطن نخلة ، إنـكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هـذا الدّم والعير. فقال عتبة : قد فعلت ، وأنت علىّ بذلك. ثم جلس عتبة على جمله ، فسار فى المشركين من قريش يقول : ياقوم أطيعونى ، ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه ، واعصبوا هذا الأمر برأسى ، واجعلوا جبنَها[٣] فىّ ، فإنّ منهم رجالا قرابتهم قريبة ؛ ولا يزال الرّجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينكم شحناء وأضغانا ، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منـكم عددهم ، مع أنّه لا آمن أن تـكون الدائرة عليـكم ، وأنتم لا تطلبون إلّا دمَ القتيل منـكم ، والعِير التى أصيبت ، وأنا أحتمـل ذلك ، وهو علىّ يا قوم ؛ إن يك محمـد كاذبا يكفيـكموه ذؤبان العرب ، وإن يك مَلِـكا كنتم فى ملك ابن أخيكم ، وإن يك نبيًّا كنتم أسعـدَ النـاس به ! ياقوم لا تردُّوا نصيحتى ، ولا تسفّهوا رأيى . فحسده أبو جهل حين سمع خطبته ، وقال : إن يرجع النّاس عن خطبة عتبة يكن سيّد الجماعة ، وكان عتبة أنطقَ الناس ، وأطولَهم لسانا ، وأجملهم جمالًا ، ثم قال عتبة لهم : أنشدكم الله فى هذه الوجوه الّتى كأنها المصابيح ، أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنّها وجوهُ الحيّات ! فلمّا فرغ عتبة من كلامه قال أبو جهل : إنّ عتبة يشير عليـكم بهـذا

---

(١) الحجف : التروس .

(٢) مغازى الواقدىّ ٥٧ ، ٥٨

(٣) فى الأصول : «حينها» ، وأثبت ما فى الواقدى.

لأنّ محمدا ابن عمه ،وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه ، امتلأ والله سَحْرُكَ ياعتبة وجَبُنْتَ حين التقت حَلقتا البِطان (١). الآن تخذّل بيننا وتأمرنا بالرجوع ! لا والله لا نرجع حتى يحكُم الله بيننا و بين محمد . فغضب عتبـة ، فقال : يامصفّر أستِه ، ستعلم أيّنا أجبن وألأم ! وستعلم قريش مَنِ الجبان المفسد لقومه ! وأنشد :

هـــذاىَ وأمرت أمرِى فبشّرى بالثّكل أم عمرو (٢)

قال الواقدىّ : وذهب أبو جهـل إلى عامر بن الحضرمىّ ، أخى عمرو بن الحضرمىّ المقتول بنخْـلة ، فقال له : هذا حليفك ـ يعنى عتبة ـ يريد أن يرجع بالنّاس، وقدرأيت ثأرك بعينك ، وتخذل بين النّاس ! قد تحمل دم أخيـك ، وزعم أنّك قابل الدّية ، ألا تستحى ؟ تقبل الدية وقد قدرت على قاتل أخيـك ! قمْ فانشد خُفرتك ؛ فقـام عامر بن الحضرمىّ فا كتشف (٣) ، ثم حثا على استـه التراب ، وصرخ : واعمراه ! يخزّى بذلك عتبة ؛ لأنّه حليفه من بين قريش ، فأفسد على النّاس الرأىَ الذى دعاهم إليه عُتْبة ، وحلف عامر لا يرجع حتّى يقتل من أصحاب محمد . وقال أبو جهل لعُمَـير بن وهب : حرّش بين الناس ، فحمل عمـير فناوش المسلمين ، لأن ينفضّ الصفّ ، فثبت المسلمون على صفّهم ؛ ولم يزولوا ، وتقدّم ابن الحضرمى فشدّ على القوم ، فنشبت الحرب (٤) .

قال الواقدىّ : فروى نافع بن جبير عن حكيم بن حزام ، قال: لما أفسد الرأى أبو جهل على النّاس ، وحرّش بينهم عامر بن الحضرمىّ فأقحم فرسه ، كان أوّل من خرج إليه من المسلمين مهجّع مولى عمر بن الخطاب ، فقتله عامر ، وكان أوّلَ قتيل قتِل من الأنصار حارثة ابن سراقة ، قتله حيان بن العرقة (٥) .

قال الواقدىّ : وقال عمر بن الخطاب فى مجلس ولايته : يا عمـيرَ بن وهب ، أنت

---

(١) حلقتا البطان ، كناية عن اشتداد الأمر.
(٢) مغازى الواقدى ٥٨ ، ٥٩
(٣) اكتشف : تعرى
(٤) الواقدى ٥٩
(٥) الواقدى ٦٠ : « ويقال : عمير بن الحمام ، قتله خالد بن الأعلم العقيلى » .

حاذِرُنا للمشركين يوم بدْر ، تصعّد فى الوادى وتصوّب ، كأنّى انظر إلى فرسك تحتك تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد ! قال : إى والله ياأمير المؤمنين ، وأخرى ، أناوالله الذى حرّشت بين الناس يومئذ ، ولكن الله جاءنا بالإسلام ، وهدانا له؛ وما كان فينا من الشِّرْك أعظم من ذلك ، قال عمر: صدقت (١) .

قال الواقدىّ : وكان عتبة بن ربيعة كلّم حكيم بن حزام ، وقال : ليس عند أحد خلاف إلا عند ابن الحنظليّة ، فاذهب إليه ، فقل له : إنّ عتبة يحمل دم حليفه ، ويضمن العير . قال حكيم : فدخلت على أبى جهل ، وهو يتخلّق بخَلوق طِيب ، ودرعه موضوعة بين يديه ، فقلت : إن عتبة بن ربيعة بعثنى إليك ، فأقبلَ علىّ مغضبا؛ فقال : ما وجد عتبة أحداً يرسله غيرك ؛ فقلت : والله لو كان غيره أرسلنى ما مشيت فى ذلك ، ولكنى مشيتُ فى إصلاح بين الناس ــ وكان أبو الوليد سيّد العشيرة ــ فغضب غضبة أخرى . قال : وتقول أيضا سيّد العشيرة ، فقلت: أنا أقوله ، وقريش كلّها تقوله ، فأمر عامرا أن يصيح بخفرته ، واكتشف ، وقال : إنّ عُتبة جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل المشركون يقولون : عتبة جاع ، فاسقوه سويقا ، وجعل أبو جهل يسرّ بما صنع المشركون بعتبة . قال حكيم : فجئت إلى منبه بن الحجاج فقلت له مثل ما قلت لأبى جهل ، فوجدته خيراً من أبى جهل ، قال : نعمّا مشيتَ فيه ، ومادعا إليه عتبة ! فرجعت إلى عتبة فوجدته قد غضب من كلام قريش، فنزل عن جمله ، وقد كان طاف عليهم فى عسكرهم يأمرهم بالكفّ عن القتال ، فيأبوْن ، فحِمِى ، فنزل فلبس دِرْعه ، وطلبوا له بَيْضَةً فلم يوجد فى الجيش بَيْضة تسع رأسه من عِظَم هامته ، فلما رأى ذلك اعتجَر ، ثم برز راجلا بين أخيه شيبة وبين ابنه الوليد ابن عتبة ، فبينا أبو جهل فى الصفّ على فرس أنثى ، حاذاه عُتْبة ، وسلّ سيفه ، فقيل : هو والله يقتله ، فضرب بالسيف عُرقوب فرس أبى جهل ، فا كتسعت (٢) الفرس ،

---

(١) مغازى الواقدى ٦٠

(٢) اكتسعت الفرس : سقطت من ناحية مؤخرها ورمت به .

وقال : انزل ، فإنّ هـذا اليوم ليس بيوم ركوب ؛ ليس كلّ قومك راكبا ، فنزل أبو جهـل وعُتبة يقول : سيعلم أيّنا شؤم عشيرته الغـداة ! قال حكيم : فقلت : تالله ما رأيتُ كاليوم !

قال الواقديّ : ثم دعا عُتبة إلى المبارزة ورسول الله صلى الله عليـه وآله في العَريش ، وأصحابه على صفوفهم ، فاضطجع ، فغشيَه النوم ، وقال : لا تقاتلوا حتى أوذنَـكم ، وإن كثبوكم فارمُوهم ولا تسلُّوا السيوفَ حتى يغشوكم . فقال أبو بكر : يارسول الله قددنا القوم ، وقد نالوا مِنّا ، فاستيقظ وقد أراه الله إيّاهم في منامه قليلا ، وقلّل بعضهم في أعين بعض ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو رافع يديه يناشد ربّه ماوعده من النّصر ، ويقول : «اللهمّ إن تظهر علىّ هذه العصابة يظهر الشّرك ، ولا يقم لك دين» ، وأبو بكر يقول : والله لينصرنّك الله وليبيّضنّ وجهك . قال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ، إنّى أشيرُ عليك ، وأنت أعظم وأعـلم بالله من أن يشارَ عليك ، إنّ الله أجلّ وأعظم من أن ينشَد وعـده ! فقال عليـه السلام : يابن رواحة ، ألا أنشدُ الله وعدَه ، إن الله لا يخلف الميعاد ! وأقبل عُتبة يعمِد إلى القتال ، فقال له حكيم بن حزام : مهلاً مهلاً ياأبا الوليد ! لا تنهَ عن شيء وتكون أوّله [1] .

قال الواقديّ : قال خفاف بن إيماء : فرأيت أصحابَ النبيّ صلى الله عليه وآله يوم بدْر ، وقد تصافّ النّاس وتزاحفوا ، وهم لا يسلّون السيوف ، ولـكنهم قد انتضوا القِسِيّ ، وقد تترّس بعضهم عن بعض بصفوفٍ متقاربة ، لا فُرج بينها ؛ والآخرون قد سلُّوا السيوف حين طلعوا ، فعجبت من ذلك ، فسألت بعد ذلك رجلا من المهاجرين ، فقال : أمرَنا رسول الله صلى الله عليه وآله ألّا نسلّ السيوف حتى يغشونا [2] .

قال الواقديّ : فلما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من

(١) مغازى الواقدى ٦٠ ، ٦١

الحوض : أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه. فشدّ حتى دنا من الحوض ، واستقبله حمزة بن عبد المطلب ، فضربه فأطنّ (١) قدمه ، فزحف الأسود ليبرّ قسمه زعم ، حتى وقف فى الحوض فهدمه برجله الصحيحة ، وشرب منه ، وأتبعه حمزة ، فضربه فى الحوض فقتله ، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم (٢) .

قال الواقدىّ : ودنا النّاس بعضهم من بعض ، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فصلوا من الصفّ ، ثم دعوْا إلى المبارزة ، فخرج إليهم فتيان ثلاثة من الأنصار ، وهم بنو عَفْراء : مُعاذ ومعوّذ وعوف ، بنو الحارث — ويقال : إنّ ثالثهم عبد الله بن رواحة ، والثّابت عندنا أنهم بنو عَفْراء — فاستحى رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ، وكره أن يكون أوّل قتال لقِيَ المسلمون فيه المشركين فى الأنصار ، وأحبّ أن تكون الشوْكة لبنى عمّه وقومه ، فأمرهم ، فرجعوا إلى مصافّهم ، وقال لهم خيرا ، ثم نادى منادى المشركين : يامحمد ، أخرِجْ إلينا الأكفاء من قومنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : يابنى هاشم ، قوموا فقاتلوا بحقّكم الذى بعث الله به نبيّكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله . فقام حمزة بن عبد المطّلب وعلىّ بن أبى طالب وعُبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف ، فمشوْا إليهم ، فقال عتبة : تكلّموا نعرفْكم — وكان عليهم البِيض ، فأنكروهم — فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم (٣) .

* * *

وروى محمد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " خلاف هذه الرواية ، قال : إن بنى عَفْراء وعبد الله بن رَوَاحة برزوا إلى عُتبة وشيبة والوليد ، فقالوا لهم : مَنْ أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، فقالوا : ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ! ثم نادى مناديهم : يامحمد

---

(١) أطنّ قدمه : قطعها
(٢) على صفوفهم : أى على حالتهم التى كانوا عليها .
(٣) مغازى الواقدى ٦٢ ، ٦٣

أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قم يافلان ، قم يافلان، قم يافلان [١] .

قلت : وهذه الرواية أشهر من رواية الواقديّ ، وفى رواية الواقديّ مايؤكد صحة رواية محمد بن إسحاق ، وهو قوله : إنّ منادى المشركين نادى : « يامحمد ، أخرِج إلينا الأكفاء من قومنا » فلو لم يكن قد كلّمهم بنو عفراء وكلّموهم وردّوهم ، لما نادى مناديهم بذلك. ويدلّ على ذلك قول بعض القرشيّين لبعض الأنصار فى فخرٍ فخرَ به عليه : أنا من قوم لم يرضَ مشركوهم أن يقتلوا مؤمنِى قومك .

قال الواقديّ : فقال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ، فقال عتبة : كفء كريم ، وأنا أسد الحلفاء ، من هذان معك ؟ قال : على بن أبى طالب وعبيدة ابن الحارث بن المطلب ، فقال : كفآن كريمان [٢] .

قال الواقديّ : قال ابن أبى الزناد : حدّثنى أبى ، قال : لم أسمع لعُتبة كلمةً قطّ أوهن من قوله : « أنا أسد الحلفاء » يعنى بالحلفاء الأجمة .

قلت : قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى : « وأنا أسد الحُلَفاء » ، وروى : « أنا أسد الأحلاف » .

قالوا فى تفسيرها : أراد أنا سيّد أهل الحلف المطيّبين ، وكان الذين حضروه بنى عبدمناف و بنى أسد بن عبد العزّى و بنى تَيْم و بنى زُهْرة و بنى الحارث بن فهر ؛ خمس قبائل . وردّ قوم هذا التأويل ، فقالوا : إن المطيّبين لم يكن يقال لهم : الحلفاء ولا الأحلاف ، و إنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الذين وقع التحالف لأجلهم، وهم بنو عبد الدار ، و بنو مخزوم، و بنو سَهم، وبنو جُمَح،وبنو عدىّ بن كعب ؛ خمس قبائل . وقال قوم فى تفسيرها : إنما عنى

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥ ، وفيها : « قم ياعبيدة بن الحارث ، قم ياحمزة ، قم ياعلى » .

(٢) مغازى الواقدى ٦٣

حِلف الفُضول ، وكان بعد حلف المطيّبين بزمان ، وشهد حلف الفُضول رسول الله صلى الله عليه وآله وهو صغير فى دار ابن جُدْعان ، وكان سببه أنّ رجلا من اليمن قدم مكّة بمتاع ، فاشتراه العاص بن وائل السهمىّ ومطّله بالثمن حتى أتعبه ، فقام بالحِجْر وناشد قُريشا ظلامته ، فاجتمع بنو هاشم و بنو أسد بن عبد العُزّى و بنو زهرة ، و بنو تيم ، فى دار ابن جُدْعان ، فتحالفوا وغمسُوا أيديَهم فى ماء زمزم ، بعد أن غسلوا به أركان البيت ؛ أن ينصروا كلّ مظلوم بمكة ، و يردُّوا عليه ظلامته ، و يأخذوا على يد الظالم ، وينهَوا عن كلّ منكر ، ما بلّ بحرٌ صوفة ، فسمّى حلف الفضول لفضله ، وقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : « شهدته وما أحبّ أن لى به حُمْرَ النعم ، ولا يزيده الإسلام إلّا شدّة » . وهذا التفسير أيضا غير صحيح ، لأن بنى عبد الشمس لم يكونوا فى حِلف الفضول ، فقد بان أن ماذكره الواقدىّ أصحّ وأثبت .

قال الواقدىّ : ثم قال عتبة لابنه : قم ياوليد ، فقام الوليد وقام إليه علىّ ، وكانا أصغرَ النّفر ، فاختلفا ضربتيْن ، فقتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم قام عتبة ، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتيْن ، فقتله حمزة رضى الله عنه ، ثم قام شيبة ، وقام إليه عُبيدة ، وهو يومئذ أسنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فضرب شَيْبة رِجْل عبيدة بذُباب السيف ، فأصاب عضلة ساقه ، فقطعها وكرّ حمزة وعلىّ على شيبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصفّ ، ومخّ ساقه يسيل ، فقال عبيدة : يارسول الله ، ألستُ شهيداً ؟ قال : بلى ، قال : أما والله لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنى أحق بما قال حين يقول :

كذبتمْ وبيتِ الله نخلِي محمّدا ... ولمّا نطاعِنْ دونهُ ونناضِلُ

وننصرُه حتى نصرّع حولَه ... ونذهَلَ عن أبنائنا والحلائِلِ

ونزلت فيهم هذه الآية : ﴿ هَذَانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحج ١٩ والخبر فى الواقدى ٦٣ ، و ٦٤

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارزَ عُبيدة بن الحارث ، وأنّ شيبة بارز حمزة بن عبد المطلب ، فقتل حمزة شيبة ، لم يمهله أن قتله؛ ولم يمهل علىّ الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبتَ[١] صاحبه ، وكرّ حمزة وعلىّ عليه السلام على عُتْبة بأسيافهما ، حتى وقعا عليه[٢] ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف[٣] .

قلت : وهذه الرواية توافق مايذكره أمير المؤمنين عليه السلام فى كلامه ، إذ يقول لمعاوية : وعندى السيفُ الذى أعضضتُ به أخاكَ وخالك وجدّك يوم بدر . ويقول فى موضع آخر: قد عرفت مواقع نصالِها فى أخيك وخالِك وجدّك، وما هى من الظالمين ببعيد .

واختار البلاذرىّ روايةَ الواقدىّ : وقال: إن حمزة قتل عتبة ، و إنّ عليا عليه السلام قتل الوليد ، وشرك فى قتل شيبة[٤] .

وهذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السنّ ، لأن شيبة أسنّ الثلاثة ، فجُعل بإزاء عبيدة وهو أسنّ الثلاثة، والوليد أصغر الثلاثة سنًّا ، فجُعل بإزاء على عليه السلام ، وهو أصغر الثلاثة سنا ، وعتبة أوسطهم سنًّا ، فجعل بإزاء حمزة وهو أوسطهم سنًّا . وأيضا فإنّ عتبة كان أمثلَ الثلاثة ، فمقتضى القياس أن يكونَ قرنه أمثلَ الثلاثة ، وهو حمزة إذ ذاك ، لأنّ عليا عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جدا ، وإنما اشتهر الشُّهرة التامّة بعد بدر . ولمن روى أنّ حمزة بارز شيبة ــ وهى رواية ابن إسحاق ــ أن ينتصر بشعر هند بنت عتبة ترثى أباها :

أعينَىّ جودا بدمع سَرِبْ ... على خير خِنْدف لم ينقلب[٥]

تداعَى له رهطُه قُصْرةً ... بنو هاشمٍ وبنو المطّلب[٦]

يذيقونه حرّ أسيافهمْ ... يعلُّونه بعد ماقد عَطِب[٧]

---

(١) أثبته : جرحه
(٢) ابن هشام : « ذففا عليه » .
(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٥
(٤) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٥٤١ والواقدى : « غدوة »
(٦) يقال : هو ابن عمى قصرة ، أى قريب . وفى ا
(٧) ا : « شجب » .

فإذا كانت قد قالت إن عتبة أباها أذاقه بنو هاشم و بنو المطلب حرّ أسيافهم ، فقد ثبت أن المبارز لعتبة إنما هو عُبيدة لأنه من بنى المطلب جرح عتبة ، فأثبته ثم ذفّف[١] عليه حمزة وعلى عليه السلام . فأما الشّيعة ، فإنها تروى أن حمزة بادر عتبة فقتله ، وأنّ اشتراك علىّ وحمزة إنما هو فى دم شيبة بعد أن جرحه عبيدة بن الحارث ، هكذا ذكر محمد ابن النعمان فى كتاب " الإرشاد " ، وهو خلاف ماتنطق به كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية ، والأمر عندى مشتبه فى هذا الموضع .

وروى محمد بن النّعمان ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه كان يذكر يوم بدر ويقول : أختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتيْن ، فأخطأتنى ضربتُه ، وأضرب به فاتّقانى بيده اليسرى ، فأبانها السيف ، فكأنى أنظر إلى وميض خاتم فى شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبتُه ، فرأيت به الرّدْع[٢] من خَلُوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

* * *

قال الواقدىّ : وقد روىَ أنّ عُتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز ، قام إليه ابنه أبو حُذَيفة بن عتبة يبارزه ، فقال له النبى صلى الله عليه وآله : اجلس ، فلمّا قام إليه النّفر أعان أبو حذيفة على أبيه عُتبة بضربة[٣] .

قال الواقدىّ : وأخبرنى ابن أبى الزّناد، عن أبيه، قال : شيْبة أكبر من عتبة بثلاث سنين، وحمزة أسنّ من النبى صلى الله عليه وآله بأربع سنين ، والعبّاس أسنّ من النبىّ صلّى الله عليه وآله بثلاث سنين[٤] .

قال الواقدىّ : واستفتح أبو جهل يوم بدر ، فقال : اللهمّ أقطعُنا للرّحم وآتانا بما لا يعلم، فأحِنه الغداة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ... ﴾[٥] الآية .

---

(١) ذفف عليه : أى أجهز . (٢) الردع : « الزعفران » .
(٣) مغازى الواقدى ٦٤ (٤) مغازى الواقدى ٦٥ ؛ والخبر هنا أوفى وأشمل .
(٥) سورة الأنفال ١٩ ، والخبر فى الواقدى ٦٥ ، وتاريخ الطبرى ٢ : ٤٤١ (طبعة المعارف)

قال الواقدىّ : وروى عُروة عن عائشة أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله جعل شعار المهاجرين يوم بدر : يابنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يابنى عبد الله ، وشعار الأوس : يابنى عبيد الله .

قال وَرَوَى زيد بن على بن الحسين عليه السلام ، أنّ شعارَ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يوم بدر يامنصور أمِت[(١)] .

قال الواقدىّ : ونهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن قتل أبى البخترىّ ، وكان قد لبس السلاح بمكّة يوما قبل الهجرة فى بعض ما كان ينال النبى صلى الله عليه وآله من الأذى ، وقال : لا يعرض اليوم أحدٌ لمحمّد بأذىً إلا وضعت فيه السّلاح . فشكر ذلك له النبىّ صلى الله عليه وآله . قال أبو داود المازنىّ : فلحقتُه يوم بدر ، فقلت له : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد نهى عن قتلِك إن أعطيت بيدك ، قال : وما تريد إلىّ ! إنْ كان قد نهى عن قتلى ، فقد كنت أبليتُه ذلك ، فأمّا أن أعطىَ بيدى ، فواللات والعزّى لقدعلمتْ نسوة بمكّة أنى لا أعطِى بيدى ، وقد عرفتُ أنك لا تدَعنى ، فافعل الذى تريد ، فرماه أبو داود بسهم ، وقال : اللهمّ سهمك؛ وأبو البخترىّ عبدك ، فضعه فى مقتله : وأبو البخترى دارع ، ففتق السّهم الدرع فقتله .

قال الواقدىّ : ويقال إنّ المجذّر بن ذياد قتل أبا البخترىّ ولا يعرفه ، وقال المجذّر فى ذلك شعراً عُرِف منه أنه قاتله[(٢)] .

* * *

وفى رواية محمد بن إسحاق؛ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر عن قتل أبى البخترىّ ، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى ، لأنه كان أكفَّ

---

(١) مغازى الواقدى ٦٦

(٢) مغازى الواقدى ٧٥

الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم ، فلقيه المجذّر بن ذياد البلَوىّ حليف الأنصار ، فقال له : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهانا عن قتلك ، ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكّة يقال له جُنادة بن مُلَيحة ، فقال أبو البختريّ : وزميلي ! قال المجذّر : والله ما نحن بتاركي زميلك ، ما نهانا رسول الله صلى الله عليه وآله إلا عنك وحدك[1] ، قال : إذاً والله لأموتنّ أنا وهو جميعا ، لا تتحدّث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة ، فنازله المجذّر ، وارتجز أبو البختري[2] فقال :

لن يُسلِمَ ابن حرّة زميلَهْ حتى يموت أو يرى سبيلَهْ

ثم اقتتلا ، فقتله المجذّر ، وجاء إلى رسول صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، وقال : والذى بعثك بالحقّ لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به ، فأبى إلاّ القتال فقاتلته[3] فقتلته[4] .

* * *

قال الواقديّ : ونهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل ، وقال : أسروه ولا تقتلوه ، وكان كارها للخروج إلى بدر ، فلقيه خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه ، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك ، فقال : لو وجدته قبل أن يقتَل لتركته لنسائه . ونهى عن قتل زَمْعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجِذْع ، ولا يعرفه .

قال الواقدى : وارتجز عدى بن أبي الزّغباء يوم بدر ، فقال :

أنا عـديّ والسَّحَلْ أمشى بها مَشْيَ الفحَلْ

يعنى درعه . فقال النبيّ صلى الله عليـه وآله : مَنْ عديّ ؟ فقال رجل من القوم : أنا يارسول الله ، قال : وماذا ؟ [قال: ابن فلان ، قال : لست أنت عديًّا ، فقال عديّ بن أبي

---

(١) ابن هشام : « ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك » .
(٢) ابن هشام : « فقال أبو البختري حين نازله المجذّر ، وأبى إلا القتال » .
(٣) ابن هشام : « إلا أن يقاتلني » (٤) الخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٠ ، ٢٧١

الزغباء : أنا يارسول الله عدىّ ، قال : وماذا] [١] ؟ قال : « والسَّحَل ، أمشى بهـا مشى الفَحَل » ، قال النبى صلى الله عليه وآله : وما السَّحَل ؟ قال : درعى ، فقال صلى الله عليه وآله « نعم العدىّ ، عدىّ بن أبى الزّغباء » [٢] .

قال الواقدى : وكان عقبة بن أبى مُعَيط قال بمكّة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة :

يارا كب الناقة القَصْواء هاجِرَنَا ... عمّا قليلٍ ترانِي را كبَ الْفَرَسِ
أعِلُّ رُمحِى فيـكم ثم أنْهِلُهُ ... والسَّيْفُ يأخذ منكم كلّ ملتبِسِ

فبلغ قولُه النبىّ صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهمّ أ كبّه لمنخرِه واصرعه» ؛ فجمح به فرسُه يوم بدر ، بعد أن ولّى الناس ، فأخذه عبد الله بن سلَمة العجلانىّ أسيراً ، وأمر النبىّ صلى الله عليه وآله عاصم بن أبى الأقلح ، فضرب عنقه صَبْرا [٣] .

قال الواقدىّ : وكان عبد الرحمن يحدّث يقول : إنّى لأجمع أدراعاً يوم بدْر ، بعد أن ولّى الناس ، فإذا أميّة بن خلَف ـ وكان لى صديقا فى الجاهليّة ، وكان اسمى عبد عمرو ، فلما جاء الإسلام تسمّيت عبدَ الرحمن ، فـكان يلقانى بمكّة فيقول : ياعبد عمرو ، فلا أجيبه ، فيقول : إنّى لا أقول لك عبدالرحمن ، إنّ مسيْلِمة باليمامة [٤] تسمّى بالرحمن ، فأنا لا أدعوك إليه ، فـكان يدعونى عبد الإله ، فلما كان يوم بدر رأيتُه وكأنه جمل يُساق ، ومعه ابنه علىّ ، فنادانى : ياعبد عمرو ، فأبيت أن أجيبَه ، فنادانى : ياعبد الإله ، فأجبته ، فقال : أمالـكم حاجة فى اللّبن ؟ نحن خير لك من أدرعك هـذه ، فقلت : امضيا ، فجعلت أسوقهما أمامى ، وقد رأى أميّة أنه قد أمِن بعضَ الأمن ، فقال لى أميّة : رأيت رجلاً فيـكم اليوم معلماً فى صدره بريشة نعامة ، من هو ؟ فقلت : حمزة بن عبد المطلب ، فقال : ذاك الذى

---

(١) من مغازى الواقدى .
(٢) مغازى الواقدى ٧٦
(٣) مغازى الواقدى ٧٦ ، ٧٧
(٤) الواقدى « يتسمى » .

فعل بنا الأفاعيل ! ثم قال : فمن رَجُلٌ دحداح قصير معلَم بعصابة حمراء ؟ قلت : ذاك رجل من الأنصار ، يقال له : سِماك بن خَرَشَة ، قال : وبذاك أيضاً ياعبد الإله صرنا اليوم جَزَراً لكم ! قال : فبينا هو معى أزجّيه (١) أمامى ، ومعه ابنه ، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجيناً له ، فترك العجين ، وجعل يفتِلُ يديه منه فتلاً ذريعاً ، وهو ينادى : يامعشر الأنصار ، أميّة بن خلَف رأس الكفر ! لا نجوتُ إن نجوتَ ـ قال : لأنه كان يعذّبه بمكّة ـ فأقبلت الأنصار كأنّهم عُوذٌ حَنّت إلى أولادها ، حتى طرحوا أميّة على ظهره ، واضطجعت عليه أحميه منهم ، فأقبل الحباب بن المنذر ، فأدخل سيفه ، فاقتطع أرنبة أنفه ، فلمّا فقد أميّة أنفه ، قال لى : إيهاً عنك ! أى خلّ بينى وبينهم ، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان :

* أو عَنْ ذلك الأنف جادع *

قال : ويقبل إليه خُبَيب بن يساف ، فضربه حتى قتله ، وقد كان أميّة ضرب خُبيب ابن يساف حتى قطع يده من المنكِب ، فأعادها النبيّ صلى الله عليه وآله فالتحمت واستوت ، فتزوّج خُبَيب بن يساف بعد ذلك ابنة أميّة بن خلف ، فرأت تلك الضربة ، فقالت : لا يشلّ الله يدَ رجلٍ فعل هذا ! فقال خبيب : وأنا والله قد أوردته شَعُوب ، فكان خُبَيب يحدّث يقول : فأضربه فوق العاتِق ، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتَزَره ، وعليه الدّرع ، وأنا أقول : خذها وأنا ابن يساف ! وأخذت سلاحه ودرعه ، وأقبل علىّ بن أمية فتعرّض له الحبّاب ، فقطع رجله ، فصاح صيحة ماسمع مثلها قطّ ، ولقيه عمّار فضربه ضربة فقتله . ويقال : إنّ عمّاراً لاقاه قبل ضربة الحبّاب ، فاختلفا ضربات ، فقتله عمار . والأُولَى أثبت ، أنه ضربه بعد أن قطعت رجله (٢) .

قال الواقدىّ : وقد سمعنا فى قتل أميّة غير ذلك ، حدثنى عُبيد بن يحيى ، عن معاذ بن

---

(١) أزجيه : أسوقه .

(٢) مغازى الواقدى ٧٧ ، ٧٨ .

رفاعة ، عن أبيه ، قال : لمّا كان يوم بدر وأحدقنا بأميّة بن خلف ، وكان له فيهم شأن، ومعى رمحى ، ومعه رمحه ، فتطاعنّا حتى سقطتْ أزجّتُها ، ثم صرنا إلى السّيفين فتضاربنا بهما حتى انثلما ، ثم بصرت بفَتْق فى درعه تحت إبطه ، فخششت السيف فيه حتى قتلته ، وخرج السيف عليه الوَدك (١) .

قال الواقدىّ : وقد سمعنا وجها آخر : حدثنى محمد بن قُدامة بن موسى ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قال صفوان بن أميّة بن خلَف يوما : ياقُدام ـ لقدامة بن مظعون ـ أنتَ المشلِي (٢) بأبى يوم بدر النّاس ! فقال قدامة : لا والله مافعلت ، ولو فعلت مااعتذرت من قتل مشرك . قال صفوان : فمن ياقدام المشلِي به يوم بدر ؟ قال : رأيت فتيةً من الأنصار أقبلوا إليه ، فيهم معمر بن حُبيب بن عبيد بن الحارث ، يرفع سيفه و يضعه فيه، فقال صفوان : أبو قِرد ! وكان مَعْمر رجلا دميماً ، فسمع بذلك الحارث بن حاطب ، فغضب له ، فدخل على أمّ صفوان ، فقال : ما يدعُنا صفوان من الأذى فى الجاهليّة والإسلام ! قالت : وما ذاك ؟ فأخبرها بمقالةِ صفوان لمعمر حين قال : أبو قرد ! فقالت أمّ صفوان : ياصفوان ، أتنتقص معمر بن حبيب من أهل بدْر ! والله لا أقبل لك كرامة سنةً . قال صفوان : ياأمّة ، لا أعود والله أبدا ، تكلّمتُ بكلمة لم ألقِ لها بالا (٣) .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن قُدامة ، عن أبيه ، عن عائشة بنت قدامة ، قالت : قيل لأمّ صفْوان بن أميّة ـ ونظرت إلى الحبّاب بن المنذر بمكّة : هـذا الذى قطع رِجْل علىّ بن أمية يومَ بدْر ، قالت : دعونا عن ذكر مَنْ قُتِل عَلَى الشِّرْك ، قد أهان الله عليا بضربة الحبّاب بن المنذر ، وأكرم الله الحبّاب بضربته عليا ، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقتل على غير ذلك (٤) .

* * *

(١) مغازى الواقدى ٧٨ ، ٧٩

(٢) المشلى : المحرض .

(٣) مغازى الواقدى ٧٩

(٤) مغازى الواقدى ٧٩ ، ٨٠ ، وانظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣

فأمّا محمد بن إسحاق ، فإنه قال : قال عبد الرحمن بن عوف : أخذت بيدِ أميّة بن خلَف ويد ابنه عليّ بن أمية أسيرين يوم بَدْر ، فبينا أنا أمشي بينهما ، رآنا بلال ـ وكان أميّة هو الذي يعذّب بلالا بمكّة ، يخرجه إلى رَمْضاء (١) مكةَ إذا حميت ، فيضجِعه على ظهره ، ثم يأمرُ بالصَّخْرة العظيمة فتوضع بحرارتها على صدره ، ويقول له : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ! فيقول بلال : أحدٌ أحدٌ ! لا يزيده عَلَى ذلك ـ فلمّا رآه صاح : رأس الكفر أميّة بن خلَف ، لا نجوتُ إن نجوتَ ! قال عبد الرحمن : فقلت أي بلال ، أسيري! فقال : لا نجوتُ إن نجا ، فقلت : استمع يابن السوداء ، قال : لا نجوت إن نجا ، ثم صرخ بأعلى صوتِه : ياأنصار الله ، أميّة بن خلَف رأس الكفر ، لا نجوتُ إن نجا ، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المَسَكَة (٢) ، وأنا أذبّ عنه ، (٣) ويحذف عمّار بن ياسر عليا ابنه بالسيف ، فأصاب رجله ، فوقع وصاح أميّة صيحةً ماسمعت مثلَها قط (٣) ، فخلّيت عنه ، وقلت : انجُ بنفسك ولا نجاء به ! فوالله ماأغنِي عنك شيئا ، قال : فهبروهما (٤) بأسيافهم حتى فرغوا منهما . قال : فكان عبد الرحمن بن عوف ، يقول : رحِم الله بلالا ! أذهب أدرعِي ، وفجعني بأسيرِي (٥) !

***

قال الواقديّ : وكان الزبير بن العوام يحدّث فيقول : لمّا كان يومئذ لقيتُ عبيدة ابن سعيد بن العاص على فرس ، عليه لأمة كاملة لا يُرى منه إلا عيناه ، وهو يقول ـ وكانت له صبيّة صغيرة ، يحملها وكان لها بُطَين وكانت مقسّمة : أنا أبو ذات الكرش ، أنا أبو ذات

---

(١) الرمضاء : الرمل الشديد الحرارة من الشمس .

(٢) المسكة : السوار .

(٣ ـ ٣) ابن هشام : « فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أميـة صيحة عظيمة ما سمعت بمثلها قط » .

(٤) هبروهما : قطعوا لحمهما ؛ تقول : هبرت اللحم إذا قطعته قطعاً .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٢ ، ٢٧٣

الكرش . قال : وفى يدى عَنَزَة (١) فأطعن بها فى عينه ووقع ، وأطؤه برجلى عَلَى خدّه ، حتى أخرجت العَنَزة متعقفة ، وأخرجت حدقته ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله تلك العَنَزة ، فكانت تحمل بين يديه ، ثم صارت تحمَل بين يدى أبى بكر وعمر وعثمان (٢) .

قال الواقدىّ : وأقبل عاصم بن أبى عوف بن صُبَيرة السَّهمِىّ ، لما جال الناس واختلطوا ، وكأنه ذئب ، وهو يقول : يامعشرَ قريش ، عليكم بالقاطع مفرّق الجماعة، الآتى بما لا يعرف ، محمد ، لا نجوتُ إن نجا ! و يعترضه أبو دُجانة ، فاختلفا ضربتَين ، و يضربه أبو دجانة فقتله ، ووقف عَلَى سَلبه يسلبه ، فمرّ به عمر بن الخطاب ، فقال : دع سَلَبه حتى يُجهض (٣) العدوّ ، وأنا أشهد لك به (٤) .

قال الواقدىّ : و يقبل معبد بن وهب ، أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فضرب أبا دُجانة ضربة بَرَكَ منها أبو دُجانة كما يبرك الجمل ، ثم انتهض ، وأقبل عَلَى معبد ، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيأ ، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دُجانة عليه ، فذبحه ذبحًا ، وأخذ سلبه (٥) .

قال الواقدىّ : ولما كان يومئذ ، ورأت بنومخزوم مقتَل مَنْ قُتِل ، قالت : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، فإنّ ابنَىْ ربيعة عَجِلا وبطرا ، ولم تحام عنهما (٦) عشيرتهما . فاجتمعت بنو مخزوم ، فأحدقوا به ، فجعلوه [فى] (٧) مثل الحرجة ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبى جهل رجلاً منهم ، فألبسوها عبد الله بن المنذر بن أبى رفاعة ، فصمد له علىّ عليه السلام ، فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول : أنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها أبا قيس بن

---

(١) العنزة : شبيه العكازة ، أطول من العصا وأقصر من الرمح ، لها زج من أسفلها .
(٢) مغازى الواقدى ٨٠   (٣) ا والواقدى : « تجهض » .
(٤) مغازى الواقدى ٨١   (٥) مغازى الواقدى ٨٠ ، ٨١
(٦) كذا فى ا ، وفى ب والواقدى : « عليهما » . (٧) من الواقدى

الفاكه بن المغيرة ، فصمَد له حمزة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ! ثم ألبسوها حَرْملة بن عمرو ، فصمَد له عليّ عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم ، فأبى أن يلبسها ، قال معاذ بن عمرو بن الجموح : فنظرت يومئذ إلى أبي جَهْل في مثل الحَرَجَة ، وهم يقولون : أبو الحكم ! لا يخلص إليه ، فعرفت أنه هو ، فقلت : والله لأموتنّ دونه اليوم أو لأخلصنّ إليه ، فصمدت له ، حتى إذا أمكنني منه غِرّة حملت عليه ، فضربته ضربةً طرحت رجلَه من السّاق ، فشبّهتها النّواة تنزو من تحت المراضخ ، فأقبل ابنُه عِكرمة عليّ فضربني على عاتقي ، فطرح يدي من العاتق ، إلا أنه بقيت جلدة ، فذهبت أسحب يدِي بتلك الجلدة خلفِي ، فلما آذتني وضعت عليها رجلي ، ثم تمطيت عليها فقطعتها ، ثم لاقيت عِكرِمة وهو يلوذ كلّ ملاذ ، ولو كانَتْ يدى معى لرجوت يومئذ أن أصيبه . ومات معاذ في زمن عثمان [(١)] .

قال الواقديّ : فروى أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله نفّل معاذ بن عمرو بن الجموح سيفَ أبي جهل ، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم ، وبه فلّ ، بعد أن أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى عكرمة بن أبي جهل ، يسأله مَنْ قتل أباك ؟ قال : الذى قطعت يده ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وآله سيفَه إلى معاذ بن عمرو ، لأن عكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر [(٢)] .

قال الواقديّ : وما كان بنو المغيرة يشكّون أن سيف أبي الحكم صار إلى معاذ بن عمرو بن الجموح ، وأنه قاتله يوم بدر [(٢)] .

قال الواقديّ : وقد سمعت في قتله وأخذ سلبه غير هذا ؛ حدّثني عبد الحميد بن جعفر ، عن عمر بن الحكم بن ثوبان ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : عبّأنا رسول الله صلى الله عليه وآله بليل ، فأصبحنا ونحن على صُفوفنا ، فإذا بغلامين ، ليس منهما واحد إلّا قد

---

(١) مغازى الواقدى ٨١ (٢) مغازى الواقدى ٨١ ، ٨٢

ربطت حمائل سيفه فى عنقه لصغره ، فالتفت إلىّ أحدهما ، فقال : ياعمّ ، أيّهم أبو جهل ؟ قال : قلت : وما تصنع به يابن أخى ؟ قال : بلغنى أنه يسبّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فحلفت: لئن رأيتُه لأقتلنّه أو لأموتنّ دونه . فأشرت إليه ، فالتفت إلىّ الآخر ، وقال لى مثل ذلك ، فأشرت له إليه ، وقلت له : من أنتما ؟ قالا : ابنا الحارث ، قال : فجعلا لا يطرفان عن أبى جهل ؛ حتى إذا كان القتال خَلَصا إليه فقتلاه وقتلهما[1] .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمد بن عوف ، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت ، قال : لما كان يومئذ ، قال عبد الرحمن ، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله : ليته كان إلى جنبى مَنْ هو أبدن من هذين الصبيّين ! فلم أنشب أن التفتّ إلى عوف ، فقال : أيّهم أبو جهل ؟ فقلت : ذاك حيث ترى ، فخرج يعدو إليه كأنه سَبُع ، ولحقه أخوه ، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف ؛ ثم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يمرّ بهم فى القتلى ، وهما إلى جانب أبى جهل[2] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن رفاعة بن ثعلبة ، قال : سمعتُ أبى ينكر ما يقول الناس فى ابنى عَفْراء من صِغَرِهما ، ويقول : كانا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة ، فهذا يربطُ حمائل سيفه ! قال الواقدىّ : والقول الأوّل أثبت[3] .

وروى محمّد بن عمار بن ياسر ، عن رُبَيِّع بنت معوّذ ، قالت : دخلتُ فى نسوةٍ من الأنصار على أسماء أمّ أبى جهل فى زمن عمر بن الخطاب ، وكان ابنها عبد الله بن أبى ربيعة يبعث إليها بعِطْرٍ من اليمن ، فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فكنّا نشترى منها ، فلمّا جعلت لى فى قوارير ، ووزنت لى كما وزنت لصواحبى ، قال : اكتبنّ لى عليكنّ حقى ، قلت : نعم ، اكتب لها على الرُّبَيِّع بنت معوذ ، فقالت : أسماء خلقى : وإنك

---

(١) مغازى الواقدى ٨٢ ، ٨٣

(٢) مغازى الواقدى ٨٣

(٣) مغازى الواقدى ٨٣

لابنة قاتل سيده ! فقلت : لا، ولكن ابنة قاتل عبده ، فقالت : والله لا أبيعك شيئا أبدا، فقلت : أنا والله لا أشترى منك أبدا ، فوالله ماهو بطيب ولا عَرْف ؛ والله يابنيّ ما شممت عطرا قطّ كان أطيبَ منه ، ولكنّى يابنيّ غضبت [١] .

قال الواقديّ : فلما وضعت الحرب أوزارَها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يلتمَس أبو جهل ، قال ابن مسعود : فوجدته فى آخر رَمَق ، فوضعت رجلى على عنقه ، فقلت : الحمدُ لله الذى أخزاكَ ! قال : إنما أخزى الله العبد ابن أمّ عَبْد ! لقد ارتقيتَ يارويعى الغنم مرتقى صعبا ! لمن الدّبْرة ؟ قلت : لله ولرسوله ، قال ابن مسعود : فأقلع بيضتَه عن قفاه ، وقلت : إنى قاتلك ، قال : لستَ بأوّل عبد قتل سيّدَه ، أما إنّ أشد ما لقيتُه اليوم لَقتلك إيّاى ؛ ألّا يكون وُلّى قتلى رجلٌ من الأحلاف أومن المطيّبين ! قال : فضربه عبد الله ضربةً وقع رأسه بين يديه ، ثم سلبه ، وأقبل بسلاحه ودِرْعه وبيضته ، فوضعها بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال ، أبشِرْ يانبيّ الله بقتل عدوّ الله أبى جهل ! فقال رسول الله : أحقًّا ياعبد الله ! فوالّذى نفسى بيده لهو أحبُّ إلىّ من حُمْر النّعم ! أو كما قال . ثم قال : إنه أصابه جَحَش [٢] من دفعٍ دفعته فى مأدبة ابن جُدْعان ، فجحشت ركبتُه فالتمسوه ؟ فوجدوا ذلك الأثر [٣] .

قال الواقديّ : وروى أنّ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ كان عند النبى صلى الله عليه وآله تلك السّاعة ، فوجَد فى نفسه ، وأقبل على ابن مسعود ، وقال : أنت قتلته ؟ قال: نعم ، الله قتله ! قال أبو سلمة : أنت وُلّيت قتله ؟ قال : نعم ، قال : لوشاء لجعلك فى كُمّه ! فقال ابن مسعود : فقد والله قتلتُه وجرّدتُه ؛ فقال أبو سلمة : فما علامته ؟ قال : شامةسوداء ببطن فخذه اليمنى ؛ فعرف أبو سلمة النّعْت ، فقال: أجرّدته ، ولم يجرّد قرشى غيره ! فقال

---

(١) مغازى الواقدى ٨٤

(٢) الجحش : الخدش ، أو فوقه دون الجرح

(٣) الواقدى ٨٤ ، ٨٥

ابن مسعود : إنه والله لم يكن فى قريش ولا فى حُلفائها أحدٌ أعدَى لله ولا لرسوله منه ؛ وما أعتذر من شىء صنعته به . فأمسك أبو سلمة [١] .

قال الواقدىّ : وسُمع أبو سلمة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه فى أبى جهل ، وقال : اللهمّ إنك قد أنجزت ما وعدتَنى ، فتمّم علىّ نعمتك . قال : وكان عبد الله بن عتبة بن مسعود ، يقول : سيف أبى جهل عندنا محلًّى بفضّة ، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذ [١] .

قال الواقدىّ : اجتمع قولُ أصحابنا أنّ معاذ بن عمرو وابنىْ عفراء أثبتوه ، وضرب ابن مسعود عنقه فى آخر رَمق ، فكلّ شرك فى قتله [١] .

قال الواقدىّ : وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف على مصرع ابنىْ عفراء ، فقال : يرحم الله ابنى عفراء ؛ فإنهما قد شركا فى قتل فِرْعون هذه الأمّة ، ورأس أئمة الكفر ، فقيل : يا رسولَ الله ومَنْ قتله معهما ؟ قال : الملائكة ، وذفّف عليه ابن مسعود ؛ فكان قد شرك فى قتله [٢] .

قال الواقدىّ : وحدثنى معمر ، عن الزهرىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : اللهمّ اكفنى نوفل بن العدويّة — وهو نوفل بن خُويلد ، من بنى أسد بن عبد العُزّى — وأقبل نوفل يومئذ يصيحُ وهو مرعوب ، قد رأى قتل أصحابه ، وكان فى أوّل ما التقوْا هم والمسلمون ، يصيح بصوت له زَجَل ، رافعا عقيرته : يا معشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العَلاء والرفعة . فلما رأى قريشا قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار : ما حاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون مَنْ تقتلون ؟ أمالكم فى اللبن من حاجة ! فأسره جبّار بن صَخْر ، فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبّار ، ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه : يا أخا الأنصار ، مَنْ هذا واللات والعزّى ! إنّى لأرى رجلًا ، إنه ليريدنى ! قال

---

(١) مغازى الواقدى ٨٥

(٢) مغازى الواقدى ٨٥ ، ٨٦

جبار : هـذا على بن أبى طالب ، قال نوفل : تالله ما رأيتُ كاليوم رجلا أسرع فى قومه! فصمَد له على عليه السلام فيضرب به فينشب سيف علىٍّ فى حَجَفتـه[(١)] ساعة ، ثم ينزعه فيضرب به ساقيه، ودِرْعه مشتمرة ، فيقطعها ، ثم أجهز عليه فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : مَنْ له علم بنوفل بن خويلد ؟ قال علىّ عليه السلام : أنا قتلته ، فـكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه[(٢)] .

قال الواقدىّ : وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال ، فالتقى هو وعلىّ عليه السلام ، وقتله علىّ ، فـكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص: مالى أراك معرِضاً ، تظن أنّى قتلت أباك ! فقال سعيد : لو قتلتَه لـكان على الباطل وكنتَ على الحقّ ، قال : فقال عمر : إنّ قريشاً أعظم الناس أحلاما ، وأكثرها أمانة ، لا يبغيهم أحدٌ الغوائلَ إلا كبّه الله لفيه[(٣)] .

قال الواقدىّ : وروى أنّ عمر قال لسعيد بن العاص : مالى أراك معرضا كأنى قتلت أباك يوم بدر ؛ وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك ، لقد قتلت خالى بيدى العاص بن هاشم بن المغيرة .

* * *

ونقلت من غير كتاب الواقدى أنّ عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عنـد عمر فى أيام خلافته ، فجلس سعيد بن العاص حَجْرة[(٤)] فنظر إليه عمر ، فقال : مالى أراك مُعرِضاً كأنى قتلت أباك ! إنى لم أقتله ، ولـكنه قتله أبو حسن ! وكان على عليه السلام حاضرا ، فقال : اللهمّ غَفْرا ! ذهب الشِّرْك بما فيه ، ومحا الإسلام ما قبله ؛ فلماذا تهاجُ

---

(١) الحجفة : الترس
(٢) مغازى الواقدى ٨٦
(٣) مغازى الواقدى ٨٦ ، ٨٧
(٤) حجرة ؛ أى ناحية .

القلوب ! فسكت عمر ، وقال سعيد : لقد قتله كفء كريم ؛ وهو أحبّ إلىّ من أن يقتله من ليس من بنى عبد مناف .

قال الواقدىّ : وكان علىّ عليه السلام يحدّث ، فيقول : إنّى يومئذ بعد ماامتع[1] النهار ونحن والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم ، خرجت فى إثر رجل منهم ، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل وسعد بن خُيثمة ، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة ، والمشرك مقنّع فى الحديد ، وكان فارسا ، فاقتحم عن فرسه ،فعرفنى وهو معلِم ، فنادانى: هلّم يابن أبى طالب إلى البراز ! فعطفت إلى البراز، فعطفت عليه ، فانحطّ إلىّ مقبلا ، وكنت رجلا قصيراً ، فانحططت راجعا لكى ينزل إلىّ ، كرهت أن يعلونى ، فقال : يابن أبى طالب ، فررت ! فقلت : قريبا مفرّ ابن الشتراء ، فلما استقرّت قدماى وثبتُ أقبل فلما دنا منى ضربنى فاتقيت بالدَّرقة ،فوقع سيفه ، فلحِج[2] فأضربه على عاتقه وهو دارع ، فارتعش ، ولقد قطّ سيفى درعَه ، فظننت أنّ سيفى سيقتله ، فإذا بريق سيف من ورائى ، فطأطأت رأسى ، ويقع السيف ، فأطنّ قِحْف رأسه بالبيضة ، وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب ، فالتفتّ من ورائى ، فإذا هو حمزة عمّى[3] ، والمقتول طُعيمة ابن عدى[4] .

* * *

قلت : فى رواية محمد بن إسحاق بن يسار أنّ طُعَيمة بن عدىّ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم قال : وقيل : قتله حمزة[5]

وفى رواية الشِّيعة قتله على بن أبى طالب، شَجَره بالرمح ، فقال له : والله لا تخاصمنا فى الله بعد اليوم أبدا ؛ وهكذا روى محمد بن إسحاق .

(١) الواقدى : « ارتفع»
(٢) الواقدى : يعنى « لزم »
(٣) الواقدى : « حمزة بن عبد المطلب » .
(٤) مغازى الواقدى ٨٧
(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧

وروى محمد بن إسحاق قال ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله من العريش إلى الناس ينظر القتال ، فحرّض المسلمين وقال : كلّ امرئ بما أصاب ، وقال : والّذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فى جملة ، فيقتَل صابراً محتسبا مقبلًا غير مدبر ، إلّا أدخله الله الجنة . فقال عُمَير بن الُحمام أخو بنى سَلمة ، وفى يده تَمرَات يأ كلهنّ : بخ بخ ! فما بينى و بين أن أدخل الجنة إلا أن يَقتُلَنى هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل (١) .

قال محمد بن إسحاق : وحدّثنى عاصم بن عمرو بن قتادة أنّ عوف بن الحارث — وهو ابن عفراء — قال لرسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : يا رسول الله ، ما يُضحِكُ الرّب من عبده ؟ قال : غمْسه يده فى العدو حاسرا . فنزع عوف درعا كانت عليه وقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (٢) .

قال الواقدىّ وابن إسحاق : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله كفًّا من البَطحاء ، فرماهم بها ، وقال : شاهت الوجوه (٣) ! اللهمّ أَرعب قلوبَهم ، وزلزلْ أقدامهم . فانهزم المشركون لا يلوُون على شيء ، والمسلمون يتبعونهم يقتلون و يأسرون (٢) .

قال الواقدىّ : وكان هبيرة بن أبى وهب المخزومىّ لما رأى الهزيمة انخزل ظهره فعُقر ، فلم يستطع أن يقوم ، فأتاه أبوأسامة الجشمى حليفُه ، ففتق درعه واحتمله — و يقال : ضربه أبو داود المازنى بالسّيف فقطع درعه ، ووقع لوجهه ، وأخلد إلى الأرض ، وجاوزه أبو داود و بصُر به ابنا زهير الجشميان مالك ، وأبو أسامة ، وهما حليفاه ، فذبّا عنه حتى نجوَا به ، واحتمله أبو أسامة ومالك يذبّ عنه ، حتى خلّصاه . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : حماه كلباه الحليفان (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٨

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٨

(٣) بعدها فى ابن هشام : « ثم بعجهم بها » .

(٤) مغازى الواقدى ٨٩ مع اختلاف فى الرواية

قال الواقديّ : وحدثني عمر بن عثمان عن عُكّاشة بن محصن ، قال : انقطع سيفي يوم بدْر ، فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله عوداً ، فإذا هو سيف أبيض طويل ، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين ، ولم يزل ذلك السيف عند عُكّاشة حتى هلك .

قال : وقد روى رجالٌ من بني عبد الأشهل عدّة ، قالوا : انكسر سيف سَلَمة بن أسلم[1] بن حريش[2] يوم بدر ، فبقي أعزل لا سلاح معه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله قضيباً كان في يده من عراجين ابن طاب[3] ، فقال : اضرب به ، فإذا هو سيف جيّد ، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد[4] .

قال الواقديّ : وأصاب حارثة بن سُراقة ، وهو يكرع في الحوض سهمٌ غَرَب[5] من المشركين فوقع في نحره ، فمات ، فلقد شرب القوم آخرَ النهار من دمه ؛ و بلغ أمّه وأختَه ـ وهما بالمدينة مقتله ـ فقالت أمّه : والله لا أبكي عليه ؛ حتى يقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسأله ، فإن كان في الجنّة لم أبكِ عليه ، وإن كان في النّار بكيته لعمر الله ، فأعولتُه ! فلمّا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله من بدْر جاءت أمّه إليه ، فقالت : يارسول الله ، قد عرفتَ موضع حارثة في قلبي ، فأردت أن أبكيَ عليه ، ثم قلت : لا أفعلُ حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ؛ فإن كان في الجنّة لم أبكِه ، وإن كان في النار بكيتُه وأعولته ! فقال النبي صلى الله عليه وآله : «هُبِلْتِ : أجنّة واحدة ! إنها جنان كثيرة ، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى » ، قالت : فلا أبكي عليه أبدا .

قال الواقديّ : ودعا رسولُ الله صلى الله عليه وآله حينئذ بماء في إناء ، فغمس يده فيه ومضمض فاه ، ثم ناول أمّ حارثة بن سراقة ، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت ،

---

(١) ب : « أشهل » ، وصوابه من ا والواقدى وابن هشام
(٢) ا : «جريش » ، والصواب ما في ب والواقدى
(٣) في اللسان : « عذق ابن طاب نخلة بالمدينة ، وقيل : ابن طاب ضرب من الرطب هنالك » .
(٤) مغازي الواقدي ٨٨
(٥) سهم غرب : لا يدرى راميه .

ثم أمرها فنضحتا فى جُيوبهما ، ثم رجعتا من عند النبى صلى الله عليه وآله ، وما بالمدينة امرأتان أقرّ عينا منهما ولا أسرّ[١] .

قال الواقدىّ : وكان حكيم بن حزام يقول : انهزمنا يوم بدر ، فجعلت أسعى وأقول: قاتل الله ابن الحنظليّة ! يزعم أنّ النهار قد ذهب ، والله إن النهار لكما هو ؛ قال حكيم : وما ذاك بى إلا حبًّا أن يأتى الليلُ فيقصّر عنا طلب القوم ، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بنى العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه: انزل فاحمل أبا خالد ، وكان عُبيد الله رجلاً أعرج ، لارُجْلة[٢] به ، فقال عبيدالله: إنه لارُجْلة بى كما ترى ؛ وقال عبدالرحمن: والله أن لابدّ منه ، ألا نحمل رجلا، إن متنا كفانا ما خلّفنا من عيالنا ، وإن عشنا حملنا كلّنا ! فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج ، فحملاه ، فكانوا يتعاقبون الجمل ، فلما دنا من مكّة وكان بمرّ الظّهران ، قال : والله لقد رأيتُ هاهنا أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شؤم ابن الحنظليّة ! إنّ جزورا نحرت هاهنا فلم يبق خباء إلّا أصابه من دمها . فقالا : قد رأينا ذلك ؛ ولكن رأيناك وقومك قد مضيتم فمضينا معكم ، ولم يكن لنا معكم أمر .

قال الواقدىّ : فحدّثنى عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف ، عن أبيه ، قال : كانت الدّروع فى قريش كثيرة يومئذ ؛ فلمّا انهزموا جعلوا يلقُونها ، وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا ، ولقد رأيتُنى يومئذ التقطت ثلاث أدرع جئت بها أهلى ، فكانت عندنا بعد ، فزعم لى رجلٌ من قريش – ورأى دِرْعاً منها عندنا فعرفها – قال : هذه دِرْع الحارث بن هشام[٤] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو بن أميّة ، قال : أخبرنى من انكشف من قريش يومئذ منهزما ، وإنه ليقول فى نفسه : ما رأيتُ مثل هذا فرّ منه إلّا النساء[٤] !

---

(١) مغازى الواقدى ٨٨
(٢) الرجلة ؛ بالضم : القوة على المشى .
(٣) مغازى الواقدى ٨٩ ، ٩٠
(٤) مغازى الواقدى ٩٠

قال الواقدى : كان قَباث بن أشيَم الكنانىّ يقول : شهدت مع المشركين بدراً ، وإنى لأنظر إلى قلّة أصحاب محمد فى عينى ، وكثرة مَنْ معنا من الخيل والرَّجْل ، فانهزمتُ فيمن انهزم ، فلقد رأيتُنى وإنّى لأنظر إلى المشركين فى كلّ وجه ، وإنى لأقول فى نفسى: ما رأيت مثل هذا الأمر فرّمنه إلا النساء ! وصاحبى رجل ، فبينا هو يسير معى إذ لحقنا من خلْفنا ، فقلت لصاحبى : أبكَنهوض ؟ قال : لا والله مابى ! قال : وعُقِر وترفعت ، فلقد صبحت غَيْقَة - قال: وغَيْقَةُ عن يسار السّقيا بينها و بين الفُرع ليلة و بين الفُرع والمدينة ثمانية بُرُد - قبل الشمس ؛ كنت هاديا بالطريق ؛ ولم أسلك المحاجّ وخفت من الطّلَب فتنكّبت عنها ، فلقيَنى رجل من قومى بغيقَة ، فقال : ما وراءك ؟ قلت : لا شىء ؟ قُتِلْنَا وأسِرنا وانهزمنا ، فهل عندك من حُملان ؟ قال : فحمانى على بعير ، وزوّدنى زاداً ، حتى لقيت الطريق بالجحفة ، ثم مضيت حتى دخلت مكّة ؛ وإنى لأنظر إلى الحيسُمان بن حابس الخزاعى بالغَميم ، فعرفت أنه تقدم ينعى قريشا بمكة ، فلو أردت أن أسبقه لسبقته، فتنكّبت[٢] عنه حتى سبقنى ببعض النهار، فقدمت وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم، وهم يلعنون الخزاعىّ ، ويقولون : ما جاءنا بخير ! فمكثت بمكّة ، فلما كان بعد الخندق ، قلت: لو قدمت المدينة ، فنظرت ما يقول محمد ! وقد وقع فى قلبى الإسلام ، فقدمت المدينة ، فسألت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : هو ذاك فى ظلّ المسجد مع ملإ من أصحابه ، فأتيته وأنا لا أعرفه من بينهم ، فسلّمت فقال : ياقَباث بن أشيم ، أنت القائل يوم بدر : ما رأيت مثل هذا الأمر فرّمنه إلا النساء ! قلت : أشهد أنك رسول الله ، وأنّ هذا الأمر ماخرج منّى إلى أحد قطّ ولاما ترمرمت[٣] به؛ إلا شيئا حدّثت به نفسى ، فلولا أنك نبىّ ما أطلعك الله عليه ؛ هلم حتى أبايعك فأسلمت[٤] .

---

(١) الواقدى : « المحاج » .

(٢) ب . « فنكبت » ، وأثبت ما فى ا والواقدى .

(٣) ما ترمرمت به ؛ أى مانطقت به

(٤) مغازى الواقدى ٩٠ ، ٩١

قال الواقدى : وقد روى أنه لما توجّه المشركون إلى بدر كان فتيان ممّن تخلف عنهم بمكة سمّارا يسمرون بذى طُوًى فى القمر حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدثون ، فبيناهم كذلك إذ سمعوا صوتا قريبا منهم ولا يرون القائل ، رافعا صوته يتغنّى :

أزاد الحنيفيُّون بدراً مصيبة ... سينقضّ منها ركنُ كِسْرى وقيْصَرا

أرنّت لها صُمّ الجبال وأفزعت ... قبائل ما بين الوتير فخيبرا[١]

أجازت جبال الأخشبيْن وجُرِّدتْ ... حرائرُ يضربن الترائب حُسّرا[٢]

قال الواقدىّ : أنشدَنيه[٣] ، ورواه لى عبد الله بن أبى عُبيدة ، عن محمّد بن عمّار بن ياسر ، قال : فاستمعوا الصوت ، فلا يرون أحداً ، فخرجوا فى طلبه ، فلم يروْا أحداً ، فخرجوا فزِعين ، حتى جازوا الحِجْر ، فوجدوا مشيخةً منهم حِلَقاً سمّارا ، فأخبروهم الخبر ، فقالوا لهم : إنْ كان ماتقولون ، فإنّ محمدا وأصحابه يسمّوْن الحنيفيّة . قال : فلم يبقَ أحدٌ من الفتيان الّذين كانوا بذى طوًى إلا وَعِك ، فما مكثُوا إلاّ ليلتين أو ثلاثا ، حتى قدم الحيْسُمان[٤] الخزاعىّ بخبر أهل بَدْر ، ومن قتل منهم ، فجعل يخبرهم ، فيقول : قتِل عتُبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، وقتِل ابنا الحجاج وأبو البختَرىّ ، وزمْعة بن الأسود ـ قال : وصفوان بن أمية فى الحِجر جالس يقول : لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلّم به ؛ سلوه عنّى ، فقالوا : صفوان بن أميّة لك به علم ؟ قال : نعم ، هو ذاك فى الحِجْر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولَيْن ، ورأيت سُهيل بن عمرو والنّضر بن الحارث أسيرَيْن ، رأيتهما مقرونين فى الحبال[٥] .

---

(١) كذا فى ا والواقدى ، وفى ب : « وخيبرا » .
(٢) كذا فى ا ، وفى ب : « الترائب وحسرا » .   (٣) الواقدى : « أنشدنى » .
(٤) فى الأصول : « الحيثمان » ؛ والصواب ما أثبته من الواقدى والبلاذرى وابن هشام والطبرى .
(٥) مغازى الواقدى ١١٤

قال الواقدىّ : وبلغ النجاشيَّ مقتلُ قريش وما ظفّر الله به[١] رسوله ، فخرج فى ثوبين أبيضين ، ثم جلس على الأرض ، ودعا جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فقال : أيّكم يعرف[٢] بدراً ؟ فأخبروه ، فقال : أنا عارف بها ، قد رعيتُ الغنم [فى][٣] جوانبها ، هى من الساحل على بعض نهار ، ولكنى أردتُ أن أتثبّت منكم ، قد نصر الله رسوله ببدر ، فاحمدوا الله على ذلك . فقال بطارقته : أصلح الله الملك ! إن هذا شىء لم تكن تصنعه ، يريدون لبسَ البياض والجلوس على فالأرض ، فقال : إن عيسى بن مريم كان إذا حدثَتْ له نعمة ازداد بها تواضعا[٤] .

قال الواقدىّ : فلمّا رجعت قريش إلى مكّة ، قام فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال : يامعشرَ قريش ، لا تبكوا على قتلاكم ، ولا تنحْ عليهم نائحة ، ولا يندبهم شاعر ، وأظهروا الجلد والعَزَاء ، فإنكم إذا نُحتم عليهم وبكيتموهم بالشّعر أذهب ذلك غيظكم فأكلكمُ [ذلك][٥] عن عداوة محمد وأصحابه ، مع أن محمدا إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم ، فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلّكم تدركون ثأركم ، فالدّهن والنساء علىّ حرام حتى أغزو محمدا . فمكثتْ قريش شهرا لا يبكيهم شاعر ، ولا تنوح عليهم نائحة .

قال الواقدىّ : وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره ، وقد كَمِد على مَنْ قتل من ولده ، وكان يحبّ أن يبكى عليهم فتأبى عليه قريش ذلك ، فكان يقول لغلامه بين اليومين : ويلك ! احمل معى خمرا ؛ واسلك بى الفجّ الذى سلكه أبو حكيمة — يعنى زمعة ولده المقتول ببدر — فيأتى به غلامه على الطريق عند ذلك الفجّ فيجلس ، فيسقيه الخمر

---

(١) الواقدى : « نبيه » . (٢) الواقدى : « أين بدر » . (٣) من ا والواقدى

(٤) الواقدى : ١١٥ « تلبس ثوبين وتجلس على الأرض ؛ فقال : إنى من قوم إذا أحدث الله لهم نعمة ازدادوا بها تواضعاً . ويقال : إنه قال : إن عيسى بن مريم عليه السلام كان إذا حدثت له نعمة ازداد بها تواضعاً » . والخبر فى الواقدى ١١٤

(٥) من الواقدى ١١٥ .

حتى ينتشى ، ثم يبكى على أبى حَكِيمة وإخوته ، ثم يحثى التراب على رأسه ، ويقول لغلامه : ويحك ! اكتم علىّ ، فإنى أكره أن تعلم بى قريش، إنى أراها لم تجمع البكاء على قتلاها[١] .

قال الواقدى : حدثنى مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر ، عن عبّاد بن عبد الله ابن الزبير ، عن عائشة قالت : قالت قريش حين رجعوا إلى مكة : لا تبكوا على قتلاكم ، فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم ،فيأرب[٢] بكم القوم ، ألا فأمسكوا عن البكاء .

قال : وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : زمْعة وعقيل والحارث بن زمعة ، فكان يحب أن يبكى على قتلاه ، فبينا هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلامه ـ وقد ذهب بصره ـ : انظر ، هل بكت قريش على قتلاها ! لعلّى أبكى على أبى حَكِيمة ـ يعنى زَمْعة ـ فإنّ جوفى قد احترق ، فذهب الغلام ورجع إليه ، فقال : إنّما هى امرأة تبكى على بعيرها قد أضلّته . فقال الأسود :

تبكّى أن يضلّ لها بعيرٌ ويمنعها من النّوم السهودُ[٣]
فلا تبكى على بَكْرٍ ولكن على بَكْرٍ تصاغرت الجُدُود[٤]
فبكّى إن بكيت على عقيل وبكّى حارثا أسد الأسودِ
وبكّيهم ولا تسِمى جميعا[٥] فما لأبى حَكِيمة من نديدِ

---

(١) مغازى الواقدى ١١٤ (٢) فيأرب : فيشتد .

(٣) الخبر والشعر ـ مع اختلاف الرواية ـ فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩١ ، والشعر أيضاً فى ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٧٢ .

(٤) الحماسة : « تقاصرت الجدود » ، قال المرزوقى : « هو تفاعل من القصور والعجز ؛ لا القصر الذى هو ضد الطول ، وفى الواقدى عن هشام : سمعت أبى ينشد « تصاغرت الجدود » ، ولا ينكر « الجدود » . (٥) لا تسمى ، أى لا تسأمى .

على بدر سَراة بنى هُصيص ومخـزوم ورهط أبى الوليـــد
ألَا قد سادَ بعدهمُ رجالٌ ولولا يومُ بدرٍ لم يســودُوا

قال الواقدىّ : ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة ، فقلن : ألا تبـكين عَلَى أبيك وأخيك وعمّك وأهل بيتك ! فقالت : حَلأنى (١) أنْ أبـكيَهم ، فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمَتوا بنا ونساء بنى الخزرج ، لا والله حتى أثأر محمدا وأصحابه ، والدّهن علىّ حرام إن دخل رأسى حتى نغزُوَ محمدا ! والله لو أعلم أنّ الحزن يذهب عن قلبى لبـكيتُ ، ولـكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبّة ، فمكثت عَلَى حالها لا تقرب الدّهن ، ولا قربت فراش أبى سفيان من يوم حلفتْ حتى كانت وقعة أُحُد (٢) .

قال الواقدىّ : و بلغ نوفل بن معاوية الدّيلى وهوفى أهله ـ وقد كان شهد معهم بدرا ـ أنّ قريشا بكتْ على قتلاها؛ فقدم مكّة ، فقال: يامعشرَ قريش ، لقد خفّت أحلامكم ، وسفِه رأيـكم ، وأطعتم نساءكم ، أمثل قتلاكم يبكى عليهم ! هم أجلّ من البكاء ، مع أنّ ذلك يذهب غيظـكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغى أن يذهب الغيظ عنـكم ، إلّا أن تدركوا ثأرَكم من عدوّكم . فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه ، فقال : ياأبا معاوية ، غُلبت ، والله مانَاحت امرأة من بنى عبد شمس على قتيل لها إلى اليوم ، ولا بكاهم شاعر إلا نهيتُه حتى ندركَ ثأرنا من محمد وأصحابه ، وإنى لأنا الموتور الثائر ، قتِل ابنى حنظلة، وسادة أهل هذا الوادى ؛ أصبح هذا الوادى مقشعرًّا لفقدهم (٣) !

قال الواقدىّ : وحدّثنى معاذ بن محمد الأنصارىّ ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : لما رجع المشركون إلى مكّة ، وقد قتل صناديدهم وأشرافهم ، أقبل عمير بن وهب بن عمير الجُمَحىّ حتى جلس إلى صفوان بن أمية فى الحِجْر ، فقال صفوان بن أمية : قُبِّح العيش

(١) حلأنى : منعنى
(٢) مغازى الواقدى ١١٦ ، ١١٧
(٣) مغازى الواقدى ١١٨

بعد قتلى بدر ! قال عمير بن وهب : أجل والله ، مافى العيش بعدهم خيرٌ ، ولولا دينٌ علىّ لا أجد له قضاء ، وعيال لا أدَع لهم شيئاً ، لرحلتُ إلى محمد حتى أقتله إن ملأتُ عيني منه ؛ فإنّه بلغني أنه يطوف فى الأسواق ، فإنّ لى عنـدهم علّة ، أقول : قدمت على ابنى هـذا الأسير . ففرح صفوان بقوله ، وقال : ياأبا أميّة ، وهل نراك فاعلا ؟ قال : إى وربّ هـذه البنيّة ! قال صفوان : فعلىّ دينُك ، وعيالك أسوة عيالى ، فأنت تعلم أنه ليس بمكّة رجل أشدّ توسّعا على عياله منّى . قال عمير : قد عرفت ذلك ياأبا وهب ، قال صفوان : فإنّ عيالك مع عيالى ، لا يسعنى شىء ونعجز عنهم ، ودينك علىّ . فحمله صفوان على بعيره ، وجهّزه وأجرى على عياله مثل مايجرى على عيال نفسه ، وأمر عمير بسيفه فشحِذ وسمّ ، ثم خرج إلى المدينة ، وقال لصفوان : اكتم علىّ أياماً حتّى أقدمها ، وخرج فلم يذكره صفوان ، وقدم عُمير ، فنزل على باب المسجد ، وعقَل راحلته ، وأخذ السيف فتقلّده ، ثم عمَد نحو رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وعمر بن الخطاب فى نفرٍ من المسلمين يتحدّثون[1] ، ويذكرون نعمةَ الله عليهم فى بَدْر ، فرأى عميرا وعليـه السيف ، ففزع عمر منه ، وقال لأصحابه : دونـكم الـكلب ! هـذا عمير بن وهب عدوّ الله الذى حرّش بيننا يوم بدر ، وحزرنا للقوم ؛ وصعّد فيناوصوّب ؛ يخبر قريشا أنه لا عدد لنا ولا كمين . فقاموا إليه فأخذوه ، فانطلق عمر إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يارسولَ الله ؛ هذا عمير بن وهْب ، قد دخل المسجد ومعه السّلاح ، وهو الغادر الخبيث الذى لا يؤمَن على شىء ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : أدخِله علىّ ، فخرج عمر فأخذ بحمائل سيفه ، فقبض بيده عليها ، وأخذ بيده الأخرى قائم السيف ، ثم أدخله عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا رآه ، قال : ياعمر ، تأخّر عنه ، فلما دنا عُمير إلى النبى صلى الله عليـه وآله قال : أنعِم صباحا ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وآله : قد أكرمنا الله عن تحيّتك ، وجعل تحيّتنا السّلام ، وهى تحيّة أهل الجنّة . قال عمير : إنّ عهدك بها لحديث ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : قد أبدلنا

(١) الواقدى : « فنظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو فى نفر من أصحابه يتحدثون »

الله خيرا ، فما أقدمك ياعمير ؟ قال : قدمت فى أسيرى عندكم تفادونه وتقاربوننا فيه ، فإنكم العشيرة والأصل ! قال النبيّ صلى الله عليه وآله : فما بالُ السيف ! قال عمير : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنتْ من شيء ، إنما نسيته حين نزلت وهو فى رقبتى ، ولعمرى إنّ لى لهمًّا غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصدق ياعمير . ماالذى أقدمك ؟ قال : ماقدمت إلّا فى أسيرى ، قال صلى الله عليه وآله : فما شرطتَ لصفوان بن أميّة فى الحِجْر ؟ ففزع عمير ، وقال : ماذا شرطتُ له ؟ قال : تحمّلْتَ بقتلِي ، على أن يقضيَ دينَك ، و يعول عيالَك ، والله حائل بينك و بين ذلك ! قال عمير : أشهد أنك رسول الله وأنك صادق ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كنّا يارسول الله نكذّبك بالوحى ، و بما يأتيك من السماء ، و إن هذا الحديث كان بينى و بين صفوان كما قلت ، لم يطّلع عليه غيره وغيرى ، وقد أمرتُه أن يكتمه[1] ليالى ، فأطلعك الله عليه ، فآمنت بالله ورسوله ، وشهدت أنّ ماجئت به حقّ . الحمد لله الذى ساقنى هذا المساق ! وفرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب : لخنزيرٌ كان أحبّ إلىّ منه حين طلع ، وهو الساعة أحبّ إلىّ من بعض ولدِى . وقال النبى صلى الله عليه وآله : « علّموا أخاكم القرآن ، وأطلقوا له أسيرَه » ، فقال عمير : يارسولَ الله ، إنّى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، فله الحمد أن هدانى ، فأْذنْ لى فألحق قريشا فأدعوَهم إلى الله وإلى الإسلام ، فلعل الله يهديهم و يستنقذهم من الهلكة ــ فأذن له فخرج ، فلحق بمكّة ــ وكان صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكبٍ يقدم من المدينة ، يقول : هل حدَث بالمدينة من حدث ؟ و يقول لقريش : أبشروا بوقعةٍ تنسيكم وَقْعة بدر ــ فقدم رجل من المدينة ، فسأله صفوان عن عمير ، فقال : أسلَم ، فلعنه صفوان ولعنه المشركون بمكّة ، وقالوا : صَبأ عميْر ، وحلف صفوان ألّا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه ، وطرح عياله . وقدم عمير ، فنزل فى أهله ، ولم يأتِ صفوان ، وأظهر الإسلام ، فبلغ صفوانَ : فقال : قد عرفت حين لم يبدأ بى قبل منزله ، وقد كان رجل أخبرنى أنه ارتكس ، لا أكلّمه من رأسى

(١) ا : « يكتم عنى » .

أبدا ، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة أبدا ، فوقع عليه عُمَير وهو فى الحِجْر فقال : ياأبا وهب. فأعرض صفوان عنه ، فقال عمير : أنت سيّد من ساداتنا ، أرأيت الّذى كنّا عليه من عبادة حَجَر ، والذبح له ! أهـذا دين ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فلم يجبه صَفْوان بكلمة ، وأسلم مع عمير بشر كثير (١) .

قال الواقدىّ : وكان فِتيةٌ من قريش خمسة قد أسلموا ، فاحتبسهم آباؤهم ، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر ، وهم على الشكّ والارتياب ، لم يخلِصوا إسلامهم ؛ وهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زَمْعة بن الأسود ، وعلىّ بن أميّة بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجاج ، فلما قدموا بدراً ، ورأوا قلّة أصحاب النبى صلى الله عليه وآله ، قالوا : غرّ هؤلاء دينهم ، فيهم أنزل : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ (٢) ، ثم أنزل فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (٣) إلى تمام ثلاث آيات (٤) .

قال : فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلما ، فقال جندب بن ضمرة الخزاعىّ : لا عذر لى ولا حجّة فى مقامى بمكة — وكان مريضاً — فقال لأهله : أخرجونى ، لعلى أجد رَوْحاً ! قالوا : أىّ وجهٍ أحبّ إليك ؟ قال : نحو التنعيم ! فخرجوا به إلى التنعيم ، وبين التنعيم ومكّة أربعة أميال من طريق المدينة — فقال : اللهمّ إنى خرجت إليك مهاجرا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ (٥) الآية ، فلمّا رأى ذلك مَنْ كان بمكة ممن يطيق الخروجَ ، خرجوا ، فطلبهم أبو سفيان فى رجال من المشركين ،

---

(١) مغازى الواقدى ١١٧ — ١٢٣
(٢) سورة الأنفال ٤٩
(٣) سورة النساء ٩٧ وما بعدها
(٤) مغازى الواقدى ٦٧
(٥) سورة النساء ١٠٠

فردُّوهم وسجنوهم ، فافتتن منهم ناس ، وكان الذين افتتنوا إنما افتتنوا حين أصابَهم البلاء ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ... ﴾ (١) الآية وما بعدها ، فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى مَنْ كان بمكّة مسلما ، فلما جاءهم الكتاب بما أُنزل فيهم ، قالوا : اللهمّ إنّ لك علينا إن أفلتنا ألّا نعدل بك أحدا ، فخرجوا الثانية ، فطلبهم أبو سفيان والمشركون ، فأعجزوهم هرباً فى الجبال ، حتى قدِموا المدينة ، واشتدّ البلاء على مَنْ ردُّوا من المسلمين ، فضربوهم وآذوهم وأكرهوهم على ترك الإسلام ، ورجع ابن أبي سَرْح مشركا ، فقال لقريش : ما كان يعلّم محمدا إلا ابن قمطة (٢) ، عبد نصرانىّ ، لقد كنت أكتب له فأحوّل ما أردت ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (٣) ... ﴾ الآية (٤) .

***

القول فى نزول الملائكة يوم بدر ومحاربتها المشركين

اختلف المسلمون فى ذلك ، فقال الجمهور منهم : نزلت الملائكة حقيقة ، كما ينزل الحيوان والحجر من الموضع العالى إلى الموضع السافل .

وقال قوم من أصحاب المعانى غير ذلك .

واختلف أرباب القول الأوّل ، فقال الأكثرون : نزلت وحاربت ، وقال قوم منهم : نزلت ولم تحارب ، وروَى كلّ قومٍ فى نُصْرة قولهم روايات .

فقال الواقدىّ فى كتاب " المغازى " : وحدّثنى عمر بن عقبة ، عن شعبة مولى ابن عباس ، قال : سمعت ابن عباس يقول : لما تواقف النّاس أُغمِى على رسول الله صلى

(١) سورة العنكبوت ١٠
(٢) كذا فى الأصول ومغازى الواقدى ، وفى تفسير القرطبي ١٠ : ١٧٧ ، اسمه جبر ، وقيل اسمه يعيش
(٣) سورة النحل ١٠٣ (٤) مغازى الواقدى ٦٧

الله عليه وآله ساعة ، ثم كشف عنه فبشّر المؤمنين بجبرائيل فى جُنْد من الملائكة فى ميمنة الناس ، وميكائيل فى جند آخر فى ميسرة الناس ، وإسرافيل فى جند آخر فى ألف ، وكان إبليس قد تصور للمشركين فى صورة سُراقة بن جعشم المدلجىّ ، يذمر المشركين ، ويخبرهم أنّه لا غالب لهم من الناس ، فلما أبصر عدوّ الله الملائكة نكص على عقبيه ، وقال : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ ، فتشبث به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سُراقة لما سمع من كلامه ، فضرب فى صدر الحارث ، فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع فى البحر ، ورفع يديه قائلا : يا ربّ موعدك الّذى وعدتَنى ! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضّهم على القتال وقال : لا يغرّنكم خذلان سراقة بن جعشم إيّاكم ، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه ، سيعلم إذا رجعنا إلى قُدَيد ما نصنع بقومه ! ولا يهولنّكم مقتل عُتْبة وشيبة والوليد ، فإنهم عجلوا و بطروا حين قاتلوا ، وايمُ الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمدا وأصحابه فى الحبال ، فلا ألفينّ أحدا منكم قتل منهم أحدا ، ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم بالّذى صنعوا ، لمفارقتهم دينكم ورغبتهم عمّا كان يعبد آباؤهم .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عُتبة بن يحيى ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع ، عن أبيه ، قال : إن كنا لنسمع لإبليس يومئذ خُواراً ودعاء بالثُّبور والويل ، وتصوّر فى صورة سراقة ابن جعشم حتى هرب ، فاقتحم البحر ، ورفع يديه مادًّا لها ، يقول : ياربّ ما وعدتنى ! ولقد كانت قريش بعد ذلك تعيّر سراقة بما صنع يومئذ ، فيقول : والله ماصنعت شيئا !

قال الواقدىّ : فحدثنى أبو إسحاق الأسلمىّ ، عن الحسن بن عبيد الله ، مولى بنى العباس ، عن عمارة الليثىّ ، قال : حدّثنى شيخٌ صيّاد من الحىّ — وكان يومئذ على ساحل البحر — قال : سمعت صياحاً : ياويلاه ! ياويلاه ! قد ملأ الوادى : ياحرباه ياحرباه ! فنظرتُ فإذا سراقة بن جعشم ، فدنوت منه ، فقلت : مالك فداك أبى وأمى ! فلم يَرجع إلىّ شيئاً ، ثم أراه اقتحم البحر ، ورفع يديه مادًّا ، يقول : يا ربّ ما وعدتَنى ! فقلت

فى نفسى : جُنّ و بيت الله سراقة ! وذلك حين زاغت الشمس ، وذلك عند انهزامهم يوم بدر [١] .

قال الواقدىّ: قالوا : كانت سيماء الملائكة عمائم قد أرخوْها بين أكتافهم ،خضراء وصفراء وحمراء من نور ، والصوف فى نواصى خيلهم .

قال الواقدىّ : حدّثنى محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمر ، عن محمود بن لبيد ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم بدر: «إن الملائكة قد سوّمت فسوّموا» ، فأعلم المسلمون بالصُّوف فى مغافرهم وقلانسهم [٢] .

قال الواقدى :حدثنى محمد بن صالح قال: كان أربعة من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يعلِمُون [٣] فى الزُّحوف : حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلِما بريشة نعامة ،وكان علىّ عليه السلام معلِما بصوفة بيضاء ، وكان الزبير معلِما بعصابة صفراء ، وكان أبو دجانة يعلِم بعصابة حمراء وكان الزبير يحدث أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير .

قال الواقدىّ : فروى عن سُهيل بن عمرو ، قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلِمين يقتلون ويأسرون .

قال الواقدىّ: وكان أبو أسد الساعدىّ يحدّث بعد أن ذهب بصرُه ، ويقول : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشِّعب الذى خرجتْ منه الملائكة، لا أشكّ فيه ولا أمترى ! قال : وكان أُسَيد يحدّث عن رجل من بنى غفار حدّثه ، قال : أقبلت أنا وابن عمٍّ لى يوم بدر ، حتى صعدنا على جبل ، ونحن يومئذ على الشرك ننظر الوقعة وعلى من تكون الدبرة فننتهب مع منْ ينتهب إذ رأينت سحابة دنت منّا، فسمعت منها

(١) مغازى الواقدى ٧٠ (٢) مغازى الواقدى ٧٠

(٣) يقال . رجل معلِم بكسر اللام ؛ إذا علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .

حمحمة الخيل ، وقعقعة الحديد ، وسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم ! فأما ابنُ عمّى ، فانكشف قناع قلبه ، فمات ، وأما أنا فكدت أهلك ، فتماسكت وأتبعت بصرى حيث تذهب السحابة ، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وأصحابه ، ثم رجعت ، وليس فيها شئ مما كنت أسمع .

قال الواقدىّ : وحدّثنى خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه ، قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وآله جبرائيل : مَنْ القائل يوم بدر : أقبل حيزوم ؟ فقال جبرائيل : يا محمد ، ما كلّ أهل السماء أعرف .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث ، عن أبيه ، عن جده ، عبيدة بن أبي عبيدة ، عن أبى رُهْم الغفارى عن ابن عمٍّ له ، قال : بينا أنا وابن عمٍّ لى على ماء بدر ، فلما رأينا قِلّة منْ مع محمد وكثرة قريش ، قلنا : إذا التقت الفئتان عمَدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه ، فانطلقنا نحو المجْنبة اليسرى من أصحاب محمد ، ونحن نقول : هؤلاء ربع قريش ، فبينا نحن نمشى فى الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا ، فرفعنا أبصارنا لها ، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح ، وسمعنا قائلا يقول لفرسه : « أقدم حيزوم » ، وسمعناهم يقولون : « رويدا تتامم أخراكم » ، فنزلوا على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبى صلى الله عليه وآله ، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذاهم على الضِّعف من قريش ، فمات ابنُ عمّى ، وأمّا أنا فتماسكت ، وأخبرت النبى صلى الله عليه وآله بذلك ، وأسلمت .

قال الواقدى : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال « مارُئَىَ الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدْحر ولا أغضب منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام ، إلا مارأى يوم بَدْر » ، قيل : ومارأى

يا رسول الله يوم بدر ؟ قال : أما إنه رأى جبرائيل يوزّع الملائكة . قال : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال يومئذ : « هذا جبرائيل يسوق بريح ، كأنه دِحْية الكلبيّ ، إنّي نُصرت بالصَّبا وأهلِكَتْ عاد بالدّبور »(1) .

قال الواقدي : وكان عبد الرحمن بن عوف يقولُ : رأيتُ يوم بَدْر رجلين ؛ أحدهما عن يمين النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، والآخر عن يساره ، يقاتلان أشدّ القتال ، ثم ثلثهما ثالث مِنْ خَلْفه ، ثم ربَعهما رابع أمامه(2) .

قال : وقد روى سعد بن أبي وقاص مثل ذلك ، قال : رأيت رجلَيْن يوم بدر، يقاتلان عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، أحدُهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، وإني لأراه ينظر إلى ذا مرّة ، وإلى ذا مرّة ، سرورا بما فتحه(3) الله تعالى(4) .

قال الواقديّ : وحدّثني إسحاق بن يحيى ، عن حمزة بن صُهَيب ، عن أبيه ، قال : ماأدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يَدْمَ كَلْمُها يوم بَدْر ، قد رأيتها(5) .

قال الواقديّ : وروى أبو بُرْدة بن نِيَار ، قال: جئتُ يوم بدْر بثلاثة رءوس فوضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقلت : يارسول الله ، أمّا اثنان فقتلتُهما ، وأمّا الثالث فإنّي رأيتُ رجلًا طويلا أبيض ضربه فتدهده(6) أمامه ؛ فأخذت رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ذاك فلان من الملائكة(7) » .

قال الواقديّ : وكان ابنُ عباس رحمه الله ، يقول : لم تقاتل الملائكة إلّا يوم بدر(7) .

---

(1) مغازى الواقدى ٧٢
(2) مغازى الواقدى ٧٣
(3) الواقدى : « ظفره الله » .
(4) مغازى الواقدى ٧٣
(5) مغازى الواقدى ٧٣
(6) تدهده : تدحرج ، وفى الواقدى « تدهدى »
(7) مغازى الواقدى ٧٣

قال : وحدّثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كان الملك يتصوّر في صورة مَنْ يعرفه المسلمون من الناس (١) ليثبتهم ، فيقول : إنّي قد دنوتُ من المشركين ، فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ما ثبتنا لهم ، وليسوا بشيء ، فاحملوا عليهم ؛ وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ (٢) الآية (٣) .

قال الواقديّ : وحدّثني موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : كان السائب بن أبي حُبَيش الأسديّ يحدّث في زمن عمر بن الخطاب ، فيقول : والله ما أسَرَني يوم بدر أحدٌ من النّاس ، فيقال : فمن ؟ فيقول : لمّا انهزمتْ قريش انهزمتُ معها فيدركني رجل أبيض طويل ، على فرس أبلق بين السماء والأرض ، فأوثقني رباطا ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً ، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر : مَنْ أسَرَ هذا ؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني ، حتى انتهى بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال لي رسول الله : يابن أبي حُبيش ، مَنْ أسَرك ؟ قلت : لا أعرفه ، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أسره مَلَكٌ من الملائكة كريم ، اذهب يابن عوف بأسيرك » ، فذهب بي عبدُ الرحمن . قال السائب : وما زالت تلك الكلمة أحفظها ، وتأخّر إسلامي حتّى كان من إسلامي ما كان (٤) .

قال الواقديّ : وكان حكيم بن حزام ، يقول : لقد رأيتُنا يوم بدر ، وقد وقع بوادي خَلْص بجاد من السماء قد سدّ الأفق ـ قال ووادي خلص ناحية الرُّوَيثة ـ قال : فإذا الوادي يسيل نملًا ، فوقع في نفسي أنّ هذا شيء من السماء أيِّد به محمد ، فما كانت إلّا الهزيمة ، وهي الملائكة (٥) .

---

(١) الواقدي : « من تعرفون من الناس » .
(٢) سورة الأنفال ١٢
(٣) مغازي الواقدي ٧٣ ، ٧٤
(٤) مغازي الواقدي ٧٤
(٥) مغازي الواقدي ٧٤ ، ٧٥

قال الواقدىّ : وقد قالوا : إنه لمّا التحم القتال ، ورسول الله صلى الله عليه وآله رافع يديْه يسأل الله النّصر وما وعده ، ويقول : اللهمّ إن ظَهرت علىّ هذه العصابة ، ظهر الشّرْك ؛ ولا يقوم لك دين ، وأبو بكر يقول : والله لينصرنّك الله وليبيضنّ وجهك ، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا بكر ، أبشِرْ ، هذا جبرائيل معتجرٌ بعمامة صفراء ، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض » ، ثم قال : إنه لما نزل الأرض تغيّب عنّى ساعة ، ثم طلع على ثناياه النقع ، يقول : أتاك النُّصر من الله إذ دعوته[1] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى موسى بن يعقوب ، عن عمّه ، قال : سمعتُ أبا بكر بن سليمان بن أبى خيثمة ، يقول : سمعت مَرْوان بن الحكم يسأل حكيم بن حزام عن يوم بدرٍ ، فجعل الشيخ يكره ذلك ، حتى ألحّ عليه ، فقال حكيم : التقينا فاقتتلنا ، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة فى الطَّسْت ، وقبض النبى صلى الله عليه وآله القبضة ، فرمى بها فانهزمنا .

قال الواقدىّ : وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير ، قال : سمعتُ نوفل بن معاوية الدؤلىّ ، يقول : انهزمنا يوم بَدْر ، ونحن نسمع كوقع الحصا فى الطّساس بين أيدينا ومنْ خلفنا ، فكان ذلك أشدّ الرّعب علينا .

***

فأما الذين قالوا : نزلت الملائكة ولم تقاتل ، فذكر الزمخشرى فى كتابه فى تفسير القرآن المعروف " بالكشاف " أن قوما أنكروا قتال الملائكة يوم بَدْر ؛ وقالوا : لو قاتل واحدٌ من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولا ستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته ، فإنّ جبرائيل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط — كما جاء فى الخبر — على خافقة من جناحه ،

---

(١) مغازى الواقدى ٧٥ ، ٧٦

حتى بلغ بها إلى السماء ، ثم قلبها فجعل عاليَها سافلها ، فما عسى أن يبلغ قوّة ألف رجل من قريش ليحتاج فى مقاومتها وحربهــا إلى ألف ملك من ملائــكة السماء مضافين إلى ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا من بنى آدم ! وجعل هؤلاء قوله تعــالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ... ﴾[1] أمرا للمسلمين لا أمراً للملائــكة .

ورووا فى نصرة قولهم روايات ، قالوا : وإنّمــا كان نزول الملائــكة ليــكثّروا سواد المسلمين فى أعين المشركين ، فإنّهم كانوا يرونهم فى مبدأ الحال قليلين فى أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ ...﴾[2] ، ليطمَع المشركون فيهم ويجترءوا على حربهم ، فلمّا نشبت الحرب كثّرهم الله تعالى بالملائــكة فى أعين المشركين ليفرّوا ولا يثبتوا . وأيضا فإنّ الملائــكة نزلت وتصوّرت بصُوَر البشر الّذين يعرفهم المسلمون ، وقالوا لهم ما جرت العــادة أن يقال مثله من تثبيت القــلوب يوم الحرب ، نحو قولهم : ليس المشركون بشىء ، لا قوّة عندهم ، لا قلوب لهم ، لوحملتم عليهم لهزمتموهم ... وأمثال ذلك .

ولقائل أن يقول : إذا كان قادرا على أن يقلّل ثلثمائة إنسان فى أعين قريش حتى يظنّوهم مائة ، فهو قادر على أن يكثّرهم فى أعين قريش بعد التقاء حَلْقَتِي البطان ، فيظنّوهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائكة .

فإنْ قلت : لعلّ فى إنزالهم لطفا للمكلّفين .

قلت : ولعلّ فى محاربتهم لطفا للمكلّفين ؛ وأما أصحاب المعانى فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره ، ولهم فى تأويله قول ليس هذا موضع ذكره .

* * *

---

(١) سورة الأنفال ١٢ (٢) سورة الأنفال ٤٤

القول فيما جرى فى الغنيمة والأسارى بعد هزيمة قريش ورجوعها إلى مكة

قال الواقدىّ : لما تصافّ المشركون والمسلمون ، قال النبى صلى الله عليه وآله : « مَنْ قَتَل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا » ، فلمّا انهزم المشركون كان النّاس ثلاث فرق ؛ فرْقة قامت عند خَيْمة رسول الله صلى الله عليه وآله — وكان أبو بكر معه فى الخيْمة — وفرقة أغارت على النّهْب تنتهب ، وفرقة طلبت العدوّ فأسروا وغنموا ، فتكلّم سعد بن مُعاذ — وكان ممّن أقام على خيمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسول الله ، مامنعنا أن نطلب العدوّ زهادةٌ فى الأجر ، ولا جبنٌ عن العدوّ ، ولكنا خفنا أن نعرى موضعك ، فيميل عليك خيلٌ من خيل المشركين ورجال من رجالهم ، وقد أقام عند خيمتك وجوهُ الناس من المهاجرين والأنصار ، والناس كثير ، ومتى تُعْطِ هؤلاء لا يبقى لأصحابك شىء ، والقتلى والأسرى كثير ، والغنيمة قليلة ، فاختلفوا فأنزل الله عزوجل: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ... ﴾ الآية ، فرجع المسلمون ، وليس لهم من الغنيمة شىء ثم أنزل الله فيما بعد : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ... ﴾ [1] فقسمه عليهم بينهم .

قال الواقدىّ : وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جدّه عبادة بن الصامت ، قال : سلّمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول ، ولم يخمّس رسول الله صلى الله عليه وآله بدراً ، ونزلت بعد : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين

---

(١) سورة الأنفال ٤١

الخمس فيما كان من أول غنيمة بعد بدر .

قال الواقدىّ : وقد روى عن أبى أُسيد الساعدىّ مثله .

وروى عكرمة ، قال : اختلف النّاس فى الغنائم يوم بَدْر ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالغنائم أن تردّ فى المقسم ، فلم يبق منها شىء إلا ردّ . وظن أهلُ الشجاعة أنّه صلى الله عليه وآله يخصّهم بها دون غيرهم من أهل الضّعف ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تقسّم بينهم على سواء ، فقال سعد بن أبى وقّاص : يارسولَ الله تعطِى فارس القوم الّذى يحميهم مثل ماتعطى الضعيف ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « ثكلتْك أمّك ! وهل تُنْصرون إلّا بضعفائكم ! » .

قال الواقدىّ : فروى محمد بن سهل بن خيثمة ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تردّ الأسرَى والأسلاب ، وما أخذوا من المغنم ، ثم أقرع بينهم فى الأسرى ، وقسّم أسلاب المقتولين الّذِين يُعرف قاتلوهم بين قاتليهم ، وقسّم ماوجده فى العسكر بين جميع المسلمين عن فراق .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عبد الحميد بن جعفر ، قال : سألتُ موسى بن سعد بن زيد ابن ثابت : كيف فعل النبى صلى الله عليه وآله يوم بدر فى الأسرى والأسلاب والأنفال ؟ فقال : نادى مناديه يومئذ : مَنْ قتل قتيلا فله سلبُه ، ومن أسَر أسيرا فهو له ، وأمر بما وجد فى العسكر وما أخذ بغير قتال ، فقسّمه بينهم عن فراق . فقلت لعبد الحميد : فلمنْ أعطى سَلَب أبى جهل ! فقال : قد قيل : إنه أعطاه مُعاذ بن عمرو بن الجموح ، وقيل : أعطاه ابنَ مسعود .

قال : وأخذ علىّ عليه السلام دِرْع الوليد بن عُتْبة و بيضته ومِغْفره ، وأخذ حمزة سلاح عُتْبة ، وأخذ عُبيدة بن الحارث سلاحَ شيبة ، ثم صار إلى ورثته .

قال الواقدىّ : فكانت القسمة على ثلثمائة وسبعة عشر سهما ، لأنّ الرجال كانت ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وكان معهم فرسان لهما أربعة أسهم ، وقسم أيضا فوق ذلك ثمانية أسهم ، لم يحضروا، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين لا خلاف فيهم، وهم : عثمان بن عفان خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته رقيّة وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبشارة إلى المدينة ، وطلحة بن عُبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، بعثهما رسول الله صلى الله عليه وآله يتجسّسان خبر العِير . وخمسة من الأنصار هم : أبو لُبابة بن عبد المنذر ، خلّفه على المدينة ، وعاصم بن عدىّ ، خلّفه على قُباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمرٍ فى بنى عَمْرو بن عَوْف ، وخوّات بن جُبير كُسِر بالروحاء ، والحارث بن الصِّمة مثله ، فلا اختلاف فى هؤلاء . واختلف فى أربعة غيرهم ، فروى أنّه ضرب لسعد بن عبادة بسهمه وأجره ، وقال : لئن لم يشهدها لقد كان فيها راغباً ، وذلك أنّه كان يحضّ الناس على الخروج إلى بدْر ، فنُهِش فمنعه ذلك من الخروج .

وروى أنّه ضرب لسعد بن مالك الساعدىّ بسهمه وأجره ، وكان تجهّز إلى بدر ، فمرض بالمدينة ، فمات خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأوصى إليه عليه السلام .

وروى أنّه ضرب لرجلين آخرين من الأنصار ولم يسمّهما ، الواقدى وقال : هؤلاء الأربعة غير مجمع عليهم كإجماعهم على الثمانية .

قال : وقد اختلف: هل ضرب بسهم فى الغنيمة لقتلى بدر ؟ فقال الأكثرون : لم يضرب لهم ، وقال بعضهم : بل ضرب لهم ؛ حدّثنى ابن أبى سَبْرة ، عن يعقوب بن زيد ، عن أبيه ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلا . قال : وقد قال عبدالله ابن سعد بن خَيْثمة : أخذنا سَهْم أبى الذى ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله حين

قسم الغنائم ، وحمله إلينا عُوَيمر بن ساعدة . قال : وقد روى السّائب بن أبى لُبابة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أسْهَم لمبشّر بن عبد المنذر ، قال : وقد قدم بسهمه علينا مَعْن بن عدى .

قال الواقدىّ : وكانت الإبل التى أصابوا يومئذ مائة وخمسين بعيراً ، وكان معه أدَمٌ كثير ، حملوه للتّجارة ،فغنمه المسلمون يومئذ ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء ، فقال بعضهم: مالنا لا نرى القطيفة ! مانرى رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أخذها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ (١) . وجاء رجل رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : يارسول الله ، إن فلانا غلّ قطيفة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله الرّجُلَ ، فقال : لم أفعل ، فقال الدالّ : يارسولَ الله ، احفروا هاهنا ، فحفرنا فاستخرجت القطيفة ، فقال قائل : يارسولَ الله ، استغفر لفلان مرّتين ؟ أو مرارا ، فقال عليه السلام: دعونا من أبى حرّ .

قال الواقدىّ : وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفْراس ، وكان جمل أبى جهل فيما غنموه ، فأخذه النبى صلى الله عليه وآله ، فلم يزل عنده يضرب فى إبله و يغزو عليه حتى ساقه فى هدْى الحديبية ، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمائة بعير ، فقال : لولا أنّا سمّيناه فى الهَدْى لفعلنا .

قال الواقدىّ : وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله صَفِىّ (٢) من الغنيمة قبل القسمة، فتنفّل سيفه ذا الفَقار يومئذ ، كان لمنبّه بن الحجاج . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العَضْب .

قال : وسمعت ابن أبى سَبْرة ، يقول : سمعت صالح بن كيسان ، يقول : خرج رسول

---

(١) سورة آل عمران ١٦١

(٢) الصفى من الغنيمة : نصيب الرئيس

الله صلى الله عليه وآله يوم بَدْر ، وما معه سيف ، وكان أوّل سيف قلّده سيف منبّه بن الحجاج غنمه يوم بدر .

وقال البلاذُرِي : كان ذُو الفقار للعاص بن منبّه بن الحجّاج ، ويقال : لمنبّه ، ويقال لشيبة ، والثَّبَت عندنا أنه كان للعاص بن منبّه .

قال الواقدىّ : وكان أبو أسيد الساعدىّ إذا ذُكِر الأرقم بن أبي الأرقم ، يقول : ما يومِي منه بواحد ، فيقال : ما هذا هو ؟ فيقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين أنَ يردّوا يومَ بدْر ما فى أيديهم من المغنم ، فرددت سيف أبي عائذ المخزومىّ — واسم السيف المرزبان ، وكان له قيمة وقدْرٌ — وأنا أطمع أن يردّ إلىّ ، فكلّم الأرقم رسول الله صلى الله عليه وآله فيه — وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمنع شيئاً يسأله — فأعطاه السيف . وخرج بنىّ له يفعة(١) ، فاحتمله الغُول ، فذهبت به متوركة ظهرا ، فقيل لأبي أسيد : وكانت الغيلان فى ذلك الزمان ؟ فقال : نعم ، ولكنها قد هلكت ، فلقى بنى الأرقم بن أبي الأرقم ، فبهش(٢) إليه باكيا مستجيرا به، فقال : مَنْ أنت ؟ فأخبره ، فقالت الغول: أنا حاضنتُه ، فلها عنه والصبىّ يكذبها ، فلم يعرّج عليه حتى الساعة ، فخرج من دارِي فرس لى ، فقطع رَسَنه ، فلقيه الأرقم بالغابة فركبه ؛ حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إلىّ أنه أفلت منّى ، فلم أقدِر عليه حتى الساعة .

قال : وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ بدْر سيف العاص بن منبّه ، فأعطاه ، قال : وأخذ عليه السلام مماليك حضروا بدراً ، ولم يسهم لهم وهم ثلاثة أعبد ، غلام لحاطب بن أبي بلتعة ، وغلام لعبد الرحمن بن

---

(١) غلام يفع ويفعة ، إذا كان مترعرعاً .

(٢) بهش إليه : خف إليه .

عوف ، وغلام لسعد بن معاذ ، واستعمل صلى الله عليه وآله شُقران غلامه على الأسرى ، فأخذوا من كلّ أسيرما لو كان حُرّاً ما أصابه فى القَسم .

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : رميتُ سهيل بن عمرو يوم بدر فقطعت نساه ، فاتبعت أثر الدم حتى وجدتُه قد أخذه مالك بن الدخشم ، وهو ممسك بناصيته ، فقلت : أسيرى رميتُه ! فقال : أسيرى أخذته ! فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذه منا جميعا ، وأفلت سهيل بالرّوحاء ، فصاح عليه السلام بالناس ، فخرجوا فى طلبه ، فقال صلى الله عليه وآله : مَنْ وجده فليقتله ، فوجده هو صلى الله عليه وآله فلم يقتله .

قال الواقدىّ : وأصاب أبو بردة بن نِيَار أسيراً من المشركين ، يقال له معبد ابن وَهْب ، من بنى سعد بن ليث ، فلقيه عمر بن الخطاب وكان عمر يحضّ على قتل الأسرى ، لا يرى أحدا فى يديه أسير إلاّ أمر بقتله ، وذلك قبل أن يتفرّق الناس ، فلقِيَه معبد وهو أسير مع أبى بُرْدة ، فقال : أترون ياعمر أنّكم قد غلبتم ! كلاّ واللاّت والعزّى ! فقال عمر : عباد الله المسلمين ، أتتكلم وأنت أسير فى أيدينا ! ثم أخذه من أبى بُرْدة فضرب عنقه — ويقال : إن أبا بُرْدة قتله .

قال الواقدىّ : وروى أبو بكر بن إسمعيل ، عن أبيه ، عن عامر بن سعد ، قال : قال النبى صلى الله عليه وآله يومئذ : « لا تخبروا سعدا بقتل أخيه فيقتل كلّ أسير فى أيديكم » .

قال الواقدىّ : ولما جىء بالأسرى كره ذلك سعد بن معاذ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : كأنه شقّ عليك أن يؤسروا ! قال : نعم يارسول الله ، كانت أوّلَ

وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحببتُ أن يُذلّهم الله ، وأن يثخن فيهم القتل .

قال الواقدىّ : وكان النّضر بن الحارث أسَره المقداد يومئذ ، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من بدر ، فكان الأُثَيْل عُرِض عليه الأسرى ، فنظر إلى النّضْر بن الحارث فأبَدّه البصر ، فقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلى ! لقد نظر إلىّ بعينين فيهما الموت ! فقال الذى إلى جنبه : والله ما هذا منك إلا رعب ، فقال النضر لمصعب بن عمير : يامصعب ، أنت أقرب مَنْ هاهنا بى رحِماً ؛ كلّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى ، هو والله قاتلى إن لم تفعل . قال مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا كذا ، وتقول فى نبيّه كذا وكذا ، قال : يامصعب ؛ فليجعلنى كأحد أصحابى . إن قتِلوا قتلت ، وإن منّ عليهم منّ علىّ . قال مصعب : إنك كنت تعذّب أصحابه ، قال : أما والله لو أسرتْك قريش ما قتلت أبدا وأنا حىّ . قال مصعب : والله إنى لأراك صادقا ، ولكن لست مثلك قطع الإسلام العهود .

قال الواقدىّ : وعرضت الأسرى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فرأى النّضْر ابن الحارث ، فقال : اضربو عنقه ، فقال المقداد : أسيرى يارسول الله ! فقال اللهمّ أغنِ المقداد من فَضْلك ، قم يا علىّ فاضرب عنقه ، فقام علىّ فضرب عنقه بالسيف صبرا ، وذلك بالأُثَيل ، فقالت أخته[1] :

يا راكباً إن الأُثيلَ مَظِنّةٌ ... مِنْ صُبْح خامسة وأنت مُوَفَّقُ[2]
بلّغْ به مَيْتاً فإنّ تحيّةً ... ما إنْ تزالُ بها الرّكائب تخفقُ
منّى إليه وعبرةً مسفوحةً ... جادتْ لمائحها ، وأخرى تخنُقُ

---

(١) واسمها قتيلة ، ذكرها التبريزى فى الحماسة .
(٢) الأبيات فى ديوان الحماسة ٣ : ١٧ ــ بشرح التبريزى

فليسمعنّ النّضر إن ناديتُـه إن كان يسمـع ميت أو ينطقُ
ظَلّتْ سيوفُ بنى أبية تنوشُهُ لله أرحامٌ هنـــاك تمزّق ! [١]
صبراً يقـاد إلى المدينـــة راغماً رَسْفَ المقيّد وهو عانٍ مُوثَقُ [٢]
أمحمدٌ ولأنتَ نَجْـلُ نجيبـة فى قومها، والفَحْلُ فحلٌ معرِقُ [٣]
ما كان ضرّك لو مننْتَ وربّما مَنّ الفتى وهو المغيظُ المُحنَقُ
والنضْر أقربُ مَنْ قتلت وسيلةً وأحقّهم إن كان عتق يُعْتَقُ

قال الواقدى : وروى أن النبى صلى الله عليه وآله لما وصل إليه شِعْرُها رقّ له ، وقال : « لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته » .

قال الواقدىّ : ولما أُسِرَ سهيل بن عمرو ، قال عمر بن الخطاب : يارسولَ الله ، انزع ثَنِيّتيه يدّلعْ لسانه ، فلا يقــوم عليك خطيبا أبدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لا أمثّل به فيمثّل الله بى وإن كنتُ نبيا ، ولعله يقوم مقاما لا تـكرهُه» . فقام سهيل بن عمرو بمـكة حين جاءه وفاة النبى صلى الله عليه وآله بخطبة أبى بكر بالمدينة ، كأنه كان يسمعها ، فقال عمر حين بلغه كلام سُهيل : أشهد أنك رسول الله – يريد قوله صلى الله عليه وآله : «لعله يقوم مقاما لا تـكرهه» .

قال الواقدىّ : وكان على عليه السلام يحدّث ، فيقول : أتى جبريل النبىّ صلى الله عليه وآله يوم بدر ، فخيّره فى الأسرى أن يضرب أعناقهم ، أو يأخــذ منهم الفداء ، ويستشهد من المسلمين فى قابل عِدّتهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه ، وقال : هذا جبريل يخيّركم فى الأسرى ، بين أن تُضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد

---

(١) الحماسة : « تشقق » (٢) لم يرد فى رواية الحماسة .

(٣) فى الحماسة : « ضن كريمة » قال فى شرحه : « ضنء نجيبة » أى ولدها . ومعرق : له عرق فى الـكرم .

منكم قابلا عدّتهم . قالوا : بل نأخذ الفِدْية ونستعين بها ، ويستشهد منا مَنْ يدخل الجنة ، فقبل منهم الفداء وقتل من المسلمين قابلا عدّتهم بأُحُد .

قلت : لو كان هذا الحديث صحيحا لما عوتبوا ، فقيل لهم : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (١) ، ثم قال : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ﴾ (٢) ، لأنه إذا كان خيّرهم ، فقد أباحهم أخذ الفداء ، وأخبرهم أنّه حسن ، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره عليهم ، ويقول إنه قبيح .

قال الواقدىّ : لما حبس الأسرى وجعل عليهم شُقران مولَى رسولِ الله صلى الله عليه وآله طمِعوا فى الحياة ، فقالوا : لو بعثنا إلى أبى بكر ! فإنه أوصلُ قريش لأرحامنا ! فبعثوا إلى أبى بكر ، فأتاهم فقالوا : ياأبا بكر ، إنّ فينا الآباء والأبناء والإخوان ، والعُمومة و بنى العمّ ، وأبعدنا قريب ، كلّم صاحبك فليمنّ علينا ويفادِنا ، فقال : نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا . ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . قالوا : وابعثوا إلى عمر بن الخطاب ، فإنّه مَنْ قد علمتم ، ولا يؤمَن أن يفسِد عليكم لعله يكفّ عنكم ! فأرسلوا إليه ، فجاءهم فقالوا له مثلَ ماقالوا لأبى بكر ، فقال : لا آلوكم شرًّا ! ثم انصرف إلى النبى صلى الله عليه وآله ، فوجَد أبا بكر عنده ، والنّاس حوله ، وأبو بكر يُليِّنه ويثنِيه ، ويقول : يارسولَ الله ، بأبى أنت وأمّى ! قومُك فيهم الآباء والأبناء والعُمومة والإخوان و بنو العمّ ، وأبعدهم عنك قريب ! فامنن عليهم ، منّ الله عليك ، أوفادِهم قوةً للمسلمين ، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك ! ثمّ قام : فتنحّى ناحيةً ، وسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يجبْه ، فجاء عمر فجلس مجلسَ أبى بكر ، فقال : يارسول الله ، همْ أعداء الله ، كذّبوك

---

(١) سورة الأنفال ٦٧ .

(٢) سورة الأنفال ٦٨ .

وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم ، فهم رؤوسُ الكفر وأئمة الضلالة ، يوطىء الله بهم الإسلام ، ويذلّ بهم الشِّرْك ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يجبْه ، وعاد أبو بكر إلى مَقْعده الأوّل ، فقال : بأبى أنت وأمّى ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العمّ ، وأبعدهم منك قريب ! فامنن عليهم أوفادِهم . هم عشيرتك وقومك لا تكن أوّلَ من يستأصلهم ، وأن يهديهم الله خيرٌ من أن يهلكهم . فسكت صلى الله عليه وآله عنه فلم يردّ عليه شيئاً ، وقام ناحية . فقام عمر فجلس مجلسه ، فقال : يارسولَ الله ، ماتنتظر بهم ! اضربْ أعناقَهم ، يوطىء الله بهم الإسلام ، ويذلّ أهل الشرك ، هم أعداء الله ، كذّبوك وأخرجوك يارسولَ الله ، اشف صدور المؤمنين ، لو قدرُوا منّا على مثل هذا ما أقالونا أبدا . فسكتَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فلم يجبْه ، فقام ناحيةً ، فجلس وعاد أبو بكر ، فكلّمه مثل كلامه الأوّل فلم يجبه ، ثم تنحّى ، فجاء عمر فكلّمه بمثل كلامه الأول فلم يجبه ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخل قُبّته ، فمكث فيها ساعة ، ثم خرج ، والناس يخوضون فى شأنهم ، يقول بعضهم : القولُ ماقال أبو بكر ، وآخرون يقولون : القولُ ماقال عمر . فلمّا خرج قال للناس : ماتقولون فى صاحبيْكم هذين ؟ دعوهما فإنّ لهما مثلاً ، مثلُ أبى بكر فى الملائكة كميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده ، ومثلُه فى الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألينَ على قومه من العَسَل ، أوقدَ له قومُه النّار فطرحوه فيها ، فما زاد على أن قال : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) وكعيسى إذ يقول : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) . ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسّخط من الله والنّقمة على أعداء الله ، ومثلُه فى الأنبياء كمثل نوح ، كان أشدّ على قومه من الحجارة ، إذ يقول : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى

(١) سورة الأنبياء ٦٧ .
(٢) سورة إبراهيم ١٤ .
(٣) سورة المائدة ١١٨ .

ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (١) فدعا عليهم دعوة أغرق الله بهـا الأرض جميعا ، ومثل موسى إذ يقول : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (٢) وإنّ بكم عَيْلة ، فلا يفوتنّـكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق . فقال عبدُ الله بن مسعود : يارسولَ الله ، إلّا سهيل بن بيضاء .

قال الواقدى : هكذا روى ابن أبى حبيبة ، وهـذا وَهَم ، سهيل بن بيضاء مسلم من مهاجرة الحبشة ، وشهد بدراً ، وإنمـا هو أخ له . ويقال له سهيل . قال : قال عبد الله بن مسعود : فإنّى رأيته يُظهِر الإسلام بمكّة ـ قال : فسكتَ النبيُّ صلى الله عليـه وآله ، قال عبد الله : فما مرّت علىّ ساعةٌ قطّ كانت أشدّ علىّ من تلك الساعة ، جعلت أنظر إلى السّماء أتخوّف أن تسقط على الحجارة لتقدّمى بين يدى الله ورسوله بالـكلام ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسَه ، فقال : « إلّا سُهيل بن بيضاء » ، قال : فما مرّت علىّ ساعة أقرّ لعينى منها ، إذ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله . ثم قال : « إن الله عز وجل ليشدّد القلْب حتى يـكونَ أشدَّ من الحجارة ، وإنه ليُلِين القلبَ حتى يكونَ ألْيَنَ من الزّبد » ، فقبل الفداء ثم قال بعد : « لو نزلَ عذابٌ يوم بدر لما نجا منه إلّا عمر » ، كان يقول : اقتُل ولا تأخذ الفداء . وكان سعد بن معاذ يقول : اقتل ولا تأخذ الفداء .

قلت : عندى فى هذا كلام ، أما فى أصل الحديث فلانّ فيـه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ، ومثـله كعيسى إذ قال : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، وهذه الآية من المائدة والمـائدة أنزلت فى آخر عمره ، ولم ينزل بعدها إلّا سورة براءة ، و بدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة ، فـكيف هذا ! اللهم إلا أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ... ﴾ الآيات ، قد كانت أنزلت إما بمكّة أو بالمدينة قبل بدْر ،

(١) سورة نوح ٢٦ .

(٢) سورة يونس ٨٨ .

فلما جمع عثمان القرآن ضمّها إلى سورة المائدة ، فلعلّه قد كان ذلك فينبغى أن ننظر فى هذا ، فهو مشكل !

وأما حديث سهيل بن بيضاء فإنّه يُوهم مذهب موسى بن عمران فى أنّ النبى صلى الله عليه وآله كان يحكم فى الوقائع بما يشاء ، لأنه قيل له : احكم بما تشاء ؛ فإنّك لا تحكم إلّا بالحقّ ، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال : لعلّه لما سكت صلى الله عليه وآله عند ماقال ابن مسعود ذلك القول ، نزل عليه فى تلك السكتة الوحْى وقيل له : إلا سهيل ابن بيضاء ، فقال حينئذ : « إلّا سهيل بن بيضاء » ، كما أوحى إليه .

وأمّا الحديثُ الّذى فيه : « لو نزل عذاب لما نجا منه إلّا عمر » ، فالواقدى وغيره من المحدّثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ما قاله عمر ؛ بل هو المبتدئ بذلك الرأى ، ورسول الله صلى الله عليه وآله بعدُ فى العريش ، والمشركون لم ينفضّ جمعهم كلّ ذلك الانفضاض ؛ فكيف خصّ عمر بالنجاة وحده دون سعد ! ويمكن أن يقال : إنّه كان شديد التأليب والتحريض عليهم ، وكثيرَ الإلحاح على رسول الله صلى الله عليه وآله فى أمرهم ، فنسب ذلك الرأى إليه لاشتهاره به ، وإن شركه فيه غيره .

* * *

قال الواقدىّ : وحدّثنى معمَر عن الزُّهرىّ ، عن محمد بن جُبَير بن مطِعم ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر : « لو كان مطعم بن عدىّ حيًّا لوهبت له هؤلاء النّتنَى »(١) . قال : وكانت لمطعم بن عدىّ عند النبى صلى الله عليه وآله يدٌ أجاره حين رجع من الطائف .

---

(١) قال ابن الأثير فى النهاية ٤ : ١٢٤ : « يعنى أسارى بدر ، واحدهم نتن ؛ كزمن وزمنى ، سماهم نتنى لكفرهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

قال الواقديّ : وحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيّب ، قال : أمّن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من الأسرى يوم بدْر أبا عزّة عمرو بن عبد الله بن عُمير الجُمَحيّ ، وكان شاعرا ، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال له : إنّ لي خمسَ بنات ، ليس لهنّ شيء ، فتصدّق بي عليهنّ يا محمد ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك . وقال أبو عزّة : أعطيك موثقا ألاّ أقاتلك ، ولا أكثّر عليك أبدا . فأرسله رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما خرجت قريش إلى أُحُد ، جاء صفوان بن أمية ، فقال : اخرج معنا ، قال : إني قد أعطيتُ محمدا موثقاً ألاّ أقاتله ، ولا أكثّر عليه أبدا . وقد منّ عليّ ولم يمنّ على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفِداء . فضمِن له صفوان أن يجعَل بناتِه مع بناته إن قتل ؛ وإن عاش أعطاه مالا كثيرا لا يأكله عياله . فخرج أبو عزّة يدعو العرب ويحشرها ، ثم خرج معَ قريش يوم أحُد ، فأُسِر ولم يؤسَر غيرهُ من قريش ، فقال : يا محمد ، إنما خرجت كرهاً ولي بنات ، فامننْ عليّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أين ما أعطيتَني من العهد والميثاق ! لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : سخرتُ بمحمد مرتين »(١) . فقتله .

قال : وروَى سعيد بن المسيّب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « إنّ المؤمن لا يلدَغ من جُحْرٍ مرتين ، ياعاصم بن ثابت ، قدّمه فاضرب عنقه » ، فقدّمه عاصم فضرب عنقه .

قال الواقديّ : وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله يوم بدر بالقُلُب أن تغوّر(٢) ثم أمر بالقتلى ، فطرحوا فيها كلّهم إلا أميّة بن خلف فإنه كان مسمِناً(٣) انتفخ من يومه . فلما أرادوا أن يلقوه تزايلَ لحمه ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : اتركوه(٤) .

---

(١) مغازي الواقدي ١٠٥

(٢) تغوّر : تُملأ بالتراب .

(١) المسمن : السمين خلقة .

(٤) مغازي الواقدي ١٠٦

وقال ابن إسحاق : انتفخ أميّة بن خلف فى دِرْعه حتى ملأها ؛ فلما ذهبوا يحرّكونه تزايل ، فأقرّوه وألقوْا عليه من التّراب والحجارة ما غيّبه[١] .

قال الواقديّ : ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عُتْبة بن ربيعةَ يجرّ إلى القليب — وكان رجلا جسيما ، وفى وجهه أثر الجُدَرِيّ — فتغيّر وجه ابنه أبى حذيفة بن عتبة ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : مالك ! كأنّك ساءك[٢] ما أصاب أباك ! قال : لا والله يارسولَ الله ، ولكنى رأيتُ لأبى عقلا وشرفا ؛ كنت أرجو أن يهديَه ذلك إلى الإسلام ، فلما أخطأه ذلك ، ورأيت ما أصابه غاظنى . فقال أبو بكر : كان والله يارسول الله أبقى فى العشيرة من غيره ، ولقد كان كارهاً لوجهه ، ولكن الحَيْن ومصارع السوء . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحمد لله الذى جعل خدّ أبى جهل الأسفل وصرّعه وشفانا منه » . فلما توافوْا فى القليب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطوف عليهم وهم مصرّعون ، جعل أبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحمَد الله و يشكره و يقول : الحمدُ لله الذى أنجز لى ما وعدنى ! فقد وعدنى إحدى الطائفتين ، ثم وقف عَلَى أهل القليب فناداهم رجلا رجلا : « ياعتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أميّة بن خلفَ ، ويا أباجهل بن هشام ! هلْ وجدتُم ما وعد ربكم حقًّا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى بى حقا ! بئس القوم كنتم لنبيّكم ! كذبتمونى وصدّقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرَنى الناس ، فقالوا : يارسول الله ، أتنادى قوماً قد ماتوا ! فقال : « لقد علموا أنّ ما وعدهم ربّهم حقّ »[٣] .

وقال ابن اسحاق فى كتاب "المغازى" : إن عائشة كانت تروى هذا الخبر ، وتقول : فالنّاس يقولون : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم . قال : « لقد سمعوا ما قلتُ لهم » ، وليس كذلك ، إنّما قال : « لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حقّ[٤] » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٩ (٢) ابن هشام : « قد دخلك من أمر أبيك شىء »
(٣) مغازى الواقدى ١٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٢
(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠ .

قال محمد بن إسحاق : وحدثني حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، قال : لما ناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله قال له المسلمون : يا رسولَ الله ؛ أتنادي قوما قد أنتنوا ! فقال : « ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يجيبوني » .

***

قلت : لقائل أن يقول لعائشة : إذا جاز أن يعلموا وهم موتَى ، جاز أن يسمعوا وهم موتَى ! فإن قالت : ما أخبرت أن يعلَموا وهم موتى ، ولكن تعود الأرواح إلى أبدانهم ، وهي في القليب ، ويرون العذاب ، فيعلمون أنّ ما وعدهم به الرّسول حقّ ! قيل لها : ولا مانع من أن تعود الأرواح إلى أبدانهم وهي في القَليب ؛ فيسمعوا صوتَ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فإذن لا وجهَ لإنكارها ما يقوله الناس !

ويمكن أن يُنتصر لقول عائشة على وجه حكميّ ، وهو أنّ الأنفس بعد المفارقة تعلم ولا تسمع ؛ لأنّ الإحساس إنما يكون بواسطة الآلة ، وبعد الموت تفسد الآلة ؛ فأمّا العلم فإنه لا يحتاج إلى الآلة ؛ لأنّ النفس تعلم بجوهرها فقط .

قال الواقديّ : وكان انهزام قريش وتولّيها حين زالت الشمس ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله ببدر ، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها وأمر نفرا من أصحابه أن يعينوه ، فصلّى العصر ببدر ثم راح فمرّ بالأُثَيل قبل غروب الشمس فنزل به ، وبات به وبأصحابه جراح ، وليست بالكثيرة ، وقال : مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة ؟ فأسكت القوم ، فقام رجل فقال : مَنْ أنت ؟ قال : ذكوان بن عبد قيس ، قال : اجلس ، ثم أعاد القولَ الثانية ، فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : ابن عبدالقيس ، فقال : اجلس ؛ ثم مكث ساعة وأعاد القول ؛ فقام رجل فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أبو سَبُع(٢) ، فسكت ثم

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٠ .
(٢) في الأصول : « سبيع » ، وصوابه ما في الواقدي ؛ وانظر ما في الاستيعاب .

مكث ساعة ، وقال : قوموا ثلاثتكم . فقام ذَكْوان بن عبد قيس وحده ، فقال له : وأين صاحباك ؟ قال : يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : حفظك الله ! فبات ذكوان يحرُس المسلمين تلك الليلة ، حتى كان آخر الليل فارتحل [١] .

قال الواقدىّ : ورُوِىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى العصر بالأُثيل ، فلمّا صلّى ركعة تبسّم ، فلما سلّم سئل عن تبسمه فقال : مرّ بى ميكائيل وعلى جَناحه النَّقْع ، فتبسّم إلىّ ، وقال : إنى كنت فى طلب القوم ، وأتانى جبريل على فرس أنثى معقود الناصية ، قد عمّ ثنيّتيه الغبار فقال : يا محمد إنّ ربى بعثنى إليك ، وأمرنى ألّا أفارقك حتى ترضى ، فهل رضيت ؟ فقلت : نعم [٢] .

قال الواقدىّ : وأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله بالأسرى ، حتى إذا كان بعرْق الظَّبْية أمر عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح أن يضرب عنق عُقْبة بن أبى مُعَيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان أسره عبد الله بن سلمة العجلانىّ ، فجعل عقبة يقول : يا ويلى ! علام أُقتل يا معشر قريش من بين من هاهنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لعداوتك لله ولرسوله ، فقال : يا محمد، منّك أفضل ، فاجعلنى كرجل من قومى إن قتلتهم قتلتنى ، وإن مننتَ عليهم مننت علىّ ، وإن أخذت منهم الفداء كنتُ كأحدهم ، يا محمد ، مَنْ للصبية ؟ فقال : النار ، قدّمه يا عاصم ، فاضرب عنقه ، فقدمه عاصم فضرب عنقه ، فقال النبى صلى الله عليه وآله : بئس الرجل كنتَ والله ما علمتُ كافرا بالله وبرسوله ، وبكتابه مؤذياً لنبيه ، فأحمد الله الذى قتلك وأقرّ عينى منك [٣] .

قال محمد بن إسحاق : وروى عِكْرمة مولى ابن عباس ، عن أبى رافع ، قال : كنتُ غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فينا أهلَ البيت ، فأسلم العباس ،

---

(١) مغازى الواقدى ١٠٧
(٢) مغازى الواقدى ١٠٧
(٣) مغازى الواقدى ١٠٧ ، ١٠٨

وأسلمت أم الفضل زوجته ، وكان العبّاس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، فكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثير متفرّق فى قومه ؛ وكان عدو الله أبو لهب قد تخلّف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلّف رجل إلا بعث مكانه رجلا ، فلمّا جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش ، كبته [1] الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزًّا .

قال : وكنتُ رجلاً ضعيفا ، وكنت أعمل القِداح [2] ، أنحتها فى حُجْرة زمزم ، فوالله إنّى لجالس أنحت قِداحى ، وعندى أمّ الفضل جالسة ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبَر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه بشرّ ، حتى جلس إلى طُنُب [3] الحجْرة ، فكان ظهره إلى ظهرى ، فبينما هو جالس إذ قال للناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدِم — وكان شهد مع المشركين بدرا — فقال أبو لهب : هلمّ يابنَ أخى فعندك والله الخبر ، قال : فجلس إليه والناس قيام حوله ، فقال : يابن أخى ، أخبِرْنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : لا شىء ، والله إن هو إلّا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافَنا ، فقتلونا كيف شاءوا ، وأسرونا كيف شاءوا ، وايمُ الله مع ذلك مالمت النّاس ، لَقِينا رجالًا بيضا على خيل بُلْق بين السماء والأرض . لا والله ماتبقى [4] شيئا ، ولا يقوم لها شىء . قال أبو رافع : فرفعتُ طُنُب الحجرة ، ثم قلت : تلك والله الملائكة ، قال : [5] فرفع أبو لهب يدَه ، فضرب بى الأرض ثم برَك علىّ يضربنى [5] ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة ، فأخذته فضربتْه على [6] رأسه ، فشجّته شجّة منكرة ، وقالت : استضعفته إذ غاب

---

(١) كبته الله : ذله وأخزاه .

(٢) ابن هشام : الأقداح .

(٣) طنب الحجرة : طرفها .

(٤) ابن هشام : « ما تليق شيئا » ، أى ماتبق شيئا .

(٥ـ٥) العبارة فى ابن هشام : « فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهى ضربة شديدة ؛ قال : وثاورته ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى » . وثاورته ، أى وثبت إليه .

(٦) ابن هشام : « فضربته به ضربة فلعت فى رأسه شجة منكرة » ، وفلعت ، أى شقت .

سيّده ، فقام مولّيا ذليلا ، فوالله ماعاش إلّا سبعَ ليال ، حتى رماه الله بالعدَسة [١] فقتلته [٢] .

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا وما يدفنانه ، حتى أنتن فى بيته ـ وكانت قريش تتّقى العَدَسة وعدْوَاها ، كما يتّقى النّاس الطاعون ـ حتى قال لهما رجل من قريش : ويحكما ! ألا تستحيان أنّ أبا كما قد أنتن فى بيته لا تغيّبانه ! قالا : إنّا نخشى هـذه القَرْحة ، قال : فانطلقا وأنا معكما ، فوالله ماغسلوه إلّا قذفا عليـه بالماء من بعيد ، مايمسّونه ؛ وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كنان هناك ، وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروه .

قال محمد بن إسحاق : فحضر العبّاس بدرا ، فأسِر فيمن أسِر ، وكان الّذى أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بنى سلِمة ، فلمّا أمسى القوم والأسارى محبوسون فى الوَثاق ، وبات رسول الله صلى الله عليـه وآله تلك الليلة ساهرا ، فقال له أصحابه : مالك لا تنامُ يارسول الله ؟ قال : «سمعتُ أنينَ العبّاس من وَثاقه» ، فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله صلى الله عليه وآله [٣] .

قال : وروى ابنُ عباس رحمه الله ، قال : كان أبو اليسر رجلاً مجموعا ، وكان العبّاس طويلا جسيما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ياأبا اليسر ، كيف أسرْتَ العبّاس ؟ قال : يارسولَ الله ، لقد أعانني عليه رجل مارأيتُه من قبل ، من هيئته كذا ، قال صلى الله عليه وآله : « لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم » .

قال محمد بن إسحاق : قدكان رسول الله صلى الله عليه وآله فى أوّل الوقْعة ، فنهى أن يقتل أحد من بنى هاشم ، قال : حدّثنى بذلك الزُّهرىّ ، عن عبدالله بن ثعلبة حليف بنى زُهرة ، قال : وحدّثنى العبّاس بن عبدالله بن معبد بن العباس ، عن بعض أهله ، عن عبد الله بن عبّاس رحمه الله ،

(١) العدسة ، قال أبو ذر الخشنى : « هى قرحة قاتلة كالطاعون ، وقد عدس الرجل ، إذا أصابه ذلك » .
(٢) الخبر إلى هنا فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، ٢٩١
(٣) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٦٢ (طبعة المعارف) ، والأغانى ٤ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ (طبعة دار الكتب)

قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه : إني قد عرفت أنّ رجالًا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرِجوا كرْهًا، لا حاجة لنا بقتلهم ، فمَنْ لقِىَ منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقىَ أبا البخترىّ فلا يقتله ، ومَنْ لقِىَ العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله فلا يقتله ، فإنّه إنما خرج مستكرها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة : أنقتلُ آباءنا و إخواننا وعشائرنا ونترك العبّاس ! والله لئن لقيتُه لألحمنّه [1] السيف ، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال لعمر بن الخطاب : ياأبا حفص . يقول عمر : والله إنّه لأوّل يوم كنّانى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبى حفص — أيضرَبُ وجهُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالسّيف ؟ فقال عمر : يارسولَ الله ، دعنى أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق ، قال : فكان أبو حذيفة يقول : والله ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التى قلتُ يومئذ ، ولا أزال منها خائفا أبدا إلا أن يكفّرها الله عنّى بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا [2] .

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ فى أمر الأسارى ، غلظ عمر عليهم غلظة شديدة ، فقال : يارسولَ الله أطعْنى فيما أشير به عليك ، فإنى لا آلوك نصحًا ، قدّم عمّك العباس فاضربْ عنقَه بيدك ، وقدّم عَقيلا إلى علىّ أخيه يضرب عنقه ، وقدّم كلّ أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله ، قال : فكره رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك ولم يعجبه .

قال محمد بن إسحاق : فلمّا قدم بالأسرى إلى المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

---

(١) لألحمنه ، أى لأطعمن لحمه بالسيف ، ولأخالطنه ، وقال ابن هشام : لألجمنه بالسيف ، أى لأضربنه به فى وجهه » .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٤٥٠ طبعة المعارف ، وسيرة ابن هشام

افْد نفسك ياعبّاس وابنى أخويك عَقِيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عُقْبة بن عمرو ، فإنّك ذو مال ، فقال العبّاس : يارسولَ الله ، إنى كنت مسلما ، ولكن القوم استكرهونى ، فقال صلى الله عليه وآله : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ماقلتَ حقّاً فإن الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافتدِ نفسك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ منه عشرين أوقيّة من ذهب أصابها معه حين أسِر ، فقال العباس : يارسولَ الله ، احسِبها لى من فدائى ، فقال صلى الله عليه وآله : ذاك شىء أعطانا الله منك ، فقال : يارسولَ الله ، فإنه ليس لى مال ، قال : فأين المال الذى وضعته بمكة حين خرجتَ عند أمّ الفضْل بنت الحارث ، وليس معكما أحد ، ثم قلت : إن أصِبْتُ فى سفرى هذا فللفضْل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقُثَم كذا وكذا ! فقال العباس : والّذى بعثك بالحقّ يارسولَ الله ، ماعلِم بهذا أحدٌ غيرى وغيرها ، وإنّى لأعلم أنّك رسول الله ، ثم فدى نفسه وابنى أخويه وحليفه .

***

قال الواقدى : قدِم رسول الله صلى الله عليه وآله من الأثَيل زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة يبشّران النّاس بالمدينة فجاء يوم الأحد فى الضّحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعَقِيق ، فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة : يامعشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسْرهم ، قتِل ابنا ربيعة ، وابنا الحجّاج ، وأبو جهل ، وزمْعة بن الأسود، وأميّة بن خلف ، وأسِر سُهيل بن عمرو ذو الأنياب ؛ فى أسرى كثير . قال عاصم بن عدىّ : فقمت إليه فنحوته ، فقلت : أحقّاً ماتقول يابن رواحة ؟ قال : إى والله ، وغداً يقدُم رسول الله إن شاء الله ، ومعه الأسرى مقرّنين ، ثم تتبّع دورَ الأنصار بالعالية يبشّرهم ، داراً داراً ، والصِّبْيان يشتدّون معه ، ويقولون : قُتِل أبو جهل الفاسق ، حتى انتهوْا إلى

دُور بني أميّة بن زيد ، وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي صلى الله عليه وآله القَصْوَاء ، يبشر أهل المدينة ، فلمــا جاء المصلّى صاح على راحلته : قتِل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجّاج وأبو جهل ، وأبو البختريّ وزمْعة بن الأسود وأميّة بن خلف ، وأسِرَ سُهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثيرة ، فجعل النّاس لا يصدقون زيد بن حارثة ، ويقولون : ماجاء زيد إلا فَلاًّ ، حتى غاظ المسلمين ذلك، وخافوا ، قال : وكان قدومُ زيد حين سوّوا على رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليــه وآله التّراب بالبقيع ، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد : قتل صاحبكم ومَنْ معه، وقال رجل من المنافقين لأبى لُبابة بن عبدالمنذر : قد تفرّق أصحابكم تفرّقاً لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عِلْية أصحابكم ، وقتل محمّد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدرى مايقول من الرّعب ، وقد جاء فَلاًّ ، فقال أبو لُبابة : كذّب الله قولك ، وقالت يهود : ماجاء زيد إلا فَلاًّ . قال أسامة بن زيد : فجئت حتّى خلوتُ بأبى ، فقلت : ياأبت ، أحقٌّ ماتقول ؟ فقال إى والله حقا يابنىّ ، فقويَتْ نفسى ، فرجعت إلى ذلك المنافق ، فقلت : أنت المرجِف برسول الله وبالمسلمين ! لنقدمنّك إلى رسول الله صلى الله عليــه وآله إذا قدم ، فليضربنّ عنقك ، فقــال : ياأبا محمد ، إنّما هو شىء سمعت الناس يقولونه .

قال الواقــدى : فقدم بالأسرى وعليهم شُقران وهم تسعــة وأربعون رجلا الذين أحصوا، وهم سبعون فى الأصل، مجمع عليه لاشك فيه؛ إلّا أنهم لم يحص سائرهم ، ولقى النّاس رسول الله صلى الله عليه وآله بالرَّوْحاء يهنئونه بفتح الله عليه ، فلقيــه وجوه الخزرج ، فقال سلمة بن سلامة بن وَقْش : ما الذى تهنئونه ؟ فوالله ما قتلنا إلّا عجائز صُلْعا ! فتبسم النبي صلى الله عليه وآله فقال : يابن أخى ، أولئك الملأ ، لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطَعْتَهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها ! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيّهم ! فقال سلمة : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، إنّك يارسولَ الله لم تزل عنّى معرضا منذ كنّا بالرّوْحاء

فى بدأتنا ، فقال صلى الله عليــه وآله : أمّا ما قلت للأعرابى : وقعتَ على ناقتــك فهى حبلى منــك ، ففحشت وقلت مالا علم لك به ، وأما مَا قلت فى القوم ؛ فإنّك عمَدت إلى نعمةٍ من نعم الله تزهدها ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله معــذرته ، وكان من عِلْية أصحابه .

قال الواقدىّ : فروى الزهرى ، قال : لقى أبو هند البياضى مولى فَرْوة بن عمرو رسولَ الله صلى الله عليه وآله ومعه حَمِيت مملوء حَيْساً (١) أهداه له ، فقــال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنما أبو هند رجلٌ من الأنصار فأنــكحوه وأنــكحوا إليه » .

قال الواقدىّ : ولقيه أسيد بن حُضَير ، فقال : يا رسولَ الله ، الحمــد لله الذى ظفرك وأقرّ عينك ، والله يا رسولَ الله ، ما كان تخلّفى عن بدر وأنا أظنّ بك أنك تلقى عدوًّا ، ولــكنى ظننت أنّها العير ، ولو ظننت أنّه عدوّ ما تخلّفت ، فقال رسولُ الله : صدقت .

قال : ولقيه عبد الله ابن قيس بتربان ، فقال : يارسولَ الله الحمدلله على سلامتك وظفرك ، كنتُ يارسولَ الله ليالىَ خرجتَ موروداً ــ أى محموما ــ فلم تفارقنى حتى كان بالأمس ، فأقبلت إليك ، فقال : آجرك الله .

قال الواقدىّ : وكان سهيل بن عمرو لما كان بثنوكة بين السقيا وملل ، كان مع مالك ابن الدّخشم الّذى أسره ، فقال له : خلّ سبيلى للغائط ، فقام معه ، فقال سهيــل : إنّى أحتشم فاستأخِرْ عنّى ، فاستأخر عنه ، فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يدَه من القران ، ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدّخشم ، أقبل فصاح فى النّاس ، فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبىّ صلى الله عليه وآله فى طَلَبه بنفسه ، وقال : مَنْ وجده فليقتله ، فوجَده رسول الله

---

(١) الحميت : الزق يجعل فيه السمن والعسل والزيت . والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن ويدلك شديداً حتى يمتزج ، ثم يندر نواه ، وقد يجعل فيه سويق .

صلى الله عليه وآله بنفسه أخفى نفسَه بين شجرات ، فأمر به فَربطَتْ يداه إلى عنقه ، ثم قرنه إلى راحلته ، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة (١) .

قال الواقدىّ : فحدّثنى إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبدالله الأنصارىّ ، قال : لقىَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله أسامة بن زيد ، ورسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته القصوى ، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو مجبوب ، ويداه إلى عنقه ، فلمّا نظر إلى سهيل قالوا : يارسول الله، أبو يزيد ! قال : نعم ، هذا الذى كان يطعم الخبز بمكة .

* * *

وقال البلاذرىّ : قال أسامة ـ وهو يومئذ غلام ـ يارسول الله ، هذا الذى كان يطعم الناس بمكة السريد ـ يعنى الثريد (٢) .

قلت : هذه لثغة مقلوبة ، لأنّ الألثغ يبدل السين ثاء ، وهذا أبدل الثاء سينا ، ومن الناس من يرويها : « هذا الذى كان يطعم الناس بمكّة الشريد» بالشين المعجمة .

قال البلاذرىّ : وحدّثنى مُصعب بن عبد الله الزُّبيرىّ ، عن أشياخه أنّ أسامة رأى سُهيلا يومئذ ، فقال : يارسولَ الله هذا الذى كان يطعم السّريد بمكّة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «هذا أبو يزيد الذى يطعِم الطعام ، ولكنه سعى فى إطفاء نور الله ، فأمكن الله منه » .

قال : وفيه يقول أميّة بن أبى الصّلت الثقفى :

يابا يزيد رأيت سيبَك واسعاً   وسماء جودك تستهلّ فتمطرُ

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٤

قال : وفيه يقول مالك بن الدخشم [١] ، وهو الذى أسره يوم بدر :

أسرتُ سهيلاً فلا أبتغِى ... به غيرَه من جميع الأمَمْ

وخندف تعلم أنّ الفتى ... سُهيلًا فتاها إذا تظّلِمْ

ضربت بذى الشفر حتى انثنى ... وأكرهت نفسى على ذى العلِمْ

أى على ذى العلْم بسكون اللام ، ولكنه حرّكه للضرورة .

وكان سهيل أعلَم مشقوق الشفَة العليا ، فكانت أنيابه بادية، فلذلك قالوا: ذوالأنياب .

* * *

قال الواقدىّ : ولمّا قدم بالأسرى كانت سوْدة بنت زمْعة زوْج النبى صلى الله عليه وآله عند آل عَفْراء فى مناحتهم على عوف ومعوّذ ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، قالت سودة : فأتينا فقيل لنا : هؤلاء الأسرى قد أتى بهم ، فخرجت إلى بيتى ورسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وإذا أبو يزيد مجموعة يداه إلى عنقه فى ناحية البيت ، فوالله ماملكت نفسى حين رأيته مجموعةً يداه إلى عنقه أن قلت : أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا متم كراما ، فوالله ماراعنى إلا قول رسول الله صلى الله عليه وآله من البيت : « ياسودة ، أعلى الله وعلى رسوله » ، فقلت : يانبىّ الله، والذى بعثك بالحقّ إنى ماملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أنْ قلت ماقلت .

* * *

قال الواقدىّ : وحدثنى خالد بن الياس ، قال : حدّثنى أبو بكر بن عبدالله بن أبى جهم ، قال : دخل يومئذ خالد بن هشام بن المغيرة وأميّة بن أبى حُذيفة منزلَ أم سلَمة وأم سلمة فى مناحة آل عفْراء ، فقيل لها : أتِىَ بالأسرى ، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلّمهم حتى

(١) البلاذرى : « مالك بن الدخشم بن مالك بن الدخشم بن مرضخة بن غنم — وهو قوقل — بن عوف ابن الخزرج.

رجعت ، فتجد رسولَ الله صلى الله عليه وآله في بيت عائشة ، فقالت : يارسول الله ، إن بني عمّي طلبوا أن يدخل بهم عليّ فأضيفهم ، وأدهن رؤوسهم وألمّ من شعثهم ، ولم أحبّ أن أفعل شيئاً من ذلك حتى استأمرك ، فقال صلى الله عليه وآله : « لست أكره شيئاً من ذلك ، فافعلي مِنْ هـذا مابدا لك » . قال الواقديّ : وحدّثني محمد بن عبد الله ، عن الزهريّ ، قال: قال أبو العاص بن الربيع : كنت مستأسِراً مع رَهْط من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنّا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثروني بالخبز ، وأكلوا التمر ، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم ، حتى إنّ الرجُلَ لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد. قال : وكانوا يحملوننا ويمشون .

وقال محمد بن إسحاق في كتابه : كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس خَتَن رسول الله صلى الله عليه وآله زوجَ ابنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكّة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، وكان ابناً لهالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد ، وكان الرّبيع بن عبد العُزّى بعلَ هذه ، فكانت خديجة خالته ، فسألتْ خديجة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يزوّجه زينبَ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يخالف خديجة ، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحيُ ، فزوّجه إيّاها ، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها ، فلمّا أكرم الله رسوله بنبوّته آمنت به خديجة وبناته كلّهنّ وصدّقنه وشهدْن أن ماجاء به حقّ ، ودِنّ بدينه ، وثبَت أبو العاص على شِركه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد زوّج عُتبة بن أبي لهب إحدى ابنتيه رقيّة أو أم كلثوم ، وذلك من قبل أن ينزل عليه ، فلمّا أُنزل عليه الوحي ونادى قومه بأمر الله باعدوه ، فقال بعضُهم لبعض : إنكم قد فرّغتم محمداً من همّه ، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهنّ من عياله ، فردّوا عليه بناته ، فاشغلوه بهنّ ، فمشَوْا إلى أبي العاص بن الربيع ، فقالوا : فارقْ صاحبتَك بنت محمد ، ونحن نزوّجك أيّ

امرأة شئت من قريش ، فقال : لاها اللهِ ! إذن لا أفارق صاحبتي ، وما أحبّ أنّ لي بها امرأةً من قريش ! فكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إذا ذكره يُثني عليه خيرا في صهره ، ثم مشوا إلى الفاسق عُتبة بن أبي لهب ، فقالوا له : طلّق بنت محمّد ، ونحن ننكحك أيّ امرأة شئت من قريش ، فقال : إن أنتم زوّجتموني ابنة أبان بن سعيد ابن العاص ، أو ابنةَ سعيد بن العاص فارقتُها ، فزوّجوه ابنة سعيد بن العاص ، ففارقها ولم يكن دخل بها ، فأخرجها الله من يده كرامةً لها وهواناً له ثم خلف عليها عثمان ابن عفان بعده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله مغلوباً على أمره بمكّة لا يُحلّ ولا يُحرِم ، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب وأبي العاص ، إلاّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يقدر وهو بمكّة أن يفرّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شِرْكه ، حتّى هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وبقيتْ زينب بمكّة مع أبي العاص ، فلمّا سارتْ قريش إلى بدْر سار أبو العاص معهم ، فأصيب في الأسرى يوم بدر ، فأتي به النبيّ صلى الله عليه وآله ، فكان عنده مع الأسارى ، فلمّا بعث أهل مكة في فداء أساراهم ، بعثت زينب في فداء أبي العاص بعلها بمال ، وكان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمّها أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها عليه ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله رقّ لها رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : إنْ رأيتم أن تطلِقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا ، فقالوا : نعم يا رسولَ الله ؛ نفديك بأنفسنا وأموالنا فردّوا عليها ما بعثت به ، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء[١] .

* * *

قلت : قرأت على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد البصري العلويّ رحمه الله هذا الخبر ، فقال : أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد ! أما كان يقتضي التكريم والإحسان

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

أن يطيّب قلب فاطمة بفدك ، ويستوهب لها من المسلمين ، أتقصر منزلتُها عند رسول الله صلى الله عليه وآله عن منزلة زينب أختها وهى سيّدة نساء العالمين ! هذا إذا لم يثبُت لها حقّ ، لا بالنِّحلة ولا بالإرث ، فقلت له : فدَك بموجب الخبر الذى رواه أبو بكر قد صار حقًّا من حقوق المسلمين ، فلم يَجُز له أن يأخذه منهم ، فقال : وفداء أبى العاص بن الربيع قد صار حقًّا من حقوق المسلمين ، وقد أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله منهم ، فقلت: رسول الله صلى الله عليه وآله صاحبُ الشريعة ، والحُكم حكمُه ، وليس أبو بكر كذلك، فقال : ما قلتُ هلاّ أخذه أبو بكر من المسلمين قهرا فدفعه إلى فاطمة ، وإنما قلت : هلاّ استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين فداء أبى العاص ! أتراه لو قال: هذه بنت نبيّكم قد حضرتْ تطلب هذه النَّخلاتِ ، أفتطيبون عنها نفسا ، أكانوا منعوها ذلك ! فقلت له : قد قال قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد نحو هذا ، قال : إنهما لم يأتيا بحسن فى شَرْع التكرّم ، وإن كان ماأتياه حَسَناً فى الدِّين .

* * *

قال محمد بن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أطلق سبيل أبى العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه فى إطلاقه ، أو أنّ أبا العاص وعد رسول الله صلى الله عليه وآله ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، ولم يظهر ذلك من أبى العاص ؛ ولا من رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّه لما خُلِّىَ سبيله ، وخرج إلى مكّة بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال لهما : كونا بمكان كذا (١) حتى تمرّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتيانى بها ، فخرجا نحو مكّة ، وذلك بعد بدر بشهر

---

(١) سيرة ابن هشام : « كونا ببطن يأجج » ، ويأجج : اسم لمكانين : أحدهما على ثمانية أميال من مكة ، وثانيهما أبعد منه ، وفيه بنى مسجد الشجرة ، وبينه وبين مسجد التنعيم ميلان .

[أو شيمه](١) فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها ، فأخذت تتجهز(٢) .

قال محمد بن إسحاق : فحدثت عن زينب أنها قالت : بينا أنا أتجهز للحوق بأبي ، لقيتني هند بنت عتبة ، فقالت : ألم يبلغني يابنت محمد أنك تريدين اللحوق بأبيك ، فقلت : ما أردت ذلك ، فقالت أي بنت عم لا تفعلي إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما يرفق بك في سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك ، فلا تضطني(٣) مني ، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال ، قالت : وايم الله ، إني لأظنها حينئذ صادقة ، ما أظنها قالت حينئذ إلا لتفعل ، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك .

قالت : وتجهزت حتى فرغت من جهازي ، فحملني أخو بعلي وهو كنانة بن الربيع .

قال محمد بن إسحاق : قدم لها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ، وخرج بها نهاراً يقود بعيرها ، وهي في هودج لها ، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء ، وتلاومت في ذلك ، وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فخرجوا في طلبها سراعا حتى أدركوها بذي طوى ؛ فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، ونافع بن عبد القيس الفهري ، فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج ، وكانت حاملا ، فلما رجعت طرحت ما في بطنها ، وقد كانت من خوفها رأت دماً وهي في الهودج ، فلذلك أباح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة دم هبار ابن الأسود(٤) .

* * *

---

(١) من سيرة ابن هشام . وشيمه أي قريب منه .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨

(٣) تضطني ، أي تستحي ، ومنه قول الطرماح :

إذا ذُكرتْ مسعاةُ والدِهِ اضْطَنَى ولا يَضْطَنِي من شَتْمِ أَهْلِ الْفَضَائِلِ

(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٨ ، ٢٩٩

قلت : وهذا الخبر أيضا قرأته على النّقيب أبى جعفر رحمه الله، فقال : إذا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أباح دم هبّار بن الأسود لأنّه روّع زينب فألقتْ ذا بطنها ، فظهر الحال أنه لو كان حيًّا لأباح دم مَنْ رَوّع فاطمة حتى ألقت ذا بطنها . فقلت : أروى عنك ما يقوله قومٌ أنّ فاطمة روّعت فألقت المحسن[1] ، فقال : لا تروِه عنّى ولا ترْوِ عنّى بطلانه ، فإنّى متوقّف فى هذا الموضع لتعارض الأخبار عندى فيه .

قال الواقدىّ : فبرك حَمُوها كنانة بن الربيع ، ونثلَ[2] كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهما فوضعه فى كبد قوسه ، وقال : أحلف بالله لا يدنُو اليوم منها رجلٌ إلّا وضعتُ فيه سهما ، فتكركر[3] الناس عنه .

قال : وجاء أبو سفيان بن حرب فى جلّةٍ من قُريش ، فقال : أيّها الرّجل ، اكفُفْ عنّا نَبْلَك حتى نكلّمك ، فكفّ . فأقبل أبو سفيان حتّى وقف عليه ، فقال : إنّك لم تحسن ولم تُصِبْ ، خرجتَ بالمرأة على رءوس الناس علانية جهارا ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد أبيها ، فيظنّ الناس إذا أنت خرجتَ بابنته إليه جهارا أنّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا ، وأنّ ذلك منّا وَهَن ، ولعمرى مالنا فى حبسها عن أبيها من حاجة ، وما فيها من ثأر ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدّث الناس بردّها سُلّها سَلاًّ خفيًّا ، فألحقها بأبيها . فردها كنانة بن الربيع إلى مكة ، فأقامت بها ليالىَ حتى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بعيرها ، وخرج بها ليلا حتى سلّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدما بها على رسول الله صلى الله عليه وآله[4] .

***

قال محمد بن إسحاق : فروى سليمان بن يسار ، عن أبى إسحاق الدّوْسى ، عن أبى

---

(١) ا : « عمسناً » .   (٢) نثل كنانته : أخرج ما فيها .
(٣) تكركر عنه ، أى ترجع ، وفى ابن هشام : « فتكركر الناس عنه » .
(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٩

هريرة ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية أنا فيها إلى عيرٍ لقريش ، فيها متاع لهم وناس منهم ، فقال : إن ظفرتم بهبّار بن الأسود ونافع بن عبد قيس ، فحرّقوهما بالنار، حتى إذا كان الغدُ بعث فقال لنا : « إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرّجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يعذّب بالنّار إلا الله تعالى ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما ولا تحرّقوهما »[١] .

قلت : لقائل من المجبِرة أنْ يقول : أليس هذا نسخ الشيء قبل تقضّي[٢] وقت فعله ، وأهل العدل لا يجيزون ذلك ! وهذا السؤال مشكِل ، ولا جوابَ عنه إلّا بدفع الخبر إمّا بتضعيف أحد من رواته ، أو إبطال الاحتجاج به لكونه خبر واحد ، أو بوجه آخر ؛ وهو أن نجيز للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما يذهب إليه كثير من شيوخنا ، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإنفاذها مع أبي بكر ، وبعث علي عليه السلام ، فأخذها منه في الطريق ، وقرأها على أهلِ مكّة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم .

فأمّا البلاذريّ فإنه روى أن هبّار بن الأسود كان ممّن عرّض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حين حُمِلتْ من مكّة إلى المدينة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر سراياه إن ظفروا به أن يحرّقوه بالنار ، ثم قال[٣] : لا يعذّب بالنّار إلا ربّ النار ، وأمرهم إن ظفروا به أن يقطعوا يديه ورجليه ويقتلوه ؛ فلم يظفروا به ، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هبّار ، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة - ويقال : أتاه بالجِعرانة - حين فرغ من أمر حُنَين ، فمثَل بين يديه ، وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقبل إسلامه وأمر ألّا يعرّض له ، وخرجت سَلْمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٠٢ (٢) ا « مضيّ »
(٣) ساقطة من ب

فقالت : لا أنعم الله بك عينا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مهلاً ، فقد محا الإسلام ماقبله » !

قال البلاذري : فقال الزبير بن العوام : لقد رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بعد غلظته على هبّار بن الأسود يطأطىء رأسه استحياء منه ، وهبّار يعتذر إليه ، وهو يعتذر إلى هبّار أيضا[١] .

* * *

قال محمد بن إسحاق : فأقام أبو العاص بمكّة على شِرْكه ، وأقامت زينب عند أبيها صلى الله عليه وآله بالمدينة ، قد فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبل الفَتْح ، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بمالٍ له ، وأموال لقريش أبضعوا[٢] بها معه ، وكان رجلا مأمونا فلمّا فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سريّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فأصابوا ما معه وأعجزهم هو هاربا ، فخرجت السريّة بما أصابت من ماله ؛ حتّى قدمت به على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج أبو العاص تحت الليل ، حتى دخل على زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله منزلَها ، فاستجار بها فأجارته ، وإنّما جاء فى طلب ماله الذى أصابته تلك السريّة ، فلمّا كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله فى صلاة الصبح ، وكبّر الناس معه ، صرخت زينب من صُفّةِ النساء : أيّها الناس ، إنّى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالنّاس الصبح ، فلمّا سلم من الصلاة ، أقبل عليهم فقال : « أيّها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « أمَا والّذى نفس محمد بيده ماعلمت بشيء مما كان حتى سمعتم ، إنه يجير على الناس أدناهم » . ثم انصرف ودخل على ابنته زينب ، فقال : « أىْ بنيّة ، أكرمى مثواه ، وأحسنِى قِراه ، ولا يصلَنّ إليك ، فإنّك

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣٩٨ مع اختلاف فى الرواية

(٢) ا : « أبضعوها معه » .

لا تحِـلّين له ». ثم بعث إلى تلك السريّة الذين كانوا أصابوا مال أبى العاص، فقال لهم: إنّ هذا الرجل منّا بحيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذى له، فإنّا نحبّ ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاءه عليكم، وأنتم أحقّ به. فقالوا: يارسولَ الله، بل نردّه عليه، فردُّوا عليه ماله ومتاعه، حتى إنّ الرجل كان يأتى بالحَبْل[1]، ويأتى الآخر بالشنّة[2]، ويأتى الآخر بالإداوة[3]، والآخر بالشِّظاظ[4]، حتى ردُّوا مالَه ومتاعه بأسرِه من عنـد آخرِه ولم يفقد منه شيأ. ثم احتمل إلى مكّة، فلما قدمها أدّى إلى كلّ ذى مال من قريش مالَه ممّن كان أبضع معه بشىء، حتى إذا فرغ من ذلك، قال لهم: يامعشرَ قريش، هل بقىَ لأحدٍ منـكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا فجزاك الله خيرا، لقد وجدناك وفيًّا كريما، قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والله مامنعنى من الإسلام إلّا تخوّف أن تظنّوا أنى أردتُ أن آكل أموالـكم، وأذهب بهـا فإذ سلّمها الله لـكم، وأدّاها إلـيكم؛ فإنى أشهدكم أنى قد أسلمتُ واتّبعت دين محمد، ثم خرج سريعا حتى قدم على رسول الله المدينة[5].

قال محمد بن إسحاق: فحدّثنى داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله ردّ زينب بعد ستّ سنين على أبى العاص بالنـكاح الأول لم يحدث شيأ[6].

***

قال الواقدىّ: فلمّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وآله من أمر الأسارَى، وفرق الله عزّ وجلّ ببدر بين الـكفر والإيمان، أذلّ رقاب المشركين والمنافقين واليهود، ولم يبق بالمدينة يهودىّ ولا منافق إلّا خضعت عنقه.

---

(١) ابن هشام: « بالدلو ».
(٢) الشنة: السقاء البالى.
(٣) الإداوة: المطهرة التى يتوضأ بها.
(٤) الشظاظ: عود يشدّ به فم الغرارة.
(٥) سيرة ابن هشام ٢: ٣٠٣، ٣٠٤.
(٦) سيرة ابن هشام ٢: ٣٠٤.

وقال قوم من المنافقين : ليتنا خرجْنا معه حتى نصيب غنيمة . وقالت يهود فيما بينها : هو الذى نجد نعته فى كتبنا ، والله لا تُرْفع له راية بعد اليوم إلّا ظهرت .

وقال كعب بن الأشرف : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم ، وملوك العرب وأهل الحرَم والأمْن قد أصيبوا . وخرج إلى مكّة، فنزل على أبى وَدَاعة بن ضُبَيرة ، وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين ، فقال :

طَحَنَتْ رَحَا بدرٍ لِمُهْلَكِ أهلِهِ ... ولِمِثْلِ بدْرٍ يُستهلّ ويُدْمَعُ [1]

قُتِلَتْ سراةُ النّاس حولَ حياضِهِ ... لا تبعَدُوا إنَّ الملوكَ تُصَرَّعُ [2]

ويقولُ أقوامٌ أذِلّ بعزّهم [3] : ... إن ابن أشرفَ ظلَّ كعبا يجزَعُ

صدقُوا فليتَ الأرض ساعةَ قتِّلُوا ... ظلّتْ تسيخُ بأهلها وتصدّعُ [4]

نُبِّئْتُ أنّ الحارث بن هشامِهِمْ ... فى النّاس يبنى الصالحاتِ ويَجْمَعُ [5]

ليزورَ يثرب بالجموع وإنّما ... يسعى على الحسبِ القديمِ الأرْوَعُ [6]

قال الواقدىّ : أملاها علىّ عبدُ الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبى الزّناد . فلمّا أرسل كعب هذه الأبيات أخذَها الناس بمكّة عنه ، وأظهروا المراثى ـ وقد كانوا حرّموها كيلا يشمت المسلمون بهم ـ وجعل الصبيان والجوارى ينشدونَها بمكّة، فناحت بها قريش

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٣١ ، ٤٣٢ ، وأنساب الأشراف ١ : ٢٨٤ ، والبيتان الأخيران فى نسب قريش ٣٠١ .

(٢) سراة الناس : خيارهم .

(٣) البلاذرىّ : « غوىّ أمرهم » ، ابن هشام : « أسر بسخطهم » . الواقدى : «أذل بسخطهم» .

(٤) بعده فى ابن هشام :

صارَ الذى أثرَ الحديثَ بطعنةٍ ... أو عاشَ أعمَى مرعَشاً لا يسمعُ

نبِّئت أن بنى المغيرةَ كلّهُمْ ... خَشَعُوا لقتلِ أبى الحكيمِ وجُدِّعوا

وابنا رَبيعةَ عنده ومُنَبِّهٌ ... ما نَالَ مثلَ المهلكينَ وتُبَّعُ

(٥) نسب قريش : « يبنى المكرامات » :

(٦) نسب قريش : « ليزور أثرب » ، وأثرب لغة فى يثرب .

على قتلاها شهراً ، ولم تبقَ دارٌ بمكة إلّا فيها النوْح ـ وجزّ النساء شعورهنّ ، وكان يؤتى براحلة الرّجل منهم أو بفرسه ، فتوقَف بين أظهرهم ، فينوحون حولها ، وخرجن إلى السّكك ، وضربْنَ الستور فى الأزقة ، [وقطعن](١) فخرجن إليها ينحْن، وصدّق أهلُ مكة رؤيا عاتكة وجهيم بن الصَّلْت (٢).

قال الواقدىّ : وكان الّذين قدموا من قريش فى فداء الأسرَى أربعة عشر رجلا ، وقيل خمسة عشر رجلا ، وكان أوّل مَنْ قدِم المطّلب بن أبى وداعة ، ثم قدم الباقون بعده بثلاث ليال .

قال : فحدّثنى إسحاق بن يحيى ، قال : سألت نافع بن جُبير : كيف كان الفداء ؟ قال: أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ، إلّا قوما لا مال لهم منّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله .

وقال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى أبى وداعة : إنّ له بمكّة ابنا كيّسا له مال، وهو مُغْلٍ فَداءه ، فلمّا قدم افتداه بأربعة آلاف ، وكان أوّل أسير افتدى ؛ وذلك أنّ قريشا قالت لابن المطّلب بن أبى وداعة ـ ورأته يتجهزّ ؛ يخرج إلى أبيه ـ : لا تعجَل؛ فإنّا نخاف أن تفسد علينا فى أسارانا ، ويرى محمّد تهالكنا فيُغلِى علينا الفدية ، فإن كنت تجد فإنّ كلّ قومك لا يجدون من السّعة ماتجد . فقال : لا أخرج حتى تخرجوا ، فخادعهم حتى إذا غفلوا خرج من اللّيل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة ، فافتدى أباه بأربعة آلاف ، فلامه قريش فى ذلك ، فقال : ما كنت لأترك أبى أسيرا فى أيدى القوم وأنتم مضجعون ، فقال أبو سفيان بن حرب : إن هذا غلام حدَث يعجب بنفسه وبرأيه ، وهو مفسد عليكم ، إنّى والله غير مفتدٍ عمرو بن أبى سفيان ، ولو مكث سنة

---

(١) من الواقدى

(٢) مغازى الواقدى ١١٥ ، ١١٦ .

أو يرسله محمد : والله ما أنا بأعوزكم، ولكنّى أكره أن أدخل عليكم ما يشقّ عليكم ، ولكن يكون عمرو كأسوتكم .

* * *

قال الواقدىّ : فأمّا أسماء القوم الّذين قدموا فى الأسرى ، فإنّه قدم من بنى عبد شمس الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وعمرو بن الربيع أخو أبى العاص بن الربيع . ومن بنى نوفل ابن عبد مناف جُبَيْر بن مطعِم : ومن بنى عبد الدار بن قُصىّ طلحة بن أبى طلحة . ومن بنى أسد ابن عبد العُزّى بن قصىّ عثمان بن أبى حُبيش . ومن بنى مخزوم عبد الله بن أبى ربيعة وخالد بن الوليد وهشام بن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبى جهل . ومن بنى جُمَح أبىّ بن خلَف وعُمير بن وهب . ومن بنى سهم المطّلب بن أبى وداعة وعمرو بن قيس . ومن بنى مالك بن حِسْل مكرز بن حفص بن الأحنف ، كلّ هؤلاء قدموا المدينة فى فداء أهلهم وعشائرهم . وكان جبير بن مطعِم يقول : دخل الإسلامُ فى قلبى منذ قدمت المدينة فى الفِداء ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ فى صلاة المغرب : ﴿ والطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾، فاستمعت قراءته ، فدخل الإسلام فى قلبى منذ ذلك اليوم[1] .

* * *

القول فى تفصيل أسماء أسارى بدر ومن أسرهم

قال الواقدىّ : أُسِر من بنى هاشم العبّاس بن عبد المطلب ، أسره أبو اليَسَر كعب ابن عمرو ، وعَقِيل بن أبى طالب أسره عبيد[2] بن أوس الظَفَرىّ ، ونوفل بن الحارث

---

(١) انظر مغازى الواقدى ١٣٣ ــ ١٤١

(٢) « عبيدة » ، والصواب ما أثبته من ا والواقدى وابن هشام .

ابن عبد المطّلب أسَره جبّار بن صخر ؛ وأسر حليف لبنى هاشم من بنى فهر ، اسمه عُتْبة فهؤلاء أربعة .

ومن بنى المطّلب بن عبد مناف السّائب بن عبيد ، وعبيد بن عمرو[١] بن علقمة، رَجُلان أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلىّ .

قال الواقدىّ : حدثنى بذلك ابن أبى حبيبة ، قال : ولم يقدم لهما أحد ، وكانا لا مال لهما ، ففكّ رسول الله صلى الله عليه وآله عنهما بغير فدْية .

ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف عُقْبة بن أبى مُعَيط المقتول صَبْراً[٢] ، على يد عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح بأمر رسول الله، أسره عبد الله بن أبى سلمة العجلانىّ ، والحارث بن أبى وجْرة ابن أبى عمرو بن أمية ، أسره سعد بن أبى وقّاص ، فقدم فى فدائه الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط فافتداه بأربعة آلاف .

قال الواقدىّ : وقد كان الحارث هذا لما أمر النبى صلى الله عليه وآله بردّ الأسارى ، ثم أقرع بين أصحابه عليهم ، وقع فى سهم سعد بن وقاص الذى كان أسره أوّل مرة — وعمرو ابن أبى سفيان ، أسره علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وصار بالقُرْعة فى سهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأطلقه بغير فدْية ، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بنى معاوية ، خرج معتمرا ، فحبس بمكة ، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول صلى الله عليه وآله عمرو بن أبى سفيان .

وروى محمد بن إسحاق فى كتاب "المغازى" : أنّ عمرو بن أبى سفيان أسره علىّ عليه السلام يوم بَدْر ، وكانت أمّه ابنة عُقْبة بن أبى مُعيط ، فمكث فى يد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقيل لأبى سفيان: ألا تفتدِى ابنك عمرا ؟ قال : أيجمع علىّ دمى ومالى ! قتلوا حنظلة وأفتدى عمراً ! دعوه فى أيديهم فليمسكوه مابدا لهم . فبينا هو محبوس بالمدينة ، خرج

(١) كذا فى الأصول والواقدى ، وأنساب الأشراف ، وفى ابن هشام : « نعمان بن عمرو » .
(٢) الواقدى : « قتل صبراً » .

سعد بن النعمان بن أكّال أخو بنى عمرو بن عوف معتمرا ، ومعه امرأة[1] له ، وكان شيخا كبيرا لا يخشى ماصنع[2] به أبو سفيان، وقد عهد قريشا ألاّ يعرض لحاجّ ولا معتمر[3]، فعدا عليه أبو سفيان ، فحبسه بمكة بابنه عمرو بن أبى سفيان ، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر :

أرهط ابن أكّال أجيبوا دعاءه تعاقدتمُ لا تُسلموا السّيد الكهلا

فإن بنى عمرو لئام أذلّةٌ لئن لم يفكّوا عن أسيرهمُ الكبْلا

فمشى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول صلى الله عليه وآله ، فأخبروه بذلك، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان ليفكُّوا به صاحبهم ، فأعطاهم إياه، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلّى سبيل سعد . وقال حسان بن ثابت يجيب أبا سفيان :

ولو كان سعدٌ يوم مكة مطلقا لأكثر فيكمْ قبل أن يؤسر القتلَى

بعضبٍ حُسام أو بصفراء نبْعة تحنّ إذا ما أنبضت تحفزُ النّبْلا[4]

وأبو العاص بن الربيع ، أسره خراش بن الصِّمة ؛ فقدم فى فدائه عمرو بن أبى الربيع أخوه ، وحليف لهم ، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضا . وعمرو بن الأزرق افتكه عمرو بن الربيع أيضا ،وكان قد صار فى سهم تميم مولى خراش بن الصّمّة ، وعُقْبة بن الحارث الحضرمىّ أسره عمارة بن حزم ، فصار فى القرعة لأبىّ بن كعب، افتداه عمرو بن أبى سفيان ابن أميّة ، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، أسره عمّار بن ياسر قدم فى فدائه ابن عمّه، فهؤلاء ثمانية .

---

(١) ابن هشام : « مرية » . (٢) ابن هشام : « ما صنع به » .

(٣) ابن هشام : « لا يعرضون لأحد جاء حاجا أو معتمرا إلا بخير » .

(٤) العضب : السيف القاطع ، وكذلك الحسام . وصفراء أراد بها قوساً . والنبعة : شجرة تنبت بالجبال ؛ تصنع منها القسىّ . وتحن : تصوت. وأنبضت : مد وترها . والأنباض : أن يحرك وتر القوس ويعد . والخبر فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

ومن بنى نوفل بن عبد مناف عدىّ بن الخيار، أسره خراش بن الصّمة، وعثمان ابن عبد شمس، ابن أخى عتبة بن غَزْوان، حليفهم[1]، أسره حارثة بن النّعمان، وأبو ثور، أسره أبو مَرْثَد الغنَوىّ، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جُبير بن مطعِم.

ومن بنى عبد الدار بن قصىّ أبو عزيز بن عُمير، أسره أبو اليَسَر، ثم صار بالقرعة لمحرز ابن نَضْلة — قال الواقدىّ: أبو عزيز هذا هو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمّه، وقال مصعب لمحرز بن نضـلة: اشدد يديك به؛ فإنّ له أمّا بمكة كثيرة المال، فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بى يا أخى! فقال مصعب: إنّه أخى دونك، فبعثتْ فيه أمّه أربعة آلاف، وذلك بعدأن سألتْ: ما أغلى ما تُفادِى به قريش؟ فقيل لها: أربعة آلاف — والأسود بن عامر ابن الحارث بن السبّاق، أسره حمزة بن عبد المطلب، فهذان اثنان قدم فى فدائهما طَلْحة ابن أبى طلحة.

ومن بنى أسد بن عبد العُزّى بن قُصىّ: السائب بن أبى حُبَيش بن المطلّب بن أسد ابن عبد العزّى، أسره عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن عبد العزّى، أسره حاطب بن أبى بَلْتَعة، وسالم بن شمّـاخ أسره سعـدبن أبى وقّاص؛ فهؤلاء ثلاثة قدِم فى فدائهم عثمان بن أبى حبيش، بأربعة آلاف لـكلّ رجل منهم.

ومن بنى تيم بن مرّة، مالك بن عبد الله بن عثمان، أسره قُطْبة بن عامر بن حديدة، فمات فى المدينة أسيرا.

ومن بنى مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة، أسره سواد بن غزّية. وأميّة بن أبى حذيفة ابن المغـيرة، أسره بلال. وعثمان بن عبـد الله بن المغـيرة، وكان أفلت يوم نخـلة، أسره واقد بن عبد الله التميمىّ يوم بدر، فقال له: الحمدُ لله الذى أمكننى منك، فقـد كنت أفلتّ يوم نخلة — وقدم فى فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبى ربيعـة، افتدى كلّ واحد منهم بأربعة آلاف — والوليد بن الوليدة بن المغيرة، أسره عبـد الله بن جحش،

(١) الواقدى: «حليف لهم».

فقدِم فى فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد ، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى افتكّاه بأربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يريد ألّا يبلغ ذلك ـ يريد ثلاثة آلاف ـ فقال خالد لهشام : إنّه ليس بابن أمّك ، والله لو أبَى فيه إلّا كذا وكذا لفعلت ، فلمّا افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحُلَيفة ، فأفلت ، فأتى النبىّ صلى الله عليه وآله فأسلم ، فقيل : ألا أسلمت قبل أن تفتدى ! قال : كرهتُ أن أسلِم حتّى أكونَ أسوةً بقومى .

ـ قال الواقدىّ : ويقال إن الذى أسر الوليد بن الوليد سليط بن قيس المازنى ـ وقيس ابن السائب ؛ أسره عبدة بن الحسحاس ، فحبسه عنده حينا ، وهو يظنّ أنّ له مالًا ، ثم قدم فى فدائه أخوه فَرْوة بن السائب ، فأقام أيضًا حينًا ، ثمّ افتداه بأربعة آلاف فيها عُروض .

ومن بنى أبى رفاعة ، صيفىّ بن أبى رفاعة بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، وكان لا مال له ، أسره رجلٌ من المسلمين ، فمكث عندهم ، ثم أرسله . وأبو المنذر بن أبى رفاعة بن عائذ افتدى بألفين ـ ولم يذكر الواقدى مَنْ أسره ـ وعبد الله، وهو أبو عطاء ابن السائب بن عائذ بن عبد الله ، افتدى بألف درهم ، أسره سعد بن أبى وقّاص ، والمطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم ، أسره أبو أيوب الأنصارىّ ـ ولم يكن له مال فأرسله بعد حين ـ وخالد بن الأعلم العقيلىّ ، حليف لبنى مخزوم ، وهو الذى يقول :

وَلَسْنَا على الأعقابِ تدمَى كلومُنا ... ولكِنْ على أقدامِنا تقطرُ الدّما (1)

---

(1) رواية ابن هشام ٢ : ٣٦٥ :

ولَسْنَا على الأدْبَارِ تَدْمَى كُلُومُنَا ... ولكنْ على أَقْدَامِنَا يَقْطُرُ الدَّمُ

وقال محمد بن إسحاق : روى أنّه كان أوّل المنهزمين[١] ، أسره الحبّاب بن المنذر بن الجمُوح ، وقدم فى فدائه عكرمة بن أبى جهل ، فهؤلاء عشرة .

ومن بنى جُمح عبد الله بن أبىّ بن خلف ، أسره فَرْوة بن أبى عمرو البياضىّ ، قدم فى فدائه أبوه أبىّ بن خَلَف فتمنّع به فروة حينا . وأبو عزّة عمرو بن عبد الله بن وهب ، أطلقه رسول الله صلى الله عليه وآله بغير فِدْية ، وكان شاعرا خبيث اللسان ، ثم قتله يوم أُحُد ، بعد أن أسره ـ ولم يذكر الواقدى الّذى أسره يوم بدر ـ ووهب بن عمير بن وهب ، أسره رفاعة بن رافع الزرقى ، وقدم أبوه عمير بن وهْب فى فدائه ، فأسلم فأرسل النبى صلى الله عليه وآله له ابنه بغير فداء ، وربيعة بن درّاج بن العنبس بن وهبان[٢] ابن وهب بن حُذافة بن جُمح ، وكان لا مال له ، فأخذ منه بشىء يسير ، وأرسل به ـ ولم يذكر الواقدى مَنْ أسره ـ والفاكه مولى أميّة بن خلف ، أسره سعد بن أبى وقّاص ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى سَهْم بن عمرو أبو وَدَاعة بن ضُبَيرة ، وكان أوّل أسير افتدى ، قدم فى فدائه ابنهُ المطّلب ، فافتداه بأربعة آلاف ـ ولم يذكر الواقدى مَنْ أسره ـ وفَرْوة بن قَيْس بن عدىّ بن حذافة بن سعيد بن سهم ، أسره ثابت بن أقرم ، وقدم فى فدائه عمرو ابن قيس ، افتداه بأربعة آلاف ، وحنظلة بن قبيصة بن حُذَافة بن سعد ، أسره عثمان ابن مظعون . والحجّاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سَهْم ، أسره عبد الرحمن بن عوف ، فأفلت ، فأخذه أبو داود المازنى . فهؤلاء أربعة .

ومن بنى مالك بن حِسْل سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك ؛ أسره مالك بن الدّخشم ، وقدم فى فدائه مكرز بن حَفْص بن الأحنف ، وانتهى فى فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف ، فقالوا : هات المال ، فقال : نعم ، اجعلوا رجلًا مكان رجل ؛

---

(١) ابن هشام : « أول من ولى فاراً منهزماً » . (٢) ابن هشام : « أهبان » .

وقوم يروونها : « رِجْلاً مكان رِجل » ، فخلّوا سبيل سُهيل ، وحبسوا مِكْرز بن حفص عندهم ، حتى بعث سهيل بالمال من مكّة . وعبد الله بن زَمْعة بن قيس بن نصر بن مالك، أسره عمير بن عوف ، مولى سُهَيل بن عمرو . وعبد العزّى بن مشنوء بن وقدان بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ودّ سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بعد إسلامه عبد الرحمن ، أسره النعمان بن مالك . فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى فِهر الطّفيل بن أبى قُنَيع ، فهؤلاء ستّة وأربعون[1] أسيرا .

وفى كتاب الواقدى أنّه كان الأسارى الّذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين ، ولم نجد التفصيل يلحق هذه الجملة[2] .

وروى الواقدى عن سعيد بن المسيّب ، قال : كانت الأسارى سبعين ، وإنّ القتلى كانت زيادة على سبعين إلّا أنّ المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم ، والباقون لم يذكر المؤرخون أسماءهم .

***

القول فى المطعمين فى بدر من المشركين

قال الواقدىّ : المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة ؛ فمن بنى عبد مناف الحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس .

ومن بنى أسد بن عبد العزى ، زمْعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد ، ونوفل بن خويلد المعروف بابن العدويّة .

ومن بنى مخزوم ، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة .

ومن بنى جُمح ، أميّة بن خلف .

---

(١) عدتهم فى ابن هشام « ثلاثة وأربعون » . (٢) مغازى الواقدى ١٣٣ - ١٣٩ ، وانظر أنساب الأشراف ١ : ٣٠١ - ٣٠٦ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٦٤ - ٣٦٧ .

ومن بني سَهْم نبيه ومنبّه ابنا الحجاج .

فهؤلاء تسعة .

قال الواقديّ : وكان سعيد بن المسيّب يقول : ماأطعم أحد ببدر إلا قتِل .

قال الواقديّ : قد ذكروا عدّة من المطعمين ، اختلف[1] فيهم ، كسُهيل بن عمرو وأبي البختري وغيرهما[2] .

قال : حدثني إسماعيل بن إبراهيم ، عن موسى بن عتبة ، قال : أوّل مَنْ نحر لهم أبو جهل بمرّ الظّهران عشرا ، ثم أميّة بن خلف بعَسْفان تسعا ، ثم سهيل بن عمرو بقُدَيد عشرا ، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلّوا الطريق ، فأقاموا بها يوما ، فنحر لهم شيبة ابن ربيعة تسعا ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم قيس الجمحيّ تسعا ، ثم نحر عتبة عشرا ، ونحرلهم الحارث بن عمر وتسعا ، ثم نحرلهم أبو البختريّ على ماء بدر عشرا ونحر لهم مقيس ابن ضبابة على ماء بدر تسعا ، ثم شغلتهم الحرب .

قال الواقديّ : وقد كان ابن أبي الزّناد يقول : والله ماأظنّ مقيسا كان يقدر على قَلُوص واحدة .

قال الواقديّ : وأمّا أنا فلا أعرف قيسا الجمحيّ . قال : وقد روت أم بكر ، عن المسور بن مخرمة ابنها ، قال : كان النّفر يشتركون فى الإطعام ، فينسب إلى الرّجل الواحد ويسكت عن سائرهم[3] .

***

وروى محمد بن إسحاق أنّ العباس بن عبد المطلب كان من المطعمين فى بدر ، وكذلك طُعيمة بن عديّ بن نوفل ، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل ، وكان أبو البختري يعتقِب هو وحكيم بن حزام فى الإطعام ، وكان النّضر بن والحارث بن كلده بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدّار من المطعِمين . قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يكره قتل

(١) أ ومغازى الواقدى : « وقد اختلف علينا فيهم » (٢) مغازى الواقدى : « وغيرهم »

(٣) مغازى الواقدى ١٢٣ ، ١٢٤

الحارث بن عامر ، قال يوم بدر : « مَنْ ظفر به منكم فليتركه لأيتام بنى نوفل » ، فقتل في المعركة (١) .

* * *

القول فيمن استشهد من المسلمين ببدر

قال الواقدىّ : حدّثنى عبد الله بن جعفر ، قال : سألت الزهرىّ كم استشهد من المسلمين ببدر ؟ قال : أربعة عشر (٢) ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

قال : فمن بنى المطلب بن عبد مناف عبيدة بن الحارث ، قتله شيبة بن ربيعة .

وفى رواية الواقدى قتله عتبة، فدفنه النبى صلى الله عليه وآله بالصفراء .

ومن بنى زهرة عمير بن أبى وقاص ، قتله عمرو بن عبد ودّ ، فارس الأحزاب ، وعمير بن عبد ودّ ذو الشمالين ، حليف لبنى زهرة بن خزاعة، قتله أبو أسامة الجشمىّ .

ومن بنى عدىّ بن كعب عاقل بن أبى البُكير، حليف لهم من بنى سعد بن بكر ، قتله مالك بن زهير الجُشَمِىّ ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، قتله عامر بن الحضرمىّ؛ ويقال : إنّ مهجعا أوّل من قتل من المهاجرين .

ومن بنى الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء ، قتله طُعَيمة بن عدىّ .

وهؤلاء الستة من المهاجرين .

ومن الأنصار ، ثمّ من بنى عمرو بن عوف، مبشّر بن عبد المنذر ، قتله أبو ثور . وسعد ابن خيثمة ، قتله عمرو بن عبدودّ ـ ويقال طعيمة بن عدى ـ ومن بنى عدىّ بن النجار حارثة بن سراقة رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته ، فقتله .

ومن بنى مالك بن النجار، عوف ومعوّذ ابنا عفراء ؛ قتلهما أبو جهل .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٣١١ .

(٢) فى مغازى الواقدى : « ثم عددهم على ، فهم هؤلاء الذين سميت » .

ومن بنى سلِمة بن حرام عمير بن الحمام بن الجموح ، قتله خالد بن الأعلم العقيلىّ – ويقال إن عمير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار، وقد روى أن أوّل قتيل منهم حارث ابن سراقة .

ومن بنى زُرَيق ، رافع بن المُعَلّى ، قتله عكرمة بن أبى جهل .

ومن بنى الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسحم [١] ، قتله نوفل بن معاوية الديلىّ .

فهؤلاء الثمانية من الأنصار .

قال الواقدىّ : وقد روى عن عكرمة ، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبى صلى الله عليه وآله قتل ببدر .

وروى [أن] [٢] معاذ بن ما عص جرِح ببدر ، فمات من جراحته بالمدينة ، وأن عبيد بن السكن جرح فاشتكى جُرحه ، فمات منه حين قدم [٣] .

***

القول فيمن قتل ببدر من المشركين وأسماء قاتليهم

قال الواقدىّ: فمن بنى عبد شمس بن عبدمناف حنظلة بن أبى سفيان بن حرب ، قتله علىّ ابن أبى طالب عليه السلام، والحارث بن الحضرمى قتله عمار بن ياسر، وعامر بن الحضرمى قتله عاصم ابن ثابت بن أبى الأقلح، وعمير بن أبى عمير وابنه، موليان لهم؛ قتل سالم مولى أبى حذيفة منهم عمير بن أبى عمير – ولم يذكر الواقدىّ من قتل ابنه – وعبيدة بن سعيد بن العاص ، قتله الزبير بن العوام ، والعاص بن سعيد بن العاص ، قتله على بن أبى طالب عليه السلام ، وعقبة بن أبى معيط ، قتله عاصم بن ثابت صبرا بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله .

---

(١) الواقدى : « يسحم » .

(٢) من الواقدى .

(٣) مغازى الواقدى ١٤٢ ، ١٤٣ .

وروى البلاذُرى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صلبه بعد قتله؛ فكان أول مصلوب فى الإسلام. قال: وفيه يقول ضرار بن الخطاب:

عين بكّى لعُقْبَة بن أبانِ   فرع فهرٍ وفارس الفرسانِ[١]

وعتْبة بن ربيعة، قتله حمزة بن عبدالمطلب. وشيبة بن ربيعة، قتله عُبيدة بن الحارث وحمزة وعلىّ، الثلاثة اشتركوا فى قتله. والوليد بن عتْبة بن ربيعة، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام. وعامر بن عبد الله حليف لهم من أنمار، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وقيل: قتله سعد بن معاذ، فهؤلاء اثنا عشر.

ومن بنى نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل، قَتَله خُبَيْب بن يساف[٢]، وطُعَيْمة ابن عدىّ، ويكنى أبا الرّيان، قتله حمزة بن عبد المطّلب فى رواية الواقدىّ، وقتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى رواية محمد بن إسحاق[٣]. وروى البلاذُرىّ رواية غريبة، أن طُعَيْمة بن عدىّ أُسر يوم بدر، فقتله النبىّ صلى الله عليه وآله صَبْراً على يد حمزة، فهؤلاء اثنان.

ومن بنى أسَد بن عبد العزّى زَمْعة بن الأسود، قتله أبو دُجَانة[٤]، وقيل: قتله ثابت بن الجِذْع[٥]، والحارث بن زمعة بن الأسود، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام. وعَقيل بن الأسود بن المطّلب، قتله علىّ وحمزة، شرِكا فى قتله. قال الواقدىّ: وحدّثنى أبو معشر، قال: قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وحده، وقيل: قتله أبو داود المازنى وحده. وأبو البخترىّ، وهو العاص بن هشام، قتله المجذّر بن

(١) أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧، وفيه: «عين فابكى».
(٢) فى ابن هشام: «إساف» بهمزة مكسورة، قال ابن حجر فى الإصابة: «وقد تبدل تحتانيه».
(٣) سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٧.
(٤) دجانة، كنامة: سماك بن خرشة.
(٥) الإصابة: الجدع.

زياد ، وقيل : قتله أبو اليَسَر . ونوفل بن خُوَيلد بن أسَد بن عبدالعزّى ؛ وهو ابن العَدَوِيّة ، قتله على عليه السلام ؛ فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عبد الدار بن قصىّ ، النّضر بن الحارث بن كَلَدة ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام صَبْراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الّذى أسَره المقداد بن عمرو ، فوعد المقداد -إن استنقذه- بفداء جليل ، فلمّا قدِّم ليُقتل ، قال المقداد : يارسولَ الله ، إنّى ذُو عيال ، وأحبّ الدين ، فقال : اللهمّ أغْنِ المقدادَ من فضلك ! ياعلىّ ، قم فاضرب عنقه . وزيد بن مُلَيص مولى عمرو بن هاشم بن عبد مناف ، من عبد الدار ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل : قتله بلال . فهؤلاء اثنان .

ومن بنى تيم بن مرّة عُمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان ، قتله صُهيب ، فهؤلاء اثنان – ولم يذكر البلاذرى عثمان بن مالك .

ومن بنى مخزوم بن يَقَظة ثم من بنى المُغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوِّذ وعوْف ابنا عفراء ، وذفّف(١) عليه عبد الله بن مسعود . والعاص بن هاشم بن المغيرة ، خال عمر بن الخطاب ، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميمىّ ، حليف لهم ، قتله عمّار بن ياسر ، وقيل : قتله علىّ عليه السلام .

ومن بنى الوليد بن المُغيرة ، أبو قيس بن الوليد بن الوليد ؛ أخو خالد بن الوليد ، قتله علىّ ابن أبى طالب عليه السلام .

ومن بنى الفاكه بن المغيرة أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، وقيل : قتله الحباب بن المنذر .

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١ : ٢٩٧ . (٢) ذفف عليه : أجهز .

ومن بنى أميّة بن المغيرة مسعود بن أبى أميّة ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

ومن بنى عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بنى رفاعة ، أميّة بن عائذ بن رفاعة بن أبى رفاعة ، قتله سعد بن الربيع . وأبو المنذر بن أبى رفاعة ، قتله معن بن عدىّ العجلانىّ . وعبد الله بن أبى رفاعة ، قتله على بن أبى طالب عليه السلام . وزُهير بن أبى رفاعة ، قتله أبو أسيد الساعدى . والسائب بن أبى رفاعة ، قتله عبد الرحمن بن عوف .

ومن بنى أبى السائب المخزومىّ — وهو صيفى بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — السائب بن السائب ، قتله الزبير بن العوام . والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم ، قتله حمزة بن عبد المطّلب . وحليف لهم من طيّئ ، وهو عمرو بن شيبان[1] ، قتله يزيد بن قيس . وحليف آخر ، وهو جبّار بن سفيان ، أخو عمرو بن سفيان المقدّم ذكره ، قتله أبو بُرْدة بن نِيار .

ومن بنى عمران بن مخزوم حاجز[2] بن السائب بن عُويمر بن عائذ ، قتله علىّ عليه السلام .

وروى البَلاذُرِىّ أنّ حاجزاً هذا وأخاه عُويمر بن السائب بن عُويمر ، قتلهما على ابن أبى طالب عليه السلام[3] — وعُويمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ؛ قتله النّعمان بن أبى مالك ؛ فهؤلاء تسعة عشر .

ومن بنى جُمَح بن عمرو بن هصيص ، أميّة بن خلَف ، قتله خُبَيب بن يساف وبلال ، شرِكا فيه .

قال الواقدىّ : وكان معاذ بن رفاعة بن رافع يقول : بل قتله أبو رفاعة بن رافع .

(١) الواقدى : « سفيان » .

(٢) فى البلاذرى : « جابر » .

(٣) أنساب الأشراف ١ : ٣٠٠ .

وعلىّ بن أمية بن خلف ، قتله عمّار بن ياسر . وأوس بن المُغيرة بن لوذان ، قتله علىّ عليه السلام ، وعثمان بن مظعون ، شركا فيه ؛ فهؤلاء ثلاثة .

ومن بنى سَهْم ، منبّه بن الحجاج ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل : قتله أبو أسيد الساعدىّ . ونبيه بن الحجّاج قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . والعاص بن منبّه بن الحجاج ، قتله علىّ عليه السلام . وأبو العاص بن قَيْس بن عدىّ بن سعد ابن سهم ، قتله أبو دُجَانة ـ قال الواقدىّ : وحدثنى أبو معشر عن أصحابه ، قالوا : قتله علىّ عليه السلام ـ وعاص بن أبى عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد ، قتله أبو دُجانة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ ، ثمّ من بنى مالك بن حسل ، معاوية بن عبد قيس حليف لهم ، قتله عُكّاشة بن محصن . ومعبد بن وهب ، حليف لهم من كلْب ، قتله أبو دُجَانة فهؤلاء اثنان .

فجميع مَنْ قتل ببدر فى رواية الواقدىّ من المشركين فى الحرب وصبرا ، اثنان وخمسون رجلا ، قتَل علىٌّ عليه السلام منهم مع الذين شرِك فى قتلهم أربعة وعشرين رجلا . وقد كثرت الرواية أنّ المقتولين ببدر كانوا سبعين ، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماؤهم من ذكرناه ، وفى رواية الشيعة أنّ زَمَعة بن الأسود بن المطلب قتلة علىّ ، والأشهر فى الرواية أنه قتله الحارث بن زمعة ، وأن زمعة قتله أبو دُجَانة[1] .

* * *

القول فيمن شهد بدراً من المسلمين

قال الواقدىّ : كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بسهامهم وهم غائبون وعدّتهم ثمانية . قال : وهذا هو الأغلب فى الرواية ،

(١) انظر تسمية من قتل من المشركين ببدر فى الواقدى ١٤٣ — ١٥١ .

قال : ولم يشهد بدرا من المسلمين إلّا قرشىّ أو حليف لقرشىّ أو أنصارىّ أو حليف لأنصارىّ أو مولى واحد منهما ، وهكذا من جانب المشركين ، فإنه لم يشهدها إلّا قرشىّ أو حليف لقرشىّ أومولى لهم .

قال : فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلا ، وكانت الأنصارومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلا[1] .

فأما تفصيل أسماء من شهدها من المسلمين فله موضع فى كتب المحدثين أملك به من هذا الموضع .

* * *

[قصة غزوة أُحُد]

الفصل الرابع : فى شرح قصة غزاة أُحُد . ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقدىّ[2] رحمه‌الله على عادتنا فى ذكر غزاة بدر ، ونضيف إليه من الزيادات التى ذكرها ابن إسحاق والبلاذرىّ ما يقتضى الحال ذكره .

قال الواقدى : لما رجع مَنْ حضر بدرا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة فى دار النّدوة ، وكذلك كانوا يصنعون ، فلم يحرّكها أبو سفيان ولم يفرّقها لغيبة أهل العير ، ومشت أشراف قريش إلى أبى سفيان : الأسودُ بن عبد المطلب بن أسد ، وجُبير بن مطعِم ، وصفوان بن أميّة ، وعِكرمة بن أبى جهل ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وحويطب بن عبد العزّى ؛ فقالوا : يا أبا سُفيان ، انظر هذه العير التى قدِمْت بها فاحتبستَها[3] ، فقد عرفتَ أنها أموال أهل مكة ولَطِيمة[4] قريش ، وهم طيّبو الأنفس ، يجهّزون بهذه العير جيشا كثيفا إلى محمد ، فقد

(١) مغازى الواقدى ١٥١ ، ١٥٢

(٢) أخبار غزوة أحد فى مغازى الواقدىّ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٣) الواقدى : « فاحتبسها » .

(٤) اللطيمة : العير تحمل الطيب وبز التجار .

ترى مَنْ قُتِلَ من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا . فقال أبو سفيان : وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أوّل من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور والثائر[1] ، وقد قتِل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى . فلم تزل العِير موقوفةً حتى تجهّزوا للخروج ، فباعوها فصارت ذهبا عينا ، ويقال : إنما قالوا : يا أبا سفيان ، بِع العير ثم أعزل أرباحها ، فكانت العِيرُ ألف بعير ، وكان المال خمسين ألف دينار ؛ وكانوا يربحون فى تجاراتهم للدينار دينارا ، وكان متجرُهم من الشام غزّة ، لا يعدونها إلى غيرها ، وكان أبو سفيان ، قد حبس عير بنى زهرة ، لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلّم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبنى عبد مناف بن زُهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عِيره حتى يسلِّم إلى بنى زُهْرة جميعا[2] ، وتكلم الأخنس ، فقال : وما لعير بنى زهرة من بين عيرات قريش ! قال أبو سفيان : لأنهم رجعوا عن قريش ، قال الأخنس : أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزْنا العير ؛ لا تخرجوا فى غير شىء ، فرجعنا ، فأخذت بنو زُهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة ؛ كلّ ما كان لهم فى العير .

قال الواقدى : وهذا يبين أنه إنما أخرج القومَ أرباح العير . قال : وفيهم أنزل[3] : ﴿ إنّ الذينَ كَفَرُوا يُنفِقونَ أموالهمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سبيل الله ... ﴾ الآية .

قال : فلما أجمعوا على المسير ، قالوا : نسير فى العرب فنستنصرهم ؛ فإنّ عبدة مناة غير متخلّفين عنّا ، هم أوصلُ العرب لأرحامنا ومن اتّبعنا من الأحابيش ، فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون فى العرب ، يدعونهم إلى نصرهم ؛ فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وابن الزِّبَعرى وأباعزّة الجُمَحِى ، فأبى أبو عزّة أن يسيرَ[4] وقال : من

---

(١) الثائر : الذى يقوم بالثأر .

(٢) ا : « جمعا » .

(٣) ا : « أنزلت » .

(٤) فى الواقدى : « فأطاع النفر وأبى أبو عزة » .

علىّ محمد يوم بدر ، وحلفت ألّا أظاهر[1] عليه عدوًّا أبدا . فمشى إليه صفوان بن أمية فقال : اخرج ، فأبى ، وقال : عاهدتُ محمدا يوم بدر ألّا أظاهر عليه عدوًّا أبدا ، وأنا أفى له بما عاهدته عليه[2] ، مَنّ علىّ ولم يمُنّ على غيرى حتى قتله أوأخذ منه الفداء . فقال صفوان : اخرج معنا ، فإن تسلَم أعطك من المال ما شئت ، وإن تُقتَل تكنْ عيالك مع عيالى . فأبى أبو عزّة ، حتى كان الغد ، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيسا منه ؛ فلمّا كان الغد جاءه صفوانُ وجبير بن مطعم ، فقال له صفوان الكلام الأوّل فأبى ، فقال جبير : ما كنتُ أظنّ أنى أعيش حتى يمشىَ إليك أبو وهب فى أمرٍ تأبى عليه ! فأحفظه ، فقال : أنا أخرج ، قال : فخرج إلى العرب يجمعها ، ويقول :

إيهِ بنى عبد مناةِ الرزّامْ[3] أنتم حماةٌ وأبوكمْ حامْ
لا تُسلِمونى لا يحلُّ إسلامْ لا يعدُوَنّى نصرُكم بعد العامْ[4]

وخرج النفر مع أبى عزّة ، فألّبوا العربَ وجمعوا ، وبلغوا ثقيفا فأوعبوا[5] . فلمّا أجمعوا المسير وتألّب مَنْ كان معهم من العرب وحضروا ، واختلفتْ قريش فى إخراج الظُّعن معهم ، قال صفوان بن أميّة : اخرجوا بالظُّعُن[6] فأنا أول من فعل ، فإنه أقمنْ أن يحفظْنكم ويذكّرنكم قتلَى بدر ، فإنّ العهدحديث ، ونحن قوم موتورون مستميتون ، لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندركَ ثأرنا أو نموت دونه . فقال عكرمة بن أبى جهل : أنا أوّل من أجاب إلى ما دعوتَ إليه ، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى فى ذلك

---

(١) الواقدى : « لا أظاهر » (٢) من الواقدى .

(٣) ابن هشام ٣ : ٤ : « إيهاً بنى عبد مناة » . والرزّام : جمع رازم ؛ وهو الذى يثبت فى مكانه لا يبرحه ، تقول : رزم البعير ، إذا ثبت فى مكانه .

(٤) ابن هشام : « لا تعدونى » .

(٥) ب : « أرغبوا » ، وأثبت ما فى ا والواقدى ، وأوعبوا ، أى خرجوا للغزو .

(٦) الظعن : جمع ظعينة ؛ وهى المرأة فى الهودج ؛ وأصل الظعينة الهودج ، سميت المرأة به لقربها منه فى السفر ؛ وقيل : سميت ظعينة لأنها تظعن مع زوجها .

نوفل بن معاوية الدِّيلىّ ، فقال : يامعشرَ قريش ، هذا ليس برأى ، أن تعرِّضوا حُرَمكم لعدوكم ؛ ولا آمن أن تكو الدَّبْرة[1] لهم فتفتضحوا فى نسائكم . فقال صفوان : لا كان غير هذا أبدا ! فجاء نوفل إلى أبى سفيان بن حرْب فقال له تلك المقالة ، فصاحت هند بنت عتبة : إنك والله سلِمت يوم بدر ، فرجعتَ إلى نسائك ؛ نعم نخرج فنشهد القتال ، فقد رُدّت القيان من الجحفة فى سفرهم إلى بدر ، فقتِلت الأحبّة يومئذ . فقال أبو سفيان : لستُ أخالف قريشا ، أنا رجلٌ منها؛ ما فعلتْ فعلتُ. فخرجوا بالظُّعُن ، فخرج أبو سفيان بن حرب بامرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأُمَيْمة بنت سعد بن وهب بن أشيَم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برْزة بنت مسعود الثقفى وهى أم عبد الله الأكبر والبغوم بنت المعذل من كنانة ، وهى أمّ عبد الله الأصغر ، وخرج طلحة بن أبى طلحة بامرأته سُلافة بنت سعد بن شهيد ، وهى من الأوس، وهى أمّ بنيه : مسافع ، والحارث ، وكلاب والجلاس بنى طلحة بن أبى طلحة ، وخرج عِكْرمة بن أبى جهل بامرأته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبّه بن الحجاج ، وهى أم عبد الله بن عمرو بن العاص ــ وقال محمد بن إسحاق اسمها : ريْطة ــ وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرّب إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير ، أخى مُصْعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رَمْلة بنت طارق بن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن علىّ بن ربيعة بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته أمّ حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عُوَيف بامرأته قُتَيلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه ؛ بأمّهما

---

(١) الدّبرة : العاقبة .

(٢) من ا والواقدى .

الدُّغَنيـة ، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الـكنانية ، وهى التى رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها ، وفيها يقول حسان :

ولولا لواء الحارثيَّـــةِ أصبحُوا   يباعون فى الأسواق بالثَّمَن البَخْسِ

قالوا : وخرج سُفْيان بن عويف بعشرة من ولده ، وحَشَدت بنو كنانة . وكانت الألوية يومَ خرجوا من مكّة ثلاثة عقدوها فى دار النَّدوة ؛ لواء يحمله سُفيان بن عويف لبنى كنانة ، ولواء الأحابيش يحمِله رجـل منهم ، ولواء لقريش يحمِلُه[1] طلحة بن أبى طلحة .

قال الواقدىّ : ويقال خرجت قريش ولَفُّها[2] كلّهم ؛ من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحدٍ ، يحملُه طلحة بن أبى طلحة . وهو الأثبت عندنا .

قال : وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضَوَى[3] إليها ، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدّة وسلاح كثير ، وقادوا مائتى فرس ، وكان فيهم سبعمائة دراع وثلاثة آلاف بعير . فلمّا أجمعوا على المسير كتب العبّاس بن عبد المطلب كتاباً ، وختَمه ، واستأجر رجلاً من بنى غِفار ، وشرط عليه أن يسيرَ ثلاثًا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبره أنّ قريشاً قد اجتمعت[4] للمسير إليك ؛ فما كنت صانعا إذا حَلّوا[5] بك فاصنعه . وقد وجّهوا وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مائتى فرس ، وفيهم سبعمائة دراع ، وثلاثة آلاف بعير ، وقد أوعبوا من السِّلاح . فقدم الغفارىّ فلم يجد رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالمدينة ، وجده بقُباء ، فخرج حتى وجدَ رسول الله صلى الله عليه وآله على باب مسجد قُباء يركب

---

(١) ب : « يحمله » ، وأثبت ما فى ا والواقدى .

(٢) لفها ، أى من اجتمع إليها من القبائل .

(٣) ضوى إليها : انضم إليها ، وفى ا والواقدى : « انضم » .

(٤) ا : « أجمعت المسير » .

(٥) ب : « خلوا » وأثبت ما فى ا والواقدى .

حماره ، فدفع إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبيّ بن كعب ، واستكتم أبيًّا مافيه ، ودخل منزلَ سعد بن الربيع ، فقال : أفي البيت أحد ؟ فقال سعد : لا ، فتكلَّمْ بحاجتك، فأخبره بكتابِ العبّاس بن عبد المطلب ، فجعل سعد يقول : يارسولَ الله ، والله إنّي لأرجُو أن يكونَ في ذلك خير ، وأرجفت [1] يهود المدينة والمنافقون ، وقالوا : ماجاء محمدا شيء يحبه، وانصرف رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، وقد استكتم سعدَ بن الربيع الخبَر . فلمّا خرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله من منزله ، خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه ، فقالت : ماقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قال : مالكِ ولذاك ، لا أمّ لك ! قالت : كنت أستمع عليكم ، وأخبرتْ سعدا الخبر ، فاسترجع سعد ، وقال : لا أراكِ تستمعين علينا وأنا أقولُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تكلّم بحاجتك ! ثم أخذ بجُمّع لُمّتها [2] ، ثم خرج يعدُو بها حتى أدركَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالجسر ، وقد بَلَحَتْ ، فقال : يارسولَ الله ، إنّ امرأتى سألتنى عمّا قلتُ فكتمتُها ، فقالت : قدسمعتُ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءت بالحديثِ كلّه — فخشيت يارسولَ الله أن يظهر من ذلك شيء فتظنّ أنّي أفشيتُ سرّك ، فقال صلى الله عليه وسلّم : خلّ سبيلَها . وشاع الخبر بين النّاس بمسير قريش . وقدم عمرو بن سالم الخزاعيّ في نفر من خُزاعة ، ساروا من مكّة أربعا ، فوافوا قريشا وقد عسكروا بذى طُوَى ، فأخبروا رسولَ الله صلى الله عليه وآله الخبَر، ثمّ انصرفوا واتَوْا قريشا ببطْن رابغ ، وهو أربع ليال من المدينة ، فنكبوا عن قريش .

قال الواقديّ : فلمّا أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبِر أنّ عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس مُمْسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان : أحلف بالله أنهم جاءوا محمّدا فخبّروه بمسيرنا وعَدَدِنا [3] ، وحذّروه منّا ، فهم الآن يلزمون صياصيَهم ، فما أرانا نصيب منهم شيأ في وجهنا . فقال صفوان بن أميّة : إنْ لم يُصحِرُوا [4] لنا عمَدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ،

(١) الواقدى : « وقد أرجفت » .
(٢) ا « لبتها »
(٣) الواقدى : « فأخبروه بعددنا » .
(٤) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء ؛ وهو الفضاء المستوى الواسع

فتركناهم ولا أموال لهم ، فلا يختارونها أبدا ، وإن أصحروا لنا فعددُنا أكثرُ من عددهم ، وسلاحُنا أكثرُ من سلاحهم ، ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل على وِتر عندهم ولا وِتْر لهم عندنا .

قال الواقدىّ : وكان أبو عامر الفاسق قد خرج فى خمسين رجلا من الأوس ، حتى قدِم بهم مكّة حين قدم النبىّ صلى الله عليه وآله يحرّضها ويُعلمها أنها على الحقّ ، وماجاءبه محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ، ولم يسرْ معها ، فلمّا خرجت قريش إلى أُحُد سارَ معها ، وكان يقول لقريش : إنّى لو قدمت على قومى لم يختلفْ عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء معى نفرٌ منهم خمسون رجلا . فصدّقوه بما قال ، وطمِعوا فى نصره .

قال الواقدىّ : وخرج النّساء معهنّ الدّفوف يحرّضْنَ الرجال ويذكّرْنهم قتلَى بدر فى كلّ منزل ، وجعلت قريش تنزل كلَّ منهَل ، ينحرون مانحروا من الجُزُر ممّا كانوا جمعوا من العين ، ويتقوّوْن به فى مسيرهم ، ويأكلون من أزوادهم ممّا جمعوا من الأموال .

قال الواقدىّ : وكانت قريش لمّا مرّت بالأبواء ، قالت : إنّكم قد خرجتم بالظُّعن معكم ونحن نخاف على نسائنا فتعالوْا ننبش قبر أمّ محمد ، فإنّ النّساء عورة ، فإن يصبْ من نسائكم أحداً قلتم هذه رمّة أمّك ، فإن كان برًّا بأمّه ـ كما يزعم ـ فلعمرى لنفادينّهم برمّة أمّه ، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمرى ليفدينّ رمّة أمّه بمال كثير إن كان بها برًّا. فاستشار أبو سفيان بن حرب أهلَ الرأى من قريش فى ذلك ، فقالوا : لا تذكر من هذا شيأ ، فلو فعلنا نبشتْ بنو بكر وخُزاعة موتانا .

قال الواقدىّ : وكانت قريش بذى الُحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرَجهم من مكّة ، وذلك لخمس ليال مضيْن من شوّال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلمّا

أصبحوا بذى الُحليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوِطاء[1] ، وبعث النبي صلى الله عليه وآله عينين له . آنساومؤنسا ابنى فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعَقيق ، فسارا معهم ، حتى نزلوا الوِطاء ، وأتيا رسولَ الله صلى الله عليه وآله فأخبراه ، وكان المسلمون قد ازدرعوا العِرض[2] — والعرض مابين الوطاء بأحُد إلى الُجرْف إلى العرْصَة ، عَرْصة البقل اليوم، وكان أهلُه بنو سلِمة وحارثة وظَفَر وعبد الأشهل ، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يرم سائق الناضح مجلسا واحدا ينفتل الجمل فى ساعته ، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التى حفرها معاوية بن أبى سفيان[3] ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرْعهم ليلة الخميس المدينة ، فقدم المشركون على زرعهم فخلّوا فيه إبلَهم وخيولهم ، وكان لأسيد بن حُضير فى العرض عشرون ناضحا تسقى شعيرا ، وكان المسلمون قد حذروا على جمالهم وعمالهم وآلة حرثهم ، وكان المشركون يرعَوْن يوم الخميس ، فلما أمسَوْا جمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل ، وقَصَلوا على خيولهم ليلة الجمعة ، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلّوا ظهرهم فى الزرع وخيلهم ، حتى تركوا العِرض ليس به خضراء .

قال الواقدىّ : فلمّا نزلوا وحلّوا العُقَد ، واطمأنوا بعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله الُحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم ، فدخل فيهم وحَزَر ونظر إلى جميع مايريد ، وكان قد بعثه سرًّا ، وقال له : إذا رجعت فلا تخبرْنى بين أحدمن المسلمين إلاّ أنْ ترَى فى القوم قِلّة ، فرجع إليه فأخبره خالياً ، وقال له : رأيت عددا حزرتُهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والخيل مائتى فرس ، ورأيت دُروعا ظاهرة حَزَرتُها سبعمائة درع . قال : هل رأيت ظُعُنا ؟ قال : نعم رأيت النّساء معهن الدّفاف والأكبار — وهى الطّبول — فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أردْنَ أن يحرّضن القوم ويذكّرْنهم قتلى بدر ، هكذا

---

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض . (٢) العرض : الوادى .
(٣) كذا وردت العبارة فى الأصول وفى الواقدى وفيها غموض .

جاءنى خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ! اللهمّ بك أحول ، وبك أصول !

قال الواقدىّ : وخرج سَلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة ، حتى إذا كان بأدنى العِرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا فى أثره ، فوقف لهم على نَشز[1] من الحرّة ، فرشقهم بالنَّبل مرة ، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العِرض ، فاستخرج سيفاً كان له ، ودرع حديد كان له ، دفنا فى ناحية المزرعة ، وخرج بهما يعدُو ، حتى أتى بنى عبد الأشهل ، فخبّر قومه بما لقى .

قال الواقدىّ : وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلوْن من شوال ، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلوْن من شوال ، وباتت وجوهُ الأوس والخزرج : سعد بن مُعاذ وأسيد ابن حُضير ، وسعد بن عبادة ، فى عدّة منهم ليلة الجمعة ، عليهم السلاح فى المسجد بباب النبى صلى الله عليه وآله خوفا من تبييت المشركين ، وحُرِست المدينة تلك الليلة ، حتى أصبحوا ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله رؤيا ليلة الجمعة ، فلمّا أصبح واجتمع المسلمون خطبهم .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمّد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، قال : ظهر النبى صلى الله عليه وآله المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيّها النّاس ، إنى رأيتُ فى منامى رؤيا ؛ رأيت كأنّى فى درعٍ حصينة ، ورأيت كأنّ سيفى ذا الفقار انفصم[2] من عند ظُبَته ، ورأيت بقرا تذبح ، ورأيت كأنّى مردِف كبشا ، فقال النّاس : يارسولَ الله ، فما أوّلتها ؟ قال : أما الدّرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأمّا

---

(١) ب : « نشزة » .

(٢) ا والواقدى : « انقصم » .

انفصام[١] سيفى عند ظُبَتِهِ فمصيبة فى نفسى ، وأمّا البقر المذبّح فقتلَى فى أصحابى ؛ وأما أنى مردف[٢] كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

قال الواقدىّ : وروى عن ابن عباس ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : « أما انفصام سيفى فقتلُ رجل من أهل بيتى » .

قال الواقدىّ : وروى المسور بن مَخْرَمة ، قال : قال النبىّ صلى الله عليه وآله: ورأيت فى سيفى فَلًّا فكرهته ، هو الذى أصاب وجهه عليه السلام .

قال الواقدىّ : وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ ، ورأى صلى الله عليه وآله ألاّ يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ أن يوافَق على مثل مارأى؛ وعلى ماعبّر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبىّ ؛ فقال : يارسول الله ، كنّا نقاتل فى الجاهلية فى هذه المدينة ، ونجعل النساء والذرارىّ فى هذه الصّياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، والله لربّما مكث الولدان شهرا ينقلون الحجارة ، إعداداً لعدّونا ، ونشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كلّ ناحية ، وترمى المرأة والصبىّ من فوق الصياصى والآطام ، ونقاتل بأسيافنا فى السكك . يارسول الله إنّ مدينتنا عذْراء ما فُضّت علينا قطّ ، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلا أصاب منّا ، وما دخل علينا قطّ إلا أصبناه ، فدعْهم يارسول الله ، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبس ، وإن رجعوا رجعوا خاسرين مغلوبين ، لم ينالوا خيراً . يارسول الله ، أطعنى فى هذا الأمر ، واعلم أنى ورثتُ هذا الرأى من أكابر قومى وأهل الرأى منهم ، فهم كانوا أهلَ الحرب والتجربة .

قال الواقدىّ : فكان رأىُ رسول الله صلى الله عليه وآله مع رأى ابن أبىّ ، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار

---

(١) ا والواقدى : « انقصام » .　　(٢) ا : « وأما الكبش المردف » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرارىّ فى الآطام ، فإن دُخِل علينا قاتلناهم فى الأزقّة ،فنحنُ أعلمُ بها منهم ،ورُمُوا من فوق الصياصى والآطام ــ وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كلّ ناحية ، فهى كالحصن ــ فقال فِتْيان أحداث لم يشهدوا بدرا ، وطلبوا من رسول الله الخروجَ إلى عدوّهم ، ورغبوا فى الشهادة ، وأحبّوا لقاء العدوّ ، وقالوا : اخرج بنا إلى عدوّنا ، وقال رجال من أهل النبَه [1] وأهل السِنّ ، منهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج : إنا نخشى يارسول الله ، أن يظنّ عدوّنا أنّا كرهنا الخروج إليهم جُبْناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنتَ يوم بدر فى ثلثمائة رجل ، فظَفَّرَكَ الله بهم ، ونحن اليوم بشرٌ كثير ، وكنّا نتمنّى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا فى ساحتنا هذه ــ ورسول الله صلى الله عليه وآله لمـا رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبِسُوا السّلاح يخطرون بسيوفهم ، يتساوَمُون كأنهم الفحول . وقال مالك بن سنان أبو أبى سعيد الخُدْرىّ : يارسولَ الله ، نحن والله بين إحدى الحسنيين ، إمّا يظفِّرَنا الله بهم ، فهذا الذى نريد ، فيذلهم الله لنا ، فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يارسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يارسولَ الله ، مانبالى أيّهما كان ، إنّ كلاً لفيه الخير . فلم يبلغنا أنّ النبي صلى الله عليه وآله رجع إليه قولا ، وسكت . وقال حمزة بن عبد المطلب : والذى أنزل عليه الكتاب ، لا أطعَم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارجا من المدينة ، وكان يقال : كان حمزة يوم الجمعة صائما ، ويوم السبت ، فلاقاهم وهو صائم .

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بنى سالم : يارسول الله ، أنا أشهد أنّ البقر المذبّح قتلَى من أصحابك ، وأنّى منهم ، فلِمَ تحرمُنا الجنّة ؟ فوالله الذى لا إله إلّا هو

---

(١) النبه : الفطنة ، وفى ا : « النية » .

لأدخلنها . قال رسول الله : بم ؟ قال : إنى أحبّ الله ورسوله ، ولا أفِرُّ يوم الزّحف . فقال : صدقت ، فاستُشهد يومئذ .

وقال أياس بن أوس بن عتيك : يارسولَ الله ، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبّح ، نرجو يارسولَ الله أن نذبح فى القوم ، ويُذبح فينا ، فنصير إلى الجنة ، ويصيرون إلى النار ، مع أنّى يارسولَ الله لا أحبّ أن ترجعَ قريش إلى قومها ، فتقول : حصرْنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه جُرْأة لقريش ، وقد وطِئُوا سعَفنا ؛ فإذا لم نذبّ عن عِرْضنا ، فلم نذرع ؟ وقد كُنّا يارسول فى جاهليّتنا ، والعرب يأتوننا ، فلا يطمعون بهذا منّا حتى نخرُجَ إليهم بأسيافنا فنذبّهم عنّا ، فنحن اليوم أحقُّ إذ أمدّنا الله بك ، وعرفنا مصيرَنا ، لا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

وقام خيثمة، أبو سعد بن خيثمة فقال : يارسول الله ، إن قريشا مكثتْ حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب فى بواديها ومَن اتبعها من أحابيشها ثم جاءونا قد قادروا الخيل ، واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، فيحصروننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا، فيجرّئهم ذلك علينا حتى يشنّوا الغارات علينا ، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا ، مع ماقد صنعوا بحروثنا ، ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم ، فنذبّهم عن حريمنا ، وعسى الله أن يُظفرَنا بهم ، فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى ، فهى الشهادة . لقد أخطأتنِى وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصاً ؛ لقد بلغ من حرصِى أنْ ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج سهمُه ، فرُزِق الشهادة وقد كنت حريصا على الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحةَ فى النوم فى أحسن صورة يسرَحُ فى ثمار الجنة وأنهارها ، وهو يقول الحق بنا ترافقْنا فى الجنة ، فقد وجدتُ ما وعدنى ربى حقّاً ، وقد والله يارسولَ الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقتِه فى الجنّة ، وقد كبرتْ سنّى ، ودقّ عظمى ، وأحببت

لقاء ربّي ، فادعُ الله يارسول الله أن يرزقني الشهادة ، ومرافقة سعد في الجنّة ؛ فدعا له رسولُ الله بذلك ، فقتِل بأحُدٍ شهيداً .

قال أنس بن قتادة : يارسولَ الله ؛ هي إحدى الحسنييْن ، إمّا الشهادة وإمّا الغنيمة والظَّفَر بقتلهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّي أخافُ عليكم الهزيمة .

فلما أبَوْا إلّا الخروج والجهاد ، صلّى رسول الله يوم الجمعة بالناس ، ثم وعظهم ، وأمرهم بالجدّ والاجتهاد ، وأخبرهم أنّ لهم النصر ماصبروا ؛ ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالشُّخوص إلى عدوّهم ، وكره ذلك المَخْرَج بشرٌ كثير من أصحاب رسول الله ، وأمرهم بالتهيّؤ لعدوّهم ، ثم صلّى العصرَ بالناس ، وقد حشد الناس وحضر أهلُ العوالي ، ورفعوا النّساء إلى الآطام ، فحضرت بنو عمرو بن عوف بِلفّها ، والنّبيت ولفّها ؛ وتلبسوا السّلاح ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله بيته ، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّماه ولبّساه وصُفّ [الناس][(1)] له ما بين حجرته إلى منبره ، ينتظرون[(2)] خروجه ، فجاءهم سعد بن مُعاذ ، وأسيد بن حُضَير ، فقالا لهم : قلتُم لرسول الله ماقلتم ، واستكرهتموه على الخروج ، والأمر ينزّل عليه من السماء ، فردّوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم فيه [له][(1)] هوًى أو أدباً فأطيعوه . فبينا[(3)] القومُ على ذلك من الأمر ، وبعض القوم يقول : القول ما قال سعد ، وبعضهم على البصيرة على الشخوص ، وبعضهم للخروج كاره ؛ إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله قد لبس لأمتَه ، وقد لبس الدّرع فأظهرها ، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدَمٍ كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، واعتمّ ، وتقلّد السيف . فلمّا خرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله ندموا جميعا

(1) من الواقدي .

(2) كذا في الواقدي ، وفي ب « ينتظرون » .

(3) ا : « فبينا » ، وهي رواية الواقدي .

على ما صنعوا ، وقال الذين يلحّون على رسول الله صلى عليه وآله : ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرِهَك والأمرُ إلى الله ثم إليك ، فقال : قد دعوتُكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكُمَ الله بينه وبين أعدائه . قال : وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبىّ لأمتَه لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبينه أعدائه . ثم قال لهم : انظروا ما أمرتُكم به فاتّبعوه ، امضُوا على اسم الله؛ فلكم النَّصر ما صبرتم .

* * *

قلت : فمَنْ تأمّل أحوال المسلمين فى هذه الغزاة ، من فشلهم وخَوَرهم واختلافهم فى الخروج من المدينة والمقام بها؛ وكراهة النبىّ صلى الله عليه وآله للخروج، ثم خروجه على مضض، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج، ثم انخذال طائفة كثيرة من الجيش عن الحرب ، ورجوعهم إلى المدينة ، علم أنّه لا انتصارَ لهم على العدوّ أصلًا ، فإنّ النّصر معروف بالعزْم والجِدّ والبصيرة فى الحرب ، واتّفاق الكلمة . ومَنْ تأمّل أيضا هذه الأحوال؛ علم أنّها ضدّ الأحوال التى كانت فى غزاة بدر ، وأنّ أحوال قريش لمّا خرجت إلى بدر كانت مماثلةً لأحوال المسلمين لمّا خرجوا إلى أحُد ؛ ولذلك كانت الدَّبْرة فى بدر على قريش .

قال الواقدىّ : وكان مالك بن عمرو النّجّارىّ مات يوم الجمعة ، فلمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز صلّى[1] عليه ، ثم دعا بدابته ، فركِب إلى أحُد .

* * *

قال الواقدىّ : وجاء جُعَيْل بن سُراقة إلى النبى صلى الله عليه وسلّم وهو متوجّه إلى أحُد ، فقال : يا رسولَ الله ، قيل لى : إنّك تقتَل غدا — وهو يتنفس مكروبًا — فضرب النبىّ صلى الله عليه وآله بيده إلى صدره ، وقال : أليس الدهر كلّه غداً ! قال : ثم دعا بثلاثة أرماح ، فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوْس إلى أُسَيْد بن حُضَير ، ودفع لواء الخزرج إلى الُحباب بن المنذر بن الجَمُوح — ويقال إلى سعد بن عبادة — ودفع لواء المهاجرين

(١) ب : « فصلى » ، والصواب ما أثبته من ا والواقدى .

إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ ويقال إلى مصعب بن عُمَير ـ ثم دعا بفرسه، فركبه؛ وتقلّد القوس وأخذ بيده قناة ـ زجّ الرّمح يومئذ من شَبَهٍ ـ والمسلمون متلبّسون السلاح، قد أظهروا الدروع ، فهم مائة دارع ؛ فلمّا ركب صلى الله عليه وآله خرج السّعْدان أمامه يعدُوان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة؛ كلّ واحدٍ منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله حتى سلك على البدائع ، ثم زقاق الحُسَى ، حتى أتى الشّيْخين ـ وهما أُطُمان كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدّثان ، فسمّيَ الأُطُمان الشيخين ـ فلمّا انتهى إلى رأس الثنيّة ، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجَل[1] خلفه، فقال: ما هذه ؟ قال : هذه حُلَفاء[2] ابن أبيّ من اليهود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا نستنصر بأهل الشّرْك على أهل الشّرْك . ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وعرض عسكره بالشّيْخين ، فعرض عليه غلمان ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد، والنّعمان ابن بشير ، وزيد بن أرقم ، والبَرَاء بن عازب ، وأُسَيْد بن ظهير ، وعَرابة بن أوْس ، وأبو سعيد الخدريّ ، وسَمُرة بن جندب ، ورافع بن خُدَيج .

قال الواقديّ : فردّهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، قال رافع بن خديج : فقال ظهير بن رافع : يارسولَ الله ، إنه رامٍ يعيني . قال : وجعلتُ أتطاول ، وعليّ خُفّان لي ، فأجازني رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا أجازني قال سَمُرة بن جندب لمريّ بن سنان الحارثيّ ـ وهو زوج أمّه: يا أبَهْ ، أجاز رسول الله صلى الله عليه وآله رافعَ بن خُدَيج ، وردّني وأنا أصرع رافعا ! فقال مريّ : يارسولَ الله ، رددتَ ابني ، وأجزتَ رافع بن خُدَيج وابني يصرعه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : تصارعا ، فصرع سَمُرة رافعا ، فأجازه رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم .

قال الواقديّ : وأقبل ابنُ أبيّ ، فنزل ناحية العسكر ، فجعل حلفاؤه ومَنْ معه[3] من المنافقين يقولون لابن أبيّ : أشرتَ عليه بالرأي ، ونصحتَه وأخبرته أنّ هذا رأي مَنْ

---

(١) الزجل ، محركة : رفع الصوت والجلبة (٢) ب : « خلفاء » .
(٣) كذا في ا والواقدي وفي ب : « زمعة » .

مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك ؛ فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه . قال : فصادفوا من ابن أبيّ نفاقا وغشّا ، فبات رسول الله صلى الله عليه وآله بالشَّيْخين ، وبات ابنُ أبيّ في أصحابه ، وفرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من عَرْض مَنْ عَرَض ، وغابت الشمس ، فأذّن بلال بالمغرب ، فصلّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ثم أذّن بالعشاء ، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله نازل في بني النّجّار ، واستعمل على الحرس محمّد بن مسلمة في خمسين رجلا يُطِيفون بالعسكر ، حتى ادّلَجَ[1] رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، وكان المشركون قد رأوْا رسولَ الله صلى الله عليه وآله حيث ادّلَجَ ، ونزل بالشَّيْخين ، فجمعوا خيلَهم وظهرَهم ، واستعملوا على حَرَسهم عِكْرِمة بن أبي جهل في خيلٍ من المشركين ؛ وباتت صاهلةً خيلهم لا تهدأ ، تدنو طلائعهم ؛ حتى تلاصق بالحرّة ، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلُهم ، ويهابون موضع الحرّة ، ومحمد بن مسلمة .

قال الواقديّ : وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله قال حين صلّى العشاء : مَنْ يحفظنا الليلة ؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله فقال : مَنْ أنت؟ قال : ذكوان بن عبد القيس ، فقال : اجلس ، ثم قال ثانية : مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة ؟ فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : أبو سَبُع ، قال : اجلس ، ثم قال ثالثة مثل ذلك ، فقام رجل ، فقال : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا ابن عبد قيس ؛ فمكث رسول الله صلى الله عليه وآله ساعةً ، ثم قال : قوموا ثلاثتكم ، فقام ذكوان بن عبد قيس ، فقال رسول الله : وأين صاحباك ؟ فقال ذكوان : أنا الذي كنت أجيبُك الليلةَ ! قال : فاذهب حفظك الله .

***

قلت : قد تقدّم هذا الحديث بذاته في غزوة بدر ، وظاهر الحال أنّه مكرّر ،

(١) الادلاج : السير في آخر الليل .

وأنّه إنّما كان فى غزاة واحدة ، ويجوز أن يكون قد وقع فى الغزاتين ، ولكن على بعد .

قال الواقدىّ : فلبِس ذكوان دِرْعه ، وأخذ دَرَقته ، فكان يطوف على العسكر تلك الليلة ، ويقال : كان يحرُس رسول الله صلى الله عليه وآله لم يفارقه .

قال : ونامَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله حتى ادّلج ، فلمّا كان فى السَّحَر ، قال رسول الله : أين الأدلّاء ؟ مَنْ رجلٌ يدلّنا على الطريق ، ويخرجنا على القوم من كَثَب ؟ فقام أبو خثيمة الحارثى ، فقال : أنا يا رسولَ الله ، ويقال: أوس بن قيظىّ ويقال : محيِّصة .

قال الواقدىّ : وأثبت ذلك عندنا أبو خثيمة ، فخرج برسول الله صلى الله عليه وآله ، وركب فرسه ، فسلك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال حتى مرّ بحائط مِرْبع بن قيظىّ ؛ وكان أعمَى البصر منافقا ، فلمّا دخلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله حائطه ، قام يحثى التراب فى وجُوه المسلمين ، ويقول : إن كنتَ رسولَ الله فلا تدخلْ حائطى ، فلا أحِلّه لك .

قال محمد بن إسحاق : وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب ، وقال : والله لو أعلم أنى لأصيب غيرَك يامحمّد لضربت بها وجهك(١) .

قال الواقدى : فضرب به سعد بن زيد الأشهلىّ بقوسٍ فى يده فشجّه فى رأسه ، فنزل الدّم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممّن هو على مثل رأيه ، فقال : (٢هى على عداوتكم يابنى عَبْد الأشهل ، لاتدعونها أبداً لنا٢) . فقال أسيد بن حُضَير : لا والله ،ولكن نفاقكم، والله لولا أنّى لا أدرى ما يوافق النبىّ صلى الله عليه وآله لضربت عنقه وعنق مَنْ هو على مثل رأيه .

قال : ونهاهم النبى صلى الله عليه وآله عن الكلام فأسكتوا .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩ .

(٢ ـ ٢) الواقدى : « هى عداوتكم يابنى عبد الأشهل لا تدعوها أبدا » .

وقال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : دعوه ، فإنّه أعمى البصر ، أعمى القلب . يعنى مِرْبع بن قيظىّ [1] .

قال الواقدىّ : ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فبينا هو فى مسيره إذ ذبّ فرس أبى بردة بن نِيار بذنبه فأصاب كُلّاب سيفه ، فسلّ سيفَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ياصاحبَ السيف ، شِم [2] سيفَك ، فإنّى أخال السيوفَ ستُسلّ اليوم فيكثُر سلُّها . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّ الفأل ، ويكره الطِّيَرة ، قال: ولبس رسول الله صلى الله عليه وآله من الشّيْخين درعاً واحدة ، حتى انتهى إلى أُحُد ، فلبس درعا أخرى ، ومغفرا ، وبيضةً فوق المِغفر ، فلمّا نهض رسول الله صلى الله عليه وآله من الشّيْخين ، زحف المشركون على تعبيةٍ حتى انتهوْا إلى موضع أرض ابن عامر اليوم ، فلمّا انتهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى موضع القنطرة اليوم جاءه ، وقد حانت الصّلاة ، وهو يرى المشركين ، أمر بلالًا فأذّن ، وأقام وصلّى بأصحابِه الصّبْح صفوفا ، وانخذل عبدُ الله بن أبىّ من ذلك المكان فى كتيبته ، كأنه هَيْق [3] تقدّمهم ، فاتّبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقال : أذكّركم الله ودينكم ونبيّكم ، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ! فقال ابنُ أبىّ : ماأرى أنّه يكون بينهم قتال ، وإن أطعتَنى ياأبا جابر لترجعنّ ، فإنّ أهلَ الرأى والحِجَى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مدينتنا ، وقد خالَفنا ، وأشرتُ عليه بالرأى فأبَى إلا طواعية الغِلمان . فلمّا أبى علَى عبد الله بن عمرو أن يرجِع ، ودخل هو وأصحابه أزقّة المدينة ، قال لهم أبو جابر : أبعدكم الله! إنّ الله سيُغنى النّبى والمؤمنين عن نصركم . فانصرف ابنُ أُبىّ،وهو يقول : أيعصِينى ويطيع الولدان ! وانصرف عبدُ الله بن عمرو يعدُو حتى لحق رسولَ الله وهو يسوّى الصفوف ، فلمّا أصيب أصحاب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩

(٢) شم سيفك ، أى اغمده .

(٣) الهيق : ذكر النعام .

رسول الله صلى الله عليه وآله سُرَّ ابنُ أُبىّ ، وأظهر الشماتة ، وقال : عصانى وأطاع مَنْ لا رأى له !

قال الواقدىّ : وجعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله يصفّ أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلا على عينين، عليهم عبد الله بن جُبير ، ويقال : سعد بن أبى وقّاص — والثَّبَت أنه عبد الله بن جُبَير — قال : وجعل أُحُداً خلْف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين عن يساره ، وأقبل المشركون ، واستدبروا المدينة فى الوادى ، واستقبلوا أُحُدا ، ويقال: جعل عينين خلْف ظهره ، واستدبر الشمس ، واستقبلها المشركون .

قال : والقول الأوّل أثبت عندنا، أنّ أُحُداً كان خلْف ظهره ، وهو عليه السلام مستقبل المدينة .

قال : ونهى أن يقاتل أحدٌ حتى يأمرهم بالقتال ، فقال عُمارة بن يزيد بن السَّكَن: أنى نُرعَى على زرع بنى قَيْلة ولمّا نضارب ! وأقبل المشركون قد صفّوا صفوفَهم ، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسَرة عِكْرمة بن أبى جهل ، ولهم مجنّبتان ، مائتا فرس ، وجعلوا على الخيل صَفْوان بن أمية — ويقال عمرو بن العاص — وعلى الرّماة عبد الله بن أبى ربيعة ، وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللّواء إلى طلحة بن أبى طلحة — واسم أبى طلحة عبدالله[1] ابن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدّار بن قصىّ — وصاح أبو سفيان يومئذ : يابنى عبدالدّار؛ نحن نعرف أنّكم أحقّ باللواء منّا ، وأنّا إنّما أُتينا يومَ بدر من اللواء ، وإنما يُؤْتَى القوم من قِبَل لوائهم ، فالزموا لواءكم ، وحافظوا عليه ، وخلّوا بيننا و بينه ، فإنّا قوم مستميتون موتورون ، نطلب ثأراً حديثَ العهد . وجعل يقول : إذا زالت الألوية ، فما قَوام الناس و بقاؤهم بعدها ! فغضبت بنو عبد الدّار ، وقالوا : نحن نسلّم لواءنا ! لا كان هذا أبدا ! وأمّا المحافظة[2] عليه فسترى .ثم أسندوا الرّماح إليه ، وأحدقت به بنو عبدالدّار،

(١) فى الواقدى : «عبد العزّى بن عثمان» .
(٢) فى الواقدى : « فأما محافظة عليه » .

وأغلظوا لأبي سفيان بعضَ الإغلاظ ، فقال أبو سفيان : فنجعل لواء آخر ؟ قالوا : نعم ، ولا يحمله إلّا رجل من بني عبد الدار ، لا كان غير ذلك أبدا !

قال الواقديّ : وجعل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يمشي على رجليه ، يسوّي تلك الصفوف ، ويبوّئ أصحابَه مقاعد للقتال ، يقول : تقدّم يافلان ، وتأخّر يافلان ، حتّى إنه لَيَرى منكب الرجل خارجا فيؤخّره ، فهو يقوّمهم ، كأنّما يقوم القِداح ، حتى إذا استوت الصفوف ، سأل : مَنْ يحمل لواء المشركين ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أحقّ بالوفاء منهم ، أين مُصعب بن عُمَير ؟ قال : ها أنذا ؛ قال : خذ اللواء ، فأخذه مصعب فتقدّم به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال البلاذُريّ : أخذه من عليّ عليه السلام ، فدفعه إلى مصعب بن عمير ، لأنه من بني عبد الدار [١] .

قال الواقديّ : ثمّ قام عليه السلام ، فخطب الناس ، فقال صلى الله عليه وسلّم : أيّها النّاس ، أوصِيكم بما أوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته ، والتناهِي عن محارمه ، ثمّ إنّكم اليوم بمنزل أجر وذُخْر لمن ذكر الذي عليه ، ثم وطّن نفسه على الصّبْر واليقين والجِدّ والنشاط ، فإنّ جهاد العدوّ شديد كريه ، قليل مَنْ يصبر عليه ، إلّا مَنْ عزم له على رشده . إنّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإن الشّيطان مع مَنْ عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصّبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالّذي آمركم به ، فإنّي حريص على رشدكم . إنّ الاختلاف والتنازع والتّثبيط من أمر العَجْز والضّعْف ، وهو مما لا يحبّه الله ولا يعطي عليه النّصر والظّفَر . أيّها الناس إنه قُذِف في قلبي أنّ مَنْ كان على حرام فرغِب عنه ابتغاء ماعند الله غفر الله له ذنبه ، ومَنْ صلّى عَلَى محمد [٢] صلّى الله عليه وملائكته

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٧ .

(٢) ا ، والواقدي : « ومن صلى عليّ » .

عشرا ، ومَنْ أحسنَ؛ من مسلم أو كافر وقع أجرُه على الله فى عاجل دنياه أو فى آجلِ آخرته، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلّا صبيًّا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومَن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنىٌّ حميد . ماأعلم من عمل يقرّبكم إلى الله إلّا وقد أمرتُكم به ، ولا أعلم من عمل يقرّبكم إلى النار إلّا وقد نهيتُكم عنه ، وإنّه قد نَفَثَ الرُّوح الأمين فى رُوعى أنّه لن تموت نفس حتى تستوفىَ أقصى رزقها ، لا ينقص منه شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربّكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنّكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربّكم ، فإنه لا يُقدر على ماعنده إلا بطاعته ، قد بيّن لكم الحلال والحرام ، غير أنّ بينهما شُبَهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلّا مَنْ عصم ، فمن تركها حفظ عِرْضَه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالرّاعى إلى جنب الحِمَى أوشك أن يقع فيه ويفعله ، وليس مَلِكٌ إلّا وله حمًى ، ألا وإنّ حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرّأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعَى إليه سائر جسده. والسلام عليكم .

قال الواقدىّ : فحدّثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن خالد بن رَبَاح ، عن المطّلب بن عبد الله ، قال : أوّل مَنْ أنشب الحرب بينهم أبو عامر ، طلع فى خمسين من قومه ، معه عبيد قريش فنادى أبو عامر — واسمه عبد عمرو — ياللأوس : أنا أبو عامر، قالوا : لا مرحبا بك، ولا أهلا؛ يافاسق ! فقال : لقد أصاب قومى بعدى شرّ . قال : ومعه عبيد أهل مكة ، فتراموْا بالحجارة هم والمسلمون ، حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولّى أبو عامر وأصحابه؛ ويقال: إن العبيد لم يقاتلوا ، وإنهم أمروهم بحفظ عسكرهم .

قال الواقدىّ : وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقىَ الجمعان أمام صفوف المشركين يضربْنَ بالأكبار(١) والدّفاف والغرابيل(٢) ، ثمّ يرجعن فيكنّ إلى مؤخّر الصّفّ؛ حتى

(١) الأكبار : جمع كبر ، بفتحتين ، وهو الطبل ، معرب .
(٢) الغرابيل : جمع غربال ، وهو هنا الدف .

إذا دنَوَا من المسلمين تأخّر النساء ، فقمن خَلْفَ الصّفوف ، وجعل كلّما ولّى رجل حرّضْنه ، وذكّرنه قتلى بدر .

وقال الواقدىّ : وكان قُزْمان من المنافقين ، وكان قد تخلّف عن أُحُد ، فلما أصبح عَيّره نساء بنى ظَفَر ، فقلن : ياقُزْمان ، قد خرج الرجال و بقيت ! استحيِ ياقُزْمان ، ألا تستحيِي ممّا صنعت ! ماأنت إلاّ امرأة ، خرج قومك و بقيت فى الدار ! فأحفظنَه ، فدخل بيته ، فأخرَج قوسه وجُعبته وسيفَه ـ وكان يعرف بالشجاعة ـ وخرج يعدو ، حتّى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يسوِّى صفوف المسلمين ، فجاء من خلْف الصفّ ، حتى انتهى إلى الصفّ الأول ، فكان فيه ، وكان أوّل مَنْ رَمى بسهم من المسلمين ، جعل يرسلُ نَبْلاً كأنّها الرماح ، وإنه ليكتّ كتيت[1] الجمل ثم صار إلى السيف ، ففعل الأفاعيل ، حتى إذا كان آخر ذلك قَتَل نفسه . وكان رسول صلى الله صلى الله عليه وآله إذا ذكره قال : من أهل النار . قال : فلما انكشف المسلمون ، كسر جفن سيفه وجعل يقول : الموتُ أحسن من الفِرار . ياللأوْس ! قاتلوا على الأحساب ، واصنعوا مثل ما أصنع . قال : فيدخل بالسّيف وسط المشركين ، حتى يقال: قد قتِل ، ثم يطلع فيقول : أنا الغلام الظّفَرىّ ، حتى قَتَل منهم سبعة ، وأصابته الجراحة ، وكثرت فيه ، فوقع فمرّ به قَتادة بن النعمان ، فقال له : أبا الغيداق ، قال قزمان : لبّيك ؛ قال : هنيأ لك الشهادة ! قال قزمان : إنّى والله ماقاتلتُ ياأبا عمرو على دين ، ماقاتلت إلا على الحفاظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سعَفنا ، قال : فآذَتْه الجراحة فقتل نفسه ، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر[2] » .

---

(١) الكتيت : صياح الجمل .

(٢) فى ابن هشام ٣ : ٣٧ عن ابن إسحاق : « حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، قال : كان فينا رجل أتىٌّ لا يدرى ممن هو ؛ يقال له قزمان ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا ذكر له : « إنه لمن أهل النار » ، قال : « فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً ، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثبتته الجراحة ، فاحتمل إلى دار بنى ظفر . قال : فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا على أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته ، فقتل به نفسه » .

قال الواقدىّ : وتقدّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى الرّماة ، فقال : احموا لنا ظهورَنا ، فإنا نخاف أن نؤتَى مِنْ ورائنا ، والزموا مكانَكم ، لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانَكم ؛ وإن رأيتمونا نقتَل ؛ فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنّا . اللهمّ إنى أشهدك عليهم ، ارشقُوا(١) خيلهم بالنّبل فإن الخيل لا تقدم على النَّبل ، وكان للمشركين مجنّبتان : ميَمنة عليها خالد بن الوليد ، وميسرَة عليها عِكْرمة بن أبى جهل .

قال الواقدىّ : وعمل رسول الله صلى الله عليه وآله لنفسه مَيمنة وميسرة ، ودفع اللّواء الأعظم إلى مصعب بن عُمَير ، ودفع لواء الأوْس إلى أسَيْد بن حُضَير ، ولواء الخزرج إلى سعد ابن عبادة ـ وقيل : إلى الُحباب بن المنذر ـ فجعلت الرماة تحمِى ظهور المسلمين ، وترشق خيلَ المشركين بالنَّبل، فولّت هاربة ، قال بعض المسلمين(٢) : والله لقد رَمَقْتُ نبلنا يومئذ ، ما رأيت سهما واحدا ممّا يرمى به خيلهم يقع فى الأرض ، إمّا فى فرس أوفى رجل ؛ ودنا القوم بعضهم من بعض ، وقدّموا طلحة بن أبى طلحة صاحب لوائهم ، وصفّوا صفوفهم ، وأقاموا النّساء خلْف الرجال يضربن بين أكتافهم بالأكْبار والدّفوف ، وهند وصواحبها يحرِّضْن ويذمّرن(٣) الرجال ، ويذكرن مَنْ أصيب ببدر ، ويقلن :

نحنُ بنات طارِقْ نمشى على النّمارِقْ
إنْ تقبلوا نعانِقْ أو تدبرُوا نفارِقْ
* فراقَ غَيْرَ وامِقْ *

قال الواقدىّ : وبرز طلحة ، فصاح : مَنْ يبارز؟ فقال علىٌّ عليه السلام له : هل لك فى مبارزتى ؟ قال : نعم ، فبرزا بين الصّفّين ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس تحت

---

(١) أرشق الرامى : رمى وجها ، أى أطلق السهم إلى المكان المواجه له .
(٢) الواقدى : «الرماة» .
(٣) يذمرن الرجال : يحضونهم على القتال .

الرّاية ، عليه دِرْعان ومغفر و بيضته ، فالتقيا ، فبدره علىٌّ عليه السلام (١) بضربة على رأسه ، فمضى السيف حتى فلَق هامَته إلى أن انتهى إلى لحيته فوقع ، وانصرف على عليه السلام ، فقيل له: هلاّ ذفّفْتَ (٢) عليه ! قال : إنه لما صرِع استقبلنى بعورته ؛ فعطفتْنِى عليه الرّحم ؛ وقد علمت أن الله سيقتله ؛ هو كبش الكتيبة .

قال الواقدىّ : وروِى أنّ طلحة حمل على علىٍّ عليه السلام ؛ فضربه بالسيف ، فاتقاه بالدّرَقة ، فلم يصنع شيئا ، وحمل علىّ عليه السلام وعلى طلحة درْع ومغْفر ، فضربه بالسيف ، فقطع ساقيه ، ثم أراد أن يذفّف عليه ؛ فسأله طلحة بالرّحم ألا يفعل ؛ فتركه ولم يذفّف عليه .

قال الواقدىّ : ويقال: إنّ عليا عليه السلام ذفّف عليه ؛ ويقال : إنّ بعض المسلمين مرّ به فى المعركة فذفّف عليه . قال : فلما قتل طلحة سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكبّر تكبيرا عاليا وكبّر المسلمون ؛ ثم شدّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على كتائب المشركين ؛ فجعلوا يضربون وجوههم ، حتى انتقضت صفوفهم ؛ ولم يقتل إلاّ طلحة ابن أبى طلحة وحده .

قال الواقدىّ : ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبى طلحة ، وهو أبو شيبة ، فارتجز وقال :

إنّ علىّ ربّ اللواء حقًّا   أن تُخضب الصّعْدة أو تندقّا

فتقدّم باللواء والنسوة خلفه ، يحرّضن ويضربن بالدفوف ، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله ، فضربه بالسيف على كاهله ، فقطع يده وكتِفه ، حتى انتهى إلى

---

(١) ب : « فبرزه » تحريف ، والصواب ما فى ا ، والواقدى .
(٢) ذففت عليه : أجهز

مُؤتَزَرِه فبدا سَحْره (١) ، ورجع ، فقال : أنا ابن ساق الحجيج ؛ ثم حمل اللواء أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته ـ وكان دراعا ، وعليه مغفر لا رفرف عليه (٢) ، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه (٣) إدلاع الكلب .

قال الواقدىّ : وقد روى أنّ أبا سعد لما حمل اللواء ، قام النساء خلفه يقلن :

ضربًا بنى عبدِ الدّارْ ضَرْبًا حُماةَ الأدْبارْ

* ضربا بكلّ بتّارْ *

قال سعد بن أبي وقاص : فأحمِل عليه فأقطع يدَه اليمنى ، فأخذ اللواء باليد اليسرى ، فأضربه على يدِه اليسرى ؛ فقطعتها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعا وضمّه إلى صدره ، وحنى عليه ظهرَه . قال سعد : فأُدخِلُ سِيَةَ القوس بين الدّرع والمِغفر ، فأقلع (٤) المغفر ، فأرمى به وراء ظهره ، ثم ضربته حتى قتلته ، وأخذت أسلبُه درعه ، فنهض إلىّ سُبيع بن عبد عوف ونفر معه فمنعونى ، سلبه وكان سلبُه أجود سلب رجل من المشركين : درع فضفاضة ، ومِغْفر وسيف جيّد ، ولكن حيل بيني و بينه .

قال الواقدىّ : وهذا أثبت القولين .

* * *

قلت : شتّان بين علىّ وسعد ! هذا يجاحش على السَّلَبِ ويتأسّف على فواته ، وذلك يقتل عمرو بن عبد ودّ يوم الخندق ، وهو فارس قريش وصنديدها ومبارزه ، فيعرض عن سلبه ، فيقال له : كيف تركت سَلَبه وهو أنفس سلب ؟ فيقول : كرهت أن أبزّ السّبيّ ثيابه ، فكأنّ حبيبا عناه بقوله :

---

(١) السحر هنا : الرئة .

(٢) الواقدى : « له » .

(٣) أدلع لسانه : أخرجه .

(٤) الواقدىّ : « فأقلع » .

إنّ الأسودَ أسودُ الغابِ همّتُها يوم الكريهة فى المسلوب لا السَّلبِ (١)

* * *

قال الواقدىّ : ثم حمل لواء المشركين بعد أبى سعد بن أبى طلحة مسافع بن أبى طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح فقتله ، فحمل إلى أمّه سلافة بنت سعد بن الشهيد ، وهى مع النساء بأحُد ، فقالت : من أصابك ؟ قال : لا أدرى ، سمعته يقول : خُذْها وأنا ابن الأقلح ، فقالت : أقلَحِىّ والله ! أى هو من رهطى ـ وكانت من الأوس .

قال الواقدىّ : ورُوىَ أنّ عاصما لما رماه ، قال له : خذها وأنا ابن كسرة ، وكانوا يقال لهم فى الجاهلية : بنو كسر الذهب ، فقال لأمه : لا أدرى ، إلا أنى سمعته يقول : خذها وأنا ابن كسرة ، فقالت سُلافة : أوسىّ والله ! كسرى ، أى أنه منّا فيومئذ نذرت سلافة أن تشرب فى قَحْف رأس عاصم بن ثابت الخمر ، وجعلت لمن جاءها به مائه من الإبل .

* * *

قلت : فلما قتله المشركون فى يوم الرَّجيع أرادوا أن يأخذوا رأسه ، فيحملوه إلى سُلافة فحمته الدَّبْر (٢) يومه ذلك ، فلمّا جاء الليل فظنوا أنّ الدَّبْر لا تحميه ليلا ، جاء الوادى بسيل عظيم ، فذهب برأسه وبدنه . اتفق المؤرخون على ذلك .

* * *

قال الواقدىّ : ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبى طلحة ، فقتله الزُّبير بن العوّام ، ثم حمله أخوه الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة ، فقتله طلحة بن عبيدالله ، ثم حمله أرطاة بن عبد شُرحبيل ، فقتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم حمله شريح بن

---

(١) ديوانه ١ : ٧١ ، وروايته : « إن الأسود أسود الغيل » .
(٢) الدبر : جماعة النحل أو الزنابير .

قانط[1] ، فقتل لا يُدْرى مَنْ قتله ، ثم حمله صُواب ، غلام بنى عبد الدار ، فاختلف فى قاتله فقيل : قتله على بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل : سعد بن أبى وقاص ، وقيل : قُزمان ، وهو أثبت الأقوال .

قال الواقدىّ : انتهى قُزمان إلى صُواب ، فحمل عليه ، فقطع يده اليمنى ، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذارعيه وعَضُديْه ، وحَنَى عليه ظهره ، وقال : يابنى عبد الدّار ، هل اعتذرت ؟ فحمل عليه قُزْمان فقتله .

قال الواقدىّ : وقالوا : ما ظفَّر الله تعالى نبيّه فى موطن قطّ ما ظفّره وأصحابه يوم أُحُد ، حتى عصوا الرسول ، وتنازعوا فى الأمر ، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهم لا يلوون ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدّفاف والفرح .

قال الواقدىّ : وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحُداً ، قال كلّ واحد منهم : والله إنّى لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات ، ما دون أخذهنّ شيئا لمن أراده ؛ ولكن لا مردّ لقضاء الله . قالوا : وكان خالد بن الوليد كلّما أتى من قِبَل ميسرة النبي صلى الله عليه وآله ليجوز حتى يأتيهم من قبل السَّفح ؛ تردّه الرُّماة حتى فعل وفعلوا ذلك مرارا ، ولكن المسلمين أُتُوا من قبل الرّماة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوعز إليهم فقال : قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتلُ فلا تنصرونا . فلمّا انهزم المشركون ، وتبعهم المسلمون يضعون السّلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهزوهم عن المعسكر ، ووقعوا ينتهبونه . قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون هاهنا فى غير شىء ! قد هزم الله العدوّ ؛ وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين ، فاغنموا مع إخوانكم ، فقال بعضهم : ألم تعلموا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم : « احموا ظهورنا ، وإن غنمنا فلا تشركونا ! » ،

(١) الواقدى : « قارظ » .

فقال الآخرون : لم يُرِدْ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم هذا ، وقد أذلّ الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر ، فانتهبوا مع إخوانكم . فلمّا اختلفوا خطبَهم أميرُهم عبد الله ابن جُبَير ، وكان يومئذ معلّماً بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله ، وألّا يخالف أمره ، فعصوْه ، وانطلقوا فلم يبقَ معه إلّا نُفَيْرٌ ما يبلغون العشرة ، منهم الحارث بن أنس ابن رافع ، يقول : يا قوم ، اذكروا عهد نبيّكم إليكم ، وأطيعوا أميرَكم . فأبَوْا ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون وخلّوا الْجَبَل[1] ، وانتقضت صفوف المشركين ؛ واستدارت رحالهم ، ودارت[2] الريح ـ وكانت إلى أن انتقض صفُّهم صبًا ، فصارت دَبُوراً ـ فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله ، فكرّ بالخيل ، وتبعه عكرمة بالخيل ، فانطلقا إلى موضع الرماة ، فحملوا عليهم؛ فراماهم القوم حتى أصيبوا ، ورمى عبد الله ابن جُبير حتى فنيتَ نَبْله ، ثم طاعن بالرّمح حتى انكسر ؛ ثمّ كسر جفن سيفه ؛ فقاتل حتى قتِل ، وأفلت جُعَيل بن سراقة وأبو بُرْدة بن نِيَار بعد أن شاهدا قتل عبد الله ابن جُبَير ، وكان آخر من انصرف من الخيل ، فلحقا بالمسلمين .

قال الواقديّ : فروى رافع بن خديج ، قال : لما قتل خالد الرّماة أقبلَ بالخيل وعِكرمة ابن أبي جهل يتلوه ، فخالطَنا وقد انتقضت صفوفنا ، ونادى إبليس ـ وتصور في صورة جُعَيل بن سراقة : إنّ محمدا قد قتِل ! ثلاث صرخات ، فابتلِيَ يومئذ جُعَيل بن سراقة ببليّة عظيمة حين تصوّر إبليس في صورته ، وإن جُعَيلا ليقاتل مع المسلمين أشدّ القتال ، وإنّه إلى جنب أبي بُرْدة بن نِيَار وخوّات بن جُبير . قال رافع بن خَدِيج : فوالله ما رأينا دوْلة كانت أسرع من دولة المشركين علينا ، وأقبل المسلمون على جُعَيل بن سراقة يريدون قتله ، يقولون : هذا الذى صاح أنّ محمدا قد قُتِل ، فشهد له خوّات بن جبير وأبو بُرْدة ، أنّه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح ، وأنّ الصائح غيره .

---

(١) الواقدى : « عينين » ، وهو الجبل (٢) الواقدى : « وحالت » .

قال الواقدىّ : فروى رافع ، قال : أُتينا من قِبَل أنفسنا ، ومعصية نبيّنا ، واختلط المسلمون ، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا ، ومايشعرون بما يصنعون من الدَّهَش والعَجَل ، وقد جرح يومئذ أُسَيد بن حُضَير جرحين ، ضربه أحدَهما أبو بردة بن نِيار ، وما يدرى ، يقول : خذها وأنا الغلام الأنصارىّ ، وكرّ أبو زعنة فى حوْمة القتال : فضرب أبا بردة ضربتين ، مايشعر أنه هو ، يقول: خذها وأنا أبو زَعْنة ، حتى عرفه بعد ، فكان إذا لقيه ، قال : انظر ماصنعت بى ، فيقول أبو زَعْنة : وأنت فقد ضربت أُسَيد بن حضير ولا تشعر ! ولكن هذا الجرح فى سبيل الله ، فذكِر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : هو فى سبيل الله ياأبا بُردة ، لك أجره ، حتى كأنك ضربك أحد المشركين ، ومَنْ قُتِل فهو شهيد .

قال الواقدىّ : وكان الشيخان : حُسيل بن جابر ورفاعة بن وَقْش شيخين كبيرين ، قد رفعا فى الآطام مع النّساء ، فقال أحدهما لصاحبه : لا أبالك ! ماننستبقى من أنفسنا ! فوالله مانحنُ إلّا هامة اليوم أو غدٍ ، وما بقى من أجلنا قدر ظِمْء[1] دابة ، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا برسول الله صلى الله عليه وآله لعلّ الله يرزقنا الشهادة ! قال: فلحقا برسول الله صلى الله عليه وآله ، فأمّا رفاعة فقتله المشركون ، وأما حُسَيل بن جابر فالتقت عليه سيوفُ المسلمين ، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا ، وابنه حذيفة يقول : أبى أبى ! حتى قتِل ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين؛ ماصنعتم ! فزاد به عند رسول الله صلى الله عليه وآله خيراً ، وأمر رسول الله بديته أن تخرج ، ويقال : إنّ الذى أصابه عتبة بن مسعود ، فتصدّق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين .

قال الواقدىّ : وأقبل يومئذ الُحباب بن المنذر بن الجموح يصيح : يا آل سلمة ! فأقبلوا

(١) يقال : ما بقى منه إلا ظمء دابة ؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير .

عُنُقًا[1] واحدا : لبَّيكَ داعى الله ، لبَّيكَ داعىَ الله ! فيضرب يومئذ جبّار بن صخر ضربة فى رأسه مثقلة وما يدرى ، حتى أظهروا الشّعار بينهم ، فجعلوا يصيحون : أمِتْ أمِتْ ! فكفّ بعضُهم عن بعض .

قال الواقدىّ : وكان نسطاس مولى ضرار بن أميّة ممّن حضر أُحُداً مع المشركين ، ثم أسلم بعد ، وحسن إسلامه ، فكان يحدّث ، قال : قد كنت ممّن خلف فى العسكر يومئذ ، ولم يقاتل معهم عبد إلّا وحشىّ وصُواب غلام بنى عبد الدّار ، فكان أبو سفيان صاح فيهم : يامعشرَ قريش ، خلُّوا[2] غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكم ، فجمعنا بعضها إلى بعض ، وعَقَلْنا الإبل ، وانطلق القوم على تعبيتهم ، ميمنة وميسرة وألبسنا الرحال الأنطاع ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا ساعة ، وإذا أصحابنا منهزمونَ ، فدخل المسلمون معسكرنا ، ونحن فى الرحال ، فأحدقوا[3] بنا ، فكنت فيمن أُسِرُوا ، وانتهبوا العسكر أقبح انتهاب ، حتى إنّ رجُلاً منهم قال : أين مالُ صفوان بن أميّة ؟ فقلت : ماحمل إلّا نفقة فى الرَّحْل ، فخرج يسوقنى حتى أخرجتُها من العَيْبة خمسين ومائة مثقال ذهبا ، وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم ! وانحاش النّساء ، فهنّ فى حُجُرهن سَلِمٌ لمن أرادهنّ ، فصار النهب فى أيدى المسلمين .

قال نسطاس : فإنّا لعلَى مانحنُ عليه من الاستسلام ، ونظرتُ إلى الجبل ، فإذا خيل مقبلة تركض ، فدخلوا العسكر ، فلم يكن أحد يردّهم ، قد ضيّعت الثغور التى كان بها الرّماة وجاءوا إلى النّهب والرماة ينتهبون ، وأنا أنظر إليهم متأبّطى قسيّهم وجعابهم ، كلّ واحد منهم فى يديه أو حضنه شىء قد أخذه ، فلما دخلتْ خيلنا دخلت على قوم غارّين آمنين ، فوضعوا فيهم السيوف ، فقتلوهم قتلا ذريعاً ، وتفرّق المسلمون فى كلّ وجه ،

---

(١) العنق : الجماعة من الناس . (٢) ا والواقدى : « خلفوا » .
(٣) ا والواقدى : « فدخل أصحاب محمد فى الرحال ، فأحدقوا بنا » .

وتركوا ما انتهبوا ، وأجلوا عن عسكرنا ، فارتجعنا متاعنا بعد ، لم نفقد منه شيئاً ، وخلّوا أسرانا ، ووجدنا الذّهب فى المعركة ، ولقد رأيت يومئذ رجلاً من المسلمين ضمّ صفوان ابن أميّة إليه ضمّةً ظننت أنّه سيموت ، حتى أدركته وبه رَمَق ، فوجأت[1] ذلك المسلم بخنجر معى ، فوقع ، فسألت عنه ، فقيل : رجل من بنى ساعدة . ثم هدانى الله بعد للإسلام .

قال الواقدىّ : فحدثنى ابن أبى سَبْرة ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن عمر بن الحكم ، قال : ماعلمنا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الّذين أغاروا على النّهب فأخذوا ما أخذوا من الذّهب بقى معه من ذلك شىء يرجع به حيث غشيَنا المشركون ، واختلفوا إلّا رجلين : أحدهما عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، جاء بمنطقة وجدها فى العسكر ، فيها خمسون دينارا ، فشدّها على حَقْوِيه من تحت ثيابه ، وجاء عبّاد بن بشر بصُرّة فيها ثلاثة عشر مثقالا ألقاها فى جَيْب قميصه ، وفوقها الدّرع وقد حزم وسطه ، فأتيا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يخمسه ونفّلهما إياه .

قال الواقدىّ : وروى يعقوب بن أبى صعصعة ، عن موسى بن ضَمْرة ، عن أبيه ، قال : لما صاح الشّيْطان أزبّ[2] العقبة ، أنّ محمدا قد قتل لما أراد الله عزّ وجلّ من ذلك ، سُقِط فى أيدى المسلمين ، وتفرّقوا فى كلّ وجه ، وأصعدوا فى الجبل ، فكان أوّل مَنْ بشّرهم بكونِ رسول الله صلى الله عليه وآله سالماً كعبُ بن مالك . قال كعب : عرفته ، فجعلت أصيح : هذا رسول الله ، وهو يشير إلىّ بإصبعه على فيه : أن اسكت .

قال الواقدىّ : وروت عميرة بنت عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيها ، قالت : قال أبى لما انكشف الناس : كنت أوّل مَنْ عرف رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) وجأته : أى ضربته .
(٢) أزبّ العقبة : اسم شيطان معروف ذكر فى حديث العقبة . انظر القاموس .

وبشَّرت به المسلمين حيًّا سويا ، عرفت عينيه من تحت المِغْفر ؛ فناديت: يامعشرَ الأنصار! أبشروا ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأشار إلىّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أن اصمت : قال : ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله بكعب ، فلبس لأمته ، وألبس كعبا لأمة نفسه ، وقاتل كعب يومئذ قتالا شديدا ، جرح سبعة عشر جرحا .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابنُ أبى سَبْرة عن خالد بن رباح ، عن الأعرج ، قال : لما صاح الشيطان إنّ محمدا قد قُتِل ؛ قال أبو سفيان بن حرب : يامعشرَ قريش ، أيّكم قتل محمّدا ؟ قال ابن قميئة : أنا قتلته . قال : نسوِّرك[1] كما تفعل الأعاجم بأبطالها ، وجعل أبو سفيان يطوفُ بأبى عامر الفاسق فى المعركة ؛ هل يرى محمدا بين القتلى ! فمرّ بخارجة بن زيد بن أبى زُهير ، فقال : يا أبا سفيان ، هل تدرى مَنْ هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا خارجة بن زيد هذا أسيد بنى الحارث بن الخزرج ؛ ومرّ بعباس بن عبادة بن نَضْلة إلى جنبه ، قال : أتعرفه ؟ قال: لا ، قال : هذا ابن قوقل ؛ هذا الشريف فى بيت الشرف ، ثم مرّ بذكْوان بن عبد قيس ، فقال : وهذا من ساداتهم ، ثم مرّ بابنه حنظلة بن أبى عامر ، فوقف عليه ، فقال أبو سفيان: مَنْ هذا ؟ قال : هذا أعزّ مَنْ هاهنا علىّ ، هذا ابنى حنظلة . قال أبو سفيان : ما نرى مصرع محمد ؛ ولو كان قُتِل لرأيناه ، كذب ابن قميئة ! ولقى خالد بن الوليد ، فقال : هل تبيّن عندك قتل محمد ؟ قال : لا ، رأيتُه أقبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل ، فقال أبو سفيان : هذا حقّ ، كذب ابن قميئة ، زعم أنه قتله !

***

قلت : قرأت على النّقيب أبى يزيد رحمه الله هذه الغَزاة من كتاب الواقدىّ ، وقلت له : كيف جرى لهؤلاء فى هذه الواقعة ؟ فإنّى أستعظم ماجرَى ! فقال : وفيم ذلك ! ما تستعظمه حَمَل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قلب المشركين ، فكسره

---

(١) نسوّرك : نلبسك السوار ، وهذا مما كانت تفعله الأعاجم بملوكهم .

فلوثبتت مجنَبّتا رسول الله اللّتان فيهما أسيد بن حُضَير والُحباب بن المنذر بإزاء مجنبتى المشركين ، لم ينكسر عسكر الإسلام ؛ ولكن مجنّبتا المسلمين أطبقت إطباقا واحدا على قَلْب المشركين ، مضافا إلى قلب المسلمين ، فصار عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله قَلْبًا واحدا ، وكتيبة واحدة ، فحطمه قلب قريش حَطْمة شديدة ، فلمّا رأت مجنبتا قريش أنّه ليس بإزائها أحدٌ ، استدارت المجنّبتان من وراء عسكر المسلمين ، وصمد كثير منهم للرّماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين ، فقتلوهم عن آخرهم ، لأنهم لم يكونوا ممّن يقومون لخالد وعكرمة ، وهما فى ألفَىْ رجل ، وإنما كانوا خمسين رجلا ، لاسيّما وقد ترك كثير منهم مركزه وشرَه إلى الغنيمة ، فأكبّ على النّهب .

قال رحمه الله : والذى كسر المسلمين يومئذ ، ونال كلّ منال خالد بن الوليد ، وكان فارسا شجاعا ، ومعه خيل كثيرة ، ورجال أبطال موتورون ، واستدار خَلْف الجبل ؛ فدخل من الثغرة التى كان الرّماة عليها ، فأتاه من وراء المسلمين ، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة ، فصار المسلمون بينهم فى مثل الحلقة المستديرة ، واختلط النّاس ، فلم يعرف المسلمون بعضُهم بعضا ، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسّيف وهو لا يعرفه لشدّة النّقْع والغبار ، ولما اعتراهم من الدَّهَش والعَجَلة والخوف ؛ فكانت الدَّبْرة عليهم ، بعد أن كانت لهم ، ومثل هذا يجرى دائما فى الحرْب .

فقلت له رحمه الله : فلمّا انكشفَ المسلمون ، وفرّ منهم مَنْ فرّ ، ما كانت حال رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : ثبت فى نفرٍ يسير من أصحابه يحامون عنه .

فقلت : ثم ماذا ، قال : ثم ثابت إليه الأنصار ، وردّت إليه عُنُقا واحدا بعد فرارهم وتفرّقهم ، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية ، ثم التحمت الحرب ، واصطدم الفَيْلَقان (١) .

---

(١) الفيلق ، كصيقل : الجيش .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : لم يزل المسلمون يحامُون عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمشركون يتكاثرون عليهم ، ويقتلون فيهم حتى لم يبقَ من النهار إلّا القليل ، والدّولة للمشركين .

قلت : ثمّ ماذا ؟ قال : ثمّ علم الذين بقوا من المسلمين أنّه لا طاقة لهم بالمشركين ، فأصعدوا فى الجبل فاعتصموا به .

فقلت له : فرسول الله صلى الله عليه وآله ما الذى صنع ؟ فقال : صعّد فى الجبال .

قلت له : أفيجوز أن يقال : إنه فرّ ؟ فقال : إنّما يكون الفرار ممّن أمعن فى الهرب فى الصحراء والبَيْداء ، فأمّا من الجبل مطلٌّ عليه وهو فى سفحه ؛ فلمّا رأى مالا يعجبه أصعد فى الجبل ؛ فإنّه لا يسمّى فارًّا . ثم سكت رحمه الله ساعة ، ثم قال : هكذا وقعت الحال ؛ فإن شئتَ أن تسمّى ذلك فرارًا فسمّه ، فقد خرج من مكة يوم الهجرة فارًّا من المشركين ، ولا وصمةَ عليه فى ذلك .

فقلت له : قد روى الواقدىّ عن بعض الصحابة ، قال : لم يبرحْ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ذلك اليوم شبراً واحدا ، حتى تحاجزت الفئتان ! فقال : دعْ صاحب هذه الرواية فليقل ما شاء ، فالصحيح ما ذكرته لك ، ثم قال : كيف يقال : لم يزلْ واقفاً حتى تحاجزت الفئتان ؟ وإنما تحاجزا بعد أن ناداه أبو سفيان، وهو فى أعلى الجبل بما ناداه، فلما عرف أنّه حىٌّ وأنّه فى أعلى الجبل ، وأن الخيل لا تستطيع الصُّعود إليه ، وأنّ القوم إن صعدوا إليه رجّالة لم يثقُوا بالظّفَر به ؛ لأنّ معه أكثر أصحابه ، وهم مستميتون إن صعّد القوم إليهم ، وأنهم لا يقتلون منهم واحدا حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة ، لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرَب ، لكونهم محصورين فى ذَرْوٍ واحد ، فالرجل منهم يحامى عن خَيْط رقبته ـ كفّوا عن الصعود وقنعوا بما وصلوا إليه من قتل مَنْ قتلوه فى الحرب ، وأمّلوا

يوما ثانيا يكون لهم فيه الظّفر الكلّيّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله ، فرجوا عنهم وطلبوا مكّة .

وروى الواقديّ عن أبي سَبْرة! عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن أبي الحويرث ، عن نافع بن جُبير ، قال : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أُحُداً ، فنظرت إلى النّبل يأتِي من كلّ ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في وسطها كلّ ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيتُ عبدَ الله بن شهاب الزهريّ ، يقول يومئذ : دُلّوني على محمّد ، فلا نجوتُ إن نجا ! وإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله إلى جنبه ، مامعه أحد ، ثم جاوزه ، ولقى عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية ، فقال له صفوان : تَرِحت [1] ! هلا ضربت محمدا ، فقطعت هذه الشأفة ، فقد أمكنك الله منه ! قال ابن شهاب : وهل رأيته ؟ قال : نعم أنتَ إلى جنبه ، قال : والله مارأيته ، أحلف بالله إنه منّا لممنوع ، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك .

قال الواقديّ : فروى نملة بن أبي نملة — واسم أبي نملة عبد الله بن معاذ ، وكان أبوه معاذ أخا البراء بن معرور لأمّه — قال : لمّا انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وما معه أحد إلا نُفَير قد أحْدقوا به من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فانطلقوا به إلى الشِّعب ، وما للمسلمين لواء قائم ، ولا فِئة ، ولا جمع ، وإنّ كتائبَ المشركين لتحوشهم مقبلة ومُدْبِرة في الوادي ، يلتقون ويفترقون مايرون أحدا يردّهم .

قال الواقديّ : وحدثني إبراهيم بن محمد بن شُرحبيل العبدريّ ، عن أبيه ، قال : حمل مصعب اللواء ، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب فقبل ابن قميئة ، وهو فارس فضرب يد مصعب فقطعها ، فقال مصعب : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ وأخذ اللواء بيده اليسرى ، وحنَى عليه ، فضربه فقطع اليسرى ، فضمّه بعضديه إلى صدره ،

---

(١) ا : « ترحت » .

وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ ، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه ، واندق الرمح ، ووقع مُصْعَب وسقط اللواء ، وابتدره رجلان من بنى عبد الدّار سويبط بن حَرْملة وأبو الرُّوم ، فأخـذه أبو الرُّوم ، فلم يزل بيده حتى دخل به المدينة ، حين انصرف المسلمون .

قال الواقدىّ : وقالوا : إنّ رسولَ الله لما لحمه القتال ، وخلص إليه وذبّ عنه مصعب ابن عمير وأبو دُجَانة ، حتى كَثُرت به الجِراحة ، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَنْ رجلٌ يشرِى نفسه؟» فوثب فئة من الأنصار خمسة ، منهم عُمارة بن زياد بن السَّكن ، فقاتل حتى أُثبِت ، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعُمارة بن زياد : ادنُ منِّى ، حتى وسّده رسول الله صلى الله عليه وآله قدمه ، وإنّ به لأربعة عشر جُرْحاً حتى مات ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يذمُر النّاس ويحضهم عَلَى القتال ، وكان رجال من المشركين قد أذْلَقُوا[1] المسلمين بالرمى: منهم حيان ابن العرِقة ، وأبو أسامة الْجُشَمِىّ ، فجعل النبى صلى الله عليه وآله يقول لسعد : « ارم فداكَ أبى وأمّى !» فرمى حيّان بن العرقة بسهم فأصاب ذَيْل أمّ أيْمن ، وكانت جاءت يومئذ تسقِى الجرحى ، فقلبها ، وانكشف ذَيلُها عنها ، فاستغرب حيّان بن العِرقة ضحكا ، وشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدفع إلى سعد بن أبى وقاص سهما لا نصلَ له ، وقال : ارمِ به ، فرمى فوضع السّهم فى ثغرة نحر حيان ، فوقع مستلقياً ، و بدت عورته .
قال سعد : فرأيت النبى صلى الله عليه وآله ضحِك يومئـذ حتى بدت نواجذه ، وقال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوتَك ، وسدّد رميّتك ، ورمى يومئذ مالك بن زهير الْجُشَمِىّ أخو أبى أسامة الْجُشَمِىّ المسلمين رمياً شديدا ، وكان هو وريّان بن العرقة قد أسرعا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأكثرا فيهم القتل يستتران بالصّخْر ، ويرميان ،

---

(١) أذلقوهم : أوجعوهم .

فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبى وقاص مالكَ بن زهير يرمى من وراء صخرة قد رمى ، وأطلع رأسه ، فيرميه سعد ، فأصاب السهمُ عينه ، حتى خرج من قفاه ، فنزى[1] فى السماء قامة ، ثم رجع فسقط ، فقتله الله عزّ وجل .

قال الواقدىّ : ورمى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن قوسه يومئذ حتى صارت شظايا ، فأخذها قتادة بن النعمان ، وكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وَجْنته . قال قتادة : فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقلت : يارسولَ الله ، إن تحتى امرأة شابة جميلة ، أحبها وتحبنى ، وأنا أخشى أن تقذر مكان عينىّ ، فأخذها رسولُ الله صلى الله عليه وآله فردّها وانصرف بها ، وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليه ساعة من ليل ونهار ، وكان يقول بعد أن أسنّ : هى أقوى عينىّ وكانت أحسنهما .

قال الواقدىّ : وباشر رسولُ الله صلى الله عليه وآله القتالَ بنفسه ، فرمى بالنبل حتى فنيت نبله ، وانكسرت سِيَةُ قوسه ، وقبل ذلك انقطع وتره ، وبقيتْ فى يده قطعة تكون شبراً فى سِيَة القوس ، فأخذ القوس عُكاشة بن مِحْصن يوتره له ، فقال : يارسولَ الله ، لا يبلغ الوتر ، فقال مده يبلغ ، قال عُكاشة : فوالذى بعثه بالحقّ لمددته حتى بلغ ، وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سِيَة القوس ، ثمّ أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فما زال يرامى القوم ، وأبو طلحة أمامه يستره مترّساً عنه ، حتى نظرت إلى سِيَة قوسه قد تحطّمتْ ، فأخذها قتادة بن النعمان .

قال الواقدىّ : وكان أبو طلحةَ يوم أُحد قد نَثَلَ كِنانته[2] بين يدى النبى صلى الله عليه وآله ، وكان رامياً ، وكان صيّتاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لصَوْتُ أبى طلحة فى الجيش خيرٌ من أربعين رجلا » ، وكان فى كنانته خمسون سهما نثرها بين يدى

---

(١) ا : « فنزاى » .

(٢) نثل كنانته : أخرج ما فيها .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعل يصيح : نفسي دون نفسك يارسول الله ! فلم يزلْ يرمي بها سهماً سهماً ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يطلع رأسه من خلْف أبي طلحة بين أذنِه ومنكبه ، ينظر إلى مواقع النَّبْل حتى فنيت نبلُه ، وهو يقول : نحرِي دون نحرِك ! جعلني الله فداك ! قالوا : إنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليَأخذُ العود من الأرض ، فيقول : ارمِ ياأبا طلحة ، فيرمي به سهما جيِّدا .

قال الواقديّ : وكان الرُّماة المذكورون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله جماعة : منهم سعد بن أبي وقّاص ، وأبو طلحة ، وعاصم بن ثابت ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمقداد بن عمرو ، وزيد بن حارثة ، وحاطب بن أبي بَلْتعة ، وعُتْبة بن غَزْوان ، وخِراش ابن الصِّمّة ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وبِشْر بن البَرَاء بن معرور ، وأبو نائلة سلكان ابن سلامة ، وقتادة بن النعمان .

قال الواقدي : ورمى أبو رهم الغفاريّ بسهم فأصاب نحرَه ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فبصق عليه ، فبرأ ، فكان أبو رهم بعد ذلك يسمى المنحور .

* * *

وروى أبو عمرو محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغويّ ، غلام ثعلب ، ورواه أيضا محمد ابن حبيب في أماليه ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما فرّ معظمُ أصحابه عنه يوم أُحُد ، كثرت عليه كتائب المشركين ، وقصدته كتيبة من بني كنانة ، ثم من بني عبد مناة بن كنانة ، فيها بنو سفيان بن عُوَيف ؛ وهم : خالد بن سفيان ، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان ، وغراب بن سفيان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عليّ اكفِني هذه الكتيبة ، فحمل عليها وإنها لتُقارب خمسين فارسا ؛ وهو عليه السلام راجل فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرّق عنه ثم تجتمع[1] عليه هكذا مرارا حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة ، وتمام العشرة منها ، ممن لا يُعرف بأسمائهم ، فقال جبرئيل

(١) ا : « يجمع » .

عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا محمد ، إن هذه المواساة ، لقد عجبت الملائكه من مواساة هذا الفتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وما يمنعه وهو منّى وأنا منه ! فقال جبرئيل عليه السلام : وأنا منكما . قال : وسمع ذلك اليوم صوت من قِبَل السماء ، لايرى شخص الصارخ به ينادى مرارا :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلاّ على

فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه ، فقال :هذا جبرئيل .

* * *

قلت : وقد روى هذا الخبر جماعة من المحدّثين وهو من الأخبار المشهورة ، ووقفت عليه فى بعض نسخ مغازى محمد بن إسحاق ، ورأيت بعضها خالياً عنه ، وسألت شيخى عبدالوهاب بن سكينة رحمه الله عن هذا الخبر ، فقال : خبر صحيح ، فقلت : فما بالُ الصّحاح لم تشتمل عليه ؟ قال : أو كلّما كان صحيحا تشتمل عليه كتب الصحاح ؟ كم قد أهمل جامعوا الصِّحاح من الأخبار الصحيحة !

قال الواقدىّ : وأقبل عثمانُ بن عبد الله بن المغيرة المخزومىّ يحضر[1] فرسا له أبلق ، يريد رسول الله صلى الله عليه وآله ، عليه لأمة كاملة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله متوجِّه إلى الشعب وهو يصيح : لا نجوتُ إن نجوتَ ! فيقفُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويعثر بعثمان فرسه فى بعض تلك الحُفر التى حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين ، فيقع الفرس لوجهه ، وسقط عثمان عنه ، وخرج الفرس غائراً ، فيأخذه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمشى إليه الحارث بن الصمّة ، فاضطربا ساعة بالسيفين ، ثم يضرب الحارث رجله ، وكانت درعُه مشمرة فبرك ، وذفّف[2] عليه ، وأخذ الحارث

---

(١) يحضر فرساً : يجريه ، والحضر : ضرب من السير .

(٢) ذفف عليه : أجهز .

يومئذ سلَبه : درعاً جيداً ، ومغفراً ، وسيفا جيداً ، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذ غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى قتالهما ، فسأل عن الرجل ، قيل : عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، قال : الحمدُ لله الذى أحانه [1] وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل ببطن نخلة ، حتى قدم به على رسول الله صلى الله عليه وآله فافتدى ورجع إلى قريش ، وغزا معهم أحداً ، فقتل هناك ، ويرى مصرع عثمان عبيد ابن حاجز العامرى أحدُ بنى عامر بن لؤيّ ، فأقبل يعدو كأنه سبع ، فيضرب حارث بن الصمّة ضربة على عاتقه ، فوقع الحارث جريحاً حتى احتمله أصحابه ، ويقبل أبو دجانة على عبيد بن حاجز ، فتناوشا ساعة من نهار ، وكلّ واحد منهما يتّقى بالدرقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دُجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض ، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ، فلحق برسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : ويروى أن سهل بن حُنيف ، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : نبّلوا سهلا [2] فإنه سهل ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبى الدرداء ، والناس منهزمون فى كلّ وجه ، فقال : نعم الفارس عُويمر غير أنه لم يشهد أُحُدا !

قال الواقدىّ : وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك ، قال : حدثنى من نظر إلى أبى سَبْرة بن الحارث بن علقمة ، ولقى أحدالمشركين ، فاختلفا ضربات، كلّ ذلك يرُوغ أحدهما عن الآخر ، قال : فنظر الناس إليهما كأنهما سبعان ضاريان يقفان مرّة ويقتتلان أخرى ، ثم تعانقا ، فوقعا إلى الأرض جميعا ، فعلاه أبو سَبْرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة ، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغرّ محجل يجرّ قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه ، فنظرت إلى سنان الرمح خرج من صدره ،

(١) أحانه : أهلكه .

(٢) نبلوا سهلا ؛ أى أعطوه النبل .

ووقع أبو سَبْرة ميّتاً ، وانصرف خالد بن الوليد ، يقول : أنا أبو سليمان !

قال الواقديّ : وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قتالا شديداً ، وكان طلحة يقول : لقـد رأيتُ رسول الله صلى الله عليـه وآله حيث انهزم أصحابه ، وكثر المشركون ، فأحدقوا بالنبي صلى الله عليه وآله من كلّ ناحية ، فما أدرى أقوم من بين يديه أو من ورائه ؟ أم عن يمينه أم شماله ؟ فأذبّ بالسيف عنه هاهنا وهاهنا حتى انـكشفوا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ يقول لطلحة : « لقد أوجب » وروى : « لقد أنحب » أي قضى نذره .

قال الواقديّ : وروى أنّ سعد بن أبي وقاص ذكر طلحة فقال : يرحمه الله ! إنه كان أعظمنا غناء عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد ، قيل : كيف يا أبا إسحاق ؟ قال : لزم النبي صلى الله عليه وآله وكُنا نتفرق عنه ، ثم نثوب إليه ، لقد رأيته يدورُ حول النبي صلى الله عليه وآله يتَرّس بنفسه .

قال الواقديّ : وسئل طلحة : ياأبا محمد ، ماأصاب إصبَعك ؟ قال : رَمى مالك بن زهير الجُشميّ بسهم يريدُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم ـ وكان لا تخطىء رميّته ـ فاتقيتُ بيدِي عن وجهِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصاب خِنْصَرِى فشَلّ .

قال الواقديّ وقالوا : إنّ طلحة قال لما رمى حَسِّ[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لو قال : « بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون [إليه][2] منْ أحبّ أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنّة ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله ، طلحة ممّن قضى نحبه[3] .

---

(١) حس ، بالبناء على الكسر ، كلمة من ينجزه ما يؤلمه ، ومنه قولهم : « ضرب فما قال : حس » .
(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣١٨
(٣) في اللسان : « طلحة ممن قضى نحبه » النحب : النذر ، كأنه ألزم نفسه أن يصدق الأعداء في الحرب فوفى به ولم يفسخ ، وقيل : هو من النحب الموت ، كأنه يلزم نفسه أن يقاتل حتى يموت » .

قال الواقدىّ : وكان طلحة يحدّث يقول : لمّا جال المسلمون تلك الجوْلة ، ثم تراجعوا أقبل رجل من بنى عامر بن لؤىّ يدعى شيبة بن مالك بن المضرّب ، يجرّ رمحه ، وهو على فرس أغرّ كميت مدجّجا فى الحديد ، يصيح : أنا أبو ذات الودَع ، دلّونى على محمّد ، فأضرب عرقوب فرسه فاكتسعت(١) [به](٢) ثم أتناول رمحه ، فوالله ما أخطأت به عن حَدَقته ، فخار كما يخور الثور فما برحت به واضعا رجلى على خدّه حتى أَزَرْتُهُ شَعُوب(٣) .

قال الواقدىّ : وكان طلحة قد أصابته فى رأسه المصلبة ضربه رجل من المشركين ، ضربتين ، ضربة وهو مقبل ، وضربة وهو معرِض عنه ، وكان نَزَفَ منها الدم ، قال أبو بكر : جئت النبى صلّى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، فقال : عليك بابن عمّك ، فأتى طلحة بن عبيد الله ، وقد نزف الدم ، فجعلت أنضحُ فى وجهه الماء وهو مغشىٌّ عليه ، ثم أفاق ، فقال : مافعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله؟ فقلت : خيرا ، هو أرسلنى إليك ، فقال : الحمد لله ، كلّ مصيبةٍ بعده جَلَل .

قال الواقدىّ وكان ضرار بن الخطّاب الفهرىّ يقول : نظرتُ إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة فى عُمرة ، فنظرت إلى المصلبة فى رأسه ، فكان ضرار يقول : أنا والله ضربتُه ، هو استقبلنى فضربته ، ثم أكرّ عليه ، وقد أعرض ، فاضربه ضربة أخرى .

---

(١) كذا فى ا واللسان ، وفى ب والواقدى : « انكسعت » ، وفى اللسان : « وفى حديث طلحة يوم أحد : « فضربت عرقوب فرسه فاكتسعت به ، أى سقطت » .

(٢) من اللسان

(٣) فى اللسان : « وفى حديث طلحة : حتى أزرته شعوب ، أى أوردته المنية نزارها . شعوب من أسماء المنية .

قال الواقدىّ : ولما كان يوم الجمل ، وقتلَ علىّ عليه السلام مَنْ قتل من الناس ، ودخل البصرة ، جاءه رجل من العرب ، فتكلّم بين يديه ، ونال من طلحة ، فزبره علىّ عليه السلام ، وقال : إنّك لم تشهد يوم أُحُد ، وعِظَم غنائه عن الإسلام ، مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فانكسر الرجلُ وسكت ، فقال له قائل من القوم : وما كان غناؤه و بلاؤه يرحمه الله يوم أُحُد ؟ فقال على عليه السلام : نعم ، يرحمه الله ، لقد رأيته و إنّه ليترّس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم و إنّ السيوف لتغشاه ، والنَّبْل من كلّ ناحية ؛ وما هو إلا جُنّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، يقيه بنفسه ، فقال رجل : لقد كان يوم أُحُد يوماً قتل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأصابت رسول الله صلى الله عليه وآله فيه الجراحة ، فقال على عليه السلام : أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : ليت أنّى غودرت مع أصحابى بنُحْص[1] الجبل ، ثم قال على عليه السلام : لقد رأيتُنى يومئذ وإنّى لأذبّهم فى ناحية ، و إن أبادُجانة لفى ناحية يذبّ طائفة منهم ؛ حتى فرج الله ذلك كلّه ؛ ولقد رأيتُنى وانفردت منهم يومئذ فرقة خَشْناء[2] ، فيها عكرمة بن أبى جهل فدخلت وسطهم بالسيف ، فضربت به ، واشتملوا علىّ حتى أفضيت إلى آخرهم ، ثم كررت فيهم الثانية ، حتى رجعت من حيث جئت ؛ ولكنّ الأجل استأخر ، و يقضى الله أمرا كان مفعولا .

قال الواقدىّ : وحدّثنى جابر بن سُليم عن عثمان بن صفوان ، عن عُمارة بن خزيمة ، قال : حدّثنى مَنْ نظر إلى الُحباب بن المنذر بن الجموح ، وإنّه ليحُوشهم[3] يومئذ كما تحاش الغنم ؛ ولقد اشتملوا عليه حتى قيل : قد قتل ، ثم برز والسيف فى يده ، وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم ، وإنّهم ليهربون منه إلى جَمْع منهم ،

(١) ب : « بحصن » ، وصوابه من ا والواقدى ، وفيه : قال ابن أبى الزناد : نحص الجبل أسفله » .
(٢) فرقة خشناء ، أى كثيرة السلاح . (٣) يحوشهم ، أى يجمعهم .

وصار الحُباب إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الحُباب يومئذ معلمًا بعصابة خضراء فى مِغْفَره .

قال الوقدىّ : وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبى بكر على فرس مدجّجاً لا يُرى منه إلا عيناه ، فقال : مَنْ يبارز ؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق ! فنهض إليه أبو بكر ، وقال: أنا أبارزه ، وجرّد سيفه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : شِمْ سيفَك ، وارجع إلى مكانك ، ومتّعنا بنفسك .

قال الواقدىّ : وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ماوجدتُ لشمّاس بن عثمان شبها إلاّ الجُنّة ، يعنى مما يقاتل عن رسول الله يومئذ ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم لا يأخذ يمينا ولا شمالا إلّا رأى شماس بن عثمان فى ذلك الوجه ، يذبّ بسيفه عنه ، حتى غشى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فترّس(١) بنفسه دونه ، حتى قتل ، فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما وجدت لشماس شبها إلّا الجُنّة » .

قال الواقدىّ : ولمّا ولى المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد مِنْ خلفهم ، كان أوّل مَنْ أقبل من المسلمين بعد التوْلية قيس بن محرث مع طائفة من الأنصار ، وقد كانوا بلغوا بنى حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين فى كثرتهم ، فدخلوا فى حَوْمتهم ، فما أفلت منهم رجل حتى قُتِلوا كلّهم ، ولقد ضار بهم قيس بن مِحْرث ، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفرا ، فما قتلوه إلاّ بالرّماح ، نظموه ، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائفة(٢) وعشر ضربات بالسيف .

قال الواقدىّ : وكان عباس بن عبادة بن نَضْلة المعروف بابن قَوْقل ، وخارجة بن

---

(١) ترس بنفسه ، أى جعل نفسه له كالترس .

(٢) الطعنة الجائفة : التى تبلغ الجوف ، وفى الواقدى : « قد جافته » .

زيد بن أبى زهير ، وأوس بن أرقم بن زيد ، وعبّاس رافع صوته يقول : يامعشرَ المسلمين ، الله ونبيّكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيّكم ؛ وعدَكم[1] النصر فما صبرتم . ثم نزع مِغفره عن رأسِه ، وخلع دِرْعه وقال لخارجة بن زيد : هل لك فى دِرْعِى ومِغفَرى ؟ قال خارجة : لا ، أنا أريد الذى تريد ، فخالطوا القوم جميعا ، وعبّاس يقول : ماعذرُنا عند ربّنا إن أصيب نبيُّنا ومنّا عينٌ تطرف! قال : فيقول[2] خارجة : لاعذرَ لنا والله عند ربّنا ولا حُجّة، فأمّا عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلَمِىّ ، ولقد ضربه عباس ضربتين ، فجرحه جرحين عظيمين ، فارتُثَّ يومئذ جريحا ، فمكث جريحا سنة ، ثم استبلّ . وأخذَتْ خارجة ابن زيد الرماح ، فجرح بضعة عشر جرحاً ، فمرّ به صفوان بن أميّة ، فعرفه فقال : هذا من أكابر أصحاب محمد ، وبه رَمَق، فأجهز عليه . وقَتَل أوس بن أرقم ، وقال صفوان : مَنْ رأى خبيب بن يساف ؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه . ومثّل يومئذ بخارجة ، وقال : هذا ممّن أغرى بأبى يوم بدر - يعنى أمية بن خلف - وقال : الآن شفيتُ نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل ، وقتلت ابن أبى زهير ، وقتلت أوس ابن أرقم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئذ : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقّه ؟ قالوا : وما حقُّه يارسول الله ؟ قال : يضرب به العدوّ ، فقال عمر : أنا يارسول الله ، فأعرض عنه ، ثم عَرَضه رسول الله صلى الله عليه وسلّم بذلك الشَّرْط ، فقام الزُّبير ، فقال : أنا ، فأعرض عنه ، حتى وجَد[3] عمر والزبير فى أنفسهما ، ثم عرضه الثالثة ، فقام أبو دُجَانة ، وقال : أنا يارسول الله آخذه بحقّه ، فدفعه إليه ، فصدق حين لقى به العدوّ ، وأعطى السيف حقّه ، فقال أحدُ الرجلين - إمّا عمر بن الخطاب أو الزّبير : والله لأجعلنّ هذا الرجل الذى أعطاه السيف ومنَعنيه من شأنى ، قال : فاتّبعته ، فوالله مارأيت أحداً قاتل أفضلَ من

(١) ا : « فيوعدكم » . (٢) الواقدى : « يقول » . (٣) أى غضبا .

قتاله ، لقد رأيتُه يضرب به حتى إذا كلّ عليه وخاف ألا يُحيك (١) عمَد به إلى الحجارة ، فشحذه ، ثم يضرب به العدوّ ، حتى يردّه (٢) كأنّه مِنجل ، وكان حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله السّيف مشى بين الصّفّين ، واختال فى مشيته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين رآه يمشى تلك المشية : إنّ هذه لَمِشْيةٌ يبغضها الله تعالى إلّا فى مثل هذا الموطن . قال : وكان أربعة من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله يعلمون فى الزُّحوف ، أحدُهم أبو دُجانة ، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، وكان قومه يعلمون أنّه إذا اعتصبَ بها أحسن القتال ، وكان على عليه السلام يعلِم بصوفةٍ بيضاء ، وكان الزّبير يعلِم بعصابة صفراء ، وكان حمزة يعلِم بريش نعامة .

قال الواقدىّ : وكان أبو دُجانة يحدّث يقول : إنّى لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذِف النّاس وتحُوشهم حَوْشاً منكرا ، فرفعتُ عليها السيف ، وما أحسبها إلا رجلا ؛ حتى علمت أنّها امرأة ، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة ... والمرأة عمْرة بنت الحارث .

قال الواقدىّ : وكان كعب بن مالك يقول : أصابنى الجراح يوم أحُد ، فلمّا رأيت المشركين يمثّلون بالمسلمين أشدّ المُثَل وأقبحها ، قمتُ فتنحّيت عن القتلى ، فإنّى لفى موضعى أقبَلَ خالد بن الأعلم العقيلىّ جامع اللأمة يحوش المسلمين ، يقول : استوسقوا (٣) كما يستوسق جُرْب الغنم ، وهو مدجّج فى الحديد ، يصيح : يامعشرَ قريش ، لا تقتلوا محمدا ، ائسروه أسراً حتى نعرّفه ماصنع ؛ ويصمُد له قزْمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتِقه رأيت منها سَحْره ، ثم أخذ سيفه وانصرف ، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلا عينيْه ، فحمل عليه قُزمان فضربه ضربةً جزّله اثنين ، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومىّ ، ثم يقول كعب : إنّى لأنظر يومئذ وأقول : مارأيتُ مثل هذا الرجل أشجع

---

(١) لا يحيك : لا يؤثر . (٢) ا : « رده » . (٣) استوسقوا : اجتمعوا .

بالسيف ، ثم ختم له بما ختم له به ! فيقال له : فما ختم له به ؟ فيقول : من أهل النار ، قتل نفسه يومئذ .

قال الواقدىّ : وروى أبو النمر الكنانىّ ، قال : أقبلت يوم أحُد وأنا من المشركين ، وقد انكشف المسلمون ، وقد حضرتُ فى عشرة من إخوتى ، فقتل منهم أربعة ؛ وكان الريح للمسلمين أوّل ماالتقينا ، فلقد رأيتُنى وانكشفنا مولّين ، وأقبل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على نهب العسكر ، حتى بلغت الجمّاء ، ثم كرّت خيلنا ، فقلت : والله ما كرّت الخيلُ إلا عن أمر رأته ، فكررنا على أقدامنا كأننا الخيل ، فنجد القوم قد أخذ بعضُهم بعضاً ، يقاتلون على غير صفوف ، مايدرى بعضهم مَنْ يضرب ، وما للمسلمين لواء قائم ، ومع رجل من بنى عبد الدار لواء المشركين ، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم : « أمِتْ أمِتْ » فأقول فى نفسى : ما « أمت » ؟ وإنّى لأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وإنّ أصحابه محدقُون به ، وإنّ النَّبْل ليمرّ عن يمينه ويساره ، ويقع بين يديه ، ويخرج من ورائه ، ولقد رميت يومئذ بخمسين مِرْماة ، فأصبت منها بأسهم بعض أصحابه ، ثم هدانى الله إلى الإسلام .

قال الواقدى: وكان عَمْرو بن ثابت بن وَقْش شاكّاً فى الإسلام ، وكان قومُه يكلّمونه فى الإسلام ، فيقول : لو أعلم ماتقولون حقا ماتأخّرت عنه ، حتى إذا كان يوم أحُد بدا له الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلّم بأحُد ، وأخذ سيفَه وأسلم ، وخرج حتى دخل فى القوم ، فقاتل حتى أثبِت [1] ، فوجِد فى القتلى جريحا ميّتا ، فدنوْا منه وهو بآخر رَمَق ، فقالوا : ماجاء بك ياعمرو ؟ قال : الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله ، وأخذت سيفى وحضرت فرزقنى الله الشهادة ، ومات فى أيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إنّه لمن أهل الجنّة » .

---

(١) أثبت ، أى جرح .

قال الواقديّ : فكان أبو هُريرة يقول ، والناس حوله : أخبرونى برجل يدخل الجنّة لم يصلّ لله تعالى سجدة؟ فيسكت النّاس، فيقول أبوهريرة : هو أخو بنى عبدالأشهل عمرو بن ثابت بن وقْش .

قال الواقديّ : وكان مخيرق اليهوديّ من أحبار يهود ، فقال يومَ السَّبْت ورسولُ الله صلى الله عليه وسلّم بأُحُد : يامعشرَ يهود ، والله إنّـكم لتعلمون أنّ محمّداً نبيّ ، وأنّ نصره عليـكم حقّ . فقالوا : ويحك ! اليوم يوم السبت، فقال : لا سبْت ، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي صلى الله عليـه وسلّم ، فأصيب ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلّم : « مخيرق خير يهود » .

قال الواقديّ : وكان مخيرق ، قال حين خرج إلى أحُد : أن أصِبت فأموالى لمحمّد يضعُها حيث أراه الله فيه ، فهى عامّة صدقات النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

قال الواقديّ : وكان حاطب بن أميّة منافقا ، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجلَ صِدْق شهد أُحُداً مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فارتُثّ [1] جريحا ، فرجع به قومه إلى منزله ، قال: يقول أبوه وهو يرى أهلَ الدّار يبكون عنده : أنتم والله صنعتم هـذا به ، قالوا : كيف ؟ قال :أغررتموه من نفسِه حتى خرج فقتِل ، ثم صرتم معه إلى شيء آخر تعِدُونه جنّة ، يدخل فيها حبّة من حَرْمل، قالوا : قاتلك الله ! قال هو ذاك ، ولم يقرّ بالإسلام [2] .

قال الواقديّ: وكان قزمان عَسِيفا[3] من بنى ظَفَر، لايدرى ممّن هو ،وكان لهم محبًّا ،

---

(١) ارتث : حمل من المعركة جريحاً وبه رمق .

(٢) الخبر فى ابن هشام ٣ : ٣٧ عن عاصم بن عمر بن قتادة : « أن رجـلا منهم كان يدعى حاطب ابن أمية بن رافع ، وكان له ابن يقال له زيد بن حاطب ؛ أصابته جراحة يوم أحـد ؛ فأتى به إلى قومه وهو بالموت ، فاجتمع إليه أهل الدار ؛ فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء : أبشر يابن حاطب بالجنة ، قال : وكان حاطب شيخاً قد عسا (أى كبر) فى الجاهلية ، فنجم يومئذ نفاقه ، فقال : بأى شيء تبشرونه ! أبجنة من حرمل ! غررتم والله هذا الغلام من نفسه !

(٣) عسيفاً ، أى أجيراً .

وكان مقلاًّ ولا ولد له ولا زوجة ، وكان شجاعا يُعرف بذلك فى حروبهم التى كانت تكون بينهم ، فشهد أحداً ، وقاتل قتالا شديدا ، فقتل ستة أو سبعة ، فأصابته الجراح فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إنّ قزمان قد أصابته الجراح ، فهو شهيد ، فقال : بل من أهلِ النّار ، فجاءوا إلى قزمان ، فقالوا : هنيئا لك أبا الغيداق الشهادة ! فقال : بمَ تبشّروننى ! والله ماقاتلنا إلّا على الأحساب ، قالوا : بشّرناك بالجنة ، قال جنّة والله من حَرْمل ، إنّا والله ماقاتلنا على جنّة ولا على نار ، إنما قاتلنا على أحسابنا ، ثمّ أخرج سهما من كنانته، فجعل يتوجّأ به نفسه ، فلما أبطأ عليه المِشْقَص ، أخذ السيف ، فاتّكأ عليه ، حتى خرج من ظهره ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال : « هو من أهل النار » .

قال الواقدىّ : وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج ، فلمّا كان يوم أُحُد ، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبيّ صلى الله عليه وسلّم المشاهد أمثال الأسد ، أراد قومُه أن يحبسوه ، وقالوا : أنت رجل أعرَج ، ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبي صلى الله عليه وسلّم قال : بخٍ ! يذهبون إلى الجنّة وأجلس أنا عندكم ! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته: كأنّى أنظر إليه موليّاً قد أخذ دَرَقته ، وهو يقول : اللهمّ لا تردّنى إلى أهلى ، فخرج ولحقه بعضُ قومه يكلّمونه فى القعود ، فأبى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : يارسولَ الله ، إنّ قومى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إنّى لأرجو أن أطأ بعرْجتِي هذه فى الجنة ، فقال له : أمّا أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك ، فأبى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلّم لقومه وبنيه : لا عليكم أن تمنعوه ، لعلّ الله يرزقه الشهادة ؛ فخلّوا عنه . فقتِل يومئذ شهيدا . وكان أبو طلحة يحدّث ، يقول : نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ، ثم ثابوا وهو فى الرّعيل الأوّل ، لكأنّى أنظر إلى ضِلَعه وهو يعرَج فى مشيته ، وهو يقول : أنا والله مشتاق إلى الجنّة ، ثم أنظر إلى ابنه يعدُو فى أثره ، حتى قُتِلا جميعا .

قال الواقدىّ ، وكانت عائشة خرجت فى نسوة تستروح الخبر ، ولم يكن قد ضُرِب الحجاب يومئذٍ ، حتى كانت بمنقطع الحرّة وهى هابطة من بنى حارثة إلى الوادى ، لقيتْ هنداً بنت عمرو بن حزام ، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام ، تسوق بعيراً لها ، عليه زوجها عمرو بن الجموح ، وابنها خلّاد بن عمرو بن الجموح ، وأخوها عبدُ الله بن عمرو بن حزام[1] أبوجابر بن عبدالله ، فقالت لها عائشة : عندك الخبر، فما وراءك ؟ فقالت هند : خير، أما رسول الله صلى الله عليه وسلّم فصالح ، وكلّ مُصيبة بعده جَلَل ، واتّخذ الله من المؤمنين شهداء : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ﴾ .

ـ قلت : هكذا وردت الرواية ، وعندى أنها لم تقل كلّ ذلك ، ولعلها قالت : « وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ » ، لاغير ، وإلّا فكيف يواطئ كلامُها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أُحُد ! هذا من البعيد جدّاً ـ

قال : فقالتْ لها عائشة : فمَنْ هؤلاء ؟ قالت : أخى وابنى وزَوْجى قَتْلَى ، قالت : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرُهم بها « حَلْ حَلْ » تزجرُ بعيرها ، فبرك البعير ، فقالت عائشة : لثقل ماحمل ، قالت هند : ماذاك به ، لربّما حمل مايحمله البعيران ، ولكنى أراه لغير ذلك ، فزجرتْه فقام ، فلمّا وجهت به إلى المدينة برك ، فوجّهته راجعة إلى أُحُد ، فأسرع ، فرجعت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم فأخبرته بذلك ، فقال : إنّ الجمل لمأمور ، هل قال عمرو شيئا ؟ قالت : نعم ، إنه لما وجّه إلى أُحُد استقبل القبلة ، ثم قال : اللّهمّ لا تردّنى إلى أهلى ، وارزقنى الشهادة ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : فلذلك الجمل لا يمضى ، إنّ منكم يامعشرَ الأنصار من لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم عمرو بن الجموح ، يا هندُ ، مازالت الملائكة مظلّة على أخيك من لدن قُتِل إلى الساعة ، ينظرون أين يدفن ! ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وسلّم فى قبرهم ، ثم قال : ياهند ، قد ترافقوا فى الجنّة

(١) الواقدى : « حرام » .

جميعا ؛ عمرو بن الجموح بعلك ، وخلّاد ابنُك، وعبد الله أخوك . فقالت هند : يارسول الله ، فادع الله لى عسى أن يجعلنى معهم !

قال الواقدىّ : وكان جابر بن عبد الله ، يقول : اصطبح ناسٌ يوم أُحُد الخمرَ ، منهم أبى ، فقتِلوا شهداء .

قال الواقدىّ : وكان جابرٌ يقول: أوّل قتيل من المسلمين يوم أُحُد أبى ؛ قتله سفيان ابن عبد شمس أبو الأعور السُّلَمىّ ، فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ الهزيمة .

قال الواقدىّ : وكان جابر يحدّث ، ويقول : استشهد أبى ، وجعلتْ عمّتى تبكى ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : ما يبكيها ! ما زالت الملائكة تظلّ عليه بأجنحتها حتى دُفِن .

قال الواقدىّ : وقال عُبيد الله بن عمرو بن حزام : رأيتُ فى النّوم قبل يوم أُحُد بأيام مبشّرَ بن عبد المنذر ، أحد الشهداء ببدر ، يقول لى : أنت قادم علينا فى أيّام ! فقلت : فأين أنت ؟ قال : فى الجنّة نسرح منها حيث نشاء ، فقلت له : ألم تقتل يوم بدر ؟ قال : بلى ، ثم أحييت ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذه الشهادة ياجابر » .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوم أُحُد : ادفنوا عبد الله بن عمرو ابن حزام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد ، ويقال : إنّهما وجدا وقد مُثّل بهما كلَّ مُثْلة قطعت آرابهما[1] عضوا عضوا ، فلا تعرف أبدانهما . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلّم : « ادفنوهما فى قبر واحد » ، ويقال : إنّما أمر بدفنهما فى قبر واحد ، لما كان بينهما من

---

(١) الآراب : جمع إرب ، بالكسر والسكون ، وهو العضو .

الصفاء ، فقال : ادفنوا هذين المتحابَّين فى الدنيا فى قبر واحد .

وكان عبد الله بن عمرو بن حرام رجلًا أحمر أصلَع ، ليس بالطويل ؛ وكان عمرو ابن الجموح طويلا ، فعرفا ودخل السَّيل بعد عليهما، وكان قبرهما مما يلى السّيل، فحُفِر عنهما، وعليهما نمِرتان وعبد الله قد أصابه جرح فى وجهه ، فيدُه على وجهه[1] ، فأُميطت يده عن جرحه ، فثعب[2] الدم ، فردت إلى مكانها فسكن الدّم .

قال الواقدىّ : وكان جابر بن عبد الله يقول : رأيت أبى فى حفرته ، وكأنّه نائم ، وما تغيّر من حاله قليل ولا كثير ؛ فقيل له :أفرأيتَ أكفانه؟ قال :إنّما كُفِّن فى نمِرة[3] خُمِّر بها وجهُه ، وعلى رجليه الحرْمل فوجدنا النّمِرة كما هى ، والحرمل على رجليه كهيئته ، و بين ذلك و بين وقت دفنه ست وأربعون سنة ، فشاورهم جابر فى أن يطيّبه بمسك ، فأبى ذلك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : لاتحدثوا فيهم شيئا .

قال : ويقال إنّ معاوية لما أراد أن يُجْرِىَ العين التى أحدثها بالمدينة ،وهى كظامة نادى مناديه بالمدينة : من كان له قتيل بأحُد فليشهد . فخرج النّاس إلى قتلاهم فوجدوهم رطابا يتثنّوْن ، فأصابت المسحاةُ رِجْل رجلٍ منهم ،فثعَبت دما ، فقال أبو سعيد الُخدرِىّ : لا ينكِر بعد هذا منكر أبدا .

قال : ووُجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد ، ووُجد خارجة ابن زيد بن أبى زهير وسعد بن الربيع فى قبر واحدٍ ، فأمّا قبرُ عبد الله وعمرو فحوّل ، وذلك أنّ القناة كانت تمرّ على قبرهما ، وأمّا قبر خارجة وسعد فترِك ، وذلك لأنّ مكانه كان معتزلا ، وسُوِّىَ عليهما التراب ، ولقد كانوا يحفِرون التّراب ، فكلّما حفروا قُتْرةً من تُراب ، فاح عليهم المسك .

---

(١) ا : « جرحه » .

(٢) ثعب الدم : سال .

(٣) النمرة : بردة من صوف .

قال : وقالوا : إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قال لجـابر : ياجابر ، ألا أبشّرك ؟ فقال : بلَى ، بأبى وأمّى ! قال : فإنّ الله أحيا أباك ، ثم كلّمه كلاما ، فقـال له : تمنّ على ربّك ماشئت ! فقال : أتمنّى أن أرجِـع فأقتَل مع نبيّك ، ثم أحيا فأقتل مع نبيّك، فقال: إنّى قد قضيت أنّهم لا يرجعون .

قال الواقدىّ : وكانت نَسيبة بنت كعب أمّ عمـارة بن غزيّة بن عمرو قد شهدت أحُداً ، وزوجها[1] غزيّة وابناها عُمارة بن غزيّة وعبدالله بن زيد ، وخرجت ومعها شنّ[2] لها فى أوّل النهار تريد تسقى الجرحى ، فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسنا ، فجرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، فكانت أمّ سعـد بنت سعد بن الرّبيع تحدّث ، فتقول : دخلتُ عليها ، فقالت لها : ياخالة ، حدّثينى خبَرك ، فقالت : خرجت أوّل النهار إلى أحُد ، وأنا أنظر ما يصنع النّاس ، ومعى سِقاء فيه ماء ، فانتهيتُ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وهو فى الصّحابة والدّولة والريح للمسلمين ، فلمّا انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، فجعلت أباشر القِتال ، وأذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالسّيف ، وأرمى بالقوس ، حتى خلصت إلى الجراح ، فرأيت على عاتقها جُرحا أجوفَ له غوْر ، فقلت : ياأمّ عُمارة ، مَنْ أصابك بهذا؟ قالت : أقبل ابن قمِيئة ، وقد ولّى الناس عن رسول الله صلى عليه وسلم يصيح : دلّونى على محمدّ ، لا نجوتُ إنْ نجا ! فاعترض له مُصعب بن عمير وناس معه ، فكنت فيهم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقـد ضربته على ذلك ضرَبات ، ولكنّ عدو الله كان عليه دِرْعان ، فقالت لها : يدك ما أصابها ؟ قالت : أصيبتْ يوم اليمامة ، لمّا جعلت الأعراب تنهزم بالنّاس ، نادت الأنصار: اخلصونا ، فأخلصت الأنصار ، فكنت معهم ، حتى انتهينا إلى حديقة الموت ، فاقتتلنا عليها ساعة ، حتى قُتـل أبو دُجانة على باب الحديقة ؛ ودخلتها

---

(١) كذا فى ا والواقدى ، وفى ب : « وتزوجها » .

(٢) الشن : القربة الخلق الصغيرة ، يكون فيها الماء أبرد من غيرها .

وأنا أريد عدوّ الله مُسيلمة ، فيعرض لى رجل ، فضرب يدى ، فقطعها ، فو الله ما كانت ناهية ، ولا عرّجت عليها ، حتى وقفت على الخبيث مقتولاً ، وابنى عبد الله بن زيد المازنىّ يمسحُ سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلتَه ؟ قال : نعم ، فسجدتُ شكراً لله عزّ وجلّ وانصرفت .

قال الواقدىّ : وكان ضَمْرة بن سعيد يحدّث عن جَدّته ، وكانت قد شهدت أحُداً تسقى الماء ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يومئذ : لَمقام نَسيبه بنت كعب اليوم خيرٌ من مُقام فلان وفلان . وكان يراها يومئذ تقاتل أشدّ القتال ، وإنّها لحاجزة ثوبَها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا .

***

قلت : ليت الرّاوى لم يكنِّ هذه الكناية ، وكان يذكرهما باسمهما حتى لا تترامى الظنون إلى أمور مشتبهة ! ومن أمانة المحدّث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئا ، فما باله كتم اسم هذين الرجلين .

قال : فلما حضرت نَسيبه [1] الوفاة ، كنت فيمن غسّلها فعددت جراحها جرحا جرحا فوجدتها ثلاثة عشر ؛ وكانت تقول : إنى لأنظر إلى ابن قَمِيئة وهو يضربُها على عاتقها ــ وكان أعظم جِراحها ، لقد داوته سنة ــ ثم نادى منادى النبىّ صلى الله عليه وسلّم بعد انقضاء أُحُد : إلى حمراء الأسد ! فشدّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نَزف الدّم ، ولقد مكثنا ليلتنا نكمّد الجراح ، حتى أصبحْنا ، فلمّا رجع رسولُ الله من حَمْراء الأسد ، لم يصلْ إلى بيته حتى أرسلَ إليها عبد الله بن كعب المازنىّ يسأل عنها ، فرجع إليه فأخبره بسلامتها ، فسرّ بذلك .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الجبار بن عُمارة بن غزيّة ، قال : قالت أمّ عُمارة

---

(١) الواقدى : « فلما حضرتها » .

لقد رأيتُني وانكشف النّاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم فما بقيَ إلا نُفَيْرٌ ما يتمُّون عشرة ، وأنا وأبنائى وزوجى بين يديه نذبّ عنه ، والناس يمرُّون عنه منهزمين ، فرآنى ولاتُرْس معى ، ورأى رجلا مولّيا معه تُرْس ، فقال : ياصاحبَ التُّرس ، الق ترسك إلى مَنْ يقاتل . فألقى ترسه فأخذته ، فجعلت أترّس به على النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ، ولو كانوا رجّالة مثلنا أصبناهم ، فيقبل رجل على فرس ، فضربنى وترّست له ، فلم يصنع سيفه شيئا ، وولّى وأضرب عُرقوب فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصيح : يابن عُمارة ، أمّك أمّك ! قالت : فعاونني عليه حتى أوْرَدْتُه شَعُوب [١] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن عمرو بن يحيى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن زيد المازنىّ ، قال : جرحت يومئذ جرحا فى عضدِى اليسرى ، ضربنى رجل كأنه الرّقْل ولم يعرّج علىّ ، ومضى عنّى ، وجعل الدم لا يرقأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : اعصب جُرحك ، فتقبل أمى إلىّ ، ومعها عصائب فى حَقْوَيْها قد أعدّتها للجراح ، فربطت جرحى والنبى صلى الله عليه وسلّم واقف ينظر ، ثم قالت : انهض يابنىّ ، فضارب القوم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : ومن يطيق ما تطيقين يا أمّ عُمارة ! قالت : وأقبل الرّجل الذّى ضربنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا ضارب ابنك ، فاعترضت أمّى له ، فضربت ساقه ، فبرَك ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلّم تبسم حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : استقدتِ يا أمّ عُمارة . ثم أقبلنا نعلُوه [٢] بالسلاح حتى أتينا على نفسه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى ظفّرك وأقرّ عينك من عدوّك ، وأراك ثأرك بعيْنك !

---

(١) شعوب : اسم المنية .
(٢) ب : « نعله » ، والصواب ما أثبته من ا والواقدى .

قال : الواقدىّ وروى موسى بن ضمرة بن سعيد ، عن أبيه قال : أُتى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته بِمُروط[1] كان فيهـا مِرْط واسع جيّد فقال بعضهم : إنْ هذا المرْط بثمن كذا ، فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفيّة بنت أبى عبيد ، وذلك حدثان[2] مادخلت على ابن عمر ، فقال : بل أبعث به إلى مَنْ هو أحقّ منها ، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد يقول : ما التفت يميناً وشمالاً إلاّ وأنا أراها تقاتل دونى .

قال الواقدىّ : وروى مَرْوان بن سعيد بن المعلّى ، قال : قيل لأمّ عُمارة : ياأمّ عمارة ، هل كنّ نساء قريش يومئذ يقاتلنْ مع أزواجهنّ ؟ فقالت : أعوذ بالله ، لا والله مارأيتُ امرأة منهنّ رمتْ بسهم ولا حَجَر ، ولكن رأيت معهنّ الدّفاف والأكبار يضربن ويذكّرن القوم قتلَى بدر ، ومعهنّ مكاحل ومراود ، فكلّما ولّى رجل أو تكعكع ناولته إحداهنّ مرودا ومكحلة ، ويقلن : إنّما أنت امرأة ، ولقد رأيتهنّ ولّين منهزمات مشمّرات ، ولها عنهن الرّجال أصحاب الخيل ، ونجوا على متون خيلهم ، وجعلْنَ يتبعنَ الرّجال على أقدامهنّ ، فجعلن يسقطن فى الطريق ، ولقد رأيت هندا بنت عتبة ، وكانت امرأة ثقيلة ، ولها خلق ، قاعدة خاشيةً من الخيل ، ما بها مشى ، ومعها امرأة أخرى ، حتى كثر القوم علينا ، فأصابوا منّا ما أصابوا ، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قِبَل الرماة ومعصيتهم لرسول[3] الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدىّ : وحدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى صعصعة ، عن الحارث بن عبد الله ، قال : سمعتُ عبد الله بن زيد بن عاصم ، يقول : شهدتُ أحُداً

---

(١) المرط ، بالكسر : كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به ، وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به وجمعه مروط .
(٢) حدثان الأمر : ابتداؤه .
(٣) ا : « الرسول » .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فلمّا تفرّق الناس عنه ، دنوت منه ، وأمى تذبّ عنه ، فقال : يابن عُمارة ،قلت : نعم ، قال : ارمِ ؛ فرميتُ بين يديه رجلا من المشركين بحجَر ، وهو على فرس ، فأصبت عين الفرس ، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة ، حتى نضّدت عليه منها وقْرا ، والنبي صلى الله عليه وسلّم ينظر إلىّ ويتبسم ، فنظر إلى جرح بأمىّ على عاتقها، فقال : أمّك أمّك! اعصب جُرحها ، بارك الله عليكم من أهلِ بيت ! لمقامُ أمّك خيرٌ من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك ـ يعنى زوج أمه ـ خيرٌ من مقام فلان ، رحمكم الله من أهل بيت ! فقالت أمى : ادع لناالله يارسول الله أن نرافقَك فى الجنّة ، فقال : « اللهم اجعلهم رُفقائى فى الجنّة » ؛ قالت : فما أبالى ما أصابنى من الدنيا .

قال الواقدىّ : وكان حنظلة بن أبى عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أبىّ بن سَلول ، فأدخِلت عليه فى الليلة التى فى صبيحتها قتال أحُد ، وكان قد استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يبيت عندها ، فأذن له ، فلمّا صلّى الصبح غدا يريد النبىصلى الله عليه وسلم؛ فلزمتهْ جميلة ، فعاد فكان معها ، فأجنَب منها ، ثم أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها ، فأشهدتهم أنهقد دخل بها، فقيل لهابعد : لم أشهدتِ عليه ؟ قالت: رأيتُ كأنّ السماءفرِجتْ،فدخل فيها ،ثم أطبقت. فقلت :هذهالشهادة ،فأشهدتعليهأنّه قددخل بى، فعلِقت منه بعبد الله بن حنظلة .ثم تزوجها ثابت بنقيس بعد، فولدت لهمحمدبن ثابت بن قيس وأخذ حنظلة بن أبى عامر سلاحه ، فلحق برسول الله صلىالله عليه وسلّم بأحُد ، وهو يسوىّ الصفوف ، فلما انكشف المشركون ، اعترض حنظلةلأبى سفيان بن حَرْب ، فضرب عُرقوب فرسه ، فاكتسعتالفَرس ، ويقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح : يامعشر قريش ، أنا أبو سفيان بن حرب ! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجالا لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب ، فحمل على حنظلة بالرمح ،

فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه فى الرمح فضر به ثانية فقتله ، وهرب أبو سفيـــان يعدُو على قدميه ، فلحق ببعض قريش ، فنزل عن صدر فرسه ، وردف وراءه أبا سفيان، فذلك قول أبى سفيان يذكر صبره ووقوفه وأنه لم يفرّ ، وذكره محمد بن إسحاق[١] :

ولو شئتُ نجّتْنِي كُميتٌ طِمِرَّةٌ ... ولم أحمـــل النَّعماء لابن شعُوب[٢]
ومازال مُهرى مزجر الكلب فيهمُ ... لدن غُـــدْوَةً حتّى دنت لغُروب[٣]
أقاتلهـــم وأدّعِي يَالَ غالبٍ ... وأدفعُهـــم عنّى بركن صليبِ[٤]
فبكّى ولا ترعَىْ مقـــالة عاذلٍ ... ولا تسأمى من عَـــبْرةٍ ونحيبِ
أباكِ وإخواناً لنـــا قد تتابعوا[٥] ... وحـــقّ لهم من حسرة بنصيب
وسلّى الذى قد كان فى النفس إنّنِى ... قتلتُ من النّجّار كلّ نجيب
ومن هاشم قَرْماً كريمـــا ومُصعبا ... وكان لدَى الهيجاء غـــير هيوبِ[٥]
ولو أنى لم أشفِ نفسىَ منهـــم ... لكانت شجًا فى الصدْر ذات ندوبِ[٦]
فآبُوا وقدْ أودى الجلابيبُ منهم ... بهم كمد من واجمٍ وكئيب[٧]
أصـــابهم من لم يكن لدمائهمْ ... كِفـــاء ولا فى سِنْخِهم بضريب[٩]

قال الواقـــدىّ : مرّ أبو عامر الراهب على حنظلة ابنـــه وهو مقتول إلى جنب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٢١ ، ٢٢
(٢) الطمرة : الفرس السريعة الوثب ، وفى الأصول : « النعمان » تحريف .
(٣) ابن هشام : « منهم » ، ومزجر الكلب ، يريد أنه قريب، والضمير فى «دنت» يعود إلى الشمس.
(٤) صليب : شديد قوى .   (٥) ابن هشام : « وإخواناً له » .
(٦) القرم فى الأصل : الفحل الكريم من الإبل ، وعنى به هاهنا حمزة بن عبد المطلب . والمصعب : الفحل من الإبل أيضاً .
(٧) الندوب : آثار الجروح .
(٨) الجلابيب : الجماعات . وفى ابن هشام :

* بهِمْ خَدَبٌ مِنْ مُعْبِطٍ وكَئيب *

(٩) فى ابن هشام : « ولا فى خطة بضريب » .

حمزة بن عبدالمطلب، وعبد الله بن جحش؛ فقال: إن كنت لأحذرك هذا الرجل ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من قبل هذا المصرع، والله إن كنت لبرًّا بالوالد، شريف الخلق فى حياتك، وإنّ مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم، إنْ جزى الله هذا القتيل ـ يعنى حمزة ـ خيرا، أو جزى أحدا من أصحاب محمد خيرا، فليجزك، ثم نادى: يامعشرَ قريش، حنظلة لا يمثَّل به، وإن كان خالفنى وخالفكم؛ فلم يألُ لنفسه فيما يرى خيرا، فمثِّل بالناس وترك حنظلة فلم يمثّل به.

وكانت هندُ بنت عُتبة أوّلَ مَنْ مثَّل بأصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وأمرت النساء بالمثل، وبجَدْع الأنوف والآذان، فلم تبق امرأة إلاّ عليها معِضْدان[1] ومَسَكتان[2] وخدَمتان[3] إلّا حنظلة لم يمثّل به، وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنى رأيتُ الملائكة تغسل حنظلة بن أبى عامر بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفِضَّة»؛ قال أبو أُسَيْد الساعدىّ: فذهبنا فنظرنا إليه، فإذا رأسه يقطُر ماء، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبرتُه، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنّه خرج وهو جُنُب.

قال الواقدىّ: وأقبل وَهْب بن قابوس المُزنىّ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقْبة بن قابوس بغنم لهما من جبَل مُزَينة، فوجد المدينة خِلْواً، فسألا: أين الناس؟ قالوا: بأحُد، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقاتل المشركين من قُريش، فقال: لا نبتغى أثراً بعد عين، فخرجا حتّى أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلّم بأحُد، فيجدان القوم يقتتلون، والدّولة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه، فأغارا مع المسلمين فى النّهْب، وجاءت الخيل من ورائهم خالد بن الوليد وعِكْرمة بن أبى جهل، فاختلط الناس، فقاتلا أشدّ القتال، فانفرقت فرقة من المشركين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن لهذه الفرقة؟ فقال وهب بن قابوس: أنا يارسول الله، فقام فرماهم بالنّبْل حتّى انصرفوا، ثم رجع فانفرقت فرقة

(١) المعضد: الدملج، وهو حلى يلبس فى المعصم.
(٢) المسك: الأسورة من القرون والعاج. (٣) الخدمة: الخلخال.

أخرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن لهذه الكتيبة ؟ فقال المُزنىّ : أنا يارسول الله ، فقام فذبّها بالسيف حتى ولّت ، ثم رجع فطلعت كتيبة أخرى ، فقال النبى صلى الله عليه : مَن يقوم لهؤلاء ؟ فقال المُزَنىّ : أنا يا رسولَ الله ، فقال : قم وأبشِرْ بالجنّة . فقام المزنىّ مسرورا يقول : والله لا أقيل ولا أستقيل ، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيْف ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه والمسلمون ، حتّى خرج من أقصى الكتيبة ؛ ورسول الله صلى الله عليه يقول : اللهمّ ارحمه ، ثم يرجع فيهم ، فما زال كذلك وهم محدِقُون به ، حتى اشتملت عليه أسيافُهم ورماحهم ، فقتلوه فوجد به يومئذ عشرون طعنة بالرماح ، كلّها قد خلصت إلى مقتل ، ومُثِّل به أقبحَ المثل يومئذ . ثم قام ابنُ أخيه ، فقاتل كنحو قتاله ، حتى قُتِل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إنّ أحبّ ميتة أموتُ عليها لما مات عليها المزنىّ .

قال الواقدىّ : وكان بلال بن الحارث المزنىّ يحدّث يقول : شهدنا القادسيّة مع سعد بن أبى وقّاص ، فلمّا فتح الله علينا ، وقسمت بيننا غنائمنا ، أسقط فتى من آل قابوس من مُزَينة ، فجئت سعدا حين فزع من نومه ، فقال : بلال ! قلت : بلال ، قال : مرحباً بك ، مَنْ هذا معك ؟ قلت : رجل من قومى ، قال : ما أنتَ يا فتى من المزنى الذى قتِل يوم أُحُد ! قال : ابنُ أخيه . قال سعد : مرحبا وأهلا ، أنعم الله بك عينا ! لقد شهدتُ من ذلك الرجل يوم أُحُد مشهداً ما شهدتُ من أحدٍ قطّ ، لقد رأيتُنا وقد أحدق المشركون بنا من كلّ ناحية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلّم وسطنا ، والكتائب تطلع من كلّ ناحية ، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يرمى ببصره فى النّاس يتوسّمهم ، ويقول : مَنْ لهذه الكتيبة ؟ كلّ ذلك يقول المُزَنىّ : أنا يا رسول الله ، كلّ ذلك يردّ الكتيبة ، فما أنسى آخر مرة قالها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم

وأبشرْ بالجنّة ، فقاموقمت على أثره ، يعلم الله أنى أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة ، فخضنا حَوْمتَهم ، حتى رجعنا فيهم الثانية ، فأصابوه رحمه الله ، وودِدت والله أنى كنتُ أصِبت يومئذ معه ، ولكن أجل[1] استأخر ، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله ، وقال : اختر فى المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحبّ الرجوع ، فرجع .

قال الواقدىّ : وقال سعد بن أبى وقاص : أشهدُ لرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على المُزَنىّ ، وهو مقتول ، وهو يقول : رضى الله عنك ، فإنى عنك راض ؛ ثم رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله قام على قدميه ، وقد ناله عليه السلام من ألم الجراح ما ناله ، وإنى لأعلم أنّ القيام يشقّ عليه على قبره ؛ حتى وضع فى لحده وعليه بُرْدة ، لها أعلام حُمْر ، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وآله البردة على رأسه ، فخمرّه وأدرجه فيها طولاً ، فبلغت نصف ساقيه ، فأمرنا فجمعنا الحَرمل ، فجعلناه على رجليه وهو فى لحدِه ، ثم انصرف فما حال أحبّ إلىّ من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المزَنىّ .

قال الواقدىّ : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوم أُحُد قد خاصم إليه يتيم من الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر فى عِذْقٍ بينهما ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأبى لُبابة ، فجزع اليتيم على العِذْق ، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم العِذْق إلى أبى لُبابة لليتيم ، فأبى أن يدفعه إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول لأبى لبابة : ادفعه إليه ولك عِذْقٌ فى الجنّة ، فأبى أبو لبابة ، وقال ثابت[2] بن أبى الدّحداحة : يارسول الله ؛ أرأيت إن أعطيتُ اليتيمَ عِذْقه من مالى ! قال : لك به عِذْق فى الجنة ، فذهب ثابت بن الدحداحة ، فاشترى من أبى لبابة ذلك العِذْق بحديقة نخل ، ثم رد العِذْق إلى الغلام ،

---

(١) الواقدى : « أجلى استأخر » . (٢) كذا فى الاستيعاب ١ : ٢٠٣

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ربَّ عذق مذلّل [1] لابن الدحداحة فى الجنة » ، فكانت ترجى له الشهادة بذلك القول ، فقتل يوم أحُد .

قال الواقدىّ : ويقبل ضرار بن الخطاب فارسا يجرّ قناةً له طويلة ، فيطعن عمرو بن معاذ ، فأنفذه ، ويمشى عمرو إليه حتى غُلب ، فوقع لوجهه ، قال : يقول ضرار : لا تعدمنّ رجلا زوّجك من الحور العين ، وكان يقول : زوّجت يوم أحُد عشرة من أصحاب محمد الحُور العِين .

قال الواقدىّ : فسألت شيوخَ الحديث : هل قتل عشرة ؟ قالوا : ما بلغنا أنه قتل إلاّ ثلاثة ، ولقد ضرب يومئذ عمر بن الخطاب حين جال المسلمون تلك الجولة بالقناة ، وقال : يابن الخطاب ، إنها نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

قال الواقدىّ : وكان ضرار يحدّث بعد ، ويذكر وقعة أحد ، ويذكر الأنصار فيترحّم عليهم ، ويذكر غَناءهم فى الإسلام ، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت ، ثم يقول : لقد قتل أشرافُ قومى ببدر ، فأقول : مَنْ قتل أبا الحكم ؟ فيقال [2] : ابن عفراء . من قتل أمية بن خلف ؟ فيقال : خُبيب بن يساف . من قتل عُقْبة بن أبى معيط ؟ فيقال : عاصم بن ثابت . من قتل فلان بن فلان ؟ فيسمى لى من الأنصار ، من أسرَ سهيل بن عمرو ؟ فيقال : مالك بن الدخشم . فلما خرجنا إلى أحد ، وأنا أقول : إن قاموا فى صياصيهم فهى منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياما ثم ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم ، فإنّ معنا عدداً أكثر من عددهم ، ونحن قوم موتورون ؟ خرجنا بالظُّعن يذكّرننا قتلى بدر ، ومعنا كُراع ولا كُراع معهم ، وسلاحنا أكثر من سلاحهم ، فقُضىَ لهم أن خرجوا ، فالتقينا ، فو الله ما قمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولّين ، فقلت

(١) العذق بالفتح : النخلة . وبالكسر : العرجون بما فيه من الشماريخ ، وقد ورد فى هذا الحديث فى اللسان « عذق » .
(٢) الواقدى : « فقال » .

فى نفسى : هــذه أشدّ من وقعة بدر ، وجعلت أقول لخالد بن الوليد : كرّ على القوم ، فيقول : وترى وجها نـكرّ فيــه ! حتى نظرت إلى الجبل الذى كان عليه الرّماة خاليا ، فقلت : يا أبا سليمان ، انظر وراءك ، فعطف عنان فرسه ، وكررنا معــه ، فانتهينا إلى الجبل ، فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نُفَيْرًا فأصبناهم ، ثم دخلنا العسكر ، والقوم غارّون ينتهبون عسكرنا ، فأقحمنا الخيل عليهم ، فتطايروا فى كلّ وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا ، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبّة ، فلا أرى أحدا ، هربوا فما كان حلَب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها ، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان ، فصبرنا لهم ، وصبروا لنا ، و بذلوا أنفسهم حتى عقَرُا فرسى ، وترجلت ، فقتلت منهم عشرة ؛ ولقيت مِن رجُل منهمُ الموت الناقع ، حتى وجدت ريح الدم ، وهو معانق ما يفارقنى ، حتى أخذته الرماح من كل ناحية ، فوقــع ، فالحمد لله الذى أكرمهم بيدى ، ولم يهنّى بأيديهم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحُد : مَنْ له علم بذكوان ابن عبد قيس ؟ فقال علىّ عليــه السلام : أنا رأيت يارسولَ الله فارسا يركُض فى أثره حتى لحقه ، وهو يقول : لا نجوتُ إنْ نجوتَ ! فحمل عليه فرسه وذكوان راجل ، فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن علاج ! فقتــله ، فأهويت إلى الفارس ، فضربت رجله بالسيف ، حتى قطعتها من نصف الفخِذ ، ثم طرحته عن فرسه فذفّفت عليه ، وإذا هو أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثّقفىّ .

قال الواقدىّ : وقال علىّ عليه السلام لمــا كان يوم أحُد وجال الناس تلك الجوْلة : أقبل أميّة بن أبى حذيفة بن المغيرة ، وهو دارع مقنّع فى الحديد مايرى منه إلّا عيناه ، وهو يقول : يوم بيوم بدر ! فيعرض له رجل من المسلمين ، فقتله أميّة ، قال على عليه السلام : وأصمِد له ، فأضربه بالسّيف على هامتِه ، وعليه بيضة ، وتحت البيضة مِغْفر ، فنبا سيفى ،

وكنت رجلا قصيرا ، ويضربنى بسيفه ، فأتّقى بالدّرقة ، فلحج سيفه ، فأضربه ، وكان درعه مشمّرة ، فأقطع رجليه ، فوقع وجعل يعالج سيفه ، حتى خلّصه من الدّرقة ، وجعل يناوشنى وهو بارك حتى نظرت إلى فَتْق تحت إبطه فاحُش فيه بالسيف ، فمال فمات ، وانصرفت .

قال الواقدىّ : وفى يوم أُحُد انتمى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « أنا ابن العواتك » ، وقال أيضا :

أنا النبيّ لا كذبْ أنا ابن عبد المطّلبْ

قال الواقدىّ : بينا عمر بن الخطاب يومئذ فى رهطٍ من المسلمين قعود ، مرّ بهم أنس بن النَّضْر بن ضمضم عمّ أنس بن مالك ، فقال : ما يقعدكم ؟ قالوا : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم قام ، فجالد بسيفه حتى قتِل ، فقال عمر بن الخطاب : إنّى لأرجو أن يبعثه الله أمّةً وحده يوم القيامة ، وُجِد به سبعون ضربةً فى وجهه ما عرف حتى عرفته أخته .

قال الواقدىّ : وقالوا : إنّ مالك بن الدُّخشم مرّ على خارجة بن زيد بن زهير يومئذ وهو قاعد ، وفى حُشْوَته [1] ثلاثة عشر جرحا كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك : أما علمتَ أنّ محمدا قد قتل ! قال خارجة : فإن كان محمّد قد قتِل ، فإن الله حىٌّ لا يُقتل ولا يموت ؟ وإنّ محمّدا قد بلّغ رسالة ربّه ، فاذهب أنت فقاتل عن دينك .

قال : ومرّ مالك بن الدخشم أيضا على سَعْد بن الربيع ، وبه اثنا عشر جرحا كلّها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أعلمت أن محمدا قد قتل ! فقال سعد : أشهد أنّ محمدا قد بلّغ رسالة ربّه ، فقاتِلْ أنت عن دينك ، فإنّ الله حىٌّ لا يموت .

---

(١) حشوة البطن : أمعاؤه .

قال محمد بن إسحاق: وحدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني، أخو بني النجار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ: مَنْ رجلٌ ينظر ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً في القتلى، وبه رمق، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات، قال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله خيرا عنا ماجزى نبيًّا عن أمته وأبلغ قومك السلام عني، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذرَ لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف، قال: فلم أبرح عنده حتى مات، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: اللهم ارضَ عن سعد بن الربيع.

قال الواقدي: وحدثني عبد الله بن عمار، عن الحارث بن الفضيل الخطمي، قال: أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع، قد سقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشرَ الأنصار، إليّ إليّ أنا ثابت بن الدحداحة! إن كان محمد قد قُتل، فإن الله حيّ لا يموت! قاتلوا عن دينكم، فإن الله مظهركم وناصركم؛ فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمَنْ معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء(1) فيها رؤساؤهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه، فأنفذه فوقع ميتا، وقتل مَنْ كان معه من الأنصار، فيقال: إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين في ذلك اليوم.

وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى يذكر يوم أُحُد:

ألا ذرفتْ من مُقلتيك دُموعُ ... وقد بان في حبل الشَّباب قطوعُ(2)

---

(1) كتيبة خشناء: كثيرة السلاح.
(2) سيرة ابن هشام ٣: ١٠٤ — ١٠٦، وفيه: «بالدمن حبل الشباب».

وشطّ بمَنْ تهوَى المزارُ وفرّقتْ ... نوى الحيّ دارٌ بالحبيب فَجُوعُ

وليس لما ولّى على ذى صَبَابة (١) ... وإن طال تَذرافُ الدموع رجوعُ

فدعْ ذا ولكن هلْ أتى أمّ مالكٍ ... أحاديثُ قومى والحديث يشيعُ !

ومُجنبنا جُرْداً إلى أهـل يثربٍ ... عَنَاجيج فيها ضامرٌ وبديع (٢)

عشيّة سِرْنا من كَدَاء يقودُها ... ضَرورُ الأعادى للصديق نَفوع (٣)

يشدّ علينا كلّ زحف كأنّهـا ... غَديرٌ نضوح الجانبين نقيعُ (٤)

فلمّا رأونا خالطتْهم مهـابةٌ ... وخامرهم رعبٌ هنـاك فظيعُ

فودّوا لو انّ الأرض ينشقّ ظهرُها ... بهم ، وصَبورُ القوم ثَمّ جَزُوع

وقد عرِّيتْ بيضٌ كأنّ وميضها ... حريقٌ وشيكٌ فى الأباء سريع (٥)

بأيماننا نعلو بهـا كلّ هامة ... وفيها سِمام للعـدوّ ذريعُ

فغادرن قتلَى الأوس عاصبة بهم ... ضباعٌ وطـير فوقهنّ وقوعُ

ومرّ بنو النجّار فى كلّ تلْعةٍ ... بأثوابهم من وقعهنّ نجيـعُ

ولولا علوّ الشعب غادَرْن أحمداً ... ولكن علا والسمهرىّ شَرُوع (٦)

كما غادَرَتْ فى الكَرّ حمزة ثاوياً ... وفى صدره ماضى السنان وقيع (٧)

وقال ابن الزِّبعرَى أيضا من قصيدة مشهورة ، وهى :

---

(١) ابن هشام : « على ذى حرارة » .

(٢) جنبت الفرس ، إذا قدتها ولم تركبها . والجرد : جمع أجرد ، وهو العتيق من الخيل . والعناجيج : الطوال الحسان ، واحدها عنجوج . وانظر ابن هشام .

(٣) ابن هشام : « سرنا فى لهام » . (٤) النقيع : الماء البارد العذب .

(٥) الوميض : الضوء . والأباء : جمع أباءة ، وهى أجمة القصب .

(٦) الشعب : الطريق فى الجبل . والسمهرىّ : الرمح ، وشروع ، مائل إلى الطعن .

(٧) شباة كل شىء : حده . ووقيع : محدد .

يا غرابَ البـين أسمعتَ فقُلْ   إنما تندب أمراً قد فعـلْ[1]

إنّ للخير وللشرّ مدًى   وسواء قبرُ مثرٍ ومُقلّْ[2]

كلّ خيرٍ ونعيمٍ زائلٌ   وبنات الدّهر يلعبن بكلّ

أبلغا حسّانَ عنّى آيةً   فقريض الشعر يشفى ذا الغُللْ

كم ترى بالجَسْر من جُمْجمة   وأكفًّا قد أتِرّت ورجِلْ[3]

وسرابيلَ حسانٍ سُرِّيَتْ   عنْ كُماةٍ غُودِرُوا فى المنزَلْ[4]

كمْ قتلْنا منْ كريمٍ سيّدٍ   ماجدِ الجدّين مقدامٍ بطَلْ

صادق النَّجْدة قَرْمٍ بارعٍ   غير مُلْتَاطٍ لدى وقع الأسَلْ[5]

فسل المِهْراسَ مَنْ ساكِنُه؟   من كراديس وهامٍ كالحجَلْ[6]

ليت أشياخى ببدرٍ شهدُوا   جَزَعَ الخزرج من وقع الأسَلْ

حين حطّت بقُباءٍ بَرْكَها   واستحرّ القتل فى عبد الأشَلْ[7]

ثمّ خفّوا عِنْدَ ذاكُمْ رُقّصاً   رَقَص الحفّان تعدُو فى الجبلْ[8]

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ ـ ٩٨ ، وروايته .

* إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئاً قَدْ فُعِلْ *

(٢) ابن هشام : * وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ *

(٣) ابن هشام : « بالجر » ، أى الجبل . وأترت : قطعت .

(٤) المنزل : موضع النزال . (٥) رواية ابن هشام :

* غَيْرِ مِلْتَاثٍ لَدَى وَقْعِ الأَسَلْ *

(٦) المهراس : ماء بجبل أحد ، والكراديس جمع كردوسة ، وهى جماعة الخيل . والحجل : طائر فى حجم الحمام ، ورواية ابن هشام :

* بَيْنَ أَقْحَافٍ وَهَامٍ كَالْحَجَلْ *

(٧) البرك : الصدر . واستحر القتل : اشتد ، وعبد الأشل : أراد عبد الأشهل ، فحذف الهاء .

(٨) الرقص : ضرب من المشى السريع . والحفان : صغار النعام .

فقتلنا النصف من ساداتهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس إلا أننا ... لو كررنا لفعلنا المفتعل
بسيوف الهند تعلو هامهم ... تبرد الغيظ ويشفين الغلل[1]

قلت : كثير من الناس يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية ، وهو قوله : « ليت أشياخى » ، وقال مَنْ أكره التصريح باسمه : هذا البيت ليزيد ، فقلت : له إنما قاله يزيدُ متمثلا لما حُمِل إليه رأس الحسين عليه السلام ، وهو لابن الزِّبعرى ، فلم تسكن نفسه إلى ذلك ، حتى أوضحته له ، فقلت : ألا تراه يقول : « جزع الخزرج من وقع الأسل » ، والحسين عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج ، وكان يليق أن يقول : « جزع بنى هاشم من وقع الأسل » ؛ فقال بعض من كان حاضرا : لعله قاله فى يوم الحرة ! فقلت : المنقول أنه أنشده لما حمل إليه رأسُ الحسين عليه السلام ؛ والمنقول أنه شعر ابن الزِّبعرى ، ولا يجوز أن يترك المنقول إلى ماليس بمنقول .

وعلى ذكر هذا الشعر فإنى حضرت وأنا غلام بالنِّظامية ببغداد فى بيت عبد القادر ابن داود الواسطى المعروف بالمحبّ ، خازن دار الكتب بها وعنده فى البيت باتكين الرومى الذى ولى إربل أخيرا وعنده أيضاً جعفر بن مكّى الحاجب ، فجرى ذكر يوم أُحُد وشعرُ ابن الزبعرى هذا وغيره ، وأنّ المسلمين اعتصموا بالجبل ، فأصْعَدوا فيه ، وإن الليل حال أيضا بين المشركين وبينهم ، فانشدا ابن مكى بيتين لأبى تمام متمثلا .

لولا الظلام وقُلّة علقوا بها ... باتت رقابهم بغير قِلالِ[2]

---

(١) رواية ابن هشام :

* عَلَلًا تعلوهم بعد نَهَلْ *

(٢) ديوانه ٣ : ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها المعتصم ، ويذكر فتح الخرمية . وقلة الجبل : أعلاه ، وجمعه قلل وقلال .

فليشكروا جُنْحَ الظَّلام ودِرَوْداً   فهمُ لِدِرَوْدَ والظـلامُ مُوالِي[1]

فقال باتكين : لاتقل هذا ؛ ولكن قل: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] ، وكان باتكين مسلما ، وكان جعفر سامحه الله مغموصاً عليه فى دينه .

﴿ تم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الخامس عشر ﴾

---

(١) درود بكسرا وله وسكون ثانية وفتح الواو وآخره دال مهملة : اسم جبل .

(٢) سورة آل عمران ١٥٢

فهرس الموضوعات

باب الكتب والرسائل

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م – ١٣٨٧ هـ)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ وبه نثق الحمد لله الواحد العدل ١)

القول فى أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه به فى المعركة يوم الحرب

قال الواقدىّ[٢]: تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلّى الله عليه وسلم عبدُالله بن شهاب الزُّهرىّ وابنُ قَمِيئة[٣] أحدُ بنى الحارث بن فِهر، وعُتْبة بن أبى وقّاص الزُّهرىّ، وأُبَىّ بن خلَف الجُمَحِىّ. فلمّا أتى خالدُ بن الوليد من وراء المسلمين، واختلطت الصّفوف، ووضع المشركون السيفَ فى المسلمين، رمى عُتْبة بن أبى وقّاص رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم بأربعة أحجار، فكسر رباعيَتَه، وشجّه فى وجهه حتى غاب حَلَق المِغْفر فى وجنتيه[٤]، وأدمى شفتيه[٥].

قال الواقدىّ: وقد رُوِىَ أنّ عتبة أشْظَى[٦] باطنَ رباعيَته السّفلى. قال: والثّبَت عندنا أنّ الذى رمى وجنَتَىْ رسول الله صلى الله عليه وآله ابنُ قَمِيئة، والذى رمى شفته وأصاب رَباعيَته عُتبة بن أبى وقّاص.

قال الواقدىّ: أقبل ابنُ قَمِيئة يومئذ وهو يقول: دُلّونى على محمد، فوالّذى يُحلَف به؛ لئن رأيتُه لأقتلنّه، فوصل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فعَلاه بالسّيف، ورماه عتبةُ

(١–١) ا: «وبك اعتمادى يا كريم».
(٢) انظر أخبار غزوة أحد فى الجزء الرابع عشر من ص ٢١٣ إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب.
(٣) قيئة؛ كسفينة، وهو عمرو بن قيئة، ذكره صاحب تاج العروس، وقال: «شاعر؛ وهو الذى كسر رباعية النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد». (٤) كذا فى ا، وهو الوجه والذى فى ب «وجنته»؛ تحريف.
(٥) مغازى الواقدى ص ٢٤٦ وما بعدها.
(٦) أشظى رباعيته: كسرها.

ابنُ أبي وقّاص في الحال الّتي جَلّله ابنُ قَمِيئة فيها السيفَ ، وكان عليه السلام فارسا ، وهو لابسُ دِرْعين مُثقَل بهما ، فوقع رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفرَس في حُفرة كانت أمامه .

قال الواقديّ : أصيبَ ركبتاه ، جُحِشتا (١) لمّا وَقَع في تلك الحفرة ، وكانت هناك حُفَر حفَرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم واقفا على بعضها وهو لا يَشعُر (٢) ، فجُحِشت رُكبتاه ، ولم يصنع سيفُ ابنُ قَميئة شيئاً إلّا وهز (٣) الضّربة بِثقل السّيف ، فقد وقع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ثمّ انتهض وطلحةُ يَحمِله من ورائه ، وعليّ عليه السلام آخِذٌ بيديه حتى استوى قائما .

قال الواقديّ : فحدّثني الضّحّاك بنُ عثمانَ عن حمزةَ بنِ سعيد،عن أبي بشر المازنيّ ، قال : حضرتُ يومَ أُحُد وأنا غلام، فرأيتُ ابنَ قَمِيئة عَلاَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالسّيف ، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَقَع على ركبتيه في حفرةٍ أمامَه حتّى توارى في الحفرة ، فجعلت أصيح وأنا غلام حتى رأيتُ النّاس ثابُوا إليه .

قال : فأنظُر إلى طلحةَ بن عُبيد الله آخِذا بحضْنِه حتّى قام .

قال الواقديّ : ويقال : إنّ الذى شَجَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في جبهته ابنُ شِهاب ، والّذى أشظَى رَباعيتَه وأدمَى شفَتيه عتبةُ بنُ أبي وَقّاص،والّذِي أدمَى وَجْنَتَيْه حتى غاب الحَلَق فيهما ابنُ قميئة ، وإنه سال الدمُ من الشّجّة الّتي في جَبهته حتى أخضلَ لحيتَه . وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة يَغسِل الدمَ عن وجهه ورسولُ الله صلّى الله عليه ، يقول : كيف يُفلح قومٌ فعلوا هذا بنبيِّهم ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى ! فأنزَل الله تعالى قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ . . . ﴾ (٤) الآية .

---

(١) الجحش : الخدش ، أو فوقه .

(٢) الواقدي : « ولا يشعر به » .

(٣) كذا في الواقدي . ويقال : وهزه ، أي ضربه بثقل يده ، وفي الأصول : « وهن » تحريف .

(٤) سورة آل عمران ١٢٨ .

قال الواقدىّ : وروَى سعدُ بنُ أبى وَقّاص قال [١] : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اشتدّ غضب الله على قوم دَمّوْا فا رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، اشتدّ غضبُ الله على قوم دَمّوا وجهَ رسول الله ، اشتدّ غضبُ الله على رجل قَتَلَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد شفانى من عتبةَ أخى دعاء رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد حَرَصتُ عَلَى قتلِه حِرْصا ماحَرَصتُ على شىء قطّ ، وإن كان ماعلمتُ لعاقًّا بالوالد ، سيّئ الخُلق ، ولقد تخرّقتُ صفوفَ المشركين مرّتين أطلبُ أخى لأقتُلَه ، ولكنه راغَ منّى رَوَغانَ الثعلب ، فلمّا كان الثالثة قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ياعبدَ الله ماتريد ؟ أتريد أن تقتُل نفسَك ؟ فكففتُ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهم لاتُحولنّ الحَوْلَ عَلَى أحدٍ منهم . قال سعد : فوالله ماحالَ الحوْلُ عَلَى أحدٍ ممّن رَماه أو جرحه . مات عتبةُ ، وأما ابنُ قَمِيئة فاختُلِف فيه ، : [فقائل يقول : قتل فى المَعرَك و] [٢] قائل [يقول] [٢] : إنه رمى بسَهْم فى ذلك اليوم فأصاب مصعبَ بنَ عُمَير فقتله ، فقال : خُذْها وأنا ابنُ قَمِيئة ؛ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : أقمأه الله ، فعَمَد إلى شاة يحتلبها فتنطحه بقَرْنها وهو معتلِقها [٣] فقتلته . فوُجِد ميّتا بين الجبال لدعوةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عدوّ الله رجع إلى أصحابه فأخبرَهم أنه قتل محمدا. قال : وابن قميئة رجل من بنى الأَدْرَم من بنى فِهْر .

وزاد البلاذُرِىّ فى الجماعة التى تعاهدتْ وتعاقدتْ عَلَى قتل رسولِ الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد عبدَ الله بنَ حُمَيد بنِ زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العُزّى بن قصىّ [٤] .

قال : وابن شهاب الّذى شَجَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فى جَبْهته هو عبدُ الله

(١) الواقدى : « سمعته يقول : اشتد . . . » .
(٢) من الواقدى . والمعرك والمعترك : موضع القتال .
(٣) كذا فى ا وهو الصواب ، والذى فى ب « معتقلها » ، تصحيف .
(٤) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

ابن شهاب الزُّهْرى ، جدُّ الفقيه المحدّث محمد بن مسلم بنِ عبيدالله بنِ عبدالله بن شهاب[1]، وكان ابنُ قَميئة أدْرَم ناقصَ الذَّقَن ، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقدىّ أيضا .

***

قلتُ : سألت النقيبَ أبا جعفر عن اسمه فقال : عمرو ، فقلتُ له : أهو عَمرو بن قُميئة الشاعر ؟ قال : لا ، هو غيرُه . فقلت له : مابالُ بنى زُهرة فى هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله صلّى الله عليه وسلم وهم أخواله ، ابنُ شهاب وعتبةُ بنُ أبى وقّاص ! فقال : يابنَ أخى ، حرّكهم أبو سفيانَ وهاجَهُم على الشرّ لأنّهم رجعوا يومَ بدر من الطريق إلى مكّة فلم يَشهدُوها ، فاعترض عِيرَهم ومنَعهم عنها ، وأغرَى بهاسفهاءَ أهلِ مكة، فعيّروهم برُجوعهم ، ونسبوهم إلى الجُبْن وإلى الإدْهان فى أمرِ محمد صلّى الله عليه وسلم، واتفق أنّه كان فيهم مثل هذين الرجلين ، فوقع منهما يومَ أحُد ماوقع .

***

قال البَلاذرىّ : مات عتبة يومَ أحُد من وجعٍ أليمٍ أصابه ، فتَعذّب به ، وأصيب ابنُ قميئة فى المعركة ، وقيلَ : نطحتْه عَنْز فمات .

قال : ولم يذكر الواقدىّ ابنَ شهاب كيف مات ، وأحسب ذلك بالوَهْم منه .

قال : وحدّثنى بعضُ قريش أنّ أفعَى نهشتْ عبدَ الله بنَ شهاب فى طريقه إلى مكة ، فمات . قال : وسألتُ بعضَ بنى زُهرة عن خبره ، فأنكروا أن يكون رسولُ الله صلّى الله عليه وآله دعا عليه ، أو يكون شَجَّ رسول الله صلّى عليه وآله . وقالوا : إن الذى شجّه فى وجهه عبد الله بنَ حُميد الأسَدىّ[2] .

فأمّا عبدُ الله بنُ حُميد الفِهرىّ ، فإنّ الواقدىّ وإن لم يذكره فى الجماعة الذين

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

تعاقدوا عَلَى قتلِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلّا أنه قد ذَكَرَ كيفيّة قتلِه .

قال الواقديّ : ويُقبِل عبدُ الله بن حُميد بن زهير حين رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله على تلك الحال ـ يعني سقوطَه من ضربةِ ابن قميئة ـ يركض فرسه مقنَّعا في الحديد يقول : أنا ابن زهير ، دُلُّوني على محمد ، فوالله لأقتلنّه أو لأموتَنّ دونه ! فتعرّض[1] له أبو دُجانَة فقال : هلُمّ إلى مَن يَقِي نفسَ محمد صلّى الله عليه وآله بنفسه ، فضرب فرسه فعرْقَبها ، فاكتَسعتْ ، ثم علاه بالسّيف وهو يقول : خذها وأنا ابن خَرَشة ، حتى قتلَه ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وآله ينظُر إليه ويقول : اللهمّ ارضَ عن ابن خَرَشة كما أنا عنه راضٍ . هذه رواية الواقديّ ، وبها قال البَلاذُريّ : إنّ عبد الله بنَ حُميد قتَلَه أبو دُجانة[2] .

فأما محمد بنُ إسحاق فقال : إنّ الذي قَتَل عبدَ الله بنَ حُميد عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام[3] . وبه قالت الشّيعة .

وروَى الواقديّ والبَلاذُريّ أن قوما قالوا : إنّ عبدَ الله بنَ حُميد هذا قُتِل يومَ بدر . فالأوّل الصحيح أنه قُتِل يومَ أُحُد . وقد روَى كثيرٌ من المحدِّثين أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لعليٍّ عليه السلامُ حين سَقَط ثم أُقيم : اكفِني هؤلاء ـ لجماعة قصدتْ نحوَه ـ فحَمَل عليهم فهزَمَهم ، وقَتَل منهم عبدَ الله بن حميد من بني أَسَد بن عبد العُزّى ، ثم حملتْ عليه طائفةٌ أخرى ، فقال له : اكفِني هؤلاء ، فحَمَل عليهم فانهزَموا من بين يديه ، وقَتَل منهم أميّة بنَ أبي حذيفة بن المغيرة المخزوميّ .

قال : فأمّا أُبيّ بن خلف فروَى الواقديّ أنه أقبَل يركُض فرسَه ؛ حتى إذا دنا من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، اعترضَ له ناسٌ من أصحابه ليَقتلوه ، فقال لهم : استأخِروا

---

(١) ا والواقدي : « ليعرض » .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٨٢ .

عنه . ثم قام إليه وحَرْبَتُه في يده ، فرماه بها بين سابغَة البَيْضة والدِّرْع [1] ، فطعنه هناك ، فوقَع عن فرسه ، فانكسر ضِلع من أضلاعه ، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلا [2] حتى ولّوْا قافلين ، فمات في الطّريق ، وقال : وفيه أُنزلَتْ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [3] ، قال : يعنى قَذفه إيّاه بالحَرْبة .

قال الواقدىّ : وحدّثنى يونسُ بنُ محمّد الظّفَرىّ ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله ابنِ كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أُبيُّ بن خَلَفٍ قدم في فداء ابنه ، وكان أُسِر يومَ بَدْر ، فقال : يا محمّد ، إنّ عندى فرسا لى أعلِفها فَرْقا [4] من ذرَة كلّ يوم لأقتلك عليها . فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآلهِ : بل أنا أقتلكُ عليها إن شاء الله تعالى .

ويقال : إنّ أُبيًا إنّما قال ذلك بمكّة ، فبلَغ رسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة كلمته فقال : بل أنا أقتلُه عليها إن شاء الله . قال : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله في القتال لا يلتفِت وراءه ، فكان يومَ أُحُد يقول لأصحابه : إنّى أخشَى أن يأتىَ أُبىُّ بن خلَف من خَلْفى ، فإذا رأيتموه فآذِنونى ، وإذا بأُبىّ يركُضُ على فرسه ، وقد رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فعرَفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمّد لا نجوتُ إنْ نجَوْتَ ! فقال القوم : يارسول الله ما كنتَ صانعا حين يغشاك أُبىّ ؟ فاصنع ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأبَى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ودَنا أُبىّ ، فتناول رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه الحَرْبة من الحارث بن الصِّمّة ، ثم انتَفَض كما ينتفض البعير . قال : فتطايَرْنا

---

(١) الدرع السابغة : التى تجرها فى الأرض وعلى كعبيك طولا وسعة ، وتسبغة البيضة : ما توصل به البيضة من حلق الدروع فتستر العنق .

(٢) ثقيلا : مشرفا على الموت . (٣) سورة الأنفال ١٧ .

(٤) الفرق ، بسكون الراء وبفتحها : مكيال ضخم لأهل المدينة معروف .

عنه تطايُرَ الشَّعارِير(١) ، ولم يكن أحدٌ يُشبِهُ رسولَ الله صلى عليه وآله إذا جدَّ الجِدّ ، ثم طعنه بالحَرْبة فى عنقِه وهو على فرسه لم يَسقط ، إلا أنه خارَ كما يخور الثَّوْر ، فقال له أصحابه : أبا عامر ، والله مابك بأسٌ ، ولو كان هذا الذى بك بعينِ أحدِنا ماضَرّه . قال: واللّات والعُزّى ، لو كان الّذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا كلُّهم أجمعون ، أليس قال:لأقتلنّه ! فاحتملوه ، وشغَلَهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى التحَق(٢) بعظم أصحابه فى الشِّعب .

قال الواقدىّ : ويقال : إنّه تناول الحربةَ من الزُّبير بن العوّام . قال : ويقال إنّه لما تناول الحربة من الزُّبير حمل أبىٌّ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله ليضربه بالسيف ، فاستقبله مصعبُ بنُ عُمَير حائلا بنفسه بينهما ، وإنّ مصعبا ضَرَب بالسيف أبيّا فى وجهه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وآله فرجةً من بين سابغة البَيْضة والدّرْع ، فطعنه هناك ، فوقع وهو يخُور .

قال الواقدىّ : وكان عبدُ الله بنُ عمرَ يقول : ماتَ أبىُّ بنُ خَلَف ببطْن رابِغ(٣) منصرَفهم إلى مكّة . قال : فإنّى لأسيرُ ببطْن رابغ بعد ذلك ، وقد مضى هُوِىٌّ من اللّيل إذا نارٌ تأجّجُ ، فهِبتُها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبُها يصيح: العَطَش ، وإذا رجل يقول : لا تَسقِه ، فإن هذا قتيلُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا أبىُّ بن خَلَف، فقلتُ : ألا سُحْقا ! ويقال : إنه مات بسرِف(٤) .

* * *

(١) الشعارير : الذباب . (٢) ا والواقدى : « لحق » .
(٣) بطن رابغ : واد من دون الجحفة ، قال الواقدى : هو على عشرة أميال من مكة . ياقوت .
(٤) سرف ، ككتف : موضع على سبعة أميال من مكة ، تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ؛ وهناك توفيت ــ ياقوت .

القول فى الملائكة نزلت بأُحُد وقاتلت أم لا

قال الواقدى : حدثنى الزُّبيرُ بنُ سعيد ، عن عبدِ الله بن الفَضْل ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وآلِه مصعبَ بنَ عمير اللواء فقتل،فأخذَه ملَك فى صورة مُصعب فجَعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له فى آخر النهار : تقدّم يامصعب ، فالتفَت إليه الملَك ، فقال : لستُ بمصعبٍ ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآلِه أنّه ملَكَ أُيِّدَ به .

قال الواقدىّ : سمعتُ أبا معشر يقول مِثلَ ذلك .

قال : وحدّثتنى عبيدةُ بنتُ نائل ، عن عائشةَ بنت سعد بن أبى وقّاص ، عنه ، قال : لقد رأيتُنى أرمَى بالسّهم يومئذ، فيردّه عنى رجلٌ أبيضُ حسن الوجه لا أعرِفه ،حتى كان بعد ، فظننتُ أنه ملَك .

قال الواقدىّ : وحدّثنى إبراهيم بنُ سَعْد،عن أبيه ؛ عن جدّه سعدِ بن أبى وقاص، قال : رأيتُ ذلك اليومَ رَجُلين عليهما ثيابٌ بيض ؛ أحدُهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخَر عن شماله يقاتلان أشدَّ القتال ، مارأيتُهما قبلُ ولا بعدُ . قال : وحدّثنى عبدُ الملك بنُ سليمانَ ، عن قَطَن بن وَهْب،عن عُبيد بن عُمَيْر ، قالَ : لمّارجعتْ قريشٌ من أُحُد جعلوا يتحدّثون فى أنديتهم بما ظَفِروا ؛ يقولون : لم نَرَ الخيلَ البُلْق ولا الرِّجال البِيض الّذين كنّا نراهم يومَ بدر .

قال : وقال عُبيدُ[١] بنُ عمير : لم تقاتل الملائكةُ يومَ أحُد .

قال الواقدىّ : وحدثنى ابن أبى سَبْرة ، عن عبد المجيد بن سُهَيل ، عن عُمَر بن الحكم، قال : لم يُمَدّ رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ أحُد بملَك واحد،وإنما كانوا يومَ بدر . قال : ومثله عن عِكرمة .

---

(١) فى ا « عبيد الله » ؛ تحريف والتصويب عن ب .

قال : وقال مجاهد : حضرَت الملائكةُ يوم أُحُد ولم تقاتل ، وإنما قاتلتْ يوم بدر .

قال : وروى عن أبى هُريرة أنه قال : وعَدَهم اللهُ أن يُمِدّهم لو صَبَروا ، فلما انكشفوا لم تُقاتِل الملائكة يومئذ .

***

القول فى مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال الواقدىّ : كان وَحْشىّ عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، ويقال : كان لجُبَير بن مُطعِم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف ، فقالت له ابنة الحارث : إنّ أبى قتل يومَ بدر ، فإن أنتَ قتلتَ أحد الثلاثة فأنتَ حرّ : محمّد ، وعلىّ بن أبى طالب ، وحمزة[1] بن عبد المطّلب ، فإنى لا أرى فى القوم كُفْؤاً لأبى غيرهم . فقال وحشىّ : أمّا محمّد فقد علمت أنّى لا أقدر عليه ، وإنّ أصحابه لن يُسلِموه ، وأمّا حمزة فو الله لو وجدتُه نائما ما أيقظته من هَيْبته ، وأمّا علىّ فألتمسه . قال وَحْشىّ : فكنتُ يومَ أُحُد ألتمِسه ، فبينا أنا فى طلبه طَلَع علىّ ، فطلع رجلٌ حَذِرٌ مَرِس[2] كثيرُ الالتفاتِ ، فقلتُ : ما هذا بصاحبى الّذى ألتمس ، إذْ رأيت حمزة يَفْرِى الناسَ فَرْياً ، فكَمِنتُ له إلى صَخْرة وهو مكبّس له كتيت[3] ، فاعترَض له سباع بنُ أمّ نيار ، وكانت أمّه ختّانة بمكّة ، مولاة لشريفِ بن علاج بنِ عَمْرو بن وَهْب الثّقفىّ ، وكان سِباع يكْنَى أبا نيار ، فقال له حَمْزة : وأنت أيضا يابنَ مقطِّعة البُظُور ممّن يكثّر علينا ! هلُمّ إلىّ ، فاحتمَله ، حتى إذا برقتْ قَدَماه رمَى به فبرَك عليه ، فشَحطه شحط الشّاة ، ثم أقبَل علىّ مكبّا حين رآنى ، فلمّا

---

(١) كذا فى ا ، وهو الوجه ، وفى ب « أو » تحريف .
(٢) المرس : الذى قد مارس الأمور وعالجها .
(٣) الكتيت : صوت فى صدر الرجل كصوت البكر من شدة الغيظ .

بلغ المسيل ، وَطِئَ على جُرُفٍ فزلّت قدمُه ، فهززتُ حربتي حتى رضيتُ منها ، فأضرب بها في خاصرته حتى خرجتْ من مَثانته ؛ وكرّ عليه طائفةٌ من أصحابه فأسمَعَهم يقولون : أبا عمارة ، فلا يجيب ، فقلتُ : قد والله ماتَ الرجل ، وذكرتُ هِندا وما لقيتْ على أبيها وعمِّها وأخيها ، وانكشف عنه أصحابُه حين أيقنوا بموته ، ولا يرَوْنني ، فأكرّ عليه فشققتُ بطنَه ، فاستخرجتُ كبِدَه ، فجئتُ بها إلى هند بنتِ عُتْبة ، فقلتُ : ماذا لي إنْ قتلتُ قاتلَ أبيكِ ؟ قالت : سَلَبي ؛ فقلتُ : هذه كبدُ حمزةَ ، فمضَغَتْها ثم لفظَتْها ، فلا أدرى : لم تُسِغها أو قذرتْها ؛ فنزعتْ ثيابَها وحليَّها فأعطَتْنيه ، ثم قالت : إذا جئتَ مكّة فلك عشرةُ دنانير ، ثم قالت : أرني مَصرَعه ، فأرَيْتها مصرعه ، فقطعَتْ مَذاكيره ، وجدَعَتْ أنفَه ، وقطعتْ أُذُنيه ، ثم جعلت ذلك مَسَكَتين(١) ومِعضَدَين وخَدَمَتين ؛ حتى قدِمتْ بذلك مكة وقدِمتْ بكبِده أيضاً معها .

قال الواقديّ : وحدّثني عبدُ الله بنُ جعفر ، عن ابن أبي عَوْن ، عن الزّهريّ ، عن عُبيد الله بن عديّ بن الخيار ، قال : غزَوْنا الشامَ في زمن عثمانَ بنِ عفّانَ ، فمرَرْنا بحِمْصَ(٢) بعد العصر ، فقلنا : وحشيّ ، فقيل : لا تَقدِرون عليه ، هو الآنَ يَشرب الخمر حتى يُصبح ، فبِتْنا من أجله ؛ وإنّنا لثمانون رجلا ، فلمّا صلّينا الصبحَ جئنا إلى منزله ، فإذا شيخٌ كبير قد طرحتْ له زِرْبية(٣) قدر مجلسه ، فقلنا له : أخبرنا عن قتل حمزة وعن قتل مُسيلِمة ؛ فكره ذلك ، وأعرض عنه ، فقلنا : ما بِتْنا هذه الليلة إلّا من أجلك . فقال: إنّي كنتُ عبداً لجُبَير بن مُطعِم بن عديّ ، فلمّا خرج الناسُ إلى أُحُد دعاني فقال : قد رأيتَ مقتلَ طُعَيمة بنَ عَدِي ، قتَله حمزةُ بنُ عبد المطّلب يومَ بدر ، فلم تزل نساؤنا في حُزْن

---

(١) المسكة ، بالتحريك : الأسورة . والمعضد : الدملج ، والخدمة ، بالتحريك : الخلخال .
(٢) حمص : مدينة معروفة في بلاد الشام .
(٣) الزربية : النمرقة ؛ أو البساط الذي يتكأ عليه ؛ واحده زربي ، والجماعة زرابي .

شديدٍ إلى يَومى هذا ، فإن قتلتَ حمزةَ فأنتَ حرٌ ؛ فخرجتُ مع الناس ولى مَزاريق [١] كنت أمرّ بهنـد بنتِ عتبة فتقول : إيهِ أبا دُسْمة ! اشفِ واشتَفِ . فلمّا وردْنا أُحُـدا نظرتُ إلى حمزةَ يقدُم الناسَ يهدّهم هدّا ، فرآنى وقد كَمَنتُ له تحت شجرة ، فأقبَـل نحوى ، وتعرّض له سباع الخزاعىّ ، فأقبَل إليه وقال : وأنتَ أيضا يا بنَ مقطِّعة البظُور ممّن يكثر علينا ! هَلُمّ إلىّ ، وأقبل نحوه حتّى رأيتُ برقانَ رجليه ، ثم ضَرَب به الأرضَ وقتَلَه ، وأقبل نحوِى سريعاً ، فيعترض له جرفٌ فيقع فيه ، وأزرُقه بمِزراق فيقع فى لَبّته حتى خرج من بين رجليه . فقتَلَه ، وصِرتُ بهند بنت عُتبة فآذنتُها ، فأعطتْنى ثيابَهـا وحليّها ، وكان فى ساقَيْها خدَمتان من جَزْع ظَفارِ [٢] ومَسَكتان من ورق ، وخواتيم من ورق كنّ فى أصابع رجليها ، فأعطتْنى بكلّ ذلك ؛ وأما مُسيلمة فإنّا دخلْنا حديقة الموت يومَ اليمامة فلمّا رأيتُه زرقتُه بالمزراق ، وضرَبه رجل من الأنصار بالسيف ؛ فربّك أعلم أيُّنا قتَلَه ! إلّا أنّى سمعتُ امرأةً تصيح فوق جدار : قتَلَه العبدُ الحبشىّ . قال عبيدالله : فقلتُ : أتعرفُنى ؟ فأكرّ بصرَه علىّ وقال : ابن عدىّ لعاتـكة بنتِ العيص ؟ قلتُ : نعم ، قال : أما واللهِ مالى بك عَهـدٌ بعد أن دفعتُك إلى أمّك فى محفّتِك التى كانت ترضعك فيها ، ونظرت إلى برقانِ قدميك حتى كأنّه الآن .

وروى محمدُ بن إسحاقَ فى كتاب المغازى ؛ قال : علتْ هِند يومئذ صخرةً مشرِفة ، وصرختْ بأعلى صوتها :

نحـنُ جزَينـا كمْ بيومِ بَدْرِ ... والحربُ بعدالحربِ ذاتُ سُعْرِ [٣]
ما كان عن عتبةَ لِى من صبرِ ... ولا أخى وعمّـه وبِكْرِى
شفيتُ نفسى وقضيتُ نَذْرِى ... شفَيتَ وحشىُّ غليـلَ صدرِى

---

(١) المزاريق . جمع مزراق ؛ وهو الرمح القصير .
(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن ينسب إليه الجزع .
(٣) ذات سعر ، أى حر .

فشــكرُ وَحْشِيّ علىَّ عمرِى   حتى ترِمّ أعظُمِى فى قبرِى (١)

قال: فأجابتْها هند بنت أُثاثة بن المطّلب بنِ عبد مناف:

خزيتَ فى بدرٍ وغــيرِ بدرِ   يابنتَ غَدّارٍ عظيمِ الـكُفرِ (٢)

أفخمــكِ الله غَـداة الفَجرِ   بالهاشميّيــين الطوالِ الزُّهرِ

بكلّ قطّاعٍ حُسـامٍ يَفرِى   حمــزةُ ليْثِى وعلىٌّ صَقرِى

إذ رامَ شيب وأبوك قَهرِى   فخضّبا منـــه ضواحى النّحرِ

قال محمد بن إسحاق: ومن الشِّعر الّذى ارتجزتْ به هند بنت عُتْبة يومَ أُحُد:

شفيتُ من حمــزةَ نفسِى بأُحُدْ   حين بقَرتُ بطنَه عن الـكبِدْ (٣)

أذهبَ عنّى ذاكَ ما كنتُ أجِدْ   من لوعةِ الحزنِ الشديدِ المعتَمِدْ (٤)

والحرب تَعلوكمُ بشؤبوبٍ بَرِدْ   تَقْدِمُ إقداماً عليكمْ كالأُسُدْ (٥)

قال محمّد بنُ إسحـاق: حدّثنى صالح بنُ كيسانَ، قال: حُدِّثتُ أنّ عمـرَ بنَ الخطّاب قال لحسّان: ياأبا الفُرَيْعة، لو سمعتَ ماتقول هندٌ! ولو رأيتَ شرّها قائمةً على صخرة ترتجز بنا، وتَذْكُر ماصنعت بحمزة! فقـال حسّان: والله إنى لأنظر إلى الحَرْبة تَهوِى وأنا على فارع — يعنى أطمة — فقلت: والله إن هذه لَسِلاح ليس بسلاح العرب، وإذا بها تَهوِى إلى حمزةَ ولا أدرى، [ولـكن] (٦) أسمعنى بعض قولها أكفيكموها، فأنشده عمر بعضَ ماقالت؛ فقال حسّان يهجوها:

أشِرَتْ لَـكاعِ وكان عادتُهـا   لؤماً إذا أشِرَتْ مع الـكُفرِ (٧)

---

(١) ترم أعظمى: تبلى.   (٢) فى ابن هشام: « يا بنت وقاع ».

(٣) سيرة ابن هشام ٣: ٤٣.   (٤) المعتمد: القاصد المؤلم.

(٥) الشؤبوب: الدفعة من المطر. وبرد — بفتح فكسر — أى ذو برد.

(٦) من سيرة ابن هشام.

(٧) الخبر وهذا البيت فى سيرة ابن هشام ٣: ٤٤، والأبيات فى ديوانه ٢٢٩، ٢٣٠.

أخرجت مرقصةً إلى أحُـــدٍ   في القوم مُقتبةً على بَــكرٍ (١)
بَــكْرٍ ثَقَـــالٍ لاحَراك به   لاعن معاتَبـــةٍ ولا زجرٍ (٢)
أخرجت ثائرةً مُحـــاربةً (٣)   بأبيك وأبنك بعدُ في بدرٍ (٤)
وبعمِّك المتروكِ منجـــدِلًا   وأخيك منعفرَيْن في الجَفْرِ (٥)
فرجعتِ صـــاغرةً بلا تِرَةٍ   منّا ظفرتِ بهـــا ولا وَتْرِ

وقال أيضاً يهجوها :

لمن سَواقطَ وِلْدَان مطرَّحَةٌ   باتت تفحَّص في بطحاء أجيادِ (٦)
باتت تمخّض لم تَشْهد قوابلُهـا   إلّا الوحوش وإلّا جنّة الوادي
يظلّ يرجُه الصبيانُ منعفِراً   وخالُه وأبوه سيِّدا النادي (٧)

في أبيات كرهتُ ذِكرَها لفُحْشِها .

***

قال : ورَوى الواقديّ ، عن صفيّة بنتِ عبد المطّلب، قالت : كنّا قد رفّعنا (٨) يومَ أحُدٍ في الآطام ، ومعنا حسّان بنُ ثابت ، وكان من أجبن الناس ، ونحن في فارع ، فجاء نفر من يهودَ يرومون الأُطُم ، فقلت : دُونَكَ يابن الفُرَيْعة ، فقال : لاوالله لاأستطيع القتال ، ويصعَد يهوديّ إلى الأُطُمِ ، فقلتُ : شدّ على يدي السيف ، ثم برئت ، ففعل ، فضربتُه

---

(١) مرقصة ، أي مرقصة بكرها ، ورقص البعير أسرع في سيره . وفي الديوان : « معنقة » .
(٢) البكر الثقال : البطيء .
(٣) في الديوان : « أقبلت زائرة مبادرة » .
(٤) الديوان : « يوم ذي بدر » .
(٥) والجفر : البئر.
(٦) ديوانه ١٥٨ . وفي الديوان : منبذة » .
(٧) منعفرا ، أي علاه التراب ، ورواية الديوان :

قَدْ غادَرُوه لحرّ الوجهِ مُنْعَفِراً   وخاله وأبوه سيّدا النادي

(٨) رفعنا : عدونا .

عنق اليهودي ورميتُ برأسه إليهم، فلما رأوه انكشفوا ،قالت: وإنّي لفي فارع أوّل النهار مشرفة على الأطُم ، فرأيتُ المزراق ، فقلتُ أوَ من سلاحهم المَزاريق ! أفلا أراه هوى إلى أخي ولا أشعر ! ثم خرجت آخر النهار حتّى جئتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، وقد كنتُ أعرف انكشافَ المسلمين وأنا على الأطُم برجوع حسّان إلى أقصى الأطُم ، فلمّا رأى الدولة للمسلمين أقبَل حتى وقف على جدار الأطُم. قال :فلما انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعي نسوةٌ من الأنصار لقيتُه وأصحابه أوزاع ، فأوّل من لقيتُ عليّ ابن أخي فقال: ارجعي ياعمّة، فإنّ في الناس تكشّفا، فقلت :رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال صالح : قلت : ادللني عليه حتى أراه ، فأشار إليه إشارةً خفيّة ، فانتهيتُ إليه وبه الجراحة.

قال الواقديّ : وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول يومَ أُحُد : مافعل عمّي ، مافعل عمّي ! فخرج الحارث بن الصِّمّة يطلبه فأبطأ ، فخرج عليٌّ عليه السلام يَطلبُه فيقول :

يارِبِّ إنّ الحارثَ بنَ الصِّمَّهْ ... كان رفيقا وبنا ذا ذِمّهْ(١)

قد ضَلّ في مَهامِهٍ مُهِمَّهْ ... يلتمسُ الجنّةَ فيها ثَمّهْ(٢)

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولا ، فجاء فأخبرَ النبيَّ صلّى الله عليه وآله ، فأقبل يمشي حتّى وقف عليه فقال : ماوقفتُ موقفاً قطّ أغيَظ إليّ من هذا الموقف . فطلعتْ صفيّة ، فقال : يازُبير ، اغن عنّي أمّك ، وحمزة يُحفَر له ، فقال الزبير ياأمّه ، إنّ في الناس تكشفا ، فارجِعي ، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا رأته قالت : يارسولَ الله ، أين ابنُ أمي حمزة ؟ فقال : هو في الناس ؛ قالت: لأرجع حتى أنظر إليه ، قال الزبير :فجعلت أطِدُها إلى الأرض حتى دُفن وقال رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٥٤ مع اختلاف في الرواية.
(٢) المهامه : جمع مهمة ، وهي المفازة البعيدة .

صلى الله عليه وآله : لولا أنْ تحزنَ نساؤنا لذلك لتركناه للعافية ، يعنى السِّباعَ والطيْرَ حتى يحشرَ يوم القيامة من بطونِها وحَواصِلها .

قال الواقديّ : ورُوِى أن صفيّة لمّا جاءت حالت الأنصارُ بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : دَعُوها ، فجلستْ عنده ، فجعلتْ إذا بكت يبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإذا نَشَجت[1] ينشج رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعلتْ فاطمةُ عليها السلام تبكى ، فلمّا بكتْ بكى رسولُ الله صلى الله عليه وآله ثم قال : لن أُصابَ بمثل حمزة أبدا ، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفيّة وفاطمة : أبشرَا ، أتانى جبرائيلُ عليه السلام فأخبرَنى أنّ حمزة مكتوبٌ فى أهل السّموات السّبْع : حمزةُ بنُ عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله .

قال الواقديّ : ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله بحمزةَ مَثْلا شديدا ، فحزنه ذلك وقال : إن ظفرتُ بقريش لأمثلنّ بثلاثين منهم ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾[3] فقال صلى الله عليه وآله : بل نصبر ، فلم يمثِّل بأحد من قريش .

قال الواقديّ : وقام أبو قَتادةَ الأنصاريُّ فجعل ينال من قريش لما رأى من غَمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفى كلّ ذلك يشير إليه أن أجلس ثلاثا ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا أبا قَتادة ، إنّ قريشا أهلُ أمانة ، من بغاهم العواثِرَ كبَّه الله لِفيه ، وعسى إن طالت بك مدّة أن تحقِر عملك مع أعمالهم ، وفعالك مع فعالهم ،

---

(١) يقال : نشج الباكى ، غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

(٢) يقال : مثل بفلان مثلا ومثلة بالضم : نكل به .

(٣) سورة النحل : ١٢٦ .

لولا أن تبطَر قريشٌ لأخبرتُها بما لها عند الله تعالى . فقال أبو قتادة : والله يا رسولَ الله ما غضبتُ إلا لله ورسولِه حين نالوا منه ما نالوا ، فقال : صدقتَ . بئس القومُ كانوا لنبيِّهم .

قال الواقديّ : وكان عبدُ الله بن جحش قبل أن تقع الحربُ قال : يارسول الله ، إن هؤلاء القومَ قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهمّ أُقسِم عليك أن نَلقى العدوَّ غداً فيقتلونى ويبقَروا بطنى ويمثِّلوا بى ، فتقول لى : فيمَ صُنِع بك هذا ؟ فأقول : فيك . قال : وأنا أسألك يا رسولَ الله أخرى ، أن تَلِي تَركتى من بعدى . فقال له : نعم ، فخرج عبدُ الله فقُتِل ومُثِّل به كل المثْل ، ودُفِن هو وحمزةُ فى قبرٍ واحد ، ووَلِى تركتَه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشترى لأمِّه مالاً بخيبر .

قال الواقديّ : وأقبلتْ أختُه حَمْنة بنتُ جَحْش ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا حَمْن(١) ، احتسبى ، قالت : مَن يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُون ﴾(٢) غفر الله له ورحمه ، وهنيئا له الشهادة ، ثم قال لها : احتَسبى . قالت : مَن يا رسولَ الله ، قال : أخوكِ عبدَ الله ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وإنَّا إليهِ راجِعُونَ ﴾(٢) غفر الله له ورحمه وهنيئا له الشهادة ، ثم قال : احتسبى ، قالت : مَن يارسول ؟ قال : بَعلكِ مُصعب بن عُمير ، فقالت : واحُزناه ! ويقال : إنها قالت : واعُقْراه .

قال محمد بن إسحاق فى كتابه : فصرخَتْ وولْولَتْ .قال الواقديّ : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن للزوج من المرأة مكانًا ما هو لأحد . وهكذا روَى ابن إسحاق أيضا .

قال الواقديّ : ثم قال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : لم قلت هذا ؟ قالت ذكرتُ يتم بنيه فراعنى . فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وآله لولده أن يُحسِن الله عليهم الخلف ،

---

(١) يا حمن ، مرخم « يا حمنة » .   (٢) سورة البقرة : ١٥٦ .

فتزوّجتْ طلحة بن عبيد الله ، فولدتْ منه محمد بن طلحة ، فكان أوصَل النـاس لولد مُصعب بن عُمير .

***

القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد

قال الواقديّ : حدثني موسى بنُ يعقوب ، عن عمّته ، عن أمّها ، عن المِقداد ، قال: لمـا تصافّ القوم للقتال يومَ أحـد ، جلس رسول الله صلّى الله عليـه وآله تحت راية مُصعب بن عمير ، فلما قُتل أصحابُ اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى ، وأغارَ المسلمون على معسكرهم ينهَبونه ، ثم كرّ المشركون على المسلمين ، فأتوهم من خَلفهم ، فتفرّق الناس ، ونادى رسولُ الله صلى الله عليه وآله في أصحاب الألوِية ، فقُتل مُصعبُ بن عُمَير حاملُ لوائِه صلى الله عليه وآله،وأخذَ راية الخزرج سَعدُ بنُ عُبادة، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وآله تحتها ، وأصحابه محدِقون به ، ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الرّدم أحـد بني عبد الدّار آخرَ نهار ذلك اليوم ، ونظرتُ إلى لواءالأوْس مع أسَيد بن حُضَير ، فناوَشوا المشركين ساعة، واقتتلوا على اختلاط من الصُّفوف،ونادى المشركون بشعارهم : ياللَعُزّى! يالَهُبَل ! فأوجعوا والله فينا قتلا ذَرِيعا ، ونالوا مِن رسول الله صلى الله عليه وآله مانالوا ؛ لا والذى بعثه بالحقّ مازال شِبراً واحداً، إنه لفى وجه العدوّ وتثوب إليه طائفةٌ من أصحابه مرّة، وتتفرّق عنه مرّة ، فربما رأيته قائما يَرمى عن قوسِه أو يرمى بالحجر حتى تحاجزوا،وكانت العِصابة التى ثبتتْ مع رسول الله صلى الله عليـه وآله أربعـة عشر رجلا ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار ، أما المهاجرون فعلىٌّ عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن ابنُ عوف وسعدُبن أبىوقّاص وطلحة بن عبيدالله وأبوعبيدة بنالجرّاح والزّبير بنالعوّام،

وأما الأنصار فالحُباب بن المنذر وأبو دُجانة[١] وعاصمُ بنُ ثابت بن أبى الأقلح والحارث ابنُ الصِّمّة وسهل بنُ حُنيف وسعدُ بن معاذ وأُسَيد بنُ حُضَير .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أن سعد بن عبادة ومحمد بن مَسْلَمَة ثبتا يومئذ ولم يفرّا . ومن روى ذلك جعلهما مكانَ سعد بن مُعاذ وأُسَيد بن حُضَير .

قال الواقدىّ : وبايَعه يومئذ على الموت ثمـانية : ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فأمّا المهاجرون فعلىّ عليه السلام ، وطلحةُ ، والزّبير ؛ وأما الأنصار فأبو دجانة والحارثُ بن الصّمة والحُباب بن المنـذر وعاصم بنُ ثابت وسهل بنُ حنيف ، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحد ؛ وأمّا باقى المسلمين ففرّوا ورسولُ الله صلى الله عليـه وآله يدعوهم فى أخرام حتى انتهى منهم إلى قريب من المِهْرَاس[٢] .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عتبة بنُ جبير ، عن يعقوبَ بن عُمير بن قَتادة قال : ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلا كلهم يقول : وَجهى دون وجهك ، ونفسى دونَ نفسك ، وعليك السلام غير مودَّع .

* * *

قلت : قد اختلف فى عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا ، مع اتفاق الرُّواة كافّة على أن عثمانَ لم يثبت ، فالواقدىّ ذكر أنه لم يثبت ، وأما محمد بن إسحاق والبلاذرىّ فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ ، واتفقوا كلّهم على أن ضرارَ بن الخطاب الفهرىّ قرَع رأسه بالرمح وقال : إنها نعمة مشكورة يابن الخطّاب ، إنى آليت ألا أقتل رجلا من قريش .

وَرَوَى ذلك محمد بن إسحاق وغيرُه ، ولم يختلفوا فى ذلك ، وإنما اختلفوا ، هل قرَعه بالرُّمح وهو فارٌّ هارب ، أم مقدِمٌ ثابت ! والذين رَوَوْا أنه قرَعه بالرمح وهو هارب لم يقل

---

(١) أبو دجانة ؛ هو سماك بن خرشة .

(٢) المهراس : ماء بأحد .

أحدٌ منهم إنه هرَب حين هرب عثمانُ ولا إلى الجهة التي فرّ إليها عثمان، وإنما هرب معتصما بالجبل، وهذا ليس بعيب ولا ذَنْب، لأنّ الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اعتَصَموا بالجبل كلُّهم وأصعدوا فيه، ولكن يَبقى الفرقُ بين من أصعَد فى الجبل فى آخر الأمر ومَنْ أصعَد فيه والحربُ لم تضعْ أوزارها، فإن كان عمرُ أصعد فيه آخر الأمر، فكلّ المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرّق.

ولم يختلف الرُّواة من أهل الحديث فى أنّ أبا بكر لم يفرّ يومئذ، وأنه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، والثبوت جهاد، وفيه وحدَه كفاية.

وأمّا رُواة الشِّيعة فإنهم يروون أنه لم يثبت إلاّ علىّ وطلحة والزبير وأبو دُجانة وسهلُ ابنُ حنيف وعاصمُ بنُ ثابت، ومنهم من رَوَى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار، ولا يعدّون أبا بكر وعمرَ منهم. رَوَى كثير من أصحاب الحديث أنّ عثمان جاء بعد ثالثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعرَض، فقال: لقد ذهبتَ فيها عَرِيضة [1].

***

رَوَى الواقدىّ قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأبلِغه عنى ما أقول لك، فإنّى لا أعلم أحداً يبلّغه غيرك. قال الوليد: أفعَل. قال قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدرا ولم تَشهدْها، وثبتُّ يومَ أُحُد وولّيتَ، وشهدتُ بيعةَ الرّضوان ولم تشهدْها، فلمّا أخبره قال عثمان: صدَق أخى، تخلّفتُ عن بدر على ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى مريضة، فضرَب لى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بسَهْمى وأجرى، فكنتُ بمنزلة من

(١) فى النهاية لابن الأثير: «وفى حديث أحد قال للمنهزمين: لقد ذهبتم فيها عريضة، أى واسعة».

حضر بدرا ، ووليت يومَ أحد ، فعفا الله عنى فى مُحكَم كتابه . وأمّا بيعة الرّضوان فإنّى خرجتُ إلى أهل مكّة ، بعثنى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وقال : إنّ عثمان فى طاعة الله وطاعة رسوله ، وبايَعَ عنّى بإحدى يديه على الأخرى ، فكان شِمال النبيّ خيرا من يَمينى فلمّا جاء الوليدُ إلى عبد الرحمن بما قال قال : صَدَق أخى .

قال الواقديّ : ونظر عمرُ إلى عثمان بنِ عفّان فقال : هذا ممّن عفا الله عنه ، وهم الذين تولّوْا يومَ التقى الجمعان ، والله ماعفا الله عن شيء فردّه . قال : وسأل رجل عبدَ الله بن عمر عن عثمانَ فقال : أذنَبَ يومَ أُحُدٍ ذنبا عظيما ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذنبا صغيرا فقتلتموه ؛ واحتجّ مَن رَوَى أن عمرَ فرّ يوم أحد بما روى أنّه جاءته فى أيام خلافته امرأة تطلب بُرْدا من بُرود كانت بين يديه ، وجاءت معها بنتٌ لعمر تطلب بُرْدا أيضا، فأعطى المرأة وردّ ابنته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن أبا هذه ثبَتَ يومَ أُحُد ، وأبا هذه فرّ يومَ أُحُد ولم يَثبُت .

ورَوَى الواقديّ أن عمر كان يحدِّث فيقول : لمّا صاح الشيطان : قُتِل محمد ، قلت: أَرْقَى فى الجبل كأنّى أرْوِيّة ، وجعل بعضهم هذا حجّةً فى إثبات فرار عمر ، وعندى أنه ليس بحجة ، لأن تمام الخبر : فانتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . وهو يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل ﴾[1] الآية، وأبو سُفيانَ فى سفح الجبل فى كَتيبته يرُومون أن يعلُوا الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ إنه ليس لهم أن يَعلونا . فانكشفوا ، وهذا يدل عَلَى أن رُقيّه فى الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وهذا بأن يكون مَنقبةً له أشبه .

ورَوَى الواقديّ قال : حدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى جَهْم ، اسمُ أبى جهم عُبَيد ، قال : كان خالد بنُ الوليد يحدِّث وهو بالشام فيقول: الحمد لله

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

الذى هدانى للإسلام ، لقد رأيتُنى ورأيتُ عمرَ بن الخطاب حين جال المسلمون وانهزموا يومَ أحُد وما معه أحَد ، وإنى لفى كتيبةٍ خَشناء [1] ، فما عرفه منهم أحــد غيرى ، وخشيتُ إن أغريت به من معى أن يَصمَدوا له ، فنظرتُ إليــه وهو متوجِّه إلى الشِّعب .

***

قلت : يجوز أن يكون هذا حقًّا ، ولا خلاف أنه توجّه إلى الشِّعب تاركا للحرب ، لــكن يجوز أن يكون ذلك فى آخر الأمر لما يئس المسلمون من النُّصْرة ، فــكلهم توجه نحوَ الشِّعب حينئذ ، وأيضا فإن خالدا متَّهم فى حقّ عمرَ بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشَّحناء والشَّنآن ، فليس بمنــكَر من خالد أن ينعي عليه حركاته ، ويؤكِّد صحة هذا الخبر ، وكون خالد عفَّ عن قتل عمر يومئذ ، ماهو معلوم من حال النسب بينهما من قِبَل الأمّ ، فإن أمّ عمر حَنتمةُ بنتُ هاشم بن المغيرة ، وخالد هو ابن الوَليد بن المغيرة ، فأمّ عمر ابنة عم خالد لَحًّا ، والرَّحِم تعطف .

حضرتُ عندَ محمد بن معدّ العلوىّ الموسوىّ الفقيه على رأى الشِّيعة الإماميّة رحمه الله فى داره بدرب الدوابّ ببغدادَ فى سنة ثمانٍ وسِتِّمائة، وقارئ يقرأ عنده مَغازى الواقدىّ، فقرأ : حدثنا الواقدىّ قال : حدثنى ابنُ أبى سَبْرة ، عن خالد بن رِياح ، عن أبى سُفْيان مولى ابن أبى أحمد قال : سمعتُ محمدَ بنَ مَسلمة يقول : سمعتْ أذُناىَ وأبصرتْ عيناىَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أحُد وقد انــكشف الناس إلى الجبل، وهو يدعوهم وهم لا يَلْوُون عليه ، سمعتُه يقول: إلىَّ يافلان ، إلىَّ يافلان ، أنا رسولُ الله ، فما عرّج عليه واحدٌ منهما ومضَيا ، فأشار ابنُ معدّ إلىّ ، أن اسمَعْ ، فقلت : ومافى هذا ؟ قال : هذه كناية عنهما ، فقلتُ : ويجوز ألا يكون عنهما ، لعلّه عن غيرهما. قال : ليس فى الصحابة من

(١) كتيبة خشناء : كثيرة السلاح .

يحتشم ويُستحيا من ذكره بالفرار وما شابَهه من العيب ، فيضطر القائل إلى الكناية إلاها قلتُ له : هـذا وَهم[١] ، فقال : دَعْنا مِن جَدَلك ومنعِك ، ثم حلف أنّه ما عنى الواقدىُّ غيرَهما ، وأنه لو كان غيرهما لذكَرَه صريحا ، وبان فى وجهه التنكّر من مخالفتى له .

***

رَوَى الواقدىّ قال : لمّا صاح إبليس : إن محمدا قد قُتِل ، تفرّق الناس ، فمنهم من ورد المدينة ، فكان أول مَن وردها يُخبِر أن محمدا قد قُتل ، سعدُ بن عثمان أبو عُبادة ، ثم ورد بعدَه رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن: أعَن رسولِ الله تفِرّون ! ويقول لهم ابنُ أمِّ مكتوم : أعن رسول الله تفرون ؟ يؤنّب بهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله خَلَّفه بالمدينة يصلّى بالناس ، ثم قال : دُلّونى عَلَى الطريق – يعنى طريقَ أُحُد – فدَلّوه ، فجعل يستخبِر كلَّ من لقىَ فى الطريق حتى لِحَق القوم، فعلِم بسلامةِ النبي صلى الله عليه وسلّم ، ثم رجع . وكان ممن ولّى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة ابن حاطب وسواد بن غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر بلغ مَلَل[٢] ، وأوس بن قَيْظى فى نفر من بنى حارثة بلغوا الشّقرة[٣] ولقيتهم أمّ أيْمَن تَحْثِي[٤] فى وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هاكَ المِغْزَل فاغزِل به ، وهلّم . واحتجّ من قال بفِرار عمرَ بما رواه الواقدىّ فى كتاب المغازى فى قصّـة الحديبية ، قال : قال عمر يومئذ : يارسول الله ، ألم تكن حدّثتَنا أنك ستدخل المسجدَ الحرام وتأخذُ مفتاحَ الكعبة وتُعرِّف مع المعرِّفين ، وهدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نُحِرَ ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أقلتُ لـكم فى سفركم هذا ؟ قال عمر : لا ، قال : أما إنكم ستدخلونه وآخذُ مفتاحَ الكعبة وأحلق رأسى ورءوسكم ببَطْن مكة وأعرِّف مع المعرِّفين ؛ ثم أقبل على عمر وقال :أنسيتم يوم

---

(١) كذا فى ب : والذى فى ا « ممنوع » .

(٢) ملل ؛ كجبل : موضع بعينه . (٣) الشقرة : موضع معروف لبنى سليم .

(٤) يقال : حثا التراب فى وجهه يحثوه ويحثيه ، إذا رماه به .

أُحُد ، ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَـدٍ ﴾[1] وأنا أدعوكم فى أخراكم ! أنَسِيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جاءوكم من فوقكم ومِن أسفلَ منكُمْ وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ﴾[2]! أنسيتم يومَ كذا! وجعل يذكّرهم أمورا ، أنَسِيتم يوم كذا! فقال المسلمون: صدق اللهُ وصدَقَ رسولُه ، أنتَ يارسول الله أعلمُ بالله منّا ، فلمّا دخل عام القضيّة وحلق رأسَه قال : هـذا الذى كنتُ وعدتُـكم به ، فلما كان يوم الفَتح وأخذ مفتاح الكَعبة قال : ادعُوا إلىّ عمرَ بنَ الخطّاب ، فجاء فقال : هـذا الذى كنتُ قلتُ لـكم . قالوا : فلو لم يكن فرّ يومَ أُحُد لما قال له : أنَسيتم يومَ أحد إذ تُصعِدون ولا تَلْوونَ .

* * *

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم فى الجبل

قال الواقدىّ :حدّثنى موسى بن مُحمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : لمّا صاح الشيطانُ لعنه الله: إنّ محمدا قد قتل يحزُنهم بذلك ،تفرّقوا فى كلّ وجه ، وجعل الناسُ يمرّون على النبى صلّى اللهعليه وآله لا يَلوِى عليه أحدٌ منهم، ورسولُ اللهيدعوهم فى أخراهم ،حتى انتهت هزيمةُ قوم منهم إلى المِهْراس ، فتوجّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يريد أصحابَه فى الشِّعب فانتهى إلى الشِّعب وأصحابه فى الجبل أوْزاع، يذكرونَ مقتَل مَن قُتِل منهم ، ويذكرون ماجاءهم عن رسول اللهصلّى اللهعليه وآله ،قال كعب بنُ مالك :فكنتُ أول من عرَفه وعليه المِغفَر ، فجعلت أصيحُ وأنا فى الشّعب : هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حَىٌّ ، فجعل يُومِئ إلىّ بيَدِه على فيه أى اسكُت ، ثم دعا بلَأْمَتِى[3] فَلَبِسها ونزع لأمَته .

قال الواقدى : طلع رسولُ اللهصلى الله عليه وآله على أصحابه فى الشِّعب بين السَّعدَيْن:

---

(١) سورة آل عمران ١٥٣ . (٢) سورة الأحزاب : ١٠ .

(٣) اللأمة : الدرع .

سَعدِ بنِ عُبادة ، وسعد بن مُعاذ يتكفّأ فى الدِّرع ، وكان إذا مشى تكفأ تكفُّؤا ، ويقال : إنه كان يتوكّأ على طلحة بن عُبيد الله .

قال الواقدىّ : وما صلى يومئذ الظهر إلا جالسا للجُرْح الذى كان أصابه .

قال الواقدىّ : وقد كان طلحة قال له : إنّ بى قوة ، فقم لأحمِلَك ، فحَمَله حتى انتهى إلى الصَّخرة التى عَلَى فم شِعب الجبَل ، فلم يزل يحمِله حتى رفَعَه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النّفر الذين ثبَتوا معه ، فلمّا نظر المسلمون إليهم ظنوهم قُرَيْشا ، فجعلوا يولُّون فى الشّعب هاربين منهم ، ثم جعل أبو دُجانة يُليح إليهم بعمامةٍ حمراء على رأسه ، فعرَفوه فرجعوا ، أو بعضُهم .

قال الواقدىّ : ورُوى أنه لما طلع عليهم فى النّفر الذّين ثبتوا معه — وهم أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار — جعلوا يولون فى الجبل خائفين منهم يظنّونهم المشركين ، جعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله يتبسّم إلى أبى بكر وهو على جنْبه ويقول له : ألِحْ إليهم ، فجعل أبو بكر يليح إليهم وهم لا يعرِّجون حتى نزع أبو دجانة عصابةً حمراء على رأسه فأوْفَى[1] على الجبل ، فجعل يصيح ويُليح ، فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وَضع أبو بردة بنُ نِيَار سهما على كَبِد قوسه ، فأراد أن يرمى به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما تكلّموا وناداهم رسولُ الله صلى الله عليه وآلِه أمسك ، وفرح المسلمون برؤيته حتى كأنّهم لم تُصبهم فى أنفسهم مصيبة ، وسُرُّوا لسلامته وسلامتِهم من المشركين .

قال الواقدىّ : ثم إنّ قوما من قريش صعدوا الجبلَ فعَلَوا على المسلمين وهم فى الشّعب . قال : فكان رافعُ بن خديج يحدِّث فيقول : إنى يومئذ إلى جنب أبى مسعود الأنصارى وهو يذكر من قتل من قومه ، ويسأل عنهم ، فيخبر برجال : منهم سعدُ بن

---

(١) أوفى : أشرف وعلا .

الرّبيع ، وخارجة بن زهير ، وهو يسترجع[1] ويترحّم عليهم ، وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حميمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فبينام على ذلك ردَّ الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم ، فإذا عدوّهم فوقهم قد علوّا ، وإذا كتائب المشركين بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون ، وندبنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وحضّنا على القتال، والله لكأنى أنظرُ إلى فلان وفلان فى عرض الجبل يَعْدوان هاربيْن .

قال الواقدىّ : فكان عمرُ يحدِّث يقول ، لمّا صاح الشيطان : قتِل محمد ، أقبلتُ أرق إلى الجبل ، فكأنى أرْوِية ، فانتهيتُ إلى النبي صلّى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلّا رَسولٌ قد خلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، وأبو سفيانَ فى سَفْح الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو ربَّه : اللهم ليس لهم أن يَعلُوا . فانكشفوا .

قال الواقدىّ : فكان أبو أسَيْد الساعدىّ يحدِّث فيقول : لقد رأيتُنا قبل أن يلقى النُّعاس علينا فى الشِّعب وإنّا لسلْم لمن أرادنا ، لِما بنا من الحزن ، فألقى علينا النُّعاس ، فنمنا حتى تَناطح الحجَف[2] ، ثم فزِعنا وكأنّا لم يصبنا قبلَ ذلك نكْبة . قال : وقال الزبير ابنُ العوّام : غشينا النعاس فما منّا رجل إلا وذَقَنه فى صدرِه من النوم ، فأسمع معتِّب بن قُشَير ـ وكان من المنافقين ـ يقول : وإنّى لكالحالم : ﴿ لو كانَ لنَا من الأمرِ شىءٌ ما قُتِلنا هاهنا ﴾[3] ، فأنزل الله تعالى فيه ذلك .

قال : وقال أبو اليُسْر : لقد رأيتنى ذلك اليومَ فى رجال من قومى إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنزل الله علينا النّعاس أَمَنةً منه ، مامنهم رجل إلّا يغطّ غَطيطا حتّى إن الحجَف لتناطَح ، ولقد رأيتُ سيفَ بشرِ بن البراء بن مَعْرور سَقَط من يده

---

(١) استرجع : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) الحجف بالتحريك : جمع حجفة ؛ وهى الترس .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

ومايشعر به حتّى أخذه بعد ماتثلّم ، وإنّ المشركين لتحتنا ، وسقط سيفُ أبي طلحة أيضا ولم يُصِب أهلَ الشكّ والنّفاق نُعاسٌ يومئذ ، وإنّما أصاب النّعاس أهلَ الإيمان واليقين، فكان المنافقون يتكلّم كلّ منهم بما فى نفسه ، والمؤمنون ناعسون .

***

قلت : سألتُ ابن النجّار المحدِّث عن هذا الموضع فقلت له : مِن قصّة أُحُد تُدَلّ على أنّ المسلمين كانت الدولة لهم بادئَ الحال ، ثم صارت عليهم ، وصاح الشيطان: قُتل محمد ، فانهزم أكثرهم ، ثم ثاب أكثرُ المنهزمين إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله، فحاربوا دونه حرْبًا كثيرة طالت مدّتُها حتى صار آخرُ النهار ، ثم أصعدوا فى الجبل معتصمين به، وأصعد رسول الله صلى الله عليه وآله معهم ، فتحاجز الفريقان حينئذ ، وهذا هو الّذى يدلّ عليه تأمّل قصّة أحد ، إلّا أنّ بعض الروايات الّتى ذكرها الواقدىّ يقتضى غير ذلك ، نحو روايته فى هذا الباب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لمّا صاح الشيطان : إنّ محمدا قد قُتِل ، كان ينادى المسلمين فلا يعرّجون عليه ، وإنّما يصعدون فى الجبل ، وإنّه وجّه نحو الجبل ، فانتهى إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتْل من قُتل منهم ؛ وهذه الرواية تدلّ على أنّه أصعد صلّى الله عليه وآله فى الجبل من أوّل الحرب ، حيث صاح الشيطان ، وصياحُ الشيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لمّا غشيهم وهم مشتغلون بالنهْب واختلط الناسُ ، فكيف هذا !

فقال : إنّ الشّيطان صاح . قتل محمد دفعتين : دفعة فى أوّل الحرب ، ودفعة فى آخر الحرب ، لمّا تصرّم النهار وغشِيت الكتائب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قُتل ناصروه وأكلتْهم الحرب ، فلم يبق معه إلّا نفر يسير لا يبلغون عشرة ، وهذه كانت أصعبُ وأشدُّ من الأولى ، وفيها اعتصم ، وما اعتصم فى صرخة الشيطان الأولى بالجبل ، بل ثبت وحامَى عنه أصحابه ، ولقد لقِى فى الأولى مشقّة عظيمة من ابن قمِيئة وعُتْبة بن أبى وقّاص وغيرهما ،

ولكنّه لم يفارقْ عرْصة الحرب ، وإنّمـا فارقها وعَلِم أنّه لم يبق له وجه مُقـام فى صرختـه الثانية .

قلت له : فـكان القومُ مختلطين فى الصّرخة الثانية حتّى يَصرُخ الشيطان : قُتِل محمد !

قال : نعم ، المشركون قد أحاطوا بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وبمن بقِيَ معـه من أصحابه ، فاختلط المسلمون بهم ، وصاروا مغمورين بينهم ، لقلّتهم بالنسبة إليهم ؛ وظنّ قوم من المشركين أنّهم قد قَتلوا النبيّ صلّى الله عليه وآله لأنّهم فقدوا وجهه وصورتَه ، فنـادى الشيطان : قُتِل محمّد ، ولم يكن قُتِل صلّى الله عليه وآله ، ولـكن اشتبهتْ صورتُه عليهم وظنّوه غيرَه ، وأكثر من حامَى عنه فى تلك الحال علىٌّ عليه السلام وأبو دُجانة وسهلُ ابنُ حنيف ، وحامَى هو عن نفسه ، وجرح قوما بيده تارةً بالسهام ، وتارة بالسيف ولـكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النَّقْع (١) ، وكانت قريشٌ تظنّه واحـداً من المسلمين ، ولو عرفوه بعينه فى تلك الثورة لـكان الأمر صعبا جدّا ، ولـكنّ الله تعالى عَصمه منهم بأن أزاغ أبصارَهم عنه ، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه ، وهو يَقرُب من الجبل حتّى صار فى أعلى الجبل ، أصعَد من فم الشِّعب إلى تدريج هناك فى الجبـل ، ورَقِي فى ذلك التـدريج صاعدا حتى صار فى أعلى الجبـل ، وتبعه النفر الثّلاثة فلَحِقوا به .

قلتُ له : فما بال القوم الّذين صعدوا الجبـلَ من المشركين ، وكيف كان إصعادهم وعَوْدُهم ؟

قال : أصْعَدُوا لحرب المسلمين لا لِطَلب رسول الله صلّى الله عليه وآله ؛ لأنّهم ظنوا أنه قد قُتِل ، وهذا هو كان السبب فى عَوْدهم من الجبل ، لأنهم قالوا : قد بلغْنا الغرضَ

---

(١) النقع : غبار الحرب .

الأصليّ وقتلنا محمّدا ، فما لنا والتصميم على الأوْس والخزْرج وغيرهم من أصحابه ، مع مافى ذلك من عظم الخطر بالأنفس !

قلت له : فإذا كان هذا قد خَطَر لهم ، فلماذا صعدوا فى الجبل .

قال : يخطر لك خاطر ، ويدْعوك داعٍ إلى بعض الحركات ، فإذا شرعتَ فيها خَطَر لك خاطرٌ آخر يصرفك عنها ، فترجع ولا تتمها !

قلت : نعم فما بالهم لم يَقصِدوا قصدَ المدينة ويَنهبوها ؟

قال : كان فيها عبدُ الله بنُ أبَيّ فى ثلثمائة مقاتل وفيها خَلْق كثير من الأوس والخزْرج ، لم يحضروا الحربَ وهم مسلمون ، وطوائف أخرُ من المنافقين لم يخرجوا ، وطوائف أخرى من اليهود ، أولُو بأسٍ وقوّة ، ولهم بالمدينة عيال وأهلٌ ونساء ،وكلٌّ هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة ، ولم تكن قريش تأمَن مع ذلك أن يأتيها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من ورائها بمن يجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم ، فكان الرأىُ الأصوَبُ لهم العدول عن المدينة وترك قصدها .

***

قال الواقدىّ : حدّثنى الضحاك بن عثمان ، عن حمزة بن سعيد ، قال : لما تحاجزوا وأراد أبو سفيانَ الانصرافَ ، أقبل يسيرُ على فرس له حوراء [(١)] ، فوقف على أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وهم فى عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أعل هبَل ثم صاح : أين ابن أبى كبْشة ؟ يومٌ بيوم بدر ، ألا إن الأيام دُوَل .

وفى رواية أنّه نادى أبا بكر وعمر أيضا ، فقال : أين ابنُ أبى قحافة ؟ أين ابن الخطّاب ؟ ثم قال : الحربُ سِجال ، حنظلةٌ بحنظلة ، يعنى حنظلة بن أبى عامر بحنظلة بن

---

(١) حوراء : واسعة العينين .

أبي سُفيان ، فقال عمر بن الخطّاب : يارسولَ الله، أجيبه ؟ قال : نعم فأجِبْه ، فلماقال:اُعل هُبَل قال عمرُ : الله أعلى وأجلّ .

ويُرْوَى انّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لعمر : قل له : لله أعلى وأجلّ ، فقال أبو سفيان : إن لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ، فقال عمر : أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل له : الله مولانا ولا مولى لكم ، فقال أبو سفيان : إنها قد أنعمت ، فقال : عنها يابن الخطاب ، فقال سعيد بن أبي سفيان : ألا إن الايام دول وان الحرب سجال ، فقال عمر : ولاسواء[1] ؛ قتلانا فى الجنةوقتلاكم فى النار ،فقال أبوسفيان: إنكم لتقولون ذلك لقد خِبْنا إذاً وخسرنا ، ثم قال : يابن الخطاب ، قمْ إلىّ أكلّمك :فقام إليه فقال:أنشدك بدينك:هل قتلنا محمدا ؟ قال : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال: أنت عندى أصدق من ابن قمِئة ، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلاكم عنتاً ومثلا،ألا إنّ ذلك لم يكن عن رأى سراتنا ، ثم أدركته حَمِيّةُ الجاهلية فقال : وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه؟ ثم نادى : ألا إنّ موعدكم بدر الصفراء ، على رأس الحول ، فوقف عمروقفةً ينتظر مايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قل : نعم ، فانصرف أبو سفيانَ إلى أصحابه وأخذوا فى الرّحيل ، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أن يُغيروا على المدينة فيهلك الذرارىّ والنساء ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لسعد بن أبى وقّاص :اذهب فأتنا بخبر القوم ، فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا[2] الخيل فهو الظّعنُ إلى مكة ،وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينـــة ، والذى نفسى بيده ، إن ساروا إليها لأسيرنّ إليهم ثم لأناجزنّهم . قال سعد : فتوجهت أسعى وأرصدت نفسى إن أفرعنى شىء رجعت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلّم وأنا أسعى ، فبدأت بالسّعى حين ابتدأت ، فخرجت فى آثارهم

---

(١) ولا سواء : يعنى لا يستوى هذا وذاك .
(٢) جنبوا الخيل ، أى ساقوها إلى جانبهم .

حتى إذا كانوا بالعَقِيق[١] وأنا بحيث أرامم وأتأمّلهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم، ثم وقفوا وقفةً بالعقيق، وتشاوروا فى دخول المدينة، فقال لهم صفوان ابن أمية: قد أصبتم القومَ، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالُّون، ولكم الظفر، فإنكم لاتدرون ما يغشاكم، فقد وليتم يومَ بدر، لا والله ماتبعوكم وكان الظفر لهم. فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: نهاهم صفوان. فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا فى المكمن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو كالمنكسر فقال: وُجِّه القوم يارسولَ الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل. فقال: ماتقول؟ قلت: ماقلت يارسول الله، فخلا بى فقال: أحقًّا ماتقول؟ قلت: نعم يارسول الله، قال: فما بالى رأيتك منكسرا؟ فقلت: كرهت ان آتى المسلمين فرحا بقفولهم إلى بلادهم، فقال صلّى الله عليه وسلم: إن سعداً لمجرِّب.

قال الواقدىّ: وقد روى خلاف هذا، روى أن سعدا لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى سعد: خفِّض صوتك فإن الحرْب خَدْعة، فلا تُرِى الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، فإنما ردّهم الله تعالى.

قال الواقدىّ: وحدّثنى ابن أبى سَبْرة، عن يحيى بن شبل، عن أبى جعفر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص: إن رأيتَ القوم يريدون المدينة فأخبرنى فيما بينى وبينك، ولا تفتّ فى أعضاد المسلمين، فذهب فرآهم قد امتطَوا الإبل، فرجع، فما ملك أن جعل يصيحُ سرورا بانصرافهم.

قال الواقدىّ: وقيل لعمرو بن العاص: كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يومَ

---

(١) العقيق: موضع بالمدينة فيه عيون ونخيل. (ياقوت).

أحد ؟ فقال : ما تريدون إلى ذلك ! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله ، ثم قال : لما كرّرنا عليهم أصبنا مَنْ أصبنا منهم وتفرّقوا فى كلّ وجه ، وفاءت لهم فئةٌ بعد ؛ فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغَلَبة ، فلو انصرفنا ، فإنه بلغنا أن ابنَ أُبىّ انصرف بثلث الناس ، وقد تخلّف الناسُ من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا، وفيناجراح، وخيلُنا عامّتها قدعُقِرت من النَّبل، فمضينا ، فما بلغنا الرّوحاء(١) حتى قام علينا عدّة منها؛ وانصرفنا إلى مكة .

قال الواقدىّ : حدثنى إسحاق بن يحيى بن طلحة ، عن عائشة ؛ قال: سمعتُ أبا بكر يقول : لما كان يومُ أُحُد ورُمِى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه حتى دخلتْ فى وجهه حَلْقتان من المِغْفر ، ، أقبلتُ أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يطير طيرَانا ، فقلت : اللهمّ اجعله طلحة بن عبيدالله ؛ حتى توافينا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فإذا أبو عبيدة بن الجرّاح ، فبدرنى فقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلّا تركتنى فأنتزِعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر : فتركتُه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم صاحبَكم » ، يعنى طلحة ، فأخذ أبو عبيدة بثَنيّته حلقة المِغفر ، فنزعها وسقط على ظهره ، وسقطتْ ثنيّة أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقة بثنيّته الأخرى ، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرَم(٢) . ويقال : إن الذى نَزَع الحلْقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُقبة بن وَهْب بن كلدة ؛ ويقال : أبو اليسر .

قال الواقدىّ : وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهب بن كَلَدَة .

قال الواقدىّ : وكان أبو سعيد الخُدرِىّ يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه سلم

---

(١) الروحاء : موضع على أربعين ميلا من المدينة .
(٢) الأثرم : الذى لا أسنان له .

أصيب وجههُ يومَ أحُد ، فدخلت الحلقتان من المِغفر فى وَجْنتيه ، فلمّا نُزِعتا جعل الدم يَسربُ كما يسرب الشَّنّ (١) ، فجعل مالك بنُ سِنان يمجّ الدمَ بفيه ، ثم ازدَرَدَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أحبّ أن ينظر إلى مَن خالط دمه بدمى فلْينظر إلى مالك بن سِنان . فقيل لمالك : تشرب الدمَ ! فقال : نعمْ ؛ أشربُ دَم رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ مسّ دمُه دمى لم تُصِبْه النار » .

قال الواقدىّ : وقال أبو سعيد : كنّا ممّن رُدّ من الشّيخين (٢) لم نَجُز مع المُقَاتِلة ، فلمّا كان من النّهار بلغَنا مصابُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتفرّق الناسِ عنه ، جئتُ مع غِلْمان بَنِي خُدْرَة نَعرِضُ لرسول الله صلى الله عليه وآله ننظر إلى سلامته ، فنرجع بذلك إلى أهلنا ، فلقيَنا الناس متفرّقين ببطن قناة ، فلم يكن لنا هِمّة إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ننظر إليه ؛ فلما رآنى قال : سعدُ بنُ مالك ! قلتُ : نعم ، بأبى أنت وأمى ! ودنوتُ منه ، فقبّلت ركبتَه وهو على فرسه ؛ فقال : آجرَكَ الله فى أبيك ! ثم نظرت إلى وجهه ، فإذا فى وَجْنتيه مثل موضع الدِّرهم فى كلّ وَجْنة ، وإذا شجّةٌ فى جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفتهُ السفلى تَدمى ، وإذا فى رباعيَته اليمنى شَظِيّة ، وإذا على جُرحه شىء أسود ، فسألت : ما هذا على وجهه ؟ فقالوا : حصيرٌ محرّق . وسألتُ : مَن أدْمى وجنتيه ؟ فقيل : ابن قَمِيئة ، فقلتُ : فمن شجّه فى وجهه ؟ فقيل : ابنُ شهاب ؛ فقلتُ : مَن أصاب شفتيه ؟ قيل : عتبة بنُ أبى وَقاص . فجعلت أعدُو بين يديه حتى نزل ببابه ، ما نزل إلا محمولا ، وأرى ركبتيه مجحوشتَيْن (٣) يتكىء [على] (٤) السَّعْدَيْن : سعد بن معاذ وسعد ابن عُبادة ؛ حتى دخل بيته ، فلما غربت الشمسُ وأذّن بلالٌ بالصلاة ، خرج على تلك الحال.

---

(١) الشن : القربة الخلق .
(٢) الشيخان : موضع بالمدينة ؛ كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وهما أطمان سميا به .
(٣) يقال : جحش الجلد : سحجه ؛ وهو كالخدش أو فوقه .
(٤) من ا .

يتوكأ على السَّعْدين : سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، ثم انصرف إلى بيته والناس فى المسجد يوقِدون النيران يتكمدون بها من الجراح ، ثم أذّن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرُج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلالٌ عند بابه صلى الله عليه وسلم حتى ذهبَ ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يارسول الله ! فخرج ، وقد كان نائما ، قال : فرمقْتُه فإذا هو أخفّ فى مشيته منه حين دخل بيته ، فصلّيت معه العشاء ، ثم رجع إلى بيته قد صفّف له الرجالُ مابين بيته إلى مُصَلّاه يمشى وحده حتى دخل ، ورجعتُ إلى أهلى فخبّرتهم بسلامته ، فحمدوا الله وناموا ، وكانت وجوه الأوْس والخزْرج فى المسجد على النبي صلى الله عليه وسلم يحرُسونه فرَقًا من قريش أنْ تكرّ .

قال الواقدىّ : وخرجت فاطمة عليها السلام فى نساء ، وقد رأت الذى بوجه أبيها صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقَتْه ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اشتدَّ غضبُ الله على قوم دَمَّوْا وجهَ رسوله، وذهب علىّ عليه السلام فأَتَى بماء من المِهْراس، وقال : لفاطمة امسِكى هذا السيف غير ذميم ، فنظر إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلم مختضبا بالدم، فقال : لئن كنت أحسنت القتال اليوم، فلقد أحسن عاصمُ بنُ ثابت والحارث بن الصِّمّةوسهل بن حُنَيف ، وسيف أبى دُجانة غير مذموم ؛ هكذاروى الواقدىّ .

وروى محمد بنُ إسحاق أنّ عليًا عليه السلام قال لفاطمة بيتىْ شِعر ، وهما :

أفاطِمَ هاء السَّيف غير ذميمِ فلستُ برِعْد يدٍ ولا بلئيمِ
لَعَمرى لقد جاهدتُ فى نصرأحمدٍ وطاعة ربٍّ بالعباد رحيم

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله : لئن كنتَ صدقتَ القتال اليوم لقد صدق معك سِماك بن خَرَشة ، وسهل بن حُنَيف .

قال الواقدىّ : فلما أحضر علىّ عليه السلام ، الماء أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن يشرب منه ، فلم يستطع ، وقد كان عطِشاً ، ووجد ريحا من الماء كرِهَها ، فقال : هذا ماء آجن ، فتمضمض منه للدّم الّذى كان بفيه ثم مجّه ، وغسلت فاطمةُ به الدم عن أبيها صلّى الله عليه وسلم ، فخرج محمد بنُ مسلمةَ يطبّ مع النساء ، وكنّ أربع عشرة امرأة ، قد جئن من المدينة يتلقّين الناس منهنّ فاطمة عليها السلام يحملن الطعامَ والشراب على ظُهورِهنّ ، ويسقين الجرحى ويُداوينَهم .

قال الواقدىّ : قال كعب بن مالك : رأيتُ عائشة وأمّ سليم على ظهورهما القِرَب تحملانها يوم أحُد ، وكانت حَمْنة بنتُ جحْش تسقى العطشَى وتداوى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسلمة عندهنّ ماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتدّ عطشه ،فذهب محمد ابن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حُسى ـ قناة عند قصور التيميين اليوم ـ فجاء بماء عذْب ، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول : لن ينالوا منّا مثلها حتى تَستلم الرُّكن ! فلمّا رأت فاطمة الدّم لا يرقأ وهى تغسل جراحه ، وعلىّ يصبّ الماء عليها بالمجنّ ،أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدّم . ويقال : إنها داوته بصوفة محرّقة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يداوِى الجراح الذى فى وجهه بعظمٍ بال حتى ذهب أثرُه . ولقد مكث يجد وَهَنَ ضربة ابن قميئة على عاتقه شهرا أو أكثر من شهر ، ويداوى الأثر الذى فى وجهه بعظم .

قال الواقدىّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن ينصرف إلى المدينة: مَنْ يأتينا بخبر سعد بن الربيع؟فإنّى رأيته ـ وأشار بيده إلى ناحية من الوادى ـ قد شرع فيه اثنا عشر سنانا ، فخرج محمد بن مسلمة ـ ويقال أبىّ بن كعب ـ نحو تلك الناحية . قال : فأنا وسط القتلى لتعرّفهم ، إذ مررت به صريعا فى الوادى ، فناديته فلم يجب ، ثم قلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى إليك .قال : فتنفّس كما يتنفّس الطير ؛ ثم قال :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌّ! قلتُ : نعم ، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثناعشر سنانا ، فقال : طعنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافتني ، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم : الله الله وما عاهدتمْ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقَبة ! والله مالـكم عذر عند الله إن خلص إلى نبيّـكم ومنـكم عينٌ تطرِف ؛ فلم أرِمْ[1] من عنده حتى مات ؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فرأيته استقبل القبلة رافعا يديه يقول: «اللهم ألقَ سعدَ بن الربيع وأنت عنه راضٍ » .

قال الواقديّ : وخرجت السّمداء بنتُ قيس ؛ إحدى نساء بنى دينار، وقد أصيبَ ابناها مع النبيّ صلّى الله عليه وآله بأحُد : النّعمان بن عبدعمر ، وسُليم بن الحارث ،فلمّا نُعيا لهـا قالت : فما فَعل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؟ قالوا : بخير ، هو بحمْد الله صالح على ماتحِبّين ، فقالت : أرُونيه أنظرُ إليه ، فأشاروا لها إليه ، فقالت : كلُّ مصيبة بعـدَك يارسول الله جَلَلٌ[2] ! وخرجتْ تسوقُ بابنَيها بعيرا ، [تردّهما إلى المدينة][3] ؛ فلقيتْها عائشةُ ؛ فقالت : ماوراءكِ ؟ فأخبرتْها[4] ، قالت : فمن هؤلاء معك ؟ قالت ابناى ؛ حلْ حلْ[5] تحملهما إلى القبر .

قال الواقديّ . وكان حمزةُ بن عبد المطّلب أوّل من جيء به إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد انصراف قريش ـ أو كان من أوّلهم ـ فصلّى عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ثم قال :رأيتُ الملائـكةَ تَغسله ـ قالوا : لأنّ حمزة كان جُنُبا ذلك اليوم ـ ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله الشهداء يومئذ ، وقال : لُفّوهم بدمائهم وجراحِهم ، فإنه ليس أحد يجرَح فى سبيل الله إلّا جاء يومَ القيامة لونُ جُرحه لون الدّم ، وريحه ريح المسك ، ثم

---

(١) لم أرم : لم أبرح . (٢) جلل ، أى هينة . (٣) من الواقدى .
(٤) فى الواقدى: قالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فبخير لم يمت ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء:
﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾
(٥) حل : زجر للبعير .

قال : ضَعوهم فأنا الشّهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وكان حمزةُ أوّلَ من كُبِّرَ عليه أربعا ، ثم جمع إليه الشهداء فكان كلّما أُتِىَ بشَهيد وُضِع إلى جَنْب حمزة فصلّى عليه وعلى الشهيد، حتى صلّى عليه سبعين مرة ، لأنّ الشهداء سبعون .

قال الواقدىّ . ويقال : كان يُؤتَى بتسعة وحمزة عاشرهم ، فيصلّى عليهم ، وتُرفع التسعة ، ويُترك حمزة مكانه ، ويؤتَى بتسعةٍ آخرين فيوضعون إلى جنب حمزة فيُصلّى عليه وعليهم، حتى فعل ذلك سبعَ مرّات ، ويقال : إنه كَبَّر عليه خمسا وسبعا وتسعا .

قال الواقدىّ : وقد اختلفت الرواية فى هذا ، وكان طلحة بنُ عُبيد الله وابنُ عبّاس وجابر بن عبدالله يقولون : صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على قتلَى أُحُد ، وقال : « أنا شهيدٌ على هؤلاء » ؛ فقال أبو بكر : ألسنَا إخوانهم أسلمْنا كما أسلموا ، وجاهَدْنا كما جاهدوا ! قال : بلى ، ولكنْ هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم ، شيئاً ، ولا أدرى ماتحدِثون بعدى ! فبكى أبو بكر وقال : إنّا لكائنون بعدك !

وقال أنس بنُ مالك وسعيد بنُ المسيّب : لم يصلّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قتلى أُحُد .

قال الواقدىّ : وقال لأهل القَتْلى : احفروا وأوسِعوا وأحسنوا ، وادفنوا الاثنين والثلاثة فى القبر ، وقدِّموا أكثرَهم قرآنا . وأمر بحمزة أن تمدّ بُردته عليه وهو فى القبر، وكانت قصيرة ، فكانوا إذا خمّروا بها رأسَه بدت رجلاه ، وإذا خمّروا بها رجليْه انكشف وجهه ، فبكَى المسلمون يومئذ ، فقالوا : يارسول الله : عمُّ رسول الله يُقتل فلا يوجد له ثوب ! فقال : بلى ؛ إنكم بأرض جَرْدية[1] ذات أحجار ، وستفتح ـ يعنى الأرياف والأمصار ـ فيخرج الناسُ إليها ، ثم يبعثون إلى أهليهم ، والمدينة خيرلهم لوكانوا يعلمون؛

---

(١) جردية ؛ قال الواقدى : التى ليس بها شىء من الأشجار .

والّذي نفسي بيَدِهِ لاتصبِرُ نفسٌ على لأوائها وشدّتها إلّا كنتُ لها شفيعا ـ أو قال : شهيدا يومَ القيامة .

قال الواقديّ : وأُتِيَ عبدُ الرحمن بنُ عوف في خلافة عثمانَ بثياب وطعام فقال : ولكنّ حمزة لم يوجـدْ له كَفَن ، ومصعب بنُ عُمَير لم يوجـد له كَفَن ، وكانا خيراً منّي !

قال الواقديّ : ومرّ رسول الله صلى الله عليـه وآله بمُصعب بن عُمير وهو مقتول مسجًّى ببردة خَلَق ، فقال : لقد رأيتك بمكةَوما بها أحد أرقّ حُلّة ولا أحسن لِمّةمنك، ثم أنت اليوم أشعث الرأس في هـذه البُرْدة ! ثم أمر به فقُبِر ، ونَزَل في قبره أخوه أبو الرّوم وعامر بن ربيعة وسُوَيبطة بن عمرو بن حَرْملة ، ونزل في قبر حمزة عليٌّ عليـه السلام والزُّبيرُ وأبو بكر وعمرُ ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ على حفرته .

قال الواقديّ : ثم إنّ النّاس أو عامّتهم حَمَلوا قَتْلاهم إلى المدينة ، فدُفن بالبقيع منهم عدّة ، عند دارزيد بن ثابت ، ودُفِن بعضهم ببني سَلِمة ، فنادى منادِي رسولِ اللهصلّى الله عليه وآله: ردّوا القَتْلى إلىمضاجعهم ـ وكانالناس قد دفنوا قَتْلاهم ـ فلم يردّ أحدٌ أحداً منهم إلّا رجلا واحدا أدركهالمنادى ولم يُدفَن ، وهو شمّاس بن عثمان المخزوميّ ، كان قد حُمِل إلى المدينة وبه رَمَق ، فأُدخِل على عائشة فقالت أمّ سلمة: ابن عمّي يدخل إلى غيرى! فقال رسولُ الله صلى الله عليـه وآله : احملوه إلى أمّ سلمة ، فحملوه إليهـا فمات عندها ، فأمر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أن يُردّ إلى أُحُد فيُدفَن هناك كما هو في ثيابه التى مات فيها ، وكان قد مكث يوماً وليـلةً ولم يذق شيئاً ، فلم يصلِّ عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله ولا غَسّله .

قال الواقديّ : فأمّا القبور المجتمعة هناك فكثير من النّاس يظنّها قبورَ قتلَى أُحُد ، وكان طلحة بن عبيد اللهوعبّاد بن تميم المازنيّ يقولان: هي قبور قوم من الأعراب كانوا

عامَ الرَّمادة فى عهد عمرَ هناك ، فماتوا ، فتلك قبورهم . وكان ابن أبى ذئب وعبدُ العزيز ابن محمّد يقولان : لانعرف تلك القبورَ المجتمعة ، إنّما هى قبورُ ناس من أهل البادية ، قالوا : إنّا نعرف قبرَ حمزة وقبرَ عبد الله بن حزام وقبرَ سهل بن قيس ، ولا نعرف غيرَ ذلك .

قال الواقدىّ : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يزور قتلَى أُحُد فى كلّ حَوْل ، وإذا لقوه بالشِّعب رَفَع صوتَه يقول : السّلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدّار ! وكان أبوبكر يَفعل مِثلَ ذلك، وكذلك عمرُ بنُ الخطّاب ؛ ثم عثمان ، ثم معاوية ؛حين يمرّ حاجّا ومعتمِراً .

قال : وكانت فاطمةُ بنتُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله تأتيهم بينَ اليومَين والثّلاثة فتَبكى عندهم وتدعو، وكان سعدُ بنُ أبى وقّاص يَذهب إلى ماله بالغابة ، فيأتى مِن خلف قبور الشُّهداء فيقول : السّلام عليكم ؛ ثلاثا ، ويقول : لايسلّم عليهمْ أحدٌ إلّا ردُّوا عليه السلام إلى يوم القيامة . قال : ومرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله على قبر مُصعَب بن عُمير ، فوقف عليه ، ودعا وقرأ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] ، ثم قال : إنّ هؤلاء شهداء عند الله يومَ القيامة ، فأتوهم فزُوروهم وسلِّموا عليهم ، والّذى نفسى بيَده لايسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامةإلّا ردُّوا عليه . وكان أبو سعيد الخُدْرىّ يقف على قبرحمزة فيدعو ويقرأ ويقول مِثلَ ذلك . وكانت أمُّ سَلَمة رحمها الله ؛ تَذهب فتسلّم عليهم فى كلّ شهر فتظلُّ يومَها ، فجاءت يوماً ومعها غلامُها أنبهان ، فلم يسلّم ، فقالت : أى لُكَع ! ألا تُسلّم عليهم ! والله لايسلّم عليهم أحدٌ إلا ردّوا عليه إلى يوم القيامة .

قال : وكان أبو هريرةَ وعبدُ الله بن عمَر يذهبان فيسلّمان عليهم ؛ قالت فاطمة

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

الخزاعيّة : سلّمتُ على قبر حمزة يوماً ومعي أختٌ لي ؛ فسمعْنا من القبر قائلا يقول : وعليكما السلام ورحمة الله ! قالت : ولم يكن قربنا أحدٌ من النّاس .

قال الواقديّ : فلمّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من دفنهم دعا بفرسه فركبه، وخرج المسلمون حوله عامّتهم جَرحى ، ولا مثل بنى سلِمة وبنى عبد الأشهل ،فلمّا كانوا بأصل الحَرّة قال : اصطفّوا ، فاصطفّت الرجال صفّين ، وخلفهم النساء وعدّتهنّ أربع عشرةَ امرأةً ، فرفع يديه فدعا ، فقال : اللهمّ لك الحمد كلّه ، اللهمّ لاقابضَ لما بسطتَ ، ولا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطيَ لما منعت ، ولا هاديَ لمن أضللت ، ولامُضِلّ لمن هَدَيت، ولا مقرِّب لما باعَدْت ، ولا مباعِدَ لما قرَّبت . اللهمّ إنِّى أسألك منْ بركتك ورحمتك وفضلِك وعافيتك ، اللهمّ إنى أسألك النعيمَ المقيمَ الّذى لايحول ولايزول، اللهمّ إنى أسألك الأمن يومَ الخوف ، والغِناء يومَ الفاقة ، عائذا بك ، اللهمّ من شرّ ما أعطيتَ ، ومن شرّ مامنعت ، اللهمّ توفّنا مسلمين ، اللهمّ حبِّب إلينا الإيمان ، وزيِّنه فى قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعِصيان ، واجعلنا من الرّاشدين ، اللهمّ عذِّب كفَرة أهل الكتاب الّذين يُكذّبون رسلك ، ويصدّون عن سبيلك ، اللهمّ أنزل عليهم رِجْسك وعذابك إلٰه الحقّ ، آمين !

قال الواقديّ : وأقبل حتّى نزل ببنى حارثة يمينا حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم ، فقال : لكنّ حمزة لابَواكى له ! فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرجت إليه أمّ عامر الأشهليّة ، وتركت النّوْح ،فنظرتْ إليه وعليه الدِّرع كما هى ، فقالت : كلّ مصيبة بعدك جَلَل . وخرجتْ كبشةُ بنت عُتْبة ابن معاوية بن بَلْحَارث بن الخزرج تَعْدُو نحوَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وهو واقف على فرسِه ، وسعد بنُ معاذ آخِذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يارسول الله ، أمِّى ، فقال : مرحبا بها ! فدنت حتّى تأملته ، وقالت : إذ رأيتُك سالما فقد شفّت[1] المصيبة . فعزّاها بعمرو

(١) شفت المصيبة ؛ أى هانت .

ابن معاذ ، ثم قال : ياأمّ سعد : أبشرى وبشّرى أهليهم أنّ قتلاهم قد ترافقوا فى الجنّة جميعا وهم اثنا عشر رجلا ، وقد شفعوا فى أهليهم ، فقالت : رضينا يارسولَ الله ، ومن يبكى عليهم بعدَ هذا ! ثم قالت : يارسولَ الله ، ادع لمن خلّفوا ، فقال : اللهمّ أذهب حزنَ قلوبهم ، وآجر مصيبتهم ، وأحسِن الخلف على مَن خلّفوا . ثم قال لسعد بن مُعاذ : خُلّ أبا عمرو الدّابة ؛ فخلّ الفرس ، وتَبِعه الناس ، فقال : ياأبا عمرو ، إنّ الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتى يومَ القيامة جُرحُه كأغزر ما كان؛اللون لونُ دم ، والرّيح رِيحُ مسك ، فمن كان مجروحا فليقرّ فى داره وليداوِ جرحه ، ولا تبلغ معى بيتى ؛ عزمة منّى . فنادى فيهم سعد : عزْمة مِن رسول الله صلّى الله عليه وآله ألّا يتبعه جَريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلّف كلّ مجروح ، وباتوا يُوقِدون النّيران ويُداوُون الجراح ، وإنّ فيهم لثلاثين جريحا ، ومضى سعد بنُ معاذ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقهنّ ، فلم تَبْقَ امرأةٌ إلّا جاء بها إلى بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فبكَين بين المغرب والعشاء ، وقام رسولُ الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النّوم لثُلُث اللّيل ، فسمع البكاء فقال : ماهذا ؟ قيل : نساء الأنصار يَبكِين على حمزة ، فقال : رضى الله تعالى عنكنّ وعن أولادكنّ ؛ وأمَرَ النساء أن يرجعْن إلى منازلهنّ ، قالت أمّ سعد بن مُعاذ : فرجعْنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالُنا ، فما بَكت منّا امرأة قطّ إلّا بدأتْ بحمزةَ إلى يومنا هذا . ويقال : إنّ مُعاذ بن جبَلَ جاء بنساء بنى سَلِمة ، وجاء عبدُ الله بنُ رَواحة بنساء بلحارث بن الخزْرج ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : ماأردت هذا ؛ ونهاهُنّ الغد عن النّوْح أشدّ النّهى .

قال الواقدىّ : وجعل ابنُ أبىّ والمنافقون معه يَشمَتون ويُسَرُّون بما أصاب المسلمين ، ويُظهرون أقبحَ القول ، ورجع عبدُ الله بنُ أُبىّ إلى ابنه وهو جريح ، فبات يَكوِى الجراحةَ بالنّار ، حتّى ذهب عامّة الليل وأبوه يقول : ما كان خروجُك مع محمد إلى هذا

الوجه برأيي ؛ عصاني محمد وأطاع الولدان ! والله لكأني كنتُ أنظر إلى هذا ، فقال ابنه : الذي صنع اللهُ لرسوله والمسلمين خير إن شاء الله . قال : وأظهرت اليهودُ القولَ السيِّء ، وقالوا : ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أُصيب هكذا نبيٌّ قطّ في بدنه وأصيبَ في أصحابه ؛ وجعل المنافقون يُخذّلون(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ويأمرونهم بالتفرّق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله : لوكان من قُتِل منكم عندنا ماقُتِل ؛ حتى سَمِع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن ، فمَشَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم يستأذنه في قتل مَن سَمِع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له : ياعمر ، إن الله مُظهِر دينه ، ومعزّ نبيّه ، ولليهود ذِمّة فلا أقتلهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله يقولون ، فقال :أليس يُظهِرون شهادةَ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ! قال : بلى ، وإنما يفعلون تعوّذا من السّيف ، وقد بان لنا أمرُهم ، وأبدى الله أضغانَهم عند هذه النّكبة ، فقال : إني نهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله يابن الخطّاب ، إن قريشا لن ينالوا ما نالوا منا مِثلَ هذا اليوم حتى نَستلِم الركن(٢) .

وروَى ابنُ عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : إخوانكم لما أصيبوا بأحُد جُعِلت أرواحُهم في أجواف طَيرٍخُضر ، ترِدُ أنهار الجنة فتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديلَ من ذهب في ظِلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مَطعمِهم ومَشربهم ورأوا حسنَ مُنقلَبهم قالوا : ليت إخواننا يعلَمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يزْهدوا في الجهاد ، وينكلّوا عند الحرب ! فقال لهم الله تعالى : أنا أبلّغهم عنكم ، فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(٣) .

* * *

(١) يخذلون عنه : يمنعون من نصرته .

(٢) استلم الركن : قبله أو لمسه بيده .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقديّ : حدثني موسى بن شيبة ، عن قَطَن بن وهيب الليثيّ ، قال : لمّا تحاجز الفريقان ، ووجّه قريشٌ إلى مكة ، وامتطوا الإبل ، وجنّبوا الخيل ، سار وَحْشيّ ، عبد جُبَير ابنِ مُطعم على راحلته أربعا ، فقدِم مكة يبشر قريشا بمصاب المسلمين ، فانتهى إلى الثنيّة التي تطلع على الحَجُون فنادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ، مرارا ، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن يأتيهم بما يكرهون ، فلما رضي منهم قال : أبشروا فقد قتلنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مِثلَها في زَحْف قطّ ، وجرحنا محمدا فأثبتْناه بالجراح ، وقتلنا رأسَ الكتيبة حمزة بن عبد المطّلب ، فتفرّق الناسُ عنه في كلّ وجه بالشماتة بقتل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وإظهار السرور ، وخلا جُبير بنُ مطعِم بوحشيّ ، فقال : انظر ما تقول ! قال وحشيّ : قد والله صدقت . قال : قتلتَ حمزة ؟ قال : إي والله ولقد زَرَقْته بالمزراق[1] في بطنه ، فخرج من بين فخذيه ، ثم نودي فلم يجب ، فأخذت كبِدِه وحملتُها إليك لتراها . فقال : أذهبت حزن نسائنا ، وبرّدت حرّ قلوبِنا ؛ فأمر يومئذ نساءه بمراجعة الطِّيب والدّهن .

قال الواقديّ : وقد كان عبدُ الله بنُ أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ لما انكشف المشركون بأُحُد في أوّل الأمر ، خرج هاربا على وجهه ، وكرِهَ أن يقدم مكّة ، فقدِم الطائف ، فأخبر ثقيفا أنّ أصحاب محمد قد ظفروا وانهزَمْنا ، وكنت أوّل من قدم عليكم ، ثم جاءهم الخبر بعدُ أن قريشا ظفرتْ وعادت الدولةُ لها .

قال الواقديّ : فسارت قريش قافلةً إلى مكة ، فدخلتْها ظافرةً ، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظيرمادخل عليهم من الكآبة والحُزن يومَ بدر ، وكان ما دخل

---

(١) المزراق : الرمح القصير ، وزرقه ، أي رماه .

على قلوب المسلمين من الغيظ والحزن يومئذ نظير مادخل عليهم من السرور والجذل يوم بدر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٢)؛ قال : يعنى إنكم يوم بدر قتلتم من قريش سبعين ، وأسرتم سبعين ، وأمّا يوم أُحُد فقتل منكم سبعون ، ولم يؤسر منكم أحد ، فقد أصبتم قريشا بمثلى ماأصابوكم يوم أُحُد،وقوله: ﴿أنّى هذا﴾ أى كيف هذا ، ونحن موعودون بالنصر ونزول الملائكة ، وفينا نبيّ ينزل عليه الوحيُ من السماء ! فقال لهم فى الجواب : ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، يعنى الرُّماة الّذين خالفوا الأمر وعصوا الرسول ، وإنّما كان النصر ونزول الملائكة مشروطابالطاعة وألّا يعصى أمرُ الرسول ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾(٣) ، فعلّقه على الشرط !

***

القول فى مقتل أبى عزة الجُمَحىّ ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص ابن امية بن عبد شمس

قال الواقدىّ : أما أبو عزّة ـ واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة ابن جُمح ـ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه أسيرا يوم أُحُد ـ ولم يؤخذ يومَ أُحُد أسيرٌ غيره ـ فقال : يامحمد، مُنَّ علىّ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ المؤمن لا يُلدَغ من جُحرٍ مرتين ، لا ترجع إلى مكّة تمسح عارضَيك ، فتقول : سخرتُ بمحمد مرتين . ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

(١) سورة آل عمران ١٤٠ (٢) سورة آل عمران ١٦٥ .
(٣) سورة آل عمران ١٢٥ .

قال الواقدىّ : وقد سمعنا فى أسره غيرَ هذا ، حدّثنى بكير بن مسمار ، قال: لمّا انصرف المشركون عن أُحُد نزلوا بحمراء الأسد فى أول الليل ساعةً ، ثم رحلوا وتركوا أبا عزّة مكانه حتى ارْتَفَع النهار ، فلَحِقه المسلمون وهو مستنبه يتلدّد ، وكان الّذى أخذه عاصم ابنُ ثابت ، فأمره النبي صلّى الله عليه وآله فضرب عنقه .

* * *

قلت : وهذه الرواية هى الصحيحة عندى ، لأنّ المسلمين لم تكن حالهم يومَ أُحُد حال مَنْ يتهيّأ له أسرُ أحد من المشركين فى المعركة لِما أصابهم من الوَهَن .

فأمّا معاوية بن المغيرة فرَوى البلاذرىّ أنّه هو الّذى جَدَع أنف حمزة ومَثّل به ، وأنّه انهزم يوم أُحُد فمضى على وجهه ، فبات قريباً من المدينة ، فلمّا أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبى العاص ـ وهو ابن عمّه لحًّا ـ فضرب بابه ، فقالت أمّ كلثوم زوجتُه وهى ابنة رسولَ الله صلّى الله عليه وآله : ليس هو هاهنا ، فقال : ابعثى إليه ؛ فإنّ له عندى ثمنَ بعير ابتعتُه منه عامَ أوّل ، وقد جئتُه به ، فإنْ لم يجىء ذهبت. فأرسلت إليه ، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلمّا جاء قال لمعاوية : أهلكتَنى وأهلكتَ(1) نفسك ! ماجاء بك ؟ قال : يابن عمّ ، لم يكن أحدٌ أقرب إلىّ ولا أمسّ رَحِما بى منك ، فجئتك لتُجيرنى ، فأدخله عثمان دارَه وصيّره فى ناحية منها ، ثمّ خرج إلى النبىّ صلى الله عليه وآله ليأخذَ له منه أمانا ، فسَمِع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ معاوية فى المدينة ، وقد أصبح بها ، فاطلبوه . فقال بعضهم : ما كان ليَعْدُوَ منزل عثمان، فاطلبوه به ، فدخلوا منزلَ عثمان ، فأشارت أمّ كلثوم إلى الموضع الّذى صيّره فيه، فاستخرجُوه من تحت حمارة لهم ، فانطلقوا به إلى النبي صلّى الله عليه وآله ، فقال عثمان حين رآه : والّذى بعثك بالحقّ ماجئت إلّا لأطلبَ له الأمان ، فهَبْه لى ، فوَهَبه له ، وأجّله ثلاثا ،

(1) البلاذرى : « أهلكتنى ونفسك » .

وأقسم : لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها ليقتلنّه . وخرج عثمانُ فجهّزه واشترى له بعيرا، ثم قال : ارتحل . وسار رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى حمراء الأسد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبارَ النبيّ صلّى الله عليه وآله ، ويأتى بها قريشاً، فلمّا كان فى اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ معاوية أصبح قريباً لم ينفذ، فاطلبوه . فأصابوه وقد أخطأ الطريقَ ، فأدركوه ، وكان اللّذان أسرعا فى طلبه زيد بن حارثة وعمّار بنُ ياسر ، فوجداه بالجمّاء[1] فضربَه زيد بالسّيف ، وقال عمّار : إنّ لى فيه حقّا ، فرمياه بسهم فقتلاه ، ثم انصرفا إلى المدينة بخبره ، ويقال : إنه أُدرك على ثمانية أميال من المدينة ، فلم يزل زيدٌ وعمّار يرميانه بالنّبل حتّى مات .

قال : ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أمّ عبد الملك بن مروان .

قال : وذكر الواقدىّ فى كتابه مثلَ هذه الرّواية سواء .

قال البلاذُرىّ : وقال ابن الكلبى : إنّ معاوية بن المغيرة جَدَع أنفَ حمزةَ يومَ أُحُد وهو قتيل ، فأُخِذ بقرب أحد،فقُتل على أُحُد بعد انصراف قريش بثلاث، ولاعَقب له إلّا عائشة أمّ عبد الملك بنِ مَرْوان . قال : ويقال : إنّ عليّا عليه السلام هو الّذى قَتل معاويةَ بن المغيرة [2] .

***

قلت:وروايةُ ابن الكلبىّ عندى أصحّ،لأنّ هزيمة المشركين كانت فى الصّدمة الأولى عقيبَ قتلِ بنى عبد الدار أصحاب الألوِيَة ، وكان قتل حمزةَ بعد ذلك لمّا كرّ خالدُ بنُ الوليد الخيلَ من وراء المسلمين،فاختَلَطُوا ، وانتقَض صفُّهم ، وقتل بعضُهم بعضا،فكيف يصحّ أن يجتمع لمعاوية كونه قد جَدَع أنف حمزة ، وكونه قد انهزم مع المشركين فى الصّدمة الأولى ! هذا متناقض ، لأنّه إذا كان قد انهزم فى أوّل الحرب استحال أن يكون

(١) الجماء : تطلق على ثلاثة مواضع بالمدينة .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ مع تصرف واختصار .

حاضرا عند حمزةَ حين قُتل.والصحيح ماذكره ابنُ الكلبيّ من أنّه شهد الحربَ كلّها، وجدَع أنف حمزة ، ثم حصل فى أيدى المسلمين بعد انصراف قريش ، لأنّه تأخر عنهم لعارضٍ عرَض له فأدركه حينُه ، فقُتِل .

***

القول فى مقتل المجذّر

ابن زياد البلوىّ والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقدىّ : كان المجذّر بن زياد البَلَوِىّ حليفَ بنى عوف بن الخزرج ممّن شهد بَدْرا معرسول الله صلى الله عليه وآله،وكانت له قصّة فىالجاهليّة قبل قدوم النبىّ صلى الله عليه وآله المدينةَ،وذلك أنّ حُضَير الكتائب،والد أُسَيد بن حُضَير،جاء إلى بنى عَمرو بن عوف ، فكلّم سويد بنَ الصامت وخوّات بن جُبَير وأبا لُبابة بنَ عبد المنذر ـ ويقال سهل بن حُنَيف ـ فقال : هل لكم أن تَزُوروني فأسقيَكم شرابا ، وأنحر لكم،وتقيمون عندى أيّاما ! قالوا : نعم ، نحن نأتيك يومَ كذا ، فلمّا كان ذلك اليوم جاءوه فنَحَر لهم جَزورا ، وسقاهم خَمْرا ، وأقاموا عنده ثلاثةَ أيّام حتّى تغيّر اللحم ـ وكان سويدُ بنُ الصامت يومئذ شيخا كبيرا ـ فلمّا مضت الأيّام الثلاثة قالوا : ما نرانا إلّا راجِعين إلى أهلنا ! فقال حُضَير : ما أحبَبْتم ! إنْ أحببتم فأقيموا ، وإن أحبَبْتم فانصرفوا ، فخرَج الفتَيان بسُوَيد بن الصامت يَحملانه على جَمَل من الثَّمَل [1]؛ فمرّوا لاصقِين بالحرّة حتّى كانوا قريبا من بنى عيينة [2] ، فجلس سُويد يبول وهو ثَمِلٌ سُكْراً ، فبَصُر به إنسان من الخزرج ، فخرج حتى أتى المجذّر بن زياد ، فقال : هل لك فى الغَنيمة الباردة ! قال : ماهى ؟ قال : سويد بن الصامت، أعزَل لا سِلاحَ معه ، ثَمِل ، فخرج المجذّر بن زياد بالسيف مُصلَتا ، فلمّا رآه الفَتيَان وهما أعزَلان لاسلاح معهما وَلّيا ، والعَداوة بينالأوس

(١) الثمل بفتحتين : أى السكر . (٢) الواقدى : « غصينة » .

والخزرج شديدة . فانصرَفا مسرِعَين ، وثبت الشيخُ ولا حَراكَ به ، فوقف المجذّر بن ذياد، فقال : قد أمكنَ اللهُ منك ! قال : ماتريد بى ؟ قال : قتلك . قال : فارفع عن الطعام ، واخفض عن الدِّماغ ، فإذا رجعتَ إلى أمّك ، فقل : إنّى قتلت سويدَ بن الصامت. فقتَلَه ، فكان قتلُه هو الّذى هَيّج وقعة بُعاث . فلمّا قَدِم رسولُ الله صلى الله عليه وآله المدينة أسلم الحارث بنُ سويد بن الصامت ، وأسلَمَ المجذّر فشهِدَا بدرا ، فجعل الحارث بنُ سُوَيد يطلب المجذّر فى المعركة ليقتله بأبيه ، فلا يقدِر عليه يومئذ ؛ فلمّا كان يومُ أُحُد وَجالَ المسلمون تلك الجَوْلة ، أتاه الحارث مِن خلفِه فضَرَب عُنقَه ، فرجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ، ثم خرج إلى حَمْراء الأسد ، فلمّا رجع من حمراء الأسد أتاه جبرائيل عليه السلامُ ، فأخبره أنّ الحارث بن سُويد قتَل المجذّر غِيلةً، وأمَرَه بقتله، فرَكِب رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى قُباء فى اليَوْم الذى أخبرَه جبرائيل فى يوم حارّ ـ وكان ذلك يوما لا يرْكَب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قُباء ، إنّما كانت الأيام التى يأتى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله قُباء يوم السبت ، ويوم الاثنين ـ فلمّا دخل رسول الله صلّى الله عليه وآله مسجدَ قُباء صلّى فيه ماشاء الله أن يصلّىَ ، وسمعت الأنصارُ فجاءوا يسلّمون عليه ، وأنكروا إتيانَه تلك الساعة ، فى ذلك اليوم . فجلس عليه السلام يتحدّث ويتصفّح الناسَ حتّى طلع الحارثُ بن سويد فى مِلحفةٍ مورّسة [(١)] ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عُوَيْم بنَ ساعدة فقال له : قدّم الحارثَ بنَ سويد إلى باب المسجد فاضربْ عنقه بمجذّر بن ذياد ، فإنّه قتَلَه يومَ أُحُد . فأخذه عويم ، فقال الحارث : دعْنى أُكلّمْ رسولَ الله ـ ورسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يرْكَب ، ودعا بحماره إلى باب المسجد ـ فجعل الحارث يقول : قد والله قتلتُه يارسول الله ، وما كان قَتْلى إيّاه رجوعا عن الإسلام

---

(١) مورسة : مصبوغة بالورس وهو نبات باليمن معروف .

ولا ارتيابا فيه ، ولكنه حَمِيّة الشيطان ، وأمرٌ وكِلتُ فيه إلى نفسي ، وإنى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عَمِلت ، وأُخرِج دِيته وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبةً ، وأطعِم ستين مسكينا ، إنّي أتوب إلى الله يارسول الله ! وجعل يُمسِك بركاب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وبنو المجذّر حضور ، لا يقول لهم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئا ، حتى إذا استوعب كلامه قال : قدِّمه ياعويم فاضرب عنقَه . ورَكِب رسول الله صلّى الله عليه وآله فقدّمه عويم بن ساعدة على باب المسجد ، فضرَب عنقه .

قال الواقديّ : ويقال : إنّ الذى أعلمَ رسول الله قتلَ الحارث المجذّر يومَ أُحُد حبيب بن يِساف ، نظر إليه حين قتَلَه ، فجاء إلى النبيّ صلّى الله عليـه وآله ، فأخبره ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله يتفحّص عن هذا الأمر ، فبينا هو على حِماره نزل جبرائيل عليه السلام ، فخبّره بذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عُوَيما فضرَب عنقَه ، ففى ذلك قال حسان :

ياحارِ فى سـِـنة مـن نوم أوّلِـكُمْ أم كُنتَ ويحكَ مغترًّا بجبريلِ (١)

فأمّا البلاذُرىّ فإنه ذَكر هذا ، وقال : ويقال إنّ الجلاس بنَ سُوَيد بن الصامت هو الّذى قتل المجذّر يوم أُحُد غِيلةً ؛ إلا أنّ شعر حسّان يَدلّ على أنه الحارث (٢) .

قال الواقدىّ والبلاذرىّ : وكان سويدُ بن الصامت حين ضربه المجذّر بقِىَ قليلا ثم مات ، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده :

أبلغ جُلاساً وعبدَ الله مألُكةً وإن دعيتَ فلا تخـذُلْهما حارِ

(١) ديوانه ٣١٨ ، وبعده :

أمْ كُنتَ يابْنَ ذِيادٍ حِينَ تَقْتُلُه بِغِرّةٍ فى فَضَاءِ اْللهِ مَجْهـولِ
وَقُلْتُمُ لَنْ نُرَى وَاْللهُ مُبْصِرُكُمْ وَفيـكُمُ مُحْكَمُ الآياتِ وَالْقِيلِ
مُحَمّـدٌ والعزيزُ اللهُ يُخْبِرُهُ بِمَا يُكِنُّ سريرات الأقاويلِ

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

اقتلْ جِذارةَ إذْ ما كنتَ لاقيَهمْ … والحيَّ عوْفاً على عُرفٍ وإنكارِ

قال البلاذريّ : جذرة وجذارة أخَوَان ، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج[1] .

***

قلت : هذه الرّوايات كما ترَى ، وقد ذكر ابن ماكولا فى « الإكمال » أنّ الحارثَ بنَ سويد قَتَلَ الجذَّر غيلةً يوم أُحُد ، ثمّ التحق بمكّة كافرا ، ذكره فى حرف الميم من هذا الكتاب ، وهذا هو الأشبه عندى .

***

القول فيمن مات من المسلمين بأُحُد جملة

قال الواقدىّ : ذكر سعيد بن المسيّب وأبو سعيد الخُدْرىّ أنه قُتِل من الأنصار خاصّة أحدٌ وسبعون ، وبمثله قال مجاهد .

قال : فأربعةٌ من قريش ، وهم حمزة بن عبد المطّلب ؛ قتله وحشىّ ، وعبد الله بن جحش بن رئاب ؛ قَتَله أبو الحكم بن الأخْنَس بن شَرِيق ، وشمّاس بن عثمان ابن الشريد من بنى مَخزوم ؛ قَتَله أُبَىُّ بن خلف ، ومصعب بن عمير ؛ قتله ابن قَمِيئة .

قال : وقد زاد قوم خامسا ، وهو سعدٌ مولى حاطب من بنى أَسَد بن عبد العُزّى . وقال قوم أيضا : إنّ أبا سلَمة بن عبد الأسد المخزومىّ جُرِحَ يومَ أُحُد ، ومات من تلك الجراحة بعد أيّام .

قال الواقدىّ : وقال قوم : قتل ابنا الهيب من بنى سعْد بن ليث ، وهما عبد الله

---

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٢ .

وعبد الرّحمن ورجلان من بنى مُزَينة وهما وَهْب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عُتْبة ابن قابوس ؛ فيكون جميعُ من قُتِل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلا، فأمّا تفصيل أسماء الأنصار فمذكورٌ فى كتب المحدّثين ، وليس هذا الموضع مكانَ ذكره .

***

القول فيمن قتل من المشركين بأُحُد

قال الواقدىّ : قُتل من بنى عبد الدّار طلحةُ بن أبى طلحة صاحبُ لواء قريش ؛ قتَلَه علىّ بن أبى طالب عليه السلام مبارَزة ، وعثمان بن أبى طلحة ؛ قتله حمزةُ بن عبدالمطلب وأبو سعيد بن أبى طلحة ؛ قتله سعدُ بن أبى وقاص ، ومسافع بن طلحة بن أبى طلحة ، قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، وكلاب بن طلحة بن أبى طلحة ؛ قتله الزبير بن العوّام والحارث بن طلحة بن أبى طلحة ، قتله عاصم بن ثابت ، والجلاس بن طلحة بن أبى طلحة ؛ قتله طلحة بن عبيد الله ، وأرطاة بن عبد شرحبيل ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقارظ(1) بن شُرَيح بن عثمان بن عبد الدّار - ويُروَى قاسط بالسين والطّاء المهملتين - . قال الواقدىّ : لا يُدرَى من قَتَله ، وقال البلاذرىّ(2) : قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وصواب مولاهم : قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقيل : قتله قزمان(3) - وأبو عزيز ابن عمير أخو مُصعَب بن عمير ، قتله قزمان ، فهؤلاء أحد عشر .

ومن بنى أسد بن عبدالعزّى عبدُ الله بن حميد بن زُهير بن الحارث بن أسد؛ قَتله أبو دُجانة فى رواية الواقدىّ ، وفى رواية محمد بن إسحاق ، قَتَله علىّ بن أبى طالب عليه السلام . وقال البَلاذُرِىّ : قال ابن الكلبىّ : إنّ عبد الله بن حميد قتِل يوم بَدْر

---

(١) الواقدى : « قارظ » ، والبلاذرى : « قاسط » .
(٢) أنساب الأشراف : ١ : ٣٣٤ .   (٣) أنساب الأشراف : « غيره » .

ومن بنى زُهْرة أبو الحكم بن الأخنس بن شَرِيق ؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وسباع بن عبد العُزّى الخزاعى ـ واسم عبد العزّى عمرو بن نَضْلة ابن عبّاس بن سليم ، وهو ابن أم أنمار الحجّامة بمكّة ـ قتله حمزة بن عبد المطلب؛ فهذان رجلان .

ومن بنى مخزوم أميّة بن أبى حذيفة بن المغيرة ؛ قتله علىّ عليه السلام، وهشام بن أبى أميّة بن المغيرة ؛ قتله قزمان ، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان ، وخالد بن أعلم العُقَيلى ؛ قتله قزمان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ؛ قتله الحارث بن الصِّمّة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤىّ عبيد بن حاجز؛ قتله أبو دُجانة، وشَيْبة بن مالك بن المضرّب قتله طلحةُ بن عبيد الله . وهذان اثنان .

ومن بنى جُمَح أبىّ بن خَلَف ؛ قتله رسول الله صلّى الله عليه وآله بيَده ، وأبو عزّةَ ، قتله عاصمُ بن ثابت صَبْرا بأمْر رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فهذان اثنان .

ومن بنى عبدِ مناة بن كنانة خالدُ بنُ سُفْيان بن عُوَيف ، وأبو الشّعْثاء ابن سُفْيان بن عويف ، وأبو الحَمْراء بن سُفْيان بن عويف ، وغراب بن سُفيان ابن عُوَيف ، هؤلاء الإخوة الأربعة قتلهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام فى رواية محمد بن حبيب .

فأما الواقدىّ فلم يذكر فى باب من قُتل من المشركين بأُحُد لهم قاتلا معيّنا، ولكنه ذكر فى كلام آخر قبل هذا الباب أنّ أبا سَبْرة بن الحارث بن علقمة قَتل أحد بنى سفيان ابن عويف ، وأن رشيدا الفارسىّ مولى بنى معاوية لقى آخر من بنى سُفيان بن عويف مقنّعا فى الحديد وهو يقول : أنا ابن عوَيف ؛ فيعرض له سعد مولى حاطب ، فضرَبه ابن

عويف ضربةً جزَله باثنتين ، فأقبل رشيد على ابن عويف فضربه على عاتقه ـ فقطع الدّرع ـ حتى جزله اثنتين وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يراه ويسمعه : ألا قلتَ : أنا الغلام الأنصاريّ ! قال : فيعرض لرشيد أخٌ للمقتول أحد بنى سفيان بن عويف أيضا ، وأقبل يعدُو نحوَه كأنه كلبٌ ، يقول : أنا ابن عويف ، ويضربه رشيد أيضا على رأسه وعليه المغفر ، ففلق رأسه ، وقال : خذها وأنا الغلام الأنصاريّ ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! فكناه رسول الله صلّى الله عليه وآله يومئذ ولا ولَد له .

قلت : فأمّا البلاذريّ فلم يذكر لهم قاتلا ، ولكنّه عدّهم في جملة من قُتل من المشركين بأُحُد ؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر مَنْ قتلهم، فإنْ صحّت رواية الواقديّ فعليّ عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلّا واحدا، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قَتلاه عليه السلام . وقد رأيتُ في بعض كتب أبي الحسن المدائنيّ أيضا أن عليّا عليه السلام هو الذي قتل بنى سفيان بن عويف يوم أُحُد ، وروى له شعرا في ذلك .

ومن بنى عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، قتله عليٌّ عليه السلام فى إحدى الروايات ، وقيل : قتله زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر .

فجميع من قُتل من المشركين يوم أُحُد ثمانية وعشرون ، قتل عليٌّ عليه السلام منهم ـ ما اتفق عليه وما اختلف فيه ـ اثنى عشر ؛ وهو إلى جملة القتلى كعدّة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ ، وهو قريبٌ من النّصف .

* * *

القول فى خروج النبي صلى الله عليه وآله وبعد انصرافه من أُحُد

إلى المشركين ليوقع بهم على ماهو به من الوَهَن

قال الواقدىّ : بلغ[١] رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ المشركين قدعزموا أن يردُّوا إلى المدينة فينهبوها ، فأحبّ أن يريَهم قوّة ، فصلّى الصبح يوم الأحد لثمان خلوْن من شوال ومعه وجوه الأوس والخزرج ، وكانو باتوا تلك الليلة فى بابه يحرسونه من البيات ، فيهم سعد بن عبادة ، وسعد بن مُعاذ ، والُحباب بن المنذر ، وأوس بن خولىّ ، وقتادة بن النعمان فى عدّة منهم . فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادى فى الناس؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأمرُكم بطلب عدوّكم ، ولا يخرج معنا إلّا من شهد القتال بالأمس ، فخرج سعد بن معاذ راجعا إلى قومه يأمرهم بالمسير ، والجراح فى الناس فاشية ،عامة بنى عبد الأشهل جريح ، بل كلّها ، فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوّكم . قال : يقول أسَيد بنُ حضير ـ وبه سبع جراحات،وهو يريد أن يداويها : سمعا وطاعةً لله ولرسوله ! فأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء جراحه ،ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة ، فأمرهم بالمسير ، فلبسوا ولحقوا ، وجاء أبو قتادة أهل خربا ، وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا منادى رسول الله صلّى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو ، فوثبوا إلى سلاحهم ، ولم يعرّجُوا على جراحاتهم، فخرج من بنى سلِمة أربعون جريحا ، بالطُّفيل بن النعمان ثلاثه عشر جرحا ، وبخراش بن الصِّمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحا ، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات ، حتى وافَوْا النبىّ صلى الله عليه وسلّم بقبر أبى عتبة ،وعليهم السلاح،

---

(١) مغازى الواقدى ٣٢٥ وما بعدها .

وقد صفّوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية ، قال: اللهمّ ارحمْ بنى سلِمة .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عتبة بن جبيرة عن رجال [من] [1] قومه ؛ أنّ عبدالله بن سهل ورافعَ بن سهل من بنى عبد الأشهل رجعا من أُحُد وبهما جراحٌ كثيرة وعبدالله أثقلهما جرحا ، فلمّا أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومَه يخبرُهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأمرُهم بطلب العدوّ ، قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركْنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَغَبْنٌ ، والله ماعندنا دابّة نركبها ، ولا ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله انطلق بنا . قال رافع : لا والله مابى مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نقصد ونجوز ، وخرجا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبدُ الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشى الآخر عقبة، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : ماحبسكما ؟ فأخبراه بعلّتهما ، فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكما مدّة كانت لكما مراكبُ من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخيرٍ لكما .

قال الواقدىّ : وقال جابر بنُ عبد الله : يارسولَ الله ؛ إنّ مناديا نادى ألّا يخرج معنا إلّا مَنْ حضر القتال بالأمس ، وقد كنتُ حريصاً بالأمس على الحضور ، ولكنّ أبى خَلّفنى على أخواتٍ لى ، وقال : يابنىّ لاينبغى لك أن تدَعهنّ ولا رجلَ معهنّ ، وأخاف عليهنّ ، وهنّ نُسَيّات ضعاف ، وأنا خارج مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لعلّ الله يرزقُنى الشهادة ، فتخلّفت عليهنّ ، فاستأثر علىّ بالشهادة، وكنت رجوتُها ، فأْذَن لى يارسولَ الله أن أسيرَ معك . فأذن له رسولُ الله صلى الله عليه وآله . قال جابر : فلم يخرج معه أحدٌ لم يَشهد القتالَ بالأمس غيرى ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال . فأبَى ذلك

(١) من الواقدى .

عليهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بلوائه وهو معقود لم يحلّ من أمس ، فدفعه إلى عليّ عليه السلام ، ويقال : دَفَعَهَ إلى أبي بكر ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مجروح ، في وجهه أثرُ الحلْقتين ، ومشجوج في جَبْهته في أصول الشعر ، ورباعيتُهُ قد شظيتْ ، وشفتُهُ قد كُلِمتْ من باطنها ، ومَنكِبه الأيمن مُوهَنٌ بضربة ابن قيئة، ورُكبتاه مجحوشتان ؛ فدخل المسجدَ فصلّى ركعتين ، والناس قد حَشَدُوا ، ونزل أهلُ العوالي[1] حيث جاءهم الصريخ[2] . ودعا بفرسِه على باب المسجد ، وتلقّاه طلحة بنُ عبيد الله ، وقد سمع المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله ! فإذا هو وعليه الدِّرع والمغفَر لا يُرَى منه إلّا عَيناه ، فقال : ياطلحة ، سلاحَكَ ، قال : قريباً ، قال طلحة : فأخرج ، وأعدو فألبَس درعي وآخذ سيفي ، وأطرح دَرَقتي في صدري ، وإنّ بي لتسع جراحات ، ولأنا أهْتَمّ بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله منّي بجراحي ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على طلحة ، فقال : أين تَرَى القوم الآن؟ قال: هم بالسيّالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذلك الذى ظننت ، أما إنهم ياطلحة لن ينالوا منّا مثلَ أمسِ حتى يفتح الله مكّة علينا ، قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة نفرٍ من أسْلَم طليعةً في آثار القوم ، فانقطع أحدُهم ، وانقطع قبالُ نعلِ الآخر ، ولحق الثالث بقريش وهم بحَمْراء الأسد ، ولهم زَجل[3] يأتمرون[4] في الرجوع إلى المدينة ، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك ، ولحق الّذى انقطع قبال نعلِه بصاحبه ، فبَصُرتْ قريش بالرجلين ، فعطفتْ عليهما ، فأصابوهما ، وانتهى المسلمون إلى مَصرَعهما بحَمْراء الأسد ، فقبرهما رسول الله صلى الله عليه وآله في قبر واحد ، فهما القرينان .

---

(١) العوالى : ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال .
(٢) الصريخ : المغيث .
(٣) زجل ، أى صوت وجلبة .
(٤) يأتمرون : يتشاورون .

قال الواقدي : اسماها سليط ونُعمان .

قال الواقدي : قال جابر بنُ عبد الله : كانت عامّة أزوادنا ذلك اليوم التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً تمرا حتى وافت حمراء الأسد ، وساق جزُرا ، فنحروا فى يوم ثنتين ، وفى يوم ثلاثا ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بجمع الحطب ، فإذا أمسوْا أمرهم أن يُوقِدوا النيران : فيوقِد كلّ رجل نارا ، فلقد كنا تلك الليلة نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرِنا ونيرانِنا فى كلّ وجه ، وكان ذلك مما كَبَت الله به عدوّنا .

قال الواقدي : وجاء معبَد بن أبى معبد الخزاعيّ - وهو يومئذ مشرك - إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكانت خُزَاعة سِلْما(١) للنبي صلى الله عليه وآله ، فقال : يامحمّد عزّ علينا ما أصابك فى نفسك ، وما أصابك فى أصحابك ، ولودِدْنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأنّ المصيبة كانت بغيرك ، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشا بالرّوحاء(٢) وهم يقولون : لا محمدا أصبتم ، ولا الكواعب أردفتم ، فبئسما صنعتم ! وهم مجمعون على الرّجوع إلى المدينة ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ماصنعنا شيئا ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصِلهم ، وقبل أن يكون لهم وَفر ، وكان المتكلّم بهذا عكرمة بن أبى جهل ، فلما جاء معبد إلى أبى سفيان : قال : هذا معبد ، وعنده الخبر ، ماوراءك يامعبد ؟ قال : تركت محمّدا وأصحابه خَلْفِي يتحرّقون عليكم بمثل النيران ، وقد اجتمع معه من تخلّف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألّا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وقد غضبوا(٣) لقومهم غضبا شديدا ولمن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويحك ، ماتقول؟ قال: والله ما أرى

---

(١) سلما ، أي مسالمون .
(٢) الروحاء : قطيعة كانت لعدى بن حاتم ، على نحو أربعين ميلا من المدينة .
(٣) ا الواقدي : « وغضبوا » .

أن ترتحلوا حتى تروا نواصيَ(١) الخيل ، ولقد(٢) حملني ما رأيت منهم أن قلتُ أبياتاً ، قالوا : وماهي ؟ فأنشدهم هذا الشعر :

كادت تهدّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيل(٣)

تَعْدو بأُسْدٍ ضِراه لا تنابلةٍ(٤) عندَ اللقاء ولا مِيلٍ مَعازيلِ(٥)

فقلتُ ويلُ ابن حرب من لقائهمُ إذا تَغطمطت البَطحاء بالجيل !(٦)

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلعَ معبد ، وقال لهم صفوان : ياقوم،لا تفعلوا ؛ فإن القوم قد حربوا(٧)، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلّف من الخزرج؛ فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعتم إليهم أن تكون الدولة عليكم . قال : فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أرشدهم صفوانُ وما كان برشيد ، ثم قال : والذي نفسي بيده لقد سُوّمت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب، قال : فانصرف القومُ سِراعا خائفين من الطّلب لهم ، ومرّ بأبي سُفيان قومٌ من عبد القيس يريدون للمدينة ، فقال لهم : هل أنتم مُبلِغو محمد وأصحابه ما أرسلكم به ؛ على أن أوقِرَ لكم أباعرَكم زَبيبا غداً بعكاظ ؛ إن أنتم جئتموني ! قالوا : نعم،قال : حيثما

---

(١) الواقدي : « حتى ترى نواصي الخيل » . (٢) الواقدي : « ثم قال معبد . . . » .

(٣) الأبيات في ابن هشام ٣ : ٥٤ . تهدّ ، أي تسقط من الإعياء . والجرد : الخيل العتاق . والأبابيل : الجماعات .

(٤) ابن هشام : « تردى بأسد كرام » . والتنابلة : القصار .

(٥) الميل : جمع أميل ، وهو الذي لا رمح له . والمعازيل : جمع معزال ؛ وهو من لا سلاح معه .

(٦) تغطمطت : اهتزت واضطربت . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصنف من الناس ، وبعدها في ابن هشام :

إني نذيرٌ لأهلِ البَسْلِ ضاحيةً لكلِّ ذي إربةٍ منهمْ ومَعْقُولِ

من جيشِ أحمد لا وخشٍ قنابلُهُ وليسَ يُوصَفُ ما أنْذَرتُ بالقيلِ

(٧) حربوا ، أي غضبوا .

لقيتم محمدا وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنا آثاركم. وانطلق أبو سُفيان إلى مكة ، وقدمَ الركبُ على النبي صلّى الله عليه وآله وأصحابه بالحمراء فأخبروهم بالّذى أمرهم أبو سفيان ، فقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل ، فأُنزل ذلك فى القرآن ، وأرسل معبدٌ رجلا من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وَجلين ، فانصرفَ رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ثلاث إلى المدينة .

الفصل الخامس فى شرح غزاة مؤتة

نذكرها من كتاب الواقدى ـ ونزيد على ذلك مارواه محمد بن إسحاق فى كتابه على عادتنا فيما تقدّم

قال الواقدىّ : حدثنى[١] ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم ، قال : بعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله الحارث بنَ عُمير الأزدىَّ فى سنة ثمان إلى مَلِك بُصْرَى بكتاب ، فلمّا نزلَ مؤتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسّانىّ ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رُسُل محمّد . قال : نعم ، فأمَرَ به فأُوثِق رِباطا ثم قدّمه فضَرَب عنقه ، ولم يُقتَل لرسول الله صلّى الله عليه وآله رسولٌ غيرُه ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، فاشتدّ عليه، وندَب الناسَ وأخبرَهم بمقتل الحارث،فأسرَعوا وخرجوا، فعسكروا بالجرف ، فلما صلى رسولُ الله صلى الله عليه وآله الظُّهرَ جلسَ وجلسَ أصحابُه حوله ، وجاء النعمان بن مهضٍ اليهودىّ فوقفَ مع الناس ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بنُ رَوَاحة ، فإن أصيب ابن رَوَاحةفليرتض المسلمون من بينهم رَجُلافليجعلوه عليهم . فقال النعمان بن مهضٍ : ياأبا القاسم ، إن كنت نبيّا فسيصاب من سمّيت قليلا كانوا أو كثيرا ، إن الأنبياء فى بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرّجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سَمى مائة أصيبوا جميعا . ثم جعل اليهودىّ يقول لزيد بن حارثة : اعهد فلا ترجع إلى محمّد أبدا إن كان نبيّا . قال زيد : أشهد أنّه نبيّ صادق فلمّا أجمعوا

---

(١) أخبار غزوة مؤتة فى الواقدى ص ٤٠١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٧ وما بعدها .

المسير وعَقَدَ رسول الله صلى الله عليه وآله لهم اللِّواء بيده دفَعه إلى زيد بن حارثة ، وهو لواء أبيض ، ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودّعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف ، فلما ساروا فى معسكرهم ناداهم المسلمون : دفَع الله عنكم ،وردكم صالحين سالمين غانمين ، فقال عبد الله بن رَوَاحة :

لكنّنى أسألُ الرّحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا (١)

أو طعنةً بيدىْ حرّانَ مجهزةً ... بحَرْبةٍ تنفُذُ الأحشاءَ والكَبِدا (٢)

حتى يقولوا إذا مرُّوا على جَدَثى ... ياأرشَدَ الله من غازٍ فقد رَشَدا (٣)

***

قلت : اتفق المحدّثون على أنّ زيدَ بنَ حارثة كان هو الأمير الأوّل ، وأنكرَتِ الشّيعة ذلك، وقالوا : كانَ جعفرُ بنُ أبى طالب هو الأمير الأوّل ، فإن قُتِلَ فزيدُ بنُ حارثة ، فإن قتل فعبد الله بن رَوَاحة ، وَرَوَوْا فى ذلك رواياتٍ ، وقد وجدتُ فى الأشعار التى ذكرها محمّد بنُ إسحاق فى كتاب المَغازى مايَشهد لقولهم ، فمن ذلك مارواه عن حسّانَ ابن ثابت وهو :

تأوّبنى ليلٌ بيثربَ أعسَرُ ... وهمٌّ إذا مانُوّم الناسُ مُسهِرُ (٤)

لذِكرى حبيبٍ هَيَّجتْ لى عَبرةً ... سَفُوحا وأسبابُ البكاء التَّذكُّرُ

بَلَى إنّ فقدان الحبيب بليّةٌ (٥) ... وكم من كريمٍ يُبتلَى ثم يَصبرُ !

فلا يُبعِدنّ اللهُ قَتلَى تتابعوا ... بمؤتةَ منهمْ ذو الجناحين جعفرُ

وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعا وأسيافُ المنيّة تخطرُ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٩ . ذات فرغ ؛ أى واسعة ، والزبد ، أصله ما يعلو الماء إذا غلا ؛ وأراد هنا ما يعلو الدم الذى ينفجر من الطعنة .

(٢) مجهزة : سريعة القتل ، وتنفذ الأحشاء : تخرقها وتصل إليها .

(٣) ابن هشام : « وقد » .

(٤) ديوانه ١٧٩ ـ ١٨١ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٠ ـ ٤٤٢ . تأوبنى : عاودنى ورجع إلىّ ، ومسهر : داع إلى السهر . (٥) الديوان : « بلاء وفقدان الحبيب » .

رأيتُ خيارَ المؤمنين تواردُوا ... شَعوبَ وخَلْق بعدَهم يتأخّرُ(١)
غَداةَ غدوْا بالمؤمنين يقودُهم ... إلى الموت مَيمونُ النَّقيبة أزهرُ
أغرُّ كضوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبِيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامةَ أصعرُ(٢)
فطاعَنَ حتّى مالَ غيرَ موسَّدٍ ... بمُعترَكٍ فيه القَنا متكسِّرُ
فصارَ مع المستَشهَدِين ثوابُهُ ... جِنانٌ وملتفّ الحدائق أخضرُ
وكنّا نرى فى جعفرٍ من محمّدٍ ... وَقارا وأمراً حازما حين يأمرُ
وما زال فى الإسلام من آلِ هاشمٍ ... دعائمُ صدْق لا تُرام ومَفخَرُ
همُ جبل الإسلامِ والناسُ حولَهمْ ... رِضامٌ إلى طَودٍ يَطول وَيَقهَرُ
بهَالِيلُ منهمْ جعفرٌ وابنُ أمِّه ... علىٌّ ومنهمْ أحمدُ المتخيَّرُ
وحمزةُ والعبّاس منهمْ ومنهمُ ... عَقيلٌ وماءُ العُودِ من حيث يُعصَرُ
بهمْ تُفرَج الغمّاءُ من كلِّ مأزَقٍ ... عَماسٍ إذا ماضاقَ بالناس مَصدرُ
همُ أولياءُ اللهِ أنزلَ حكمَه ... عليهمْ وفيهمْ والكتابُ المطهّرُ

ومنها قولُ كعبِ بن مالك الأنصارىّ من قصيدةٍ أوّلها(٣) :

نامَ العيونُ ودَمعُ عينك يَهمُلُ ... سَحًّا كما وَكَفَ الرِّبابُ المسبِلُ(٤)
وَجْداً على النفر الذين تتابعُوا ... قتلى بمؤْتةَ أسندوا لم يُنقَلوا
سارُوا أمامَ المسلمين كأنهمْ ... طَوْدٌ يقودهمُ الهِزَبرُ المُشبِلُ(٥)
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه ... قُدّامَ أولهم ونعم الأوّلُ
حتى تقوّضتِ الصفوفُ وجعفرٌ ... حيثُ التقى جمعُ الغُواة مجدَّلُ(٦)

---

(١) شعوب : من أسماء المنية .
(٢) ابن هشام والديوان : « عسر » .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٢ — ٤٤٥ ، برواية مخالفة .
(٤) الرباب : السحاب ، والمسبل : المنصب ؛ وفى ابن هشام : « الطباب المخضل » .
(٥) المشبل : ذو الشبل ؛ والشبل : ولد الأسد .
(٦) مجدل : مطروح على الجدالة ؛ وهى الأرض . وفى ابن هشام : « وعث الصفوف مجدل » .

فتغـــيّر القمرُ المنيرُ لفقـــدِهِ والشمس قد كسفت (١) وكادت تأفلُ
قومٌ عـلا بنيـانهم من هـاشم فرعٌ أشمُّ وسؤددٌ متـأثّلُ (٢)
قومٌ بهمْ عصم الإلهُ عبـــادَه وعليهمُ نزلَ الـكتابُ المنزَلُ
فضَلُوا المَعـاشرَ عفّةً وتـكرّما وتعمّدت أخلاقُهم مَنْ يجهـــلُ (٣)

قال الواقدى : فحدّثنى ابن أبى سبْرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن رافع بن إسحاق ، عن زيد بن أرقم أن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله خطبهم فأوصاهم فقال : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزُوا باسم الله وفى سبيل الله ، قاتِلوا من كفرَ بالله ، لا تغدِروا ولا تَغُلّوا ولا تقتلوا وَليدا ، وإذا لقيتَ عدوّكَ من المشركين فادعُهم إلى إحـدى ثلاث : فأيّتهن أجابوكَ إليهـا فاقبَلْ منهم ، وا كففْ عنهم ، ادعُهم إلى الدخول فى الإسلام ، فإن فعلوا فاقبَل وا كففْ. ثم ادعُهم إلى التحوّل من دارهم إلى المهـاجرين ، فإن فعلوا فأخـبرهم أنّ لهم ما للمُهـاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا دارَهم فأخبِرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، يَجرِى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة شىء ، إلّا أن يُجاهـدوا مع المسلمين ، فإن أبوْا فادْعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم وا كففْ عنهم ، فإن أبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرتَ أهل حصن أو مدينةٍ فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تَستنزلهم على حكمَ الله، ولـكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكمَ الله فيهم أم لا ! وإن حاصرتَ أهل حصنٍ أو مدينة وأرادوا أن تجعلَ لهم ذمّة الله وذمّة رسولِ الله فلا تجعلْ لهم ذمّة الله وذمة رسول الله ، ولـكن اجعل لهم ذمّتك وذمّة أبيك وأصحابِك ، فإنّـكم إن تخفِروا ذِمَمكم وذِمَم آبائـكم خيرٌ لـكم من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله .

---

(١) فى ب « كاسفة » ، وهو مستقيم الوزن أيضا .
(٢) ابن هشام : « ما ينقل » .
(٣) ابن هشام : وتعمدت أحلامهم » .

قال الواقدىّ : وحدّثنى أبو صفوان ، عن خالد بن يزيدَ ، قال : خرج النبىّ صلّى عليه وآله مشيّعًا لأهل مُؤْتة حتى بلغ ثنيّة الوداع ، فوقَفَ ووقفوا حوله ، فقال : اغزُوا بسم الله ، فقاتِلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصّوامع معتزِلين الناس ، فلا تَعرِضوا لهم ، وستَجدون آخرين للشّيطان فى رءوسهم مَفاحص ، فاقلموها بالسيوف ، ولا تَقتلُنّ امرأةً ، ولا صغيراً ، ضَرَعًا[1] ولا كبيرا فانيا ، ولا تقطعُنّ نخلا ولا شجرا ، ولا تهدِمُنّ بناء .

قال الواقدىّ : فلمّا دعا ودّع عبدُ الله بنُ رواحةَ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال له: مُرْنى بشىء أحفظه عنك ، قال : إنّك قادم غداً بلداً ، السجُودُ فيه قليل ، فأكثِروا السجودَ . فقال عبدُالله : زِدْنى يا رسول الله ، قال : اذْكُر الله ، فإنّه عونٌ لك على ما تَطلُب. فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهبا رجع فقال : يارسولَ الله : إن الله وِتْر يُحِبّ الوِتْر ، فقال : يابن روَاحة : ماعجزتَ فلا تَعجَز إن أسأتَ عَشرا أن تُحسِنَ واحدة . فقال ابنُ رَواحة : لا أسألُك عن شىء بعدها .

وروى محمّد بنُ إسحاق أنّ عبدالله بنَ رواحةَ ودّع رسول الله صلّى الله عليه وآله بشعرٍ منه :

فثبّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَـــنٍ   تثبيتَ مُوسَى ونَصراً كالذى نصَرُوا
إنّى تفرّستُ فيكَ الخـــير نافلةً   فَراسةً خالفَتْهم فى الذى نظَروا
أنتَ الرسولُ فمن يُحرَم نَوافِـلَه   والبِشْرَ منه فقد أَوْدَى به القَدَرُ

قال محمّد بن إسحاق : فلمّا ودّع المسلمين بكى ، فقالوا له : مايبكيك ياعبد الله ؟ قال : والله مابى حبّ الدنيـا ولا صبابة إليهـا ، ولكنى سمعت رسولَ الله صلّى الله

---

(١) الضرع : الصغير من كل شىء .

عليه وآله يقرأ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، (١) فاست أدرى كيف لى بالصَّدَر بعد الورود(٢) !

قال الواقدىّ : وكان زيدُ بن أرقم يحدِّث ، قال : كنتُ يتيما فى حِجْر عبد الله بن رواحة ، فلم أرَ والىَ يتيم كان خيراً لى منه ، خرجت معه فى وجهة إلى مؤتة وصَبَّ بِي وَصببْتُ به ، فكان يُرْدِفنى خلف رَحله ، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبتىْ رَحْلِه :

إذا بلّغتِنِي وحَمَلْتِ رَحْلى ... مَسافة أربع بعدَ الحِسَاءِ(٣)
فشأنكِ فانعمى وخَلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرجعْ إلى أهلى وَرَائى(٤)
وآبَ المسلمون وخلّفونى ... بأرض الشام مشتهرَ الثَّواءِ
وزوّدنى الأقاربُ مِن دعاء ... إلى الرحمن وانقطع الإخاءِ
هنالكَ لا أبالى طَلْعَ نخلٍ ... ولا نخلٍ أسافلها رِوَاءُ(٥)

فلمّا سمعتُ منه هذا الشعرَ بكيتُ : فخفقنى بالدِّرّة وقال : وما عليك يالُكَع أن يرزُقنى اللهُ الشهادة فأستريحَ من الدّنيا ونَصَبها ، وهمومها وأحزانها وأحداثها، وترجعَ أنت بين شعبتَىِ الرّحْل !

قال الواقدىّ : ومضى المسلمون فنزلوا وادِىَ القُرَى فأقاموا به أيّاما ، وساروا حتى نزَلوا بمُؤتة ، وبلغهم أن هرَقلَ ملكَ الرّوم قد نزل ماء من مياه البَلْقاء فى بكْر وبهْراء ولَخْم وجُذام وغيرهم مائة ألف مقاتل ، وعليهم رجلٌ من بَلِىّ ،فأقام المسلمون ليلتين ينظرون.

---

(١) سورة مريم : ٧١ .
(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٢ .
(٤) ولا أرجع ؛ جزم الفعل على الدعاء ؛ يدعو على نفسه بأن يستشهد فى هذه الوقعة ولا يرجع لأهله.
(٥) فى البيت إقواء .

فى أمرِهم ، وقالوا : نكتب إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله فنُخبره الخبر ؛ فإمّا أن يردّنا أو يزيدَنا رجالا ؛ فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبدُ الله بن رَوَاحة فشجّعهم ، وقال : واللهِ ما كنّا نقاتلُ الناسَ بكثرة عِدّة ولا كثرةِ سِلاح ولا كثرة خَيل ؛ إلاّ بهذا الدِّين الّذى أكرَمَنا الله بهِ ، انطلقوا فقاتلوا ؛ فقدو اللهرأيْنايومَ بَدْر ، وما معنا إلاّ فرسان ، إنما هى إحدى الحُسْنَيَيْن : إمّا الظُّهورُ عليهم فذاكَ ماوعدَنا اللهُ ورسولُه ، وليس لوعده خُلْف ، وإمّا الشهادة فنلحق بالإخوان ، نرافقهم فى الجِنان. فشجع الناس على قول ابن رَواحَة .

قال الواقدىّ : ورَوَى أبو هريرة قال : شهدتُ مؤتة فلمّا رأينا المشركين رأيْنا مالا قِبَل لنا به من العُدَد والسِّلاح والكُراع والدِّيباج والحَرِير والذّهب ، فبَرَق بَصَرِى ، فقال لى ثابتُ بنُ أرقم : مالَكَ ياأبا هُرَيرة ؛ كأنكَ ترى جُموعا كثيرةً! قلتُ : نعم ، قال : لم تَشْهدْنا ببَدْر ، إنالم نُنْصَرْ بالكَثْرة .

قال الواقدىّ : فالتقى القومُ ، فأخذ اللواءَ زيدُ بنُ حارثة ، فقاتَل حتّى قُتِل ، طعنوه بالرِّماح ، ثم أخذه جعفر فنزل عن فرس له شَقْراء فعَرْقَبها ، ثم قاتَل حتى قُتِل .
قال الواقدىّ : قيل : إنه ضرَبَه رجل من الرُّوم فقَطعه نصفين ، فوقع أحد نصفَيْه فى كَرْم هُناك ، فوُجِد فيه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جُرْحا .

قال الواقدىّ : وقد رَوَى نافعٌ عن ابن عمَر أنه وُجِد فى بدن جَعفر بن أبى طالب اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرِّماح .

قال البلاذرىّ : قطِعتْ يداه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقد أبدَله اللهُ بهما جَناحين يطيرُ بهما فى الجنة » ؛ ولذلك سمّى الطَّيّار .

قال الواقدىّ : ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رواحة فنكَل يَسيراً ، ثم حَمَل فقاتَل

حتى قُتِل ، فلما قُتِل انهزَم المسلمون أسوأ هزيمة كانت فى كلّ وجه ، ثم تراجعوا ؛ فأخذ اللواء ثابتُ بنُ أرقَم ، وجعل يَصيح بالأنصار ، فثابَ إليه منهم قليل ، فقال لخالد بن الوليد : خذ اللّواء يا أبا سليمان ، قال خالد : لا بل خُذْه أنتَ فلك سِنّ ، وقد شهدت بَدْرا . قال ثابت : خذه أيّها الرجل ، فوالله ما أخذتُه إلّا لك . فأخَذَه خالد وحَمَل به ساعةً ، وجعل المشركون يحمِلون عليه حتى دَهَمه منهم بَشرٌ كثير ، فانحازَ بالمسلمين ، وانكشفوا راجعين .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أن خالدا ثبت بالنّاس فلم ينهزموا ؛ والصحيح أنّ خالدا انهزَم بالناس .

قال الواقدىّ : حدّثنى محمد بن صالح ، عن عاصم بنِ عمرَ بن قتادة ، أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله لمّا الْتَقى الناسُ بمُؤتة جلس على المِنبر ، وكُشِفَ له ما بينه وبين الشام ، فهو ينظر إلى معرَكتهم ، فقال : أخذ الرّاية زيدُ بنُ حارثة ، فجاءه الشّيطان فحبّب إليه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، وحبّب إليه الدُّنيا ، فقال : الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تحبّب إلىّ الدنيا ! فمضَىَ قُدُما حتى استُشهِد ، ثم صلّى عليه ، وقال : استغفرُوا له فقد دخل الجنّة وهو يَسعَى ، ثم أخذ الرّاية جعفرُ بنُ أبى طالب ، فجاءه الشيطان فمنّاه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، ومنّاه الدنيا ، فقال : الآنَ حين أُستحكم الإيمانُ فى قلوب المؤمنين تتمنّى الدنيا ! ثم مَضَى قُدُما حتى أُستُشهد فصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وآلِه ودَعا له ، ثم قال : استغفروا لأخيكم فإنه شهيدٌ قد دَخل الجنّة ، فهو يطيرُ فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء . ثم قال : أخذ الراية عبدُ الله بنُ رواحة ، ثم دخل معترِضا فشقّ ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصابته الجراح . قيل : يارسولَ الله ، فما أعتراضُه ؟ قال : لما أصابته الجراح نَكَل فعاتَبَ نفسَه فشَجُعَ فأستُشهِد ؛ فدَخل الجنّه ؛ فسُرِّىَ عن قومه .

وروَى محمد بن إسحاق[1] قال : لمّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله زيدا وجعفرا سَكَت عن عبدِ الله بن رواحة حتى تغيّرت وجوهُ الأنصار ، وظنّوا أنه قد كان من عبدِ الله بعضُ ما يَكرَهون ، ثم قال : أخذَها عبدُ الله بنُ رَواحة فقاتل حتى قُتِل شهيدا ، ثم قال : لقد رُفِعوا لى فى الجنّة فيما يرَى النائم على سُرُرٍ من ذهب ، فرأيتُ فى سرير ابن رواحة ازورارا عن سَريرَىْ صاحبَيْه ، فقلت : لم هذا ؟ فقيل : لأنهما مضيا ؛ وتردّد هذا بعضَ التردد ، ثم مضى .

قال : وروى محمد بنُ إسحاق أنّه لمّا أخذ جعفرُ بنُ أبى طالب الرّاية قاتَلَ قتالا شديداً حتى إذا لحمَه القِتال اقتحَم عن فرس له شَقْراء فعقَرها ؛ ثم قاتل القومَ حتى قُتِل[2] ، فكان جعفر رضى الله عنه أوّل رجل عَقَر فرسه فى الإسلام .

قال محمد بنُ إسحاق : ولما أخذ ابنُ رواحة الرّاية جعل يتردّد بعضَ التردّد ، ويَستقدِم نفسَه يَستنزلها[3] ، وقال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلِنّهْ ... طوْعاً وإلا سوفَ تُكرَهِنّهْ

مالى أراكِ تَكرَهين الجنّه ... إذ أجلب الناسُ وشَدّوا الرّنّه[4]

قد طالما قد كنتِ مطمئنّهْ ... هل أنتِ إلّا نطفة فى شَنّهْ ![5]

ثمّ ارتجزَ أيضاً فقال :

يا نفسُ إلا تُقتَلى تَمُوتِى ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٦ .

(٢) بعدها فى ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، وهو يقول :

يا حبّذا الجَنّةُ واقترابُها ... طيّبةً وبارداً شرابُها

والرّوم روم قد دنا عذابها ... كافرةٌ بعيدة أنسابُها

* علىّ إذ لاقيتُها ضِرابُها *

(٣) ابن هشام : « يستنزل نفسه » .

(٤) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وضجوا .

(٥) النطفة : القليل من الماء الصافى . والشنة : القربة الخلق .

وما تمنيتِ فقد أعطيتِ إن تفعلى فِعلهما هُدِيتِ

* وإن تأخَّرتِ فقد شَقِيتِ *

ثم نَزَل عن فرسه فقاتَلَ ، فأتاه ابنُ عمّ له ببَضْعةٍ من لحم ، فقال : اشدُدْ بهذا صُلبك . فأخذها من يده ، فانتهش(١) منها نهشة ثم سمع الحطمة(٢) فى ناحية من الناس ، فقال : وأنتَ يابن رواحة فى الدّنيا ! ثم ألقاها من يدِه وأخـذ سيفه ، فتقدّم فقاتلَ حتى قُتِل(٣) .

قال الواقدىّ : حدّثنى داود بن سِنان ، قال : سمعتُ ثعلبـة بن أبى مالك يقول : انـكشف خالدُ بنُ الوليد يومئذ بالناس حتى عُيِّروا بالفرار ، وتشاءم الناسُ به .

قال : ورَوَى أبو سعيد الخُدْرىّ ، قال : أقبل خالد بالناس منهزمين ، فلمّا سمِـع أهلُ المدينة بهم تلقَّوْهم بالجُرف ، فجعلوا يَحْثُون فى وجوههم التراب ويقولون : يا فُرّار ، أفررْتم فى سبيلِ الله ! فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ليسوا بالفُرّار ، ولـكنهم كُرّار ، إن شاء الله .

قال الواقدىّ : وقال عُبيدُ الله بنُ عبدِ الله بن عُتْبة : ما لقِىَ جيشٌ بعثوا مَبعثًا ما لقِىَ أصحابُ مؤتة من أهل المدينة ، لقوهم بالشرّ ، حتى إنّ الرجل ينصرف إلى بيتِه وأهله فيدقّ عليهم فيأبَوْن أن يفتحوا له يقولون : ألا تقدّمتَ مع أصحابك فقُتِلتَ ، وجلس الكُبراء منهم فى بيوتهم استحياء من الناس ، حتى أرسلَ النبى صلى الله عليه وآله رجلا ، يقول لهم : أنتم الـكُرّار فى سبيل الله . فخرجوا .

قال الواقدىّ : فحدثنى مالك بن أبى الرّجال عن عبد الله بن أبى بكر بن حَزْم ، عن أمّ جعفر بنت محمد بن جعفر ، عن جدّتها أسماء بنت عُمَيس ، قالت : أصبحتُ فى اليوم الذى أصيب فيه جعفر وأصحابُه ، فأتانى رسول الله صلى الله عليه وآله وقد مَنأْتُ أربعين منًّا من أدَم وعجنتُ عجينى ، وأخذت بَنِىَّ ، فغسلتُ وجوههم ودهنتُهم ، فدخلتُ على

(١) انتهش منها : أخذ بفمه يسيراً . (٢) الحطمة : زحام الناس .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال: ياأسماء ، أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه ، فضمّهم وشمّهم، ثم ذرفت عيناه، فبكى ، فقلتُ :يارسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ! قال :نعم،إنه قُتل اليومَ ، فقمتُ أصيح ، واجتمع إليّ النساء ، فجعل رسول الله صلى الله وسلم يقول : ياأسماء ، لاتقولى هُجْرا ، ولا تَضرِبى صَدْرا ، ثم خرج حتّى دخل على ابنته فاطمةَ رضى الله عنها ، وهى تقول: واعمّاه ! فقال : على مثل جعفرٍ فلتَبكِ الباكية . ثم قال : اصنَعوا لآلِ جعفرٍ طعاما ، فقد شُغلوا عن أنفسِهم اليوم .

قال الواقدىّ : وحدّثنى محمّد بنُ مسلم ، عن يحيى بن أبى يَعلَى ؛ قال : سمعتُ عبدَالله ابنَ جعفر يقول: أنا أحفظ حين دَخَل النبىّ صلى الله عليه وآله على أمّى ، فنَعَى إليها أبى، فأنظر إليه وهو يَمسَح على رأسِى ورأسِ أخى ،وعيناه تُهَراقان بالدّمع حتى قطرتْ لِحْيته، ثم قال : اللهمّ إن جعفراً قدّم إلىّ أحسنَ الثواب ، فاخلُفه فى ذرّيته بأحسن ماخَلفت أحداً من عبادك فى ذرّيته ، ثم قال : ياأسماء ، ألا أبشّرك ؟ قالت : بَلَى بأبى وأمّى .قال: فإنّ الله جعل لجعفرٍ جَناحين يطيرُ بهما فى الجنّة ، قالت : بأبى وأمّى ، فأعلِم الناسَ ذلك! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدى يَمسح بيده رأسِى حتّى رَقِىَ على المنبر وأجلَسنى أمامه على الدّرَجة السفلَى ، وإنّ الحزنَ ليُعرف عليه ، فتكلّم فقال : إنّ المرء كثيرٌ بأخيه وابنِ عمّه ،ألَا إنّ جعفراً قد استُشهد ،وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهمافى الجنّة . ثم نزل ، فدخل بيتَه وأدخلنى ، وأمر بطعام فصُنع لنا ، وأرسل إلى أخى فتغدّينا عنـدَه غَدَاء طيّبا ، عمدتْ سلمى خادمتُه إلى شعيرٍ فطحننْه ، ثم نشَفَتْه ، ثم أنضجَتْه وآدَمته بزَيْت ، وجعلتْ عليه فُلفُلا ، فتغدّيت أنا وأخى معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيّام نَدُور معه فى بيوت نسائِه ، ثم أرجعنا إلى بيتنا ، وأتانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأنا أساوِم فى شاةٍ ، فقال : اللهمّ بارك له فى صَفْقتِه ، فوالله مابعتُ شيئا ولا اشتريتُ إلا بُورك فيه .

***

[فصل فى ذكر بعض مناقب جعفر بن أبى طالب]

رَوَى أبو الفَرَجِ الأصفهانىّ فى كتاب "مقاتِل الطالبيِّين" أن كُنيةَ جعفر بن أبى طالب أبو المَساكين، وقال: وكان ثالثَ الإخوة من ولد أبى طالب، أكبرهم طالب، وبعدَه عَقِيل، وبعده جعفر، وبعده علىّ، وكلّ واحد منهم أكبر من الآخر بعشرِ سنين، [وعلىّ أصغرهم سنًا][1]، وأمُّهم جميعا فاطمةُ بنت أسدِ بنِ هاشم بنِ عبد مناف[2].

وهى أوّل هاشمية ولدتْ لهاشمىّ، وفضلُها كثير، وقربُها من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وتعظيمُه لها معلوم عند أهل الحديث.

وَرَوَى أبو الفرج: لجعفر رضى الله عنه فضلٌ كثير. وقد ورد فيه حديثٌ كثير؛ من ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لمّا فتح خيبَر قدم جعفر بن أبى طالب من الحَبَشة، فالتزمه[3] رسولُ الله صلى الله عليه وآله وجعل يُقبِّل بين عينيه ويقول: ما أدرى بأيِّهما أنا أشدّ فرَحا! بقدُوم جعفر، أم بفتح خيبر!

قال: وقَد روَى خالدٌ الحذّاء، عن عِكرِمة، عن أبى هريرة أنه قال: ما ركب المطَايا، ولا رَكِب الكُور[4]، ولا انتعل، ولا احتذى النِّعالَ أحدٌ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وآله أفضَل من جعفر بن أبى طالب.

قال: وقد روَى عطيّة عن أبى سعيد الخُدرىّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خيرُ الناس حمزةُ وجعفرٌ وعلىّ.

وقد روَى جعفر بن مُحمّد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: خُلِق الناسُ من أشجار شتّى، وخلقتُ أنا وجعفرٌ من شَجرةٍ واحدة - أو قال - مِن طينةٍ واحدة.

---

(١) من مقاتل الطالبيين.
(٢) مقاتل الطالبين ٦، ٧ مع تصرف.
(٣) التزمه: اعتنقه.
(٤) الكور (بضم الكاف): الرحل بأداته.

قال : وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : أنت أشبهتَ خَلْقى وخُلُقى .

وقال أبو عُمَر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " كانت سنُّ جعفر عليه السلام يومَ قُتل إحدى وأربعين سنة .

قال أبو عمر : وقد روَى ابن المسيّب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : مُثِّل لى جَعفر وزيد وعبدالله فى خَيْمة من درّ ، كلّ واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابنَ رواحة فى أعناقهما صدودا ، ورأيت جعفراً مستقيما ليس فيه صُدود ، فسألتُ فقيل لى : إنهما حين غشيَهما الموتُ أعَرضا وصَدّا بوجَهْيهما ، وأما جعفر فلم يَفعَل .

قال أبو عمر أيضا : ورُوى عن الشّعبىّ ، قال : سمعتُ عبدَ الله بنَ جعفر يقول: كنتُ إذا سألت عمّى عليّا عليه السلام شيئا ويَمنعنى ، أقول له : بحقّ جعفر ، فيُعطِينى[1] .

ورَوَى أبو عمَر أيضا فى حرف الزّاى فى باب زيد بن حارثة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أتاه قتل جعفرٍ وزيد بمؤتة بَـكى، وقال : أخَوَاى ومؤنساىَ ومحدّثاى[2] .

***

واعلم أنّ هذه الكلمات التى ذكرها الرضىُّ رحمه الله عليه ملتقَطة من كتابه عليه السلام الّذى كتبه جوابا عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبى مسلم الخوْلانىّ وقد ذكره أهلُ السِّيرة فى كتبهم ، رَوَى نصرُ بنُ مزاحم فى كتاب " صِفّين " عن عمَر بن سعد عن أبى وَرْقاء ، قال : جاء أبو مسلم الخوْلانىّ فى ناس من قُرّاء أهل الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صِفّين فقالوا له : يامعاوية ، علام تقاتِل عليًّا وليس لك

(١) الاستيعاب ٨١ ، ٨٢ .
(٢) الاستيعاب ١٩١ .

مثل صحبتِه ولا هجرته ولا قَرابتِه ولا سابِقتِه ! فقال : (١ إنِّى لا أدّعى أنّ لى فى الإسلام مِثل صُحبتِه ولا مِثل هجرته ولا قَرابته١) ؛ ولـكنْ خبِّرونى عنـكم ، ألستم تعلمون أنّ عثمان قُتِل مظلوما ! قالوا : بلى ، قال : فليَدْفع إلينا قَتَلتَهُ لنقتلَهم به ، ولا قِتال بيننا وبينه، قالا : فاكتب إليه كتابا يأتِه به بعضُنا ، فـكتب مع أبى مسلم الخوْلانىّ :

من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب . سلام عليك ، فإنّى أحمدُ إليك الله الّذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ الله اصطَفى محمّدا بعِلْمِه ، وجعله الأمينَ على وَحْيـه ، والرسول إلى خَلْقِه ، واجتبىَ له من المسلمين أعوانا أيّده الله تعالى بهم ، فـكانوا فى منازلهم عنده على قَدْر فضائلهم فى الإسلام ، فـكان أفضلُهم فى الإسلام وأنصحُهم لله ورسولِه الخليفة من بعده ، ثم خَليفة خليفته من بعد خليفته ، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان ، فـكلّهم حسدت ، وعلى كلّهم بغيت ، عرَفْنا ذلك فى نظرِك الشَّزْر ، وقولك الْهجْر ، وتنفُّسِك(٢) الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخُلَفاء ، تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفَحْل المخشوش(٣) حتى تُبايعَ وأنت كارِه ، ثم لم تـكن لأحد منهم بأعظمَ حَسَدا منك لابن عمّك عثمان ، وكان أحقّهم ألّا تفعل ذلك فى قرابتِه وصِهرِه ، فقطعتَ رَحِمه ، وقبّحتَ محاسنَه ، وألّبتَ(٤) الناسَ عليـه ، وبطنتَ وظهرتَ حتى ضُرِبَتْ إليـه آباط الإبل ، وقيدتَ إليه الإبل العِراب ، وحُملَ عليه السِلاحُ فى حَرَم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقُتِل معكَ فى المحلّة وأنتَ تَسمَع فى دارِه الهائعة(٥) ، لا تَردَع الظّن والتُّهمة عن نفسك بقولٍ ولا عمل . وأُقسِم قَسَما صادقا لو قمتَ فيما كان من أمره مقاما واحدا تُنهنه الناسَ

(١ـ١) صفين : « ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن فى الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته » .

(٢) صفين : « وفى تنفسك » .

(٣) المخشوش : الذى جعل فى عظم أنفـه الخشاش ، وهو بالـكسر عويد يجعل فى أنف البعير يشدّ به الزمام ليـكون أسرع فى انقياده » .

(٤) ألبت الناس : جمعتهم عليه .

(٥) الهائعة : الصوت الشديد .

عنه ، ماعدل بك من قبلنا من النّاس أحدا ، ولحاً ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك بهمن الجانبة لعثمانَ والبغيِ عليه ، وأخرى أنت بها عند أنصارِ عثمان ظَنِين[1] ؛ إيواؤك قَتَلَة عثمان ، فهم عَضُدك وأنصارُك ، ويدُك وبطانتُك ؛ وقد ذُكر لى أنك تتنصّل من دمه ، فإن كنتَ صادقا فأمكِنّا من قَتَلته نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ، وإلّا فإنه ليس لك ولأصحابك إلّا السيف ؛ والّذى لا إله إلّا هو لنطلبنّ قتلةَ عثمانَ فى الجبال والرّمال ، والبرّ والبحر ، حتى يقتلهم الله أو لتلحقنّ أرواحنا بالله ، والسلام[2] .

قال نصر : فلمّا قدِم أبو مسلم على علىّ عليه السلام بهذا الكتاب ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أمّا بعد ، فإنّك قد قمتَ بأمرٍ وليتَه ، ووالله ماأحبّ أنه لغيرك . إن أعطيتَ الحقّ من نفسِك . إنّ عثمانَ قُتل مسلما مُحرِماً مظلوما ، فادفع إلينا قَتَلته ، وأنتَ أميرُنا ، فإن خالفَك من النّاس أحدٌ كانت أيدينا لك ناصرة ، وألسنتُنا لك شاهدة ، وكنتَ ذا عُذْر وحجّة . فقال له علىّ عليه السلام : اغدُ علىّ غداً ، فخذ جوابَ كتابِك فانصرف ، ثم رجع من غدٍ ليأخذ جوابَ كتابِه ، فوجد الناسَ قد بلغهم الّذى جاء فيه قبل ، فلبِست الشيعةُ أسلحتَها ثم غدَوا فملئوا المسجدَ ؛ فنادَوا : كلّنا قَتَلة عثمان ، وأكثروا من النّداء بذلك وأذِن لأبى مسلم ، فدخَل ، فدفَع علىّ عليه السلام جوابَ كتاب معاوية ، فقال أبو مسلم : لقد رأيت قوما مالَك معهم أمر ، قال : وما ذاك ؟ قال : بلَغ القومَ أنّك تريد أن تدفع إلينا قَتَلةَ عثمان فضجّوا ، واجتَمَعوا ، ولبسوا السّلاحَ ، وزعموا أنهم قتلة عثمان . فقال علىّ عليه السلام ، واللهِ ماأردت أن أدفعهم إليكم طرفةَ عَيْن قطّ ، لقد ضربتُ هذا الأمرَ أنفَه وعينَه ، فما رأيتُه ينبغى لى أن أدفعهم إليك ، ولا إلى غيرك . فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول : الآن طابَ الضِّراب !

---

(١) ظنين : متهم .

(٢) صفين ٩٧ ، ٩٨ .

وكان جوابُ علىّ عليـه السلام : من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سُفْيان .

أمّا بعد ؛ فإن أخا خَوْلان قَدِم علىّ بكتابٍ منك تَذْكُر فيه محمدا صلى الله عليه وآله وما أنعم الله به عليه من الهُدَى والوَحْى ، فالحمدُ لله الذى صَدَقَه الوعد ،وأيّده[1] بالنصر ، ومكّن له فى البلاد ، وأظهَرَه على أهلِ العداوة[2] والشّنآن من قومِه الّذين وَثَبوا عليه ، وشنِفوا له[3] ، وأظهرُوا تـكذيبه[4] وبارَزُوه بالعَداوة ، وظاهروا على إخراجِه وعلى إخراجِ أصحابه وأهله ، وألّبوا عليه [العرب ، وجادلوهم على حربه][5] ،وجَهَدوا فى أمره كلّ الجَهْد ، وقَلّبوا له الأمورَ حتى جاء الحقّ وظهرَ أمْر الله وهم كارهون ، وكان أشدّ الناس عليـه تأليبا[6] وتحريضا أسرَته ، والأدنى فالأدنى من قومِه ، إلّا مَن عَصَم الله . وذكرتَ أنّ الله تعالى اجتبى له من المسلمين أعوانا أيّده الله بهم ، فـكانوا فى منازلهم عنده عَلَى قدر فضائلهم فى الإسلام ، فـكان أفضلَهم ـ زعمت ـ فى الإسلام،وأنصحَهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولَعَمرى إنّ مكانَهما فى الإسلام لعظيم،وإنّ المصابَ بهما لَجرحٌ فى الإسلام شديد ، فرحِمهما الله وجزاهما أحسنَ ماعَمِلا !وذكرتَ أنّ عثمان كان فى الفضل تاليًا ، فإن يكُ عثمانُ محسناً فسَيجزيه الله بإحسانِه ، وإن يك مُسيئا فسَيلقَى ربّا غفوراً لايتعاظَمُه ذَنْب إنْ يغفره ، ولَعمْرِى إنّى لأرجو إذا أعطى الله الناسَ على قدر فضائِلِهم فى الإسلام ونصيحَتِهم لله ولرسوله ، أنْ يكون نصيبُنا فى ذلك الأوفر.إن محمدا صلّى الله عليه وآله لمّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهلَ البيت أوّلَ من آمن به وصدّقه فيما جاء ، فبتْنا أحْوالا كاملةً مجرّمة[7] تامة ، وما يُعبَد الله فى رَبْعٍ ساكنٍ من

---

(١) صفين : « وتمم له النصر » .
(٢) صفين : « العداء » وهو يوافق ما فى ا .
(٣) شنف له ، أى أبغضه .
(٤) صفين : « التـكذيب » .
(٥) من صفين .
(٦) صفين : « إلبا » .
(٧) مجرمة ، أى كاملة .

من العَرَب غيرنا ، فأراد قومُنا قتلَ نبيّنا ،واجتياحَ أصلِنا ، وهمُّوا بنا الهُموم ، وفَعَلوا بنا الأفاعيل ، ومنَعونا المِيرة[1] ، وأمسكوا عنا العَذْب ، وأحْلَسُونا الخوْف[2] . وجعَلوا علينا الأرصادوالعيون،واضطرّونالإلى جَبَلٍ وَعْر ، وأوْقَدوا لنانارالحَرْب ، وكَتَبوا بينهم كتابا ، لا يؤاكِلُوننا ، ولا يُشارِبُوننا ، ولا يُناكحوننا ، ولا يُبايِعوننا ،ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمّدا فيقتلوه ويمثِّلوا به ، فلم نـكن نأمن فيهم إلّا من مَوْسم إلى مَوْسم ، فَعزم الله لنا عَلَى مَنعه ، والذبِّ عن حَوْزته ، والرّمى من وراء حُرْمته ، والقيامِ بأسيافِنا دونه فى ساعات الخوف بالّليل والنهار ، فمؤْمِننا يرجو بذلك الثواب ،وكافرُنا يُحامِى عن الأصل ،وأمّامَن أسلَمَ من قريش فإنهم مما نحن فيه خَلاء ، منهم الحليف الممنوع ،ومنهم ذو العَشِيرة التى تدافع عنه ، فلا يبغيه أحدٌ مثل مابغانا به قومُنا من التّلف ، فهم مِن القَتْل بمكان[3] نجْوة وأَمْن ، فـكان ذلك ماشاء اللهُ أن يكون . ثم أمرَ الله تعـالى رسوله بالهجرة ، وأذِنَ له بعد ذلك فى قتـال المشركين ، فـكان إذا احمرّ البأس ، ودعيتْ نَزالِ[4] أقامَ أهلَ بيته ، فاستقدموا ، فوق أصحابه بهم حدَّ الأسنّة والسيوف ، فقتل عبيدةُ يومَ بدْر ، وحمزة يوم أُحُد ، وجعفر وزَيد يوم مؤتة ، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثلَ الذى أرادوا من الشهادة مع النبىّ صلى الله عليه وسلم غير مرّة ، إلا أن آجالَهم عُجّلتْ،ومنيَّته أُخّرتْ ، والله ولىّ الإحسان إليهم ، والمِنّة عليهم ، بما أسلفوا من أمر الصالحات ، فما سمعتُ بأحد ولا رأيته هو أنصحُ فى طاعة رسولِه ولا لنبيّه ، ولا أصبرَ على اللأواء[5] والسرّاء والضّرّاء وحين البأس ، ومواطن المـكروه مع النبى صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النّفر الذين سمّيتُ لك ، وفى المهاجرين خيرٌ كثير يعرَف ، جزاهم الله خيراً بأحسن

---

(١) الميرة بالكسر : ما يجلب ؛ ويريد بالعذب الماء .

(٢) أحلسونا الخوف ؛ أى ألزموناه .

(٣) انظر صفحتى ١٠٠ ، ١٠١ .

(٤) دعيت نزال ، كقطام ؛ أى تنازلوا للحرب .

(٥) اللأواء : الشدة .

أعمالهم . وذكرتَ حسدى الخلفاء وإبطائى عنهم ، وبغيى عليهم ؛ فأمّا البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكراهيَة لأمرهم فلستُ أعتذر إلى الناس من ذلك؛ إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيَّه الله صلّى الله عليه وسلم قالت قريش : منّا أميرٌ ، وقالت الأنصار : منّا أمير ؛ فقالت قريش : منّا محمد ، نحن أحق بالأمر ، فعرفتْ ذلك الأنصار فسلّمت لهم الولاية والسلطان ، فإذا استحقّوها بمحمد صلى الله عليه وسلّم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحقٌ به منهم ، وإلّا فإنّ الأنصار أعظمُ العرب فيها نصيبا ، فلا أدرى : أصحابى سلموا من أن يكونوا حقى أخذوا ، أو الأنصار ظلموا ، بل عرفت أن حقى هو المأخوذ ، وقد تركته لهم تجاوُزا لله عنهم . وأمّا ماذكرت من أمر عثمان ، وقطيعتى رحمه ، وتأليبى عليه فإن عثمان عمل ماقد بلغك ، فصنع الناس به مارأيت ، وإنّك لتعلم أنى قد كنت فى عزْلة عنه إلا أن تتجنّى ؛ فتَجَنَّ [(١)] مابدالك ؛ وأما ماذكرت من أمر قتلة عثمان فإنّى نظرتُ فى هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمرى لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك لا يكلّفونك أن تطلبهم فى برّ ولا بحر ولا سهل ولا جبَل ، وقد أتانى أبوك حين ولّى الناسُ أبا بكر ، فقال : أنتَ أحقٌّ بمقام محمد ، وأولى النّاس بهذا الأمر ، وأنا زعيمٌ لك بذلك على من خالف ، ابسُطْ يدك أبايعْك ؛ فلم أفعل ، وأنتَ تعلم أنّ أباك قد قال ذلك وأراده حتى كنتُ أنا الذى أبيتُ ؛ لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، فأبوك كان أعرف بحقى منك ، فإن تعرفْ من حقى ما كان أبوك يعرف تُصبْ رُشْدَك ، وإنْ لم تفعل فسيُغنى الله عنك ، والسلام [(٢)] .

---

(١) تجنى عليه : ادعى ذنبا لم يجنه .

(٢) صفين ٩٨ ــ ١٠٢ .

(١٠)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا ، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا ؛ دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا . وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا ، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ .

فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ .

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ .

وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً ، وَاخْرُجْ إِلَيَّ ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ !

فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ؛ مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً ، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً ، وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ ؛ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ ، فَاطْلُبْهُ

مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنتَ طَالِباً ، فَكَأَنِّى قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالأَثْقَالِ وَكَأَنِّى بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِى جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ ،وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ،إِلَى كِتَابِ اللهِ،وَهِىَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ ،أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

***

الشَّرْحُ

الجلاَبيب : جمعُ جلْباب ، وهى الملحفة فى الأصل ؛ واستُعير لغيرها من الثّياب ، وتجلبَب الرجلُ جلببةً ، ولم تُدغم لأنّها ملحقة بـ « دَحْرَجة » .

قوله : « وتبهّجتْ بزينتها » : صارت ذاتَ بهجة ، أى زينة وحُسْن ، وقد بَهُج الرجلُ بالضم ، ويُوشِك : يسرع .

ويقفك واقف ، يعنى الموتَ ؛ ويُروَى : « ولا ينحيك مِجَنّ » ، وهو التُّرس ، والرواية الأولى أصح .

قوله : « فاقعَسْ عن هذا الأمر » ، أى تأخّر عنه ، والماضى قَعَس بالفتح ، ومثلُه تقاعَسَ واقعَنْسَسَ .

وأُهْبة الحساب : عُدّته ، وتأهّب : « استعدّ ، وجمع الأُهْبة أُهَب .

وشمِّر لما قد نزل بك ، أى جِدَّ واجتهد وخِفّ ، ومنه رجل شَمَّرِىّ بفتح الشين ، وتُكسر .

والغواةُ : جمع غاوٍ ، وهو الضّال .

قوله : « وإلا تفعل » يقول : وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإنّى أعرّفك من نفسك ما أغفلتَ معرفته .

إنّك مترَف ، والمترفُ الذى قد أترفته النِّعمة ، أى أطغته .

قد أخذ الشيطان منك مأخذه ؛ ويُروَى « مآخذه » بالجمع ، أى تناوَل الشيطانُ منك لُبّك وعقلك . ومأخذه مصدر ، أى تناولك الشيطانِ تناولَه المعروف ، وحذف مفعول « أخذ » لدلالة الـكلام عليه ، ولأنّ اللفظة تَجرى مَجرَى المَثل .

قوله : « وجرَى منك مَجرَى الرُّوح والدم » ، هذه كلمةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الشيطان ليَجرِى من ابن آدمَ مَجرَى الدّم » .

ثم خرج عليه السلام إلى أمرٍ آخَر ، فقال لمعاوية : « ومتى كنتمْ ساسَةَ الرعيّة ، وولاةَ أمرِ الأمّة ! » ينبغى أن يُحمَل هذا الـكلامُ على نفى كونِهم سادة وولاةً فى الإسلام ، وإلا ففى الجاهلية لا يُنكَر رياسة بنى عبدِ شمس . ولست أقولُ برياستهم على بنى هاشم ، ولـكنّهم كانوا رؤساء على كثيرٍ من بطون قريش ، ألا ترَى أنّ بنى نَوْفل ابن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم ، وأنّ بنى عبد شمس كانوا فى يوم بدر قادة الجيش ، كان رئيس الجيش عُتبة بنُ ربيعة ، وكانوا فى يوم أُحُد ويوم الخندق قادةَ الجيش ! كان الرئيس فى هذين اليومين أباسُفيان بن حرب ؛ وأيضا فإنّ فى لفظة أميرالمؤمنين عليه السلام ما يُشعِر بما قلناه ، وهو قوله : « وولاةُ أمرِ الأمّة » فإنّ الأمّة فى العرب هم المسلمون ، أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله .

قولُه عليه السلام : « بغير قدمٍ سابق » ، يقال : لفلانٍ قدمُ صِدْق ، أى سابقة وأثَرَةٌ حَسَنة .

قوله عليه السلام : « ولا شرف باسق » ؛ أى عالٍ .

وتَمادَى : تفاعَل ، من المدى ، وهو الغاية ، أى لم يَقِف بل مَضَى قُدُما .

والغِرّة : الغَفْلة : والأُمنيّة : طمعُ النفس . ومختلِف السّريرة والعلانيَة : منافق .

قوله عليه السلام : « فدَع الناسَ جانبا » ، منصوب على الظّرْف .

والمرين على قلبه : المغلوبُ عليه ، من قولِه تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] . وقيل : الرَّيْن : الذنب على القريب .

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأنّ معاوية قالها فى رسالةٍ كتبها ، ووقفتُ عليها من كتاب أبى العبّاس يعقوب بن أبى أحمد الصَّيْمَرِىّ الذى جَمَعه من كلام علىٍّ عليه السلام وخطبه ، وأوّلها :

أما بعد ، فإنّك المطبوعُ عَلَى قلبِك ، المغطَّى على بَصَرِك؛ الشرّ من شيمتك ، والعُتوّ من خَليقتك ، فشمِّر للحرب ، واصبر للضَّرب ، فو الله ليرجعنّ الأمرُ إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين . هيهاتَ هيهات ! أخطأك ما تمنّى ، وهَوَى قلبك فيما هَوَى ، فاربَعْ عَلَى ظَلْعِك ، وقِسْ شبْرَك بِفِتْرِك ، تَعلَم أين حالُك من حالِ من يَزِنُ الجبالَ حِلمُهُ ، ويَفصِل بين أهل الشكّ عِلمُهُ ؛ والسلام .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام : أمّا بعد ، يابن صَخْر ، يابن اللّعين ؛ يَزِنُ الجبالَ فيما زعمتَ حِلمُك ، ويَفصِل بين أهلِ الشك عِلمُك ؛ وأنتَ الجاهلُ القليلُ الفقهْ ، المتفاوتُ العقل ، الشاردُ عن الدين .

وقلتَ : « فشمِّر للحرب ، واصبر » ، فإن كنتَ صادقا فيما تزعُمُ ، ويُعينُك عليه ابن النّابغة ، فدَعِ النّاس جانبا ، وأعفِ الفَريقين من القِتال ، وابرُزْ إلىّ لتعلم أيّنا المرينُ عَلَى قلبه ، المغطَّى على بصره ، فأنا أبو الحَسَن حقا ، قاتلُ أخيك وخالِك وجدِّك ؛ شَدْخًا يومَ بدر ، وذلك السّيف معى ، وبذلك القلبِ ألقىَ عدوّى !

* * *

(١) سورة المطففين ١٤ .

قوله عليه السلام «شَدْخا» ؛الشّدخ: كَسرُ الشيء الأجْوف ،شَدخت رأسَهُ أشدَخ، وهؤلاء الثلاثةُ : حنظلةُ بنُ أبي سُفيان، والوليد بنُ عتبة ،وأبوه عتبةُ بن ربيعة ، فحنظلة أخوه ، والوليد خالُه ؛ وعتبةُ جدُّه ، وقد تقدّم ذكرُ قتلِه إيّاهم في غَزاةِ بَدْر .

والثائر : طالب الثأر . وقوله : « قد علمتَ حيثُ وقعَ دمُ عثمانَ فاطلُبْه من هناك »، يريد به إن كنتَ تطلُب ثأرَك من عند من أجْلَب وحاصَر ، فالّذى فَعَل ذلك طلحةُ والزبير ؛ فاطلب ثأرَك من بنى تميم ومن بنى أسَد بن عبدِ العُزّى ، وإن كنت تطلبه ممّن خذَل، فاطلُبه من نَفسِك فإنّك خَذَلْته ، وكنتَ قادرا على أن ترفِده(١) وتمِدّه بالرجال، فخذلتَه وقعدتَ عنه بعد أن استنجدَك واستغاثَ بك .

وتضِجّ : تصوِّت . والجاحِدة : المنكرة ، والحائدة : العادلة عن الحقّ .

واعلم أنّ قوله: « وكأنّى بجماعتك يدعونّنى جزَعامن السّيف إلى كتاب الله تعالى»، إمّا أن يكون فِراسةً نبويّةصادقة ، وهذا عظيم ،وإما أن يكون إخبارا عن غَيبمفصّل، وهو أعظمُ وأعجب ، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العَجَب . وقد رأيت له ذِكرَ هذاالمعنى في كتابغيرِ هذا ،وهو : أمّا بعدُ ،فما أعجب مايأتينيمنك ، وماأعلَمنى بمنزلتكالتىأنت إليها صائر، ونحوها سائر ؛وليس إبطائى عنكَ إلّا لوقتٍ أنابه مصدِّق، وأنتَ بهمكذِّب؛ وكأنّى أراك وأنتَ تضجّ من الحرب، وإخوانُك يدعونّنى خوفا من السّيف ، إلى كتابٍ همبه كافرون ،ولهجاحدون .

***

ووقفت له عليه السلامُ على كتابٍ آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى ، أوّله : أمّا بعد ، فطالمَا دعوتَ أنتَ وأولياؤك أولياء الشّيطان الحقَّ أساطير ، ونبذتموه وراء

---

(١) ترفده : تعينه .

ظهوركم، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١]. ولعمرى لينفذنّ العلمُ فيك، وليتمّن النورُ بصِغرك وقماءتك، ولتخسأنّ طريدا مَدْحورا، أو قتيلا مَثبورا[٢]؛ ولتُجزَينّ بعملك حيث لا ناصرَ لك، ولا مُصرِخ[٣] عندك. وقد أسهبْتَ فى ذكر عثمان، ولعمرى ما قتَله غيرُك، ولا خذَله سواك، ولقد تربّصْتَ به الدوائر، وتمنّيت له الأمانىّ، طمعا فيما ظهر منك، ودلّ عليهِ فعلُك، وإنّى لأرجو أن أُلحِقك به على أعظمَ من ذنبِه، وأكبر من خطيئتِه.

فأنا ابن عبد المطّلب صاحبُ السّيف، وإنّ قائمه لفى يدى، وقد علمتَ من قتلتُ به من صناديد بنى عبد شمس، وفراعنة بنى سَهْم وجُمح وبنى مخزوم؛ وأيتمتُ أبناءهم، وأيّمْت نساءهم[٤]. وأذكّرك مالستَ له ناسيا؛ يومَ قتلتُ أخاك حنظلة، وجررتُ برجْله إلى القَليب[٥]، وأسرتُ أخاك عمرا؛ فجعلتُ عنقَه بين ساقيه رباطا، وطلبتُك ففررتَ ولك حُصاص[٦]؛ فلولا أنى لا أَتْبَع فارّا، لجعلتك ثالثهما، وأنا أولِى لك بالله أليّة برّة غير فاجرة؛ لئن جمعتْنى وإيّاك جوامع الأقدار، لأتركنّك مثلاً يتمثّل به الناس أبداً، ولأجعجِعنّ بك فى مناخِك حتّى يحكم الله بينى وبينك، وهو خيرُ الحاكمين.

ولئن أنسأ[٧] الله فى أجلى قليلا لأغزينّك سَرايا المسلمين، ولأنهدنّ إليك فى جحْفل من المهاجرين والأنصار، ثم لا أقبَل لك معذرة ولا شفاعة، ولا أجيبُك إلى طلب وسؤال، ولترجعنّ إلى تحيُّرك وتردُّدك وتلدُّدك، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ

---

(١) سورة التوبة ٣٢.
(٢) مثبورا: هالكا؛ أو مصروفا عن الخير.
(٣) المصرخ: المستغيث.
(٤) أيمت نساءهم؛ أى تركتهن بلا أزواج.
(٥) القليب: البئر.
(٦) الحصاص: شدة العدو.
(٧) أنسأ الله فى أجلى؛ أى أخره قليلا.

سُحُبِ الموتِ كيف هطلتْ عليك بصيِّبها [١] حتى أعتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كفر وكذّب بنزُوله . ولقـد كنتُ تفرّستُها ، وآذنتك أنك فاعلُها ، وقد مضى منها مامَضَى ، وانقضى من كَيْدك فيها ما انقضى ، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هـذا الـكتاب ، فاخترْ لنفسك ، وانظرْ لهـا ، وتداركهـا ، فإنّك إن فطرت واستمررْت على غيِّـك وغُلَوائك [٢] حتى ينهـد إليك عبادُ الله ، أرْتجَت عليك الأمور ، ومُنعت أمراً هو اليوم منك مقبول.

يابن حرب ، إنّ لجاجك فى منازعة الأمر أهله من سفاه الرّأى ، فـلا يطمعنّك أهلُ الضلال ، ولا يوبقنّك سفهُ رأى الجهال ، فوالّذى نفسُ علىّ بيـده لئن برقتْ فى وجهك بارقة من ذى الفقار لتُصعَقنّ صعْقةً لاتفيق منها حتى يُنفخ فى الصور النّفخة الّتى يئستَ منها ﴿ كَمَا يَئِسَ الـكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [٣].

***

قلتُ : سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية : هل شهد بدراً مع المشركين ؟ فقال : نَعم شهِدَها ثلاثة من أولاد أبى سفيان : حنظلة وعَمرو ومُعاوية ،قُتِل أحدهم،وأُسِر الآخر، وأفلت معاويةُ هاربا على رجْليْه ، فقدِم مكّة ، وقدانتفخَ قَدماه ، ووَرمتْ ساقاه ، فعالج نفسَه شهرين حتى برأ .

قال النّقيب أبو زيد : ولا خلافَ عند أحَدٍ أنّ عليا عليه السلام قتل حنظلة وأَسَر عمراً أخاه . ولقد شهد بدرا ، وهَرَبَ على رجليه مَن هو أعظمُ منهما ومن أخيهما عمرو بن عبد ودّ فارس يوم الأحزاب ، شهدَها ونجا هارباً على قدميه ، وهو شيخ كبير،

---

(١) الصيب : المطر المنصب .

(٢) الغلواء : الـكبر .

(٣) الممتحنة ١٢ .

وارتُثَ (١) جريحا ، فوصَل إلى مكة وهو وَقِيذ (٢) فلم يشهد أُحُداً ، فلما برأ شهد الخندق، فقتلَه قاتلُ الأبطال ، والذى فاتَهُ يومَ بدر استدرَكه يوم الخندق .

ثم قال لى النقيب رحمه الله : أما سمعتَ نادرة الأعمش ومُناظِرَه ؟ فقلتُ : ما أعلمُ ما تريد ؛ فقال : سأل رجلٌ الأعمش ـ وكان قد ناظرَ صاحبا له : هل معاويةُ من أهل بدر أم لا ؟ فقال له : أصلَحكَ الله ، هل شَهِد معاويةُ بدراً ؟ فقال : نعم مِن ذلك الجانب .

* * *

واعلم أن هذه الخُطْبة قد ذكرها نصر بنُ مُزاحم فى كتاب " صِفِّين " على وجه يقتضى أنَّ ماذكره الرضىُّ ـ رحمه الله ـ منها قد ضمّ إليه بعضَ خطبةٍ أخرى ، وهذه عادَتُه ، لأن غَرَضه الِتقاط الفصيح والبليغ من كلامه ، والذى ذكره نصرُ بنُ مزاحم هذه صورته :

من عبدالله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، سلامٌ على من اتّبع الهدى فإنى أحمد إليك اللهَ الّذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنك قد رأيتَ مُرور الدنيا وانقضاءها وتصرُّمَها وتصرّفَها بأهلها ، وخيرُ ما اكتُسِب من الدّنيا ما أصابَه العبادُ الصالحون منها من التقوى ، ومن يَقِس الدّنيا بالآخرة يجدْ بينهما بعيدا . واعلمْ يامعاوية أنّك قد ادّعيتَ أمراً لستَ من أهله (٣) لا فى القَدِيم ولا فى الحديث (٣) ، ولستَ تقول فيه بأمر بيّن يُعرَف له أثر (٤) ، ولا عليك منه شاهد [من كتاب الله] (٥) ؛ ولستَ متعلّقا بآية من

---

(١) ارتث جريحا : حمل من المعركة رثيثا ؛ أى جريحا وبه رمق .
(٢) الوقيذ : الشديد المرض ، المشرف على الهلاك .
(٣ ـ ٣) صفين : « لا فى القدم ولا فى الولاية » . (٤) صفين : « أثرة » .
(٥) من صفين .

كتاب الله ، ولا عهدٍ من رسولِ الله صلى الله عليه وآلهِ ، فكيف أنت صانع [١] إذا تقشّعتْ عنك غيابةُ ما أنتَ فيه من دُنياً قد فتنتَ بزينتِها ، وركَنْتَ إلى لذّاتها [١] ، وخُلّي بينك وبين عدوِّك فيها ، وهو عدوٌّ وكَلِب مُضِلٌّ جاهد مُلِيح [٢] ، ملحّ ، مع ما قد ثَبَت في نفسِك من جهتها ، دعتك فأحببتَها ، وقادتك فاتبعتَها ، وأمرَتْك فأطَعْتَها ، فاقعَسْ [٣] عن هذا الأمر ، وخذ أهبَة الحساب ، فإنه يُوشك أن يَقِفَك واقف على ما لا يجنك [٤] مِجَنٌّ .

ومتى كنتم يا معاوية ساسةَ الرعيّة ، أو وُلاةً لأمر هذه الأمّة ، بلا قَدَم حسَن ، ولا شَرفٍ تَليد على قومكم ، فاستيقظ من سِنَتِك ، وارجِع إلى خالقِك ، وشمِّر لما سينزل بك ، ولا تُمَكِّن عدوَّك الشيطانَ من بغيته فيك ؛ مع أنّي أعرف أنّ الله ورسولَه صادقان ، نعوذ [٥] بالله من لُزوم سابق الشقاء وإلّا تفعَلْ فإني أُعلمك ما أغفلتَ من نَفسِك ، إنك مُترَف ، قد أخذَ منك الشيطان مأخذه ، فجرى منك مَجرى الدمِ في العروق ، ولستَ من أئمة هذه الأمة ولا من رعاتها . واعلم أنَّ هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسَدُوناهُ ، ولامتَنُّوا علينا به ، ولكنّه قضاء ممّن مَنَحَناه واختصّنا به ، على لسان نبيّه الصادق المصدّق ، لا أفلَح من شكّ بعد العِرفانِ والبينة ! ربِّ احكمْ بيننا وبين عدوِّنا بالحق وأنت خيرُ الحاكمين [٦] .

* * *

قال نصر : [٧] فكتب معاويةُ إليه الجوابَ [٧] : من معاوية بن أبي سُفيان إلى عليّ ابن أبي طالب ، أمّا بعد ، فدَعِ الحسَد ، فإنّك طالما لم تَنتفع به ، ولا تُفسِد سابقةَ

(١-١) صفين : « إذا انقشعت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا أبهجت بزينتها ، وركنت إلى لذتها » .
(٢) المليح : الملوح بالسيف ؛ يقال : ألاح بالسيف ؛ ولوح : إذا حركه ولمع به .
(٣) أقعس عن هذا الأمر ؛ أي تأخر .
(٤) كذا في صفين و ا ، وفي ب : « يحميك » .
(٥) صفين : « فنعوذ » .   (٦) صفين ١٢١ ، ١٢٢ .
(٧-٧) صفين : « فكتب معاوية بسم الله الرحمن الرحيم » .

جهادك بشِرَّةِ نخوَتك ، فإنَّ الأعمال بخواتيمها ، ولا تُمحِّص سابقتك بقتالِ مَن لا حقّ لك فى حقّه[١] ، فإنَّك إنْ تفعل لا تَضرّ بذلك إلا نفسَك ، ولا تمحَق إلّا عملك ، ولا تُبطل إلّا حجّتك ؛ ولعَمرى إن ما مضى لك من السابقات لشبيه أن يكون ممحوقا ، لما اجترأتَ عليه من سَفْك الدماء ، وخلافِ أهلِ الحقّ ، فاقرأ السُّورة التى يُذكَر فيها الفَلَق وتعوَّذ من نفسِك[٢] فإنّك الحاسدُ إذا حسَد[٣] .

---

(١) حق الرجل وأحقه ؛ إذا غلبه على الحق .
(٢) صفين : « وتعوذ بالله من شر نفسك » .
(٣) صفين ١٢٣ .

(١١)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدوّ :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءًا ، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا .

وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً ، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً .

***

الشرح :

المُعسكَر ؛ بفتح الكاف : موضعُ العسكر ، وحيث ينزل .

الأشراف : الأماكن العالية ، وقُبُلها : ما استقبلَكَ منها ، وضدّه الدُّبر .

وسفاح الجبال : أسافلُها حيث يَسفَح منها الماء .

وأثناء الأنهار : ما انعطف منها ، واحدُها ثِنْي . والمعنى أنّه أمرهم أن ينزلوا مسندين ظهورَهم إلى مكانٍ عالٍ كالهِضاب العَظيمة ، أو الجبالِ ، أو مُنعطَف الأنهار التي تجري مجرَى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات ، وليأمنوا أيضاً من إتيان العدوّ لهم

من خَلْفِهم ، وقد فسّر ذلك بقوله : كيما يكون لكم رِدْءا ، والرِّدْء : العَوْن ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾[1] .

ودونكم مَرَدًّا ، أى حاجزا بينكم وبين العدوّ .

ثمّ أمرَهم بأن يكونَ مُقاتَلتهم ـ بفتح التاء ، وهى مَصدَر «قاتل» ـ من وجهٍ واحدٍ أو اثنين ؛ أىْ لا تتفرّقوا ؛ ولا يكن قتالُكم العدوّ فى جهاتٍ متشعّبة ، فإنّ ذلك أدعى إلى الوَهَن ، واجتماعُكم أدعَى إلى الظفر ، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباء فى صياصِي الجبال . وصَياصِي الجبال : أعاليها وما جرى مجرَى الحصون منها ، وأصل الصياصي القُرون ، ثم استُعير ذلك للحصون لأنّه يُمتَنَع بها كما يمتنع ذو القَرْن بقَرْنه . ومناكب الهضاب : أعاليها ؛ لئلّا يأتيكم العدوّ إمّا من حيث تأمَنون ، أو من حيث تخافون .

قوله عليه السلام : « مقدِّمة القوم عُيونُهم » ، المقدِّمة ، بكسر الدال ، وهم الّذين يتقدّمون الجيش ، أصله مقدِّمة القوم ، أى الفرْقة المتقدمة . والطّلائع : طائفة من الجيش تُبعَث ليُعلم منها أحوال العدوّ . وقال عليه السلام : المقدِّمة عيون الجَيْش . والطلائع عيون المقدّمة ، فالطلائع إذاً عُيونُ الجَيْش .

ثم نهاهم عن التفرّق ، وأمَرَهم أنّ ينزلوا جميعاً ويَرحلوا جميعا ، لئلا يفْجَأَهم العدوّ بغتة على غير تعبيةٍ واجتماعٍ ، فيَستأصلهم ؛ ثم أمرَهم أن يجعلوا الرِّماح كِفَّةً إذا غشيَهم الليل ، والكاف مكسورة ، أى اجعلوها مُستَدِيرة حولكم كالدّائرة ، وكلّ ما استدار كِفّة بالكسر ، نحو كِفّة الميزان ، وكلّ ما استطال كُفّة بالضم نحو : كُفّة الثوب وهى حاشيته ، وكُفّة الرّمل ، وهو ما كان منه كالحَبل .

ثم نهاهم عن النّوم إلّا غراراً أو مضمضةً ، وكلا اللّفظتين ماقلّ من النوم .

---

(١) سورة القصص ٣٤ .

وقال شبيب الخارجيّ : الليلُ يَكفيك الجبان ، ويصف الشجاع .

وكان إذا أمسَى قال لأصحابه : أتاكم المَدَد ، يعنى اللّيل .

قيل لبعض الملوك بيِّتْ عدوّك . قال : أكرَه أن أجعلَ غَلبتى سَرِقة .

ولما فصَل قَحْطبة من خُراسَان وفى جُملتِه خالدُ بنُ برمك ، بينا هو على سَطْح بيتٍ فى قرية نَزَلاها وهم يتغدّون نظر إلى الصَّحْراء فرأى أقاطيعَ ظِباء قد أقبلتْ من جهةِ الصَّحارِى حتى كادت تخالط العسكر ، فقال خالد لقَحْطبة : أيّها الأمير ، نادِ فى الناس : ياخَيلَ اللهِ اركَبى ؛ فإنّ العدوّ قد قَرُب منك ، وعامّة أصحابِك لن يُسرِجوا ويُلجموا حتى يرَوْا سَرَعان[1] الخيلِ . فقام قَحطبة مذعورا فلم يرَ شيئًا يروعُه ، ولم يُعاين غُبارا ، فقال لخالد : ماهذا الرأى ؟ فقال : أيّها الأمير ! لا تتشاغل بى ، وناد فى الناس ، أما ترَى أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعَها حتى خالَطَت الناس ! وإن وراءها لجَمْعا كَثيفا . قال : فو الله ماأسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النقْع[2] وساطع الغُبار ، فسلِموا ، ولولا ذلك لكان الجيشُ قد اصْطُلِم[3] .

---

(١) سرعان الخيل : أوائلها .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) اصطلم : استؤصل وأبيد .

(١٢)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصّى بها معقل بن قيس الرياحيّ حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له :

اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً ، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً ، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ . فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ . وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي . وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

***

الشرح :

معقِل بن قَيس ، كان من رجال الكُوفة وأبطالها ، وله رياسة وقدَم ، أوفده عمّار ابنُ ياسر إلى عمرَ بن الخطّاب مع الهُرْمُزان لفتح تُسْتَر [١] وكان من شيعة عليّ عليه السلام ، وجّهه إلى بني ساقَة فقتَل منهم وسَبى ، وحارَب المستَوْرِدَ بنَ عُلفة الخارجيّ

---

(١) تستر ، بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه : أعظم مدينة بخوزستان .

من تميم الرِّباب ، فقتل كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه بدِجلة ، وقد ذكرنا خبرهما فيما سَبَق ، ومعقِل بنُ قيس رِياحيّ من ولد رِياح بن يرْبوع بن حَنظلة بنِ مالك بن زيد مناة ابن تميم .

قوله عليه السلام : « ولا تُقاتِلَن إلّا من قاتلك » ، نهى عن البغْى .

وسِرِ البَرْدَيْن : هما الغَداة والعَشِىّ ، وهما الأبْردان أيضا .

ووصّاه أن يَرفُق بالنّاس ولا يكلّفهم السيرَ فى الحرّ .

قوله عليه السلام : «وغوِّر بالناس » : انزِل بهم القائلة ، والمَصدَر التّغويرُ ، ويقال للقائلة : الغائرة .

قوله عليه السلام : « وَرفِّهْ فى السّير » ، أى دَع الإبلَ تَردُ رِفْهاً[1] ، وهوأن تردِالماء كلّ يوم متى شاءت ولا تُرهِقها وتجشّمها السَّير . ويجوزأن يكون قوله :« ورفِّهْ فى السّير» ، مِن قولك : رَفَّهتُ عن الغريم ، أى نفّست عنه .

قوله عليه السلام : «ولا تسر أول الليل» ؛ قد ورد فى ذلك خبرٌ مرفوع ،وفى الخبر أنه حين تُنشر الشياطين . وقد علل أميرُ المؤمنين عليه السلام النهى بقوله : « فإن الله تعالى جعله سكنا ، وقدّره مُقاما لا ظعنا» ، يقول : لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه[2] كره أن يخالفوا ذلك . ولكن لقائل أن يقول : فكيف لم يكره السير والحركة فى آخره وهو من جملة الليل أيضا ! ويمكن أن يكون فهم من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الليل الذى جُعل سكنا للبشر إنما هو من أوّله إلى وقت السَّحَر .

---

(١) أى ترد الماء كما شاءت .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ . سورة يونس ٦٧ .

ثم أمره عليه السلام بأن يريح فى الليل بَدَنه وظَهره ، وهى الإبل ، وبنو فلان مُظهِرون ، أى لهم ظَهْرٌ ينقلون عليه ، كما تقول : منجِبون ، أى لهم نجائب .

قال الراوندىّ : الظَهْرُ . الخيول ، وليس بصحيح ، والصحيح ماذكرناه .

قوله عليه السلام : « فإذا وقفتَ » أى فإذا وقفتَ ثقَلَك ورَحلك لتسير ، فليكن ذلك حين ينبطح السحر .

قال الراوندىّ : « فإذا وقفتَ » ثم قال وقد رُوِى : « فإذا واقفتَ » ، قال : يعنى إذا وقفت تحارب العدوّ وإذا واقفته ، وما ذكره ليس بصحيح ولا روِى ، وإنما هو تصحيف ، ألَا تراه كيف قال بعده بقليل : « فإذا لقيتَ العدَو »! وإنما مرادُه هاهنا الوصاة بأن يكون السيرُ وقت السحر ووقت الفجر .

قوله عليه السلام : « حين ينبطح السحر » ، أى حين يتّسع ويمتدّ ، أى لا يكون السحر الأول ، أى مابين السحر الأول وبين الفجر الأول ، وأصل الانبطاح السَّعة ، ومنه الأبطح بمكة ، ومنه البطيحة ، وتبطّح السيل ، أى اتّسع فى البطحاء ، والفجر انفجر انشقّ .

ثم أمره عليه السلام إذا لقى العدوّ أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس ، والواجب أن يكون الرئيس فى قلب الجيش ، كما أنّ قلب الإنسان فى وسط جسده ، ولأنه إذا كان وسطاً كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدة ، وإذا كان فى أحد الطرفين بعد من الطّرف الآخر ، فربما يختلّ نظامه ويضطرب .

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدوّ دنوّ من يريد أن يُنشِب الحرب ، ونهاه أن يبعدُ منهم بُعْدَ من يهاب الحرب ، وهى البأس ، قال الله تعالى : ﴿ وحينَ البأْسِ ﴾(١) ،

---

(١) سو البقرة ١٧٧ .

أى حين الحرب ، بل يكون على حالٍ متوسّطة بين هـذين حتى يأتيَه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة .

ثم قال له : لايحملنّـكم بغضكم لهم على أن تبدءوهم بالقتال قبل أن تدعُوهم إلى الطاعة وتُعذِرُوا إليهم أى تصيروا ذوى عذر فى حربهم .

والشّنآن : البغض ، بسكون النون وتحريكها .

***

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الحروب]

وفى الحديث المرفوع : «لاتتمنّوا العدوّ فعسى أن تبتلوا بهم ،ولـكن قولوا: اللهمّ اكفنا شرّهم ؛ وكفَّ عنّا بأسهم ، وإذا جاءوك يعرفون أو يضجّون فعليكم الأرض جُلوساً ، وقولوا : اللهمّ أنتَ ربُّنا وربُّهم ، وبيدك نواصينا ونواصيهم ، فإذا غشوْكم فثوروا فى وجوههم » .

وكان أبو الدّرداء يقول : أيّها الناس ، اعملوا عملا صالحا قبل الغزْو ؛ فإنما تقاتلون بأعمالـكم .

وأوصى أبو بكر يزيدَ بن أبى سفيان حين استعمله فقال : سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدوّ فـكن بعيدا من الحملة ، فإنّى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسرْ بالأدِلّاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترسْ من البَيات ، فإن فى العرب غِرّة ، وأقلل من الـكلام ، فإنّ ماوُعِيَ عنك هو عليك ؛ وإذا أتاك كتابى فأمضه ، فإنما أعمل على حسب إنفـاذه ، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم مُعظم عسكرك ، وأسبغْ عليهم من النفقة ، وامنع النـاس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا

تلحّنّ فى عقوبة فإن أدناها وجيعة ، ولا تُسرعنّ إليها وأنت تكتفى بغيرها ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكِلْهم إلى الله فى سَرِيرتهم ، ولا تَعرِض عسكرك فتفضحه ، وأستودعك الله الذى لا تضيعُ ودائعه .

* * *

وأوصى أبو بكر أيضا عكرمة بن أبى جهل حين وَجّهه إلى عُمَانَ فقال : سرْ على اسم الله ، ولا تنزلنّ على مستأمِن ، وقدِّم النّذير بين يديك ، ومهما قلتَ : إنى فاعل فافعله ، ولا تجعلنّ قولك لغوا فى عقوبة ولا عفو ، فلا تُرجَى إذا أمّنت ، ولا تُخاف إذا خوّفت . وانظر متى تقول ومتى تفعل ، وما تقول وما تفعل ، ولا تتوعدنّ فى معصيةٍ بأكثر من عقوبتها ، فإنك إن فعلت أثِمت ، وإن تركت كذبت ، واتق الله ، وإذا لقيت فاصبر .

* * *

ولما ولّى يزيدُ بنُ معاويةَ سَلْم بن زياد خُراسان قال له : إنّ أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتُك صغيرا ، فلا تتّكلنّ على عذرٍ منّى ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منّى من قبل أن أقول : إياكَ منك ، واعلم أن الظنّ إذا أخلف منك أخلف فيك ، وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه ، وقد تبعك أبوك ، فلا تريحنّ نفسك ، واذكر فى يومك أحاديثَ غَدِك .

وقال بعض الحكماء : ينبغى للأمير أن يكون له ستّة أشياء : وزير يثق به ، ويُفشى إليه سِرّه ، وحصْنٌ إذا لجأ إليه عصمه ـ يعنى فرسا ـ وسيفٌ إذا نزل به الأقرانُ لم يخفْ نبوَتَه ، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة وجدَها ـ يعنى جوهرا ـ وَطبّاخ إذا أقوى من الطعام صَنَع له مايَهيجُ شهوَتَه ، وامرأةٌ جميلة إذا دخل أذهبتْ همَّه . فى الحديث المرفوع : خيرُ الصحابة أربعة ؛ وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ،

ولن يُغلب اثنا عشر ألفا من قِلّة إذا اجتمعتْ كلمتُهم .

كان يقال : ثلاثة مَن كنّ فيه لم يُفلح فى الحرب ؛ البَغى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم ﴾(١) ، والمكر السّيّ ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾(٢) والنّكث ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾(٣) .

* * *

يقال : خرجت خارجةٌ بخراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمّه ذلك ، فقيل: مايَهُمّك منهم! وجِّه إليهم وكيع بن أبى أسوَد يكفيك أمرَهم ، فقال : لا أوجّهه ، وإنّ وكيعا رجل فيه كِبْر ، وعنده بَغى ، يحقِر أعداءه ، ومنْ كان هكذا قلّت مبالاتُه بخَصْمه فلم يحترس ، فوجد عدوُّه فيه غِرّة ، فأوقَع به .

وفى بعض كتب الفُرْس : إنّ بعض ملوكهم سأل : أىّ مكايد الحرب أحزم؟ فقال: إذكاء العيون ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار القوّة والسرور والغَلَبة ، وإماتة الفَرَق ، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح ، ولا انتصاح لمن يغشّ ، وكتمان السرّ ، وإعطاء المبلّغين على الصّدْق ، ومعاقبة المتوصلين بالكَذِب ، وألاّ تُخرج هارِبا فتحوجه إلى القتال ، ولا تُضيّق أمانا على مستأمِن ، ولا تدهشنّك الغنيمة عن المجاوزة .

وفى بعض كُتُب الهند : ينبغى للعاقل أن يحذَر عدوّه المحاربَ له على كلّ حال ؛ يرهَب منه المواثبَة إنْ قرُب ، والغارة إن بَعُد ، والكَمين إن انكَشَف ، والاستطراد إن ولّى ، والمكْر إن رآه وحيدا . وينبغى أن يؤخّر القتال ماوجد بُدًّا ، فإنّ النّفقة عليه من الأنفس ، وعلى غيره من المال .

(١) سورة يونس ٢٣ .

(٢) سورة فاطر ٤٣ .

(٣) سورة الفتح ١٠ .

(١٣)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه :

وَقَدْ أمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا ، وَاجْعَلاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ ، وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ .

***

[فصل فى نسب الأشتر وذكر بعض فضائله]

الشّرح :

هو مالكُ بنُ الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعةَ بن خُزيمة بن سعد بن مالك ابن النَّخَع بن عمرو بن عُلَة بن خالد بن مالك بن أُدَد . وكان فارسا شجاعا رئيسا من أكابر الشِّيعة وعُظمائها ، شديدَ التحقّق بوَلاء أميرِ المؤمنين عليه السلام ونصرِه ، وقال فيه بعد موته : رحم الله مالِكاً ، فلقد كان لى كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله !

ولمّا قنَت علىٌّ عليه السلام على خمسة ولَعَنهم وهم : معاوية ، وعَمرو بن العاص ، وأبو الأعوَر السُّلَمىّ ، وحبيب بن مسلمة ، وبُسرُ بنُ أرطاة ، قنَت معاوية على خمسة ، وهم : علىّ ، والحسَن ، والحسين ــ عليهم السلام ــ وعبد الله بن العبّاس ، والأشتر ، ولعنهم . وقد روى أنه قال لما ولّى على عليه السلام بنى العباس على الحجاز واليَمَن والعِراق : فلماذا قتلْنا الشيخَ بالأمس ! وإنّ عليا عليه السلام لما بلغتْه هذه الكلمة أحضَره ولاطَفَه واعتَذَر إليه وقال له : فهل ولّيتُ حَسَنا أو حُسَينا أو أحدا من وَلَد جعفر أخى ، أو عقيلا

أو واحدا من ولده ! وإنما وليت ولَد عمّى العباس ، لأنى سمعت العبّاس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مِرارا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ياعمّ، إنّ الإمارة إن طلبتَها وكلتَ (١) إليها ، وإن طلبتْك أُعنت عليها . ورأيتُ بَنِيه فى أيام عمرَ وعثمانَ يَجدون فى أنفسهم إذ ولّى غيرهم من أبناء الطلَقاء ولم يولّ أحدا منهم ، فأحببتُ أن أصلَ رَحِمَهم ، وأزيلَ ما كان فى أنفسهم ؛ وبعد فإنْ علمتَ أحداً من أبناء الطُّلَقاء هو خير منهم فأْتنى به . فخرج الأشتر وقد زال ما فى نفسه .

وقد رَوَى المحدِّثون حديثا يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتَر رحمه الله ، وهى شهادةٌ قاطعةٌ من النبىّ صلى الله عليه وآله بأنّه مؤمن ، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البرّ فى كتاب "الاستيعاب" فى حرف الجيم ، فى باب « جُندب » قال أبو عمر (٢) :

لمّا حضرتْ أبا ذرّ الوفاةُ وهو بالرَّبَذة (٣) بكت زوجته أمّ ذرّ ، فقال لها : مايُبكيك ؟ فقالت : مالى لاأبكى وأنت تموت بفَلاةٍ من الأرض ، وليس عندى ثوبٌ يسعُك كَفَنا ، ولا بدّ لى من (٤) القيام بجَهازِك ! فقال : أبشرى ولاتبكى، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا يموت بينَ امرأين مُسلمين وَلَدان أو ثلاثة ، فيَصبران ويحتَسِبان فيَريَان النار أبدا » ؛ وقد مات لنا ثلاثةٌ من الولد . وسمعتُ أيضا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفرٍ أنا فيهم : « ليموتَنّ أحدُكم بفَلاةٍ من الأرض يَشهده عِصابة من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر أحدٌ إلّا وقد مات فى قرية وجماعة فأنا — لاأشكّ — ذلك الرجل ، والله ما كَذَبتُ ولا كُذِبت، فانظرى الطريق. قالت أمّ ذرّ: فقلتُ : أنّى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطُّرق ! فقال : اذهَبى فتبصّرى . قالت: فكنت

---

(١) وكلت إليها ، أى احتجت إليها وعجزت .

(٢) بسنده عن على بن المديني ، عن يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر . عن أبيه .

(٣) الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة قريبة من ذات عرق .

(٤) الاستيعاب : « للقيام » .

أشتدّ (١) إلى الكثيب ، فأصعد فأنظر ، ثم أرجع إليه فأمرّضه ، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركابهم (٢) كأنهم الرَّخم (٣) تخُبّ بهم رواحلهم ، فأسرعوا إلىّ حتى وقفوا علىّ وقالوا : ياأمَة الله ، مالك ؟ فقلتُ : امرُؤ من المسلمين يموت ، تكفّنونه ؟ قالوا : ومن هو ؟ قلتُ : أبو ذرّ ، قالوا : صاحبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ؟ قلتُ : نعم ، ففدّوه بآبائهم وأمّهاتهم ، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم : أبشروا فإنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول لنفرٍ أنا فيهم : « ليموتنّ رجل منكم بفلاةٍ من الأرض تشهده عِصابةٌ من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر إلّا وقد هلك فى قرية وجماعة ، والله ما كذَبت ولا كُذِّبت ، ولو كان عندى ثوب يسَعُنى كفنا لى أو لامرأتى لم أكفَّن إلا فى ثوب لى أو لها ؛ وإنى أنشدكم اللهَ ألّا يكفّننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا ! قالت : وليس فى أولئك النفر أحد إلا وقد قارَف بعض ماقال ، إلّا فتى من الأنصار قال له : أنا أكفنك ياعمّ فى ردائى هذا ، وفى ثوبين معى فى عَيْبَتى من غزْلِ أمّى ؛ فقال أبو ذرّ : أنت تكفّنّى ، فمات فكفّنه الأنصارىّ وغسّله النفرُ الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه ؛ فى نفر كلُّهم يمان (٤) .

روى أبو عمرَ بن عبد البرّ قبل أن يروى هذا الحديث فى أوّل باب جُندَب : كان النفرُ الّذين حضروا موتَ أبى ذرّ بالرّبذة مصادفة جماعة ؛ منهم حُجْر بن الأدبَر ، ومالك ابنُ الحارث الأشتر (٥) .

قلت : حُجر بن الأدبَر هو حُجْر بن عدِىّ الذى قتلَه معاويةُ ، وهو من أعلام الشّيعة وعظمائِها ، وأما الأشتر فهو أشهَر فى الشّيعة من أبى الهُذَيل فى المعتزلة .

---

(١) أشتد : أعدو .

(٢) الاستيعاب : « رحالهم » .

(٣) الرخم : جمع رخمة ، الطائر المعروف .

(٤) الاستيعاب : ٨٣ .

(٥) الاستيعاب : « وفتى من الأنصار دعتهم امرأته إليه فشهدوا موته ، وغمضوا عينيه ، وغسلوه وكفنوه فى ثياب الأنصارى ، فى خبر عجيب حسن فيه طول » .

قرئ كتاب " الاستيعاب " على شيخنا عبد الوهّاب بن سُكَينة المحدّث وأنا حاضر ، فلمّا انتهى القارئُ إلى هذا الخبر قال أستاذى عمر بنُ عبد الله الدبّاس ـ وكنت أحضرُ معه سَماعَ الحديث ـ : لتقل الشّيعة بعد هذا ما شاءتْ ، فما قال المرتضى والمفيد إلّا بعض ما كانَ حُجْر والأشترُ يعتقدانِه فى عثمان ومن تقدّمه ، فأشار الشيخ إليه بالسكوت ، فسكَت .

وذكَرْنا آثار الأشتر ومقاماته بصفّين فيما سبق .

والأشتر هو الّذى عانَقَ عبد الله بن الزبير يومَ الجَمَل فاصطَرعا على ظهر فرسَيْهما حتى وقعا فى الأرض ، فجعل عبدُ اللهِ يصرُخُ من تحتهِ : اقتُلُونى ومالِكا ! فلم يُعلَم من الذى يعنيه لشدة الاختلاط وثَوَران النقع(١) ؛ فلو قال : اقتُلونى والأشتَر لقُتِلا جميعا ؛ فلما افترقا قال الأشتَر :

أعائشَ لولا أنّنى كنتُ طـاوِيًا ... ثلاثًا لألفيتِ ابن أختكِ هالِكا(٢)

غداةَ يُنادِى والرّماح تَنوشُـه ... كوقْع الصَّياصِيِّ : اقتُلونى ومالِكا(٣)

فنجّـاه منِّى شِبْعه وشَبابُه ... وأنِّىَ شيخٌ لم أكن متماسكا

ويقال : إنّ عائشةَ فقدتْ عبدَ الله فسألت عنه ، فقيل لها : عهدُنا به وهو معانق للأشتر ، فقالت : واثُكْلَ أسماء !

ومات الأشتُر فى سنة تسع وثلاثين متوجِّها إلى مصر والياً عليها لعلّى عليه السلام . قيل : سُقِىَ سُمّا ، وقيل : إنه لم يصحّ ذلك ، وإنما مات حَتْفَ أنفِه .

***

فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه فى هـذا الفَصْل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل ، ولَعمرى لقد كان الأشتر أهلًا لذلك ، كان شديد البأس ، جواداً

---

(١) النقع : الغبار .

(٢) الطاوى : الجائع .

(٣) تنوشه : تتناوله .

رئيسا حليما فصيحا شاعراً ، وكان يجمع بين اللِّين والعُنف ، فيَسطُو فى موضع السَّطْوة ، ويَرفُق فى موضع الرِّفق .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر : إنّ هذا الأمر لا يَصلُح إلا لقوِيٍّ فى غير عُنف ، ولَيِّنٍ فى غير ضُعْف .

وكان أنو شَرْوانَ إذا ولّى رجلا أمرَ الكاتبَ أن يَدَع فى العَهْد موضِعَ ثلاثة أسطر ليوقّع فيها بخطه ، فإذا أُتِى بالعهد وقّع فيه : سُس خِيارَ الناس بالمودّة ، وسِفْلتهم بالإخافة ، وامزُج العامة رهبةً برَغْبة .

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنى لأهمّ أن أخرج للناس أمرا من العدل ، فأخافُ ألّا تحتملَه قلوبُهم ، فأخرج معه طمعا مِن طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوبُ من ذاكَ سكنتْ إلى هــذا .

وقال معاوية : إنّى لا أضع سَيْفى حيث يَكفِينى سَوْطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ؛ ولو أن بينى وبين الناس شَعْرةً ما انقطعتْ . فقيل له : كيف ؟ قال : إذا مدّوها خَلّيتُها ، وإذا خَلّوْها مَددتُها .

وقال الشّعْبيّ فى معاوية : كان كالجَمَل الطّبّ . إذا سُكِت عنه تقدّم ، وإذا رُدّ تأخّر .

وقال ليزيد ابنه : قد تبلغُ بالوعيد ما لا تَبلُغ بالإيقاع ، وإياكَ والقَتْل ، فإن الله قاتِل القتّالين .

وأغلَظَ له رجل فحلُمَ عنه ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ قال : إنا لا نحول بين الناس وألسنتِهم ما لم يَحولُوا بيننا وبين سلطاننا .

ونخرَ سليم مولَى زياد عند معاوية بن زياد ، فقال معاوية : اسكت ويحك فما أدرك صاحبُك بسَيْفه شيئا قطّ إلّا وقد أدركتُ أكثر منه بلسانى .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ماالسيّاسة ياأبت ؟ قال : هيبة الخاصة لك ، مع صدق مودّتها ، واقتيادك قلوبَ العامّة بالإنصاف لها ، واحتمال هفَوات الصنائع.

***

وقد جمع أميرُ المؤمنين عليه السلام من أصناف الثّناء والمدْح مافرّقه هؤلاء فى كلماتهم بكلمة واحدة قالها فى الأشتر ، وهى قوله : « لا يخاف بُطْئُهُ عمّا الاسراعُ إليه أحزَم ، ولا إسراعه إلى ماالبطء عنه أمثَل .

***

قوله عليه السلام : « وعلى من فى حيزِكما » أى فى ناحيتكما .

والمِجنّ : التّرس .

والوَهْن : الضعف .

والسَّقْطة : الغَلطة والخطأ .

وهذا الرأى أحزم من هذا ، أى أدخل فى باب الحزم والاحتياط ، وهذا أمثل من هذا أى أفضَل .

(١٤)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدوّ :

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّةٍ ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً ؛ وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ ، فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

* * *

الشرح :

نَهى أصحابه عن البغى والابتداء بالحرب ، وقد رُوى عنه أنه قال : ما نُصِرت على الأقران الّذين قتلتهم إلّا لأنّى ما ابتدأتُ بالمبارزة . ونَهى ـ إذا وقعت الهزيمة ـ عن قَتل المدبر ، والإجهاز على الجريح ، وهو إتمام قتله .

قوله عليه السلام : « ولا تصيبوا مُعورا » هو من يعتصم منك فى الحرْب بإظهار عوْرته لتكفّ عنه ، ويجوز أن يكون المُعور هاهنا المريب الذى يظنّ أنه من القوم وأنّه حَضَر للحرب وليس منهم ، لأنّه حضر لأمرٍ آخر .

قوله عليه السلام : « ولا تَهيجوا النّساء بأذًى » ، أى لا تحرّكوهنّ .

والفِهْر : الحجَر : والهِراوة : العصا .

وعَطَف « وعقبه » على الضمير المستكنّ المرفوع فى « فيعيّر » ولم يؤكّد للفصْل بقوله : بها ، كقوله تعالى : ﴿ ما أشرَكْنا ولا آباؤنا ﴾(١) ، لما فَصَل بلا عطف ولم يحتجْ إلى تأكيد .

***

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومما ورد فى الشعر فى هذا المعنى قول الشاعر(٢) .

إنّ مِنْ أعظم الكبائر عندى قتلُ بيضاء حُرّة عُطْبُولِ(٣)
كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى المحصَناتِ جَرُّ الذّيولِ

وقالت امرأة عبد الله بن خَلَف الخزاعىّ بالبصرة لعلىّ عليه السلام بعد ظفره — وقد مرّ ببابها : ياعلىّ ، ياقاتلَ الأحِبّة ، لا مرحباً بك ! أيْتم الله منك ولدك كما أيتمتَ بنى عبدِ الله بن خَلَف ! فلم يرُدَّ عليها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحيةٍ من دارها ، ففهمتْ إشارتَه ، فسكتتْ وانصرفتْ . وكانت قد سترتْ عندها عبدَ الله بن الزُّبير ومروانَ بنَ الحكم ، فأشار إلى الموضع الذى كانا فيه ، أى لو شئتُ أخرجتُهما ! فلمّا فهمت انصرفَتْ ، وكان عليه السلام حليما كريما .

وكان عمر بنُ الخطّاب إذا بعثَ أمراء الجيوش يقول : بسم الله ، وعلى عَوْن الله ،

---

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) من أبيات تنسب لعمر بن أبى ربيعة ، ملحق ديوانه : ٤٩٨ .

(٣) العطبول : الشابة الفتية الممتلئة ؛ وبعده :

قُتلتْ باطلاً على غير ذنبٍ إنّ لله درُّها من قتيلِ

وبركته ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ، ولزوم الحقّ والصّبر ، فقاتلوا في سبيل الله مَن كَفَر بالله ، ولا تَعتدُوا إن الله لا يحبُّ المُعتَدين . ولا تجبنُوا عند اللّقاء ، ولا تُمثِّلوا عند الغارة ، ولا تُسرفوا عند الظّهور ، ولا تقتلوا هرِما ، ولا امرأةً ، ولا وَليدا ، وتَوَقّوا أن تطئوا هؤلاء عند التقاء الزّحفَين وعند حمة النّهضات وفى شَنّ الغارات ، ولا تغُلّوا عند الغنائم ، ونَزّهوا الجهاد عن غرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح فى البيْع الذى بايعتمْ به ، وذلك هو الفَوْز العظيم .

واستشار قومٌ أكثَم بنَ صَيْفيّ فى حرب قومٍ أرادوهم وسألوه أن يُوصِيَهم ، فقال : أقِلّوا الخلاف على أمرائكم ، واثبتوا ، فإن أحزَم الفريقين الرّكين(١) ، ورُبّ عجَلة تَهب(٢) رَيْثا .

وكان قيسُ بنُ عاصم المنقرىّ إذا غزا شَهِد معه الحربَ ثلاثون منْ ولده يقول لهم : إيّاكم والبغى ، فإنه مابَغى قوم قطّ إلا ذَلّوا ؛ قالوا : فكان الرجلُ من وَلدِه يُظلَم فلا ينتصف مخافةَ الذلّ .

قال أبو بكر يومَ حُنَين : لن نُغلَب اليوم من قلّة — وكانوا اثنى عشرَ ألفا — فهزمُوا يومئذ هزيمةً قبيحة ، وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ﴾(٣) .

وكان يقال : لا ظَفَر مع بَغْى ، ولا صحّة مع نَهَم ، ولا ثنَاءَ مع كِبْر ، ولاسُؤدُدَ مع شُحّ .

***

(١) الركين : العزيز الممتنع . (٢) الريث : الإبطاء ؛ وهو مثل .
(٣) سورة التوبة : ٢٥ .

[قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا مَلِك الهياطلة]

ومن الكلمات المستحسَنة فى سوء عاقبة البَغى ماذكره ابن قتيبة فى كتاب "عيون الأخبار" أن فَيْروز بن يزدَجرد بن بهرام لما مَلَك سار بجنُوده نحو بلاد الهياطلة، فلمّا انتهى إليهم اشتدّ رعبُ مَلِكهم أخشنوار منه وحذره، فناظر أصحابَه ووزراءه فى أمره فقال رجل منهم: أعطِنى مَوْثقا من الله وعَهْدا تطمئنّ إليه نفسى أن تكفِيَنى الغمّ بأمرِ[1] أهلى ووَلدى، وأن تُحسِن إليهم، وتخلُفَنى فيهم، ثم اقطَع يدىَّ ورجْلىَّ والقِنى فى طريق فَيْروز حتى يمرَّ بى هو وأصحابه، وأنا أكفيك أمرَهم[2]، وأورّطهم مَوْرِطا تكون فيه هَلَكَتُهم. فقال له أخشنوار: وما الّذى تنتفع به من سلامتنا وصلاحِ حالِنا إذا أنتَ هلكتَ ولم تشركْنا فى ذلك! فقال: إنّى قد بلغتُ ما كنتُ أحِبّ أن أبلَغ من الدّنيا، وأنا موقن أنّ الموت لابدَّ منه، وإن تأخّر أياما قليلةً، فأحِبُّ أن أختِمَ عمَلى بأفضل مايُختم به الأعمال من النّصيحة بسلطانى، والنّكاية فى عدُوّى، فيَشرُف بذلكِ عَقبِى، وأصيبَ سعادة وحُظوةً فيما أمامى.

ففعل أخشنوار به ذلك، وحَمَله فألقاه فى الموضع الّذى أشار إليه، فمرّ به فيروزُ فى جنوده، فسأله عن حالِه، فأخبَرَه أنّ أخشنوار فعل به مايَرَاه وأنّه شديد الأسف، كيف لايستطيع أن يكون أمام الجيش فى غزوِ بلادِه وتخريب مدينتِه، ولكنّه سيَدُلّ الملكَ على طريق هو أقربُ من هـذا الطريق الّذى يريدون سلوكَه وأخفَى، فلا يشعر أخشنوار حتّى يَهجُم عليه فينتقمَ الله منه بكم، وليس فى هـذا الطريق من المكروه إلّا تغوّر[3] يومين، ثم تُفْضُون إلى كلّ ماتُحِبّون.

---

(١) العيون: «أن تكفينى أهلى وولدى». (٢) العيون: «أكفيك مؤونتهم وأمرهم».

(٣) التغور: إتيان الغور. وفى عيون الأخبار: تغوير يومين»؛ أى السير فى المفازة.

فقبل فيروز قولَه بعد أن أشار إليه وزراؤه بالاتّهام له ، والحذرِ منه ، [وبغير ذلك][(١)] . فخالفهم وسلك تلك الطريقَ ، فانتهَوا بعد يومين إلى موضع من المفازة لاصَدَرَ لهم عنه ، ولا ماء معهم ، ولا بين أيديهم ، وتبيّن لهم أنّهم قد خُدِعوا ، فتفرّقوا فى تلك المفازة يمينا وشمالا يلتمِسون الماء ، فقتل العطشُ أكثرَهم ، ولم يَسلَم مع فيروز إلّا عدّة يسيرة ، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه ،فواقعَهم فى تلك الحال التى هم فيها من القِلّة والضُّرّ والجَهْد ، فاستمكنوا منهم ، بعد أن أعظموا[(٢)] النِّكاية فيهم .

وأُسِر فيروز ،فرغب أخشنوار أن يمُنّ عليه وعلى من بَقِيَ من أصحابه على أن يجعل له عهدَ اللهِ وميثاقه؛ ألّا يغزُوَهم أبداما بقِيَ ،وعلى أن يَحُدّ فيما بينه وبين مملكتهم حَدّا لا يتجاوزُه جنودُه . فرضى أخشنوار بذلك ، فخلّى سبيله ، وجعَلا بين المملكتين حجَراً[(٣)] لا يتجاوزه كلّ واحد منهما .

فمكث فيروز بُرْهة من دهره ، ثم حمَلَه الأَنَفُ على أن يعود لغزْو الهياطِلة ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فنهوْه عنه ، وقالوا : إنّك قد عاهَدْته ، ونحن نتخوّف عليك عاقبة البغى والغَدْر ، مع مافى ذلك من العار وسوء القالة[(٤)] .

فقال لهم : إنما اشترطت له ألّا أجوز الحجرَ الّذى جعلناه بيننا ، وأنا آمرُ بالحجر فيحُمَل أمامنا على عَجل .

فقالوا : أيّها الملك ، إنّ العهود والمواثيق التى يتعاطاها النّاسُ بينهم لا تُحمَل على مايُسِرّه المعطِى لها ، ولكن على مايعلن به المعطَى إيّاها ، وإنّما جعلتَ عهدَ الله وميثاقه على الأمر الذى عرَفه ، لاعلى الأمر الّذى لم يخطر له ببال . فأبى فيروز ومضى فى غزْوته حتى انتهى إلى الهياطلة ، وتصافّ الفريقان للقتال .

---

(١) من عيون الأخبار . (٢) عيون الأخبار : « وأعظموا النكاية » .

(٣) عيون الأخبار : « حدا لا تجاوزه » .

(٤) القول فى الخير ، والقالة فى الشر ، وفى عيون الأخبار : « المقالة » .

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صفّيهم ، فخرج إليه ، فقال له أخشنوار : إنّى قد ظننتُ أنه لم يدعُك إلى مُقامِك هذا إلا الأنَف مما أصابك ، ولعَمْرى إن كنّا قد احتلنا لك بما رأيتَ لقد كنت التمستَ منّا أعظمَ منه ، وما ابتدأناك ببَغى ولا ظُلم ، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحريمنا ، ولقد كنتَ جديرا أن تكون من سوء مكافأتِنا بمنّنا عليك وعلى من معك ، ومن نَقْض العهد والميثاق الذى أكَّدْتَه على نفسك أعظم أنفًا ، وأشدَّ امتعاضا مما نالك منّا ، فإنا أطلقناكم وأنتم أسارَى ، ومننّا عليكم وأنتم عَلَى الهَلَكة مُشرفون ، وحَقَنّا دماءكم ولنا عَلَى سَفْكها قُدرة . وإنا لم نجْبُرك عَلَى ما شرطتَ لنا ، بل كنتَ أنتَ الراغبُ إلينا فيه ، والمريدُ لنا عليه ، ففكّر فى ذلك ، وميِّزْ بين هذين الأمرين فانظر أيّهما أشدّ عارا ، وأقبح سماعا ، إن طلب رجل أمرا فلم يَقدِر له ولم يَنجح فى طِلَبته وسَلَك سبيلا فلم يظفر فيه ببغيته ، واستمكن منه عدوّه على حال جَهْد وضَيْعة منه وممّن هم معه .

فمنّ عليهم وأطلقهم على شرطٍ ، شرَطوه وأمرٍ اصطلحوا عليه ، فاصطبر[1] بمكروه القضاء ، واستحيا مِن الغَدْر والنَّكْث ، أن يقال : نَقَض العهدَ وأخفر[2] الميثاق ، مع أنى قد ظننت أنه يزيدك لجاجة[3] ما تثق به مِنْ كثرة جنودِك ، وما ترى من حسن عُدّتهم ، وما أجدُنى أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شُخوصِك بهم ، عارفون بأنك قد حملتَهم عَلَى غير الحقّ ، ودعوتَهم إلى ما يُسخط الله ، وأنهم فى حربنا غير مستبصرين ، ونيّاتُهم عَلَى مناصَحتك مدخولة .

فانظر ما قَدْر غَناء من يُقاتل عَلَى هذه الحال ، وما عسى أن يبلغ نكايته فى عدوّه ، إذا كان عارفا بأنه إن ظَفِر فمع عار ، وإن قُتل فإلى النار ! وأنا أذكّرك اللهَ الذى جعلته

---

(١) عيون الأخبار : « فاضطر » .
(٢) أخفر ميثاقه : نقض عهده ؛ وفى عيون الأخبار : «خفر الميثاق » .
(٣) عيون الأخبار : « نجاحاً » .

على نفسك كفيلا ، وأذكّرك نعمتى عليك وعلى مَنْ معك ، بعد يأسكم من الحياة ، وإشفائكم عَلَى الممات ، وأدعوك إلى ما فيه حَظُّك ورُشْدُك من الوفاء بالعهد ، والاقتداء بآبائك وأسلافك الذين مضَوا عَلَى ذلك فى كلّ ما أحبُّوه وكرِهوه ، فأحمدوا عواقبَه وحسُن عليهم أثرُه .

ومع ذلك فإنّك لستَ عَلَى ثقة من الظفَر بنا ، وبلوغ نُهْمَتك(١) فينا ، وإنما تلتمس أمراً يلتمس منك مثله ؛ وتنادى عدوّا لعلّه يمنَح النصرَ عليك ، فاقبلْ هذه النصيحة فقد بالغتُ فى الاحتجاج عليك ، وتقدّمْتُ بالإعذار إليك ، ونحن نَستظهِر بالله الذى اعتذَرْنا إليه ، ووثِقْنا بما جعلت لنا من عهده ، إذا استظهرتَ بكثرة جنودِك ، وازدَهَتْك عِدّة أصحابك ، فدونك هذه النصيحة ، فبالله ما كان أحدٌ من أصحابك يبالغ لك أكثرَ منها ، ولا يزيدك عليها ، ولا يحرمنَّك منفعتَها مخرجُها منى ، فإنه ليس يُزْرى بالمنافع والمصالح عند ذوى الآراء صُدورُها عن الأعداء ، كما لا تَحسُن المضارُّ أن تكون عَلَى أيدى الأصدقاء .

واعلم أنه ليس يدعونى إلى ما تَسمَع من مخاطبتى إيّاك ضعفٌ من نفسى ، ولا من قِلّة جنودى ، ولكنى أحببتُ أن أزداد بذلك حجّةً واستظهارا ، فأزداد به للنصر والمَعُونة من الله استيجابا ، ولا أوثر عَلَى العافية والسلامة شيئاً ما وجدتُ إليهما سبيلا(٢) .

فقال فيروز : لستُ ممن يردَعه عن الأمر يَهُمّ به الوعيد ، ولا يصده التهدد والترهيب ، ولو كنتُ أرَى ما أطلب غَدْرا منى ، إذاً ما كان أحدٌ أنظرَ ولا أشدّ إبقاء منى على نفسى ، وقد يَعلم اللهُ أنى لم أجعل لك العهدَ والميثاقَ إلا بما أضمرتُ فى نفسى ، فلا يغرنّك الحالُ التى كنتَ صادفْتَنا عليها من القِلّة والجَهْد والضَّعف .

---

(١) النهمة : الحاجة والشهوة .

(٢) فى عيون الأخبار بعدها : « فأبى فيروز إلا تعلقا لحجته فى الحجر الذى جعله حدا بينه وبينه » .

فقال أخشنوار : لا يغرنّك ماتخدع به نفسك من حملك الحجر أمامك ، فإنّ الناس لو كانوا يُعطون العهودَ على ماتصف من إسرارِ أمرٍ وإعلانِ آخر ، إذاً ما كان ينبغى لأحـد أن يغترّ بأمان ، أو يثقَ بعهد ! وإذاً ما قَبِل الناسُ شيئاً مما كانوا يعطون من ذلك ، ولـكنّه وضع على العلانيَة ، وعلى نيّة من تُعقَد له العهود والشروط . ثم انصرف.

فقال فيروز لأصحابه : لقد كان أخشنوار حَسَن المحـاوَرة ، وما رأيتُ للفرَس الّذى كان تحته نظيرا فى الدّوابّ ، فإنه لم يُزِل قوائمه ، ولم يرَفَع حوافرَه عن مواضِعِها ، ولاصَهلَ ، ولا أحدَث شيئا يقطَع به المحاورة فى طولِ ماتواقفنا .

وقال أخشنوار لأصحابه : لقد واقفتُ فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كلّه ، فلم يتحرّك ، ولم ينزع رجلَه من ركابه ، ولا حَنَى ظهره ، ولا التفتَ يمينا ولا شِمالا ، ولقد توركت أنا مرارا ، وتمطّيت على فرسى ، والتفتّ إلى مَنْ خَلْفى ، ومددتُ بصرى فيما أمامى ، وهو منتصِب ساكنٌ على حاله ، ولولا محاوَرته إيّاى لظننت أنه لا يبصرنى . وإنما أرادا بما وصَفا من ذلك أن يُنْشرَ هذان الحديثان فى أهلِ عسكرهما فيشتغلوا بالإفاضة فيهما ، عن النّظر فيما تذاكرا .

فلما كان فى اليوم الثـانى أخرَج أخشنوار الصحيفَـة التى كتبهـا لهم فيروز ، ونصبَهـا على رُمْح ليراها أهلُ عسكر فيروز فيعرفوا غدْره وبغيَـه ، ويخرجوا من متابعته على هَواه ، فما هو إلا أن رأوها ، حتى انتقض عسكرُهم واختلفوا ، وماتلبّثوا إلّا يسيرا حتى انهزَموا ، وقُتِل منهم خلقٌ كثير ، وهلك فيروز ، فقال أخشنوار : لقد صدق الذى قال : لامردّ لما قدّر ولا شىء أشدّ إحالة لمنافع الرأى من الهوى واللّجاج ، ولا أضيع من نصيحة يُمنَحها من لا يوطّن نفسَه على قبولها ، والصّبر على مكروهِها ، ولا أسرع عقوبةً وأسوأ عاقبةً من البغى والغَدْر ، ولا أجلب لعظيم العـارِ والفُضوح من الأنف وإفراط العجْب (١) .

---

(١) عيون الأخبار ١ : ١١٧ — ١٢١ .

(١٥)

الأصلُ

وكان عليه السلام يقول إذا لقى العدو محاربا :

اَللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ ٱلْقُلُوبُ ، وَمُدَّتِ ٱلْأَعْنَاقُ ، وَشَخَصَتِ ٱلْأَبْصَارُ ، وَنُقِلَتِ ٱلْأَقْدَامُ ، وَأُنْضِيَتِ ٱلْأَبْدَانُ .

اَللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ ٱلشَّنَآنِ ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ ٱلْأَضْغَانِ .

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا ، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا .

رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ .

***

الشّرحُ :

أفضت القلوب : أى دَنَت وقَرُبَت ، ومنه أفضَى الرّجلُ إلى امرأته أى غشيَها ، ويجوز أن يكون « أفضت » أى بسرّها ، فحذف المفعول .

وأنضيت الأبدان : هَزُلت ، ومنه النِّضو ، وهو البعير المهزُول .

وصَرّح : انكشَف . والشنآن : البِغْضة .

وجاشت : تحرّكت واضطربَتْ .

والمَراجل : جمع مِرْجل ، وهى القِدْر .

والأضغان : الأحقاد ، واحدُها ضغن .

وأخذ سَدِيف مولى المنصور هذه اللفظة فكان يقول فى دعائه : اللهمّ إنا نشكو

إليك غيبة نبيّنا وتشتّت أهوائنا، وماشملنامن زَبْغ الفِتَن، واستولى علينا من غَشْوة الحيْرة حتى عاد فينا دولة بعد القِسْمة، وأمارتنا غلبة بعد للشورة؛ وعدنا ميراثا بعدالاختيار للأُمّة؛ واشترِيت الملاهى والمعازِف بمال اليتيم والأرمَلة، ورَعَى فى مالِ الله من لا يرعَى له حرمة، وحكم فى أبشار المؤمنين أهلُ الذمّة، وتولّى القيامَ بأمورهم فاسقُ كلّ محلّة، فلاذائدَ يذودُهم عن هَلَكة، ولا راعٍ ينظرُ إليهم بعين رحمة، ولا ذو شَفَقة يُشبِع الكَبِد الحرّى من مَسْغَبة، فهم أولو ضَرَع وفاقة، وأسراء فقْر ومَسْكَنة، وحُلَفاء كآبة وذلة. اللهمّ وقد استَحصَد زرعُ الباطل وبلغ نهايته، واستَحْكم عمودُه، واستَجمَع طَرِيدُه، وحذف وَليدُه، وضَرَب بجرانه، فأتِحْ له من الحقّ يداً حاصدة، تجذّ سَنامَه، وتهشِم سُوقَه، وتَصرَع قائمه، ليَستخفى الباطل بقُبح حِلْيته، ويَظهرَ الحقّ بحُسْن صورته.

ووُجدتْ هذه الألفاظ فى دعاء منسوبٍ إلى علىّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعلّه من كلامه، وقد كان سَدِيف يدْعو به.

(١٦)

الأصل :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب :

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا ، وَوَطِّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا ، وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ .

وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا ، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

***

الشرح :

قال : لا تستصعبوا فَرّةً تفرّونها بعدها كَرّة ، تجبُرون بها ما تكسّر من حالكم ، وإنّما الّذى ينبغى لكم أن تستصعبوه فَرّة لا كَرّة بعدها ؛ وهذا حَضٌّ لهم على أن يكرّوا ويعودُوا إلى الحرب إن وقعتْ عليهم كَسْرةٌ .

ومثله قولُه : « ولا جَوْلةٌ بعدَهَا حَمْلة » ، والجوْلة : هزيمة قريبة ليست بالممعنة [1] .

واذمُرُوا أنفسكم ، مِن ذَمَره على كذا أى حضّه عليه . والطّعن الدَّعْسىّ : الذى يُحْشى به أجواف الأعداء ، وأصل الدَّعْس الحشو ، دَعستُ الوعاءَ : حشوْته .

وضرب طِلَحْفى ، بكسر الطاء وفتح اللام ، أى شديد ، واللام زائدة .

---

(١) الممعنة ؛ من الإمعان ؛ وفى ب : « ممنعة » تحريف .

ثم أمرَهم بإماتة الأصوات ، لأنّ شِدّة الضَّوْضاء فى الحرب أمارة الخوف والوَجَل .

ثم أقسم أنّ معاوية وعَمْراً ومن والاهما من قريش ما أسلموا ولكن استسلموا خوفا من السّيف ونافقوا ؛ فلمّا قدَروا على إظهار مافى أنفسهم أظهروه ؛ وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام جعل محاربتَهم له كُفرا .

وقد تقدّم فى شرح حالِ معاويةَ وما يذكره كثيرٌ من أصحابنا من فساد عقيدتِه مافيه كفاية .

***

[نبذ من الأقوال المتشابهة فى الحرب]

وأوصَى أكثمُ بنُ صَيفيّ قوما نهضوا إلى الحرب فقال : ابرزُوا للحَرْب، وادّرعوا الليل ، فإنه أخفَى للوَيْل ، ولا جماعةَ لمن اختَلَف ، واعلموا أن كثرةَ الصِّياح من الفَشَل ، والمرء يَعجز لا محالة .

وسمِعَتْ عائشةُ يومَ الجمل أصحابَها يُكبِّرون ، فقالت : لا تكبِّروا هاهنا ، فإنّ كثرة التّكبير عند القتال من الفَشَل .

وقال بعض السّلَف : قد جمع الله أدبَ الحرْب فى قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا . . . ﴾ (١) الآيتين .

وقال عُتبة بنُ ربيعةَ لقريش يومَ بدر : ألا ترَوْنهم – يعنى أصحابَ النبيّ صلى الله عليه وآله – جُثِيّاً على الرُّكب ، يتلمّظون تلمُّظ الحيّات !

وأوصى عبدُ الملك بنُ صالح أميرَ سَريّة بعثَها ، فقال : أنت تاجرُ الله لعباده ، فكُن كالمضارب الكيِّس الّذى إن وَجد رِبْحا تجر ، وإلا احتفَظ برأس المال ؛ ولا تطلب

---

(١) سورة الأنفال ٤٥ ، ٤٦ .

الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذرا من احتيال عدوّك عليك .

وفي الحديث المرفوع أنّه صلّى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة : لا تُشقِ جيشَك ؛ فإن الله تعالى ينصُر القومَ بأضعَفِهم .

وقال ابنُ عبّاس – وذكر علياً عليه السلام : مارأيتُ رئيسايُوزَن به ، لقدرأيته يومَ صِفّين وكأن عينيه سراجاً سليط [1] وهو يحمِّس أصحابَه إلى أن انتهى إليّ وأنا في كَنَف فقال : يامعشرَ المسلمين ، استشعِروا الخشية ، وتجلببُوا السكينة ،وأكمِلوا اللأمة... الفصل المذكور فيما تقدّم .

(١) السليط : زيت به يضاء .

(١٧)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه :

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ؛ أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ .

وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ ، فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ! فَكَذَلِكَ نَحْنُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ . وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ . وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً ، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً ، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً ، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً . وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

يقال : طلبتُ إلى فلان كذا ، والتقدير طلبتُ كذا راغبا إلى فلان ، كما قال تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ (١) أي مُرسلا .

ويُروى « إلّا حُشاشةَ نفسٍ » ، بالإفراد ، وهو بقيّة الرُّوح في بَدَن المريض .

ورُوِي : « ألا ومَن أكله الحقّ فإلى النار » ، وهذه الرواية أليَق من الرّواية المذكورة في أكثر الكُتُب ، لأنّ الحق يأكل أهلَ الباطل ، ومَن روَى تلك الرواية أضمَر مُضافًا تقديرُه « أعداء الحق » ، ومضافا آخَر تقديرُه « أعداء الباطل » . ويجوز أن يكون مَن أكله الحقّ فإلى الجَنّة ، أي من أفضَى به الحقّ ونُصرتُه والقيامُ دونَه إلى القتل ؛ فإنّ مصيرَه إلى الجنة ، فيسمّى الحقّ لما كانت نُصرتُه كالسبب إلى القتل أكلا لذلك المقتول ، وكذلك القولُ في الجانب الآخَر .

وكان الترتيب يقتضي أن يجعل هاشمًا بإزاء عبدِ شمس ، لأنّه أخوه في قُعدد (٢) ، وكِلاهُما ولَدُ عبدِ مناف لصُلبه ، وأن يكون أميّة بإزاء عبد المطلب ، وأن يكون حَرْبٌ بإزاء أبي طالب ، وأن يكون أبو سُفيانَ بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن كلّ واحد من هؤلاء في قُعْدُدِ صاحبه ، إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان في صِفّين بإزاء معاويةَ اضطرّ إلى أن جَعَل هاشما بإزاء أميّة بن عبد شمس .

فإن قلت : فهلاّ قال : «ولا أنا كأنت» ؟ قلتُ : قبيحٌ أن يقال ذلك ، كما لا يقال : السّيفُ أمضَى من العصا ، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافّةً ، نعم قد يقولها لا تَصريحا ، بل تَعريضا ، لأنه يرفع نفسَه على أن يقيسَها بأَحَد .

وها هنا قد عرّض بذلك في قوله : « ولا المهاجِرُ كالطّليق » . فإن قلتَ : فهل معاوية

---

(١) سورة النمل ١٢ .
(٢) قعدد ؛ أي قريب الآباء من الجد الأكبر .

من الطُّلَقَاء ؟ قلت : نعم ، كلُّ من دَخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله مَكّة عَنْوَةً بالسّيف فملَكه ثم مَنّ عليه عن إسلامٍ أو غيرِ إسلام فهو من الطُّلَقاء ممّن لم يُسلم كصَفْوان ابن أميّة ، ومَن أسلَم كمعاوية بن أبى سُفْيان ، وكذلك كلُّ من أُسِرَ فى حَرْب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ثم امتَنّ عليه بفِداء أو بغير فِداء فهو طَليق ، فمّن امتَنّ عليه بفداء كسُهيل بن عمرو ، وممّن امتنّ عليه بغير فداء أبو عَزّة الْجمحىّ ، وممن امتنّ عليه مُعاوَضة أى أُطلق لأنّه بإزاء أسيرٍ من المسلمين عَمْرو بن أبى سُفْيان بن حَرْب ، كلّ هؤلاء معدودون من الطُّلقاء .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولا الصريح كاللّصِيق » ، وهل كان فى نسب معاويةَ شُبهةٌ ليقول له هذا ؟

قلتُ : كلاّ إنه لم يقصد ذلك ، وإنّما أراد الصريحَ بالإسلام واللّصيق فى الإسلام ، فالصريح فيه هو من أسلَمَ اعتقاداً وإخلاصاً ، واللّصيق فيه مَن أسلَم تحتَ السيف أو رغبةً فى الدنيا ، وقد صَرّح بذلك فقال : « كنتم ممّن دخل فى هذا الدين إمّا رَغْبةً وإمّا رَهْبة » .

فإن قلت : فما معنى قوله : « ولَبئس الخلَف خَلَفاً يتبع سَلَفاً هَوَى فى نار جهنّم » ؟ وهل يُعابُ المسلم بأنّ سَلَفه كانوا كُفّارا !

قلتُ : نعم ، إذا تَبِع آثارَ سَلفِه واحتَذَى حذوَهم ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام ماعابَ معاويةَ بأنّ سَلَفه كُفّار فقط ، بل بكَوْنه متبعا لهم .

قولُه عليه السلام : « وفى أيدِينا بعدُ فَضْل النبوّة » أى إذا فرَضْنا تساوِيَ الأقدام فى مآثِر أسلافكم كان فى أيدينا بعدُ الفَضلُ عليكم بالنبوّة التى نَعَشْنا بها الخاملَ ، وأخْملنا بها النّبيه .

قوله عليه السلام : ، « على حينَ فازَ أهلُ السَّبْق » ، قال قوم من النُّحاة :

« حينَ » مبنيٌّ هاهنا عَلَى الفتح. وقال قوم : بل مَنصوبٌ لإضافته إلى الفعل .

قوله عليه السلام : « فلا تجعلنّ للشيطان فيكَ نصيبا » ، أى لا تستلزِم من أفعالك مايدوم به كونُ الشيطان ضارِبًا فيك بنَصيب ، لأنّه ما كتب إليه هذه الرسالةَ إلّا بعد أن صار للشيطان فيه أوفرُ نصيب ، وإنّما المراد نهيُه عن دوام ذلك واستمرارِه .

***

[ذكر بعض ما كان بين علىّ ومعاوية يوم صفين]

وذَكر نصرُ بنُ مُزاحم بن بشّار العُقَيلىّ فى كتاب ''صِفّين'' أنّ هذا الكتاب كتبه علىّ عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة . قال نصر : أظهَر علىٌّ عليه السلام أنّه مُصبِّحٌ معاويةَ ومناجِزٌ له ، وشاعَ ذلك من قوله . ففَزِع أهلُ الشام لذلك ، وانكسرُوا لقوله . وكان معاويةُ بنُ الضَحّاك بنِ سُفْيان صاحب راية بنى سُلَيم مع معاوية مُبغِضا لمعاوية وأهلِ الشام ،وله هوًى مع أهلِ العراق وعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وكان يَكتُب بأخبار معاويةَ إلى عبد الله بن الطُّفَيل العامرىّ ، وهو مع أهل العراق ، فيخبر بها عليًّا عليه السلام ، فلما شاعت كلمةُ علىّ عليه السلام وَجِلَ لها أهلُ الشام ، وبعث ابن الضحاك إلى عبدِ الله بنِ الطفيل : إنى قائل شِعْرا أُذْعَر به أهلَ الشام وأُرغِم به معاوية ، وكان معاويةُ لا يتّهمه ، وكان له فضل ونَجْدَة ولسان ،فقال ليْلا ليستمع أصحابه :

ألا لَيت هذا اللّيل أطبق سَرْمَدا ... علينا وأنّا لا نرَى بعدَه غــدا
وياليتَــه إن جاءنا بصبــاحِــه ... وجَدْنا إلى مجرى الكواكب مَصْعَدا
حِــذارَ علىّ إنه غــيرُ مُخلفٍ ... مَدَى الدهر مالبَّ المُلبُّون مَوْعـدا
وأما قرارى فى البــلاد فليس لى ... مُقامٌ وإن جاوزتُ جابَلْقَ مُصعِدا

كأنّى به فى الناس كاشفُ رأسِه ... على ظهر خوّار الرّحالة أجردا
يخوضُ غِمارَ الموتِ فى مُرْجَحِنَّةٍ ... يُنادُون فى نقع العَجاج محمّدا[١]
فوارسُ بدر والنَّضِير وخَيْبَرٍ ... وأُحْدٍ يهزُّون الصفيحَ المهنَّدا
ويومَ حنينٍ جالَدوا عن نبيِّهمْ ... فريقاً من الأحزاب حتى تبدَّدا[٢]
هنالك لاتلوِى عجوزٌ على أبنها ... وان أكثرت من قولِ : نفسى لك الفدا
فقل لابن حَرْبٍ ما الذّى أنت صانعٌ ... أتثبتُ أم ندعوك فى الحرب قُعْدُدا[٣] :
فــلا رأىَ إلا تركنا الشامَ جهرةً ... وان أبْرَق الفجفاجُ فيها وأرعدا[٤]

فلما سمع أهلُ الشام شعرَه أتوْا به معاوية ، فهمّ بقتله ، ثم راقب فيه قومه ، فطرَده من الشام ، فلحق بمصر وندِم معاويةُ على تسييره إياه . وقال معاوية : لَشعرُ السُّلمىّ[٥] أشدّ على أهل الشام من لقاء علىّ ، ماله قاتله الله ، لو صار خلف جابَلْق مصعدا لم يأمنْ عليا ! ألا تعلمون ماجابلق ؟ يقوله لأهل الشام ، قالوا : لا ، قال : مدينةٌ فى أقصى المشرق ليس بعدَها شيء .

***

قال نصر : وتناقل النّاس كلمةَ علىّ عليه السلام : « لأناجِزَنّهم مصبِّحاً[٦] » ، فقال الأشتر :

قد دنا الفضلُ فى الصّباح ولِلسِّلْمِ رجالٌ وللحروب رجالُ

---

(١) المرجحنة : الأمر العظيم .
(٢) جالدوا : دافعوا .
(٣) القعدد : الجبان القاعد عن الحرب ؛ وبعده فى صفين :

وظنِّى بألّا يصبر القومُ موقفاً ... يقِفُهُ وإن لم يَجر فى الدهر لِلمَدَى

(٤) الفجفاج : كثير الكلام المتشبع بما ليس عنده .
(٥) صفين : « لقول السلمى » .
(٦) صفين : « إنى مناجز القول إن أصبحت » .

فرجـالُ الحروبِ كلُّ خِدَبٍّ مقحمٍ لاتَهُدُّه الأهوالُ(١)
يضرب الفارسَ المدجَّج بالسَّيـ ف إذا فرّ فى الوَغا الأكفالُ
يابنَ هندٍ شُدَّ الحيازيمَ للمو تِ ولا تذهبنْ بكَ الآمالُ
إن فى الصّبح إن بقيت لأمراً تتفادَى من هوله الأبطالُ
فيه عزّ العراق أو ظفر الشا مِ بأهل العراق والزلزالُ
فاصبرُوا للطِّعان بالأسَل السُّمْـ رِ وضَرْبٍ تجرى به الأمثالُ(٢)
إن تكونوا قتلتم النّفرَ البيـ ضَ وغالتْ أولئك الآجالُ(٣)
فلنا مِثْلهم غداة التّلاق وقليلٌ من مثلهمْ أبدالُ
يخضِبون الوَشيجَ طعْنا إذا جرتْ من الموت بينهم أذيالُ(٤)
طلبَ الفوزَ فى المعادِ وفيه تُستهانُ النفوسُ والأموالُ

قال : فلما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشتر قال : شعرٌ منكر ، من شاعرٍ منكر ، رأس أهل العراق وعظيمهم ، ومِسعَرُ حربهم ، وأول الفتنة وآخرُها ، قدرأيت أن أعاود عليًّا وأسأله إقرارى على الشام ، فقد كنت كتبتُ إليه ذلك فلم يجب إليه ، ولأكتبنّ ثانيةً فألقى فى نفسه الشكَّ والرقة . فقال له عمرو بن العاص وضَحِك : أين أنتَ يامعاوية من خدعة علىّ ! قال : ألسنا بنى عبد مناف ! قال : بلى ، ولكن لهم النبوّة دونك ، وإن شئت أن تكتب فاكتب ؛ فكتب معاوية إلى علىّ عليه السلامُ مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عُقْبة ، وكان من نافلة أهل العراق :

أما بعد فإنك لو علمْتَ أن الحرْب تبلغ بنا وبك مابلغتْ لم يجنها بعضنا على

---

(١) الخدب : الشديد الصلب ، والمقحم ، من قحم فى الأمر كنصر قحوما ؛ إذا رمى بنفسه فيه فجأة بلا روية .
(٢) الأسل : الرماح . والسمر : العوالى .
(٣) يقال : غاله غول ؛ إذا أهلكه .
(٤) الوشيج : شجر الرماح .

بعض ، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقى لنا منها ما نندم به على مامضى ، ونصلح به مابقى ، وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمنى لك بيعة وطاعة ، فأبيتَ ذلك علىّ ، فأعطانى الله مامنعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ماترجو ، ولا أخاف من الموت إلاّ ماتخاف ، وقدوالله فارقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنوعبد مناف ؛ ليس لبعضنا على بعض فَضْل إلا فضل لا يُستَذَلّ به عزيز ، ولا يسترقّ به حرّ ، والسلام .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علىّ عليه السلام قرأه ، ثم قال : العَجَب لمعاوية وكتابه ! (١ ودعا عبيد بن أبى رافع كاتبَه ، فقال : اكتب جوابه ١) .

أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علِمت وعلمنا أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، فإنى لو قتلتُ فى ذات الله ، وحييتُ ؛ ثم قُتِلتُ ثم حييتُ سبعين مرة لم أرجع عن الشدّة فى ذات الله والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك : إنه قد بقى من عقولنا مانندم به على مامضى ، فإنى مانقصتُ عقلى ، ولا ندمتُ على فعلى . وأما طلبك الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم مامنعتُك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرّجاء فلست أمضى على الشك منّى على اليقين ، وليس أهلُ الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض ! فلعمرى إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحقّ كالمبطل ، وفى أيدينا بعد فضل النبوّة التى أذللنا بها العزيز وأعززنا بها الذليل . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ علىٍّ عليه السلام كتمه عن عمرو بن العاص أياما ، ثم دعاه

(١ـ١) صفين : « ثم دعا عبيدالله بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب إلى معاوية » .

فأقرأه إياه، فشمت به عمرو ـ ولم يكن أحد من قريش أشدّ إعظاما لعليّ من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه ـ فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية :

ألا لله درُّكَ يابن هنـدٍ وَدرُّ الآمرين لك الشهودِ !
أتطمع لا أبا لكَ فى عليٍّ وقد قرع الحديدَ على الحديدِ !
وترجو أن تُحيِّره بشكٍّ وتأمُل أن يهابك بالوَعيد[1]
وقد كشفَ القناع وجرّ حَربا يشيبُ لهولها رأس الوليد
له جَأْواء مُظلِمةٌ طَحونٌ فوارِسُها تلهَّب كالأسودِ[2]
يقول لها إذا رجعتْ إليه[3] وقد ملّت طعانَ القوم : عُودِي
فإن وردت فأوّلها وروداً وان صدّت فليس بذى صدودِ
وماهى من أبى حسن بنُكرٍ ولا هو من مسائك بالبعيدِ
وقلتَ له مقالة مستكينٍ ضعيفِ الرّكن منقطِع الوَريدِ
دَعَنْ لى الشامَ حسبُك يابن هندٍ من السّوآت والرأىِ الزّهيدِ
ولو أعطاكها مازدْتَ عِزّا ولا لك لو أجابك من مزيد
فلم تكسِرْ بذاك الرأى عوداً لرِكّته ولا ما دون عود[4]

فلما بلغ معاوية شعرُ عمرو دعاه فقال له : العجب لك ! تفيِّل رأيى، وتعظم عليّا وقد فضحتك ! فقال : أما تفييلى رأيك فقد كان، وأما إعظامى عليّا فإنك بإعظامه أشدّ معرفةً منّى، ولكنك تطويه وأنا أنشرُه . وأمّا فضيحتى فلم يفتضح امرؤٌ لقىَ أبا حسن[5] .

---

(١) صفين : « وترجو أن يهابك بالوعيد » .
(٢) الجأواء : الكتيبة يعلوها السواد لكثرة الدروع .
(٣) صفين : إذا دلفت إليه » .
(٤) الركة . الضعف . (٥) صفين ٥٣٥ ـ ٥٤٠ .

(١٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة :

وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً ، وَقَرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا ، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا .

فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ ، وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

قوله عليه السلام : مَهبط إبليس : موضع هُبوطه .

ومغرس الفِتَن : موضع غَرْسِها ، ويروَى « ومُغْرِس الفتن » ، وهو للموضع الّذى ينزِل فيه القومُ آخر الّليل للاستراحة ، يقال غَرَسوا وأغرَسوا .

وقولهُ عليه السلام : « فحادِثْ أهلَهـا » ، أى تعهّدهم بالإحسان ، من قولك : حادثت السيفَ بالصِّقال .

والتنمُّر للقوم : الغِلْظة عليهم ، والمعامَلة لهم بأخلاق النَّمرِ ، من الجرْأة والوثوب ، وسنذكر تصديقَ قوله عليه السلام : « لم يغبْ لهم نجمٌ إلاَّ طلع لهم آخر » .
والوَغْم : التِّرة ، والأوْغام : التِّرات ، أى لم يُهْدَر لهمْ دمٌ فى جاهليّة ولا إسلام ، يصفُهم بالشّجاعة والحميّة .

ومأزُورون ، كان أصله « مَوْزورُن » ، ولكنه جاء بالألف لِيحاذِى به ألفَ « مأجُورُون » وقد قال النبىّ صلّى الله عليه وآله مثل ذلك .

قوله عليه السلام : « فاربَعْ أبا العباس » ، أى قِفْ وتثبّت فى جميع ماتعتمدُه فِعلا وقَوْلا من خَيْر وشر ، ولا تَعجَل به فإنّى شريكُك فيه إذ أنتَ عاملى والنائبُ عنّى .
ويعنى بالشرّ هاهنا الضررَ فقط ، لا الظلْم والفِعل القبيح .
قولُه عليه السلام : « وكن عند صالح ظنّى فيك » ، أى كن واقفا عندَه كأنّك تشاهِدُه فتَمنَعك مشاهَدَتُه عن فعلِ مالا يجوز .
فال الرأىُ يَفيل ، أى ضَعُفَ وأخطأ .

***

[فصل فى بنى تميم وذكر بعض فضائلهم]

وقد ذكر أبو عُبيدةَ مَعمَر بنُ المثنّى فى كتاب " التاج " أن لبنى تميم مآثرَ لم يَشرَكْهم فيها غيرُهم . أما بنو سعد بن زَيْد مَناةَ فلها ثلاثُ خِصال يَعرفها العرَب :
إحداها : كثرة العَدَد فإنّه أضعف عددها على بنى تميم حتّى ملأَتِ السّهلَ والجبلَ عَدَلت مُضرَ كثرة ، وعامة العَددِ منها فى كعببنِ سعد بنِ زيد مَنَاة ، ولذلك قال أوْسُ ابن مَغْراء :

كَعْبِيَ مِن خيرِ الكعابِ كَعْبا   مِن خــيرِها فوارساً وعَقْبا
* تَعدِلُ جَنْبا وتَميمُ جَنْبا *

وقال الفرزدق أيضا فيهم هذه الأبيات :

لو كنتَ تعلَمُ ما بِرَمْل مُوَيْسِلٍ   فقرى عُمان إلى ذواتِ حُجورِ
لعلمتَ أنَّ قبائلا وقبائلا   من آلِ سعدٍ لم تَدِنْ لأميرِ

وقال أيضا :

تبــكِّي على سَعدٍ وسَعدٌ مقيمةٌ   بيَبْرِينَ قد كادَتْ على النّاس تَضعُفُ (١)

ولذلك كانت تسمَّى سعد الأكثرين . وفي المَثَل : « في كل واد بنُو سَعْد » (٢) .

والثانية : الإفاضة في الجاهليّة ، كان ذلك في بني عُطارِد ، وهم يتوارَثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى قام الإسلام ، وكانوا إذا اجتمعَ الناسُ أيّامَ الحجّ بمِنًى لم يبرَح أحدٌ من الناس دينا وسنة حتى يجوزَ القائمُ بذلك من آلِ كَرِب بنِ صَفْوان ، وقال أوسُ ابن مَغْراء :

ولا يَرِيمُون في التَّعريف موقفَهمْ   حتى يقالَ : أجيزُوا آلَ صَفوانا

وقال الفرزدق :

إذا ما الْتَقَيْنــا بالمحصَّب مِنْ مِنًى   صبيحةَ يومِ النَّحْر من حيث عَرَّفوا (٣)
تَرَى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ حَوْلَنا   وإن نحنُ أومَأْنا إلى الناس وَقَّفُوا

والثالثة : أنَّ منهم أشرَفَ بيتٍ في العرَب الذي شرَّفته ملوكُ لَخْم . قال المنذرُ بن المنذرِ بن ماءِ السَّماء ذات يوم وعندَه وفودُ العرب ودعا ببُرْدَيْ أبيه محرِّق بن المنذر فقال : لِيَلْبَس هذين أعزُّ العرَب وأكرمُهم حَسَبا . فأحجَمَ الناسُ ، فقال أحَيمِر بنُ

---

(١) ديوانه ٥٦٩ .
(٢) مجمع الأمثال ٢ : ٨٣ ؛ ولفظه فيه : « في كل أرض سعد بن زيد » ؛ قاله الأضبط بن قريع .
(٣) عرفوا ؛ أي وقفوا بعرفات .

خَلَف بن بهدَلَة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم : أنا لهما ، قال الملك : بماذا ؟ قال : بأنّ مُضرَ أكرَمُ العرب وأعزُّها وأكثرُها عديدا ، وأن تميماً كاهِلُها[1] وأكثرُها ، وأن بَيْتَها وعددها فى بنى بَهدلة بنِ عوْف ، وهو جَدّى . فقال : هذا أنتَ فى أصلِك وعشيرتك ، فكيف أنت فى عِتْرَتِك وأدانيك !

قال : أنا أبو عَشرَة ، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة . فدفَعهما إليه ، وإلى هذا أشار الزِّبرِقان بنُ بدر فى قوله :

وبُرْدا ابنِ ماءِ المزْن عَمّى اكتَساهُما بفَضْل مَعَدٍّ حيثُ عُدّتْ محاصِلُهْ

قال أبو عُبيدة : ولهم فى الإسلام خَصْلة ، قدِم قيسُ بنُ عاصم المنقَرىّ على رسول الله صلى الله عليه وآله فى نفرٍ من بنى سعد ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « هذا سيّد أهل الوبر » ، فجعله سيّد خِنْدِف وقيس ممن يَسكُن الوبَر .

قال : وأما بنو حَنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم فلهم خِصال كثيرة . قال : فى بنى دارم بن مالك بن حنظلة ، وهو بيتُ مضر ، فمن ذلك زُرارَة بن عُدَس بن زَيد بن دارِم يقال : إنه أشرَف البيوت فى بنى تميم ، ومن ذلك قوْسُ حاجبِ بنِ زُرارة المرهونةُ عند كِسرى عن مُضَر كلِّها ، وفى ذلك قيل :

وأقسَم كِسرى لا يصالح واحداً من النّاس حتى يرهنَ القوْس حاجبُ

ومن ذلك فى بنى مُجاشع بن دارم صَعْصَعة بن ناجيَة بن عقال بن محمد بن سُفْيان ابن مجاشع ، وهو أوّل من أحيا الوَئيد ، قام الإسلامُ وقد اشترَى ثلاثمائة مَوْءودةٍ فأعتقَهنّ وربّاهن ، وكانت العرب تئِد البناتِ خوف الإملاق .

ومن ذلك غالِب بن صَعْصَعة ، وهو أبو الفرَزْدق ، وغالِب هو الذى قَرَى مائة ضَيْف ، واحتَمل عشرَ ديات لقومٍ لا يَعرفهم ، وكان من حديث ذلك أنّ بنى كَلْب

---

(١) كاهلها ، أى أعلاها .

ابن وَبَرة افتخرتْ بينها فى أنْدِيتها، فقالت : نحن لُبابُ العربِ وقلبُها، ونحن الّذين لانُنازَع حَسَبا وكَرَماً. فقال شيخ منهم : إنّ العرب غيرُ مقرَّةٍ لكم بذلك، إنّ لها أحسابا، وإنّ منها لُبابا، وإنّ لها فعالا، ولكن ابعثوا مائةً منكم فى أحسن هيئة وبزّة ينفرونَ من مرُّوابه فى العرب ويسألونه عَشْرَ ديات، ولا ينتسبون له، فمن قَرَاهم وبذلَ لهم الدّياتِ فهو الكريم الّذى لايُنازَع فضلا ؛ فخرجوا حتّى قدِموا على أرض بنِى تميم وأسد، فنفَّروا الأحياء حيًّا فحيًّا، وماء فماء، لايجدون أحدا على مايريدون ؛ حتّى مرّوا على أَكْثَمَ بن صَيْفِىّ، فسألوه ذلك، فقال : مَن هؤلاء القَتْلى ؟ ومَن أنتم ؟ وماقِصَّتُكم ؟ فإنّ لكم لشأنًا باختلافكم فى كلامِكم ! فعدَلُوا عنه، ثم مَرّوا بقُتيبة بن الحارث بن شهاب اليَرْبوعىّ فسألوه عن ذلك، فقال : مَن أنتم ؟ قالوا : من كلبِ بنِ وبَرة. فقال : إنّى لأبغى كلْبا بدَم، فإن انسَلخ الأشهر الحرُم وأنتم بهذه الأرض وأدركتكم الخيلُ نكّلَتْ بكم وأثكَلتْكُم أمّهاتِكم. فخرجوا من عندِه مرعوبين، فمرّوا بعُطارِد بن حاجب بن زُرارة، فسألوه ذلك، فقال: قولوا بيانًا وخذوها، فقالوا : أمّا هذا فقد سألكم قبل أن يُعطِيَكم فتركوه، ومرّوا بابنى مُجاشع بن دارم فأتوا على وادٍ قد امتلأ إبلًا فيها غالبُ بن صعصعة يهنأ[1] منها إبلا، فسألوه القِرَى والدّيات، فقال: هاكم البُزْلَ قبل النزول فابتزّوها من البَرْك وحُوزُوا دياتكم، ثم انزلوا، فتنزّلوا وأخبَروه بالحال، وقالوا : أرشدك الله مِن سيّدِ قوم ! لقد أرحْتَنا من طول النَّصَب، ولو علِمْنا لقصدْنا إليك، فذلك قول الفرزدق :

فلله عَيْنا مَنْ رأى مِثلَ غالبٍ ... قِرَى مائةٍ ضيفاً ولم يتكلّمِ[2]

وإذ نبحتْ كلبٌ على الناس إنّهم ... أحقُّ بتاج الماجدِ المتكرّمِ

---

(١) هنأ الإبل يهنؤها : طلاها بالهناء، وهو القطران.

(٢) ديوانه ٧٥٩، وروايته : « ألا هل علمتم ميتا قبل غالب ».

فلم يجلُ عن أحسابها غــير غالبٍ   جرَى بِعِنانَىْ كلّ أبلجَ خِضرمِ (١)

قال : فأمّا بنو يَرْبوع بن حنظلة ، فمنهم . ثُمّ مِن بنى رياح بن يربوع عتّاب بن هَرْمىّ ابن رِياح ، كانت له رِدافَة الملوك ، ملوكِ آلِ المنذِر ، ورِدافة الملك أن يُثَنَّى به فى الشُّرْب ، وإذا غاب الملكُ خَلَفَه فى مجلِسه ، وورِث ذلك بنوه كابراً عن كابر ، حتّى قامَ الإسلام ، قال لبيدُ بن ربيعة :

وشهدتُ أنجية الأكارمِ غالباً   كَعْبى وأردافُ الملوكِ شهودُ (٢)

ويَرْبوع أوّل مَنْ قَتل قتيلا من المشركين ، وهو واقد بنُ عبدِ الله بن ثعلبة بن يربوع ، حليفُ عمر بن الخطّاب ، قتل عمرَو بن الحضرمىّ فى سريّة نخلة ، فقال عمرُ ابن الخطّاب يفتخر بذلك :

سقَيْنا من ابن الحضرمىّ رماحنا   بنخلة لمّا أوقدَ الحرب واقــدُ

وظلّ ابنُ عبدِ الله عثمان بيننا   يُنازعه غُلٌّ من القدِّ عاندُ (٣)

ولها جَوادالعَربِ كلّها فى الإسلام ؛ بدأ العرب كلّها جوداً، خالدُ بنُ عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحى . دخل الفرزدقُ على سليمانَ بن عبد الملك ، وكان يَشْنَؤه لِكثرةِ بأوِه (٤) وفخره ، فتجهّمه وتنكّر له ، وأغلَظَ فى خطابه حتّى قال : مَن أنت لاأمَّ لك ! قال : أوَما تعرفنى ياأمير المؤمنين؟ أنا من حىّ هم من أوْفَى العَرَب ، وأحلمِ العرب ، وأسوَدِ العَرَب ، وأجوَدِ العَرب وأشجَعِ العرب ، وأشعرِ العرب . فقال سليمان : والله لتحتجّنّ لما ذكرتَ أو لأوجعنّ ظَهْرَك ، ولأبعدَنّ دارَك . قال : أما أوفى العرب فحاجبُ بنُ زُرارةَ ؛ رَهَن قوسَه عن العرب كلها وأوْفَى . وأمّا أحلمُ العرب فالأحنف بنُ قَيْس يُضرَب به المَثل حِلماً ، وأما أسْوَدُ العرب فَقيس بنُ عاصم ، قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : «هذا سيّد أهل الوَبَر» ؛

---

(١) الأبلج : الواضح . والخضرم : الجواد المعطاء .   (٢) لم أجده فى ديوانه .

(٣) الغل بالضم : طوق من حديد يجعل فى العنق ، والجمع أغلال .   (٤) البأو : الفخر .

وأما أشجعُ العرب فالخِرِيش بنُ هلال السعدىّ ؛ وأما أجودُ العرب فخالدُ بن عتّاب ابن وَرْقاء الرِّياحىّ ، وأما أشعر العَرَب فهأنذا عندك ! قال سليمان : فما جاء بك ؟ لا شىء لك عندنا ، فارجع على عَقِبك ؛ وغمّه ما سَمِع مِن عِزّه ، ولم يَستطع له رَدًّا ، فقال الفرزدق فى أبيات :

أتيناكَ لا من حاجةٍ عرَضَتْ لنا إليكَ ولا مِن قلّةٍ فى مجاشِعِ [1]

قلتُ : ولو ذكر عُتَيْبة بنَ الحارث بن شهاب اليَرْبوعىّ وقال : إنه أشجع العرب لـكان غيرَ مُدافَع . قالوا : كانت العرب تقول : لو وَقَع القمرُ إلى الأرض لما التقفه إلّا عُتَيْبة بنُ الحارث لثقافته بالرُّمح . وكان يقال له : صيّاد الفوارس وسمّ الفوارس ، وهو الذى أسرَ بسطامَ بن قيس ، وهو فارس ربيعة وشُجاعُها ، ومكث عنده فى القَيْد مُدّة حتّى استوفَى فِداءه وجزّ ناصيتَه ؛ وخلّى سبيله على ألّا يغزُوَ بنى يَرْبوع . وعُتيبة هذا هو المقدَّم على فُرْسانِ العَرب كلِّها فى كتاب طَبَقات الشُّجْعان ومَقاتِل الفُرْسان ، ولـكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميميًا ، لأن جريرا يفتخر به ، لأنه من بنى يَرْبوع ، فحملتْه عداوةُ جرير على أن عدل عن ذكره .

***

قال أبو عبيدة : ولبنى عمرو بن تميم خِصالٌ تعرفها لهم العَرَب ولا ينازعهم فيها [2] أحد ؛ فمنها أكرمُ الناس عمًّا وعَمّة ، وجدًّا وجَدّة ، وهو هند بنُ أبى هالة ، واسم أبى هالَةَ نَبّاش بنُ زُرارة أحدُ بنى عمرو بن تميم ، كانت خديجةُ بنتُ خوَيلد قبلَ

---

(١) ديوانه ٤٩١ .

(٢) ا : « عليها » .

النبي صلى الله عليه وآله تحت أبي هالة ، فولدت له هندا ، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وهندُ بنُ أبي هالةَ غلامٌ صغير ، فتبنّاه النبي صلى الله عليه وآله ، ثم ولدتْ خديجةُ من رسول الله صلى الله عليه وآله القاسمَ والطاهرَ وزينبَ ورقيّةَ وأمَّ كلثوم وفاطمة ، فكان هندُ بنُ أبي هالة أخاهم لأمّهم ، ثم أولد هند بن أبي هالة هندَ بن هند ، فهند الثاني أكرمُ الناس جدّا وَجدّة ، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة ، وأكرم الناس عمًّا وعمّة — يعني بَنِي النبيّ صلى الله عليه وآله وبناتِه .

ومنها أنّ لهم أحكَم العَرب في زمانه أكثمُ بن صَيْفِيّ ؛ أحد بني أسَد بن عمرو بن تميم ، كان أكثر أهل الجاهلية حِكما ومثلا وموعظة سائرة .

ومنها ذو الأعواز ، كان له خَراجٌ على مضَر كافّة تؤدِّيه إليه ، فشاخَ حتّى كان يُحمَل على سرير يُطاف به على مياه العَرب ، فيؤدَّى إليه الخراج ، وقال الأسودُ بن يَعفُر النَّهشَليّ وكان ضريراً :

ولقد علمتُ خلافَ ما تُناشِي أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوازِ

ومنها هلال بنُ أحوَزَ المازنيُّ الّذي ساد تميما كلَّها في الإسلام ، ولم يَسُدها غيرُه .

قال : ودخل خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ مسجدَ الكوفة ، فانتهى إلى حَلْقةٍ فيها أبو الصَّقْعَب التيميّ ، من تَيْم الرِّباب ، والمخزوميّ لايعرفه ، وكان أبو الصَّقْعَب من أعلَم الناس ، فلما سمع علمَه وحديثه حسَدَه ، فقال له : ممّن الرجل ؟ قال : من تَيْم الرِّباب ؛ فظَنّ المخزوميُّ أنه وَجدَ فرصةً ، فقال : واللهِ ما أنت من سعد الأكثرين ولا مِن حنظَلة الأكرَمِين ، ولا من عَمرو الأشدِّين ! فقال أبو الصقعب : فممّن أنتَ ؟ قال مِن بني مَخْزوم . قال : واللهِ ما أنتَ من هاشمٍ المنتخَبين ، ولا من أميّة المستخْلَفين ،

ولا من عبد الدار المستحجَبين ، فبمَ تفخَر ؟ قال : نحن رَيْحانة قريش ، قال أبو الصقعب: قُبحا لما جئتَ به ! وهل تدرى لم سميتْ مخزوم ريحانةَ قريش ؟ سُميتْ لحظوة نسائها عند الرجال ، فأفحَمَه .

روَى أبو العباس المبرِّد فى كتاب " الكامل " أنّ معاوية قال للأحنف بن قيس وجارية [١] بنِ قُدامة ورجالٍ من بنى سعد معهما كلاما أحفَظَهم، فردُّوا عليه جوابا مُقذِعا، وامرأتُه فاختِة بنت قرظَة فى بيتٍ يقرُب منهم ، وهى أمّ عبدِ الله بن معاوية ، فسمعتْ ذلك ، فلما خرجوا قالت : ياأميرَ المؤمنين ، لقد سمعتَ من هؤلاء الأجلاف كلاماتَلَقَّوْك به فلم تُنكِر ، فكدتُ أن أخرجَ إليهم فأسطُوَ بهم ! فقال معاوية : إن مضرَ كاهِلُ العَرَب ، وتميما كاهلُ مُضر ، وسعدا كاهِلُ تميم ، وهؤلاء كاهلُ سعد [٢] .

ورَوَى أبو العباس أيضا أن عبد الملك ذَكر يوما بنى دارِم فقال أحدُ جُلَسائه : ياأميرَ المؤمنين ، هؤلاء قوم مَحْظوظون ـ يعنى فى كثرة النَّسْل ونَماء الذرية ـ فلذلك انتَشَر صِيتُهم . فقال عبدُ الملك : ماتقول ! هذا وقد مضى منهم لَقيطُ بنُ زُرارة ولم يُخلِّف عَقِبا ، ومضى قَعقاع بن مَعبَد بن زُرارة ولم يخلِّف عَقِبا ، ومضى محمد بن عُمير بن عطارِد بن حاجب بن زُرارة ولم يخلِّف عقِبا ! والله لا تنَسى العربُ هذه الثلاثةَ أبدا [٣] .

قال أبو العباس : إنّ الأصمعىّ قال : إنّ حَرْبا كانت بالبادية ثمّ اتصلتْ بالبَصرة، فتَفاقَمَ الأمرُ فيها ، ثم مُشِى بين الناس بالصلح، فاُجتمعوا فى المسجد الجامع . قال :فبُعثتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارم ، فاستأذنتُ عليه ، فأُذِن لى ، فدخلتُ ، فإذا به فى شَمْلة يخلِط بزرا لعنزٍ له حَلوب ، فخبّرته بمجتمَع القوم ، فأمهَل حتى أكلتِ العَنز ، ثم غَسَل الصحفة وصاح : ياجارية ، غَدِّينا ، فأتته بزيت وتمرٍ ، فدعانى ،فقَذِرْته

---

(١) ب : « حارثة » ، والصواب ما فى ا والكامل .
(٢) الكامل ١ : ٦٥ . (٣) الكامل ١ : ٣٠٨ .

أن آكلَ معه حتى إذا قضَى من أكله وحاجتِه وَطَرا وَثَب إلى طِينٍ مُلقًى فى الدار، فغسَل به يدَه ، ثم صاح : ياجارية ، اسقِينى ماء ؛ فأتته بماء،فشرِب به ومَسَح فضلَه على وجهه،ثم قال: الحمد لله ، ماء الفُرات بتَمر البَصرة بزَيْت الشام ، متَى نؤدِّى شكرَ هذه النِّعَم ! ثم قال: علىَّ بردائى ، فأتته برِداء عدَنِىّ [1] فارتدَى به على تلك الشَّمْلة .قال الأصمعىّ:فتجافيتُ عنه استِقباحا لزِيِّه ، فلما دخل المسجدَ صلّى ركعتَين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تبقَ حُبْوةٌ إلا حُلّت إعظاما له ، ثم جلس فتحمّل جميعَ ما كانَ بين الأحياء فى مالِه ثم انصرَف [2] .

قال أبو العباس : وحدثنى أبو عثمانَ المازنىّ ، عن أبى عُبيدة ، قال : لمّا أتَى زيادُ ابنُ عَمرٍو المِرْبَد فى عَقِب قَتْل مسعود بن عمرو العَتَكىّ ، وجاء زياد بن عَمرو بن الأشرَف العَتَكى لِيَثأر به من بنى تميم صَفَّ أصحابه ، فجَعَل فى الميمنة بكرَ بن وائل ، وفى المَيسرة عبدَ القيس ، وهم لُكَيز بن أفصَى بن دُعْمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، وكان زياد بنُ عمرو العَتَكى فى القَلْب ، فبلَغ ذلك الأحنف بن قيس ، فقال :هذا غلامٌ حدَث ، شأنُه الشُّهْرة ، وليس يبالِى أين قذَف بنفسه ! فندب أصحابه ، فجاءه حارثة بن بَدْر الغُدانىّ ، وقد اجتمعتْ بنو تميم ، فلما أتَى [3] قال : قوموا إلى سيِّدكم ، ثم أجلسَه فناظَره ، فجعلوا سعْدا والرّباب فى القَلْب ورئيسهم عَبْس بنُ طَلْق الطّعان المعروف بأخى كَهْمَس ، وهو أحد بنى صُرَيم بن يَرْبوع ، فكانوا بحِذاء زِياد بن عمرو ومن معه من الأزْد ، وجعل حارثة بن بدر الغُدانىّ فى بنى حنظلة بحذاء بكر بنِ وائل،وجعل عمرو بن تميم بحذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيكفيكَ عبسٌ أخو كَهْمَسٍ ... مُقارعةَ الأزْدِ فى المِرْبَدِ [4]
ويَكفيك عَمرٌو على رِسْلِها ... لُكَيزَ بن أفصَى وما عدَّدوا

---

(١) عدنى : منسوب إلى عدن أبين ، وهى جزيرة باليمن ، تنسب إليها الثياب العدنية .
(٢) الكامل ١ : ١٣٩ .
(٣) الكامل : « طلع » .
(٤) فى هذا البيت إقواء .

ونكفيك بكراً إذا أقبلتْ بضربٍ يَشيبُ له الأمرَدْ

ولُكَيزُ بن أفصى تمّ عبدَ القيس. قال : فلما تواقفوا بعثَ إليهم الأحنف: يامعشرَ الأزد من اليَمَن وربيعة من أهل البَصرة ، أنتم والله أحبُّ إلينا من تَميم الكُوفة، وأنتم جيرانُنا فى الدار ، ويدُنا على العدوّ ، وأنتم بدأتمونا بالأمس ، ووَطِئتم حَريمَنا ، وحرّقتم علينا ، فدَفَعنا عن أنفسنا ، ولا حاجة لنا فى الشرّ ماطلَبْنا فى الخير مَسلَكا ، فتيمّموا بنا طريقةً مستقيمة(١) . فَوجّه إليه زِيادُ بنُ عمرو ، تخيَّرْ خَلّةً من ثلاث : إن شئتَ فانزل أنت وقومُك على حكمنا ،وإن شئتَ نخلِّ لنا عن البَصرة ، وارحل أنتَ وقومُك إلى حيث شئتم ، وإلّا فَدُوا قَتلانا ، واهدُروا دِماءكم ، وليودَ مسعود دِيةَ المُشعِرة .

ـ قال أبو العباس : وتأويل قوله : «دِية المشعرة» ، يريد أمرَ المُلوك فى الجاهليّة ،وكان الرجل إذا قُتِل وهو من أهل بيت المملكة وُدِىَ عَشْر دِيات ـ فبعث إليه الأحنفُ : سنختار . فانصرفوا فى يومِكم ، فهزّ القومُ راياتِهم وانصرفوا ، فلما كان الغدُ بعث الأحنف إليهم : إنكم خيّرتمونا خِلالا ليس لنا فيها خيار ، أمّا النزول على حكمكم فكيف يكون والكَلْم(٢) يَقطُر ، وأمّا تركُ دِيارنا فهو أخو القتْل . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَافَعَلُوه إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٣) ، ولكنّ الثالثة إنّما هى حَمْلٌ على المال ، فنحن نُبطِل دماءنا ، ونَدِى قتلاكم ، وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين ، وقد أذهبَ اللهُ عزّ وجلّ أمرَ الجاهليّة . فاجتمعَ القومُ على أن يقفوا أمرَ مسعود ، ويُغمِدوا السيف ،وتُودَى سائرُ القَتلى من الأزدِ وربيعة ، فضَمِن ذلك الأحنف ، ودفع إليهم إياسَ بنَ قتادة المجاشعيّ رهينة حتى يؤدى هذا المال ،فرضىَ به القومُ ، ففخر بذلك الفرزدق ، فقال لجرير :

---

(١) الكامل : « قاصدة » .

(٢) الكلم : الجرح .

(٣) سورة النساء ٦٦ .

ومنّا الذى أعطى يديه رَهينة ... لغارَىْ معدٍّ يوم ضَرب الجماجمِ (١)

عشيّة سَــــالَ المِرْبدانِ كلاهما ... عجاجة موتٍ بالسّيوف الصّوارم

هنالك لو تبغى كليباً وجدتَهــا ... أذلَّ من القِردان تحتَ المناسِمِ

ويقال : إنّ تميا فى ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزّطّ والسبابجة وغيرهم كانوا زُهاء سبعين ألفا ، وفى ذلك يقول جرير :

سائلْ ذَوِى يمنٍ ورَهطَ محرِّقٍ ... والأزْدَ إذ نَدبوا لنا مسعودا (٢)

فأتاهمُ سبعون ألف مـــدجَّجٍ ... متَسربلين يَلامِقًا وحديدا (٣)

قال الأحنفُ بنُ قيس : فــكثرت علىّ الديات فلم أجدْها فى حاضرة تميم ، فخرجت نحو يَبْرِين إلى بادية تميم ، فسألتُ عن المقصود هنــاك ، فأرشِدْتُ إلى قبّة ، فإذا شيخٌ جالس بفنائها مؤتزر بشملة ، مُحتَبٍ بحبل ، فسلّمتُ عليــه ، وانتسبتُ له ، فقال لى : مافعل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؟ قلتُ : توفّىَ . قال : فما فعل عمر بن الخطّاب الذّى كان يَحفظ العرب ويَحوطها ؟ قلت : تُوفّىَ . قال : فأىّ خير فى حاضرتكم بعدهما ؟ قال : فذكرتُ له الدّيات التى لزمتنا للأزد وربيعة ، قال : فقال لى : أقم ، فإذا راعٍ قد أراح عليه ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح علينا آخر مثلها ، فقال : خُذها ، فقلتُ : لاأحتاج إليها . قال : فانصرفتُ بالألف عنه ، ووالله ماأدْرى من هو إلى الساعة (٤) !

---

(١) ديوانه ٨٦١ . والغاران، مثنى غار، وهو الجيش . (٢) ديوانه ١٧٢ ؛ وهو مسعود بن عمرو العتكى .
(٣) اليلامق : جمع يلمق ؛ وهو القباء ، فارسى معرب . وفى الكامل : «يلامما» ، واليلمع : هو الدرع .
(٤) الكامل ١ : ١٤٠ — ١٤٣ .

(١٩)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ ، وَلاَ أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ ، فَالْبَسْ لَهُمْ جلباباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ ، وداوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ ، والإبعاد والإقصاء . إنْ شاء اللهُ .

***

الشرحُ :

الدَّهاقين : الزعماء أربابُ الأملاك بالسَّواد ، واحدُهم دِهقان بكسر الدال ، ولفظُه معرَّب .

وداوِلْ بينهم ، أى مرَّة هكذا ومرَّة هكذا ، أمره أن يَسلك معهم مَنهجا متوسّطا ، لا يُدنِيهم كلَّ الدنوّ لأنهم مُشرِكون ، ولا يقصيهم كلَّ الإقصاء لأنهم مُعاهِدون ، فوجب أن يعاملهم معاملةً آخذةً من كلّ واحدٍ من القسمين بنصيب .

(٢٠)

الأصْلُ

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبِيه وهو خليفةُ عاملِهِ عبد الله بن عباس على البَصرة ـ وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليهِ السلام يومئذ عليها وعَلَى كُوَرِ الأهواز وفارس وكِرْمَان وغيرها :

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً ، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً ، لأَشُدَّنَّ عليك شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ ؛ ضَئِيلَ الأَمْرِ . والسَّلاَمُ .

***

الشَّرْحُ :

سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استلحاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قوله عليه السلام : « لأشُدَّنَّ عليك شدّة » ، مثلُ قوله : «لأحملنّ عليك حَملةً» ، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال.

ثم وصف تلك الشدّة فقال : « إنها تتركك قليل الوَفْر » ، أي أُفقرك بأخذ ما احتجتَ من بيت مال المسلمين .

وثقيل الظّهر ، أي مسكين لاتقدِر على مَئونة عيالك .

وضئيل الأمر ، أي حقير ، لأنك إنما كنت نبيها بين الناس بالغِنَى والثّروة ، فإذا افتقرتَ صغرتَ عندهم ، واقتحمتْك أعينُهم .

(٢١)

الأصلُ

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضا :

فَدَعِ ٱلْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً ، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَداً ، وَأَمْسِكْ مِنَ ٱلْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ ، أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ أَجْرَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ أَنْ تَمْنَعَهُ ٱلضَّعِيفَ وَالأَرْمَلَةَ ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَاقَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

المتمرّغ فى النّعيم : المتقلّب فيه . ونهاه عن الإسراف وهو التبذير فى الإنفاق ، وأمرَه أن يُمسك من المال ما تَدْعو إليه الضرورة ، وأن يقدّم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجة ضرورية فى الصدقة فيدّخره ليوم حاجته ، وهو يوم البَعْث والنشور .

قلتُ : قبّح الله زيادا ! فإنه كافأ إنعام علىّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لاحاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف فى لعنه ، وتهجين أفعاله ، والمبالغة فى ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه ، ولم يكن يفعلُ ذلك لطلب رضا معاوية ، كلاّ ، بل يفعله بطبعه ، ويعاديه بباطنه وظاهره ، وأبى اللهُ إلاّ أن يرجع إلى أمّه ، ويصحّح نسبه ، وكلُّ إناء يَنْضَح بما فيه . ثم جاء ابنه بعد فختم تلك الأعمال السيئة بما ختم ، وإلى الله ترجع الأمور !

(٢٢)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس رحمه الله تعالى ، وكان ابنُ عبّاس يقول : ما انتفعتُ بكلامٍ بعدَ كلام رسولِ الله صلى الله عليهِ وآله كانتفاعي بهذا الكلام :

أمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ المَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَالَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مَالَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَه ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَافَاتَكَ مِنْهَا ، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً ، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ المَوْتِ .

***

الشرح :

يقول : إنّ كلّ شيء يصيب الإنسانَ في الدّنيا من نَفْع وضَرّ فبقضاءمن الله وقدرِه تعالى ؛ لكنّ الناسَ لاينظرون حقّ النظر فى ذلك ، فيُسَرّ الواحدُ منهم بما يصيبه من النّفع ، ويُساء بفوْت ما يَفُوته منه ، غيرَ عالم بأنّ ذلك النفعَ الّذى أصابه ، كان لابدّ أن يصيبه ، وأنّ ما فاته منه كان لابدّ أن يفوته ، ولو عرَف ذلك حقّ المعرفة لم يفرَح ولم يحزَن .

ولقائلٍ أن يقول : هَبْ أن الأمور كلّها بقضاءوقَدَر ، فلم لا ينبغى للإنسان أن يَفرَح بالنفع وإن وَقع بالقَدَر ، ويُساء بفوْته أو بالضّرر وإن وَقَعا بقَدَر ! أليس العُرْيان يُساء

بقدوم الشتاء وإن كان لا بدّ من قدومه ، والمحموم غبًا[١] يساء بتجدد نوبة الحمّى، وإن كان لا بدّ من تجدُّدها ! فليس سبب الاختيار فى الأفضال مما يوجب أن لا يسرّ الإنسان ولا يساء بشىء منها .

والجواب ينبغى أن يُحمَل هذا الكلامُ على أنّ الإنسان ينبغى أن لا يعتقد فى الرّزق أنه أتاه بسَعْيه وحرَكته فيَفرَح مُعْجَبا بنفسه ، معتقدا أن ذلك الرزقَ ثمرةُ حركته واجتهاده ، وكذلك ينبغى ألّا يساء بفوات مايفوته من المنافع لائمًا نفسَه فى ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفسادِ الحيلة والاجتهاد ، لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أثرَ للحركة فيه ، وإن وقع عندها ؛ وعلى هذا التأويل ينبغى أن يُحمل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[٢] .

من النَّظم الجيِّد الرّوحانىّ فى صفة الدنيا والتحذير منها ، والوَصاة بترك الاغترار بها ، والعمل لما بعدها ، ما أورَدَه أبو حيّان فى كتاب " الإشارات الإلهيّة " ، ولم يسمّ قائله :

دارُ الفجائعِ والهمومِ ودا ... ر البثّ والأحزانِ والبَلْوَى
مرٌّ المذاقة غِبّ ما احتلبتْ ... منها يدَاك وَبِيَّةُ المرعَى
بينا الفتَى منها بمنزلةٍ ... إذ صار تحت تُرابها مُلْقَى
تقفو مساوِيها محاسِنُها ... لا شىء بين النَّعْى والبُشرَى
ولقَلّ يومٌ ذرّ شارِقُه ... إلا سمعتَ بهالكٍ يُنعَى
لا تَعْتِبنّ على الزّمان لما ... يأتى به فلقلّما يُرْضَى

(١) الغب من الحمى : ما تأخذ يوما وتدع يوما .
(٢) سورة الحديد ٢٢ ، ٢٣ .

للمرء رزقٌ لا يفوت ولو   جَهَد الخلائقُ دونَ أن يفنَى
ياعامرَ الدّنيا المعدَّ لها   ماذا عَمِلتَ لدارك الأخرى !
وممهِّدَ الفُرُش الوطيئــة لا   تُغفِلْ فِرَاش الرَّقْدة الكبرى
لو قد دُعِيتَ لقد أجبتَ لمــا   تُدْعى له فانظر متَى تُدعى !
أتراكَ تُحصِي كم رأيتَ مِن الـ   أحـــياء ثمّ رأيتَهم مَوتَى
مَنْ أصبحتْ دنياه همّتَـــه   فمتَى ينالُ الغايةَ القُصْوَى !
سبحانَ من لا شيء يَعدِله   كم من بصير قلبُه أعمى !
والموتُ لا يخفَى على أحـــدٍ   ممّن أرَى وكأنه يخـــفَى
والليلُ يَذهبُ والنهارُ بأحـــبابى ، وليس عليهما عدوَى

(٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصيّة لمّا ضَرَبه ابن مُلجَم لعنه الله :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ !

أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي ، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ (١) .

وَاللهِ مَافَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ؛ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ (٢) .

***

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أَقُولُ وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هٰذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطَبِ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةً أَوْجَبَتْ تَكْرِيرَهُ .

***

الشرح :

فإن قلت : لقائل أن يقول: إذا أوصاهم بالتوحيد واتباع سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله

---

(١) سورة النور ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٨ .

فلم يبقَ شيء بعد ذلك يقول فيه : أقيموا هذين العَمُودين وخَلَاكم ذمّ ؛ لأنّ سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله فعلُ كلّ واجب . وتجنُّب كلّ قبيح ؛ فخلاهم ذَمّ فماذا يقال ؟

والجواب أنّ كثيرا من الصّحابة كلّفوا أنفسهم أموراً من النّوافل شاقّةً جدّاً ، فمنهم من كان يقوم الليل كلّه ، ومنهم من كان يصوم الدهر كلّه ، ومنهم المرابط في الثّغور ، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به ، ومنهم تاركُ النّكاح ، ومنهم تاركُ المطاعم والملابس ؛ وكانوا يتفاخرون بذلك ، ويتنافسون فيه ، فأراد عليه السلام أن يبيّن لأهله وشيعته وقتَ الوصيّة أنّ المهمّ الأعظم هو التّوحيد ، والقيام بما يُعلم من دين محمّد صلّى الله عليه وآله أنه واجب ، ولا عليكم بالإخلال بما عدا ذلك ، فليت من المائة واحداً نَهَض بذلك ، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التكاليف عنهم ، فإن الله تعالى يقول: ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1]. وقال صلّى الله عليه وآله: « بُعثتُ بالحنيفيّة السّهلة السّمحة » .

قوله : «وخَلَاكم ذمّ»: لفظة تقال على سبيل المثل أي قد أعذرتم ، وسَقَط عنكم الذمّ .

ثم قسم أيامه الثلاثة أقساما فقال : أنا بالأمس صاحبُكم أي كنت أرجى وأخاف ، وأنا اليوم عِبرةٌ لكم ، أي عِظة تعتبرون بها . وأنا غدا مفارقكم ، أكون في دار أخرى غير داركم .

ثم ذكر أنه إن بقي ولم يمتْ من هذه الضربة فهو وليّ دمِه ، إن شاء عفا ، وإنْ شاء اقتصّ ، وإن لم يَبْق فالفناء الموعد الّذى لابدّ منه .

ثم عاد فقال : وإن أعْفُ ، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلّمين . والمعنى منه مفهوم ، وهو إمّا أن أسلم من هذه الضربة أولا أسلم ، فإن سلمت منها فأنا وليّ دَمي ؛ إن شئتُ عفوتُ فلم أقتص ، وإن شئتُ اقتصصتُ ، ولا يعني بالقصاص هاهنا القتل ، بل ضربةً بضربة ، فإن سَرَتْ إلى النفس كانت السراية مُهدَرة كقَطع اليد .

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

ثم أَوْمَأَ إلى أنه إن سَلِمَ عفا بقوله : إن العفو لى إن عفوتُ قُرْبة .

ثم عُدْنا إلى القسم الثانى من القسمين الأَوَّلين ، وهو أنه عليه السلام لا يَسلَمَ من هذه ؛ فولاية الدم إلى الورثة ، إن شاءوا اقتَصُّوا وإن شاءوا عَفوا .

ثم أومأ إلى أنَّ العفو منهم أحسن ، بقوله : « وهو لكم حسنة » ، بل أَمرَهم أمراً صريحاً بالعفو ، فقال : فاعفوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ . وهذا لفظ الكتاب العزيز ، وينبغى أن يكون أمْرُه بالعفو فى هذا الكلام محمولاً على النَّدب .

ثم أقسَم عليه السلام أنه ما فَجأه من الموت أمرٌ أنكَرَه ولا كَرِهه ، فجأنى الشىء : أتانى بغتةً .

ثم قال : « ما كنتُ إلا كقارِب وَرَد » ، والقارب : الّذى يسير إلى الماء وقد بقى بينه وبينه ليلة واحدة ، والاسم : القَرَب ، فهم قارِبون ، ولا يقال « مقرِبون » ، وهو حرف شاذٌّ .

(٣٤)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل فى أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفين :

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عبدُ الله عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِى مَالِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ .

الشرح :

قد عابت العثمانية وقالت : إنّ أبا بكر مات ولم يخلِّف دينارا ولا درهما، وإنّ عليًّا عليه السلامُ مات وخلّف عقارا كثيرا ـ يعنون نخلا ـ قيل لهم : قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنّ عليًّا عليه السلامُ استخرَج عيونا بكدِّ يده بالمدينة وينبُع وسُوَيْعة ، وأحيا بها مَواتا كثيرا ، ثم أخرجها عن ملكه ، وتصدّق بها على المسلمين ، ولم يمتْ وشيء منها فى ملكه ، ألا ترى إلى ماتتضمّنه كتبُ السِّيَر والأخبار من منازعة زيد بن علىّ وعبدِ الله ابنِ الحسن فى صدَقاتِ علىّ عليه السلام ، ولم يُورِّث علىٌّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيرا إلا عبيدَه وإماءه وسَبْعَمائة درهم من عَطائه ، تركها ليشترىَ بها خادما لأهله قيمتُها ثمانيةٌ وعشرون دينارا ، على حَسَب المائة أربعة دنانير ، وهكذا كانت المعاملة بالدراهم إذ ذاك ، وإنما لم يترُك أبو بكر قليلا ولا كثيرًا لأنه ما عاش ، ولو عاش لترَك ، ألا ترَى أنّ عمر أصدَق أمّ كلثوم أربعين ألفَ درْهم ، ودَفَعها إليها ! وذلك لأنّ هؤلاء طالت أعمارُهم ، فمنهم من درّتْ عليه أخلاف التجارة ، ومنهم من كان يَستعمر الأرض ويزرَعها ، ومنهم من استفضل من رزقه من الفىء[1] .

---

(١) الفىء : الغنيمة .

وفضلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يعمل بيده ، ويحرث الأرض ويستقى الماء ويغرس النخل ، كلّ ذلك يباشره بنفسه الشريفة ، ولم يستبق منه لوقته ولا لعقبه قليلا ولا كثيرا ؛ وإنما كان صدقة ؛ وقد مات رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وله ضِياعٌ كثيرةٌ جليلة جدّا بخيبر وفدك وبنى النضير ، وكان له وادِى نخلة وضِياعٌ أخرى كثيرة بالطائف ، فصارت بعدموته صدقة بالخبر الّذى رواه أبو بكر . فإن كان علىٌّ عليه السلام معيبا بضِياعه ونخله فكذلك رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وهذا كفر وإلحاد ، وإن كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إنّما ترك ذلك صدقةً فرسول الله صلّى الله عليه وآله ما روى عنه الخبر فى ذلك إلا واحد من المسلمين ، وعلىّ عليه السلام كان فى حياته قد أثبت عند جميع المسلمين بالمدينة أنّها صدقة ، فالتّهمة إليه فى هذا الباب أبعد. وروى : « ويعطيني به الأمَنَة » ، وهى الأمن .

* * *

الأصل :

منها :

فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِٱلْمَعْرُوفِ ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِٱلْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ ، قَامَ بِٱلْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ ؛ وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ ٱلَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ .

وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ ٱلْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ ، وَيَشْتَرِطُ عَلَى ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ ٱلْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً .

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي ٱللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا ٱلرِّقُّ وَحَرَّرَهَا ٱلْعِتْقُ .

***

قَالَ السَّيِّدُ ٱلرَّضِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى :

قولهُ عليهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ ٱلْوَصِيَّةِ « وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدِيَّةً » ، ٱلْوَدِيَّةُ : ٱلْفَسِيلَةُ ، وَجَمْعُهَا وُدِيٌّ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً » هُوَ مِنْ أَفْصَحِ ٱلْكَلَامِ ، وَٱلْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَكْثُرُ فِيهَا غِرَاسُ ٱلنَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا ٱلنَّاظِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ ٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي عَرَفَهَا بِهَا ، فَيُشْكِلَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحْسِبَهَا غَيْرَهَا .

***

الشَّرْحُ :

جَعلَ للحَسَنِ ابنه عليه السلامُ ولاية صَدَقات أمواله ، وأذن له أن يأكل منه بالمعروف ، أى لا يُسرِف ، وإنّما يتناول منه مقدارَ الحاجة ، وما جرتْ بمثلِه عادة من يتولّى الصدقات ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾[1].

ثم قال : فإن مات الحسنُ والحسين بعدَه حيّ فالولايةُ للحسين ، والهاء فى «مَصدره» ترجع إلى الأمر ، أى يصرفه فى مَصارفه التى كان الحسن يصرفه فيها . ثم ذكر أنّ لهذين الولدين حصّة من صدقاته أُسوةً بسائر البنين ، وإنما قال ذلك لأنه قد يتوهّم متوهِّم

(١) سورة التوبة ٦٠ .

أنهما لكونهما قد فوّض إليهما النظرُ فى هذه الصدقات ، قد مُنِعا أن يَمسهما فيهابشىء ، وإن الصّدقات إنما يتناولها غيرهما من بنى علىّ عليه السلام ممّن لا ولاية له مع وجودهما ، ثم بيّن لماذَا خصّهما بالولاية ؟ فقال : إنّما فعلتُ ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله ، فتقرّبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلتُ لسِبْطيه هـذه الرياسة ، وفى هذا رَمْز وإزراء بمن صَرَف الأمر عن أهل بيتِ رسولُ الله صلى الله عليه وآله ،مع وجود من يصلُح للأمر ، أى كان الأليق بالمسلمين والأوْلى أن يجعلوا الرِّياسة بعدَه لأهله قُربةً إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وتـكريما لحرمته ،وطاعةً له ،وأنفةًلقَدْره،صلى الله عليه وآله أن تـكونَ وَرَثته سُوقةً ، يليهم الأجانب ، ومن ليس من شَجَـرته وأصلِه . ألَا ترى أنّ هيبة الرّسالة والنّبوة فى صدور الناس أعظمُ إذا كان السلطان والحاكم فى الخلق من بيت النبوّة ؟ وليس يُوجد مثل هذه الهيْبة والجلال فى نفوس الناس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظمُ بعيدَ النسب من صاحب الدعوة عليه السلام !

ثم اشترَط على مَنْ يلى هذه الأموال أن يترُكها على أصولها ، ويُنفِق من ثمرتها ،أى لايقطع النخل والثمر ويبيعه خَشَبا وعيدانا ، فيفضِى الأمرُ إلى خراب الضِّياع وعُطْلة العَقار.

قوله : « وألّا يبيع من أولاد نخيل هذه القُرَى » أى من الفُسْلان الصِّغار،سمّاها أولادا ، وفى بعض النُّسخ ليست « أولاد » مذكورةً ، والوَدِيّة : الفَسِيلة .

تُشْكِلَ أرضها : تمتلئ بالغِراس حتى لا يَبقَى فيه طريقة واضحة .

قوله : « أطوفُ عليهنّ » ، كنايةً لطيفة عن غِشْيان النساء،أى من السّراريّ؛وكان عليه السلامُ يذهبُ إلى حِلّ بَيْع أمهاتِ الأولاد ، فقال : من كان من إمائى لها ولد منّى ؛ أو هى حاملٌ منّى وقسمتم تركتى فلتـكن أمُّ ذلك الولدِ مبيعةعلى ذلك الوَلَد،ويُحاسَب بالثمن من حصّته من التركة ، فإذا بيعتْ عليه عتقتْ عليه ، لأنّ الوَلَد إذا اشترَى الوالدَ عتق الوالدُ

عنه ، وهذا معنى ، قوله « فتُمسَك على ولدها » ، أى تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر ، وهى منْ حظّه ، أى من نصيبه وقسطه من التركة .

قال : فإن مات ولدها وهى حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعُها لأنها خرجتْ عن الرِّق بانتقالها إلى ولدها ، فلا يجوز بيعُها .

فإن قلت : فلماذا قال : فإن مات ولدُها وهى حيّة ؟ وهلّا قال : فإذا قُوّمتْ عليه عتقتْ ؟

قلت : لأنّ موضع الاشتباه هو موتُ الولد وهى حيّة ، لأنه قد يَظُنُّ ظانٌّ أنه إنما حَرُم بيعُها لمكان وجود ولدها ، فأراد عليه السلام أن يبيِّن أنها قد صارت حُرّة مطلقا سواء كان ولدُها حيّا أو ميّتا .

(٢٥)

الأصْـلُ

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات، وإنّما ذكرنا هنا جُملاً منها ليُعلمَ بها أنّه عليه السلام كان يقيم عِمادَ الحق، ويشرع أمثلةَ العَدْل في صغير الأمور وكبيرِها، ودقيقِها وجليلِها:

أنطَلِقْ عَلَى تَقْوَى ٱللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلَا تَأْخُـذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى ٱلْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ ٱمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَٱلْوَقَارِ؛ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ.

وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ ٱللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ ٱللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ ٱللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ!

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ، أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ، وَلَا عَنِيفٍ بِهِ.

وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا، وَلَا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا.

وَٱصْدَعِ ٱلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ.

ثُمَّ ٱصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ؛ فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ.

فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ ، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ .

وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً ، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ؛ وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ ، رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وَأَمِينًا حَفِيظًا ، غَيْرَ مُعَنِّفٍ وَلَا مُجْحِفٍ ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ .

ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ ، نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا ، وَلَا يَمْصُرْ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا ، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوبًا ، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالْأَعْشَابِ ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّنًا مُنْقِيَاتٍ ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشَّرْحُ :

وقد كرّر عليه السلامُ قوله : « لنقسمها على كتاب الله وسُنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله » في ثلاثة مواضعَ مِن هذا الفصل :

الأوّل قوله : « حتى يوصله إلى وليّهم لِيقسمَه بينهم » .

الثاني قوله عليه السلام : « نصيّره حيث أمرَ الله به » .

الثالث قوله : « لنقسِمها عَلَى كتاب الله » ، والبلاغةُ لاتقتضى ذلك ، ولكنى أظنه أحبَّ أن يَحتاط ، وأن يدفع الظِّنَّةَ (١) عن نفسِه ، فإن الزّمان كان فى عهده قد فَسَد ، وساءت ظُنونُ الناس ، لا سيّما مع ما رآه من عثمان واستئثاره بمالِ الفَيْء .

ونعود إلى الشرح . قوله عليه السلام : « عَلَى تقوَى الله » ، « على » ليست متعلّقة بـ « انطلِقْ » ، بل بمحذوف ، تقديرُه : مُواظِباً .

قوله : « ولا تُرَوعَنّ » أى لا تفزّعَنّ ، والرَّوع الفزَع ، رُعتُه أرُوعه ، ولا تُروّعنّ بتشديد الواو وضَمِّ حَرف المضارَعة ، من روّعت للتكثير .

قولُه عليه السلام : « ولا تجتازَنّ عليه كارها » ، أى لا تَمُرّنّ ببيوت أحدٍ من المسلمين يكره مُرورَك . ورُوِى : « ولا تَختارَنّ عليه » ، أى لا تَقسِم مالَه وتختَرْ أحدَ القِسْمين ، والهاء فى « عليه » ترجع إلى « مُسلِماً » وتفسير هـذا سيأتى فى وصيّته له أن يَصدَع المال ثم يصدعه ، فهذا هو النّهى عن أن يختار عَلَى المسلِم . والرواية الأولى هى المشهورة .

قوله عليه السلام : « فأنْزِلْ بمائهم » ، وذلك لأنّ الغريبَ يُحمَد منه الانقباض ، ويُستَهْجَن فى القادم أن يُخالط بيوت الحىّ الذى قدم عليـــه فقد يكون من النساء من لا تليق رؤيتهُ ، ولا يحسُن سماعُ صَوته ، ومن الأطفال من يَستهجِن أن يرى الغريبَ انبساطَه على أبويه وأهلِه ، وقد يكره القومُ أن يطلع الغريبُ عَلَى مأ كلهم ومشرَبهم وملبَسهم وبواطن أحوالهم ، وقد يكونون فقراء فيكرهون أن يعرِف فقرَهم فيحتقرهم ، أو أغنياء أربابَ ثروة كثيرةٍ فيكرهون أن يَعلم الغريبُ ثروتَهم فيحسُدَهم ، ثم أمره أن يَمضِىَ إليهم غير متسرِّع ولا عَجِل ولا طائشٍ نزِق ، حتى يقوم بينهم فيسلِّم عليهم

---

(١) : الظنة التهمة .

ويحيّيهم تحيةً كاملة ، غير مخدَجة ، أى غير ناقصة ، أخدجَتِ الناقةُ إذا جاءت بولَدها ناقصَ الخلْق ، وإن كانت أيامه تامّة ، وخَدَجتْ : ألقتْ الولدَ قبل تمام أيّامه . ورُوى : « ولا تُخْدج بالتحيّة » ، والباء زائدة .

ثم أمره أن يسألهم : هل فى أموالهم حقٌّ لله تعالى ؟ يعنى الزّكاة ، فإن قالوا : لا ، فلينصرف عنهم ، لأنّ القولَ قول ربِّ المال ، فلعلّه قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدِّق إليه .

قوله : « وأنعَمَ لك » ، أى قال : نعم .

ولا تعسِفْه ، أى لا تطلب منه الصّدقة عَسْفا ، وأصلُه الأخذ عَلَى غير الطريق .

ولا تُرهِقه : لا تكلّفه العسرَ والمشقّة .

ثم أمَرَه أن يَقبِضَ ما يدفع إليه من الذّهب والفضّة ، وهذ يدلّ عَلَى أن المصدّق كان يأخذ العَينَ والوَرِق كما يأخذ الماشية ، وأن النّصاب فى العَين والوَرِق تُدفع زكاتُه إلى الإمام ونوّابه ، وفى هذه المسألة اختلافٌ بين الفقهاء .

قوله : « فإنّ أكثرها له » : كلامٌ لا مَزيدَ عليه فى الفصاحة والرّياسة والدّين ، وذلك لأنّ الصدقة المستحَقّة جزء يسيرٌ من النّصاب ، والشّريك إذا كان له الأكثر حَرُم عليه أن يدخل ويتصرّف إلا بإذنِ شريكهِ ، فكيف إذا كان له الأقلّ .

قوله : « فلا تَدخُلها دخولَ متسلِّط عليه » ، قد علم عليه السلام أن الظلم من طَبْع الوُلاة ، وخصوصا من يتولّى قبضَ الماشية من أربابها عَلَى وجه الصّدقة ، فإنهم يدخلونها دخول متسلّط حاكم قاهر ، ولا يَبقى لرب المال فيها تصرُّف ، فنَهَى عليه السلام عن مِثل ذلك .

قوله : «ولا تنفِّرنّ بهيمةً ، ولا تُفزِّعنّها » ، وذلك أنّهم عَلَى عادة السّوء يُهَجْهجون(١) بالقَطيع حتى تنفِرَ الإبل ، وكذلك بالشاء إظهارا للقوّة والقهر ، وليتمكّن أعوانُهم من اختيار الجيّد ، ورَفْض الردىء .

قوله : « ولا تسوءنّ صاحبَها فيها » أي لا تغمّوه ولا تُحزنوه ، يقال : سؤته فى كذا سَوائيةً ومَسائيةً .

قوله : « واصْدَع المال صدعين وخيِّره » ، أى شقّه نصفين ثم خَيِّره ، فإذا اختار أحد النّصفين فلا تَعرِضنّ لما اختار ، ثم اصدع النصف الّذى مما ارتضاه لنفسه صَدْعين وخيِّره ، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُبقِيَ من المال بمقدار الحقّ الّذى عليه ، فاقبِضه منه ، فإن استَقالك فأَقِلْه ، ثم اخلط المال ، ثم عُدْ لمثل ماصنعتَ حتى يرضى ، وينبغى أن يكون المعيبات الخمس وهى المَهلوسة والمكسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قِسْمته ثم يقسم وإلا فربّما وقعتْ فى سهم المصدِّق إذا كان يعتمد ماأمره به من صدع المال مرّة بعد مرّة .

والعَوْد : المُسِنّ من الإبل ، والهرمة : المسِنّة أيضاً ، والمكسورة : التى أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور ، والمَهلوسة : المريضة قد هَلَسها المرض وأفنَى لحمها ، والهُلاس : السّلّ . والعَوار : بفتح العين : العَيْب ، وقد جاء بالضم .

والمعنِّف : ذو العنف بالضم وهو ضِدّ الرِّفْق . والمجْحِف : الذى يسوق المال سوْقا عنيفا فيجحف به أى يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه ونِقْيِه(٢) .

والمُلغِب : المُتعب ، واللُّغوب : الإعياء .

وحَدرتُ السفينة وغيرها ـ بغير ألف أحدُرها بالضم .

---

(١) يقال : هجهج بالسبع : صاح به ، وبالجمل زجره .
(٢) النقى ، بكسر النون وسكون القاف : المخ .

قوله : « بين ناقة وبين فصيلها » الأفصح حذف بين الثانية ؛ لأنّ الاسمين ظاهران، وإنّما تـكرّر إذا جاءت بعد المضمر ، كقولك : المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرٍو ، وذلك لأنّ المجرور لا يُعطَف عليه إلّا بإعادة حرف الجرّ والاسم المضاف ، وقد جاء : المالُ بين زيدٍ وعمرٍو ، وأنشدوا :

بين السّحاب وبين الرّيح ملحَمَةٌ قعاقِعٌ وظُبًى في الجوّ تخترِط[1]

وأيضاً :

بين النّدِيّ وبين برقة ضـاحكٍ غَيْثٌ الضّرِيكِ وفارسٌ مقدامُ[2]

ومن شعر الحماسة :

وإنّ الذى بيـــني وبين بنى أبي وبين بنى عمّي لمختـلفٌ جدّا[3]

وليس قولُ من يقول : إنه عطف بينَ الثالثـة على الضمير المجرور بأولى من قولِ من يقول : بل عطَفَ بينَ الثالثة على بين الثانية ، لأنّ المعنى يتمّ بكلّ واحد منها .

قوله عليه السلام : « ولا تَمْصُر لبنها » ، المَصر حَلْب ما في الضرع جميعه، نهاه من أن يحلب اللبن كلّه فيبقى الفَصيلُ جائعا ؛ ثم نهاه أن يُجهِدَها ركوبا ، أى يُتعبها ويُحمّلها مشقّة ؛ ثم أمَرَه أن يعدِل بين الركاب في ذلك ، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينهـا ، ليـكون ذلك أرْوَحَ لهنّ ، ليرفُه على اللاغب، أى ليترُكه وليُعفِه عن الركوب ليستريح. والرفاهِيَة : الدّعة والراحة .

والنَّقِب : ذو النَّقب ، وهو رقّة خُفّ البعير حتى تـكاد الأرضُ تجرحه : أمَرَه أن يستأنى بالبعير ذى النّقبِ ، من الأناة ، وهى المُهلة .

---

(١) الملحمة : الحرب، والقعاقع : حكاية أصوات الترسة فى الحرب. والظبى: جمع ظبة، وهو حد السيف.
(٢) برقة ضاحك : موضع بعينه . (٣) ديوان الحماسة ٣٠ : ١٧٢ ، والبيت للمقنع الـكندى .

والظالع : الذى ظَلَع ، أى غَمز فى مَشْيه .

والغُدُر : جمع غديرِ الماء . وجوادّ الطريق : حيث لا ينبت المرعَى .

والنِّطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى القليل .

والبُدَّن بالتشديد : السِّمان ، واحدها بادن .

ومُنْقِيات : ذواتُ نِقْى ، وهو المُخّ فى العَظْم ، والشحم فى العَين من السِّمَن،وأنْقَت الإبلُ وغيرُها : سَمِنتْ وصار فيها نِقْىٌ ، وناقة مُنْقِيةٌ ، وهذه الناقة لا تُنْقِى .

(٢٦)

الأصلُ :

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة :

آمُرُهُ بِتقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ؛ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لاشاهِدَ غَيْرُهُ ، ولا وَكِيلَ دُونَهُ .

وَآمُرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ ، وَفِعلُهُ وَمَقَالَتُهُ ، فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ ، وَأَخلَصَ العِبادَةَ .

وَآمُرُهُ أَلَّا يَجْبَهَهُمْ ، وَلَا يَعْضَهَهُمْ ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالإمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمُ الإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، والأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ .

وَإِنَّ لَكَ فِي هَـذِهِ الصَّـدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وَحَقًّا مَعْلُوماً ، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْـكَنَةٍ ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ .

وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَبُؤْسَى لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَساكِينُ ، وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ ، وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ !

وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ ، وَرَتَعَ فِي الْخِيانَةِ ،وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْها ، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنيا ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيانَةِ خِيانَةُ الأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ . وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

حيث لا شهيد ولا وكيلَ دونَه ، يعنى يومَ القيامة .

قوله : « ألّا يعمل بشىء من طاعة الله فيما ظهر » ، أى لا يُنافق فيعْمَل الطاعة فى الظاهر ، والمعصية فى الباطن .

ثم ذكر أن الذين يتجنّبون النِّفاق والرِّياء هم المُخلِصون .

وألّا يجْبَهم : لا يواجِهُم بما يَكرهونه ، وأصل الجَبْهِ لقاء الجَبْهة أو ضَرْبُها ، فلمّا كان المواجِه غيرَه بالكلام القبيح كالضارب جَبهتَه به سُمّى بذلك جَبْها .

قوله : « ولا يعضِهم » : أى لا يرْميهم بالبُهتان والكَذِب ، وهى العَضِيهة ، وعَضِهتُ فلانا عَضْها ، وقد عَضِهتَ يافلان ، أى جئتَ بالبهتان .

قوله : « ولا يرغب عنهم تفضّلا » ، يقول : لا يحقِرهم ادّعاء لفضله عليهم ، وتميزه عنهم بالولاية والإمرة ؛ يقال فلان يرغَب عن القوم ، أى يأنف من الانتماء إليهم ، أومن المخالطة لهم .

وكان عمرُ بن عبد العزيز يدخُل إليه سالم مولى بنى مخزوم وعمرُ فى صدر بيته فيتنحّى عن الصَّدْر ، وكان سالم رجلا صالحا ، وكان عمر أراد شراءه وعتقَه ، فأعتقه مواليه ؛ فكان يسمّيه : أخى فى الله ؛ فقيل له : أتتنحّى لسالم ! فقال : إذا دخل عليك من لا ترَى لك عليه فضلا فلا تأخذ عليه شرفَ المجلس . وهمَّ السراج ليلة بأن يخمُد ، فوثَب إليه رجاء بن حَيْوة ليُصلِحه ، فأقسم عليه عمرُ بنُ عبد العزيز ، فجلس ، ثم قام عمر فأصلَحه ، فقال له رجاء : أتقوم أنت ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : نعم ، قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعتُ وأنا عمرُ بنُ عبد العزيز .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « لا ترفعونى فوقَ قَدرى فتقولوا فىَّ ماقالت النصارى فى ابن مريم ، فإنّ الله عزّ وجلّ اتّخذنى عبدا قبل أن يتّخذنى رسولا ».

ثم قال : إنّ أربابَ الأموال الّذين تجب الصدقةُ عليهم فى أموالهم إخوانُك فى الدّين، وأعوانُك على استخراج الحقوق ، لأنّ الحق إنما يمكن العامل استيفاؤه بمعاونة ربّ المال واعترافه به ، ودفعه إليه ، فإذا كانوا بهذه الصّفة لم يجُزْ لك عضهُم وجَبْهُم وادّعاء الفضل عليهم .

ثم ذكر أنّ لهذا العامل نصيبا مفروضا من الصدقة ، وذلك بنصّ الكتاب العزيز؛ فكما نوفّيك نحن حقّكَ يجب عليك أن توفّىَ شركاءك حقوقَهم ، وهم الفقراء والمساكين والغارمون وسائرُ الأصناف المذكورة فى القرآن ، وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام قدفوّضه فى صرف الصّدَقات إلى الأصناف المعلومة ، ولم يأمره بأن يحمل ما اجتمع إليه ليوزّعه هو عليه السلام على مستحقّيه كما فى الوصيّة الأولى،ويجوز للإمام أن يتولّى ذلك بنفسه ،وأن يَكِلَه إلى من يثق به من عمّاله .

وانتصب « أهلَ مَسكنة » لأنّه صفة « شركاء » ، وفى التّحقيق أنّ «شركاء» صفةٌ أيضًا موصوفُها محذوف ، فيكون صفةً بعد صفة .

وقال الراونديّ : انتصب « أهلَ مسكنة » لأنه بَدَلٌ من « شركاء » ، وهذا غلط، لأنّه لا يُعطى معناه ليكون بدلًا منه .

وقال أيضا : بؤسى ، أى عذابا وشدّة ، فظنّه منوّنا وليس كذلك ، بل هو بُؤْسَى على وزن « فُعلَى » كفُضْلَى ونُعمَى ، وهى لفظة مؤنّثة ؛ يقال : بؤسى لفلان ، قال الشاعر :

أرى الحلم بؤسى للفتى فى حياته ولا عيش إلّا ما حَبَاكَ به الجهلُ

والسائلون هاهنا هم الرّقاب المذكورون فى الآية ، وهم المكاتَبون يتعذّر عليهم أداء مالِ الكتابة ، فيسألون الناسَ ليتخلّصوا من ربقة الرّق . وقيل : هم الأسارَى يطلبون فكاكَ أنفسهم ، وقيل : بل المراد بالرّقاب فى الآية الرّقيق ، يسأل أن يبتاعه الأغنياء فيُعتِقوه . والمدفوعون هاهنا هم الذين عناهم اللهُ تعالى فى الآية بقوله : ﴿وفى سبيل الله﴾[1] ، وهم فقراء الغُزاة ، سمّاهم مدفوعين لفقرِهم . والمدفوع والمدفّع : الفقير ، لأن كل أحد يكرَهه ويدَفعه عن نفسه . وقيل : هم الحجيج المنقطَع بهم ، سمّاهم مدفوعين لأنهم دُفِعوا عن إتمام حجّهم ، أو دُفِعوا عن العَوْد إلى أهلهم.

فإن قلتَ : لِمَ حملتَ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على مافسّرته به ؟

قلت : لأنّه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة فى الآية ، فترك ذكر المؤلّفة قلوبهم لأن سهمهم سقَط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كان يُدفَع إليهم حينَ الإسلامُ ضعيف ، وقد أعزّه الله سبحانه ، فاستغنَى عن تأليف قلوب المشركين ، وبقيتْ سبعةُ أصناف ، وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرّقاب والغارمون وفى سبيل الله وابن السبيل .

فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام فى قوله : « وإنّ لكَ فى هذه الصدقة نصيبا مفروضا » ، فبقيتْ ستّة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن فى أربعة أصناف منها ، وهى : الفقراء ، والمساكين ، والغارم ، وابنُ السبيل ، وأبدل لفظتين وهما الرّقاب وفى سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون .

فإن قلتَ : مايقوله الفقهاء فى الصّدقات ؟ هل تُصرَف إلى الأصناف كلّها أم يجوز صَرفها إلى واحد منها ؟

---

(١) سورة التوبة ٦٠ .

قلت : أما أبو حنيفة فإنه يقول : الآية قصر لجنس الصّدَقات على الأصناف المعدودة فهي مختصّة بها لاتتجاوزُها إلى غيرها ، كأنه تعالى قال : إنما هي لهم لا لغيرهم ، كقولك : إنما الخلافة لقريش ، فيجوز أن تصرَف الصدقة إلى الأصناف كلها ، ويجوز أن تصرَف إلى بعضها ، وهو مذهب ابن عباس وحذيفة وجماعةٍ من الصحابة والتّابعين . وأما الشافعيّ فلا يرى صرفها إلّا إلى الأصناف المعدودة كلها ، وبه قال الزُّهريّ وعكرمة .

فإن قلتَ : فمن الغارم وابنُ السبيل ؟

قلت : الغارمون الّذين ركبتْهم الدّيونُ ولا يَملِكون بعدَها مايَبلُغ النِّصاب. وقيل: هم الذين يَحمِلون الحمَالات فدينُوا فيها وغَرِموا ، وابنُ السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ، فهو ـ وإن كان غنيّا حيث مالُه موجود ـ فقيرٌ حيث هو بعيد .

وقد سبق تفسيرُ الفقير والمسكين فيما تقدّم .

قوله : «فقد أحلّ بنفسه الذّلّ والخِزى» ، أى جعل نفسَه محلاّ لها ، ويُروَى : « فقد أخلّ بنفسه » بالخاء المعجمة ، ولم يذكر الذلّ والخِزى أى جعل نفسَه مخلّا ، ومعناه جعل نفسه فقيرا ، يقال : خلّ الرجل : إذا افتقر ، وأخَلَّ به غيرُه ، وبغيره أى جَعَل ، غيرَه فقيرا ، ورُوِى : « أحلّ » بنفسه بالحاء المهملة ، ولم يذكر « الذلّ والخِزى » . ومعنى «أحلّ بنفسه» أباحَ دمَه ، والرواية الأولى أصحّ ، لأنّه قال بعدها : « وهو فى الآخرة أذلُّ وأخزَى » .

وخيانة الأمّة : مصدرٌ مُضاف إلى المفعول به ، لأنّ الساعيَ إذا خان فقد خان الأمّة كلها ؛ وكذلك غِشّ الأئمة ، مصدرٌ مُضاف إلى المفعول أيضا ؛ لأنّ الساعيَ إذا غَشّ فى الصدقة فقد غَشّ الإمامَ .

* * *

(٢٧)

الأصل:

ومن عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر -رضي الله عنه- حين قلده مصر:

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ؛ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ؛ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ؛ بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً؛ أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا!

وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ. الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ.

فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ.

وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ؛ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلهِ.

وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.

***

الشرح :

آسِ بينهم : اجعلهم أسوة ، لا تفضّل بعضهم على بعض فى اللّحظة والنظرة ، ونبّه بذلك على وجوب أن يجعلهم أسوة فى جميع ماعدا ذلك ، من العطاء والإنعام والتقريب، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ (١) .

قوله : « حتى لا يطمع العظماء فى حَيْفك لهم » ، الضمير فى « لهم » راجعٌ إلى الرعيّة لا إلى العظماء ، وقد كان سبق ذكرهم فى أوّل الخطبة ، أى إذا سلكتَ هذا المسلكَ لم يَطمع العظماء فى أن تحيف على الرعيّة وتظلمهم وتدفعَ أموالهم إليهم ، فإنّ وُلاة الجور

---

(١) سورة الإسراء ٢٣ .

هكذا يفعلون ، يأخذون مالهذا فيُعطونَه هذا . ويجوز أن يرجع الضمير إلى العظماء ، أى حتى لا يطمَع العظماء فى جَوْرك فى القَسْم الّذى إنما تفعله لهم ولأجلهم ، فإنّ ولاة الجور يَطمَع العظماء فيهم أن يحيفوا فى القسمة فى الفَيْء ، ويخالفوا ماحدّه اللهُ تعالى فيها ، حفظا لقلوبهم ، واستمالةً لهم ، وهذا التفسير أليَقُ بالخطابة ؛ لأنّ الضمير فى « عليهم» فى الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء ؛ فيجب أن يكون الضمير فى « لهم » فى الفقرة الثانيـــة عائدا إلى العظماء .

قوله : « فإن يعذب فأنتم أظلم » أفعل هاهنا بمعنى الصّفة ، لا بمعنى التفضيل ، وإنما يراد فأنتم الظالمون ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [١] . وكقولهم :الله أكبر .

ثم ذكر حال الزُّهاد فقال : أخذوا من الدنيا بنصيبٍ قوىّ ، وجعلت لهم الآخرة ؛ ويُرْوَى أنّ الفُضَيل بنَ عياض كان هو ورفيق له فى بعض الصّحارى ، فأكلا كسرةً يابسة ، واغترَفا بأيديهما ماء من بعض الغُدْران ، وقام الفُضيلُ لحطّ رجليه فى الماء، فوجد بَرْدَه ،فالتذّ به وبالحال الّتى هو فيها ،فقال لرفيقه : لو علم الملوكُ وأبناءالملوكِ مانحن فيه من العيش واللّذة لحَسَدونا .

ورُوِى : « والمَتْجَر المربح » ، فالرابح فاعلٌ من ربح رِبحا ، يقال : بيعٌ رابح أى يُربَح فيه ، والمُربح : اسم فاعل قد عدِّىَ ماضيه بالهمزة ، كقولك : قام وأقمتُه .

قوله : « جيرانُ الله غداً فى آخرتهم » ؛ ظاهر اللفظ غيرُ مراد ، لأنّ البارىْ تعالى ليس فى مكان وجهةٍ ليكونوا جيرانَه ، ولكن لما كان الجار يُكرِم جاره سمّاهم جيران الله ،لإكرامه إيّاهم ، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت فى السّماء والعرش هو السماء العليا ، كان فى الكلام محذوف مقدّر ، أى جيرانُ عرش الله غداً .

---

(١) سورة الروم ٢٧ .

قوله : « فإنّه يأتى بأمرٍ عظيم ، وخطب جليل ، بخيرٍ لا يكون معه شرٌّ أبدا وشرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً » ، نصّ صريح فى مذهب أصحابنا فى الوعيد ، وأنّ من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج ، لأنّه لو خرج منها لسكان الموتُ قد جاءه بشرٍّ معه خير ، وقد نَفى نفياً عامّا أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير ألبتّة .

قوله : « من عاملها » ، أى من العامل لها .

قوله : « طُرَدَاء الموت » ، جمع طَريد ، أى يطردكم عن أوطانكم ويُخرجكم منها ، لا بدّ من ذلك ، إن أقمتم أخذَكم ، وإن هَرَبتم أدركَكم .

وقال الراونديّ : طُرَداء هاهنا : جمع طريدة وهى ماطردتَ من الصيد أو الوسيقة[1] ، وليس بصحيح ، لأن « فعيلة » بالتأنيث لا تُجمَع على فعلاء . وقال النحويّون : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾[2] جاء على « خليف » لا على « خليفة » ، وأنشدوا لأوس بن حجَر بيتاً ، استعملها جميعاً فيه ، وهو :

إنّ من القوم مَوجوداً خَليفتـه ... وما خَليفُ أبى لَيلَى بموجودِ[3]

قوله : « ألزَم لكم من ظِلّكم » ، لأنّ الظلّ لا تصحّ مفارَقته لذى الظلّ مادام فى الشمس ، وهذا من الأمثال المشهورة .

قولُه : « معقودٌ بنواصيكم » ، أى ملازِمٌ لكم ، كالشىء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه .

وقال الراونديّ : أى الموت غالبٌ عليكم ، قال تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾[4] ، فإنّ الإنسان إذا أُخذ بناصيته لا يُمكنه الخلاص ، وليس بصحيح ، لأنّه لم يقل : « أخذ بنواصيكم » .

قوله : « والدنيا تُطوَى مِن خلفِكم » من كلام بعض الحكماء : الموتُ والناس كسطورٍ

(١) الوسيقة : الجماعة من الإبل ، إذا سوقت طردت معاً .

(٢) سورة النمل ٦٢ .

(٣) ديوانه ٢٥ ، وروايته : « وما خليف أبى وهب » .

(٤) سورة الرحمن ٤١ .

فى صحيفة يقرؤها قارئٌ ويطوى مايقرأ ، فكلّما ظهر سطرٌ خفِيَ سطر .

ثم أمره عليه السلام بأن يَجمَع بين حُسن الظّن بالله وبين الخوف منه ، وهذا مَقامٌ جليل لا يصل إليه إلّا كلُّ ضامرٍ مهزول ، وقد تقدّم كلامُنا فيه . وقال علىّ بنُ الحسين عليه السلام : لو أنزل اللهُ عزّ وجلّ كتابا أنّه معذّب رجلا واحدا لرجوتُ أن أكونَه ، وأنّه راحمٌ رجلا واحدا لرجوتُ أن أكونَه ، أو أنّه معذِّبى لامحالة ماأزددتُ إلاّ اجتهادا لئلّا أرجع إلى نفسى بلائمة .

ثم قال : « ولّيتُك أعظمَ أجنادى » ، يقال للأقاليم والأطراف : أجناد ، تقول : وَلِىَ جُندَ الشام ، ووَلِىَ جند الأُرْدُنّ ، وولى جندَ مِصرَ .

قوله : « فأنت محقوق » ، كقولك حَقيق وجَدير وخَليق ، قال الشاعر :

وإنى لمحقونٌ بألّا يَطولَنى نَداهُ إذا طاوَلْته بالقصائدِ

وتُنافِح : تُجالِد ، نافحتُ بالسيف أى خاصمتُ به .

قوله : « ولو لم يكن إلّا ساعة من النهار » ، المراد تأكيد الوَصاة عليه أن يخالِف على نفسه ، وألّا يَتّبع هَواها ، وأن يُخاصِم عن دِينه ، وأن ذلك لازمٌ له ، وواجبٌ عليه ، ويلزم أن يفعله دائما فإن لم يستطع فليَفعلْه ولو ساعة من النهار ، وينبغى أن يكون هذا التقييد مصروفا إلى المنافحة عن الدِّين ، لأن الخصامَ فى الدّين قد يَمنعُه عنه مانع ، فأمّا أمرُه إيّاه أن يخالفَ على نفسه فلا يجوز صرفُ التقييد إليه ، لأنّه يُشعِر بأنه مفسوحٌ له أن يتّبِع هوَى نفسِه فى بعض الحالات ، وذلك غيرُ جائز ، بخلاف المخاصمة والنِّضال عن المعتقَد .

قال : « ولا تُسخِط اللهَ برضاَ أحد من خلقه ، فإنّ فى الله خَلَفاً من غيره ، وليس من الله خَلَفٌ فى غيره » ، أخذه الحَسَنُ البصرىُّ فقال لعمر بن هُبَيرة

أميرِ العراق : إنّ الله مانِعُك من يزيدَ ، ولم يَمنعْك يزيدُ من الله ـ يعنى يزيدَ بن عبد الملك .

ثم أمَرَه بأن يصلّى الصلاةَ لوقتها ؛ أى فى وقتها ، ونهاه أن يحمِلَه الفراغُ من الشّغل على أن يُعجِّلها قبل وقتها ، فإنها تكون غيرَ مقبولة ، أو أن يَحمِله الشّغل على تأخيرها عن وقتها فيأثم .

ومن كلام هشام بنِ عقبةَ أخى ذى الرُّمة ـ وكان من عقلاء الرّجال ـ قال المبرّد فى الكامل : حدّثنى العبّاس بن الفَرَج الرِّياشىُّ بإسناده، قال هشام لرجل أراد سفرا : اعلم أنّ لكل رُفْقة كَلْبا يَشرَكهم فى فضل الزّاد ، ويَهِرّ دونَهم ، فإن قدرتَ ألّا تكون كلبَ الرُّفقة فافعل ، وإياك وتأخيرَ الصلاة عن وقتها ، فإنك مُصَلّيها لامحالةَ ، فصَلِّها وهى تُقبَل منك (٢) .

قولُه : « واعلم أنّ كل شىء من عملك تَبعٌ لصلاتك » ، فيه شَبَهٌ من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الصلاةُ عِماد الإيمان ، ومن تركَها فقد هَدَم الإيمان ». وقال صلى الله عليه وآله : « أوّل مايحاسَبُ به العبدُ صَلاته ، فإن سُهِّل عليه كان مابعدَه أسهل ، وإن اشتدّ عليه كان مابعدَه أشدّ » .

ومثل قولِه : « ولا تُسخِط اللهَ برضاَ أحد من خلقِه »، مارواه المبرِّد فى " الكامل " عن عائشة قالت : من أرضَى اللهَ بإسخاط الناس كفاه الله مابينه وبين الناس، ومَن أرضَى الناسَ بإسخاط الله وَكَله الله إلى الناس .

ومثل هذا مارواه المبرّد أيضا قال : لما وُلِّى الحسنُ بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هَرْمة : إنّى لستُ كمن باعَ لك دينَه رجاء مدحِك ، أو خوفَ ذَمِّك، فقدرزقنى (٣)

---

(١) الكامل : « بإسناد له » .

(٢) الكامل ١ : ٢٦٢ .

(٣) الكامل : قد أفادنى الله بولادة نبيه الممادح » .

الله عزّ وجلّ بولادة نبيّه صلى الله عليه وآله المادِح ، وجنّبنى المَقابح ، وإنّ من حَقّه علىّ ألّا أُغضِىَ على تقصير فى حقّ الله . وأنا أقسم بالله ، لئن أتيتَ بك سكرانَ لأضربنّك حدًّا لِلخَمْر ، وحَدًّا للسُّكْر ، ولأزيدنّ لموضع حُرْمتك بى ، فليكن تَركُك لها لِله عزّ وجلّ تُعَن(١) عليه ، ولا تدعها للنّاس فتوكَل إليهم ، فقال ابن هَرْمة(٢) :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدّبنِي بآدابِ الكرامِ
وقال لىَ اصطبرْ عنها ودَعْها ... لخوفِ اللهِ لا خوفِ الأنامِ
وكيف تَصبُّرِى عنها وحُبِّى ... لها حُبٌّ تمكّن فى عِظامِى !
أرَى طِيبَ الحلال علىّ خُبْثا ... وطِيبَ النّفس فى خُبثِ الحرامِ(٣)

---

(١) كذا فى ا والكامل ، وفى ب : « تعز » .
(٢) الكامل : « فنهض ابن هرمة وهو يقول » .
(٣) الكامل ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الأصلُ :

ومن هذا العهد :

فَإِنَّهُ لَا سَوَاءٌ ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى ، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ ؛ وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً ؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ ، عَالِمِ اللِّسَانِ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ .

* * *

الشـرح :

الإشارة بإمام الهُدَى إليه نفسِه ، وبإمام الرّدى إلى معاويةَ ، وسماه إماما ، كما سَمّى اللهُ تعالى أهلَ الضّلال أئمة ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [1] ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدوّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ليس يعني بذلك أنه كان عدوّا أيام حَرْب النبي صلّى الله عليه وآله لقريش ، بل يريد أنه الآن عدوّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ، لقوله صلى الله عليه وآله له عليه السلام : « وعدوّك عدوّي ، وعدوّي عدوّ الله » . وأوّل الخبر : « وليُّك وَلِيّي ، وولِيّي وَلِيّ الله » ، وتمامه مشهور ، ولأنّ دلائلَ النفاق كانت ظاهرة عليه من فَلَتات لسانه ومن أفعالِه ، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة ، فلتُطلَب من كتبهم ، خصوصا

---

(١) سورة القصص ٤١ .

من كُتُب شيخنا أبي عبد الله ، ومن كتب الشّيخين أبي جعفر الإسكافيّ ، وأبي القاسم البَلْخيّ ، وقد ذكرْنا بعضَ ذلك فيما تقدّم .

ثم قال عليه السلام : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنى لا أخاف على أمّتى مؤمنا ولا مُشركا» أى ولا مشركا يُظهر الشِّرك ، قال : لأن المؤمن يمنعه اللهُ بإيمانه أن يُضِلّ الناسَ . والمُشرك مُظهِر الشّرك ، يَقمعه الله بإظهار شِركه ويَخذُله ، ويَصرِف قلوبَ الناس عن اتّباعه ، لأنّهم يَنفِرون منه لإظهاره كلمةَ الكُفْر ، فلا تطمئنّ قلوبُهم إليه ، ولا تَسكُن نفوسهم إلى مقالته ، ولكنّى أخاف على أمتى المنافقَ الّذى يُسِرُّ الكفر والضلال ، ويُظهِر الإيمانَ والأفعال الصالحة ، ويكون مع ذلك ذا لَسَن وفصاحة ، يقول بلسانه ماتعرفون صوابَه ، ويَفعل سرّا ماتُنكِرونه لو اطلعتم عليه ، وذاك أنّ مَن هذه صِفتهُ تَسكُن نفوسُ الناس إليه ؛ لأن الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلّده الناس ؛ فيضلّهم ويوقعهم فى المفاسد .

***

[كتاب المعتضد بالله]

ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذى كتبه المعتضد بالله أبو العبّاس أحمد بنُ الموفّق أبى أحمد طلحة بن المتوكل على الله فى سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بنُ سليمان ، وأنا أذكُره مختصرا من تاريخ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .

قال أبو جعفر : وفى (1) هذه السنة عَزَم المعتضد على لعن معاوية بن أبى سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس ، ، فخوّفه عبيدُ الله بنُ سليمان اضطراب العامة ،

---

(1) تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٦٤ وما بعدها .

وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إليه . فكان أوّل شيء بدأ به المتضد من ذلك التقدّم[١] إلى العامة بلزوم أعمالهم ، وترك الاجتماع والعصبية[٢] ، [والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا][٣] ، ومنع[٤] القُصّاص عن القعود على الطرُقات ، وأنشأ هذا الكتاب وعملت به نُسَخ قرئتْ بالجانبين من مدينة السلام فى الأرباع والمحالّ والأسواق يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه ، ومنع القصّاص من القعود فى الجانبين ، ومنع أهل الحِلَقِ من القعود فى المسجدين ، ونودى فى المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع وغيره وبمنع القُصّاص وأهل الحلق من القُعود ، ونودى: إنّ الذّمة قد برئتْ ممن اجتمع من الناس فى مناظرةٍ أو جدال ، وتَقدّم إلى الشرّاب الذين يسقون الماء فى الجامعين ألّا يترحّموا على معاوية ، ولا يذكروه [بخير][٣] ، وكانت عادتهم جاريةً بالترحّم عليه ، وتحدث الناس أنّ الكتابَ الذّى قد أمر المعتضدُ بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر ، فلما صلى الناسُ بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب ، فلم يُقرأ : وقيل : إن عبيد الله بن سليمان صرَفه عن قراءته ، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضى ، وأمره أن يُعمل الحيلة فى إبطال ماعزم المعتضد عليه ، فمضى يوسف فكلّم المعتضد فى ذلك ، وقال له : إنى أخاف أن تضطرب العامة ، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحرّكت العامةُ أو نطقتْ وضعتُ السيفَ فيها . فقال : ياأمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيِّين الذين يخرجون فى كل ناحية ، ويميل إليهم خلقٌ كثير ، لقرابتهم من رسول الله صلى عليه وآله ، وما فى هذا الكتاب من إطرائهم — أو كما قال — وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميَل ، وكانوا هم أبسط

---

(١) الطبرى : « الأمر بالتقدم » .

(٢) الطبرى : « القضية » .

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ويمنع » .

ألسنةً ، وأثبت حجةً منهم اليوم . فأمسك المتضد فلم يردّ إليه جوابا ، ولم يأمر بعد ذلك فى الكتاب بشىء . وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصّلاة على رسوله الله صلى الله عليه وآله :

أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةُ العامة من شُبهةٍ قد دخلتهم فى أديانهم ، وفسادٍ قد لحقهم فى معتقدهم ، وعصبيّةٍ قد غلبتْ عليها أهواؤهم ، ونطقت بها ألسنتُهم ، على غير معرفه ولا رويّة ، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة ، وخالفوا السنن المتبعة ، إلى الأهواء المبتدعة ،قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١) ﴾ . خروجا عن الجماعة ،ومسارعةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفرقة ، وتشتيتا للكلمة ، وإظهاراً لموالاة من قطع اللهُ عنه الموالاة ، وبَتَرَ منه العِصْمة ، وأخرجه من المِلّة ، وأوجب عليه اللعنة ، وتعظيما لمن صغر الله حقّه، وأوهن أمرَه ، وأضعف رُكنه ، من بنى أميّة ، الشجرة الملعونة ، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهَلَكة ، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة ، ﴿ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(٢) .

فأعظمَ أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ؛ ورأى(٣) ترك إنكاره حَرَجاً عليه فى الدين ، وفسادا لمن قلده الله أمرَه من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجّة على الشاكّين ، وبسط اليد على المعاندين(٤) ! وأمير المؤمنين يخبركم معاشرَ المسلمين أنّ الله جل ثناؤه لما ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بدينه ، وأمره أن يَصدَع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربه ، وأنذرهم وبشّرهم،

---

(١) سورة القصص ٥٠ .
(٢) سورة البقرة ١٠٥ .
(٣) الطبرى : « ترك » .
(٤) الطبرى : « العاندين » .

ونصح لهم وأرشدهم ، فكان من استجاب له ، وصدّق قوله ، واتّبع أمره نُفَيْرٌ(١) يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتى به من ربه ، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازا له ، وإشفاقا عليه ، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته ، وكافرُهم مجاهدٌ بنُصْرته وحميّته ، يدْفعونَ من نابذه ، ويقهرون من عازّه وعانده ، ويتوثّقون له ممن كانفه وعاضده ، ويبايعون من سمح بنصرته ، ويتجسّسون أخبار أعدائه ، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين ، حتى بلغ المدى ، وحان وقت الاهتدا ، فدخلوا فى دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة ، وأحسن هدى ورغبة ، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا . معدن الحكمة ، وورثة النبوّة ، وموضع الخلافة . أوجب الله لهم الفضيلة ، وألزم العباد لهم الطاعة .

وكان ممن عانده وكذّبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم ، يتلقّونه بالضرر والتثريب(٢) ، ويقصدونه بالأذى والتخويف ، وينابذونه بالعداوة ، وينصبون له المحاربة ويصدّون من قصده ، وينالون بالتعذيب من اتبعه ، وكان أشدّهم فى ذلك عداوة ، وأعظمهم له مخالفة ، أوّلهم فى كلّ حرب ومناصبة ، ورأسهم فى كل إجلاب وفتنة ، لا يرفع على الإسلام راية إلّا كان صاحبها وقائدها ورئيسها ؛ أبا سفيان بن حرب صاحب أُحُد والخندق وغيرهما ، وأشياعه من بنى أمية الملعونين فى كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله فى مواطنَ عدّة ، لسابق علم الله فيهم ، وماضى حُكمِه فى أمرهم ، وكفرهم ونفاقهم . فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً ، ويدافع مكايداً ، ويجلب منابذاً ، حتى قهره السيف ، وعلا أمرُ الله وهم كارهون ، فتعوّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه ، وأسرّ الكفر غير مقلعٍ عنه ، فقبله وقبل ولدَه على علمٍ منه بحاله وحالهم . ثم أنزل الله

---

(١) الطبرى : « نفر » .
(١) التثريب : « العتاب واللوم » .

تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿والشجرةَ الملعونة فى القرآن﴾[١] ، ولا خلاف بين أحد فى أنه تعالى وتبارك أراد بها بنى أميّة .

ومما ورد من ذلك فى السنة ،ورواه ثقات الأمّة ، قول رسول الله صلّى اللهعليه وآله فيه وقد رآه مقبلا على حمار ومعاوية يقوده ويزيديسوقه[٢] : « لعن الله الراكب والقائد والسائق » .

ومنه ماروته الرّواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان : تلقّفوها يابنى عبد شمس تلقُّف الكرة ، فوالله مامن جنة ولا نار ؛ وهذا كُفر صُراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الّذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون .

ومنه مايُرْوَى من وقوفه على ثنيَّة أُحُد من بعدِ ذَهاب بصره وقوله لقائده : هاهنا رمَيْنا محمدا وقتلْنا أصحابه .

ومنها الكلمة التى قالها للعباس قبل الفتح وقد عُرضت عليه الجنود : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال له العباس : ويحك ! إنه ليس بملك ، إنها النبوّة .

ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالا على ظهر الكعبة يؤذّن ويقول : أشهدأن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد .

ومنه الرؤيا التى رآها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فوجَم لها . قالوا : فما رُئِىَ بعدها ضاحكا[٣] ؛ رأى نفراً من بنى أمية يَنْزُون[٤] على منبره نزوة القِرَدَة .

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحكَم بن أبى العاص لحكايته إيّاه فى

---

(١) سورة الإسراء ٦٠ . (٢) الطبرى : « يسوق به » .

(٣) بعدها فى الطبرى: فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾.

(٤) ينزون : يثبون ويعدون .

مشيته ، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخلّج يحكيه ، فقال : « كن كما أنت » ، فبقي على ذلك سائر عمره.

هذا إلى ما كان من مروان ابنه فى افتتاحه أوّل فتنة كانت فى الإسلام ،واحتقابه[1] كلّ حرام سُفِكَ فيها أو أريق بعدها .

ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله ليلة القدر ، خيرٌ من ألف شهر ! قالوا : ملك بنى أمية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا معاوية ليكتب بين يديه ، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « لا أشبع الله بطنه » . فبقي لا يشبع وهو يقول: والله ما أترك الطعام شبعاً ، ولكن إعياء !

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يطلع من هذا الفجّ رجل من أمتى يُحشر على غير ملتى » ؛ فطلع معاوية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه».

ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ معاوية فى تابوت من نار ، فى أسفل دَرْك من جهنّم ، ينادِي : ياحنّان يامنّان . فيقال له : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

ومنها افتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين فى الإسلام مكانا ، وأقدمهم إليه سبقا ، وأحسنهم فيه أثراً وذِكْرا ، علىّ بن أبى طالب ، ينازعه حقّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه ، ويحاول مالم يزل هو وأبوه يحاولانه ، من إطفاء نور الله، وجحود دينه

---

(١) يقال : احتقب فلان الإثم ؛ إذا ارتكبه .

(٢) سورة يونس ٩١ .

﴿ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(١) ؛ ويستهوى أهلَ الجهالة ، ويموِّه لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللّذين قدَّم رسول الله صلّى الله عليه وآله الخبرَ عنهما ، فقال لعمّار بن ياسر : « تقتلُك الفئةُ الباغية » ؛ تدعوهم إلى الجنّة ويدعونك إلى النار ، مؤثرا للعاجلة ، كافراً بالآجلة ؛ خارجا من رِبقة(٢) الإسلام ، مستحلّا للدّم الحرام ؛ حتّى سُفِك في فتنته ، وعلى سبيل غَوايته وضلالته مالا يُحصَى عدَدُه من أخيار المسلمين ، الذابّين عن دين الله والناصرين لحقِّه ، مجاهدا في عداوة الله ، مجتهدا في أن يُعصَى الله فلا يُطاع ، وتُبطَل أحكامُه فلا تقام ، ويُخالَف دينُه . فلا بدّ وأن تعلوَ كلمةُ الضّلال وترتفعَ دعوةُ الباطل ، وكلمةُ الله هي العليا ، ودينه المنصور ، وحكمُه النافذ ، وأمرُه الغالب وكيدُ مَن عاداه وحادَّه المغلوبُ الداحض ؛ حتى احتمَل أوزارَ تلك الحروب وما تبعها ، وتطوَّق تلك الدِّماء وما سُفِك بعدَها ، وسَنَّ سُنَن الفساد التي عليه إثمها وإثمُ مَن عَمِل بها ، وأباحَ المحارمَ لمن ارتكبها ، ومَنع الحقوق أهلها ، وغرّته الآمال ، واستدرجه الإمهال.

وكان ممّا أوجَب الله عليه به اللّعنة قتلُه مَن قُتِل صَبْراً(٣) من خيار الصَّحابة والتابعين ، وأهلِ الفضل والدِّين ، مثل عَمْرو بنِ الحَمِق الخزاعيّ وحُجْر بن عديّ الكِنْديّ ، فيمن قتل من أمثالهم ، على أن تكون له العزّة والملك والغَلَبة ، ثم ادّعاؤه زياد ابن سُمَيّة أخا ، ونسبتُه إيّاه إلى أبيه ، والله تعالى يقول : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ﴾(٤) ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ملعونٌ من ادّعى إلى غير أبيه ، أو انتمَى إلى غير مَواليه » . وقال : « الولد للفراش وللعاهرِ الحجَر » ، فخالَفَ حكمَ الله تعالى ورسولِه جهاراً ، وجَعلَ الولدَ لغير الفِراش والحجَرَ لغير العاهر ، فأحلّ بهذه الدعوة من محارم الله ورسولِه في أمّ حَبيبة أمِّ المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد

(١) سورة التوبة ٣٢ .
(٢) الربقة : الواحدة من العرى التي في الحبل .
(٣) صبرا ، أي حبساً .
(٤) سورة الأحزاب ٥ .

حرّمها الله وأثبت بها من قُرْبَى قد أبعدها الله ، مالم يدخل الدّين خللٌ مثله ، ولم ينَل الإسلامَ تبديلٌ يشبهه .

ومن ذلك إيثارُه لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السِّكِّير الخمِّير صاحب الدِّيكة والفهود والقِرَدة ، وأخذ البَيْعة له على خيار المسلمين بالقَهْر والسَّطْوة والتوعُّد والإخافة ، والتهديد والرَّهْبة ، وهو يعلم سَفَهه ، ويطّلع على رَهَقه وخبْثِه ؛ ويُعاين سَكَراته وفَعَلاتِه ، وفجوره وكفره . فلمّا تمكّن ـ قاتلَه الله ـ فيما تمكَّن منه ، طَلَب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين ، فأوقع بأهل المدينة فى وقعة الحرّة الوَقْعة الّتى لم يكن فى الإسلام أشنعُ منها ولا أفحشُ ، فشَفَى عند نفسِه غليله ؛ وظَنّ أنه قد انتقَم من أولياء الله ، وبلغ الثأر لأعداء الله ؛ فقال مجاهرا بكفره ، ومظهراً لشِرْكه :

ليتَ أشياخى ببَدْرٍ شَهِدوا   جَزَعَ الخزرج من وقع الأَسَلْ[1]

قول[2] من لا يَرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه ، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده .

ثم أغلظُ ماانتهك ، وأعظمُ مااجترم ، سفكُه دمَ الحسين بن علىّ عليه السلام ، مع مَوْقعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومكانه ومنزلته من الدّين والفَضْل والشهادة له ولأخيه بسيادة شبابِ أهلِ الجنّة ؛ اجتراء على الله ، وكفراً بدينه ، وعداوةً لرسوله ، ومجاهرةً لعترته ، واستهانةً لحرمته ، كأنّما يقتلُ منه ومن أهل بيته قوماً من كَفَرة التُّرْك

(١) لعبد الله بن الزبعرى ؛ من كلمته يوم أحد ؛ سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ وبعده فى الطبرى :

قَدْ قَتَلْنَا القَوْمَ مِنْ سَادَاتِكُمْ   وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

فَأَهَلُّوا واستهلّوا فرحاً   ثمّ قالوا يايزيدُ لَا تُشَلْ

لَسْتُ مِنْ خِنْدِفَ إنْ لم أنْتَقِمْ   من بنى أحْمَدَ ماكانَ فَعَلْ

لعبَتْ هَاشِمُ بالملكِ فَلَا   خَبَرٌ جاء وَلَا وَحْىٌ نَزَلْ

(٢) الطبرى : هذا هو المروق من الدين وقول من لا يرجع . . . » .

والدَّيلم ، ولا يخاف من الله نقمة ،ولا يُراقب منه سَطْوة ، فتَبّرَ اللهُ عمرَه ، أخبثَ أصله وفرعَه ، وسلَبَه ماتحتَ يدِه ، وأعدَّ له من عذابه وعقوبتِه ، ما استحقّه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بني مَرْوانَ من تبديل كتاب الله ، وتعطيل أحكام الله ، واتّخاذِ مالِ الله بينهمْ دُوَلا ، وهدْمِ بيت الله ، واستحلالهم حَرَمه ، ونَصْبهم المجانيقَ عليه ، ورَمْيهم بالنّيران إيّاه ، لا يألون له إحراقا وإخرابا ، ولِمَا حَرّم الله منه استباحة وانتها كا ، ولمن لجأ إليه قَتْلا وتنكيلا ، ولمن أمَّنه اللهُ به إخفافةً وتَشريدا ؛حتّى إذا حَقّت عليهم كلمةُالعذاب ، واستَحقّوا من اللهالانتقام ، وملئوا الأرض بالجور والعُدْوان ، وعَمُّوا عباد بلادِ الله بالظُّلْم والاقتسار ، وحلّت عليهم السَّخْطة ، ونزلت بهمْ من الله السَّطوة ، أتاح الله لهم من عِترةِ نبيّه وأهلِ وراثته ، ومن استخلصَه منهم لخلافته ، مِثلَ ماأتاح من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المجاهدين ، لأوائلهم الكافرين ، فسَفَكَ اللهُ به دماءهم ودماء آبائهم مرتدّين ، كما سَفَك بآبائهم مُشركين ، وقطع الله دَابرَ الذّين ظلموا والحمدُ لله ربّ العالمين .

أيّها الناس، إن الله إنما أمَر ليطاع ، ومَثّل ليُتمثّل ، وحَكم ليفعَل، قال اللهسبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾[1]، وقال: ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[2].

فالعنوا أيّها الناس مَن لَعَنه الله ورسوله ، وفارِقوا من لاتنَالون القربةَ من الله إلّا بمفارقته ؛ اللهمّ العنْ أبا سُفيان بن حرب بن أميّة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وولده وولدولده ! اللهمّ العنْ أئمة الكفر، وقادةَ الضّلال، وأعداءَ الدّين ، ومُجاهدِي الرّسول ، ومعطّلي الأحكام ، ومبدّلي الكتاب ، ومنتهكي الدّمِ الحرام ! اللهمّ إنّا نبرأ إليك من مُوالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك،

---

(١) سورة الأحزاب ٦٤ . (٢) سورة البقرة ١٥٩ .

كما قلت : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾(١).

أيّها الناس، اعرفوا الحقّ تعرِفوا أهله ، وتأمّلوا سُبل الضّلالة تعرفوا سالِكَها ، فقفوا عندما وَقّفكم الله عليه ، وانفُذوا كما أمَركم الله به ، وأميرُ المؤمنين يستعصم بالله لكم، ويسأله توفيقكم ، ويرغَب إليه فى هدايتكم . والله حسبُه ، وعليه توكُّله ، ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم(٢).

***

قلت : هكذا ذَكر الطّبرىّ الكتاب ،وعندى أنّه الُخطبة، لأن كلّ مايُخطَب به فهو خُطبة ،وليس بكتاب ، والكتاب ما يُكتب إلى عامل أو أمير ونحوهما، وقد يقرأ الكتابُ على المنبر فيكون كالُخطبة ، ولكن ليس بخطبة ، ولكنّه كتابٌ قرئ على الناس . ولعلّ هذا الكلامَ كان قد أنشىء ليكون كتاباً، ويُكتَب به إلى الآفاق ، ويُؤمَروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد . والذى يؤكّد كونه كتاباً ،وينصر ماقاله الطبرىّ ،أن فى آخره : « كتَب عُبيدُ اللهِ بنُ سليمان فى سنة أربع وثمانين ومائتين»، وهذا لا يكون فى الُخطب ، بل فى الكتب ، ولكنّ الطبرىّ لم يذكر أنّه أمر بأن يكتب إلى الآفاق ولا قال : وقع العزْم على ذلك ، ولم يذكر إلّا وقوع العزْم على أن يقرأ فى الجوامع ببغداد .

---

(١) سورة المجادلة ٢٢ .
(٢) الطبرى حوادث سنة ٢٨٤ بتصرف واختصار .

(٢٨)

الأصـل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا ، وهو من محاسن الكتب :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً ؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاَءِ اللهِ تَعَالَى عِنْدَنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ . وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ ، لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا !

أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ ؛ فَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ .

أَلَا تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ؛ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ : سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ !

أَوَلَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : الطَّيَّارُ فِي ٱلْجَنَّةِ وَذُو ٱلْجَنَاحَيْنِ !

وَلَوْلَا مَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً ، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ .

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا ، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا ، وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا ؛ فِعْلَ الأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ ٱلْمُكَذِّبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ ٱللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ ؛ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ !

فَإِسْلَامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ ٱللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ ﴾(١)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) ، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ .

وَلَمَّا ٱحْتَجَّ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَلَى ٱلأَنْصَارِ يَوْمَ ٱلسَّقِيفَةِ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ .

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ ٱلْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ ٱلْجِنَايَةُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونَ ٱلْعُذْرُ إِلَيْكَ .

---

(١) سورة الأنفال ٧٥ .　　(٢) سورة آل عمران ٦٨ .

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتَ : إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ ؛ وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ ؛ وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَالَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ !

وَهَـذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا ، وَلَـكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَاسَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَـذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ ؛ فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ ، أَمَّنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ ! كَلاَّ وَاللهِ لَقَدْ ﴿ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١) .

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً ؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ *

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ ، فَ

---

(١) سورة الأحزاب : ١٨ .

* لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ *

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

* * *

الشـرح :

[كتاب لمعاوية إلى عليّ]

سألتُ النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبى زيد ؛ فقلتُ : أرى هذا الجوابَ مُنطبقا على كتابِ معاوية الذى بعثه مع أبى مُسلِمٍ الخولانىّ إلى علىّ عليه السلام ؛ فإن كان هذا هو الجواب فالجوابُ الّذى ذكَرَه أرباب السِّيرةِ وأورَدَه نصرُ بنُ مُزاحم فى كتاب صِفّين إذن غيرُ صحيح ، وإن كان ذلك الجواب ، فهذا الجواب إذنْ غيرُ صحيح ولا ثابت ، فقال لى : بل كلاهما ثابت مرْوىّ ، وكلاهما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وألفاظُه ، ثم أمرَنى أن أكتب ماعليه علىّ عليه السلام ، فكتبته ، قال رحمه الله :

كان معاويةُ يتسقّط (٢) عليًا وينعَى عليه ماعساه يَذكُره من حالِ أبى بكر وعمر ، وأنهما غَصَباه حقَّه ، ولا يزَال يكيدُه بالكتاب يكتبُه ، والرّسالة يبعثُها يطلب غِرّته ؛ لينفُثَ بما فى صَدْرِه من حالِ أبى بكر وعمر ، إمّا مكاتبةً أو مُراسَلة ، فيجعل ذلك حجّةً

---

(١) سورة هود ٨٣ .

(٢) يتسقطه : يتنقصه .

عليه عند أهل الشام ، ويضيفه إلى ماقرّره في أنفسهم من ذُنوبه كازعم،فقد كان غَمصه[1] عندم بأنّه قتل عثمانَ ومالأ على قتله ، وأنه قتل طلحةَ والزّبير ،وأَسَرَ عائشة ،وأراق دماء أهلِ البَصْرة . وبقيتْ خَصلةٌ واحدة ، وهو أن يثبت عندم أنه يتبرّأ من أبي بكروعمر، ويَنسُبهما إلى الظُّلم ومخالفةِ الرّسول في أمر الخلافة ، وأنهماوَثَباعليهاغَلَبةً ،وغَصَباه إيّاها؛ فكانت هذه الطامّة الكبرى ليست مقتصرةً عَلَى فساد أهل الشام عليه،بل وأهلِ العراق الّذين م جُندُه وبطانتُه وأنصارُه ؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامةَ الشّيخَين؛ إلّا القليل الشاذّ من خواصّ الشّيعة ، فلما كَتَب ذلك الكتابَ مع أبي مسلم الخَوْلانيّ قصد أن يُغضِب عليّاً ويُحرِجَه ويحُوجَه إذا قرأ ذكر أبي بكر، وأنه أفضل المسلمين ، إلى أن يَخلِط خطه في الجواب بكلمةٍ تقتضي طَعْنا في أبي بكر، فكان الجواب مُجَمْجَما[2] غيرَ بيّن ، ليس فيه تصريح بالتّظليم لهما ، ولا التّصريح ببراءتهما ، وتارةً يترحّم عليهما ، وتارةً يقول : أَخَذا حقّي وقد تركْتُه لهما ، فأشار عَمرو بنُ العاص عَلَى معاوية أن يكتب كتابا ثانيا مناسِبا للكتاب الأوّل ليستفزّا فيه عليّا عليه السلام ويستخفّاه ، ويَحمِله الغضَب منه أن يكتب كلاما يتعلّقان به في تقبيح حالِه وتَهجين مذهبه . وقال له عمرو : إنّ عليّاً عليه السلام رجل نَزِق تيّاه ، وما استطعَمت منه الكلامَ بمثل تقريظ أبي بكر وعمر ، فا كتب . فكتب كتاباً أنفذه إليه مع أبي أُمامة الباهليّ ، وهو من الصحابة ، بعد أن عزم على بِعثته مع أبي الدّرْداء .

ونسخةُ الكتاب : مِن عبدِ الله معاوية بن أبي سُفْيان إلى عليّ بن أبي طالب .

أما بعد ، فإنّ الله تعالى جَدُّه أصطفَى محمدا عليه السلام لرسالته ، واختصّه بوَحْيه وتأديةِ شَريعته ، فأنقذ به من العَماية ، وهَدَى به من الغَواية ، ثم قبضه إليه رشيدا حميدا، قد بَلّغ الشَّرع ، ومَحَقَ الشِّرْك ، وأَخمَدَ نار الإفْك،فأحسن الله جزاءه،وضاعَفَ عليه نِعمَه وآلاءه . ثم إنّ الله سبحانه اختصّ محمدا عليه السلام بأصحابٍ أيّدوه وآزروه ونصروه

---

(١) غمصه : اتهمه .

(٢) مجمجما : غير واضح .

وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(١)؛ فكان أفضلهم مرتبة ، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة : الخليفة الأوّل ، الّذى جمع الكلمة، ولمّ الدّعوة، وقاتَل أهلَ الرِّدّة ، ثم الخليفة الثانى الّذى فتح الفتوح ، ومصّر الأمصار وأذلّ رِقابَ المشركين . ثم الخليفة الثالث المظلوم الّذى نشر الملّة ، وطبّق الآفاق بالكلمة الحنيفيّة .

فلما استوثَقَ الإسلام وضرَبَ بجِرانه عدوتَ عليه فبغَيْتَه الغوائل، ونصبتَ له المكايد، وضربتَ له بطنَ الأمْر وظهرَه ، ودسَسْت عليه ، وأغريْتَ به ، وقعدتَ حيثُ استنصرَكَ عن نصرِه ، وسألك أن تُدرِكَه قبل أن يمزَّق فما أدركتَه ، وما يومُ المسلمين منك بواحد !

لقد حسدتَ أبا بكر والتويْتَ عليــه ، ورُمْت إفسادَ أمره ، وقعدتَ فى بَيْتِك ، واستَغْوَيْت عِصابةً من الناس حتّى تأخّروا عن بَيْعته ، ثم كرهتَ خلافةَ عمرَ وحسَدْتَه واستطَلْتَ مُدّته ، وسُررتَ بقتْله ، وأظهرتَ الشّماتة بمُصابِه ؛ حتى إنّك حاولتَ قتلَ ولدِه لأنّه قتَل قاتلَ أبيه ، ثم لم تكن أشدَّ منك حسدا لابن عمّك عثمان ؛ نشرت مَقابحَه ، وطوَيتَ محاسِنه ، وطعنتَ فى فِقهه ، ثم فى دِينه ، ثم فى سيرته ، ثم فى عَقْله؛ وأغريْتَ به السفهاء من أصحابك وشيعتِك ، حتّى قتلوه بمحضَر منك ، لا تدفع عنه بلسان ولا يدٍ؛ وما من هؤلاء إلا مَنْ بغَيتَ عليه ، وتلكّأتَ فى بيْعته ؛ حتّى حُملتَ إليه قهراً ، تُساقُ بخزائم الاقتسار كما يُساقُ الفحل المخشوش ، ثم نهضتَ الآن تطلب الخلافة ، وقتَلَةُ عثمانَ خلصاؤك وسُجَراؤك والمحدِقون بك ، وتلك من أمانىّ النّفوس ، وضلالاتِ الأهواء .

فدَعِ اللَّجاجَ والعبث جانبا ، وادفع إلينا قَتَلَة عثمان، وأعِدِ الأمرَ شُورَى بين المسلمين ليتّفِقوا على مَنْ هو لِلّه رِضاً . فلا بيعةَ لك فى أعناقنا ، ولا طاعةَ لك علينا، ولا عُتبَى لك

(١) سورة الفتح ٢٩ .

عندنا ، وليس لك ولأصحابك عندى إلّا السّيف. والّذى لا إله إلّا هو لأطلُبنّ قتلةَ عثمان أين كانوا ، وحيث كانوا ؛ حتّى أقتُلهم أو تلتحِقَ رُوحى بالله .

فأمّا مالا تزال تمنّ به من سابِقَتِك وجهادك فإنّى وجـدتُ الله سبحانه يقول : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) . ولو نظرتَ فى حالِ نفسك لوجـدتَها أشدّ الأنفس امتنانا على الله بعَمَلها ؛ وإذا كان الامتنان على السائل يُبطِل أجرَ الصدقة ، فالامتنان على الله يُبطِل أجر الجهاد ، ويجعله ﴿ كَصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(٢) .

***

قال النّقيب أبو جعفر : فلما وصل هذا الكتابُ إلى علىّ عليه السلام مع أبى أُمامة الباهِلىّ ، كلَّم أبا أُمامة بنحوٍ ممّا كلَّم به أبا مُسلم الخَوْلانىّ ، وكتب معه هذا الجواب .

قال النقيب : وفى كتابِ معاوية هذا ذِكرُ لفظ الجمل المخشوش أو الفَحْل المخشوش ، لافى الكتاب الواصل مع أبى مسلم ، وليس فى ذلك هذه اللّفظة ، وإنّما فيه : «حسدتَ الخلفاء وبَغيتَ عليهم ، عرَفْنا ذلك من نظرِك الشّزْر(٣) ، وقولك الهُجْر(٤) وتنفُّسك الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخُلَفاء » .

قال : وإنما كثيرٌ من الناس لايَعرفون الكتابين ؛ والمشهور عندهم كتابُ أبى مسلم فيَجعلون هـذه اللّفظةَ فيه ، والصحيح أنّها فى كتاب أبى أُمامة ، ألا تراها عادت

(١) سورة الحجرات ١٧ .
(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .
(٣) يقال : شزره وإليه : نظر إليه بأحد شقيه ؛ أو هو نظر فيه إعراض .
(٤) الهجر (بضم فسكون) : القبيح من الكلام .

فى جوابه ولو كانت فى كتاب أبى مسلم لعادتْ فى جوابه !

انتهى كلامُ النقيب أبى جعفر .

***

ونحن الآن مبتدئون فى شرح ألفاظ الجواب المذكور .

قوله : « فلقد خَبَأَ لنا الدهرُ منك عَجَبا » ، موضعُ التعجُّب أنّ معاوية يُخبِر عليًّا عليه السلام باصطفاء الله تَعالى محمدا وتشريفه له ، وتأييدِه له ؛ وهذا ظريف لأنّه يجرى كإخبار زيدٍ عمرا عن حالِ عمرٍو ، إذ كان النبيُّ صلّى الله عليه وآله وعلىٌّ عليه السلام كالشىء الواحد . وخبأ مهموز ، والمصدرُ الخَبْء ، ومنه الخابية ، وهى الخبء إلّا أنّهم تركوا همزَها ، والخَبء أيضا والخبِىء على « فَعِيل » ما خُبِئَ .

وبلاء الله تعالى : إنعامُه وإحسانه .

وقوله عليه السلام : « كناقلِ التّمرِ إلى هَجَر » ، مَثَلٌ قديم . وهَجَر : اسم مدينة لا ينصرف للتعريف والتّأنيث . وقيل : هو اسم مذكّر مصروف ، وأصل المَثَل « كَمُسْتَبْضِع تَمْرٍ إلى هَجَرَ[1] » ، والنسبة إليه هاجِرِىّ على غير قياس ، وهى بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها ، قال الشاعر فى هذا المعنى :

أُهــدِى له طُرَفَ الــكلامِ كما   يُهــدَى لِوالِى البَصْرة التَّمْرُ

قوله : « وداعى مسدّده إلى النضــال » ، أى معلّمه الرّمْىَ ، وهذا إشارة إلى قول القائل الأوّل :

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٥٢ ؛ قال أبو عبيد : هذا من الأمثــال المبتذلة ومن قديمها ؛ وذلك أن هجر معدن التمر ؛ والمستبضع إليه مخطئ ؛ ويقال أيضاً : كمستبضع التمر إلى خيبر ؛ قال النابغة الجعدى :

وإنَّ امرأً أهدى إليكَ قصيدةً   كمستبضعٍ تمرًا إلى أرضِ خَيْبَرَا

أعلِّمه الرِّماية كلَّ يومٍ فلمّا استدَّ ساعدُه رمانى(١)

هكذا الرِّواية الصحيحة بالسين المهملة ، أى استقام ساعدُه على الرّمى ، وسدَّدتُ فلانا : علّمته النِّضالَ ، وسهمٌ سَديد : مُصيب ، ورمحٌ سديد ، أى قلَّ أن تخطىء طعنتُه ، وقد ظرُف القاضى الأرَّجانىّ فى قوله لسديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنبارىّ كاتب الإنشاء :

إلى الذى نَصَب المكارمَ للورَى غرَضا يَلُوح من المدى المتباعِدِ

نَثَل الأماثِلَ مِن كنانته فما وَجدتْ يداه سوى سديدٍ واحدِ

ومن الأمثال فى هذا المعنى : « سَمِّنْ كَلْبَك يأكُلك »(٢) ، ومنها : « أحشّك وتَروثُنى ! »(٣) .

قوله عليه السلام : « وزعمتَ أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان » ، أى أبو بكر وعمر .

قوله عليه السلام : « فذكرتَ أمرا إن تَمّ اعتزَلَك كله ، وإن نَقَص لم يلحَقْك ثَلْمه » ، مِن هذا المعنى قولُ الفرزدق لجرير ، وقد كان جريرٌ فى مهاجاته إيّاه يفخَر عليه بقيسِ عَيْلان ، فقد كانت لجرير فى قيس خُؤُولة ، يعيِّره بأيّامهم عَلَى بنى تميم ، فلما قَتَل بنو تميم قُتيبة بنَ مسلم الباهلىّ بخُراسان قال الفرزدق يَفتخِر :

أتانى وأهلِى بالمدينة وقعةٌ لآل تميم أقعدتْ كلَّ قائمِ(٤)

---

(١) استدّ : استقام ؛ والبيت ينسب إلى معن بن أوس ، أومالك بن فهم الأزدى ، أوعقيل بن علفة ؛ وبعده :

فَلاَ ظَفِرَتْ يَمِينُكَ حِينَ تَرْمِى وشَلَّتْ مِنْكَ حَامِلَةُ الْبَنَانِ

وانظر اللسان ٤ : ١٩١ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٣٣٣ ؛ قالوا : أول من قال ذلك حازم بن المنذر .

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٢٠٠ ؛ أراد : تردت علىّ .

(٤) ديوانه ٨٥٣ .

كأنّ رءوس الناس إذ سَمِعوا بها ... مشدَّخة هاماتهـــا بالأمائمِ

وما بين من لم يُؤت سمعاً وطاعةً ... وبين تميم غـــير جزّ الحلاقمِ

ثم خرج إلى خِطاب جرير بعد أبيات تركنا ذكرها ، فقال :

أتغضبُ إنْ أُذْنا قُتيبة حُزَّتا ... جهاراً ولم تغضبْ لقتل ابن حازمِ !

وما منهما إلا نقَلْنا دماغَـــه ... إلى الشام فوق الشاحجات الرّواسمِ

تذبذب فى المخلاة تحت بُطونها ... محذَّفة الأذناب جُلْح المقادمِ

وما أنتَ من قيسٍ فتَنبح دونَها ... ولا مِنْ تميم فى الرءوس الأعاظمِ

تخوِّفُنـــا أيامَ قيسٍ ولم تدَعْ ... لَعيْلانَ أنفا مستقيمَ الخياشِمِ

لقد شهدتْ قيسٌ فما كان نصرُها ... قتيبـــةَ إلّا عضّها بالأباهِمِ

فقوله :

* وما أنتَ من قيسٍ فتَنبح دونَها *

هو معنى قولِ علىّ عليه السلام لمعاوية : « فذكرتَ أمْرا إن تمّ اعتزلَك كلّه » ، وابن حازم المذكور فى الشِّعر هو عبد الله بنُ حازِم ، من بنى سُلَيم ، وسُلَيم من قَيْس عَيْلان ، وقتلتْه تميم أيضا ، وكان والىَ خُراسان .

قوله عليه السلام : « وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ » ، الرّواية المشهورةُ بالرّفع ، وقد رواها قوم بالنّصْب ، فمن رَفع احتجّ بقوله : وما أنت وبَيْتُ أبيكَ والفَخْر .

وبقوله :

* فما القيسىّ بعدَكَ والفَخارُ *

ومن نصب فعلى تأويل « مالكَ والفاضِلَ » ، وفى ذلك معنى الفِعْل ، أى ماتصنع ، لأن

هذا الباب لا بدّ أن يتضمنّ الكلام فيه فِعْلا ، أو معنَى فعلٍ ، وأنشدوا :

* فما أنتَ والسّيْرَ فى مَتْلَفٍ[1] .

والرفع عند النحوِّيين أولى .

ثم قال : « وما للطُّلقَاء وأبناءِ الطُّلقَاء والتمييزَ » . النّصبُ هاهنا لا غير ، لأجل اللام فى الطلقاء .

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ، هذا الكلامُ ينقُض مايقول من يطعن فى السّلف ، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنكرَ على معاوية تعرّضَه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين ، ولم يذكر معاوية إلّا المفاضَلة بينه عليه السلام وبين أبى بكر وعمر ، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهما من المهاجرين الأوّلين ومن ذَوِى الدّرجات والطّبقات التى اشتبه الحالُ بينهما وبينه عليه السلام فى أىّ الرجال منهم أفضل ، وأنّ قَدْرَ معاوية يصغُر أن يدخل نفسَه فى مِثل ذلك شهادةٌ قاطعةٌ على علوّ شأنهما ، وعظم منزِلتهما .

قوله عليه السلام : « هيهات ، لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها » هذا مَثَلٌ يضرَب لمن يُدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخُل بينهم ؛ وأصله القِداح من عودٍ واحد يُجعَل فيها قِدْح من غير ذلك الخشَب ، فيصوّت بينها إذا أرادها المفِيض ، فذلك الصوت هو حنينُه .

قوله « وطفق يحكُم فيها مَن عليه الحكم لها » ، أى وطفِق يحكُم فى هذه القصة

---

(١) لأسامة بن الحارث الهذلى ؛ وبقيته :

* يُعبِّر بالذّكْرِ الضابطِ *

وانظر ديوان الهذليين ٢ : ١٩٥ .

أو فى هذه القضيّة مَنْ يجب أن يكون الحكْم لما عليه لا له فيها ؛ ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطّبقات .

ثم قال : « ألا تَرْبَع أيّها الإنسان على ظَلْعك ! » أى ألا تَرْفُق بنفسك وتَكُفّ، ولا تحمِل عليها مالا تطيقه ، والظَّلْع : مَصدَرُ ظَلَع البعيرُ يظلَع أى غمز فى مشْيه .

قوله : « وتعرِف قُصورَ ذَرْعك » ، أصل الذرْع بَسْط اليد ؛ يقال : ضِقتُ به ذرْعا: أى ضاق ذرْعى به . فنَقلوا الاسمَ من الفاعلية فجعلوه منصوبا على التمييز ؛ كقولهم :طبت به نفسا .

قوله : « وتتأخّر حيث أخّرك القَدر » ، مِثل قولِك: ضع نفسَك حيث وضَعَها الله؛ يقال ذلك لمنْ يرفع نفسَه فوق استحقاقه .

ثم قال : « فما عليك غَلبة المغلوب ، ولا عليك ظفرُ الظّافر » ، يقول : وما الّذى أدخلكَ بينى وبين أبى بكر وعمرَ ، وأنتَ من بنى أُميّة ، لستَ هاشميًا ولا تيميًا ولا عدويًا هذا فيما يرجع إلى أنسابنا ، ولستَ مُهاجِراً ولا ذا قَدَم فى الإسلام فتزاحِم المهاجرين وأربابَ السّوابق بأعمالِك واجتهادك ، فإذَنْ لا يضرّك غَلَبة الغالب منّا ولا يسرّك ظفر الظافر . ويُروَى أنّ مروان بنَ الحكَم كان يُنشِد يوم مَرْج راهط والرءوس تُنْدَر عن كواهلها بينه وبين الضّحاك بن قيس الفهْرىّ :

وما ضرّهم غــيرُ حَيْنِ النفو س أىّ غلامَىْ قُرَيْشٍ غلَبْ

قوله عليه السلام : « وإنّك لذهاب فى التّيه ، روّاغ عن القَصْد » ، يحتمل قوله عليه السلام فى التّيه معنيَيْن : أحدهما بمعنى الكِبر ، والآخر التِّيهَ من قولك : تاه فلان فى البَيْداء، ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنها مُحرّمة عليهم أربعين سَنةً يتيهُون فى الأرض ﴾[1] ؛ وهذا الثانى أحسَنُ

(١) سورة المائدة ٢٦ .

يقول : إنّك شديد الإيغال فى الضلال . و « ذهّاب » فعّال ؛ للتكثير ، ويقال : أرض متيهة ، مِثلُ معيشةٍ ، أى يُتاهُ فيها .

قال عليه السلام : « روّاغ عن القَصْد » ، أى تترك مايلزمك فعلُه وتعدل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصحابة ، وما جرى بعد موت النبيّ صلى الله عليه وآله ، ونحن إلى الكلام فى غير هذا أحوَج إلى الكلام فى البيعة وحَقْن الدّماء والدخول تحتَ طاعةِ الإمام .

ثم قال : « ألا تَرَى غير مخبِرٍ لك ، ولكن بنعمة اللهِ أحدّث » ، أى لستَ عندى أهْلاً لأن أخبرك بذلك أيضا ، فإنّك تعلمه ، ومن يَعلم الشىء لايجوزُ أن يُخبَر به ؛ ولكنْ أذكرُ ذلك لأنّه تحدُّثٌ بنعمةِ الله علينا ، وقد أمِرْنا بأن نحدّث بنعمتِه سبحانه .

قولُه عليه السلام : « إنّ قوماً استُشهدوا فى سبيل الله » ، المرادهاهنا سيّدالشُّهداء حَمزة رضى الله عنه ، وينبغى أن يُحمَل قولُ النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه إنه سيّدالشهداء على أنّه سيّد الشهداء فى حياة النبىّ صلّى الله عليه وآله ؛ لأنّ عليّا عليه السلام مات شهيدا ؛ ولا يجوز أن يقال : حمزة سيّده ، بل هو سيّد المسلمين كلِّهم ، ولا خلافَ بين أصحابنا رحمهم الله أنّه أفضل من حمزةَ وجعفر رضى الله عنهما ، وقد تقدّم ذكر التّكبير الذى كبّره رسولُ الله صلّى الله عليه وآله على حمزةَ فى قصّة أُحُد .

قوله عليه السلام : « ولكلٍّ فَضْل » ، أى ولكلّ واحدمن هؤلاء فَضْل لايُجْحَد.

قوله : « أولا ترى أنّ قوما قُطِعت أيديهم » ، هذا إشارة إلى جعفر ؛ وقد تقدّم ذلك فى قصّة مُؤْتة .

قوله : « ولولاَ مانهى الله عنه » ، هذا إشارة إلى نفسه عليه السلام .

قوله : «ولا تمجُّها آذانُ السامعين» أى لا تقذفها ، يقال : مَجَّ الرجلَ مِن فيه ، أى قذفه.

قوله عليه السلام « فدع عنك من مالت به الرَّمِيّة » ، يقال للصيد : يرمى هذه الرميّة ، وهى « فعيلة » بمعنى مفعولة ، والأصل فى مثلها ألّا تلحقها الهاء ، نحو كفّ خضيب ، وعين كحيل ، إلا أنّهم أجرَوها مجرَى الأسماء لا النعوت ، كالقَصيدة والقَطيعة .

والمعنى : دَعْ ذكرَ من مالَ إلى الدنيا ومالتْ به ، أى أمالته إليها .

فإن قلتَ : فهل هذا إشارة إلى أبى بكر وعمرَ ؟ قلت : يَنبغى أن ينزَّه أميرُ المؤمنين عليه السلام عن ذلك ، وأن تُصرَف هذه الكلمة إلى عثمانَ ، لأنّ معاويةَ ذكرَه فى كتابه وقد أورَدْناه ، وإذا أنصف الإنسانُ من نفسِه علِم أنه عليه السلام لم يكن يذكرهما بما يذكر به عثمان ، فإنّ الحال بينه وبين عثمانَ كانت مضطربةً جدًّا .

قال عليه السلام : « فإن صنائع ربِّنا ، والناسُ بعدُ صنائعُ لنا » ، هذا كلام عظيم ، عالٍ على الكلام ، ومعناه عالٍ على المعانى ، وصَنيعةُ الملِك من يصطنِعهُ الملك ويرفع قدرَه . يقول : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى هو الذى أنعم علينا ، فليس بيننا وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ؛ فنحن الواسطةُ بينهم وبين الله تعالى ، وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنهم عبيدُ الله ، وأنّ الناس عبيدهم .

ثم قال : « لم يمنعْنا قديم عزِّنا ، وعاديّ طوْلنا » ؛ الطوْل : الفَضْل . وعادِيّ أى قديم ، بئرٌ عاديّة .

قوله : «على قومِك أن خلَطْناهم بأنفسِنا فنَكَحنا وأنكَحْنا فِعل الأكْفاء ، ولستم هناك » ؛ يقول : تزوَّجنا فيكم وتزوّجتم فينا كما يَفعَل الأكْفاء ، ولستم أكْفاءنا . وينبغى أن يُحمل قوله : « قديم وعادِيّ » على مَجازه لا على حقيقته ، لأن بنى هاشم وبنى أميّة لم يَفترقا فى الشرف إلّا مذ نشأ هاشم بنُ عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه ، ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس وعُرِف بمثل ذلك ، وصار لهذا بنُون ولهذا بنون ، وادّعى كلٌّ من الفريقين

أنه أشرف بالفِعال من الآخر ، ثم لم تكن المدّة بين نَشْء هاشم وإظهار محمّد صلّى الله عليه وآله الدّعوة إلا نحو تسعين سنة ، ومثل هذه المدّة القصيرة لا يقال فيها : « قديمُ عزّنا وعادِيّ طَوْلِنا » ، فيجب أن يُحمَل اللفظُ على مجازِه ، لأنّ الأفعال الجميلة كما تكون عاديّةً بطُول المدّة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر ، وإن كانت المدّة قصيرةً . ولفظةُ قديم تَرِد ولا يُراد بها قِدَم الزّمان ، بل من قولهم : لفلانٍ قَدَمُ صدْق وقديمُ أثَر ، أىْ سابقة حَسَنة .

***

[مناكحات بنى هاشم و بنى عبد شمس]

وينبغى أن نذكر ها هنا مُناكحات بنى هاشم وبنى عبدِ شَمْس . زوّج رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابنتَيه رُقَيّة وأمَّ كُلْثوم من عثمان بن عفّان بن أبى العاص ، وزَوّج ابنتَه زينب من أبى العاص بن الرّبيع بن عبد العُزّى بن عبدِ شَمْس فى الجاهليّة ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطّلب أمَّ جميل بنت حَرْب بن أميّة فى الجاهلية ، وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله أمّ حبيبة بنت أبى سُفْيان بن حَرْب ، وتزوّج عبدُ الله بن عمرو بن عثمان فاطمةَ بنتَ الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام .

وَرَوى شيخنا أبو عثمانَ عن إسحاق بن عيسى بن علىّ بن عبد الله بنِ العبّاس قال : قلتُ للمنصور أبى جعفر : مَنْ أكفاؤنا ؟ فقال : أعداؤنا ، فقلت : مَن هُم ؟ فقال : بنو أميّةَ .

وقال إسحاق بن سليمان بن على : قلتُ للعبّاس بنِ محمّد : إذا اتّسَعْنا من البنات ، وضِقنا من البَنين ، وخفنا بوارَ الأيَامى فإلى مَن نُخرِجُهنّ من قبائلِ قريش ؟ فأنشدَنى :

عبدُ شمسٍ كان يَتلُو هاشماً ... وهُما بعدُ لأمٍّ ولأبْ

فعرفتُ ما أراد وسكتُّ .

وَرَوى أيوب بنُ جعفر بن سليمان ، قال : سألتُ الرشيدَ عن ذلك فقال : زوّج النبيّ صلى الله عليه وآله بني عبدِ شمس فأحمدَ صِهرَهم ، وقال : « ما ذَمَمْنا من صهرِنا فإنا لا نَذُمّ صِهرَ أبي العاص بن الربيع » .

قال شيخنا أبو عثمان : ولما ماتت الابنتان تحتَ عثمان قال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه : « ما تنتظرون بعثمان ، ألا أبو أيِّم ، ألا أخو أيِّم ؛ زوّجته ابنتين ، ولو أن عندي ثالثة لفعلتُ » . قال : ولذلك سمِّيَ ذا النُّورَين .

***

ثم قال عليه السلام : « وأنّى يكون ذلك ! » ، أى كيف يكون شرفُكم كشرَفنا ، ومنّا النبيّ ومنكم المكذِّب ـ يعنى أبا سُفيانَ بنَ حرب ، كان عدوَّ رسول الله والمكذِّبَ له والمُجلبَ عليه ـ وهؤلاء ثلاثة : بإزاء أبي سُفيان رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعاويةُ بإزاء عليّ عليه السلام ، ويزيدُ بإزاء الحسين عليه السلام ؛ بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل .

قال : « ومنّا أسَدُ الله » ، يعنى حمزة ، « ومنكم أسَدُ الأحلاف » ، يعنى عُتْبة ابن ربيعة ، وقد تقدّم شرحُ ذلك فى قصّة بدر .

وقال الراونديّ : المكذِّب من كان يكذِّب رسولَ الله صلّى الله عليه وآله عنادا من قُريش ، وأسد الأحلاف : أسدُ بنُ عبد العُزّى ، قال : لأنّ بنى أسد بن عبد العُزّى كانوا أحدَ البطون الّذين اجتمعوا فى حِلْف المطيّبين ، وهم بنو أسَد بن عبد العُزّى وبنو عبد مَناف ، وبنو تيم بن مرّة ، وبنو زهرة ، وبنو الحارث بن فهر . وهذا كلام طريف جدا ، لأنه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبيّ صلى الله عليه وآله مكذِّب

من بنى عبد شمسٍ ، فقال : المكذِّب مَن كذَّب النبيَّ صلّى الله عليه وآله من قريش عنادا ، وليس كلُّ من كذَّبه عليه السلام من قريش يُعيِّر معاوية به . ثم قال : أسد الأحلاف أسد بن عبد العزّى ؛ وأيّ عارٍ يلزَم معاويةَ من ذلك ، ثم إنّ بنى عبد مناف كانوا فى هذا الحلف وعلىّ ومعاوية من بنى عبد مَناف ، ولكنّ الراوندىّ يظلم نفسَه بتعرُّضه لما لا يعلمه .

قولُه : «ومنّا سيّدَا شَبابِ أهل الجنّة » ، يعنى حسَنا وحُسَيْنا عليهما السلام ،«ومنكم صبية النار » ، هى الكلمة التى قالها النبى صلّى الله عليه وآله لعُقْبة بن أبى مُعَيط حين قَتَله صَبْراً يوم بَدْر ، وقد قال كالمستعطِف له عليه السلام : مَن للصبية يا محمّد ؟ قال : النار . وعُقْبة بن أبى مُعَيط من بنى عبد شمْس . ولم يعلم الراوندىّ ماالمراد بهذه الكلمة ، فقال : صبيةُ النّار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ ، ولمّا أخبر النبي صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الكلمة كانوا صِبية ، ثم ترعرعوا واختاروا الكفرَ ، ولا شُبْهة أنّ الراوندىّ قد كان يفسِّر من خاطره ماخطَر له .

قال : قوله عليه السلام : « ومنّا خير نساء العالمين » ، يعنى فاطمةَ عليهاالسلام ،نصَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله على ذلك ؛ لا خلاف فيه .

« ومنكم حمّالة الحطب » ، هى أم جميل بنت حَرْب بن أميّة ، امرأةُ أبى لهب الذى ورد نصُّ القرآن فيها بما وَرَد .

قوله : « فى كثير مما لنا وعليكم » ، أى أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئاً كثيرا ، ولكنّى أكتفى بما ذكرت .

فإن قلت : فبماذا يتعلّق « فى » فى قوله « فى كثير » ؟ قلتُ : بمحذوف تقديرُه : هذا الكلام داخلٌ فى جملة كلامٍ كثيرٍ تتضمّن مالنَا وعليكم .

قولُه عليه السلام : « فإسلامُنا ماقد سُمِع ، وجاهليّتنا لا تُدفَع » ،كلامٌ قد تعلّق به

بعضُ من يتعصّب للأُموية . وقال : لو كانت جاهليّة بنى هاشم فى الشّرف كإسلامهم لعدّ من جاهليّتهم حَسب ماعدّ من فضيلتهم فى الإسلام .

***

[فضل بنى هاشم على بنى عبد شمس]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع فضلَ هاشم على عبدِ شمس فى الجاهليّة ، وقد يمتزِج بذلك بعضُ مايمتازون به فى الإسلام أيضا ، فإنّ استقصاءه فى الإسلام كثير،لأنّه لايمكن جَحْد ذلك ، وكيف والإسلامُ كلُّه عبارةٌ عن محمّد صلّى الله عليه وآله ، وهو هاشمىّ ! ويَدخُل فى ضِمن ذلك مايحتجّ به الأُمويّة أيضا ، فنقول : إنّ شيخَنا أباعثمان قال : إنّ أشرف خصال قريش فى الجاهليّة اللّواء ، والنّدوة ، والسّقاية ، والرّفادة ، وزَمزَم ، والحجابة وهذه الخصال مقسومةٌ فى الجاهليّة لبنى هاشم وعبدالدار وعبد العُزّى دون بنى عبدشمس. قال : عَلَى أنّ مُعظَمَ ذلك صار شرفه فى الإسلام إلى بنى هاشم ، لأنّ النبى صلى الله عليه وآله لمّا ملك مَكّةَ صار مِفتاح الكعبة بيدِه ، فدَفَعه إلى عثمانَ بن طلحة،فالشرف راجعٌ إلى مَن مَلَك المفتاح ، لا إلى من دُفع إليه ، وكذلك دفع صلّى الله عليه وآله اللواء إلى مصعب بن عُمَير فالّذى دفع اللواء إليه وأخَذَه مُصعَب من يديه أحقّ بشرفه وأولى بمجدِه وشرفُه راجعٌ إلى رهطِه من بنى هاشم .

قال : وكان محمد بن عيسى المخزومىُّ أميرا على اليَمَن ، فهجاه أُبىُّ بن مُدلج فقال :

قل لابن عيسى المستغيـ ـثِ من السُّهولةِ بالوُعورَهْ
الناطقِ العَوراء فى جُلّ الأمور بلا بصيرهْ
وَلَدَ المغـيرةُ تسعـةً كانوا صَناديدَ العشيرهْ[1]

---

(١) الصناديد : الشجعان .

وأبوكَ عاشِرهم كما ... نبتتْ مع النخــل الشعيرهْ
إن النبوّة والخــلا ... فة والسِّقاية والمَشــورَهْ
فى غيركمْ فاكفُفْ إليـ ... ـكَ يداً مجذّمة قصــيرهْ

قال : فأنبرَى له شاعرٌ من وَلَد كُرَيز بن حَبيب بن عبد شمس ، كان مع محمّد بن عيسى باليمَن يَهجُو عنه أبنَ مدلج فى كلمة له طويلة ، قال فيها :

لا لِواءٌ يُعَدُّ يابنَ كُرَيزٍ ... لا ولا رِفْد بيتــه ذى السناء
لاحجابٌ وليس فيكم سوى الكِبْـ ... ـرِ وبُغْضِ النبيّ والشهــداء
بين حاكٍ ومُخلج وطَريدٍ ... وقتيلٍ يلعنه أهــلُ السماء
ولهمْ زمزمٌ كذاك وجِبْرِيـ ... ـلُ ومَجْــدُ السِّقاية الغَرّاء

قال شيخنا أبو عثمان : فالشهداء علىٌّ وحمزة ، وجعفر ، والحاكى والمخلج هو الحكَم ابن أبى العاص ، كان يحكى مِشيةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فالتفَت يوما فرآه ، فدعا عليه ، فلم يزل مخلَّج المِشْية عقوبةً من الله تعالى[1] ، والطريد اثنان : الحكم بنُ أبى العاص ، ومعاويةُ بن المُغيرة بن أبى العاص ، وهما جدّا عبدِ الملك بن مرْوان من قِبَل أمّه وأبيه .

وكان النبى صلى الله عليه وآله طرَدَ معاويةَ بنَ المغيرة هذا من المدينة وأجّله ثلاثا فحيّره الله ، ولم يزل يتردّد فى ضلاله حتى بعَثَ فى أثرِه عليّا عليه السلام وعمّارا فقتلاه . فأمّا القَتلى فكثير ، نحو شَيْبة وعُتْبة ابنى رَبيعة ، والوليدُ بن عُتْبة ، وحنظلة بن أبى سُفْيان وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، والعاصُ بنُ سعيد بن أمية ، ومعاوية بنُ المغيرة ، وغيرُهم .

قال أبو عثمان : وكان اسمُ هاشمٍ عَمْرا ، وهاشمٌ لقَب ، وكان أيضا يقال له القَمر ، وفى ذلك يقول مطرود الخُزاعىّ :

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى نهاية ابن الأثير : « كان يجلس خلف النبى عليه السلام ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات . أى يحرك شفتيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبى عليه السلام » .

إلى القَمَر السارِى المُنِـــير دعوتُه ومُطعِمُهمْ فى الأزْل من قَمَع الجُزُرِ(١)

قال : ذلك فى شىء كان بينه وبين بعضِ قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم ، وقال ابنُ الزِّبَعْرَى :

كانت قريشٌ بَيْضَــةً فتفلّقتْ فالمُخّ خالِصُه لعبدِ مَنافِ

الرائِشُون وليس يُوجَـد رائشٌ والقائلون هَـــلُمَّ للأضيافِ

عَمْرو العُلَى هَشَم الثَّرِيدَ لقَوْمِه ورجالُ مَكّةَ مُسْنِتُون عِجافُ(٢)

فعَمَّ كما تَرَى أهلَ مَكّة بالأزْل والعُجْف ، وجعله الّذى هَشَم لهم الخبزَ ثَريداً ، فغلبَ هذا اللقبُ على اسمه حتى صارَ لا يُعرَف إلّا به ، وليس لعبدِ شمس لقبٌ كريم ، ولا اشتُقّ له من صالح أعماله اسمٌ شَريف ، ولم يكن لعبدِ شَمس ابن يأخذ بضبعه ، ويرفع من قَدره ، ويزيد فى ذكره ، ولهاشم عبدُ المطلب سيِّد الوادى غير مدافَع ، أجملُ الناس جَمالا ، وأظهرُهم جُودا ، وأكملُهم كمالا ، وهو صاحب الفِيل ، والطير الأبابيل ، وصاحبُ زَمزَم ، وساقى الحجيج ، وولَدَ عبدُ شمس أميّة بن عبد شمس وأميّة فى نفسه ليس هناك ، وإنما ذكر بأولاده ولا لَقَب له ، ولعبد المطّلب لقبٌ شهيرٌ واسمٌ شريف : شَيْبة الحمد ، قال مطرودٌ الخزاعىّ فى مدحه :

يا شيبةَ الحمــدِ الّذى تُثْنَى له أيّامُه من خيرِ ذُخْرِ الذاخرِ

المجدُ ما حَجّتْ قُرَيشٌ بيتَــه ودعا هُذَيلٌ فوقَ غُصْنٍ ناضرِ

واللهِ لا أنساكُمُ وفعالَـكمْ حتّى أغيَّبَ فى سَفاةِ القابِرِ

وقال حذافة بنُ غانم العدوىّ وهو يمدح أبا لَهَب ، ويُوصى ابنه خارجة بن حُذافة بالانتماء إلى بنى هاشم :

أخارجُ إمّا أهلِـكَنّ فلا تَزَلْ لهم شاكرا حتّى تُغيَّب فى القبرِ

---

(١) القمع بالتحريك : جمع قمعة ، وهى أعلى السنام والجزر (بضمتين) وسكن هنا للشعر : جمع جزور ، وهى الناقة .

(٢) فى البيت إقواء .

بنى شَيْبة الحمد الكريم فِعالُه بضوء ظلامَ الليل كالقمر البدرِ
لِساقِي الحجيج ثم للشيخ هاشمٍ وعبدِ منافٍ ذلك السيدُ الغَمْرُ
أبو عُتْبةَ المُلقِى إلىّ جِوارَه أغرُّ هِجانُ اللَّون من نفرٍ غُرٍّ
أبوكمْ قُصَىٌّ كان يُدعَى مُجمِّعا به جَمَعَ اللهُ القبائلَ مِن فِهرِ

فأبو عُتْبة هو أبو لهب ، عبد العُزّى بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبناه عُتْبة وعُتَيبة .

وقال العَبْدىّ حين احتفل فى الجاهليّة فلم يترك :

لا تَرَى فى الناس حيًّا مِثلَنا ماخَلَا أولادَ عبد المطلِبْ

وإنّما شرُف عبد شمس بأبيه عبدِ مناف بن قصىّ وبنى أبنه أميّة بن عبد شمس ، وهاشم شَرُف بنفسِه وبأبيه عبدِ مناف ، وبابنه عبد المطلب ، والأمر فى هذا بيّن ، وهو كما أوضحَه الشاعر فى قوله :

إنما عبدُ منافٍ جوهرٌ زيَّنَ الجوهرَ عبدُ المطَّلِبْ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول : إنّ عبد شمس لم يكن شريفا فى نفسه ، ولكنّ الشرف يتفاضل ، وقد أعطَى اللهُ عبدَ المطَّلب فى زمانه ، وأجرَى على يديه ، وأظهر من كرامته مالا يُعرف مثلُه إلا لنبىّ مُرسَل ، وإنّ فى كلامه لأبْرَهَة صاحب الفيل وتوعُّدِه إياه بربّ الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعيدِه بحبْس الفيل، وقتلِ أصحابه بالطَّير الأبابيل وحِجارة السِّجِّيل حتى تُرِكوا كالعَصْف المأكول لأعجبُ البُرْهانات، وأسنَى الكرامات، وإنّما كان ذلك إرهاصا لنبوّة النبي صلى الله عليه وآله، وتأسيسا لما يريده الله به من الكرامة، وليجعل ذلك البهاء متقدّما له ، ومردودا عليه ، وليكون أشهرَ فى الآفاق ، وأجلَّ فى صدور الفراعنة والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يَقهرَ المعانِد ، ويَكشف غباوة الجاهل . وبعد ، فمن يُناهِض ويُناضِل رجالا ولدوا محمّدا صلى الله عليه وآله ، ولو عزلنا

ما أكرمه الله به من النبوّة حتى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشِيَمه لما وفى به بَشَر ، ولا عَدَله شيء ، ولو شئنا أن نَذكرُ ما أعطى الله به عبد المطّلب من تفجّر العيون وينابيع الماء من تحت كَلْكَل بعيره وأخفافه بالأرض القَسِيّ (١) ، وبما أعطى من المُساهمة وعند المُقارعة من الأمور العجيبة ، والخصال البائنة ، لقُلْنا ، ولكنّا أحببنا ألّا نحتجّ عليكم إلّا بالموجود فى القرآن الحكيم ، والمشهور فى الشعر القديم ، الظاهر على ألسنة الخاصّة والعامّة ورُواة الأخبار وحُمّالِ الآثار .

قال : وممّا هو مذكورٌ فى القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ، وقد أجتمعت الرُّواة على أنّ أوّل من أخَذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف ، فلمّا مات قام أخوه المطلب مقامَه ، فلما مات قام عبدُ شمسٍ مَقامَه ، فلمّا مات قام نوْفل مَقامَه ــ وكان أصغرهم . والإيلاف، هوأن هاشما كان رجلا كثيرَ السفر والتّجارة، فكان يسافر فى الشّتاء إلى اليمن ، وفى الصّيف إلى الشام ، وشَرَك فى تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن والشام ، نحو العباهِلة باليمن ، واليَكْسوم من بلاد الحبشة ، ونحو ملوك الرُّوم بالشام ، فجعل لهم معه ربحا فيما يربح ، وساق لهم إبلا مع إبله ، فكفاهم مَؤُونة الأسفار ، على أن يكفوه مؤونة الأعداء فى طريقه ومُنصرَفه ، فكان فى ذلك صلاحٌ عامٌّ للفريقين ، وكان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا ؛ فأخصبتْ قريش بذلك ، وحملتْ معه أموالَها ، وأتاها الخيرُ من البلاد السافلة والعالية ، وحَسُنَتْ حالُها ، وطاب عَيشُها . قال: وقد ذكر حديثَ الإيلاف الحارثُ بنُ الحَنَش السُّلَميّ ، وهو خالُ هاشمٍ والمطّلب وعبدِ شمس ، فقال :

إنّ أخَيّ هاشمًا ليس أخا واحدِ
والله ما هاشمٌ ناقِص ولا واحد ...

الآخِذ الإيلاف والـ ـقائم للقاعدِ

قال أبو عثمان : وقيل : إنّ تفسير قوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو خوف من كان هؤلاء الإخوة يمرّون به من القبائل والأعداء وهم مُغْترِبون ومعهم

(١) الأرض القسى : التى لا تنبت نباتا .

الأموال ؛ وهذا مافسَّرنا به الإيلاف آنفا ؛ وقد فسّره قومٌ بغير ذلك ، قالوا : إنّ هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائبَ يؤدُّونها إليه ليَحمِيَ بها أهلَ مكّة ، فإنّ ذُؤبان العرب وصَعاليكَ الأحياء وأصحاب الغارات وطُلّاب الطوائل كانوا لا يؤمَنون على الحرَم ، لا سيّما وناس من العَرَب كانوا لا يرَوْن للحرَم حُرْمة ، ولا للشهر الحرام قَدْرا ، مثل طَيِّء وخَثْعم وقُضاعة وبعض بَلْحارث بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإنّ هاشما كان القائم به دونَ غيره من إخوته .

***

قال أبو عثمان : ثم حِلْف الفُضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرَفُ حلف كان في العرب كلِّها ، وأكرمُ عَقْد عقدتْه قريش في قديمها وحديثها قبلَ الإسلام لم يكن لبنى عبد شمس فيه نصيب. قال النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ وهو يَذكُرُ حِلفَ الفُضول ـ: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلفا لو دُعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبتُ» .ويكفى في جلالته وشرفه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله شهِدَه وهو غلام ، وكان عتبةُ بنُ ربيعة يقول : لو أنّ رجلا خرج ممّا عليه قومُه لداخلتُ في حِلف الفضُول ، لما أرَى من كماله وشرفِه ، ولِما أعلم من قَدْره وفضيلتِه .

قال : ولفَضْل ذلك الحلف وفضيلةِ أهله سمّيَ حلفَ الفضول ، وسُمِّيتْ تلك القبائل الفضول ، فكان هذا الحلف في بنى هاشم ، وبنى المطّلب ، وبنى أسَد بن عبد العُزّى وبنى زُهْرة ، وبنى تَيم بن مرّة ، تعاقَدوا في دار ابن جُدْعان في شهرٍ حرام قياما يتماسحون بأكُفّهم صُعُداً لَيكُونُنّ مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقّه مابَلّ بحرٌ صُوفَة ، وفى التآسى في المعاش والتّساهم بالمال . وكانت النباهة في هذا الحلف للزُّبير بن عبد المطّلب ولعبدِ الله بن جُدعان ، أما ابن جُدْعان فلأنّ الحلف عقِد في داره ؛ وأمّا الزبير فلأنّه هو الّذى نهض فيه ، ودعا إليه ، وحَثّ عليه ، وهو الّذى سمّاه حِلفَ الفُضول ، وذلك لأنّه لمّا سمع الزّبيدىَّ المظلوم

ثُمَن سِلعته قد أوْفَى على أبى قُبَيْس قبلَ طلوع الشمس رافعا عقيرته وقُرَيش فى أنديتها قائلا :

يالَلرِّجال لمظـــلوم بضاعتهُ ببطْن مكَّةَ نائى الحىِّ والنفرِ
إنَّ الحرامَ لمن تمّت حَرامتهُ ولا حَرامَ لثوْبَىْ لابسِ الغَدرِ

حَمِى وحَلَف ليعقدنَّ حِلْفا بينه وبين بطون من قريش يَمنَعون القوىَّ من ظُـلم الضّعيف ، والقاطنَ من عنف الغريب ، ثم قال :

حلفتُ لنَعقِدنْ حِلْفا عليهمْ وإن كنَّا جميعا أهـلَ دارِ
نُسمِّيه الفضولَ إذا عقَـدنا يعزُّ به الغَريبُ لَدَى الجوارِ
ويَعـلَمَ مَنْ حوالى البيت أنَّا أباةُ الضَّيْم نهجُرُ كلَّ عارِ

فبنو هاشم هم الَّذين سَمَّوا ذلك الحلف حِلفَ الفُضول ، وهم كانوا سببه،والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له ، والشاهدة لأمره ، فما ظنُّك بمن شَهِده ولم يقمْ بأمره !

قال أبو عثمان : وكان الزبير بن عبد المطلب شجاعا أبيًّا ، وجميلا بهيًّا ، وكان خطيبا شاعرا ، وسيِّدا جواد ، وهو الَّذى يقول :

ولولا الحسُ لم يَلْبَس رجالٌ ثيابَ أعزة حتى يموتوا
ثيـابهمُ شِمـالٌ أو عبـاء بهـا دنسٌ كما دَنس الحميتُ (١)
ولـكنّا خلِقنا إذا خَلِقنـا لنـا الحِبَرات والمسك الفتيتُ (٢)
وكأسٌ لو تُبين لهمْ كلاما لقالتْ إنمـا لهمُ سُبيتُ (٣)
تبين لنا القذى إن كان فيهـا رضين الحلم يشربها هبيتُ (٤)

(١) الحميت ، كأمير : الزق الصغير يتخذ للسمن .
(٢) الحبرات ، بكسر ففتح : ضرب من برود اليمن . والفتيت والمفتوت بمعنى .
(٣) سبيت : جلبت . (٤) الهبيت : الجبان الذاهل .

ويقطع نخوةَ المختالِ عنّا   رَقيقُ الحدّ ضربتُه صموتُ
بكفِّ مجرّبٍ لا عيبَ فيه   إذا لقىَ الكريهةَ يستميتُ

قال : والزّبير هو الذى يقول :

وأسحمَ من راح العراقِ مملأٍ   محيطٍ عليه الجيشُ جلد مرَاثِرُهْ
صَبحتُ به طَلْقا يَراحُ إلى الندى   إذا ما انتشى لم يحتصرْه معاقرُه
ضعيف بجنب الكأس قبضُ بنانه   كليل على جلد النديم أظافرُه

قال : وبنو هاشم هم الذين رَدّوا على الزّبيدى ثمنَ بضاعته ، وكانت عند العاص ابنِ وائل ، وأخذوا للبارقىّ ثمنَ سلعته من أُبَىّ بن خلف الُجمَحىّ ، وفى ذلك يقول البارقىّ :

ويأبى لكم حِلفُ الفضول ظلامتى   بنى جمحٍ والحقّ يؤخذ بالغَصْبِ

وهم الذّين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتول الحسناء بنت التاجر الخثعمىّ ، وكان كابره عليها حين رأى جمالها ، وفى ذلك يقول نبيه بنُ الحجّاج :

وخشِيتُ الفضولَ حين أتونى   قد أرانى ولا أخافُ الفضولاَ
إنى والّذى يَحُجُّ له شُمْـ   ـطُ إيادٍ وهلّلوا تهليـــــلا
لبراءٌ منى قُتَيـــــلة يااللّـ   ـاس هل يتبعون إلّا القتولا !

وفيها أيضا يقول :

لولا الفُضـــــولُ وأنه   لا أَمْنَ مِن عُرَوائها[1]
لدنوتُ مِن أبياتهـــــا   ولطُفْتُ حولَ خِبائهـــا[2]

---

(١) العروراء ، كالغلواء : قرة الحمى ومسها فى أول رعدتها .
(٢) الخباء ككساء ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

فى كلمته التى يقول فيها :

حَيٌّ النُّخَيلةَ إذ نأت منّا على عُـــدَوائهـا
لا بالفراق تُنيلنــا شيئًا ولا بلقائهـا
حَلّتْ بمكّةَ حَـلّةً فى مَشْيها ووطائهـا

فى رجالٍ كثير انتزعوا منهم الظلامات ، ولم يكن يظلم بمكة إلا رجالٌ أقوياء ، ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصّته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يَعُدّ أحدٌ مثلها ، ولا يأتى بما يتعلق بها ، وذلك أنّ رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بنى عامر متساندين ، فكان حربُ بنُ أمية على بنى عبد شمس ، وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب على بنى هاشم ، وكان عبدُ الله بن جُدْعان على بنى تيم ، وكان هشام بنُ المغيرة على بنى مخزوم ، وكان على كلّ قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون فى التساند ، ولم يحقق واحدٌ منهم الرئاسة على الجميع ، ثم آب هاشمٌ بما لا تبلغهُ يدُ متناول ، ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : شهدتُ الفجّار وأنا غلام ، فكنتُ أنبُل فيه على عمومتى ، فنفى مُقامه عليه السلام أن تكون قريش هى التى فجرتْ ، فسُمّيت تلك الحربُ حرب الفِجار ، وثبت أن الفُجور إنما كان ممن حاربهم ، وصاروا بيمنه وبركتِهِ ولما يريد الله تعالى من إعزاز أمره وإعظامه الغالبين العالين ، ولم يكن الله لِيُشهده فجرةً ولا غَدْرة ، فصار مشهده نَصْرا ، وموضعه فيهم حجّةً ودليلا .

قال أبو عثمان : وشرفُ هاشم متّصل ، من حيث عَدَدت كان الشرفُ معك كابراً عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإنّ الحكم بن أبى العاص كان عاديًا فى الأعلام ، ولم يكن له سناء فى الجاهلية .

وأما أميّة فلم يكن فى نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضعوفا ، وكان صاحب عُهّار[١] يدلُّ على ذلك قول نفيل بن عــدىّ جدّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حربُ بنُ أمية وعبدُ المطلب بن هاشم ، فنفرَ عبدُ المطلب وتعجّب من إقدام حَرْبٍ عليه وقال له :

أبوك مُعَـــاهِرٌ وأبوه عَفٌّ وذادَ الفيلَ عن بلدٍ حرامِ[٢]

وذلك أن أميّة كان تعرّض لامرأة من بنى زُهرة ، فضربه رجل منهم بالسيف ، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة ، فقام دونهم قيسُ بن عدىّ السهمى ـ وكانوا أخواله ، وكان منيع الجانب ، شديد العارضة ، حَمِىّ الأنفس ، أبِىّ النفس ـ فقام دونهم وصاح : «أصبح ليلٌ» ، فذهبت مثلا ، ونادى : الآن الظاعنُ مقيم . وفى هذه القصة يقول وهب بنُ عبد مناف بن زهرة جدّ رسول الله صلّى الله عليه وآله :

مهــلا أمىّ فإنّ البغىَ مهلكةٌ لا يكسبنّك يومٌ شرّه ذكرُ
تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ يُصبُّ فى الكأس منه الصَّبْرُ والمَقِرُ[٣]

قال أبو عثمان : وصنع أميّة فى الجاهلية شيئا لم يصنعه أحدٌ من العرب ، زوّج ابنه أبا عمرو امرأته فى حياته منه ، فأولدها أبا معيط بن أبى عمرو بن أمية . والمَقِيتون فى الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم ، فأما أن يتزوجها فى حياة الأب ويبنىَ عليها وهو يراه ؛ فإنه شىء لم يكن قطُّ .

قال أبو عثمان : وقد أقرّ معاوية على نفسه ورهطه لبنى هاشم حين قيل له : أيُّهما كان أسوَد فى الجاهلية ؟ أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسودَ منّا واحدا ، وكنّا

---

(١) العهار : النزق والخفة والطيش .
(٢) ذاد الفيل : منعه .
(٣) المقر ، ككتف : الصبر أو شبيه به .

أكثرَ منهم سيّـــدا ؛ فأقرّ وادّعى ، فهو فى إقراره بالنقص مخصُوم ، وفى ادعائه الفضل خَصيم

وقال جحش بن رئاب الأسدىّ حين نزل مكّة بعد موت عبد المطّلب: والله لأتزوّجَنّ ابنة أكرم أهل هذا الوادى ، ولأحالفَن أعزّهم، فتزوّج أميمةَ بنت عبد المطّلب ، وحالفَ أبا سُفْيان بنَ حرب. وقد يُمكن أن يكون أعزّهم ليس بأكرمهم ،ولا يُمكن أن يكون أكرمهم ليس بأكرمهم ؛ وقد أقرّ أبو جهل على نفسه ورهطه من بنى مخزوم حين قال : تحارَبْنا نحن وهم ، حتى إذا صرْنا كهاتين قالوا : منا نبىّ . فأقرّ بالتقصير ، ثم ادّعى المســاواة ؛ ألا تراه كيف أقرّ أنه لم يزل يَطلب شأوَهم[1] ثم ادعى أنه لحِقهم ! فهو مخصوم فى إقراره ، خصيم فى دعواه ، وقد حكم لهاشم دغفل بنُ حَنظلة النسّابة حين سأله معاوية عن بنى هاشم : فقال : هم أطعمُ للطعام ، وأضرَبُ للهَام[2] ، وهاتان خَصْلتان يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعَجَب من منافرة حَرْب بن أميّة عبد المطّلب بن هاشم ، وقد لَطَم حربٌ جاراً لخلف بن أسعد جدّ طَلْحة الطَّلَحات ، فجاء جاره فشَــكا ذلك إليـه ، فمشى خَلَفٌ إلى حَرْب وهو جالس عند الحِجْر ، فلَطَم وجهه عَنْوة من غير تحاكُم ولا تَراضٍ، فما انتطَحَ فيه عنزان[3]. ثم قام أبو سفيان بنُ حرب مقام أبيه بعـــد موته ، فخالفه أبو الأُزَيْهِر الدَّوْسىّ ، وكان عظيم الشأن فى الأَزْد ، وكانت بينه وبين بنى الوَليد بن المغيرة مُحاكمة فى مصاهرةٍ كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه هشامُ بنُ الوليد وأبو الأُزَيْهِر قاعـــد فى مَقعدِ أبى سُفْيان بذى المجاز ، فضَرَب عُنُقه ، فلم يُدرِك به أبو سُفْيان عَقْلا ولا قَوَدا فى بنى المُغيرة ، وقال حسّان بنُ ثابتٍ يذكر ذلك :

---

(١) الشأو : الغاية . (٢) الهام : الرءوس .
(٣) هذا مثل يضرب للأمر يقع ولا يختلف فيه اثنان .

غدا أهلُ حِصْنَىْ ذى المجازِ بسُحْرةٍ ... وجارُ ابن حَرْبٍ لا يَرُوحُ ولا يَغْدُو
كَساكَ هشامُ بنُ الوليد ثيابه ... فأبلِ وأخلِقْ مثلَها جُدَداً بَعْدُ

***

فهذه جملة صالحة مما ذكره شيخنا أبو عثمان .

ونحن نورد من كتاب " أنسابِ قريش " للزّبير بن بكّار ما يتضمّن شرحا لما أجمله شيخُنا أبو عثمان أو لبعضه ، فإن كلامَ أبى عثمان لمحةٌ وإشارة ، وليس بالمشروح .

قال الزبير : حدّثنى عمر بن أبى بكر العَدَوىّ من بنى عدىّ بنِ كعب قال : حدّثنى يزيد بنُ عبد الملك بن المغيرة بن نوفل ، عن أبيه ، قال : اصطلحتْ قريشٌ على أن وَلِىَ هاشمٌ بعد موتِ أبيه عبدِ مناف السّقاية والرِّفادة ، وذلك أنّ عبد شمس كان يسافر ، قلّ أن يقيم بمكّة ، وكان رجلا مُعيلا[1] ؛ وكان له ولدٌ كثير ، وكان هاشم رجلا مُوسرا ، فكان إذا حضر الحجُّ قام فى قريش فقال : يا معشرَ قريش ، إنّكم جيرانُ الله ، وأهلُ بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموْسِم زُوّار اللهِ يعظِّمون حرمةَ بيته ، فهمْ لذلك ضيفُ الله ، وأحقُّ ضيف بالكرامةِ ضيفُ الله ، وقد خصّكم الله بذلك ، وأكرمَكم به ، ثم حَفِظ منكم أفضلَ ما حفظ جارٌ من جاره ؛ فأكرِموا ضيفه وزوّاره ؛ فإنهم يأتون شُعْثًا غُبْرا من كلّ بلد ضَوامِرَ كالقِداح ، وقد أرجَفوا وتفَلُوا وقملوا[2] وأرملوا ، فأقْرُوهم وأعينوهم . قال : فكانت قريش تترافد على ذلك ، حتى إنّ كلّ أهلِ بيت ليرسُلون بالشىء اليسير على قدرِ حالهم ، وكان هاشمٌ يُخرج فى كلّ سنة مالاً كثيرا ، وكان قومٌ من قريش يترافدون؛وكانوا أهلَ يسار ، فكان كل إنسان ربما أرسَل بمائةمثقالِ ذهب هِرَقليّة[3]

---

(١) يقال : أعال الرجل يعيل ؛ إذا كثر عياله .

(٢) أرجفوا : أكثروا من ذكر الأخبار السيئة ، وقملوا : كثر فيهم القمل . وأرملوا : نفد زادهم .

(٣) هرقلية : نسبة إلى هرقل ملك الروم ؛ وهو أول من ضرب الدنانير .

وكان هاشم يأمر بحياضٍ من أدَم تُجعَل في مَواضِع زَمْزم من قبل أن تُحفَر ؛ يُستقى فيها من البئار التي بمكّة ، فيشرب الحاجّ ، وكان يطعمهم أوّل ما يُطعم قبلَ يوم التَّرْوِيَة بيوم بمكّة وبمنًى وبجُمع وعرَفة ، وكان يَثْرِد لهم الخبز واللحم والسّمن والسّويق والتمر ، ويحمل لهم الماء فيسقون بمنًى ، والماء يومئذ قليل ، إلى أن يَصدُر الحاجّ مِنْ مِنًى ، ثم تنقطع الضِّيافة ، وتتفرّق الناسُ إلى بلادهم .

قال الزبير : وإنما سمّي هاشما لهَشْمه الثَّريد ، وكان اسمُه عَمْرا ، ثم قالوا : «عَمْرو العلا» لمعاليه . وكان أوّل من سَنّ الرِّحْلتين : رحلةً إلى الحبشة ، ورحلةً إلى الشام ، ثم خرج في أربعين من قريش فبلغ غَزّة ، فَمرِض بها ، فمات ، فدفنوه بها ، ورجعوا بتركته إلى ولده . ويقال : إن الّذي رجع بتركته إلى ولده أبو رُهْم عبد العُزّى بن أبي قيس العامريّ من بني عامر بن لؤيّ .

قال الزبير : وكان يقال لهاشم والمطلب : البَدْران ، ولعبد شمس ونَوْفل الأبْهران .

قال الزّبير : وقد اختُلِف في أيّ ولد عبد مناف أسنّ ، والثّبت عندنا أن أسنَّهم هاشم . وقال آدم بنُ عبد العزيز بن عمرَ بن عبد العزيز بن مَرْوان :

يا أمينَ الله إني قائـــلٌ قول ذي دِينٍ وبرٍّ وحَسَبْ
عبدُ شمسٍ لا تُهِنْها إنمـا عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطّلبْ
عبدُ شمسٍ كان يَتْلو هاشماً وهُما بعدُ لأمٍّ ولأبْ

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طَلْحة ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : قال عبد الله بنُ عبّاس : والله لقد علمتْ قريشٌ أنّ أوّل من أخذ الإيلاف وأجاز لها العِيَرات[1] لهاشم ، والله ماشدّت قريش رحالًا ولا حَبْلا بسَفَر ، ولا أناختْ بعيراً لحَضر

(١) العيرات ، بكسر ففتح : كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا ، واحده عير .

إلا بهاشم ، والله إنه أوّلُ من سَقَى بمكّة ماء عذبا ، وجَعَل بابَ الكَعْبة ذَهبًا لعبد المطّلب.
قال الزبير : وكانت قريش تجّاراً لا تَعْدو تجارتهم مكة إنّما تقدم عليهم الأعاجم بالسِّلع فيشترونها منهم ، يتبايعون بها بينهم ، ويبيعون من حَولهم من العرب ، حتّى رحل هاشم ابنُ عبدِ مناف إلى الشام ، فنزل بقَيْصَرَ ، فكان يذبح كلَّ يومٍ شاةً ، ويصنع جَفْنة من ثريد ، ويدعو الناس فيأكلون ، وكان هاشمٌ من أحسَن الناس خَلْقا وتماما، فذُكر لقيصَر ، وقيل له : هاهنا شابٌّ من قريش يهشم الخبز ، ثم يَصبُّ عليه المرَق ، ويفرّغ عليه اللّحم ، ويدعُو الناسَ . قال : وإنّما كانت الأعاجمُ والرّوم تَصنَع المرَق في الصِّحاف ، ثم تأتدم عليه بالخبز ، فدعا به قَيصرُ ، فلمّا رآه وكلّمه أُعجب به ، وجَعَل يُرسِل إليه فيدخُل عليه ، فلمّا رأى مكانه سأله أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر ، وأن يكتب لهم كتبَ الأمان فيما بينهم وبينه ، ففعل . فبذلك أرتفع هاشمٌ من قُرَيش . قال الزُّبير: وكان هاشم يقوم أوّل نهار اليوم الأوّل من ذي الحجّة فيُسند ظهرَه إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول : يامعشرَ قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسَنُها وجوهاً ، وأعظَمُها أحلاماً ، وأوسطُها أنساباً ، وأقربُها أرحاماً . يامعشر قريش ، أنتم جيرانُ بيتِ الله ، أكرَمَكم بولايته ، وخَصَّكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحَفِظ منكم أحسَن ماحَفِظ منكم جارٌ من جاره ، فأكرموا ضيفه وزُوّار بيته ، فإنّهم يأتونكم شُعْثا غُبْرا من كل بلد. فوَربِّ هذه البَنيّة ، لو كان لي مال يَحمل ذلك لكَفيتُموه ، ألا وإنّي مخرِج من طيّبِ مالي وحلاله مالم تُقطع فيه رَحِم ، ولم يؤخذ بظُلْم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعُه ؛ فمن شاء منكم أن يفعلَ مثلَ ذلك فعَل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرج منكم رجلٌ من ماله لكرامة زوار بيتِ الله ومَعُونتهم إلّا طيّبا لم يؤخذ ظلما ، ولم تُقطع فيه رَحم ولم يُغتصب . قال : فكانت قريشٌ تُخرج من صَفْو أموالها ماتحتمله أحوالُها ، وتأتي بها إلى هاشم فيضَعه في دار النّدوة لضيافة الحاجّ .

قال الزبير : ومما رثى به مَطْرود الخزاعيُّ هاشماً قوله :

مات النّدَى بالشام لمّا أن ثوَى أوْدَى بغزّةَ هاشمٌ لا يبعدِ
فجِفانُه رُذُمٌ لمن ينتابُه والنّصر أدنى باللسان وباليدِ (١)

ومن مراثيه له :

ياعين جُودِي وأذرِى الدّمعَ وَاحتفِلِي وأبكى خبيئةَ نفسى فى المُلِمّاتِ
وأبكى على كلّ فيّاضٍ أخى حَسَبٍ ضَخْمِ الدّسيعة وهّاب الجزيلاتِ
ماضى الصّريمة عالِى الهمّ ذى شرَف جَلْدِ النّحيزة حمّال العظيماتِ
صَعب المقادةِ لا نِكْسٌ ولا وَكِلٌ ماضٍ على الهوْل مِتْلاف الكريماتِ
مَحض توسّط من كعبٍ إذا نُسِبوا بُحبوحةَ المَجْد فى الشُّمّ الرّفيعاتِ
فأبكى على هاشم فى وَسْط بَلْقعةٍ تَسْفى الرّياح عليه وَسْط غزّاتِ
ياعين بكّى أبا الشُّعْث الشّجيّات يَبْكِينَه حُسّراً مِثل البَلِيّاتِ
يَبكِين عَمْرو العُلا إذ حان مَصرَعُه سَمْح السجيّة بسّام العَشيّاتِ
يَبكِينَه مُعْولات فى مَعاوِزِها ياطُولَ ذلك من حزنٍ وعوْلاتِ
محزّمات على أوساطهنّ لما جرّ الزمان مِنَ أحداثِ المُصيباتِ
أبِيتُ أرعَى نجومَ اللّيل مِن ألَمٍ أبْكِى وتبكِى مَعِى شَجْواً بُنَيّاتِي

قال الزّبير : وحدّثنى إبراهيمُ بن المنذِر ، عن الواقدىّ ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن عكرِمة ، عن ابن عباس ، قال : أوّل من سَنّ دِيَةَ النفْس مائةً من الإبل عبدُ المطلب ، فجرَت فى قريش والعَرَب سنّتُه ، وأقرّها رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وأمُّ عبد المطلب سلْمى بنت عَمرو بن زَيد بن لَبِيد ، من بنى النّجّار من الأنصار ، وكان سبب

---

(١) فى ب « ردم » ، بالدال صوابه من ا ؛ والرذم كـكتب : القصاع الممتلئة تصب جوانبها .

تزوج هاشم بها أنه قدِم فى تجارة له المدينة ، فنزل على عمرو بن زيد ، فجاءته سَلمى بطعام فأعجبتْ هاشما ، فخطبها إلى أبيها ، فأنكَحه إيّاها ، وشَرَط عليه أن تَلِد عند أهلها ، فبَنَى عليها بالمدينة ، وأقام معها سنتين ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، فحملتْ وأثقلَتْ ، فخرج بها إلى المدينة ، فوضعها عند أهلها ، ومضى إلى الشام ، فمات بغَزّة من وجهه ذلك ، وولدتْ عبد المطلب ، فسمّتْه شيبة الحَمْد لشَعْرة بيضاء كانت فى ذَوائبه حين وُلد ؛ فمكث بالمدينة ستّ سنين أو ثمانياً . ثم إنّ رجلا من تِهامةَ مَرّ بالمدينة ، فإذا غِلمانٌ ينتضلون ، وغلامٌ منهم يقول كلّما أصاب : أنا ابن هاشِم بن عبد مناف ، سيّد البَطْحاء ، فقال له الرجل : من أنتَ ياغلام ؟ قال : أنا ابنُ هاشم بن عبدِ مناف . قال : ما اسمُك ؟ قال : شَيْبةالحمد، فانصرَف الرجل حتى قَدِم مكّة ، فيجد المطلب بن عبد مناف جالسا فى الحِجْر ، فقال : قُم إلىّ ياأبا الحارث ، فقام إليه ، فقال : تعلم أنى جئت الآن من يَثرِبَ فوجدتُ بها غِلمانا يَنْتَضِلون ... وقصّ عليه مارأى من عبد المطلب ، وقال : إنه أضرَبُ غلامٍ رأيتُه قطّ ، فقال له المطلب : أغفلتُه واللهِ ! أما إنى لا أرجع إلى أهلى ومالى حتى آتيه ، فخرج المطلب حتى أتَى المدينةَ ، فأتاها عِشاء ، ثم خرج براحِلَته حتى أتى بنى عَدِىّ بن النجّار فإذا الغِلْمان بين ظَهْرَانى المجلس ، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم : هذا ابن هاشم ؟ قالوا : نعَم ، وعرَفه القوم فقالوا : هذا ابنُ أخيك ، فإن كنتَ تريدأخذَه فالساعة؛لاتعلم أمّه ، فإنها إن علمتْ حُلْنا بينك وبينَه . فأناخ راحلتَه ، ثم دعاه فقال : يابنَ أخى ، أنا عمُّك ، وقد أردتُ الذّهابَ بك إلى قومك ، فأركب ، قال : فوالله ما كذب أن جلس على عَجُز الرّاحلة ، وجَلَس المطلب على الرّاحلة ثم بعثها فانطلقتْ ، فلمّا علمتْ أمّه قامت تدعو حزنها على ابنها ، فأخبرتْ أنّه عمه ، وأنه ذهب به إلى قومه . قال : فانطلَق به المطلب فدخل به مكّة ضَحْوةً ، مُردِفَه خلفَه ، والناسُ فى أسواقهم ومجالسِهم ، فقاموا يرحّبون به ويقولون : مَن هذا الغلام معك ؟ فيقول : عبدٌ لى أبتعتُه بيَثْرِب ، ثم خرج به

حتى جاء إلى الحَزْوَرَة فابتاع له حُلّة ، ثم أدخله عَلَى امرأته خديجة بنت سَعْد بن سَهْم ، فرجّلت شعرَهُ ، ثم ألبسَه الحُلّة عشيّة ، فجاء به فأجلسَه فى مجلس بنى عبدمناف، وأخبرَهم خبرَه ، فكان الناسُ بعد ذلك إذا رأوه يطوف فى سِكَكِ مكة وهو أحسن الناسِ يقولون: هذا عبدُ المطلب ـ لقولِ المطّلب : هذا عبدى ـ فلَجّ به الاسم ، وترك به شيبة .

وروى الزبير روايةً أخرى أنّ سلمَى أمّ عبد المطلب حالت بين المطلب وبين ابنها شيبة ، وكان بينها وبينه فى أمره محاورة ، ثم غلَبَها عليه ؛ وقال :

عرفتْ شيبةَ والنجّارُ قَدْ حَلفتْ أبناؤها حولَه بالنَّبْـل تَنْتَضِـلُ

فأما الشّعر الذى لحذافة العُذْرِىّ والذى ذكره شيخُنا أبو عثمانَ فقد ذكره الزبيرُ بنُ بكّار فى كتاب النسب ، وزاد فيه :

كُهولُهمُ خيرُ الكُهولِ ونَسْلُهمْ كَنَسْلِ الملُوك ، لا يَبُورولا يَحْرِى
مُلوكٌ وأبناء الملوكِ وَسادَةٌ تَفلّقُ عنهم بَيضة الطائر الصَّقْرِ
مَتَى تَلقَ منهمْ طامحاً فى عِنانِه تَجدْه عَلَى أجراء والدِهِ يجرى
هَمُ مَلكوا البَطْحاءَ مجداً وسُؤدُداً وهمْ نَكّلوا عنها غواةَ بنى بَكْرِ
وهم يَغفِرون الذّنب يُنقَمُ مثلُه وهمْ تركوا رأىَ السفاهة والهُجْرِ
أخارجَ إما أهلِكَنّ فلا تَزَلْ لهمْ شاكرا حتّى تُغَيَّبَ فى القَبْرِ

قال الزبير : وحدّثنى عن سبب هذا الشعر محمد بن حَسَن ، عن محمد بن طلحة ، عن أبيه ، قال : إن رَكْباً من جُذامَ خرَجوا صادرين عن الحجّ من مكة ، ففقدوا رجلا منهم عاليةَ بيوتِ مكة ، فليقون حُذافة العُذْرىّ ، فربطوه وانطلقوا به ؛ فتلقّاهم عبدُ المطلب مقبلا من الطائف ومعه ابنه أبو لهب يقود به ؛ وعبدُ المطلب حينئذ قد ذهب بصرُه ، فلمّا نظر إليه حُذافة بنُ غانم هتَف به ؛ فقال عبدُ المطلب لابنِه :

وَيْلَكَ ! مَن هذا ؟ قال : هذا حذافة بنُ غانم مربوطا مع ركب . قال : فالحقهم فسَلهم ماشأنهم وشأنُه ، فلَحِقهم أبولهب فأخبرُوه الخبرَ ، فرجع إلى أبيه، فأخبرَه ، فقال: وَيْحك! ما معك ؟ قال : لا والله ما معِي شيء ؛ قال: فالْحَقهم لا أمّ لك ! فأعطهم بيدِك ، وأطلِق الرّجل ، فلحقهم أبولهب ، فقال: قد عرفتم تجارتى ومالى ، وأنا أحلف لكم لأعطينّكم عشرين أوقيّة ذهبا ، وعشرا من الإبل وفرَسا ، وهذا ردائى رَهْنٌ . فقبلوا ذلك منه ، وأطلقوا حذافة ، فلما أقبل به وقرُبا من عبد المطلب ، سَمِع عبدُ المطلب صوتَ أبى لهب، ولم يَسمَع صوت حُذافة ، فصاح به : وأَبِي إنّك لعاصٍ ؛ ارجع لا أمّ لك ! قال : يا أبتَا هذا الرجل معى ؛ فناداه عبدُ المطلب : يا حذافة ؛ أسمِعْنى صوتَك . قال : ها أنذا بأبى أنتَ وأمّى يا ساقَ الحجيج أردِفْنى ؛ فأردَفَه حتّى دخل مكة ؛ فقال حُذافة هذا الشعر .

قال الزبير : وحدّثنى عبدُ الله بن مُعاذ ، عن مَعمَر ، عن ابن شهاب ، قال : أوّل ما ذُكر من عبد المطلب أن قريشا خرجتْ فارّةً من الحرَم خوفا من أصحاب الفيل ، وعبدُ المطلب يومئذ غلامٌ شابٌّ ، فقال : واللهِ لا أخرُج من حَرَم اللهِ أبتغى العِزّ فى غيره! فجلس فى البيت وأجْلَت(١) قريشٌ عنه ، فقال عبدُ المطلب :

لا همّ إنّ المرء يَمْـ ـنَعُ رَحْلَه فامنعْ حَلَالكْ
لا يَغلِبَنّ صَلِيبُهمْ ومِحَالُهمْ أبداً مِحالَكْ(٢)

فلم يزل ثابتاً فى الحرَمَ حتّى أهلكَ اللهُ الفيل وأصحابه ، فرجعت قريش وقد عَظُم فيهم بصَبْره(٣) وتعظيمه محارمَ الله عزّ وجلّ؛ فبينا هو على ذلك – وكان أكبر ولدِه وهو الحارث ابنُ عبدِ المطلب قد بَلَغ الحُلم – أُرِى عبدُ المطّلب فى المنام ، فقيل له : احفر زَمْزَم ، خَبيئة الشيخ الأعْظَم . فاستيْقَظ فقال : اللهمّ بيّن لى الشيخ ، فأُرِى فى المنام مرّة أخرى :

(١) أجلت : تفرقت . (٢) المحال : القدرة .
(٣) ب « بصيرته » تحريف ، صوابه فى ا .

اِحْفِرْ تُكْتَم[1] بين الفَرْث والدَّم ، فى مَبحث الغراب ، فى قَرْية النمل ، مستقبلة الأنصاب الحُمْر . فقام عبد المطّلب فمشى حتى جلس فى المسجد الحرام ينتظر ما سُمِّىَ له من الآيات ، فنَحَر بقرةً فى الحزْورة ، فأفلتتْ من جازِرها بحُشاشةِ نفسِها حتى غَلَب عليها الموتُ فى المسجد فى موضع زَمْزَم ، فاحتمل لحمَا من مكانهِا ، وأقبلَ غراب يهوِى حتى وقع فى الفَرْث فبَحَثَ عن قرية النمل ، فقام عبدُ المطّلب يحفرها، فجاءته قريش فقالت له : ما هذا الصَّنع ، إنا لم نكن نَراك بالجهل ؛ لِمَ تحفِر فى مسجدنا ؟ فقال عبد المطّلب : إنى لحافر هذا البئر ، ومجاهدٌ من صدّنى عنها ، فطفِق يحفِر هو وابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره، فيسفه عليهما الناسُ من قريش فيُنازعونهما ويقاتلونهما . وتناهى عنه ناسٌ من قريش لِما يعلَمون من زعيق نسبه وصِدْقه ، واجتهاده فى دينهم يومئذ ، حتى إذا أتعبه الحفر ، واشتدّ عليه الأذى نَذَر إنْ وفى له عشرة من الولْدان ينحَر أحدَهم ، ثم حفرفأدرك سُيوفاً دُفنتْ فى زَمزم حين دفنتْ ، فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالت : يا عبد المطّلب ، أحْذِنا[2] مما وجدتَ . فقال عبدُ المطّلب: بل هذه السيوف لبيت الله، ثم حَفَر حتى أنبط الماء ، فحفرها فى القَرار ، ثم بحرَها حتى لا تنزَف ، ثم بنى عليها حوْضا وطفِق هو وابنه يَنزِعان فيملآنِ ذلك الحوض، فيشرب منه الحاجّ ، ويَكسره قوم حَسَدة له من قريش بالليل ، فيُصلِحه عبدُ المطلب حين يُصبح ،فلما أكثروا فسادَه دعا عبدُ المطّلب ربّه ، فأُرِىَ ، فقيل له : قل : اللّهم إنى لا أُحلّها لمغتسِل ، وهى لشارب حلّ وبلّ ، ثم كفيتهم، فقام عبد المطلب حين اختلفَ قريش فى المسجد، فنادى بالّذى أُرِىَ، ثم انصرف فلم يكن يُفسِد حوضَه عليه أحدٌ من قريش إلّا رُمى فى جسده بداء ، حتى تركوا حوضَه ذلك وسقايته . ثم تزوّج عبدُ المطلب النّساء ، فوُلِد له عشرةُ رَهْط ، فقال : اللهمّ إنى

---

(١) تكتم ، بضم فسكون : اسم بئر زمزم .
(٢) احذنا : اعطنا .

كنتُ نذرتُ لك نحرَ أحدِهم ، وإنى أُقرِع بينهم ، فأصيب بذلك من شئت ، فأقرَعَ بينهم ، فطارت القُرْعة على عبد الله بن عبد المطلب أبى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وكان أحبَّ ولدِه إليه ، فقال عبدُ المطلب : اللهمّ هو أحبّ إليك أم مائة من الإبل ! فنحَرها عبدُ المطلب مَــكانَ عبد الله ، وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئى فى قريش قطّ .

وَرَوَى الزبير أيضا قال : حدّثنى إبراهيم بنُ المُنذر ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الله ابن عثمان بن سليمان قال : سمعتُ أبى يقول : لما حفرت زمْزم ، وأدرَكَ منها عبدُ المطلب ما أدرَكَ ، وَجَـدتْ قريشٌ فى أنفُسها ممّا أُعطى عبدُ المطلب ، فلقيَه خُوَيلد بنُ أسَد بن عبد العزّى فقال : يابن سلمى ، لقد سقيت ماء رغَدا ، ونثلت عاديّة حَسدا ، فقال : يابن أسَد ، أما إنك تَشرَكُ فى فضلِها ، والله لايُساعدنى أحدٌ عليها ببِرّ ، ولا يقوم معى بارِزاً إلا بذلتُ له خيرَ الصِّهر ، فقال خُوَيلدُ بنُ أسَد :

أقــولُ وما قولى عليهمْ بسُبّةٍ ... إليك ابن سلْمى أنت حافرُ زَمْزَمِ

حَفيرةُ إبراهيمَ يومَ ابن هاجرٍ ... ورَكْضــةُ جبْريلٍ على عهد آدم

فقال عبدُ المطلب : ما وجدت أحدا وَرِث العلمَ إلا قدم غيرَ خُويلد بن أسد .

قال الزّبير : فأما رَكْضةُ جبريل فإن سعيدَ بن المسيَّب قال : إنّ إبراهيم قَدِم بإسماعيل وأمّه مكّة ، فقال لهما : كلاَ من الشجر ، واشرَبا من الشِّعاب . وفارَقهما ، فلمّا ضاقتْ الأرضُ تقطعت المِياه ، فعَطِشا ، فقالت له أمُّه : اصعد وانصَب فى هذا الوادى فلا أرى موتك ولا ترَى موتى ، ففعل ، فأنزل اللهُ تعالى مَلكا من السماء على أمّ إسماعيل ، فأمرَها فصرَختْ به ، فاستجاب لها ، وطار الملك فضربَ بجناَحيه مكانَ زمزم ، فقال : اشربا ، فـكان سَيْحا يَسيح ، ولو ترَكاه ما زال كذلك أبدا ، لـكنّها فَرِقت[1] عليه من العطَش ، فقرت[2] له فى السِّقاء ، وحفرتْ فى البَطْحاء ، فلما نَضَبَ المـاء طوَياه ؛ ثم

(١) فرقت : خافت .

(٢) كذا فى الأصول .

هلك الناس ، ودفنته السُّيول . ثم أُرى عبدُ المطلب فى المنام أن أحفِرْ زمزَم لا تُنْزَب(١) ولا تذمّ ، تُروى الحجيج الأعظم . ثم أُرِى مرّة أخرى أن أحفر الرّواء ، أُعطيتَها على رَغْم الأعداء . ثم أُرِىَ مرّة أخرى ، أن احْفِر تُكْتَم ، بين الأنصاب الُحمر ، فى قَرية النمل . فأصبح يحفر حيث أُرِى . فطفقتْ قريش يستهزئون به ، حتى إذا بدا عن الطىّ وَجد فيها غزالا من ذهب ، وحلية سَيف ؛ فضرَب عليها بالسِّهام ؛ فخرج سهمُ البيت ؛ فكان أوّل حُلِىٍّ حُلّى به الكعبة .

قال الزّبير : وكان حربُ بنُ أميّة بنِ عبدِ شمس نديم عبدِ المطلب ، وكان عبيدُ بن الأبرص تِرْبه ، وبلغ عبيد مائةً وعشرين سنةً ، وبقى عبد المطلب بعده عشرين سنة .

قال : وقال بعض أهل العِلْم : توفِّىَ عبدُ المطلب عن خمس وتسعين سنة ، ويقال : كان يُعرف فى عبد المطلب نور النبوّة ، وهيبةُ الملك ، وفيه يقول الشاعر :

إنّى واللّات والبَيتِ الذى لزّ بالِهبْرِزِ عبدِ المطّلب(٢)

قال الزبير : حدّثنى عمى مصعب بن عبد الله ، قال : بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسَنّ وذهب بصره ، إذ زَحمه رجل ، فقال : مَن هذا ؟ فقيل : رجل من بنى بكر . قال : فما مَنعه أن يُنكِّب عنّى وقد رآنى لا أستطيع لأن أنكّب عنه ! فلما رأى بنيه قد توالوا عَشَرة قال : لا بدّ لى من العصا ؛ فإن اتخذتها طويلةً شقّت علىّ ؛ وإن اتخذتُها قصيرةً قويتُ عليها ، ولكن ينحدب لها ظَهْرى ؛ والحدبة ذلّ ، فقال بَنوه : أو غيرُ ذلك ؟ يوافيك كلّ يوم منّا رجل تتوكأ عليه فتطوف فى حوائجك . قال : ولذلك قال الزبير : ومكارِم عبد المطلب أكثر من أن يُحاطَ بها ؛ كان سيّد قريش غيرَ مُدافَعٍ نَفْسا وأبًا وبيتًا وجمالا وبهاء وكمالا وفعالا ؛ قال أحدُ بنى كنانة يمدحه :

---

(١) لا تنزب عليه : لا تمنعه .

(٢) الهبرز : الأسد .

إنى وما سترتْ قريشٌ والذى ... تعزُو لآلٍ كلُّهنّ ظباء[1]
ووَحقّ من رفع الجبالَ مُنيفةً ... والأرضَ مدًّا فوقهنّ سماء[2]
مُثْنٍ ومهدٍ لابن سلمى مِدحةً ... فيها أداء ذِمامِه ووَفاء

قال الزبير : فأما أبو طالب بنُ عبد المطلب ـ واسمه عبد مناف ، وهو كافلُ رسول اللهِ صلّى الله عليه وآله ، وحاميه من قريش وناصرُه ، والرّفيق به، الشفيق عليه ، ووصيّ عبد المطلب فيه ـ فكان سيد بنى هاشم فى زمانه ، ولم يكن أحد من قريش يسودُ فى الجاهلية بمالٍ إلا أبو طالب وعُتبة بن ربيعة .

قال الزبير : أبو طالب أول من سَنّ القَسامة[3] فى الجاهليّة فى دم عَمرو بن علقمة ، ثم أثبتها السنة فى الإسلام ، وكانت السِّقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب ، ثم سلمها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب .

قال الزبير : وكان أبو طالب شاعراً مجيدا ، وكان نديمه فى الجاهلية مسافرُ بنُ عمرو ابن أمية بن عبد شمس ، وكان قد حَبِنَ[4] فخرج ليتداوى بالحيرة ، فمات بهُبالة[5] ، فقال أبو طالب يرثيه :

ليت شعرى مسافرُ ابنُ أبى عَمْ ... رٍو ولَيتٌ يقولها المحزونُ
كيف كانت مذاقةُ الموت إذ مُتّ ... وماذا بعدَ المماتِ يكونُ !
رَحل الرّكب قافلين إلينا ... وخليلى فى مَرْمسٍ مَدْفونُ
بُورِكَ الميتُ الغريبُ كما بو ... رِكَ نَضرُ الرّيحان والزّيتونُ

---

(١) تعزو : تنسب ؛ وفى ب : « كأنهن » تحريف .
(٢) المنيفة : العالية .
(٣) القسامة بالفتح : الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم .
(٤) الحبن بالتحريك : الاستسقاء .
(٥) هبالة : موضع .

رُزْءُ مَيْتٍ على هُبالةَ قد حا ... لت فَيافٍ من دُونه وحُزونُ
مِذْرَهٌ يدفع الخصومَ بأيْدٍ ... وبوَجهٍ يَزينه العِرْنينُ(١)
كم خليلٍ وصاحبٍ وابن عَمٍّ ... وحميمٍ قَفَتْ عليه المنونُ!
فتعزَّيتُ بالجلادة والصَّبْـ ... ـرِ وإنى بصاحبي لضنينُ

قال الزبير : فلما هلك مسافرٌ نادَم أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبى قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤىّ ، ولذلك قال عمرو لعلىّ عليه السلام يوم الخندق حين بارزه : إن أباك كان لى صديقا .

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خربوذ، قال : كان أبو طالب يحضر أيام الفِجار ، ويحضرُ معه النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو غلام ، فإذا جاء أبو طالب هُزِمت قيس ، وإذا لم يجىء هزمت كنانة، فقالوا لأبى طالب: لاأبالك ! لاتغب عنّا ، فَفَعل .

قال الزبير : فأما الزبير بنُ عبد المطلب فكان من أشراف قريش ووجوهها ، وهو الذى استثنته بنو قصىّ على بنى سهم حين هجا عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قصى فأرسلت بنو قُصَىّ عتبة بنَ ربيعة بن عبد شمس إلى بنى سهم ، فقال لهم : إنّ قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم ، فأرسلونى إليكم فى هذا السفيه الذى هجاهم فى غير ذنب اجترموا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأىُ رأيكم ، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم . فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا . قال : فأسلموه إليهم ، فقال بعضُ بنى سهم : إن شئتم فعلنا ؛ على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا . فقال عتبة : مايمنعنى أن أقول ماتقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائبٌ بالطائف ،

---

(١) الأيد : الشدة . والعرنين : الأنف .

وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول : ولم أكن أجمل الزبير خطرا لابن الزِّبَعْرَى ، فقال قائل منهم : أيها القوم ، ادفعوه إليهم ، فلعمرى إنّ لكم مثل الذى عليكم ، فكثر فى ذلك الكلام واللّغط ، فلما رأى العاصُ بنُ وائل ذلك دعا بُرْمة ، فأوثق بها عبد الله ابن الزِّبَعْرَى ، ودفعه إلى عتبة بن ربيعة ، فأقبل به مربوطا حتى أتى به قومه ؛ فأطلقه حمزة بنُ عبد المطلب وكساه ، فأغرَى ابن الزِّبعرى أناس من قريش بقومه بنى سهم ، وقالوا له : أهجُهم كما أسلموك ، فقال :

لَعَمرِىَ ماجاءتْ بنُكْرٍ عشيرتى   وإن صالحتْ إخوانَها لا ألومُها
فوَدَّ جُناة الشرّ أن سيوفنـــا   بأيماننـــا مسلولةٌ لا نشيمها
فيقطع ذو الصِّهر القريب ويتركوا   غماغمَ منها إذ أجدّ يَريمها[1]
فإنّ قصيًّا أهلُ مجدٍ وثروةٍ   وأهلُ فعـال لا يُرام قديمها
همُ منعوا يومَىْ عكاظَ نساءنا   كما منع الشَّوْلَ الهجانَ قرومُها[2]
وإن كان هيجٌ قدّموا فتقدّموا   وهل يمنع المخزاة إلّا حميمُها !
محاشيدُ للمقرَى سراعٌ إلى النّدَى   مَرازِبة غلبٌ رِزانٌ حُلومُها[3]

قال : فقدِم الزّبير بنُ عبد المطلب من الطائف ، فقال قصيدته التى يقول فيها :

فـــلولا الحُمْسُ لم يلبس رجالٌ   ثيـــابَ أعزة حتى يموتوا[4]

وقد ذكرنا قطعةً منها فيما تقدّم .

قال الزبير : وقال الزبير بنُ عبد المطلب أيضا فى هذا المعنى :

---

(١) يريمها : يطلبها .
(٢) الشائلة من الإبل : التى أتى عليها من حملها سبعة أشهر فخف لبنها . وجمعه شول ، وهجان الإبل : كرامها .
(٣) المرزبان : الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، معرب ؛ والأصل فيه أحد مرازبة الفرس ، وغلب : جمع أغلب ، وهو فى الأصل الغليظ الرقبة ، يصفون أبداً السادة بغلظ الرقبة وطولها .
(٤) الحمس هنا : قريش ومن ولدت ؛ سموا حمساً لأنهم تحمسوا فى دينهم ؛ أى تشددوا .

قومى بنو عبدِ منافٍ إذا أظلم مَنْ حولىَ بالجندَلِ
لا أسدٌ لن يُسلمونى ولا تَيمٌ ولا زُهرة للنَّيطَلِ (١)
ولا بنو الحارث إن مرَّ بى يومٌ من الأيام لا ينجلى
يأيُّها الشاتِمُ قومى ولا حقّ له عندهُمُ أقبِلِ
إنِّى لهمْ جارٌ لئن أنت لم تُقصِر عن الباطل أو تَعدلِ

قال الزبير : ومن شعر الزبير بن عبد المطلب :

ياليت شعرى إذا ماحُمّتى وقعت ماذا تقول ابنتى فى النَّوح تنعانى !
تنعى أباً كان معروف الدِّفاع عن الـ مَولى المضافِ وفكاكاً عن العانى (٢)
ونعمَ صاحبُ عانٍ كان رافده إذا تضجّع عنه العاجز الوانى (٣)

قال الزّبير : وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب ذا نظر وفكر ، أتى فقيل له : مات فلانٌ ـ لرجل من قريش كان ظلوما ـ فقال : بأىّ عقوبة مات ؟ قالوا : مات حتفَ أنفه ! فقال: لئن كان ماقلتموه حقّاً إنّ للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم .

قال : وكان الزبير يكنى بأبى الطاهر ، وكانت صفيّة بنت عبد المطلب كَنَتْ ابنها الزبير بن العوام أبا الطاهر دهراً بكُنية أخيها ، وكان للزبير بن عبد المطلب ابنٌ يقال له الطّاهر ، كان من أظرف فِتيان مكة ، مات غلاماً ، وبه سمّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ابنه الطاهر ، وباسم الزّبير سمّت أخته صفية ابنها الزّبير ، وقالت صفيّة ترثى أخاها الزبير بن عبد المطلب :

بَكِّى زبيرَ الخير إذ ماتَ إنْ كنتِ على ذى كَرم باكيَهْ

---

(١) النيطل : الموت الوحىّ .
(٢) العانى : الأسير .
(٣) التضجيع فى الأمر : التقصير فيه .

لو لفظته الأرضُ مالمتُها أو أصبحتْ خاشعـة عاريَهْ
قد كان فى نفسىَ أن أترُكَ الـمَوتى ولا أُتبِعُهمْ قافيَـهْ
فلم أُطِقْ صَبْراً على رُزْئه وجدتهُ أقربَ إخوانيَهْ
لو لم أَقُلْ مِنْ فىَّ قولاً له لَقَضَتِ العَبْرة أضلاعيَهْ
فهوَ الشآمى واليمانى إذا ماخضروا ، ذو الشفرة الدّاميَهْ

وقال ضِرار بن الخطَّاب يبكيه :

بَكَى ضُباعُ على أبيـ ـكِ بكاء محزونٍ أليمْ
قد كنتُ أنشدُه فلا رَثَّ السِّلاح ولا سليمْ
كالكَوْكب الدُّرىّ يعـ ـلو ضوءه ضوء النّجومْ
زخرتْ به أعراقُـه ونَمَـاه والدُه الكريمْ
بين الأغَـرِّ وهاشمٍ فَرْعَين قد فَرَعا القُرومْ

***

فأما القَتُول الخَثْعَميّة التى اغتصبها نبيه بنُ الحجّاج السّهمىّ من أبيها ، فقد ذكر الزّبير بن بكّار قصّتها فى كتاب "أنساب قريش" .

قال الزبير : إنّ رجلا من خثْعم قَدِم مكّة تاجرا ومعه ابنة يقال لها القَتُول ، أوضأ نساء العالمين ، فَعَلِقَها نبيه بن الحجّاج السَّهمىّ ، فلم يَبرح حتىّ غاب أباها عليها، ونقلها إليه ، فقيل لأبيها : عليك بحِلْف الفضول ، فأتاهم فَشكا إليهم ذلك ، فأتوا نبيه بن الحجّاج فقالوا له : أَخرج ابنةَ هذا الرجل ـ وهو يومئذ منتبذ [1] بناحية مكة ،وهى معه ـ وإلا فإنّا مَن قد عَرفت ، فقال : ياقوم ، متِّعونى بها الليلة ، فقالوا : قبحك الله !

(١) منتبذ ، أى متنح ناحية مكة .

ما أجهلك ، لا والله ولا شَخْب لَقْحة ، فأخرجَها إليهم فأعطوها أباها ، فقال نبيه بن الحجّاج فى ذلك قصيدةً أوّلها :

راح صَحْبى ولمْ أحىِّ القَتولَا لم أودِّعهمُ وَدَاعاً جميلا [1]
إذ أجدَّ الفُضُولُ أنْ يمنعوها قد أرانى ولا أخافُ الفُضولا

فى أبيات طويلة .

***

وأما قصة البارقىّ فقد ذكرها الزبير أيضا .

قال : قدِم رجلٌ من ثُمالةَ من الأزْد مكةَ ، فباع سِلْعة من أبىّ بنِ خَلَف الجُمحىّ فمطله بالثمن ؛ وكان سيِّئَ المخالطة ، فأتى الثمالىّ أهلَ حلف الفُضول فأخبرهم، فقالوا: اذهب فأخبره أنك قد أتيتنا ، فإن أعطاكَ حقَّك وإلا فارجع إلينا ، فأتاه فأخبرَه بما قال أهلُ حِلْف الفُضُول ؛ فأخرَج إليه حقَّه فأعطاه ، فقال الثُّمالىّ :

أيفجُر بى ببطْنِ مكّةَ ظالماً أُبَىٌّ ولا قَوْمى لَدَىَّ ولا صَحْبى
وناديتُ قومى بارقاً لتُجيبَنى وكم دونَ قَوْمِى مِن فَيافٍ ومن سُهْبِ [2]
ويأبَى لكمْ حِلْف الفُضول ظُلامتى بنى جُمَحٍ والحقّ يؤخذ بالغصْبِ

***

وأمّا قصّة حِلْف الفُضول وشرفه فقد ذكرها الزّبير فى كتابه أيضا، قال: كان بنو سهم وبنو جُمَح أهلَ بَغْىٍ وعُدْوان ؛ فأكثروا من ذلك، فأجمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسَد وبنو زُهْرة وبنو تَيْم على أن تحالفوا وتعاقدوا عَلَى ردّ الظّلم بمكة ، وألّا يُظلَمَ أحدٌ

---

(١) ب : « صبحى » تحريف ، صوابه فى ا .
(٢) الفيف : المفازة التى لا ماء فيها ؛ وإذا أنثت فهى الفيفاء وجمعها الفياف ، والسهب بفتح السين : الأرض الواسعة ، يجمع على سهب (بضمتين) وسكنت الهاء للشعر .

إلا مَنَعوه ، وأخذوا له بحقّه ، وكان حِلْفهم فى دارِ عبد الله بن جُدْعان ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « لقدشهدتُ فى دار عبدِ الله بن جُدْعان حِلْفا ماأُحِبّ أنّ لى به حُمْرَ النَّعَم ، ولو دعيتُ به اليومَ لأجبتُ، لايزيده الإسلام إلّا شِدّة » .

قال الزبير : كان رجلٌ من بنى أسَد قد قدم مكة معتمِرا ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بنُ وائل السّهمىّ ،فآواها إلى بيته ، ثم تغيّب، فابتغى الأسدىّ[1] متاعَه فلم يقدِر عليه ، فجاء إلى بنى سَهْم يستَعْدِيهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لاسبيل له إلى ماله ، وطوّف فى قبائل قريش يستنفِر بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلمّا رأى ذلك أشرف على أبى قُبيس حين أخذتْ قريش مجالسَها ، ونادى بأعلى صوته :

يالَلرّجال لِمظلومٍ بِضاعَتُه ... ببطْن مكة نائِى الأهلِ والنّفَرِ
ومُحرِمٍ أشعثٍ لم يقضِ عُمْرتَه ... يا آلَ فِهْرٍ وبين الحِجْرِ والحجَرِ[2]
هل مُنصِف من بنى سَهْم فمرتجعٌ ... ماغيّبوا أم حلال مالُ معتمر[3] !

فأعظمتْ ذلك قريش ، وتكلّموا فيه ؛فقال المطيّبون : والله إن قمنا فى هذا ليغضبنّ الأحلاف ؛ وقالت الأحلاف : والله إنْ قمنا فى هذا ليغضبنّ المطيّبون ؛ فقالت قبائل من قريش : هلمّوا فلنحتلف حِلفاجديدا ؛لننصرنّ المظلوم على الظالم مابلّ بحرٌ صوفة. فاجتمعت هاشم والمطّلب وأسدٌ وتيم وزُهرة فى دار عبد الله بن جُدْعان ورسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ معهم وهو شابّ ابن خمس وعشرين سنة لم يوحَ إليه بعدُ ، فتحالفوا ألّا يُظلَمَ بمكة غريبٌ ولا قريبٌ ولا حرّ ولا عبدإلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ، ويردُّوا إليه مظلمَته من أنفسهم ومن غيرهم، ثم عمَدوا إلى ماء زَمزَم فجعلوه فى جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، فغسلوا به أركانه ، ثم جمعوه وأتوهم به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

(١) فى ا ، وب : « الزبيدى » ، تصحيف .
(٢) ب : « يا أهل » .
(٣) ا ، ب : « ضلال » تحريف .

فقالوا له : أدِّ إلى هذا حقه ، فأدَّ إليه حقه ، فمكثوا كذلك دهراً لا يُظلَم أحد بمكة إلا أخذوا له حقه ؛ فكان عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أنَّ رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ؛ حتى أدخل فى حِلف الفضول .

* * *

قال الزبير : وحدثنى محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن موسى بن محمد ، عن أبيه ، أنّ الحلف كان على ألّا يدَعوا بمكةَ كلها ولا فى الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردّوا عليه ماله ومظلمته ، أو يُبلوا فى ذلك عُذْرا ؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى التآسى فى المعاش .

قال الزبير : ويقال : إنه إنما سُمىَ حِلْف الفضول لأن رجالا كانوا فى وجوههم تحالفوا على ردّ المظالم ، يقال لهم فُضيل وفَضّال وفَضْل ومفضل ، فسمِّىَ هذا الحلف حِلْف الفضول ؛ لأنه أحيا تلك السنّة التى كانت ماتت .

قال الزبير : وقدم محمد بن جبير بن مطعِم على عبد الملك بن مروان —وكان من علماء قريش— فقال له : ياأبا سعيد ، ألم نكن —يعنى بنى عبد شمس— ، وأنتم فى حلف الفضول؟ فقال : أمير المؤمنين أعلم ؛ قال : لتخبرنّى بالحق ، قال : لا والله ياأمير المؤمنين ؛ لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، وما كانت يدنا ويدكم إلّا جميعا فى الجاهلية والإسلام .

* * *

قال الزبير : وحدثنى محمد بنُ حسن ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله ابن الهادى الليثىّ ، أنّ محمد بن الحارث أخبره ، قال : كان بين الحسين بن علىّ عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان كلام فى مال كان بينهما بذى المرْوة ، والوليد يومئذ أميرُ المدينة فى أيام معاوية ، فقال الحسين عليه السلام : أيستطيل الوليد علىّ بسلطانه!

أقسم بالله لينصفنّى من حقى أو لآخذنّ سيفى ثم أقوم فى مسجد الله فأدعو بحِلْف الفضول! فبلغت كلمتُه عبدَ الله بن الزبير ، فقال : أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً . فبلغت المِسْور بن مخرمة بن نوفل الزهرىّ ، فقال مثلَ ذلك ، فبلغت عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمىّ ، فقال مثل ذلك ، فبلغ ذلك الوليد ابن عتبة ، فأنصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضىَ .

***

قال الزبير : وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصّة مثل هذه ، كان بينهما كلامٌ فى أرض للحسين عليه السلام ، فقال له الحسين عليه السلام : اختر منّى ثلاث خصال ؛ إمّا أن تشترىَ منّى حقى ، وإمّا أن تردّه علىّ ، أو تجعلَ بينى وبينك ابن عمر أو ابن الزبير حكمًا ؛ وإلا فالرابعة ، وهى الصَّيْلَم . قال معاوية : وماهى ؟ قال : أهتف بحِلْف الفضول ، ثم قام فخرج وهو مُغضَب ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير فأخبره ، فقال : والله لئن هتفتَ به وأنا مضطجع لأقعدنّ ، أو قاعدٌ لأقومنّ ، أو قائم لأمشينّ ، أو ماشٍ لأسعينّ ، ثم لتنفدنّ روحى مع روحك ، أو لينصفنّك . فبلغتْ معاوية ، فقال : لا حاجة لنا بالصَّيْلم ؛ ثم أرسل إليه أن ابعث فانتقد مالك ؛ فقد ابتعناه[1] منك .

قال الزبير : وحدّثنى بهذه القصة علىُّ بن صالح عن جدّى عبد الله بن مُصعب ، عن أبيه ، قال : خرج الحسينُ عليه السلام من عند معاوية وهو مغضَب ، فلقىَ عبدَالله بن الزبير ، فحدّثه بما دار بينهما ، وقال : لأخيّرنّه فى خصال ، فقال له ابن الزبير ماقال ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : لقد لقينى الحسين فخيّرك فى ثلاث خصال ، والرابعة الصَّيْلم ، قال معاوية : فلا حاجة لنا بالصيلم ، أظنّك لقيتَه مغضَبا ! فهات الثلاث ، قال : أن تجعلنى

---

(١) ب : « وابتعناه » .

أو ابن عمر بينك وبينه . قال : قد جعلتك بيني وبينه ، أو جعلت ابن عمر أو جعلتكما جميعا . قال أو تقرّ له بحقه ثم تسأله إياه . قال : قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إيّاه ، قال : أو تشريه منه ، قال : قد اشتريته منه ، فما الصيلم؟ قال : يهتف بحلف الفضول ، وأنا أوّل من يجيبه. قال : فلا حاجة لنا فى ذلك .

وبلغ الكلام عبد الله بن أبى بكر والمِسْور بن مخرمة ، فقالا للحسين مثل ما قاله ابنُ الزبير.

* * *

فأمّا تفجرُّ المــاء من تحت أخفاف بعيرِ عبد المطلب فى الأرض الجُرُز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة ، قال : لما أنبط[1] عبدُ المطلب الماء فى زمزم حسدتْه قريش ، فقالت له : ياعبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإنّ لنا فيها حقّــا فأشركنا معك . قال : ماأنا بفاعل ، إنّ هذا الأمر أمرٌ خُصصتُ به دونكم وأعطيتُه من بينكم ، قالوا له : فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم حَكما أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هُذيم ، قال: نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبدُ المطلب فى نفرٍ من بنى عبدِ مناف ، وخرج من كلّ قبيلة من قبائل قريش قوم ، والأرض إذ ذاك مَفاوِز[2] ، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوِز بين الحجاز والشام نَفِد ما كان مع عبد المطلب وبنى أبيه من الماء فعطِشوا عطشا شديدا ، فاستسقوا قومَهم ، فأبوْا أن يَسقُوهم ، وقالوا : نحن بمفَازة ونخشى على أنفسنا مِثل الذى أصابكم . فلمّا رأى عبدُ المطلب ماصَنَع القومُ وخافَ على نفسه وأصحابه الهلاك ، قال لأصحابه : ماترَون ؟ قالوا : مارأيُنا إلّا تبعٌ لرأيك ، فمُرْنا بما أحببْت ، قال : فإنّى أرى أن يحفِر كلُّ رجل منّا حفرةً لنفسه بما معه الآن من القوّة ؛ فكلّما مات رجل دفنَه أصحابه فى حُفرته ؛ حتى يكونَ رجلٌ واحد ، فضيْعة

---

(١) أنبط الماء : استخرجه وطلبه .

(٢) المفاوز : جمع مفازة ، وهى البرية القفر ، أو التى لا ماء فيها ؛ وسميت مفازة لأن من خرج منهـا وتباعد عنها فاز وغنم .

رجل واحد أيسَرُ من ضَيْعة رَكْب ، قالوا : نِعْمَ ما أشرتَ ! فقام كلّ رجل منهم فحَفر حفيرةً لنفسه ، وقعدوا ينتظِرون الموت . ثم إن عبدَالمطلب قال لأصحابه : والله إنّ إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ؛ لا نضرب فى الأرض فنَطلب الماء لَعجْز ؛ قومُوا فعَسَى الله أن يرزقنا ماء ببعض الأرض ، ارتحلوا . فارتحلوا ومَن معَهم من قبائل قريش ينظُرون إليهم ماهم صانعون ، فتقدّم عبدُ المطلب إلى راحلته فركبها ، فلمّا انبعثتْ به انفجر من تحت خُفّها عَين من ماء عَذب ، فكبّر عبدُ المطلب وكبّر أصحابه ، ثم نَزَلَ فشَرِب وشرِب أصحابُه ، واستقوْا حتى ملأوا أسقيتَهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم : هلمُّوا إلى الماء ، فقدأسقانا الله، فاشرَبوا واستَقُوا، فجاءوا فشربوا واستَقَوْا ،ثم قالوا : قد واللهقَضى الله لك علينا ، والله لا نخاصِمُك فى زمزم أبدا ، إنّ الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاكزمزم ، فارجعإلى سِقايتكراشداً . فرجعورجَعوا معه ، لميصلوا إلى الكاهِنة وخلَّوا بينه وبين زمزم[1] .

***

وروَى صاحبُ كتاب الواقدىّ أنّ عبد الله بن جعفر فاخَرَ يزيد بن معاوية بين يدىْ معاوية ؛ فقال له : بأىِّ آبائك تفاخِرنى ؟ أبحَرْب الّذى أجرْناه ، أم بأميّة الّذى مَلكناه ، أم بعبد شمس الّذى كَفَلْناه ! فقال معاوية : لحربِبن أمية يقالهذا ! ما كنت أحسَب أن أحداً فى عصر حَرْبٍ يزعمُأنه أشرف من حَرْب ! فقال عبدُ الله: بلىأشرف منه من كَفأ عليه إناءه وجلّله[2] بردائه ! فقال معاوية ليزيد: رويْدا يا بُنىّ ، إنّ عبد الله يفخَر عليك بك لأنّك منه وهو منك . فاستَحْيا عبدُ الله وقال : يا أميرَ المؤمنين يَدان انْتُشطتا[3] وأخَوان اصطرَعا . فلما قام عبدُالله ، قالمعاوية ليزيد : يا بُنىّ إياك ومنازعة

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) جلله بردائه: غطاه ؛ وفى حديث على : «اللهم جللقتلة عثمان خزياً» ، أى غطهم به وألبسهم إياه .

(٣) انتشطتا ، على البناء للمجهول ؛ انتزعتا واختلستا .

بنى هاشم فإنّهم لا يجهلون ما عَلِموا، ولا يجدُ مُبغضهم لهم سَبًّا ، قال: «أمّا قوله: أبحَرْبِ الذى أجرناه » ، فإنّ قريشا كانت إذا سافرت فصارتْ على العَقَبة لم يتجاوزها أحدٌ حتى تجوزَ قريش ، فخرج حربٌ ليلةً فلمّا صار على العَقَبة لقيَه رجلٌ من بنى حاجب بن زُرارة تميمىّ فتنحنَح حربُ بنُ أميّةوقال : أنا حرب بن أميّة ، فتنحنَح التميمىّ وقال : أنا ابن حاجب ابن زرارة ، ثم بدر فجاز العَقَبة ، فقال حرب : لاها اللهِ لا تدخل بعدها مكّة وأنا حىّ ! فمكث التميمىّ حِيناً لا يدخل ، وكَانَ مَتجَرُهُ بمكّة ، فاستشار بها بمن يستجير من حَرْب ، فأشيرَ عليه بعبدِ المطّلب أو بابنهِ الزّبير بن عبدِ المطلب . فركب ناقته وصار إلى مكّة لَيْلا ، فدَخَلها وأناخَ ناقتَه بباب الزّبير بنِ عبد المطلب ، فرَغت[1] الناقةُ ؛ فخرج إليه الزبير فقال : أمستجِير فتُجار ، أم طالبُ قِرىً فتقرَى ! فقال :

لاقَيتُ حَرْبا بالثّنيّة مُقبِــلا ... والليــلُ أبلجَ نورُه للسّارِى
فعلا بِصوتٍ واكْتنَى ليَروعَنى ... ودَعا بدَعْوة مُعلِنٍ وشعــارِ
فتركتُهُ خَلْفى وجُزْتُ أمامَهُ ... وكذاكَ كنتُ أكونُ فى الأسفار
فمضى يهــدِّدنى ويمنع مكّةً ... ألّا أحُلّ بهـــا بدارِ قَرارِ
فتركتُهُ كالــكَلْب يَنبَح وحدَه ... وأتيتُ قَرْمَ مَـكارِمٍ وفَخارِ[2]
لَيثاً هِزَبرا يُستجــارُ بقربه ... رَحْبَ المَباءةِ مكرِماً للجارِ[3]
وحلفتُ بالبَيْت العَتيق وحجّه ... وبزمزمٍ والحِجْر والأستارِ
إنّ الزبير لَمــانِعى بمهنّدٍ ... صافى الحديدة صارمٍ بتّــارِ

فقال الزّبير : اذهَب إلى المَنزل فقد أجرتُك. فلمّا أصبح نادى الزبير أخاه الغَيْداق،

---

(١) يقال : رغت الناقة ترغو رغاء : صوتت وضجت . وفى المثل : « كفى برغائها مناديا » ، أى أن رغاء الناقة يقوم مقام النداء فى التعرض للضيافة والقرى .

(٢) القرم من الرجال : السيد المعظم .

(٣) الهزبر : الأسد ، والمباءة : المراح الذى تبيت فيه الإبل .

فخرجا متقلّدين سيفَيْهما ، وخرج التميمىُّ معهما ، فقالا له : إنّا إذا أجرْنا رجلا لم نمشِ أمامه ، فامش أمامنا ترمُقك أبصارُنا كى لا تُختَلس مِن خَلْفِنا . فجعل التميمىُّ يشقّ مكة حتى دخل المسجد ، فلما بَصُر به حرب قال : وإنّك لهاهنا ! وسبق إليه فلطَمه ، وصاحَ الزبيرُ : ثَكِلتْك أمّك ! أتلطِمه وقد أجرتُه ! فثنى عليه حَرْب فلطمَه ثانية ، فانتضَى الزبير سيفَه ، فحمل على حَرْب بين يديه ، وسعى الزبير خلفه فلم يَرجِع عنه حتى هجَم حرْب على عبد المطلب دارَه ، فقال : ما شأنُك ؟ قال : الزبير ، قال : اجلسْ ، وكفأ عليه إناء كان هاشم يهشِم فيه الثَّريد ، واجتمع الناسُ ،وانضمّ بنو عبد المطلب إلى الزبير ، ووقَفوا على باب أبيهم بأيديهم سُيوفُهم ، فأزّر عبد المطلب حرْبا بإزار كان له ، ورَدّاه برداء له طَرَفان ، وأخرَجه إليهم ، فعلموا أنّ أباهم قد أجاره .

وأما معنى قوله : « أم بأميّة الذى ملَكناه ! » ، فإن عبد المطّلب راهَنَ أميّة بن عبد شمس على فرسين ، وجعل الخطر لمن سبقت فرسهُ مائةً من الإبل وعشرة أعبُد وعشر إماء واستعباد سنة ، وجزّ الناصية . فسبق فرسُ عبد المطلب فأخذ الخطَر فقَسمه فى قريش ، وأراد جزّ ناصيتِه ، فقال : أو أفتدى منك باستعباد عشر سنين ! ففعل ، فكان أميّة بعدُ فى حَشَمِ عبد المطلب وعَضاريطه[1] عشر سنين .

وأما قوله : « أمْ بعبد شَمس الذى كفلناه ! » فإن عبدَ شمس كان مُملقا لا مالَ له ، فكان أخوه هاشم يكفلُه ويمونُه إلى أن مات هاشم .

***

وفى كتاب " الأغانى " ، لأبى الفَرَج أنّ مَعاوية قال لدغفَل[2] النّسابة : أرأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيته رجلا نَبيلا جميلا وضيئا ، كأنّ على

(١) العضاريط : جمع عضرط ، وهو الرجل الذى يخدم بطعام بطنه .

(٢) فى الأصول : « دعبل » ، تصحيف ؛ وصوابه من الأغانى .

وجهه نورَ النبوّة[1] . قال : أفرأيت أميّة بن عبد شمس[2] ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيتُه رجلا ضئيلا[3] متحنيا أعمى يقوده عبدُه ذكْوان ، فقال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو ، قال : أنتم تقولون ذلك ، فأمّا قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبدُه[4] .

***

ونَقلتُ من كتاب "هاشمٍ وعبدِ شمس" لابن أبي رُؤبة الدباس .

قال : روَى هشامُ بنُ الكلبي عن أبيه ، أنّ نوفلَ بنَ عبد مناف ظَلَم عبد المطلب ابن هاشم أركاحا له بمكّة ـ وهي الساحات ـ وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس ، وعبدُ المطلب يداً مع هاشم ، فاستنصر عبدُ المطلب قوماً من قومه فقصّروا عن ذلك ، فاستنجد أخواله من بني النّجار بِيَثْرِب ، فأقبل معه سبعون راكبا ، فقالوا لنوفل : لا والله يا أبا عَدِيّ ، ما رأينا بهذا الغائطِ ناشئا أحسنَ وَجْها ، ولا أمدَّ جِسْما ، ولا أعفَّ نَفْساً ، ولا أبعدَ من كلّ سوء من هذا الفتى ـ يعنُون عبد المطلب ـ وقد عرفتَ قرابته منّا ، وقد منعتَه ساحاتٍ له ، ونحن نحبُّ أن تردّ عليه حقّه ، فردّه عليه ، فقال عبدُ المطلب :

تأبَى مازِنٌ وبنُو عَدِيّ ... وذُبْيانُ بنُ تَيْمِ اللّاتِ ضَيْمِي
وزادتْ مالكٌ حتى تناهتْ ... ونكّب بعدُ نَوْفَلُ عن حَرِيمِي

قال : ويقال إنّ ذلك كان سبب مخالَفة خزاعة عبد المطلب .

قال : وروَى أبو اليَقظان سُحَيم بن حفص ؛ أنّ عبد المطلب جمعَ بنيه عند وفاته ـ وهم عَشرة يومئذ ـ فأمَرهم ونَهاهم وأوصاهم وقال : إيّاكم والبَغْيَ ، فو الله ما خَلَق اللهُ شيئاً

---

(١) الأغاني : « من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس ، فقال : صفهما لي ، فقال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » .

(٢) الأغاني : « قال : فصف لي أمية » . (٣) الأغاني : « نحيف الجسم ضريراً » .

(٤) الأغاني ١ : ١٢ (طبعة دار الكتب) .

أعجل عقوبة من البَغْى ، وما رأيت أحداً بقِيَ على البغى إلّا إخوَتكم من بنى عبدِ شمس.

ورَوَى الوليدُ بنُ هشام بن قحذم ، قال : قال عثمان يوما : ودِدتُ أنّى رأيتُ رجلا قد أدرك الملوك يحدّثنى عمّا مضى ؛ فذُكِر له رجل بحضْرَ مَوْت ، فبعث إليه فحدّثه حديثا طويلا تركْنا ذِكرَه ـ إلى أن قال : أرأيت عبد المطّلب بن هاشم؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلا قِعْدا[1] أبيضَ طويلا مَقْرونَ الحاجبين ، بين عينيه غُرّة يقال إن فيها بركة ، وإن فيه بركة ، قال : أفرأيت أميّة بنَ عبد شمس ؟ قال : نعم ، رأيتُ رجلا آدمَ دميما قصيرا أعمى يقال : إنه نَكد ، وإن فيه نَكَدا ، فقال عثمان : « يكفيك من شرٍّ سماعُه[2] » وأمر بإخراج الرّجل.

ورَوَى هشامُ بنُ الكَلْبي أن أميّة بنَ عبد شمس لمّا كان غلاما ، كان يَسرِق الحاجّ فسمّى حارِساً .

وروى ابنُ أبى رُؤْبة فى هذا الكتاب أن أوّل قَتِيل قتَلَه بنو هاشم من بنى عبدِ شَمس عفيف بن أبى العاص بن أميّة ، قتلَه حمزةُ بن عبد المطلب ، ولم أقف على هذا الخبر إلّا من كتاب ابن أبى رؤبة .

قال : وممّا يصدّق قول من رَوَى أنّ أميّة بنَ عبد شمس استعبَدَه عبدُ المطلب شعر أبى طالب بن عبد المطّلب حين تظاهرتْ عَبْد شمس ونَوْفل عليه وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحَصَروهما فى الشّعب ، فقال أبو طالب :

تَوالَى علينا مَوْليانا كِلاهُما ... إذا سُئلا قالا إلى غيرِنا الأمرُ
بلى لهما أمرٌ ولكنْ تَراجَما ... كما ارتجمَتْ من رأس ذى القلَع الصَّخرُ
أخصّ خصوصاً عبد شمس ونَوْفلا ... هما نَبذانا مِثلَ ماتُنبَذ الجمرُ
هُما أغمَضا للقوم فى أخويهما ... فقد أصبحتْ أيديهما وهما صِفْرُ

(١) القعد : الحسن الهيئة .

(٢) مثل ، ولفظه فى مجمع الأمثال ١ : ١٩٤ : « حسبك من شر سماعه » ، وأول من قاله أم الربيع ابن زياد العبسى .

قديماً أبوهم كان عبداً لجدّنا   بنى أمَةٍ شهلاء جاش بها البحرُ
لقد سفهوا أحلامَهم فى محمدٍ   فكانوا كجُعْرِ بئس ما ضفَطت جُعْرُ(١)

***

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبى عثمان ، وقد نمزجه بكلام آخر لنا أو لغيرِ نا ممّن تعاطى الموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان : فإن قالت أميّة : لنا الوليد بنُ يزيد بن عبدالملك بنِ مَرْوان بن الحكم ابن أبى العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصىّ ، أربعة خلفاء فى نَسَق ، قُلنا لهم : ولبنى هاشم: هارون الواثق بنُ محمّد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدىّ بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علىّ السجّاد ، كان يصلّى كلّ يوم وليلة ألفَ ركعة، فكان يقال له السجّاد لعبادتِه وفضله ، وكان أجملَ قريش على وجهِ الأرض وأوسمَها ، وُلِد ليلةَ قتل علىّ بن أبى طالب عليه السلام فسُمّىَ باسمه ، وكنى بكنيَتِه ،فقال عبدالملك: لا والله لا أحتمل لك الأسم ولا الكُنْية ، فغيّر أحدهما ، فغيّر الكنية فصيّرها أبا محمد بن عبد الله ، وهو البحر ، وهو حَبْر قريش ، وهو المفقّه فى الدين المعلّم التأويل ، ابن العباس ذى الرأى ، وحليم قريش ، بن شيبة الحمد ، وهو عبدُ المطلب سيّد الوادى بن عمرو ،وهو هاشم ، هَشَم الثَّريد ، وهو القمَر سمّى بذلك لجماله ، ولأنّهم كانوا يقتدون ويهتدون برَأيه، ابن المغيرة وهو عبدُ مناف ، بن زيد ، وهو قُصَىّ وهو مجمِّع ، فهؤلاء ثلاثة عشر سيّدا لم يُخرَم منهم واحد ، ولا قصّر عن الغاية ، وليس منهم واحد إلّا وهو ملقّب بلقب اشتقّ له من فِعلِه الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة ،أو موضع للخلافة أو سيّد فى قديم الدهر منيع ، أو ناسك مُقدّم ، أو فقيه بارع ، أو حليم ظاهر الرّكانة(٢)؛ وليس هذا لأحد سواهم ، ومنهم خمسة خلفاء فى نَسَق ، وهم أكثرُ ممّا عدّته الأموية ، ولم يكن

(١) ضفطت : أحدثت، والجعر :جمع جعراء ، وهى الاست .
(٢) الركانة : الوقار والهيبة .

مروانُ كالمنصور لأنّ المنصور مَلَكَ البلاد ودوّخ الأقطار ، وضَبَط الأطراف اثنتين وعشرين سنةً ، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كلّه ، وإنّما بقىَ فى الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من بَعْلِها الأوّل : يابن الرّطبة . ولئن كان مَرْوان مستوجبا لاسم الخلافة مع قلّة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلْدان فضْلا عن الأطراف ، فابن الزبير أولَى بذلك منه ، فقد كان مَلَكَ الأرض إلّا بعضَ الأرْدُنّ ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولادَه لما اتّصل بسلطان مَرْوان اتّصل عند القوم ما انقطع منه وأخفَى مَوضعَ الوَهَن عند من لا عِلم له ، وسِنُو المَهْدِىّ كانت سِنِى سلامة ، وما زال عبدُ الملك فى انتقاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كمُلك هارون ، ولا مُلك الوليدِ كملك المُعتصِم .

قلت : رحِمَ الله أبا عثمان ! لو كان اليومَ لعَدّ من خلفاء بنى هاشم تسعةً فى نَسَق : المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفِى بن المستظهر بن المقتدر . والطالبيّون بمصر يعُدّون عشرةً فى نَسَق : الآمِر بن المستعلى بنِ المستنصِر بنِ الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعتزّ بن المنصور بن القائم بن المهدىّ .

قال أبو عثمان : وتفخَر عليهم بنو هاشم بأن سِنِى مُلْكهم أكثر ، ومدّته أطوَل ، فإنّه قد بلغتْ مدّة مُلكهم إلى اليوم أربعا وتسعين سنة . ويَفخرون أيضاً عليهم بأنّهم ملكوا بالميراث وبحقّ العصبة والعمومة ، وأن مُلْكهم فى مَغرس نبوّة ، وأن أسبابهم غير أسباب بنى مروان ، بل ليس لبنى مَرْوانَ فيها سبب ، ولا بينهم وبينها نَسَب ، إلا أن يقولوا: إنّا من قريش فيُساووا فى هذا الاسم قريش الظواهر ، لأن رواية الراوى: «الأئمة من قريش» واقعة على كلّ قرشىّ ، وأسباب الخلافة معروفة ، وما يدّعيه كلّ جيل معلوم ؛ وإلى كلّ ذلك قد ذهبَ الناس ، فمنهم من ادّعاه لعلىّ عليه السلام لاجتماع القرابة والسابقة والوصيّة ؛ فإن كان الأمرُ كذلك فليس لآل أبى سفيان وآل مروانَ فيها دعوى ، وإن كانت

إنما تُنال بالوراثة ، وتُستحَقّ بالعمومة ، ونُستوجَب بحقّ العصبة ، فليس لهم أيضا فيها دعوَى . وإن كانت لا تُنالُ إلّا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم فى ذلك قَدَم مذكور ، ولا يومٌ مشهور ، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقة ، ولم يكن فيهم مايستحقّون به الخلافة ، ولم يكن فيهم مايمنعهم منها أشدَّ المنع ، لكان أهوَن ، ولكان الأمر عليهم أيسر ، قد عرفنا كيف كان أبو سُفْيان فى عَداوة النبىّ صلّى الله عليه وآله وفى محاربته له ، وإجلابه عليه وغَزْوِه إيّاه ، وعرفْنا إسلامه حيث أسْلَمَ ، وإخلاصه كيف أخلَص ، ومعنى كلمته يومَ الفتح حين رأى الجنود وكلامه يومَ حنين ، وقوله يومَ صَعِد بلالٌ على الكعبة ، فأذّن . على أنّه إنما أسلم على يدى العبّاس رحمه الله ، والعبّاس هو الذى مَنع الناسَ مِنْ قتله ، وجاء به رَدِيفا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسأله فيه أن يُشرّفه وأن يكرِّمه وينوِّه به ، وتلك يدٌ بيضاء ، ونعمة غَرّاء ، ومقامٌ مشهود ، ويومُ حُنَين غيرُ مجحود ، فكان جزاء بنى هاشم من بنيه أن حاربوا عليّا ، وسمّوا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحَمَلوا النساء على الأقتاب حواسر (١) ، وكشفوا عن عَوْرة علىّ بن الحُسين حين أشكل عليهم بُلوغه كما يُصنَع بذَرارىّ المشركين إذا دخلتْ دُورَهم عَنْوة ، وبعث معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى اليمن ؛ فقتل ابنى عبيد الله بن العبّاس ، وهما غلامان لم يبلُغا الحُلُمَ ، وقَتلَ عُبيدُ الله بنُ زياد يوم الطّف تسعةً من صُلْب علىّ عليه السلام ، وسبعةً من صُلْب عَقيل ، ولذلك قال ناعيهم :

عَين جودِى بعَبْرةٍ وعَويلِ ... وأندُبى إن نَدَبتِ آلَ الرّسولِ
تسعةً كلّهم لصُلْبِ علىٍّ ... قد أصيبوا وسبعة لعَقِيل

ثم إنّ أميّة تزعُم أنّ عَقِيلا أعان معاوية على علىٍّ عليه السلام ، فإن كانوا كاذبين فما أوْلاهم بالكَذِب ! وإن كانوا صادقين فما جازَوْا عَقِيلا بما صنع ! وضرب عُنُق مسلم

(١) حواسر : كواشف .

ابنِ عقيل صَبْرا وغَدْرا بعد الأمان ، وقتلوا معه هانئ بن عُرْوة لأنّه آواه ونصرَه ، ولذلك قال الشاعر :

فإن كنتِ لا تدْرين ما الموتُ فانْظُرِي ... إلى هانئٍ في السّوق وابْن عَقِيل[1]

ترَىْ بطَلا قد هَشّم السيفُ وجهَه[2] ... وآخر يَهوِي من طَمَارِ قتِيلِ

وأكلتْ هند كَبِد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كَهْف النفاق ، ومنهم مَن نَقَر بين ثنيّتَى الحُسين عليه السلام بالقَضيب ، ومنهم القاتلُ يومَ الحرّة عون بن عبد الله بن جعفر ، ويوم الطّفّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر . وقتِل يوم الحرّة أيضاً من بنى هاشم الفضلُ بنُ عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والعبّاس بن عُتْبة بن أبي لهب بن عبد المطّلب ، وعبد الرحمن بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطّلب .

***

قلت : إنّ أبا عثمان قايَسَ بين مدّتى مُلْكهما وهو حينئذ فى أيّام الواثق ، ففضل هؤلاء عليهم ، لأن مُلْكهم أطولُ من مُلْكهم بعشر سنين ، فكيف به لو كان اليوم حيًّا ، وقد امتدّ مُلْكهم خمسمائة وستّ عشرةَ سنةً ! وهذا أكثر من ملك البيت الثالث من ملوك الفُرس بنحو ثلاثين سنة . وأيضاً فإن كان الفخرُ بطول مدّة الملك فبنو هاشم قد كان لهم أيضا ملكٌ بمصر نحو مائتين وسبعين سنة ، مع ما ملكوه بالمغرب قبل أن ينتقلوا إلى مصر .

***

(١) البيتان في اللسان ٦ : ١٧٤ ؛ ونسبهما إلى سليم بن سلام الحنفى .

(٢) اللسان : قد عقر السيف » . وطمار : المكان العالى ؛ قال صاحب اللسان : « وينشد من طمار بفتح الراء وكسرها ، مجرى وغير مجرى » قال : « ويروى : قد قرح السيف وجهه » .

قال أبو عثمان : وقالت هاشمٌ لأميَّة : قد علِم الناسُ ما صنعتمْ بنا من القتْل والتشريد ، لا لذنب أتيْناه إليكم ، ضربتمْ عليَّ بنَ عبدِ الله بن عبَّاس بالسِّياط مرتين ، على أن تزوّج بنتَ عمِّه الجعْفرية التي كانت عند عبدِ الملك ، وعلى أن نحلْتموه قتل سليط ، وسمَمْتُمْ أبا هاشم عبدَ الله بنَ محمد بنِ عليِّ بنِ أبي طالب عليه السلام ، ونَبشْتُمْ زَيْدا وصَلَبتموه ، وألقيتم رأسَه في عرْصة الدار تُوطأ بالأقدام ، وينقرُ دماغه الدَّجاج ، حتى قال القائل :

اطرُد الدِّيكَ عن ذُؤابة زَيْدٍ طالما كان لا تَطَــاهُ الدَّجاجُ

وقال شاعركم أيضا :

صلَبْنا لكم زَيْدا على جِذْع نخلةٍ ولم نر مهديًّا على الجذْع يُصلبُ
وقِسْتمْ بعثمانٍ عليًّا سفاهــةً وعثمانُ خيرٌ من عليٍّ وأطيبُ

فرُوِى أنَّ بعض الصالحين من أهلِ البيت عليهم السلام قال : اللهمَّ إن كان كاذبا فسلِّط عليه كلبا من كلابك ، فخرج يوماً بسفر له ، فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الإمام جعفراً الصادق عليه السلام ، وقتلتم يحيى بن زيد ، وسميتمْ قاتله : ثائر مرْوان ، وناصر الدين ، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقوْلكم بعبيد الله أبي جعفر المنصور قبلَ الخلافة ، وماصنع مروان بإبراهيم الإمام ، أدخل رأسه في جراب نوْرة حتى مات ، فإن أنشدتمْ :

أفاض المدامعَ قتــلَى كُدًى وقتــلَى بِكُثْوَة لم ترمَس
وبالزَّابيين نفــوسٌ ثوَتْ وأخرى بنَهر أبي فطرسِ

أنشدْنا نحن :

واذكروا مصرَع الحسين وزَيدا وقتيــلاً بجانب المهراسِ

والقتيلَ الذى بنجرْان أمسىَ ثاوياً بين غربةٍ وتنَـــاسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه ، وأنه كان رجلا لافقهَ له ، ولا يعرَف بالزهد ولا الصلاح ، ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعد همة ، وإنما ولى رستاقا من رَساتيق دار بجرْد لابن عامر ، ثم ولى البحرين لمعاوية ، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبايع ابن الزبير حتى رَدّه عبيد الله بنُ زياد ، وقال يومَ مرج راهط ، والرءوس تندر[1] عن كواهلها فى طاعته :

وما ضرّهم غـــير حيْنِ النفو س وأىّ غلامَىْ قريش غلبْ

هذا قول من لا يستحقّ أن يلى ربعا من الأرباع ، ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد من قتلته النساء لـكلمةٍ كان حتفه فيها .

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريدُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ولعينه والمتخلّج فى مشيته ، الحاكى لرسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، والمستمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريدا لأبى بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ، ولم يقبلا شفاعةَ عثمان ، فلمَّا وُلِّىَ أدخله ، فـكان أعظم الناس شؤما عليه ، ومن أكبر الحُجج فى قتله وخلعه من الخلافة ، فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذينّ تفتخر الأمويّةُ بهم أعرَقُ النـاس فى الـكفر لأن أحدَ أبوَيْه الحـكَم هذا ، والآخر من قبل أمّه معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ؛ كان النبىّ صلى الله عليه وآله طرَده من المدينة ، وأجّله ثلاثا ، فخيّره الله تعالى حين خرج ، وبقى متردّدا متلدّدا حولها لا يهتدى لسبيله ، حتى أرسل فى أثره عليًّا عليه السلام وعمارًا ، فقتلاه ، فأنتم أعرقُ الناس فى الـكُفْر ، ونحن أعرق الناس فى الإيمـان ؛ ولا يكون أميرُ المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان ، وأقدمَهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم بأن أحدا لم يجد تسعين عاما لا طواعين فيها إلا منذ ملـكوا ، قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنـا إلّا أن تعـذيب الأمراء بعمال الخراج

(١) تندر ؛ أى تسقط فلا يحتسب بها .

بالتعليق والزّهق والتجريد والتسهير والمسالد والنورة والجورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيرا كثيرا ، وفى الطاعون يقول العُمَانِىّ الراجز يذكر دَوْلتنا :

قد رفعَ اللهُ رِماحَ الجنِّ وأذهَبَ التعذيبَ والتّجَنّى

والعرب تسمّى الطواعين رماحَ الجنّ ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لعَمْرُكَ ما خَشيتُ على أُبَىٍّ رماحَ بنى مقيّدة الحمارِ
ولكنّى خشيتُ على أُبَىٍّ رماحَ الجنّ أو إياكَ حارِ

يقول بعضُ بنى أسد للحارث الغسانىّ الملك .

قال أبو عثمان : وتفخرُ هاشمٌ عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبةَ ، ولم يُحوِّلوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا فى أعناق الصحابة ، ولم يغيِّروا أوقات الصلات ، ولم ينقشوا أكفّ المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام وَيشرَبوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم ينهبوا الحرم ، ولم يطئوا المسلمات دار فى الإسلام بالسِّباء .

* * *

قلت : نقلت من كتاب " افتراق هاشم وعبد شمس " لأبى الحسين محمد بن على بن نصر المعروف بابن أبى رؤبة الدباس قال : كان بنو أميّة فى ملكِهم يؤذّنون ويقيمون فى العيد ويخطبونَ بعد الصلاة ، وكانوا فى سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير فى الركوع والسجود ، وكان لهشام بن عبد الملك خصىّ إذا سجد هشام وهو يصلى فى المقصورة قال : لا إله إلاّ الله ؛ فيسمع الناس فيسجدون ، وكانوا يقعدون فى إحدى خُطبتى العيد والجمعة ويقومون فى الأخرى ، قال : ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعدا ، فقال : انظروا

إلى هذا يَخطُب قاعدا ، واللهُ تعالى يقول لرسوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾(١).

قال : وأوّل من قعد فى الُخطَب معاويةُ ، وأوّل من أذّن وأقام فى صلاة العِيد بشرُ ابنُ مَرْوان ، وكان عمّال بنى أميّةيأخذون الجِزْية ممّن أسلم من أهل الذمّة ، ويقولون : هؤلاء فرّوا من الجِزْية ، ويأخذون الصدقة من الَخيْل، وربمادخلوا دارَالرجل قد نَفَق(٢) فرسُه أو باعه ، فإذا أبصروا الآخِيةَ ، قالوا : قدكان هاهنا فرس ، فهاتصدقَتها ، وكانوا يؤخِّرون صلاةَ الجمعة تَشاغُلًا عنها بالُخطبة ،ويُطيلون فيها ، إلى أن تَتجاوَز وقتَ العصر ، وتكاد الشمس تَصفَرّ ؛ فعل ذلك الوليدُ بنُ عبدِ الملك ويزيدُ أخوهوالحجّاجُ عامِلهم ، ووكّل بهم الحجّاج المَسالحَ معه والسُّيوف على رءوسهم ، فلا يستطيعون أن يُصَلّوا الجمعة فى وقتها .

وقالالحسَن البَصْرى: واعجبامنأُخَيفِش(٣) أُعَيمِش،جاءنا ففتَنَنا عن دينِنا ،وصعد على منبرنا ، فيخطب والناس يَلتفِتون إلى الشمس فيقول : مابالُكم تلتفِتون إلى الشمس ! إنّا واللهِ مانُصلّى للشمس ، إنما نُصَلّى لرَبّ الشمس ! أفلا تقولون : ياعدوّ الله ، إنّللهحَقًا بالّليل لا يَقبَله بالنهار ، وحقًّا بالنهار لا يَقبَله بالّليل ؛ ثم يقول الحسن : وكيف يقولونذلك وعلى رأس كلّ واحد منهم عِلْج(٤) قائمٌ بالسيف !

قال : وكانوا يسْبون ذراريّ الخوارج من العَرَب وغيرهم ؛ لما قتل قريب وزحّاف الخارجيّان ، سبيزياد ذراريَّهما ، فأعطى شقيقبن ثور السّدوسى إحدى بناتهما ، وأعطى عباد بن حُصين الأخرى . وسُبِيتْ بنتٌ لعُبيدة بن هلال اليَشكُرى ، وبنتٌ لقَطرِيّ ابن الفجاءة المازنىّ ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبدِ الملك ، واسمُها أم سلمة ؛

---

(١) سورة الصف ١١ . (٢) نفق فرسه ؛ أى مات .

(٣) الخفش بالتحريك : ضيق فى البصر وضعف فى العين . (٤) العلج : الرجل القوى الضخم .

فوطئها بملك اليمين على رأيهم ، فولدت له المؤمّل ، ومحمدا ، وإبراهيم ، وأحمد ، وحصينا؛ بني عباس بن الوليد بن عبد الملك . وسُبِيَ واصلُ بن عمرو القنا واستُرِقّ ، وسُبِيَ سعيدُ الصغير الحروريّ واستُرِقّ ، وأم يزيد بنِ عمرَ بن هُبيرَة ، وكانت من سَبْي عُمان الذين سباهم مجّاعة ، وكانت بنو أميّة تبيع الرجل في الدَّيْن يَلزَمه وترى أنه يصير بذلك رقيقا.

كان معن أبو عمير بن معن الكاتب حرّا مولًى لبني العَنْبر ، فبيعَ في دَيْن عليه ، فاشتراه أبو سعيد بنِ زياد بن عمرو العَتَكِيّ ، وباع الحجّاج عليّ بن بشير بن الماحوز لكونه قَتلَ رسولَ المهلّب على رجلٍ من الأزْد .

فأمّا الكعبة فإنّ الحجّاج في أيام عبد الملك هَدَمها ، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ يصلّي إذا صلّى أوقات إفاقتهِ من السّكر إلى غير القِبْلة ، فقيل له ، فقرأ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾(١) .

وخطب الحجّاج بالكوفة فذكر الذين يَزُورون قبرَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة ، فقال : تبّا لهم ! إنما يطوفون بأعوادٍ ورِمّةٍ بالية ! هلّا طافوا بقَصر أمير المؤمنين عبدالملك ! ألا يعلمون أن خليفة المرء خيرٌ من رَسولِه !

قال : وكانت بنو أميّة تختِم في أعناق المسلمين كما تُوسَم الخيلُ علامةً لاستعبادهم .
وبايع مسلمُ بنُ عقبة أهلَ المدينة كافّة، وفيها بقايا الصحابة وأولادِها وصُلحاء التابعين على أنّ كلّا منهم عبد قِنّ(٢) لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، إلّا عليّ بن الحسين عليه السلام ، فإنه بايعه على أنه أخوه وابنُ عمّه .

قال : ونقشوا أكفّ المسلمين علامةً لاسترقاقهم ، كما يُصنَع بالعُلوج من الرّوم والحَبشة . وكانت خُطَباء بني أميّة تأكل وتَشرَب على المنبر يوم الجمعة لإطالتهم

---

(١) سورة البقرة ١١٥ .
(٢) العبد القن : الذى ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك .

فى الخُطْبة ، وكان المسلمون تحتَ منبر الخُطْبة يَأْكلون ويَشرَبون .

***

قال أبو عثمان : ويَفخَر بنو العبّاس عَلَى بنى مَرْوان ، وهاشمٌ عَلَى عبد شمس ؛ بأنّ المُلْك كان فى أيديهم فانتزعوه منهم ، وغلَبوهم عليه بالبَطْش الشديد ، وبالحيلة اللطيفة ، ثم لم يَنزِعوه إلّا من يد أشجَعِهم شجاعة، وأشدِّهم تدبيرا ؛ وأبعدِهم غَوْرا ، ومن نَشَأَ فى الحروب ورُبِّىَ فى الثّغور ، ومن لا يَعرِف إلا الفتوحَ وسياسةَ الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابِه والصبر من قوّاده ، فلم يغدر منهم غادِر ، ولا قصّر منهم مقصِّر ، كما قد بلغك عن حَنظلةَ بن نُباتة ، وعامر بن ضُبارة ، ويزيد بن عمر بن هُبيرَة ، ولا أحَد من سائر قوّاده حتى من أحبابه وكُتّابه كعبدِ الحميد الكاتب ، ثم لم يلقه ، ولا لقىَ تلك الحروبَ فى عامّة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علىّ ، وصالح بنِ علىّ ، وداود بن علىّ ، وعبدِ الصمد بنِ علىّ ، وقد لقيَهم المنصورُ نفسُه .

قال : وتَفخَر هاشمٌ أيضا عليهم بقول النبى صلى الله عليه وآله — وهو الصادق المصدَّق : « نُقِلتُ من الأصلاب الزاكِية ، إلى الأرحام الطاهرة ، وما افترقتْ فرقتان إلا كنتُ فى خيرِهما » . وقال أيضا : « بعثتُ من خِيرة قُريش » .

ومعلومٌ أن بنى عبدِ مناف افترقوا فكانت هاشمٌ والمُطّلب يداً ، وعبدُ شمسٍ ونَوْفل يداً . قال : وإن كان الفخر بكثرة العدَد فإنّه من أعظم مَفاخِر العرَب ، فوَلَدُ علىِّ بنِ عبد الله بنِ العبّاس اليوم مِثل جميع بنى عبدِ شَمْس ، وكذلك وَلَدُ الحُسين بن علىّ عليه السلام ، هذا مع قُرب مِيلادِهما ؛ وقد قال النبىّ صلى الله عليه وآله : شَوْهاء وَلُودٌ خيرٌ من حَسْناء عَقيم » . وقال : « أنا مكاثرٌ بكُم الأمم » .

وقد رَوَى الشعبىُّ عن جابر بن عبد الله ؛ أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قَدِم من سفر ،

فأراد الرجال أن يَطرُقوا النساء لَيْلا ، فقال : « امهِلوا حتى تَمتشِط[1] الشَّعِثة ، وتستحِدّ[2] المُغِيبة ، فإذا قدِمتم فالكَيْس الكَيْس » . قالوا : ذهب إلى طَلَب الولد ، وكانت العربُ تفخَر بكثْرة الوَلَد ، وتمدَح الفَحْل القَبِيس[3] ، وتذُمّ العاقرَ والعَقِيم .

وقال عامرُ بنُ الطُّفَيل يعني نفسَه :

لَبئِس الفَتَى إن كنتُ أعورَ عاقراً ... جَباناً فما عُذْرِي لدى كلِّ مَحضَرِ !

وقال عَلْقمة بنُ عُلاثَة يفخَر على عامرٍ : آمنتُ وكَفَر ، ووفَيْتُ وغَدَر ، وَوَلَدْت وعقر .

وقال الزِّبْرِقان :

فاسألْ بني سَعْدٍ وغيرَهُمُ ... يومَ الفخارِ فعندهمْ خُبْرِي

أيَّ امرئٍ أنا حين يَحضُرني ... رِفْدُ العطاء وطالبُ النَّصْرِ

وإذا هلكتُ تركتُ وَسْطَهُمُ ... ولدى الكرام ونابه الذِّكْرِ[4]

وقال طَرَفةُ بن العَبْد :

فلو شاء ربِّي كنت قيسَ بنَ خالدٍ ... ولو شاء ربِّي كنت عَمرَو بنَ مَرْثَدِ[5]

فأصبحت ذا مالٍ كثيرٍ وعادَنِي ... بنونَ كرام سادةٌ لمسوَّدِ

ومدحَ النّابغة الذُّبيانيُّ ناسا فقال :

لم يحرموا طِيبَ النِّساء وأمّهم ... طفحتْ عليكَ بناتقٍ مِذْكارِ[6]

---

(١) تمتشط : ترجل شعرها وتصففه ، والشعثة : المتلبدة الشعر .

(٢) المغيبة : التي غاب عنها زوجها . والاستحداد حلق العانة (٣) القبيس كأمير : الفحل السريع الإلقاح .

(٤) يقال : نبه فلان ؛ أي شرف فهو نابه ونبيه .

(٥) ديوانه ٥٨ .

(٦) ديوانه ٣٧ ، وروايته : « لم يحرموا حسن الغذاء » . وطفحت : اتسعت وغلبت . والناتق ، مأخوذ من نتق السقاء ، يقال : انتق سقاءك ، أي انفض ما فيه ، وإنما يريد أنها تنفض ما في رحمها . والمذكار : التي تلد الذكور .

وقال نَهْشَل بن حَرِّيّ :

على بنيّ يشدّ الله عظمهم ... والنَّبع يُنبت قُضباناً فيكتهل

ومَكَثَ الفرزدق زمانا لا يُولَد له فعيّرته امرأته ، فقال :

قالت أراه واحداً لا أخا له ... يؤمّله في الوارثين الأباعدُ(١)

لعلكِ يوما أنْ تريني كأنّما ... بنيّ حَواليّ الليوثُ الحوارِدُ(٢)

فإنّ تميما قبلَ أن يلد الحصا ... أقام زماناً وهو في الناس واحدُ

وقال الآخر ، وقد مات إخوته ، وملأ حوضَه ليَسقِيَ ، فجاء رجلٌ صاحب عشيرة وعِتْرة ، فأخذ بضَبُعه فنحّاه ، ثم قال لراعيه : اسقِ إبلَكَ :

لو كان حَوضَ حمارٍ ماشربت به ... إلّا بإذن حمارٍ آخرَ الأبدِ

لكنّه حوضُ من أوْدى بإخوته ... رَيبُ المنونِ فأمسَى بيضةَ البلدِ

لو كان يُشكى إلى الأمواتِ مالقِي الـ ... أحياء بعدهمُ من قِلّة العَدَدِ

ثم اشتكيت لأشكاني وأنجدني ... قبرٌ بسِنجارَ أو قبرٌ على نَخِدِ(٣)

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

ولستُ بالأكثر منهم حَصًى ... وإنّما العِزّة للكاثرِ

قال : وقد وَلَد رجالٌ من العرب كلٌّ منهم يَلِد لصُلْبه أكثرَ من مائة ، فصاروا بذلك مَفخراً ، منهم عبدُ الله بنُ عُمَير اللّيثيّ ، وأنَسُ بنُ مالك الأنصاريّ ، وخليفةُ بن برّ السّعدي ، أتَى على عامّتهم الموتُ الجارف . ومات جعفرُ بنُ سليمانَ بن عليّ بن عبدالله ابن العبّاس عن ثلاثة وأربعين ذَكَرا وخمس وثلاثين امرأةً كلُّهم لصُلْبه ، فما ظنّك بمن مات من ولده في حياته ! وليس طبقة من طبقاتِ الأسنان الموتُ إليها أسرَع ، وفيها أعمّ

(١) ديوانه ١٧٢ ، وروايته : « تقول أراه » .

(٢) الحوارد : المعتزلون ؛ ورواية الديوان :

فإنّ عسَى أنْ تُبصرِيني كأنّما ... بَنيّ حواليّ الأسودُ اللّوابدُ

(٣) سنجار : بلد على ثلاثة أيام من الموصل .

وأفشى من سِنّ الطُّفوليّة ، وأمرُ جعفر بنِ سليمانَ قد عاينه عالَمٌ من الناس ، وعامّتهم أحياء ، وليس خبر جعفر كخبرِ غيرِه من الناس .

قال الهيثم بنُ عَدِيّ : أفضى المُلكُ إلى وَلَد العبّاسِ ، وجميع ولد العبّاس يومئذٍ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلا ، ومات جعفرُ بن سليمانَ وحدَه عن مثل ذلك العدد من الرجال . وممن قرُب ميلادُه وكثر نَسلُه حتى صار كبعض القبائل والعمائر أبو بكر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمهلّب بنُ أبي صُفْرة ، ومُسلم بنُ عمرو الباهليّ ، وزياد ابن عبيد أميرُ العراق ، ومالكُ بن مِسمَع . ووَلَدُ جعفر بنِ سليمانَ اليومَ أكثرُ عددامن أهل هذه القبائل . وأربعةٌ من قريش تَرَكَ كلٌّ واحد منهم عشرةَ بنين مذكورين معروفين وهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بنُ عبد شمس ، والمغيرةُ بنُ المُغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم ،وليس على ظهر الأرض هاشميٌّ إلا من وَلَد عبد المطلب ، ولا يَشُكّ أحدٌ أن عَدَدَ الهاشميّين شبيه بعَدَد الجميع ، فهذا ما في الكثرة والقلة .

قلتُ : رحمَ الله أبا عثمان ! لو كان حيًّا اليومَ لرأى ولَدَ الحسَن والحسين - عليهما السلام - أكثرَ من جميع العرَب الذين كانوا في الجاهلية على عصرِ النبي صلى الله عليه وآله المسلمين منهم والكافرين ، لأنّهم لو أحصُوا لما نَقَص ديوانُهم عن مائتي ألف إنسان .

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر بنبل الرأي ، وصوابِ القول ، فمَنْ مثلُ عباس بن عبد المطلب وعبدِ الله بنِ العباس ! وإن كان في الحُكْم والسُّؤددِ وأصالةِ الرأي والغَناء العظيم فمن مثلُ عبدالمطلب ! وإن كان إلى الفقه والعِلم بالتأويل ومعرفةِ التأويل وإلى القياس السّديد وإلى الألسنة الحداد والخطَب الطِّوال ، فمن مِثلُ عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام وعبدالله بن عباس !

قالوا : خَطبنا عبد الله بنُ عباس خُطبةً بمكة أيام حصار عثمانَ لو شهدها التركُ والديْلم لأسلموا .

وفى عبد الله بن العبّاس يقول حسّان بنُ ثابت :

إذا قال لم يَترك مَقالاً لقائلٍ   بِملتقطاتٍ لا ترى بينها فَضْلا

شَفَى وكَفَى مافى النّفوس فلم يَدَعْ   لِذِى إرْبةٍ فى القَوْل جِدًّا ولا هَزْلا

وهو البَحْر ، وهو الحَبْر ؛ وكان عُمرُ يقول له فى حَداثتِه عند إجالة الرأى : غُصْ ياغوّاص[1] ؛ وكان يقدِّمه على جلّة السَّلف .

قلت : أبَى أبو عثمانُ إلا إعراضاً عن علىّ عليه السلام ، هلاّ قال فيه كما قال فى عبد الله ! فلَعَمرى لو أراد لوَجَد مجالا ، ولألفى قولا وَسِيعا ؛ وهل تعلّم الناسُ الخطب والعُهود والفصَاحة إلّا من كلام علىّ عليه السلام ! وهل أخَذَ عبدُ الله رحمهُ الله الفِقه وتفسير القرآن إلّا عنه ! فرَحم الله أبا عثمان ، لقد غلبت البصرةُ وطينتها على إصابة رأيه!

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر فى البسالة والنَّجْدة وقَتْل الأقران وجزر الفُرْسان ، فمَنْ كحمزة بن عبد المطّلب وعلىّ بن أبى طالب ! وكان الأحنف إذا ذكَر حمزة قال : أكيَس ، وكان لا يرضَى أن يقول : شجاع ، لأن العربَ كانت تجعل ذلك أربعَ طبقات ، فتقول: شجاع ، فإذا كان فوق ذلك قالت: بَطَل ، فإذا كان فوق ذلك قالت : بُهْمة ، فإذا كان فوق ذلك قالت : أكيَس . وقال العجّاج :

* أكيَسُ عن حَوْبائه سَخِىّ *

وهل أكثر مايعدّ الناس من جَرْحاها وصَرْعاها إلا سادتكم وأعلامكم ! قَتَل حمزةُ وعلىّ عليه السلام عُتبَة والوليد ، وقتلاَ شيبة أيضا ، شَرَكا عُبيدَة بن الحارث فيه ؛ وقَتَل علىّ عليه السلام حَنظلَة بنَ أبى سُفْيان . فأمّا آباء ملوككم من بنى مَرْوَانَ فإنّهم كما قال

---

(١) يريد أنه درب بالأمور ، عارف بدقيقها وجليلها .

عبدُ الله بن الزّبير لمّا أتاه خبر المصعب : إنا والله مانموت حَبَجاً [١] كما يموت آلُ أبى العاص ، والله ماقُتِل منهم قتيلٌ فى جاهليّة ولا إسلام ، وما نموت إلا قَتْلا ؛ قَعْصا [٢] بالرماح ، ومَوْتاً تحتَ ظلال السّيوف .

قال أبو عثمان : كأنه لم يعدّ قتل معاوية بن المغيرة بنِ أبى العاص قتلا، إذ كان إنما قتل فى غيرِ معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفّان؛ إذ كان إنّما قتل محاصَراً، ولا قتل مروان ابن الحكَم ؛ لأنه قتل خَنْقا ، خنقته النِّساء . قال : وإنما فخر عبدُالله بنُ الزبير بما فى بنى أسد بن عبد العزى من القَتْلى، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك ، كيف كانوا قاتلين أو مَقْتولين ، ألا ترَى أنّك لاتصيب كثرةَ القتلَى إلا فى القوم المعروفين بالبأس والنَّجْدة وبكثرة اللِّقاء والمحارَبة ، كآل أبى طالب ، وآل الزّبير ، وآلِ المهلّب !

قال : وفى آل الزبير خاصةً سبعة مقتولون فى نسق ولم يوجد ذلك فى غيرهم ، قُتِل عمارةُ وحمزةُ ابنا عبدِ الله بن الزُّبير يومَ قُدَيد فى المعركة ، قتلهما الإباضيّة ، وقُتِل عبد الله بن الزبير فى محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدَيْر الجاثليق [٣] فى المعركة أكرمَ قَتل ، وبإزائه عبدُ الملك بنُ مرْوان ، وقُتِل الزّبير بوادى السِّباع مُنصَرفَه عن وقعة الجمل ، وقُتِل العوّام بنُ خُوَيلد فى حربِ الفجار ، وقُتِل خُوَيلد بنُ أسد بن عبد العزّى فى حرب خُزاعة ، فهؤلاء سَبْعة فى نَسَق .

قال : وفى بنى أسد بن عبد العُزّى قَتلَى كثيرون غيرُ هؤلاء ، قُتِل المنذر بنُ الزّبير بمكّة، قتَلَه أهلُ الشام فى حرب الحجّاج، وهو على بَغْل وَرْد كان نَفَرَ به فأصعَد به فى الجَبَل .

---

(١) فى الأصول : « حبجا » تحريف ؛ وفى اللسان : « الحبج بفتحتين ، من أكل البعير لحاء العرفج ويسمن عليه وربما بشم منه فقتله ، يعرض ببنى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة » . وانظر نهاية ابن الأثير .

(٢) القعص : الموت الوحى ، يقال : مات قعصا ؛ إذا أصابته ضربة أو رمية فات مكانه .

(٣) الجاثليق : رئيس النصارى فى بلاد الإسلام .

وإيّاه يعنى يزيد بن مفرّغ الحِميَرىّ وهو يهجُو صاحبَكم عُبيدالله بنَ زياد ويعيّره بفراره يومَ البصرة :

لَابن الزبيرِ غَداةَ تَذْمُر منذراً   أَوْلى بكلّ حفيظةٍ ودِفاعِ

وقُتِلَ عمرو بنُ الزبير، قتله أخوه عبدُ الله بنُ الزبير، وكان فى جوار أخيه عُبيدة بن الزبير فلم يُغنِ عنه، فقال الشاعر يحرّض عبيدةَ على قتل أخيه عبد الله بن الزبير، ويعيّره بإخفاره جوارَ عمرو أخيهما :

أعُبيــد لو كان الجبير لَوَ لْوَلَتْ   بعــدَ الهــدوّ برَنّة أسماءُ

أعُبيد إنك قد أجرت وجارُكمْ   تحتَ الصَّفيح تَنوبُهُ الأصداءُ(١)

اِضربْ بسَيْفك ضربةً مذكورة   فيهــا أداءُ أمانةٍ وَوفاءُ

وقُتِل بُجَيْرُ بن العوام أخو الزبير بن العوّام، قتلَه سعدُ بنُ صفح الدَّوْسىّ جدُّ أبى هريرة من قِبَل أمّه، قتلَه بناحية اليمامة، وقتل معه أصرَم وبَعْلك أخوَيه ابنى العوّام ابن خوَيلد، وقد قتِل منهم فى محاربة النبىّ صلى الله عليه وآله قومٌ مشهورون، منهم زَمْعة بنُ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدِ العُزّى، كان شريفـا، قُتل يومَ بدْر، وأبوه الأسود، كان المَثل يُضرَب بعزّته بمكة، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يَذْكُر عاقِرَ الناقة : «كان عزيزاً منيعا كأبى زَمْعة»، ويُــكْنَى زَمْعة بن الأسود أبا حَكِيمة، وقتل الحارث بنُ الأسود بن المطلب يوم بدْر أيضا؛ وقُتل عبدُالله بنُ حُمَيد بن زُهَير بن الحارث ابن الأسود بن المطلب بن أسَد يومَ بَدْر أيضاً، وقتِل نَوْفَل بنُ خُوَيْلد يومَ بَدْر أيضا؛ قتله علىّ بن أبى طالب عليــه السلام، وقتِل يوْمَ الحرّة يزيدُ بنُ عبد الله بن زَمْعة بن الأسْوَد، ضرَب عنقَهُ مُسرف بنُ عُقْبــة صَبْراً(٢) قال له : بايعْ لأمير المؤمنين يزيدَ

---

(١) الصفيح : الحجارة الرقاق ، والأصداء : جمع صدى ، وهو ما يرد على الصوت .

(٢) صبرا ، أى حبسا .

ابن معاوية على أنك عبدٌ قِنٌّ له ، قال : بل أبايعه على أنى أخوه وابن عمّه ، فضربَ عنقَه . وقُتِل إسماعيل بنُ هَبّار بنِ الأسود ليلا ؛ وكان ادّعى حِيلةً فخرج مُصرخا لمن استصرخه ؛ فقُتِل ؛ فاتّهم به مُصعَب بنُ عبد الله بن عبد الرحمن ، فأحلَفه معاوية خمسين يمينا ، وخلّى سبيله ، فقال الشاعر :

ولا أجيب بليْلٍ داعياً أبداً أخشى الغُرور كما غرّ ابنَ هَبّارِ
باتوا يجرّونه فى الحُشّ مُنعفِراً بئس المديةُ لابنِ العمّ والجارِ

وقُتِل عبدُ الرحمن بنُ العوّام بنِ خُوَيلد فى خلافة عمر بن الخطاب فى بعض المغازى، وقُتِل ابنُه عبدُ الرّحمن يومَ الدار مع عثمان ، فعبد الله بنُ عبد الرحمن بن العوّام بن خُوَيلد قتيلٌ ابنُ قَتِيل ابنِ قَتِيل ابنِ قتيلٍ أربعة . ومِنْ قَتْلاهم عيسى بنُ مُصعَب ابن الزبير ، قُتِل بين يدى أبيه بمَسْكِن[1] فى حَرْب عبد الملك ، وكان مُصعَب [يُكنى أبا عيسى وأبا عبدالله وفيه يقول الشاعر] :

لِتَبْك أبا عيسى ، وعيسى كلاهما موالِى قُرَيْشٍ كلُّها وصَمِيمُها

ومنهم مُصعَب بن عُكّاشة بن مُصعَب بن الزُّبير، قُتِل يوم قُدَيد فى حَرْب الخوارج ، وقد ذكره الشاعر فقال :

قُمْنَ فاندُبْنَ رِجالًا قُتِّلُوا بقُديدٍ ولنُقصانِ العَدَدْ
ثم لا تَعدِلْنَ فيها مُصعَباً حين يُبكَى من قَتيلٍ بأحَدْ
إنّه قد كان فيها باسِلًا صارِمًا يُقدِم إقدامَ الأسَدْ

ومنهم خالد بنُ عثمانَ بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمّد بن عبد الله بن حسن ابن حسن ، فقتَله أبو جعفر وصَلَبه . ومنهم عتيق بنُ عامر بن عبد الله بن الزّبير ، قُتل بقُديد أيضا ، وسمّى عتيقا باسم جدّه أبى بكر الصّدّيق .

---

(١) مسكن ، كمسجد : موضع بالكوفة .

قلت : هذا أيضا من تحامُل أبي عثمان، هَلّا ذَكَر قتلى الطف وهم عشرون سيّدامن بيتٍ واحد قُتلوا في ساعة واحدة ! وهذا مالم يَقَع مثلهفى الدّنيا لافى العَرَب ولافى العَجَم. ولما قُتل حذيفة بنُ بدْر يومَ الهباءة[1] وقُتِل معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته ضَربتِ العربُ بذلك الأمثال واستَعْظموه ، فجاء يوم الطّف ، « جرى الوادى فطمّ على القرِىّ[2] »

وهلّاعدد القَتلى من آل أبي طالب فإنّهم إذا عُدُّوا إلى أيّام أبي عثمان كانوا عَدَدا كثيرا أضعاف ماذَكرهمن قَتلى الأسديّين !

قالوا أبو عثمان : وإن كان الفخر والفَضْل فى الجود والسّماح فمن مثلُ عبدِ الله بن جَعْفر بن أبي طالب ! ومَن مِثلُ عُبيد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب !

وقد اعترضت الأمويّةُ هذا الموضع فقالت : إنّما كان عبدُ الله بنُ جعفر يَهَب ما كان معاويةُ ويزيديهَبانِ له ، فمن فضل جُودِنا جاد.

قالوا : ومعاوية أوّلُ رجلٍ فى الأرض وَهَب ألفَ ألف دِرْهم ، وأبنه أوّل من ضاعَفَ ذلك ، فإنه كان يجيز الحسنَ والحسين ابنى علىّ عليه السلام فى كلّ عام لكلّ واحد منهما بألف ألف درْهم ، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العبّاس وعبدَ الله بن جعفر، فلمّا مات وقامَ يزيدُ وفد عليه عبدُ الله بنُ جعفر ، فقال له : إنّ أميرَ المؤمنين معاوية كان يَصِل رَحِمى فى كلّ سنة بألف ألفِ درهم ، قال : فلك ألفا ألف دِرْهم ، فقال : بأبى أنتَ وأمّى ! أما إنى ما قلتُها لأحد قَبْلك ،قال : فلك أربعةُ آلاف ألفِ درهم. وهذا الاعتراض ساقط، لأن ذلك إن صحّ لم يُعَدّ جُوداولا جائزةً ولا صِلة رَحِم ، هؤلاء

---

(١) يوم الهباءة من أيام العرب المشهورة .

(٢) قال صاحب مجمع الأمثال ١ : ١٥٨ « أى جرى سيل الوادى فطم ، أى دفن ، يقال : طم السيل الركية ، أى دفنها . والقرى : مجرى الماء فى الروضة والجمع أقرية وقربان . . . أى أتى على على القرى ، يعنى أهلكه بأن دفنه .

قومٌ كان يخافُهم على مُلْكِه ، ويعرف حقّهم فيه ، ومَوقعهم من قلوب الأمّة ، فكان يدبّر في ذلك تدبيرا ، ويَريع[1] أمورا ، ويُصانع عن دَولته وملكه ، ونحن لم نعدّ قطّ ماأعطى خلفاء بني هاشم قوّادهم وكتّابهم وبني عمّهم جُوداً ، فقد وَهَب المأمونُ للحَسَن ابنِ سَهْل غَلّة عشرةِ آلافِ ألفٍ فما عُدّ ذلك منه مَكرمة ، وكذلك كلُّ مايكون داخلا في باب التِّجارة واستمالة القلوب ، وتدبير الدّولة ، وإنّما يكون الجُود مايدفَعه الملوك في الوفود والخُطَباء والشّعراء والأشرافِ والأدباء والسُّمار ونحوهم؛ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وَفّى الجندَ أعْطِياتِهم احتسب ذلك في جُوده ؛ فالعمالاتُ شيء والإعطاء على دَفع المكروه شيء ، والتفضُّل والجود شيء . ثمّ إنّ الّذين أعطاهم معاويةُ ويزيدُ هو بعضُ حقِّهم ، والذى فَضَل عليهما أكثر ممّا خرج منهما .

وان أريد الموازنة بين ملوك بني العبّاس وملوك بني أميّة في العطاء افتَضَح بنو أميّة وناصرُوهم فضيحةً ظاهرة ، فإنّ نساء خلفاء بني عبّاس أكثرُ معروفا من رجال بني أميّة ، ولو ذكرتُ معروفَ أمّ جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مَرْوان ، وذلك معروف ، ولو ذكر معروف الخيزُران وسَلْسبيل لمُلِئَت الطّوامير الكثيرة به ، ومانَظُنّ خالصة مَولاتهم إلّا فوق أجْواد أجوادِهم ، وإن شئتَ أن تذكُر مواليهم وكتّابهم فاذكُر عيسى بنَ ماهان، وابنه عليّا ،وخالد بنَ بَرْمَك وابنه يحيى، وابنه جعفراً والفَضْل وكاتبهم منصورَ بنَ زياد ومحمّد بنَ منصور وفتى العسكر ، فإنّك تجد لكلّ واحد من هؤلاء مايحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فأمّا ملوكُ الأمويّة فليس منهم إلّا من كان يُبخّل على الطعام ، وكان جعفر بنُ سليمان كثيراً ما يذكر ذلك ؛ وكان معاويةُ يُبغض الرّجلَ النّهِم على مائدته ، وكان

---

(١) يريع : يزيد .

المنصورُ إذا ذكرهم يقول : كان عبدُ الملك جباراً لا يُبالى ماصنَع ، وكان الوليدُ مجنونا ، وكان سليمان همُّه بطنُه وفَرْجُه، وكان عمر أعور بين عميان، وكان هشام رجل القوم، وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام مع مااستثنيناه به يقول : هو الأحول السرّاق، مازال يُدخل إعطاء الجُند شهرا فى شهرٍ وشهراً فى شهر؛ حتى أخَذ لنفسه مقدار رِزق سنةٍ ،وأنشده أبو النَّجم العِجْلىّ أرجوزته الّتى أولها :

* الحمد لله الوَهوب المجزلِ *

فما زال يُصفِّق بيدَيْه استحسانا لها حتى صار إلى ذكر الشمس ، فقال :

* والشمسُ فى الأفق كعَيْن الأحْوَلِ *

فأمر بوجْء[1] عنقه وإخراجه ، وهذا ضَعْف شديد ، وجَهْلٌ عظيم .

وقال خالُه إبراهيم بنُ هشام المخزومىّ : ما رأيتُ من هشام خطأ قطّ إلا مرّتين : حَدَا به الحادى مرّة فقال :

إنّ عليكَ أيها البُخْتىُّ أكرمَ من تمشِى به المطِىُّ

فقال : صدقت . وقال مرّة : والله لأشكوَنّ سليمانَ يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبدِ الملك . وهذا ضَعْف شديد ، وجهل مُفْرِط .

وقال أبو عثمان : وكان هشامٌ يقول : واللهِ إنى لأستحيى أن أعطِىَ رجلاً أكثر من أربعة آلاف دِرْهم ، ثم أعطَى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها فى جوده وتوسّعه ، وإنما اشترى بها ملكه، وحَصَّن بها عن نفسه وما فى يدَيه . قال له أخوه مسلمة: أتطمع أن تلى الخلافة وأنت بخيل جبان ! فقال : ولكنى حليمٌ عفيف ، فاعترف بالجُبْن والبُخْل ؛ وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما ! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم، والتَّغرير الشديد . ولو سلمتْ من الفساد لم تسلم من العَيْب .

(١) الوجء : الضرب .

ولقد قدَّم المنصورُ عليهم عمرَ بنَ عبد العزيز بقوله : أعورُ بين عُميان ؛ وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعا تقيّا ، فكيف وقد جلد خُبَيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدةٍ ،وصبّ على رأسه جَرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ ، حتى كُزّ(١) فمات ، فما أقرّ بدَمه ، ولا خرج إلى وليّه من حَقّه ، ولا أعطى عقلا ولا قَوَدا ؛ ولا كان خُبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصُه ؛ فيقال : كان مطيعا بإقامتها ، وأنه أزهَقَ الحدُّ نفسه ! واحتسبوا الضرب كان أدبا وتَعْزيرا ، فما عذره في الماء البارد في الشتاء ، على أثر جلد شديد ! ولقد بلغه أنّ سليمان بن عبد الملك يوصى ، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه ، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر ، أو تشير بي في هذا الشأن ؛ فوالله ما لي عليه من طاقة ! فقال له رجاء: قاتلك الله ؛ ما أحرصك عليها !

ولما جاء الوليدَ بن عبد الملك بنعى الحجّاج ؛ قال له الوليد : مات الحجاج ياأباحفص؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلا منّا أهلَ البيت ! وقال في خلافته : لولا بيعةٌ في أعناق النـــاس ليزيد بن عاتــكة لجعلت هذا الأمر شورَى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدَق وبين أحمس قرَيش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر ؛ فما كان عليه من الضرر والحرج ،وما كان عليه من الوَكف(٢) والنقص أن لو قال : بين عليّ بن العباس وعليّ بن الحسين بن عليّ ! وعلى أنه لم يرد التيميّ ولا العدويّ ، وإنما دبّر الأمر للأموى ، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصلح للشورى ، ثم دبّر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجل بالسمّ.

وقَدِم عليه عبدُ الله بنُ حسن بن حسن ، فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه

---

(١) كزّ ، أي أصابه كزاز ؛ كغراب ورمان ؛ وهو داء يجيء من شدة البرد .
(٢) الوكف ، محركة : الإثم .

وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفى صدور المؤمنين لم يَدَعه يبيتُ بالشام ليلة واحدة ، وقال له : الحق بأهلك ، فإنك لم تفنهم شيئاً هو أنفس منك ولا أردّ عليهم من حياتك . أخافُ عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشتهى وتحِبّ . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه ، فلعله يبذُر فى قلوبهم بذْرا ، ويغرس فى صدورهم غرْسا ، وكان أعظم خلق قوْلا بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ، ويُرِبى على كلّ ذى غاية ، صاحب شُنْعة ، وكان يصنع ذلك الكُتُب ، مع جهله بالكلام وقلّة اختلافه إلى أهلِ النظر . وقال له شَوْذَب الخارجىّ : لم لا تلعن رَهْطَك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟ فقال عمر : متى عهدُك بلعن فِرْعون ! قال : مالى به عهد . قال : أفيَسَعك أن تمسك عن لعن فرعون ، ولا يَسَعُنِى أن أمسك عن لعن آبائى ! فرأى أنه قد خَصَمه[1] وقطع حجّته ، وكذلك يظنه كلّ من قصر عن مقدار العالِم ، وجاوز مقدار الجاهل ، وأىّ شبه لفرعون بآل مروان وآل أبى سفيان ! هؤلاء قومٌ لهم حِزبٌ وشيعة ، وناسٌ كثيرٌ يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشُّبه فى أمرهم ، وفرعونُ على خلاف ذلك ، وضِدّه لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا فى أمره شُبهْة . ثم إنّ عمر ظَنين[2] فى أمر أهله فيحتاج إلى غَسْل ذلك عنه بالبراءةِ منهم ، وشوْذَب ليس بظَنِين فى أمر فرعون ، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج ، فكيف استوَيا عنده !

وشكا إليه رجلٌ من رَهطه دَيْنا فادحاً ، وعيالا كثيرا ؛ فاعتلّ عليه ، فقال له : فهلاّ اعتللْتَ على عبد الله بن الحسن ! قال : ومتى شاورتك فى أمرى ! قال : أو مشيرا

(١) خصمه : غلبه .

(٢) الظنين : المتهم .

ترانى ! قال : أو هل أعطيته إلاّ بعض حقه ! قال : ولم قصّرت عن كلّه ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروما منه .

وكان عُمّال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذى حسن أمره ، وشبّه على الأغنياء حاله ، أنه قام بعقِب قوم قد بدّلوا عامة شرائع الدين وسُنَن النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الناسُ قبله من الظلم والجور والتّهاون بالإسلام فى أمر صغر فى جنبه عاينوا منه ، وألفوه عليه ، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة فى عدادِ الأئمة الراشدين ، وحَسْبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليّا عليه السلام على منابرهم ، فلما نهى عمرُ عن ذلك عدّ محسنا ، ويشهد لذلك قولُ كُثيِّر فيه :

وَليتَ فَلَمْ تشتُمْ عليًّا ولم تُخفْ بَرِيًّا ولم تتبــع مقالَة مجرمِ

وهذا الشعر يدلّ على أن شتم علىّ عليه السلام قد كان لهم عادة ، حتى مدح من كفّ عنه ؛ ولما ولّىَ خالد بنُ عبد الله القَسْرِىّ مكة ـ وكان إذا خطب بها لعن عليّا والحسن والحسين عليهم السلام ـ قال عبيد الله بن كثير السهمىّ :

لعنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ عِليًّا وحُسَيناً من سُوقَةٍ وإمامِ
أيُسَبُّ المطهَّرونَ جُدُوداً والـكرامُ الآباء والأعمامِ
يأمَن الطيرُ والحمامُ ولا يأ مَنُ آلُ الرسولِ عند المقامِ !
طبتَ بيتاً وَطابَ أهلك أهلاً أهلُ بيتِ النبيّ والإسلام !
رحمةُ الله والسلام عليهمْ كلَّما قام قائمٌ بســـلام !

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ـ وكان ممن يناله بزعمهم إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يخطب على المنبر بعرفة ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يومٌ كانت

الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تُراب (1) ، فقال هشام : ليس لهذا جئنا ، ألا ترى أنّ ذلك يدلّ على أنه قد كان لَعْنُهُ فيهم فاشياً ظاهرا ، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن علياً عليه السلام ويقول : قتل جَدَّيَّ جميعا ؛ الزبير وعثمان .

وقال المُغيرة وهو عاملُ معاوية يومئذ لصعصعة بن صُوحان : قُمْ فالعن علياً ، فقام فقال : إنّ أميرَكم هذا أمرَني أن ألعن علياً ، فالعَنُوه لعنه الله ! وهو يُضمِر المغيرة .

وأما عبدُ الملك فحسبك من جهله تبديله شرائع الدّين والإسلام ، وهو يريد أن يَلِيَ أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ، وحَسْبك من جَهله أنه رأى مِن أبلغ التدبير فى منع بنى هاشم الخلافة أن يلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منابره ، ويَرْمِي بالفجور فى مجالسه ، وهذا قُرّة عين عدوّه وغيْظ وليّه ، وحسبك من جهله قيامهُ على منبر الخلافة قائلا : إنّى واللهِ ما أنا بالخليفة المستضعَف ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون (2) .

وهؤلاء سَلَفُه وأئمّتــه ، وبشُفْعَتهم قامَ ذلك المقام ، وبتقدُّمهم وتأسيسهم نالَ تلك الرياسة ، ولولا العادةُ المتقدِّمة ، والأجناد المجنّدة ، والصنائع القائمة ، لـكان أبعدَ خَلْق اللهِ من ذلك المقام ، وأقربَهم إلى المَهلكة إن رام ذلك الشَّرف . وعَنَى بالمُستضعَف عثمان ، وبالمُداهِن معاوية ، وبالمأفون يزيدَ بنَ معاوية ؛ وهذا الـكلامُ نَقضٌ لسُلطانه ، وعداوةٌ لأهله ، وإفسادٌ لقلوب شيعته ، ولو لم يكن من عَجْز رأيه إلّا أنه لم يَقدِر على إظهار قوّته ، إلا بأن يظهر عجزَ أئمّته لـكفاك ذلك منه . فهذا ما ذكرتْه هاشمٌ لأنفسها .

[مفاخر بنى أُميّة]

قالت أُميّة : لنا من نوادِر الرّجال فى العقل والدّهاء والأدب والمـكر ماليس لأحد،

(1) أبو تراب ؛ من كنى أمير المؤمنين على بن أبى طالب .
(2) المأفون : الضعيف .

ولنا من الأجواد وأصحابِ الصّنائع ماليس لأحد ، زعم الناسُ أنّ الدُّهاة أربعة: مُعاوية بن أبي سفيان ، وزِياد ، وعَمرو بن العاص ، والمغيرة بن شُعْبة، فمنّا رجلان ، ومن سائر الناس رَجُلان . ولنا فى الأجواد سعيدُ بنُ العاص ، وعبدُ الله بنُ عامر ؛ لم يوجَد لهما نظيرٌ إلى الساعة . وأمّا نوادر الرّجال فى الرّأى والتّدبير فأبو سُفْيان بن حرب ، وعبدُ الملك ابنُ مَروان ، ومَسلَمَة بنُ عبد الملك، وعلى أنّهم يُعَدّون فى الحُلَماء والرّؤساء، فأهلُ الحجاز يَضرِبون المثَل فى الحِلْم بمُعاوية ، كما يضرب أهلُ العِراق المثَل فيه بالأحْنَف .

فأما الفُتوح والتّدبيرُ فى الحرْب فلِمُعاويةَ غير مُدافَع ؛ وكان خطيبا مِصقَعا، ومُجرّبا مظفَّرا ، وكان يجيدقولَ الشّعر إذا آثرأن يقوله، وكان عبدُ الملك خطيباحازما مجرّبامظفَّرا، وكان مسلمةُ شجاعاً مدبّرا وسائساً مقدّما، وكثيرَ الفتُوح كثيرَ الأدب . وكان يزيدُ بنُ معاويةَ خطيباً شاعرا ، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ خطيبا شاعرا ، وكان مَرْوانُ بنُ الحكَم وعبدُ الرحمن بنُ الحكَم شاعرَيْن ، وكان بِشرُ بنُ مَرْوانُ شاعرا ناسِباً ، وأديبا عالِماً ؛ وكان خالدُ بن يزيد بن معاويةَ خطيباً شاعراً ، جيّدَ الرأى ، أديبا كثيرَ الأدب ، حكيما ؛ وكان أوّل من أعطَى التّراجِمةَ والفَلاسِفة ، وقرّب أهلَ الحِكمة ورُؤساء أهل كلّ صناعة ، وترجَم كتبَ النّجوم والطّبّ والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصّناعات .

قالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعةَ فالعبّاس بن الوليد بن عبد الملِك ، ومروان ابن محمد ، وأبوه محمّد بنُ مَرْوان بن الحكَم ، وهو صاحبُ مُصعَب ، وهؤلاء قومٌ لهم آثار بالرّوم لا تُجهَل، وآثارٌ بأرمِينِيَة لا تُنكَر،ولهم يوم العَقْر ؛ شهده مسلمة والعبّاس ابنُ الوليد .

قالوا : ولنا الفتُوح العِظام ، ولنا فارس ، وخُراسَان ، وأرمينِيَة ، وسِجِسْتان ، وإفريقيَة ، وجميع فتُوح عُثمان ؛ فأما فتُوحُ بنى مَرْوان فأكثَر وأعمّ وأشهَر من أن

تحتاج إلى عدد أو إلى شاهد . والذين بلغوا فى ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خُفٍّ وحافر أن يبلغه؛ حتّى لم يحتجز منهم إلّا ببَحْر أو خليج بحر أو غِياض أو عقاب أو حصون وصَياصى ثلاثة رجال : قُتيبةُ بنُ مسلم بخُراسان ، وموسى بنُ نُصَير بإفريقِيَة ، والقاسمُ ابنُ محمد بن القاسم الثقفى بالسِّند والهِنْد ؛ وهؤلاء كلُّهم عمّالُنا وصنائعُنا . ويقال : إن البَصرة كانت صَنائع ثلاثة رجال : عبدالله بن عامر ، وزِياد ، والحجّاج ، فرجُلانِ من أنفسِنا والثالث صَنِيعُنا .

قالوا : ولنا فى الأجواد وأهلِ الأقدار بنو عبدِ الله بن خالد بن أسيد بن أميّة ، وأخوه خالد ، وفى خالدٍ يقول الشاعر :

إلى خالدٍ حتّى أنخنا بخالدٍ   فنِعمَ الفتى يُرجَى ونِعمَ المؤمَّلُ !

ولنا سعيد بنُ خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وهو عَقِيد النَّدى ، كان يَسْبِت ستّة أشهُر ويُفيق ستّة أشهُر ، ويُرى كَحيلا من غير اكتِحال ، ودَهِيناً من غير تدَهين؛ وله يقول موسى شَهَوات :

أبا خالدٍ أعنى سعيـــدَ بنَ خالدٍ   أخا العُرْف لا أعنى ابنَ بنت سَعيدِ (١)
ولـكنّنى أعنِى ابنَ عائشةَ الّذِى   أبو أبوَيْه خالدُ بن أسيـــدِ
عَقيد النّدَى ما عاشَ يَرضَى به النّدَى   فإن مات لم يَرضَ النّـدَى بعَقِيدِ (٢)

قالوا : وإنّما تمكّن فينا الشّعر وجاد ، ليس من قِبَلِ أنّ الذين مَدَحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولـكن لما وَجَدوا فينا ممّا يتّسع لأجله القَوْل ، ويصدق فيه القائل . قد مدح عبدالله بن قيس الرُّقَيّات من الناس : آل الزبير عبدالله ومُصعبا وغيرهما ، فكان يقول كما يقول غيرُه ، فلمّا صار إلينا قال :

ما نَقَموا من بنى أميّة إلّا   أنّهم يَحلُمون إن غضِبوا (٣)

(١) الأغانى ٣ : ٣٥٢ (طبعة دار الكتب) .
(٢) عقيد الندى : الكريم بطبعه .   (٣) ديوانه ٤ .

وأنهمْ مَعدن المُلوكِ فما تصلُح إلّا عليهمُ العرَب

وَقال نُصَيْب :

مِن النَّفَر الشُّمّ الذين إذا انتجَوْا أقرّتْ لنجْواهم لؤىُّ بنُ غالبِ(١)
يُحيُّون بَسّامين طوْراً وَتارةً يُحيّونَ عبّاسين شُوس الحواجبِ(٢)

وقال الأخطل :

شُمسُ العَداوةِ حتّى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَروا(٣)

قالوا : وفينا يقول شاعرُكم والمتشيِّع لكم، الكُميت بنُ زيد :

فالآنَ صِرْتَ إلى أُميّـةَ والأُمورُ لها مَصايرْ(٤)

وفى معاوية يقولُ أبو الجَهْم العَدَوىّ :

نُقلّبُه لنخبُرَ حالتَيْه فنَخبُرَ منهما كَرَماً ولينَا
نَميلُ على جَوانِبِه كأنّا إذا مِلْنا نَميلُ على أبينا

وفيه يقول :

تَريع إليه هَوادي الكلامِ إذا ضلَّ خطبته المِهذَرُ(٥)

قالوا : وإذا نظرتم فى امتداح الشعراء عبد العزيز بن مرْوان عرفتم صدْق ما نقوله.
قالوا : وفى إرسال النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى أهلِ مكّة عثمانَ ، واستعمالِه عليهما عتّاب بنَ أسيد وهو ابنُ اثنتيْنِ وعشرين سنة دليلٌ على موضع المَنَعة أن تهاب العرب وتعزّ قريش ؛ وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله قبل الفَتح : « فَتيَان أضَنّ بهما على النّار : عَتّاب بنُ أَسيد ، وجُبَير بنُ مُطعِم » فَوَلّى عتّابا ، وتَرَكَ جبيرَ بنَ مطعِم .

---

(١) الشم : جمع أشم ، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس .
(٢) شوس : جمع أشوس ؛ والشوس بالتحريك : النظر بمؤخر العين تكبرا وغيظا .
(٣) ديوانه ١٤ ، وشمس : جمع شموس ؛ وهو الرجل العسر فى عداوته ؛ الشديد الخلاف على من عانده .
(٤) الأغانى ١٥ : ١١١ ، وروايته : « والأمور إلى المصاير » .
(٥) المهذر : الكثير الخطأ فى الكلام .

وقال الشَّعبىّ : لو وُلِد لى مائةُ ابنٍ لسمّيتُهم كلّهم عبدَ الرحمن ؛ للّذى رأيتُ فى قُرَيش من أصحاب هذا الاسم ، ثم عَدّ عبدَ الرحمن بنَ عتّاب بن أسيد ، وعبدالرحمنَ بن الحارث ابن هشام ، وعبدَ الرحمن بن الحَكَم بن أبى العاص ؛ فأمّا عبد الرحمن بنُ عتّاب فإنّه صاحبُ الخيل يومَ الجمل ، وهو صاحبُ الكفّ والخاتَم ، وهو الّذى مرّ به علىٌّ وهو قتيلٌ فقال : لَهفِى عليكَ يَعسوبَ قريش ، هـذا اللُّباب المَحْض من بَنِى عبدِ مناف ! فقال له قائل : لشدّ ماأتيتَه اليومَ يا أمير المؤمنين ! قال : إنّه قام عنّى وعنه نسوةٌ لم يَقُمن عنك .

قالوا : ولنا من الخطَباء معاويةُ بن أبى سفيان ، أخطبُ الناس قائماً وقاعدا ، وعلى منبرٍ ، وفى خُطبةِ نكَاح . وقال عمر بنُ الخطّاب : مايتصعّدنى شىء من الكلام كما يتصعّدنى خطبة النّكَاح ، وقد يكون خطيباً من ليس عنده فى حديثه ووصفِه للشىء احتجاجه فى الأمر لسانٌ بارع . وكان معاويةُ يجرى مع ذلك كلّه .

قالوا : ومِن خُطَبائنا يزيدُ بنُ معاوية ، كان أعرابىّ اللّسان ، بَدَوىّ اللَّهجة . قال معاوية ،وخطب عنده خطيب فأجاد : لأرمينّه بالخطيب الأشدق يريد يزيد بن معاوية،

ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتحبيره تحبير ، ولا كارتجاله ارتجال .

ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقّب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه ، فسمع كلامه ، فقال : إن ابن سعيد هذا الأشدق .

وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوكَ ؟ قال : إن أبى أوصى إلىّ ولم يوص بى، قال : فبم أوصى إليك ؟ قال : ألّا يفقد إخوانه منه إلّا وجهه .

قالوا : ومنا سعيدُ بن عمرو بن سعيد ، خطيبُ ابنُ خطيب ابنِ خطيب ، تكلّم الناسُ عند عبد الملك قياما وتكلم قاعدا . قال عبدُ الملك : فتكلم وأنا والله أحبّ عثرته وإسكاته ، فأحسنَ حتى استنطقته واستزدته ؛ وكان عبد الملك خطيباً ، خطب

الناسَ مرَّةً فقال : ماأنصفتمُونا معشر رعيتنا ، طلبتم منّا أن نسير فيكم وفى أنفسنا سيرة أبى بكر وعمرَ فى أنفسهما ورعيّتهما ، ولم تسيرُوا فينا ولا فى أنفسكم سِيرَة رعيّة أبى بكر وعمرَ فيهما وفى أنفسهماَ ، ولـكلٍّ من النَّصفة نصيب . قالوا : فـكانت خطبته نافعة .

قالوا : ولنا زيادٌ وعبيد الله بنُ زياد ، وكانا غَنِيَّيْن فى صحة المعانى ، وجودة اللفظ ، ولهما كلامٌ كثير محفوظ .

قالوا : ومِن خطبائنا سليمان بنُ عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ومن خُطبائنا ونُسّاكِنا يزيدُ بنُ الوليد الناقص. قال عيسى بن حاضر : قلتُ لعمرو بن عُبيد : ماقولك فى عمرَ بن عبد العزيز ؟ فـكلَح[1] ، ثم صَرَف وجهه عنّى . قلتُ : فاقولُك فى يزيد الناقص ؟ فقال : أو الـكامل ، قال بالعدل ، وعَمِل بالعدْل ، وبَذَل نفسه وقتل ابنَ عمِّه فى طاعة ربه ، وكان نَـكالاً لأهله ، ونقص من أعطياتِهم مازادته الجبابرة ، وأظهرَ البراءة من آبائه ، وجعل فى عهده شَرْطا ولم يجعله جزْما ؛ لا والله لـكأنه ينطق عن لسان أبى سعيد ـ يريدُ الحسن البصرى ـ قال : وكان الحسن من أنطق الناس .

قالوا : وقد قُرِئ فى الـكُتُب القديمة : يامبذِّر الـكنوز ، ياساجداً بالأسحار ، كانت ولايتُك رحمةً بهم ، وحجّة عليهم . قالوا : هو يزيد بنُ الوليد .

ومن خطبائنا ثمّ من ولد سعيد بن العاص عَمرو بنُ خَوْلة ، كان ناسبا فصيحا خطيبا .

وقال ابن عائشة الأكبر : ماشهد خطيباً قطّ إلّا ولجلج هيبةً له ومعرفةً بانتقادِه .

ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بنُ عبدالله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس ، وأبيَن الناس ، كان مسلمة بنُ عبدالملك يقول : إنى لأنحى كور عِمامتى على أذنىَ لأسمع كلام عبد الأعلى .

---

(١) كلح ، كنع : كشر فى عبوس .

وكانوا يقولون : أشبه قريش نعمةً وجهارةً واقتداراً وبياناً بعمرو بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله .

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا الوليدُ بنُ عبدِ الملك ، وهو الذى كان يقال له فحل بنى مروان ، كان يركب معه ستون رجلا لصُلبه .

ومن ذوى آدابنا وعلمائنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والأنساب بِشْرُ بن مروان أميرُ العراق .

قالوا : ونحن أكثرُ نُسّاكاً منكم ، منّا معاوية بنُ يزيد بن معاوية ، وهو الذى قيل له فى مَرَضه الذى مات فيه : لو أقمتَ للناس ولىّ عهد ؟ قال: ومن جعل لى هذا العهد فى أعناق الناس؟ والله لولا خوفُ الفتنة لما أقمت عليها طَرْفة عين ، والله لا أذهب بمرارتها، وتذهبون بحلاوتها ؛ فقالت له أمّه : لوددتُ أنك حَيْضة ، قال : أنا والله وددت ذلك.

قالوا : ومنّا سليمان بن عبد الملك الذى هَدَم الديماس [1] وردّ المسيَّرين ، وأخرج المسْجُونين ، وترك القريب . واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلا صاحب سلامة ودَعة وحبٍّ للعافية وقرب من الناس ، حتى سُمِّىَ المهدىَّ ، وقيلت الأشعار فى ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز ، شبه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر ، وباسمه سُمِّىَ ؛ وهو أشجّ قريش المذكور فى الآثار المنقوله فى الكُتُب، العدل فى أشدّ الزمان، وظلف [2] نفسه بعد اعتياد النِّعم ، حتى صار مثلا ومفخرا . وقيل للحسن : أما رويتَ أن رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : لا يزداد الزّمان إلّا شِدّة ، والناس إلّا شُحًّا ، ولا تقوم الساعةُ إلّا على شرار الخلق ! قال : بلى ؛ قيل : فما بال عمرَ بن عبد العزيز وعدْله

(١) الديماس : سجن كان للحجاج .
(٢) ظلف نفسه : منعها .

وسيرته ! فقال : لابدّ للناس من متنفَّس . وكان مذكورا مع الخطباء ، ومع النُّسّاك، ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبدُ الملك بن عمرَ بن عبد العزيز ، كان ناسكا زكيّا طاهرا ، وكان من أتقى النّاس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً مايعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له فى جميع أموره ، وهوصاحب الأعْوَص ، إسماعيل بن أمية ابن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ وهو الذى قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلىّ من الأمر شىء لجعلتُها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص .

قالوا : ومن نُسّاكنا أبو حراب من بنى أمية الصغرى ، قتله داود بن علىّ ، ومن نُسّاكنا يزيد بنُ محمد بن مروان ، كان لا يُهدِب [1] ثوبا ولا يصبغه ، ولا يتخلّق بخَلوق [2] ،ولا اختار طعاما على طعام ، ماأُطعِم أكله،وكان يكره التكلّف ، وينهى عنه.

قالوا : ومن نُسّاكنا أبو بكر بن عبدالعزيز بن مروان ؛ أراد عمر أخوه أن يجعله ولىّ عهدِه لما رأى من فضله وزهده ، فسما فيهما جميعا .

ومن نُسّاكنا عبد الرحمن بنُ أبان بن عثمان بن عفّان ، كان يصلّى كلّ يوم ألف ركعة ، وكان كثير الصدقة،وكان إذا تصدّق بصدقة قال : اللهمّ إنّ هذا لوجهك،فخفِّف عنّى الموت . فانطلق حاجّا ، ثم تصبّح بالنوم فذهبوا يُنَبِّهونه للرّحيل ، فوجدوه ميتا ، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعبُ فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبّة من طين ، فالتَدم [3] مع النِّساء ، وكان إليه محسنا .

ومن نُساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

---

(١) يهدب : يقطع .
(٢) الخلوق : الطيب .
(٣) التدم مع النساء : ضرب صدره معهن فى النياحة .

قالوا : فنحن نعدّ من الصلاح والفضل ما سَمِعتموه ، ومالم نذكره أكثر، وأنتم تقولون : أميَّـــة هى الشجرة المَلْعونة فى القرآن ، وزعمتم أنّ الشجرة الخبيثةَ لا تثمر الطّيّب ، كما أنّ الطيّب لا يثمر الخبيث ، فإن كان الأمر كما تقولون ، فعثمانُ بنُ عفّانَ ثمرةٌ خبيثة . وينبغى أن يكون النبى صلى الله عليه وآله دَفَع ابنتَيْه إلى خبيث ، وكذلك يزيدُ بن أبى سُفْيان صاحبُ مقدِّمة أبى بكر الصّدّيق على جيوش الشام ، وينبغى لأبى العاص بن الربيع زوْج زَيْنَبَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون كذلك ، وينبغى لمحمّد ابن عبد الله المديَّج أن يكون كذلك ، وإن ولدتْه فاطمةُ عليها السلام ،لأنّه من بنى أمية، وكذلك عبدُ الله بنُ عثمان بنِ عفّان سِبْطُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، الّذى مات بعد أن شَدَن[(١)] ونَقَر الدِّيكُ عينه فمات ، لأنّه من بنى أميّة ، وكذلك ينبغى أن يكون عتّاب بنُ أسيد بنِ أبى العيص بنِ أميّة وإن كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولّاه مَكّة أمَّ القُرى وقبلةَ الإسلام ، مع قوله عليه السلام « فتيانِ أضنُّ بهما عن النار: عتّاب ابنُ أسيد ، وجُبَيْر بنُ مُطعِم » . وكذلك ينبغى أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز شبيه عمر بنِ الخطّاب كذلك ، وكذلك معاويةُ بنُ يزيدَ بن معاوية ، وكذلك يزيدُ الناقص ؛ وينبغى ألاّ يكون النبىُّ صلى الله عليه وسلّم عدَّ عثمانَ فى العَشَرة الّذينَ بشّرهم بالجنّة ؛ وينبغى أن يكون خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص شهيد يوم مَرْج الصُّفّر[(٢)] والحبيس فى سبيل الله ، ووالى النبىّ صلى الله عليه وسلّم على اليمن ، ووالى أبى بكر على جميع أجنادِ الشام ، ورابع أربعةٍ فى الإسلام ، والمهاجر إلى أرض الحَبَشة كذلك . وكذلك أبانُ ابنُ سعيدِ بنِ العاص المهاجر إلى المدينة ، والقديم فى الإسلام ، والحبيس على الجهاد ،ويجب أن يكون ملعونا خبيثا ، وكذلك أبو حذيفة بنُ عُتْبة بنِ ربيعـــة ، وهو بَدْرىّ من المهاجرين الأوّلين ، وكذلك أمامة بنت أبى العــاص بنِ الربيع ، وأمُّها زينب بنتُ

---

(١) شدن : قوى وترعرع ؛ وأصله فى الظباء .

(٢) مرج الصفر : موضع .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك أمُّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يُخرِجها من المَغازِي ، ويضرب لها بسَهْم ، ويُصالحها ، وكذلك فاطمةُ بنتُ أبي مُعَيطٍ ، وهي من مهاجرة الحبشة .

قالوا : وممّا نَفْخر به وليس لبني هاشم مثله ؛ أنّ منّا رجلا وُلِّي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاويةُ بنُ أبي سُفيان . ولنا أربعة أخوةٍ خلفاء : الوليد ، وسليمان ، وهشام ، بنو عبدالمَلِك ، وليس لكم ويزيد ، إلّا ثلاثة إخوة : محمّد ، وعبد الله ، وأبي إسحاق أولاد هارون .

قالوا : ومنّا رجل ولد سبعةً من الخلفاء وهو عبدُ الله بنُ يزيد بن عبد الملكِ بن مَرْوان ، أبوه يزيدُ بنُ عاتكة ، خليفة ، وجدُّه عبد الملك خليفة ، وأبو جدّه مروان الحكم خليفة ، وجدّه من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيدبنُ معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سُفْيان وهو خليفة ، فهؤلاء خمسة ، وأمّ عبد الله هذا عاتكة بنتِ عبدالله بنِ عثمانَ بن عفّان ، وحفصةُ بنت عبد الله بن عمرَ بن الخطّاب ؛ فهذان خليفتان ، فهذه سبعة من الخلفاء وَلَدوا هذا الرّجل .

قالوا : ومنّا امرأةٌ أبوها خليفة ، وجدّها خليفة ، وابنُها خليفة ، وأخوها خليفة ، وبعلها خليفة ، فهؤلاء خمسةٌ ، وهي عاتكة بنتُ يزيدَ بن معاوية بن أبي سُفْيان ، أبوها يزيدُ بن معاوية خليفة ، وجدّها معاويةُ بنُ أبي سفيان خليفة ، وابنُها يزيد بنُ عبدِ الملك بنِ مَرْوان خليفة ، وأخوها معاويةُ بنُ يزيدَ خليفة ، وبَعْلُها عبد الملك بنُ مَرْوان خليفة .

قالوا : ومن وَلَدَ المدبّج محمّد بنُ عبدِ الله الأصغر امرأةٌ وَلَدَها النبيّ صلّى الله عليه وآله وأبو بكر وعمَر وعثمانَ وعليّ وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنتُ محمّد بن عبدِ الله بن عمَر ابنِ عثمان بن عفّان ، وأمّها خديجةُ بنتُ عثمانَ بن عُرْوة بن الزبير ، وأمّ عروة أسماء ذاتُ النِّطاقين بنت أبي بكر الصدّيق ، وأم محمّد بن عبد الله بن عمرو بنِ عثمان — وهو

المدّبج ـ فاطمةَ بنتَ الُحسَين بن علىّ عليه السلام ، وأمّ الُحسَين بن علىّ عليه السلام فاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وأمُّ فاطمة بنتِ الُحسين بن علىّ عليهما السلام أمّ إسحاق بنتِ طلحةَ بن عبدِ الله ، وأمُّ عبدِ الله بن عَمرو بن عُثمان بن عفّان ابنةُ عبدِ الله بن عُمَر بن الخطّاب .

قالوا : ولنا فى الجمال والحسْن ما ليس لكم ، منا المدبّج ، والدِّيباج ، قيل ذلك لجماله. ومنّا المطرَف ، ومنّا الأرجُوان ، فالمُطرف وهو عبدُ الله بنُ عمرو بنِ عُثمانَ ، سُمّى المطُرَف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

نمَا الفاروقُ إنك وابن أروَى أبُوكَ فأنتَ مُنصدِع النّهارِ

والمدبَّج هو الدِّيباج ، كان أطولَ الناس قياما فى الصّلاة ، وهَلَكَ فى سجْن المنصور .

قالوا : ومنّا ابنُ الخلائف الأربعة ، دُعى بذلك وشُهِر به ، وهو المؤمّل بنُ العبّاس ابن الوليد بن عبد الملك ، كان هو وأخوه الحارثُ ابنَى العبّاس بن الوليد من الفجاءة بنتِ قَطَرى بنِ الفجاءة ، إمام الخوارج ، وكانت سُبيتْ فوقعتْ إليه ، فلمّا قام عُمر بنُ عبدِ العزيز أتتْ وجوه بنى مازِن وفيهمْ حاجبُ بنُ ذُبْيان المازنىُّ الشاعر ، فقال حاجب :

أتينــــاكَ زُوّارا ووَفْداً إلى التى أضاءت فلَا يخْفَى على الناس نُورُها
أبُوها عميــدُ الحىّ جَمْعاً وأمُّها من الحنظليات الكِرام حُجُورُها
فإن تَكُ صارتْ حين صارتْ فإنّها إلى نسبٍ زاكٍ كرام نَفِــيرُها

فبَعثَ عمرُ بنُ عبد العزيز إلى العبّاس بن الوليد إما أن ترُدّها إلى أهلها ، وإما أن تزَوجها ، فقال قائل ذاتَ يوم للمؤمّل : يابن الخلائف الأربعة ، قال : وَيلَكَ مَن الرابع !

قال : قَطَرى ، فأما الثلاثة فالوليدُ وعبدُ الملك ومروان ، وأما قَطَرِىّ فبُويع بالخلافة ، وفيه يقول الشاعر :

* وأبو نعامـــةَ سيّد الـكُفّارِ *

قالوا : ومن أين صار محمّد بنُ علىّ بن عبد الله بن العبّاس أحقّ بالدّعوة والخلافة من سائر إخوته ! ومن أين كان له أن يَضَعها فى بيته دون إخوته ! وكيف صار بنو الأخ أحقّ بها من الأعمام !

وقالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يُسْتَحقّ بالميراث ، فالأقرب إلى العبّاس أحقّ ، وإن كان بالسّنّ والتجربة فالعُمومة بذلك أولى .

قالوا : فقد ذكرْنا جملا من حال رجالنا فى الإسلام ، وأمّا الجاهلية فلنا الأعياص والعنابس [1] .

ولنا ذو العصابة أبو أُحَيحة سعيدُ بنُ العاص كان إذا اعتمّ لم يعتمّ [2] بمكة أحَد ، ولنا حَرْب بن أميّة رئيسُ يوم الفِجار ، ولنا أبو سُفْيان بنُ حَرْب رئيسُ أُحُد والخَنْدق ، وسيّد قريش كلّها فى زمانه .

وقال أبو الجَهْم بنُ حُذَيفة العدوىّ لعمرَ حين رأى العبّاس وأبا سُفْيان على فراشه دون الناس : مازلنا نستريح من بنى عبدِ مناف على حال ! قال عمر : بئس أخو العَشِيرة أنتَ ! هذا عمّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وهذا سيّد قريش .

(١) فى الأغانى ١ : ١٤ (طبعة دار الكتب) بسنده عن الزبير بن بكار شيوخه : « الأعياص : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص ؛ ومنهم العنابس ؛ وهم : حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ؛ وإنما سموا العنابس ؛ لأنهم ثبتوا مع أخيهم حرب بن أمية بعكاظ ، وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً ؛ فشبهوا بالأسد ، والأسد يقال لها : العنابس ، واحدها عنبسة » .

(٢) اعتمّ : أرخى عمامته .

قالوا : ولنا عُتبة بنُ رَبيعة ، ساد مملقا ، ولا يكون السيِّد إلّا مُترفا ، لولا ماراأوا عنده من البَراعة والنُّبل والكمال . وهو الذى لما تحاكمت بَجيلة وكَلْب فى مُنافَرة جرير والفرافصة ، وتَراهَنوا بسُوق عُكاظ، وصَنعوا الرَّهن على يدِه دونَ جميع مَن شَهِدعلى ذلك المشهَد ، وقال رسولُ الله صلّى الله عليهوآله ، ونظر إلى قريش مُقبِلة يومَ بدر : «إن يكن منهم عند أحد خيرٌ فعنَد صاحب الجمل الأحمر » ، وماظنُّك بشَيخ طَلَبوا له من جميع العسكر عنــد المُبارَزة بيضة فلم يَقدروا على بَيْضة يُدخِل رأسَه فيها ، وقد قال الشاعر :

* وإنّا أناسٌ يمــلأ البَيْض هامُنا *

قالوا : وأمَيّة الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس ، قال الشاعر :

من الأعْياص أو مِن آل حَرْبٍ أغرّ كغُرّةِ الفَرَسِ الجوادِ (١)

سُمُّوا بذلك فى حَرْب الفجار حينَ حفَروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها ، وقالوا : نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سُمُّوا بالعَنابس لأنّها أسماء الأسُود ، وإنما سُمّوا الأعْياص لأنها أسماءالأصُول ، فالعَنابس : حَرْبوسُفْيان وأبوسُفْيان وعَمْرو ،والأعياص: العِيص، وأبو العِيص ، والعاص، وأبوالعاصوأبوعمرو،ولم يعقِبمن العنابِسإلا حَرْب،وماعَقَّب الأعياصُ إلا العِيص ، ولذلك كان معاويةُ يشكو القِلّة .

قالوا : وليس لبنى هاشم والمطّلب مثل هذه القِسْمة ، ولا مِثْل هذا اللّقب المشهور . وهذا ماقالته أميّةُ عن نفسِها .

***

(١) من أبيات فى الأغانى ١ : ١٤ — ١٦ ؛ ونسبها إلى عبد الله بن فضالة الأسدى .

[ذكر الجواب عمّا فخرت به بنو أميّة]

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ، ونضيفُ إليه مِن قِبَلنا أموراً لم يذكرها ، فنقول : قالت هاشم : أمّا ذكرتم من الدّهاء والمكْر فإنّ ذلك من أسماء فجّار العُقَلاء ، وليس من أسماء أهلِ الصواب فى الرأى من العُقَلاء والأبرار ، وقد بلغ أبو بكر وعُمر من التّدبير وصوابِ الرأى ، والخبرةبالأمور العامّة ، وليس من أوْصافهما ولا مِنْ أسمائهما أن يقال : كانا داهِيَيْن ، ولا كانا مَكِيرين . وما عامَل معاويةُ وعمرُو ابنُ العاص عليّا عليه السلام قَطّ بمعاملةٍ إلا وكان علىٌّ عليه السلام أعلَم بها منهما ، ولكنّ الرجل الّذى يُحارِب ولا يَستعمل إلّا ما يحلّ له أقلّ مذاهب فى وُجوهِ الحيَل والتدبير مِنَ الرّجل الذى يَستعمِل مايحلّ ومالا يحلّ ، وكذلك من حدّث وأخبَر ، ألا ترَى أنّ الكذّاب ليس لكِذبِه غاية ، ولا لما يُولِّد ويَصنَع نهاية ، والصَّدُوق إنّما يحدِّث عن شىء معروف ، ومعنًى محدود ! ويدلّ على ماقلنا أنّكم عددتم أربعةً فى الدّهاء ، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين فى طريق المتّقين ، ولو كان الدّهاء مرتبة والمَكْر مَنْزلة لكان تقدُّمُ هؤلاء الجميع السابقِين الأوّلين عَيْبا شديدا فى السابقين الأوّلين ، ولو أنّ إنسانا أراد أن يمدَحَ أبا بكروعمَر وعثمان وعليّا ثمقال : الدُّهاة أربعة، وعَدّهم ، لكان قد قال قولًا مرغوباعنه ، لأنّ الدهاءوالمكْر ليس منصِفات الصالحين؛ وإن علموا من غامض الأمور مايجهَله جميعُ العُقَلاء ، ألا ترَى أنّه قد يَحسُن أن يقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أكرَمَ الناس ، وأحلَمَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجَعَ الناس ، ولايجوز أن يقال : كانأمكَرَ الناس ، وأدهى الناس ، وإن علِمناأنّعِلْمه قد أحاط بكل مَكْرٍ وخديعة ، وبكل أدبٍ ومَكيدة !

وأمّا ماذكرتم من جود سعيدبن العاص وعبد الله بن عامر ، فأين أنتمْ من عبد الله ابن جَعْفر ، وعُبيدِ الله بن العبّاس ، والحسنِ بن علىّ ! وأين أنتم من جُودِ خُلَفاء بَنى

العبّاس ، كمحمّد المهدِىّ ، وهارون ، ومحمد بن زُبَيدة ، وعبدالله المأمون ، وجعفر المقتدر! بل لعلّ جود بعض صنائع هؤلاء كَبنى بَرْمَك وبَنى الفُرات ، أعظم من جُود الرّجُلين اللّذين ذكرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خُلفاء بنى أمية .

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية ، فلو شئنا أن نجعل جميعَ ساداتنا حُلماءَ لكانوا مُحتمِلين لذلك ، ولكنّ الوجه فى هذا ألّا يُشتقّ للرجل اسمٌ إلّا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلّا أن يتبيّن بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك اسما يسمّى به ، ويصيرَ معروفا به ، كما عُرف الأحنفُ بالحِلم ، وكما عُرِف حاتمٌ بالجود ، وكذلِك هَرِم ، قالوا : هَرِم الجواد ، ولو قلتم : كان أبوالعاص بن أميّة أحلمَ الناس، لقلنا : ولعلّه يكون قد كان حليما ، ولكن ليس كلّ حلم يكون صاحبُه به مذكورا ، ومن إشكاله بائنا .

وإنكم لتظلمون خصومَكم فى تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونَه ، لأن العرَب تقول : أحلم الحالمين ألا يتعرّض ثم يَحلم ، ولم يكن فى الأرض رَجلٌ أكثر تعرّضا من معاوية ، والتعرّض هو السَّفَه ، فإن ادّعيتم أن الأخبار التى جاءت فى تعرّضه كلّها باطلة ، فإنّ لقائلٍ أن يقول ، وكلّ خبرٍ رَوَيْتموه فى حِلمه باطل ، ولقد شُهر الأحنف بالحلم ، ولكنه تكلّم بكلامٍ كثير يَجرَح فى الحِلْم ويثلم فى العِرض[1] ، ولا يستطيع أحد أن يحكِى عن العبّاسِ بنِ عبد المطّلب ولا عن الحسَن بنِ علىّ بن أبى طالب لفظا فاحشا ، ولا كلمة ساقطة ، ولا حرفا واحداً مما يُحكَى عن الأحنف ومعاوية .

وكان المأمونُ أحلمَ الناس ، وكان عبدُالله السفّاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصفَ هاشمًا أو عبد المطّلب بالحِلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسمّيَه بذلك ، ويخصّ به دون كلّ شىء فيه من الفَضْل ! وكيف وأخلاقهم متساوية ، وكلّها فى الغاية ! ولو أنّ رجلا كان أظهرَ الناسِ زُهْدا ، وأصدَقَهم للعدوّ لِقاء ، وأصدقَ الناس لسانا ؛

---

(١) يثلم فى العرض ؛ أى ينال منه ويقع فيه .

وأجودَ الناسِ كفًّا ، وأفصَحَهم مَنطقا ، وكان بكلّ ذلك مشهورا ، لمنعَ بعضَ ذلك من بعض ، ولمـا كان له اسمُ السيّد المقـدَّم ، والـكامل المعظّم ، ولم يكن الجوادُ أغلَب على اسمه ، ولا البيان ولا النَّجدة .

وأمّا ماذكرتم من الخطابة والفَصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنّسب ، فقد عَلِم الناس أن بنى هاشم فى الجملة أرَقُّ ألسِنةً من بنى أميّة ، كان أبو طالب والزّبير شاعرَين ، وكان أبو سُفْيان بنُ الحـارث بن عبد المطّلب شاعرا ، ولم يكن من أولاد أميّة بنِ عبدِ شَمْس لصُلْبه شاعر ، ولم يكن فى أولاد أميّة إلا أن تعدّوا فى الإسلام العرْجيّ مِنْ وَلَد عُثمانَ ابن عفّان ، وعبد الرحمن بن الحـكَم ، فنعدّ نحن الفضلَ بنَ العبّاس بن عتبة بن أبى لهب ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، ولنا من المتأخرين محمـــد بنُ الحسين بن موسى المعروف بالرضيّ ، وأخوه أبو القاسم ، ولنا الحِمّانى ، وعلى بن محمد صاحب الزّنج ، وكان إبراهيم ابن الحسَن صاحب باخَمْرى[1] أديبا شاعر فاضلا ؛ ولنـا محمّد بنُ علىّ بن صالح الذى خرج فى أيام المتوكل .

قال أبو الفرج الأصفهانى : كان من فِتْيان آل أبى طـالب وفُتّاكهم وشُجْعانهم وظُرَافهم وشعرائهم ، وإن عددتم الخطـابة والبيان والفصاحة لم تعدّوا كعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ولا كعبدالله بن العباس ؛ ولنا من الخطباء زيد بن علىّ بن الحسين ، وعبد الله بن معـاوية بن عبد الله بن معـاوية بن عبـد الله بن جعفر ، وجعفرُ بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علىّ بن عبد الله بن العباس ، وداود وسليمان ابنـا جعفر ابن سليمان .

قالوا : كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن علىّ بن الحُسين فى الوصيّة ،

---

(١) باخمرى : بلدة قرب الـكوفة بها قبر إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على .

وكان الناسُ يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمانُ بنُ جعفر بن سليمان بن عليّ والى مكّة،فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أميرٌ إلّا وسليمان أبين منه قاعدا،وأخطب منه قائما . وكان داود إذا خطب اسْحَنْفر [١] فلم يردّه شيء .

قالوا : ولنا عبدالملك بن صالح بن عليّ ، كان خطيبا بليغا،وسأله الرشيد ـ وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران ـ فقال له : كيف رأيتَ أرضَ كذا ؟ قال : مسافي رِيح ، ومنابت شيح . قال : فأرضَ كذا ، قال : هَضَبات [٢] حُمْر ، ورَبوات [٣] عُفْر ، حتى أتى على جميع ماسأله عنه ، فقال عيسى لسليمان : والله ماينبغى لنا أن نرضى لأنفسنا بالدُّون من الكلام .

قالوا : وأما ماذكرتم من نُسّاك الملوك ؛ فلنا عليُّ بن أبى طالب عليه السلام ، وبزُهده وبدينه يضرب المثل ، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بنى العباس ، وهو الملقب بالمهتدى ، كان يقول : إنى لآنفُ لبنى العبّاس ألّا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز، فكان مثله وفوقه . ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر ، ولنا القائم عبدالله بن القادر ، كانا على قدم عظيمة من الزهد والدّين والنُّسُك ، وإن عددتم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن عليّ بن الحسين زين العابدين ! وأين أنتم عن عليّ بن عبدالله بن العباس! وأين أنتم عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام ، الّذى كان يقال له: عليّ الخير ، وعليّ الأغر ، وعليّ العابد،وما أقسم على الله بشيء إلّا وأبرّ قَسَمه ! وأين أنتم عن موسى بن جَعْفر بن محمد ! وأين أنتم عن عليّ بن محمّد الرضا،لابس الصوف طولَ عمره،مع سَعة أمواله ، وكثرةِ ضياعه وغَلّاته !

---

(١) اسحنفر الرجل فى منطقة : مضى فيه .
(٢) الهضبات : جمع هضبة ؛ وهى الجبل الطويل الممتنع ، ولايكون ذلك إلا فى حمر الجبال .
(٣) الربوات ، جمع ربوة ، وهى أعلى الجبل .

وأما ماذكرتم من الفُتوح،فلنا الفتوح المتصميّة التي سارت بها الرُّكْبان،وضُربت بها الأمثال ، ولنا فتوحُ الرّشيد ، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرّميّ بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة . وإن شئت أن تعـدّ فتوحَ الطالبيّين بإفريقيّة ومِصر وما ملـكوه من مُدُن الرّوم والفرنج والجلالِقة[1] في سِنِي ملـكهم،عددتَ الـكثير الجمّ الذي يخرجُ عن الحصْر ، ويحتاج إلى تاريخ مُفرَد يَشتمل على جلودٍ كثيرة .

فأما الفِقه والعِلم والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لـكم فيه أحد ، وكان لنافيه مِثل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وعبدِ الله بنِ العباس ، وزيد بنِ عليّ ، ومحمد بن عليّ ، ابنيْ عليّ بن الحُسَين بنِ عليّ ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه.ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذتِه ، وكذلك سُفْيان الثَّوْرِيّ ، وحسبُك بهما في هـذا الباب ، ولذلك نسب سُفْيان إلى أنه زَيْديُّ المذهَب ، وكذلك أبو حنيفة .

ومَنْ مِثلُ عليّ بن الحُسين زين العابدين ! وقال الشافعيّ في الرسالة في إثبات خَبَر الواحد : وجدتُ عليّ بن الحُسَين وهو أفقه أهل المدينة يُعوِّل على أخبار الآحاد .

ومَن مثل محمّد بن الحنفيّة وابنه أبي هاشم الذي قرّر علومَ التوحيد والعَدْل!وقالت المعتزلة : غَلَبْنا الناسَ كلّهم بأبي هاشم الأوّل ، وأبي هاشم الثاني !

وإن ذكرتم النّجدة والبَسالة والشّجاعة فمن مثلُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وقد وقع اتّفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجَع البَشَر !

ومَن مثل حمزةَ بن عبدالمطّلب أسَد الله وأسد رسولِه!ومَن مِثل الحُسَين بن عليّ عليهما السلام ! قالوا يوم الطّفّ:مارأينا مكثورا[2] قد أفرِد من إخوته وأهلِه وأنصاره أشجَع منه، كان كالّليث المِحْرَب،يَحطِم الفرسان حَطْما .وماظنّك برجل أبَتْ نفسُه الدنيّةَ وأن يعطيَ

---

(١) الجلالقة : أهل جلق ، وهي دمشق .

(٢) المكثور : المغلوب في الـكثرة .

بيَدِه ، فقاتَلَ حتى قُتِلَ هو وَبنُوه وإخوتُه وبَنُو عمّه بعد بذل الأمان لهم ، والتوثقة بالأَيْمان المغلَّظة ، وهو الّذى سَنّ للعَرَب الإباء . واقتَدَى بعدَه أبناء الزبير وبنو المهلّب وغيرُهم .

ومن لكم مِثل محمد وإبراهيم بن عبد الله ! ومن لكم كزيدِ بن علىّ ، وقد علمتم كلمته الّتى قالها حيث خرج من عند هشام : ما أَحَبَّ الحياةَ إلا مَنْ ذَلّ ؛ فلمّا بلغتْ هِشاما قال : خارجٌ وَربِّ الكَعْبة ! فخرج بالسيف ، ونَهَى عن المنكر ، ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قُتِل صابرا محتسباً .

وقد بلغتْكم شجاعةُ أبى إسحاق المعتصِم ، ووقوفُه فى مشاهِد الحَرْب بنفسِه حتّى فَتَح الفتوح الجليلة . وبلغتكم شجاعةُ عبدِ الله بنِ علىّ ؛ وهو الذى أزال مُلْك بنى مَرْوان ، وشَهِدَ الحُروبَ بنفسِه ، وكذلك صالح بنُ علىّ ، وهو الّذى اتبع مروان بنَ محمّدٍ إلى مصر حتى قَتله .

قالوا : وإن كان الفَضْل والفَخْر فى تواضُع الشّريف ، وإنصاف السّيد ، وسَجاحة[1] الخُلُق ولِين الجانب للعَشِيرة والموالى ، فليس لأحدٍ من ذلك ما لبنى العبّاس ؛ ولقد سألنا طارقَ بن المبارَك — وهو مولًى لبنى أُميّة ، وصنيعةٌ من صَنائِعهم — فقلنا : أىُّ القبيلتين أشدّ نخوةً وأعظَم كِبْرياء وجَبرِيّة ؛ أبنو مَرْوان ؟ أم بنو العبّاس ؟ فقال : واللهِ لَبَنو مَرْوانَ فى غير دولتِهم أعظَم كِبْرياء من بنى العبّاس فى دولتهم ، وقد كان أدرَك الدولتَين ، ولذلك قال شاعرُهم :

إذا نابهٌ من عبدِ شمسٍ رأيته   يَتيهُ فَرَشِّحه لِكلِّ عظيمِ

(١) سجاحة الخلق : سهولته ولينه .

وإن تاهَ تَيَاهٌ سِواهُمْ فإنما   يَتيهُ لنوك أو يتيه للُومِ[1]

ومن كلامِهم : مَن لم يكن من بنى أمَيّة تَيَّاها فهو دَعِىّ .

قالوا : وإن كان الكِبْرُ مَفخَرا يمدَح به الرجال ويُعَدّ من خِصال الشرف والفَضْل ، فمولانا عمارة بنُ حَمزةَ أعظمُ كِبراً من كلّ أُموىّ كان ويكون فى الدنيا ، وأخبارُه فى كِبْره وتِيهه مشهورة مُتعالَمة .

قالوا : وإن كان الشرف والفَخْرُ فى الجمال وفى الكمال وفى البَسطة فى الجسم وتمامِ القَوام ، فمن كان كالعبّاس بنِ عبد المطلب !

قالوا : رأينا العبّاسَ يطوف بالبيت وكأنه فُسْطاط[2] أبيض .

ومن مِثل علىّ بنِ عبد الله بن العبّاس ووَلَدِه ، وكان كلّ واحد منهم إذا قام إلى جَنب أبيه كان رأسُه عند شحمةِ أُذُنه ، وكانوا من أطوَل الناسِ ، وإنّك لتجد ميراثَ ذلك اليومَ فى أولادهم .

ثم الّذى رواه أصحاب الأخبار وحُمّال الآثار فى عبدِ المطلب من التّمام والقَوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالقَمَر لجماله ، ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكما رواه الناسُ أنّ عبد المطلب وَلَدَ عشَرةً كان الرجلُ منهم يأكل فى المجلِس الجَذَعة[3] ويَشرَب الفَرِق[4] ، وترد آنفهم قبل شِفاهِهم ، وإن عامرَ بن مالك لمّا رآهم يطوفون بالبيت كأنّهم جِمالٌ جُون[5] قال : بهؤلاء تُمنَع مكّة ؛ وتشرف مكّة !

وقد سمعتم ما ذَكَره النـاس من جمال السَّفّاح وحُسْنه ، وكذلك المهدىّ وابنُه هارون الرشـيد ، وابنـه محمد بن زبَيدة وكذلك هارون الواثق ، ومحمد المنتصر والزّبير المعتز .

---

(١) ب : « لنول » تصحيف ؛ وصوابه فى ا . والنوك : الحمق ، واللوم أصله « اللؤم » : بالهمزة ، وخفف للشعر .

(٢) الفسطاط : الخيمة .   (٣) الجذعة من الضأن : الصغيرة .

(٤) الفرق ، بكسر فسكون : مكيال بالمدينة ، يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا .

(٥) الجون من الإبل والخيل : جمع جون ، بفتح فسكون ، وهو الأدهم .

قالوا : مارُئِىَ فى العَرَب ولا فى العَجَم أحسَن صورةً منه ؛ وكان المكتفى علىّ بنُ المعتضد بارعَ الجمال ، ولذلك قال الشاعر يَضرِب المَثَلَ به :

واللهِ لا كلّمتُــــــه ولو أنّهُ ... كالشّمس أو كالبَدْرِ أو كالمُكْتَفى

فَجَعَله ثالثَ القمرَين . وكان الحسَن بنُ علىّ عليه السلام أصبحَ الناس وَجْها ، كان يُشَبَّه برسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه ، وكذلك عبد الله بنُ الحسَن المَحْض .

قالوا : ولنا ثلاثة فى عَصْرٍ بنو عَمّ ، كلّهم يسمّى عليًّا ، وكلّهم كان يَصلُح للخلافة بالفِقه والنُّسُك والمرْكَب ، والرّأى ، والتجربة ، وَالحالِ الرّفيعة بين الناس : علىّ بنُ الحسَين بنِ علىّ ، وعلىّ بنُ عبد الله بن العبّاس ، وعلىّ بنُ عبد الله بن جعفر ، كلّ هؤلاء كان تامًّا كاملا بارعا جامعا . وكانت لُبابة بنتُ عبد الله بنِ العبّاس عند علىّ بن عبدالله بن جَعْفر ، قالت:مارأيتهُ ضاحِكا قطّ ولا قاطِباً،ولا قال شيئا أحتاج إلى أن يَعتذِر منه ، ولا ضَرَب عبداً قطّ ، ولا مَلَكه أكثرَ من سَنَة .

قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عَمّ،وهم بنو هؤلاء الثلاثة،وكلّهم يسمّى محمدا ، كما أن كلّ واحد من أولئك يسمّى عليًّا،وكلّهم يَصلُح للخلافة،بكَرَم النّسب وشَرَف الخصال: محمّد بنُ علىّ بن الحُسَين بنِ علىّ،ومحمّد بن علىّ بن عبد الله بن العَبّاس ،ومحمد بن علىّ ابنِ عبد الله بنِ جعفر .

قالوا : كان محمّدبنُ علىّ بن الحسين لا يُسمِع المبتلى الاستعاذة ،وكان يَنهى الجاريةَ والغلامَ أن يقولا لِلمسكين : ياسائل ؛ وهو سيّد فُقَهاء الحِجاز ؛ ومنه ومن أبنه جعفر تَعلّم الناسُ الفِقه ، وهو المُلقَّب بالباقر ، باقرِ العِلْم ؛ لقبه به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ولم يُخلَق بعد ، وبشّر به ، ووعد جابر بن عبد الله برؤيته ، وقال : ستراه طفلا ، فإذا رأيته فأبلِغه عنّى السلام ، فعاش جابرٌ حتى رآه ، وقال له : ماوصّى به .

وتوعّد خالد بن عبدالله القسرىّ هشامَ بنَ عبدِالملك فى رسالةٍ له إليه ، وقال : والله إنى لأعرِف رَجُلا حِجازىّ الأصل ، شآمِىّ الدّار ، عِراقىّ الهوى ، يريد محمد بن علىّ بن عبد الله ابن العبّاس .

***

قالوا : وأمّا ماذكرتم من أمرِ عاتكة بنتِ يزيدَ بنِ معاوية فإنّا نذكر فاطمة بنت رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وهى سيّدة نساء العالمين ، وأمُّها خديجةُ سيّدة نساء العالمين ، وبعلُها علىّ بنُ أبى طالب سيّد المسلمين كافّة ، وابنُ عمّها جعفر ذو الجناحين ، وذو الهجرتين ، وابناها الحسَن والحُسَين سيّدَا شباب أهلِ الجنّة ، وجدُّها أبو طالب بن عبدِ المطّلب أشدُّ الناس عارِضةً وشكيمة، وأجوَدُهم رأيا ، وأشهمُهُمْ نفساً ، وأمنعُهم لما وَرَاء ظَهْرِه ، مَنعَ النبىّ صلّى الله عليه وآلِه مِنْ جميعِ قريش ، ثم بنى هاشمٍ وبنى المطّلب، ثم مَنَع بنى إخْوانه من بنىأَخَواته من بنى مَخزوم الّذين أسلموا،وهو أحَد الّذين سادُوا مع الإقلال ، وهو مع هذا شاعرٌ خطيب . ومن يُطيق أن يُفاخِر بنى أبىطالب ، وأمّهم فاطمة بنت أسَد بنِ هاشم ، وهى أوّل هاشميّة وَلَدتْ لهاشمىّ ، وهى التى رَبّتِ رسولَ الله فى حِجْرِها ، وكان يدعوها أمّى ، وَنزَل فى قبْرِها ، وكان يُوجب حقّها كما يُوجب حقّ الأمّ ! من يَستطيع أن يُسامِىَ رِجالا ولدهم هاشم مرتين من قِبَل أبيهم ومن قِبَل أمّهم .

قالوا : ومن العجائب أنّها وَلدتْ أربعةً كلٌّ منهم أسَنّ من الآخر بعَشْرِ سنين : طالب، وَعقِيل ، وجعفر ، وعلىّ .

ومن الّذى يَعُدّ من قريش أو مِن غيرهم مايَعُدّه الطالبيّون عشَرةً فى نَسَق ؛ كلّ واحد منهم عالمٌ زاهد ناسك شجاع جَواد طاهر زاكٍ ، فمنهم خلفاء ، ومنهم مُرشَّحون : ابن ابن ابن ابن ، هكذا إلى عشَرة ، وهم الحسَن بنُ علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام؛ وهذا لم يتّفق لبيتٍ من بُيوت العرب ولا من بُيوت العَجَم .

قالوا : فإن فخرتم بأنّ منكم أثنتين من أمّهات المؤمنين : أمُّ حبيبة بنتُ أبى سُفْيان وزينب بنتُ جَحْش ، فزينب امرأةٌ من بنى أسَد بن خُزَيمة ، ادّعيتُموها بالحِلْف[1] لا بالولادة ، وفينا رجل وَلَدتْه أمّان مِنْ أمّهات المؤمنين ، محمّد بنُ عبدِ الله بن الحسن المحْض ، وَلَدتْه خديجةُ أمّ المؤمنين ، وأمّ سَلَمة أمّ المؤمنين ، وَوَلَدَتْه مع ذلك فاطمةُ بنتُ الحسين بن علىّ ، وفاطمة سيّدة نساء العالمين ابنةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمةُ بنت أسَد بنت هاشم ؛ وكان يقال : خير النّساء الفَواطِمُ والعَواتِك وهُنّ أمّهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنسانا فقبلَ أن نَمدّ من ولده نأتى به شريفا فى نفسه، مذكورا بما فيه دونَ مافى غيره ، قلتم لنا : عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة فى نفسها كامرأة مِن عرض قرَيش ، ليس فيها فى نفسها خاصة أمرٌ تستوجب به المفاخرة . ونحن نقول : مِنّا فاطمة ، وفاطمة سيّدة نساء العالمين ، وكذلك أمّها خديجة الكبرى ، وإنما تذكَران مع مريمَ بنتِ عِمْران وآسيةَ بنتِ مُزاحِم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وآله وذكر إحداهما القرآن ، وهُنّ المذكورات من جميع نساءِ العالَم من العَرَب والعجم .

وقلتم لنا: عبدالله بنُ يزيد بن عبدالملك بن مرْوان وَلده سبعة من الخُلفاء ؛ وعبدالله هذا فى نفسه ليس هناك ، ونحن نقول : مِنّا محمد بنُ علىّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلّهم سيّد ، وأمّه العالية بنتُ عبيد الله بن العباس ، وإخوته داود وصالحٌ وسليمان وعبدُ الله رجالٌ كلُّهم أغرُّ مُحجّل، ثم وَلدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخَوَيه أبا العبّاس وأبا جعفر ، ومَن جاء بعدَهما من خُلفاء بنى العبّاس .

وقلتم : مِنّا عبد الله بنُ يزيد ، وقلنا : منّا الحسينُ بنُ علىّ سيّد شباب أهلِ الجنة،

---

(١) الحلف ، بكسر الحاء وسكون اللام : العهد بين القوم .

وأولى الناس بكلّ مكرُمة ، وأطهرهم طهارةً ، مع النّجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأَنَف(١) ، وأخوه الحسن سيّد شباب أهل الجنة ، وأرفع الناس درَجة ، وأشبههُم برسول الله خَلْقاً وخُلُقاً ، وأبوهما علىّ بنُ أبى طالب .

قال شيخنا أبو عثمانَ : وهو الذى ترْكُ وصفه أبلغ فى وصفه، إذ كان هذا الكتابُ يعجز عنه ، ويحتاج إلى كتابٍ يفرد له ، وعَمّهما ذو الجناحين ، وأمّهما ، فاطمة وجدّتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقيّة وأمّ كُلثوم ، وجدّتاهما آمنةُ بنتُ وَهْب والدةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بنِ هاشم ، وجدّهما رسولُ الله صلّى الله عليه وآله المخرس لكلّ فاخر ، والغالبُ لكلّ مُنافر ، قل ماشِئت ؛ واذكر أىّ باب شئت من الفَضْل ، فإنّك تجدهم قد حوَوْه .

وقالت أميّة : نحن لانُنكِر فخرَ بنى هاشم وفضلهم فى الإسلام ، ولكنْ لافرق بيننا فى الجاهلية ، إذ كان الناسُ فى ذلك الدّهر لايقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشمٌ وأميّة ، بل يقولون : كانوا لايزيدون فى الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميّزهم فى أمر علىّ وعثمان فى الشورى ، ثم ما كان فى أيام تحزّبهم وحَرْبهم مع علىّ ومعاوية .

ومن تأمل الأخبارَ والآثار علم أنه ما كان يذكر فرقٌ بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف ؛ ألا ترى أن أبا قحافة سمع رَجّةً شديدةً ، وأصواتا مرتفعة ، وهو يومئذ شيخٌ كبيرٌ مكفوف ، فقال: ماهذا ؟ قالوا: قبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فما صنعتْ قريش ؟ قالوا: ولّوْا الأمر ابنك؛ قال : ورضيتْ بذلك بنو عبد مناف ؟ قالوا : نعم. قال: ورضى بذلك بنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا مُعطىَ

(١) الأنف بفتحتين ؛ مثل الأنفة ؛ ومعناها الشمم والإباء .

لما منعَ ! ولم يقل : أرضيَ بذلك بنو عبد شمس ؟ وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال .

وهكذا قال أبو سُفيان بن حَرْب لعليّ عليه السلام ، وقد سَخِط إمارة أبى بكر : أرضيتم يابنى عبد مناف أن تَلِيَ عليكم تَيْم ! ولم يقل : أرضيتم يابنى هاشم ؟ وكذلك قال خالد بنُ سعيد بن العاص حين قَدِم من اليمن وقد استخلِف أبو بكر : أرضيتم معشرَ بنى عبد مناف أن تليَ عليكم تيم ؟

قالوا : وكيف يُفرِّقون بين هاشم وعبد شمس ، وهما أخَوان لأب وأمّ ! ويدلّ على أن أمرهما كان واحدا ، وأنّ اسمهم كان جامعا ، قولُ النبى صلى الله عليه وآله وصنيعُه حين قال : « منّا خيرُ فارسٍ فى العَرب ، عُكّاشة بن محصن » وكان أسديًّا ، وكان حليفاً لبنى عبد شمس ، وكل من شهد بدْرا من بنى كبير بن داود كانوا حلفاء بنى عبد شمس ، فقال ضرارُ بن الأزور الأسدى : ذاك منا يارسول الله ، فقال عليه السلام : « بل هو منّا بالحلف » ، فجعل حليف بنى عبدِ شمس حليفَ بنى هاشم ، وهذا بيّنٌ لا يحتاجُ صاحبُ هذه الصفة إلى أكثر منه .

قالوا : ولهذا نكح هذا البيت فى هذا البيت ، فكيف صِرْنا نتزوج بنات النبى وبنات بنى هاشم على وجه الدهر إلّا ونحن أكْفاء ، وأمْرنا واحدٌ ! وقدسمعتُ إسحاق بنَ عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بنى عبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد : لولا حىٌّ أكرَمهم الله بالرسالة ، لزعمت أنك أشرَف النّاس ؛ أفلا ترَى أنه لم يقدم علينا رهطه إلّا بالرسالة !

قالت هاشم : قلتم : لولا أنا كُنّا أكفاءكم لما أنكحتُمونا نساءكم ، فقد نجد القوم يستوون فى حسب الأب ، ويفترقون فى حسب الأنفس ، وربّما استوَوْا فى حسب أبى

القبيلة ، كاستواء قُريش فى النّضر بن كِنانة، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤيّ ، وعامر ابن لؤيّ ، وكاختلاف ابن قصيّ وعبد مناف وعبد الدار وعبد العُزّى ، والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً فى وجوه ، ويفارقونهم فى وجوه ، ويستجيزون بذلك القَدْر مناكحتهم ، وإن كانت معانى الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملتْ فيمن زوّجهم ، وقد يزوّج السيِّد ابن أخيه وهو حارض ابنُ حارض[1] على وجه صِلة الرّحم ، فيكون ذلك جائزاً عندهم ، ولوجوه فى هذا الباب كثيرة ، فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كلّ وجه، وإن كنّا قد زوّجناكم وساوَيْناكم فى بعض الآباء والأجداد . وبعد ، فأنتم فى الجاهلية والإسلام قد أخرَجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرَب ، أفتزعمون أنهم أكفاؤكم عَيْناً بعين ! وأما قولكم : إن الحيّين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضا مع غيرهما من قريش وبنيها : بنو النّضر . وقال الله تعالى : ﴿ وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقرَبين ﴾[2] ، فلم يدع النبيّ صلّى الله عليه وآله أحداً من بنى عبد شمس، وكانت عشيرته الأقربون بنى هاشم وبنى المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف وفوق ذلك قُصىّ ، ومن ذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وآله لما أُتِيَ بعبد الله بن عامر بن كُريز بن حبيب بن عبد شمس ــ وأمّ عامر ابن كُرَيز أمّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ــ قال عليه السلام : هذا أشبه بنا منه بكم ، ثم تفل فى فيه فازدرَدَه ، فقال : أرجو أن تكون مشفيا ، فكَان كما قال . ففى قوله : «هو أشبه بنا منه بكم» خَصلتان: إحداهما أنّ عبد شمس وهاشما لو كانا شيئا واحدا كما أن عبد المطلب شيء واحد لما قال : « هو بنا أشبه به منكم » ، والأخرى أن فى هذا القَوْل تفضيلا لبنى هاشم على بنى عبد شمس، ألا ترون أنه خرج خَطيباً جواداً نبيلا وسيّدا مشفيا ، له مَصانعُ وآثار كريمة ، لأنه قال : « وهو بنا أشبهُ به منكم» وأُتِيَ عبد المطلب

---

(١) الحارض : الرجل الرذل الفاسد . (٢) سورة الشعراء ٢١٤ .

بعامر بن كُرَيز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فتأمّله ، وقال : وعظامِ هاشمٍ ما ولدْنا ولداً أحرَض منه ، فكان كما قال عبدُ الله يُحمَّق ، ولم يَقُل « وعظام عبدِ مناف » لأن شرف جدّه عبد مناف له فيه شُركاء ، وشرف هاشم أبيه خالصٌ له .

فأمّا ما ذكرتم من قول أبي سُفيان وخالد بن سعيد : أرضيتمْ معشرَ بني عبد مناف أن تليَ عليكم تيم ! فإن هذه الكلمة كلمةُ تحريض وتهييج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب ، وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين ، وهذا المذهب سَديد ، وهذا التدبير صحيح .

قال معاوية بنُ صَعْصَعة للأشهب بنِ رُمَيْلة ، وهو نَهْشَليّ وللفرزدق بن غالب ، وهو مُجاشِعيّ ولمسكن بن أنيف وهو عَبْدليّ : أرَضيتم معشرَ بني دارمٍ أن يَسُبّ آباءكم ويشتُمُ أعراضكم كلب بني كُلَيب ! وإنما نَسبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتَمِل على آباء قبائلهم ليستوُوا في الحَميّة ويتّفقوا على الأنَف ، وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدلّ على ماقلنا ماقاله الشعراء في هذا الباب قبل مَقْتل عثمان وقبلَ صِفّين ؛ قال حسّان بنُ ثابت لأبي سُفيان الحارث بنِ عبدِ المطلب :

وأنتَ منوط نِيطَ[1] في آلِ هاشمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الرّاكب القَدَحُ الفَرْدُ

لم يقل : « نِيط في آلِ عبدِ مناف » .

وقال آخر :

ما أنتَ من هاشمٍ في بيتِ مَكرُمةٍ ولا بني جُمَحِ الخُضْرِ الجَلاعيدِ[2]

---

(١) ب : « ينط » تحريف . (٢) الجلاعيد : الصلاب الشداد .

ولم يقل : « ما أنتَ من آلِ عبد مناف » ، وكيف يقول هـذا ، وقد عَلِم الناسُ أن عبد مناف ولد أربعةً : هاشما والمطلب وعبدَ شمس ونَوْفلا ؛ وأن هاشما والمطلب كانا يداً واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة ، وكان مما بطأ ببنى نوفلٍ عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بنى عبد شمس ، وكان مما حَثّ بنى المطلب على الإسلام فضل محبّتهم لبنى هاشم ؛ لأن أمرَ النبيّ صلّى الله عليـه وآله كان بيّناً ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسَد والبِغْضة ، فمن لم يـكن فيه هـذه العلّة لم يـكن له دون الإسلام مانع ، ولذلك لم يَصحب النبي صلى الله عليـه وآله من بنى نوفل أحدٌ فضلًا أن يشهدوا معه المشاهِدَ الكريمة ، وإنما صَحِبه حُلفاؤهم كيَعلَى بن منبِّه وعُتبة بن غَزْوان وغيرهما ، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدْرى : عبيد ، وطُفَيل ، وحُصَين ؛ ومن بنى المطلب مِسْطح بن أثاثة بدْرى .

وكيف يكون الأمرُ كما قلتم وأبو طالب يقول لمُطعِم بنِ عَدِى بن نوفل فى أمر النبي صلّى الله عليه وآله ، لمّا تمالأتْ قريشٌ عليه :

جَزَى اللهُ عنّا عبدَ شمس ونَوْفلًا جزاء مُسىءٍ عاجلاً غيرَ آجلِ
أمُطعِمِ إمّا سامَنى القَوْمُ خُطّةً فأنّى مَتَى أوكلْ فلستَ بآكِلِ
أمطعِمِ لم أخذُلْكَ فى يوم شِدّةٍ ولا مشهدٍ عند الأمور الجلائل

ولقد قَسَم النبيّ صلى الله عليه وآله قسمةً فجَعَلها فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فأتاه عثمانُ بنُ عفان بن أبى العاص بن أميّة بن عبدِ شمس بن عبدِ مناف ، وجُبير بن مُطعم ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقالا له : يا رسول الله ، إن قرابتنا منك وقرابة بنى المطّلب واحدة ، فـكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبيُّ صلّى الله عليه وآله : « إنا لم نزل وبنى المطلب كهاتين » ، وشبّك بين أصابِعه ، فـكيفَ تقولون : كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذى يجمعنا واحدا !

ثم نرجع إلى افتخار بنى هاشم ، قالوا : وإن كان الفخر بالأَيْد[1] والقوة ، واهتصار[2] الأقران ومُباطشة الرجال ، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفيّة ، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على دِرْعٍ فاضلة ، فجذبها فقطع ذيلها ما استدار منه كلّه . وسمعتم أيضا حديث الأيِّد[3] القوىّ الذى أرسله مَلِكُ الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمدا قعدَ له ليقيمَه فلم يستطِع ، فكأنما يحرّك جبلًا ، وأن الرّومى قعد ليقيمَه محمّد فرفعه إلى فوق رأسه ، ثم جلَد به الأرض ؛ هذا مع الشجاعة المشهورة ، والفقه فى الدّين والحلم والصبر والفصاحة والعِلم بالملاحم والإخبار عن الغيوب ، حتى ادّعى له أنه المهدىّ ، وقد سمعتم أحاديثَ أبى إسحاق المعتصم ، وأن أحمد بنَ أبى دُوَادٍ عضّ ساعدَه بأسنانه أشدَّ العَضِّ فلم يؤثّر فيه ، وأنه قال : ما أظنُّ الأسِنّةَ ولا السِّهام تؤثِّر فى جَسَده ، وسمعتم ما قيل فى عبدِ الكريم المُطيع ، وأنه جذب ذَنَبَ ثورٍ فاستلّه من بين ورِكيه .

وإن كان الفخر بالبِشر وطلاقةِ الأوجهِ وسَجاحة الأخلاق ، فمن مِثلُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقد بلغ من سَجاحة خُلُقه وطلاقةِ وَجْهه أنْ عِيبَ بالدُّعابة ! ومَن الذى يسوِّى بين عبد شمس وبين هاشم فى ذلك ! كان الوليدُ جبّارا ، وكان هشام شَرِسَ الأخلاق ، وكان مَرْوَانُ بنُ محمد لا يزال قاطبا عابسا ، وكذلك كان يزيدُ بنُ الوليد الناقص ، وكان المهدىّ المنصورُ أسْرَى خلق الله وألطفَهم خُلُقا ، وكذلك محمّد الأمين وأخوه المأمون ، وكان السفّاح يُضرَب به المَثَل فى السَّرو وسَجاحة الخُلُق .

قالوا : ونحن نعدّ من رَهطنا رجالا لا تعدّون أمثالهم أبداً ، فمنّا الأمراء بالدّيلم الناصر الكبير ، وهو الحسن الأطروش بن علىّ بن الحسَن بن عمر بن علىّ بن عمر الأشرف

---

(١) الأيد (بفتح فسكون) : القوة . (٢) اهتصر القرن : جذبه بشدة .
(٣) الأيد : الشجاع الشديد .

ابن زيد العابدين، وهو الذى اسلمت الدّيلمُ على يَدِهِ ، والناصر الأصغر وهو أحمد بنُ يحيى ابن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن طباطَبا ، وأخوه محمّد بن يحيى، وهو الملقب بالمرتضى، وأبوه يحيى بن الحسَنِ وهو الملقَّب بالهادى . ومن ولد الناصر الكبير الثائر، وهو جعفرُ ابنُ محمد بن الحسن الناصر الكبير ، وهم الأمراء بطبَرِسْتان وجيلان وجُرْجان وما زَندران وسائر ممالك الدّيلمِ ؛ ملكوا تلك الأصْقاع مائةً وثلاثين سنة ، وضَرَبوا الدنانيرَ والدّراهم بأسمائهم ، وخُطب لهم على المنابر ، وحارَبوا الملوكَ السامانيّة ، وكسروا جُيوشهم ، وقتَلوا أمراءهم ، فهؤلاء واحدُهم أعظمُ كثيراً من ملوك بنى أميّة ، وأطوَل مدّة وأعدَل وأنصَف وأكثر نُسكاً وأشدّ حضّاً على الأمر بالمعروفِ والنّهْى عن المنكر، وممن يجرِى مجراهم الدّاعى الأكبر والداعى الأصغر ملِكاَ الدّيلم ، قادَا الجيوش . واصطَنعا الصنّائع .

قالوا : ولنا ملوكُ مِصر وإفريقيَة ، ملكوا مائتين وسبعين سنة ، فَتحوا الفُتوح واستردّوا ما تغلّب عليه الروم من مملكة الإسلام ، واصطنعوا الصنائع الجليلة .

ولهم الكُتّاب والشعراء والأمراء والقوّاد ، فأوّلهم المهدى عبيد الله بنُ ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وآخِرُهم العاضد ، وهو عبدالله بن الأمير أبى القاسم بن الحافظ أبى الميمون بن المستعلى بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدى ؛ فإن افتخرت الأمويّة بملوكها فى الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك ، واتصال ملكهم وجعلوهم بإزاء مُلوكنا بمصر وإفريقية ، قلنا لهم : ألا إنّا نحن أزلْنا ملككُم بالأندلس ، كما أزلْنا مُلككم بالشام والمشرق كله ، لأنه لما ملك قُرْطبة

الظافرُ من بنى أميّة وهو سليمان بنُ الحكم بن سليمان بنِ عبد الرحمن الملقب بالناصر ، خرج عليه علىّ بن حميد بن ميمون بن أحمد بن علىّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فقتله ، وأزال مُلكه . وملك قُرْطُبة دارَ ملك بنى أمية ، ويلقب بالنّاصر . ثم قام بعده أخوه القاسم بنُ حَمّود ، ويلقب بالمعتلى ؛ فنحن قتلناكم وأزلْنا مُلككم فى المشرق والمغرب ، ونحن لكم على الرّصد[1] حيث كنتم ؛ اتبعناكم فقتلناكم وشرّدْناكم كلّ مشرّد ، والفخرُ للغالب على المغلوب ، بهذا قضت الأمم قاطبة .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله ، منّا يحيى بنُ محمد بن على بن عبدِ الله بن العبّاس ، كان شُجاعا جَرِيئا[2] وهو الذى وَلِىَ المَوْصِلَ لأخيه السّفاح فاستعرض أهلها ، حتى ساخت[3] الأقدام فى الدّم .

ومنّا يعقوب بنُ إبراهيم بن عيسى بن أبى جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحا ، وهو المعروف بأبى الأسباط ، ومنّا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علىّ ، كانا أعظم من ملوك بنى أمّية ، وأجلّ قَدْرا وأكثرَ أموالا ومكاناً عند الناس . وأهدَى محمد بنُ سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصِيفة فى يدِ كلٍّ واحدة منهن جامٌ[4] من ذهب وزنُه ألفُ مثقال ، مملوء مِسْكا ، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السُّودان خاصّة ، فكم يكون ليتَ شعرى غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رُئى جعفر بنُ سليمان راكبا قطّ إلّا ظُنّ أنه الخليفة .

ومن رجالنا محمد بنُ السّفّاح ، كان جوادا أَيِّداً شديد البَطْش ، قالوا ما رُئىَ أخوان

---

(١) على الرصد : مترصدون لكم . (٢) فى ب : « حربا » تصحيف .
(٣) ساخت : خاضت . (٤) الجام : إناء من الذهب أو الفضة .

أشدّ قوةً من محمد وريْطة أخته وَلدَى أبى العبّاس السفّاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هى فتردّه .

ومن رجالنا محمد بن إبراهيمَ طَباطَبا صاحب أبى السَّرَايا ، كان ناسكا عابدا فقيهاً عظيم القَدْر عند أهل بيته وعند الزيدية .

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بنِ عبدِ الله بنِ العباس ، وهو الذى شيّد مُلْكَ المنصور وحارَبَ أبنَىْ عبدِ الله بن حسن ، وأقام عمودَ الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحا أديبا شاعراً .

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، حَجّ بالناس وَولىَ الشأم ، وكان فصيحا خطيبا .

ومن رِجالِنا عبد الله بن موسى الهادى ، كان أكرمَ الناسِ وجواداً ممدُوحا أديبا شاعرا ، وأخوه عيسى بن موسى الهادى ، كان أكرمَ الناسِ ، وأجودَ الناسِ ، كان يلبس الثياب ، وقد حدَّد ظُفُرَه فيخرقها بظفره لئلا تعادَ إليه . وعبد الله بنُ أحمد ابن عبدِ الله بن موسى الهادى ، وكان أديبا ظريفا .

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله ، كان أوحَدَ الدّنيا فى الشِّعرِ والأدَب والأمثال الحكمية والسؤدد والرياسة ، كان كما قيل فيه لمّا قُتِل :

لله دَرُّكَ من مَيْتٍ بمَضيعَةٍ ناهيكَ فى العِلمِ والأشعارِ والخطبِ[1]
ما فيه لَوٌّ ولا لَوْلَا فتنقُصَه وإنما أدركَتْهُ حِرْفَةُ الأدبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الحُسين بنُ موسى شيخُ بنى هاشم الطالبِيِّين والعبّاسيّين فى عصره ، ومن أطاعه الخلفاء والملوك فى أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله ، وابناه علىّ ومحمد وهما المرتضى والرضى ، وهما فريدا العَصْر فى الأدب والشِّعْر والفقه والكلام ، وكان الرّضى شجاعاً أديباً شديد الأنف .

(١) لعلى بن بسام ، ابن خلكان ١ : ٢٥٩ .

ومن رجالِنا القاسمُ بن عبدِ الرحيم بن عيسى بن موسى الهادى ، كان شاعراً ظريفا .

ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا . صاحب المصنّفات والوَرَع والدّعاء إلى الله وإلى التوحيد والعَدْل ومنابذة الظالمين ، ومن أولاده أمَراء اليَمَن .

ومن رجالنا محمّد الفأفاء بن إبراهيم الإمام ، كان سيّدا مُقدّما ، ولى الموسمَ وحجّ بالناس ، وكان الرشيد يُسايره ، وهو مقنّع بطَيلَسانه .

ومن رِجالِنا محمد بن محمّد بن زيد بن على بن الحسين صاحب أبى السَّرايا ، سادَ حَدَثا ، وكان شاعرا أديبا فقيها ، يأمر بالمعروف وَينهى عن المنكر ، ولمّا أُسِرَ وحُمِل إلى المأمون أكرَمَه وأفضَل عليه ، ورَعَى له فضْلَه ونَسَبَه .

ومِن رجالنا موسى بن عيسى بن محمّد بنِ علىّ بنِ عبد الله بن العبّاس ، كُنْيَتُهُ أبو عيسى ، وهو أجلُّ ولدِ عيسى وأنبلُهم ، وَلِىَ الكوفة وسَوَادَها زمانا طويلا للمَهْدِى ، ثم الهادى ، ووَلِىَ المدينة وإفريقيَةَ ومصرَ للرّشيد ، قال له ابن السّماك لمّا رأى تَواضُعه: إنّ تواضُعَك فى شَرَفك لأحبُّ إلىّ من شَرَفك ؛ فقال موسى : إنّ قومنا ـ يعنى بنى هاشم ـ يقولون : إنّ التواضع أحدُ مصايِد الشّرف .

ومن رجالنا موسى بنُ محمد أخو السَّفّاح والمنصور ، كان نبيلاً عندهم ، هو وإبراهيمُ الإمام لأمٍّ واحدة ، رأى فى منامه قبل أنْ يصير من أمرهم ماصارَ أنّه دخل بُستانا فلم يأخذ إلّا عنقوداً واحدا عليه من الحبّ المتراصّ مارَبُّك به عليم ، فلم يُولَد له إلا عيسى، ثم وُلد لعيسى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكَرا وعشرون أنثى .

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسَن بن الحسَن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وهو عبدُ الله المحض ، وأبوه الحسَن بن الحسن ، وأمّه فاطمة بنتُ الحسَين ، وكان إذا قيل: مَن

أجمل الناس ؟ قالوا : عبد الله بنُ الحسن ، فإذا قيل : مَنْ أكرم الناس ؟ قالوا : عبد الله ابن الحسن ، فإذا قالوا : مَنْ أشرَف الناس ؟ قالوا : عبدُ الله بنُ الحسَن .

ومن رجالنا أخوه الحسن بنُ الحسن ، وعمّه زيدُ بنُ الحسن وبنوه محمد وإبراهيم وموسى ويحيى ؛ أمّا محمد وإبراهيم فأمرُهما مشهور، وفضلُهما غيرُ مجحود ، فى الفقه والأدب والنُّسُك والشجاعة والسؤدُد. وأما يحيى صاحبُ الديْلم فكان حسَنَ المذهَب والهدى، مقدّما فى أهل بيته ، بعيدا ممّا يُعابُ على مثله، وقَدْ روَى الحديثَ وأكثر الروايةعن جعفر بن محمد ، ورَوى عن أكابر المحدّثين ، وأوصَى جعفر بن محمد إليه لما حضرته الوَفاة وإلى ولده موسى بن جعفر . وأمّا موسى بن عبدالله بن الحسن ؛ فكان شابا نجيباصبوراشجاعا سخيًّا شاعرا .

ومن رجالنا الحسن المثلث، وهوالحسن بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، كان مُتألِّها(١) فاضلاً وَرِعًا ، يذهب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مَذهَبَ أهله . وإبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، كان مقدّما فى أهله ، يقال : إنه أشبَهُ أهل زمانه برسول الله صلّى الله عليه وآله .

ومن رجالِنا عيسى بن زيد ، ويحيى بن زيد أخوه ، وكانا أفضَلَ أهل زمانهماشجاعة وزُهداً وفقها ونُسكًا .

ومن رجالنا يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زَيْد صاحب الدعوة . كان فقيها فاضلا شجاعا فصيحا شاعرا ، ويقال : إن الناس ما أحبّوا طالبيًّا قطّ دَعا إلى نفسِه حبَّهم يحيى ، ولا رثى أحد منهم بمثل مارثِىَ به .

---

(١) متألهاً : متعبداً .

قال أبو الفَرَج الأصفهانى : كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البَدَن ، مجتمِع القلب ، بعيدا عن زَهو الشباب وما يُعابُ به مثله ، كان له عمودٌ حديدٌ ثقيلٌ يَصحبه فى منزله ، فإذا سَخِط على عبدٍ أو أمة من حَشمه لَواه فى عُنقه فلا يَقدِر أحدٌ أن يحلّه عنه حتى يحلّه هو(١).

ومن رجالنا محمد بنُ القاسم بن علىّ بن عمر بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام صاحب الطالَقانِ ؛ لقّب بالصوفىّ لأنّه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض ، وكان عالما فقيها ، ديّناً زاهدا ، حسنَ المذهب، يقول بالعدْل والتوحيد .

ومن رجالنا محمد بنُ علىّ بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام . كان من فتيان آل أبى طالب وفُتّاكهم وشُجْعانِهم وظُرَفائهم وشُعَرائهم ،وله شعرٌ لطيف محفوظ .

ومنهم أحمد بنُ عيسى بن زيد ، كان فاضلا عالما مقدّما فى عَشيرته ، معروفا بالفضل؛ وقد رَوى الحديث ورُوِىَ عنه .

ومن رجالنا موسى بنُ جعفر بن محمد ـ وهو العبد الصالح ـ جَمَع من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر . وابنه علىّ بن موسى المرشح للخلافة ، والمخطوب له بالعَهْد ،كان أعلم الناس ، وأسخَى الناس ، وأكرمَ الناس أخلاقاً .

* * *

قالوا : وأمّا ما ذكرتم من أمر الشَّجَرة الملعونة ، فإنّ المفسِّرين كلّهم قالوا ذلك ورَوَوْا فيه أخبارا كثيرةً عن النبىّ صلّى الله عليه وآله ،ولستم قادرين على جَحْد ذلك،وقد عَرَفتم تأخّرَكم عن الإسلام وشدّة عداوتكم للرّسول الدّاعى إليه ، ومحاربتكم فى بَدْر وأُحُد والخندق، وصَدَّكم الهدْىَ عن البيت ، وليس ذلك مما يوجب أن يعمّكم اللّعن حتى

---

(١) مقاتل الطالبيين ٦٤٠ .

لايغادر واحدا ، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدّى . وأمّا اختصاصُ محمد بن علىّ بالوصية والخلافة دون إخوته؛ فقد علمتم أن وراثة السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثة الأموال؛ ألا ترى أن المرأة والصبي والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب ! وسواء فى الأموال، كان الابن حارضا[1] بائرا ، أو بارعاً جامعا .

وقيل : وراثة المقـــام سبيلُ وراثة اللواء ، دفع رسول الله صلّى الله عليــه وآله لواء بنى عبـد الدار إلى مُصعب بن عمير ، ودَفع عمر بن الخطاب لواء بنى تميم إلى وكيع بن بشر ، ثم دفعـه إلى الأحنف حين لم يوجد فى بنى زرارة مَنْ يستحق وراثة اللواء ؛ فإن كان الأمر بالسنّ فإنما كان بين محمد بن علىّ وأبيه علىّ بن عبد الله أربع عشرة سنة ، كان علىّ يخضِب بالسّواد ، ومحمد يخضِب بالحمرة ، فكان القادم يقدُم عليهما ، والزائر يأتيهما ، فيظُنّ أكثرهم أنّ محمدا هو علىّ ، وأن عليا هو محمد ، حتى ربما قيل لعلىّ : كيف أصبح الشيخُ من عِلته ؟ ومتى رَجَعَ الشيخ إلى منزله ؟ وأخرى أنّ أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس ، فقد ولده العبّاس مرتين ، وولده جوادُ بنى العبّاس ؛ كأوالده خيرُهم وحَبْرهم ؛ ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك . وكان بعض ولدِ محمد أسَنّ من عامة ولدِ علىّ ، ووُلِدَ محمدُ المهدى بن عبد الله المنصور والعبّاس بن محمد بن علىّ فى عام واحد ، وكذلك محمد بن سليمان بن علىّ ، ولم يكن لأحد من ولدِ علىّ بن عبد الله بن العباس ـ وإن كانوا فُضَلاء نجباء كُرَماء نبلاء ـ مثل عقله ولا كجماله ؛ كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناسُ على أبواب دُورهم والنّساء على سطوحهنّ للنظر إليه، والتعجّب من كماله وبهائه ، وقد قاتل إخوته أعداءه فى دَفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبَرين ؛ على أنّ محمدا إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسَّس ، وقاعدةٍ مقرَّرة ، ووصيّةٍ انتقلت إليه من أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة ، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد، وأخذها محمد عن علىّ بن أبى طالب أبيه .

---

(١) الحارض : الفاسد .

قالوا : لما سمّت بنو أمية أبا هاشم، مَرِض فخرج من الشام وَقِيذا [١] يؤمّ المدينة ، فمرّ بالحميمة [٢] وقد أشفى ، فاستدعى محمّد بن على بن عبدِ الله بنِ العباس فدفع الوصيّة إليه ، وعرّفه ما يصنَع، وأخبَرَه بما سيكون من الأمر ، وقال له : إنى لم أدفَعْها إليك من تلقاء نفسى ، ولكنّ أبى أخبرنى عن أبيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام بذلك ، وأمَرَنى به ، وأعلمَنى بلقائى إيّاك فى هذا المكان ، ثم مات فتولّى محمّد بنُ على تجهيزَه ودَفْنَه وبثّ الدُّعاةَ حينئذ فى طَلَب الأمر ، وهو الذى قال لرجال الدّعوة ، والقائمين بأمر الدولة ، حين اختارهم للتوجّه ، وانتخبهم للدّعاء ، وحين قال بعضهم : نَدْعو بالكوفة ، وقال بعضهم : بالبَصْرة . وقال بعضهم : بالجزيرة . وقال بعضهم بالشام . وقال بعضهم : بمكّة وقال بعضهم : بالمدينة. واحتجّ كلٌّ إنسان لرأيه ،واعتلّ لقوله ــ فقال محمّد: أمّا الكوفة وسوادُها فشيعةُ علىٍّ وولده ، وأمّا البَصْرة فعُثمانية تَدِين بالكَفّ ، وقَبيلُ عبدِ الله المَقْتول يَدِينون بجميع الفِرَق ، ولا يُعينون أحد ، وأمّا الجزيرة فحَرورية مارقة ، والخارجيّة فيهم فاشية ، وأعراب كأعلاج [٣] ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأمّا الشام فلا يَعرِفون إلا آل أبى سُفيان ، وطاعة بنى مَرْوان ، عداوةً راسخةً ، وجهلًا متراكما ؛ وأمّا مكّة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعُمَر ، وليس يتحرّك معنا فى أمرنا هذا منهم أحد ، ولا يقوم بنَصْرنا إلّا شيعتنا أهل البيت ، ولكن عليكم بخُراسان ، فإنّ هناك العَدَدَ الكثير ، والجلد الظاهر، وصُدوراً سليمة ، وقلوبا مجتمعة ، لم تتقسّمها الأهواء، ولم تتوزّعها النِّحَل، ولم تَشغَلها ديانة ، ولا هدم فيها فساد، وليس لهم اليوم هم [٤] العَرَب، ولا فيهم تجارب كتجارب الأتباع مع السادات ، ولا تحالُفٌ كتحالف القبائل ، ولا عَصَبية كعصبيّة العشائر، وما زالوا يُنالُون ويُمتهون، ويُظلَمون فيَكظِمون ، ويَنتظِرون الفرج، ويؤمّلون

(١) الوقيذ : المريض المشرف على الهلاك .
(٢) الحميمة ، كجهينة بلده بالبلقاء . (٣) الأعلج : جمع علج ؛ الرجل من كفار العجم :
(٤) ا : « هم » .

دَوْلة ، وهم جندٌ لهم أبدان وأجسام ، ومَناكبُ وكواهل ، وهامات ولَحًى ، وشواربُ وأصوات هائلة ، ولُغات فخمة ، تَخرج من أجواف مُنكَرة .

وبعد ، فكأنى أتفاءلُ جانبَ المَشرق فإنّ مطلَع الشمس سراجُ الدّنيا ، ومصباح هذا الخلْق . فجاء الأمرُ كما دبّر ، وكما قدّر ، فإن كان الرأى الّذى رأى صَوابًا فقد وافق الرشاد ، وطَبّق المِفصَل ، وإن كان ذلك عن رواية متقدّمة ، فلم يتلقّ تلك الرواية إلا عن نبوة .

قالوا : وأمّا قولكم : إنّ منا رجلا مكَثَ وأربعين سنة أميراً وخليفة ، فإنّ الإمارة لا تعدّ فخرا مع الخلافة ، ولا تُضمّ إليها ، ونحن نقول : إن مِنّا رجلا مكث سبعًا وأربعين سنة خليفة ، وهو أحمد الناصرُ بن الحسن المستضىء ؛ ومِنّا رجلٌ مكث خمسا وأربعين سنةً خليفةً ، وهو عبد الله القائم ومكث أبوه أحمد القادر ثلاثا وأربعين سنة خليفة ، فكلٌّ منهما أكثر من مُلك بنى أمية كلِّهم ، وهم أربع عشرةَ خليفة . ويقول الطالبيون : منّا رجلٌ مكث ستين سنة خليفة ، وهو مَعَدّ بن الطّاهر صاحبُ مصر ، وهذه مُدّة لم يبلُغها خليفة ولا مَلِك من مُلوك العرَب فى قديم الدّهْر ولا فى حَديثه .

وقلتم لنا : عاتكة بنت يزيد يكتَنِفُها خمسةٌ من الخلفاء ، ونحن نقول : لنا زُبَيْدة بنتُ جَعْفر يكتَنِفُها ثمانية من الخلفاء ، جدّها المنصورُ خليفة ، وعمُّ أبيها السفّاح خليفة وعمُّها المهدىّ خليفة ، وابنُ عمّها الهادى خليفة ، وبعلها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنا بعلها المأمونُ والمعتصمُ خليفتان .

قالوا : وأما ماذكرتموه من الأعياص والعَنابس فلَسْنا نُصدّقكم فيما زعَمْتُموه أصْلا بهذه التّسْمية ، وإنما سُمّوا الأعياص لمكانِ العِيص وأبى العِيص والعاص وأبى العاص ، وهذه أسماؤهم ، الأعلام ليست مشتّقةً من أفعالٍ لهم كريمة ولا خسيسة . وأما العنابس ،

فإنّما سُمّوا بذلك لأنّ حَرْب بنَ أميّة كان اسمُه عَنْبَسة؛ وأما حَرْبٌ فلَقبه، ذكَر ذلك النّسّابون، ولمّا كان حَرْب أمثَلهم سَمّوْا جماعتَهم باسمه، فقيل: العَنَابس، كما يقال: المَهالبةوالمَناذِرة، ولهذا المعنى سُمّيَ أبوسفيان بن حَرْببن عَنْبَسة، وسُمّيسَعِيدُ بنُالعاص ابن عَنْبَسة.

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ويليه الجزء السادس عشر

فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات*

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السادس عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٩٦٧م ـ ١٣٨٧ هـ)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(٢٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة :

وَقَدْ كَانَ مِنَ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ ، فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ ، وَسَفَهُ الْآرَاءِ الْجَائِرَةِ ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي ، فَهأَنَذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي ، وَرَحَلْتُ رِكَابِي .

وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيٍّ ، وَلَا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ .

***

الشرح :

ما لم تغبَوا عنه ، أي لم تسهوا عنه ولم تغفلوا ، يقال: غبيتُ عن الشيء أغبى غباوة ؛ إذا لم يفطَن ، وغَبِي الشيء عليّ كذلك إذا لم تعرفه ، وفلان غبيّ على « فعيل » ، أي قليل الفِطنة ، وقد تَغَابى ؛ أي تغافل ؛ يقول لهم : قد كان من خروجكم يومَ الجمل عن الطاعة ،

ونشرِكم حبلَ الجماعة ، وشقاقِكم لِي ما لستم أغبياء عنه ، فغفرت ورفعت السيف ، وقبلت التوبة والإنابة .

والمدبر ها هنا : الهارب ، والمقبِل : الّذى لم يفرّ؛ لكن جاءنا فاعتذر وتنصّل .

ثم قال : فإن خطت بكم الأمور ، خطا فلان خُطْوة يخطُو ، وهو مقدار ما بين القَدمين ، فهذا لازم ، فإن عدّيته ، قلت : أخطيت بفلان ، وخطوت به ، وها هنا قد عدّاه بالباء .

والمردية : المهلكة ، والجائرة : العادلة عن الصواب . والمنابذة ، مفاعلة ، من نبذتُ إليه عهدَه أى ألقيتَه وعدلت عن السّلم إلى الحرب ، أو من نبذت زيداً ، أى اطّرحته ولم أحفل به .

قوله : « قرّبت جيادى » ، أى أمرت بتقريب خيلى إلىّ لأركب وأسير إليكم .
ورحلت ركابى ، الرّكاب الإبل ، ورحلتها : شددت على ظهورها الرّحل ، قال :

رَحَلَتْ سُمَيّةُ غُدوَةً أَجْمَالَهَا   غَضْبَى عَلَيْكَ فما تَقُولُ بَدَالَها[1]

كلَعقة لاعق ، مثل يضرب للشىء الحقير التافه ، ويروى بضم اللام ، وهى ما تأخذه المِلْعقة .

ثم عاد فقال مازجا الخشونةَ باللّين : مع أنى عارف فضلَ ذى الطاعة منكم ، وحقّ ذى النصيحة ، ولو عاقبت لما عاقبت البرىء بالسقيم ، ولا أخذت الوفىّ بالناكث .

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغرّاء المشهورة ، وقال فيها : والله لآخذنّ البرىّ بالسقيم ، والبرّ باللّئيم ، والوالد بالولد ، والجار بالجار ، أو تستقيم إلى قناتُكم . فقام أبو بلال مِرداس

---

(١) للأعشى ، ديوانه ٢٢ .

ابن أديّة يهمس ، وهو حينئذ شيخ كبير ، فقال : أيها الأمير ، أنبأنا الله بخلاف ما قلت ، وحكم بغير ما حكمت ، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1] ، فقال زياد : يا أبا بلال ، إني لم أجهل ما علمت ؛ ولكنا لا نخلص إلى الحقّ منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضاً .

وفي رواية الرياشيّ: «لآخذن الوليّ بالوليّ» ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرّجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قَنَاتُكم .

(١) سورة الأنعام ١٦٤ .

الأصْلُ:

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية:

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ.

فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

***

الشَّرْحُ:

قوله: «وغاية مُطَّلبة»؛ أي مساعفة لطالبها بما يطلبه، تقول: طلب فلان مني كذا فأطلبتُه: أي أسعفت به. قال الراوندي: مطّلبة بمعنى متطلّبة، يقال: طلبت كذا وتطلّبته؛ وهذا ليس بشيء، ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى.

والأكياس: العقلاء، والأنكاس: جمع نِكْس؛ وهو الدنيء من الرجال، ونكب عنها: عدل.

قوله: «وحيث تناهت بك أمورك»، الأولى ألّا يكون هذا معطوفا ولا متّصلا

بقوله ، فقـد بين الله لك سبيلك ، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف : حيث أنت ، أى قِفْ حيث أنت ؛ فلا يذكرون الفعل ؛ ومثله قولهم : مكانَك ، أى قف مكانك .

قوله : « فقد أجريت » ، يقـال : فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا ، أى الغـاية التى يقصدها هى كذا ، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة ، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا ، أى انتهى به إلى كذا . ويروى : « قد أوْحلتك شرًّا » أو أورطتك فى الوحل ، والغَىّ ضدُّ الرشاد .

وأقحمتك غيًّا : جعلتك مقتحما له .

وأوعرت عليك المسالك : جعلتها وعْرة .

***

وأوّل هذا الـكتاب :

أمّا بعد ، فقد بلغَنِى كتابُك تذكر مشاغبتى ، وتستقبح موازرتى ، وتزعمنى متحيِّرا وعن الحق مقصّرا ، فسبحـان الله ، كيف تستجيز الغيبة ، وتستحسن العضيهة ! إنِّى لم أشاغب إلّا فى أمر بمعروف، أو نهى عن منـكر ، ولم أتجبّر(١) إلّا على باغٍ مارق، أوملحد منافق ، ولم آخذ فى ذلك إلّا بقول الله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾(٢) ، وأما التقصير فى حق اللهتعالى فمعاذ الله ! وإنّما المقصّر فى حقِّ الله جلّ ثناؤه مَنْ عطّل الحقوق المؤكّدة ، وركن إلى الأهواء المبتدعة ، وأخلد إلى الضّلالة المحيّرة ؛ ومن العجب أن تصِفَ يا معـاوية الإحسان ، وتخـالف البرهان ، وتنـكث الوثائق التى هى لله عزّ وجـلّ طَلِبة ، وعلى عباده حجّة ، مع نبذ الإسلام ، وتضييـع الأحـكام ، وطمس الأعلام ،

---

(١) ا ، ب « ولم أضجر » وما أثبته عن « د » .

(٢) سورة المجادلة ٢٢

والجرى فى الهوى ، والتهوّس[١] فى الرّدى ، فاتق الله فيما لديك، وانظر فى حقّه عليك ... الفصل المذكور فى الكتاب .

وفى الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضىّ رحمه الله ، منها :

وإنّ للناس جماعة يد الله عليها ، وغضب الله على مَنْ خالفها ، فنفسَك نفسَك قبل حلول رمسِك ، فإنّك إلى الله راجع ، وإلى حشره مُهْطِع[٢] وسيبهظُك كربه ، ويحلّ بك غمُّه ، فى يوم لا يغنى النادمَ ندمُه ، ولا يُقبَل من المعتذِر عُذرُهُ ، ﴿ يوم لا يُغنى مَوْلًى عن مولًى شيئاً ولاهم يُنْصَرون ﴾[٣] .

---

(١) التهوس فى الردى : الوقوع فيه

(٢) المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع .

(٣) سورة الدخان ٤١ .

الأصل :

ومن وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين :

مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ ، ٱلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمُرِ ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ ٱلْمَوْتَى ، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا .

إِلَى ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ؛ غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ ، وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ ، وَرَمِيَّةِ المَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ ، وَغَرِيمِ المَنَايَا ، وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ ، وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ ، وَقَرِينِ ٱلْأَحْزَانِ ، وَنُصُبِ ٱلْآفَاتِ ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ .

* * *

الشرح :

[ترجمة الحسن بن عليّ وذكر بعض أخباره]

قال الزّبير بن بكار في كتاب " أنساب قريش " : ولد الحسن بن عليّ عليه السلام للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله حسَنًا ، وتوفِّيَ لليالٍ خلَوْنَ من شهر ربيع الأول سنة خمسين .

قال : والمرويّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمّى حسناً وحسيناً رضى الله عنهما يوم سابعهما ، واشتقّ اسم حسين من اسم حسن .

قال : وروى جعفر بن محمد عليه السلام أنّ فاطمة عليها السلام حلَقت حسنا وحُسينا يوم سابعهما ووزنت شعرهما فتصدّقت بوزنه فضة .

قال الزُّبير : وروت زينب بنت أبي رافع ، قالت : أتتْ فاطمة عليها السلام بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شَكْـوِه[1] الذي توفّيَ فيه ، فقالت : يا رسولَ الله ، هذان ابناك ، فورِّثْهما شيئاً ؛ فقال : أمّا حسن فإن له هيبتِي وسُودَدِي ، وأما حسين فإن له جراءتي وجُودي .

***

وروَى محمّد بن حبيب في أماليه أنّ الحسن عليه السلام حجّ خمس عشرة حجّة ماشيا تُقَاد الجنائب معه ، وخرج من ماله مرّتين ، وقاسم الله عزّ وجلّ ثلاث مرات ماله ؛ حتى أنه كان يعطى نعلًا ويُمسك نعلا ، ويعطى خُفًّا ، ويمسك خُفًّا .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضا أنّ الحسن عليه السلام أعطى شاعرا ، فقال له رجل من جلسائه : سبحانَ الله ! أتعطى شاعراً يعصى الرحمن ، ويقول البهتان ! فقال : يا عبدَ الله ، إنّ خير ما بذلت من مالك ما وَقيْت به عِرْضَك ؛ وإنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ .

وروى أبو جعفر ، قال : قال ابنُ عباس رحمه الله : أوّل ذُلّ دخل عَلَى العرب موتُ الحسن عليه السلام .

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : سُقِيَ الحسن عليه السلام السمّ أربعَ مرات ، فقال: لقد سقيتُه مرارا فما شقّ علىّ مثل مشقته هذه المرّة . فقال له الحسين عليه السلام : أخبِرْني مَنْ سقاك ؟ قال : لتقتلَه ؟ قال : نعم ؛ قال : ما أنا بمخبرك ؛ إن يكن صاحبي الذي أظنّ فالله أشدّ نِقمة ، وإلا فما أحبُّ أن يُقتل بي برىء .

---

(١) الشكو : المرض .

وروى أبو الحسن ، قال : قال معاوية لابن عبّاس ، ولقيه بمكّة : يا عجبا من وفاة الحسن ! شرب علّة بماء رومة(١) ، فقضى نحبَه ، فوَجَم ابنُ عبّاس ، فقال معاوية : لا يحزنك الله ولا يسوءك ، فقال : لا يسوءنى ما أبقاك الله ! فأمر له بمائة ألف درهم .

وروى أبوالحسن قال : أوّلُ من نعَى الحسنَ عليه السلام بالبصرة عبد الله بن سلَمة ، نعاه لزياد ، فخرج الحكم بن أبى العاص الثقفىّ ، فنعاه ، فبكى الناس ـ وأبو بكرة يومئذ مريض ، فسمع الضّجّة ، فقال : ما هذا ؟ فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفيّة : مات الحسن بن علىّ ، فالحمد لله الذى أراح الناس منه ! فقال : اسكتى ويحك ! فقد أراحه الله من شرّ كثير ، وفقد الناسُ بموته خيرا كثيرا ، يرحم الله حسنا !

قال أبو الحسن المدائنىّ : وكانت وفاته فى سنة تسع وأربعين ، وكان مرضه أربعين يوما ، وكانت سنّه سبعاً وأربعين سنة ، دسّ إليه معاوية سمّا على يد جَعْدة بنت الأشعث ابن قيس زوجة الحسن ، وقال لها : إن قتلتِيه(٢) بالسّمّ فلك مائة ألف ، وأزوّجك يزيد ابنى . فلما مات وفَى لها بالمال ، ولم يزوّجها من يزيد . قال : أخشى أن تصنع بابنى كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيّب بن نجَبَة ، قال : سمعتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام ، يقول : أنا أحدّثكم عنّى وعن أهل بيتى ؛ أمّا عبد الله ابن أخى فصاحب لهو وسَماح ، وأمّا الحسنُ فصاحب جَفْنة وخِوان ، فتًى من فتيان قريش ؛ ولو قد التقتْ حَلْقتا البِطان(٣) لم يُغنِ عنكم شيئا فى الحرب ، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا .

---

(١) د : « بماء برومة » . (٢) د : « قتلته » .
(٣) مثل يضرب للأمر إذا اشتد وجاوز الحد .

قال أبو جعفر : وروى ابن عباس ، قال : دخل الحسن بن علىّ عليه السلام على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس فى مجلس ضيّق ، فجلس عند رجليه ، فتحدّث معاوية بما شاء أن يتحدّث ، ثم قال : عجبا لعائشة ! تزعم أنّى فى غير ما أنا أهـله . وأنّ الذى أصبحت فيه ليس لى بحقّ ، مالها ولهذا ! يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هـذا الجالس ، وقد استأثر الله به ؛ فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية ! قال : إى والله ، قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هـذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : جلوسك فى صدْر المجلس وأنا عند رجليك ؛ فضحك معاوية ، وقال : يابن أخى ، بلغنى أنّ عليكَ ديْناً ، قال : إن لعلىّ دينا ، قال : كم هو ؟ قال : مائة ألف ، فقال : قد أمرنا لك بثلثمائة ألف ؛ مائة منها لدينِك ، ومائة تقسمها فى أهـل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ؛ فقم مكرّما ، واقبض صِلَتك . فلما خرج الحسن عليـه السلام ، قال يزيد بن معاوية لأبيـه : تالله ما رأيتُ رجلًا استقبلك بما استقبلك به ؛ ثم أمرت له بثلثمائة ألف ! قال : يا بنىّ ، إن الحقّ حقهم ، فمن أتاك منهم فاحْثُ له .

وروَى أبو جعفر محمد بن حبيب ،قال : قال علىّ عليه السلام : لقد تزوّج الحسن وطلّق حتى خفتُ أن يثير عداوة ، قال أبو جعفر : وكان الحسنُ إذا أراد أن يطلق امرأةً جلس إليها ، فقال : أيسرّكِ أن أهبَ لك كذا وكذا ؟ فتقول له ماشئت ، أو نعم ؛ فيقول : هو لك ؛ فإذا قام أرسل إليها بالطلاق ؛ وبما سمّى لها .

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : تزوّج الحسن بن علىّ عليه السلام هندا بنت سهيل ابن عمرو ــ وكانت عند عبد الله بن عامر بن كُرَيز ، فطلّقها ــ فكتب معاوية إلى أبى هريرة أن يخطبها على يزيد بن معاوية ، فلقيَه الحسن عليـه السلام ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخطب هنـدا بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية ، قال الحسن عليـه السلام :

فاذكرنى لها ، فأتاها أبو هريرة ، فأخبرها الخبر ، فقالت : اخترْ لى ، فقال : أختار لك الحسن . فتزوّجته ، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن : إن لى عند هند وديعةً ؛ فدخل إليها والحسن معه ، فخرجت حتى جلست بين يدى عبد الله بن عامر ، فرقّ لها رِقّة عظيمة(١) ، فقال الحسن : ألا أنزل لك عنها ؟ فلا أراك تجد محلّلا خيرا لكما منى ! قال: لا، ثم قال لها : وديعتى ، فأخرجت سَفَطين فيهما جوهر ؛ ففتحهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر(٢) عليها ؛ وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد ؛ فكانت تقول : سيّدهم جميعا الحسن ، وأسخاهم ابن عامر ، وأحبّهم إلىّ عبدُ الرحمن بن عتاب .

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : تزوّج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر ، وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فأبلغ الحسن عنها شيئا فطلّقها ، فخطبها المنذر ، فأبت أن تتزوجه ، وقالت : شهّر بى ! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوّجها ، فأبلغه المنذر عنها شيئا فطلقها ؛ فخطبها المنذر ، فقيل لها : تزوجيه ، فقالت : لا والله ماأفعل ؛ وقد فعل بى ما قد فعل مرتين ؛ لا والله لا يرانى فى منزله أبداً .

وروى المدائنىّ ، عن جويرية بن أسماء ، قال : لما مات الحسن عليه السلام ، أخرجوا جنازته ، فحمل مروان بن الحكم سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ ؟ قال مروان : نعم ؛ كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

وروى المدائنىّ عن يحيى بن زكريا، عن هشام بن عروة ، قال : قال الحسن عند وفاته : ادفنونى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إلا أن تخافوا أن يكون فى ذلك شرّ ، فلمّا أرادوا دفنه ، قال مروان بن الحكم : لا يدفَن عثمان فى حَشّ كوكب(٣) ، ويدفن الحسن هاهنا ،

---

(١) د : « شديدة » . (٢) د : « الباقى » .

(٣) حش كوكب ، بفتح أوله وتشديد ثانيه : موضع عند بقيع الغرقد ، اشتراه عثمان رضى الله عنه ، وزاده فى البقيع ، ولما قتل ألقى معه .

فاجتمع بنو هاشم وبنو أميّة ، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم ، وجاءوا بالسّلاح ، فقال أبو هريرة لمرْوان : أتمنع الحسن أن يدفن فى هذا الموضع ، وقد سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة » ! قال مروان : دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبى سعيد الخدرىّ ! وإنما أسلمتَ أيام خيبر ، قال أبو هريرة : صدقت ، أسلمت أيام خيبر ، ولكنّنى لزمت رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولم أكن أفارقه ، وكنت أسأله ، وعُنِيت بذلك حتى علمت مَنْ أحبّ ومَنْ أبغض ، ومَن قرّب ومَن أبعد ، ومن أقرّ ومَن نفى ، ومَنْ لعن ومَنْ دعا له ؛ فلما رأت عائشة السّلاح والرجال ، وخافت أن يعظم الشرّ بينهم ، وتسفك الدماء ، قالت : البيت بيتى ، ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه ، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلّا مع جدّه ؛ فقال له محمد بن الحنفيّة : ياأخى ، إنه لو أوصى أن ندفنه لدفنّاه أو نموت قبل ذلك ، ولكنه قد استثنى ، وقال : « إلا أن تخافوا الشرّ » ، فأى شرّ يرى أشدّ مما نحن فيه ! فدفنوه(١) فى البقيع .

قال أبو الحسن المدائنىّ : وصل نعىُ الحسن عليه السلام إلى البَصْرة فى يومين وليلتين، فقال الجارود : بن أبى سَبْرة(٢) :

إذا كان شرٌّ سارَ يوماً وليلةً ... وإن كان خيرٌ أخّر السَّيْر أَرْبعَا
إذا ما بَرِيد الشرّ أقبل نحوَنَا ... بإحدى الدّواهى الرُّبْدِ سارَ وأسْرَعا

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصُلْح الحسن عليه السلام له فأرسل معاوية إلى الحسن عليه السلام يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك وهو لى حلال لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ! فخطب معاوية أهلَ الكُوفة ، فقال : يا أهل الكوفة ،

---

(١) د : « فدفن » . (٢) د : « هبيرة ».

أترَوْنى قاتلتكم على الصّلاة والزّكاة والحجّ ، وقد علمتُ أنكم تصلُّون وتزكّون وتحجّون ؛ ولكنّنى قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ؛ ألَا إنّ كلّ مالٍ أو دمٍ أصيب فى هذه الفتنة فمطلولٌ ، وكلّ شرط شرطته فتحت قدمىّ هاتين ؛ ولا يُصلِح النّاسَ إلاثلاث : إخراج العطاء عند محلّه ، وإقفال الجنود لوقتها ، وغَزْو العدوّ فى داره ، فإنّهم إن لم تغزوهم غَزَوْكم . ثم نزل .

قال المدائنىّ : فقال المسيّب بن نَجَبَة للحَسن عليه السلام : ما ينقضى عجبِى منك ! بايعتَ معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقةً وعقدا ظاهرا ، أعطاك أمرا فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ماأراد بها[1] غيرك ، قال . فما ترى؟ قال: أرى أن ترجعَ إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك . فقال : يامسيّب ، إنى لو أردت بما فعلت الدّنيا لم يكن معاوية بأصبرَ عند اللقاء ، ولاأثبتَ عند الحرب منّى ، ولكنى أردت صلاحكم ، وكفّ بعضِكم عن بعض ؛ فارضوا بقدَر الله وقضائه ، حتى يستريح بَرّ ، أو يُستراح من فاجر .

* * *

قال المدائنىّ ودخل عُبيدة بن عمرو الكِندىّ على الحسن عليه السلام — وكان ضُرِب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة — فقال : ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : أصابنى مع قيس . فالتفت حُجْر بن عدىّ إلى الحسن ، فقال : لوددت أنك كنتَ مِتّ قبل هذا اليوم ، ولم يكن ما كان ، إنّا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبّوا . فتغيّر وجهُ الحسن ، وغمز الحسين عليه السلام حُجْرا ، فسكت ، فقال الحسن عليه السلام : يا حجْرُ ، ليس كلّ النـاس يحبّ ما تحبّ ولا رأيه كرأيك ، وما فعلت إلا إبقاء عليكَ ، واللهُ كلّ يوم فى شأن .

---

(١) عبارة د : « ما أراد بما قال غيرك » .

قال المدائنيّ : ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النّهديّ ، فقال له : السّلام عليك يامذِلّ المؤمنين ! فقال الحسن : اجلس يرحمك الله ، إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله رُفِع له مُلْك بنى أميّة ، فنظر إليهم يَعلُون منـبره واحدا فواحدا ، فشقّ ذلك عليه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك قرآنا قال له : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ﴾(١). وسمعت عليّاً أبى رحمه الله يقول: سيَلِى أمْر هذه الأمّة رجل واسع البُلعوم ، كبير البطن ، فسألته : من هو ؟ فقال : معاوية . وقال لى : إنّ القرآن قد نطق بملك بنى أميّة ومدّتهم ، قال تعالى : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾(٢)، قال أبى : هذه ملك بنى أمية .

قال المدائنى : فلمّا كان عام الصلح ، أقام الحسن عليـه السلام بالـكوفة أيّاماً ، ثم تجهّز للشخوص إلى المدينة ، فدخل عليـه المسيّب بن نَجَبَة الفَزارِىّ وظبيان بن عُمارة التيمىّ ليودّعاه ، فقال الحسن : الحمد لله الغالب على أمْره ؛ لو أجمع الخَلق جميعـا على ألّا يكون ماهو كائن ما استطاعوا . فقال أخوه الحسين عليه السلام : لقد كنت كارها لما كان طيّب النفس على سبيل أبى حتى عزم علىّ أخى ، فأطعته ، وكأنمـا يجذّ أنفى بالمواسى ، فقال المسيّب : إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تُضاموا وتنتقصوا ، فأمّا نحن، فإنهم سيطلبون مودّتنا بكل ما قدروا عليه ، فقال الحسين : يامسيّب ، نحن نعلم أنك تحبّنا ، فقال الحسن عليه السلام : سمعت أبى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من أحبّ قوما كان معهم » ، فعرض له المسيّب وظبيان بالرجوع ، فقال : ليس [لى](٣) إلى ذلك سبيل ، فلمّا كان من غدٍ خرج ، فلمّا صار بديرِ هندٍ نظرَ إلى الـكوفة ، وقال :

وَلَا عَنْ قِلًى فارقتُ دارَ مَعاشرى ... هم المـانعون حـوْزتى وذِمارِى

---

(١) سورة الإسراء : ٦٠ . (٢) سورة القدر ٣ .

(٣) من « د » .

ثم سار إلى المدينة .

قال المدائنىّ : فقال معاوية يومئذ للوليد بن عُقْبة بن أبى مُعيط بعد شخوص الحسن عليه السلام : يا أبا وهبْ ، هل رمت ؟ قال : نعم ، وصموت .

قال المدائنىّ : أراد معاوية قولَ الوليد بن عقبة يحرّضه على الطلب بدم عثمان :

ألا أبْلغْ مُعاوية بن حربٍ فإنّك من أخى ثقــة مُليمُ[1]
قطعت الدّهر كالسَّدِم المعنّى تهدّرُ فى دمشق ولا تريمُ[2]
فلو كنت القتيل وكان حيًّا لشمّر لا ألفُّ ولا سئوم
وإنّك والكتاب إلى علىٍّ كدابغةٍ وقد حَلِم الأديمُ[3]

وروى المدائنىّ ، عن إبراهيم بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، قال : دخل رجل على الحسن عليه السلام بالمدينة ، وفى يده صحيفة ، فقال له الرجل : ما هذه ؟ قال : هذا كتاب معاوية ، يتوعّد فيه على أمر كذا ، فقال الرجل : لقد كنت على النّصَف ، فما فعلت ؟ فقال له الحسن عليه السلام : أجلْ ، ولكنّى خشيت أن يأتى يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا ، تشخب أوداجُهم دما ، كلّهم يستعدِى الله فيم هُريق دمه !

قال أبو الحسن : وكان الحصين[4] بن المنذر الرقاشىّ يقول : والله ما وفى معاوية للحسن بشىء مما أعطاه ؛ قتل حُجْرًا وأصحابَ حُجْر[5] ، وبايع لابنه يزيد ، وسمّ الحسن .

---

(١) المليم : من أتى من الأمر ما يلام عليه .

(٢) فى اللسان : « السدم : الذى يرغب عن فحلته فيحال بينه وبين ألافه ويقيد إذا هاج فيرعى حوالى الدار ، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فه ، ومنه قول الوليد بن عقبة . . . واستشهد بالبيت .

(٣) الحلم ، بالتحريك : فساد الجلد ؛ قال صاحب اللسان فى شرح البيت : « يقول أنت تسعى فى فى إصلاح أمر قد تم فساده ؛ كهذه المرأة التى تدبغ الأديم الحلم الذى وقعت فيه الحلمة فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به » .

(٤) د : « الحضين » .   (٥) حجر بن عدى .

قال المدائنىّ : وروى أبو الطفيل ، قال : قال الحسن عليه السلام لمولًى له : أتعرف معاوية بن خديج ؟ قال : نعم ، قال : إذا رأيته فأعلمنى ؛ فرآه خارجاً من دار عمرو ابن حريث ، فقال : هو هذا ! فدعاه ، فقال له : أنت الشّاتم عليًّا عند ابن آكلة الأكباد ! أما والله لئن وردت الحوض ولم ترده لترينّه مشمرا عن ساقيه ، حاسرا عن ذراعيه ، يذود عنه المنافقين .

قال أبو الحسن : وروى هذا الخبر أيضا قيس بن الربيع ، عن بدر[1] بن الخليل ، عن مولى الحسن عليه السلام .

قال أبو الحسن : وحدّثنا سليمان بن أيّوب ، عن الأسود[2] بن قيس العبدىّ ، أنّ الحسن عليه السلام لقى يوماً حبيب بن مسلمة فقال له : يا حبيب ، ربّ مسيرٍ لك فى غير طاعة الله ! فقال : أمّا مسيرى إلى أبيك فليس من ذلك ، قال : بلى والله ؛ ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك فى دنياك ، لقد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت شرًّا قلت خيرا ، كان ذلك ، كما قال عز وجل : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[3] ، ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[4] .

* * *

قال أبو الحسن : طلب زياد رجلا من أصحاب الحسن ، ممن كان فى كتاب الأمان ، فكتب إليه الحسن :

من الحسن بن علىّ إلى زياد ؛ أمّا بعد ؛ فقد علمت ما كنّا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لى فلانٌ أنك تعرّضت له ، فأحبّ ألّا تعرض له إلّا بخير . والسلام .

---

(١) فى د : « زيد » . (٢) د : « أبى الأسود » .
(٣) سورة التوبة ١٠٢ . (٤) سورة المطففين ١٤ .

فلما أتاه الكتاب ، وذلك بعد ادّعاء معاوية إياه غضب حيث لم ينسبه إلى أبى سفيان ، فكتب إليه :

من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن ؛ أما بعد ، فإنه أتانى كتابك فى فاسق تؤويه الفسّاق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايمُ الله لأطلبنّه بين جلدك ولحمك ، وإن أحبّ الناس إلىّ لحما أن آكله للحمٌ أنت منه [والسلام][1] .

فلما قرأ الحسن عليه السلام الكتاب ، بعث به إلى معاوية ، فلما قرأه غضب وكتب :

من معاوية بن أبى سفيان إلى زياد . أمّا بعد ، فإنّ لك رأيين : رأيا من أبى سفيان ورأياً من سُمَيّة ، فأمّا رأيك من أبى سفيان فحلمٌ وحزم ، وأمّا رأيك من سُمَيّة فما يكون من مثلها . إنّ الحسن بن علىّ عليه السلام كتب إلىّ بأنك عرضت لصاحبه ، فلا تعرض له ، فإنى لم أجعل [لك][1] عليه سبيلا ، وإنّ الحسنَ ليس ممّن يُرمَى به الرَّجَوان[2] ، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمّه ، فالآن حين اخترتَ له ، والسلام .

* * *

قلت : جرى فى مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول فى أنّ عليا عليه السلام شَرُف بفاطمة عليها السلام فقال إنسان كان حاضر المجلس : بل فاطمة عليها السلام شرُفت به وخاض الحاضرون فى ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة ، وسألنى صاحب المجلس أن أذكر ما عندى فى المعنى وأن أوضح : أيّما أفضلُ : علىٌّ أم فاطمة ؟ فقلت : أمّا أيّهما أفضل ؛ فإن أُريد بالأفضل الأجمع للمناقب التى تتفاضل بها الناس ، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك ، فعلىٌّ أفضل ، وإن أريد بالأفضل الأرفع منزلةً عند الله ، فالذى

---

(١) عن « د » .

(٢) الرجوان: تثنية رجا ، والرجا مقصور: ناحية كل شىء. ويقال : رمى به الرجوان: إذا استهان به ، فكأنه رمى به هنالك ، أراد أنه طرح فى المهالك .

استقرّ عليه رأى المتأخرين من أصحابنا، أن عليًا أرفع المسلمين كافة عندالله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الذكور والإناث ؛ وفاطمة امرأة من المسلمين ، وإن كانت سيِّدة نساء العالمين ؛ ويدلّ على ذلك أنّه قد ثبت أنّه أحبّ الخلق إلى الله تعالى بحديث الطائر ، وفاطمة من الخلق ، وأحبّ الخلق إليه سبحانه أعظمهم ثوابا يوم القيامة ، على ما فسره المحققون من أهل الكلام ، وإن أريد بالأفضل الأشرف نسبا ، ففاطمة أفضلُ لأنّ أباها سيِّد ولد آدم من الأولين والآخرين ، فليس فى آباء علىٍّ عليه السلام مثله ولا مقارنه ، وإن أريد بالأفضل مَنْ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ عليه حُنُوًّا وأمسّ به رحما ، ففاطمة أفضل ، لأنها ابنته ؛ وكان شديد الحبّ لها والحنوّ عليها جدًّا ، وهى أقرب إليه نسبا من ابن العمّ ، لا شبهة فى ذلك .

فأمّا القول فى أنّ عليا شَرُف بها أو شَرُفت به ، فإنّ عليا عليه السلام كانت أسباب شرفه وتميّزه على الناس متنوعة ، فمنها ما هو متعلّق بفاطمة عليها السلام ، ومنها ما هو متعلّق بأبيها صلوات الله عليه ، ومنها ما هو مستقلّ بنفسه .

فأمّا الذى هو مستقلّ بنفسه ، فنحو شجاعته وعفّته وحلمه وقناعته وسَجاحة أخلاقه وسماحة نفسه . وأمّا الذى هو متعلّق برسول الله صلى الله عليه وآله فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته ، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب .

وأما الذى يتعلق بفاطمة عليها السلام فنكاحه لها ؛ حتى صار بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله الصّهر المضاف إلى النسب والسبب ؛ وحتى إنّ ذرّيته منها صارت ذرِّية لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وأجزاء من ذاته عليه السلام ؛ وذلك لأنّ الولد إنما يكون من مَنِىّ الرجل ودم المرأة ، وهما جزآن من ذاتى الأب والأم ، ثم هكذا أبدا فى ولد الولد ومَنْ بعده من البطون دائما . فهذا هو القول فى شرف علىّ عليه السلام بفاطمة .

فأمّا شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العــالمين ، إلّا أن كونها زوجة علىّ أفادها نوعاً من شرف آخر زائدا على ذلك الشرف الأوّل ؛ ألا ترى أن أباهــا لو زوّجها أبا هريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالهــا فى العظمة والجلالة كحالهــا الآن ، وكذلك لو كان بنوهــا وذرّيتهــا من أبى هريرة وأنس بن مالك لم يــكن حالهم فى أنفسهم كحالهم الآن .

***

قال أبو الحسن المدائنىّ : وكان الحسن كثير التزوّج ، تزوج خَوْلة بنت منظور بن زبان الفزارية ، وأمّها مليــكة بنت خارجة بن سنــان ، فولدت له الحسن بن الحسن . وتزوّج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابنــا سمّاه طلحة ، وتزوج أم بشر بنت أبى مسعود الأنصارىّ ـ واسم أبى مسعود عقبــة بن عمر ـ فولدت له زيد بن الحسن ، وتزوّج جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وهى التى سقته السم ، وتزوّج هند ابنة [سهيل بن عمرو ، وحفصة ابنة][1]عبد الرحمن بن أبى بكر ، وتزوّج امرأة من كلْب ، وتزوّج امرأة من بنات عمرو بن أهتم المِنقرىّ ، وامرأة من ثقيف ، فولدت له عمرًا ، وتزوّج امرأة من بنات علقمة ابن زرارة ، وامرأة من بنى شيبان من آل همام بن مرّة ، فقيل له : إنها ترى رأىَ الخوارج ، فطلقها ، وقال ؛ إنى أكره أن أضمّ إلى نحرى جَمْرة من جَمْر جهنم .

وقال المدائنىّ : وخطب إلى رجل فزوّجه ، وقال له : إنى مزوّجك ، وأعلم أنك مِلِق طِلِق غلِق [2] ؛ ولــكنك خير الناس نسباً ، وأرفعهم جداً وأبا .

قلت : أما قوله ملق طلق ؛ فقد صدق ؛ وأما قوله غَلِقٌ فلا ؛ فإن الغَلِق الـكثير الضجر ، وكان الحسن عليه السلام أوسع الناس صدرا وأسجحهم خلقاً .

---

(١) من « د » .

(٢) الملق : الفقير .

قال المدائني : أحصيت زوجات الحسن بن على فكنّ سبعين امرأة .

* * *

قال المدائنيّ : ولما توفّىَ علىّ عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس ، فقال : إن أمير المؤمنين عليه السلام تُوفّىَ ، وقد ترك خلفا ، فإن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد ؛ فبكى النّاس ، وقالوا : بل يخرج إلينا ، فخرج الحسن عليه السلام ، فخطبهم فقال : أيهّا الناس ؛ اتقوا الله ، فإنا أمراؤكم وأولياؤكم ، وإنّا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) ، فبايعه الناس .

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود ، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قيس بن سعد ابن عبادة مقدّمة له فى اثنى عشر ألفا إلى الشام ، وخرج وهو يريد المدائن ، فطعن بساباط وانتهب متاعه ؛ ودخل المدائن ، وبلغ ذلك معاوية ، فأشاعه ؛ وجعل أصحاب الحسن الذين وجّههم مع عبد الله يتسلّلون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات . فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبّخهم ، وقال : خالفتم أبى حتى حُكّم وهو كاره ، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم ، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله ، ثم بايعتمونى على أن تسالموا مَنْ سالمنى ، وتحاربوا مَنْ حاربنى ؛ وقد أتانى أنّ أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية ، وبايعوه ؛ فحسبى منكم ، لا تغرّونى من دينى ونفسى .

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ـ وأمه هند بنت أبى سفيان بن حرب ـ إلى معاوية يسأله المسالمة ، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، وألّا يبايع لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، وأن يكون الناس أجمعون آمنين .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

وكتب بذلك كتابا ، فأبى الحسين عليه السلام ، وامتنع ؛ فكلّمه الحسن حتى رضىَ ، وقدم معاوية إلى الكوفة .

***

قال أبو الحسن : وحدّثنا أبو بكر بن الأسود ، قال : كتب ابن العباس إلى الحسن :

أمّا بعد فإن المسلمين ولّوْك أمرهم[١] بعد علىّ عليه السلام ، فشمّرْ للحرب ، وجاهد عدوّك ، وقاربْ أصحابك ، واشتر[٢] من الظّنين[٣] دينَه بما لا يثلِم[٤] لك دِيناً[٥] ، ووالِ أهل[٦] البيوتات والشّرَف ، تستصلح به عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعة ؛ فإن بعض ما يكره الناس ـ ما لم يتعد الحقّ ؛ وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ، وعزّ الدين ـ خير من كثير مما يُحبّه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجوْر وذلّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين . واقتدِ بما جاء عن أئمة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلّا فى حرْب أو إصلاح بين الناس ؛ فإنّ الحرب خدعة ؛ ولك فى ذلك سعة إذا كنت محاربا ، ما لم تبطلْ حقّاً .

واعلم أنّ عليّاً أباك إنّما رغِبَ الناس عنه إلى معاوية ، أنّه أسَاء بينهم فى الفىء ، وسوّى بينهم فى العطاء ، فثقُل عليهم ؛ واعلم أنّك تحاربُ مَنْ حارب الله ورسوله فى ابتداء الإسلام ؛ حتى ظهر أمرُ الله ، فلمّا وحّد الرب ، ومحق الشرك ، وعزّ الدين ، أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن ؛ مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض

---

(١) فى د : « أمورهم » .   (٢) د : « واستر » .

(٣) الظنين : « المتهم » .   (٤) يثلم : يعيب .

(٥) العقد ١ : ٣٠ ، وعيون الأخبار ١ : ١٤ « يفك » .   (٦) العقد وعيون الأخبار : « وول »

وهم لها كارهون ؛ فلما رأوْا أنه لايعز فى الدين إلّا الأتقياء الأبرار ، توسّموا بسيما الصالحين، ليظنّ المسلمون بهم خيرا ، فما زالوا بذلك حتى شركوهم فى أماناتهم ، وقالوا : حسابهم على الله ؛ فإن كانوا صادقين فإخواننا فى الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ؛ وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ؛ والله ما زادهم طول العمر إلا غيّاً ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلّا مقتا ؛ فجاهِدْهم ولا ترض دنيّة ، ولا تقبل خسفاً[1] ؛ فإنّ عليا لم يُجب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب ؛ وإنّهم يعلمون أنّه أوْلَى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلمّا حكموا بالهوى ، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجلُه ، ولا تخرجنّ من حقّ أنت أولى به ، حتى يحول الموت دون ذلك . والسلام .

***

قال المدائنيّ : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقّ ، وقمع به الشِّرْك ، وأعزّ به العرب عامّة ، وشرّف به قريشا خاصّة ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[2] ؛ فلمّا توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه ، فلا تنازعونا سلطانه ، فعرفت العرب لقريش ذلك ؛ وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدّين ، وسابقة فى الإسلام ؛ ولا غرو[3] إلّا منازعته إيّانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله ألّا يؤتينا فى هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده فى الآخرة . إنّ عليا لمّا توفّاه الله ولّانى المسلمون الأمرَ بعده ، فاتق الله يا معاوية ؛ وانظر لأمة محمد

---

(١) خسفا ، أى ذلا . (٢) سورة الزخرف ٤٤ .

(٣) لا غرو ؛ أى لا عجب .

صلى الله عليه وآله ، ما تحقِنُ به دماءها ، وتصلح به أمرها . والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سويد التيميّ ، تيم الرّباب ، وجندب الأزديّ ، فقدما على معاوية فدعواه إلى بيعة الحسن عليه السلام فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

أمّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحقّ الأوّلين والآخرين بالفضل كلّه ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرّحْتَ بتهمة أبي بكر الصديق وعمر وأبي عبيدة الأمين ، وصُلَحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك ؛ إنّ الأمّة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به[1] ؛ فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أنّ يولّوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ؛ وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويذبّ عن حرم الإسلام ذبّه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنّك أضبط لأمر الرعيّة ، وأحوطُ على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدوّ ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلّمتُ لك الأمر بعد أبيك ؛ فإنّ أباك سعى على عثمان حتى قُتِل مظلوما ، فطالب الله بدمه ؛ ومن يطلبه الله فلن يفوته . ثم ابتزّ الأمّة أمرها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدَم في الإسلام ، وادّعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم فسُفكت الدماء ؛ واستُحلّت الحرَم ، ثم أقبل إلينا لا يدّعى علينا بيعة ؛ ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ، ليحكما بما تصلح عليه الأمّة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا وعليه مثله وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكْم بما علمت ، وخلعاه ، فوالله مارضى بالحكم ، ولاصبر لأمر الله ؛ فكيف تدعوني إلى أمر إنّما تطلبه بحق أبيك ، وقد خرج منه ! فانظر لنفسك ولدينك . والسلام .

---

(١) في د « أحقها » .

قال : ثم قال للحارث وجندب : ارجعا فليس بيني وبينكم إلّا السيف ؛ فرجعا وأقبل إلى العراق فى ستين ألفا ؛ واستخلف على الشام الضحّاك بن قيس الفهريّ والحسن مقيم بالكوفة ، لم يشخص حتى بلغه أنّ معاوية قد عبر جسر مَنْبِج ، فوجّه حجْر بن عديّ يأمر العمال بالاحتراس ، ويذبّ الناس ، فسارعوا . فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثنى عشر ألفا ، فنزل دير عبد الرحمن ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ، وأمر قيس بن سعد بالمسير ، وودّعه وأوصاه ، فأخذ على الفرات وقرى الفلُّوجة ، ثم إلى مَسْكِن . وارتحل الحسن عليه السلام متوجّها نحو المدائن ، فأتى ساباط فأقام بها أياما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخَطب الناس ، فقال : أيّها الناس ؛ إنكم بايعتمونى على أن تسالموا مَنْ سالمت وتحاربوا مَنْ حاربت ، وإنى والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة فى شرق ولا غرب ، ولَمَا تكرهون فى الجماعة والألفة والأمن ، وصلاح ذات البين خير مما تحبون فى الفرقة ، والخوف والتباغض والعداوة ، وإنّ عليا أبى كان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ؛ فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تَنْدُرُ(١) عن كواهلها كالحنظل . ثم نزل .

فقال الناس : ما قال هذا القول إلّا وهو خالع نفسه ومسلم الأمرَ لمعاوية ، فثاروا به فقطعوا كلامَه ، وانتهبوا متاعه ، وانتزعوا مُطْرَفًا كان عليه ، وأخذوا جارية كانت معه ، واختلف الناس فصارت طائفة معه ؛ وأكثرهم عليه ، فقال : اللهمّ أنت المستعان ، وأمر بالرّحيل ، فارتحل الناس ، وأتاه رجل بفرس ، فركبه وأطاف به بعض أصحابه ، فمنعوا الناس عنه وساروا ، فقدمه سنان بن الجرّاح الأسديّ إلى مظلِم ساباط ، فأقام به ؛ فلما دنا منه تقدّم إليه يكلّمه ، وطعنه فى فخذه بالمِعْوَل(٢) طعنة كادت تصل إلى العظم ، فغُشِى عليه وابتدره أصحابه ، فسبق إليه عُبيد الله الطائىّ ، فصرع سنانا وأخذ ظبيان بن عُمارة المعول

(١) تندر : تقطع . (٢) المعول : حديدة ينقر بها الصخر .

من يده ، فضربه به فقطع أنفه ، ثم ضربه بصخرة على رأسه فقتله ؛ وأفاق الحسن عليه السلام من غَشْيته ، فعصبوا جُرحه وقد نزف وضعف ، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود ، عمّ المختار بن أبي عُبيد ، وأقام بالمدائن حتى برئ من جرحه .

* * *

قال المدائنيّ ؛ وكان الحسن عليه السلام أكبرَ ولد عليّ ، وكان سيّداً سخيا حليما خطيبا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّه ؛ سابق يوما بين الحسين وبينه فسبق الحسن ، فأجلسه على فخذه اليمنى ، ثم أجلس الحسين على الفخذِ اليسرى ، فقيل له : يارسول الله أيّهما أحبُّ إليك ؟ فقال : أقول كما قال إبراهيم أبونا ، وقيل له : أيّ ابنيك أحبّ إليك ؟ قال : أكبرهما وهو الذى يلد ابني محمدا صلّى الله عليه وسلّم .

وروى المدائني عن زيد بن أرقم ، قال : خرج الحسن عليه السلام وهو صغير ، وعليه بُرْده ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب ، فعثر فسقط ، فقطع رسول الله صلى الله عليه وآله الخطبة ، ونزل مسرعا إليه ، وقد حمله الناس ، فتسلّمه وأخذه على كتفه ، وقال : إنّ الولد لفتنة ، لقد نزلت إليه وما أدرى ! ثم صعد فأتمّ الخطبة .

وروى المدائنيّ ، قال : لقى عمرو بن العاص الحسن عليه السلام فى الطواف ، فقال له : يا حسن ، زعمت أنّ الدين لا يقوم إلّا بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية ، فجعله راسيا بعد مَيْله ، وبيّنا بعد خفائه ، أفرضى الله بقتل عثمان ؛ أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطَّحِين ، عليك ثياب كغرقىء[1] البيض ، وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألمّ للشَّعث ، وأسهل للوَعث ، أن يوردك معاوية حياضَ أبيك ؛ فقال الحسن عليه السلام : إنّ لأهل النار علامات يُعرفون بها ، إلحاداً لأولياء الله ؛ وموالاة لأعداء الله ، والله إنّك

(١) الغرقىء : القشرة الملتزقة ببياض البيض .

لتعلم أنّ عليا لم يرتَبْ فى الدين ، ولا يشكّ فى الله ساعة ولا طرفة عين قطّ ، وايم الله لتنتهينّ يابن أم عمرو أو لأنفذنّ حِضْنَيْك بنوافذ أشدّ من القَعْضَبِيّة[1] : فإيّاك والتهجّم علىّ ، فإنى مَنْ قد عرفت ؛ لست بضعيف الغَمْزة ، ولا هشّ المُشاشة[2] ؛ ولا مرئ المأكلة ، وإنّى من قريش كواسطة القلادة ، يُعْرَفُ حسبى ، ولا أُدّعى لغير أبى ، وأنت مَنْ تعلم ويعلم الناس ، تحاكمت فيك رجال قريش ، فغلب عليك جزّارُوها ، ألأمهم حسبا ، وأعظمهم لؤما ، فإياك عنّى ، فإنّك رجس ، ونحن أهل بيت الطهارة ، أذهب الله عنا الرّجس وطهرنا تطهيرا . فأُفحِم عمرو وانصرف كئيبا .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ قال : سأل معاوية الحسن بن علىّ بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشدَه أن يفعل ، فوضع له كرسىّ ، فجلس عليه ، ثم قال : الحمد لله الذى توحّد فى مُلْكه ، وتفرّد فى ربوبيته ، يؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزعه عمّن يشاء . والحمد لله الذى أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أوّلكم ، وحقن دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديما وحديثا أحسن البلاء ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس ، إنّ ربّ علىّ كان أعلم بعلىٍّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصّه بفضل لم تمتادوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ! طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم وهو صاحبكم ، وعدوكم فى بدر وأخواتها ، جرّعكم رَنقا ، وسقاكم عَلقاً ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فلستم بلومين على بغضه . وايم الله لا ترى أمة محمد خفضا ما كانت سادتهم وقادتهم فى بنى أمية ، ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا ؛ لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوائكم إلى شياطينكم ، فعند الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دَعتكم ، وحيف حكمكم . ثم قال : يا أهلَ الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهمٌ من مرامى الله ، صائب

(١) القعضبية : الأسنة ، منسوبة إلى قعضب اسم رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية .

(٢) المشاش فى الأصل : رءوس العظام .

على أعداء الله ، نـكال على فجّار قريش ، لم يزلْ آخذا بحناجرها ، جاثما على أنفاسها ؛ ليس بالملومة فى أمر الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ، ولا بالفَرُوقة فى حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتّبعه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته . ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجِلٌ أو كاد ؛ وأصاب مثبت أو كاد ، ماذا أردت من خطبة الحسن !

***

فأمّا أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ ، فإنّه قال : كان فى لسان أبى محمد الحسن عليه السلام ثقل كالفأفأة ؛ حدّثنى بذلك محمد بن الحسين الأشنانىّ ، قال : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسىّ ، عن مفضّل بن صالح ، عن جابر . قال : كان فى لسان الحسَن عليه السلام رُتّة [1] ، فكان سلمان الفارسى رحمه الله يقول : أتته من قِبَل عمّه موسى بن عمران عليه السلام [2] .

قال أبو الفرج : ومات شهيدا مسموماً ، دسّ معاوية إليه وإلى سعد بن أبى وقاص حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سمًّا ، فماتا منه فى أيّام متقاربة ؛ وكان الذى تولّى ذلك من الحسن عليه السلام زوجته جَعْدة بنت الأشعث بن قيس بمالٍ بذله لها معاوية . ويقال : إنّ اسمها سُكينة ، ويقال عائشة ويقال : شعثاء [3] ، والصحيح أنّ اسمها جَعْدة .

قال أبو الفرج : فروى عمرو بن ثابت ؛ قال : كنتُ أختلف إلى أبى إسحاق

---

(١) ا ، ب : « رثة » ، تصحيف ، والصواب ما أثبته من د ومقاتل الطالبيين ، والرتة : عجلة الكلام مع قلة المبالاة .

(٢) مقاتل الطالبيين ٥٠ . (٣) ب : « شيثا » .

السَّبِيعيّ [سنة] [١] ، أسأله عن الخطبة التى خطب بها الحسن بن علىّ عليه السلام عقيب وفاة أبيه ؛ ولا [٢] يحدّثنى بها ؛ فدخلت إليه فى يوم شاتٍ وهو فى الشمس ، وعليه برنسه ، فكأنه غُول ، فقال لى : مَنْ أنت ؟ فأخبرته ، فبكى ، وقال : كيف أبوك، وكيف أهلك ؟قلت : صالحون ، قال : فى أىّ شىء تتردد منذ سنة ؟ قلت : فى خطبة الحسن بن على بعد وفاة أبيه [٣] .

حدّثنى هُبيرة بن مريم [٤] ، قال : خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : قد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبِقْه الأوّلون ، ولا يدركه الآخرون [بعمل][٥] . لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيسبقه بنفسه ؛ ولقد كان يوجّهه برايته ، فيكنفه جبرائيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ؛ ولقد توفِّىَ فى الّليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ؛ والتى توفِّى فيها يوشع بن نوح ، وما خلّف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله .

ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه ثم قال : أيّها الناس ، مَنْ عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الدّاعى إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودّتهم فى كتابه ، إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ [٦] ، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت .

قال أبو الفرج : فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبد الله بن العباس بين

---

(١) من د ومقاتل الطالبيين . (٢) د : «فلا» .
(٣) مقاتل الطالبيين ٥١ . (٤) كذا فى مقاتل الطالبيين .
(٥) من مقاتل الطالبين . (٦) سورة الشورى ٢٣ .

يديه ؛ فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا : ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة ! فبايعوه ، ثم نزل من المنبر(١) .

قال أبو الفرج : ودس معاوية رجلًا من حِمْيَر إلى الكوفة ، ورجلا من بنى القَيْن إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار ، فدُلّ على الحِميرىّ(٢) وعلى القَيْنِىّ ، فأُخِذا وقتلا(٣) .

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

أمّا بعد ؛ فإنّك دسست إلىّ الرجال ، كأنك تحبّ اللقاء ؛ لا أشك فى ذلك فتوقّعْه إن شاء الله . وبلغنى أنك شمتّ بما لم يشمت به ذو الحجى ؛ وإنّما مثلك فى ذلك كما قال الأوّل :

فإنّا ومَنْ قد مات منّا لكالّذِى ... يروح فيُمْسى فى المبيت ليغتدِى(٤)
فقُلْ للّذِى يبغى خلاف الّذِى مضى ... تجهّز لأخرى مثلها فكأَنْ قدِ

فأجابه معاوية :

أما بعدُ ، فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ؛ ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آسَ ، وإن عليًّا أباك لكما قال أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

فأنتَ الجوادُ وأنتَ الّذِى ... إذا ما القلوب مَلأْنَ الصُّدُورَا(٥)
جديرٌ بطعنةِ يوم اللِّقَا ... ء يضربُ منها النِّساء النُّحُورَا
وما مِزْيَدٌ من خليج البحا ... رِ يعلو الإكام ويعلو الجسورا
بأجودَ منه بما عنده ... فيعطى الألوف ويعطى البُدُورا(٦)

---

(١) مقاتل الطالبيين ٥٢ .

(٢) مقاتل الطالبيين : « فدل على الحميرى عند لحام » .

(٣) مقاتل الطالبيين ٥٢ .

(٤) فى مقاتل الطالبيين ، البيت الثانى قبل الأول .

(٥) ديوانه ٧٢ .

(٦) مقاتل الطالبيين ٥٣ .

قال أبو الفرج : وكتب عبد الله بن العباس من البَصرة إلى معاوية :

أما بعد ، فإنَّك ودسّك أخا بنى القيْن إلى البصرة ، تلتمس من غفلاتِ قريش بمثل ما ظفِرْت به من يمانيّتك ، لـكما قال أميّة بن أبى الأسكر (١) :

لعمرُكَ إنّى والُخزَاعىّ طارقاً كنَعْجةِ عادٍ حتفَها تتحفّرُ
أثارتْ عليهـا شفرةً بكُراعِهاَ فظلّتْ بها من آخر الليل تنحَرُ
شمتّ بقومٍ من صديقك أهلـكوا أصابهُم يومٌ من الدّهْر أصْفرُ (٢)

فأجابه معاوية :

أمّا بعد ، فإن الحسن بن علىّ ، قد كتب إلىّ بنحو ممّا كتبت به ، وأنبأنى بما لم يحقق سوء ظنٍ (٣) ورأى فىّ ، وإنك لم تصب مثلى ومثلـكم ، وإنما مثلنا كما قال طارق الُخزاعىّ يجيب أميّة عن هذا الشعر :

فواللهِ ما أدرِى وإنّى لصادِقٌ إلى أىّ مَنْ يظنُّنِى أتعـذّرُ
أعنّفُ إن كانت زبينة أهلـكتْ ونال بنى لحيان شَرّ فأنْفِرُوا (٤)

---

(١) كذا فى الأغانى ومقاتل الطالبيين وهو الصواب ، وفى ب : « أمية بن أبى الصلت » .

(٢) فى الأغانى : « أعسر » .

(٣) مقاتل الطالبيين : « بما لم يحقق سوء ظن ورأى فىّ » .

(٤) أنفروا : شردوا ،وفى الأغانى: «ونفروا» ،والخبر فى الأغانى ١٨ : ١٦١ ، ١٦٢ ؛ ومقاتل الطالبيين ٥٣ ، ٥٤ ، وفى الأغانى عن أبى عمرو الشيبانى : « أصيب قوم من بنى جندع بن ليث بن بكر بن هوازن رهط أمية بن الأسكر ، يقال لهم : بنو زبينة ، أصابهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فى غزوة بنى المصطلق ، وكانوا جيرانه يومئذ ، ومعهم ناس من بنى لحيان بن هذيل ، ومع بنى جندع رجل من خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم ، وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قريش ؛ فقال أمية بن الأسكر لطارق الخزاعى :

* لعَمْرُكَ إنّى والْخُزَاعِىُّ طَارِقاً *

وأورد أبيات أمية ورد طارق ؛ ثم قال: « وهذه الأبيات الابتداء والانتهاء تمثل بابتدائها ابن عباس فى رسالة له إلى معاوية ، وتمثل بجوابها معاوية فى رسالة أجابه بها» .

قال أبو الفرج : وكان أوّل شيء أحدثه الحسن عليه السلام أنّه زاد المقاتلة مائة مائة ، وقد كان علىّ عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل ، وفعله الحسن حال الاستخلاف ، فتبعه الخلفاء من بعده فى ذلك[1] .

***

قال : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدى[2] .

من الحسن[3] بن علىٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، سلام عليك ، فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنّة للمؤمنين ، وكافّة للناس أجمعين ، ﴿ لينذرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويحقّ القول على الكافرين ﴾[4] ، فبلّغ رسالاتِ الله ، وقام بأمر الله حتى توفّاه الله غير مقصرٍ ولا وانٍ ، وبعد أن أظهر الله به الحقّ ، ومحقَ به الشِّرك ، وخص به قريشاً خاصّة فقال له : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[5] . فلما توفِّىَ تنازعت سلطانَه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ، ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقّه ، فرأت العرب أن القول ماقالت قريش ، وأنّ الحجة فى ذلك لهم على مَنْ نازعهم أمر محمد ، فأنعمت[6] لهم ، وسلّمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاجَجَت به العرب ، فلم تنصفنا قريش إنصافَ العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج ، فلمّا صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجّتهم ، وطلب النَّصَف[7] منهم باعدونا واستولَوْا بالإجماع على ظلمِنا ومَراغمتنا[8] والعَنَت[9] منهم لنا ، فالموعد الله ، وهو الولىّ النَّصير ؟

(١) مقاتل الطالبيين ٥٥ .

(٢) مقاتل الطالبيين : « مع جندب بن عبد الله الأزدى » .

(٣) مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسن . . . . » .

(٤) سورة يس ٧ . (٥) سورة الزخرف ٤٤ .

(٦) أنعمت لهم ؛ أى قالت لهم : « نعم » . (٧) النصف : الإنصاف .

(٨) راغمهم : نابذهم وعاداهم . (٩) العنت : المشقة وفى د « والعبث » .

ولقد كنّا تعجّبنا لتوثّب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان نبيّنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب[١] فى ذلك مغمزاً يثلمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثّبك يا معاوية على أمرٍ لستَ من أهله ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حسيبك ، فستردُّ فتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتَلْقيَنّ عن قليل ربّك ، ثم ليجزينّك بما قدّمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

إنّ عليا لما مضى لسبيله ــ رحمة الله عليه يوم قُبِض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبعث حيًا ــ ولّانى المسلمون الأمر بعده ، فأسأل الله ألّا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنّما حملنى على الكتاب إليك الإعذار فيما بينى وبين الله عزّ وجلّ فى أمرك ، ولك فى ذلك إن فعلته الحظُّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادىَ فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه النّاس مِنْ بيعتى ، فإنك تعلم أنّى أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ ، ومن له قلب منيب . واتّقِ الله ودَعِ البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السّلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهلَه ومَنْ هو أحقّ به منك ، ليطفىء الله النائرة[٢] بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلِح ذاتَ البَيْن ، وإن أنت أبيتَ إلّا التمادِىَ فى غيّك سرت[٣] إليك بالمسلمين فحاكمتُك ، حتّى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فكتب معاوية إليه[٤] :

---

(١) الأحزاب : هم الذين تحزبوا وتظاهروا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد فى غزوة الخندق .

(٢) النائرة : العدواة والشحناء . (٣) مقاتل الطالبيين : « نهدت » .

(٤) فى مقاتل الطالبيين « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن عليّ ، سلام الله عليك ، فإنّى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فقد بلَغنى كتابُك ، وفهمت ما ذكرت به محمدا رسول الله من الفضْل ، وهو أحق الأوّلين والآخرين بالفضْل كلّه قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ، وقد والله بلّغ وأدّى ، ونصح وهَدى ؛ حتى أنقذ الله به من الهَلَكة ، وأنار به من العَمَى ، وهَدَى به من الجَهالة والضلالة ، فجزاه الله أفضلَ ما جزى نبيّاً عن أمته ؛ وصلوات الله عليه يوم وَلِد ، ويوم بُعث ، ويوم قُبِض ، ويوم يُبعث حيّاً !

وذكرت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وتنازع المسلمين الأمر بعده ، وتغلّبهم على أبيك ، فصرّحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر الفاروق وأبى عبيدة الأمين وحواريّ [1] رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصُلَحاء المهاجرين والأنصار ، فكرهت ذلك لك ؛ إنّك امرُؤ عندنا وعند الناس غيرَ الظَّنِين [2] ولا المسىء ، ولا اللئيم ، وأنا أحبّ لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إنّ هذه الأمة لمّا اختلفت بعد نبيّها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ، ولا قرابتكم من نبيّكم ، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله ، فرأت الأمّة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيّها ، ورأى صُلَحاء النّاس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يولُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلاما ، وأعلمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختاروا أبا بكر ، وكان ذلك رأىَ ذوى الدين والفضل ، والناظرين للأمّة ، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التّهمة ، ولم يكونوا متّهمين ، ولا فيما أتوا بالمخطئين ، ولو رأى المسلمون أنّ فيكم مَنْ يغنى غناءه ، ويقوم مقامه ، ويذبّ عن حريم الإسلام ذَبّه ،

---

(١) هو الزبير بن العوام .
(٢) ب : « ظنين » .

ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ، ولـكنهم علموا فى ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله ، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا .

وقد فهمت الّذي دعوتَنِي إليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثلُ الحـال الّتى كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، فلو علمت أنّك أضبطُ منّي للرعيّة ، وأحوَطُ على هـــذه الأمّة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ، وأكيَد للعدوّ ، لأجبتك إلى ما دعوتَني إليه ، ورأيتك لذلك أهلا ، ولـكن قد علمت أنّى أطولُ منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمّة تجربة ، وأكبر منك سناً ، فأنت أحق أن تجيبَني إلى هذه المنزلة التى سألتَني ، فادخل فى طاعتى ، ولك الأمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من مالٍ بالغا ما يبلغ ، تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أيّ كُوَر العراق شئتَ ؛ معونةً لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها إليك فى كل سنة ؛ ولك ألّا نَستولىَ عليك بالإساءة ، ولا نَقضِيَ دونك الأمور ، ولا نَعصيَ فى أمر أردت به طاعة الله . أعاننا الله وإيّاكَ على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء . والسلام.

قال جندب : فلمـا أتيت الحسنَ بكتاب معاوية ، قلت له : إنّ الرجل سائر إليك ، فابدأه بالمسير حتى تقاتله فى أرضِه وبلاده وعمله ، فإمّا أن تُقدِّر أنه ينقاد (١) لك ؛ فلا والله حتى يرى منّا أعظم من يوم صِفّين . فقـال : أفعل ، ثم قعد عن مشورتى وتناسى قولى (٢) .

* * *

قالوا : وكتب معاوية إلى الحسن :

(١) د ومقاتل الطالبين : « تيمناً لك » .
(٢) مقاتل الطالبين ٥٥ ــ ٥٩ .

أما بعد(١) ، فإنّ الله يفعل فى عباده ما يشاء ، لا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدى رعاع من الناس ، وايئس(٢) من أن تجدَ فينا(٣) غميزة(٤) ، وإن أنت أعرضت عمّا أنت فيه وبايعتنى وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

وإنْ أحدٌ أسدَى إليك أمانةً فأوفِ بهَا تُدْعَى إذا مِتَّ وافِيَا
ولا تحسُدِ المولَى إذا كان ذا غنًى ولا تجْفُه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها . والسلام .

فأجابه الحسن :

أما بعد(٥) فقد وصل إلىَّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، فتركت جوابك خشية البغى [منّى](٦) عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحقّ تعلم أنّى من أهله ، وعلىَّ إثمٌ أنْ أقول فأكذِب . والسلام .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثمّ كتب إلى عمّاله على النواحى بنسخة واحدة :

من (٧عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان٧) ومن قِبَله من المسلمين . سلام عليكم ، فإنّى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو. أمّا بعد ، فالحمد لله الذى كفاكم مؤنةعدوّكم وقتل خليفتكم ، إن الله بلُطْفه ، وحسن صنعه ، أتاح لعلىّ بن أبى طالب رجلا من عباده ،

---

(١) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد » .
(٢) ب ، أيس ، وأثبت ما فى ا ، د ومقاتل الطالبين .
(٣) ا ، د ومقاتل الطالبين . (٤) الغميزة : المطعن .
(٥) فى مقاتل الطالبين : بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد . . . » .
(٦) من د .
(٧-٧) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » .

فاغتاله فقتله ، فترك أصحابه متفرّقين مختلفين ؛ وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ؛ فأقبلوا إلىّ حين يأتيكم كتابى هذا بجهدكم وجُندكم وحسن عدّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغى والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١) .

قال : فاجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصداً إلى العراق . وبلغ الحسنَ خبرُه ومسيرُه نحوَه ؛ وأنّه قد بلغ جسر منبج ، فتحرّك عند ذلك ، وبعث حُجْر بن عدىّ فأمر العمال والنّاس بالتهيّؤ للسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ! فأقبل الناس يثوبون ويجتمعون . وقال الحسن : إذا رضيتْ جماعة النّاس فأعلِمنى ؛ وجاءه سعيد بن قيس الهمْدانىّ ، فقال له : اخرج ، فخرج الحسن عليه السلام ، وصعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ؛ فإنّ الله كتب الجهاد على خَلْقِه ، وسمّاه كُرها(٢) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبِروا إنّ الله مع الصابرين ، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبّون إلا بالصبر على ما تكرهون .

بلغنى أنّ معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه ؛ فتحرّك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنُّخَيلة حتى ننظر وتنظروا ، ونرَى وتروا .

قال : وإنّه فى كلامه ليتخوّف خذلان الناس له ، قال : فسكتوا فما تكلّم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف .

فلمّا رأى ذلك عدىّ بن حاتم قام فقال : أنا ابنُ حاتم ! سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيّكم ! أين خطباء مُضَر [أينَ المسلمون ؟ أين

---

(١) مقاتل الطالبيين ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) هو من قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ .

الخواضون من أهــل المصر][1] الذين ألسنتهم كالمخاريق[2] فى الدَّعة ، فإذا جَدَّ الجِدّ فروّاغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها .

ثم استقبل الحسن بوجهه ، فقال : أصاب الله بك المراشد ، وجنّبك المكاره ، ووفّقك لما يُحمَد ورده وصــدره[3] . قد سمعنا مقالتَك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت، وهذا وجهى إلى معسكرى ،فمن أحبّ أن يوافيَنى فليوافِ .

ثم مضى لوجهه ، فخرج من المسجد ودابته بالباب ، فركبها ومضى إلى النّخَيلة ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه . وكان عدىّ بن حاتم أوّل الناس عسكرَ[4] .

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ ومعقل بن قيس الرياحىّ وزياد بن صَعْصعة[5] التّيمى ، فأنّبوا النّاس ولاموهم وحرّضوهم ، وكلّموا الحسنَ عليه السلام بمثل كلام عدىّ ابن حاتم فى الإجابة والقبول ، فقال لهم الحسن عليه السلام : صدقتم رحمكم الله ! ما زلتُ أعرفكم بصدق النيّة والوفاء والقبول والمودّة الصحيحة ، فجزاكم الله خيرا ثم نزل .

وخرج النّاس فعسكروا ، ونشطوا للخروج ، وخرج الحسن إلى المعسكر ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ، وأمره باستحثاث النّاس وإشخاصهم إليه ، فجعل يستحثّهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر .

وسار[6] الحسن عليه السلام فى عسكر عظيم وعدّة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن ،

---

(١) من مقاتل الطالبيين .

(٢) المخاريق : جمع مخراق ؛ وهو المنديل أو نحوه يلوى فيضرب به .

(٣) كذا فى مقاتل الطالبيين ، د .

(٤) ا : « عسكرا » .

(٥) فى ا ، د « حفصة » .

(٦) مقاتل الطالبيين : « ثم إن الحسن . . . » .

فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فقال له : يابن عمّ ، إنى باعث إليك اثنى عشر ألفا من فرسان العرب وقرّاء المصر ، الرجل منهم يزيد[1] الكتيبة ، فسرْ بهم ، وألِنْ لهم جانبك ، وابسُط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدنهم من مجلسك ، فإنّهم بقية ثقاتِ أمير المؤمنين ، وسرْ بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات ، ثم تصير إلى مَسْكِن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبِسْه حتى آتيك ، فإنّى على أثرك وشيكاً ، وليكن خبرك عندى كلّ يوم ، وشاور هذين ـ يعنى قيس ابن سعد وسعيد بن قيس ـ وإذا لقيتَ معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك ، فإن فعل فقاتله ، وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أُصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على النّاس[2] .

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور[3] ، حتى خرج إلى شاهى[4] ، ثم لزم الفرات والفلُّوجة[5] ؛ حتى أتى مسكِن[6] ، وأخذ الحسن على حمّام عمر حتى أتى دير كعب ، ثم بكّر فنزل ساباط دون القنطرة ، فلمّا أصبح نادى فى الناس : الصّلاة جامعة ! فاجتمعوا ، فصعد المنبر فخطبهم فقال : الحمد لله كلّما حمِده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلّما شهِد له شاهِد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وائتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله . أما بعد ، فوالله إنّى لأرجو أن أكونَ قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلقِه لخلقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريد له بسوء ولا غائلة . ألَا وإنّ ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبّون فى الفرقة ؛ ألَا وإنّى ناظر لكم خيرا

(١) ا : « يزن » . (٢) بعدها فى مقاتل الطالبيين : « ثم أمره بما أراد » .

(٣) شينور : صقع بالعراق ، وفى ب « سينور » تحريف .

(٤) شاهى : موضع قرب القادسية .

(٥) ياقوت : « فلاليج السواد : قراها ، واحدها الفلوجة ، والفلوجة الكبرى ، والفلوجة الصغرى : قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر » .

(٦) مسكن : موضع على نهر دجيل .

من نظر لكم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردّوا علىّ رأيي . غفر الله لى ولكم، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته[1] ورضاه ، إن شاء الله ! ثم نزل .

قال : فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنّه يريد أن يصالح معاوية ، ويكل الأمر إليه ، كَفَر والله الرجل ! ثم شدّوا على فسطاطه . فانتهبوه حتى أخذوا مصلّاه من تحته ؛ ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدىّ ، فنزع مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته ، ومنعوا منه مَنْ أراده ، ولاموه وضعّفوه لما تكلم به؛ فقال : ادعُوا إلىّ ربيعةَ وهَمْدان ، فدعوا له ، فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، ومعهم شَوْب[2] من غيرهم ، فلمّا مرّ فى مظلم ساباط[3] ، قام إليه رجل من بنى أسد ، ثم من بنى نَصْر بن قُعَين يقال له جراح بن سنان ، وبيده مِغْوَل ، فأخذ بلجام فرسه[4] ، وقال : الله أكبر ! ياحسن [5]أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت[5]. وطعنه بالمِغْوَل ، فوقعت فى فخذه، فشقّته حتى بلغت أربيّته[6] ، وسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه ، فخرّا جميعا إلى الأرض ؛ فوثب عبد الله بن الأخطل[7] الطائىّ ، ونزع المِغْوَل من يد جراح بن سنان ، فخضخضه[8] به ، وأكبّ ظَبيان بن عُمارة عليه ، فقطع أنفه ، ثم أخذا له الآجرّ فشدخا رأسه ، ووجهه حتى قتلوه .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « لما فيه المحبة والرضا » .

(٢) الشوب : الأخلاط من الناس .

(٣) مظلم ساباط : مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك ، قال ياقوت : « ولا أدرى لم سمى بذلك » .

(٤) مقاتل الطالبيين : « فرسه » .

(٥-٥) مقاتل الطالبيين : « يا حسن ، أشركت كما أشرك أبوك من قبل » .

(٦) الأربية : أصل الفخذ .

(٧) مقاتل الطالبيين : « الخطل » .

(٨) ا : « خصخصه » .

وحُمِل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن ، وبها سعيد[١] بن مسعود الثقفيّ والياً عليها من قبله ، وقد كان عليّ عليه السلام ولّاه المدائن فأقرّه الحسن عليه السلام عليها ، فأقام عنده يعالج نفسه . فأما معاوية فإنه وافَى حتى نزل قرية يقال لها الحلوبية[٢] بمسكِن ، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه ؛ فلما كان من غدٍ وجّه معاوية بخيله إليه فخرج إليهم عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم ؛ فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عُبيد الله بن عباس أنّ الحسن قد راسلني في الصّلح ؛ وهو مسلم الأمرَ إليّ ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنتَ متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أجبتَني الآن أن أعطيَك ألف ألف درهم ، أعجّل لك في هـذا الوقت نصفها ؛ وإذا دخلت الكوفة النّصف الآخر ؛ فانسلّ عبيد الله إليه ليلاً ، فدخل عسكر معاويه ، فوفَى له بما وعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلِّيَ بهم ؛ فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدُوه ، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة ، ثم خطبهم فثبّتهم[٣] ، وذكر عبيد الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنّهوض إلى العدوّ ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له : انهض بنا إلى عدوّنا على اسم الله ، فنزل فنهض بهم .

وخرج إليه بُسْر بن أرطاة فصاح إلى أهل العراق : ويحكم ! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح ، فعلامَ تقتلون أنفسكم !

---

(١) مقاتل الطالبيين : « سعد » .

(٢) ب : « الحيوضة » .

(٣) في مقاتل الطالبيين : « أيها الناس ، لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع « أي الجبان » . إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ؛ إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتل ببدر ، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاه علي أمير المؤمنين على البصرة ، فسرق مال الله ومال المسلمين ، فاشترى به الجواري ؛ وزعم أن ذلك له حلال ؛ وأن هذا ولاه على اليمن . فهرب من بسر ابن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذي صنع . قال : فتنادى الناس : الحمد لله الذي أخرجه من بيننا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فنهض بهم » .

فقال لهم قيس بن سعد : اختاروا إحدى اثنتين ؛ إمّا القتال مع غير إمام ، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال ، فقالوا : بل نقاتل بلا إمام ، فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردُّوهم إلى مصافّهم .

فكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعوه ويمنّيه ، فكتب إليه قيس : لا والله لا تلقانى أبداً إلا بينى وبينك الرُّمح . فكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه :

أما بعد ؛ فإنّك يهودىّ ابن يهودىّ ، تُشْقِى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ؛ فإن ظهر أحبّ الفريقين إليك نبذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نكّل بك وقتلك ؛ وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضِه ؛ فأكثر الحزّ وأخطأ المِفصل ، فخذله قومه ، وأدركه يومه ، فمات بحُوران طريدا غريبا . والسلام .

فكتب إليه قيس بن سعد :

أما بعد ؛ فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت فى الإسلام كرْها ، وأقمت فيه فرَقا ، وخرجت منه طوعا ؛ ولم يجعل الله لك فيه نصيبا ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث نفاقك ؛ ولم تزل حرباً لله ولرسوله ، وحزباً من أحزاب المشركين ، وعدوًّا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده ـ وذكرتَ أبى ، فلعمرى ما أوتر إلا قوسَه ، ولا رمى إلّا غرضه ، فشغب عليه من لا يُشقّ غباره ، ولا يُبلغ كعبه ؛ وزعمت أنى يهودىّ ابن يهودى ، وقد علمت وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدّين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ، وصرت إليه . والسلام .

فلما قرأ معاوية كتابه غاظَه ، وأراد إجابته ، فقال له عمرو : مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشدّ من هذا ؛ وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس . فأمسك عنه .

قال : وبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرَة إلى الحسن للصلح ، فدعواه

إليه ، فزهّداه فى الأمر ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وألا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة علىّ بمكروه ، ولا يذكر علىٌّ إلا بخير ، وأشياء شرطها الحسن . فأجاب إلى ذلك ، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة ، وانصرف الحسن أيضا إليها ، وأقبل معاوية قاصدا نحو الكوفة ، واجتمع إلى الحسن عليه السلام وجوهُ الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونه ، ويبكون إليه جزعا مما فعله[1] .

قال أبو الفرج : فحدّثنى محمد بن أحمد بن عبيد ، قال : حدثنا الفضل بن الحسن البصرىّ قال : حدّثنا ابن عمرو ، قال : حدثنا مكّى بن إبراهيم ، قال : حدثنا السرىّ ابن إسماعيل ، عن الشعبىّ ، عن سفيان بن أبى ليلى . قال أبو الفرج : وحدثنى به أيضا محمد بن الحسين الأشناندانىّ ، وعلىّ بن العباس المقانعى[2] ، عن عباد بن يعقوب ، عن عمرو بن ثابت ، عن الحسن بن الحكم ، عن عدىّ بن ثابت ، عن سفيان بن أبى ليلى ، قال : أتيتُ الحسن بن علىّ حين بايع معاوية ، فوجدته بفناء داره ، وعنده رهط ، فقلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين ؛ قال : وعليك السلام يا سفيان ، ونزلت فعقلت راحلتى ، ثم أتيته فجلست إليه ، فقال : كيف قلت يا سفيان ؟ قلت : السلام عليك يا مذلّ المؤمنين ! فقال : لِمَ جرى هذا منك إلينا ؟ قلت : أنت والله بأبى وأمى أذللتَ رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلّهم يموت دونك ، فقد جمع الله عليك أمر الناس . فقال : يا سفيان ، إنّا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به ، وإنى سمعتُ عليا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا تذهب الليالى والأيام حتى يجتمع أمرُ هذه الأمّة على رجل واسع السرْم[3] ،

(١) مقاتل الطالبيين ٦٤ـ ٦٧ .

(٢) ب : « المقافى » تحريف .

(٣) فى ب « السر » .

ضخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له فى السماء عاذر ، ولا فى الأرض ناصر » ، وإنه لمعاوية ، وإنى عرفت أن الله بالغ أمره .

ثم أذّن المؤذّن ، فقمنا على حالب نحلب ناقته ، فتناول الإناء ، فشرب قائماً ، ثم سقانى ، وخرجنا نمشى إلى المسجد ، فقال لى : ما جاء بك يا سفيان ؟ قلت : حبُّكم والذى بعث محمدا بالهدى ودين الحق ! قال : فأبشر يا سفيان ، فإنى سمعتُ عليا يقول ؟ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : يرد علىّ الحوضَ أهلُ بيتى ومَنْ أحبّهم من أمتى كهاتين – يعنى السبّابتين ، أو كهاتين يعنى السبّابة والوسطى – إحداهما تفضل على الأخرى ، أبشر يا سفيان ؛ فإنّ الدنيا تسع البرّ والفاجر ؛ حتى يبعث الله إمام الحقّ من آل محمد صلى الله عليه وآله[1] .

***

قلت : قوله : « ولا فى الأرض ناصر » ، أى ناصر دينى ؛ أى لا يمكن أحدا أن ينتصر له بتأويل دينى يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة .

فإن قلت : قوله: « وإنه لمعاوية » من الحديث المرفوع ، أو من كلام علىّ عليه السلام ، أو من كلام الحسن عليه السلام ؟ قلت : الظاهر أنه من كلام الحسن عليه السلام ، فإنه قد غلب على ظنّه أنّ معاوية صاحب هذه الصفات ، وإن كان القسمان الأولان غير ممتنعين .

فإن قلت : فمن هو إمام الحقّ من آل محمد ؟ قلت : أمّا الإمامية فتزعم أنه صاحبهم الذى يعتقدون أنه الآن حىّ فى الأرض ؛ وأمّا أصحابنا فيزعمون أنه فاطمىّ يخلقه الله فى آخر الزمان .

***

(١) مقاتل الطالبيين ٦٧ – ٦٨ .

قال أبو الفرج : وسار معاوية حتى نزل النُّخَيلة ، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة ، وجاءت منقطعة فى الحديث ، وسنذكر ما انتهى إلينا منها[1] .

فأما الشعبيّ فإنه روى أنه قال فى الخطبة : ما اختلف[2] أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها ، ثم انتبه فندم فقال : إلا هذه الأمة فإنها وإنها . . .

وأما أبو إسحاق السَّبيعيّ فقال : إنّ معاوية قال فى خطبته بالنُّخَيْلَةِ : ألا إنّ كلّ شيء أعطيته الحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفى به .

قال أبو إسحاق ؛ وكان والله غدّارا .

وروى الأعمش عن عمرو بن مرّة ؛ عن سعيد بن سويد ، قال : صلّى بنا معاوية بالنُّخيلة الجمعة ، ثم خطبنا ، فقال : والله إنى ما قاتلتكم لتصلّوا ، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون .

قال : وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك ، يقول : هـــذا والله هو التهتّك .

***

قال أبو الفرج : وحدّثنى أبو عبيد محمّد بن أحمد ، قال : حدثنى الفضل بن الحسن البصرى ، قال : حدثنى يحيى بن معين قال : حدّثنى أبو حفص اللبان[3] ، عن عبد الرحمن ابن شريك ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر ، فذكر عليا عليه

(١) مقاتل الطالبيين : « من ذلك » . (٢) مقاتل الطالبيين : « مااختلفت أمه » .

(٣) فى د « الأبار » .

السلام فنال منه، ثم نال من الحسن، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه، فأخذه الحسن بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيّها الذاكر عليًّا؛ أنا الحسن، وأبي عليّ، وأنت معاوية وأبوك صَخْر، وأمّي فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله وجدّك عُتْبة بن ربيعة، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حسبا، وشرّنا قديمًا وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقا! فقال طوائف من أهل المسجد: آمين.

قال الفضل: قال يحيى بن معين: وأنا أقول: آمين.

قال أبو الفرج: قال أبو عبيد: قال الفضل: وأنا أقول: «آمين»، ويقول عليّ بن الحسين الأصفهاني (١): آمين.

قلت: ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب: آمين.

***

قال أبو الفرج: ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنُّخيلة بين يديه خالد ابن عُرفطة، ومعه حبيب بن حمّاد يحمل رايته. فلمّا صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل، واجتمع الناس إليه.

قال أبو الفرج: فحدثني أبو عبيد الصيرفيّ وأحمد بن عبيد الله بن عمّار، عن محمد بن عليّ بن خلَف، عن محمد بن عمرو الرازيّ، عن مالك بن سعيد، عن محمد بن عبد الله اللّيثي، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، قال: بينا عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منبر الكوفة، إذ دخل رجل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، مات خالد بن عرفطة، فقال: لا والله [ما] (٢) مات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد، وأشار إلى باب الفيل، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد.

قال: فوثب رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا حبيب بن حمّاد، وأنا لك شيعة، فقال:

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٠. (٢) تكملة من «د».

فإنه كما أقول : فو الله لقد قدم خالد بن عرفطة على مقدّمة معاوية يحمل رايته حبيب ابن حماد (١) .

قال أبو الفرج : وقال مالك بن سعيد ، وحدّثني الأعمش بهـــذا الحديث ، قال : حدّثني صاحب هـــذه الدار ـ وأشار إلى دار السّائب أبي عطاء ـ أنّه سمع عليا عليه السلام يقول هذا (٢) .

***

قال أبو الفرج : فلما تمّ الصّلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة ، فجاءه ـ وكان رجلا طُوالًا يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطّان فى الأرض ، وما فى وجهه طاقة شعر ، وكان يسمّى خصىّ الأنصار . فلمّا أرادوا إدخاله إليه قال : إنّى حلفت ألّا ألقاه إلّا وبينى وبينه الرّمح أو السيف ، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه (٣) .

قال أبو الفرج : وقد روِىَ أنّ الحسنَ لمّا صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد فى أربعة آلاف فارس فأبى (٤) أن يبايع ، فلمـا بايع الحسن أدخِل قيسٌ ليبايع ؛ فأقبل على الحسن ، فقال : أفى حلٍّ أنا من بيعتك ؟ فقال : نعم ، فألقى له كرسىّ ، وجلس معاوية عَلَى سريرٍ والحسن معه ، فقال له معاوية : أتبايع ياقيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده عَلَى فخذِه ، ولم يمدّها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره (٥) ، وأكبّ عَلَى قيس حتى مسح يده ، على يده وما رفع إليه قيس يده (٦) .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « حبيب بن عمار » .

(٢) مقاتل الطالبيين ٧٠ ، ٧١ ، وهناك : « يقول هذه المقالة » .

(٣) ابن أبى الحديد ٧١ ، ٧٢ .   (٤) د : « وأبى » .

(٤) فى « د » : « فجثا معاوية على سريره » ، وكذا فى مقاتل الطالبيين .

(٦) مقاتل الطالبيين ٧٢ .

قال أبو الفرج : ثم إنّ معاوية أمر الحسن أن يخطب ، فظنّ أنه سيُحصَر ، فقام فخطب ، فقال فى خطبته[1] : إنَّما الخليفةُ من سار بكتاب الله وسنّة نبيه ؛ وليس الخليفةُ من سار بالجوْر ؛ ذاك رجل ملَك مُلْكاً تمتّع به قليلا ؛ ثم تنخّمه ، تنقطع لذّته ، وتبقى تَبِعته ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2] . قال : وانصرف الحسن إلى المدينة ، فأقام بها ، وأراد معاوية البَيْعة لابنه يزيد ؛ فلم يكن عليه شىء أثقل من أمْرِ الحسن بن علىّ وسعد بن أبى وقاص ، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منه .

قال أبو الفرج : فحدّثنى أحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن عيسى بن مِهْران ، عن عبيد بن الصبّاح الخرّاز ، عن جرير ، عن مغيرة ، قال : أرسل معاوية إلى بنت الأشعث ابن قيس ـ وهى تحت الحسن ـ فقال لها : إنّى مزوّجك يزيد ابنى عَلَى أن تَسُمِّى الحسن[3] ، وبعث إليها بمائة ألف درهم . ففعلت ، وسمّت الحسن ، فسوّغها المال ولم يزوّجها منه ، فخلف عليها رجل من آل طلحة ، فأولدها ؛ فكان إذا وقع بينهم وبين بُطون قريش كلام عيّروهم ، وقالوا : يابنى مُسِمّة الأزواج[4] .

قال : حدّثنى أحمد ، قال : حدّثنى يحيى بن بُكير ، عن شعبة ، عن أبى بكر بن حفص ، قال : تُوُفِّىَ الحسن بن علىّ وسعد بن أبى وقاص فى أيّام متقاربة ؛ وذلك بعد ما مضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين ؛ وكانوا يروون أنه سقاها السمّ[5] .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد بن عَوْن ، عن عمران بن إسحاق ، قال : كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام فى الدّار ، فدخل الحسن المخرج ، ثمّ خرج ، فقال : لقد سُقيت السمّ مرارا ، ما سقيت مثل هذه المرّة ؛ لقد لفظت قطعة من كبدى فجعلت

(١) ب : « الخطبة » ، وأثبت ما فى ا ، د . (٢) سورة الأنبياء ١١١ .
(٣) مقاتل الطالبيين « ابن على » . (٤) مقاتل الطالبيين ٧٣ .
(٥) مقاتل الطالبيين ٧٣ : « سقاهما سما » .

أقلّبها بعـودٍ معي . فقال الحسين : ومَن سقاك ؟ قال : وما تريد منه ؟ أتريد أن تقتله ! إن يـكن هو هو ، فالله أشدّ نقمة منك ، وإن لم يكن هو فـما أحبّ أن يؤخذ بي بريء(1) .

قال أبو الفرج : دفن الحسن عليه السلام فى قبرِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليـه وآله فى البقيع ، وقد كان أوصى أن يدفَن مع النبي صـلى الله عليه وآله ، فمنع مروان بن الحـكم من ذلك ، وركبت بنو أميّة فى السلاح ، وجعل مرْوان يقول :

* يارُبّ هَيْجا هى خيرٌ من دَعَه(2) *

يدفن عثمان فى البقيع ، ويدفن الحسن فى بيت النبي صـلى الله عليه وسلم ! والله لا يـكون ذلك أبدا وأنا أحمِل السيف ، وكادت الفتنة تقع ، وأبَى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلّا مع النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، فقال له عبد الله بن جعفر : عزمت عليك يا أبا عبد الله بحق ألا تـكلّم بـكلمة ! فمضوْا به إلى البقيع ، وانصرف مروان(3) .

قال أبو الفرج : وقد روى الزُّبير بن بَـكّار أنّ الحسن عليه السلام أرسل إلى عائشة أنْ تأذن له أن يُدفَن مع النبي صلى الله عليـه وآله ، فقالت : نعم ، فلما سمعت بنو أميّة بذلك استلأموا فى السلاح ، وتنادوْا هم وبنو هاشم فى القتال ؛ فبلغ ذلك الحسن ، فأرسل إلى بنى هاشم : أما إذا كان هذا فلا حاجة لى فيه ؛ ادفنونى إلى جَنْب أمّى ، فدفن إلى جنب فاطمة عليها السلام(4) .

***

قال أبوالفرج : فأمّا يحيى بن الحسن صاحب كتاب "النسب" ، فإنه روى أن عائشة

---

(1) مقاتل الطالبين ٧٤

(2) مطلع أرجوزة للبيد ، الأغانى ١٦ : ٢٢ ــ ساسى .

(3) مقاتل الطالبين ٧٤ .

(4) مقاتل الطالبين ٧٥ .

ركبت ذلك اليـوم بغلًا واستنفرتْ بنو أميّة مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمهم وهو قول القائل :

* فيوماً على بغلٍ ويوماً على جَمَل[1] *

***

قلت : وليس فى رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة ، لأنه لم يرو أنها استنفرت الناس لـمّا ركبت البغل ، وإنما المستنفرون هم بنو أميّة ؛ ويجوز أن تـكون عائشة ركبت لتسكين الفتنة ، لا سيما وقد روى عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت : نعم ، فهذه الحال والقصّة منقبة من مناقب عائشة .

***

قال أبو الفرج : وقال جُويرية بن أسماء : لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان حتى دخل تحته فحَمَل سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : أتحمِل اليومَ سريره وبالأمس كنت تجرّعه الغيظ ! قال مروان : كنت أفعل ذلك بمَن يوازِن[2] حلمُه الجبال[3] .

قال : وقدّم الحسين عليه السلام للصلاة عليه سعيدَ بن العاص ، وهو يومئذ أمير المدينة، وقال : تقدّم فلولا أنها سنّة لما قدمتك[3] .

قال : قيــل لأبى إسحاق السَّبيعىّ : متى ذلّ الناس ؟ فقال : حين مات الحسن ؛ وادّعى زياد ، وقُتل حُجْر بن عدىّ[3] .

قال : اختلف الناس فى سنّ الحسن عليه السلام وقت وفاته ، فقيل : ابن ثمان وأربعين ــ وهو المروىّ عن جعفر بن محمد عليه السلام فى رواية هشام بن سالم ــ وقيل : ابن ستّ وأربعين ، وهو المروىّ أيضا عن جعفر بن محمد عليه السلام فى رواية أبى بصير .

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٤ .   (٢) د : « يوازى » ؛ وهو وجه أيضا .
(٣) مقاتل الطالبيين ٧٦ .

قال : وفى الحسن عليه السلام يقول سليمان بن قتة يرثيه ، وكان محباً له :

يا كذّب اللهُ مَنْ نعَى حَسَناً ... ليس لتكذيبِ نَعْيِه ثَمَنُ[1]
كنتَ خليلى وكنتَ خالصتى ... لكلّ حىّ من أهله سَكَنُ
أجول فى الدّار لا أراكَ وفى الـدّار أناسٌ جوارُهمْ غَبَنُ
بُدِّلتُهم منك ليت أنّهمُ ... أضحَوْا وبيقى وبينهمْ عَدَنُ

***

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل .

أما قوله: « كتبها إليه بحاضرِين» ؛ فالذى كُنّا نقرؤه قديماً ؛ « كتبها إليه بالحاضرَيْن» على صيغة التثنية ؛ يعنى حاضر حلب وحاضر قِنّسرِين ، وهى الأرباض والضواحى المحيطة بهذه البلاد ؛ ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ؛ ولم يفسّروه ؛ ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية ، ومنهم من يقول بخناصرين ، يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها ، وقد طلبتُ هذه الكلمة فى الكتب المصنفة ، سيّما فى البلاد [والأرضين[2]] فلم أجدها ، ولعلّى أظفر بها فيما بعد فألحقها فى هذا الموضع .

قوله : « من الوالد الفان » ، حذف الياء هاهنا للازدواج بين « الفان » و « الزمان » ، ولأنه وقف ، وفى الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها ، والإثبات هو الوجه ، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه .

قوله : « المقرّ للزمان » أى المقرّ له بالغلبة ، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان بالقهر .

قوله : « المدبِر العمر » ، لأنه كان قد جاوز الستين ، ولم يبق بعد مجاوزة الستين إلا إدبار العمر ، لأنها نصف العمر الطبيعى الذى قلّ أن يبلغه أحدٌ ، فعلى تقدير أنه

---

(١) مقاتل الطالبيين ٧٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٤٤ . (٢) من ١ .

يبلغه ، فكلّ ما بعد الستين أقلّ مما مضى ، فلا جرم يكون العمر قد أدبر .

قوله : « المستسلم للدّهر » ؛ هذا آكد من قوله : «المقرّ للزّمان» لأنه قد يقرّ الإنسان لخصمه ولا يستسلم .

قوله : « الذام للدّنيا » هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر ، بل لم يزل عليه ، ولكن يجوز أن يزيد ذمّه لها ، لأنّ الشيخ تنقص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعا ، ولا يزال يتأفّف من الدنيا .

قوله: «الساكن مساكن الموتى»، إشعار بأنه سيموت، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (١) .

قوله : « الظاعن عنها غداً » ، لا يريد الغد بعينه ، بل يريد قُرْب الرّحيل والظَّعْن .

وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كلام مَنْ قد أيقن بالفراق ، ولا ريب في ظهور الاستكانة والخضوع عليه ، ويدلّ أيضا على كرب وضيق عَطَنٍ ، لكونه لم يبلغ أربه من حرْب أهل الشام ، وانعكس ما قدّره بتخاذل أصحابه عنه ، ونفوذ حكم عمرو بن العاص فيه لحمق أبي موسى وغباوته وانحرافه أيضا .

قوله : « إلى المولود » هذه اللفظة بإزاء « الوالد » .

قوله : « المؤمّل ما لا يدرك » ، لو قال قائل : إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد موتي وإن كان مؤمّلا لها لم يُبعد ، ويكون ذلك إخبارا عن غيب ، ولكن الأظهر أنّه لم يرد ذلك ، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن ، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه ، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلّهم في الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله بعدها : « السالك سبيل من قد هلك » ، فإن كل واحد من الناس يؤمّل أمورًا لا يدركها ، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله

---

(١) سورة ابراهيم : ٤٥ .

قوله عليه السلام : « غرض الأسقام » لأنّ الإنسان كالهدف لآفات الدنيا وأعراضها .

قوله عليه السلام : « ورهينة الأيام » الرهينة هاهنا : المهزول يقال : إنه لرهن وإنه لرهينة ؛ إذا كان مهزولا بالياء قال الراجز :

إمّا ترَىْ جِسمى خلاءً قد رَهَنْ هزلاً وما مجدُ الرِّجال فى السِّمَنْ[1]

ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن ؛ يقال للأسير أو للزمِن أو للعاجز عند الرحيل: إنّه لرهينة ؛ وذلك لأنّ الرهائن محتبسة عند مرتهنها .

قوله : « ورميّة المصائب » ، الرميّة ما يرمَى .

قوله: « وعبْد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا » ؛ لأنّ الإنسان طوع شهواته ، فهو عبْد الدنيا ، وحركاته فيها مبنيّة على غرور لا أصل له، فهو تاجر الغرور لا محالة؛ ولمّا كانت المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريما له يقتضيه ما لا بدّ له من أدائه .

قوله : « وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وسريع الشهوات » ، لما كان الإنسان مع الموت ، كما قال طرفة :

لَعَمْرُكَ إنّ المَوْتَ ما أخطأ الفَتَى لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ[2]

كان أسيرا له لا محالة ؛ ولمّا كان لابدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حليف الهموم ؛ وكذلك لا يخلو ولا ينفكّ من الحزن ، فكان قريناً له ، ولما كان معرّضاً للآفات كان نصبا لها ، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان صريعاً لها[3] .

قوله : « وخليفة الأموات » قد أخذه مَنْ قال : إنّ امرأ ليس بينه وبين آدم إلا أب ميّت ، لَمُعْرقٌ فى الموت .

واعلم أنه عدّ من صفات نفسه سبعاً ، وعدّ من صفات ولده أربع عشرة صفة ، فجعل

---

(١) الصحاح ٢١٢٨ من غير نسبة .

(٢) من المعلقة بشرح التبريزى ٨٦ . الطول : الحبل ، وثنياه : ماثنى منه .

(٣) ا : « صريعها » .

بإزاء كلّ واحدة مما له اثنتين ، فليلمح ذلك.

***

[بعض ما قيل من الشعر فى الدهر وفعله بالإنسان]

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه ، ووصف ما نقص الدهر من قُواه ، قول عوف بن محلّم الشيبانىّ فى عبد الله بن طاهر أمير خراسان :

يابْنَ الّذى دَانَ له المشرقَانْ   وألبس الأمْنَ به المغربانْ(١)
إنّ الثمانينَ وبُلِّغْتَها   قد أحوجتْ سمعِى إلى تَرْجُمَانْ
وبدّلتْنِى بالشّطاط انحِنَا   وكنتُ كالصَّعْدة تحتَ السّنانْ(٢)
وقاربتْ مِنِّى خُطًا لم تكنْ   مقارَباتٍ وثَنَتْ مِنْ عَنَانْ
وعوّضتنى من زماع الفتى   وهمّه همّ الجبان الهِدَانْ(٣)
وأنشأت بينى وبَيْنَ الورَى   عنانةً من غير نَسْج العَنَانْ(٤)
ولم تدعْ فىّ لمستمتِعٍ   إلا لسانى وكفانى لسانْ(٥)
أدعو به الله وأثنى به   على الأمير المصعبىّ الهِجانْ(٦)

---

(١) أمالى القالى ١ : ٥٠ ، وروايته :

* طرًّا وقد دان له المغربانْ *

(٢) الشطاط: حسن القوام والاعتدال . والصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف.

(٣) الزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه . والهدان : الأحمق الجافى .

(٤) العنان هنا : السحاب: يشير بهذا إلى ضعف بصره . وأنه لا يرى الورى إلا من وراء سحابة .

(٥) الأمالى : « وبحسبي لسان » .

(٦) الهجان . الكريم ؛ وبعده فى الأمالى :

فقرّبانى بأبى أنتُمَا   من وطنى قَبْلَ اصفرار البنانْ
وقبل منماى إلى نسوةٍ   أوطانُها حَرّانُ والرَّقتان

ومن الشعر القديم الجيّد فى هذا المعنى قول سالم بن عونة الضبيّ :

لا يبعدَنّ عَصْرُ الشبـــاب ولا لذّاته ونبســاتِه النّضْرِ
والمشرِفاتُ من الخُـــدور كإ يماض الغمام يَجُودُ بالقطرِ
وطراد خيل مثلها التقتاَ لحفيظةٍ ومقاعد الخمرِ
لَوْلَا أولئك ما حلفت مَتَى عوليتُ فى حَرَجٍ إلى قبرِى
هربت زبيبة أنْ رأت ثَرَمِى(١) وأن انحـــنى لتقادمٍ ظهرِى
من بعد ما عهدت فأدلفنِى يومٌ يمرّ وليلة تسرى
حتّى كأنّىَ خاتلٌ قَنَصًا(٢) والمرء بعد تمامه يحرِى
لا تهزئى منّى زبيب فما فى ذاك من عَجَبٍ ولا سخرِ
أوَ لم تَرَىْ لقمان أهلكهُ ما اقتات من سنَة ومن شَهْرِ
وبقاء نَسْرٍ كلّما انقرضتْ أيامُه عادتْ إلى نَسْرِ
ما طال من أمدٍ على لُبَدٍ رجعت محارته إلى قَصْرِ
ولقد حَلَبْتُ الدّهْرَ أشْطُرَهُ وعلمت ما آتِى مِن الأمْرِ

أنا أستفصح قوله : « ما اقتات من سنة ومن شهر » جعل الزمان كالقوت له ، ومن اقتات الشيء فقد أكله ، والأكل سبب المرض ، والمرض سبب الهلاك .

* * *

(١) الثرم : انكسار السن .

(٢) الخاتلة : مشى الصياد قليلا قليلا فى خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

(٣) فى اللسان : « تزعم العرب أن لقمان هو الذى بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسق لها ؛ فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر ، من أطب عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار النسور ، فكان آخر نسوره يسمى لبدا ؛ وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلُها احتملوا أخنى عَلَيْها الذى أخنى على لُبَدِ

الأصْـلُ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَالِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي ، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي ـ فَصَدَّقَنِي رَأْيِي ، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي ، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ـ وَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي ، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي ، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ .

***

الشَّـرْحُ :

يزعني : يكفّني ويصدّني ، وزعتُ فلاناً ، ولابدّ للناس من وَزَعة .

وسِوى ، لفظة تُقصَر إذا كسرت سينها ، وتمدّ إذا فتحتها ؛ وهي هاهنا بمعنى غير ، ومَنْ قبلها بمعنى شيء منكّر ، كقوله :

* ربَّ مَنْ أنضجتُ غَيظاً قلبه[1] *

والتقدير : غير ذكر إنسان سواي ، ويجوز أن تكون « مَنْ » موصولة ، وقد حذف أحد جزأي الصلة ، والتقدير عن ذكر الذى هو غيرى ، كما قالوا فى : ﴿ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ ، أى هو أشدّ . يقول عليه السلام : إن فيما قد بان لى من تنكّر الوقت وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لى عن الاهتمام بأحد غيرى ، والاهتمام والفكر فى أمر الولد وغيره ممن أخلفه ورائى .

---

(١) بقيته : * تَمَنَّى لِيَ مَوْتاً لم يُطَعْ *

والبيت لسويد بن أبى كاهل اليشكرى . المفضليات ١٩٨ .

ثم عاد فقال : إلّا أنّ همّى بنفسى يقتضى اهتمامى بك ، لأنّك بعضى بل كلّى ، فإن كان اهتمامى بنفسى يصرفنى عن غيرى لم تكن أنت داخلا فى جملة مَنْ يصرفنى همّى بنفسى عنهم ؛ لأنّك لست غيرى .

فإن قلت : أفهذا الهمّ حدث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن ، أو من قبل لم يكن عالما بأن الدنيا مدبرة ، والآخرة مقبلة ؟

قلت : كلّا بل لم يزل عالما عارفا بذلك ، ولكنه الآن تأكد وقوى ، بطريق علوّ السنّ وضعف القُوَى ، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب ، لابدّ من حصوله لكلّ أحد ، وإن كان عالما بالحال من قبل ؛ ولكن ليس العِيان كالخبر .

ومن مستحسَن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى إسحاق الصابئ :

أقيكَ الرّدَى إنى تنبّهتُ من كَرَى ... وسهوٍ عَلَى طول المدَى اعترياَنِى
فأثبتُّ شخصا دانياً كانَ خافياً ... على البعد حتى صار نُصْب عيانى
هو الأجلُ المحتوم لى جَدّ جِدّهُ ... وكان يرينى غفلة المتوانِى
له نُذُرٌ قد آذنتنِى بهجمَةٍ ... له لست منها آخذاً بأمانِ
ولا بدّ منه ممهلًا أو معاجلًا ... سيأتى فلا يثنيه عنّى ثانِ

وأوّل هذه القصيدة وهو داخل له فى هذا المعنى أيضا :

إذا ما تعدّت بى وسارت محفّةٌ ... لها أرجلٌ يسعى بها رجلَانِ
وما كنت من فرسانِها غير أنّها ... وفت لىَ لمّا خانت القدمَانِ
نزلتُ إليها عن سراة حصانِ ... بحكم مشيبٍ أو فراش حَصانِ (١)
فقد حملت منّى ابنَ سبعين سالكاً ... سبيلا عليها يسلك الثقلانِ

---

(١) د : «بحلم» .

كما حمل المهدَ الصبيُّ وقبلَها … ذعرت أسودُ الغيلِ بالنَّزَوانِ (١)
ولي بعدها أخرَى تسمّى جِنازةً (٢) … جنيبة يوم للمنيّة دانِ
تسير على أقدامِ أربعةٍ إلى … ديار البلى معدودهنّ ثمانِ
وإنّى على عَيْثِ الرّدى فى جوارحِى … وما كفّ من خَطْوى وبطش بنانى
وإن لم يَدَعْ إلّا فؤادا مُرَوَّعاً … به غيَرٌ باقٍ من الحدثان (٣)
تلوّم تحت الحجْب ينفث حُكْمه … إلى أذنٍ تُصغى لنطقِ لسانِ (٤)
لأعلمُ أنّى ميت عاقَ دفنه … ذَماءٌ قليل فى غدٍ هو فانِ
وإنّ فَماً للأرض غرثان حائماً … يراصِد من أكلى حضور أوانِ
به شرَهٌ عمّ الورى بفجائعٍ … تركن فلاناً ثاكِلا لفلانِ
غدا فاغراً يشكو الطوَى وهو راتع … فما تلتقى يوماً له الشَّفتانِ
إذا عاضنا بالنّسل ممّن نعولُه … تلا أوّلا منه بمهلك ثانِ
إلى ذات يومٍ لا ترى الأرض وارثاً … سوى الله من إنس تراه وجانِ

قوله : « تفرّد بى دون هموم الناس همّ نفسى » أى دون الهموم التى قد كانت تعترينى لأجل أحوال الناس .

فصدّقنى رأيى ؛ يقال : صدقته كذا أى عن كذا ، وفى المثل : « صدقنى سنّ بكره » لأنه لما نفر قال له : هِدَعْ (٥) ، وهى كلمة تسكّن بها صغار الإبل إذا نفرت ؛ والمعنى أنّ هذا الهمّ صدقنى عن الصفة التى يجب أن يكون رأيى عليها وتلك الصفة هى ألّا يفكر فى

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف . (٢) الجنازة بالكسر : ما يحمل عليه الميت .
(٣) الحدثان : غير الدهر ونوائبه . (٤) تلوّم : أى انتظر .
(٥) فى اللسان : « هدع هدع ، بكسر الفاء وفتح الدال وتسكين العين : كلمة يسكن بها صغار الإبل عند النفار ؛ ولا يقال ذلك لجلّتها ولا مسانها ؛ وزعموا أن رجلا أتى السوق ببكر له يبيعه ، فساومه رجل ، فقال : بكم البكر ؟ فقال : إنه جمل ؛ فقال : هو بكر ؛ فبينا هو يماريه إذ نفر البكر ، فقال صاحبه : هِدَعْ هدع ، ليسكن نفاره ، فقال المشترى : صدقنى سنّ بكره ؛ وإنما يقال : هدع للبكر ليسكن » .

أمر شيء من الموجودات أصلا إلا الله تعالى ونفسه ؛ وفوق هـذه الطبقة طبقة أخرى جدا وهى ألاّ تفكر فى شيء قطّ إلا فى الله وحده ، وفوق هـذه الطبقة طبقة أخرى تجلّ عن الذكر والتفسير ، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ ، وقد ذكرها هو فيما سبق ، وهو ألاّ يفكر فى شيء أصلا ، لا فى المخلوق ولا فى الخالق ؛ لأنه قد قارب أن يتّحد بالخالق ، ويستغنى عن الفكر فيه .

قوله : « وصرفنى عن هواى» أى عن هواى وفكرى فى تدبير الخلافة وسياسة الرعيّة والقيام بما يقوم به الأئمة .

قوله عليه السلام : « وصرّح لى محض أمرى » يروى بنصب محض « ورفعه » ؛ فمن نصب فتقديره : عن محض أمرى ؛ فلمّا حذف الجار نصب ، ومن رفع جعله فاعلا . وصرّح: كشف أو انكشف .

قوله : « فأفضى بى إلى كذا » ، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جدّه باللعب ؛ بل المعنى أنّ همومه الأولى قـد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحق ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ولا يقول إلا حقا ، فالآن قد حدث عنده همّ لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلا ، ومدار الفرق بين الحالتين ـ أعنى الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله : « أفضى لك بى هذا الهم » إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قـد كان يمازجها اللعب ؛ ولـكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكانا محضا على أنّ اللعب غير منكر إذا لم يكن باطلا ، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن دَعِب لِعِب » ، وكذلك القول فى قوله: « وصدق لا يشوبه كذب » أى لا يمكن أن يشوبه كذب ؛ وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورين ؛ بل هو من قولهم : صدَقونا اللقاء ، ومن قولهم: حمل عليهم فما كذب ! قال زهير :

ليثٌ بعثَّرَ يصطاد اللّيــوثَ إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صَدَقا[1]

أى أفضى بى هذا الهمّ إلى أن صدقتنى الدنيا حربها ، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا ، أى صدقتنى الدنيا حربها ولم تكذب ، أى لم تجبن ولم تَخُنْ .

أخبر عن شدّة اتّحاد ولده به ، فقال وجدتك بعضى ، قال الشاعر :

وإنّمــا أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرض
لو هبّت الرّيح على بعضهم لامتنعتْ عينى من الغَمْض

وغضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره ، فاستعطفه له الأحنف ، قال له : ياأمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليــلة ، فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطِهم ، فلا تكن عليهم قفلا فيملُّوا حياتك ، ويتمنّوا موتك .

وقيل لابنة الُخس[2] : أىّ ولديك أحبّ إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

غضب الطرمّاح على امرأته فشفع فيهــا ولده منها صمصام ، وهو غلام لم يبلغ عشرا ، فقال الطرّماح :

أصَمصامُ إن تشفع لأمّك تَلْقها لها شافعٌ فى الصَّدْر لم يتزحزحِ[3]
هَمــلِ الحبّ إلّا أنّها لو تعرّضت لذبحك ياصمصامُ قُلتَ لها : اذبحِى
أحاذر يا صَمصامُ إن متّ أنْ يَلِى تُراثى وإيّاك امرؤٌ غــير مصلحِ
إذا صكّ وسط القوم رأسك صَكّةً يقول له النّاهى:ملكت فأسْجحِ

وفى الحديث المرفوع : « إنّ ريح الولد من ريح الجنّة » .

---

(١) ديوانه ٥٤ : وكذب ، أى لم يصدق الحملة . وعثر : قبل تبالة .

(٢) ب : « الحسن » تحريف ، صوابه من ا ، د .

(٣) ديوانه ١٣٦ ، وفيه : « لم يتبرح » .

وفى الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين عليهما السلام : « إنّكم لتجبّنون ، وإنّكم لتبخّلون ، وإنكم لمن ريحان الله » .

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها :

يا حبّذا ريحُ الولَدْ ريحُ الخُزامى فى البلدْ
أهكذا كلّ ولَدْ أم لم يلدْ قَبلى أحَدْ !

وفى الحديث المرفوع : « من كان له صبيّ فليستصب له » .

وأنشد الرياشيّ :

مَنْ سرّه الدّهر أن يرى الكبدا يمشى على الأرض فلْيرَ الولدا

***

الأصل :

فَإنِّى أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ ـ أىْ بُنَىَّ ـ وَلُزُومِ أَمْرِهِ ؛ وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ ، وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ ، وَأَىُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ؛ إنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ !

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ ؛ وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ؛ وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِى وَالْأَيَّامِ ؛ وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ .

وَسِرْ فِى دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا ، وَعَمَّا انْتَقَلُوا ، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا ! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ ، وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ ؛ وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ .

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ ؛ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ .

***

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « وأيّ سبب أوثق » ؛ إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[1] .

ثم أتى بلفظتين متقابلتين ، وذلك من لطيف الصنعة ؛ فقال : « أحيِ قلبك بالموعظة ، وأمته بالزّهادة » ؛ والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه .

قوله عليه السلام : « واعرض عليه أخبار الماضين » معنى قد تداوله الناس ، قال الشاعر :

سل عن الماضين إن نطقت عنهم الأجداث والتُّرَكُ
أيّ دار للبلى نزلوا وسبيل للردى سَلَكُوا

قوله عليه السلام : « ودع القول فيما لا تعرف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمرو بن العاص : « يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت فى حُثالة من الناس ، مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا ! » ـ وشبّك بين أصابعه ـ ؛ قال عبد الله : فقلت : مُرْنى يا رسولَ الله ، فقال : « خذ ما تعرف ، ودع ما لا تعرف ، وعليك بخُوَيْصّة نفسك » .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

قوله : « والخطاب فيما لم تـكلّف » من قول رسول الله صلى الله عليـه وآله : « منْ حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقال معاوية في عبد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام : إنّ لهذا الغلام لهمّة ، وإنّه مع ذلك تارك لثلاث آخذ بثلاث : تارك مساءةَ الصّديق جدًّا وهزْلًا ، تارك ما لا يعنيه ، تارك ما لا يعتذر منه ، آخذ بأحسن الحديث إذا حدّث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأهون الأمرين إذا خُولف .

قوله عليه السلام : « وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته » ، مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله : « دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك » ، وفي خبر آخر : « إذا رابك أمْرٌ فدَعْه » .

***

الأصْـلُ :

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَـكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ ، وَجَاهِدْ فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ .

وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ إِلَى الحقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِي ٱلدِّينِ ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ ٱلصَّبْرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ ؛ وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي ٱلْحَقِّ !

وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلٰهِكَ ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ .

وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ ؛ فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطَاءَ وَٱلْحِرْمَانَ ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا ، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ .

***

الشرح :

أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهما واجبان عندنا ، وأحد الأصول الخمسة التي هي أصول الدين .

ومعنى قوله : « تكن من أهله » ؛ لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون ، ويجب إنكار المنكر باللسان ، فإن لم ينجع فباليد ، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور في كتبي الكلامية .

قوله : « وخُضِ الغمرات إلى الحق » ، لا شبهة أنّ الحسن عليه السلام لو تمكّنَ لخاضها إلّا أنّ مَنْ فقد الأنصار لا حِيلَةَ له .

* وهلْ ينهض البازِي بغير جَنَاحٍ *

والّذى خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين عليه السلام ، ولهذا عظُم عند الناس قدرُه ، فقدّمه قوم كثير على الحسن عليه السلام .

فإن قلتَ : فما قول أصحابكم في ذلك ؟

قلت : هما عندنا في الفضيلة سيّان ، أما الحسن فلوقوفه مع قوله تعالى : ﴿ إلا أَنْ تَتَّقُوا ﴾ ، وأما الحسين فلإعزاز الدين .

قوله : « فنعم التصبّر » قد تقدّم منّا كلام شافٍ في الصبر .

وقوله : « وأكثر الاستخارة » : ليس يعني بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطْر رقاع وجعلها في بنادق ، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيرة من الله فيما يأتي ويذر .

قوله : « لا خير في علم لا ينفع » قول حقّ ، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً .

قوله : « ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه »، أى لا يجب ولا يندب إليه ؛ وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة ، فما لم يكن من العلوم مرغبا فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به فى الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقى ونحوها .

***

الأصلُ :

أىْ بُنَىَّ ، إِنِّى لَمَّا رَأَيْتُنِى قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً ، وَرَأَيْتُنِى أَزْدَادُ وَهْناً ، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِى إِلَيْكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِى أَجَلِى دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِى نَفْسِى ، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِى رَأْيِى كَمَا نُقِصْتُ فِى جِسْمِى ، أَوْ يَسْبِقَنِى إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ .

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِىَ فِيهَا مِنْ شَىْءٍ قَبِلَتْهُ ؛ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

***

الشّرْحُ :

هذه الوصيّة كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين ، وروى أنه ذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الستّين والسبعين ، فقال : « معترك المنايا » .

قوله عليه السلام : « أو أن أنتقص فى رأيى » هذا يدلّ على بطلان قول من قال : إنّه لا يجوز أن ينتقص فى رأيه ، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك ، وكذلك قوله

للحسن : « أو يسبقنى إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا » يدلّ على أنّ الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ؛ ولا عن فتن الدنيا .

قوله : « فتكون كالصّعب النَّفور » ؛ أى كالبعير الصعب الذى لا يُمكِن راكبا ، وهو مع ذلك نفور عن الأنس .

ثم ذكر أنّ التعلم إنما هو فى الصِّبَا ، وفى المثل : « الغلام كالطّين يقبل الختم ما دام رطبا » .

وقال الشاعر :

اختمْ وطينُكَ رَطْبٌ إنْ قدرتَ فَكَمْ ... قد أمكنَ الختمُ أقواماً فما خَتَمُوا

ومثّل هو عليه السلام قلْب الحدَث بالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شىء قبلته ، وكان يقال : التعلّم[1] فى الصغر كالنقش فى الحجر ، والتعلم[1] فى الكبر كالخطّ على الماء .

قوله : « فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه » أى الّذى كنّا نحن نتجشم المشقة فى اكتسابه ، ونتكلّف طلبه ؛ يأتيك أنت الآن صَفواً عفواً .

***

الأصْلُ :

أَىْ بُنَىَّ ، إنِّى وَإنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كانَ قَبْلِى ، فَقَدْ نَظَرْتُ فِى أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِى أَخْبارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِى آثارِهِمْ ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأحَدِهِمْ ؛ بَلْ كَأَنِّى بِمَا انْتَهَى إلَىَّ مِنْ أُمُورِهِمْ؛ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ[2] أَوَّلِهِمْ إلى آخِرِهِمْ ؛ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ؛ فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ

---

(١) د : « العلم » . (٢) د « من » .

جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمْرِ وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ(1) الْهَلَكَةَ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ .

* * *

الشرح :

هـــذا الفصل وما بعده يشعر بالنّهى عن علم الـكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه ، ألا تراه قال له : كنت عازما على أن أعلّمك القرآن وتفسيره والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة ، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثم خفت أنْ تدخل عليك شبهة فى أصول الدين فيلتبس عليك فى عقيدتك الأصلية ماالتبس على غيرك من الناس ، فعدلتُ عن العزم الأوّل إلى أن أوصيك بوصايا تتعلّق بأصول الدين .

ومعنى قوله عليه السلام : « وكان(2) إحكام ذلك » إلى قوله : « لا آمن عليك به الهلكة »، أى فكان إحكامى الأمورَ الأصليّة عندك وتقرير الوصية التى أوصيك بها فى ذهنك فيما رجع إلى النظر فى العلوم(3) الإلهية ؛ وإن كنت كارها للخوض [معك](4)

---

(1) د « فيه من » . (2) ا : « فكان » .

(3) د « الأمور » . (4) من ا .

فيه وتنبيهك عليه أحبّ إلىّ من أن أتركك سدًى مهملا ، تتلاعب بك الشُّبَه ، وتعتورك الشكوك فى أصول دينك ، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهلَكة .

فإن قلتَ : فلماذا كان كارها تنبيه ولده على ذلك ، وأنتم تقولون إنّ معرفة الله واجبة على المكلّفين ؛ وليس يليق بأمير المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى !

قلت : لعلّه علم إمّا من طريق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفا لولده ومعرفته ، بما يكون مفسدة له ، لكثرة التجربة له ، وطول الممارسة لأخلاقه وطباعه أنّ الأصلح له ألّا يخوض فى علم الكلام الخوض الكلّىّ وأن يقتنع بالمبادئ والجمل ، فمصالح البشر تختلف ؛ فربّ إنسانٍ مصلحته فى أمرٍ ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره ، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلّا الأمور المجمَلة ، وأما التفصيلات الدقيقة الغامضة ، فلا تجب إلّا عند ورود الشبهة ، فإذا لم تقع الشبهة فى نفس المكلّف لم يجب عليه الخوض فى التفصيلات .

قوله عليه السلام : « قد عَمِرتُ مع أولهم إلى آخرهم » العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة ، تقول : عمر الرجل يعمر عَمراً وعُمرا على غير قياس ؛ لأن قياس مصدره التحريك أى عاش زمانا طويلا ، واستعمل فى القسم أحدهما فقط ، وهو المفتوح .

قوله عليه السلام : « حيث عنانى من أمرك » أى أهمنى ، قال :

﴿ عَنَانِى مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَا ﴾

قوله : « وأجمعت عليه » أى عزَمت .

ومقتبل الدهر ، يقال : اقتبل الغلام فهو مقتبَل بالفتح وهو من الشواذّ ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو مُحصَن ، وإذا عفّ فحصَن أيضا ، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهَب ، وألفج إذا افتقر فهو ملفَج ؛ وينبغى أن يكون له من قوله : « تنبيهك له » بمعنى

« عليه » ، أو تكون على أصلها ، أى ما كرهت تنبيهك لأجله .

فإن قلت : إلى الآن ما فسّرتَ ، لما ذا كره تنبيهه على هذا الفنّ ؟

قلت : بلى قد أشرت إليه ؛ وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض فى الأمور الأصوليّة فنبّهه على أمور يجرّه النظر وتأمّل الأدلّة والشُّبهات إليها دقيقة يُخاف على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته ، إلا أنه لم يجد به بدًّا من تنبيهه على أصول الديانة ، وإن كان كارها لتعريضه لخطر الشبهة ، فنبّهه على أمور جلية غير مفصلة ، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزه إلى غيره وأن يُمسك عما يشتبه عليه ، وسيأتى ذكر ذلك .

***

الأصلُ :

وَاعْلَمْ يا بُنَىَّ أَنَّ أَحَبَّ ما أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَىَّ مِنْ وَصِيَّتِى تَقْوَى اللهِ وَالاقْتِصارُ على ما فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَالأَخْذُ بِما مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ ، والصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فإنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَما أَنْتَ ناظِرٌ ، وفَكَّرُوا كَما أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِما عَرَفُوا ، والإِمْساكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا ، فإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَما عَلِمُوا ؛ فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهاتِ ، وعُلَقِ الخُصُوماتِ .

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِى ذَلِكَ بِالاسْتِعانَةِ بِإِلٰهِكَ ، والرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فى تَوْفِيقِكَ ، وَتَرْكِ كُلِّ شائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِى شُبْهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فاجْتَمَعَ ، وكانَ هَمُّكَ فى ذَلِكَ هَمًّا واحِداً ، فانْظُرْ فِيما فَسَّرْتُ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ ما تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ؛ وفَراغَ نَظَرِكَ وفِكْرِكَ ،

فاعلَمْ أنكَ إنَّما تَخْبِطُ الْعَشْوَاء ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلماء ، وَلَيْسَ طالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالإمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ .

***

الشرح

أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض ، وأن يأخذ بسنّة السّلف الصّالح من آبائه وأهل بيته ؛ فإنّهم لم يقتصروا على التقليد ؛ بل نظروا لأنفسهم ، وتأمّلوا الأدلة ، ثمّ رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلّفوا .

فإن قلتَ : مَنْ سَلَفه هؤلاء الذين أشار إليهم ؟

قلت : المهاجرون الأوّلون من بنى هاشم وبنى المطّلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة ابن الحارث ، وكأبى طالب فى قول الشّيعة وكثير من أصحابنا ، وكعبد المطّلب فى قول الشيعة خاصّة .

فإن قلت : فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدودا من جملة هؤلاء !

قلت : لا ، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجمل المقتصر بهم فى تكليفهم العقليّات على أوائل الأدلّة ، بل كان سيّدُ أهل النظر كافّة وإمامهم .

فإن قلت : ما معنى قولِه : لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم ؟

قلت : لأنّهم إذا تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر فى الخلاص منها ؛ وهذا هو الوجه فى وجوب النظر فى طريق معرفة الله ، والخوف من إهمال النظر .

فإن قلت : ما معنى قوله : « إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلّفوا » ؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلة[1] حدوث الأجسام وتوحيد الباري وعدله، والإمساك عمّا لم يكلفوا، مثل النظر فى إثبات الجزء الّذى لا يتجزأ ونفيه، ومثل الكلام فى الخلا والملا؛ والكلام فى أنّ هل بين كلّ حركتين مستقيمتين سكون أم لا؟ وأمثال ذلك مما لا يتوقف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لايلزم أصحاب الجمل والمبادى أن يخوضوا فى ذلك؛ لأنهم لم يكلفوا الخوض فيه؛ وهو من وظيفة قوم آخرين.

قوله عليه السلام: « فإن أبتْ نفسُك أن تقبلَ ذلك دون أن تعلم كما علموا »، هذا الموضع فيه نظر؛ لأنا قد قلنا: إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة، فكيف يجعلهم عالمين بها؟ ويقول: « أن تعلم كما علموا » وينبغى أن يقال إنّ الكاف وما عملت فيه فى موضع نصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف؛ وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علما كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة؛ وجاز انتصاب «علما» والعامل فيه « تقبل» لأنّ القبول من جنس العلم، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد؛ وليس لقائل أن يقول: فإذن يكون قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيّ، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيرا، قال الشاعر:

جَزَى اللهُ كَفًّا مِلْئُها من سعادةٍ ... سَرَتْ فى هلاكِ المالِ والمالُ نائمُ

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم؛ فإنهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشتبه علمه على النّاس فى الحياة الدنيا، لأن المعارف ضرورية بعد الموت، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم أنّ الّذى يدعو إلى تكلّف هذه التأويلات أنّ ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبي صلى الله عليه وآله والأخذ بما فى القرآن وترك النظر العقلىّ؛ هذا هو ظاهر الكلام؛ ألا تراه كيف يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل

---

(١) ا: « الأدلة » تحريف.

بيتك وسلفك ؛ فإنّهم لما حاولوا النظر رجعوا بآخره إلى السمعيات ، وتركوا العقليات ؛ لأنّها أفضتْ بهم إلى ما لا يعرفونه ؛ ولا هو من تكليفهم .

ثم قال له : فإن كرهت التقليد المحض ، وأحببت أن تسلك مسلكهم فى النّظر ، وإن أفضى بك الأمر بأخرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيّات وما ورد به الكتاب والسنّة ، فينبغى أن تنظر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشبهة ، وتكون طالبا للحقّ ، غير قاصد إلى الجدل والمراء ؛ فلمّا وجدنا ظاهر اللفظ يقتضى هذه المعانى ، ولم يجز عندنا أنْ يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده(١) مع حكمته وأهلية ولده بالتّقليد وترك النظر ، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لمثله أن يأمر به .

***

واعلم أنّه قد أوصاه إذا همّ بالشروع فى النظر بمحض ما ذكره المتكلمون ، وذلك أمور :

منها أن يرغب إلى الله فى توفيقه وتسديده .

ومنها أنْ يطلب المطلوب النظرى بتفهّم وتعلم ؛ لا بجدال ومغالبة ومِراء ومخاصمة .

ومنها اطّراح العصبية لمذهب بعينه ، والتورّط فى الشبهات التى يحاول بها نصرة ذلك المذهب .

ومنها ترك الإلف والعادة ، ونصرة أمر يطلب به الرياسة ؛ وهو المعنىّ بالشوائب التى تولج فى الضلال .

ومنها أنْ يكون صافى القلب ، مجتمعَ الفكر ، غيرَ مشغول السرّ بأمرٍ من جوع

---

(١) ساقطة من ا

[أو شِبع][1] أو شبَق أو غضب ؛ ولا يكون ذا هموم كثيرة ، وأفكار موزّعة مقسّمة ؛ بل يكون فكره وهمّه همّا واحداً .

قال : فإذا اجتمع لك كلّ ذلك فانظر ، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالنّاقة العشواء الخابطة لا تهتدى ، وكمن يتورّط فى الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه ! وليس طالبُ الدين مَنْ كان خابطا أو خالطا ، والإمساكُ عن ذلك أمثل وأفضل .

***

الأصْلُ :

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَىَّ وَصِيَّتِى ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِىَ هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِىَ هُوَ الْمُعَافِى ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِى الْمَعَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَىْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ !

***

الشَّرْحُ :

قد تعلّق بهذه اللفظة وهو قوله : « أو ماشاء ممّا لا تعلم » ، قوم من التناسخيّة ؛ وقالوا: المعنيّ بها الجزاء فى الهياكل التى تنتقل النفوس إليها . وليس ماقالوه بظاهر ، ويجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازى المذنب فى الدّنيا بنوع من العقوبة ، كالأسقام والفقر وغيرها، والعقاب وإن كان [مفعولا][2] على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو البارى

---

(١) من « د » .   (٢) من د .

أن يقتصر منه على الإيلام فقط ، لأنّ الجميع حقّه ، فله أن يستوفى البعض ويسقط البعْض ، وقد روى « أو بما شاء » بالباء الزائدة ، « وروى بما لا يعلم » . وأما[1] الثواب فلا يجوزأن يجازى به المحسن فى الدّنيا ، لأنه على صفة لا يمكن أنْ تجامع[2] التكليف ، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة .

ثم أعاد عليه السلام وصيته الأولى ، فقال : وإن أشكل عليك شيء من أمر القضاء والقَدَر ، وهو كون الكافر مخصوصا بالنماء والمؤمن مخصوصا بضرب من الابتلاء ، وكون الجزاء قد يكون فى المعاد ، وقد يكون فى غير المعاد ، فلا تقدحنّ جهالتك به فى سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته ، وهو أنّ الله تعالى هو المحيي المميت ، المغنى المعيد ، المبتلى المعافى ، وأنّ الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام ، وأنهما لمصالح وأمور يستأثر الله تعالى بعلمها ، وأنه يجازى عباده إما فى الآخرة أوغير الآخرة ، على حسب ما يريده ويختاره .

ثم قال له : إنّما خلقت فى مبدأ خلقتك جاهلا ، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها ، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة ، ومتاعب شديد ، فمَنْ خلق جاهلا حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحابا للأصل .

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيحاشه ، فقال له : وعساك إذا جهلت شيئا من ذلك أن تعلمه فيما بعد ، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحيّر فيه ، ثم تبصره وتعرفه ! وهذا من الطبّ[3] اللطيف ، والرُّقَى الناجعة ، والسِّحْر الحلال .

* * *

---

(١) ا : « فأما » . (٢) ب : « يجتمع » ، وما أثبته من ا .

(٣) الطب : المعالجة .

الأصل :

فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

واعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلّم؛ فَارْضَ بِهِ رَائِدًا ، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا ، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً ، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ، وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ .

***

الشرح :

عاد إلى أمره باتّباع الرسول صلى الله عليه وآله ، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب ، وقال له : إنّ أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله ؛ وصدق عليه السلام ! فإنّ التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب أنبياء بنى إسرائيل لم تتضمّن من الأمور الإلهية ماتضمنهالقرآن ، وخصوصا فى أمر المعاد؛ فإنه فى أحد الكتابين مسكوت عنه ، وفى الآخر مذكور ذكرا مضطربا ، والذى كشف هذا القناع فى هذا المعنى ، وصرّح بالأمر هو القرآن . ثم ذكر له أنه أنصحُ له من كلّ أحد ؛ وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد فى النظر لنفسه ما يبلغه هو عليه السلام له ، لشدة حبّه لهوإيثاره مصلحته . وقوله : «لم آلك نصحا » لم أقصّر فى نصحك، ألى الرجل فى كذاألو، أى قصّر فهو آلٍ والفعل لازم ، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه ، وكان أصله : لا آلو لك نصحا ونصحا ، منصوب على التمييز ، وليس كما قاله الراوندى إنّ انتصابه على أنه مفعول ثان ، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدّى ، فكيف إلى اثنين !

ويقول هذه امرأة آليَة أى مقصّرة وجمعها أوالٍ ، وفى المثل : « إلّا حظيّة فلا أليّة » ، أصله فى المرأة تصلَف عنــد بعلها ، فتوصى حيث فاتها الحظوة ألّا تألوه فى التودّد إليه والتحبّب إلى قلبه .

قوله : « ومنه شفقتك » ، أى خوفك .

ورائد : أصله الرجل يتقدّم القوم فيرتاد بهم المرعى .

***

الأصْــلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَىَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، لَا يُضَادُّهُ فِى مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ ، أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ ، عَظُمَ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ .

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِى لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِى صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ ، فِى طَلَبِ طَاعَتِهِ ، وَالرَّهْبَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ .

***

الشَّــرْحُ :

يمكن أن يستدلّ بهذا الكلام على نفى الثانى من وجهين :

أحدها أنّه لو كان فى الوجود ثانٍ للبارئ تعالى لمـا كان القول بالوحدانيّة حقّا ، بل كان الحقّ هو القول بالتثنية ، ومحال ألا يكون ذلك الثانى حكيما ، ولو كان الحقّ هو

إثبات ثانٍ حكيم لوجب أن يبعث رسولا يدعو المكلّفين إلى التثنية ، لأنّ الأنبياء كلّهم دعوا إلى التوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ ، فيجب على الثانى الحكيم أن يبعث من ينبّه المكلّفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثانى ، وإلا كان منسوبا فى إهمال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلّفين ، وذلك لا يجوز ؛ ولكنا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ فى الإلهيّة فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً ، وإذا لم يكن ضلالا كان حقا ؛ فنقيضه وهو القول بإثبات الثانى باطل .

الوجه الثانى : أنه لو كان فى الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته ، إمّا من مجرد أفعاله ، أو من صفات أفعاله ، أو من صفات نفسه ، أولا من هذا ولا من هذا ، فمن التوقيف .

وهذه هى الأقسام التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّ قوله : «أتتك رسله» هو التوقيف، وقوله : « ولرأيت آثار ملكه وسلطانه » ، هى صفات أفعاله ، وقوله : « ولعرفت أفعاله وصفاته » هما القسمان الآخران .

أما إثبات الثانى من مجرّد الفعل فباطل ؛ لأن الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات أفعاله وهى كون أفعاله محكمة متقنة ، فإن الإحكام الذى نشاهده إنّما يدل على عالم ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات ذات البارئ فالعلم بها فرع على العلم بذاته ، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور .

وأما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثانى ؛ وإذا بطلت الأقسام كلّها ، وقد ثبت أن مالا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثانى .

ثم قال : « لا يضادّه فى مُلكه أحد » ليس يريد بالضدّ ما يريده المتكلّمون من نفى ذات هى مماكسة لذات البارئ تعالى فى صفاتها ، كمضادّة السواد للبياض ، بل مراده نفى الثانى لا غير ، فإنّ نفى الضدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام .

ثم ذكر له أنّ البارئ تعالى قديم سابق للأشياء ، لا سبقاً له حدّ محدود ، وأول معيّن ، بل لا أوّل له مطلقا .

ثم قال : وهو مع هذا آخر الأشياء ، آخرية مطلقة ليس تنتهى إلى غاية معينة .

ثم ذكر أنّ له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول .

وقد سبق منّا خوض فى هذا المعنى ، وذكرنا من نظمنا فى هذا النّمط أشياء لطيفة ، ونحن نذكر ها هنا من نظمنا أيضا فى هذا المعنى ، وفى فنّنا الّذى اشتهرنا به ، وهو المناجاة والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك ، فمن ذاك قولى :

فَلا واللهِ ما وَصَـلَ ابنُ سينا ولا أغْنَى ذكاه أبى الحُسَيْنِ
ولا رَجَعا بشىء بعــد بحثٍ وتدقيقٍ سوى خُفَّىْ حُنَيْنِ
لقدْ طوّفتُ أطلبكمْ ولكنْ يحـولُ الوقت بينكمُ وبينى
فهل بعد انقضاء الوقت أحظَى بوصلكمُ غـداً وتقرّ عينى !
مُنًى عِشناً بهـا زمناً وكانتْ تُسَوِّفُنَا بصــدْقٍ أو بمَيْنِ
فإنْ أكْدَتْ فذاك ضياعُ دِينى وإن أجْدَتْ فذاك حلولُ دَيْنى (١)

ومنها :

أمولاىَ قدأحرقتُ قلبى فلاتكنْ غداً محرقا بالنّار مَنْ كان يهواكا
أتجمع لى نارينْ : نارَ محبّــةٍ ونارَ عذابٍ أنت أرحم من ذاكا !

ومنها :

قوم موسى تاهوا سنينَ كمَا قدْ جاء فى النصّ قدرها أربعونا (٢)
ولِىَ اليــومَ تائهاً فى جَوَى من لا أسمّى وحُبّـه خمســونا
قل لأحبابنا إلامَ نرومُ الْـ وَصْلَ منكمْ وأنتمُ تمنعونا

(١) ا : « أجدب » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » (الأعراف : ١٤٢)

كم نناجيكمُ فلا ترشدُونا ونناديكمُ فلا تسمعونا !
حسبنا علمكم بأنّا مواليكمْ وإن كنتمُ لنا كارهينا
فعسى تدركُ السعادة أرباب الـمعاصي فيصبحوا فائزينا !

ومنها :

والله ما آسَى من الدُّنيا عَلَى مالٍ ولا ولدٍ ولا سلطانِ
بل فى صَميم القلب منِّى حسرة تبقَى معى وتُلَفّ فى أكفانى
إنّى أراكَ بباطِنِي لا ظاهِرِي فالحسنُ مَشغَلَةٌ عَنِ العرفانِ
يا مَنْ سهرتَ مفكّرا فى أمره خمسينَ حولًا دائمَ الجولَانِ
فرجعت أحمقَ من نعامة بَيْهسٍ وأضلّ سعيا من أبى غُبْشان

ومنها :

وحقّك إن أدخلتنى النّار قلتُ لِلّـذين بها قد كنت ممن أحبّهُ
وأفنيت عمرِى فى علومٍ دقيقة وما بغيتى إلّا رضاه وقربُـه
هبونى مسيئا أوْتَغَ الحلم جهله وأوبقه بين البريّة ذنبُـه(١)
أما يقتضى شرع التكرّم عتقَـه أيحسن أن يُنسي هواه وحبّـهُ !
أما كان ينوى الحقّ فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبُهُ !
أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكّه وإلحاده إذ جَلّ فى الدين خطبُهُ !
أما قلتمُ مَنْ كان فينا مجاهدا سيُكرم مثواهُ ويُعذب شربُـهُ !
ونهديه سُبْلا من هدانا جهاده ويدخلُه خيرَ المداخل كسبُهُ
فأىّ اجتهاد فوقَ ما كان صانعاً وقدأحرقت زرقَ الشياطينِشهبُهُ !
وما نال قلبُ الجيش جيش محمد كما نال من أهل الضلالة قلبُـهُ

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى د : « أرتع » .

فإن تصفحوا يغنم وإن تتجرّموا　　فتعذيبكم حُلْوُ المذاقةِ عَذْبُهُ
وآية صدق الصبّ أن يعذُبَ الأذى　　إذا كان مَنْ يهوى عليه يَصُبُّهُ

ومنها :

إذا فكرت فيك يحارُ عقلِى　　وألحق بالمجانين الكبارِ
وأصحو تارةً فيشوب ذِهْنِى　　ويقدح خاطرى كَشُواظِ نار
فيا مَنْ تاهت العقلاء فيهِ　　فأمسوْا كلّهم صَرْعَى عُقارِ
ويامَنْ كاعت الأفكار عنهُ　　فآبت بالمتاعب والخسارِ
ويا مَنْ ليس يعلمُه نبِيٌّ　　ولا مَلَكٌ ولا يدريه دارِ
ويا مَنْ ليس قُدّاماً وخَلْفاً　　ولا جهةَ اليمينِ ولا اليسارِ
ولا فوقَ السماء ولا تدلّى　　من الأرضينَ فى لُجَجِ البحارِ
ويامَنْ أمره من ذاك أجلَى　　من ابنِ ذُكاء أو صبح النّهارِ
سألتك باسمك المكتوم إلّا　　فككْتَ النفسَ من رقّ الإسارِ
وجُدْتَ لها بما تهوى فأنت الـ　　ـعليمُ بباطنِ اللُّغزِ الضّمارِ

ومنها :

يارب إنّك عالمٌ　　بتحبّبى لك واجتهادِى
وتجرُّدى للذبّ عنـ　　ـك على مُراغمة الأعادى
بالعدل والتوحيد أصـ　　ـدع معلناً فى كلّ نادِى
وكشفتُ زيغَ ابن الخطيـ　　ـب ولبْسه بين العبادِ
ونقضتُ سائرَ مابنَا　　هُ من الضّلالة والفسادِ

وأبنت عن إغوائِهِ في دين أحمدَ ذِي الرَّشَادِ
وجعلتُ أوجُـه ناصريـه محمّات بالسّواد
وكففت مِن غُلوائهِمْ بَعْدَ التمرّدِ والعِنَادِ
فكأنما نُخِلَ الرما دُ عليهمُ بَعْدَ الرَّمَادِ
وقصدت وجْهَك أبتغي حسنَ المثوبَـة في المعادِ
فأفِضْ على العبد الفقـ ـير إليكمُ نـورَ السَّدَادِ
وارزقه قبل المـوت مَعْـرفة المصائر والمَبَادِي
وافكك أسيرَ الحرصِ بالـ ـلأصفاد من أسر الصِّفاد
واغسل بصفو القرب من أبوابكم كَدَر البعـاد
وأعضـه من حَـرِّ الغليـ ـل بوصلكم بَرْدَ الفـؤادِ
وارحم عيـونا فيك هـا مِيـةً وقلبًا فيـك صادِ
يا ساطحَ الأرض المهـا د وممسكَ السّبع الشّدادِ

***

الأصـلُ :

يا بُنَيّ ، إنِّي قدْ أنبأتُكَ عَن الدُّنْيَا وَحالِهَا ، وَزَوالِهَا وانتقالِهَا ، وَأنبأتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا ، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا . إنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ ، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيبًا ، وَجَنَابًا مَرِيعًا ، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ ؛ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَمًا ، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا . وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ

وأَدْنَاهُمْ إِلَى مَحَلَّتِهِمْ .

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا أَفْظَعَ عِندَهُمْ ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ ؛ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ .

***

الشَّرْحُ :

حذا عليه يحذو ، واحتذى مثاله ، يحتذى ، أى اقتدى به . وقوم سَفْر ، بالتسكين ، أى مسافرون .

وأمُّوا : قصدوا . والمنزل الجديب : ضدّ المنزل الخصيب .

والجناب المَرِيع بفتح الميم : ذو الكلأ والعشب ، وقد مَرُع الوادى ، بالضمّ .

والجنابِ : الفناء . ووعْثاء الطريق : مشقّتها .

وجُشوبة المطعَم : غِلَظه ، طعام جَشِيب ومَجْشوب ، ويقال إنّه الذى لا أُدْمَ (١) معه .

يقول : مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة، كمن سافر من منزل جدب إلى منزل خصيب ، فلقى فى طريقه مشقّة ؛ فإنه لا يكترث بذلك فى جنب ما يطلب ؛ وبالعكس مَن عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة ، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضَنْك ويهجر منزلا رحيبا طيبا ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجْن المؤمن وجنة الكافر » .

***

---

(١) الأدم : ما يؤتدم به .

الأصل :

يا بُنَيَّ ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزانًا فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، واكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَهَا ، ولا تَظْلِمْ كَمَا لا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ ، وارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ ، ولا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ وإِنْ قَلَّ ما تَعْلَمُ ، ولا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أَنْ يُقالَ لَكَ .

واعْلَمْ أَنَّ الإعْجابَ ضِدُّ الصَّوابِ ، وآفَةُ الأَلْبابِ ؛ فاسْعَ فِي كَدْحِكَ ، ولا تَكُنْ خازِنًا لِغَيْرِكَ ، وإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ ، فَكُنْ أَخْشَعَ ما تَكُونُ لِرَبِّكَ .

***

الشرح :

جاء فى الحديث المرفوع : « لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه » . وقال بعض الأسارى لبعض الملوك : افعل معى ما تحبّ أن يفعل الله معك ؛ فأطلقه ؛ وهذا هو معنى قوله عليه السلام : « ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم » .

وقوله : « وأحسن » من قول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِليك ﴾ [1] .

وقوله : « واستقبح من نفسك » ، سئل الأحنف عن المروءة ، فقال : أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك . وروى : « وارض من الناس لك » وهى أحسن .

وأما العُجْب وما ورد فى ذمه فقد قدمنا فيه قولا مقنعا .

---

(١) سورة القصص ٧٧ .

قوله عليه السلام : « واسْعَ فى كدحك » أى أذهب ما اكتسبت بالإنفاق ؛ والكدح هاهنا : هو المال الّذى كدح فى حصوله ، والسعي فيه إنفاقه ؛ ، وهذه كلة فصيحة، وقد تقدّم نظائر قوله : « ولا تكن خازنا لغيرك » .

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هَدَاه لرشده ، وذلك لأنّ هدايته إياه إلى رشده نعمة عظيمة منه ، فوجب أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ أنَّ أمامَكَ طَرِيقاً ذا مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَأنَّهُ لَا غِنَى بكَ فِيه عَنْ حُسْنِ الارْتِيادِ ، وقَدْرِ بلاغِكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهرِ ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، فيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبالًا عَلَيْكَ ، وإذا وجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لكَ زَادَكَ إلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، فيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ إيَّاهُ ، وأكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فلا تَجِدُهُ .

واغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فى حالِ غِناكَ ، لِيَجْعَلَ قَضاءَهُ لَكَ فى يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

واعْلَمْ أنَّ أمامكَ عَقَبَةً كَئُودًا ، الْمُخِفُّ فيها أحْسَنُ حالًا مِنَ الْمُثْقِلِ ، والمُبطِئُ عَلَيْها أقْبَحُ أمْرًا مِنَ الْمُسْرِعِ ، وأنَّ مَهْبِطَها بِكَ لَا مَحالَةَ ؛ إمَّا عَلَى جَنَّةٍ أوْ عَلَى نارٍ ، فارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، ولَا إلَى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ .

***

الشرح :

أمره فى هـــذا الفصل بإنفــاق المال والصَّــدَقة والمعروف . فقال ؛ إنّ بين يديك طريقا بعيد المسافة ، شديد المشقّة ، ومَنْ سلك طريقا فلا غـنًى له عن أن يرتادلنفسه، ويتزوّد من الزاد قدر ما يبلّغه الغاية ، وأن يكون خفيف الظهر فى سفره ذلك ؛ فإياك أن تحمــل من المال ما يثقِلُك ؛ ويكون وبالًا عليك ؛ وإذا وجدت من الفقراء والمساكين مَنْ يحمل ذلك الثّقل عنك فيوافيك به غدًا وقت الحاجة فحمّله إياه ، فلعلك تطلب مالك فلا تجده . جاء فى الحديث المرفوع : « خَمْسٌ مَن أتى اللهَ بهنّ أو بواحدة منهنّ أوجب له الجنّة: مَنْ سقى هامةً صادِية ، أو أطعم كبداً هافية ، أو كسا جلدة عارية ، أو حمل قدما حافية ، أو أعتق رقبة عانية » .

قيل لحاتم الأصمّ : لو قرأتَ لنا شيئا من القرآن ! قال : نعم ؛ فاندفع فقرأ : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾يكنزون[1]، فقالوا أيها الشيخما هكذا أُنْزِلَ ! قال: صدقتم؛ ولـكن هكذا أنتم !

* * *

الأصل:

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى بِيَــدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِى الدُّعَاءِ ، وَتَـكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَــكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ،

(١) سورة البقرة ١ ــ ٣ ، والقراءة : « ومما رزقناهم ينفقون » .

وَلَمْ يَمْنَعْكَ إنْ أسأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا . وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ . فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ .

***

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ ، بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ؛ فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ ، فَلَا يُقْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ . وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُعْطَاهُ ، وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ ، وَلَا تَبْقَى لَهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدم القولُ فى الدُّعاء .

قوله : « بل جعل نُزوعك عن الذنب حسنة » ، هـذا متَّفق عليه بين أصحابنا ، وهو أنّ تارك القبيح لأنّه قبيح يستحقّ الثواب .

قوله : « حسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشرا » ؛ هـذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾(١) .

قوله : « وأبثثته ذات نفسك »، أى حاجتك .

ثم ذكر له وجوها فى سبب إبطاء الإجابة :

منها أنّ ذلك أمر عائد إلى النيَّة ، فلعلّها لم تكن خالصة .

ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل ؛ لأنّ الثواب على قدر المشقة .

ومنها أنـه ربمـا أخّرت ليعطى السائل خيراً مما سأل ، إمّا عاجلا أو آجلا ؛ أو فى الحالين .

ومنها أنه ربّما صرف ذلك عن السائل ، لأنّ فى إعطائه إيّاه مفسدة فى الدين .

قوله : « فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له » ، لفظ شريف فصيح ، ومعنى صادق محقّق فيه عظة بالغة ؛ وقال أبو الطيب :

أَيْنَ الجبـابرةُ الأكاسرَةُ الأُلَى كنزُوا الكُنوز فما بَقِينَ وَلَا بَقُوا(٢)

وروى : « من يحجبه عنك » .

وروى : « حيث الفضيحة » أى حيث الفضيحة موجودة منك .

***

واعلم أنّ فى قوله : « قد أذن لك فى الدعاء ، وتكفّل لك بالإجابة » إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(٣) .

وفى قوله : « وأمر أن تسأله ليعطيك » إشارة إلى قوله : ﴿ واسْأَلوا اللهَ مِنْ فضله ﴾(٤) .

---

(١) سورة الأنعام ١٦٠ . (٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ .
(٣) سورة غافر ٦٠ . (٤) سورة النساء ٣٢ .

وفي قوله : « وتسترحمه ليرحمك » إشارة إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١) .

وفي قوله : « ولم يمنعك إن أسأت من التوبة » إشارة إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾(٢) .

***

الأصل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ؛ وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو هَارِبُهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ ؛ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ .

***

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا ، وَنَعَتَتْ لَكَ نَفْسَهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا .

---

(١) سورة الأنفال ٣٣ . (٢) سورة الفرقان ٧٠ .

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا .

سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .

رُوَيْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامُ ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ !

***

الشَّرْحُ :

يقول : هذا منزل قُلْعة ؛ بضم القاف وسكون اللام ؛ أى ليس بمستوطَن ؛ ويقال : هذا مجلس قُلْعة ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . ويقال أيضا : هم على قُلْعة ، أى على رِحْلة ، والقُلْعة أيضا : هو المال العارية ، وفى الحديث : « بئس المال القُلْعة » ؛ وكلّه يرجع إلى معنًى واحد .

قوله : « ودار بلغة » ، والبلغة : ما يتبلّغ به من العيش .

قوله : « سروح عاهة » ، والسُّروح : جمع سَرْح ؛ وهو المال السارح . والعاهة : الآفة ؛ أعاه القومُ أصابت ماشيتَهم العاهة .

وواد وَعْث : لا يثبت الحافرُ والُخفّ فيه ؛ بل يغيب فيه ، ويشقّ على مَنْ يمشى فيه .

وأوعث القوم : وقعوا فى الوعْث .

ومسِيم يُسيمها : راعٍ يرعاها .

قوله : « رويدا يسفر الظلام . . . » إلى آخر الفصل ، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده

استمداد . واستقرأني أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذ حَدَث هذه الوصيّة فقرأتها عليه من حِفظى ، فلمّا وصلتُ إلى هـذا الموضع صاح صيحة شديدة ، وسقط ـ وكان جبّاراً قاسيَ القلب .

* * *

[أقوال حكيمة فى وصف الدنيا وفناء الخلق]

واعلم أنّا قدّمنا فى وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء ، ونذكر الآن أشياء أُخر .

فمن كلام الحسن البصريّ : يابنَ آدم ، إنّما أنت أيام مجموعة ، فإذا مضى يوم مضى بعضك .

عن بعض الحكماء : رحم الله أمرأً لا يغرّه ما يرى من كثرة الناس، فإنه يموت وحده، ويقبَر وحده ، ويحاسَب وحده .

وقال بعضهم : لا وجهَ لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشىء من متاعها ، ولا التخلّى منها ، أمّا ترك الاهتمام لها، فمن جهة أنّه لاسبيل إلى دفع الكائن من مقدورها ؛ وأمّا ترك الاعتداد بها ؛ فإنّ مرجع كلّ أحد إلى تركها ، وأمّا ترك التخلّى عنها فإنّ الآخرة لا تدرَك إلّا بها .

ومن كلام بعض الحكماء : أفضل اختيار الإنسان ما توجّه به إلى الآخرة، وأعرض به عن الدنيا ؛ وقد تقدّمت الحجّة وأذِنّا بالرحيل ، ولنا من الدنيا على الدّنيا دليل ؛ وإنّما أحدنا فى مدّة بقائه صريع لمرض ، أو مكتئب بهمّ ، أو مطروق بمصيبة ، أو مترقّب لمخوف ، لا يأمن المرء أصناف لذّته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه ، ولا يأمن مملوكه

وجاريته أن يقتلاه بحديد أو سمّ ؛ وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال ، وسمعه من صَمَم ، وبصره من عمًى ، ولسانه من خَرَس ، وسائر جوارحه من زَمانة ، ونفسه من تَلَف ، وماله من بوارٍ ، وحبيبه من فراق ؛ وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعيّة أنه فقير إلى ربّه ، ذليل فى قبضته ، محتاج إليه . لا يزال المرء بخير ما حاسب نفسه ، وعمر آخرته بتخريب دنياه ؛ وإذا اعترضته بحار المكاره ، جعل معابرها الصبر والتأسّى ، ولم يغترّ بتتابع النّعم ، وإبطاء حلول النقم ، وأدام صحبة التق ؛ وفَطَم النفس عن الهوى ؛ فإنما حياته كبضاعة ينفق من رأس المال منها ؛ ولا يمكنه أن يزيد فيها ؛ ومِثْل ذلك يوشِك فناؤه وسرعة زواله .

وقال أبو العتاهية فى ذكْرِ الموت :

ستُباشر التُّرباء خدَّك ... وسيضحك الباكون بعدك[١]
ولينزلنّ بك البِلى ... وليخلفنّ الموتُ عهدك
وليفنينّك مثل ما[٢] ... أفنى أباك بِلًى وجدّك[٣]
لو قد رحلتَ عن القصو ... روطيبها وسكنتَ لحدَك[٤]
لم تنتفع إلّا بفعـ ... ـل صالحٍ قد كان عندك

---

(١) ديوانه ٨٦ ، ٨٧ ، والترباء : التراب ، ورواية الديوان :

* لَتباشِرُ الأجداث وَحْدَك *

(٢) الديوان : « بالذي » .

(٣) الديوان : « به وجدّك » .

(٤) الديوان :

لوْ قدْ ظَعَنْتَ عن البيو ... تِ ودَوْحِها وسكَنْتَ لَحْدَكْ

وترى الّذين قسمت ما ... لك بينهم حصصا وكدّك[1]
يتلذّذون بما جمعـ ... ـت لهمْ ولا يجدون فقدكْ

***

الأصْـلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَىَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً .

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ .

فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ .

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا . وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا . وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ[2] إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ . وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ .

---

(١) الديوان :

وكأنّ جمعك قد غدا ... ما بينهم حصصاً وكدّكْ

(٢) د : « لا يوجد » .

الشرح :

مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء ـ وقد نسب أيضا إلى أمير المؤمنين عليه السلام: أهل الدنيا كركبٍ يُسار بهم وهم نيام .

قوله : « تخفضنّ فى الطلب » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ روح القدس نفث فى رُوعى أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فأجْمِلوا فى الطلب » .

وقال الشاعر :

ما اعتاضَ باذلُ وجههِ بسؤاله   عِوَضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النّوال إلى السؤال قَرنْته(١)   رجحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نوالِ

وقال آخر :

رددتُ رونق وجهى عن صحيفتِهِ   ردّ الصّقال بهاءَ الصّارمِ الخذِمِ(٢)
وما أبالى وخيرُ القول أصدقه   حقنت لى ماء وجهى أم حَقَنْتَ دمى

وقال آخر :

وإنى لأختار الزهيد على الغِنَى   وأجزأ بالمال القَراح عن المحضِ
وأدّرِع الإملاق صبرا وقد أرى   مكان الغِنَى كى لا أهينَ له عِرْضى

وقال أبو محمد اليزيدى فى المأمون :

أبْقَى لنا الله الإمامَ وزادَهُ   شَرَفاً إلى الشّرَفِ الذى أعطاهُ
والله أكرَمنا بأنّا معشر   عُتقاء من نِعَمِ العباد سِوَاهُ

وقال آخر .

كيفَ النهوضُ بما أوْلَيْتَ من حَسَنٍ   أم كيف أشكر ما طوقت من نِعَمِ !

---

(١) د : « وزنته » .   (٢) الخذم : القاطع .

ملكتني ماء وجهٍ كاد يسكبُه ذلّ السؤال ولم تنجع به هِممى

وقال آخر :

لا تحرصنّ على الحطام فإنّما يأتيك رزقُك حين يؤذَنُ فيه
سَبَقَ القضاء بقدره وزمانه وبأنّه يأتيك أو يأتيه

وكان يقال : ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقر الناس إليه .

وقال رجل فى مجلس فيه قوم من أهل العلم : لا أدرِى ما يحمل من يوقن بالقدر على الحرص على طلب الرزق ! فقال له أحد الحاضرين : يحمله القَدَر ، فسكت .

أقول : لو كنت حاضرا لقلت : لو حمله القدر لما نهاه العقلاء عن الحرص ، ولما مدحوه على العفّة والقناعة فإن عاد وقال : وأولئك ألجأهم القدر إلى المدح والذمّ والأمر والنهى ؛ فقد جعل نفسه وغيره من الناس ؛ بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التى يحرّكها غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم

وقال الشاعر :

أراكَ تزيدُكَ الأيام حِرصاً على الدّنيا كأنّكَ لا تموتُ
فهل لك غاية إن صرت يوماً إليها قلتَ حسبي قد رضيتُ !

أبو العتاهية :

أىّ عيش يكون أطيبَ من عيْـ ـشِ كفافٍ قوت بقدر البلاغ[1]
قرّنتنيَ الأيام عقلى ومالى وشبابى وصحّتِي وفراغى[2]

وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه :

(١) ديوانه ١٦٤ ، والأغانى ٤ : ٤٠ والبلاغ : الكفاية .

(٢) الديوان والأغانى : « غبنتنى الأيام » .

كُنْ حَسَنَ الظنِّ بِرَبٍّ خَلَقَكْ ... بنيَّ واحمدْهُ على ما رَزَقَكْ
واعلم بأنَّ الحرص يطفي رونقَكْ ... فجانب الحرْص وحَسِّن خلقكْ
واصدق وصادق أبدا مَنْ صدقَكْ ... دارِ مُعاديك ومُقْ من وَمَقَكْ
واجعل لأعدائك حزماً مَلقَكْ ... وجنِّبَنْ حَشْوَ الكلام منطقَكْ
هذى وَصاة والد قد عَشقَكَ ... وصاة مَنْ يقلقه ما أقلقَكْ

* أرشدك الله لها ووفّقك *

أبو العتاهية :

أجَلُ الغنى مِمّا يؤمِّل أسرعُ ... وأراكَ تجمعُ دائما لا تشبعُ[1]
قل لى لمن أصبحتَ تجمع دائباً[2] ... أَلِبَعْل عِرْسِك لا أبا لكَ تجمعُ !

وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته ، فقال : لا تدنّسنّ عرضك ، ولا تبذلنّ وجهك ، ولا تخلقن جدّتك بالطلب إلى مَنْ إن ردك كان ردّه عليك عيبا ، وإن قضى حاجتك جعلها عليك مَنّاً ، واحتمِل الفقر بالتنزّه عمّا فى أيدى الناس[3] ، والزم القناعة بما قُسِم لك ، فإن سوء عمل الفقير يضع الشريف ، ويخمل الذِّكْر ، ويوجب الحرمان .

***

الأصْلُ :

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ ، وَمَرَارَةُ الْيَاسِ ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ !

(١) ديوانه ١٤٤ . (٢) الديوان : « تجمع ما » .
(٣) د « عما فى يدى غيرك » .

مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ .

قارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنهُمْ ، وبايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ .

بِئْسَ الطَّعامُ الحَرامُ ! وظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ !

إِذا كانَ الرِّفْقُ خُرْقاً ، كانَ الخُرْقُ رِفْقاً .

رُبَّما كانَ الدَّوَاءُ داءً ، والدَّاءُ دَوَاءً . ورُبَّما نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ ، وَغَشَّ المُسْتَنْصَحُ .

وَإِيَّاكَ وَالاتِّكالَ على المُنَى فإِنَّها بَضائِعُ النَّوْكَى . والعَقْلُ حِفْظُ التَّجارِبِ ، وَخَيْرُ ماجرَّبْتَ ما وعَظَكَ . بادِرِ الفُرْصَةَ ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طالِبٍ يُصِيبُ ، ولا كُلُّ غائِبٍ يئوب ، وَمِنَ الفَسادِ إِضاعَةُ الزَّادِ ، وَمَفْسَدَةُ المَعادِ . ولِكُلِّ أَمْرٍ عاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَأْتِيكَ ما قُدِّرَ لَكَ .

التَّاجِرُ مُخاطِرٌ ، ورُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ !

***

الشرح :

هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكمية .

أولها قوله : « تَلافيك ما فَرَط من صمتك أيسرُ من إدراكك ما فات من منطقك » ، وهذا مثل قولهم : أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً ، ولستَ بقادر على أن تجعل كلامك صمتا ؛ وهذا حقّ ؛ لأن الكلام يُسْمع وينقل ؛ فلا يستطاع إعادته صمتا ، والصمت عدم الكلام ، فالقادر على الكلام قادر على أن يبدّله بالكلام ، وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيُتعذّر استدراكه .

وثانيها قوله : « حفظ مافى يَدَيْك أحبّ إلىّ من طلب مافى أيدى غيرك » ، هذا مثل قولهم فى المثل : البخل خير من سؤال البخيل ، وليس مراد أمير المؤمنين عليه السلام وصايته بالإمساك والبخل ، بل نهيه عن التفريط والتبذير ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾[1]؛ وأحمق الناس مَنْ أضاع ماله اتكالا على مال الناس ، وظانًّا أنه يقدر على الاستخلاف ، قال الشاعر :

إذا حَدّثتك النفسُ أنّك قادرٌ على ما حوتْ أيدى الرجال فكذّبِ

وثالثها قوله : « مرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس » ، من هذا أخذ الشاعر قولـه :

وإن كان طعم اليأس مُرًّا فإنهُ ألذّ وأحلَى من سؤال الأراذِلِ

وقال البُحترى :

واليأس إحدى الراحتين ولنْ ترَى تعَبًا كظنّ الخائبِ المغرور[2]

ورابعها قوله : « الحِرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور»، والحرْفة بالكسر مثل الحُرف بالضم ، وهو نقصان الحظ وعدم المال . ومنه قوله « رجل محارَف » ، بفتح الراء ، يقول : لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفرْج واليد ، خير من الغنى مع الفجور ؛ وذلك لأن ألم الحِرفة مع العفة ومشقّتها إنما هى فى أيام قليلة وهى أيام العمر ، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور ، ففى مثل تلك الأيام يكون ؛ ولكن يستعقب عذابا طويلا ، فالحال الأولى خيرٌ لا محالة . وأيضا ففى الدنيا خير أيضا للذكر الجميل فيها ، والذكر القبيح فى الثانية ، وللمحافظة على المروءة فى الأولى وسقوط المروءة فى الثانية .

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ . (٢) ديوانه .

وخامسها قوله : « المرء أحفظ لسرّه » أى الأوْلى ألّا تبوح بسرّك إلى أحد ، فأنت أحفظ له من غيرك ؛ فإن أذعته فانتشر فلا تَلُمْ إلّا نفسك ، لأنك كنت عاجزا عن حفظ سرّ نفسك ، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبيٌّ أعجز ، قال الشاعر :

إذا ضاقَ صَدْرُ المرءِ عن حفظِ سِرِّهِ ... فصَدْرُ الذى يُستودعُ السِّرَّ أضيَقُ

وسادسها قوله : « رُبَّ ساعٍ فيما يضرّه » ، قال عبد الحميد الكاتب فى كتابه إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالنملة صلاحًا ، لما أنبت لها جَناحا .

وسابعها قوله : « من أكثر أهجر » يقال : أهجر الرجل ؛ إذا أفحش فى المنطق السوء والخنا ، قال الشمّاخ :

كماجدةِ الأعراق قال ابنُ ضرَّةٍ ... عليها كلاما جار فيه وأهْجَرَا (١)

وهذا مثل قولهم : مَنْ كثر كلامه كثر سَقَطه . وقالوا أيضا : قلّما سَلِمَ مكثار ، أو أمِنَ من عِثار .

وثامنها قوله : « مَنْ تفكّر أبصرَ » ؛ قالت الحكماء : الفكر تحديق العقل نحو المعقول ، كما أنّ النظر البصرىّ تحديق البصر نحو المحسوس ، وكما أنّ من حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لابدّ أن يبصره ؛ كذلك من نظر بعين عقله ، وأفكر فكرا صحيحا ، لابدّ أن يدرك الأمر الذى فكّر فيه ويناله .

وتاسعها قوله : « قارن أهلَ الخير تكن معهم ، وباين أهل الشرّ تبن عنهم » ، كان يقال : حاجبك وجهك ، وكاتبك لسانك ، وجليسك كلّك . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ ... فكلّ قرينٍ بالمُقارِنِ مُقْتَدِ

---

(١) ديوانه ٢٨ ، وروايته : « كماجدة الأعراق . وابن ضرتها : ابن زوجها .

وعاشرها قوله : « بئس الطعام الحرام » ، هذا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(١) .

وحادى عشرها قوله : « ظلم الضعيف أفحش الظلم » . رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً ، فقال : يا بنىّ ، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع منك ! وأمر المأمون بإشخاص الخطّابىّ القاص(٢) من البصرة ، فلمّا مثل بين يديه ، قال له : يا سليمان ، أنت القائل : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمِرْبد عين البصرة ، ومسجدى عين المرْبد ، وأنا عين مسجدى ، وأنت أعور ، فإنّ عين الدنيا عوراء ! قال : يا أمير المؤمنين ، لم أقل ذاك ، ولا أظنّ أمير المؤمنين أحضرنى لذلك ، قال : بلغنى أنك أصبحت فوجدت على سارية من سوارى مسجدك :

رحم الله عليّا * إنه كان تقيّا

فأمرت بمحوه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، كان « ولقد كان نبيا » فأمرت بإزالته ، فقال : كذبت كانت القاف أصحّ من عينك الصحيحة ، ثم قال : والله لولا أن أقيم لك عند العامة سوقاً لأحسنت تأديبك ، قال : يا أمير المؤمنين ، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزّمانة والهرَم وقلة البصر ؛ فإن عاقبتنى مظلوما فاذكر قولَ ابن عمّك علىّ عليه السلام : « ظلم الضعيف أفحش الظلم » ، وإن عاقبتنى بحقّ ، فاذكر أيضا قوله : « لكل شىء رأس ، والحلم رأس السؤدد » . فنهض المأمون من مجلسه وأمر بردّه إلى البصرة ، ولم يصله بشىء ، ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلّا وصله عدا الخطّابى ؛ وليس هذا هو المحدّث الحافظ المشهور ؛ ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستىّ ، كان فى أيام المطيع والطائع ، وهذا قاصّ بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصرىّ .

وثانى عاشرها قوله: «إذا كان الرفق خرقا ، كان الخرق رفقا» ، يقول: إذا كان استعمال

---

(١) سورة النساء ١٠ .   (٢) كذا فى ا ، وفى ب : « القاضى » .

الرفق مفسدة وزيادةٌ في الشرّ فلا تستعمله ؛ فإنه حينئذ ليس برِفق بل هو خرق ، ولكن استعمل الخرق؛ فإنه يكون رفقاً والحالة هذه ؛ لأنّ الشرّ لا يلق إلّا بشر مثله ، قال عمرو ابن كلثوم :

أَلا لا يَجْهَلَنْ أحـدٌ علينـا فنجهلَ فَوْقَ جهل الجـاهلينـا(١)

وفي المثل : إن الحديد بالحديد يُفْلَح .

وقال زهير :

وَمَنْ لا يَذُدْ عن حوضِهِ بسلاحه يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاس يُظْلَمِ(٢)

وقال أبو الطيّب :

ووضعُ النّدى في موضع السيف بالعُلا مُضِرٌ كوضعِ السيفِ في موضعِ النّدى(٣)

وثالث عشرها قوله : « وربما كان الدواء داء ، والداء دواء » ؛ هـذا مثل قول أبي الطيّب :

* ربّما صَحّتِ الأجسامُ بالعِلل(٤) *

ومثله قول أبي نواس :

* ودَاوِنِي بالّتي كانَتْ هي الداء(٥) *

ومثل قول الشاعر :

تَداويتُ من ليلَى بليلَى فلم يكن دواءٌ ولـكن كان سُقْماً مخالفـا

ورابع عشرها قوله : « ربما نصح غير الناصح ، وغشّ المستنصَح » . كان المغيرة بن شعبة يبغض عليّا عليه السلام منذ أيام رسولِ الله صلى الله عليـه وآله ، وتأكّدت

---

(١) من المعلقة — بشرح التبريزي ٢٣٨ . (٢) ديوانه ٣٠ .
(٣) ديوانه ١ : ٢٨٨ . (٤) ديوانه ٣ : ٨٦ ، وصدره :

* لَعلّ عَتْبَك مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ *

(٥) ديوانه ٢٣٤ ، وصدره :

* دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فإنّ اللَّوْمَ إغْرَاء *

بِغضته إلى أيام أبى بكر وعثمان وعمر ، وأشار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ معاوية على الشام مدة يسيرة ، فإذا خُطِب له بالشام وتوطّأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما ، وصرفه فلم يقبل ؛ وكان ذلك نصيحة من عدوّ كاشح .

واستشار الحسين عليه السلام عبدَ الله بن الزبير وهما بمكة فى الخروج عنها ، وقصد العراق ظانّا أنه ينصحه فغشّه ، وقال له : لا تقم بمكة ، فليس بها مَنْ يبايعك ؛ ولكن دونك العراق ، فإنهم متى رأوْك لم يعدلُوا بك أحداً ، فخرج إلى العراق ؛ حتى كان من أمره ما كان .

وخامس عشرها قوله: « إياك والاتكال على المُنى ، فإنّها بضائع النوْكَى » ، جمع أنوك وهو الأحمق ، من هذا أخذ أبو تمام قوله :

مَنْ كانَ مَرْعى عزْمِهِ وَهُمُومِهِ رَوْضُ الأمانى لم يزلْ مهزولا[1]

ومن كلامهم : ثلاثة تُخلِق العقل ، وهو أوضح دليل على الضعف : طول التمنّى ، وسرعة الجواب ، والاستغراب[2] فى الضحك . وكان يقال : التمنّى والحلم سيّان . وقال آخر: شرف الفتى ترك المنى .

وسادس عشرها قوله : « العقل حفظ التجارِب » من هذا أخذ المتكلّمون قولهم : العقل نوعان : غريزىّ ، ومكتسب ، فالغريزىّ العلوم البديهية ، والمكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس .

وسابع عشرها قوله : « خير ما جرّبت ما وعظك » ، مثل هذا قول أفلاطون : إذا لم تعظك التجربة فلم تجرّب ، بل أنت ساذج كما كنت .

وثامن عشرها قوله : : بادر الفرصة ، قبل أن تكون غُصّة » ، حضر عُبيد الله بن زياد عند هانئ بن عروة عائدا ، وقد كمن له مسلم بن عَقِيل ، وأمره أن يقتله إذا جلس

---

(١) ديوانه . (٢) الاستغراب فى الضحك : المبالغة فيه .

واستقرّ ، فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطِعْه ، وجعل هانئ ينشد كأنه يترنّم بالشعر :

* ما الانتظار بسلمى لا تحيّيها *

ويكرر ذلك ، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض ، فعاد إلى قصر الإمارة ، وفات مسلما منه ما كان يؤمّله بإضاعة الفرصة ، حتى صار أمره إلى ما صار .

وتاسع عشرها قوله : « ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يثوب » ، الأولى كقول القائل :

ما كلّ وقتٍ ينـالُ المرء ما طلبا   ولا يسوّغه المقـدار ما وهبا

والثانية كقول عَبيد :

وكلّ ذي غيبـةٍ يئوبُ   وغائب المـوت لا يئوبُ [١]

العشرون قوله : « من الفساد ، إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد » ، ولا ريب أنّ من كان في سفر وأضاع زاده ، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أحمق ، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته .

الحادي والعشرون قوله : ولكل أمر عاقبة » هذا مثل المثل المشهور «لكل سائله قرار».

الثاني والعشرون قوله : « سوف يأتيك ما قدّر لك » ، هذا من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله : « وإنْ يقدّر لأحدكم رزق في قنّة جبل أو حضيض بقاعٍ [٢] يأتِهِ » .

الثالث والعشرون قوله : « التاجر مخاطر » هـذا حقّ ، لأنه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم : هل يعود أم لا ! وهـذا الكلام ليس على ظاهره ، بل له باطن ، وهو أنّ مَن مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، مثل قوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [٣]

---

(١) ديوانه ١٣ .   (٢) ب : « بقاء » تصحف ، صوابه من ا .

(٣) سورة التوبة ١٠٢ .

فإنه مخاطر لأنه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيئات تحبط أعماله الصالحة ، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفّر تلك السيئات ، والمراد أنه لا يجوز للمكلّف أن يفعل إلّا الطاعة أو المباح .

الرابع والعشرون قوله : « ربّ يسير ، أنمى من كثير » ، قد جاء فى الأثر : قد يجعل الله من القليل الكثير ، ويجعل من الكثير البركة . وقال الفرزدق :

فإنّ تميماً قبلَ أن يَلِدَ الحصا أقامَ زمانا وهو فى النّاسِ واحدُ

وقال أبو عثمان الجاحظ : رأينا بالبصرة أخوين ، كان أبوهما يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر ، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله – وكان أكثر من مائتى ألف درهم – ولم يعطِ الآخر شيئا ، وكان يتّجر فى الزيت ، ويكتسب منه ما يصرفه فى نفقة عياله ، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعد موتِ الأخوينْ من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم .

***

الأصلُ :

لَا خَيْرَ فِى مُعِينٍ مَهِينٍ ، وَلَا فِى صَدِيقٍ ظَنِينٍ .

سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَىْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ .

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ ؛ وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ .

***

لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ ؛ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً ؛ وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً . وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّفَرَيْنِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا . وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ ، وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ . وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ . وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكمية .

فأوّلها قوله : « لا خير فى معين مهين ، ولا فى صديق ظنين » ، مثل الكلمة الأولى قولهم :

إذا تكفّيْتَ بغير كافِ   وجدتَه للهمّ غيرَ شافِ

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله :

فإنّ من الإخوان مَنْ شَحَطَ النَّوى   به وهو راعٍ للوصال أمينُ

ومنهم صديق العين أمّا لقاؤه   فحُلْوٌ وأمّا غيبُه فظنينُ

وثانيها قوله : « ساهل الدهر ما ذلّ لك قعُوده » ؛ هـذا استعارة ، والقَعُود البَكْر حين يمكن ظهره من الركوب إلى أن يثنى ، ومثل هذا المعنى قولهم فى المثل : مَنْ ناطح الدّهر أصبح أجمّ .

ومثله :

* ودُرْ مع الدّهر كيفما دارا *

ومثله :

ومَنْ قَاسَ الأيّام عن ثمراتِها فأخْرِ بها أنْ تنجلى ولها القَمَرْ(١)

ومثله :

إذا الدهر أعطاك العِنان فسِرْ بِهِ رُويداً ولا تعنُفْ فيصبح شامِسا

وثالثها قوله : « لا تخاطر بشىء رجاء أكثر منه » ، هـذا مثل قولهم : مَن طلب الفضل ، حُرِم الأصل .

ورابعها قوله : « إياك وأن تجمح بك مطيّة اللجاج » ، هذا استعارة ، وفى المثل : ألجّ من خنفساء ، وألجّ من زُنبور . وكان يقال : اللّجاج من القِحة ، والقِحة من قلّة الحياء ، وقلّة الحياء من قلّة المروءة ، وفى المثل : لجّ صاحبك فحُجّ .

وخامسها قوله : « احمل نفسك من أخيك » ، إلى قوله : « أو تفعله بغـير أهله » اللّطَف ، بفتح اللام والطاء ، الاسم من ألطفه بكذا أى برّه به ، وجاءتنا لُطفة من فلان أى هديّة ، والملاطفة المبارّة . وروى « عن اللّطف » وهو الرفق للأمر ؛ والمعنى أنّه أوصاه إذا قطعه أخوه أن يصله ، وإذا جفاه أن يبرّه ، وإذا بخل عليه أن يجود عليه ، إلى آخر الوصاة .

ثم قال له : « لا تفعل ذلك مع غير أهله » ، قال الشاعر :

---

(١) القمر : الغلبة فى القمار .

وإنّ الّذِى بينى وبَيْنَ بنى أبى ... وَبَيْنَ بنِى أمّى لمختلفٌ جِـدّا(١)

فإن أكلوا لحمى وفرْتُ لحومَهمْ ... وإن هَدَموا مَجْدِى بنيتُ لهم مَجْدَا

وإن زجروا طيرا بنحسٍ تمرّ بى ... زجرتُ لهم طـيراً تمرُّ بهم سَعْدَا

ولا أحمـل الحقْدَ القديم عليهمُ ... وليسَ رئيسُ القوم مَنْ يحمِلُ الحقْدَا

وقال الشاعر :

إنّى وإن كان ابن عمّىَ كاشحاً ... لمقاذفٌ من خَلْفِه ووَرائه(٢)

ومفيدُه نصرِى وإن كان امرأً ... متزحزحاً فى أرضـه وسمائِهِ

وأكونُ والِىَ سرّه وأصونُـه ... حتّى يحـقّ علىّ وقتَ أدائِهِ

وإذا الحوادث أجْحَفتْ بسَوَامه ... قرنت صحيحتَنا إلى جَرْبائِـهِ

وإذا دعا باسمى ليركبَ مركباً ... صَعْبا قعدت له على سِيسائِـهِ(٣)

وإذا أجنّ فَلِيقَةً فى خِـدْرِه ... لم أطّلع ممّا وراء خِبائِـهِ(٤)

وإذا ارتدى ثوباً جميـلا لم أقلْ ... يالت أنّ عـلىّ فضلَ ردائه !

وسادسها قوله : « لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقا فتعادى صديقك » ، قد قال الناس فى هذا المعنى فأكثروا ، قال بعضهم :

إذا صافى صديقُك مَنْ تعـادِى ... فقد عاداك وانقطعَ الـكلامُ

وقال آخر :

صديقُ صديقِى داخلٌ فى صداقـتى ... وخصمُ صديقى ليس لى بصديقِ

وقال آخر :

تودّ عـدوّى ثم تَزْعم أنـنِى ... صديقك إنّ الرأى عنك لَعازِبُ

---

(١) للمقنع الكندى ، ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٣ : ١١٧٩ .

(٢) لعروة المدنى ، الأغانى ٢٠ — ١٦٨ ، وطبقات الزبيدى ٥٧ .

(٣) السيساء فى الأصل : منتظم فقار الظهر .

(٤) الفليقة : القليل : من الشعر . والخدر : الستر .

وسابعها قوله : « وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة » ؛ ليس يعنى عليه السلام بقبيحة هاهنا القبيح الذى يستحق به الذم والعقاب ؛ وإنّما يريد نافعة له فى العاجل كانت أو ضارة له فى الآجل ، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾(١) .

وقد فسّره قوم فقالوا : أراد : كانت نافعة لك أو ضارة لك . ويحتمل تفسير آخر وهو وصيّته إيّاه أن يمحض أخاه النصيحة سواء كانت ممّا لا يستحيا من ذكرها وشياعها ، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس ، كمن ينصح صديقه فى أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطّلع عليه منهم ؛ فإنّ النّاس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحا .

وثامنها قوله : « تجرّع الغيظ فإنى لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبّة » هذا مثل قولهم : الحلم مرارة ساعة ، وحلاوة الدهر كلّه . وكان يقال : التذلّل للناس مصايد الشرف .

قال المبرّد فى ''الكامل'' : أوصى علىّ بن الحسين ابنه محمد بن علىّ عليهم السلام ، فقال : يا بنىّ ، عليك بتجرّع الغيظ من الرّجال ؛ فإنّ أباك لا يسرّه بنصيبه من تجرّع الغيظ من الرّجال حمرُ النّعم ؛ والحلم أعزّ ناصراً ، وأكثر عددا(٢) .

وتاسعها قوله : « لِنْ لمن غالظك ، فإنّه يوشك أن يلين لك » ، هذا مثل المثل المشهور : « إذا عزّ أخوك فهُنْ » ، والأصل فى هذا قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾(٣) .

وعاشرها قوله : « خذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظّفرين » هذا معنى مليح ، ومنه قول ابن هانئ فى المعزّ(٤) :

---

(١) سورة الروم ٣٦ .
(٢) الكامل .
(٣) سورة فصلت ٣٤ .
(٤) ب : « المعتز » ، تصحف ، صوابه فى ا .

ضَرّابُ هامِ الرّومِ منتقماً وفى أعناقهم من جُودِه أعباء
لولا انبعاث السّيف وهو مسلّطٌ فى قتلهم قتَلَتْهُمُ النَّعماء

وكنت كاتبا بديوان الخلافة ، والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد رحمه الله ، فوصل إلى حضرة الديوان فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة محمد بن محمد أمير البحرين على البرّ ، ثم وصل بعده الهرمزىّ صاحب هرمز فى دجْله بالمراكب البحرية — وهرمز هذه فُرْضة فى البحر نحو عُمان — وامتلأت بغداد من عرب محمد بن محمد وأصحاب الهرمزىّ — وكانت تلك الأيام أياما غرّاء زاهرة لما أفاض المستنصر على الناس من عطاياه ، والوفود تزدحم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه — فكتبت يوم دخول الهرمزىّ إلى الوزير أبياتا سنحتْ على البديهة ، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهامّ الخدمة ، وكان رحمه الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها :

يا أحْمد بنَ محمّدٍ أنتَ الّذى عَلِقتْ يداه بأنفَسِ الأعلاقِ
ما أمّلَتْ بغدادُ قبلك أنْ ترى أبداً ملوكَ البحر فى الأسواق
وَلهوا عليها غَيْرَةً وتنافسوا شَغَفاً بها كتنافُس العُشّاقِ
وغدتْ صِلاتك فى رِقاب سَرايِهم ونداك كالأطواق فى الأعناقِ
بسديد رأيك أصْلحتْ جحافُتهمْ وتألفوا من بعد طول شِقاقِ
لله همّة ماجـدٍ لم تعتلِقْ بسَحِيل آراء ولا أحذاقِ(٢)
جلب السّلاهب من أراكَ وبعدها جَلبَ المراكبَ من جزيرة واقِ
هذا المَداء هو المداء فعدّ عَنْ قول ابن حُجْر فى لأى وعناقِ
وأظنّهُ والظنُّ عِـلمٌ أنّه سيجيئنا بممـالكِ الآفاقِ
إما أسـيرُ صَنيعةٍ فى جِيدِه بالجود غُلٌّ أو أسـيرُ وَثاقِ

(١) ديوانه ٥ (المطبعة الأميرية) ١٢٧٤) .
(٢) السحيل والأحذاق : الحبال الضعيفة .

لا زال فى ظلّ الخليفة مآله فانٍ وسوددُه المعظّم باقِ

وحادى عشرها قوله : « إنْ أردت قطيعــة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجــع إليها إن بدَا ذلك له يوما » ، هذا مثْل قولهم: « أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغِض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » ، وما كانَ يُقال : إذا هويت فلا تــكن غاليا ، وإذا تركت فلا تــكن قاليا .

وثانى عشرها قوله : « مَنْ ظنّ خيرا فصدّق ظنّه » كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا ، يقال لمن قد شدَا طرفاً من العلم : هذا عالم ، هذا فاضل ، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه ، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالما فاضلا حقيقة ، وكذلك يقول الناس : هذا كثير العبادة ، هذا كثير الزهد ؛ لمن قد شرع فى شيء من ذلك، فتحمله أقوال النّاس على الالتزام بالزهد والعبادة .

وثالث عشرها قوله : « ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتّــكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقّه » ، من هذا النحو قول الشاعر :

إذا خنتمُ بالغيْب عهدِى فما لــكم تُدِلّون إدلالَ المقيم على العهدِ

صِلُوا وافعلوا فعلَ المدِلّ بوصلِه وإلاّ فصُدّوا وافعلوا فعلَ ذى الصّدِّ

وكان يقال : إضاعة الحقوق ، داعية العقوق .

ورابع عشرها قوله : « لا ترغبنّ فيمن زهد فيك » الرغبة فى الزاهد هى الداء العياء ؛ قال العباس بن الأحنف :

ما زِلْتُ أزْهَدُ فى مودّةِ راغبٍ حتى اُبتليت برغبةٍ فى زاهــدِ

هذا هو الدّاء الّذِى ضاقت به حِيَلُ الطبيب وطال يأس العائدِ

وقد قال الشعراء المتقدّمون والمتأخرون فأكثروا ، نحو قولهم :

وَفِى النَّـــاسِ إنْ رثّتْ حبَالُكَ واصلٌ ... وفى الأرْض عَنْ دارِ القِلَى مُتَحَوّلُ (١)

وقول تأبّط شرا (٢) :

إنى إذا خُلّة ضَنّتْ بنائِلهـا ... وأمسكتْ بضعيف الحبل أحْذاقِ (٣)

نجوتُ منها نجـائى من بَجيلَة إذْ ... ألقيتُ ليله خَبْتِ الرّهْطِ أرواقى (٤)

وخامس عشرها قوله : لا يـكوننّ أخوكَ أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تـكونَنّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان » . هـذا أمر له بأن يصل مَنْ قطعه ، وأن يحسن إلى من أساء إليه .

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى أهل الـكَرْخ وغيرهم من أعمال أصْفهان يدعوهم فيها إلى نفسه ، فأحضرها بين يديه ، ودفعها إليه ، وقال له : أتعرف هـذه ؟ فأطرق خجلا ، فقال له : أنت آمن ، وقد وهبت هذا الذنب لعلىّ وفاطمة عليهما السلام ، فقمْ إلى منزلك ، وتخيّر ما شئت من الذنوب ، فإنّا نتخيّر لك مثل ذلك من العفو .

وسادس عشرها قوله: « لا يكبرنّ عليك ظُلم مَنْ ظلمك ، فإنّه يسعى فى مضرّته ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، جاء فى الخبر المرفوع أنّه صلّى الله عليه وآله سمع عائشة تدعُو على مَنْ سرق عقدا لها ، فقال لها: « لا تسحى عنه بدعائك ، أى لا تخفّفى عذابه » . وقوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، يقول : لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك فى الآخرة بظلمه لك ، وليس جزاء مَنْ ينفع إنسانا أن يسىء إليه . وهذا مقام جليل

---

(١) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩ . (٢) المفضليات ٨ .

(٣) الخلة : الصداقة ، وتقال للصديق ، وتطلق على المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ؛ وأنث الضمائر من أجل اللفظ . والأحذاق : القطع من الحبال .

(٤) الخبت: اللين من الأرض . الرهط : موضع . ألقيت أرواقى : استفرغت جهدى وعدوت عدوا أشد

لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأوليـاء الأبرار . وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين ، فحبسهم وقيّدهم ، فلمّا طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرةً شديدة ، ودعا على ذلك الجبّـار ، فقال له بعض أولاده ــ وكان أفضـــل أهل زمانه فى العبادة . وكان مستجاب الدعوة : لا تدعُ عليه فتخفّف من عذابه ، قالوا : يا فلان ، ألا ترى ما بنا وبك ! لا يأنف ربك لنا ! قال : إن لفلان مهبطاً فى النـار لم يكن ليبلغَه إلا بما ترون ، وإن لكم لمصعدا فى الجنّة لم تـكونوا لتبلغوه إلّا بمـا ترون . قالوا : فقد نال منا العذاب والحديد ، فادع الله لنا أن يخلّصنا وينقذنا ممّا نحن فيـــه ، قال : إنّى لأظنّ أنى لو فعلت لفعل ، ولـكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا ، فألقى الله فأقول له : أى ربّ سلْ فلانا لِمَ فَعل بى هـــذا ؟ ومن الناس من يجعل قوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، كلمة مفردة مستقلّة بنفسها ، ليست من تمام الـكلام الأول ، والصحيح ما ذكرناه .

وسابع عشرها ــ ومن حقه أن يقدم ذكره قوله : « ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك » ، هذا كما يقال فى المثل : من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها ، والمراد من هذه الـكلمة النّهى عن قطيعة الرّحم وإقصاء الأهل وحرمانهم ، وفى الخبر المرفوع : « صلوا أرحامكم ولَوْ بالسلام » .

***

الأَصْلُ :

وَاعْلَمْ يَا بُنَىَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ .

مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى !

إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ .

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ .

اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ .

مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ . وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ .

***

مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ .

قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً ، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً .

لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ .

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ .

مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ .

إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ ، تَغَيَّرَ الزَّمَانُ .

سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ .

***

الشرح :

فى بعض الروايات: « اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء » ، قد مضى لنا كلام شافٍ فى الرزق .

وروى أبو حيّان ، قال : رفع الواقدىّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلَبة الدَّيْن عليه ، وكثرة العيال ، وقلّة الصبر ، فوقّع المأمون عليها : أنت رجل فيك خلّتان ؛ السخاء والحياء فأمّا السخاء فهو الذى أطلق ما فى يديك ، وأمّا الحياء فهو الذى بلغ بك إلى ما ذكرت ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم ؛ فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد فى بسط يدك ، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك ؛ وأنت كنت حدثتنى وأنت على قضاء الرشيد عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهرىّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير : « يا زبير ، إنّ مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ؛ فمن كثّر كُثّر له ، ومن قلّل قُلّل له » .

قال الواقدىّ : وكنت أُنسيتُ هذا الحديث ، وكانت مذاكرته إيّاى به أحبّ من صلته .

***

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية :

منها قوله « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلّف ، فتارةً يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلّف حركة ، ولا تجشّم سَعْى ، وتارة يكون الأمر بالعكس .

دخل عماد الدّولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها ، وهو فقير

لا مال له ، فساخت إحدى قوائم فرسه فى الصّحْراء فى الأرض ، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلّصوها ، فظهر لهم فى ذلك الموضع نَقْب وسيع ، فأمرهم بحفره ، فوجدوا[1] فيه أموالا عظيمة ، وذخائر لابن ياقوت ، ثم استلقى يوما آخر على ظهره فى داره بشيراز التى كان ابن ياقوت يسكنها ، فرأى حيّة فى السقف ، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها ، فهربت منهم ، ودخلت فى خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل ؛ فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت .

واحتاج أن يفصل ويخيط ثيابا له ولأهله فقيل : هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت ، وهو رجل منسوب إلى الدِّين والخير ، إلا أنه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلا ، فأمر بإحضاره ، فأُحضِر وعنده رعْب وهلَع ، فلما أدخله إليه كلّمه ؛ وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب ، فارتعد الخياط واضطرب كلامه ، وقال : والله يا مولانا ماله عندى إلّا أربعة صناديق ليس غيرها، فلاتسمع قول الأعداء فىّ . فتعجّب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق ، فوجدها كلّها ذهبا وحَلْياً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت .

وأمّا الرّزق الذى يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جدا لا يحصى .

ومنها قوله : « ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى » ! هذا من قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[2] .

ومن الشعر الحكمىّ فى هذا الباب قول الشاعر :

خُلُقانِ لَاأرْضَاهُمَا لِفَتًى : تيهُ الغِنى ومذلّةُ الفقرِ

---

(١) ا : « فوجد » . (٢) سورة يونس ٢٢ ، ٢٣ .

فإذا غَنيت فلا تكن بَطِراً وإذا افتقرت فَتِهْ على الدَّهرِ

ومنها قوله : « إنّما لك من دنياك ، ما أصلحت به مثواك » ، هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا بن آدم ، ليس لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأبقيت » .

وقال أبو العتاهية :

ليس للمتعب المُكادح من دنـ ياهُ إلّا الرّغيف والطِّمْرانِ(١)

ومنها قوله : « وإن كنت جازعا على ما تفلّت من يديك ، فاجْزَع على كلّ ما لم يصل إليك » ، يقول : لا ينبغى أنْ تجزَعَ على ما ذهب من مالك ، كما لا ينبغى أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب ؛ فإنّه لا فرق بينهما ، إلّا أنّ هذا حصل ، وذاك لم يحصل بعد ؛ وهذا فرق غير مؤثّر ، لأنّ الذى تظنّ أنه حاصل لك غير حاصل فى الحقيقة ، وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلته ولبسته ، وأما القنيات والمدخرات فلعلّها ليست لك ، كما قال الشاعر :

وذِى إبلٍ يَسقى ويحسِبها له أخى تعبٍ فى رَعيِها ودُءوبِ
غدتْ وغدا ربٌّ سواه يسوقُها وَبُدّلَ أحجارا وجالَ قَليبِ

ومنها قوله : « استدلّ على ما لم يكن بما كان ، فإن للأمور أشباها » يقال : إذا شئت أن تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك .

وقال أبو الطيّب فى سيف الدولة :

ذكىٌّ تَظنّيه ، طليعةُ عَيْنِهِ يرى قلبُه فى يومه ما يَرَى غدَا(٢)

ومنها قوله : « ولا تكونَنّ ممّن لا تنفعه العظة . . . » إلى قوله : « إلا بالضرب » ، هو قول الشاعر :

---

(١) الطمران : تثنية طمر ، وهو الثوب الخلق البالى .
(٢) ديوانه ١ : ٢٨٢ ، والتظنى : التظنن ، والطليعة : الذى يطلع القوم على العدو .

العبـــد يُقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامه[١]

وكان يقال : اللئيم كالعبد ، والعبد كالبهيمة عتبها ضربُها .

ومنها قوله : « اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء »[٢]. هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة ، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال فى خطبته لمّا ورد عليه الخبر بقتل مُصْعب أخيه : « لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزَنَنا وسرّنا ، جاءنا خبرُ قتل مُصْعب ؛ فأما سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا إن شاء الله خيرة ؛ وأما الحزن فلوعةٌ يجدها الحميم عند فراق حميمه ، ثم يرعوى بعدهـا ذو الرأى إلى حسن الصبر وكرم العزاء » .

ومنها قوله : « مَنْ تركَ القصد جار » القصد الطريق المعتــدل ، يعنى أنّ خير الأمور أوسطها ، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدّى هذه يسيرا وقع فى هذه .

ومنها قوله : « الصاحب مناسب » ، كان يقال : الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب البدن ، قال أبو الطيّب :

ما الخلّ إلّا مَنْ أودّ بقلبــهِ وأرَى بطرْفٍ لا يَرَى بسوائِهِ[٣]

ومنها قوله : « الصديق مَنْ صدق غيبه » ، من هاهنا أخـــذ أبو نواس قوله فى المنهوكة[٤] :

هــل لك والهلّ خَبَرْ فيمن إذا غبتَ حضرْ
أو مالكَ اليــوم أثَرْ فإن رأى خيرا شَكَرْ
* أو كان تقصير عَذَرْ *

ومنها قوله : « الهوى شريك العمى » ، هذا مثلُ قولهم : « حبُّك الشىء يُعمِى ويُصِم » قال الشاعر :

---

(١) لابن مفرغ ، الشعر والشعراء ٣١٥ . (٢) بلفظ الرواية الثانية . (٣) ديوانه ١ : ٤ .
(٤) المنهوك من الرجز والمنسرح : ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه ، كقوله فى الرجز :
* ياليتنى فيها جذع * وقوله فى المنسرح : * ويل أم سعد سعدا * .

وَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيب كايلةٌ كما أنّ عينَ السُّخط تُبْدِى المَساوِيا (١)

ومنها قوله: «ربَّ بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد »، هذا معنى مطروق، قال الشاعر :

لعمركَ ما يضرّ البُعْدُ يوماً إذَا دَنَت القلوبُ من القلوبِ

وقال الأحوص :

إنّى لأمنحكِ الصُّدودَ وإنّنى قسماً إليكِ مع الصُّدود لأميَلُ (٢)

وقال البحترىّ :

ونازحةٍ والدّار منها قريبةٌ وما قرب ثاوٍ فى التّراب مغيّبُ !

ومنها قوله « والغريب من لم يكن له حبيب » يريد بالحبيب ها هنا المحبّ لا المحبوب ، قال الشاعر :

أُسْرَةُ المرء والداه وفيما بين جَنْبيهما الحياةُ تطيبُ
وإذا ولّيا عن المرء يوماً فهو فى النّاس أجنبىٌّ غريبُ

ومنها قوله : « مَنْ تعدّى الحقّ ضاق بمذهبه » ، يريد بمذهبه ها هنا طريقته ، وهذه استعارة، ومعناه أنّ طريق الحق لامشقّة فيها لسالكها، وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ، وكأن سالكها سالك طريقة ضيّقة يتعثّر فيها ، ويتخبّط فى سلوكها .

ومنها قوله : « مَنْ اقتصر على قدره كانَ أبقى له » ، هذا مثل قوله : « رحم الله امرأً عرف قدره ، ولم يتعدّ طوره » وقال : مَن جهل قدره قتل نفسه . وقال أبو الطّيب :

وَمَنْ جهلت نفسهُ قدرَهُ رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

---

(١) لعبد الله بن معاوية ، الأغانى ١٢ : ٢١٤ . (٢) الأغانى .

ومنها قوله : « أوثق سبب أخذتَ به، سببٌ بينك وبين الله سبحانه ، هذا من قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾(١) .

ومنها قوله : « فمن لم يبالِكَ فهو عدوّك » ، أى لم يكترث بك ، وهذه الوصاة خاصّة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا ، وليست عامّة للسُّوقة من أفناء الناس ، وذلك لأنّ الوالىَ إذا أنس من بعض رعيّته أنه لا يباليه ولا يكترث به ، فقد أبدى صفحته ، ومن أبدى لك صَفحته فهو عدوّك ، وأما غير الوالى من أفناء الناس ، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدوٍّ له .

ومنها قوله : « قد يكونُ اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا » ؛ هذا مثل قول القائل :

مَنْ عاشَ لاقَى ما يسوءُ من الأمور وما يسُرّ
وَلَرُبَّ حتفٍ فَوْقَهُ ذهبٌ وياقوتٌ ودرّ

والمعنى : ربّما كان بلوغ الأمل فى الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها ؛ وإذا كان كذلك ، كان الحرمان خيرا من الظفر .

ومنها قوله : « ليس كلّ عورة تظهر ، ولا كلّ فرصة تصاب » يقول : قد تكون عورة العدوّ مستترةً عنك فلا تظهر ، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها .

وقال بعض الحكماء : الفرصة نوعان : فرصة من عدوّك ، وفرصة فى غير عدوّك ، فالفرصة من عدوّك ما إذا بلغتها نفعتك ، وإن فاتتك ضرّتك ، وفى غير عدوّك ما إذا أخطأك نفعه لم يصلْ إليك ضرُّه .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦

ومنها قوله : « فربما أخطأ البصير قصدَه ، وأصاب الأعمى رشده » من هـــذا النحو قولهم فى المثل : « مع الخواطئ سهم صائب »، وقولهم : « رمية من غير رام». وقالوا فى مثل اللفظة الأولى: « الجواد يكبُو ، والحسام قد ينبو ». وقالوا: «قد يهفو الحليم، ويجهل العليم».

ومنها قوله : « أخّر الشرّ فإنك إذا شئت تعجّلتَه » مثل هذا : قولهم فى الأمثال الطفيليّة : « كلْ إذا وجدت ، فإنك على الجوع قادر » . ومن الأمثال الحكْمية : « ابدأ بالحسنة قبل السيئة ، فلست بمستطيع للحسنة فى كلّ وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر » .

ومنها قوله : « قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل »؛ هذا حق ، لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك ، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك ؛ وهذا كما يقول المتكلّمون : عدم المضرّة كوجود المنفعة ، ويكاد أن ينثنى على هذا قولهم : كما أن فعل المفسدة قبيح من البارئ ، فالإخلال باللطف منه أيضا يجب أن يكون قبيحا .

ومنها قوله : « منْ أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه » ، مثل الكلمة الأولى قول الشاعر :

ومَنْ يأمن الدّنيا يكن مثل قابِضٍ على الماء خانتْهُ فروج الأنامِلِ

وقالوا : احذر الدنيا ما استقامتْ لك . ومن الأمثال الحكْمية : « من أمن الزمان ضيّع ثغرا مَخُوفا » . ومثل الكلمة الثانية قولهم : « الدنيا كالأمة اللئيمة المشوقة ، كلما ازددت لها عشقا وعليها تهالُكا ازدادت لك إذلالا ، وعليك شطاطا » .

وقال أبو الطيب :

وهى معشوقة على الغَدْرِ لا تَحـ فَظُ عهداً ولا تتمم وَصْلَا

شِيَمُ الغانيات فيها فلَا أدْ ... رِى لذا أنّث اسمَها الناسُ أم لا(١) !

ومنها قوله : « ليس كلّ مَنْ رَمى أصاب » هذا معنى مشهور ، قال أبو الطيّب :

ما كلّ مَنْ طلب المعالى نافذاً ... فيها ، ولا كلّ الرجال فُحُولا

ومنها قوله : « إذا تغيّر السلطان ، تغيّر الزمان » . فى كتب الفرس أنّ أنوشروان جمع عمّال السّواد وبيده دُرّة يقلّبها ، فقال : أىّ شىء أضرّ بارتفاع السواد وأدْعى إلى محقه ؟ أيّكم قال ما فى نفسى جعلت هذه الدرّة فى فيه ؟ فقال بعضهم : انقطاع الشرب ، وقال بعضهم : احتباس المطر ، وقال بعضهم : استيلاء الجنوب وعدم الشمال ، فقال لوزيره : قل أنت فإنّى أظنّ عقلك يعادل عقول الرعيّة كلها أو يزيد عليها ، قال : تغيّرُ رأى السلطان فى رعيّته ، وإضمار الحَيْف لهم ، والجَوْر عليهم ، فقال : لله أبوك ! بهذا العقل أهّلكَ آبائى وأجدادى لما أهّلوك له . ودفع إليه الدُّرّة فجعلها فى فيه .

ومنها قوله : « سل عن الرفيق ، قبل الطريق ، وعن الجار ، قبل الدار » وقد روى هذا الكلام مرفوعا ، وفى المثل : « جار السوء كلب هارش ، وأفعى ناهش » .

وفى المثل : الرفيق إمّا رحيق أو حريق .

***

الأصْلُ :

إيّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً ، وَإنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣٠ .

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ .

وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ . وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا .

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ .

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ .

وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . والسلام .

***

الشَّرْحُ :

نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكا ، لأن ذلك مِنْ شغل أرباب الهزل والبَطالة ، وقلّ أنْ يخلوَ ذلك من غيبة أو سخرية . ثم قال : وإن حكيت ذلك عن غيرك ، فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير ؛ وذلك كلام فصيح، ألا ترى أنّه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر ، ويكره أيضاً حكايتها . وقال عمر لما نهاه

رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلف بالله : فما حلفت به ذاكرا ، ولا آثرا ، ولا حاكيا .

وكان يقال : مَنْ مازح استخُفَّ به ، ومن كثر ضحكه قلّت هيبته .

فأما مشاورة النساء فإنّه من فعل عَجَزَة الرجال ، قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين الأمين والمأمون فى كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز : ينام نوم الظَّرِبان ، وينتبه انتباهةَ الذئب ، همّه بطنه ، ولذّته فَرْجه ، لا يفكّر فى زوال نعمة ، ولا يروّى فى إمضاء رأيٍ ولا مكيدة ، قد شمّر له عبد الله عن ساقه ، وفوّق له أشدَّ سهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، والموت القاصد ؛ قد عبّى له المنايا على مُتُون الخيل ، وناط له البلايا بأسنّة الرماح ، وشِفار السيوف ، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به نفسه وأخاه :

يُقارِع أتراكَ ابن خاقَان ليلَه … إلى أنْ يرى الإصباح لا يتلعثمُ
فيصبح من طول الطّراد وجسمُه … نحيلٌ ، وأضحِي فى النّعيم أصمّمُ
وهمِّيَ كأس من عُقار وقَيْنَة … وهمّته درع ورُمح ومخذمُ
فشتّان مابيني وبين ابن خالدٍ … أميّة فى الرزق الذى اللهُ يَقْسِم

ونحن معه نجرى إلى غاية إن قصّرنا عنها ذُممنا ، وإن اجتهدنا فى بلوغِها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينا ، وإن ضعف ضعفنا ؛ إنّ هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ، قد أمكن أهل الخسارة واللّهو من سمعه ، فهم يمنّونه الظّفر ، ويعِدُونه عُقَب الأيام ، والهلاكُ أسرع إليه من السّيل إلى قِيعان الرمل .

***

قوله عليه السلام : « فإنّ رأيهنّ إلى أفْن » الأفْن بالسكون : النقص ، والمتأفّن :

المتنقّص ، يقال : فلان يتأفّن فلانا ،أي يتنقّصه ويعيبه . ومن رواه « إلى أفَنٍ » بالتحريك فهو ضعف الرأى ، أفِنَ الرجل يَأْفِن أفنًا أى ضعف رأيه ؛ وفى المثل : « إنّ الرّقين تُغَطّى أفَن الأفين »(١) والوهن : الضعف .

قوله : « واكفُفْ عليهنّ من أبصارهنّ » من هاهنا زائدة ؛ وهو مذهب أبى الحسن الأخفش فى زيادة من فى الموجب ، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه ، فيعنى به : فاكفف عليهنّ بعض أبصارهنّ .

ثم ذكر فائدة الحجاب ، ونهاه أن يُدخِلَ عليهنّ من لا يُوثق به ؛ وقال : إنّ خروجهنّ أهونُ من ذلك ، وذلك لأنّ مَنْ تلك صفتُه يتمكن من الخلوة مالا يتمكن منه مَنْ يراهنّ فى الطرقات .

ثم قال : « إن استطعت ألّا يعرفنَ غيرك فافعل » . كان لبعضهم بنت حسناء ، فحجّ بها ، وكان يعصبُ عينيها ، ويكشف للناس وجهها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنما الحذر مِن رؤيتها الناس ، لا من رؤية الناس لها .

قال : « ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها » ؛ أى لا تدخلها معك فى تدبير ولا مشورة ، ولا تتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها .

فإن المرأة ريحانةٌ ، وليست بقهرمانة ؛ أى إنما تصلح للمتعة واللذّة ، وليست وكيلا فى مال ، ولا وزيرا فى رأى .

ثم أكّد الوصيّة الأولى ، فقال : لاتَعْدُ بكرامتها نفسها ، هذا هو قوله : « ولا تملّكها من أمرها ما جاوز نفسها » .

ثم نهاه أن يطمِعَها فى الشفاعات .

---

(١) اللسان (أفن ، رقن) والرقين : الدرهم ؛ سمي بذلك للترقين الذى فيه ؛ يعنون الخط .

وروى الزُّبير بن بكّار ، قال : كانت الخيزُران كثيراً ما تكلّم موسى ابنها ـ لما استخلف ـ في الحوائج ؛ وكان يجيبها إلى كلّ ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وكلّمته يوما في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلا ، واحتجّ عليها بحجّة فقالت : لابدّ من إجابتي ، فقال : لا أفعل ، قالت : إنّي قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال : ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لاقضيتُها لك ولا له ! قالت : والله لا أسألك حاجة أبدا ، قال : إذَنْ والله لا أبالي ؛ فقامت مغضَبة ، فقال : مكانك تستوعي كلامي ؛ وأنا والله بريء من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لئن بلغني أنه وقف أحد من قوّادي وخاصّتي وخدمي وكتّابي على بابك لأضربنّ عنقه ، ولأقبضنّ ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ؛ ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كلّ يوم ! أما لك مِغزَل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ! إيّاك ثم إيّاك أن تفتحي فاك في حاجة لمليّ أو ذميّ . فانصرفت وماتعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحُلوة ولا مرّة بعدها حتّى هلك .

* * *

وأخذ هذه اللفظة منه وهي قوله : «إن المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة» الحجّاج فقالها للوليد بن عبد الملك؛ روى ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» قال : دخل الحجّاج على الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربيّة وكنانة ؛ وذلك في أوّل قَدْمة قدمها عليه من العراق ؛ فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي تحت الوليد إليه: مَنْ هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك وأنت في غِلالة ! فأرسل إليها : هذا الحجّاج ؛ فأعادت إليه الرسول : [فقال : تقول لك :] والله لأن يخلو بك ملك الموت في اليوم أحيانا أحبُّ

إلىّ من أن يخلو بك الحجّاج : فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تطلعها على سرّك ومكايدة عدوّك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجّاج، فقالت : يا أمير المؤمنين ، حاجتى أن تأمره غداً أن يأتيني مسلّماً ؛ ففعل ذلك، فأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائماً ، ثم أذنت له ، فقالت : يا حجّاج ، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أنّ الله علم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة الحرام ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين ، أول مولود فى دار هجرة الإسلام ! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره ، فإن كنّ ينفرجْنَ عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك! وإن كنّ ينفرجْنَ عن مثله فهو غير قابل لقولك ؛ أما والله لقد نقص نساء أمير المؤمنين الطيِّب من غدائرهنّ فبعنه فى أعطية أهل الشام حين كنتَ فى أضيق من قرن ، قد أظلتك رماحهم ، وأثخنك كِفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم ؛ فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ، قاتل الله القائل حين ينظر إليك ؛ وسِنان غزالة بين كتفيك :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامة ... رَبْداء تنفرُ من صفير الصافر (١)

هلاّ برزتَ إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر

قم فاخرج ، فقام فخرج (٢) .

***

(١) ذكر صاحب الأغانى أن غزالة الحرورية لما دخلت على الحجاج هى وشبيب بالكوفة تحصن منها ، وأغلق عليه قصره ؛ فكتب إليه عمران بن حطان ــ وقد كان الحجاج لج فى طلبه :

أسدٌ علَىّ وفى الحروبِ نَعَامَةٌ ... رَبْدَاءُ تَجفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هَلّا برزتَ إلى غَزالةَ فى الوَغَى ... بلْ كانَ قلبُكَ فى جَناحَىْ طائرِ

صَدَعَتْ غزالةُ قلبه بِفَوارِسٍ ... تَرَكَتْ مدابرهُ كأمس الدّابِرِ

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٧٠ ، ١٧١ .

[بعض ما قيل فى الغَيْرة من الشعر]

فأما قوله عليه السلام : « إياكَ والتغايرَ فى غير موضع غَيْرة » فقد قيل هـذا المعنى ، قال بعض المحدثين :

يأيها الغـائر مَهْ لا تغرْ إلّا لِماَ تُدرِكه بالبَصَرْ
ما أنت فى ذلك إلّا كمَنْ بيّته الدبّ لرَمْىِ الحجرْ

وكان مسكين الدارىّ أحد مَنْ يستهجن الغـيرة ، ويستقبح وقوعَها فى غير محلّها ، فمن شعره فى هذا المعنى :

ما أحسنَ الغـيرةَ فى حِينها وأقبحَ الغَيْرة فى غير حينْ ![1]
مَنْ لم يزل متهمـا عِرسَـه مناصباً فيهـا لرجْم الظّنونْ[2]
يُوشك أن يغرِيَها بالذى يخاف ، أو ينصبها للعيـونْ
حسبُك من تحصينها ضمُّها منك إلى خِيم كريم ودِينْ
لا تَظْهرَنْ يوما على عورة فيتبع المقرون حَبـلَ القرِينْ[3]

وقال أيضاً :

ألا أيّهـا الغائر المستشيطُ عـلام تغـارُ إذ لم تُغَرْ ![4]
فما خيرُ عِرْس إذا خِفتَهـا وما خيرُ بيتٍ إذا لم يُزَرْ !
تغـارُ من النـاس أن ينظروا وهل يفتِنُ الصالحات النظَرْ !
فإنّى سأخلِى لهـا بيتَهـا فتحفظَ لى نفسَهـا أو تَذَرْ

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ . (٢) الأمالى : « لرجم الظنون » .
(٣) أى إياك أن تطلع المرأة منك على زنا وريبة ، فإنها أيضاً تزنى ، أوتفعل كما فعلت .
(٤) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

إذا الله لم يعطه وُدَّها فلن يعطىَ الوُدَّ سوطٌ مُمَرّْ
وَمن ذا يُراعِى له عِرْسَهُ إذا ضمّه والركاب السَّفَرْ !(١)

وقال أيضا :

ولستُ امرأً لا أبرحُ الدّهرَ قاعداً إلى جنب عِرْسى لا أفارقها شِبْرا(٢)
ولا مقسماً لا أبرحُ الدّهر بيتَها لأجعله قبل المات لها قَبْرا
ولا حاملاً ظنّى ولا قولَ قائلٍ على غَيرةٍ حتى أحيط به خُبْرَا
وهبنِى امرأً راعيتُ مادمت شاهداً فكيف إذاماسرتُ من بيتها شهرا!
إذا هى لم تُحصِنْ لما فى فنائها فليس بمنجيها بنائى لها قصرا

فأما قوله : « واجعل لكلّ إنسان من خَدَمك عملا تأخذه به » ، فقد قالت الحكماء هذا المعنى ، قال أبرويز فى وصيّته لولده شيرويه : وانظر إلى كتّابك ، فمَن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فولّه الخراج ، ومَنْ كان منهم ذا عَبيد قد أحسن سياستهم وتثقيفهم فولّه الجند ، ومن كان منهم ذا سرارىّ وضرائر قد أحسن القيام عليهنّ فولّه النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع فى خَدَم دارك ، ولا تجعل أمرك فوضَى بين خدمِك فيفسد عليك ملكك .

وأمّا قوله : « فأكرِم عشيرتك فإنّهم جناحك » فقد تقدّم منّا كلام فى وجوب الاعتضاد بالعشائر .

***

[اعتزاز الفرزدق بقومه]

روى أبو عبيدة قال : كان الفرزدق لا ينشد بين يدى الخلفاء والأمراء إلّا قاعداً ،

---

(١) الأمالى : « المطى » .
(٢) أمالى المرتضى ١ : ٤٧٦ ، وروايته : « وإنى امرؤ » .

فدخل على سليمان بن عبد الملك يوما ، فأنشده شعرا فخَر فيه بآبائه ، وقال من جملته :

تالله ما حملتْ من ناقة رجُلا ... مثلى إذا الريح لفّتنِى على الكُورِ[١]

فقال سليمان : هذا المدح لى أم لك ! قال : لى ولك ياأميرَ المؤمنين ، فغضب سليمان وقال : قم فأتم ، ولا تنشد بعده إلا قائما ، فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثرى شعرا . فقال سليمان : ويلى على الأحمق ابن الفاعلة ! لا يكنى ، وارتفع صوتُه ، فسمع الضوضاء بالباب ، فقال سليمان : ما هذا ؟ قيل : بنو تميم على الباب ، قالوا : لا ينشد الفرزدق قائما وأيدينا فى مقابض سيوفنا ، قال : فلينشد قاعدا .

***

[وفود الوليد بن جابر على معاوية]

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المرزبانىّ ، قال : كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائىّ ممّن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأسلم ، ثمّ صحب عليا عليه السلام ، وشهد معه صِفين ، وكان من رجاله المشهورين ، ثمّ وفد على معاوية فى الاستقامة[٢] ، وكان معاوية لا يثبتُه[٣] ؛ معرفةً بعينه ؛ فدخل عليه فى جملة الناس ، فلما انتهى إليه استنسبه ، فانتسب له ، فقال : أنت صاحب ليلة الهرير ؟ قال : نعم، قال : والله ما تخلو مسامعى من رجَزك تلك الليلة ، وقد علا صوتك أصوات الناس ، وأنت تقول :

شُدّوا فداء لكم أمّى وأبْ ... فإنّما الأمرُ غداً لمن غلبْ

هذا ابنُ عم المصطفى والمنتجَبْ ... تَنمِه للعَلْياء ساداتُ العَرَبْ

ليس بموصوم إذا نصّ النّسَبْ ... أوّل مَنْ صلّى وصام واقترب

قال : نعم ، أنا قائلها . قال : فلماذا قلتَها ؟ قال : لأنا كنا مع رجل لا نعلم خصلة

---

(١) من قصيدة فى ديوانه ١ : ٢٦٢ ــ ٢٦٧ ؛ وذكر فيه أنه مدح بها يزيد بن عبد الملك .
(٢) كذا فى الأصول .
(٣) كذا فى ا وهو الصواب ، وفى ب : « لا ينسبه » .

توجب الخلافة ، ولا فضيلة تصير إلى التقدمة ، إلّا وهى مجموعة له ؛ كان أوّلَ الناس سِلْما ، وأكثرَهم علماً ، وأرجحَهم حلما ، فات الجياد فلا يشق غباره ، يستولى على الأَمَدفلا يخاف عثاره ، وأوضح منهج الُهدى فلا يبيد مناره ، وسلك القصد فلا تدرُس آثاره ، فلمّا ابتلانا الله تعالى بافتقاده ، وحوّل الأمر إلى من يشاء من عباده ، دخلنا فى جملة المسلمين فلم ننزع يدا عن طاعة ، ولم نصدع صفاة جماعة ؛ على أن لك منّا ماظهر ، وقلوبنا بيدالله ، وهو أملَك بها منك ، فاقبل صفوَنا ، وأعرِض عن كدرنا ، ولا تُثِرْ كوامنَ الأحقاد ، فإنّ النار تقدَح بالزّناد . قال معاوية : وإنّك لتهددنى يا أخا طيّء بأوباش العراق أهل النفاق ، ومَعدن الشقاق ! فقال : يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق ، وحبسوك فى المضيق ، وذادوك عن سَنَن الطريق ؛ حتى لذت منهم بالمصاحف ؛ ودعوت إليها من صدّق بها وكذبت ، وآمن بمنزلها وكفرت ، وعرف من تأويلها ما أنكرت . فغضب معاويةَ وأدار طرْفه فيمَنْ حوله فإذا جلُّهم من مُضر ونفر قليل من اليمن ، فقال : أيّها الشقىّ الخائن ؛ إنّى لإخال أنّ هذا آخر كلام تفوّهُ به — وكان عُفَيْر (١) بن سيف بن ذى يزن بباب معاوية حينئذ — فعرف موقف الطائىّ ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على اليمانيّة ، فقال : شاهت الوجوه ذلاً وقُلاًّ ، وجَدْعا وفَلاًّ ، كَشَمَ الله هذه الأنف كَشْما (٢) مرعبا . ثم التفت إلى معاوية ، فقال : إنّى والله يا معاوية ما أقول قولى هذا حبًّا لأهل العراق ، ولا جنوحا إليهم ؛ ولكن الحفيظة تذهب النضب ، لقد رأيتك بالأمس ، خاطبت أخا ربيعة — يعنى صعصعة بن صُوحان . وهو أعظم جُرماً عندك من هذا ، وأنكا (٣) لقلبك ، وأقدح فى صَفاتك ، وأجدّ فى عداوتك ، وأشد انتصارا فى حربك ، ثم أثبته وسرّحته ؛ وأنت الآن مجمع على قتلِ هذا — زعمت — استصغارا لجماعتنا ! فإنّا لا نُمِرّ ولا نُحلى ؛ ولعمرى لو وكلتك أبناء قحطان إلى قومك لكان جَدّك العاثر ، وذكرك الداثر ،

(١) ا : « عفيرة » . (٢) ب : « كثم » تحريف صوابه من ا ، وكشم الأنف : استأصله قطعاً .
(٣) كذا فى ا . وفى ب : « وإذكاء » .

وحدّك المفلول ، وعرشك المثلول ، فاربع على ظلْمِك[١] ، واطونا على بُلالتنا[٢] ، ليسهل لك حَزْننا ، ويتطامن لك شاردنا ، فإنا لا نرأمُ بوَقع الضيم ، ولا نتلمّظ جُرع الخسف ، ولا نغمز بنهاز الفتن ، ولا نذر على الغضب . فقال معاوية : الغضب شيطان ، فاربَعْ نفسك أيّها الإنسان ، فإنا لم نأت إلى صاحبك مكروها ، ولم نرتكب منه مغضبا ، ولم ننتهك منه محرّما ، فدونكه فإنّه لم يضقْ عنه حلْمنا ويسع غيره . فأخذ عُفَير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لتؤوبنّ بأكثر ممّا آب به معديّ من معاوية . وجمع مَنْ بدمشق من اليمانية ، وفرض على كلّ رجل دينارين فى عطائه ، فبلغت أربعين ألفا ، فتعجّلها من بيت المال ، ودفعها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .

---

(١) اربع على ظلعك ، أى توقف .

(٢) اطونا على بلالتنا ؛ أى احتملنا على مافينا من إساءة .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

وَأَرْدَيْتَ جِيلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا ؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَارُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ .

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ . فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ ، وَالْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، والسلام .

* * *

الشرح :

أرديتهم : أهلكتهم . وجيلا من الناس ، أى صِنفاً من الناس . والغىّ : الضلال . وجاروا : عدلوا عن القصد . ووِجهتهم ؛ بكسر الواو ، يقال : هذا وجه الرأى ، أى هو الرأى بنفسه ، والاسم الوِجه بالكسر ويجوز بالضم .

قوله : « وعوّلوا عَلَى أحسابهم » ؛ أى لم يعتمدوا على الدّين ؛ وإنما أردتهم الحميّة ونخوة الجاهلية ، فأخلدوا إليها وتركوا الدين ، والإشارة إلى بنى أميّة وخلفائهم الّذين اتّهموه عليه السلام بدم عثمان ، فحاموا عن الحسب ، ولم يأخذوا بموجب الشرع فى تلك الواقعة

ثم استثنى قوما فاءوا، أى رجعوا عن نُصرة معاوية ؛ وقد ذكرنا فى أخبار صِفّين مَنْ فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله : « حملتهم على الصعب » أى على الأمر الشاقّ ؛ والأصل فى ذلك البعير المستصعَب يركبه الإنسان فيغرّر بنفسه .

* * *

[ذكر بعض ما دار بين علىّ ومعاوية من الكتب]

وأول هذا الكتاب :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبى سفيان ، أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خُسرها الآخرة ؛ فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومَنْ رأى الدنيا بعينها ، وقدّرها بقدرها ! وإنى لأعِظك مع علمى بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نفاذه ؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغوىّ والرشيد ، فاتّق الله؛ ولا تكن ممّن لا يرجو لله وقارا ، ومَنْ حقّت عليه كلمة العذاب ؛ فإنّ الله بالمرصاد . وإنّ دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرةً عليك ؛ فأقلع عمّا أنت عليه من الغىّ والضلال ، على كبر سنّك ، وفناء عمرك ؛ فإن حالك اليوم كحال الثوب المَهِيل الذى لا يصلح مِن جانب إلّا فسد من آخر ، وقد أرديتَ جيلا من الناس كثيرا ، خدعتهم بغيّك . . . إلى آخر الكتاب .

قال أبو الحسن على بن محمد المدائنىّ : فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب ، أمّا بعد ؛ فقد وقفتُ على كتابك ، وقد أبيتَ على الفتنِ إلّا تماديا ، وإنّى لعالم أنّ الذى يدعوك إلى ذلك مصرعُك الذى

لا بدّ لك منه ؛ وإنْ كنت موائلا ، فازدد غيّاً إلى غيّك ، فطالما خفّ عقلُك ، ومنّيت نفسك ماليس لك ، والتويت على مَنْ هو خير منك ؛ ثم كانت العاقبة لغيرك ، واحتملت الوِزْر بما أحاط بك من خطيئتك . والسلام .

فكتب علىّ عليه السلام إليه :

أما بعد ، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشَّبَه مما أتى به أهلُك وقومك الذين حملهم الكفرُ وتمنّى الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وسلم حتى صُرعوا مصارعَهم حيث علمت ؛ لم يمنعوا حريماً ، ولم يدفعوا عظيما ، وأنا صاحبهم فى تلك المواطن ، الصالى بحرْبهم ، والفالّ لحدِّهم ، والقاتل لرءوسهم ورءوس الضلالة ، والمتْبِع إن شاء الله خلفَهم بسلَفهم ؛ فبئس الخَلَف خلَفٌ أتبع سلفاً محله ومحطّه النار . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فقد طال فى الغيّ ما استمررت أدراجك ، كما طالما تمادى عن الحرب نكوصُك وإبطاؤك ، فتُوعد وعيد الأسد ، وترُوغ روَغان الثعلب ، فحتامَ تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية ، والأفاعى القاتلة ، ولا تستبعدنّها ، فكلّ ما هو آت قريب إن شاء الله . والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فما أعجب ما يأتينى منك ، وما أعلمنى بما أنت إليه صائر ! وليس إبطائى عنك إلّا ترقّبا لما أنت له مكذّب ؛ وأنابه مصدّق ! وكأنى بك غداً وأنت تضجّ من الحرب ضجيجَ الجمال من الأثقال ، وستدعونى أنت وأصحابك إلى كتاب تعظّمونه بألسنتكم ، وتجحدونه بقلوبكم . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أمّا بعد ، فدعنى من أساطيرك ، واكفُفْ عنّى من أحاديثك ، واقصر عن تقوّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وافترائك من الكذب ما لم يقل ، وغرور مَنْ معك والخداع لهم ؛ فقد استغويتَهم ، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ، ويعلموا أنّ ما جئت به باطل مضمحلّ. والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمابعد ؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرّجيم الحقّ(١) أساطير الأولين، ونبذتموه وراء ظهوركم ، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . ولعمرى ليتمنّ النّور على كرهك ، ولينفذنّ العلم بصَغارك ، ولتجازنّ بعملك ، فعثْ فى دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك ؛ فكأنك بباطلك وقد انقضى ، وبعملك وقد هوى ؛ ثم تصير إلى لظًى ؛ لم يظلمك الله شيئاً ، وما ربك بظلام للعبيد !

قال : فكتب إليه معاوية :

أمّابعد ؛ فما أعظم الرّيْن على قلبك، والغطاء على بصرك! الشّرَهُ من شيمتك،والحسدُ من خليقتك ، فشمر للحرب ، واصبر للضّرْب، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ماعلمت،والعاقبة للمتقين. هيهات هيهات! أخطأك ماتمنّى ، وهوى قلبك مع من هوى ؛ فاربَعْ على ظَلْعك ، وقِسْ شبرَك بفِتْرِك ؛ لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه.والسلام.

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فإنّ مَساوِئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك،وأن يرعوىَ قلبك ، يابن الصّخْر اللّعين ! زعمت أن يزن الجبالَ حلمُك ، ويفصل بين أهل الشك علمك ، وأنت الجلْف المنافق، الأغلف القلب،القليل العقل،الجبان الرّذْل ، فإن كنت صادقاً فيما تسطِّر، ويعينك عليه أخو بنى سَهْم، فدع الناس جانبا،وتيسر لما دعوتَنى إليه من الحرْب، والصبر على

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « للحق » .

الضرب ، واعفُ الفريقين من القتال ، ليعلم أيّنا المرين على قلبه ، المغطّى على بصره ، فأنا أبو الحسن ، قاتل جدّك وأخيك وخالك ، وما أنت منهم ببعيد ؛ والسلام !

* * *

قلت : وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر — وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة — أن يُفضيَ أمر علىٍّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية نِدًّا له ونظيرا مماثلا، يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه ، ولا يقول له علىّ عليه السلام كلمة إلا قال مثلها ، وأخشن مسًّا منها ، فليت محمدا صلى الله عليه وآله كان شاهدَ ذلك ؛ ليرى عِيانا لا خبَراً أنّ الدعوة التي قام بها، وقاسى أعظم المشاقّ فى تحمّلها ، وكابد الأهوال فى الذبّ عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتِها ؛ وشيّد أركانهـــا ، وملأ الآفاق بها ، خلَصت صفوا عفوا لأعدائه الّذين كذبوه ؛ لما دعا إليها ، وأخرجوه عن أوطانه لما حضّ عليها ، وأدموْا وجهه ، وقتلوا عمّه وأهله ، فكأنه كان يسعى لهم ، ويدأب لراحتهم ؛ كما قال أبو سفيان فى أيام عثمان ، وقد مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال ؛ يا أبا عُمارة ! إنّ الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف أمسى فى يد غِلماننا اليوم يتلعّبون به ! ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاويةُ عليًّا، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء ...

إذا عيّر الطائىَّ بالبخلِ مادِرٌ ... وقرّعَ قُسًّا بالفَهاهـــة باقلُ
وقال السُّها للشّمسِ : أنت خَفيّةٌ ... وقال الدُّجَى : يا صبح لونُك حائلُ
وفاخرتِ الأرضُ السماء سفاهةً ... وكاثرتِ الشهبَ الحصا والجنادلُ
فياموت زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ ... ويانفس جِدّى إنّ دهرَك هازل!

ثم أقول ثانيا لأمير المؤمنين عليه السلام : ليت شعرى ؛ لماذا فتح باب الكتاب

(١) لأبي العلاء ، سقط الزند ٥٣٣ .

والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك، فهلا اقتصر فى الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرّض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لابدّ منهما فهلّا اكتفى بهما من غير تعرّض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشدّ منه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] وهلّا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفيه الأحمق، هذا مع أنه القائل: مَنْ واجَهَ الناس بما يكرهون قالوا فيه مالا يعلمون! أى افتروا عليه وقالوا فيه الباطل.

أيّها الشاتمى لِتحسَبَ مثلِى ... إنّما أنت فى الضلال تَهيم[2]

لا تَسُبَّنَّنى فلستَ بسِبّي ... إن سِبّي من الرجال الكريم[3]

وهكذا جرى فى القنوت واللعن، قَنَت بالكوفة على معاوية، ولعنه فى الصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلمىّ وحبيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام، فقنت عليه، ولعنه بالصلاة، وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعى؛ ولعلّه عليه السلام قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنّا الآن، ولله أمر هو بالغه!

(١) سورة الأنعام ١٠٨. (٢) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهجو مسكيناً الدارمى.
(٣) السب: بالكسر: الذى يسابك.

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى قُثَم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، الْعُمْيِ الْقُلُوبِ ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ .

فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الطَّبِيبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ .

وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا . والسلامُ .

* * *

الشَّرحُ :

كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة فى السرّ يدعون إلى طاعته ، ويثبّطون العرب عن نصرة أميرِ المؤمنين ، ويوقعون فى أنفسهم أنه إمّا قاتلٌ لعثمان أو خاذل ، وإنّ الخلافة

لا تصلح فيمن قتل أو خذل ، وينشرون عندهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته ، فكتب أميرُ المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكّة ، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة ، ولم يصرح فى هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم .

قوله : « عيني بالمغرب » ، أى أصحاب أخباره عند معاوية ، وسمّى الشام مغربا لأنه من الأقاليم المغربية .

والموسم : الأيام التى يقام فيها الحج .

وقوله : « ويحتلبون الدنيا دَرَّها بالدِّين » دلالة على ما قلنا : إنّهم كانوا دُعاة يظهرون سَمْت الدين ، وناموس العبادة ؛ وفيه إبطال قول مَنْ ظنَّ أنّ المراد بذلك السّرايا التى كان معاوية يبعثها ، فتُغِيرُ على أعمال علىّ عليه السلام . ودرَّها منصوب بالبدل « من الدنيا » وروى : « الذين يلتمسون الحق بالباطل » أى يطلبونه ؛ أى يتبعون معاوية وهو على الباطل التماسا وطلبا للحقّ ، ولا يعلمون أنّهم قد ضلوا .

قوله : « وإيّاك وما يعتذَر منه » من الكلمات الشريفة الجليلة الموقع ، وقد رويت مرفوعة ، وكان يقال : ما شىء أشدّ على الإنسان من حمل المروءة ، والمروءة ألا يعمل الإنسان فى غيبة صاحبه ما يعتذَر منه عند حضوره .

قوله : « ولا تكن عند النعماء بطرا ، ولا عند البأساء فشلا » معنًى مستعمل ، قال الشاعر :

فلستُ بمفراحٍ إذا الدّهر سرّنى ... ولا جازعٌ من صَرْفه المتقلّبِ
ولا أتمنّى الشرّ والشرّ تاركى ... ولكنْ مَتَى أُحمل على الشرّ أركب

***

[قُثَم بن عباس وبعض أخباره]

فأما قُثَم بن العباس ، فأمّه أم إخوته ، وروى ابن عبد البرّ فى كتاب « الاستيعاب » عن عبد الله بن جعفر ، قال : كنت أنا وعبيد الله وقُثَم ابنا العباس نلعب ، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم راكبا ، فقال : « ارفعوا إلىّ هذا الفتى » يعنى قُثَم - فرفع إليه ! فأردفه خلفه ، ثم جعلنى بين يديه ، ودعا لنا ، فاستشهد قُثَم بسَمَرْقند .

قال ابن عبد البرّ : وروى عبد الله بن عباس ، قال : كان قُثَم آخرَ الناس عهدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم أى آخر من خرج من قبره ممن نزل فيه . قال : وكان المغيرة ابن شعبة يدّعى ذلك لنفسه ، فأنكر علىّ بن أبى طالب عليه السلام ذلك ، وقال : بل آخر مَنْ خرج من القبر قُثَم بن العباس .

قال ابن عبد البرّ : وكان قُثَم واليا لعلىّ عليه السلام على مكة ، عزل علىّ عليه السلام خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومىّ - وكان واليها لعثمان - وولاها أبا قتادة الأنصارىّ ، ثم عزله عنها وولى مكانه قُثَم بن العباس ، فلم يزل واليه عليها حتى قتل علىّ عليه السلام . قال : هذا قول خليفة [٢] ، وقال الزّبير بن بكار: استعمل علىّ عليه السلام قُثَم ابن العباس على المدينة .

قال ابن عبد البرّ : واستشهد قُثَم بسَمَرْقَنْد ، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية فقتل هناك [١]

قال : وكان قُثَم يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه يقول داود بن مسلم [٣] :

---

(١) الاستيعاب ٥٥١ - ٥٥٢ .

(٢) هو خليفة بن خياط الشيبانى المعروف بشباب ؛ محدث نسابة . وانظر طبقات الحفاظ ٢ : ٢١ .

(٣) فى الاستيعاب : « سليم » .

عُتِقْتِ من حِلٍّ ومن رحلةٍ　　يا ناقُ إن أدنيتِنِي من قُثَمْ
إنّكِ إن أدنيتِ منــه غداً　　حالفنى اليُسر ومات العــدَمْ
فى كفّهِ بحــرٌ وفى وجهه　　بَدْرٌ وفى العِرْنين منــه شَمَمْ
أصمّ عن قيل الخنا سمعه　　وما على الخــير به من صَمَمْ
لم يدرِ ما «لا» و بـ«لا» قد درَى　　فعافَهــا واعتاض منهــا نَعَمْ

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام :

إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجّده من عزله بالأشتر عن مصر ، ثم توفّى الأشتر في توجّهه إلى هناك قبل وصوله إليها :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ ، وَلَا ازْدِيَادًا لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلَايَةً .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا ، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِمًا ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ ! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلَاقَى حِمَامَهُ ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ ؛ أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ !

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الِاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

***

الشرح :

[محمد بن أبي بكر وبعض أخباره]

أم محمد رحمه الله أسماء بنت عُميس الخثعميّة : وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله

عليه وآله ، وأخت لبـابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب ؛ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة ؛ وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعونا ، ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلمّا قتِل جعفر يوم مؤتة تزوّجها أبو بكر ، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا ، ثم مات عنها فتزوّجها عليّ عليه السلام ، وولدت له يحيى بن عليّ ، لا خلاف فى ذلك .

وقال ابن عبد البر فى " الاستيعاب " : ذكر ابن الكلبيّ أنّ عون بن عليّ اسم أمّه أسماء بنت عميس ، ولم يقل ذلك أحدٌ غيره .

وقد روى أنّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ، فولدت له بنتا تسمى أمـة الله — وقيل أمامة — ومحمد بن أبي بكر ممن ولد فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال ابن عبدالبرّ فى كتاب " الاستيعاب " : ولد عام حجة الوداع فى عقب ذى القعدة بذى الحليفة ، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحجّ ، فسمّته عائشة محمدا ، وكنّته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم ؛ ولم تكن الصحابة ترى بذلك بأسا ؛ ثم كان فى حجْر عليٍ عليه السلام ، وقتل بمصر ، وكان عليّ عليه السلام يُثنى عليه ويقرّظه ويفضّله ؛ وكان لمحمد رحمه الله عبادة واجتهاد ؛ وكان ممّن حضر عثمان ودخل عليه ، فقال له : لو رآك أبوك لم يسرّه هذا المقام منك ! فخرج وتركه ، ودخل عليه بعده مَنْ قتله . ويقال: إنه أشار إلى مَنْ كان معه فقتلوه[1] .

* * *

قوله : « وبلغني موجِدتك »، أى غضبك ، وجدت على فلان مَوْجِدة ، ووِجدانا لغة قليلة ؛ وأنشدوا :

كِلانَا ردّ صاحبَـهُ بغيظٍ على حَنَقٍ ووِجْدانٍ شديدِ[2]

---

(١) الاستيعاب ٢٤٢ .

(٢) لصخر الغى ؛ اللسان ، الصحاح (وجد) .

فأما فى الحزن فلا يقال إلا وَجَدت أنا بالفتح لا غير .

والجهد : الطاقة ، أى لم استبطئك فى بذل طاقتك ووسعك ، ومن رواها الجَهد بالفتح فهو من قولهم : اجهد جَهدك فى كذا ، أى ابلغ الغاية ، ولا يقال هذا الحرف هاهنا إلّا مفتوحا .

ثم طيّب عليه السلام نفسه بأن قال له : لو تمّ الأمر الذى شرعت فيه من ولاية الأشتر مصر لعوّضتك بما هو أخفّ عليك مئونة وثقلا ، وأقلّ نصبا من ولاية مصر ، لأنه كان فى مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه .

ثم أكّد عليه السلام ترغيبه بقوله : « وأعجب إليك ولاية » .

فإن قلت : ما الذى بيده ممّا هو أخفّ على محمد مئونة وأعجب إليه من ولاية مصر ؟

قلت : ملك الإسلام كلُّه كان بيد علىّ عليه السلام إلّا الشام ، فيجوز أن يكون قد كان فى عزمه أن يولّيَه اليمن أو خراسان أو أرمينيَة أو فارس .

ثم أخذ فى الثناء على الأشتر وكان علىّ عليه السلام شديد الاعتضاد به ، كما كان هو شديد التحقّق بولايته وطاعته .

وناقما ، من نقمت على فلان كذا ، إذا أنكرته عليه وكرهته منه .

ثم دعا له بالرضوان ؛ ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه ، ويدخله الجنّة ، ولا فرق عندى بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وياطُوبَى لمن حصل له من على عليه السلام بعض هذا !

قوله : « وأصْحِر لعدوّك » أى ابرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التى أنت فيها ، أصحر الأسدُ من خِيسه ، إذا خرج إلى الصحراء .

وشمر فلان للحرب ، إذا أخذ لها أهبتَها .

(٣٥)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبدالله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَعَامِلًا كَادِحًا ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَرُكْناً دَافِعاً .

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَعَوْدًا وَبَدْءًا ، فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً ، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً ؛ وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا .

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلًا ؛ فَوَاللهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِدًا ، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا .

* * *

الشرح :

انظر إلى الفصاحة كيف تعطى هذا الرّجل قيادها ، وتملّكه زمامها ؛ واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سلسة سهلة، تتدفّق من غير تعسّف ولا تكلّف ؛ حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال : « يوما واحدا ، ولا ألتقى بهم أبدا » ، وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا فى كتاب أو خطبة ، جاءت القرائن والفواصل

تارة مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وتارة منصوبة ، فإن أرادوا قَسْرَها بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بيّن ، وعلامة واضحة ، وهذا الصِّنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن ، ذكره عبد القاهر ، قال : انظرْ إلى سورة النّساء وبعدها سورة المائدة ، الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلا ؛ ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما .

ثم إن فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعيّ لا الصناعة التكلّفية. ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل ؛ كيف قال : « ولدا ناصحا » ، « وعاملا كادحا » ، و « سيفا قاطعا » ، و « ركنا دافعا » ، لو قال : « ولدا كادحا » و « عاملا ناصحا » ، وكذلك ما بعده لما كان صوابا ، ولا في الموقع واقعا ، فسبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرفَ بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو ! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ؛ لأنّ قريشا لم يكن أحد منهم مشهورا بمثل ذلك ، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ! ولم يربَّ بين الشجعان ، لأن أهل مكّة كانوا ذوِي تجارة ، ولم يكونوا ذوى حرب ؛ وخرج أشجعَ من كلّ بشر مشى على الأرض ؛ قيل لخَلَف الأحمر : أيّما أشجع عنبسة وبِسطام أم علىّ بن أبي طالب ؟ فقال : إنما يذكر عَنبسة وبسطام مع البَشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ، فقيل له : فعلى كلّ حال . قال : والله لو صاح في وجوههما لماتا قبلَ أن يحمل عليهما . وخرج أفصحَ من سَحْبان وقُسّ ، ولم تكن قريش بأفصح العرب ، كان غيرها أفصح منها ؛ قالوا : أفصح العرب جُرْهم وإن لم تكن لهم نَباهة . وخرج أزهدَ الناس في الدنيا ، وأعفَّهم ؛ مع أنّ قريشا ذوو حرص ومحبة للدنيا ، ولا غروَ فيمن كان

محمد صلى الله عليه وآله مربّيه ومخرجه ، والعناية الإلهية تمدّه وترفدُه أن يكون منه ما كان !

***

يقال : احتسب ولده ، إذا مات كبيرا ، وافترط ولدَه ، إذا مات صغيرا .

قوله : « فنهم الآنى ... » ، قسّم جنده أقساما ، فنهم من أجابه وخرج كارها للخروج، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾(١) ، ومنهم من قعد واعتلّ بعلّة كاذبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(٢) ، ومنهم مَنْ تأخّر وصرّح بالقعود والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(٣) . والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبي صلى الله عليه وآله ، ومَنْ تذكر أحوالها وسيرتَهما ، وما جرى لهما إلى أن قبضا ، علم تحقيق ذلك .

ثمّ أقسم أنه لولا طمَعُه فى الشهادة لَمَا أقام مع أهل العراق ولا صحبهم .

فإن قلتَ : فهلّا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة ؟

قلت : ذلك لا يجوز ، لأنه إلقاء النفس إلى التهلكة ، وللشهادة شروط متى فقدت؛ فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتين على الأخرى .

---

(١) سورة الأنفال ٦ . (٢) سورة الأحزاب ١٣ .

(٣) سورة التوبة ٨١ .

(٣٦)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عَقِيل بن أبى طالب فى ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل :

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِباً ، وَنَكَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلإِيَابِ ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاولا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا ، بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ ؛ فَلأْياً بِلأْيٍ مَا نَجَا .

فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ؛ وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللهَ ؛ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ ـ وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ ـ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً ، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً ، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي   صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ   فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدم ذكر هذا الكتاب فى اقتصاصنا ذكر حال بُسْر بن أرطاة وغارته على اليمن فى أول الكتاب .

ويقال: طفّلت الشمس ـ بالتشديد ـ إذا مالت للغروب ، وطفّل الليل ، مشدّدا أيضاً ، إذا أقبل ظلامه ، والطَّفَل ، بالتحريك : بعد العصر حين تطفُل الشمس للغروب ؛ ويقال : أتيته طَفَلى ؛ أى فى ذلك الوقت .

وقوله عليه السلام : « للإياب » أى للرجوع ، أى ما كانت عليه فى الليلة التى قبلها ، يعنى غيبوبتها تحت الأرض . وهذا الخطاب إنّما هو على قَدْر أفهام العرب ؛ كانوا يعتقدون أنّ الشمس منزلها ومقرّها تحت الأرض ، وأنها تخرج كلّ يوم فتسير على العالم، ثم تعود إلى منزلها ، فتأوى إليه كما يأوى الناس ليلا إلى منازلهم .

وقال الراوندىّ : « عند الإياب » عند الزوال ؛ وهذا غير صحيح ، لأن ذلك الوقت لا يسمّى طَفَلا ، ليقال : إنّ الشمس قد طفّلت فيه .

قوله عليه السلام : « فاقتتلوا شيئاً كلا ولا » ، أى شيئاً قليلا ، وموضع « كلا ولا » نصب ، لأنه صفة « شيئاً » وهى كلمة تقال لما يستقصر وقته جدا ؛ والمعروف عند أهل اللغة: « كلاوذا » ، قال ابن هانئ المغربىّ :

وأسرعُ فى العين من لحظةٍ وأقصرُ فى السمع من لا، وذا

وفى شعر الكميت « كلا وكذا تغميضة »[١] .

وقد رويت فى " نهج البلاغة " كذلك ، إلّا أن فى أكثر النسخ : « كلا ولا » ، ومن الناس من يرويها : « كلا ولات » ، وهى حرف أجرِىَ مجرى « ليس » ؛ ولا تجىء

---

(١) البيت بتمامه :

كَلَا وكذا تغميضةُ ثمّ هِجتُمْ لدى حين أن كانوا إلى النوم أفقرا

« حين » إلا أن تحذف فى شعر ، ومن الرواة من يرويها : « كلا ولأى » ، ولأى فِعل ، معناه أبطأ .

قوله عليه السلام: « نجا جريضا »، أى قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب ، يقال: جَرَض بريقه يجرِض بالكسر، مثال كسر يكسِر ، ورجل جريض مثل قَدَر يقدر فهو قدير، ويجوز أن يريد بقوله : « فنجا جريضا » ، أى ذا جريض، والجريض : الغصّة نفسها ، وفى المثل : « حال الجريض دون القريض » قال الشاعر :

كأنّ الفتى لم يغنَ فى النّاس ليلةً إذا اختلف اللّحيان عند الجريضِ (١)

قال الأصمعىّ : ويقال : هو يجرَض بنفسه ، أى يكاد يموت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وأفلتهنّ علباء جَرِيضاً ولو أدركنه صَفِرَ الوطابُ (٢)

وأجرضه الله بريقه : أغصه .

قوله عليه السلام : « بعد ما أخذ منه بالمخنّق »، هو موضع الخنق من الحيوان، وكذلك الخُناق ، بالضمّ ؛ يقال أخذ بخُناقه ، فأما الخِناق بالكسر ؛ فالحبل تخنَق به الشاة . والرمَق : بقية الروح .

قوله عليه السلام : « فلأيا بلأى ما نجا » ، أى بعد بطء وشدة ، وما زائدة أو مصدرية، وانتصب « لأيا » على المصدر القائم مقام الحال ، أى نجا مبطئا ، والعامل فى المصدر محذوف أى أبطأ بطئا ؛ والفائدة فى تكرير اللفظة المبالغة فى وصف البطء الذى نجا موصوفه به، أى لأيا مقرونا بلأى .

---

(١) لامرئ القيس ، ديوانه ٧٧ . (٢) ديوانه ١٣٨ .

وقال الراوندىّ : هذه القصة وهذا الهارب جريضا وبعد لأى ما نجا ، هو معاوية، قال: وقد قيل : إن معاوية بعث أمويًّا فهرب على هذه الحال ؛ والأوّل أصحّ ، وهذا عجيب مضحك وددت له ألّا يكون شرح هذا الكتاب !

قوله : « فدع عنك قريشاً » إلى قوله : « على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله » ، هذا الكلام حقّ ، فإنّ قريشا اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه ، فأصفقوا كلّهم يداً واحدة على شقاقه وحَرْبه ، كما كانت حالهم فى ابتداء الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم تخرم حاله من حاله أبداً إلّا أن ذاك عصمه الله من القتل ، فمات موتا طبيعيا ، وهذا اغتاله إنسان فقتله .

قوله : «فجزت قريشا عنّى الجوازى ، فقد قطعوا رحمى ، وسلبونى سلطانَ ابن أمّى» ، هذه كلمة تجرى مجرى المثل ، تقول لمن يسىء إليك وتدعو عليه : جزتك عنى الجوازى ! يقال جزاه الله بما صنع ، وجازاه الله بما صنع ! ومصدر الأول جزاء ، والثانى مجازاة ، وأصل الكلمة أن الجوازى جمع جازية كالجوارى جمع جارية ، فكأنه يقول : جَزَتْ قريشا عنّى بما صنعت لى كلّ خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة ، أى جعل الله هذه الدواهى كلّها جزاء قريش بما صنعت بى . وسلطان ابن أمى ، يعنى به الخلافة، وابن أمّه هو رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم ، أمّ عبد الله وأبى طالب ، ولم يقل سلطان ابن أبى ؛ لأنّ غير أبى طالب من الأعمام يشركه فى النسب إلى عبد المطلب .

قال الراوندىّ : الجوازى : جمعُ جازية ، وهى النفس التى تجزى ، أى جزاهم وفعل بهم ما يستحقون عساكر لأجلى وفى نيابتى ، وكافأهم سريّة تنهض إليهم ؛ وهذا إشارة إلى بنى أميّة يهلكون من بعده . وهذا تفسير غريب طريف .

وقال أيضا : قوله : « سلطان ابن أمّ » يعنى نفســـه ، أى سلطانه ، لأنه ابنُ أمّ نفسه ، قال : وهذا من أحسن الكلام . ولا شبهة أنه على تفسير الراوندىّ لو قال: وسلبونى سلطان ابن أخت خالتى ، أو ابن أخت عمتى ، لكان أحسن وأحسن ، وهـذا الرجـل قد كان يجب أنْ يُحْجر عليه ، ولا يمكّن من تفسير هذا الكتاب ، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألّا يتعرّض له

قوله : « فإن رأى قتال المحِلِّين » ، أى الخارجين من الميثاق والبيعة ، يعنى البُغاة ومخالفى الإمام ، ويقال : لكلّ من خرج من إســـلام أو حارب فى الحرم أو فى الأشهر الحُرُمِ : مُحلّ ، وعلى هذا فسر قول زُهَير :

* وكم بالقَنانِ من مُحِلّ ومُحرِمِ (١) *

أى من لا ذمة له ومن له ذمة ، وكذلك قولُ خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رَمْلة بنت الزبير بن العوّام :

ألا مَن لقلب معنًّى غَزِلْ يحبّ المحِلّة أختَ المحِـــلّ

أى ناقضة العهد أخت المحارِب فى الحَرَم ، أو أخت ناقض بيعة بنى أمية .

وروى « متخضّماً متضرّعا » بالضاد .

ومقرّا للضيم وبالضيم ، أى هو راض به ، صابرٌ عليه . وواهناً ، أى ضعيفا .

السلس : السهل : ومقتعِد البعير : راكبه .

والشعرُ ينسب إلى العباس بن مِرْداس السُّلَمىّ ، ولم أجده فى ديوانه ، ومعناه ظاهر ، وفى الأمثال الحكمية : لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك ، فإنه إن كان صديقا أحزنْته ، وإن كان عدوّا أشمتّه ، ولا خير فى واحد من الأمرين .

---

(١) ديوانه ١١ وصدره :

* جَعَلْنَا الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَهُ *

(٣٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللهِ ! ما أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى طِلْبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ .

فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ . والسلام .

* * *

الشرح :

أوّل هذا الكتاب قوله :

أمّا بعد ، فإنّ الدنيا حُلوة خَضِرة ذات زينة وبَهجَة ، لم يَصْبُ إليها أحدٌ إلّا وشغلته بزينتها عمّا هو أنفع له منها ، وبالآخرة أُمِرنا ، وعليها حُثِثنا ، فدعْ يا معاوية ما يَفنَى ، واعمل لما يَبقى ، واحذَر الموتَ الّذى إليه مصيرُك ، والحسابَ الّذى إليه عاقبتك .

واعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا حالَ بينه وبين ما يَكرَه ، ووفّقه لطاعته ، وإذا أراد الله بعبد سوءًا أغراه بالدنيا ، وأنساه الآخرة ، وبسَطَ له أَمَلَه ، وعاقَه عمّا فيه صلاحُه ، وقد وصلنى كتابُك فوجدتُك تَرمى غيرَ غَرضِك ، وتَنشُد غيرَ ضالّتك ، وتخبط فى عَماية .

وتَتيه فى ضلالة ، وتعتصم بغير حجّة ، وتلوذ بأضعف شُبهة .

فأمّا سؤالك المتاركة والإقرار لك على الشام ، فلو كنتُ فاعلا ذلك اليوم لفعلتُه أمس .

وأما قولُك : إن عُمَرَ ولّاكه فقد عزل مَنْ كان ولّاه صاحبه ، وعزل عثمانُ من كان عمرُ ولّاه ولم ينصّب للناس إمام إلاليرى من صلاح الأمّة إماما قد كان ظهر لمن قبله ، أو أخفى عنهم عيبَه ، والأمر يَحدُث بعدَه الأمرُ ، ولكلّ والٍ رأى واجتهاد . فسبحان الله ! ما أشَدّ لزومَك للأهواء المتبدعة ، والحيرة المتّبعة . . . إلى آخر الفصل .

وأما قوله عليه السلام : « إنما نصرتَ عثمانَ حيث كان النصرُ لك . . . » إلى آخره ، فقد روَى البلاذرىّ قال : لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه ، بعث يزيد بن أسد القسرىّ ، جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وقال له : إذا أتيتَ ذا خُشُب فأقِم بها ، ولا تتجاوَزْها ، ولا تقل : الشاهدُ يَرَى ما لا يَرَى الغائب ؛ فإنّنى أنا الشاهد ، وأنت الغائب .

قال : فأقام بذى خُشُب حتى قتل عثمان ، فاستقدمه حينئذ معاوية ، فعاد إلى الشام بالجيش الذى كان أرسل معه ، وإنّما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمانَ فيدعوَ إلى نفسه .

* * *

وكتب معاوية إلى ابن عبّاس عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بيعته ، ويقول له فيه :

ولَعَمرى لو قتلتُك بعثمانَ رجوتُ أن يكون ذلك لله رضاً ، وأن يكون رأيا صوابا ، فإنّك من الساعين عليه ، والخاذِلين له ، والسافِكين دمَه ، وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعك منّى ، ولا بيدِك أمان.

فكتب إليه ابنُ عبّاس جوابا طويلا يقول فيه : وأمّا قولك إنّى من الساعين على عثمان ، والخاذِلين له ، والسافكين دمَه ؛ وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعُك منّى.

فأُقسِم بالله لأنتَ المتربّص بقتله ، والمحبّ لهلاكه ، والحابس الناسَ قِبَلك عنه على بصيرة من أمره ؛ ولقد أتاك كتابُه وصَريخُه يستغيث بك ويستصرخ ، فما حَفَلْتَ به ، حتّى بعثتَ إليه معذرا بأجرة ، أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يُقتَل ، فقُتِل كما كنتَ أردت ، ثم علمتَ عند ذلك أن الناس لن يَعدِلوا بيننا وبينك ، فطفقتَ تَنْعَى عثمان وتُلزِمنا دمَه ، وتقول : قُتل مظلوما ، فإن يك قُتل مظلوما فأنت أظلم الظالمين ، ثم لم تزل مصوِّبا ومصعِّدا ، وجاثما ورابضا ، تَستغوى الجهّال ، وتنازعنا حقّنا بالسفهاء ، حتّى أدركتَ ما طلبت ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[1] .

(١) سورة الأنبياء ١١١ .

(٣٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولّى عليهم الأشتر :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ؛ أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ ، لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ ، وَلَا نَابِي الضَّرِيبَةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يُشكل عليّ تأويله ، لأنّ أهل مصرَ هم الّذين قتلوا عثمانَ ، وإذا شهد أميرُ المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصِيَ في الأرض ، فهذه شهادة قاطعة على عثمانَ بالعصيان ، وإتيان المنكَر ، ويمكن أن يقال وإن كان متعسِّفاً : إنّ الله تعالى

عُصِيَ في الأرض لا مِن عثمانَ ؛ بل من وُلاته وأمرائه وأهــله ، وذهب بينهم بحقّ الله ، وضرب الجوْر سُرادِقه بولايتهم،وأمرهم على البرّ والفاجر ، والمقيم والظّاعن ، فشاع المنكَر، وفُقِد المعروف . يبقى[1] أن يقال : هب أن الأمر كما تأوّلت ، فهؤلاء الّذين غَضِبوا لله إلى ماذا آل أمرُهم ؟ أليس الأمرُ آل[2] إلى أنهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمانَ! فلا تعدُو حالهم أمرَين ، إلا أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصيا مستحقاً للقتل، أو يكونوا أسخَطوا اللهَ تعالى بقتــله فعثمانُ إذاً على حقّ ، وهم الفسّاق العصاة ، فكيف يجوز أن يبجّلهم أو يخاطبَهم خطابَ الصالحين ! ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنّهم غضبوا لله ، وجاءوا من مصرَ ، وأنكروا على عثمانَ تأميرَه الأمراء الفسّاق ، وحصروه في داره طلبا أن يدفع إليهم مرْوان ليحبسوه ، أو يؤدّبوه على ما كتبه في أمرهم ، فلمّا حُصِر طمع فيه مُبغضوه وأعداؤه من أهل المدينة وغيرها ، وصار معظمُ الناس إلْبًا عليه ، وقلّ عدد المصريّين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصرِه ومطالبتِه بخلع نفسه ، وتسليم مروانَ وغيره من بني أميّة إليهم ، وعزل عمّاله ، والاستبدال بهم ، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه ، ولكنّ قوما منهم ومن غيرهم تسوّروا دارَه ، فرماهم بعضُ عبيده بالسهام فجُرح بعضهم ، فقادت الضرورة إلى النزول والإحاطة به ، وتسرّع إليه واحد منهم فقتَله . ثم إنّ ذلك القاتل قُتِل في الوقت ؛ وقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم ، وشرحناه ، فلا يلزم من فِسقِ ذلك القاتِل وعصيانِه أن يفسق الباقون ، لأنّهم ما أنكروا إلّا المنكَر ؛ وأمّا القتل فلم يقع منهم ، ولا راموه ولا أرادوه ، فجاز أن يقال : إنّهم غَضِبوا لله ، وأن يُثنَى عليهم ويمدحهم .

ثم وصف الأشتر بما وصفَه به ، ومِثلُ قولِه : « لا ينام أيّام الخوف » قولُهم : « لا ينام ليلة يخاف، ولا يَشبَع ليلة يُضاف » ، وقال :

---

(١) كذا في ا ، وفي ب : « ينبغي » . (٢) ساقطة من ب .

فأتت به حُوشَ الفــؤاد مبطَّنا سُهُداً إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ(١)

ثم أمرهم أن يطيعوه فيا يأمرهم به ممّا يطابق الحقّ ، وهــذا من شدّة دينه وصلابته عليه السلام ، لم يسامح نفسَه فى حقّ أحبِّ الخلق إليه أن يهمل هذا القيْد ، قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : « لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصية الخالق » :

وقال أبو حنيفة : قال لى الربيع فى دِهليز المنصور : إنّ أمير المؤمنين يأمُرنى بالشيء بعد الشيء من أمورِ مُلكه ، فأنفّذه وأنا خائف عــلى دِينى ، فما تقول فى ذلك ؟ قال ـ ولم يقل لى ذلك إلّا فى ملأ النــاس : فقلت له : أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق ؟ قال : لا ، قلت : فلا بأس عليــك أن تعمل بالحقّ ؛ قال أبو حنيفة : فأراد أن يصطادنى فاصطدتُه .

والذى صدع بالحق فى هــذا المقام الحسن البصرىّ ، قال له عُمر بن هُبيرة أمير العراق فى خلافة يزيدَ بن عبد الملك فى ملأٍ من الناس ، منهم الشعبىّ وابنُ سيرين : يا أبا سعيد ، إنّ أمير المؤمنين يأمرنى بالشيء أعلم أنّ فى تنفيذه الهَلَكةَ فى الدّين ، فما تقول فى ذلك ؟ قال الحسن : ماذا أقول ! إن الله مانعك من يزيدَ ، ولن يمنعك يزيدُ من الله ، يا عمر خَفِ الله ، واذكر يوما يأتيك تتمخّض ليلتُه عن القيامــة ، إنه سينزل عليك مَلَك من السماء فيحطّك عن سَريرك إلى قصرِك ، ويضطرّك من قصرك إلى لزوم فراشِك ، ثم يَنقُلك عن فراشك إلى قبرِك ، ثم لا يُغنِى عنــك إلّا عملُك ؛ فقام عمر بن هُبيرة باكيا يصطكّ لسانُه .

قوله : « فإنه سيفٌ من سيوف الله » ، هذا لقبُ خالدِ بن الوليد ، واخْتُلف فيمن

---

(١) لأبى كبير الهذلى ، ديوان الحماسة ـ ، بشرح التبريزى ـ ٨٦ . الهوجل : الثقيل الكسلان .

لقبه به ، فقيل : لقّبه به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، والصحيح أنه لقّبه به أبو بكر ، لقتاله أهلَ الرّدة ، وقتلِه مُسيلِمة .

والظُّبَة ، بالتخفيف : حدُّ السيف . والنابى من السيوف : الّذى لا يَقطع ؛ وأصلُه نبا ، أى ارتفع ؛ فلمّا لم يَقطَع كان مرتفعا ، فسمّىَ نابيا ؛ وفى الكلام حذفٌ تقديرُه : ولا نابٍ ضارب الضريبة ، وضارب الضريبة هو حدّ السيف ، فأما الضريبة نفسها فهو الشىء المضروبُ بالسيف ، وإنما دخلته الهاء وإن كان بمعنى « مَفْعول » لأنّه صار فى عداد الأسماء ، كالنّطيحة والأَكِيلة .

ثم أمرهم بأن يطيعوه فى جميع ما يأمرهم به من الإقدام والإحجام ، وقال : إنه لا يقدّم ولا يؤخّر إلّا عن أمرى ، وهذا إن كان قاله مع أنه قد سَمَح له أن يعمل برأيه فى أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جدّا ؛ لأنه يكون قد أقامه مقامَ نفسه . وجاز أن يقول : إنه لا يفعل شيئاً إلاّ عن أمرى ، وإن كان لا يُراجعه فى الجزئيّات على عادة العرب فى مِثل ذلك ؛ لأنّهم يقولون فيمن يثقون به نحوَ ذلك ، وقد ذهب كثيرٌ من الأصوليّين إلى أن الله تعالى قال لمحمّد صلّى الله عليه وآله : احكمْ بما شئتَ فى الشريعة ، فإنّك لا تحكُم إلاّ بالحق ، وإنه كان يحكم من غير مراجعته لجبرائيل ، وإنّ الله تعالى قد قال فى حقّه : ﴿وما يَنْطِقُ عنِ الْهَوَى * إنْ هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] ، وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأشتر ، لأنّه قد قرّر معه بينه وبينه ألاّ يعمل شيئاً قليلا ولا كثيرا إلاّ بعد مراجعتِه ، فيجوز ، ولكنّ هذا بعيد ، لأنّ المسافة طويلة بين العراق ومصر ، وكانت الأمور هناك تقف وتفسد .

ثم ذكر أنه آثرهم به على نفسه ، وهكذا قال عمر لمّا أنفذ عبدَ الله بن مسعود إلى الكُوفة فى كتابه إليهم : قد آثرتُكم به على نفسى ؛ وذلك أنّ عمر كان يستفتيه فى الأحكام ، وعلىّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأشتر ، ويقوى أنفسَ جيوشه بمقامه بينهم ، فلمّا بعثه إلى مصرَ كان مؤثِراً لأهل مصرَ به على نفسه .

(١) سورة النجم ٣ ، ٤

(٣٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ؛ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ . فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ .

فَإِنْ يُمَكِّنِ اللهُ مِنْكَ وَمِنَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا، فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا . وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه ، لم يحمله بغضُه لهما ، وغيظُه منهما ، إلى أن بالغ فى ذمّهما به ، كما يبالغ الفُصَحاء عند سَوْرة الغضب ، وتدفّق الألفاظ على الألسنة ، ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوِي الإنصاف أنّ عمْرا جعل دينَه تبعاً لدنيا معاوية ، وأنّه ما بايعه وتابعه إلّا على جَعالة جعلها له ، وضمانٍ تكفّل له بإيصاله ، وهىَ ولاية مصر مؤجّلة ، وقطعة وافرة من المال معجّلة ، ولولدَيه وغلمانه ما ملأ أعينهم .

فأما قوله عليه السلام فى معاوية : « ظاهرٌ غيُّه » ، فلا ريب فى ظهور ضلاله وبغيِه ؛ وكلُّ باغٍ غاوٍ .

أمّا مهتوكٌ ستْره ، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة ، صاحب جُلَساء وسمّار ، ومعاوية لم يتوقّر ، ولم يلزم قانون الرياسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين ، واحتاج إلى الناموس والسكينة ، وإلّا فقد كان فى أيام عثمانَ شديد التهتّك ، موسوما بكلّ قبيح ، وكان فى أيام عمرَ يستر نفسَه قليلا خوفا منه ، إلّا أنه كان يلبس الحرير والدِّيباج ، ويَشرَب فى آنية الذهب والفضّة ، ويركب البَغلات ذواتِ السّروج المحلّاة بها ، وعليها جِلال الدِّيباج والوَشْى ؛ وكان حينئذ شابًّا ، وعنده نزَق الصِّبا ، وأثَر الشبيبة ، وسكْر السلطان والإمْرة ؛ ونقل الناسُ عنه فى كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر فى أيّام عثمان فى الشام ، وأمّا بعد وفاةِ أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيــه ، فقيل : أنه شرب الخمر فى ستر ، وقيل : إنه لم يَشربه . ولا خلاف فى أنه سمعَ الغناء وطرب عليه ، وأعطى ووصل عليه أيضاً.

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ قال : قال عمرو بن العاص لمعاوية فى قَدْمةٍ قدِمها إلى المدينة أيّام خلافته : قم بنا إلى هذا الّذى قد هَدَم شرَفَه ؛ وهتَك سِتْره ، عبد الله ابن جعفر ، نقف على بابه ، فنَسمَع غناءَ جواريه ، فقاما ليلا ومعهما وَرْدانُ غلامُ عمرو ، ووقفَا بباب عبد الله بن جعفر ، فاستَمعَا الغناء وأحسّ عبدُ الله بوقوفهما ، ففتحَ الباب ، وعَزَم على معاوية أن يدخل ، فدخل ، فجلس على سرير عبد الله ، فدعا عبد الله له وقدّم إليه يسيرا من طعام ، فأكل ، فلمّا أنِس قال : يا أمير المؤمنين ، ألا تأذن لجواريك أن يتمّمن أصواتَهنّ ، فإنّك قطعتَها عليهنّ ؟ قال : فليقلن ، فرفعن أصواتهنّ ، وجعل معاوية يتحرّك قليلا قليلا حتّى ضرب برجلِه السرير ضربا شديدا ، فقال عمرو : قم أيّها الرجل ، فإنّ الرجل الذى جئت لتلحاه أو لتَعجب من أمره أحسنُ حالًا منك . فقال : مَهْلا ، فإنّ الكريم طروب !

***

أما قوله: « يشين الكريمَ بمجلسه ، ويسفّه الحليمَ بخلطته » : فالأمر كذلك ، فإنه لم يكن فى مجلسه إلّا شتم بنى هاشم وقَذْفُهم ، والتعرّضُ بذكر الإسلام ؛ والطعن عليه ، وإن أظهر الانتماء إليه . وأما طلب عمرو فَضْله واتباعه أثره اتباعَ الكلاب للأسد فظاهر ، ولم يقل : الثعلب ، غضًا من قدر عمرو ، وتشبيهاً له بما هو أبلغُ فى الإهانة والاستخفاف .

ثم قال : « ولو بالحقّ أخذتَ أدركت ما طلبت » ، أى لو قعدتَ عن نصرِه ولم تشخص إليه ممالئا به على الحقّ لوَصَل إليك من بيت المال قدر كفايتك .

ولقائل أن يقول : إن عمْرا ما كان يطلب قدرَ الكفاية وعلىّ عليه السلام ما كان يعطيه إلّا حقّه فقط ، ولا يعطيه بلدا ولا طرَفا من الأطراف ، والّذى كان يطلبُ ملكَ مصرَ ، لأنه فتحها أيام عمرَ ووليها بُرهة ، وكانت حسرةً فى قلبه ، وحزازة فى صدره ، فباع آخرتَه بها ، فالأولى أن يقال : معناه لو أخذتَ بالحقّ أدركت ما طلبت من الآخرة.

فإن قلت : إن عمْرا لم يكن علىّ عليه السلام يَعتقِد أنه من أهل الآخرة ، فكيف يقول له هذا الكلام ؟

قلت : لا خَلَل ولا زَلَل فى كلامه عليه السلام ، لأنه لو أخذ بالحقّ لكان معتقدا كوْن علىّ عليه السلام على الحقّ باعتقاده صحّة نبوّة رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وصحّة التوحيد ، فيصير تقديرُ الكلام : لو بايعتَنى معتقداً للزوم بَيْعتى لك لكنت فى ضِمن ذلك طالبا الثواب ، فكنت تدرِكه فى الآخرة .

ثم قال مهدّدا لهما ، ومتوعّدا إياهما : « فإن يُمكِنِ اللهُ منك ومن ابن أبى سفيان » ، وأقول : لو ظفر بهما لما كان فى غالب ظنّى يقتلهما ، فإنّه كان حليا كريما ، ولكن كان يَحبسهما ليَحسِم بحبسهما مادّة فسادِهما .

ثم قال : « وإن تُعجزا وتبقيا » ، أى وإن لم أستطع أخذكما أو أمُتْ قبلَ ذلك وبقيتُما بعدى ، فما أمامَكما شرّ لكما من عقوبة الدنيا ؛ لأن عذاب الدنيا منقطع ، وعذاب الآخرة غيرُ منقطع .

***

وذكر نصرُ بن مزاحم فى كتاب « صِفّين » هذا الكتاب بزيادةٍ لم يذكرْها الرّضىّ . قال نصرُ : وكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

من عبدِ الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى الأبتر ابن الأبتر عمرو بن العاص بن وائل ، شانئ محمد وآلِ محمد فى الجاهليّة والإسلام ، سلامٌ على من اتّبع الهدى ، أما بعد ، فإنّك تركتَ مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره ، يشين الكريمَ بمجلسه ، ويسفّه الحليمَ بخلطته ، فصار قلبُك لقلبه تبَعًا ، كما قيل : « وافقَ شنٌّ طَبَقة » فسلَبك دينَك وأمانتَك ودنياكَ وآخرتَك ، وكان علمُ الله بالغا فيك ، فصرتَ كالذئب يتبع الضرغام إذا ما الليل دَجَى ، أو أتى الصبح يلتمس فاضل سؤره ، وحوايَا فريسته ، ولكن لا نجاةَ من القدَر ، ولو بالحقّ أخذتَ لأدركتَ ما رجوتَ ، وقد رَشد من كان الحقّ قائدَه ، فإن يُمكِنِ الله منك ومِن ابن آكلة الأكباد ، ألحقتكما بمن قتله الله من ظلَمة قريش على عهدِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وإن تُعجِزا وتَبقيا بعدُ ؛ فالله حَسْبكما ، وكفى بانتقامه انتقاما ، وبعقابه عقابا ! والسلام .

(٤٠)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ . بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ ؛ والسلام .

***

الشَّرْح :

أخزيْتَ أمانتك : أذلَلْتَها وأهنتَها ، وجرّدت الأرض : قشرتَها ؛ والمعنى أنّه نسبه إلى الخيانة فى المال ، وإلى إخراب الضِّياع ، وفى حكمة أبرويز أنّه قال لخازن بيتِ المـالِ : إنّى لا أحتملك على خيانة دِرهم ، ولا أحمَدك على حفظِ عشرة آلاف ألف درهم ، لأنّك إنّما تحقِن بذلك دمَك ، وتعمُر به أمانتَك ، وإنك إن خنتَ قليلا خنتَ كثيرا ، فاحترس من خَصلتين : من النقصان فيما تأخـذ ، ومن الزيادة فيما تُعطِى ؛ واعلم أنّى لم أجعلك على ذخائر الملك ، وعمارة المملكة ، والعدّة على العدوّ ، إلّا وأنت أمينٌ عنـدى من الموضع الّذى هى فيه ، ومن خواتمها الّتى هى عليهـا ، فحقّق ظنى فى اختيارى إيّاك أحقّق ظنّك فى رجائك لى ، ولا تتعوّض بخير شرّا ، ولا برفعةٍ ضعة ، ولا بسلامةٍ ندامة ، ولا بأمانةٍ خيانة .

وفى الحديث المرفوع : « من وَلِيَ لنا عَمَلا فليتزوّج، وليتّخذ مَسكنا ومَركباً وخادما ، فمن اُتخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادِلا غالّا سارقا » .

وقال عمر فى وصيّته لابن مسعود : إيّاك والهديّة ، وليست بحرام ، ولكنى أخافُ عليك الدّالّة .

وأهدى رجلٌ لعمرَ فخذَ جزور فقبِله ، ثم ارتفع إليه بعد أيّام مع خصم له ، فجعل فى أثناء الكلام يقول : يا أميرَ المؤمنين ، افصِل القضاء بينى وبينه كما يُفصَل فخِذُ الجزور . فقضى عمرُ عليه ، ثم قام فخطب الناسَ ، وحرّم الهدايا على الوُلاة والقُضاة .

وأهدى إنسانٌ إلى المغيرة سِراجاً من شَبَهٍ ، وأهدَى آخر إليه بَغلا ، ثم اتفقت لهما خصومة فى أمر فترافَعا إليه ، فجعل صاحبُ السراج يقول : إنّ أمرى أضوأُ من السّراج ؛ فلمّا أكثر قال المغيرة : وَيحَك ، إنّ البغل يَرمَح السراجَ فيكسره .

ومرّ عمرُ ببناء يُبنَى بآجُرّ وجِصّ لبعض عمّاله فقال : أبت الدراهمُ إلّا أن تُخرج أعناقَها . ورُوِى هذا الكلامُ عن علىّ عليه السلام ؛ وكان عمرُ يقول : على كلّ عاملٍ أمينان : الماء والطِّين .

ولمّا قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر : ياعدوّ الله وعدوّ كتابه ، أسَرقتَ مالَ الله تعالى ؟ قال أبو هريرة : لستُ بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه ، ولكنّى عدوّ مَنْ عاداهما ، ولم أسرق مالَ الله . فضربَه بجريدة على رأسه ، ثم ثناه بالدِّرّة ، وأغرمَه عشرة آلاف درهم ، ثم أحضره ، فقال : يا أبا هريرة ، من أين لك عشرة آلاف درهم ؟ قال : خيلى تناسَلَتْ ، وعطائى تلاحَقَ ، وسهامى تتابعتْ ، قال عمر : كلّا والله . ثم تركه أيّاما ، ثم قال له : ألا تعمل ؟ قال : لا ، قال : قد عمل من هو خير منك يا أبا هريرة ، قال : مَن هو ؟ قال : يوسفُ الصدّيق ، فقال أبو هريرة : إنّ يوسفَ عَمِل لمن لم يضرب رأسه

وظهرَه ، ولا شتمَ عِرضَه ، ولا نزع ماله ، لا والله لا أعمل لك أبدا .

وكان زياد إذا ولّى رجلا قال له : خذ عهدَك ، وسرْ إلى عَملِك ، واعلم أنّك محاسب رأسَ سنتك ، وأنّك ستصير إلى أربع خصال ، فاختر لنفسك : إنّا إنْ وجدناك أمينا ضعيفا استبدلْنا بك لضَعْفك ، وسلّمتْك من معرّتنا أمانتُك ، وإن وجدناك خائنا قويّا استعنّا بقوّتك ، وأحسنّا أدبك على خيانتك ، وأوجعْنا ظهرَك ، وأثقلْنا غُرْمَك : وإن جمعت علينا الجُرْمَين ، جمعْنا عليك المضرّتين ، وإن وجدناك أمينا قويّا زدْنا رزقك ، ورفعْنا ذِكرَك ، وكثّرنا مالك ، وأوطأْنا الرجال عَقِبك .

ووصف أعرابيٌّ عاملا خائنا فقال : الناس يأكلون أماناتِهم لُقَما ، وهو يحسوها حَسْوا .

قال أنَس بن أبي إياس الدّؤليّ[1] لحارثة بن بدْر الغُدانيّ — وقد ولِيَ سُرّقَ — ويقال إنّها لأبي الأسود[2] :

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَلِيتَ ولايةً ... فكنْ جُرَذاً فيها تخُون وتسرِقُ

ولا تحقِرنْ يا حار شيئا أصبتَه ... فحظّك من ملك العراقين سُرّقُ[3]

وباهِ تميماً بالغِنى إنّ للغنى ... لسانا به المرء الهيوبةُ يَنطق[4]

فإنّ جميعَ الناس إمّا مكذّب ... يقول بما تَهوَى وإمّا مصدّق

يقولون أقوالا ولا يَتبعونَها ... وإن قيل : هاتوا حقِّقوا لم يحقّقوا

فيقال : إنّها بلغتْ حارثةَ بن بدر فقال : أصاب الله به الرشاد ، فلم يَعدُ بإشارته ما في نفسي !

---

(١) في الكامل : « أنس بن أبي أنيس » .

(٢) ممن نسبها إلى أبي الأسود ياقوت في معجم البلدان ٥ : ٧٣ .

(٣) سرق : إحدى كور الأهواز. (٤) الهيوبة : الجبان.

(٤١)

الأصـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي ، لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ ، وَهَـذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فُتِكَتْ وَشَغَرَتْ ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ .

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّـدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّـدْرِ بِحَمْلِهِ ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ .

فَسُبْحَانَ اللهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ ! أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً ، وَتَشْرَبُ حَرَاماً ، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ ، وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَـذِهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ !

فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ ، لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَـدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى آخُـذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا .

وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي ، أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحِّ رُوَيْدًا ، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى ، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيـهِ بِالْحَسْرَةِ ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ !

***

الشَّرْحُ :

أشركْتك فى أمانتى : جعلتك شريكا فيما قمتُ فيه من الأمر ، وائتمننى الله عليه من سياسة الأمّة ، وسمّى الخلافة أمانةً كما سمّى الله تعالى التكليف أمانةً فى قوله : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة ﴾(١) . فأمّا قوله : وأداء الأمانة إلىّ فأمرٌ آخر ، ومراده بالأمانة الثانية ما يتعارفه الناس من قولهم : فلان ذو أمانة ، أى لا يخون فيما أسند إليه .

وكلِبَ الزمان : اشتدّ ؛ وكذلك : كلِبَ البردُ .

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢ .

وحرب العدوّ : استأسد . وخزيتْ أمانة الناس : ذلّت وهانت .

وشَغَرت الأمّة : خلت من الخير ، وشَغَر البلد : خلا من الناس .

وقلبتُ له ظهر المجنّ : إذا كنت معه فصرت عليه ؛ وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا العدوّ وكانت ظهور مجانّهم إلى وجه العدوّ ، وبطون مجانّهم إلى وجه عسكرهم ، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدوّ كان وضع مجانّهم بدلا من الوضع الذى كان من قبل ، وذلك أنّ ظهور التّرسة لا يمكن أن تكون إلا فى وجوه الأعداء ، لأنها مَرمى سهامهم .

وأمكنتك الشدة ، أى الحلة .

قوله : « أسرعت الكرّة » ، لا يجوز أن يقال : الكرّة إلا بعد فرّة ، فكأنه لما كان مقلعا فى ابتداء الحال عن التعرّض لأموالهم ، كان كالفارّ عنها ، فلذلك قال : أسرعت الكرّة .

والذئب الأزلّ : الخفيف الوَرِكين ، وذلك أشدّ لعدْوه ، وأسرع لوثبته ، وإن اتفق أن تكون شاةٌ من المِعزَى كَثيرة ودامية أيضا ، كان الذئب على اختطافها أقدر .

ونقاش الحساب : مناقشته .

قوله : « فضحّ رُويدا » ، كلمة تقال لمن يؤمر بالتُّؤدة والأناة والسكون ، وأصلها الرّجل يطعم إبله ضحًى ، ويسيّرها مسرعا ليسير ، فلا يشبعها ، فيقال له : ضَحِّ رويدا .

***

[اختلاف الرأى فيمن كتب له هذا الكتاب]

وقد اختلف الناس فى المكتوب إليه هذا الكتاب ، فقال الأكثرون : إنه عبد الله ابنُ العباس رحمه الله ، وروَوْا فى ذلك روايات ، واستدلُّوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب

كقوله : « أشركتك فى أمانتى ، وجعلتك بطانتى وشعارى ، وأنه لم يكن فى أهلى رجل أوثق منك »، وقوله : « على ابن عمّك قد كاب » ، ثم قال ثانيا : « قلبتَ لابن عمّك ظهر المِجنّ » ثم قال ثالثا : « ولابن عمك آسيت » ؛ وقوله : « لا أبا لغيرك » ، وهــذه كلمة لا تقال إلا لمثله ، فأما غيره من أفناء الناس ، فإن عليًّا عليه السلام كان يقول : لا أبا لك .

وقوله : « أيها الممدود كان عندنا من أولى الألباب» . وقوله: « لو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام » ، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجرى مجراهما عنده .

وقد روَى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كتب إلى علىّ عليه السلام جوابا من هذا الكتاب ، قالوا : وكان جوابه :

أما بعد ، فقد أتانى كتابك تعظم علىّ ما أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمرى إنّ حقى فى بيت المال أكثر مما أخذتُ ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فإنّ من العجب أن تزيّن لك نفسك أنّ لك فى بيت مال المسلمين من الحقّ أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تمنّيك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من المأثم ، ويُحلّ لك المحرم ، إنك لأنت المهتدى السعيد إذاً ! وقد بلغنى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عَطنا ، تشترى بها مولّدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهنّ على عينك ، وتعطى فيهنّ مال غيرك ، فارجع هداك الله إلى رُشدك ، وتبْ إلى الله ربك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فعمّا قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت ، وتغيب فى صَدَع من الأرض غير موسّد ولا ممهّد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عمّا خلفت ، فقيرا إلى ما قدّمت ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه ابن عباس :

أمّا بعد ، فإنك قد أكثرت عليّ ، وواللهِ لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلّها ، وذهبها وعقيانها ولُجينها ، أحبّ إليّ من أن ألقاه بدم امرئ مسلم . والسلام .

***

وقال آخرونَ وهم الأقلون : هذا لم يكن ، ولا فارق عبدُ الله بن عباس عليًا عليه السلام ، ولا باينه ولا خالفه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل عليّ عليه السلام .

قالوا : ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ من كتابه الذى كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل عليّ عليه السلام ، وقد ذكرناه من قبل ، قالوا : وكيف يكون ذلك ولم يخدعه معاوية ، ويجرّه إلى جهته ، فقد علمتم كيف اختدع كثيرا من عمال أمير المؤمنين عليه السلام واستمالهم إليه بالأموال ، فمالوا وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام ، فما بالُه وقد علم النّبوة التى حدثَتْ بينهما ، لم يستمِل ابنَ عباس ، ولا اجتذبه إلى نفسه ؛ وكلّ من قرأ السّير وعرف التواريخ يعرف مشاقّة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة عليّ عليه السلام ، وما كان يلقاه به من قوارع الكلام ، وشديد الخصام ، وما كان يثنى به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله ، ويصدع به من مناقبه ومآثره، فلو كان بينهما غبار أوكدر لما كان الأمر كذلك ، بل كانت الحال تكون بالضدّ لما اشتهر من أمرها .

وهذا عندى هو الأمثل والأصوب .

وقد قال الراونديّ : المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس، لا عبد الله ؛

وليس ذلك بصحيح ، فإنّ عبيد الله كان عامل علىّ عليه السلام على اليمن ، وقد ذكرت قصته مع بُسر بن أرطاة فيما تقدّم ، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالا ، ولا فارق طاعة .

وقد أشكل علىّ أمرُ هذا الكتاب ، فإن أنا كذّبت النقل وقلتُ : هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام ، خالفتُ الرواة ، فإنّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه ، وقد ذُكِر فى أكثر كتب السيَر . وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدّنى عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام فى حياته وبعد وفاته . وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام ؛ والكلامُ يشعر بأنّ الرجل المخاطَب من أهله وبنى عمه ، فأنا فى هذا الموضع من المتوقّفين !

(٤٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومى ، وكان عامله على البحرين ، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزُّرَقى مكانه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ ، وَلَا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَلُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْثُومٍ ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي ؛ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

***

الشرح :

[عمر بن أبي سلمة ونسبه وبعض أخباره]

أمّا عمر بن أبي سَلَمة فهو رَبيبُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وأبوه أبو سَلَمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ، يكنّى أبا حفص ، وُلد فى السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة ، وقيل : إنه كان يومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين ، وتوفّيَ فى المدينة فى خلافة عبد الملك سنة ثلاثٍ وثمانين ، وقد حَفظ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله الحديث ، وروَى عنه سعيد بن المسيَّب وغيره ، ذكر

ذلك كلّه ابن عبد البرّ فى كتاب « الاستيعاب » .

***

[النعمان بن عجلان ونسبه وبعض أخباره]

وأما النّعمان بن عجلان الزُّرَقىّ فمن الأنصار ، ثم من بنى زُرَيق ، وهو الّذى خَلَف على خولة زوجة حمزةَ بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله ، قال [ابن] عبد البرّ فى كتاب « الاستيعاب » : كان النّعمان هــذا لسان الأنصار وشاعرهم ؛ ويقال : إنه كان رجلا أحمر قصيرا تزدريه العين ، إلّا أنه كان سيّدا ، وهو القائل يومَ السَّقيفة :

وقلتم حرامٌ نصب سعدٍ ونصبكم … عتيق بن عثمان حــلالٌ أبا بكرِ
وأهلُ أبو بكر لهـا خيرُ قائمٍ … وإنّ عليــا كان أخلقَ بالأمرِ
وإنّ هَوانــا فى علىّ وإنه … لأهلٌ لها من حيث يدرى ولا يدرِى

قوله : « ولا تثريب عليك » ، فالتثريب الاستقصاء فى اللوم ؛ ويقــال : ثرّبت عليه ، وعرّبت عليه ، إذا قبّحتَ عليه فعله .

والظَّنِين : المتّهم ؛ والظِّنّة التّهمة ، والجمع الظِّنَن ؛ يقول : قد اظّنّ زيد عمرا ، والألف ألف وصل ، والظاء مشدّدة ، والنون مشدّدة أيضا ، وجاء بالطاء المهملة أيضاً ، أى اتّهمه. وفى حديث ابن سيرين: لم يكن علىّ عليه السلام يظّنّ فى قتل عثمان ، الحرفان مشدّدان وهو يفتعِل من « يَظْنُنُ » وأُدغِم ، قال الشاعر :

وما كلُّ مَنْ يَظّنُّنِى أنــا مُعْتِبٌ … وما كلّ ما يُرْوَى علىّ أقولُ (١)

---

(١) الصحاح ٢١٦١ من غير نسبة .

(٤٣)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ وكان عامله على أردشير خرّة :

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ ؛ إِنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ ـ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ـ فِيمَنْ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ . فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ؛ لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا ، لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَانًا ، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا ، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا .

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَــذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ ؛ يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم ذكر نسب مَصقَلة بن هُبيرة . وأردشير خرّة : كُورةٌ من كُوَر فارس .

واعتامَك : اختارَك من بين الناس ، أصلُه من العِيمة بالكسر ، وهى خيارُ المال ، اعتام المصَدِّق إذا أخذ العِيمة ، وقد رُوِى : « فيمن اعتماك »[1] بالقلب ، والصحيح

(١) ب : « اعتامك » ؛ والصواب ما أثبته من ا .

المشهور الأوّل ، وروى : « ولتجدنّ بك عندى هوانا » بالباء ، ومعناها اللام ؛ ولتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندى ، والباء ترد للسببيّة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[1] .

والمَحْق الإهلاك .

والمعنى أنّه نهى مصقلة عن أن يقسم الفىء على أعراب قومه الّذين اتّخذوه سيّدا ورئيسا ، ويَحْرِم المسلمين الذين حازُوه بأنفسهم وسلاحهم ؛ وهذا هو الأمر الّذى كان يُنكِره على عثمان ، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفَىْء ؛ وقد سبق شرحُ مثل ذلك مستوفًى .

(١) سورة النساء ١٦٠ .

(٤٤)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ، فَاحْذَرْهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ ، لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ .

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ : شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِه حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ .

* * *

قالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

قَوْله عليه السلام : « الوَاغِلُ » ، هو الذى يَهجُمُ على الشَّرْبِ ليشربَ معهمْ وليس منهمْ ، فَلا يَزالُ مُدفَّعاً مُحاجَزاً . والنوْطُ المُذَبذَبُ : هو ما يُناطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ من قَعْبٍ أوْ قدح ، أوْ ما أشبهَ ذلكَ ، فهوَ أبداً يتقلقلُ إذا حثَّ ظهرَهُ ، واستعجلَ سيرَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

يستزِلّ لُبّك ، يطلب زلله وخطأه ، أي يحاول أن تزلّ . واللبّ : العقل . ويستفلّ غَرْبك : يحاول أن يفلّ حدّك ، أي عزمك ، وهذا من باب المجاز . ثم أمَرَه أن يحذره ، وقال : إنه — يعني معاوية — كالشّيطان يأتي المرء من كذا ومن كذا ، وهو مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[١] ؛ قالوا في تفسيره : من بين أيديهم : يُطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان[٢] ، ومِن خلفهم : يذكرهم مخلّفيهم ، ويُحسّن لهم جمع المال وتركه لهم ، وعن أيمانهم : يحبّب إليهم الرياسة والثّناء ، وعن شمائلهم : يحبّب إليهم اللّهوَ واللذّات .

وقال شقيق البلخيّ : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد : من بين يديّ ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، أمّا من بين يديّ فيقول : لا تخفْ فإنّ الله غفور رحيم ، فأقرأ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[٣] ، وأما من خلفي فيخوّفني الضيعة على مخلّفي ، فأقرأ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾[٤] ؛ وأما من قِبَل يميني فيأتيني من جهة الثناء ، فأقرأ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٥] ، وأما من قِبَل شمالي فيأتيني من قِبَل الشهوات ، فأقرأ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[٦] .

فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل : « ومن فوقهم ومن تحتهم » ؟

---

(١) سورة الأعراف ١٧ .
(٢) كذا في ا ، وفي ب « في العصيان » .
(٣) سورة طه ٨٢ .
(٤) سورة هود ٦ .
(٥) سورة القصص ٨٣ .
(٦) سورة سبأ ٥٤ .

قلت : لأن جهة « فوق » جهةُ نزول الرحمة ، ومستقرّ الملائكة ، ومكان العرش ، والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إليها ؛ وأما من جهة « تحت » فلأن الإتيانَ منها يُوحِش ، وينفِّر عنه ، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدْعَى إلى قبول وَساوِسه وأضالِيله .

وقد فسّر قوم المعنى الأوّل فقالوا : « من بين أيديهم » ، من جهة الدنيا ، و « من خلفهم » . من جهة الآخرة ؛ و« عن أيمانهم» ، الحسنات ؛ و « عن شمائلهم » ، أى يحثّهم على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويثبّطهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات .

قوله : « ليقتحم غفلته » أى ليلجَ ويهجم عليه وهو غافل ؛ جعل اقتحامه إياه اقتحاما للغِرّة نفسها لما كانت غالبةً عليه .

ويستلب غرّته ، ليس المعنى باستلابه الغِرّة أن يرفعها ويأخذها ، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغترّ فاقدا للغفلة والغِرّة ، وكان لبيبا فطنا ، فلا يبقى له سبيل عليه ، وإنما المعنى بقوله : « ويستلب غِرّته » ما يعنيه الناس بقولهم : أخذ فلانٌ غفلتى وفعل كذا .

ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتى .

وفلتة: أمرٌ وقع من غير تثبت ولا رويّة .

ونَزْغَة : كلمة فاسدة ، من نزغات الشيطان ، أى من حركاته القبيحة التى يستفسد بها مكلفين ، ولا يثبتُ بها نسب ، ولا يستحقّ بها إرث ، لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب ، ولا يرثه المولود ، لقوله صلى الله عليه وآله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

* * *

[نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكتُبه وخطبه]

فأما زياد ، فهو زياد بن عبيد ، ومن الناس من يقول : عبيد بن فلان ، وينسبه إلى

ثقيف ، والأكثرون يقولون : إن عبيدا كان عبدا ، وإنه بـقى إلى أيام زياد ، فابتاعه وأعتقه ؛ وسنذكر ما ورد فى ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لخمول أبيه ، والدّعوة التى استلحق بها ؛ فقيل تارةً : زياد بن سميّة ، وهى أمه ، وكانت أمَةً للحارث بن كلَدَةبن عمرو بن علاج الثقفىّ ، طبيب العرب ، وكانت تحت عبيد .

وقيل تارة زياد بن أبيه ، وقيل تارة : زياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس: زياد بن أبى سفيان ، لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرّهبة والرّغبة ، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتباع الملوك إلا كالقَطْرة فى البحر المحيط ، فأما ما كان يدعى به قبل الاستلحاق فزياد بن عبيد ، ولا يشك فى ذلك أحد .

وروى أبو عمرَ بن عبدالبرّ فى كتاب «الاستيعاب» عن هشام بن محمدبن السائب الكلبىّ عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، أنّ عمر بعث زيادا فى إصلاح فساد واقع باليمن ، فلمّا رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مِثْلها ـ وأبوسفيان حاضر وعلىٌّ عليه السلام وعمرُو بن العاص ـ فقال عمرو بن العاص: للهِ أبو هذا الغلام! لو كان قرشيّا لساق العربَ بعصاه ؛ فقال أبو سفيان : إنه لقُرشىّ ، وإنى لأعرِف الّذى وضعه فى رحِم أمّه ؛ فقال علىّ عليه السلام : ومن هو ؟ قال : أنا ؛ فقال : مهلا يا أبا سفيان، فقال أبو سُفْيان :

أما واللهِ لولا خوفُ شخْصٍ ... يرانى يا علىُّ من الأعادِى
لأظهرَ أمرَه صخْرُ بن حرْبٍ ... ولم يخفِ المقالة فى زيادِ
وقد طالت مُجامَلتى ثقيفاً ... وتركى فيهمُ ثمرَ الفؤادِ

عنى بقوله : « لولا خوف شخص » : عمر بن الخطاب[1] .

---

(١) الاستيعاب ٢٠١ وما بعدها .

وروَى أحمد بن يحيى البَلاذُرِىّ قال : تـكلّم زياد ـ وهو غلام حَدَث ـ بحضرة عمر كلاما أعجَب الحاضرين ، فقـال عمرو بن العاص : لله أبوه ! لو كان قرشيّا لساق العرب بعصاه ؛ فقال أبو سُفْيان : أما والله إنـه لقُرشىّ ، ولو عرفتَه لعرفتَ أنـه خير من أهلك ؛ فقال : ومَن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعتُه فى رَحِم أمّـه ، فقال : فهلّا تستلحقه ؟ قال : أخاف هذا العَيْرَ الجالسَ أن يَخرِق علىّ إهابى .

وروَى محمد بن عمرَ الواقدىّ، قال قال: أبو سُفْيان وهو جالس عند عُمر وعلىٌّ هناك ، وقد تـكلّم زياد فأحسن : أبَتِ المناقبُ إلّا أن تَظهرَ فى شمائل زِياد ؛ فقال علىّ عليـه السلام : من أىّ بنى عبد مناف هو ؟ قال : ابـنى ؛ قال : كيف ؟ قال : أتيت أمّـه فى الجاهلية سِفاحا ! فقال علىّ عليه السلام : مه يا أبا سُفْيان ! فإنّ عمرَ إلى المساءة سريع ؛ قال : فعرف زياد مادار بينهما ، فـكانت فى نفسه .

وروَى علىّ بن محمد المدَائنىّ قال : لمّا كان زمن علىّ عليه السلام ولّى زيادا فارسَ أو بعضَ أعمال فارسَ ، فضبطها ضَبطاً صالحـا ، وجَبَى خَراجَها وحَماها ، وعرف ذلك معاوية ، فـكتب إليه : أمّا بعد ، فإنّه غرّتْك قِلاعٌ تأوى إليها ليلا ، كما تأوى الطيرُ إلى وكرها ، وأيم الله لولا انتظارى بك ما الله أعـلم به لـكان لك منّى ما قاله العبد الصالح : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(١) .

وكتَب فى أسفل الـكتاب شِعرا مِن جملته :

تَنسَى أباكَ وقـــد شالَتْ نَعامتُه ... إذ يَخطب الناس والوالى لهمْ عمرُ

فلمّا ورد الـكتاب على زيادٍ قام فخطب النـاس ، وقال : العَجَب من ابن آكلةِ الأكباد ، ورأسِ النفاق ! يهدّدنى وبينى وبينه ابن عمّ رسول الله صلّى الله عليـه وآله وزوج سيّدة نساء العالمين، وأبو السِّبطين ، وصاحب الولاية والمَنزِلة والإخاء فى مائة ألفِ

(١) سورة النمل ٣٧ .

من المهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان ! أما والله لو تخطّى هـؤلاء أجمعين إلىّ لوَجَدنى أحمرَ مِخَشّاً(١) ضَرّابا بالسيف ، ثم كتب إلى علىّ عليـه السلام ، وبعث بكتابِ معاويةَ فى كتابه .

فـكَتب إليه علىٌّ عليه السلام ، وبعث بكتابه :

أمّا بعد ، فإنى قد ولّيتك ماولّيتك وأنا أراك لذلك أهـلا ، وإنّه قد كانت من أبى سُفْيان فَلْتة فى أيّام عمر من أمانىّ التّيه وكَذِب النفس ، لم تَستوجِب بهـا ميراثا ، ولم تستحقَّ بها نَسَبا ، وإنّ معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرء من بين يديه ومِن خلفه وعَن يمينِه وعن شِماله ، فاحذره ، ثم احذره ، ثم احذره ؛ والسلام .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال : كان علىٌّ عليـه السلام قد ولّى زياداً قِطْعةً من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلمّا قُتِل علىّ عليـه السلام بقِىَ زياد فى عَمَله ، وخاف معاويةُ جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمالأته الحسنَ بنَ علىّ عليـه السلام . فـكتب إليه :

من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبى سُفْيان إلى زياد بن عبيد ، أمّـا بعد ، فإنّـك عبد قد كفرتَ النّعمة ، واستدعيتَ النّقمة ، ولقد كان الشكرُ أوْلى بك من الـكفر ، وإنّ الشجرة لَتضرِب بعِرْقها،وتتفرّع من أصلها ، إنّك ـ لاأمَّ لك بل لا أب لك ـ قد هلـكتَ وأهلـكْت ، وظننتَ أنّـك تَخرج من قبضتى ، ولا ينالك سلطانى ، هيهات ! ما كلُّ ذى لُبّ يصيب رأيُه ، ولا كلُّ ذى رأىٍ يَنصَح فى مَشورته . أمسِ عبدٌ واليومَ أمير ! خطّة ما ارتقاها مِثلُك يابن سُميّة ، وإذا أتاك كتابى هذا فخـذ الناسَ بالطاعة والبَيْعة ، وأسرِع الإجابة ، فإنّـك إن تَفعَل فدَمَـك حقَنْت ، ونفسَك تدارَكْت ، وإلّا اختَطفتُك

---

(١) المخش : الماضى الجرىء ، وفى ب : « مخبا » ، والصواب ما أثبته من ا .

بأضعف ريش(١) ، وتنلتك بأهوَن سَعْى. وأقسم قسماً مبروراً ألّا أوتى بك إلّا فى زمّارة(٢) ، تمشى حافيا من أرض فارسَ إلى الشام حتى أقيمَكَ فى السوق ، وأبيعَك عبداً ، وأردّك إلى حيث كنت فيه وخرجتَ منه . والسلام .

فلمّا ورد الكتاب على زياد غضب غضبا شديدا ؛ وجمعَ الناسَ وصعِد المنبرَ . فحمِد الله ثم قال : ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومُسِرّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق مالَه فى إطفاء نور الله ، كتب إلىّ يُرعِد ويُبرِق عن سحابةٍ جَفْل لا ماءَ فيها ، وعمّا قليل تصيّرها الرياح قزَعا ، والّذى يدلّنى على ضعفه تهدّده قبل القدرة ؛ أفمِن إشفاق علىّ تُنذِر وتُعذِر ! كلاّ ، ولكن ذَهَب إلى غير مَذهَب ، وقعقع لِمَن رُبِّىَ(٣) بين صَواعِق تِهامة ، كيف أرهبُه وبينى وبينه ابن بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وابن ابن عمّه فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذن لى فيه ، أو ندَبنى إليه، لأريته الكواكبَ نهارا ؛ ولأسعطتُه ماءَ الخردل . دونه الكلام اليوم ، والجمع غدا ، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله . ثم نزل .

وكتب إلى معاوية :

أمّا بعد ، فقد وصل إلىّ كتابك يا معاوية ، وفهمتُ ما فيه ، فوجدتُك كالغريق يغطّيه الموج فيتشبّث بالطُّحْلُب ، ويتعلّق بأرجُل الضّفادع ، طمعا فى الحياة . إنّما يكفر النعم ، ويستدعى النقم من حادّ الله ورسولَه ، وسَعَى فى الأرض فسادا . فأمّا سبُّك لى فلولا حلمٌ ينهانى عنك ، وخوف أنْ أدْعَى سفيها ، لأثرْتُ لك مَخازىَ لا يغسلها الماء . وأمّا تعييرك لى بسُمَيّة ، فإن كنتُ ابنَ سُميّة فأنت ابن جماعة ، وأمّا زعمك أنّك تختطفنى بأضعف ريش ، وتتناوَلُنى بأهوَن سَعْى ، فهل رأيت بازيا يُفزعه صغيرُ

---

(١) بأضعف ريش ؛ يريد بأضعف قوة ؛ وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقووه ويسددوه .

(٢) أى فى جماعة زمارة تزمر حولك بالمزامير للتشهير والتشنيع عليك .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب : « رُبِى » .

القَنابر ، أم هــل سمعت بذئبٍ أكَلَه خروف ! فأمض الآن لطِيَّتك ، واُجتهد جَهدَك ، فلستُ أنزِل إلّا بحيث تَـكره ، ولا أجتهدُ إلّا فيما يسوءك ، وستعلمُ أيّنا الخاضع لصاحبه ، الطالع إليه . والسلام .

فلمّا ورد كتابُ زِياد على معاوية غَمّه وأحزنه ، وبعث إلى المغيرة بن شعبة ، فخلا به وقال : يا مغيرة ، إنّى أريد مشاورَتَك فى أمرٍ أهمّنى ، فانصحْنى فيـه ، وأشِرْ علىّ برأى المجتهد ، وكن لى أكن لك ، فقد خصصتُك بِسرّى ، وآثرتك على وَلَدى . قال المغيرة : فما ذاك ؟ والله لتجدنّى فى طاعتك أمضَى من الماء إلى الحدور ، ومن ذى الرّونق فى كفّ البطل الشجاع . قال : يا مغيرة ، إنّ زيادا قد أقام بفارسَ يَـكِشّ لنا كَشِيشَ الأفاعى ، وهو رجلٌ ثاقبُ الرأى ، ماضى العزيمة ، جوّال الفـكر ، مصيبٌ إذا رمى ؛ وقد خفت منه الآن ما كنتُ آمَنه إذ كان صاحبــه حيّا ، وأخشى ممالأته حَسناً ، فـكيف السبيلُ إليه ، وما الحيلة فى إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة : أنا له إن لم أمُت ؛ إن زيادا رجل يحبّ الشرف والذّكر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة ، وألنتَ له الـكتابَ ، لـكان لك أميَـل ، وبك أوثَق ، فاكتب إليه وأنا الرسول .

فـكتب معاوية إليه :

من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبى سُفيــان إلى زياد بن أبى سُفيان ، أمّا بعد ، فإن المرء ربما طَرَحه الهوى فى مَطارح العَطَب ، وإنك لَلمرء المضرُوب به المثل ، قاطع الرحم ، وواصِلُ العــدوّ . وحَمَلك سوء ظنّك بى ، وبغضُك لى ، على أن عققتَ قرابتى ، وقطعتَ رَحِمى ، وبتتّ (١) نسبى وحُرْمتى ؛ حتّى كأنّك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ، وشتّان ما بينى وبينك ، أطالب بدم ابن أبى العاص (٢) وأنت تقاتِلنى ! ولـكنْ أدرَكَك عِرْقُ الرّخاوة من قِبَل النساء ، فـكنتَ :

(١) بتت : قطعت .

(٢) أى عثمان ؛ وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية .

كتاركةٍ بيْضَها بالعَراء   ومُلحفةٍ بيْضَ أخرى جناحا

وقد رأيتُ أن أعطفَ عليك ، ولا أؤاخذُكَ بسوء سعيك ، وأن أصِلَ رحمك ، وأبتغي الثوابَ في أمرِك ، فاعلمْ أبا المغيرة ، أنّك لو خضتَ البحرَ في طاعة القوم فتضربَ بالسيف حتّى انقطع متنه لما ازددت منهمْ إلا بعدا ؛ فإن بني عبد شمس أبغضُ إلى بني هاشم من الشَّفرة إلى الثور الصّريع وقد أُوثِق للذبح ؛ فارجع — رَحمك الله — إلى أصلك ، واتّصل بقومك ، ولا تكن كالموصول بريش[1] غيرِه ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب . ولَعَمرِي ما فَعَل بك ذلك إلّا اللّجاج ، فدعه عنك ، فقد أصبحتَ على بيّنة من أمرِك ، ووضوحٍ من حجّتِك ، فإن أحببت جانبي ، ووثقتَ بي ، فإمْرَةٌ بإمْرَة ، وإن كرهتَ جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميلٌ لا عليَّ ولا لي . والسلام .

فرحل المغيرةُ بالكتاب حتّى قدم فارسَ ، فلمّا رآه زياد قرّبه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب ، فجعل يتأمّله ويضحك ، فلمّا فرغ من قراءته وضعه تحتَ قدمِه ثم قال : حَسْبك يا مغيرة ! فإنّي أطّلع على ما في ضميرك ، وقد قدمت من سفرة بعيدة ، فقم وأرِحْ رِكابك . قال : أجل ، فدع عنك اللّجاج يرحمك الله ، وارجع إلى قومك ، وصِل أخاك ، وانظر لنفسك ، ولا تقطع رحِمك ! قال زياد : إنّي رجلٌ صاحب أناة ، ولي في أمري رَوِيّة ، فلا تَعجل عليّ ، ولا تبدأني بشيء حتى أبدأك . ثمّ جمع الناسَ بعد يومين أو ثلاثة ، فصعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها النّاس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذ قتل عثمانُ ، وفكّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي ، في كلّ عيدٍ يُذبَحون ، ولقد أفنى هذان اليومان — يوم الجمل وصِفّين — ما يُنيف على مائةِ ألفٍ ؛ كلّهم يزعم أنّه طالبُ حقّ ، وتابعُ إمام ، وعلى بصيرة من أمرِه ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنّة ، كلّا

---

(١) ب : « كالموصول بطير بريش غيره » .

ليس كذلك ، ولكنْ أشكل الأمر ، والتبَس على القومِ ، وإنى لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئٍ بسلامةِ دينه ! وقد نظرتُ فى أمر الناس فوجدتُ أحدَ العاقبتَيْن العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تَحمَدون عاقبتَه وَمَغَبّته ، فقد حمدتُ طاعتكم إن شاء الله ثم نزل .

وكتب جوابَ الكتاب :

أمّا بعد ، فقد وصل كتابُك يا معاوية مع المغيرة بن شُعْبة وفهمتُ ما فيه ، فالحمد لله الّذى عرّفك الحقّ ، وردّك إلى الصّلة ، ولست ممّن يجهل معروفا ، ولا يغفل حَسَبا ، ولو أردتُ أن أجيبَك بما أوجبتْه الحجّة ، واحتمله الجواب ، لطال الكتاب ، وكثُر الخطاب ، ولكنّك إن كنتَ كتبتَ كتابَك هذا عن عَقْد صحيح ، ونيّة حسنة ، وأردتَ بذلك برّا ، فستزرع فى قلبى مودّة وقبولا ، وإن كنتَ إنّما أردتَ مكيدةَ ومكرا وفساد نيّة ، فإنّ النفس تأبى ما فيه العَطَب ، ولقد قمتُ يومَ قرأتُ كتابَك مقاما يعبأ به الخطيب الدِّرَه ، فتركت من حضر ، لا أهل ورْدٍ ولا صدر ، كالمتحيّرين بمَهْمَهٍ ضلّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير ، وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا مَعشرِى لم يُنصِفونى وجدتَنى ... أدافع عنّى الضَّيمَ ما دمتُ باقيَا
وكم معشرٍ أعيَتْ قَناتى عليهمُ ... فلامُوا وألفوْنى لَدَى العزم ماضيَا
وهمٍّ به ضاقتْ صدورٌ فرجْتُه ... وكنتُ بطبّى للرجال مُداوِيا
أدافِع بالحِلم الجهولَ مكيدةً ... وأخفى له تحت العِضاهِ الدّواهيا
فإن تدنُ منى أدنُ منك وإن تَبِنْ ... تجدنى إذا لم تَدْنُ مِنّىَ نائيَا

فأعطاه معاويةُ جميعَ ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقرّبه وأدناه ، وأقرّه على ولايته ، ثم استعمله على العراق .

***

وَرَوى علىّ بن محمد المدائنىّ ، قال : لمّا أراد معاوية استلحاق زيادٍ وقد قدم عليه الشام جمعَ الناس وصَعِد المنبر ، وأصعد زيادا معه فأجلسه بين يديه على المِرْقاة التى تحت مِرْقاته ، وحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنّى قد عرفتُ نَسبنا أهل البيت فى زيادٍ ؛ فمن كان عنده شهادة فليقُم بها . فقام ناس فشهدوا أنه ابنُ أبى سُفْيان ؛ وأنهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته ، فقام أبومريمَ السَّلُولىّ — وكان خمّارا فى الجاهلية — فقال : أشهدُ يا أميرَ المؤمنين أنّ أبا سفْيان قَدِم علينا بالطائف ، فأتانى فاشتريت له لحما وخمرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ، أَصِب لى بغيًّا ، فخرجتُ فأتيتُ بسُمَيّة ، فقلت لها : إنّ أبا سُفْيان ممّن قد عرفت شرفَه وجُودَه ، وقد أمرنى أن أصيبَ له بغيًّا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم ، يجىء الآن عبيد بغنمه — وكان راعيا — فإذا تعشّى ، ووَضع رأسه أتيته . فرجعتُ إلى أبى سفيان فأعلمتُه ، فلم نلبثْ أن جاءت تجرّ ذيلَها ، فدخلتْ معه ، فلم تزل عندَه حتّى أصبحتْ ؛ فقلت له لما انصرفتْ : كيف رأيتَ صاحبتَك ؟ قال : خيرَ صاحبة ، لولا ذَفَرٌ فى إبطيها .

فقال زياد من فوق المنبر : يا أبا مريم ، لا تَشتم أمهات الرجال ، فتشتَم أمّك .

فلما انقضى كلامُ معاوية ومناشدَته قام زياد ، وأنصت الناس ؛ فحمد اللهَ وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم ، ولستُ أدرى حقّ هذا من باطِله ! وهو والشهودُ أعلم بما قالوا ، وإنما عبيد أبٌ مبرور ، ووالٍ مشكور . ثم نزل .

***

وروى شيخُنا أبو عثمان أنّ زيادا مرّ وهو والى البصرة بأبى العُرْيان العَدَوِىّ — وكان شيخا مكفوفا ، ذا لَسَنٍ وعارضة شديدة — فقال أبو العُرْيان : ما هذه الجَلَبة ؟ قالوا : زياد بن أبى سُفْيان ، قال : والله ما ترك أبو سُفْيان إلّا يزيد ومعاوية وعُتبة وعَنْبسة وحنظلة ومحمّدا ، فمن أين جاء زياد ؟ فبلغ الكلامُ زيادا ، وقال له قائل : لو سددتَ

عنك فمَ هذا الكلب ! فأرسل إليه بمائتي دينار ، فقال له رسول زياد : إنّ ابنَ عمّك زيادا الأمير قد أرسَل إليك مائتي دينار لتُنفقها ، فقال : وصلتْه رَحِم ! إي والله ابن عمّي حقّا . ثم مرّ به زياد من الغد في موكِبه ، فوقف عليه فسلّم ، وبكى أبو العُرْيان ، فقيل له : ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوتَ أبي سُفْيان في صوت زِياد . فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إلى أبي العُرْيان :

ما ألبثَتْك الدنانيرُ التي بُعِثت ... أنْ لوّنتْكَ أبا العُرْيانِ ألوانَا
أمسَى إليك زياد في أرومتِه ... نُكْرا فأصبح ما أنكرت عِرْفانا
لِلهِ درُّ زيادٍ لو تعجّلها ... كانت له دون مايخشاه قُرْبانا !

فلمّا قرِئ كتابُ معاوية على أبي العُرْيان قال : اكتب جوابه يا غلام :

أحدِثْ لنا صِلَةً تحيا النفوسُ بها ... قد كِدتَ يابن أبي سُفْيان تَنْسانا
أمّا زِيادٌ فقد صحّت مَناسِبُه ... عندي فلا أبتغي في الحقّ بُهتانا
مَن يُسْدِ خيراً يُصِبْه حين يَفْعلهُ ... أو يُسْدِ شرّا يُصِبْه حيثما كانا

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : كتب زيادٌ إلى معاوية ليستأذنه في الحجّ ، فكتب إليه : إنّي قد أذنتُ لك واستعملتُك على الموسم ، وأجزتُك بألفِ ألفِ درهم . فبينا هو يتجهّز إذ بلغ ذلك أبا بَكْرة أخاه ـ وكان مُصارِماً له منذ لَجْلَج في الشهادة على المغيرة بن شعبة أيّام عمر لا يكلّمه قد لزمتْه أيمانٌ عظيمة ألّا يكلّمه أبدا ـ فأقبلَ أبو بكْرة يدخُل القصر يريد زيادا ، فبصُر به الحاجب ، فأسرع إلى زياد قائلا : أيّها الأمير ، هذا أخوك أبو بَكْرة قد دخل القصر ؛ قال : ويحك ، أنت رأيته ! قال هاهو ذا قد طلع ، وفي حجْر زيادٍ بُنيّ يلاعبه ، وجاء أبو بَكْرة حتّى وقف عليه ، فقال للغلام : كيف أنت يا غلام ؟ إنّ أباكَ ركِب في الإسلام عظيما ! زنَى أمّه ، وانتفَى من أبيه ، ولا والله ماعلمت سميّة رأتْ

أبا سُفْيان قطّ ، ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك ، يوافى الموسم غداً ، ويوافى أمّ حبيبةَ بنت أبى سُفْيان ، وهى من أمّهات المؤمنين ، فإن جاء يستأذن(١) عليها فأذنتْ له؛ فأعظمْ بها فِرْيَة على رسول الله صلّى الله عليه وآله ومصيبة ! وإن هى منعته فأعظِمْ بها على أبيك فضيحة ! ثمّ انصرف ، فقال : جزاك الله يا أخى عن النصيحة خيراً ؛ ساخطاً كنتَ أو راضيا . ثم كتب إلى معاوية : إنّى قد اُعتللت عن الموسم فليوجّه إليه أمير المؤمنين من أحَبّ ، فوجّه عتبة بن أبى سُفْيان .

* * *

فأمّا أبو عمرَ بنُ عبدالبرّ فى كتاب « الاستيعاب » فإنّه قال : لمّا ادّعى معاوية زيادا فى سنة أربع وأربعين وألحقه به أخاً زوج اُبنتــه من اُبنه محمّد بن زياد ليؤكّد بذلك صحّة الاستلحاق ، وكان أبو بَكْرة أخا زيادٍ لأمه، أمّهما جيعا سُميّة ، فحلف ألاّ يكلّم زيادا أبدا وقال : هذا زَنّى أمّه ، وانتفى من أبيه ، ولا والله ما علمت سُميّة رأت أبا سُفْيان قبل(٢) ، وَيْله ما يصنع بأمّ حبيبة ! أيريد أن يراها ؟ فإنْ حجبتْه فضحته ؛ وإن رآها فيالها مصيبة ! يهتك من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله حرمةً عظيمة !

وحجّ زياد مع معاوية ، ودخل المدينــة فأراد الدخول على أمّ حبيبة ثم ذكر قولَ أبى بَكْرة ، فانصرف عن ذلك . وقيــل : إنّ أمّ حبيبة حجبتْه ولم تأذَن له فى الدّخول عليها ، وقيل : إنّه حجّ ولم يَرِد(٣) المدينة من أجل قول أبى بَكْرة ، وإنّه قال : جزى الله أبا بكرة خَيْرا فما يَدَع النصيحة فى حال .

ورَوَى أبو عمرَ بن عبد البرّ فى هذا الكتاب قال : دخل بنو أميّة وفيهم عبدُ الرحمن ابنُ الحكم على معاوية أيّام ما استلحق زيادا ، فقال له عبد الرحمن : يا معاوية ، لو لم تجد إلّا الزّنج لاستكثرتَ بهم علينا قلّة وذلّة ـ يعنى على بنى أبى العاص . فأقبل معاويةُ

---

(١) ب : « أن يستأذن » . (٢) ا والاستيعاب : « قط » . (٣) ا : « يزر » .

على مَرْوانَ وقال : أخرج عنّا هذا الخليع ، فقال مرْوان : إى واللهِ أنّه لخليع ما يطاق ، فقال معاوية : والله لولا حلمي وتجاوُزى لعلمتَ أنّه يطاق ، ألم يبلغنى شعرُه فيّ وفى زياد ! ثم قال مروان : أسمِعْنيه ، فأنشد :

ألا أبلغْ معاوية بن حَرْبٍ لقد ضاقتْ بمـا يأتى اليَدانِ
أتغضَبُ أن يقال أبوك عَفٌّ وتَرضَى أن يقال أبوك زانِ !
فأشهد أنّ رَحمَـك من زيادٍ كرَحْمِ الفيلِ من وَلَدِ الأتانِ
وأشهد أنهـا حملتْ زِيادا وصخرٌ من سُميّةَ غيرُ دانِ[(١)]

ثم قال[(٢)]: واللهِ لا أرضى عنه حتى يأتى زيادا فيترضّاه ويعتذر إليه ، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذرا يستأذِن عليه ، فلم يأذن له ، فأقبلتْ قريش إلى زياد تـكلّمه فى أمر عبد الرحمن ، فلمّا دخل سلّم ، فتشاوس له زياد بعينه ـ وكان يكسِر عينَه ـ فقـال له زياد : أنت القائـل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الّذى قلت ؟ قال : قلت ما لا يقال ؛ قال : أصلح الله الأمير ! إنّه لا ذنب لمن أعتَب ، وإنمـا الصَّفح عمّن أذنب ، فاسمع منى مـا أقول ، قال : هاتِ ، فأنشده :

إليك أبا المغـيرة تبتُ ممّـا جَرَى بالشام مِنْ خَطَلِ اللّسانِ[(٣)]
وأغضبتُ الخليفة فيـك حتّى دعاه فَرْطُ غيظٍ أن هجـانى
وقلتُ لمن لحانى فى اعتذارى[(٤)] إليـك اذهبْ فشأنك غيرُ شانى

(١) بعدها فى الاستيعاب : « وهذه الأبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الشاعر ؛ ومن رواها له جعل أولها :

ألَا أبلغ معاوية بن حربٍ مغلغلةً من الرّجُلِ اليمـانى

وذكر الأبيات كما ذكرناها سواء » .

(٢) فى الاستيعاب : « وروينا أن معاوية قال حين أنشده مروان شعر أخيه عبـد الرحمن : والله لا أرضى . . .

(٣) الاستيعاب : « من جور اللسان » . (٤) الاستيعاب : « لمن يلمنى » .

عرفت الحقّ بعد ضلالِ رأيي وبعد الغيِّ من زيغ الجنان

زيادٌ من أبي سُفيان غُصنٌ تهادى ناضرا بين الجنان

أراكَ أخاً وعمّاً وابن عمٍّ فما أدري بعَيْبٍ ما تراني

وإنّ زيادةً في آلِ حرْب أحبُّ إليّ من وُسْطى بنانى

ألا أبلغ معاوية بنَ حربٍ فقد ظفرتْ بما تأتى اليدانِ

فقال زياد : أراكَ أحمق صِرْفا شاعرا ضيع اللّسان، يسوغ لك ريقك ساخطا ومسخوطا، ولكنا قد سمعنا شعرَكَ ، وقبلْنا عذرَكَ ؛ فهات حاجتك ؟ [(١] قال : تكتب إلى أمير المؤمنين بالرّضا عنّى ، قال : نعم ، ثمّ دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه[١)] ، فأخذ كتابه ومضى حتى دخل على معاوية ، فلمّا قرأه قال : لحا الله زيادا ، لم يتنبّه لقوله :

* وإنّ زيادةً في آلِ حرب *

ثم رضي عن عبد الرحمن وردّه إلى حالته .

وأما أشعار يزيد بن مفرّغ الحميرىّ وهجاؤه عبيدَ الله وعبّادا ؛ ابني زياد بالدعوة فكثيرة مشهورة ، نحو قوله :

أعبّادُ ما للُّؤم عنك تحوُّلٌ[(٢)] ولا لك أمٌّ من قريش ولا أبُ

وقل لعبيد الله مالك والدٌ بحقّ ولا يدرى امرؤ كيف تنسبُ

ونحو قوله :

شهدت بأنّ أمك لم تُباشِرْ أبا سُفْيان واضعة القناعِ

(١ ـ ١) الاستيعاب : « قال : كتاب إلى أمير المؤمنين بالرضا عنى ، قال : نعم ، ثم دعا كاتبه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنه . . . وذكر الخبر » .

(٢) ا : « محول » .

ولكنْ كان أمرٌ فيه لبْسٌ ... على حَذَرٍ شديد وارتياعِ

إذا أودَى معاوية بنُ حرب ... فبشِّرْ شعبَ قعبك بانصِداعِ

ونحو قوله :

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بَكْرةَ عندى من أعجب العَجَبِ

هم رجالٌ ثلاثةٌ خُلِقوا ... فى رَحْمِ أنثى وكلُّهمْ لأبِ

ذا قرشىٌّ كما تقول وذا ... مولًى وهذا بزعمه عَرَبى(١)

كان عبيد الله بن زياد يقول : ما شجيتُ بشىء أشدَّ علىّ من قول ابن مفرِّغ :

فكِّرْ ففى ذاكَ إنْ فكرتَ معتبَرٌ ... هل نلتَ مكرُمةً إلّا بتأمير !

عاشت سميّةُ ما عاشت وما علمتْ ... أنَّ ابنها من قريش فى الجماهير

ويقال : إنَّ الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم ليزيد بن مفرِّغ وأن أوّلها :

ألا أبلغْ معاوية بن حربٍ ... مغلغلةً من الرَّجُلِ اليمانى

ونحو قوله ، وقد باعَ برد غلامه لما حبسه عبّاد بن زياد بسجستان :

يا بُرْدُ ما مسَّنا دهرٌ أضرّ بنا ... من قبل هذا ولا بعنا له وَلَدَا

لامتنىَ النفسُ فى بُرْدٍ فقلتُ لها ... لا تَهلَكى إثر بُرْد هكذا كمدا

لولا الدعىّ ولولا ما تعرّض بى ... من الحوادث ما فارقته أبدا

ونحو قوله :

أبلغ لديك بنى قحطانَ مألُكةً ... عضّت بأيْرِ أبيها سادةُ اليمن

أضحَى دعىّ زياد فقْعَ قرقَرَةٍ ... يا للعجائب يلهو بابن ذى يزَن !

---

(١) كذا فى ا والاستيعاب ، وفى ب : « وهذا ابن عمه » .

وَرَوَى ابن الكلبيّ أنّ عبّاد استلحقه زياد كما استلحق معاوية زيادا ؛ كلاهما لدعوة .
قال : لمّا أذِن لزياد في الحجّ تجهّز ، فبينا هو يتجهّز وأصحاب القِرَب يعرضون عليه قِرَبهم ، إذ تقدّم عبّاد — وكان خَرّازاً — فصار يَعرِض عليه ويحاوره ويجيبه ، فقال زياد : وَيْحك ، مَن أنت ؟ قال : أنا ابنك ؛ قال : وَيْحك ، وأيّ بنيّ ؟ قال : قد وقعتَ على أمّي فلانة ، وكانت من بني كذا ، فولدتني ، وكنت في بني قيس بن ثعلبة وأنا مملوك لهم ، فقال : صدقت والله ؛ إني لأعرف ما تقول . فبعث فاشتراه ، وادّعاه وألحقه ؛ وكان يتعهّد بني قيس ابن ثعلبة بسببه ويصلهم . وعظم أمرُ عبّاد حتّى ولّاه معاوية سِجِسْتان بعد موتِ زياد ، وولّى أخاه عبيد الله البصرة ، فتزوّج عبّاد الستيرة[1] ابنة أُنيف بن زياد الكلبيّ ، فقال الشاعر يخاطب أُنيفا — وكان سيّد كلب في زمانه :

أبلغ لديك أبا تُرْكانَ مأْلُكةً[2] ... أنائماً كنتَ أم بالسّمع مِن صَمَمِ !
أنكحتَ عَبد بني قيس مهذّبةً ... آباؤها من عُلَيم مَعدِن الكرَم
أكنت تجهل عبّادا ومحتِدَه ... لا درّ درُّك أم أنكحتَ من عَدَمِ
أبعد آل أبي سُفْيان تجعله ... صِهْراً وبعد بني مروانَ والحكَمِ !
أعظِمْ عليكَ بذا عاراً ومَنقصةً ... ما دمتَ حيّا وبعد الموت في الرّحِمِ

***

وقال الحسن البصريّ : ثلاث كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهنّ لكانت موبقةً : انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها ، واستلحاقه زيادا مُراغمةً لقول رسول الله : « الوَلَد للفراش، وللعاهر الحجَر »، وقتلُه حُجْر بن عَديّ ؛ فياويله من حُجْر وأصحاب حُجْر !

(١) كذا في ب : « الشترة » . (٢) ب : « بركان » .

وروى الشَّرْقى بن القطامىّ ، قال : كان سعيد بن سَرْح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : فلمّا قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه ، فأتى الحسن بن علىّ عليه السلام مستجيرا به ، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم ، وأخذ مالَه ، ونقض دارَه . فكتب الحسن بنُ علىّ عليه السلام إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنك عَمَدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهدمت دارَه ، وأخذتَ ماله ، وحبستَ أهلَه وعيالَه ؛ فإن أتاك كتابى هذا فابنِ له دارَه ، واردُد عليه عيالَه وماله ، وشفّعنى فيه ، فقد أجرتُه . والسلام .

فكتب إليه زياد :

من زياد بن أبى سُفيان إلى الحسَن بن فاطمة ، أمّا بعد ، فقد أتانى كتابُك تبدأ فيه بنفسك قبلى ، وأنت طالب حاجة ، وأنا سلطان وأنت سُوقة ، وتأمرنى فيه بأمر المطاع المسلّط على رعيّته . كتبت إلىّ فى فاسق آويته، إقامةً منك على سوء الرأى ، ورضاً منك بذلك ، وايمُ الله لا تسبقنى به ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرعٍ عليك ، فإنّ أحبّ لحم علىّ أن آكله لَلّحم الّذى أنت منه ، فسلّمه بجريرته إلى من هو أولى به منك ، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفّعتك فيه ، وإن قتلتُه لم أقتله إلّا لحبّه أباك الفاسق ؛ والسلام .

فلمّا ورد الكتاب على الحسَن عليه السلام قرأه وتبسّم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وجعل كتاب زياد عِطفه ، وبعث به إلى الشام ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما :

من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سميّة ، أمّا بعد ، فإن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجَر » ؛ والسلام .

فلمّا قرأ معاويةُ كتابَ زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنّ الحسن بن علىّ بعث إلىّ بكتابك إليه جوابا عن كتاب كتبه

إليك فى ابن سَرْح ؛ فأكثرت العجبَ منك ، وعلمتُ أنّ لك رأيين : أحدُهما من أبى سُفْيان ، والآخر من سُمَيّة ، فأما الّذى من أبى سفيانَ فحِلْمٌ وحزم ، وأمّا الذى من سُمَيّة، فما يكون من رأى مِثلها ! من ذلك كتابك إلى الحسن تَشْتُم أباه ، وتعرّض له بالفسق ، ولَعَمرِى إنّك الأَوْلى بالفِسق من أبيه . فأمّا أنّ الحسنَ بدأ بنفسه ارتفاعا عليك، فإن ذلك لا يضعك لو عقلت ، وأمّا تسلّطه عليك بالأمر فحقّ لِمثل الحسن أن يتسلّط ، وأمّا تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك، فحظٌّ دفعتَه عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا ورد عليك كتابى فخلِّ ما فى يديك لسعيد بن أبى سَرْح ، وابن له دارَه ، واردد عليه مالَه ، ولا تعرّض له ، فقد كتبتُ إلى الحسن أن يخيِّره ، إن شاء أقام عنده ، وإن شاء رجع إلى بلده ، ولا سلطان لك عليه لا بيدٍ ولا لسان . وأمّا كتابُك إلى الحسن باسمه واسم أمّه ، ولا تَنسُبه إلى أبيه ، فإن الحسن وَيحك ! من لا يُرمَى به الرَّجَوان (١) ، وإلى أىّ أمّ وكَلْته لا أمَّ لك ! أما علمتَ أنّها فاطمةُ بنتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فذاك أفخر له لو كنتَ تعلَمه (٢) وتعقلُه ! وكَتَب فى أسفل الكتاب شعرا، من جملته :

أمَا حَسَنٌ فابنُ الّذى كان قبلَهُ … إذا سار سارَ الموتُ حيث يسيرُ

وهل يلد الرِّئبال إلاّ نظيرَه … وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظيرُ

ولكنّه لو يوزَن الحلم والحجا … بأمرٍ لقالوا يذبلٌ وثبيرُ

***

---

(١) الرجا : ناحية كل شىء ، وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها ؛ ويقال : رمى به الرجوان : استهين به ، فكأنه رمى به هنالك ؛ أرادوا أنه طرح فى المهالك ؛ قال :

لقدْ هزِئتْ مِنّى بنجرانَ أنْ رأتْ … مقامِىَ فى الكبلَيْن أمّ أبانِ

كأن لم ترى قبلِى أميراً مكبّلاً … ولا رجلا يُرمَى به الرَّجَوان

أى لا يستطيع أن يتمسك .

(٢) ساقطة من ب .

وروَى الزُّبير بن بكّار فى « الموفّقيّات » أنّ عبد الملك أجرى خَيْلا، فسبقه عبّاد بن زياد ، فأنشد عبد الملك :

سبَق عبّاد وصلّت لحيتهْ وكان خَرّازاً تجود قربتهْ

فشكى عبّاد قولَ عبد الملك إلى خالد بن يزيدَ بن معاوية ، فقال له : أما والله لأنصفنّك منه بحيث يكره . فزوّجه أختَه ، فكتب الحجّاج إلى عبد الملك : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ مناكِحَ آل أبى سفيان قد ضاعت . فأخبرَ عبدُ الملك خالدا بما كتب به الحجّاج ، فقال خالد: يا أميرَ المؤمنين ، ما أعلم امرأةً منّا ضاعت ونزلت إلّا عاتكةَ بنت يزيدَ بن معاوية ، فإنّها عندكَ ، ولم يَمنِ الحجّاج غيرَكَ . قال عبد الملك : بل عنى الدّعى ابن الدّعىّ عبّادا ، قال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أنصفتَنى ، أدّعى رجلا ثم لا أزوّجه ! إنما كنت ملوما لو زوّجت دعيّك ، فأمّا دَعيّى فلمَ لا أزوّجه !

***

فأما أوّل ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عبّاس له على البصرة فى خلافة علىّ عليه السلام ، وبلغت عليًا عنه هَنات ، فكتب إليه يلومه ويؤنّبه ، فمنها الكتاب الّذى ذكر الرضىّ رحمه الله بعضَه ، وقد شرحْنا فيما تقدّم ما ذكر الرضىّ منه ، وكان علىّ عليه السلام أخرج إليه سعْداً مولاه يحثّه على حَمْل مال البَصرة إلى الكُوفة ، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة ومنازعة ، وعاد سعد وشكاه إلى علىّ عليه السلام وعابه ، فكتب علىّ عليه السلام إليه :

أمّا بعد ، فإن سعداً ذكر أنك شتمتَه ظُلما ، وهدّدته وجَبهتَه تجبّرا وتكبُّرا ، فما دعاكَ إلى التكبُّر وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « الكبرُ رداء الله ، فمن نازَعَ الله رداءه قصَمَه » ، وقد أخبرَنى أنك تُكثّر من الألوان المختلفة فى الطعام فى اليوم الواحد ،

وتدّهن كلّ يوم ، فما عليك لو صُمْتَ لله أيّاما ، وتصدّقتَ ببعض ماعندك محتسبا ، وأكلت طعامَك مرارا قفارا ، فإنّ ذلك شعارُ الصالحين ! أفتطمع وأنت متمرّغ فى النعيم ، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم ، أن يُحسَب لك أجرُ المتصدّقين ! وأخبَرنى أنك تتكلم بكلام الأبرار ، وتعمل عمل الخاطئين ، فإن كنتَ تفعل ذلك فنفسَك ظلَمْتَ ، وعملَك أحبطْت ، فتبْ إلى ربّك يُصلحْ لك عملَك ، واقتصد فى أمرك ، وقدّمْ إلى ربك الفضل ليوم حاجتك ، وادّهن غبّا ؛ فإنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ادّهنوا غبّا ولا تدّهنوا رِفها(١) » .

فكتب إليه زياد : أمّا بعد يا أمير المؤمنين ، فإن سعدا قدِم علىّ فأساء القول والعمل ، فانتهرْتهُ وزجرته ، وكان أهلاً لأكثر من ذلك . وأمّا ما ذكرتَ من الإسراف واتّخاذ الألوان من الطعام والنّعم ، فإنْ كان صادقا فأثابه الله ثوابَ الصالحين ، وإن كان كاذبا فوقاه الله أشدّ عقوبة الكاذبين . وأمّا قوله : « إنى أصف العدل وأخالفه إلى غيره » ، فإنّى إذَنْ من الأخسرين . فخذ يا أمير المؤمنين بمقالٍ قلته فى مقامٍ قمته ؛ الدعوى بلا بيّنة ؛ كالسهم بلا نَصْل ؛ فإن أتاك بشاهدَىْ عدلٍ ؛ وإلّا تبيّن لك كذبه وظلمُه .

* * *

ومن كلام زياد : تأخيرُ جزاء المحسن لؤم ، وتعجيل عقوبة المُسىء طيش .

وكتب إليه معاوية : أمّا بعد ، فاعزل حريثَ بن جابر عن العمل ، فإنّى لا أذكُر مقاماته بصفّين إلّا كانت حَزازة فى صدرى ، فكتب إليه زياد :

أمّا بعد ، فخفّض عليك يا أمير المؤمنين ، فإنّ حُريثا قد سبق شرفا لا يرفعه معه عمل ، ولا يَضَعه معه عزْل .

---

(١) الرفه والإرفاه : كثرة التدهن والتنعم .

وقال لابنه عبيد الله : عليك بالحجاب ، وإنّما اجترأتِ الرُّعاة على السِّباع بكثرة نظرِها إليها .

ومن كلامه : أحسنوا إلى أهل الخراج ، فإنّكم لا تزالون سِماناً ما سمنوا .

قدّم رجلٌ خصماً له إلى زياد في حقٍّ له عليه وقال : أيها الأمير ، إنّ هذا يُدِلُّ بخاصة ذكر أنّها له منك . قال زياد : صَدَق ، وسأخبرك بما ينفعه عندي من خاصّته ومودّته ، إن يكن له الحقّ عليك آخذْك به أخذاً عنيفا ، وإن يكن الحقّ لك قضيتُ عليه ، ثم قضيت عنه .

وقال : ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه ، لكنّ العاقل مَنْ يحتال للأمر ألّا يقع فيه .

وقال في خطبة له : ألا رُبَّ مسرورٍ بقدُومنا لا نسرّه ، وخائف ضرّنا لا نضرُّه !

كان مكتوبا في الحيطان الأربعة في قصر زياد كتابة بالجصّ ، أربعة أسطر ؛ أوّلها : الشدّة في غير عُنْف ، واللِّينُ في غير ضَعْف . والثاني : المحسن مجازًى بإحسانه ، والمسيء يكافأ بإساءته . والثالث : العطيّات والأرزاق في إبّانها وأوقاتها . والرابع : لا احتجاب عن صاحب ثغرٍ ، ولا عن طارق ليل .

وقال يوما على المنبر : إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يَشفِي بها غيظه لا يقطع بها ذنب عنزٍ فتَضرّه ، لو بلغتنا عنه لسفكْنا دَمه .

وقال : ما قرأتُ كتابَ رجل قطّ إلّا عرفتُ عَقلَه منه .

وقال في خطبة : استوصُوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ ؛ فوالله لا يأتيني وضيعٌ بشريف يستخفّ به إلّا انتقمتُ منه ، أو شابٌّ بشيخ يستخفّ به إلا أوجعتُه ضربا ، ولا جاهلٌ بعالم يستخفُّ به إلّا نكّلت به .

وقيل لزياد : ما الحظّ ؟ قال : أن يطولَ عمرُك ، وترَى فى عدوّك ما يسرّك .

قيل : كان زياد يقول : هما طريقان للعامة : الطاعة والسيف .

وكان المغيرة يقول : لا والله حتى يحملوا على سبعين طريقا غير السيف .

وقال الحسن البصرىّ لرجل : ألا تحدّثنى بخطبتىْ زياد والحجّاج حين دَخَلَا العراق ! قال : بلى ، أمّا زياد فلمّا قدم البصرة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ معاوية غيرُ مخوف على قومه ، ولم يكن لِيُلحِق بنسبه من ليس منه ، وقد شهدَتِ الشهودُ بما قد بلغكم ، والحقّ أحقُّ أن يُتَّبَع ، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم ، وقد رحلتُ عنكم وأنا أعرف صَديقى من عدوّى ، ثمّ قدمتُ عليكم وقد صار العدوّ صديقا مناصحا ، والصديق عدوّا مكاشحا ، فلْيشتمِل كلّ امرئٍ على ما فى صدره ، ولا يكوننّ لسانه شَفرةً تجرى على أوداجه ، وليعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنّى قد حملتُ سيفى بيدى ، فإن أشهره لم أغمدْه ، وإن أغمدْه لم أشهرِه . ثم نزل . وأمّا الحجّاج فإنه قال : من أعْيَاهُ داؤه ، فعلَىّ دواؤه ؛ ومن استبطأ أجلَه ؛ فعلىّ أن أعجّله ؛ ألا إنّ الحزم والعَزْم استلبا منّى سوطى ، وجعلا سوطى سيفى ، فنجادُه فى عنقى ، وقائمه بيدى ، وذُبابه قلادةٌ لمن اغترّ بى .

فقال الحسن : البؤس لهما ، ما أغرّهما بربّهما ! اللهمّ اجعلْنا ممن يعتبر بهما .

وقال بعضهم : ما رأيت زيادا كاسراً إحدى عينيه ، واضعا إحدى رجليه على الأخرى يخاطب رجلا إلا رحِمتُ المخاطَب.

ومن كلامه : نعم الشىء الإمارة ؛ لولا قعقعة لجام البريد ، وتسنّم ذِرْوة المنبر .

قال لحاجبه : يا عجلان ، إنّى قد ولّيتك هذا الباب وعزلتك عن أربعة : المنادى إذا جاء يؤذّن بالصلاة ، فإنّها كانت كتابا موقوتا ، ورسولِ صاحب الثغر ، فإنه إنْ أبطأ

ساعةً فسد تدبيرُ سنة ، وطارق اللّيل فشرٌّ ما جاء به ، والطبّاخ إذا فرغ من الطعام ، فإنّه متى أعيد عليه التّسخين فَسَد .

وكان حارثة بن بدر الغُدَانىّ قد غلب على زياد ، وكان حارثة مشتهرا بالشراب ، فقيل لزياد فى ذلك ، فقال : كيف باطّراح رجل هو يسايرنى منذ قدِمْت العراق فلا يصلُّ ركابُه ركابى ، ولا تقدّمنى قطّ فنظرتُ إلى قفـاه ، ولا تأخّر عنّى فلوَيْت عنق إليه ، ولا أخذ علىّ الشمس فى شتاء قطّ ، ولا الرّوْح فى صَيْف قطّ ، ولا سألته عن علم إلّا ظننته لا يحسِن غيرَه .

ومن كلامه : كفى بالبخل عارا أنّ اُسمَه لم يقع فى حمدٍ قطّ ، وكفى بالجُود فخراً أنّ اسمه لم يقع فى ذمّ قط .

وقال : مِلاك السّلطان الشدّةُ على المريب ، واللّين للمحسن ، وصِدْق الحديث ، والوفاء بالعهد .

وقال : ما أتيتُ مجلسا قطُّ إلّا تركتُ منه ما لو أخذتُه لكان لى ، وتركُ مالى أحبُّ إلىّ من أخذِ ما ليس لى .

وقال : ماقرأتُ مثلَ كُتب الرّبيع بن زياد الحارثىّ ، ما كتب إلىّ كتابا قطّ إلّا فى اجترار منفعة ، أو دفع مَضَرّة ، ولا شاورته يوما قطُّ فى أمرٍ مبهم إلّا وسَبَق إلى الرأى .

وقال : يُعجبنى من الرجل إذا أتى مجلسا أنْ يعلم أين مكانه منه ، فلا يتعدّاه إلى غيره ، وإذا سيم خُطّةَ خَسْفٍ أن يقول : « لا » بملءِ فيه .

***

فأما خطبةُ زياد المعروفة بالبتراء ـ وإنّما سمّيت بذلك لأنّه لم يحمد الله فيها ، ولا صلّى على رسولِه ـ فقد ذكرها علىُّ بن محمّد المدائنى قال : قَدِم زياد البَصْرة أميراً عليها أيّام معاوية والفِسقُ فيها فاشٍ جدا ، وأموالُ النـاس منتهبَة ، والسياسة ضعيفة ، فصَعِد المنبرَ فقال :

أمّا بعد، فإنّ الجاهليّة الجَهْلاء[1]، والضَّلالة العَمْياء، والغيّ الموفِد لأهله على النار، مافيه سفهاؤكم، ويَشتَمل عليه حُلَماؤكم؛ من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأنّكم لم تقرءوا كتابَ الله، ولم تستمعوا ما أعَدّ من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذابِ الأليم لأهل معصيته، فى الزّمن السّرمد الّذى لا يزول.

أتكونون كمن طرفَتْ عينه[2] الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية! لا تذكرون[3] أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدَث الّذى لم تُسبَقوا به؛ من تركِكم الضعيف يُقهر ويُؤخذ مالُه[4]، والضعيفة المسلوبة فى النهار المُبصر، هذا والعددُ غير قليل!

ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلَج الليل[5] وغارة النهار! قرّبتم القرابة، وباعدتم الّذين يعتذرون بغير العُذْر، ويُعطون[6] على المختلس، كلّ امرئٍ منكم يذبّ عن سيفه، صنيع[7] من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا. ما ما أنتم بالحلماء، وقد اتّبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتّى انتهكوا حُرمة[8] الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا فى مكانس الرِّيَب. حَرُم علىّ الطعامُ والشرابُ حتّى أسوّيها بالأرض هدما وإحراقا! إنّى رأيتُ آخر هذا الأمر لا يَصلُح إلّا بما صَلَح به أوّله! لينٌ فى غير ضعفٍ، وشِدّة فى غير عُنْف. وأنا أقسم بالله لآخُذَنّ الولىَّ بالولىّ، والظاعن بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيحَ منكم فى نفسه بالسّقيم، حتّى يَلقى الرجلُ أخاه

---

(١) الجاهلية الجهلاء؛ وصف على المبالغة، كما يقال: ليلة ليلاء، ويوم أيوم، وهمج هامج.

(٢) طرفت عينه الدنيا؛ أى صرفته عن الحق. (٣) ا: «أتذكرون».

(٤) بعدها فى البيان: «وهذه المواخير المنصوبة».

(٥) الدلج: السير من أول الليل؛ وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره فادّلجوا، بالتشديد.

(٦) ا والبيان: «ويغضون على المختلس».

(٧) ا والطبرى: «صنع».

(٨) البيان: «حرم الإسلام».

فيقول : انجُ سَعْد فقد هَلَكَ سُعَيْد(١) ، أو تستقيم لى قناتُـكم .

إنّ كِذْبة المنبر تُلفَى(٢) مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلّت لـكم معصيتى ! من نُقِب عليه منـكم فأنا ضامن لمـا ذهب منه . فإيّاكم ودَلَج الليل ، فإنّى لا أُوتَى بمُدلِج إلّا سفكتُ دمه . وقد أجّلتـكم بقدر ما يأتى الخبر الـكوفة ، ويرجع إليـكم .

إيّاكم ودعوى الجاهلية ، فإنّى لا أجد أحـدا دعا بها إلّا قطعت لسانه ، وقد أحدثْتم أحداثا ، وقد أحدثنا لـكلّ ذنب عقوبة ، فمن غرّق بيوتَ قـوم غرّقناه ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نَقَب على أحدٍ بيتاً نَقَبْنا على قلبــه ، ومن نَبشَ قبرا دفنّاه فيه حيّا .

كفّوا عنّى أيديَـكم وألسنَتـكم ، أكفّ عنـكم يَدِى ولسانى . ولا يظهرنّ من أحدِكم خلافُ ما عليه عامّتـكم فأضرب عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحَنٌ. فقد جعلت ذلك وراء أذُنى ، وتحتَ قدَمى ، فمن كان منـكم محسنا فليزدد إحسانا ، ومَن كان مسيئا فلينزع عن إساءته ؛ إنى لو علمت أنّ أحدَكم قد قتله السُّلَال(٣) مِن بُغضى لم أكشِفْ عنه قناعا ، ولم أهتك له سِتْرا حتّى يُبدِىَ لى صَفحتَه ، فإذا فعـل لم أناظره . فاستأنِفوا أمورَكم ، وأعينوا على أنفسكم ، فربّ مبتئس بقدومنا سيسرّ ، ومسرورٍ بقدومنا سيبأس .

أيّـها الناس ، إنا أصبحنا لـكم ساسةً ، وعنـكم ذادة ، نسوسُـكم بسلطان الله الّذى أعطاناه ، ونذودُ عنـكم بفىء الله الّذى خوّلَناه ، فلنا عليـكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولـكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتـكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث : لستُ محتجبا عن طالبِ حاجةٍ منـكم ،

---

(١) سعد وسعيد ، هما ابنا ضبة بن أد ، خرجا فى طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردّها ، وقتل سعيد ، فـكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد !

(٢) ا : « تبقى » ، وفى البيان : « بلقاء مشهورة » .

(٣) البيان : « السل » .

ولا حابساً عطاء ، ولا مجمِّراً[1] بَعْثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمّتكم فإنَّهم ساستُكم المؤدِّبون ، وكهفُكم الذى إليه تأوُون ؛ ومتى يصلحوا تصلُحوا ، فلا تُشرِبوا قلوبَكم بغضهم ، فيشتدَّ لذلك غيظُكم ، ويطول لذلك حُزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنَّه لو استُجيب لأحدٍ منكم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يعين كُلًّا على كُلٍّ . وإذا رأيتمونى أنفِذُ فيكم الأمر ، فأنفِذُوه على أذلاله[2] . وايمُ الله إنَّ لى فيكم لصرعَى كثيرة ، فليحذرْ كلُّ امرئٍ منكم أن يكون من صرعاى .

فقام عبدُ الله بن الأهتم فقال : أشهد أيُّها الأمير ؛ لقد أوتيتَ الحكمة وفصل الخطاب.

فقال : كذبت ، ذاك نبيُّ الله داود .

فقام الأحنف فقال : إنما الثّناء بعد البلاء ، والحمدُ بعد العطاء ، وإنّا لا نثنى حتى نُبتلَى ، ولا نحمَد حتى نعطى .

فقال زياد : صدقت . فقام أبو بلال مرداس بن أدَيّة يهمس ويقول : أنبأنا اللهُ بغير ما قلت ، [فقال]: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3][4] ، فسمعها زياد فقال : يا أبا بلال ، إنَّا لا نبلغُ ما نريد بأصحابك حتى نخوضَ إليهم الباطل خوضا[5] .

* * *

وروى الشعبىّ ، قال : قدم زيادٌ الكوفة لمّا جمعتْ له مع البصرة ، فدنوتُ من المنبر لأسمع كلامَه ، فلم أرَ أحدا يتكلم فيُحسِن إلّا تمنّيت أن يَسكُت مخافة أن يسىء ، إلّا زيادا فإنه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا ، فكنت أتمنّى إلّا يسكت .

---

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم فى أرض العدو ويحبسهم عن العود إلى أهلهم .

(٢) على أذلاله ؛ على طرقه ووجوهه ؛ واحده ذِلّ ؛ وهو ما ذلل ومهد من الطريق .

(٣) من البيان .

(٤) بعدها فى البيان : « وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدبر » .

(٥) الخطبة رواها الجاحظ فى البيان والتبيين ٢ : ٦١ ؛ وهى أيضاً فى عيون الأخبار ٢ : ٢٤١ ، ونوادر القالى ١ : ١٨٥ ، والطبرى (حوادث ٤٥)

وَرَوَى الشعبيّ أيضا ، قال : لمّا خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل سمعَ تلك الليلة أصواتَ الناس يتحارَسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إنّ البلد مفتونة ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفِتْيان الفُسَّاق فيقال لها : نادِي ثلاث أصوات ، فإنْ أجابكِ أحد وإلاّ فلا لومَ علينا فيما نصنع. فغضب فقال : ففيمَ أنا، وفيمَ قدمت ! فلمّا أصبح أمر فنودي في الناس، فاجتمعوا فقال : أيّها الناس ، إني قد نبِّئت بما أنتم فيه وسمعتُ ذَرْوًا[1] منه ، وقد أنذرتكم وأجّلتكم شهراً مسير الرّجل إلى الشام ، ومسيره إلى خراسان ، ومسيره إلى الحجاز ، فمن وجدْناه بعد شهر خارجا من منزله بعد العشاء الآخرة فدمه هَدَر . فانصرف الناس يقولون : هذا القولُ كقول من تقدّمه من الأمراء ، فلما كمل الشهر دعا صاحبَ شرطته عبد الله ابن حُصَين اليربوعيّ — وكانت رجال الشُّرطة معه أربعة آلاف — فقال له: هيّئْ خيلك ورَجلك، فإذا صلّيت العشاء الآخرة ، وقرأ القارئُ مقدار سُبْعٍ من القرآن ، ورفع الطُّنُّ القصب من القصر ، فسِرْ ولاتلقَيَنّ أحدا ؛ عُبيد الله بن زياد فمن دونه، إلا جئتني برأسه ، وإن راجعتَني في أحد ضربتُ عنقك .

قال : فصبّح على باب القصر تلك الليلة سبعمائة رأس ، ثمّ خرج الليلة الثانية فجاء بخمسين رأسا ، ثم خرج الليلة الثالثة فجاء برأس واحد ، ثمّ لم يجيء بعدها بشيء ، وكان الناس إذا صلّوا العشاء الآخرة أحضروا إلى منازلهم شدًّا حثيثا ، وقد يترك بعضهم نِعاله .

كتبتْ عائشة إلى زياد كتابا ، فلم تدر ما تكتب عنوانه ! إن كتبتْ زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبْته ، وإن كتبتْ زياد بن أبي سفيان أثمتْ ، فكتبتْ : من أمّ المؤمنين إلى ابنها زياد . فلما قرأه ضَحِك ، وقال : لقد لقيتْ أمُّ المؤمنين من هذا العنوانِ نصبا !

---

(١) ذروا : أي طرفاً .

(٤٥)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ ـ وكان عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه دعِيَ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها ـ قوله :

أَمَّا بَعْدُ يَابْنَ حُنَيْفٍ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا ، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ . وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ . فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلْ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ . أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللهِ(١) مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا ، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا ، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا ، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ .

***

الشّرحُ :

[عثمان بن حُنَيْف ونسبه]

هو عثمان بن حُنَيف ـ بضم الحاء ـ بن واهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ

---

(١) ب : « اللهم » .

ثم الأوسىّ أخو سهل بن حُنَيف ، يكنى أبا عمرو ـ وقيل : أبا عبد الله ـ عمل لعمرَ ثم لعلىّ عليه السلام ، وولّاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق ، وضربَ الخراج والجزية على أهلها ، وولّاه علىّ عليه السلام على البصرة ، فأخرجه طلحة والزُّبير منها حين قدِماها ، وسكن عثمان الكوفة بعد وَفاة علىّ عليه السلام ، ومات بها فى زمن معاوية .

* * *

قوله : « من فتية البَصرة » ، أى من فتيانها ، أى من شبابها أو من أسخيائها ؛ يقال للسخىّ : هذا فتى ، والجمع فِتْية وفتيان وفُتُوّ ؛ ويروَى : « أنّ رجلا من قُطّان البصرة » ، أى سكانها .

والمأدُبة ، بضم الدال : الطعام يدعى إليه القوم ، وقد جاءت بفتح الدال أيضا ، ويقال : أدَب فلانٌ القومَ يأدِبهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والآدِب : الدّاعى إليه ، قال طرَفة :

نحن فى المشتاة نَدْعُو الجَفَلَى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر[1]

ويقال أيضا : آدبهم إلى طعامه يُؤْدِبهم إيدابا ؛ ويروى : « وكثرت عليك الجفان فكَرِعْتَ وأكلت أكل ذئب نَهِم ، أو ضبُع قَرِم » .

وروى : « وما حَسِبتك تأكل طعامَ قوم » .

ثم ذمّ أهلَ البصرة فقال : « عائلهم مجفوّ ، وغنيّهم مدعوّ » ، والعائل : الفقير ، وهذا كقول الشاعر :

فإن تُملِقْ فأنت لنا عدوٌّ فإن تثر فأنتَ لنا صديقُ

---

(١) ديوانه ٧٩ . المشتاة : زمن الشتاء . والجفلى : أن يعم المرء بدعوته إلى الطعام ولا يخص أحداً دون الآخر . والانتقار : أن يدعو النقرى ؛ وهى أن يخص بدعوته ولا يعمها .

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهةَ فيه ، وسمّى ذلك قضما ومقضما وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له ، وازدرائه إياه ، وأنه عنده ليس مما يستحقّ أن يسمّى بأسماء المرغوب فيه ، المتنافس عليه ، وذلك لأن القَضْم يطلق على معنيين : أحدُهما على أكل الشيء اليابس ، والثانى على ما يؤكل ببعض الفم ؛ وكلاهما يدلّان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه ، لا فيه .

ثم ذكر عليه السلام حالَ نفسه فقال : « إنّ إمامكم قد قنع من الدنيا بِطِمْرَيه » ، والطِّمْر : الثوب الخلَق البالى ، وإنما جعلهما اثنين لأنّهما إزارٌ ورداء لابدّ منهما ، أى للجسد والرأس .

قال : « ومن طُعْمه بقُرْصَيه » ، أى قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما . وروى : « قد اكتفى من الدنيا بطمرَيه ، وسدّ فورةَ جوعه بقُرْصيه ، لا يطعم الفلْذة فى حوليه إلّا فى يوم أضحية » .

ثم قال : إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه ، ولكنى أسألكم أن تعينونى بالوَرَع والاجتهاد .

ثم أقسم أنه ما كنز ذهبا ، ولا ادّخر مالا ، ولا أعدّ ثوبا باليا مملا لبالى ثوبيه ، فضلا عن أن يعدّ ثوبا قشيباً كما يفعله الناس فى إعداد ثوب جديد ليلبسوه عِوَض الأسمال التى ينزعونها ، ولا حاز من أرضها شبرا ، والضمير فى « أرضها » يرجع إلى « دنياكم » ، ولا أخذ منها إلا كقوت أتانٍ دبرة ، وهى التى عقر ظهرُها فقلّ أكلها .

ثم قال : « ولهى فى عينى أهوَن من عَفْصة مَقِرة » ، أى مُرّة ، مقِر الشىء بالكسر أى صار مرّا ، وأمقرَه بالهمز أيضا ، قال لبيد :

مُمقِرٌ مُرٌّ على أعدائه وعلى الأدْنَيْنَ حُلْوٌ كالعَسَل (١)

---

(١) ديوانه ١٩٧ .

الأصْلُ :

بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ . وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكَ وَغَيْرِ فَدَكَ ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا ، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ .

***

الشَّرْحُ :

الجدَث : القبر ، وأضغطها الحجر : جعلها ضاغطة ، والهمزة للتّعدية ، ويروى : « وضغَطها » .

وقوله : « مظانّها فى غد جدَث » ، المظانّ : جمع مَظِنّة ، وهو موضع الشىء ومألفه الّذى يكون فيه ، قال :

فإن يَكُ عامرٌ قد قال جهلًا فإن مَظِنّة الجهلِ الشبابُ(١)

يقول : لا مال لى ، ولا اقتنيتُ فيما مضى مالًا ، وإنما كانت فى أيدينا فدَكُ فشحّت عليها نفوسُ قوم ، أى بخلتْ وسختْ عنها نفوسُ آخرين ، أى سامحت وأغضَتْ . وليس يعنى ها هنا بالسخاء إلّا هذا ، لا السخاء الحقيقىّ ، لأنّه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفدَكَ إلا غصبا وقسْرا ؛ وقد قال هذه الألفاظ فى موضع آخر فيما تقدّم ، وهو يعنى الخلافة بعد وفاةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

---

(١) للنابغة الذبيانى ، ديوانه ١٤ .

ثم قال : « ونعم الحَكَم الله » ، الحَكَم : الحاكم ، وهذا الكلام كلامُ شاكٍ متظلّم ، ثم ذكر مآلَ الإنسان وأنّه لا ينبغى أن يكترث بالقِينات والأموال ، فإنّه يصير عن قريب إلى دار البِلَى ومنازل الموتى .

ثمّ ذكر أنّ الحُفرة ضيّقة ، وأنه لو وسّعها الحافر لألجأها الحجر المتداعى والمدَر المتهافت ، إلى أن تضغط الميّت وتزحمه . وهذا كلام محمول على ظاهره ، لأنّه خطاب للعامّة ، وإلّا فأىّ فَرْق بين سعة الحُفْرة وضِيقها على الميّت ! اللهمّ إلّا أن يقول قائل : إنّ الميّت يحسّ فى قبره ، فإذا قيل ذلك فالجاعل له حِساساً بعد عدم الحسّ هو الّذى يوسّع الحفرة ، وإن كان الحافر قد جعلها ضيّقة ؛ فإذن هذا الكلام جيّد لخطاب العَرَب خاصّة ، ومن يَحمل الأمورَ على ظواهرها .

ثم قال : « وإنّما هى نفسى أروضُها بالتقوى » ، يقول : تَقلُّلى واقتصارى من المطعم والمَلْبَس على الجَشِب والخَشِن رياضةٌ لنفسى ، لأنّ ذلك إنما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس فى الدنيا ، فالرياضة بذلك هى رياضةٌ فى الحقيقة بالتقوى ، لا بنفس التقلّل والتقشّف ، لتأتى نفسى آمنةً يومَ الفزَع الأكبر ، وتثبت فى مداحض الزّلَق .

***

[ذكر ما ورد من السِّيَر والأخبار فى أمر فَدَك]

واعلم أنّا نتكلّم فى شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول :

الفصل الأوّل فيما ورد فى الحديث والسِّيَر من أمر فَدَك ، والفصل الثانى فى هل النبىّ صلّى الله عليه وآله يورَث أم لا ؟ ، والفصل الثالث فى أنّ فَدَك ؛ هل صحّ كونها نِحْلة من رسول الله صلّى الله عليه وآله لفاطمة أم لا ؟

الفصل الأول : فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم ، لا من كُتب الشيعة ورجالهم ، لأنّا مشترطون على أنفسنا ألّا نحفل بذلك ، وجميع ما نورده في هذا الفصل من كتاب أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في السقيفة وفدك وما وقع من الاختلاف والاضطراب عَقِب وفاةِ النبيّ صلّى الله عليه وآله ؛ وأبو بكر الجوهريّ هذا عالم مُحدِّث كثيرُ الأدب ، ثقة وَرِع ، أثنَى عليه المحدّثون وروَوْا عنه مصنّفاته .

قال أبو بكر : حدّثني أبو زيد عمر بن شبّة قال : حدّثنا حيّان بن بِشر ، قال : حدّثنا يحيي بن آدم ، قال : أخبرَنا ابن أبي زائدة ، عن محمّد بن إسحاق ، عن الزّهريّ قال : بقيتْ بقيّةٌ من أهل خيبر تحصّنوا ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يَحقِن دماءهم ويُسيِّرهم ، ففعل ، فسمع ذلك أهلُ فَدَك[1] فنزلوا[2] على مثل ذلك ، وكانت للنبيّ صلّى الله عليه وآله خاصّة ، لأنّه لم يُوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب .

قال أبو بكر : ورَوَى محمّد بن إسحاق أيضاً أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا فرغ من خيبرَ قذف الله الرعبَ في قلوب أهلِ فَدَك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحوه على النِّصف من فَدَك ، فقدِمَتْ عليه رسلُهم بخيبر أو بالطريق ، أو بعد ما أقام بالمدينة ، فقبل ذلك منهم ، وكانت فَدَكُ لرسول الله صلّى الله عليه وآله خالصةً له ، لأنّه لم يوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب .

قال : وقد روى أنّه صالحهم عليها كلّها ، الله أعلم أيّ الأمرين كان .

قال : وكان مالك بن أنَس يحدّث عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حَزْم أنّه صالحهم على النِّصف فلم يزل الأمر كذلك حتّى أخرجهم عمرُ بنُ الخطّاب وأجلاهم بعد أن عوّضهم عن النِّصف الّذى كان لهم عوضا من إبل وغيرها .

---

(١) فدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٢) في ا « وكانوا » .

وقال غير مالك بن أنس : لمّا أجلاهم عمرُ بعث إليهم من يقوّم الأموال ، بعث أبا الهيثم بن التّيهان ، وفرْوة بن عمرو ، وحُباب بن صخْر ، وزيد بن ثابت ، فقوّموا أرضَ فدَكَ ونخلَها ، فأخذها عمر ، ودفع إليهم قيمةَ النصف الّذى لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألفَ درهم ، أعطاهم إيّاها من مالٍ أتاه من العراق ، وأجلاهم إلى الشام .

قال أبو بكر : فحدّثنى محمّد بن زكريا قال : حدّثنى جعفر بن محمد بن عُمارة الكندىّ قال : حدثنى أبى ، عن الحسين بن صالح بن حىّ ، قال : حدثنى رجلان من بنى هاشم ، عن زينبَ بنت علىّ بن أبى طالب عليه السلام . قال : وقال جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين عن أبيه . قال أبو بكر : وحدّثنى عثمان بن عمران العجيفىّ ، عن نائل بن نَجيح بن عمير بن شَمِر ، عن جابر الجعفىّ ، عن أبى جعفر محمّد بن علىّ عليه السلام . قال أبو بكر : وحدثنى أحمد بن محمد بن يزيد ، عن عبد الله بن محمد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن حسن بن الحسن . قالوا جميعا : لمّا بلغ فاطمةَ عليها السلام إجماعُ أبى بكر على منعها فدَكَ ، لاثتْ خِمارَها ، وأقبلت فى لُمَةٍ من حَفَدَتِها ونساء قومها ، تطأ فى ذيولها ، ما تخرم مِشيَتها مِشية رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، حتّى دخلتْ على أبى بكر وقدحشَد الناس من المهاجرين والأنصار ، فضرب بينها وبينهم رَيْطةٌ بيضاء ـ وقال بعضهم : قِبْطيّة ، وقالوا : قُبطية بالكسر والضمّ ـ ثم أنّت أنّةً أجهش لها القوم بالبكاء ، ثمّ أمهلتْ طويلا حتى سكنوا من فوْرتهم ، ثمّ قالت : أبتدئُ بحمْد مَن هو أولى بالحمد والطّوْل والمجد ، الحمد لله على ما أنعَم وله الشكر بما ألهمَ . وذكر خطبةً طويلةً جيّدة قالت فى آخرها : « فاتّقوا الله حقّ تُقاتِه ، وأطيعوه فيما أمرَكم به ، فإنّما يَخشَى الله من عباده العلماء ، واحمَدوا اللهَ الّذى لعظمته ونوره يَبتغِى مَن فى السموات والأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلتُه فى خلقه ، ونحن خاصّته ، ومحلّ قدسه ، ونحن حجّته فى غيبه ، ونحن ورثة

أنبيائه ، ثم قالت : أنا فاطمة أبنة محمّد ، أقول عوْدا على بدء ، وما أقول ذلك سَرَفا ولا شَطَطا ، فأسمعوا بأسماع واعية ، وقلوب راعية ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(١) فإن تعزُوه تجدوه أبى دون آبائكم ، وأخا ابن عمّى دون رجالكم ، ثم ذكرتْ كلاما طويلا سنذكره فيما بعد فى الفصل الثانى ، تقول فى آخره : ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرْثَ لى ؛ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٢) إيهاً معاشرَ المسلمين ، ابتزّ إرث أبى ! أبَى اللهُ أن تَرِث يابن أبى قُحافة أباكَ ولا أرِث أبى ، لقد جئتَ شيئاً فَرِيّا ! فدونكها مخطومةً مَرْحولةً تلقاك يومَ حشرِك ، فنعم الحَكَم الله ، والزعيم محمّد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يَخسَر المُبطِلون ، ولكلّ نبإ مستقرٌّ وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم ! ثم التفتتْ إلى قبرِ أبيها فتمثّلت بقول هندٍ بنت أثاثة :

قد كان بعدَك أنباءٌ وهَيْنمةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تكثُرِ الخطبُ(٣)
أبدتْ رجالٌ لنا نجوى صدورِهِمُ ... لمّا قضيتَ وحالت دونَكَ الكُتُبُ
تجهّمْتنا رجالٌ واُستُخِفّ بنا ... إذا غبتَ عنّا فنحن اليومَ نُغتصَبُ

قال : ولم يرَ الناسُ أكثر باكٍ ولا باكيةً منهم يومئذ . ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت : يامعشر البقيّة ، وأعضاد الملّة ، وحضنة الإسلام ، ما هذه الفَتْرة عن نُصرتى ، والوَنْيةُ عن معونتى ، والغمزة فى حقّى ، والسِّنة عن ظُلامتى ! أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « المرء يُحفظ فى ولده » ! سرْعانَ ما أحدثتم ، وعجْلان ما أتيتم . ألِانْ مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمتّمْ دينه ! ها إنّ موته لعمرى خطبٌ جليل اُستوسع وَهْنُه ،

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ . (٢) سورة المائدة ٥٠ .
(٣) الهينمة : الصوت الخفى ، وانظر اللسان .

واستبهم فتقُه ، وفُقِد راتقُه ، وأظلمت الأرض له ، وخَشَعت الجبال ، وأكْدَت الآمال . أُضيع بعدَه الحريم ، وهُتِكت الحرمة ، وأُذيلت المصونة ، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته ، وأنبأكم بها قبل وفاته ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1] إيها بنى قَيْلة ! اهتُضم تُراث أبى ، وأنتم بمرأى ومَسمَع ، تبلغكم الدعوة ، ويشملكم الصوت ، وفيكم العُدَّة والعدد ، ولكم الدار والجُنَن وأنتم نُخبة الله التى انتخب ، وخيرته التى اختار ! باديتم العرَب ، وبادهتم الأمور ، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رَحَى الإسلام ، ودرّ حلبه ، وخبَتْ نيران الحرب ، وسكنتْ فَوْرة الشِّرك ، وهدأتْ دعوة الهَرَج ، واستوثق نظام الدّين ، أفتأخّرتم بعد الإقدام ، ونكَصْتم بعد الشّدة ، وجبُنتم بعد الشجاعة ، عن قوم نَكثوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهم وطَعنوا فى دِينكم ! فقاتلوا أئمّة الكُفْر إنّهم لا أيمانَ لهم لعلّهم ينتهون . ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض ، ورَكَنتم إلى الدّعة ، فجحدتم الّذى وعيتم ، وسُغْتم الذى سوّغتم ، وإن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ، ألا وقد قلتُ لكم ما قلت على معرفة منّى بالخذْلة التى خامرتكم ، وخوَر القناة ، وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتووها مدبِرة الظهر ، ناقبة الخفّ ، باقية العار ، موسومة الشعار ، موصولة بنار الله الموقدة ، الّتى تطّلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تعملون ﴿ وسيعلم الّذى ظَلَموا أىّ منقلَب ينقلبون ﴾ .

قال : وحدّثنى محمد بن زكريا قال : حدّثنا محمد بن الضحّاك قال : حدّثنا هشام بن محمد ، عن عوانة بن الحكَم قال : لمّا كلّمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلّمته به حَمِد أبو بكرٍ اللهَ وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثم قال : يا خَيْرَة النساء ، وابنة خير الآباء ، واللهِ ما عدوتُ رأىَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وما عملتُ إلّا بأمره ، وإنّ الرائد

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

لا يَـكذِب أهلَه ، وقد قلتِ فأبلغتِ ، وأغلظتِ فأهجرتِ ، فغفَرَ الله لنا ولك . أمّا بعد ، فقد دفعت آلةَ رسول الله ودابته وحذاءه إلى عليّ عليـه السلام ، وأمّا ما سوى ذلك فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورِث ذهبا ولا فضّة ولاأرضا ولا عَقارا ولا دارا ، ولـكنّا نورث الإيمانَ والحـكمةَ والعِلم والسّنة »، فقد عملت بما أمرنى ، ونصحت له ، وما توفيق إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب .

قال أبو بكر : وروى هشام بن محمد ، عن أبيه قال : قالت فاطمة لأبى بكر : إنّ أمّ أيمن تشهد لى أنّ رسولَ الله صلَّى الله عليـه وآله أعطانى فدَك ، فقال لها : يا ابنة رسول الله ، والله ما خلق الله خلْقاً أحبّ إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أبيك ، ولودِدْتُ أنّ السماء وقعت على الأرض يومَ مات أبوك ، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلىّ من أن تفتقرى ، أترانى أعطى الأحمر والأبيض حقّـه وأظلمك حقّك ، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إن هذا المـال لم يكن للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبىّ به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ، فلما توفّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليته كما كان يليه . قالت : والله لا كلّمتك أبدا ! قال : والله لا هجرتك أبدا ؛ قالت : والله لأدعونّ الله عليك ؛ قال : والله لأدعونّ الله لك ، فلما حضرتْها الوفاةُ أوصتْ ألّا يصلِّىَ عليها ، فدفنتْ ليلاً ، وصلى عليها عباس بنُ عبد المطلب ، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها اثنتان وسبعون ليلة .

قال أبو بكر : وحدّثنى محمد بن زكريا، قال : حدثنا جعفر بن محمد بن عمارة بالإسناد الأول قال : فلما سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقالتها فصعد المنبر وقال : أيّها النـاس ، ما هذه الرِّعة إلى كلّ قالة ! أين كانت هـذه الأمانىّ فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ألا مَن سمع فليقل ، ومن شهد فليتكلّم ، إنما هو ثعالة شهيده ذنبه ، مُرِبٌّ لكلّ فتنة، هو الذى يقول : كرّوها جذعة بعدما هرمت ، يستعينون بالضعفة ، ويستنصرون بالنساء ، كأمّ طِحال أحبّ أهلها إليها البغىّ . ألا إنى لو أشاء أن أقول لقُلتُ ولو قلتُ لبحتُ ، إنى ساكت ما تُركت . ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغنى يامعشر الأنصار مقالة سفهائكم ، وأحق من لزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنتم . فقد جاءكم فآويتم ونصرتم ، ألا إنّى لستُ باسطاً يداً ولا لساناً على مَنْ لم يستحقّ ذلك منّا .

ثم نزل ؛ فانصرفتْ فاطمة عليها السلام إلى منزلها .

***

قلت : قرأتُ هذا الكلام على النقيب أبى يحيى جعفر بن يحيى بن أبى زيد البصرىّ وقلت له : بمن يعرّض ؟ فقال : بل يصرّح . قلتُ : لو صرّح لم أسألك . فضحك وقال : بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، قلت : هذا الكلام كله لعلىّ يقوله ! قال : نعم ، إنه المُلْك يا بنىّ ، قلت : فما مقالة الأنصار ؟ قال : هتفوا بذكر علىّ، فخاف من اضطراب الأمر عليهم ، فنهاهم. فسألته عن غريبه ، فقال : أما الرِّعة بالتخفيف ، أى الاستماع والإصغاء ؛ والقالة : القول ، وثُعالة : اسم الثعلب علم غيرُ مصروف ، ومِثل ذُؤالة للذئب ، وشهيده ذنبه ، أى لا شاهد له على ما يدّعى إلا بعضه وجزء منه، وأصله مثل، قالوا : إن الثعلب أراد أن يُغرِىَ الأسد بالذئب ، فقال : إنه قد أكل الشاة التى كنت قد أعددتها لنفسك ، وكنت حاضرا، قال : فمن يشهد لك بذلك ؟ فرفع ذنبه وعليه دم، وكان الأسد قد افتقد الشاة . فقبل شهادته ، وقتل الذئب ، ومُرِبّ : ملازم ، أربّ بالمكان . وكرّوها جَذَعة : أعيدوها إلى الحال الأولى ، يعنى الفتنة والهرْج . وأمّ طِحال : امرأةٌ بغىٌّ فى الجاهلية ، ويضرب بها المثل فيقال : أزنى من أمّ طِحال .

قال أبو بكر : وحدّثني محمد بن زكريّا قال : حدّثني ابن عائشة ، قال : حدّثني أبي ، عن عمّه قال : لمّا كلّمت فاطمة أبا بكر بكى ، ثم قال : يا بنة رسول الله ، والله ما ورّث أبوك ديناراً ولا درهما ، وإنّه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إنّ فَدَكَ وَهَبها لي رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام فشهد ، وجاءت أمّ أيمنَ فشهدتْ أيضا ، فجاء عمر بنُ الخطّاب وعبدُ الرحمن بن عوف فشهدا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقسمها ، قال أبو بكر : صدقت يا ابنةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وصدق عليّ ، وصدقتْ أمّ أيمنَ ، وصدق عمر ، وصَدَق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أنّ مالك لأبيك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يأخذ من فَدَكَ قوتَكم ، ويقسم الباقي ، ويحمل منه في سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبي ؛ قال : فلكِ عليّ الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوكِ ، قالت : اللهَ لتفعلنّ ! قال : الله لأفعلنّ ، قالت : اللهمّ أشهد ؛ وكان أبو بكر يأخذ غلّتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان عليّ كذلك ؛ فلمّا ولي الأمرَ معاوية بن أبي سُفيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وأقطع عَمرو بنَ عثمان بن عفّان ثلثها ، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها ، وذلك بعد موت الحسن بن عليّ عليه السلام ؛ فلم يزالوا يتداوَلُونها حتى خَلَصتْ كلّها لمروان بن الحكم أيّام خلافته ، فوهبها لعبد العزيز ابنِه ، فوهَبَها عبدُ العزيز لابنه عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا وَلِيَ عمر بن العزيز الخلافة ، كانت أوّل ظُلامة ردّها، دعا حسنَ بنَ الحسن ابنِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام — وقيل : بل دعا عليّ بن الحسين عليه السلام — فردّها عليه ، وكانت بيَدِ أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز، فلمّا ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم ، فصارت في أيدي بني مَرْوان كما كانت يتداولونها ، حتى انتقلت الخلافة عنهم ، فلمّا ولي أبو العبّاس السفّاح ردّها على عبد الله

ابن الحسن بن الحسن ، ثم قبضها أبو جعفر لمّا حدث من بنى حسن ما حدث ، ثم ردّها المهدىّ ابنهُ على ولد فاطمةَ عليها السلام ، ثمّ قبضها موسى بن المهدىّ وهارون أخوه ، فلم تزل فى أيديهم حتّى ولى المأمون ، فردّها على الفاطميّين .

قال أبو بكر : حدّثنى محمّد بن زكريا قال : حدثنى مهدىّ بن سابق، قال : جلس المأمون للمظالم ، فأوّل رُقْعة وقعتْ فى يده نظر فيها وبكى ، وقال للّذى على رأسه : نادِ أين وكيلُ فاطمة ؟ فقام شيخ عليه دُرّاعة وعمامة وخُفّ تَعِزّىّ ، فتقدّم فجعل يناظره فى فدَك والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون ، ثم أمر أن يسجّل لهم بها ، فكتب السجلّ وقرئ عليه ، فأنفذه ، فقام دِعْبل إلى المأمون فأنشده الأبيات الّتى أوّلها :

أصبحَ وجهُ الزّمان قد ضَحِكا   بردّ مأمونِ هاشمٍ فدَكا[1]

فلم تزل فى أيديهم حتّى كان فى أيام المتوكّل ، فأقطعها عبدَ الله بن عمر البازيار ، وكان فيها إحدى عشرة نخلةً غَرَسها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيَده ، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها ، فإذا قدم الحُجّاج أهدوْا لهم من ذلك التمر فيَصِلونهم ، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل ، فصرم[2] عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر ، ووجّه رجلا يقال له بشران بن أبى أميّة الثقفى إلى المدينة فصرَمه ، ثم عاد إلى البَصرة فَفُلِج .

قال أبوبكر : أخبرَنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالا : حدّثنا الوليد بن محمّد ، عن الزّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلامُ أرسلت إلى أبى بكر تسأله ميراثها مِنْ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وهى حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة وفدَك ، وما بقى من خُمس خيبر ، فقال أبوبكر :

---

(١) ديوانه ١١٩ ، معجم البلدان (فدك) .   (٢) صرم النخل : جذه وقطعه .

إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « لا نُورَث ، ما تركْناه صَدَقة » ، إنّما يأكل آلُ محمّد من هذا المال ، وإنّى والله لا أغيّر شيئاً من صَدَقات رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن حالها الّتى كانت عليها فى عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً ، فوجِدَتْ من ذلك على أبى بكر وهجرته فلم تكلّمه حتى توفّيت ، وعاشتْ بعد أبيها ستّة أشهر ، فلمّا توفّيت دفَنها علىّ عليه السلام ليلا ، ولم يُؤْذِن بها أبا بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثنا محمد ابن أحمد ، عن مَعمر ، عن الزّهرىّ ، عن عروة ، عن عائشة ، أنّ فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلّى الله عليه وآله وهما حينئذ يطلبان أرضَه بفَدَك وسهمه بخيبر ، فقال لهما أبو بكر : إنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » ، إنما يأكل آل محمّد صلى الله عليه وسلم من هذا المال ، وإنى والله لا أغيّر أمرا رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يصنعه إلّا صنعتُه . قال : فهجرتْه فاطمةُ فلم تكلّمه حتى ماتت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا عمر بن عاصم . وموسى بن إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة ، عن الكلبىّ ، عن أبى صالح ، عن أمّ هانئ ، أن فاطمة قالت لأبى بكر : من يرِثك إذا متّ ؟ قال : وَلدى وأهلى ؛ قالت : فما لَكَ تَرث رسولَ الله صلى الله عليه وآله دوننا ؟ قال : يا ابنة رسول الله ، ما وَرّث أبوك دارا ولا مالا ولا ذهبا ولا فضّة ، قالت : بلى سهم الله الذى جعله لنا ، وصار فيئنا الذى بيدك ، فقال لها : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّما هى طُعْمَة أطعَمَناها الله ، فإذا متّ كانت بين المسلمين » .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا أبو بكر بن أبى شَيْبة قال : حدّثنا محمّد بن الفضل ، عن الوليد بن جميع ، عن أبى الطفيل قال : أرسلتْ فاطمة إلى أبى بكر :

أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله ؟ قال : بل أهلُه ؛ قالت : فما بالُ سهم رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : إني سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : «إنّ الله أطعم نبيّه طعمة»، ثم قبضه ، وجعله للّذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده ، على أن أرده على المسلمين، قالت: أنتَ وما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم.

قلت: في هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال : بل أهلُه ؛ وهذا تصريح بأنه صلّى الله عليه وآله مَورُوث يرثه أهله، وهو خلاف قوله : « لا نورَث» . وأيضا فإنّه يدلّ على أنّ أبا بكر استَنبط من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ الله أطعم نبيّا طعمة أن يُجريَ رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاته مجرى ذلك النبي صلّى الله عليه وآله ، أو يكون قد فهم أنّه عنى بذلك النبي المنكر لفظا نفسه ، كما فهم من قوله في خطبته ، إن عبدا خيّره الله بين الدنيا وما عند ربّه ، فاختار ما عند ربه، فقال أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : أخبرنا القعنبيّ قال : حدّثنا عبد العزيز بن محمّد ، عن محمّد بن عمر ، عن أبي سلمة ، أنّ فاطمة طلبتْ فدَكَ من أبي بكر ، فقال : إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ النبيّ لا يُورَث » ، من كان النبي يعولُه فأنا أعولُه، ومن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُنفق عليه فأنا أنفق عليه . فقالت : يا أبا بكر ؛ أيرثك بناتُك ولا يرثُ رسول الله صلى الله عليه وآله بناته ؟ فقال: هو ذاك. قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال : حدثنا فضيل بن مرزوق قال : حدثنا البحتريّ بن حسّان قال : قلت لزيد بن عليّ عليه السلام وأنا أريد أن أهجّن أمرَ أبي بكر ، إنّ أبا بكر انتزع فدَكَ من فاطمة عليها السلام ، فقال ، إنّ أبا بكر كان رجلا

رحيا ، وكان يكره أن يغيّر شيئاً فعَلَه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتته فاطمة فقالت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطانى فَدَك ، فقال لها : هل لك على هذا بيّنة ؟ فجاءت بعليّ عليه السلام ، فشهد لها ، ثم جاءت أمّ أيمَنَ فقالت : ألستما تشهدان أنّى من أهل الجنّة! قالا : بلى ـ قال أبو زيد يعنى أنّها قالت لأبى بكر وعمر ـ قالت : فأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاها فَدَك ، فقال أبو بكر : فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحق بها القضيّة . ثم قال أبو زيد : وايم الله لو رجع الأمر إلىّ لقضيتُ فيها بقضاء أبى بكر .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا محمّد بن الصبّاح قال : حدّثنا يحيى بن المتوكل أبو عقيل ، عن كثير النوال قال : قلت لأبى جعفر محمّد بن على عليه السلام : جعلنى الله فداك ! أرأيت أبا بكر وعمر ، هل ظلما كم من حقّكم شيئاً ـ أو قال : ذهبا من حقّكم بشىء ؟ فقال : لا ، والذى أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، ما ظلمنا من حقّنا مثقال حبّة من خردل ؛ قلت : جعلت فداك أفأتولاهما ؟ قال : نعم ويحك ! تولّهما فى الدنيا والآخرة ، وما أصابك ففى عنقى ، ثم قال : فعل الله بالمغيرة وبُنان ، فإنهما كذبا علينا أهل البيت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبوزيد، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعنبيّ ، عن مالك عن الزهريّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبي صلى الله عليه وآله أردْن لما توفّىَ أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسألنه ميراثهنّ ـ أو قال ثُمُنَهنّ ـ قالت : فقلت لهنّ : أليس قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله « لا نُورث ، ما تركنا صدقة » .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعنبيّ وبشر بن عمر ، عن مالك ، عن أبى الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله . قال : « لا يقسم ورثتى دينارا ولا درهما ، ما تركتُ بعدَ نفقة نسائى ومئونة عيالى فهو صدقة » .

قلت : هــذا حديث غريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلّا أبو بكر وحده .

وقال أبو بكر : وحدّثنــا أبو زيد ، عن الحزامى ، عن ابن وهب ، عن يونس عن ابن شهاب ، عن عبــد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « والذى نفسى بيده لا يقسِم ورثتى شيئاً ، ما تركت صدقة »، قال : وكانت هذه الصَّدقة بيَدِ علىٍّ عليه السلام ، غلب عليها العبّاس ، وكانت فيها خصومتهما ، فأبى عمرُ أن يقسمها بينهما حتى أعرض عنها العبّاس وغلب عليها عليــه السلام ، ثم كانت بيدِ حسن وحسين ابنى علىٍّ عليه السلام، ثم كانت بيَدِ علىّ بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن، كلاهما يتداولانها[(١)] ، ثم بيد زيد بن علىّ عليه السلام .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا عثمان بن عمر بن فارس ، قال : حدثنا يونس ، عن الزهرىّ ، عن مالك بن أوس بن الحــدثان ، أنّ عمر بن الخطّاب دعاه يوما بعد ما ارتفع النهار ، قال : فدخلتُ عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش ، على وسادة أَدَم ، فقال : يا مالك ، إنه قد قدم من قومك أهلُ أبيات حضروا المدينة ، وقد أمرت لهم برضْخ[(٢)] فاقسمه بينهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ بذلك غيرى ، قال : اقسم أيها المرء .

قال : فبينا نحن على ذلك إذ دخل يرفأ ، فقال : هل لك فى عثمان وسعد وعبــد الرحمن والزبير يستأذنون عليك ؟ قال : نعم ، فأذن لهم ، قال : ثم لبث قليلا ، ثم جاء فقال : هل لك فى علىٍّ والعباس يستأذنان عليك ؟ قال : ائذن لهما ، فلما دخلا، قال عباس : ياأمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا ـــ يعنى عليًّا ـــ وهما يختصمان فى الصوافى[(٣)] التى أفاء الله على رسوله

---

(١) ب : « يتولانها » تصحيف ، صوابه من ا . (٢) الرضخ هنا : المال .
(٣) الصوافى : الأملاك الواسعة . والخبر فى اللسان (صفا) .

من أموال بني النضير ، قال : فاستبّ عليّ والعباس عند عمر ، فقال عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين : اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر ، فقال عمر : أنشدكم الله الذى تقوم بإذنه السموات والأرض ، هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لانُورَث ، ما تركناه صدقة » ، يعنى نفسه ؟ قالوا : قد قال ذلك ، فأقبل على العباس وعليّ فقال : أنشُدكما الله هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم ؟ قال عمر : فإنى أحدّثكم عن هذا الأمر ، إن الله تبارك وتعالى خصّ رسوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشىء لم يُعطه غيره ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) ﴾ ، وكانت هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما اختارها دونكم ، ولا استأثر بها عليكم ، لقد أعطاكُمُوها وثبتها فيكم حتى بقى منها هذا المال ، وكان ينفق منه على أهله سنتهم ، ثمّ يأخذ ما بقى فيجعله فيما يجعل مال الله عزّ وجلّ ، فعل ذلك فى حياته ثم توفى ، فقال أبو بكر : أنا وليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضه الله ، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتما حينئذ ، والتفت إلى عليّ والعباس تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر ، والله يعلم إنه فيها لصادق بارّ راشد ، تابع للحق ، ثم توفّى اللهُ أبا بكر ، فقلت : أنا أَوْلى الناس بأبى بكر وبرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضتها سنتين — أو قال سنين من إمارتى — أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ثم قال : وأنتما — وأقبل على العباس وعليّ — تزعمان أنى فيها ظالم فاجر ، والله يعلم أنى فيها بارّ راشد ، تابع للحق ثم جئتمانى وكلمتكما واحدةٌ ، وأمركما جميع ، فجئتنى — يعنى العباس — تسألنى نصيبك من ابن أخيك ، وجاءنى هذا — يعنى عليًّا — يسألنى نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، فلما بدا لى أن

(١) سورة الحشر ٦ .

أدفعها إليكما قلت : أدفعها على أنّ عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وبما عملتُ به فيها ، وإلّا فلا تكلّمانى ! فقلتُما : ادفعها إلينا بذلك ، فدفعتُها إليكما بذلك ، أفتلتمسان منّى قضاء غير ذلك ! والله الذى تقوم بإذنه السّموات والأرض لا أقضى بينكما بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلىّ فأنا أكفيكماها !

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد قال : حدّثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدّثنا عبد الله ابن المبارك قال : حدّثنى يونس ، عن الزّهرىّ قال : حدّثنى مالك بن أوس بن الحدّثان بنحوه ؛ قال فذكرت ذلك لعروة فقال : صدق مالك بن أوس ، أنا سمعتُ عائشة تقول : أرسل أزواجُ النبىّ صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسأل لهن ميراثهنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه حتى كنت أردّهنّ عن ذلك، فقلت : ألا تتّقين الله ، ألم تعلمْن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لا نورَث ، ما تركناه صدقة » ، يريد بذلك نفسه ؛ إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، فانتهى أزواج النبىّ صلى الله عليه وآله إلى ما أمرتهنّ به .

***

قلت : هذا مشكل ، لأن الحديث الأول يتضمن أنّ عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان، فقال : نشدتكم الله ، ألستم تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، يعنى نفسه ! فقالوا : نعم ، ومن جملتهم عثمان ، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسّلا لأزواج النبىّ صلى الله عليه وآله : يسأله أن يعطيهنّ الميراث ! اللهمّ إلّا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير صدّقوا عمر على سبيل التقليد لأبى بكر فيما رواه وحُسْنِ الظنّ ، وسمّوْا ذلك عِلْما ، لأنه قد يطلق على الظنّ اسم العلم .

فإن قال قائل : فهلّا حسن ظنّ عثمان برواية أبى بكر ف مبدأ الأمر فلم يكن رسولا لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله فى طلب الميراث ؟ .

قيل له : يجوز أن يكون فى مبدأ الأمر شاكّا ، ثمّ يغلب على ظنه صِدْقه لأمارات اقتضت تصديقه ، وكلّ الناس يقع لهم مثل ذلك .

وها هنا إشكال آخر ، وهو أنّ عمر ناشد عليّا والعبّاس : هل تعلمان ذلك ؟ فقالا : نعم ، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبى بكر يطلبان الميراث على ما ذكره فى خبر سابق علىهذا الخبر ، وقد أوردناه نحن ! وهل يجوز أن يقال : كان العبّاس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الّذى لا يستحقّه ؟ وهل يجوز أن يقال : إنّ عليّا كان يعلم ذلك ويمكّن زوجته أن تطلب مالا تستحقّه ، خرجت من دارها إلى المسجد ، ونازعت أبا بكر ، وكلّمته بما كلّمته إلّا بقوله وإذنه ورأيه . وأيضا فإنه إذا كان صلّى الله عليه وآله لا يُورَث ، فقد أشكل دفع آلته ودابّته وحذائه إلى علىّ عليه السلام ، لأنّه غير وارث فى الأصل ، وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بمُرْضة أن تَرِث ، لولا الخبر ، فهو أيضا غير جائز ، لأنّ الخبر قد مَنَع من أن يرث منه شيئا قليلا كان أو كثيرا .

فإن قال قائل : نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوَرّث ذهبا ولا فضّة ولا أرضا ولا عَقارا ولا دارا .

قيل : هذا الكلام يُفهَم من مضمونه أنّهم لا يورّثون شيئاً أصلا ، لأنّ عادة العرب جارية بمثل ذلك ، وليس يقصدون نفىَ ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها ، بل يجعلون ذلك كالتّصريح بنفى أن يورّثوا شيئاً ما على الإطلاق .

وأيضاً فإنّه جاء فى خبر الدابّة والآلة والحذاء أنّه رُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وآله: « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » ، ولم يقل « لا نُورث كذا ولا كذا » وذلك يقتضى عموم انتفاء الإرث عن كلّ شىء .

وأما الخبر الثانى وهو الذى رواه هشام بن محمّد الكلبيّ ، عن أبيه ؛ ففيه إشكال أيضا، لأنه قال : إنّها طلبت فدَكَ ، وقالت : إنّ أبى أعطانيها ، وإنّ أمّ أيمن تشهد لى بذلك ، فقال لها أبو بكر فى الجواب : إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم، وإنّما كان مالًا من أموال المسلمين ، يحمل [1] به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ؛ فلقائل أن يقول له : أيجوز للنبيّ صلّى الله عليه وآله أن يملك ابنتَه أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصة، أو عقارا مخصوصا من مال المسلمين ، لِوَحْى أوْحَى الله تعالى إليه ، أو لاجتهاد رأيه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد ، أولا يجوز للنبيّ صلّى الله عليه وآله ذلك ؟ فإن قال : لا يجوز ، قال ما لا يوافقه العقل ولا المسلمون عليه ، وإن قال : يجوز ذلك ، قيل : فإنّ المرأة ما اقتصرت على الدعوى ، بل قالت : أمّ أيمن تشهد لى ، فكان ينبغى أن يقول لها فى الجواب : شهادة أمّ أيمن وحدها غيرُ مقبولة ؛ ولم يتضمّن هذا الخبرُ ذلك ، بل قال لها لمّا أدّعت وذكرت من يشهد لها : هذا مالٌ من مال الله، لم يكن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم؛ وهذا ليس بجواب صحيح .

وأمّا الخبر الّذى رواه محمّد بن زكريّا عن عائشة ، ففيه من الإشكال مثل ما فى هذا الخبر ، لأنّه إذا شهد لها علىّ عليه السلام وأمّ أيمن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وهب لها فدَكَ ، لم يصحّ اجتماع صِدْقها وصِدْق عبد الرحمن وعمر ، ولا ما تكلّفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم ، لأنّ كونها هِبَة من رسول الله صلّى الله عليه وآله لها يَمْنَع من قوله : « كان يأخذ منها قُوتَكم ويَقسم الباقىَ ، ويحْمِل منه فى سبيل الله » ، لأنّ هذا ينافى كونها هبة لها ؛ لأنّ معنى كونها لها انتقالها إلى مِلْكيّتها ، وأن تتصرّف فيها خاصّة دون كلّ أحد من الناس ، وما هذه صفتُه كيف يقسم ويحمل منه فى سبيل الله !

(١) ا : « ويحمل » .

فإن قال قائل : هو صلّى الله عليه وآله أبوها ، وحُـكمُـه فى مالها كحُـكمِه فى ماله وفى بيت مال المسلمين ، فلعلّه كان بحكم الأبوّة يفعل ذلك !

قيل : فإذًا كان يتصرّف[1] فيها فيها تصرُّف الأب فى مال ولده، لا يخرجه ذلك عن كونه مال ولده ، فإذا مات الأب لم يجز لأحد أن يتصرّف فى مال ذلك الولد، لأنّه ليس بأب له فيتصرّف فى ماله تصرّف الآباء فى أموال أولادهم ؛ على أنّ الفقهاء أو مُعظمَهم لايجيزون للأب أن يتصرّف فى مال الابن .

وها هنا إشكالٌ آخر ، وهو قول عمر لعلىٍّ عليه السلام والعبّاس : وأنتما حينئذ تزعمان أنّ أبا بكر فيها ظالم فاجر، ثمّ قال لمّا ذكر نفسه : وأنتما تزعمان أنّى فيها ظالم فاجر ، فإذا كانا يزعمان ذلك فـكيف يزعم هذا الزّعم مع كونهما يعلمان أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: « لا أورَث » ! إن هذا لمن أعجب العجائب ، ولولا أنّ هذا الحديث ـ أعنى حديث خصومة العبّاس وعلىّ عند عمر ـ مذكورٌ فى الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه ، إذ لو كان غير مذكور فى الصّحاح لـكان بعض ما ذكرناه يطعن فى صحّتـه ؛ وإنما الحديث فى الصّحاح لا ريب فى ذلك .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا ابن أبى شَيْبة ، قال : حدّثنا ابن عُلَيّة ، عن أيّوب ، عن عكرمة ، عن مالك بن أوس بن الحدَثان قال : جاء العبّاس وعلىّ إلى عمر ، فقال العباس : اقض بينى وبين هذا الـكذا وكذا ، أى يشتمه ، فقال الناس: افصل بينهما، فقال لا أفصل بينهما ، قد علما أنّ رسول الله صلّى الله عليـه وآله قال : « لا نُورَث ، ما تركناه صدقة »

قلت : وهذا أيضا مُشكل ، لأنّهما حضرا يتنازعان لا فى الميراث ، بل فى ولاية صدقة رسول الله صلّى الله عليـه وآله أيّهما يتولّاها ولايةً لا إرثًا ! وعلى هذا كانت الخصومة ،

(١) ب : « قد يتصرف » .

فهل يكون جواب ذلك قد علما أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث » !

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثني يحيي بن كثير أبو غسّان قال : حدّثنا شعبة عن عمر بن مرّة ، عن أبي البَختريّ قال : جاء العبّاس وعليّ إلى عمر وهما يختصمان ، فقال عمر لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد : أنشُدكم الله ، أسمعتم رسولَ الله صلّى الله عليه يقول : « كلّ مال نبيّ فهو صدقة ، إلا ما أطعمه أهله ، إنّا لا نُورَث » ! فقالوا : نعم ، قال : وكان رسول الله يتصدّق به ، ويَقسِم فضله ، ثم توفّي فوليَه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان يَصنعُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنتما تقولان : إنّه كان بذلك خاطئا ، وكان بذلك ظالما ، وما كان بذلك إلّا راشدا ، ثم وُلّيتُه بعد أبي بكر فقلت لكما : إن شئتما قبلتماه على عمل رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعهده الّذى عهد فيه ، فقلتما : نعم ، وجئتماني الآن تختصمان ؛ يقول هذا : أريد نصيبي من ابن أخي ، ويقول هذا : أريد نصيبي من امرأتي ! والله لا أقضي بينكما إلّا بذلك .

***

قلتُ : وهذا أيضاً مُشكِل ، لأن أكثر الروايات أنّه لم يَروِ هذا الخبر إلّا أبو بكر وحده ، ذكر ذلك أعظم المحدّثين ، حتّى إنّ الفقهاء في أصول الفقه أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابيّ الواحد . وقال شيخنا أبو عليّ : لا تقبل في الرواية إلّا رواية اثنين كالشهادة ، فخالفه المتكلّمون والفقهاء كلّهم ، واحتجّوا عليه(١) بقبول الصحابة رواية أبي بكر وحده : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث » ، حتى إنّ بعض أصحاب أبي عليّ تكلّف لذلك جواباً ، فقال : قد رُوِى أنّ أبا بكر يوم حاجّ فاطمة عليها السلام قال : أنشُد الله امرأً سمعَ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلّم في هذا شيئاً ! فرَوَى مالك ابن أوس بن الحدثان ؛ أنّه سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث ينطق

(١) ساقطة من ب .

بأنه استشهد عمرَ وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن وسعدا ، فقالوا : سمعناه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأين كانت هذه الروايات أيّام أبي بكر ! ما نقل أنّ أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمةَ عليها السلام وأبي بكر رَوَى من هذا شيئاً .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنا محمّد بن يحيي[1] ، عن إبراهيم بن أبي يحيي ، عن الزُّهريّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله أرسلنَ عثمان إلى أبي بكر ، فذكر الحديث ، قال عروة : وكانت فاطمة قد سألتْ ميراثَها من أبي بكر ممّا تركه النبيّ صلّى الله عليه وآله ، فقال لها : بأبي أنتِ وأمّي ، وبأبي أبوكِ وأمّي ونفسي ، إن كنتِ سمعتِ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئاً ، أو أمركِ بشيء لم أتّبع غير ما تقولين ، وأعطيتكِ ما تبتغين ، وإلّا فإني أتبع ما أُمِرتُ به !

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد قال : حدّثنا عمرو بن مرزوق ، عن شعبة ، عن عمرو ابن مرّة ، عن أبي البَختريّ قال : قال لها أبو بكر لمّا طلبتْ فدَك : بأبي أنتِ وأمّي! أنت عندي الصادقة الأمينة ، إن كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم عَهِدَ إليك في ذلك عهدا ، أو وَعَدَكِ به وعدا ، صدَّقتُكِ ، وسلّمتُ إليك ! فقالت: لم يعهد إليّ في ذلك بشيء ، ولكنّ الله تعالى يقول : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾[2] ، فقال : أشهد لقد سمعت[3] رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم يقول : « إنّا معاشر الأنبياء لا نُورَث » .

* * *

قلت : وفي هذا من الإشكال ما هو ظاهر ، لأنّها قد ادّعت أنه عَهِدَ إليها رسولُ الله صلى الله عليه وآله في ذلك أعظم العهد ، وهو النِّحْلة ، فكيف سكتت عن ذكر هذا لمّا سألها أبو بكر ! وهذا أعجبُ من العجب .

---

(١) ب : « عيسى » . (٢) سورة النساء ١١ . (٣) كذا في ا ، وفي ب : « كان » .

قال أبو بكر : وحدّثنا أبو زيد ؛ قال : حدّثنا محمد بن يحيى ، قال : حدّثنا عبد العزيز ابن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصارىّ عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال : سمعتُ عمر وهو يقول للعبّاس وعلىّ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة: أنشُدكم اللهَ هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « إنّا لا نُورَث ، معاشرَ الأنبياء ، ما تركنا صدقة » ؟ قالوا : اللهمّ نعم ، قال: أنشُدكم الله هل تعلمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدخل فى فيئه أهله السّنة من صدقاته(١) ، ثم يجعل ما بقىَ فى بيت المال! قالوا : اللهمّ نعم ، فلمّا توفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبضها أبو بكر، فجئت يا عبّاسُ تطلب ميراثك من ابن أخيك ، وجئت يا علىّ تطلب ميراث زوجتك من أبيها ! وزعمتما أن أبا بكر كان فيها خائنا فاجرا ، والله لقد كان امرأ مطيعا ، تابعا للحق ، ثم توفّىَ أبو بكر فقبضتها ، فجئتمانى تطلبان ميراثكما ، أما أنت يا عبّاس فتطلب ميراثك من ابن أخيك ، وأما علىّ فيطلب ميراث زوجته من أبيها ، وزعمتما أنّى فيها خائن وفاجر ، والله يعلم أنّى فيها مطيع تابع للحقّ ؛ فأصلحا أمركما ، وإلّا والله لم ترجع إليكما . فقاما وتركا الخصومة وأُمضيت صدقة .

قال أبو زيد : قال أبو غسّان : فحدّثنا عبد الرّزاق الصنعانىّ ، عن مَعْمَر بن شهاب ، عن مالك بنحوه ، وقال فى آخره : فغلب علىٌّ عباسا عليها ، فكانت بيَدِ علىّ ، ثمّ كانت بيد الحسن ، ثم كانت بيد الحسين ، ثم علىّ بن الحسين ، ثم الحسن بن الحسن ، ثم زيد بن الحسن .

* * *

قلت : وهذا الحديث يدلّ صريحا على أنّهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية ، وهذا من المُشكِلات ، لأنّ أبا بكر حسَم المادّة أوّلا ، وقرّر عند العبّاس وعلىّ وغيرهما أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله لا يُورَث ، وكان عمر من الساعدين له على ذلك ، فكيف يعود

(١) كذا فى الأصول ، وفى الكلام غموض .

العبّاس وعلىّ بعد وفاة أبى بكر ، يحاولان أمرا قد كان فُرِغ منه ، ويُئِس من حصوله ، اللهمّ إلا أن يكونا ظنّا أن عمر ينقُض قضاء أبى بكر فى هذه المسألة ، وهذا بعيد ، لأنّ عليّا والعبّاس كانا [١] فى هذه المسألة [١] يتّهمان عمر بممالأة أبى بكر على ذلك ألا تراه يقول : نسبتُمانى ونسبتُما أبا بكر إلى الظلم والخيانة ، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبى بكر ويورّثهما !

***

واعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان فى أمرين : فى الميراث والنِّحلة ، وقد وجدتُ فى الحديث أنّها نازعتْ فى أمر ثالث ، ومنعها أبو بكر إيّاه أيضا ، وهو سهم ذوِى القربى .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ : أخبرنى أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثنى هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثنى صدقة أبو معاوية ، عن محمّد بن عبد الله ، عن محمّد بن عبد الرّحمن بن أبى بكر ، عن يزيد الرُّقاشىّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت : لقد علمت الّذى ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات ، وما أفاء الله علينا من الغنائم فى القرآن من سهم ذوِى القربى ! ثم قرأتْ عليه قولَه تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى . . . ﴾ [٢] الآية ، فقال لها أبو بكر : بأبى أنت وأمّى ووالدٍ ولدكِ ! السمع والطاعة لكتاب الله ولحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وحقّ قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله الّذى تقرئين منه ، ولم يبلغ علمى منه أنّ هذا السّهم من الخمس يسلَّم إليكم كاملا ؛ قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أُنفِق عليكم منه ، وأصرف الباقى فى مصالح المسلمين قالت : ليس هذا حكم الله تعالى ؛ قال : هذا حكم الله ، فإن كان رسولُ الله عَهِد إليك

(١ ـ ١) ساقط من ب . (٢) سورة الأنفال ٤١ .

فى هذا عهدا أو أوجَبه لكم حقا(١) صدّقتكِ وسلّمته كلّه إليك وإلى أهلك ؛ قالت: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يَعهَد إلىّ فى ذلك بشىء ، إلّا أنّى سمعته يقول لمّا أنزلت هذه الآية : « أبشِروا آلَ محمّد فقد جاءكم الغِنَى » ؛ قال أبو بكر : لم يبلغ علمى من هذه الآية أن أسلّم إليكم هذا السّهم كلّه كاملا ، ولكنْ لكم الغنى الّذى يُغنيكم ، ويفضل عنكم ، وهذا عمر بن الخطّاب ، وأبو عبيدة بن الجرّاح فاسأليهم عن ذلك ، وانظرى هل يوافِقُك على ما طلبتِ أحد منهم ! فانصرفتْ إلى عمر فقالت له مِثل ما قالت لأبى بكر ، فقال لها مثل ما قاله لها أبو بكر ، فعجبتْ فاطمة عليها السلام من ذلك ، وتظنّت أنّهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدثنا هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد ، عن ابن أبى لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ، قال : أرادت فاطمةُ أبا بكر على فدَك وسهم ذوى القربى ، فأبى عليها ، وجعلهما فى مال الله تعالى .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد ، قال : حدّثنا أحمد بن معاوية ، عن هيثم ، عن جويبر ، عن أبى الضحّاك عن الحسن بن محمّد بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، أنّ أبا بكر منَع فاطمة وبنى هاشم سهم ذوى القربى ، وجعله فى سبيل الله فى السلاح والكُرَاع .

قال أبو بكر : وأخبرَنا أبو زيد قال : حدّثنا حيّان بن هلال، عن محمد بن يزيد بن ذريع ، عن محمّد بن إسحاق ، قال : سألتُ أبا جعفر محمّد بن علىّ عليهما السلام ؛ قلت : أرأيتَ عليّا حين ولىَ العراق وما ولى من أمر الناس كيف صنع فى سهم ذوى القربى ؟ قال : سَلَك بهم طريقَ أبى بكر وعمر ؛ قلت : وكيف ؟ ولم ، وأنتم تقولون ما تقولون ! قال : أما والله ما كان أهلُه يَصدُرون إلاّ عن رأيه ؛ فقلت : فما منَعه ؟ قال : كان يكره

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « أوجبه لك علىّ » .

أن يُدّعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر .

قال أبو بكر : وحدّثني المؤمّل بن جعفر ، قال : حدّثني محمّد بن ميمون ، عن داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحجّ في جماعة ، فسألناه عن مسائل ، وكنت أحدَ مَنْ سأله ، فسألتُه عن أبي بكر وعمرَ ، فقال: سئل جدّى عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال : كانت أمّي صدّيقة بنت نبيّ مرسل ، فماتت وهي غَضْبَى على إنسان ، فنحن غِضابٌ لغضبها ، وإذا رضيتْ رَضِينا .

قال أبو بكر : وحدّثني أبو جعفر محمّد بن القاسم قال : حدّثني عليّ بن الصبّاح قال : أنشدنا أبو الحسن رواية المفضّل للكميت :

أهوَى علياً أميرَ المؤمنين وَلَا ... أرضَى بشتمِ أبي بكر ولا عُمَرَا(١)

ولا أقولُ وإن لم يُعطِيَا فَدَكاً ... بنتَ النبيّ ولا ميراثَها : كَفَرَا(٢)

اللهُ يَعلم ماذا يَحضُران به ... يومَ القيامة من عذرٍ إذا اعتذَرَا(٣)

قال ابن الصبّاح : فقال لي أبو الحسن : أتقول : إنّه قد أكفرهما في هذا الشعر ! قلت: نعم، قال : كذاك هو .

قال أبو بكر : حدّثنا أبو زيد ، عن هارون بن عمير ، عن الوليد بن مسلم ، عن إسماعيل بن عباس ، عن محمّد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن مولى أمّ هانئ ، قال : دخلتْ فاطمةُ على أبي بكر بعد ما استُخلِف ، فسألته ميراثَها من أبيهـا ، فمنعها ، فقالت له : لئن مُتَّ اليومَ مَن كان يرِثُك ؟ قال : ولدى وأهلى ، قالت : فلِمَ وَرِثتَ أنتَ رسولَ الله صلى الله عليه وآله دون ولده وأهله ؟ قال : فما فعلتُ يا بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : بلى ، إنك عمدتَ إلى فَدَك ، وكانت صافيةً لرسول الله صلى الله عليـه وآله فأخذتَها ، وعمدتَ إلى ما أنزل الله من السماء فرفعتَه عنّا ، فقال : يا بنتَ رسول الله

(١) الهاشميات ٨٣ ، ٨٤ . (٢) ا ، الهاشميات : « ميراثه » .
(٣) الهاشميات : « ماذا يأتيان به » .

صلّى الله عليه وسلم ، لم أفعل ؛ حدّثنى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم أنّ الله تعالى يُطعِم النبيَّ صلّى الله عليه وسلم الطُّعمة ما كان حيّا ، فإذا قبضه الله إليه رُفعتْ ، فقالت : أنتَ ورسولُ الله أعلم ، ما أنا بسائلتكَ بعد مجلسى . ثم انصرفَتْ .

قال أبو بكر : وحدّثنا محمد بن زكريّا ، قال : حدّثنا محمد بن عبد الرّحمن المهلّبى ، عن عبد الله بن حمّاد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله بن حسن بن حسن ، عن أمّه فاطمَة بنتِ الحسين عليهما السلام ، قالت : لمّا اشتدّ بفاطمةَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله الوجع وثَقُلتْ فى علّتها ، اجتمع عندها نساء من نساء المهاجرين والأنصار ، فقلن لها : كيف أصبحتِ يا ابنةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ؟ قالت : والله أصبحتُ عائفةً(١) لدُنْيَاكم ، قالِيَةً لرجالكم ، لفظتُهم بعد أن عَجَمْتُهم(٢) ، وشنِئتهم(٣) بعد أن سَبَرْتهم(٤) ، فقبحاً لفلول الحدّ وخَوَر القناة ، وخَطَل الرأى ! وبئسما قدّمَتْ لهم أنفسُهم أنْ سَخِط اللهُ عليهم وفى العذاب هم خالدون ؛ لا جرم ! قد قلّدتهم رِبْقَتَها ، وشنّت عليهم غارتَها ، فجَدْعا وعَقْرا ، وسُحْقا للقوم الظالمين ! وَيْحَهم ! أين زحزحوها عن رَوَاسى الرّسالة ، وقواعدِ النبوّة ، ومَهبِط الرُّوح الأمين ، والطبِين بأمر الدّنيا والدّين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ! وما الّذى نقَموا من أبى حسن ! نقَموا واللهِ نكيرَ سيفه ، وشدّةَ وَطْأته ، ونكالَ وَقْعته ، وتنمّره فى ذات الله ، وتالله لو تكافُّوا عن زِمامٍ نبذَه إليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله لاعتلَقه ، ولسار إليهم سيرا سُجُحا ، لا تكلَم حشاشته ، ولا يتعتَع راكبه ، ولأوردهم مَنهلا نَميرا فضفاضا يطفح ضفّتاه ، ولأصدرهم بِطانًا قد تحيّر بهم الرأى ، غير متحلّ بطائل ، إلّا بغَمْر الناهل ، وردعه سورة الساغبِ ، ولفتحتْ عليهم بركات من السّماء والأرض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون . ألا هلمّ فاستمع وما عشت

---

(١) عائفة لدنياكم ، أى قالية لها كارهة. (٢) عجمتهم : بلوتهم وخبرتهم .
(٣) شنئتهم : أبغضتهم . (٤) سبرتهم : علمت أمورهم .

أراك الدهر عجبه ، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث ، إلى أيّ لجأ استندوا ، وبأيّ عُروة تمسّكوا ! لبئسَ المَولى ولبئس العَشير ، ولبئس للظّالمين بدلا ! استبدلوا والله الذُّنابَى بالقَوادم، والعَجُز بالكاهل؛فرغْما لمعاطس قومٍ يَحسَبون أنّهم يُحسِنون صُنْعا،﴿ ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ، وَيْحهم ! ﴿ أفمن يَهدِى إلى الحقّ أحقُّ أن يُتّبَع أمّنْ لا يَهِدّى إلّا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون ﴾ ! أما لَعَمر الله لقد لَقِحت ، فنظِرة رَيْثما تُنْتِج(١) ، ثمّ احتلبوها طِلاعَ العَقْب دَماً عَبيطا وذُعافا مُمقِرا هنا لك يَخسَر المُبطِلون ، ويَعرِف التالون غِبَّ ماأسّس الأوّلون ، ثم طِيبوا عن أنفسكم نفسا ، واطمئنّوا للفتنة جأشا ، وأبشِروا بسيفٍ صارم ، وهرْجٍ شامل ، واستبدادٍ من الظالمين يَدَعُ فيئكم زهيدا ، وجمعَكم حَصِيدا ؛ فيا حسرةً عليكم ، وأنّى لكم وقد عُمِّيَتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ! والحمد لله ربّ العالمين ، وصلاتُه على محمد خاتم النبيّين ، وسيّد المرسلين .

***

قلتُ : هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكرُ فدَك والميراث ، إلّا أنّه من تتمّة ذلك ، وفيه إيضاح لما كان عندها ، وبيانٌ لشدّة غيظها وغَضَبها ، فإنّه سيأتى فيما بعدُ ذكر مايناقض به قاضى القضاة والمرتضى فى أنّها هل كانت غَضْبى أم لا ! ونحن لا ننصر مذهباً بعينه ، وإنّما نذكر ما قيل ، وإذا جرى بحثٌ نظرىٌّ قلنا ما يقوى فى أنفسنا منه .

واعلم أنّا إنّما نذكر فى هذا الفصل ما رواه رجالُ الحديث وثِقاتُهم ، وما أوْدعه أحمدُ ابنُ عبد العزيز الجوهرىُّ فى كتابه ، وهو من الثقات الأمناء عند أصحاب الحديث ، وأمّا ما يرويه رجال الشّيعة والأخباريّون منهم فى كتبهم من قولهم : إنّهما أهاناها وأسمَعاها كلاماً غليظا ، وإنّ أبا بكر رقّ لها حيث لم يكن عمرُ حاضرا ، فكتب لها بفدَك كتابا ، فلمّا خرجتْ به وجدَها عمر ، فمدّ يده إليه ليأخذه مغالبة ، فمنعتْه ، فدفع بيَدِه فى صدرها

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « تحلب » .

وأخَذَ الصحيفةَ فخرقها بعد أن تَفَل فيها فمحاها ، وإنها دعت عليه فقالت : بَقَر الله بطنَك كما بقرتَ صحيفتي ؛ فشيء لا يرويه أصحابُ الحديث ولا ينقلُونه ، وقدرُ الصَّحابة يَجِلّ عنه ، وكان عمرُ أتقى لله ، وأعرفَ لحقوق الله من ذلك ، وقد نَظَمَت الشِّيعة بعضَ هذه الواقعة الّتي يذكرونها شِعراً أوّله أبياتٌ لمهيار بن مرزويه الشاعر من قصيدته الّتي أوّلها[1] :

يا ابنةَ القومِ تُراكِ   بالغٌ قتْلِي رِضاكِ[2]

وقد ذيّل عليها بعضُ الشِّيعة وأتمّها ، والأبيات :

يا ابنةَ الطّاهرِ كَمْ تُقْـ   رَعُ بالظّلم عَصاكِ
غَضِبَ اللهُ لخَطْبٍ   ليلةَ الطَّفِّ عَراكِ
ورَعَى النارَ غداً قطّ   رعَى أمسِ حِماكِ
مَرّ لم يعطِفه شكوَى   ولا استحيا بكاكِ
واقتدى الناس به بعـ   دُ فأرْدَى وَلَدَاكِ
يا ابنةَ الرّاقِ إلى السد   رةِ في لوح السكاكِ
لهف نفسي وعلى مِثـ   لِك فلتبكِ البواكي
كيف لم تقطع يدٌ مُدّ   إليك ابن صحاكِ
فَرِحوا يومَ أهانو   كِ بما ساء أباكِ
ولقد أخبرَهم أنّ   رِضاه في رِضاكِ
دَفعا النصَّ على إر   ثك لمّا دفعاكِ
وتعرّضتِ لقَدْرٍ   تافهٍ وانتهراكِ

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٦٧ ، ٣٦٨ .   (٢) في الأصول : « براك » والصواب ما أثبته من الديوان .

وادّعيت النِّحْلَةَ المشـــهود فيها بالصِّكاكِ
فاستشاطا ثمّ ما إن كَذَبا إن كذباكِ
فزوَى اللهُ عن الرَّحْـــمةِ زنديقاً ذَواكِ
ونَفَى عن بابه الوا سع شيطاناً نَفَـاكِ

فانظر إلى هـذه البليّة التى صبّت من هؤلاء على سادات المسلمين ، وأعلام المهاجرين ! وليس ذلك بقادح فى عُلوّ شأنهم ، وجلالة مكانهم ، كما أنّ مُبغضى الأنبيـاء وحَسَدتهم ، ومصنّفى الكتب فى إلحاق العَيْبِ والتهجين لشرائعهم لم تَزِدْ لأنبيائهم إلّا رفعــة ، ولا زادت شرائعهم إلّا انتشارا فى الأرض ، وقبولا فى النفس ، وبهجةً ونورا عنـد ذوى الألباب والعقول .

وقال لى عَلَوِىّ فى الحِلّة[١] يُعرَف بعلى بن مهنا ، ذكىّ ذو فضـائل : ما تظنّ قصدَ أبى بكر وعمرَ بمنع فاطمة فَدَك ؟ قلت : ما قصدا ؟ قال : أرادا ألّا يُظهرا لعلىّ ـ وقد اغتصباه الخلافة ـ رقّة ولينا وخذلانا ، ولا يرى عندهما خوَرا ، فأتْبعا القرْح بالقرْح .

وقلت لمتكلّم من متكلّمى الإمامية يُعرَف بعلىّ بن تقىّ من بلدة النيـل[٢] : وهل كانت فَدَكُ إلا نخلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير ! فقال لى : ليس الأمرُ كذلك ، بل كانت جليلة جدًّا ، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل ، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألّا يتقوّى علىٌّ بحاصِلِها وغَلّتها على المنازعة فى الخلافة ، ولهذا أتبعا ذلك بمنع فاطمة وعلىّ وسائر بنى هاشم وبنى المطلب حقَّهم فى الخمس ، فإنّ

---

(١) الحلة : تطلق على عدة مواضع ؛ منها موضع بين الكوفة والبصرة ؛ وهى حلة بنى مزيد .
(٢) النيل هنا : بليدة فى سواد الكوفة ؛ قرب حلة بنى مزيد .

الفقير الذى لا مال له تضعف همّته ويتصاغر عند نفسه ، ويكون مشغولا بالاحتراف والاكتساب عن طلب المُلك والرياسة ، فانظر إلى ما قد وقر فى صدور هؤلاء ، وهو داء لا دواء له ، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشِّيم ، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها !

* * *

الفصل الثانى

فى النظر فى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله هل يُورَث أم لا

نذكر فى هذا الموضع ما حكاه المرتضى رحمه الله فى « الشّافى »[1] عن قاضى القضاة فى هذا المعنى ، وما اعترضه به ، وإن استضعفْنا شيئًا من ذلك قلنا ما عندنا ، وإلّا تركناه على حاله .

قال المرتضى : أوّل ما ابتدأ به قاضى القضاة حكايته عنّا استدلالنا على أنه صلّى الله عليه وآله مورِّث[2] بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[3] وهذا الخطاب عامّ يدخل فيه النبيّ وغيرُه .

ثمّ أجاب ـ يعنى قاضى القضاة ـ عن ذلك ، فقال : إنّ الخبر الذى احتجّ به أبو بكر ـ يعنى قوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث » ـ لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمرَ وعثمانَ وطلحةَ والزبيرَ وسعدا وعبدالرحمن ، فشهدوا به ، فكان لا يحلّ لأبى بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثا ، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها صدقة وليست بميراث ، وأقلّ ما فى هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد ،

---

(١) الشافى ص ٢٢٨ وما بعدها . (٢) ا : « موروث » . (٣) سورة النساء ١١ .

فلو أنّ شاهدين شهدا فى التركة أنّ فيها حقّا ، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث! فعلمُه بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله مع شهادة غيره أقوى . ولسنا نجعله مدّعيا لأنّه لم يدّع ذلك لنفسه ، وإنما بيّن أنه ليس بميراث ، وأنه صدقة . ولا يمتنع تخصيص القرآن بذلك ، كما يخصّ فى العبد والقاتل وغيرهما ، وليس ذلك بنقص فى الأنبياء ، بل هو إجلالٌ لهم ، يرفع اللهُ به قدرهم عن أن يورّثوا المال ، وصار ذلك من أوكد الدواعى ألّا يتشاغلوا بجمعه ، لأنّ أحد الدواعى القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين . ولما سمعتْ فاطمة عليها السلام ذلك من أبى بكر كفّت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار الصحيحة ، فلا يمتنع أن تكون غيرَ عارفة بذلك ، فطلبت الإرث ، فلما رَوَى لها ما رَوَى كفّت ، فأصابت أولا وأصابت ثانيا .

وليس لأحد أن يقول : كيف يجوز أن يبين النبىّ صلى الله عليه وآله ذلك للقوم ولا حقّ لهم فى الإرث ، ويدَع أن يبين ذلك لمن له حقّ فى الإرث ، مع أنّ التكليف يتصل به ؛ وذلك لأنّ التكليف فى ذلك يتعلّق بالإمام ، فإذا بيّن له جاز ألّا يبيّن لغيره ويصير البيان له بياناً لغيره ، وإن لم يسمعه من الرّسول ، لأنّ هذا الجنس من البيان يجب أن يكون بحسب المصلحة !

قال : ثمّ حكى عن أبى علىّ أنه قال : أتعلمون كذِبَ أبى بكر فى هذه الرواية ، أم تجوّزون أن يكون صادقا[١] ؟ قال : وقد علم أنه لا شىء يقطع به على كذبه ، فلا بدّ من تجويز كونه صادقا . وإذا صحّ ذلك قيل لهم : فهل كان يحلّ له مخالفة الرسول ؟ فإن قالوا : لو كان صِدْقا لظهر واشتهر ، قيل لهم : إنّ ذلك من باب العمل ، ولا يمتنع أن ينفرد بروايته جماعة يسيرة ، بل الواحد والاثنان ، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات ، فإن قالوا نعلم أنه لا يصحّ لقوله تعالى فى كتابه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾[٢] . قيل لهم :

---

(١) الشافى : « أم تجوزون كذبه وصدقه » . (٢) سورة النمل ١٦ .

ومن أين أنه ورّثه الأموال؛ مع تجويز أن يكون ورّثه العلم والحكمة ؟ فإن قالوا : إطلاق الميراث لا يكون إلاّ فى الأموال ؛ قيل لهم : إن كتاب الله يُبطل قولكم ، لأنه قال : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾(١) ، والكتاب ليس بمال ، ويقال فى اللغة: ما وَرّثَت الأبناء عن الآباء شيئاً أفضلَ من أدب حَسَن ؛ وقالوا : العلماء وَرَثة الأنبياء ، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال ، على أنّ فى آخر الآية ما يدلّ على ما قلناه ، وهو قولُه تعالى حاكيا عنه : ﴿ وقال يَاأَيُّها النّاسُ عُلِّمنا منطقَ الطّيْر وأُوتينا من كلّ شيء إنّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ المبين ﴾(٢) ، فنبّه على أنّ الذى ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، وإلالم يكن لهذا القول تعلق بالأوّل . فإن قالوا : فقد قال تعالى: ﴿ فهبْ لى مِنْ لَدُنْكَ وليّاً يَرِثُنى ويَرِثُ من آل يعقوب ﴾(٣) ، وذلك يُبطل الخبر ! قيل لهم : ليس فى ذلك بيانُ المال أيضا ، وفى الآية ما يدلُّ على أنّ المراد النبوّة والعلم ، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس ، وقوله : ﴿ وإنّى خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائى ﴾ يدلّ على ذلك ، لأنّ الأنبياء لا تحرِص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها بها ، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع ، فسأل الله تعالى وليّا يقوم بالدّين مقامه . وقوله : ﴿ ويَرِثُ من آل يعقوب ﴾ يدلّ على أنّ المراد العلمُ والحكمة ، لأنه لا يرث أموال يعقوبَ فى الحقيقة(٤) ، وإنما يرث ذلك غيره .
قال : فأمّا مَنْ يقول : إنّ المراد : أنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه صدقة ، أى ما جعلناه صدقةً فى حال حياتنا لا نورِّثُه ، فركيك من القول ، لأنّ إجماع الصحابة يخالفه ، لأنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه ، لأنه لا يكون فى ذلك تخصيص الأنبياء ، ولا مزية لهم ، ولأن قوله : « ما تركناه صَدَقة » ، جملة من الكلام مستقلّة بنفسها ، كأنه

---

(١) سورة فاطر ٣٢ .

(٢) سورة النمل ١٦ . (٣) سورة مريم ٥ ، ٦ .

(٤) ب : « الحقيقة » تحريف صوابه من ا والشافى .

عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال ، يبيّن أنه صدقة ، لأنه كان يجوز ألاّ يكون ميراثا ، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة .

قال : فأمّا خبر السّيف والبغلة والعمامة وغير ذلك ؛ فقد قال أبو علىّ : إنّه لم يثبت أنّ أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام على جهة الإرْث ، كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذى رواه ، وكيف يجوز لو كان وارثا أن يخصّه بذلك ولا إرث له مع العمّ لأنّه عصبة ! فإن كان وصل إلى فاطمة عليها السلام فقد كان ينبغى أن يكون العبّاس شريكا فى ذلك وأزواج الرّسول الله صلّى الله عليه وآله، ولوَجب أن يكون ذلك ظاهرا مشهورا ليُعرف أنّهم أخذوا نصيبَهم من ذلك أو بَدَله، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرْث ألّا يحصل ذلك فى يده ، لأنّه قد يجوز أن يكون النبىّ صلّى الله عليه وآله نَحَله ذلك، ويجوز أيضا أن يكون أبو بكر رأى الصّلاحَ فى ذلك أن يكون بيده لما فيه من تقوِيَة الدّين ، وتصدّق ببدله بعد التقويم ، لأنّ الإمام له أن يفعل ذلك .

قال : وحكى عن أبى علىّ فى البُرْد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعَله عُدّة فى سبيل الله وتقوِيَة على المشركين ، فتداولته الأئمّة لما فيه من التقوية ، ورأى أنّ ذلك أولَى من أن يتصدّق به إن ثبت [1] أنه عليه السلام لم يكن قد نحله غَيْره فى حياته ، ثم عارض نفسَه بطلب أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله الميراث ، وتنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس بعد موت فاطمةَ عليها السلام . وأجاب عن ذلك بأن قال : يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبى بكر وغيره للخبر .

وقد رُوِى أنّ عائشة لما عرّفتهنّ الخبرَ أمسكن ، وقد بيّنا أنّه لا يمتنع فى مثل ذلك أن يخفى على من يستحقّ الإرْث ، ويعرفه من يتقلّد الأمر ، كما يعرِف العلماء والحكّام من أحكام المواريث ما لا يعلمه أرباب الإرْث ، وقد بيّنا أنّ رواية أبى بكر مع الجماعة

(١) ا الشافى : « أن يثبت » .

أقوى من شاهدين لو شهد أنّ بعضَ تركته عليه السلام دَيْن ، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو رَوَيا ذلك .

قال : ومتى تعلّقوا بعموم القرآن أرَيْنَاهم جوازَ التّخصيص بهذا الخبر ، كما أنّ عموم القرآن يقتضي كون الصّدقات للفقراء ، وقد ثبت أنّ آل محمد لا تَحلّ لهم الصدقة .

هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضِي القُضاة(١) .

* * *

ثم قال : نحن نبيّن أوّلا ما يدلّ على أنّه صلّى الله عليه وآله يورّث المال ، ونرتّب الكلام في ذلك الترتيب الصحيح ، ثم نَعطف على ما أورده ، ونتكلّم عليه .

قال رضي الله عنه : والّذي يدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى مخبرا عن زكريّا عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾(٢)؛ فخبّر أنه خاف من بني عمّه ، لأن الموالي هاهنا هم بنو العمّ بلا شبهة ، وإنّما خافهم أنْ يرثوا ماله فينفقوه في الفساد ، لأنّه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم ، فسأل ربّه ولدا يكون أحقّ بميراثه منهم .

والذي يدلّ على أنّ المراد بالميراث المذكور ميراثُ المال دون العلم والنبوّة على ما يقولون أنّ لفظة الميراث في اللّغة والشريعة لا يفيد(٣) إطلاقُها إلّا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث ، كالأموال وما في معناها، ولا يُستعمل في غير المال إلا تجوّزا واتّساعا، ولهذا لا يُفهَم من قول القائل : لا وارث لفلان إلّا فلان ، وفلانٌ يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلّا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها . وليس لنا أن نعدل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى مجازه بغير دلالة . وأيضا فإنّه تعالى خبّر عن نبيّه أنّه اشترط في وارثه أن يكون رضيّا ، ومتى لم يُحمل الميراث في الآية على المال دون العلم

---

(١) الشافي ٢٢٨ ، ٢٢٩ . (٢) سورة مريم ٥ ، ٦ . (٣) ا والشافي : « لا يعهد » .

والنبوّة لم يكن للاشتراط معنًى ، وكان لغواً وعبثا ؛ لأنه إذا كان إنما سأل مَنْ يقوم مقامه ، ويرث مكانه فقد دخل الرّضا وما هو أعظم من الرّضا فى جملة كلامه وسؤاله ؛ فلا مقتضى لاشتراطه؛ألا ترى أنّه لايحسن أن يقول: اللهم ابعث إلينا نبيّا واجعله عاقلا،[ومكلّفا][1]؛ فإذا ثبتتْ هذه الجملة صحّ أنّ زكريّا موروثٌ مالُه . وصحّ أيضا لصحّتها أن نبيّنا صلّى الله عليه وآله ممّن يورّث المال ، لأن الإجماع واقع على أنّ حال نبيّنا عليه السلام لا يخالف حالَ الأنبياء المتقدّمين فى ميراث المال ، فمن مثبت للأمْرين وناف للأمْرين[2] .

قلت : إنّ شيخنا أبا الحسين قال فى كتاب "الغُرَر" : صورة الخبر الوارد فى هذا الباب ، وهو الّذى رواه أبو بكر: «لانُورَث»، ولم يقل : «نحن معاشرَ الأنبياءلانورث»، فلا يلزم من كون زكريّا يورَث الطعنُ فى الخبر . وتصفّحت أنا كُتبَ الصّحاح فى الحديث فوجدتُ صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين ، وإن كان رسولُ صلّى الله عليه وآله عَنَى نفسَه خاصّة بذلك ؛ فقد سقط احتجاج الشّيعة بقصّة زكريا وغيره من الأنبياء ، إلّا أنّه يَبعدُ عندى أن يكون أراد نفسه خاصّة ؛ لأنّه لم تجْرِ عادته أن يخبر عن نفسه فى شىء بالنون .

فإن قلتَ : أيصحّ من المرتضى أن يوافق على أنّ صورة الخبر هكذا ، ثم يحتجّ بقصّة زكريّا بأنْ يقول : إذا ثبت أنّ زكريا موروث ، ثبت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يجوز أن يكون موروثا ، لإجماع الأمّة على أن لا فرق بين الأنبياء كلّهم فى هذا الحكم !

قلت : وإن ثبت له هذا الإجماع صحّ احتجاجه ، ولكنّ ثبوته يبعد ، لأنّ من نفى كون زكريّا عليه السلام موروثا من الأمّة إنّما نفاه لاعتقاده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « نحن معاشرَ الأنبياء » ، فإذا كان لم يقل هكذا ، لم يقل : إنّ زكريّا عليه السلام غير موروث .

---

(١) من الشافى . (٢) الشافى ٢٢٩ .

قال المرتضى : ومما يقوّى ما قدّمناه أنّ زكريّا عليه السلام خاف بنى عمّه ، فطلب وارثا لأجل خوفه ، ولا يليق خوفه منهم إلّا بالمال دون العلم والنبوّة ، لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيًا ليس بأهل للنبوّة ، وأن يُورِّث علمَه وحكمَه من ليس أهلا لها ، ولأنّه إنما بُعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس ، فلا يجوز أن يخاف من الأمر الّذى هو الغرض فى البعثة(١) . فإن(٢) قيل : هذا يرجع عليكم فى الخوف عن إرث المال لأنّ ذلك غاية الضنّ والبخل . قلنا : معاذَ الله أن يستوىَ الحال ، لأنّ المال قد يصحّ أن يَرْزُقَه الله تعالى المؤمن والكافرَ والعدوّ والولىّ ، ولا يصحّ ذلك فى النبوّة وعلومها . وليس من الضنّ أن يأسى على بنى عمّه ـ وهم من أهل الفساد ـ أن يظفَروا بماله فينفقوه على المعاصى ، ويصرفوه فى غير وجوهه المحبوبة ، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير فى الدّين ، لأنّ الدّين يحظر تقوية الفسّاق وإمدادَهم بما يُعينهم على طرائقهم المذمومة ، وما يَعُدّ ذلك شحًا ولا بخلا إلّا من لا تأمّل له.

فإن قيل : أفلا(٣) جاز أن يكون خاف من بنى عمّه أن يَرِثوا علمه، وهم من أهل الفساد على ما ادّعيتم فيستفسدوا به الناس ، ويموّهوا به عليهم ؟ قلنا : لا يخلو هذا العلم الّذى أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأنّ ذلك قد يسمّى علما على طريق المجاز، أو يكون هو العلم الّذى يحلّ القلب . فإن كان الأوّل فهو يرجع إلى معنى المال، ويصحّح أن الأنبياء يُوَرِّثون أموالهم وما فى معناها ، وإن كان الثانى لم يخلُ هذا من أن يكون هو العلم الّذى بُعِث النبىّ لنشره وأدائه ، أو أن يكون علما مخصوصا لا يتعلّق بالشريعة ، ولا يجب إطلاع جميع الأمّة عليه ، كعلم العواقب وما يَجرِى فى مستقبل الأوقات ، وما جرى مَجرَى ذلك . والقسم الأوّل لا يجوز على النبىّ أن يخاف من وصوله إلى بنى عمّه وهم من جملة أمّته الّذين بعث لإطلاعهم على ذلك ، وتأديته إليهم ، وكأنّه على هذا الوجه يخاف ممّا هو الغرض من بعثته . والقسم الثانى فاسدٌ أيضا ، لأنّ

(١) ا والشافى : « بعثته » . (٢) د : « قال فإن قيل » . (٣) ا ، د : « فألّا » .

هذ العلم المخصوصَ إنّما يستفاد من جهته ، ويُوقف عليه بإطلاعه وإعلامه ؟ وليس هو ممّا يجب نشرُه فى جميع الناس ، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فسادا ألّا يلقيه إليه ، فإنّ ذلك فى يده ، ولا يحتاج إلى أكثرَ من ذلك[١] .

قلت : لعاكس أن يعكِس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ ، ويقول له : وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمّه أمواله فينفقوها فى الفساد أن يتصدّق بها على الفقراء والمساكين ، فإنّ ذلك فى يده ، فيحصل له ثواب الصدقة ، ويَحْصُل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين ميراثه .

قال المرتضى رضى الله عنه : وممّا يدلّ على أنّ الأنبياء يورّثون قولُه تعالى : ﴿ ووَرِث سُليمانُ داودَ ﴾[٢] ، والظاهر من إطلاق لفظة « الميراث » يقتضى الأموال وما فى معناها على ما دللنا به من قبل .

قال : ويدلّ على ذلك أيضا قولُه تعالى : ﴿ يُوصِيكم الله فى أولادكم للذّكر مِثْلُ حَظِّ الأنثيين . . . ﴾[٣] الآية ، وقد أجمعت الأمّة على عموم هذه اللفظة إلّا من أخرجه الدليل ، فيجب أن يتمسّك بعمومها ، لمكان هذه الدّلالة ، ولا يخرج عن حكمها إلّا من أخرجه دليل قاطع[١] .

قلت: أمّا قولُه تعالى: ﴿ ووَرِثَ سليمانُ داود ﴾، فظاهرها يقتضى وراثة النبوّة أو الملك أو العِلم الّذى قال فى أوّل الآية : ﴿ وَلَقَدْ آتينا داوُدَ وَسُليمانَ عِلْماً ... ﴾ لأنّه لا معنى لذكر ميراث سليمانَ المالَ ، فإنّ غيره من أولاد داود قد وَرِث أيضا أباه داودَ ؛ وفى كتب اليهود والنصارى أنّ بنى داود كانوا تسعة عشر ، وقد قال بعض المسلمين أيضا ذلك : فأىّ معنًى فى تخصيص سليمانَ بالذكر إذا كان إرثَ المال ! وأمّا: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فى أَوْلَادِكُمْ ﴾ ، فالبحث فى تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد ؛ هل هو حجّة فى

---

(١) الشافى ٢٢٩ ، ٢٣٠ . سورة النمل ١٦ .

(٣) سورة النساء ١١ .

الشرعيّات أم لا ! فإن ثبت مذهب المرتضى فى كونه ليس بحجّة فكلامه هنا جيّد ، وإن لم يثبت فلا مانعَ من تخصيص العموم بالخبر ، فإنّ الصحابة قد خصّصتْ عمومات[1] الكتاب بالأخبار فى مواضع كثيرة .

* * *

قال المرتضى: وأمّا تعلّق صاحب الكتاب بالخبر الّذى رواه أبو بكر وادّعاؤه أنّه أُستشهد عمر وعثمان وفلانا وفلانا ، فأوّل ما فيه أن الّذى ادّعاه من الاُستشهاد غير معروف ، والّذى رُوِى أنّ عمر أُستشهد هؤلاء النفر لمّا تنازع[2] أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس رضى الله عنه فى الميراث ، فشَهِدوا بالخبر المتضمّن لنفى الميراث ، وإنّما مقول مخالفينا فى صحّة الخبر الّذى رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث على إمساك الأمّة عن النكير عليه ، والرّد لقضيّته[3] .

قلت: صدق المرتضى رحمه الله فيما قال ، أمّا عَقيب وفاة النبىّ صلّى الله عليه وآله، ومطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث، فلم يروِ الخبر إلّا أبو بكر وحدَه . وقيل : إنه رواه معه مالكُ بن أوْس بن الحدَثان ؛ وأمّا المهاجرون الّذين ذكرهم قاضى القضاة فإنّما شهدوا بالخبر فى خلافة عمر ؛ وقد تقدّم ذكْر ذلك .

* * *

قال المرتضى: ثمّ لو سلّمنا استشهاد مَنْ ذَكر على الخبر لم يكن فيه حجّة ، لأنّ الخبر على كلّ حال لا يخرج من أن يكون غيرَ موجب للعلم ، وهو فى حكم أخبار الآحاد ، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجرى هذا المجرَى ، لأنّ المعلوم لا يُخَصّ إلّا بمعلوم ، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة ، لم يجز أنْ يخرَج عنها بأمرٍ مظنون .

قال : وهذا الكلام مبنىٌّ على أنّ التخصيص للكتاب والسنّة المقطوع بهما لا يقع

---

(١) ا ، د : « عموم » . (٢) ا والشافى : « نازع » . (٣) الشافى ٢٣٠ .

بأخبار الآحاد ، وهو المذهب الصحيح . وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يُعتمَد فى الدلالة عليه من من أن الظنّ لا يقابل العلم، ولا يرجَع عن المعلوم بالمظنون . قال : وليس لهم أن يقولوا : إنّ التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضا إلى عِلم ، وإن كان الطريق مظنونا ، ويشيروا إلى ما يدّعونه من الدّلالة على وجوب العمل بخبر الواحد فى الشريعة ، وأنّه حجّة ، لأنّ ذلك مبنيّ من قولهم على ما لانسلّمه، وقد دلّ الدليلُ على فساده ـ أعنى قولهم : خبر الواحد حجّة فى الشرع ـ على أنّهم لو سلِّم لهم ذلك لأحتاجوا إلى دليل مستأنَف على أنّه يقبل فى تخصيص القرآن ؛ لأنّ ما دلّ على العمل به فى الجملة لا يتناول هـذا الموضع ، كما لا يتناول جواز النّسخ به [1] .

قلت : أمّا قولُ المرتضى : لو سلّمنا أنّ هؤلاء المهاجرين الستّة روَوْه لـما خرج عن كونه خبرا واحدا ، ولـما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به ، لأنّه معـلوم ، والخبر مظنون.

ولقائل أن يقول : ليته حصل فى كلّ واحـد من آيات القرآن رواية مثل هذه الستّة ، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء ، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون فى إثبات الآية فى المصحف ، بل كانوا يحلّفون من أتاهم بالآية . ومَنْ نظر فى كتب التواريخ عَرَف ذلك ، فإن كان هذا العدد إنّما يفيـد الظنّ فالقولُ فى آيات الـكتاب كذلك ، وإن كانت آيات الـكتاب أثبتتْ عن علم مستفـاد من رواية هذا العدد ونحوه ، فالخبر مثل ذلك .

فأمّامذهب المرتضى فى خبر الواحدفإنّه قولٌ أنفرد [2] به عن سائر الشّيعة، لأنّ من قبله من فقهائهم ما عوّلوا فى الفقه إلّا على أخبار الآحاد كزُرارة ، ويونس ، وأبى بصير ، وأبنى بابويه ، والحلبي ، وأبى جعفر القُمّى وغيرهم ، ثم مَنْ كان فى عصر المرتضى منهم

---

(١) الشافى ٢٣٠ . (٢) د : « تفرد » .

كأبي جعفر الطُّوسي وغيره ، وقد تكلّمت في "اعتبار الذريعة" على ما اعتمد عليه في هذه المسألة ، وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنّه إذا صحّ كون خبر الواحد حجّة في الشرع ، جاز تخصيصُ الكتاب به ، وهذا من فنّ أصول الفقه ، فلا معنى لذكرِه هنا .

* * *

قال المرتضى رضى الله عنه : وهـذا يُسقِط قولَ صاحب الكتاب : إنّ شاهدَيْن لو شهدا أنّ في التّركة حقًّا لكان يجبُ أن ينصرف[1] عن الإرْث ، وذلك لأنّ الشهادة وإن كانت مظنونةً فالعمل بها يستند[2] إلى علم ، لأنّ الشريعة قد قرّرت العمَل بالشهادة ولم تقرّر العمَل بخبر الواحد ، وليس له أن يقيس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتمعا في غَلَبَة الظّنّ ، لأنّا لا نعمل على الشهادة من حيث غلَبة الظنّ دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها ؛ ألا ترَى أنّا قد نظنّ بصدق الفاسق والمرأة والصبيّ وكثير ممّن لا يجوز العمل بقوله ! فبان أنّ المعوّل في هذا على المصلحة الّتي نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع .

قال : وأبو بكر في حُكْم المدّعي لنفسه والجارّ إليها بخلاف ما ظنّه صاحب الكتاب ، وكذلك مَنْ شهد له إن كانت هناك شهادة[3] ، وذلك أنّ أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله يحلّ لهم الصدقة ، ويجوز أن يصيبوا فيها ، وهذه تهمة في الحكم والشهادة .

قال : وليس له أن يقول : فهذا يقتضي ألّا يقبل شهادة شاهدَين في تَرِكةٍ فيها صَدَقة لمثل ما ذكرتم .

---

(١) ا ، د : « يصرف » . (٢) الشافي : « استند » .

(٣) بعدها في الشافي : « قد وجدت » .

قال : وذلك لأنّ الشاهدين إذا شهدا فى الصّدقة[١] فحظّهما منها كحظّ صاحب الميراث بل سائر المسلمين ، وليس كذلك حال تركة الرّسول ؛ لأنّ كونها صدقة يحرّمها على ورثته ، ويبيحُها لسائر المسلمين[٢] .

قلت : هـذا فرق غير مؤثّر ، اللّهمّ إلّا أن يعنى به تهمةَ أبى بكر والشهود الستّة فى جرّ النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شهِدوا على أبى هُرَيرة مَثلا أنّ ما تركه صدقة ؛ لأنّ أهلَ أبى هريرة يشاركون فى القسمة ، وأهلَ النبىّ صلّى الله عليه وآله لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم ، إذ هم لا تحلّ لهم الصدقة ، فتكون حصّة أبى بكر والشهود ممّا تركه رسول الله أكثرَ من حصّتهم ممّا يتركه أبو هريرة ، فيكون تطرّق التهمة إلى أبى بكر والشهود أكثر حسبَ زيادة حصّتهم ؛ وما وقفت للمرتضى على شىء أطرَفَ من هذا ، لأنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان ، لأنّه قادَ فى غَزاةِ تَبوك عشرين ألفا ، ثم وفدتْ إليه الوفود كلّها بعد ذلك ، فليت شِعرى كم مقدار ما يتوفّر على أبى بكر وستّة نفر معه ، وهم من جملة خمسين ألفا ، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطّلب ـ وهم حينئذ عشرة نفر ـ لا يأخذون حصّة ، وبيْن ما إذا كانوا يأخذون ! أترى أيكون المتوفّر على أبى بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم ! ما أظنّ أنّه يبلغ ذلك . وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبى هريرة إذا شركهم أهله فى التركة ، لتكونَ هذه القِلّة موجِبةً رفع التهمة ، وتلك الزيادة والكثرة موجبة حصولَ التهمة ! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى .

* * *

قال المرتضى رضى الله عنه : وأمّا قوله : يخصّ القران بالخبر[٣] كما خصصناه فى العبد والقاتل ، فليس بشىء ، لأنّا إنما خصصنا مَنْ ذكر بدليل مقطوع عليه معلوم ، وليس هذا موجودا فى الخبر الّذى ادّعاه . فأمّا قوله : وليس ذلك ينقص الأنبياء ، بل هو إجلال لهم ،

---

(١) كذا فى ا ، د والشافى ، وفى ب : « بالصدقة » .   (٢) الشافى ٢٣٠ .
(٣) الشافى : « بذلك » .

فمن الّذى قال له : إنّ فيه[1] نقصا ! وكما أنّه لا نقص فيه ، فلا إجلالَ فيه ولا فضيلةَ ؛ لأنّ الداعى وإن كان قد يقوّى على جمع المال ليخلف على الورثة ، فقد يقوّيه أيضا إرادة صرفه فى وجوه الخير والبرّ ، وكلا الأمرين يكون داعيا إلى تحصيل المال ، بل الداعى الّذى ذكرناه أقوى فيما يتعلّق بالدّين .

قال : وأمّا قوله : إنّ فاطمة لمّا سمعتْ ذلك كفّت عن الطلب، فأصابت أوّلا وأصابت ثانيا ؛ فلعَمرى إنها كفّت عن المنازعة والمشاحّة ، لكنها انصرفت مغضَبة متظلّمة متألّمة؛ والأمر فى غضبها وسخطها أظهرُ من أن يخفى على مُنصِف ، فقد روَى أكثرُ الرواة الّذين لا يُتَّهمون بتشيّع ولا عصبيّة فيه من كلامها فى تلك الحال ، وبعد انصرافها عن مقام المنازَعة والمطالبة ، ما يدلّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبِها .

أخبرَنا أبو عُبيد الله محمّد بن عمران المَرْزُبانىّ قال : حدّثنى محمّد بن أحمدَ الكاتب ، قال : حدّثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوىّ ، قال: حدّثنى الزّيادىّ ، قال : حدّثنا الشّرْقىّ ابن القُطامىّ ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدّثنا صالح بن كيسان ، عن عروة ، عن عائشة، قالت : لما بلغ فاطمةَ إجماعُ أبى بكر على منعِها فدَكَ لاثتْ خِمارَها على رأسها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلتْ فى لُمّة[2] من حَفَدتِها . . .

قال المرتضى : وأخبرنا المرزبانىّ قال : حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمّد المكّى قال : حدّثنا أبو العيناء بن القاسم اليمانىّ قال : حدّثنا ابن عائشة ، قال : لمّا قُبِض رسول الله صلّى الله عليه وسلم أقبلتْ فاطمة إلى أبى بكر فى لُمّة من حَفَدتها . ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا[3] . . . ونساء قومها تطأ ذُيولها ما تخرم مِشيتُها مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) د والشافى : « إنه نقص » .   (٢) اللمة ، بالضم والتشديد : الرفقة والجماعة .

(٣) الشافى : « اتفقا من ها هنا » .

حتى دخلت على أبي بكر وهو فى حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنِيطت[1] دونها مُلاءة ، ثم أنَّت أنَّةً أجهش لها القومُ بالبكاء ، وارتجّ المجلس ، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نَشيجُ القوم وهدأت فَوْرَتهم ، افتتحت كلامها بالحمد لله عزّ وجلّ والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[2] ﴾ ، فإن تعزُوه تجدوه أبي دون آبائكم ، وأخا ابن عمّي دون رجالكم ، فبلّغ الرسالة صادعا بالنذارة[3] ، مائلا عن سَنَن المشركين ، ضاربا ثَبَجهم ، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آخذاً بأكظام[4] المشركين ؛ يهشم الأصنام ، ويفلّق الهام ، حتى انهزم الجمع وولّوا الدُّبُر ، وحتّى تفرّى[5] الليلُ عن صُبْحِه ، وأسفر الحقّ عن محضه ، ونطق زعيم الدّين ، وخرست شقائق الشياطين ، وتمّت كلمةُ الإخلاص ، وكنتم على شَفا حفرةٍ من النار ، نُهزة الطامع ، ومذْقة الشارب ، وقبسة العجلان ، وموطأ الأقدام ، تشربون الطَّرْق[6] ، وتقتاتون القِدّ ؛ أذلّة خاسئين ، يختطفكم الناس من حولكم ، حتّى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وآله بعد اللّتيّا والّتي ، وبعد أن مُني بهم الرجال وذؤبان العرب ومَرَدة أهل الكتاب ، و ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ[7] ﴾ ، أو نجم قرن الشيطان ، أو فغرت فاغرة[8] قذف أخاه فى لهواتها . ولا ينكفى[9] حتى يطأ صِماخها بأخمصه ويطفىء عادية لَهَبها بسيفه — أو قالت : يخمد لهبها بحدّه — مكدودا فى ذات الله ، وأنتم فى رفاهية فَكِهُون آمنون وادِعون .

---

(١) نيطت : أى وصلت وعلقت . (٢) سورة التوبة ١٢٨ .

(٣) د : « صادرا بالتذكرة » .

(٤) الأكظام : جمع كظم ، بالتحريك ؛ وهو مخرج النفس من الحلق .

(٥) تفرى : انشق . (٦) الطرق : الماء الذى بالت الإبل فيه .

(٧) سورة المائدة ٦٤ . (٨) فغرت فاغرة : أى فتحت فاها .

(٩) د : « فلاتكنى » .

إلى هنا انتهى خبرُ أبي العيناء عن ابن عائشة. وأما عروة عن عائشة، فزاد بعد هذا: حتّى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرتْ حسيكةُ النفاق، وسَمُل جلباب الدّين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغَ خامل الآفكين، وهدَر فنيق المُبطلين، نخطر في عَرَصاتِكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين؛ ولقربه متلاحظين. ثم استنهضكم فوجدكم خِفافا، وأحمَشكم فألفاكم غِضابا، فوَسمتم غيرَ إبلكم، ووَرَدْتُم غيرَ شِرْبكم، هذا والعهد قريب، والكَلْم رحيب[1] والجرح لمّا يندمل، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة، ﴿ ألا في الفتنةِ سقطوا وإنَّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين ﴾[2]، فهيهات! وأنَّى بكم وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة. أرغبةً عنه تريدون، أم لغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلا! ومن يتبع غيرَ الإسلام ديناً فلنْ يُقبَل مِنْهُ وهو في الآخرةِ منَ الخاسرين. ثم لم تلبثوا إلّا رَيث أن تسكن نَفْرتها، تُسرّون حِسْوًا في ارتغاء، ونحن نصبر منكم على مثل حزّ المُدَى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، ﴿ أفحُكْمَ الجاهلِيّةِ يَبْغونَ ومَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنونَ[3] ﴾.

يابن أبي قحافة، أترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريّا! فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيمُ محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون! ثم انكفأتْ إلى قبر أبيها عليهما السلام، فقالت:

قد كان بعدَكَ أنباءٌ وهنبثةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تكثر الخُطَبُ

إذا فقدناك فقد الأرض وابلَها ... واختل قومُك فاشهدهم ولا تَغِبِ

ورَوَى حرميّ بن أبي العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً:

فليتَ بعدَك كان الموت صادَفنا ... لما قضيت وحالت دونَكَ الكُتُبُ

---

(١) رحيب، أي واسع.   (٢) سورة التوبة ٤٩.

(٣) سورة المائدة ٥٠

قال : فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال: ياخيرَ(١) النساء ، وابنة خير الآباء(٢) ، والله ما عدوتُ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولا عملتُ إلّا بإذنه ، وإن الرائدَ لا يكذِب أهله ، وإنى أشهد الله وكفى بالله شهيدا ؛ أنى سمعتُ رسول الله يقول ، « إنّا معاشر الأنبياء لا نورِث ذهبا ، ولا فضة ولا دارا ولا عقارا ، وإنما نورِث الكتاب والحكمة والعلم والنبوّة » .

قال : فلما وصل الأمر إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام كُلم فى ردّ فدَك ، فقال : إنى لأستحيى من الله أن أردّ شيئاً منع منه أبو بكر وأمضاه عمر(٣) .

***

قال المرتضى : وأخبرنا أبو عبد الله المَرْزُبانىّ : قال : حدثنى علىّ بن هارون ، قال : أخبرنى عبيد الله بن أحمد بن أبى طاهر ، عن أبيه قال : ذكرتُ لأبى الحسين زيد بن علىّ ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبى بكر إيّاها فدَكَ ، وقلت له : إنّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبى العيناء ، لأنّ الكلام منسوق البلاغة ، فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلّمونه أولادهم ، وقد حدّثنى به أبى عن (٤جدّى يَبْلغ به فاطمة عليها السلام٤) على هذه الحكاية ، وقد رواه مشايخ الشّيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدّ أبى العيناء ، وقد حدّث الحسين بن علوان ، عن عطية العوْفىّ ، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر(٥) عن أبيه هذا الكلام .

ثم قال أبو الحسن زيد : وكيف(٦) تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام ، وهم

---

(١) ا ، د : « ياخيرة » . (٢) الشافى : « الأنبياء » .

(٣) الشافى ٢٣٠ . (٤ — ٤) ساقط من د .

(٥) الشافى ، د : « ذكر » . (٦) د : « كيف » .

يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هــو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهلَ البيت . ثم ذكر الحديث بطُوله على نسقه ، وزاد فى الأبيات بعــد البيتين الأولين :

ضاقتْ علىّ بلادى بعد ما رحُبتْ وسِيمَ سِبْطاكَ خسفا فيه لى نَصَبُ
فليت قبلَك كان المــوتُ صادَفنــا قومٌ تمنّوا فأُعطُوا كلّ ما طلبوا
تجهّمَتْنا رجالٌ واستُخفّ بنــا مذغبتَ عنّا وكلّ الإرث قد غصبوا

قال : فما رأينا يوماً أكثرَ باكيا أو باكية من ذلك اليوم .

قال المرتضى : وقد روى هذا الـكلام على هذا الوجه من طُرُقٍ مختلفة ، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخَذَها من مواضعها ، فـكيف يدّعى أنّها عليها السلام كفّت راضية ، وأمسكت قانعة ، لولا البُهْت وقلّة الحياء[1] !

***

قلت : ليس فى هذا الخبر ما يدلّ على فساد ما ادّعاه قاضى القضاة ، لأنه ادّعى أنّها نازعت وخاصمت ثم كفّت لــا سمعت الرواية وانصرفتْ ، تاركةً للنزاع ، راضية بموجب الخــبر المرويّ . وما ذكره المرتضى من هــذا الـكلام لا يدلّ إلّا على سخطها حالَ حضورها ، ولا يدلُّ على أنها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لهــا أبو بكر بالله تعالى أنه ما روَى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله إلا ماسمعه منه ، انصرفت ساخطة ؛ ولا فى الحديث المذكور والـكلام المروىّ ما يدلّ عــلى ذلك ، ولست أعتقد أنها انصرفت راضية كما قال قاضى القضاة ، بل أعلم أنّها انصرفتْ ساخطة ، وماتت وهى على أبى بكر واجِــدة ، ولـكن لا من هذا الخبر ، بل من أخبار أُخَر ، كان الأَوْلى بالمرتضى أن يحتجّ بهــا على

---

(١) الشافى ٢٣١ .

ما يروونه في انصرافها ساخطة ، وموتها على ذلك السخط ، وأمّا هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدلّ على هذا المطلوب .

***

قال المرتضى رحمه الله : فأمّا قوله : إنه يجوز أن يبيّن عليه السلام أنّه لا حقّ لميراثه في ورثته لغير الورثة ، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد ، لأنّه من باب العمل ، وكلّ[1] هذا بناء منه على أصوله الفاسدة في أنّ خبر الواحد حجّة في الشرع ، وأنّ العمل به واجب ، ودون صحّة ذلك خَرْط القتاد ؛ وإنما يجوز أن يبيّن من جهة أخرى[2] إذا تساويا في الحجّة ووقوع العمل ، فأمّا مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما ، وإذا كان ورثةُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم متعبّدين بألّا يرثوه ، فلابدّ من إزاحة عِلّتهم في هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم ، ويُشافِهَهم به ، ويلقيه إلى مَنْ يقيم الحجّة عليهم بنقله ، وكلّ ذلك لم يكن .

فأمّا قوله : أتجوّزون صِدقه في الرواية أم لا تجوزون ذلك ؟ فالجواب إنا لا نجوّزه ، لأنّ كتاب الله أصدقُ منه ، وهو يدفع روايته ويُبطلها ؛ فأمّا اعتراضه على قولنا : إنّ إطلاق الميراث لا يكون إلّا في الأموال بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾[3] . وقولهم : ماورِثت الأبناء من الآباء شيئا أفضلَ من أدب حسن ، وقولهم: العلماء ورثة الأنبياء ، فعجيب ، لأنّ كل ماذكر مقيّد غير مطلق ، وإنّما قلنا إنّ مطلق لفظ الميراث من غير قرينة ولا تقييد يفيد بظاهره ميراثَ الأموال ، فبعد ماذكره وعارض به لا يخفى على متأمّل .

فأما استدلاله على أنّ سليمان وَرّث داودَ علمه دون ماله بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾[4] وأن المراد أنه

---

(١) الشافي : « فكل » . (٢) الشافي : « من جهة دون جهة » .

(٣) سورة فاطر ٣٢ .

(٤) سورة النمل ١٦ .

وَرِث العلمَ والفضلَ ، وإلا لم يكن لهذا القول تعلّق بالأوّل ، فليس بشيء يعوّل عليه ، لأنّه لا يمتنع أن يريدَ به انه ورِث المالَ بالظاهر والعلم بهذا المعنى من الاستدلال ، فليس يجب إذا دلّت الدّلالة في بعض الألفاظ على معنى المجاز أن يَقتصِر [1] بها عليه ، بل يجب أن يحملها على الحقيقة الّتي هي الأصل إذا لم يَمنعْ من ذلك مانع ؛ على أنّه لا يمتنع أن يريد ميراث المال خاصّة، ثمّ يقول مع ذلك : ﴿ إِنَّا عُلِّمنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ، ويشير بـ « الفضل المبين » إلى العِلم والمال جميعا ، فله بالأمرين جميعا فضلٌ على من لم يكن عليهما ؛ وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شيْءٍ ﴾ يحتمل المالَ كما يحتمل العلم ، فليس بخالص ما ظنّه .

فأمّا قوله في قصّة زكريّا : إنّه خاف على العلم أن يندرس ، لأنّ الأنبياء وإن كانوا لا يَحرِصون على الأموال ، وإنّما خاف أن يضيع العلم ، فسأل اللهَ تعالى وليّا يقوم بالدّين مقامَه ؛ فقد بيّنا أنّ الأنبياء وإن كانوا لا يَحرِصون على الأموال ولا يَبخَلون بها ، فإنّهم يجتهدون في منع المفسدين من الانتفاع بها على الفساد ، ولا يعدّ ذلك بخلاً ولا حِرْصا [2]، بل فضلا ودِينا ؛ وليس يجوز من زكريّا أن يخاف على العِلْم الاندراسَ والضياعَ ، لأنّه يعلم أنّ حكمة الله تعالى تقتضي حِفظَ العلم الّذي هو الحجّة على العباد ، وبه تنزاح عِللهم في مصالحهم ، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله !

فإن قيل : فهبوا أنّ الأمر كما ذكرتم من أنّ زكريّا كان يأمن على العلم أن يندرس ؛ أليس لابدّ أن يكون مجوّزا أن [3] يحفظه الله تعالى بمَنْ هو من أهله وأقاربه ، كما يجوز حفظُه بغريب أجنبيّ ! فما أنكرتم أن يكون خوفُه إنّما كان من بني عمّه ألّا يتعلّموا العلم ولا يقوموا فيه مقامه ، فسأل الله ولدا يجمع فيه هذه العلومَ حتّى لا يخرج العلمُ عن بيته ، ويتعدّى إلى غير قومه ، فيَلحقَه بذلك وَصْمة !

---

(١) ا ، الشاق : « يقتصرها » . (٢) ب : « بخلا وحرصا » .
(٣) الشاق « لأن » .

قلنا : أمّا إذا رتّب السؤال هذا الترتيب ، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحبَ الكتاب ، وهو أنّ الخوف الّذى أشاروا إليه ليس من ضررٍ دينىّ ، وإنّمـا هو من ضررٍ دُنْياوىّ ، والأنبياء إنّما بُعِثوا لتحمُّـل المضارّ الدنياوية ، ومنازلهم فى الثواب إنّمـا زادت على كلّ المنازل لهذا الوجه ، ومَنْ كانت حاله هـذه الحال ، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولا على مضارّ الدّين ، لأنّهـا هى جهة خوفهم ، والغرض فى بعثهم تحمّل ما سواها من المضارّ ، فإذا قال النبىّ صلّى الله عليـه : « أنا خائف » ، فلم يُعلم جهةُ خوفه على التفصيل ، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مضارّ الدّين دون الدنيـا ، لأنّ أحوالهم وبعثهم [(١)] يقتضى ذلك ، فإذا كنّا لو اُعتدْنا من بعضنا الزّهد فى الدنيا وأسبابها ، والتعفّف عن منافعها ، والرغبة فى الآخرة ، والتفرّد [(٢)] بالعمل لهـا ، لـكنّا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الّذى لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وأليَقُ بحـاله ، ونضيفه إلى الآخرة دون الدّنيا ، وإذا كان هذا واجباً فيمن ذكرناه فهو فى الأنبيـاء عليهم السلام أوْجَب [(٣)] .

* * *

قلت: ينبغى ألّا يقول المعترض: فيلحقه بذلك وصْمَة ، فيجمل الخوف من هذه الوصمة ، بل يقول : إنّه خاف ألّا يُفْلح بنو عمّه ولا يتعلّموا العلم ، لما رأى من الأمارات الدالّة على ذلك ، فالخوف على هذا الترتيب يتعلّق بأمرٍ دينىّ لا دنيوىّ ، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدا يَرِث عنه علمَه ، أى يكون عالما بالدّينيات كما أنا عالم بها . وهـذا السؤال متعلّق بأمرٍ دينىّ لا دنيوىّ . وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى ؛ على أنّه لا يجوز إطلاقُ القول بأنّ الأنبياء بُعِثوا لتحمّل المضـارّ الدنياويّة ، ولا القول : الغرض فى بعثهم تحمّل ما سوى المضارّ الدينية من المضارّ ؛ فإنّهم ما بعثوا لذلك ، ولا الغرض فى بعثهم ذلك ، وإنّمـا بعثوا لأمرٍ آخر . وقد تحصل المضارّ فى أداء الشرع ضِمْناً وتبعا، لا على أنّها الغرض، ولا داخلة

---

(١) الشافى : « بعثهم » . (٢) د : « والتعود » . (٣) الشافى ٢٣٢ .

فى الغرض ، وعلى أنّ قول المرتضى : لا يجوز أن يخاف زكريّا من تبديل الدّين وتغييره ، لأنّه محفوظ من الله ، فكيف يخاف ما لا يُخاف من مثله ؟ غير مستمرّ على أصوله ! لأنّ المكلّفين الآن قد حُرِموا بغيبة الإمام عنده ألطافاً كثيرة الوصلة بالشرعيّات كالحدود وصلاة الجمعة والأعياد ، وهو وأصحابُه يقولون فى ذلك إنّ اللّوم على المكلّفين ؛ لأنّهم قد حرَموا أنفسهم اللّطف ، فهلّا جاز أنْ يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره ، وإفساد الأحكام الشرعيّة ! لأنّه إنّما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلّفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدّلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم ، لأنّهم هم الّذين حَرَموا أنفسَهم اللّطف .

واعلم أنّه قد قرئ : ﴿ وَإِنِّى خَفَّتِ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائِى ﴾[1] ؛ وقيل : إنّها قراءة زين العابدين وابنِه محمّد بن علىّ الباقر عليهما السلام وعثمان بن عفّان . وفسّروه على وجهين :

أحدها أن يكون « ورائى » بمعنى خَلْفى وبعدى ، أى قلّت الموالى وعَجَزوا عن إقامة الدين ، تقول : قد خفّ بنو فلان ، أىْ قلّ عددُهم ، فسأل زكريّا ربّه تقويتَهم ومظاهرتَهم بولىّ يرزقه .

وثانيهما أن يكون « ورائى » بمعنى قدّامى ، أى خَفّ الموالى وأنا حىّ ودَرَجوا وانقرضوا ، ولم يَبْقَ منهم من به اعتضاد ؛ وعلى هذه القراءة لا يبقى متعلّق بلفظة الخوف .

وقد فسّر قوم قوله : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ ﴾ ، أى خفتُ الّذين يلُون الأمر من بعدى ، لأنّ المولَى يستعمل فى الوالى ، وجمعه موالٍ ، أى خفت أن يلىَ بعد موتى أمراء ورؤساء يُفسِدون شيئاً من الدّين ، فارزقنى ولداً تُنعِم عليه بالنبوّة والعلم ، كما أنعمت

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ : ٧٧ .

علىّ ، واجعل الدّين محفوظا [به][1] ؛ وهذا التأويل غير منكَر ، وفيه أيضاً دفعٌ لكلام المرتضى .

***

قال المرتضى : وأمّا تعلّق صاحب الكتاب فى أنّ الميراث محمول على العلم بقوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ لأنّه لا يرث أموالَ آل يعقوب فى الحقيقة وإنّما يرث ذلك غيرُه ، فبعيد من الصواب ؛ لأنّ ولد زكريّا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالَهم ، على أنّه لم يقل : « يرث آل يعقوب » ، بل قال : ﴿ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ، تنبيهاً[2] بذلك على أنّه يرث[3] من كان أحقّ بميراثه فى القرابة[4] .

فأمّا طعنهُ على مَنْ تأوّل الخبر بأنه عليه السلام لا يُورَث ، ما ترَكه للصدقة بقوله : إنّ أحداً من الصّحابة لم يتأوّله على هذا الوجه ، فهذا التأويل الّذى ذكرناه أحدُ ما قاله أصحابُنا فى هذا الخبر ، فمِن أين له إجماعُ الصحابة على خلافه ! وإنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه .

فإن قال : لو كان ذلك لظهر واشتهر ، ولوَقف أبو بكر عليه ، فقد مضى من الكلام فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية .

***

قلت : لم يكن ذلك اليوم ـ أعنى يومَ حضور فاطمةَ عليها السلام ، وقولها لأبى بكر ما قالت ـ يوم تقيّة وخوف ، وكيف يكون يومَ تقيّه وهى تقول له ـ وهو الخليفة : يابن أبى قُحافة ، أترِثُ أباك ولا أرِث أبى ! وتقول له أيضاً : لقد جئتَ شيئاً فَرِيّا ! فكان ينبغى إذا لم يُؤثر أمير المؤمنين عليه السلام أن يفسّر لأبى بكر معنى الخبر أن يُعلِم فاطمة عليها

---

(١) تكملة من د . (٢) د : « منبها » .
(٣) ا ، د : « يورث » . (٤) الشافى ٢٣٢ .

السلام تفسيره ، فتقول لأبي بكر : أنت غالط فيما ظننت ، إنما قال أبي : ما تركناه صدقة ، فإنه لا يُورَث .

واعلم أنّ هذا التأويل كاد يكون مدفوعا بالضرورة ، لأنّ مَنْ نظر في الأحاديث التي ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علما قطعيّا .

* * *

قال المرتضى : وقوله إنّه لا يكون إذ ذلك تخصيصٌ للأنبياء ولا مزيّة : ليس بصحيح ، وقد قيل في الجواب عن هذا : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يجوز أن يريد أنّ ما ننوي فيه الصدقة ، ونفرده لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثتُنا . وهذا تخصيص للأنبياء ومزيّة ظاهرة[١] .

قلت : هذه مخالفة لظاهر الكلام ، وإحالة اللفظ[٢] عن وضعه ، وبين قوله : ما ننوي فيه الصدقة ، وهو بعدُ في ملكنا ليس بموروث ؛ وقوله : ما نخلّفه صدقة ليس بموروث فَرْق عظيم ، فلا يجوز أن يُراد أحد المعنيين باللفظ المفيد للمعنى الآخر ، لأنّه إلباسٌ وتَعْمِية .

وأيضا ، فإنّ العلماء ذكروا خصائصَ الرّسول في الشرعيّات عن أمّته وعدّدوها ، نحو حِلّ الزيادة في النكاح على أربع ، ونحو النكاح بلفظ الهبة على قولِ فِرْقةٍ من المسلمين ، ونحو تحريم أكل البَصل والثّوم عليه ، وإباحة شرب دمه ، وغير ذلك ، ولم يذكروا في خصائصه أنّه إذا كان قد نوى أن يتصدّق بشيء فإنّه لا يناله ورثته ، لو قدّرنا أنّه يورث الأموال ، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرتْ ذلك ، ولا رأينا في كتاب من كتبهم ، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه ، وإجماعهم عندهم حجّة .

* * *

قال المرتضى : فأمّا قوله : إن قوله عليه السلام : ما تركناه صدقة ، جملةٌ من الكلام

---

(١) الشافي ٢٣٢ . (٢) ا ، د : « اللفظ » .

مستقلّة بنفسها ، فصحيح إذا كانت لفظة «ما» مرفوعةً على الابتداء ، ولم تكن منصوبةً بوقوع الفعل عليها ، وكانت لفظة «صدقة» أيضا مرفوعة غير منصوبة ، وفى هذا وقع النّزاع ، فكيف يدّعى أنّها جملة مستقلّة بنفسها ! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول : الرواية جاءت بلفظ «صدقةٌ» بالرفع ، وعلى ما تأوّلتموه لا تكون إلّا منصوبةً ، والجواب عن ذلك أنّا لا نسلّم الرواية بالرفع ، ولم تجر عادة الرّواة بضبط ما جرى هذا المجرى من الإعراب ، والاشتباه يقع فى مثله ، فمن حقّق منهم وصرّح بالرواية بالرفع يجوز أن يكون اشتبه عليه فظنّها مرفوعةً ، وهى منصوبة(1) .

قلت : وهذا أيضا خلاف الظاهر ، وفتح الباب فيه يؤدّى إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار .

***

قال : وأما حكايته عن أبى علىّ أنّ أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين عليه السلام السّيف والبغلة والعمامة على جهة الإرث ؛ وقوله : كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذى رواه ! وكيف خصّصه بذلك دون العمّ الّذى هو العصبة ! فما نراه زاد على التعجّب ، ومما عجب منه عجبنا ، ولم يثبت عصمة أبى بكر فينتفى عن أفعاله التناقض(2) .

قلت : لا يشكّ أحد فى أن أبا بكر كان عاقلا ، وإن شكّ قوم فى ذلك فالعاقل فى يوم واحد لا يدفع فاطمةَ عليها السلام عن الإرث ويقول : إنّ أباكِ قال لى : إنى لا أورّث ثم يورّث فى ذلك اليوم شخصا آخر من مال ذلك المتوفّى الّذى حكى عنه أنه لا يورث وليس انتفاء هذا التناقض عن أفعاله موقوفا على العِصمة ، بل على العقل .

***

---

(1) الشافى ٢٣٢ . (2) الشافى ٢٣٢ .

قال المرتضى : وقوله يجوز أن يكون النبيّ صلّى الله عليه وآله نحَله إيّاه وتركه أبو بكر فى يده — لِمَا فى ذلك من تقوية الدّين — وتصدّق ببدله ؛ وكلّ ما ذكره جائز ، إلّا أنه قد كان يجب أن يظهر أسباب النّحلة والشهادة بها ، والحجّة عليها ، ولم يظهر من ذلك شىء فنعرفه ، ومن العجائب أن تدّعى فاطمة فَدَكَ نِحلةً ، وتستشهد على قولها أميرَ المؤمنين عليه السلام وغيرَه ، فلا يُصغَى إلى قولها ، ويترك السيف والبغلة والعمامة فى يد أمير المؤمنين على سبيل النِّحْلة بغير بيّنة ظهرتْ ، ولا شهادةٍ قامت[1] !

قلت : لعلّ أبا بكر سمع الرّسول صلّى الله عليه وآله وهو ينحَلُ ذلك عليّا عليه السلام ، فلذلك لم يحتجْ إلى البيّنة والشّهادة ، فقد روى أنّه أعطاه خاتَمه وسيفَه فى مرضه وأبو بكر حاضر ، وأمّا البغلة فقد كان نحَلَه إيّاها فى حجّة الوداع على ما وردتْ به الرواية ؛ وأما العمامة فسلَب الميّت ، وكذلك القميص والحُجْزة[2] والحذاء ، فالعادة أن يأخذ ذلك ولد الميّت ؛ ولا ينازَع فيه لأنّه خارج ، أو كالخارج عن التركة ، فلمّا غُسِلَ عليه السلام أخذت ابنتُه ثيابَه الّتى مات فيها ، وهذه عادةُ الناس ، على أنّا قد ذكرنا فى الفصل الأوّل كيف دفع إليه آلةَ النبيّ صلّى الله عليه وآله وحذاءه ودابّته ، والظّاهر أنه فعل ذلك اجتهادا لمصلحةٍ رآها ؛ وللإمام أن يفعل ذلك .

***

قال المرتضى : على أنه كان يجب على أبى بكر أن يبيّن ذلك ، ويذكر وجهه بعينه ، لمّا نازع العبّاس فيه ، فلا وقت لذكر الوجه فى ذلك أولى من هذا الوقت[3] .

قلت : لم ينازع العبّاس فى أيّام أبى بكر ، لا فى البغلة والعمامة ونحوها ، ولا فى غير

---

(١) الشافى ٢٣٢ ، ٢٣٣ . (٢) حجزة الإزار : معقده .

(٣) الشافى ص ٢٣٣ .

ذلك ، وإنّما نازع عليّا فى أيّام عمر ، وقد ذكرنا كيفيّة المنازعة ، وفيماذا كانت .

***

قال المرتضى رضى الله عنه فى البُردة والقضيب : إن كان نحلةً ، أو على الوجه الآخر ، يَجرِي مَجرَى ما ذكرناه فى وجوبِ الظهور والاستشهاد ، ولسنا نرى أصحابنا ـ يعنى المعتزلة ـ يطالبون أنفسهم فى هذه المواضع بما يطالبوننا بمثله إذا ادّعينا وجوهاً وأسبابا وعِللا مجوّزة ، لأنّهم لايقنعون منّا بما يجوز ويمكن؛ بل يوجبون فيما ندّعيه الظهورَ والاستشهاد، وإذا كان هذا عليهم نسُوه أو تناسوه(١) .

قلت : أمّا القضيب فهو السيف الّذى نَحَله رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليّا عليه السلام فى مرضه ، وليس بذى الفقار ، بل هو سيفٌ آخر ؛ وأمّا البُردة فإنّه وهبها كعبَ ابن زهير، ثم صار هذا السيف وهذه البُرْدة إلى الخلفاء ، بعد تنقّلات كثيرة مذكورة فى كتب التواريخ .

***

قال المرتضى : فأمّا قوله : فإنّ أزواج النبىّ صلّى الله عليه وآله إنّما طلبنَ الميراث لأنّهنّ لم يعرفنَ روايةَ أبى بكر للخبر ، وكذلك إنّما نازع علىّ عليه السلام بعدَ موت فاطمة عليها السلام فى الميراث لهذا الوجه ، فمن أقبح ما يقال فى هذا الباب وأبعدِه عن(٣) الصواب ! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام روايةَ أبى بكر ، وبها دُفعتْ زوجتُه عن الميراث ! وهل مِثلُ ذلك المقام الّذى قامته ، ومارواه أبو بكر فى دفعها يخفى على من هو فى أقاصى البلاد ، فضلا عمّن هو فى المدينة حاضر شاهد يُراعِى(٢) الأخبار ، ويعنى بها! إنّ هذا لخروج فى المكابَرَة عن الحدّ ! وكيف يَخفَى على الأزواج ذلك حتّى يطلبنه مرّة بعد أخرى ، ويكون عثمان الرسول لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، وعثمان على زعمهم أحدُ من شهد

---

(١) الشافى ص ٢٣٣ . (٢) ا والشافى : « يعنى بالأخبار ويراعيها » . (٣) د : « من » .

أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يُورّث ؛ وقد سمعنَ على كلّ حال أنّ بنت النبيّ صلّى الله عليه وآله لم تورّث ماله ولابدّ أنْ يكنّ قد سألنَ عن السبب فى دفعها ، فذكر لهنّ الخبر، فكيف يقال : إنّهن لم يعرفنه (١) !

قلت : الصحيح أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع بعد موت فاطمةَ فى الميراث ، وإنما نازع فى الولاية لِفَدَك وغيرِها من صدقات رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وجرى بينه وبين العبّاس فى ذلك ما هو مشهور ، وأمّا أزواجُ النبيّ صلى الله عليه وآله فما ثبت أنّهنّ نازعن فى ميراثه ، ولا أنّ عثمانَ كان المرسَل لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، إلّا فى رواية شاذّة ، والأزواج لمّا عرفن أنّ فاطمة عليها السلام قد دُفِعتْ عن الميراث أمسكْن ، ولم يكنّ قد نازعن ، وإنّما اكتفَيْن بغيرهنّ ، وحديث فَدَك وحضور فاطمةَ عند أبى بكر كان بعد عشرةِ أيّام من وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، والصحيح أنّه لم ينطق أحدٌ بعد ذلك من النّاس من ذَكَر أو أنثى بعد عودِ فاطمةَ عليها السلام من ذلك المجلس بكلمة واحدة فى الميراث .

* * *

قال المرتضى : فإن قيل : فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ فى دفع فاطمةَ عليها السلام عن الميراث ، واُحتجّ بخبرٍ لا حجّة فيه ، فما بال الأمّة أقرّته على هذا الحكم ، ولم تُنكِر عليه ، وفى رضاها وإمساكها دليلٌ على صوابه (٢) !

قلتُ : قد مضى أنّ ترك التّكير لا يكون دليل الرضا إلّا فى هذا الموضع الّذى لا يكون له وجهٌ سوى الرّضا ، وذكرْنا فى ذلك قولاً شافيا ، وقد أجاب أبو عثمان الجاحظُ فى كتاب « العباسيّة » عن هذا السؤال جوابا حسنَ المعنى واللّفظ ، نحن

---

(١) الشافى ص ٢٣٣ .

(٢) الشافى ص ٢٣٣ .

نذكره على وجهه ، ليقابَلَ بينَه وبين كلامه فى العثمانيّة وغيرها (١) .

قلت : ما كناه المرتضى رحمه الله فى غير هذا الموضع أصلا ، بل كان ساخطا عليه ، وكناه فى هذا الموضع ، واستجاد قوله ؛ لأنّه موافقٌ غرضَه ، فسبحان الله ، ما أشدّ حبّ الناس لعقائدهم !

قال : قال أبو عثمان : وقد زعم أناس أنّ الدليل على صدق خبرهما ـ يعنى أبا بكر وعمر ـ فى منع الميراث وبراءة ساحتِهما ، تركُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم النكيرَ عليهما.

ثم قال : قد يقال لهم : لئن كان تركُ النكير دليلا على صدقهما ، ليكوننّ تركُ النكير على المتظلمين والمحتجّين عليهما ، والمطالبين لها ، دليلًا على صدق دعواهم ، أو استحسان مقالتهم، ولا سيّما وقد طالت المناجاة ، وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكيّة ، واشتدّت المَوْجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة عليها السلام، حتى إنها أوصت ألّا يصلّىَ عليها أبو بكر، ولقد كانت قالت له حين أتته طالبةً بحقّها ، ومحتجّة لرَهْطها : مَنْ يرثك يا أبا بكر إذا متّ ؟ قال : أهلى وولَدى ؛ قالت : فما بالُنا لا نَرِث النبىّ صلّى الله عليه وآله ! فلمّا منعها ميراثَها وبخسها حقّها واعتلّ عليها وجلح (٢) فى أمرها ، وعاينت التهضّم (٣) ، وأيست من النزوع ، ووجدت نشوة الضّعف وقلّة الناصر ، قالت : والله لأدعونّ الله عليك ، قال : والله لأدعونّ الله لكِ ؛ قالت : والله لا أكلّمك أبدا ، قال : والله لا أهجُرُكِ أبدا . فإن يكن تركُ النكير على أبى بكر دليلا على صواب منعها ؛ إنّ فى ترك النكير على فاطمة عليها السلام دليلًا على صواب طلبها ! وأدنى ما كان يجب عليهم فى ذلك تعريفها ما جهلتْ ، وتذكيرُها ما نسيَت ، وصرفُها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء (٤) ، وأن تقول هُجْرا (٥) ، أو تجوّر عادلا ، أو تقطع واصلا ؛ فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعا فقد تكافأت

---

(١) الشافى ٢٣٣ . (٢) جلح فى أمرها : جاهر به وكاشفها .

(٣) التهضم : الظلم ، وفى ا : « الهضم » . (٤) البذاء : الفحش .

(٥) الهجر : القبيح من الكلام .

الأمور ، واستوت الأسباب ، والرجوع إلى أصل حكم الله من المواريث أولَى بنا وبكم ، وأوجبُ علينا وعليكم .

قال : فإن قالوا : كيف تظنّ به ظلمَها والتعدِّيَ عليها ! وكلَّما ازدادت عليه غلظةً ازداد لها ليناً ورقَّة ، حيث تقول له : والله لا أكلِّمك أبداً ، فيقول : والله لا أهجركِ أبدا ، ثم تقول : والله لأدعوَنّ الله عليك ، فيقول : والله لأدعونّ الله لكِ ، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ ، والقول الشديد في دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة ، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتَّنزيه ، وما يجب لهـا من الرفعة والهيبة ! ثمّ لم يمنعه ذلك أن قال معتذرا متقرّبا ، كلام المعظِّم لحقّها ، المُكبِر لمقامها ، والصائن لوجهها ، المتحنّن عليها : ما أحدٌ أعزّ عليّ منك فقرا ، ولا أحبّ إليّ منك غنًى ، ولكنّي سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه فهو صدقة » !

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم ، والسلامة من الجوْر ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريبا ، وللخصومة معتادا ، أن يُظهر كلامَ المظلوم ، وذلّة المنتصف[١] وحَدَب[٢] الوامق ، ومِقَة[٣] المحقّ . وكيف جعلتم تركَ النكير حجّة قاطمة ، ودلالة واضحة ، وقد زعمتم أنّ عمر قال على منبره : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : متعة النساء ، ومتعة الحجّ ، أنا أنهَى عنهما ، وأعاقبُ عليهما ؛ فما وجدتم أحدا أنكر قوله ، ولا استشنَع مخرج نهْيِه ، ولا خطّأه في معناه ، ولا تعجّب منه ، ولا استفهمه ! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمرُ يومَ السّقيفة وبعد ذلك أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » ؛ ثم قال في شكاته : لو كان سالمٌ حيّا ما تخالجني فيه شكّ ، حين[٤] أظهر الشكّ في استحقاق كلّ واحد من الستّة الذين

---

(١) المنتصف : المستوفي حقه . (٢) وحدب الوامق ؛ أي وانثناء الناظر .

(٣) المقة : التودد والحب . (٤) الشاق : « حتى » .

جعلهم شُورَى ، وسالمٌ عبدٌ لامرأة من الأنصار ، وهى أعتقته ، وحازتْ ميراثَه ، ثمّ لم ينكر ذلك من قوله منكِر ، ولا قابل إنسان بين قوله ، ولا تعجّب منه ، وإنّما يكون تركُ النّكير على مَنْ لا رغبة ولا رهبة عنده دليلا على صدق قوله ، وصوابِ عمله ، فأمّا ترك النّكير على من يملك الضّمة والرِّفعة ، والأمر والنهى ، والقتل والاستحياء ، والحبس والإطلاق ، فليس بحجّة تَشفِى ، ولا دلالة تضىء .

قال : وقال آخرون : بل الدليلِ على صدق قولها ، وصواب عملهما ، إمساكُ الصحابة عن خَلْعهما ، والخروج عليهما ، وهم الّذين وَثبوا على عثمان فى أيسر من جَحْد التنزيل ، وردّ النصوص[1] ؛ ولو كان كما تقولون وما تصفون ، ما كان سبيل الأمّة فيهما إلا كسبيلهم فيه ، وعثمان كان أعزّ نفرا ، وأشرف رهطا ، وأكثر عددا وثروة ، وأقوى عُدّة .

قلنا : إنّهما لم يجحدا التنزيل ، ولم ينكرا النصوص ، ولكنّهما بعد إقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ادّعيا روايةً ، وتحدّثا بحديث لم يكن مُحالا كونه ، ولا ممتنِعا فى حجج العقول مجيئُه ، وشهد لهما عليه من علّته مثل علّتهما فيه . ولعلّ بعضَهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عَدْلا فى رَهْطه ، مأمونا فى ظاهره ، ولم يكن قبلَ ذلك عرفه بفَجْرة[2] ، ولا جرتْ عليه غَدْرة ، فيكون تصديقه له على جهة حُسن الظنّ ، وتعديل الشاهد ؛ ولأنّه لم يكن كثيرٌ منهم يعرف حقائقَ الحجج ، والّذى يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم ، فلذلك قلّ النّكير وتواكل الناس ، فاشتبه الأمر ، فصار لا يُتخلّص إلى معرفة حقّ ذلك من باطله إلّا العالمُ المتقدّم ، أو المؤيّد المرشد ، ولأنّه لم يكن لعثمانَ فى صدور العوامّ وقلوب السِّفلة والطَّغام ما كان لهما من المحبّة والهيبة ، ولأنّهما كانا أقلّ استئثارا بالفىء ، وتفضّلا بمالِ الله منه ، ومن شأن الناس إهمال السلطان ما وفّر عليهم أموالَهم ، ولم يستأثر بخراجهم ، ولم يعطّل ثغورَهم . ولأن الّذى صنع أبو بكر

---

(١) د : « المنصوص » . (٢) الفجرة : الانبعاث فى المعاصى والفجور .

من منع العِترة حقها ، والعمومة ميراثها ، قد كان موافقا لجلّة قريش وكبراء العرب ، ولأن عثمانَ أيضا كان مضعوفاً فى نفسه ، مستخفاً بقدره ، لا يمنع ضَيما ، ولا يَقمع عدوّا ؛ ولقد وثب ناس على عثمانَ بالشتم والقذف والتشنيع والنكير ، لأمور لو أتى أضعافها وبلغ أقصاها لما اُجترءوا على اُغتيابه ، فضلا على مبادأته والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيينةُ بن حِصْن له فقال له : أما إنّه لو كان عمر لقمَعَك ومَنَعك ؛ فقال عُيينة : إنّ عمر كان خيراً لى منك ، أرهبنى فاتّقانى .

ثم قال : والعجب أنّا وجدنا جميع من خالَفَنَا فى الميراث على اختلافهم فى التشبيه والقدَر والوعيد يردّ كلّ صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسنادا ، وأصحّ رجالا ، وأحسن اتّصالا ؛ حتى إذا صاروا إلى القول فى ميراث النبيّ صلى الله عليه وسلّم نسخوا الكتاب ، وخصّوا الخبر العامّ بما لا يدانى بعضَ ما ردّوه ، وأكذبوا قائليه، وذلك أنّ كلّ إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ، ويصدق ما وافق رضاه .

هذا آخر كلام الجاحظ(١) .

***

ثم قال المرتضى رضى الله عنه : فإن قيل : ليس ما عارض به الجاحظ من الاُستدلال بترك النكير ، وقوله : كما لم ينكروا على أبى بكر ، فلم ينكروا أيضا على فاطمة عليها السلام ولا على غيرها من الطالبين بالإرث ، كالأزواج وغيرهنّ معارَضة صحيحة ، وذلك أن نكيرَ أبى بكر لذلك ، ودفعها والاُحتجاج عليها ، ويكفيهم ويغنيهم عن تكلّف نكير آخر ، ولم ينكر على أبى بكر ما رواه منكر فيستغنوا بإنكاره(٢) .

قلنا : أوّل ما يُبطل هذا السؤال أنّ أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد

---

(١) نقله فى الشافى ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

احتجاجها من التظلّم والتألّم، والتعنيف والتبكيت ، وقولها على ما رُوِي : والله لأدعونّ الله عليك ، ولا أكلمك أبدا ، وما جرى هذا المجرى ، فقد كان يجب أن ينكِرَه غيره ، ومن المنكر الغضب على المنصف . وبعد ، فإن كان إنكار أبي بكر مقنعا ومغنيا عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه ، ومقامها على التظلّم منه . مغنٍ عن نكير غيرها ؛ وهذا واضح[1] .

***

الفصل الثالث

في أنّ فَدَكَ هل صحّ كونها نِحْلَةَ رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام أم لا ؟

نذكر في هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضي القضاة في « المغني » ، وما اعترض به عليه ، ثم نذكر ما عندنا في ذلك .

قال المرتضى حاكياً عن قاضي القضاة : ومما عظمت الشيعة القول في أمر فَدَك ، قالوا: وقد رَوَى أبو سعيد الخُدْرِيّ أنه لما أُنزلتْ : ﴿ وآت ذا القرْبى حقه ﴾[2] ، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فَدَك ، ثم فعل عمر بن عبد العزيز مثل ذلك ، فردّها على ولدها . قالوا : ولا شكّ أن أبا بكر أغضبها ؛ إن لم يصحّ كلّ الذى رُوِيَ في هذا الباب، وقد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم مما ارتكبوا منها فضلا عن الدّين ، ثم ذكروا أنها استشهدتْ أميرَ المؤمنين عليه السلام وأمّ أيمنَ ، فلم يقبل شهادتهما ، هذا مع تركه أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله في حجرهنّ ، ولم يجعلها صدقةً ، وصدقهنّ في ذلك أنّ ذلك لهنّ ولم يصدّقها .

(١) الشافي ٢٣٤ .
(٢) سورة الإسراء ٢٦ .

قال : والجواب عن ذلك أنّ أكثر ما يروُون في هذا الباب غيرُ صحيح ؛ ولسنا ننكر صحّة ما روى من ادّعائها فَدَك ، فأمّا أنّها كانت في يدها فغير مسلّم ، بل إن كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها ، فإذا كانت في جملة التركة فالظاهر أنها ميراث ، وإذا كان كذلك فغير جائز لأبي بكر قبولُ دَعْواها ، لأنه لاخلافَ في أنّ العمل على الدّعْوى لا يجوز ، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحّته بمشاهدة ، أو ماجرى مجراها ، أو حصلت بيّنة أو إقرار ، ثم إنّ البيّنة لابدّ منها ، وإنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما خاصمه اليهوديّ حاكمه ، وأنّ أمّ سلمة التي يطبق على فضلها لو ادّعت نَحْلًا ما قُبِلَتْ دعواها .

ثم قال : ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الوالي ، ولم يعلم صحّة هذه الدعوى ، ما الذي كان يجب أن يعمل ؟ فإن قلتم : يقبل الدعوى ، فالشرع بخلاف ذلك ، وإن قلتم : يلتمس البيّنة ، فهو الذي فعله أبو بكر .

ثم قال : وأما قول أبي بكر : رجل مع الرجل ، وامرأة مع المرأة ، فهو الذي يوجبه الدّين ، ولم يثبت أنّ الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام ، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أمّ أيمن .

قال : وليس لأحد أن يقول : فلماذا ادّعت ولا بيّنةَ معها ؟ لأنه لا يمتنع أن تجوّز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين ، أو تجوّز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد ، وهذا هو الموجب على ملتمس الحقّ ، ولا عيب عليها في ذلك ، ولا على أبي بكر في التماس البيّنة ، وإن لم يحكم لها لما لم يتمّ ولم يكن لها خصم ، لأنّ التركة صدقة على ما ذكرنا ، وكان لا يمكن أن يعوّل في ذلك على يمين أو نُكول ، ولم يكن في الأمر إلا ما فعله . قال : وقد أنكر أبو عليّ ما قاله السائل من أنّها لما رُدّت في دعوى النِّحلة ادّعته إرْثا ، وقال: بل كان طلبت الإرث قبل ذلك،فلما سمعت منه الخبر كفّت وادّعت النِّحلة[1] .

---

(١) الشافي ٢٣٥ .

قال : فأما فِعل عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه ردّه على سبيل النِّحلة ، بل عمل فى ذلك ماعمله عمرُ بن الخطاب بأنْ أقرّه فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ليصرف غلّاتها فى المواضع التى كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، فقام بذلك مدّة ، ثم ردّها إلى عمر فى آخر سنته ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ؛ ولو ثبت أنه فعل بخلاف مافعل السّلف لكان هو المحجوجَ بفعلهم وقولهم . وأحدُ ما يقوّى ماذكرناه أنّ الأمرَ لما انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام ترَكَ فدَكَ على ما كان ، ولم يجعله ميراثا لولد فاطمة ، وهذا يبيّن أنّ الشاهد كان غيره ، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقربَ أن يحكم بعلمه ؛ على أنّ الناس اختلفوا فى الهِبَة إذا لم تقبض ، فعند بعضهم تستَحقّ بالعقد ؛ وعند بعضهم أنها إذا لم تقبَض يصير وجودها كعدمها ، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أميرُ المؤمنين عليه السلام من ردّها ، وإن صحّ عنده عقد الهبة ، وهذا هو الظاهر ، لأنّ التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان فى يدها ، ولكان ذلك كافيا فى الاستحقاق ، فأمّا حُجَر أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله فإنما تركَتْ فى أيديهنّ لأنها كانت لهنّ ، ونصّ الكتاب يشهد بذلك ، وقوله : ﴿ وقَرْنَ فى بيوتكن ﴾(١) . ورُوى فى الأخبار أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قسم ما كان له من الحُجَر على نسائه وبناته . ويبيّن صحة ذلك أنه لو كان ميراثا أو صدقة لكان أميرُ المؤمنين عليه السلام لمّا أفضى الأمرُ إليه يغيّره .

قال : وليس لأحد أن يقول : إنما لم يغيّر ذلك لأنّ المُلْك قد صار له ، فتبرّع به ، وذلك أنّ الذى يحصل له ليس إلا ربع ميراث فاطمة عليها السلام ، وهو الثُّمْنُ من ميراث رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهن فى باب الحجَر ، ويأخذ هذا الحقّ منهنّ ، فتركه ذلك يدلّ على صحّة ما قلناه ، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلق بالتقيّة(٢) ، وقد سبق الكلام فيها .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) التقية : الحيطة .

قال : ومما يَذْكرونه أن فاطمة عليها السلام لغضبها على أبى بكر وعمرَ أوصت ألّا يصلِّيا عليها ، وأن تُدْفن سرّا منهما ، فدفنت ليلا ، وهذا كما ادّعوا رواية رووْها عن جعفر بن محمد عليهما السلام وغيره ، أنّ عمر ضرَب فاطمة عليها السلام بالسوط ، وضرب الزبير بالسيف ، وأن عمر قصد منزلها وفيه علىّ عليه السلام والزبير والمقداد وجماعة ممّن تخلّف عن أبى بكر وهم مجتمعون هناك ، فقال لها : ما أحدٌ بعدَ أبيك أحبّ إلينا منك ، وايمُ الله لئن اجتمع هؤلاء النفر عندك لنحرقن عليهم ! فمنعت القومَ من الاجتماع .

قال : ونحن لا نصدّق هذه الروايات ولا نجوّزها . وأمّا أمر الصلاة فقد رُوى أنّ أبا بكر هو الذى صلّى على فاطمة عليها السلام ، وكبّر عليها أربعاً ، وهذا أحد ما استدلّ به كثير من الفقهاء فى التكبير على الميت ، ولا يصحّ أيضا أنها دُفنت ليلا ، وإن صحّ ذلك فقد دُفن رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ليلا ، ودَفَن عمرُ ابنه ليلا ، وقد كان أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يدفنون بالنهار ويدفنون بالليل ، فما فى هذا مما يطعن به ، بل الأقرب فى النّساء أنّ دفنهنّ ليلا أستَرُ وأولَى بالسنة .

ثم حكَى عن أبى علىّ تكذيبَ ما رُوِى من الضرب بالسوط ؛ قال : والمروىّ عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه كان يتولّاهما ، ويأتى القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلّى الله عليه وآله ، روَى ذلك عباد بن صُهيب ، وشعبة بن الحجاج ، ومهدىّ ابن هلال ، والدَّراوَرْدىّ ، وغيرهم ، وقد روى عن أبيه محمد بن علىّ عليه السلام وعن علىّ بن الحسين مثل ذلك ، فكيف يصحّ ما ادّعَوْه ! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن علىّ بن أبى طالب عليه السلام هو إسرافيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت ، وآمنة أمّ النبىّ صلى الله عليه وآله ليلة القدر ! فإن صدّقوا ذلك أيضاً قيل لهم : فعمر بنُ الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت ! وإن قالوا : لا نصدّق ذلك ، فقد جوّزوا ردّ هذه الروايات ، وصحّ أنه لا يجوز التعويل على هذا الخبر

وإنما يتعلق بذلك مَنْ غرَضه الإلحاد كالورّاق ، وابن الراوندي ، لأنّ غرضهم القدْح في الإسلام .

وحُكي عن أبي عليّ أنه قال : ولم صار غضبُها إن ثبت كأنه غضب رسول الله صلى الله عليه وآله من حيث قال : « فمن أغضبها فقد أغضبني » ، أولى من أن يقال : فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين ؛ لأنه رُوِي عنه عليه السلام قال : « حبُّ أبي بكر وعمر إيمان، وبغضُهما نفاق »! ومن يورد مِثل هذا فقصده الطعن في الإسلام ، وأن يتوهّم الناس أنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله نافقوا مع مشاهدة الأعلام لُيضعفوا دَلالة العلم في النفوس .

قال : وأما حديث الإحراق فلو صحّ لم يكن طعناً على عمر ، لأن له أن يهدّد من امتنع من المبايعة إرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت . انتهى كلام قاضي القضاة (١) .

قال المرتضى : نحن نبتدئ فندلّ على أنّ فاطمة عليها السلام ما ادّعت من نحْل فَدَك إلا ما كانت مصيبة فيه ، وأن مانعها ومطالبها بالبيّنة متعنّت ، عادلٌ عن الصواب ، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة ، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل ، فنتكلم عليه .

أما الذي يدلّ على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط ، مأمونا منها فعلُ القبيح ، ومَن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة وبيّنة .

فإن قيل : دلّوا على الأمرين ، قلنا : بيان الأوّل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٢) والآية تتناول جماعة منهم فاطمة

---

(١) نقله المرتضى في الشافي ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . (٢) سورة الأحزاب ٣٣ .

عليها السلام بما تواترتْ الأخبار فى ذلك ، والإرادة هاهنا دلالة على وقوع الفعل للمراد .

وأيضاً فيدلّ على ذلك قوله عليه السلام : « فاطمة بَضْعةٌ منّى ، مَنْ آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله عزّ وجلّ » ، وهذا يدلّ على عصمتها ؛ لأنّها لو كانت ممّن تقارف الذنوب لم يكن مَنْ يؤذيها مؤذيا له على كلّ حال ، بل كان متى فعل المستحقّ من ذمّها أو إقامة الحدّ عليها ، إن كان الفعل يقتضيه سارًّا له ومطيعا ، على أنّا لا نحتاج أن ننبّه هذا الموضع على الدّلالة على عصمتها ، بل يكفى فى هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادّعته ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين ، لأنّ أحداً لا يشكّ أنّها لم تدّعِ ما ادّعته كاذبة ، وليس بعد ألّا تكون كاذبة إلّا أنْ تكون صادقة ؛ وإنّما اختلفوا فى هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادّعته بغير بيّنة أم لا يجب ذلك، قال : الّذى يدلّ على الفصل الثانى أنّ البيّنة إنّما تراد ليغلب فى الظنّ صدقُ المدّعى ، ألا ترى أنّ العدالة معتبرةٌ فى الشهادات لما كانت مؤثّرة فى غَلَبة الظنّ لما ذكرناه ، ولهذا جاز أن يحكم الحاكم بعلمه من غير شهادة لأنّ علمه أقوى من الشهادة ، ولهذا كان الإقرار أقوى من البيّنة ، من حيث كان أغلبَ فى تأثير غلبة الظنّ ، وإذا قدّم الإقرار على الشهادة لقوّة الظنّ عنده ، فأوْلى أن يُقدّم العلم على الجميع ، وإذا لم يحتجْ مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوىّ لا يحتاج أيضا مع العلم إلى ما يؤثّر الظنّ من البيّنات والشّهادات .

والّذى يدلّ على صحّة ما ذكرناه أيضا أنّه لا خلاف بين أهل النقل فى أنّ أعرابيّا نازع النبىّ صلى الله عليه وآله فى ناقة ، فقال عليه السلام : « هذه لى ؛ وقد خرجتُ إليك من ثمنها»، فقال الأعرابىّ : من يَشهدلك بذلك ؟ فقال خزيمة بن ثابت : أنا أشهدبذلك ؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « من أين علمتَ وما حضرتَ ذلك ؟ » قال : لا ، ولكن علمتُ ذلك من حيث علمت أنّك رسولُ الله ، فقال : « قد أجزتُ شهادَتك ، وجعلتُها شهادتين » ؛ فسُمّىَ ذا الشهادتين .

وهذه القصّة شبيهة لقصّة فاطمةَ عليها السلام ، لأنّ خزَيمة اكتفى فى العلم بأن النّاقة له صلّى الله عليه وآله ، وشهد بذلك من حيث علم أنّه رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولا يقول إلّا حقّا ، وأمضى النبيّ صلّى الله عليه وآله ذلك له من حيث لم يحضر الابتياع وتسليم الثمن ، فقد كان يجب على مَنْ علم أنّ فاطمة عليها السلام لا تقول إلّا حقا ألّا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة ؛ هذا وقد رُوِى أنّ أبا بكر لمّا شهد أمير المؤمنين عليه السلام كتب بتسليم[1] فَدَكَ إليها ، فاعترض عمر قضيّته ، وخرّق ما كتبه .

روى إبراهيم بن السعيد الثقفيّ ، عن إبراهيم بن ميمون، قال : حدّثنا عيسى بن عبد الله ابن محمّد بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عن عليّ عليه السلام، قال : جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبى بكر وقالت : إنّ أبى أعطانى فدَكَ ، وعلىٌّ وأمّ أيمَنَ يشهدان ، فقال : ما كنتِ لتقولى على أبيك إلّا الحقّ قد أعطيتُكِها ، ودعا بصحيفة من أدَم فكتب لها فيها ؛ فخرجتْ فلقيتْ عمرَ ، فقال : من أينْ جئت يا فاطمة ؟ قالت : جئتُ من عند أبى بكر ، أخبرتُه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم أعطانى فدَكَ ، وأنّ عليّا وأمّ أيمن يشهدان لى بذلك ، فأعطانيها ، وكتب لى[2] بها ؛ فأخذ عمر منها الكتاب، ثم رجع إلى أبى بكر، فقال : أعطيتَ فاطمةَ فدَكَ ، وكتبتَ بها لها ؟ قال : نعم، فقال : إنّ عليّا يجرّ إلى نفسه ، وأمّ أيمَن امرأة ؛ وبَصَق فى الكتاب فمحاه وخرّقه .

وقد رُوِى هذا المعنى من طرق مختلفة ، على وجوه مختلفة، فمن أراد الوقوفَ عليها، واستقصاءها أخذها منْ مواضعها .

وليس لهم أن يقولوا : إنّها أخبار آحاد ، لأنّها وإن كانت كذلك، فأقلّ أحوالها أنْ توجب الظنّ ، وتمنَع من القطع على خلاف معناها . وليس لهم أن يقولوا : كيف يسلّم إليها

---

(١) ب : « يسلم » ؛ والصواب ماأثبته من ا ، د والشافي . (٢) الشافي : « وكتبها لى » .

فَدَكَ وهو يَرْوِى عن الرّسول أن ما خلّفه صدَقة ، وذلك لأنّه لا تنافى بين الأمرين ، لأنّه إنما سلّمها على ما وردتْ به الرواية على سبيل النّحْل (١) ، فلمّا وقعتْ المطالبةُ بالميراث روى الخبر فى معنى الميراث ، فلا اختلاف بين الأمرين .

فأمّا إنكار صاحب الكتاب لكون فَدَكَ فى يدها ، فما رأيناه اعتمَد فى إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كان ذلك فى يدها لكان الظّاهر أنّها لها (٢) . والأمر على ما قال ، فمن أين أنّه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضى الظاهرُ خلافَه ! وقد رُوِى من طرقٍ مختلِفة غير طريق أبى سعيد الّذى ذكره صاحبُ الكتاب أنّه لمّا نزل قولُه تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ (٣) دعا النبىّ صلى الله عليه وآله فاطمةَ عليها السلام فأعطاها فَدَكَ ! وإذا كان ذلك مرويّا فلا معنى لدفعه بغير حجّة .

وقوله : لا خلاف أنّ العمل على الدّعوى لا يجوز ، صحيح ، وقد بيّنّا أنّ قولها كان معلوما صحّته ، وإنّما قوله : إنما يعمل على ذلك متى علم صحّته بشهادة أو ما يجرى مجراها ، أو حصلت بيّنة أو إقرار ، فيقال له : إمّا علمتَ بمشاهدة فلم يكن هناك ، وإمّا بيّنة فقد كانت على الحقيقة ، لأنّ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام من أكبر البيّنات وأعدلها ، ولكن على مذهبك أنه لم تكن هناك بيّنة ، فمن أين زعمتَ أنّه لم يكن هناك عِلْم ! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلتَ ذلك فى جملة الأقسام .

فإن قال : لأن قولها بمجرّده لا يكون جهةً للعلم ؛ قيل له : لم قلت ذلك ؟ أو ليس قد دلّلنا على أنّها معصومة ، وأن الخطأ مأمونٌ عليها ! ثمّ لو لم يكن كذلك لكان قولُها فى تلك القضيّة معلوما صحّته على كلّ حال ، لأنّها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلة عاصية فيما ادّعته ، إذ الشّبهة لا تدخل فى مثله ؛ وقد أجمعت الأمّة على أنّها لم يظهر منها بعد

---

(١) ا ، د : « النحلة » . (٢) ا والشافى : « أنه » . (٣) سورة الإسراء ٢٦ .

رسول الله صلى الله عليه وآله معصية بلا شكٍّ وارتياب؛ بل أجمعوا على أنّها لم تدّع إلّا الصّحيح، وإن اختلفوا؛ فمن قائل يقول: مانعُها مخطئ، وآخر يقول: هو أيضا مصيب، لفقد البيّنة وإن علم صدقها.

وأمّا قوله: إنّه لو حاكم غيرَه لطولب بالبيّنة، فقد تقدّم في هذا المعنى ما يكفي، وقصّة خزيمة بن ثابت وقبول شهادته تُبطل هذا الكلام.

وأمّا قوله: إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام حاكَمَ يهوديّا على الوجه الواجب في سائر الناس، فقد رُوِيَ ذلك، إلّا أنّ أمير المؤمنين (١ لم يفعل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله ١)، وإنّما تبرّع به، واستظهر بإقامة الحجّة فيه؛ وقد أخطأ من طالبه ببيّنة كائنا من كان.

فأمّا اعتراضه بأمّ سَلَمة فلم يَثبُت من عصمتها ما ثبَت من عصمة فاطمةَ عليها السلام، فلذلك احتاجتْ في دعواها إلى بيّنة. فأمّا إنكاره وادّعاؤه أنّه لم يثبت أنّ الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين، فلم يزد في ذلك إلّا مجرد [الدعوى و] (٢) الإنكار، والأخبار مستفيضةٌ بأنّه عليه السلام شهد لها، فدفع ذلك بالزّيغ (٣) لا يغني شيئًا! وقوله: إنّ الشاهد لها مولًى لرسول الله صلّى الله عليه وآله هو المنكَر الّذى ليس بمعروف.

وأما قوله: إنّها جوّزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فطريف؛ مع قوله: فيما بعد: «إن التّركة صدقة، ولا خصم فيها»، فتدخل اليمين في مثلها؛ أفترى أنّ فاطمة لم تكن تعلم من الشريعةهذا المقدار الذى نبّهصاحب الكتاب عليه! ولولم تعلمه ما كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعلم الناس بالشّريعة يوافقها عليه.

وقوله: إنّها جوّزت عند شهادة مَنْ شهدلها أن يتذكّر غيرهم فيشهد باطل، لأنّ مثلها لا يتعرّض للظِّنّة والتّهمة، ويعرّض قوله للردّ، وقد كان يجب أن تعلم مَنْ يشهد لها

(١ ـ ١) الشافي: «لم يفعل ذلك وهو واجب عليه».

(٢) من الشافي. (٣) الشافي: «باقتراح».

ممّن لا يشهد حتّى تكون دعواها على الوجه الّذى يجب معه القبول والإمضاء ، ومَنْ هو دونها فى الرتبة والجلالة والصّيانة من أفناء الناس لا يتعرّض لِمثل هذه الخطّة ويتورّطها ، للتجوز الّذى لا أصلَ له ولا أمارة عليه .

فأمّا إنكار أبى علىّ لأن يكون النّحْل قبل ادّعاء الميراث وعكسه الأمر فيه ، فأوّل مافيه أنّا لا نعرف له غرَضا صحيحا فى إنكار ذلك ، لأنّ كون أحد الأمرين قبل الآخر لا يصحّح له مذهبا؛ فلا يُفسِد على مخالِفه مذهبا .

ثم إنّ الأمر فى أنّ الكلام فى النّحْل كان المتقدّم ظاهرا ، والروايات كلّها به واردة ؛ وكيف يجوز أن تبتدئ بطلب الميراث فيما تدّعيه بعينه نَحْلا ! أوَ ليس هذا يوجب أن تكون قد طالبتْ بحقّها من وجه لاتستحقّه منه مع الاختيار ! وكيف يجوز ذلك والميراثُ يَشرَكها فيه غيرها ، والنّحْل تنفرد به ! ولا ينقلب مِثلُ ذلك علينا من حيث طالبتْ بالميراث بعدالنّحْل ؛ لأنّها فى الابتداء طالبتْ بالنّحْل ، وهو الوجه الّذى تستحقّ فدَكَ منه ، فلمّا دُفعتْ عنه طالبت ضرورةً بالميراث ؛ لأن للمدفوع عن حقّه أن يتوصّل إلى تناوله بكلّ وجه وسبب ، وهذا بخلاف قول أبى علىّ ، لأنّه أضاف إليها ادّعاء الحقّ من وجه لا تستحقّه منه ، وهى مختارة .

وأما إنكاره أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز ردّ فدَكَ على وجه النّحْل ، وادّعاؤه أنه فعل فى ذلك ما فعله عمر بن الخطاب من إقرارها فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ، ليصرف غلاتها فى وجوهها ، فأوّل مافيه أنّا لا نحتجّ عليه بفعل عمر بن عبد العزيز على أىّ وجه وقع ، لأنّ فعله ليس بحجّة ، ولو أردنا الاحتجاج بهذا الجنس من الُحجج لذكرنا فعل المأمون ، فإنه ردّ فدَكَ بعد أن جلس مجلسا مشهورا حكم فيه بين خَصْمين نصّبهما ، أحدهما لفاطمة ، والآخر لأبى بكر ، وردّها بعد قيام الُحجّة ووضوح الأمر .

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه ، وقد رَوَى محمد بن زكريا الغَلابيّ عن شيوخه ، عن أبي المقدام هشام ابن زياد مولى آل عثمان ، قال : لما ولِّي عمرُ بن عبد العزيز ردَّ فَدَكَ على ولد فاطمة ، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حَزْم يأمره بذلك ، فكتب إليه : إنّ فاطمة قد ولدتْ في آل عثمان ، وآل فلان وفلان ، فعلى من أردّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإني لو كتبت إليك آمرُك أن تذبح شاةً لكتبتَ إليّ : أجمّاء أم قَرْناء[1] ؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني: ما لونُها ؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من عليّ عليه السلام ؛ والسلام .

قال أبو المقدام : فنقمت بنو أميّة ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه ، وقالوا له : هجّنتَ فعل الشيخين ، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة ، فلما عاتبوه على فعله قال : إنكم جهلتم وعلمتُ ، ونسيتم وذكرتُ ، إن أبا بكر محمد بن عمرو ابن حزم حدّثني عن أبيه عن جده أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « فاطمة بَضعةٌ منّي يسخطها ما يسخطني ، ويُرضيني ما أرضاها » ، وإن فَدَكَ كان صافية على عهد أبي بكر وعمر ، ثمّ صار أمرها إلى مروان ، فوهبها لعبد العزيز أبي ، فورثتها أنا وإخوتي عنه ، فسألتُهم أن يبيعوني حصّتهم منها ، فمن بائع وواهب ، حتى استجمعتْ لي ، فرأيتُ أن أردّها على ولد فاطمة . قالوا : فإن أبيتَ إلّا هذا فأمسك الأصل ، واقسم الغَلّة ، ففعل .

وأمّا ما ذكره من ترك أمير المؤمنين عليه السلام فدك لما أفضى الأمرُ إليه ؛ واستدلاله بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها ، فالوجه في تركه عليه السلام ردّ فَدَك هو الوجه في إقراره

---

(١) الجماء : الملساء . والقرناء : ذات القرن .

أحكامَ القوم وكفَّه عن نقضها وتغييرها، وقد بيّنا ذلك فيما سبق ، وذكرنا أنه كان فى انتهاء الأمر إليه فى بقيّة من التقيّة قويّة .

فأما استدلاله على أنّ حُجَر أزواج النبيّ صلى الله عليه كانت لهنّ بقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن ﴾(١)، فمن عجيب الاستدلال ، لأنّ هذه الإضافة لا تقتضى المِلك ، بل العادة جاريةٌ فيها أن تستعمل من جهة السكنى ، ولهذا يقال : هذا بيتُ فلان ومسكنُه ، ولا يراد بذلك المِلك ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنّ من بُيوتهن ولا يخرجْنَ إلاّ أن يأتينَ بفَاحِشَةٍ مبيّنة ﴾(٢) ، ولا شبهة فى أنه تعالى أراد منازل الرجال التى يُسكِنون فيها زوجاتِهم ، ولم يُرِد بهذه الإضافة الملك .

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قسم حُجَره على نسائه وبناته ، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحا أنّ هذه القسمة على وجه التمليك دون الإسكان والإنزال ! ولو كان قد ملّكهنّ ذلك لوجب أن يكون ظاهرا مشهورا .

فأما الوجه فى ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه فى يده منازعة الأزواج فى هذه الحُجر فهو ما تقدم وتكرّر .

وأما قوله : إنّ أبا بكر هو الذى صلى على فاطمة وكبّر أربعا ، وإنّ كثيرا من الفقهاء يستدلّون به فى التكبير على الميت ـ وهو شيء ما سُمِع إلاّ منه، وإن كان تلقّاه عن غيره فممّن يجرى مجراه فى العصبيّة ، وإلاّ فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسِّير خالية من ذلك ، ولم يختلفُ أهل النقل فى أن عليّا عليه السلام هو الذى صلى على فاطمة ، إلاّ رواية نادرة شاذّة وردتْ بأن العباس رحمه الله صلّى عليها .

وروى الواقديّ بإسناده فى تاريخه ، عن الزهريّ ؛ قال : سألت ابن عباس :

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .   (٢) سورة الطلاق ١ .

متى دفنتم فاطمة عليها السلام ؟ قال : دفنّاها بليل بعد هَدْأة ؛ قال : قلتُ : فمن صلى عليها ؟ قال : عليّ .

وروَى الطبريّ عن الحارث بن أبي أسامة ، عن المدائنيّ ، عن أبي زكريا العجلانيّ أنّ فاطمة عليها السلام عُمِل لها نعش قبل وفاتها ، فنظرتْ إليه ، فقالت : سترتُموني سترَكما الله !

قال أبو جعفر محمد بن جرير : والثبت في ذلك أنّها زينب ، لأنّ فاطمة دُفنتْ ليلا ، ولم يحضرها إلّا عليّ والعبّاس والمقداد والزبير .

وروَى القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده في تاريخه ، عن الزّهريّ ؛ قال حدثني عروة بن الزبير أنّ عائشة أخبرته أنّ فاطمة[1] عاشت بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها عليّ ليلا ، وصلّى عليها ، وذكر في كتابه هذا أنّ عليّا والحسن والحسين عليهما السلام دفنوها ليلا ، وغيّبوا قبرها .

وروى سُفيان بن عيينة ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن بن محمد بن الحنفيّة أنّ فاطمة دُفنت ليلا .

وروى عبدُ الله بن أبي شيبة ، عن يحيي بن سعيد القطّان ، عن معمر ، عن الزّهري مثل ذلك .

وقال البلاذُريّ في تاريخه : إنّ فاطمة عليها السلام لم تُرَ متبسّمة بعد وفاة النبيّ صلّى عليه وآله ، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها .

والأمر في هذا أوضح وأشهر من أن نُطنب في الاستشهاد عليه ، ونذكر الروايات فيه .

---

(١) الشافي : « فاطمة بنت رسول الله » .

فأما قوله : ولا يصحّ أنها دفنتْ ليلا وإن صحّ فقـد دُفن فلان وفلان ليلا ؛ فقد بيّنا أنّ دفنها ليلا فى الصحّة أظهر من الشمس ، وأنّ مُنكر ذلك كالدافـع للمشاهدات ، ولم يجعل دفنها ليلا بمجرده هو الُحجّة ليقال : لقد دُفن فلان وفلان ليلا ، بل يقع الاحتجاج بذلك على ما وردتْ به الروايات المستفيضة الظاهرة التى هى كالتواتر ؛ أنها أوصت بأن تُدفن ليـلا حتى لا يصلى الرجلان عليهـا ، وصرّحت بذلك وعهدتْ فيه عهدا بعد أن كانا [(١)] استأذنا عليها فى مَرَضها ليعوداها ، فأبتْ أن تأذنَ لهما ، فلما طالت عليهمـا المدافعة رَغبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فى أن يستأذن لهما ، وجعلاها حاجةً إليه ، وكلّمها عليه السلام فى ذلك ، وألحّ عليها ، فأذنت لهما فى الدخول ، ثم أعرضت عنهما عند دخولهما ولم تـكلّمهما ، فلما خرجا قالت لأمير المؤمنين عليه السلام : هل صنعت ما أردتُ؟ قال : نعم ، قالت : فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ قال نعم ، قالت : فإنّى أنشدك الله ألاّ يُصلّيا على جنازتى ،ولا يقوماَ على قبرى !

وروى أنه عَفّى قبرها [(٢)] وعلّم عليه [(٢)] ، ورشّ أربعين قبرا فى البقيع ، ولم يرشّ قبرها حتى لا يُهتدى إليه ، وأنهما عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها ، وإحضارها الصـلاة عليها ، فمن ها هنا احتججنا بالدّفن ليلا ، ولو كان ليس غير الدفن بالليل من غير ما تقدّم عليه وما تأخرّ عنه ، لم يكن فيه حُجّة .

وأما حكايته عن أبى علىّ إنـكار ضرب الرجل لهـا . وقوله : إنّ جعفر بن محمّد وأباه وجدّه كانوا يتولّونهمـا ، فـكيف لا ينـكر أبو علىّ ذلك ، واعتقاده فيهما اعتقاده ! وقد كنّا نظنّ أنّ مخالفينا يقتنعون أن يَنسبُوا إلى أئمّتنا الـكفّ عن القوم ، والإمساك ، ومـا ظننّا أنّهم يحمِلون أنفسهم على أن يُنسبُوا إليهم الثناء والوَلاء ،

---

(١) ب : « كان » . (٢ ـ ٢) ساقط من الشاق.

وقد علم كلّ أحد أنّ أصحاب هؤلاء السادة المختصّين بهم ، قد روَوا عنهم ضدّ ما روى شعبة بن الحجّاج وفلان وفلان وقولهم : هما أوّل من ظلمنا حقّنا ، وحمل الناسَ على رقابنا ، وقولهم : أنّهما أصفيا بإناثنا ، واضطجعا بسبلنا ، وجلسا مجلسا نحن أحقّ به منهما ، إلى غير ذلك من فنون التظلّم والشّكاية ، وهو طويل متّسع ، ومن أراد استقصاء ذلك فلينظر فى كتاب « المعرفة » لأبى إسحاق إبراهيم بن سعيد الثّقفىّ ، فإنّه قد ذكر عن رجل من أهل البيت بالأسانيد النيّرة ما لا زيادة عليه ، ثمّ لو صحّ ما ذكره شُعْبة لجاز أن يُحمَل على التقيّة .

وأمّا ذكره إسرافيل وميكائيل ؛ فما كنّا نظنّ أنّ مثله يذكر ذلك ، وهذا من أقوال الغُلاة الذين ضلّوا فى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت ، وليسوا من الشّيعة ولا من المسلمين ، فأىّ عيب علينا فيما يقولونه ! ثمّ إن جماعةً من مخالفينا قد غَلَوا فى أبى بكر وعمر ، ودَوَوْا روايات مختلفة فيهما تجرِى مجرى ما ذكره فى الشّناعة ، ولا يلزم العقلاء وذوِى الألباب من المخالفين عيبٌ من ذلك .

وأمّا معارضة ما رُوِى فى فاطمة عليها السلام بما رُوِى فى : « أنّ حبّهما إيمان ، وبغضهما نفاق » ، فالخبر الّذى رويناه مُجمَع عليه ، والخبر الآخرُ مطعونٌ فيه ، فكيف يعارَض ذلك بهذا !

وأمّا قوله : إنّما قصد من يورد هذه الأخبار تضعيفَ دلالة الأعلام فى النفوس ، من حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها ؛ فتشنيعٌ فى غير موضعه ، واستنادٌ إلى ما لا يُجدى نفعا ، لأنّ من شاهد الأعلام لايضعفها ولا يُوهِن دليلها . ولا يقدح فى كونها حجّة ، لأنّ الأعلام ليست ملجئة إلى العِلم ، ولا موجبة لحصوله على كلّ حال ، وإنّما تثمر العلم لمن أمعن النّظر فيها من الوجه الّذى تدلّ منه ، فمَنْ عَدَل عن ذلك لسوء اختياره لا يكون

عدوله مؤثرا فى دلالتها ، فكم قد عَدَل من العقلاء وذوى الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمّل هذه الأعلام وإصابة الحقّ منها ! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحا فى دلالة الأعلام . على أنّ هذا القول يُوجِب أن ينفى الشكّ والنّفاق عن كلّ من صَحِب النبيّ صلى الله عليه وآله وعاصره وشاهد أعلامه كأبى سفيان وابنه ، وعمرو ابن العاص ، وفلان وفلان ؛ ممّن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكّهم فى الدين وارتيابهم باتّفاق بيننا وبينه ؛ وإن كانت إضافة النّفاق إلى هؤلاء لا تقدح فى دلالة الأعلام ، فكذلك القول فى غيرهم .

فأما قوله : إن حديث الإحراق لم يصحّ ، ولو صحّ لساغ لعمر مثل ذلك ؛ فقد بينا أنّ خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة .

وقوله : إنه يسوغ مثل ذلك ؛ فكيف يسوغ إحراق بيت علىّ وفاطمة عليهما السلام ! وهل فى ذلك عُذْر يصغَى إليه أو يسمَع ! وإنما يكون علىّ وأصحابُه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين ؛ لو كان الإجماع قد تقرّر وثبت ، وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف علىّ وحده ، فضلا عن أن يوافقه على ذلك غيرُه . وبعد ، فلا فرق بين أنْ يُهدّد بالإحراق لهذه العلّة ، وبين أن يضرب فاطمة عليها السلامُ لمثلها ؛ فإن إحراق المنازل أعظمُ من ضرب سوط أو سوطين ؛ فلا وجه لامتعاض المخالف من حديث الضّرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار(١) !

***

قلت : أمّا الكلامُ فى عِصْمة فاطمة عليها السلام فهو بفنّ الكلام أشبه ، وللقول فيه موضع غير هذا .

وأما قول المرتضى : إذا كانت صادقة لم يبق حاجةٌ إلى مَنْ يشهد لها ؛ فلقائل أن

---

(١) الشافى ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

يقول : لم قلت ذلك ؟ ولم زعمت أنّ الحاجة إلى البيّنة إنّما كانت لزيادة غلَبة الظنّ ؟ ولم لا يجوز أنْ يكون الله تعالى يُعبّد بالبيّنة لمصلحة يعلمها ؛ وإن كان المدّعي لا يكذب ! أليس قد تعبّد الله تعالى بالعدّة في العجوز التي قد أيِست من الحَمْل ؛ وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم !

وأما قصّة خُزيمة بن ثابت ؛ فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أنّ مصلحة المكلّفين في تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبي صلى الله عليه وآله وحدها ؛ ويستغنى فيها عن الشهادة . ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفا لها ، وإن كان المدّعي لا يكذّب . ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدي الأئمة والصالحين ؛ ولو قدّرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادّعى دعوى ، وقال بحضرة جماعة من الناس من جملتهم القاضي : اللهمّ إن كنتُ صادقاً فأظهر عليّ معجزة خارقة للعادة ؛ فظهرتْ عليه ، لعلمنا أنّه صادق ؛ ومع ذلك لا تقبل دعواه إلّا ببيّنة .

وسألت علي بن الفارقيّ مدرّس المدرسة الغربية ببغداد ، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدَك وهي عنده صادقة ؟ فتبسّم ، ثم قال كلاما لطيفا مستحسنا مع ناموسه وحُرمته وقلّة دعابته ، قال : لو أعطاها اليوم فدَك بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء ؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعى كائنا ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود ؛ وهذا كلام صحيح ؛ وإن كان أخرجه مخرج الدُّعابة والهزْل .

فأما قول قاضي القضاة : لو كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : إنه لم يعتمدْ في إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كانت في يدها لكان الظاهر أنّها لها ، والأمر على ما قال ؛ فمن أين أنّها لم تخرج عن يدها على وجه ! كما أنّ الظاهر

يقتضي خلافه ؛ فإنهلم يُجِب عمّا ذكره قاضي القضاة ؛ لأنّ معنى قوله: إنها لو كانت في يدها، أي متصرّفة فيها لكانت اليد حجّة في الملكيّة ؛ لأنّ اليدَ والتصرّف حجّة لا محالة ، فلو كانت في يدها تتصرّف فيها وفي ارتفاقها كما يتصرّف الناس في ضياعهم وأملاكهم لما احتاجت إلى الاحتجاج بآية الميراث ولا بِدَعْوى النّحْل ؛ لأنّ اليد حجّة ، فهلا قالت لأبي بكر : هذه الأرض في يدى ؛ ولا يجوز انتزاعها منّى إلا بحجّة ! وحينئذ كان يسقط احتجاج أبي بكر بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورّث » ، لأنّها ما تكون قد ادّعتها ميراثاً ليحتجّ عليها بالخبر . وخبر أبي سعيد في قوله « فأعطاها فَدَكَ » ، يدلُّ على الهبة لا على القبض والتصرّف؛ ولأنه يقال: أعطاني فلان كذا فلم أقبِضْه ، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرّف لكان هذا الكلام متناقضاً .

فأمّا تعجّب المرتضى من قول أبي عليّ : إن دعوى الإرث كانت متقدّمة على دعوَى النّحْل ، وقوله : إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك ، فإنه لا يصح له بذلك مذهب ، ولا يبطل على مخالفيه مذهب ؛ فإن المرتضى لم يقف على مُراد الشيخ أبي عليّ في ذلك ؛ وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه ، فإنّ أصحابنا استدلّوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد بإجماع الصحابة ، لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ (١) برواية أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؛ قالوا : والصحيح في الخبر أنّ فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنّحْل لا بالميراث ، فلهذا قال الشيخ أبو عليّ : إنّ دعوى الميراث تقدّمت على دَعْوَى النّحْل ، وذلك لأنه ثبت أنّ فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر ؛ فلو كانت دعوى الإرث متأخّرة، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد ؛ أمّا إذا كانت دعوى الإرث متقدّمة فلمّا روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أخرى ، فإنه يصحّ حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد .

---

(١) سورة النساء ١١ .

فأما أنا فإنّ الأخبار عندي متعارضة ، يدلّ بعضها على أنّ دعوى الإرث متأخرة ، ويدلّ بعضها على أنها متقدمة ؛ وأنا فى هذا الموضع متوقّف .

وما ذكره المرتضى من أنّ الحال تقتضى أن تكون البداية بدعوى النّحْل فصحيح ، وأما إخفاء القبر وكتمان الموت وعدم الصلاة وكلّ ما ذكره المرتضى فيه فهو الذى يظهر ويقوى عندى ، لأن الروايات به أكثر وأصحّ من غيرها ، وكذلك القول فى مَوجدتها وغضبها ، فأمّا المنقول عن رجال أهل البيت فإنّه يختلف ، فتارة وتارة ، وعلى كلّ حال فيل أهل البيت إلى ما فيه نصرة أبيهم وبيتهم .

وقد أخلّ قاضى القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهى لفظة جيدة . قال : قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلا عن الدِّين . وهذا الكلام لا جواب عنه ، ولقد كان التكرّم ورعاية حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ عهده يقتضى أن تعوّض ابنته بشىء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فدَك وتُسلم إليها تطييباً لقلبها . وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه ، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ، ولا نعلم حقيقة ما كان ، وإلى الله ترجع الأمور .

***

الأصْلُ :

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ ــ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ــ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى ، وَأَكْبَادٌ حَرَّى ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ   وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ؛ هَمُّهَا عَلَفُهَا ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ ؛ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى ، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً ، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ !

***

الشَّرْحُ :

قد روى : « ولو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفّى ، ولباب هذا البرّ المنقّى ؛ فضربت هذا بذاك ؛ حتى ينضج وقودا ، ويستحكم معقودا » .

وروى : « ولعل بالمدينة يتيما تربا يتضوّر سغباً ، أأبيت مبطاناً ، وحولى بطونٌ غرثى ، إذن يحضرنى يوم القيامة ، وهم من ذكر وأنثى » .

وروى : « بطونُ غرثى » بإضافة « بطون » إلى « غرثى » .

والقمح : الحنطة .

والجشع : أشدّ الحرص .

والمبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل . فأما المبطن : فالضامر البطن ؛ وأمّا البطين ، فالعظيم البَطن لا من الأكل ؛ وأما البطِن ، فهو الّذى لا يهمّه إلا بطنُه ؛ وأما المبطون فالعليل البَطْن . وبطون غرثى : جائعة ، والبِطْنة : الكِظّة ؛ وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديداً ، وكان يقال : ينبغى للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلاثا : فثلثٌ للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس .

والتقمّ : أكل الشاة ما بين يديْها بمقمّتها أى بشفتها ؛ وكلّ ذى ظِلْف كالثور وغيره فهو ذو مقمّة .

وتكترش من أعلافها : تملأ كرِشها من العَلَف .

قوله : « أو أجرّ حبلَ الضــلالة » منصوب بالعطف على « يشغلنى » ، وكذلك « أتركَ » ويقال : أجررتُـه رَسَنَه ، إذا أهملته .

والاعتساف : السلوكُ فى غير طريق واضح .

والمتاهة : الأرض يُتاه فيها أى يتحيّر .

وفى قوله : « لو شئت لاهتَدَيت » شَبَهٌ من قول عمر : لو نشاء لملأنا هــذه الرّحاب من صَلائق وصِناب ؛ وقد ذكرناه فيما تقدّم .

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائىّ الجواد ، وأوّلها :

أيا ابنة عبــد الله وابنةَ مالك ... ويا ابنةَ ذى الجدَّين والفرس الوَرْدِ(١)

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى له ... أكيلًا فإنّى لستُ آكلَه وحْدِى

قصيًّا بعيــدا أو قريبا فإنّنى ... أخاف مذمّات الأحاديثِ من بعدى(٢)

كفَى بك عارا أن تبيت ببطنَــةٍ ... وحولك أكبادٌ تحِنّ إلى القِدّ(٣)

وإنى لعبــدُ الضيف ما دام نازلًا ... وما من خِلالِى غيرها شيمة العبد

* * *

(١) ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٤ : ١٦٦٨ .
(٢) الحماسة :

* أخًا طارقًا أو جار بيت فإننى *

(٣) لم يرد فى رواية الحماسة .

الأصْـلُ :

وَكَأَنِّى بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَـذَا قُوتَ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ . أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ(١) الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُودًا ، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا ، وَأَبْطَأُ خُمُودًا .

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ ؛ وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِى لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ(٣) مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ، وَسَأَجْهَدُ فِى أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ .

***

الشّـرْحُ :

الشّجرة البرّيّة : التى تنبت فى البرّ الذى لا ماء فيه ، فهى أصلب عوداً من الشجرة التى تنبت فى الأرض النديّة ، وإليـه وقعت الإشارة بقوله : « والرواتع الخضرة أرقّ جلودا » .

ثم قال : « والنابتات العِذْيَة » التى تنبت عِذْيا ، والعِذْى ، بسكون الذال : الزرع لا يسقيه إلّا ماء المطر ، وهو يكون أقلّ أخذا من الماء من النبت سقيا ، قال عليه السلام : إنها تكون أقوى وقودا ممّا يشرب المـاء السائح أو ماء الناضح ، وأبطأ خمودا ؛ وذلك لصلابة جِرْمها .

ثم قال: «وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد»؛

(١) فى د « الربة » . (٢) فى د « والمراتع » .
(٣) فى ا ، د « الفرصة » .

وذلك لأنّ الضوء الأول يكون علّة فى الضوء الثانى، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئا من الشمس ! فهذا الضّوء هو الضوء الأول .

ثم إنه يقابل وجه الأرض فيضىء وجهُ الأرض منه ، فالضوء الذى على وجه الأرض هو الضوء الثانى ، وما دام الضوء الأول ضعيفا فالضوء الثانى ضعيف ؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءة ازداد وجهُ الأرض إضاءة ، لأنّ المعلول يتبع العلّة ، فشبّه عليه السلام نفسه بالضوء الثانى، وشبّه رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالضّوْء الأوّل، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس الّتى توجب الضوء الأوّل ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثانى . وها هنا نكتة ، وهى أنّ الضوء الثانى يكون أيضا علّة لضوء ثالث ؛ وذلك أنّ الضّوْء الحاصل على وجه الأرض — وهو الضوء الثانى — إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم ، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئا بعد أن كان مظلما ، وإن كان لذلك المكان المظلم باب ، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشدّ إضاءةً من باقى البيت ، ثم ذلك الجدار إن كان فيه ثقب إلى موضع آخر كان ما يحاذى ذلك البيت أشدّ إضاءةً مما حواليه ، وهكذا لا تزال الأضواء[1] يوجب بعضها بعضا على وجه الانعكاس بطريق العلّيّة ، وبشرط المقابلة ، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظلمة ؛ وهكذا عالم العلوم ؛ والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريبا كما بدأ بموجب الخبر النبوىّ الوارد فى الصّحاح .

وأما قوله : « والذراع من العَضُد » فلأنّ الذراع فرع على العَضُد ، والعضُد أصل ، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد ، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له ، ولهذا قال الراجز لولده :

يا بِكْر بِكْرين ويا خِلْبَ الكَبِدْ ... أصبحتَ منّى كذراعٍ من عَضُدْ

(١) كذا فى « د » ؛ ا ، ب : « لايزال الضوء » .

فشبّه عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالذّراع الذى العضد أصله وأسّه والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتّحاد والقرب بينهما ؛ فإنّ الضوء الثانى شبيه بالضّوء الأوّل، والذراع متّصل بالعَضُد اتصالا بيّنا ؛ وهذه المنزلة قد أعطاه إياها رسول الله صـــلى الله عليه وآله فى مقـامات كثيرة نحو قوله فى قصة براءة : « قد أُمِرت أن لا يؤدّى عنّى إلا أنا أو رجل منّى » ، وقوله : « لتنتهنّ يا بنى وَلِيعة ، أو لأبعثنّ إليـكم رجلًا منّى » ، أو قال : « عديل نفسى » ، وقد سمّاه الـكتاب العزيز « نفسه » فقال: ﴿ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾[1]، وقد قال له : « لحمك مختلط بلحمى، ودمك مسُوط بدمى ، وشبرك وشبرى واحد » .

فإن قلت : أمّا قوله: « لو تظاهرت العرب علىّ لما وليت عنها »، فمعلوم ، فما الفائدة فى قوله : « ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت[2] إليها » ؟ وهل هذا مما يفتخر به الرؤساء ويعدونه منقبة؟ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا!

قلت : غرضه أن يقرّر فى نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حقّ ، وأنّ حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ من يجاهد الـكفّار يجب عليه أن يُغْلِظ عليهم ، ويستأصل شأفتهم ، ألا ترى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لـما جاهد بنى قُريظة وظفِر لم يبقِ ولم يَعْف ، وحصد فى يوم واحد رقابَ ألف إنسان صَبْراً فى مقام واحد ، لما علم فى ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين ، فالعفو له مقام والانتقام له مقـــام .

قوله : « وسأجهد فى أن أطهّر الأرض » ، الإشارة فى هذا إلى معاوية ، سمّاه شخصا معكوسا ، وجسما مركوسا ، والمراد انعـكاس عقيدته ، وأنها ليست عقيدة هدًى ، بل هى معاكسة للحقّ والصواب ، وسمّاه مركوسا من قولهم : ارتـكسَ فى الضلال ، والرّكس

(١) سورة آل عمران ٦١ . (٢) د « لأسرعت » .

ردّ الشيء مقلوبا ، قال تعالى : ﴿ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾[١] أى قلبهم وردّهم إلى كفرهم ، فلما كان تاركاً للفطرة التى كلُّ مولود يُولد عليها ، كان مرتكسا فى ضلاله ، وأصحاب التناسخ يفسّرون هذابتفسير آخر ،قالوا : الحيوان على ضربين : منتصب ومنحنٍ ، فالمنتصب الإنسان ، والمنحني ما كان رأسه منكوسا إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع .

قالوا : وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٢] .

قالوا : فأصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب ، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصِب ، ولما كان معاوية عنده عليه السلام من أهل الشّقاوة ، سماه معكوسا ومركوسا رمزا إلى هذا المعنى .

قوله : « حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد » ، أى حتى يتطهر الدين وأهله منه وذلك لأنّ الزُّرّاع يجتهدون فى إخراج المدَر والحجر والشوْك والعوْسج ونحو ذلك من بين الزرع كى تفسد منابته . فيفسد الحبّ الذى يخرج منه ، فشبّه معاوية بالمدَر ونحوه من مُفسِدات الحبّ ، وشبّه الدّين بالحبّ الذى هو ثمرة الزرع .

***

الشّرْح :

ومن هذا الكتاب وهو آخره :

إِلَيْكِ عَنّى يا دُنْيا ، فَحَبْلُكِ على غارِبِكِ ، قد انسَلَلْتُ مِنْ مَخالِبِك ، وأفلَتُّ مِنْ حبائلِكِ ، وَاجْتَنَبْتُ الذّهابَ فى مَدَاحِضِكِ

(١) سورة النساء ٨٨ . (٢) سورة الملك ٢٢ .

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ ! أَيْنَ الأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ .

وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيًّا ، وَقَالَباً حِسِّيًّا ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالأَمَانِيِّ ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي ، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ !

هَيْهَاتَ ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ ؛ وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ .

***

الشرح :

إليكِ عنّى ، أى ابعدى . وحبلك على غاربك ، كناية من كنايات الطلاق ، أى اذهبي حيث شئت ، لأنّ الناقة إذا ألقى حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت ، وتذهب أين شاءت ، لأنه إنما يردّها زمامها ، فإذا ألقى حبلها على غاربها فقد أهملت .

والغارب : ما بين السَّنام والعُنق . والمداحض : المزالق .

وقيل : إن فى النسخة التى بخط الرضىّ رضى الله عنه « غررتيهم » بالياء ، وكذلك « فتنتيهم » ، و « ألقيتيهم » ، و « أسلمتيهم » ، و « أوردتيهم » ، والأحسن حذف الياء ، وإذا كانت الرواية وردت بها فهى من إشباع الكسرة كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمِى بما لاقت لَبُونُ بنى زيادِ

ومضامين اللحود ، أى الذين تضمنتهم ، وفى الحديث نهى عن بيع المضامين والملاقيح، وهى ما فى أصلاب الفحول وبطون الإناث .

ثم قال : لو كنتِ أيتها الدنيا إنسانا محسوسا ، كالواحد من البَشَر ، لأقمتُ عليك الحدّ كما فعلتِ بالناس .

ثم شرح أفعالها فقال: منهم مَنْ غررتِ ، ومنهم من ألقيتِ في مهاوى الضلال والكفر، ومنهم من أتلفتِ وأهلكتِ .

ثم قال : ومن وطئ دَحْضك زلق ، مكان دَحْض أى مزلّة .

ثم قال : لا يبالى مَنْ سلم منك إن ضاق مناخه ، لا يبالى بالفقر ، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن ! لأن هـذا كله حقير لا اعتداد به فى جَنْب السلامة من فتنة الدنيا .

قال : والدّنيا عند من قد سَلِم منها كيوم قرب انقضاؤه وفناؤه .

***

الأصْـلُ :

اعزُبى عَنّى ! فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِى ، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِى . وَايْمُ اللهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِى فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِى رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً ، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً ؛ وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِى كَعَيْنِ مَاء نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا . أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ ، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ !

قَرَّتْ إِذًا عَيْنُـهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ !

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا ، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا ، وَهَجَرَتْ فِى

اللَّيلِ غُمْضَهَا ، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا ، وتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا .

فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

فَاتَّقِ اللهَ يَابْنَ حُنَيْفٍ ولْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ ؛ لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ .

***

الشَّرْحُ :

اعزبى : ابعدى ، يقال عَزَب الرجل بالفتح ، أى بَعُدَ . ولا أسلَس لك بفتح اللام ، أى لا أنقاد لك ، سلِس الرجل بالكسر يسلَس فهو بيّن السَّلس ، أى سهل قياده .

ثم حلف ، واستثنى بالمشيئة أدبا كما أدّب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله ليروضَنّ نفسه أى يدرّبها بالجوع ، والجوع هو أصل الرياضة عند الحكماء وأرباب الطريقة .

قال : « حتى أهشّ إلى القرْص » ، أى إلى الرغيف وأقنع من الإدام بالملح .

ونضب معينها : فنى ماؤها .

ثم أنكر على نفسه فقال : أتشبع السائمة من رِعْيها ـ بكسر الراء ، وهو الكلأ ـ والربيضة ـ جماعة من الغنم أو البقر تربض فى أماكنها . وأنا أيضا مثلها أشبع وأنام !

لقد قرت عينى إذاً حيث[1] أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعم والجدّ فى السنين المتطاولة .

قوله :« وعركت بجنبها بؤسها »، أى صبرت على بؤسها ، والمشقة التى تنالها . يقال: قد عرك فلان بجنبه الأذى أى أغضى عنه ، وصبر عليه .

---

(١) ف د « إذ » .

قوله : « افترشت أرضها » أى لم يكن لها فراش إلا الأرض .

« وتوسّدت كفّها » ، لم يكن لها وسادة إلا الكفّ .

« وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم » لفظ الكتاب العزيز ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عن المضاجع ﴾[1] .

وهمهمت : تكلّمت كلاما خفيا .

وتقشعت ذنوبهم : زالت وذهبت كما يتقشع السحاب .

قوله : « ولتكفف أقراصك » ، إنما هو نهىٌ لابن حُنيف أن يكفّ عن الأقراص ، وإن كان اللفظ يقتضى أن تكفّ الأقراص عن ابن حُنيف . وقد رواها قوم بالنصب ، قالوا : « فاتق الله يابنَ حنيف ولتكفف أقراصُك ، لترجو بها من النار خلاصك » ، والتاء هاهنا للأمر عوض الياء ، وهى لغة لا بأس بها ، وقد قيل : إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قرأ : ﴿ فبذلك فَلْتَفْرَحوا ﴾[2] ، بالتاء .

تم الجزء السادس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء السابع عشر

---

(١) سورة السجدة ١٦ . (٢) سورة يونس ٥٨ .

فهرس الخطب *

---

* وهي الخطب التي وردت في نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل(1)

(٤٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ .

فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ ؛ وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ .

* * *

وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ؛ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ . والسلام .

* * *

الشرح :

قد أخذ الشاعر معنى قوله : « وآس بينهم فى اللحظة والنّظْرة » ، فقال :

---

(١) ا : « وبه نستعين » ، د : « وبه ثقتى » .

اقسم اللحظَ بيننا إنّ فى اللّحـ ظِ لَعنوانُ ما تُجِنُّ الصدورُ
إنّمـــا البِرّ روضةٌ فإذا ما كان بِشرٌ فروضةٌ وغـــديرُ

قوله : « وآس بينهم فى اللحظـة » ، أى اجعلهم أسوة ، وروى : « وساوِ بينهم فى اللحظة » ؛ والمعنى واحد .

واستظهرْ به : اجعلْه كالظَّهر .

والنّخوة : الكبرياء : والأثيم : المخطئ المذنب .

وقوله : « وأسُدَّ به لَهاة الثّغر » استعارة حسنة .

والضِّغث فى الأصل : قبضة حشيش مختلط يابسها بشىء من الرّطْب ، ومنه « أضغاث الأحلام » للرؤيا المختلطة التى لا يصحّ تأويلها ، فاستعار اللفظة ها هنا ؛ والمراد : امزُج[1] الشدّة بشىء من اللين [2] فاجعلهما كالضِّغْث ، وقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ [2] .

قوله : « فاعتزم بالشدّة » أى إذا جدّ بك الجِدّ فدَع اللّين ، فإنّ فى حال الشدّة لا تُغنِى إلّا الشدّة ، قال الفِنْد الزِّمّانِىّ :

فلمّا صرّح الشرُّ فأمسَى وهو عُريانُ [3]
ولم يبقَ سِوَى العـدْوا نِ دِنّاهمْ كما دانُوا

قوله : « حتى لا يطمَع العظماء فى حَيْفك » ، أى حتّى لايطمع العظماء فى أن تمالِئهم على حَيْفِ الضعفاء ، وقد تقدّم مثل هذا فيما سبق .

---

(١) د : « مزج » . (٢ ـ ٢) ساقط من د .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ ـ بشرح التبريزى ، من شعر قاله فى حرب البسوس .

(٤٧)

الأَصْلُ :

ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله :

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا ، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا ، وَقُولَا بِالْحَقِّ ، وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً ، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ .

اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا .

وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ(١) فِي سَبِيلِ اللهِ .

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ ، لَا تَتْرُكُوا

---

(١) ساقط من ب .

الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُون فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ .

***

ثم قال :

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا ، تَقُولُونَ : قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ! أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي ، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مُتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ .

***

الشرح :

روى : « واعملا للآخرة » ، وروى : « فلا تغيّروا أفواهكم » ؛ يقول: لا تطلبا الدّنيا وإن طلبتْكما ؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهيًّا عن طلبها فمن لا تطلبه يكون منهيًّا عن طلبها بالطريق الأولى .

ثم قال : « ولا تأسفا على شيء منها زُوِي عنكما » ، أى قبض ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « زُوِيتْ لِيَ الدنيا فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمّتى ما زُوِى لى منها » .

وروى : « ولا تأسيا » ؛ وكلاهما بمعنى واحد ، أى لا تحزنا ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

قوله : «صلاح ذات البين» أخذ هذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبنيه وقد جُمعوا عنده يوم موته :

انفُوا الضّغائن بينكمْ وعليكمُ عند المغيب وفى حضور المشهدِ
بصلاح ذاتِ البين طول حياتكمْ إن مُدَّ فى عمرى وإن لم يُمْدَدِ
إنّ القِداحَ إذا اجتمعنَ فرامَها بالكَسْر ذو بطشٍ شَديد أيِّدِ
عزّت فلم تُكسَر ، وإن هى بُدّدتْ فالوهنُ والتكسير للمتبدّدِ

وذات هاهنا زئدة مقحمة .

قوله : « فلا تُغبّوا أفواههم » ، أى لا تجيعوهم بأن تطعموهم غِبًّا ، ومَنْ روى : « فلا تغيّروا أفواههم » فذاك لأن الجائع يتغيّر فمُه ، قال عليه السلام : « لَخُلوفُ فمِ الصائم أطْيَبُ عند الله من ريح المِسْك » .

قال : « ولا يضيعوا بحضرتكم » أى لا تضيّعوهم ، فالنهى فى الظاهر للأيتام وفى المعنى للأوصياء والأولياء ، والظاهر أنه لا يعنى الأيتام الذين لهم مال تحت أيدى أوصيائهم ؛ لأنّ أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلّا القدْر النّزْر جدًّا عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكّن ، ومَنْ هذه حاله لا يحسن أن يقال له : لا تغيّرُوا أفواه أيتامكم ، وإنما الأظهرُ أنّه يعنى الّذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا ﴾[1] ، واليُتْم فى النّاس من قِبَل الأبِ ، وفى البهائم من قِبَل الأمّ ؛ لأن الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد ، بل العناية للأمّ لأنها المرضعة المشفقة ؛ وأمّا النّاس فإنّ الأبَ هو الكافل القيّم بنفقة الولد ؛ فإذا مات وصل الضّرر إليه لفقد كافله والأمّ بمعزل عن ذلك . وجمع يتيم على أيتام ، كما قالوا : شريف وأشراف . وحكى أبو علىّ فى التّكْملة : « كمىء وأكماء » ، ولا يسمى الصبيّ يتيما إلّا إذا

(١) سورة الإنسان ٨ .

كان دون البلوغ وإذا بلغ زالَ اسمُ اليتيم[١] عنه . واليتامى أحد الأصناف الّذين عيّنوا في الخُمس بنصّ الكتاب العزيز .

***

[فصل في الآثار الواردة في حقوق الجار]

ثم أوصى بالجيران ، واللفظ الذى ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعا فى رواية عبد الله ابن عمر لما ذبح شاة ، فقال : أهديتم لجارنا اليهوديّ ؟ فإنى سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » ، وفى الحديث أنه صلّى الله عليه وآله قال : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِم جاره » ، وعنه عليه السلام : « جار السوء فى دار المقامة قاصمة الظهر » ، وعنه عليه السلام : «مِن جهد البلاء جارُ سُوء معك فى دار مُقامة إن رأى حسنةً دفنَها ، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها ».

ومن أدعيتهم : اللهمّ إنّى أعوذ بك من مالٍ يكون علىّ فتنة ، ومنْ ولد يكون علىّ كَلًّا ، ومِنْ حَليلة تقرّب الشيب ، ومن جار ترانى عيناه وترعانى أذناه ، إن رأى خيراً دفنه ، وإن سمع شرّاً طار به .

ابن مسعود يرفعه : « والذى نفسى بيده لا يُسلِم العبد حتى يَسْلَم قلبُه ولسانه ، ويأمن جارُه بوائقَه » ، قالوا : ما بوائقه ؟ قال : غَشْمه وظلمه » .

لُقْمان : يابنىّ ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أر شيئا أثقلَ من جار السوء .

وأنشدوا :

ألا مَنْ يشترِى داراً برُخْصٍ ... كراهة بَعْضِ جيرتِها تباعُ

وقال الأصمعىّ : جاور أهلُ الشام الرّومَ فأخذوا عنهم خصلتين : اللؤم وقلّة الغَيْرة ،

---

(١) ا : « اليتم » .

وجاور أهل البصرة الخَزَر، فأخذوا عنهم خصلتين: الزنا وقلّة الوفاء، وجاور أهلُ الكوفة السوادَ، فأخذوا عنهم خصلتين: السخاء والغَيْرة.

وكان يقال: مَنْ تطاول على جارِه، حُرِم بركة داره.

وكان يقال: مَنْ آذى جاره ورّثه الله دارَه.

باع أبو الجهم العدويّ داره، وكان فى جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلما أحضرها المشترى قال له: هذا ثمن الدار، فأعطنى ثمن الجوار، قال: أىّ جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترىأحدٌ جوارا قطّ! فقال: رُدّ علىّ دارى، وخذ مالك، لا أدَع جوار رجل؛ إن قعدتُ سأل عنّى، وإن رآنى رحّب بى، وإن غبْت عنه حفِظنى، وإن شهدت عنده قرّبنى، وإن سألته قضى حاجتى، وإن لم أسأله بدأنى، وإن نابتْنِى نائبة فرّج عنى. فبلغ ذلك سعيدا فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارُك لك.

الحسن: ليس حسنُ الجوار كفُّ الأذى، ولكنّ حسنَ الجوار الصَّبْر على الأذى.

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخَلّة(١)، وقالت: أنا جارتك، قال: كم بينى وبينك؟ قالت: سبع أدؤُرٍ، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم، فأعطاها إياها، وقال: كدنا نَهْلِك.

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصْلحه، وحماه ممّن يقصده، وإن هلك له شىء أخلفه عليه، وإن مات وداه لأهله، فجاوره أبو دُوَاد الإيادىّ؛ فزاره على العادة، فبالغ فى إكرامه. وكانت العرب إذا حمدت جارا قالت: جار كجار أبى دُواد، قال قيس بن زهير:

---

(١) الخلة: الحاجة.

أُطوِّف ما أُطوِّف ثم آوِي ... إلى جارٍ كجارِ أبي دُوادِ[١]

ثم تعلّم منه أبو دواد، وكان يفعل لجاره فِعل كعبٍ به .

وقال مسكين الدارميّ :

ما ضرّ جاراً لي أجاورُهُ ... ألّا يكونَ لِبابهِ سِترُ[٢]

أعمى إذا ماإذا جارتي خرجتْ ... حتّى يوارِيَ جارتي الخِدْرُ

نارِي ونارُ الجــار واحدةٌ ... وإليه قَبلِي يُنزَلُ القِدْرُ[٣]

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرسا مِحْضيرا[٤]، فقال لأصحابه : لماذا يصلح هذا ؟ فذكروا سباق الخيل ، وصَيْد الحُمر والنّعام ، واتباع الفارّ من الحرب ، فقال : لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء .

سئل سليمان عليّ بن خالد بن صفوان عن ابنيه : محمـد وسليمان ـ وكانا جارَيْه ـ فقال : كيف إحمادُك جوارَهما ؟ فتمثّل بقول يزيد بن مفرّغ الحميريّ :

سقى الله داراً لي وأرضا تركتُها ... إلى جنبِ دارَيْ معقِل بن يَسَارِ

أبو مالِكٍ جارٌ لهــا وابن مَرثِدٍ ... فيالك جارَيْ ذلّةٍ وصَغـارِ !

وفى الحديث المرفوع أيضا من رواية جابر : الجـيران ثلاثة : فجارٌ له حقّ ، وجار له حقّان ، وجارٌ له ثلاثة حقوق ؛ فصاحبُ الحقّ الواحد جارٌ مشرِكٌ لا رحِمَ له ، فحقّه

---

(١) المضاف والمنسوب ١ : ١٠٠ .

(٢) الأولان فى أمالى المرتضى ١ : ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) موضعه فى أمالى المرتضى :

وَيَصَمُّ عمّا كانَ بينهما ... سمعى وما بى غَـيْرَهُ وَقْرُ

(٤) فرس محضير ، أى شديد الحضر ؛ وهو العدو .

حقّ الجوار ، وصاحب الحقّين جار مسلم لا رَحِم له ، وصاحب الثلاثة جار مسلم ذو رَحِم ، وأدنَى حق الجوار ألّا تؤذِيَ جارَك بقُتار قِدْرِك ، إلّا أن تقتدح له منها » .

قلت : تقتدح : تغترف ، والمقدحة المغرفة .

وكان يقال : الجيران خمسة : الجار الضارّ السّيّء الجوار ، والجار الدّمِس الحسن الجوار ، والجار اليربُوعيّ المنافق ، والجار البرَاقشيّ المتلوّن فى أفعاله ، والجار الحسْدليّ[1] الذى عينه تَراكَ وقلبه يرعاك .

وروى أبو هريرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ إنى أعوذ بك من جار السوء فى دار المُقامة ، فإنّ دار البادية تتحوّل » .

***

قوله عليه السلام : « الله الله فى القرآن » أمرهما بالمسارعة إلى العمل به ، ونهاهما أن يسبقهما غيرُهما إلى ذلك ، ثم أمرهما بالصلاة والحجّ .

وشدّد الوَصاة فى الحجّ ، فقال : « فإنه إن تُرِك لم تناظروا » أى يتعجّل الانتقام منكم .

فأما المُثْلة فنهيٌ عنها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمثّل بهبّار بن الأسود لأنه روّع زينب حتّى أجهضتْ ، ثم نهى عن ذلك ، وقال : لا مُثْلة ، المُثْلة حرام .

---

(١) الحسدلى : منسوب إلى الحسدل ؛ وهو القراد .

(٤٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَتَأَلَّوْا عَلَى اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرْ يَوْماً يُغْتَبَطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ ، وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا ، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ ، وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

يُوتغان : يُهلِكان ؛ والوتَغ بالتحريك : الهلاك ؛ وقد وتغ يوتَغ وتغًا ، أى أثِم وهلك ، وأوتغه الله : أهلكه الله ، وأوتغ فلان دينه بالإثم .

قوله : « فتألّوْا على الله » ، أى حلفوا ، من الألِيّة وهى اليمين ، وفى الحديث : « من تألّى على الله أكذبه الله » ، ومعناه : مَنْ أقسم تجبّراً واقتدارا : لأفعلنّ كذا ، أكذبه الله ولم يبلغ أمله .

وقد روى : « تأوّلوا على الله » أى حرّفُوا الكلم عن مواضعه ، وتعلّقوا بشبهة فى تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم ، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فسادَ تأويلاتهم. والأوّل أصح .

ويغتبط فيه : يفرح ويُسَرّ ، والغِبطة : السرور ، روى « يغبط فيه » أى يتمنّى مثلُ حاله هذه .

قوله : « ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه » الياء التى هى حرف المضارعة عائدة على المكاف الذى أمكن الشيطان من قياده . يقول : إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم ؛ فأما مَنْ جاذَبَه قيادَه فقد قام بما عليه .

ومثله قوله : « ولسنا إياك أجَبْنا » قوله : « والله ما حكّمت مخلوقا وإنما حكّمت القرآن » ومعنى « مخلوقاً » : بشراً لا محدثا .

(٤٩)

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَلَهَجاً بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى ، حَفِظْتَ مَا بَقِيَ ؛ وَالسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا كما قيل فى المثل : صاحب الدّنيا كشارب ماء البحر ؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشا ، والأصل فى هذا قول الله تعالى : « لو كانَ لابن آدم واديانِ من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلّا التراب » ، وهذا من القرآن الذى رُفع ونسختْ تلاوتُه .

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال :

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص ، وزاد فيه زيادةً لم يذكرها الرضىّ : أمّا بعد ؛ فإنّ الدنيا مشغلة عن الآخرة ، وصاحبها منهوم[1] عليها ، لم يصب شيئاً منها قطّ إلّا فتحت عليه حرصاً ، وأدخلت عليه مؤنة[2] تزيده رغبةً فيها ؛

---

(١) صفين : « مقهور فيها » . (٢) صفين : « مئونة » .

ولن يستغنى صاحبُها بما نال عمّا لم يدرك ، ومن وراء ذلك فراق ما جَمَع ؛ والسعيد مَنْ وُعِظ بغيره ، فلا تُحْبِط أجرك أبا عبد الله (١ولا تشرك معاوية فى باطله١) ؛ فإن معاوية غمص الناس ، وسفّه الحق(٢) . والسلام(٣) .

قال نصر : وهذا أوّل كتاب كتبه علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، فكتب إليه عمرو جوابه :

أمّا بعد ، فإنّ الذى فيه صلاحنا ، وألفة ذات بيننا ، أن تُنيب إلى الحق(٤) ، وأن تجيب إلى (٥ما ندعوكم إليه من الشورى٥) ؛ فصبّر الرجل منّا نفسه على الحقّ ، وعذَرهُ النّاس بالمحاجزة ، والسلام(٦) .

قال نصر : فكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً . وهو الذى ضرب مَثَله فيه بالكلب يتبع الرجل ، وهو مذكور فى " نهج البلاغة " .

واللّهَج : الحرص .

ومعنى قوله عليه السلام : « لو اعتبرت بما مضى حفظْتَ ما بقِىَ » ، أى لو اعتبرتَ بما مضَى من عمرك لحفظت باقيَه أن تنفقه فى الضّلال وطلب الدنيا وتضيّعه .

* * *

(١ــ١) صفين : « ولا تجارين معاوية فى باطله » .

(٢) غمص الناس : احتقرهم ؛ وسفهالحق ، أى جهله .

(٣) صفين ١٢٤ . (٤) تنيب إلى الحق : ترجع .

(٥ ــ ٥) صفين : « أن تجيب إلى ما تدعون إليه من شورى » .

(٦) صفين ١٢٣ .

(٥٠)

الأصـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش :

من عبد الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين رفعة إلى أصحاب المسالح :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ ، وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً .

فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ ، وَالسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

أصحابُ المسالح : جماعات تكون بالثّغر يحمون البَيْضة ، والمسْلَحة هي الثّغر ، كالمرغبة ، وفي الحديث : « كان أدنى مسالحِ فارس إلى العَرب العُذَيْب » (١) ؛ قال : يجب على الوالى ألّا يتطاول على الرعيّة بولايته ، وما خُصّ به عليهم من الطَّوْل وهو الفضل ؛ وأن تكون تلك الزيادة التي أعطِيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعيّة وحنوّه عليهم .

ثم قال : « لكم عندى ألّا أحتجز دونكم بسرٍّ » ، أى لا أستتر . قال : « إلّا فى حرب » ، وذلك لأن الحرب يحمَد فيها طىّ الأسرار ، والحرب خُدعة .

ثم قال : « ولا أطوِى دونكم أمراً إلّا فى حُكْم » ، أى أظهركم على كلّ ما نفسى مما يحسن أن أظهركم عليه ؛ فأمّا أحكام الشريعة والقضاء على أحَد الخصْمين فإنّى لا أعلمكم به قبل وقوعه ؛ كيْلا تفسد القضيّة بأن يحتال ذلك الشخص لصرْف الحكْم عنه

ثم ذكر أنّه لا يؤخّر لهم حقا عن محلّه ــ يعنى العطاء ــ وأنّه لا يقف دون مقطعه ، والحق ها هنا غير العطاء ، بل الحكم ، قال زُهير :

فإنّ الحقّ مقطعُه ثلاثٌ يمينٌ أو نفارٌ أو جِلاءُ (٢)

أى متى تعيّن الحكْم حكَمْتُ به وقطعت ولا أقف ، ولا أتحبّس .

ولمّا استوفى ما شرط لهم قال : فإذا أنا وَفّيت بما شرطت على نفسى وجبتْ لله عليكم النّعمة ولى عليكم (٣) الطاعة .

ثم أخذ فى الاشتراط عليهم كما شرط لهم ، فقال : ولى عليكم ألّا تنكصوا عن

---

(١) العذيب ؛ بالتصغير : يطلق على مواضع ؛ منها ماء بين القادسية والمغيثة ؛ بينه وبين القادسية أربعة أميال . (٢) ديوانه ٧٥ . النفار : المنافرة إلى الحاكم ؛ أو رجل يحكم بينهم . الجلاء : أن ينكشف الأمر وينجلى . (٣) ا : « نحوكم » .

دعوة ، أى لا تتقاعسُوا عن الجهاد إذا دعوتُكم إليه ، ولا تفرّطوا فى صلاح ؛ أى إذا أمكنتْكم فرصة ، أو رأيتم مصلحة فى حرب العدوّ أو حماية الثغر ، فلا تفرّطوا فيها فتفوت . وأن تخوضوا الغمراتِ إلى الحقّ ؛ أى تكابدوا المشاقّ العظيمة ؛ ولا يهولنّكم خوضُها إلى الحقّ .

ثم توعّدهم إن لم يفعلوا ذلك ، ثم قال : نخذوا هذا من أمرائكم ؛ ليس يعنى به أنّ على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قِبَله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه ، بل من أمرائكم ؛ يعنى منّى وممّن يقوم فى الخلافة مقامى بعدى ، لأنه لو كان الغرض هو الأوّل لما كان محلهم عنده أن يقول : « ألا أحتجز دونكم بسرٍّ ولا أطوى دونكم أمرا » . لأن محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا .

(٥١)

الأصـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج :

أَمَّا بَعْدُ ! فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌ ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ ، وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ ، وَلَا تُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ، وَلَا تَبِيعُنَّ النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا ، وَلَا عَبْدًا ، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهَمٍ ، وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ .

وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ، وَلَا دِينَ اللهِ قُوَّةً .

وَأَبْلُوهُ فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا

وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا ، وَأَنْ نَنصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

***

الشَّرْحُ :

يقول : لو قدّرنا أنّ القبائح العقليّة كالظلم والبغى لاعقابَ على فعلها بل فى تركها ثواب فقط ؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرّط فى ذلك الترك ؛ لأنه يكون قد حرّم نفسَه نفعاً هو قادر على إيصاله إليها .

قوله : « ولا تُحشموا أحداً » ؛ أى لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبهـا ، أحشمتُ زيداً ، وجاء « حَشَمْته » ، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه . وقال ابن الأعرابىّ : حشمتُه : أخجلته ، وأحشمته : أغضبته ، والاسم الحِشْمة ، وهى الاستحياء والغضب .

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضروريّاتهم كثياب أبدانهم وكدابّةٍ يعتَمِلونَ عليهـا ، نحو بقر الفلاحة ، وكعَبْدٍ لابدّ للإنسان منه يخدُمه ، ويسعى بين يديه .

ثم نهاهم عن ضرب الأبشار لاستيفاء الخراج

وكتب عدىّ بن أرْطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى عذاب العمّال ، فكتب إليه : كأنّى لك جُنّة من عذاب الله ، وكأنّ رضاىَ ينجيك من سَخط الله ! من قامت عليه بيّنة، أو أقرّ بما لم يكن مضطهدا مضطرا إلا الإقرار به، فخُذْه بأدائه ؛ فإن كان قادرا عليه فاستأدِ، وإن أبَى فاحبسه ، وإن لم يقدر فخلّ سبيلَه ؛ بعد أن تُحلِّفه بالله أنّه لا يقدِر على شىء ، فلأنْ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إلىّ من أن ألقاه بدمائهم .

ثم نهاهم أن يعرضُوا لمال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهَدِين ؛ المعاهد هاهنا : هو الذّمىّ أو مَنْ يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد ، إما لأداء رسالة ، أو لتجارة : ونحو ذلك ، ثم يعود إلى بلاده .

ثم نهاهم عن الظّلم وأخذ أموال النّاس على طريق المصادرة والتأويل الباطـل ؛ قال : إلّا أن تخافوا غائلةَ المعاهدِين ، بأن تجدوا عندهم خيولًا أوسلاحا ، وتظنّوا منهم وثبة على بلد من بلاد المسلمين ، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ .

قوله : « وأَبْلوا فى سبيل الله » ، أى اصطنعوا من المعروف فى سبيل الله ما استوجب عليكم ، يقال : هو يبلوه معروفا ، أى يصنعه إليه ، قال زهير :

جَزَى الله بالإحسانِ ما فَعَلَا بِكُمْ ... وأبلاها خيرَ البلاء الّذى يَبْلو[1]

قوله عليه السلام : « قد اصطنما عندنا وعندكم أن نشكره » ، أى لأنْ نشكره ، بلام التعليل وحذفها ، أى أحسن إلينا لنشكره ، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] .

---

(١) ديوانه ١١٦ .   (٢) سورة المائدة ٨٠ .

(٥٢)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد فى معنى الصلاة :

أمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرْبِضِ الْعَنْزِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضاءُ حَيَّةٌ فى عِضْوٍ مِنَ النَّهارِ حِينَ يُسارُ فِيها فَرْسَخانِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ ، وَيَدْفَعُ الْحاجُّ إلَى مِنًى ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشاءَ حِينَ يَتَوارَى الشَّفَقُ إلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَداةَ والرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صاحِبِهِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ ، وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ .

* * *

الشَّرْحُ

[بيان اختلاف الفقهاء فى أوقات الصلاة]

قد اختلف الفقهاء فى أوقات الصلاة ، فقال أبو حنيفة : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثانى ؛ وهو المعترِض فى الأفق ، وآخر وقتها ما لم تطلع الشمس . وأوّل وقت الظهر إذا زالت الشمس ، وآخر وقتها إذا صار ظلّ كلّ شىء مثليه سوى الزوال . وقال أبو يوسف ومحمّد : آخر وقتها إذا صار الظلّ مثله .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العصر إذا خرج وقتُ الظهر ؛ وهذا على القولين ، وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس ، وأوّل وقت المغرب إذا غربت الشمس ، وآخر وقتها

ما لم يغب الشّفق ؛ وهو البياض الّذى فى الأُفق بعد الحمرة . وقال أبو يوسف ومحمد : هو الحمرة .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العِشاء إذا غاب الشفق ، وهذا[1] على القولين ، وآخر وقتها ما لم يطلع الفجر .

وقال الشافعىّ : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثانى ، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر ، ثم يبقى وقت الجواز إلى طلوع الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ من الشافعية : لايبقى وقت الجواز ، بل يخرج وقتها بعد الإسفار ويصلّى قضاء ؛ ولم يتابعه على هذا القول أحدٌ . قال الشافعىّ : وأوّل وقت الظُّهر إذا زالت الشمس . وحكى أبو الطيّب الطّبرىّ من الشافعية أنّ من الناس من قال : لا تجوز الصّلاة حتى يصير الفئُ بعد الزّوال مثل الشِّراك .

وقال مالك : أحبّ أن يؤخر الظّهر بعد الزوال بقدرما يصير الظلّ ذراعا ؛ وهذا مطابق لما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين تفئُ الشمس كربض العنز ، أى كموضع تربض العنز ، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة .

قال الشافعىّ : وآخر وقت الظهر إذا صار ظلّ كلّ شىء مثله ، ويعتبر المثْل من حدّ الزّيادة على الظلّ الذى كان عند الزوال ، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد ؛ وقدحكيناه من قبلُ ، وبه أيضا قال الثورىّ وأحمد ، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤى عن أبى حنيفة ، فأمّا الرواية المشهورة عنه ــ وهى الّتى رواها أبو يوسف ــ فهو أنّ آخر وقت الظهر صيرورة الظلّ مثليه ، وقد حكيناه عنه فيما تقدم .

وقال ابن المنذِر : تفرّد أبو حَنيفة بهذا القول ؛ وعن أبى حنيفة رواية ثالثة أنه إذاصار ظلّ كل شىء مثله خرج وقت الظهر ؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظلّ كلّ شىء مثليه .

---

(١) ا : « وهو ».

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبرىّ : قدر أربع ركعات بين المثْل والمثلين ، يكون مشتركا بين الظهر والعصر .

وحكى عن مالك أنه قال : إذا صار ظلّ كل شىء مثله ، فهو آخر وقت الظهر وأوّل وقت العصر ، فإذا زاد على المثْل زيادة بيّنة خرج وقت الظهر واختصّ الوقت بالعصر .

وحكى ابن الصبّاغ من الشافعية ، عن مالك ، أنّ وقت الظّهر إلى أن يصير ظلّ كلّ شىء مثله وقتا مختارا ، فأمّا وقت الجواز والأداء فآخره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قدْر أربع ركعات ؛ وهذا القول مطابقٌ لمذهب الإماميّة .

وقال ابن جُريج وعطاء : لا يكون مفرّطا بتأخيرها حتى تكون فى الشمس صُفرة .

وعن طاوس : لا يفوت حتى اللّيل .

فأمّا العصر : فإن الشافعىّ يقول: إذا زاد على المِثْل أدنى زيادة ، فقد دخل وقت العصر ؛ والخلاف فى ذلك بينه وبين أبى حنيفة ؛ لأنّه يقول : أوّل وقت العصر إذا صار ظلّ كلّ شىء مثلْيه ، وزاد عليه أدنى زيادة . وقد حكيناه عنه فيما تقدّم .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى العصر مطابق لمذهب أبى حنيفة ، لأنّ بعد صيرورة الظلّ مثليْه ، هو الوقت الذى تكون فيه الشمس حَيّةً بيضاء فى عِضْو من النهار ، حين يُسار فيه فرسخان ، وأما قبل ذلك فإنّه فوق ذلك يُسار من الفراسخ أكثر من ذلك ، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعىّ للعصر باقياً حتى يصير ظلّ كلّ شىء مثليْه ؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ من أصحابه : يصير قضاء بمجاوزة المثْلين ؛ فأمّا وقت المغرب فإذا غَرَبت الشمس وغروبها سقوط القرص .

وقال أبو الحسن علىّ بن حبيب الماوردىّ من الشافعية: لا بدّ أن يسقط القُرْص ويغيب

حاجب الشمس ، وهو الضياء المستعلى عليها كالمتّصل بهـا ، ولم يذكر ذلك من الشافعيّة أحد غيره .

وذكر الشّاشى فى كتاب "حلية العلماء" أنّ الشيعة قالت : أوّل وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم . قال قد حكى هذا عنهم . ولا يساوى الحكاية ، ولم تذهب الشيعة إلى هذا ، وسنذكر قولهم فيما بعد .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى المغرب لاينصّ على وقت معين لأنّه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار ، ووقت ما يدفع الحاجّ ، وكلاَ الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة ، اللهمّ إلّا أن يكون قد عرّف أمراء البلاد الّذين يصلّون بالناس من قبل هـذا الكتاب متى هذا الوقت الذى يُفطر فيه الصائم ، ثم يدفع فيـه الحاجّ بعينه ، ثم يحيلهم فى هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص .

قال الشافعىّ : وللمغرب وقت واحد ، وهو قول مالك .

وحكى أبو ثَوْر عن الشافعىّ أنّ لها وقتين ، وآخر وقتها إذا غابَ الشّفق . وليس بمشهور عنه ، والمشهور القول الأول ، وقد ذكرنا قول أبى حنيفة فيما تقدّم ، وهـو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشّفق ، وبه قال أحمد وداود .

واختلَف أصحابُ الشافعىّ فى مقدار الوقت الواحد ، فمنهم من قال : هـو مقدّر بقدْر الطّهارة وستر العَوْرة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات ، ومنهم مَنْ قدّره بغير ذلك .

وقال أبو إسحاق الشيرازىّ منهم : التضييق إنّما هو فى الشّروع ، فأمّا الاستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق .

فأما وقت العشاء ، فقال الشافعىّ : هو أن يغيب الشفق وهو الحمرة ، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبى يوسف ومحمد ، وقد حكينا مذهب أبى حنيفة فيما تقدّم ، وهـو أن يغيب الشفق الذى هو البياض ، وبه قال زُفَر والمزنىّ .

قال الشافعيّ : وآخر وقتها المختار إلى نِصْف الليل ، هذا هو قوله القديم ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وقال في الجديد : إلى ثلث الليل . ويجب أن يحمَل قولُ أميرِ المؤمنين عليه السلام في العشاء أنّها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار ، ليكون مطابقا لهذا القول ، وبه قال مالك ، وإحدى الروايتين عن أحمد . ثم يذهب وقت الاختيار ؛ ويبقى وقتُ الجواز إلى طلوع الفجر الثاني .

وقال أبو سعيد الإصطخريّ : لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل ، بل يصير قضاء .

***

فقد ذكرنا مذهبي أبي حنيفة والشافعيّ في الأوقات ، وهما الإمامان المعتبران في الفقه ، ودخل في ضمن حكاية مذهب الشافعي ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء .

فأما مذهب الإماميّة من الشيعة ، فنحن نذكره نقلا عن كتاب أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف بالمفيد " بالرسالة المقنعة " قال : وقتُ الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع الفيء سُبْعَى الشخص ، وعلامة الزوال رجوعُ الفيء بعد انتهائه إلى النّقصان ، وطريق معرفة ذلك بالإصطرلاب أو ميزان الشمس ، وهو معروف عند كثير من الناس ، أو بالعمود المنصوب في الدائرة الهنديّة أيضا ، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك ، أو لم يجد آلته فلينصب عوداً من خشب أو غيره في أرض مستوية السّطح ، ويكون أصلُ العود غليظا ورأسه دقيقا شبْه المذرى الذي ينسَج به التّكك أو المسلّة التي تُخاط بها الأحمال ، فإن ظلّ هذا العود يكون بلا شكّ في أول النهار أطولَ من العود ، وكلّما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القُرْص في وسط السماء ، فيقف الفيء حينئذ ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رَجَع الفيء إلى الزيادة . فليعتبرْ مَنْ أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطط وعلامات يجعلها على رأس ظلّ العود عند وضعه

فى صدر النهار ، وكلّما نقص فى الظلّ شىء علّم عليه ، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذ برجوعه أن الشمس قد زالت .

وبذلك تُعرف أيضا القبلة ، فإنّ قُرْص الشمس يقف فيهـا وسَط النهار ، ويصير عن يسارها ويمين المتوجّه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القُطْب ، فإذا صارت مما يلى حاجبه الأيمن من بين عينيه عُلم أنها قـد زالت ، وعرف أنّ القبلة تلقاء وجهه ؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجّه إليها ، فرأى عينَ الشمس مما يلى حاجبه الأيمن ؛ إلا أنّ ذلك لا يبين إلّا بعد زوالهـا بزمان ، ويبيّن الزوال من أوّل وقته بمـا ذكرناه من الإصطرلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والعمود الذى وصفناه ، ومَنْ لم يحصل له معرفة ذلك ، أو فقد الآلة توجّه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعـد الفراغ من الظهر ، إذا صليت الظهر فى أوّل أوقاتها ــ أعنى بعد زال الشمس بلا فصل ــ ويمتدّ إلى أن يتغيّر لون الشمس باصفرارها للغروب ، وللمضطر والناسى إلى مغيبها بسقوط القُرْص عمـا تبلغه أبصارنا من السماء ، وأوّل وقت المغرب مغيب الشمس ، وعلامة مغيبها عدم الحُمْرة فى المشرق المقابل للمغرب فى السماء ؛ وذلك أن المشرق فى السماء مُطلّ على المغرب ، فـما دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهى تلقى ضوءها على المشرق فى السماء ، فيرى حُمْرتها فيه ، فإذا ذهبت الحمرة منه علم أن القُرْص قد سقط وغاب. وآخره أول وقت العشاء الآخرة ، وأوّل وقتها مغيب الشمس وهو الحمرة فى المغرب ، وآخره مضى الثلث الأول من الليل ، وأول وقت الغداة اعتراض الفجر ، وهو البياض فى المشرق يعقبه الحمرة فى مكانه ؛ ويكون مقدمـة لطلوع الشمس على الأرض من السماء ؛ وذلك أن الفجر الأول ، وهو البياض الظاهر فى المشرق يطلع طولا ثم ينعكس بعد مدّة عرضا ثم يحمر الأفق بعده للشمس .

ولا ينبغى للإنسان أنْ يصلّىَ فريضة الغـــداة حتى يعترض البياض ، وينتشر صُعُداً فى السماء كما ذكرنا ، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس .

هذا ما تقوله الفقهاء فى مواقيت الصلاة .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « والرجـــل يعرِف وجه صاحبه » ؛ فمعناه الإسفار ، وقد ذكرناه .

وقوله عليــه السلام : « وصلُّوا بهم صلاة أضعفِهم » ؛ أى لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدّعوات الطويلة .

ثم قال : « ولا تكونوا فتّانين » ، أى لا تفتِنوا الناس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة، نحو أن يُحدِث الإمام فيستخلف فيصلّى الناس خلف خليفته ، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولى الشافعىّ ؛ ونحو أن يُطيل الإمام الركوع والسجود ، فيظنّ المأمومون أنّــه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة ؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء فى كتبهم .

* * *

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنمـا بدأ بصلاة الظهر ، لأنها أوّلُ فريضة افترضت على المكلّفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه عليــه السلام ؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة ، وينصر قولَهم تسميتها بالأولى ؛ ولهـــذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها ؛ فأمّا مَنْ عـدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح ؛ وهى أول النهار .

* * *

وأيضا يتفرع على هـــذا البحث القولُ فى الصلاة الوسطى ، ما هى ؟ فذهب جمهور

النّاس إلى أنها العصر ، لأنها بين صلاتى نهار وصلاتَى ليل ؛ وقد رووا أيضا فى ذلك روايات بعضها فى الصحاح ، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب ؛ لأنّ الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى ؛ إلا أنّهم يروون عن أئمتهم عليهم السلام أنها الظهر ، ويفسرون الوسطى بمعنى الفُضْلى ؛ لأنّ الوَسط فى اللغة هو خيار كل شىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾(١) ، وقد ذهب إلى أنّها المغرب قوم من الفقهاء أيضا .

وقال كثير من الناس : إنّها الصبح ، لأنها أيضا بين صلاتى ليل وصلاتى نهارٍ ، ورووا أيضا فيها روايات وهو مذهب الشافعىّ ، ومن الناس من قال : إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبرا أنها العشاء إلا قولا شاذًّا ذكره بعضهم .

وقال : لأنها بين صلاتين لا تُقصَران .

---

(١) سورة البقرة ١٤٣ .

(٥٣)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن :

بسم الله الرحمن الرحيم

هَـــذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ

الْوُلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ . فَامْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ .

* * *

الشَّرْحُ :

نصرة الله باليد : الجهاد بالسيف ، وبالقلب الاعتقـاد للحقّ ، وباللسان قولُ الحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تكفّل الله بنصرة من نَصَره ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾(١) .

والجمَحات : منازعة النّفس إلى شهواتها ومآربها ، ونزعها بكفّها .

ثم قال له : قد كنت تسمع أخبار الولاة ، وتعيب قوماً وتمدح قوماً ، وسيقول الناس في إمارتك الآن نحو ما كنت تقول في الأمراء ؛ فاحذر أن تعاب وتذمّ كما كنت تعيب وتذمّ مَنْ يستحقّ الذم .

ثم قال : إنمـا يستدلّ على الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة النّاس بمدحهم والثناء عليهم ؛ وكذلك يستدلّ على الفاسقين بمثل ذلك .

وكان يقال : ألسنة الرعيّة أقلام الحقّ سبحانه إلى الملوك .

ثم أمره أن يشحّ بنفسه ، وفسّر له الشحّ ما هو ؟ فقال : أن تنتصف منها فيما أحبّت

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

وكرهت ، أي لا تمكنها من الاسترسال في الشهوات ، وكُنْ أميراً عليها ، ومسيطراً وقامعاً لها من التهوّر والانهماك .

فإن قلت : هذا معنى قوله : « فيا أحببْتَ » ، فما معنى قوله : « وكرهت » ؟

قلت : لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرها من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية ، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها في طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها في طرف الترْك .

* * *

الأصْـلُ :

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ ؛ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ .

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَيْ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوحَةً .

وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ .

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ !

***

الشَّرْحُ :

أشعِر قلبَك الرحمة ، أى اجعلها كالشِّعار له ، وهو الثّوب اللاصق للجسد ؛ قال : لأنّ الرعيّة ؛ إمّا أخوك فى الدّين ، أو إنسان مثلك تقتضى رقّة الجنسيّة وطبع البشريّة الرحمةَ له .

قوله : « ويؤتَى على أيديهم » ، مثل قولك : « ويؤخذ على أيديهم » ؛ أى يهذّبون ويثقّفون ، يقال : خذ على يد هذا السّفيه ، وقد حجَر الحاكم على فلان ، وأخذ على يده .

ثم قال : فنسبَتُهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى ، وكما تحبّ أن يصفح الله عنك ينبغى أن تصفح أنت عنهم .

قوله : « لا تنصبنّ نفسَك لحرْب الله » ؛ أى لا تبارزْه بالمعاصى . فإنه لا يدىْ لك بنقمته ؛ اللام مُقحمة ، والمراد الإضافة ، ونحوه قولهم : لا أبا لك .

قوله : « ولا تقولنّ إنى مُؤَمّر » ؛ أى لا تقل : إنى أمير ووالٍ آمرُ بالشىء فأطاع .

والإدغال : الإفساد ، ومنهكة للدين : ضعف وسقم .

ثم أمره عند حدوث الأبهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمْرَة أن يذكر عظمةَ الله تعالى وقدرتَه على إعدامه وإيجاده ، وإماتته وإحيائه ؛ فإنّ تذكّر ذلك يطامِن من غُلَوائه ، أىْ يغضّ من تعظّمه وتكبّره ، ويطأطىء منه .

والغَرْب : حدّ السيف ، ويستعار للسطوة والسرعة فى البطش والفَتْك .

قوله : « وُيفِىء » ؛ أى يرجع إليك بما بعد عنك من عَقْلك ، وحرْف المضارعة مضموم لأنّه من « أفاء » .

ومساماة الله تعالى : مباراته فى السموّ وهو العلوّ .

***

الأصْلُ :

أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ للهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ .

وَلَيْسَ شَىْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِى الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِى الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ .

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ ، مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ؛ وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ .

* * *

الشرح

قال له : أنصِف اللهَ ، أى قُم له بما فَرَض عليك من العبادة والواجبات العقليّة والسمعيّة .

ثمّ قال : وأنصِف الناس من نفسك ومن ولَدِك وخاصّة أهلك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك ، فمتى لم تفعل ذلك كنتَ ظالما .

ثمّ نهاه عن الظّلم ، وأكّد الوصاية عليه فى ذلك .

ثمّ عرّفه أنّ قانون الإمارة الاجتهاد فى رضا العامّة ، فإنّه لا مبالاة بسُخْط خاصّة الأمير مع رضا العامّة ، فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة ، وذلك مثل أن يكون فى البلد عشرةٌ أو عشرون من أغنيائه ، وذوِى الثّروة من أهله ، يلازمون الوالىَ ويخدمُونه ويسامرونه ، وقد صار كالصَّديق لهم ، فإنّ هؤلاء ومن ضارَعَهم من حواشى الوالى وأرباب الشفاعات والقُرُبات عنده لا يُغنُون عنه شيئا عند تنكّر العامّة له ، وكذلك لا يضرّ سُخْط هؤلاء إذا رضيت العامّة ، وذلك لأنّ هؤلاء عنهم غنًى ، ولهم بدل ، والعامّة لا غنًى عنهم ولا بدل منهم ، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب ، فلا يقاومه أحد ، وليس الخاصة كذلك .

ثمّ قال عليه السلام ـ ونِعْمَ ما قال : ليس شيء أقلّ نفعا ، ولا أكثرَ ضررا على الوالى من خواصّه أيّام الولاية ، لأنّهم يثقّلون عليه بالحاجات ، والمسائل والشّفاعات ، فإذا عُزِل هَجَروه ورَفَضُوه حتّى لو لقوه فى الطريق لم يسلّموا عليه .

والصّغو[1] بالكسر والفتح والصّغا مقصور : الميْل .

* * *

الأصْـلُ :

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ ؛ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ[2] رَعِيَّتِكَ .

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ ، وَلَا جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ .

* * *

(١) ب : « الصفو » ، تحريف .   (٢) فى د : « عن » .

الشَّرْح :

أشنَأهم عندك ، أبغَضهم إليك :

وتَغابَ : تغافَلْ ، يقال : تَغابى فلانٌ عن كذا .

ويَضِح : يَظهرَ ، والماضى وَضَح .

* * *

[فصل فى النهى عن ذكر عيوب الناس وما ورد فى ذلك من الآثار]

عاب رجلٌ رجلا عند بعض الأشراف فقال له : لقد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر فيه من عُيوب الناس ، لأنّ طالبَ العُيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها .

وقال الشاعر :

وأجرأ من رأيتَ بظهر غيبٍ على عَيب الرجال أولو العيُوبِ

وقال آخر :

يا مَنْ يعيب وعيبُه مُتَشَعِّبٌ كَمْ فيك من عيبٍ وأنت تعيبُ!

وفى الخبر المرفوع : « دعُوا الناس بغَفَلاتِهم يعيش بعضُهم مع بعض » .

وقال الوليد بن عتبة بن أبى سُفْيان : كنت أسايرُ أبى ورجلٌ معنا يقع فى رجل، فالتفت أبى إلىّ فقال : يا بُنىّ ؛ نزّه سمعَك عن استماع الخنا كما تُنزّه لسانَك عن الكلام به ، فإنّ المستمعَ شريك القائل ، إنّما نظر إلى أخبث ما فى وعائه فأفرَغه فى وعائك ، ولو ردّت كلمة جاهل فى فيه لسعد رادّها كما شقِىَ قائلُها .

وقال ابن عباس ، الحدَث حدثان : حدَث مِن فيك ، وحدَث من فرْجك .

وعاب رجلٌ رجلا عند قُتَيبة بن مسلم ؛ فقال له قتيبة : أمسِك ويحك ! فقد تلمّظت بمُضغةٍ طالما لَفِظها الكرام .

ومرّ رجل بجارَيْن له ومعه ريبة ، فقال أحدهما لصاحبه : أفهمتَ ما معه من الرّيبة ؟ قال : وما معه ؟ قال : كذا ، قال : عبدى حرّ لوجه الله شكرا له تعالى إذ لم يعرّفنى من الشرّ ما عرّفك .

وقال الفُضَيل بن عِياض : إنّ الفاحشة لَتَشيع فى كثير من المسلمين حتى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزّانا .

وقيل لبزُرُجمهر : هل من أحد لا عيبَ فيه ؟ فقال : الذى لا عيبَ فيه لا يموت .

وقال الشاعر :

ولستُ بذى نَيْرَبٍ فى الرجا ... ل مَنّاعَ خيرٍ وسَبّابها(١)

ولا مَنْ إذا كان فى جانبٍ ... أضاعَ العشيرةَ واُغتابَها

ولكن أطاوِعُ ساداتِها ... ولا أتعلّم ألقابَها

وقال آخر :

لا تلتمسْ من مساوِى الناس ما ستَرُوا ... فيكشف الله سِتْراً من مساوِيكا

واُذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ... ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكا

وقال آخر :

ابدأ بنفسك فانْهها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه، فأنت حكيم(٢)

فهناك تُعذر إن وعظتَ ويقتدَى ... بالقول منكَ ، ويُقبَل التّعليمُ

***

(١) النيرب : الشر وحمل العداوة .

(٢) لأبى الأسود الدؤلى ؛ خزانة الأدب ٣ : ٦١٧ ؛ والرواية هناك : « عن غيها » .

فأمّا قوله عليه السلام : « أطلقْ عن الناس عقدةَ كلّ حقد » ، فقد استوفَى هذا المعنى زيادٌ في خطبته البتْراء فقال : وقد كانت بيني وبين أقوام إحَن(١) ، وقد جعلت ذلك دَبْر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنا فليزدَدْ إحسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته ، إنّي لو علِمتُ أنّ أحدكم قد قتله السُّلال(٢) من بُغضِي لم أكشف عنه قناعا ، ولم أهتِك له سِترا ، حتى يبديَ لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظرْه ، ألا فليشمل كلّ امرئ منكم على ما في صدره ، ولا يكوننّ لسانُه شفرةً تجرى على وَدَجِه .

***

[فصل في النهي عن سماع السعاية وما ورد في ذلك من الآثار]

فأمّا قوله عليه السلام : « ولا تعجلنّ إلى تصديق ساعٍ » ، فقد ورد في هذا المعنى كلامٌ حَسَن ، قال ذو الرّياستين: قبول السِّعاية شرٌّ من السعاية لأنّ السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على شيء كمن قبله وأجازه ، فامقت الساعيَ على سِعايته ، فإنه لو كان صادقا كان لئيما ؛ إذ هَتَك العورة ، وأضاع الحُرْمة .

وعاتب مصعبُ بنُ الزبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره ، فقال مُصعب : أخبرَني به الثِّقة ، قال : كلّا أيها الأمير ، إن الثقة لا يبلّغ .

وكان يقال : لو لم يكن من عيْب الساعى إلّا أنه أصدق ما يكون أضرّ ما يكون على الناس ، لكان كافيا .

كانت الأكاسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السِّكْباج(٣) ، وكان ذلك ممّا يختصّ به الملِك ، فرفع ساع إلى أنو شروان : إنّ فلانا دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه

---

(١) الإحن : جمع إحنة ، وهي العداوة . (٢) السلال والسل بمعنى .

(٣) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ معرب .

سِكْباج ، فوقَّع أنو شروان على رقعته : قد حمدنا نصيحتك ، وذَممنا صديقَك على سوء اختياره للإخوان .

جاء رجلٌ إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دِمَشق ، فقال : أيُّها الأمير ، إنّ عندى نصيحة ، قال : اذكُرها ، قال : جارٌ لى رجع من بعثه سرّا ، فقال : أمّا أنت فقد أخبرتَنا أنك جارُ سَوْء ، فإن شئت أرسلنا معك ، فإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن كنت صادقا مقتناك ، وإن تركتنا تركناك ، قال : بل أتركك أيّها الأمير . قال : فانصرِف .

ومثلُ هذا يُحكى عن عبد الملك أنّ إنسانا سأله الخَلْوة ، فقال لجلسائه : إذا شئتم ! فانصرفوا ، فلما تهيّأ الرجل للكلام قال له : اسمع ما أقول ، إيّاك أن تمدَحنى فأنا أعرَفُ بنفسى منك ، أو تُكذِبنى فإنه لا رأى لمكذوب ، أو تسعى بأحد إلىّ فإنّى لا أحبّ السعاية ؛ قال : أفيأذنُ أمير المؤمنين بالانصراف ! قال : إذا شئت .

وقال بعض الشعراء :

لَعَمرُك ما سبّ الأميرَ عدوُّهُ ولكنّما سبّ الأميرَ المبلِّغُ

وقال آخر :

حُرمتُ مُنائى منكَ إنْ كان ذا الذى[1] أتاكَ به الواشُون عنّى كما قالوا
ولكنّهم لمّا رأوك شريعةً إلىّ تواصَوا بالنّميمةِ واحْتالوا[2]
فقد صِرتَ أذْنا للوُشاة سميعةً ينالون مِنْ عِرْضى ولو شئتَ ما نالوا

وقال عبد الملك بنُ صالح لجعفر بن يحيى وقد خرج يودّعه لمّا شخص إلى خُراسان : أيّها الأمير ، أُحِبّ أن تكون لى كما قال الشاعر :

---

(١) فى د « إن يكن الذى » ، وهو مستقيم الوزن والمعنى أيضاً .

(٢) الشريعة : مورد الشاربة .

فكونى على الواشين لَدّاء شَغْبةً ... كما أنا للواشى ألدُّ شَغُوبُ (١)

قال : بل أكون كما قال القائل :

وإذا الواشى وَشَى يوماً بها ... نفع الواشى بما جاء يضُرّ

وقال العباس بن الأحنف :

ما حَطّك الواشُون من رُتْبةٍ ... عنـدى ولا ضَرّك مُغتابُ

كأنّهم أثنَوْا ولم يعلـموا ... عليكَ عندى بالذى عابُوا

* * *

قوله عليه السلام : « ولا تُدْخلن فى مشورتك بخيلا يعـدل بك عن الفَضْل ، ويعدك الفقر » ، مأخوذٌ من قول الله تعـالى : ﴿ الشّيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ويأمُرُكُمْ بالْفَحْشاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغفرةً منهُ وفَضْلاً ﴾(٢)؛ قال المفسّرون : الفَحْشاء ها هنـا البُخْل ؛ ومعنى «يعدكم الفقر » ، يخيِّل إليـكم أنـكم إن سمحتم بأموالـكم افتقرتم فيخوّفـكم فتخافون فتبخلون .

قوله عليه السلام: « فإنّ البخلَ والجبنَ والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله»، كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء ، يقول: إن بينها قَدْرا مشترَكا وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة ، وذلك القدْر المشترك هو سوء الظنّ بالله ، لأنّ الجبـان يقول فى نفسه : إن أقدمتُ قُتِلت ، والبخيلَ يقول : إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ ، والحريصَ يقول : إن لم أجدّ وأجتهد وأدأب فاتنى ما أروم ؛ وكلّ هـذه الأمور ترجع إلى سوء الظنّ بالله ، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله وكانَ يقينه صـادقا لعلم أنّ الأجـل مقدّر ، وأنّ الرزق مقدّر ، وأنّ الغنى والفقر مقدّران ، وأنّه لا يكون من ذلك إلاّ ما قضى الله تعالى كونه .

* * *

(١) اللداء : الشديدة الخصومة . (٢) سورة البقرة ٢٦٨

الأصل :

شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لِلأَشْرَارِ وَزِيراً ، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ ، فَلا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ ؛ وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ ؛ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً ، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً .

فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الحَقِّ لَكَ ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ .

***

الشرح :

نهاه عليه السلام ألّا يتّخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانةً للظّلَمة ، وذلك لأنّ الظلم وتحسينه قد صار ملَكةً ثابتة فى أنفسهم ، فبعيد أن يمكنهم الخلوّ منها إذ قد صارت كالخُلُق الغريزىّ اللّازم لتكرارها وصيرورتها عادةً ، فقد جاءت النصوص فى الكتاب والسنّة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم ، وتحريم الاستعانة بهم ، فإنّ من استعان بهم كان معيناً لهم ، قال تعالى : ﴿ وما كُنتُ مُتّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[1] ، وقال : ﴿ لا تجدُ قوماً يُؤْمِنُون باللهِ واليَوْمِ الآخرِ يُوَادُّون مَنْ حادّ اللهَ ورسولَهُ ﴾[2] .

وجاء فى الخبر المرفوع : «يُنادَى يومَ القيامة : أين من بَرَى[3] لهم — أى الظالمين — قلَما» .

---

(١) سورة الكهف ٥١ . (٢) سورة المجادلة ٢٢ .

(٣) ب : « يرى » ، تحريف ، صوابه فى ا ، د .

أُتِيَ الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج ، فقال له : ما تقول فى الحجّاج ؟ قال : وما عَسِيت أن أقول فيه ! هل هو إلّا خطيئة من خطاياك ، وشَرَر من نارك ؟ فلعنك الله ولعن الحجّاج معك ! وأقبل يشتمهما ، فالتفت الوليد إلى عمرَ بن عبد العزيز فقال : ما تقول فى هذا؟ قال : ما أقول فيه ! هذا رجل يشتِمكم ، فإمّا أن تَشْتِموه كما شتمكم ، وإمّا أن تعفُوا عنه . فغضب الوليدُ وقال لعُمَر : ما أظنّك إلّا خارجيًا ! فقال عمر : وما أظنّك إلا مجنونا ؛ وقام فخرج مغضَبا ، ولحقه خالدُ بنُ الرّيان صاحب شُرْطة الوليد ، فقال له ما دعاك إلى ما كلّمتَ به أمير المؤمنين ! لقد ضربت بيدى إلى قائم سَيْفِى أنتظر متى يأمرنى بضرب عنقك ؛ قال : أوَ كنت فاعلا لو أمرك ؟ قال : نعم . فلمّا استُخْلف عمرُ جاء خالد بن الرّيان فوقف على رأسه متقلّدا سيفه ، فنظر إليه وقال : يا خالد ، ضَعْ سيفك فإنك مطيعنا فى كلّ أمرٍ تأمرك به — وكان بين يديه كاتب للوليد ، فقال له : ضع أنتَ قلمك ، فإنك كنتَ تضرّ به وتنفع ، اللهمّ إنى قد وضعتهما فلا ترفَعْهما ، قال : فوالله ما زالا وضيعَيْن مَهِينَين حتى ماتا .

وروى الغزالىّ فى كتاب " إحياء علوم الدّين " ، قال لما خالط الزّهرىّ السّلْطان كتب أخٌ له فى الدّين إليه : عافانا الله وإيّاك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعوَ الله لك ويرحمك ، فقد أصبحت شيخا كبيرا ، وقد أثقلتْك نعم الله عليك بما فهّمك من كتابه ، وعلّمك من سنّة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاقَ على العلماء ، فإنه تعالى قال : ﴿ لَتبيّنُنّهُ للناس ولا تكتمونه ﴾(١) . واعلم أنّ أيسرَ ما ارتكبت ، وأخفّ ما احتملت ، أنك آنستَ وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغىّ بدنوّك إلى مَنْ لم يؤدّ حقّا ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك أبا بكر قُطْبا تدور

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

عليه رَحَا ظُلمهم ، وجِسْرا يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم ، وسُلّما يَصعدون فيه إلى ضلالتهم ، يُدخِلون بك الشّكّ على العلماء ، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء ، فما أيسر ما عمّروا لك فى جَنْب ما خرّبوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فى جَنْب ما أفسدوا من حالك ودينك ! وما يؤمنّك أن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم ﴿فخلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أضاعوا الصّلاة واتبعوا الشهواتِ فسوف يَلقَون غيّا﴾[1] يا أبا بكر ، إنّك تُعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداوِ دينَك فقد دخله سَقَم ، وهيّئ زادَك فقد حضرَ سَفر بعيد ؛ ﴿وما يخفَى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء﴾[2] ، والسلام .

* * *

الأصلُ

والْصَقْ بأهْلِ الْوَرَعِ والصِّدْقِ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلّا يُطْرُوكَ ولَا يُبَجِّحُوكَ بِباطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فإن كَثْرَةَ الإطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ ، وتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ .

ولَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ والمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاء ؛ فإنَّ فى ذَلِكَ تَزْهِيدًا لأهْلِ الإحْسانِ فى الإحْسانِ ، وتَدْرِيباً لأهْلِ الإساءَةِ عَلَى الإساءَةِ ، وأَلْزِمْ كُلًّا منهمْ ما أَلْزَمَ نَفْسَهُ .

* * *

---

(١) سورة مريم ١٢٥ . (٢) سورة ابراهيم ٣٨ .

الشَّرْحُ :

قوله : « والصَق بأهل الورع » ، كلمةٌ فصيحة ، يقول : اجعلهم خاصّتك وخُلصاءك .

قال : ثمّ رُضْهم على ألاّ يُطرُوك ، أى عوّدهم ألاّ يمدحوك فى وجهك. ولا يبجّحوك بباطل : لا يجعلوك ممن يبجَح أى يفخر بباطل لم يفعله كما يُبَجِّج أصحابُ الأمراءِ الأمراء بأن يقولوا لهم : ما رأينا أعدل منكم ولا أصبحَ ، ولا حَمَى هذا الثغرَ أمير أشدَّ بأسا منكم ! ونحو ذلك ، وقد جاء فى الخبر : « احْثُوا فى وجوه المدّاحين التراب » .

وقال عبد الملك لمن قام يسارّه : ما تريد ! أتريد أن تمدَحَنى وتَصِفنى ، أنا أعلم بنفسى منك .

وقام خالد بنُ عبدِ الله القَسْرىّ إلى عمرَ بن عبد العزيز يوم بَيْعته فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ كانت الخلافة زائنَتَه فقد زيّنتَها ، ومَنْ كانت شرّفته فقد شرّفتها ، فإنّك لكما قال القائل :

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ   كان للدّرّ حُسنُ وجهك زَيْنا

فقال عمرُ بنُ عبد العزيز : لقد أُعطِى صاحبُكم هذا مِقْوَلًا ، وحُرِم مَعْقولا . وأمَرَه أن يجلس .

ولما عَقدَ معاوية البَيْعة لابنه يزيد قام النّاس يخطبون ، فقال معاوية لعمرو بنِ سعيد الأشْدَق : قم فاخطب يا أبا أميّة ، فقام فقال : أمّا بعد ، فإنّ يزيدَ ابنَ أمير المؤمنين أملٌ تأمُلونه ، وأجلٌ تأمَنونه ، إن افتقرتم إلى حِلمِه وَسِعَكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشَدَكم ، وإن اجتَدَيتم ذاتَ يده أغناكم وشَمِلَكم ؛ جِذْعٌ قارِح ؛ سُوبِق فَسَبَق ، ومُوجِدَ فمَجد ،

وقُورِع فقَرَع ، وهو خلفَ أمير المؤمنين ، ولا خَلَفَ منه . فقال معاية : أوْسَعتَ يا أبا أميّة فاجلس ، فإنّما أردنا بعضَ هذا .

وأثنَى رجلٌ على عليّ عليه السلام في وجهه ثناءً أوسَع فيه ـ وكان عنده متّهما ـ فقال له : أنا دونَ ما تقول ، وفوق ما في نفسك .

وقال ابن عبّاس لعُتْبة بن أبي سُفْيان وقد أثنَى عليه فأكثر : رويداً فقد أمهَيْتَ يا أبا الوليد ـ يعني بالغتَ ، يقال أمهَى حافرُ البئر ، إذا استقصَى حفرَها .

فأمّا قوله عليه السلام : « ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء » ، فقد أخذه الصّابي فقال : « وإذا لم يكن للمُحسِن ما يَرفعه ، وللمسيء ما يَضَعُه ، زَهِد المحسن في الإحسان ، واستمرّ المسيء على الطّغيان » ، وقال أبو الطيّب :

شرّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها ... وشرّ ما يكسب الإنسان ما يَصِم[1]

وشرّ ما قبضتْه راحتي قَنَصٌ ... شُهْبُ البُزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

وكان يقال : قضاء حقّ المحسن أدبٌ للمسيء ، وعقوبة المسيء جزاءٌ للمحسِن .

***

الأصـلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ المَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ . فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٣ .

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَـذِهِ الْأُمَّةِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا ، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَاصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ ؛ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

خلاصةُ صدرِ هذا الفصل ، أنّ مَنْ أحسنَ إليك حَسُنَ ظنُّه فيك ، ومَنْ أساء إليك اُستَوْحش منك ، وذلك لأنّك إذا أحسنتَ إلى إنسان وتكرّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اُعتقادُك أنّه قد أحبّك ، ثمّ يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر ، وهو أنك تحبّه ؛ لأنّ الإنسان مجبول على أن يحبّ مَن يحبُّه ، وإذا أحببتَه سكنتَ إليه وحَسُن ظنّك فيه ، وبالعكس من ذلك إذا أسأتَ إلى زيد ، لأنك إذا أسأت إليه وتكرّرت الإساءة تبع ذلك اُعتقادُك أنّه قد أبغضك ، ثمّ يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر ، وهو أن تُبغضه أنت ، وإذا أبغضتَه انقبضتَ منه واُستوحشت ، وساء ظنّك به .

قال المنصور للرّبيع : سَلْني لنفسك ؛ قال . يا أمير المؤمنين ، ملأتَ يدى فلم يبقَ عندى موضعٌ للمسألة ؛ قال : فسَلْني لوَلَدك ، قال : أسألك أن تحبّه ، فقال المنصور : ياربيع ، إنّ الحبَّ لايُسأل ، وإنّما هو أمرٌ تقتضيه الأسباب ، قال : ياأمير المؤمنين ، وإنّما أسألك أن تزيد مِنْ إحسانك ، فإذا تكرّر أحبّك ، وإذا أحبّك أحببتَه . فاُستحسن

المنصورُ ذلك ، ثمّ نهاه عن نقض السّنن الصالحة الّتى قد عمل بها من قبله من صالحى الأمّة ، فيكون الوزر عليه بما نقض ، والأجر لأولئك بما أسّسوا ، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء فى مصالح عمله ، فإنّ المشورة بركة ، ومن استشار فقد أضاف عقلا إلى عقله .

ومما جاء فى معنى الأوّل :

قال رجلٌ لإياس بن معاوية : مَن أحبُّ الناسِ إليك ؟ قال : الذين يُعطُونى ، قال : ثمّ من ؟ قال : الّذين أعطيهم .

وقال رجل لهشام بن عبد الملك : إنّ الله جعل العطاء محبّة ، والمنعَ مَبغضَة ، فأعِنّى على حُبّك ، ولا تُعِنّى فى بُغْضك .

***

الأصلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنًى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا .

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ ؛ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ

وَالْكُتَّابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ المَعَاقِدِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ؛ وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ ، مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ .

وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ .

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ، إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ ؛ وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ .

***

الشرح :

قالت الحكماء : الإنسانُ مَدَنيّ بالطّبع ؛ ومعناه أنه خُلِق خِلْقةً لابدّ معها من أن يكونْ منضمّا إلى أشخاصٍ من بنى جنسه ، ومتمدّنا فى مكان بعينه ، وليس المراد بالمتمدّن ساكنَ المدينة ذات السّور والسّوق ، بل لابدّ أن يقيم فى موضع مّا مع قوم من البَشَر ؛ وذلك لأنّ الإنسان مضطرّ إلى ما يأ كله ويشربُه ليقيمَ صورتَه ، ومضطرّ إلى ما يلبسه ، ليدفع عنه أذى الحرّ والبَرْد ، وإلى مَسكَن يسكُنه ليردّ عنه عاديَةَ غيره من الحيوانات ، وليكون مَنزِلا له ليتمكّن من التصرّف والحركة عليه ، ومعلومٌ أن الإنسان وحدَه لا يستقلّ بالأمور الّتى عددناها ، بل لابدّ من جماعة يَحرُث بعضهم لغيره الحرْث ، وذلك الغير يَحُوكُ للحرّاث الثوب ، وذلك الحائك يبنى له غيره المَسْكَن ، وذلك البنّاء يحمل له

غيرُه(١) الماء ، وذلك السّقاء يكفيه غيرُه أمرَ تحصيل الآلة الّتى يطحن بها الحبّ ويعجن بها الدّقيق ، ويَخبز بها العجين ، وذلك المحصّل لهـذه الأشياء يكفيه غيرُه الاهتمام بتحصيل الزّوجة الّتى تدعو إليها داعية الشّبَق ، فيَحصُل مساعدة بعض الناس لبعض ، لولا ذلك لما قامت الدنيا ، فلهذا معنى قوله عليه السلام : « إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلّا ببعض ، ولا غَناء ببعضها عن بعض » .

ثم فصّلهم وقسّمهم فقـال : منهم الجند ، (٢) ومنهم الـكتّاب ، ومنهم القُضاة ، ومنهم العمّال (٢) ، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذّمة ، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين ، ومنهم التجّار ، ومنهم أرباب الصّناعات . ومنهم ذوو الحاجات والمَسكَنة ، وهم أدوَن الطبقات .

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال : الجند للحماية ، والخراجُ يُصرَف إلى الجند والقُضاة والعمّال والـكتّاب لما يحكمونه من المعاقد ، ويجمعونه من المنافع ، ولابدّ لهـؤلاء جميعا من التجّار لأجل البَيع والشّراء الّذى لا غَناء عنه ، ولابدّ لـكلٍّ من أرباب الصناعات كالحدّاد والنجّار والبنّاء وأمثالهم . ثمّ تلى هؤلاء الطبقة السفلى ، وهم أهـل الفقر والحاجة الّذين تجب معونتُهم والإحسانُ إليهم .

وإنّما قسّمهم فى هذا الفصل هذا التقسيم تمهيدا لما يذكره فيما بعد ، فإنّه قد شرع بعد هـذا الفصل ، فذَكَر طبقةً طبقةً وصِنفاً صِنفا ، وأوصـاه فى كلّ طبقة وفى كلّ صِنف منهم بما يليق بحاله ، وكأنّـه (٣) مهّد هـذا التمهيد ، كالفِهرِست لـما يأتى بعده من التفصيل .

* * *

---

(١) ب : « غير تحريف » . (٢ـ٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا د .

(٣) ا : « فـكأنه » .

الأصـلُ :

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلّٰهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ ، وَأَطْهَرَهُمْ جَيْباً ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً ، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ؛ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ؛ وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ .

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ ؛ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ ؛ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ .

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا ؛ وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ . وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ .

وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ ؛ وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ . وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ(١) عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ .

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ ، وَوَاصِلْ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ

---

(١) مخطوطة النهج : « بحيطّهم » بالياء المشددة المكسورة .

مِنهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فِعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ؛ إنْ شَاءَاللهُ.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ .

وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً ، وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾(١) ، فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ .

***

الشرح :

هــذا الفصل مختصٌّ بالوَصاة فيما يتعلّق بأمراء الجيش ، أمَرَه أن يولِّيَ أمر الجيش من جنوده مَن كان أنصحَهم لله فى ظنّه ، وأطهرَهم جَيْبا ، أى عفيفا أمينا ؛ ويُكنَى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب ، لأنّ الّذى يسرق يجعل المسروق فى جَيْبه .

فإن قلت : وأىّ تعلّق لهذا بوُلاة الجيش ؟ إنّما ينبغى أن تكون هذه الوصيّة فى وُلاة الخراج !

قلت : لابدّ منها فى أمراء الجيش لأجل الغنائم .

ثمّ وصف ذلك الأمير فقال: « ممّن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العُذر » ، أى يقبل

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

أدْنى عذر ، ويستريحُ إليه ، ويَسكُن عنده . ويَرْؤف[1] على الضّعفاء ، يَرفق بهم ويَرحمُهم ، والرأفة : الرحمة . ويَنْبو عن الأقوياء : يتجافى عنهم ويبعد ، أى لا يُمكِّنهم من الظّلم والتعدّى على الضعفاء . ولا يثيره العُنْف : لا يهيج غضبَه عُنْف وقَسْوة . ولا يَقْعد به الضّعف ، أى ليس عاجزا .

ثم أمره أن يَلصق بذوى الأحساب وأهلِ البيوتات ، أى يكرمهم ويَجعل معوّله فى ذلك عليهم ولا يتعدّاهم إلى غيرهم ، وكان يقال : عليكم بذوِى الأحساب ؛ فإنْ هم لم يتكرّموا استحيَوْا[2] .

ثم ذكر بعدهم أهلَ الشجاعة والسّخاء ، ثم قال : « إنها جِمَاع من الكرم ، وشُعَب من العرف » ؛ من هاهنا زائدة ؛ وإن كانت فى الإيجاب على مذهب أبى الحسن الأخفش ، أى جماع الكرم ، أى يجمعه كقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « الخمر جِمَاع الإثم » . والعُرْف : المعروف .

وكذلك « مــن » فى قوله : « وشُعَب من العُرْف » أى وشُعب العُرْف ، أى هى أقسامه وأجزاؤه ، ويجوز أن تكون « من » على حقيقتها للتبعيض ، أى هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام المعروف ؛ وذلك لأنّ غيرها أيضا من الكرم والمعروف ، ونحو العدل والعفّة .

قوله : « ثم تفقّد من أمورهم » الضمير هاهنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأمراء لما سنذكره ؛ ممّا يدلّ الكلام عليه .

فإن قلت : إنه لم يَجْرِ للأجناد ذِكْرٌ فيما سبق ؛ وإنما المذكور الأمراء !

قلت : كلاّ بل سبق ذكر الأجناد ، وهو قوله : « الضعفاء والأقوياء » .

---

(١) د : « يرأف » ، تحريف . .

(٢) د : « استحسبوا » ، ب : « استجبوا » ، وأثبت ما فى ا .

وأمره عليه السلام أن يتفقّد من أمور الجيش ما يتفقّد الوالدان من حال الوَلَد ؛ وأمره ألّا يعظِّم عنده ما يقوّيهم به وإن عظم ، وألّا يستحقِر شيئاً تعهّدهم به وإن قلّ ، وألّا يمنعه تفقّدُ جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها . وأمره أن يكون آثر رءوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه مَنْ واساهم فى معونته ؛ هذا هو الضمير الدالّ على أنّ الضمير المذكور أولا للجُند لا لأمراء الجند ؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام .

قوله : « من خُلُوف أهليهم » ، أى ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم .

ثم قال : لا يصحّ نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولاتهم ؛ أى بتعطّفهم عليهم وتحنّنهم ، وهى الحِيطَة على وزن الشِّيمة ، مصدر حاطه يحوطه حَوْطا وحياطا ، وحِيطة ، أى كلأه ورعاه ، وأكثر الناس يروونها « إلّا بحيِّطتهم » بتشديد الياء وكسرها ، والصحيح ما ذكرناه .

قوله : « وقلّة استثقال دُوَلهم » ؛ أى لا تصحّ نصيحة الجُند لك إلّا إذا أحبُّوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دُوَلهم ؛ ولم يتمنّوا زوالها .

ثم أمره أن يذكر فى المجالس والمحافل بلاء ذوى البلاء منهم ؛ فإنّ ذلك مما يُرهِف عَزْم الشُّجاع ويحرّك الجبان .

قوله : « ولا تضمَّنَّ بلاء امرىء إلى غيره » ، أى اذكر كلّ من أبلى منهم مفرَدا غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره ، كى لا يكون مغمورا فى جَنْب ذكر غيره .

ثم قال له : لا تعظّم بلاء ذوِى الشرف لأجل شرفهم ، ولا تحقِر بلاء ذَوِى الضَعَة لضعة أنسابهم ، بل اذكر الأمورَ على حقائقها .

ثم أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلعه من الخطوب ؛ أى ما يئوده ويُميله

لثقله ، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظّاء ؛ وإن كان لتلك وجه .

***

[رسالة الإسكندر إلى أرسطو وردّ أرسطو عليه]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر فى معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوى الأحساب ، وأن يخصّهم بالرياسة والإمْرة ؛ ولا يعدل عنهم إلى العامّة والسِّفلة ، فإن فى ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ووصيّته .

لما ملك الإسكندر إيران شَهْر ـ وهو العراق مملكة الأكاسرة ـ وقتلَ دارًا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان :

عليك أيّها الحكيم منّا السلام ، أما بعد فإن الأفلاك الدائرة ، والعلل السمائيّة ؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التى أصبح الناس لنا بها دائنين ، فإنّا جدُّ واجدِين لمسّ الاضطرار إلى حكمتك ، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك ، والاستنامة[1] إلى مشورتك والاقتداء برأيك ؛ والاعتماد لأمرك ونهيك ، لِمَا بلونا من جَدا ذلك علينا ، وذقنا من جَنَا منفعته ، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسُّخه فى أذهاننا وعقولنا كالغذاء لنا ، فما ننفكّ نعوّل عليه ، ونستمدّ منه استمدادَ الجداول من البحور ، وتعويل الفروع على الأصول ، وقوّة الأشكال بالأشكال . وقد كان مما سيق إلينا من النّصر والفَلْج ، وأتيح لنا من الظَّفَر ، وبلغنا فى العدوّ من النِّكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه ، ويقصُر شكر المنعم عن موقع الإنعام به ، وكان من ذلك أنّا جاوزنا أرض سورِيَة والجزيرة إلى بابل وأرض فارس ، فلما حللنا بعقوَة[2] أهلها وساحة بلادهم ، لم يكن إلا ريثما تلقّانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هديّةً إلينا ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلْب مَن

---

(١) كذا فى ا ، واستنام إلى الأمر : سكن إليه ؛ وفى ب : « الاستبانة » .

(٢) العقوة : ماحول الدار .

جاء به وشهرته لسوء بلائه ، وقلة ارعوائه ووفائه ؛ ثم أمرنا بجمع مَنْ كان هنـاك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوى الشرف منهم ؛ فرأينـا رجالاً[1] عظيمةً أجسامهم وأحلامهم ، حاضرة ألبابهم وأذهانهم ، رائعة مناظرهم ومناطقهم ، دَليـلاً على أن مايظهر من رُوائهم ومنطقهم أنّ وراءه من قوّة أيديهم ، وشدّة نجْدتهم وبأسهم مالم يـكن ليـكون لنا سبيل إلى غلَبتهم وإعطائهم بأيديهم ، لولا أنّ القضاء أدالنا منهم ، وأظفرنا بهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيدا من الرأى فى أمرهم أن نستأصل شأفتهم ، ونجتثّ أصلهم ، ونلحقهم بمَنْ مضى من أسلافهم ، لتسكن القـلوب بذلك الأمْن إلى جرائرهم وبوائقهم ؛ فرأينا ألّا نعجل بإسعافٍ بادئ الرأى فى قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم . فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعد صحّته عندك ، وتقليبك إياه بجلىّ نظرك ، وسلام أهل السلام ، فليـكن علينا وعليك .

فـكتب إليه أرسطو :

لملك الملوك ، وعظيم العظماء ، الإسكندر المؤيّد بالنصر على الأعـداء ، المهدى له الظفر بالملوك ، من أصغر عبيده وأقل خَوَلِه ؛ أرسطو طاليس البَخُوع بالسُّجود والتـذلل فى السلام ، والإذعان فى الطاعة :

أما بعد ، فإنه لا قوّة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه ، واجتهد فى تثقيف معانيه ، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقلّ ماتناله القدرة من بَسْطةِ علوّ الملك وسموّ ارتفاعه عن كلّ قولٍ ، وإبرازه على كلّ وصف ، واغترافه بكلّ إطناب . وقد كان تقرّر عنـدى من مقدّمات إعلام فضل الملك فى صَهْلة سبقه ، وبروز شأوه ، ويُمْن نقيبته ، مـذ أدّت إلىّ حاسةُ بصرِى صورة شخصه ، واضطرب فى حسّ سمعى صـوتُ لفظه ، ووقع وهمى

---

(١) ب : « رجالة » .

على تعقيب نجاح رأيه ، أيّام كنت أؤدى إليه من تسكلّف تعليمى إيّاه ما أصبحتُ قاضيا على نفسى بالحاجة إلى تعلّمه منه . ومهما يَكُنْ مّنى إليه فى ذلك ، فإنما هو عقل مردود إلى عقله ، مستنبطة أواليه وتواليه من علمه وحكمته . وقد جلا إلىّ كتاب الملك ومخاطبته إيّاى ومسألته لى عمّا لا يتخالجنى الشكّ فى لقاح ذلك وإنتاجه من عنده، فمنه صَدَر وعليه ورَد ؛ وأنا فيما أشير به على الملك ـ وإن اجتهدت فيه واحتشدت له ، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة منّى فى استنظافه واستقصائه ـ كالعدم مع الوجود ، بل كما لا يتجزّأ فى جنب معظم الأشياء ، ولـكنّى غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل ، مع علمى ويقينى بعظيم غناه عنى ، وشدّة فاقتى إليه ، وأنا رادٌّ إلى الملك ما اكتسبتُه منه ، ومشير عليه بما أخذته منه فقائل له:

إنّ لـكل تربة لا محالة قَسْماً من الفضائل ، وإن لفارس قسمها من النَّجْدة والقوّة ، وإنّك إن تقتل أشرافهم تُخلِّف الوضعاء على أعقابهم ، وتورث سِفْلتهم على منازل عِلْيَتهم ، وتغلِّب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم يبتلَ الملوكُ قطّ ببلاء هو أعظمُ عليهم وأشدّ توهينا لسلطانهم من غلبة السِّفْلة ، وذلّ الوجوه ، فاحذر الحذر كله أنْ تمكّن تلك الطبقة من الغَلَبة والحركة ، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجمٌ دهمهم منه ما لا رويّة فيه ، ولا بقيّة معه ؛ فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمَد إلى مَنْ قبلك من أولئك العظماء والأحرار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كلّ مَنْ ولّيته منهم ناحيته ، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه ، فإن المتسمّى بالملك لازم لاسمه ، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره ، فليس ينشب (١) ذلك أن يوقع كلّ ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك ، وتفاخراً بالمال والجند ؛ حتى ينسوْا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك ، ويعود حربهم لك حرباً

(١) ا : «يلبث» .

بينهم ، وحنقهم عليك حنقاً منهم على أنفسهم ، ثم لا يزدادون فى ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة ؛ إن دنوتَ منهم دانوا لك ، وإن نأيتَ عنهم تعزّزوا بك ، حتى يثب مَنْ ملك منهم على جاره باسمك ، ويسترهبه بجندك ، وفى ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لإحداثهم بعدك ، وإن كان لا أمانَ للدهر ، ولا ثقة بالأيام .

قد أدّيتُ إلى الملك ما رأيتهُ لى حظا ، وعلىّ حقا ، من إجابتى إياه إلى ما سألنى عنه ، ومحّضتهُ النصيحة فيه ، والملكُ أعلى عيناً ، وأنفذُ رَوِيّةً ، وأفضل رأيا ، وأبعد هِمّة فيما استعان بى عليه ؛ وكلّفنى بتبيينه والمشورة عليه فيه . لا زال الملك متمرّفاً من عوائد النعم وعواقب الصنع ، وتوطيد الملك ، وتنفيس الأجل ، ودَرَك الأمل ، ما تأتى فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر !

والسلام الذى لا انقضاء له ، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

قالوا : فعمل الملك برأيه ، واستخلف على إران شهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس ، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده ؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أزدشير ابن بابك فانتزع الملك منهم .

***

الأصل :

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ . وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ

عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ .

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ، وَأَفْسِحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَالَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

* * *

الشَّرْحُ :

تمحكه الخصوم : تجعله ماحكا ، أى لجوجا ، محك الرّجل ، أى لجّ ، وماحك زيد عمرا ؛ أى لاجه .

قوله : « ولا يتمادى فى الزّلة » ، أى إن زلّ رجع وأناب ، والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل .

قوله : « ولا يحصَر من الفيء » هو المعنى الأول بعينه ، والفيء : الرجوع ، إلّا أنّ ها هنا زيادة ، وهو أنه لا يحصَر ، أى لا يعيا فى المنطق ، لأنّ مِن النّاس من إذا زلّ حصِر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعىّ خجلا .

قوله : « ولا تُشرِفُ نفسه » ، أى لا تشفق . والإشراف : الإشفاق والخوف ، وأنشد الليث :

ومِنْ مُضَرَ الحمراء إشراف أنفسٍ ... علينا وحيّاها علينا تمضّرا

وقال عروة بن أُذَيْنة :

لقد عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلقى أنّ الذى هو رزق سوفَ يأتينى[1]

والمعنى : ولا تشفق نفسه ، وتخاف من فوت المنافع والمرافق .

ثم قال : « ولا يكتفى بأدنى فهم » ، أى لا يكون قانعا بما يخطر له بادئ الرأى من أمر الخصوم ، بل يستقصى ويبحث أشدّ البحث .

قوله : « وأقلهم تبرُّما بمراجعة الخصم » ، أى تضجُّراً ، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام ، فإنّ القلق والضجر والتبرُّم قبيح ، وأقبح ما يكون من القاضى .

قوله : «وأصرمهم»، أى أقطعهم وأمضاهم . وازدهاه كذا ، أى استخفّه . والإطراء: المدح . والإغراء : التحريض .

ثم أمره أنْ يتطلّع على أحكامه وأقضيته ، وأن يفرض له عطاء واسعا يملأ عينه ، ويتعفّف به عن المرافق والرّشوات ، وأن يكون قريب المكان منه ، كثير الاختصاص به ليمنع قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده .

ثم قال :« إنّ هذا الدّين قد كان أسيرا »، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه ، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده ، بل بالهوى لطلب الدنيا .

وأما أصحابنا فيقولون : رحم الله عثمان ! فإنه كان ضعيفا ، واستولى عليه أهله ، قطعوا الأمور دونه ، فإثمهم عليهم وعثمان برىء منهم .

* * *

---

(١) اللسان (شرف) .

[فصل فى القضاة وما يلزمهم وذكر بعض نوادرهم]

قد جاء فى الحديث المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » . وجاء فى الحديث المرفوع أيضا : « من ابْتُلِيَ بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومجلسه ومقعده » .

دخل ابن شهاب على الوليد — أو سليمان — فقال له : يابنَ شهاب ، ما حديث يرويه أهل الشام؟ قال: ماهو ياأمير المؤمنين؟ قال: إنهم يروون أن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعيّة كتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات ، فقال : كذبوا يا أمير المؤمنين ، أيّما أقرب إلى الله ؛ نبيّ أم خليفة ! قال : بل نبيٌّ ؛ قال : فإنه تعالى يقول لنبيه داود : ﴿ يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عن سبيل الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١) ﴾ . فقال سليمان : إن الناس لَيَغُرُّونَنا عن ديننا .

وقال بكر بن عبد الله العَدَوِيّ لابن أرطاة — وأراد أن يستقضيَه : والله ما أحسِن القضاء ، فإن كنتُ صادقا لم يحلّ لك أن تستقضِيَ مَنْ لا يحسن ، وإن كنت كاذبا فقد فسقت ، والله لا يحلّ أن تستقضِيَ الفاسق .

وقال الزُّهرِيّ : ثلاث إذا كنّ فى القاضى فليس بقاضٍ ، أنْ يَكْرَهَ اللائمة ، ويحبّ المحمدة ، ويخاف العَزْل .

وقال محارب بن زياد للأعمش : ولِّيتُ القضاء فبكى أهلى ، فلمّا عُزِلت بكى أهْلِى ، فما أدرى مِمّ ذلك ؟ قال : لأنك ولِّيتَ القضاء وأنت تكرهه وتجزعُ منه ،

---

(١) سورة ص ٢٦ .

فبكى أهلك لجزعك ، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكى أهلك لجزعك . قال : صدقت .

أُتِيَ ابنُ شُبْرُمة بقوم يشهدون على قَراحِ(١) نخل، فشهدوا ـ وكانوا عدولا ـ فامتحنهم فقال : كم في القَراح(١) من نخلة ؟ قالوا : لا نعلم ، فردَّ شهادتهم ، فقال له أحدهم : أنت أيها القاضي تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنةً ، فأعْلِمْنا كم فيه من أسطوانة ؟ فسكت وأجازهم .

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقى الخيزران ، وقد أقبلتْ تريد الحجّ ، وقد كان استُقضي وهو كاره ، فأتى شاهي(٢) ، فأقام بها ثلاثا ، فلم توافِ ، فخفّ زادُه وما كان معه ، فجعل يبلّه بالماء ويأكله بالمِلح ، فقال العلاء بن المِنهال الغَنَوِيّ :

فإنَ كان الذى قد قلتَ حقّا ‌ ‌ ‌ بأن قد أكرهوكَ على القضاء(٣)
فما لَكَ مُوضِعا في كلّ يومٍ ‌ ‌ ‌ تلقّى مَنْ يَحُجّ من النساء
مُقيما في قُرى شاهي ثلاثا ‌ ‌ ‌ بلا زادٍ سوى كِسَرٍ وماء !

وتقدّمتْ كَلْثَم بنت سريع مولَى عَمرو بن حريث ـ وكانت جميلةً ـ وأخوها الوليد ابن سريع إلى عبد الملك بن عُمير ؛ وهو قاضٍ بالكوفة ، فقَضَى لها على أخيها ، فقال هُذَيل الأشجعي :

أتاه وليدٌ بالشهودِ يسوقُهمْ ‌ ‌ ‌ على ما ادَّعى من صامتِ المالِ والخوَلْ
وجاءت إليه كَلْثمٌ وكَلامُها ‌ ‌ ‌ شِفاءٌ من الدّاء المخامِر والخبَلْ
فأدلى وليدٌ عند ذاكَ بحقّه ‌ ‌ ‌ وكان وليدٌ ذَا مِراء وذا جَدَلْ
فدَلّهت القِبطيَّ حتى قضى لها ‌ ‌ ‌ بغير قضاء الله في مُحكَم الطّوَلْ

---

(١) القراح هنا : البستان ، وانظر ياقوت (قرح) . (٢) شاهي : موضع قرب القادسية .
(٣) الخبر والأبيات في معجم البلدان ٥ : ٢٢٤ .

فلو كان مَنْ فى القصر يَعلَمُ علمَه لما أُستعمل القِبطىّ فينا على عمَلْ
له حين يقضِى للنساء تخاوُصٌ وكان وما فيه التّخاوُصُ والحوَلْ
إذا ذاتُ دَلٍّ كلّمَتْه لحاجةٍ فهمّ بأن يَقضِى تَنحنَحَ أو سَعَلْ
وبرّق عينيه وَلَاكَ لسانَهُ يرى كلّ شيء ما خلا وَصْلِها جَلَلْ

وكان عبدُ الملك بن عمير يقول: لعن الله الأشجعىّ، والله لربّما جاءتنى السّعلة والتّنحنحة وأنا فى المتوضأ فأردّها لما شاعَ من شِعره.

كتب عمر بنُ الخطّاب إلى معاوية: أمّا بعد، فقد كتبتُ إليك فى القضاء بكتاب لم آلُكَ ونفسِى فيه خيراً؛ الزَم خمسَ خِصال يَسلمْ لك دينك، وتأخذْ بأفضل حظّك: إذا تقدّم إليك الخصمان فمليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وأَدْنِ الضّعيف حتى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانُه، وتعهّد الغريبَ فإنّك إن لم تتعهده تَرَكَ حقّه ورجع إلى أهله؛ وإنّما ضيّع حقه من لم يُرفَقْ به، وآسِ بين الخصوم فى لحظك ولفظك، وعليك بالصّلح بين الناس ما لم يَستَبِن لك فصل القضاء.

وكتب عمر إلى شُريح: لا تسارِر ولا تُضارِرْ، ولا تَبِع ولا تَبتَع فى مجلس القضاء، ولا تَقْضِ وأنتَ غضبانُ، ولا شديدُ الجوع، ولا مشغولُ القلب.

شهد رجل عند سوّار القاضى، فقال: ما صناعتُك؟ فقال: مؤدِّب؛ قال: أنا لا أجيز شهادتَك؛ قال: ولم؟ قال: لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجرا، قال: وأنت أيضا تأخذ على القضاء بين المسلمين أجرا، قال: إنّهم أكرَهونى؛ قال: نعم أكرهوك على القضاء، فهل أكرَهوك على أخذ الأجر! قال: هلمّ شهادتَك.

ودخل أبو دُلامَة ليشهَد عند أبى ليلَى، فقال حين جلس بين يديه:

إذا الناسُ غطّونى تغطّيتُ عنهمُ وإن بحثوا عنّى ففيهم مَباحِثُ (١)

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٣٤، وفيه «إن الناس».

وإن حَفَروا بِئْرى حفرتُ بِئارَهمْ ليعلم ما تُخفيــه تلك النَّبائثُ

فقال : بل نعطّيك يا أبا دُلامة ولا نبحثك ؛ وصرَفَـه راضيا، وأعطى المشهود عليه من عندِه قيمةَ ذلك الشيء .

كان عامرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانىّ حاكمَ العرب وقاضيَها ، فنزل بهقوم يسيفتونه فى الخنثى وميراثه ؛ فلم يدرِ ما يَقضِى فيه ، وكان له جارية اسمُها خصيلة ، ربّما لامها فى الإبطاء عن الرَّعى وفى الشىء يجدُه عليها ، فقال لهـا : يا خُصَيلة ، لقد أسرعَ هؤلاء القومُ فى غنمى ، وأطالوا المكث ؛ قالت : وما يَكبُرُ عليك من ذلك ؟ اتبعهْ مَبالَه وخلاكَ ذمّ ، فقال لها : «مَسِّى (١) خُصَيلُ بعدَها أو رُوحى ».

وقال أعرابىّ لقوم يتنازعون : هـل لـكم فى الحقّ أو ما هو خير من الحقّ ؟ قيل : وما الّذى هو خيرٌ من الحقّ ؟ قال: التحاطّ والهَضْم ؛ فإنّ أخذ الحقّ كلّه مرّ .

وعزل عمرُ بنُ عبد العزيز بعضَ قُضاته ، فقال : لم عزلْتَنى ؟ فقال : بلغنى أنَّ كلامك أكثرُ من كلام الخصْمين إذا تحاكَمَا إليك .

ودخل إياسُ بنُ معاويةَ الشام وهو غلام، فقدّم خَصْما إلى باب القاضى فى أيّام عبد الملك ، فقال القاضى : أما تَستَحيِى ! تُخاصم وأنت غلامٌ شيخاً كبيرا ؟ فقال : الحقّ أكبرُ منه ، فقال : اسكتْ وَيْحَك ! قال : فمن ينطق بحجّتى إذاً ! قال : ما أظنّك تقول اليوم حقّاحتى تقوم ؛ فقال : لا إلـه إلّا الله . فقام القاضى ودخل على عبـدِ الملك وأخبرَه ، فقال : اقض حاجتَه وأخرجْه من الشام كى لا يُفسِد علينا الناس .

واُختصم أعرابىّ وحَضَرِىّ إلى قاضٍ ، فقال الأعرابىّ : أيّها القاضى ، إنه وإن هَمْلَجَ (٢) إلى الباطل ، فإنه عن الحق لَمطُوف .

وردّ رجلٌ جاريةً على رَجل اشتراها منه بالُحمْق ، فترافعَا إلى إياسِ بنِ معـاوية ،

---

(١) فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٩٥ «مسّى سخيل بعدها أو صبّحى». (٢) هملج : أسرع .

فقال لها إياس : أىّ رِجْليكِ أطوَل ؟ فقالت : هذه ، فقال: أتذكرين ليلَة ولدتْك أمّك ؟ قالت : نعم ، فقال إياس : ردّ ردّ !

وجاء فى الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر : « لا قدّستْ أمّــةٌ لا يُقضَى فيها بالحقّ » ؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبى هريرة : « ليس أحدٌ يحكُم بين الناس إلاّ جِىءَ به يومَ القيامة مغلولةٌ يداه إلى عُنقِه ، فكّه العَدْل ، وأسلَمه الجور » .

واُستعدى رجلٌ على علىّ بن أبى طالب عليه السلام عمرَ بنَ الخطّاب رضى الله عنه وعلىٌّ جالس ، فالتفت عمرُ إليه ، فقال : قم يا أبا الحسن فاجلس مع خَصْمك ، فقام فجلس معه وتناظرا ؛ ثمّ اُنصرف الرّجل ورجع علىّ عليه السلام إلى محلّه ، فتبيّن عمر التغيّر فى وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ، مالى أراك متغيّراً ! أكرهتَ ما كان ؟ قال : نعم ، قال : وماذاك ؟ قال : كنّيتنى بحضرة خَصْمى ، هلّا قلتَ : قم ياعلىّ فاُجلس مع خَصْمك ! فاعتنق عمرُ عليّا ، وجعل يقبّل وجهَه ، وقال بأبى أنتم ! بِكم هدانا الله ، وبِكم أخرجَنا من الظُّلْمة إلى النور .

أبان بنُ عبدِ الحميد اللّاحقىّ فى سوّار بن عبد الله القاضى :

لا تَقدَح الظِّنّةُ فى حُكْمِهِ   شيمتهُ عــدلٌ وإنصافُ
يَمضِى إذا لم تَلقَهُ شُبهــةٌ   وفى اُعتراض الشكّ وَقّافُ

كان ببغداد رجلٌ يُذكَر بالصّلاح والزهد يقال له رُوَيم ، فوُلِّىَ القضاء ، فقال الُجنيد: مَنْ أراد أن يستَوْدع سرّه من لا يفشيه فعليه برُوَيم ، فإنّه كتم حبّ الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها .

الأشهب الكوفىّ :

يا أهلَ بغدَاد قد قامت قيامتُكمْ   مذ صار قاضِيكُمُ نوحَ بن دَرّاجِ
لو كان حيّاً له الحجّاجُ ما سلِمتْ   صحيحةٌ يــده من وَسْم حَجّاجِ

وكان الحجّاج يسم أيدى النّبط بالمشراط والنّيل .

لمّا وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شُرَيْحٌ القضاء وقال : لا أقضِي فى الفتنة ؛ فبقى لا يَقضِي تسعَ سنين، ثم عاد إلى القضاء وقد كَبِرتْ سنّه ، فاعترضه رجل وقد انصرف من مجلس القضاء ، فقال له : أما حان لك أن تخافَ الله ! كَبِرتْ سنّك ، وفسَدَ ذِهْنُك ، وصارت الأمورُ تجوز عليك ، فقال : والله لا يقولُها بعدَكَ لى أحدٌ . فلزم بيته حتى مات .

قيل لأبى قِلابة وقد هرَب من القضاء : لو أجبتَ ؟ قال : أخاف الهلاكَ ، قيل : لو اجتهدتَ لم يكن عليكَ بأسٌ ؟ قال : وَيْحَكم ! إذا وقع السابح فى البحر كم عسى أن يَسْبَح !

دعا رجلٌ لسليمان الشّاذَكونىّ ، فقال : أرانيكَ اللهُ يا أبا أيّوبَ على قضاء إصبهان ! قال : وَيْحك ! إنْ كان ولابدّ فعَلَى خَراجِها ، فإنّ أخذَ أموال الأغنياء أسهلُ مِن أخذِ أموال الأيتام .

ارتفعتْ جميلةُ بنتُ عيسى بن جراد ـ وكانت جميلةً كاسمها ـ مع خصم لها إلى الشّعبيّ ـ وهو قاضى عبدِ الملك ـ فقضَى لها ، فقال هُذَيل الأشجعىّ :

فُتِنَ الشعبيُّ لمّا رفَعَ الطَّرفَ إليها
فتنتْه ببَنانٍ ها وقَوْسَىْ حاجبَيْها
ومَشَتْ مشياً رُوَيداً ثم هزّت منكِبَيْها
فقضَى جَوْراً على الخصْـ ـمِ ولم يَقضِ عليها

فقبض الشّعبيّ عليه وضربه ثلاثين سوطا .

قال ابنُ أبى ليلَى : ثم انصرف الشعبيّ يوما من مجلس القضاء وقد شاعت الأبيات

وتَناشَدها الناسُ ، ونحن معه ، فمررْنا بخادمٍ تغسل الثياب ، وتقول :

* فُتِن الشعبيُّ لمّا *

ولا تحفظ تتمّة البيت ، فوقف عليها ولقّنها ، وقال :

* رفَع الطَّرْفَ إليها *

ثمّ ضحك وقال : أبعدَه الله ! واللهِ ما قضينا (١) لها إلّا بالحقّ .

جاءت امرأة إلى قاضٍ فقالت : مات بَعْلى وترَك أبوَيْن وابنا وبنى عمّ ، فقال القاضى : لأبوَيْه الثُّكْل ، ولابنه اليُتْم ، ولك اللّائمة ، ولبنى عمّه الذّلّة ، واحمِلِى المال إلينا إلى أن ترتفِع الخصوم !

لقى سُفْيان الثورىُّ شريكا بعد ما استُقضِيَ ، فقال له يا أبا عبد الله ، بعد الإسلام والفِقه والصلاح تَلِي القضاء ! قال : يا أبا عبدِ الله ، فهل للنّاس بدٌّ من قاض ! قال : ولا بدّ يا أبا عبدِ الله للنّاس من شُرَطِيّ .

وكان الحسنُ بنُ صالح بن حيّ يقول لمّا ولِّيَ شَريك القضاء : أيَّ شَيْخ أفسَدوا !

قال أبو ذَرّ رضي الله عنه : قال لى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : يا أبا ذَرّ، اعقِل (٢) ماأقولُ لك ؛ جعلَ يردّدها علىّ ستّة أيام ، ثم قال لى فى اليوم السابع: أوصيك بتقوى الله فى سَرِيرَتك وعلانِيَتك ، وإذا أسأتَ فأحسن ، ولا تسألنّ أحداً شيئا ولو سَقَط سوطُك ، ولا تتقلدنّ أمانةً ، ولا تلِين وِلاية ، ولا تكفلنّ يتيما ، ولا تقضينّ بين اثنين » .

أراد عثمانُ بنُ عفّانَ أن يستقضيَ عبدَ الله بن عمر ، فقال له : ألستَ قد سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول : « من استعاذ بالله فقد عاذَ بمَعاذ ! » ، قال : بلى ، قال: فإنّى أعوذ بالله منك أن تستقضِيَنى .

---

(١) ا ، د : « قضيت » ، وأثبت ما فى د . (٢) فى د : « افعل » .

وقد ذكر الفقهاء فى آداب القاضى[1] أمورا، قالوا: لا يجوز أن يقبل هديّةً فى أيّام القضاء إلّا ممّن كانت له عادة يهدى إليه قبل أيام القضاء ، ولا يجوز قبولهـا فى أيّام القضاء ممّن له حكومة وخصومة ، وإن كان ممّن له عادة قديمة ، وكذلك إن كانت الهديّة أنفَسَ وأرفَعَ ممّا كانت قبل أيّام القضاء لا يجوز قبولُها . ويجوز أن يحضر القاضى الولائمَ ، ولا يحضر عند قوم دون قوم ؛ لأنّ التخصيصَ يشعِر بالمَيْل ، ويجوز أن يعودَ المرضَى ، ويَشهدَ الجنائزَ ، ويأتى مقدم الغائب . ويكره له مباشرة البيع والشراء . ولا يجـوز أن يَقضيَ وهو غَضْبان ولا جائع ولا عَطشْان ، ولا فى حال الحزن الشديد ، ولا الفرح الشديد ، ولا يقضى والنّعاس يَغلِبه ، والمَرض يُقلِقه ، ولا وهو يدافع الأخبَثَين ، ولا فى حَرٍّ مُزْعِج ، ولا فى بَرْد مزعِج. وينبغى أن يجلس للحُكم فى موضع بارز يصل إليـه كلّ أحد ، ولا يحتجب إلّا لعذر . ويُستحَبّ أن يكون مجلسُه فسيحا لا يتأذّى بذلك هو أيضـا . ويكره الجلوس فى المساجد للقضاء ، فإن احتـاج إلى وكلاء جاز أن يتخذهم ويوصيهم بالرفق بالخصوم . ويستحبّ أن يكون له حَبْس ، وأن يتخذ كاتبا إن احتاج إليه ؛ ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يَكتُب به عن القضاء .

واُختُلف فى جوازِ كونه ذِمّيًا ؛ والأظهرَ أنه لا يجوز . ولا يجـوز أن يكون كاتبُه فاسقا ، ولا يجوز أن يكون الشهودُ عنـده قوماً معيّنين ، بل الشهادة عامّة فيمن اُستـكمل شروطَها .

* * *

الأصْـلُ :

ثُمَّ انْظُرْ فِى أُمُورِ عُمَّالِكَ ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اُخْتِيَارًا ، وَلَا تُوَلِّـهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً ، فَإِنَّـهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ . وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِى الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً ، وَأَقَلُّ فِى الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا ، وَأَبْلَغُ فِى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا .

---

(١) كذا فى ا ، د وهو الصواب وفى ب : « القضاء » .

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

* * *

الشَّرْحُ :

لمّا فرغ عليه السلام من أمر القضاء، شرع فى أمر العمّال، وهم عمّال السواد والصَّدَقات والوقوف والمصالح وغيرها، فأمره أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربتهم، وألّا يولّيهم محاباةً لهم، ولمن يشفع فيهم، ولا أثرةً ولا إنعامًا عليهم.

كان أبو الحسن بنُ الفُرات يقول: الأعمال للكُفاةِ من أصحابنا، وقضاء الحقوق على خواصّ أموالنا.

وكان يحيى بن خالد يقول: مَنْ تسبّب إلينا بشفاعة فى عمل، فقد حلّ عندنا محلّ مَنْ ينهض بغيره، ومَنْ لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلا.

ووقّع جعفر بن يحيى فى رُقعةٍ متحرّم به: هذا فتًى له حُرْمة الأمل، فامتحنه بالعمل؛ فإن كان كافيا فالسلطان له دوننا، وإن لم يكن كافيا فنحن له دون السلطان.

ثم قال عليه السلام: « فإنهما — يعنى استعمالهم للمحاباة والأثَرة — جماع من شُعَب الجوْر والخيانة ». وقد تقدّم شرح مثل هذه اللفظة، والمعنى أن ذلك يجمع ضروبا من الجوْر والخيانة. أمّا الجوْر فإنه يكون قد عدل عن المستحق إلى غير المستحقّ ففى ذلك جَوْر على المستحقّ،

وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضى تقليدَ الأعمالِ الأكفاء ؛ فمن لم يعتمد ذلك فقد خان مَنْ ولّاه .

ثم أمره بتخيّر مَنْ قد جرّب ؛ ومَنْ هو من أهل البيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشيء والخوف من فواته .

ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم ؛ فإنّ الجائع لا أمانةَ له ؛ ولأنّ الحجّة تكون لازمةً لهم إن خانوا ، لأنهم قد كُفُوا مؤنة أنفسِهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق[1] .

ثم أمره بالتطلّع عليهم وإذكاء[2] العيون والأرصادِ على حركاتهم .

وحدوة باعث ، يقال : حدانى هذا الأمر حَدْوةً على كذا ؛ وأصله سَوْق الإبل ، ويقال للشَّمْأل حَدْواء ؛ لأنّها تسوق السحاب .

ثم أمره بمؤاخذة من ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه ؛ وقد صنع عمر كثيرا من ذلك ؛ وذكرناه فيما تقدّم .

قال بعض الأكاسرة لعامل من عمّاله : كيف نومُك بالليل ؟ قال : أنامُه كلّه ، قال : أحسنت ! لو سرقت ما نمت هذا النوم .

***

الأصلُ :

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ .

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ

---

(١) فى د « الرزق » .   (٢) فى ا ، د « وبث » .

الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً ، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ ، أَوْ بَالَّةٍ ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ؛ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ .

وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ ؛ مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ؛ مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَاعِكَ لَهُمْ ؛ وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ ؛ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ ؛ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ .

***

الشَّرْحُ :

انتقل عليه السلام من ذكر العمّال إلى ذكر أرباب الخراج ودهاقين السّواد ، فقال : تفقّد أمرهم ، فإنّ النّاس عيال عليهم ؛ وكان يقال : استوصُوا بأهل الخراج ؛ فإنّكم لا تزالون سماناً ما سَمِنُوا .

ورُفع إلى أنوشِرْوان أنّ عامل الأهواز قد حمل من مال الخراج ما يزيد على العادة ؛ وربما يكون ذلك قد أجحف بالرّعية ، فوقّع : يُرَدّ هذا المال على من قد استوفى منه ؛ فإنّ تكثيرَ المَلِك ماله بأموال رعيّته بمنزلة مَنْ يحصّن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه .

وكان على خاتَم أنوشِرْوان : لا يكون عُمرانٌ ، حيث يجور السلطان .

وروى : « استحلاب الخراج » بالحاء .

ثم قال : « فإن شكَوْا ثِقْلًا » ، أى ثقل طَسْق(١) الخراج المضروب عليهم ، أو ثقل وطأة العامل .

قال:« أو علّة » ، نحو أن يصيب الغلّةَ آفة كالجراد والبرق أو البرد .

قال: « أو انقطاع شِرْب »(٢)، بأن ينقُص الماء فى النهر ، أو تتعلق أرض الشّرب عنه لفقد الحفْر .

قال : « أو بالّة » ، يعنى المطر .

قال : « أو إحالة أرض اغتمرها غرق » ، يعنى أو كوْن الأرض قد حالت ، ولم يحصل منها ارتفاع ؛ لأنّ الغرق غمرها وأفسد زرْعها .

قال : « أو أجْحف بها عطش » ، أى أتلفها .

فإن قلت : فهذا هو انقطاع الشّرب ؟

قلت : لا ، قد يكون الشّرب غير منقطع ، ومع ذلك يُجحِف بها العطش ، بأن لا يكفيها الماء الموجود فى الشِّرب .

ثم أمره أن يخفّف عنهم مَتى لحقهم شىء من ذلك ؛ فإنّ التخفيف يُصْلح أمورهم ، وهو وإن كان يُدْخِل على المال نقصاً فى العاجل إلّا أنه يقتضى(٣) توفير زيادة فى الآجل ؛ فهو بمنزلة التجارة التى لا بدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه .

---

(١) فى اللسان عن التهذيب : « الطسق شبه الخراج له مقدار معلوم ؛ وليس بعربى خالص » .

(٢) الشرب بالكسر : النصيب من الماء .

(٣) فى د « يفضى إلى » .

قال : « ومـــع ذلك فإنه يفضى إلى تزيين بلادك بعمارتهـا ، وإلى أنك تبجح بين الولاة بإفاضة العدل فى رعيّتك معتمداً فَضْلَ قوّتهم » ؛ و« معتمداً » ، منصوب على الحال من الضّمير فى « خفّفت » الأولى ، أى خَفّفت عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قوّتهم .

والإجمام : الترفيه .

ثم قال له : وربما احتجتَ فيما بعـــد إلى تـكلّفهم بحادث يحـــدُث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضاً أو معونة محضة ؛ فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك ، طيّبة قلوبُهم[1] به .

ثم قال عليــه السلام : فإن العمران محتمل ما حمّلته .

سمعت أبا محمــد بن خُليـــد ـ وكان صاحب ديوان الخراج فى أيام الناصر لدين الله ـ يقول لمن قال له : قد قيل عنك : إنّ واسط والبَصْرة قد خربت لشدّة العُنف بأهلها فى تحصيل الأموال ! فقال أبو محمد : ما دام هذا الشطّ بحاله ، والنّخْل نابتا فى منابته بحاله ، ما تخرب واسط والبصرة أبدا .

ثم قال عليــه السلام : « إنما تُؤْتَى الأرض » ، أى إنما تُدْهَى من إعواز أهلهـــا ، أى من فقرهم .

قال : والموجب لإعوازهم طمعُ ولاتهم فى الجباية وجمع الأموال لأنفُسهم ولسلطانهم وسوء ظنّهم بالبقاء يحتمل أن يريد به أنهم يظنّون طول البقاء وينسَوْن الموتَ والزوال .

ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيّلون العَزْل والصرف ، فينتهزون الفرص ، ويقتطعون الأموال، ولا ينظرون فى عِمارة البلاد .

* * *

---

(١) فى د « نفوسهم » .

[عهد سابور بن أردشير لابنه]

وقد وجدت فى عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذاالعهد ؛ وهو قوله :

واعلم أنّ قِوام أمرك بدُرور الخراج ، ودُرور الخراج بعمارة البلاد ، وبلوغ الغايةفى ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم ، والمعونة لهم ؛ فإنّ بعض الأمور لبعضٍ سبب ، وعوامّ الناس لخواصّهم عـدّة ، وبكلّ صنف منهم إلى الآخر حاجة ، فاختر لذلك أفضلَ مَنْ تقدر عليه من كُتّابك ، وليكونوا من أهل البَصَر والعفاف والـكفاية ، واسترسل إلى كلّ امرىءٍ منهم شخصا [1] يضطلع به ويمـكنه تعجيلُ الفراغ منه ؛ فإن اطّلعت على أنّ أحدا منهم خان أو تعدّى فنكِّلْ به ، وبالغ فى عقوبته ؛ واحذر أن تستعمل على الأرض الـكثيرِ خراجها إلاالبعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة . ولاتولينّ أحداً من قواد جندك الذين هم عُدّه للحرب ، وجُنّة من الأعداء ، شيئاً من أمر الخراج ؛ فلعلك تَهْجُم من بعضهم على خيانة فى المـال ، أوتضييع للعمل ؛ فإن سوّغته المـال ، وأغضيت له على التّضييع ، كان ذلك هلاكا وإضرارا بك وبرعيّتك ، وداعيةً إلى فساد غيره ؛ وإنْ أنت كافأته فقد استفسدته ، وأضَقْت [2] صدره ، وهذا أمر توقّيه حزم ، والإقدام عليه خُرْق ، والتقصير فيه عَجْز .

واعلم أن من أهل الخراج مَنْ يلجىءُ بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك وبطانته ؛ لأحد أمرين ؛ أنت حرىّ بكراهتهما : إمّا لامتناع من جَوْر العمال وظلم الولاة ؛ وتلك منزلة يظهر بهـا سوء أثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، وإما للدفع عمّـا يلزمهم

---

(١) فى د « شقصا » . (٢) فى د « وأضغنت » .

من الحقّ والتيسّر له ، وهـــذه خَلّة تَفسُد بها آداب الرعيّة ، وتُنتقص بها أموال الملك ، فاحذر ذلك ، وعاقب الملتجئين والملجأ إليهم .

***

ركب زياد يوما بالسُّوس يطوف بالضياع والزروع ، فرأى عمارة حسنة ، فتعجّب منها ، فخاف أهلها أن يزيد فى خراجهم ، فلما نزل دعا وجوه البلد ، وقال : بارك الله عليكم ، فقد أحسنتم العمارة ، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم . ثم قال : ما توفّر علىّ من تهالك غيرهم على العمارة وأمنهم جَوْرى أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن ؛ والذى وضعته بقدر ما يحصل من ذاك ، وثواب عموم العمارة وأمن الرعيّة أفضل رِبْح .

***

الأصـلُ :

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ ؛ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ ، بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأٍ . وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْدًا اعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ .

ثُمَّ لَا يَكُنْ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ ،

فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ؛ وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ ، وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ .

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ ؛ لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا ، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ؛ وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ .

***

[فصل فيما يجب على مصاحب الملك]

الشَّرْحُ :

لما فرغ من أمر الخراج ، شرع في أمر[1] الكتّاب الذين يلون أمر الحضرة ، ويترسّلون عنه إلى عمّاله وأمرائه ، وإليهم معاقد التدبير وأمرُ الديوان ، فأمره أن يتخيّر الصالح منهم ، ومَنْ يوثق على الاطلاع على الأسرار والمكايد والحِيَل والتدبيرات ، ومن لا يُبطِره الإكرام والتقريب ، فيطمعَ فيجترئَ على مخالفته فى مَلَإٍ من الناس والردّ عليه ، ففى ذلك من الوَهَن للأمير وسوء الأدب الذى انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به .

قال الرشيد للكسائىّ : يا علىّ بن حمزة ، قد أحللْناك المحلّ الذى لم تكن تبلغه همّتك ، فروّنا من الأشعار أعفّها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرْنا بآداب الفُرْس والهند ، ولا تُسرِع علينا الردّ فى ملإٍ ، ولا تترك تثقيفنا فى خلاء .

وفى آداب ابن المقفّع : لا تكوننّ صحبتك للسلطان إلّا بعد رياضةٍ منك لنفسك على

(١) فى د « ذكر » .

طاعتهم فى المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك ، فإن كنتَ حافظا إذا ولّوك . حذِراً إذا قرّبوك ، أمينا إذا ائتمنوك ، تعلّمهم وكأنّك تتعلّم منهم ، وتأدّبهم وكأنك تتأدّب بهم ، وتَشكُر لهم ولا تكلّفهم الشكر ؛ ذليلا إن صَرَموك ، راضيا إن أسخطوك ، وإلا فالبعد منهم كل البعد ، والحذَرمنهم كلّ الحذر . وإن وجدتَ عن السلطان وصحبته غِنًى فاستغنِ عنه ، فإنه من يخدُم السلطانَ حقّ خدمته يخلّى بينه وبين لذة الدنيا وعمل الأخرى ، ومَنْ يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وِزْر الآخرة ، وعرّض نفسه للهلكة والفضيحة فى الدنيا . فإذا صحبتَ السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال ، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام المَلَق ، ولا تُكثِرْ له من الدّعاء ، ولا تردّنّ عليه كلاما فى حفْل وإن أخطأ ، فإذا خلوتَ به فبصّره فى رفق ، ولا يكوننّ طلبك ما عنده بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولا تخبرنَّهُ أنّ لك عليه حقّا ، وأنّك تعتمد عليه ببلاء ، وإن استطعت ألّا تنسى حقّك وبلاءك بتجديد النصح والاجتهاد فافعل ، ولا تعطينّه المجهود كلّه من نفسك فى أوّل صحبتك له ، وأعدّ موضعا للمزيد . وإذا سأل غيرَك عن شيء فلا تكن المجيبَ .

واعلم أنّ استلابك الكلامَ خفّة فيك واستخفافٌ منك بالسائل والمسئول ، فما أنت قائل إن قال لك السائل : ماإيّاكَ سألتُ ؟ أو قال المسئول : أجب بمجالسته ومحادثته أيّها المعجب بنفسه ، والمستخفّ بسلطانه .

وقال عبدُ الملك بنُ صالح لمؤدّبِ ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحادثته : يا عبدَ الله ، كُن على التماس الحظّ فيك بالسّكوت أحرصَ منك على التماسه بالكلام ، فإنّهم قالوا : إذا أعجبك الكلامُ فاصمُت ، وإذا أعجبك الصّمتُ فتكلّم . واعلم أن أصعب الملوك معاملةً الجبّارُ الفَطِن المتفقّد ، فإنَ ابتُليتَ بصحبته فاحترس ، وإن عُوفيت فاشكر الله على السّلامة ، فإنّ السلامة أصل كلّ نعمة . لا تساعدنى على ما يقبُح بى ، ولا تردّنّ على

خطأ فى مجلس ، ولا تــكلّفــنى جوابَ التشميت والتهنئة، ودع عنك : كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسَى ! وكلّمنى بقدر ما أستنطِقك ، واجعل بدَل التقريظ لى صوابَ الاستماع منّى . واعلم أنّ صواب الاستماع أحسنُ من صواب القول ، فإذا سمعتَنى أتحــدّث فلا يفوتنّك منه شىء ، وأرِنى فهمَك إيّاه فى طَرْفِك ووجهِك ، فــما ظنّك بالمَلِك وقد أحلّك محلّ المعجب بما يسمعك إيّاه ، وأحللتَه محلّ من لا يسمع منه ! وكلٌّ من هذا يُحبِط إحسانَك ، ويُسقِط حقَّ حُرمتك ، ولا تستــدعِ الزيادة من كلامى بما تُظهر من استحسان ما يكون منّى ، فمن أسوأ حالا ممّن يستكدّ الملوكَ بالباطل ، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجَب الله تعالى من حقّهم . واعلم أنّى جعلتك مؤدّبا ، بعــد أن كنتَ معلّما ، وجعلتك جليسا مقرّبا بعد أن كنتَ مع الصّبيان مباعــدا ، فمتى لم تعرف نقصــانَ ما خرجتَ منه ، لم تعرفْ رُجْحانَ ما دخلتَ فيه ، وقد قالوا : من لم يعرف سوء ما أَوْلى ، لم يَعرِف حُسن ما أَبْلَى .

* * *

ثمّ قال عليه السلام : وليــكن كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عمّالك عليك ، والإجابة عنها حسن الوَكالة والنيــابةِ عنك فيما يحتجّ به لك عليهم من مكتوباتهم ، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة ، فإن عَقَد لك عقدا قوّاه وأحكَمه ، وإن عَقد عليك عقدا اجتهد فى نقضِه وحَلِّـه . قال : وأن يكون عارفا بنفسه ، فمن لم يعرف قدرَ نفسِه لم يَعرِف قدرَ غيرِه .

ثمّ نهاه أن يكون مستنَد اختيارِه لهؤلاء فِراستُه فيهم ، وغلبةُ ظنّــه بأحوالهم ، فإن التّدليس يتمّ فى ذلك كثيرا ، وما زال الــكتّاب يتصنّعون للأمراء بحُسن الظاهر ، وليس وراء ذلك كثير طائل فى النصيحة والمعرفة ، ولــكن ينبغى أن يرجع فى ذلك إلى ما حكمتْ

به التجربةُ لهم ، وما وُلّوه من قبل، فإن كانت ولايتهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم ، وإلّا فلا ، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة ، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروب من التصنّع، وروى: « يتعرّضون » .

ثم أمَرَه أن يقسم فنونَ الكتابة وضروبَها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء ، والآخر لأجوبة عمّال السواد ، والآخر بحضرة الأمير فى خاصّته وداره، وحاشيته وثقاته .

ثم ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابَى عنه ، ويتغافل من عيوب كتّابه ، فإن الدين لا يبيح الإغضاءَ والغفلةَ عن الأعوان والخَوَل ، ويوجب التطلّع عليهم .

***

[فصل فى الكتّاب وما يلزمهم من الآداب]

واعلم أنّ الكاتب الذى يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذى يسمى الآن فى الاصطلاح العُرْفىّ وزيرا ، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنائب عنه فى أموره ، وإليه تصل مكتوباتُ العمّال وعنه تصدر الأجوبة ، وإليه العَرْض على الأمير ، وهو المستدرِك على العمّال ، والمهيمِن عليهم ، وهو على الحقيقة كاتبُ الكتّاب ، ولهذا يسمّونه : الكاتب المطلَق.

وكان يقال : للكاتب على الملك ثلاث : رفعُ الحجاب عنه ، واتّهام الوُشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

وكان يقال : صاحبُ السلطان نصفُه ، وكاتبُه كُلُّه . وينبغى لصاحب الشرْطة أن يطيل الجلوس ، ويديمَ العُبوس ، ويستخفّ بالشفاعات .

وكان يقال : إذا كان الملك ضعيفا ، والوزيرُ شَرِهاً ، والقاضي جائرا ، فرّقوا المُلك شَعاعا .

وكان يقال : لا تخَفْ صولةَ الأمير مع رِضا الكاتب ، ولا تثقنّ برضا الأمير مع سُخْط الكاتب ، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بنُ العميد فقال :

وزعمتَ أنّك لست تُفكِر بعد ما ... عَلِقتْ يداك بذِمّـة الأمراء

هيهاتَ قد كذَبَتْك فكرتُك التي ... قد أوهمتْك غِنًى عن الوزراء

لم تُغنِ عن أحدٍ سماءٌ لم تجد ... أرضًا ولا أرضٌ بغير سماء

وكان يقال : إذا لم يُشرِف المَلِك على أموره ، صار أغشّ الناس إليه وزيرُه

وكان يقال : ليس الحرب الغشومُ بأسرعَ في اُجتياح[1] المُلْك من تضييع مراتب الكتّاب حتّى يصيبها أهل النّذالة ، ويزهدَ فيها أولو الفضْل .

* * *

[فصل في ذكر ما نصحتْ به الأوائلُ الوزراء]

وكان يقال : لا شيء أذهبُ بالدّوَل من اُستكفاء المَلِك الأسرار .

وكان يقال : مِن سعادة جِدّ المرء ألّا يكون في الزّمان المختلط وزيرا للسلطان .

وكان يقال : كما أنّ أشجع الرّجال يحتاج إلى السّلاح ، وأسبَقَ الخيل يحتاج إلى السّوط ، وأحدَّ الشِّفار يحتاج إلى المِسَنّ ، كذلك أحزم الملوك وأعقلُهم يحتاج إلى الوزير الصالح .

وكان يقال : صلاحُ الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء ،

---

(١) اجتياح الملك: الذهاب به .

وكما لا يَصْلُح الملك إلّا بمن يستحقّ الملك ، كذلك لا تَصلُح الوَزارة إلّا بمن يستحقّ الوَزارة .

وكان يقال : الوزير الصالح لا يرى أنّ صلاحه فى نفسه كائن صلاحا حتّى يتّصل بصلاح الملِك وصلاح رعيّته ، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته ، وفيما استعطف قلوب الرعيّة والعامة على الطاعة للملك ، وفيما فيه قِوام أمر المُلْك من التدبير الحَسَن ، حتّى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن . وإذا طرقت الحوادثُ ، كان للمَلِك عُدّةً وعتادا ، وللرعيّة كافيا محتاطا ، ومن ورائها محاميا ذابًّا ، يعنيه من صلاحها مالا يعنيه من صلاح نفسِه دونَها .

وكان يقال : مَثَل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسدا مَثَلُ الماء العذب الصافى وفيه التمساح ، لا يستطيع الإنسان ـ وإن كان سابحا ، وإلى الماء ظامئا ـ دخوله ، حذرا على نفسه .

قال عمر بنُ عبد العزيز لمحمد بن كعب القُرَظىّ حين استُخلِف : لو كنتَ كاتبي وردْءا لى على ما دُفعت إليه ! قال : لا أفعل ، ولكنّى سأرشدك ؛ أسرِع الاستماع ، وأبطىء فى التصديق حتى يأتيَك واضحُ البرهان ، ولا تعملن ثبجتك فيما تكتفى فيه بلسانك ، ولا سوطك فيما تكتفى فيه بثبجتك ، ولا سيفك فيما تكتفى فيه بسوطك .

وكان يقال : التقاط الكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان .

وقال أبرويز لكاتبه : اكتُم السرّ ، واصدُق الحديث ، واجتهد فى النصيحة ، وعليك بالحَذَر ؛ فإنّ لك علىّ ألّا أعجّل عليك حتى أستأنىَ لك ، ولا أقبل فيك قولاً حتّى أستيقنَ ، ولا أُطْمِعُ فيك أحدا فتُغتال ؛ واعلم أنّك بمَنجاةٍ(١) رفعة فلا تحطّنّها ، وفى

(١) المنجاة : ما ارتفع من الأرض .

ظلّ مملكتِهِ فلا تستَزِيلنّه . قارِب الناس مجاملةً من نفسك، وباعدْهم مسامحةً عن عدوّك ، واقصِد إلى الجميـــل ازدراعا لغَدِك ، وتنزّه بالعفاف صوْنا لمرُوءتك ، وتحسن عندى بما قدرت عليه . احذر لا تُسرِعَنّ الألسنةَ عليك ، ولا تقبّحنّ الأحدوثة عنك، وصُن نفسَك صونَ الدُّرّة الصافية ، وأخلِصها إخلاصَ الفِضّة البيضاء ، وعاتبها معاتبة الحـذِر المُشفِق ، وحصّنها تحصينَ المدينة المنيعة . لا تدَعنّ أن ترفع إلىّ الصغيرَ فإنّه يدلّ على[1] الـكبير ، ولا تـكتمنّ عـنّى الـكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير . هذِّب أمورَك ثمّ القنى بها ، وأحـكم أمرَك ثم راجعنى فيه ، ولا تجترئنّ علىّ فأمتعِض ، ولا تنقبضنّ منّى فأتّهم ، ولا تُمرضنّ ما تلقانى به ولا تخدجنّه[2] ؛ وإذا أفـكرتَ فـلا تعجل ، وإذا كتبتَ فلا تُعْذِر ، ولا تستعنْ بالفضول فإنها علاوة على الـكفاية ، ولا تقصّرنّ عن التحقيق فإنها هُجْنة بالمقالة ، ولا تلبِّس كلاما بـكلام ، ولا تبعدن معنًى عن معنى . وأكرم لى كتابك عن ثلاث : خضوعٍ يستخفّه ، وانتشارٍ يهجّنه ، ومعانٍ تعقّد به . واجمع الـكثير مما تريد فى القليل مما تقول وليـكن بسطة كلامك على كلام السُّوقة كبسطة الملك الذى تحدّثه على الملوك . لا يكن ما نلتَه عظيما ، وما تتـكلم به صغيرا ، فإنما كلام الـكاتب على مقدار الملك ، فاجعله عاليا كعلوّه ، وفائقا كتفوّقه ، فإنما جماع الـكلام كلّه خصال أربع : سؤالك الشىء ، وسؤالك عن الشىء ، وأمرُك بالشىء ، وخبرُك عن الشىء ؛ فهذه الخصال دعائمُ المقالات ، إن التمِس إليها خامس لم يوجَـد ، وإن نَقَص منها واحد لم يتمّ ؛ فإذا أمرت فأحكم ، وإذا سألت فأوضح ، وإذا طلبتَ فأسمح ، وإذا أخـبرت فحقّق ، فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجرائيم القول كلّه ، فلم يشتبه عليـك واردةٌ ، ولم تُعجزك صادرة . أثبت فى دواوينك ما أخذت ، وأحْصِ فيها ما أخرجت ، وتيقّظ لـما تُعطِى ، وتجرّد لما تأخذ ، ولا يغلبنّك النِّسيان عن الإحصاء ، ولا الأناةُ عن التقدّم ، ولا تخرجنّ

---

(١) كذا فى ا ، وهو الوجه ؛ وفى ب : « عن الـكبير » .

(٢) التمريض : التوهين ، والتخديج : أن تأتى بالشىء ناقصاً .

وزنَ قيراط فى غير حقّ ؛ ولا تعظمنّ إخراج الألوف الكثيرة فى الحقّ ؛ وليكن ذلك كلّه عن مؤامرتى .

* * *

الأصْـلُ :

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِى الصِّنَاعَاتِ ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا ، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ ، وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ؛ فِى بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ .

وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِى حَوَاشِى بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ – مَعَ ذَلِكَ – أَنَّ فِى كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا ، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّماً فِى الْبِيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ ، فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ . وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ؛ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

خرج عليه السلامُ الآن إلى ذكر التّجار وذوى الصناعات ؛ وأمَرَه(١) بأن يعمل معهم الخير ، وأن يُوصِىَ غيره من أمرائه وعمّاله أن يعملوا معهم الخير . واستوصِ بمعنى «أوص»

---

(١) ا ، ب : « أمره » ، بدون واو .

نحو قرّ في المكان واستقرّ ، وعلا قِرْنَه واستعلاه .

وقوله : « استوصِ بالتجّار خيرا » ، أى أوصِ نفسك بذلك ، ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وآله : « استوْصوا بالنّساء خيرا » ؛ ومَفْعولا « استوص وأوصِ » ها هنا محذوفان للعلم بهما ، ويجوز أن يكون « استوصِ » أى اقبل الوصيّة منّى بهم ، وأوصِ بهم أنتَ غيرك .

ثم قسّم عليه السلام الموصّى بهم ثلاثة أقسام : اثنان منها للتجّار[1] ، وهما المقيم ، والمضطرب ، يعنى المسافر . والضّرب : السيرُ فى الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ[2] ﴾ ، وواحد لأرباب الصناعات ، وهو قوله : « والمترفّق ببدنه » ، ورُوِى «بيديه» ، تثنية يد .

والمَطارِح : الأماكن البعيدة .

وحيث لا يلتئم الناس : لا يجتمعون ، ورُوِى « حيث لا يلتئم » ؛ بحذف الواو .

ثم قال : « فإنّهم أولو سِلْم » ، يعنى التّجار والصناع ، استعطفه عليهم ، واستماله إليهم .

وقال : ليسوا كعمّال الخراج وأمراء الأجناد ، فجانبُهم ينبغى أن يراعى ، وحالهم يجب أن يُحاط ويُحمَى ، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا فى مال يخونون فيه ، ولا فى دَوْلة يُفسِدونها . وحواشى البلاد : أطرافها .

ثم قال له : قد يكون فى كثير منهم نوعٌ من الشحّ والبُخْل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار فى الأقوات ، والحَيف فى البياعات . والاحتكار[3] : ابتياع الغلّات فى أيام

(١) د : « التجار » .　　(٢) سورة النساء ١٠١ .

(٣) د : « فالاحتكار » .

رخصها ، وادّخارها فى المخازن[1] إلى أيام الغلاء والقَحْط . والحَيْف : تطفيفٌ فى الوزن والكيل ، وزيادةٌ فى السعر[2] ، وهو الذى عبّر عنه بالتحكّم ، وقد نهى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عن الاحتكار ؛ وأما التطفيف وزيادة التّسعير فنهىٌ عنهما فى نص الكتاب[3] .

وقارَفَ حُكْرة : واقعها ، والحاء مضمومة ، وأمَرَه أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف ، وذلك أنّه دون المعاصى التى توجب الحدود ، فغاية أمرِه من التعزير الإهانة والمنع.

* * *

الأصلُ :

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِى الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَاحِيلَةَ لَهُمْ ؛ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى ، فَإِنَّ فِى هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً .

وَاحْفَظِ اللهَ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِى الْإِسْلَامِ فِى كُلِّ بَلَدٍ ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِى لِلْأَدْنَى ؛ وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ .

وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ ؛ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ . وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ؛ فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ .

ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هُؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ؛ وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ فِى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ .

---

(١) د : « المحارز » . (٢) د : « التسعير » .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ ، وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ ، مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذٰلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ .

***

الشَّرْحُ :

انتقل من التجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرعيّة ومَغْموريها ، فقال : وأهل البؤسى ، وهى البؤسُ كالنُّعمى للنّعيم ، والزَّمْنى أولو الزّمانة .

والقانع : السائل ؛ والمعترّ : الّذى يَعرِض لك ولا يسألك ، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز(١) .

وأمره أن يعطيَهم من بيت مال المسلمين لأنّهم من الأصناف المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(٢) ، وأن يُعطيَهم من غلّات صوافى الإسلام ـ وهى الأرَضون الّتى لم يُوجَف عليها بخيل ولا ركاب ـ وكانت صافية لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، فلمّا قُبض صارت لفقراء المسلمين ، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام .

ثم قال له : « فإنّ للأقصى منهم مثل الّذى للأدنى » ، أى كلّ فقراء المسلمين سواء فى سهامهم ، ليس فيها أقصى وأدنى ، أى لا تُؤْثِر مَنْ هو قريب إليك أو إلى أحد من خاصّتك على مَنْ هو بعيد ليس له سببٌ إليك ، ولا علقة بينه وبينك . ويمكن أن يريد به : لا تَصرِف غلّات ما كان من الصّوافى فى بعض البلاد إلى مساكين ذلك

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحج ٣٦ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ .
(٢) سورة الأنفال ٤١ .

البلد خاصّة ؛ فإنّ حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم فى ذلك البلد .

والتافه : الحقير . وأشخصتُ زيدا من موضع كذا ؛ أخرجتُه عنه . وفلان يصعّرُ خدّه للناس ، أى يتكبّر عليهم .

وتقتَحِمه العيون : تَزدَريه . وتحتقِره والإعذار إلى الله : الاجتهاد والمبالغة فى تأدية حقّه والقيام بفرائضه .

* * *

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه ، ولا يثق إلى غيره ، ويقعد بحيث يَسمع الصوت ، فإذا سمعه أدخلَ المتظلّم ، فأصيب بصَمَم فى سَمْعه فنادَى مناديه ، إنّ الملك يقول : أيها الرعيّة ، إنّى إن أصبتُ بصَمَم فى سمعى فلم أصَب فى بصرى ؛ كلّ ذى ظلامة فليَلْبَس ثوبا أحمر ، ثم جلس لهم فى مستشرَف له .

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيتَ القَصَص ، يُلقِى الناسُ فيه رقاعَهُم ، وكذلك كان فعل المهدىّ محمّد بن هارون الواثق ، من خلفاء بنى العبّاس .

* * *

الأصْلُ :

وَاجْعَلْ لِذَوِى الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً ؛ فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلهِ الَّذِى خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ؛ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ ؛ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِى غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِىِّ ؛ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ » .

ثُمَّ ٱحْتَمِلْ ٱلْخُرْقَ مِنْهُمْ وَٱلْعِيَّ ، وَنَحِّ عَنْهُمُ ٱلضِّيقَ وَٱلْأَنَفَ ، يَبْسُطِ ٱللهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ . وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا ، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا ؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ . وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ .

***

الشرح :

هذا الفصل من تتمة ماقبله، وقد رُوِى : « حتى يكلِّمك مكلِّمهم » ، فاعل من « كلَّم » والرواية الأولى أحسن .

وغير متتعتع : غير مزعج ولا مقلق . والمتَتَعْتِع فى الخبر النبوىّ : المتردِّد المضطرب فى كلامه عِيًّا من خوف لحقه ، وهو راجع إلى المعنى الأوّل .

والُخرق : الجهل . ورُوِى : « ثمَّ احتمل الُخرق منهم والغىّ » . والغىّ وهو الجهل أيضا ، والرواية الأولى أحسن .

ثم بيّن له عليه السلام أنه لا بدّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ما قدّمه عليه السلام، وذلك لأنّه لا بدّ من أن يكون فى حاجات الناس ما يضيق به صدور أعوانه ، والنُّوّاب عنه ، فيتعيَّن عليه أن يباشرَها بنفسه ؛ ولا بدّ من أن يكون فى كتب عمّاله الواردة عليه

ما يعيا كتّابه عن جوابه ، فيجيب عنه بعلْمه . ويدخل فى ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز فى حُكم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه ، فيجيب أيضا عن ذلك بعلمه .

ثم قال له : لا تُدخِلْ عملَ يومٍ فى عمل يومٍ آخر فيُتْعِبك ويُكدِّرك ؛ فإنّ لكلّ يومٍ ما فيه من العمل .

* * *

الأصْل :

وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأَقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلهِ ؛ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً ، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ .

وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ ، وَلَهُ الْحَاجَةُ ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ : كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ ؛ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

* * *

الشّرْحُ :

لمّا فرغ عليه السلام من وصيّته بأمور رعيّته ، شرَع فى وصيّته بأداء الفرائض التى

افترضها الله عليه من عبادته ، ولقد أحسن عليه السلام فى قوله : « وإن كانت كلها لله » ، أى أنّ النظر فى أمور الرعيّة مع صحّة النيّة وسلامة النـاس من الظّلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً .

ثم قال له : « كاملا غيرَ مثلوم » ، أى لا يحملنّك شُغْل السلطان على أن تختصر الصّلاة اختصاراً ، بل صلّها بفرائضها وسُنَنها وشعائرها فى نهارِك ولَيلِك ؛ وإن أتعبكَ ذلك ونالَ من بَدَنك وقُوّتك .

ثمّ أمرَه إذا صلّى بالناس جماعة ألّا يطيل فينفرّم عنها ، وألا يخدج الصّلاة وينقُصها فيضيّعها(١) .

ثم رَوَى خبرا عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وهو قوله عليه السلام له : « صلّ بهم كصلاةِ أضعفهم » ، وقوله : « وكن بالمؤمنين رحيما » ؛ يحتمل أن يكون من تتمّة الخبر النبويّ ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، والظاهر أنّه من كلام أميرِ المؤمنين من الوصيّة للأشتر ؛ لأنّ اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هى المشهور فى الخبر .

***

الأصْـلُ :

وَأَمَّا بَعْدَ هَـذَا ؛ فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ . وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّـدْقِ مِنَ

(١) د : « فيضعفها » .

الْكَذِبِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ ، إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ .

***

الشَّرْحُ :

نهاه عن الاحتجاب ؛ فإنه مَظِنّة انطواء الأمور عنه ، وإذا رُفِع الحجاب دخل عليه كلُّ أحد فعرَف الأخبار ، ولم يخْفَ عليه شيء من أحوال عمله .

ثم قال : لم تحتجب ، فإنّ أكثر الناس يحتجبون كيلا يُطلَب منهم الرِّفد !

وأنت فإن كنتَ جوادا سَمْحا لم يكن لك إلى الحجاب داعٍ ، وإن كنتَ مُمسِكا فسيعلم الناسُ ذلك منك ، فلا يسألك أحدٌ شيئاً .

ثم قال : علَى أنّ أكثرَ ما يسأل منك مالا مؤونة عليه في ماله ؛ كردّ ظُلَامة أو إنصاف من خَصْم .

***

[ذكر الحجاب وما ورد فيه من الخبر والشعر]

والقول في الحجاب كثير :

حضر بابَ عمرَ جماعةٌ من الأشراف : منهم سُهَيل بن عمرو وعُيينة بن حِصْن والأقرع ابن حابس ، فحُجِبوا ، ثم خرج الآذن فنادى : أين عمّار ؟ أين سَلْمان ؟ أين صُهَيب ؟

فأدخلهم فتمعّرت[1] وجوهُ القوم ، فقال سُهيل بن عمرو : لم تتمعّر وجوهكم ! دُعوا ودُعِينا فأَسرَعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتّموهم على باب عمرَ اليوم لأنتم غداً لهم [٢] أحسد .

واُستأذنأبو سُفْيانَ على عثمان فحَجَبه ، فقيل له : حَجَبَك ! فقال : لا عدمتُ من أهلي مَنْ إذا شاء حَجَبنى .

وحَجَب معاويةُ أبا الدرداء ؟ فقيل لأبى الدرداء : حَجبَك معاوية ! فقـال : مَنْ يَغْش أبوابَ الملوك يُهنْ ويُكْرَم ، ومن صادف بابا مُغلَقا عليـه وَجَد إلى جانبه بابا مفتوحا ، إن سأل أعطِيَ ، وإن دعا أُجيب ، وإن يكن معاوية قـد اُحتجب فرَبُّ معـاويةَ لم يحتجب .

وقال أبرويز لحاجبه : لا تَضَعنّ شريفا بصُعوبة حجاب ، ولا تَرفَعنّ وضيعا بسهولته ؛ ضع الرجالَ مواضعَ آخطارهم ، فمن كان قديمـا شرفه ثم ازدرعه [٣] ولم يهدمه بعد آبائه فقدّمه على شرفه الأوّل ، وحسِّن رأيه الآخر ، ومَنْ كان له شرف متقـدّم ولم يَصُن ذلك حياطةً له ، ولم يَزدرعه تثمير المُغارَسة، فألحِق بآبائه من رفعة حاله ما يقتضيه سابقُ شرفِهم ، وألحق به فى خاصّته ما ألحق بنفسه ، ولا تأذن له إلّا دَبريًّا وإلا سرارا ؛ ولا تلحقـه بطبقة الأوّلين . وإذا ورد كتابُ عاملٍ من عمّا لى فلا تحبسه عنّى طرفـةَ عين إلّا أن أكون على حالٍ لا تستطيع الوصولَ إلىّ فيها ، وإذا أتاك مَنْ يدّعى النصيحة لنا فلتكتبها سرّا ثمّ أدخله بعد أن تستأذن له ، حتى إذا كان منّى بحيث أراه فادفع إلىّ كتابه ، فإن أحمـدت قبلت ، وإن كرهت رفضت . وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن ، فأْذَنْ له ، فإنّ العلم شريفٌ وشريفٌ صاحبه ، ولا تحجُبنّ عنّى أحدا من أفناء الناس ، إذا أخذتُ مجلسِي مجلسَ العامّة ، فإنّ الملك لا يُحجَب إلا عن ثلاث : عِىٌّ يكره أن يُطّلع عليـه منه ، أو بخل يكره أن يدخـل عليه من يسأله ، أو رِيبة هو مصرّ عليهـا فيشفق من إبدائها ،

---

(١) تمعرت وجوههم : تغيرت غيظاً وحنقاً . (١) ساقطة من د . (٣) ازدرعه : أثبته .

ووقوف الناس عليها ، ولابدّ أن يحيطوا بها عِلْما ، وإن اجتهد فى سَترها . وقد أخذ هـذا المعنى الأخير محمود الورّاق فقال :

إذا اُعتصمَ الوالِي بإغلاق بابـه ... وردّ ذوى الحاجات دونَ حجابهِ
ظننت به إحـدى ثلاثٍ وربّما ... رَجَمْتُ بظنٍ واقعٍ بصَوابهِ
أقول به مَسٌّ من العِيّ ظاهرٌ ... فنى إذْنه للناسِ إظهارُ ما بِـهِ
فإن لم يكن عِىّ اللسان فغالب ... من البُخْل يحمى ماله عن طِلابهِ
وإن لم يـكن لاذا ولاذا فريبَةٌ ... يُـكتِّمها مستورةٌ بثيـابهِ

أقام عبد العزيز بن زُرارة الـكلابىّ على باب معاوية سنةً فى شملة من صوف لا يأذن له؛ ثمّ أذن له وقرّبه وأدناه ، ولَطُف محلّه عنده حتّى ولّاه مصر ، فـكان يقال : استأذن أقوام لعبد العزيز بن زرارة ، ثمّ صار يستأذن لهم ، وقال فى ذلك :

دخلتُ على معاويةَ بنَ حرب ... ولـكن بعد يأسٍ من دخولِ
وما نلتُ الدخولَ عليه حتّى ... حللت مَحَـلّة الرجل الذّليلِ
وأغضيتُ الجفونَ على قذَاها ... ولم أنظر إلى قالٍ وقيلِ
وأدركتُ الّذى أمّلت منه ... وحرمانُ المُنَى زادُ العَجولِ

ويقال : إنه قال له لمّا دخـل عليه أميرُ المؤمنين : دخلتُ إليك بالأمل ، واُحتملت جفوَتك بالصبر ، ورأيتُ ببابك أقواما قدّمهم الحظّ ، وآخرين أخّرهم الحرمان ، فليس ينبغى للمقدّم أن يأمن عواقب الأيام ، ولا للمؤخّر أن يَيْئَسَ من عطف الزّمان .

وأوّل المعرفة الاختبار ، فابلُ واختـبر إن رأيت . وكان يقال : لم يلزم باب السلطان أحدٌ فَصَبر على ذلّ الحجاب،وكلام البوّاب ، وألقى الأنَف ، وحمل الضَّيْم ، وأدام الملازمة ، إلّا وصل إلى حاجته أو إلى معظمها .

قال عبد الملك لحاجبه : إنك عينٌ أنظرُ بها ، وجُنّة أستلئم بها ، وقد ولّيتُكَ ما وراء بابى ، فماذا تراك صانعا برعيّتى ؟ قال : أنظر إليهم بعينك، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك ، وأضَعُهم فى إبطائهم عن بابك، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم ، وأرتّبهم حيث وضعهم ترتيبك، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغَك عنهم . قال : لقد وفّيت بما عليك ، ولكن إن صدّقت ذلك بفعلك . وقال دِعْبل وقد حُجِب عن باب مالك بن طَوْق :

لَعَمرِى لئن حجبتْنى العبيدُ   لَمَا حجبتْ دونَكَ القافيه(١)
سأرمِى بها من وراء الحجابِ   شَنعاءَ تأتيــكَ بالدَّاهِيَهْ
تُصِمّ السميعَ،وتُعْمِى البصيرَ   ويُسألُ من مِثلها العافيــهْ

وقال آخر :

سأتركُ هــذا الباب مادام إذنُـه   على ما أرى حتى يلينَ قليـــلا
فما خاب من لم يأته مترفِّعاً   ولا فازَ مَنْ قد رام فيــه دُخولا
إذا لم نجــد للإذن عندك موضعاً   وَجَدْنا إلى ترك المجىء سبيــلا

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه :

وإن عدتُ بعد اليــوم إنّى لظالمٌ   سأصرف وجهى حيث تُبغى المكارمُ
متى يُفلح الغادى إليك لحاجــةٍ   ونصفُكَ محجوبٌ ، ونصفك نائمُ !

يعنى ليله ونهاره .

استأذن رجلان على معاوية ، فأذن لأحدهما ـ وكان أشرف مــنزلةً من الآخر ـ ثم أذن للآخر فدخــل ، فجلس فوق الأوّل ، فقال معاوية : إنّ الله قد ألزَمَنا تأديبكم

(١) ديوانه ٢١٢ ، ونقلها عن ابن أبى الحديد (النجف ١٩٦٢) .

كما ألزَمَنا رعايتكم ، وإنّا لم نأذن له قبلك ، ونحن نريد أن يكون مجلسُه دونَك ، فقم لا أقام الله لك وزنا . وقال بشار :

تأبى خلائقُ خالدٍ وَفَعَالُه ... إلّا تجنُّبَ كلّ أمرٍ عائبِ
وإذا أتينا البابَ وقت غدَائه ... أدنى الغَدَاء لنا برغم الحاجب

وقال آخر يهجو :

ياأميرا على جَريبٍ من الأر ... ضِ له تسعةٌ من الحجّابِ
قاعد فى الخراب يحجُبُ عَنّا ... ما سَمِعْنا بحاجبٍ فى خرابِ

وكتب بعضهم إلى جعفرَ بن محمد بن القاسم بن عُبيد الله بن سليمان بن وهب :

أبا جعفرٍ إنَّ الولاية إن تكنْ ... منبّلة قوسا فأنت لها نَبْلُ
فلا تَرتفِع عنّا لأمرٍ وَليتَه ... كما لم يصغِّر عندَنا شأنَك العَزْلُ

ومن جيّد مامُدِح به بشر بن مروان قول القائل :

بعيدُ مراد الطّرف ما ردّ طَرْفه ... حذار الغَواشى باب دارٍ ولا سِتْرُ
ولو شاء بِشْرٌ كان من دونِ بابه ... طماطمُ سُودٌ أو صقالبةٌ حُمرُ(١)
ولكنّ بِشرا يَستر البابَ للّتى ... يكون لها فى غِبّها الحمدُ والأجر

وقال بشّار :

خليلىَّ من كعبٍ أعينَا أخاكما ... على دهرِه إنَّ الكريم يعينُ
ولا تَبخَلا بخلَ ابن قَزْعة إنّه ... مخافة أن يرجَى نَداه حَزينُ
إذا جئتَه للعُرف أغلَق بابَه ... فلم تَلقَه إلّا وأنت كمينُ
فقل لأبى يحيى متى تُدركُ العلا ... وفى كلّ معروف عليك يمينُ !

---

(١) الطماطم : الأعاجم.

وقال إبراهيم بن هَرْمة :

هَشٌّ إذا نَزَلَ الوفـودُ ببابه سهلُ الحجاب مؤدّب الخـدّامِ(١)
وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَـه لم تدر أيّهما ذوى الأرحامِ

وقال آخر :

وإنّى لأستحيي الـكريمَ إذا أتى على طمعٍ عند اللئيمِ يُطـالبهْ
وأرْثِي له من مجلسٍ عند بابِهِ كمرثيتى للطِّرف والعِلْـجُ راكبـهْ

وقال عبد الله بن محمّد بن عُيينة :

أتيتُك زائرا لقضـاء حقّ فحالَ السّتر دونك والحجابُ
ورأيى مذهب عن كلّ ناء يجانبه إذا عزّ الذّهابُ
ولست بساقطٍ فى قِدْر قومٍ وإن كرهوا كما يَقَع الذّبابُ

وقال آخر :

ما ضاقت الأرضُ على راغبٍ تطلّبَ الرزقَ ولا راهبِ
بل ضاقت الأرض على شاعرٍ أصبح يشكو جفوةَ الحاجبِ
قد شتَمَ الحاجبَ فى شعره وإنّما يَقصِد للصّاحبِ

* * *

الأصلُ :

ثُمَّ إنَّ لِلوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً ، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ ، وَقِلَّةُ إنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ ، فَاحْسِمْ مَئُونَةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ ، وَلَا تقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً ، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي

---

(١) المحاسن والمساوى ١ : ٢٦٤ .

شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَوَاصِّكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا ، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ إِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

***

الشَّرْحُ :

نهاه عليه السلام عن أن يَحمِل أقاربَه وحاشيَته وخواصَّه على رقاب النـاس ، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتطاول والإذلال ، ونهاه من أن يقطع أحداً منهم قطيعةً ، أو يملّكه ضَيْعة تضرّ بمن يجاورها من السادة والدّهاقين(١) في شِرْب يتغلّبون على الماء منه ، أو ضِياعٍ يُضيفونها إلى ما ملّكهم إيّاه ، وإعفاء لهم من مؤنة ، أو حفر وغيره ، فيعفيهم الوُلاة منـه مراقبةً لهم ، فيـكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم ، وحمل ثقلها على غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لأنّ منفعة ذلك في الدّنيا تكون لهم دونك ، والوِزْر في الآخرة عليك ، والعيب والذمّ في الدنيا أيضا لاحقان بك .

ثم قال له : إن اتّهمتْك الرعيّة بحَيْفٍ عليهم ، أو ظنّتْ بك جَوْرا ، فاذكر لهم عذرك

(١) الدهاقين : جمع دهقان ؛ وهو من ألقاب الرؤساء في الأعاجم.

فى ذلك ، وما عنــدكَ ظاهرا غير مستور ، فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحقّ .

وأصحرتُ بكذا ، أى كشفته ؛ مأخوذٌ من الإصحار ، وهو الخروج إلى الصّحراء .

وحامّة الرجل : أقاربُه وبطانته . واعتقدت عقدة ، أى ادّخرت ذخيرة . والمهنأ مصدر هنأه كذا . ومغبّة الشيء : عاقبتُه .

واعدل عنكَ ظنونهم : نحّها . والإعذار : إقامة العُذْر .

* * *

[طرَف من أخبار عمر بن عبد العزيز ونزاهته فى خلافته]

ردّ عمرُ بنُ عبــد العزيز المظالم التى احتقَبها[1] بنو مروان فأبغضوه وذمّوه ؛ وقيل : إنّهم سمّوه فمات .

وروى الزّبير بن بكّار فى "الموفّقيّات" أنّ عبد الملك بن عمر بن عبــد العزيز دخل على أبيه يوما وهو فى قائلته ، فأيقظَه . وقال له : ما يؤمِنك أن تؤتَى فى منامك وقد رُفِعت إليك مظالم لم تقضِ حقّ الله فيها ! فقال : يا بنىّ إنّ نفسى مطيّتى إن لم أرفُق بها لم تبلّغنى ، إنّى لو أتعبتُ نفسى وأعوانى لم يكن ذلك إلّا قليلا حتّى أسقط ويسقطوا ، وإنّى لأحتسب فى نومتى من الأجر مثل الّذى أحتسِب فى يقظتى ، إنّ الله جلّ ثناؤه لو أراد أن ينزّل القرآن جملةً لأنزله ، ولـكنّه أنزل الآية والآيتين حتّى استكثر[2] الإيمان فى قلوبهم .

ثم قال : يابنىّ ممّا أنا فيه أمرٌ هو أهمّ إلى أهل بيتك ، هم أهل العدّة والعَدَد ، وقبلهم ما قبلهم ، فلو جمعتُ ذلك فى يوم واحد خشيتُ انتشارهم علىّ ، ولـكنّى أنصف من الرّجل

---

(١) يقال احتقب فلان الإثم ؛ كأنه جمعه واحتقبه من خلفه . (٢) د : « استكبر » .

والاثنين ، فيبلغ ذلك من وراءهما ، فيكون أنجع له ، فإنّ يُرِد الله إتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى تحسْب عبدٍ أن يَعلَم اللهُ منه أنه يحبّ أن ينصف جميع رعيّته .

وروى جُويرية بنُ أسماء ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : كنّا عند عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا تفرّقنا نادى مناديه : الصّلاة جامعة ! فجئتُ المسجدَ ، فإذا عمرُ على المنبر ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ هؤلاء ــ يعني خلفاءَ بني أميّة قبله ــ قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم ، وما كان ينبغي لهم أن يُعطوناها ، وإنّي قد رأيتُ الآن أنه ليس عليّ في ذلك دونَ الله حسيب ، وقد بدأتُ بنفسي والأقربين من أهل بيتي ، اقرأْ يا مزاحمُ . فجعل مُزاحمٌ يقرأ كتابا فيه الإقطاعات بالضّياع والنّواحي ، ثمّ يأخذه عمرُ بيَده فيقصّه بالجلَم (١) ، لم يزل كذلك حتى نُودِيَ بالظهر .

وروى الفراتُ بنُ السائب ؛ قال : كان عند فاطمةَ بنتِ عبدالملك بن مرْوان جوهر جليل ، وهَبَها أبوها ، ولم يكن لأحد مثله ، وكانت تحت عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا ولِيَ الخلافةَ قال لها : اختاري ؛ إمّا أن تردّي جوهرك وحليّك إلى بيت مال المسلمين ، وإمّا أن تأذني لي في فراقِك ، فإنّي أكرَه أن أجتمعَ أنا وأنتِ وهوَ في بيت واحد . فقالت : بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي ؛ وأمرتْ به فحُمِل إلى بيت المال ، فلمّا هلك عمر واستُخلِف يزيد ابن عبد الملك قال لفاطمة أخته : إن شئتِ رددتُه عليك ؛ قالت : فإنّي لا أشاء ذلك ، طبتُ عنه نفسا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبدا . فلمّا رأى يزيدُ ذلك قسَمه بين ولدِه وأهلِه .

وروى سهيل بن يحيى المَرْوَزيّ عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن عمرَ بن عبد العزيز ، قال : لمّا دفن سليمانُ صَعِد عمرُ على المنبر فقال : إنّي قد خلعتُ ما في رقبتي من بيعتكم . فصاح الناسُ صيحةً واحدة : قد اخترناك ، فنزل ودخل وأمَر بالستّور فهُتِكت ،

---

(١) الجلم : المقص .

والثياب التى كانت تُبسَط للخلفاء فحُمِلَت إلى بيت المـال ، ثمّ خرج ونادى مناديه : مَنْ كانت له مظلمةٌ من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليَحضُرْ؛ فقام رجل ذِمّىّ من أهل حِمْص أبيضُ الرأس واللِّحية ، فقال : أسألك كتابَ الله ! قال: ما شأنك ؟ قال : العبّاسُ بن الوليد ابن عبد الملك اُغتصَبنى ضَيْعتى ـ والعبّاس جالس ـ فقـال عمر : ما تقول يا عبّاس ؟ قال : أقطعَنيها أميرُ المؤمنين الوليد ، وكتب لى بها سجلًّا . فقال عمر : ما تقول أنت أيّها الذّمّىّ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله ! فقال عمر : إيهاً لعَمرى إنّ كتاب الله لأحقُّ أن يُتّبع من كتاب الوليد ، اردُد عليه يا عبّاس ضَيْعتَه ؛ فجعل لايَدَع شيئا ممّا كان فى أيدى أهل بيته من المظالم إلّا ردّها مَظلِمة مَظلِمة .

وروى ميمونُ بنُ مِهْرانَ ، قال : بعث إلىّ عمرُ بنُ عبد العزيز وإلى مكحول وأبى قِلابة فقال : ما تَرَوْن فى هذه الأموال التى أخذهـا أهلى من الناس ظُلْما ؟ فقال مكحول قولا ضعيفا كَرِهه عمر ، فقال : أرى أنْ تستأنف وتَدَع ما مضى ، فنظر إلىّ عمرُ كالمستغيث بى ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أحضر ولدك عبد الملك لننظرَ ما يقول . فحضر ، فقال : ما تقول يا عبد الملك ؟ فقال : ماذا أقول ؟ ألستَ تَعرِف مواضعها ! قال : بلى والله ، قال : فاُردُدْها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكا لمن أخَذَها .

ورَوَى ابن درستويه ، عن يعقوب بنِ سُفْيان ، عن جويرية بن أسماء ، قال : كان بيد عمرَ بنِ عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعته المعروفة بالسّهلة ، وكانت باليمـامة . وكانت أمراً عظيما لها غلّة عظيمة كثيرة ، إنّما عيشه وعيش أهله منها، فلمّا ولِىَ الخلافة قال لمزاحم مولاه ـ وكان فاضلا ـ : إنى قد عزمت أن أردّ السهلَة إلى بيت مال المسلمين ، فقال مزاحم : أتدرى كم ولدك ؟ إنّهم كذا وكذا ، قال : فذَرفتْ عيناه ، فجعل يَستدمِع ويمسح الدّمعة بأصبعه الوسطى ، ويقول : أَكِلُهم إلى الله ، أَكِلهم إلى الله ! فمضى مُزاحم فدخـل على عبدِ الملك ابن عمر ، فقال له : ألا تعلم ما قد عزم عليه أبوك ! إنّه يريد أن يردَّ السّهلة ، قال : فما قلتَ

له ؟ قال : ذكرتُ له ولدَه فجعل يستدمِع ويقول : أَكِلهم إلى الله . فقال عبد الملك : بئس وزيرُ الدّين أنتَ ! ثم وثب وانطلق إلى أبيه فقال للآذن : استأذنْ لى عليـه ، فقال : إنّه قد وضع رأسه الساعَة للقائلة ، فقال : استأذِن لى عليه ؛ فقال : أما ترحمونه ! ليس له من الّليل والنهار إلّا هذه الساعة . قال : استأذِن لى عليه لا أمَّ لك ! فسَمِع عمرُ كلامَهما ، فقال : ائذن لعبد الملك ، فدخل فقال : على ماذا عزمتَ ؟ قال : أردّ السَّهلَة قال : فلا تؤخّر ذلك قم الآن . قال : فجعل عمرُ يرفع يديه ويقول : الحمد لله الّذى جعل لى من ذرّيتى مَنْ يعيننى على أمر دينى . قال : نعم يا بنىّ أصلّى الظهر ، ثمّ أصعد المنـبر فأردّها علانيةً على رءوس الناس ، قال : ومَنْ لك أن تعيش إلى الظّهر ! ثمّ مَنْ لك أن تسلَمَ نيّتك إلى الظّهر إن عشت إليها ! فقام عمر فصَعِد المنبَر ، فخطب الناس ورد السّهلة .

***

قال : وكتب عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك إلى عمرَ بن عبد العزيز لما أخـذ بنى مروان بردّ المظالم كتابا أغلَظَ له فيه ، من جملته : إنك أزْرَيْتَ على كلّ مَنْ كان قبلك من الخلفاء وعبتَهم ، وسرتَ بغير سيرتهم بُغضا لهم وشَنآنا لمن بعدَهم من أولادهم ، وقطعتَ ما أمر الله به أن يُوصَل ، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتَها بيت المال جَوْرا وعُدْوانا ، فاتّق الله يا بن عبد العزيز وراقبْه ، فإنّـك خصَصْت أهلَ بيتك بالظلم والجور . والّذى خَصّ محمدا صلّى الله عليه وآله بما خصّه به لقد ازددتَ من الله بُعداً بولايتك هذه الّتى زعمتَ أنّها عليك بلاء . فأقصِر عن بعض ما صنعتَ ، واعـلم أنـك بعينِ جبّار عزيز وفى قبضته ، ولن يتركَك على ما أنت عليه .

قالوا : فكتب عمرُ جوابَه : أمّا بعد ، فقد قرأتُ كتابَك ، وسوف أجيبُك بنحو منه ، أمّا أوّل أمرك يابنَ الوليد فإنّ أمّك نُباتَةَ أَمَة السَّكون ، كانت تطوفُ فى أسواق حِمْص ، وتدخُل حوانيتَها ، ثم اللهُ أعلم بها ؛ اشتراها ذُبيان بنُ ذبيان من فَىْء المسلمين ، فأهداها

لأبيك ، فحملت بك، فبئس الحاملُ وبئس المحمول ! ثم نشأتَ فكنتَ جبّارا عنيدا . وتزعم أنّى من الظالمين لأنى حرمتُك وأهلَ بيتك فىءَ الله الّذى هو حقّ القرابة والمساكين والأرامل ! وإنّ أظلم منّى وأترك لعهد الله مَن استعملك صبيّا سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك، ولم يكن له فى ذاك نيّة إلّا حبّ الوالد ولدَه ، فويلٌ لك وويلٌ لأبيك ! ما أكثر خصماءكما يومَ القيامة ! وإن أظلمَ منّى وأترك لعهد الله من استعمل الحجّاج بنَ يوسف على خُمُسِ العرب ، يسفك الدمَ الحرام ، ويأخذ المالَ الحرام . وإنّ أظلمَ منّى وأتركَ لعهد الله مَن استعمل قُرّة بن شَرِيك ، أعرابيّا جافيا على مصر ، وأذن له فى المَعازِف والخَمر والشّرب واللهو . وإن أظلمَ منّى وأتركَ لعهد الله من استعمل عثمانَ بن حيّانَ على الحجاز ، فينشد الأشعار على منبر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ومَنْ جعل للعالية البربريّة سهما فى الخمس ؛ فرويداً يابن نباتة ، ولو التقت حَلْقتا البطان[1] وردّ الفىء إلى أهله ، لتفرّغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتُكم على المحجّة البيضاء ، فطالما تركتم الحقّ ، وأخذتم فى بُنيّاتِ الطريق ! ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعمله ؛ بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين الأرامل واليتامى والمساكين ، فإنّ لكلّ فيك حقّا ، والسلام علينا ، ولا ينال سلامُ الله الظالمين .

***

وروَى الأوزاعىّ قال : لمّا قطع عمرُ بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان مَن قَبْله يُجرُونه عليهم من أرزاق الخاصّة ، فتكلّم فى ذلك عَنْبسة بن سعيد ، فقال : ياأمير المؤمنين، إنّ لنا قرابةً ، فقال : مالى إنْ يتّسع لكم ، وأمّا هذا المال فحقّكم فيه كحقّ رجل بأقصى بَرْك الغِماد[2] ، ولا يمنعه من أخذه إلّا بعدُ مكانه . والله إنّى لأرى أنّ الأمور

(١) التقت حلقتا البطان : مثل يضرب للأمر العظيم .

(٢) برك الغماد : موضع بين مكة وزبيد .

لو أُستحالت حتى يُصبح أهلُ الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله .

وروَى الأوزاعيّ أيضا ، قال : قال عمر بنُ عبد العزيز يوما وقد بلغه عن بنى أميّة كلامٌ أغضبه : إنّ لله فى بنى أميّة يوما ـ أو قال : ذِبحاً ـ وايمُ الله لئن كان ذلك الذِّبح ـ أو قال ذلك اليوم ـ على يدى لأعذِرنَّ الله فيهم . قال : فلمّا بلغهم ذلك كفّوا ، وكانوا يَعلَمون صَرامَته ، وإنه إذا وقع فى أمر مَضَى فيه .

وروَى إسماعيل بن أبى حكيم ، قال : قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوما لحاجبه : لا تُدخِلنّ علىّ اليومَ إلّا مَرْوانيا . فلمّا اجتمعوا قال : يا بَنِى مَرْوان ، إنّكم قد أُعطِيتمْ حظّا وشرَفا وأموالا ، إنّى لأحسب شطرَ أموال هذه الأمّة أو ثُلثيها فى أيديكم ، فسكتوا ، فقال : ألا تُجيبونى ؟ فقال رجل منهم : فما بالُكَ ؟ قال : إنى أريد أن أنتزِعها منكم ، فأردَّها إلى بيت مال المسلمين . فقال رجل منهم : والله لا يكون ذلك حتّى يحال بين رءوسنا وأجسادِنا ، والله لا نُكفِّر أسلافَنا ، ولا نُفقِر[1] أولادنا . فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحقّ له لأضرعتُ خُدودَكم ! قوموا عنّى .

وروَى مالك بن أنس ، قال : ذكر عمر بنُ عبد العزيز مَنْ كان قبله من المرْوانيّة فعابهم ، وعنده هشامُ بنُ عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله نكره أن تعيب آباءنا ، وتضع شرَفَنا ؛ فقال عمر : وأىّ عيب أعيَبُ ممّا عابَه القرآن !

وروَى نَوْفل بنُ الفرات ، قال : شكا بنو مَرْوانَ إلى عاتكة بنت مروانَ بن الحكَم عمرَ ، فقالوا : إنّه يعيب أسلافَنا ، ويأخذ أموالَنا . فذكرت ذلك له ـ وكانت عظيمةً عند بنى مَرْوان ـ فقال لها : يا عمّة ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِضَ وترَك

(١) ب : « ونفقر » .

الناسَ على نهرٍ مَوْرود ، فولىَ ذلك النهرَ بعده رجلان لم يستخصّا أنفسَهما وأهلَهما منه بشيء ، ثم وليَه ثالثٌ فكرى منه ساقيةً ، ثم لم تزل الناس يَكرُون منه السّواق حتّى تركوه يابساً لا قَطْرَة فيه ، وايم الله لئن أبقانى الله لأسكُرنّ[1] تلك السواق حتّى أعيد النّهر إلى مجراه الأوّل ؛ قالت : فلا يُسبّون إذاً عندك! قال : ومَنْ يسبّهم! إنّما يرفع الرجل مَظلمته فأردّها عليه .

وروَى عبدُ الله بن محمد التيمىّ ، قال : كان بنو أميّة يُنزِلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبوابِ قصورهم ، وكانت جليلَة الموضِع عندهم ، فلمّا ولىَ عمرُ قال : لا يلى إنزالهَا أحدٌ غيرى ، فأدخلوها على دابّتها إلى باب قبّته ، فأنزلها ، ثم طبّق لها وسادتين ، إحداهما على الأخرى ، ثم أنشأ يُمازِحها ـ ولم يكن من شأنه ولا من شأنِها المِزاح ـ فقال : أما رأيت الحرس الّذين على الباب ؟ فقالت : بلى ، وربّما رأيتهم عند من هو خير منك ! فلمّا رأى الغضب لا يتحلّل عنها ترك المِزاحَ وسألها أن تذكر حاجتها ، فقالت : إنّ قرابَتك يشكونك ، ويزعمون أنك أخذتَ منهم خيرَ غيرك ، قال : ما منعتُهم شيئا هو لَهم ، ولا أخذتُ منهم حقّا يستحقّونه ! قالت : إنّى أخاف أن يُهيجوا عليك يوماً عصيبا[2] ، وقال : كلّ يوم أخافه ـ دون يوم القيامة ـ فلا وقانى الله شرّه . ثمّ دعا بدينار وَمجمَرة وجلد فألقى الدّينار فى النّار ، وجعل يَنفُخ حتى احمرّ ، ثم تناوله بشىء فأخرجه فوضعه على الجلد ، فنَشّ وقَتَر ، فقال : يا عمة ، أما تأوين لابن أخيك ، من مثل هذا ، فقامت فخرجت إلى بنى مروانَ فقالت : تزوّجون فى آل عمر بن الخطّاب ، فإذا نزَعوا إلى الشّبه[3] جزعتم ! اصبروا له .

وروى وُهَيب بن الورد ، قال : اجتمع بنو مروانَ على باب عمر بن عبد العزيز ، فقالوا لولدٍ له : قل لأبيك يَأْذَن لنا ، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنّا رسالة ، فلم يأذن لهم ، وقال :

---

(١) سكر الساقية : سدها . (٢) د : « أن يهيجوا عليك غضبا يوما » .
(٣) كذا فى د ، وفى ا ، ب « السنة » .

فليقولوا ، فقالوا : قل له : إنّ من كان قبلك من الخلفاء كان يعطينا ، ويَعرِف لنا مواضعنا ، وإنّ أباك قد حرَمنا ما في يديه . فدَخل إلى أبيه فأبلغه عنهم ، فقال : اخرج فقل لهم : إني أخاف إن عصيتُ ربّي عذاب يوم عظيم .

وروى سعيدُ بنُ عمّار ، عن أسماء بنت عبيد ، قال : دخل عنبسة بنُ سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ مَنْ كان قَبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عَطايا منعتناها ، ولي عيال وضَيْعة ، فأذن لي أخرج إلى ضيعتي ، وما يُصلح عيالي ! فقال عمر : إنّ أحبّكم إلينا من كفانا مؤونته . فخرج عنبسة ، فلما صار إلى الباب ناداه : أباخالد! أبا خالد ! فرجع فقال : أكثِرْ ذكرَ الموت فإن كنتَ في ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنتَ في سعةٍ من العيش ضيّقه عليك .

وروى عمرُ بن عليّ بن مقدّم ، قال : قال ابنٌ صغيرٌ لسليمان بن عبد الملك لمزاحم : إنّ لي حاجةً إلى أمير المؤمنين عمر ؛ قال : فاستأذنت له ، فأدخله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ أخذْت قطيعتي ؟ قال : معاذ الله أنْ آخذ قطيعةً ثبتت في الإسلام ! قال : فهذا كتابي بها — وأخْرَج كتابا من كمه — فقرأه عمر وقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : كانت للمسلمين ، قال : فالمسلمون أولَى بها . قال : فاردُد عليّ كتابي ؛ قال : إنك لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأمّا إذ جئتَني به فلستُ أدَعك تطلب به ماليس لك بحق. فبكى ابن سليمان ، فقال مُزاحم: يا أمير المؤمنين ، ابنُ سليمانَ تَصنَع به هذا — قال : وذلك لأن سليمان عَهِد إلى عمرَ ، وقدّمه على إخوته — فقال عمر : وَيْحك يامزاحم ! إنّي لأجد له من اللَّوْط[1] ما أَجِد لوَلَدي ، ولكنّها نفسي أجادلُ عنها .

وروَى الأوزاعيّ ، قال : قال هشام بنُ عبدِ الملك ، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان

---

(١) في اللسان : « قد لاط حبه بقلبي ، أي لصق ، وفي حديث أبي البختري : ماأزعم أن عليا أفضل من أبي بكر وعمر ؛ ولكن أجد له من اللوط ما لاأجد لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم » .

ابن عفان لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، استأنِف العملَ برأيك فيما تحتَ يدِك ، وخلِّ بين مَن سبقك وبين ما وُلّوه عليهم كان ، أوْ لهم ، فإنك مستكف أن تدخل فى خير ذلك وشرّه . قال : أنشدُكما الله الذى إليه تعودان ، لو أنّ رجلا هلك وترك بنينَ أصاغرَ وأكابرَ ، فغرّ الأكابرُ الأصاغرَ بقوّتهم ، فأكلُوا أموالهم، ثم بلغ الأصاغرُ الحلُم فجاءوكما بهم وبما صنعوا فى أموالهم ما كنتما صانعين ؟ قالا : كنا نردّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها. قال : فإنّى وجدتُ كثيرا ممن كان قبْلى من الوُلاة غرّ الناس بسلطانه وقوته ، وآثر بأموالهم أتباعه وأهلَه ورَهطَه وخاصّته ، فلمّا وليت أتونى بذلك ، فلم يسعْنى إلّا الردّ على الضعيف من القوىّ ، وعلى الدنىء من الشريف . فقالا : يوفّق الله أمير المؤمنين .

***

الأصْلُ

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلّهِ فِيهِ رِضًا، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْناً لِبِلَادِكَ ، وَلٰكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ . فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ.

وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ .

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ؛ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ.

فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ،

وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ ، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلا خِدَاعَ فِيهِ .

ولا تَعْقِده عَقْداً تُجَوِّزُ فيهِ الْعِلَلَ ، ولا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ والتَّوْثِقَةِ ، ولا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فإنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انفِرَاجَهُ وفَضْلَ عاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخافُ تَبِعَتَهُ ، وأَنْ تُحِيطَ بكَ مِنَ اللهِ طِلْبَةٌ لا تَسْتَقِيلُ فيها دُنْيَاكَ ولا آخِرَتَكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

أمَرَه أن يقبل السِّلم والصلح إذا دُعِى إليه، لما فيه من دَعَة الجنود ، والراحةِ من الهمّ ، والأمن للبلاد ، ولكن ينبغى أن يحذر بعد الصّلح من غائلة العدوّ وكيدِه ، فإنه ربما قارب بالصلح ليتغفّل ، أى يطلب غفلتك ، فخذ بالحزم ، واتّهِمْ حُسْنَ ظنك ، لاتثقْ ولا تسكنْ إلى حُسنِ ظنك بالعدوّ ، وكن كالطائر الحذِر .

ثمّ أمَرَه بالوفاء بالعهود ؛ قال : واجعل نفسَك جُنّةً دون ما أعطيت ، أى ولو ذهبتْ نفسُك فلا تَغدِر .

وقال الراوندىّ : الناس مبتدأ ، وأشدّ مبتدأ ثان ، ومن تعظيم الوفاء خبرُه ، وهذا المبتدأ الثانى مع خبره خبرُ المبتدأ الأول ، ومحلّ الجملة نَصْب لأنها خبرُ ليس ، ومحلّ ليس مع اسمه وخبره رَفع ، لأنه خبر ، فإنه وشىء اسمُ ليس ، ومن فرائض الله حال ، ولو تأخّرَ لكان صفةً لشىء . والصواب أنّ « شىء » اسم ليس ، وجاز ذلك وإن كان نكرةً لاعتماده على النفى ، ولأن الجارّ والمجرور قبله فى موضع الحال كالصفة ، فتخصّص بذلك وقَرُب من المعرفة ، والناسُ : مبتدأ ، وأشدّ : خبرُه ، وهذه الجملة المركبة من مبتدأ

وخبر فى موضع رَفْع لأنّها صفةُ « شىء » وأما خبر المبتدأ الذى هو « شىء » فمحذوف ، وتقديره « فى الوجود » كما حذف الخبر فى قولنا : لا إله إلاّ الله ، أى فى الوجود . وليس يصحّ ما قال الراوَنْدىّ من أنّ « أشدّ » مبتدأ ثان ، و « من تعظيم الوفاء » خبرُه ، لأن حرف الجرّ إذا كان خبرًا لمبتدأ تعلق بمحذوف ، وهاهنا هو متعلّق بأشدّ نفسه ، فكيف يكون خبرا عنه ! وأيضا فإنّه لا يجوز أن يكون أشدّ من تعظيم الوفاء خبرا عن الناس ، كما زَعم الراوندىّ ، لأنّ ذلك كلامٌ غيرُ مفيد ، ألا ترى أنّك إذا أردتَ أن تُخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذى هو « الناس » لم يَقُم من ذلك صورةٌ محصّلة تفيدك شيئا ، بل يكون كلاما مضطربا !

ويمكن أيضاً أن يكون « من فرائض الله » فى موضع رَفع ، لأنه خبر المبتدأ، وقد قدّم عليه ، ويكون موضع « الناس » وما بعده رفعٌ ، لأنه خبر المبتدأ الذى هو « شىء » كما قلناه أوّلا ، وليس يمتنع أيضا أن يكون : « من فرائض الله » منصوب الموضع، لأنه حال ، ويكون موضع « الناس أشدّ » رفعا ، لأنه خبر المبتدأ ، الذى هو « شىء » .

ثم قال له عليه السلام : وقد لزم المشركون مع شِرْكهم الوفاءَ بالعهود، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنّة ، فالإسلام أولى باللزوم والوفاء .

واستَوْبلوا : وجدوه وَبِيلا ، أى ثقيلا ، استوبلتُ البلدَ ، أىّ استوْخمته واستثقلْته ، ولم يوافق مِزاجَك .

ولا تَخيسَنّ بعهدك ، أى لا تَغدِرنّ ، خاسَ فلانٌ بذمته ، أى غدَر ونكَث .

قوله : « ولا تختلنّ عدوّك » ، أى لا تمكُرنّ به ، خَتَلته ، أى خدعتُه .

وقوله : « أفضاه بين عباده » ، جعله مشتركا بينهم ، لا يختصّ به فريق دون فريق .

قال : « ويستفيضون إلى جِـواره » ، أى ينتشرون فى طلب حاجاتهم ومآربهم ، ساكنين إلى جواره ، فإلى ها هنا متعلقة بمحذوف مقدّر ، كقوله تعالى : ﴿ فى تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْن ﴾[١] ، أى مرسلا . قال : « فلا إدْغال » ، أى لا إفساد ، والدَّغَـل : الفساد . ولا مُدالسة ، أى لا خديعـة ، يقال : فلانٌ لا يوالس ولا يُدالس ، أى لا يخادع ولا يخون ، وأصـل الدّلس الظلمة ، والتدليس فى البَيْع : كتمانُ عيبِ السِّلعة عن المشترى .

ثم نهاه عن أن يَعقِد عَقْدا يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب المخارج . ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدوّ أن ينقضه معوِّلا على تأويل خفىّ أو فحوى قول ، أو يقول : إنما عنيت كذا ؛ ولم أعن ظاهر اللفظة ؛ فإن العقود إنما تُعقد على ما هو ظاهر فى الاستعمال متداول فى الاصطلاح والعُرْف لا على مافى الباطن .

وروى « انفساحه » بالحاء المهملة ، أى سعته .

***

[فصل فيما جاء فى الحذر من كيد العدوّ]

قد جاء فى الحذر من كيد العدو والنهى عن التفريط فى الرأى السكون إلى ظاهر السلم أشياء كثيرة، وكذا فى النهى عن الغدْر والنهى عن طلب تأويلات العُهود وفسخها بغير الحقّ .

فرّط عبدُ الله بن طاهر فى أيام أبيه فى أمرٍ أشرف فيه على العطب ، ونجا بعد لأىٍ[٢] فكتب إليه أبوه : أتانى يا بُنىّ من خبر تفريطك ما كان أكبر عندى من نعيك لو وَرَدَ ، لأنى لم أرجُ قط ألّا تموت ، وقد كنتُ أرجو ألّا تفتضح بترك الحزْم والتيقظ .

وروَى ابنُ الكلبىّ أنّ قيسَ بن زهير لمّا قتَل حذيفة بنَ بدر ومن معه بجَفْر الهباءة،

---

(١) سورة النمل ١٢ . (٢) بعد لأى ؛ بعد جهد .

خرج حتى لحق بالنَّمِر بن قاسط وقال : لا تنظرُ فى وجهى غَطفانيَّةٌ بعد اليوم ؛ فقال : يا معاشرَ النَّمِر ، أنا قيس بنُ زهير ، غريبٌ حَرِيب طريد شريد موتور ، فانظروا لى امرأةً قد أدّبها الغِنَى وأذلّها الفقر . فزوّجوه بامرأةٍ منهم ، فقال لهم : إنّى لا أقيم فيكم حتى أخبرَكم بأخلاق ، أنا فخور غيور أنِف ، ولستُ أفخر حتى أبتلَى ، ولاأغارُ حتّى أرَى ، ولا آنَف حتى أظلَم . فرضُوا أخلاقه ، فأقام فيهم حتّى وُلِد له ، ثمّ أراد أن يتحوّل عنهم ، فقال : يامعشرَ النَّمِر ، إنّ لكم حقّا علىّ فى مُصاهرَتى فيكم ، ومُقامى بين أظهُرِكم ، وإنّى موصيكم بخصالٍ آمرُكم بها ، وأنهاكم عن خصالٍ : عليكم بالأناة فإنّ بها تُدرَك الحاجة ، وتَنال الفُرصة ، وتسويد من لا تُعابُون بتسويده ، والوفاء بالعهود فإنّ به يعيشُ الناس ، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنْع ما تريدون منعَه قبل الإنعام ، وإجارة الجار على الدّهر ، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامى ، وخَلْط الضَّيف بالعيال . وأنهاكُم عن الغَدر ، فإنه عارُ الدهر ، وعن الرِّهان فإنّ به ثكِلْتُ مالكاً أخى ، وعن البَغْى فإنّ به صُرِع زهيرٌ أبى ، وعن السَّرَف فى الدِّماء ؛ فإنّ قتلى أهلَ الهباءة أورثنى العار . ولا تُعطُوا فى الفُضول فتعجزُوا عن الحقوق ، وأنكحِوا الأيامى الأكفاء فإن لم تصيبوا بهنّ الأكفاءَ فخيرُ بيوتِهنّ القبور . واعلموا أنّى أصبحتُ ظالما ومظلوما ، ظلمنى بنو بدْر بقتلهم مالكا ، وظلمتُهم بقتلِى مَنْ لا ذنب له . ثمّ رحل عنهم إلى عُمار(١) فتنصّر بها ، وعفّ عن المآكل حتى أكل الحنظلَ إلى أن مات .

***

الأصْلُ :

إيَّاكَ والدِّماءَ وسَفْكَها بِغَيْرِ حِلِّها ، فإنَّهُ لَيْسَ شَىْءٌ أدْعَى لِنِقْمَةٍ ؛ ولا أعْظَمَ

(١) عمار : اسم واد بنجد .

لِتَبِعَةٍ ، وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ ؛ وَانقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ .

وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَأٍ ، وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً ، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ .

* * *

الشرح :

قد ذكرنا فى وصيّة قيس بن زهير آنفاً النهى عن الإسراف فى الدّماء ، وتلك وصيّة مبنيّةٌ على شريعة الجاهليّة مع حميّتها وتهالكها على القتل والقتال ، ووصيّة أمير المؤمنين عليه السلام مبنيّةٌ على الشريعة الإسلاميّة ، والنّهى عن القتل والعُدْوان الّذى لا يُسيغه الدّين ، وقد ورد فى الخبر المرفوع : « إنّ أوّل ما يقضى اللهُ به يوم القيامة بين العباد أمرُ الدّماء » . قال : إنّه ليس شيء أدعى إلى حلول النِّقم ، وزوال النِّعَم ، وانتقال الدُّول ، من سَفْك الدم الحرام ، وإنك إن ظننتَ أنّك تُقوِّى سلطانك بذلك ، فليس الأمرُ كما ظننتَ ، بل تضعفه ، بل تُعدِمه بالكليّة .

ثمّ عرّفه أنّ قتل العَمْد يوجب القَوَد وقال له : « قَوَد البَدَن » أى يجب عليك هَدْم صورتك كما هدمتَ صورةَ المقتول ، والمراد إرهابه بهذه اللّفظة أنّها أبلغ من أن يقول له : « فإنّ فيه القَوَد » .

ثم قال : إن قتلتَ خطأً أو شِبه عَمْدٍ كالضّرب بالسّوط فعليك الدِّية . وقد اختلف

الفقهاء فى هذه المسألة ، فقال أبو حنيفة وأصحابُه : القتل على خمسة أوجه : عمْد ، وشبه عمْد ، وخطأ ، وما أُجرِىَ مَجرَى الخطأ ، وقتْل بسبب .

فالعَمْد : ما تعمّد به ضرب الإنسان بسلاح ، أو ما يجرى مجرى السّلاح ، كالمحدّد من الخشب ولِيطة[1] القَصَب ، والمَرْوة[2] المحدّدة ، والنار ؛ وموجِب ذلك المأثم والقَوَد إلّا أن يعفوَ الأولياء ، ولا كفّارة فيه .

وشِبْه العمد أن يتعمّد الضرب بما ليس بسلاح ، ولا أجرِىَ مَجْرى السّلاح ، كالحجَر العظِيم ، والخَشَبة العظيمة ، وموجِب ذلك المأثم والكفّارة ، ولا قَوَد فيه ، وفيه الدّية مغلّظة على العاقلة .

والخطأ على وجهين : خطأ فى القصد ، وهو أن يَرْمِيَ شخصا يظنّه صَيْدا ، فإذا هو آدمىّ . وخطأ فى الفِعل ، وهو أن يَرمِى غَرَضا فيصيب آدميّا ، وموجب النوعين جميعا الكفّارة والدّية على العاقلة ، ولا مأثم فيه .

وما أجرى مجرى الخطأ مِثل النائم يتقلّب على رَجُل فيقتله ، فحُكمه حكمُ الخطأ .

وأمّا القتل بسبب ، فحافر البئرِ وواضعُ الحجَر فى غير مِلكه ، وموجِبه إذا تَلِف فيه إنسانٌ الدّيَة على العاقلة ، ولا كفّارة فيه .

فهذا قولُ أبىحنيفة ومَن تابَعه ؛ وقد خالَفه صاحباه أبو يوسف ومحمّد فى شِبْه العَمْد ، وقالا : إذا ضَرَبه بحجر عظيم أو خشبةٍ غليظة فهو عمْد ؛ قال : وشبه العمْد أن يتعمّد ضربه بما لا يقتل به غالبا ، كالعصا الصغيرة ، والسّوط ؛ وبهذا القول قال الشافعىّ .

وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّ المؤدّب من الوُلاة إذا تَلِف تحت

---

(١) الليط : قشر القصب اللازق به .

(٢) المروة : حجر أبيض براق ؛ وفى الحديث : «قال له عدى بن حاتم : إذا أصاب أحدنا صيداً وليس معه سكين ، أيذبح بالمروة وشقة العصا » ؟

يده إنسان فى التأديب فعليه الدّية ، وقال لى قوم من فقُهاء الإماميّة : إنّ مذهبَنا أن لا ديةَ عليه ، وهو خلافُ ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

***

الأصْـلُ :

وَإيَّاكَ وَالْإعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الْإطْرَاءِ ؛ فَإنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ .

وَإيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإحْسَانِكَ ؛ أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ ، فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإحْسَانَ ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾(١) .

وَإيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إمْكَانِهَا ، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إذَا تَنَكَّرَتْ ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إذَا اسْتَوْضَحَتْ ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .

وَإيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ ، فَإنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ .

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ . وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إلَى رَبِّكَ .

---

(١) سورة الصف ٣ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

***

الشَّرْحُ :

قد اشتمل هذا الفصلُ على وصايا نحنُ شارِحوها ، منها قولُه عليه السلام : « إيّاكَ وما يُعجبك من نفسك ، والثقة بما يُعجبك منها » ؛ قد ورد في الخبر : « ثلاثٌ مُهلِكات : شحٌّ مُطاع ، وهوًى متّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه » ؛ وفي الخبر أيضا : « لا وَحشةَ أشدّ من العُجْب » ، وفي الخبر : « الناسُ لآدَم ، وآدمُ من تراب ، فما لابن آدم والفخر والعجب ! » . وفي الخبر : « الجارّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظرُ الله إليه يومَ القيامة » ؛ وفي الخبر – وقد رأى أبا دُجانةَ يتبختَر : « إنّها لمشيةٌ يُبغضها الله إلّا بين الصفّين » .

ومنها قولُه : « وحُبّ الإطراء » ، ناظرَ المأمونُ محمد بنَ القاسم النُّوشَجانيّ المتكلّم ، فجعل يصدّقه ويُطرِيه ويستحسن قولَه ، فقال المأمون : يا محمّد ، أراكَ تنقادُ إلى ما تظنّ أنّه يسرّني قبل وجوب الحجّة لي عليك ، وتُطرِيني بما لستُ أحبّ أن أُطرَى به ، وتَستخذِي لي في المقام الّذي ينبغي أن تكون فيه مقاوِما لي ، ومحتجّا عليّ ، ولو شئت أن أقسِر الأمورَ بفضْل بيان ، وطُولِ لسان ، وأغتصِب الحجّة بقوّة الخلافة ، وأُبّهة الرّياسة لصدِّقت وإن كنت كاذبا ، وعَدلتُ وإن كنت جائرا ، وصُوِّبتُ وإن كنتُ مخطئا ،

لكني لا أرضى إلّا بغَلَبة الحجّة ، ودفع الشّبهة ، وإنّ أنقصَ الملوك عقلا ، وأسخفَهم رأيا ، مَنْ رضىَ بقولهم : صدَق الأمير .

وأثنى رجلٌ على رجل ، فقال : الحمدُ لله الّذى سترنى عنك . وكان بعضُ الصّالحين يقول إذا أطراه إنسان : ليسألكَ(١) اللهُ عن حُسن ظنّك .

ومنهـا قولُه : « وإيّاك والمَنّ » ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلوا صَدَقَاتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَى ﴾(٢) . وكان يقال : المَنّ محبّة للنفس ، مَفسَدة للصّنع .

ومنها نَهيُه إياه عن التزّيد فى فعله ، قال عليه السلام : إنّه يَذهَب بنُور الحقّ ، وذلك لأنّه محض الكذب ، مِثل أن يسدىَ ثلاثة أجزاء من الجميل فيدّعى فى المجالس والمحافِل أنّه أسدَى عشرةً ، وإذا خالط الحقَّ الكذبَ أذهبَ نورَه .

ومنها نهيُه إيّاه عن خُلف الوَعد ، قد مدح اللهُ نبيّا من الأنبياء وهو إسماعيل بنُ إبراهيمَ عليه السلام بصِدْق الوعد . وكان يقال : وعد الكريم نَقْدوتَعْجيل ، ووعدُ اللئيم مَطْل وتَعطيل . وكتب بعض الكتّاب : وحقّ لمن أزهرَ بقولٍ ، أنْ يُثمِر بفِعْل . وقال أبو مقاتل الضّرير : قلتُ لأعرابىّ : قد أكثر الناسُ فى المواعيد ؛ فما قولُك فيها ؟ فقال : بئس الشيء ! الوعد مَشغلة للقلب الفارغ ، مَتعبةٌ للبدن الخافض ، خيرُه غائب ، وشرّه حاضر . وفى الحديث المرفوع : « عِدَة المؤمن كأخذٍ باليد » ، فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فقال : « إنّه يوجب المَقْت » ، واستَشهَدَ عليه بالآية . والمَقْت : البُغض .

ومنها نهيُه عن العَجَلة ؛ وكان يقال : أصاب متثبّت أو كاد ، وأخطأَ عَجِلٌ أو كاد . وفى المَثَل : « ربَّ عَجَلةٍ تَهَب رَيْثا » ، وذمّها الله تعالى فقال : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾(٣) .

---

(١) فى د « لاسالك » . (٢) سورة البقرة ٢٦٤ . (٣) سورة الأنبياء ٣٧ .

ومنها نهيُه عن التّساقط فى الشيء الممكن عند حضوره ، وهذا عبارةٌ عن النهى عن الحِرْص والجشَع ، قال الشَّنفَرَى :

وإنْ مُدّت الأيدِي إلى الزّادِ لم أكنْ ... بأعجَلِهم إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

ومنها نهيه عن اللّجاجة فى الحاجة إذا تعذّرت ؛ كان يقال : من لاجّ اللهَ فقد جعَلَه خصما ، ومن كان الله خصمَه فهو مخصوم ، قال الغزّىّ :

دَعْها سماويّة تجرى على قَدَرٍ ... لا تُفْسِدَنْها برأىٍ منك مَعكوسِ

ومنها نهيُه له عن الوَهْن فيها إذا اُستوضحت، أى وَضَحتْ وانكشفتْ ، ويُرْوَى : « واستُوضِحَتْ » فِعلُ ما لم يسمّ فاعله ، والوَهْن فيها إهمالُها وتركُ انتهاز الفرصة فيها ، قال الشاعر:

فإذا أمكنتْ فبادرْ إليها ... حَذَرا من تعذُّر الإمكانِ

ومنها نهيُه عن الاُستئثار ، وهذا هو الُخلق النبوىّ ، غنِم رسولُ صلى الله عليه وآله غنائمَ خَيْبر ، وكانت مِلءَ الأرض نعما ، فلمّا ركب راحلتَه وسار تَبِعه الناس يطلبون الغنائم وقَسْمَها ، وهو ساكتٌ لا يكلّمهم ، وقد أكثروا عليه إلحاحا وسؤالا ، فمرّ بشجرة فخطفت[1] رداءه ، فالتفت فقال : ردّوا علىّ ردائى ، فلو ملكت بعدد رَمْل تِهامةَ مغنَما لقسمتُه بينكم عن آخره ثمّ لا تجدوننى بخيلا ولا جبانا ، ونَزَلَ وقَسَم ذلك المالَ عن آخره عليهم كلّه ، لم يأخذ لنفسه منه وبَرَةً .

ومنهانهيُه له عن التّغابى ، وصورة ذلك أنّ الأمير يُوحَى إليه أن فلانا من خاصّته يَفعل كذا، ويَفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتكبُها سرّا ، فيتغابَى عنه ويتغافل ، نهاه عليه السلام عن ذلك وقال : إنّك مأخوذٌ منك لغيرك ، أى معاقَب؛ تقول : اللّهمّ خذ لى من فلان بحقّى ، أى اللّهمّ انتقم لى منه .

---

(١) د « فاختطفت » .

ومنها نهيُه إيّاه عن الغضب ، وعن الحكم بما تقتضيه قوّته الغضبيّة حتّى يسكن غضبُه ، قد جاء فى الخبر المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غَضْبان » ، فإذا كان قد نُهِيَ أن يقضيَ القاضى وهو غَضْبان على غير صاحبِ الخصومة ، فبالأَوْلى أن يُنهَى الأميرُ عن أن يَسطوَ على إنسان وهو غَضبانُ عليه .

وكان لكسرى أنوشَرْوانَ صاحبٌ قد رتّبه ونَصّبه لهذا المعنى يقف على رأس المَلِك يومَ جلوسه ، فإذا غَضِب على إنسان وأَمَر به قَرَع سلسلة تاجِه بقضيب فى يده وقال له : إنّما أنت بَشَر ، فارحم مَن فى الأرض يَرْحَمْك مَنْ فى السماء .

* * *

الأصل :

ومن هذا العهد وهو آخره :

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ ، مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، من حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ؛ وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ(١) ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ [عَلَى(٢)] آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ .

* * *

الشرح :

رُوِيَ : « كلّ رَغيبة » ، والرغيبةُ ما يُرغَب فيه ؛ فأمّا الرّغبة فمصدَرُ رَغِب فى كذا ، كأنّه قال : القادرُ على إعطاء كلّ سؤال ، أى إعطاء كلّ سائل ما سأله .

---

(١) فى د « وإنا إليه راغبون » . (٢) من « د » .

ومعنى قوله : « من الإقامة على العُــذْر » ، أى أسأل الله أن يوفّقنى للإقامة على الاجتهاد ، وبَذْل الوُسْع فى الطاعة ، وذلك [لأنه[١]] إذا بذل جهدَه فقــد أعذَر ، ثمّ فسّر اجتهاده فى ذلك فى رضا الخَلْق ، ولم يفسّر اجتهاده فى رضا الخالق ، لأنه معلوم ؛ فقال : هو حُسنُ الثّناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد .

فإن قلت : فقولُه « وتمام النّعمة » على ماذا تَعطفه ؟

قلت : هو معطوفٌ على « ما » من قوله « لما فيه » ، كأنّه قال : أسأل الله توفيق لذا ولتمام النّعمة ، أى ولتمامِ نعمته علىّ ، وتضاعف كرامته لدىّ ، وتوفيقه لهما هو توفيقه للأعمال الصالحة الّتى يستوجبهما بها .

* * *

[فصل فى ذكر بعض وصايا العرب]

وينبغى أن يذكر فى هذا الموضع وصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصَوْا بهــا أولادَهم ورَهْطَهم ، فيها آدابٌ حسان ، وكلام فصيح ، وهى مناسبة لعهدِ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذا ، ووصاياه المودعة فيه ، وإن كان كلامُ أميرِ المؤمنين عليــه السلام أجلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام ، لأنّه قبَس من نور الــكلام الإلٰهىّ ، وفَرْع من دَوْحة المَنطِق النّبوىّ .

رَوى ابنُ الــكلبىّ قال: لمّا[٢] حضرت الوفاةُ أوسَ بنَ حارثة أخا الخَزْرج ، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس ، وكان لأخيه الخزرج خمسة ، قيل له : كنّا نأمرك بأن تتزوّج فى شبابك فلم تَفعل حتّى حضَرَك الموت ، ولا ولدَ لك إلّا مالِكٌ ! فقال : لم يهلِكْ هالكٌ تَرَكَ مِثْل مالك ، وإن كان الخزرجُ ذا عَدَد ، وليس لمالك ولد ، فلعلّ الذى استخرج

(١) من د .   (٢) أمالى القالى ١ : ٢٠ .

المَذْق من الجريمة (١) ، والنارَ من الوثيمة (٢) أن يجعل لمالكٍ نَسْلا ، ورجالا بُسْلا (٣) ، وكلّنا إلى الموت . يا مالك ، المنيّة ولا الدنيّة ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلّد لا التبلّد ، واعلم أن القبر خيرٌ من الفقر ، ومَنْ لم يُعطِ قاعداً حُرم قائما ، وشرّ الشرب الاشتفاف وشرّ الطعم الاقتفاف (٤) ، وذهاب البصر ، خيرٌ من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم الدّفع عن الحريم ، ومن قلّ ذَلّ ، وخيرُ الغِنَى القناعة ، وشرّ الفقر الخضوعُ . الدهر صَرْفان : صَرْف رخاء ، وصرف بلاء ؛ واليوم يومان : يوم لَك ويومٌ عليك ، فإذا كان لك فلا تَبطَر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينحَسِر (٥) وكيف بالسلامة ، لمن ليست له إقامة ، وحيّاك ربّك .

* * *

وأوصى (٦) الحارثُ بنُ كعب بنيه فقال : يا بنيّ ، قد أتت عليّ مائةٌ وستّون سنةً ما صافحتْ يمينى يمينَ غادر ، ولا قنَعتُ لنفسى بخلّة فاجر ، ولا صبوتُ بابنة عمّ ولا كنّة (٧) ، ولا بحتُ لصديق بسرّ ، ولا طرحتُ عن مُومِسَة قناعا ، ولا بقِىَ على دين عيسى بنِ مريمَ — وقد رُوِى على دينِ شُعيب — من العرب غيرى وغير تميم بن مرّ بن أسد ابن خزيمة ، فموتوا على شريعتى ، واحفظوا [علىّ](٨) وصيّتى ، وإلٰهكم فاتّقوا ، يكفِكم ما أهمّكم ، ويصلح لكم حالكم ، وإيّاكم ومعصيته ، فيحلّ بكم الدّمار ، ويُوحِش منكم الدّيار . كونوا جميعا ، ولا تفرّقوا فتكونوا شِيَعا ، وبُزّوا قبل أن تُبَزّوا (٩) ، فموت

---

(١) الجريمة : النواة ، والمذق : النخلة . (٢) الوثيمة : الصخرة .
(٣) بسل : جمع باسل ؛ وهو الشجاع. (٤) الاشتفاف : الامتصاص والاقتفاف : الأخذ بعجلة .
(٥) يعنى ينكشف .

(٦) الوصايا ١٢٣ ، ونسب هذه الوصية إلى مالك بن المنذر البجلى. قال : « وقد كان أصاب دماً فى قومه؛ فخرج هارباً بأهله حتى أتى بهم بنى هلال ، فلما احتضر أوصى بنيه ، وأمرهم أن يعطوا قومه النصف من حدثه الذى أحدثه فيهم .

(٧) الكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٨) تكملة من د . (٩) بزه : سلبه .

فى عزّ ، خيرٌ من حياة فى ذُلّ وعجز ، وكلّ ماهو كائن كائن ، وكلّ جمع إلى تباين ، والدهر صَرْفان : صرْف بلاء ، وصرف رخاء، واليوم يومان : يومُ حَبرة [١] ، ويوم عَبْرة ، والناس رجلان : رجلٌ لك ، ورجلٌ عليك . زوّجوا النساء الأكفاء ، وإلّا فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء ، وإيّاكم والوَرْهاء ، فإنّها أدوأ الدّاء ، وإنّ ولدها إلى أفن [٢] يكون . لا راحةَ لقاطع القرابة . وإذا اختلف القومُ أمكنوا عدوّهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضّل بالحسنة يَقِى السّيئة ، والمكافأة بالسيّئة دخول فيها ، وعمل السوء يُزيلُ النّعماء ، وقطيعة الرّحم تُورِث الهمّ ، وانتهاكُ الحرمة يُزيل النعمة ، وعقوق الوالدَين يُعقِب النّكَد ، ويُخرب البلد ، ويَمحق العدد ، والإسراف فى النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقد منعُ الرِّفْد ، ولزوم الخطيئة يُعقب البلية ، وسوء الدّعة [٣] يقطّع أسبابَ المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ؛ يا بَنىّ إنّى قد أكلتُ مع أقوام وشربتُ ، فذهبوا وغبرتُ ، وكأنّى بهم قد لحقتُ ، ثم قال :

أكلتُ شبابى فأفنيتُه ... وأبليتُ بعد دُهورٍ دُهورَا
ثلاثةَ أهلِين صاحبتُهمْ ... فبادُوا وأصبحتُ شيخاً كبيرَا
قليلَ الطعام عسيرَ القيا ... م قد ترَكَ الدهرُ خَطوِى قصيرَا
أبيتُ أُراعِى نجومَ السماء ... أقلّب أمرِى بُطونا ظُهورَا

* * *

وصّى أكثمُ بنُ صَيْفىّ بنيه ورهطَه فقال : يابَنِى تميم ، لا يفوتنّكم وَعْظى ، إن فاتكم الدهر بنفسى ، إنّ بين حَيْزومى وصدرى لكلاما لا أجدُ له مواقعَ إلاّ [٤] أسماعَكم ولا مقارّ إلاّ قلوبكم ، فتلقوْه بأسماع مُصْغية ، وقلوب دواعية ، تَحْمَدوا مَغَبّته : الهوى

---

(١) الحبرة : السرور . (٢) الأفن : الفساد .
(٣) الوصايا : « الرعة » . (٤) فى د « غير » .

يَقظان ، والعقل راقد، والشّهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفسُ مهملة، والروّية مقيَّدة، ومن جِهَة التّوانى وتَرك الروّية يتلف الحزْم ، ولن يَعدَم المُشاوِر مُرْشدًا ، والمستبدّ برأيه موقوف على مَـداحِض الزَّلل ، ومن سَمّع سُمِّع به ، ومصارعُ الرجال تحتَ بُروق الطمع ، ولو اعتُبرتْ مواقِعُ المحن ما وُجدتْ إلّا فى مَقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد ، ومَن سلك الجَدَد (١) أَمِن العثار ، ولن يَعْدم الحسودُ أن يُتعِب قلبه ، ويُشغل فكرَه ، ويُورث غَيظه ، ولا تجـاوز مضرّته نفسه . يا بنى تميم ، الصبرُ على جرع الحلم أعذَب من جنا ثمرِ الندامة ، ومن جَعل عِرْضه دون ماله استهدَفَ للذّمّ ، وكَلْم اللسّان أنكَى من كَلْم السّنان ، والكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجُم من الفم ؛ فإذا نجمتْ مزجت ، فهى أسدٌ محرَّب ، أو نار تَلَهَّب ، ورأىُ الناصح اللبيب دليلٌ لا يجـوز ، ونفاذُ الرأى فى الحرب ، أجدَى من الطّعن والضرب .

* * *

وأوصى يزيدُ بنُ المهلّب ابنه مَخْلَدًا حين استخلفه على جُرْجانَ ، فقال له : يا بُنَىّ ، قد استخلفتُك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحىّ من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مرتادَ الرّجالِ لنفعِهمْ ... فَرِشْ واصطَنِع عندَ الّذين بهم تَرمى

وانظر هذا الحىّ من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحىّ من تميم فأمطرهم (٢) ولا تُزْهَ لهم ، ولا تُدنِهم فيطمعوا ، ولا تُقصِهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحىّ من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، ومناصِفوهم المآثِر فى الإسلام ، ورضاهم منك البُشر . يا بنىّ ، إنّ لأبيك صنائع فلا تفسِدها ، فإنه كفى بالمرء نقصا أن يهدِم ما بنى أبوه ، وإياك والدّماء فإنه لا تقيّـةَ معها ، وإيّاكَ وشَتم الأعراض فـإنّ الحرّ

---

(١) الجدد : الأرض المستوية .
(٢) د « فانظرهم » .

لا يرضيه عن عِرضه عوض، وإيّاك وضربَ الأبْشار فإنه عارٌ باقٍ، ووِترٌ مطلوب، واستعمل على النّجدة والفضل دونَ الهوى ، ولا تعزل إلاّ عن عَجْز أو خيانة . ولا يمنعك من اصطناع الرّجل أن يكون غيرُكَ قد سبقك إليه ، فإنّك إنما تصطنع الرجالَ لفضْلها . وليكن صنيعُك عند مَنْ يكافئك عنه العشائر . احمل الناسَ على أحسن أدبك يكفُوكَ أنفسهم . وإذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولُك فيما بيني وبينك مَنْ يفقه عنّي وعنك ؛ فإنّ كتابَ الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سِرِّه . وأستودعُك الله ، فلا بدّ للمودّع أن يسكت ، وللمشيِّع أن يرْجع . وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك .

***

وأوصى قيس بنُ عاصم المِنْقَرِيّ بنيه ، فقال : يا بنيّ ، خذوا عنى فلا أحد أنصحُ لكم منّي . إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم ، فسوّدوا أكبرَكم ، فإنّ القوم إذا سوّدوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سوّدوا أصغرهم أزرى ذلك بهم فى أكفائهم . وإيّاكم ومعصية الله وقطيعة الرحِم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وَضَعوا اتّضَع . وعليكم بهذا المال فأصلحوه ، فإنه مَنْبهة للكريم ، وجُنّة لِعِرْض اللئيم . وإيّاكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ، وإن أحداً لم يسأل إلاّ ترك الكسب ، وإيّاكم والنِّياحة ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ينهىَ عنها ، وادفنونى فى ثيابى التى كنتُ أصلّى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بدفنى فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهليّة والإسلام ، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بى عارا . وخذوا عنّى ثلاثَ خِصال : إيّاكم وكلَّ عِرْق لئيم أن تُلابِسوه فإنه إن يسرُرْكم اليوم يسؤكم غداً ، واكظِموا الغيظ ، واحذروا بنىّ أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سَلفوا   فلَنْ تبيدَ وللآباء أبنـاء

قال ابن الكلبيّ : فيَحكى الناسُ هـذا البيت سابقا للزبير ، وما هـو إلّا لقيس ابن عاصم .

***

وأوصى عمرو بن كلثوم التَّغْلَبيّ[(١)] [بنيه][(٢)] فقال : يا بَنيّ ؛ إنّى قد بلغت من العمر مالم يبلغ أحدٌ من آبائى وأجدادى ، ولابدّ من أمر مقتبِـل ، وأن ينزل بى ما نزل بالآباء والأجداد والأمهات والأولاد ، فاحفظوا عنى ما أوصيكم به . إنّى والله ما عيّرت رجلا قطّ أمرا إلا عيّرنى مثله ؛ إنْ حقّا فحق ، وإنْ باطلا فباطل ، ومن سَبّ سُبّ ، فـكُفُّوا عن الشتم فإنه أسلم لأعْراضـكم . وصلوا أرحامكم تعمُرْ دارُكم[(٣)] ، وأكرموا جاركم بحسن ثنائـكم ، وزوّجوا بنات العمّ بنى العمّ فإن تعدّيتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ [عن][(٤)] الأكفاء . وأبعدوا بيوتَ النساء من بيوت الرجال ، فإنّه أغضّ للبصر ، وأعفُّ للذّكر ؛ ومتى كانت المعاينة واللّقاء ، ففى ذلك داء من الأدواء ، ولا خـير فيمن لا يغار لغيره كما يغارُ لنفسه ، وقلّ مَن انتهك حرمةً لغـيره إلّا انتُهِـكت حرمتهُ . وامنعوا القريب من ظُلْم الغريب ، فإنك تُدِلُّ على قريبك ، ولا يَحمل بك ذلّ غريبك ، وإذا تنازعتم فى الدماء فلا يكن حقّـكم الـكِفاء ، فربّ رجل خيرٌ من ألف ، ووُدّ خير من خلف ، وإذا حُدّثتم فَعُوا ، وإذا حَدّثتم فأوْجزوا ، فإنّ مع الإكثار يـكون الإهذار ، وموتٌ عاجل خيرٌ من ضَنًى آجل ، وما بكيتُ من زمان إلّا دهانى بعده زمان ، وربمـا شَجَانى[(٥)] من لم يكن أمرُه

---

(١) ب : « الثعلبي » تحريف .
(٢) تـكملة من د .
(٣) فى د « دياركم » .
(٤) من د .
(٥) شجانى : أحزنى .

عَنانى ، وما عجبتُ من أحْدوثة إلّا رأيت بعدها أعجوبة. واعلموا أنّ أشجع القوم العَطوف، وخيرُ الموت تحت ظِلال السيوف ، ولا خير فيمن لا رويّة له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عُوتب لم يُعْتِب ، ومن الناس من لا يرجَى خيره ، ولا يخاف شرّه ، فبكوءه[١] خير من درّه ، وعقوقه خيرٌ من برّه، ولا تُبرحوا فى حبكم فإن من أبرَح فى حبٍ آلَ ذلك إلى قبيح بغض ، وكم قد زارنى إنسان وزُرْته ، فانقلب الدّهر بنا فقبَرْته . واعلموا أنّ الحليم سليم ، وأن السفيه كليم ، إنى لم أمت ولكن هرِمت ، ودخلتنى ذِلّة فسكتّ ، وضعف قلبى فأهترت[٢] ، سلّمكم ربكم وحيّاكم !

* * *

ومن كتاب أرْدَشير بن بابَك إلى بنيه والملوك من بعده : رشاد الوالى خيرٌ للرعيّة من خصْب الزمان ، الملك والدِّين توءمان لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه ، فالدِّين أُسُّ المُلْك وعمادُه ، ثم صار المَلِكُ حارسَ الدّين، فلابدّ للمُلك من أسّه ، ولابدّ للدّين من حارسه، فأمّا مالا حارس له فضائع ، ومالا أسَّ له فمهدوم ، إنّ رأسَ ما أخاف عليكم مبادرة السّفلة إيّاكم إلى دراسة الدّين وتأويله والتفقّه فيه ، فتحملكم الثّقة بقوّة الملك على التهاون بهم ، فتحدث فى الدّين رياساتٌ منتشرات سرًّا فيمن قد وترتم وجَفَوْتم ، وحرمتم وأخفتم ، وصغّرتم من سِفْلة النّاس والرعيّة وحَشْو العامّة ، ثمّ لا تنشَب تلك الرّياسات أن تحدث خُرْقا فى المُلك ووَهْنا فى الدولة . واُعلموا أنّ سلطانكم إنّما هو على أجساد الرعيّة لا على قلوبها ، وإن غلبتم النّاسَ على مافى أيديهم فلن تغلبوهم على مافى عقولهم وآرائهم ومكايدهم . واُعلموا أنّ العاقل المحروم سَالٌّ عليكم لسانه،وهو أقطعُ سَيْفيه ، وإن أشدّ مايضرّ بكم من لسانه ماصرف الحيلة فيه إلى الدّين، فكان للدنيا يحتج[٣]، وللدين فيما يظهر يتعصّب ، فيكون

---

(١) بكأت الناقة بكوءا : قل لبنها .

(٢) الهتر : ذهاب العقل . (٣) ا : « يجنح » .

للدين بكاؤه ، وإليه دعاؤه ، ثمّ هو أوحد للتّابعين والمصدّقين والمناصحين والمؤازرين ، لأنّ تعصّب[١] الناس موكّل بالملوك ، ورحمتهم ومحبّتهم موكّلة بالضّعفاء المغلوبين ، فاحذروا هذا المعنى كل الحذر .

واعلموا أنّه ليس ينبغي للمَلِك أن يعرّف للعبّاد والنسّاك بأن يكونوا أوْلَى بالدّين منه ، ولا أحْدَبَ عليه ولا أغضَبَ له . [ولا ينبغي له][٢] أن يخلِيَ النّسّاك والعبّاد من الأمر والنهي في نُسُكهم ودينهم ، فإنّ خروج النسّاك وغيرهم من الأمر والنّهي عيبٌ على الملوك وعلى المملكة ، وثُلْمة بيّنة الضّرر على الملك وعلى مَنْ بعده.

واعلموا أنّه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان الملِك منهم يتعهّد الحماية بالتفتيش والجماعة بالتفضيل ، والفراغ بالإشغال ، كتعهّده جَسَده بقصّ فضول الشعر والظّفر وغَسْل الدّرن والغمر[٣] ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن ، وقد كان من أولئك الملوك مَنْ صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده ، فتتابعتْ تلك الأملاك بذلك كأنّهم ملك واحد ، وكأنّ أرواحَهم روحٌ واحدة ، يمكّن أوّلهم لآخرهم ، ويصدّق آخرهم أوّلهم ، يجتمع أبناء أسلافهم ، ومواريث آرائهم ، وثمرات عقولهم عند الباقي منهم بعدهم ، وكأنّهم جلوسٌ معه يحدّثونه ويشاورونه ، حتّى كأنّ على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرّومي على ما غلب عليه من مُلْكه . وكان إفسادُه أمرنا ، وتفرقتُه جماعتَنا ، وتخريبُه عمران مملكتنا أبلغَ له فيما أراد من سَفْك دمائنا ، فلمّا أذن الله عزّ وجلّ في جمع مملكتنا ، وإعادة أمرنا ، كان من بعثه إيانا ما كان . وبالاعتبار يُتّقَى العثار ، والتجارب الماضية دستورٌ يُرجَع إليه من الحوادث الآتية .

واعلموا أنّ طباع الملوك على غير طباع الرعيّة والسوقة : فإن الملِك يطيف به العزّ ، والأمن والسّرور والقُدْرة على ما يريد ، والأنَفَة والجرْأة والعبث والبَطَر ، وكلّما ازداد

---

(١) في د « بغض » . (٢) تكملة من د . (٣) ب : « والنمص » .

فى العُمر تنفسًا ، وفى الملك سلامةً ازداد من هذه الطبائع والأخلاق حتى يُسلمه ذلك إلى سُكْر السّلطان الّذى هو أشدّ من سكر الشراب ، فينسى النكبات والعَثَرات ، والغِيَر والدوائر وفحش تسلُّط الأيام ، ولؤم غلبة الدهر ، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول . وعند حُسن الظنّ بالأيام تحدثُ الغِيَر ، وزوال النِّعم ؛ وقد كان من أسلافنا وقدَماء مُلوكنا مَنْ يذكِّرهُ عزّه الذلّ ، وأمْنُه الخوف ، وسروره الكآبة ، وقدرته المَعْجَزَة ، وذلك هو الرّجل الكامل قد جمع بهجة الملوك ، وفكرة السُّوقة ، ولا كمال إلّا فى جمعها .

واعلموا أنّكم ستُبلَوْن على الملك بالأزواج والأولاد والقُرباء والوُزَراء والأخدان ، والأنصار والأعوان والمتقرّبين والنُّدماء والمُضحِكين ، وكلّ هؤلاء ــ إلّا قليلا ــ أن يأخذ لنفسه أحبُّ إليه من أن يعطى منها عمله ، وإنما عمله سوقٌ ليومه ، وذخيرةٌ لغده ، فنصيحتُه الملوكَ فضلُ نصيحته لنفسه وغاية الصّلاح عنده صلاحُ نفسه ، وغاية الفساد عنده فسادُها ؛ يقيم للسلطان سوق المودّة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع ، إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقتْ عليه ظُلَم الجهالة . أخوَف ما يكون العامّة [آمن ما يكون الوزراء ، وآمن ما يكون العامة[1]] أخوف ما يكون الوزراء .

واعلموا أن كثيرا من وزراء الملوك من يُحاول استبقاء دولته وأيامه بإيقاع الاضطراب ، والخَبْط فى أطراف مملكة الملك ، ليحتاج الملك إلى رأيه وتدبيره ؛ فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فاعزلوه فإنّه يُدخِل الوَهن والنقْص على الملك والرعيّة لصلاح حال نفسه، ولا تقوم نفسُه بهذه النّفوس كلّها .

واعلموا أنّ بدء ذهاب الدّولة ينشأ من قِبَل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة ولا أعمالٍ معلومة، فإذا نشأ الفراغ تولّد منه النّظر فى الأمور ، والفكر فى الفروع والأصول. فإذا نظروا فى ذلك نظروا فيه بطبائعَ مختلفةٍ ، فتختلف بهم المذاهب ، ويتولّد من اختلاف مذاهبهم تعادِيهم وتضاغُنهم ، وهم مع اختلافهم هذا متّفقون ومجتمعون على بغض الملوك ، فكلّ صِنفٍ منهم إنّما يجرى إلى فَجيعةِ الملك بملكه ، ولكنّهم لا يجدون سُلّما إلى

(١) تكملة من د وبها يستقيم الكلام .

ذلك أوثقَ من الدّين والناموس ، ثمّ يتولّد مِن تمادِيهم أنّ المَلِكَ لايستطيع جمعَهم على هوًى واحد ، فإن انفرد باختصاص بعضِهم صارَ عدوَّ بقيّتِهم . ولى طباع العامة استثقالُ الوُلاة ومَلاُلهم ، والنَّفاسة (١) عليهم ، والحسد لهم ، وفى الرعيّة المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود ، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يَجبُنَ الملِك عن الإقدام عليهم ، فإنّ فى إقدام الملك على الرعيّة كلّها كافّة تغريراً بمُلكه . ويتولّد مِن جُبْن المَلِك عن الرعيّة استعجالهم عليه ، وهم أقوى عدوّ له وأخلقُه بالظَّفَر ، لأنّه حاضر مع الملك فى دار ملكه ، فمن أفضَى إليه الملكُ بعدى فلا يكونَنّ بإصلاح جسده أشدَّ اهتماما منه بهذه الحال ، ولا تكونَنّ لشيء من الأشياء أكره وأنكرُ لرأسٍ صار ذَنَبا ، وذَنَبٍ صار رأسا ، ويد مشغولة صارت فارغةً ، أو غنيٍّ صارَ فقيرا ، أو عامل مصروف ، أو أمير معزول .

واعلموا أنّ سياسة الملك وحراسته ألّا يكون ابن الكاتب إلّا كاتبا ، وابن الجندىّ إلّا جنديّا ، وابن التاجر إلّا تاجرا ، وهكذا فى جميع الطبقات ، فإنّه يتولّد من تنقّل النّاسِ عن حالاتهم أن يلتمس كلّ امرئٍ منهم فوقَ مرتبته ، فإذا انتقل أو شكَّ أن يرى شيئاً أرفع مما انتقل إليه ، فيَحسُدَ أو ينافسَ ، وفى ذلك من الضرر المتولّد ما لا خفاء به ، فإنْ عجز مَلكٌ منكم عن إصلاح رعيّته كما أوصَيْناه فلا يكون للقميص القَمِل أسرَع خلعا منه لما لبِسَ من قميص ذلك المُلْك .

واعلموا أنّه ليس مَلكٌ إلّا وهو كثير الذِّكْر لمن يلِى الأمرَ بعده ، ومن فساد أمر الملك نشرُ ذِكره ولاةَ العهود ، فإنّ فى ذلك ضُروباً من الضّرر ، وأنّ ذلك دخولُ عداوةٍ بين الملك وولىّ عهدِه ، لأنّه تطمح عينُه إلى الملك ، ويصير له أحبابٌ وأخدان يمنّونه ذلك ، ويستبطئون موتَ الملك . ثم إنّ الملكَ يستوحش منه ، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدِهما ، ولكن لينظرْ الوالى منكم لله تعالى ثمّ لنفسه ثمّ للرعيّة ، ولْينتخبْ وليّا للعهد من بعده

(١) النفاسة : كراهة الخير لهم .

ولا يُعلمه ذلك ، ولا أحد من الخلق قريبا كان منه أو بعيدا ، ثم يكتب اسمه في أربع صحائف ، ويَختمها بخاتمه ، ويضعها عند أربعة نفرٍ من أعيان أهل المملكة ، ثمّ لا يكون منه في سرّه وعلانيته أمرٌ يستدلّ به على وليّ عهده من هؤلاء في إدنائه وتقريب يعرف به ، ولا في إقصاء وإعراضٍ يُستراب له . وليتّق ذلك في اللحظة والكلمة ، فإذا هلك الملك جُمعتْ تلك الصحائفُ إلى النسخة التي تكون في خزانة الملك ، فتفضّ جميعا ، ثم ينوّه حينئذ باسم ذلك الرجل ، فيلقى الملك إذا لقيه بحداثة عهده بحال السّوقة ، ويلبسه إذا لبسه ببصر السوقة وسمعها ، فإنّ في معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكْراً تُحدِثه عنده ولايةُ العهد ، ثم يلقاه الملك فيزيده سُكْراً إلى سكره ، فيَعمَى ويَصَمّ ، هذا مع ما لابدّ أن يلقاه أيام ولاية العَهْد من حِيَل العُتاة ، وبغي الكذّابين ، وترقية النّمامين ، وإيغار صدره ، وإفسادِ قلبه على كثير من رعيّته ، وخواصّ دولته ، وليس ذلك بمحمود ولا صالح .

واعلموا أنّه ليس للمَلِك أن يحلف ، لأنّه لا يقدر أحدٌ استكراهه ، وليس له أن يغضب لأنّه قادر ، والغضب لقاح الشرّ والندامة ، وليس له أن يَعبث ويَلعب ، لأنّ اللعب والعَبث من عمل الفُرّاغ ، وليس له أن يفرَغ لأنّ الفَرَاغ من أمرِ السّوقة ، وليس للمَلِك أن يَحْسُد أحداً إلّا على حُسْن التدبير ، وليس له أن يَخافَ لأنه لا يدَ فوقَ يدِه .

واُعلموا أنّكم لن تَقدِروا على أن تَختِموا أفواهَ النّاس من الطّعن والإزْراء عليكم ، ولا قدرةَ لكم على أن تَجعَلوا القبيحَ من أفعالكم حَسَنا ؛ فاُجتهدوا في أن تَحسُن افعالُكم كلّها ، وألّا تجعلوا للعامّة إلى الطّعن عليكم سبيلا .

واُعلموا أنّ لِباسَ المَلِك ومَطْعمه ومَشربه مقاربٌ للباس السّوقة ومطعمهم ، وَليس

فضل المَلِكِ على السُّوقة إلّا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم ، فإنّ الملك إذا شاء أحسنَ ، وليس كذلك السُّوقة .

واعلموا أنّ لكلّ ملك بطانةً ، ولكلّ رجل من بطانته بطانة ، ثمّ إنّ لكل امرئ من بطانة البطانة بطانة ، حتّى يجتمعَ من ذلك أهلُ المملكة ، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصّواب فيهم ، أقامَ كلّ امرئ منهم بطانته على مِثلِ ذلك حتّى يجتمع على الصّلاح عامّة الرعيّة .

احذروا باباً واحداً طالما أمِنْتُه فضرّني، وحَذِرته فنفعني. احذروا إفشاءَ السرّ بحضْرة الصِّغار من أهليكم وخدمِكم ، فإنّه ليس يَصغُر واحدٌ منهم عن حَمْل ذلك السرّ كاملا ؛ لا يترك منه شيئاً حتّى يضعَه حيثُ تكرهون إما سقطا أو غشّا .

واعلموا أنّ في الرعيّة صِنْفاً أتوا الملك من قِبَل النصّاح له ، والتمسوا إصلاحَ منازلهم بإفساد مَنازِل الناس ، فأولئك أعداء الناس وأعداء الملوك ، ومَنْ عادى الملوكَ والنّاسَ كلّهم فقد عادى نفسَه .

واعلموا أنّ الدّهر حاملُكم على طبقات ؛ فمنها حال السّخاء حتّى يدنوَ أحدُكم من السَّرف، ومنها حال التبذير حتّى يدنوَ من البُخْل ، ومنها حالُ الأناةِ حتّى يدنوَ من البَلادة، ومنها حالُ انتهاز الفُرْصة حتّى يدنوَ من الخِفّة ، ومنها حالُ الطّلاقة في اللسان حتّى يدنوَ من الهَذَر ، ومنها حالُ الأخذ بحَكَمة [1] الصّمت حتّى يدنوَ من العيّ ، فالملِك منكم جديرٌ أن يبلُغ من كلّ طبقة في محاسنها حَدّها ، فإذا وقف عليه ألجم نفسَه عمّا وراءَها .

واعلموا أن ابن الملِك وأخاه وابنَ عمّه يقول : كدت أن أكون مَلِكا ، وبالحريّ ألّا أموت حتّى أكون مَلِكا ، فإذا قال ذلك قال ما لا يسرّ الملك ، وإن كتمه فالدّاء

(١) الحكمة في الأصل : اللجام ؛ والكلام على الاستعارة .

فى كلّ مكتوم ، وإذا تمنّى ذلك جعل الفساد سُلّما إلى الصلاح ، ولم يكن الفساد سُلّما إلى صلاح قطّ . وقد رسمتُ لكم فى ذلك مثالًا ، اجعلوا المُلْك لا ينبغى إلّا لأبناء الملوك من بنات عمومتهم ، ولا يصلح من أولاد بنات العمّ إلا كامل غير سخيف العقل ، ولا عازبُ الرأى ، ولا ناقص الجوارح ، ولا مطعونٌ عليه فى الدّين ، فإنّكم إذا فعلتم ذلك قلّ طلّاب الملك ، وإذا قلّ طلّابُه استراح كلّ امرئ إلى ما يليه ، ونزع إلى حَدِّ يَليه ، وعرف حاله ، ورضى معيشته ، واستطاب زمانه .

فقد ذكرنا وصايا قوم من العرب ، ووصايا أكثر ملوكِ الفُرْس وأعظمهم حكمةً لتُضَمّ إلى وصايا أميرِ المؤمنين فيحصلَ منها وصايا الدّين والدنيا ، فإنّ وصايا أميرِ المؤمنين عليه السلام ، الدّينُ عليها أغلب ، ووصايا هؤلاء الدّنيا عليها أغلَب ، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِد ، ولا سعيد إلّا مَن أسعده الله .

(٥٤)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعيّ، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافى فى كتاب المقامات :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا ـ وَإِنْ كَتَمْتُمَا ـ أَنِّى لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِى ، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِى ؛ وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِى وَبَايَعَنِى ، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِى لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلَا لِحِرْصٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِى طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِى كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِى عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ . وَلَعَمْرِى مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ .

وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّى قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيْنِى وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّى وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ .

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ؛ فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا الْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ . والسلام .

***

الشَّرْحُ :

[عمران بن الحصين]

هو عمران بنُ الحصَين بن عبيد بن خَلَف بن عبد بن نُهْم بن سالم بن غاضرة بن سَلول ابن حُبْشِيّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخزاعيّ . يكنى أبا بُجَيْد بابنه بُجَيد بن عمران . أسلَمَ هو وأبو هريرة عامَ خَيْبر ، وكان من فضلاء الصّحابة وفقهائهم ، يقول أهلُ البصرة عنه : إنّه كان يرى الحفَظة ، وكانت تكلّمه حتّى اكتوَى .

وقال محمّد بن سِيرين : أفضلُ من نَزَل البصرةَ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله عمرانُ بن الحصَين وأبو بَكْرة . واستقضاه عبد الله بن عامر بن كُرَيز على البصرة فعَمِل له أيّاما ، ثم استعفاه فأعفاه ، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين فى أيّام معاوية .

* * *

[أبو جعفر الإسكافيّ]

وأمّا أبو جعفر الإسكافيّ — وهو شيخنا محمّد بن عبد الله الإسكافيّ — عدّه قاضى القضاة فى الطّبقة السابعة من طبقات المُعتزِلة مع عباد بن سُلَيمان الصَّيْمَرىّ ، ومع زُرْقان ، ومع عيسى بن الهيثم الصوفىّ ، وجعل أوّل الطبقة ثُمامَة بن أشرس أبا معن ، ثم أبا عثمانَ الجاحظ ، ثم أبا موسى عيسى بن صُبَيح المردار ، ثم أبا عمران يونُس بن عمران ثمّ محمّد بن شبيب ، ثم محمّد بن إسماعيل بن العسكرىّ ، ثم عبد الكريم بن رَوْح العسكرىّ ، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام ، ثمّ أبا الحسين الصالحىّ ،

ثم الجعفران : جعفر بن جرير وجعفر بن ميشّر ، ثم أبا عمران بن النقّاش ، ثمّ أبا سعيد أحمد ابن سعيد الأسدىّ ، ثم عبّاد بن سليمان ، ثم أبا جعفر الإسكافىّ هــذا . وقال : كان أبو جعفر فاضلا عالما ، وصنّف سبعين كتابا فى علم الـكلام .

وهو الّذى نقض كتابَ ''العثمانيّة'' على أبى عثمان الجاحظ فى حياته ، ودخـل الجاحظ الورّاقين ببغداد ، فقال : مَنْ هذا الغلام السّوَادىّ الّذى بلغنى أنّه تعرّض لنقض كتابى ! وأبو جعفر جالسٌ ! فاُختفى منه حتّى لم يَرَه .

وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزِلة بغداد ، ويبالغ فى ذلك ، وكان عَلَوِىَّ الرأى ، محقّقا مُنصفا ، قليلَ العَصبيّة .

***

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصْل ومعانيه :

قوله عليــه السلام : « لم أُرِد النّاس » ، أى لم أُرِد الولايةَ عليهم حتّى أرادوا هم منّى ذلك .

قال : « ولم أبايِعْهم حتى بايعونى » ، أى لم أمدُدْ يدى إليهم مدّ الطّلَب والحِرْص على الأمر ، ولم أمدُدها إلّا بعد أن خاطَبُونى بالإمْرَةِ والخلافة ، وقالوا بألسنتهم : قد بايعناك ، فحينئذ مددتُ يدى إليهم .

قال : ولم يبايعنى العامّــة والمسلمون لسلطانٍ غَصَبهم وقهرَهم على ذلك ، ولا لحرص حاضر ، أى مال موجود فرّقته عليهم .

ثم قسم عليهما الـكلام ، فقال : إن كنتما بايَعْتُمانى طـوعا عن رضا فقد وجب عليــكما الرّجوع ، لأنه لا وجه لانتقاض تلك البيعة ، وإن كنتما بايعتُمانى مكْرَهَيْن عليها فالإكراه

له صورةٌ ، وهى أن يجرّد السيف ويمدّ العنق ، ولم يكن قد وقع ذلك ، ولا يمكنكما أن تدّعياه ، وإن كنتما بايعتمانى لا عن رضاً ولا مكرهين بل كارهين ، وبين المُكْرَه والكاره فرقٌ بيّن ، فالأمور الشرعيّة إنما تُبنى على الظاهر ، وقد جعلتُما لى على أنفسكما السّبيل بإظهاركما الطاعة ، والدخول فيما دخل فيه الناس ، ولا اعتبار بما أسررْتما من كراهية ذلك . على أنه لو كان عندى ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون فى كراهية ذلك سواء ؛ فما الذى جعلكما أحقَّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتقيّة !

ثم قال : وقد كان امتناعكما عن البيعة فى مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثم نكثها .

قال : وقد زعمتما أنّ الشبهة التى دخلت عليكما فى أمرى أنى قتلتُ عثمان ، وقد جعلتُ الحكَم بينى وبينكما من تخلّف عنّى وعنكما من أهل المدينة ، أى الجماعة التى لم تَنصُر عليّا ولا طلحة ، كمحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، يعنى أنهم غيرُ متّهمين عليه ولا على طلحة والزبير ، فإذا حكموا لزم كلّ امرئٍ منّا بقدر ماتقتضيه الشهادات . ولاشبْهة أنهم لوحكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة علىّ عليه السلام من دم عثمان ، وبأن طلحة كان هو الجملة والتفصيل فى أمره وحصره وقتله ، وكان الزبير مساعداً له على ذلك ، وإن لم يكن مكاشفا مكاشفة طلحة .

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة ، وقال لهما : إنكما إنما تخافان العار فى رجوعكما وانصرافكما عن الحرب ، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنار ؛ أما العار فلأنكما تهزمان وتفرّان عند اللقاء فتعيَّران بذلك ، وأيضا سيُكشف للنّاس أنكما كنتما على باطل فتعيَّران بذلك ، وأما النار فإليها مصيرُ العُصاة إذا ماتوا على غير توبة واحتمال العار ، وحده أهوَنُ من احتماله واحتمال النارِ معه.

(٥٥)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا ، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا ، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا ، وَقَدِ ابْتَلَانِي اللهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي ، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي ، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ .

فَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ، وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

***

الشرحُ :

قال عليه السلام : « إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها » ، أى جعلها طريقاً إلى الآخرة .

ومن الكلمات الحكميّة : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وابتلى فيها أهلها أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسنُ عملا ، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز ، والمراد ليعلم خلقه ،

أو ليعلم ملائكته ورُسُله ، فحذف المضاف ، وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدم ،
قال : « ولسنا للدنيا خُلِقنا » ، أي لم نخلق للدنيا فقط .

قال : « ولا بالسعى فيها أمرنا » ، أي لم نؤمر بالسعى فيها لها ، بل أُمِرْنا بالسعى فيها لغيرها .

ثم ذكر أنّ كلّ واحد منه ومن معاوية مُبتَلًى بصاحبه ، وذلك كابتلاء آدم بإبليسَ وإبليسَ بآدم .

قال : «فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن » ، أي تعدّيت وظلمت ، و « على » ها هنا متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام ، تقديرُه مثابرا على طلب الدنيا أو مصرّا على طلب الدنيا ، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم : أنا وليّ عثمان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن قُتِلَ مظلوماً فقَدْ جعَلْنا لوليّه سلطانا[١] ﴾ .

ثم يعِدُهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى : ﴿ فلا يُسرِفْ فى القتْلِ إنّه كانَ منصوراً[١] ﴾ .

قوله : « وعصبته أنت وأهل الشام » ، أى ألزمتنيه كما تلزم العصابة الرأس ، « وألّب عالمكم جاهلكم » ؛ أىّ حرّض .

والقياد : حبل تقاد به الدابّة .

قوله : واحذر أن يصيبك اللهُ منه بعاجل قارعة ، الضمير فى « منه » راجعٌ إلى الله تعالى ، « ومن » لابتداء الغاية .

---

(١) سورة الإسراء ٣٣ .

وقال الراونديّ : منه ، أى من البُهْتان الذى أتيته ، أى من أجله ، و « من » للتعليل، وهذا بعيد وخلاف الظاهر .

قوله : « تمسّ الأصل » ، أى تقطعه ، ومنه ماء ممسوس أى يقطع الغُلّة . ويقطَع الدابر أى العقب والنسل .

والأليّـة : اليمين . وباحة الدار : وَسَطها ، وكذلك ساحَتُها ، ورُوى بناحيتك .

قوله : « بماجل قارعة ، وجوامع الأقدار » ، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف[1] للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ وإنه لحق اليقين[2] ﴾ .

(١) د : « الصلة إلى الموصول » .   (٢) سورة الحاقة ٥١ .

(٥٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وصى به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام :

اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ ، وَلَا تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ .

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً ، وَلِنَزَوَاتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً .

***

[شريح بن هانئ]

الشرح :

هو شُرَيح بنُ هانئ بنِ يزيدَ بنِ نهيك بن دُرَيد بنِ سُفيان بن الضِّباب ، وهو سَلَمَة ابن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب المَذْحِجيّ . كان هانئ يُكنَى فى الجاهليّة أبا الحكم ، لأنّه كان يَحْكم بينهم ، فكناه رسولُ الله صلّى الله عليه وآلهِ بأبى شُرَيح ، إذ وفد عليه . وابنه شُرَيح هذا من جِلّة أصحابِ علىٍّ عليه السلام، شَهِد معه المشاهد كلَّها، وعاش حتّى قُتِل بسِجِسْتان فى زمن الحجّاج ، وشُرَيْح جاهلىّ إسلامىّ ، يكنَى أبا المِقْدام،

ذَكَرَ ذلك كلَّه أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ فى كتاب الاستيعاب[١] .

قولُه عليه السلام : وخَفْ على نفسك الغَرورَ ، يعنى الشيطان ، فأما الغُرور بالضمّ فمصدر . والرادع : الكافّ المانع . والنَّزَوات : الوَثَبات . والحَفِيظة : الغضب . والواقِم : فاعلٌ ، من وقَمْتُه أى رددتُه أقبحَ الردّ وقهرتُه . يقول عليه السلام : إنْ لم تَردَع نفسَك عن كثير من شَهَواتِك أفضتْ بك إلى كثيرٍ من الضّرر ، ومثلُ هذا قولُ الشاعر :

فإنَّكَ إنْ أعطيتَ بطنَك سُؤْلَها　　وفَرْجَك نالَا مُنتهَى الذَّمِّ أجمَعَا[٢]

---

(١) الاستيعاب ٦٠٧ .　　(٢) البيت لحاتم ، وهو من شواهد المغنى ٣٣١ .

(٥٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي خَرَجْتُ عَنْ حَيِّي هَـذَا إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً ، وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ ، وَأَنَا أُذَكِّرُ اللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي ، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي .

***

الشرح :

ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلغَه فى عطف القلوب عليه ، واستمالة النفوس إليه !

قال : لا يَخلو حالى فى خُروجى من أحد أمرين : إمَّا أن أكون ظالما أو مظلوما ، وبدأ بالظّالم هَضْما لنفسه[1] ، ولئلّا يقول عدوه : بدأ بدعوَى كونه مظلوما ، فأعطَى عدوَّه من نفسِه ما أراد .

قال : فلينفِر المسلمون إلىّ فإنْ وجدونى مظلوما أعانونى ، وإن وجدونى ظالما نهَوْنى عن ظُلمى لأعتِبَ وأنيبَ إلى الحقّ . وهذا كلام حَسن ، ومرادُه عليه السلام يَحصل على كلا الوجهين ، لأنّه إنّما أراد أن يستنفرَهم ، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرَهم إليه على كل حال ، والحىّ : المنزل ، ولمّا هاهنا بمعنى إلّا ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[2] فى قراءة من قرأها بالتّشديد .

---

(١) فى د « وأراد بالظالم هدم نفسه » . (٢) سورة الطارق ٤ .

(٥٨)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقصّ فيه ما جرى بينه وبين أهل صِفّين :

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا الْتَقَيْنَا بِالْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعْوَتَنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ ، وَلَا نَسْتَزِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلَا يَسْتَزِيدُونَنَا ، وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، فَقُلْنَا : تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لَا يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ ، وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ فِي مَوَاضِعِهِ ، فَقَالُوا : بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا ، حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَحَمِشَتْ[1] .

فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَإِيَّاهُمْ ، وَوَضَعَتْ مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، حَتَّى اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمُ الْمَعْذِرَةُ ، فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى رَأْسِهِ .

***

(١) في د « وحميت » .

الشَّرْحُ :

رُوِى : « التقَيْنا والقوم » بالواو ، كما قال :

* قلتُ إذ أقبلتْ وزهر تَهادَى *

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلّف .

قوله : « والظاهر أن ربّنا واحد » ، كلامُ من لم يحكم لأهل صِفّين من جانب معاوية حُكْمًا قاطعا بالإسلام ، بل قال : ظاهرُهم الإسلام ، ولا خاف بيننا وبينهم فيه ، بل الخُلف فى دَم عثمان .

قال عليه السلام : قلنا لهم : تعالوْا فلنُطفِئْ هذه النائرة الآن بوضع الحرب ، إلى أن تتمهّد قاعدتى فى الخلافة وتزول هذه الشوائبُ التى تكدِّر علىّ الأمر ، ويكون للناس جماعةٌ ترجع إليها ، وبعد ذلك أتمكّن من قَتَلَةِ عثمان بأعيانِهم فأقتصّ منهم ، فأبَوْا إلّا المكابَرة والمغالبة والحرب .

قوله : « حتى جَنَحتْ الحرب ورَكَدَت » ، جَنَحت : أقبلتْ ، ومنهُ : قد جَنَح الليل ، أى أقبل ، ورَكَدت : دامت وثَبَتَت .

قوله : « ووَقَدتْ نِيرانُها » ، أى التهبت.

قوله : « وحَمِشتْ » ، أى أُستعرَت وشَبّت . ورُوِى : « وأُستحشَمَت[1] » وهو أصحّ ؛ ومن رواها « حَمَستْ » بالسين المهملة أراد أُشتدّت وصَلُبت .

قوله : « فلمّا ضَرّسَتْنا وإيّاهم » أى عضّتْنا بأضراسها ، ويقال : ضَرّسَهم الدهر ، أى اشتدّ عليهم .

---

(١) فى د « واستجرت » . والمعنى عليه يستقيم أيضا .

قال : لمّا اُشتدّت الحرب علينا وعليهم ، وأكَلَتْ منّا ومنهم، عادوا إلى ما كنّا سألناهم اُبتداء ، وضَرَعوا إلينا فى رَفْع الحرب ، ورَفَعوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكمِها ، وإغمادَ السّيف ، فأجبناهم إلى ذلك .

قوله : « وسارعْناهم إلى ما طلبوا » كلمةٌ فصيحة ، وهى تَعدِيةالفعلِ اللّازم، كأنّها لمّا كانت فى معنى المُسابقَة ، والمسابقة متعدّية عدّى المُسارعةَ .

قولُه : « حتّى استبانت » ، يقول : استمررْنا على كفّ الحرب ووضعِها ، إجابةً لسؤالهم، إلى أن اُستبانت عليهم حجّتنا، وبطلتْ معاذيرُهم وشُبُهتُهم فى الحرب وشَقّ العصا، فمن تمّ منهم على ذلك ، أى على اُنقياده إلى الحقّ بعد ظهوره له ، فذاكَ الّذى خلّصه اللهُ من الهلاك وعذابِ الآخرة ، ومن لَجّ منهم على ذلك وتَمادَى فى ضلاله فهو الرّاكس ؛ قال قوم : الراكس هُنا بمعنَى المَرْكوس ، فهو مقلوب فاعل بمعنى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيةٍ ﴾ [1] أى مرضيّة ، وعندى أنّ اللّفظة على بابها ، يعنى أنّ من لجّ فقد رَكَس نفسَه ، فهوالرّاكس ، وهو المركوس ، يقال : رَكَسه وأركَسَه بمعنًى ، والكتابُ العزيز جاء بالهمز فقال : ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا ﴾ [2] ، أى رَدّهم إلى كفرهم [3] ؛ ويقول : ارتَكَس فلان فى أمرٍ كان نجا منه ، ورانَ على قلبه ، أى رانَ هو على قلبه ، كما قلنا فى الرّاكس ؛ ولا يجوز أن يكون الفاعلُ ــ وهو الله ــ محذوفا، لأنّ الفاعل لا يُحذَف، بل يجوز أن يكون الفاعلُ كالمحذوف ، وليس بمحذوف ، ويكون المصدر وهو الرَّيْن ، ودَلّ الفعل عليه كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَاتِ ﴾ [4] أى بدَالهم البداء . ورَانَ بمعنى غَلَب وغَطّى ؛ ورُوِى « فهو الرّاكس الّذى رِينَ على قَلْبه » .

---

(١) القارعة ٧ . (٢) سورة النسا • ٨٨ .
(٣) فى د « كيدهم » . (٤) سورة يوسف ٣٥ .

قال : وصارت دائرةُ السَّوْء على رأسِه ، من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾(١) والدوائر : الدُّوَل .

قال :

* وإنَّ على الباغى تدورُ الدوائر *

والدائرة أيضا : الهزيمة ، يقال : على مَن الدائرةُ منهما ، والدوائر أيضاً الدَّواهى .

---

(١) سورة الفتح ٧ .

(٥٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ ، رَاجِياً ثَوَابَهُ ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا ، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَالِاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ ؛ والسلام .

* * *

الشرح :

[الأسود بن قُطْبة]

لم أقف إلى الآنَ على نَسَب الأسودِ بن قُطْبة ، وقرأتُ في كثير من النّسخ أنّه حارثيّ من بني الحارث بن كعب ؛ ولم أتحقّق ذلك ، والّذى يَغلِب على ظنّى أنّه الأسوَد بنُ زيد ابنِ قُطْبة بن غَنْم الأنصارى من بني عُبَيد بن عَدِيّ . ذكره أبو عمر بنُ عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " ، وقال : إنّ موسى بنَ عُقْبة عدّه فيمن شَهِدَ بَدْرا(١) .

---

(١) الاستيعاب ١ : ٩٠ (طبعة نهضة مصر) .

قوله عليه السلام : « إذا اختلف هَوَى الوالى منعَه كثيرا من الحقّ » قولٌ صِدْق ، لأنّه مَتى لم يكن الخصمان عند الوالى سواء فى الحقّ جارَ وظَلَم .

ثم قال له : فإنّه ليس فى الجوْر عِوضٌ من العَدْل ؛ وهذا أيضا حقّ ، وفى العدل كلّ العِوض مِن الجور .

ثمّ أمَرَه باجتناب ما ينكَر مِثله من غيره ، وقد تقدّم نحوُ هذا .

وقوله : « إلّا كانت فَرْغَتُه » كلمةٌ فصيحة ، وهى المرّة الواحدة من الفَرَاغ ، وقد رُوِىَ عن النبىّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله يُبغِضُ الصحيحَ الفارغ لا فى شُغْل الدنيا ولا فى شُغْل الآخرة » ، ومرادُ أميرِ المؤمنين عليه السلام ها هنا الفَرَاغُ من عمل الآخرة خاصّة .

قوله : « فإنّ الّذى يصل إليك من ذلك أفضلُ من الّذى يَصِل بك » ، معناه : فإنّ الّذى يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعيّة ، وحفظ نفسك من مَظالمِهم والحَيْف عليهم ، أفضلُ من الّذى يصل بك من حِراسةِ دِمائِهم[1] وأعراضِهم وأموالِهم ؛ ولا شُبهة فى ذلك ، لأنّ إحدى المنفعتين دائمة ، والأخرى منقطِعة ، والنفع الدائمُ أفضلُ من المنقطِع .

---

(١) ب : « دعاتهم » تصحيف ، صوابه فى ا ، د .

(٦٠)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش[١] :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلَادِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لِلهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى ، وَصَرْفِ الشَّذَى ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شِبَعِهِ[٢] ، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَادَّتِهِمْ ، وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا اسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلَّا بِاللهِ[٣] وَبِي ، أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللهِ . إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

الشرح :

رُوِيَ « عن مُضارّتهم » بالراء المشدّدة . وجُباة الخراج : الّذين يجمعونه ، جَبيتُ الماء في الحوض ، أي جمعتُه . والشّذَى : الضرب والشرّ ، تقول: لقد أشذَيْت وآذَيْت . وإلى ذمّتكم ، أي إلى اليهود والنّصارى الّذين بينكم[٤] ، قال عليه السلام: «من آذى ذِمّيّا فكأنّما[٥] آذاني» ،

---

(١) د « عملهم الجيش » .
(٢) مخطوطة النهج : « إلا إلى شبعه » .
(٣) د « بإذن الله » .
(٤) د « بذمتكم » .
(٥) د « فقد » .

وقال : إنما بذلوا الجزْية لتكون دماؤهم كدمائنا ، وأموالُهم كأموالنا ، ويسمّى هؤلاء ذِمّة ، أى أهل ذِمّة ، بحذف المضاف . والمَعَرّة : المَضَرّة ، قال : الجيش ممنوعٌ من أذى من يمرّ به من المسلمين وأهل الذمّة إلّا من سدّ جَوْعة المضطرّ منهم خاصّة ، لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فضلا عن غيرها .

ثمّ قال : فنكّلوا من تَناوَل ، ورُوِى « بمن تَناوَل » بالباء ، أى عاقِبوه . و « عن » فى قوله : « عن ظلمهم » ، يتعلّق بنكّلوا ، لأنّها فى معنَى « اردعوا » ؛ لأنّ النَّكالَ يُوجِب الرَّدْع .

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيدِيَ أحداثِهم وسفهائِهم عن مُنازَعة الجيش ومصادَمتِه ، والتعرّض لمنعه عمّا استثناه ، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار ، فإنّ ذلك لا يجوز فى الشرع ، وأيضا فإنّه يُفضِي إلى فتنة وهَرَج .

ثمّ قال : « وأنا بين أظهرُ الجيْش » ، أى أنا قريبٌ منكم ، وسائرٌ على إثْر الجيش ، فارفعوا إلىّ مظالمَكم وما عَراكم منهم على وجه الغَلَبَة والقَهْر ، فإنّى مغيِّرٌ ذلك ومنتصِفٌ لكم منهم .

(٦١)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعيّ وهو عامله على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدوّ طالبا للغارة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ . وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا ، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا ، وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأْيٌ شَعَاعٌ ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْرًا لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ ، وَلَا مَهِيبِ الْجَانِبِ ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةً ، وَلَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً ، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ(١) ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ .

* * *

الشّرحُ :

[كميل بن زياد ونسبه]

هو كُمَيل بنُ زياد بنِ سهيل بن هَيْثم بنِ سَعْد بن مالك بن الحارث بن صهبانَ ابن سعد بن مالك بن النَّخَع بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك بن أُدَد . كان من أصحاب عليّ عليه السلام وشيعتِه وخاصّتِه ، وقتله الحجّاج على المَذْهب فيمن قَتَل من الشّيعة . وكان كُمَيل بنُ زياد عاملَ عليّ عليه السلام على هِيتَ ، وكان ضعيفا، يمرّ عليه سرايا معاوية تَنهبُ أطرافَ العِراق ولا يردّها ، ويحاول أن يجبُر ما عندَه من الضّعف بأن يُغير

(١) في د « النصرة » .

على أطراف أعمال معاوية مثل قَرْقِيسِيا وما يَجرِى مَجرَاها من القُرَى التى على الفرات ، فأنكر عليه السلام ذلك مِن فِعْله ، وقال: إنّ من العجز الحاضرِ أن يُهمِل الوالِي ما وَلِيَه ، ويتكلّف ما ليس من تكليفه .

***

والمُتَبَّر : الهالك ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾(١) .

والمسالح : جمعُ مَسلَحة ، وهى المواضع الّتى يقام فيها طائفةٌ من الجند لحمايتها .

ورأىٌ شَعاع ، بالفتح ، أى متفرّق .

ثم قال له : « قد صرتَ جِسْرا » أى يَعبُر عليكَ العدوّ كما يَعبُرُ الناسُ على الجسور ، وكما أنّ الجسر لا يَمنَع من يَعبُر به ويعزّ عليه فكذاك أنت .

والثُّغْرة : الثُّلْمة . ومُجزٍ : كافٍ ومُغنٍ ؛ والأصل « مُجزِئٌ » بالهمز، نخفّف .

(١) سورة الأعراف ١٣٩ .

(٦٢)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله لمّا ولاه إمارتها :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؛ فَلَمَّا مَضَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً ، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمْ ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، وَكَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

المُهيمِن : الشاهد ، قال الله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ﴾ ، أى تشهد بإيمان مَنْ آمَنَ وكُفْر من كَفَرَ . وقيـــل : تشهد بصحّة نبوّة الأنبياء قبلك .

وقوله : « على المرسلين » ، يؤكّد صحّة هذا التفسير الثانى ، وأصل اللفظة من « آمن غيره من الخوف » ، لأنّ الشاهد يؤمّن غيره من الخوف بشهادته ، ثمّ تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدَى همزَتى « مؤامن » ياء فصار « مُؤَيْمن » ، ثم قلَبوا الهمزة هاء كأرقت وهَرَقت فصار « مُهَيْمن » .

والرُّوع : الخلَد ؛ وفى الحديث : « إنّ رُوح القُدُس نَفَث فى رُوعى » ، قال : مايخطر لى ببال أنّ العرب تَعدِل بالأمر بعد وفاة محمّد صلى الله عليه وآله عن بنى هاشم ، ثمّ من بنى هاشم عنّى ؛ لأنّه كان المتيقّن بحكم الحال الحاضرة . وهذا الكلام يدلّ على بُطْلان دعوَى الإماميّة النصّ وخصوصا الجلىّ .

قال : « فما راعنى إلا انثيال الناس » ، تقول للشىء يفجَؤك بغتَةً : ما راعنى إلّا كذا ، والرَّوْع بالفتح ؛ الفزَع ، كأنه يقول : ماأفزعنى شىء بعد ذلك السكون الذى كان عندى ، وتلك الثقة التى اطمأننْتُ إليها إلّا وقوعُ ما وقع من انثيال الناس ــ أى انصبابهم من كلّ وجه كما ينثاب التراب ــ على أبى بكر ، وهكذا لفظ الكتاب الذى كتبه للأشتر ، وإنما الناسُ يكتبونه الآن « إلى فلان » تذمّما من ذكر الاسم كما يكتبون فى أوّل الشِّقْشِقِيَّة : « أما والله لقد تقمّصها فلانٌ » ، واللفظ « أما والله لقد تقمّصها ابن أبى قُحافة » .

قوله : « فأمسكتُ يدى » ، أى امتنعتُ عن بيعته ، حتى رأيت راجعة الناس ، يعنى أهل الرّدة كمسيلمة ، وسَجاح وطُليحة بن خويلد ومانعى الزكاة ؛ وإن كان مانعو الزكاة قد اختلف فى أنهم أهل رِدّة أم لا .

ومحقُ الدّين : إبطاله .

وزهَق : خرَج وزال . تنهنَه : سكن ، وأصله الكفّ ، تقول : نهنهت السبُعَ فتنهْنَه ،

أى كَفّ عن حركته وإقدامه ، فكأنّ الدّين كان متحرّكا مضطربا فسكن وكف عن ذلك الاضطراب .

***

رَوَى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا مات اجتمعتْ أسدٌ وغطفانُ وطيّئٌ على طُلَيْحَة بن خُويلد إلا ما كان من خواصّ أقوام فى الطوائف الثلاث ، فاجتمعتْ أسد بِسَمِيراء ، وغَطَفان بجنوب طِيبة[1] وطيّئٌ فى حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق[2] من الرَّبَذة ، وتأشّب[3] إليهم ناس من بنى كنانة ، ولم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت إحداها بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصّة ، وبعثوا وفوداً إلى أبى بكر يسألونه أن يقارّهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، فعزم الله لأبى بكر على الحق ، فقال : لو مَنَعونى عِقالا[4] لجاهدتهم عليه . ورجع الوفودُ إلى قومهم فأخبروهم بقلةٍ من أهل المدينة ، فأطمعوهم فيها وعلم أبو بكر والمسلمون بذلك ، وقال لهم أبو بكر : أيّها المسلمون ، إنّ الأرض كافرة ، وقد رأى وفدُهم منكم قِلّة ، وإنكم لا تدرون أليْلاً تُؤْتَوْن أم نهارا ، وأدناهم منكم عَلَى بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونُوادعَهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذْنا إليهم ، فأعِدُّوا واستَعِدّوا . فخرج علىّ عليه السلام بنفسه ، وكان على نَقْبٍ من أنقاب المدينة ، وخرج الزّبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرُهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة ، فلم يلبثوا إلّا قليلا حتى طرق القومُ المدينة غارةً مع الليل ، وخلّفوا بعضهم بذى حُسًى

---

(١) فى الأصول : « طمية » والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى .

(٢) فى الأصول : « الأزرق » ، والصواب ما أثبته من الطبرى .

(٣) تأشبوا إليهم : انضموا .

(٤) أراد بالعقال الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى إبل الصدقة . وانظر نهاية ابن الأثير .

ليكونوا رِدءاً لهم ، فوافوا الأنقاب وعليها المسلمون ، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر ، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم ، ففعلوا ، وخرج أبو بكر فى جمعٍ من أهل المدينة على النواضح ، فانتشر العدوّ بين أيديهم ، واتّبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حُسًى ، فخرج عليهم الكَمين بأنحاء[١] قد نفخوها ، وجعلوا فيها الحبال ، ثم دَهْدَهوها بأرْجُلهم فى وجوه الإبل ، فتدَهْدَه[٢] كلّ نِحْيٍ منها فى طِوَلِه[٣] فنفرتْ إبلُ المسلمين ، وهم عليها ـ ولا تنفر الإبلُ من شىء نفارَها من الأنحاء ـ فعاجت بهم لا يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، ولم يصرع منهم أحد ولم يُصَب ، فبات المسلمون تلك الليلة يتهيّئون ، ثم خرجوا على تعبية ، فما طلع الفجرُ إلّا وهم والقومُ على صعيد واحد ، فلم يَسمَعوا للمسلمين حِسّا ولا همْسا حتى وضعوا فيهم السيف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذَرّ قرنُ الشمس إلا وقد ولّوا الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم ، ورجعوا إلى المدينة ظافرين[٤] .

قلت : هذا هو الحديث الذى أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبى بكر . وكأنه جوابٌ عن قول قائل : إنه عمل لأبى بكر ، وجاهد بين يدى أبى بكر ، فبيّن عليه السلام عذرَه فى ذلك ، وقال : إنه لم يكن كما ظنّه القائل ، ولكنه من باب دَفْع الضرر عن النفس وعن الدين ، فإنه واجبٌ سواء كان للنّاس إمام أو لمْ يكن .

* * *

[ذكر ما طعن به الشيعة فى إمامة أبى بكر والجواب عنها]

وينبغى حيث جرى ذكرُ أبى بكر فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن نذكر ما أورده قاضى القُضاة فى «المُغنى» ، من المطاعن التى طُعن بها فيه وجواب قاضى القضاة

---

(١) الأنحاء : جمع نحى ، وهو الزق . (٢) دهدهوها : دفعوها .
(٣) الطول : الحبل يشدبه . (٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ (طبعة المعارف) مع تصرف واختصار .

عنها ، واعتراضُ المرتضى فى "الشافى" على قاضى القضاة ، ونذكُر ما عندنا فى ذلك ، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكُرها قاضى القضاة .

***

[الطعنُ الأول]

قال قاضى القضاة بعد أن ذكر ما طعِن به فيه فى أمر فَدَك ، وقد سبق القولُ فيه .

ومما طعِن به عليه قولهم : كيف يصلُح للإمامة من يُخبر عن نفسه أنّ له شيطانا يعتريه ومن يحذِّر الناسَ نفسه ، ومن يقول : « أقيلونى » بعد دخوله فى الإمامة ، مع أنه لا يحلّ للإمام أن يقول : أقيلونى البيْعة !

أجاب قاضى القضاة فقال : إنّ شيخنا أبا علىّ قال : لو كان ذلك نقصا فيه لكان قولُ الله فى آدمَ وحوّاء : ﴿ فوَسْوس لهما الشيطان ﴾[1] ، وقوله : ﴿ فأزّلهما الشَّيْطَانُ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾[3] ، يوجب النقص فى الأنبياء . وإذا لم يجب ذلك، فكذلك ما وصف به أبو بكر نفسَه ، وإنما أراد أنه عند الغضب يُشفِق من المعصية ويَحذَر منها ، ويخاف أن يكون الشيطان يعتريه فى تلك الحال فيُوَسْوِس إليه ، وذلك منه على طريق الزّجر لنفسه عن المعاصى ، وقد رُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ترك مخاصمةَ الناس فى حقوقه إشفاقا من المعصية ، وكان يولّى ذلك عَقِيلا ، فلما أسنّ عَقِيل كان يولّيها عبد الله بنَ جعفر . فأمّا ما رُوِى فى إقالة البيْعة فهو خبرٌ ضعيف ، وإن صحّ فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالى لأمر يَرجِع إليه أن يُقيله الناسُ البيعة ، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم ؛ وكأنه نبّه بذلك

---

(١) سورة الأعراف ٢٠ . (٢) سورة البقرة ٣٦ .

(٣) سورة الحج ٥٢ .

على أنه غير مكرِه لهم ، وأنه قد خلّاهم ومايريدون إلّا أن يَعرِض مايوجب خِلافه . وقد رُوِى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أقالَ عبدَ الله بنَ عمر البيعة حين استقاله ، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار .

اعترض المرتضى رضي الله عنه فقال: أمّا قول أبى بكر : « وَلِيتُكم ولستُ بخَيْركم ، فإن اُستقمتُ فاتّبعونى ، وإن اُعوججْت فقوّمونى ، فإنّ لى شيطانا يَعترينى عنـد غضبى ، فإذا رأيتمونى مغضَبا فاَجتنبونى لا أوثّر فى أشعاركم وأبشاركم » ، فإنه يدلّ على أنه لا يَصلُح للإمامة من وجهين : أحدُهما أنّ هـذا صفة مَنْ ليس بمعصوم ، ولا يأمن الغَلَط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيّته له إذا وقع فى المعصية ، وقد بيّنا أنّ الإمام لابد أن يـكون معصوما موفّقا مسدَّدا ، والوجه الآخر أنّ هذه صفة مَنْ لا يملك نفسَه ، ولا يَضبِط غضبه، ومَنْ هو فى نهاية الطَّيش والِحدّة والُخرْق والعَجَلة . ولا خِلافَ أنّ الإمام يجب أن يكون منزّها عن هذه الأوصاف ، غير حاصل عليها وليس يُشبِه قولُ أبى بكر ما تلاه من الآيات كلّها . لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه بطاعة الشيطان عنـد الغضب ، وأنّ عادته بذلك جارية ، وليس هذا بمنزلة من يُوسوس إليـه الشّيطان ولا يطيعُه ، ويزيّن له القبيح فلا يأتيه ، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزلّه ذلك عن الصواب ، بل هو زيادة فى التـكليف ، ووجه يتضاعف معه الثواب ؛ وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قيل : معناه فى تلاوته ؛ وقيل : فى فـكرته ، على سبيل الخاطر ، وأىّ الأمرين كان ، فلا عار فى ذلك على النبيّ صلّى الله عليه وآله ولا نقص ، وإنما العار والنقص على من يطيع الشيطان ويتّبع ما يدعو إليه . وليس لأحد أن يقول : هذا إن سَلِم لـكم فى جميع الآيات لم يَسلم فى قوله تعالى:﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾؛ لأنّه قد خبّر عن تأثير غوايته ووَسْوَسته بما كان منهما من الفعل . وذلك أنّ المعنى الصحيح فى هذه الآية أنّ آدم وحـوّاء كانا مندوبين إلى اجتناب الشّجرة وترْكِ التّناول منها ، ولم يكن ذلك عليهما واجبا لازما ،

لأنّ الأنبياء لا يُخِلّون بالواجب ، فوسوس لهما الشيطان حتى تناولا من الشجرة ، فتركا مندوبا إليه ، وحَرَما بذلك أنفسهما الثّواب ، وسمّاه إزلالا ، لأنّه حطٌّ لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل ؛ وقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [1] لا ينافى هذا المعنى ، لأنّ المعصية قد يُسمّى بها من أخلّ بالواجب والندب معا . قوله : « فغَوَى » أى خاب من حيث لم يستحقّ الثواب على ما نُدِب إليه . على أنّ صاحب الكتاب يقول : إنّ هذه المعصية من آدم كانت صغيرةً لا يستحقّ بها عقاباً ولا ذمّا ، فعلى مذهبه أيضا تكون المفارَقة بينه وبين أبى بكر ظاهرةً ، لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه أنّ الشيطان يعتريه حتّى يؤثّر فى الأشعار والأبشار ، ويأتى ما يستحقّ به التقويم ، فأين هذا من ذَنْب صغيرٍ لا ذمّ ولا عقابَ عليه ، وهو يَجرِى من وجه من الوجوه مَجرى المباح ، لأنّه لا يؤثّر فى أحوالِ فاعله [2] وحَطّ رتبته ؛ وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الخشْية والإشفاق على ما ظُنّ ، لأنّ مفهومَ خطابه يقتضِى خلاف ذلك ، ألا ترى أنّه قال : « إنّ لى شيطاناً يعترينى » وهذا قولُ مَن قد عرَف عادته ، ولو كان على سبيل الإشفاق والخوْف لخرَج عن هذا المخْرَج ، ولكان يقول : فإنّى لا آمَنُ من كذا وإنّى لمشْفِق منه . فأمّا تَرْكُ أميرِ المؤمنين عليه السلام مخاصَمةَ النّاس فى حقوقه فكأنّه إنّما كان تنزّها وتكرُّما ؛ وأىّ نسبة بين ذلك وبين من صرّح وشهِد على نفسه بما لا يليق بالأئمّة ! وأمّا خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبدا يضعّف ما لا يوافقه من غير حجّة يعتمِدها فى تضعيفه . وقوله : إنّه ما استقال على التحقيق ، وإنّما نبّه على أنّه لا يبالى بخروج الأمر عنه ، وأنّه غير مُكرِهِهم عليه ؛ فبعيدٌ من الصواب ؛ لأنّ ظاهر قوله «أقيلونى» أمرٌ بالإقالة ، وأقلُّ أحواله أن يكون عرْضا لها وبَذْلا ، وكِلاَ الأمرين قبيح . ولو أراد ما ظنّه لكان له

---

(١) سورة طه ١٢١ . (٢) الشافى : « حال فاعله » .

فى غير هذا القول مندوحة ، ولكان يقول : إنّى ما أكرهتُكم ولا حَمَلتُكم على مبايعتى ، وما كنتُ أبالى ألّا يكون هذا الأمر فىّ ولا إلىّ ، وإنّ مفارقتَه لتسرّنى لولا ما ألزمَنيه الدخولُ فيه من التمسّك به ، ومتى عدَلنا عن ظواهر الكلام بلادليل، جرّ ذلك علينا ما لا قِبَل لنا به . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فإنّه لم يُقِل ابنَ عمر البيْعة بعد دُخولها فيها وإنّما استعفاه من أن يُلزمه البيْعة ابتداء فأعفاه قلّة فكر فيه ، وعلماً بأنّ إمامتَه لا تَثبتُ بمبايَعة من يبُايعه عليها ، فأين هذا من استقالة بيْعة قد تقدّمت واستقرّت [1] !

***

قلت : أمّا قولُ أبى بكر : « وَلِيتُكم ولستُ بخيركم » فقدصدَق عند كثيرمن أصحابنا؛ لأنّ خيرهم علىّ بنُ أبى طالب عليه السلام، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحسَن البَصْرىّ : والله إنّه ليَعلَمَ أنّه خيرهم ، ولكنّ المؤمن يَهْضِم نفسَه . ولم يطعن المرتضى فيه بهذه اللفظة لنُطيلَ القولَ فيها. وأمّا قولُ المرتَضى عنه إنّه قال: « فإنّ لى شيطانا يعترِينى عند غضَبى »، فالمشهور فى الرّواية : « فإنّ لى شيطانا يعترينى » [2] ، قال المفسّرون : أراد بالشّيطان الغضب وسمّاه شيطانا على طريق الاستعارة، وكذا ذكَره شيخُنا أبو الحسين فى " الغُرَر " . قال معاوية لإنسان غَضِب فى حَضْرته فتكلّم بما لا يُتكلّم بمثله فى حضرة الخلفاء : اربَعْ على ظَلْعك [3] أيّها الإنسان ، فإنّما الغضَب شيطان ، وإنّا لم نَقلْ إلّا خيراً .

وقد ذكر أبو جعفر محمّد بنُ جرير الطبرىّ فى " كتاب التاريخ الكبير " خطبتَىْ أبى بكر عقيبَ بيعته بالسّقيفة ، ونحن نذكرها نقلا من كتابه ، أمّا الخطبة الأولى فهى :

---

(١) الشافى ٤١٥ ، ٤١٦ . (٢) أى من غير ذكر لفظ « عند الغضب » .

(٣) اربع على نفسك ؛ أى توقف .

أما بعد أيها الناس ، فإنى وَليتكم ولستُ بخيركم، فإن أحسَنْتُ فأعينونى، وإن أسأتُ فقوِّمونى ، لأنّ الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، الضعيفُ منكم قوىٌّ عندى حتى أريحَ عليه حقَّه، والقوىّ منكم ضعيفٌ عندى حتى آخذَ الحقّ منه ، لا يدَع قوم الجهاد فى سبيل الله إلّا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيعُ الفاحشةُ فى قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعتُ اللهَ ورسوله ، فإذا عصيتُ اللهَ ورسوله فلا طاعةَ لى عليكم : قومُوا إلى صلاتِكم رَحِمكم الله .

وأما الخطْبة الثانية فهى : أيها الناس إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلّكم ستكلّفُونى ما كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يُطيقه [١] . إن الله أصطفى محمّدا صلّى الله عليه وآله على العالمين ، وعصَمه من الآفات ، وإنّما أنا متّبع ولستُ بمَتْبوع ، فإن استقمتُ فاتّبعونى ، وإن زُغْتُ فقوِّمونى ، وإنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قُبِض وليس أحد من هذه الأمّة يَطلبه بمظلمة ضربة سَوْط فما دونها . ألا وإن لى شيطانا يعترينى ، فإذا غضبتُ فاجتَنِبونى لا أؤثّر فى أشماركم وأبشاركم . ألا وإنكم تَغْدُون وتَرُوحون فى أجَلٍ قد غُيِّب عنكم عِلْمه ، فإن استطعتم ألّا يمضِيَ هذا الأجلُ إلّا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله . فسابقوا فى مهَل آجالكم من قبل أن تُسلِمكم آجالُكم إلى انقطاع الأعمال ، فإنّ قوماً نَسُوا آجالَهم ، وجعلوا أعمالَهم لغيرهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهم . الجدّ الجدّ ! الوحاَ الوحاَ ! فإنّ وراءَكم طالبا حَثِيثاً ، أجلٌ [٢] مَرُّه سريع . احذَروا الموت ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تَغبِطُوا الأحياءَ إلّا بما يُغبَط به الأموات [٣] .

إن الله لا يقبَل من الأعمال إلّا ما يُراد به وجهُه ، فأرِيدوا وجه الله بأعمالكم، واعلموا

---

(١) الطبرى : « يطيق » .

(٢) الطبرى : « أجلا » . (٣) إلى هنا فى الطبرى نهاية الخبة ؛ وما بعدها من خطبة أخرى .

أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فلطاعةٍ أتيتموها ، وحظّ ظفرتُم به ، وضرائبَ أدّيتموها ، وسلفٍ قدّمتموه من أيّامٍ فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم؛ فاعتبروا عباد الله عن ماتَ منكم ، وتفكّروا فيمن كان قبلكم ؛ أين كانوا أمس وأين هُم اليوم! أين الجبّارون؟ أين الّذين كان لهم ذكر القتال والغَلَبة فى مَواطِن الحرب ! قد تضعضَع بهم الدّهر، وصاروا رَميا ، قد تُركت عليهم القالات الخبيثات ، وإنّما الخبيثات للخَبيثِين والخبيثون للخبيثات . وأين الملوكُ الّذين أثاروا الأرض وعمروها ! قد بَعُدوا بسّيِّء ذكرهم ، وبقىَ ذكرُهم وصارُوا كلا شىء . ألا إنّ الله قد أبقَى عليهم التّبِعات ، وقَطَع عنهم الشّهوَات ومضَوا والأعمالُ أعمالُهم ، والدنيا دنيا غيرِهم ، وبقِينا خَلَفا مِن بَعدِهم ، فإن نحن اعتبَرْنا بهم نجَوْنا ، وإن اغترزنا كنّا مِثلهم . أين الوضّاء (١) الحسَنة وجُوهُهم ، المعجَبون بشَبابهم ! صاروا تُرابا ، وصار ما فرّطوا فيه حَسرةً عليهم ؛ أين الّذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها العجائب ، وتركوها لِمَن خَلْفَهم ! فتلك مساكنُهم خاوية ، وهم فى ظُلَم القُبورِ ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ منهم من أحَدٍ أوْ تسمعُ لهم رِكْزاً ﴾ (٢) . أين من تعرِفون من آبائكم وإخوانكم ! قد انتهتْ بهم آجالُهم فَوَردوا على ما قَدِموا عليه ، وأقاموا للشّقوة وللسّعادة . ألا إنّ الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خَلقه سبب يُعطيه به خيرا ، ولا يَصرِف عنه به شرّا إلّا بِطاعتة واتّباع أمْرِه ، واُعلموا أنّكم عبادٌ مدينون ، وأنّ ما عندَه لا يُدرَكُ إلّا بتقواه وعبادته . ألا وإنّه لا خيرَ بخير بعدَه النّار ولا شرّ بشرّ بعدَه الجنّة (٣) .

فهذه خُطبتا أبى بكر يومَ السّقيفة ، واليوم الّذى يليه ، إنّما قال : « إنّ لى شيطاناً يَعتَرينى ، وأراد بالشّيطان الغضب ، ولم يُرِد أن له شيطاناً من مَرَدة الجنّ يَعتَريه إذا

---

(١) الوضاء : ذوو الوضاءة والحسن . (٢) سورة مريم : ٩٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٥

غضب فالزّيادة فيما ذكره المرتضى فى قوله : « إنّ لى شيطانا يَعترِينى عند غضبى » ، تحريف لا محالة ، ولو كان له شيطان من الجنّ يعتادُه وينوبُه لكان فى عِداد المصروعين من المجانين ، وما ادّعى أحدٌ على أبى بكر هذا لا مِن أوليائه ولا مِن أعدائه ؛ وإنّما ذكرنا خطبتِه على طولِها والمراد منها كلمةٌ واحدة ؛ لِمَا فيهما من الفَصاحة والمَوعظة على عادتنا فى الاُعتناء بإيداعَ هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب ، وسالكا هذا السبيل .

فأمّا قولُ المرتضى : « فهذه صفة من ليسَ بمَعْصوم » ، فالأمرُ كذلك والعصمةُ عندنا ليستْ شَرْطا فى الإمامة ولولم يدلّ على عدم اُشتراطها ؛ إلا أنّه قال على المِنْبر بحضور الصحابة هذا القول ، وأقرّوه على الإمامة ـ لكَفَى فى عدم كون العِصْمة شرطا ، لأنّه قد حَصَل الإجماع على عدم اُشتراط ذلك ، إذ لو كان شَرْطا لأنكر منكرٌ إمامتَه كما لو قال : إنّى لا أصبرُ عن شُرْب الخمْر وعن الزّنى .

فأمّا قولُه : « هذه صفة طائش لا يَملِك نفسَه » ، فلعَمرى إنّ أبا بكر كان حديداً ، وقد ذكره عمرُ بذلك ، وذكَرَهُ غيرُه من الصّحابة بالْحِدّة والسرعة ؛ ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليّته للإمامة ؛ لأنّ الّذى يُبطل الإمامة من ذلك وما يخرج الإنسان عن العَقْل ، وأمّا ما هو دونَ ذلك فلا . وليس قوله : « فاُجتنبونى لا أُوثِر فى أشعاركم وأبشاركم » محمول على ظاهره ، وإنّما أراد به المبالغة فى وصف القوّة الغضبيّة عنده ، وإلّا فما سمعنا ولا نَقَل ناقلٌ من الشّيعة ولا من غير الشّيعة أنّ أبا بكر فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ولا فى الجاهليّة ولا فى أيّام خلافته اُحتدّ على إنسان فقام إليه فضَرَبه بيدِه ومزّق شَعره .

فأما ما حكاه قاضى القضاة عن الشّيخ أبى علىّ من تشبيه هذه اللّفظة بما ورد فى القرآن؛ فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عَنَى الشيطانَ حقيقة . وما اُعترض به المرتضى ثانيةً عليه غيرُ لازم ، لأنّ الله تعالى قال : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ، وتعقّب ذلك قبولها

وسوسته ، وأكلهما من الشجرة ، فكيف يقول المرتضى : ليس قول أبي بكر بمنزلة مَن وَسْوَس له الشيطان فلم يُطِعه ! وكذلك قوله تعالى فى قصّة موسى لما قتَل القبطيّ : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وكذلك قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾، وقوله: ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾، وما ذهب إليه المرتضى من التأويلات مبنيّ على مذهبه فى العصمة الكلّيّة ، وهو مذهب يحتاج فى نُصْرته إلى تكلّف شديد وتعسّف عظيم فى تأويل الآيات ؛ على أنه إذا سُلِّم أنّ الشيطانَ ألقى فى تلاوة الرسول صلّى الله عليه وآله ما ليسَ من القرآن حتّى ظنّه السامعون كلاماً من كلام الرسول ، فقد نَقَض دلالة التنفير المقتضية عنده فى العِصْمة ، لأنّه لا تنفيرَ عنده أبلَغ من تمكين اللهِ الشيطانَ أن يَخلِط كلامَه بكلامه ورسوله يؤدّيه إلى المكلّفين حتّى يعتقدَ السامعون كلّهم أنّ الكلامين كلامٌ واحد .

وأمّا قوله : إن آدمَ كان مندوباً إلى ألّا يأكل من الشّجرة لا محرّم عليه أكلُها ، ولفظة « عَصَى » إنما المراد بها خالف المندوب[1] ، ولفظة « غوَى » ؛ إنما المراد « خابَ » من حيث لم يستحقّ الثواب على اعتماد ما نُدِب إليه ؛ فقولٌ يدفعه ظاهر الآية ، لأنّ الصيغة صيغة النهي ، وهي قوله : ﴿ ولا تَقربا هذه الشجرة ﴾ والنهي عند المرتضى يقتضي التحريم لا محالة ، وليس الأمر الّذى قد يراد به النّدب ، وقد يراد به الوُجوب .

وأما قولُ شيخنا أبي عليّ : إنّ كلام أبي بكر خرج مخرج الإشفاق والحَذَر من المعصية عند الغضب فجيّد .

واُعتراض المرتضى عليه بأنه ليس ظاهر اللّفظ ذاك غيرُ لازم ، لأنّ هذه عادةُ العرب، يعبّرون عن الأمر بما هو منه بسَبَب وسبيل ، كقولهم : لا تَدْنُ من الأسد فيأكُلَك، فليس أنّهم قطعوا على الأكل عند الدنوّ ، وإنّما المراد الحَذَر والخوف والتوقّع للأكل عند الدّنوّ .

---

(١) ا : « الندب » .

وأما الكلام فى قوله : « أقيلونى » ، فلو صحّ الخبرُ لم يكن فيه مطعن عليه ، لأنه إنما أراد فى اليوم الثانى اختبارَ حالهم فى البيعة التى وقعتْ فى اليوم الأول ليعلم وليَّه مِن عدوِّه منهم ؛ وقد روَى جميعُ أصحاب السِّيَر أنّ أميرَ المؤمنين خَطب فى اليوم الثانى من بيعته فقال: أيّها النّاس ؛ إنّكم بايعتمونى على السمع والطاعة ، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتمونى إليه أمس ، فإن أجبْتم قعدتُ لكم ، وإلّا فلا أجِد على أحد . وليس بجيّد قولُ المرتضى : إنه لو كان يريدُ العرْض والبذْل لكان قد قال كذا وكذا ، فإنّ هذه مُضايقة منه شديدةٌ للألفاظ ، ولو شرَعْنا فى مِثل هذا لفسَد أكثرُ ما يتكلم به الناس .

على أنّا لو سلمنا أنه استقالهم البَيْعة حقيقةً ، فلِمَ قال المرتضى : إنّ ذلك لا يجوز ؟ أليس يجوز للقاضى أن يستقيل من القضاء بعد توليته[1] إيّاه ، ودخوله فيه ! فكذلك يجوز للإمام أن يستقيل من الإمامة إذا أنس من نفسه ضَعْفا عنها ، أو أنس من رعيّته نبْوةً عنه ، أو أحسّ بفساد ينشأ فى الأرض من جهة ولايته على الناس ؛ ومَن يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة أن يختاروا غيره لعذْر يعلمه من حال نفسه ! وإنما يمنع من ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأنّ الإمامة بالنصّ ، وإنّ الإمام محرَّم عليه ألّا يقوم بالإمامة ، لأنه مأمور بالقيام بها لتعينه خاصةً دون كلّ أحدٍ من المكلَّفين . وأصحاب الاختيار يقولون : إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرٌو إماما عوضَه ، لأنهم لا يعتبرون الشروط التى يعتبرها الإمامية من العِصْمة ، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرُهم ثوابا وأعلمهم وأشجعهم ، وغير ذلك من الشروط التى تقتضى تفرّده وتوحّده بالأمر ، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة فى الظّاهر كما فعَله الحسن ، وكما فعَله غيرُه من الأئمة بعد الحسين عليه السلام للتّقيّة ، جاز للإمام

(١) كذا فى ا و د ، وفى ب : « توليه » .

على مذهب أصحاب الاختيار أن يترُكَ الإمامة ظاهرا وباطناً لعُذْر يَعلمه من حال نفسه أو حالِ رعيّته .

* * *

الطعن الثانى

قال قاضي القضاة بعد أنْ ذكر قول عمرَ : « كانت بيعةُ أبي بكْر فَلْتة » ـ وقد تقدّم منا القولُ فى ذلك فى أوّل هذا الكتاب : ومما طعنوا به على[1] أبى بكر أنه قال عند موته : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله عن ثلاثة ، فذَكَرَ فى أحدها : لَيتَنى كنتُ سألتُه : هل للأنصار فى هذا الأمر حقّ ؟ قالوا ، وذلك يدُلّ على شَكّه فى صحة بيعته ، وربما قالوا : قد رُوِى أنه قال فى مرَضه : ليتنى كنتُ تَركتُ بيت فاطمة لم أَكْشِفه ، وليتنى فى ظُلّة بنى ساعِدة كنتُ ضربتُ على [يدِ][2] أحد الرّجلين ، فكان هو الأمير ، وكنتُ الوزير . قالوا : وذلك يدلّ على ما رُوِى من إقدامه على بيت فاطمة عليها السلام عند اجتماع علىٍّ عليه السلام والزّبير وغيرهما فيه ، ويدُلّ على أنه كان يرَى الفضل لغيره لا لنفسه .

قال قاضى القضاة : والجوابُ أنّ قوله : « ليتنى » لا يَدُلّ على الشكّ فيما تمنّاه ،وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنى كيف تُحيِي الموتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[3] أقوى من ذلك فى الشّبهة . ثمّ حمل تمنّيه على أنه أراد سماع شيء مفصّل ، أو أراد : ليتنى سألتُه عند الموت ، لِقُرب العهد ، لأنّ ما قَرُب عهدُه لا يُنسى ويكونُ أردعَ للأنصار على ما حاولوه . ثم قال : على أنه ليس فى ظاهره أنه تمنّى أن

---

(١) ب : « فى » . (٢) تكملة من كتاب الشافى .

(٣) سورة البقرة ٢٦٠ .

يسأل : هل لهم حقٌّ فى الإمامة أم لا ؟ لأنّ الإمامـة قد يتعلق بها حقوقٌ سواها . ثم دَفع الرّواية المتعلقة ببيت فاطمة عليها السلام ، وقال : فأما تمنّيه أن يبايع غيرَه ؛ فلو ثبت لم يكن ذمّا لأنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فهو يتمنى خِلافه (١) .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله هـذا الـكلام فقال : ليس يجوز أن يقول أبو بكر : « ليتنى كنتُ سألتُ عن كذا » . إلا مع الشكّ والشبهة ، لأنّ مع العلم واليقين (٢) لا يجوز مِثلُ هذا القول ، هكذا يقتضى الظاهر ، فأمّا قولُ إبراهيم عليه السلام ، فإنما ساغ أن يُعدَل عن ظاهره لأنّ الشكّ لا يجوز على الأنبياء ، ويجوز على غيرهم ؛ على أنه عليه السلام قد نفى عن نفسه الشكّ بقوله : ﴿ بَلَى وَلَـكِنْ لِيطمَئِنّ قلبى ﴾ ، وقـد قيل : إن نُمْروذَ قال له : إذا كنت تزعمُ أنّ لك ربًّا يُحيي الموتى فاسأله أن يُحيي لنا ميّتا إن كان على ذلك قادِراً ، فإن لم تفعل ذلك قتلتُك ، فأراد بقوله : ﴿ وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنّ قلبى ﴾ ، أى لآمَنَ توعُّدَ عدوّك لى بالقتل . وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقومه وقد سألوه أن يَرغَب إلى الله تعالى فيه فقال : ليطمئن قلبى إلى إجابتك لى ، وإلى إزاحةِ عِلّة قومى ، ولم يرد : ليطمئن قلبى إلى أنك تقدِر على أن تُحيىَ المَوْتى ؛ لأنّ قلبه قد كان بذلك مطمئنا ؛ وأىّ شىء يريد أبو بكر من التفصيل أكثر من قوله : « إنّ هذا الأمر لا يَصلُح إلاّ لهـذا الحىّ من قريش » ! وأىّ فرق بين ما يقال عندَ الموت وبين ما يقـال قبله إذا كان محفوظا معلوما ، لم تُرفع كلمةٌ ولم تُنسخ !

وبعد ، فظاهرُ الـكلام لا يقتضى (٣) هذا التخصيصَ ، ونحن مع الإطلاق والظاهر . وأىّ حقّ يجوز أن يكون للأنصار فى الإمامة غير أن يتولاهـا رجل منهم حتى يجوز أن يكون الحقّ الذى تمنّى أن يَسأل عنه غير الإمامة ! وهل هـذا إلاّ تعسّفٌ وتكلُّفٌ !

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤١٩ . (٢) الشافى : « التيقن » . (٣) ا : « يقضى » .

وأىّ شُبهة تبق بعد قول أبى بكر : ليتنى كنتُ سألته : هل للأنصار فى هـذا الأمر حقّ فـكنا لا ننازعه أهله ؟ ومعلومٌ أنّ التنازع لم يقع بينهم إلا فى الإمامة نفسها ، لا فى حَقٍّ آخر من حقوقها .

فأما قوله : إنّا قد بينا أنه لم يكن منه فى بيت فاطمة ما يُوجب أن يتمنى أنه لم يفعـله ؛ فقد بينا فساد ما ظنّه فيما تقدم .

فأما قوله : إنّ من اشتدّ التـكليفُ عليه قد يتمـنّى خِلافه ؛ فليس بصحيح؛ لأنّ ولاية أبى بكر إذا كانت هى التى اقتضاها الدين ، والنظر للمسلمين فى تلك الحال وما عـداها كان مفسدة ، ومؤدِّيا إلى الفتنة ، فالتمـنّى لخلافها لا يكون إلّا قبيحا (١) .

* * *

قلت : أما قول قاضى القضاة : إنّ هذا التمـنّى لا يقتضى الشكَّ فى أن الإمامة لا تـكون إلاّ فى قريش ، كما أن قول إبراهيم : ﴿ ولـكن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ، لا يقتضى الشكّ فى أنه تعالى قادرٌ على ذلك فجيّد .

فأما قولُ المرتضى : إنمـا ساغَ أن يُعدَل عن الظاهر فى حقّ إبراهيم لأنه نبىٌّ معصوم لا يجوز عليه الشك ؛ فيقال له : وكذلك ينبغى أن يُعدَل عن ظاهر كلام أبى بكر ، لأنه رجل مُسلم عاقل ، فحسنُ الظنِّ به يقتضى صيـانة أفعاله وأقواله عن التناقض . قوله : إنّ إبراهيم قد نفى عن نفسه الشك بقوله : « بلى ولـكن ليطمئن قلبى » قلنا : إنّ أبا بكر قد نفى عن نفسه الشكّ بدَفع الأنصار عن الإمامة وإثباتها فى قرَيش خاصة ، فإن كانت لفظة « بلى » دافعةً لشك إبراهيم الذى يقتضيه قوله : ﴿وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ، ففعل أبى بكر وقوله يومَ السَّقيفة

---

(١) الشافى ٤١٩ ، وفى د : « إلا نسخا » .

يَدفَع الشكّ الذى يقتضيه قوله : « ليتنى سألتُه » ، ولا فرق فى دفع الشكّ بين أن يتقدّم الدافعُ أو يتأخّر أو يُقارن .

ثم يقال للمرتضَى : ألستَ فى هذا الكتاب ـ وهو « الشافى » ـ بيّنت[1] أنّ قصة السَّقيفة لم يجرِ فيهـا ذكرُ نصٍّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله بأن الأئمة من قريش ، وأنه لم يكن هنـاك إلّا احتجاج أبى بكر وعمرَ بأنّ قريشاً أهلُ النبى صلى الله عليه وآله وعشيرتُه ، وأنّ العرب لا تطيع غيرَ قريش ؛ وذكرتَ عن الزّهرىّ وغيره أن القول الصّادر عن أبى بكر : إن هذا الأمرَ لا يصلح إلا لهذا الحيّ من قريش ، ليس نَصًّا مَرْوِيًّا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنمـا هو قولٌ قاله أبو بكر من تلقاء نفسه ، ورَوَيْتَ فى ذلك الرّوايات ، ونقلت من الكتب من تاريخ الطبرىّ وغيره صورة الكلام والجدال الدائر بينه وبين الأنصار ! فإذا كان هذا قولك فلِمَ تنكرُ على أبى بكر قوله : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل للأنصار فى هذا الأمر حق ! لأنه لم يَسمع النصّ ولا رواه ولا روى له ؛ وإنما دفع الأنصارَ بنوع من الجدَل ؛ فلا جَرَم بقىَ فى نفسه شىء من ذلك ، وقال عند موته : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله . وليس ذلك مما يقتضى شكَّه فى بَيْعته كما زعم الطاعن ، لأنه إنمـا يشكّ فى بيعته لو كان قال قائل أو ذَهب ذاهب إلى أنّ الإمامةَ ليست إلا فى الأنصار ، ولم يقل أحـدٌ ذلك ، بل النزاع كان فى : هل الإمامة مقصورةٌ على قريش خاصةً ، أم هى فوضى بين النـاس كلّـهم ؟ وإذا كانت الحالُ هذه لم يكن شاكًّا فى إمامته وبَيْعته بقوله : « ليتنى سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله : « هل للأنصار فى هذا حقّ ؟ » لأنّ بَيْعته على كلا التقديرين تكون صحيحةً .

---

(١) فى د « أثبت » .

فأما قولُ قاضى القُضاة : لعله أراد حقًّا للأنصار غيرِ الإمامة نفسها ؛ فليس بجيّد ، والذى اعترضه به المرتضى جيّد ، فإن الكلام لايدُلّ إلا على الإمامة نفسها ، ولفظة المنازعة تؤكّد ذلك .

وأما حديث الهجوم على بيت فاطمة عليها السلام فقد تقدّم الكلام فيه ، والظاهرُ عندى صحة ما يَرْويه المرتضَى والشيعة ، ولكن لا كلّ ما يزعمونه ، بل كان بعض ذلك ، وحقٌّ لأبى بكر أن يندم ويتأسّف على ذلك ، وهذا يدلّ على قوة دينه وخوفه من الله تعالى، فهو بأن يكون منقبةً[1] له أولى من كونه طعنا عليه .

فأمّا قولُ قاضى القُضاة : إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فقد يتمنّى خلافه واعتراضُ المرتضَى عليه ، فكلام قاضى القضاة أصحّ وأصوَب ، لأنّ أبا بكر ـ وإن كانت ولايتهُ مصلحةً وولايةُ غيرِه مفسَدة ـ فإنّه ما تمنَّى أن يكون الإمامُ غيرَه ، مع استلزام ذلك للمفسَدة ، بل تمنَّى أن يلِىَ الأمرَ غيرُه وتكون المصلحة بحالها ، ألا ترَى أنّ خصالَ الكفّارة فى اليمين كلّ واحدة منها مصلحة ، وما عداها لا يقوم مقامَها فى المصلحة ، وأحدُها يقومُ مَقامَ الأخرى فى المصلَحة ! فأبو بكر تمنَّى أن يلِىَ الأمرَ عُمر أو أبو عُبَيدة بشَرْطِ أن تكونَ المصلحة الدّينيّة الّتى تحصُل من بيعته حاصلةً من بيْعة كلّ واحدٍ من الآخرين .

***

الطعن الثالث

قالوا : إنّه ولّى عمرَ الخلافة ، ولم يولّه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئاً

---

(١) منقبة ؛ أى مفخرة .

من أعمالِه البتّةَ إلّا ما ولّاه يومَ خَيْبَرَ ، فرَجع منهزما وولّاه الصدقة ، فلمّا شكاه العبّاس عزَلَه .

أجاب قاضي القضاة بأنّ تركَه عليه السلام أن يولّيَه لا يَدُلّ عَلَى أنه لا يَصلُح لذلك ، وتوليتُه إيّاه لا يَدُلّ على صَلاحيته للإمامة ، فإنّه صلى الله عليه وآله قد وَلّى خالدَ بنَ الوليد وعمرو بنَ العاص ، ولم يدلّ ذلك على صَلاحيتهما للإمامة ، وكذلك تَركُه أن يولّي لا يَدُلّ على أنه غيرُ صالح ، بل المعتَبر بالصّفات الّتي تَصلُح للإمامة ، فإذا كَمَلَتْ صَلَح لذلك ، وُلِّيَ من قبلُ أو لم يُوَلَّ ، وقد ثبتَ أنَّ النبيّ صلَّى الله عليه وآله تَرَكَ أن يولّيَ أمير المؤمنين عليه السلام أموراً كثيرةً ولم يُجبْ إلّا من يَصلُح لها ، وثبت أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسين عليه السلام ابنَه ، ولم يَمنَع ذلك من أن يَصلُح للإمامة . وحُكِيَ عن أبي عليّ إنَّ ذلك إنّما كان يَصحّ أن يتعلّق به لو ظَفِروا بتقصير من عمر فيما تولّاه ، فأمّا وأحواله معروفة في قيامه بالأمر حين يَعجِز غيرُه ، فكيف يصحّ ما قالوه ! وبعد فهلّا دَلّ ما رُوِي من قوله : وإنْ تُولُّوا عمرَ تجِدُوه قويّا في أمرِ الله ، قويًّا في بدنه على جواز ذلك ! وإن تَرَكَ النبي صلَّى الله عليه وآله تَولِيته ، لأنَّ هذا القول أقوَى من الفِعل (١) .

اعتَرض المرتضَى رحمه الله فقال : قد عَلِمنا بالعادة أنْ من تَرشّحَ لكبار الأمور لا بدّ من أن يُدرَّج إليها بصِغارِها ، لأنَّ من يريد بعضُ المُلوك تأهيلَه للأمر من بَعدِه لا بدّ من أن ينبّه عليه بكلّ قول وفعل يدلّ على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستكفيه من أمور ولاياته (٢) مايعلَم عندَه أو يغلب على ظنّه صلاحُه لما يريدُه له . وإن من يرَى الملِك مع حضوره وامتدادِ الزمان وتطاوُله لا يستكفيه شيئا من الولايات ، ومَتى ولّاه عزَله ؛ وإنما يولّي غيرَه ويَستكفي سواه ، لابدّ أن يَغلِب في الظّن أنه ليس بأهلٍ للولاية ، وإن جوّزنا أنَّه لم يولّه لأسبابٍ كثيرة سِوَى أنّه لا يَصلُح للولاية ، إلّا أنّ مع هذا التجويز لا بدّ أن

(١) نقله المرتضى في الشافي ٤١٩ . (٢) الشافي : « من أموره وولاياته » .

يَغلب على الظنّ بما ذكرناه . فأمّا خالد وعَمرو فإنّما لم يَصلُحا للإمامة لفقد شروط الإمامة فيهما ، وإن كانا يَصلُحان لما وَلِياه من الإمارة ، فترك الولاية مع امتداد الزّمان وتطاوُل الأيّام ، وجميع الشروط الّتي ذكرْناها تقتضِي غَلَبة الظنّ لفقْد الصّلاح ، والولاية لشيء[1] لا تدلّ على الصّلاح لغـيره إذا كانت الشرائطُ في القيـام بذلك الغير معلوما فقدُهـا . وقد نجد الملك يولّي بعضَ أموره من لا يَصلُح للمُلك بعده لظهور فقدِ الشرائط فيه ، ولا يجوز أن يكون بحضرته من يُرَشّحـه للمُـلك بعدَه، ثمّ لا يُوليه على تَطاول الزمان شيئا من الولايات. فبان الفرْق بين الولاية وتركها فيما ذكرناه .

فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام وإن لم يتولّ جميع أمورِ النبيّ صلّى الله عليه وآله في حياته ، فقد تولّى أكثرَها وأعظمَها وخَلَفَه في المدينة ، وكان الأميرَ على الجيْش المبعوث إلى خَيْبَر ، وجَرَى الفتحُ على يديه بعد انهزامِ مَن انهزَم منها ، وكان المؤدِّي عنه سورة براءة بعد عَزْل من عَزَل عنها وارتجاعها منه ؛ إلى غـير ذلك من عظيم الولايات والمقامات بما يَطُول شرحُه ، ولو لم يكن إلّا أنه لم يُولَّ عليه واليًا قطّ لـكفي .

فأمّا اعتراضُه بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسينَ فبعيدٌ عن الصواب ، لأنّ أيّام أميرِ المؤمنين عليه السلام لم تَطُلْ فيتمكّن فيها من مراداته ، وكانت على قِصَرها منقسمةً بين قتال الأعداء ، لأنّه عليه السلام لمّا بُويع لم يَلبَث أن خَرَج عليه أهلُ البَصرة فاحتاج إلى قتالهم، ثم انكفأ مِن قتالهم إلى قتالِ أهلِ الشام ، وتعقّب ذلك قتالُ أهل النّهروان ، ولم تستقرّ به الدارُ ولا امتدّ به الزمان ، وهذا بخلاف أيّام النبيّ صلّى الله عليه وآله الّتي تطاولتْ وامتدّت ، على أنّه قد نَصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحَسَن ، وإنّما تُطلَب الولايات لغَلَبة الظنّ بالصّلاح للإمامة .

فإن كان هناك وجهٌ يَقتضِي العلمَ بالصّلاح لما كان أولَى من طريق الظنّ، على أنّه

---

(١) الكافي للشيء .

لاخلاف بين المسلمين أنّ الحسينَ عليه السلام كان يَصلُح للإمامة وإن لم يُوَلّه أبُوه الولايات ، وفى مِثل ذلك خلافٌ من حالِ عمرَ ، فافترق الأمران . فأمّا قوله : إنه لم يعثر على عمرَ بتقصير فى الولاية ، فن سَلّم بذلك ! أو ليسَ يَعلَم أنّ مخالفتَه تُعَدّ تقصيرا كثيرا ، ولو لم يكن إلّا ما اتفق عليه من خَطئه فى الأحكام ورجوعِه من قولٍ إلى غيره ، واستفتائِه الناسَ فى الصغير والكبير ، وقوله : كلّ الناس أفقهُ من عمرَ ، لكان فيه كفاية . وليس كلّ النهوض بالإمامة يَرجع إلى حُسْن التدبير والسّياسة الدنياويّة ورَمّ الأعمال والاستظهار فى جِباية الأموال وتَمصِير الأمصار ووَضْع الأعشار ، بل حَظّ الإمامة من العِلم بالأحكام والفُتْيا بالحلال والحرام ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكَم والمتشابه أقوَى ، فن قصّر فى هذا لم يَنفعْه أن يكون كامِلًا فى ذلك .

فأمّا قوله : فهلّا دلّ ما رُوِى من قوله عليه السلام : فإن « ولّيتُم عمرَ وجدتُموه قويّا فى أمرِ الله قويّا فى بَدَنه » ، فهذا لو ثبتَ لدلّ ، وقد تقدّم القولُ[1] عليه . وأقوَى ما يُبطِله عدولُ أبى بكر عن ذكره ، والاحتجاجُ به لمّا أراد النصّ على عمرَ ، فعُوتب على ذلك وقيل له : ما تقول لربّك إذ وَلّيتَ علينا فَظّا غليظا ! فلو كان صحيحا لكان يحتجّ به ويقول : وَلّيتُ عليكم مَن شَهد النبيُّ صلّى الله عليه وآله بأنّه قوىّ فى أمرِ الله ، قوىٌّ فى بَدَنه . وقد قيل فى الطّعن على صحّة هذا الخبر : إنّ ظاهرَه يَقتضِى تفضيل عمرَ على أبى بكر ، والإجماع بخلافِ ذلك ، لأنّ القوّة فى الجسم فَضْل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[2] . وبعد ، فكيف يُعارض ما اعتمدْناه من عُدولِه عليه السلام عن ولايته — وهو أمرٌ معلومٌ — بهذا الخبرِ المردود المدفوع !

* * *

قلتُ : أمّا ما ادّعاه من عادة المُلوك ، فالأمر بخلافه ، فإنّا قد وَقَفنا على سِيَر الأكاسِرة ومُلوك الرُوم وغيرهم فما سَمِعنا أنّ أحد منهم رَشّح ولدَه

(١) فى د « الكلام » .

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

للمُلك بعدَه باستعماله على طَرَف من الأطراف ، ولا جَيْش من الجيوش ، وإنّما كانوا يثقِّفونهم بالآداب والفُروسيّة فى مَقارِّ مُلْكهم لا غير ، والحالُ فى ملوكِ الإسلام كذلك ، فقد سَمِعنا بالدولة الأمويّة ، ورأينا الدّولةَ العبّاسيّة ، فلم نَعرِف الدولةَ الّتى ادّعاها المرتضَى ، وإنّما قد يقع فى الأقلّ النادر شىءٌ ممّا أشار إليه ، والأغلب الأكثرُ خلاف ذلك .

على أنّ أصحابَنا لا يقولون إنّ عمرَ كان مرشَّحا للخلافة بعدَ رسول الله صلّى الله عليه وآلِه لِيقالَ لهم : فلو كان قد رَشَّحه للخلافة بعدَه لاستكفاه كثيرا مِن أمورِه ؛ وإنّما عمرُ مرشَّح عندَهم فى أيّام أبى بكر للخلافة بعدَ أبى بكر ، وقد كان أبو بكر استعمَله على القَضاء مدّةَ خلافته ، بل كان هو الخليفة فى المعنى ، لأنه فوّض إليه أكثرَ التدبير ، فعلَى هذا يكون قد سَلّمنا أنّ تَركَ استعمالِ النبىِّ صلّى الله عليه وآله لعمرَ يَدُلّ على أنّه غيرُ مرشَّح فى نظره للخلافة بعــدَه ، وكذلك نقول : ولا يَلزَم مِن ذلك ألّا يكون خليفةً بعد أبى بكر ، على أنّا لا نسلّم أنّه ما استعمَله ، فقد ذكر الواقدىُّ وابن إسحاق أنّه بعثه فى سَرِيّة فى سنة سبعٍ من الهجرة إلى الوادى المعروف بتُرَبة ـ بضم التاء وفتح الراء ـ وبها جمعٌ من هَوازِن ، فخرج ومعه دليلٌ من بنى هلال ، وكانوا يسيرون اللّيلَ ويكمُنون النّهار ، وأتى الخبرُ هَوازن فهرَبوا ، وجاء عُمَر محالّــهم ، فلم يَلقَ منهم أحدا ، فانصرَف إلى المدينة .

ثم يُعارض المرتضَى بما ذكره قاضى القُضاة من تَرْكِ توليةِ علىّ ابنه الحسين عليهما السلام ، وقوله فى العُذْر عن ذلك : إنّ عليًّا عليه السلام كان ممنوًّا بحَرْب البُغاة والخوارج لا يدفع المُعارضَةَ ؛ لأنّ تلك الأيّام التى هى أيام حروبه مع هؤلاء هى الأيام الّتى كان ينبغى أن يولّى الحسين عليه السلام بعضَ الأمور فيها ، كاستعماله على جَيْش ينفذه سَرِيّة إلى بعض الجهات ، واستعماله على الكُوفة بعد خروجه منها إلى حرب صِفين ، أو استعماله على القضاء ،

وليس اشتغالُه بالحرب بمانع له عن ولاية ولدِه ، وقد كان مشتغِلا بالحَرْب ، وهو يولّي بني عمّه العبّاس الولايات والبلادَ الجليلة .

فأمّا قوله : على أنّه قد نصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحَسَن ؛ فهذا يُغْنِي عن تولِيَته شيئاً من الأعْمال ؛ فلِقائل أن يَمنَع ما ذَكره من حديث النصّ ، فإنّه أمرٌ تَنفرد به الشِّيعة وأكثرُ أرباب السِّيَر والتّواريخ لا يَذكُرون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلامُ نَصّ على أحَدٍ . ثمّ إن ساغَ له ذلك ساغ لقاضي القضاة أن يقول : إنّ قولَ النبيّ صلّى الله عليه وآله : « اقتدوا باللّذَيْن مِن بعدى : أبى بكر وعمر » ؛ يغنى عن توليةِ عمرَ شيئاً من الولايات ، لأنّ هذا القول آكَدُ من الولاية في تَرَشُّحه للخلافة .

فأمّا قوله : على أنّه لا خلافَ بين المسلمين في صَلاحِيَة الحسين للخلافة وإن لم يولِّه أبوه الوِلايات ، وفي عمرَ خلافٌ ظاهرٌ بين المسلمين ؛ فلِقائلٍ أن يقول له : إجماعُ المسلمين على صلاحيةِ الحُسين للخلافة لا يَدفَع المعارضة ، بل يؤكِّدها ، لأنّه إذا كان المسلمون قد أجمعوا على صَلاحِيَته للخلافة ولم يكن تَرْكُ توليَة أبيه إيّاه الولايات قادحاً في صَلاحِيَته لها بعدَه ، جاز أيضا أن يكون تَرْكُ توليةِ رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله عمر الوِلايات في حَياته غيرَ قادحٍ في صَلاحِيته للخلافة بعدَه .

ثمّ ما ذكره من تقصير عمرَ في الخلافة بطريق اختلافِ أحكامِه ، ورجوعه إلى فتاوى العلماء ، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم لمّا تكلّمنا في مطاعن الشِّيعة على عمرَ وأجَبْنا عنه .

وأمّا قولُه : لا يُغْنِي حُسْنُ التدبير والسّياسة ورمّ الأمور ، مع القُصور في الفقه ، فأصحابُنا يذهبون إلى أنّه إذا تَساوَى اثنان في خصالِ الإمامة إلّا أنّه كان أحدها أعلَم والآخر

أسَوس ، فإن الأسْوَس أولى بالإمامة ، لأنّ حاجةَ الإمامة إلى السّياسة وحُسْن التــدبيرِ آكَدُ من حاجتها إلى العِلْم والفقْه .

وأمّا الخبر المَروِيّ فى عمرَ ـ وهو قولُه : وإنْ تُوَلُّوها عمرَ ـ فيجوز ألّا يكون أبو بكر سَمِعَه من رسول الله صلّى الله عليـــه وآلِه ، ويكون الرّاوى له غيره ، ويجوز أن يكون سَمِعه وشَذّ عنــه أن يَحتجّ به على طَلحة لَمّا أنكر استخلافَ عمَرَ ، ويجوز ألّا يكون شَذّ عنه وتَرَكَ الاحتِجاجَ به استغناء عنه لعلمه أنّ طلحةَ لا يُمتَدّ بقوله عند الناس إذا عارض قوله . ولعلّه كَنَى عن هذا النصّ بقوله : إذا سألنى ربّى قلتُ له : استخلفتُ عليهمْ خيرَ أهلِك ؛ على أنّا مَتى فتحْنا باب « هلّا احتجّ فلان بكذا » جَرّ علينا ما لا قِبَل لنا به . وقيل : هلا احتجّ علىّ عليه السلام على طلحةَ وعائشةَ والزبير بقول رسولِ الله صلّى الله عليه وآله : « مَن كنتُ مولاه فهذا علىٌّ مولاه » ، وهلّا احتجّ عليهم بقوله : « أنتَ منّى بمنزلةِ هارون من موسى » ، ولا يُمكن الشّيعة أن يعتذروا هاهنا بالتقيّة ، لأنّ السّيوف كانت قد سُلّت من الفريقين ، ولم يكن مقام تَقيّة .

وأمّا قولُه : هــذا الخبر لو صحّ لاقتضى أن يكون عمرُ أفضلَ من أبى بكر ، وهو خلافُ إجماعِ المسلمين ؛ فلقائل أن يقول : لِمَ قلتَ إنّ المسلمين أجمعوا على أنّ أبا بكر أفضلُ من عمرَ ، مع أنّ كُتُبَ الكلام والتصانيف المصنَّفة فى المقالات مشحونةٌ بذكر الفِرْقة العُمَريّة ، وهم القائلون إنّ عمر أفضــلُ من أبى بكر ، وهى طائفةٌ عظيمةٌ من المسلمين ، يقال : إنّ عبدَ الله بن مسعود منهم ، وقد رأيتُ أنّ جماعةً من الفقهاء يَذهبون إلى هذا ، ويُناظرون عليه ؛ على أنّه لا يدلّ الخبرُ على ما ذكَرَه المرتضَى ، لأنّه وإن كان عمرُ أفضلَ منه باعتبار قوّة البدن ، فلا يدلّ على أنّه أفضلُ منه مطلقا ، فمن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخصْلة خصالٌ كثيرة فى أبى بكر من خصالِ الخير يُفضَّل بها على عُمَر ،

ألا ترى أنّا نقول : أبو دُجانة أفضل من أبى بكر بجهاده بالسّيف فى مَقام الحرب، ولا يلزَم من ذلك أن يكون أفضل منه مطلقا ، لأنّ فى أبى بكر من خصال الفَضْل ما إذا قيس بهذه الخصْلة أربى عليها أضعافا مضاعفة .

***

الطعن الرابع

قالوا : إنّ أبا بكر كان فى جَيْش أسامة ، وإنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله كرّر حين موته الأمرَ بتنفيذ جيش أسامة، فتأخُّره يقتضى مخالفةَ الرسول صلى الله عليه وآله. فإن قلتم: إنّه لم يكن فى الجيش ،قيل لكم: لاشكّ أنّ عمرَ بنَ الخطّاب كان فى الجيش،وأنّه حَبَسه ومَنَعه من النّفوذ مع القوم . وهذا كالأوّل فى أنّه معصية ، وربّما قالوا : إنّه صلّى الله عليه وآله جَعَل هؤلاء القوم فى جيش أسامة ليَبْعُدوا بعدَ وفاته عن المدينة ، فلا يقع منهم توثّبٌ على الإمامة ، ولذلك لم يَجعل أميرَ المؤمنين عليه السلام فى ذلك الجيش ، وجعل فيه أبا بكر وعمرَ وعثمانَ وغيرَهم ، وذلك من أوْكَد الدّلالة على أنّه لم يرد أن يُختاروا للإمامة (١) .

أجاب قاضى القُضاة بأنْ أنكَر أوّلا أن يكون أبو بكر فى جيش أُسامةَ ، وأحالَ على كُتُب المغازى ، ثم سلّم ذلك وقال : إنّ الأمرَ لا يقتضى الفورْ ، فلا يَلزَم من تأخّر أبى بكر عن النّفوذ أن يكون عاصِياً . ثمّ قال : إنّ خطابه صلّى الله عليه وآله بتنفيذ الجيش يجب أن يكونَ متوجّها إلى القائم بعدَه ، لأنّه من خطاب الأئمة ، وهذا يَقتضِى ألا يدخل المخاطَب بالتّنفيذ فى الجملة ؛ ثم قال ؛ وهذا يدلّ على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه ، لأنّه لو كان لأقبل بالخطاب عليه ، وخصّه بالأمر بالتنفيذ دونَ الجميع .

---

(١) الشافى ٠ ٤٢ .

ثمّ ذَكَر أنّ أمر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لابدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة وبأن لا يعرض ما هو أهمّ منه ، لأنّه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ ، وإن أعقَب ضرراً فى الدين، ثمّ قوى ذلك بأنّه لم يُنكر على أسامة تأخُّره ، وقوله : « لم أكن لأسأل عنك الرَّكْب » ؛ ثم قال : لو كان الإمامُ منصوصا عليه لجازَ أن يستردّ جيشَ أسامة أو بعضه لنُصْرته ، وكذلك إذا كان بالأختيار ؛ ثمّ حكى عن الشيخ أبى علىّ أستدلاله على أنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أُسامةَ بأنّه وَلّاه الصلاة فى مَرَضه ، مع تكريره أمرَ الجيش بالنّفوذ والخروج .

ثمّ ذَكَر أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله إنّما يأمرُ بما يتعلّق بمصالح الدّنيا من الحروب ونحوها عن اجتهاده، وليس بواجب أن يكون ذلك عن وَحْى، كما يجب فى الأحكام الشرعيّة، وأنّ اجتهادَه يجوز أن يخالف بعد وفاته ، وإن لم يَجُز فى حياته ، لأنّ اجتهادَه فى الحياة أولى من اجتهاد غيره ، ثمّ ذَكَر أنّ العِلّة فى احتباس عمر عن الجيش حاجة أبى بكر إليه، وقيامُه بما لا يقوم به غيرُه ، وأنّ ذلك أحوَطُ للدِّين من نُفوذِه .

ثمّ ذَكَر أنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام حارَبَ معاويةَ بأمر الله تعالى وأمرِ رسوله، ومع هذا فقد ترك محاربته فى بعض الأوقات ، ولم يجب بذلك ألّا يكون ممتثِلا للأمر . وذَكَر توليتَه عليه السلام أبا موسى ، وتوليَة الرّسول صلّى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد مع ما جرَى (١) منهما وأن ذلك بمقتضِى الشّرط .

ثم ذكر أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أسامةَ يجب تأخيرُه ليختار للإمامة أحدهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نفُوذهم ، فإذا جازَ لهذه العِلّة التأخير قبل العَقْد جازَ التأخير بعدَه للمعاضَدة وغيرها ، وطعن فى قولِ مَن جَعَل إنّ إخراجَهم فى الجيش على جهة الإبعاد لهم عن المدينة بأن قال : إنّ بُعدَهم عن المدينة لا يمنع من أن يُختاروا للإمامة ،

---

(١) فى د « ظهر » .

ولأنه عليه السلام لم يكن قاطعا على موته لا محالة ، لأنه لم يرد : نفذوا جيش أسامةَ في حياتي . ثمّ ذكر أنّ ولاية أسامةَ عليهما لا تقتضي فضلَه وأنّهما دونَه ، وذكَر ولاية عمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونا دونَه في الفضل ، وأنّ أحدا لم يُفضّل أسامةَ عليهما .

ثم ذكر أنّ السبب في كون عمرَ من جملة جيش أسامة أنّ عبد الله بن أبي ربيعةَ المخزوميّ قال عند ولاية أسامة : تولّى علينا شابٌّ حدَث ونحن مَشيخة قُريش ! فقال عمر : يا رسولَ الله ، مُرْني حتّى أضربَ عنقَه ، فقد طعَن في تأميرك إيّاه ؛ ثم قال : أنا أخرُج في جيش أسامةَ تواضُعا وتعظيما لأمرِه عليه السلام .

اعترَض المرتضَى هذه الأجوبة ، فقال : أمّا كونُ أبي بكر في جملة جيش أسامةَ فظاهر ، قد ذكره أصحاب السِّيَر والتّواريخ ، وقد روَى البلاذُريّ في تاريخه وهو معروفٌ بالثقة والضّبط ؛ وبرىءٌ من مُمالأة الشّيعة ومقاربتها ، أنّ أبا بكر وعمرَ معا كانا في جيش أسامة ، والإنكار لما يجرى هذا المجرَى لا يُغنِي شيئا ، وقد كان يجب على من أحالَ بذلك على كتُب المغَازى في الجملة أن يومئ إلى الكتاب المتضمِّن لذلك بعينه ليرجعَ إليه ، فأمّا خطابُه عليه السلام بالتّنفيذ للجَيْش فالمقصودُ به الفور دونَ التّراخي، إمّا مِنْ حيث مُقتضَى الأمر على مذهب مَن يرَى ذلك لغةً ، وإمّا شرعا من حيثُ وجَدْنا جميع الأمّة من لدُن الصحابة إلى هذا الوقت يحمِلون أوامِرَه على الفوْر[1] ، ويطلُبون في تَراخيها الأدلّة . ثمّ لو لم يثبتْ كلّ ذلك لكان قولُ أسامةَ : لم أكن لأسألَ عنك الرّكْبَ ، أوضَحَ دليل على أنّه عقل من الأمرِ الفوْرَ ، لأنّ سؤالَ الرّكب عنه عليه السلام بعدَ وفاته لا معنَى له .

---

(١) الشافي : « من حيث دل دليل الشرع عليه » .

وأمّا قولُ صاحب الكتاب : إنّه لم يُنكر على أسامةَ تأخّره فليس بشيء ، وأيّ إنكارٍ أبلغ من تكرارِه الأمر ، وتردادِه القَوْل فى حالٍ يُشغِل عن المهمّ ، ويقطع الفِكْر إلّا فيها ! وقد كرّر الأمرَ على المأمور تارةً بتكرار الأمرِ ، وأخرى بغيرِه . وإذا سلّمنا أنّ أمرَه عليه السلام كان متوجّها إلى القائم بعدَه بالأمر لتنفيذ الجيش بعد الوَفاة لم يلزَم ما ذكَرَه من خروج المخاطب بالتنفيذ عن الجملة ؛ وكيف يصحّ ذلك وهو من جملة الجيش ، والأمر متضمّن تنفيذ الجيش ! فلابدّ من نُفوذ كلٍّ من كان فى جُملتِه ، لأنّ تأخّرَ بعضهم يَسلبُ النافذِين اسمَ الجيش على الإطلاق . أوَ ليس من مذهب صاحب الكتاب أنّ الأمرَ بالشيء أمرٌ بما لا يتمّ إلّا معه ! وقد اعتمدَ على هذا فى مَواضع كثيرة ، فإن كان خُرُوجُ الجيش ونفوذه لايتمّ إلّا بخروج أبي بكر ، فالأمر بخروج الجيش أمرٌ لأبي بكر بالنفوذ والخروج ، وكذلك لو أقبَل عليه على سَبيل التّخصيص ؛ وقال : نفّذوا جيشَ أسامةَ ، وكان هو من جملة الجيش ، فلابدّ أن يكون ذلك أمراً له بالخروج . واستدلاله على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه بعموم الأمر بالتّنفيذ ، ليس بصحيح ؛ لأنا قد بيّنا أنّ الخطاب إنّما توجّه إلى الحاضرِين ، ولم يتوجّهْ إلى الإمام بعدَه ؛ على أنّ هذا لازمٌ له ، لأنّ الإمامَ بعدَه لايكون إلّا واحدا، فلَم عمّمَ الخطابَ ولم يفرِد به الواحدَ فيقول : لينفذ القائم مِن بعدِي بالأمرِ جيشَ أسامة ، فإنّ الحال لا يختلف فى كون الإمام بعدَه واحدا بين أن يكون منصوصاً عليه أو مختارا .

وأمّا ما ادّعاه أنّ الشرط(١) فى أمرِه عليه السلام لهم بالنُّفوذ فباطل ، لأنّ إطلاقَ الأمر يَمنع من إثبات الشرط ، وإنّما يَثبتُ من الشروط ما يَقتضِي الدليل إثباته من التمكّن والقُدْرة ، لأنّ ذلك شرطٌ ثابت فى كلّ أمر ورد من حكيم ، والمصلحة بخلافِ ذلك ، لأنّ الحكيم لا يأمر بشَرْط المصلحة ، بل إطلاق الأمر منه يَقتضِي ثُبوتَ المصلحة وانتفاء المفْسَدة ، وليس كذلك التمكُّن ، وما يجرِي مَجراه ، ولهذا لا يَشترط

(١) فى د « وأما ادعاؤه الشرط » .

أحدٌ فى أوامر الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله بالشرائع المصلحةَ وانتفاء المفسَدة . وشرَطوا فى ذلك التمكّن ورفع التعذّر ، ولو كان الإمام منصوصا عليه بعَينه وأُمته لَمَا جاز أن يستردّ جيش أُسامةَ ؛ بخلاف ماظنّه ، ولا يَعزِل مَنْ ولّاه عليه السلام ولا يولّى من عزَله للعِلّة التى ذكرناها .

فأمّا استدلال أبى علىّ على أنّ أبا بكر لم يكن فى الجيش بحديث الصلاة ، فأوّل ما فيه أنه اعتراف بأن الأمر بتنفيذ الجيش كان فى الحياة دونَ بعدِ الوفاة ، وهذا ناقضٌ لما بَنى صاحبُ الكتاب عليه أمرَه عليه السلام .

ثمّ إنّا قد بيّنا أنه عليه السلام لم يُولِّه الصلاةَ وذَكرنا ما فى ذلك . ثمّ ما المانع من أن يولّيه تلك الصلاة إن كان ولّاه إيّاها ، ثم يأمره بالنفوذ من بعد مع الجَيْش ! فإنّ الأمر بالصلاة فى تلك الحال لا يقتضى أمرَه بها على التأبيد .

وأمّا ادّعاؤه أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله يأمرُ بالحروب وما يتّصل بها عن اُجتهادٍ دون الوَحْى ، فمعاذَ الله أن يكون صحيحا ، لأنّ حروبَه عليه السلام لم تكن ممّا يختصّ بمَصالح أمور الدّنيا ، بل للدّين فيها أقوى تعلّق ، لِما يعودُ على الإسلام وأهلِه بفُتوحه من العزّ والقوّة وعلوّ الكلمة . وليس يَجرى ذلك مَجرَى أكله وشُربه ونومه ؛ لأنّ ذلك لا تعلّق له بالدّين ، فيجوز أن يكون عن رأيه ، ولو جاز أن تكونَ مَغازيه وبعوثُه مع التعلّق القوىّ لها بالدّين عن اُجتهاد لجازَ ذلك فى الأحكام .

ثم لو كان ذلك عن اُجتهادٍ لما ساغَتْ مخالفتُه فيه بعدَ وفاته ، كما لا تَسوغ فى حياته . فكل علّة تمنَع من أحدِ الأمرين هى مانعةٌ من الآخر . فأمّا الاعتذار له عن حَبْس عمرَ عن الجيش بما ذَكَره فباطل ؛ لأنّا قدْ قلنا : إنّ ما يأمر به عليه السلامُ لا يسوغُ مخالفتُه مع الإمكان ، ولا مُراعاةَ لِما عَساه يَعرِض فيه مِنْ رأى غيره ، وأىّ حاجة إلى عمرَ بعد تمامِ العَقْد ، واستقراره ورضا الأمّة به ، على طَريق [1] المخالف وإجماعها عليه ، ولم يكن

---

(١) فى د : « مذهب » .

هناك فتنة ولا تنازُع ولا اختلاف يُحتاجُ فيه إلى مُشاورَته وتدبيره ! وكلّ هذا تعلُّلٌ باطل .

فأمّا محاربةُ أميرِ المؤمنين عليه السلام معاويةَ فإنّما كان مأمورا بها مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، وقد فعَل عليه السلام مِن ذلك ما وَجَب عليه لمّا تمكّن منه ، فأمّا مع التعذّر وفَقْدِ الأنصار فما كان مأمورا بها . وليس كذلك القولُ فى جيش أسامة ، لأنّ تأخّر من تأخّر عنه كان مع القدرة والتمكّن . فأمّا تولية أبى مُوسَى فلا نَدرِى كيف يُشبِه ما نحنُ فيه ، لأنّه إنّما ولّاه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيَحكم فيه وفى خَصْمه بما يقتضيه ، وأبو موسى فعَل خلافَ ما جُعل إليه ، فلم يكن ممتثِلا لأمرِ من ولّاه ، وكذلك خالدُ ابن الوليد إنّما خالَفَ ما أمَرَه به الرسولُ صلّى الله عليه وآله فتبرّأ من فعله ، وكلّ هذا لا يُشبِه أمره عليه السلام بتنفيذ جيشِ أسامةَ أمراً مطلقا ، وتأكيدُه ذلك وتكرارُه له، فأمّا جيشُ أُسامةَ فإنّه لم يضمّ من يَصلح للإمامة ، فيجوز تأخّرهم ليختار أحدهم على ماظنّه صاحبُ الكتاب. على أنّ ذلك لو صحّ أيضاً لم يكن عُذْرا فى التأخّر؛ لأنّ مَنْ خرج فى الجيش يُمكِن أن يختار وإن كان بعيداً ، ولا يَمنَع بُعده من صحّة الاختيار ، وقد صرّح صاحبُ الكتاب بذلك . ثمّ لو صَحّ هذا العُذْر لكان عُذْرا فى التأخّر قبلَ العَقْد ، فأمّا بعد إبرامِه فلا عُذرَ فيه ، والمُعاضدة الّتى ادّعاها قد بيّنّا ما فيها .

فأمّا ادّعاء (١) صاحب الكتاب رادًّا على من جَعَل إخراجَ القوم فى الجيش ليتمّ أمرُ النصّ أن مَنْ أبْعَدهم لا يَمنَع أن يختاروا للإمامة فيدلّ على أنّه لم يتبيّن معنى هذا الطّعن على حقيقته ، لأنّ الطاعنَ به لا يقول إنّه أبْعدَهم لئلاّ يُختاروا للإمامة ، وإنّما يقول : إنّه أبْعدَهم حتّى يَنتصِب بعدَه فى الأرض مَن نصّ عليه ، ولا يكون هُناكَ من ينُازِعُه ويخالِفُه .

---

(١) فى د : « قول » .

وأمّا قولُه : لم يكن قاطعا على مَوتِه فلا يضرّ تسليمه، أليس كان مُشفِقاً وخائفاً! وعلى الخائف أن يتحرّز ممّن يَخاف منه . فأمّا قولُه : فإنه لم يرِد : نفّذوا الجيشَ فى حَياتى فقد بيّنا ما فيه . فأمّا ولاية أسامةَ على من وُلِّيَ عليه ، فلا بدّ من اقتضائِها لفَضْله على الجماعة فيما كان والياً فيه ، وقد دَلّلنا فيما تقدّم من الكتاب على أنّ ولايةَ المَفضُول على الفاضِل فيما كان أفضَل منه فيه قبيحة، فكذلك القولُ فى ولايةِ عَمرو بنِ العاص عليهما فيما تقدّم، والقولُ فى الأمرَين واحد .

وقوله : إنّ أحدا لم يدّعِ فضلَ أسامةَ على أبى بكر وعمرَ ، فليس الأمرُ على ما ظَنّه؛ لأن من ذهب إلى فسادِ إمامةِ المَفْضول لا بدّ من أن يُفضّل أسامة عليهما فيما كان والياً فيه ، فأمّا ادّعاؤه ما ذكَرَه من السّبب فى دخولِ عمرَ فى الجيش فما نعرفه ، ولا وقَفْنا عليه إلّا من كتابه ، ثمّ لو صحّ لم يُغنِ شيئا ، لأنّ عمرَ لو كان أفضل من أسامةَ لَمنَعه الرسولُ صلّى الله عليه وآله من الدّخول فى إمارتِه والمَسيرِ تحت لوائِه ، والتواضُع لا يَقتضى فعلَ القبيح[1] .

* * *

قلتُ : إنّ الكلامَ فى هذا الفصل قد تشعّب شُعَبا كثيرة ، والمُرتضَى رحمه الله لا يُورِد كلامَ قاضى القُضاة بنصّه ، وإنما يَختصِره ويورِدُه مبتورا ، ويُومِئ إلى المعانى إيماءً لطيفا ، وغرضُه الإيجاز ، ولو أورَدَ كلامَ قاضى القضاة بنصّه لكان أليق ، وكان أبعد عن الظِّنّة ، وأدفعَ لقولِ قائلٍ من خصومه : إنّه يحرّف كلامَ قاضى القضاة ، ويذكُرُه على غير وَجْه ، ألا تَرَى أنّ من نَصَب نفسَه لاختصار كلامٍ فقد ضمِن على نفسه أنّه قد فَهِم معانىَ ذلك الكلام حتى يصحّ منه اختصاره ؛ ومن الجائز أن يظنّ أنّه قد فهِم

(١) الشافى ٤٢٠ ، ٤٢١ .

بعضَ المواضع ولم يكن قد فَهِمه على الحقيقة ، فيختصر ما فى نفسه ؛ لا ما فى تصنيف ذلك الشخص ، وأمّا من يُورِد كلامَ الناس بنصّه فقد اُستَراحَ من هذه التَّبِعة ، وعَرَض عقلَ غيره وعقلَ نفسِه على الناظرين والسامعين .

ثم نقول : إنّ هذا الفصل ينقسم أقساما :

منها قولُ قاضى القُضاة : لا نُسلِّمأنّ أبا بكر كان فى جيش أسامة .

وأمّا قولُ المرتَضى : إنه قد ذكره أربابُ السِّيَر والتواريخ ، وقولُه : إنّ البَلاذُرِىّ ذكره فى تاريخه ، وقولُه : هلاّ عيّنَ قاضى القُضاة الكتابَ الّذى ذكَر أنّه يتضمّن عدمَ كونِ أبى بكرٍ فى ذلك الجيش ! فإنّ الأمرَ عندى فى هذا الموضع مشتبِه ، والتواريخ مختلِفة فى هذه القضيّة[1] ، فنهم من يقول : إنّ أبا بكر كان فى جُملة الجيش ، ومنهم من يقول : إنّه لم يكن ، وما أشار إليه قاضى القُضاة بقوله فى كتب المغازِى لا ينتهى إلى أمر صحيح ، ولم يكن ممّن يستحلّ القول بالباطل فى دينه ولا فى رئاسته . ذكَر الواقدىّ فى كتاب المغازِى أنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أسامة ، وإنما كان عمرُ ، وأبو عُبيدة ، وسعدُ بنُ أبى وَقّاص ، وسعيدُ بنُ زيد بنِ عمرو بنِ نُفَيل ، وقَتادة بنُ النُّعمان ، وسَلَمة بن أسلَم ، ورجالٌ كثيرٌ من المهاجرين ، والأنصار ، قال : وكان المنكرِ لإمارة أسامةَ عيّاشُ بنُ أبى رَبيعة . وغيرُ الواقدىّ يقول : عبدُ الله بنُ عَيّاش ؛ وقد قيل : عبدُ الله بنُ أبى ربيعة أخو عيّاش .

وقال الواقدىّ : وجاء عمرُ بن الخطّاب فودّع رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ليسيرَ مع أسامة . وقال : وجاء أبو بكر فقال : يا رسول الله ، أصبحتَ مُفيقا بحَمْد الله ، واليومَ يومُ ابنةِ خارجة ، فأْذَنْ لى ، فأَذِن له ، فذهب إلى منزله بالسُّنْح[2] وسار أسامة فى العسكر ، وهذا تصريح بأنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أسامة .

---

(١) فى د : « القصة » .

(٢) السنح : إحدى محال المدينة ؛ وكان بها منزل أبى بكر حين تزوج مليكة ؛ وقيل حبيبة بنت خارجة (ياقوت) .

وذكر موسى بنُ عُقْبة فى كتاب " المغازى " أنَّ أبا بكر لم يكن فى جيشِ أسامة وكثير من المحدِّثين يقولون : بل كان فى جيشِه .

فأمّا أبو جعفر محمّد بنُ جَرِير الطبرىّ فلم يذكر أنّه كان فى جيش أُسامَة إلّا عمر . وقال أبو جعفر : حدّثنى السُّدّىُّ بإسنادٍ ذَكَره أنَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ضَرَب قبل وفاتِه بَعْثا على أهل المدينة ومَن حولَهمْ وفيهم عمرُ بنُ الخطّاب ، وأمَّرَ عليهم أسامَة ابنَ زيد ، فلم يجاوِزْ آخرُهم الخَنْدَق حتّى قُبِض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فوقف أُسامةُ بالناس ثم قال لعمر : ارجِع إلى خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه فاستأذِنْه يَأْذَن لى أرْجِعْ بالناس ، فإنَّ معى وجوه الصّحابة ، ولا آمَن على خليفة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، وثَقَل رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وأثقال المسلمين أن يتخطّفهم المُشرِكون حولَ المدينة ؛ وقالت الأنصار لعمرَ سِرًّا : فإنْ أَبَى إلّا أن يَمضىَ فأَبلِغه عنّا ، واطلُب إليه أن يولّى أمرَنا رجلا أقدمَ سِنّا من أُسامة ، فخرج عمرُ بأمر أُسامة فأَتَى أبا بكر فأخبَره بما قال أُسامة ، فقال أبو بكر : لو تخطّفتنى الكلابُ والذئابُ لم أرُدَّ قضاءً قَضَى به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله . قال : فإنَّ الأنصارَ أمَرونى أن أُبلِّغك أنّهم يَطلُبون إليك أن تولّىَ أمرَهم رجلا أقدمَ سِنًّا من أُسامة ، فوثَب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ فأخَذَ بلحيةِ عمرَ وقال : ثَكِلَتْك أمُّك يابنَ الخطّاب ! أيَستعمِلُه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وتأمرُنى أن أَنْزِعه ! فخرج عمرُ إلى الناس ، فقالوا له : ما صنعتَ ؟ فقال : امضُوا ثَكِلَتْكم أمهاتُكم ! ما لقيتُ فى سبيلكم اليومَ من خليفةِ رسول الله صلّى الله عليه وآله ! ثمّ خرج أبو بكر حتّى أتاهم فأشخَصَهم[1] وشيّعهم ، وهو ماشٍ وأُسامة راكب ، وعبد الرحمن ابن عوف يقودُ دابّةَ أبى بكر ، فقال له أسامةُ بنُ زيد : يا خليفةَ رسولِ الله ، لتركَبَنّ أو لأنزِلَنّ ، فقال : والله لا تَنزِل ولا أركَب ، وما علىّ أن أغبِّرَ قدمى فى سبيل الله ساعةً ،

---

(١) أشخصهم : بعث بهم .

فإنّ للغازى بكلّ خُطْوة يَخطوها سبعمائة حسنة تُكتَب له ، وسبعمائة درجة تُرفَع له ، وسبعمائة خطيئة تُمحَى عنه ، حتّى إذا انتهَى قال لأسامة : إنْ رأيتَ أن تُعينَنى بعمرَ فافعل، فأذِن له ، ثم قال : أيّها النـاس ، قِفوا حتّى أوصيكم بعَشْر فاحفظوها عنّى : لا تخونُوا ولا تَغْدِروا ولا تَغُلُّوا ولا تُمثّلوا ولا تَقتُلوا طفْلا صغيرا ، ولا شيخاً كبيرا ، ولا امرأةً ، ولا تَعقِروا نَخْلا ولا تُحَرِّقوه ، ولا تَقطعوا شجرةً مُثمِرة ، ولا تَذبحوا شاةً ولا بَعيراً ولا بقَرَةً إلا لمأْكَلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم للعبـادة فى الصّوامع ، فدعُوهم فيما فرّغوا أنفسَهم له ، وسوف تَقدِمون على أقوام يأتونـكم بصِحافٍ فيها ألوانُ الطعام ، فلا تأكلوا من شىء حتّى تَذكُروا اسمَ الله عليـــه ، وسوف تَلقَوْن أقواما قد حَصّوا[(١)] أوساطَ رءوسهم وتركُوا حولها مِثلَ العصائب ، فاخفِقُوهم[(٢)] بالسّيوف خَفْقا ؛ أفناهم اللهُ بالطعن والطاعون ، سِيرُوا على اسم الله .

وأمّا قولُ الشيخ أبى علىّ فإنه يدلّ على أنّه لم يكن فى جيشِ أسامة ، أمرُه إيّاه بالصّلاة .

وقولُ المرتضَى : هذا اعترافٌ بأنّ الأمرَ بتنفيذ الجيش كان فى الحالِ دونَ ما بعدَ الوفاة ، وهذا يَنقُض ما بَنَى عليه قاضى القُضاة أمرَه ؛ فلِقائلٍ أن يقول : إنّه لا يَنقُض ما بناه ، لأنّ قاضىَ القُضاة ما قال : إنّ الأمرَ بتنفيذ الجيش ما كانَ إلّا بعـدَ الوفاة ، بل قال : إنّه أمْر ، والأمْرُ على التّراخى ، فلو نفذ الجيشُ فى الحال لجاز ، ولو تأخّر إلى بعد الوفاة لجاز .

فأمّا إنـكار المرتضَى أن تـكون صَلاةُ أبى بكر بالنّاس كانت عن أمرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه فقد ذكرْنا ما عندَنا فى هذا فيما تقدّم .

وأمّا قولُه : يجوز أنْ يكون أمرَه بصلاةٍ واحدةٍ أو صلاتين ، ثمّ أمرَه بالنّفوذ بعد

---

(١) حص شعره : حلقه . (٢) اخفقوهم : اضربوهم .

ذلك ، فهذا لَعَمْرى جائزٌ . وقد يُمكِن أن يقال : إنّه لمّا خرج متحامِلًا من شدّة المرض فتأخّر أبو بكر عن مُقامِه ، وصلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالنّاس ، أمَرَه بالنّفوذ مع الجيش ، وأسكتَ رسول الله صلّى الله عليه وآله فى أثناء ذلك اليوم ، واستمرّ أبو بكر على الصّلاة بالناس ، إلى أن تُوفّىَ عليه السلام ، فقد جاء فى الحديث أنّه أسكت ، وأن أسامة دخل عليه فلم يَستطِع كلامَه لكنّه كانَ يرفَع يديه ويَضمُهُما[1] عليه كالدّاعى له . ويُمكِن أن يكونَ زمان هذه السّكتة قد امتدّ يوما أو يومين ، وهذا الموضعُ مِن المَواضع المشتَبِهة عندى .

ومنها قولُ قاضى القُضاة : إنّ الأمرَ على التّراخى ، فلا يلزَم من تأخُّر أبى بكر عن النّفوذ أن يكون عاصياً .

فأمّا قولُ المرتضَى : الأمرُ على الفَوْر إمّا لغةً عند من قال به ، أو شرْعا لإجماع الكلّ على أنّ الأوامر الشرعيّة على الفَوْر إلّا ما خرج بالدّليل ، فالظاهر فى هذا الموضع صحّة ما قاله المرتضَى ، لأنّ قرائنَ الأحوالِ عند من يقرأ السِّيَر ويَعرِف التّواريخ تَدُلّ على أنّ الرسولَ صلّى الله عليه وآله كان يَحُثُّهم على الخروج والمَسيرِ ، وهذا هو الفوْر .

وأمّا قولُ المرتضى وقولُ أُسامة : لم أكن لأسأل عنك الرّكْب ، فهو أوْضح دليل على أنه عَقَل من الأمر الفَوْر ، لأنّ سؤال الرّكْب عنه بعد الوَفاة لا معنى له . فلقائلٍ أن يقول : إنّ ذلك لا يدُلّ على الفوْر ، بل يَدُلّ على أنه مأمور فى الجملة بالنّفوذ والمَسيرِ ، فإنّ التعجيل والتأخير[2] مفوّضان إلى رأيه ، فلمّا قال له النبيّ صلّى الله عليه وآله : لم تأخّرت عن المَسيرِ ؟ قال : لم أكن لأسيرَ وأسألَ عنك الرّكْب ، إنى انتظرتُ عافيتك ، فإنى إذا سرتُ وأنت على هذه الحال لم يكن لى قلب للجهاد ، بل أكون قَلِقا شديد الجزع ، أسأل

---

(١) فى د « ويحطهما » . (٢) فى د « والتأجيل » .

عنك الرُّكْبان ، وهذا الكلامُ لا يدلّ على أنه عَقَل من الأمر الفَوْر لا مَحالَة ، بل هو على أن يَدُلّ على التراخى أظهر ، وقولُ النبي صلّى الله عليه وآله : « لِمَ تأخّرت عن المَسِير ؟ » لا يَدُلّ على الفَوْر ؛ لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشيء على جهة التراخى إذا لم يكن سؤال إنكار .

وقول المرتضى : لأن سؤال الرَّكْب عنه بعدَ الوفاة لا مَعْنى له ، قولُ مَن قد توَهَّم على قاضي القضاة أنه يقول : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ما أمرهم بالنفوذ إلّا بعد وفاته ، ولم يَقُل قاضي القضاة ذلك ، وإنما ادّعى أنّ الأمر على التراخى لا غير ، وكيف يُظَنّ بقاضي القضاة أنه حَمَل كلام أُسامةَ على سؤال الرّكْب بعد الموت ! وهل كان أسامةُ يعلم الغيب فيقول ذاك ! وهل سأل أحدٌ عن حال أحد من المرضى بعد موته !

فأمّا قول المرتضى عَقِيبَ هذا الكلام : لا مَعنَى لقول قاضي القُضاة إنه لم ينكر على أسامة تأخّره ، فإن الإنكار قد وقع بتكرار الأمر حالًا بعد حالٍ ، فلقائل أنْ يقول : إن قاضي القُضاة لم يجعل عدَم الإنكار على أسامة حجّة على كون الأمر على التراخى ، وإنما جعل ذلك دليلا على أنّ الأمر كان مَشْروطا بالمصلَحة ، ومَن تأمل كلام قاضي القُضاةِ الذى حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك ، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذى أوردَه فيه، فيَجعَلَه في موضع آخر .

ومنها قولُ قاضي القضاة : الأمرُ بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجِّها إلى الخليفة بعده، والمخاطبُ لا يدخُل تحت الخطاب ، واعتراضُ المرتضى عليه بأن لفظة « الجيش » يدخل تحتها « أبو بكر » فلا بدّ من وجُوب النفوذ عليه ، لأنّ عدم نُفوذه يَسلب الجماعة اسم « الجيش » ؛ فليس بجيّد ، لأنّ لفظة « الجيش » لفظةٌ موضوعة لجماعة من النّاس قد أُعِدّت للحرب ، فإذا خرج منها واحدٌ أو اثنان لم يَزل مسمَّى الجيش عن الباقين ، والمرتضى

اعتقد أنّ ذلك مِثل الماهِيّات المركّبة ، نحو العشرة إذا عُدِم منها واحد زال مسمى العَشَرة ، وليس الأمرُ كذلك ، يبين ذلك أنه لو قال بعضُ الملوك لمائة إنسان : أنتم جيشي ، ثم قال لواحد منهم : إذا متّ فأعطِ كلّ واحدٍ من جيشي دِرْهما من خِزَانتي ، فقد جعلتك أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه دِرْهما ، ويقول : أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لَفْظة الجيش .

ومنها قولُ قاضي القضاة : هذه القضيّة تدلّ على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه ؛ وأمّا قول المرتضى : فقد بينا أنّ الخطاب إنما توجّه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده ، فلم نجد في كلامه في هذا الفصل بطوله ما بيّن فيه ذلك ، ولا أعلم على ماذا أحال ! ولو كان قد بيّن — على ما زَعَم — أن الخِطَاب متوجِّه إلى الحاضرين ، لكان الإشكالُ قائماً ، لأنه يقال له : إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجّه الخطاب إلى الحاضرين ! ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملكُ للرعيّة : اقضوا بين هذين الشخصين والقاضي حاضرٌ عندَه ، إلّا إذا كان قد عَزَله عن القضاء في تلك الواقعة عن الرعيّة !

فأمّا قول المرتضى : هذا ينقلب عليكم ، فليس ينقلب ؛ وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط ، ولا يريدُه وهو حيّ ، فكان يجيء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدي جيش أسامة ، فأما إذا كان يريد نفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سَقَط القَاب ، لأنّ الخليفة حينئذ لم يكن قد تعيّن ، لأن الاختيار ما وقع بعد ، وعلى مَذهب المرتضى الإمام متعيِّن حاضر عنده نصبَ عَيْنيه ، فافترق الوَصْفان .

* * *

ومنها قول قاضي القضاة : إن مخالفة أمره صلَّى الله عليه وآله في النفوذ مع الجيش أو في إنفاذ الجيش لا يكون معصيةً ، وبيّن ذلك مِن وجوه :

أحدُها : أنّ أمرهعليه السلام بذلك لابدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة ، وألا يعرض ما هو أهمّ من نفوذ الجيش ، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ وإن أعقب ضرراً فى الدِّين ، فأما قول المرتضى: الأمر المطلق يدلّ على ثبوت المَصلحة ، ولا يجوز أن يَحمل الأمر المطلق، فقولٌ جيّد إذا اعترض بهعلى الوَجْهالذىأورَدَه قاضي القضاة ، فأمّاإذا أورده أصحابُنا على وجهٍ آخر فإنه يندفع كلام المرتضى ، وذلك أنه يجوز تخصيصُ عمومات النصوص بالقياس الجلىّ عند كثير من أصحابنا ، على ما هو مذكورٌ فى أصول الفِقْه ، فلم لا يجوز لأبى بكر أن يَخُصّ عموم قوله : « أنفذوا بعث أسامة » لمصلحة غَلبتْ على ظنه فى عدم نفوذِه نفسه ، ولمفسدة غلبت على نفسه[1] فى نفوذه نفسه مع البعث !

***

وثانيها : أنه عليه السلام كان يبعث السّرايا عن اجتهاد لا عَنْ وَحْى يحرم مخالفته . فأمّا قولُ المرتضى : إنّ للدين تعلقا قويا بأمثال ذلك[2] ، وإنها ليست من الأمور الدّنياويّة المحضة نحو أكله وشربه ونومه ، فإنّه يعود على الإسلام بفتوحه عزّ وقوّة وعُلوّ كلمة فيقال له : وإذا أكل اللحم وقوى مِزاجُه بذلك ونام نوما طبيعيا يزول عنه به المرض والإعياء ، اقتضى ذلك أيضاً عزّ الإسلام وقوّته ، فقل إنّ ذلك أيضاً عن وَحْى .

ثم إنّ الذى يقتضيه فُتوحُه وغزَواته وحُروبه من العِزّ وعلوّ الكلمة لا ينافى كونَ تلك الغزَوات والحروب باجتهاده ، لأنه لا منافاة بين اجتهاده وبين عِزّ الدّين وعلوّ كلمته بحُروبه ، وأن الذى يُنافى اجتهاده بالرأى هو مثل فرائض الصلوات ومقادير الزّكوات ومناسِك الحجّ ، ونحو ذلك من الأحكام التى تُشعر بأنها مُتلقّاة مِن محض الوَحى ، وليس للرأى والاجتهاد فيها مدخل ، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله :

---

(١) فى د « ظنه » . (٢) ا : « هذا » .

لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده ، لجاز أن تكون الأحكامُ كلُّها عن اجتهاده . وأيضا فإنّ الصحابة كانوا يراجعونه فى الحروب وآرائه التى يدبرها بها ويرجع عليه السلام إليهم فى كثير منها بعد أن قد رأى غيره ، وأما الأحكام فلم يكن يُراجع فيها أصلا ، فكيف يُحمل أحدُ البابين على الآخر .

فأمّا قوله : لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حىٌّ ، لا فرق بين الحالين ؛ فلقائلٍ أن يقول : القياس يقتضِي ما ذكرت ، إلا أنه وقع الإجماعُ على أنّه لو كان فى الأحكام أو فى الحرُوب والجهاد ما هو باُجتهادِهِ لما جازتْ مخالفتُه ، والعــدولُ عن مذهبه وهو حىٌّ لم يَختلف أحدٌ من المسلمين فى ذلك ، وأجازُوا مخالفَته بعد وفاتِه بتقديرِ أن أن يكون ما صار إليه عن اجتهاد ؛ والإجماعُ حُجة .

فأما قولُ قاضى القُضاة : لأنّ اجتهادَه وهو حىٌّ أولَى من اُجتهاد غيرِه ، فليس يكادُ يظهَر ، لأنّ اجتهادَه ، وهو ميِّت أولى أيضًا من اجتهاد غيرِه، ويَغلِب على ظَنّى أنهم فرّقوا بين حالَتى الحياة والموتِ ، فإنّ فى مخالفته وهو حىٌّ نوعًا من أَذًى له ، وأذاهُ محرّم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ﴾(١)، والأذى بعد الموت لا يكون ، فافترق الحالان .

* * *

وثالثُها : أنه لو كان الإمامُ منصوصاعليه لجازَ أن يستردَّ جيش أُسامةَ أوبعضَه لنصرته؛ فكذلك إذا كان بالاختيار ، وهذا قد منع منه المرتَضى ، وقال : إنه لا يجوز للمنصوص عليه ذلك ، ولا أنّ يولِّى من عزَله رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، ولا أن يَعزِل مَن ولّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٥٣ .

ورابعُها : أنّه عليــه السلام تَرَكَ حربَ معاويةَ فى بعض الحالات ، ولم يُوجِب ذلك أن يكون عاصِياً ، فكذلك أبو بكر فى ترك النّفوذ فى جيش أسامة .

فأما قول المرتضَى : إنّ عليًّا عليــه السلام كان مأموراً بحرب معاويةَ مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، فإذا عَدِما لم يكن مأموراً بحربه ؛ فلقائلٍ أن يقول : وأبو بكر كان مأموراً بالنفوذ فى جيشِ أسامة مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، وقد عُدِم التمكّن لمّا استُخلِف ، فإنّه قد تحمّل أعباء الإمامة ، وتَعذّر عليــه الخروجُ عن المدينة ، الّتى هى دارُ الإمامة ، فلم يكن مأموراً والحالُ هذه بالنفوذ فى جيش أسامة .

فإن قلتَ : الإشكال عليكم إنّما هو من قِبَل الاستخلاف ، كيف جاز لأبى بكر أن يتأخّر عن المسير ؟ وكيف جاز له أن يَرجِع إلى المدينة وهو مأمور بالمسير ؟ وهلّا نفذ لوجهه ولم يَرجِع ، وإن بلغه موتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله !

قلت : لعلّ أسامةَ أَذِن له ، فهو مأمورٌ بطاعته ، ولأنّه رأى أُسامةَ وقد عاد باللّواء فعاد هو لأنّه لم يكن يُمكِنه أن يسيرَ إلى الرُّوم وحدَه ، وأيضاً فإنّ أصحابنا قالوا : إنّ وِلايةَ أسامةَ بَطلت بموت النبيّ صلّى الله عليــه وآله ، وعاد الأمرُ إلى رأى مَن ينصّب للأمر ، قالوا : لأنّ تصرُّف أسامة إنّما كان من جهة النبيّ صلّى الله عليه وآله ، ثمّ زال تَصرّف النبيّ صلّى الله عليه وآله بموتِه ، فوَجَب أن يزول تَصرُّف أسامة ، لأنّ تصرُّفَه تبعٌ لتصرُّف الرسولِ صلّى الله عليه وآله . قالوا : وذلك كالوَكيل تَبطُل وَكالته بموتِ المُوَكّل ، قالوا : ويفارق الوصىّ لأنّ ولايتَه لا تَثبتُ إلّا بعد موت المُوصِى ، فهو كمَعهَد الإمام إلى غيره لا يَثبت إلّا بعد موتِ الإمام ، ثمّ فرّع أصحابُنا على هذا الأصل مسألةً وهى : الحاكم هل ينعزل بموتِ الإمام أم لا ؟ قال قوم من أصحابنا : لا يَنعزل وبنَوْه على أن التوَلّىَ من غيرِ جهةِ الإمام يجوز ، فجعَلوا الحاكم نائبا عن المسلمين أجمين ، لا عن الإمام ،

وإن وقف تَصرُّفه على اُختياره ، وصار ذلك عندهم بمنزلة أن يَختارَ المسلمون واحدا يحكُم بينهم ، ثمّ يموت مَن رضِيَ بذلك ، فإنّ تَصرُّفه يَبقَى على ما كان عليه ، وقال قوم من أصحابنا : ينعزل ، وإنّ هذا النوع من التصرّف لا يُستفاد إلّا من جهة الإمام، ولا يقوم به غيرُه ، وإذا ثبت أنّ أسامةَ قد بطلتْ ولايتُه لم تبق تَبِعةٌ[1] على أبي بكر في الرّجوع من بعض الطّريق إلى المدينة .

***

وخامسُها : أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام ولّى أبا موسى الحَكَمْ ، وولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد السّرِيّة إلى الغُمَيْصاء[2] ، وهذا الكلامُ إنّما ذكره قاضي القُضاة تتمّةً لقوله : إنّ أمرَه عليه السلام بنفوذ بعث أسامة كان مَشْروطا بالمصلحة ؛ قال : كما أنّ توليتَه عليه السلامُ أبا موسى كانت مشروطةً باتّباع القرآن، وكما أنّ تولية رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمَل بما أوصاه به ، فخالَفا ولم يَعْمَلا الحقّ ، فإذا كانت هذه الأوامرُ مشروطةً فكذلك أمرُه جيش أسامة بالنّفوذ كان مشروطا بالمَصلَحة وألّا يعرِضَ ما يَقتضِي رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة ، وقد سبق القولُ في كون الأمر مشروطا .

***

وسادسُها : أنّ أبا بكر كان محتاجا إلى مُقامِ عمرَ عنده ليعاضِدَه[3] ويقومَ في تمهيد أمرِ الإمامة ما لا يقوم به غيرُه ، فكان ذلك أصلَح في باب الدّين من مَسيرِه[4] مع الجيش، فجاز أن يَحبِسه عنده لذلك ؛ وهذا الوجه مختصّ بمن قال : إنّ أبا بكر لم يكن في الجيش ، وإيضاح عذره في حَبْس عمرَ عن النّفوذ[5] مع الجيش .

---

(١) ا : « شيء » . (٢) الغميصاء : موضع أوقع فيه خالد بن الوليد ببني جذيمة .
(٣) بعدها في ا : « ويعاونه » . (٤) ا : « سيره » .
(٥) ا : « التنفيذ » .

فأمّا قولُ المرتضَى فإن ذلك غيرُ جائز ، لأنّ مخالفةَ النصّ حرام ، فقد قُلْنا : إنّ هــذا مبنيٌّ على مسألة تخصيص العمومات الواردةِ فى القرآن بالقياس .

وأمّا قوله : أيّ حاجة كانت لأبى بكر إلى عمرَ بعدَ وقوعِ البَيْعة ، ولم يكن هناكَ تنازُع ولا اُختلاف ! فعجيب ، وهل كان لولا مُقامُ عُمَر وحضورُه فى تلك المقامات يتمّ لأبى بكر أمرٌ أو ينتظِم له حال ! ولولا عمرُ لما بايَع علىٌّ ولا الزّبيرُ ، ولا أكثرُ الأنصار ، والأمر فى هذا أظهرَ من كلّ ظاهر .

* * *

وسابُعها : أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أسامَة يجب تأخّرهم ليُختارَ للإمامة أحدُهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نفوذهم ، فإذا جاز لهــذه العِلّة التأخّر قبل العقد جاز التأخر بَعده للمعاضَدة وغيرها .

فأما قول المرتضَى : إنّ ذلك الجيش لم يَضُمّ مَن يَصلح للإمامة ، فبنــاءٌ على مَذْهبه فى أنّ كلّ من ليس بمعصوم لا يَصلُح للإمامة . فأمّا قولُه : ولو صحّ ذلك لم يكن عــذراً فى التأخّر ، لأنّ من خرج فى الجيش يُمكِن أن يختــار ولو كان بعيدا ، ولا يُمكِن بعده من صحّة الاُختيار ، فلقائل أن يقول : دارُ الهِجرة هى الّتى فيها أهلُ الحلّ والعَقْد ، وأقاربُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله والقُرّاء وأصحــابُ السّقيفة ، فلا يجوز العدولُ عن الاُجتماع والمشاوَرة فيها إلى الاُختيار على البُعد ، وعلى جناح السَّفَر من غيرِ مشاركَة مَن ذَكَرْنا من أعيان المسلمين .

فأمّا قوله : ولو صحّ هذا العقد لكان عذرا فى التأخّر قبل العَقْد ، فأمّــا بعد إبرامه فلا عذرَ فيه ؛ فلِقائلٍ أن يقول : إذا أجزْتَ التأخّرَ قبل العقــد لنوعٍ من المصلحة فأجز التأخّر بعد العَقْد لنوعٍ آخر من المصلحة ، وهو المعــاضدة والمساعَدة .

هذه الوجوهُ السّبعةُ كلّها لبيان قوله : تأخّر أبى بكر أو عمر عن النّفوذ فى جيش أسامة ، وإن كان مأمورا بالنفوذ .

***

ثمّ نعود إلى تمام أقسام الفَصْل .

ومنها[1] قولُ قاضِى القُضاة : لا معنى لقول مَن قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قصَد إبعادهم عن المدينة ، لأن بُعْدَهم عنها لا يَمنعهم من أن يَختارُوا واحداً منهم للإمامة ، ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعا على موته لا محالة ، لأنّه لم يرِد : نفّذوا جيش أسامة فى حياته .

وقد اُعترضَ المرتَضى هذا فقال : إنّه لم يتبيّن معنى الطّعن ، لأنّ الطاعن لا يقول : إنهم أُبعدِوا عن المدينة كى لا يَختارُوا واحداً للإمامة ، بل يقول : إنّما أُبعِدوا لينتصبَ بعدَ موته صلّى الله عليه وآله فى المدينة الشّخصُ الّذى نصّ عليه ، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه ويُنازِعه ، وليس يضرّنا ألّا يكون صلّى الله عليه وآله قاطعاً على موته ، لأنّه وإن لم يكن قاطعا فهو لا محالة يُشفِق ويَخافُ من الموت ، وعلى الخائف أن يتحرّز مما يخاف منه ؛ وكلامُ المرتضَى فى هذا الموضع أظهرَ من كلام قاضى القُضاة .

ومنها قولُ قاضىِ القُضاة : إنّ ولايةَ أسامة عليهما لاتقتضى كونهما دونَه فى الفَضل ، كما أنّ عمرَو بنَ العاص لمّا وُلِّيَ عليهما لم يقتَض كونَه أفضل منهما . وقداُعترض المرتضى هذا بأنّه[2] يَقبحُ تقديمُ المفضول على الفاضل فيما هو أفضلُ منه ، وأنّ تقديم عمرو بن العاص عليهما فى الإمْرَة يَقتضِي أن يكون أفضلَ منهما فيما يَرجِع إلى الإمرة والسّياسة ، ولا يقتضى أفضليّته عليهما فى غير ذلك ، وكذلك القولُ فى أُسامة .

---

(١) انظر ص ١٨٢ . (٢) د : « فإنه » .

ولقائل أن يقول : إنّ الملوكَ قد يؤمِّرون الأمراء على الجيوش لوجهين : أحدهما أن يَقصِد الملك بتأمير ذلك الشخص أن يَسُوسَ الجيشَ ويُدَبّره بفضل رأيه وشَيْخُوخته وقديم تجربتِهِ وما عُرِف من يُمْن نَقِيبته في الحرب وقَوْد العساكر ، والثانى أن يؤمِّر على الجيش غلاماً حَدَثا من غلمانه أو من ولدِه أو من أهلِه ، ويأمر الأكابر من الجيش أن يثقِّفوه ويعلِّموه ، ويأمرُه أن يتدبّر بتدبيرهم ، ويرجع إلى رأيهم ؛ ويكونُ قصدُ الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتمرينُه على الإمارة ، وأن يُثبِت له في نفوس الناس منزلةً ، وأن يُرشِّحَه لجلائل(١) الأمور ومعاظم الشئون ، ففي الوجه الأوّل يَقبُح تقديم المَفضول على الفاضل ؛ وفي الوجه الثانى لا يَقبُح ، فلِم لا يجوز أن يكون تأمير أُسامةَ عليهما من قَبيل الوجهِ الثانى ؟ والحالُ يَشهَد لذلك ، لأنّ أُسامةَ كان غلاماً لم يَبلُغ ثمانيَ عشرة سنةً حين قُبِض النبيّ صلى الله عليه وآله ، فمن أين حصل له من تجربة الحرب ومُمارسة الوقائع وقَوْد الجيش ما يَكُون به أعرفَ بالإمرة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعدِ بن أبي وَقّاص وغيرهم !

ومنها قولُ قاضي القُضاة : إنّ السبب في كون عمرَ في الجيش أنّه أنكر على عبد الله ابن عيّاش بن أبي رَبيعة تسَخُّطه إمْرة أسامة ، وقال : أنا أَخرُجُ في جيش أسامة ؛ فخرج من تلقاء نفسِه تعظيما لأمر رسولِ الله صلى الله عليه وآله . وقد اُعترَضه المرتضى فقال : هذا شيءٌ لم نَسمعْه من راوٍ ، ولا قرأناه في كتاب ؛ وصَدَق المرتضَى فيما قال ، فإنّ هذا حديثٌ غريب لا يُعرَف .

وأمّا قولُ عمرَ : دَعْني أضربْ عُنقَه فقد نافَقَ ؛ فمنقولٌ مشهورٌ لامحالة ، وإنّما الغريب الّذي لم يُعرَف كونُ عمرَ خرج من تلقاء نفسِه في الجَيْش مُراغمةً لعبد الله بن عيّاش ابن أبي ربيعة ، حيث أنكَر ما أنكَر ؛ ولعلّ قاضي القُضاة سمعه من راوٍ أو نقَلَه من كتاب ، إلّا أنّا نحن ما وقفنا على ذلك .

---

(١) ب : « بجلائل » ، وما أثبته من ا ، د . (٢) ا : « سخطه » .

الطعن الخامس

قالوا : إنّه صلّى الله عليه وآله لم يُوَلِّ أبا بكر الأعمال ووَلّى غيرَه ، ولمّا ولّاه الحجّ بالناس وقراءةَ سُورة براءةَ على النّاس ، عزَلَه عن ذلك كلّه . وجعَلَ الأمرَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال : « لا يؤدّى عنّى إلا أنا أو رجل منّى » ، حتّى يَرجعَ أبو بكر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله .

أجابَ قاضي القُضاة فقال : لو سلَّمنا أنّه لم يُولِّه ، لمَا دلَّ ذلك على نقص ، ولا عَلَى أنّه لم يَصلُح للإمارة والإمامة ، بل لو قيل : إنّه لم يُوَلِّه لحاجته إليه بحضرته ، وإنّ ذلك رفعةٌ له لكان أقربَ ، لا سيّما ، وقد رُوِى عنه ما يدلّ على أنهما وَزيراه ، وأنّه كان صلى الله عليه وآله محتاجا إليهما وإلى رأيهما ، فلذلك لم يولّهما ، ولو كان للعمل على تركه فضل لكان عمرُو بنُ العاص وخالدُ بن الوليد وغيرُهما أفضلَ من أكابر الصّحابة ؛ لأنّه عليه السلام ولّاهما وقدّمهما ، وقد قدَّمنا أنّ توليته هى بحسَب الصّلاح ، وقد يولّى المفضولُ على الفاضل تارةً والفاضلُ أخرى ، وربّما وُلِّىَ الواحدُ لاستغنائه عنه بحضرته ، وربّما ولّاه لاتّصالٍ بينه وبين من يُولَّى عليه ، إلى غير ذلك . ثمّ ادّعى أنّه ولّى أبا بكر على الموسم والحجّ قد ثبتتْ بلا خلاف بين أهل الأخبار ولم يَصحّ أنّه عزَله ، ولا يدلّ رجوعُ أبى بكر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله مستفهِما عن القِصّة على العزْل ؛ ثمّ جعل إنكار من أنكَر حجّ أبى بكر فى تلك السنة بالناس ؛ كإنكار عَبّاد وطبقته أخذ أميرِ المؤمنين عليه السلامُ سورة براءة من أبى بكر . وحكى عن أبى علىّ أنّ المعنى كان فى أخْذ السُّورة من أبى بكر أنّ من عادة العرب أنّ سيّدا من سادات قبائلهم إذا عقد عقد القوم ، فإنّ ذلك العقد لا ينحلّ إلّا أن يُحلَّه هو أو بعضُ سادات قومه ، فلما كان هذا عادتَهم وأراد النبيُّ صلَّى الله عليه وآله أن يَنبِذَ[1] إليهم عقدَهم ، وينقُض ما كان بينه وبينهم، عَلِم

---

(١) نبذ العقد : نقضه .

أنه لا ينحلّ ذلك إلّا به أو بسيّد من ساداتِ رَهْطه، فعَدَل عن أبى بكر إلى أمير المؤمنين المقرّب فى النّسب . ثمّ ادّعى أنّه صلّى الله عليه وآله ولّى أبا بكر فى مرَضه الصّلاةَ ، وذلك أشرفُ الولايات ، وقال فى ذلك : يأبَى الله ورسولُه والمسلمُون إلّا أبا بكر .

ثمّ اُعترَض نفسه بصلاته عليه السلام خلْفَ عبد الرّحمن بنِ عوف : وأجاب بأنّه صلّى الله عليه وآله إنما صلّى خلفَه ، لا أنّه ولّاه الصلاة وقدّمه فيها . قال : وإنّما قدّم عبد الرحمن عند غَيْبة النبيّ صلّى الله عليه وآله فصلّى بغير أمرِه ، وقد ضاق الوقتُ ، فجاء النبيّ صلّى الله عليه وآله فصلّى خلْفه[1] .

اعترض المرتضى فقال : قد بيّنا أنّ تركَه صلّى الله عليه وآله الولاية لبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والعدول عنه إلى غيره ، مع تطاوُل الزمان وامتدادِه ، لا بدّ من أن تقتضيَ غَلبةَ الظنّ بأنّه لا يَصلُح للولاية ، فأمّا ادّعاؤه أنّه لم يولّه لافتقاره إليه بحضرته وحاجتِه إلى تدبيره ورأيِه ، فقد بيّنا أنّه عليه السلام ما كان يَفتقِر إلى رأى أحدٍ لكمالِه ورُجْحانه على كلّ أحد ، وإنّما كان يُشاوِر أصحابَه على سبيل التّعليم لهم والتأديب، أو لغير ذلك ممّا قد ذُكِر . وبَعْد ، فكيف اُستمرّت هذه الحاجة ، واتّصلت منه إليهما حتّى لم يستغنِ فى زمانٍ من الأزمان عن حضورهما فيولّيهما ! وهل هذا إلّا قَدْحٌ فى رأىِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ونسبتِه إلى أنّه كان ممّن يُحتاج إلى أن يلقّن ويُوقَف على كلّ شىء ، وقد نزّهه اللهُ تعالى عن ذلك ! فأمّا ادّعاؤه أنّ الرواية قد وردتْ بأنهما وَزيراه فقد كان يجب أن يصحّحَ ذلك قبل أن يَعتمده ويحتجّ به ؛ فإنّا ندفعه عنه أشدّ دفع . فأمّا ولاية عمرو بن العاص وخالدِ بن الوليد فقد تكلّمنا عليها من قَبْلُ ، وبيّنا أنّ ولايتَهما تدُلّ على صلاحهما لِمَا وُلّياه ، ولا تدُلّ على صلاحهما للإمامة ، لأنّ شرائط الإمامة لم تتكامل فيهما ، وبيّنا أيضا أنّ ولايةَ المَفضول على الفاضل لا تجوز ، فأمّا تعظيمه

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤٢١ .

وإكبارُه قولَ مَن يَذهب إلى أنّ أبا بكر عُزِل عن أداء السُّورة والموسِم جميعا ، وجمعه بين ذلك فى البعد وبين إنكار عبّاد أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام ارتَجَع سورةَ براءةَ من أبى بكر ؛ فأوّل مافيه أنّا لا ننكر أن يكون أكثرُ الأخبار واردة بأنّ أبا بكر حَجّ بالناس فى تلك السّنة ؛ إلّا أنّه قد رَوَى قومٌ من أصحابنا خلافَ ذلك ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أميرَ المَوسم فى تلك السنة ، وأنّ عَزلَ الرجل كان عن الأمرَين معاً . واستكبار ذلك . وفيه خلافٌ لا معنَى له، فأمّا ماحكاه عن عَبّاد فإنّا لا نعرفه ، ومانظنّ أحدا يَذهَب إلى مِثله ، وليس يُمكِنه بإزاء ذلك جَحْد مذهب أصحابنا الذى حكيناه ، وليس عبّاد لو صحّت الروايةُ عنه بإزاء من ذكرناه ، فهو ملىء بالجهالات ودَفْع الضَّرورات . وبعد ، فلو سلّمنا أنّ ولايةَ الموسِم لم تُفسَخ لكان الكلامُ باقيا ، لأنه إذا كان ماولى مع تطاوُل الزّمان إلّا هذه الولاية ، ثمّ سُلِب شَطرها ، والأفخم الأعظم منها ، فليس ذلك إلّا تنبيها على ما ذكرناه .

فأمّا ما حكاه عن أبى علىّ من أنّ عادةَ العرب ألّا يحلّ ما عَقده الرئيسُ منهم إلا هو أو المتقدِّم من رَهْطه ؛ فمعاذَ الله أن يُجرِى النبىّ صلى الله عليه وآله سُنّتَه وأحكامَه على عادات الجاهليّة ، وقد بيّن عليه السلام لمّا رَجَع إليه أبو بكر يسألُه عن أخذ السُّورة منه الحال ، فقال : إنّه أُوحِيَ إلىّ ألّا يؤدّىَ عنّى إلا أنا أو رَجلٌ منّى ، ولم يذكرْ ما ادّعاه أبو علىّ ؛ على أنّ هذه العادَة قد كان يَعرِفها النبىّ صلى الله عليه وآله قبلَ بَعثِه أبا بكر بسُورة براءة ، فما بالُه لم يَعتمِدْها فى الابتداء ويبعث من يجوز أن يحلّ عقدَه من قومِه !

فأمّا ادّعاؤه ولاية أبى بكر الصّلاةَ فقد ذكرْنا فيما تقدّم أنّه لم يُولِّه إيّاها . فأمّا فَصْلُه بين صلاتِه خلف عبد الرحمن وبين صلاة أبى بكر بالناس ، فليس بشىء ، لأنّا إذا كنّا قد دَلّلنا على أن الرسولَ صلى الله عليه وآله ما قدّم أبا بكر إلى الصّلاة ، فقد

أستوَى الأمران . وبعد ؛ فأىّ فَرق بين أن يُصلّى خلفَه وبين أن يولّيَه ويقدّمَه ، ونحن نعلم أنّ صلاته خَلفه إقرارٌ لولايته ورضاً بها ، فقد عادَ الأمرُ إلى أنّ عبدَ الرحمن كأنّه قد صلّى بأمره وإذنه ! على أنّ قصّة عبد الرحمن أوكدُ ، لأنّه قد أُعترَف بأنَّ الرسولَ صلّى خلفَه ، ولم يصلّ خلف أبى بكر ، وإنْ ذهب كثيرٌ من الناس إلى أنّه قدّمه وأمَره بالصّلاة قبل خروجه إلى المسجد وتَحامُله .

ثم سأل المرتضَى رحمه الله نفسَه ؛ فقال : إنْ قيل : ليس يَخلو النبيُّ صلى الله عليه وآله من أن يكون سَلَّم فى الابتداء سورةَ بَراءةَ إلى أبى بكر بأمر الله أو باُجتهاده ورأيه ؛ فإن كان بأمرِ الله تعالى ، فكيف يجوزُ أن يَرتجعَ منه السّورة قبلَ وقتِ الأداء ، وعندَكم أنّه لا يجوز نَسخُ الشيء قبلَ تقضّى وقت فِعله ! وإن كان باُجتهادِه صلّى الله عليه وآله ، فعندَكم أنه لا يجوز أن يَجتهد فيما يجرى هذا المَجرَى !

وأجابَ فقال : إنّه ما سَلّم السورةَ إلى أبى بكر إلّا بإذنه تعالى ، إلّا أنه لم يأمُرْه بأدائها ، ولا كلّفه قراءتَها على أهل الموسم ، لأنّ أحداً لم يُمكنه أن ينقُل عنه عليه السلام فى ذلك لفظ الأمر والتّكليف ، فكأنّه سلّم سورةَ براءة إليه لتقُرأ على أهل الموسم ، ولم يُصرّح بذكر القارئ المُبلِّغ لها فى الحال ؛ ولو نُقِل عنه تصريحٌ لجاز أنْ يكون مشروطاً بشَرْط لم يَظهر .

فإن قيل : فأىّ فائدة فى دَفْع السورة إلى أبى بكر وهو لا يريد أن يؤدّيَها ، ثمّ ارتجاعها منه ؟ وهلّا دُفعتْ فى الابتداء إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام !

قيل : الفائدة فى ذلك ظهورُ فضل أميرِ المؤمنين عليه السلام ومَرتبتِه ، وأنّ الرجلَ الّذى نُزِعت السُورة عنه لا يَصلُح لِما يصلُح له ، وهذا غَرضٌ قوىٌّ فى وُقوع الأمر على ما وَقَع عليه(١) .

---

(٢) الشافى ٤٢١ ، ٤٢٢ .

قلت : قد ذكرْنا فيما تقدّم القولَ في تولية الملك بعض أصحابه ، وتركِ تولية بعضهم ، وكيفية الحال في ذلك ؛ على أنه قد رَوَى أصحابُ المغازى أنه أمّر أبا بكر في شعبان من سنة سبع على سَرِيّة بعثها إلى نجْد فلقوا جمْعاً من هَوازن فبيّتوهم[١] ؛ فرَوَى إياسُ بنُ سَلَمة عن أبيه ؛ قال : كُنت في ذلك البعث ، فقتلتُ بيدى سبعةً منهم ، وكان شعارُنا : « أمِتْ أمِتْ » ، وقُتِل من أصحابِ النبيّ صلى الله عليه وآله قومٌ ، وجُرح أبو بكر وارتُثّ[٢] وعاد إلى المدينة ؛ على أن أُمَراء السَّرايا الذين كان يبعثهم صلّى الله عليه وآله كانوا قوما مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب ، كمحمد بنِ مسلمة ، وأبى دُجَانة ، وزيد بن حارثة ونحوهم ، ولم يكن أبو بكر مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب ، ولم يكن جَبانا ولا خوّارا[٣] وإنما كان رجلا مجتمعَ القلب عاقلا ، ذا رأى وحُسْن تدبير ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يَترُكُ بعثه في السرايا ، لأنّ غيره أنفع منه فيها ، ولا يدلّ ذلك على أنه لا يصلحُ للإمامة ، وأنّ الإمامة لا تحتاج أن يكونَ صاحبُها من المشهورين بالشجاعة ، وإنما يحتاج إلى ثبات القلبِ ، وألّا يكون هَلِعاً طائرَ[٤] الجَنان . وكيف يقول المرتضى : إنه صلّى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً إلى رأى أحد ، وقد نقل الناسُ كلّهم رجوعَه من رأى إلى رأى عند المَشورة ، نحو ما جرى يومَ بدر من تغيُّر المنزل لما أشار عليه الُحبابُ بنُ المنذر ، ونحو ما جرى يوم الخنْدق من فَسْخ رأيه في دفع ثُلثِ تمر المدينة إلى عُيَيْنة بن حِصْن ليَرجِع بالأحزاب عنهم ، لأجل ما رآه سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبادة من الحرب ، والعدول عن الصّلح ، ونحو ما جرى في تلقيح النخل بالمدينة وغير ذلك ! فأمّا ولايةُ أبى بكر الموسمَ فأكثرُ الأخبار على ذلك ، ولم يَرْوِ عزلَه عن الموسم إلّا قومٌ من الشيعة .

---

(١) بيتوهم ؛ أى دبروا أمرهم .

(٢) ارتث ، على البناء للمجهول : حمل من المعركة رثيثاً ؛ أى جريحاً وبه رمق .

(٣) الخوار : الضعيف . (٤) الهلع : أفحش الجزع .

وأمّا ماأنكره المرتضى من حال عَبّاد بن سليمانَ ودفعِه أن يكون على أخْذ براءة من أبى بكر واستغرابه ذلك عَجَب ، فإنّ قولَ عَبّاد قد ذهب إليه كثيرٌ من الناس ، ورَوَوْا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لم يدفَع براءة إلى أبى بكر ، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتبعه عليّا ومعه تسعُ آياتٍ من براءة ، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذِنَهم بنقْض العهد وقطع الدنيّة ، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فأعاده على الحجيج ، وقال له : أنت الأمير ، وعلىٌّ المبلِّغ ، فإنه لا يبلِّغ عنّى إلا أنا أو رَجلٌ منى ، ولم ينكر عبّاد أمر براءة بالكلّيّة ، وإنما أنكر أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله دفعها إلى أبى بكر ثم انتزعها منه ، وطائفةٌ عظيمة من المحدِّثين يرْوُون ما ذكرْناه ، وإن كان الأكثر الأظهرُ أنه دفعها إليه ثم أتبعه بعلىّ عليه السلام فانتزعها منه ؛ والمقصود أنّ المرتضى قد تعجّب مما لا يُتعجّب مِن مثله ، فظنّ أن عبّادا أنكر حديث براءة بالكلّية ، وقد وقفتُ أنا على ما ذكَرَه عبّاد فى هذه القضية فى كتابه المعروف بكتاب " الأبواب " ، وهو الكتابُ الذى نقضَه شيخُنا أبو هاشم ، فأمّا عذر شيخنا أبى علىّ ، وقوله : إن عادة العرب ذلك ، واعتراض المرتضى عليه ، فالذى قاله المرتضى أصحّ وأظهر ، وما نُسِب إلى عادة العرب غيرُ معروف ، وإنما هو تأويلٌ تأوّل به متعصبو أبى بكر لانتزاع براءة منه ، وليس بشىء . ولستُ أقول ما قاله المرتضى من أنّ غرَض رسولِ الله صلى الله عليه وآله إظهارُ أنّ أبا بكر لا يصلح للأداء عنه ، بل أقول : فعَل ذلك لمصلحة رآها ، ولعلّ السبب فى ذلك أن عليّا عليه السلام من بنى عبد مناف وهم جمرةُ قريش بمكّة ، وعلىٌّ أيضا شجاع لا يُقام له(١) ، وقد حصل فى صُدورِ قريش منه الهيبة الشديدة والمخافة العظيمة ، فإذا حصل مِثل هذا الشجاع البطل وحوله من بنى عمه وهم أهلُ العزّة والقوّة والحميّة ،

(١) ب : « لا ينال » تحريف .

كان أدعى إلى نجاته من قريش ، وسلامة نفسه وبلوغ الغرض من نَبْذ العهد على يده ؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله فى عمرة الحُدَيبِيَة بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له فى الدخول ، وإنما بعثه لأنه من بنى عبد مناف ، ولم يكن بنو عبد مناف ـ وخصوصاً بنى عبد شمس ـ ليمكّنوا من قتله ، ولذلك حمله بنو سعيد ابن العاص على بعير يوم دَخَل مكة وأحدَقُوا به مُسْتلئمين[١] بالسلاح ، وقالوا له : أقبل وأدْبِر ، ولا تَخَفْ أحداً ، بنو سعيد أعزّة الحرَم . وأما القول فى تولية رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر الصّلاة ، فقد تقدّم ، وما رامه قاضى القضاة من الفرْق بين صلاة أبى بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم ، مع كون رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى خلفه ضعيفٌ ، وكلام المرتضى أقوى منه . فأما السؤال الذى سأله المرتضى من نفسه فقوىّ ، والجواب الصحيحُ أن بعث براءة مع أبى بكر كان باجتهاد من الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يكن عن وَحْى ولا من جملة الشرائع التى تُتلقّى عن جبرائيل عليه السلام ، فلم يقبُح نَسخُ ذلك قبلَ تقضّى وقت فعله ، وجواب المرتضى ليس بقوىّ ، لأنه من البعيد أن يُسلِّم سورة براءة إلى أبى بكر ولا يقال له : ماذا تصنع بها ؟ بل يقال : خذْ هــذه معك لا غير . والقولُ بأن الكلام مشروطٌ بشرط لم يظهر خلاف الظاهر ، وفتح هذا الباب يُفسِد كثيرا من القواعد .

***

الطعنُ السادس

إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة ، فقد قال فى الكَلَالة[٢] : أقول

---

(١) المستلئم : لابس اللأمة .

(٢) الكلالة : من لا ولد له ولا والد ، وما لم يكن من النسب لى .

فيها برأيي ، فإن يكنْ صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنّي[١] ، ولم يعرف ميراثَ الجد ، ومن حالُه هذه لا يَصلُح للإمامة .

أجاب قاضي القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام ، وأنَّ القَدْر الذى يَحتاج إليه هو القَدْر الذى يحتاج إليه الحاكمُ ، وأنّ القول بالرأى هو الواجبُ فيما لا نَصّ فيه ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بالرأى فى مسائلَ كثيرة .

اعترض المرتضى فقال : قد دللنا على أنّ الإمام لابدّ أن يكون عالما بجميع الشرعيّات ، وفرّقنا بينه وبين الحاكم ، ودللنا على فساد الرأى والاجتهاد . وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقل قطُّ بالرأى ، وما يُروَى من خبر بيع أمّهات الأولاد غيرُ صحيح ، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأى الرجوع إلى النصوص والأدلة ، ولا شُبهة عندنا أنّ قوله كان واحدا فى الحالين[٢] ، وإن ظهر فى أحدهما خلاف مذهبه للتقيّة[٣] .

***

قلتُ : هذا الطعن مبنيٌّ على أمرين : أحدُهما هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمامُ كلّ الأحكام الشرعية أم لا ؟ وهذا مذكورٌ فى كتبنا الكلامية ؛ والثانى هو القولُ فى الاجتهاد والرأى حق أم لا ؟ وهذا مذكور فى كتبنا الأصولية .

***

الطعنُ السابع

قصّة خالدِ بنِ الوليد وقتلِه مالكَ بن نُوَيْرة ومضاجَعتِه امرأته من ليلتِه ، وأنّ أبا بكر

---

(١) الشافى : فمنى ومن الشيطان ، ونحو قوله وقد سئل عن قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، فلم يعرف معناه ، والأب : المرعى فى اللغة ، لا يذهب على أحد له أدنى أنس بالعربية ، ونحو ميراث الجدة وأنه لم يعرف الحكم فيه ، ونظائر ذلك كثيرة معروفة . (٢) ب : « القولين » .
(٣) انظر الشافى ٤٢٢ .

تَرَكَ إقامةَ الحدّ عليه ، وزعم أنّه سيفٌ من سيوف الله سَلّه الله على أعدائه ، مع أنّ الله تعالى قد أَوجَبَ القَوَدَ وحَدّ الزّنا عموما ، وأنّ عمرَ نبّهه وقال له : اقتُله ، فإنه قَتَلَ مُسلِما .

أجاب قاضي القُضاة فقال : إنّ شيخنا أبا عليّ قال: إنّ الرِّدّة ظهرتْ من مالكِ بن نُوَيْرة، لأنّه جاء في الأخبار أنه ردّ صدقاتِ قومِه عليهم لَمّا بلغه موتُ رسول الله صلى الله عليه وآله كما فَعَله سائرُ أهل الرِّدّة فاستحقّ القتل . فإن قال قائل : فقد كان يصلِّي ، قيل له: وكذلك سائرُ أهل الرّدة ، وإنما كَفَروا بالامتناع من الزكاة، واعتقادِهم إسقاط وجوبها دونَ غيره. فإن قيل : فلِمَ أنكرَ عُمر ؟ قيل : كان الأمرُ إلى أبي بكر ، فلا وجهَ لإنكار عمرَ ، وقد يجوز أن يعلَم أبو بكر من الحال ما يَخفَى على عمر . فإن قيل : فما معنى ما رُوِي عن أبي بكر من أنّ خالدا تأوّل فأخطأ ، قيل : أراد عجَلته عليه بالقَتْل ، وقد كان الواجب عندَه على خالد أن يتوقّف للشبهة . واستدلّ أبو عليّ على رِدّته بأنّ أخاه متمِّم ابنَ نُوَيرة لمّا أنشد عمرَ مَرثِيَته أخاه قال له : وَدِدتُ أنّي أقولُ الشعر فأرثي أخي زَيْدا بمثل ما رَثيتَ به أخاك ! فقال متمّم : لو قُتِل أخي على مِثل ما قُتِل عليه أخوك ما رَثيتُه ، فقال عمر : ما عزّاني أحدٌ بمِثل تعزِيَتِك ، فدَلّ هذا على أنّ مالكا لم يُقتَل على الإسلام كما قُتِل زيد .

وأجاب عن تَزْويج خالدٍ بامرأته بأنّه إذا قُتِل على الردّة في دار الكُفْر جاز تزويج امرأتِه عند كثيرٍ من أهل العلم ، وإن كان لا يجوز أن يَطأها إلّا بعد الاستبراء .

وحكيَ عن أبي عليٍّ أنّه إنّما قَتَله لأنّه ذَكَر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : «صاحبك» ، وأوهَم بذلك أنّه ليس بصاحبٍ له ، وكان عندَه أنّ ذلك ردّة وعلم عند المشاهَدة

القَصد، وهو أميرُ القوم، فجاز أن يَقتُله وإن كان الأَوْلى ألّا يَستعجِل، وأن يكشف الأمرَ في رِدّته حتّى يتّضح ، فلهذا لم يقتله أبو بكر به . فأمّا وطؤه لامرأته فلم يَثبُت ، فلا يصحّ أن يُجعل طَعناً فيه [1] .

اعترَض المرتضَى فقال : أمّا منع خالدٍ في قتل مالك بن نُوَيرَة واستباحةِ امرأته وأموالِه لنسبتِه إيّاه إلى ردّة لم تظهَر منه ، بل كان الظاهرُ خلافَها من الإسلام ، فعظيم . ويجرى مجراه في العِظم تغافُل من تَغافَل عن أمره ، ولم يُقِم فيه حُكمَ الله تعالى ، وأقرّه على الخطأ الّذى شَهِد هو به على نفسه ، ويَجرِي مجراها مَن أمكَنَه أن يَعلَم الحال فأهمَلها ولم يتصفّح ما رُوِي من الأخبار في هذا الباب وتعصّب لأسلافِه ومذهبه . وكيف يجوز عند خصومِنا على مالك وأصحابِه جَحْد الزّكاة مع المقام على الصّلاة ، وهما جميعاً في قَرَن [2] ! لأنّ العِلم الضروريّ بأنّهما من دينه عليه السلام وشريعته على حدّ واحد ، وهل نسبةُ مالكٍ إلى الرّدّة مع ما ذكرناه إلّا قدحٌ في الأصول ونقضٌ لما تضمّنَتْه من أن الزكاة معلومةٌ ضرورةً من دينه عليه السلام . وأعجَبُ من كلّ عجيب قولُه : وكذلك سائر أهل الرّدة ، يعنى أنّهم كانوا يصلّون ويَجحَدون الزّكاة ، لأنّا قد بيّنا أنّ ذلك مستحيلٌ غيرُ ممكِن ! وكيف يصحّ ذلك ، وقد رَوَى جميعُ أهل النّقل أن أبا بكر لمّا وَصّى الجيشَ الّذين أنفذَهم بأن يؤذّنوا ويُقيموا ، فإن أذّن القومُ كأذانِهم وإقامتِهم كَفّوا عنهم، وإن لم يَفعَلوا أغارُوا عليهم، فجعل أمارةَ الإسلام والبراءةَ من الرّدة الأذان والإقامة ! وكيف يُطلِق في سائر أهل الرّدة ما أطلقَه من أنّهم كانوا يصلّون ، وقد علِمنا أنّ أصحابَ مُسَيلمة وطُلَيحة وغيرهما ممّن كان ادّعى النبوّة وخَلَع الشّريعة ما كانوا يَرَوْن الصلاة ولا شيأ ممّا جاءت به شريعتُنا . وقصّة مالك معروفةٌ عند من تأمّل كتبَ السِّيَر والنّقْل ، لأنه كان على صَدَقات قومه بنى

---

(١) نقله الشافي في المرتضى ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) القرن : الحبل ؛ والكلام على الاستعارة .

يَرْبوع والياً من قِبَل رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ولمّا بلغتْه وفاةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه أمسَك عن أخذ الصدقة من قومه وقال لهم : تربّصوا بهــا حتّى يقومَ قائمٌ بعدَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وننظرَ ما يكون من أمرِه ، وقد صرّح بذلك في شعره حيث يقول :

وقال رجالٌ سَدّد اليــومَ مالكٌ　　　وقال رجالٌ مالِكٌ لم يسَــــدّدِ
فقلت : دَعوني لا أبَا لأبيــكُمْ　　　فلم أُخطِ رأياً في المُقام ولا النّدِي
وقلت : خذوا أموالــكم غيرَ خائفٍ　　　ولا ناظرٍ فيما يجيء به غَدِي
فدونــكُموها إنّما هي مالُــكُمْ　　　مصوّرة أخلاقهـا لم تجــدّدِ
سأجعلُ نَفْسي دونَ ما تَحْذَرونه　　　وأرهِنُــكم يوماً بما قُلتُـه يَدِي
فإن قامَ بالأمرِ المجدّدِ قائمٌ　　　أطعْنا وقلنا : الدّينُ دينُ محمّدِ

فصرّح كما تَرَى أنّه استبقى الصدقةَ في أيدِي قومِه رِفْقًا بهم وتقرُّبا إليهم ، إلى أن يقومَ بالأمر مَنْ يدفعُ ذلك إليه . وقد رَوَى جماعةٌ من أهل السِّيَر ، وذكره الطبريّ في تاريخه ؛ أنّ مالكا نَهَى قومَه عن الاجتماع على مَنْع الصدقات وفرّقهم ، وقال : يا بني يَرْبوع ، إنّا كنّا قد عصَيْنا أُمراءنا إذ دَعَونا إلى هذا الدّين ، وبطّأْنا الناسَ عنه ، فلم نُفلِــح ولم نَنْجَح ، وإنّي قد نظرتُ في هذا الأمر فوجدتُ الأمرَ يتأتّى لهؤلاء القوم بغير سياسة ، وإذا أمر لا يسوسُه الناس ؛ فإيّاكم ومُعاداة قــومٍ يُصنَع لهم فتفرّقوا على ذلك إلى أموالهم ، ورجع مالكٌ إلى منزله ، فلمّا قَدِم خالدٌ البُطاح بثّ السرايا وأمَرَهم بداعية الإسلام وأن يأتُوه بكلّ من لم يُجب ، وأمَرَهم إن امتَنَع أن يقاتلوه ، فجاءتْه الخيلُ بمالك بن نُوَيرة في نفرٍ من بــني يَرْبوع ؛ واختلَفَ السريّةُ في أمرهم ، وفي السريّة أبو قتــادة الحارثُ بن ربعيّ ، فــكان ممّن شهد أنّــهم أذّنوا وأقاموا وصَلّوا ، فلما اختلفوا فيهم

أمرَ بهم خالد فحُبِسُوا وكانت ليلةٌ باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالدٌ منادياً يُنادِي: «أدفِئوا أسرَاءكم »[٢] ، فظنوا أنّهم أمِرُوا بقَتْلهم ، لأنّ هذه اللفظةُ تستعمل فى لغة كِنانَةَ للقتْل، فقتلَ ضِرَارُ بنُ الأزْوَر مالكا ، وتزوّج خالدٌ زوجتَه أمّ تميم بنت المِنْهال[٣].

وفى خبر آخرَ أنّ السريّة التى بعث بها خالدٌ لمّا غشيت القوم تحتَ الّليل راعُوهم ، فأخَـذَ القومُ السلاح ! قال : فقلنا : إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، قلنا : فما بالُ السّلاح معكم ! قلنا : فضعوا السلاح ؛ فلمّا وَضَعوا السلاح رَبَطوا أُسارى فأتَوْا بهم خالدا . فحدّث أبو قَتادَةَ خالدَ بن الوليد أنّ القوم نادَوْا بالإسلام ، وأنّ لهم أماناً ، فلم يلتَفِت خالدٌ إلى قولهم وأمرَ بقتْلهم ، وقسم سَبْيَهم ، وحَلَف أبو قتادة ألّا يسير تحت لواء خالدفى جيش أبداً ، وركِب فرسَه شاذًّا إلى أبى بكر ، فأخبَرَه الخبر ، وقال له : إنى نَهَيْتُ خالدا عن قتله ، فلم يَقبَل قَوْلى ، وأخذ بشهادة الأعراب الّذين غرضُهم الغنائم ، وإنّ عمر لمّا سمع ذلك تكلّم فيه عند أبى بكر فأكثَرَ وقال : إنّ القصاص قد وَجَب عليه . ولمّا أقبل خالدُ ابنُ الوليد قافلا دَخَل المسجدَ وعليه قَباءٌ له عليه صَدَأ الحديد ، مُعْتجِرا[٤] بعمامة له قد غَرَز فى عمامته أسهما ، فلمّا دخل المسجدَ قام إليه عمرُ فنَزَع الأسهم عن رأسه فحطّمها ، ثمّ قال له : يا عدوَّ نَفْسِه ، أعدَوْتَ على امرئٍ مُسلم فقتلته ، ثمّ نَزَوْتَ على امرأته ! واللهِ لنَرْجُمَنَّك بأحجارك . وخالدٌ لا يكلّمه ، ولا يظنُّ إلا أنّ رأىَ أبى بكر مثلُ رأيه حتّى دخل إلى أبى بكر واعتذر إليه بعُذره وتجاوز عنه ، فخرج خالدٌ وعمرُ جالسٌ فى المسجد فقال : هَلُم إلىَّ يا بن أمّ شمْلة ! فعَرَف عمرُ أن أبا بكر قد رَضِىَ عنه فلم يكلّمه ، ودخل بيته[٥].

وقد رُوِى أيضا أنّ عمر لمّا وُلّىَ جمَع من عشيرةِ مالكِ بنِ نُوَيْرَة مَنْ وَجَد منهم

(١) ب : « ادفو » ، صوابه فى د والطبرى . (٢) الطبرى : « أسراءكم » .
(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ (المعارف) ، مع تصرف واختصار .
(٤) اعتجر العمامة : لبسها . (٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ . ٢٨٠ .

واُسترجَعَ ما وَجَد عند المسلمين من أموالهِم وأولادِهم ونسائهم ، فردّ ذلك عليهم جميعا مع نَصيبه كان منهم . وقيل : إنّه ارتجع بعض نسائِهم من نَواحى دِمَشقَ ، وبعضهنّ حوامل ، فردّهن على أزواجهنّ . فالأمر ظاهرٌ فى خطأ خالد ، وخطأ من تجاوَزَ عنه . وقول صاحب الكتاب : إنّه يجوز أن يَخفَى عن عُمرَ ما يظهر لأبى بكر ليس بشيء؛ لأنّ الأمرَ فى قصّة خالد لم يكن مشتبها ، بل كان مُشاهَدا معلوما لكلّ من حَضَره ؛ وما تأوّل به فى القتل لا يُعذَر لأجله ، وما رأينا أبا بكر حَكَم فيه بُحكم المتأوّل ولا غيره ، ولا تلافَى خطأه وزَلَله ، وكونه سَيْفا من سُيوف الله على ما ادّعاه لا يسقط عنه الأحكام، ويبرّئه من الآثام .

وأمّا قول متمّم : لو قُتِل أخِى على ما قُتِل عليه أخوك لما رَثَيْتُه ، لا يدلّ على أنّه كان مرتدّا ، فكيف يَظُنّ عاقلٌ أنّ متمّما يعترف بردّة أخيه وهو يطالب أبا بكر بدَمِه والاقتصاص من قاتليه ، وردّ سبيه ، وأنّه أراد فى الجملة التقرّب إلى عمرَ بتقريظ أخيه ! ثمّ لو كان ظاهر هذا القول كباطنه لكان إنّما يقصد تفضيل قِتْلةِ زَيْد على قِتْلة مالك ، والحال فى ذلك أظهر ، لأنّ زيدا قُتِل فى بعث المسلمين ذابّا عن وجُوههم ، ومالكٌ قُتِل على شُبهة ، وبين الأمرين فرْق .

وأمّا قولُه فى النبىّ صلّى الله عليه وآله: « صاحُبك» فقد قال أهل العلم: إنّه أراد القرشيّة لأنّ خالدا قرشىّ . وبعد ، فليس فى ظاهر إضافته إليه دلالة على نفيه له عن نفسه ، ولو كان علم من مَقصِده الاُستخفاف والإهانة على ما ادّعاه صاحبُ الكتاب لوَجَب أن يعتذِر خالدٌ بذلك عند أبى بكر وعمرَ ويَعتذر به أبو بكر لمّا طالبه عمرُ بقتْله ، فإنّ عمرَ ما كان يَمنع من قتل قادح فى نبوّة النبىّ صلى الله عليه وآله ، وإنْ كان الأمر على ذلك فأىّ معنى لقول أبى بكر : تأوّل فأخطأ ! وإنّما تأوّل فأصاب إن كان الأمر على ما ذكر (١) .

* * *

(١) الشافى ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

قلت : أمّا تعجّب المرتضى من كون قوم منعوا الزكاة وأقاموا على الصلاة ودعواه أنّ هذا غير ممكن ولا صحيح ، فالعجب منه كيف يُنْكر وقوع ذلك ، وكيف ينكر إمكانه ! أما الإمكان فلأنه لا ملازمةَ بين العبادتين إلاّ من كونهما مقترنتَيْن فى بعض المواضع فى القرآن ، وذلك لا يُوجب تلازمهما فى الوجود ، أو من قوله : إنّ الناس يَعلَمون كون الزكاة واجبة فى دين الإسلام ضرورة ، كما تعلمون كون الصلاة فى دين الإسلام ضرورة ، وهذا لا يمنع اعتقادهم سُقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم . فإنهم قالوا : إن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾(١) قالوا : فوصف الصدقة المفروضة بأنها صدقة من شأنها أن يطهّر رسول الله صلى الله عليه وآله الناسَ ويزكّيهم بأخذها منهم ، ثم عقب ذلك بأنْ فرض عليه مع أخْذ الزكاة منهم أن يصلّيَ عليهم صلاةً تكون سكنا لهم . قالوا : وهذه الصّفات لا تتحقق فى غيره؛ لأن غيره لا يطهّر الناسَ ويزكّيهم بأخذ الصدقة ، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سَكَنا لهم ، فلم يجب علينا دفعُ الزكاة إلى غيره . وهذه الشبهة لا تنافى كون الزكاة معلوما وجوبُها ضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله ، لأنهم ما جَحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا : إنه وجوبٌ مشروط ؛ وليس يُعلَم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة ، وإنما يُعلَمَ ذلك بنظر وتأويل ، فقد بان أنّ ما ادّعاه من الضرورة ليس بدالّ على أنه لا يمكن أحد اعتقاد نفى وجوب الزكاة بعد موت الرسول ، ولو عرضَت مِثل هذه الشبهة فى صلاة لصحّ لذاهِب أن يَذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس ؛ فأمّا الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر ، كالعِلم بأن أبا بكر وَلى الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ضرورة بطريق التواتُر ، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى كُتب التواريخ

---

(١) سورة التوبة ١٠٣ .

فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفى ويكفى . وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ الكبير بإسنادٍ ذكره : إنّ أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجيهه أسامة فى جيشه إلى حيث قُتِل أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئاً ، وجاءته وفود العَرَب مرتدّين يُقِرّون بالصلاة ويمنعون الصدقة ، فلم يقبل منهم وَردّهم ، وأقام حتى قدم أسامة بعد أربعين يوما من شُخوصه ، ويقال : بعد سَبْعين يوما[١] .

وروى أبو جعفر قال : امتنعت العربُ قاطبة من أداء الزّكاة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا قريشا وثَقِيفا[٢] .

وروى أبو جعفر ، عن السّرىّ[٣] عن شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عُرْوة ، عن أبيه ، قال : ارتدّت العربُ وَمنَعت الزّكاة إلّا قريشا وثقيفا ، فأما هوازن فقدّمَتْ رِجْلا وأخّرتْ أخرى ، أمسكوا الصدقة[٤] .

وروى أبو جعفر ، قال : لما مَنَعت العربُ الزكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أسامة بالجيش ، فلم يحارب أحدًا قبل قدومِه إلا عَبْسا وذُبْيان ، فإنه قاتلهم قبل رجوعِ أسامة[٥] .

وروى أبو جعفر ؛ قال : قدِمتْ وفودٌ من قبائل العرب المدينه ، فنَزَلوا على وجوه الناس بها ، ويحمّلونهم إلى أبى بكر أن يقيموا الصّلاة وألّا يُؤتوا الزّكاة ، فعزَم الله لأبى بكر على الحقّ ، وقال : لو منَعونى عِقَال بعيرٍ لجاهدْتُهم عليه[٦] .

وروى أبو جعفر شِعْرا للخطيل[٧] بن أوْس ، أخى الحُطَيْئة فى معنى مَنْع الزكاة، وأن

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٧٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٢ . (٣) ب : « السدى » ؛ صوابه فى ا ، د وتاريخ الطبرى .

(٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٢ . (٥) تايخ الطبرى ٣ : ٢٤٣ .

(٦) تايخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ . والعقال : الحبل الذى كان يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة

(٧) فى الأصول : « الخطل » ، وصوابه من تاريخ الطبرى .

أبا بكر ردّ سؤال العرب ولم يُجبهم من جُملته :

أطعْنا رسولَ الله إذْ كان بيننـا ... فيالَعِباد الله ما لأبي بكرِ !(١)

أيُورِثها بكرٌ إذا ماتَ بعـدَه ... وتلك لعَمرُ الله قاصمـةُ الظَّهر

فهلّا رددْتُم وفدنا بإجابةٍ ... وهلاّ حسِبْتم منه راسيةَ البَكْر

فإنّ الذى سـالوكُم فنعتـمُ ... لكالتمر أو أحْلَى لحلف بنى فِهرْ(٢)

وروى أبو جعفر قال : لما قَدِمت العربُ المدينة على أبي بكر فكلّموه فى إسقاط الزكاة، نزلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحدٌ إلّا وأنزل عليه ناساً منهم ، إلا العباس ابن عبد المطلب ، ثم اجتمع إلى أبي بكر المسلمون ، نخوّفوه بأس العَرَب واجتماعها . قال ضِرار بنُ الأزور : فما رأيتُ أحداً ــ ليس رسول الله ــ أملأ بحَرْب شَعْواء من أبي بكر فجعلنا(٣) نخوّفه(٤) ونروّعه، وكأنما إنما نخبره بماله لا ماعليه، واجتمعت كلمة المسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبتْ ، وأبى أبو بكر أن يفعل إلاّ ما كان يَفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأن يأخذ إلا ما كان يأخذُ ، ثم أجّلهم يوماً وليلة ، ثم أمرَهم بالانصراف ، وطاروا إلى عشائرهم(٥) .

وروى أبو جعفر ، قال : كان رسول الله صـلّى الله عليـه وسلم بعث عمرو بن العاص إلى عُمان قبل موته ، فماتَ وهو بعُمان ، فأقبل قافلًا إلى المدينة، فوجد العرب قد منعت الزكاة ، فنزل فى بنى عامر على قُرّة بن هبيرة ، وقرّة يقدّم رِجْلًا ويؤخّر أخرى ، وعلى ذلك بنو عامر كلّهم إلا الخواصّ . ثم قَدِم المدينة ، فأطافت به قريش ، فأخبرهم أن العساكر مُعسكِرة حولهم ، فتفرّق المسلمون ، وتحلقوا حَلقا ، وأقبل عمر بن الخطاب ، فمرّ بحَلْقة

---

(١) أورد صاحب الأغانى البيت الأول والثانى (٢ : ١٥٧ ــ طبعة دار الكتب) ونسبهما إلى الحطيئة.
(٢) الطبرى ٣ : ٢٤٦ ، وفيه : « أو أحلى إلى من التمر » .
(٣) ب : « بجعلنا » ، وصوابه من الطبرى ، د . (٤) الطبرى : « نخبره » .
(٥) تاريخ الطبرى ٣:٢٥٨ .

وهم يتحدثون فيما سمعوا من عمرو ، وفى تلك الحلْقة علىٌّ وعثمانُ وطلحةُ والزبير وعبد الرحمن ابنُ عوف وسعد ، فلما دنا عمرُ منهم سكتوا ، فقال : فى أىّ شىء أنتم ؟ فلم يُخبروه ؛ فقال : ما أعلمنى بالذى خلوتم عليه ! فغضب طلحةُ وقال : الله يابن الخطاب ! إنّك لتعلم الغيب ! فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكنْ أظُنّ قلتمْ : ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألّا يقرّوا بهذا الأمر . قالوا : صدقت ، فقال : فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوَفُ منّى عليكم من العرب (١) .

قال أبو جعفر : وحدّثنى السرّىّ ، قال : حدّثنا شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : نزل عَمرو بن العاص بمُنصرَفه من عُمَانَ بعد وفاة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم بقُرّة بن هبيرة بن سَلَمة بن قُشير ، وحولَه عساكرُ من أفنائهم ، فذبح له ، وأكرم منزلته ، فلمّا أراد الرّحلة خلاَ به وقال : يا هذا ؛ إنّ العرب لا تطِيب لكم أنفسا بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيْتموها من أخْذ أموالها فستَسْمع وتُطيع ، وإن أبيْتم فإنّها تجتمع عليكم ؛ فقال عمرو : أتوعِدنا بالعرب وتخوّفنا بها ! موعدُنا حِفْشُ أمّك ، أما والله لأوطئنّه عليك الخيل ، وقدم على أبى بكر والمسلمين فأخبَرَهم (٢) .

ورَوَى أبو جعفر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد فرّق عمّاله فى بنى تميم على قَبْض الصدقات ، فجعل الزّبرِقانَ بنَ بدر على عَوْف والرِّباب ، وقيس بن عاصم على مُقاعِس والبطون ، وصَفْوان بن صَفْوان وسَبْرة بن عمرو على بنى عمرو ، ومالك بنُ نُوَيرة على بنى حنظلة ، فلمّا تُوفّى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ضرَب صفوانُ إلى أبى بكر حين وَقَع إليه الخبرُ بموت النبىّ صلّى الله عليه وسلم بصَدقات بنى عمر ، وبما وَلِىَ منها ، وما ولى سَبْرة ، وأقام سَبْرة فى قومه لحدَث إن نابَ ، وأطرَق قيسُ بنُ عاصم ينتظر ما الزّبرقان صانع ؟ فكان له عدوا وقال وهو ينتظره وينتظر ما يصنع : ويلى عليه ! ما أدرى ما أصنع إن أنا

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ . (٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٩ .

بايعتُ أبا بكر وأتيته بصَدَقات قومى خلّفنى فيهم فساءنى عندهم ، وإن رددتُها عليهم فليأتينّ أبا بكر فيسوءنى عندَه ، ثمّ عزم قيسٌ على قسمتِها فى مُقاعِس والبُطون، ففعل وعزَم الزِّبرقان على الوَفاء ، فأتبع صَفْوان بصَدَقات عوْف والرّباب حتّى قدِم بها المدينة وقال شعرا يُعرِّض فيه بقَيْس بن عاصم ، ومن جملتِه :

وفيتُ بأذْوَادِ الرّسول وقد أبَتْ سُعاةٌ فلم يَرْدُدْ بعـيراً أميرُهـا

فلمّا أرسل أبو بكر إلى قيسٍ العلاءَ بنَ الحضْرمىّ أخرَج الصدقَة ، فأتاه بها وقَدِم معه إلى المدينة (١) .

وفى تاريخ أبى جعفر الطّبرىّ من هـذا الكثير الواسع ، وكذلك فى تاريخ غيره من التواريخ ، وهذا أمرٌ معلوم باضطرار ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُخالِف فيه .

فأمّا قوله: كيف يصحّ ذلك، وقد قال لهم أبو بكر: إذا أذّنوا وأقاموا كأذانكم وإقامتِكم، فكفّوا عنهم ، فجعل أمارةَ الإسلام والبراءة من الرِّدّة الأذان والإقامـة ، فإنّه قد أسقَط بعضَ الخبر ؛ قال أبو جعفر الطبرىّ فى كتابه : كانت وصيّتُه لهم : إذا نزَلتم فأذِّنوا وأقيموا، فإن أذّن القومُ وأقاموا فكفّوا عنهم، فإن لم يَفعَلوا فلا شىء إلّا الغارَة، ثمّ اقتلوهم كلّ قتلة ؛ الحرْق فما سواه ، وإن أجابوا داعيـةَ الإسلام فاسألوهم ، فإنْ أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبَوْا فلا شىءَ إلّا الغارة ، ولا كَلِمَة (٢) .

فأما قولُه : وكيف يُطلق قاضِى القضاة فى سائر أهلِ الرِّدّة ما أطلقَه من أنّهم كانوا يصلّون ومن جُملتهم أصحابُ مُسيلمة وطلحة ! فإنّما أراد قاضي القُضاة بأهـل الرِّدّة هاهنا ما نِعى الزّكاة لا غير ، ولم يُرِد مَن جَحَد الإسلام بالكلّية .

فأمّا قصّة مالكِ بن نُوَيرة وخالدِ بنِ الوليد فإنّـها مشتبهة عندى ، ولا غرْوَ فقد اشتَبهتْ على الصّحابة، وذلك أنّ مَنْ حضرها من العَرَب اختلفوا فى حال القوم: هل كان

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ . (٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ .

عليهمْ شِعارُ الإسلام أولا ؟ واُختلف أبو بكر وعمرُ فى خالدٍ مع شدّة اُتفاقهما ، فأما الشّعر الّذى رواه المرتضَى لمالكِ بنِ نُوَيرَة فهو معروف إلّا البيتَ الأخير ، فإنّه غـيرُ معروف ، وعليه عُمدة المرتضَى فى هذا المقام ، وما ذَكَره بعدُ من قصّة القوم صحيح كلُّه مُطابِق لما فى التواريخ إلّا مُوَيْضعاتٍ يسيرة :

منها قولُه : إنّ مالـكا نَهَى قومَه عن الاُجتماع على مَنْع الصدقات ، فإنّ ذلك غيرُ منقول وإنّما المنقولُ أنّه نَهَى قومَــه عن الاجتماع فى موضع واحـد ، وأمَرَهم أن يتفرّقوا فى مِياهِهم ؛ ذَكَر ذلك الطـبرىّ ولم يذكر نَهْيَه إيّاهم عن الاُجتماع على مَنْع الصدقة ، وقال الطبرىّ : إنّ مالـكا تردّد فى أمرِه : هل يَحمِل الصّدقات أم لا ؟ فجاءه خالد وهـو متحيِّر سبـِح .

ومنها أنّ الطبرىّ ذَكَر أنّ ضِرارَ بنَ الأزْوَر قتَل مالـكا عن غـيرِ أمْرِ خالد ، وأنّ خالدا لمّا سَمِع الواعيــةَ خرج وقد فرَغوا منهم ، فقال : إذا أراد اللهُ أمراً أصابه ؛ قال الطبرىّ : وغَضِب أبو قتادة لذلك ، وقال لخالد : هـذا عَمَلُك ! وفارَقه وأتَى أبا بكر فأخبرَه فغَضِب عليه أبو بكر حتّى كلّمه فيه عُمَر ، فلم يَرْضَ إلّا أن يَرْجع إلى خالد ، فرجع إليــه حتى قدم معه المدينة(١) .

ومنها أنّ الطبرىّ رَوَى أنّ خالدا لمّا تزوّج أمّ تميم بنتَ المِنْهال امرأةَ مالك لم يَدْخُل بها وتَركَها حتى تقضىَ طُهرَها ، ولم يَذكُر المرتضَى ذلك .

ومنها أنّ الطبرىّ رَوَى أنّ متممًا لمّا قَدِم المدينةَ طَلب إلى أبى بـكر فى سَبْيِهم ، فـكتب له برَدّ السَّبْى ؛ والمُرتضَى ذَكَرَ أنّه لم يَرِد إلّا فى خلافة عمرَ .

فأمّاقولُ المرتضَى : إنّ قولَ متمّم: لو قُتِل أخى على مِثل ما قُتِل عليه أخوك لما رَثَيْتُه،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ .

لا يدلّ على رِدّته ، فصحيح ، ولا رَيْب أنّه قصَد تقريظَ زَيْد بن الخطّاب وأن يُرضِي عمرُ أخاه بذلك . ونعِمّا قال المرتضى ! إنّ بين القِتْلَتين فرقاً ظاهراً ، وإليه أشارَ متمّم لا محالةَ .

فأمّا قولُ مالك : صاحبُك، يعنى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقد روَى هذه اللفظة الطبريّ فى التاريخ ، قال : كان خالدٌ يَعتذِر عن قَتْله ، فيقول : إنه قال له وهو يراجِعُه : ما إخالُ صاحبَكم إلّا قال كذا وكذا ، فقال له خالد : أوَ ما تعدّه لك صاحبا[1] ! وهذه لَعمرى كلمةٌ جافِية ؛ وإن كان لها مَخرَج فى التأويل ، إلّا أنّه مُستكرَه ، وقرائنُ الأحوال يَعرِفها مَن شاهَدَها وسَمِعها ، فإذا كان خالدٌ قد كان يَعتذِر بذلك ، فقد اُندفعَ قولُ المرتضَى : هلّا اعتذَر بذلك ! ولستُ أنزّه خالدا عن الخطأ ، وأعلم أنه كان جبّارا فاتِكاً لا يُراقِب الدّين فيما يَحمله عليه الغضب وهوَى نفسِه ، ولقد وقَع منه فى حياةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله مع بنى جذيمة بالغُمَيْصاء أعظمُ ممّا وقَع منه فى حقّ مالِك بن نُوَيرة ، وعَفا عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله بعدَ أن غضِب عليه مُدّة وأعرَض عنه ، وذلك العفوُ هو الّذى أطمَعه حتى فَعَل ببنى يَرْبوع ما فَعَل بالبُطاح .

***

الطعن الثامن

قولُهم : إنّ مما يُؤثَر فى حاله وحالِ عمرَ دَفْنَهما مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى بيْتِه ، وقد منع الله تعالى الكلّ من ذلك فى حال حياتِه ـ فكيف بعدَ المَمات ـ بقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾[2] .

أجاب قاضى القضاة بأن الموضعَ كان مِلْكا لعائشة ، وهى حُجْرتها التى كانت

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٨٠ . (٢) سورة الأحزاب ٥٣ .

معروفةٌ بها ، والحجرُ كلُّها كانت أملاكاً لأزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وقد نطق القرآنُ بذلك فى قولِه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[1] ، وذكر أنّ عمرَ استأذَنَ عائشةَ فى أن يُدفَن فى ذلك الموضع ، وحتّى قال : إن لم تأذَنْ لى فادفِنونى فى البَقيع ، وعلى هذا الوجهِ يُحمَل ما رُوِى عن الحسَن عليه السلام أنّه لمّا مات أوصَى أن يُدفَن إلى جَنْب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وإن لم يترك ففى البَقيع ، فلمّا كان مِن مَروانَ وسعيد بن العاص ما كان دُفِن بالبَقيع . وإنما أوصَى بذلك بإذْن عائشةَ ؛ ويجوز أن يكون علم من عائشة أنّها جعلتْ الموضعَ فى حُكم الوَقْف ، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه ؛ قال : وفى دَفْنه عليه السلام فى ذلك الموضع ما يدلّ على فَضْل أبى بكر ؛ لأنّه عليه السلام لمّا مات اختلفوا فى موضع دَفْنه ؛ وكَثُر القولُ حتى رَوَى أبو بكر عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال ما يدلّ على أنّ الأنبياء إذا ماتُوا دُفِنوا حيث ماتُوا ، فزال الخلافُ فى ذلك[2] .

اعترضَ المرتضَى فقال : لا يخلو موضعُ قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله من أن يكون باقياً على مِلْكه عليه السلام ، أو يكون انتقل فى حياته إلى عائشةَ على ما ادّعاه ؛ فإن كان الأوّل لم يخلُ أن يكونَ ميراثاً بعدَه أو صدقة ؛ فإن كان ميراثاً فما كان يحلّ لأبى بكر ولا لعمَر من بعده أن يأمُرا بدفنهما فيه إلّا بعد إرضاء الوَرَثة الّذين هم على مَذْهَبِنا فاطمة وجماعةُ الأزواج، وعلى مذهبهم هؤلاء والعبّاس ، ولم نَجِد واحداًمنهما خاطب أحداًمن هؤلاء الوَرَثة على ابتياع هذا المكان ولا استنزله عنه بثمن ولا غيره . وإن كان صدقة فقد كان يَجب أن يُرْضِى عنه جماعةَ المسلمين ويبتاعَه منهم ؛ هذا إن جاز الابتياع لما يَجرِى هذا المجرى ، وإن كان انتقل فى حياته فقد كان يجب أن يظهر سبب انتقاله والحجّة فيه ، فإنّ فاطمة عليها السلام لم يَقنَع منها فى انتقال فدَك إلى مِلْكها بقوْلها ، ولا بشهادة من

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ . (٢) نقله المرتضى فى الشافى ٤٢٤ .

تَشهدلها. فأمّا تعلّقه بإضافة البيوت إليهنّ فى قوله : ﴿ وقَرْن فى بيُوتـكنّ ﴾ ؛ فمن ضعيف الشُّبهة؛ لأنّا قد بيّنا فيا مضى من هـــذا الكتاب أن هذه الإضافة لا تَقتضِي المِلك ، وإنما تَقتضِي السّـكْنى ، والعادة فى استعمال هذه اللفظة فيما ذكرْناه ظاهرة، قال تعالى: ﴿لا تُخْرِجُوهُنّ من بيُوتهن ﴾[1] ؛ ولم يُرِد اللهُ تعالى إلاّ حيث يسكنّ ويَنزلن دُون حيث يملكن وما أشبهه وأظرف من كل شىء تقدّم قولُه : إنّ الحسن عليه السلام استأذن عائشة فى أن يُدفن فى البيت حتّى منَعه مروانُ وسعيدُ بن العاص ؛ لأنّ هذه مكابرة منه ظاهرة ، فإنّ المانع للحَسَن عليه السلام من ذلك لم يكن إلاّ عائشة ، ولعلّ من ذِكْره من مروان وسعيد وغيرهما أعانها واتّبع فى ذلك أمرَها ، وروى أنها خرجت فى ذلك اليوم على بغل حتى قال ابن عباس : يوماً على بَغْل ويوماً على جمل ! فـكيف تأذن عائشة فى ذلك ، وهى مالـكةُ الموضع على قولهم ، ويمنع منه مروان وغيره ممّن لا ملكَ له فى الموضع ولا شَرِكة ولا يد ! وهذا من قبيح[2] ما يرتكب . وأىّ فضل لأبى بكر فى روايته عن النبىّ صلّى الله عليه وآله حديث الدّفن ! وعملهم بقوله إنْ صَحّ فى مذهب صاحب الـكتاب وأصحابه العمل بخبر الواحد العَدْل فى أحكام الدّين العظيمة ، فـكيف لا يعمل بقول أبى بكر فى الدفن وهم يَعملون بقول مَن هُو دونه فيما هو أعظم من ذلك[3] !

* * *

قلت : أمّا أبو بكر ؛ فإنه لا يلحقه بدَفْنِهِ مع الرّسول صلّى الله عليه وآله ذمٌّ ؛ لأنه ما دَفَن نفسَه ، وإنما دفنه الناسُ وهو ميّت ، فإن كان ذلك خطأ فالإثم والذّمّ لاحقان بمن فعل به ذلك ، ولم يَثْبُت عنه بأنّه أوصَى أن يُدفن مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وإنّما قد يُمـكن أن يتوجّه هذا الطعن إلى عمر ، لأنه سأل عائشة أن يُدفَن فى الحُجْرة مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وأبى بكر . والقولُ عندى مشتبه فى أمر حُجَر الأزواج:

(١) سورة الطلاق ١ . (٢) الشافى : « أقبح » . (٣) الشافى ٤٢٤ .

هل كانت على مِلك رسولِ الله صلى الله عليه وآله إلى أن تُوفّى، أم مَلَكَها نساؤه ؟ والذى تنطِقُ به التواريخُ أنّه لمّا خرج من قُباء ودخَلَ المدينة وسكَن منزل أبى أيّوب، اختطّ المسجد واختَطّ حُجَر نسائه وبناته، وهذا يدلّ على أنّه كان المالك للمواضع، وأمّا خروجُها عن ملكه إلى الأزواج والبنات فممّا لم أقِفْ عليه. ويجوز أن تكونَ الصحابةُ قدفهمت من قرائن الأحوال وممّا شاهدوه منه عليه السلام؛ أنّه قد أقرّ كلّ بيت منها فى يدِ زوجةٍ من الزّوجات على سبيل الهبة والعَطيّة، وإن لم يُنقل عنه فى ذلك صيغةُ لفظ مُعيّن، والقولُ فى بيتِ فاطمةَ عليها السلام كذلك، لأنّ فاطمة عليها السلام لم تكن تملك مالًا، وعلىّ عليه السلام بمُلها كان فقيراً فى حياةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله حتى إنه كان يَستَقى الماء ليَهُود بيدِه، يَسقِى بساتينَهم لقُوتٍ يدفعونَه إليه، فمن أين كان له ما يبتاعُ به حُجرةً يَسكُن فيها هو وزوجتهُ[1]! والقولُ فى كثيرٍ من الزّوجات كذلك أنّهنّ كنّ فقيراتٍ مُدْقِمات، نحو صفيّة بنت حُيي بن أَخْطب، وجُوَيْرِية بنت الحارث، وميمونة، وغيرهنّ، فلا وجه يُمكن أن يتملّك منه هؤلاء النّسوة والبنتُ الحجَر؛ إلّا أن يكون رسولُ الله صلى الله عليه وآله وَهبها لهنّ؛ هذا إن ثبتَ أنها خرجتْ عن مِلْكيّته عليه السلام، وإلّا فهى باقيةٌ على مِلْكيّته باُستصحاب الحال. والقولُ فى حُجْرة زينبَ بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله كذلك، لأنّه أقدَمها من مكّة مفارقةً لبعلِها أبى العاص بنِ الرّبيع، فأسكنها بالمدينة فى حُجْرة منفردة خاليةٍ عن بَعل، فلابدّ أن تكون تلك الحجرةُ بمقتضى ما يتغلّب على الظنّ ملكا له عليه السلام، فيُستدام الحكم بملكه لها إلى أن نجد دليلا يَنقُلنا عن ذلك. وأمّا رقيّة وأمّ كُلثوم زوجتا عثمانَ، فإن كان مُثرِيا ذا مال فيجوز أن يكون اُبتاع حُجْرَةً سكنت فيها الأولى منهما، ثمّ الثانيةُ بعدَها.

---

(١) ب: «زوجة».

فأمّا احتجاجُ قاضي القضاة بقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ؛ فاعتراضُ المرتضى عليه قويّ ، لأنّ هذه الإضافة إنما تقتضي التّخصيص فقط لا التّمليك ، كما قال : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾(١) ؛ ويجوز أن يكون أبو بكر لمّا رَوَى قوله : « نحن لا نُورَث » تَرَكَ الحُجَر في أيدي الزّوجات والبنت على سبيل الإقطاع لهنّ لا التّمليك ، أي أباحهنّ السُّكْنى لا التصرّف في رقاب الأرض والأبنية والآلات ، لما رأى في ذلك من المصلحة ، ولأنّه كان من المستهجَن القبيح إخراجهنّ من البُيوت ، وليس كذلك فَدَك ؛ فإنها قريةٌ كبيرةٌ ذاتُ نخل كثير خارجةٌ عن المدينة ، ولم تكن فاطمةُ مُتصرّفةً فيها من قِبَل نفسها ولا بوكيلها ، ولا رأتْها قطّ ، فلا تُشبِه حالُها حالَ الحُجَر . وأيضاً لإباحة هذه الحجَر وزارة أثمانهنّ ، فإنها كانت مبنيّةً من طين قصيرة الجدران ، فلعلّ أبا بكر والصّحابة استحقَروها ، فأقرّوا النّساء فيها وعوّضوا المسلمين عنها بالشيء اليسير ممّا يقتضي الحساب أن يكون من سهْم الأزواج والبنت عند قسْمة الفيْء .

وأمّا القولُ في الحسَن وما جرَى من عائشة وبني أميّة فقد تقدّم ؛ وكذلك القولُ في الخبر المَروِيّ في دَفْن الرسول صلّى الله عليه وآله ، فكان أبو المظفّر هبةُ الله بن المُوسوِيّ صدر المخزن المعمور ، كان في أيّام الناصر لدين الله إذا حادثته حديثَ وَفاةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ورواية أبي بكر ما رواه من قوله عليه السلام : « الأنبياء يُدفَنون حيث يمُوتون » ، يَحلِف أنّ أبا بكر افتعل هذا الحديثَ في الحال والوقت ، ليُدفَن النبيّ صلى الله عليه وآله في حُجْرة ابنته ، ثم يُدفَن هو معه عند موته ، عِلْما منه أنّه لم يَبقَ من عمره إلّا مثل ظِمْء(٢) الحمار ، وأنّه إذا دُفِن النبيّ صلى الله عليه وآله في حُجْرة ابنته فإن ابنته تدفِنه لا محالة في حُجْرتها عند بَعْلها ، وأنّ دَفْن النبيّ صلى الله عليه وآله في موضع

---

(١) سورة الطلاق ١ .

(٢) يقال : ما بقي منه إلا ظمء الحمار ؛ أي شيء يسير لأنه ليس شيء أقصر ظمئاً منه .

آخرَ فربّما لا يتهيّأ له أن يُدفَن عنده ، فرأى أنّ هـذا الفوزَ بهذا الشّرف العظيم ، وهذا المكان الجليل ، ممّا لا يَقتضِي حسن التّدبير فوته ، وإن انتهاز الفرصة فيـه واجب ، فرَوَى لهم الخبرَ ، فلا يُمكنهم بعدَ روايته ألّا يعملوا به ، لاسيّما وقد صار هو الخليفة ، وإليه السلطان والنفع والضّرر ، وأدرَكَ ما كان فى نفسه ، ثمّ نَسَج عمرُ على منواله ، فرَغِب إلى عائشةَ فى مثل ذلك ، وقد كان يُكرِمها ويقدِّمها على سائر الزّوجات فى العطاء وغيره ، فأجابته إلى ذلك ، وكان مُطاعاً فى حياته وبعد مماته ، وكان يقول : واعجباً للحَسَن وطَمَعِه فى أن يُدفَن فى حُجْرة عائشـــة ! والله لو كان أبوه الخليفةَ يومئذ لما تهيّأ له ذلك ، ولا تمّ لبُغض عائشةَ لهم ، وحسد الناس إيّاهم ، وتَعالؤ بنى أميّة وغيرهم من قريش عليهم ! ولهذا قالوا : يُدفَن عثمانُ فى حَشّ كوكب[1] ، ويُدفَن الحسن فى حُجْرة رسول الله صلّى الله عليـــه وسلم ، فكيف والخليفةُ معاويةُ والأمراء بالمدينة بنو أميّة ، وعائشةُ صاحبةُ الموضع ، والناصرُ لبنى هاشم قليـــل ، والشانئ كثير .

وأنا أستغفر الله ممّا كان أبوالمظفّر يَحلِف عليه ، وأعلَم وأظنّ ظنّا شبيها بالعلم أنّ أبا بكر ما رَوَى إلّا ما سَمِـع ، وأنّه كان أتقى لله من ذلك .

* * *

الطعن التاسع

قولُهم : إنّه نصّ على عمرَ بالخلافة ؛ فخالَف رسول الله صلّى الله عليه وآله على زَعْمه ، لأنّه كان يزعُم هو ومن قال بقوله أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لم يستخلِف .

---

(١) حش كوكب : موضع بالمدينة .

والجواب أن كونه لم يستخلف لايدلّ على تحريم الاستخلاف ، كما أنه من لم يركب الفيل لا يدلّ على تحريم رُكوب الفيل . فإن قالوا : ركوبُ الفيل فيه منفعة ولا مضرّة فيه ولم يردْ نصّ بتحريمه ، فوجب أن يحسن . قيل لهم : والاستخلاف مصلحة ، ولا مضرّة فيه ؛ وقد أجمع المسلمون أنه طريق إلى الإمامة ، فوجب كونه طريقاً إليها ، وقد رُوِى عن عمر أنه قال : إن أستخلِف فقد استخلف من هو خير منّى — يعنى أبا بكر — وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ منى — يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله . فأما الاجتماع المشار إليه فهو أنّ الصحابة أجمعوا على أنّ عمرَ إمامٌ بنصّ أبى بكر عليه ، وأنفذوا أحكامه ، وانقادوا إليه لأجل نصّ أبى بكر لا لشىء سواه ، فلو لم يكن ذلك طريقا إلى الإمامة لما أطبقوا عليه . وقد اختلف الشيخان أبو علىّ وأبو هاشم فى أن نصّ الإمام على إمامٍ بعده : هل يكفى فى انعقاد إمامته ؟ فقال أبو علىٍّ : لا يكفى ، بل لابدّ من أن يرضى به أربعةٌ حتى يجرى عهده إليه مجرى عقد الواحد برضا أربعة ؛ فإذا قارنه رضا أربعة صار بذلك إماما ، ويقول فى بيعة عمر : إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نصّ عليه ، ورجع إلى رضاهم بذلك ، وقال أبو هاشم : بل يكفى نصّه عليه ، ولا يُراعى فى ذلك رضا غيره به ، ولو ثبت أنّ أبا بكر فعله لكان على طريق التّبرع للنصّ ، لا أنه يؤثّر فى إمامته مع العهد ؛ ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم ، ولهذا لم يؤثّر فيه كراهية طلحة حين قال : ولّيتَ علينا فَظًّا غليظا . ويبين ذلك أنه لم ينقل استئناف العقد من الصحابة لعمر بعد موت أبى بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البَيْعة له ، والرضا به ، فدلّ على أنهم اكتفوا بعهد أبى بكر إليه .

* * *

الطعن العاشر

قولهم : إنه سمّى نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لاستخلافه إياه بعد موته ، مع اعترافه أنه لم يستخلفه .

والجواب أن الصحابة سمته خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته ، والاستخلاف على الصّلاة عند الموت له مزيّة على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة ، لأن حال الموت هي الحال التي تكون فيها العهودُ والوصايا وما يهتم به الإنسان من أمور الدّنيا والدين ، لأنها حالُ المُفارقة . وأيضا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما استخلف أحدا على الصّلاة بالمدينة وهو حاضر ، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوما أيّام غَيْبته عن المدينة ، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم ، وهو صلى الله عليه وآله حاضرٌ بين الناس حتّى إلّا لأبي بكر ، وهذه مزيةٌ ظاهرة على سائر الاستخلافات فى أمر الصلاة ، فلذلك سمّوْه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله .

وبعد ، فإذا ثبت أنّ الإجماع على كون الاختيار طريقا[(١)] إلى الإمامة وحجّة ، وثبت أن قوما من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة ، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لا فرق بين أن ينصّ الرسولُ صلى الله عليه وآله على شخص معين ، وبين أن يشير إلى قوم فيقول : مَن اختار هؤلاء القوم فهو الإمام ؛ فى أنّ كلّ واحد منهما يصح أن يُطلق عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله[(٢)] .

***

---

(١) ا : « سبيلا » .

الطعن الحادى عشر

قولهم : إنه حرق الفُجاءة السُّلَمِيّ بالنار ، وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وآله أن يُحرق أحد بالنار .

والجواب أن الفُجاءة جاء إلى أبى بكر كما ذكر أصحابُ التواريخ فطلب منه سلاحا يتقوّى به على الجهاد فى أهل الردّة ، فأعطاه ، فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الرّدّة جميعا ، وقتل كلَّ من وَجَد ، كما فعلت الخوارجُ حيث خرجتْ ، فلما ظفر به أبو بكر رأى حَرْقه بالنار إرهابا لأمثاله من أهل الفساد ، ويجوز للإمام أن يخصّ النصّ العام بالقياس الجلِيّ عندنا[1] .

***

الطعن الثانى عشر

قولهم : إنه تكلم فى الصلاة قبل التسليم ، فقال : لا يفعلنّ خالد ما أمرته ؛ قالوا : ولذلك جازَ عند أبى حنيفة أن يخرج الإنسانُ من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم ، وبهذا احتجّ أبو حنيفة .

والجواب أن هذا من الأخبار التى تتفرّد بها الإمامية ، ولم تثبت ؛ وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذَهب إليه لأجل هذا الحديث ، وإنما احتجّ بأن التسليم خطاب آدمىّ ، وليس هو من الصلاة وأذكارها ، ولا من أركانها ، بل هو ضدّها ، ولذلك يبطلها قبل التمام ، ولذلك لايسلّم المسبوق تبعاً لسلام الإمام، بل يقوم من غير تسليم ؛ فدلَّ على أنه ضدّ للصلاة وجميع الأضداد بالنسبة إلى رَفْع الضّدّ على وتيرة واحدة ، ولذلك استوى الكلّ فى

---

(١) الجلى : الواضح .

الإبطال قبل التمام ، فيستوى الكلّ فى الانتهاء بعد التمام . وما يذكره القوم من سبب كلام أبى بكر فى الصلاة أمرٌ بعيد ، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالدا أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً فى بيته ، ولا يعلم أحد مَن الفاعل .

* * *

الطعن الثالث عشر

قولهم : إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو على الشام يأمره أن يقتل سعد بن عُبادة ، فكمن له هو وآخرُ معه ليلا ، فلما مرّ بهما رمَياه فقتلاه ، وهتف صاحبُ خالد فى ظلام الليل بعد أن ألقيَا سعدا فى بئر هناك فيها ماء ببيتين :

نحن قتلْنا سيد الخز ... رج سعد بن عُبادهْ
ورمَيناه بسهمين ... ن فلم تُخْطِ فؤاده

يوهم أنّ ذلك شعر الجنّ ، وأن الجنّ قتلتْ سعدا ، فلما أصبح الناس فقدوا سعدا ، وقد سمِع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه ، فوجدوه بعد ثلاثة أيام فى تلك البئر ، وقد اخضرّ ، فقالو : هذا مَسيس الجن ؛ وقال شيطانُ الطاق لسائل سأله : ما منع عليا أن يُخاصم أبا بكر فى الخلافة ؟ فقال : يابن أخى ، خاف أن تقتله الجنّ .

والجواب ، أما أنا فلا أعتقد أنّ الجن قتلتْ سعدا ، ولا أنّ هذا شعرُ الجنّ ، ولا أرتاب أن البشر قتلوه ، وأنّ هذا الشعر شعر البشر ، ولكن لم يثبت عندى أن أبا بكر أمَرَ خالدا ، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرضيَ بذلك أبا بكر ـ وحاشاه ـ فيكون الإثم على

خالد ، وأبو بكر برىء من إثمه ؛ وما ذلك من أفعال خالد ببعيد .

* * *

الطعن الرابع عشر

قولهم : إنه لما استخلف قطع لنفسه على بيت المال أجرة كل يوم ثلاثة دراهم ، قالوا: وذلك لا يجوز ، لأن مصارف أموال بيت المسلمين لم يذكر فيها أجرة للإمام .

والجواب أنه تعالى جعل فى جملة مصرف أموال الصدقات العاملين عليها، وأبو بكر من العاملين . واعلم أن الإمامية لو أنصفت لرأت أن هذا الطعن بأن يكون من مناقب أبى بكر أولى من أن يكون من مساويه (١) ومثالبه ، ولكن العصبية لا حيلة فيها.

* * *

الطعن الخامس عشر

قولهم: إنه لما استخلف صرخ مناديه فى المدينة : من كان عنده شىء من كلام الله فليأتنا به ؛ فإنا عازمون على جمع القرآن ، ولا يأتنا بشىء منه إلا ومعه شاهدا عدل ؛ قالوا: وهذا خطأ ، لأن القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البشر ، فأى حاجة إلى شاهدى عدل !

والجواب، أن المرتضى ومن تابعه من الشيعة لا يصح لهم هذا الطعن؛ لأن القرآن عندهم ليس معجزا بفصاحته ، على أن من جعل معجزته للفصاحة لم يقل : إن كل آية من القرآن هى معجزة فى الفصاحة ، وأبو بكر إنما طلب كل آية من القرآن لا السورة بتمامها وكمالها التى يتحقق الإعجاز من طريق الفصاحة فيها . وأيضا فإنه لو أحضر إنسان آية أو آيتين ولم يكن معه شاهد ، فربما تختلف العرب : هل هذه فى الفصاحة بالغة

---

(١) ا : « عيوبه » .

مبلَغ الإعجاز الكلّيّ ، أم هى ثابتةٌ من كلام العرب بثبوته ؛ غيرَ بالغة إلى حدّ الإعجاز ؟ فكان يلتبسُ الأمرُ ويقَع النّزاع ، فاستَظهَر أبو بكر بطلب الشّهود تأكيدا ، لأنّه إذا انضمّت الشهادةُ إلى الفصاحة الظاهرة ثَبتَ أنّ ذلك الكلامَ من القرآن .

***

الأصْلُ :

ومن هذا الكتاب :

إنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طِلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ ؛ وَإنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي ، وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي . وَإنِّي إلَى لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ؛ وَلٰكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ هٰذِهِ الْأُمَّةَ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلًا ، وَعِبَادَهُ خَوَلًا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ؛ فَإنَّ مِنْهُمُ الَّذِي شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإسْلَامِ . وَإنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإسْلَامِ الرَّضَائِخُ ؛ فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ ، وَإلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَإلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى ، وَإلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى !

انْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَثَّاقَلُوا إلَى الْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الْأَخَسَّ ؛ وَإنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُ وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشرح :

طِلاع الأرض : ملؤها ، ومنه قولُ عمر : لو أنّ لى طِلاعَ الأرض ذهبا لافتديتُ به من هَوْل المُطّلَع .

وآسَى : أحزَن .

وأكثرت تأليبَكم : تحريضَكم وإغراءكم به . والتأنيب : أشدّ اللّوم .

ونَيْتم : ضَعُفتم وفترتم . ومَمالِكُم تزَوَى ، أى تقبَض .

ولا تثّاقلوا ، بالتشديد ، أصلُه « تتثاقلوا » . وتقرّوا بالخسف : تعترفوا بالضّيم وتصبروا له . وتبوءوا بالذلّ : ترجعوا به . والأرِق : الّذى لا ينام . ومِثلُ قوله عليه السلام : « من نام لم يُنَم عنه » قولُ الشاعر :

للهِ دَرُّكَ ما أردتَ بثائرٍ حرّانَ ليس عن التِّراتِ براقدِ[1]
أسهرتَه ثم اضطجعتَ ولم يَنَمْ حَنَقا عليك وكيف نَوْمُ الحاقدِ !

فأمّا الذى رُضِخت له على الإسلام الرّضائخ ، فمعاوية ؛ والرّضيخة : شىء قليلٌ يُعطاه الإنسان يُصانَع به عن شىء[2] يُطلَب منه كالأجر ، وذلك لأنّه من المؤلّفة قلوبُهم الّذين رَغِبوا فى الإسلام والطاعة بجِمالٍ وشاء دُفِعَتْ إليهم ، وهم قومٌ معروفون كمعاوية وأخيه يزيد ، وأبيهما أبى سُفْيان ، وحكيم بن حِزام ، وسُهَيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ابن المغيرة ، وحُوَيْطِب بن عبد العزّى ، والأخنَس بن شَرِيق ، وصَفْوان بن أميّة ، وعمير بن وهب الجمَحىّ ، وعُيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وعبّاس بن مِرْداس وغيرهم . وكان إسلام هؤلاء للطّمع والأغراض الدنياويّة ، ولم يكن عن أصل ولا عن يقين وعلم .

---

(١) التراث : جمع ترة ؛ وهى الأخذ بالثأر .   (٢) فى د « أمر » .

وقال الراوندىّ : عَنَى بقوله: «رُضِخَتْ لهم الرضائخ » عمرَو بنَ العاص، وليس بصحيح، لأنّ عمرا لم يُسلِم بعد الفتح، وأصحاب الرضائخ كلّهم أسلموا بعدالفتح، صُونِعوا على الإسلام بغنائم حُنَين . ولَعَمرى إن إسلام عمْرو كان مدخولا أيضا ؛ إلّا أنّه لم يكن عن رَضِيخة ، وإنّما كان لمعنًى آخر. فأما الذى شَرِب الحرام ، وجُلِد فى حدّ الإسلام ، فقدقال الراونديّ : هو المغيرةُ بنُ شُعْبة ، وأخطأ فيما قال ، لأنّ المغيرة إنّما اتُّهِم بالزنا ولم يُحَدّ ولم يَجرِ للمغيرة ذكرٌ فى شُرب الخمر ، وقد تقدّم خبرُ المغيرة مُستوفًى ، وأيضا فإنّ المغيرة لم يَشهَد صِفّين مع معاوية ولا مع علىّ عليه السلام ، وما للراوَنديّ ولهذا ! إنّما يَعرِف هـذا الفنّ أربابُه . والّذى عَناه علىّ عليه السلام الوليدُ بنُ عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وكان أشدّ الناس عليه وأبلغهم تحريضا لمعاوية وأهل الشام على حرْبه .

* * *

[أخبار الوليد بن عُقْبة]

ونحن نذكر خبرَ الوليد وشُرْبه الخمْر منقولا من كتاب " الأغانى " لأبى الفَرَج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ ؛ قال أبو الفرج: كان سبب إمارة الوليدبن عُقْبة الكوفةَ لعثمانَ ما حدّثنى به أحمدُ بنُ عبد العزيز الجوهرىّ ، قال : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثنى عبد العزيز بن محمّد بن حكيم ، عن خالد بنِ سعيد بنِ عمرِو بن سعيد ، عن أبيه، قال: لم يكن يَجلِس مع عثمان على سريره إلّا العباس بن عبد المطّلب ، وأبو سُفْيان بن حرب ، والحَكَم ابن أبى العاص ، والوليد بن عقبة ، ولم يكن سريرُه يَسَع إلّا عثمان وواحدا منهم ، فأقبل الوليدُ يوما فجلس ، فجاء الحَكَم بن أبى العاص فأومأ عثمانُ إلى الوليد ، فرَحل له عن مجلسه ، فلمّا قام الحَكَم قال الوليد : واللهِ يا أميرَ المؤمنين لقد تلجْلَج فى صدرى بيتان قلتُهما حين رأيتُك آثرتَ ابنَ عمّك على ابن أمّك ـ وكان الحَكَم عمّ عثمان، والوليد أخاه

لأمّه ـ فقال عثمان : إن الحكَم شيخُ قريش ؛ فما البيتان ؟ فقال :

رأيتُ لعَمٍّ المرءِ زُلْفَى قرابةٍ ⁂ دُوَيْنَ أخيه حادثاً لم يكن قِدْما

فأمّلتُ عمرا أن يَشِبّ وخالدا ⁂ لكيْ يَدعُواني يومَ نائبةٍ عمّا

يعني عَمراً وخالداً ابنَيْ عثمانَ . قال : فرقّ له عثمان وقال : قد ولّيتك الكوفة ، فأخرَجه إليها (١).

قال أبو الفَرَج : وأخبرَني أحمد بنُ عبدالعزيز، قال : حدّثني عمرُ بن شبّة، قال: حدّثني بعضُ أصحابنا ، عن ابن (٢) دَأب قال : لمّا ولّى عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة الكوفة قدِمها وعليها سعدُ بن أبي وقّاص ، فأُخبِر بقدُومه ولم يَعلَمْ أنّه قد أُمِّر ، فقال : وما صنع ؟ قالوا : وقَفَ في السّوق فهو يحدّث الناس هناك ، ولسنا ننكر شيئا من أمرِه، فلم يَلبَث أن جاءه نصفَ النهار ، فاستأذن على سعد ، فأذِن له ، فسلّمَ عليه بالإمْرة ، وجلس معه ، فقال له سعد : ما أقدَمَك يا أبا وهب ؟ قال: أحببتُ زيارتَك؛ قال : وعلى ذاك، أجئتَ بريدا ؟ قال : أنا أرزَن من ذلك ، ولكنّ القومَ احتاجوا إلى عَملهم فسرّحوني إليه ، وقد استعملني أميرُ المؤمنين على الكوفة . فسكَتَ سعدٌ طويلا ، ثم قال : لا والله ما أدرِي أصلَحتَ بعدَنا أم فسَدْنا بعدَك ! ثم قال :

كِليني وجُرّيني ضُباعُ وأبشِري ⁂ بلَحمِ امرِىءٍ لم يَشهَدِ اليومَ ناصرُهْ

فقال الوليد : أما والله لأنَا أقولُ للشِّعر منك ، وأروَى له، ولوشئتُ لأجبتُك ،ولكنّي أدَعُ ذاك لما تعلَم . نَعَم واللهِ لقد أُمِرتُ بمحاسَبتك ، والنّظرِ في أمرِ عُمّالك . ثمّ بعث إلى عمّال سعد فحبَسَهم وضيّق عليهم ، فكتبوا إلى سعد يستغيثون به ، فكلّمه فيهم فقال له : أوَ للمعروف عندكَ مَوْضع ؟ قال : نعم ، فخلّى سبيلهم (٣) .

---

(١) الأغاني ٤ : ١٧٤ (ساسي) . وفي د « فأخرج » .

(٢) في د « عن زاذان » .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٥ ، ١٧٦ (ساسي) .

قال أحمد[١] : وحدّثنى عمرُ ، عن أبى بكر الباهلىّ ، عن هُشَيم ، عن العوّام ابن حَوْشَب . قال : لمّا قدم الوليدُ على سعد قال له سعد : واللهِ ما أدرِى كِسْتَ بعدَنا أم حمقْنا بعدَكَ ! فقال : لا تَجزَعَنّ يا أبا إسحاق ، فإنّه المُلْك يتغدّاه قوم ويتعشّاه آخَرون . فقال سعد : أراكم واللهِ ستجعلونه مُلْكا[٢] .

قال أبو الفرَج : وحدّثنا أحمد قال : حدّثنى عمر قال : حدّثنى هارون بنُ معروف ، عن ضَمْرة بن ربيعة ، عن ابن شَوْذَب قال : صلّى الوليدُ بأهل الكوفة الغداةَ أربَعَ رَكَعات ، ثمّ التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ فقال عبدُ الله بنُ مسعود : ما زِلْنا معك فى زيادةٍ منذ اليوم[٣] .

قال أبو الفرَج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنا عمر ، قال : حدّثنا محمّد بن حُمَيد ، قال : حدّثنا جَرِيرٌ ، عن الأجلح ، عن الشَّعبىّ قال : قال الحُطَيئة يذكر الوليد :

شهِدَ الحطيئةُ يوم يَلقَى ربَّهُ ... أنّ الوليدَ أحقُّ بالعَذْرِ[٤]

نادَى وقد تمّتْ صلاتُهمُ ... أأزيدُكُمْ ـ سُكْراً ـ ولم يَدْرِ[٥]

فأبَوْا أبا وَهْبٍ ولو أذِنوا ... لَقَرنْتَ بين الشَّفْعِ والوَتْرِ[٦]

كَفّوا عنانَك إذْ جَرَيتَ ولو ... تركُوا عنانَكَ لم تزَلْ تَجرِى[٧]

---

(١) هو أحمد بن عبد العزيز الجوهرى .

(٢) الأغانى ٤ : ١٧٦ .

(٣) الأغانى ٤ : ١٧٦ . (٤) الأغانى ٤ : ١٧٦ وفى د « حين يذكر ربه » .

(٥) الديوان : « أأزيدكم ثملا » .

(٦) الديوان . « ليزيدهم خيرا ولو قبلوا » .

(٧) الديوان : « خلوا عنانك » ؛ وبعده :

ورأَوْا شمائلَ ماجدٍ أنِفٍ ... يعطى على الميسور والعُسْرِ

فُزِّعتَ مكذوباً عليكَ ولم ... تُردَد إلى عُذرٍ وَلَا فقرِ

وقال الحطيئة أيضاً :

تَـكلّمَ فى الصلاة وزادَ فيها علانِيَـةً وأعلَنَ بالنِّفَاقِ[1]
وَمَجَّ الخمرَ فى سَنَنِ المصلّى ونادَى والجميـعُ إلى افتراقِ
أزيدُكُمُ على أن تَحمَدونى فما لـكمُ ومالى مِنْ خَلاقِ![2]

قال أبو الفَرَج : وأخبَرَنا محمدُ بنُ خلف وكيع قال : حدّثنا حمّاد بن إسحاق ، قال : حدّثنى أبى قال : قال أبو عُبيـدة وهشامُ بنُ الـكلبىّ والأصمعىّ : كان الوليدُ زانياً يَشرَب الخمر ، فشَرِب بالـكوفة وقام ليصلّىَ بهم الصبحَ فى المسجد الجامع ، فصلّى بهمْ أربعَ رَكَعات ثمّ التفت إليهم فقال : أزيدُكُمْ ؟ وتقَيّأَ فى المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوتَه فى الصّلاة :

عَلِقَ القلبُ الرَّبابَا بعد ما شابَتْ وشابَا

فشَخص أهلُ الـكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره ، وشَهِدوا عليـه بشُرْب الخمر ، فأُتِى به ، فأَمَر رجلا من المسلمين أن يَضرِبه الحدّ ، فلمّا دنا منه قال : نَشَدْتُكَ الله وقرابتى من أمير المؤمنين ! فترَكه ، فخاف علىّ بن أبى طالب عليه السلام أن يُعطّل الحدّ ، فقام إليه فحدّه بيدِه ، فقال الوليد : نشَدْتُكَ الله والقرابة ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : اسكُت أبا وَهْب ، فإنّما هلك بنو إسرائيل لتَعطيلهم الحدود ؛ فلمّا ضرَبَه وفرغ منه قال : لتدعونى قريش بعدها جَلّادا . قال إسحاق : وحدّثنى مصعبُ بنُ الزّبير قال : قال الوليدُ بعد ما شَهِدُوا عليه فجُلد : اللهم إنهم قد شهدوا علىّ بزُور ، فلا تُرضهم عن أمير ، ولا تُرضِ عنهم أميراً ، قال : وقد عكس الحطيئة أبياتَه فجعلها مَدْحا للوليد :

شَهِدَ الحطيئةُ حين يلقى ربّـه أنّ الوليـد أحقّ بالعُـذْرِ

(١) ملحق ديوانه ١١٩ ، وفيه : « وجاهر بالنفاق » .
(٢) الأغانى ٤ : ١٧٦ .

كفّــوا عنانَكَ إذ جريتَ ولوْ ... تركوا عنــانَك لم تزَلْ تجرِى
ورأوا شمائــلَ ماجــدٍ أنِفٍ ... يُعطى على المَيْسور والعُسْرِ
فنزعتَ مكذوباً عليك ولمْ ... تُنزَع على طمعٍ ولا ذُعْرِ[1]

قال أبو الفرج : ونسختُ من كتاب هارون بن الزّبّاب بخطّه ، عن عمرَ بن شبّة ؛ قال : شهد رجلٌ عند أبى العجّاج ـ وكان على قضاء البصرة ـ على رَجل من المَعْيطيّين بشهادة ، وكان الشاهد سَكران ، فقال المشهود عليه ، وهو المَعيطىّ : أعزّكَ الله أيّها القاضى ، إنّه لا يُحسِن من السُّكرِ أن يقرأ شيئاً من القرآن ، فقال الشاهد : بلى أُحسِن ، قال : فاقرأ ، فقال :

عَلِق القلبُ الرّبابا ... بعد ما شابتْ وشابا

يَمجُن[2] بذلك ، ويَحكِى ما قاله الوليدُ فى الصلاة ، وكان أبو العَجّاج أحمق ، فظنّ أنّ هذا الكلام من القرآن ، فجعــل يقول : صدَقَ اللهُ ورسولُه ، ويلكم ، كم تعلمون ولا تَعْملون![3]

قال أبو الفرج : وأخبَرَنى أحمدُ بن عبد العزيز ، قال : حدّثنا عمرُ بن شبّة ، عن المَدائنىّ ، عن مبارك بن سلّام ، عن فُطْر بن خليفة ، عن أبى الضّحى ، قال : كان ناسٌ من أهل الكوفة يتطلّبون عَثْرة الوليد بن عقبة ، منهم أبو زَيْنب الأزْدىّ ، وأبو مورّع ، فجاءا يوما ولم يَحضُرِ الوليدُ الصّلاة ، فسألا عنه ، فتلطّفا حتّى عَلِما أنّه يَشرَب ، فاقتحما الدارَ فوجَدَاه يقِئ ، فاحتَمَلاه وهو سكرانُ حتّى وضعاه على سريره ، وأخَذَا خاتَمه من يده ، فأفاقَ ، فافتقد خاتمه ، فسأل عنه أهلَه ، فقالوا : لا ندرى ، وقد رأينا رجلين دَخَلا عليك

---

(١) الأغانى ٤ : ١٧٦ ، ١٧٧ .
(٢) يمجن : يقول قولا لا يدرى ما عاقبته ؛ ومنه الماجن ؛ وفى الأغانى : «وإنما ماجن» .
(٣) الأغانى ٤ : ١٧٧ ١٧٨ .

فاحتملاك فوضعاك على سريرك . فقال : صفوهما لى ، فقالوا : أحدُهما آدم(١) طُوالٌ حَسَن الوجه ، والآخر عريض مَرْبوع عليه خَميصة(٢) ، فقال : هذا أبو زينب ، وهذا أبومورّع؛

قال : ولقِيَ أبو زينب وصاحبه عبدَ الله بن حُبَيْش الأسديّ وعَلْقمة بن يزيد البَكْرىّ وغيرَهما ، فأخبروهم ، فقالوا : اشخصوا إلىأميرِ المؤمنين فأعلموه ، وقال بعضهم : إنّهلا يَقبَل قولكم فى أخيه ، فشَخَصوا إليه ، فقالوا : إنّا جئناك فى أمر ، ونحن مُخرجوه إليك من أعناقنا ، وقد قيل : إنّك لا تقبله ، قال : وما هو ؟ قالوا : رأينا الوَليدَ وهو سَكرانُ من خمْرٍ شربَها ، وهذا خاتمُه أخذْناه من يَدِه وهو لا يَعقِل . فأرسَل عثمان إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فقال : أرَى أن تُشخِصه ، فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حَدَدْته . فكتب عثمانُ إلى الوليد ، فقدِم عليه ، فشَهِد عليه أبو زينب وأبو مورّع وجُندَب الأزدىّ وسعد ابن مالك الأشعرىّ ، فقال عثمانُ لعلىّ عليه السلام: قم يا أبا الحسَن فاَجْلِده، فقال علىّ عليه السلام للحَسَن ابنه : قم فاضرِبْه ؛ فقال الحسن : مالك ولهذا ، يكفيك غيرك ؛ فقال علىّ لعبد الله بن جعفر : قم فاضرِبه ، فضرَبه بمِخصرة(٣) فيها سَيْر له رأسان ، فلما بلغ أربعين قال : حَسْبُك .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنا عمر قال : حدّثنى المدائنىّ عن الوقاصى ، عن الزّهرىّ قال : خرج رَهْطٌ من أهل الكوفة إلى عثمانَ فى أمر الوليد ، فقال : أكلما غَضِب رجل على أميرِه رماه بالباطل ! لئن أصبحتُ لكم لأنكّلنّ بكم ، فاستجاروا بعائشةَ ، وأصبح عثمانُ فسمعَ من حُجْرتها صوتاً وكلاما فيه بعضُ الغِلْظة ، فقال : أما يجد فُسّاقُ العراق ومُرّاقها ملجأً إلّابيت عائشة ! فسمعتْ، فرفعتْ نعلَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وقالت : تركتَ سنّةَ صاحب هذا النعل . وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد ، فمن قائل : قد أحسنتْ، ومن قائل : ما للنساء ولهذا ! حتى تخاصموا

---

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٣) المخصرة : ما اختصره الإنسان بيده فأمسكه من عصا أو مقرعة أو عكازة وما أشبهها .

وتَضَارَبوا بالنّعال، ودخل رهطٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عثمانَ فقالوا له: اتّق الله ولا تُعطّل الحدود، واعزل أخاكَ عنهم؛ ففعل[1].

قال أبو الفرج: حدّثنا أحمد قال: حدّثني عمر، عن المدائنيّ، عن أبي محمد النّاجي، عن مطر الورّاق، قال: قَدِم رجلٌ من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان: إنّي صلّيتُ صلاة الغداة خلفَ الوليد، فالتفت في الصّلاة إلى الناس، فقال: أأزيدكُمْ، فإني أجدُ اليومَ نشاطا؟ وشممْنا منه رائحةَ الخمر، فضَرَب عثمانُ الرّجلَ؛ فقال الناس: عَطّلت الحدود، وضَربت الشهود[2].

قال أبو الفرج: وحدّثنا أحمد، قال: حدثنا عمر قال: حدّثنا أبو بكر الباهليّ، عن بعض من حدّثه قال: لمّا شُهِد على الوليد عند عثمانَ بشُرب الخمر كَتَبَ إليه يأمره بالشّخوص، فخرج وخرج معه قومٌ يعذِرونه، منهم عَدِيّ بن حاتم الطائيّ، فنزل الوليدُ يوماً يَسوقُ بهم، فارتجز وقال:

لا تَحسبنّا قد نسينا الأحقافْ[3] والنّشَواتِ من مُعتّقٍ صافْ

* وعَزْفَ قَيْناتٍ علينا عُزّافْ *

فقال عديّ: فأين تذهب بنا إذَنْ! فأقم[4].

قال أبو الفرج: وقد رَوَى أحمد عن عمرَ، عن رجاله، عن الشّعبيّ، عن جُنْدَب الأزديّ قال: كنتُ فيمن شَهِد على الوليد عند عثمان، فلمّا استَتْمَمْنا عليه الشهادة حبَسَه عثمان. ثم ذكر باقي الخبر وضرْبَ عليّ عليه السلام إيّاه، وقولَ الحسن ابنه: «مالك ولهذا»، وزاد فيه، وقال عليّ عليه السلام: لست إذنْ مُسلِما؛ أو قال: من المسلمين.

---

(١) الأغاني ٤ : ١٧٨ . (٢) الأغاني ٤ : ١٧٨ .

(٣) الأغاني: «الإيجاف»؛ وهو ضرب من السير.

(٤) الأغاني ٤ : ١٧٨ ، ١٧٩ . (٥) الأغاني ٤ : ١٧٩ .

قال أبو الفرج : وأخبرَنى أحمد ، عن عمرَ عن رجاله، أنّ الشهادة لمّا تمّت قال عثمان لعلىّ عليه السلام : دونَكَ ابنَ عمّك فأَقِم عليه الحدّ . فأمر علىّ عليه السلام ابنَه الحسن عليه السلام ، فلم يفعل ، فقال : يكفيك غيرُك ! فقال علىّ عليه السلام : بل ضعفتَ ووَهَنْتَ وعجزْتَ ؛ قم ياعبدَ الله بنَ جعفر فاجلِدْه ، فقامَ فجلَدَه ، وعلىّ عليه السلام يعدّ حتّى بلغ أربعين ، فقال له علىّ عليه السلام : أمسِكْ حَسْبُك ، جلدرسولُ الله صلى الله عليه وآله أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ؛ وكمّلها عُمر ثمانين ؛ وكلٌّ سنّة(١) .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد ، عن عمر ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد ابن سعيد ، قال : وأخبرَنى بذلك أيضاً إبراهيمُ بنُ محمد بن أيّوب ، عن عبد الله بن مسلم ، قالوا جميعا : لما ضرَب عثمانُ الوليدَ الحدّ ، قال : إنّك لتضربُنى اليومَ بشهادة قوم ليقتُلُنّك عاماً قابلا(٢) .

قال أبو الفرج : وحدثنى أحمد بنُ عبد العزيز الجوهرىّ ، عن عمر بن شبّة ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد بن سعيد . وأخبرَنى أيضاً إبراهيمُ ، عن عبد الله ، قالوا جميعا : كان أبو زُبَيد الطائىّ نديمـا للوَليد بن عُقْبة أيّامَ ولايتِه الكوفة ، فلمّا شَهِدوا عليه بالسّكر من الخمْر خرج عن الكوفة مَعْزولا ، فقال أبو زُبَيْد يتذكّر أيّامَه ونِدامته :

من يرَى العيرَ أن تمشى على ظهـ ـر المَرَوْرَى حُداتُهن عجالُ !
ناعجاتٍ والبيتُ بيتُ أبى وهـ ـب خلاءٌ تَحِنُّ فيه الشّمالُ
يعرِفُ الجاهلُ المضلّلُ أنّ الـ ـدّهرَ فيه النّكراءُ والزِلْزالُ
ليت شعرى كذاكم العهدُ أم كا نوا أناساً كمن يَزولُ فزالوا !

(١) الأغانى ٤ : ١٧٩ . (٢) الأغانى ٤ : ١٧٩ .

(٣) ابن أروى ، هو الوليد بن عقبة ؛ وأروى هى أم عثمان بن عفان .

بعد ما تعلمين يا أمّ عمرو كان فيهمْ عِزٌّ لنا وجمالُ
ووجوهٌ تودُّنا مشرقاتٌ ونوالٌ إذا أُريد النّوالُ
أصبح البيتُ قد تبدّل بالحيّ وجوهاً كأنها الأقيال[1]
كلّ شيء يحتالُ فيه الرجالُ غير أنْ ليس للمنايا احتيالُ
ولعمرُ الإله لو كان للسيـ ـف مضاءٌ وللسان مقال[2]
ما تناسَيْتُكَ الصفاء ولا الودّ ولا حال دونك الإشغال
ولحرّمت لحمك المتعضّى ضَلّةً ضلّ حِلْمُهُم ما اغتالوا[3]
قولهم شُرْبك الحرام وقد كا ن شرابٌ سوى الحرام حلالُ
وأبى ظاهرُ العداوة والشنْـ آنِ إلا مقال ما لا يُقال
من رجالٍ تقارضوا مُنْكراتٍ لينالوا الذى أرادُوا فنالوا
غير ما طالبين ذَحْلا ولكن مالَ دهرٌ على أناسٍ فمالوا
من يَخُنْكَ الصفاء أو يتبدّلْ أو يَزُلْ مِثْلَ ما يَزول الظِّلَالُ
فاعلمنْ أنني أخوكَ أخو الودّ حياتى حتى تزول الجبالُ
ليس بُخْلى عليكَ يوماً بمال أبداً ما أقلّ نعلاً قِبَالُ[4]
ولك النصرُ باللسان وبالكف إذا كان لليدين مصالُ[5]

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنى عمرُ قال : لما قدم الوليد بنُ عُقبة الكوفة قدم عليه أبو زُبَيد فأنزله دار عَقِيل بن أبى طالب على باب المسجد ، وهى التى

---

(١) الأقيال : الملوك الحميريون . وفى الأغانى : « الأقتال » جمع قتل ؛ وهو العدو .

(٢) الأغانى : « مصال » ، يقال : صال على قرنه ، وإذا وثب عليه واستطال .

(٣) المتعضى : المتقطع والمتفرق . (٤) قبال النعل : زمام بين الإصبع والتى تليها .

(٥) الأغانى ٤ : ١٧٩ ، ١٨٠ .

تُعرف بدار القِبْطى ، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج إليه من داره وهو نصرانىّ يخترق المسجد فيجعله طريقا (١) .

قال أبو الفرج : وأخبرنى محمد بن العباس اليزيدىّ قال : حدثنى عمى عبيد الله ، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابىّ، أنّ أبا زُبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفة، فأنزله الوليد دار عَقِيل بن أبى طالب عند باب المسجد ، واستوْهَبها منه ، فوَهبها له ، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأنّ أبا زبيد كان يَخرُج من داره حتى يشقّ المسجد إلى الوليد فيسمُرَ عنده ، ويشرب معه ، ويخرُج فيشقّ المسجد وهو سكران ، فذاك نبّههم عليه . قال : وقد كان عثمان ولّى الوليدَ صدقاتِ بنى تغْلب ، فبلغه عنه شعرٌ فيه خلاعة ، فعزَله . قال : فلما ولّاه الكوفة اختصّ أبا زبيد الطائى وقرّبه، ومدحه أبو زُبيد بشعر كثير، وقد كان الوليد استعمل الربيع بن مرىّ بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجدبت الجزيرة ؛ وكان أبو زبيد فى بنى تَغلب نازلا ، فخرج بإبلهم ليُرعيهم ، فأبى عليهم الربيع بن مرىّ ومنعهم ، وقال لأبى زُبيد : إن شئت أُرْعيك وَحْدك فعلت ؛ فأتى أبو زُبيد إلى الوليد فشكاه ، فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام، إلى القصور الحمر من الحيرة ، وجعلها له حمًى، وأخذها من الربيع ابن مرىّ ، فقال أبو زبيد يمدحُ الوليد، والشِّعر يدلّ على أن الحمى كان بيد مرىّ بن أوس ، لا بيد الربيع ابنه ، وهكذا هو فى رواية عمر بن شبة :

لعمرُ أبيك يا بن أبى مُرىٍّ لغيرُك من أباح لنا الديارا (٢)
أباح لنا أبارِق ذات قورٍ ونَرعى القفَّ منها والقفارا (٣)

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٠ . (٢) الأغانى : « لها الديارا » .

(٣) الأبارق : جمع الأبرق ، وهو الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة . والقف ما يبس من البقول وتناثر حبه وورقه ؛ ترعاه الإبل وتسمن عليه .

بحمد الله ثمّ فتى قريش ... أبى وهب غدتْ بُدْنا غِزارا(١)

أباح لنا ولا نحمى عليكم ... إذا ما كنتم سنةً جزارا

قال : يقول : إذا أجدبتم فإنا لا نحميها عليكم ، وإذا كنتم أسأتم وحميتموها علينا .

فتى طالتْ يداه إلى المعالى ... وطَحْطحت المجذَّمة القِصارا(٢)

قال : ومن شعر أبى زُبيد فيه يذكر نصره له على مرىّ بن أوْس بن حارثة :

يا ليت شعرى بأنباء أنبّؤها ... قد كان يعنَى بها صَدْرى وتقديرى

عن امرئ ما يزده الله من شرَف ... أفرَحْ به ومرىّ غيرُ مسرور

إن الوليد له عنـــدى وحــقّ له ... ودّ الخليل ونصح غير مذخور

لقد دعانى وأدْنانى وأظهرَنى ... على الأعادى بنصرٍ غير تغرير

وشذّبَ القومَ عنّى غير مكترثٍ ... حتى تناهوْا على رغْم وتصْغير

نفسى فداء أبى وهْب وقلّ له ... يا أمّ عمرو فحُلِّى اليوم أو سِيرى(٣)

وقال أبو زُبَيْد يمدح الوليد ويتألّم لفراقه حين عُزِل عن الكوفة :

لَعَمْرى لئِنْ أمْسى الوليد ببلدة ... سواى لقد أمسيتُ للدهرِ معورا(٤)

خلا أن رزق الله غادٍ ورائحٌ ... وإنى له راجٍ وإنْ سار أشهرا

وكان هو الحصن الذى ليس مسلمى ... إذا أنا بالنّكْراء هيّجتُ معشرا

إذا صادَفُوا دونى الوليد فإنما ... يرَوْن بوادِى ذى حماس مُزَعْفرا(٥)

---

(١) غزاراً : جمع غزيرة ؛ وهى من الإبل الكثيرة اللبن .

(٢) طحطح الرجل ماله : فرقه . (٣) الأغانى ٤ : ١٨٠ .

(٤) المعور : الذى لا حافظ له .

(٥) ذو حماس : موضع تلقاء عرعر ،أو مأسدة . والمزعفر : الأسد الورد ، وبعده فى الأغانى :

خضيبَ بنانٍ ما يزالُ براكبٍ ... يخبُّ وضاحِى جلدهِ قد تقشّرا

وهى طويلة يصفُ فيها الأسد(١) .

قال أبو الفرج : وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر عن رجاله، عن الوليد قال: لما فتح رسول الله صلّى الله عليه وآله مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيدْعو لهم بالبركة ، ويمسح يده على رءوسهم ، فجىء بى إليه وأنا مخلَّق ، فلم يمسَّنى ، وما منعه إلا أنَّ أمى خَلَّقَتْنى بخَلوق ، فلم يمسّنى من أجل الخلوق(٢) .

قال أبو الفرج: وحدثنى إسحاق بن بنان الأنماطىّ ، عن حُنيش بن ميسر ، عن عبدالله ابن موسى ، عن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : أنا أحدّ منك سِنانا ، وأبسط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة ؛ فقال علىّ عليه السلام : اسكُتْ يا فاسق ، فنزل القرآن فيهما : ﴿ أفمن كان مُؤْمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾(٣) .

قال أبو الفرج : وحدثنى أحمد بن عبد العزيز ، عن عمر بن شبّة ، عن محمد ابن حاتم ، عن يونس بن عمر ، عن شَيْبان ، عن يونس ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الذينَ آمنوا إنْ جاءكُم فَاسقٌ بنَبَإٍ فتبيَّنوا ﴾(٤) . قال: هو الوليد بنُ عقْبة، بعثه النبىّ صلى الله عليه وآله مُصدِّقا إلى بنى المصطلق ، فلما رأوه أقبلوا نحوه ، فهابهم ، فرجع إلى النبىِّ صلَّى الله عليه وآله فقال له : إنهم ارتدّوا عن الإسلام ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فعلم علمهم ، وأمره أن يتثبّت ، وقال له : انطلق ولا تعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا ، وأنفذ عيونه نحوهم ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى الرسولِ صلّى الله عليه وآله فأخبره ، فنزلت هذه الآية(٥) .

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٢ . (٢) الأغانى ٤ : ١٨٢ .
(٣) سورة السجدة : ١٨ . (٤) سورة الحجرات ٦ .
(٥) الأغانى ٤ : ١٨٢ .

قلت : قد لمح أبنُ عبد البرّ صاحبُ كتاب " الاستيعاب " فى هذا الموضع نكتةً حَسَنة ، فقال فى حديث الخَلُوق : هذا حديثٌ مضطرب منكَر ، لا يصحّ ، وليس يمكن أن يكون مَن بَعَثه النبيّ صلى الله عليه وآله مُصدّقا صبيًّا يومَ الفتْح ؛ قال : ويدلّ أيضا على فَسادِه أنّ الزبير بنَ بكّار وغيرَه من أهل العلم بالسّيَر والأخبار ذكَروا أنّ الوليدَ وأخاه عُمارة ابنىْ عُقْبة بن أبى مُعَيط خرَجَا من مكّة ليردّا أختَهما أمّ كلثوم عن الهِجْرة ، وكانت هِجرتُها فى الهُدْنة التى بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين أهل مَكّة ، ومَنْ كان غلاما مُخلّقا بالَخلوق يومَ الفتح ليس يجىء منه مِثلُ هذا . قال : ولا خلافَ بين أهل العِلم بتأويل القرآن أنّ قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أُنزلت فى الوليد لمّا بَعَثه رسولُ الله صلى الله عليه وآله مُصدقا ، فكَذَب على بَنى المُصْطلق وقال : إنّهم ارتدّوا وامتنَعوا من أداء الصَّدَقة . قال أبو عمر : وفيه وفى علىّ عليه السلام نَزَل : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[1] ؛ فى قصّتهما المشهورة . قال : ومن كان صبيا يومَ الفتح لا يَجىء منه مِثلُ هذا ، فوجب أن يُنظَر فى حديث الخَلوق ، فإنّه رواية جعفر بن برقان ، عن ثابت ، عن الحجّاج ، عن أبى موسى الهَمْدانىّ ؛ وأبو موسى مجهولٌ لا يصحّ حديثه .

***

ثمّ نعود إلى كتاب أبى الفَرَج الأصبهانىّ ؛ قال أبو الفرج : وأخبَرنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن عمَر بن شبّة ، عن عبد الله بن موسى ، عن نعيم بن حكيم ، عن أبى مريم ، عن علىّ عليه السلام ، أنّ امرأةَ الوليد بنِ عُقْبة جاءتْ إلى النبىّ صلى الله عليه وآله تَشتكى إليه الوليدَ ، وقالت : إنّه يَضرِبها ، فقال لها : ارجعى إليه وقولى له : إنّ رسولَ الله قد أجارَنى ، فانطلقتْ ، فمكثتْ ساعةً ، ثم رجعتْ فقالت : إنّه

---

(١) سورة السجدة ١٨ .

ما أقلع عنّى ، فقطع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هُدْبة(١) من ثوْبه وقال : اذهبى بها إليه وقولى له : إنّ رسولَ الله قـد أجارَنى ، فانطلقتْ فـكثتْ ساعةً ثم رجعتْ فقالت : مازادنى إلّا ضَرْبا ، فرفع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يدَه ثم قال : « اللهمّ عليكَ بالوليد» مرّتين أو ثلاثا (٢) .

قال أبو الفرج : واختصّ الوليد لما كان واليا بالـكُوفة ساحراً كاد يَفتِن الناسَ ، كان يُريه كتيبتين تقتَتِلان فتَحمِل إحـداها على الأخرى فتَهزِمها ، ثم يقول له أيَسُرّك أن أُرِيكَ المَنهزمةَ تغلب الغالبـة فتهزمها ؟ فيقول : نعم ، فجاء جُندُبُ الأزدىّ مشتمِلا على سيفه ، فقال : أفرِجوا لى ، فأفرَجوا فضرَبه حتى قتله ، فحبسه الوليدُ قليلا ثم تركه(٣) .

قال أبو الفرج : وروى أحمدُ عن عمر ، عن رجاله ، أن جُندُبا لمّا قتل الساحرَ حَبَسه الوليدُ ، فقال له دينار بن دينار : فيم حبستَ هذا ، وقد قَتَل من أعلَن بالسحر فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثمّ مضى إليه فأخرَجه من الحبس ، فأرسل الوليدَ إلى دينار ابن دينار فقتله(٤) .

قال أبو الفرج : حدّثنى عمّى الحسن بن محمد قال : حدّثنى الخراز ، عن المدائنىّ ، عن علىّ بن مجاهد ، عن محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان ، عن الزّهرىّ وغيره ، أنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله لمّا انصرف عن غَزاة بنى المُصْطلق نَزل رجـلٌ من المسلمين فساق بالقوم ورَجَز ، ثم آخر فساق بهم ورَجَز ، ثم بدا لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يُواسِيَ أصحابه ، [فنزل فساقَ بهم ورَجَز ، وجعل يقول فيما يقول :

جُنـدَبٌ وما جُندَبُ والأقطع زيـدُ الخيرْ

---

(١) الاستيعاب . (٢) الأغانى ٤ : ١٨٣ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٨٣ . (٤) الأغانى ٤ : ١٨٣ .

فدنا منه أصحابُه فقالوا : يا رسول الله ، ما ينفعُنا سيرنا مخافة أن تنهشك دابّة ، أو تُصيبك نَكْبة . فركِب ودَنَوا منه وقالوا : قلتَ قولا لا ندرى ماهو ؟ قال : وماذاك ؟ قالوا: كنتَ تقول : جُندَب وما جُنْـدَب ، والأقْطَع زيد الخير .

فقال : رجلان يكونان فى هذه الأمة يَضرِب أحدُهما ضربة يفرُق بين الحقّ والباطل ، وتُقطَع يدُ الآخر فى سبيل الله ، ثم يُتبِع الله آخرَ جسده بأوّله ، وكان زيد ، هو زيدُ بنُ صُوحان ، وقطِعتْ يدُه فى سبيل الله يوم جَلولاء ، وقُتلَ يومَ الجمل مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وأمّا جندَب هذا فدخَل على الوليد بن عُقْبة وعنـده ساحر يقال له : أبو شَيْبان ، يأخذ أعينَ النـاس ، فيُخرِج مصارينَ بطنِهم ثم يَرُدّها ، فجاء مِنْ خَلْفه فضرَبه فقتَله ، وقال :

العنْ وليـداً وأبا شَيْبانْ   وابنَ حُبَيْشٍ راكبَ الشّيطانْ
* رسولَ فرعونَ إلى هامانْ (١) *

قال أبو الفرج : وقد رُوى أنّ هـذا الساحر كان يدخُل عند الوليد فى جَوْف بقرة حيّة ، ثم يخرُج منها ؛ فرآه جُندَب فـذهب إلى بيته ، فاشتمل على سيف ، فلمّا دخل الساحرُ فى البقرة قال جندب :﴿ أَ فَتَأْتونَ السّحرَ وأنتم تُبصِرونَ ﴾(٢) ، ثم ضرب وَسَط البقرة فقطَعها وقطع الساحرَ معها ، فذُعر النـاس ، فسجَنه الوليدُ ، وكتب بأمرِه إلى عثمان (٣) .

***

قال أبو الفرج : فرَوى أحمدُ بن عبد العزيز ، عن حجّاج بن نصير ، عن قرّة ، عن

(١) الأغانى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ .   (٢) سورة الأنبياء ٣ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٨٤ .

محمّد بن سيرين ، قال : انطُلق بجُندَب بن كعب الأزدىّ قاتل الساحر بالكُوفة إلى السجن، وعلى السّجن رجلٌ نَصْرانىٌّ من قِبَل الوليد ، وكان يَرَى جندب بن كعب يقومُ بالليل ويُصبِح صائماً ، فوَكّل بالسّجن رجلا، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة؟ فقالوا: الأشعث بن قيس ، فاستضافه ، فجعل يراه ينام الّليل ثم يُصبِح فيدعو بغدَائه ، فخرج من عندِه وسأل : أىُّ أهلِ الكوفة أفضل ؟ قالوا : جرير بنُ عبدِ الله ، فذهب إليه فوَجَده ينام الليلَ ثمّ يُصبِح فيدعو بغدَائه ، فاستَقبل القبلة، وقال : ربّى ربّ جُندَب ، ودينى دِينُ جُندَب . ثمّ أسلم[(١)] .

قال أبو الفرج : فلمّا نزع عثمانُ الوليدَ عن الكوفة أمّر عليها سعيدَ بنَ العاص ، فلمّا قدِمَها قال : اغسلوا هذا المنبر ، فإنّ الوليد كان رجلا نجسا ، فلم يَصْعده حتى غُسِل. قال أبو الفرج : وكان الوليدُ أسَنّ من سعيدِ بنِ العاص ، وأسْخَى نَفْساً ، وألينَ جانبا، وأرضى عندَهم ، فقال بعضُ شعرائهم :

وجاءنا مِن بعدِه سعيدُ[(٢)] يَنقُص فى الصاع ولا يَزِيدُ

وقال آخر منهم :

فَرَرْتُ من الوليدِ إلى سعيدٍ كأهل الحِجْر إذْ فَزِعوا فبارُوا
يَلينا من قريشٍ كلّ عامٍ أميرٌ مُحدَثٌ أو مستشارُ
لنا نارٌ تحرّقنا فنخشَى وليس لهم ـولا يخشَون ـنارُ[(٣)]

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد ، قال : حدّثنا عمرُ ، عن المدائنىّ ، قال : قدِم الوليدُ بنُ

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٣ . (٢) أول الرجز فى الأغانى :

* يا وَيْلَنَا قَدْ ذَهَبَ الوليدُ *

(٣) الأغانى ٤ : ١٨٤ .

عقبة الكوفة فى أيّام معاوية زائرا للمغيرة بن شعبة ، فأتاه أشرافُ الكوفة فسلّموا عليه . وقالوا : والله مارأينا بعدَك مثلَك ؛ فقال : أخَيْراً أم شرّا ! قالوا : بل خيراً ، قال : ولكنّى ما رأيتُ بعدَكم شرّا منكم . فأعادوا الثناء عليه ، فقال : بعض ما تأتُون به ! فوالله إنّ بُغضَكم لتَلَف ، وإن حبّكم لصَلَف(١).

قال أبوالفرج : وَرَوَى عمرُ بنُ شبّة ؛ أنّ قَبِيصة بن جابر كان ممّن كثّر(٢) على الوليد ، فقال معاويةُ يوما والوليدُ وقبيصةُ عنده : يا قبيصة ، ما كان شأنُك وشأنُ الوليد ؟ قال : خيرٌ يا أميرَ المؤمنين ، إنّه فى أوّل الأمر وَصَل الرّحم ، وأحسَن الكلام ، فلا تسألْ عن شُكرٍ وحُسن ثَناء ، ثم غَضِب على الناس وغَضِبوا عليه ، وكنّا معهم ، فإما ظالمون فنستغفِر الله ، وإمّا مظلومون فيَغفِر الله له ؛ فخُذ فى غير هذا يا أميرَ المؤمنين ، فإنّ الحديث يُنسِى القديمَ . قال معاوية : ما أعلمه إلّا قد أحسَن السِّيرة ، وبَسَط الخير ، وقَبَض الشرّ . قال : فأنت يا أميرَ المؤمنين اليومَ أقدرُ على ذلك فافعله ، فقال : اسْكُتْ لا سَكَتَّ ، فسكَتَ وسكَتَ القومُ ، فقال معاوية بعد يسير : مالك لا تتكلّم يا قبيصة ؟ قال : نهيتَنى عمّا كنتُ أحبّ فسكتّ عمّا لا أحِبّ .

قال أبو الفرج : ومات الوليدُ بنُ عقبةَ فُوَيق الرّقة ، ومات أبو زُبَيد هناك ، فدُفِنا جميعا فى موضع واحد ، فقال فى ذلك أشجَعُ السُّلَمىّ وقد مرّ بقبرَيهما :

مَرِرتُ على عظام أبى زُبَيدٍ ... وقد لاحتْ ببلقعةٍ صَلُودِ
فكان له الوليدُ نديمَ صِدْقٍ ... فنادَمَ قبرُه قبرَ الوليد
وما أدرِى بمن تَبْـدو المنايا ... بحَمْزَةَ أم بأشجَعَ أم يزيدِ !

قيل : هم إخوتُه ، وقيل : نُدَماؤه(٣).

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن محمد بن زكريّا الغلابىّ ،

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٤ . (٢) كذا فى ا ، د ، وفى ب : « كبر » . (٣) الأغانى ٤ : ١٨٥ .

عن عبد الله بن الضّحاك ، عن هشام بن محمد ، عن أبيه ، قال : وفَد الوليدُ بنُ عقبة ـ وكان جواداً ـ إلى معاوية ، فقيل له : هـذا الوليدُ بنُ عقبة بالباب ، فقال : والله ليرْجعنّ مغيظاً غيرَ مُعطًى ، فإنّه الآن قـد أتانا يقول : عليّ دينٌ وعليّ كذا ، ائذَن له ، فأذن له ، فسأله وتحدّث معه ، ثم قال له معاوية : أما والله إن كنّا لنُحبّ إتيانَ مالك بالوادى ، ولقد كان يُعجب أميرَ المؤمنين ، فإن رأيتَ أن تهبَه ليزيدَ فافعل ، قال : هو ليزيدَ ، ثمّ خرج وجعل يختلف إلى معـاوية ، فقال له يوما : انظُرْ يا أميرَ المؤمنين فى شأنى ، فإنّ عليّ مؤونة ، وقد أرهقنى دَيْن ، فقال له : ألا تَستحيي لنفسِك وحَسَبك ، تأخذ ما تأخُـذُه فتبذُره ، ثم لا تنفكّ تَشـكُو دَيْناً ! فقال الوليد : أفعل ، ثمّ انطلق من مكانه، فسارَ إلى الجزيرة، وقال يخاطب معاوية :

فإذا سئلتَ تقول : « لا » وإذا سألتَ تقول : هـاتِ

تأبىَ فعـالَ الخـير لا تُروِى وأنتَ على الفُراتِ

أفـلا تَميلُ إلى « نَعَمْ » أو تَرْكِ « لا » حتى المماتِ !

وبلغ معاويةَ شُخُوصُه إلى الجزيرة فخافه ، وكتب إليه : أقبِل ، فـكَتب :

أَعِفّ وأستعفِى كما قـد أمرتَنِى فَأَعْطِ سِوَاىَ مابدَا لكَ وابْخَلِ

سأحدُو رِكابى عنـك إنّ عَزيمَتى إذا نابَنِى أمرٌ كسلّةِ مُنصُلِ

وإنّى امرؤ للنّأى مِنّى تَطرُّبٌ وليس شبَا قُفلٍ علىّ بمُقفَلِ

ثمّ رحل إلى الحجاز ، فبعث إليه معاوية بجائزة(١) .

* * *

وأمّا أبو عمر بنُ عبدالبرّ فإنّه ذَكَر فى " الاستيعاب " فى باب الوليد، قال: إنّ له أخبارا فيها شَناعة تَقطَع على سوء حاله ، وقُبح أفعاله ؛ غفَرَ الله لنا وله ؛ فلقد كان من رجال قُرَيش

(١) الأغانى ٤ : ١٨٧ .

ظَرْفا وحِلْما وشَجاعةً وجُوداً وأَدَبا ، وكان من الشّعراء المطبوعين . قال : وكان الأصمعىّ وأبو عُبيدة وابنُ الكلبىّ وغيرهم يقولون : إنّه كان فاسقاً شِرِّيبَ خمْر ، وكان شاعرا كريما . قال : وأخبارُه فى شُربِهِ الخمرَ ومنادَمَتِه أبا زُبَيد الطائىّ كثيرةٌ مشهورة ، ويَسمُج بنا ذِكرُها ، ولكنّا نذكر منها طرَفا . ثمّ ذَكَر ما ذكره أبو الفرَج فى الأغانى ، وقال : إنّ خبَرَ الصلاة وهو سكْران ، وقوله : « أأزيدكم ؟ » خبرٌ مشهورٌ روَتْه الثقات من نَقَلَةَ الحديث .

قال أبو عمَر بنُ عبدِ البَرّ : وقد ذكر الطّبرىّ فى روايةٍ أنّه تعصّب عليه قومٌ من أهل الكوفة حَسَدا وبَغْيا ، وشهدوا عليه بشُرب الخمر ، وقال : إنّ عثمانَ قال له : يا أخى اصْبِر ، فإن الله يأجُرُك ويبوء القومُ بإثمك .

قال أبو عمر : هذا الحديث لا يَصِحّ عند أهل الأخبار ونَقَلَةِ الحديث ، ولا لَه عند أهل العِلم أصل ؛ والصحيحُ ثبوتُ الشهادةِ عليه عند عثمان ، وجلْدُه الحدّ ، وأنّ عليّا هو الّذى جَلَده . قال : ولم يَجلِده بيدِه ، وإنّما أمَر بجَلْده ، فنُسِب الجَلْدُ إليه .

قال أبو عمر : ولم يَرْوِ الوليدُ من السنّة ما يحتاج فيها إليه ، ولكنّ حارثةَ بنَ مضرّب روَى عنه أنه قال: «ما كانت نبوّة إلّا كان بعدَها مُلْك»[1].

---

(١) الاستيعاب ١٥٥٢ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .

(٦٣)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعريّ وهو عامله على الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذَيْلَكَ ، وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ ، وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ ، وَايْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ ، كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو ، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى ، يُرْكَبُ جَمَلُهَا ، وَيُذَلَّلُ صَعْبُهَا ، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا . فَاعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ حَتَّى لَا يُقَالَ : أَيْنَ فُلَانٌ ! وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ ، وَمَا يُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ ! وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

المراد بقوله : « قولٌ هوَ لك وعليك » ، أنّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة : إنّ عليًا إمامُ هُدًى ، وبَيْعته صحيحة ، إلّا أنّه لا يجوز القِتال معه لأهل القِبْلة ، وهذا القولُ بعضُه حقّ ، وبعضه باطل .

وقوله : « فارفع ذَيلك » ، أى شَمِّر للنهوض معى واللحاقِ بى ، لِتشهدَ حربَ أهلِ البصرة ، وكذلك قوله : « واُشددْ مِئزرَك » ، وكلاهما كنايتان عن الجدّ والتشمير فى الأمر .

قال : « واخرج من جُحْرك » ، أمرٌ له بالخروج من منزلِهِ للّحاق به ، وهى كِنايةٌ فيها غَضٌّ من أبى موسى واُستهانةٌ به لأنّه لو أراد إعظامَه لقال : واخرج من خِيسِك[١] ، أو من غِيلِك[٢] كما يقال للأسد ، ولكنّه جعله ثعلبا أو ضبّا .

قال : « واندُبْ مَنْ معك » ، أى ، واندُبْ رعيّتك من أهل الكوفة إلى الخروج معى واللّحاق بى .

ثم قال : « وإن تحقّقت فانفذ » أى أمرُكَ مبنيٌّ على الشكّ ، وكلامك فى طاعتى كالمتناقض ، فإن حققتَ لزومَ طاعتى لك فانفذ ، أى سِرْ حتى تَقدم علىّ ، وإن أقمتَ على الشكّ فاُعتزِل العمَل ، فقد عزلتُكَ .

قوله : « وايم الله لتُؤتَيَنّ » معناه إن أقمتَ على الشكّ والاُسترابة وتثبيطِ أهل الكوفة من الخروج إلىّ وقولِك لهم : لا يحلّ لكم سَلّ السيف لا مع علىّ ولا مع طلحة ، والزَموا بيوتكم ، واكسروا سيوفكم ، ليأتينّكم . وأنتم فى منازلكم بالكوفة أهل البصرة مع طلحة ، ونأتينّكم نحن بأهل المدينة والحجاز ، فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفكم ، فتكون ذلك الداهيةُ الكبرى التى لا شَواةَ لها .

قوله : « ولا تترك حتى يخلط زُبْدُك بخاثِرك » تقول للرجل إذا ضربتَه حتى أثخنتَه : لقد ضربتُه حتّى خلطتُ زُبْدَه بخاثرِه ، وكذلك حتّى خلطتُ ذائبه بجامِدِه ، والخاثِر : اللّبن الغليظ ، والزُّبد خلاصة اللبن وصَفْوَته ، فإذا أثخنتَ الإنسانَ ضرْبا كنتَ كأنّك

---

(١) الخِيس : معرس الأسد (٢) الغيل : الشجر الكثير الملتف .

خلطتَ ما رَقّ ولَطُف من أخلاطه بما كَثُف وغَلُظ منها ، وهذا مَثَل ، ومعناه لتَفسُدَنّ حالُك ولتُخلَّطَنّ ، وليضربنّ ما هو الآن منتظمٌ من أمرك .

قوله : « وحتى تُعجَل عن قِعدَتك » ، القِعدة بالكسر هيئة القعود كالجِلسة والرِّكبة أى وليعجلنّك الأمرُ عن هيئة قعودك ، يصف شدّة الأمر وصعوبته .

قوله : « وتحذر مَنْ أمامك كحذرك من خَلفك » ، يعنى يأتيك من خلفك إن أقمتَ على مَنْع الناس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة وأهل المدينة ، فتكون كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُم ﴾[1] .

قوله : « وما هى بالهُوَينَى التى ترجو » ، الهُوَينَى تصغير « الهونى » التى هى أنثى « أهوَن » ، أى ليست هذه الداهية والجائحة التى أذكُرها لك بالشيء الهيّن الذى ترجو اندفاعَه وسهولته .

ثم قال : بل هى الداهية الكبرى ستفعل لا محالة إن استمررتَ على ما أنت عليه ، وكنَى عن قوله : « ستفعل لا محالة » بقوله : « يركب جملها » وما بعده ، وذلك لأنّها إذا رُكب جملُها ، وذلّل صعبُها وسهل وعْرُها فقد فعلت ، أى لا تقل: هذا أمرٌ أعظمٌ صعبُ المرام ، أى قصد الجيوش من كلا الجانبَين الكوفة ، فإنه إن دام الأمرُ على ما أشرتَ إلى أهل الكوفة من التخاذُل والجلوس فى البيوت ، وقولك لهم : « كن عبد الله المقتول » لنقعنّ بموجب ما ذكرته لك ، وليرتكبنّ أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمرَ المستصعب ، لأنّا نحن نطلب أن نملك الكوفة ، وأهلُ البصرة كذلك ، فيجتمع عليها الفريقان .

ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له : « فاعقِل عَقلك ، واملِك أمرَك ، وخذ نصيبَك

---

(١) سورة الأحزاب ١٠ .

وحَظّك » ، أى من الطاعة ، واتّباع الإمام الّذى لَزِمتْك بيعته ، فإن كرهتَ ذلك ، فتنحّ عن العمل فقد عزلتُك . وابعُد عنّا لا فى رحْبٍ ، أى لا فى سَعَة ، وهذا ضدّ قولهم : مرْحبا .

ثم قال : فجديرٌ أن تكفى ما كُلّفته من حضور الحرْب وأنت نائم ، أى لست معدودا عندنا ولا عندَ الناس من الرّجال الّذين تفتقر الحروب والتّدبيرات إليهم ، فسيُغنى اللهُ عنك ولا يقال : أين فلان ؟

ثم أقسَم أنّه لحقّ ، أى أنّى فى حرب هؤلاء لَعَلَى حقّ ، وإن من أطاعنى مع إمام مُحِقّ ليس يُبالى ما صنَع الملحدون ، وهــذا إشارةٌ إلى قولِ النبىّ صلّى الله عليه وآله : « اللهمّ أدِرِ الحقّ معه حيثما دارَ » .

(٦٤)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتابه* :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَاذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرْهاً ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَرْباً.

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ ، وَلَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي جَمْعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ .

فَإِنَّكَ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ : إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ !

(*) بقية شرح هذه الرسالة فى الجزء الثامن عشر .

وقَرِيبٌ ما أشْبَهْتَ مِنْ أعْمامٍ وأخْوالٍ ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقاوَةُ وتَمَنِّى الباطل ، عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صلّى الله عليهِ وآلهِ ، فَصُرِعُوا مَصارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً ، ولَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً ، بِوقْعِ سُيُوفٍ ما خَلاَ مِنها الْوَغَى ، ولَمْ تُماشِها الْهُوَيْنى .

وقَدْ أكْثَرْتَ فى قَتَلَةِ عُثْمانَ ؛ فادْخُلْ فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ ، ثُمّ حاكِمِ القَوْمَ إلَىَّ، أحْمِلْكَ وإيَّاهُمْ عَلَى كِتاب اللهِ تعالى، وأمّا تِلْكَ الّتى تُرِيدُ ؛ فإنّها خُدْعَةُ الصَّبِىِّ عَنِ اللَّبَنِ فى أوَّلِ الْفِصالِ ، والسَّلامُ لأهْلِهِ .

***

الشّرح :

[كتاب معاوية إلى على]

أمّا الكتاب الذى كتبه إليه معاوية ، وهذا الكتاب جوابه ، فهو :

من معاوية بن أبى سَفيان ، إلى علىّ بن أبى طالب :

أما بعد ، فإنّا بنِى عبد مناف لم نَزل نَنزعُ من قَلِيب واحد ، ونجرِى فى حَلْبة واحدة، ليس لبَعْضنا على بعض فضل ، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر ؛ كلمتنا مؤتلفة ، وألفتنا جامعة ، ودارُنا واحدة ، يجمعنا كرم العِرْق، ويَحوينا شرَفُ النِّجار ، ويحنُو قويُّنا على ضعيفنا ، ويواسى غنيُّنا فقيرَنا ، قد خَلَصَتْ قلوبُنا من وَغَل الحسد ، وطهُرتْ أنفسُنا من خُبْث النيّة ، فلم نَزل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدهان فى أمر ابن عمّك ، والحسد له ، ونُصرة الناس عليه ، حتى قُتِل بمشهدٍ منك ؛ لا تدفع عنه بلسان ولا يد . فليْتك

أظهرت نصره ، حيث أسررت خبره ، فكنت كالمتعلق بين الناس بعذر[1] وإن ضعف ، والمتبرّئ من دمه بدفع وإن وَهن ، ولكنّك جلستَ فى دارك تدُسّ إليه الدّواهى ، وترسِل إليه الأفاعى ؛ حتى إذا قضيتَ وَطَرَك منه ، أظهرتَ شماتة ، وأبديت طلاقة ، وحسرت للأمر عن ساعدك ، وشمّرت عن ساقك ، ودعوت الناس إلى نفسك ، وأكرهت أعيان المسلمين على بيَعتِك ، ثم كان منك بعد ما كان؛ من قتلك شيْخَى المسلمين أبى محمد طلحة وأبى عبد الله الزّبير ، وهما من الموعُودين بالجنّة ، والمبشّر قاتل أحدِهما بالنّار فى الآخرة ، هذا إلى تشريدك بأمّ المؤمنين عائشة وإحلالها محلّ الهون ، مبتذَلَةً بين أيدى الأعراب وفَسَقة أهل الكوفة ، فمن بين مشهِّر لها ، وبين شامِت بها ، وبين ساخر منها . تُرى ابنَ عمّك كان بهذه لو رآهُ راضيا ، أم كان يكون عليك ساخطا ، ولك عنه زاجراً ! أن تؤذىَ أهله وتُشرّد بحليلته ، وتسفك دماء أهل مِلّته . ثم تركك دار الهجرة التى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عنها : «إنّ المدينة لتنفى خَبثها كما ينفى الكير[2] خبثَ الحديد» ، فلعمرْى لقد صَحّ وعدُه وصدق قوله ، ولقد نفَتْ خبثَها ، وطردتْ عنها من ليس بأهل أن يستوطِنها ، فأقمت بين المِصرَين ، وبَعُدْت عن بركة الحرمَين ، ورضيتَ بالكوفة بدلا من المدينة ، وبمجاورة الخورْنق والحيرة عوضا عن مجاورة خاتم النبوّة ، ومن قبل ذلك ما عِبْتَ خليفتىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أيام حياتهما ، فقعدتَ عنهما وألّبتَ عليهما ، وامتنعتَ من بيعتهما ، ورُمتَ أمراً لم يرَك الله تعالى له أهلا، ورقيت سُلّماً وعراً ، وحاولت مقاما دحْضا ، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً ؛ ولعمرى لو وَليتَها حينئذ لما ازدادت إلاّ فسادا واضطرابا ، ولا أعقبتْ ولايتكها إلا انتشارا وارتدادا ؛ لأنك الشامخ بأنفه ، الذاهب بنفسه ، المستطيلُ على الناس بلسانه ويده ؛ وها أنا سائرٌ إليك فى جمع

---

(١) ا : « بعدو » .

(٢) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

من المهاجرين والأنصار تحفّهم سيوفٌ شاميّة ، ورماحٌ قَحْطانيّة ، حتى يحاكموك إلى الله .
فانظر لنفسك وللمسلمين ، وادفع إلىّ قَتلةَ عثمان ؛ فإنهم خاصّتك وخلصاؤك والمحدِقون بك ،
فإن أبيتَ إلّا سلوكَ سبيل اللَّجاج ، والإصرار على الغيّ والضلال ، فاعلم أنّ هذه الآية إنما
نزلتْ فيك وفى أهل العراق معك : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا
رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(١) .

* * *

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه ، قال عليه السلام : لعمرى إنّا كنا بَيْتاً واحدا
فى الجاهلية ، لأنا بنو عبد مناف ، إلّا أن الفرقة بيننا وبينكم حَصلتْ منذ بعث اللهُ محمداً
صلى الله عليه وآله ، فإنّا آمنا وكفرتُم ، ثم تأكّدت الفُرقةَ اليومَ بأنَّا استقمنا على منهاج
الحقّ وفتِنتم .

ثم قال : « وما أسلم مَن أسلَم منكم إلا كَرْهاً » ، كأبى سفيان وأولاده يزيد ومعاوية
وغيرهم من بنى عبد شمس .

قال : « وبعد أن كان أنفُ الإسلام محارباً لرسول الله صلى الله عليه وآله » أى فى
أوّل الإسلام ، يقال : كان ذلك فى أنْف دولة بنى فلان ، أى فى أوّلها ، وأنْف كلّ شيء
أوّله وطرَفه ، وكان أبو سُفْيانَ وأهله من بنى عبد شمس أشدَّ الناس عَلَى رسولِ الله صلى
الله عليه وآله فى أوّل الهجرة ، إلى أن فتح مكة ، ثم أجابه عن قوله : « قتلتَ طلحة
والزبير ، وشرّدت بعائشة ، ونزلتَ بين المصريْن » بكلام مختصر أعرض فيه عنه

---

(١) سورة النحل ١١٢ .

هَواناً به ، فقال : هذا أمرٌ غبتَ عنه ، فليس عليك كان العدوان الذى تَزْعُم ، ولا العذرُ إليك لو وجب علىّ العذرُ عنه .

فأما الجواب المفصّل فأن يقال : إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكْثِهما ، ولو استقاما على الطريقة لسلِما ، ومن قتله الحقُّ فدمه هَدَر ، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغيرُ مدفوع ؛ ولكن العيب يَحدُث ، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمَيْن على ما صَنعا ، وكذلك نقول نحن ؛ فإن الأخبار كثرت بذلك ، فهما من أهل الجنّة لتوبتهما ؛ ولولا توبتُهما لكانا هالكَيْن كما هلك غيرُهما ، فإن الله تعالى لا يحابى أحدا فى الطاعة والتقوى ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ[1] ﴾ .

وأما الوعد لهما بالجنّة فمشروط بسلامة العاقبة ، والكلام فى سلامتهما ، وإذا ثبتتْ توبتهما فقد صحّ الوعد لهما وتحقق ؛ وقوله : « بشّر قاتل ابن صفية بالنار » ، فقد اختُلف فيه ، فقال قومٌ من أرباب السِّيَر وعلماء الحديث : هو كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام غيرَ مرفوع ، وقوم منهم جعلوه مرفوعا ، وعلى كلّ حال فهو حقّ ، لأن ابن جُرموز قتله مولّياً خارجا من الصفّ ، مفارقا للحرب ؛ فقد قتله على توبةٍ وإنابةٍ ورجوع من الباطل ، وقاتلُ مَنْ هذه حاله فاسقٌ مستحقّ للنار ؛ وأما أمّ المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها ، والأخبارُ الواردة فى توبتها أكثر من الأخبار الواردة فى توبة طلحة والزبير ، لأنها عاشتْ زمانا طويلا ، وهما لم يبقيا ، والذى جرَى لها كان خطأً منها ، فأىّ ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك! ولو أقامت فى منزلها لم تُبتذَل بين الأعراب وأهل الكوفة ؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرَمها وصانَها وعظّم من شأنها ، ومَنْ أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة . ولو كانت فعلتْ بعمر ما فعلتْ به ، وشقّت عصا الأمة عليه ، ثم ظفر بها ، لقتلها ومزّقها إرْباً إرْباً ، ولكنّ عليّا كان حليما كريما .

---

(١) سورة الأنفال ٤٢ .

وأمّا قوله : « لو عاش رسول الله صلّى الله عليه وسلم فبربّك هل كان يرضَى لك أن تؤذى حليلته ! » فلعلىّ عليه السلام أن يقلب الكلام عليه ، فيقول : أفتراه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذى أخاه ووصيّه ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لك يابن أبى سُفيان أن تُنازع عليا الخلافة وتفرق جماعة هذه الأمة ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا ، ثم ينكُثا لا لسبب ، بل قالا : جئنا نطلبُ الدراهم ، فقد قيل لنا : إنّ بالبصرة أموالًا كثيرة ! هذا كلام يقوله مثلهما !

فأما قوله : « تركتَ دار الهجرة » ، فلا عيبَ عليه إذا انقضتْ عليه أطرافُ الإسلام بالبَغْى والفَساد أن يَخرُج من المدينة إليها ، ويهذّب أهلها؛ وليس كلُّ من خَرَج من المدينة كان خَبَثاً ، فقد خَرَج عنها عمرُ مراراً إلى الشام . ثمّ لعلىّ عليه السلام أن يقلِب عليه الكلامَ فيقول له : وأنتَ يامعاوية ؛ قد نفَتْك المدينةُ أيضا عنها ، فأنت إذاً خبث ، وكذلك طلحة والزبيرُ وعائشة الذين تتعصّب لهم وتحتجُّ على الناس بهم ، وقد خرج عن المدينة الصّالحون ، كابن مسعود وأبى ذرّ وغيرهما ، وماتوا فى بلادٍ نائيةٍ عنها .

وأمّا قوله : « بعدت عن حُرْمة الحرمين ، ومجاوَرة قبرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم » ، فكلام إقناعىٌّ ضَعيف ، والواجب على الإمام أن يقدّم الأهمّ فالأهمّ من مصالح الإسلام ، وتقديم قتال أهل البَغْى على المقام بين الحرمين أوْلَى . فأمّا ما ذَكَره من خِذْلانه عثمان وشماتتِه به ودعائه الناسَ بعد قتلِه إلى نفسه وإكراهه طلحةَ والزّبير وغيرهما على بَيْعته فكلّه دَعوى والأمر بخلافها ، ومن نَظَر كتب السِّير عرَف أنّه قد بَهته وادّعى عليه ما لم يَقَع منه .

وأمّا قوله : « التويتَ على أبى بكر وعمر ، وقعدت عنهما ، وحاولتَ الخلافة بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم » ، فإنّ عليًّا عليه السلام لم يكن يَجحَد ذلك ولا يُنكِره ، ولا رَيْب

أنّه كان يَدّعى الأمر بعد وَفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله لنفسه على الجملة ، إمّا لنصّ كما تقوله الشيعة، أو لأمرٍ آخَرَ كما يقوله أصحابُنا . فأمّا قوله: « لو وليتَها حينئذ لَفَسد الأمر واضطَرَب الإسلام» ، فهذا علمُ غَيْبٍ لا يعلمه إلا الله ، ولعلّه لو وليَهَا حينئذ لاستقام الأمرُ وصَلَح الإسلام وتمهّد ، فإنّه ما وقع الاضطراب عند ولايته بعدَ عثمان إلّا لأنّ أمرَه هانَ عندَهم بتأخّره عن الخلافة ، وتقدّم غيره عليه ، فصغُر شأنه فى النفوس ، وقرّر من تقدّمه فى قلوب الناس أنّه لا يَصلُح لها كلّ الصلاحية ، والناسُ على ما يحصُل فى نفوسهم ، ولو كان وَليَها ابتداء وهو على تلك الحالة التى كان عليها أيّام حياة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وتلك المنزلة الرفيعة والاختصاص الّذى كان له ، لكان الأمرُ غيرَ الّذى رأيناه عند ولايته بعد عثمان . وأمّا قوله : « لأنّك الشامخُ بأنفه ، الذاهبُ بنفسه » ، فقد أسرف فى وصفه بما وَصفه به ، ولا شكّ أنّ عليًا عليه السلام كان عندَه زَهْو لكن لا هكذا ، وكان عليه السلام مع زَهْوه ألطف الناس خُلُقًا.

* * *

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظه عليه السلام ؛ قوله : « وذكرت أنّك زائرِى فى جَمْع من المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعَت الهجرةُ يوم أُسِر أخوك » هذا الكلامُ تكذيبٌ له فى قوله : « فى جمعٍ من المهاجرين والأنصار » ، أى ليس معك مهاجر لأنّ أكثر مَن معك ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هم أبناء الطُّلَقاء ، ومن أسلَم بعد الفتح ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله :« لا هِجرةَ بعد الفتح » .

وعبّر عن يوم الفتح بعبارة حَسَنة فيها تقريع لمعاوية وأهله بالكفر ، وأنّهم ليسوا من ذوى السّوابق ، فقال : « قد انقطعتْ الهجرةُ يومَ أُسِر أخوك » ، يعنى يزيد بن أبى سُفيان أُسِرَ يوم الفتح فى باب الخَنْدَمة ، وكان خرَج فى نفر من قريش يُحارِبون ويَمنعون

من دخول مكّة ، فقُتِل منهم قومٌ وأُسِر يزيدُ بنُ أبى سفيان ، أسرَه خالدُ بنُ الوليد ، تخلّصه أبوسُفْيان منه ، وأدخَله دارَه ؛ فأمِن لأنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « من دخل دارَ أبى سُفْيانَ فهو آمِن » .

***

[ذكر الخبر عن فتح مكّة]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع ملخّصَ ما ذَكَره الواقدىّ فى كتاب " المغازى " فى فتح مكّة ، فإن الموضع يقتضيه ؛ لقوله عليـه السلام : « ما أسلم مسلـُكم إلا كَرْها » ، وقوله : « يومَ أُسِر أخوك » .

قال محمد بن عمر الواقدىّ فى كتاب " المغازى " :

كان رسولُ الله صلّى الله عليـه وسلّم قد هادن قريشاً فى عام الحُدَيْبِيَة عشر سنين ، وجعل خزاعة داخلةً معه ، وجعلت قريشٌ بنى بكر بن عبد مناة من كنانة داخلةً معهم ، وكان بين بنى بكر وبين خُزاعة تِراتٌ فى الجاهليّة ودماء ، وقد كانت خُزاعةُ من قبلُ حالفتْ عبدَ المطّلب بن هاشم ، وكان معها كتابٌ منه ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يَعرِف ذلك ، فلمّا تمّ صُلح الحُدَيْبِيَة وأمِن الناسُ ، سَمِـع غلامٌ من خُزاعة إنساناً من بنى كنانة يقال له : أَنَس بن زُنيم الدّؤلىّ[1] يُنشِد هجاء له فى رسول‌الله صلّى الله عليه وآله ، فضربه فشجّه ، فخرج أنس إلى قومه فأراهم شجّته فثار بينهم الشرّ ، وتذاكروا أحقادَهم القديمة ، والقوم مجاورون بمـكّة ، فاستنجدتْ بكر بن عبد مناة[2] قُرَيْشا على خُزاعة ، فمن قريش مَنْ كره ذلك وقال: لا أنقُض عهدَ محمّد ، ومنهم من خفّ إليه . وكان أبوسُفْيان أحدَ من كَرِه ذلك ، وكان صَفْوان بن أميّة وحُوَيْطب بن عبد العُزّى ومُكْرَز بن حَفْص

(١) ا « الديل » . (٢) ب : « مناف » ، وصوابه فى ا ، د .

ممّن أعان بنى بكر ، ودَسّوا إليهم الرجالَ بالسلاح سرّا ، وبيّتوا خُزاعة ليلا ، فأوقعوا بهم ، فقتلوا منهم عشرين رجلا ، فلمّا أصبحوا عاتبوا قريشاً ، فجحدتْ قريشٌ أنَّها أعانت بكرا ، وكذّبت فى ذلك ، وتبرّأ أبو سُفْيانَ وقوم من قريش مما جَرَى ، وشَخَص قومٌ منخُزاعةَ إلى المدينة مستصرِخين برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فدَخَلوا عليه وهو فى المسجد ، فقامَ عمرو بن سالم الْخزاعىّ فأنشده :

لا هُمَّ إنّى ناشــدٌ محمّدا   حِلْفَ أبينا وأبيــه الأتلدَا[١]
لـكنتَ والداً وكـنّا وَلَدا[٢]   ثمّتَ أسلَمْنـا ولم ننزع يَدَا
إنَّ قريشاً أخلفوكَ المَوْعِـدَا   ونقضــوا ميثاقك المؤكَّدا
همْ بيّتونا بالوَتير هُجّـدا[٣]   نتلو القُرانَ رُكَّعا وسُجّـدا
وزَعموا أن لستَ تَدْعُو أحـدَا   وهمْ أذلّ وأقـلّ عَـددَا
فانصرْ هَداكَ اللهُ نصراً أيِّدا[٤]   وادْعُ عبـاد الله يأتُوا مَدَدا[٥]
فى فيلقٍ كالبَحْرِ يَجرى مُزْبِدا[٦]   فيهمْ رســولُ الله قد تجرّدا

* قرمٌ لقَومٍ من قُروم أصيَدَا *

ثمّ ذَكَروا له ما أثار الشرَّ ، وقالوا له : إنّ أَنَسَ بنَ زُنَيم هجاكَ ، وإنّ صَفْوان ابن أُميّة وفلانا وفلانا دَسُّوا إلينا رجالَ قريش مُستنصرين ، فبيّتونا بمنزلنا بالوَتِير فقتّلونا ، وجئناكَ مستصرخين بك ، فزَعموا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قام مُغضَبا يجرُّ رداءه ويقول : « لا نُصِرْتُ إن لم أنصرْ خُزاعةَ فيما أنصرُ منه نفسى ! » .

---

(١) فى الأصول : « الأملدا » وصوابه من ابن هشام ٤ : ١٠ . والأتلد : القديم .
(٢) ابن هشام : « قد كنتم ولدا » .   (٣) الوتير : اسم ماء بعينه .
(٤) أيداً : قوياً ؛ وفى ب : « أبداً » ؛ والصواب ما فى ا وابن هشام .
(٥) المدد : العون .   (٦) الفيلق : العسكر .

قلتُ : فصادَفَ ذلك من رسول الله صلى الله عليــه وآله إيثارا وحُبّا لنقض العهد ، لأنه كان يريد أن يفتح مكّة وهمّ بها فى عام الحُدَيْبية فصُدّ ، ثمّ همّ بها فى عُمْرة القضيّة ، ثم وقف لأجــل العهد والميثاق الّذى كان عَقَده معهم ، فلمّا جرى ما جَرَى عــلى خُزاعة اُغتنَمَها .

قال الواقدىّ : فكتب إلى جميع النــاس فى أقطار الحجاز وغــيرها يأمُرُهم أن يكونوا بالمدينة فى رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة ، فوافَتْه الوُفُود والقبائل من كلّ جهة ، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشرٍ خَــلَوْن من رمضانَ فى عشرةِ آلاف ، فكان المهاجرُون سبعمائة ، ومعهم من الخيل ثلثمائة فرسٍ ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيــل خمسمائة ، وكانت مُزَيْنَةُ ألفاً ، فيها من الخيــل مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ، فيها من الخيل ثلاثون فرسا ، وكانت جُهَينةُ ثمانمائة معها خمسون فرسا ، ومن سائر الناس تمامُ عشرة آلاف ، وهم بنو ضَمْرة وبنو غِفار وأشجَع وبنو سُليم وبنــو كَعْب بن عمرو وغــيرهم . وعَقَد للمهاجرين ، ثلاثه ألوية : لواء مع علىّ ، ولواء مع الزبير ، ولواء مع سعد ابن أبى وقّاص ، وكانت الرّاياتُ فى الأنصار وغــيرهم ، وكتم عن الناس الخبر ، فلم يعلم به إلّا خواصّه ، وأمّا قريش بمــكّة فندِمتْ على ما صنعتْ بخُزاعــة ، وعرَفَت أنّ ذلك انقضاء ما بينهم وبين النبىّ صلى الله عليــه وسلّم من العهد ، ومَشَى الحارثُ بنُ هشام وعبدُ الله بنُ أبى ربيعة إلى أبى سُفْيان فقالا له : إنّ هــذا أمرٌ لابدّ له أن يُصلَح ، والله إن لم يُصلَح لا يَرُوعــكم إلّا محمدٌ فى أصحابه . وقال أبو سُفْيان : قد رأتْ هندٌ بنتُ عُتْبة رؤيا كرِهَتْها وأفظَعَتْها ، وخفتُ من شرّها ، قالوا : ما رأت ؟ قال : رأت كأن دماً أقبــل من الحَجُون يَسيل حتى وقف بالخَنْدَمة مَلِيًّا ، ثمّ كأنّ ذلك الدم لم يكن ؛ فكَرِه القومُ ذلك وقالوا : هذا شرّ .

قال الواقدىّ : فلمّا رأى أبو سُفْيانَ ما رأى من الشرّ قال : هــذا واللهِ أمرٌ لم أشهده

ولم أغِب عنه ، لا يُحمَل هذا إلّا عليّ ، ولا والله ماشُوورت ولاهوّنت[1] حيث بلغني ، والله ليَغزُونا محمدٌ إنْ صَدَق ظني وهــو صادق ، ومالي بُدّ أن آتيَ محمّدا فأ كلّمه أن يزيد في الهُدْنة ، ويجدّد العهد قبل أن يَبلُغه هذا الأمر . قالت قريش : قد والله أصبتَ ؛ وندمتْ قريشٌ على ما صنعتْ بخُزاعة وعرفت أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لا بدّ أن يغزُوَها ؛ فخرج أبو سُفيانَ وخَرَج معه مولًى له على راحلتين ، وأسرَعَ السيرَ وهو يرى أنّه أوّل من خرج من مكّة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقديّ : وقد رُوِيَ الخبر على وجهٍ آخر ، وهو أنّه لمّا قدِم رَكْبُ خُزاعةَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأخبَروه بمن قُتل منهم ، قال لهم : بمن تُهمَتــكم وطلبتــكم ؟ قالوا : بنو بكر بن عبدِ مَناة ، قال : كلّها ؟ قالوا : لا ، ولـكن تهمتنا بنو نُفاثة قَصْرةً[2] ، ورأسهم نوْفل بن معاوية النُّفاثيّ ؛ فقال : هــذا بطنٌ من بكر ، فأنا باعث إلى أهل مكّة فسائلُهم عن هذا الأمر ، ومخيّرُهم في خصال . فبعثَ إليهم ضَمْرة يُخيّرهم بين إحدى خلال ثلاث : بين أن يَدُوا خُزاعةَ ، أو يَبرءوا من حِلْف نُفاثة ، أو ينبِذ إليهم على سواء . فأتاهم ضَمْرة فخيّرهم بين الخلال الثلاث ، فقال قُرَيطة بن عبد عمرو الأعمى : أمّا أنْ نَدِيَ قتلى خُزاعة ، فإنا إنْ وَدَيْناهم لم يَبْق لنا سَبَد ولا لَبَد[3] ، وأمّا أن نبرأ من حلف نُفاثَة ، فإنه ليس قبيلة تحجّ هــذا البيت أشدّ تعظيما له من نُفاثة ، وهم حُلَفاؤنا فــلا نبرأ من حِلْفهم ، ولـكنّا نَنْبِذ إليه على سواء . فعاد ضَمْرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وندمتْ قريشٌ أن ردّتْ ضَمْرة بما ردّته به .

قال الواقديّ : وقد رُوِي غيرُ ذلك ؛ رُوِي أنّ قريشاً لمّا ندمتْ على قتــل خُزاعة وقالت : محمد غازينا ، قال لهم عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح ـ وهــو يومئذ كافر مرتدّ

---

(١) ب . « هويت » ، وأثبت ما في ا ، د . (٢) قصرة : أي هم دون غيرهم .

(٣) يقال : ما له سبد ولا لبد ؛ أي لا قليل ولا كثير .

عندهم ـ: إنّ عندى رأياً ؛ إنّ محمدا ليس يَغزوكم حتى يُعذِر إليكم ويُخيّركم فى خصال كلّها أهوَنَ عليكم من غزْوه ، قالوا :ما هى؟ قال : يرسل إليكم أن تَدُوا قَتْلَى خُزاعة ، أو تبرءوا من حِلْف من نَقضَ العهد وهم بنو نُفاثة ، أو ينبذ إليكم العهد . فقال القومُ : أحْرِ بما قال ابنُ أبى سَرْح أن يكون ! فقال سُهَيل بنُ عمرو : ما خَصْلة أيسر علينا من أن نبرأ من حلف نُفاثة ، فقال شَيْبة بنُ عثمانَ العَبْدَرِيّ : حُطْتَ أخوالك (١) خُزاعة ، وغضبت لهم ! قال سهيل : وأىّ قريش لم تَلِد خُزاعة ! قال شيبة : لا ، ولكن نَدِى قَتلى خُزاعة فهو أهونُ علينا . فقال قُرَيظة بنُ عبد عمرو : لا والله لا نَدِيهم ولا نبرأ عن نُفاثة أبرّ العرَب بنا ، وأعمرهُم لبَيْت ربّنا ، ولكنْ نَنْبذ إليهم على سواء . فقال أبو سُفْيان : ما هذا بشىء ، وما الرأىُ إلا جَحْد هذا الأمر أن تكون قريش دخلتْ فى نَقْض العهد ، أو قطع مدّة ، فإن قطعه قومٌ بغير هَوًى منّا ولا مَشُورة فما علينا ! قالوا : هذا هو الرأى ، لا رأى إلّا الجحْد لكلّ ما كان من ذلك ؛ فقال : أنا أقسم أنّى لم أشهد ولم أوامر ، وأنا صادق ؛ لقد كرهتُ ما صنَعتم ، وعرفتُ أن سيكون له يوم غَماس (٢) ، قالت قريش لأبى سُفْيان : فأخرج أنتَ بذلك ؛ فخرج .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الله بن عامر الأسلمىّ ، عن عطاء بن أبى مروان ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعائشة صبيحة الليلة التى أوقعتْ فيها نُفاثة وقُرَيش بخُزاعة بالوتير : يا عائشة لقد حَدث الليلة فى خُزاعة أمر ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشا تجترئ على نَقْض العهد بينك وبينهم ! أينقضون وقد أفناهم السيف! فقال: العهد لأمر يريدُه الله بهم ، فقالت : خيرٌ أم شرٌ يا رسول الله ؟ فقال : خير .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عبدُ الحميد بن جعفر ، قال : حدّثنى عمْران بن أبى أنس ، عن ابن عباس ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو يَجُرّ طرَف رِدائه ويقول :

---

(١) ب : « إخوانك » ، وما أثبته من ا ، د . (٢) يوم غموس ، أى شديد .

« لا نُصِرتُ إن لم أنصر بنى كعب ـ يعنى خزاعة ـ فيما أنصرُ منه نفسى ! » .

قال الواقدىّ : وحدثنى حرام بن هشام ، عن أبيه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لـكأنكم بأبى سُفيان قدجاءكم يقول: جدِّد العهد وزِدْ فى المدنة وهوراجع بِسخطه. وقال لبنى خُزاعة عمرُو بن سالم وأصحـابه : ارجعوا وتفرّقوا فى الأوْدية ، وقام فدخل على عائشة وهو مُغضَب ، فدعا بماء، فدخل يغتسل؛ قالت عائشة : فأسمعُه يقول وهو يصُبّ الماء على رِجليه : « لا نُصِرْت إن لم أنصُرْ بنى كعب » !

قال الواقدىّ : فأمّا أبو سفيان فخرج من مكة وهو متخوّف أن يكون عمرو بن سالم وَرَهْطه من خُزاعة سَبقوه إلى المدينة ، وكان القوم لمّا رَجعوا من المدينةوأتوا الأبواء تفرّقوا كما أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبت طائفةٌ إلى الساحل تعارض الطريق ، ولزم بُدَيل بن أمّ أصرَم الطريق فى نفر معه ، فلقيَهم أبو سُفيان ، فلما رآهم أشفق أن يكونوا لقُوا محمدا صلى الله عليه وسلم بل كان اليقينُ عنده ، فقـال للقوم : منذُكم عهدكم بيثرب ؟ قالوا : لا عهد لنا بها ، فعَرَف أنهم كتموه ، فقال : أما معـكم من تمرْ يثرب شىء تُطعِمونه ، فإن لتمر يثرب فَضْلا على تمر تِهامة ؟ قالوا : لا ، ثم أبت نفسه أن تقَرّ ، فقال : يا بُدَيل ، هل جئت محمدا ؟ قال : لا ولـكنى سرتُ فى بلاد خُزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم حتى أصلحتُ بينهم . قال : يقول أبو سفيـان : إنك ـ والله ماعلمتُ ـ برٌّ واصل . فلما راحَ بُدَيل وأصحابه جاء أبو سفيان إلى أبعار إبلهم ففتّها فإذا فيها النوى ، ووجد فى منزلهم نوى من تمر عجوة كأنه ألسنة العصافير ، فقال : أحلف بالله لقد جاء القومُ محمّدا . وأقبل حتّى قَدِم المدينَة ، فدخل على النبيّ صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا محمّد ، إنّى كنت غائبا فى صُلْح الحديْبية ، فاُشدُد العهدَ وزِدْنا فى المدّة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : ولذلك قدمتَ يا أبا سُفْيان ! قال : نعم، قال : فهل كان قِبَلـكم حَدَث؟

فقال : مَعاذ الله ! فقال رسولُ الله : فنحن على مَوثِقنا وصُلحنا يومَ الحدَيْبية لا نغيّر ولا نبدّل . فقام مِن عندِه فدخل على ابنته أمّ حبيبة ، فلمّا ذهب ليجلسَ على فِراش رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم طَوَته دونَه ، فقال : أرغبتِ بهذا الفراش عنّي ، أم رغبتِ بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراشُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنت امرؤٌ نجسٌ مُشرِك. قال : يا بنيّة ، لقد أصابَكِ بعدِى شرّ ، فقالت : إنّ الله هدانى للإسلام ، وأنتَ يا أبتِ سيّدُ قريش وكبيرها، كيف يَخفَى عنك فضلُ الإسلام ، وتَعبُد حَجَراً لا يَسمَع ولا يُبصر ! فقال : يا عجبا ! وهذا منكِ أيضا ! أأترك ما كان يَعبُد آبائى وأتبع دينَ محمّد ! ثم قام من عندِها فلقِىَ أبا بكر ، فكلّمه ، وقال: تُكلِّم أنتَ محمّدا ، وتجير أنت بين الناس . فقال : أبو بكر : جوارِى جوارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، ثم لقِىَ عمرَ فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر ، فقال عمر : والله لو وجدتُ السِّنّورَ تقاتِلكم لأعنتُها عليكم . قال أبو سُفْيان : جُزِيت من ذِى رَحِم شرّا ! ثم دخل على عثمانَ بنِ عفّان فقال له : إنه ليس فى القوم أحدٌ أمسّ بى رَحِماً منك ، فزِدْنى الهدنة وجدِّد العهدَ ، فإنّ صاحبك لا يردّ عليك أبدا ؛ والله ما رأيتُ رجلا قطّ أشدّ إكراماً لصاحب من محمّد لأصحابه ، فقال عثمان : جِوارِى جوارُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجاء أبو سُفْيان حتّى دخل على فاطمةَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكلّمها ، وقال : أجيرِى بين الناس ، فقالت : إنّما أنا امرأة ، قال : إنّ جِوارَكِ جائز ، وقد أجارت أختُكِ أبا العاص بنَ الرّبيع ، فأجازَ محمّد ذلك . فقالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ وأبتْ عليه ، فقال : مُرِى أحدَ هذين ابنيك يُجيرُ بين الناس ، قالت : إنّهما صبيّان ، وليس يجيرُ الصبىُّ . فلمّا أبت عليه أتى عليّا عليه السلام فقال : يا أبا حسَن ، أجِرْ بين الناس وكلِّم محمّداً ليزيدَ فى المُدّة ، فقال علىّ عليه السلام : وَيْحك يا أبا سُفْيان ! إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قد عزَم

ألّا يَفعَل ، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلّمه فى شىء يكرَهه ، قال أبو سُفيان : فما الرأىُ عندَكَ فتشير لأمرى ، فإنّه قد ضاقَ علىّ ؟ فرنى بأمرٍ ترَى أنّه نافعى ، قال علىّ عليه السلام : والله ما أجد لكَ شيئاً مِثل أن تقومَ فتُجيرَ بين الناس ، فإنّك سيّدُ كِنَانَة ، قال : أترى ذلك مغْنِيا عَنّى شيئاً ؟ قال علىّ : إنّى لا أظنّ ذلك والله ، ولكنّى لا أجدُ لكَ غيرَه . فقام أبو سُفْيانَ بين ظَهْرَى الناس فصاح : ألا إنّى قد أجرتُ بينَ الناس ، ولا أظنّ محمّداً[1] يخفِرنى . ثمّ دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال : يا محمّدماأظنّ أن تردّ جِوارِى ! فقال عليه السلام : أنت تقول ذلك يا أبا سُفْيان ! ويقال: إنّه لمّا صاح لم يأت النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم وركِب راحِلَته وانطلَق إلى مكّة . ويُرْوَى أنه أيضا أتَى سعدَ بنَ عُبادةَ فكلّمه فى ذلك : وقال : يا أبا ثابت ، قد عرفتَ الذى كان بينى وبينَك ، وإنّى كنتُ لك فى حَرَمِنا جاراً ، وكنتَ لى بيثربَ مِثلَ ذلك ، وأنتَ سيّدُ هذه المَدَرَة ، فأجِرْ بين الناس ، وزِدْنى فى المُدّة . فقال سعد : جوارِى جوارُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم ، ما يجيرُ أحدٌ على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلمّا انطلق أبو سُفْيانإلى مكّة،وقد كان طالتْ غَيبتُه عن قريش وأبطأ ، فاتّهموه وقالوا : نراه قد صَبَا واتّبع محمّدا سِرّا،وكَتَم إسلامَه ؛ فلمّا دخل على هندٍ ليلا قالت : قد احتُبستَ حتّى اتّهمك قومُك ، فإن كنتَ جئتَهم بنُجْح فأنتالرجل. وقد كاندنا منها ليَغْشاها ، فأخبَرَها الخبر وقال: لم أجد إلّاما قال لى علىّ ، فضَربتْ برِجلها فى صدورِه وقالت : قُبِّحتَ من رسولِ قوْم !

قالالواقدىّ : فحدّثنى عبدُ الله بنُعثمانَ ، عن أبى سليمان ، عن أبيه ، قال : لمّا أصبح أبو سُفْيان حَلَق رأسَه عند الصّنَمين : أساف ونائلة ، وذَبح لهما ، وجعل يمسح بالدمّ رءوسَهما ، ويقول : لا أفارق عبادتَكما حتّى أموت على ما ماتَ عليه أبى . قال: فعَل ذلك ليبرّئ نفسَه ممّا اتّهمتْه قريش به .

---

(١) د : « يجيرنى » .

قال الواقدىّ : وقالت قريش لأبى سُفْيان : ما صنعتَ ؟ وما وراءك ؟ وهل جئتَنا بكتاب من محمد وزيادةٍ فى المُدّة ؟ فإنّا لا نأمن من أن يَغزُوَنا ، فقال : واللهِ لقد أبَى علىّ ، ولقد كلّمت عليه أصحابَه فما قدَرتُ على شىء منهم ، ورمَوْنى بكلمةٍ منهم واحدة ، إلّا أنّ عليّا قال لمّا ضاقت بىَ الأمور : أنت سيّد كِنانة ، فأجِرْ بين الناس ، فناديتُ بالجوار ، ثمّ دخلتُ على محمد فقلت : إنى قد أجرتُ بين النـاس ، وما أظنّ محمدا يردّ جِوارى ، فقال محمد : أنتَ تقول ذاك يا أبا سُفْيان ! لم يَزِد على ذلك ، قالوا : ما زاد علىّ على أن يَلعَب بك تلعُّبا ؛ قال : فوالله ما وجدتُ غيرَ ذلك .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن الزّهرىّ ، عن محمد بن جُبَير بن مُطعِم ، قال : لمّا خرج أبو سُفْيان عن المدينة قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : جهّزينا وأخفِى أمرَك . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهمّ خُذْ عن قريش الأخبارَ والعيونَ حتى نأتيَهم بَغتةً ؛ ورُوِى أنه قال : اللهمّ خُذْ علـى أبصارهم فلا يرَوْنى إلّا بغتة ، ولا يَسمَعون بى إلّا فجأة . قال : وأخذ رسولُ الله صلى الله عليـه وسلّم الأنقابَ وجعل عليها الرجالَ ، ومَنعَ مَنْ يخرج من المدينة ، فدخل أبو بكر على عائشةَ وهى تُجهِّز رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، تَعمَل له قمْحا سَوِيقا ودَقيقا ، وتمْرا ، فقال لها :أهَمّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغزْوٍ ؟ قالت : لا أدرى ؛ قال : إن كان هَمّ بسفَرٍ فآذِنينا نتهيّأْ له ؛ قالت : لاأدرى لعلّه أراد بنى سُلَيم ، لعلّه أراد ثَقِيفا أو هَوازِنَ ! فاستعْجَمَت[1] عليه ، فدَخل على رسولِ الله صلى الله عليـه وآله فقال : يارسولَ الله ، أردتَ سَفَرا ؟ قال : نعم ، قال : أفأتجهّز ؟ قال : نعم ، قال : وأين تريد ؟ قـال : قريشا ، وأخْفِ ذلكَ يا أبا بكر ، وأمَر رسولُ الله صلى الله عليه وآله الناسَ فتجهّزوا ، وطوَى عنهم الوجهَ الّذى يريد ، وقال له أبو بكر : يا رسولَ الله ، أوَ ليسَ بيننا وبينهم مـدّة ؟ فقال : إنّهم غدَروا ونقَضوا العهد ،

---

(١) يقال: استعجم عليه ؛ إذا سكت ولم يحر جواباً .

فأنا غازيهم ، فاطو ما ذكرتُ لك ، فكان الناسُ بين ظانٍّ يظُنّ أنّه يريد سُلَيما ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد هَوازِنَ ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد ثَقِيفا ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد الشامَ ، وبعثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أبا قَتادةَ بن رِبْعيّ في نفر إلى بطنٍ ليظنّ الناسُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدّم أمامه أولئك الرجالَ لتوجّهه إلى تلك الجهة ، ولتذهب بذلك الأخبارُ .

قال الواقديّ : حدّثني المنذر بنُ سعد ، عن يزيدَ بن رُومان ، قال : لمّا أجمَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله المسيرَ إلى قريش ، وعَلِم بذلك مَن عَلِم من الناس ، كتب حاطبُ ابنُ أبي بَلْتَعَة إلى قريش يُخبِرهم بالّذى أجمَعَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله في أمرِهم ، وأعطى الكتابَ امرأةً من مُزَينة ، وجعلَ لها على ذلك جُعْلا على أن تُبلّغه قريشا ، فجعلتْ الكتابَ في رأسِها ، ثم فتلَتْ عليه قُرونَها وخرجتْ به ، وأتى الخبرُ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله من السّماء بما صَنَع حاطب ، فبعَثَ عليّاً عليه السلام والزّبيرَ فقال : أدرِكا امرأةً من مُزَينة قد كَتَب معها حاطبٌ كتابا يُحذّر قريشا ، فخَرَجا وأدرَكاها بذى الحُلَيفة ، فاستنزَلاها والتَمَسا الكتابَ في رَحْلها فلم يَجدا شيئاً ، فقالا لها : نَحلِف بالله ما كَذَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم ولا كَذَبنا ، ولتُخرِجِنّ الكتاب أو لنَكْشِفَنّكِ . فلمّا رأت منهما الجِدّ حلّت قُرونَها ، واستخرجَتِ الكتابَ فدفعتْه إليهما، فأقبَلا به إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فدعا حاطباً وقال له : ما حمَلَك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، والله إنّي لَمُسلِم مؤمنٌ بالله ورسوله ، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ ، ولكنّى كنتُ امرأً ليس لى في القوم أصْل ولا عَشيرة ، وكان لى بين أظهُرِهم أهلٌ ووَلَد ، فصانعتُهم. فقال عمر : قاتلك الله ! ترى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يأخُذ بالأنقاب وتكْتب إلى قريش تحذّرهم ! دَعْني يا رسولَ الله أضرب عُنُقه ، فإنّه قد نافَق ، فقال رسولُ الله صلى الله

عليه وآله : وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهل بَدْر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم ! قال الواقديّ : فلما خرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من المدينة بالألوية المعقودة والرّايات بعدَ العصر من يوم الأربعاء لعشرٍ خلوْنَ من شهر رمضانَ لم يحلّ عقده حتّى انتهى إلى الصّلصل(١) ، والمسلمون يَقُودون الخيلَ ، وقد امتطوا الإبل ، وقدّم أمامَه الزبير بن العوّام في مائتين ؛ قال : فلمّا كان بالبَيْداء نظر إلى عَنانِ السّماء ، فقال : إنّي لأرَى السحابَ تستهِلّ(٢) بنصرِ بني كعب ــ يعني خُزاعة .

قال الواقديّ : وجاء كعبُ بنُ مالك لِيَعلَم أيّ جهــةٍ يقصد ؟ فبَرَك بين يديه على رُكبتيه ، ثمّ أنشده :

قَضَينا من تِهامَةِ كلّ نَحْب(٣) وخيــبَرَ ثمّ أجمَمْنا السُّيوفَا
فسائِلْهــا ولو نَطقَتْ لقــالتْ قَواضِبُهنّ دَوْسا أو ثَقِيفــا
فلستُ بحاضِرٍ إن لم تَرَوْها بساحةِ دارِكم منهــا ألوفا
فننتزِع الخِيام ببَطْنِ وَجٍّ ونَتْرُك دُورَكم منهــا خُلُوفا

قال : فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ولم يَزِد على ذلك ، فجعل الناسُ يقولون : واللهِ ما بَيَّنَ لكَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئاً ، فلم تزَل الناسُ كذلك حتّى نزلوا بمَرّ الظّهْران .

قال الواقديّ : وخرج العبّاس بنُ عبدِ المطّلب ومَخرَمة بنُ نَوْفل من مَكّة يَطلُبان رسولَ الله صلى الله عليه وآله ظنّاً منهما أنّه بالمدينة يريدان الإسلام ، فلَقِياه بالسُّقيا .

(١) صلصل : بنواحي المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح . ياقوت .

(٢) استهل السحاب ؛ إذا كثر انصبابه . (٣) النحب : النذر .

قال الواقدىّ : فلمّا كانت الليلة الّتى أصبحَ فيها بالجُحفة رأى فيها أبو بكر فى مَنامِه أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابَه قد دنَوْا من مَكّة فخرجتْ عليهم كَلْبَة تَهِرّ[١] فلما دَنَوا منها استلقَتْ على قفاها ، وإذا أطْباؤها[٢] تَشخُبُ لبنا . فقصّها على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ذهب كَلَبُهم ، وأقبل دَرُّهم ، وهم سائلونا بأرحامِهم ، وأنتم لاقُون بعضَهم ، فإن لقيتم أبا سُفْيانَ فلا تقتلوه .

قال الواقدىّ : وإلى أن وَصَل مَرّ الظَّهْران لم يَبلُغ قريشاً حرفٌ واحد من حاله ، فلمّا نزل بمَرّ الظَّهْران أمر أصحابه أن يُوقِدوا النار ، فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وأجمعتْ قريشٌ أن يبعثوا أبا سُفْيان يتجسّس لهم الأخبار ، فخرج هو وحكيمُ بنُ حزام وبُدَيل بنُ وَرْقاء . قال: وقد كان العبّاس بنُ عبد المطّلب قال : واسوء صَباح قُرَيش! والله إنْ دَخَلها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عَنْوَةً إنّه لهلاكُ قريش آخرَ الدهر ؛ قال العبّاس: فأخذتُ بغلة رسول الله صلّى الله عليه وآله الشَّهباء فركبتُها ، وقلتُ : ألتمس حطّابا أو إنسانا أبعثه إلى قريش فيَلقَوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قبلَ أن يدخُلها عليهم عَنْوةً ؛ فوالله إنّى لفى الأراك ليلا أبتغى ذلك إذ سمعتُ كلاما يقول: والله إنْ رأيتُ كالليلة نارا ، قال: يقول بُدَيل بنُ وَرْقاء : إنّها نيرانُ خُزاعةَ جاشها[٣] الحرب . قال: يقول أبوسفيان : خُزاعة أذَلّ من أن تكون هذه نيرانُها وعسكرُها ؛ فعرفتُ صوته ، فقلتُ: أبا حَنْظلة! فعرَف صوتى، فقال: لبّيك أبا الفضْل! فقلتُ: ويْحَك ! هذا رسولُ الله فى عشرة آلاف ، وهو مصبِّحكم ؛ فقال: بأبى وأمّى ، فهل من حيلة ! فقلت: نَعَم ، تركَبُ عَجُزَ هذه البغلة ، فأذهب بك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فإنّه إن ظَفِر بك دونَ ذلك ليقتلنّك ؛ قال : والله أنا أرى ذلك ، فركِب خَلْفى ، ورَحَل

---

(١) تهر : تنبح .

(٢) الأطباء : حلمات الضرع من ذات الخف والظلف والحافر .

(٣) جاشها الحرب : أفزعها .

بُدَيل وحكيم فتوجّهت به فلمّا مررتُ به على نار من نيران المسلمين قالوا : من هـذا ؟ فإذا رأوْنى قالوا : عمُّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم على بَغْلة رسولِ الله ، حتّى مررتُ بنـار عمرَ بن الخطّاب ، فلمّـا رآنى قال : من هذا ؟ قلت : العبّـاس ، فذهب ينظُرُ فرأى أبا سُفْيان خَلْفى ، فقال : أبو سُفْيان عدوّ الله ! الحمدُ الله الّذى أمكَن منك بغيرِ عَهْد ولا عَقْد ! ثمّ خرج يشتدّ نحو رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ورَكَضتِ البغلة حتى اجتمعنا جميعا على باب قُبّة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فدخلتُ ودخلَ عمرُ بنُ الخطّاب على أثرِى ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سُفْيان عدوّ الله قد أمكَن الله منه بغيرِ عَقْد ولا عَهْـد ، فدعْنى أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إنّى قد أجَرْته ، ثمّ لزمتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم فقلتُ : والله لا يُناجيه الليلة أحدٌ دونى ، فلمّا أكثرَ عمرُ فيـه قلت : مهلا يا عمر ! فإنّه لو كان رجلا من عدىّ بن كعب ما قلت هذا ، ولـكنّه أحدُ بنى عبدِ مناف . فقـال عمر : مهـلا يا أبا الفضل ، فوالله لإسلامُك كان أحبّ إلىّ من إسلام الخطّـاب ـ أو قال : من إسلام رجلٍ من وَلَد الخطّاب ـ لو أسلم ؛ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : اذهب به فقد أجرْناه ؛ فليَبتْ عندَكَ حتّى تغدوَ به علينا إذا أصبحتَ . فلمّـا أصبحتُ غدوتُ به ، فلما رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله قال : وَيْحك يا أبا سُفْيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله ! قال : بأبى أنتَ ما أحلمَك وأكرمك وأعظم عفوك ! قد كان يَقع فى نفسى أن لو كان مـعَ الله إلهٌ آخر لأغنى ؛ قال : يا أبا سُفْيان ألم يأنِ لكَ أن تعلم أنى رسول الله ! قال : بأبى أنتَ ما أحلمَك وأكرمَك وأعظمَ عفوَك ! أمّا هذه فوالله إنّ فى النّفس منها لشيئاً بعدُ ، قال العبّاس : فقلتُ وَيْحك ! تشهّد وقل لا إله إلّا الله محمّد رسول الله قبل أن تُقتَل . فتشهّد . وقال العبّاس : يا رسولَ الله ، إنّك قد عرفت أبا سُفْيان وفيه الشّرف والفخْر ، فاجعل له شيئاً ، فقال : مَنْ دخل دارَ أبى سُفْيان فهو آمن ، ومن أغلق دارَه فهو آمن ، ثم قال : خذْه فاحبسه بمَضِيق الوادى إلى خَطْم الجبل

حتى تمرّ عليه جُنُود الله فيراها . قال العبّاس : فعدلتُ به فى مَضيق الوادى إلى خَطْم الجبل فحبستُه هناك ، فقال : أغدراً يا بنى هاشم ! فقلتُ له : إنّ أهل النّبوة لا يَغدِرون ، وإنّما حبستُك لحاجةٍ ؛ قال : فهلّا بدأتَ بها أوّلا فأعْلَمْتَنيها ، فكان أفرخَ لِرُوعى ! ثمّ مرّت به القبائل على قادَتِها ، والكتائبُ على راياتها ، فكان أوّل من مَرّ به خالدُ بن الوليد فى بنى سُلَيم ، وهم ألف ، ولهم لواءان يَحمِل أحدَهما العبّاسُ بنُ مِرْداس والآخر خُفاف بن نُدْبة ، وراية يَحمِلها المقداد ، فقال أبو سُفْيان ، يا أبا الفَضْل ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء بنو سُلَيم ، وعليهم خالدُ بنُ الوليد ، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، فلمّا حاذى خالد العباسَ وأبا سُفْيان كبّر ثلاثاً وكبّروا معه ، ثمّ مضوا ! . ومرّ على أثره الزُّبير بنُ العوّام فى خمسمائة ، فيهم جماعةٌ من المهاجرين وقومٌ من أفناء الناس ، ومعه رايةٌ سوداء ، فلمّا حاذاهما كبّر ثلاثاً وكبّر أصحابُه فقال . من هذا ؟ قال : هذا الزبير ، قال : ابن أختك ! قال: نعم ، قال : ثمّ مرّت به بنو غِفار فى ثلثمائة يحمل رايتهم أبو ذرّ — ويقال : إيماء بن رحضة — فلمّا حاذوها كبّروا ثلاثا ، قال : يا أبا الفَضْل : مَنْ هؤلاء ؟ قال : بنو غِفار ؛ قال : مالى ولبنى غِفار ! ثمّ مَرّت به أسلم فى أربعمائة يَحمِل لواءها بُريدُ بن الحصيب ، ولواء آخر مع ناجية بن الأعجم ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً ، فسأل عنهم فقال : هؤلاء أسلَم ، فقال : مالى ولأسلم ! ما كان بيننا وبينهم تِرَة قطّ ، ثم مرّت بنو كعب بن عمرو بن خُزاعةَ فى خمسمائة يَحمل رايتَهم بشرُ بنُ سُفْيان ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : كعب بن عمرو ، قال: نعم حلفاء محمّد ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثا . ثمّ مرت مُزَينة فى ألفٍ فيها ثلاثةُ ألوِية مع النّعمان ابن مقرّن ، وبلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو ، فلمّا حاذوهما كبّروا ، قال : من هؤلاء ؟ قال: مُزَينة، قال: يا أبا الفَضْل، مالى ولمُزَينة ،قد جاءتنى تُقعقع من شواهقها(١) .

---

(١) الشواهق : الجبال .

ثمّ مرّت جُهَينة فى ثمانمائة ، فيها أربعة ألوية مع معبد بن خالد ، وسوَيْد بن صخر ، ورافع بن مُكَيث ، وعبد الله بن بدر ، فلمّا حاذَوْه كبّروا ثلاثا فسأل عنهم ، فقيل : جُهَينة . ثمّ مرّت بنو كنانة وبنو ليث وضَمْرة وسعيد بنُ أبى بكر فى مائتين ، يَحمِل لواءهم أبو واقد اللّيثى ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر . قال : نعم أهلُ شؤم هؤلاء الّذين غزَانا محمّد لأجلهم ! أما واللهِ ما شُوورت فيهم ، ولا علمتُه ، ولقد كنت له كارها حيث بلغنى ، ولكنّه أمرٌ حُمّ[1] ، قال العبّاس ، لقد خارَ الله لك فى غزو محمّد إيّاكم ، ودخلتم فى الإسلام كافّة ، ثمّ مرّت أشجعُ ـ وهم آخرُ من مرّ به قبل أن تأتى كتيبةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة يحمل لواءهم معقل بنُ سِنان ، ولواء آخر مع نعيم بن مَسعود فكبّروا ـ قال : من هؤلاء ؟ قال : أشجَع ، فقال : هؤلاء كانوا أشدّ العرب على محمّد ، قال العبّاس : نعم ؛ ولكنّ الله أدخَل الإسلام قلوبَهم ؛ وذلك من فضل الله . فسكت وقال : أمَا مرّ محمد بعدُ ؟ قال : لا ، ولو رأيتَ الكتيبةَ الّتى هو فيها لرأيت الحديدَ والخيلَ والرّجال ، وما ليس لأحدٍ به طاقة ، فلمّا طلعت كتيبةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله الخضْراء طَلَع سوادٌ شديد وغُبْرة من سنابك الخيل ، وجعل النّاسُ يمرّون ، كلّ ذلك يقول : أما مرّ محمّد بعدُ ؟ فيقول العبّاس : لا ، حتّى مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يسيرُ على ناقته القَصْوى بين أبى بكر وأسَيْد بن حُضَير ، وهو يحدّثهما ، وقال له العبّاس : هذا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فى كَتيبته الخضْراء ، فانظر ، قال : وكان فى تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار ، وفيها الألوية والرّايات ، وكلّهم مُنغمسون فى الحديد لا يُرَى منهم إلّا الحدق ، ولعمر بن الخطّاب فيها زَجَل[2] وعليه الحديد ، وصوتُه عال ، وهو يزَعُها ، فقال : يا أبا الفضل ، من هذا المتكلّم ! قال : هذا

---

(١) حم ، أى وقع .　　(٢) زجل ، أى صوت .

عمرُ بن الخطّاب؟ قال: لقد أَمِر أمرُ بنى عَدِىّ بعدَ قلّة وذِلّة ! فقال : إنّ الله يرفع من يشاء بما يشاء ، وإنّ عمرَ ممّن رفعه الإسلام ، وكان فى الكتيبة ألفا دارع ، وراية رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم مع سعد بن عُبادة ، وهو أمام الكتيبة ، فلمّا حاذاها سعد نادَى : يا أبا سُفْيان :

اليومَ يومُ المَلحمهْ اليومَ تُسبَى الحُرُمَهْ

اليومَ أذلّ الله قريشا ، فلمّا حاذاها رسولُ الله صلى الله عليه وآله ناداه أبو سُفْيان : يا رسولَ الله ، أمَرت بقتل قومك ؟ إنّ سعدا قال :

اليومَ يوم الملحمهْ اليومَ تُسبَى الحُرُمَهْ

اليومَ أذلّ الله قريشا ، وإنى أنشُدك اللهَ فى قومك فأنتَ أبرُّ الناس ، وأرحَم الناس ، وأوصَل الناس . فقال عثمانُ بن عفان وعبدُ الرحمن بنُ عوف : يا رسولَ الله ، إنّا لا نأمنُ سعدا أن يكون له فى قريش صَوْلة ، فوقف رسولُ الله صلى الله عليه وآله وناداه ، يا أبا سُفْيان ، بل اليومَ يومُ المَرْحمة ، اليومَ أعزّ الله قريشا ، وأرسل إلى سعدٍ فعزَلَه عن اللّواء . واُختُلِف فيمن دَفَع إليه اللّواء فقيل : دَفَعه إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، فذهب به حتّى دخل مكّة ، فغرَزَه عند الرّكن ـ وهو قول ضِرار بن الخطّاب الفِهْرى ـ وقيل : دَفَعه إلى قيس بن سَعْد بن عُبادة ـ ورأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنّه لم يُخرجه عن سعد حيث دَفَعه إلى ولده ، فذهب به حتّى غرَزَه بالحَجون ؛ قال : وقال أبو سفيان للعبّاس : ما رأيت مثل هذه الكتيبة قطّ ، ولا أخبرنيه مخبر ، سبحان الله ! ما لأحد بهؤلاء طاقة ولا يدان ! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس عظيما ، قال : فقلت : وَيْحك ! إنّه ليس بمُلْك ، وإنّما النُّبوّة ؛ قال : نعم.

قال الواقدىّ : قال العبّاس : فقلت له : اُنجُ وَيْحك ، فأدرِك قومَك قبل أن يدخل

عليهم ؛ فخرج أبو سُفيانَ حتى دخل من كَداء وهو يُنادِي: مَن دخَل دارَ أبي سُفيان فهو آمِن ، ومن أغلَق عليه بابَه فهو آمن ، حتى انتهى إلى هندٍ بنتِ عُتْبة ، فقالت: ما وراءك ؟ قال: هذا محمّد في عَشْرة آلافٍ ، عليهم الحديد، وقد جعَل لي أنّه من دَخَل داري فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمِن ، ومَن ألقَى سلاحَه فهو آمن ، فقالت : قبّحك الله من رسول قوم ! وجعلتْ تقول : وَيْحَكم ! اقتلوا وافدَكم قبّحه الله مِن وافد قوم! فيقول أبو سُفيان: وَيْحكم ! لا تغرّنّكم هــذه من أنفسكم ، فإنّي رأيتُ ما لم تَرَوْا : الرجالَ ، والكُراعَ ، والسّلاح ، ليس لأحد بهذا طاقة ، محمّد في عَشْرة آلاف ، فأسلِموا تَسلموا . وقال المبرّد في « الكامل » : أمسكتْ هند برأس أبي سُفْيان وقالت : بئس طليعةُ القوم! والله ما خدشت خدشا ، يا أهلَ مكّة ، عليكم الحميت الدّسم فاقتلوه . قال : الحميت : الزّق المزفّت .

قال الواقديّ :وخرج أهلُ مكّة إلى ذي طُوًى ينظُرون إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، وانضوَى إلى صَفْوان بن أميّة وعِكْرمة بن أبي جهل وسُهَيل بن عمرو ناسٌ من أهل مكّة ومن بني بكر وهُذَيل ، فلَبِسوا السلاحَ ، وأقسموا لا يدخل محمّد مكّة عَنْوةً أبدا . وكان رجلٌ من بني الدّؤَل يقال له : حماس بنُ قيسِ بنِ خالد الدّؤَليّ لمّا سَمِع برسول الله صلّى الله عليه وآله جَلَس يُصلِح سلاحَه ، فقالت له امرأته : لمَ تُعِدّ السّلاح ؟ قال : لمحمّد وأصحابه، وإني لأرجو أن أخدِمَك منهم خادما ، فإنّك إليه محتاجة ، قالت : وَيحك لا تفعَل ! لا تُقاتِل محمّدا ، والله ليضلّنّ هذا عنك لو رأيت محمّدا وأصحابه ؛ قال : ستَرَين ، وأقبل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وهو على ناقتــه القصواء معتجراً [1] بُبرْد حِبَرة ، وعليه عمامةٌ سوداء ، ورايتُه سوداء ، ولواؤه أسْود ، حتّى وقف بذي طُوًى ، وتوسّط الناسَ، وإن عُثنونه ليمسّ واسطة الرّحل ، أو يَقرُب منه تواضُعا لله حيث رَأى ما رَأى من الفَتح وكثرة المسلمين ، وقال : لا عيش إلّا عيشُ الآخرة .

---

(١) معتجراً : لابساً .

وجعلت الخيلُ تعجّ بذى طُوًى فى كل وَجْه ، ثم ثابَتْ وسكَنَتْ ، والتفت رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أُسَيْد بن حُضَير ، فقال : كيف قال حسّان بنُ ثابت ؟ قال : فأنْشَده :

عَدِمنا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها ⁂ تُثِير النَّقْع مَوعِدُها كَدَاءُ [1]
تَظَلّ جيادُنا متمطّراتٍ ⁂ تُلَطِّمُهنّ بالخُمُرِ النّساءُ [2]

فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وحَمِد الله ، وأمرَ الزبيرَ بنَ العوّام أن يدخُل من كَدَاءَ ، وأمر خالدَ بنَ الوليد أن يدخُل من اللِّيط ، وأمَرَ قَيس بنَ سعد أن يَدخُل من كُدًى ، ودخل هو صلّى الله عليه وآله من أذاخر .

قال الواقدىّ : وحدّثنى مروان بنُ محمّد ، عن عيسى بن عميلة الفزارىّ ، قال : دخل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مكّة بين الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن .

قال الواقدىّ : ورَوَى عيسى بنُ مَعْمَر ، عن عَبّاد بنِ عبد الله ، عن أسماء بنتِ أبى بكر ، قالت : صعد أبو قُحافة بصغْرى بناتِه واسمها قريبة ، وهو يومئذٍ أعمى ، وهى تَقُودُه حتّى ظهرتْ به إلى أبى قُبيس ، فلمّا أشرفَتْ به قال : يا بُنَيّة ، ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أرَى سواداً مجتمعا مقبلا كثيرا ! قال : يا بُنَيّة ، تلك الخيل ، فانظرى ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أرَى رجلا يَسعى بين ذلك السواد مُقبلا ومدبرا ، قال : ذاك الوازع ، فانظرى ماذا تَرَيْن ؟ قالت : قد تفرّق السواد ، قال : قد تفرّق الجيش ، البيتَ البيتَ ! قالت : فنزلت الجارية به وهى تُرْعب لما ترى ، فقال : يا بُنيّة ، لا تخافى ، فوالله إن أخاك عتيقا لآثَرُ أصحاب محمّد عند محمّد ؛ قالت : وعليها طَوْق من فضّة ، فاختَلَسَه بعضُ من دخل ،

---

(١) ديوانه ٥ والنقع : الغبار .

(٢) متمطرات : مسرعات . والخمر : جمع خمار .

فلمّا دخل رسولُ الله صلى الله عليه وآله مكّة جعل أبو بكر يُنادِي : أَنشدُكم الله أيّها الناس طَوْقَ أختي ؛ فلم يردّ أحد عليه ، فقال : يا أُخَيّة احتسبي طَوْقَكِ ، فإنّ الأمانة في الناس قليل .

قال الواقديّ : ونَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن الحرب ، وأمرَ بقتل ستّة رجال وأربع نسوة : عِكْرمة بن أبي جهل ، وهبّار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، ومقيَس بن صُبابة الليثي ، والحُوَيْرِث بن نفيل ، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدرميّ ، وهند بنت عُتْبة ، وسارّة مولاةٌ لبني هاشم ، وقَيْنتَيْن لابن خَطَل : قريبا وقريبة ، ويقال : قريناً وأرنب .

قال الواقديّ . ودخلت الجنودُ كلُّها ، فلم تلقَ حرْبا إلّا خالد بن الوليد فإنّه وَجَد جَمْعا من قريش وأحابيشها قد جمعوا له ، فيهم صفوان بن أميّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، فمنعوه الدّخول ، وشهروا السّلاح ، ورمَوْه بالنّبل ، وقالوا : لا تدخلها عَنْوةً أبداً ؛ فصاح خالد في أصحابه ، وقاتلَهم ، فقُتِل من قريش أربعةٌ وعشرون ، ومن هذيل أربعةٌ ، وانهزموا أقبحَ انهزام حتّى قُتِلوا بالحَزْورة ، وهم مُوَلّون من كلّ وجه ، وانطلقتْ طائفةٌ منهم فوق رءوس الجبال ، واتّبعهم المسلمون ، وجعل أبو سُفيان بن حرب وحكيم بن حزام يناديان : يا معشرَ قريش ، عَلَام تقتُلون أنفسَكم ؟ من دخل دارَه فهو آمن ، ومَن أغلَق عليه بابه فهو آمن ، ومن وضع السّلاحَ فهو آمن ، فجعل النّاسُ يقتحِمون الدّور ويُغلقون عليهم الأبواب ، ويَطرَحون السّلاح في الطّرق حتى يأخذه المسلمون .

قال الواقديّ : وأشرَف رسولُ الله صلى الله عليه وآله من على ثَنِيّة أذاخر ، فنظر إلى البارقَة ، فقال : ما هذه البارقة ؟ ألم أنه عن القتال ؟ قيل : يارسولَ الله ، خالدُ بنُ الوليد

قُوتِل ، ولو لم يُقاتَل ما قاتَلَ ؟ فقال : قضاء الله خير ، وأقبل ابن خطل مدجّجا فى الحديد على فرس ذَنوب(١) بيَدِهِ قَناة يقول : لا والله لا يدخُلها عَنْوة حتى يرى ضَرْبا كأفواه المزاد ، فلمّا انتهى إلى الخَنْدَمة ورأى القتال دخَله رُعْب حتى ما يَستمسِك من الرِّعدة ، ومرّ هاربا حتى انتهى إلى الكعبة،فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحَه وترك فرسَه ، وأقبَل حماس بن خالد الدؤلىّ منهزما حتى أتى بيْتَه فدَقّه ، ففتحتْ له امرأتُه فدخل ، وقد ذهبتْ رُوحُه ، فقالت : أين الخادم التى وعدتَنى؟ مازلتُ مُنْتظِرتك منذُ اليوم ، تَسخر به، فقال : دعى هذا وأغلِق الباب ، فإنّه من أغلَق بابَه فهو آمن ، قالت : وَيْحك ! ألم أنهك عن قتال محمّد ! وقلت لك : إنّى ما رأيتُه يقاتلكم مرّة إلّا وظَهَر عليكم ، وما بابُنا ؟ قال : إنّه لا يفتح على أحدٍ بابَه ، ثم أنشَدها(٢) :

إنكِ لو شَهِدْتنا بالخَندَمَهْ إذ فَرّ صَفْوانُ وفَرّ عِكْرِمهْ
وأبو يزيد كالعجوز المُؤتِمهْ وضَرَبْنا هُمْ بالسُّيوف المُسلمهْ(٣)
لهم زَئيرٌ خلفنا وغَمْغمهْ لم تنطق فى اللّوم أدنى كلِمهْ(٤)

قال الواقدىّ : وحدثنى قُدامة بن موسى ، عن بشير مولى المازنيّين ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كنتُ ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر ، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ونظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تُجاه شعب بنى هاشم حيث حُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاث

---

(١) ذنوب ، وافر الذنب بالتحريك .
(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٢٧ .
(٣) المؤتمة : التى قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام ، والمسلمة ، أراد المسلمين ، وبعده فى ابن هشام :
يَقْطَعْنَ كلّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ ضَرْبا فلا يسمع إلّا غمغمهْ
(٤) ابن هشام : « لهم نهيت » .

سنين ؛ وقال : يا جابر ، إنّ منزلنا اليومَ حيث تقاسمتْ علينا قريش فى كُفْرها ؛ قال جابر : فذكرتُ كلاما كنتُ أسمعه فى المدينة قبل ذلك ، كان يقول : منزلُنا غداً إن شاء الله إذا فَتَح علينا مكّة فى الخَيْف حيث تقاسموا على الكُفْر .

قال الواقدىّ : وكانت قبّته يومئذ بالأَدَم ضُرِبت له بالحجون ، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أمّ سَلَمة وميمونة .

قال الواقدىّ : وحدثنى معاوية بن عبد الله بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبى رافع ، قال : قيل للنبىّ صلّى الله عليه وآله : ألا تنزل مَنزِلك من الشِّعب ؟ قال : وهل ترك لنا عَقِيل من منزل ! وكان عَقِيل قد باع منزل رسول الله صلّى الله عليه وآله ومنازل إخوته من الرجال والنّساء بمكّة ، فقيل لرسول الله صلّى الله عليه وآله : فانزل فى بعض بيوت مكّة من غير منازلك . فأبى وقال : لا أدخُل البيوت ؛ فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتا ، وكان يأتى إلى المسجد من الحجون ، قال : وكذلك فعل فى عُمرة القضيّة وفى حجّته .

قال الواقدىّ : وكانت أمّ هانئ بنتُ أبى طالب تحت هُبيرة بن أبى وَهْب المخزومى فلما كان يوم الفتح دخل عليها حَمَوان لها : عبدُ الله بنُ أبى ربيعة والحارث بن هشام المخزوميّان ، فاستجارا بها ، وقالا : نحن فى جِوارك ؛ فقالت : نعم أنتما فى جوارى . قالت أمّ هانئ : فهما عندى إذ دخل علىّ فارسٌ مدجّج فى الحديد ولا أعرفه ، فقلت له : أنا بنت عمّ رسول الله ، فأسفر عن وجهه ، فإذا علىٌّ أخى ، فاعتنقته ، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما ، فقلتُ : أخى من بين الناس تصنع بى هذا ؟ فألقيتُ عليهما ثوْبا ، فقال : أتُجيرين المشركين ! فحُلْت دونهما ، وقلت : لا والله وابتدئْ بى قبلهما ؛ قالت : فخرج ولم يكدْ ، فأغلقتُ عليهما بيتا ، وقلت : لا تخافا ، وذهبتُ إلى خِباء رسولِ الله صلّى الله

عليه وآله بالبطحاء فلم أجده ، ووجدتُ فيه فاطمة ، فقلت لها : ما لقيتُ من ابن أمي عليّ ! أجرت حَمَوَين لى من المشركين ، فتفلّتَ عليهما ليقتلهما ، قالت : وكانت أشدّ عليّ من زوجها ، وقالت : لِمَ تُجيرين المشركين ! وَطَلع رسولالله صلى الله عليه وسلم وعليه الغُبار ، فقال : مرحباً بفاخِتة ــ وهو اسمُ أم هانئ ــ فقلتُ : ماذا لقيت من ابن أمي عليّ ما كدتُ أفلت منه ! أجرت حَمَوَين لى من المشركين ، فتفلّت عليهما ليقتلهما ، فقال : ما كان ذلك له ، قد أجَرْنا من أجرتِ وأمّنّا من أمّنت ، ثم أمر فاطمةَ فسكبت له غُسْلا فاغتسل ، ثمّ صلى ثمانى ركعات فى ثوب واحد ملتحفا به وقت الضُّحى؛ قالت : فرجعتُ إليهما وأخبرتُهما ، وقلت : إن شئتما فأقيا ، وإن شئتما فارجعا إلى منازلكما ، فأقاما عندى فى منزلى يومين ؛ ثم انصرفا إلى منازلهما .

وأتى آتٍ إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : إنّ الحارث بن هشام وعبدالله ابن أبى ربيعة جالسان فى ناديهما متفضّلان فى المُلاء المزَعْفر ، فقال : لا سبيل إليهما ، قد أجرناهما .

قال الواقدىّ : ومكث رسول الله صلى الله عليه وآله فى قبّة ساعةً من النهار ، ثمّ دعا براحلته بعد أن اغتسل وصلى ، فأدنِيت إلى باب القبة ، وخرج وعليه السلاح والمِغفر على رأسه ، وقد صُفّ له الناس ، فركبها والخيلُ تمعج(١) ما بين الخندمة إلى الحجون ، ثم مرّ وأبو بكر إلى جانبه على راحلةٍ أخرى يسير ويُحادِثه ، وإذا بناتُ أبى أُحَيحة سعيد بن العاص بالبطحاء حذاء منزل أبى أحيحة ، وقد نَشَرن شعورهنّ ، فلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر ، فتبسم وأنشده قولَ حسّان :

---

(١) تمعج : تسرع .

تظَلّ جيادُنا متمطِّراتٍ ... تُلطِّمهنَّ بالخُمُرِ النّساء

فلما انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته ، فاستلم الركن بمِحْجنه ، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره ، وعجّوا بالتكبير حتى ارتجّت مكّة ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يشير إليهم أن اسكتوا ، والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته ، ومحمد بن مَسلمة آخِذٌ بزمامها ، وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما مرصوصة بالرّصاص ، وكان هُبَلُ أعظَمَها ، وهو تجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحَرون ويذبحون الذبائح ، فجعل كلّما يمرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول : ﴿ جاء الحقُّ وزَهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زَهوقا ﴾ ؛ فيقع الصنم لوجهه ، ثم أمرَ بهُبَل فكُسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير لأبي سفيان : يا أبا سُفيان ، قد كُسِر هُبَل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحُد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال : دع هذا عنك يابن العوّام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

قال الواقديّ : ثم انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فجلس ناحيةً من المسجد وأرسل بلالًا إلى عثمان بن طلحة يأتيه بالمِفتاح، مفتاح الكعبة ، فقال عثمان : نعم، فخرج إلى أمّه وهي بنت شَيبة ، فقال لها والمفتاح عندها يومئذ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب المفتاح ، فقالت : أعيذُك بالله أن يكون الذي يذهب مأثرة قومه على يده ! فقال : فو الله لتأتينّي به أو ليأتينّك غيري فيأخذه منك ، فأدخلته في حُجْرتها ، وقالت : أيّ رجل يدخِل يده ها هنا ! فبينما هما على ذلك وهو يكلّمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدّار ، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطأ : يا عثمان اخرج ، فقالت أمّه: خذ المفتاحَ، فلأن تأخذَه أنت أحبُّ إليّ من أن يأخذه تيم وعديّ ، فأخذه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما تناوَله بَسَط العباس بنُ عبد المطلب يدَه وقال : يا رسول الله ، بأبي أنت! اجمع لنا بين السِّقاية والحجابة ؛ فقال : إنما أُعطيكم ما تَرضوْن فيه، ولا أعطيكم ماترزَءون منه،

قالوا : وكان عثمانُ بنُ طلحة قد قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مسلما قبل الفتح .

قال الواقديّ : وبعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة ، وأمره أن يفتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالا إلا صورة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخا كبيراً يستقسم بالأزلام(١) .

قال الواقديُّ : وقد روى أنه أمره بمحوِ الصور كلّها لم يستثن ، فترك عمر صورة إبراهيم ، فقال لعمر : ألم آمُرْك ألّا تدَع فيها صورةً ! فقال عمر : كانت صورة إبراهيم ، قال : فامحُها ، وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام !

قال : ومحا صورة مريم . قال : وقد رُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وآله محا الصُّور بيده ، روَى ذلك ابن أبي ذئب ، عن عبد الرحمن بن مِهران ، عن عُمَير مولى ابن عباس ، عن أسامة بن زيد ، قال : دخلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكعبة ، فرأى فيها صوراً ، فأمرنى أن آتيَه فى الدّلو بماء ، فجعل يبُلُّ به الثوب ويضرب به الصّور ويقول: « قاتل الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون ! » .

قال الواقديّ : وأمرَ رسول الله صلّى الله عليه وآله بالكعبة فأُغلِقت عليه ، ومعه فيها أُسامة بن زيد ، وبلال بن رَباح ، وعثمانُ بنُ طلحة ، فمكث فيها ما شاء الله ، وخالد بنُ الوليد واقف على الباب يَذُبّ الناس عنه ، حتّى خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فوَقَف وأخَذَ بِمضادَتَى(٢) الباب ، وأشرَف على الناس وفى يده المفتاح ، ثم جعله فى كمّه ، وأهلُ مكّة قيامٌ تحتَه ، وبعضُهم جلوس قد ليطَ بهم ؛ فقال الحمد لله الّذى

---

(١) الأزلام : القداح .   (٢) عضادتا الباب : جانباه .

صدَقَ وعدَه، ونصَرَ عَبْدَه ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَه ، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنّون ؟قالوا : نقول خيرا ، ونظنّ شرًّا ! أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم ، وقد قدرتَ ، فقال : إنّي أقول كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ألا إنّ كل رِبًا في الجاهليّة أو دمٍ أو مأثرةٍ فهو تحتَ قدَميّ هاتين إلّا سِدانة الكعبة وسقاية الحاجّ. ألا وفي قتيلِ شِبْه العَمْد : قتيلِ العصا والسّوط الديةُ مغلّظة مائة ناقة ، منها أربعون في بطونها أولادُها . إنّ الله قد أذهبَ نخوَةَ الجاهليّة وتكبّرَها بآبائها ، كلكم لآدم ، وآدمُ من تُراب . وأكرَمُكم عند الله أتقاكُم . ألا إنّ الله حرّم مكّة يومَ خَلق السموات والأرض ، فهي حرام بحَرَمِ الله ، لم تَحِلّ لأحد كان قبلُ ، ولا تحلّ لأحد يأتي بَعدِي ، وما أحِلّت لي إلّا ساعة من النّهار ـ قال : يقصدها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيَدِه هكذا ـ لا ينفَّر صَيدُها ، ولا يُعضَد عِضاهُها ، ولا تحلّ لقطتُها إلّا لمنشِد ، ولا يُختلَى خلاها . فقال العباس : إلا الإذْخِر يارسول الله ، فإنّه لابدّ منه للقبور والبيوت ، فسكَت رسولُ الله صلى الله عليه وآله ساعةً ثم قال إلّا الإذخر ، فإنّه حلال ، ولا وصيّة لوارث ، والوَلَد للفِراش ، وللعاهِر الحجَر ، ولا يحلّ لامرأةٍ أن تعطيَ مِن مالِها إلّا بإذنِ زَوْجها ، والمسلمُ أخو المسلِم ، والمسلمون إخوة ، يدٌ واحدةٌ على مَن سِواهم ، تتكافأ دِماؤهم ، يَسعَى بذِمّتِهم أدناهم ، ويردّ عليهم أقصاهم ، ولا يُقتَل مسلم بكافر ، ولا ذو عَهْد في عَهْده ، ولا يَتوارَث أهلُ ملّتين مختلفتين ، ولا تُنكَح المرأةُ على عمّتها ولا على خالتها ، والبيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكَر ، ولا تسافر امرأةٌ مسيرة ثلاث إلّا مع ذي مَحرَم ، ولا صلاةَ بعد العصر ، ولا بعدَ الصُّبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يومِ الأضحَى ويومِ الفِطر . ثم قال : ادعُوا لي عثمانَ بنَ طلحة ، فجاء وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله قال له يوما بمكّة قبل الهجرة ومع عثمانَ المِفتاح : لعلّك ستَرَى هذا المفتاحَ بيَدي يوما أضعُه حيث شئت ؛ فقال عثمان : لقد هلَكتْ قريش إذاً وذَلّت ! فقال عليه السلام : بل عمرتْ وعزّت ؛ قال عثمان : فلمّا دعاني يومئذ والمِفتاح بيَدِه ذكرتُ قولَه حين قال ؛ فاستقبلته

بِبِشر ، فاستقبَلَنى بِمِثله ، ثم قال : خذوهـا يابنى أبى طلحة خالدة تالدة ، لا يَنزعها منـكم إلّا ظالم . يا عثمان ، إنّ الله استأمَنـكم على بيته ، فـكُلوا بالمعروف ؛ قال عثمان : فلما وَلّيت نادانى فرجعتُ ، فقال : ألم يكن الّذى قلتُ لك ! يعنى ما كان قالَـه بمكّة من قبلُ ، فقلتُ : بلى أشهَد أنّك رسولُ الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وأمر رسولُ الله صـلى الله عليه وآله يومئذ برَفْع السلاح ، وقال : إلّا خُزاعة عن بنى بكر إلى صـلاة العصر . نخبطوهم بالسّيف ساعةً ، وهى الساعةُ الّتى أُحِلّت لرسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وقد كان نوفل بن معاوية الدُّؤلىّ من بنى بكر استأمن رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه ، فأمّنه ، وكانت خُزاعة تطلُبه بدماء من قتلتْ بـكر وقريش منها بالوتير ، وقد كانت خُزاعةُ قالت أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وآله : إن أنسَ بن زُنَيم هجاك ، فهدَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله دَمَه ، فلمّا فتح مكّة هرب وأُلْتحق بالجبال ، وقد كان قَبْل أن يفتح رسولُ الله صلى الله عليه وآله مكّة قال شعرا يَعتذِر فيه إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، من جُملته :

أنتَ الّذى تُهـدَى معدٌّ بأمره ... بلِ اللهُ يَهدِيها وقال لها أرْشُدِى

فما حملتْ من ناقةٍ فوقَ كورِهـا ... أبرَّ وأوفى ذِمّـة من محمّـدِ

أحَثَّ على خـيرٍ وأوسَعَ نائلا ... إذا راحَ يهـتزُّ اهتزازَ المهنّدِ

وأكسَى لبُرد الخالِ قبل ابتذالِه ... وأعطى لرأس السابق المتجرِّدِ

تَعلَّم رسـولَ الله أنّك مُدرِكى ... وأنَّ وَعيداً منـكَ كالأخْذ باليَدِ

تعلَّم رسـولَ الله أنـك قادرٌ ... على كلّ حىّ من تهام ومُنجدِ

ونُبِّى رسـولُ الله أنّى هجوتُـه ... فلا رفعتْ سَوْطى إلىَّ إذَنْ يدى

سوَى أنـنى قد قلتُ يا وَيـح فتيةٍ ... أصيبوا بنَحْس يومَ طلق وأسعُدِ !

أصابهمُ من لم يكن لدمائهمْ كِفاء فعزّت عَبْرتى وتلدُّدِى
ذُؤيبا وكُلْثوما وسلمى تتابعوا جميعا فإلّا تدمع العينُ أكْمَدِ
على أنّ سلمى ليس منهم كمثله وإخوته وهلْ مُلوكٌ كأعْبُدِ!
فإنّى لا عرْضا خرقْتُ ولا دماً هَرَقْتُ ففكّر عالم الحقّ واْقصِدِ

قال الواقدىّ : وكانت كلمته هذه قد بلغتْ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قبل أن يفتح مكّة ، فنهنهتْ عنه ، وكلّمه يوم الفتح نوفلُ بنُ معاوية الدُّؤلىّ ، فقال : يا رسولَ الله ، أنت أولَى الناس بالعفو ، ومَنْ منّا لم يعادِك ولمْ يؤذك ، ونحنُ فى جاهليّة لا ندرى ما نأخذ وما ندَع ، حتّى هدانا الله بك ، وأنقذَنا بيُمْنِك من الهلَكة ، وقد كَذَب عليه الركب ، وكثّروا فى أمره عندَك ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : دَع الركبَ عنك ، إنّا لم نجد بتهامة أحداً من ذوِى رَحِم ولا بعيد الرّحم كان أبرّ بنا من خُزاعة ، فاسكُت يا نوفل ؛ فلمّا سكت قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : قد عفوتُ عنه فقال نوفل : فداكَ أبى وأمّى .

قال الواقدىّ : وجاءت الظّهر ، فأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بلالا أن يؤذّن فوقَ ظَهر الكعبة وقريش فى رءوس الجبال ، ومنهم من قد تغيّب وستَر وجهه خوفا من أن يُقتلوا ، ومنهم من يَطلب الأمان ، ومنهم من قد أُمِّن . فلمّا أذّن بلال وبلغ إلى قوله : «أشهد أن محمّدا رسولُ الله»، صلّى الله عليه وآلِه رَفَع صوتَه كأشدّ ما يكون ؛ قال: تقول جُوَيْرِية بنت أبى جَهْل : قد لَعَمْرى رُفِع لك ذِكْرُك ، فأمّا الصلاة فسنصلّى ، ولكنْ والله لا نحبّ مَنْ قتَل الأحبّة أبدا ، ولقد كان جاء أبى الّذى جاء محمّدا من النبوّة ؛ فردّها ولم يُرِدْ خلاف قومه .

وقال خالدُ بن سعيدِ بنِ العاص : الحمد لله الّذى أكرم أبى فلم يُدرِك هذا اليوم ؛

وقال الحارث بنُ هشام : واثُكلاه ! ليتَني مِتُّ قبلَ هذا اليوم قبل أن أسمع بلالا ينهق فوقَ الكعبة ! وقال الحكم بنُ أبي العاص : هذا والله الحدَث العظيم ، أن يَصيحَ عبدُ بني جُمَح ، يَصيحُ بما يَصيحُ به على بيت أبي طلحة ؛ وقال سُهَيل بنُ عمرو ، إن كان هذا سُخْطا من الله تعالى فسيغيِّره ، وإن كان لله رضاً فسيقرّه ؛ وقال أبو سُفْيان: أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، لو قلتُ شيئاً لأخبرته هذه الحصباء ، قال : فأتى جبرائيلُ عليه السلام رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فأخبَرَه مقالة القوم .

قال الواقديّ : فكان سهيلُ بنُ عمرو يحدّث فيقول ؛ لمّا دخل محمدٌ مكّة انقمعتُ فدخلتُ بيتي وأغلقتُه عليّ ، وقلتُ لابني عبدِ الله بنِ سُهَيل : اذهبْ فاطلب لي جواراً من محمّد ، فإنّي لا آمن أن أُقتَل، وجعلتُ أتذكّر أثَري عنده وعند أصحابه فلا أرَى أسوأ أثراً منّي ، فإنّي لقيتُه يوم الحُدَيْبية بما لم يلقه أحدٌ به ، وكنتُ الّذي كاتَبه ، مع حضوري بدْرا وأُحُدا ، وكلّما تحرّكتْ قريش كنتُ فيها ، فذهب عبدُ الله بنُ سُهَيل إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ، أبي تؤمّنه ؟ قال : نعم ، هو آمن بأمان الله ، فلْيَظهر ، ثم التفت إلى من حَوْله فقال : من لقي سُهَيل بن عمرو فلا يُشدَّنَّ النظر إليه . ثم قال : قل له : فلْيَخْرج ، فلَعَمري إنّ سهيلا له عقلٌ وشَرَف ، وما مثلُ سُهَيل جَهِل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضَع فيه إن لم يكن له تتابع ، فخرج عبدُ الله إلى أبيه فأخبَرَه بمقالةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فقال سهيل : كان واللهِ بَرّا صغيراً وكبيراً ، وكان سُهَيل يُقْبِل ويُدبِر غيرَ خائف ، وخرج إلى خَيْبَر مع النبيّ صلّى الله عليه وآلِه وهو على شِرْكه حتى أسلَمَ بالجِعْرانة .

تم الجزء السابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويليه الجزء الثامن عشر

فهرس الكتب*

(*) وهى الكتب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

(*) وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثامن عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية

(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

يشتمل هذا الجزء على بقية المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده ، ثم على طائفة من مختار حِكَمه ومواعظه ، وأجوبة مسائله ، والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه .

وقد روجع على الجزء الثالث من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ وهى النسخة التى رمزت لها بالحرف (ا) . وأصل هذا الجزء مكتوب بخط نسخ حديث واضح ، يبدو أنه كتب فى القرن الثانى عشر ؛ ويكاد يكون خاليا من الشكل والضبط ؛ حتى فيما جاء فيه من أصل كلام الإمام . ويبدأ من الشرح ببقيّة الكلام على فتح مكّة ؛ إلّا أن بآخره نقصا يبدأ فى أثناء الكلام على شرح قول أمير المؤمنين : « الإعجاب يمنع من الازدياد » ، إلى آخر الجزء . ويقع فى ٥٦ ورقة ، مسطرتها ٢٩ سطرا ، وفى كل سطر ١٥ كلمة تقريبا ، ولا يوجد فيه ذكر لاسم ناسخه ولا تاريخ نسخه .

كما روجع أيضا على الجزء الثانى من المجلد الأخير من مخطوطة دار الكتب برقم ١٨٦٨ـ أدب ، وهى التى رمزت لها بالحرف (د) ، وسبق وصفها فى مقدمة الجزء السادس عشر ، وعلى النسخة المطبوعة على الحجر فى طهران سنة ١٣٧١ﻫ ؛ وهى التى رمزت لها بالحرف (ب).

وأسأل الله أن يوفق ويعين .

٢٤ رمضان سنة ١٣٨٢ ﻫ
١٨ فبراير سنة ١٩٦٣ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل[1]

[ذكر بقية الخبر عن فتح مكة]

قال الواقدىّ : وهرب هبيرةُ بن أبى وَهْب وعبدُ الله بن الزِّبعرَى جميعا حتّى انتهيا إلى نَجْران فلم يأمنا الخوف حتى دخلا حِصْن نَجْران ؛ فقيل : ما شأنكما ؟ قالا : أمّا قريش فقد قُتِلت ودخل محمد مكة ، ونحن والله نرى أن محمدا سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلْحارث بن كعب يُصلحون ما رثّ من حصنهم ، وجمعوا ماشيتَهم ؛ فأرسل حسان بن ثابت إلى ابن الزِّبعرَى :

لا تعدمَنْ رجلًا أحلّك بُغْضُهُ ... نجرانَ فى عيشٍ أحذَّ لئيمِ[2]

بليتْ قناتُك فى الحرُوب فألفيتْ ... جوفاءَ ذاتَ معايبٍ ووُصومِ[3]

غضبُ الإله على الزِّبَعْرى وابنِهِ ... بعذابِ سوء فى الحياة مقيمِ

فلما جاء ابنَ الزِّبَعْرَى شعرُ حسان تهيّأ للخروج ، فقال هبيرة بن وهب : أين تريد يابن عمّ ؟ قال له : أريد والله محمدا ، قال : أتريد أن تتبعه ؟ قال : أى والله ، قال هُبيرة : ياليت أنّى كنتُ رافقتُ غيرَك ، والله ما ظننتُ أنّك تتْبع محمّدا أبدا . قال ابن الزِّبَعْرَى : هو ذاك ، فعلى أىّ شىء أقيمُ مع بنى الحارث بنِ كعب وأترُكُ ابنَ عمّى وخيرَ الناس وأبرّهم ، وبين قومى ودارى ! فانحدر ابنُ الزِّبعرَى حتّى جاء رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم

---

(١) د : « لطفك اللهم لإتمامه بالخير » . (٢) ديوانه ٣٦٠ .

(٣) الوصوم : العيوب ؛ جمع وصم ، ورواية الديوان : « خانة جوفاء ذات وصوم » .

وهو جالس فى أصحابه ، فلمّا نظر إليه قال : هذا ابنُ الزِّبَعْرَى ومعه وجهٌ فيه نورُ الإسلام ، فلمّا وقف على رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : السّلامُ عليك يا رسولَ الله ، شهدتُ أن لا إله إلّا الله ، وأنّك عبدُه ورسوله ، والحمد لله الّذى هَدانى للإســلام ، لقد عاديتُك وأجْلَبْتُ عليك ، وركِبتُ الفرس والبعيرَ ، ومَشَيتُ على قدمى فى عَداوتك ، ثم هربتُ منك إلى نجرانَ ، وأنا أريدُ ألّا أقرب الإســلامَ أبدا ؛ ثم أرادَنى اللهُ منه بخير ، فألقاه فى قلبي ، وحبّبه إلىّ ، وذكرت ما كنتُ فيـه من الضّلال واتّباع ما لا ينفع ذا عقل ؛ من حَجَرٍ يُعْبَد ، ويُذبَح له لا يدرى من عَبَده ومن لا يَعْبُده . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : الحمدُ لله الّذى هداك للإسلام ، احمَدِ الله ، إنّ الإسلام يَجُبُّ ما كان قَبْلَه .

وأقامَ هُبيرة بنَجْرانَ ، وأسلمتْ أمُّ هانئ ، فقال هُبيرة حين بلغه إسلامها يومَ الفتح يؤنّبها شِعرا من جُملته[1] :

وإن كنتِ قد تابعتِ دينَ محمّدٍ ... وقطّعتِ الأرحامَ منكِ حِبالُهـا[2]

فكونى على أعلى سَحُوقٍ بهَضْبَةٍ[3] ... مُلَمْلِمة غبراء يَبْسٍ بِلالُهـا[4]

فأقام بنَجرانَ حتّى مات مُشركا .

قال الواقدىّ: وهرب حُوَيْطِب بنُ عبدالعُزّى فدخل حائطا[5] بمكّة ، وجاء أبوذرّ لحاجته، فدخل الحائط فرآه ، فهرَب حُوَيطب ، فقال أبو ذرّ : تعالَ فأنتَ آمِن ، فرجع إليه فقال : أنت آمن ؛ فاذهب حيثُ شئتَ ، وإن شئتَ أدخلتُك على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وإن شئتَ فإلى منزِلك . قال : وهل من سبيل إلى منزلى ألقَى فأُقتَل قبل أن أصِلَ إلى منزلى،

(١) من قصيدة له فى ابن هشام ٤ : ٤٢ ؛ وأولها :

أشاقَتْكَ هِندٌ أمْ أتاكَ سُؤالُها ... كذاكَ النّوَى أسبابُها وانفِتالُها

(٢) ابن هشام : « وعطفت الأرحام منك حبالها » .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب « سخوف » ؛ وفى د : « سجوف » . وفى ابن هشام : « سحيق » .

(٤) الململة : المستديرة ، والغبراء : التى علاها الغبار . واليبس : المكان اليابس .

(٥) الحائط هنا : البستان .

أو يدخل عليّ منزلي فأقتل ! قال: فأنا أبلُغ معك منزلَك ، فبلغ معه منزله، ثمّ جعل يُنادي عَلَى بابه : إنّ حُوَيْطِبا آمِن فلا يهيَّج. ثم انصرَف إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبرَه فقال : أوَ ليس قد أمّنّا الناس كلَّهم إلّا من أمَرْتَ بقتله !

قال الواقديّ : وهربَ عكرمةُ بن أبي جهل إلى اليمن حتى ركب البحر ، قال : وجاءت زوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله في نِسوةٍ منهنّ هند بنت عُتبة ـ وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر بقتلِها ـ والبَغُوم[1] بنت المعدّل الكِنانيّة امرأة صفوان بن أميّة ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام ، وهند بنت عتبة بن الحجاج أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورسول الله صلّى الله عليه وآله بالأبطح ، فأسلَمْن ، ولما دخلنَ عليه دخَلْن وعنده زَوْجتاه وابنته فاطمة ونساء من نساء بني عبد المطّلب وسألنَ أن يُبايعهنّ ، فقال : إنّي لا أصافح النّساء ـ ويقال : إنه وَضع على يده ثوباً فسَحْنَ عليه ، ويقال : كان يؤتَى بقَدَح من ماء فيدخِل يدَه فيه ثم يرفَعُه إليهنّ ، فيُدخلن أيديهنّ فيه ـ فقالت أمّ حكيم امرأة عِكْرمة : يا رسول الله ، إنّ عِكْرمة هرَبَ منك إلى اليمن ، خاف أن تقتُله ، فأمِّنه ، فقال : هو آمن . فخرجتْ أمّ حكيم في طلبه ، ومعها غلامٌ لها رُوميّ ، فراوَدَها عن نفسها ، فجعلتْ تمنّيه حتى قدِمتْ به على حيّ ، فاستغاثتْ بهم عليه ، فأوثقُوه رباطا ، وأدركَتْ عِكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تِهامة ، فركب البحر ، فهاج بهم ، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له : أن أخلص ، قال : أيّ شيء أقول ؟ قال : قل لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هَرَبتُ إلا من هذا ، فجاءت أمّ حكيم على هذا من الأمر ، فجعلتْ تُلِحّ عليه وتقول : يا بن عمّ ، جئتُك مِن عند خير الناس ، وأوصَل الناس ، وأبرّ الناس ، لا تُهلِك نفسك ، فوقف لها حتى أدركَتْه، فقالت : إنّي قد استأمَنتُ لك رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأمّنك ، قال:

(١) ا ، ب : « البوم » . د: «النعوم» ، تحريف ، والصواب ما أثبته ، وانظر القاموس .

أنتِ فعلتِ ؟ قالت : نعم أنا كلّمتُه ، فأمّنك ، فرجع معها ، فقالتْ : ما لقيت من غلامِك الرّوميّ ! وأخبرتْه خَبَرَه ، فقتَله عكرمةُ ، فلما دنا من مكّة قال رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه : يأتيكم عِكرمة بنُ أبي جهل مؤمِنا ، فلا تَسُبّوا أباه ، فإنّ سبّ الميتّ يؤذى الحيّ . ولا يبلُغ الميّت . فلما وَصل عِكرمة ودَخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وثب إليه صلى الله عليه وسلم وليس عليه رداء فرحا به ، ثم جلس فوق عِكرمة بين يديه ومعه زوجته منقّبة ، فقال : يا محمد ، إن هـذه أخبرتْنى أنك أمّنتَنى ؛ فقال : صدقت ، أنت آمِن ، فقال عكرمة : فإلامَ تَدْعُو ؟ فقال : إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّى رسولُ الله ، وأن تُقيمَ الصلاة ، وتُؤتى الزّكاة . . وعدّ خصال الإسلام ، فقال عِكْرمة : ما دعوتَ إلاّ إلى حقّ ، وإلى حَسن جميل ، ولقد كنتَ فينـا مِن قبل أنْ تدعوَ إلى ما دعوتَ إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً ، وأعظَمُنا برّا . ثم قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسولُ الله ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : لا تسألنى اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيْتُكَه ، قال : فإنى أسألك أن تغفرَ لى كلّ عداوة عَادَيْتُكَها أو مَسير أوضَعْتُ فيه ، أو مُقامٍ لقيتُك فيه ، أو كلام قُلتُه فى وجهك ، أو أنت غائبٌ عنه . فقال : اللهمّ اغفر له كلّ عداوة عادانيها ، وكلّ مَسير سار فيه إلىّ يريد بذلك إطفاء نُورك ، واغفر له ما نالَ منى ومن عِرْضى ؛ فى وَجهى أو أنا غائبٌ عنه . فقال عِكْرمة : رضيتُ بذلك يا رسول الله ، ثم قال : أما والله لا أدَع نفقةً كنت أنفِقُها فى صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضعفها فى سبيل الإسلام وفى سبيـل الله ، ولأجتهدنّ فى القتال بين يديك حتى أُقتلَ شهيدا ؛ قال : فردّ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله امرأته بذلك النّكاح الأول .

قال الواقدىّ : وأما صَفْوان بن أميّة فهرب حتى أتى الشّعبة ، وجعل يقول لغلامه

يسار ــ وليس معه غيرُه : وَيْحك! أُنظر من تَرَى ! فقال : هذا عُمَير بن وهب ؛ قال صفوان : ما أصنع بعُمير ؟ والله ما جاء إلّا يريد قَتْلى ، قد ظاهَرَ محمدا علىَّ ، فلحِقه ، فقال صفوان : يا عُمَير ، مالك ؟ ما كفاكَ ما صنعتَ ، حمّلتنى دَيْنَك وعيالك ، ثم جئتَ تريد قَتْلى ! فقال : يا أبا وهب ، جُعلتُ فِداكَ ! جئتُك من عند خير الناس ، وأبرّ الناس وأوصل الناس ، وقد كان عميرٌ قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله : يا رسول الله ، سيّد قومى صفوان بن أميّة خرج هاربًا ليقذف نفسه فى البحر ؛ خاف ألّا تؤمِّنَه ، فأمِّنه فداكَ أبى وأمى ! فقال : قد أمّنتُه ، فخرج فى أثره ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنك ، صفوان : لا والله حتى تأتِيَنى بعلامةٍ أعرفُها ، فرَجَع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره وقال : يا رسول الله ، جئته وهو يريدُ أنْ يَقْتل نفسه فقال : لا أرجع إلّا بعلامة أعرفها ، فقال : خذ عمامتى ، فرجع عمير إليه بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ــ وهى البُرْدُ الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة معتجراً به، برد حِبرة أحمر ــ فخرج عمير فى طلبه الثانية(1) حتى جاءه بالبُرْد فقال : يا أبا وَهب ، جئتُك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس ، مجدُه مجدُك ، وعِزّه عِزّك ، ومُلكه مُلكك ، ابنُ أبيك وأمّك ، أذكّرك الله فى نفسك ، فقال : أخافُ أن أقتَل ؛ قال : فإنه دَعاك إلى الإسلام فإن رضيتَ وإلّا سيّرك شهرين فهو أوفى الناس وأبرّهم ، وقد بعث إليك ببردِه الذى دخل به معتجرا ، أتعرِفه ؟ قال : نعم ، فأخرجه ، فقال : نعم هو هو ، فرجع صفوانُ حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجَده يصلّى العصر بالناس ، فقال : كم يصلّون ؟ قالوا : خمس صلوات فى اليوم والليلة قال : أمحمدٌ يصلّى بهم ؟ قالوا : نعم ، فلما سلّم من صلاته صاح صفْوان : يا محمد ، إن عميرَ

---

(١) ا ، ب : « ثابته » ؛ وأثبت ما فى د .

ابن وهب جاءنى ببُرْدك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم إليك ، فإن رضيت أمرا ، وإلا سيرتنى شهرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : انزل أبا وهب ، فقال : لا والله أو تبيّنَ لى ؟ قال : بل سِرْ أربعة أشهر . فنزل صفوانُ وخرج معه إلى حُنَين وهو كافر ، وأرسل إليه يستعير أدْراعه ـ وكانت مائة دِرْع ـ فقال : أطوعاً أم كَرْها ؟ فقال عليه السلام : بل طَوْعا عاريّةً مؤدّاة ، فأعاره إيّاها ، ثم أعادها إليه بعد انقضاء حُنين والطائف ، فلما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله بالجِعْرَانة يسير فى غنائم هوازن ينظر إليها ، فنظر صفوان إلى شِعب هناك مملوء نَعَما وشاءً ورعاءً ، فأدام النظر إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرْمُقه ، فقال: أباوهب : يعجبك هذا الشِّعب ! قال : نعم ، قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبيّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

قال الواقدىّ : فأمّا عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح فكان قد أسلم ، وكان يَكتُب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى ، فربّما أملى عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله « سميعٌ عليم » فيكتُب « عزيزٌ حكيم » ونحو ذلك ، ويقرأ على رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول : كذلك الله ، ويقرأ ، فافتتن ؛ وقال : والله ما يَدْرِى ما يقول : ! إنى لأكتب له ما شئتُ فلا يُنكر ، وإنّه ليوحَى إلىّ كما يوحَى إلى محمّد ، وخرج هارباً من المدينة إلى مكّة مرتدّا ، فأهدَر رسول الله دمَه ، وأمر بقتله يوم الفتح ، فلمّا كان يومئذ جاء إلى عثمان ـ وكان أخاه من الرَّضاعة ـ فقال : يا أخى ، إنّى قد أجرْتك فاحتبِسْنى ها هنا واذهبْ إلى محمّد فكلّمه فىّ ، فإن محمدا إنْ رآنى ضرَب عُنُق ، إنّ جُرْمى أعظم الجرْم ، وقد جئتُ تائبا ؛ فقال عثمان : قم فاذهب معى إليه ، قال : كلاّ ، والله إنّه إنْ رآنى ضرَبَ عنق ولم يناظرْنى ، قد أهدَرَ دمى وأصحابُه يطلبوننى فى كلّ موضع ، فقال عثمان : انطلق معى فإنّه لا يقتلك إن شاء الله ـ فلم يُرَعْ رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بعثمانَ

آخذا بيدِ عبدِ الله بن سعد واقفيْن بين يديه ، فقال عثمان : يا رسولَ الله ، هـذا أخي من الرّضاعة ، إنّ أمّـه كانت تحملني وتمشّيه وتُرضِعني وتفطِمه وتُلطِفني وتترُكه ، فهَبْه لي . فأعرض رسولُ الله صلى الله عليه وآله عنه ، وجعل عثمانُ كلّما أعرض رسولُ الله عنـه أستقبَلَه بوجهه،وأعادَ عليه هذا الـكلام ، وإنّـما أعْرض عليه السّلام عنه إرادةَ لأن يقوم رجلٌ فيضربَ عُنُقَه ، فلمّا رأى ألّا يقوم أحدٌ وعثمان قد أُنكَبَّ عليه يقبّـل رأسَه ويقول : يارسول اللهِ ، بايِعْه فِدَاكَ أبي وأمّي على الإسلام ! فقال رسول الله صـلى الله عليه وآله : نَعَمْ ، فبايعه .

قال الواقديّ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك للمسلمين : ما مَنَعكم أن يقومَ منـكم واحدٌ إلى هذا الـكلب فيقتله ــ أو قال: الفاسق ! فقال عبّـاد بن بِشْر : والّذى بعثَك بالحقّ ، إنى لأتبَع طرفَك من كلّ ناحية ، رجاء أن تشيرَ إلىّ فأضرِبَ عنقه . ويقال: إنّ أبا البشير هو الّذى قال هذا ؛ ويقال : بل قاله عمرُ بنُ الخطّاب ، فقال عليـه السلام : إنّي لا أقتلُ بالإشارة ؛ وقيل : إنّـه قال : إنّ النبيّ لا يكون له خائنةُ الأعين .

قال الواقديّ : فجعل عبدُ الله بنُ سعد يفرّ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله كلّـما رآه ، فقال له عثمان : بأبي أنتَ وأمّي ! لو ترى ابنَ أمّ عبدٍ يفرّ منك كلّما رآكَ ! فتبسّم رسولُ الله صلى الله عليـه وآله ؛ فقال : أو لم أبايِعْه وأؤمّنه ؟ قال : بلى ، ولـكنّه يتذكّر عُظْم جُرْمه في الإسلام ، فقال: إنّ الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه .

قال الواقديّ : وأمّا الحُوَيرث بنُ مَعْبد ــ وهو من وَلَد قصيّ بن كلاب ــ فإنّـه كان يؤذِي رسولَ الله صلى الله عليه وآله بمكّة ، فأهدَرَ دمَه ، فبينا هـو في منزله يوم الفتح وقد أغلق عليه بابه ، جاء عليٌّ عليه السلام يَسأل عنـــه ، فقيل له : هو في البادية ، وأخبر الحُوَيرث أنه جاء يطلبُه وتَنحّى عليٌّ عليـــه السلام عن بابه ، فخرج الحُوَيْرث يريد أن

يَهرب من بيتٍ إلى بيتٍ آخر ، فتلقاه علي عليه السلام فضرَب عنقه .

قال الواقديّ : وأمّا هبّار بنُ الأسود ، فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمر أن يُحرِقَه بالنّار ، ثم قال : إنّما يعذّب بالنار ربُّ النار ، اقطعوا يدَيْه ورجليه إن قدَرْتم عليه ، ثمّ اقتُلوه ، وكان جُرمُه أن نَخَس زينبَ بنتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لما هاجرتْ ، وضرَبَ ظهرها بالرّمح وهي حُبْلَى ، فأسقطتْ ، فلم يقدرِ المسلمون عليه يومَ الفتح ، فلمّا رجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة طَلَع هَبّار بنُ الأسود قائلا : أشهَدُ أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنّ محمدا رسول الله ، فقبل النبي صلى الله عليه وآله إسلامه ، فخرجتْ سَلْمَى مولاةُ النبيّ صلّى الله عليه وآله فقالت : لا أنعم الله بك عَيْنا ! أنتَ الّذى فعلت وفعلت ! فقال رسولُ صلّى الله عليه وآله وهبّار يعتذِر إليه : إن الإسلام محا ذلك . ونَهَى عن التّعرض له .

قال الواقديّ : قال ابن عبّاس رضى الله عنه : رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وهَبّار يَعتذِر إليه وهو يُطأطئ رأسَه استحياء ممّا يَعتذِر هبّار ويقول له : قد عفوتُ عنك !

قال الواقديّ : وأما ابن خَطَل فإنّه خرج حتّى دخل بين أستارِ الكعبة ، فأخرَجه أبو بَرْزة الأسلَميّ منها ، فضرَبَ عنقَه بين الرُّكْن والمقام ـ ويقال : بل قتَله عمّار بن ياسر ، وقيل : سعدُ بن حُريث المخزوميّ ، وقيل : شُرَيك بن عَبدة العَجْلانيّ ؛ والأثبتُ أنّه أبو بَرْزة ـ قال : وكان جُرْمه أنّه أسلَمَ وهاجَر إلى المدينة وبعَثَه رسولُ الله صلى الله عليه وآله ساعِياً[١] ، وبعث معه رجلا من خُزاعةَ فقتَله ، وساق ما أَخَذ من مال الصّدقة، ورَجَع إلى مكّة ، فقالت له قريش : ماجاء بك ؟ قال : لم أَجد دِينا خيراً من دِينكم ، وكانت له قَيْنتان : إحداهما قريني ، والأخرى قرينة ـ أو أرنب ، وكان ابن خَطَل يقول

(١) ساعيا : أي جابيا للزكاة .

الشعرَ يهجو به رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ويغنّيان به ، ويدخُل عليه المشركون بيتَه فيَشربون عنده الخمر ، ويَسمعون الغِناء بهجاء رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

قال الواقديّ : وأما مِقْيس بن صُبابة فإنّ أمّه سهميّة ، وكان يومَ الفتح عند أخواله بنى سَهْم ، فاصطبَح الخمرَ ذلك اليوم فى نَدامَى له ، وخرج ثَمِلًا يتغنّى ويتمثّل بأبياتٍ منها :

دَعِينى أصطبِحْ يا بَكْرُ إنّى ... رأيتُ الموتَ نَقّبَ عن هِشامِ
ونقّب عن أبيكِ أبى يَزيدٍ ... أخِى القَيْنات والشَّرْبِ الكِرامِ
يُخبّرنا ابنُ كَبْشَةَ أنْ سنَحْيَا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ !
إذا ما الرأسُ زالَ بمنكِبَيه ... فقد شَبِع الأنيسُ من الطّعامِ
أتقتُلُنى إذا ما كنتُ حيًّا ... وتُحيينى إذا رَمّتْ عِظامِى !

فلقيَه نُمَيلة بنُ عبد الله اللّيثىّ وهو من رَهْطه ، فضرَبه بالسيف حتّى قتَله ، فقالت أختُه ترثيه :

لَعَمرى لقد أخزَى نُميلةَ رهْطُه ... وفَجّع أصنافَ النساء بمِقيَسِ
فللّه عَيْنَا مَن رَأى مِثلَ مِقيسٍ ... إذا النُّفَساء أصبحتْ لم تخرَّسِ (١)

وكان جُرْم مِقْيَس مِن قِبَل أنّ أخاه هاشم بن صُبابة أسلَم وشَهِدَ المُرَيْسِيعَ مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فقتَله رجلٌ من رَهْط عُبادَة بن الصّامت ــ وقيل : مِن بنى عمرو ابن عَوْف وهو لا يعرفه ــ فظنَّه من المشركين ، فقضَى له رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالدِّيَة على العاقلة ، فقدِم مِقْيَس أخوه المدينةَ فأخذ دِيَته ، وأسلَم ، ثمّ عدا على قاتِل أخِيه ، فقتَله ، وهرَب مرتدًّا كافرا يَهجُو رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالشّعر ، فأهدَرَ دَمه .

---

(١) يقال : خرست المرأة تخريساً ؛ إذا أطعمت فى ولادتها ؛ والبيت فى اللسان (خرس) .

قال الواقديّ : فأما سارّة مولاةُ بنى هاشم ـ وكانت مغنّيةً نوّاحة بمكّة ، وكانت قد قَدِمَتْ على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله المدينة تَطلُب أن يَصِلَها ، وشكتْ إليه الحاجةَ وذلك بعدَ بَدْر وأُحُد ـ فقال لها : أما كانَ لكِ فى غِنائكِ ونِياحِكِ ما يُغنيك ! قالت : يا محمّد ، إنّ قريشا منذ قُتِل مَن قُتِل منهم ببَدْر تركوا استماعَ الغِناء ، فوَصَلها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وأوقَرَ لها بعيراً طعاماً ، فرجعتْ إلى قُرَيش وهى على دِينها ، وكانت يُلقَى عليها هِجاء رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فتُغَنّى به ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ الفتح أن تُقتَل ، فقُتِلت ، وأما قَيْنتا ابن خَطَل فقتَل يومَ الفتح إحداهما ، وهى أرنب ، أو قرينة ، وأمّا قريني فاستؤمِن لها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فأمّنها وعاشت حتّى ماتت فى أيام عثمان .

قال الواقديّ : وقد رُوِى أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآلِه أمر بقتل وَحْشِيّ يومَ الفتح ، فهَرَب إلى الطائف ، فلم يزل بها مقيما حتّى قَدِم مع وفد الطائف على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فدخل عليه فقال : أشهَد أن لا إله إلّا الله ، وأنّك رسولُ الله ، فقال : أوحشيّ ؟ قال : نعم ، قال : اجلس وحدِّثنى كيف قتلتَ حمزة ؟ فلمّا أخبَرَه قال : قم وغَيِّبْ عنّى وجهَك ، فكان إذا رآه توارَى عنه .

قال الواقديّ : وحدّثنى ابن أبى ذئب ومَعمَر عن الزُّهريّ ، عن أبى سَلَمة بنِ عبدِ الرحمن بن عوف ، عن أبى عَمرو بن عَدِيّ بن أبى الحمراء ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول بعد فَراغه من أمر الفتح وهو يريد الخروجَ من مكّة : أمَا واللهِ إنّكِ لخيرُ أرضِ الله ، وأحبُّ بلادِ الله إلىّ ، ولولا أنّ أهلَكِ أخرجونى ما خرجتُ .

* * *

وزاد محمّد بن إسحاق فى كتاب " المغازى " أنّ هند بنت عُتْبة جاءت إلى رسولِ الله

صلّى الله عليه وآله مع نساء قريش متنكّرة متنقّبة لحدَثها الذى كان فى الإسلام ، وماصنعتْ بحمزة حين جدعته وبقرت بطنَه عن كبده ؛ فهى تخاف أن يأخذها رسول الله صلّى الله عليه وآله بحدَثها ذلك ، فلمّا دنَتْ منه ، وقال حين بايعنه على ألّا يُشرِكن بالله شيئا قلن : نعم ؛ قال : ولا يَسرِقن ، فقالت هند : والله أنا كنت لأصيب من مال أبى سُفيان الهَنَة والهُنَيهة فما أعلم أحَلالٌ ذلك أم لا ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : وأنّكِ لهند ! قالت ، نعم ، أنا هند ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فاعفُ عمّا سَلَف عفا الله عنك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ولا يَزنِينَ ، فقالت هند : وهل تَزنى الحرّة ! فقال : لا ، ولا يقتُلْنَ أولادَهُنَّ ، فقالت هند : قد لَعَمْرِى ربّيناهم صغارا وقتلتَهم كبارا ببدْر ، فأنت وهم أعرَفُ . فضَحِك عمرُ بنُ الخطّاب من قولها حتى أسفَرتْ نَواجِذه ، قال : ولا يأتِين ببهتان [يَفْتَرِينَه][(١)] ، فقالت هند : إنّ إتيان البُهتان لقبَيح ، فقال : ولا يَعْصِينك فى معروف ؛ فقالت : ما جلسْنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصِيَك .

قال محمد بن إسحاق : ومِن جيّد شعرِ عبدِ الله بن الزّبعرَى الذى اعتذَرَ به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدِمَ عليه :

مَنَع الرُّقادَ بلابلٌ وهُمومُ ... فالليلُ ممتدُّ الرّواق بَهيمُ[(٢)]
ممّا أتانى أنّ أحمدَ لامَنِى ... فيه ، فبِتّ كأنّنى محمومُ
ياخيرَ من حملَتْ على أوْصالِها ... عَيرانَةٌ سُرُحُ اليدَيْن سَعُومُ[(٣)]

---

(١) من د .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٩ . البلابل : الوساوس المختلطة . والبهيم : الذى لا ضياء فيه . وفى ابن هشام : « والليل معتلج الرواق » .

(٣) العيرانة : الناقة التى تشبه العير (حمار الوحش) فى شدته ونشاطه . سرح اليدين : خفيفتهما . وسعوم : سريعة . وفى ابن هشام : « غشوم » .

إنّي لمتذرٌ إليــكَ من الّذِي ... أسدَيْتَ إذْ أنا في الضلال أهيمُ(١)
أيّانَ(٢) تأمُرني بأغوَى خُطّةٍ ... سَهمٌ ، وتأمُرني بــه مخزومُ
وأمــدُّ أسبابَ الرّدى ويقودُني ... أمرُ الغُواة وأمرُهم مشئوم
فاليومَ آمنَ بالنبيّ محمّـدٍ ... قلبي ، ومُخطِئ هـذه محرومُ
مضت العداوةُ وانقضت أسبابُها ... ودَعَتْ أواصرُ بيننا وحُـلومُ(٣)
فاغفر فِدًى لك والديّ كلاهما ... زَللي ، فإنــك رَاحِمٌ مرْحُوم
وعليك مِن عَلَم المَليكِ عَلامةٌ ... نورٌ أغرُّ وخاتَمٌ مختـومُ
أعطاكَ بعد محبّـةٍ برهَانَهُ ... شرفًا وبُرْهـانُ الإلـه عظيم
ولقد شَهِدْتُ بأنّ دينَك صادقٌ ... بَرٌّ وشأنـك في العبـاد جسيمُ
والله يَشهد أنّ أحمـدَ مصطفًى ... متقبَّـلٌ في الصالحين كريمُ
فرعٌ عَـلا بنيانُـه مِن هاشِمٍ ... دَوْحٌ تمكّنَ في العُلا وأرُومُ(٤)

قال الواقديّ : وفي يوم الفتح سمّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أهلَ مكّة الذين دخلها عليهم الطُّلَقاء ، لمنّــه عليهم بعد أن أظفرَهُ الله بهم ، فصاروا أرقّاء له . وقد قيــل له يوم الفتح : قد أمــكنك الله تعالى فخذ ما شئت من أقارٍ على غصون ـ يعنُون النّساء ؛ فقال عليه السلام : يأبَى ذلك إطعامُهم الضيف ، وإكرامُهم البيت ، ووَجْؤهم مناحرَ الهَدْى .

***

ثم نعود إلى تفسير مابقى من ألفاظ الفصل(٥)؛ قوله : « فإن كان فيك عَجَلٌ فاسترفِه »

(١) أسديت : صنعت . (٢) في د : « أيام » .
(٣) الحلوم : جمع حلم ؛ وهو العقل . (٤) ابن هشام :
قرمٌ عَلَا بنيانُــهُ من هاشمٍ ... فرعٌ تمكّنَ في الذُّرَا وأُرومُ
قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها » .
(٥) انظر ص ٢٥٠ من الجزء السابع عشر من هذا الكتاب

أى كن ذا رَفاهِية ، ولا تُرهِقَنّ نفسك بالعجل ، فلا بدّ من لِقاء بعضنا بعضا ، فأىّ حاجة بك إلى أن تعجل ! ثم فسّر ذلك فقال : إن أَزُرْكَ فى بلادك ، أى إن غزَوتك فى بلادِك فخليق أن يكون الله بعثنى للانتقام منك ، وإن زُرْتَنى ـ أى إنْ غزَوتنى فى بلادى وأقبلتَ بجموعك إلىّ .

كنتم . كما قال أخو بنى[1] أسد؛ كنت أسمعُ قديما أنّ هذا البيت من شِعْر بشرِ بن أبى خازم الأسَدىّ ؛ والآن فقد تصفّحتُ شعره فلم أجدْه ، ولا وقفتُ بعدُ على قائله ، وإن وَقَفْتُ فيما يُستقبل من الزّمان عليه ألحقته .

وريحٌ حاصِب ، تَحمل الحصْباء ، وهى صِغارُ الحصَى ، وإذا كانت بين أغْوار ـ وهى ما سَفُلَ من الأرض وكانت مع ذلك ريح صَيف ـ كانت أعظمَ مشقّة ، وأشدّ ضَرَرا على مَن تُلاقيه . وجُلْمود ، يمكن أن يكون عَطْفا على « حاصِب » ، ويمكن أن يكون عطْفا على « أغْوار » ، أى بين غَوْرٍ من الأرض وحَرَّةٍ ، وذلك أشدّ لأذاها لما تكسِبُه الحرّة من لَفْح السَّموم وَوَهجِها . والوجه الأوّل أليَق .

وأعضضْته أى جَعلته مَعضوضا برءوس أهلك ، وأكثر ما يأتى « أفعَلْته » أن تجعله « فاعلا » ، وهى ها هنا من المقلوب ، أى أعضَضْت رءوس أهلك به ، كقوله : « قد قطع الحبل بالمِرْوَد » .

وجدُّه عُتبة بن ربيعة ، وخاله الوليدُ بنُ عتبة ، وأخوه حَنظلة بن أبى سفيان ، قتلهم علىّ عليه السلام يوم بدر .

والأغلَفَ القلب : الذى لا بصيرة له ، كأنّ قلبه فى غِلاف ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[2] .

---

(١) وهو قوله :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضرِبُهُمْ ... بحاصب بينَ أغوارٍ وجلمُودِ

(٢) سورة البقرة ٨٨ .

والمقارِب العقل ، بالكسر : الذى ليس عقله بجيّد ؛ والعامّة تقول فيما هذا شأنه : مقارَب ، بفتح الراء .

ثم قال : الأولى أن يقال هذه الكلمة لك .

ونشدتُ الضّالّة : طَلبتُها ، وأنشدتّها : عرّفتها ، أى طلبتَ ما ليس لك .

والسائمة : المال الراعى ؛ والكلامُ خارجٌ مخرج الاستعارة .

فإن قلت : كلّ هذا الكلام يطابق بعضه بعضا إلاّ قوله : « فما أبعد قولك من فعلك » وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُعْدَ بينهما ، لأنه يَطْلب الخلافة قولا وفعلا ! فأىّ بُعد بين قوله وفعله !

قلت : لأنّ فعله البَغْى ، والخروج على الإمام الذى ثبتت إمامتُه وصحّت ، وتفريق جماعةِ المُسلمين ، وشقّ العَصا ، هـذا مع الأمور التى كانت تَظهر عليه وتقتضى الفسق ؛ من لبس الحرير ، والمَنسوج بالذهب ، وما كان يتعاطاه فى حياةِ عثمان من المنكرات التى لم تثْبت توبته منها ، فهذا فعلُه .

وأما قوله ؛ فزعمه (١) أنه أميرُ المؤمنين ، وخليفةُ المسلمين ، وهذا القولُ بعيد من ذلك الفعل جدا .

و « ما » فى قوله : «وقريب ما أشبهت» مصدرية ، أى وقريب شبهك بأعمام وأخوال. وقد ذكرنا من قُتِل من بنى أميّة فى حرُوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تقدّم ، وإليهم الإشارة بالأعمام والأخوال ، لأن أخوال معاوية من بنى عبد شمس ، كما أنّ أعمامه من بنى عبد شمس .

قوله: «ولم تماشها الهوينى » أى لم تصحبها، يصفها بالسرعة والمضىّ فى الرءوس الأعناق

---

(١) ا : « لزعمه » .

وأمّا قوله : « ادخُل فيما دَخَل فيه الناسُ وحاكِم القومَ » ، فهى الحجّة الّتى يَحتجّ بها أصحابُنا له فى أنّه لم يُسلّم قتلة عثمانَ إلى معاوية ، وهى حُجّة صحيحةٌ ، لأنّ الإمام يجب أن يُطاع ، ثمّ يتحاكَم إليه أولياء الدّم والمتّهَمون ، فإنْ حَكَم بالحقّ استدُيمت حكومتُه ، وإلّا فَسق وبَطَلت [إمامَتُه[1]] .

قوله : « فأمّا تلك الّتى تُريدها » ؛ قيل : إنّه يريد[2] التعلّق بهذه الشّبهة ، وهى قَتَلة عثمان ، وقيل : أراد به ما كان معاوية يكرّر طلبَه من أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو أن يقِرّه على الشّام وحدَه ، ولا يكلّفه البَيْعة ، قال : إنّ ذلك كمُخادَعة الصبىّ فى أوّل فِطامه عن اللّبَن بما تَصنَعه النّساء له مما يكرّه إليه الثّدىَ ويُسلِيه عنه ، ويُرغّبه فى التعوّض بغيره ، وكتابُ معاويةَ الّذى ذكرناه لم يتضمّن حديثَ الشام .

(١) من د .

(٢) فى د « يعنى » .

(٦٥)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضا :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَلَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ ؛ مِنِ انْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ ؛ فِرَارًا مِنَ الْحَقِّ ، وَجُحُودًا لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلِئَ بِهِ صَدْرُكَ ؛ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ !

فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا ، وَأَغْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا . وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا عَنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ ، وَالْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَازِحَةِ الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنُوقُ ، وَيُحَاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ ؛ وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي صَدَرًا أَوْ وِرْدًا ، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْدًا أَوْ عَهْدًا ! فَمِنَ الْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنِعْتَ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرح :

آنَ لك وأنَى لكَ بمعنًى ، أى قَرُب وحانَ ، تقول : آنَ لك أن تفعَل كذا يَئِين أيْناً ، وقال :

أَلَم يأنِ أن لى تُجْلَ عَنِّى عَمايَتِى   وأقصُرُ عن لَيلَى ، بَلَى قد أنَى لِيَا

فَجَمع بين اللغتين ، و « أنّى » مقلوبة عن « آن » ؛ ومِمّا يجرى مَجرَى المَثَل قولهم لمن يُرُونه شيئاً شديدا يُبصره ولا يشكّ فيه : قد رأيته لمحاً باصِرا ، قالوا : أى نظرا بتحْدِيق شديد ، ومَخرَجه مَخرَج رجـل لابنٍ وتامِر ، أى ذو لبَن وتَمْر ، فمعنى « باصِر » ذو بَصَر ؛ يقول عليه السلام لمعاوية : قد حانَ لك أن تَنتفع بما تَعلَمه من معاينة الأمورِ والأحوالِ وتتحقّقه يقينا بقَلْبك ؛ كما يتحقّق ذو اللّمح الباصر ما يُبصِره بحاسّة بصرِه ، وأراد ببَيان الأمور هاهنا مما يَنَتها ، وهو ما يعرفه ضرورة من استحقاق علىّ عليه السلام للخلافة دونَه ، وبراءتِه من كلّ شُبْهة يَنسُبها إليه .

ثم قال له : « فقد سلـكتَ » ، أى اتبعتَ طرائق أبى سُفْيان أبيكَ وعُتْبـة جَـدِّك وأمثالِهما مِن أهلِك ذَوِى الـكُفْر والشّقاق .

والأباطيل : جمعُ باطل على غيرِ قياس ، كأنهم جَمَعوا إبطيلا .

والاُقتحام : إلقاء النّفس فى الأمْر من غيرِ رَوّية .

والمَيْن الـكَذب . والغُرور بالضم المصدَر وبالفَتح الاُسم .

وانتحلتُ القصيدة ، أى ادّعيتها كَذِبا .

قال : « ما قد علا عنك » ، أى أنتَ دونَ الخلافة ، ولستَ مِن أهلِها والاُبتزاز : الاُستِلاب .

قال : « لما قد اُختزِن دونَك » ، يعنى التسمّى بإمرة المؤمنين .

ثمّ قال : « فِرارا من الحقّ » ، أى فعلتَ ذلك كلّه هَرَبا من التمسّك بالحقّ والدّين ، وحبًّا للكُفْر والشّقاق والتغلّب .

قال : « وجُحُودا لما هو ألزَم » ، يعنى فرض طاعةِ علىّ عليه السلام، لأنّه قد وَعَاها مَعَه ؛ لا رَيْب فى ذلك ، إمّا بالنّص فى أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله كما تَذكُره الشّيعة ــ فقد كان معاوية حاضراً يومَ الغَدير لأنّه حجّ معهم حجّة الوَداع ، وقد كان أيضا حاضراً يومَ تَبُوكَ حين قال له بمَحضَر من الناس كافّة : «أنت منّى بمَنزِلة هارُون مِن موسى » ، وقد سُمِع غيرُ ذلك ــ وإمّا بالبَيْعة كما نَذكره نحن فإنّه قد اتّصل به خبرُها ، وتَواتَر عندَه وُقوعُها ، فصار وقوعُها عنده معلوما بالضّرورة كعِلمه بأنّ فى الدّنيا بلدا اُسمها مِصر ، وإن كان ما رآها .

والظاهر من كلام أميرِ المؤمنين عليه السّلام أنّه يريد المعنى الأوّل ! ونحن نخرّجه على وَجْهٍ لا يَلزمَ منه ما تقوله الشّيعة، فنقول : لنَفرِض أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله مانصّ عليه بالخلافة بعدَه ، أليس يَعلَم معاوية وغيرُه من الصّحابة أنه لو قال له فى ألف مقام: «أنا حَرْبٌ لمن حارَبْتَ وسِلْمٌ لمن سالَمْتَ » ، ونحو ذلك من قوله : « اللّهمّ عادِ من عادَاه ، ووالِ مَن وَالاه » ، وقوله : « حربُك حَرْبى وسِلْمُك سِلْمى » ، وقوله : « أنت مع الحقّ والحقّ معك » ، وقوله : « هذا منّى وأنا منه » ، وقوله: « هذا أَخِى » ، وقوله:«يحبُّ الله ورسوله ، ويحبّه اللهُ ورسولُه »، وقولُه: «اللّهمّ ائتنِى بأحبّ خَلقِك إليك»، وقوله: « إنّه ولىّ كلّ مؤمن[ومؤمنة(١)] بعدى » ، وقوله : فى كلام قاله: « خاصِف النّعل » ، وقوله : « لا يحبّه إلّا مؤمن، ولا يُبغضه إلا مُنافِق » ، وقوله :« إنّ الجنّة لتشتاق إلى أربعة»،وجعله أوّلهم ؛ وقوله لعمّار : « تقتلك الفِئة الباغية » ، وقوله : « ستقاتل النا كِثين والقاسِطين

---

(١) من د .

والمارِقين بعدِي » ، إلى غير ذلك ممّا يَطولُ تَعدادُه جدّا ، ويحتاج إلى كتابٍ مفرد يُوضَع له، أفما كان ينبغي لمعاويةَ أن يفكّر في هذا ويتأمّله ، ويَخشَى اللّهَ ويتّقيه ! فلعلّه عليه السلام إلى هذا أشار بقوله : « وجُحوداً لمـا هو ألزَم لك من لحمِك ودَمِك ممّا قد وَعاه سَمْعُك ، ومُلِىء به صَدْرُك » .

قولُه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ! ﴾(١) كلمةٌ من الكلام الإلهيّ المقدّس .

قال : « وبعد البَيان إلّا اللّبس » ، يقال : لَبَست عليـه الأمرَ لَبْسا ، أي خَلطته ، والمضارع يَلبِس بالكسر .

قال : « فاحذَر الشبهة واُشتمالها » على اللُّبْسة بالضمّ ، يقال في الأمر لُبْسة أي اُشتباه وليس بواضح ؛ ويجوز أن يكون « اُشتمال » مصدراً مُضافا إلى معاوية ، أي اُحذَر الشّبهة واُحذر اُشتمالَك إيّاها على اللّبسة ، أي ادّراعَك بها وتقمُّصَك بها على ما فيها من الإبهام والاُشتِباه ؛ ويجوز أن يكون مصدراً مضافا إلى ضمير الشّبهة فقط ، أي اُحذر الشّبهة واُحتواءَها على اللّبسة التي فيها .

وتقول : أغدَفَت المرأةُ قِناعَها ، أي أرسلتْه على وجهها ، وأغدَف الليلُ، أي أرخَى سُدولَه ، وأصلُ الكلمة التّغطِيَة .

والجلابيب : جمع جِلْباب ، وهو الثّوب .

قال : « وأعْشَت الأبصارَ ظُلْمَتُها » : أي أكسبتها العَشَى وهو ظلمة العين . وروى « وأغشتْ » بالغين المعجمة « ظلمتَها» بالنصب ، أي جعلت الفتنة ظُلمتَها غِشاء للأبصار .

والأفانِين : الأساليب المختلِفة .

قوله : « ضعفت قُواها عن السّلم » ، أي عن الإسلام ، أي لا تَصدُر تِلكَ الأفانِينُ

---

(١) سورة يونس : ٣٢ .

المختلطة عن مُسلِم ، وكان كَتَبَ إليه يَطْلب منه أن يفرده بالشام ، وأن يولِّيَه العهدَ من بعدِه ، وألّا يكلّفه الحضورَ عنده . وقرأ أبو عمرو : ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1] ؛ وقال : ليس المعنيّ بهذا الصّلح ، بل الإسلام والإيمان لا غير ، ومعنى « ضَعُفَتْ قُواها » ، أي ليس لتلك الطّلبات والدّعاوَى والشّبُهات التي تَضمّنها كتابُك من القوّة ما يَقتضِي أن يكون المتمسّك به مُسلِما ، لأنّه كلامٌ لا يَقولُه إلا مَنْ هو ؛ إمّا كافرٌ مُنافق أو فاسق ، والكافر ليس بمسلِم ، والفاسق أيضا لَيس بمُسلِم ــ على قولِ أصحابِنا ــ ولا كافر.

ثم قال : « وأساطير لم يحْكها منكَ عِلْم ولا حِلْم » ، الأساطير : الأباطيل، واحدها أُسطورَة بالضم وإسْطارَة بالكسر والألف . وحَوْكُ الكلام : صَنْعتُه ونَظْمُه . والحِلْم : العَقْل ، يقول له : ما صدر هذا الكلام والهُجر الفاسد عن عالم ولا عاقل .

ومن رَواها « الدِّهاس » بالكسر فهو جمع دَهْس ، ومَنْ قرأها بالفتح فهو مُفرَد ، يقول ؛ هذا دَهْس ودَهاس بالفتح، مثل لَبْث ولبَاث للمكان السّهل الّذى لا يَبلُغ أن يكون رملا ، وليس هو بتراب ولا طِين .

والدِّيماس بالكسْر : السَّرَب المُظلِم تحتَ الأرض ، وفى حديث المَسيح: « إنّه سَبْط الشّعر ، كثيرُ خِيلان الوَجْه ، كأنّه خَرَج من دِيماس» ، يعني فى نَضْرَته وكثرةِ ماءِ وَجْهِه كأنّه خرج من كِنّ ؛ لأنه قال فى وصفِه : كأنّ رأسَه يَقطرُ ماء ، وكان للحجّاج سِجنٌ اسمه الدِّيماس لظُلْمته ، وأصله من دَمَس الظلام يَدمُس أيّ اشتدّ ، وليل دامِسٌ وداموسٌ ، أي مُظلم : وجاءنا فلانٌ بأمور دُمْس ، أي مُظلِمة عظيمة، يقول له : أنت فى كتابِك هذا كالخائض فى تِلكَ الأرض الرِّخْوة ، وتقوم وتقع ولا تتخلّص ، وكالخابط فى اللّيل المُظلِم يَعثُر ويَنهَض ولا يهتدِي الطريق .

---

(١) سورة البقرة ٢٠٨ وانظر تفسير القرطبي ٣ : ٢٣ .

والمَرْقَبة : الموضعُ العالي. والأعلام : جمع عَلَم ، وهو ما يُهتَـدى به في الطّرقات من المَنار ، يقول له : سَمَتْ همّتك إلى دَعوَى الخلافة ، وهي منك كالمرقَبة التي لا تُرام بتعدٍ على من يَطلُبها ، وليس فيها أعلامٌ تَهدِي إلى سلوك طريقِها ، أي الطرقُ إليها غامضة ، كالجبَل الأملسِ الّذي ليس فيه دَرَج ومَراقٍ يُسلَك منها إلى ذِروَته .

والأنُوق على « فَعُول » بالفتح كأَكُول وشَرُوب : طائر ، وهو الرّخَمة . وفي المثل: « أعزّ من بَيْضِ الأنوق »؛ لأنها تُحرزه ولا يكاد أحدٌ يَظفَر به ، وذلك لأنّ أوكارَها في رءوس الجبال والأماكن الصّعبة البعيدة .

والعَيّوق : كوكب معروف فوق زُحَل في العُلوّ ، وهذه أمثالٌ ضرَبها في بُعدِ معاوية عن الخلافة .

ثم قال : « حاشَ للهِ أن أولّيَك شيئاً من أمور المسلمين بَعـدِي » ، أي مَعاذَ الله ، والأصلُ إثبات الألف في « حاشا » ، وإنما اتّبع فيها المصحف .

والوِرْد والصّدَر: الدّخول والخروجُ ، وأصلُه، في الإبل والماء . ويَنهَدإليك عبادالله، أي يَنهَض. وأُرتِجَتْ عليك الأمورُ : أُغلِقت .

وهذا الكتابُ هو جواب كتاب وَصَل من معاوية إليه عليه السلام بعد قَتْل عليّ عليه السلام الخوارجَ ، وفيه تلويحٌ بما كان يقوله من قبْل : إنّ رسول الله وَعَدني بقتالِ طائفةٍ أخرى غيرِ أصحابِ الجَمَل وصِفّين ، وإنّه سمّاهم المارِقين ، فلمّا واقَعهم عليه السلام بالنّهرَوان وقتَلهم كلّهم بيوم واحد وهم عَشَرة آلافِ فارسٍ أحبّ أن يذكّر معاوية بما كان يقول من قبلُ ، وَيَعِدُ به أصحابَه وخواصّه ، فقال له : قد آن لك أن تَنتفِع بما عايَنت وشاهَدْتَ معاينة ومُشاهَدةً ، من صدق القول الّذي كنتُ أقولُه للنّاس ويَبلغك فتَستهزِئْ به .

(٦٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبدالله بن العباس ، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ ، أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ ؛ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ ، وَإِحْيَاءُ حَقٍّ .

وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

* * *

الشرح :

هذا الفَصْل قد تقدّم شرحُ نظيره ، وليس فى ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تفسير ، ولكنّا سنَذكُر مِن كلام الحكماء والصالحين كلماتٍ تُناسبه .

[نبذ من كلام الحكماء]

فمن كلام بعضهم : ما قُدِّر لك أتاك ، وما لم يُقدَّر لك تعدَّاك ، فعلام تفرح بما لم يكن بدٌّ من وصوله إليك ، وعلام تحزَن بما لم يكن ليقدم عليك !

ومن كلامهم : الدنيا تقبل إقبالَ الطالب ، وتدبِر إدبار الهارب ، وتَصِل وصالَ المَهالك، وتُفارق فراقَ المُبغض التارك ، فخيرُها يَسير ، وعيشُها قصير ، وإقبالها خدعة ، وإدبارُها

فَجْأة ، ولذّاتُها فانية ، وتَبِعاتها باقية ، فاغتَنِمْ غفلة الزّمان ، وانتهزْ فرصَةَ الإمكان ، وخذ من نفسِك لنفسِك ، وتزوّد من يَوْمِك لغَدِك قبل نَفادِ المُدّة ، وزوال القُدْرَة ، فلكلّ امرئٍ من دنياه ما ينفعُه على عمارة أُخْراه .

ومن كلامهم : من نَكَد الدّنيا أنّها لا تَبقى على حالة ، ولا تَخلو من استحالة ، تُصلِح جانبا بإفسادِ جانب ، وتسرّ صاحبا بمساءةِ صاحب ؛ فالسّكون فيها خَطَر ، والثّقة إليها غَرَر ، والالتجاء إليها مُحال ، والاعتماد عليها ضلال .

ومن كلامهم : لا تَبتهِجنّ لنفسك بما أدركتَ من لذّاتها الجِسْمانيّة ، وابتهج لها بما تناله من لذّاتها العقليّة . ومن القول بالحقّ ، والعمل بالحقّ ، فإنّ اللّذّاتِ الحسّيّة خيالٌ ينفد ، والمعارفَ العقليّة باقيةٌ بقاءَ الأبد .

(٦٧)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ ، وَذَاكِرِ[1] الْعَالِمَ ، وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ .

وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا ، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا .

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْمَفَاقِرِ وَالْخَلَّاتِ ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا .

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[2] فَالْعَاكِفُ : الْمُقِيمُ بِهِ ، وَالْبَادِي : الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ ؛ وَالسَّلَامُ .

***

(١) في د « وذكر » . (٢) سورة الحج ٢٥ .

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكر قُثَم ونسبه . أمره أن يقيمَ للنّاس حجّهم ، وأن يذكّرهم بأيّام الله ، وهى أيّام الإنعام ، وأيّام الانتقام ، لتحصُل الرغبة والرّهبة .

واجلس لهم العَصْرين : الغَداةَ والعَشىّ .

ثم قسّم له ثمرةَ جلوسِه لهم ثلاثة أقسام : إمّا أن يفتىَ مُسْتفتيا من العامّة فى بعض الأحكام ، وإمّا أن يعلّم متعلّما يطلُب الفقْه ، وإمّا أن يُذاكر[1] عالما ويُباحِثه ويُفاوِضه ، ولم يَذكُر السّياسة والأمورَ السّلطانيّة لأنّ غرضه متعلّق بالحجيج ، وهم أضيافه ، يقيمون ليالى يسيرةً ويقفِلون ؛ وإنّما يذكر السّياسة وما يتعلّق بها فيما يَرجِع إلى أهل مكّة ، ومن يدخل تحت ولايتِه دائما ، ثمّ نهاه عن توسّط السُّفَراء والحُجّاب بينه وبينهم ، بل ينبغى أن يكون سفيرَه لسانُه ، وحاجبَه وجهُه ، ورُوِى « ولا يكن إلّا لسانُك سفيراً لك إلى الناس » بجعْل «لسانك» اسم كان مثل قوله :﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾[2]، والرواية الأولى هى المشهورة ، وهو أن يكون « سفيرا » اسم كان ، و « لك » خبرُها ، ولا يصحّ ما قاله الراونديّ : إنّ خبرَها « إلى الناس » ، لأنّ « إلى » هاهنا متعلّقة بنفس «سَفير» ، فلا يجوز أن تكون الخبر عن «سفير»،تقول : سفرتُ إلى بنى فلان فى الصّلح ، وإذا تعلّق حرفُ الجرّ بالكلمة صار كالشىء الواحد .

ثم قال : فإنّها إن ذِيدت أى طُرِدَتْ ودُفعت .

كان أبو عبّاد ثابتُ بن يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجَةَ يشتِمُ السائل ، ويسطو عليه ويُخجِله ، ويُبَكِّته ساعةً ثمّ يأمر له بها ؛ فيقوم وقد صارت إليه ، وهو يذمّه ويلعنه قال علىّ بنُ جَبلة العكوّك :

---

(١) فى د « يذكر » .   (٢) سورة النمل ٥٦ .

لعَنَ اللهُ أبا عَبّادَ لعناً يتوالَى
يُوسع السائلَ شتماً ثمّ يُعطيه السّؤالا

وكان الناسُ يَقِفون لأبي عَبّاد وقتَ رُكوبه، فيتقدّم الواحدُ منهم إليه بقصّته ليناوله إيّاها، فيركُله برِجْله بالرّكاب، ويَضرِبه بسَوْطه، ويطير غضباً، ثمّ لا ينزل عن فرسه حتّى يقضيَ حاجَتَه، ويأمُر له بطَلِبته، فينصرف الرجلُ بها وهو ذامٌّ له ساخطٌ عليه؛ فقال فيه دِعْبل:

أَوْلَى الأُمور بضَيْعةٍ وفسادِ مُلْكٌ يدبِّرُه أبو عَبّادِ[1]
متمدِّدٌ بدواتِه جُلساءه[2] فمضرّجٌ ومخضّبٌ بمِدادِ
وكأنّه من دَيْرِ هِزْقلَ مُفلتٌ حَرِبٌ يَجُرُّ سَلاسِل الأقيادِ[3]
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين صِفادَه بأشدَّ منه في يدِ الحدّادِ

وقال فيه بعضُ الشّعراء:

قُل للخليفة يابنَ عمّ محمّدٍ قيِّدْ وزيرَكَ إنّه ركّالُ
فلسوْطه بين الرءوس مَسالكٌ ولرِجْله بين الصّدور مجالُ

والمفاقر: الحاجات؛ يقال: سدّ اللهُ مَفاقره، أي أغنَى اللهُ فَقْره، ثمّ أمرَه أن يأمر أهلَ مكّة ألّا يأخذوا من أحَد من الحجيجِ أجرة مَسكَن، واحتجّ على ذلك بالآية، وأصحاب أبي حَنيفة يتمسّكون بها في امتناع بَيْع دُور مكّة وإجارتها، وهذا بناء على أنّ

---

(١) ديوانه ٧١، وروايته: «أمر يدبره أبو عباد» وبعده هناك:

خَرِقٌ عَلَى جُلَسَائِهِ فكَأَنّهُمْ حَضَرُوا لملحمةٍ ويوم جِلادِ

(٢) الديوان: «يسطو على كتابه بدواته».

(٣) الديوان: «حرد» ودير هزقل: مجتمع المجانين كان.

المسجدَ الحرام هو مكّةَ كلّها ، والشافعيّ يَرَى خلافَ ذلك ، ويقول : إنّه الكعبة ، ولا يمنع من بَيْع دُورِ مَكّةَ ولا إجارتها ، ويَحتجّ بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾[١] ، وأصحاب أبي حنيفة يقولون : إنّها إضافة اختصاص لا إضافة تمليك ، كما تقول : جلّ الدّابة ، وقرأ « سَوَاء » بالنصب على أن يكون أحد مفعولى « جعلْنا » أي جعلناه مُستوِياً فيه العاكف والباد ، ومن قرأ بالرفع جعل الجملة هي[٢] المفعول الثاني .

(١) الحج ٤ . (٢) ف د « على » .

(٦٨)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي رحمه الله قبل أيام خلافته :

أمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ[1] الْحَيَّةِ ، لَيِّنٌ مَسُّهَا ، قَاتِلٌ سَمُّهَا ، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا ، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا ، وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ إِلَى مَحْذُورٍ ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ ؛ وَالسَّلَامُ .

***

الشَّـرْحُ :

[سلمان الفارسي وخبر إسلامه]

سَلْمان ، رجلٌ من فارِسَ من رَامَهُرْمُز ؛ وقيل : بل من أصبهانَ ، من قريةٍ يقال لها جَيّ ، وهو معدودٌ من مَوالِي رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ؛ وكُنيتُه أبو عبد الله ، وكان إذا قيل : ابنُ مَن أنتَ ؟ يقول : أنا سَلْمان ، ابنُ الإسلام ، أنا مِن بني آدم .

وقد رُوِى أنه قد تَداولَه أربابٌ كثيرة ، بِضعةَ عشرَ رَبّا ؛ من واحد إلى آخَر حتّى أفضَى إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله[2] .

ورَوَى أبو عمَر بنُ عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " أنّ سَلْمان أتَى رسولَ الله

---

(١) في د « كمثل » .

(٢) الاستيعاب ٦٣٤ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) ، وبعدها هناك : « ومن الله عليه بالإسلام » .

صلّى الله عليه وآله بصَدَقة ، فقال : هـذه صدقةٌ عليك وعلى أصحابك ، فلم يَقْبَلْها ، وقال : إنه لا تَحِلّ لنا الصدقة ، فرفعها، ثم جاء من الغَدِ بمِثلِها وقال: هَدِيّة هذه، فقال لأصحابه : كلوا.

واُشتراه من أربابِه ، وهم قومٌ يهود بدَراهِمَ ، وعلى أن يَغرِس لهم من النّخيل كذا وكذا ، ويَعمَل فيها حتى تُدرِك ، فغَرَس رسولُ الله صلى الله عليه وآله ذلك النخلَ كلّه بيَدِه إلّا نخلةً واحدة غَرَسَها عمرُ بنُ الخطّاب ، فأطعَم النّخل كلّه إلّا تلك النخلة ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله : « مَن غَرَسها » ؟ قيل : عمر ؛ فقَلَعها وغرَسَها رسول الله صلّى الله عليه وآله بيَدِه فأطعَمَت [1] .

قال أبو عمر : وكان سَلمانُ يَسِفُّ [2] الخوص وهو أميرٌ على المدائن ويَبيعه ويأكُل منه ، ويقول : لا أُحِبّ أن آكُلَ إلّا من عَمَل يدي ، وكانَ قد تعلّم سَفّ الخُوصِ من المَدِينة .

وأوّل مَشاهِده الخَندَق ، وهو الّذي أشار بحَفْرِه، فقال أبو سُفْيان وأصحابُه لما رأَوْه : هذه مَكيدَة ما كانت العرب تَكيدها .

قال أبو عمر : وقد رُوِي أنّ سَلْمان شَهِد بَدْر وأُحُدا، وهو عبدٌ يومَئذ ؛ والأكثر أنّ أوّل مَشاهِدِه الخَنْدق ، ولم يَفُتْه بعد ذلك مَشهَد .

قال : وكان سَلْمان خَيِّرا ، فاضِلا ، حَبْرا ، عالما ، زاهدا ، متقشّفا .

قال : وذَكَر هشامُ بنُ حَسّان عن الحسَن البَصْرىّ ، قال : كان عَطاءُ سَلمانَ خمسةَ آلاف ، وكان إذا خرج عطاؤه تَصدّق به ، ويأكُلُ من عَمَل يده ، وكانت له عَباءةٌ يَفرِش بعضَها ويَلبَس بعضها .

---

(١) بعدها في الاستيعاب : « من عامها » .

(٢) يسف الخوص ، أي ينسجه ،وفي اللسان : « وفي حديث أبي ذر، قالت له امرأة : ما في بيتك سفة ولا هفة ؛ السفة : ما يسف من الخوص كالزبيل ونحوه » .

قال : وقد ذكر ابن وَهْب وابنُ نافع أنّ سلمان لم يكن له بيت، إنّما كان يَستظِلّ بالجُدُر والشَّجَر ، وأنّ رجلا قال له : ألا أبني لك بيتا تسكُن فيه ؟ قال : لا حاجة لى فى ذلك ؛ فما زال به الرجلُ حتى قال له : أنا أعرفُ البَيْتَ الذى يوافقُك ؛ قال : فصِفْه لى ، قال : أبني لك بَيْتا إذا أنتَ قمتَ فيه أصابَ رأسَك سَقْفُه ، وإن أنتَ مَدَدتَ فيه رِجْلَيْك أصابَهما [الجدار (١)] ؟ قال : نَعمْ ، فَبَنَى له .

قال أبو عمر : وقد رُوِى عن رَسولِ اللهصلى الله عليه وآله من وجوه أنّه قال : «لو كان الدّين فى الثّريّا لَنَاله سَلْمان » ، وفى روايةٍ أخرى « لَناله رجل من فارِس » .

قال : وقد رَوَيْنا عن عائشةَ قالت : كان لسَلْمان مَجلسٌ مِنْ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ينفرد به باللّيل حتّى كاد يَغلِبنا على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

قال : وقد رُوِى من حديثِ ابن بُرَيْدة ، عن أبيه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « أمرَنى ربى بحُبّ أربعة ، وأخبرَنى أنه يحبّهم : علىّ ، وأبو ذرّ ، والمِقْداد ، وسَلْمان » .

قال : وروَى قتادة عن أبى هُرَيرة ، قال : « سَلْمان صاحبُ الكِتابَيْن » يَعنى الإنجيلَ والقرآن .

وقد روَى الأعمش ، عن عَمْرو بن مرّة ، عن أبى البَخْترِىّ ، عن علىّ عليه السلام أنّه سُئِل عن سَلْمان فقال : عَلِم العِلْمَ الأوّل ، والعِلْمَ الآخِر ، ذاكَ بحرٌ لا يُنزَف ، وهو منّا أهلَ البَيْت .

قال : وفى روايةِ زاذانَ ، عن علىٍّ عليه السلام : سَلمانُ الفارسىّ كلُقمانَ الحكيم .

قال : وقال فيه كَعْب الأحبار : سَلْمانُ حُشِىَ عِلْما وحِكْمة .

---

(١) من « د » .

قال: وفى الحديث المَرْوِىّ أنّ أبا سُفْيان مرّ على سَلْمان وصُهَيب وبلال فى نفرٍ من المسلمين فقالوا: ما أخذتِ السيوفُ من عُنُق عدوّ الله مأخَذَها - وأبو سُفْيان يَسمَع قولَهم - فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لِشَيْخِ قريشٍ وسيّدِها! وأتى النبيّ صلى الله عليه وآله وأخبَره فقال: يا أبا بكر، لعلّك أغضبتَهم! لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ الله، فأتاهم أبو بكر، فقال أبو بكر: يا إخوتاه، لعلّى أغضبتُكم! قالوا: لا يا أبا بكر، يَغفِر الله لك.

قال: وآخَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بينَه وبين أبى الدّرداء لمّا آخَى بين المسلمين.

قال: ولِسلمانَ فضائلُ جَمّة، وأخبارٌ حِسان؛ وتوفّى فى آخِر خلافةِ عُثمانَ سنة خمس وثلاثين؛ وقيل: توفّى فى أوّل سنة ستّ وثلاثين. وقال قوم: توفّىَ فى خلافة عمرَ، والأوّل أكثَر.

* * *

وأمّا حديثُ إسلام سَلمانَ فقد ذَكره كثيرٌ من المحدّثين[١] ورَوَوْه عنه، قال: كنتُ ابنَ دِهْقانٍ[٢] قَرْيَة جَىّ من أصبهان، وبلغ من حُبّ أبى لى أنْ حبَسَنى فى البيت كما تُحبَس الجارية، فاجتهدتُ فى المجوسيّة حتّى صرتُ قَطَنَ[٣] بيت النار، فأرسَلَنى أبى يوماً إلى ضَيْعة له، فمررتُ بكَنيسةِ النصارى، فدخلتُ عليهم، فأعجبتْنى صلاتُهم، فقلت: دِين هؤلاء خير من دينى؛ فسألتُهم: أين أصلُ هذا الدّين؟ قالوا: بالشام، فهربْتُ مِن والدى حتّى قدِمتُ الشام، فدخلتُ على الأسْقُف[٤] فجعلتُ أخدُمه وأتعلّم منه، حتّى حضرَتْه الوَفاة، فقلتُ: إلى مَنْ تُوصِى بى؟ فقال: قد هَلَك الناس وتركُوا دينَهم إلّا رجلا بالمَوْصِل فالحقْ به، فلمّا قَضَى نَحْبَه لحقتُ بذلك الرّجل

(١) وقد ذكر خبر إسلامه أيضا ابن هشام؛ أورده فى السيرة ١ : ٢٣٣ - ٢٤٢.

(٢) الدهقان: شيخ القرية فى بلاد فارس.

(٣) قطن النار: خادمها.

(٤) الأسقف: من وظائف النصرانية، وهو فوق القسيس ودون المطران.

فلم يَلبَث إلّا قليلا حتى حضرتْه الوفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ توصِي بي؟ فقال : ما أعلم رجلا بقي على الطّريقة المستقيمة إلّا رجلا بنَصِيبين ، فلحقتُ بصاحب نَصيبينَ . قالوا : وتلك الصَّوْمَعة اليومَ باقية ، وهي الّتي تعبّد فيها سَلْمان قبلَ الإسلام . قال : ثمّ احتُضِر صاحب نَصيبين ، فبعَثني إلى رجل بعَمّوريّةَ من أرض الروم ، فأتيتُه وأقمتُ عنده ، واكتسبتُ بُقَيْراتٍ وغُنَيْمات ، فلما نَزَل به الموت قلتُ له : بمَن توصِي بي ؟ فقال : قد ترَكَ النـاسُ دينَهم ، وما بقيَ أحـدٌ منهم على الحقّ ؛ وقد أظلّ زمانُ نبيّ مبعوث بدِينِ إبراهـيمَ ، يَخرُج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حَرّتين ، لها نخـل ، قلت : فما علامَتُه ؟ قال : يأكل الهديّة ، ولا يأكل الصّدقة ، بين كتِفَيه خاتَمُ النبوّة .

قال : ومر بي رَكْب من كلْب ، فخرجتُ معهم ، فلمّا بلغوا بي وادي القُرى ظلموني وباعوني من يهودِيّ ، فكنتُ أعمل له في زَرْعه ونخله ، فبيْنـا أنا عنده إذ قدِم ابن عمٍّ له ، فابتاعني منه ، وحملني إلى المدينـة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُهـا ، وبعث اللهُ محمـدا بمكة ، ولا أعلم بشيء من أمره ، فبينا أنا في رأس نخلة إذ أقبلَ ابنُ عمٍّ لسيّدي ، فقال : قاتل الله بني قَيْـلة ، قد اجتمعوا على رَجُلٍ بقُبـاءَ قدم عليهمْ من مَـكة ، يزعمون أنه نبيّ ؛ قال : فأخذَني القُرّ والانتفاض ، ونزلتُ عن[1] النخـلة ، وجعلتُ أستقصي في السّؤال ، فما كلّمَني سيدي بكلمة ، بل قال : أَقْبِلْ على شأنِك ، ودَعْ ما لا يَعنِيك . فلمّا أمسَيْت أخذتُ شيئاً كان عندي من التمر ، وأتيتُ به النبيّ صلّى الله عليـه وآله فقلت له : بلغني أنك رجلٌ صالح ، وأن لك أصحاباً غُرَباء ذَوي حاجة ، وهـذا شيء عندي للصدقة ، فرأيتـكم أحقّ به مِن غيركم ، فقال عليه السلام لأصحابه : كلوا ، وأمسك فلم يأكل ؛ فقلت في نفسي : هذه واحدة ، وانصرفتُ ، فلما كان من الغد أخذتُ ما كان بقيَ عندي وأتيته به ، فقلت له : إني رأيتُك لا تأكل الصدقة ، وهذه هديّة ،

(١) ب « من » .

فقال : كلوا وأكل معهم ، فقلتُ إنه لهوَ ، فأكببت عليه أقبّله وأبكي ؛ فقال : مالك ؟ فقصَصْت عليه القصّة ؛ فأعجبه ، ثم قال : يا سَلْمان ، كاتِبْ صاحِبك ، فكاتبته على ثلثمائة نخلة وأربعين أوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار : « أعينوا أخاكم »، فأعانوني بالنخل حتى جمعت ثلثمائة ودية ، فوضعها رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، فصحّت كلّها ، وأتاه مالٌ من بعض المَغازي ، فأعطاني منه ، وقال : أدِّ كتابَتك ، فأدّيت وعَتَقت .

وكان سَلْمان مِن شيعة عليّ عليه السلام وخاصّته ، وتزْعُم الإماميّة أنه أحدُ الأربعة الّذين حَلَقوا رءوسهم وأتوه متقلّدى سيوفِهم في خبر يَطُول ؛ وليس هذا موضع ذكره ، وأصحابنا لا يخالفونهم في أن سلمان كان من الشّيعة ، وإنما يخالفونهم في أمرٍ أزيد من ذلك ؛ وما يذكره المحدثون من قوله للمسلمين يوم السقيفة : كرديد ونكرديد محمولٌ عند أصحابنا على أن المراد صنعتمْ شيئاً وما صنعتم ، أي استخلفتم خليفةً ونعم ما فعلتم ، إلا أنكم عدلتم عن أهل البيت ، فلو كان الخليفة منهم كان أولى ؛ والإمامية تقول : معناه : « أسلمتم وما أسلمتم » ، واللفظة المذكورة في الفارسية لا تُعطى هذا المعنى ، وإنما تدلّ على الفعل والعمل لا غير ، ويدل على صحّة قول أصحابنا أن سلمان عمل لعمر على المدائن ، فلو كان ما تنسبه الإماميّة إليه حقًّا لم يعمل له .

* * *

فأما ألفاظ الفَصْل ومعانيه فظاهرة ، ومما يُناسِب مضمونه قول بعض الحكماء : تعَزّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه ، بقلّة صحبتِه لك إذا أُعْطِيته .

وكان يقال : الهالِك على الدنيا رجلان : رجلٌ نافس في عِزّها ، ورجلٌ أَنِفَ مِن ذُلّها .

ومرّ بعض الزهّاد بباب دارٍ وأهلُها يبكون مَيْتاً لهم ؛ فقال : واعجبا لقومٍ مسافرين ! يبكون مسافرا قد بلغ مَنزله !

وكان يقال : يابن آدم ، لا تأسف على مَفْقود لا يردُّه عليك الفَوْت ، ولا تَفْرَح بمَوْجود لا يتركُه عليك الموت .

لقى عالمٌ من العُلَماء راهبا فقال : أيُّها الراهب ، كيف ترى الدنيا ؟ قال : تُخْلِق الأبدان ، وتجدّد الآمال ، وتُباعِد الأمنيّة ، وتقرّب المنيّة ؛ قال : فما حالُ أهلها ؟ قال : مَن ظفر بها نَصَب ، ومن فاتَتْه أَسف ؛ قال : فكيف الغِنَى عنها ؟ قال: بقطع الرّجاء منها ؛ قال : فأىّ الأصحاب أبرّ وأوفى ؟ قال : العمل الصالح ؛ قال : فأيّهم أضرّ وأنكى ؟ قال : النفسُ والهوى ؛ قال : فكيف المخرج ؟ قال : في سلوك المَنهج ، قال : وبماذا أسلكه ؟ قال : بأن تخلع لِباس الشّهوات الفانية ، وتعمل للدّار الباقية .

(٦٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني :

وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَانْتَصِحْهُ ، وَأَحِلَّ حَلَالَهُ ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ ، وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا ، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضًا ، وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ .

وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ .

وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ وَاعْتَذَرَ مِنْهُ . وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنِبَالِ الْقَوْمِ ، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .

وَاكْظِمِ الْغَيْظَ ، وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ .

وَاحْـذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ ، وَيُنْـكَرُ عَمَلُهُ ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ .

وَاسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ ، وَقِلَّةِ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَاقْصِرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ .

وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ ، وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ . وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ .

وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ . وَأَطِعِ اللهَ فِي جُمَلِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا . وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا ، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا ، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا ، وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا .

وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا . وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ .

وَوَقِّرِ اللهَ ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ ، وَاحْذَرِ الْغَضَبَ ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ؛ وَالسَّلَامُ .

***

الشَّرْحُ :

[الحارث الأعور ونسبه]

هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهو الحارث بنُ عبد الله ابن كعب بن أسد بن نَخْلة بن حَرث بن سَبْع بن صَعْب بن معاوية الهَمْدانيّ ، كان أحد

الفُقَهاء ، له قولٌ فى الفُتْيا ، وكان صاحب علىّ عليه السلام ، وإليه تنسب الشِّيعة الخطاب الذى خاطبه به فى قوله عليه السلام :

ياحارِ هَمْدان من يَمُتْ يَرَنِى مِنْ مؤمنٍ أو منافقٍ قِبَلَا

وهى أبياتٌ مشهورة قد ذكرْناها فيما تقدّم .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع :

منها قوله : « وتمسَّكْ بِحَبْـل القرآن » ، جاء فى الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْن فقال : أحدهما كتابُ الله ، حبل ممدود من السماء إلى الأرض طَرَف بيد الله وطرف بأيديكم » .

ومنها قوله : « انتصحْه » أى عُدَّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه .

ومنها قوله : « وأحِلَّ حلاله وحَرِّم حرامه » ، أى احكم بين الناس فى الحلال والحرام بما نصّ عليه القرآن .

ومنها قوله : « وصدِّق بما سلف من الحق » أى صدِّق بما تضمَّنه القرآن من أيام الله وَمَثُلاته فى الأمم السالفة لما عصوْا وكذّبوا .

ومنها قوله : « واعتبِر بما مضى من الدّنيا لما بقى منها » ، وفى المثل : إذا شئت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك ، وقال الشاعر :

وما نحنُ إلّا مثلهم غير أننا أقمنا قليلًا بعدهمْ ثمّ نرحَلُ[1]

ويناسب قوله : « وآخرُها لاحقٌ بأولها ، وكلها حائل مُفارق » قوله أيضا عليه السلام

---

(١) فى د « وترحلوا » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

في غير هذا الفصل الماضي : « للمقيم عِبرة ، والميت للحيّ عِظة ، وليس لأمس عـودة ، ولا المرء من غدٍ على ثقة ، الأول للأوسط رائد ، والأوسط للأخير قائد ؛ وكلٌّ بكلٍّ لاحق ، والكلُّ للكلِّ مُفارق » .

ومنها قوله : «وعَظِّم اسم الله أن تذكره إلّا على حَقّ » ، قال الله سبحانه: ﴿ ولا تجعلوا اللهَ عُرضةً لأيمانكُمْ ﴾[١] ، وقد نهى عن الحلف بالله في الكذب والصدق ، أمّا في أحدهما فحرّم وأما في الآخر فكروه، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغوِ القولِ والهزء والعبث.

ومنها قوله : «وأكثر ذكر الموت ومابعد الموت» ، جاء في الخبر المرفوع : « أكثروا ذكر هاذم[٢] اللذّات » ، وما بعد الموت : العقابُ والثوابُ في القبر وفي الآخرة .

ومنها قوله : « ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق » ، هذه كلمةٌ شريفة عظيمة القدْر ، أي لا تتمنّ المـوتَ إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة ، وتُنْقِذك من النار ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود : ﴿ إنْ زعمتمْ أنكم أولياء للهِ مِنْ دُونِ الناس فتمنَّوُا الموتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ ولا يتمنَّوْنه أبداً بما قدّمتْ أيديهمْ واللهُ عليمٌ بالظّالمين ﴾[٣] .

ومنها قوله : « واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ، ويكرهه لعامة المسلمين ، واحذر كل عمل يُعمل في السر ، ويُستحيا منه في العلانية ، واحذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه » ، وهذه الوصايا الثلاث متقاربةٌ في المعنى ، ويشملها معنى قول الشاعر :

لا تنهَ عن خُلق وتأتيَ مثلهُ عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ[٤]

---

(١) سورة البقرة . (٢) هاذم اللذات ، من الهذم وهو القطع .

(٣) سورة الجمعة ٦ ، ٧ . (٤) لأبي الأسود الدؤلي من قصيدته الميمية ، أوردها صاحب الخزانة في ٣ : ٦١٨ .

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(١) .

ومن كلام الجُنيد الصوفيّ : لِيكُن عَمَلُك من وراء سترك كعَمَلك من وراء الزّجاج الصافى . وفى المثل وهو منسوبٌ إلى علىّ عليه السلام : إيّاك وما يُعتذرُ منه .

ومنها قوله : « ولا تجعَل عِرْضك غرَضا لنبال القوم » ، قال الشاعر :

لا تستثِرْ أبداً ما لا تَقُومُ له ... ولا تَهيجنّ من عِرِّيسِهِ الأَسَدَا(٢)
إنّ الزّنابيرَ إنْ حرّكتَها سَفَهاً ... مِن كورها أوجعتْ مِن لَسْعِها الجَسَدا

وقال :

مَقالةُ السُّوء إلى أهلها ... أسرَعُ من مُنْحَدِرٍ سائِلِ
ومَنْ دعَا الناسَ إلى ذَمّه ... ذَمّوه بالحقّ وبالباطلِ

ومنها قوله : « ولا تُحدِّث الناسَ بكلّ ما سمعتَ ، فكفى بذلك كَذِبا » ، قد نهى أن يحدّث الإنسان بكلّ ما رأى من العَجائب فضْلا عمّا سَمِع ، لأنّ الحديثَ الغريبَ المعجبَ تُسارِع النفسُ إلى تكذيبه ، وإلى أن تقوم الدّلالة على صِدْقه قد فَرَط من سوء الظنّ فيه ما فرط .

ويقال : إنّ بعض العَلويّة قال فى حَضْرة عَضُد الدولة ببغداد : عندنا فى الكُوفة نَبِقٌ وَزْنُ كلّ نَبِقةٍ مثقالان . فاستطرَف المَلِك ذلك ، وكاد يكذّبه الحاضرون ، فلمّا قام ذكر ذلك لأبيه ، فأرسَل حماماً كان عنده فى الحال إلى الكوفة يأمر وكلاءه بإرسالِ مائةِ حمامةٍ ، فى رجلى كلّ واحدة نبقتان من ذلك النّبق ، فجاء النبق فى بُكْرة الغدِ وحُمل إلى عَضُد الدّولة ، فاستحسَنه وصدّقه حينئذ ، ثم قال له : لَعَمرى لقد صدَقت ،

---

(١) هود ٨٨ (٢) العريسة : مأوى الأسد .

ولكن لا تحدّث فيا بعدُ بكلّ ما رأيتَ من الغرائب ، فليس كلّ وقت يتهيّأ لك إرسال الحمام .

وكان يقال : الناس يكتبون أحسنَ ما يسمعون ، ويحفَظون أحسنَ ما يكتبون ، ويتحدّثون بأحسن ما يحفَظون ؛ والأصدق نوع تحت جنس الأحسن .

ومنها قوله : «ولا تردّ على الناس كلّ ما حدّثوك ، فكفى بذلك جهْلا» ، من الجهل المبادرة بإنكار ما يسمَعه ، وقال ابنُ سينافى آخر ,, الإشارات ،، : إيّاك أن يكون تكيّسك وتبرّؤك من العامّة ، هو أن تنبرى منكِراً لكلّ شيء ، فلذلك عجْز وطَيْش ، وليس الخرْق فى تكذيبك ما لم يستبِنْ لك بعد جليّته دون الخرق فى تصديقك بما لم تقُم بين يديْك بيّنةٌ ، بل عليك الاعتصام بحبْل التوقّف وإن أزْعجك استنكار ما يُوعيه سمْعك ممّا لم يبرهن على استحالته لك ، فالصواب أن تسرّح أمثالَ ذلك إلى بُقْعة الإمكان ، ما لم يَذُدك عنها قائمُ البرْهان .

ومنها قوله : « واكظم الغَيْظ » قد مدَح الله تعالى ذلك فقال : ﴿ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ (١) ، ورُوِى أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صَحْفة فيها طعام حارّ، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه ، فغَضِب، فقال له : ﴿والكاظمين الغيظ﴾؛ قال:قد كظَمْت ، قال:﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوتُ، قال ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١)، قال: أنت حرّ لوجه الله ، وقد نَحَلتُك ضَيْعتى الفلانيّة .

ومنها قوله : « واحلُم عند الغضَب » ، هذه مُناسَبة الأولى، وقد تقدّم منّا قولٌ كثيرٌ فى الحِلْم وفضله ؛ وكذلك القول فى قوله عليه السلام : « وتجاوَزْ عند القدرة » ، وكان يقال : القُدْرة تذهب الحفيظة .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٤ .

ومنها قوله : « واصفحْ مع الدّولة تكنْ لكَ العاقبة » ؛ هذه كانت شيمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشيمة عليّ عليه السلام ؛ أمّا شيمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله فظفِرَ بمشركى مكّة وعفا عنهم ، كما سبق القولُ فيه فى عام الفتح ؛ وأمّا عليّ عليه السلام فَظفِرَ بأصحاب الجمل وقد شقّوا عصا الإسلام عليه ، وطَعَنوا فيه وفى خلافتِه ، فعفا عنهم ، مع علمه بأنّهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد ، ويَصيرون إلى معاوية ، إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم ، وهذا أعظمُ من الصّفح عن أهل مكّة ، لأنّ أهل مكّة لم يَبقَ لهم لمّا فُتِحت فئةٌ يتحيّزون إليها ، ويُفسِدون الدّين عندها .

ومنها قوله : « واُستَصلِح كلّ نعمةٍ أنعمها الله عليك » معنى اُستَصلِحْها اُستَدِمْها ، لأنّه إذا استدامها فقد أصلَحها ، فإنّ بقاءَها صلاحٌ لها ، واستدامتها بالشكر .

ومنها قوله : « ولا تضيّعنّ نعمة من نعم الله عندكَ » ، أي واسِ الناسَ منها ، وأحْسِن إليهم ، واُجعل بعضها لنفسك وبعضها للصّدقة والإيثار ، فإنّك إن لم تفعلْ ذلك تكنْ قد أضعْتَها .

ومنها قوله : « وليُرَ عليك أثرُ النّعمة » قد أمَر بأنْ يُظهر الإنسان على نفسه آثارَ نعمةِ الله عليه ، وقال سبحانه : ﴿ وأمّا بنعمةِ رَبّكَ فحدِّثْ ﴾[1] . وقال الرشيد لجعفر : قمْ بنا لنمضي إلى منزل الأصمعيّ ، فمضيا إليه خِفْية ومعهما خادمٌ معه ألفُ دينار ليدْفَع ذلك إليه ، فدخَلا دارَه فوجدا كساء جَرْداءَ ، وباريّة[2] سَمْلاء ، وحصيرا مقطوعا ، وخباءً قديمة ، وأباريق من خزف ، ودَواةً من زُجاج ، ودَفاترَ عليها التراب وحيطانا مملوءةً من نَسْج العناكِب ، فوَجَم الرشيدُ ، وسأله مسائلَ غثّةً لم تكن من غرَضه ، وإنما قطع بها خَجَله ؛ وقال الرشيد لجعفر : ألا ترى إلى نفس هذا المهين ، قد بَرَرْناه بأكثر

---

(١) الضحى ١١ . (٢) البارية : الحصيرة .

من خمسين ألفَ دينار وهذه حالُـه ، لم تَظهر عليه آثارُ نعمتنا ! واللهِ لا دفعتُ إليه شيئاً ، وخرج ولم يُعطِه .

ومنها قوله : « واعلم أنّ أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله » ، أى أفضلهم إنفاقا فى البرّ والخير من مالِه ، وهى التّقدمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾[1] ، فأمّا النفس والأهل ، فإنّ تقدِمتهما فى الجهاد ، وقد تكون التّقدمة فى النّفس بأن يَشفع شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السّلطان بكلام طيّب ، وثناء حَسَن ، وأن يُصلِح بين المُتخاصِمَين ، ونحو ذلك . والتّقدِمة فى الأهل أن يحجّ بولَده وزَوْجته ويكلّفهما المشاقّ فى طاعة الله ، وأن يؤدِّب ولده إن أذنَب ، وأن يقيمَ عليه الحدّ ، ونحو ذلك .

ومنهاقوله : « وما تُقدّمْ من خير يَبقَ لكَ ذُخرُه وما تؤخره يكنْ لغيرك خيرُه » ،وقد سبق مثلُ هذا ، وأنّ ما يتركُه الإنسانُ بعده فقد حُرِم نفعه ، وكأنّما كان يكدَح لغيره ، وذلك من الشّقاوة وقلة التوفيق .

ومنها قوله : « واحذر صحابَةَ من يَفِيلُ رأيه » الصَّحابة بفتح الصاد ، مَصدَر صحبت والصَّحابة بالفتح أيضا جمعُ صاحب ، والمرادُ ها هُنا الأوّل ، وفالَ رأيُه : فَسَد؛ وهذا المعنى قد تكرّر ، وقال طرَفة :

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرِينِهِ   فإنّ القَرِينَ بالمُقارن يَقتدِى

ومنها قوله : « واسكُن الأمصار العظام » ، قد قيل : لا تسكن إلا فى مصرٍ فيه سوقٌ قائمة ، ونهرٌ جارٍ ، وطبيبٌ حاذق ، وسلطانٌ عادل ، فأما منازل الغَفْلة والجفاء ، فمِثلُ قُرَى السّواد الصغار ، فإنّ أهلها لا نورَ فيهم ، ولا ضوء عليهم ، وإنما هم كالدّوابّ

---

(١) سورة البقرة ١١٠ .

والأنعام ، هَمُّهم الحَرْث والفِلاحة ، ولا يفقهون شيئاً أصْلًا ، فمجاوَرتهم تُعمِى القلب ، وتُظلِم الحسّ ، وإذا لم يَجِد الإنسانُ مَن يُعِينه على طاعةِ الله وعلى تَعلُّم العِلم قصَّر فيهما .

ومنها قوله : « وأقصر رأيَك على ما يَعْنيك » ؛ كان يقال : من دَخَل فيما لا يَعْنيه فاتَه ما يَعْنِيه .

ومنها نَهيهُ إيّاه عن القُعود فى الأسْواق ؛ قد جاء فى المَثَل : السُّوق محلّ الفُسوق . وجاء فى الخبر المرفوع : « الأسواقُ مَواطنُ إبليس وجندِه » ، وذلك لأنّها قلّما تخلو عن الأيْمان الكاذبة ، والبيُوع الفاسدة ، وهى أيضا مَجمَع النّساء المُومِسات ، وفجّار الرجال ، وفيها اجْتِماعُ أرباب الأهواء والبِدَع ، فلا يخلو أن يتجادَل اثنان منهم فى المذاهب والنِّحَل فيُفضِى إلى الفِتَن .

ومنها قوله: « وانظر إلى من فُضِّلْتَ عليه » ؛ كان يقال : انظُر إلى مَن دُونَك ، ولا تَنظُر إلى مَنْ فَوْقَك . وقد بيّن عليه السلام السرّ فيه فقال : إنّ ذلك من أبواب الشكر ، وصَدَق عليه السلام ، لأنك إذا رأيتَ جاهلا وأنتَ عالم ، أو عالمًا وأنت أعلَمُ منه ، أو فقيراً وأنتَ أغنَى [منه](١) ؛ أو مُبتلًى بسَقَم وأنتَ مُعافًى عنه ، كان ذلك باعثا وداعِياً لك إلى الشكر .

ومنها نَهيُه عن السّفر يومَ الجمعة ، ينبغى أن يكون هذا النهىُ عن السَّفَر يومَ الجمعة قبلَ الصلاة ، وأمّا بعدَ الصلاة ، فلا بأس به ، واستَثْنَى فقال : إلّا فاصلا فى سبيل الله ، أى شاخِصاً إلى الجهاد .

قال : « أو فى أمرٍ تُعذَر به » ، أى لضرورة دَعَتْك إلى ذلك .

---

(١) تكملة من ا .

وقد وَرَد نهيٌ كثيرٌ عن السّفر يومَ الجمعة قبـل أداء الفرض ، على أنّ من الناس من كَرِه ذلك بعد الصّلاة أيضا ، وهو قولٌ شاذّ .

ومنها قولُه : «وأطعِ اللهَ فى جُمَلِ أمورك» ، أى فى جُمْلَتِها ، وفيها كلّها ، وليس يَعنِى فى جُمَلَتِها دونَ تفاصِيلها . قال : «فإنّ طاعةَ الله فاضلةٌ على غيرها» ، وصدَق عليه السلام ، لأنّها توجِب السعادةَ الدائمة ، والخلاصَ من الشّقاء الدائم ، ولا أفضلَ ممّا يؤدّى إلى ذلك .

ومنها قوله: « وخادِعْ نَفسَك فى العبادة » ؛ أمَرَه أن يتلطّف بنفسه فى النّوافل ، وأن يُخادِعَها ولا يقْهرَها فتَملَّ وتَضجَر وتترُك[1] ، بل يأخـذ عفوَها ، ويتوخّى أوقات النشاط ، وانشراحَ الصّدر للعبادة .

قال : فأمّا الفرائض فحُكمُها غيرُ هذا الحكم ، عليك أن تقوم بها ؛ كرِهَتها النفسُ أو لم تَكرَهْها . ثمّ أمَرَه أن يقوم بالفريضة فى وقتِها ، ولا يؤخّرها عنـه فتصيرَ قضاء .

ومنها قولُه : « وإيّاكَ أن يَنزِل بك المنون وأنتَ آبِقٌ من ربّك فى طَلَب الدّنيا » ؛ هذه وصيّة شريفة جدّا ، جَعَل طالبَ الدّنيا المُعرِضَ عن الله عند موْته كالعَبْد الآبِق يقدم به على موْلاه أسيراً مكتوفاً ناكِسَ الرأس ، فما ظنّك به حينئذ !

ومنها قولُه: « وإيّاكَ ومصاحَبَة الفُسّاق ، فإنّ الشرّ بالشرّ مُلحَق » ؛ يقول : إنّ الطباع يَنزِع بعضُها إلى بعض ، فـلا تَصحَبَنّ الفُسّاق فإنّـه يَنزِع بك ما فيك من طَبْع الشرّ إلى مساعدَتهم على الفُسوق والمَعصِية ، وما هو إلّا كالنّار تَقوَى بالنـار ، فإذا لم تُجاوِرْها وتُمازِجْها نارٌ كانت إلى الانطِفاء والخُمُود أقرب .

---

(١) : « وتزل » .

ورُوِي « مُلحِق » بكسر الحاء ، وقد جاء ذلك في الخبر النبويّ « فإن عذابَك بالكفّار مُلحِق » بالكسر .

ومنها قولُه : « وأحِبَّ أحبّاءه » ، قد جاء في الخبر : « لا يَكمُل إيمانُ امرئٍ حتّى يُحبَّ مَن أحَبَّ الله ، ويُبغض من أبغَض الله » .

ومنها قولُه : « واحذَر الغَضَب » ، قد تقدّم لنا كلامٌ طويل في الغَضَب . وقال إنسانٌ للنبيّ صلّى الله عليه وآله : أوصِني ؛ قال : « لا تَغْضَب » ، فقال : زِدْني ؛ فقال : « لا تغضب » ؛ قال : زِدْني ؛ قال : « لا أجِدُ لك مَزِيداً » ، وإنّما جعلَه عليه السلام جُنْدا عظيما من جُنودِ إبليس ، لأنّه أصلُ الظّلم والقتْل وإفسادِ كلّ أمرٍ صالح ، وهو إحدى القوّتين المشئومَتَيْن اللّتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان ، وهما مَنبَع الشرّ : الغَضَب والشّهْوَة .

(٧٠)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حُنيف الأنصارى - وهو عامله على المدينة ، فى معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ ، فَكَفَى لَهُمْ غَيًّا ، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا ، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا ، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبُعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا ! إِنَّهُمْ وَاللهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ ، إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم نسبُ سَهْل بن حُنيف وأخيه عثمانَ فيما مضى .

ويتسلّلون : يَخرُجون إلى معاويةَ هارِبين فى خِفْية واستتار .

قال : « فلا تأسَفْ » أى لا تحزن . والغَىّ : الضلال .

قال : « ولك منهم شافيا » ، أى يكفيك فى الانتقام منهم وشفاء النّفس من عقوبَتِهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية .

قال : ارض لمن غاب عنك غَيْبَته ، فذاك ذَنْبٌ عِقابُهُ فيه .

والإيضاع : الإسراع . وَضَعَ البعيرُ أى أسرعَ ، وأَوْضَعَه صاحبُه ، قال :

رَأَى بَرْقًا فَأَوْضَعَ فوقَ بَكْرٍ فلا يَكُ ما أسالَ ولا أَعامَا

ومُهْطِعون : مُسرعون[1] أيضا ، والأَثَرَة : الاستئثار ، يقول : قد عرَفوا أنّى لا أقسِم إلّا بالسّويّة ، وأنّى لا أنفّل قوما على قومٍ ، ولا أُعطِى على الأحْساب والأنْساب كما فعل غيرى ، فترَكونى وهرَبوا إلى مَنْ يَستأثِر ويُؤْثِر .

قال : « فبُعْدا لهم وسُحْقا » ، دعا عليهم بالبُعْد والهلاك .

ورُوِى أنّهم لم « يَنفروا » بالنّون ، من نَفَرَ ؛ ثم ذكر أنّه راجٍ من الله أن يذلّل له صَعْبَ هذا الأمر ، ويُسهّل له حَزْنه ؛ والحَزْن ، ما غَلُظ من الأرض ، وضِدّه السّهل .

(١) فى ا : « مهطعين : مسرعين » .

(٧١)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدي وقد كان استعمله على بعض النواحي ، فخان الأمانة في بعض ما ولاه من أعماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا ، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَادًا ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ ؛ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ . وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

قال الرضي رضي الله عنه :

الْمُنْذِرُ [بن الجارود][1] هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عِطْفَيْهِ مُخْتَالٌ فِي بُرْدَيْهِ ، تَفَّالٌ فِي شِرَاكَيْهِ .

* * *

---

(١) من ا

الشرح :

[ذكر المنذر وأبيه الجارود]

هو المُنذِر بنُ الجارود . واسم الجارود بِشْرُ بنُ خُنَيس بن المعلّى ؛ وهو الحارثُ بنُ زَيد بن حارثة بن معاوية بنِ ثعلبة بن جَذيمة بنِ عَوف بن أنمار بن عَمْرو بن وديعة بن لُكَيْز ابن أفصى بن عبد القَيْس بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَديلة بن أَسَد بن رَبيعة بن نِزار بن مَعَدّ ابن عدْنان ، بيتُهم بيتُ الشّرف في عَبْد القيس ، وإنّما سُمّي الجارودُ لبَيْتٍ قاله بعضُ الشُّعراء فيه في آخره :

* كما جردَ الجارودُ بكرَ بنَ وائل * (١)

ووفد الجارودُ على النبيّ صلى الله عليه وآله في سنة تسع ، وقيل : في سنة عشرٍ .

وذكر أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ في كتاب « الاستيعاب »(٢) أنه كان نصرانيّا فأسلم وحَسُن إسلامُه ، وكان قد وَفَد مع المُنذِرِ بنِ ساوَى في جماعةٍ من عبدِ القَيْس ، وقال :

شهدتُ بأنّ اللهَ حقٌّ وسامحتْ ... بناتُ فؤادي بالشّهادة والنَّهْض

فأبلِغْ رسولَ الله منّى رسالةً ... بأنّى حَنيفٌ حيثُ كنتُ من الأرْضِ

قال : وقد اُختُلِف في نسبه اُختلافا كثيرا ، فقيل : بِشْر بن المعلّى بن خُنَيس ؛ وقيل : بِشْر بن خُنَيس بن المعلّى ، وقيل : بِشْر بن عَمْرو بن العَلاء ، وقيل : بِشْر بنُ عمرو بن المعلّى ، وكنيته أبو عتّاب ، ويكنى أيضاً أبا المُنذِر .

وسكَن الجارودُ البَصْرة ، وقُتِل بأرض فارسَ ؛ وقيل : بل قُتِل بنهاوَنْد مع النّعمان ابن مُقرّن . وقيل : إنّ عثمان بنَ العاص بعثَ الجارود في بَعْثٍ نحو ساحل فارس ، فقتِل

---

(١) صدره :

* وَدُسْناهُمُ بالخَيلِ مِنْ كُلِّ جانبٍ *

(٢) الاستيعاب (نهضة مصر) ٢٦٢ ــ ٢٦٤ .

بموضع يُعرَف بعَقَبة الجارود ، وكان قبلَ ذلك يُعرَف بعَقبة الطِّين ؛ فلمّا قتِل الجارودُ فيه عرّفه الناسُ بعَقَبة الجارود ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين .

وقد رَوَى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أحاديث وروِيَ عنه ، وأمّه دريمكة بنت رُوَيم الشّيبانية .

وقال أبو عُبَيدة معمر بنُ المثنى فى كتاب " التّاج " : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أكرم الجارود وعبدَ القيس حين وَفَدا إليه، وقال للأنصار : « قوموا إلى إخوانكم ، وأشبه الناس بكم »؛ قال : لأنهم أصحاب نَخل ، كما أنّ الأوْس والخزْرج أصحابُ نخل ، ومسكنهم البَحْرين واليمامة . قال أبوعبيدة : وقال عمرُ بنُ الخطّاب : لولا أنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : إنّ هذا الأمر لا يكون إلّا فى قريش لما عدلتُ بالخلافة عن الجارود ابن بشر بن المعلّى ، ولا تُخالجنى فى ذلك الأمور .

قال أبوعبيدة : ولعبد القيس ستّ خصال فاقت بها على العرَب ؛ منها : أسوَدُ العرَب بَيْتاً ، وأشرَفُهم رَهْطا الجارود هو ووَلَدُه .

ومنها أشجَع العرَب حكيمُ بنُ جَبَلة ، قُطِعتْ رجله يومَ الجمل ، فأخَذَها بيَدِه وزَحَف على قاتله فضرَبَه بها حتى قتَله ، وهو يقول :

يا نفسُ لا تُراعِى   إن قُطعتْ كُراعِى

* إنّ معى ذِراعى *

فلا يُعرَف فى العرب أحدٌ صَنَع صَنِيعه .

ومنها أعبَدُ العرَب هَرِم بن حَيّان صاحب أوَيْس القرَنى .

ومنها أجود العرَب عبدُ الله بن سواد بن همّام ، غزا السِّنْد فى أربعة آلاف ، ففتحها وأطْعم الجيش كلّه ذاهبا وقافلا ، فبلغه أنّ رجلا من الجيش مَرِض ، فاشتهى خَبِيصا ،

فأمر باتّخاذ الخبيص لأربعة آلافِ إنسان ، فأطعمهم حتّى فضل ، وتقدّم إليهم ألّا يُوقد أحدٌ منهم ناراً لطعام فى عسكره مع ناره .

ومنها أخطب العرب مَصقَلة بن رقبة ، به يُضرب المَثَل فيقال : أخطبُ من مَصْقلة .

ومنها أهدَى العرب فى الجاهليّة وأبعَدُهم مغاراً وأثرا فى الأرض فى عَدْوه ، وهو دُعَيْمِيص[1] الرّمل كان يُعرَف بالنجوم هدايةً ، وكان أهدى من القَطا ، يدفن بيضَ النّعام فى الرّمل مملوءًا ماء ثم يعود إليه فيستخرجه .

فلمّا المُنذِر بن الجارُود فكان شريفا ، وابنُه الحكَم بن المُنذِر يتلوه فى الشّرف ، والمنذِر غيرُ معدود فى الصّحابة ، ولا رأى رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، ولا وُلِد له فى أيامه ، وكان تائها معجَبا بنفسه ، وفى الحكَم ابنِه يقول الراجز :

يا حكَم بن المنذرِ بن الجارُودْ أنتَ الجوادُ ابنُ الجوادِ المحمودْ

* سُرادقُ المجدِ عليك ممدودْ *

وكان يقال : أطوعُ الناسِ فى قومه الجارُودُ بن بِشْر بن المعلّى ، لمّا قُبِض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فارتدّت العرب ، خطب قومَه فقال : أيها الناس ، إن كان محمّد قد مات فإنّ الله حيّ لا يموت ، فاستمسِكوا بدينكم ، ومن ذهب له فى هذه الفتنة دينارٌ أو درهم أو بقرةٌ أو شاة فعليّ مثلاه ، فما خالفَه من عبد القيس أحد .

***

قوله عليه السلام : « إنّ صلاح أبيك غرّنى منك » ، قد ذكرنا حال الجارود وصحبتَه وصلاحه ، وكثيرا ما يغترّ الإنسان بحال الآباء فيظنّ أن الأبناء على منهاجهم ، فلا يكون والأمرُ كذلك ﴿ يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميّت ويُخرِجُ الميّت من الحيّ ﴾ .

قوله: « فيما رُقِّىَ » بالتشديد ، أى فيما رفع إلىّ ؛ وأصله أن يكون الإنسان فى موضع عالٍ

---

(١) ب : دعميص » ، وانظر القاموس .

فيرق إليه شيء ، وكأنّ العلوّ ها هنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير، ونحوه قولهم: تعالى باعتبار علوّ رُتبة الآمر على المأمور. واللّام فى «لهواك» متعلّقة بمحذوف دلّ عليه «انقيادا»، ولا يتعلّق بنفس « انقياد » لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر .

والعتاد : العُدّة .

قوله : « وتصل عشيرتك »، كان فيما رُقِّىَ إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفِيضه على رَهْطه وقومِه ويُخرِج بعضه فى لذّاته ومآربه .

قوله « لَجمل أهلِكَ »، العَرَب تَضرِب بالجَمَل المَثَل فى الهوان قال:

لقد عَظُم البعيرُ بغَير لُبٍّ ولَمْ يَستغن بالعِظَم البعيرُ[1]
يُصرّفه الصبيّ بكلّ وجهٍ ويحبسه على الخَسْف الجريرُ
وتَضرِبه الوليدةُ بالهراوَى فلا غِيَرٌ لديهِ ولا نَكيرُ

فأمّا شِسْع النَّعْـل فضَرْب المثل بها فى الاستهانة مشهور ، لابتذالها ووطئها الأقدام فى التراب .

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كَذَا ، إلى أن قال :«أو يشرك فى أمانة »؛ وقد جَعَل الله تعالى البلاد والرعايا أمانةً فى ذمّة الإمام، فإذا استعمل العمّال على البلاد والرعايا فقد شرَكهم فى تلك الأمانة .

قال : « أو يؤ من على جباية » ، أى على اُستِجْباء الخراج وجمعه ، وهذه الرّواية الّتى سمعناها ، ومن الناس من يَرْويها « على خيانة » وهكذا رواها الراونديّ ، ولم يرو الرواية الصّحيحة التى ذكرناها نحن ؛ وقال يكون « على » متعلّقة بمحذوف ، أو « بيؤمن » نفسها ، وهو بعيدٌ ومتكلَّف .

---

(١) للعباس بن مرداس السلمى ، ديوان الحماسة ٤١٩ — بشرح المرزوق .

ثم أمَره أن يُقبل إليه ، وهذه كناية عن العَزْل .

فأمّا الكلمات الّتى ذكرها الرضىّ عنـه عليه السلام فى أمر المُنذر فهى دالّة على أنّه نَسبَه إلى التّيه والعُجْب، فقال: «نظّار فى عِطفيه»، أى جانبيه ، ينظر تارةً هكذا وتارة هكذا ، ينظُر لنفسه ، ويَستحسِن هَيْئَته ولبسَته ، وينظر هل عنده نَقْص فى ذلك أو عَيْب فيستدركه بإزالته ، كما يفعل أربابُ الزّهْو ومن يدّعى لنفسه الحسن والملاحة .

قال : « مُختالٌ فى بُرْدَيْه : يمشى الُخيلاء عُجْبا » قال محمّد بنُ واسع لابن له وقد رآه يختال فى برد له : أُدنُ ، فدنا فقـال : من أين جاءَتْك هذه الُخيَلاء وَيلك ! أمّا أُمّك فأَمَة ابتَعتُها بمائتى درهم ، وأمّا أبوك فلا أكثَرَ الله فى النّاس أمثاله .

قوله : «تفّال فى شِراكيه» ، الشّراك : السّيْر الّذى يكون فى النّعل على ظَهْر القدم . والتَّفْل بالسكون : مصدر تَفَل أى بَصَق ، والتّفَل محركا البُصاقُ نفسه ، وإنّما يفعله المعُجب والتّائه فى شِراكَيْه ليذهب عنهما الغُبـار والوسخ ، يَتفُل فيهما ويمسحهما ليعودا كالجديدين .

(٧٢)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم شرحُ مثل هذا الـكلام ، وهذا معنًى مطروق ، قد قال الناس فيه فأكثروا ، قال الشاعر :

قد يُرزَق العاجزُ الضعيفُ وما   شَدّ بكُورٍ رَحْلا ولا قَتَبا[1]
ويُحرَم المرء ذو الجلادة والرّأى   ومن لا يَزال مُغـتَرِبا

ومن جيّد ما قيل فى هذا المعنى قول أبى يعقوب الخُرَيمى[2] :

هل الدهرُ إلّا صَرفُه ونوائبُـه   وسَرّاء عيش زائل ومصائبُـه
يقولُ الفَتَى ثَمّرتُ مالى وإنّما   لوارِثِه ما ثَمّر المـالَ كاسِبُه

---

(١) من أبيات نسبها صاحب الأغانى (١٥ : ٢١ ـ ساسى) إلى ابن عبدل الأسدى برواية مخالفة .
(٢) ب : « الخرمى » تحريف .

يُحَاسِبُ فيه نفسَه فى حياتِهِ ... ويتركه نَهْباً لمن لا يحَاسِبهْ

فكُلْه وأطعِمْهُ وخالِسْهُ وارثا ... شَحِيحاً ودهراً تعتريك نوائبُـهْ

أرى المال والإنسان للدّهر نُهبةً ... فلا البخلُ مبقيه ولا الجود خارِبُـهْ

لكلِّ امرئٍ رزق وللرزق جالب ... وليسَ يفوت المرءَ ما خطَّ كاتبُـهْ

يخيبُ الفتى من حَيثُ يُرْزَقُ غيره ... ويُعْطى الفتى مِنْ حَيثُ يحرَمُ صاحِبُهْ

يُساق إلى ذا رِزقُه وهو وَادِعٌ ... ويُحرَمُ هذا الرزقَ وهو يغالِبُـهْ

وإنّك لا تدري : أرزقُك فى الذى ... تطالِبُـه أم فى الذى لا تطالبُـهْ !

تناسَ ذنوب الأقربينَ فإنه ... لكل حميم راكبٌ هو راكبُـهْ

له هفوات فى الرّخاء يشوبُها ... بنصرة يوم لا توارَى كَوَاكِبُـهْ

تراه غُدُوّاً ما أمِنتْ وتتّقى ... بجبهته يوم الوَغَى مَنْ يحارِبُهْ

لكلّ امرئٍ إخوان بؤس ونعمة ... وأعظمهمْ فى النائبات أقاربُـهْ

(٧٣)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ ، لَمُوَهِّنٌ رَأْيِي ، وَمُخَطِّئٌ فِرَاسَتِي ، وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ ، وَتُرَاجِعُنِي السُّطُورَ ، كَالْمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تَكْذِبُهُ أَحْلَامُهُ ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ ؛ لَا يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ ، وَلَسْتَ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ .

وَأُقْسِمُ بِاللهِ أَنَّهُ لَوْلَا بَعْضُ الِاسْتِبْقَاءِ ، لَوَصَلَتْ مِنِّي إِلَيْكَ قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ ، وَتَنْهَسُ اللَّحْمَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

* * *

الشرح :

روى « نوازع » جمع نازعة ، أى جاذبة قالعة ، وروى « تهلس اللحم » و « تلهس » بتقديم اللام ، وتهلس بكسر اللام : تذيبه حتى يصير كبدن به الهُلاس ، وهو السلّ ؛ وأمّا تلهس فهو بمعنى تلحس ، أبدلت الحاء هاء ؛ وهو عن لحست كذا بلسانى بالكسر ، ألحسه ، أى تأتى على اللحم حتى تلحسه لحسا ، لأن الشيء إنما يلحس إذا ذهب وبقى أثره ، وأما « ينهس » وهى الرواية المشهورة ، فمعناه يعترق .

وتأذَن بفتح الذال، أى تسمع .

قوله عليه السلام « إنى لموهِّن رأيى » بالتشديد؛ أى إنى لائم نفسى ، ومستضعف رأيى فى أن جملتك نظيرا ، أكتُبُ وتجيبنى ، وتكتب وأجيبك ؛ وإنما كان ينبغى أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانك .

***

فإن قلت : فما معنى قوله : « على التردد ؟ » .

قلت : ليس معناه التوقّف ، بل معناه التراداد والتكرار ؛ أى أنا لائم نفسى على أنى أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عمّا تكتبه .

***

ثم قال : وإنك فى مناظرتى ومقاومتى بالأمور التى تحاولها ، والكتب التى تكتبها كالنائم يرى أحلاما كاذبة ، أو كمن قام مقاما بين يدى سلطان ، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر ، أو ليخطب بأمر فى نفسه ، قد بهظه مقامه ذلك ؛ أى أثقله فهو لا يدرى : هل ينطق بكلام هو له ، أم عليه ! فيتحيّر ويتبلّد ، ويدركه العِيُّ والحَصَر .

قال : وإن كنتَ لستَ بذلك الرّجل فإنك شبيه به ؛ أمّا تشبيهه بالنائم ثم ذى الأحلام، فإن معاوية لو رأى فى المنام فى حياة رسولِ الله صلى الله عليه وآله أنه خليفة يخاطب بإمرة المؤمنين ، ويحارب عليا على الخلافة ، ويقوم فى المسلمين مقامَ رسول الله صلّى الله عليه وآله لما طاب لذلك المنام تأويلا ولا تعبيرا ، ولعدّه من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام ؛ وكيف وأنّى له أن يخطر هذا بباله ، وهو أبعد الخلق منه ! وهذا كما يخطر للنفّاط [1] أن يكون ملِكاً ، ولا تنظرنّ إلى نسبه فى المناقب [2] ، بل انظر إلى أن

---

(١) النفاط : مستخرج النفط ؛ وهو الزيت .

(٢) حاشية ب : « قوله ولا تنظرن فى المناقب » ؛ قال فى القاموس: « النقاب ، بالكسر: الرجل العلامة والبطن ، ومنه : « فرخان فى نقاب » يضر للمتشابهين ؛ فعلى هذا يريد بالمناقبة المشابهة بالنسب .

الإمامة هي نبوة مختصرة ، وأن الطليق المعدود من المؤلفة قلوبهم المكذّب بقلبه وإن أقرّ بلسانه ، الناقص المنزلة عند المسلمين ، القاعد في أخريات الصفّ ؛ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين ، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمها ، ويكون للمؤمنين أميرا ، ويصير هو الحاكم في رقاب أولئك العظماء من أهل الدّين والفَضْل ! وهذا أعجب من العَجب ، أن يجاهد النبيّ صلّى الله عليه وآله قوماً بسيفه ولسانه ثلاثا وعشرين سنة ، ويلعنهم ويبعدهم عنه ، وينزل القرآن بذمهم ولعنهم ، والبراءة منهم ، فلما تمهدّت له الدولة ، وغلب الدّين على الدّنيا ، وصارت شريعة دينيةّ محكمة ، مات فشيَّد دينه الصالحون من أصحابه ، وأوسعوا رقعة ملّته ، وعظم قدرُها في النفوس ، فتسلمها منهم أولئك الأعداء الذين جاهدهم النبيّ صلّى الله عليه وآله فملكوها وحكموا فيها ، وقتلوا الصُّلحاء والأبرار وأقارب نبيِّهم الذين يظهرون طاعته ، وآلت تلك الحركة الأولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم ؛ فليته كان يبعث فيرى معاوية الطّليق وابنه ، ومَرْوان وابنه خلفاء في مقامه ، يحكمون على المسلمين ، فوضح أنّ معاوية فيما يراجعه ويكاتبه به ؛ كصاحب الأحلام .

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاما قد بهظه ؛ فلأن الحجج والشّبه والمعاذير التي يذكرها معاوية في كتبه أوهن من نسج العنكبوت ، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام يخبط خبط العشواء ، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من النّاس أنه سفه وباطل .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « لولا بعض الاستبقاء » ؟ وهل كانت الحال تقتضي أن يستبقي ! وما تلك القوارع التي أشار إليها ؟

= يعني أن معاوية وإن كان في النسب له بعض المشابهة بنسبه عليه السلام من حيث القرشية والقرابة ولكنه إذا نظرت إلى أن الإمامة هي نبوة مختصرة لا يصلح لها إلا من اجتمعت فيه فضائل من النبوة ومناقب تضارعها وسوابق تتلوها ، وأما الطلقاء وأبناء الطلقاء فليس لهم أن يتعرضوا لأن يكونوا من أدنى موالي أربابها » .

قلت : قد قيل : إنّ النبي صلى الله عليه وآله فوّض إليه أمرَ نسائه بعد موته ، وجعل إليه أن يقطع عصمة أيّتهن شاء إذا رأى ذلك ، وله من الصحابة جماعةٌ يشهدون له بذلك ، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أمّ حبيبة ، ويبيح نكاحها الرّجال عقوبة لها ولمعاوية أخيها ، فإنها كانت تُبغض عليا كما يُبغضه أخوها ، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه ، وهذا قول الإماميّة ، وقد رووا عن رجالهم أنه عليه السلام تهدّد عائشة بضربٍ من ذلك ، وأما نحن فلا نصدّق هذا الخبر ، ونفسّر كلامه على معنى آخر ، وهو أنه قد كان معه من الصّحابة قوم كثيرون سمِعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله يلعن معاوية بعد إسلامه ، ويقول : إنّه منافق كافر ، وإنّه من أهل النار ، والأخبار فى ذلك مشهورة ؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك ، ويسمعهم قولهم ملافظةً ومشافهة لفعل ، ولكنه رأى العدول عن ذلك ، مصلحةً لأمر يعلمه هو عليه السلام ، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه ، وإنما أبقى عليه .

وقلت لأبى زيد البصريّ : لِمَ أبقَى عليه ؟ فقال : والله ما أبقَى عليه مراعاة له ، ولا رفقاً به ، ولكنه خاف أن يفعل كفعله ، فيقول لعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أبى أرطاة وأبى الأعور وأمثالهم : ارووا أنتم عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ علياً عليه السلام منافق من أهل النار ، ثم يُحمل ذلك إلى أهل العراق ؛ فلهذا السبب أبقَى عليه .

(٧٤)

الأصْـلُ :

ومن حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن - ونقل من خط هشام ابن الـكلبيّ :

هَـذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا ، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ ، وَلَا لِغَضَبِ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْمًا ، وَلَا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْمًا، عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ اللهِ كَانَ مَسْئُولًا .

وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

***

الشَّـرْحُ :

الحِلْف : العهد ، أي ومن كتاب حِلْف ؛ فحذف المضاف . واليمن : كلّ مَن ولده قحطان ؛ نحو حِمْيَر ، وعكّ ، وجُذام ، وكِنْدة ، والأزد ، وغيرهم .

وربيعة ، هو ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهم بكْر وتغلِب ، وعبد القيس .

وهشام ، هو هشام بن محمّد بن السائب الـكلبيّ ، نسّابة ابن نسّابة ؛ عالم بأيّام العرب وأخبارها ، وأبوه أعلم منه ، وهو يروى عن أبيه .

والحاضر : ساكنو الحَضَر : والبادى : ساكنو البادية ؛ واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع .

قوله : « إنهم على كتاب الله » حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف ، أى مجتمعون .

قوله : « لا يشترونَ بهِ ثمناً قليلاً » ، أى لا يتعوّضون عنه بالثمن ، فسمّى التعوّض اشتراء ؛ والأصل هوأن يشترى الشيء بالثمن لاالثمن بالشيء ، لكنه من باب اتّساع العرب ، وهو من ألفاظ القرآن العزيز (١) .

وأنّهم يدٌ واحدة ، أى لا خلف بينهم .

قوله : « لمتبة عاتب » ، أى لا يؤثّر فى هذا العهد والحلف، ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم ؛ لأنه استجداه فلم يُجدِه ، أو طلب منه أمرا فلم يقم به ، ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمرٍ صدر من صاحبه ، ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلا منهم ، ولا لأن إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم ، فإنّ أمثال هذه الأمور يتعذّر ارتفاعها بين الناس ؛ ولو كانت تنقض الحِلْف لما كان حلف أصلا .

واعلم أنه قد ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله : «كلّ حِلْف كان فى الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلّا شدة » ؛ ولا حلْف فى الإسلام ، لكن فِعْل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتّباع من خبر الواحد ؛ وقد تحالفت العرب فى الإسلام مرارا ، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ .

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

(٧٥)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة فى أول ما بويع له بالخلافة ـ ذكره الواقدىّ فى كتاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ ، فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ . وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبنى أميّة جميعا . قال : « وقد علمت إعذارى فيكم » ، أى كونى ذا عذرٍ لو لُمْتُكُمْ أو ذممتكم ـ يعنى فى أيام عثمان .

ثم قال : « وإعراضى عنكم » أى مع كونى ذا عذر لو فعلت ذلك فلم أفعله ، بل أعرضت عن إساءتكم إلىّ وضربت عنكم صفحا . حتى كان ما لا بدّ منه ـ يعنى قتل عثمان وما جرى من الرَّجَبَة بالمدينة .

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له : والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ذلك الزمان ، وأقبل زمان آخر ، فبايع وأقدِم ؛ فلم يبايع ولا قدم ، وكيف يبايع

وعينه طامحة إلى الملك والرّياسة منذ أمّره عمر على الشام ؛ وكان عالىَ الهمّة ، توّاقاً إلى معالى الأمور ، وكيف يطيع عليًا والمحرّضون له على حَرْبه عدد الحصا ! ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لـكفى ، وكيف يسمع قوله :

فواللهِ ما هندٌ بأمّك إن مضى النّهارُ ولم يثأر بعثمانَ ثائرُ
أيَقتل عبـدُ القوم سيّدَ أهلِه ولم تقتُلوه ، ليت أمّك عاقرُ
ومن عجبٍ أنْ بتّ بالشام وادعاً قريرا وقد دارت عليه الدوائرُ !

ويطيع عليًّا ، ويبايع له ، ويُقدم عليه ، ويسلّم نفسه إليه ، وهو نازل بالشام فى وسط قَحْطان ودونه منهم حَرّةٌ لا ترام ؛ وهم أطوع له من نعله ، والأمر قد أمكنه الشروع فيه ؛ وتالله لو سمع هذا التحريضُ أجبنُ الناس وأضعفهُم نفسا وأنقصهُم همّة لحرّكه وشحَذَ من عزمه ؛ فكيف معاوية ، وقد أيقظ الوليدُ بشعره من لا ينام !

(٧٦)

الأصْلُ :

ومن وصية له عليه السلام لعبدالله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة :

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ .

***

الشَّرْحُ :

روى : « وحلمك » . والقرب من الله ، هو القرب من ثوابه ؛ ولا شبهة أن ما قرّب من الثواب باعدَ من العقاب ، وبالعكس لتنافيهما .

فأما وصيّته له أن يَسَع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه ، فقد تقدّم شرح مثله ، وكذلك القول فى الغضب :

وطَيْرة من الشيطان : بفتح الطاء وسكون الياء ، أى خفّة وطيش قال الكميت :

وحِلْمُك عِزٌّ إذا ما حَلُمْتَ ... وَطَيرتُك الصَّابُ والحنظلُ(١)

---

(١) الصحاح ٤ : ٧٢٨ .

(٧٧)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج على الخوارج :

لا تُخاصِمْهُمْ بالقُرْآنَ فإنّ القُرْآنَ حَمّالٌ ذُو وُجُوهٍ ، تَقُولُ ويَقُولونَ ... ولَكِنْ حاجِجْهُمْ بالسُّنَّةِ ، فَإنّهم لَنْ يَجِدُوا عَنها مَحِيصاً .

***

الشرح

هذا الكلام لا نظير له فى شرفه وعلوّ معناه ، وذلك أنّ القرآن كثير الاشتباه ، فيه مواضع يُظنّ فى الظاهر أنها متناقضة متنافية ، نحو قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ ﴾[١] وقوله : ﴿ إلى رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾[٢] ، ونحو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فأغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾[٣] وقوله : ﴿ فَأَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى ﴾[٤] ، ونحو ذلك ، وهو كثير جدًّا ؛ وأما السنة فليست كذلك ، وذلك لأنّ الصحابة كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وتستوضح منه الأحكام فى الوقائع ، وما عساه يشتبه عليهم من كلامه ؛ يراجعونه فيه ؛ ولم يكونوا يراجعونه فى القرآن إلا فيما قلّ ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقفاً ، وأكثرهم لا يفهم معناه ،

---

(١) سورة الأنعام ١٠٣ . (٢) سورة القيامة ٢٣ .

(٣) سورة يس ٩ . (٤) سورة فصلت ١٧ .

لا لأنه غير مفهوم ؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطوْن فهمه ؛ إما إجلالا له أو لرسول الله أن يسألوه عنه ، أو يجرونه مجرى الأسماء الشريفة التى إنما يراد منها بركتها لا الإحاطة بمعناها؛ فلذلك كثر الاختلاف فى القرآن . وأيضا فإن ناسخه ومنسوخه أكثرُ من ناسخ السنّة ومنسوخها ؛ وقد كان فى الصحابة مَنْ يسأل الرّسول عن كلمة فى القرآن يفسرها له تفسيراً موجَزاً ، فلا يحصل له كلّ الفهم ، لما أنزلت آية الكَلالة(١) ، وقال فى آخرها : ﴿يُبيّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾(٢) ، سأله عمر عن الكلالة ماهو ؟ فقال له : يكفيك آية الصيف ، لم يزد على ذلك ، فلم يراجعه عمر وانصرف عنه ، فلم يفهم مراده ، وبقى عمر على ذلك إلى أن مات ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم مهما بَيّنْتَ ، فإنّ عمر لم يتبيّن ، يشير إلى قوله: ﴿يُبيّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ وكانوا فى السنّة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة ، فلذلك أوصاه علىّ عليه السلام أن يحاجّهم بالسنة لا بالقرآن .

فإن قلت : فهل حاجّهم بوصيّته ؟

قلت : لا ، بل حاجّهم بالقرآن ، مثل قوله : ﴿فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهلِهَا﴾(٣) ومثل قوله فى صيد المحرم : ﴿يَحْكُمُ به ذوا عَدْلٍ مِنكم﴾(٤) ؛ ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب ، وإنما رجع باحتجاجه نفر منهم .

فإن قلت : فما هى السنّة التى أمره أن يحاجّهم بها ؟

قلت : كان لأمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك غرض صحيح ، وإليه أشار ، وحوله كان يطوف ويحوم ، وذلك أنه أراد أن يقول لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « علىّ مع الحقّ والحقّ مع علىّ يدور معه حيثما دار » ، وقوله : « اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، ونحو ذلك من الأخبار التى

---

(١) يريد قوله تعالى فى آخر آية من سورة النساء : « يسألونك عن الكلالة » الخ .
(٢) سورة النساء ١٢ . (٣) سورة النساء ٣٥ .
(٤) سورة المائدة ٩٥ .

كانت الصحابة قد سمعتها من فَلْق ِ فيه صلوات الله عليه ، وقد بقى ممن سمعها جماعة تقوم الحجّة وتثبت بنقلهم ، ولو احتجّ بها على الخوارج فى أنه لا يحلّ مخالفته والعدول عنه بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين فى محاجّتهم ، وأغراض أخرى أرفع وأعلى منهم ؛ فلم يقع الأمر بموجب ما أراد ، وقُضى عليهم بالحرْب ؛ حتى أكلتهم عن آخرهم ، وكان أمر الله مفعولا .

(٧٨)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعريَّ عن كتاب كتبه إليه من المكان الذى اتعدوا فيه للحكومة ـ وذكر هذا الكتاب سعيد ابن يحي الأموى فى كتاب المغازى :

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا ، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى ؛ وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنْزِلًا مُعْجِباً ؛ اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَأَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَعُودَ عَلَقاً يَعُودُ ، وَلَيْسَ رَجُلٌ ـ فَاعْلَمْ ـ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأُلْفَتِهَا مِنِّي ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ ، وَكَرَمَ الْمَآبِ .

وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَإِنِّي لَأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ اللهُ ، فَدَعْ عَنْكَ مَا لَا تَعْرِفُ ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ ، وَالسَّلَامُ .

***

الشَّـرْحُ :

روى : « ونطقوا مع الهوى » ، أى مائلين مع الهوى .

وروى : « وأنا أُدارى » بالراء ، من المداراة ، وهى الملاينة والمساهلة .

وروى: « نِعم ما أولى » باللام ؛ يقول : أوليته معروفا .

وروى: « إن قال قائل بباطل ويفسد أمرا [قد أصلَحَه الله [١]] » .

واعلم أنّ هذا الكتاب كتاب مَنْ شكّ في أبي موسى واستوحش منه ؛ ومن قد نقل عنه إلى أبي موسى كلاماً إمّا صدقا وإمّا كذباً . [وقد نَقَل عن أبي موسى إليه كلاماً إمّا صدقا أيضاً وإمّا كذباً [٢]] ، قال عليه السلام : إنّ النـاس قد تغيّر كثير منهم عن حظّـهم من الآخرة ، فمالوا مع الدنيا . وإنّى نزلت من هذا الأمر منزلا معجِبا ، بكسر الجيم، أى يعجب مَنْ رآه ، أى يجعله متعجّبا منه .

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونُصّاره من أهل العراق ؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديدا جدّا . والمنزل والنّزول هاهنا مجاز واستعارة ، والمعنى أنّى حصلت فى هذا الأمر الذى حصلت فيه على حال معجبة لمن تأمّلها ؛ لأنّى حصلت بين قوم كلّ واحـد منهم مستبدّ برأى يخالف فيه رأىَ صاحبه ؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر ؛ وإن حكمت عليهم برأى أراه أنا خالفوه وعصوْه ، ومن لا يطاع فلا رأى له ، وأنا معهم كالطبيب الذى يداوى قَرْحاً ، أى جراحة قد قاربت الاندمال ولم تندمِلْ بعدُ ؛ فهو يخاف أن يعود عَلَقاً ، أى دماً .

ثم قال له : ليس أحد ـ فاعلم ـ أحرَصَ على ألفة الأمّة وضمّ نَشْر المسلمين .

وأدخل قوله : « فاعلم » بين اسم ليس وخبرها فصاحة ، ويجوز رفع «أحرص» بجعله صفةً لاسم « ليس » ؛ ويكون الخبر محذوفا ـ أى ليس فى الوجود رجل .

وتقول : قد وأيتُ وأياً ، أى وعدت وعداً ، قال له: أمّا أنا فسوف أفى بما وعدت وما استقرّ بينى وبينك؛ وإن كنت أنت قد تغيّرت عن صالح ما فارقتنى عليه .

---

(١) من د . (٢) من د .

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون قوله : « وإن تغيّرت » من جملة قوله فيما بعد « فإنّ الشقىّ » كما تقول : إن خالفتنى فإنّ الشقىّ من يخالف الحق .

قلت : نعم ؛ والأوّل أحسن ؛ لأنه أدخلُ فى مدْح أمير المؤمنين عليه السلام كأنه يقول : « أنا أفى وإن كنتَ لا تفى ، والإيجاب يحسّنه السلْب الواقع فى مقابلته :

* والضّدّ يظهر حسنَه الضّدُّ *

ثمّ قال : « وإنى لأعْبَد » أى آنَف ، من عبِد بالكسر أى أنِف ، وفسّروا قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ ﴾[1] بذلك ، يقول : إنّى لآنف من أن يقول غيرى قولا باطلا ، فكيف لا آنَف أنا من ذلك لنفسى ! ثم تختلف الرّوايات فى اللفظة بعدها كما ذكرنا .

ثم قال : « فدَعْ عنك ما لا تعرف » أى لا تبْن أمرك إلّا على اليقين والعلم القطعىّ ، ولا تُصْغِ إلى أقوال الوشاة ونَقَلَة الحديث ؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيرا ، فلا تصدّق ما عساه يبلّغك عنّى شرار الناس ؛ فإنّهم سِراع إلى أقاويل السوء ؛ ولقد أحسن القائل فيهم :

إنْ يَسْمَعُوا الخيْرَ يُخْفُوه وإنْ سَمِعُوا ... شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا كَذَبُوا

ونحو قول الآخر :

إنْ يَسْمَعُوا ريبةً طَارُوا بها فَرَحاً ... وإن ذُكِرْتُ بخيرٍ عندهمْ دفَنُوا[2]

---

(١) سورة الزخرف ٨١ .

(٢) لقعنب بن أم صاحب ، مختارات ابن الشجرى ١ : ٧

(٧٩)

الأصْـلُ :

ومن كتاب كتبه عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَـكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ .

***

الشَّـرْحُ :

أى منعوا الناس الحق فاشترى النـاس الحق منهم بالرّشا والأموال ، أى لم يضعوا الأمور مواضعَها ، ولا ولّوا الولايات مستحقّيها ، وكانت أمورهم الدينية والدنياوية تجرى على وَفْق الهوى والغرض الفاسد ، فاشترى الناس منهم الميراث والحقوق كما تُشترى السلع بالمـال .

ثم قال : « وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » ، أى حملوهم على الباطل فجاء الخلَف من بعد السلف، فاقتدَوا بآبائهم وأسلافهم فى ارتـكاب ذلك الباطل ظنّاً أنّه حق لما قد ألفوه ونشئوا وربّوا عليه .

وروى « فاستروْه » بالسين المهملة أى اختاروه ، يقال استريتُ خيار المال ، أى اخترته ويكون الضمير عائدا إلى « الظلَمة » لا إلى « الناس » ، أى منعوا الناس حقّهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به .

باب
الحِكَم والمواعِظ

باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه

ويدخل فى ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج من سائر أغراضه

***

الشرح :

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالرّوح من البدن ، والسواد من العين ؛ وهو الدرّة المكنونة التى سائر الكتاب صدَفها ؛ وربما وقع فيه تكرار لبعض ما تقدّم يسير جدًّا ؛ وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن ، وإذا كان الرضىّ رحمه الله قد سَها فكرّر فى مواضع كثيرة فى " نهج البلاغة " على اختصاره كنّا نحن فى تكرار يسير فى كتابنا الطويل أعذر .

(١)

الأصل :

كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ ؛ لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ .

***

الشرح :

ابن اللّبون : ولد النّاقة الذّكر إذا استكمل السّنة الثانية ودخل فى الثالثة ؛ ولا يقال للأنثى : ابنة اللّبون ؛ وذلك لأنّ أمّهما فى الأغلب ترضع غيرهما ، فتكون ذات لبَن ، واللّبون من الإبل والشاة : ذات اللّبَن ، غزيرة كانت أو بكيئة[1] ، فإذا أرادوا الغزيرة قالوا : لَبِنَة ، ويقال : ابن لَبُون وابن اللّبون ، منكّرا أو معرّفا ، قال الشاعر :

وابن اللّبُونِ إذَا ما لُزَّ فى قرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ القناعِيسِ[2]

وابن اللّبون لا يكون قد كمل وقوىَ ظهره على أن يركب ، وليس بأنثى ذات ضرع فيُحلب وهو مطّرح لا يُنتفع به .

وأيّام الفتنة هى أيّام الخصومة والحرب بين رئيسيْن ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير ، وفتنة مروان والضّحّاك ، وفتنة الحجّاج وابن الأشعث ونحو ذلك ، فأما إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجمل وصِفِّين ونحوها بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلّ السّيف والنهى عن المنكر وبذل النّفس فى إعزاز الدين وإظهار الحق .

---

(١) البكيئة : قليلة اللبن .   (٢) لجرير ، ديوانه ٣٢٣ . القرن : الحبل . والقناعيس : الشداد .

قال عليه السلام : أخمل نفسك أيام الفتنة ، وكن ضعيفا مغموراً بين النّاس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء .

وقوله : « فيركَبَ » « فيُحلبَ » ، منصوبان لأنهما جواب النفى ، وفى الكلام محذوف تقديره : « له » ؛ وهو يستحق الرفع ، لأنه خبر المبتدأ ، مثل قولك : لا إله إلّا الله ، تقديره « لنا » ، أو « فى الوجود » .

(٢)

الأصْلُ :

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول فى الطمع : قوله عليه السلام « أزرى بنفسه » ، أى قصّر بها . مَن استشعر الطمع ، أى جعله شعاره أى لازمه .

وفى الحديث المرفوع : « إن الصّفا الزّلزال الذى لا تَثبت عليه أقدام العلماء الطمع » .

وفى الحديث أنه قال للأنصار : « إنّكم لتكثُرون عند الفزَع وتقلّون عند الطمع » أى عند طمع الرزق .

وكان يقال : أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع .

وقال بعضهم : العبيد ثلاثة : عبد رقّ ، وعبد شَهْوة ، وعبد طمع .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغِنَى ، فقال : « اليأس عمّا فى أيدى الناس ، ومَنْ مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً » .

وقال أبو الأسوَد :

الْبَسْ عدوّك فى رِفْق وفى دَعَــةٍ ... طوبَى لذى إربةٍ للدّهر لبّــاسِ
ولا تغرّنْك أحقَادٌ مزمّلةٌ ... قد يُرْكَب الدَّبِر الدامى بأحلاسِ
واستغنِ عن كل ذى قُربى وذى رَحِمٍ ... إن الغَنِىّ الذى استغنى عن الناسِ

قال عمر : ما الخمر صِرْفًا بأذهبَ لعقول الرّجال من الطمع .

وفى الحديث المرفوع : « الطمع الفقر الحاضر » .

قال الشاعر :

رأيت مَخيلةً فطمِعْت فيهـا ... وفى الطّمَع المذلّةُ للرّقـابِ

الفصل الثانى فى الشكوى : قال عليه السلام : « من كشف للناس ضرّه » أى شكى إليهم بؤسه وفقره ، « فقد رضى بالذل » .

كان يقال : لا تشكوَنّ إلى أحد ، فإنّه إن كان عدوًا سرّه ، وإن كان صديقا ساءه وليست مسرّة العدوّ ولا مساءة الصديق بمحمودة .

سمع الأحنف رجلًا يقول : لم أنم الليلة من وجع ضِرْسى ؛ فجعل يكثر ، فقال : يا هذا لِمَ تكثر ؟ فوالله لقد ذهبتْ عينى منذ ثلاثين سنة فما شكوت ذلك إلى أحـد ، ولا أعلمت بها أحدا .

الفصل الثالث فى حفظ اللسان : قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ فى ذلك ، وكان يقال : حفظ اللسان راحة الإنسان ، وكان يقال : ربّ كلمة سفكت دماً ، وأورثت ندما .

وفى الأمثال العاميّة ، قال اللسان للرأس : كيف أنت ؟ قال : بخير لو تركتَنى .

وفى وصيه المهلّب لولده ، يا بَنِىّ تباذلوا تحابّوا ، فإن بنى الأعيان يختلفون فكيف ببنى العَلّات ، إنّ البرّ ينسَأ فى الأجل ، ويزيد فى العــدد ، وإنّ القطيعة تورِث القلّة ، وتعقب

النار بعد الذلة . اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزلّ رجله فينتعِش ، ويزلّ لسانه فيهلك ، وعليكم فى الحرْب بالمكيدة ، فإنها أبلغ من النّجْدة ، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء ، فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد ، وإن ظُفِر به لم يقولوا : فرّط .

وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه　　　　وليس يموتُ المرء من عثرة الرجل

(٣)

الأصلُ :

الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ .

* * *

الشرحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول فى البخْل . وقد تقدّم لنا كلام مقنع فى ذلك .

ومن كلام بعض الحكماء فى ذلك : ما أقلّ مَنْ يحمده الطالب ، وتستقلّ به العشائر ، ويرضى عنه السائل ، وما زالت أمّ الكرم نَزُورا وأمّ اللؤم ذلولًا . وأكثر الواجدين مَنْ لا يجود ، وأكثر الأجواد من لا يَجِد .

وما أحسن قول القائل : كفى حزناً أنّ الجواد مقتَّر عليه ، ولا معروف عند بخيل .

وكان يقال : البخل مهانة ، والجود مهابة .

ومن أحسن ما نقل من جُود عبد الله المأمون أنّ عمر بن مسعدة كاتبه مات فى سنة سبع عشرة ومائتين ، وخلّف تركة جليلة ، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكتّاب ليحصروا مبلغها ، فجاء المعتصم إليه وهو فى مجلس الخلافة ، ومعه الكتّاب ، فقال: ما رأيتم ؟ فقال المعتصم معظّما لما رآه : وجدنا عَيْناً ، وصامتا ، وضياعا ، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار ــ ومدّ صوته ــ فقال المأمون : إنّا لله ! والله ما كنت أرضاها

لتابع من أتباعه ليوفّر هذا على مخالفيه ! فخجل المعتصم حتى ظهر خجلُه للحاضرين.

* * *

الفصل الثانى فى الجبن ، وقد تقدم قولنا فى فضل الشجاعة .

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه : يا أبا سعيد ، هل دخلك ذُعْر فى حرب قطّ شهدتَها ؟ قال : ما سلمت فى ذلك عن ذعر ينبّه على حيلة ، ولا غشيَنى ذعر سلَبنى رأيى ، فقال له هشام : هذه والله البَسالة ، قال أبو دُلَامة ، وكان جَبانا :

إنّى أعوذ بروْح أن يقدّمَنى ... إلى القتال فتشقى بى بنو أسدِ

إنّ المهلّب حُبَّ الموت أورثَكُمْ ... ولم أرث رغبةً فى الموت عن أحدِ

قال المنصور لأبى دُلامة فى حرب إبراهيم : تقدّم ويلك ! قال : يا أميرَ المؤمنين،شهدت مع مرْوان بن محمد أربعة عساكر كلها انهزمت وكُسِرت ؛ وإنى أعيذك بالله أن يكون عسكرك الخامس .

* * *

الفصل الثالث فى الفقر . وقد تقدّم القول فيه أيضا .

ومثل قوله : « الفقر يخرس الفَطِن عن حاجته » قول الشاعر :

سأُعْمِلُ نَصَّ العيس حتى يكفّنى ... غِنَى المال يوماً أو غنَى الحدَثانِ

فللمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرَى لها ... على الحرّ بالإقلال وَسْمُ هَوانِ

متى يتكلّمْ يُلْغَ حُكْمُ كلامِه ... وإن لم يقُلْ قالوا عديم بيانِ

كأن الغِنَى عن أهله بورك الْغِنَى ... بغير لسان ناطقٌ بلسانِ

ومثل قوله عليه السلام : « والمقلّ غريب فى بلدته » قول خَلف الأحمر :

لا تظنّى أنّ الغريب هو النا ... ئِى ولكنّما الغريب المقلُّ

وكان يقال : مالُك نورُك ، فإن أردت أن تنكسف ففرّقه وأتلفه .

قيل للإسكندر : لم حفظت الفلاسفة المــالَ مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا ؟ قال : لئلّا تحوجهم الدّنيا إلى أن يقوموا مقاما لا يستحقونه .

وقال بعض الزهّاد : ابدأ بِرغيفيْك فاحرُزْهُمَا ثم تعبّد .

وقال الحسن عليه السلام : مَنْ زعم أنّه لا يحبّ المال فهو عندى كاذِب ، فإن علمت صدقه فهو عندى أحمق .

(٤)

الأَصْلُ :

الْعَجْزُ آفَةٌ ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا .

* * *

الشَّرْحُ :

فهذه فصول خمسة :

الفصل الأول : قوله عليه السلام « العجز آفة » ، وهـذا حقّ لأن الآفة هى النقص أو ما أوجب النقص ، والعجز كذلك .

وكان يقال : العجز المفرط ترك التأهّب للمعاد .

وقالوا : العجز عجزان ، أحدها عجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثانى الجدّ فى طلبه وقد فات .

وقالوا : العجز نائم ، والحزم يقظان .

* * *

الفصل الثانى فى الصبر والشجاعة : قد تقدّم قولنا فى الصبر .

وكان يقال : الصبر مرّ ، لا يتجرّعه إلّا حرّ .

وكان يقال : إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالا كأعمار الناس وآجالهم ؛ فاصبروا لزمانِ السوء حتى يفنى عمره ، ويأتى أجله .

وكان يقال : إذا تضيّفتك نازلةٌ فاقرِها الصبر عليها ، وأكرم مثواها لديك بالتوكّل

والاحتساب لترحل عنك ، وقد أبقتْ عليك أكثر مما سلَبَتْ منك ، ولا تنسَها عند رخائك ، فإنّ تذكُّرك لها أوقات الرّخاء يبعد السوء عن فعلك ، وينفى القساوة عن قلبك ويوزعك حمْدَ الله وتقواه .

* * *

الفصل الثالث : قوله : « والزهد ثروة » ، وهذا حقّ ، لأنّ الثروة ما استغنى به الإنسان عن النّاس ، ولا غناء عنهم كالزّهد فى دنياهم ؛ فالزّهد على الحقيقة هو الغِنَى الأكبر .

وروى أنّ عليا عليه السلام قال لعمر بن الخطاب أوّل ما ولى الخلافة : إنْ سرّك أن تلحق بصاحبيك فقصّر الأمل ؛ وكُلْ دون الشِّبع ، وارقع القميص ، واخصف النّعْل ، واستغنِ عن الناس بفقرك تلحق بهما .

وقف ملك على سقراط وهو فى المشرقة قد أسند ظهره إلى جُبّ كان يأوى إليه ، فقال له : سل حاجتَك ، فقال : حاجتى أن تتنحّى عنى ، فقد منعنى ظلك المرفق بالشمس، فسأله عن الجبّ ، قال : آوى إليه ، قال : فإن انكسر الجبّ لم ينكسر المكان .

وكان يقال : الزّهد فى الدنيا هو الزهد فى المحمدة والرياسة ، لا فى المطعم والمشرب ، وعندالعارفين : الزهد تَرْك كل شيء يشغلك عن الله .

وكان يقال : العالم إذا لم يكن زاهدا لكان عقوبة لأهل زمانه ، لأنهم يقولون: لولا أنّ علمه لم يصوّب عنده الزهد لزَهِد ، فهم يقتدون بزهده فى الزهد .

* * *

الفصل الرابع : قوله : « والورعُ جُنّة » ؛ كان يقال : لاعصمة كعصمة الورع والعبادة ؛ أمّا الورع فيعصمك من المعاصى ، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك ؛ فإنّ عدوّك لو رآك قائما تصلّى وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهابك .

وقال رجل من بنى هلال لبنيه : يا بَنِيّ أظهروا النُّسُكَ فإن الناس إن رأوْا مِنْ أحدٍ منكم بخلا ، قالوا : مقتصد لا يحبّ الإسراف ، وإن رأوْا عِيًّا ، قالوا : مُتَوَقٍّ يكره الكلام ، وإن رأوْا جُبْناً قالوا : متحرّج يكره الإقدام على الشبهات .

* * *

الفصل الخامس : قوله : « ونعم القرينُ الرضا » ، قد سبق منا قول مقنِع فى الرضا .

وقال أبو عمرو بن العلاء : دفعت إلى أرض مجدبة بها نفرٌ من الأعراب ، فقلت لبعضهم : ما أرضكم هذه ؟ قال : كما ترى ، لا زرع ولا ضَرْع ، قلت : فكيف تعيشون ؟ قالوا : نحترش(١) الضِّباب ، ونصيد الدّواب ، قلت : فكيف صبركم على ذلك ؟ قالوا : يا هذا ، سلْ خالقَ الخلْق ؛ هل سويت ؟ فقال : بل رضيتُ .

وكان يقال : مَنْ سخِط القضاء طاحَ ، ومن رضى به استراح .

وكان يقال : عليك بالرّضا ، ولو قُلِبْتَ على جمْر الغضا .

وفى الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى : « من لم يرض بقضائى فليتخذ ربًّا سوائى » .

---

(١) فى اللسان : « حرش الضب يحرشه حرشاً ، واحترشه وتحرش وتحرّم به : أتى قفا جحره فقعقع بعصاه عليه وأتلج طرفها فى جحره فإذا سمع الصوت حسبه دابة تريد أن تدخل عليه فجاء يزحل على رجليه وعجزه مقاتلا ويضرب بذنبه فناهزه الرجل فأخذ بذنبه فضبب عليه ــ أى شدالقبض ــ فلم يقدر أن يفيصه ــ أى يفلت منه » .

(٥)

الأصلُ :

العِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ ، والآدابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ ، والفِكْرُ مِرْآةٌ صافِيَةٌ .

* * *

الشرحُ :

إنما قال : « العلم وراثة » لأنّ كلّ عالم من البشر إنمـا يكتسب علمه من أستاذٍ يهذّ به وموقّفٍ يعلمه ؛ فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المـال عن أبيه ، وقد سبق منا كلام شافٍ فى العلم والأدب .

وكان يقال: عطيّة العالم شبيهة بمواهب الله عزّ وجلّ ، لأنها لاتنفد عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها .

وكان يقال : الفضائل العلميّة تشبه النخل ، بطىء الثمرة ، بعيد الفساد .

وكان يقال : ينبغى للعالم ألّا يترفّع على الجاهل ، وأن يتطامَنَ له بمقـدار ما رفعه الله عليه ، وينقله من الشكّ إلى اليقين ، ومن الحـيرة إلى التبيين ، لأن مكافحته قسوة والصبر عليه وإرشاده سياسة .

ومثاله قول بعض الحكماء : الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمـنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فَرَط منـه ولا يعذر نفسه فى التأخّر عن هدايته .

وكان يقال : العلم فى الأرض بمنزلة الشمس فى الفَلَك ، لولا الشمس لأظلم الجوّ ، ولولا العلم لأظلم أهلُ الأرض .

وكان يقال : لا حُلّة أجمل من حلة الأدب ، لأنّ حُلل الثياب تبلى ، وحلل الآدب تبق ، وحُلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ، ويسرِقها السارق ، وحُلل الآداب باقية مع جوهر النفس .

وكان يقال : الفكرة الصحيحة إصطرلابٌ روحانى .

وقال أوس بن حجر يرثى :

إنّ الذى جَمَع السّماحة والنّـجْدَةَ والحزْمَ والنُّـهَى جمعا(١)

الألمعىّ الذى يظن بك الظنّ كأن قد رأى وقد سمعا

ومن كلام الحكماء : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يخمدُها ألّا تجد حطباً ، وكذلك العلم لا يُفْنِيه الاقتباس ولكن فقد الحامِلين له سبب عدمه .

قيل لبعضهم : أىّ العلوم أفضل ؟ قال : ما العامّة فيه أزهد .

وقال أفلاطون : مَنْ جهل الشىء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين .

وكان يقال : ثلاثة لا تجربة معهن : أدب يَزِين ، ومجانبة الرّيبة ، وكف الأذى .

وكان يقال : عليكم بالأدب ؛ فإنه صاحبٌ فى السَفر ، ومؤنس فى الوحدة ، وجمال فى المحفِل ، وسبب إلى طلب الحاجة .

وكان عبد الملك أديبا فاضلا ، ولا يجالس إلا أديبا .

وروى الهيثم بن عدىّ عن مِسعر بن كدام ، قال : حدّثنى سعيد بن خالد الجَدَلىّ ،

---

(١) ديوانه ٢٦ .

قال : لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصعب دَعا الناس يعرضهم على فرائضهم ، فحضرنا بين يديه ، فقال : من القوم ؟ قلنا : جَديلة ، فقال : جَديلةُ عَـــدْوان ؟ قلنا : نعم ، فأنشده :

عَــذِيرَ الحيّ مـــن عَدْوا ... نَ كانُوا حَيَّة الأرْضِ[1]
بغَى بعضُهمُ بعضاً ... فلم يَرْعوا على بعضِ
ومنهمْ كانت السَّادا ... تُ والموفُون بالقَرضِ
ومنهمْ حَــكَمٌ يقضِى : ... فلا يُنقَضُ ما يقضى
ومنهمْ مَنْ يجيز النّـا ... س بالسنّة والفرض

ثم أقبل على رجل منّا وسيم جَسيم قدّمناه أمامنا ، فقال : أيكم يقول هـــذا الشعر ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : يقوله ذو الإصبع ، فتركنى وأقبل على ذلك الرجـــل الجسيم ، فقال : ما كان اسم ذى الإصبع ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : اسمه حُرثان ، فتركنى وأقبل عليه ، فقال له : ولم سمّى ذَا الإصبع ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : نهشته حيّة فى إصبعه ، فأقبل عليه وتركنى ، فقال : مِن أيّكم كان ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : من بنى تاج الّذين يقول الشاعر فيهم :

فأمّا بنو تاج فلا تذكرنّــهم ... ولا تتبعنْ عيناك مَنْ كان هالـكا

فأقبل عـــلى الجسيم ، فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة درهم ، فأقبـــل علىّ ، وقال : وكم عطاؤك أنت ؟ قلت : أربعمائة ، فقال : يا أبا الزّعيزعة ، حط من عطاء هذا ثلثمائة ، وزدْها فى عطاء هذا ، فرحت وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة[2] :

وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم :

---

(١) يقال للرجل الصعب المنيع : حية الأرض .

(٢) الخبر فى الأغانى ٣ : ٩١ ، ٩٢ .

أظلومُ إنَّ مُصابكم رجُلًا أهدى السَّلام تحيةً ظُلْمُ(١)

فقال شخص: رجل هو خبر «إنّ»، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون، فقال الواثق: من بقي من علماء النحويين؟ قالوا: أبو عثمان المازنيّ بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى سُرَّ مَنْ رَأى بعد إزاحة علّته، قال أبو عثمان: فأشخصت، فلما أدخلت عليه قال: ممّن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن اليمن؟ قلت: مِنْ مازن ربيعة، قال: باسمك؟ بالباء؟ ـ يريد: «ما اسمك» لأنّ لغة مازن ربيعة هكذا، يبدلون الميم باء والباء ميما ـ فقلت: مكر أي «بكر»، فضحك وقال: اجلس واطمئنّ، فجلست فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إنّ؟ فقلت: «ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أنّ البيت إن لم يجعل «ظلم» خبر «إنّ» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة! فلما كررت القول عليه فهم، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: ألك ولدٌ؟ قلت: بنيّة، قال: فما قالت لك حين ودّعتها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى:

تقولُ ابنتِي حين جدّ الرّحِيلُ أرانا سواءً ومن قد يَتِمْ(٢)
أبانا فلا رِمْتَ مِنْ عندنا فإنّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ
أبانا إذا أضمرتْك البلا دُ نُجْفَى وتُقْطع منّا الرحِمْ

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثِقِي بالله ليس له شريكٌ ومِنْ عند الخليفة بالنّجاحِ(٣)

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار وكسوة، وردني إلى البصرة(٤).

---

(١) نسبه ابن خلكان والحريري في درة الغواص ٤٣ إلى العرجي، ونسبه البغدادي في الخزانة ١: ٢١٧ إلى الحارث بن خالد المخزومي.

(٢) ديوانه ٣٣. (٣) ديوانه ٣٦.

(٤) الخبر في طبقات الزبيدي ٩٣، ٩٤.

(٦)

الأصْلُ

وَصَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ ، وَالِاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.
وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً : الْمُسَالَمَةُ خَبْءُ الْعُيُوبِ.

***

الشَّرْحُ

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله : « صدر العاقل صندوق سرّه » ، قد ذكرنا فيما تقدم طرَفا صالحا فى كتمان السر .

وكان يقال : لا تُنكِحْ خاطبَ سرّك .

قال معاوية للنجّار العذرىّ : ابغِ لى محدّثا ، قال : معى يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، أستريح منك إليه ، ومنه إليك ، وأجعله كتوما ، فإنّ الرجل إذا اتّخذ جليسا ألقى إليه عُجَره وبُجَره .

وقال بعض الأعراب : لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك .

وقالوا : إذا كان سرّ الملك عند اثنين دخلت على الملك الشّبهة ، واتّسعت على الرّجُلين المعاذير ؛ فإن عاقبهما عند شياعه ، عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتّهمهما اتهم بريئا

بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدها ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجّة عليه .

الفصل الثانى : قوله : « البشاشة حبالة المودّة » ، قد قلنا فى البِشْر والبشاشة فيما سبق قولا مقنعا .

وكان يقال : البِشْر دالّ على السخاء من ممدوحك ، وعلى الوُدّ من صديقك دلالةَ النَّوْر على الثمرَ[1] .

وكان يقال : ثلاث تُبِين لك الودّ فى صدر أخيك : تلقاه ببشرِك ، وتبدؤه بالسّلام ، وتوسّع له فى المجلس .

وقال الشاعر :

لا تدخلنّك ضَجْرَةٌ من سائلٍ ... فلَخيرُ دهرِك أن تُرى مسئولَا
لا تجبهن بالردّ وجهَ مؤمِّلٍ ... قد رام غيرُك أن يُرَى مأمولا
تلقَى الكريم فتستدلّ ببشرِه ... وترى العُبوس على اللئيم دليلَا
واعلم بأنّك عن قليلٍ صائرٌ ... خبَرا فكن خَبَرًا يروق جميلا

وقال البحترىّ :

لو أنّ كفّك لم تَجُدْ لمؤمِّلٍ ... لكفاه عاجلُ بشرِكَ المتهلِّلِ[2]
ولو أنّ مجدَك لم يكن متقادماً ... أغناك آخر سُودَدٍ عن أوّلِ
أدركت ما فات الكهولَ من الحجا ... مِن عُنْفوان شبابك المستقبِلِ
فإذا أمرت فما يقال لك اتّئِدْ ... وإذا حكمتَ فما يقال لك : اعدِلِ

الفصل الثالث : قوله : « الاحتمال قبر العيوب » ، أى إذا احتملت صاحبك وحلمت

---

(١) فى د : « دلالة النور على القمر » . (٢) ديوانه ٢ : ٢١٨ .

عنه ستَر هذا الخلق الحسَن منك عيوبَك ، كما يستر القبرُ الميّت ، وهذا مثل قولهم فى الجود : كلّ عيبٍ فالكرمُ يغطّيه .

فأما الخبْء فمصدر خبأته أخبؤه ، والمعنى فى الروايتين واحد ، وقد ذكرْنا فى فضل الاحتمال والمسالمة فيما تقدّم أشياء صالحة .

ومن كلامه عليه السلام : وجدت الاحتمال أنصرَ لى من الرجال .

ومن كلامه : مَنْ سالم النّاس سلم منهم ، ومن حارب الناس حاربوه ؛ فإنّ العثرة للكاثر .

وكان يقال : العاقل خادم الأحمق أبدا ، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرّب إليه بدًّا ؛ وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدًّا .

وأسمع رجل يزيدَ بن عمر بن هُبيرة فأعرض عنه ، فقال الرجل : إيّاك أعنى ، قال : وعنك أُعرض .

وقال الشاعر :

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجبْهُ ... فخيرٌ من إجابته السُّكوتُ
سكتّ عن السفيه فظنّ أنى ... عَيِيتُ عن الجواب وما عَيِيتُ

(٧)

الأَصْـلُ :

مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ ، والصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فى عَاجِلِهِمْ نَصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِى آجِلِهِمْ .

***

الشَّـرْحُ :

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله « من رضى عن نفسه كثر الساخط عليـه » . قال بعض الفضلاء لرجل كان يرضى عن نفسه ويدّعي التميّز على الناس بالعلم : عليك بقوم تروقهم بزِبرِجك ، وتروعهم بزخرفك ، فإنك لا تعدم عزًّا ، ولا تفقد غمرا ، لا يبلغ مسبارُها غورَكَ ، ولا تستغرق أقدارُها طورَكَ .

وقال الشاعر :

أرَى كلَّ كل إنسان يَرَى عَيْبَ غيرِه ويعمَى عن العيب الّذى هوَ فيـهِ
وما خيرُ مَنْ تخفَى عليـه عيوبُه ويبـدو له العيبُ الّذى بأخيـهِ

وقال بعضهم : دخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قـد صنّفه ، فقلت : ما هذا ؟ قال : كتاب عملته مدخَلاً إلى التّورية ، فقلت : إنّ النـاس ينكرون هذا ، فلو قطعت الوقت بغيره (١) ! قال : النّـاس جُهّال ، وأنتَ ضدّهم ؟ قال : نعم ، قلت :

---

(١) فى د : « بغير هذا » .

فينبغى أن يكون ضدُّهم جاهلاً عنـدهم ، قال : كذاك هو ! قلت : فقد بقيتَ أنت جاهلا بإجماع الناس ، والناس جهّال بقولك وحدَك ؛ ومثل هـذا المعنى قول الشاعر :

إذا كنتَ تقضِي أنّ عقلك كاملٌ ... وأنّ بنى حَوّاء غـيرَك جاهلُ

وأن مفيضَ العلم صـدرُك كلّه ... فمن ذا الّذِى يدرِى بأنّك عاقـل !

* * *

الفصل الثانى : « الصدقة دواء منجح » ، قد جاء فى الصّدقة فضل كثير ، وذكرنا بعض ذلك فيما تقدم . وفى الحديث المرفوع : « تاجروا الله بالصدقة تربحوا » ؛ وقيل : الصدقة صَدَاق الجنّة .

وقيل للشِّبلىّ : ما يجب فى مائتى درهم ؟ فقال : أمّا من جهة الشَّرْع فخمسة دراهم، وأما من جهة الإخلاص فالكُلّ .

وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله أنه سئل فقيل : أىّ الصدقة أفضل ؟ فقال: «أن تعطىَ وأنت صحيح شحيح، تأمُل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلت : لفلان كذا ولفلان كذا» .

ومثل قوله عليـه السلام : « الصدقة دواء منجح » ، قول النّبىّ صلى الله عليـه وآله : « داووا مرْضاكم بالصدقة » .

* * *

الفصل الثالث : قوله : « أعمال العباد فى عاجلهم نصب أعينهم فى آجِلِهم »، هـذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا[(١)] ﴾ . وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[(٢)] .

ومن كلام بعضهم : إنما تَقدَم على ما قدّمت ، ولست تقدَم على ما تركت ؛ فآثر ما تلقاه غدا على ما لا تراه أبدا .

ومن حكمة أفلاطون : اكتم حسنَ صنيعك عن أعين البَشر ؛ فإنّ له ممن بيده ملكوت السماء أعيناً ترمُقه فتجازِى عليه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٠ .   (٢) سورة الزلزلة ٧ ، ٨ .

(٨)

الأصْـلُ :

اعْجَبُوا لِهَـذَا الإنْسانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ ، وَيَتَـكَلَّمُ بلَحْمٍ ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره ، لما تدعو إليه الضرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه والعدول عمّا لا تقبله عقولهم ، ولا تَعيه قلوبُهم .

أما الإبصار ؛ فقد اختلف فيه ، فقيل : إنه بخروج شعـاع من العين يتّصل بالمرئىّ . وقيل : إن القوة المبصرة التى فى العين تلاقى بذاتها المرئيات فتبصرها . وقال قوم : بل بتكيف الهواء بالشعاع البصرىّ من غير خروج، فيصير الهواء باعتبار تـكيّفه بالشّعاع به آلة العين فى الإدارك .

وقال المحققّون من الحـكماء : إنّ الإدراك البَصرِىّ هو بانطبـاع أشباح المرئيات فى الرطوبة الجلْدّية من العين عند توسط الهواء الشفاف المضىء ، كما تنطبع الصورة فى المرآة . قالوا : ولو كانت المرآة ذات قوّة مبصرة لأدركت الصُّوَر المنطبعة فيها ؛ وعلى جميع الأقوال فلا بدّ من إثبات القـوة المبصرة فى الرطوبة الجلْدية ، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته عليه السلام بقوله : « ينظر بشَحْم » .

وأما الـكلام فمحلّه اللسان عند قوم . وقال قوم : ليس اللّسان آلة ضرورية فى الـكلام لأنّ من يقطع لسانه من أصله يتكلّم ، وأما إذا قطع رأسه لم يتـكلّم . قالوا : وإنما الـكلام

باللهوات ، وعلى كلا القولين فلابدّ أن تكون آلة الكلام لحما ، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وليس هذه البنية المخصوصة شرطا فى الكلام على الإطلاق لجواز وجوده فى الشّجَر والجماد عند أصحابنا ؛ وإنما هى شرط فى كلام الإنسان ، ولذا قال أمير المؤمنين : « اعجبوا لهذا الإنسان » .

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق ، وإنما هو بالقوّة المودَعة فى العصب المفروش فى الصّماخ كالغشاء ، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل فى ثُقْب الأذن المنتهى إلى الصّماخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجرى مجرى اليراعة المصوتة ، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصَب الحامل للقوّة السامعة حصل الإدراك . وبالجملة فلابدّ من عَظْم؛ لأنّ الحامل اللحم والعَصَب إنما هو العظْم .

وأما التّنفّس فلا ريبَ أنه من خَرْم ؛ لأنه من الأنف ، وإن كان قد يمكن لو سدّ الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خَرْم أيضاً ، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحارّ عن القلْب وإدخال النّسيم البارد إليه ، فجعلت الرئة كالمرْوحة تنبسط وتنقبض ، فيدخل الهواء بها ويخرج من قَصَبتها النافذة إلى المنخرين .

(٩)

الأصل :

إذا أقْبَلَتِ الدُّنيا على قَوْمٍ أعارَتْهُمْ مَحاسِنَ غَيْرِهِمْ ، وإذا أدْبَرَتْ عَنهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحاسِنَ أنْفُسِهِمْ .

***

الشَّرحُ :

كان الرّشيد أيّام كان حسنَ الرأى فى جعفر بن يحيى ، يحلف بالله أنّ جعفراً أفصحُ من قُسِّ بن ساعدة ، وأشجعُ من عامر بن الطفَيل ، وأكتبُ من عبد الحميد بن يحيى ، وأسْوَسُ من عمر بن الخطاب ، وأحسنُ من مُصعب بن الزبير ـ وكان جعفر ليس بحَسَن الصورة ، وكان طويل الوجْه جدا ـ وأنصح له من الحجاج لعبد الملك، وأسمَحُ من عبد الله بن جعفر ، وأعفّ من يوسف بن يعقوب ؛ فلما تغيّر رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التى لا يختلف اثنان أنها فيه ، نحو كياسته وسماحته . ولم يكن أحد يجسُر أن يردّ على جعفر قولا ولا رأيا، فيقال : إنّ أوّل ما ظهر من تغيّر الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشىء فردّه عليه الفضل ، ولم تجرِ عادته من قبل أن يفتح فاه فى وجهه ، فأنكر سليمان بن أبى جعفر ذلك على الفَضْل ، فغضب الرشيد لإنكار سليمان ، وقال : ما دخولك بين أخى ومولاى ؟ كالرّاضى بما كان من الفضل ، ثم تكلّم جعفر بشىء قاله للفضل ، فقال الفضل : اشهد عليه يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر : فضّ الله فاك يا جاهل ! إذا كان أمير المؤمنين الشاهد ، فمن الحاكم المشهود عنده ؟ فضحك الرشيد، وقال : يا فَضْل ، لا تمارِ جعفرا ؛ فإنك لا تقع منه موقعا .

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام فى العلوم والفضائل والخصائص النفسانية ، دَعْ حديث الدنيا والسلطان والرياسة ، فإن المحظوظ من علم أو من فضيلة تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفنّ ؛ مثاله حظّ علىّ عليه السلام من الشجاعة ، ومن الأمثال الحكميّة قلّ أن ترى مثلا شاردا أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه ، وكذلك ما يدّعى العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال : إنه حمل على سبعين ألفا فهزمهم ، وقتل الجنّ فى البئر ، وفتل الطوق الحديد فى عُنق خالد بن الوليد . وكذلك حظّ عنترة بن شداد فى الشجاعة ، يُذْكَر له من الأخبار ما لم يكن ، وكذلك ما اشتهر به أبو نُواس فى وصف الخمر ، يضاف إليه من الشعر فى هذا الفنّ ما لم يكن قاله ، وكذلك جود حاتم وعبدالله بن جعفر ونحو ذلك ؛ وبالعكس من لا حظّ له ينفى عنه ما هو حقيقة له ، فقد رأينا كثيرا من الشعر الجيّد يُنفَى عن قائله استحقارا له ، لأنه خامل الذكر ، وينسب إلى غيره ، بل رأينا كتباً مصنفة فى فنون من العلوم خمل ذكر مصنِّفها ونسبت إلى غيرهم من ذوى النّباهة والصِّيت ، وكل ذلك منسوب إلى الجدّ والإقبال .

(١٠)

الأصلُ :

خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ .

* * *

الشرح :

وقد روى : « خَنُّوا » بالخاء المعجمة ، من الخنين ؛ وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء . وإلى تتعلق بمحذوف ، أى حنُّوا شوقاً إليكم .

وقد ورد فى الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم .

وفى الخبر المرفوع : « إذا وسعتم النّاس ببسط الوجوه ، وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، فكأنما وسعتموهم بالمال » .

وقال أبو الدرداء : إنّا لنهشّ فى وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتقليهم .

وقال محمد بن الفضل الهاشمىّ لأبيه : لِمَ تجاسُ إلى فلان وقد عرفتَ عداوته ؟ قال : أخْبِيُ نارا ؛ وأقدح عن ودّ .

وقال المهاجر بن عبد الله :

وإنى لأُقصى المرءَ من غير بغضةٍ وأدنى أخا البغضاء منّى على عَمدِ
ليُحدِثَ وُدًّا بعد بغضاء أو أرَى له مصرَعاً يُردِى به الله مَنْ يُرْدِى

وقال عِقال بن شبّة التميمىّ : كنتُ رِدْفَ أبى ، فلقيه جرير بن الخطَفى على بَغلَة ،

فحيّاه أبي وألطفه ، فلمّا مضى قلت له : أبَعْدَ أن قال لنا ما قال ! قال : يا بنيّ أفأوسّع جرحي !

وقال محمد بن الحنفيّة عليه السلام : قد يُدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .

وقال الحسن عليه السلام : حُسْن السؤال نصف العلم ، ومداراة الناس نصف العقل ، والقصد في المعيشة نصف المؤونة .

ومدح ابن شهاب شاعراً فأعطاه ؛ وقال : إنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ .

وقال الشاعر :

وأنزلني طولُ النّوى دار غربةٍ متى شئت لاقيتُ امرأً لا أشاكلُهْ
أخا ثقــةٍ حتى يقال سجيّة ولو كان ذا عَقْل لـكنت أعاقلُهْ

وفي الحديث المرفوع : « للمسلم على المسلم ستّ : يسلّم عليه إذا لقيَه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويُشَمّته إذا عطس ، ويعودُه إذا مرض ، ويحبّ له ما يحبُّ لنفسه ، ويشيّع جنازته إذا مات » .

ووقف صلى الله عليه وآله على عجوز ، فجعل يسألها ويتحفّاها ، وقال : « إنّ حُسن العهد من الإيمان ، إنّها كانت تأتينا أيّامَ خديجة » .

(١١)

الأَصْلُ :

إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد أخذت أنا هذا المعنى ، فقلت فى قطعة لى :

إنّ الأمانىّ أكسابُ الجهول فلا ... تقنعْ بها واركب الأهوالَ والخطَرا
واجعل من العقل جهلًا واطّرِح نظراً ... فى الموبقاتِ ولا تستشعرِ الحذَرا
وإن قدرتَ على الأعداء منتصراً ... فاشكر بعفوك عن أعدائك الظَّفَرا

وقد تقدّم لنا كلام طويل فى الحِلْم والصفح والعفو .

ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك : شَجَر بين أبى مسلم وبين صاحب مَرْو كلامٌ أرْبَى فيه صاحب مَرْوَ عليه ، وأغلظ له فى القول ، فاحتمله أبو مسلم ، وندم صاحب مَرْو ، وقام بين يدىْ أبى مسلم معتذراً ، وكان قال له فى جملة ما قال : يا لَقيط ! فقال أبو مسلم : مَهْ ! لسان سبقَ ، ووهم أخطأ ، والغضب شيطان وأنا جرّأتُك علىّ باحتمالك قديما ؛ فإن كنتَ للذنب معتذرا ، فقد شاركتك فيه ، وإن كنت مغلوبا فالعفو يسعُك . فقال صاحب مَرْو : أيّها الأمير ، إنّ عظَم ذنبي يمنعنى من الهدوء . فقال أبو مسلم : ياعجبا ! أقابلك بإحسان ، وأنت مسىء ، ثم أقابلك بإساءة وأنت محسن ! فقال : الآن وثقت بعفوك .

وأذنب بعضُ كتّاب المأمون ذنباً ، وتقدّم إليه ليحتجّ لنفسه ، فقال : يا هذا ، قِفْ

مكانَك؛ فإنما هو عُذْر أو يمين ، فقد وهبتهما لك ، وقد تكرّر منك ذلك ، فلا تزال تسيء وتحسن ، وتذنب ونغفر ؛ حتى يكون العفو هو الذى يصلحك !

وكان يقال : أحسن أفعال القادر العفو ، وأقبحها الانتقام .

وكان يقال : ظَفَر الكريم عفو ؛ وعفو(١) اللئيم عقوبة .

وكان يقال : ربّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به ، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع إلى الإيقاع .

وكان يقال : ما عفا عن الذّنْب من قرّع به .

ومن الحلم الذى يتضمّن كِبْراً مستحسنا ؛ ماروى أنّ مُصعب بن الزبير لمّا ولى العراق عرض النّاس ليدفع إليهم أرزاقهم ، فنادى مناديه : أين عمرو بن جُرموز ؟ فقيل له : أيّها الأمير ؛ إنه أبعد فى الأرض ؛ قال : أوَ ظنّ الأحمق أنى أقتله بأبى عبد الله ! قولوا له : فليظهر آمنا ، وليأخذ عطاءه مسلّما .

وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهو لا يجيبه ، فقال الرّجل : ويلى عليه ! والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عنده !

وقال لَقيط بن زرارة :

فقل لبنى سعدٍ ومالى ومالكمْ ترِقّون منّى ما استطعتم وأعتقُ
أغرّكمُ أنّى بأحسنِ شيمة بصيرٌ وأنّى بالفواحش أخْرَقُ !
وأنّك قد سابَبْتَنِى فقهرتنى هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذَقُ

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدىّ لمـا ظفرَ به : إنّى قد شاورت فى أمرك ؛ فأشير علىّ بقتلك ؛ إلّا أنى وجدت قدرَك فوق ذنبك ؛ فكرهت قتلك للازم حرمتك . فقال إبراهيم : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ المشير أشار بما تقتضيه السياسة ، وتوجيه العادة ؛ إلا أنّك أبيت أن

---

(١) من د : « وظفر » .

تطلب النّصر إلا من حيث عُوِّدته من العفو ؛ فإن قتلتَ فلك نظراء ؛ وإن عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت ، فاذهب آمنا .

ضلّ الأعشى فى طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن عُلَاثَة ، فقال قائده ، وقد نظر إلى قباب الأدم : واسوء صباحاه يا أبا بصير ! هذه والله أبيات علقمة ؛ فخرج فتيان الحىّ ، فقبضوا على الأعشى ، فأتوا به علقمة ، فمَثَل بين يديه ، فقال : الحمد لله الذى أظفرنى بك من غير ذمّة ولا عَقْد ؛ قال الأعشى : أو تدرى لم ذلك جُعلت فداك ! قال : نعم ، لأنتقم اليوم منك بتقوالك علىّ الباطل مع إحسانى إليك ؛ قال : لا والله ، ولكن أظفرك الله بى ليبلُوَ قَدْرَ حلمِك فىّ . فأطرقَ علقمة ، فاندفع الأعشى فقال :

أعَلقَمَ قد صَيَّرَتْنِى الأمورُ ... إليْكَ وما كان بى مَنكَصُ[1]
كساكم عُلاثةُ أثوابَهُ ... وورّثكم حِلمَه الأحوصُ
فهبْ لىَ نفسى فدتك النُّفوسُ ... فلا زلتَ تَنمِى ولا تنقصُ

فقال : قد فعلت ؛ أما والله لو قلت فىّ بعض ما قلتَه فى عامر بن عمر ، لأغنيتك طول حياتك ، ولو قلت فى عامر بعض ما قلته فىّ ما أذاقك بَرْد الحياة .

قال معاوية لخالد بن مَعمر السّدوسىّ : على ماذا أحببت عليًّا ؟ قال : على ثلاث : حلمه إذا غضب ، وصدقه إذا قال ، ووفاؤه إذا وَعَد .

---

(١) ديوانه ٢٣١ .

(١٢)

الأصْـلُ :

أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ .

***

الشَّـرْحُ :

قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم . وفى الحديث المرفوع أنّ النبي صلى الله عليه وآله بَكَى لما قُتِل جعفر بمؤتة ، وقال : « المرء كثير بأخيه » .

وقال جعفر بن محمد عليه السلام : لكلّ شيء حِلْيَة وحِلْيَةُ الرجل أودّاؤه .

وأنشد ابن الأعرابىّ :

لَعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنّ إخوان الصّفاء الذخائرُ

وكان أبو أيّوب السّختيانىّ(١) يقول : إذا بلغني موت أخ كان لى ؛ فكأنما سقط عضوٌ منى .

وكان يقال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنَى عنه ، وطبقة كالدّواء يُحتاج إليه عند المرض ، وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبدا .

وكان يقال : صاحبك كرقعة فى قميصك ، فانظر بما ترقع قميصك !

---

(١) ب : « السجستانى » ، والصواب ماأثبته من ا .

وكان يونس بن عبيد يقول : اثنان ما فى الأرض أقلّ منهما ، ولا يزدادان إلّا قلة : درهم يوضع فى حقّ ، وأخ يُسكَن إليه فى الله .

وقال الشاعر :

أخاكَ أخاكَ إنّ مَنْ لا أخا لَهُ كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ
وإنّ ابن عمّ المرء فاعلم جَناحُهُ وهلْ ينهض البازِى بغير جَناحِ ؟

وقال آخر :

ولن تنفكّ تُحسَد أو تُعادَى فأكثِرْ ما استطعت من الصّديقِ
وبغضك[١] للتقىّ أقل ضُرًّا وأسلمُ من مودّة ذى الفسوقِ[١]

وأوصى بعضهم ابنه ، فقال : يا بنىّ ، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال فاصحب مَن إذا صحبته زانك ، وإذا خدمتَه صانك ، وإذا عرضت لك مؤُنة أعانك ؛ وإن قلت صدّق قولك ، وإنْ صُلْتَ شدّ صولك ؛ وإن مددت يدك لأمر مدّها ، وإن بدت لك[٢] عَوْرة سدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكتّ ابتداك ، وإن نزلتْ بك ملمّة واساك ؛ من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تحتار[٣] عليك منه الطّرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق .

ومن الشعر المنسوب إلى علىٍّ عليه السلام :

إنّ أخاكَ الحقّ مَنْ كان معكْ ومن يضرّ نفسه لينفَعكْ
ومن إذا رَيْبُ الزّمانِ صدعَكْ شتّت فيك شملَه ليجْمَعكْ

(١) فى د « وبغضاء التقى » وهو وجه أيضا . (٢) ا : « عنك » .
(٣) فى د « ولا تختلف » .

ومن الشعر المنسوب إليه عليه السلام أيضاً :

أخوكَ الّذى إن أجرضَتْكَ ملمّةٌ ... من الدّهرِ لم يبرح لها الدّهرَ واجماً
وليس أخوكَ بالّذى إن تشعّبتْ ... عليكَ أمورٌ ظلّ يلحاكَ لائماً

وقال بعض الحكماء : ينبغى للإنسان أن يوكّل بنفسه كالئين : أحدهما يكلؤه من أمامه، والآخر يكلؤه من ورائه ؛ وهما عقله الصحيح ، وأخوه النصيح ؛ فإنّ عقله وإن صحّ فلن يبصّره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه فى المرآة ، ويخفى عليه ما خلفه ، وأما أخوه النصيح فيبصّره ما خلفه وما أمامه أيضاً

وكتب ظريف إلى صديق له : إنى غير محمود على الانقياد إليك ، لأنى صادقتك من جوهر نفسى ، والنفس يتبع بعضها بعضا .

وفى الحديث المرفوع : « إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلّمه » .

وقال الأحنف: خير الإخوان من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ وُدًّا ، وإن احتجت إليه لم ينقصك .

وقال أعشى باهلة يرثى المنتشر بن وهب :

إمّا سلكْتَ سبيلًا كنتَ سالكها ... فاذهب فلا يُبْعِدَنْكَ الله منتشرُ[1]
مَنْ ليس فى خيره شرٌّ ينكّده ... على الصّديق ولا فى صفوِه كَدَرُ

وقال آخر يرثى صديقاً له :

أخٌ طالماً سرّنِى ذكرُه ... وأصبحت أشجَى لدى ذكرِهِ
وقد كنتُ أغدُو إلى قصرِه ... فأصبحْتُ أغدو إلى قبرِهِ
وكنتُ أرانى غنيًّا بهِ ... عن النّاس لو مُدّ فى عمرِهِ
إذا جئتُه طالباً حاجةً ... فأمرِى يجوزُ على أمرِه

رأى بعض الحكماء مصطحبيْن لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : صديقان ، قال : فما بال أحدهما غنيا والآخر فقيرا !

---

(١) الكامل ٤ : ٦٦ .

(١٣)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام فى الذين اعتزلوا القتال معه :

خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنصُرُوا الْبَاطِلَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق ذكر هؤلاء فيا تقدم ، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وأنس بن مالك ؛ وجماعة غيرهم .

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين فى " الغرر " أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما دعاهم إلى القتال معه ، واعتذروا بما اعتذروا به ، قال لهم : أتنكرون هذه البيعة ؟ قالوا : لا ، لكنّا لا نقاتل ؛ فقال : إذا بايعتم فقد قاتلتم ؛ قال : فسلِموا بذلك من الذّم ؛ لأن إمامهم رضىَ عنهم .

ومعنى قوله : « خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل » ، أى خذلونى ولم يحاربوا معى معاوية ؛ وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف فى هؤلاء ، وإلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ .

(١٤)

الأصل :

إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ .

* * *

الشرح :

قد سبق القول فى الشكر ، ونحن نذكرها هنا زيادة على ذلك .

قال بعضهم : ما شيّبتني السّنون ، بل شكري مَنْ احتاج أن أشكرَه .

وقالوا : العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .

وقالوا : من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره .

ومن جيّد ما قيل فى الشكر قول أبي نواس :

قدْ قلتُ للعبّاس معتذرا ... من ضعف شُكْرِيهِ ومعترفا[١]
أنت امرؤٌ حَمّلْتَنى نِعَماً[٢] ... أوْهَتْ قُوَى شكرِي فقد ضعفا
فإليك منّى اليومَ معذرةٌ[٣] ... جاءتك بالتّصريح منكشفا
لا تُسْدِيَنّ إلىّ عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال البحترىّ :

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً ... فلانلتُ نُعْمَى بعدها توجب الشُّكْرا[٤]

---

(١) ديوانه ٧١ . (٢) الديوان . « جللتنى » .
(٣) الديوان : « قبل اليوم تقدمة » .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٦ .

وقال أيضاً :

سأجهدُ فى شكرِى لنعماك إنّنى ... أرَى الكُفْرَ للنعماء ضرباً من الكفرِ

وقال ابن أبى طاهر :

شكرت عليّا برّه وبلاءه ... فقصّر بى شُكْرى وإنى لجاهدُ
وما أنَا من شكرِى عليًّا بواحدٍ ... ولكنه فى الفضْلِ والجودِ واحدُ

وقال أبو الفتح البستى :

لا تظنّنَّ بى وبِرُّكَ حَىٌّ ... أنّ شكرى وشكرَ غيرِى مَوَاتُ
أنا أرضٌ وراحتاك سحابٌ ... والأيادى وبْلٌ وشكرى نَبَاتُ

وقال أيضاً :

وخرّ لما أوليت شكرىَ ساجداً ... ومثلُ الذى أوليتَ يعبدُه الشكرُ

البحترىّ :

أراك بعين المكتسى ورق الغِنَى ... بآلائك اللاتى يعدّدها الشُّكرُ
ويعجبنى فقرِى إليك ولم يكُنْ ... ليعجبَنى لولا محبّتُك الفقْرُ

آخر :

بدأتَ بمعروفٍ وثنّيت بالرضا ... وثلّثت بالحسنى وربّعت بالكرَمْ
وباشرتَ أمرِى واعتنيتَ بحاجتى ... وأخّرت «لا» عنّى وقدّمت لى «نعَمْ»
وصدّقْتَ لى ظنى، وأنجزتَ موعدى ... وطبتَ به نفساً ولم تتبع النَّدَمْ
فإن نحن كافأنا بشكر فواجبٌ ... وإن نحنُ قصّرنا فما الودّ متّهمْ

(١٥)

الأصل :

مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ .

***

الشرح :

إنّ الإنسان قد ينصره مَنْ لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه ، فقد تقوم به الأجانب من الناس ، وقد وجدنا ذلك في حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ضيّعه أهلُه ورهطه من قريش وخذلوه ، وتمالئوا عليه ، فقام بنصره الأوس والخزرج ، وهم أبعد الناس نسباً منه ، لأنه من عدنان وهم من قحطان ، وكلّ واحد من الفريقين لا يحبّ الآخر حتى تحبّ الأرض الدم . وقامت ربيعة بنصر علىّ عليه السلام فى صِفّين ، وهم أعداء مُضَر الذين هم أهله ورهطه ، وقامت اليمن بنصر معاوية فى صِفّين ، وهم أعداء مُضَر ، وقامت الخراسانية وهم عَجَم بنصر الدولة العباسية ، وهى دولة العرب . وإذا تأملت السِّيَر وجدت هذا كثيرا شائعا .

(١٦)

الأصْلُ :

مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه الكلمة قالها عليٌّ عليه السلام لسعد بنِ أبي وَقّاص ومحمّدِ بنِ مَسلَمَةَ وعبدِ الله ابنِ عمرَ لمّا امتنعوا من الخروج معه لحربِ أصحابِ الجَمَل ، ونظيرُها أو قريبٌ منها قولُ أبي الطيّب :

فَما كلُّ فَعّالٍ يُجازَى بِفِعلِهِ ... ولا كلُّ قَوّال لدىَّ يُجابُ[1]
ورُبَّ كلامٍ مَرّ فوق مَسامِعِي ... كما طَنّ في لَفْحِ الهَجيرِ ذُبابُ

(١) لم أجدها في ديوانه .

(١٧)

الأصْـلُ :

تَذِلُّ ٱلْأُمُورُ لِلمَقَادِيرِ ، حَتَّى يَـكُونَ ٱلْحَتْفُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

إذا تأمّلتَ أحوالَ العالَم وجدت صِدقَ هـذه الـكلمة ظاهرا ، ولو شئنا أن نَذكُرَ الـكثيرَ من ذلك لذكَرْنا ما يحتاج فى تقييده بالـكتابة إلى مِثْل حَجْم كِتابنا هذا ، ولـكنّا نذكر لمحاً ونُـكَتاً وأطرافا ودُرَرا من القول .

فَرَشَ مروانُ بنُ محمّد ـ وقد لقِيَ عبدَ الله بنَ علىّ ـ أنطاعا وبَسَط عليها المال، وقال: مَنْ جاءنى برأسٍ فله مائةُ درهم ، فعجزت الحفَظة والحرّاس عن حمايته ، واشتغلتْ طائفةٌ من الجُنْد بنَهْبه ، وتهافَتَ الجيشُ عليه لينتهبوه ، فغشيَهم عبدُ الله بنُ علىّ بعساكره ، فقتَل منهم ما لا يُحصَى ، وهُزِم الباقون .

وكَسَرَ إبراهيمُ بنُ عبدِالله بنِ الحسن بن الحسن جيشَ أبى جعفر المنصور بباخَمْرَى وأمرَ أصحابه باتّباعهم ، فحال بينهم وبين أصحـاب أبى جعفر ماءٌ ضَحْضاح ، فـكرِه إبراهيمُ وجيشُه خوضَ ذلك المـاء ، وكان واسعا ، فأمَرَ صاحبَ لوائه أنْ يتعرّج باللّواء على مسنّاةٍ[١] كانت على ذلك الماء يابسة ، فسلَـكها صاحبُ اللّواء وهى تفضى بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليبس ، فلمّـا رأى عسكرُ أبى جعفر أنّ لواءَ القوم قد تراجَـعَ

---

(١) المسناة : ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء .

القهقرى ظنوهم منهزمين ، فعطفوا عليهم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وجاء سهم غرب(١) فأصاب إبراهيم فقتله .

وقد دبرت من قبل قريش فى حماية العير بأن نفرت على الصعب والذلول لتدفع رسول الله صلى الله عليه وآله عن اللطيمة(٢) ، فكان هلاكها فى تدبيرها .

وكسرت الأنصار يوم أحد بأن أخرجت النبى صلى الله عليه وآله عن المدينة ظنا منها أن الظفر والنصرة كانت بذلك ، وكان سبب عطبها وظفر قريش بها ، ولو أقامت بين جدران المدينة لم تظفر قريش منها بشىء .

ودبر أبو مسلم الدولة الهاشمية ، وقام بها حتى كان حتفه فى تدبيره .

وكذلك جرى لأبى عبد الله المحتسب مع عبد الله المهدى بالمغرب .

ودبر أبو القاسم بن المسلمة رئيس الرؤساء فى إخراج البساسيرى عن العراق حتى كان هلاكه على يده ، وكذلك أيضا انعكس عليه تدبيره فى إزالة الدولة البويهية من الدولة السلجوقية ظنا منه أنه يدفع الشر ، بغير الشر فدفع الشر بما هو شر منه .

وأمثال هذا ونظائره أكثر من أن تحصى .

---

(١) سهم غرب : لا يدرى راميه .

(٢) اللطيمة : قافلة تحمل العطور .

(١٨)

الأصلُ :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُول صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ : غَيِّرُوا الشَّيْبَ ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بالْيَهُود ؛ فقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّما قالَ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ ذلِكَ والدِّينُ قُلٌّ ، فأَمَّا الآنَ وقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ ، فامْرُؤٌ وما اختارَ .

* * *

الشَّرحُ :

اليهودُ لا تَخضِب ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله أمر أصحابه بالخِضابِ ليكونوا فى مرْأى العين شَبابا فيَجْبنَ المشركون عنهم حال الحرْب ، فإنّ الشيخَ مَظِنّة الضّعف .

قال علىّ عليه السلام : « كان ذلك والإسلامُ قُلّ » ، أى قليل ؛ وأمّا الآن وقد اتّسع نطاقُه وضرَب بجِرانه فقد سَقط ذلك الأمرُ وصار الخضاب مُباحاً غيرَ مندوب .

والنِّطاق : ثوبٌ تلبَسه المرأةُ لبسةً مخصوصة ليس بصُدرةٍ ولا سراويلَ ، وسُمِّيتْ أسماء بنتُ أبى بكر ذات النِّطاقين لأنها قَطعتْ من ثوبها ذلك قطعةً شَدّت بها سُفرة لها حملها أبو بكر معه حين خرج من مكة مع النبيّ صلى الله عليه وآله يومَ الهِجْرة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لقد أبدَلها اللهُ بها نِطاقين فى الجنّة » ، وكان نفر الشام يُنادون عبد الله ابنها حين حَصَره الحجّاج بمكة يشتمونه كما زَعموا : يا بن ذاتِ النِّطاقين ، فيضحك عبدُ الله منهم ، وقال لابن أبى عَتيق : ألا تسمع ! يظنّونه ذَمًّا ثم يقول :

* وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها(١) *

واستعارَ أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه اللّفظة لسَمة رُقْعة الإسلام ، وكذلك استعار قوله : « وضَرَب بِجرانه » ، أى أقام وثبَت ، وذلك لأن البعير إذا ضَرَب بِجِرانه الأرض ـ وجِرانه مُقدَّم عنقِه ـ فقد استناخ وبَرَك .

وامرؤ مبتدَأ وإن كان نكرَةً ، كقولهم : « شرٌّ أهرَّ ذا ناب » ، لحصول الفائدة ، والواو بمعنى « مع » ، وهى وما بعدها الخبر ، وما مصدريّة ، أى امرؤ مع اختياره .

* * *

[نبذ مما قيل فى الشيب والخضاب]

فأمّا القول فى الخِضاب فقد روَى قومٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بدا شيبٌ يسيرٌ فى لحيته ، فغيّره بالخِضاب ، خَضَب بالحِنّاء والكَتَم ، وقال قومٌ : لم يَشِبْ أصلا .

ورُوِى أنّ عائشة قالت : ما كان الله ليَشِينه بالشيب ، فقيل : أوَشَيْنٌ هو يا أمّ المؤمنين ! قالت : كلّكم يكرهه . وأما أبو بكر فصحّ الخبر عنه بذلك ، وكذلك أمير المؤمنين ، وقيل : إنه لم يخضب . وقُتِل الحسينُ عليه السلام يومَ الطَّفّ وهو مَخْضوب . وفى الحديث المرفوع رواهُ عقبة بنُ عامر : « عليكم بالحِنّاء ، فإنه خِضاب الإسلام ، إنه يصفّى البَصَر ويَذهِب بالصُّداع ، ويزيد فى الباه ، وإيّاكم والسواد ، فإنه من سَوّد ، سَوّد الله وجهه يومَ القيامة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « عليكم بالخِضاب ، فإنه أهيَبُ لعدوّكم وأعجَبُ إلى نسائكم » .

---

(١) لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وَعَيّرَها الوَاشُون أنِّى أُحِبُّهَا *

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢١ .

ويقال فى أبواب الكناية للمختضِب ، هو يسوّد وجه النذير ، لأنّ النذير الشّيب ؛ قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَجاءَكُمُ النَّذِير ﴾(١) : إنه الشيب .

وكان عبدالرحمن بنُ الأسود أبيض الرأس واللّحية، فأصبح ذات يوم وقد حمّرها؛ وقال: إنّ عائشة أرسلتْ إلىّ البارحة جاريتها فأقسمتْ علىّ لأغيّرن، وقالت : إنّ أبا بكر كان يَصْبغ.

وروَى قيسُ بن أبى حازم قال : كان أبو بكر يخرُج إلينا وكأنّ لحيته ضِرامُ عَرْفَج .

وعن أبى عامر الأنصارىّ : رأيتُ أبا بكر يغيّر بالحنّاء والكَتَم ، ورأيت عمر لا يغيّر شيئاً من شَيْبه ، وقال : إنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «من شاب شَيبةً فى الإسلام كانت له نوراً يومَ القيامة» ، ولا أحبّ أن أغيّر نُورى .

وكان أنسُ بنُ مالك يخضِب ويُنشِد :

نُسوِّد أعلاها وتأبَى أصولُها ... وليس إلى رَدّ الشّباب سبيلُ

ورُوى أنّ عبد المطّلب وَفد على سيف بن ذى يَزَن ، فقال له : لو خضبتَ ! فلما عاد إلى مكّة خضب ، فقالت له امرأته نُتَيْلة أمّ العبّاس وضرار : ما أحسنَ هذا الخِضاب لو دام ! فقال :

فلو دامَ لى هذا الخضابُ حمِدْتُهُ ... وكان بَدِيلًا من خليلٍ قد انصَرَمْ
تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةٌ ... ولابد من موتٍ ـ نتيلةُ ـ أو هَرَمْ
وموتٍ جهيزٍ عاجلٍ لا شَوَى له ... أحبُّ إلينا من مقالِكُمُ حَكَمْ

قال : يعنى أنه صار شيخاً ، فصار حَكما بين الناس ، من قوله :

لا تَغبِط المرءَ أن يقال له ... أضحى فلانٌ لسنّه حَكَما

(١) سورة فاطر ٣٥ .

وقال أسماء بنُ خارجةَ لجاريته : اخضِبيني ، فقالت حتى متى أرقّعك ! فقال :

عيّرتني خَلَقا أبليتُ جِدّتَه وهل رأيتِ جديداً لم يعُد خَلَقا!

وأمّا من يَرْوِي أنّ عليّا عليه السلام ما خَضَب ، فيحتجّ بقوله ، وقد قيل له : لو غيّرتَ شيبَك يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : الخضاب زينة ، ونحن في مصيبة — يعني برسول الله صلّى الله عليه وآله .

وسُئِل الحسنُ عليه السلام عن الخضاب ، فقال : هو جَزَعٌ قبيح . وقال محمود الورّاق :

يا خاضبَ الشّيْب الّذي في كلّ ثالثةٍ يعودُ
إنّ الخضابَ إذا مَضَى فكأنه شَيبٌ جديدُ
فدَعِ المشيبَ وما يُريدُ فلن تعودَ كما تُريدُ

وقد روَى قومٌ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله كَراهيةَ الخضاب ، وأنه قال: لو استقبلتم الشيبَ بالتّواضع لكان خيرا لكم .

قال الشاعر :

وصَبغتُ ما صَبَغ الزمانُ فلم يَدُمْ صَبْغى ودامت صِبْغة الأيّامِ

وقال آخر :

يأيّها الرجلُ المغيّر شَيبَه كيما تُعَدّ به من الشّبّانِ
أقصِر فلو سوّدت كلّ حمامةٍ بيضاءَ ما عُدّت من الغِرْبانِ

ويقولون في ديوان عَرْض الجيش ببغدادَ لمن يَخضِب إذا ذَكَروا حِليتَه : مستعار ، وهى كنايةٌ لطيفة . وأنا أستحسِن قول البُحْتريّ : خَضَبتُ بالمِقراض : كناية عن قصّ الشعر الأبيض ، فجعل ذلك خِضابه عِوَضا عن الصّبغ ، والأبياتُ هذه :

لابسٌ من شبيبةٍ أم ناضٍ ومليحٌ من شيبةٍ أم راضٍ (١)

---

(١) ديوانه ٢ : ٧٢ ، من قصيد يمدح فيها ابن الفياض .

وإذا ما امتَعضتُ مِن وَلع الشَّيـ ب برأسى لم يَثْنِ ذاكَ امتِعاضِي

ليس يَرضى عن الزّمان امرُؤ فيـ ـه إلّا عن غَفلَةٍ أو تغاضِي

والبَواقِي مِن اللّيـالى وإن خا لَفْنَ شيئا شَبيهةٌ بالمَوَاضِي(١)

وأبَتْ تَرْكِى الغُديّاتِ والآ صالِ حتّى خَضبتُ بالمِقْراضِ

ودواهُ المَشيبِ كالبَخْصِ فى عَيْنِى فقل فيـه فى العيونِ المِراضِ

طال حُزْنى على الشّباب وما بَيّضَ مِن لونِ صِبْغِه الفَضْفاضِ

فهل الحـادثاتُ يابنَ عُوَيْفٍ تاركاتى ولُبسَ هـذا البَياضِ !

(١) الديوان : « فشبهات » .

(١٩)

الأصْلُ

مَنْ جرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

***

الشَّرْحُ

قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ فى الأمل ، ونذكر ها هنا زيادةً على ذلك :

قال الحسن عليه السلام : لو رأيتَ الأجلَ ومَسيرَه ، لنسيتَ الأملَ وغرورَه ، ويُقدِّر المقدِّرون والقضاء يَضحَك .

وروَى أبو سَعيد الُخدرِيّ أنّ أسامةَ بنَ زيد اشترى وَليدةً بمائة دينار إلى شهر ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « ألا تَعجَبون من أُسامةَ يَشترِى إلى شَهْر ! إنّ أسامةَ لطويلُ الأَمَل » .

أبو عثمان النَّهدىّ : قد بلغتُ نحوا من ثلاثين ومائةَ سنةٍ فما من شىء إلّا قد عرفتُ فيه النقصَ إلّا أملى ، فإنّه كما كان .

قال الشاعر :

أراكَ تَزِيدُك الأيّامُ حِرْصاً ... على الدّنيا كأنّك لا تَموتُ
فهلْ لكَ غايةٌ إن صرتَ يوما ... إليها قلتُ حَسْبى قد رَضيتُ !

وقال آخر :

مَنْ تَمَنَّى المُنَى فأغرَقَ فيها ... ماتَ من قبلِ أن يَنالَ مُناهُ
ليس فى مالِ مَن تَتابَع فى اللّذّاتِ فضلٌ عن نفسِهِ لِسواهُ

(٢٠)

الأصْلُ :

أَقِيلُوا ذَوِى الْمُرُوآتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللهِ يَرْفَعُهُ .

***

الشَّرْحُ :

[نبذ مما قيل فى المروءة]

قد رُوِيَتْ هذه الكلمة مرفوعة ، ذكر ذلك ابنُ قُتيبة فى " عيون الأخبار " وأحسَنَ ما قيل فى المُروءة قولُهم : اللَّذة تركُ المروءة ، والمروءةُ تركُ اللَّذة .

وفى الحديث أنّ رجلا قام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا رسولَ الله ، ألستُ أفضلَ قومى ! فقال : إن كان لك عَقْل فلك فَضْل ، وإن كان لك خُلُق فلَك مُروءة ، وإن كان لك مال فلَك حَسَب ، وإن كان لك تُقًى فلك دِين .

وسئل الحسَن عن المروءة فقال : جاء فى الحديث المرفوع : « إنّ الله تعالى يحبّ معالىَ الأمورِ ويكرَه سَفْسافَها » .

وكان يقال : من مُروءة الرجلِ جلوسُه ببابِ داره .

وقال الحسن : لا دِين إلّا بمُروءة .

وقيل لابن هُبيرة : ما المُروءة ؟ فقال : إصلاحُ المال ، والرَّزانةُ فى المجلس ، والغَدَاء والعَشاء بالفِناء .

وجاء أيضا فى الحديث المرفوع : « حَسَبُ الرجُل مالُه ، وكَرَمُه دِينُه ، ومُرُوءته خُلُقُه » . وكان يقال : ليس من المروءة كثرةُ الالتفات فى الطَّريق .

ويقال : سُرعة المَشْى تذهب بمُروءة الرجل .

وقال معاوية لعمرو : ما ألذّ الأشياء ؟ قال : مُرْ فِتْيانَ قُرَيش أن يقوموا ؛ فلمّا قاموا قال : إسقاطُ المرُوءة .

وكان عُروةُ بنُ الزّبير يقول لبَنِيه : يا بَنِيّ الْعَبوا ، فإنّ المروءة لا تكون إلّا بعد اللّعِب . وقيل للأحنف : ما المرُوءة ؟ قال : العِفّة والحِرْفة ، تَعفّ عمّا حَرّم الله ، وتحترِف فيما أحَلّ الله .

وقال محمّد بن عمران التيميّ : لا أشدّ من المروءة ، وهى ألّا تعمل فى السرّ شيئا تَستحيِي منه فى العَلانيَة . وسئل النّظام عن المرُوءة ، فأنشد بيتَ زُهَير :

السترُ دونَ الفاحشاتِ ولا يَلقاكَ دُونَ الخيْرِ من سِتْرِ (١)

وقال عُمر : تعلموا العربيّة فإنّها تَزيدُ فى المرُوءة ، وتعلّموا النَّسَب فرُبَّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد وُصِلتْ به .

وقال ميمونُ بنُ مِهْران : أوّلُ المرُوءة طَلاقةُ الوَجْه ، والثانى التودُّد إلى الناس ، والثالثُ قضاء الحوائج .

وقال مَسلَمة بنُ عبدِ المَلِك : مُروءتان ظاهِرتان : الرِّياش والفصاحة .

وكان يقال : تُعرَف مُروءةُ الرّجل بكثرة دُيونه .

وكان يقال : العقل يأمُرُك بالأنفع ، والمرُوءة تأمرك بالأجمَل .

---

(١) ديوانه ٩٥ .

لامَ معاويةُ يزيدَ ابنَه على سَماع الغِناء وحُبِّ القِيان ، وقال له : أسقطْتَ مرُوءتَك ، فقال يزيد : أتـكلّم بلسانى كلمةً ؟ قال : نعم ، وبلسانـ أبى سفيانَ بن حَرْب وهند بنتِ عُتْبة مع لسانك ، قال : والله لقد حدّثنى عَمرو بنُ العاص ـ واستَشهَد على ذلك ابنَه عبدَ الله بصدقه ـ أنَّ أبا سفيانَ كان يَخلَع على المغنِّى الفاضل والمضاعف من ثِيابه ، ولقد حدّثنى أنّ جاريَتَىْ عبد الله بن جُدعان غنّتاه يوما فأطرَبتاه ، فَجَعَل يَخلع عليهما أثوابَه ثوبا ثَوْبا حتى تجرّدَ تجرُّد العَيْر ، ولقد كان هو وعفّان ابنُ أبى العاص ربّما حَمَلا جاريةَ العاص بن وائل على أعناقِهما ، فمرّا بها على الأبطح وجِلّة قريش ينظرون إليهما ؛ مرّةً على ظهر أبيك ، ومرّةً على ظَهْر عَفّان ، فما الّذى تنـكر منّى ! فقال معاوية : اسكُت لَحاكَ الله ! واللهِ ما أحدٌ ألحَقَ بأبيك هذا إلا ليغرُّك ويفضَحَك ، وإن كان أبو سفيان ما علمتَ لَثقيلُ الحِلْم ، يَقْظان الرأى ، عازِبُ الهوَى ، طويلُ الأَناة ، بعيدُ القَعْر ، وما سوّدتْه قريشٌ إلّا لفضْله .

(٣١)

الأصل :

قُرِنَتْ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ .

* * *

الشرح :

فى المَثَل : مَنْ أقدَم لم يَنْدَم ، وقال الشاعر :

ليس للحاجات إلّا من له وجهٌ وَقاحُ
ولسانٌ طِرْمِذِيٌّ (١) وغُدُوٌّ ورَواحُ
فعليه السعىُ فيها وعلى الله النّجاحُ

وكان يقال : الفرصة ما إذا حاولْتَه فأخطأك نفعُه ، لم يَصِلْ إليك ضرّه .

ومن كلام ابن المقفع : انتهز الفرصةَ فى إحراز المآثر ، واغتنِم الإمكان باصطناع الخير ، ولا تنتظِر ما تُعامل فتُجازَى عنه بمثله ، فإنّك إن عُوملتَ بمكروه واشتغلت بِرَصد المكافأة عنه قَصّر العُمر بكَ عن اكتساب فائدة ، واقتناء مَنْقَبة ، وتصرّمَتْ أيّامُك بين تعدٍّ عليك ، وانتظارٍ للظّفَر بإدراك الثأرِ من خَصْمك ، ولا عيشةَ فى الحياة أكثرُ من ذلك .

كانت العربُ إذا أوفدَتْ وافدا قالت له : إيّاك والهَيْبة ؛ فإنها خَيْبة ؛ ولا تَبِتْ عند ذَنَب الأمر وبِتْ عند رأسه .

---

(١) طرمذى : يتمدح بما ليس فيه .

(٢٢)

الأصلُ :

لَنَا حَقٌّ فإنْ أُعْطِيناهُ وإلّا رَكِبْنا أعْجازَ الإبلِ ، وإنْ طَالَ السُّرَى .

* * *

قالَ الرَّضيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وهَذَا الْقولُ منْ لَطِيفِ الْكلامِ وفَصِيحِهِ ، ومَعْناهُ أنّا إنْ لَمْ نُعْطَ حَقَّنا كُنّا أذِلّاءَ ، وذلِكَ أنّ الرَّدِيفَ يَرْكَبُ عَجُزَ الْبعِيرِ ، كالْعَبْدِ والأسِيرِ ومنْ يَجْرِي مَجْرَاهما .

* * *

الشرحُ :

هذا الفصلُ قد ذكره أبو عبيد الهرويّ فى " الجمع بين الغريبين " وصورته : إنّ لنا حقّا إن نعطه نأخُذْه ، وإنْ نُمنَعه نركب أعجاز الإبل ، وإن طال السُّرَى . قال قد فسّروه على وجهين : أحدُها أنّ راكبَ عَجزِ البعير يلحقه مشقة وضرر ، فأراد : أنّا إذا مُنِعْنا حَقّنا صَبرنا على المَشقّة والمَضرّة ، كما يَصبر راكب عجُز البعير ؛ وهذا التفسير قريبٌ مما فسّره الرضيّ . والوجه الثانى أنّ راكب عجزِ البعير إنما يكون إذا كان غيرُه قد رَكِب على ظَهْر البعير ، وراكبُ ظهر البعير متقدّم على راكب عَجزِ البعير ، فأراد أنّا إذا مُنِعْنا حَقّنا تأخّرْنا وتقدّمَ غيرُنا علينا ، فكُنّا كالراكب رَديفا لِغَيره ، وأكد المعنى على كلا التفسيرين[1] بقوله : « وإنْ طالَ السُّرَى » ، لأنه إذا طال السرى كانت المَشَقّة

(١) فى د : « التقديرين » .

على راكب عجُز البعير أعظم ، وكان الصبر على تأخّر راكب عجُزِ البعير عن الراكب على ظهره أشدّ وأصعب .

وهذا الكلام تزعم الإماميّة أنه قاله يومَ السّقيفة أو فى تلك الأيام ، ويذهَب أصحابُنا إلى أنّه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماعِ الجماعة لاختيار واحد من الستّة ، وأكثر أرباب السِّيَر ينقُلونه على هذا الوجه .

(٢٣)

الأصْلُ :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام حَثٌّ وحَضٌّ وتحريض على العبادة ، وقد تقدّم أمثالُه[١] ، وسيأتى له نظائرُ كثيرة ، وهو مِثلُ قولِ النبىّ صلى الله عليه وآله : « يا فاطمة بنتَ محمّد ، إنى لا أُغنى عنك من الله شيئاً ، يا عبّاس بنَ عبد المطلب ، إنى لا أُغنى عَنكَ من الله شيئاً ، ﴿ إنّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم ﴾[٢] .

---

(١) فى د « مثله » .   (٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٢٤)

الأصل :

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَالتَّنفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ .

***

الشرح :

قد جاء فى هذا المعنى آثارٌ كثيرة ، وأخبارٌ جميلة . كان العتّابىّ قد أملَق ، فجاء فوقَف بباب المأمون يسترزق الله على يديه ، فوافى يحيى بن أكثم ، فعرض له العتّابى ، فقال له : إن رأيتَ أيها القاضى أن تُعلم أمير المؤمنين مكانى فافعل ، فقال : لست بحاجب ؛ قال : قد علمتُ ، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضْل مِعوان ، فقال : سلكتَ بى غيرَ طريق ؛ قال : إنّ الله أتحفَك منه بجاهٍ ونعمة ، وهو مقبل عليك بالزّيادة إن شكرتَ ، وبالتغيير إنْ كفرت ، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك ، لأنّى أدْعوك إلى ما فيه ازدياد نعمَتِك ، وأنت تأبى علىّ ، ولكلّ شىء زكاة ، وزكاة الجاه رِفْد المستعين . فدخل يحيى فأخبر المأمون به ، فأحضَره وحادثه ولاطَفه ووَصَله .

(٢٥)

الأَصْـلُ :

يَابْنَ آدَمَ ، إذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِـعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج ؛ قال سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١) ؛ وذلك لأن العبد بغروره يعتقد أنّ موالاة النِّعَم عليه وهو عاص من باب الرِّضا عنه ، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمةٌ عليه .

فإن قلت : كيف يصحّ القول بالاستدراج على أصولكم فى العدل ؟ أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته ! فهل هذا الاستدراج إلّا مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح !

قلت : إذا كان المكلَّف عالماً بقبح القبيح ، أو متمكِّنا من العِلْم بقُبْحه ثم رأى النِّعَم تتوالى عليه وهو مُصِرٌّ على المعصية ، كان تَرَادُف تلك النِّعَم كالمنبِّه له على وجوب الحذَر ، مِثالُ ذلك مَن هو فى خِدْمةِ مَلِك ، وهو عونُ ذلك الملك فى دَوْلته ، ويعلم أنّ المَلِك قد عرف حالَه ، ثم يرى نِعَم الملك مترادفةً إليه ، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتدّ حَذرُه ، لأنه يقول : ليست حالى مع المَلِك حالُ من يستحقّ هذه النعم ، وما هذه إلّا مَكيدة وتحتها غائلة ، فيجب إذَنْ عليه أن يَحْذَر .

---

(٢) سورة الأعراف ١٨٢ .

(٣٦)

الأَصْلُ :

مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قال زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى :

وَمَهمَا تَكُن عند امرئٍ مِنْ خليقةٍ وإن خالَها تَخفَى على الناس تُعلَمِ (١)

وقال آخر :

تُخبِّرُني العَيْنانِ ما القلبُ كاتمٌ وما جنَّ بالبَغْضاء والنظرِ الشَّزْرِ

وقال آخر :

وفى عينيكَ تَرجمةٌ أراها تَدُلُّ على الضَّغائن والحقُود

وأخلاقٌ عهِدتُ اللِّين فيها غَدَتْ وكأنَّها زُبَرُ الحديدِ

وقد عاهَدْتَني بخلافِ هذا وقال الله : « أَوْفُوا بالعُقُودِ »

وكان يقال : العين والوجه واللّسان أصحاب أخبار على القلب ، وقالوا : القلوب كالمرايا المتقابِلة ؛ إذا ارتسمَتْ فى إحداهنّ صورةٌ ظهرتْ فى الأخرى .

---

(١) ديوانه : ٢٥٧ .

(٢٧)

الأصلُ :

امْشِ بدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ .

* * *

الشَّرحُ :

يقول : مهما وجدتَ سبيلًا إلى الصّبر على أمرٍ من الأمور الّتى قد دُفعت إليها ، وفيها مشَقّة عليك ، وضرر لاحِقٌ بك ، فاصبر ولا تلتمسْ طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تَسلُكها بالعُنف ، ومُراغَمة الوقت ، ومعاناة الأَقْضية والأَقدار ؛ ومِثال ذلك من يَمرِض له مَرَض ما يُمكِنه أن يَحتمِله ويدافع الوقت ، فإنّه يجب عليه ألّا يَطرَح جانبَه إلى الأرض ، ويَخلُد إلى النوم على الفِراش ، ليعالج ذلك المرض قوّة وقهرا ؛ فربما أفضَى به مقاهرة ذلك المَرَض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيرا مُعضِلا .

(٢٨)

الأصلُ :

أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ .

* * *

الشَّرحُ :

إنما كان كذلك لأنّ الجهرَ بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلَّ أن يَسلم من مخالطه الرّياء ، وقد تقدّم لنا فى الرياء أقوالٌ مُقنِعة .

رأى المنصورُ رجلا واقفاً ببابه ، فقال : مثل هـذا الدرهمَ بين عينيك وأنتَ واقفٌ ببابنا ! فقال الربيع : نعم ، لأنّه ضرِب على غير السِّكّة .

شاعر :

معشرٌ أثبتَ الصلاةَ عليهمْ   لِجباهٍ يشقُّها المِحرابُ
عَمَرُوا مَوْضعِ التصنُّعِ منهمْ   ومكانُ الإخلاص منهمْ خَرابُ

(٣٩)

الأصل :

إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى !

* * *

الشرح :

هــذا ظاهر ، لأنّه إذا كان كلّما جاء فى إدبار ، والموتُ كلّما جاء فى إقبال ، فياسُرْعانَ ما يلتقيان ! وذلك لأنّ إدبارَه هو توجُّهه إلى الموت ، وإقبال الموت هو توجّه الموت إلى نحوه ، فقد حُقّ إذَن الالتقاء سريعا ، ومثالُ ذلك سفينتان بدِجْلة أو غيرها ، تَصعَد إحداها ، والأخرى تَنحدِر نحوَها ، فلا رَيْب أنّ الالتقاء يكون وَشيكا .

(٣٠)

الأَصْلُ :

الْحَذَرَ الْحَذَرَ ، فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وهو الاستدراج الذى ذَكَرْناه آنِفاً.

(٣١)

الأصلُ :

وَسُئِلَ عليه السلام عن الإيمان فقال : الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى الصَّبْرِ ، وَالْيَقِينِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالْجِهَادِ .

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الشَّوْقِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالزُّهْدِ ، وَالتَّرَقُّبِ ؛ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ .

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ ، تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، عَرَفَ الْعِبْرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ ، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ .

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ ، وَزَهْرَةِ الْحُكْمِ ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحِلْمِ ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا .

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى التَّعَمُّقِ ، وَالتَّنَازُعِ ، وَالزَّيْغِ ، وَالشِّقَاقِ ؛ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ،

وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .

وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى التَّمَادِي ، وَالْهَوْلِ ، وَالتَّرَدُّدِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ ؛ فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ ، وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

***

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَبَعْدَ هَـذَا كَلَامٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الْإِطَالَةِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

***

الشَّرْحُ :

من هـذا الفصل أخذَتِ الصّوفيّةُ وأصحابُ الطريقة والحقيقةِ كثيرا من فنونهم فى علومهم ؛ ومن تأمّل كلامَ سهل بنِ عبدِ الله التُّسْتَرِيّ وكلامَ الْجنَيد والسّريّ وغيرهم رأى هذه الـكلمات فى فَرْش كلامِهم تَلُوح كالـكواكب الزاهرة وكلّ المقامات والأحوال المذكورة فى هذا الفصل قد تقدّم قولُنا فيها .

***

[نُبذٌ وحكايات مما وقع بين يدى الملوك]

ونذكر هاهنا الصدق فى المواطن ، وبين يدَى الملوك، ومن يَغضَب لله ، ويَنهَى عن المنـكر ، ويقوم بالحقّ ولا يُبالى بالسلطان ولا يُراقبه .

دخل عمرُ بنُ عبد العزيز على سليمانَ بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه ـ وهو يومئذ وليُّ عهدِه ـ قد عقد له من بعده ، فجاء إنسانٌ يَطلُب ميراثا من بعض نساء الُخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يَرِثن فى العَقار شيئا ، فقال عمر بنُ عبد العزيز : سبحان الله! وأين كتابُ الله ! فقال سليمان : يا غلام ، اذهَب فأْتِنى بسِجِلّ عبد الملك الّذى كُتب فى ذلك ، فقال له عمر : لكأنّك أرسلتَ الىّ المصحف ! فقال أيّوب بن سليمان: والله ليُوشِكَنّ الرجل يتكلّم بمثِل هذا عندَ أميرِ المؤمنين . فلا يشعر حتّى يفارقه رأسُه ؛ فقال عمر : إذا أَفضى الأمرُ إليك وإلى أمثالك كان ما يَدخُل على الإسلام أشدّ ممّا يخشى عليكم من هذا القَوْل ، ثمّ قام فخرج .

وروَى إبراهيمُ بنُ هشام بن يحيى ، قال : حدّثنى أبى ، عن جدّى، قال : كان عمرُ بنُ عبد العزيز يَنهَى سليمانَ بنَ عبد الملك عن قتْل الحَرُوريّة ، ويقول : ضَمِّنْهم الُحبوس حتّى يُحدثوا توبةً ، فَأُتِىَ سليمان بحَرُورىّ مستقتل ، وعنده عمرُ بنُ عبد العزيز ، فقال سليمان للحَرُورىّ : ماذا تقول ؟ قال : ما أقول يا فاسق يابنَ الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترَى يا أبا حفص ؟ فسَكَت ، فقال : أقسمتُ عليك لتخبرنّى ماذا ترى عليه ! فقال : أرَى أن تَشتُمه كما شَتَمك ، وتَشتُم أباه كما شتَم أباك ، فقال سليمان : ليس إلّا ! قال : ليس إلّا ؛ فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمَر بضَرْب عنق الحرورىّ .

وروَى ابنُ قتيبة فى كتاب ,, عيون الأخبار " قال : بينما المنصور يطوف ليلا بالبَيْت سَمِع قائلا يقول : اللّهمّ إليك أشكو ظهورَ البَغْى والفساد ، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطّمع . فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسَل إلى الرجل يدعوه ، فصلّى ركعتين ، واستَلَمَ الرُّكن ، وأقبل على المنصور فسلّم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الّذى سمعتُك تقوله من ظُهور البَغْى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحقّ

وأهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوتَ مسامعي ما أرْمَضني (١) فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ أمَّنتني على نفسي أنبأتُك بالأمور من أصولها ، وإلاّ احتجزتُ منك ، واقتصرتُ على نفسي فلي فيها شاغل ؛ قال : أنت آمنٌ على نفسك ، فقل ؛ فقال : إنّ الذى دخله الطمع حتّى حال بينه وبين إصلاح ما ظَهر من البَغْي والفساد لأنت ، قال : وَيْحك ! وكيف يَدخُلني الطمع والصّفراء والبيضاء في قَبْضَتي ، والحُلْو والحامض عندى ! قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دَخَلَكَ ! إنّ الله عزّ وجلّ استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلتَ أمورهم ، واهتممتَ بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حُجُبا من الجصّ والآجُرّ ، وأبوابا من الحديد ، وحَجَبَةً معهم السلاح ، ثمّ سجنتَ نفسك فيها منهم ، وبَعَثت عمّالك في جباية الأموال وجمعِها ، فقوّيتَهم بالسِّلاح والرجال والكُراع ، وأمَرْت بألّا يدخُل عليك إلاّ فلان وفلان ، نفرٌ سمّيتَهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملْهوف ، ولا الجائع والفقير ، ولا الضعيف والعارى ، ولا أحد ممن له في هذا المال حقّ ؛ فما زال هؤلاء النفرُ الذين استخلصتَهم لنفسك ، وآثرتَهم على رعيّتك ، وأمرت ألّا يُحجَبوا عنك ، يجبون الأموال ويَجْمعونها ويَحجُبونها ، وقالوا : هذا رجل قد خان الله ، فما لنا لا نخونه ، وقد سَخَّرنا ! فائتمروا على ألاّ يصل إليك مِن أخبار الناس شيء إلّا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلّا بَغَضوه (٢) عندك ونَفَوْه الغَوائل ، حتى تسقُط منزلته ويَصْغر قدرُه . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناسُ وهابوهم ، وكان أوّل من صانَعَهُم عمّالك بالهدايا والأموال ليَقْوَوْا بها على ظلْم رعيّتك ، ثمّ فعل ذلك ذَوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظلم مَن دونَهم ، فامتلأتْ بلاد الله بالطّمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سَلْطنتك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حِيلَ بينه وبين دخول

(١) ب : « أمرضني » ؛ والصواب ماأثبته من ا ، د وعيون الأخبار .

(٢) عيون الأخبار : « قصبوه » أي عابوه .

دارك ، وإن أراد رَفْع قصّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيتَ عن ذلك ، ووقفت للنّاس رَجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء المتظلم إليه أرسلوا إلى صاحبِ المظالم ألاّ يرفع إليك قصّته ، ولا يكشف لك حاله ؛ فيجيبهم خوفاً منك ، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ، ويلوذ به ، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه ، ويعتلّ عليه ؛ وإذا أجهِد وأُحرِج ، وظهرتَ أنت لبعض شأنك صَرَخ بين يديك ، فيُضرب ضربا مبرّحا ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظرُ ولا تنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا !

ولقد كنتُ أيّام شبيبتى أسافر إلى الصّين فقدِمْتُها مرّة وقد أصِيب ملِكُها بسَمْعه ، فبَكَى بكاءً شديدا ، فحداه[1] جلساؤه على الصّبر ، فقال: أما إنّى لست أبكى للبليّة النازلة ، ولكن أبكى المظلوم بالباب يَصرُخ فلا أسمعُ صوتَه ! ثمّ قال : أمّا إذْ ذهب سمعى فإنّ بصرى لم يذهب ، نادُوا فى الناس ألّا يلبسَ ثوبا أحمرَ إلّا مظلوم[2] ، ثمّ كان يركَب الفيل طرَفَىْ نهاره ينظرُ هل يرى مظلوما ! فهذا مُشرِكٌ بالله غلبتْ رأفته بالمشركين على شُحّ نفسِه ، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيّه لا تَغلِبُك رأفتُك بالمسلمين على شُحّ نفسِك ! فإن كنتَ إنما تجمعُ المال لولدك فقد أراك الله تعالى عِبرا فى الطّفل يَسقُط من بطن أمّه، ماله على الأرض مال ، وما من مال يومئذ إلّا ودونه يدٌ شَحيحة تَحويه ؛ فلا يزال الله يَلطف بذلك الطّفْل حتّى تَعظُم رغبةُ النّاس إليه ، ولستَ بالّذى تُعطِى ، ولكنّ الله يُعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلتَ : إنّما أجمع المال لتشييد السلطان ، فقد أراكَ اللهُ عِبَراً فى بنى أميّة ، ما أغنَى عنهم ما جمعوا من الذّهب والفضة ، وأعدّوا من الرجال والسّلاح والكُراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلتَ : أجمع المالَ لطلب غاية هى أجسَم من الغاية الّتى أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنتَ فيه إلّا منزلةٌ لا تُدرَك إلّا بخلاف ما أنت عليه ؛ انظرْ هل تعاقِب من عصاك بأشدَّ من القتْل ؟ قال : لا ، قال : فإنّ المَلِك الّذى خوّلك ما خوّلك

---

(١) عيون الأخبار : « فحثه » . (٢) د : « متظلم » .

لا يُعاقِب مَن عصاه بالقَتْل ، بالخلود فى العذاب الأليم ! وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك ، وعمِلَتْه جوَارحُك ، ونظر إليه بَصرُك ، واجترحتْه يداك ومشتْ إليه رجْلاك . وانظر هل يُغنِى عنك ما شححتَ عليه من أمرِ الدنيا إذا أُنتزَعَه من يَدِك ودعاك إلى الحساب على ما مَنَحك !

فبكى المنصورُ وقال : ليتنى لم أُخلَقْ ! وَيْحك ! فكيف أحتالُ لنفسى ؟ قال : إنّ للناس أعلاما يَفزَعون إليهم فى دِينهم ، ويَرْضَوْن بقَوْلهم ، فاجعلْهم بِطانَتك يُرشِدُوك ، وشاوِرْهم فى أمرِكَ يُسدِّدوكَ ؛ قال : قد بعثتُ إليهم فهرَبوا منّى ؛ قال : نعم ، خافوا أن تَحمِلهم على طريقِك ، ولكن أُفتحْ بابَك ، وسَهِّل حِجابَك ، وانظر المظلومَ ، واقمَع الظالمَ ، وخذ الفَىْء والصَّدقاتِ ممّا حلّ وطاب ، وأَقسِمه بالحقّ والعدل على أهله ، وأنا الضّامن عنهم أنْ يأتوكَ ويُسعِدوكَ على صَلاحِ الأمّة .

وجاء المؤذِّنون فسلّموا عليه ، ونادَوا بالصّلاة ، فقام وصلّى ، وعاد إلى مجلسه ، فطُلب الرّجل فلم يُوجَد (١) .

ورَوَى ابنُ قُتَيبَة أيضا فى الكتاب المذكور أنّ عَمرو بنَ عُبيد قال للمنصور : إنّ الله أعطاكَ الدّنيا بأسْرِها ، فاشترِ نفسَكَ منه ببعضها ، واُذكر ليلةً تتمخّض لكَ صبيحتُها عن يوم القيامة — قال : يعنى ليلةَ موتِه — فوَجَم المنصورُ ، فقال الربيع : حَسْبُك ، فقد غممتَ أميرَ المؤمنين ، فقال عَمرو بنُ عبيد : إنّ هذا صَحِبَك عشرين سنةً لم يَرَ عليه أن ينصَحَك يوما واحدا ، ولم يَعمَل وراء بابك بشىء ممّا فى كتاب الله ولا فى سنّة نبيّه ! قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلتُ لك : خاتَمِى فى يَدِك فهلمّ أنت وأصحابَك فاَكفِنى ، فقال عمرو : دَعْنا بَعدْلك نَسْخُ بأنفسنا بعَوْنِك ، وببابِك مَظالِم كثيرة (٢) ، فارْدُدها نَعلم أنّك صادق (٣) .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٣ — ٣٣٧ .   (٢) عيون الأخبار : « ألف مظلمة » .

وقال ابن قتيبة فى الكتاب المذكور : وقد قام أعرابىّ بين يدىْ سليمانَ بن عبد الملك بنحو هذا ، قال له : إنّى مكلّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام [فيه بعض الغلظة](١) فاحتمله إن كرهتَه ، فإنّ وراءه ما تحبّ ، قال : قل ، قال : إنّى سأُطلِق لسانى بما خَرِسَتْ عنه الألسُن من عِظَتك تأديةً لِحَقِّ الله . إنّك قد تكنّفك رجالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم ، فابتاعوا دُنْياهم بدينهم ، فهم حربُ الآخرة ، سِلْمُ الدّنيا ، فلا تأمنْهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنّهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمّة خَسْفا ، وأنت مسئول عما اجترَحوا ، وليسوا مسئولين عمّا اجترَحْتَ ، فلا تُصلِح دُنياهمْ بفسادِ آخرَتِك . فإنّ أعظمَ الناس غَبْنا مَن باعَ آخرتَه بدُنْيا غيرِه . قال : فقال سليمان : أمّا أنت يا أعرابىّ ، فإنّك قد سَلَلتَ علينا عاجلًا لسانَك ، وهو أقطعُ سَيْفَيْك ؛ فقال : أجَل ، لقد سللتُه ، ولكن لك لا عليك(٢) .

(١) زيادة من عيون الأخبار . (٢) عيون الأخبار : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣٢)

الأَصْـلُ :

فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد نظمتُ أنا هذا اللفظ والمعنى ، فقلتُ في جملةِ أبياتٍ لي :

خيرُ البضائعِ للإنسان مَكْرُمَةٌ تَنمِي وتزكو إذا بارَتْ بَضائعُهُ
فالخيرُ خَيْرٌ وخيرٌ منـه فاعِلُه والشرُّ شرٌّ وشرٌّ منه صانعُهُ

فإن قلتَ : كيف يكون فاعلُ الخيرِ خيرا من الخير ، وفاعلُ الشرّ شرّا من الشرّ ، مع أنّ فاعل الخير إنّما كان ممدوحا لأجل الخير ، وفاعل الشرّ إنما كان مذموما لأجل الشرّ، فإذا كان الخير والشرّ هما سَبَبَا المَدْح والذّمّ ـ وهما الأصل في ذلك ـ فكيف يكون فاعلاها خيراً وشرّا منهما ؟

قلت : لأنّ الخير والشرّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة ، وإنّما هما فعلان ، أو فعل وعدم فعل ، أو عَدَمان ، فلو قطع النظر عن الذّات الحيّة القادرة الّتي يَصدُران عنها ، لمـا انتَفَع أحدٌ بهما ولا استضرّ ، فالنّفع والضّرر إنّما حَصَلا من الحيّ الموصوف بهما لا منهما على انفرادها ، فلذلك كان فاعلُ الخَيْر خيرا من الخـير ، وفاعلُ الشرّ شرّا من الشرّ .

(٣٣)

الأصلُ :

كُنْ سَمْحًا ، وَلَا تَكُنْ مُبَذِّرًا ، وَكُنْ مُقَدِّرًا ؛ وَلَا تَكُنْ مُقَتِّرًا .

* * *

الشرح :

كلُّ كلامٍ جاء فى هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾(١) .

ونحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾(٢) .

---

(١) سورة الإسراء ٢٧ .   (٢) سورة الإسراء ٢٩ .

(٣٤)

الأصْـلُ :

أشْرَفُ الْغِنَى ، تَرْكُ الْمُنَى .

***

الشَّـرْحُ :

قد سبق منا قولٌ كثيرٌ فى المُنى ، ونذكر ها هنا ما لم نذكرْه هناك .

سُئل عُبيدُ الله بنُ أبى بكر : أىّ شىء أدوَم متاعا ؟ فقال : المُنَى .

وقال بلال بن أبى بُرْدة : ما يَسُرّنى بنصيبى من المُنى حُمْر النَّعم .

وكان يقال : الأمانىّ للنفس كالرَّونَق للبَصَر .

ومن كلام بعض الحُكَماء : الأمانىّ تُعمِى أعيُنَ البصائر ، والحظّ يأتى من لا يأتيه ، وربّما كان الطمع وِعاء حشوُه المَتالف ، وسائقا يدعو إلى الندامة ، وأشقَى الناس بالسّلطان صاحبُه ؛ كما أنّ أقربَ الأشياء إلى النّار أسرَعُها إحراقا ، ولا يُدرِك الغِنَى بالسّلطان إلّا نفسٌ خائفة ، وجسمٌ تَعِب ، ودين منكَتم ، وإن كان البحرُ كَدِرَ الماء ، فهوَ بَعيدُ الهَوَاء .

(٣٥)

الأصلُ :

مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ ، قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ .

* * *

الشَّرحُ :

هـذا المعنى كثيرٌ واسع ، ولنقتصرْ ها هنا فيـه على حكاية ذكَرها المبرّد في " الكامل " .

* * *

[في مجلس قتيبة بن مسلم الباهليّ]

قال : لما فتح قتيبةُ بنُ مُسلم سَمَرْقند أفضى[1] إلى أثاث لم يُرَ مِثله[2] ، وإلى آلاتٍ لم يُرَ مِثلها ، فأراد أن يُرِيَ الناس عظيمَ ما أنعمَ الله به عليه ، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم ، فأمر بدارٍ ففُرِشت وفي صحنها قدُور يُرْتَقى إليها بالسلالم ، فإذا الحُضَين ابنُ المُنذِر بن الحارث بن وَعْلة الرّقاشي قد أقبَل والناسُ جلوسٌ على مراتبهم ، والحُضَين شيخٌ كبير ، فلما رآه عبدُالله بن مُسلم قال لأخيه قتَيبة : ائذَنْ لي في معاتبَته ؛ قال: لا تردْه لأنه خبيثُ الجواب ؛ فأبى عبدُ الله إلّا أن يأذن له ـ وكان عبد الله يضعَّف ، وقد كان تسوّر حائطا إلى امرأةٍ قبل ذلك ـ فأقبل على الحُضين ، فقال : أمن الباب دخلتَ يا أبا ساسان ؟

---

(١) أفضى ؛ أي اتسع وصار عريضا .　　(٢) الكامل : « مثلها » .

قال : أَجَلْ ، أَسَنَّ عمُّك عن تَسوُّر الحيطان . قال : أرأيتَ هذه القُدور ؟ قال : هي أعظم من ألّا تُرَى ؛ قال : ما أحسب بكر بن وائل رأى مِثلها ، قال : أجَلْ ، ولا غَيلان ، ولو كان رآها سمّى شَبْعان ، ولم يسمّ غَيْلان ، قال له عبـدُ الله : يا أبا ساسان أتعرف الذي يقول :

عُزِلْنا وأُمِّرْنا وبكرُ بنُ وائلٍ تَجُرُّ خُصاها تبتَغي مَن تُحالِفُهْ (١)

قال : أجَل أعرفه ، وأعرِف الذي يقول :

بأَذْنَى العَزْم قادَ بَني قُشَـيرٍ ومن كانت له أَسرَى كلابِ
وخَيْبةَ من يخيبُ عَلَى غَنيٍّ وباهـلة بن يَعْصُرَ والرِّكابِ

يريد : يا خيبةَ من يخيب . قال : أفتعرف الذي يقول :

كأنَّ فِقاحَ الأَزْد حول ابن مسمعٍ إذا عرِقتْ أفواهُ بكر بن وائلِ

قال : نَعم أعرفه وأعِرف الذي يقول :

قومٌ قتيبـةُ أمُّهم وأبوهمُ لولا قتيبةُ أصبَحوا في مَجْهل

قال : أما الشِّعر فأراكَ تَرْويه ، فهل تَقْرأ من القرآن شيئاً ؟ قال : أقرأُ منه الأكثر الأطيَب : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ﴾(٢) فأغضبه ، فقال : والله لقـد بلغني أنّ امرأة الحضين حُمِلت إليه وهي حُبلى من غيره .

---

(١) هو حارثة بن بدر — رغبة الآمل .

(٢) سورة الإنسان ١ .

قال : فما تحرّك الشيخُ عن هيئته الأولى ، ثم قال على رِسْله ، وما يكون ! تلد غلاما على فراشى ، فيقال : فلانُ ابنُ الحضين ، كما يقال : عبدُ الله بنُ مسلم . فأقبل قتيبةُ على عبد الله وقال : لا يبعد الله غيرك !

قلت : هو الحضين بالضاد المعجمة ، وليس فى العرب من اسمُه « الحضين » بالضاد المعجمة غيرُه(١) .

(١) الكامل ٣ : ١٣ ، ١٤ ؛ قال أبو العباس : « الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة . وكان الحضين بيده لواء على بن أبى طالب رحمه الله على ربيعة ؛ وله يقول القائل :

لِمَنْ رايةٌ سوداء يخفق ظِلُّها … إذا قيلَ قدّمْها حُضَيْنُ تقدّمَا

(٣٦)

الأصْلُ :

مَنْ أَطَالَ الأَمَلَ ، أَسَاءَ الْعَمَلَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم منّا كلامٌ فى الأمل .

وقيل لبعض الصالحين : ألك حاجةٌ إلى بغداد ؟ قال : ما أحبّ أن أبسط أملى حتى تذهب إلى بغداد وتعود .

وقال أبو عثمان النّهدىّ : قد أتت علىّ ثلاثون ومائة سنةً ؛ ما من شىء إلّا وأجِد فيه النّقص إلا أمَلى ، فإنى وجدتُه كما هو أو يزيد .

(٣٧)

الأصلُ :

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجّلوا له واشتدوا بين يديه :

مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ؟ فَقَالُوا : خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا ؛ فَقَالَ : وَاللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي أُخْرَاكُمْ ؛ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ !

* * *

الشرحُ :

اشتدُّوا بين يديه : أسرَعوا شيئاً ، فنهاهم عن ذلك وقال : إنكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تعَب الأبدان . وتَشْقَوْن به فى آخرتكم : تخضعون للولاة ، كما زعمتم أنه خُلُق وعادةٌ لكم ؛ خضوعا تطلبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها ، وكلّ خضوع وتذلّل لغير الله فهو معصية .

ثمّ ذكر أنّ الخسران المبين مَشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والرّبح البين دعةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النار .

(٣٨)

الأصْـلُ :

قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام :

يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً ؛ لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ .

يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل يتضمّن ذِكرَ العقلِ والحمق، والعُجب وحُسن الخلق، والبُخل والفُجور، والكَذِب ، وقد تقدّم كلامُنا فى هــذه الخصال أجمع ، وقد أخذتُ قولَه عليه السلام : « إيّاكَ ومصادقةَ الأحمقِ فإنّه يريد أن ينفعَك فيضرّك » فقلتُ فى أبياتٍ لى :

حيَاتَكَ لا تَصْحَبَنّ الجهولَ فلا خيرَ فى صُحبةِ الأَخْرَقِ

يَظُنّ أخو الجهل أن الضّلا لَ عينُ الرّشاد فلا يتّقِى

ويَكسَب صاحبُه حُمقَه فيَسرِق منه ولا يُسرَقُ(١)

وأُقسِم أنّ العــدوّ اللبيـ بَ خيرٌ مِن المشفِق الأحمقِ

---

(١) فى البيت إقواء .

(٣٩)

الأصْـلُ :

لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالفَرَائِضِ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا الـكلام يُمـكن أن يُحمَل على حقيقته ، ويمكن أن يُحمَل على مَجازه ، فإنْ حُمِل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثيرٌ من الفقهاء ، وهو مَذهَب الإماميّة ، وهو أنّه لا يصحّ التنفّل ممّن عليه قضاء فريضة فاتته لا في الصـلاة ولا في غيرها ؛ فأمّا الحجّ فمُتَّفَق عليـه بين المسلمين أنّه لا يصحّ الابتداء بنَفْله ، وإذا نوى نيّـة النَّفْل ، ولم يكن قد حَجّ حَجّة الإسـلام وقع حَجُّه فرضاً ، فأمّا نوافل الزّكاة فما عرفتُ أحدا قال : إنه لا يثاب المتصدّق بها ، وإن كان لم يؤدّ الزّكاة الواجبة . وأمّا إذا حُمِل على مَجازه ، فإنّ معناه يجب الابتداء بالأهمّ وتقديمُـه على ما ليس بأهمّ ، فتَدخُل هذه الـكلمة في الآداب السلطانيّـة والإخوانيّـة ، نحوَ أن تقول لمن توصِيه : لا تبـدأْ بخِدمة حاجبِ المَـلِك قبل أن تَبـدأ بخِدمة وَلَد المَـلِك ، فإنّك إنّما تروم القُرْبة للمَلِك بالخدمة ، ولا قربة إليه في تأخير خِدْمة ولَدِه وتقديم خدمةِ غلامِه ؛ وحَمْلُ الـكلمة على حقيقتها أولَى ، لأنّ اهتمام أميرِ المؤمنين عليه السلام بالأمور الدينيّة والشرعيّة في وصاياه ومنثور كلامِه أعظمُ .

(٤٠)

الأصْـلُ :

لِسَانُ العاقِلِ وَرَاءَ قَلبِهِ ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

* * *

قالَ الرضيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

وَهذا مِنَ الْمَعَانِي الْعَجِيبةِ الشَّرِيفَةِ ، والمُرَادُ بِهِ أَنَّ العَاقِلَ لا يُطْلِقُ لِسَانَهُ إلا بعد مُشاوَرَةِ الرَّوِيَّةِ ، ومُؤَامَرَةِ الْفِكْرَةِ ، والأَحْمَقُ تَسْبِقُ حَذَفاتُ لسانِهِ ، وَفَلَتَاتُ كَلامِهِ ، مُرَاجَعَةَ فِكْرِهِ ، وَمُمَاخَضَةَ رَأْيِهِ ، فَكَأَنَّ لِسانَ الْعاقِلِ تابِعٌ لِقَلْبِهِ ، وَكَأَنَّ قَلْبَ الأَحْمَق تابعٌ للسانه .

قالَ : وقَدْ رُوِيَ عنهُ عليهِ السَّلامُ هَذا المَعْنَى بلفظٍ آخَرَ ، وهُو قَوْلُهُ : « قَلْبُ الْأَحْمَقِ فى فِيهِ ، ولِسَانُ العَاقِلِ فى قَلْبِهِ » وَمَعْناهُما واحِدٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى العَقل والُحمق ، ونذكر هاهنا زِياداتٍ أخرى .

* * *

[أقوال وحكايات حول الحمق]

قالوا : كلّ شيء يَعِزّ إذا قَلّ ، والعقل كلّما كان أكثر كان أعزّ وأغلى .

وكان عبدُ الملك يقول : أنا للعاقل المدبِر أرجَى منّى للأحمَقِ المُقبِل .

قيل لبعضهم : ما جِماعُ العَقل ؟ فقال : ما رأيتُــه مجتمِعاً فى أحد فأَصِفَه ، وما لا يوجد كاملا فلا حَدّ له .

وقال الزُّهرى : إذا أنكرتَ عقلكَ فاقدَحه بعاقل .

وقيل : عَظمت المئونة فى عاقل متجاهل ، وجاهل متعاقل .

وقيل : الأحمق يتحفظ من كل شىء إلا من نفسه .

وقيل لبعضهم : العقل أفضلُ أم الجدّ ؟ فقال : العقل مِن الجدِّ .

وخطب رجلان إلى ديماووس الحكيم ابنته ، وكان أحدُهما فقيرا والآخر غنيا ، فزوجها من الفقير ، فسأله الإسكندر عن ذلك ، فقال : لأنّ الغنيّ كان أحمق ، فكنت أخاف عليه الفقر ، والفقير كان عاقلا ، فرجوتُ له الغنى .

وقال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والأحمق لا يوافق العاقل ، ولا أحمق كالعُود المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ؛ فأمّا المعوجّ فإنه لا ينطبق على المعوجّ ولا على المستقيم .

وقال بعضهم : لأنْ أزاول أحمقَ أحبُّ إلىّ من أن أزاول نصف أحمق ـ أعنى الجاهل المتعاقل .

* * *

واعلم أن أخبار الحمق ونوادِرهم كثيرة ، إلا أنا نذكر منها ها هنا ما يليق بكتابنا ، فإنه كتاب نزهناه عن الخلاعة والفُحْش إجلالا لمنصِب أمير المؤمنين .

قال هشام بنُ عبدِ الملك يوما لأصحابه : إنّ حمْقَ الرّجل يُعْرَف بخصال أربع : طولِ لِحيته ، وبشاعةِ كُنْيته ، ونَقْشِ خاتمه ، وإفراط نَهمته . فدخل عليه شيخٌ طويلُ العُثنون ، فقال هشام : أمّا هذا فقد جاء بواحدة ، فانظروا أين هو من الباقى ؛ قالوا له : ما كُنيةُ الشيخ ؟ قال : أبو الياقوت ، فسألوه عن نقش خاتمه ، فإذا هو :

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[1] فقيل له : أيَّ الطعام تشتهي ؟ قال : الدُّبّاء[2] بالزيت ؛ فقال هشام : إنّ صاحبكم قد كَمَل .

وسَمِع عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلا يُنادِي آخَرَ : يا أبا العُمَرَيْن ؛ فقال : لو كان له عقلٌ لكفاه أحدُهما .

وأرسَل ابنٌ لعجل بن لجيم[3] فرساً له في حَلْبة ، فجاء سابِقا ، فقيل له : سمِّه باسمٍ يُعرَف به ، فقام ففقأ عَيْنَه وقال : قد سمّيْتُه الأعوَر ، فقال شاعر يَهجُوه :

رمتْني بنو عِجْلٍ بداءِ أبيهِمُ ... وأيّ عبادِ الله أنْوَكُ مِن عِجْلِ !
أليسَ أبوهمْ عارَ عَيْنَ جَوادِه ... فأضحَتْ به الأمثالُ تُضرَب بالجهلِ

وقال أبو كعب القاصّ في قصصه : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال في كَبِد حمزة ما علمتم ، فادعوا اللهَ أن يُطعِمنا من كَبِد حمزة !

وقال مرّة في قَصصه : اسم الذئب الّذي أكَلَ يوسفَ كذا وكذا ، فقيل له : إنّ يوسف لم يأكلْه الذئب ؟ فقال : فهذا اسمُ الذئب الّذي لم يأكل يوسفَ .

ودخل كَعبُ البَقَر الهاشميّ على محمد بن عبدِ الله بنِ طاهر يعزّيه في أخيه ، فقال له : أعظَمَ الله مُصيبةَ الأمير ! فقال الأمير : أمّا فيك فقد فَعَل ، واللهِ لقد همَمتُ أن أحلِقَ لحيتَك ؛ فقال : إنما هي لِحية الله ولحيةُ الأمير فليفعلْ ما أحَبّ .

وكان عامرُ بن كُرَيز أبو عبد الله بن عامر ، مِن حَمْقَى قريش ، نظر إلى عبد الله وهو يخطُب والناسُ يَستحسِنون كلامَه ، فقال لإنسانٍ إلى جانِبه : أنا أخرجتُه من هذا ـ وأشار إلى مَتاعِه .

---

(١) سورة يوسف ١٨ . (٢) الدباء : القرع .
(٣) ورد الإسم محرفاً في ا ، ب . وأصلحته من د ، والعقد ٦ : ١٥٦ .

ومن حمقى قريش العاصُ بنُ هشام المخزوميّ ، وكان أبو لهب قامرَه فقمَره ماله ثم دارَه ، ثمّ قليلَه وكثيرَه وأهلَه ونفسَه ، فاتّخذه عبدا ، وأسلَمه قينًا ، فلمّا كان يومُ بَدْر بعث به بديلا عن نفسه ، فقُتِل ببدر ، قتَله عمرُ بنُ الخطّاب ، وكان ابنَ عمّ أمّه .

ومِنَ الحمْقى الأحوص بنُ جعفر بنِ عمرو بن حُرَيث ، قال له يوما مجالسوه : ما بالُ وجهِك أصفر ! أتشتكي شيئًا ؟ فرجع إلى أهله، وقال : يابنى الخَبيثة ، أنا شاكٍ ولاتُعلمونى! اطرَحوا علىّ الثيابَ وابعثوا إلىّ الطبيب .

ومن حمقى بنى عجل حسّان بن الغَضْبان من أهل الكُوفة ، ورِث نصفَ دار أبيه ، فقال : أريد أن أبيعَ حِصّتى من الدار ، وأشترىَ بالثمن النصفَ الباقى ، فتصيرَ الدّار كلّها لى .

ومِن حَمْقى قريش بكّار بنُ عبدِ الملك بنِ مروان ، وكان أبوه ينهاه أن يُجالسَ خالدَ ابنَ يزيدَ بنِ معاوية لِما يَعرِف من حُمقه ، فجلس يوما إلى خالد ، فقال خالد يعبث به : هذا والله المردّد فى بنى عبدِ مَناف ، فقال بكّار : أجَلْ ، أنا والله كما قال الأوّل :

* مردَّدٌ فى بنى اللَّخْناء ترديدا *

وطارَ لِبكّار هذا بازىٌ ، فقال لصاحب الشُّرطة : أغلِق أبوابَ دِمَشق لئلّا يَخرج البازىّ .

ومِن حَمْقى قُريش معاوية بنُ مروانَ بنِ الحكَم ، بينا هو واقفٌ بباب دمشق ينتظر أخاه عبدَ الملك على باب طحّان ، وحمارُ الطّحّان يدور بالرَّحا وفى عنقه جُلجُل ، فقال للطّحانِ : لم جعلتَ فى عنقِ هذا الحمار جُلجُلا ؟ فقال : ربّما أدركَتنى نَعْسة أو سآمةٌ ، فإذا لم أسمَع صوتَ الجلجُل علمتُ أنّه قد نام ، فصِحتُ به ، فقال : أرأيتَه إن قام وحرّك رأسَه ، ما عِلمُك به أنّه قائم ؟ فقال : ومَن لِحمارى بمثل عَقْل الأمير !

وقال معاوية لِحَميه وقد دَخَل بابنتِه تلك اللّيلةَ فافتضّها : لقد ملأتْنا ابنتُك البارحة دماً ؛ فقال : إنّها من نِسوةٍ يَخبأن ذلك لأزواجهنّ .

ومن حَمْقَى قريش سليمانُ بنُ يزيدَ بنِ عبد الملك ، قال يوما : لعن اللهُ الوليدَ أخي ! فلقد كان فاجرا ، أرادَني على الفاحشة ، فقال له قائل من أهلِه ، اسكُت وَيْحَك ، فوالله إن كان هَمَّ لقد فَعَل !

وخطب سعيدُ بنُ العاص عائشة ابنةَ عثمانَ ، فقالت : هو أحمق ، لا أتزوّجه أبدا ، له بِرْذَوْنان لونُهما واحد عند الناس ، ويَحمِل مؤنةَ اثنين .

وممّن كان يُحمَّق من قريش عُتبةُ بنُ أبي سُفيانَ بنِ حرب وعبدُ الله بنُ معاوية ابنِ أبي سُفْيان وعبدُ الله بنُ قيس بنِ مَخرمةَ بن المطّلب وسهلُ بنُ عمرو أخو سُهَيل ابن عمرو بن العاص . وكان عبدُ الملك بنُ مروانَ يقول : أحمقُ بيتٍ في قريشٍ آلُ قيس ابن مَخرَمة .

ومن القبائل المشهورة بالحُمْق الأَزْد ، كتب مَسلَمة بنُ عبد الملك إلى يزيدَ ابن المهلّب لمّا خرج عليهم : إنّك لستَ بصاحبِ هذا الأمر ، إنّ صاحبَه مغمورٌ موتور ، وأنت مشهور غير موتور . فقام إليه رجل من الأَزْد ، فقال : قدّم ابنك مَخلَدا حتى يُقتل فتصير موتورا .

وقام رجل من الأزْد إلى عُبيد الله بن زياد فقال : أصلَح اللهُ الأمير ! إنّ امرأتي هلكتْ ، وقد أردت أن أتزوّج أمّها ، وهذا عَريفي فأعِنّي في الصّداقِ ، فقال : في كم أنتَ من العطاء؟ فقال : في سَبعمائة ؛ فقال : حُطّوا من عَطائه أربَعمائة ، يكفيك ثلاثمائة .

ومَدَح رجلٌ منهم المهلّب فقال :

نعم أميرُ الرّفقة المهلّبْ　　　أبيَضُ وَضّاح كتَيْس الحُلّبْ

فقال المهلّب : حَسْبُكَ يَرحمك الله !

وكان عبدُ الملك بنُ هلالٍ عندَه زِنْبيل[1] مملوء حصاً للتَسبيح ، فكان يسبّح بواحدة واحدة ، فإذا ملّ طرَح اُثنتين اُثنتين ، ثم ثلاثا ثلاثا ، فإذا اُزداد ملالُه قبَض قبضةً وقال: سبحانَ اللهِ عدَدك ! فإذا ضَجِر أخذ بعُرا الزّنبيل وقلَبه ، وقال : سبحان الله بعدَدِ هذا .

ودخَل قومٌ منزلَ الحرْبيّ لبعض الأمر ، فجاء وقتُ صلاة الظهر ، فسألوه عن القِبْلة ، فقال : إنما تركتُها منذ شهر .

وحكَى بعضُهم ، قال : رأيت أعرابياً يَبكِي ، فسألتُه عن سبب بكائه ، فقال : بلغني أنّ جالوتَ قتل مظلوما .

وَصَف بعضُهم أحمقَ ، فقال : يَسمَع غيرَ ما يقال ، ويَحفَظ غيرَ ما يَسمَع ، ويكتُب غيرَ ما يَحفَظ ، ويُحدِّث بغير ما يَكتُب .

قال المأمونُ لثمامة : ما جَهْد البَلاء يا أبا مَعْن ؟ قال : عالمٌ يَجرِي عليه حُكْم جاهل . قال : من أين قلتَ هذا ؟ قال : حبسَني الرشيدُ عند مسرور الكبير ، فضيّق عليّ أنفاسي ، فسمعتُه يوما يقرأ: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذَّبِينَ ﴾[2] بفتح الذال ؛ فقلت له : لا تقل أيها الأميرهكذا ، قل : ﴿ للمكذِّبين ﴾ ؛ وكسرتُ له الذال ، لأنّ المكذَّبين هم الأنبياء ، فقال: قد كان يقال لي عنك : إنك قدَرِيّ ، فلا نجوتُ إن نجوتَ الّليلةَ منّي ! فعاينتُ منه تلك الليلة الموتَ من شدّة ما عذّبني .

قال أعرابيّ لأبنه : يا بنيّ كن سَبُعا خالصا ، أو ذئبا حائسا[3] ، أو كلْبا حارِسا ، ولا تكن أحمقَ ناقصا .

---

(١) الزنبيل ، بالكسر وقد يفتح : القفة أو الجراب أو الوعاء .

(٢) سورة المرسلات ١٩ . (٣) يقال ؛ يحوس الذئب الغنم ؛ أى يتخللها ويفرقها .

وكان يقال : لولا ظُلْمة الخطأ ما أشرَق نورُ الصّواب .

وقال أبو سعيد السِّيرافىّ : رأيتُ متكلِّما ببغدادَ بلغ به نقصُه فى العربيّة أنّه قال فى مجلس مشهور : إنّ العبد « مضطَرّ » بفتح الطاء ، والله « مضطِرّ » بكسرها ؛ وزعم أنّ من قال : « الله مضطَرّ عبد إلى كذا » ، بالفتح كافر ، فانظر أين بلغ به جهلُه ، وإلى أىّ رَذِيلة أدّاه نقصُه !

وصف بعضُهم إنسانا أحمقَ ، فقال : والله للحِكْمة أزلّ عن قلبه من السداد عن الأديم الدَّهين .

مرّ عمرُ بنُ الخطّاب على رُماةٍ غرَضٍ ، فسمِع بعضَهم يقول : أخطيْتَ وأسبْتَ ؛ فقال له : مَهْ ، فإن سُوء اللّحن شرّ من سُوء الرّماية .

تضجّر عمرُ بنُ عبد العزيز من كلام رجلٍ بين يديه ، فقال له صاحبُ شُرْطتِه : قم فقد أوذِيتَ أميرَ المؤمنين ! فقال عمر : والله إنّك لأشدّ أذًى لى بكلامِك هذا منه .

ومِن حَمْقَى العرب وجُهلائهم كلابُ بنُ صعصعة ، خرج إخوتُه يشترون خَيْلا ، فخرج معهم ، فجاء بعِجْل يقوده ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : فرسٌ اشتريتُه ؛ قالوا : ياماثق[(١)] ؛ هذه بقرة ، أما ترى قرْنيها ! فرجع إلى منزله فقطَع قرْنَيها ، ثم قادها ، فقال لهم : قد أعدْتُها فرسا كما تريدون ، فأولادُه يُدْعَوْن بنى فارس البَقَرة .

وكان شَذرة بن الزِّبرِقان بن بَدْر من الحَمْقى ، جاء يومَ الجمعة إلى المسجد الجامع فأخَذ بعِضادَتَى[(٢)] الباب ، ثمّ رفع صوتَه : سلامٌ عليكم ، أيَلِج شَذرة ؟ فقيل له : هذا يومٌ لا يُستأذَن فيه ، فقال : أوَ يَلِج مِثلى على قوْم ولم يُعرَف له مكانُه .

---

(١) الماثق : الأحمق .

(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .

واستعمل معاويةُ عامـلا من كَلْب ، فخَطَب يوما ، فذكَرَ المجوسَ ، فقال : لعَنَهم الله ! يَنكِحون أمّهاتِهم ، واللهِ لو أُعطِيتُ عشرةَ آلافِ دِرْهم ما نكحتُ أمّى ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : قبّحه الله ! أتروْنه لو زادوه فَعَل ! وعزَله .

وشرَدَ بعيرٌ لهَبَنّقة ـ واسمه يزيدُ بن شَرْوان ـ فجعل يُنادِي : لمن أتى به بَعيرَان ، فقيل له : كيف تبذُل وَيلك بعيرَيْن فى بعير ! فقال لحلاوةِ الوِجْدان .

وسُرِقَ من أعرابىّ حمارٌ ، فقيل له : أسُرِق حمارُك ؟ قال : نَعم ، وأحمَدُ اللهَ ، فقيل له : على ماذا تحمَده ؟ قال : كيف ! لم أكن عليه .

وخَطَب وكيعُ بنُ أبى سود(١) بخُراسانَ ، فقال : إنّ الله خَلَق السّموات والأرضَ فى ستّة أشهر ، فقيل له : إنّها ستّة أيّام ، فقال : واللهِ لقد قلتُها وأنا أستقِلّها !

وأجرِيَتْ خيلٌ فطَلَع فيها فَرَس سابقٌ ، فجعل رجلٌ من النّظّارة يكبّر ويَثِب من الفَرَح ، فقال له رجل إلى جانبه : يافتى ، أهذا الفرس السابق لك ؟ قال : لا ولكنّ اللّجامَ لى .

وقيل لأبى السّفّاح الأعرابىّ عند موته : أوْصِ ، فقال : إنّا الكرام يوم طِخْفة(٢) ، قالوا : قلْ خيراً يا أبا السّفاح ، قال : إن أحبّت أمرأتى فأعطُوها بعيراً ، قالوا : قل خيرا ، قال : إذا مات غلامى فهو حُرّ .

وقيل لرجل عند موته : قل لا إلـه إلا الله ، فأعرَض ، فأعادُوا عليه مرارا ، فقال لهم : أخبرونى عن أبى طالب ، قالَها عند موته ؟ قالوا : وما أنتَ وأبو طالب ! فقال : أرْغَب بنفسى عن ذلك الشريف .

---

(١) ب : « أسود » تصحيف صوابه فى د .

(٢) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة ؛ ويوم طخفة من أيامهم، لبنى يربوع على المنذر بن ماء السماء

وقيل لآخَرَ عند موته : ألا تُوصِي ؟ فقال : أنا مغفورٌ لى ، قالوا : قل : إن شاء الله ، قال : قد شاءَ الله ذلك ، قالوا : يا هذا لا تدَعِ الوصيّة ، فقال : لابنَيْ أخيه ، يابنَيْ حريثٍ ، ارفعا وسادِي ، واحتَفِظا بالحلّة الجياد(١) ، فإنّما حَوْلَكما الأعادى .

وقيل : لمعلّم ابن معلّم : مالَكَ أحمَق ؟ فقال : لو لم أكن أحمقَ ؛ لكنتُ ولدَ زِنًا .

(٤١)

الأصل :

وقال عليه السلام لبعض أصحابه فى علة اعتلها :

جَعَلَ اللهُ مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحُتُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ ، وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

***

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وأقولُ : صدَق عليه السلام ، إنّ المرَض لا أجرَ فيه ، لأنه من قَبيلِ ما يُستَحَقُّ عليه العِوَضُ ؛ لأنّ العِوَض يُستحَقُّ على ما كان فى مُقابَلة فِعل الله تعالى بالعَبد من الآلام والأمراض وما يَجرى مجرَى ذلك ، والأجرُ والثوابُ يُستَحَقّان على ما كانَ فى مُقابِلِ فِعْل العبد ، فبيْنَهما فَرقٌ قد بيَّنَهُ عليه السلام كما يَقتَضيه عِلمُه الثَّاقِبُ ورأيُهُ الصَّائب .

***

الشرح :

ينبغى أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل على تأويلٍ يُطابق ما تدلّ عليه العقول وألّا يُحمَل على ظاهرِه ، وذلك لأنّ المرض إذا استحق عليه الإنسان

العوض لم يَجُزْ أن يقال : إنّ العِوَض يَحُطّ السّيئات بنفسه ، لا على قول أصحابنا ، ولا على قول الإماميّة ، أمّا الإماميّة فإنهم مُرْجِئة ، لا يَذْهَبون إلى التحابُطِ ، وأما أصحابُنا فإنّهم لا تَحابط عنـــدهم إلا فى الثّواب والعقاب ؛ فأمّا العقاب والعِوَض فلا تَحابُط بينهما ، لأن التّحابُط بين الثواب والعقاب ، إنمـا كان باعتبار التنافى بينهما من حيثُ كان أحدُها يتضمّن الإجلال والإعظام ، والآخر يتضمن الاستخفاف والإهانة ، ومحالٌ أن يكون الإنسان الواحد مُـهاناً معظّما فى حالٍ واحدة ؛ ولما كان العِوَض لا يتضمّن إجلالا وإعظاما ، وإنما هو نفعٌ خالص فقط ، لم يكن منافيا للعِقاب ، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد فى الوقت الواحد كونه مستحقاً للعقاب والعوَض ، إمّا بأن يوفَّر العوض عليه فى دار الدنيا ، وإمّا بأن يوصَل إليه فى الآخرة قبل عِقابه ، إن لم يمنع الإجماع من ذلك فى حقّ الـكافر ، وإمّا أن يُخفَّف عليه بعضُ عقابه ، ويجعل ذلك بدلا من العوَض الذى كان سبيله أن يُوَصل إليه ، وإذا ثبت ذلك وَجَب أن يُجعل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح ، وهو الذى أراده عليه السلام ، لأنه كان أعرَف الناس بهذه المعانى ، ومنه تَعلّم المتـكلّمون علم الـكلام ، وهو أن المرض والألم يَحُطّ الله تعالى عن الإنسان المبتَلَى به ما يستحقّـــه من العقاب على معاصيه السالِفةِ تفضُّلا منه سبحانه ، فلما كان إسقاط العقاب متعقّبا للمرض، وواقعا بعده بلا فَصْل ، جاز أن يُطلق اللفظ بأنّ المرض يَحُطّ السيئات ويحتّها حَتّ الوَرَق ، كما جاز أن يُطْلق اللفظ بأنّ الجماع يُحبل المرأة ، وبأن سَقْىَ البَذْر الماء يُنبته ، إن كان الولد والزرع عند المتـكلمين وقعا من الله تعالى على سبيل الاختيار ، لا على الإيجاب ؛ ولـكنه أجرى العادة ؛ وأن يفعل ذلك عقيب الجماع وعقيب سَقى البَذْر الماء .

فإن قات : أيجوز أن يقال : إنّ الله تعالى يمرض الإنسان المستحقّ للعقاب ، ويكون إنما أمرضه ليُسقط عنه العقاب لا غير ؟

---

(١) ا : « يحط عنه السيئات » .

قلت : لا ، لأنه قادر على أن يُسقِط عنه العقاب ابتداء ، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العِوَض المجزى به إليه إلا بطريق الألم ، وإلا كان فعلُ الألم عَبَثا، ألا تَرَى أنه لا يجوز أن يستحق زيدٌ على عمرٍو ألف درهم فيضربَه ويقول : إنما أضربُه لأجعل ما يناله من ألم الضرب مُسقِطا لما أستحقّه من الدراهم عليه ؟ وتذمّه العقلاء ويسفِّهونه ، ويقولون له فهلّا وهبتَها له ، وأسقطتَها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤلمه ! والبحثُ المستقصى فى هذه المسائل مذكور فى كتبى الكلاميّة ، فليرجَع إليها . وأيضا فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذَوِى ذُنوب ومَعاصٍ ليقال : إنّها تحطها عنهم .

فأمّا قوله عليه السلام : « وإنما الأجرُ فى القَوْل . . . » إلى آخر الفَصْل ، فإنه عليه السلام قَسَم أسباب الثواب أقساما ؛ فقال : لمّا كان المَرَض لايقتضى الثواب لأنه ليس فعل المكلّف — وإنما يستحق المكلف الثواب على ما كان من فِعله — وَجَب أن يبيّن ما الذى يستحق به المكلّف الثواب ، والذى يستحق المكلف به ذلك أن يفعل فعلا إما مِنْ أفعال الجوارح ؛ وإما من أفعال القلوب ، فأفعال الجوارح إما قول باللسان أو عمل ببعض الجوارح وعبّر عن سائر الجوارح — عدا اللسان — بالأيدى والأقدام ، لأن أكثر ما يُفعل بها ، وإن كان قد يُفْعل بغيرها نحو مجامَعة الرجل زوجته إذا قُصِدبه تحصينها وتحصينه عن الزنا ، ونحو أن يُنحِّىَ حَجراً ثقيلا برأسه عن صَدْر إنسانٍ قد يَقتُله، وغير ذلك، وأمّا أفعال القلوب فهى العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم ، فعبّر عليه السلام عن جميع ذلك بقوله : « بصدق النية والسريرة الصالحة ، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس .

فإن قلت: فإنّ الإنسان قد يستحق الثواب على ألّا يفعل القبيح، وهذا يخرم الحصر الذى حصره أمير المؤمنين ؟

قلت : يجوز أن يكون يذهب مذهب أبى علىّ فى أن القادر بقدرةٍ لا يخلو عن الأخذ والتّرك .

(٤٢)

الأصلُ :

وقال عليه السلام فى ذكر خباب :

رَحِمَ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً ، وَهَاجَرَ طَائِعاً ، وَعَاشَ مُجَاهِدًا . طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِيَ عَنِ اللهِ !

* * *

الشَّرْحُ :

[خبّاب بن الأرتّ]

هو خبّاب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سَعد بن زيدِ مَناة ابن تميم ، يكنى أبا عبد الله ـ وقيل : أبا محمد وقيل : أبا يحيى ـ أصابه سَبْيٌ فبيع بمكة(١) .

وكانت أمّه خَتّانة ، وخَبّاب من فقراء المسلمين وخيارهم ، وكان به مرض ، وكان فى الجاهليّة قيْنا حدادا يَعْمَل السيوف ، وهو قديمُ الإسلام ؛ قيل إنه كان سادس ستة ، وشهد بَدْرا وما بعدها مِن المشاهد ، وهو معدودٌ فى المعذَّبين فى الله ؛ سأله عمرُ بن الخطاب

---

(١) الاستيعاب : « كان قينا يعمل السيوف فى الجاهلية ، فأصابه سباء فبيع بمكة ، فاشترته أم أنمار بنت سباع الخزاعية » .

أيام خلافته : ما لقيت من أهل مكّة ؟ فقال : انظرُ إلى ظهرى ؛ فنظر فقال : ما رأيت كاليوم ظَهْرَ رَجل ! فقال خبّاب : أوقَدُوا لى نارا وسُحِبت[1] عليها ، فما أطفأها إلّا وَدَكُ ظَهْرِى .

وجاء خبّاب إلى عمر ، فجعل يقول : ادنُهْ ، ادنُهْ ، ثم قال له : ما أحدٌ أحقّ بهذا المجلس منك ؛ إلّا أن يكون عمّارَ بنَ ياسر . نزل خبّابٌ إلى الكوفة ، ومات بها فى سنة سبع وثلاثين ، وقيل : سنة تسع وثلاثين ، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين علىٍّ عليه السلام صِفّين ونَهْرَوان ، وصلّى عليه علىٌّ عليه السلام ، وكانت سنُّه يومَ مات ثلاثا وسبعين سنة ، ودُفِن بظَهْرِ الكوفة[2] .

وهو أوّل من دُفِن بظَهْرِ الكوفة ، وعبدُ الله بن خَبَّاب هو الذى قتلته الخوارج ، فاحتجّ علىّ عليه السلام به وطلبهم بدَمِه ، وقد تقدّم ذِكرُ ذلك .

---

(١) ب : « وسخنت » ، وأثبت ما فى ا ، د ، والاستيعاب .
(٢) انظر ترجمة خباب فى الاستيعاب ١ : ٤٣٨ .

(٤٣)

الأصل :

وقال عليه السلام :

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

***

الشرح :

جَمّاتها بالفتح : جمعُ جَمّة ، وهى المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة ، والخَيْشوم : أقصى الأنف .

ومرادُه عليه السلام من هـذا الفصل إذكار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو : « لا يُبغِضك مؤمن ، ولا يحبك منافق » ؛ وهى كلمةُ حقّ ، وذلك لأنّ الإيمان وبغضَه عليه السلام لا يجتمعان ، لأن بغضه كبيرة ، وصاحب الكبيرة عنـدنا لا يسمّى مؤمنا ، وأمّا المنافق فهو الذى يُظهر الإسلامَ ويُبْطن الكفر ، والكافرُ بعقيدته لا يحبّ عليّاً عليه السلام ، لأن المراد من الخبر المحبّة الدّينيّة ، ومن لا يعتقد الإسـلام لا يحبّ أحداً من أهل الإسلام ، لإسلامه وجهاده فى الدّين ، فقد بان أنّ الـكلمة حقّ ؛ وهذا الخبر مَرْوِيٌّ فى الصحاح بغير هـذا اللفظ : « لا يحبُّك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلّا منافق » ، وقد فسرناه فيا سبق .

(٤٤)

الأصلُ :

سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

***

الشرحُ :

هــذا حقّ ، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثمّ ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفّرَتْ توبته معصيتَه ، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب ، وحصل له ثوابُ التوبة ، وأمّا من فعل واجبا واستحقّ به ثوابا ثم خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه ، والتِّيه على الناس بعبادته واجتهاده ، فإنه يكون قد أَحْبط ثواب عِبادته بمَا شَفَعها من القبيح الذى أتاه ، وهو العُجْب والتِّيه والإدلال على الله تعـالى ، فيعود لا مُثابا ولا مُعاقبا ، لأنه يتـكافأ الاستحقاقان .

ولا ريب أنّ من حَصَل له ثواب التوبة ، وسَقط عنه عقاب المَعصية ؛ خيرٌ ممن خرج من الأمرَين كَفافا[1] لا عليه ولا له .

---

(١) الكفاف من الشىء ، مثله .

(٤٥)

الأصلُ :

قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .

* * *

الشَّرحُ :

قد تقدَّم الكلامُ فى كلِّ هذه الشِّيمِ والخصال ، ثم نقول ها هنا : إنَّ كِبَرَ الهمّة خُلقٌ مختصٌّ بالإنسان فقط ، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك ، وإنما يتجرّأ كلّ نوع منها الفعل بقدر ما فى طبعه ، وعلوّ الهِمة حالٌ متوسِّطة محمودة بين حالتين طرف رذِيلتين ، وهما الندح ، وتسميه الحكماء التفتُّح ـ وصغر الهمة ـ وتسميه الناس الدّناءة ، فالتفتّح تأهل الإنسان لما لا يستحقه ، وصِغر الهمة تركه لما يستحقه لضعفٍ فى نفسه ، فهذان مَذْمومان ، والعدالة وهى الوَسَط بينهما محمودة ، وهى علوّ الهمة ، وينبغى أن يعلم أن المتفتح جاهلٌ أحمق ، وصغيرُ الهمة ليس بجاهل ولا أحمق ، ولكنه دنىٌّ ضعيف قاصر ، وإذا أردت التحقيق ، فالكبير الهمّة من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة ، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه ؛ بل يجتهد فى معرفة صانع العالم ومصنوعاته ، وفى اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه فى الدّنيا ، ومجاوريه فى الآخرة . ولذلك قيل : مَن عظُمتْ همتُه لم يرضَ بقُنْية مستردّة ، وحياةٍ مستعارة ، فإن أمكنك

أن تقتنى قنية مؤبّدة ، وحياة مخلدة ، فافعل غير مكترث بقلّة مَن يَصحبك ويعينك على ذلك فإنه كما قيل :

* إذا عظم المطلوب قل المُساعد *

وكما قيل :

* طرقُ العلاء قليلة الإيناس *

وأما الكلام فى الصدق والمروءة والشجاعة والأنَفَة والعفّة والغيرة ، فقد تقدّم كثيرٌ منه ، وسيأتى ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(٤٦)

الأصْلُ :

الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى كتمان السرّ وإذاعته .

وقال الحكماء : السرّ ضربان : أحدُهما ما يُلقَى إلى الإنسان من حديثٍ ليُستكتَم ، وذلك إمّا لفظا كقول القائل : اكتُم ما أقولُه لك ، وإمّا حالا وهو أن يجْهر[1] بالقول حال انفراد صاحبه ، أو يخفّض صوتَه حيث يُخاطِبه ، أو يُخفيه عن مُجالِسيه ؛ ولهذا قيل : إذا حدّثك إنسانٌ والتَفتَ إليه فهو أمانة .

والضرب الثانى نوعان : أحدُهما أن يكون حديثاً فى نفسك تَستقبح إشاعتَه ، والثانى أن يكون أمرا تُريد أن تفعلَه .

وإلى الأوّل أشارَ النّبىّ صلّى الله عليه وآله بقوله : « مَن أتَى منكم شيئاً من هذه القاذُورات فليستَتِر بسَتْر الله عزّ وجلّ » ، وإلى الثانى أشار من قال : « مِنَ الوَهَن والضعْفِ إعلانُ الأمرِ قبل إحكامه » ، وكتمانُ الضّرب الأوّل من الوَفاء ، وهو مخصوص بعوامّ الناس ، وكتمان الضّرب الثانى من المُروءة والحَزْم ؛ والنوع الثانى من نَوْعيه أخصّ بالملوك وأصحاب السياسات .

قالوا : وإذاعة السرّ من قلّة الصبر ، وضِيق الصّدر ، ويوصَف به ضَعَفة الرّجال

---

(١) ب : « يحدث » .

والنّساء والصّبيان . والسبب فى أنّه يَصعُب كتمانُ السرّ أنّ للإنسان قوّتين : إحدَاهما آخِذةٌ ، والأخرَى مُعطِيَة ، وكل واحدةٍ منهما تتشوّق إلى فعلِها الخاصّ بها ، ولولا أنّ الله تعالى وَكَل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تزَوّد ، فعَلَى الإنسان أن يُمسِك هــذه القوّة ولا يُطلِقها إلّا حيث يَجِب إطلاقُها ، فإنها إنْ لم تزَمّ وتُخطَم ؛ تقحّمتْ بصاحبها فى كلّ مَهلَكة .

(٤٧)

الأصل

اخْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إذَا جَاعَ ، وَاللَّئِيمِ إذَا شَبِعَ .

* * *

الشرح :

ليس يعني بالجوع والشِّبَع ما يتعارَفُه الناس ، وإنما المراد : احذروا صَوْلة الكريم إذا ضِيمَ ، وامتُهِن ، واحذَرُوا صَوْلة اللئيم إذا أُكرِم . ومِثل المعنى الأوّل قولُ الشاعر :

لا يصبِرِ الحرّ تحتَ ضَيْمٍ وإنما يَصْــبِرِ الحمارُ

ومِثلُ المعنى الثاني قولُ أبي الطيّب :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإن أنتَ أكرمْتَ اللّئيم تمرّدَا[1]

(١) ديوانه ١ : ٢٨٨ .

(٤٨)

الأصل :

قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

* * *

الشرح :

هذا مِثلُ قولهم : من لانَ استمالَ ، ومن قسا نفّر ، وما استعبِد الحرّ بمثل الإحسان إليه . وقال الشاعر :

وإنّى لوَحْشِيٌّ إذا ما زَجَرْتَنى وإنّى إذا أَلَفْتَنى لألوفُ

فأمّا قولُ عُمارةَ بن عقيل :

تبحّثتمُ سُخْطى فكدّر بحثُكمْ نَخِيلةَ نفس كان صفواً ضميرُها[1]
ولم يُلبِث التخشينُ نفساً كريمة على قومِها أن يَستمرّ مريرُها
وما النفسُ إلّا نطفة بقرارةٍ إذا لم تكدّر كان صفواً غديرها

فيكاد يُخالِف قولَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الأصل ، لأنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام جَعَل أصلَ طبيعة القلوب التوحّش ، وإنّما تُستمال لأمرٍ خارج[2] ، وهو التألّف والإحسان؛ وعُمارة جَعَل أصلَ طبيعة النفس الصفو والسلامة ، وإنّما تتكدّر وتجمَح لأمرٍ خارج[2] ، وهو الإساءة والإيحاش .

---

(١) الكامل للمبرد ١ : ٢٩ . (٢) ا : «من خارج» .

(٤٩)

الأصلُ :

عَيْبُكَ مَسْتورٌ ما أسْعَدَكَ جَدُّكَ .

* * *

الشرح :

قد قال الناسُ فى الجدّ فأكثَروا ، وإلى الآن لم يتحقّق معناه ؛ ومن كلام بعضِهم : إذا أقبل البَخْت باضَت الدَّجاجة على الوَتَد ، وإذا أدبَر البَخْت أسعِرَ الهاونُ فى الشّمس .

ومن كلام الحكماء : إنّ السعادةَ لتلحظ الحجَر فيُدعَى ربّا .

وقال أبو حيّان : نوادر ابن الجصّاص الدالّة على تغفّله وبَلَهِه كثيرة جدّا ، قد صُنّف فيها الكُتُب . مِنْ جملتها أنّه سمع إنسانا يُنشِد نَسيباً فيه ذِكرُ هِند ، فأنكر ذلك ، وقال : لا تذكروا حماةَ النبيّ صلّى الله عليه وآله إلّا بخيرٍ ، وأشياء عجيبة أظرَف من هذا . وكانت سعادتُه تُضرَب بها الأمثال ، وكثرةُ أموالِه الّتى لم يجتمع لقارونَ مِثلها . قال أبو حيّان : فكان الناسُ يَعجَبون من ذلك ، حتّى أنّ جماعةً من شُيوخ بَغداد كانوا يقولون : إنّ ابنَ الجصّاص أعقَلُ الناس ، وأحزَم الناس ، وإنّه هو الّذى ألحَم الحالَ بين المُعتضِد وبين خمارَوَيْه بنِ أحمدَ بنِ طُولُون ، وسَفَر بينهما سِفارةً عجيبة ، وبَلَغ من الجهتَين أحسنَ مَبلَغ ؛ وخَطَب قَطْرَ النّدَى بنت خمارويْه للمعتضِد ، وجهزّها من مصرَ

على أجمل وَجْه وأعلى ترتيب ، ولكنّه كان يَقصِد أن يتغافَل ويَتجاهَل ويُظهِر البَلَه والنّقص ، يَستبق بذلك مالَه ، ويَحرُس به نِعمتَه ، ويَدفَع عنه عينَ الكمال ، وحَسَد الأعداء .

قال أبو حيّان : قلتُ لأبي غسّانَ البَصْرىّ : أظنّ ماقاله هؤلاء صحيحا ، فإنّ المعتضِد مع حَزْمه وعقلِه وكمالِه وإصابةِ رأيه ما اُختاره للسِّفارة والصّلح إلّا والمرجوُّ منه فيما يأتيه ويستقبِلُه من أيّامه نظيرَ ما قد شُوهِد منه فيما مَضَى من زمانه ؛ وهل كان يجوز أن يصلُح أمرٌ قد تَفاقَم فسادُه وتَعاظَم واشتدّ برسالةِ أحمَقَ ، وسِفارةِ أخرَق ! فقال أبو غسّان : إنّ الجَدّ يَنسَخ حالَ الأخرق ، ويستُر عيْبَ الأحمَق ، ويَذُبّ عن عِرض المتلطِّخ ، ويقرِّب الصوابَ بمنطقه ، والصحّة برأيه ، والنجاحَ بسَعْيه ؛ والجَد يستخدم العقلاء لصاحبه ، ويَستعمِل آراءهم وأفكارَهم فى مَطالِبه ، وابنُ الجصّاص على ماقيل وروى وحدّث وحكى ، ولكنْ جَدّه كفاه غائلةَ الحُمْق ، وحَماه عواقبَ الخُرْق ، ولو عرفت خَبْط العاقل وتعسّفه وسوء تأتّيه وانقطاعه إذا فارقه الجَدّ ، لعلِمت أنّ الجاهلَ قد يصيب بجَهله مالا يُصيبُ العالِم بعِلْمه مع حِرْمانه .

قال أبو حيّان : فقلت له : فما الجَدّ ؟ وما هذا المعنى الّذى علّقتْ عليه هذه الأحكامُ[1] كلّها ؟ فقال : ليس لى عنه عبارة معيَّنة ، ولكن لى به عِلمٌ شافٍ ، استفدْتُه بالاعتبار والتّجربة والسّماع العريض من الصّغير والكبير ، ولهذا[2] سُمِع من امرأةٍ من الأعْراب تُرقِص ابناً لها فتقول له : رزَقَك الله جَدًّا يَخدمُك عليه ذَوُو العقُول ، ولا رَزَقَك عَقْلا تَخدُم به ذوى الجدُود .

---

(١) د : « الأحوال » . (٢) ا : « وقد سمع » .

(٥٠)

الأصلُ :

أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنِع فى العَفْو والحِلْم .

وقال الأحنف : ما شيء أشدّ اتّصالا بشيء من الحِلْم بالعِزّ .

وقالت الحُكَماء : ينبغى للإنسان إذا عاقَبَ من يستحقّ العقوبة ، ألّا يكون سَبُعاً فى انتقامه ، وألّا يُعاقِب حتّى يزول سلطانُ غَضَبه ، لئلا يُقْدِم على ما لا يجوز ، ولذلك جَرَتْ سُنّة السلطان بحَبْس المُجرم حتّى ينظُرَ فى جُرْمه ، ويُعيدَ النّظر فيه .

وأُتِى الإسكندرُ بمُذْنِبٍ فصَفَح عنه ؛ فقال له بعضُ جلسائه : لو كنتُ إياك أيّها الملك لقتلتُه ؛ قال : فإذا لم تكن إيّاى ولا كنتُ إيّاك لم يُقتَل .

وانتهى إليه أنّ بعضَ أصحابه يَعيبه ، فقيل له : أيّها المَلِك، لو نَهَكْتَه عقوبةً ! فقال: يكون حينئذٍ أبسَطَ لِساناً وعُذْراً فى اجتنابى .

وقالت الحكماء أيضاً : لذّة العَفْو أطيَبُ من لَذّة التّشفّى والانْتقام ، لأنّ لذّة العَفْو يَشفَعها حميدُ العاقبة ، ولذّة الانتقام يَلحَقها ألمُ النّدم . وقالوا : العقوبة ألأَمُ حالات ذِى القُدْرة وأدْناها ، وهى طَرَفٌ من الجزَع ، ومَنْ رَضِىَ ألّا يكون بَينَه وبين الظالم إلّا سِترٌ رقيقٌ فلينتَصِف .

(٥١)

الأصل :

السَّخاء ما كانَ ابتِداء ، فإذا كانَ عنْ مسْألةٍ فحياء وتذمُّم .

***

الشرح :

يُعجبني في هذا المعنى قولُ ابنِ حَيُّوس :

إنِّي دعوتُ ندَى الكِرامِ فلم يُجِبْ فلأَشكُرنَّ ندَى أجابَ وما دُعِي
ومن العجائِبِ والعجائبُ جَمَّةٌ شكرُ بَطِيء عن ندَى المتسرِّعِ

وقال آخر :

ما اعتاضَ باذِلُ وجهِهِ بسؤالِه عِوَضا ولو نَالَ الغِنَى بسؤالِ
وإذا النَّوالُ إلى السؤالِ قرَنْتَه رَجَحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نَوالِ

(٥٢)

الأصْـلُ :

لا غِـنَى كالعَقْلِ ، ولا فقْرَ كالجهْـلِ ، ولا مِيرَاثَ كالأدَبِ ، ولا ظَهِيرَ كالمُشَاوَرَةِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

روَى أبو العبّاس فى " الـكامل " عن أبى عبـد الله عليه السلام أنه قال : خمسٌ من لم يـكنّ فيه لم يـكن فيه كثيرُ مستمتَع : العقلُ ، والدّينُ ، والأدب ، والحيـاء ، وحُسن الُخلق .

وقال أيضا : لم يُقسم بين الناس شيء أقلّ من خمس : اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشـكر ، والخامسة الّتى يكمُل بها هذا كلّـه العقل .

وعنه عليه السلام : أوّل ما خَلَق الله العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أدْبِر ، فأدبر ، فقال : ما خلقتُ خلقا أحبَّ إلىّ منك ، لك الثواب ، وعليك العقاب .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وآله : إن الله ليُبغِض الضعيف الذى لا زَبْرَ له ، قال : الزَّبْر : العقل .

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما قسم اللهُ للعباد أفضلَ من العقل ، فنومُ العاقل أفضلُ من سَهَر الجاهل ، وفِطرُ العاقل أفضل من صَوْم الجـاهل ، وإقامةُ العاقل أفضلُ من شخوص الجاهـل ، وما بعث الله رسولًا حتى يَستـكمل العقل ،

وحتى يكون عقله أفضل من عقول جميع أمّته ، ومايُضْمِره فى نفسه أفضلُ من اجتهاد جميع المجتهدين ، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتى عَقَل عنه ، ولا يبلُغ جميعُ العابدين فى عباداتهم ما يبلغُه العاقل ، والعقلاء هم أولو الألباب ، الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

قال أبو العبّاس : وقال رجل من أصحاب أبى عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول ، بل يروى(١) مرفوعا : إذا بلغكم عن رجلٍ حُسن الحال فانظروا فى حُسْنِ عقلِه ، فإنما يُجازى بعقله . يابن رسولِ الله ، إن لى جارا كثيرُ الصَّدَقة ، كثيرُ الصلاة ، كثير الحجّ ، لا بأس به ! فقال : كيف عقله ؟ فقال : ليس له عَقْل ؛ فقال : لا يرتفع بذاك منه .

وعنه عليه السلام : ما بعَثَ الله نبيّا إلّا عاقلا ، وبعضُ النبيّين أرجَحُ من بعض ، وما استخلف داودُ سليمان عليه السلام حتى اختبر عقْله ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فمكث فى مُلكه ثلاثين سنة .

وعنه مرفوعا : صديقُ كلِّ امرئٍ عقله ، وعدوّه جهله .

وعنه مرفوعا : إنا معاشرَ الأنبياء نكلّم الناسَ على قدْر عقولهم .

قال أبو العباس : وسئل أبو عبد الله عليه السلام : ما العقل ؟ فقال : ماعُبِد به الرَّحمٰن ، واكتُسِبت به الجنان .

قال : وقال أبو عبد الله : سُئل الحسن بنُ علىّ عليه السلام عن العقل ، فقال : التجرُّع للغُصّة ، ومداهنة الأعداء .

قلت : هذا كلامُ الحسن عليه السلام ، وأنا أقطع بذلك .

---

(١) ا : « وروى » .

قال أبو العبّاس : وقال أبو عبد الله : العاقل لا يُحدِّث من يخافُ تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منْعه ، ولا يثق بمن يخاف غدره ، ولا يرجو من لا يوثق برجائه .

قال أبو العبّاس : ورُوِي عن أبي جعفرٍ عليه السلام ، قال : كان موسى عليه السلام يُدنى رجلا من بني إسرائيل لطول سجوده ، وطُولِ صَمْتِه ، فلا يكاد يذهب إلى موضعٍ إلا وهو معه ، فبينا هو يوما من الأيام إذ مرّ على أرض مُعشبة تهتزّ ، فتأوّه الرجلُ ، فقال له موسى :على ماذا تأوّهتَ ؟ قال: تمنيت أن يكون لربي حمارٌ وأرعاه[1] ها هنا ، فأكبَّ موسى طويلاً ببصَره إلى الأرض اغتماما بما سمِع منه، فانحطّ عليه الوَحْي ، فقال: ما الذى أنكرت من مقالة عبدى ! إنما آخُذ عِبادى على قَدْر ما آتيتُهم .

قال أبو العبّاس : ورُوى عن على عليه السلام : هَبَط جبرائيلُ عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويَدَع اثنتين ، وهى : العقل ، والحياء ، والدين ؛ فاختار العقل ، فقال جبرائيل للحياء والدين : انصرفا ؛ فقالا : إنّا أُمِرْنا أن نكون مع العقل حيث كان ، فقال : فشأنكما ! ففازَ بالثلاث .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ولا ميراثَ كالأدب » فإنى قرأتُ فى حِكَم الفُرس عن بُزُرجُمِهْر : ماورّثت الآباءُ أبناءها شيئًا أفضل من الأدب ،لأنها إذاورّثتها الأدباكتسبتْ بالأدب المال ، فإذا ورّثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل ، وقعَدَتْ صِفرا من المال والأدب .

قال بعض الحكماء : من أدّب ولدَه صغيرا ، سُرّ به كبيرا .

وكان يقال : مَن أدّب ولده أرغم حاسِدَه .

وكان يقال : ثلاثةٌ لا غُرْبةَ معهنّ : مجانبة الرِّيَب ، وحسُن الأدب ، وكفُّ الأذى .

---

(١) د : « أرعاه » .

وكان يقال : عليكم بالأدب ، فإنه صاحبٌ فى السفر ، ومؤنسٌ فى الوَحدة ، وجمالٌ فى المحفل ، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

وقال بُزُرْجُمِهر : مَن كثُر أدبُه كثُر شرَفُه وإن كان قبلُ وَضيعا ، وبَعُد صِيته وإن كان خاملا ، وساد وإن كان غريبا ، وكثرت الحاجةُ إليه وإن كان مُقِلّا .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه : ما خيرُ ما يُرزقه العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ؛ قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : أدبٌ يتحلّى به ، قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : مالٌ يَستتِر به ؛ قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : صاعقة تُحْرقه فتُريحُ منه العباد والبلاد .

وقيل لبعض الحكماء : متى يكون العلم شرًّا من عَدمه ؟ قال : إذا كثُر الأدب ونَقَصَت القريحة ــ يعنى بالقريحة العقل .

فأما القول فى المَشُورة فقد تقدّم ، ورُبّما ذكرْنا منه نُبذاً فيما بعد .

(٥٣)

الأصلُ :

الصَّبْرُ صَبْرَان : صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ .

* * *

الشرحُ :

النوع الأول أشقّ من النوع الثانى ، لأن الأول صبرٌ على مَضرّة نازلة ، والثانى صبرٌ على محبوب متوقَّع لم يحصل ، وقد تقدم لنا قول طويل فى الصبر .

سُئل بُزُرْجمهر فى بليّته(١) عن حاله ، فقال : هوّن علىّ ما أنا فيه فكْرى فى أربعة أشياء : أولها أنّى قلت : القضاء والقدَر لابدّ من جريانهما ، والثانى أنّى قلت : إن لم أصبر فما أصنع ! والثالث أنّى قلتُ : قد كان يجوز أن تكون المِحْنة أشدّ من هذه ! والرابع أنى قلت : لعلّ الفرج قريب !

وقال أنو شرْوان : جميعُ أمر الدنيا منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما : أمّا ما فى دفعه حيلة فالاضطراب دواؤه ، وأما ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه .

---

(١) د : « بلواه » .

(٥٤)

الأصلُ :

اُلغِنَى فِي الغُرْبَةِ وَطَنٌ ، والفَقْرُ فِي اُلوَطَنِ غُرْبَةٌ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنع في الفَقْر والغنى ومدحِهما وذمّهما على عادتنا في ذِكر الشيء ونقيضِه ، ونحن نذكرُ هاهنا زيادةً على ذلك .

قال رجلٌ لبقراط (١) : ما أشدّ فقرَكَ أيها الحكيم ؟ قال : لو عرفتَ راحةَ الفَقْر لشَغَلك التوجّع لنفسك عن التوجّع لي ؛ الفَقْر مُلك ليس عليه مُحاسَبة.

وكان يقال : أضعفُ الناس من لا يحتمِل الغنى .

وقيل للكِنْدِي : فلانٌ غنيّ ؟ فقال : أنا أعلم أنّ له مالا ، ولكني لا أعلم : أغنيٌّ هو أم لا ! لأنني لا أدري كيف يعمل في ماله !

قيل لابن عمر : توفي زيد بن ثابت وترك مائة ألف درهم ، قال : هو تركها لكنّها لم تتركه .

وقالوا: حسبك من شرف الفقر أنك لا ترى أحدا يعصي الله ليفتقر؛ أخذه الشاعرُ فقال:

يا عائبَ الفقرِ ألا تَزدَجِرْ عَيبُ الغِنَى أكبرُ لو تَعتَبِرْ
إنّك تَعصِي اللهَ تَبغِي الغِنَى وليس تَعصِي اللهَ كي تَفتَقِرْ

وكان يقال : الحلال يَقْطُرُ ، والحرام يَسِيل .

---

(١) ا : « سقراط » .

وقال بعض الحكماء : ألا ترَون ذا الغِنَى ما أدوَمَ نَصَبه ، وأقلَّ راحتَه ، وأخسَّ من ماله حظّه ، وأشدّ من الأيام حذَره ، وأغرَى الدهر بنقصه وثَلْمه ! ثمّ هو بين سلطان يرعاه ، وحقوقٍ تسترعيه ، وأكفاء يُنافِسونه ، ووَلَدٍ يودّون موتَه ، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء ، ومن أكفائه الحسَد ، ومن أعدائه البَغى ، ومن ذَوِى الحقوق الذمّ ، ومن الوَلَد المَلالَةَ وتمنّى الفقْد ، لا كَذِى البُلْغَة قَنع فدامَ له السرور ، ورَفَض الدنيا فسَلِم من الحسَد ، ورَضِىَ بالكَفافِ فكُفِىَ الحقوق .

(٥٥)

الأصْلُ :

الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

قال الرضى رحمه الله تعالى : وقد روى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله :

* * *

الشَّرْحُ :

قد ذكرْنا نُكتاً جليلةَ المَوْقع فى القَناعة فيما تقدّم ونذكُرها هنا زيادةً على ذلك .

فمن كلام الحكماء : قاوم الفقرَ بالقناعة ، وقاهِر الغِنَى بالتعفّف ، وطاوِلْ عَناء الحاسِد بحُسْن الصُّنع ، وغالِب الموتَ بالذّكر الجميل .

وكان يقال : الناسُ رجلان واجِدٌ لا يَكتفِي ، وطالِبٌ لا يَجِد ، أخَذَه الشاعر فقال :

وما الناسُ إلا واجدٌ غيرُ قانعٍ ... بأرزاقِه أو طالبٌ غيرُ واجِدِ

قال رجل لبقراط[١] ورآه يأكل العُشْب[٢] : لو خدمتَ المَلِك لم تحتجْ إلى أن تأكل الحشيشَ ، فقال له : وأنتَ إنْ أكلتَ الحشيشَ لم تَحتجْ أن تَخدِم المَلِك !

---

(١) ا ، ب : « سقراط » .   (٢) د : « عشبا » .

(٥٦)

الأصْلُ :

المَالُ مادَّةُ الشَّهَوَاتِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم لنا كلامٌ في المال مَدْحا وذَمّا .

وقال أعرابيٌّ لبَنِيهِ : اجمعوا الدراهم فإنّها تُلبِس اليَلْمَقَ ، وتطعِم الجرْدَق (١) .

وقال أعرابيٌّ وقد نَظَر إلى دينار : قاتلَكَ اللهُ ! ما أصغَر قِمّتَك ، وأكبَر هِمّتك! .

ومن كلام الحكماء : ما اخترتَ أن تحيا به فمُتْ دونه .

سئل أفلاطونُ عن المــال ، فقال : ما أقولُ في شيء يُعطيه الحظّ ويحفَظه اللؤمُ ، ويبلِعه الكَرَمُ !

وكان يقال : ثلاثة يؤثِرون المالَ على أنفُسِهم: تاجرُ البَحْر ، والمقاتِل بالأجْرة، والمرتَشِي في الحُكْم ، وهو شرّهم ؛ لأنّ الأوّلَين ربّما سَلِما ، ولا سلامةَ للثالث من الإثم .

ثم قالوا : وقد سمّى الله تعالى المالَ خَيْرا في قوله : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ (٢) ، وفي قوله : ﴿ وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٣) .

كان عبدُ الرحمن بنُ عَوْف يقول : حبّذا المــال ، أصُون به عِرْضي ، وأقرضُه ربّي

(١) اليلمق : القباء المحشو ؛ وهو بالفارسية : « يلمه » والجردق : الرغيف ؛ فارسية أيضا .
(٢) سورة البقرة ١٨٠ . (٣) سورة العاديات ٨ .

فيضاعفه لى . وقالوا فى ذمّ المال : المالُ مِثلُ الماء غادٍ ورائح ، طبعُه كطَبْع الصّبى لا يُوقَف على سببِ رضاه ولا سُخْطه . المالُ لا ينفعك ما لم تُفارِقه .

وفيه قال الشاعر :

وصاحبِ صِدقٍ ليس يَنفَع قربُه ولا وُدُّه حتّى تُفارِقَه عَمْدا

وأخَذ هذا المعنى الحريرىّ فقال :

وليس يُغنى عنك فى المَضايِقِ إلا إذا فَرّ فِرارَ الآبِقِ

وقال الشاعر :

ألم تَرَ أنّ المال يُهلِك رَبّه إذا جَمّ آتِيه وسُدَّ طَرِيقُه

ومَن جاوزَ البَحْر الغَزِيرَ بقَحْمَةٍ وسَدّ طريقَ الماء فهو غَرِيقُه

(٥٧)

الأصـلُ :

مَنْ حَذَّرَكَ ، كَمَنْ بَشَّرَكَ .

* * *

الشَّرحُ :

هذا مِثلُ قولِهم : اتّبع أمرَ مُبْكياتِك ، لا أمرَ مُضْحِكاتك(١) . ومِثْلُه : صديقك من نهاك ، لا من أغراك . ومثلُه : رَحِم الله امرأً أهدَى إليّ عيوبى .

والتحذيرُ هو النّصح ، والنّصح واجب ، وهو تعريفُ الإنسان ما فيه صَلاحُه ، ودفع المَضرّة عنه ، وقد جاء فى الخبر الصّحيح : « الدِّين النصيحة » ، فقيل : يارسول الله ، لمن؟ فقال : « لعامّة المسلمين » . وأوّل ما يجب على الإنسان أن يُحذِّر نفسَه وينصَحها ، فمن غشّ نفسَه فقلّما يُحذِّر غيرَه وينصَحُه ، وحَقّ من اُستُنصِح أن يَبذُل غايةَ النُّصح ولو كان فى أمرٍ يضرّه ، وإلى ذلك وقعتِ الإشارة فى الكتاب العزيز بقوله سبحانه: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾(٢) ، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾(٣) .

ومعنى قوله عليه السلام « كمن بشرك » أى ينبغى لك أن تُسَرّ بتحـذيره لك ، كما تُسَرّ لو بشّرك بأمرٍ تحبّه ، وأن تَشكُرَه على ذلك كما تشكُره لو بشّرك بأمرٍ تحبّه، لأنّه لو لم يكن يُريدُ بك الخير لما حذّرك من الوُقوع فى الشرّ .

(١) الميدانى ١ : ٣٠ ، ولفظه هناك : « أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك » .
(٢) سورة النساء ١٣٥ . (٣) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٥٨)

الأصل :

اللِّسَانُ سَبُعٌ ، إنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ .

***

الشرح

قد تقدم لنا كلام طويل فى هذا المعنى .

وكان يقال : إن كان فى الكلام دَرَكٌ ففى الصّمت عافية .

وقالت الحكماء : النّطق أشرف ما خُصّ به الإنسان ، لأنّه صورتُه المعقولة الّتى باينَ بها سائرَ الحيوانات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1]، ولم يقل: « وعلّمه » بالواو لأنّه سبحانه جَعَل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ؛ لا عطفاً عليه ؛ تنبيهاً على أنّ خَلْقه له وتخْصيصَه بالبيان الذى لو تُوُهّم مرتفِعا لارتفعَتْ إنسانيّته ؛ ولذلك قيل : ما الإنسانُ لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة ، أو صورةٌ ممثَّلة .

وقال الشاعر :

لسانُ الفَتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ   فلم يبْقَ إلّا صورة اللّحمِ والدّمِ[2]

قالوا : والصّمت من حيثُ هو صَمْتٌ مَذْموم ، وهو من صفات الجَمادات ، فضلا

---

(١) سورة الرحمن ٣، ٤.

(٢) ينسب لزهير ، من معلقته بشرح الزوزنى ٩٤ .

عن الحيوانات ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وغيرِه من العُلَماء فى مَدْح الصّمت محمول على مَنْ يسىء الكلامَ فيقَعُ منه جنايات عظيمة فى أمور الدّين والدّنيا ، كما رُوِى فى الخبر : إنّ الإنسان إذا أصبَح قالت أعضاؤه للسانهِ : اتّقِ اللهَ فينا ، فإنّك إن استقَمتَ نجوْنا ، وإن زُغتَ هَلَكْنا » ، فأما إذا اعتُبِر النُّطقُ والصَّمتُ بذاتَيْهما فقط ، فمُحالٌ أن يقال فى الصمت فضلٌ ، فضلا عن أن يخايَرَ ويقايَسَ بينه وبين الكلام .

(٥٩)

الأَصْـلُ :

الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ .

***

الشَّـرْحُ :

اللَّسْبة : اللّسعة ، لَسَبَتْه العَقْرب بالفتح : لسعته. ولَسِبْتُ العسل بالكسر ، أى لعِقْتُه .

وقيل لِسُقراط : أىُّ السِّباع أجسر ؟ قال : المرأة .

ونظرَ حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرةٍ ، فقال : ليتَ كلَّ شجرةٍ تحمل مِثل هذه الثّمرة .

مرّت بسقراط امرأةٌ وهى تتشوّف[1] ، فقالت : يا شيخ ، ما أقبحَك ؟ فقال : لولا أنّكِ من المرايا الصّدئة لَغمّنى ما بان مِن قُبْح صورتى فيكِ .

ورأى بعضهم مؤدّبا يعلّم جاريةً الكتابة ، فقال : لا تَزِد الشرّ شرّا ، إنما تسقى سَهْما سمّا لتَرمِي به يوماً ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارا ، فقال : نارٌ على نار ، والحامل شرٌّ من المحمول .

وتزوّج بعضهم امرأةً نحيفة ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .

كتب فيلسوفٌ على بابه : ما دَخَلَ هذا المنزل شرٌّ قطّ ، فقال له بعضهم : اكتُب : « إلّا المرأةَ » .

---

(١) د : « تتشرف » .

ورأى بعضهم امرأةً غريقــةً فى الماء ، فقال : زادت الـكَدَرَ كَدَرًا ، والشرّ بالشرّ يهلك .

وفى الحديث المرفوع : استعيـــذوا بالله من شِرار النِّساء ، وكونوا من خيارهنّ على حَذَر .

وفى كلام الحـكماء : اعص هَواكَ والنساء ، وافعلْ ما شئت .

دعا بعضهم لصاحبه ، فقال : أماتَ اللهُ عدوَّك ؟ فقال : لو قلت : زوّج الله عدوّك ، لـكان أبلغ فى الانتقام !

ومن الـكنايات المشهورة عنهنّ : « سِلاحُ إبليس » .

وفى الحديث المرفوع : « إنهنّ ناقصاتُ عَقْلٍ ودينٍ » .

وقد تقدّم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الـكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهذا المعنى .

وجاء فى الحديث أيضا : « شاوروهنّ وخالِفوهنّ » .

وفى الحديث أيضاً : « النساء حبائلُ الشيطان»

وفى الحديث أيضاً : « ما تركتُ بعدى فتنةً أضرَّ من النِّساء على الرّجال » .

وفى الحـــديث أيضاً : « المرأةُ ضِلَــع عوْجاء إنْ داريْتَها استمتعت بها ، وإن رُمْتَ تقويمها كسرْتَها » وقال الشاعر فى هذا المعنى :

هى الضِّلَع العَوْجاء لستَ تقيمُهـــا ألَا إنّ تقويمَ الضّلوع انـكِسارُها
أيجمعن ضَعفاً واقتداراً على الفتى أليسَ عجيباً ضَعفُها واقتِـــدارُها ؟

ومن كلام بعض الحـكماء : ليس ينبغى للعاقل أن يمدح امرأةً إلّا بعد موتها .

وفى الأمثال: لا تَحمَدنّ أَمَةً عامَ شِرائها ، ولا حُرّةً عام بنائها .

ومن كلام عبد الله المأمون : إنهن شرٌّ كلُّهنّ ، وشرّ ما فيهنّ ألّا غِنًى عنهنّ .

وقال بعضُ السّلف : إنّ كيدَ النّساء أعظمُ من كيد الشيطان ، لأن الله تعالى ذكر الشيطان ، فقال : ﴿ إنّ كيدَ الشّيطان كان ضعيفا[1] ﴾ .

وذكر النساء فقال : ﴿ إنه من كيدكُنّ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾[2] .

وكان يقال : من الفواقِر امرأة سَوْء إن حَضَرْتَها لسَبّتك ، وإن غِبتَ عنها لم تأمَنْها .

وقال حكيم : أضرّ الأشياء بالمال والنفس والدّين والعقل والعِرض شِدّة الإغرام بالنساء؛ ومن أعظم ما يبتلى به المغرَم بهنّ أنه لا يقتصر على ما عنده منهنّ ولو كنّ ألفا ، ويَطمَح إلى ما ليس له منهنّ .

وقال بعض الحكماء : مَن يُحصى مساوئ النساء ! اجتمع فيهنّ نَجاسةُ الحيض والاستحاضة ، ودم النِّفاس ، ونَقْصُ العقل والدين ، وتَرْكُ الصوم والصلاة فى كثير من أيّام العمر ، ليست عليهن جماعة ولا جُمُعة ، ولا يسلَّم عليهنّ ، ولا يكون منهنّ إمامٌ ولا قاض ولا أمير ولا يسافرن إلّا بولىّ .

وكان يقال : ما نهِيَت امرأةٌ عن أمر إلّا أتته .

وفى هذا المعنى يقولُ طُفَيل الغَنَوىّ :

إنّ النساء كأشجارٍ نَبَتْنَ معاً ... هُنّ المُرَارُ وبعضُ المُرّ مأكولُ
إنّ النساءَ متى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ ... فإنه واجبٌ لا بدّ مفعولُ

---

(١) سورة النساء ٧٦ . (٢) سورة يوسف ٢٨ .

(٦٠)

الأَصْلُ :

إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنهَا ، وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا ، وَالفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلبَادِي .

* * *

الشَّرحُ :

اللفظة الأولى من القرآن[1] العزيز ، والثانية تتضمن معنًى مشهورا .

وقوله : « والفضل مع ذلك للبادي » ، يقال في الكرم والحث على فعل الخير .

وروى المدائني ، قال : قدم على أسد بن عبد الله القشيري بخراسان رجلٌ ، فدخل مع الناس ، فقال أصلح الله الأمير ! إنّ لي عندك يداً ؛ قال : وما يَدُك ؟ قال : أخذتُ بركابك يومَ كذا قال : صدقْتَ ؛ حاجتَك ؛ قال : تولّيني أبيورْد ؛ قال : لِمَ ؟ قال : لأكسب مائةَ ألف درهم ؛ قال : فإنّا قد أمرْنا لك بها الساعة ، فيكون قد بلّغناكَ ما تحبّ ، وأقررْنا صاحبنا على عمله ، قال : أصلح اللهُ الأمير ! إنك لم تَقضِ ذِمامي ؛ قال : ولِمَ ؛ وقد أعطيتُك ما أمّلت ؟ قال : فأين الإمارة ؟ وأين حُبّ الأمرِ والنّهي ! قال : قد ولّيتُك أبيورْد ، وسوّغتُ لك ما أمرتُ لك به ، وأعفيْتُك من المحاسبة إن صرفتُك عنها ؛ قال : ولِمَ تصرِفُني عنها ولا يكون الصرف إلّا من عجْز أو خِيانة ،

---

(١) وهو قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾

وأنا برىء منهما ؟ قال : اذهبْ فأنتَ أميرُها مادامتْ لنا خُراسان ؛ فلم يزل أميرا على أبيوَرْدَ حتّى عُزِل أسد .

قال المدائنيّ : وجاء رجلٌ إلى نَصْر بنِ سَيّار يَذكُر قرابةً[1] ، قال : وما قرابتُك ؟ قال : ولَدتْني وإيّاكَ فُلانة ! قال نصر : قرابة عَوْرة ، قال : إنّ العَوْرة كالشَّنّ البالى ، يَرقَعه أهله فينتفعون به ؛ قال : حاجَتك ؛ قال : مائة ناقة لاقِح ، ومائة نَعْجة رُبَّى ـ أى معها أولادُها ـ قال : أمّا النِّعاج فخُذْها ؛ وأمّا النُّوق فنأمرُ لك بأثمانها .

ورَوَى الشَّعبيُّ ، قال : حضرتُ مجلسَ زِياد وحضرَه رجلٌ فقال : أيّها الأمير ، إنّ لى حُرْمةً أفأذكرها ؟ قال : هاتِها ، قال : رأيتُك بالطائف وأنتَ غُلَيِّم ذو ذُؤابة ، وقد أحاطت بك جماعةٌ من الغِلْمان ، وأنت تَركُض هذا مرّةً برِجْلِك ، وتَنطَح هذا مرّةً برأسك ، وتَكدِم مرّةً بأنيابك ، فكانوا مرّةً يتثالون عليك ، وهذه حالُهم ؛ ومرّةً يَندّون عنك وأنت تَتْبَعُهم ؛ حتّى كاثَروك واستقوَوْا عليك ، فجئتُ حتّى أخرجْتُك من بينهم وأنت سَليم وكلُّهم جريح ؛ قال : صدقتَ ، أنت ذاكَ الرجل ! قال : أنا ذاك ؛ قال حاجَتك ، قال : الغِنَى عن الطّلب ؛ قال : يا غلام ، أعطِه كلّ صَفْراء وبَيْضاء عندك ، فنظر فإذا قيمةُ كلّ ما يَملِك ذلك اليوم من الذّهب والفضّة أربعةٌ وخمسون ألف دِرْهَم . فأخَذَها وانصَرَف ، فقيل له بعد ذلك : أنتَ رأيت زِيادا وهو غلام بذلك الحال ؟ قال : إى واللهِ ، لقد رأيتُه وقد اكتَنَفَه صبيّان صغيران كأنّهما من سِخالِ المَعِز ، فلولا أنّى أدركتُه لظننتُ أنهما يأتيان على نفسه .

وجاء رجلٌ إلى معاويةَ وهو فى مجلس العامّة ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ لى حُرمةً[2] ، قال : وما هى ؟ قال : دنوتُ مِن رِكابِك يومَ صِفّين ، وقد قربت فرسُك لتفرّ ، وأهلُ

---

(١) د : « قرابته » .

(٢) د : « حرمة وذماما » .

العراق قد رأَوا الفتحَ والظَّفَر ، فقلتُ لك : واللهِ لو كانت هندٌ بنتُ عُتبةَ مكانَكَ ما فرّت ولا اختارت إلّا أن تموتَ كريمةً أو تعيشَ حميدة ، أين تَفِرّ وقد قلّدَتْكَ العربُ أزِمّة أمورِها ، وأعطتْكَ قِيادَ أعِنّتها ! فقلتَ لي : اخفِض صوتَك لا أمَّ لك ! ثمّ تماسكْتَ وثُبْتَ وثابَتْ إليكَ حماتك ، وتمثّلتَ حينئذٍ بشِعرٍ أحفَظ منه :

وقَوْلِي كلّما جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحِي[1]

فقال معاوية : صدقتَ ، وَدِدْتُ أنك الآن أيضا خَفَضتَ من صوتِك ؛ يا غلام أعطِه خمسين ألفَ دِرهم ، فلو كنتَ أحسنتَ في الأدب لأحسَنّا لك في الزيادة .

---

(١) لابن الإطنابة ؛ الكامل ٤ : ٦٨ ، وقبله :

أبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي وأخذِي الحمدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وإجشامِي على المكروه نَفْسِي وَضَرْبِي هامةَ البطلِ المشيحِ

(٦١)

الأصـلُ :

الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ .

* * *

الشَّـرحُ :

جاء في الحديث مرفوعاً : « اشفَعوا إليَّ تُؤْجَروا ، ويَقضِي اللهُ على لسان نبيّه ما شاء » .

وقال : المأمونُ لإبراهيمَ بن المهدىّ لمّا عفا عنه : إنّ أعظمَ يداً عندكَ مِن عَفْوى عنك أنّى لم أجرِّعك مَرارة امتنانِ الشافعين .

ومن كلامِ قابوسَ بنِ وَشْمَكِير: بِزَنْدِ الشفِيع تُورَى نارُ النّجاح، ومِنْ كَفِّ المُفيضِ يُنتَظَرُ فوزُ القِداح .

قال المبرّد : أتانى رجل يَستشفِع بى فى حاجة ، فأنشدنى لنفسه :

إنِّى قصدْتُك لا أُدْلِى بمَعرفــةٍ ولا بقُربَى ، ولـكنْ قد فَشَتْ نِعَمُكْ
فبتُّ حَـيْرانَ مَـكْروبا يؤرِّقُنِى ذُلُّ الغَريب ويغْشِينِى الكَرَى كَرَمُكْ
ولو هَمَمْتَ بِغَـير العُرْف ما عَلِقَتْ به يَدَاكَ ولا انقادَتْ له شِيَمُكْ
ما زِلتُ أَنْـكَبُ حتّى زُلزِلتْ قَدَمى فاحتَلْ لتَثْبِيتها لا زُلزِلَتْ قَدَمُـكْ

قال : فشفعتُ له وقمتُ بأمره حتّى بلغتُ له ما أحبّ .

بُزُرْجُمِهر : مَن لم يستغنِ بنفسِه عن شفيعِهِ ووسائله وَهَتْ قُوَى أسبابِه ؛ وكان إلى

الحرمان أقربَ منه إلى بلوغ المراد. ومِثلُه : من لم يرغب أودّاؤه فى اجتنابه لم يَحظَ بمَدْح شُفَعائه . ومِثله : إذا زرتُ الملوكَ فإنّ حَسْبِي شفيعا عندهم أن يَعرِفونى .

كلّم الأحنفُ مصعبَ بنَ الزّبير فى قومٍ حَبَسهم ، فقال : أصلَحَ اللهُ الأمير ! إن كان هؤلاء حُبِسوا فى باطلٍ فالحقّ يُخرجهم ، وإن كانوا حُبِسوا فى حقٍّ فالعفو يَسَعُهم ، فأَمَر بإخراجهم .

آخر :

إذا أنت لم تَعْطِفْكَ إلّا شفاعةٌ فلا خيرَ فى وُدٍّ يكونُ بشافِعِ

خرج العطاء فى أيّام المنصور ، وأقام الشّقرانىّ ـ من وَلَد شُقْرانَ مولى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ـ ببابه أيّاما لا يَصل إليه عطاؤه ؛ فخرَج جعفرُ بنُ محمّد من عند المنصور ، فقام الشّقرانىّ إليه ، فذكر له حاجتَه ، فرحّب به ، ثم دخل ثانيا إلى المنصور ، وخرج وعطاء الشّقرانىّ فى كمّه فصبّه فى كُمّه ثم قال : يا شُقْران ، إنّ الحسَنَ من كلّ أحدٍ حَسَنٌ ، وإنّه منك أحسَنُ لِمكانك مِنّا ، وإن القبيحَ من كلّ أحدٍ قبيحٌ ، وهو منك أقبحُ لِمكانِك منّا . فاستحسَن الناسُ ما قالَه ، وذلك لأنّ الشّقرانىّ كان صاحبَ شراب . قالوا: فانظر كيف أحسَنَ السعيَ فى استنجاز طَلِبته ، وكيف رَحّب به وأكرَمه مع معرفته بحاله ، وكيف وَعَظه ونَهاه عن المُنكَر على وجه التّعريض ! قال الزّمَخْشرِىّ : وما هوَ إلّا من أخلاق الأنبياء .

كتَبَ سعيدُ بنُ حُميد شفاعةً لرجل : كتابى هذا كتابُ مُعْتَنٍ بمن كتَب له ، واثقٍ بمن كُتِب إليه ، ولن يضيعَ حامِلُه بين الثّقة والعناية إن شاء الله .

أبو الطّيب :

إذا عَرَضَتْ حاجٌ إليه فنَفْسُه إلى نفسِه فيها شفيعٌ مشفعُ(١)

(١) ديوانه ٢ : ٢٤٣ .

[محمد بن جعفر والمنصور]

كان المنصورُ مُعجَبا بمحادثة محمّد بنِ جعفر بنِ عُبيد الله بنِ العبّاس ، وكان الناسُ لعظم قدرِه عندَ المنصور يَفزَعون إليه فى الشّفاعات وقضاء الحاجات ، فثَقُل ذلك على المنصور فحَجَبَه مدّة ، ثم تَتَبّعَتْه نفسُه ، فحادَثَ الربيعَ فيه ، وقال : إنّه لا صبرَ لى عنه لكنّى قد ذكرتُ شفاعاتِه ، فقال الربيع : أنا أشترط ألّا يعودَ ، فكلّمه الربيع ، فقال : نعَم ، فمكَث أيّاما لا يشفع ، ثمّ وقف له قومٌ من قُرَيش وغيرِهم برِقاع وهو يريدُ دارَ المنصور ، فسألوه أن يأخذَ رِقاعَهم ، فقصّ عليهم القصّة ، فضرَعُوا إليه وسألوه ، فقال أمّا إذ أبَيْتم قبول العُذْر فإنّى لا أَقبِضها منكم ، ولكنْ هَلُمُّوا فاجعلوها فى كُمّى ؛ فقَذَفوها فى كُمِّه ، ودَخَل على المنصور وهو فى الخضراء يُشرِف على مدينة السلام وما حولَها بين البَساتين والضِّياع ، فقال له : أما ترَى إلى حُسْنها ! قال : بلى يا أميرَالمؤمنين ، فبارك اللهُ لك فيما آتاك ، وهنّأك بإتمام نِعمتِه عليك فيما أعطاك ! فما بَنَت العربُ فى دولة الإسلام ، ولا العَجَمُ فى سالف الأيّام ؛ أحصَنَ ولا أحسَنَ من مدينتك ، ولكن سمّجَتْها فى عينى خَصْلةٌ ، قال : ما هى ؟ قال : ليس لى فيها ضَيْعة ، فضَحِك وقال : نحسِّنها فى عينِكَ ، ثلاثُ ضِياع قد أقطعْتُكها ؛ فقال : أنتَ واللهِ يا أميرَ المؤمنين شريفُ المواردِ ، كريمُ المَصادِر ، فجعل الله باقِيَ عمرِك أكثرَ من ماضِيه ؛ وجعَلَتِ الرِّقاعُ تَبدُر من كُمّيه فى أثناء كلامِه وخطابه للمنصور ، وهو يَلتفِت إليها ويقول : ارجِعْن خاسئاتٍ ، ثمّ يعود إلى حديثه ، فقال المنصور : ما هذه بحَقّى عليكَ ؟ ألا أعلمْتَنى خبرَها ! فأعلَمه ، فضَحِك فقال : أبَيْتَ يابنَ معلِّم الخيرِ إلّا كرَما ! ثم تمثّل بقول عبدِ الله بنِ معاويةَ بنِ عبد الله بنِ جعفر ابنِ أبى طالب :

لَسْنا وإنْ أحسابُنا كَمُلتْ ... يوماً على الأحسابِ نَتّكِلُ(١)
نَبْنِي كما كانت أوائلُنــا ... تَبْنِي ونفعلُ مِثــلَ ما فعَلوا

ثمّ أخذها وتصفّحها ووقّع فيها كلّها بما طلب أصحابُها .

قال محمد بنُ جعفر : فخرجتُ من عنده وقد رَبِحْتُ وأرْبحتُ .

***

قال المبرِّد لعبد الله بن يحيى بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحكَ الله فى أمرِ فلان، فقال له : قد سمعتُ وأطعتُ ، وسأفعل فى أمرِه كذا، فما كان مِن نقصٍ فعلىّ ، وما كان من زيادة فله ؛ قال المبرِّد : أنت ـ أطال الله بقاءك ـ كما قال زُهَير :

وجارٍ سارَ معتمداً إلينا ... أجاءَتْه المخافةُ والرّجاء(٢)
ضمنّــا مالَه فغدَا سليماً ... علينا نَقْصُه وله النَّمــاءُ

وقال دِعْبِل :

وإنّ امرأ أَسْدَى إلىَّ بشافــعٍ ... إليه ويَرْجُو الشكرَ مِنّى لأحمَقُ(٣)
شفيعُــك يا شكرَ الحوائجِ إنه ... يَصونك عن مكروهها وهو يخلق

آخر :

مَضَى زَمنى والناسُ يستشْفعون بى ... فهل لى إلى ليلى الغَداةَ شفيعُ !

آخر :

ونبئتُ لَيلى أرسلتْ بشفاعةٍ ... إلىّ ، فهلا نفسُ ليلى شفيعُها !(٤)
أأكرَمُ من ليلَى علىّ فتبتغى ... به الجاهَ،أم كنتُ امرأً لا أُطيعُها !

---

(١) فى د : « كرمت » . (٢) ديوانه ٧٧ .

(٣) ديوانه ١١٢ . (٤) للمجنون ، ديوانه ١٩٥ .

آخر :

وَمَن يكُنِ الفَضْلُ بنُ يحيى بنِ خالدٍ شفيعاً له عنـد الخليفة يَنْجَحُ

آخر :

وإذا امرؤ أسْدَى إليك صنيعةً مِن جاهِهِ ، فكأنّها من مالِهِ

وهذا مِثلُ قولِ الآخر :

وعطاهُ غـيركَ إنْ بَذَلْـ تَ عنايةً فيـه عطاؤُكْ

ابن الرومىّ :

يَنامُ الذى استنْماكَ فى الأمر إنه إذا أيقظ الملهوف مثلك ناماَ

كفى العَوْدُ مِنكَ البَدءَ فى كلّ موقفٍ وجُرِّدتَ للجُلَّى فكنتَ حُساما

فما لك تَنْبُو فى يدِى عَنْ ضَرِيبتى ولم أرثِ مِنْ هَزٍّ وكنت كهاما !

(٦٢)

الأصْلُ :

أَهْلُ الدُّنيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا التشبيه واقعٌ وهو صورة الحالِ لا مَحالة .

وقد أتيتُ بهذا المعنى فى رسالةٍ لى كتبتُها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً ، فقلت : « ولو تأمّل النـاسُ أحوالَهم[1] ، وتبيّنوا مآلَهم ، لعَلِموا أنّ المقيم منهم بوَطَنِه ، والساكنَ إلى سَكَنِه ، أخو سَفَرٍ يُسرَى به وهو لا يَسْرِى ، وراكبُ بحرٍ يُجرَى به وهو لا يَدْرِى » .

(١) ا : « فى أحوالهم » .

(٦٣)

الأَصْلُ :

فَقْدُ الأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

فلا تَحسَبِي أنّ الغريبَ الّذى نَأَى ... ولكنّ مَن تَنأَيْنَ عنه غَرِيبُ(١)

ومِثلُه قولُه عليه السلام : « الغريبُ مَن ليس له حبيب » .

وقال الشاعر :

أُسْرَةَ المرءِ والِداهُ وفيما ... بين حِضْنَيهما الحياةُ تَطِيبُ(٢)

وإذا وَلَّيا عن المرءِ يَوْماً ... فهْوَ فى الناس أجنَبِىٌّ غَرِيبُ

وقال آخَر :

إذا ما مَضَى القَرْنُ الّذى كنتَ فيهمُ ... وخُلِّفتَ فى قَرْنٍ فأنتَ غَرِيبُ(٣)

---

(١) نأى : بعد . (٢) الحضن : ما دون الإبط إلى الكشح .

(٣) القرن : الجيل من الناس .

(٦٤)

الأصل :

فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

* * *

الشرح :

قد سَبَق هذا المعنى ، وذَكَرْنا كثيراً مما قيل فيه .

وكان يقال : لا تطلُبوا الحوائج إلى ثلاثة : إلى عَبْد يقول : الأمْر إلى غيرى ، وإلى رجل حديثِ الغِنَى ، وإلى تاجرٍ همّته أن يستَرْبِحَ فى كلّ عشرين دينارا حبّة واحدة[1] .

(١) ساقطة من ا .

(٦٥)

الأصلُ :

لَا تَسْتَحِ مِنْ إعْطَاءِ الْقَلِيلِ ، فَإنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنهُ .

***

الشرحُ :

هذا نوعٌ من الحثّ على الإفضال والجود لطيف ، وقد استُعمِل كثيراً فى الهديّة والاعتذار لِقلّتها ؛ وقد تقدّم منّا قولٌ شافٍ فى مدح السّخاء والجودِ .

وكان يقال : أفضِلْ على مَن شئتَ تكنْ أميرَه ، واحتجْ إلى مَن شئتَ تكن أسيرَه ، واستغْنِ عمّن شئتَ تكن نظيرَه .

وسُئل أرسطو : هل من جُودٍ يستطاع أن يُتناول به كلُّ أحد ؟ قال : نعم ، أن تنوِىَ الخيرَ لكلّ أحد .

(٦٦)

الأصْلُ :

الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

* * *

الشّرْحُ :

من الأبيات المشهورة :

فإذا افتقرتَ فلا تكن متخشِّعاً وتجمَّلِ

ومَن أمثالهم المشهورة : « تجوعُ الحرّة ولا تأكلُ بثديَيْها »[(١)] .

وأنشد الأصمعيّ لبعضهم :

أُقسِم بالله لَمَصُّ النَّوَى وشربُ ماء القُلُبِ المالِحَهْ
أحسنُ بالإنسان مِن ذُلِّهِ ومن سؤالِ الأوجُهِ الكالِحَهْ
فاستغنِ باللهِ تكنْ ذا غِنًى مُغْتَبِطاً بالصَّفقة الرّابحه[(٢)]
طُوبَى لمن تُصبِح مِيزانُه يومَ يُلاقِي رَبَّه راجحَهْ

وقال بعضُهم : وقفتُ على كَنيفٍ وفى أسفلِه كنّاف ؛ وهو يُنشِد :

وأُكرِمُ نفسى عن أمورٍ كثيرة ألا إنّ إكرامَ النفوس من العَقْلِ

---

(١) الميدانى ١ : ٨١ ؛ قال : أى لا تكون ظئراً وإن آذاها الجوع . ويروى : « ولا تأكل ثديبها » قال : « وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدى » فى خبر معروف ذكره هناك .

(٢) ب : « مغبطا » تحريف .

وأبخلُ بالفَضْـل المبين على الألَى … رأيتُهمُ لا يُكرِمون ذَوِى الفَضْـلِ

وما شانَنِي كَنْسُ الـكَنِيف وإنّما … يَشِينُ الفَتى أن يَجتدِي نائلَ النذْلِ (١)

وأقبَـحُ مما بى وُقوفِى مؤمِّلًا … نَوالَ فتًى مِثلى ، وأىّ فتًى مِثلِى !

وأمّا كون الشـكر زِينة الغنى ، فقد تقدّم من القول ما هو كافٍ .

وكان يقال : العِلْم بغير عملٍ قولٌ باطل ، والنّعمة بغيرِ شُـكْرٍ جِيدٌ عاطِل .

---

(١) النذل : المحتقر من الناس فى جميع أحواله .

(٦٧)

الأصْلُ :

إذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ ، فَلَا تُبَلْ كَيْفَ كُنْتَ !

* * *

الشَّرْحُ :

قد أعجم تفسيرُ هذه الكلمة على جماعةٍ من الناس ، وقالوا : المشهورُ في كلام الحكماء: إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ ما يكون ، ولا معنى لقوله : « فلا تُبَلْ كيف كُنتَ » ! وجهلوا مُرادَه عليه السلام .

ومُرادُه : إذا لم يكن ما تُريد فلا تُبَلْ بذلك ، أي لا تكترِثْ بفوْت مُرادِك ولا تَبْتَئِسْ بالحِرْمان ، ولو وَقَف على هذا لتمّ الكلام وكَمَل المعنى ، وصار هذا مِثل قوله : « فلا تُكثِر على ما فاتَكَ منها أسَفا » ، ومثل قولِ الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾[1] ؛ لكنّه تمّم وأكّد فقال : « كيف كنت » ، أي لا تُبَل بفوْتِ ما كنتَ أمّلته ، ولا تَحمِل لذلك همّا كيف كنت ، وعلى أيّ حال كنتَ ، من حَبْسٍ أو مرضٍ أو فقر أو فقدِ حبيب ؛ وعلى الجملة ، لا تُبالِ الدّهر ، ولا تكترِث بما يَعكِس عليكَ من غرَضِك ، ويَحرِمك من أملك ؛ وليكن هذا الإهْوانُ به والاحتقارُ له ممّا تعتمِده دائما على أيّ حال أفضَى بك الدهر إليها . وهذا واضح .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٦٨)

الأصلُ :

لَا يُرَى الجاهِلُ إلّا مُفرِطاً أوْ مُفَرِّطاً .

* * *

الشرح :

العدالة هى الخُلقُ المتوسّط ، وهو محمود بين مَذْمُومين ، فالشجاعة محفوفة بالتهوّر والجُبْن ، والذّكاء بالغَباوة والجربزة[1] ، والجود بالشحّ والتبذير ، والحلم بالجادية والاستشاطة ، وعلى هذا كلّ ضدّين من الأخلاق فبينهما خُلُق متوسّط ، وهو المسمّى بالعدالة ، فلذلك لا يُرَى الجاهلُ إلّا مُفرِطاً أو مفرِّطاً ، كصاحب الغَيْرة ، فهو إمّا أن يفرط فيها ، فيَخرُج عن القانون الصّحيح فيَغار لا مِنْ مُوجب ، بل بالوَهْم وبالخيال وبالوَسْواس ، وإمّا أن يُفرِّط فلا يَبحَث عن حالِ نسائِه ولا يُبَالى ما صنعْنَ ، وكلا الأمْرَين مذموم ، والمحمودُ الاعتدال .

ومن كلام بعض الحكماء[2] : إذا صحّ العقل الْتَحَم[3] بالأدَب كالْتِحام[4] الطعامِ بالجسد الصحيح ، وإذا مرضَ العَقل نَبا عنه مايَستمع من الأدب كما يقيء المَعْود ما أكل من الطّعام ، فلو آثر الجاهلُ أن يتعلّم شيئاً من الأدَب لتحوّل ذلك الأدبُ جهْلا ، كما يتحوّل ما خالَطَ جوفَ المَريضِ من طيّب الطّعام داء .

---

(١) الجربزة : الخب والمكر . (٢) ا : « ومن كلام الحكماء » .
(٣) ا « التأم » . (٤) ا : « كالتئام » .

(٦٩)

الأَصْلُ :

إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق القولُ فى هذا المعنى .

وكان يقال : إذا رأيتم الرجل[1] يُطيل الصمتَ ويَهرُب من النّاس ، فاقرُبوا منه فإنه يلقّى الحِكْمة .

---

(١) ا : « رجلا » .

(٧٠)

الأصْــلُ .

الدَّهْرُ يُخْلِقُ الأبْدَانَ ، ويُجَدِّدُ الآمالَ ، ويُقرِّبُ المَنِيَّةَ ، ويُبَاعِدُ الأُمْنِيَّةَ . مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصَبَ ، ومَنْ فَاتَهُ تَعِبَ .

***

الشَّــرْحُ :

قد سبق لنا قول طويل عريض فى ذكر الدهر والدنيا ، ونذكر الآن شيئاً آخر ، قال بعضُ الحكماء : الدنيا تَسُرُّ لِتَغُرَّ ، وتفيد لتكيد ، كم راقدٍ فى ظلّها قد أيقظته ، وواثقٍ بها قد خذلته ، بهذا الخُلُق عُرِفَتْ ، وعلى هذا الشرطِ صُوحِبَتْ .

وكتب الاسكندرُ إلى أرِسْطوطاليس : عِظْنى ، فكتب إليه : إذا صَفَتْ لك السلامة فجدّد ذِكرَ العَطَب ، وإذا اطمأنَّ بك الأَمْن فاستشعِرْ الخوف ، وإذا بلغتَ نهايةَ الأمــل فاذكر الموتَ ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لهــا نصيباً فى الإساءة ، وقال شاعر فأحسَنَ :

كأنّك لم تَسْمَعْ بأخبارِ مَن مَضى ... ولم تَرَ بالباقين ما صنــع الدهرُ
فإن كنتَ لا تدرى فتلك دِيارُهمْ ... عَفاها مَجال الرّيح بعدَكَ والقَطْرُ
وهل أبصرَتْ عيناكَ حيّاً بمَنزلٍ ... على الدهر إلاّ بالعراءِ له قَـبْرُ
فلا تحسبنّ الوَفْرَ مــالاً جمعتَه ... ولــكنّ ما قدمْتَ من صالحٍ وَفْرُ

مَضَى جامعو الأموال لم يتزوّدوا سوى الفقْر يا بُؤْسَى لمن زادُه الفقْرُ !
فحتّامَ لا تَصحُو وقد قربَ المدى وحتّام لا يَنجابُ عن قلْبِك السُّكْرُ !
بلى سوْف تَصحُو حين ينكشِفُ الغِطا وتذكرُ قولى حين لا ينفع الذِّكْرُ
وما بين ميــلاد الفتى ووفاته إذا انتصح الأقوامُ أنفسهم عُمْرُ (1)
لأنّ الذى يأتيه شِبْهُ الذى مَضى وما هوَ إلّا وقتك الضّيّق النّزْرُ
فصبراً على الأيّام حتّى تجُوزَها فعمّا قليل بعــدها يُحمَد الصّبرُ

(1) د : « غمر » .

(٧١)

الأصْـلُ :

مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ؛ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

الفروع تابعة للأصول ، فإذا كان الأصل معوجّا استحالَ أن يكون الفرعُ مستقيما ، كما قال صاحبُ المَثَل : « وهل يستقيمُ الظِّلّ والعُود أعوج » ، فمن نَصَب نفسه للناس إماما، ولم يكن قد علّم نفسه ما انتصب ليعلمه النـاس ، كان مِثل من نصب نفسه ليُعلّم النّاس الصِّياغة ، والنجارة ، وهو لا يُحْسِن أن يصوغَ خاتما ، ولا ينجُر لوحا ، وهذا نوعٌ من السَّفَه، بل هو السَّفَهُ كلُّـه ؛ ثم قال عليـه السلام : وينبغى أن يكون تأديبُـه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه ، وذلك لأنّ الفِعْل أدلّ على حال الإنسان من القول .

ثم قال : ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم . وهذا حقّ ، لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قدْرا ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل بشىء منه ، فأما من عَلم نفسه وعلّم الناس فهو أفضل[١] وأجَلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شُبْهةَ فى ذلك .

---

(١) ا : « وأعظم » .

(٧٢)

الأصْلُ :

نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

وجدتُ هذه الكلمةَ منسوبةً إلى عبد الله بن المعتزّ فى فصلٍ أوّله : « الناس وفْد البلاء ، وسُكان الثرى ، وأنفاس الحىّ خُطاه إلى أجله ، وأمله خادعٌ له عن عَمَله ، والدنيا أكذب واعِدِيه ، والنفس أقرَب أعادِيه ، والموتُ ناظرٌ إليه ، ومنتظر فيه أمراً يُمضيه » فلا أدرى هل هى لابن المعتز ، أم أخَذَها من أمير المؤمنين عليه السلام !

والظاهر[1] أنها لأمير المؤمنين عليه السلام ، فإنها بكلامه أشبه ، ولأنّ الرضىّ قد رواها عنه ، وخبرُ العَدْل معمولٌ به .

---

(١) ا : « ويظهر » .

(٧٣)

الأصْـلُ :

كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

الـكلمة الأُولى تؤكِّد مذهب جمهور المتكلّمين فى أنّ العـالم كلّه لابد أن ينقضىَ ويَفْنَى ، ولـكنّ المتـكلمين الذاهبين إلى هـذا القول لا يقولون : يجب أن يكون فانيا ومنقضيا لأنه معدود ، فإن ذلك لا يلزم ؛ ومن الجائز أن يكون معدودا ولا يجب فناؤه ، ولهذا قال أصحابنا : إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا من طريق العقل ، فيجب أن يُحمل كلامُ أميرالمؤمنين عليه السلام على ما يُطابق ذلك ، وهو أنه ليس يعنى أن العددَ علّةٌ فى وجوب الانقضاء ، كما يُشعِر به ظـاهرُ لفظه ، وهو الذى يسمّيه أصحابُ أصول الفقه إيماء ، وإنمـا مُراده [١] كلّ معدود فاعلموا أنه فانٍ ومنقضٍ ، فقد حكم على كلّ معدود بالانقضاء حُـكْما مجرّداً عن العلّة ، كما لو قيـل : زيد قائمٌ ، ليس يعنى أنه قائم ، لأنه يسمّى زيدا .

فأما قوله : « وكلّ متوقَّع آتٍ » فيماثلُ قول العامة فى أمثالها : « لو انتُظرَت القيامةُ لقامت » ؛ والقولُ فى نفسه حق ، لأنّ العُقلاء لاينتظرون ما يَستحيل وقوعه ، وإنماينتظرون ما يمـكن وقوعه ، وما لابدّ من وقوعه ، فقد صَحّ أنّ كلّ منتظَر سيأتى .

---

(٢) ا : « ومراده » .

(٧٤)

الأصْلُ :

إنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

روى : « إذا استَبْهَمَتْ » ، والمعنى واحد وهو حقّ ، وذلك أن المقدّمات تدلّ عَلَى النتائج ، والأسباب تدلّ على المسبّبات ، وطالما كان الشيئان ليسا عِلّةً ومعلولا ، وإنما بينهما أدنى[1] تناسُب ، فيُستدَلّ بحالِ أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك واشتَبَهَتْ أمورٌ على العاقِل الفَطِن ولم يعلم إلى ماذا تئُول ، فإنه يُسْتَدَلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفواتِحها ، كالرّعيّة ذاتِ السلطان الرَّكِيك الضعيف السياسة ، إذا ابتدأت أمورُ مملكتِه تضطرِب ، واستَبْهَم على العاقل كيف يكون الحالُ فى المستقبل ، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها ، ويَعلم أنه سيفضى أمرُ ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال فى مُستقبل الوقت ، لأنّ الحركات الأولى مُنذرة بذلك ، وواعدة بوقوعه ، وهذا واضح .

---

(١) ا : « أقرب » .

(٧٥)

الأصْـلُ :

ومنْ خبرِ ضِرار بنِ ضمرة الضَّابيّ عندَ دخولهِ على معاويةَ ، ومسألتِه لهُ عنْ أميرِ المؤمنينَ عليهِ السلامُ ، قالَ : فأشهد لقدْ رأيتهُ في بعض مواقفهِ وقدْ أرْخى الليلُ سُدوله وهو قائم في محرابهِ قابض على لحيتهِ ، يتَمَلْمَلُ تَملْمُلَ السليم ، ويبكي بُكاءَ الحزينِ ، وهوَ يقولُ :

يا دُنيا يا دنيا إليْكِ عَنّي ، أبي تعرَّضْتِ ، أمْ إليَّ تشوَّفْتِ ! لا حانَ حيْنُك ، هَيْهاتَ ، غُرّي غيْرِي ، لا حاجَةَ لي فيكِ ، قدْ طَلَّقْتكِ ثلاثاً ، لا رجْعَةَ فيها ، فعَيْشُكِ قَصيرٌ ، وخَطَرُكِ يَسيرٌ ، وأَمَلُكِ حَقيرٌ . آهِ مِنْ قِلَّةِ الزّادِ ، وطُولِ الطَّريقِ ، وبُعْدِ السَّفَرِ ، وعَظِيمِ الْمَوْرِدِ !

***

الشَّـرْحُ :

السُّدُول : جمعُ سَدِيل ، وهو ما أسدل على الهَوْدَج ، ويجوز في جمْعه أيضا أسْدال وسدائل ، وهو هاهنا استعارة . والتمَلْمُل والتملّل أيضا : عدمُ الاستقرار من المرض ، كأنه على مَلّة ، وهي الرّماد الحارّ .

والسليم : الملسوع .

ويروى « تشوّقت » بالقاف .

وقوله : « لا حان حَيْنُك » ، دعاء عليها ، أي لا حَضَر وَقْتك ، كما تقول : لا كنت .

فأما ضِرارُ بن ضَمْرة ، فإنّ الرِّياشيّ رَوَى خبرَه ، ونقلته أنا من كتاب عبدِ الله بن إسماعيلَ بن أحمد الحلبي فى " التذييل على نَهْج البلاغة " ، قال : دخل ضِرارٌ على معاوية - وكان ضِرارٌ من صحابةِ علىٍّ عليه السلام - فقال له معاوية : يا ضرار ، صف لى عليًا، قال: أوَ تُعفِينى ! قال : لا أُعفيك ، قال: ما أصف منه ! كان(١) واللهِ شديدَ القُوَى، بعيد المَدى، يتفجّر العِلْم من أنحائه ، والحكمةُ من أرْجائه ، حَسَنَ المُعاشَرة ، سَهْل المباشرة ، خَشِن المأكل ، قصير المَلبَس ، غزِير العَبْرة ، طويل الفِكْرة ، يقلّب كَفَّه ، ويخاطِب نفسَه ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبنا إذا سألْنا ، ويبتدئُنا إذا سكَتْنا ، ونحن مع تقريبه لنا أشدّ ما يكون صاحبٌ لصاحبٍ هيبةً ، لا نبتدئه الكلام لعظَمَتِه ، يحبّ المساكين ، ويقرِّب أهلَ الدِّين ، وأشهد لقد رأيتُه فى بعض مَواقفه . . . وتمامُ الكلامِ مذكورٌ فى الكتاب .

وذكر أبو عمرَ بنُ عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " ، هذا الخبرَ ، فقال : حدّثنا عبدُ الله بنُ محمّد بنِ يوسفَ ، قال : حدّثنا يحيى بنُ مالك بن عائذ ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمّد بنُ محمّدِ بنِ مُقْلة البَغْداديّ بمصرَ . وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بنِ دُرَيد ، قال : حدّثنا العُكْلىّ ، عن الحِرْمازِىّ ، عن رجل من هَمْدان ،قال: قال معاويةُ لضِرار الضّبابىّ(٢) : يا ضرار صِفْ لى عَليًّا ، قال : اعفِنى يا أميرَ المؤمنين ؛ قال : لتَصِفَنّه ؛ قال: أمّا إذ لابدّ من وَصْفِه ، فكان واللهِ بعيدَ المَدَى ، شديدَ القُوَى، يقول فَصْلا، ويحكُم عَدْلا ، يتفجّر العِلم من جَوانِبه ، وتَنطِق الحكمة من نَواحيه ، يَستوحِش من الدنيا وزَهرتِها ، ويأنَس بالّليل ووَحْشَتِه ، [وكان](٣) غزيرَ العَبْرة ، طويلَ الفكْرة ، يُعجبه من اللّباس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خَشُن . كان فينا كأحدِنا ، يجيبُنا إذا سألناه، ويُنبئنا إذا اُستَفْتَيْناه ؛ ونحن واللهِ

(١) ب : « وكان » ، والصواب ما أثبته . (٢) فى الاستيعاب : « الصدائى » .
(٣) من الاستيعاب .

مع تقريبه إيّانا ، وقربه منّا ، لا نـكاد نـكلّمه هيبةً له . يعظّم أهلَ الدّين ، ويقرّب المساكينَ . لا يَطمَع القويُّ فى باطله ، ولا ييئس الضعيفُ من عَدلِه ؛ وأشهَد لقد رأيتهُ فى بعض مَواقِفه وقد أرخَى الليلُ سُدولَه ، وغارَتْ نجومُه ، قابضا على لِحيته ، يتَمَلْمَل تَمَلْمُل السَّلِيم[١] ، ويَبكِى بكاء الحزين ، ويقول : يا دُنْيا غُرِّى غَيْرِى ، أبى[٢] تعرّضتِ ! أم إلىّ تشوّقتِ ! هيهاتَ هيهاتَ ! قد باينتُكِ ثلاثا لا رجعةَ لى فيها ، فعُمرُكِ قصير ، وخطرُكِ حقير ! آهِ من قِلّة الزاد ، وبُعد السّفر ، ووَحشةِ الطريق ! فبكى معاويةُ وقال : رَحِم اللهُ أبا حسن ، كان والله كذلك ؛ فكيف حُزْنُك عليه يا ضِرار ؟ قال : حزنُ مَن ذُبِح ولدُها فى حِجْرِها[٣] .

---

(١) السليم : اللديغ . (٢) الاستيعاب : « أبى » .

(٣) الاستيعاب ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، وهو أيضا فى أمالى القالى ٢ : ١٤٧ .

(٧٦)

الأصْلُ :

ومن كلامه عليه السلام للسائل الشامى لما سأله : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره :

وَيْحَكَ ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِماً ، وَقَدَراً حَاتِماً ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً ، وَكَلَّفَ يَسِيراً ، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً ، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً ، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً ، وَلَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِباً ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً ، وَلَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ؛ ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكر شيخُنا أبو الحسين رحمه الله هـذا الخبرَ فى كتاب « الغُرَر » ورواه عن الأصبغ بنِ نُباتة ، قال : قام شيخٌ إلى علىّ عليه السلام فقال : أخبِرْنا عن مَسيرنا إلى الشام، أكانَ بقضاء الله وقدَرِه ؟ فقال : والّذى فَلَق الحبّة ، وبَرَأ النَّسمة ، ما وَطِئْنا مَوْطِئا ، ولا هَبطنا وادياً إلّا بقضاء الله وقدَرِه . فقال الشيخ ! فعندَ الله أحتَسِب عَنائى ! ماأرَى لى من الأجْر شيئاً ! فقال : مَهْ أيّها الشيخ ، لقد عَظّم اللهُ أجرَكم فى مَسيرِكم وأنتم سائرون، وفى مُنصرَفِكم وأنتم منصرِفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرَهين ،

ولا إليها مضطرَّين . فقال الشيخ : وكيف القضاء والقدَر ساقانا ؟ فقال : وَيْحَك ! لعلّك ظننتَ قَضاء لازما ، وقدَرًا حتْما ! لو كان ذلك كذلك لبَطَل الثواب والعِقاب ، والوَعْد والوَعِيد ، والأمرُ والنهى ، ولم تأتِ لائمةٌ مِن الله لمُذنِب ، ولا مَحمَدة لمُحسِن ، ولم يكن المُحسِن أولَى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء أولَى بالذّم من المُحسِن ؛ تلك مقالةُ عُبّاد الأوثان ، وجنودِ الشيطان ، وشهودِ الزور ، وأهلِ العمَى عن الصواب ، وهم قَدَرِيّةُ هذه الأمّة ومجوسُها ؛ إنّ الله سبحانه أمَر تخييرا ، ونَهَى تحذيرا ، وكَلَّف يسيرا ، ولم يُعْصَ مغلوبا ، ولم يُطَع مُكرِها ، ولم يُرسِل الرسلَ إلى خلقه عَبَثا ، ولم يَخلُق السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴿ ذلك ظنّ الّذين كَفروا فوَيلٌ للّذين كفروا من النار ﴾[1] فقال الشيخ : فما القضاء والقدَر اللّذان ما سِرْنا إلّا بهما ؟ فقال : هو الأمرُ من الله والحُكم ، ثمّ تلا قوله سبحانه : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إلّا إيّاهُ ﴾[2] ، فنهضَ الشيخُ مسرورا وهو يقول :

أنتَ الإمامُ الّذى نَرجُو بطاعتِه … يومَ النشورِ من الرّحمن رِضْوانا
أوْضحتَ مِن دِينِنا ما كان مُلتَبِسًا … جزاكَ رَبُّك عنّا فيه إحسانا

ذَكَر ذلك أبو الحسين فى بيانِ أنّ القضاء والقدَر قد يكون بمعنى الحُكم والأمر ، وأنّه من الألفاظ المشترَكة .

---

(١) سورة ص ٢٧ . (٢) سورة الإسراء : ٢٣ .

(٧٧)

الأصْـلُ :

خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .

قال الرَّضيّ رحمه الله تعالى ـ وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلام فِي مِثْلِ ذلِكَ : الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ .

* * *

الشَّرْحُ :

خَطَبَ الحجّاج فقال : إنّ الله أمرَنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدّنيا ، فليْتَنا كُفِينا مئونةَ الآخرة ، وأُمِرنا بطلب الدنيا !

فسمعها الحسن فقال : هذه ضالّة المؤمن خرجت من قلب المنافق .

وكان سُفيانُ الثّوريّ يُعجِبه كلامُ أبي حَمْزة الخارجيّ ويقول : ضالّة المؤمن على لسان المنافق . تقوَى الله أكرَمُ سَرِيرة ، وأفضَلُ ذخيرة ، منها ثقةُ الواثق ، وعليها مِقَة الوامق . لِيعمَل كلّ امرئٍ في مكان نفسه وهو رَخِيّ اللَّبَب ، طويلُ السّبب ، لِيَعرفَ مَمدّ يَدِه ، وموضعَ قَدَمِه ، وليَحذَر الزَّلَل ، والعلَل المانعةَ من العمل . رحِم الله عبدا آثرَ التقوَى ، واستشعَرَ شِعارها ، واجتنَى ثِمارَها ، باعَ دارَ البقاء بدارِ الآباد ، الدّنيا كرَوْضة يونق مَرْعاها ، وتُعجِب من رآها . تَمُجّ عرُوقُها الثّرى ، وتنطف فروعُها بالنّدى ، حتّى إذا بلغ العُشْب إناه ، وانتهى الزِّبْرِج مُنْتهاه ، ضَعُف العمود ، وذوى العُود ، وتولّى من الزمان ما لا يعود ؛ فحتّت الرياحُ الوَرَق ، وفرّقتْ ما كان اتّسق ، فأصبحَتْ هشِيما ، وأمست رَميما.

(٧٨)

الأصلُ :

قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ ما يُحْسِنُهُ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي لا تُصَابُ لَها قِيمَةٌ ، وَلَا تُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ ، وَلَا تُقْرَنُ إِلَيْها كَلِمَةٌ .

***

الشرحُ :

قد سَلَفَ لنا فى فَضْل العلم أقوالٌ شافية ، ونحن نذكر ها هنا نُكَتا أخرى .

يقال : إنّ من كلام أرْدَشير بن بابك فى رسالته إلى أبناء الملوك : بِحَسْبِكم دلالةً على فَضْل العلم أنّه ممدوح بكلّ لسان ، يتزيّن به غيرُ أهله ، ويدّعيه من لا يلصقُ به . قال : وبحَسْبكم دَلالةً على عَيْب الجهل أنّ كل أحد يَنتفِي منه ، و يَغضَب أن يسمَّى به .

وقيل لأنُوشَرْوانَ : ما بالُكمْ لا تستفيدون من العلم شيئاً إلّا زادكم ذلك عليه حِرْصا؟ قال : لأنّا لا نستفيد منه شيئاً إلا ازدَدْنا به رِفعةً وعِزّا . وقيل له : ما بالُكمْ لا تأنَفون من التعلّم من كلّ أحد ؟ قال : لعِلْمنا بأنّ العلم نافع من حيث أُخذ .

وقيل لبُزُرْجِمهْر : بِم أدركتَ ما أدركتَ من العِلم ؟ قال : ببُكور كبُكورِ الغُراب ، وحِرْصٍ كحرصِ الخِنزير ، وصبرٍ كصبرِ الحمار .

وقيل له : العِلم أفضلُ أم المال ؟ فقال : العِلم ، قيل : فما بالُنا نرَى أهلَ العِلم على

أبواب أهلِ المال أكثر مما نرى أصحابَ الأموالِ على أبواب العُلَماء ! قال : ذاك أيضا عائد إلى العِلم والجَهْل ، وإنما كان كما رأيتم ، لعلم العلماء بالحاجة إلى المال ، وجَهْلِ أصحابِ المال بفَضيلةِ العِلم .

وقال الشاعر :

تَعلَّمْ فليس المرءُ يُخلَقُ عالما وليس أخو علمٍ كمن هوَ جاهلُ
وإن كبيرَ القومِ لا عِلمَ عندَه صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المَحافلُ

(٧٩)

الأصْلُ :

أوصيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْها آباطَ الإِبِلِ لَكانَتْ لِذلِكَ أَهْلاً : لا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلاَّ رَبَّهُ ، ولَا يَخَافَنَّ إلاَّ ذَنْبَهُ ، ولاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنكم إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُ ، ولا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إذا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، وعليكم بالصَّبْرِ ، فإنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمانِ كالرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ ، ولا خَيْرَ فى جَسَدٍ لارَأْسَ مَعَهُ، ولا خيرَ فى إيمانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى جميع الحِكَم المنطوى عليها هذا الفصْل ؛ وقال أبو العَتَاهِيَة :

واللهِ لا أرجُو سِوا　　كَ ولا أخافُ سِوَى ذنوبى

فاغفرْ ذنوبى يا رَحِيـ　　ـمُ فأنتَ ستّارُ العيوبِ

وكان يقال : من استَحْيا من قولِ : «لا أدْرِى» كان كمن يَستحْيِي من كَشْفِ رُكْبته، ثم يكشف سَوْءته ، وذلك لأنّ من امتنعَ من قول : « لا أدرِى» وأجابَ بالجَهْل والخطأ فقد واقعَ ما يجبُ فى الحقيقة أن يُستحيا منـه ، وكفَّ عمّا ليس بواجب أن يُستَحْيَا منه ، فكان شبيها بما ذكرْناه فى الرُّكبة والعوْرة .

وكان يقال : يحسُن بالإنسان التعلّم ما دامَ يقبح منه الجهل ، وكما يقبح منه الجهل ما دام حيّا كذلك يحسُن به التعلم ما دام حيّا .

وأمّا الصبر فقد سبق فيه كلامٌ مُقنع ، وسيأتى فيما بعدُ جملة من ذلك .

(٨٠)

الأصْلُ

وقالَ عليهِ السَّلَامُ لرجلٍ أفرَطَ فى الثَّناء عليهِ ـ وكانَ لهُ مُتَّهِما : أنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سَبَق منّا قولٌ مُقنِــع فى كراهية مدح الإنسان فى وجهه .

وكان عمرُ جالساً وعنده الدِّرَّة ، إذ أقبل الجارُود العَبْدِيّ ، فقال رجل : هذا الجارود سيّدُ ربيعة ؛ فسَمِعها عمرُ ومن حَوله ، وسَمِعها الجارود ، فلمّا دنا منــه خَفَقَه بالدِّرّة فقال : ما لِي ولك يا أمير المؤمنين ! قال : ما لى ولك ! أما لقد سمعتَها ؛ قال : وما سمعتُها فه ! قال : ليخالطنّ قلبك منها شيء ، وأنا أحبّ أن أطأطئَ منك .

وقالت الحكماء : إنّه يَحدُث للممدوح فى وجهه أمرانِ مُهلِكان : أحدُهما الإعجاب بنفسه ، والثانى إذا أثنى عليــه بالدِّين أو العلم فَتَر وقلّ اجتهادُه ، ورضىَ عن نفسه ، ونَقَصَ تشميرُه وجِدُّه فى طلب العــلم والدِّين ، فإنه إنما يتشمّر من رأى نفسَه مقصِّرا فأمّا مَنْ أطلقت الألسُنُ بالثّناء عليه ، فإنّه يظنّ أنه قد وصل وأدرك ، فيقلّ اجتهاده ، ويتّــكل على ما قد حَصَل له عند الناس ؛ ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن مَدَح

إنسانا كاد يَسَمه : « وَيْحك ! قطعتَ عُنُق صاحبك ، لو سمِعها لما أفلَح » .

فأمّا قوله عليه السلام له : « وفوقَ ما في نفسك » ، فإنه إنمـا أراد أن ينبِّهه على أنه قد عَرَف أنه كان يَقَع فيه ، وينحرف عنه ، وإنما أراد تعريفه ذلك لِما رآه من المَصلحةِ ، إمّا لظنّه أنه يُقلع عمّا كان يذمّه به ، أو ليُعلِمَه بتعريفه أنه قد عَرَف ذلك ، أو ليخوّفه ويزجُرَه ، أو لغير ذلك .

(٨١)

الأصْلُ :

بَقِيَّةُ السَّيْف أَنْمَى عَدَدًا ، وَأَكْثَرُ وَلَدًا .

* * *

الشَّرْحُ :

قال شيخنا أبو عثمان : ليته لما ذَكَرَ الحكم ذكر العِلّة !

ثم قال : قد وجدْنا مِصْداق قوله في أولاده وأولاد الزبير وبنى المهلَّب وأمثالهم ممن أسرعَ القتلُ فيهم .

وأُتِيَ زيادٌ بامرأة من الخوارج فقال لها : أما والله لأحْصِدنَّكم حَصْدًا ، ولأفنينّكم عَدًّا ، فقالت : كلّا إنّ القتل ليَزْرعُنا ، فلما همّ بقتلها تستّرت بثوبها ، فقال : اهتكوا سترها لَحَاها الله[1] ! فقالت: إنّ الله لا يَهتِك سترَ أوليائه ، ولكن الّتى هُتك[2] سترُها على يد ابنها سُمَيّة ، فقال : عجّلوا قتلَها أبعدَها الله ! فقُتِلَتْ .

---

(١) لحاه الله ، أى قبحه ولعنه . (٢) ا : « هتكت » .

(٨٢)

الأَصْلُ :

مَنْ تَرَكَ قَوْلَ : « لَا أَدْرِى » أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

جاءت امرأة إلى بُزُرْجُمِهْرْ ، فسألته عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقالت : أيعطيكَ المَلِكُ كلَّ سنةٍ كذا كذا وتقول : لا أدرى ؛ فقال : إنما يعطيني الملك على ما أَدْرِى ، ولو أعطاني على ما لا أَدْرِى لما كفانى بيت ماله .

وكان يقول : قولُ « لا أَعْلَمُ » نِصفُ العِلم .

وقال بعضُ الفُضَلاء : إذا قال لنا إنسانٌ : « لا أدرِى » عَلَّمناه حتى يَدرى ، وإن قال: أدرى ، امتحنّاه حتى لا يدرى .

(٨٣)

الأصلُ :

رَأىُ الشَّيخِ أحَبُّ إلَىَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلاَمِ .

ويُرْوَى : « مِنْ مَشْهَدِ الْغُلاَمِ » .

* * *

الشرحُ :

إنما قال كذلك لأنّ الشيخ كثيرُ التَّجربة ، فيبلغ من العَدُوّ برأيه ما لا يبلُغ بشجاعته الغلام الحدَث غير المجرَّب ، لأنه قد يغرِّر بنفسه فيَهلِك ويُهلِك أصحابَه، ولا رَيبَ أنّ الرأى مقدَّم على الشجاعة ، ولذلك قال أبو الطيب :

الرأىُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعانِ ... هو أوّلٌ وهْى المحلُّ الثانى(١)

فإذا هما اجتَمَعا لنفسٍ مِرّةٍ ... بلغتْ من العَلْياء كلَّ مكانِ(٢)

ولرُبمــا طَعن الفتى أقرانَه ... بالرّأى قبــلَ تطاعُنِ الأقرانِ

لولا العقولُ لكانَ أدْنَى ضَيغمٍ ... أدنى إلى شَرفٍ من الإنسانِ

ولَمَــا تفَاضلت الرجالُ ودَبَّرتْ ... أيدِى الكُماة عَوالِىَ المُرّانِ

ومِن وَصايا أبَرْوِيز إلى ابنه شيرويه : لا تستعمل على جيشك غلاما غمرا ترِفا ، قد كثُر إعجابه بنفسه ، وقلّت تجــاربه فى غيره ، ولا هَرِما كبيرا مدبِرا قد أخَذ الدهرُ من عقــله ، كما أخذَتِ السنُّ من جِسمه ؛ وعليــك بالكُهول ذوِى الرأى !

---

(١) ديوانه ٤ : ١٧٤، ١٧٥ (٢) النفس المرة: القوية الشديدة. من قوله تعالى « ذو مرة فاستوى ».

وقال لَقيط بن يَعْمَر الإيادىّ فى هذا المعنى :

وقَلّدوا أمركم لله درُّكمُ ... رحْبَ الذّراع بأمر الحربِ مُضطلِعا (١)

لا مُترَفا إنْ رَخاء العيشِ ساعدَه ... ولا إذا عَضّ مكروهٌ به خَشَعا (٢)

ما زال يحلُبُ هذا الدهرَ أشطُرَه ... يكون متَّبِعاً طورا ومُتَّبَعا (٣)

حتّى استمرّ على شَزْرٍ مَرِيرته ... مستحكِمَ الرأى لا قَحْماً ولا ضرِعا (٤)

---

(١) مختارات ابن الشجرى ١ : ٥ . مضطلعا ، من الضلاعة ؛ وهى القوة .

(٢) خشع ، أى خضع للأمر .

(٣) ابن الشجرى : « ما انفك يحلب » .

(٤) الشزر : فتل الحبل مما يلى اليسار والقحم : الشيخ الكبير السن الهم . والضرع : الرجل الضعيف .

(٨٤)

الأصل :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الِاسْتِغْفَارُ .

* * *

الشرح :

قالوا : الاستغفار حَوارسُ الذّنوب .

وقال بعضهم : العبدُ بين ذَنْب ونِعْمة لا يُصْلِحهما إلّا الشكر والاستغفار .

وقال الربيع بن خُثَيم[1] : « لا يقولنّ أحدكم أستغفِر الله وأتوبُ إليه » فيكون ذَنْبا وكذبا إن لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهمّ اغفر لى وَتُب علىّ .

وقال الفُضَيل : الاستغفار بلا إقلاع[2] توبةُ الكذّابين .

وقيل : من قدّم الاستغفار على النّدم ، كان مستهزئاً بالله وهو لا يعلم .

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « خثيم » . (٢) الإقلاع : ترك الذنوب .

(٨٥)

الأصل :

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام أنه كان عليه السلام قال:

كانَ في الأرضِ أمانانِ مِنْ عذابِ اللهِ ، وقدْ رُفِعَ أحدُهما ، فدُونَكُمْ الآخرَ فتمسَّكُوا بِهِ ، أما الأمانُ الذي رُفِعَ فهُوَ رسولُ اللهِ صلّى اللهِ عليهِ وسلّم، وأمّا الأمانُ الباقي فالاستِغْفارُ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعذِّبَهُمْ وأنْتَ فِيهِمْ وما كانَ اللهُ مُعذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

قال الرَّضيّ رحمه اللهُ تعالى : وهــذا مِنْ محاسنِ الاستِخراجِ ، ولطائفِ الاستِنْباطِ.

* * *

الشرح :

قال قومٌ من المفسّرين : ﴿ وهم يستغفِرُونَ ﴾ ، في موضع الحال : والمرادُ نفي الاستغفار عنهم ، أي لو كانوا ممّن يستغفرون لما عذّبهم ، وهذا مثلُ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بظلمٍ وأهلُها مُصلحون (٢) ﴾ ؛ فكأنه قال : لكنهم لا يَستغفرون فلا انتفاء للعذاب عنهم .

وقال قوم : معناه ، وما كان الله معذّبهم وفيهم مَنْ يستغفروهم المسلمون بين أظهُرِهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من المستضعفين (٣) .

(١) سورة الأنفال ٣٣ .

(٢) سورة هود ١١٧ .   (٣ ـ ٣) ساقط من ا .

ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ﴾(١) ، أى ولأىِّ سَبَب لا يعذّبهم الله مع وجود ما يَقتضِى العذاب ، وهو صَدّهم المسلمين والرّسول عن البيت فى عام الحُدَيْبية ! وهذا يدلّ على أنّ ترتيبَ القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث ، لأنّ سُورة الأنفــال نزلتْ عقيبَ وَقْعة بَدْرٍ فى السّنة الثانية من الهجرة ، وصدّ الرسول صلّى الله عليه وآله عن البيت كان فى السّنة السادسة ، فــكيف يجعل آيةً نزلتْ فى السنة السادسة فى سورةٍ نزلتْ فى السنة الثانية !

وفى القرآن كثيرٌ من ذلك ، وإنّما رتّبه قومٌ مِن الصّحابة فى أيّام عثمان .

(١) سورة الأنفال ٣٤ .

(٨٦)

الأصل :

مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ .

وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ .

***

الشرح :

مِثلُ الكلمة الأولى قولُهم : رِضا المخلوقين عُنوانُ رِضا الخالق ؛ وجاء فى الحديث المرفوع : « ما مِنْ والٍ رَضِيَ الله عنه إلّا أرضَى عنه رعيّتَه » .

ومِثلُ الكلمة الثانية دُعاء بعضهم فى قوله :

أنا شاكرٌ أنا مادحٌ أنا حامِدٌ   أنا خائفٌ أنا جائعٌ أنا عارِ
هى ستّةٌ وأنا الضّمينُ بنِصفها   فكُنِ الضمينَ بنِصفها يا بارِى

ومِثلُ الكلمة الثالثة قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾(١).

---

(١) سورة النحل ١٢٨ .

(٨٧)

الأصلُ :

الْفَقِيهُ كلُّ الفقيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ .

* * *

الشَّرحُ :

قَلَّ موضعٌ من الكتاب العزيز يَذكُر فيه الوعيد إلّا ويَمزُجه بالوعد، مِثل أن يقول : « إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ » ثم يقول: « وإنه لغفور رحيم » ، والحكمة تقتضِي هذا ليكون المكلَّف متردِّدا بين الرَّغبة والرَّهبة .

ويقولون فى الأمثال المرموزة : لقِيَ موسَى وهو ضاحكٌ مستبشرٌ عيسَى وهو كالِحٌ قاطِب ، فقال عيسى : مالكَ كأنّكَ آمِنٌ من عذاب الله ؟ فقال موسى عليه السلام : مالكَ كأنك آيِسٌ من رَوْح الله ! فأوحَى الله إليهما: موسى أحبُّكما إلىّ شِعارا ، فإنِّي عِنْدَ حُسْن ظَنِّ عبدى بى .

واعلم أنّ أصحابنا وإن قالوا بالوعيد ؛ فإنّهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنِّطونه من رحمة الله ، وإنما يَحُثّونه على التوبة ، ويخوِّفونه إن ماتَ من غير توبة ، ويحقّ ما قال شيخُنا أبو الهُذَيل : لولا مَذهَب الإرْجاء لَمَا عُصِيَ الله فى الأرض ؛ وهذا لا رَيبَ فيه ، فإنّ أكثرَ العُصاة إنما يُعوِّلون على الرحمة ، وقد اُشتَهر

واستفاض بينَ الناس أنّ الله تعالى يَرحَم المذنِبين ، فإنّه وإن كان هُناك عِقاب فأوقاتا معدودة ، ثمّ يخرجون إلى الجنّة ، والنفوس تُحِبّ الشهوات العاجلة ، فتتهافَتُ الناس على المَعاصي وبلوغِ الشّهَوات والمآرب ، معوِّلين على ذلك ، فلولا قولُ المرجِئة وظهورُه بين الناس لكان العصيانُ إمّا معدوما ، أو قليلًا جِدًّا .

(٨٨)

الأصل :

أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

***

الشرح :

هذا حقّ ، لأنّ العالِمَ إذا لم يَظهر من عِلمِه إلّا لَقْلَقَةُ لسانِه من غير أن تَظْهرَ منه العبادات ، كان عالمًا ناقصاً ، فأمّا إذا كان يُفيدُ الناسَ بألفاظِه ومنطقِه ، ثم يشاهِدُهُ النّاسُ على قدَمٍ عظيمةٍ من العبادةِ ، فإنّ النفعَ يكون به عامّا تامّا ، وذلك لأنّ الناس يقولون : لو لم يكن يَعتقِد حقيقةَ ما يقوله ، لما أدْأَبَ نَفْسَه هذا الدَّأَب .

وأمّا الأوّل فيقولون فيه : كُلّ ما يقوله نفاق وباطل ، لأنه لو كان يعتقد حقيقةَ[(١)] ما يقول لأخَذَ به ، ولظَهرَ ذلك في حَرَكاته ، فيَقْتَدون بفعله لا بقَوْله ، فلا يَشتغِل[(٢)] أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتمّ بها .

---

(١) د : « أحقية » . (٢) ا : « يشتغلون » .

(٨٩)

الأصْلُ :

إنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ .

***

الشَّرْحُ :

لو قال : إنّها تَمَلّ كما تَملّ الأبدان ، فأحمِضُوا (١) كما نقل عن غيره لحمِل ذلك على أنّه أراد نَقْلَها إلى الفُكاهات والأخبار والأشعار ، ولكنّه لم يقل ذلك ، ولكن قال : « فابْتَغوا لها طرائفَ الحِكمة » ، فوَجَب أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على أنّه أراد أنّ القلوبَ تَمَلّ من الأنظار العقلِيّة ، في البراهين الكلاميّة على التوحيد والعدل ، فابتغوا لها عندَ مَلالِها طرائفَ الحِكمة ، أي الأمثال الحِكْمية الراجعة إلى الحكمة الخلقية ، كما نحن ذاكرُوه في كثيرٍ من فصولِ هذا الباب ، مِثل مدح الصبر ، والشجاعة ، والزهد ، والعِفّة ، وذمّ الغضب ، والشهوة ، والهوى ، وما يَرجِع إلى سياسة الإنسان نفسه ، وولده ، ومنزله ، وصديقه ، وسلطانه ، ونحو ذلك ؛ فإنّ هذا عِلْمٌ آخَر وفَنّ آخر ، لا تَحتاجُ القلوب فيه إلى فِكْر واستنباط ، فتَتْعَب وتَكِلّ بترادُف النّظر والتأمّل عليها ، وفيه أيضاً لذّةٌ عظيمةٌ للنفس .

وقد جاء في إجمام النّفس كثيرٌ .

قال بعضهم : رَوِّحوا القلوب برَواتِع (٢) الذّكر .

---

(١) يقال : أحمض القوم إحماضا ؛ إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام ، كما يقال : فكِه ومتفكّه .

(٢) د : « نعى » .

وعن سَلْمان الفارسيّ : أنا أحتَسِب نَوْمَتى كما أحتَسِب قَوْمَتى .

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنّ نفسى راحِلتى ، إن كلّفتُها فوقَ طاقتِها انقطعتْ بى .

وقال بعضهم : روِّحوا الأذهان ، كما تروِّحوا الأبدان .

وقال أردشيرُ بنُ بابك : إنّ للآذان مَجّة ، وللقلوب مَلّة ؛ ففرِّقوا بين الحكمتين[1] بلَهْوٍ يكُن ذلك استِجْماماً .

---

(١) د : « الحكمين » .

(٩٠)

الأصلُ :

لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ . ومعنى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ ، وَيَكْرَهُ انْثِلَامَ الْحَالِ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وَهَذَا مِنْ غَرِيبِ ما سُمِعَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في التَّفْسِيرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الفتنة لفظٌ مشترك ؛ فتارةً تُطلَق على الجائحة والبليّة تصيبُ الإنسان ، تقول : قد افتتَن زيد وفُتِن فهو مفتون إذا أصابتْه مُصيبة فذهَب مالُه أو عقلُه ، أو نحوُ ذلك ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يَعني الّذين عذّبوهم بمكّة ليرتدّوا عن الإسلام ، وتارةً تُطلَق على الاختبار والامتحان ، يقال : فتنتُ الذهبَ إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جوْدَته ، ودينارٌ مَفْتون ، وتارةً تُطلَق على الإحراق ؛ قال تعالى :

(١) سورة البروج ١٠ .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾(١) ووَرِق مَفتون ، أى فِضّة مُحرَقة ، ويقال للحَرّة : فَتِين كأنّ حِجارتَها مُحرَقة ، وتارةً تُطلَق على الضّلال ، يقال رجلٌ فاتن ومُفتن ، أى مُضِلّ عن الحقّ جاء ثُلاثيًا ورُباعيًا ؛ قال تعالى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾(٢) أى بمضلّين ، وقرأ قومٌ « مفتنين » ، فمن قال : إنّى أعوذُ بك من الفِتنة ، وأرادَ الجائحة ، أو الإحراق أو الضلال ، فلا بأس بذلك ، وإنْ أراد الاختبار والامتحانَ فغيرُ جائز ، لأنّ الله تعالى أعلمُ بالمَصلَحة ، وله أن يَختبر عبادَه لا ليَعلَم حالهم ، بل ليَعلَم بعضُ عبادِه حالَ بعض ، وعندى أنّ أصلَ اللّفظة هو الاختبار والامتحان ، وأنّ الاعتبارات الأخرى راجعة إليها ، وإذا تأمّلتَ علمتَ صحةَ ما ذكرناه .

---

(١) سورة الذاريات ١٣ . (٢) سورة الصافات ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٩١)

الأصْلُ :

وسُئِلَ عن الخيرِ ما هُوَ ؟

فَقالَ : لَيْسَ الخيرُ أَنْ يَكْثُرَ مالُكَ وَوَلَدُكَ ، ولكِنِ الخيرُ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ، وأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وأَنْ تُباهِيَ النَّاسَ بِعِبادةِ رَبِّكَ ، فإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللهَ ، وإِنْ أَسأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللهَ . ولا خَيْرَ في الدُّنيا إلاَّ لِرَجُلَيْنِ : رَجُل أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدارَكُها بالتَّوْبَةِ ، ورَجُلٍ يُسَارِعُ في الخيراتِ ؛ ولا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوى ، وكَيْفَ يَقِلُّ ما يُتَقَبَّلُ !

* * *

الشّرْحُ :

قد قال الشاعر لهذا المعنى :

ليس السّعيدُ الذى دُنْياه تُسعِدُه بل السعيد الذى ينجُو من النارِ

قوله عليه السلام : « ولا يَقِلّ عملٌ مع التقوى » ، أى مع اجتناب الكبائر ، لأنه لو كان مُواقِعاً لِكَبيرة لما تقبّل منه عملٌ أصلا على قول أصحابنا ، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتنابَ الكبائر ؛ فأمّا مذهبُ المرجئة فإنهم يحملون التقوى ها هنا على الإسلام ، لأنّ المسلم عندهم تتقبّل أعماله ، وإن كان مُواقعا للكبائر .

فإن قلت : فهل يجوز حملُ لفظة « التقوى » على حقيقتها ، وهى الخوف ؟

قلت : لا . أما على مَذهبنا فلأن من يخافُ الله ويواقع الكبائرَ لا تتقبل أعمالُه ،

وأمّا مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله مِن مخالفى مِلّة الإســـلام لا تتقبل أعمالُه ، فثبت أنه لا يجوز حملُ التقوى ها هنا على الخوف .

فإن قلت : مَنْ هو مخالفٌ لِملة الإسلام لا يخافُ الله لأنه لا يعرفه .

قلت : لا نسلّم ، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصِفاته ، كما نعرفه نحن ، ويجحد النبوّة لشُبْهة وقعت له فيها ، فلا يلزم من جَحْد النبوة عدمُ معرفة الله تعالى .

(٩٢)

الأصل :

إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالأنبياء أعْلَمُهُمْ بما جاءوا بِهِ ، ثمَّ تَلا عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿ إنَّ أوْلَى النَّاسِ بِإبْرَهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ الآية .

ثمَّ قالَ عَلَيْهِ السَّلام : إنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أطاعَ اللهَ وإن بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، وإنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ وإن قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

* * *

الشرح :

هكذا الرواية « أعلمهم » ، والصحيح « أعملهم » ، لأن استدلاله بالآية يقتضى ذلك ، وكذا قوله فيما بعدُ . « إنَّ وَلِيَّ محمد من أطاع الله . . . » إلى آخر الفصل ، فلم يذكر العلم ، وإنما ذكر العمل . واللُّحْمة بالضم : النسب والقرابة ، وهذا مثلُ الحديث المرفوع : «ائتونى بأعمالكم ، ولا تأتونى بأنسابكم ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » ؛ وفى الحديث الصحيح : « يا فاطمة بنت محمد ، إنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : أرأيت قوله صلى اللهُ عليهِ وسلّم : « إن فاطمةَ أحصنتْ فرجها فحرّم اللهُ ذريّتها على النار » ، أليس هذا أمانا لكل فاطمى فى الدنيا ؟ فقال : إنك لأحمق ، إنما أراد حسناً وحسَينا ، لأنهما من لُحمة أهل البيت ، فأما مَن عداهما فمن قعد به عمله لم يَنهضْ به نَسَبُه .

(٩٣)

الأصل :

وَسَمِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْحَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ ، فَقَالَ : نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ ، خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى شَكٍّ .

***

الشرح :

هذا نهيٌ عن التعرّض للعبادة مع الجهل بالمعبود ، كما يصنع اليوم كثيرٌ من الناس ، ويظنون أنّهم خير الناس ، والعقلاء الألبّاء من الناس يضحكون منهم ، ويستهزئون بهم ، والحَرُوريّة : الخوارج ، وقد سَبق القول فيهم . وفي نِسبتهم إلى حَروراء[1] .

يقول عليهِ السلام : تَرْكُ التنفُّل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية ، خيرٌ من الاشتغال بالنوافل وأورادِ الصّلاة مع عدم العلم ؛ وهو المعنيُّ بقوله : « في شَكّ » ، فإذا كان عدمُ التنفّل خيرا من التنفّل مع الشكّ فهو مع الجهل المحض ـ وهو الاعتقاد الفاسد ـ أَوْلى بأنْ يكون .

---

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة ، نزل بها الخوارج الذين خالفوا على بن أبي طالب ؛ وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا عليه » .

(٩٤)

الأصْلُ :

اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ .

***

الشَّرْحُ :

نهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمعوا منه أو من غيره أطرافا[1] من العِلْم والحكمة ، على أن يَرووا ذلك رواية كما يفعله اليومَ المحدِّثون ، وكما يقرأ أكثرُ الناس القرآن دراسةً ولا يَدْرِي من معانيه إلّا اليسير .

وأمرَهم أن يعقِلوا ما يَسمَعونه عقلَ رِعاية أى مَعرفة وفَهْم .

ثم قال لهم : « إنّ رُواة العلم كثير ، ورُعاته قليل » ، أى من يُراعِيه ويتدبّره ؛ وصَدَق عليه السلام !

---

(١) ا : « طرفا » .

(٩٥)

الأصْـلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، فَقَالَ: إِنَّ قَوْلَنَا « إِنَّا لِلهِ » إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمِلْكِ ، وَقَوْلَنَا : « وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قوله إنّا لله اعترافٌ بأنّا مملوكون لله وعبيدٌ له، لأنّ هذه اللامَ لامُ التمليك ، كما تقول: الدارُ لِزَيد ؛ فأمّا قوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [(١)] ، فهو إقرار واعترافٌ بالنّشور والقيامة ، لأنّ هذا هو معنى الرّجوع إليـه سبحانه ، واقتنَع أميرُ المؤمنين عن التصريح بذلك ، فذَكَر الهُـلْك ، فقال : إنّه إقرارٌ على أنفُسنا بالهُـلْك ، لأنّ هُلْـكنا مُفض إلى رجوعِنا يومَ القيامة إليه سبحانه ، فعبّر بمقدمة الشيء عن الشيء نفسه ، كما يقال : الفقرُ المَوْت ، والحمّى الموت ، ونحو ذلك .

ويُمكِن أن يفسّر ذلك على قول مُثبِتى النّفس الناطقة بتفسيرٍ آخر فيقال : إنّ النفس ما دامت فى أَسْرِ تدابير البَدَن فهى بمَعزِل عن مبادئها ، لأنّها مشتغِلةٌ مستغرِقة بغير ذلك ، فإذا مات البَدَن رجعت النفسُ إلى مَبادِئها ، فقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [(١)] إقرارٌ بما لا يصحّ الرجوع بهذا التفسير إلّا معَـه ، وهو الموت المعبّر عنه بالهُـلْك .

---

(١) سورة البقرة ١٥٦ .

(٩٦)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام ومدحه قوم فى وجهه :

اللَّهُمَّ إنَّكَ أعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي ، وَأنَا أعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ . اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّون ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ !

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى كراهِيَة مَدْحِ الإنسان فى وجهه . وفى الحديثِ المرفوعِ : « إذا مدحْتَ أخاكَ فى وجهِهِ ، فكأنما أمرَرْتَ على حَلْقِهِ مُوسَى وَمِيضة » .

وقال أيضا لرجلٍ مَدَحَ رجلا فى وجهه : « عَقَرْتَ الرجلَ عقرَكَ الله ! » .

وقال أيضا : « لو مَشَى رجلٌ إلى رجل بسَيْف مرهَفٍ كان خيراً له من أن يُثنِيَ عليه فى وجهه » .

ومن كلامِ عمرَ : المَدْح هو الذَّبْح ؛ قالوا : لأنّ المذبوحَ يَنقَطِع عن الحركة والأعمال ، وكذلك المَمْدوح يَفتُر عن العمل .

ويقول : قد حَصَل فى القلوب والنفوس ما استَغنَى به عن الحركة والجدّ .

ومن أمثال الفلّاحين : إذا طارَ لك صيتٌ بين الحصّادة ، فاكسِر مِنْجَلَك .

وقال مُطرف بنُ الشِّخِّير : ماسمعتُ من ثناءأحدٍ عليّ ، أو مِدحةِ أحدٍ لى ، إلّا وتصاغرتْ إلىّ نفسى . وقال زياد بنُ أبى مسلِم : ليس أحد سَمِع ثناء أحدٍ عليه إلّا وتراءى له شيطان ، ولكنّ المؤمن يراجع .

فلمّا ذُكِر كلامُهما لابن المبارك قال : صَدَقا ؛ أمّا قول زياد فتلك قُلوبُ العوامّ ، وأمّا قولُ مطرِّف فتلك قلوب الخواصّ .

(٩٧)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ .

***

الشَّرحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مستقصًى فى هذا النحو ، وفى الحوائج وقضائها واستنجاحها .

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « استعينوا على حاجاتكم بالكِتمان ، فإنّ كلّ ذى نِعْمة محسود » .

وقال خالدُ بنُ صَفْوان : لاتطلُبوا الحوائجَ فى غير حِينِها ، ولا تَطلُبوها إلى غيرِ أهلِها، ولا تَطلُبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمَنْع خُلَقاء .

وكان يقال : لكلّ شىء أسٌّ ، وأسُّ الحاجة تعجيلٌ أروَحُ من التأخير .

وقال رجلٌ لمحمّد بن الحنفيّة : جئتك فى حُوَيْجة ، قال : فاطلب لها رُجَيْلا !

وقال شَبيبُ بن شَبّة بن عِقال : أمران لا يَجتمِعان إلّا وَجَب النُّجْح ، وهما العاقل لا يَسأَل إلّا ما يجوز ، والعاقل لا يَرُدُّ سائلَه عمّا يُمكِن .

وكان يقال : من استعظَم حاجةَ أخِيه إليه بعد قضائها امتنانا بها فقد استصْغَر نفسَه .

وقال أبو تمام فى المَطْل[١] :

وكان المَطْلُ فى بَدْءٍ وعَوْدٍ　　دُخاناً للصَّنيعة وهى نارُ[٢]

نسيبَ البُخْل مُذْ كانا وإلّا　　يكنْ نَسَبٌ فبينَهما جِوارُ

لذلك قيل : بعضُ المَنْع أدْنَى　　إلى جُودٍ ، وبعضُ الجودِ عارُ

---

(١) ديوانه ٢ : ١٥٩ — بشرح التبريزى

(٢) قال شارح ديوانه : «أى يتأذى بالمطل كما يتأذى بالدخان ؛ فكما أن المحمود من النار أن تخلص من الدخان ؛ كذلك المحمود من العطاء خلوصه من المطل» .

(٩٨)

الأصْلُ :

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاحِلُ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ، وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ؛ يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنّاً، وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ؛ فَمِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الْإِمَاءِ، وَإِمَارَةِ الصِّبْيَانِ، وَتَدْبِيرِ الْخِصْيَانِ .

***

الشَّرْحُ :

المَحْل : المكر والكَيْد ؛ يقال مَحَل به إذا سَعَى به إلى السلطان ، فهو ماحِلٌ ومَحُول ؛ والمُماحَلة : المماكَرة والمكايدة .

قوله : « وَلَا يُظرَّف فيه إلَّا الفاجر » ، لا يَعُدّ الناسُ الإنسانَ ظريفاً إلا إذا كان خليعاً ماجناً متظاهراً بالفِسق .

وقولُه : « ولا يضعَّف فيه إلا المنصِف » ، أي إذا رأوا إنسانا عنده وَرَع وإنصاف في معاملتهِ الناسَ عدُّوه ضعيفاً ، ونَسَبوه إلى الرِّكّة والرَّخاوة ، وليس الشَّهم عندهم إلا الظالم .

ثم قال : « يعُدّون الصدقة غُرْما » ، أي خسارة[1] ، ويَمُنُّون إذا وَصَلوا الرَّحِم

---

(١) ا : « غرما وخسارة » .

وإذا كانوا ذوى عِبادة استطالوا بهـا على الناس وتبجّحوا بها ، وأعجبتهم أنفسهم ، واحتقروا غيرهم .

قال : فعند ذلك يكون السلطان والحكم بين الرعايا بمشورة الإماء . . . إلى آخر الفصل ، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهى إحدى آياته ، والمُعجزات المختصّ بها دون الصّحابة .

(٩٩)

الأصل :

وقال عليه السلام :

وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ .

***

الشرح :

قد تقدم القولُ فى هـذا الباب ، وذكرنا أنّ الحكماء والعارفين فيه على قسمين : منهم من آثر لبسَ الأدْنى على الأعلى ، ومنهم من عكس الحال ، وكان عمرُ بنُ الخطاب من أصحاب المذهب الأوّل ، وكذلك أميرُ المؤمنين ، وهو شِعار عيسى بن مريمَ عليه السلام ، كان يلبسُ الصوف وغليظ الثياب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النّوعين جميعا ، وأكثر لُبسِه كان الجيّد من الثياب مِثل أبراد اليمن ، وما شاكل ذلك ، وكانت مِلحفتهُ مورَّسَةً(١) حتى إنها لتردِع(٢) على جِلده كما جاء فى الحديث . ورُئِيَ محمّد بن الحنفية عليه السلام واقفا بعرفات على بِرْذَوْن أصفر ، وعليه مُطْرَف خزٍّ أصفر ، وجاء فَرْقَد السَّبَخيّ(٣) إلى الحسن وعلى الحسَن مُطرف خزٍّ ، فجعل يَنظُر إليه وعلى فَرْقد ثيابُ صوف ، فقال الحسن : ما بالُك تنظُر إلىّ وعلىّ ثيابُ أهلِ الجنّة ،

(١) مورسة ، أى مصبوغة بالورس ؛ وهو نبت أصفر يكون باليمن ، تصبغ به الثياب .

(٢) فى اللسان عن ابن عباس : « لم ينه عن شىء من الأردية إلا عن المزعفرة التى تردع على الجلد » قال : أى تنفض صبغها عليه ، وثوب رديع ؛ مصبوغ بالزعفران .

(٣) ب : « السنجى » ، والصواب ما أثبته ، منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، ذكره ياقوت ؛ وذكر بنسبة فرقد إليه .

وعليك ثيابُ أهلِ النار ! إن أحَدَكم ليَجْعل الزهــد فى ثيابه والكِبْرَ فى صَدْره ، فلَهُو أشدُّ عجباً بصوفه من صاحبِ المُطْرَف .

وقال ابن السَّمَّاك لأصحاب الصّوف : إن كان لباسُكم هذا موافِقا لسرائِركم فلقد أحببتم أن يطّلع الناسُ عليها ، ولئن كان مخالفا لها لقد هَلَكتم .

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب فى مَلْبوسه ، وكان قَبلَ الخلافة يلبس الثياب المثمَّنة جـدّا ، كان يقول : لقد خِفْتُ أن يَعْجَز ماقَسم الله لى من الرّزق عمّا أريده من الكسوة ، وما لبستُ ثوبا جديدا قطّ إلّا وخُيِّـل لى حين يراه الناس أنه سَمِلٌ أو بالٍ ، فلما ولىَ الخلافة تَرَك ذلك كلّـه .

وروى سعيدُ بنُ سُويد ؛ قال : صلَّى بنا عمرُ بنُ عبد العزيز الجمعة ، ثمّ جلس وعليه قيص مرقوع الجَيْب من بين يديه ومن خَلْفه ، فقال له رجـل : إنّ الله أعطـاك يا أمير المؤمنين ؛ فلو لبستَ ؛ فنـكّس مَلِيّا ثم رفع رأسه فقال : إنّ أفضل القصْد ما كان عند الجِدَة ، وأفضلُ العَفْو ما كان عند المَقْدرة .

وروى عاصمُ بن مَعدلة : كنت أرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فأعجب من حُسن لونه وجودة ثيابه وبزّته ، ثم دخلت عليه بعد أنْ وَلى ، وإذا هو قد احترق واسودّ ولَصِقَ جلدُه بعَظْمِـه ؛ حتى ليس بين الجلد والعظم لحم ، وإذا عليه قلنسُوَة بيضاء قداجتمع قطنُها ويعلم أنها قد غسلتْ ، وعليه سُحُق(١) أنبَجانيّة قد خرج سَدَاها ، وهو على شاذ كونة(٢) ؛ قد لَصِقت بالأرض تحت الشاذ كونة عباءةٌ قَطَوانيّة(٣) من مُشاقة الصوف ، وعنده رجل يتكلم ، فرفع صَوْته ، فقال له عمر : اخفِض قليلا من صوتِك ، فإنما يكفى الرجل من الكلام قدرُ ما يُسمِعُ صاحبَه .

وروى عبيد بنُ يعقوبَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز كان يَلبس الفَرْوَ الغليظ من الثياب ، وكان سِراجه على ثلاث قَصَبات فوقهنّ طِين .

---

(١) جمع سحق ؛ وهو الثوب البالى . (٢) الشاذ كونة : ثياب غلاظ تعمل باليمن .

(٣) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة .

(١٠٠)

الأصْلُ :

إنَّ الدُّنيَا وَالآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وَعَادَاهَا ، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا ، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الفصل بَيِّنٌ فى نفسِهِ لا يَحتاج إلى شَرح ، وذلك لأنّ عَمَل كلّ واحد من الدارين مُضادٌّ لِعَمَل الأخرى ، فَعَمَل هذه : الاكتساب ، والاضطراب[1] فى الرزق ، والاهتمام بأمر المعاش ، والولد والزوجة ، وما ناسَبَ ذلك . وعمل هذه : قَطْعُ العلائق ، ورفض الشهوات ، والانتصاب للعبادة ، وصَرْف الوجه عن كلّ ما يصدّ عن ذِكرِ الله تعالى ؛ ومعلومٌ أن هذينِ العَمَلين متضادّان ، فلا جَرَم كانت الدّنيا والآخرة ضرّتين لا يجتمعان !

---

(١) ا : « والضرب فى سبيل الرزق » .

(١٠١)

الأصل :

وَعَنْ نَوْفٍ الْبَكَّائِيِّ ـ وَقِيلَ الْبَكَالِيِّ بِاللَّامِ ؛ وَهُوَ الأَصح ـ قَالَ :

رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَام ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنظَرَ إِلَى النُّجُومِ ، فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ؟ قُلْتُ : بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ ! أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطاً ، وَتُرَابَهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طِيباً ، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا ، وَالدُّعَاء دِثَارًا ، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ . يَا نَوْفُ ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَقَالَ : إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّارًا ، أَوْ عَرِيفًا ، أَوْ شُرْطِيًّا ، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ ـ وَهِيَ الطُّنْبُورُ ـ أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ ، وَهِيَ الطَّبْلُ .

وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا : إِنَّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْلُ ، وَالْكُوبَةَ الطُّنْبُورُ .

***

الشرح :

قال صاحبُ الصّحاح : نَوْفُ البَكالِيّ كان صاحبَ عليّ عليه السلام .

وقال ثعلب : هو منسوبٌ إلى قبيلة تُدعَى بَكالة ، ولم يذكر من أيّ العرب هى ، والظاهر أنها من اليَمَن ، وأمّا بكيل فحيّ من هَمْدان ، وإليهم أشارَ الكُميت بقوله :

* فقد شركتْ فيه بكيلٌ وأرْحَبُ *(١)

---

(١) صدره : * يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تُرَاثُهُ *

فأمّا البَكالىّ فى نسب نوف فلا أعرفه .

قوله : أم رامق ، أى أم مستيقظٌ ترمُق السماء والنجومَ ببَصَرِك .

قوله : قرَضوا الدّنيا ، أى تركوها وخلّفوها وراءَ ظهورِهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾[1] أى تترُكهم وتُخلفهم شمالا ، ويقول الرجل لصاحبه : هل مررتَ بمكانِ كذا ، يقول : نعم قرَضْته ليلًا ذاتَ اليمين ، وأنشدَ لذى الرمّة :

إلى ظُعُنٍ يَقرِضْن أجوازَ مشرفٍ شمالا وعن أيمانهنّ الفوارسُ[2]

قالوا : مشرف والفوارس : موضعان ، يقول : نظرتُ إلى ظُعُن يَجُزْن بين هذين الموضعين .

---

(١) سورة الكهف ١٧ . (٢) الصحاح (قرض) .

(١٠٢)

الأصْـلُ :

إنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاء وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَانًا فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا .

***

الشَّـرْحُ :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[١] .

وجاء فى الأثر : أبهِموا ما أبهَمَ الله .

وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء : لِمَ تفرض مسائل لَمْ تَقَع وأتعبت فيها فكرَك ! حَسْبُك بالمتداوَل بين الناس .

قالوا : هذا مِثلُ قولِهم فى باب المَسْح على الخُفّين : فإنْ مَسَح على خفٍّ من زُجاج ؛ ونحو ذلك من النّوادر الغريبة .

وقال شريك فى أبى حنيفة : أجهَلُ الناسِ بما كان ، وأعلَمُهم بما لم يكن .

وقال عمر : لا تتنازعوا فيما لم يكن فتختلفوا ، فإنّ الأمر إذا كان أعان الله عليه ، وانتهاك الحُرْمة : تناوُلُها بما لا يَحِلّ ، إمّا بارتكاب ما نُهى عنه ، أو بالإخلال بما أُمر به .

---

(١) سورة المائدة ١٠١ .

(١٠٣)

الأصلُ :

لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ .

***

الشَّرحُ :

مثالُ ذلك إنسان يضيِّع وقتَ صلاةِ الفريضة عليه ، وهو مشتغِل بمحاسَبَةِ وَكيله ومخافتهِ على مالِه ، خوفاً أن يكون خانَه في شيء منه ، فهو يَحرِص على مناقَشَتِه عليه ، فتفوته الصّلاة .

قال عليه السلام : مَن فَعَلَ مِثلَ هذا فَتَحَ الله عليه في أمرِ دُنْياه ومالِه ما هو أضرّ عليه ممّا رام أن يَستدرِكَه بإهماله الفريضة .

(١٠٤)

الأصْـلُ :

رُبَّ عالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ ، وعِلْمُهُ مَعَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد وَقع مِثلُ هذا كثيرا ، كما جرَى لعبد الله بن المقفع ،وفضلُه مشهور ، وحِكمتُه أشهر من أن تذكر ، ولو لم يكن له إلا كتاب " اليتيمة " لكَفَى .

[محنة المقفع]

واجتمع ابنُ المقفَّع بالخليل بن أحمد ، وسمع كلّ منهما كلام الآخر ، فسئل الخليلُ عنه فقال : وجدتُ علمَه أكثر مِن عقله ؛ وهكذا كان ، فإنه كان مع حكمته متهوِّرا ، لا جرَمَ تهوُّره قتَله ! كتب كتابَ أمان لعبد الله بن عليّ عمّ المنصور ويوجد فيه خطّه ، فكان من جملته : ومَتى غدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله ، أو أبطن غير ما أظهر أو تأوّل فى شيء من شروط هذا الأمان فنساؤه طوالقُ ، ودوابّه حُبُس ، وعبيدُه وإماؤه أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بَيْعته . فاشتدّ ذلك على المنصور لمّا وقف عليه ، وسأل : مَن الذى كتَب له الأمان ؟ فقيل له : عبد الله بنُ المقفع كاتبُ عمّيك عيسى وسليمان ، ابنى عليّ بالبصرة ، فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سُفيان بن معاوية يأمره بقتْله .

وقيل : بل قال : أمَا أحدٌ يكفينى ابنَ المقفع ! فكتب أبو الخصيب بها إلى

سفيان بن معاوية المهلّبي أمير البصرة يومئذ ـ وكان سُفيان واجداً على ابن المقفّع لأنه كان يعبث به ويَضحَك منه دائما ، فغضِب سفيانُ يوما من كلامه ، وافترَى عليه ، فردّ ابن المقفّع عليه رَدّا فاحشا ، وقال له : يابن المُغتلِمة ! وكان يمتنع ويعتصم بعيسى وسليمان ابنَيْ علىّ بن عبد الله بن العباس ، فحقدها سُفيان عليه ـ فلما كوتب فى أمره بمـا كوتِب اعتزمَ قتله ، فاستأذن عليه جماعةٌ من أهل البصرة ، منهم ابن المقفع ، فأدخل ابن المقفع قبلهم ، وعدَل به إلى حجرة فى دِهليزه ، وجلس غلامُه بدابّته ينتظره عـلى باب سفيان ، فصادف ابنُ المقفع فى تلك الحجْرة سُفيان بن معاوية ، وعنده غلمانه وتنُّور نار يُسجر ، فقـال له سفيان : أتذكر يوم قلتَ لى كذا ! أمى مغتلِمةٌ إن لم أقتُلك قِتلة لم يُقتل بها أحد ؛ ثم قطع أعضاءه عُضوا عُضْوا ، وألقاها فى النار وهو ينظر إليها حتى أتَى على جميع جسده ، ثم أطبق التنوّر عليه، وخرج إلى الناس فـكلّمهم ، فلما خرجوا من عنده تخلّف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرُج ، فمضى وأخبرَ عيسى بن علىّ وأخاه سليمان بحاله ، فخاصما سفيان بن معاوية فى أمره ، فجحد دُخوله إليه ، فأشخَصاه إلى المنصور ، وقامت البينة العادلة أن ابنَ المقفع دخل دار سفيان حيا سليما ولم يخرج منها . فقال المنصور : أنا أنظر فى هذا الأمر إن شاء الله غداً ؛ فجاء سُفيان ليـلًا إلى المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، اتّق الله فى صَنيعتك ومتّبع أمرك ، قال : لا ترُع ، وأحضرَهم فى غـد ، وقامت الشهادة ، وطلب سليمان وعيسى القصاص ، فقال المنصور : أرأيتم إن قتلتُ سفيان بابن المقفع ، ثم خرج ابن المقفّع عليـكم من هذا الباب ـ وأومأ إلى باب خَلفه ـ من ينصّب لى نفسه حتى أقتله بسُفْيان ؟ فسكتوا ، واندفع الأمرُ ، وأضرَب عيسى وسليمانُ عن ذكر ابن المقفع بعدها ، وذَهب دمُه هدَرا .

قيل للأصمعىّ : أيمـا كان أعظم ذكاء وفِطنةً الخليلُ أم ابن المقفع ؟ فقال : كان ابن المقفع أفصح وأحكم ، والخليلُ آدب وأعقل ؛ ثم قال : شتانّ ما بين فِطْنة أفضَتْ بصاحبها إلى القتل ، وفطنة أفضَتْ بصاحبها إلى النُّسك والزهد فى الدنيا ! وكان الخليلُ قد نَسك قبل أن يموت .

(١٠٥)

الأصل :

لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هَذَا ٱلْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ ٱلْقَلْبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ ٱلرَّجَاءُ أَذَلَّهُ ٱلطَّمَعُ ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ ٱلطَّمَعُ أَهْلَكَهُ ٱلْحِرْصُ ، وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْيَأْسُ قَتَلَهُ ٱلْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ ٱلْغَضَبُ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ ٱلرِّضَا نَسِيَ ٱلتَّحَفُّظَ ، وَإِنْ غَالَهُ ٱلْخَوْفُ شَغَلَهُ ٱلْحَذَرُ ، وَإِنِ ٱتَّسَعَ لَهُ ٱلْأَمْرُ ٱسْتَلَبَتْهُ ٱلْغِرَّةُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ ٱلْجَزَعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ ٱلْغِنَى ، وَإِنْ عَضَّتْهُ ٱلْفَاقَةُ شَغَلَهُ ٱلْبَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ ٱلْجُوعُ قَعَدَتْ بِهِ ٱلضَّعَةُ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ ٱلشِّبَعُ كَظَّتْهُ ٱلْبِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

* * *

الشرح :

رُوِى : «قَعَدَ به الضّعف» . والنِّياط : عِرْق عُلِّق به القلب من الوَتين ، فإذا قُطِع مات صاحبُه ، ويقال له النّيط أيضا . والبَضْعَة بفتح الباء : القِطْعة من اللّحم ، والمراد بها ها هنا القلب ؛ وقال : يعتَوِر القلبَ حالاتٌ مختلفاتٌ متضادّات ، فبعضُها من الحِكْمة ، وبعضُها — وهو المضادّ لها — منافٍ للحكمة ، ولم يذكُرْها عليه السلام ، وليست الأمورُ الّتى عدّدها شرحا لِما قدّمه من هذا الكلام المُجمَل ، وإن ظَنّ قومٌ أنه أراد ذلك ، ألا تَرَى أنّ الأمورَ الّتى عدّدها ليس فيها شىءٌ من باب الحِكْمة وخلافِها !

فإن قلت : فما مِثالُ الحِكمة وخلافها ، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله ؟

قلت : كالشجاعة فى القلْب وضِدّها الجُبْن ، وكالجود وضدّه البُخْل ، وكالعفّة وضدّها الفُجُور ، ونحو ذلك .

فأمّا الأمور التى عدّدها عليه السلام فكلامٌ مستأنَف ، إنّما هو بيانُ أنّ كلّ شىء ممّا يتعلّق بالقلب يَلزَمه لازِمٌ آخر نحوُ الرّجاء ، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاؤه أذلّه الطمع ، والطّمع يَتْبع الرّجاء ، والفرْق بين الطمع والرّجاء أنّ الرّجاء توقُّع منفعَـة ممّن سبيلُه أن تَصدُر تلك المَنفعَة عنه ، والطمع توقُّعُ منفعَةٍ ممّن يُستبعَد وُقوعُ تلك المنفعة منه ؛ ثم قال : وإن هاج به الطمع قَتَله الحِرْص ، وذلك لأنّ الحِرْص يَتْبع الطّمع ، إذا لم يَعلَم الطامعُ أنّه طامع ، وإنّما يَظنُ أنّه راج .

ثم قال : وإن مَلَكه اليأس ، قَتَله الأسَف ، أكثرُ الناسِ إذا يَئِسوا أسِفوا .

ثم عدّد الأخلاقَ وغيرَها من الأمور الواردة فى الفصْل إلى آخره ، ثمّ خَتَمه بأن قال : «فكلُّ تقصيرٍ بهِ مُضِرّ ، وكلّ إفراط له مفسِد» ؛ وقدسَبَق كلامُنا فى العدَالة ، وإنها الدّرجة الوسطى بين طرَفين هما رَذِيلتان ، والعَدالة هى الفضيلة ، كالجود الذى يكتنفه التّبذير والإمساك ، والذّكاء الّذى يَكتنفه الغبَاوة . والجُرْبزة[1] ، والشجاعة الّتى يَكتنفِها الهوَج والجُبْن ، وشَرَحْنا ما قالَه الحكماء فى ذلك شرحا كافياً ، فلا معْنَى لإعادتِه .

---

(١) الجربزة : الخب والخديعة .

(١٠٦)

الأصلُ :

نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى الَّتِي يَلْحَقُ بِهَا التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي.

***

الشَّرْحُ :

النُّمرُق والنُّمرُقة بالضم فيهما : وِسادةٌ صغيرةٌ ، ويجوز النِّمرِقة بالكسر فيهما ؛ ويقال للطِّنْفسة فوقَ الرّحل نُمْرُقة . والمعنى أنّ كلّ فضيلة فإنّها مجنّحة بطرَفَين معدُودَين من الرّذائل كما أوضحناه آنِفا ، والمراد أنّ آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمرُ المتوسِّط بين الطّرفين المذمومين ، فكلُّ مَن جاوَزَهم فالواجبُ أن يَرجِع إليهم ، وكلّ من قصَّر عنهم فالواجبُ أن يَلحَق بهم .

فإن قلت : فلِمَ استعار لفظَ النّمرقة لهذا المعنى ؟

قلت : لمّا كانوا يقولون : قد رَكِب فلانٌ من الأمر مُنكَرا وقد ارتَكَبَ الرأيَ الفلانيّ ، وكانت الطِّنْفِسة فوق الرّحل ممّا يُركَب ، استعارَ لَفظَ النّمرقة لما يراه الإنسانُ مَذهَبا يَرجِع إليه ويكون كالرّاكب له ، والجالِس عليه ، والمتورِّك فوقَه .

ويجوز أيضاً أن تكون لفظة « الوُسْطَى » يراد بها الفُضْلى ؛ يقال : هذه هى الطريقةُ الوُسْطى ، والخليقةُ الوسطى ، أى الفضلى ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾(١) أى أفضلُهم ، ومنه : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾(٢) .

---

(١) سورة القلم ٢٨ . (٢) سورة البقرة ١٤٣ .

(١٠٧)

الأصْـلُ :

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ ، وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِـعُ الْمَطَامِعَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد سبق من كلام عمرَ شيء يُناسِب هذا إن لم يكن هو بعَينه ؛ والمُصانَعة : بَذْل الرِّشْوة . وفى المَثَل : مَن صَانَع بالمال ، لم يَحتشِم مِن طَلَب الحاجة .

فإن قلت : كان ينبغى أن يقول : « من لا يصانَع » بالفتح .

قلتُ : المُفاعَلة تَدلّ عَلَى كون الفعل بين الاثنين كالمُضارَبة والمُقاتَلة .

ويضارع : يتعرّض لطَلَب الحاجَة ؛ ويجوز أن يكون من الضّراعة وهى الخُضوع أى يخضعُ لزَيدٍ ليَخضَع زيدٌ له ؛ ويجوز أن يكون من المضارَعة بمعنى المشابَهة ، أى لا يتشبّه بأئمّة الحقّ أو وُلاة الحقّ ، وليس منهم .

وأمّا اتباع المَطامِع فمعروف .

(١٠٨)

الأَصْـلُ :

وقال عليه السلام ، وَقد تُوُفِّيَ سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ الْأَنصاريُّ بالْكوفَةِ بَعْدَ مَرْجعِهِ مِنْ صِفِّينَ مَعَه ، وَكَانَ مِن أَحَبِّ النَّاس إليه :

لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتهافَتَ .

قال الرَّضيُّ رحمه الله تعالى :

وَمَعْنى ذَلِك أَنَّ الْمِحْنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ ، فَتُسْرِعُ الْمَصَائِبُ إِلَيْهِ ، وَلَا يُفعَلُ ذَلِكَ إلّا بِالْأَتْقِيَاء الْأَبْرَارِ ، الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ . وَهَـذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عليهِ السَّلامُ : « مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلفَقْرِ جِلْبَابًا » وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذَلِكَ عَلَى مَعْنًى آخَرَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد ثبت أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال له : « لا يُحبّك إلّا مؤمن ؛ ولا يبغضك إلّا منافق » .

وقد ثبَتَ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ البَلوَى أسرَعُ إلى المؤمن من الماء إلى الحدُور » .

وفى حَديثٍ آخَر : « المؤمنُ مُلقًّى ، والكافرُ مُوَقًّى » .

وفى حديثٍ آخر : « خيرُكم عند الله أعظمُكم مصائبَ فى نفسِه ومالِه وولدِه » .

وهاتان المقدّمتان يَلزَمهما نتيجة صادقة ، وهى أنه عليه السلام لو أحبّه جبلٌ لتهافَت .

ولعلّ هذا هو مرادُ الرضيّ بقوله : « وقد يؤوّل ذلك على معنًى آخَر ليس هذا موضع ذِكره » .

(١٠٩)

الأصْلُ :

لا مالَ أعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةَ أوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ، ولا عَقْلَ كالتَّدْبِيرِ ، ولا كَرَمَ كالتَّقْوَى ، ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، ولا مِيرَاثَ كالأدَبِ ، ولا قائِدَ كالتَّوفِيقِ ، ولا تِجارَةَ كالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، ولا رِبْحَ كالثَّوَابِ ، ولا وَرَعَ كالوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، ولا زُهْدَ كالزُّهْدِ فى الحَرَامِ ، ولا عِلْمَ كالتَّفَكُّرِ ، ولا عِبادَةَ كأداءِ الفَرائِضِ .

ولا إيمانَ كالحياءِ والصَّبْرِ ، ولا حَسَبَ كالتَّوَاضُعِ ، ولا شَرَفَ كالعِلْمِ ، ولا عِزَّ كالحِلْمِ ، ولا مُظاهَرَةَ أوْثَقُ مِنَ المُشاوَرَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى جميع هذه الحِكَم .

أما المال فإنّ العقل أعوَدُ منه ، لأن الأحمق ذا المال طالما ذهب مالُه بحمقه ، فعادَ أحمقَ فقيرا ، والعاقل الذى لا مال له طالما اكتسب المال بعقله ، وبقى عقلُه عليه .

وأما العُجْب فيوجب المَقْت ، ومن مُقِت أُفرد عن المخالطة واستُوحِش منه ، ولا رَيْب أن التدبير هو أفضلُ العقل ، لأنّ العيش كله فى التدبير .

وأما التقوى فقد قال الله : ﴿ إنّ أكرمَكُمْ عندَ الله أتْقاكُمْ ﴾ (١) .

(١) سورة الحجرات ١٣ .

وأما الأدب فقالت الحكماء : ما ورّثت الآباء أبناءها كالأدب .

وأما التوفيق فمن لم يكن قائده ضلّ .

وأما العمل الصالح ، فإنه أشرفُ التجارات ، فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١) .

ثم عدّ الأعمال الصالحة .

وأما الثواب فهو الربح الحقيق ، وأما ربح الدنيا فشبيهٌ بحلم النائم .

وأما الوقوف عند الشُّبُهات فهو حقيقةُ الوَرَع ، ولا رَيْب أنّ مَن يَزْهد فى الحرام أفضل ممن يزهد فى المباحات ، كالمآكل اللذيذة ، والملابس الناعمة ، وقد وَصَف الله تعالى أرباب التفكّر فقال : ﴿ ويتفكّرُونَ فى خَلْقِ السَّموات والأرْض ﴾(٢) . وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ولا ريبَ أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل . والحياء مخّ الإيمان ، وكذلك الصبر والتواضُع مَصْيدة الشرف ، وذلك هو الحسب ، وأشرف الأشياء العلم ، لأنه خاصّة الإنسان ، وبه يَقع الفضل بينه وبين سائر الحيوان .

والمشورة من الحَزْم فإنّ عقل غيرك تستضيفهُ إلى عقلك . ومن كلام بعض الحكماء : إذا استشارَكَ عدوُّك فى الأمر فامحَضْه النصيحة فى الرأى ، فإنه إنْ عمل برأيك وانتفع نَدِم على إفراطه فى مُناوأتك ، وأفضَتْ عداوتهُ إلى المودّة ، وإن خالفَك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنُصْحه ، وبَلَغْت مُناك فى مَكروهه .

---

(١) سورة الصف ١٠ . (٢) سورة آل عمران ١٩١ .

(١١٠)

الأصْـلُ :

إذَا اسْتَولَى الصَّلَاحُ على الزَّمان وأهْلِهِ ثُمَّ أساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُل لَمْ تَظْـهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ ، فَقَدْ ظَلَمَ ، وإذا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ على الزَّمانِ وأهْلِهِ ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُل فَقَدْ غَرَّرَ .

***

الشَّـرْحُ :

يريد أنه يتعيّن على العاقل سوء الظنّ حيث الزمان فاسد ، ولا ينبغى له سوء الظنّ حيثُ الزمان صالح ، وقد جاء فى الخبر المرفوع النهى عن أن يظنَّ المسلم بالمسلم ظَنَّ السوْء ، وذلك محمولٌ على المسلم الذى لم تظهر منه حَوْبة ، كما أشار إليه علىٌّ عليه السلام ؛ والحوْبة : المعصية ، والخبر هو ما رواه جابر قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال : « مرحباً بكِ من بيتٍ ! ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك ! والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل ؛ لأن الله حرّم منك واحدة ، ومن المؤمن ثلاثة : دمَه وماله وأن يظن به ظنّ السوء » .

ومن كلام عمر ؛ ضَعْ أمر أخيك على أحْسَنِه حتى يجىء ما يغلبك منه ، ولا تَظُنَنّ بكلمة خرجتْ من فى أخيك المسلم سوءا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرَّض نفسه للتّهم فلا يلومَنّ من أساءَ به الظنّ .

شاعر :

أساتُ إذْ أحسنتُ ظنّى بكمْ   والحزمُ سوءُ الظّنّ بالنـاسِ

قيل لعالِم : من أسوأُ الناس حالًا ؟ قال : من لا يثق بأحدٍ لسوء ظَنّه ، ولا يثق به أحد لسُوء فعله .

شاعر :

وقد كان حُسْنُ الظّنّ بعضَ مَذَاهِبِي   فأدّبنى هـــذا الزمانُ وأهلُهُ

قيل لصوفىّ : ما صناعتك ؟ قال : حُسنُ الظنّ بالله ، وسوء الظنّ بالنــاس . وكان يقال : ما أحسنَ حُسن الظنّ إلّا أنّ فيه العجز ، وما أقبح سوء الظن إلّا أن فيهِ الحزْم .

ابن المعتزّ :

تَفَقّدْ مَساقِطَ لَحْظِ المُرِيبِ   فإنّ العيونَ وجوهُ القلوبِ[1]
وطالِعْ بَوَادِرَه فى الـكلام   فإنّك تجنِى ثمارَ العُيوبِ

(١) ديوانه .

(١١١)

الأَصْلُ :

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قَوْلِ عَبَدَة بن الطّبيب :

أَرَى بَصرِى قد رَابَنِي بعد صحّةٍ   وحَسْبُكَ داءٌ أن تَصِحّ وتسلَمَا
ولن يَلبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ   إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تيمّما

وقال آخَر :

كانت قَناتِي لا تَلينُ لِغامزٍ   فألانَهـا الإصْبـاحُ والإمْساءُ
ودعوتُ ربّي بالسلامةِ جاهدًا   ليُصِحّني فإذا السّـلامةُ داءُ

(١١٢)

الأصْـلُ :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ.

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الاستدراج والإملاء.

فأمّا القولُ فى فِتنة الإنسان بحُسْن القولِ فيه فقد ذَكَرْنا أيضا طَرَفا صالحا يتعلّق بها.

وقال رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله لرجلٍ مَدَح رجلا وقد مَرّ بمجلس رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فلم يسمع، ولـكن قال: «وَيْحَكَ لـكدتَ تَضرِب عنقَه، لو سَمِعها لما أفلح».

(١١٣)

الأصْلُ :

هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ : مُحِبٌّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى مِثل هذا ، وقد قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « والله لولا أنّى أُشفِق أن تقولَ طوائفُ من أمّتى فيكَ ما قالت النصارى فى ابنِ مريم ، لقلتُ فيك اليومَ مقالا لا تمرّ بأحدٍ من الناس إلا أخذوا الترابَ من تحتِ قدَميك للبركة » .

ومع كَونِه صلّى الله عليه وآله لم يَقل فيه ذلك المَقالَ فقد غلَت فيه غُلاةٌ كثيرةُ العَدَد منتشِرة فى الدنيا ، يعتقِدون فيه ما يَعتقِد النصارى فى ابن مريم ، وأشنَع من ذلك الاعتقاد .

فأمّا المُبغِض القالى فقد رأينا مَنْ يبغضه ، ولكن ما رأينا من يَلعَنه ويصرّح بالبراءة منه ، ويقال : إنّ فى عُمَان وما والاها من صُحار وما يَجرِى مَجرَاها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارجُ تعتقِده فيه ، وأنا أبرأ[1] إلى الله منهما .

---

(١) ا : « ونحن نبرأ » .

(١١٤)

الأصل :

إِضَاعَةُ الفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

* * *

الشرح :

فِي المَثَل : انتهزوا الفُرَص ، فإنّها تمرّ مَرّ السّحاب .

وقال الشاعر :

وإن أمكنتْ فرصةٌ في العدوّ فلا يَكُ همُّك إلّا بِها
فإن تَكُ لم تأتِ مِن بابِها أتاكَ عدوُّك من بابِها
وإيّاكَ مِن ندَمٍ بعدَها وتأميل أخرى ، وأنّى بها ..؟

(١١٥)

الأصْـلُ :

مَثَلُ الدُّنيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا ، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا ؛ يَهْوِى إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللُّبِّ الْعَاقِلُ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الدنيا مِرارا ، وقد أخَذ أبو العَتاهِيَة هذا المعنى فقال :

إنّما الدهرُ أرقمٌ لَيِّنُ المَسِّ وفى نابِه السِّقامُ العُقامُ

(١١٦)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام : وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ :

أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ ، تُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ . وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْياً ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ .

* * *

الشَّرْحُ :

[فصل فى نسب بنى مخزوم وطرَف من أخبارهم]

قد تقدّم القولُ فى مُفاخَرة هاشم وعبدِ شمس ، فأمّا بنو مخزوم فإنّهم بعد هذين البيتين أفخرُ قُرَيش وأعظمُها شرفا .

قال شيخنا أبو عثمانَ : حظيتْ مخزومُ بالأشْعار ، فانتشر لهم صيتٌ عظيم بها ، واتّفق لهم فيها ما لم يتّفقْ لأحد ، وذلك أنّه يُضرَب بهم المثل فى العِزّ والمَنَعة والجود والشّرف وأوضَعُوا فى كلّ غاية ، فمن ذلك قول سيحان الجسرى حليف بنى أميّة فى كلمةٍ له :

* وحين يناغى الرّكبُ موت هشام *

فدلّ ذلك على أنّ ما تقوله مخزوم فى التـاريخ حق ، وذلك أنّهم قالوا : كانت قريش وكنانة ومن والاهم من النّاس يؤرّخون بثلاثة أشياء : كانوا يقولون : كان ذلك زمنَ

مَبنَى الكعبة ، وكان ذلك من مجيء الفِيل ، وكان ذلك عامَ ماتَ هشامُ بنُ المغيرة . كما كانت العرب تؤرِّخ فتقول : كان ذلك زَمَن الفِطْحِل ، وكان ذلكَ زَمَن الحَيّــان ، وكان ذلك زَمَن الحِجارة ، وكان ذلك عامَ الحجّاف ، والرُّواة تجعل ضرب المَثَل من أعظم المَفاخر ، وأظهرِ الدلائل . والشِّعر ـ كما علمت ـ كما يرفع يضَع ، كما رَفَع من بــنى أنْف الناقة قول الحطَيْئة :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهُم ومن يسوِّى بأنفِ الناقةِ الذَّنَبَا ؟

وكما وَضَع من بنى نُمَيرٍ قولُ جَرير :

فغُضَّ الطَّرفَ إنّك من نُمَيرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلاَبَا

فلقيتْ نُمَير من هذا البيت ما لقيتْ .

وجعلهم الشاعر مَثَلا فيمن وَضَعه الهجاء ، وهو يَهْجو قوما من العرب :

وسوف يَزيدُكُمْ ضَعَةً هِجائى كما وَضَع الهجاء بنى نُمَيرِ

ونُمَيْر قَبيلٌ شريف ، وقد ثُلِمَ فى شرفِهم هذا البيت .

وقال ابنُ غزالة الكِندىّ ؛ وهو يَمدَح بنى شَيْبـان ولم يكن فى موضع رَغْبة إلى بنى مخزوم ، ولا فى موضع رَهْبة :

كأنّى إذ حطَطتُ الرحلَ فيهمْ بمكّةَ حين حَلَّ بها هشـامُ

فضَرَب بهشام المَثَل .

وقال رجلٌ من بنى حزْم أحد بنى سَلْمى ، وهو يَمدَح حربَ بنَ معاوية الخفاجىّ وخفاجة من بنى عُقَيل :

إلى حَزْن الحُزونِ سَمتْ رِكابى بوابل خلفها عَسَلانُ جَيْشِ

فلمّا أن أنختُ إلى ذُراهُ أمِنتُ فَراشَتِي منه بريشِ
توسّط بيتُــه فى آلِ كعبٍ كبيتِ بنى مغيرة فى قُرَيش

فضَرَب المَثَل ببيتهم فى قريش .

وقال عبد الرحمن بن حسّانَ لعبد الرحمن بن الحَكَم :

مارَستُ أكيَسَ من بنى قَحْطانِ صعبَ الــذّرا متمنّعَ الأركانِ
إنّى طمعتُ بفخرٍ من لو رامَــه آلُ المُغـيرة أو بنو ذَكْوانِ
لمـــلأتها خيلًا تضبّ لثاتُها مثـــل الدَّبَا وكواسِرِ العِقْبانِ
منهمْ هِشامٌ والوَليد وعِــدْلهم وأبو أميّــةَ مَفزَعَ الرُّكْبان

فضرب المثل بآل المغيرة .

وأمّا بنو ذَكْوان فبنو بَدْر بن عمرو بن حويّة بن ذَكْوان أحد بنى عدىّ بن فَزَارة منهم حُذَيفة وحَمَل ورهْطهما ، وقال مالكُ بن نُوَيْرة :

ألم يَنْه عنّا فخر بــكرِ بنِ وائلٍ هَزِيمَتهم فى كلّ يــومِ لِزامِ
فمِنهنّ يومُ الشرّ أو يومُ مَنعِجٍ وبالجِزْعِ إذ قسّمن حىّ عِصامِ
أحاديثُ شاعتْ فى مَعَدٍّ وغيرِها وخـــبَّرها الرُكبانُ حَىّ هِشامِ

فجعل قريشا كلَّــها حيًّا لهشام :

وقال عبد الله بن ثور الخفاجىّ :

وأصبحَ بطنُ مَــكّة مقشعِرًّا كأنّ الأرضَ ليس بها هِشامُ(١)

وهذا مَثل وفوق المثل .

قالوا : وقال الخروف الــكلبىّ ــ وقد مرّ به ناس من تجّار قريش يريدون الشام بادين

(١) الــكامل للمــبرد ٢ : ١٤٢ من غير نسبة : قال فى شرحه : « يقول : هو وإن كان مات فهو مدفون فى الأرض ؛ فقد كان يجب من أجله ألا ينالها جدب » .

قشفين ـ : مالكم معاشرَ قريش هكذا أجدَبْتم أم ماتَ هشام ، فجعل موت هشام بإزاء الجدب والمحل ، وفى هذا المعنى قال مُسافرُ بنُ أبى عمرو :

تقول لنا الرُّكبانُ فى كلّ مَنزِلٍ : أماتَ هشامٌ أم أصابَكُمُ جَدْبُ ؟

فجعل موتَ هشام وفَقْدَ الغَيث سواء .

وقال عبدُ الله بنُ سلَمة بن قشير :

دَعِينى أصطبحْ يابَكْرُ إنِّى رأيتُ الموتَ نَقَّبَ عنْ هشامِ (١)

وقال أبو الطَّمَحان القينيّ ـ أو أخوه :

وكانت قريشٌ لا تخون حريمَها من الخوفِ حتى ناهضتْ بهشامِ

وقال أبو بكر بن شعوب لقومه كنانة :

يا قومَنا لا تهلكوا إخفاتَا إنْ هشامَ القرشيّ ماتَا

وقال خِداشُ بنُ زهير :

وقد كنتُ نجّاءً لهمْ ثمّ كفكفوا نوافذَ قوْلى بالهمامِ هِشامِ

وقال عليّ بن هَرْمة ؛ عمّ إبراهيم بن هَرْمة :

ومن يرتَبِى مدحِى فإنّ مدائحى نَوافِقُ عند الأكرَمين سَوامِ
نَوافِقُ عندالمشترِى الحمدِ بالنَّدى نَفاقَ بناتِ الحارثِ بنِ هشامِ

وقال الشاعر وهو يهجو رجلا :

أحَسِبْتَ أنّ أباكَ يوم تَسُبّنِى فى المجد كان الحارثَ بنَ هِشامِ
أولَى قريشٍ بالمكارِمِ كلِّها فى الجاهليّة كان والإسلامِ

---

(١) الكامل ٢ : ١٤٣ من غير نسبة ؛ ونقب ، أي طوف حتى أصاب هشاماً . وانظر نسب قريش ٣٠١

وقال الأسود بنُ يعفُر النَّهشَلى :

إنَّ الأكارمَ من قريش كلِّها شهدوا فرامُوا الأمرَ كلَّ مرامِ
حتى إذا كَثُر التجادُل بينهمْ حزَم الأمورَ الحارثُ بن هِشامِ

وقال ثابت قطنة ـ أو كعب الأشقرىّ لمحمد بن الأشعث بن قيس :

أتوعِدنى بالأشْعَثِىِّ ومالِكٍ وتَفخر جَهْلًا بالوَسيط الطُّماطِمِ !
كأنك بالبَطحاء تذمُر حارِثاً وخالد سيف الدِّين بين الملاحِمِ

وقال الخزاعىّ فى كلمته التى يذكُر فيها أبا أُحَيْحة :

له سُرَّة البَطْحاء والعدّ والثرى ولا كهِشامِ الخير والقلب مردِفُ

وسأل معاويةُ صعصعة بن صُوحان العبدىّ عن قبائل قريش ، فقال : إن قلنا : غضبتم، وإن سكَتْنا غضِبتم ، فقال : أقسمتُ عليك ، قال : فيمن يقولُ شاعرُكم :

وعَشْرَةٍ كلّهمْ سيّدٌ آباء ساداتٍ وأبناؤها
إن يُسألوا يُعطُوا وإن يُمدموا يبيَضّ من مكة بَطْحاؤها

وقال عبد الرحمن بن سَيْحان الجَسْرىّ حليف بنى أميّة وهو يهجو عبد الله بن مطيع من بنى عدىّ :

حرامٌ كِنّتى مِنّى بسَوْء وأذكر صاحبِى أبدا بذامِ(١)
لقد أصرمتُ ودَّ بنى مُطيعٍ حرام الدهر للرجل الحرامِ
وَإن خيفَ الزمانُ مددتُ حَبْلًا متينا من حِبال بنى هِشامِ
وَريقٌ عُودُهم أبدا رطيبٌ إذا ما اهتزّ عيدانُ الكرامِ

---

(١) الأغانى ٢ : ٢٥٥ مع اختلاف فى الرواية .

وقال أبو طالب بنُ عبد المطلب وهو يَفخَر بخاليه : هشام والوليد على أبى سُفيان ابن حرب(١) :

وخالى هشامُ بنُ المغيرة ثاقبٌ إذا همَّ يوما كالحسام المهنَّدِ
وخالى الوليدُ العدْلُ عالٍ مكانهُ وخالُ أبى سفيان عمْرُو بنُ مرْثَدِ

وقال ابن الزِّبَعْرَى فيهم :

لهم مشيةٌ ليستْ تَليقُ بغيرهمْ إذا اخْدَودَب المثرون فى السَّنَة الجدْب

وقال شاعر من بنى هَوازِن ، أحد بنى أنف الناقة حين سَقَى إبله عبد الله بن أبى أمية المخزومى بعد أن منَعه الزِّبرقان بن بدر :

أتدرى من منعت سِيالَ حوضٍ سليل خَضارمٍ منعوا البِطاحا
أزادَ الركب تمنع أم هشاماً وذا الرُّمحين أمنعهمْ سِلاحا
همُ منَعوا الأباطح دون فِهرٍ ومن بالخَيْف والبلد الكفاحا
بضربٍ دونَ بيضهمُ طِلَخْفٍ(٢) إذا الملهوف لاذ بهم وَصاحا
وما تدرِى بأيِّهمُ تُلاقى صدورَ المشْرَفيّة والرِّماحا

فقال عبد الله ابن أبى أميّة مجيبا له :

لَعَمْرِى لأنت المرء يحسُن باديًا وتَحسُن عودا شيمةً وتَصنُّعا
عرفتَ لقوم مجدَهم وقديمَهُمْ وكنت لما أسديت أهلاً وموضعا

قالوا : وكان الوليدُ بن المغيرة يجلس بذى المجاز فيحكم بين العرب أيّام عُكاظ وقد كان رجل من بنى عامر بن لؤىّ رافق رجلًا من بنى عبد مناف بن قصىّ ، فجرى بينهما كلام فى حبل ، فعلاهُ بالعصا حتى قتله ، فكاد دمه يُطَلّ ، فقام دونه أبو طالب

(١) ديوانه ٧٦ . (٢) الطلخف : الضرب الشديد .

ابن عبد المطلب وقدّمه إلى الوليد ، فاستَحْلَفه خمسين يمينا أنه ما قتله ، ففي ذلك يقول أبو طالب :

أَمِنْ أجل حَبل ٍ ذي رِمام ٍ علوتَه ‏ ‏ بمِنْسَأةٍ قد جاء حبلٌ وأحبُلُ[1]
هلمّ إلى حُكْم ابن صخرةَ إنّه ‏ ‏ سيحكم فيما بيننا ثمّ يعدِلُ

وقال أبو طالب أيضا فى كلمة له :

وحُكْمك يُبقى الخير إنْ عزّ أمرُه ‏ ‏ تَخمَّطَ واستَعْلى على الأضعف الفرْدِ

وقال أبو طالب أيضا يرثى أبا أميّة زاد الركب وهو خالُه :

كأنّ على رَضْرَاضِ قَضٍّ وجَنْدلٍ ‏ ‏ من اليبس أو تحتَ الفراشِ المجامر[2]
على خير حافٍ من مَعَدّ وناعِلٍ ‏ ‏ إذا الخيرُ يُرجى أو إذا الشرّ حاضرُ
أَلَا إنَّ زادَ الركبِ غيرُ مدافعٍ ‏ ‏ بِسَرْوِ سُحَيْمٍ غيَّبَته المقابرُ
تنادَوا بأن لا سيّد اليومَ فيهم ‏ ‏ وقد فُجع الحيّان كعبٌ وعامرُ
وكان إذا يأتى من الشام قافِلًا ‏ ‏ تَقدّمَه قبل الدنُوّ البشائرُ
فيصبح آل الله بيضاً ثيابُهم[3][4] ‏ ‏ وقدْماً حَبَاهُمْ والعيون كَواسرُ
أخو جَفْنةٍ لا تَبرحُ الدهر عندنا ‏ ‏ مُجَعْجِعة تَدْمَى وشاءٌ وباقِرُ
ضَرُوبٌ بنصْل السيفِ سوقَ سمانها ‏ ‏ إذا أرسلوا يوماً فإنك عاقِرُ
فيالَكَ من راعٍ رُميت بآلَة ‏ ‏ شراعيةٍ تَخضرّ منه الأظافرُ

وقال أبو طالب أيضا يرثى خاله هشام بن المغيرة :

---

(١) ديوانه ١٤٢ . (٢) ديوانه ٧٧ .
وكان ختنه فخرج تاجرا إلى الشام فمات بموضع يقال له سرد سحيم .
(٣) الديوان : « كأنما » .
(٤) الديوان : « كستهم حبيرا ريدة ومعافر » .

فقدْنا عميدَ الحيّ والركن خاشعٌ ... كفقْد أبي عُثمان والبيتُ والحِجْرِ (١)
وكان هشامُ بن المغيرة عِصمةً ... إذا عرَكَ الناسَ المخاوفُ والفقْرُ
بأبياته كانت أراملُ قومِه ... تلوذُ وأيتامُ العَشيرة والسَّفْرُ
فودّتْ قريشٌ لو فدَتْه بشَطْرها ... وقلَّ لعَمرى لو فدَوْه له الشَّطْرُ
تقول لعَمرٍو أنتَ منه وإنّنا ... لَنرجوك في جُلّ المُلمّات يا عَمرو

عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام، وأبو عثمان هو هشام .

وقالت ضُباعةُ بنتُ عامر بنِ سلمة بن قرط ترثيه :

إنّ أبا عثمانَ لم أنسَهُ ... وإنّ صَبْرا عن بُكاه لَحُوبْ
تَفاقَدوا من معشرٍ ما لَهمْ ... أىّ ذَنوبٍ صُوِّبوا في القَليبْ

وقال حَسّان بنُ ثابت وهو يهجو أبا جَهْل، وكان يُكنَى أبا الحَكَم :

النـاسُ كَنَوْه أبا حَكَمٍ ... واللهُ كَنّاه أبا جَهْلِ (٢)
أبقتْ رِياستُه لأسْرَتِه ... لؤمَ الفرُوع ودِقّةَ الأصل (٣)

فاعترف له بالرياسة والتقدّم .

وقال أبو عُبَيد مَعمَر بنُ المثنّى : لمّا تَنافرَ عامرُ بن الطُّفيل وعَلْقمةُ بنُ عُلاثة إلى هَرِم بن قُطْبة وتَوارَى عنهما، أرسَل إليهما : عليكما بالفتى الحديث السّنّ، الحديدِ الذِّهن ؛ فصارا إلى أبي جَهْل، فقال له ابنُ الزِّبَعْرَى :

فلا تَحكُمْ فِداكَ أبي وخَالِي ... وكن كالمرء حاكِمِ آلِ عَمْرِو

---

(١) ديوانه ٨٠ .

(٢) ديوانه ٣٤٤، وروايته :

سمّاهُ معشرُه أبا حكمٍ ... واللهُ سمّاهُ أبا جَهْلِ

(٣) الديوان :

أبقَتْ رياستُهُ لمعشرِهِ ... غضبَ الإلـه وذِلّةَ الأصلِ

أَبَى أن يَحكُم ، فرَجَعا إلى هَرِم .

وقال عبدُ الله بنُ ثَور :

هَرِيقَا من دُموعِكُما سِجاماَ ضُباعُ وجارِى نَوْحاً قِياماَ
فمَن للرَّكْب إذ جاءوا طُروقاً وغُلِّقَتِ البيوتُ فلا هِشاما

وقال أيضا فى كلمةٍ له :

وما ولَدت نساءُ بنى نِزارٍ ولا رَشَّحْنَ أكرمَ مِنْ هِشامِ
هشامِ بن المُغيرةِ خيرِ فِهْرٍ وأفضلِ من سقى صَوْبَ الغَمامِ

وقال عُمارةُ بنُ أبى طَرَفةَ الهُذَلىّ ، سمعتُ ابنَ جُرَيج يقول فى كلام له : هَلَكَ سيّد البَطْحاء بالرُّعاف ؛ قلت : ومن سيّد البَطْحاء ؟ قال : هشامُ بنُ المغيرة .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : «لو دخل أحدٌ من مُشرِكى قريشٍ الجَنّة لدَخَلها هشامُ ابنُ المغيرة ، كان أبذَلَهم للمعروف ، وأحمَلَهم للكَلّ» .

وقال عُمرُ بنُ الخطّاب ، لا قليلٌ فى الله ، ولا كثيرٌ فى غير الله . ولو بالخُلق الجَزْل والفَعال الدَّثْر ، تُنال المَثوبة لَنالَها هشامُ بنُ المغيرة ، ولكن بتوحيد الله ، والجهاد فى سبيله .

وقال خِداشُ بنُ زُهَير فى يوم شَمْطة(١) ، وهو أحدُ أيّام الفِجار ، وهو عدوّ قريش وخَصْمُها :

وبَلِّغْ إن بَلَغْتَ بنا هِشاماَ وذا الرُّمحين بلِّغ والوَليدا(٢)
أولئك إن يكنْ فى الناس جُودٌ فإنّ لديهمُ حَسَباً وَجودا
همُ خيرُ المَعاشِرِ من قريشٍ وأوْراها إذا قَدَحوا زُنودَا

---

(١) لقيس على كنانة وقريش . وشمطة : موضع قريب من عكاظ .
(٢) أيام العرب فى الجاهلية ٣٣٢ .

وقال أيضا وذَكَرَهما فى تلك الحروب :

يا شَدَّةً ما شَدَدْنـا غـيرَ كاذبةٍ على سَخِينةَ لولا الّليلُ والحَرَمُ[1]
إذَا ثَقِفْنـا هِشـاماً بالوَلِيد ولو أنّا ثقفنا هِشاما شالَت الجذَمُ

وذكَرَهم ابنُ الزِّبَعْرَى فى تلك الحروب فقال :

الا للهِ قومٌ وَ لدتْ أختُ بَنِى سَهْمِ[2]
هِشامٌ وأبو عبـدِ منافٍ مِدْرَه الخَصْمِ
وذو الرمحين أشباك من القوّة والحَزْمِ[3]
فهذانِ يَذُودانِ وذا عَنْ كَثَبٍ يَرْمِى
وهمْ يومَ عُـكاظٍ مَنَعُـوا الناسَ من الهَزْمِ
بجأواء طَحُـونٍ فَخْـمةِ القَوْنَسِ كالنَّجْمِ
أُسـودٌ تَزدَهِى الأقوا نَ مَنّاعُـون للهَضْمِ[4]
فإنْ أحلِفْ وبيتِ اللّـهِ لا أحلِفْ على إثمِ
وما من إخـوةٍ بين دروبِ الشـامِ والرّدْمِ
بأزكى من بـنى رَيْطةَ أو أرْزَنَ من حِلمِ

رَيْطة ، هى أمّ وَلَد المغيرة ، وهى رَيْطة بنتُ سعيـد بن سَهْم بن عَمْرو بن هصيص ابن كَعْب ، وأبو عبد مناف هو أبو أُميّة بن المُغيرة ، ويُعرَف بزاد الرَّكْب ، واسمُه حُذَيفة ، وإنّما قيل له : زادُ الرَّكْب لأنّه كان إذا خرج مسافرا لم يتزوّدْ معه أحـدٌ ، وكانت

---

(١) الأغانى ١٩ : ٧٦ ؛ من أبيات أربعة ، والثانى فى نسب قريش ٣٠٠ مع اختلاف فى الروايات .
(٢) الأغانى ١ : ٦٢ ، الأمالى ٣ : ١٩٦ ، ١٩٧ (طبعة دار الكتب) .
(٣) فى الأصول : « أشبال » ، صوابه من الأمالى ٢ : ٢٠٨ . قال ، يقال : أشباك بفلان ؛ كما يقال حسبك بفلان ؛ وأنشد البيت .
(٤) الأغانى : « منعوا الناس من الهزم » .

عندَه عاتكةُ بنتُ عبدِ المطّلب بنِ هشام ، وأمّا ذو الرُّمحين فهو أبو ربيعةَ بن المغيرة واسمُه عمرو ، وكان المُغيرةُ يُكنَى بأمّ ابنِه الأكبر ، وهو هاشم ، ولم يُعقِب إلّا مِن حَنتمةَ ابنته ، وهي أمّ عُمرَ بنِ الخطّاب .

وقال ابنُ الزِّبَعْرَى يمدح أبا جهل :

رُبَّ نديمٍ ماجدِ الأصلِ ⁂ مهذّبِ الأعراق والنَّجلِ
منهمْ أبو عبدِ منافٍ وكمْ ⁂ سربت بالضّخْم على العَدْلِ
عمرو النّدى ذاكَ وأشياعهُ ⁂ ما شئتَ مِن قولٍ ومِن فِعلِ

وقال الوَرْد بن خلاس السَّهْمِيّ : سهم باهلةَ يمدح الوليد :

إذا كنت فى حيٍّ جَذِيمةَ ثاوِياً ⁂ فعندَ عظيمِ القَرْيَتين وليدُ
فذاكَ وحيدُ الرّأى مشتركُ النّدَى ⁂ وعِصْمةُ مَلْهوف الجَنانِ عَميدُ

وقال أيضا :

إنّ الوَليدَين والأبناء ضاحيةً ⁂ ربّا تِهامةَ فى المَيْسور والعُسْرِ
همُ الغِياثُ وبعضُ القومِ قِرْقِمةٌ ⁂ عِزّ الذّليل وغيظُ الحاسدِ الوَغِرِ

وقال :

ورهْطُكَ يابنَ الغَيْثِ أكرمُ محتِدٍ ⁂ وأمنَع للجارِ اللّهيفِ المُهضَّمِ

قالوا : الغيثُ لقَبُ المُغيرة ، وجعلَ الوليدَ وأخاه هِشاما رَبَّيْ تِهامةَ كما قال لَبيدُ بنُ ربيعة فى حُذَيفة بن بَدْر :

وَأَهْلَكْنَ يوماً ربَّ كِنْدةَ وابْنَه ⁂ وربَّ معدٍّ بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ (١)

فجعله رَبَّ مَعَدّ .

***

(١) ديوانه ٥٥

قالوا : يدلّ على قَدْر مخزوم ما رأينا من تعظيم القرآن لشأنهم دونَ غيرهم من سائرِ قريش ، قال الله تعالى مُخبِرا عن العرب : إنّهم قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(١) فأحدُ الرّجلين العظيمين بلا شكّ الوليدُ بنُ المُغيرة ، والآخَر مختلَفٌ فيه ؛ أهو عُرْوَة بنُ مسعود ، أم جدُّ المُخْتار بنِ أبي عُبَيد .

وقال سبحانَه في الوليد : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً ... ﴾(٢) الآيات .

قالوا : وفي الوليد نزلتْ : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾(٣) .

وفي أبي جَهْل نزلتْ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾(٤) .

وفيه نزلتْ : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾(٥) .

وفي مخزوم : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾(٦) .

وفيهم نزلتْ : ﴿ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾(٧) .

وزعم اليقطريّ أبو اليقظان وأبو الحسن أنّ الحجّاج سأل أعشَى همْدانَ عن بيُوتات قريش في الجاهليّة ، فقال : إنّي قد آليْتُ ألّا أنفر أحداً على أحد ، ولكن أقول وتَسْمَعون ، قالوا : فقُلْ . قال : من أيّهم المحبَّب في أهلِه ، المؤرَّخ بذِكْره ، مُحَلِّي الكَعْبة ، وضارِبُ القُبّة ، والملقَّب بالخير ، وصاحبُ الخَير والمَيْر ؟ قالوا : مِن : بني مخزوم ، قال : فمن أيّهم ضجيعُ بَسْباسة ، والمنحور عنه ألف ناقة ، وزادُ الركب ، ومبيِّض البَطْحاء ؟ قالوا : مِنْ بني مخزوم ، قال : فمِنْ أيّهم كان المقنعُ في حُكْمِه ، والمنفّذ وصيّته على تهكّمه ، وعدل الجميع في الرِّفادة ، وأوّل من وَضَع أساسَ الكَعْبة ؟ قالوا مِن بني مخزوم ، قال : فمِن

(١) سورة الزخرف ٣١ .
(٢) سورة المدثر ١١ ــ ١٣ .
(٣) سورة عبس ٥ ، ٦ .
(٤) سورة الدخان ٤٩ .
(٥) سورة العلق ١٧ .
(٦) سورة المزمل ١١ .
(٧) سورة الأنعام ٩٤ .

أيهم صاحب الأرِيكة ، ومُطعِم الخزِيرة ، قالوا من بنى مخزوم ؛ قال فمِن أيهم الإخْوة العَشَرة ، الكرام البَرَرة ؟ قالوا من بنى مخزوم ، قال : فهو ذاكَ ؛ فقال رجلٌ من بنى أميّة ، أيّها الأمير ، لو كان لهم مع قديمهم حديث إسلام ! فقال الحجّاج : أوَ ما علمت بأنّ منهم ردّاد الرِّدّة ، وقاتل مُسَيْلِمة ، وآسِر طُلَيحة ، والمُدرِك بالطائلة ، مع الفتوح العِظام والأيادِي الجسام ! فهذا آخرُ ما ذكَرَه أبو عثمان .

ويُمكِن أن يُزاد عليه فيقال: قالتْ مخزوم ما أنصفَنامن اُقتصَر فى ذكْرِنا على أن قال: مخزوم ريحانةُ قُرَيش، تحبّ حديثَ رجالِهم، والنّكاحَ فى نسائهم، ولنافى الجاهليّة والإسلام أثَر عظيم ، ورجالٌ كثيرة ، ورؤساء شهيرة ، فمِنّا المغيرةُ بنُ عبد الله بن عمْرو بنِ مخزوم، كان سيّدَ قريش فى الجاهليّة ، وهو الذى منَع فزَارةَ من الحجّ لما عيّر خشين بن لأى الفزَارِىّ ، ثمّ الشَّمخِى قوماً من قريش أنّهم يأخذُون ما ينحَره العرَب من الإبل فى المَوْسم ، فقال خشين لمّا منع من الحجّ :

يا ربِّ هل عندكَ من عقِيرهْ ... أُصلِحُ مالى وأدَعْ تنحيرَهْ

فإنّ منّا مانع المغـيرهْ ... ومانعاً بعـد منى بثيرَهْ

* ومانعاً بيْتَك أنْأزورَهُ *

منّا بنو المغيرة العشرة أمُّهم رَيْطة ، وقد تقدّم ذكرُ نسبِها ، وأمُّها عاتكةُ بنتُ عبدِ العُزَّى بن قُصَىّ ، وأمُّها الحظَيَا بنت كَعْب بن سعد بن تيم بنِ مرّة ، أوّل امرأة من قريش ضَربتْ قِبابَ الأدَم بذى المَجاز ، ولها يقول الشاعر :

مَضَى بالصالحاتِ بنو الحُظَيّا ... وكان بسَيْفهمْ يَغْنَى الفقيرُ

فمِن هؤلاء ـ أعنِى الحظَيّا ـ الوليدُ بنُ المغيرة أمّه صَخْرة بنتُ الحارث بنِ عبـد الله

ابن عبد شمس القُشَيرىّ ، كان أبو طالب بنُ عبد المطلب يَفتخر بأنّه خاله ، وكفاكَ من رجل يَفتخر أبو طالب بخُئُولته ! ألا ترَى إلى قول أبي طالب :

وخالِي الوليد قد عرفتمْ مكانَه وخالى أبو العاصِى إياسُ بنُ مَعبدِ

ومنهم حفصُ بنُ المغيرة ، وكان شريفا . وعثمان بنُ المغيرة . وكان شريفا . ومنهم السيّد المُطاع هشامُ بنُ المغيرة ، وكان سيّدَ قريش غيرَ مُدافَع ، له يقول أبو بكر بنُ الأسود ابن شعوب يرثيه :

ذَرِيني أصطبِحْ يا بَكْر إنّى رأيتُ الموتَ نقَّبَ عن هِشامِ
تَخيّرَه ولم يَعدِل سِواهُ ونِعمَ المرء بالبَلدِ الحرامِ !
وكنتُ إذا ألاقِيه كأنّى إلى حَرَمٍ وفى شهرٍ حَرامِ
فودَّ بنو المُغيرةِ لو فدَوْه بألفِ مُقاتِلٍ وبألفِ رامِ
وودَّ بنو المغيرة لو فدَوْه بألفٍ من رجالٍ أو سَوامِ
فبَكِّيه ضُباعُ ولا تَملّى هِشاماً إنّهُ غَيثُ الأنامِ

ويقول له الحارث بن أُميّة الضَّمْرِىّ :

ألاَ هلك القنّاصُ والحاملُ الثِّقْلا ومن لا يَضَنّ عن عشيرتِه فَضْلا
وحَرْبٍ أبا عثمانَ أطفأتَ نارَها ولولا هِشامٌ أوقدَتْ حَطَبا جَزْلا
وعانٍ تَريكٍ يستكين لِعِلّةٍ فككتَ أبا عثمانَ عن يَدِه الغُلاّ
ألا لَسْتَ كالهلْكَى فتُبكَى بكاءَهم ولكنْ أرى الهُلاّكَ فى جَنْبِه وَغلا
غداة غدتْ تبكى ضباعةُ غَيثَنا هِشاماً وقد أغلتْ بمَهْلكِه ضَحْلا
ألم تَرَيَا أنّ الأمانةَ أصعدَتْ مع النَّعْش إذ وَلّى وكان لها أهْلا !

وقال أيضاً يبكيه ويَرْثيه :

وأصبحَ بطنُ مَكّةَ مقشعِرّاً　　شديدَ المَحْل ليس به هِشامُ
يَرُوح كأنّه أشلاء سَوْطٍ　　وفوقَ جِفانِه شَحْمٌ رُكامُ
فللكُبراءِ أكْلٌ كيف شاءوا　　وللوِلْدان لَقْمٌ واغتِنامُ
فبَكّيهِ ضُباعُ ولا تَمَلّي　　ثِمال الناس إن قَحَط الغَمامُ
وإنّ بنى المُغيرة من قُرَيْش　　هم الرأسُ المقدَّم والسَّنامُ

وضُباعة التي تذكرها الشعراء زوجةُ هِشام ، وهى من بنى قُشَير .

قال الزبيرُ بنُ بَكّار : فلما قال الحارث : « ألا لستَ كالهَلْكى . . . » البيت ، عَظُم ذلك على بنى عبد مناف فأغرَوْا به حَكيمَ بنَ أميّة بن حارثة بن الأَوْقَص السُّلَمىّ حليفَ بنى عبدِ شمس ، وكانت قريشٌ رضيتْ به واستعملتْه على سِقَائها ، ففرّ منه الحارث ، وقال :

أفِرُّ من الأباطِح كلَّ يوم　　مخافةَ أن ينكِّل بى حَكيمُ

فهدم حكيمٌ دارَه ، فأعطاه بنو هشام دارَه التى بأَجْياد عِوَضا منها .

وقال عبد الله بنُ ثور البَكّائىّ يرثيه :

هَرِيقى من دموعهما سِجاما　　ضُباعُ وجاوِبى نَوْحاً قِياماً
على خيرِ البريّة لن تراه　　ولن تلقى مَواهبَه العِظاماً
جَوادٌ مثل سَيْل الغَيْث يوما　　إذا علجانُه يعلو الإكاما
إذا ما كان عامٌ ذو عُرامٍ　　حسبتُ قُدورَه جَبلا صِياماً

فمن للرَّكْب إذا أمسَوْا طُروقاً ... وغُلِّقتِ البيوتُ فلا هِشاماَ
وأوْحَش بطنُ مَكّة بعدَ أُنسٍ ... ومجدٍ كان فيها قد أقاماَ
فلم أرَ مِثله فى أهل نَجْدٍ ... ولا فيمن بغَوْرِكِ يا تِهاماَ

* * *

قال الزبير : وكان فارس قريش فى الجاهلية هشامُ بنُ المغيرة ، وأبو لَبيد بن عَبْدة ابن حَجْرة بن عبد بن مَعيض بن عامر بن لؤىّ ، وكان يقال لهشام : فارس البَطْحاء ، فلمّا هَلَكا كان فارِسَىْ قريش بعدهما عمرو بن عبد العامرىّ المقتول يوم الخَنْدق ، وضرارُ ابنُ الخطَّاب المحاربىّ الفِهْرى ، ثمّ هُبَيرة بن أبى وهب وعِكْرمة بن أبى جهل المخزوميّان . قالوا : وكان عامَ ماتَ هشامٌ تاريخا ، كعام الفيل ، وعام الفِجار ، وعام بُنْيان الكعبة . وكان هشام رئيسَ بنى مخزوم يومَ الفِجار .

قالوا : ومنّا أبو جهل بن هشام ، واسمه عمرو ، وكنيته أبو الحكم ، وإنّما كناه « أبا جهل » رسول الله صلى عليه وآله ، كان سيّدا أدخلته قريش دار النَّدْوة فسوّدَتْه وأجلسَتْه فوق الجِلّة من شُيوخ قُرَيش ، وهو غلام لم يطرّ شارِبُه ، وهو أحد من سادَ على الصِّبا . والحارث بن هشام أخو أبى جَهل كان شريفا مذكورا ، وله يقول كعب ابن الأشرف اليهودى الطائىّ :

نُبِّئتُ أنّ الحارث بن هِشامٍ ... فى الناس يبنى المكرُماتِ ويجمعُ[1]
ليزورَ يَثرِبَ[2] بالجموعِ وإنما ... يبنى على الحسب القديم الأرْوَعُ

وهو الذى هاجَرَ من مكّة إلى الشام بأهله وماله فى خلافة عمرَ بن الخطّاب ، فتبعه أهلُ مكّةَ يبكون ، فرقّ وَبَكى وقال : إنّا لو كنّا نستبدِل داراً بدار ، وجارا

(١) نسب قريش ٣٠١ .
(٢) فى نسب قريش « أثرب » ؛ وهى لغة فى « يثرب » .

بجار ، ما أردْنا بكم بدلا ، ولكنها النُّقْلة إلى الله عزّ وجلّ ، فلم يزل حابساً نفسه ومن معه بالشام مُجاهدا حتى مات .

قال الزُّبير : جاء الحارثُ بنُ هشام وسُهَيلُ بنُ عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأوّلون والأنصار يأتون عمرَ فيُنَحِّيهما ويقول : ها هنا يا سُهَيل ، هاهنا يا حارث ! حتى صارا فى آخر الناس ؛ فقال الحارث لسُهيل : ألم تر ماصنع بنا عمر اليوم ! فقال سُهيل : أيّها الرجل ، إنه لا لَوْم عليه ، ينبغى أن نرجع باللَّوْم على أنفسنا ، دُعِىَ القومُ ودُعينا ، فأسرَعوا وأبطأْنا . فلما قاما من عند عمرَ أَتَياه فى غدٍ فقالا له : قد رأينا ماصنعتَ بالأمس ، وعلِمْنا أنا أُتينا من أنفسنا فهل من شىء نَستدرك به ؟ فقال : لا أعلم إلّا هذا الوجه ـ وأشار لهما إلى ثغر الرّوم فخرجا إلى الشام ، فجاهدا بها حتى ماتا .

قالوا : ومنّا عبدُ الرحمن بنُ الحارث بن هشام ، أمّه فاطمةُ بنتُ الوَليد بنِ المُغيرة ، وكان شريفا سيّدا ، وهو الّذى قال لمعاوية لمّا قُتِل حُجْر بن عدِىّ وأصحابه : أين عزَب منكَ حِلْمُ أبى سُفْيان ، ألا حبَسْتَهم فى السّجون ، وعرّضْتَهم للطاعون ! فقال حين غاب عنّى مثلك من قومى . وعبد الرحمن بنُ الحارثِ بن هشام هو الّذى رَغِب فيه عثمانُ بنُ عَفّان وهو خليفة فزوّجه ابنته .

قالوا : ومنّا أبو بكر بنُ عبدِ الرحمن بن الحارِث بنِ هشام ، كان سيّدا جَوَاداً وفقيها عالما ، وهو الّذى قَدِم عليه بنو أسَد بن خزيمة يسألونه فى دِماء كانت بينهم ، فاحتَمل عنهم أربَعمائة بعير دِية أربعةٍ مِنَ القَتلى ، ولم يكن بيَدِه مال ، فقال لابنه عبدِ الله بن أبى بكر : اذْهَب إلى عمّك المغيرة بن عبد الرحمن فاسأله المعونة ، فذَهَب عبد الله إلى عمّه فذَكَر له ذلك ، فقال المغيرة : لقد أكبر علينا أبوك ، فانصرَف عنه عبدُ الله وأقام أيّاما

لا يَذكُرُ لأبيه شيئاً ، وكان يَقُودُ أباه إلى المسجد وقد ذَهَب بصرُه ، فقال له أبوه يوما : أذَهَبْتَ إلى عمّك ؟ قال : نعم ، وسكَت ، فعرَف حين سَكَت أنّه لن يجد عند عمّه ما يُحِبّ . فقال له : يا بُنَىّ ألا تُخبِرنى ماقال لك ؟ قال : أيفعل أبو هاشم ـ وكانت كُنْية المُغيرة ـ فربّما فَعَل ، ولكن أغدُ غداً إلى السّوق فخُذْ لى عِينَةً ، فغدا عبد الله فتعيّن عينة من السّوق لأبيه وباعَها ، فأقام أيّاما لا يَبيع أحد فى السّوق طعاما ولا زَيْتا غير عبد الله ابنِ أبى بكر من تلك العِينة ، فلمّا فرغ أمرَه أبوه أن يدفَعها إلى الأسَديّين فدَفَعها إليهم .

وكان أبو بكر خَصيصا بعبدِ الملك بن مَرْوان، وقال عبدُ الملك لابنِه الوَليد لمّا حضرتْه الوفاة : إنّ لى بالمدينة صَديقَين فاحفَظْنى فيهما : عبدُ الله بنُ جعفر بن أبى طالب وأبو بكر ابنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام .

وكان يقال : ثلاثة أبيات من قريش توالَتْ بالشّرف خَمْسة خَمْسة ، وعدّوا منها أبا بكر ابن عبد الرّحمن بن الحارث بنِ هشام بنِ المغيرة .

قالوا : ومنّا المغيرةُ بن عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام ، كان أجوَدَ الناس بالمال ، وأطعَمَهم للطّعام ؛ وكانت عَيْنُه أُصيبتْ مع مَسلَمة بن عبد المَلِك فى غَزْوة الروم ، وكان المُغيرةُ يَنحَر الجَزور ، ويُطعِم الطّعام حيث نَزل ، ولا يردّ أحدا ، فجاء قومٌ من الأعْراب فجلسوا على طعامِه ، فجعل أحدُهم يُحِدّ النظرَ إليه ، فقال له المغيرة : مالَكَ تُحِد النّظر إلىّ ! قال : إنّى ليرَيبنى عينُك وسَماحُك بالطعام ؛ قال : ومِمّ ارْتَبْتَ ؟ قال : أظنّك الدّجّال ، لأنّا روينا أنّه أعوَر ، وأنّه أطعَمُ الناسِ للطّعام ، فقال المغيرة : وَيْحَك ! إنّ الدجّال لا تُصابُ عينُه فى سبيل الله . وللمغيرة يقول الأقَيْشر الأسَدىّ لمّا قَدِم الكوفة فنَحَر الجُزرَ وبَسَط الأنْطاع وأطعَم الناس ، وصارَ صِيتُه فى العرَب :

أتاكَ البَحْرُ طَمَّ على قريش ... مُميِّزنى فقد راعَ ابنَ بِشرِ (١)
وراعَ الجدْى جَدْى التَّيم لمّا ... رأى المعروفَ منه غيرَ نَزْرِ
ومن أوتارِ عُقْبة قد شَفَانى ... ورهط الحاطبىّ ورَهْط صَخْرِ
فلا يغرُرْكَ حُسنُ الزِّىِّ منهمْ ... ولا سرح بِزْيونٍ ونمرٍ (٢)

فابن بِشر ، عبدُ الله بنُ بِشر بن مروان بن الحكَم ، وجَدْى التَّيم : حمّاد بن عمران ابن موسى بن طلحة بن عُبَيد الله ، وأوْتار عُقْبة يعنى أولاد عُقْبَة بن أبى مُعَيط ، والحاطبىّ لُقْمان بنُ محمد بن حاطب الجُمَحىّ ، ورهط صَخْر : بنو أبى سُفْيان بن حَرْب بن أمّيّة ، وكلّ هؤلاء كانوا مشهورين بالكوفة ، فلمّا قدمَها المغيرة أخمَلَ ذِكرَهم ، والمغيرة هذا هو الّذى بَلَغه أنّ سُلَيم بنَ أفلح مولى أبى أيّوب الأنصارىّ أراد أن يبيع المنزلَ الّذى نزل فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله مَقدَمَه المدينة على أبى أيّوب بخمسمائة دينار ، فأرسَل إليه ألف دينار ، وسأله أن يبيعه إيّاه ، فباعَه ، فلمّا ملَكه جعلَه صدقةً فى يومه .

قال الزبير : وكان يزيدُ بنُ المغيرة بن عبد الرحمن يطافُ به بالكوفة على العِجْل ، وكان ينحَر فى كلّ يوم جَزورا ، وفى كلّ جمعة جَزورَين . ورأى يوما إحدَى جَفَناته مُكلَّلة بالسَّنام تكليلا حَسَنا ، فأعجبه ، فسأل فقال : من كَلّلها ؟ قيل : اليَسَع ابنك ؛ فسُرّ ، وأعطاه ستّين دينارا .

ومرّ إبراهيم بن هشام على بُرْدةِ المغيرة وقد أشرقتْ على الجَفْنة ، فقال لعبدٍ من عبيد المغيرة : يا غلام ، على أىّ شىء نصبتم هذا الثريدَ على العمد ؟ قال : لا ، ولكن على أعضادِ الإبل ، فبلغ ذلك المغيرة ، فأعتق ذلك الغلام .

والمغـيرة هو الذى مرّ بجَرّة الأعراب فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا هاشم ، قد فاضَ

(١) نسب قريش ٣٠٥ .

(٢) الزيون ، بالضم : السندس ، وقال ابن برى : هو رقيق الديباج .

معروفُك على الناس ، فما بالُنا أشقى الخلْق بك ! قال : إنه لا مالَ معى ، ولـكن خذوا هذا الغلام فهو لـكم ، فأخذوه ، فبـكى الغلامُ فقال : يا مَوْلاى ، خدمتى وحُرمتى ! فقال : أتبيعونى إيّاه ؟ قالوا : نعم ، فاشتراه منهم بمالٍ ثمّ أعتقه ، وقال له : والله لا أعرّضك لمثلها أبدا ، اذهبْ فأنتَ حرّ ، فلما عاد إلى الـكوفة حمل ذلك المال إليهم .

وكان المغيرة يأمر بالسكّر والجوْز فيدقّان ويُطعِمُهما أصحاب الصُّفّة المساكين ، ويقول : إنهم يشتهون كما يَشتهى غيرهم ولا يمكنهم ، فخرج المغيرةُ فى سفرٍ ومعه جماعةٌ فوَرَدوا غديراً ليس لهم ماءٌ غيره ـ وكان مالحا ـ فأمر بِقرب العسَل فشقّت فى الغدير وخيضت بمائه ، فما شَرِب أحدٌ منهم حتى راحوا إلّا من قرب المغيرة .

وذكر الزبيرُ أنّ ابناً لهشام بن عبد الملك كان يسوم المُغيرة ماله بالمكان المسمّى بديعا ، فلا يبيعه ، فغَزَا ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة ، فأصابت الناسَ مجاعة فى غَزاتهم ، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال : إنك كنتَ تسومُنى مالى ببديع[1] ؛ فأبى أن أبيعكه ، فاشترِ الآن منّى نِصفَه بعشرين ألف دينار . فأطعم المغيرةُ بها الناس ، فلما رجع ابنُ هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشاما الخبرُ قال لابنه : قبّح اللهُ رأيك أنت أمير الجيش ، وابن أمير المؤمنين ، يصيبُ الناس معك مجاعة فلا تُطعمهم حتى يبيعك رجل سُوقة ماله ، ويطعم به الناس ! وَيْحَك أخشيتَ أن تفتقر إن أطعمتَ الناس !

قالوا : ولنا عِكْرمة بن أبى جَهل الذى قام له رسول الله صلى الله عليه وآله قائما ، وهو بَعدُ مُشرِكٌ لم يُسلِم ولم يَقُم رسول الله صلى الله عليه وآله لرَجُلٍ داخِلٍ عليه من الناس شريفٍ ولا مشرّفٍ ، إلّا عكرمةَ ، وعكرمة هو الذى اجتهد فى نُصْرة الإسلام بعدَ أن كان شديد العداوة ، وهو الذى سأله أبو بكر أن يقبل منه معونةً على الجهاد فأبى ،

(١) بديع : ماء عليه نخيل وعيون جارية بقرب وادى القرى . ياقوت .

وقال : لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة ، وهو الشهيد يـوم أجْنادين ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تسألنى اليومَ شيئاً إلا أعطيتُك » ، فقال : فإنى أسألك أن تستغفرَ لى ؛ ولم يسأل غيرَ ذلك ، وكلّ قريش غيره سألوا المالَ ، كسُهيل بن عمرو وصَفْوان بن أميّة وغيرهما .

قالوا : ولنا الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ، كان شاعرا مجيدا مُكثرا ، وكان أميرَ مكة استعمَله عليها يزيدُ بنُ معاوية .

ومِن شِعره :

مَن كانَ يَسألُ عنّا أينَ منزِلُنَا ... فالأُقْحُوانةُ منّا مـنزلٌ قَمِنُ (١)

إذْ نَلبَس العيشَ غَضًّا لا يُكدِّرُه ... قربُ الوُشاة ولا يَنْبو بنا الزّمنُ

وأخوه عِكرمة بنُ خالد كان من وجوه قريش ، وروَى الحديث ، وروى عنه .

ومن ولد خالدِ بنِ العاص بن هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ، كان جَواداً مِتْلافا ، وفيه قال الشاعر :

لَعمرُكَ إن المجـدَ ما عاشَ خالدٌ ... على العُمْر من ذى كبـدة لمُقيمُ

وتَندَى البِطاحُ البيضُ من جُود خالد ... ويُخْصِبن حـتى نبتهنّ عميمُ

قالوا : ولنا الأَوْقص ، وهو محمّد بنُ عبدالرحمن بن هشام بن المغيرة ، كان قاضى مكة ، وكان فقيها .

قالوا : ومن قُدَماء المسلمين عبدُ الله بن أمية بن المغيرة أخو أمّ سلمة زوج رسول الله

---

(١) نسب قريش ٣١٣ ، معجم البلدان ١ : ٣٠٩ من غير نسبة . والأقحوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية .

صلّى الله عليه وآله ، كان شديدَ الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجرا ، وشهد فتح مكة وحُنين ، وقُتِل يومَ الطائف شهيدا .

والوليدُ بنُ أمية ، غيّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسمه ، فسمّاه المهاجر ، وكان من صُلحاء المسلمين .

قالوا : ومنا زُهيرُ بن أبي أميّة بن المغيرة ، وبُجَيْر بن أبي ربيعة بن المغيرة ، غيّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسمه ، فسماه عبدَ الله ، كانا من أشراف قريش ، وعباس بن أبي ربيعة ، كان شريفا .

قالوا : ومنّا الحارثُ القُباع ، وهو الحارث بنُ عبد الله بن أبي ربيعة ، كان أميرَ البَصْرة ، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر ، المشهور ذى الغَزَل والتشبيب .

قالوا : ومن ولدِ الحارث بنِ عبد الله بن أبي ربيعة الفقيه المشهور ، وهو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ، كان فقيهَ المدينة بعد مالك بن أنس ، وعَرَض عليه الرشيدُ جائزةً أربعة آلاف دينار ، فامتنع ولم يتقلّد له القضاء .

قالوا : ومَن يعدّ ما تعدّه مخزوم ولها خالد بن الوليد بن المغيرة سيف الله ! كان مُباركا ، ميمونَ النَّقيبة شُجاعا ، وكان إليه أعِنّة الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشهد معه فتحَ مكّة ، وجُرِح يوم حُنَين ، فنفث رسول الله صلى الله عليه وآله على جُرْحه فبرَأ ، وهو الذى قتَل مُسَيْلمة وأسَر طُلَيحة ومهّد خِلافة أبي بكر ؛ وقال يوم موته : لقد شهدتُ كذا وكذا زَحْفا ، وما فى جَسَدى موضعُ إصْبَع إلّا وفيه طعنة أو ضربة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعيُنُ الجُبَناء ! ومرّ عمرُ بن الخطاب على دُور بني مخزوم والنساء يندُبن خالدا ، وقد وصلَ خبرُه إليهم

وكان مات بحِمْص ، فوقف وقال : ما على النساء أن يندُبن أبا سليمان ، وهل تقوم حُرّة عن مِثلِه ! ثم أنشد :

أتبكى ما وصلتَ به النَّدامى ولا تَبكى فوارس كالجبالِ
أولئك إنْ بكيت أشدُّ فَقْدًا من الأنعام والعَكَر الحلالِ(١)
تَمَنَّى بعدَهم قومٌ مَداهمْ فما بَلَغوا لِغايات الكمالِ

وكان عمرُو مُبغِضاً لخالد ، ومنحرفا عنه ، ولم يمنعه ذلك من أن صدق فيه .

قالوا : ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة ، كان رجلَ صِدْق من صُلَحاء المسلمين .

ومنّا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان عظيم القَدْر فى أهل الشام ، وخاف معاوية منه أن يَثِب على الخلافة بعدَهم ، فسمَّه ؛ أمر طبيبا له يُدعى ابن أثال فسقاه فقتله .

وخالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعمّه عبد الرحمن والمخالف على بنى أمية ، والمنقطع إلى بنى هاشم . وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة . وإبراهيم ومحمد ابنا هشام بن عبد الملك . وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، وكان من رجال قريش، ومن ولدِه هشام بنُ إسماعيل بن أيوب وسلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، ولى شُرْطة المدينة .

قالوا : ومن ولد حَفْص بن المغيرة عبدُ الله بن أبى عمر بن حفص بن المغيرة ، هو أوّل خَلْق الله حاجّ يزيد بن معاوية .

قالوا : ولنا الأزْرَق ، وهو عبد اللهُ بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس ابن المغيرة والى اليمن لابن الزبير ، وكان من أجودِ العَرَب ، وهو ممدوح أبى دَهْبَل الجمحىّ .

---

(١) العكر : مافوق الخمسمائة من الإبل .

(٢) فى د : « الناس » .

قالوا : ولنا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو عبد الله بن السائب بن أبى السائب ، واسم أبى السائب صَيْفِىّ بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، كان شريك النبي صلى الله عليه وآله فى الجاهليّة ، فجاءه يوم الفتح فقال له : أتعرفنى ؟ قال : ألستَ شَرِيكى ؟ قال : بلى ، قال : لقد كنت خير شَرِيك ، لا تُشارِى ولا تُمارى .

قالوا : ومنا الأرقم بن أبى الأرقم الذى استتر رسولُ الله فى داره بمكة فى أوّل الدعوة ، واسم أبى الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومنا أبو سَلَمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، وهو زوج أمّ سَلَمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، قَبْلَ رسول صلى الله عليه وآله ، شهد أبو سَلَمة بَدْرا ، وكان من صُلَحاء المسلمين .

قالوا : لنا هُبَيرة بن أبى وَهب ، كان من الفُرسان المذكورين ؛ وابنه جَعدة بن هبيرة ؛ وهو ابن أخت على بن أبى طالب عليه السلام ، أمه أم هانئ بنتُ أبى طالب ، وابنه عبدالله ابن جعدة ابن هُبَيرة هو الذى فتح القُهُنْدِز وكثيرا من خُراسانَ ، فقال فيه الشاعر :

لولا ابنُ جعدة لم تُفتَحْ قُهُنْدُزُكُمْ ... ولا خراسانُ حتى ينفخُ الصُّورُ

قالوا : ولنا سعيد بن المسيِّب الفقيه المشهور . وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب ابن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم .

وقد اختصرْنا واقتصرنا على من ذكرْنا ، وتركْنا كثيرا من رجال مخزوم خوف الإسهاب .

* * *

وينبغى أن يقال فى الجواب : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقارا لهم ، ولا استصغارا لشأنهم ، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همّه يوم المُفاخرة أن يفاخر بنى عبد شمس لما بينه وبينهم ، فلما ذكر مخزوما بالعرَض قال فيهم ما قال ، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم ، على أنّ أكثر هؤلاء الرجال إسلاميّون بعد عصر علىّ عليه السلام ، وعلىّ عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من يجىء بعده .

فإن قلت : إذا كان قد قال فى بنى عبدِ شَمْس إنهم أمنَعُ لما وراءَ ظهورهم ، ثم قال فى بنى هاشم : إنهم أسمحُ عند الموت بنفوسهم ، فقد تناقض الوَصْفان .

قلتُ : لا مُناقضةَ بينهما ، لأنه أراد كثرة بنى عبدِ شمس ، فبالكَثْرة تمنع ما وراء ظهورها ، وكان بنو هاشم أقلَّ عددا من بنى عبدِ شمس ، إلّا أن كلَّ واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كلّ واحد على انفراده من بنى عبدِ شمس ، فقد بان أنه لا مناقَضَةَ بين القولين .

(١١٧)

الأصْلُ :

شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ ؛ عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ ، وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ؛ وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ ، وَيَبْقَى أَجْرُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

أخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء ، فقال :

تفْنَى اللذَاذَةُ مِمَّن نَال بُغْيَتَهُ ... من الحرَام ويبقى الإثمُ والعارُ
تُبْقِى عواقِبَ سوءٍ فى مَغَبَّتِها ... لا خيرَ فى لذَّةٍ من بعدِها النّارُ

(١١٨)

الأصْلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَبِع جنازَةً فسمعَ رَجلًا يضحَكُ ، فقالَ :

كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ ، وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ .

طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى بِدْعَةٍ .

* * *

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أقولُ : ومِنَ الناس مَن يَنسُبُ هذا الكلامَ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

* * *

الشَّرْح :

الأشهر الأكثر في الرّواية أنّ هذا الكلام من كلام رسولِ الله صلى الله عليه وآله ومثل قوله : « كأن الموت فيها على غيرنا كُتِب » قولُ الحسن عليه السلام : ما رأيت حقًّا لا باطلَ فيه أشبَه بباطلٍ لا حَقّ فيه من المَوْت ؛ والألفاظ التي بعده واضحة ليس فيها ما يُشْرَح ، وقد تقدّم ذِكرُ نظائرها .

(١١٩)

الأصل :

غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ .

***

الشرح :

المرجع فى هـذا إلى العقل والتماسك ، فلمّا كان الرجل أعقل وأشدّ تماسكا كانت غَيْرته فى موضعها ، وكانت واجبةً عليه ، لأنّ النهى عن المنكر واجب ، وفعل الواجبات من الإيمان ، وأما المرأة فلما كانت أنقص عقلا وأقلّ صبْرا كانت غَيْرتها على الوَهْم الباطل والخيال غير المحقّق ، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها ، وسمّاها عليه السلام كُفْراً لمشاركتها الكُفْرَ فى القُبْح فأجرى عليها اسمَه .

وأيضا فإن المرأة قد تؤدّى بها الغيرةُ إلى ما يكون كُفْرا على الحقيقة كالسِّحْر ، فقد ورَد فى الحديث المرفوع أنه كُفْر ، وقد يُفضى بها الضَّجَر والقَلَق إلى أن تَتَسَخّط وتَشْتُم وتتلفظ بألفاظٍ تكون كُفراً لا محالة .

(١٢٠)

الأصْلُ :

لَأَنْسُبَنَّ الإسْلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْها أحَدٌ قَبْلِي . الإسْلامُ هُوَ التَّسْليمُ ، والتَّسْليمُ هُوَ الْيَقِينُ ، واليَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ ؛ والتَّصْدِيقُ هُوَ الإقْرَارُ ، والإقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ ، والأَدَاءُ هُوَ العَمَلُ .

***

الشّرحُ :

خلاصةُ هذا الفَصْل تقتضى صحة مَذهَب أصحابنا المعتزلة فى أنّ الإسلام والإيمان عبارتان عن معبّر واحد ، وأنّ العمل داخلٌ فى مفهومِ هذه اللفظة ، ألا تراه جَعَل كلَّ واحدة من اللَّفَظات قائمةً مقامَ الأخرى فى إفادة المفهوم ، كما تقول : اللّيثهو الأسَدُ والأسد هو السّبع ، والسبع هو أبو الحارث ! فلا شُبهةَ أن اللّيث يكون أبا الحارث ؛ أى أنّ الأسماء مترادفة ، فإذا كان أوّل اللَّفظَات الإسلام ، وآخرها العَمل ، دَلّ على أنّ العمل هو الإسلام ؛ وهكذا يقول أصحابُنا : إنّ تاركَ العمل وتاركَ الواجب لا يسمّى مسلما .

فإن قلت : هَبْ أنّ كلامَه عليه السلام يدلّ على ما قلت ، كيف يدلّ على أن الإسلام هو الإيمان ؟

قلت : لأنه إذا دَلّ على أن العمل هو الإسلام وَجَب أن يكون الإيمان هو الإسلام لأنّ كلّ من قال : إنّ العمل داخل فى مُسمّى الإسلام ؛ قال : إنّ الإسلام هو الإيمان ،

فالقول بأنّ العمل داخلٌ فى مسمّى الإسلام ، وليس الإسلام هو الإيمان ، قول لم يَقُل به أحد ؛ فيكون الإجماع واقعا على بُطْلانه .

فإن قلتَ : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتزلة ، لأنّ المعتزلة تقول : الإسلامُ اسمٌ واقعٌ على العَمَل وغيرِه من الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وأمير المؤمنين عليه السلام جَعل الإسلامَ هو العمل فقط ، فكيف ادّعيتَ أنّ قولَ أميرِ المؤمنين عليه السلام يُطابق مذهبهم ؟

قلت : لا يجوز أن يريد غيره ، لأن لفظ العَمَل يشمل الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وحركات الأركان بالعبادات ، إذ كلٌّ ذلك عملٌ وفِعْل ، وإن كان بعضه من أفعال القلوب ، وبعضه من أفعال الجوارح ، ولو لم يُرِد أميرُ المؤمنين عليه السلام ما شرَحْناه لكان قد قال : الإسلام هو العمل بالأركان خاصة ، ولم يعتبر فيه الاعتقاد القلبيّ ، ولا النطق اللفظيّ ، وذلك مما لا يقوله أحد .

(١٢١)

الأصْلُ :

عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ ، فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسَبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً ، وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى مَنْ يَمُوتُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِعَامِرِ دَارَ الْفَنَاءِ ، وَتَارِكٍ دَارَ الْبَقَاءِ .

***

الشَّرْحُ :

قال أعرابيّ : الرِّزق الواسعُ لمن لا يَستمتِع به بمنزلة الطعامِ الموضوعِ على قبْر . ورأى حكيمٌ رجلا مُثرِيًا يأكل خُبْزا ومِلْحا ، فقال : لِمَ تفعَل هذا ؟ قال : أخافُ الفقرَ ، قال : فقد تعجّلتَه . فأمّا القول فى الكِبْر والتِّيه فقد تقدّم منه ما فيه كفاية ؛ وقال ابنُ الأعرابى : ما تاهَ علىَّ أحدٌ قطّ أكثرَ من مَرّة واحدة ، أخَذَ هذا المعنى شاعرٌ فقال وأحسَن :

هذه منكَ فإن عُدْ ... تَ إلى البـابِ فمِنّى

وقد تقدّم من كلامِنا فى نظائرِ هذه الألفاظ المذكورة ما يُغنى عن الإطالة ها هُنا .

(١٢٢)

الأصْلُ :

مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ، ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ .

* * *

الشَّرْحُ :

هـذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين ، والاعتقادِ الصّحيح ، فإنّهم الّذين إذا قَصّروا في العمل ابتلُوا بالهَمّ ، فأمّا غيرُهم من المُسرِفين على أنفسهم وذوى النّقص في اليَقين والاعتقاد ، فإنّه لا هَمَّ يَعْرُوهم وإن قَصّروا في العمل ، وهذه الـكلمة قد جَرّبْناها من أنفسِنا فوَجَدْنا مِصداقَها واضحا ، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخَلّ بفريضةِ الظّهر مَثلا حتّى تغيبَ الشمس وإن كان أخلّ بهـا لعُذر وَجَد ثِقْلا في نفسِه وكَسَلا وقِلّةَ نَشَاط ، وكأنّه مشـكولٌ بشِـكالٍ أو مقيّدٌ بقَيد ، حتّى يقضيَ تلك الفَريضة ، فـكأنّما أُنشِطَ من عِقال .

(١٢٣)

الأصْـلُ :

لَا حَاجَةَ لِلّٰهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلّٰهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

***

الشَّـرْحُ :

قد جاء في الخبر المرفوع : « إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه في مالِه أو في نفسِه » .

وجاء في الحـــديث المرفوع : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من جَسَدٍ لا يَمرَض ، ومن مالٍ لا يُصاب » .

وروَى عبدُ الله بنُ أنَس عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « أيّـكم يُحِبّ أن يَصِحّ فلا يَسقَم؟ »، قالوا : كلُّنا يارسولَ الله ، قال : « أتحبّون أن تـكونوا كالحُمرُ الصائلة؟ ألا تُحِبّون أن تـكونوا أصحابَ بَلَايا وأصحابَ كَفّارات ! والّذى بَعثَنى بالحقّ إنّ الرجل لتـكونُ له الدّرجة في الجنّة فـــلا يَبلُغها بشيء من عَمَلِه فيَبتَلِيه اللهُ ليُبلِّغه الله درجةً لا يَبلُغها بعَمَله » .

وفي الحديث أيضا : « ما مِن مُسلِم يَمرَض مرضا إلّا حَتّ الله به خَطَاياه كما تَحُتّ الشجرة وَرَقَها » .

ورَوَى أبو عثمانَ النَّهدِىّ قال : دخل رجل أعرابّى عَلَى رسول الله صلّى الله عليه وآله ذو جُثمانٍ عَظيم ، فقال له : مَتَى عَهدُكَ بالحُمَّى ؟ قال : ما أعرفها ، قال : بالصُّداع ،

قال : ما أدرِي ما هو ؟ قال : فأُصِبْتَ بمالِكَ ؟ قال : لا ، قال : فرُزِئْتَ بوَلَدِك ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : « إن الله ليَكرَه العِفريت النِّفْرِيت الّذى لا يُرزَأ فى وَلَدِه ولا يُصَابُ فى مالِه » .

وجاء فى بعض الآثار : « أشدّ الناس حسابا الصحيحُ الفارغ » .

وفى حديث حذيفةَ رضى الله عنه : إنّ أقَرّ يوم لعينى لَيَوْمٌ لا أجد فيه طعاما ، سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّ الله ليتعاهَد عبدَه المؤمنَ بالبلاء كما يَتعاهَد الوَالد ولدَه بالطّعام ، وإنّ الله يَحمِى عبدَه المؤمنَ كما يَحمِى أحدُكم المريض من الطعام » .

وفى الحديث المرفوع أيضا : « إذا أحَبّ اللهُ عبداً أبتلاه ، فإذا أحبّه الحبّ البالغَ أقتَناه » قالوا : وما أقتناؤُه ؟ قال : « ألا يَترُكَ له مالا ولا ولداً » .

مَرّ موسى عليه السلام برجل كان يعرِفه مطيعا لله قد مزّقت السباعُ لَحمَه وأضلاعَه ، وكَبِدُه ملقاةٌ ، فوَقَفَ متعجّبا فقال : أى ربِّ ، عبدُك المطيعُ لك ابتليتَه بما أرَى ، فأوحَى اللهُ إليه : إنّه سألنى درجةً لم يَبلُغها بعَمَله ، فجعلتُ له بما ترَى سبيلا إلى تلك الدرجة .

وجاء فى الحديث : « إنّ زكريّا لم يزَل يرَى وَلَدَه يحيى مَغموما باكيا مشغولا بنفسه، فقال : يا ربّ طلبتُ منك ولدا أنتفِع به فرزَقْتَنِيه لا نَفْع لى فيه ، فقال له : إنّك طلبتَه وليّا ، والولىّ لا يكون إلّا هكذا ، مِسْقاما فقيرا مهموما .

وقال سُفْيان الثَّوْرِىّ : كانوا لا يعدّون الفقيهَ فقيهاً من لا يَعُدّ البلاءَ نِعْمة والرخاءَ مُصيبة .

جابرُ بنُ عبد الله يَرفعه : « يَوَدّ أهل العافية يومَ القيامة أنّ لحومَهم كانت تُقرَض بالمَقارِيض لما يرَوْن من ثواب أهل البَلاء » .

(١٢٤)

الأصلُ :

تَوَقَّوْا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الْأَشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ ، وَآخِرُهُ يُورِقُ .

***

الشَّرحُ :

هــذه مسألةٌ طبيعيّة قد ذكرها الحكماء ، قالوا : لمّا كان تأثيرُ الخريف في الأبدان ، وتوليدُه الأمراض كالزُّكام والسُّعال وغيرها أكثرَ من تأثيرِ الرّبيع ، مع أنّهما جميعا فَصْلَا اعتدال ، وأجابوا بأنّ بَرْد الخريف يَفْجأ الإنسان وهو معتادٌ لحرّ الصّيف فينكأ فيــه ، ويسُدّ مَسامَّ دِماغه ، لأنّ البرد يَــكثُف ويَسُدّ المَسَامّ فيكون كمَن دَخَل من موضع شديدِ الحرارة إلى خيش بارد .

فأما المُنتقِل من الشّتاء إلى فَصْل الربيع فإنّه لا يكاد بَرْد الربيع يُؤْذِيه ذلك الأذى لأنّه قد اعتاد جسمُه بَرد الشتاء ، فلا يُصادِف من بَرْد الربيع إلّا ما قد اعتاد ما هو أكثر منه ، فلا يَظهَر لبَرْد الربيع تأثيرٌ فى مِزاجه ، فأمّا لِمَ أورقت الأشجار وأَزْهَرت فى الرّبيع دون الخريف ؟ فلما فى الرّبيع من الكيفيّتين اللّتين هما مَنْبَع النموّ والنفس النباتيّة ، وهما الحرارَة والرّطوبة وأما الخريف فخالٍ من هاتين الكيفيّتين ومستبدل بهما ضدّهما ،

وهما البرودة واليُبْس المُنافِيان للنّشوء وحَياةِ الحيوَان والنّبات . فأما لِمَ كان الخريف باردا يابسا والرّبيع حارّا رَطْبا مع أنّ نسبَـة كلّ واحد منهما إلى الفَصْلين الخارجَيْن عن الاعتدال وهما الشّتاء والصّيف نسبةٌ واحـدة ؟ فإنّ تعليلَ ذلك مذكورٌ فى الأصول الطبية ، والـكُتُب الطبيعيّة ، وليس هذا الموضع مما يَحسُن أن يُشرح فيه مِثلُ ذلك .

(١٢٥)

الأصْـلُ :

عُظْمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ المَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

* * *

الشَّــرْحُ :

لا نِسبَةَ للمخلوق إلى الخالق أصْلا وخصوصا البَشر ، لأنّهم بالنّسبة إلى فَلَكَ القَمَر كالذَّرّة ، ونسبة فلك القمر كالذَّرّة بالنِّسبة إلى قُرْص الشّمس ، بل هُمْ (١) دون هذه النسبة ممّا (٢) يَعجَز الحاسبُ الحاذِقُ عن حِساب ذلك ، وفَلَكُ القَمَر بالنّسبة إلى الفَلَكِ المحيط دون هــذه النِّسبة ، ونِسْبَة الفَلَكَ المحيط إلى البارئ سبحانه كنِسْبَة العَدَم المَحْض والنّفى الصرف إلى الموجود البائن ، بل هذا القياس أيضا غيرُ صحيح ، لأنّ المعدوم يُمكِن أن يصير موجودا بائنا ، والفَلَكَ لا يتصوّر أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لِذاتِه .

وعلى الجملة فالأمرُ أعظَم من كلّ عظيم ، وأجلُّ من كلّ جليل ، ولا طاقةَ للعُقول والأذهان أن تعبِّر عن جلالة ذلك الجناب وعَظَمتِه ، بل لو قيل ؛ إنّها لا طاقة لها أن تعبِّر عن جلالِ مَصْنوعاته الأُولَى المتقدِّمة علينا بالرّتبة العقليّة والزمانيّة لكان ذلك القولُ حقّا وصِدْقا ، فَمن هو المخلوق لِيقال : إنّ عِظَمَ الخالِق يصغّره فى العين ؛ ولكنّ كلامَه عليه السلام محمولٌ على مخاطَبة العامّة الّذين تَضيق أفهامُهمْ عمّا ذكرْناه .

---

(١) ساقط من ا ، ب .   (٢) ب : « عما » .

(١٢٦)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام ، وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ :

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ . يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ . يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ، وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِّمَتْ ، هَذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا ، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ :

أَمَا وَاللهِ لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

***

الشّرْحُ :

الفرَط : المتقدِّمون ؛ وقد ذكَرْنا من كلام عمرَ ما يُناسِب هذا الكلام ، لمّا طَعَن في القُبور وعادَ إلى أصحابه أحمرَ الوجه ، ظاهرَ العرُوق ، قال : قد وقفتُ على قبورِ الأحبّة فناديتُها الحديثَ . . . إلى آخره ، فقيل له : فهل أجابتْك ؟ قال : نعم ، قالت : إنّ خيرَ الزّاد التقوى .

وقد جاء في حديث القبور ومخاطبتِها وحديثِ الأموات وما يتعلّق بذلك شيء كثير يتجاوَز الإحصاء .

وفى وصيّة النبىّ صلّى الله عليه وآله أبا ذرّ رضى الله عنه : زُر القبورَ تَذكُرْ بها الآخرة ولا تَزُرها ليلاً ، وغسِّل الموتى يتحرّكْ قلبُك ، فإنّ الجسد الخاوِى(١) عِظةٌ بليغة ، وصلِّ على الموتى فإن ذلك يُحزِنُك ، فإنّ الحزين فى ظِلّ الله .

وُجِد على قبرٍ مكتوباً :

مقيمٌ إلى أن يبعثَ الله خَلْقَهُ لقاؤُكَ لا يُرجَى وأنت رقيبُ
تَزِيدُ بِلًى فى كلِّ يومٍ وليلةٍ وتُنسَى كما تَبلَى وأنت حبيبُ

وقال الحسن عليه السلام : مات صديق لنا صالح ، فدفنّاه ومددْنا على القبر ثوبا، فجاء صِلَة بنُ أشيَم ، فرَفَع طرفَ الثوب ونادَى : يا فلان :

إنْ تَنجُ منها تَنجُ مِن ذى عَظيمةٍ وإلّا فإنّى لا إخالُكَ ناجِيـا

وفى الحديث المرفوع ، أنّه عليه السلام كان إذا تَبِع الجنازة أكثرَ الصُّمات(٢)، ورُئى عليه كآبةٌ ظاهرة ، وأكثرَ حديثَ النفس .

سَمِع أبو الدّرداء رجلا يقول فى جنازة : من هذا ؟ فقـال : أنت ، فإنْ كرهتَ فأنا .

سَمِع الحسنُ عليه السلامُ امرأةً تَبكِي خلف جَنازة، وتقول: يا أبتاه ، مِثلَ يومِك لم أرَه ! فقال : بل أبوكِ مِثل يومِهِ لم يرَه .

وكان مكحولٌ إذا رأى جِنازة قال : اغدُ فإنّا رائحون .

وقال ابن شَوْذَب : اطّلعت امرأةٌ صالحة فى لَحْد فقالت لامرأةٍ معها : هـذا كُنْدُوج العَمَل — يَعنِي خِزانتَه .وكانت تُعطيها الشيء بعد الشيء تأمُرُها أن تتصدّق به ، فتقول : اذهبي فضَعى هذا فى كُندوج العَمَل .

---

(١) الخاوى : الخالى من الروح . (٢) الصمات ، مصدر صمت .

شاعر :

أجازِعةٌ رُدَينةُ أنْ أتاها ... نَعِـيِّي أم يكون لها اُصطِبارُ !
إذا ما أهْـلُ قَبْرى ودّعونى ... وراحُوا والأَكُفّ بها غُبارُ
وغُودِرَ أعظُمِي فى لحـدِ قبرٍ ... تُراوِحُـه الجَنَائبُ والقِطارُ
تَهُبُّ الريحُ فوق مَحَطِّ قَبْرى ... ويَرْعَى حولَه اللَّهَقُ النوارُ(١)
مقيمٌ لا يُـكلِّمنى صـديقٌ ... بقَفْرٍ لا أزورُ ولا أزارُ
فَذاكَ النأىُ لا الهِجْرانُ حَوْلاً ... وحَوْلاً ثم تجتمعُ الدّيارُ

وقال آخر :

كأنّى بإخوانى على حافَتَىْ قَبرِى ... يَهيلُونه فَوْق وأدمُعُهمْ تَجرى
فيأيُّها المُذْرى علىَّ دموعَـه ... ستُعرِض فى يومين عنّى وعن ذكرِى
عفـا اللهُ عنى يومَ أُترَكُ ثاوِيًا ... أُزارُ فلا أدْرِى وأُجْفَى فـلا أدْرى

وجاء فى الحديث المرفوع : « ما رأيتُ مَنظرًا إلّا والقبرُ أفظع منه » .

وفى الحديث أيضا : « القبر أوّل منزلٍ من منازلِ الآخرة ، فمن نجا منه فما بعدَه أيسر ، ومن لم يَنْجُ منه فما بعدَه شرٌّ منه » .

---

(١) اللهق بالتحريك : الثور الأبيض ، والنوار : الناشز .

(١٢٧)

الأصـلُ :

وقال عليه السلام وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا ، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا ، الْمُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا ؛ أَتَفْتَتِنُ بِهَا ثُمَّ تَذُمُّهَا ! أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ! أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى ، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ! كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ ؛ غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ !

لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ، وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ .

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ ؛ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا ، وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا ، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ !

رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً ، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً ،

فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

* * *

الشَّرْحُ :

تجرّمتُ على فلان : ادّعيتُ عليه جُرْما وذنبا ؛ واُستهواه كذا : استزلّه .

وقولُه عليه السلام : « فمثّلتْ لهم ببلائها البلاء » ، أى بلاء الآخرة وعذابَ جهنّم ، وشوّقتْهم بسرورها إلى السرور ، أى إلى سُرورِ الآخرة ونعيمِ الجنّة .

وهذا الفصل كلّه لمدح الدنيا ، وهو ينبئ عن اُقتدارِه عليه السلام على ما يريد من المعانى ، لأنّ كلامَه كلّه فى ذمّ الدنيا ، وهو الآن يمدَحها ، وهو صادقٌ فى ذاك وفى هذا ؛ وقد جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وآله كلام يتضمّن مدحَ الدنيا أو قريبا من المَدْح ، وهو قولُه عليه السلام : « الدّنيا حُلوةٌ خَضِرة ، فمن أخَذَها بحقّها بُورِكَ له فيها » .

واحتَذَى عبدُ الله بنُ المعتزّ [1] حَذْوَ أميرِ المؤمنين عليه السلام فى مدحِ الدنيا فقال فى كلامِه : الدّنيا دارُ التّأديب [2] والتعريف ، التى بمَكْروهِها توصّل إلى محبوب الآخرةِ ، ومضمار الأعمال ، السابقة بأصحابها إلى الجنان ، ودرجة الفَوْز التى يرتَقى عليها المتّقون إلى دار الخُلْد ، وهى الواعظة لمن عَقَل ، والناصحة لمن قَبِل ، وبِساط المَهَل ، ومَيْدان العمل ، وقاصِمَة الجبّارين ، ومُلحِقة الرّغم معاطِسَ المتكبّرين ، وكاسية التّراب أبدانَ المختالين ، وصارعة المغترّين ، ومفرّقة أموال الباخلين ، وقاتلة القاتلين ، والعادلة بالموت على جميع العالمين ، وناصرة المؤمنين ، ومُبِيرة الكافرين . الحسنات فيها مضاعَفة ، والسّيئات بآلامها ممحوّة ، ومع عُسرها يُسْران ، والله تعالى قد ضَمِن أرزاق أهلِها ، وأقسَم فى كتابه بما فيها ، وربّ طيّبة

(١) د : « المغيرة » . (٢) د : « التأدب » .

من نعيمها قد حمِد الله عليها فتلقّتها أيدِى الكَتَبة ووَجَبَتْ بها الجنّة ؛ وكم نائبةٍ من نوائبها ، وحادثةٍ من حوادثها ، قد راضت الفَهْم ، ونبّهت الفِطْنة ، وأذْكَت القريحة ، وأفادت فضيلةَ الصّبر ، وكثّرَت ذخائرَ الأَجْر .

ومن الكلام المنسوبِ إلى علىّ عليه السلام : الناسُ أبناء الدّنيا ، ولا يُلامُ المرء على حبِّ أمّه ، أخذَه محمّد بن وَهْب الِحمْيَرِىّ فقال :

ونحن بنُو الدّنيا خُلِقْنا لغيرِها   وما كنتَ منه فهو شىءٌ مُحبَّبُ

(١٢٨)

الأَصْـلُ :

إِنَّ لِلّٰهِ مَلَـكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُوا لِلْمَوْتِ ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ .

***

الشَّـرْحُ :

هذه اللام عند أهل العربية تسمّى لامَ العاقبة ، ومثلُ هـذا قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾(١) ، ليس أنّهم التقطوه لهذه العلّة ، بل التقطوه فـكان عاقبةُ التقاطِهم إيّاه العداوةَ والحُزْن ، ومثلُه :

* فلِلْمَوْتِ ما تَلِدُ الوالدة *

ومثلُه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾(٢) ؛ ليس أنّه ذرأهم ليعذّبهم فى جهنّم ، بل ذَرَأَهم وكان عاقبةُ ذَرْئِهم أن صاروا فيها ، وبهذا الحرف يحصُل الجوابُ عن كثيرٍ من الآيات المتشابِهة الّتى تتعلّق بها المجبِرة .

وأمّا فَحْوَى هـذا القول وخلاصتُه فهو التّنبيه على أنّ الدنيا دارُ فَناء وعَطَب ، لا دارُ بَقاء وسلامة ، وأنّ الولد يَمُوت ، والدُّور تُخرَّب ، وما يُجمَع من الأموال يَفْنَى .

---

(١) سورة القصص ٨ .   (٢) سورة الأعراف ١٧٩ .

(١٢٩)

الأصل :

الدُّنيَا دَارُ مَمَرٍّ ، لَا دَارُ[(١)] مَقَرٍّ ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا ، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا .

* * *

الشرح :

قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوماً لجلسائه : أخبرُونى مَن أحمقُ الناس ؟ قالوا : رجلٌ باعَ آخرتَه بدُنياه ؛ فقال : ألا أنبئكم بأحمق منه ؟ قالوا : بلى ؛ قال : رجلٌ باعَ آخرتَه بدُنْيا غيره .

قلتُ : لقائلٍ أن يقول له : ذاكَ باعَ آخرتَه بدُنياه أيضا ، لأنه لو لم يكن له لذّةٌ فى بَيْعِ آخرته بدُنْيا غيره لما باعها ، وإذا كان له فى ذلك لذّة ، فإذَنْ إنما باع آخرته بدُنياه ، لأنّ دُنياه هى لذّته .

---

(١) فى د « إلى دار » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(١٣٠)

الأصْـلُ :

لا يَـكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقًا حَتّى يَحْفَظَ أخاهُ في ثَلاثٍ: في نَـكْبَتِهِ، وغَيْبَتِهِ، ووَفاتِهِ.

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم لنا كلامٌ في الصّديق والصّداقة؛ وأمّا النَّـكْبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال: في الحبوسِ[1] مَقابرُ الأحياء، وشماتةُ الأعداء، وتجربةُ الأصدقاء.

وأمّا الغَيْبَة فإنه قد قال الشاعر :

وإذا الفتَى حَسُنَتْ مـودّتهُ في القُرْب ضاعَفَها على البُعْدِ

وأما الموت فقد قال الشاعر :

وإنّى لأستحييه والتُّربُ بيننا كما كنتُ أستحييه وهو يرَانِي

ومن كلامِ عليٍّ عليه السلام : الصديق من صَدَق في غَيْبَته .

قيل لحـكيم : مَن أبعد الناس سَفَرًا ؟ قال : من سافر في ابتغاء الأخِ الصالح .

أبو العلاء المعرّي :

أزْرَتْ بكم يا ذَوِي الألبابِ أربعةٌ يتركن أحلامَـكم نَهْبَ الجهالاتِ

ودُّ الصَّديق، وعِلْمُ الـكيمياء، وأحْـ ـكامُ النّجوم، وتفسيرُ المنامات

قيل للثّوريّ : دُلّني على جليس أجلس إليه[2] ؟ قال : تلك ضالّة لا توجد .

---

(١) د : « الحبس » . (٢) د : « عنده » .

(١٣١)

الأصلُ :

مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً : مَنْ أُعْطِيَ الدُّعاء لَمْ يُحْرَمِ الإجابَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الاِسْتِغْفارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيادَةَ .

***

قال الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالى : وتَصْديقُ ذَلِكَ في كِتابِ اللهِ تعالى ؛ قالَ في الدُّعاء : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(١) .

وقالَ في الاسْتِغْفار : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾(٢) .

وقالَ في الشُّكْرِ : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(٣) .

وقالَ في التَّوْبَةِ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾(٤) .

***

الشَّرحُ :

في بعض الروايات أنّ ما نسب إلى الرّضي رحمه الله مِن استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقد سبق القولُ في كلّ واحدةٍ من هذه الأربع مُستقصى .

---

(١) سورة غافر ٦٠ .　　(٢) سورة النساء ١١٠ .

(٣) سورة ابراهيم ٧ .　　(٤) سورة النساء ١٧ .

(١٣٢)

الأصْلُ :

الصَّلاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَالْحَجُّ جِهادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصَّوْمُ ، وَجِهادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى الصّلاة والحجّ والصّيام ، فأمّا أنّ جهادَ المرأة حسنُ التبعُّل ، فمعناه حسنُ معاشرةِ بَعْلِها وحِفظُ ماله وعرضه ، وإطاعته فيما يأمر به ، وترك الغيرة فإنها بابُ الطلاق .

***

[نبذ من الوصايا الحكيمة]

وأوصت امرأةٌ من نساء العرب بِنْتَها ليلةَ إهدائها[1] فقالت لها : لو تُرِكَتْ الوصيّة لأحدٍ لحُسْنِ أدب وكَرَم حَسَب ، لتركْتُها لكِ ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ، ومَئُونةٌ للعاقل . إنك قد خَلَفْتِ العُشَّ الذى فيه دَرَجْتِ ، والوَكْر الذى منه خَرَجْتِ ، إلى منزلٍ لم تَعرِفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فكونى له أَمَةً ، يكُن لكِ عَبْدا ، واحفَظِى عنى خِصالا عَشْرا :

(١) ليلة إهدائها ، أى ليلة زواجها ؛ يقال : هدى العروس إلى بعلها وأهداها هداء وإهداء .

أمّا الأولى والثانية، فحُسْنُ الصّحابةبالقناعة، وجميلُ المعاشرة بالسّمع والطاعة، ففى حُسْن الصَّحابة راحةُ القلب ، وفى جميل المُعاشَرة رِضا الرَّبّ .

والثالثة والرابعة ، التفقّد لمواقع عَيْنِه ، والتعهُّد لمواضع أنفِه ، فلا تقع عينه منكِ على قبيح ، ولا يَجِدُ أنفهُ منكِ خبيث ريح ، واعلَمى أنّ الكُحْل أحسَنُ الحسن المفقود ، وأن الماء أطيَبُ الطِّيب الموجود .

والخامسة والسادسةُ ، الحِفْظُ لماله ، والإرْعاء على حشمه وعِياله ، واعلمى أنّ أصل الاحتفاظ بالمال حُسنُ التقدير ، وأصلَ الإرْعاء على الحشم والعيال حُسن التّدبير .

والسابعة والثامنة، التّعهّد لوقت طَعامِه، والهُدُوّ والسّكون عند مَنامِه ، فحرارةُ الجوع مُلْهِبَة ، وتَنْغِيص النوم مَغْضبة :

والتاسعة والعاشرة : لا تُفْشِينَ له سِرّا ، ولا تَعْصِينَ له أمرا ، فإنك أن أفْشَيْتِ سِرّه لم تأمَنِى غَدْره ، وإن عصيتِ أمرَه أوغرْتِ صَدْرَه .

***

وأوصت امرأةٌ ابنتها وقد أهدَتْها إلى بَعْلِها ، فقالت : كونى له فِراشا ، يكن لكِ مَعاشا ، وكونى له وِطاء ، يكن لكِ غِطاء ، وإيّاكِ والاكتئاب إذا كان فَرِحا ، والفرَح إذا كان كئيبا ، ولا يَطّلعَنّ منك على قبيح ، ولا يَشُمَّنّ منكِ إلا طيّبَ ريح [1] .

***

وزَوّج عامرُ بنُ الظَّرِب ابنته من ابن أخيه ، فلما أراد تَحْويلَها قال لأمّها: مُرِى ابنتك ألّا تنزل مفازَةً إلاّ ومعها ماء ، فإنّه لِلأَعْلَى جِلاء ، وللأَسْفَل نقاء، ولا تُكثرْ مُضاجَعَته، فإذا ملّ البدنُ ملّ القلب ، ولا تمنعه شهوته ، فإن الحُظْوة فى المواقعة . فلم يلبث إلا شهرا حتى جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : يا بُنَيّ ارفَعْ عصاك عن بَكْرَتك ،

(١) د : « ريحاً طيباً » .

فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الدّاء الذى ليس له دواء ؛ وإن لم يكن بينكما وفاق، ففراق، الخُلْع أحسن مِنَ الطّلاق ، وأن تترك أهلك ومالك .

فردّ عليه صداقَها ، وخلَعها منه ، فهو أول خُلْعٍ كان فى العرب (١) .

* * *

وأوصَى الفَرافِصة الكلبىّ ابنته نائلة حين أهدَاها إلى عثمان ، فقال : يا بُنَيّة ، إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطِّيب منكِ ، ولا تُغلَبين على خَصْلتَين : الكُحْل والماء . تطهَّرى حتى يكون ريح جِلْدِك ريح شَنٍّ أصابه مطر ، وإيّاك والغَيْرة على بَعْلِك ، فإنّها مفتاح الطلاق .

* * *

ورَوَى أبو عمرو بنُ العلاء قال : أنكح ضِرارُ بنُ عمْرو الضبىّ ابنته من معبد ابن زُرارة ، فلما أخرَجَها إليه قال : يا بُنَيّة ، أمسكى عليك الفضْلين : فضل الغُلْمة ، وفضلَ الكلام .

قال أبو عمرو : وضِرار هذا هو الذى رَفع عَقِيرته بعُكاظَ ، وقال : ألا إنّ شرّ حائل (٢) أمّ ، فزوِّجوا الأمهّات ؛ قال : وذلك أنه صُرِع بين الرماح ، فأشبل عليه إخوته لأمّه حتى استنقذوه .

* * *

وأوصت أعرابيةٌ ابنتها عندَ إهدائها ، فقالت لها : اقلعى زُجَّ رُمحِه ، فإن أقرّ فاقلعى سِنانه ، فإن أقرّ فاكسِرِى العظام بسيفه ، فإن أقرّ فاقطعى اللحم على تُرْسه ، فإن أقرّ فضعى الإكاف على ظَهْره ، فإنما هو حمار .

وهذا هو قُبْح التبعُّل ، وذكرناه نحن فى بابِ حسْنِ التبعّل، لأنّ الضّد يُذكر بضدّه.

---

(١) يقال : خلع الرجل امرأته وخالعها إذا افتدت منه بمال فطلقها وأبانها من نفسه .

(٢) الحائل : التى لا تحمل .

(١٣٣)

الأصْـلُ :

اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

جاء فى الحديث المرفوع ـ وقيل : إنّه موقوفٌ على عثمان : « تاجروا الله بالصَّدَقة تربَحُوا » .

وكان يقال : الصَّدَقَةُ صداقُ الجنّة .

وفى الحديث المرفوع : « ما أحسن عبـدٌ الصَّدَقة ، إلّا أحسنَ الله الخلافة على مُخَـلَّفيه » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « ما مِن مسلمٍ يكْسو مسلماً ثوباً إلّا كان فى حفظِ الله ما دام منه رُقْعة » .

وقال عمر بن عبد العزيز : الصّلاة تبلِّغك نصفَ الطّريق ، والصّوم يبلّغك باب المَـلِك ، والصّدقة تُدْخِلُك عليه .

(١٣٤)

الأصل :

وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ .

***

الشرح :

هذا حقّ ، لأنّ من لم يُوقِن بالْخَلَف ويتخوّف الفقرَ يَضِنّ بالعطيّة ، ويَعلَمُ أنّه إذا أَعطَى ثمّ أَعطَى استنفدَ مالَه ، واحتاج إلى الناس لانقطاع مادّته ؛ وأمّا من يُوقِن بالْخَلَف ، فإنه يَعلَم أنّ الجود شرَفٌ لصاحبِه ، وأن الجواد ممدوحٌ عند الناس ، فقد وَجَد الداعي إلى السّماح — ولا صارفَ له عنه — لأنّه يعلَم أنّ مادّته دائمةٌ غيرُ منقطعة ، فالصارف الّذي يخافُه من قدّمنا ذكرَه مفقودٌ في حقّه ، فلا جَرَم أنّه يجو بالعطيّة !

(١٣٥)

الأصل :

تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَؤُونَةِ .

***

الشرح :

جاء فى الحديث المرفوع : « مَن وَسَّع وُسِّع عليه ، وكلّما كثُر العيال كثُر الرزق » .

وكان على بعض الْمُوسِرِين رسومٌ لجماعة من الفقَراء يَدفعُها إليهم كلَّ سنة ، فاستكثرها ، فأمَرَ كاتبَه بقطْعها ، فرأى فى المنام كأنّ له أهواء كثيرة فى دارِه ، وكأنّها تصعِّدها أقوامٌ من الأرض إلى السّماء ، وهو يَجزَع من ذلك ، فيقول : يا ربّ رِزق رِزْق ! فقيل له : إنما رزَقْناك هذه لتَصرِفها فيا كنتَ تَصرِفها فيه ، فإذ قطعتَ ذلك رفعناها منك ، وجعلناها لغيرك . فلمّا أصبح أمَرَ كاتبَه بإعادة تلك الرّسوم أجمَع .

(١٣٦)

الأصْـلُ :

مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

ما عال ، أى ما افتقَرَ ، وقد تقدّم لنا قولٌ مُقنع فى مدح الاقتصاد .

وقال أبو العَلاء :

وإن كنتَ تهوَى العيشَ فابْغِ توَسُّطاً ... فعندَ التّناهى يَقصُر المُتطاوِلُ[1]

تُوَقَّى البُدورُ النقصَ وهْى أهِلّةٌ ... ويُدرِكها النّقصان وهىَ كَواملُ

وهذا الشعرُ وإن كان فى الاقتصاد فى المراتب والوِلايات ، إلّا أنّه مدحٌ للاقتصاد فى الجملة ، فهو من هذا الباب .

وَسمِع بعضُ الفُضلاء قولَ الحكماء : التدبيرُ نصفُ العَيش ، فقال : بل العيشُ كلُّه .

(١) سقط الزند ٥٢٢ .

(١٣٧)

الأصل :

قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ .

***

الشرح :

اليسار الثانى كثرة المال ؛ يقول : إن قِلّة العيال مع الفقْر كاليسار الحقيقىّ مع كثرتهم .

ومن أمثال الحكماء : العيالُ أرَضَةُ المال .

(١٣٨)

الأصل :

التَّوَدُّدُ نِصفُ العَقلِ .

***

الشرح :

دخل حبيب بنُ شَوْذَب على جعفر بن سليمانَ بالبَصْرة ، فقال : نِعْم المرء حَبِيب ابن شَوْذَب ! حَسَن التودّد ، طيِّب الثناء ، يكرَه الزيارة المتصلة ، والقِعدةَ المنسِيَة .

وكان يقال : التودّد ظاهرٌ حَسَن ، والمعامَلة بين الناس على الظاهر ، فأمّا البواطن فإلى عالِم الخفيّات .

وكان يقال : قلّ مَن تودّد إلّا صار محبوباً ، والمحبوب مستورُ العيوب .

(١٣٩)

الأصْلُ :

والْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ .

* * *

الشَّرْحُ :

مِن كلام بعض الحكماء : الهمّ يُشِيب القلب ، ويُعقِم العقل ، فلا يتولّد معه رأى ، ولا تَصدُق معه رَوِيّة .

وقال الشاعر :

هُمومٌ قد أبَتْ إلّا التباسا ... تَبُتُّ الشيبَ فى رأسِ الوَليدِ
وتُقعد قائما بَشجا حَشاهُ ... وتُطلق للقيام حُبَا القُعودِ
وأضحتْ خُشَّعا منها نِزارٌ ... مركّبة الرواجِب فى الخُدودِ

وقال سُفيان بنُ عيينة : الدنيا كلّها هموم وغموم ، فما كان منها سرور فهو رِبح .

ومن أمثالهم : الهمّ كافورُ الغُلْمة .

وقال أبو تمّام :

شاب رأسِى وما رأيتُ مَشيبَ الرّأْسِ إلّا مِن فضلِ شيبِ الفُؤادِ[1]
وكذاكَ القلوبُ فى كلّ بؤس ... ونعيم طلائعُ الأجسادِ
طالَ إنكارِىَ البياضَ ولو عُمِّرْ ... تُ شيئاً أنكرتُ لونَ السّوادِ[2]

---

(١) ديوانه ١ : ٣٦٠ . (٢) الديوان : « ولن عمرت » .

(١٤٠)

الأصْلُ :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ على قَدْرِ المُصِيبةِ ، ومَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أجْرُهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد مضى لنا كلامٌ شافٍ فى الصبر ؛ وكان الحسنُ يقول فى قصصه : الحمد لله الذى كلَّفنا مالو كلَّفنا غيرَه لصِرنا فيه إلى معصيته ، وآجرَنا على مالا بدّ لنا منه ؛ يقول : كلَّفنا الصبر ، ولو كلَّفنا الجزَع لم يمكنَّا أن نقيم عليه ، وآجرَنا على الصبر ولابدّ لنا من الرجوع إليه .

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، كان يقول عند التعزية : عليكم بالصّبر ، فإنّ به يأخذ الحازمُ ، ويعود إليه الجازع .

وقال أبو خِراش الهُذَلِيّ يذكر أخاه عُروة :

تقول أراهُ بعدَ عُروة لاهِياً ... وذلك رُزْءٌ لو علمتِ جليلُ[1]

فلا تحسَبي أنّى تناسيتُ عهدَه ... ولكنّ صبرى يا أُمَيم جميلُ

وقال عمرو بن مَعدِيكرِب :

كم مِنْ أخٍ لىَ صالحٍ ... بوّأتُه بِيدَىَّ لَحْدَا[2]

---

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١١٦ . (٢) ديوان الحماسة ١ : ١٧٤ ، ١٧٥ ـ بشرح التبريزى .

ألبَسْـــتُهُ أكفانَهُ وخُلِقتُ يومَ خُلِقتُ جَلْدَا

وكان يقال : من حدّث نفسه بالبقاء ، ولم يُوَطّنها على المصائب ، فهو عاجزُ الرأى .

وكان يقال : كفى باليَأس مُعزِّيا ، وبانقطاع الطمع زاجرا !

وقال الشاعر :

أيا عمْرُو لَمْ أصبر ولى فيكَ حِيلةٌ ولـكن دَعانى اليأسُ منكَ إلى الصّبر
تصـــبّرتُ مغلوبا وإنّى لمُوجَـعٌ كما صَـــبر العُطّانُ فى البَلَدَ القفْرِ

(١٤١)

الأصل :

كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْعَنَاء . حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ !

***

الشرح :

الأكياس ها هنا العلماء العارفون ؛ وذلك لأنّ عباداتِهم تقع مطابِقةً لعقائدهم الصحيحة ، فتكون فروعا راجعةً إلى أصلٍ ثابت ، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى ، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجهةً إليه فلم تكن مقبولةً ، ولذلك فسدَتْ عِبادة النصارى واليهود .

وفيهم وردَ قوله تعالى : ﴿ عامِلةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلَى نارًا حامِيَةً ﴾[1] .

---

(١) سورة الغاشية ٣ ، ٤ .

(١٤٢)

الأصْلُ :

سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى الصّدقة والزّكاة والدّعاء ، فلا معنى لإعادةِ القولِ فى ذلك .

(١٤٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي :

قال كُمَيل بنُ زياد : أخذ بيدِى أميرُ المؤمنين علىٌّ بنُ أبى طالبٍ عليه السلام فأخرجنى إلى الجبّانِ ، فلما أصحرَ تنفّس الصُّعداء ، ثمّ قالَ :

يا كُمَيْلَ بْنَ زِيادٍ ؛ إنَّ هذهِ الْقُلوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُها أَوْعاها ، فَاحْفَظْ عَنّى ما أَقُولُ لَكَ .

النّاسُ ثَلاثَةٌ : فَعالِمٌ رَبّانِىٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبيلِ نَجاةٍ ، وَهَمَجٌ رِعاعٌ أَتْباعُ كُلِّ ناعِقٍ يَميلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضيئوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إلَى رُكْنٍ وَثيقٍ .

يا كُمَيْلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمالِ ؛ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمالَ . وَالْمالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإنْفاقِ ، وَصَنِيعُ الْمالِ يَزُولُ بِزَوالِهِ .

يا كُمَيْلَ بْنَ زِيادٍ ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الإنْسانُ الطّاعَةَ فِى حَياتِهِ ، وَجَميلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفاتِهِ . وَالْعِلْمُ حاكِمٌ ، وَالْمالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ .

يا كُمَيْلَ بْنَ زِيادٍ ؛ هَلَكَ خُزّانُ الأَمْوالِ وَهُمْ أَحْياءٌ ، وَالْعُلَماءُ باقُونَ ما بَقِىَ الدَّهْرُ ؛ أَعْيانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثالُهُمْ فِى الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . ها إنَّ هاهُنا لَعِلْماً جَمّاً - وَأَشارَ إلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ! بَلَى أُصِيبُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيا ، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبادِهِ ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيائِهِ ،

أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ . أَلَا لَاذَا وَلَا ذَاكَ ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ .

اللَّهُمَّ بَلَى ؛ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً ، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً ، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ .

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ ! أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَداً ، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً ، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ . هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رَوْحَ الْيَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ؛ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ ، آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ !

انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ .

* * *

الشَّرْحُ :

الجَبّان والجَبّانة : الصّحراء .

وتنفّس الصُّعَداء ، أى تنفّس تنفُّسا ممدودا طويلا .

قولُه عليه السلام : « ثلاثة » قِسمةٌ صحيحة ، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأمور الإلهيّة: إمّا عالِم على الحقيقة يَعرِف الله تعالى ، وإمّا شارع فى ذلك فهو بعد فى السّفر إلى الله يَطلُبه بالتعلّم والاستفادة من العالم ، وإمّا لا ذا ولا ذاك ؛ وهو العامّىّ الساقط الّذى

لا يَعبأ اللهُ . وصَدَق عليه السلام فى أنّهم همج رَعاع أتباعُ كلّ ناعق ، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخصٍ إلى تقليدِ الآخَر ، لأدنى خَيال وأضعفِ وَهْم !

ثمّ شرع عليه عليه السلام فى ذِكر العلم وتفضيلِه على المال ، فقال : « العلم يَحرُسك ، وأنت تَحرُس المال » ، وهذا أحدُ وجوه التفضيل .

ثمّ ابتدأ فذَكَر وجها ثانيا ؛ فقال : المالُ يَنقُص بالإنفاق منه ، والعلم لا يَنقُص بالإنفاق بل يزكو ؛ وذلك لأنّ إفاضةَ العلم على التلامذة تفيد المُعلّمَ زيادَة استعداد ، وتقرُّر فى نفسه تلك العلوم الّتى أفاضها على تلامذته وتثبّتها وتزيدها رسوخا .

فأمّا قوله : « وصَنيعُ المال يزولَ بزواله » ، فتحته سرّ دقيق حكمىّ ، وذلك لأنّ المال إنما يَظهر أثرُه ونفعُه فى الأمور الجسمانية ، والملاذّ الشّهوانية ، كالنّساء والخيل والأبنية والمأكل والمشرَب والمَلابس ونحو ذلك ؛ وهذه الآثار كلّها تزول بزوال المال أو بزوال ربِّ المال ؛ ألا ترَى أنّه إذا زال المالُ اضطرّ صاحبُه إلى بَيع الأبنية والخيل والإماء ، ورَفَض تلك العادة من المآكل الشهيّة والملابس البهيّة ! وكذلك إذا زال ربُّ المالِ بالمَوْت، فإنّه تزول آثارُ المالِ عندَه : فإنه لا يبقَى بعد الموت آكِلاً شاربا لابساً ، وأما آثار العِلم فلا يمكن أن تزولَ أبدا والإنسان فى الدّنيا ، ولا بعدَ خروجه عن الدّنيا ؛ أما فى الدنيا فلأنّ العالِمَ بالله تعالى لا يعودُ جاهلا به ، لأنّ انتفاء العلوم البديهيّة عن الذّهن وما يَلزَمها من اللّوازم بعدَ حصولها مُحال ، فإذاً قد صَدَق قولُه عليه السلام فى الفَرْق بين المالِ والعِلم : « إنّ صنيع المال يَزولُ بزواله » ، أى وصنيع المال لا يَزول ولا يحتاج إلى أن يقول « بزَواله » لأنّ تقديرَ الكلام: وصنيع المال يزول ، لأنّ المالَ يَزول ؛ وأما بعدخروج الإنسانِ من الدّنيا فإنّ صنيع العِلْم لا يزول ، وذلك لأن صنيعَ العِلم فى النّفس الناطقة اللّذّة العقليّة الدائمة لدوام سببها ، وهو حصولُ العِلم فى جَوْهر النفس الّذى هو مَعشُوق

النّفس مع انتفاء ما يُشغِلها عن التمتّع به، والتلذّذ بمصاحبته ؛ والّذى كان يشغِلها عنه فى الدّنيا استغراقُها فى تدبير البدن، وما تُورِدُه عليها الحواسّ من الأمور الخارجيّة ، ولاريبَ أنّ العاشق إذا خلا بمَعشوقِه ، وانتفَتْ عنه أسبابُ الكَدَر ، كان فى لذّة عظيمة ، فهذا هو سرُّ قولِه : « وصنيع المال يزولُ بزَواله » .

فإن قلت : ما معنى قولِه عليه السلام : « معرفةُ العِلْم دِينٌ يُدانُ به » ، وهل هذا إلّا بمنزلة قولك : معرفةُ المَعرِفة أو عِلم العِلم ! وهذا كلامٌ مضطرِب .

قلت : تقديرُه : معرفةُ فَضْل العلم أو شَرفِ العلم ، أو وُجوب العلم دِينٌ يُدانُ به ، أى المعرفة بذلك من أمرِ الدّين ، أى رُكنٌ من أركان الدّين واجبٌ مفروض .

ثمّ شَرَح عليه السلام حالَ العِلْم الّذى ذكر أنّ معرفةَ وجُوبهأو شرفه دِينٌ يُدانُ به ، فقال : « العِلم يَكسِب الإنسانَ الطّاعة فى حَياته » ، أى مَنْ كان عالما كانلله تعالى مُطيعا، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾[1] .

ثم قال : « وجميل الأُحدوثة بعدَ وفاتِه » ، أى الذّكر الجميل بعد موْته .

ثم شرع فى تفضيل العِلم على المال من وجهٍ آخَر ، فقال : « العلمُ حاكِم ، والمال محكومٌ عليه » ، وذلك لِعلْمك أنّ مَصلحتَك فى إنفاق هذا المال تُنفقه ، ولِعلمك بأنّ المصلحة فى إمساكه تمسكه ، فالعِلم بالمصلحة داعٍ ، وبالمَضرّة صارف ؛ وهما الأمْران الحاكِمان بالحرَكات والتصرّفات إقداما ، وإحْجاما ، ولا يكون القادر قادرا مختارا إلّا بأعتبارها ؛ وليسا إلّا عبارةً عن العِلم أو ما يجرى مَجرَى العِلم من الأعتقاد والظّنّ ، فإذَنْ قد بان وظهرَ أن العلم من حيثُ هُوَ علمٌ حاكم ، وأنّ المال ليس بحاكم ، بل محكوم عليه .

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

ثم قال عليه السلام : « هَلك خُزّان المال وهم أحياء » ، وذلك لأنّ المالَ المخزون لافرقَ بينه وبين الصّخرة المدفونة تحتَ الأرض ، فخازِنه هالك لا مَحالَة ، لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه؛ ولم يَصرِفه فى الوجوه الّتى نَدَب اللهُ تعالى إليها ؛ وهذا هو الهلاك المَعْنَوىّ ، وهو أعظمُ من الهلاك الحِسّىّ .

ثم قال: « والعلماء باقون مابقىَ الدهر » ؛ هذا الكلامُ له ظاهر وباطن ، فظاهرُه قولُه : « أعيانُهم مفقودة ، وأمثالُهم فى القلوب موجودة » ، أى آثارُهم وما دوّنوه من العُلوم ، فكأنّهم موجودون ، وباطنه أنّهم موجودون حقيقةً لا مجازا ، على قولِ مَن قال ببقاء الأنفس ، وأمثالهم فى القلوب كنايةٌ ولُغز ، ومعناه ذواتُهم فى حظيرة القُدّوس ؛ والمُشارَكة بينها وبين القلوب ظاهرة ، لأنّ الأمر العامّ الّذى يَشمَلُهما هو الشّرف ، فكما أنّ تلك أشرَفُ عالَمِها ، كذا القلبُ أشرفُ عالَمه ، فاستُعير لفظُ أحدِهما وعُبِّر به عن الآخَر .

قولِه عليه السلام : « ها إنّ ها هنا لَعِلْما جَمّا ، وأشار بيَدِه إلى صدره » ، هذا عندى إشارةٌ إلى العِرْفان والوُصول إلى المقام الأشرَف الّذى لا يصل إليه إلّا الواحد الفَذّ من العالَم ممّن لله تعالى فيه سرّ ، وله به اتّصال .

ثم قال : « لو أصبت له حَمَلَةً ! » ومن الّذى يُطيق حَمْله ! بل مَن الذى يُطيق فهمَه فضلا عن حَمْلِه !

ثم قال : « بلى أصيب » .

ثمّ قسّم الذى يصيبهم خمسةَ أقسام :

أحدُهم : أهلُ الرّياء والسُّمعة؛ الذين يظهِرون الدّين والعلم ومقصودُهم الدّنيا، فيَجعَلون النّاموس الدّينى شَبَكة لاقتناص الدّنيا .

وثانيها : قومٌ من أهل الخير والصّلاح ليسوا بذَوِى بَصيرة فى الأمور الإلهيّة الغامضة،

فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تَنقدِح فى قلوبهم شُبْهة بأدنى خاطر ؛ فإنّ مَقَام المعرفة مَقَامٌ خَطِر صَعْب لا يَثْبُت تحتَه إلّا الأفرادُ من الرّجال ، الذين أُيِّدوا بالتّوفيق والعصمة .

وثالثها : رجلٌ صاحبُ لَذّات وَطَرب مشتهِر بقضاء الشّهوة ، فليس من رجالِ هذا الباب .

ورابعُها : رجلٌ عرف بجَمْع المال وادّخارِه ، لا يُنفقه فى شَهَواته ولا فى غيرِ شَهَواته ، فحُكمُه حكمُ القِسْم الثالث .

ثم قال عليه السلام : « كذلك يَمُوت العِلمُ بموت حامِليه » ، أى إذا متُّ ماتَ العِلمُ الذى فى صدرى ، لأنى لم أجد أحدا أدفعه إليه ، وأُوَرِّثُه إيّاه . ثم اُستدرك فقال : « اللّهمّ بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ بحجّة الله تعالى » كَيْلا يخلوَ الزمان ممّن هو مهيمنٌ لله تعالى على عبادِه ، ومسيطِرٌ عليهم؛ وهذا يكاد يكونُ تصريحا بمَذهب الإماميّة ، إلّا أنّ أصحابَنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الذين وردت الأخبارُ النبويّة عنهم أنّهم فى الأرض سائحون ، فمنهم من يُعرَف ، ومنهم من لا يُعرَف ، وإنهم لا يموتون حتى يودِعُوا السرّ ، وهو العِرْفان عند قومٍ آخَرين يقومون مَقامَهم .

ثمّ استنزَرَ عددَهم فقال : « وكم ذا ! » أى كم ذا القَبِيل ! وكم ذا الفريق !

ثم قال : « وأين أولئك ! » استبهَم مكانَهم ومحلَّهم .

ثم قال : « هم الأقلّون عددا ، الأعظمون قدْدا » .

ثمّ ذكر أنّ العِلم هجم بهم على حقيقة الأمر ، وانكَشَف لهم المستور المغطَّى ، وباشروا راحَة اليقين وبَرْدَ القَلْب وثَلْج العِلم ، واُستَلَانوا ماشَقّ على المترَفين من النّاس ، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشّهوات وخُشونة العيشة .

قال : « وأنِسوا بما أُستوحَش منه الجاهلون » ، يعنى العُزْلةَ ومجانبَةَ الناس ، وطول الصّمت ، وملازَمة الْخلْوة ؛ ونحوَ ذلك ممّا هو شِعار القوم .

قال : « وصَحِبوا الدّنيا بأرواحٍ أبدانُها معلَّقةٌ بالمَحَلّ الأعلى » ، هذا ممّا يقوله أصحابُ الحِكمة مِن تعلّق النفوس المجرَّدة بمبادئها من العقول المفارقة ، فمن كان أزكَى كان تعلُّقُه بها أتمّ .

ثم قال : « أولئك خُلفاء الله فى أرضِه ، والدعاةُ إلى دينـه » ، لا شُبهةَ أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمّى خليفة الله فى أرضِه ، وهو المعنى بقوله سبحانه للملائكة ﴿ أنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة ﴾(١) ، وبقوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَكُم خَلائِفَ فى الأرض ﴾(٢) .

ثم قال : « آهِ آهِ شوقاً إلى رؤيتهم ؟ » ، هو عليه السلام أحقّ الناس بأن يشتاق إلى رؤيتهم ، لأنّ الجنسية عِلّة الضمّ ، والشىء يشتاق إلى ماهو من سِنخِه وسُوسَتِه وطبيعته ، ولما كان هو عليه السلام شيخ العارفين وسيّدَهم ، لا جَرَم . اشتاقت نفسه الشريفةُ إلى مُشاهدةِ أبناء جنسِه ، وإن كان كلٌّ واحد من الناس دونَ طبقته .

ثم قال لِكَميل : « انصرفْ إذا شئت » ، وهذه الكلمة من محاسِن الآداب ، ومن لطائف الكلم ، لأنه لم يقتصر على أن قال : «انصرف» كيلا يكونَ أمرا وحُكْما بالانصراف لا محالة ، فيكون فيه نوعُ عُلوٍّ عليه ، فأتبَع ذلك بقوله : « إذا شئتَ » ليُخرِجه من ذُلّ الحكم وقَهْر الأمر إلى عِزّة المشيئة والاختيار .

---

(١) سورة البقرة ٣٠ . (٢) سورة الأنعام ١٦٥ .

(١٤٤)

الأصل :

الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

***

الشرح :

قد تكرّر هذا المعنى مرارا ، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها فى الإيجاز والدلالة على المعنى ، وهى من ألفاظه عليه السلام المعدودة .

وقال الشاعر :

وكائنْ ترَى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتُه أو نقصُه فى التكلُّمِ[1]
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدّم

وتكلم عبدُ الملك بنُ عُمَيْر وأعرابىٌّ حاضر ، فقيل له : كيف ترَى هذا ؟ فقال : لو كان كلامٌ يؤتدَم به لكان هذا الكلامُ مما يؤتدَم به .

وتكلم جماعةٌ من الخطباء عند مَسلَمة بن عبد الملك فأسْهَبوا فى القول ، ولم يَصنعوا شيئاً ، ثمّ أفرغ النطق رجل من أخرياتهم ، فجعل لا يخرُج من فنّ إلّا إلى أحسنَ منه ، فقال مَسلَمة : ما شبّهت كلامَ هذا بعقب كلام هؤلاء[2] إلّا بسحابةٍ لبدتْ عجاجةً .

وسمع رجلٌ منشدا ينشد :

وكان أخلّائى يقولون مَرْحَباً فلمّا رأوْنى مُقتِرا مات مَرْحَبُ

---

(١) ينسبان لزهير ، من معلقته ٩٤ بشرح الزوزنى . (٢) بعدها فى د : « أصحابه » .

فقال : أخطأ الشاعر ، إنّ مرحبا لم يَمُت ، وإنما قتله عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام !

وقال رجل لأعرابيّ : كيف أهلك ؟ قال : صلبا إن شاء الله .

وكان مَسلَمة بن عبد الملك يعرض الجند ؛ فقال لرجل : ما اسمك ؟ فقال : «عبدِ» الله ، وخَفض ، فقال : ابنُ من ؟ فقال : ابن « عبدَ » الله ، وفتح ، فأمر بضربه ، فجعل يقول : « سبحانُ » الله ، ويَضمّ ، فقال مَسلَمة : ويحكم ! دعوه فإنه مجبولٌ على اللّحن والخطأ ، لو كان تاركًا للحن في وقتٍ لتركه وهو تحت السّياط .

(١٤٥)

الأصْلُ :

هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَه .

***

الشّرْحُ :

هذه الكلمة من كلماته المعدودة . وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتابا يُدِلّ فيه بخِدْمته ، ويستزيد في رِزْقه ، فوقّع على ظهره : رحِمَ الله امرأً عَرَفَ قدرَه ! أنتَ رجلٌ قد أعجبَتْك نفسُك فلستَ تعرِفها ، فإن أحببتَ أن أعرّفكَها عرّفتُك . فكتب إليه النعمان : كنتُ كتبتُ إلى الوزير أعزّه الله كتابا أستزيده في رِزْق ، فوقّع على ظهره توقيع ضَجِرٍ لم يخرج فيه مع ضَجَره عمّا أَلِفتُه من حِياطته وحُسنِ نظره، فقال : إنَّه قد حدَثَ لعَبْده عُجْب بنفسِه ، وقد صدق ـ أعلى الله قدرَه ـ لقد شرّفني الوزيرُ بخِدْمته ، وأعلى ذكري بجميل ذِكرِه، ونبّه على كفايتي باُستكفائه ، ورَفَعني وكثّرني[1] عندَ نفسي ، فإن أعجَبْتُ فبنعمتِه عندي ، وجميلِ تطوّله عليّ ، ولا عجب ، وهل خلا الوزيرُ من قومٍ يَصطَنِعهم بعدَ مَلّة ويرفَعهم بعد خُمول، ويُحدِث لهم هِمَمًا رفيعة وأنفسا عليّة ، وفيهم شاكر وكَفور ، وأرجو أن أكون أشكرَهم للنعمة ، وأقومَهم بحقّها . وقد أطال الله بقاءه : إن عَرَفَ نفسَه وإلّا عرّفناه إيّاها ، فما أنكرَها ، وهي نفس أنشأتْها نعمةُ الوزير وأحدثَتْ فيها ما لم تزل تُحدثه في نُظَرائها من سائر عبيدِه وخدَمِه ؛ والله يَعلَم ما يأخذ به نفسَه من خدمةِ مولاه وولىِّ نعمتِه ، إمّا عادةً ودُرْبة وإما تأدّبا وهَيْبة ، وإمّا شكراً واستدامةً للنعمة .

فلما قرأ القاسمُ بنُ عبيد الله كتابَه استحسَنَه ، وزاد في رِزْقه .

---

(١) ب : « كبّرني » .

(١٤٦)

الأصـل :

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ ؛ يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ .

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُبْغِضُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً ، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِياً . يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ ! وَإِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا ، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرًّا ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ . إِنِ اسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ ، وَإِنِ افْتَقَرَ قَنِطَ وَوَهَنَ ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ؛ إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ .

يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ .

يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى ؛ يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَماً ، وَالْغُرْمَ مَغْنَماً ، يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْفَوْتَ ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ

مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يُحَقِّرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ .

اَللَّغْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُغْوِي غَيْرَهُ[1] ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي ، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

* * *

قال الرّضىّ رحمه الله تعالى :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا هَذَا الْكَلَامُ لَكَفَى بِهِ مَوْعِظَةً نَاجِعَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَبَصِيرَةً لِمُبْصِرٍ ، وَعِبْرَةً لِنَاظِرٍ مُفَكِّرٍ .

* * *

الشّرح :

كثير من الناس يَرجون الآخرَة بغيرِ عمَل ، ويقولون : رحمة الله واسِعة ؛ ومنهم من يَظنُّ أنّ التلفّظ بكلمتَى الشهادة كافٍ فى دُخول الجنّة ، ومنهم من يسوِّف نفسَه بالتوبة ، ويرجئُ الأوْقات من اليوم إلى غَد ، وقد يُخترَم على غِرّة فيفوتهُ ما كان أمّله، وأكثرُ هذا الفصل للنّهى عن أن يقول الإنسان واعظا لغيره ما لم يعلمْ هو منْ نفسِه ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾[2] .

فأوّل كلمةٍ قالَها عليه السلام فى هذا المعنى من هذا الفصل قولُه : «يقول فى الدّنيا بقول الزّاهدين ، ويَعمَل فيها بعمل الراغبين » .

---

(١) د « يرشد غيره ويغوى نفسه » . (٢) سورة البقرة ٤٤ .

ثم وَصَف صاحبَ هـذا المذهب وهذه الطريقة فقال : « إنه إنْ أعطِيَ من الدّنيا لم يَشبَع » ، لأنّ الطبيعة البشريّة مجبولةٌ على حُبّ الازدياد ، وإنما يَقهرها أهلُ التوفيق وأربابُ العَزْم القويّ .

قال : « وإن مُنِع منها لم يَقنَع » بما كان وَصَل إليه قبل المَنْع .

ثم قال : يَعجَز عن شكرِ ما كان أنعَمَ به عليه ، ليس يعني العجزَ الحقيقيّ ، بل المراد تَرْكَ الشكر ، فسمّى تركَ الشكر عَجزاً . ويجوز أن يُحمَل على حقيقته ، أى أنّ الشكر على ما أُولِيَ من النّعم لا تَنتهى قُدْرَته إليه ، أى نِعَم الله عليه أجلّ وأعظَم من أن يُقام بواجب شكرها .

قال : « ويَبتغِي الزيادةَ فيما بَقِي » ، هذا راجعٌ إلى النحو الأوّل .

قال : « يَنهَى ولا يَنتهِي ويأمرُ الناسَ بما لا يأتى » ، هذا كما تقدّم .

قال : « يُحِبّ الصالحين ولا يَعمَل عَمَلهم » ، إلى قوله : « وهو أحدُهم » ، وهو المعنى الأوّل بعينه .

قال : يَكرَه الموتَ لكثْرةِ ذُنوبه ، ويقيمُ على الذّنوب ، وهـذا من العجائب أن يَكرَه إنسانٌ شيئاً ثم يُقيمُ عليه ، ولكنّه الغرورُ وتسويفُ النّفس بالأمانيّ .

ثم قال : « إن سَقِمَ ظَلّ نادما ، وإن صَحّ أَمِنَ لاهيا » ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾(١) . . . الآيات .

قال : « يُعجَب بنفسه إذا عُوفِي ، ويَقنَط إذا ابتُلِي » ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾(٢) ، ومِثل الكلمة الأخرى : « إن أصابَه بَلاء » ، و « إنْ ناله رَخاء » .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٥ . (٢) سورة الفجر ١٥ ، ١٦ .

ثم قال: « تغلبه نفسُه على ما يَظنُ، ولا يغلبها على مايَستيقِن » ، هذه كلمةٌ جليلةٌ عظيمة يقول : هو يستيقِن الحسابَ والثوابَ والعقابَ ، ولا يغلِب نفسَه على مجانبةِ ومتاركةِ ما يُفضِي به إلى ذلك الخَطَر العظيم ، وتغلبُه نفسه على السّعى إلى ما يَظنّ أن فيه لَذّةً عاجلة؛ فواعجبا ممّن يترجّح عنـدَه جانبُ الظنّ على جانب العلم ! وما ذاك إلّا لضعفِ يقينِ الناس وحب العاجل .

ثمّ قال : « يخاف على غيره بأدنى من ذَنْبه ، ويرجو لنفسـه أكثرَ من عَمَله » ، ما يزال يرَى الواحد منّا كذلك يقول : إنّي لخائف على فلان من الذّنب الفلانيّ وهو مقيمٌ على أفحشَ من ذلك الذنب ، ويرجو لنفسِه النّجاة بما لا تقوم أعمالُه الصّالحة بالمصير إلى النّجاة به، نحو أن يكون يصلّي رَكعاتٍ في اللّيل أو يصومَ أياما يسيرةً في الشّهر ، ونحو ذلك .

قال : « إن اُستغنَى بَطِر وفُتِن ، وإن افتقر قَنِط ووهن » قنَط بالفتح يَقنِط بالكسر ، قنوطا مثل جَلَس يَجلِس جلوسا ، ويجوز قَنَط يَقنُط بالضمّ مثل قَعَد يَقعُد، وفيه لغة ثالثة : قَنِط يَقنَط قَنَطًا ، مثل تَعِب يَتعَب تَعبا و قَناطةً فهو قَنِط ، وبه قرئ : ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾[1] ، والقُنوط اليأس . ووهَن الرجلُ يَهِن ، أى ضَعُف وهذا المعنى قد تكرّر .

قال : « يقصِّر إذا عَمِل ، ويُبالِغ إذا سُئِل » ، هذا مِثْلُ ما مَدَحَ به النبيّ صلّى الله عليه وآله الأنصارَ : « إنـكم لتَكثُرون عند الفزَع ، وتَقِلّون عند الطمع » .

قال : « إن عَرَضَتْ له شهوةٌ أسلَفَ المعصية ، وسوّف التوبة ، وإن عرَتْه مِحنة اُنفرج عن شرائط المِلّة » ، هذا كما قيل : أمدَحُه نَقْدا ويُثيبُنى نَسِيئة ، وانفرج عن شرائط الملّة ، قال: أوفعل مايقتضي الخروجَ عن الدّين ؛ وهذا موجودٌ في كثيرٍ من الناس إذا عرته المِحَن كَفَروا أو قال : ما يُقارِب الكفرَ من التسخّط والتبرّم والتأفّف .

---

(١) سورة الحجر ٥٥ ، وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب ، وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ٣٦ .

قال : « يَصِفُ العِبْرة ولا يَعتبِر ، ويُبالِغ فى الموعظة ولا يتّعظ » ، هــذا هو المعنى الأوّل .

قال : « فهو بالقول مُدِلّ ، ومن العمل مُقِلّ » ، هذا هو المعنىّ أيضا .

قال : « ينافِسُ فيما يَفنَى » ، أى فى شَهَوات الدنيا ولذّاتها ، و « يُسامِح فيما يَبقَى » أى فى الثّواب .

قال : « يرَى الغُنْم مَغرَما ، والغُرْم مَغنَما » ، هذا هو المعنَى الّذى ذكرْناه آنِفا .

قال : « يَخشَى الموت ، ولا يُبادِر الفَوْت » ، قد تـكرّر هذا المعنى فى هذا الفَصْل ، وكذلك قولُه : « يَستعظِم من معصيةِ غيرِه ما يستقلّ أكثر منه من نفسِه . . . » ، وإلى آخر الفصل كلٌّ مكرّر المعنى وإن اختلفت الألفاظ ، وذلك لاقتدارِه عليــه السلام على العِبارة ، وسَعَةِ مادّة النّطق عندَه .

(١٤٧)

الأصل :

لِكُلِّ أُمْرِئٍ عاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ .

***

الشرح :

هكذا قرأناه ووجدْناه فى كثيرٍ من النُّسَخ ، ووجدْناه فى كثيرٍ منها « لكلّ أمرٍ عاقبة » ، وهو الأليَق ، ومثل هذا المعنى قولُهم فى المَثَل : لكلّ سائلٍ قَرار ، وقد أخَذَه الطائىّ فقال :

فكانتْ لوعةً ثمّ استقرّتْ ... كذاكَ لكلّ سائلةٍ قَرارُ[١]

وقال الكُمَيت فى مِثلِ هذا :

فالآنَ صِرْتَ إلى أُمَيّـ ... ـةَ والأمورُ إلى مَصايرْ[٢]

فأمّا الرواية الأولى وهى : « لكلّ امرئٍ » فنظائرُها فى القرآن كثيرة ، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيد﴾[٣]، وقوله : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٤] ، وغير ذلك من الآيات .

---

(١) ديوانه ٢ : ١٥٣ .　(٢) الأغانى ١٥ : ١١١ (ساسى) .

(٣) سورة هود ١٠٥ .　(٤) سورة والنازعات ٣٥ ـ ٤١ .

(١٤٨)

الأصْـلُ :

الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ : إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ .

***

الشَّـرْح :

لا فرقَ بين الرّضا بالفعل وبين المُشارَكة فيه ؛ ألا ترى أنّه إذا كان ذلك الفعل قبيحا استحقّ الراضي به الذمّ كما يستحقّه الفاعل له ! والرّضا يفسَّر على وجهين : الإرادة، وتَرْك الاعتراض، فإن كان الإرادة فلا رَيْب أنّه يَستحِق الذّم لأنّ مُرِيد القَبِيح فاعلٌ للقبيح ، وإن كان ترك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض فلا رَيْب أنّه يستحقّ الذمّ أيضا، لأنّ تاركَ النهي عن المنكر مع ارتفاع المَوانِع يستحقّ الذمّ .

فأمّا قولُه عليه السلام : « وعلى كلّ داخل فى باطلٍ إثمان » ، فإن أراد الدّاخل فيه بأن يَفعَله حقيقةً فلا شُبْهة فى أنّه يأثم من جهتين :

إحداهما من حيثُ إنّه أراد القبيح .

والأخرى من حيث إنه فعَله ، وإن كان قومٌ من أصحابنا قالوا : إنّ عِقابَ المُراد هو عقابُ الإرادة .

وإن أراد أنّ الراضيَ بالقبيح فقط يستحقّ إثمين : أحدهما لأنّه رَضِيَ به ، والآخَر لأنه كالفاعل ، فليس الأمْر على ذلك ، لأنّه ليس بفاعل للقبيح حقيقةً ليستحقّ الإثم من جهة الإرادة ومن جهة الفعليّة جميعا ، فوَجَب إذَنْ أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على الوجه الأوّل .

(١٤٩)

الأصل :

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ ، وَمَا أَدْبَرَ فَكَأَنْ لَمْ يَكُنْ .

***

الشرح :

هذا معنًى قد استُعمل كثيرا جدّا ، فمنه المثل :

ما طارَ طيرٌ وارتفعْ إلّا كما طارَ وَقَعْ

وقول الشاعر :

بقدْرِ العُلوّ يكونُ الهبوطُ وإيّاكَ والرُّتبَ العاليَهْ

وقال بعض الحكماء : حركةُ الإقبال بطيئة ، وحركة الإدبار سريعة ، لأن المُقبل كالصاعد إلى مِرْقاة ، ومِرْقاةُ المُدبِر كالمقذوف به من علْو إلى أسْفل ، قال الشاعر :

فى هذِه الدّار فى هذا الرّواقِ على هذى الوِسادة كان العزُّ فانقرَضا

آخر :

إنّ الأمورَ إذا دَنَتْ لزَوالها فعلامَةُ الإدبار فيها تظهرُ

وفى الخبر المرفوع : كانت ناقةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله العَضْباء لا تُسْبَق ، فجاء أعرابىٌّ عَلَى قَعودٍ له فسبَقها ، فاشتد على الصحابة ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ حقّا على الله ألّا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلّا وَضَعه » .

وقال شيخٌ من هَمْدانَ : بعثنى أهلى فى الجاهليّة إلى ذى الكَلَاع بهدَايا ، فكنتُ

تحت قصرِه حَوْلا لا أصِل إليه ، ثم أشرَف إشرافةً من كُوّةٍ له نخرّ له مَنْ حَوْلَ العرش سُجَّدا ، ثمّ رأيتُه بعد ذلك بحِمْص فقيرا يشترى اللّحم ويسمِّطه (١) خلف دابته ، وهو القائل:

أفٍّ لدنيَا إذا كانت كذا ... أنا منها فى همومٍ وأذَى
إنْ صفا عيشُ امرىءٌ فى صُبْحها ... جَرّعتْه ممسِيًا كأس القَذَى
ولقد كنتُ إذا ما قِيل مَن ... أنعَمُ العالَم عَيْشا ؟ قيل : ذا

وقال بعضُ الأدباء فى كلامه: بينا هذه الدنيا تُرضع بدرّتها وتصرّح (٢) بزبدتِها، وتلحِف فضل جناحِها ، وتغرّ بركود رياحِها ، إذ عطفتْ عطف الضّروس ، وصرَخت صُراخ (٣) الشّموس ، وشنّت غارة الهموم ، وأراقت ما حَلبتْ من النعيم ، فالسعيد من لم يغترّ بنكاحِها، واستعدّ لو شك طَلاقها .

شاعر ـ هو إهاب بن همام بن صَعْصعة المجاشعى ؛ وكان عثمانيًا :

لعمرُ أبيكَ فلا تَكذِبَنْ ... لقد ذهبَ الخيرُ إلاّ قليلاَ
وقد فُتِنَ الناسُ فى دِينِهمْ ... وخَلّى ابنُ عَفّان شرّا طويلا

وقال أبو العتاهية :

يَعمُرُ بيتٌ بخراب بيْتِ ... يَعيشُ حىٌّ بتراثِ مَيْتِ

وقال أنس بن مالك : ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا شهرٍ ولا سنةٍ إلاّ والذى قبله خيرٌ منه، سمعتُ ذلك من نبيِّكم عليه السلام ، فقال شاعر :

ربَّ يومٍ بكيتُ منه فلمّا ... صرتُ فى غيرِه بكيتُ عليهِ

---

(١) يسمطه ، أى يعلقه . (٢) ب : « تصرخ » ، تحريف .
(٣) ب : « صرحت » تحريف .

قيل لبعض عُظماء الكُتّاب بعد ما صُودِر : ما تُفكِر فى زوال نِعمَتِك ؟ فقال : لابدّ من الزوال ، فلأن تزولَ وأبقى خيرٌ من أن أزولَ وتبقى .

ومِن كلام الجاهلية الأولى : كلّ مقيمٍ شاخِص ، وكل زائدٍ ناقص .

شاعر :

إنما الدنيـا دُوَلْ　　　فراحِلٌ قيلَ نَزَلْ

* إذ نازلٌ قِيـلَ رَحَلْ *

لمـا فَتحَ خالدُ بنُ الوليد عين التمر سأل عن الحُرَقة بنتِ النّعمان بن المنذر ، فأتاها وسألها عن حالهـا ، فقالت : لقد طلعتْ علينا الشمس وما من شيء يَدِبّ تحت الخَوَرْنَق إلا وهو تحتَ أيدينا ، ثم غَرَبَتْ وقد رَحِمنا كلّ من نُلِمُّ به ، وما بيت دخلته حَبْرَة ، إلّا ستدخله عَبْرة ، ثم قالت :

فبَيْنَا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا　　　إذا نحن فيهمْ سُوقةٌ تتنصّفُ

فأفٍّ لدنيـا لا يَـدُوم نعيمها　　　تقلّب تاراتٍ بنـا وتَصرّفُ

وجاءها سعدُ بنُ أبى وقاص مرّة ، فلما رآهـا ، قال : قاتَل الله عَدِيَّ بن زيد ، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها :

إنّ للـدّهرِ صَرْعَـةً فاحذَرَنْها　　　لا تبيتنّ قد أمِنْتَ الدّهـورَا(١)

قد يبيتُ الفَتَى مُعَافًى فيَرْدَى　　　ولقد كانَ آمِناً مَسرُورا

وقال مطرِّف بنُ الشِّخِّير : لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك ولِينِ رِياشهم ، ولكن انظروا إلى سُرعةِ ظَعْنِهم وسوء مُنقَلَبهم ، وإن عُمْرًا قصيرا يستوجب بـه صاحبُه النار لعُمرٌ مشئومٌ على صاحبه .

لما قتل عامِرُ بنُ إسماعيل مَرْوانَ بن محمـد وقعَد على فراشه ، قالت ابنة مَرْوان له : ياعامر ، إنّ دهـراً أنزلَ مروانَ عن فُرُشِهِ وأقْعَدَكَ عليها لَمُبْلِغٌ فى عِظَتك إن عقلْتَ .

---

(١) شعراء النصرانية ، الأغانى .

(١٥٠)

الأصلُ :

لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وإنْ طَالَ بِهِ الزَّمانُ .

***

الشَّرحُ :

قد تقدّم كلامُنا في الصبر .

وقالت الحكماء : الصبرُ ضَرْبان : جسميّ ونفسيّ ، فالجسميّ تحمُّل المَشاقّ بقدر القوّة البدنيّة ، وليس ذلك بفضيلة تامّة ، ولذلك قال الشاعر :

والصبرُ بالأرواحِ يُعرَفُ فضلُه صبرِ الملوكِ وليس بالأجْسامِ

وهذا النوع إمّا في الفعل كالمشي ورَفْع الحجَر أو في رفع الانفعال كالصّبر على المرَض واحتمال الضرب المُقْظِع . وأما النفسيّ ففيه تتعلّق الفضيلة ؛ وهو ضَرْبان : صبرٌ عن مشتهى ، ويقال له : عِفّة ، وصَبْر على تحمل مكروه أو محبوب . وتختلف أسماؤه بحسب اختلافِ مَواقِعه ، فإن كان في نزول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصبر ، ويضادّه الجزَع والهلع والحُزْن ، وإن كان في احتمال الغنى سمّي ضبط النفس ، ويضادّه البَطر والأشَر والرّفغ وإن كان في محاربة سمّي شجاعةً ويضادّه الجبن ، وإن كان في إمساكِ النفس عن قضاء وَطَر الغضب سمي حِلْما ، ويضادّه التذمّر والاستشاطة ، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي سَعة صدْر ، ويضادّه الضَجَر وضيق العَطَن والتبرّم ، وإن كان في إمساكِ كلامٍ في الضمير سمّيَ كِتْمان السرّ ، ويضادّه الإفشاء ، وإن كان عن فضول العيش سمّي قناعةً وزهدا ويضادّه الحرْص والشّرَه . فهذه كلها أنواعُ الصبر ، ولكن اللفظ العرْفيّ واقع على الصبر الجُسْمانيّ ، وعلى ما يكون في نزول المصائب ، وتنفرد[١] باقي الأنواع بأسماء تخصُّها .

(١) ب : « وينفرد » .

(١٥١)

الأصْلُ :

مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا عند أصحابنا مختصٌّ باختلاف الدّعوة فى أصول الدّين ، ويدْخل فى ذلك الإمامة ، لأنها من أصول الدين ، ولا يجوز أن يختلِف قولان متضادّان فى أصول الدين فيكونا صوابا ، لأنه إن عَنَى بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج ؛ فستَحيل أن يكون الشىء فى نفسه ثابتا منفيا ، وإن أراد بالصّواب سُقوط الإثم — كما يحكى عن عُبَيْد بن الحسن العَنْبرى — فإنه جعل اجتهاد المجتهدين فى الأصول عُذْرًا ، فهو قولٌ مسبوق بالإجماع .

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على عمومِه ، لأن المجتهدين فى فروع الشريعة وإن اختلَفوا وتضادّت أقوالهمْ ليسوا ولا واحد منهم على ضلال ، وهذا مشروحٌ فى كُتُبنا الـكلاميّة فى أصول الفِقْه .

(١٥٢)

الأصْلُ :

مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضُلَّ بِى .

***

الشَّرْحُ :

هذه كلمةٌ قد قالها مرارا ، إحداهنّ فى وقعة النّهروان .

وكُذِبت بالضم أُخْبِرْت بخبَر كاذب ، أى لم يخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله عن المخدَج خبراً كاذبا ، لأن أخباره صلى الله عليه وآله كلها صادقة .

وضُلّ بى، بالضمّ نحو ذلك، أى لم يُضلِلنى مضلّل عن الصدق والحقّ ، لأنه كان يَسْتنِد فى أخباره عن الغيوب إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو منزّه عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين .

فكأنّه قال لما أخبرهم عن المخدَج[1] وإبطاء ظهورِه لهم : أنا لم أكذِب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا يكذب فيما أخبرنى بوقوعه ، فإذاً لابدّ من ظفرَكم بالمخدَج فاطلبوه .

(١) المخدج : ناقص اليد ؛ وهو ذو الثدية .

(١٥٣)

الأصل :

لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَدًا بِكَفِّهِ عَضَّةٌ .

***

الشرح :

هذا من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾(١) ، وإنما قال : « للبادى » لأنّ من انتصر بعد ظُلْمه فلا سبيل عليه . ومن أمثالهم : البادى أظلم .

فإن قلت : فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً ، فأىّ حاجة له إلى الاحتراز بقوله : « البادى » ؟

قلتُ : لأنّ العرب تُطلِق على ما يَقَع فى مُقابلة الظلم اسم « الظلم » أيضاً كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾(٢) .

---

(١) سورة الفرقان ٢٧ .　　(٢) سورة الشورى ٤٠ .

(١٥٤)

الأصلُ :

الرَّحِيلُ وَشِيكٌ .

* * *

الشرحُ :

الوشيكُ : السريع ، وأراد بالرحيل ها هنا الرّحيل عن الدنيا وهو الموت .

وقال بعضُ الحكماء : قبل وجود الإنسان عدم لا أوّل له ، وبعدَه عدَم لا آخر له ، وما شبّهت وجوده القليل(١) المتناهى بين العدمين غير المتناهِيَين إلّا ببَرْق يخطَف خَطفَة خفيفة(٢) فى ظلامٍ مُعتكر ، ثم يخمد ويَعود الظّلام كما كان .

---

(١) ا : « الوجود القليل » . (٢) ا : « يسيرة » .

(١٥٥)

الأصلُ :

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة فى أوّل الكتاب ، ومعناها : من نابَذَ الله وحاربه هلك ، يقال لمن خالَف وكاشَف : قد أبْدَى صَفْحَته .

(١٥٦)

الأصلُ :

استَعْصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَارِهَا .

***

الشَّرحُ :

أى فى مَظانّها وفى مركزها ، أى لا تستنِدوا إلى ذمامِ الكافرين والمارقين ، فإنهم ليسوا أهلا للاستِعصام بذممِهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾(١) . وقال : ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾(٢) .

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمرِ الجمل وحضور قومٍ من الطُّلَقاء بين يديه ليُبايعوه ، منهم مَرْوان بن الحكَم ؛ فقال : وماذا أصنع بِبَيْعتك ؟ ألم تُبايِعْنى بالأمْس ! يعنى بعدَ قتل عثمان ، ثم أمر بإخْراجهم ورفَعِ نفسه عن مبايعة أمثالهم ، وتكلم بكلامٍ ذكر فيه ذِمامَ العربية وذمامَ الإسلام ، وذكر أنّ من لا دِين له فلا ذِمامَ له .

ثم قال فى أثناء الكلام : « فاستعصِمُوا بالذمم فى أوتارِها » ، أى إذا صَدَرَتْ عن ذَوِى الدّين ، فمَنْ لا دين له لا عَهْدَ له .

---

(١) سورة التوبة ١٠ .   (٢) سورة التوبة ١٢ .

(١٥٧)

الأصل :

عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ فِي جَهَالَتِهِ .

***

الشرح :

يعنى نفسَه عليه السلام ؛ وهو حقّ على المذهَبين جميعا ، أما نحن فعندنا أنه إمامٌ واجبُ الطاعة بالاختيار ، فلا يُعذَر أحدٌ من المكلّفين فى الجهل بوجوب طاعته ، وأمّا على مذهبِ الشّيعة فلأنه إمامٌ واجبُ الطّاعة بالنّص ، فلا يُعْذَر أحدٌ من المكلفين فى جَهالة إمامته ، وعندهم أنّ معرفة إمامته تجرى مجرى معرفةِ محمد صلّى الله عليه وآله ومَجرَى معرفة البارئ سبحانه ، ويقولون : لا تصحّ لأحد صلاةٌ ولا صَوْمٌ ولا عبادة إلا بمعرفة الله والنبيّ والإمام .

وعلى التحقيق ، فلا فرق بيننا وبينهم فى هذا المعنى ، لأنّ من جَهل إمامة علىّ عليه السلام وأنكرَ صِحّتها ولزومها ، فهو عند أصحابنا مخلد فى النار ، لا ينفعه صوم ولا صلاة ، لأنّ المعرفة بذلك من الأصول الكلّيّة التى هى أركانُ الدين ، ولكنا لا نُسمّى مُنكر إمامته كافرا ، بل نسمّيه فاسقا ، وخارجيا ، ومارقا ، ونحو ذلك ، والشّيعة تسميه كافرا ، فهذا هو الفرْق بيننا وبينهم ، وهو فى اللفظ لا فى المعنى .

(١٥٨)

الأصْـلُ :

مَا شَـكَـكْتُ فِى الحَقِّ مُنذُ أُرِيتُهُ .

***

الشَّـرْحُ :

أى منذ أُعلِمْتُه ، ويجب أن يُقدَّر ها هنا مفعول محذوف ، أى منذ أُرِيته حقّاً ، لأنّ « أرَى » يتعدّى إلى ثلاثة مَفاعيـل ، تقول : أرَى اللهُ زَيدًا عَمْراً خيرَ الناس ، فإذا بنيتَه للمَفْعول به قام واحدٌ من الثلاثة مَقامَ الفاعِل ووَجَب أن يُؤتَى بمفعولين غيره ، تقول : أُريت زيداً خيرَ الناس ، وإن كان أشارَ بالحقّ إلى أمرٍ مُشاهَد بالبَصر لم يَحتَجْ إلى ذلك ، ويجوز أن يَعنِى بالحقّ اللهَ سبحانَه وتعالى ، لأنّ الحق من أسمائِه عزّ وجلّ ، فيقول : منذ عرفتُ اللهَ لم أشُكَّ فيه ، وتـكون الرؤية بمَعنَى المَعرِفة ، فلا يحتاج إلى تقدير مَفعولٍ آخَر ؛ وذلك مِثلُ قولِه تعـالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾(١) ؛ أى لا تَعرِفونهم ، الله يَعرِفهم ، والمراد من هذا الـكلام ذِكرُ نعمةِ الله عليه فى أنّه منذ عرَف الله سبحانَه لم يَشُكَّ فيه ، أو منذ عرف الحقّ فى العَقائد الـكلاميّة والأصوليّة وَالفِقْهيّة لم يشكّ فى شىء منها ؛ وهذه مزِيّةٌ له ظاهرة على غيرِه من النّاس ، فإنّ أكثَرَهم أو كلَّهم يشكّ فى الشىء بعـد أن عرفَه وتعتَوِره الشُّبَه والوَساوِس ويُران على قَلْبِه وتَختَلِجُه الشياطين عمّا أدّى إليه نظره .

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

وقد رُوِي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لمّا بعثه إلى اليمن قاضياً ضرب على صدره وقال : « اللهم اهدِ قلبه ، وثبّت لسانه » ، فكان يقول : ما شككتُ بعدها في قضاء بين اثنين .

ورُوِي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا قرأ : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[1] قال : « اللهم اجعلها أُذُنَ عليّ » ، وقيل له : « قد أُجيبتْ دعوتُك » .

---

(١) سورة الحاقة ١٢ .

(١٥٩)

الأصْـلُ :

وَقَدْ بُصِّرْتُمْ إنْ أبصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إنِ اهتَدَيْتُمْ .

***

الشَّـرْحُ :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[2] .

وقال بعض الصالحين : ألا إنّهما نَجْدا الخير والشّر ، فجعل نَجْد الشرّ أحب إليكم من نَجْد الخير .

قلت : النَّجْد : الطّريق.

واعلم أنّ الله تعالى قد نَصَب الأدِلّة ومَكّن المكلّف بما أكمَل له من العقل من الهداية، فإذا ضلّ فمِنْ قِبَل نفسِه أتى .

وقال بعضُ الحكماء : الّذى لا يَقبَل الحكمةَ هو الّذى ضَلّ عنها ليست هى الضالّة عنـــه .

وقال : متى أحسستَ بأنّك قد أخطأت وأردتَ ألّا تعود أيضا فتُخطئ فانظر إلى أصلٍ فى نفسك حَدَث عنه ذلك الخطأ ، فاحتَلْ فى قَلْعِه ، وذلك إنّك إن لم تفعل ذلك عادَ فثبَت خطأ آخر . وكان يقال : كما أنّ البدن الخالى من النفس تَفُوح منه رائحة النَّتْن ، كذلك النّفس الخالية من الحكْمَة ؛ وكما أنّ البَدَن الخالىَ من النّفس ليس يحسّ ذلك بالبدن

---

(١) سورة فصلت ١٧ . (٢) سورة البلد ١٠ .

بل الّذين لهم حِسّ يُحِسّونه به ، كذلك النّفس العَديمة للحكمة ليس تحسّ به تلك النفس ، بل يُحِسّ به الحكماء ؛ وقيل لبعض الحكماء : ما بالُ النـاسِ ضَلّوا عن الحقّ ؟ أتقول : إنّهم لم تُخْلَق فيهم قوّة معرفة ؟ فقال : لا ، بل خُلِق لهم ذلك ، ولكنّهم استعمَلُوا تلك القوّة على غير وجهِها ، وفى غير ما خُلِقَتْ له ، كالسّمّ تدفَعه إلى إنسانٍ ليَقتُل به عدوَّه فيَقْتُلُ به نفسَه .

(١٦٠)

الأصلُ :

عَاتِبْ أَخَاكَ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

* * *

الشرح :

الأصل فى هذا قولُ الله تعالى : ﴿ادْفَعْ بالتى هِىَ أَحْسَنُ فإذا الذى بينَكَ وبينهُ عداوة كأنّه ولىٌّ حميم﴾ (١) .

وروى المبرد فى " الكامل " ، عن ابن عائشة ، عن رجل من أهل الشام، قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلا راكباً على بغلة لم أرَ أحسَنَ وجهاً ولا ثوْباً ولا سَمْتا ولا دابّة منه ، فمال قلبي إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسَنُ بنُ الحسن بن علىّ ، فامتلأ قلبي لهُ بغضاً ، وحسدتُ علياً أن يكون له ابن مثله ، فصرتُ إليه وقلتُ له : أنت ابن أبى طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : فبك وبأبيك ! فلمّا انقضى كلامى قال : أحسَبك غريباً ؟ قلت : أجَل ، قال : فَمِلْ بنا ، فإن احتَجْت إلى منزلٍ أنزلنـاك ، أو إلى مالٍ واسَيْناك ، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك .

فانصرفْتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبّ إلىّ منه (٢) .

وقال محمود الورّاق :

إنّى شكرتُ لظالمى ظُلْمِى ... وغفَرْتُ ذاكَ لهُ على عِلْمِ
ورأيتهُ أهدَى إلىّ يداً ... لمّا أبانَ بجهلِهِ حِلْمى
رجعَتْ إساءتهُ عليه وإحـ ... ـسانى فعادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ

---

(١) سورة فصلت ٣٤ . (٢) الكامل ٢ : ٥ ، ٦ .

وغدَوْتُ ذا أجرٍ ومَحمدَةٍ وغَدَا بِكَسْبِ الظلمِ والإثمِ
فكأنما الإحسانُ كان لهُ وأنا المُسيء إليهِ فى الحكمِ
ما زالَ يَظْلِمُنى وأرْحَمُهُ حتّى بكيتُ له من الظُّلْمِ

قال المبرّد : أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم : إنّى مَرَرْتُ بآل فلان وهم يَشْتُمُونك شَتْما رَحِمْتك منه ؛ قال : أفسمِعتَنى أقول إلّا خيراً ! قال : لا ، قال : إيّاهم فارحم[1] .

وقال رجل لأبى بكر : لَأَشْتُمَنَّكَ شَتْماً يَدْخُل معك قبْرَك ، فقال : مَعَك والله يَدْخُل ، لَا معى[2] .

(١) الكامل ٢ : ٤ ، ٥ . (٢) الكامل ٢ : ٥ .

(١٦١)

الأصْـلُ :

مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ .

* * *

الشَّـرْحُ :

رأى بعضُ الصّحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً فى دَرْبٍ من دروب المدينة ومعه امرأةٌ فَسَلّم عليه ، فردّ عليه ، فلما جاوَزَه ناداه فقال : هــذه زَوْجتى فلانة ، قال : يا رسول الله ، أوَفيك يُظَنّ ! فقال : « إنّ الشيطان يجرِى مِن ابن آدم مجرَى الدّم » .

وجاء فى الحديث المرفوع : « دَعَ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبُك » .

وقال أيضاً : « لا يكملُ إيمانُ عبدٍ حتى يترُكَ ما لا بأسَ به » .

وقد أخذ هذا المعنى شاعرٌ فقال :

وزعمتَ أنّك لا تَلوط فقل لنا هذا المُقَرْطَقُ واقفاً ما يَصنَعُ !
شَهِدتْ مَلاحتُه عليكَ برِيبَـةٍ وعلى المُريبِ شَواهدٌ لا تُدْفَعُ

(١٦٢)

الأصلُ :

مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ .

* * *

الشرحُ :

المعنى أن الأغلب في كلّ ملك يَستأثر على الرعية بالمال والعزّ والجاه .

ونحو هذا المعنى قولهم : مَن غَلَبَ سَلَبَ ، ومن عَزّ بَزّ .

ونحوه قول أبي الطيِّب :

والظلمُ من شِيمِ النفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفّــةٍ فلِعِلّةٍ لا يظلـمُ[١]

---

(١) ديوانه ٤ : ١٢٥ .

(١٦٣)

الأصْلُ :

مَن اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، ومَنْ شَاوَرَ الرِّجالَ شارَكَها فى عُقُولِها .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ فى المَشُورة مدحا وذما .

وكان عبدُ الملك بن صالح الهاشميُّ يذمُّها ويقول : ما استَشَرتُ واحدا قطّ إلّا تكبّر علىّ وتصاغرتُ له ، ودخلتْه العِزّة ودخلتْنى الذّلة ، فإياكَ والمَشُورة وإن ضاقتْ عليك المذاهبُ ، واشتبهَتْ عليك المسائل ، وأدّاكَ الاستبدادُ إلى الخطأ الفادح .

وكان عبدُ الله بنُ طاهر يذهب إلى هذا المذهَب ، ويقول : ماحَكّ جِلدكَ مِثلُ ظُفْرِك ؛ ولأنْ أخطىء مع الاستبداد ألفَ خطأ ، أحبُّ إلىّ من أن أستشير وأرَى بعين النقص والحاجة .

وكان يقال : الاستشارة إذاعة السرّ ، ومخاطرةٌ بالأمر الذى ترومُه بالمشاوَرة ، فرُبَّ مستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تدبيرك .

وأما المادِحون للمشُورة فكثير جدًّا . وقالوا : خاطر مَن استبدّ برأيه .

وقالوا : المَشُورة راحةٌ لك ، وتَعبٌ على غيرك .

وقالوا : مَن أكثر من المَشورة لم يعدَم عند الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذرا .

وقالوا : المستشير على طَرَف النّجاح ، والاستشارة مِن عَزْم الأمور .

وقالوا : المَشُورة لقاحُ العقول ، ورائد الصواب .

ومن ألفاظهم البديعة : ثمرَة رأى المُشير أحلى مِن الأَرْيِ المشور[1] .

وقال بَشّار :

إذا بلغ الرأىُ النّصيحةَ فاستَعِنْ ... بعَزْمِ نصيح أو مشورة حازِمِ[2]

ولا تَجعَل الشورَى عليك غَضاضةً ... فإنّ الخوافى عُدّة للقــوادِمِ

---

(١) الأرى : العسل ، والمشور : المستخرج . شرت العسل : استخرجته .

(٢) شرح مختار بشار ٣١٢ .

(١٦٤)

الأصلُ :

مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدّم القولُ فى السرِّ والأمر بكتمانه ؛ ونذكر ها هنا أشياء أخر .

من أمثالهم : مَقتل الرَّجُل بين لَحْيَيه .

دنا رجلٌ مِن آخر فسارّه ، فقال : إن مِن حق السرّ التدانى .

كان مالكُ بنُ مِسمع إذا ساره إنسانٌ قال له : أظهره ، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتوما .

حكيم يُوصى ابنه : يا بُنىّ كُنْ جَواداً بالمال فى موضع الحقّ ، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق ، فإنّ أحمد جُود المرء الإنفاق فى وجه البرّ .

ومِن كلامهم : سِرُّك من دَمِك ، فإذا تكلّمت به فقد أرَقْتَه .

وقال الشاعر :

فلا تُفْشِ سِرّكَ إلّا إليكَ ... فإنّ لكلّ نصيح نَصيحَا

ألم ترَ أنّ غُواةَ الرّجال ... لا يتركون أدِيمًا صحيحًا !

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : القلوب أوْعِيَةُ الأسرار والشِّفاه أقفالها ، والألسُن مفاتيحُها فليحفظ كلُّ امرئ مفتاحَ سِرّه .

وقال بعض الحكماء : مَن أفشى سِرَّه كَثُر عليه المتآمِرُون .

أسَرَّ رجل إلى صديقٍ[١] سرًّا ثم قال له : أفهمْت ؟ قال له : بل جهلتُ ، قال : أحفِظتَ ؟ قال : بل نسيت .

وقيل لرجل : كيف كتمانُك السرّ ؟ قال : أجحد المخبر ، وأحلف للمُسْتَخبِر .

أنشد الأصمعيّ قولَ الشاعر :

إذا جاوَزَ الإثنَيْنِ سِرٌّ فإنه ... بِنَثٍّ وتكثيرِ الوُشاة قَمِينُ[٢]

فقال : والله ما أراد بالاثنين إلّا الشَّفَتَين .

(١) ا : « صديقه » . (٢) قمين : خليق .

(١٦٥)

الأصْلُ :

الفَقْرُ الْمَوْتُ الأَكْبَرُ .

***

الشَّرْحُ :

فى الحديث المرفوع : « أشق الأشقياء مَن جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذاب الآخرة » .

وأتى بُزُرْجُمِهرَ فقيرٌ جاهل ، فقال : بئسما اجتمع على هذا البائس : فَقْرٌ ينقص دنياه، وجهلٌ يُفسِد آخرته .

شاعر :

خُلِق المـالُ واليَسارُ لقَوْمٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وأرانى خُلِقتُ للإملاقِ

أنا فيها أَرَى بقيّـةُ قومٍ ‏ ‏ ‏ ‏ خُلِقوا بعد قِسْمَة الأرزاقِ

أَخَذَ السِّيواسىُّ هذا المعنى ، فقال فى قصيدته الطويلة المعروفة بالساسانية :

ليتَ شِعرى لمّا بدا يقسم الأر ‏ ‏ ‏ ‏ زاق فى أىِّ مطبَق كنت(١)

قرئ على أحد جازَنْبَىْ دينار :

قُرِنْتُ بالنُّجْح وبى كلُّ ما ‏ ‏ ‏ ‏ يرادُ مِن ممتنعٍ يُوجَدُ

وعلى الجانب الآخر :

وكلّ من كنتُ له آلِفاً ‏ ‏ ‏ ‏ فالإنس والجنّ له أعبُدُ

---

(١) المطبق : السجن

وقال أبو الدّرداء : مَن حفظ ماله فقد حَفظ الأكثر من دِينه وعِرْضه .

بعضهم :

وإذا رأيتَ صعوبةً في مطلبٍ   فاحمل صعوبته على الدّينارِ
تردده كالظَّهْرِ الذَّلُول فإنّه   حجرٌ يليِّن قوّة الأحجارِ

ومن دعاء السَّلَف : اللهمّ إني أعوذ بك من ذُلّ الفقْر وبطَر الغِنى .

(١٦٦)

الأصْلُ :

مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَّدَهُ .

***

الشَّرْحُ :

عَبّده بالتشديد ، أى اتخذه عَبْدا ، يقال : عبّده واستعْبده بمعنى واحد ؛ والمعنى بهذا الكلام مَدْحُ مَن لا يقضى حقّهُ ، أى من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه لم يفعلْ معه ذلك مكافأةً له عن حقّ قضاه إيّاه ، بل فعل ذلك إنعاما مبتــدأ ، فقد استعبده بذلك(١) .

وقال الشاعر فى نقيض هذه الحال يخاطب صاحباً له :

كنْ كأنْ لم تلاقنى قطُّ فى النّا ... سِ ولا تجعلَنّ ذِكْرايَ شَوْقا
وتَيقّنْ بأننى غــيرُ راءٍ ... لك حقّا حتى ترَى لِيَ حقّا
وبأنّى مفوّقٌ ألفَ سَهْمٍ ... لكَ إن فوّقتْ يمينُك فُوقا

---

(١) ا : « بهذا » .

(١٦٧)

الأصْـلُ :

لا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ .

***

الشَّــرْحُ :

هذه الـكلمةُ قد رُويتْ مَرفوعة ، وقد جاء فى كلام أبى بكر : أطيعونى ما أطعتُ الله ؛ فإذا عصيتُه فلا طاعة لى عليكم .

وقال معاوية لشدّاد بن أوس: قم فاذكر عليًّا فانتقصْه (١)؛ فقام شدّاد فقال: الحمد لله الذى افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثَرَ مِن رضا غيره، على ذلك مَضى أوّلهم ، وعليه مضى آخرهم . أيّها الناس ، إنّ الآخرة وعدٌ صادق يحكم فيهــا مَلِكٌ قاهر وإنّ الدّنيا أكلٌ حاضر ، يأكل منها البَرّ والفاجر ، وإن السامع المطيع لله لا حُجّة عليه وإن السامع العاصىَ لله لا حجّة له ، وإنّه لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصيةِ الخالق ، وإذا أراد الله بالناس خيراً استعمل عليهم صُلحاءهم، وقضى بينهم فُقهاؤهم (٢)، وجعل المال فى سُمَحائهم ،وإذا أراد بالعباد شرّا عمل عليهم سُفهاؤهم ، وقضى بينهم جُهلاؤهم ، وجعل المال عند بُخَلائهم . وإنّ من إصلاح الوُلاة أن تُصلح قرناءها . ثمّ التفَتَ إلى معاوية فقال : نَصَحك يا معاوية مَن أسخَطَك بالحق ، وغشّك من أرْضاك بالباطل ! فقطع معاويةُ عليه كلامَه، وأمَرَ بإزاله، ثم لاطفَه وأمَرَ له بمــال ، فلما قبضه قال : ألستَ من السّمحاء الذين ذكرت ؟ فقال : إن كان لك مالٌ غيرُ مال المسلمين أصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا فنعم ، وإن كان مالُ المسلمين احتجبْتَه دونهم أصبتَــه اقترافا ، وأنفقْتَه إسْرافا ، فإن الله يقول : ﴿ إنّ المُبَذِّرِين كانُوا إخْوانَ الشَّيَاطِين ﴾(٣) .

---

(١) فى د « وتنقصه » وهو مستقيم أيضا . (٢) فى د « علماؤهم » .

(٣) سورة الإسراء ٢٧ .

(١٦٨)

الأصْـلُ :

لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

لعل هذه الكلمةَ قالها فى جواب سائلٍ سأله : لِمَ أخّرت الطالبةَ بحقّك من الإمامة ؟ ولا بدّ من إضمار شيء فى الكلام على قولنا وقولِ الإماميّة ، لأنّا نحن نقول : الأمرُ حقّه بالأفضليّة وهم يقولون : إنّه حقّه بالنصّ ، وعلى كِلاَ التقديرَين فلا بدّ من إضمار شيء فى الكلام؛ لأنّ لقائلٍ أن يقول له عليه السلام : لو كان حقُّك من غير أن يكون للمكلّفين فيه نصيبٌ لجاز ذلك أن يؤخَّر كالدَّين الّذى يستحقّ على زيد ، يجوز لك أن تؤخِّره لأنّه خالصٌ لك وَحْدَك ؛ فأمّا إذا كان للمكلّفين فيه حاجةٌ ماسّة لم يكن حقّك وحدَك ؛ لأنّ مصالح المكلّفين مَنوطةٌ بإمامَتِك دون إمامةِ غيرِك ، فكيف يجوز لك تأخيرُ مافيه مصلحةُ المكلّفين ؟ فإذَنْ لا بدّ من إضمار شيء فى الكلام . وتقديرُه : لا يُعابُ المرء بتأخير حقّه إذا كان هناك مانعٌ عن طَلَبه ، ويستقيم المعنى حينئذٍ على المَذهَبَيْن جميعا ، لأنّه إذا كان هناك مانعٌ جاز تقديم غيره عليه ، وجاز له أن يؤخّر طلبَ حقّه خوفَ الفتنة ، والكلام فى هذا الموضع مُستقصًى فى تصانيفِنا فى علم الكلام .

(١٦٩)

الأصْـلُ :

الْإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الأَزْدِيَادِ .

***

الشَّـرحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقْنِـع فى العُجْب ؛ وإنما قال عليه السلام : « يمنع من الأزدياد » لأنّ المُعجَب بنفسه ظانٌّ أنّه قد بَلغ الغَرَض ، وإنما يَطلُب الزّيادةَ مَنْ يستشعِر التقصير لا مَن يتخيّل الـكمال ، وحقيقة العُجب ظنُّ الإنسان بنفسه استحقاقَ منزلةٍ هو غــيرُ مستحقّ لها ؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجَباً بنفسِه : يسرّنى أن أكون عندَ الناس مِثلك فى نفسِك ، وأن أكونَ عندَ نفسى مِثلك عند الناس ، فتمنّى حقيقـــة ما يقدّره ذلك الرجل ، ثمّ تمنّى أن يكون عارِفاً بعيوب نفسِه ، كما يَعرِف الناسُ عيوبَ ذلك الرجل المُعجَب بنفسه .

وقيل للحَسَن : مَن شرُّ الناس ؟ قال : مَن يرى أنه خيرُهم .

وقال بعض الحـكماء : الـكاذب فى نهاية البُعْدِ من الفَضْل ؛ والمُرائى أسوأ حالًا من الـكاذب ، لأنّه يَـكذِب فعلا ، وذاك يَـكذِب قَوْلا ، والفِعْل آكَدُ من القَوْل ؛ فأمّا المُعجَب بنفسِه فأسوأُ حالًا منهما ، لأنهما يَرَيان نَقْصَ أنفسِهما ، ويُرِيدان إخفاءه، والمُعجَب بنفسِه قد عَمِي عن عيوبِ نفسِه فيراها محاسنَ ويُبدِيها .

وقال هذا الحـكيمُ أيضا : ثمّ إنّ المُرائِيَ والـكاذبَ قد يُنتفَع بِهما كَمَلّاح خافَ

دَكّابه الغَرَق من مكانٍ مَخُوف من البَحر ، فبَشّرهم بتجاوُزِه قبل أن يتجاوزه لئلّا يَضْطربوا فيتعجّل غرَقهم .

وقد يُحمَد رِياء الرئيس إذا قَصَد أن يُقتَدى به فى فِعــل الخير ، والمُعجب لا حظّ له فى سببٍ من أسباب المَحمَدة بحالٍ .

وأيضا فلأنّك إذا وَعَظتَ الـكاذب والمرائىَ فنفْسهما تصدّقك وتثلبهما لمعرفتهمـا بنفسِهما ، والمعجب فلِجهلِه بنفسِه يظنُّك فى وَعْظه لاغيا ، فلا يَنتَع بمقَالِك ، وإلى هذا المعنى أشارَ سبحانه بقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾(١) ، ثم قال سبحانه : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(٢) ، تنبيها على أنّهم لا يَعْقلون لإعجابهم .

وقال عليه الســـلام : ثلاثٌ مُهلِكات : شُحٌ مُطاع ، وهوًى متَّبع ، وإعجابُ المرء بنفسه .

وفى المثَل : إنّ إبليسَ قال : إذا ظفرتُ من ابن آدمَ بثلاثٍ لم أطالِبْه بغيرِها : إذا أُعجِب بنفسِه ، واستـكثرَ عملَه ، ونسى ذنوبَه .

وقالت الحـكماء : كما أنّ المُعجَب بفرَسه لا يَرُوم أن يَستبدِل به غيرَه ، كذلك المُعجَب بنفسه لا يُريد بحالِه بَدلًا ، وإن كانت رديئةً .

وأصل الإعجاب من حُبّ الإنسان لنفسِه ، وقد قال عليه السلام : « حُبُّك الشيء يُعمِى ويُصِمّ » ، ومن عَمِيَ وصَمّ تَعذّر عليه رؤيةُ عُيوبه وسماعُها ، فلذلك وَجَب على الإنسان أن يَجعَل على نفسه عيونا تُعرّفه عيوبَه ، نحوَ ما قال عمر : أحبُّ الناسِ إلىّ امرؤٌ أهدَى إلىّ عيوبى .

ويَجب على الإنسان إذا رَأى من غيره سيئة أن يَرجع إلى نفسه ، فإن رَأى ذلك

---

(١) سورة فاطر ٨ .

موجوداً فيها نزَعها ولم يَغفَل عنها ، فما أحسنَ ما قال المتنبّي :

ومن جهلتْ نفسُــه قدرَه رأى غيرُه منه ما لا يَرَى(١)

وأما التِّيه وماهيّتُه فهو قريب من العُجب ، لـكنّ المُعجَب يصدّق نفسه وَهْما فيما يظنّ بها ، والتيّاه يصدّقها قطْعا ، كأنّه متحيّر فى تيه . ويُمكِن أن يفرق بينهما بأمرٍ آخَر ، ويقول : إنّ المعجَب قد يُعجَب بنفسِه ولا يؤذى أحداً بذلك الإعجاب ، والتّيّاه يَضُمّ إلى الإعجاب الغَضّ من النـاس والترفُّع عليهم ، فيَستلزم ذلك الأذى لهم ، فـكلُّ تائهٍ معجَب ، وليس كلُّ معجَب تائهاً .

(١) ديوانه ١ : ٤٤ .

(١٧٠)

الأصْلُ :

الْأَمْرُ قَرِيبٌ ، وَالاصْطِحَابُ قَلِيلٌ .

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمةُ تذكُّر بالموت وسرعةِ زَوالِ الدّنيا ؛ وقال أبو العلاء :

نفسِي وجِسْمِيَ لمّا استجمَعَا صنَعا شرًّا إلىّ فَجَلَّ الواحدُ الصَّمَدُ
فالجسْم يعذل فيه النفسَ مجتهداً وتلكَ تزْعُم أنّ الظالمَ الجسَدُ
إذا هُما بعدَ طُولِ الصُّحبة افْتَرَقا فإنّ ذاكَ لأحداث الزمانِ يَدُ
وأصبحَ الجوهر الحسّاسُ فى مِحَنٍ موصولةٍ واستراحَ الآخر الجمَدُ

(١٧١)

الأصل :

قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ .

***

الشرح :

هذا الكلامُ جارٍ مجرى المَثَل ، ومثله :

* والشمسُ لا تَخفَى عن الأبصارِ *

ومِثله :

* إنّ الغزالة لا تَخفَى عن البَصَرِ *

وقال ابن هانئ يمدح المعزّ :

فاستيقظوا من رَقْدَةٍ وتَنَبَّهوا ... ما بالصّباح عن العيون خَفاء[1]
ليستْ سَماء الله ما تَرَوْنَها ... لكنّ أرضا تَحتَويه سَماء

(١) ديوانه ٤ .

(١٧٢)

الأَصْلُ :

تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا حقّ ، لأنّ تركَ الذّنب هو الإحجامُ عنه ، وهذا سهلٌ على من يَعرِف أثَرَ الذّنب على ماذا يكون ، وهو أسهلُ من أن يُواقِع الإنسانُ الذّنب، ثمّ يَطلُب التوبة، فقد لا يخلص داعيه إليها ، ثمّ لو خَلَص فكيف له بحصُوله على شروطها ، وهى أن يَندَم على القبيح لأنّه قبيح ، لا لخوف العقاب ، ولا لِرجاء الثواب ، ثمّ لا يكفيه أن يتوبَ من الزّنا وحدَه ، ولا مِنْ شُرب الخمر وحدَه ، بل لا تصحّ توبتُه حتّى تكون عامّةً شاملة لكلّ القبائح فيندَم عَلَى ما قال ويودّ أنّه لم يَفعَل ، ويَعزم على ألّا يُعاود معصيةً أصْلا ، وإن نَقَض التّوبة عادتْ عليه الآثامُ القديمةُ والعقاب المستحق ولا الّذى كان سَقَط بالتّوبة على رأى كثيرٍ من أرباب عِلم الكلام ؛ ولا رَيْب أنّ تركَ الذّنب من الابتداء أسهلُ من طَلَبْ توبةٍ هذه صِفَتُها .

وهذا الكلام جارٍ [1] مجرَى المَثَل يُضرَب لمن يَشرع فى أمرٍ يخاطر فيه، ويرجو أن يتخلّص منه فيما بعدُ بوجْه من الوجوه .

---

(١) د : « يجرى » .

(١٧٣)

الأصْلُ .

كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلاتٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

أَخَذ هذا المعنى بلفظه الحريرىُّ فقال فى المقامات : « رُبَّ أَكْلَةٍ هاضَت الآكل ، ومنَعَتْه مآكل » ، وأخذه أبو العلاّف الشاعر فقال فى سِنَّوره الّذى يرثيه :

أردْتَ أن تأكلَ الفِراخَ ولا يأكلُك الدهرُ أكلَ مضطهِدِ[1]

يا مَنْ لَذِيذ الفِراخ أوْقَعَه ويْحك هلاّ قنعتَ بالقِدِدِ !

كم أكلةٍ خامرتْ حَشا شَرِهٍ فأخرَجَتْ رُوحَه من الجَسَدِ

* * *

[نوادر المكثرين من الأكل]

وكان ابنُ عيّاش المَنْتوف يُمازِح المنصورَ أبا جعفر فيَحتمله على أنّه كان جدًّا كلّه ؛ فقدّم المنصورُ لجلسائه يوما بطّة كثيرة الدُّهن ، فأكَلوا وجَعَل يأمرهم بالازدياد من الأكل لطيبها ، فقال ابنُ عيّاش : قد علمتُ غرَضك يا أمير المؤمنين ، إنما تُريد أن ترميَهم منها بالحجاب — يعنى الهَيْضة — فلا يأكلوا إلى عشرة أيّام شيْئًا .

وفى المَثَل : « أَكْلَةَ أبى خارجةٍ » ؛ وقال أعرابىّ وهو يدعو اللهَ بباب الكعبة: اللهمّ

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٨ .

مِيتةً كَمِيتة أبى خارِجة ، فسألوه فقال : أكل بذَجا ـ وهو الحَمَل ـ ، وشرب وَطْبا من اللّبن ـ ويروَى من النّبيذ ـ وهو كالحَوْض من جلود ينبذ فيه ، ونام فى الشّمس فماتَ فلَقى الله تعالى شَبْعانَ ريّانَ دفيئا .

والعرب تعيّر بكثرة الأكْل ، وتعيب بالجشَع والشَّرَه والنَّهَم ، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكْل منهم معاوية ؛ قال أبو الحسن المَدائنىّ فى « كتاب الأَكَلة » : كان يأكل فى اليوم (١) أربع أَكَلات أخْراهن عُظْماهُنّ ، ثمّ يتعشّى بعدَها بثَريدة عليها بصلٌ كثير ، ودُهن كثير قد شغَلها . وكان أكلُه فاحشا يأكل فيلطّخ مِنديلين أو ثلاثة قبل أن يَفرُغ ، وكان يأكل حتّى يَستلقىَ ويقول : يا غلام ، ارفَع ، فلأَنّى والله ما شَبِعت ولكن مَلِلت .

وكان عُبيدُ الله بنُ زياد يأكل فى اليوم خمس أَكَلات أخراهن خبيّة بمَسَل ، ويُوضَع بين يديه بعد أن يَفرُغ الطعام عَناقٌ أو جَدْى فيأتى عليه وحدَه .

وكان سليمان بنُ عبدِ الملك المصيبة العظمى فى الأكل ، دَخَل إلى الرافقة فقال لصاحب طعامِه : أطعِمْنا اليومَ من خِرْفان الرافقة ، ودخل الحمّام فأطال ، ثمّ خرج فأكَلَ ثلاثين خَروفا بثمانين رغيفا ، ثم قعَد على المائدة فأَكَل مع النّاس كأنّه لم يأكل شيئاً .

وقال الشمردلُ وكيلُ آلِ عَمْرو بن العاص : قَدِم سليمانُ الطائفَ وقد عرفتُ استجاعَته ، فدخل هو وعمرُ بنُ عبد العزيز وأيّوب ابنه إلى بُستانٍ لى هناك يُعرَف بالرّهْط فقال : ناهيك بمالِك هـذا لولا جِرار فيه ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنّها ليست بجرار ولكنّها جرار الزّبيب ، فضَحِك ، ثمّ جاء حتى ألقَى صدره على غُصْن شجرةٍ هناك ، وقال : يا شمردل ، أمَا عِندَك شىء تُطعِمنى ؟ وقد كنت استَمدَدْت له ، فقلت : بلَى والله عندى جَدْى كانت تغدو عليه حافلة ، وترُوح عليه أخرى ، فقال : عجّل به ، فجئته

(١) فى د « كل يوم » .

به مشويّا كأنّه عُكّة سَمْن ، فأكله لا يدعو عليه عمر ولا ابنه ، حتى إذا بقى فَخذ قال : يا عمر ، هَلُمّ ، قال : إنى صائم. ثمّ قال : يا شَمَرْدل ، أمَا عندك شىء ؟ قلت: بلى ، دَجاجات خمس كأنّهنّ رِئلان النّعام ؛ فقال : هاتِ ، فأتيته بهنّ ، فكان يأخذ برجل الدّجاجة حتى يُعرّى عِظامَها ، ثم يُلقيها، حتى أتى عليهنّ ، ثم قال : وَيْحك يا شمردل ! أما عندك شىء ؟ قلت : بلى سَويق كأنّه قُراضة الذّهَب مَلْتوت بعَسَل وسَمْن ؛ قال : هَلُمّ ، فجئته بعُسّ تغيب فيه الرأسُ ، فأخذه فلَطَم به جَبْهَته حتى أتى عليه ، فلما فرغ تَجشّأ كأنه صارخ فى جُبّ ، ثم التفت إلى طَبّاخه فقال : وَيْحك ! أفرَغتَ من طبيخِك ؟ قال : نعم ؛ قال: وما هو ؟ قال : نَيف وثمانون قِدْرا ، قال : فأْتِنى بها قِدْرا قِدْرا ، فعرَضها عليه ، وكان يأكل من كل قِدْرٍ لقمتين أو ثلاثا ، ثمّ مسح يدَه واستَلْقى على قفاه ، وأذِن للناس ، ووُضِعت الموائد ، فقعَد فأكل مع الناس كأنّه لم يَطعَم شيئًا .

قالوا: وكان الطعام الذى مات منه سُليمان، أنّه قال لدَيْرانىّ كان صديقه قبل الخلافة : وَيْحك! لاتَقْطعنى ألطافَك التى كنتَ تُلطِفُنى بها على عَهْد الوليد أخى ؛ قال : فأتيته يوما بزِنْبِيلين كبيرين أحدُهما بَيْض مسلوق، والآخرَ تِين ؛ فقال : لقّمنيه ، فكنتُ أقشر البَيْضة وأقرنها بالتِّينة وألقِمه ، حتى أتى على الزّنبيلين ، فأصابته تُخَمة عظيمة ومات .

ويُحكَى أن عمرو بنَ مَعد يكرِبَ أكل عَنْزاً رَباعِية وفِرْقا من ذُرَة — والفِرْق ثلاثة آصُع — وقال لامرأته : عالجى لنا هذا الكَبْش حتى أرجع، فجعلتْ تُوقد تحته وتأخذ عُضْوا عُضْوا فتأكله ، فاطّلعتْ فإذا ليس فى القِدْر إلّا المَرَق ، فقامت إلى كبش آخَر فذبَحته وطبخته ، ثمّ أقبل عمرو فثرَدتْ له فى جَفْنة العجين وكفأتْ القِدْر عليها ، فمدّ يدَه وقال : يا أمّ ثَوْر ، دونَكِ الغداء ؛ قالت : قد أكلتُ ، فأكلَ الكبشَ كلّه ثمّ اضطجع ودعاها إلى الفِراش فلم يَستطع الفِعلَ ، فقالت له : كيف تستطيع وبينى وبينَك كَبْشان !

وقد رُوِى هــذا الخبر عن بعض العرب ؛ وقيل : إنّه أكل حُوَارا (١) وأكلت امرأتُـه حائلا (٢) ، فلمّا أراد أن يدنوَ منها وعجَز قالت له : كيف تَصِل إلىّ وبيني وبينَك بعيران .

وكان الحجّاج عظيمَ الأكل ؛ قال مسلم بنُ قتيبة : كنتُ فى دارِ الحجّاج مع ولده وأنا غلام ، فقيل : قد جاء الأميرُ ، فدخل الحجّاج فأمر بتَنُّور فنُصِب ، وأمر رجلاً أن يَخبِز له خبز الماء ، ودعا بسَمَك ، فأتَوْه به ، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السَّمَك بثمانين رَغيفا من خبز المَلّة (٣) .

وكانَ هلالُ بن أشعَرِ المازنىُّ موصوفا بكَثْرة الأكْل ، أكَلَ ثلاثَ جِفانِ ثَريد ، واُستَسْقَى ، فجاءوه بقِرْبة مملوءةٍ نبيذا فوضعوا فمَها فى فـيه حتى شرِبَها بأسْرها .

وكان هلال بنُ أبى بُرْدة أكولا ، قال قصّابُه : جاءنى رسولُه سَحرةً فأتيتُه وبين يديه كانونٌ فيه جَمْر وتَيْسٌ ضَخْم ، فقال : دونَك هذا التَّيس فاذبحْه فذبَحْتُه وسلَخْتُه ، فقال : أخرِج هذا الكانونَ إلى الرّواق وشَرِّح اللحم وكُبَّه على النار ، فجعلتُ كلّما استَوَى شىء قدّمتهُ إليه حتى لم يبق من التّيس إلا العظـام وقطعةُ لَحْم على الجَمْر ، فقال لى : كُلْها ، فأكَلْتُها ، ثمّ شَرِب خمسةَ أقْداح ، وناوَلَنى قدَحا فشربتُه فهزّنى ، وجاءته جاريةٌ ببُرْمةٍ فيها ناهضان (٤) ودَجاجَتان وأرْغِفة ، فأكل ذلك كلَّه ، ثمّ جاءته جاريةٌ أخرى بقَصْعـة مغطّاة لا أدرِي ما فيهـا ، فضَحِك إلى الجارية ، فقال : وَيْحَكِ ! لَم يَبقَ فى بطنى موضعٌ لهــذا ، فضحِكتِ الجاريةُ وانصرفت ، فقال لى : الْحَقْ بأهْلِك .

---

(١) الحوار : ولد الناقة . (٢) الحائل : الناقة التى لم تحمل .

(٣) الملة : الرماد الحار . (٤) الناهض: فرخ العقاب .

وكان عَنْبَسة بنُ زِياد أكُولا نهماً ، فحدّث رجلٌ من ثقيف قال : دعانى عُبيدُ الله الأحمر ؛ فقلت لعَنبسة : هل لك يا ذُبحة ـ وكان هذا لقبَهَ ـ فى إتيـان الأحمر ! فمضَيْنا إليه ، فلمّا رآه عُبيد الله رحّب به وقال للخبّاز : ضَعْ بين يدى هـذا مثل ما تَضَع بين يدى أهل المائدة كلّهم ، فجعل يأتيه بقَصْعة وأهل المـائدة بقَصْعة ، وهو يأتى عليها ، ثمّ أتاه بجَدْىٍ فأكَلَه كلَّه ، ونهض القومُ فأكل كلّ ما تخلّف على المائدة ، وخرجْنا فلقينا خَلَف ابن عبد الله القَطامىّ ؛ فقال له : يا خَلَف ، أما تُغدِّينى يوما ؟ فقلت لخلفَ : وَيْحك ! لا تَجِده مِثل اليوم . فقال له : ما تَشتَهى ؟ قال : تمْراً وسَمْناً ، فانطلق به إلى مَنْزِله فجاء بخَمْس جِلال (١) تَمْراً وجَرّة سَمْنا ، فأكل الجميعَ وخرج ؛ فمرّ برجل يبنى دارَه ومعه مائةُ رجل ، وقد قدّم لهم سَمْنا وتَمْرا ، فدعاه إلى الأكل معهم ، فأكل حتّى شكَوْه إلى صاحب الدار ، ثمّ خرج فمرّ برجل بين يديه زِنْبيل فيه خُبْز أرزٍ يابس بسِمْسِم وهو يبيعه فجعل يساوِمُه ويأكل حتى أتى على الزِّنْبيل ، فأعطيت صاحبَ الزِّنبيل ثمنَ خُبْزه .

وكان مَيْسَرة الرأسُ أكُولا ؛ حُكِي عنه عند المهدىّ محمّد بن المنصور أنّه يأكل كثيرا ، فاستدعاه وأحضَر فِيلا ، وجعل يَرمِى لكلّ واحد منهما رغيفا حتّى أكل كلٌّ واحد منهما تسعةً وتسعين رغيفا ؛ وامتنع الفيلُ من تَمام المائة ، وأكل ميسرة تمامَ المائة وزاد عليها .

وكان أبو الحسَن العَلّاف والد أبى بكر بن العَلّاف الشاعر المحدّث أكُولا دخل يوما على الوزير أبى بكر محمد المهلّبىّ ، فأمَر الوزير أن يُؤخَذ حمارُه فيُذبح ويُطبَخ بماء ومِلح ، ثمّ قُدِّم له على مائدة الوزير ، فأكل وهو يظنّه لحم

(١) الجلال : جمع جلة ، وهو وعاء التمر يصنع من الخوص .

البقر ، ويستَطْيِبُه حتّى أتى عليه ، فلمّا خرج ليَرْكَب طلَب الحمارَ ، فقيل له : في جَوْفِك .

وكان أبو العالية أكُولا ، نَذَرَت امرأةٌ حامل إنْ أتَتْ بذَكَرٍ تُشبِع أبا العالية خَبِيصا ، فولَدتْ غلاما ، فأحضرتْه ، فأكَل سبعَ جِفان خَبِيصا ، ثمّ أمسَك وخرج ، فقيل له : إنّها كانت نَذَرَتْ أن تُشبِعك ، فقال : واللهِ لو علمتُ ما شبعتُ إلى اللّيل .

(١٧٤)

الأصل :

النّاسُ أعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

* * *

الشرح :

هذه الكلمةُ قد تقدّمت وتقدّم منّا ذكرُ نظائرِها . والعِلّة فى أنّ الإنسان عدوّ ما يَجهَله أنّه يخاف من تقريعه[١] بالنّقْص وبعَدَم العِلْم بذلك الشىء ، خصوصا إذا ضمّه نادٍ أو جَمْعٌ من الناس فإنّه تتصاغر نفسُه عنده إذا خاضوا فيما لا يَعرِفه ويَنقُص فى أعيُن الحاضرين ، وكلّ شىء آذاكَ ونَال منكَ فهو عدوُّك[٢] .

---

(١) د : « تعريضه » . (٢) ا : « فهو عدو لك » .

(١٧٥)

الأصل :

مَن استقبلَ وجوهَ الآراء عرفَ مواقعَ الخطأ .

* * *

الشرح :

قد قالوا في المَثَل : شرّ الرأيِ الدَّبَرِيّ .

وقال الشاعر :

وخيرُ الرأيِ ما استقبلتَ منه ... وليس بأنْ تَتَبَّعه اتّباعا

وليس المراد بهذا الأمر سُرْعة فَصْل الحال لأوّل خاطر ، ولأوّل رأى ، إنّ ذلك خطأ ، وقديما قيل : دَع الرأىَ يغبّ .

وقيل : كلّ رأيٍ لم يخمَّرْ ويُبَيَّت[١] فلا خيرَ فيه .

وإنّما المنهىّ عنه تضييعُ الفُرْصة فى الرأى ، ثمّ محاوَلة الاستدراك بعد أن فات وَجهُ الرأيِ ، فذاك هو الرأىُ الدبرىّ .

---

(١) د : « يبت » .

(١٧٦)

الأصْـلُ :

مَنْ أحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلهِ قَـوِىَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هـــذا من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكَر ، والـكلمة تتضمّن استعارةً تَدُلّ على الفَصاحة ؛ والمعنى أنّ من أرهَف عزمَه على إنكار المنكَر ، وقوِىَ غَضَبُه فى ذاتِ الله ولم يَخَفْ ولم يُراقِب مخلوقا ؛ أعانَه الله على إزالة المُنكَر ؛ وإن كان قويّا صادراً من جهة عزيزة الجانب ، وعنها وقعت الكناية بأشدّاء الباطل .

(١٧٧)

الأصْلُ :

إذَا هِبْتَ أَمْرًا فَقَعْ فِيهِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

***

الشَّرْحُ :

ما أحسنَ ما قال المتنبّى فى هذا المعنى :

وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ فمِن العَجْز أن تكونَ جبانا
كلّ ما لم يكن من الصّعْب فى الأنْـ ـفُسِ سهلٌ فيها إذا هوَ كانا

وقال آخر :

لَعَمْرُك ما المكروهُ إلّا ارتقابه وأعظم ممّا حلّ ما يُتوقّعُ

وقال آخر :

صعوبةُ الرُّزْء تُلقَى فى توقُّمه مستقبَلا وانقضاء الرزء أن يَقَما

وكان يقال : توسَّطِ الخوفَ تأْمَنْ .

ومِن الأمثال العامّيّة : أمّ المقتول تنام ، وأمّ المهدَّد لا تنام .

وكان يقال : كل أمرٍ من خير أو شرّ فسماعُه أعظمُ من عِيانه .

وقال قوم من أهل المِلّة وليسوا عند أصحابنا مُصِيبين : إنّ عذاب الآخرة المتوعَّد به إذا حَلّ بمستحقّيه وَجَدُوه أهوَنَ ممّا كانوا يسمعونه فى الدّنيا ؛ والله أعلم بحقيقةِ ذلك .

(١٧٨)

الأصْلُ :

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

الرئيس محتاجٌ إلى أمور ، منها الجود ، ومنها الشجاعة ، ومنها ـ وهو الأهمّ ـ سَعَة الصَّدر، فإنه لا تتمّ الرئاسة إلاّ بذلك .

وكان معاوية واسعَ الصدر كثيرَ الاحتمال ، وبذلك بَلَغ ما بَلَغ .

* * *

[سعة الصدر وما ورد في ذلك من حكايات]

ونحن نذكر من سَعَة الصدر حكايتَيْن دالّتين على عِظَم محلّه في الرئاسة ، وإن كان مذموما في باب الدين، وما أحسنَ قولَ الحسن فيه وقد ذكر عنده عقيبَ ذكر أبي بكر وعمر، فقال : كانا والله خيراً منه ، وكان أسوَدَ منهما .

الحكاية الأولى :

وفدَ أهلُ الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعَهْد بعده ، وفي أهل الكوفة هانئ بنُ عُرْوة المراديّ ـ وكان سيّدا في قومه ـ فقال يوما في مسجد دِمشق والناسُ حوله: العجَب لمعاوية يريد أن يقسرنا على بَيْعة يزيد ، وحالُه حالُه ، وما ذاك والله بكائن! وكان

فى القوم غلامٌ منْ قريش جالسا ، فتحمّل الكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعت هانئاً يقولها ؟ قال : نعم ، قال : فاخرُج فأْتِ حلْقته ، فإذا خفّ الناسُ عنه فقل له : أيّها الشيخ ، قد وصلتْ كلمتُك إلى معاوية ، ولستَ فى زمن أبى بكر وعمرَ ، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام فإنهم بنو أُميّةٍ ، وقد عرفتَ جُرأتهم وإقدامَهم ، ولم يدْعنى إلى هذا القول لك إلا النّصيحة والإشفاق عليك ، فانظر ما يقول ؛ فأْتنى به .

فأقبل الفَتى إلى مجاس هانئ ، فلما خَفّ من عنده دنا منه فقصّ عليه الكلامَ وأخْرَجه مخرَجَ النصيحة له ، فقال هانئ : والله يابن أخى ما بلغت نصيحتُك كلّ ما أسمَع ؛ وإنّ هذا الكلام لكلامُ مُعاوية أعرفه ! فقال الفتى : وما أنا ومُعاوية ! والله ما يعرِفنى ؛ قال : فلا عليك ، إذا لقيتَه فقل له : يقول لك هانئ : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يابن أخى راشداً !

فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلَمَه ، فقال : نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجَكم ـ وهانئ فيهم ـ فعرَضَ عليه كتابَه فيه ذكرُ حوائجه ، فقال : يا هانئ ، ما أَرَاك صنعتَ شيئا ، زِدْ ؛ فقام هانئ فلم يَدَعْ حاجةً عرضتْ له إلاّ وذَكَرها ، ثم عرَض عليه الكتاب فقال : أراك قصّرتَ فيما طلبتَ ، زِدْ ، فقام هانئ فلم يَدَع حاجةً لقومه ولا لأهل مِصرِه إلاّ ذَكَرَها ، ثمّ عرَض عليه الكتاب ، فقال : ما صنعت شيئا ، زِدْ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حاجةٌ بقيَتْ ، قال : ما هى ؟ قال : أن أتولَّى أخْذَ البَيْعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق ؛ قال : افعل ، فما زِلْتَ لمِثل ذلك أهلا ؛ فلما قَدِم هانئ العراق قام بأمر البَيْعة ليزيد بمَعُونةٍ من المغيرة بنِ شُعبة وهو الوالى بالعراق يومئذ .

وأمّا الحكايةُ الثانية :

كان مالٌ يُحمل من اليمن إلى معاوية ؛ فلما مرّ بالمدينة وثَبَ عليه الحسينُ بنُ عليّ عليه السلام ، فأخَذَه وقسَمَه فى أهل بيته ومواليه ، وكتب إلى معاوية : مِن الحسين بنِ على إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، أمّا بعد ، فإنّ عِيراً مرّت بنا من اليَمَن تحمِل مالاً وحُلَلا وعنبرا وطيباً إليكَ لتودِعها خزائنَ دِمَشق ، وتعَلُّ بها بعد النَّهل بنى أبيك ، وإنّى احتجتُ إليها فأخذتها . والسلام .

فكتب إليه معاوية : من عند عبدِ الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحُسَين بن علىّ : سلامٌ عليك ، أما بعد ، فإنّ كتابك ورد علىّ تذكُر أن عيراً مرّت بك من اليمن تحمل مالاً وحُلَلا وعَنبرا وطِيبا إلىّ لأودِعها خزائن دِمشق ، وأعُلّ بها بعد النَّهل بنى أبى ، وأنك احتجت إليها فأخذتها ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إلىّ ، لأنّ الوالى أحقّ بالمال ، ثمّ عليه المخرج منه ، وايمُ الله لو تُرِكَ ذلك حتى صار إلىّ ، لم أبْخَسْك حظَّك منه ، ولكنى قد ظننتُ يابنَ أخى أنّ فى رأسك نَزْوَةً وبودّى أن يكون ذلك فى زمانى فأعرف لك قدرَك ، وأتجاوزَ عن ذلك ؛ ولكنى واللهِ أتخوّف أن تبتلى بمن لا يُنظِرك فُواقَ ناقةٍ ، وكتب فى أسفل كتابه :

يا حسينُ بنَ علىٍّ ليس ما	جئتَ بالسائغ يوماً فى العِلَلْ
أخذُكَ المال ولم تُؤْمرْ به	إنّ هذا من حُسين لعَجَلْ
قد أجزْناها ولم نَغْضَبْ لها	واحتمَلْنا من حُسينٍ ما فَعَلْ
يا حسينُ بنَ علىّ ذا الأمَل	لك بعدِى وَثْبَةٌ لا تُحتَمَلْ
وبودّى أننى شاهدُها	فأليها منك بالخُلق الأجَلْ
إننى أرْهَب أن تَصْلَى بمَنْ	عندَه قد سَبَق السيفُ العَذَلْ

وهذه سمةُ صدرٍ وفراسةٌ صادقة .

(١٧٩)

الأصل :

ازْجرِ الْمسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ .

***

الشرح :

قد قال ابنُ هانئٍ المغربيّ فى هذا المعنى :

لولا انبعاثُ السَّيفِ وهو مُسلَّطٌ ... فى قتلهمْ قتلتْهُمُ النَّعْماء

فأفصح به أبو العَتاهية فى قوله :

إذا جازيتَ بالإحسان قوماً ... زجرتَ المذنبين عن الذّنوبِ

فما لَكَ والتناوُل من بعيدٍ ... ويمكنك التّناوُل من قريبِ

(١٨٠)

الأصْـلُ :

احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ ، بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا يفسَّر على وجهين :

أحدها أنه يريد : لاتُضمر لأخيك سوءا، فإنّك لا تُضمر ذاك إلّا يضمر هو لك سوءا ، لأنّ القلوب يشعُر بعضها ببعض ، فإذا صفَوْتَ لواحدٍ صفا لك .

والوجه الثانى أن يريد : لا تَعِظِ الناس ولا تَنْهَهم عن منـكرٍ إلّا وأنت مُقلِـعٌ عنه ، فإن الواعظ الذى ليس بزَكىّ لا ينجَعُ[١] وعْظُه ، ولا يؤثِّرُ نهْيُـه .

وقد سَبَق الـكلام فى كلا المعنيين .

---

(١) ا : « ينفع » .

(١٨١)

الأصْـلُ :

اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ .

***

الشَّرحُ :

هذا مشتقّ من قوله عليه السلام : « لا رأى لمن لا يُطاع » ، وذلك لأن عدم الطاعة هو اللّجاجة ، وهو خُلُق يتركّب من خُلقين : أحدهما الكِبْر ، والآخر الجهل بعواقب الأمور وأكثر ما يعترى الولاة لما يأخذهم من العزة بالإثم .

ومن كلام بعض الحكماء : إذا اضطررت إلى مُصاحبة السلطان ، فابدأ بالفَحْص عن معتاد طَبْعِه ، ومألوفِ خُلُقه ، ثم استحْدِث لنفْسك طَبْعا ففرّغه فى قالب إرادته ، وخُلُقا تركّبهُ مع موضع وفاقه حتى تَسلم معه ، وإن رأيته يَهوَى فنّاً من فُنون المحبُوبات فأظهر هَواكَ لضــدّ ذلك الفنّ ، ليُبعِد عنك إرهابه ، بل ويَكثر سكونهُ إليك ، وإذا بدا لك منه فِعْل ذَمِيم فإيّاك أن تبدأه فيه بقولٍ ما لم يَستبذل فيه نُصْحك ، ويستدعى رأيك ؛ وإن استدعى ذلك فليكن ما تفاوِضه فيه بالرّفق والاستعطاف ، لا بالخشونة والاستنكاف ، فيَحمِله اللّجاج المركّب فى طَبْع الولاة على ارتكابه ، فكلُّ والٍ لَجُوج ، وإن علم ما يتعقّبه لجاجه من الضرر ، وأنّ اجتنابه هو الحسن .

(١٨٢)

الأصْـلُ :

الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

* * *

الشَّـرحُ :

هذا المعنى مطروقٌ جدّا ، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ .

وقال الشاعر :

تعفّفْ وعِشْ حُرّا ولا تَكُ طامِعاً   فما قَطّعَ الأعناقَ إلّا المَطامِعُ

وفى المَثَل : أطمع من أشعب ؛ رأى سَلّالا يصنَع سَلّة ، فقال له : أوْسِعْها ؛ قال : ما لَكَ وذَاكَ ؛ قال : لعلَّ صاحبَها يُهدِى لى فيها شيئاً .

ومرّ بمَكْتب وغلامٌ يقرأ على الأستاذ : ﴿ إنَّ أبِى يَدْعُوكَ ﴾ ، فقال : قم بين يَدَىَّ حَفِظك الله وحَفِظ أباك ، فقال : إنما كنت أقرأ وِرْدى ، فقال : أنكرت أن تُفْلح أو يُفلح أبوك !

وقيل : لم يكن أطمَعُ من أشعَب إلّا كلبُه ، رأى صورة القَمَر فى البئر فظنّه رغيفا ، فألقَى نفسه فى البئر يطلبه ، فمات .

(١٨٣)

الأصل :

ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ .

***

الشرح :

قد سبق من الكلام فى الحزم والتفريط ما فيه كفاية . وكان يقال : الحزم مَلَكَة يُوجِبها كثرةُ التجارب ، وأصله قوّة العقل ، فإنّ العاقل خائفٌ أبدا ، والأحمق لا يخاف ، وإن خاف كان قليل الخوف ، ومن خاف أمراً توقّاه ، فهذا هو الحزم .

وكان أبو الأسود الدّؤلىّ من عُقَلاء الرجال وذوِى الحزم والرأى ، وحكى أبو العباس المبرّد قال : قال زياد لأبى الأسود ـ وقد أسنّ ـ : لولا ضَعْفُك لاستعملناك على بعض أعمالنا، فقال : أللصّراع يريدُنى الأمير ! قال زياد : إنّ للعمل مئونة ، ولا أراك إلا تضعف عنه ، فقال أبو الأسود :

زعَمَ الأميرُ أبو المغيرةِ أننى ... شيخٌ كبيرٌ قد دنَوْتُ من البِلَى
صدَق الأميرُ لقد كبِرتُ وإنما ... نالَ المكارمَ من يدبّ على العصا
يابا المغيرةِ رُبَّ أمرٍ مُبْهَمٍ ... فرجْتُه بالحزْم منّى والدَّهَا

وكان يقال: مِن الحزْم والتوقّى ترك الإفراط فى التوقّى .

لما نزل بمعاوية الموتُ وقدِم عليه يزيد ابنهُ فرآه مسكتا لا يتكلم ، بكى وأنشد :

لو فاتَ شيءٌ يُرَى لفاتَ أبو ... حَيّان لا عاجزٌ ولا وَكِلُ
الحُوَّلُ القُلَّبُ الأَرِيبُ ولا ... تدفعُ يومَ المنيّة الحِيَلُ

---

(١) الكامل . (٢) ديوانه .

(١٨٤)

الأصْلُ :

مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ ، أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ فى الصّبر والجزع .

وكان يقالُ : ما أحسَنَ الصّبرِ لولا أن النفقة عليه من العمر ! أخذه شاعر فقال :

وَإِنّى لأدرِى أنَّ فى الصَّبْرِ رَاحَةً ... ولـكنّ إنفاقى على الصبر من عُمْرِى

وقال ابن أبى العلاء يستبطىء بعض الرؤساء :

فإنْ قيل لى صبراً فلا صَبْرَ للذى ... غدا بيد الأيّام تقتـله صَبْرَا

وإن قيـل لى عذراً فوالله ما أرى ... لمن ملك الدنيا إذا لم يَجِدْ عذرا

فإن قلت : أى فائدة فى قوله عليه السلام : « مَنْ لم ينجه الصّبر أهلـكه الجزع » ؟ وهل هذا إلا كقول مَنْ قال : « من لم يجد ما يأكل ضرّه [1] الجوع ؟ » .

قلت: لو كانت الجهة واحدة، لـكان الـكلام عبثا ، إلا أن الجهة مختلفة ، لأن معنى كلامه عليه السلام من لم يخلّصه الصبر من هموم الدّنيا وغُمومها هَلَكَ من الله تعالى فى الآخرة بما يستبدله من الصبر بالجزع ؛ وذلك لأنّه إذا لم يصبر فلا شكّ أنّه يجزع ، وكلّ جازع آثم والإثم مهلـكة ، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الـكلام عبثا بل كان مفيدا .

---

(١) فى د : « أهلكه » .

(١٨٥)

الأصْلُ :

وَاعجَبًا أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ بِالصَّحَابَةِ ولا تكون بالصحابة وَالْقَرَابَةِ .

قال الرضيّ رحمه الله تعالى وقد روى له شعر قريب من هذا المعنى وهو :

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ ! (١)

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

* * *

الشَّرْحُ :

حديثه عليه السلام فى النثر والنظم المذكورين مع أبى بكر وعمر ، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه لأنّ أبا بكر لما قال لعمر : امدد يدك ، قال له عمر : أنت صاحب رسول الله فى المواطن كلّها ، شدّتها ورخائها ، فامدد أنت يدك ، فقال على عليه السلام: إذا احتججتَ لاستحقاقه الأمر بصحبته إيّاه فى المواطن كلّها ، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شركه فى ذلك ، وزاد عليه « بالقرابة » ! وأما النظم فوجّه إلى أبى بكر ؛ لأن أبا بكر حاجّ الأنصارَ فى السقيفة . فقال : نحن عِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيضته التى تفقّأت عنه ، فلما بويع احتجّ على الناس بالبيعة ، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقْد ، فقال علىّ عليه السلام : أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قومه ، فغيرك أقرب نسباً منك إليه ، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك ، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت !

واعلم أن الكلام فى هذا تتضمّنه كتب أصحابنا فى الإمامة ، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها .

تم الجزء الثامن عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء التاسع عشر

فهرس الكتب*

(*) وهي الكتب الواردة فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع عشر

١٩٦٣

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بيـــان

يشتمل هذا الجزء على شرح طائفة من مختار حكم أمير المؤمنين ومواعظه وأجوبة مسائله والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه ؛ وهو القسم الثانى مما اختاره له الشريف الرضىّ فى كتاب «نهج البلاغة» ؛ وينتهى هذا القسم فى أثناء الجزء التالى .

وقد روجع على الجزء الرابع من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ، وهى التى رمزت لها بالحرف ا .

وأصل هذا الجزء يقع فى ٩٠ ورقة مسطرتها ٢٥ سطرا ، فى كلّ سطر ١٣ كلمة تقريبا ، مكتوب بخط نسخ معتاد قليل الشكل ، ولم يتضح اسم ناسخه ولا تاريخ نسخه ، و يبدو أنه كتب فى القرن الحادى عشر .

كما روجع على مايقابله من المجلد الأخير من النسخة المحفوظة بدار الكتب برقم ١٨٦٨ ــ أدب ؛ وهى التى رمزت لها بالحرف د ، وسبق وصفها فى مقدمة الجزء السادس عشر من هذه الطبعة . وعلى النسخة المطبوعة فى طهران سنة ١٢٧١ عن أصلها المخطوط فى هذا التاريخ ، والتى رمزت لها بالحرف ب .

والله الموفق للصواب .

محمد أبو الفضل إبراهيم

٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٣ هـ
٢٨ يوليه سنة ١٩٦٣ م

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ — ٦٥٦)

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٨٦)

الأصْلُ :

إنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا ، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ ؛ وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ، وَلاَ يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلاَ يَسْتَقْبِلُ يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ إلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ؛ فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ ؛ وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفًا ، إلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا ، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا !

***

الشَّرْحُ :

قد سبق ذرء[1] من هذا الكلام فى أثناء خطبته عليه السلام ، وقد ذكرنا نحن أشياء كثيرةً فى الدنيا وتقلّبها بأهلها .

ومن كلام بعض الحكماء : طوبَى للهارب من زخارف الدنيا ، والصادّ عن زَهرة دِمَنَتِها ، والخائف عند أمانها ، والمتّهم لضمانها ، والباكى عند ضحكها إليه ، والمتواضع عند إعزازها له ، والناظر بعين عقله إلى فضائحها ، والمتأمّل لقبح مصارعها ، والتارك

---

(١) ذرء : أى طرف .

لـكلابِها على جِيَفها ، والمـكذّب لمواعيدها ، والمتيقظ لخدَعها ، والمعرِض عن لُمَعها ، والعامل فى إمهالها ، والمتزوّد قبل إعجالها .

قوله : « تنتضل » النَّضْـل شىء يرمى ، ويروى « تَبادره » أى تتبادره ، والغرض : الهدف .

والنّهب : المال المنهوب غنيمة ، وجمعه نِهاب .

وقد سبق تفسير قوله : « لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى » ، وقلنا : إنّ الّذى حصلت له لذّة الجماع حالَ ماهى حاصلة له ، لابدّ أن يكون مفارقاً لذّة الأكل والشرب، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكله وشربه لذّة الرّكض على الخيل فى طلب الصّيد ، ونحو ذلك .

قوله : « فنحن أعوان المنون » ؛ لأنّا نأكل ، ونشرب ، ونجامع ، ونركب الخيل ، والإبل ، ونتصرّف فى الحاجات والمآرب ؛ والموت إنما يكون بأحد هذه الأسباب ، إمّا من أخلاط تحدثها المآكل والمشارب ، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابّة هو راكبها ، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرِط ، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ، ونحو ذلك ؛ فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا .

قوله : « نصب الحتوف » يروى : بالرفع والنصب ، فمن رفع فهو خبر المبتدأ ، ومن نصبه جعله ظرفا .

(١٨٧)

الأصل :

لاَ خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ ، كَمَا أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ .

***

الشرح :

قد تكرّر ذِكرُ هذا القول ، وتكرّر منا شرحُه [1] وشرحُ نظائره .

وكان يقال : ما الإنسان لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة ، أو صورةٌ ممثَّلة .

وكان يقال : اللّسان عضوٌ إنْ مرّنته مرَن [2] ، وإن تركته خزِن [3] .

(١) ا « شرح له » (٢) ا : « تمرن » .

(٣) خزن : تغير وفسد .

(١٨٨)

الأصل :

يابنَ آدمَ ، ما كسبتَ فوقَ قوتِكَ ، فأنتَ فيهِ خازنٌ لغيرِكَ .

***

الشرح :

أخذ هذا المعنى بعضهم ، فقال :

مالى أراكَ الدهـــــرَ تجمعُ دائباً ... ألبَعْلِ عِرْسِكَ لا أبالكَ تجمعُ !

وعاد الحسنُ البصريُّ عبدَ الله بن الأهتم فى مرضه الذى مات فيه ، فأقبل عبدُ الله يَصرِف بصرَه إلى صُندوق فى جانب البيت ، ثم قال للحسن : يا أبا سعيد ، فيه مائةُ ألفٍ لم يؤدَّ منها زكاة ، ولم توصَل بها رَحِم ! قال الحسن : ثَكِلَتْكَ أمُّك ! فلِمَ أعددتَها ؟ قال : لرَوْعة الزمان ، ومُكاثرة الإخوان ، وجفوة السلطان .

ثم مات ، فحضر الحسن جنازتَه ، فلما دُفن صَفّق[1] بإحدى راحتيه الأخرى ، وقال : إنّ هـذا أتاه شيطانه ، فحذّره رَوْعة زمانه ، وجفوةَ سلطانه ، ومكاثرة إخوانه ، فيما استودَعه اللهُ إيّاه فادّخره ؛ ثمّ خرج منه كئيبا حزينا ، لم يؤدِّ زكاةً ، ولم يَصِل رَحِما . ثمّ التفت فقال : أيّها الوارث ، كلْ هنيئا ، فقد أتاك هذا المالُ حلالا ، فلا يكن عليك وَبالا ، أتاك ممّن كان له جَموعا مَنوعا، يركب فيه لُجَجَ البحار ، ومَفاوِزَ القِفار، مِن باطلٍ جمَعه ، ومن حقٍّ منَعه ، لم ينتفع به فى حياته ، وضرّه بعد وفاته ، جمعه فأوْعاه ، وشدّه فأوْكاه[2] إلى يوم القيامة ؛ يومِ ذِى حَسَرات ، وإنّ أعظمَ الحسرات أن ترَى مالَك فى ميزانِ غيرِك ؛ بخلتَ بمالٍ أُوتيتَه من رِزقِ الله أن تنفقه فى طاعة الله ، فخزنته لغيرِك ، فأنفقَه فى مرضاة ربِّه ، يالها حَسْرةً لا تُقال ، ورحمةً لا تُنال ! إنّا لله وإنّا إليه راجعون !

---

(١) التصفيق : ضرب له صوت مثل الصعق .

(٢) أوكاه : أحكم رباطه ، من الوكاء ؛ وهو رباط القربة

الأصلُ :

إنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإقْبالاً ، وَإدْباراً ؛ فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِها وَإقْبالِها ، فَإنَّ الْقَلْبَ إذَا أُكْرِهَ عَمِيَ .

* * *

الشَّرحُ :

قد تقدّم القوْل فى هذا المعنى .

والعِلّة فى كون القلب يعمَى إذا أُكره على مالا يحبّه ، أنّ القلبَ عضْو من الأعضاء يتعَب ويستريح كما تتعب الجثّة عند استعمالها وأعمالها ، وتستريح عند ترْك العمَل ، كما يتعب اللّسان عند الكلام الطويل ، ويستريحُ عند الإمساك ، وإذا تواصَل[1] إكراه القلبِ على أمرٍ لا يحبّه ولا يؤثِره تَعِب ، لأنّ فِعلَ غيرِ المحبوبِ مُتعِب : ألا ترى أنّ جِماعَ غيرِ المَحْبوب يُحدِث من الضّعف أضعافَ ما يُحدِثه جِماعُ المَحْبوب ؛ والرّكوب إلى مكان غيرِ محبوبٍ مُتعِب ولا يُشتَهى ، يُتعِب البَدَنَ أضعافَ ما يُتعِبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوباً ، وإذا أُتعِب القلب وأعْيا ، عجزَ عن إدراك ما كلّفه إدراكه ، لأنّ فعلَه هو الإدراك ، وكلّ عضو يَتعَب فإنّه يَعجَز[2] عن فعلِه الخاصّ به ، فإذا عجز القلبُ عن فِعلِه الخاصّ به وهو العِلم والإدراك ؛ فذاك هو عماه .

---

(١) ا : « توصل » . (٢) ا : « عاجز » .

(١٩٠)

الأصل :

وكان عليه السلام يقول :

مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ ! أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الْانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي : لَوْ صَبَرْتَ ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ لِي : لَوْ عَفَوْتَ !

* * *

الشرح :

قد تقدّم القولُ في الغضب مرارا .

وهذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المَعْنى ؛ قال : لا سبيل لى إلى شفاء غَيْظى عند غضبي ، لأنّى إمّا أن أكون قادرا على الانتقام فيصدّنى عن تعجيلِه قولُ القائل : لو غفرتَ لكان أولى ! وإمّا ألّا أكونَ قادرا على الانتقام فيصدّنى عنه كونى غيرَ قادرٍ عليه ؛ فإذَنْ لا سبيلَ لى إلى الانتقام عند الغضب .

وكان يقال : العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدِئه الغضَب، كما تَصْدَأ المرآة بالخلّ ، فلا يَثبُت فيها صورةُ القُبح والحُسْن .

واجتمع سُفيان الثَّوْرىّ وفُضَيل [1] بنُ عِياض فتذاكرا الزّهدَ ، فأجمعا على أنّ أفضل الأعمالِ الحلمُ عند الغضب ، والصبرُ عند الطَّمع .

---

(١) ا : « الفضل » .

(١٩١)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقدْ مَرَّ بِقَذَرٍ على مَزْبلةٍ : هَذَا ما بَخِلَ بِهِ الْباخلونَ .

وفِي خبَرٍ آخَرَ أنَّهُ قال : هَذَا ما كُنْتُم تَتَنافَسُون فيهِ بالأَمْس !

***

الشَّرْحُ :

قد سبق القولُ فى مثل هذا ، وأن الحسَن البَصْرىّ مرّ على مَزْبَلة ، فقال : انظروا إلى بَطِّهم ودَجاجهم وحلْوائهم وعَسَلهم وسَمْنهم ؛ والحسَن إنما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال ابن وَكيع فى قول المتنبّى :

لو أفكَّر العاشقُ فى مُنتهى   حُسْن الذى يَسبيه لم يَسبِهِ[١]

إنه أراد : لو أفكّر فى حاله وهو فى القبر ، وقد تغيّرتْ محاسنُه ، وسالت عَيْناه ، قال .

وهذا مثلُ قولهم : لو أفكّر الإنسان فيما يئول إليه الطعام لعافَتْه نفسُه .

وقد ضَرَب العلماء مَثلا للدنيا ومخالفةِ آخرِها أولها ، ومضادّة مَباديها عواقبها ، فقالوا : إنّ شهوات الدنيا فى القَلب لذيذةٌ كشَهَوات الأَطْعِمة فى المعِدة ، وسَيجِد الإنسان عند الموت لِشهوات الدنيا فى قلبه من الكَراهة والنَّتْن والقبْح ما يَجده للأَطعمة اللّذيذة إذا طبختها المَعِدة وبلغتْ غايةَ نُضْجها ، وكما أن الطعام كلّما كان ألذَّ طَعْما وأظهر حلاوة ، كان رجيعه أقذر وأشدّ نَتْنا ؛ فكذلك كلُّ شهوة فى القلبْ أشهى وألذّ وأقوى ،

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٢

فإنّ نتنها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ ، بل هذه الحال فى الدّنيا مُشاهدة ، فإن [من](١) نُهبتْ دارُه ، وأُخذ أهلُه وولدُه وماله ، تكون مصيبتُه وألمه وتفجُّعه فى الذى فقَدَ بمقدار لذّته به ، وحبِّه له ، وحرصه عليه ، فكلُّ ما كان فى الوجود أشهى وألذّ ، فهو عند الفقْد أدهى وأمرّ ، ولا معنى للموت إلاّ فقد ما فى الدنيا .

وقد رُوى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال للضحّاك بن سُفْيان الكلابيّ : ألست تُؤتَى بطعامك وقد قَزّح وملح (٢) ، ثم تشرَب عليه اللّبنَ والماء ! قال : بلى ، قال : فإلى ماذا يصير ؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسولَ الله ؛ قال : فإنّ الله عزّ وجلّ ضرَب مَثَل الدّنيا بما يصير إليه طعام ابن آدمَ .

وروَى أبيّ بن كعب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال : إن أنتَ ضربتَ مثلاً لابن آدم فانظر ما يَخرُج من ابن آدم ، وإن كان قزّحه وملحَه إلى ماذا صار .

وقال الحسَن رحمه الله : قد رأيتُهم يطيبون ه بالطِّيب والأفاويه (٣) ثمّ يرمونه حيث رأيتم ، قال الله عز وجلّ : ﴿ فلْينظر الإنسانُ إلى طعامه ﴾ (٤) ، قال ابن عباس : إلى رَجيعِه .

وقال رجل لابن عمر : إنّى أريد أن أسألك وأستحيي ، فقال : لا تَسْتَحى وسَلْ ؛ قال : إذا قضَى أحدُنا حاجته فقام ، هل ينظر إلى ذلك منه ؟ فقال : نعم ، إن المَلَكَ يقول له : انْظُرْ هذا ما بَخلتَ به ، انظُر إلى ماذا صار !

---

(١) تكملة من د .
(٢) يقال : قزح القدر كمنع ؛ جعل فيها بزر البصل والتابل .
(٣) الأفاويه : جمع أفواه ؛ وهى التوابل . (٤) سورة عبس ٢٤

(١٩٢)

الأصْلُ :

لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظَكَ .

***

الشَّرْحُ :

مثلُ هذا قولهم : إن المصائبَ أثمانُ التجارب .

وقيل لعالم فقير بعد أن كانَ غنيًا : أين مالك ؟ قال : تَجَرتُ[١] فيه ، فابتعتُ به تجربةَ الناس والوقت ، فاستفدْتُ أشرَفَ العِوَضَين[٢] .

(١) ا : « تاجرت » .

(٢) ا : « الشيئين » .

الأَصْلُ :

إنَّ هَذه القُلُوبَ تَمَلُّ كَما تَمَلُّ الأبْدَانُ ، فابْتَغُوا لها طَرَائِفَ الحِكْمَةِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا قد تكرَّر ، وتكرَّر منّا ذِكرُ ما قيل في إجمام النّفس والتنفيس عنها من كَرْب الجدّ برُوح الإحماض (١) وفسرنا معنى قولهِ عليه السلام : « فابتغُوا لها طرائف الحكمة » وقلنا : المراد ألّا يجعل الإنسانُ وقته كلَّه مصروفاً إلى الأنظار العقليّة في البَراهين الكلاميّة والحِكَميّة ، بل ينقلها من ذلك أحيانا إلى النظر في الحِكمة الخُلُقيّة فإنها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس والخاطر .

فأمّا القول في الدُّعابة فقد ذكرْناه أيضا فيما تقدّم ، وأوضحْنا أنَّ كثيرا من أعيان الحُكماء والعلماء كانوا ذوي دُعابة مقتصدة لا مسرِفة ، فإن الإسراف فيها يُخرِج صاحبَه إلى الخلاعة ، ولقد أحسنَ من قال :

أَفِدْ طبعَكَ المكدودَ بالجِدّ راحةً ... يجمّ وعَلِّله بشيءٍ من المَزْح (٢)

ولكنْ إذا أعطيْته ذاكَ فليَكُنْ ... بمقدارِ ما يُعْطَى الطعامُ من المِلْحِ (٣)

---

(١) الإحماض : التنقل من الجد إلى المزح (٢) المكدود : المجهد

(٣) أي على قدر من الاعتدال .

(١٩٤)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الخَوارِجِ : لا حُكْمَ إلَّا لله ، كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ (١) ﴾ ، أى إذا أراد شيئاً من أفعالِ نفسه فلابدّ من وقوعه ، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصولُ مرادهم إذا أرادوه ، ألا ترى ما قبل هذه الكلمة : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من بابٍ واحد ، فأمرهم أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقه ، ثم قال لهم : «وما أغنِي عنكم من الله من شيء» ، أى إذا أراد الله بكم سوءاً لم يدفع عنكم ذلك السُّوء ما أشرتُ به عليكم من التفرّق ؛ ثم قال : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أى ليس حيٌّ من الأحياء يَنفُذُ حكمه لا محالة ومرادُه لما هو من أفعاله إلّا الحيَّ القديم وحدَه ، فهذا هو معنى هذه الكلمة ، وضلّت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنين عليه السلام موافقتَه على التحكيم ؛ وقالوا : كيف يحكم وقد قال الله سبحانه : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فغلطوا لموضع اللفظ المشترك ، وليس هذا الحُكم هو ذلك الحكم ، فإذَنْ هى كلمةُ حقٍّ يرادُ بها باطل ، لأنّها حقٌّ على المفهوم الأوّل ، ويريد بها الخوارجُ نفيَ كلِّ ما يسمَّى حكما إذا صَدر عن غير الله تعالى ، وذلك باطل ، لأنّ الله تعالى قد أمضَى حُكم المخلوقين فى كثيرٍ من الشرائع .

(١) سورة يوسف ٦٧

(١٩٥)

الأصل :

وقال عليه السلامُ في صِفَة الغَوْغاء :

هُمُ الَّذِينَ إذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وإذَا تفرّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا

وقِيلَ : بَلْ قالَ عليهِ السلام : هُمُ الَّذِينَ إذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا ، وإذا تفرَّقُوا نَفَعوا ،

فَقِيلَ : قَدْ عَلِمْنا مَضَرَّةَ اجْتِماعِهِمْ ، فما مَنْفَعةُ افْتِراقِهِم ؟ فقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ :

يَرْجِعُ أصْحَابُ المِهَنِ إلَى مِهَنِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ ، كَرُجُوعِ البَنَّاءِ إلَى بِنائِهِ ، والنَّسَّاجِ إلَى مَنْسَجِهِ ، والخَبَّازِ إلى مَخْبَزِه .

***

الشرح :

كان الحسن إذا ذَكَر الغَوْغاء وأهل السّوق قال : قتلة الأنبياء ؛ وكان يقال : العامّة كالبحر إذا هاج أهلكَ راكبه ؛ وقال بعضهم : لا تسبُّوا الغَوْغاء فإنهم يُطْفِئون الحريق ، ويُنقِذون الغريق ، ويسُدّون البُثوق [1] .

وقال شيخنا أبو عثمان : الغاغَة والباغة [2] والحاكَة كأنّهم أعذارُ عام واحد ، ألا ترى أنك لا تجد أبداً في كلّ بلدةٍ وفي كلّ عصر هؤلاء بمقدارٍ واحد وجهةٍ واحدة من السُّخف والنَّقص والخمول والغباوة ؛ وكان المأمون يقول : كلّ شرّ وظُلْم [3] في العالم

---

(١) البثوق : الشقوق في الأنهار . (٢) الباغة : الحمق .

(٣) في د : « وضر » .

فهو صادرٌ عن العامّة والغوغاء ، لأنهم قتلة الأنبياء والمُغرُون[1] بين العلماء ، والنمّامون بين الأوِدّاء[2] ، ومنهم اللصوص ، وقُطّاع الطّريق ، والطّرارون[3] ، والمحتالون والساعون إلى السلطان[4] ، فإذا كان يوم القيامة حُشِروا على عادتهم فى السّعاية فقالوا : ﴿ رَبَّنا إنَّا أطَعْنا سادَتنا وكبَراءنا فأضَلُّونا السَّبيلا ، رَبَّنا آتِهم ضِعْفَين مِنَ العذابِ وَالْعَنْهُمْ لعناً كبيرا[5] ﴾ .

---

(١) فى د « والمفرقون » .

(٢) فى د « الأولياء » .

(٣) الطرارون : المروجون للسلع .

(٤) ا : الحكام .

(٥) سورة الأحزاب ٦٧

(١٩٦)

الأصْلُ :

وَقَالَ عَليه السلام وَقَدْ أُتِيَ بِجانٍ وَمَعَهُ غَوْغاء فَقَالَ : لاَ مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لاَ تُرَى إلّا عِندَ كُلِّ سَوْأَةٍ .

***

الشَّرْحُ :

أخذ هذا اللفظ المستعينُ بالله وقد أُدْخِل عليه ابنُ أبي الشوارب القاضي ومعه الشهود ليَشهَدوا عليه أنّه قد خَلَع نفسه من الخلافة و بايَع المعتزّ بالله ، فقال : لا مرحبا بهذه الوجوه التي لا تُرَى إلّا يوم[1] سوء .

وقال من مدح الغَوْغاء والعامّة: إنّ في الحديث المرفوع : إنّ الله يَنصرُ هذا الدِّين بقوم لا خلاقَ لهم .

وكان الأحنفُ يقول : أكرِموا سُفهاءكم فإنّهم يكفُونَكم النارَ والعارَ .

وقال الشاعر :

وإنّي لأستبقي امرأ السّوء عُدّةً لِعَدْوةِ عِرّيضٍ من الناسِ جائبِ[2]
أخافُ كلابَ الأبعَدين وهَرْشَها إذا لم تُجاوِبْهــا كِلابُ الأقاربِ

---

(١) د « إلا عند السوء » .
(٢) الجائب : المتنقل من مكان إلى مكان .

(١٩٧)

الأصْلُ :

إنَّ مَعَ كُلِّ إنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ ، فَإذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَإنَّ الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم هذا ، وقلنا : إنّه ذهب كثيرٌ من الحكماء هذا المَذهَب ، وإنّ لله تعالى ملائكةً مُوكَّلةً تحفظُ البشرَ من التردّى فى بئرٍ ، ومن إصابةِ سَهْمٍ معترِضٍ فى طريق، ومن رَفْس دابّة، ومن نَهْش حيّة، أو لَسْع عقرب ، ونحو ذلك . والشرائع أيضاً قد وردتْ بِمثله [وإنّ][1] الأجل جُنّة ، أى دِرْع ، ولهذا فى علم الكلام مخرَج صحيحٌ ، وذلك لأن أصحابنا يقولون : إنّ الله تعالى : إذا علِم أنّ فى بقاء زيدٍ إلى وقت كذا لُطفاً له أو لغيرِه من المكلّفين صدَّ من يهمّ بقَتْله عن قتلِه بألطافٍ يفعَلُها تصدّه عنه أو تصرفه عنه بصارف ، أو يَمنَعه عنه بمانع ، كى لا يقطَع ذلك الإنسانُ بقتْل زيدٍ الألطافَ التى يَعلَم اللهُ أنّها مقرِّبة من الطاعة، ومُبعِدة من المَعصية[2] لزيد أو لغيره ، فقد بان أنّ الأجل على هذا التقدير جُنّة حَصينة لزيْد ، من حيثُ كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتلِه وإبطال حياته ، ولا جُنّة أحصنُ من ذلك .

---

(١) من د ، وفى ب : « وأما » (٢) د « عن القبيح » .

(١٩٨)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام : وقَدْ قالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ : نُبَايِعُكَ عَلَى أَنَّا شُرَكَاؤُكَ فِي هَذَا ٱلْأَمْرِ ؛ فقالَ [لا][1] : وَلَـكِنَّكُما شَرِيكَانِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَالاسْتِعَانَةِ ، وَعَوْنَانِ عَلَى ٱلْعَجْزِ وَٱلْأَوَدِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد ذكَرْنا هذا فيما تقدّم حيث شرحْنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ مقتل عثمانَ ، ولقد أحسنَ فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشرِكَاه فى الْأَمْر ، فقال : أمّا المُشارَكة فى الخلافة فكيف يكون ذلك ؟ وهل يصحّ أن يدبّر أمرَ الرعيّة إمامان .

* وهل يُجْمَع السَّيفَان ويحكِ فى غمد *[2]

وإنما تُشرِكانى فى القوّة والاستعانة أى إذا قوِيَ أمرِى وأمرُ الإسلام بى قوِيتما أنتما أيضا ، وإذا عجزتُ عن أمرٍ أو تأود علىّ أمر - أى أعوجّ - كنتما عوْنين لى ومساعِدَين على إصلاحه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « والاستعانة » .

قلتُ : الاستعانة هاهنا الفوزُ والظَّفَرُ ، كانوا يقولون للقامِر يفوز قِدْحه : قد جَرَى ابنا عِنان . وهما خطّان يُخطّان فى الأرض يزجر بهما الطير ، واستعانَ الإنسانُ ، إذا قال وقتَ الظَّفَر والغَلَبة هذه الكلمة .

(١) تكملة من « د » .

(٢) عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* تريدين كَيْمَا تجْمعِينِي وَخَالِداً *

ديوان الهذليين ١ : ١٥٩

(١٩٩)

الأصْلُ :

أيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إنْ قُلْتُمْ سَمِعَ ، وَإنْ أضْمَرْتُمْ عَلِمَ ، وَبَادِرُوا لْمَوْتَ الذِي إنْ هَرَبْتُمْ مِنْهُ أدْرَكَكُمْ ، وَإنْ أقَمْتُمْ أخَذَكُمْ ، وَإنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدم منا كلامٌ كثير فى ذكر الموت ؛ ورأى الحسنُ البصرىُّ رجلاً يجود بنفسه ، فقال : إنّ أمرا هذا آخرُه لجدير أن يُزهَد فى أوّله ، وإن أمرا هذا أوّله لجديرٌ أن يُخاف من آخره .

ومن كلامِه : فَضَحَ الموْتُ الدّنيا .

وقال خالد بنُ صَفْوان : لو قال قائل . الحسَنُ أفصحُ الناس لهذه الكلمة لما كان مخطئا .

وقال لرجل فى جنازةٍ : أترى هذا الميّت لو عادَ إلى الدّنيا لكان يَعمَل عملا صالحا ؟ قال : نعم ، قال : فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك .

(٢٠٠)

الأصْلُ :

لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، وَقَدْ يُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

الشَّرْحُ :

قد أخذتُ أنا هذا المعنى فقلتُ من جملة قصيدةٍ لى حِكْمية :

لا تُسدينّ إلى ذى اللؤم مَكرُمةً ... فإنه سَبَخٌ لا يُنبت الشجَرا

فإنْ زرعتَ فمحفوظٌ بمَضيَعةٍ ... وأكلُ زَرْعِك شكرُ الغير إن كَفَرا

وقد سبق منّا كلامٌ طويلٌ فى الشكر .

ورأى العبّاس بنُ المأمون يوماً بحضرة المعتصم خاتماً فى يد إبراهيم بن المهدىّ ، فاستحسنَه ، فقال له : مافَصُّ هذا الخاتم ، ومن أين حصّلته ؟ فقال إبراهيم : هذا خاتمٌ رهنتُه فى دولةِ أبيك ، وافتككتُه فى دولةِ أمير المؤمنين ؛ فقال العبّاس : فإن لم تشكر أبى على حقْنِه دمَك فأنت لا تشكرُ أميرَ المؤمنين على فكّه خاتَمك .

وقال الشاعر :

لَعمرُك ما المعروفُ فى غيرِ أهلِه ... وفى أهلِه إلاّ كبعضِ الوَدائعِ

فمستودَعٌ ضاع الّذى كان عندَه ... ومستودِعٌ ما عندَه غيرُ ضائعِ

وما النّاس فى شكرِ الصّنيعة عندهمْ ... وفى كفرها إلاّ كبعضِ المزارِعِ

فمزرَعةٌ طابتْ وأضعفَ نَبْتُها ... ومَزْرَعةٌ أكْدَتْ على كل زارعِ

(٢٠١)

الأصْلُ :

كُلُّ وِعاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام تحتَه سرٌّ عظيم ، ورمزٌ إلى معنى شريف غامض ، ومنه أخذ مُثْبِتو النفس الناطِقةِ الحجّة على قولهم ؛ ومحصولُ ذلك أن القُوَى الجسمانيّة يُكِلها ويُتعبُها تكرارُ أفاعيلِها عليها ، كقوّة البصر يُتعِبُها تكرار إدْراكِ المَرْئيّات ، حتّى ربّما أذهبها وأبطلَها أصلا ، وكذلك قوّة السمع يُتعبها تكرار الأصوات عليها ، وكذلك غيرها من القُوَى الجُسْمانيّة ، ولكنّا وجدْنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك[1] ، فإنّ الإنسان كلّما تكرّرتْ عليه المعقولات ازدادتْ قوّته العقليّة سَعةً وانبساطا واستعدادا لإدراكِ أمور أخرى غير ما أدركتْه من قبلُ ، حتّى كأنّ تكرارُ المَعْقولات عليها يَشْحذها[2] ويَصْقُلها ، فهي إذَنْ مخالِفة في هذا الحكمِ للقُوى الجُسْمانية ، فلَيْست منها لأنّها لو كانت منها لكان حُكْمها حكمَ واحدٍ من أخواتها ، وإذا لم تكن جُسْمانيّة فهي مجرّدة ، وهي التي نسميها بالنفس الناطقة .

---

(١) ا : « هذا » .

(٢) يشحذها : يحدها .

الأصْلُ :

أَوَّلُ عِوَضِ الحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى الجَاهِلِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم من أقوالنا فى الحلم مافى بعضه كفاية .

وفى الحِكَم القديمة : لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبْح الانتقام .

وكان يقال : اعفُ عمّن أبطأ عن الذّنب ، وأسرع إلى النّدم .

وكان يقال : شاور الأناة والتثبّت ، وذاكر الحفيظة[1] عند هيَجانها مافى عواقب العُقُوبة من النّدم ، وخاصِمْها بما يؤدّى إليه الحِلْم من الاغتباط .

وكان يقال : ينبغى للحازم أن يقدّم على عذابه وصفحِه تعريف المذْنِب بما جناه ، وإلاّ نُسِب حلمُه إلى الغَفْلة وكلال حدّ الفِطْنة . وقالت الأنصار للنّبيّ صلى الله عليه وآله يوم فتحِ مكّة : إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا . يُغْرُونه بقريش ؛ فقال : « إنما سمّيت محمّدا لأُحْمَد » .

---

(١) الحفيظة : الحمية والغضب

(٢٠٣)

الأصْلُ :

إنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فتحَلَّمْ ، فَإنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ .

***

الشَّرْحُ :

التحلّمُ : تكلّفُ الحِلْمِ ، والذى قاله عليه السلام صحيح فى مَناهِج الحكمة ، وذلك لأنّ من تَشَبّه بقومٍ وتكلّف التخلّق بأخلاقِهم ، والتأدّبَ بآدابِهم ، واستمرّ على ذلك ومَرَنَ عليه الزمان الطويل ، اكتَسَب رياضةً قويّةً ، ومَلَكَةً تامّة ، وصار ذلك التكلّف كالطَّبْعِ له ، وانتقل عن الخُلُق الأوّل ، ألا ترَى أنّ الأعرابىّ الجِلْفَ الجافى إذا دَخَلَ المُدُن والقُرَى وخَالطَ أهلَها وطال مكْثُه فيهم انتقل عن خُلُق الأعراب الذى نشأ عليه ، وتلطّف طَبْعُه ، وصار شبيهاً بساكِنِى المُدُن ، وكالأجنبىّ عن ساكنى الوَبَرِ ،وهذا قد وجدناه فى حيواناتٍ أخرى غيرِ البشر كالبازِى والصّقر والفَهْد التى تُرَاضُ حتّى تَذِلّ وتأنَس وتَترُك طبعَها القديم ، بل قد شاهدناه فى الأسَد ، وهو أبعدُ الحيوان من الإنْس .

وذكر ابنُ الصابى أنّ عَضُد الدّولة بن بُوَيه كانت له أسُود يَصطاد بها كالفُهود فتُمسِكه عليه حتّى يُدرِكه فيذكّيه ، وهذا من العجائب الطريفة .

(٢٠٤)

الأصْـلُ :

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِـحَ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد جاء فى الحديث المرفوع : « حاسبوا أنفسكم قبلَ أن تحاسَبوا » .

قوله : « ومن خاف أمن » أي مَن اتقى الله أمِنَ مِنْ عذابه يوم القيامة .

ثم قال « ومن اعتبر أبصر » أى من قاس الأمور بعضها ببعض واتّعظ بآيات الله وأيامه أضاءت بصيرته ، ومن أضاءت بصيرته فهم ، ومن فهم علم .

فإن قلتَ : الفهم هو العلم ، فأىّ حاجةٍ له إلى أن يقول : « ومن فهم علم ؟ »

قلت : الفهم هاهنا هو معرفة المقدّمات ، ولا بد أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة ، فمعرفة النتيجة هو العلم ، فكأنّه قال : من اعتبر تنوّر قلبه بنور الله تعالى ومَنْ تنوّر قلبه عقل المقدّمات البرهانية ، ومن عقل المقدمات البرهانية علم النّتيجة الواجبة عنها ، وتلك هى الثمرة الشريفة التى فى مثلها يتنافس المتنافسون .

(٢٠٥)

الأصل:

وقال عليه السلام:

لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا. وَتَلَا عَقِيبَ ذَلِكَ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

***

الشرح:

الشِّماس: مصدر شَمس الفرسُ إذا منع من ظهره.

والضَّروس: الناقة السيّئة الخُلق تعضُّ حالبها، والإماميّة تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذى يملك الأرض فى آخر الزمان. وأصحابنا يقولون: إنه وعدٌ بإمام يملك الأرض ويستولى على الممالك، ولا يلزم من ذلك أنه لابدّ أن يكون موجودا، وإن كان غائبا إلى أن يظهر، بل يكفى فى صحة هذا الكلام أن يُخلق فى آخر الوقت.

وبعض أصحابنا يقول: إنّه إشارة إلى مُلك السفّاح والمنصور وابنى المنصور بعده. فإنهم الذين أزالوا ملكَ بنى أميّة، وهم بنو هاشم، وبطريقهم عطفت الدنيا على بنى عبد المطّلب عطف الضّروس.

وتقول الزيديّة: إنه لابدّ من أن يملك الأرض فاطمىٌّ يتلوه جماعة من الفاطميّين على مذهب زيد، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجودا.

(٢٠٦)

الأصْلُ :

اتَّقُوا اللهَ تُقَاةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً ، وَجَدَّ تَشْمِيراً ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ المَوْئِلِ ، وَعَاقِبَةِ المَصْدَرِ ، وَمَغَبَّةِ المَرْجِعِ .

***

الشّرْحُ :

لو قال : « وجرّد تشميرا » لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع ؛ لكنه لم يحفِل بذلك ، وجرى على مقتضى طبعه مِن البلاغة الخالية من التكلّف والتصنّع ، على أن ذلك قد روى ، والمشهور الرواية الأولى .

وأكمش : جدّ وأسرع ، ورجل كميش ، أى جادّ .

وفى مَهَل : أى فى مهلة العمر قبل أن يضيق عليه وقتهُ بدنوّ الأجَل .

الأصلُ :

الجودُ حارسُ الأعراضِ ، والحلمُ فِدامُ السَّفيهِ ، والعفوُ زكاةُ الظَّفَرِ ، والسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غدرَ ، والاستشارةُ عينُ الهدايةِ .

وقدْ خاطرَ مَنِ استغنَى برأيِهِ ، والصَّبرُ يُناضلُ الحدثانَ ، والجزعُ مِنْ أعوانِ الزَّمانِ ، وأشرفُ الغِنَى ، تركُ المُنَى .

وكَمْ مِنْ عقلٍ أسيرٍ عندَ هوًى أميرٍ ! ومِنَ التَّوفيقِ حِفظُ التَّجربةِ ، والمودَّةُ قرابةٌ مُستفادةٌ ، ولَا تأمَنَنَّ مَلُولاً .

***

الشرحُ :

مثل قوله : « الجود حارس الأعراض » قولهم : كلّ عيب فالكرم يغطّيه .

والفِدام : خِرقة تجعل على فمِ الإبريق ، فشبّه الحلم بها ، فإنّه يردّ السفيهَ عن السَّفه كما يردّ الفدامُ الخمرَ عن خروج القَذَى منها إلى الكأس .

فأمّا « والعفو زكاة الظَّفَر » فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زكاة ، وزكاة الجاه رِفْدُ المُستمِين ، وزكاة الظَّفَر العفو .

وأمّا « السُّلوّ عوضك ممّن غدر » ، فمعناه أنّ من غدرَ بك من أحبّائك وأصدقائك فاسلُ عنه وتناسَه ، واذكرْ ما عاملك به من الغَدْر ، فإنّك تسلو عنه ، ويكون ما استفدته من السلوّ عوضاً عن وِصالِه الأوّل ؛ قال الشاعر :

أعتَقَنى سوءُ ما صنعتَ من الرِّقّ فيابَرْدَها على كَبِدى
فصرتُ عبداً للسوء فيك وما أحسنَ سوءٌ قَبلِى إلى أحدِ

وقد سبق القولُ فى الاستشارة وأنّ المستغنىَ برأيه مخاطِر ، وكذلك القولُ فى الصّبر. والمناضَلة : المراماة.

وكذلك القولُ فى الجزع ، وأنّ الإنسان إذا جَزِع عند المصيبة فقد أعان الزمانَ على نفسِه ، وأضاف إلى نفسِه مصيبةً أخرى.

وسبق أيضا القولُ فى المُنى ، وأنّها من بضائع النَّوْكَى (١).

وكذلك القولُ فى الهوى ، وأنّه يَغلِب الرأى ويأسِره.

وكذلك القولُ فى التّجربة ؛ وقولُهم : مَن حارب المجرَّب حلّت به النّدامة ، وإنّ من أضاع التجربة فقد أضاع عقلَه ورأيَه.

وقد سبق القولُ فى المودّة ، وذكرنا قولَهم : الصّديقُ نسيبُ الرُّوح ، والأخُ نسيبُ الجسم . وسبق القولُ فى المَلال.

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكّن عَبرَتى أملِى رضاكِ وزرتُ غيرَ مُراقَبِ
لكنْ مللتِ فلم يكن لى حيلةٌ صَدُّ المَلولِ خلافُ صَدِّ العاتبِ

---

(١) جمع أنوك ؛ وهو الأحمق.

(٢٠٨)

الأصْلُ :

عُجْبُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى العُجْب ، ومعنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لا يزال مجتهداً فى إظهار معايب المحسود وإخفاء محاسنه ، فلما كان عُجْبُ الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذى دأْبُه إظهارَ عيب المحسود ونقصه .

وكان يقال : مَنْ رضىَ عن نفسه كثر الساخط عليه .

وقال مطرِّف بن الشِّخِّير : لأن أبيت نائماً ، وأصبح نادما ، أحبُّ إلىّ من أن أبيت قائماً وأصبح نادِما [1] .

(١) ا : « معجباً » .

(٢٠٩)

الأصْلُ :

أغْضِ عَلَى ٱلقَذَى وَالألَمِ تَرْضَ أبَداً .

***

الشَّرْحُ :

نظير هذا قول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عن صديقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ مافيه يَمُتْ وهو عاتِبُ

ومَن يتتبّعْ جاهداً كلّ عثرةٍ ... يجدها ولا يسلَمْ له الدهرَ صاحب

وقال الشاعر :

إذا أنتَ لم تشْرَبْ مِراراً على القَذَى ... ظَمِئْتَ وأيّ النّاس تصفُو مشاربُه[1]!

وكان يقال : اغضِ عن الدّهر وإلّا صرعك .

وكان يقال : لا تحارب الأيام وإن جنحتْ دون مطلوبك منها ، واصحبها بسلاسة القياد ، فإنّك إن تَصحبها بذلك تعطِك بعد المنع ، وتلِنْ لك بعد القساوة ؛ وإن أبَيت عليها قادتك إلى مكروهِ صُروفِها .

---

(١) لبشار ، ديوانه ١ : ٣٠٩

الأصل :

مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ .

***

الشرح :

تكادُ هذه الكلمة أن تكون إيماء إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾[1] ؛ ومعنى هذه الكلمة أن مَنْ حَسُن خُلقه ، ولانت كلمته ، كثر محبّوه وأعوانه وأتباعه .

ونحوه قوله : « مَنْ لانتْ كلمته ، وجبتَ محبّته » .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] ، وأصل هذه الكلمة مطابِقٌ للقواعد الحكميّة ، أعنى الشجرة ذات الأغصان حقيقة ، وذلك لأنّ النبات كالحيوان فى القوى النفسانيّة ، أعنى الغاذيّة والمنمية ، وما يخدم الغاذيّة من القوَى الأربع ؛ وهى الجاذبة ، والماسكة ، والدافعة ، والهاضمة ؛ فإذا كان اليبَس غالبا على شجَرة كانت أغصانُها أخفّ ، وكان عودها أدقّ ، وإذا كانت الرُّطوبة غالبةً كانت أغصانها أكثر ، وعودها أغلَظ ؛ وذلك لاقتضاء اليَبَس الذبول ، واقتضاء الرطوبة الغِلظ والعبالة والضخامة ، ألا ترى أنّ الإنسان الّذى غلب اليَبَسُ على مزاجه ، لا يزال مَهْلُوساً[3] نحيفا ، والذى غلبت الرطوبة عليه لا يزال ضخما عَبْلا .

---

(١) سورة الأعراف ٥٨

(٢) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) رجل مهلوس : هلسه الداء وخامره .

(٢١١)

الأصْـلُ :

أَلْخِلاَفُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا مثل قوله عليه السلام فى موضع آخر : « لا رأى لمن لا يُطاع » .

ويُرْوَى: لا إمرة لمن لا يطاع .

وفى أخبار قصير وجذيمة : « لو كان يطاع لقصير أمر » .

وكان يقال : اللّجاج يَشْحَذ الزُّجاج ، ويثير العَجاج .

وقال دُرَيد بن الصِّمّة .

أمرتهُمُ أمرِى بمنعرَج اللوَى ... فلَمْ يستبينوا النُّصح إلَّا ضُحَى الغَدِ[1]

فلَمّا عصونِى كنت منهمْ وقد أرَى ... غوايتهم وأنّنى غيرُ مهتدِى

وكان يقال : أهدى رأى الرّجل ما نفذ حكمُه ، فإذا خولف فسد .

ومن كلام أفلاطون : اللّجاج عسر انطباع المعقولات فى النّفس ، وذلك إمّا لفرْطِ حِدّةٍ تكون فى الإنسان ، وإما لغلظ طبعٍ فلا ينقاد للرأى[2] .

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٤ ــ بشرح التبريزى (٢) ا : « لرأى » .

(٢١٢)

الأصل :

مَنْ نَالَ اسْتَطَالَ .

***

الشرح :

يجوز أن يريد به : مَنْ أثْرَى ونال من الدنيا حظاً استطال على النّاس .

ويجوز أن يريد به : مَنْ جاد استطال بجوده .

يقال : نالني فلان بكذا أي جادَ به عليّ ، ورجل نالٌ ، أي جوادٌ ذو نائل، ومثله[1] رجل طانٍ أي ذو طين ، ورجل مالٌ أي ذو مال .

---

(١) ا : « أن يقال » .

الأصْلُ :

فِي تَقَلُّبِ ٱلْأَحْوَالِ ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ .

***

الشَّرْحُ :

معناه لا تُعلَمَ أخلاق الإنسان إلّا بالتجربة ، واختلاف الأحوال عليه .

وقديمًا قيل :

تَرى الفتيانَ كالنَّخْلِ وما يدريك ما الدَّخْلُ (١)

وقال الشاعر :

لا تَحْمَدنّ امرأً حتّى تجرِّبَهُ ولا تذمّنّه إلّا بتجريبِ

وقالوا : التجربة محكٌّ ؛ وقالوا مثلُ الإنسان مثل البطّيخة ، ظاهرها مونق ، وقد يكون فى باطنها العيب والدود ، وقد يكون طعمها حامضا وتفِهاً .

وقالوا للرجل المجرّب يمدحونه : قد آل وائل عليه .

وقال الشاعر يمدح :

مازال يحلُبُ هذا الدَّهرَ أشطُرَهُ (٢) يكون متّبِعا طوراً ومتّبَعا

حتى استمرّت على شَزْرٍ مَريرته مستحكَمَ الرأيِ لاقَحْما ولا ضَرَعا (٣)

---

(١) مثل ، وانظر الميدانى ١ : ٩١

(٢) يحلب أشطره ؛ أى أنه قد جرب الأمور وعاناها ، والكلام على التمثيل .

(٣) فى اللسان عن الجوهرى : « شيخ قحم ، أى هم ؛ مثل قحل ، وفى حديث ابن عمر : « ابغنى خادما لا يكون قحما فانيا ، ولا صغيرا ضرعا » . القحم : الشيخ الهم الكبير . الضرع : الضاوى الجسم الضعيف .

الأصل :

حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ الْمَوَدَّةِ .

* * *

الشرح :

إذا حسدك صديقُك على نعمة أعطيتَها لم تكن صداقته صحيحة ، فإنّ الصديق حدُّا من يَجرى مجرَى نفسِك ، والإنسان لم يحسدْ نفسه .

وقيل لحكيم : ماالصديق ؟ فقال : إنسان ، هو أنت إلّا أنه غيرك .

وأخذ هذ المعنى أبو الطيّب فقال :

مَا الخِلُّ إلّا مَنْ أوَدُّ بقَلْبِهِ   وأرَى بطرفٍ لايرى بسوائِهِ[1]

ومن أدعية الحكماء :

اللّهمّ اكفني بوائق الثقات ، واحفظني من كيد الأصدقاء .

وقال الشاعر :

احذر عَدُوَّكَ مرَّةً   واحْذَرْ صديقك ألفَ مَرَّهْ

فلربّما انقلب الصدِيقُ   فَكَانَ أعرَفَ بالمضرّهْ

وقال آخر[2] :

احذر مودّة ماذقٍ   شابَ المرارة بالحلاوهْ[3]

---

(١) ديوانه ١ : ٤   (٢) ا : « غيره » .

(٣) الماذق : الذي يخلط الود بغيره .

يحصى الذّنوب عليك أيّـــامَ الصـــداقةِ للعـداوهْ

وذكر خالد بن صفوان شبيب بن شيبة ، فقال : ذاك رجل ليس له صديق فى السرّ ولا عدوٌّ فى العلانية .

وقال الشاعر :

إذا كان دَوّاماً أخوك مصارماً موجّهـةً فى كلّ أوبٍ ركائبُهْ

فخلِّ له ظهرَ الطريقِ ولا تـكنْ مطيّة رَحّالٍ كثير مذاهبُـــهْ

الأصل :

أكثرُ مصارع العُقُول تحتَ بُرُوقِ المطامِع .

***

الفرع :

قد تقدَّم منّا قولٌ في هذا المعنى() .

ومنه قولُ الشاعرِ(١) :

طَمِعتَ بلَيلَى أن تَرِيعَ وإنّما(٢) ... تُقطِّعُ أعناقَ الرِّجالِ المطامِعُ(٣)

وقال آخَر .

إذا حدَّثتْك النفسُ أنك قادرٌ ... على ما حوَتْ أيدى الرجالِ فكذِّبِ

وإيّاكَ والأطماعَ إنّ وُعُودَها ... رَقارِقُ آلٍ أو بوارِقُ خُلَّبِ(٤)

---

(١) هو المجنون ، ديوانه ١٨٦ ، وينسب لقيس بن ذريح ؛ وينسب أيضاً للبعيث ، وانظر تخريجه في الديوان .

(٢) تريع : ترجع وتعود ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت ونسبه إلى البعيث

(٣) بعده في الديوان :

ودانيتُ ليلَى في خلاءٍ ولم يَكُنْ ... شهود على ليلَى عدولٌ مقانِعُ

(٤) الرقارق : السراب .

(٢١٦)

الأصل :

لَيْسَ مِنَ ٱلعَدْلِ ٱلقَضَاء عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ .

* * *

الشرح :

هـذا مِثلُ قولِ أصحاب أصول الفقه : لا يجوز نَسْخ القرآن والسنّة المتواتِرة بخبر الواحد ، لأن المَظنون لا يَرفع المَعلوم .

ولفظ الثِّقة هاهنا مرادِفٌ للفظ العِلم ، فـكأنّه قال : لا يجوز أن يزال ماعُلِم بطريقٍ قطعيّةٍ لأمرٍ ظَنيّ .

فإنْ قلت : أليس البراءة الأصليّة معلومة بالعقل ، ومع ذلك تُرفَع بالأمارات الظّنّية كأخبار الآحاد ؟

قلت : ليست البراءةُ الأصليّة معلومةً بالعقل مطلقا ، بل مشروطة بعدم مايرفعها من طريقٍ علميّ أو ظنّي ، ألا ترى أنّ أكلَ الفاكهة وشربَ الماء معلوم بالعقل حسنه ، ولـكن لا مطلقا ، بل بشَرْط انتفاء ما يَقتضي قبحه ، فإنا لو أخبرَنا إنسانٌ أنّ هذه الفاكهةَ أو هذا الماء مسموم لقَبُح منّا الإقدامُ على تَناولها ، و إن كان قولُ ذلك المخبر الواحِـد لا يفيد العِلم القَطْعي(١) .

---

(١) ا : « علما قطعيا »

(٢١٧)

الأصل :

بِئْسَ الزَّادُ إلى المعادِ ، العُدْوَانُ عَلَى العِبادِ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم من قولنا(١) في الظّلم والعُدْوان مافيه كفاية .

وكان يقال : عجبا لمن عُومِل فأنصف ، إذا عامَلَ كيف يَظلِم ، وأعجب منه من عُومل فظُلِم إذا عامَل كيف يَظلِم !

وكان يقال : العدّو عدوّان : عَدوٌّ ظلمته ، وعدوٌّ ظلمك ، فإن اضطرّك الدهرُ إلى أحدهما فاستعن بالذي ظلمك ، فإن الآخر موتور .

---

(١) ا : « لنا أقوال » .

(٢١٨)

الأصْلُ :

مِنْ أشرَفِ أفعَالِ الكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمّا يَعْلَمُ .

***

الشَّرْحُ :

كان يقال : التغافُل من السُّؤدُد .

وقال أبو تمّام :

ليس الغَبِي بسَيِّدٍ في قومِه ... لكنّ سيِّد قومِه المُتغابِي[1]

وقال طاهرُ بنُ الحسين بن مصعب :

ويكفيك من قومٍ شواهدُ أمرِهمْ ... فخذ صفوَهمْ قبل امتحانِ الضمائِرِ

فإنّ امتحانَ القومِ يُوحش منهمُ ... ومالَكَ إلاّ ماترَى في الظّواهِرِ

وإنّك إن كشفتَ لم ترَ مُخلِصاً ... وأبدَى لك التجريبُ خبثَ السّرائِرِ

وكان يقال : بعضُ[2] التغافل فضيلة ، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب ، ومن الكرَم أن تصفح عن التوبيخ ، وأن تلتمس سترَ[3] هتك الكريم .

---

(١) ديوانه ١ : ٩٣ (٢) ساقطة من ا

(٣) الستر : تغطية الشيء ؛ وفي الحديث : « إن الله حي ستير يحب الستر » .

الأصل :

مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ .

***

• **الشرح :**

قد سبق منّا قولٌ كثيرٌ في الحياء .

***

[فصل في الحياء وما قيل فيه]

وكان يقال : الحياء تمام الكَرَم ، والحِلم تمام العقل .

وقال بعضُ الحكماء : الحياء انقباض النّفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان ، لأنّه لا يوجد في الفرَس ولا في الغنم والبقر ، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات ، فهو كالضّحك الّذي يختصّ به نوع الإنسان ، وأوّل ما يَظهر من قوّة الفهم في الصبيان الحياء ، وقد جعله الله تعالى في الإنسان ليرتدع به عمّا تنزع إليه نفسُه من القبيح ، فلا يكون كالبهيمة ، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبْن وعفّة ، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً ، ولا الفاسقُ مستحياً[1] لتنافي اجتماع العفّة والفِسْق ، وقلّما يكون الشّجاع مستحِياً والمستحي شُجاعا لتنافِي اجتماعِ الجُبْن والشجاعة ، ولعِزّة وجودِ ذلك مايجمع الشعراء بين المدح بالشّجاعة والمدْح بالحياء نحو قول القائل :

يَجرِي الحياءُ الغَضُّ من قَسَماتِهِمْ ... في حينِ يَجرِي مِن أكفِّهِم الدَّمُ

(١) ب : « مستحيا » .

وقال آخر :

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرفَ فَضلُ حيائِه   ويَدْنو وأطرافُ الرِّماحِ دَوانِ

ومتى قصد به الانقباض فهو مدحٌ للصبيان دون المشايخ ، ومتى قُصِد به ترك القبيح فهو مَدْح لكل أحد ، وبالاعتبار الأوّل قيل : الحياء بالأفاضل قبيح ، وبالاعتبار الثانى وَرَد : إن الله ليستحيي من ذى شَيْبَة فى الإسلام أن يعذِّبه ، أى يترك تعذيبه ، ويستقبح لكرمه ذلك .

فأمّا الخجل لحَيْرة تَلحَق النفس لفَرْط الحياء ، ويحمد فى النّساء والصبيان ويُذَم بالاتفاق فى الرّجال ،

فأمّا القِحَة فمذمومة بكلّ لسان ، إذ هى انسلاخٌ من الإنسانية ، وحقيقتُها لجاجُ النفس فى تعاطى القبيح ، واشتقاقها من حافِرٍ وَقاح أى صُلْب .

ولهذه المناسبة قال الشاعر :

ياليتَ لى من جِلْدِ وجهك رُقْعةً   فأُعدَّ منها حافِراً للأشْهَبِ

وما أصدَقَ قول الشاعر :

صلابةُ الوَجْه لم تغلبْ على أحدٍ   إلاّ تكامَل فيه الشرُّ واجتمعا

فأمّا كيف يُكتَسب الحياء ، فمن حَقّ الإنسان إذا هَمّ بقبيح أن يتصوّر أجلّ من نفسِه أنه يراه ، فإنّ الإنسان يَستحيي ممن يَكبُر فى نفسِه أن يطّلع على عَيْبه ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق ، ولا مِن الأطفال الذين لا يميِّزون ، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد ، والذين يستحيي الإنسانُ منهم ثلاثة : البشر ، ونفسُه ، والله تعالى ؛ أما البَشَر فهم أكثر

من يستحيي منه الإنسان فى غالب الناس ، ثمّ نفسه ، ثمّ خالقه ، وذلك لقلّة توفيقه وسوء اختياره .

***

واعلم أن من استحيا من الناس ولم يستحيي من نفسه فنفسه عنده أخسّ من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحيِ من الله تعالى فليس عارفاً ، لأنه لوكان عارفاً بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق ، ألا تَرَى أنّ الإنسان لا بدّ أن يستحييَ من الذى يعظمه ويعلم أنه يراه أويستمع بخبره فيبُكّته ، ومن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه ! وكيف يَعلَمَ أنّه يطلع عليه ! وفى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « استحيوا من الله حقّ الحياء » ، أمرٌ فى ضِمن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وحثّ عليها ، وقال سبحانه : ﴿ ألم يَعلَمْ بأنّ الله يَرَى [1] ﴾ ، تنبيها على أنّ العبد إذا علم أنّ ربّه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .

وسُئل الجنيد رحمه الله عمّا يتولّدمنه الحياء من الله تعالى ؛ فقال : أنْ يرَى العبدُ آلاء الله سبحانه ونعمَه عليه ، ويرَى تقصيره فى شكره .

فإن قال قائل : فما معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : « مَن لا حياء له فلا إيمان له » .

قيل له : لأنّ الحياء أوّل ما يظهر من أمارة العَقْل فى الإنسان ، وأما الإيمان فهو آخر المراتب ، ومُحالٌ حصول المرْتبة الآخِرة لمن لم تحصل له المرتبة الأولى ، فالواجب إذن أن مَن لا حياء له فلا إيمان له .

وقال عليه السلام : « الحياء شُعْبة من الإيمان » .

وقال : « الإيمان عُرْيان ، ولباسُه التقوى ، وزينته الحياء » .

---

(١) سورة العلق ١٤ .

الأصْلُ :

بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الهيبَةُ ؛ وبالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ المُوَاصِلُونَ ، وبالإفْضالِ تَعْظُمُ الأقْدارُ ، وبالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ ، وباحْتِمالِ المُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدُدُ ، وبالسِّيرَةِ العادِلَةِ يُقْهَرُ المُناوِئُ ، وبالحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الأنْصارُ عَلَيْهِ .

* * *

الشّرْحُ :

قال يحيى بن خالد : ما رأيت أحداً قطّ صامتا إلاّ هِبْتُه حتى يتكلّم ، فإما أن تزداد تلك الهَيْبة أو تنقُص . ولا رَيْب أن الإنصاف سببُ انعطاف القلوب إلى المنصف ، وأن الإفضال والجود يقتضى عِظَمَ القَدْر ، لأنه إنعام ، والمُنعِم مشكور ، والتواضع طريقٌ إلى تمام النعمة ، ولا سؤدُدَ إلا باحتمال المُؤَن ؛ كما قال أبو تمام :

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرَى مُشتارَه ... يجْنِيه إلّا من نقيع الحَنْظَلِ [1]

غُلٌّ لحامِـلِهِ ويَحسَبه الذى ... لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المَحْمَلِ

والسِّيرة العادلة سببٌ لقهْر الملِك الذى يُسيِّر بها أعداءه ، ومَن حَلُم عن سَفيهٍ وهو قادرٌ على الانتقام منه نَصَره الناس كلُّهم عليه ، واتّفقوا كلُّهم على ذَمّ ذلك السفيه وتقبيح فِعْلِهِ [2] ؛ والاستِقْراء واختبارُ العادات تَشهَد بجميع ذلك .

---

(١) ديوانه ٣ : ٤٢

(٢) ب : « فعله » تصحيف » .

(٢٢١)

الأصل:

العَجَبُ لِغَفْلَةِ الحُسَّادِ، عَنْ سَلَامَةِ الأجْسَادِ!

•••

الشرح:

إنما لم يحسد الحاسد على صحة الجسد لأنه صحيحُ الجسد، فقد شارك في الصحة، وما يُشارك الإنسانُ غيره فيه لا يحسده عليه، ولهذا أرباب الحسد إذا مرضوا حسدوا الأصحاء على الصحة.

فإن قلت: فلماذا تَعجَّب أميرُ المؤمنين عليه السلام؟

قلت: لكلامه عليه السلام وَجْه، وهو أن الحسد لمّا تمكن في أربابه، وصار غريزة فيهم، تعجّب كيف لا يتعدّى هذا الخُلُق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه؛ فإن زيدا إذا أبغض عَمْرا بُغْضا شديدا وَدّ أن تزول عنه نِعْمته إليه، وإن كان ذا نِعْمة كنِعمته[1]، بل ربما كان أقوى وأحسن حالا.

ويجوز أن يريد معنى آخر، وهو تعجّبه من غَفْلة الحُسّاد؛ على أن الحسد مؤثّر في سلامة أجسادهم، ومقتضٍ سُقْمَهم، وهذا أيضاً واضح.

---

(١) ا: « مثل نعمته ».

(٢٢٢)

الأصْلُ:

الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلِّ.

***

الشَّرْحُ:

من أمثال البُحْتُرىّ قوله:

واليأسُ إحدَى الرّاحتَيْنِ ولن ترَى تَعِباً كظَنٍّ الخـائب المَكْدُودِ (١)

وكان يقال: ماطمِعتُ إلاَّ وذَلّت.. يعنُون النفس.

وفى البيت المشهور:

* تُقطِّع أعناقَ الرّجال المَطامِعُ (٢) *

وقالوا: عَزَّ من قَنِع، وذَلّ من طَمِع.

وقد تقدّم القولُ فى الطّمع مرارا.

---

(١) ديوانه ١ : ١٢٧

(٢) للمجنون، ديوانه ص ١٨٦، وصدره:

* طَمِعْتَ بِلَيْلَى أنْ تربعَ وَإنَّمَا *

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام وقد سئل عن الإيمان :

الْإيمانُ مَعْرِفَةٌ بالْقَلْبِ ، وَإقْرَارٌ بِاللِّسَانِ ، وَعَمَلٌ بِالأرْكَانِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم قولُنا فى هذه المسألة .

وهذا هو مذهبُ أصحابنا المعتزلة بِعَيْنِه ، لأنّ العمل بالأركان عندنا داخلٌ فى مسمّى الإيمان ـ أعنِى فعل الواجبات ، فمن لم يَعمَل لم يسمّ مؤمنا وإن عرَف بقلبه وأقرّ بلسانه؛ وهذا خلافُ قول المرْجئة من الأشعريّة والإماميّة ، والحشويّة .

فإن قلت : فما قَوْلك فى النوافل : هل هى داخلةٌ فى مسمّى الإيمان أم لا ؟

قلت : فى هذا خلافٌ بين أصحابنا ، وهو مستقصًى فى كتبى[1] الـكلاميّة .

(١) فى د : « كتبنا » .

الأصْـلُ :

مَنْ أَصْبَحَ عَلَى ٱلدُّنيَا حَزِيناً ، فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ ٱللهِ سَاخِطاً .
وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ ، فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ .
وَمَنْ أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ .
وَمَنْ قَرَأَ ٱلقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ ؛ فَهُوَ كَانَ مِمَّنْ يَتَّخِذُ آيَاتِ ٱللهِ هُزُواً .
وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا ٱلْتَاطَ قَلْبُهُ مِنْهَا بِثَلَاثٍ : هَمٍّ لَا يُغِبُّهُ ، وَحِرْصٍ لَا يَتْرُكُهُ ، وَأَمَلٍ لَا يُدْرِكُهُ .

***

الشَّـرْحُ :

إذا كان الرِّزق بقضاء الله وقدَره ، فمن حَزِن لفَواتِ شيء منه فقد سَخِط قضاء الله وذلك معصية ، لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب ، وكذلك من شكا مصيبةً حلّت به ؛ فإنّما يشكو فاعِلَها لا هي ، لأنّها لم تنزل به من تِلقاء نفسِها ، وفاعِلُها هو الله ، ومن اشتكى الله فقد عَصاه ؛ والتواضُع للأغنياء تعظيما لِغناهم أو رجاء شيء ممّا في أيديهم فِسْق .

وكان يقال : لا يَحمَد التِّيه إلّا من فقيرٍ على غَنيّ .

فأمّا قولُه عليه السلام : « ومن قرأ القرآنَ فماتَ فدخل النار ، فهو ممّن كان يتخذ آياتِ الله هُزُواً » .

فلِقائل أن يقول : قد يكون مؤمِنا بالقرآن ليس بمتخِذٍ له هُزُواً ، ويقرؤه ثمّ

يدخـــل النـار ، لأنّه أتى بـكبيرة أخرى نحوَ القتـــل والزّنا والفِـرار من الزّحف وأمثال ذلك !

والجواب أن معنى كلامه عليه السلام هو أنّ من قَرَأ القرآن فمات فدَخَل النـار لأجلِ قراءتهِ القرآن فهو ممّن كان يتّخذ آياتِ الله هُزُواً ، أى يقرؤه هازِئاً به ، ساخراً منه ، مستهينا بمواعظه وزواجره ، غير معتقِد أنّه من عندِ الله .

فإن قلت : إنما دخل مَن ذكرتَ النارَ؛ لا لأجل قراءته القرآن ، بل لهُزئه به ، وجحوده إيّاه ، وأنت قلت : معنى كلامه أنه من دَخل النـار لأجل قراءته القرآن فهو ممّن كان يستهزئ بالقرآن !

قلت : بل إنّما دخل النار لأنّه قرأه على صفة الاستهزاء والسُّخْرية ، ألا ترى أنّ الساجد للصنَم يُعاقَب لسجودِه له على جهة العبادة والتعظيم ، وإن كان لولا مايحدثه مضافاً للسّجود من أفعال القلوب لما عُوقِب .

ويمكن أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على تفسيرٍ آخرَ ، فيقال : إنّه عَنَى بقوله :إنّه كما كان ممّن يتّخذ آيات الله هُزُوا : أنّه يعتقد أنّها من عند الله ، ولـكنّه لا يعمَل بمُوجبها كما يفعله الآنَ كثيرٌ من الناس .

قولُه عليه السّلام : « التاط بقَلْبه » أى لَصِق . ولا يُغِبّه ،أى لا يَأْخُذُه غِبًّا ، بل يلازمه دائمًا ، وصَدَق عليه السلام فإنّ حُبّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة ، وحبُّ الدنيا هو المُوجِب للهَمّ والغمّ والحِرْص والأمَل والخوْف على ما اُكتَسَبه أن ينفَد ، وللشُّحّ بما حوَتْ يدُه ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة .

(٢٢٥)

الأصل :

كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً ، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى هذين ، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق .

وكان يقال : يستحقّ الإنسانيةَ مَن حَسُن خلقُه ، ويكاد السيّئ الخُلُق يُعَدّ من السّباع .

وقال بعضُ الحكماء : حدُّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية ، والزّهد : الاقتصار على الزّهيد ، أى القليل ، وهما متقاربان ، وفى الأغلب إنما الزهد هو رَفْض الأمور الدنيوية مع القُدْرة عليها ؛ وأما القناعة فهى إلزام النّفس الصبرَ عن المشتهيَات التى لا يقدر عليها ، وكلّ زُهْد حَصَل لا عن قَناعةٍ فهو تزهّد ، وليس بزُهد ، وكذلك قال بعض الصّوفيّة : القناعة أوّل الزّهد ، تنبيها على أنّ الإنسان يحتاج أوّلا إلى قدْع نفسه وتخصّصه بالقناعة لِيَسهُل عليه تَعاطِى الزّهد ، والقناعة التى هى الغنى بالحقيقة، لأنّ الناسَ كلّهم فقراء من وجهين : أحدُهما لافتقارِهم إلى الله تعالى كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) .

والثانى لكَثْرة حاجاتهم فأغناهم لا مَحالة أقلّهم حاجة ، ومن سدّ مَفاقِره بالمُقْتَنيات فما فى انسدادِها مطمَع ، وهو كمَن يرقَع الخرْق ، بالخرْق ومن يَسُدّها بالاستغناء عنها بقَدْر وُسْعه والاقتصار على تناوُل ضروريّاته فهو الغنىّ المقرَّب من الله سبحانه ، كما أشار إليه فى قصّة طالوتَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ (٢) ، قال أصحاب المعانى والباطن : هذا إشارةٌ إلى الدنيا .

---

(١) سورة فاطر ١٥ (٢) سورة البقرة ٢٤٩

الأصْلُ :

وسئل عليه السلام عن الله عز وجل : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [١] ، فقال : هِيَ الْقَنَاعَةُ .

***

الشَّرْحُ :

لا ريبَ أنّ الحياةَ الطّيبة هي حياةُ الغِنَى ، وقد بيّنا أن الغَنِيّ هو القَنُوع ، لأنّه إذا كان الغِنَى عدمُ الحاجة فأغنَى النّاس أقلُّهم حاجةً إلى الناس ، ولذلك كان الله تعالى أغنَى الأغنياء ، لأنّه لاحاجةَ به إلى شيء ، وعلى هذا دلّ النبيُّ بقوله صلّى الله عليه وآله: « ليس الغِنَى بكَثْرة العرَض ، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس » .

وقال الشاعر :

فَمن أُشرِب اليأسَ كان الغنيَّ ومن أشْرِبَ الحِرْصَ كان الفقيرا

وقال الشاعر :

غِنَى النَّفْسِ ما يَكفيك من سَدِّ خَلّةٍ فإن زاد شيئا عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرا

وقال بعض الحكماء : المخيّر بين أن يستغنيَ عن الدنيا وبين أن يستغنيَ بالدّنيا كالمخيّر بين أن يكون مالِكاً أو مملوكا .

ولهذا قال عليه السلام : « تَعِس عبدُ الدّينار والدّرهم ، تَعِسَ فلا انْتَعش ، وشِيكَ فلا انتقش » [٢] .

---

(١) سورة النحل ٩٧

(٢) ب : « شيك » تحريف ، قال ابن الأثير : أي إذا دخلت فيه شوكة لا أخرجها من موضعها ، وبه سمي المنقاش الذى ينقش به » .

وقيل لحكيم : لم لا تغتمّ ؟ قال : لأني لم أتخذ ما يغمّني فقدُه .

وقال الشاعر :

فمن سرّه ألا يرى ما يسوءه   فلا يتخذ شيئاً يخافُ له فقدا

وقال أصحابُ هذا الشأن : القناعة من وجهٍ صبر ، ومن وجهٍ جود ، لأنّ الجودَ ضربان : جودٌ بما فى يدك متبرّعا ، وجودٌ عمّا فى يدِ غيرك متورّعا ، وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزّهد فى الحقيقة إلّا لمن يعرف الدّنيا ما هى ؟ ويعرف عيوبها وآفاتها ، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها ، ولابدّ فى ذلك من العلم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (١) .

ولأنّ الزّاهد فى الدنيا راغبٌ فى الآخرة وهو يبيعها بها ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (٢) الآية .

والكيّس لا يبيعُ عيْنا بأثر ، إلّا إذا عرفهما وعرف فضلَ ما يبتاعُ على ما يبيع .

---

(١) سورة القصص ٧٩ ، ٨٠   (٢) سورة التوبة ١١١

الأَصْلُ :

شارِكُوا الَّذِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ ، فإنَّهُ أَخْلَقُ لِلغِنَى ، وأَجْدَرُ بإقبالِ الحظِّ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الحظّ والبخْتِ .

وكان يقال : الحظّ يُعدِى كما يُعدِى الجَرَب ، وهذا يطابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأنّ مخالطة المجْدود ليست كمخالطة غير المجْدود[1] ، فإن الأولى تقتضى الاشتراك فى الحظ والسعادة ، والثانية تقتضى الاشتراك فى الشقاء والحرمان .

والقول فى الحظ وسيعٌ جداً .

وقال بعضهم : البَخْت على صورة رجل أعمى أصمّ أخرس ، وبين يديه جواهرُ وحِجارة ، وهو يرمى بكلتا يديه .

وكان مالكُ بن أنس فقيهَ المدينة ، وأخذ الفقه عن اللَّيْث بن سعد ؛ وكانوا يزدحمون عليه واللَّيْثُ جالس لا يلتفتون إليه ، فقيل لليث : إنّ مالكاً إنما أخذ عنك فما لكَ خاملاً وهو أنبهُ الناسِ ذِكْرا ! فقال : دانِقُ بَخْتٍ خيرٌ من حِمْلِ بُخْتِيّ حُمِّل عِلما .

وقال الرّضىّ :

أُسِيغ الغيظ من نُوَب اللَّيالى ... وما يَخْفِدْن بالخنِق المَغيظِ[2]

وأرجو الرِّزق من خَرْقٍ دقيقٍ ... يُسَدُّ بسلك حرمانٍ غَليظِ[3]

وأرجِع ليس فى كَفِّىَّ منه ... سِوَى عَضِّ اليدين على الحظوظ

---

(١) عبارة د : « ليست كمخالطة المحدود » ، وبها يستقيم المعنى أيضاً .

(٢) ديوانه ١ : ٤٥٣ (٣) فى الديوان : « من خرت » ، والخرت : الثقب

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى قوْلِهِ عزَّ وجَلَّ :

﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ ﴾[1] : العَدْلُ الإنْصافُ ، والإحْسانُ التَّفضُّلُ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا تفسيرٌ صحيح اتفق عليه المفسرون كافة ، وإنما دخل النَّدْب تحت الأمر لأنَّ له صفةً زائدة على حُسْنه ، وليس كالمُباح الذي لا صِفَةَ له زائدة على حُسْنه .

وقال الزَّمخشرى : العَدْل هو الواجب ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ عَدَل فيه على عباده ، فجعل ما فَرَضَه عليهم منه واقعا تحت طاقتِهم ، والإحسان النَّدْب ، وإنما علق أمره بهما جميعا ؛ لأنَّ الفَرْض لا بدَّ أن يقع فيه تفريط ، فيَجْبُره النَّدب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله لإنسان علّمه الفرائض فقال : والله لا زدتُ فيها ولا نقصتُ منها : « أفلح إنْ » صَدَق ، فعقدَ الفلاح بشَرْط الصِّدق والسلامة من التَّفريط ؛ وقال صلى الله عليه وآله : « استقيموا ، ولن تحصوا » ، فليس ينبغى أن يترك ما يَجبر كَسْرالتفريط من النوافل[2] .

ولقائل أن يقول : إن كان إنما سمى الواجب عَدْلا لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلَّف فليسمَّ النَّدْب عَدْلا لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلف ، وأما قوله : إنما أمر بالنَّدْب لأنه يجبر ما وَقَع فيه التفريط من الواجب ، فلا يصحّ على مذهبه ، وهو من أعيان المعتزلة لأنه لو جُبرت النافلة بالتفريط فى الواجب لكانت واجبةً مثله ، وكيف يقول الزمخشرى هذا ومن قول مشايخنا إنّ تارك صلاة واحدةٍ من الفرائض لو صلى مائة ألف ركعة من النوافل لم يكفِّر ثوابها عقاب تَرْك تلك الصلاة !

(١) سورة النحل ٥٠

(٢) تفسير الكشاف ٢ : ٤٩٠

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام :

مَنْ يُعْطِ باليَدِ القَصِيرَةِ يُعْطَ باليَدِ الطَّوِيلَةِ .

***

قالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالى :

ومَعْنى ذَلِكَ أنَّ ما يُنفِقهُ المَرْءُ مِنْ مالِهِ في سَبيلِ الخيرِ والبرّ وإنْ كان يَسِيراً فإنَّ اللهَ تعالى يَجْعَلُ الجزاءَ عَلَيْهِ عَظيما كَثيراً ؛ واليَدانِ ها هنا عِبارَةٌ[1] عَنِ النِّعمتَيْنِ فَفَرَّقَ عليه السلامُ بَيْنَ نِعمَةِ العَبْدِ ونِعْمَةِ الرَّبِّ تَعالى ذِكْرُهُ، بالقَصيرَةِ والطَّوِيلَةِ، فجَعَلَ تِلْكَ قَصيرَةً وهَذِهِ طَوِيلَةً ، لأنَّ نِعَمَ اللهِ أبَداً تُضَعَّفُ على نِعَمِ المَخْلوقِينَ أضْعافًا كَثيرَةً ؛ إذْ كانتْ نِعَمُ اللهِ أصْلَ النِّعَمِ كلها، فَكُلُّ نِعْمَةٍ إلَيْها تَرْجِعُ ، ومنها تُنْزَعُ .

الشَّـرْحُ :

هذا الفَصْل قد شرَحه الرضيّ رحمه الله ، فأغنى عن التعرّض بشَرْحِه .

---

(١) ب : « عبارتان » تحريف .

(٢٣٠)

الأصل :

وقال عليه السلام لابنه الحسن : لا تَدْعُوَنَّ إلى مُبارزة ، فإنْ دُعِيتَ إليها فأجب؛ فإنَّ الدَّاعيَ إليها باغٍ ، والباغِي مَصْرُوعٌ .

***

الشرح :

[مُثُل من شجاعة عليّ]

قد ذكر عليه السلام الحكمة ، ثم ذكر العِلّة ، وما سمعنا أنه عليه السلام دعا إلى مُبارزة قطّ ، وإنما كان يدعَى هو بعينه ، أو يدعو من يبارز ، فيَخْرُج إليه فيقتله ، دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بني هاشم إلى البراز يوم بدْر ، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام فى قَتْل عُتْبة ، ودعا طَلْحة بن أبى طَلْحة إلى البراز يوم أحد ، فخرج إليه فقتله ، ودعا مَرْحبٌ إلى البراز يوم خَيْبَر فخرج إليه فقتله .

فأما الخَرْجة التى خرَجها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبدوُدّ فإنها أجلّ من أن يقال جليلة ، وأعظم من أن يقال عظيمة ، وما هى إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ : أيّما أعظم منزلة عند الله ، علىٌّ أم أبو بكر ؟ فقال : يابن أخى ، والله لمبارزة علىٍّ عَمْرا يوم الخندق تَعدِل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتُرْبِي عليها فضلا عن أبى بكر وحدَه . وقد رُوى عن حذيفة بن اليمان ما يُناسِب هذا ، بل ما هو أبلغ منه ، رَوَى قيسُ بنُ الرّبيع عن أبى هارون العبْدىّ ، عن ربيعة بن مالك السعدىّ ، قال : أتيتُ حذيفة بن اليمان فقلت : يا أبا عبدِ الله ، إنّ الناس يتحدّثون[1] عن علىّ بن أبى طالب ومناقبه ، فيقول لهم أهل

---

(١) ب : « يستحدثون » تحريف

البصيرة : إنكم لتفرطون في تقريظ هذا الرجل ، فهل أنت محدثي بحديث عنه أذكره للناس ؟ فقال : يا ربيعة ، وما الذي تسألني عن عليّ ، وما الذي أحدثك عنه ! والذي نفسُ حُذيفة بيده لو وضع جميعُ أعمال أمة محمد صلى الله عليه وآله في كِفّة الميزان مُنذ بَعث الله تعالى محمدا إلى يوم الناس هذا ، ووُضِع عملٌ واحدٌ من أعمال عليّ في الكِفّة الأخرى لرَجَح على أعمالهم كلّها ؛ فقال ربيعة : هذا المَدْح الذي لا يقام له ولا يُقعد ولا يُحمل ، إني لأظنه إسرافا يا أبا عبد الله ! فقال حذيفة : يا لُكَع ، وكيف لا يُحمل ! وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع ، ودعا إلى المبارزة فأحجَموا عنه حتى برز إليه عليٌّ فقتله ! والذي نفسُ حذيفة بيده لَعمله ذلك اليوم أعظم أجرًا من أعمال أمةِ محمد صلى الله عليه وآله إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة .

وجاء في الحديث المرفوع : « إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال ذلك اليومَ حينَ برز إليه : « برَزَ الإيمانُ كلّه إلى الشِّرْك كلِّه » .

وقال أبو بكر بن عيّاش : لقد ضَرَب عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام ضربةً ما كان في الإسلام أيْمَنَ منها ، ضَرْبَتَهُ عَمْرا يومَ الخندق ، ولقد ضُرِب عليٌّ ضربةً ما كان في الإسلام أشأَمَ منها ـ يعني ضربة ابن مُلجَم لعنه الله .

وفي الحديث المرفوع أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لما بارزَ عليٌّ عَمْرا مازال رافعا يدَيْهِ مُقْمِحا (١) رأسَه نحوَ السماء ، داعياً ربّه قائلاً : اللهم إنك أخذْتَ منّي عُبيدَة يومَ بَدْرَ ، وحمزةَ يوم أُحُد ، فاحفظْ عليَّ اليومَ عليّاً ، ﴿ ربِّ لا تَذَرْني فردا وأنت خير الوارثين ﴾ (٢) .

وقال جابرُ بنُ عبد الله الأنصاري : والله ماشبّهتُ يومَ الأحزاب ؛ قتلَ عليٌّ عمْرا

---

(١) أقمح رأسه : كشفها .

(٢) سورة الأنبياء ٨٩

وتخاذُل المُشركين بعدَه ، إلا بما قصّه الله تعالى من قِصّة طالوتَ وجالُوت فى قوله : ﴿ فهزَمُوهم بإذن الله وقَتلَ داودُ جالوتَ ﴾[1] .

وَرَوَى عمرو بن أزهر ، عن عمرو بن عُبيد ، عن الحسن أنّ علياً عليه السلام لمّا قتلَ عَمرا احتزّ رأسَه وحَمَله فألقاه بين يدَىْ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فقام أبو بكر وعُمَر فقبّلا رأسَه ، ووَجْهُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه يتهلّل ، فقال : هذا النّصر ! أو قال : هذا أوّل النّصر .

وفى الحديث المرفوع : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال يومَ قُتِل عمرو : « ذهبت ريحُهم ، ولَا يَغزونَنا بعد اليوم ، ونحن نَغزُوهم إن شاء الله » .

***

[قصّة غزوة الخندق]

وينبغى أن نذكرُ ملخّص هذه القصّة من مغازِى الواقدىّ وابن إسحاق ، قالا : خرج عَمرو بن عبدِ ودّ يومَ الخندق وقد كان شهد بَدْرا فارتُثَّ[2] جريحا ، ولم يشهد أُحُدا ، فحضر الخندقَ شاهراً سيفه[3] معلما ، مُدِلا بشجاعته و بأسِه ، وخرج معه ضِرارُ بنُ الخطّاب الفِهْرِىّ وعِكرمة بنُ أبى جهل وهُبَيرة بن أبى وَهْب ونَوفَل بن عبد الله ابن المغيرة المخزوميّون ، فطافوا بخيُولهم على الخندقَ إصعادا وانحدارا ، يَطلُبون مَوْضعا ضيّقا يَعبرُونه ، حتى وقفوا على أضيق موضع فيه فى المكان المعروف بالمزار ؛ فأكرهوا خيولَهم على العُبور فعبرتْ ، وصاروا مع المسلمين على أرضٍ واحدة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وأصحابُه قيام على رأسِه ، فتقدّم عمرو بن عَبْد ودّ فدعا

---

(١) سورة البقرة ٢٥١ (٢) ارتث : حمل من المعركة جريحاً وبه رمق

(٣) ب : « نفسه » تحريف .

إلى البراز مرارا ، فلم يقم إليه أحد ، فلمّا أكثر ، قام عليٌّ عليه السلام فقال : أنا أبارزه يارسولَ الله ، فأمَرَه بالجلوس ، وأعاد عمرو النّداء والناسُ سُكوت كأنّ على رءوسهم الطّير ، فقال عَمرو : أيّها الناس ، إنّكم تزعمون أنّ قتلاكم في الجنّة وقتلانا في النار ، أفما يحبّ أحدكم أن يَقدم على الجنّة أو يُقدِّم عدوًّا له إلى النار ! فلم يقمْ إليه أحد ، فقام عليٌّ عليه السلام دفعةً ثانية وقال : أنا له يارسولَ الله ، فأمَره بالجلوس ، فجال عَمرو بفرسه مُقبِلا ومدبِرا ، وجاءت عُظماء الأحزاب فوقفتْ مِن وراء الخندق ومدّت أعناقَها تَنظر ، فلمّا رأى عَمرو أنّ أحدا لا يجيبه ، قال :

ولقد بُححتُ من النّدا ءِ بجَمعِهمْ : هل مِن مُبارِزْ !
ووقفتُ مـــذ جَبُنَ المشيّـــع موقفَ القِرْنِ المُناجِزْ
إنّي كذلك لم أزلْ متسرّعا قبل الهزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ في الفَتى والجود من خير الغرائزْ

فقامَ عليٌّ عليه السلام فقال : يارسولَ الله ، ائذَنْ لي في مُبارَزَته ؛ فقال : ادْنُ ، فدنا فقلّده سيفَه ، وعمّمه بعِمامته ، وقال : امضِ لشأنِك ، فلمّا انصرَف قال : « اللّهمّ أعِنه عليه » ، فلمّا قَرُب منه قال له مجيبا إيّاه عن شِعره :

لا تَعجلنّ فقد أتا كَ مجيبُ صوتك غير عاجزْ
ذو نيّـــة وبَصيرةٍ يرجو بذاك نَجاةَ فائزْ
إنّي لآمُــــل أن أقِـــيمَ عليكَ نائحة الجنائزْ
مِن ضَرْبةٍ فَوْهاءَ يَبـــقَى ذِكرُها عند الهزاهِزْ

فقال عَمرو : منَ أنت ! وكان عمرو شيخا كبيرا قد جاوزَ الثّمانين ، وكان نديمَ أبي طالب بنِ عبدِ المطّلب في الجاهليّة ، فانتَسب علي عليه السلام له وقال : أنا عليُّ بنُ أبي طالب ، فقال : أجَلْ ، لقد كان أبوك نديمًا لي وصديقا ، فارجع فإنّي لا أحبّ أن

أقتلك – كان شيخنا أبو الخير مصدّق بن شَبيب النحويّ يقول : إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع : والله ما أمره بالرجوع إبقاء عليه ، بل خوفا منه ، فقد عرَف قتلاه ببَدْر وأُحُد ، وعَلِم أنّه إنْ ناهضَه قتَلَه ، فاستحيا أن يُظهِر الفشَل ، فأظهر الإبقاء والإرعاء ، وإنّه لكاذب فيهما – قالوا : فقال له عليّ عليه السلام : لكنّي أحِبُّ أن أقتلَك ، فقال يابن أخي ، إنّي لأكره أن أقتلَ الرجلَ الكريم مِثلك ، فارجع وراءك خيرٌ لك ، فقال عليّ عليه السلام : إن قريشا تتحدّث عنك أنّك قلت : لا يدعوني أحدٌ إلى ثلاثٍ إلا أجبتُ ولو إلى واحدةٍ منها ، قال : أجَلْ ، فقال عليّ عليه السلام : فإنّي أدعوك إلى الإسلام ، قال : دعْ عنك هذه ، قال : فإنّي أدعوك إلى أن ترجع بمن تَبِعك من قريش إلى مكّة ، قال : إذَنْ تتحدّثَ نساء قريش عنّي أنّ غلاما خدَعني ، قال : فإنّي أدعوك إلى البراز ، فحمِي عمرو وقال : ما كنتُ أظنّ أن أحدا من العرب يرومها منّي ، ثم نزل فعقر فرسَه – وقيل : ضرب وجهه ففرّ – وتجاولا ، فثارت لهما غبرة وارتَهما عن العيون ، إلى أن سمع الناسُ التكبيرَ عاليا من تحت الغبرة ، فعلموا أنّ عليا قتَلَه ، وانجلت الغبَرة عنهما ، وعليّ راكب صدره يحزّ رأسه ، وفرّ أصحابه ليعبرُوا الخندق ، فظفرتْ بهمْ خيلُهم إلّا نوفلَ بن عبد الله ، فإنه قصر فرسه ، فوقع في الخندق ، فرماه المسلمون بالحجارة ، فقال : يامعاشر الناس ، قتلة أكرمُ من هذه ، فنزل إليه عليّ عليه السلام فقتَله ، وأدرك الزُّبيرُ هبيرة بنَ أبي وهب فضرَبه فقطع ثفر(١) فرسِه وسقطتْ دِرعٌ كان حمَلَها مِن ورائه ، فأخذَها الزبير ، وألقى عِكرمة رمحه ، وناوش عُمَر بن الخطّاب ضرار بن عُمرو ، فحَمَلَ عليه ضِرار حتى إذا وجد عمرُ مَسّ الرمح رفَعه عنه وقال : إنها لَنِعمة مشكورة ، فاحفَظْها يا بنَ الخطّاب ، إنّي كنتُ آليتُ ألّا تُمكِنُني يَداي من قتلِ قرشيّ فأقتله . وانصرَف ضِرارٌ راجعا إلى أصحابه ، وقد كان جرى له معه مِثل هذه في يوم أُحُد . وقد ذَكر هاتين القصّتين معًا محمد ابنُ عُمرَ الواقديّ في كتاب المَغازي(٢) .

---

(١) الثفر : السير في مؤخر السرج .

(٢) وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٢٤١

الأصْـلُ :

خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرِّجَالِ : الزَّهْوُ وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا

•••

الشّـرْحُ :

أخذ هذا المعنى الطغرائيُّ شاعرُ العجم فقال :

الجودُ والإقدامُ فى فِتيانهم والبخلُ فى الفتيات والإشفاقُ
والطعنُ فى الأحداق فى أبرُماتهم والرابيات سِهامُها الأحداقُ

وله :

قد زادَ طيبَ أحاديث الكِرامِ بها ما بالكرائم من جُبْنٍ ومن بُخلِ

وفى حكمةِ أفلاطون : مِن أقوى الأسباب فى محبّة الرجل لامرأته واتّفاق ما بينهما أن يكون صوتُها دونَ صوته بالطّبع ، وتميزُها دونَ تميُّزه ، وقلبُها أضعف من قلبه ، فإذا زاد من هذا عندها شئٌ على ماعندَ الرجل تنافرَا على مقداره .

وتقول : زُهِىَ الرجلُ علينا فهو مَزْهُوٌّ ، إذا افتخرَ ، وكذلك نُخِىَ فهو مَنْخُوٌّ ، من النَّخوة ، ولا يجوز زَهَا[1] إلاّ فى لغةٍ ضعيفة .

وفَرِقتْ : خافتْ . والفرَق : الخوف .

---

(١) عن ابن السكيت

الأصل :

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ : صِفْ لَنَا العَاقِلَ ، فَقَالَ : هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشيْءَ مَوَاضِعَهُ .

فَقِيل : فَصِف لَنا الجَاهِلَ ، قَالَ : قَدْ قُلْتُ .

* * *

قَالَ الرَّضيّ رَحمهُ اللهُ تَعَالَى ، يَعْنِي أَنَّ الجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لا يَضَعُ الشيْءَ مَوَاضِعَهُ ، فَكَأَنَّ تَرْكَ صِفَتِهِ صِفَةٌ لَهُ ، إِذْ كَانَ بِخِلافِ وَصْفِ العَاقِلِ .

* * *

الشرح :

هذا مِثلُ الكلام الذى تَنْسُبه العربُ إلى الضَّبّ .قالوا : اختَصَمَت الضَّبُع والثعلبُ إلى الضَّبّ ، فقالت الضبع : يا أبا الحِسْل(١) إنى التقطْتُ تمْرة ،قال : طيّبا جنيتِ ، قالت : وإن هـذا أخذها منّى ؛ قال : حظٌّ نفسه أحرز ، قالت : فإنّى لَطمتُه ؛ قال : كريمٌ حَمَى حقيقتَه ، قالت : فلطَمنى ، قال : حُرٌّ انتصر ؛ قالت : اقضِ بيننا ، قال : قد فعلتُ .

---

(١) الحسل : ولد الضب .

الأصْلُ :

وَاللهِ لَدُنيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُرَاقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ .

***

الشَّرْحُ :

العُراق : جمع عَرْق ، وهو العَظْم عليه شيء من اللَّحْم ، وهذا من الجُموع النادرة ، نحو رَخْل ورُخال وتَوْأم وتُؤام (١) ولا يكون شيء أحقر ولا أبغضُ إلى الإنسان من عُراق خنزير في يدِ مَجْذوم ، فإنّه لم يَرْضَ بأن يجعله في يد مَجْذوم ـ وهو غايةُ مايكون مِن التَّنْفير ـ حتّى جعله عُراق خنزير .

ولعَمْري لقد صَدَق ـ وما زال صادقا ـ ومن تأمّل سِيرتَه في حالَتَيْ خلوّه من العمل وولايته الخلافة عَرَف صحة هذا القول .

---

(١) ب : « تمام » تحريف .

الأصل :

إنَّ قوماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ التُّجّارِ ، وَإنَّ قوماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ العَبِيدِ ، وَإنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبادَةُ الأحْرارِ .

***

الشرح :

هذا مقامٌ جليلٌ تتقاصر عنه قُوَى أكثر البشرِ ، وقد شرحناه فيما تقدّم ، وقلنا : إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارةٌ ومُعاوضة ، وإن العبادة لخوفِ العِقاب لمنزلةٌ من يَستجدِي لسلطانٍ قاهرٍ يخاف سطوته .

وهذا معنى قولِه : « عبادةُ العبيد » ، أى خَوف السَّوط والعصا ، وتلك ليس عبادةٌ نافعة ، وهي كمن يَعتذِر إلى إنسان خوفَ أذاه ونِقمته ، لا لأنّ مايَعتذر منه قبيح لا ينبغى له فعلُه ، فأمّا العبادة لله تعالى شكراً لأنعمه فهى عبادةٌ نافعة ، لأنّ العبادة شكرٌ مخصوص ، فإذا أوقَعها على هذا الوجه فقد أوقَعها الموقعَ الّذى وُضِعتْ عليه .

فأما أصحابُنا المتكلّمون فيقولون : ينبغى أن يَفعَل الإنسان الواجبَ لوجْهِ وجوبه ، ويترك القبيحَ لوجه قبحه ، وربّما قالوا : يُفعل الواجبُ لأنّه واجب ، ويُترك القبيحُ لأنّه قبيح ، والكلامُ فى هذا الباب مشروحٌ مبسوط[1] فى الكُتُب الكلاميّة .

---

(١) ساقطة من ا

الأصل :

الْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا ، وَشَرُّ مَافِيهَا أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْهَا .

***

الشرح :

حلف إنسانٌ عند بعض الحكماء أنه مادخل بابي شرٌّ قطّ ؛ فقال الحكيم : فمِن أينَ دخلَتِ امرأتُك !

وكان يقال : أسباب فِتنة النساء ثلاثة : عينٌ ناظرة ، وصورةٌ مستحسَنةٌ ، وشهوةٌ قادرة ، فالحكيم من لا يردِّد النظرة حتّى يعرفَ حقائقَ الصّورة ؛ ولو أنّ رجلا رأى امرأةً فأعجبته ثمّ طالَبها فامتنعتْ ، هل كان إلّا تاركَها ! فإن تأبَّى عقلُه عليه فى مُطالَبتها كتأبِّيها عليه فى مُساعَفتها قدَع[1] نفسَه عن لذّته قَدْعَ الغيُور إيّاه عن حُرْمةِ مُسلِم .

وكان يقال : من أتعب نفسَه فى الحلال من النِّساء لم يَتُقْ إلى الحرام منهنّ ، كالطَّلِيح[2] مُناه أن يَستريح .

---

(١) قدع نفسه : منعها وحد من شهوتها .
(٢) الطليح : المتعب .

الأصـلُ :

مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ ٱلْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ ٱلْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ .

***

الشَّـرحُ :

قد تقدّم الـكلامُ فى التوانى والعجز ، وتقدّم أيضا الـكلامُ فى الوِشاية والسِّعاية .

ورُفِـع إلى كسرَى أبرَوِيز أنّ النصارى الّذين يحضُرون بابَ المَلِك يُعرَفون بالتجسّس إلى مَلِك الروم ، فقال : مَن لم يَظهر له ذنب لم يَظهر منّا عقوبة له .

ورُفع إليه أنّ بعض الناس يُنكِر إصفاء الملِك إلى أصحاب الأخبار ، فوقّع : هؤلاء بمنزلةِ مَداخِـل الضِّياء إلى البيت المُظلِم ، وليس لقَطْع موادّ النور مع الحاجة إليه وجهٌ عند العقلاء .

قال أبو حيّان : أمّا الأصل فى التدبير فصحيح، لأنّ المَلِك محتاج إلى الأخبار ،لـكن الأخبار تنقسم إلى ثلاثة أوجه :

خبرٌ يتّصل بالدِّين ، فالواجب عليه أن يُبالِـغ ويَحتاط فى حِفظه وحِراسته وتحقيقهِ ونفى القَذَى عن طريقه وساحته .

وخبرٌ يتّصل بالدّولة ورسومها ، فينبغى أن يتيقّظ فى ذلك خوفا من كيدٍ ينفذ ، وبغيٍ يسرِى .

وخبر يدور بين الناس فى منصرَفِهم وشأنِهم وحالهم ، متى زاحمَهم فيـه أضعفَنوا

عليك ، وتمنّوا زوال مُلْكِكَ ، وأرصدوا العداوة لك ، وجهروا إلى عدوّك وفتحوا له بابَ الحيلة إليك .

وإنّما لحقَ الناسَ من هذا الخبر هذا العارض ، لأنّ في مَنع الملك إيّاهم عن تصرّفاتهم، وتتبّعه لهم في حركاتهم ، كَرْبا على قلوبهم ، ولهيباً في صُدورهم، ولابدّ لهم في الدّهر الصالح والزّمان المعتدل ، والخصب المتتابع ، والسبيل الآمن ، والخير المتّصل : من فُكاهة وطِيب واُسترسال وأَشَر وبطَر ، وكلّ ذلك من آثار النعمة الدارّة ، والقلوب القارّة ، فإنْ أغضَى المَلِك بصره على هذا القِسْم عاشَ محبوبا ، وإن تنكّر لهم فقد استأسَدَهم أعداء . والسلام .

الأصلُ :

أَلْحَجَرُ ٱلْغَصْبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا .

***

قال الرضيّ رحمه الله تعالى :

وَقَدْ رُوِيَ مَايُنَاسِبَ هَذَا ٱلْكَلَامَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَجَبَ أَن يَشْتَبِهَ ٱلْكَلَامَانِ فَإِنَّ مُسْتَقَاهُمَا مِنْ قَلِيبٍ ، وَمَفْرَغَهُمَا مِنْ ذَنُوبٍ .

***

الشرح :

الذَّنُوب : الدلو المَلأَى ، ولا يقال لها وهيَ فارغةٌ : ذَنُوب ، ومعنى الكلمة أن الدّار المبنيّة بالحجارة المَغصوبة ولو بحَجَر واحد ، لابدّ أن يتعجّل خرابُها ، وكأنما ذلك الحجَر رَهْن على حصول التخرّب ، أى كما أنّ الرَّهْن لابدّ أن يُفتَكّ ، كذلك لابدّ لِما جُعل ذلك الحجرُ رَهْنا عليه أن يَحصُل .

وقال ابن بسّام لأبي عليّ بنِ مُقْلة لمّا بَنَى داره بالزّاهر ببغداد من الغصْب وظُلمِ الرعيّة :

بجَنْبِك داران مَهدومَتانِ ودارُكَ ثالثةٌ تُهــدَمُ
فلَيتَ السلامَة للمُنْصِفِيـ ـن دامتْ فكيفَ لمن يَظلِمُ

والدّاران : دارُ أبي الحسن بنِ الفُرات ، ودارُ محمّد بن داودَ بن الجرّاح .

وقال فيه أيضا :

قلْ لابنِ مُقلَةَ مهـلاً لا تـكن عَجِلاً   فإنّمـا أنتَ فى أضغاثِ أحـلامِ

تَبْنِى بأنقـاضِ دُورِ النـاس مجتهِداً   داراً ستُنقَضُ أيضا بعـد أيّامِ[1]

وكان ماتفرّسه ابنُ بسّام فيه حقّا ، فإنّ داره نُقِضتْ حتّى سوّيت بالأرض فى أيّام الراضى بالله .

(١) تنقض : تقوض وتهدم .

(٢٣٨)

الأصْلُ :

يَوْمُ المَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى المَظْلُومِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في الظلم مرارا .

وكان يقال : اذكُرْ عندَ الظلم عدلَ الله تعالى فيكَ ، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك .

وإنّما كان يومُ المظلوم على الظالم أشدَّ من يومه على المظلوم ، لأنّ ذلكَ اليومَ يومُ الجزَاء الكُلّيّ ، والانتقام الأعظم ، وقُصارَى [1] أمرِ الظالم في الدنيا أن يَقتُل غيرَه فيُميته مِيتةً واحدة ، ثمّ لا سبيل له بعد إماتته إلى أن يُدخِل عليه ألماً آخر ؛ وأمّا يومُ الجزاء فإنّه يومٌ لا يموت الظالم فيه فيَستريح [2] ، بل عذابُه دائمٌ متجدّد ، نعوذ بالله من سُخْطِه وعِقابه .

---

(١) ا : « وقصر » (٢) ا : « لا يستريح فيه الظالم » .

(٢٣٩)

الأصل :

اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَى وإنْ قَلَّ ؛ واجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سِتْراً وإنْ رَقَّ .

***

الشَّرْحُ :

يقال فى المَثَل : ما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ كلُّه .

فالواجب على من عَسُرَتْ عليه التقوى بأجمعها أن يتقى الله فى البعض ، وأن يجعل بينه وبينه سِتْرا وإن كان رَقيقا .

وفى أمثال العامّة : إجعل بينك وبين الله رَوْزَنة (١) ، والرَّوْزَنة لفظة صحيحة مُعرَّبة ، أى لا تجعل ما بينك وبينه مَسْدودا مظلما بالكلّية .

(١) فى اللسان : «الروزنة : الكوة ، وفى المحكم : الخرق فى أعلى السقف . وعن التهذيب : يقال للكوة النافذة الروزن ؛ قال : وأحسبه معربا .

(٢٤٠)

الأصلُ :

إذَا ازْدَحَمَ الْجوابُ ، خَفِيَ الصَّوَابُ .

* * *

الشَّرحُ :

هـذا نحو أن يورد الإنسانُ إشكالا فى بعض المسائل النَّظَرِيّة بحضرةِ جماعةٍ من أهـل النظر ، فيتغالب القـومُ ويتسابقون إلى الجواب عنـه ، كلٌّ منهم يورِد ما خطرَ له .

فلا رَيْب أنّ الصواب يخفى حينئذ ، وهذه الـكلمة فى الحقيقة أمر للنّاظر البحّاث أن يتحرّى الإنصاف فى بحثه ونظره مع رفيقه ، وألا يقصد المِراء[1] والمغالبة والقهرَ .

---

(١) المراء : الجدال .

(٢٤١)

الأصل :

إنّ لِلّهِ تعالى فى كُلِّ نِعْمَةٍ حَقًّا ، فَمَن أدّاهُ زَادَهُ مِنها ، ومَنْ قَصَّرَ فِيهِ خاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ .

•••

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ فى هذا المعنى .

وجاء فى الخبر : مَن أوتى نعمةً فأدّى حقّ الله منها بِردِّ اللهفة ، وإجابةِ الدّعوة وكشف المظلمة ، كان جديراً بدوامها [ومَنْ قَصَّر قُصِّرَ به][1] .

الأصل :

إذا كَثُرتِ المَقْدُرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ[1] .

***

الشرح :

هذا مِثلُ قولهم : كلُّ مقدورٍ عليه مملول ، ومثل قول الشاعر .

* وكلُّ كثيرٍ عدوُّ الطَّبيعه *

ومثل قولِ الآخر :

وأخٍ كَثُرَتُ عليه حتّى مَلَّنى والشىء مملولٌ إذا هو يرخُصُ
ياليتَه إذ بَاعَ وُدِّىَ باعَــه ممّن يزيد عليه لا من يَنقُصُ

ولهذا الحُكم عِلّة فى العِلْمِ العقلى ، وذلك أنّ النفس عندهم غنيَّة بذاتها ، مكتفِيَة بنفسها ، غيرُ محتاجة إلى شىْ خارج عنها ، و إنمّا عَرضتْ لها الحاجة والفقْر إلى ماهو خارج عنها لمقارَنتها الهيُولى ، وذلك ، أن أمْرَ الهيُولى بالضّد من أمرِ النّفس فى الفقْر والحاجـة ، ولمّا كان الإنسانُ مركّبا من النفْس والهيُولى عرض له الشوقُ إلى تحصيلِ العلوم والقنيات[2] لانتفاعِه بهما ، والتذاذِه بحصولها ، فأما العلوم فإنّه يحصّلها فى شبيهٍ بالخزانة له ، يرجِع إليها متى شاء ، ويستخرج منها ماأراد ، أعنِى القُوَى النفسانيّة الّتى هى محلّ الصوَر والمعانى على ماهو مذكور فى موضعه . وأما القنيات والمحسوسات

---

(١) د : « المشورة »

(٢) القنيات : جمع قنية ؛ بالضم والكسر : ما اكتسبه الإنسان .

فإنه يروم منها مِثل مايَرومُ من تلك ، وأن يُودِعها خِزانةً محسوسةً خارجةً عن ذاته ، لكنّه يَغلَط فى ذلك من حيث يُستكثِرمنها ، إلى أن يتنبهَ بالحكْمة على ماينبغى أن يقتنىَ منها ، و إنما حَرَص على مامُنِـع لأنّ الإنسان إنما يطلُب ماليسَ عندَه ، لأن تحصيلَ الحاصِلِ مُحال ، والطَّلَب إنما يتوجّه إلى المعدوم ، لا إلى الموجود ، فإذا حصّله سَكَن وعَلِم أنه قد ادّخره ، ومتى رَجَع إليه وَحْده إن كان مما يَبقَى بالذات خَزَنَه وتَشوّق إلى شىء آخَر منه ، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أنّ الجزئيات لا نهايةَ لها ومالا نهاية له ، فلا مَطْمع فى تحصيله ، ولا فائدَة فى النزوع إليه ، ولا وجهَ لطَلَبه سواء كانَ معلوماً أو محسوسا ، فوَجَب أن يقصَد من المعلومات إلى الأهمّ ومن المُقتَنيات إلى ضَرُورات البدن ومُقيماتِه ، و يَعدِل عن الاستكثار منها ، فإنّ حصولها كلّها مع أنّها لا نهاية لها غيرُ ممكن ، وكلّما فضل عن الحاجة وقَدْر الكفاية فهو مادّة الأحزان والهموم ، وضُروب المكاره ، والغَلط فى هذا الباب كثير ، وسبب ذلك طمعُ الإنسان فى الغِنَى من مَعدِن الفقر ، لأن الفقر هو الحاجة ، والغِنَى هو الاستقلال ، إلى أن يحتاج إليه ، ولذلك قيل : إن الله تعالى غَنِىّ مُطلقا ، لأنه غيرُ محتاج البتّة ، فأما من كثُرت قِنياته فإنّه يستكثر حاجاتِه بحَسَب كثرة قِنياته ، وعلى قدْرها رغبه إلى الاستكثارِ بكثرة وجوه فقْره ، وقد بُين ذلك فى شرائع الأنبياء ، وأخلاقِ الحكماء ، فأما الشىء الرخيصُ الموجود كثيرا فإنّما يُرغَب عنه ، لأنّه معلوم أنه إذا التمسَ وُجِد والغالى فإنّما يقدر عليه فى الأحيان و يصيبه الواحدُ بعدَ الواحد ، وكلّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحدُ ليصيبَه وليحصُلَ له مالا يَحصُل لغيره .

الأصلُ :

احذَرُوا نِفارَ النّعَمِ ، فما كُلُّ شارِدٍ بِمَرْدُودٍ .

* * *

الشرح :

هذا أمرٌ بالشُّكرِ علَى النعمة وتركِ المعاصي ، فانّ المعاصيَ تُزيل النّعَم كما قيل :

إذا كنتَ في نِعمةٍ فارْعَها فانّ المَعاصي تُزيل النِّعَمْ

وقال بعض السلف : كُفرانُ النِّعمة بَوار ، وقلَّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ في نصابها ، فاستدْعِ شارِدَها بالشُّكر ، واستدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار ، ولا تحسب أنّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم تَرْجُ لله وَقارا .

وقال أبو عصمة : شَهِدتُ سُفيانَ وفُضَيْلاً[1] فما سمعتُهما يتذاكران إلّا النعم ، يقولان : أنعم الله سبحانه علينا بكذا ، وفعل بنا كذا .

وقال الحسن[2] : إذا استوى يوْماك فأنتَ ناقص ، قيل له : كيف ذاك ؟ قال : إنْ زادكَ اللهُ اليومَ نِعماً فعليك أن تَزْداد غدًا له شُكرًا .

وكان يقال : الشكر جُنّة[3] من الزّوال ، وأمَنة من الانتقال .

وكان يقال : إذا كانت النعمة وَسيمةً فاجعَل الشكرَ لها تميمة[4] .

---

(١) هو فضيل بن عياض (٢) هو الحسن البصري

(٣) جنة : وقاية . (٤) التميمة : العوذة .

الأصلُ:

الكرَمُ أعطفُ مِنَ الرَّحِمِ.

***

الشرحُ:

مِثلُ هذا المعنى قولُ أبي تمام لابن الجهم:

إلاّ يكُنْ نسبٌ يؤلِّفُ بيننا أدبٌ أقمناه مقامَ الوالدِ[1]
أو يختلفْ ماءُ الوصالِ فماؤنا عذبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

ومن قصيدةٍ لي في بعض أغراضي:

ووشائجُ الآداب عاطفةُ الـ فُضَلاء فوقَ وشائجِ النَّسبِ[2]

(١) ديوانه ١ : ٤٠٧، وقبله:

إنْ يُكْدِ مُطرَّفُ الإخاءِ فإنَّنا نَغْدُو ونَسْرِي في إخاءٍ تالِدِ

(٢) في الأصول: «الأنساب»، ولا يستقيم الوزن.

(٢٤٥)

الأصْلُ :

مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا قد تقدّم فى وصيّته عليه السلام لولَدِه الحسن .

ومن كلام بعضهم : إنّى لأستحيي أن يأتيَنى الرجُلُ يحمَرُّ وجهُه تارةً من الخجَل أو يصفّر أخرى من خوف الردّ قد ظَنّ بى الخيرَ وباتَ عليه وغَدَا علىّ أن أردّه[1] خائبا .

(١) ا : « يرد » .

(٢٤٦)

الأصل :

أفضلُ الأعمالِ ما أكرهتَ نفسكَ عليهِ .

***

الشرح :

لا ريبَ أنّ الثوابَ على قدرِ المشقة ، لأنه كالعِوَض عنها[١] ، كما أنّ العِوَضَ الحقيقيّ عِوضٌ عن الألم ، ولهذا قال صلى الله عليه وآله : « أفضل العبادة أحمَزُها »[٢] . أى أشقّها .

(١) ا : « منها » .

(٢) نقله ابن الأثير فى النهاية ١ : ٢٠٨ قال : يقال : رجل حامز الفؤاد وحميزه ؛ أى شديد

الأصل :

عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ ، وَحَلِّ الْعُقُودِ ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ .

***

الشرح :

هذا أحدُ الطُّرُق إلى معرفة البارى سبحانه ، وهو أن يَعزِم الإنسانُ على أمرٍ ، ويصمِّمَ رَأْيه عليه ، ثمّ لا يَلبثَ أن يُخطِر اللهُ تعالى بباله خاطراً صارِفاً له عن ذلك الفعل ، ولم يكنْ فى حِسابه ، أى لولا أن فى الوجود[1] ذاتاً مدبّرة لهذا العالم لما خَطَرت الخواطرُ الّتى لم تكن محتسَبة ، وهذا فصل يتضمّن كلاماً دقيقا يذكره المتكلّمون فى الخاطر الّذى يَخطِر عن غيرِ مُوجب لخطوره ؛ فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطرَه بباله ؛ وإلّا لكان ترجيحا من غير مرجّح لجانب الوجود على جانب العدم ، فلا بدّ أن يكون المخطر له بالبال شيئاً خارجا عن ذات الإنسان ، وذلك هو الشىء المسمّى بصانِع العالم .

وليس هذا الموضع ممّا يحتمِل استقصاء القولِ فى هذا المبحث .

ويقال : إنّ عَضُد الدّولة وقعتْ فى يده قصّة وهو يتصفّح القِصص ، فأمر بصَلْب صاحبها ثمّ أتبع الخادمَ خادماً آخر يقول له : قل للمطهّر - وكان وزيرَه - لا يَصلُبه ، ولكن أخرِجه من الحبْس فاقطعْ يدَه اليمنى ؛ ثم أتبعهُ خادما ثالثا ، فقال : بل تقول له: يقطع أعصابَ رجليْه ، ثم أتبعه خادماً آخرَ فقال له : ينقله إلى القَلْعة بسِيرافَ فى قيودِه فيَجعله هنالك ، فاختلفتْ دَواعيه فى ساعةٍ واحدة أربع مرّات .

(١) فى ب : « الجود » تحريف .

(٢٤٨)

الأصل:

مَرَارَةُ ٱلدُّنْيَا حَلَاوَةُ ٱلْآخِرَةِ، وَحَلَاوَةُ ٱلدُّنْيَا مَرَارَةُ ٱلْآخِرَةِ.

***

الشرح:

لمّا كانت الدنيا[1] ضدَّ الآخرة، وجب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه، كالسواد يجمع البصر والبياض يفرق البصر، والحرارة توجب الخفة، والبرودة توجب الثقل؛ فإذا كان في الدّنيا أعمالٌ هي مرّة المذاق على الإنسان قد ورد الشرعُ بإيجابها فتلك الأفعال تقتضي[2] وتوجب لفاعلها ثواباً حُلْوَ المذاق في الآخرة.

وكذاك بالعكس ما كان من المشتهيات الدنياوية التي قد نهى الشرعُ عنها توجب - وإن كانت حُلْوة المذاق - مرارة العقوبة في الآخرة.

---

(١) أ: «الحياة الدنيا ضد الحياة الآخرة» (٢) أ: «تقضي»

الأصل :

فَرَضَ ٱللهُ ٱلإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ ٱلشِّرْكِ ، وَٱلصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ ٱلْكِبْرِ ، وَٱلزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ ، وَالصِّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ ، وَالْحَجَّ تَقْوِيَةً لِلدِّينِ ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلإِسْلَامِ ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ ، وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ ، وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ ، وَتَرْكَ الزِّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ ، وَتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ ، وَالشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمُجَاحَدَاتِ ، وَتَرْكَ الْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ ، وَالْأَمَانَةَ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ ، وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ .

* * *

الشرح :

هذا الفصلُ يتضمن بيانَ تعاليل العبادات إيجابا وسَلْبا .

قال عليه السلام : فَرَضَ اللهُ الإيمانَ تَطْهيرا مِن الشِّرْك ، وذلك لأنَّ الشِّرْك نجاسة حُكْمية لا عينيَّة ، وأيّ شيء يكون أنجس من الجهل أو أقبح ، فالإيمان هو تطهيرُ القلْب من نجاسةِ ذلك الجهل .

وفُرِضت الصَّلاة تنزيها من الكِبْر ، لأنّ الإنسان يقوم فيها قائما ، والقيام مُنافٍ للتكبُّر وطاردٌ له ، ثم يرفع يديه بالتكبير وقتَ الإحرام بالصَّلاة فيصير على هيئة من يمدّ عنقَه ليوسِّطه السَّيّاف ، ثم يستكتف كما يفعله العبيد الأذلاَّء بين يدَي

السادة العظماء ، ثم يركع على هيئة من يمدّ عنقه ليضربها السيّاف ، ثم يسجُد فيضع أشرف أعضائه وهو جبهته على أدونِ المواضع ، وهو التراب . ثم تتضمن الصلاةُ من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أنّ صاحبها خارج عن الصلاة ، وما فى غضونِ الصلاة من الأذكار المتضمّنة الذُّلّ والتواضع لعظمةِ الله تعالى .

وفُرضت الزّكاة تسبيبا للرزق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَما أنفقْتُمْ من شيء فهو يُخلِفه ﴾[1] ، وقال : ﴿ مَنْ ذَا الّذِى يُقرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسنًا فَيُضَاعِفَه له ﴾[2] .

وفُرض الصيامُ ابتلاء لإخلاص الخلق ، قال النبىّ صلّى الله عليه وآله حاكيا عن الله تعالى : « الصّومُ لى وأنا أجْزِى به » ، وذلك لأنّ الصوم أمرٌ لا يطّلع عليه أحد ، فلا يقوم به على وجهه إلاّ المخلصون .

وفُرِض الحجّ تقوية للدّين ، وذلك لما يحصُل للحاجّ فى ضِمنِه من المتاجِر والمكاسِب ، قال الله تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنافعَ لهم ويَذكُروا اسمَ اللهِ على ما رزَقَهم مِنْ بَهيمةِ الأنعامِ ﴾[3] . وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون : لولا أنّ أصحابَ محمّد كثير وأُولُو قوّة لما حجّوا ، فإنّ الجيشَ الضعيفَ يعجز عن الحجّ من المكان البعيد .

وفُرِض الجهادُ عزًّا للإسلام ، وذلك ظاهر ، قال الله تعالى : ﴿ ولوْلَا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمتْ صَوَامعُ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ اللهِ كثيرا ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباطِ الخيل تُرْهِبون به عدوّ الله وعدوّكُمْ ﴾[5] .

---

(١) سورة سبأ ٣٩
(٢) سورة الحديد ١١
(٣) سورة الحج ٢٨
(٤) سورة الحج ٤٠
(٥) سورة الأنفال ٦٠

وفُرِض الأمر بالمعروف مصلحةً للعوّام ، لأنّ الأمر بالعدل والإنصاف وردّ الودائع ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، وقضاء الديون ، والصّدق فى القول ، وإنجاز الوعد ، وغير ذلك من محاسن الأخلاق ، مصلحة للبَشَر عظيمة لا محالة .

وفُرِض النهىُ عن المنكَر رَدْعاً للسفهاء ، كالنّهى عن الظلم والكَذِب والسَّفَه ، وما يَجرى مَجرَى ذلك .

وفُرِضت صِلَة الرَّحِم مَنْماةً للعَدَد . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله « صلة الرّحم تَزيد فى العمر ، وتُنمّى العَدَد » .

وفُرِض القِصاصُ حَقْناً للدِّماء ، قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولى الأَلبابِ ﴾(١) .

وفُرِضت إقامة الحدود إعظاما للمحارم ، وذلك لأنّه إذا أُقيمت الحدودُ امتنع كثيرٌ من الناس عن المعاصى التى تجبُ الحدُودُ فيها ، وظهر عظم تلك المعاصِى عند العامّة فكانوا إلى تركها أقرب .

وحُرِّم شربُ الخمر تحصينا للعقل ، قال قوم لحكيم : اشرَبْ اللّيلة معنا ، فقال : أنا لا أشرَب مايَشْرَب عَقْلى ؛ وفى الحديث المرفوع ، « أنّ مَلِكاً ظالماً خيّر إنسانا بين أن يُجامِع أمّه أو يَقتُل نفسا مؤمِنة ، أو يَشرَب الخمر حتّى يَسكر ، فرأى أنّ الخمر أهونُها ، فشَرِب حتّى سَكِر ، فلمّا غَلَبه قام إلى أمّه فوَطِئها ، وقام إلى تلك النفس المؤمِنة فقتلها » ؛ ثم قال عليه السلام : « الخمرُ جماعُ الإثم ، الخمر أمُّ المعاصى » .

وحُرِّمت السَّرِقة إيجابا للعفّة ، وذلك لأنّ العفّة خُلُقٌ شريف ، والطمعُ خُلُقٌ دنِئ ، فحرمت السّرقة ليتمرّن الناسُ على ذلك الخُلُقِ الشريف ، ويجانبوا ذلك الخُلُقَ الذميمَ ، وأيضا حُرِّمت لما فى تحريمها من تحصين أموال الناس .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩

وحرّم الزنا تحصينا للنسب ، فإنه يُفضى إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب ، وألا يُنسب أحدٌ بتقدير ألّا يشرع النكاح إلى أب ، بل يكون نسبُ الناس إلى أمّهاتهم ، وفى ذلك قلبُ الحقيقة ، وعكسُ الواجب ، لأنّ الولد مخلوقٌ من ماء الأب ، وإنّما الأمّ وعاء وظرف .

وحُرّم اللّواط تكثيراً للنسل ، وذلك اللّواط بتقدير استفاضته بين الناس والاستغناء به عن النساء يُفضى إلى انقطاع النسل والذرّية ، وذلك خلاف ما يريد الله تعالى من بقاء هذا النوع الشريف الّذى ليس فى الأنواع مثله فى الشرف ، لمكان النفس الناطقة التى هى نسخةٌ ومثالٌ للحضرة الإلهية ، ولذلك سمّت الحكماء الإنسانَ العالمَ الصغير .

وحُرّم الاستمناء باليد وإتيان البهائم للمعنى الّذى لأجله حُرّم اللّواط ، وهو تقليل النسل ؛ ومن مستحسن الكلمات النبويّة قولُه عليه السلام فى الاستمناء باليد : « ذلك الوأد الخفى » ، لأنّ الجاهليّة كانت تئد البنات أى تقتلهنّ خنقا ، وقد قدّمنا ذكر سبب ذلك ، فشبّه عليه السلام إتلاف النطفة التى هى ولدٌ بالقوّة بإتلاف الولد بالفعل .

وأوجبتْ الشهاداتُ على الحقوق استظهارا على المجاحدات ؛ قال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « لو أُعطِىَ الناسُ بدعاويهم لاستحلّ قومٌ من قوم دماءهم وأموالهم » ، ووجب تركُ الكذب تشريفا للصّدق ، وذلك لأنّ مصلحة العامة إنما تتمّ وتنتظم بالصّدق ، فإنّ الناس يبنون أكثرَ أمورهم فى معاملاتهم على الأخبار ، فإنّها أعمّ من العيان والمشاهدة ، فإذا لم تكن صادقةً وقع الخطأ فى التدبيرات ، وفسدتْ أحوالُ الخلق .

وشُرِع ردُّ السلام أمانا من المخاوف ، لأنّ تفسير قولِ القائل : « سلامٌ عليكم » ، أى لا حربَ بينى وبينكم ، بل بينى وبينكم السلام ، وهو الصلح .

وفُرِضت الإمامة نظاما للأمّة ؛ وذلك لأنّ الخلق لا يرتفع الهرج والعسف والظّلم والغَضَب والسّرقة عنهم إلا بوازعٍ قويٍّ ، وليس يَكفِي في امتناعهم قُبح القبيح ، ولا وعيدُ الآخرة ، بل لا بدّ لهم من سلطان قاهر ينظّم مصالحهم ، فيَردَع ظالمَهم ، و يأخذ على أيدي سُفَهائهم .

وفُرِضت الطّاعة تعظيما للإمامة ، وذلك لأن أمرَ الإمامة لا يتم إلّا بطاعة الرّعيّة ، وإلاّ فلو عصَت الرعيّة إمامَها لم ينتفعوا بإمامتِه ورئاستِه عليهم .

الأصْلُ :

وكان عليه السلام يقول :

أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ ، وَإِذَا حَلَفَ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ ، لأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

* * *

الشَّرْحُ :

[ماجرى بين يحيى بن عبد الله و بين ابن المصعب عند الرشيد]

رَوَى أبو الفرج عليُّ بن الحسين الأصبهانى فى كِتاب "مَقاتِل الطالِبيّين" أن يحيى بن عبد الله بن الحسَنَ بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام لمّا أمّنه الرشيدُ بعد خروجه بالدَّيْلم وصار إليه بالغ فى إكرامه وَبِرِّه ، فسَعَى به بعد مدّة عبدُ الله الزُّبيرى إلى الرشيد – وكانَ يُبغضه – وقال له : إنه قد عاد يدعو إلى نفسه سِرّاً، وحسّن له نقضَ أمانه فأحضَرَه وجَمَع بينه و بين عبد الله بن مصعب ليناظِرَه فيما قذفَه به ورفعه عليه ، فجَبَهَهَ ابنُ مصعب بحضرة الرشيد ، وادّعى عليه الحركة فى الخروج وشقّ العصا ، فقال يحيى : ياأمير المؤمنين ، أتصدّق هذا عليّ وتَستنصِحه ؛ وهو ابنُ عبدِ الله بن الزّبير، الذى أدخَلَ أباكَ عبدَ الله وولدَه الشِّعب ، وأضرَم عليهم النار حتّى خلّصه[1] أبو عبد الله الجدلىّ، صاحب عليّ بن أبى طالب عليه السلام منه عَنْوة ؛ وهو الذى ترك الصلاة على

(١) مقاتل الطالبيين : « تخلصه » .

رسولِ الله صلّى الله عليه وآله أربعين جُمعة فى خُطبته ، فلمّا التاثَ عليه الناسُ قال : إن له أُهَيل سُوء إذا صلّيت عليه أو ذكرتُه أتلعوا أعناقهم واشرأبّوا لذِكره ، فأكرَه أن أسرّهم أو أقرّ أعينهم[1] ؛ وهو الذى كان يَشتُمُ أباكَ ويُلصِق به العيوب حتى وَرِم كبدُه ، ولقد ذبحتْ بقرةٌ يوما لأبيك فوُجِدتْ كبدُها سوْداء قد نقِبت ، فقال علىّ ابنه : أما ترى كبدَ هذه البقرة يا أبت ! فقال : يابنىّ هكذا ترك ابنُ الزّبير كبِد أبيك ، ثمّ نفاه إلى الطائف ، فلمّا حضرتْه الوَفاة قال لابنه علىّ : يا بُنىّ إذا مِتّ فالحقْ بقومِك من بنى عبد مناف بالشام ، ولا تُقِم فى بلدٍ لابن الزبير فيه إمْرة ، فاختار له صحبةَ يزيد بن معاوية على صحبة عبدِ الله بن الزبير . ووالله إنّ عداوةَ هذا ياأميرَ المؤمنين لنا جميعا بمنزلةٍ سواء ، ولكنّه قوِى علىّ بك ، وضعُفَ عنك ، فتقرّبَ بى إليك ليظفَر منك بى ، يزيد ، إذا لم يَقدِر على مثله منك ، ومايَنبغى لك أن تُسوّغه ذلك فىّ ، فإن معاوية بن أبى سفيان وهو أبعد نسبا منك إلينا ذَكَر الحسنَ بنَ علىّ يوما فسبّه ، فساعدَه عبدُ الله بن الزبير على ذلك ، فزجَره وانتهرَه ، فقال إنما ساعدتُك ياأميرَ المؤمنين ، فقال : إن الحسَن لحمى آكُلُه ولا أُوكِلُه . ومع هذا فهو الخارجُ مع أخى محمّد على أبيك المنصور أبى جعفر ، والقائلُ لأخى فى قصيدة طويلةٍ أولها :

إنّ الحمامة يوم الشّعب مِن خضنٍ[2] هاجت فؤاد مُحِبٍّ دائم الحَزَنِ

يُحرّض أخى فيها على الوثوب والنهوض إلى الخلافة ، ويَمدَحُه ويقول له :

لا عزّ رُكْنَا نزارٍ عند سطْوتِها إن أسلمَتْك ولا رُكنَا ذوِى يَمَنِ

ألستَ أكرمَهم عُوداً إذا انتسَبوا يوما وأطهرَهم ثوباً من الدّرَنِ !

---

(١) مقاتل الطالبيين : « فلا أحب أن أقر عينهم بذكره » . (٢) كذا فى ا والعقد ٥ : ٨٧ ، وفى مقاتل الطالبيين « دثن » .

وأعظمَ الناس عند النـــاس منزلةً　　وأبعدَ النـاسِ من عَيْبٍ ومن وَهَنِ!
قومُوا بِبَيْعَتِـكم نَنْهض بطـاعتهـا　　إنّ الخلافة فيكُمْ يابنى حَسَنِ
إنّا لنأمُـــلُ أن ترتدّ أُلفتنـــاَ　　بعد التّدابُرِ والبغضاءِ والإحَنِ
حتى يثـابَ على الإحسان مُحسِنُنـاَ　　ويأمَنَ الخائفُ المأخوذُ بالدِّمَنِ
وتنقضِى دولةٌ أحكَامُ قادتِهـــا　　فينا كأحكام قوم عابدِى وثَنِ
فطالمـا قـد بَرَوْا بالجوْرِ أعظمنـا　　بَرْىَ الصّناعِ قِداحَ النَّبْعِ بالسفنِ

فتغيّر وجهُ الرّشيد عند سماع هذا الشعر ، وتغيّظ على ابن مصعب ، فابتدأ ابنُ مصعب يَحلِف بالله الّذى لا إله إلاّ هو وبأيمان البيعة أنّ هـذا الشّعر ليس له ، وأنه لسَدِيف ، فقـال يحيى : والله يا أمير المؤمنين ماقاله غيرُه ، وما حلفتُ كاذبا ولا صادقا بالله قبل هـذا ، وإنّ الله عزّ وجلّ إذا مجّده العبـدُ فى يمينه فقال : واللهِ الطالب الغالب الرحمن الرّحيمُ ، استحْيا أن يعاقبَه ؛ فدَعْنى أن أحلِّفَه بيمينٍ ماحلف بها أحدٌ قطُّ كاذبًا إلا عُوجِل ، قال فحلّفه ؛ قال قل : بَرِئْتُ من حَوْلِ الله وقوّته ، واعتصمتُ بحـولى وقوّتى ، وتقلّدت الحولَ والقُوّة من دون اللهِ ، استكباراً على الله ، واستعلاء عليـه ، واستغناء عنـه ، إنْ كنتُ قلتُ هـذا الشّعر . فامتنَع عبدُ اللهِ من الحلِف بذلك ، فغَضِب الرشيد ، وقال للفضل بن الربيع : ياعباسيُّ ماله لا يَحلِف إن كان صادقا ! هذا طَيْلَسانى علىّ ، وهذه ثيابى لو حَلّفنى بهذه اليمين أنّها لى لحلفتُ . فوكَزَ الفضلُ عبـدَ الله برِجْله ـ وكان له فيه هوًى ـ وقال له : احلِف وَيحك ! فجعل يحلِف بهذه اليمين ، ووجْهُه متغيِّر ، وهو يُرعَد ، فضرَب يحيى بين كتفيه ، وقال : يابن مُصعب ، قَطَعتَ عُمرَك ، لا تُفلِـح بعدَها أبدا !

قالوا : فما بَرِح من موضعه حتى عَرَض له أعراضُ الجذام ، استدارَتْ عيناه ،

وتفقأ وجهُه ، وقام إلى بيته فتقطّع وتشقق لحمه وانتثر شَعرُه ، ومات بعد ثلاثة أيام ، وحضر الفضلُ بنُ الربيع جنازَته ، فلمّا جُعل فى القبر انخسَفَ اللّحد به حتى خرجت منه غَبَرة شديدة ، وَجَعل الفضلُ يقول : الترابَ الترابَ ! فطرح الترابِ وهو يَهوى فلم يستطيعوا سَدَّه حتى سقف بخشب ، وطُمّ عليه ؛ فكان الرشيد يقول بعد ذلك للفضل : أرأيت ياعباسىّ ماأسرَع ما أديل ليحيى (١) من ابن مصعب (٢) !

---

(١) ب : « من يحيى » .

(٢) مقاتل الطالبيين ٤٧٤ ـ ٤٧٨

(٢٥١)

الأصل :

يَابْنَ آدَمَ ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، وَاعْمَلْ فِي مَالِكَ مَا تُؤْثِرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ .

***

الشرح :

لا ريبَ أن الإنسان يُؤثر أن يُخرَج ماله بعد موته فى وجوه البِرّ والصدقات والقُرُبات ليَصِل ثوابُ ذلك إليه ، لكنه يَضِنّ بإخراجه وهو حىّ فى هذه الوجوه لحبّه العاجلة وخوفِه من الفقر والحاجة إلى الناس فى آخِر العُمر ، فيقيم وصيًّا يَعمَل ذلك فى ماله بعد موته .

وأوصَى أميرُ المؤمنين عليه السلام الإنسانَ أن يَعمَل فى ماله وهو حىّ ما يُؤثِر أن يُعمَل فيه وصيّة بعد موته ، وهذه حالة لا يَقدِر عليها(١) إلّا من أخَذَ التوفيقُ بيَدِه .

---

(٣) ا : « عليها أحد »

(٢٥٢)

الأصْلُ :

الْحِـدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ .

***

الشَّرْحُ :

كان يقال : الحِدّة كُنْيَة الجهل .

وكان يقال : لا يصحّ لحديدٍ رأى ، لأنّ الحِدّة تُصْدِئ العقل كما يُصْدِئ الخلُّ المِرآة فلا يرَى صاحبُه فيه صورة حسن فيَفعَله ، ولا صُورة قبيح فيجتنِبه .

وكان يقال : أوّل الحِدّة جنون وآخِرها ندَم .

وكان يقال : لا تَحمِلنّك الحِدّة على اقتراف الإثم ، فتَشفِيَ غيظَك ، وتُسقِم دِينَك .

الأصل :

صِحَّةُ الجَسَدِ ، مِنْ قِلَّةِ الحَسَدِ .

***

الشرح :

معناه أنّ القليل الحسَدِ لا يزال مُعافًى فى بدنه ، والكثير الحسد يُمْرِضه ما يجده فى نفسه من مَضاضَة المُنافسة ، وما يتجرّعه من الغيظ ، ومِزاجُ البدَن يتبع أحوالَ النفس .

قال المأمون : ما حَسَدْتُ أحدا قطّ إلاّ أبا دُلَفٍ على قول الشاعر فيه :

إنمـــا الدّنيا أبو دُلَفٍ   بين باديهِ ومحتَضَرِهْ[1]
فإذا وَلّى أبُو دُلَفٍ   ولّت الدنيـا على أثَرِهْ

ورَوَى أبوالفرج الأصْبَهانىّ عن عَبْدوس بن أبى دُلَفٍ قال : حدّثنى أبى ، قال : قال لى المأمون : يا قاسم ، أنت الذى يقول فيك علىُّ بنُ جَبَلة :

* إنما الدُّنيا أبو دُلَفٍ *

البيتين ، فقلت مُسرِعا : وما ينفَعنى ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله فىّ :

أبا دلفٍ يا أكذبَ الناس كلِّهمْ   سِواىَ فإنّى فى مَديحك أكذَبُ

(١) الأغانى ٨ : ٢٥٥

ومع قول بكر بن النطاح فيّ :

أبا دُلَفٍ إنّ الفقــير بعَيْنه   لِمَنْ يرتجي جَدْوى يديْكَ ويأمُلُهْ
أرى لك بابا مُغلقا متمنّعا   إذا فتحوه عنك فالبؤسُ داخلُهْ
كأنك طبلٌ هائلُ الصّوتِ معجِبٌ   خليّا من الخيْرات تَعْسٌ مَداخِلُهْ
وأعجبُ شيء فيك تسليمُ إمْرَةٍ[1]   عليك على طَنْزٍ وأنّك قابِــلُهْ

قال : فلما انصرفْتُ قال المأمون لمن حوله : لله درّه ! حَفِظ هجاءَ نَفسِه حتى انتفع به عندى ، وأطفأ لهيبَ المُنافَسة .

(١) الأغانى .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لكُمَيلِ بنِ زِيادٍ النَّخَعيّ :

يا كُمَيلُ، مُرْ أهلَكَ أنْ يرُوحُوا في كَسْبِ المَكارِمِ ، ويُدْلِجُوا في حاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ ، فوَالذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصْواتَ ؛ ما مِنْ أحَدٍ أوْدَعَ قَلْباً سُرُوراً إلاَّ وخَلَقَ اللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطفاً ، فإذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إليْها كالماءِ في انحدارِهِ؛ حَتَّى يَطرُدَها عَنْه كما تُطْرَدُ غَرِيبةُ الإبِلِ .

***

الشرح :

قال عمرو بنُ العاصِ لمعاوية : ما بقيَ من لذّتك ؟ فقال : ما من شيء يُصيبهُ الناس من اللذّة إلاّ وقد أصبتهُ حتى مللتهُ ، فليس شيء عندي اليوم ألذّ من شربةِ ماء بارد في يومٍ صائف ، ونظري إلى بَنِيَّ وبناتي يدرُجون حولي ؛ فما بقيَ من لذّتك أنت ؟ فقال : أرضٌ أغرسُها وآكُلُ ثمرتها ، لم يبق لي لذّة غير ذلك . فالتفت معاويةُ إلى وَرْدان غلام عَمرو ، فقال : فما بقي من لذّتك ياوَرْدان ؟ فقال : سرورٌ أُدخِله قلوب الإخوان ، وصنائعُ أعتقِدُها في أعناق الكرام ؛ فقال معاوية لعَمْرو : تبًّا لمجلسي ومجلسك ! لقد غلبني وغلبك هذا العبد ، ثم قال : ياوَرْدان ، أنا أحقّ بهذا منك ؛ قال : قد أمكنتك[1] فافعلْ .

(١) في د « أمكنك » .

فإن قلت : السرور عَرَضٌ ، فكيف يَخلُق الله تعالى منه لُطفاً ؟

قلت : مِنْ ها هنا هي مِثلُ « مِن » في قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾(١) ، أي عِوَضا منكم .

ومثلُه :

فليتَ لنا من ماء زمزمَ شَرْبَةً مُبرَّدةً باتتْ على طَهَيانِ(٢)

أي ليت لنا شربةً مبرّدة باتتْ على طَهَيان ، وهو اسمُ جَبَل ؛ بدلاً وعِوضا من ماء زَمْزم .

---

(١) سورة الزخرف ٦٠ (٢) البيت للأحول الكندي ـ اللسان طها ـ .

(٢٥٥)

الأصْلُ :

إذا أملقتُم فتاجِرُوا اللهَ بالصّدَقةِ .

***

الشّرحُ :

قد تقدّم القولُ في الصّدقة .

وقالت الحكماء : أفضل العِبادات الصّدَقة لأنّ نفعها يتعدّى ، ونفعُ الصلاة والصّوم لا يتعدّى .

وجاء في الأثر أنّ عليّاً عليه السلام عَمِل ليهوديّ في سَقي نَخْلٍ له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمُدّ من شَعير ، فخبزه قُرْصا ، فلمّا همّ أن يُفطر عليه ، أتاه سائل يستطعم ، فدفعه إليه وبات طاوياً وتاجرا الله تعالى بتلك الصدقة ، فعدّ الناس هذه الفعلة من أعظم السّخاء ، وعدُّوها أيضا من أعظم العبادة .

وقال بعضُ شعراء الشِّيعة يذكر إعادة الشمس عليه وأحسن فيما قال :

جادَ بالقُرْص والطَّوَى مِلءُ جَنْبَيْـ ـهِ ، وعافَ الطَّعامَ وهو سَغُوبُ(١)

فأعاد القُرْصُ المنـــيرُ عليه الـ ـقُرْصَ والمُقرِضُ الكِرامِ كَسوبُ(٢)

(١) السغوب : الجائع . (٢) في د « والقرض للكرام » ، وهو وجه أيضا .

(٢٥٦)

الأصل :

الْوَفاءُ لأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ ، والْغَدْرُ بأَهْلِ الْغَدْرِ وَفاءٌ عِنْدَ اللهِ .

* * *

الشرح :

معناه أنه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يغدر ولا يفي بأقواله وأَيْمانه وعهوده ، لم يجزْ الوفاء له ، ووَجَب أن ينقض عهوده ولا يوقَف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاء عند الله تعالى ، بل هو كالغَدْر في قُبْحه ، والغدر بمن هذه[1] حاله ليس بقبيح ، بل هو في الحسن كالوفاء لمن يَستحِقُّ الوفاء عند الله تعالى .

(١) ا : « ذلك »

الأصْلُ :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسِّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَمَا ابْتَلَى اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

***

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الكلامُ فيما تقدّمَ ، إلّا أنّ فيه هاهنا زِيَادَةً جَيِّدَةً مُفِيدَةً .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ في الاستدراج والإملاء .

وقال بعضُ الحكماء : احذر النّعم المتواصِلة إليك أن تكون استدراجا ، كما يحذر المحارِب من اتباعِ عدوّه في الحربِ إذا فرّ من بين يديه من الكمين ، وكم من عدوٍّ فرّ مستدرَجا ثمّ إذ هو عاطِفٌ ، وكم من ضارِعٍ في بديك ثمّ إذ هو خاطف .

(٢٥٨)

الأصل :

ومن كلامه ـ عليه السلام ـ المتضمّن ألفاظاً من الغريبِ تحتاجُ إلى تفسير :

قولهُ ـ عليه السلام ـ في حديثه : فإذا كانَ ذلكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَما يَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيف .

قال الرَّضيُّ رحمهُ اللهُ تعالى :

يَعْسُوبُ الدِّينِ : السَّيِّدُ العَظِيمُ المَالِكُ لِأُمورِ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ ؛ والْقَزَعُ : قِطَعُ الْغَيْمِ الَّتِي لا ماءَ فيها .

* * *

الشرح :

أصابَ في اليَعسوب ، فأمّا القَزَع فلا يُشترط فيها أن تكون خاليةً من الماء ، بل القَزَع قِطَعٌ من السحاب رقيقة ، سواء كان فيها ماء أو لم يكن ، الواحدة قَزَعة بالفتح ، وإنما غرّه قولُ الشاعر يصف جيشاً بالقِلّة والخفّة .

* كأنَّ رعاله قَزَع الجهام [(١)] *

وليس يدلّ ذلك على ماذكَرَه ، لأنّ الشاعر أراد المبالَغة ، فإنّ الجهام الّذي لا ماء فيه إذا كان أقطاعاً متفرّقة خفيفة ، كان ذِكرُه أبلَغ فيما يريدُه من التشبيه : وهذا الخبر من أخبار المَلاحِمِ التي كان يُخبِر بها عليه السلام ، وهو يَذكر فيه المهديّ الّذي يُوجَد عند أصحابنا في آخر الزمان . ومعنى قوله : « ضَرَب بذَنَبه » أقام وثبت بعد

---

(١) ب : « الهيام » تصحيف

اضطرابه ، وذلك لأنّ اليَعسوب فَحْل النّحل وَسيدُها ، وهو أكثرُ زمانه طائرٌ بجَناحَيه ، فإذا ضرَب بذَنَبه الأرضَ فقد أقام وتَرَكَ الطّيَران والحركة .

فإن قلت : فهذا يُشيد مذهبَ الإماميّة فى أنّ المهدىّ خائف مستتر ينتقل فى الأرض ، وأنّه يظهر آخر الزمان و يثبت و يقيم فى دار ملكه .

قلت : لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهدىّ الذى يظهر فى آخر الزمان مضطرب الأمر ، منتشرُ المُلك فى أوّل أمرِه لمصلحة يَعلَمها الله تعالى ، ثمّ بعد ذلك يثبتّ مُلكه ، وتنتظم أمورُه .

وقد وردتْ لَفظةُ اليَعسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام فى غير هـذا الموضع ، قال يوَم الجمل لعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد وقد مرّ به قتيلا : « هذا يَعسوب قريش » ، أى سيدُها .

(٢٥٩)

الأصْـلُ :

وفى حديثِه ـ عليهِ السلامُ : هَذا الخطِيبُ الشَّحْشَحُ .

قالَ : يُرِيدُ المَاهِرَ بالخُطْبَةِ ، المـاضِىَ فِيهاَ ، وكُلُّ ماضٍ فى كَلَامٍ أوْ سَيْرٍ فَهُوَ شَحْشحٌ . والشَّحْشَحُ فى غَيْرِ هذا المَوْضع : البَخِيلُ المُمْسِكُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد جاء الشَّحْشح بمعنى الغَيُور والشحْشَح بمعنى الشُّجاع ، والشَّحْشَح بمعنى المواظِب على الشيء الملازِم له ، والشَّحْشَح : الحاوِى ، ومِثله الشَّحْشحان .

وهذه الـكلمة قالها علىٌّ عليه السلام لصَعْصعة بن صُوحان العبدىِّ رحمه الله ، وكَفَى صعصعةُ بها فخرا أن يكون مِثل علىّ عليه السلام ، يُثنِى عليه بالمهارة وفَصاحة اللّسان ؛ وكان صَعصعةُ من أفصَح الناس ، ذكَرَ ذلك شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ[1] .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧

الأصلُ :

ومنهُ : إنَّ لِلخُصُومَةِ قُحَماً .

قال : يُرِيدُ بالقُحَمِ المَهالِكَ ، لأنَّهَا تُقْحِمُ أَصْحَابَهَا فِي المَهالِكِ وَالمَتالِفِ فِي الأَكْثَرِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قُحْمَةُ الأَعْرابِ ، وَهُوَ أَنْ تُصِيبَهُمُ السَّنَةُ فَتَتَعَرَّقُ أَمْوَالُهُمْ ، فَذَلِكَ تَقَحُّمُهَا فِيهِمْ . قال : وَقِيلَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّهَا تُقْحِمُهُمْ بِلادَ الرِّيفِ ، أيْ تُحْوِجُهُمْ إلى دُخُولِ الحَضَرِ عِنْدَ مُحُولِ البَدْوِ .

***

الشرحُ :

أصلُ هذا البناء للدُّخول في الأمر على غير رويّة ولا تثبُّت ، قَحَمَ الرجلَ في الأمر بالفتح قُحوماً ، وأقحَمَ فلانٌ فرسَه البحرَ فانقحَم ، واقتحمْتُ أيضاً البحرَ دخلته مكافحة ، وقَحَمَ الفرسُ فارِسَه تقحيما على وجهه ؛ إذا رماه ، وفحلٌ مِقْحَام ، أي يقتحِم الشَّوْلَ مِن غير إرسالٍ فيها .

وهذه الكلمة قالها أميرُ المؤمنين حين وَكَّل عبدَ الله بن جعفرٍ في الخصومة عنه ، وهو شاهد .

وأبو حنيفةَ لا يُجيز الوَكالة على هذه الصّورة ، ويقول : لا تجوز إلّا مِن غائبٍ أو مريض ؛ وأبو يوسف ومحمد يُجيزانها أخْذا بفعل أمير المؤمنين عليه السلام .

الأصل :

ومنهُ : إذا بلغ النساء نَصَّ الحِقاقِ فالعَصَبةُ أولَى .

قال : ويروى « نصُّ الحقائقِ » ، والنصُّ منتهى الأشياء ومبلغُ أقصاها كالنصِّ في السير لأنه أقصى ماتقدرُ عليه الدابّة ؛ ويقال : نصصتُ الرجلَ عن الأمرِ إذا استقصيتَ مسألته لتستخرجَ ماعنده فيه ، ونصُّ الحقائقِ يريدُ به الإدراكَ ؛ لأنه منتهى الصِّغر ، والوقتُ الذي يخرجُ منه الصغيرُ إلى حدِّ الكِبرِ ، وهو منْ أفصحِ الكِنايات عن هذا الأمرِ وأغربِها ؛ يقولُ : فإذا بلغَ النساء ذلكَ فالعَصَبةُ أولَى بالمرأةِ منْ أمِّها إذا كانوا محرماً مثلُ الإخوةِ والأعمامِ ، وبتزويجِها إنْ أرادوا ذلك .

والحِقاقُ : مُحاقّةُ الأمِّ للعصبةِ في المرأةِ ، وهو الجِدالُ ، والخُصومةُ ، وقولُ كلِّ واحدٍ منهما لِلآخَرِ : أنا أحَقُّ منك بِهذا ، يُقالُ منهُ : حاققتُهُ حِقاقاً ، مِثلُ جادلْتُهُ جِدالًا . قال : وقد قِيلَ إنَّ نَصَّ الحِقاقِ بُلُوغُ العقلِ وهو الإدراكُ ، لأنه عليه السلامُ إنَّما أرادَ مُنتَهَى الأمرِ الذي تجبُ به الحُقوقُ والأحكامُ .

قالَ : ومَنْ رواهُ « نصُّ الحقائقِ » فإنما أرادَ جَمْعَ حقيقةٍ ، هذا معنى ماذكرهُ أبو عُبَيْدٍ القاسمُ بنُ سلاَّمٍ .

قال : والذي عندي أنَّ المرادَ بنصِّ الحقاقِ هاهنا بُلُوغُ المرأةِ إلى الحدِّ الذي يجوزُ فيه تزويجُها وتصرُّفُها في حقوقِها ، تشبيهاً بالحِقاقِ مِنَ الإبِلِ ، وهي جَمْعُ حِقَّةٍ وحِقٍّ ، وهو الذي استكملَ ثلاثَ سنينَ ودخلَ في الرابعةِ ؛ وعندَ ذلك يبلغُ إلى الحدِّ الذي يُمكنُ فيه مِنْ رُكوبِ ظهره ونصِّهِ في سيره . والحقائقُ أيضاً : جَمْعُ حِقَّةٍ ؛

فالرِّوايتانِ جميعاً ترجِعانِ إلى مسمًّى واحِدٍ ؛ وهــذا أشبهُ بطريقةِ العربِ مِنَ المعنى المذكور أوّلا .

***

الشَّـرْحُ :

أمّا ماذكره أبو عُبيد فإنّه لا يَشفِي الغليلَ، لأنه فسّر معنى النّصّ ، ولم يفسِّر معنى نَصِّ الحقائق ، بل قال : هو عبارةٌ عن الإدراك ، لأنّه منتهى الصِّغَر ، والوقت الذى يَخرُج منه الصغيرُ إلى حدّ الكِبَر، ولم يبيّن من أى وجهٍ يدلّ لفظ نَصّ الحِقاق على ذلك ، ولا اشتقاق الحِقاق وأصله ، ليظهرَ من ذلك مُطابقة اللفظ للمعنى الّذى أشيرَ إليه .

فأمّا قولُه : «الحقاق هاهنا مَصدر حاقّة مُحاقّة» ، فلِقائلٍ أن يقول : إن كان هذا هو مقصودُه عليه السلام فقَبْلَ الإدراك يكون الحِقاق أيضا ، لأنّ كلّ واحدة من القرابات تقول للأخرى : أنا أحَقُّ بها منك ، فلا معنى لتخصيصِ ذلك بحالِ البُلوغ ، إلا أن يَزعُمَ زاعمٌ أنّ الأمَّ قبل البُلوغ لها الحضانة ، فلا يُنازِعها قبل البلوغ فى البِنْت أحد ولكنْ فى ذلك خلافٌ كثير بين الفقهاء .

وأمّا التفسيرالذى هو أنّ المراد بنصّ الحِقاق منتهَى الأمر الذى تجب به الحقوق فإنّ أهلَ اللغة لم يَنقُلوا عن العَرَب أنّها استعملت الحِقاقَ فى الحُقوق ، ولا يُعرَف هذا فى كلامهم .

فأمّا قولُه : «ومن رواه نَصّ الحقائق» ، فإنّما أرادَ جمع حقيقة ، فلِقائلٍ أن يقول : وما معنى الحقائق إذا كانت جمعَ حقيقة هاهنا ؟ وما معنى إضافة «نَصّ» إلى «الحقائق» جمع حقيقة ، فإنّ أبا عُبَيدة لم يفسِّر ذلك مع شدّة الحاجةِ إلى تفسيره !

وأمّا تفسيرُ الرضيّ ـ رحمه الله ـ فهو أشبهَ من تفسير أبى عُبيدة ، إلّا أنّه قال فى آخره:

والحقائق أيضا جمعُ حِقّة ، فالروايتان ترجمان إلى معنًى واحد . وليس الأمرُ على ماذُكِر من أنّ الحقائق جمعُ حِقّة ، ولكنّ الحقائق جمع حِقاق، والحِقاق جمع حِقّ ، وهو ما كان من الإبل ابنَ ثلاث سنينَ ، وقد دخل فى الرابعة ، فاستحقّ أن يُحمَل عليه ويُنتفع به ، فالحقائق إذن جمع الجمع لحِقّ لا لحِقّة ، ومثل إفال وأفائل . قال : ويُمكِن أن يقال : الحِقاق هاهنا الخصومة ، يقال : مالَه فيه حِقّ ولا حِقاق أى ولا خصومة ، ويقال لمن يُنازِع فى صِغار الأشياء إنّه لبرق الحِقاق ، أى خصومَتُه فى الدّنىء من الأمر؛ فيكون المعنى إذا بلغت المرأةُ الحدَّ الذى يستطيع الإنسانُ فيه الخصومَة والجدالَ فعصَبتُها أولَى بهامن أمّها ؛ والحدُّ الذى تَستكمل فيه المرأة والغُلامُ للخُصومة والحكومة والجدالِ والمناظرة هو سِنُّ البُلوغ .

(٢٦٢)

الأصل :

ومنهُ ، إنَّ الإيمانَ يَبْدُو لُمْظَةً في القَلْبِ ، كُلَّمَا ازْدَادَ الإيمانُ ازْدَادَتِ اللُّمْظَةُ .

***

قال: اللُّمْظَةُ مِثلُ النُّكْتَةِ أو نَحوِهَا مِنَ البَيَاضِ، وَمِنْهُ قيلَ: فَرَسٌ أَلْمَظُ إذا كَانَ بِجَحْفَلَتِهِ شَيءٌ مِنَ البَيَاضِ .

***

الشرح :

قال أبو عُبيد : هي لُمْظَة بضم اللام ؛ والمحدِّثون يقولون : لَمظة بالفتح ؛ والمعروفُ من كلام العَرَب الضم ؛ مِثلُ الدُّهْمة والشُّهْبة والحُمْرة . قال : وقد رواه بعضُهم «لُمطة» بالطّاء المهملة ، وهذا لا نَعرِفه .

قال : وفي هذا الحديث حُجَّةٌ على مَنْ أنكر أن يكون الإيمانُ يزيدُ وينقُص[1] ، ألا تَراه يقول: كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادت اللُّمْظة .

---

(١) ا : « أو ينقص » .

(٢٦٣)

الأصل :

ومنه، إنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَى إذَا قَبَضَهُ .

***

قَالَ : الظَّنُونُ : الَّذِي لَا يَعْلَمُ صَاحِبُهُ أَيَقْضِيهِ مِنَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ أَمْ لَا ، فَكَأَنَّهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ ذَلِكَ ، فَمَرَّةً يَرْجُوهُ ، وَمَرَّةً لَا يَرْجُوهُ ، وهو مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَمْرٍ تَطْلُبُهُ وَلَا تَدْرِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ مِنْهُ فَهُوَ ظَنُونٌ ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الْأَعْشَى :

مَنْ يَجْعَلِ الْجُدَّ الظَّنُونَ الَّذِي ... جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الْمَاطِرِ
مِثْلَ الْفُرَاتِيِّ إذَا ما طَما ... يَقْــذِفُ بِالْبُوصِيِّ وَالْمَاهِرِ

وَالْجُدُّ : الْبِئْرُ الْعَادِيَّةُ فِي الصَّحْرَاءِ . وَالظَّنُونُ : الَّتِي لَا يُعْلَمُ هَلْ فِيهَا مَاءٌ أَمْ لَا .

***

الشرح :

قال أبو عُبَيْدة : فى هذا الحديث من الفقه أنّ من كان له دَيْن على النّاس فليس عليه أن يُزَكِّيَه حتّى يَقبِضه، فإذا قَبَضه زَكّاه لما مضى ، وإن كان لا يرجوه ، قال : وهذا يردّه قولَ من قال : إنّما زَكاتُه على الّذى عليه المال ، لأنّه[1] المنتفع به ؛ قال :

---

(١) ا : « لأنه الذى ينتفع به »

وكما يُروَى عن إبراهيم ، والعمَل عندنا على قول علىٍّ عليه السلام ؛ فأمّا ما ذَكَره الرضىّ من أنّ الجدّ هى البئرُ العاديّة فى الصّحراء ، فالمعروف عند أهل اللّغــة أن الجدّ البئرُ الّتى تكون فى موضع كثير الـكَلَأ ، ولا تُسمّى البئرُ العادِيّةُ فى الصّحْراء المَوَاتِ جُدّا ، وشِعْر الأعشى لا يدلّ على ما فسّره الرضىّ ، لأنه إنّما شبّه علقَمة بالبئرِ والـكَلَأ ، يَظُنّ أن فيها ماء لمكان الـكَلَأ ، ولا يكون موضع الظن هذا هو مرادُه ومقصودُه ، ولهذا قال : الظّنون ، ولو كانت عاديّة فى بَيْدَاء مقفِرة لم تـكن ظَنُونا ، بل كان يُعلَم أنّه لا ماء فيها ، فسَقط عنها اسمُ الظّنون .

الأصل :

وَمنهُ : أنهُ شَيَّعَ جيشاً يُغْزِيهِ فقالَ : اعْزِبُوا عَنِ النِّساءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ .

***

وَمَعْناهُ: اصْدِفُوا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَشُغْلِ الْقُلُوبِ بِهِنَّ، وَامْتَنِعُوا مِنَ الْمُقَارَبَةِ لَهُنَّ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْحَمِيَّةِ، وَيَقْدَحُ فِي مَعَاقِدِ الْعَزِيمَةِ، وَيَكْسِرُ عَنِ الْعَدُوِّ، وَيَلْفِتُ عَنِ الْإِبْعَادِ فِي الْغَزْوِ، فَكُلُّ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَعْزَبَ عَنْهُ، وَالْعَازِبُ وَالْعَزُوبُ: الْمُمْتَنِعُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ .

***

الشرح :

التفسير صحيح ، لكنّ قوله :« من امتنع من شيء فقد أعزَب عنه » ، ليس بجيِّد ؛ والصحيح «فقد عزَب عنه» ثلاثيٌ ، والصواب وكلُّ مَنْ مَنعته من شيء فقد أعزَبتَه عنه عنه تَعدِّيه بالهمزة ؛ كما تقول : أقمْته وأقعدْته ، والفعل ثُلاثيّ قامَ وقعَد ، والدليل على أنّ الماضي ثلاثي هاهنا . قوله : « والعازِب والعزُوب الممتنِع من الأكل والشرب ، ولو كان رُباعيًّا لكان « المُعزِب » ؛ وهو واضح ؛ وعلى هذا تكون الهمزة في أوّل الحرف همزة وصلٍ مكسورة ، كما في « اضرِبوا » لأنّ المضارِع يعزِب بالكسر .

الأصلُ :

ومنهُ : كالياسِرِ الفالجِ ، يَنتَظِرُ أوّلَ فوْزَةٍ مِنْ قِداحِهِ .

***

قَالَ : الياسِرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَتَضارَبُونَ بِالقِداحِ عَلَى الجَزُور ، وَالفالِجُ : القاهِرُ الغالِبُ ، يُقالُ : قَدْ فَلَجَ عَلَيْهِم وَفَلَجَهُمْ ، قَالَ الرّاجِزُ :

* لَمّا رَأيْتُ فالِجاً قَدْ فَلَجا *

الشرح :

أوّل الكلام أنّ المرء المسلم مالم يغشَ دَناءةً يخشَع لها إذا ذكرتْ ، ويُغرى به لئام النّاس ، كالياسِر الفالِج ينتظر أوّل فوزةٍ من قِداحه، أو داعيَ الله ، فما عند الله خيرٌ للأبرار ، يقول : هو بين خيرتين : إما أن يصيرَ إلى مايُحِبّ من الدنيا ، فهو بمنزلة صاحب القِدْح المُعَلّى ، وهو أوفرُها نصيبا ، أو يموت فما عندالله خيرٌ له وأبقى[1] .

وليس يعني بقوله : الفالج القامِر الغالبَ كما فسّره الرّضيّ رحمه الله ، لأنّ الياسرَ الغالبَ القامرَ لا ينتظر أوّلَ فوزةٍ من قِداحه ، وكيف ينتظر وقد غَلَب ! وأيّ حاجة له إلى الانتظار ! ولكنّه يَعني بالفالج الميمونَ النّقيبة الّذي له عادةٌ مطّردةٌ أن يَغلِب، وقلّ أن يكون مَقهورا .

---

(١) ا : « أبقى له » .

(٢٦٦)

الأصل :

ومنهُ : كُنّا إذَا احْمَرَّ البَأْسُ اتَّقَيْنا بِرَسولِ اللهِ فَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ مِنّا أقْرَبَ إلَى العَدُوِّ مِنْه .

***

قَالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أنَّهُ إذَا عَظُمَ الخوْفُ مِنَ العَدُوِّ ، وَاشْتَدَّ عِضَاضُ الحَرْبِ فَزِعَ المُسْلِمُونَ إلَى قِتَالِ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وآلِهِ بِنَفْسِهِ ، فَيُنزِلُ اللهُ تعالى النَّصْرَ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَيَأْمَنُونَ مَا كَانُوا يَخَافُونَهُ بِمَكانِهِ .

وقَوْلُهُ : « إذَا احْمَرَّ البَأْسُ » : كِنَايَةٌ عَنِ اشْتِدَادِ الأمْرِ ؛ وقد قِيل فى ذَلِكَ أقْوَالٌ ؛ أحْسَنُهَا أنَّهُ شَبَّهَ حَمْيَ الحَرْبِ بِالنَّارِ الَّتِي تَجْمَعُ الحَرَارَةَ والحُمْرَةَ بِفِعْلِهَا ولَوْنِهَا ؛ ومِمّا يُقَوِّي ذَلِكَ قَوْلُ الرَّسُولِ صلّى الله عليه وآلِه وقَدْ رَأى مُجْتَلَدَ النَّاسِ يَوْمَ حُنَيْنٍ وهى حَرْبُ هَوَازِنَ : « الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ » ، والوطيسُ : مُسْتَوْقَدُ النار ، فَشَبَّهَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وآلِه مَا استحرَّ من جِلادِ القَوْمِ باحْتِدامِ النَّارِ وَشِدَّةِ الْتِهابِها .

***

الشرح :

الجيِّد فى تفسير هذا اللفظ أن يقال : البأس الحرْب نفسُها ، قال الله تعالى : ﴿ والصابرين فى البأساء والضرّاء وحينَ البأس ﴾ (١) ؛ وفى الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه

(١) سورة البقرة ١٧٧

إذا احمر موضعُ البأس ، وهو الأرضُ التى عليها معركة القوم ، واحمرارُها لِما يسيل عليها من الدّم .

***

[نبذ من غريب كلام الإمام علىّ وشرحه لأبى عبيد]

ولما كان تفسير الرضىّ رحمه الله قد تعرّض للغريب من كلامه عليه السلام ، ورأينا أنّه لم يذكر من ذلك إلّا اليسير ، آثرنا أن نذكُرَ جملةً من غريب كلامِه عليه السلام ممّا نقلَه أربابُ الكُتُب المصنَّفة فى غريب الحديث عنه عليه السلام .

فمن ذلك ماذكره أبو عبيْد القاسمُ بنُ سلاّم رحمه الله فى كتابه : لأنْ أطَّلِيَ بجواءِ قِدْرٍ أحبّ إلىّ من أنْ أطَّلِيَ بزعْفرانٍ .

قال أبو عُبَيد . هكذا الرواية عنه « بجواء قدْر » ، قال : وسمعت الأصمعىّ يقول : إنما هى الجاوة ، وهى : الوِعاء الّذى يُجعَل القِدْر فيه وجَمْعُها جياء .

قال : وقال أبو عمرو : يقال : لذلك الوعاء جواء وجياء ؛ قال : ويقال للخرقة التى يُنزَل بها الوعاء عن الأثافىّ جِعال .

***

ومنها قولهُ عليه السلام حين أقبَل يريد العراق فأشارَ إليه الحسنُ بنُ علىّ عليه السلام أن يَرجع : واللهِ لا أكونُ مِثْلَ الضَّبُعُ تسمعُ اللَّدْم حتّى تخرُجَ فتُصاد .

قال أبوعبيد : قال الأصمعىّ : اللّدم صوتُ الحجر، أوالشىء يقع على الأرض، وليس بالصّوت الشديد ، يقال منه : لَدِم ألدِم بالكسر ، وإنّما قيل ذلك للضّبع ، لأنّهم إذا أرادوا أن يصيدوها رمَوْا فى جُحْرِها بحَجَر خفيف ، أو ضرَبُوا بأيديهم فتحسَبه

شيئاً تصيدُه فتخرج لتأخذه فتصاد ، وهي زعموا أنها من أحمق الدّوابّ ، بلَغ من حُمْقها أن يدخل عليها فيقال : أمّ عامر نائمة ، أو ليست هذه ! والضبع ، هذه أمّ عامر،فتَسكُت حتى تؤخذ ، فأراد على عليه السلام : أنى لا أُخدَع كما تُخدَع الضّبع باللّدم .

* * *

ومنها قولهُ عليه السلام : منْ وَجد في بطنه رِزّاً ! فليَنْصرف وليتوضّأ .

قال أبو عبيد . قال أبو عمرو : إنّما هو أرْزًا مثل أرز الحيّة ، وهو دورانها وحرَكتها ، فشبّه دَوَرَان الرِّيح في بطنه بذلك .

قال : وقال الأصمعيّ : هو الرِّزّ ، يعنى الصّوتَ في البطْن من القرْقرة ونحوها قال الراجز :

كأنّ في رَبابِه الكِبارِ رِزّ عِشارٍ جُلْنَ في عِشار[1]

وقال أبو عُبَيد : فقهُ هذا الحديث أن يَنصرِف فيتوضّأ ويبنى على صلاته مالم يتكلّم ، وهذا إنما هو قبل أن يُحدث .

قلت : والّذى أعرفه مِن الأَرزِ أنه الانقباض لا الدّوران والحركة، يقال: أرزَ فلانٌ بالفَتح وبالكسر ؛ إذا تضامّ وتقبّض من بُخْله فهو أرُوز ، والمصدَر أرْزا وأروزا ، قال رؤبة .

* فذاكَ بَخّالٌ أروز الأرزِ[2] *

فأضاف الاسمَ إلى المصدر كما يقال : عُمر العدْل وعَمْرو الدهاء ، لما كان العدل والدّهاء أغلبَ أحوالهما، وقال أبو الأسود الدُّؤلى يذمُّ إنسانا : إذا سُئل أرَز، وإذا دُعى اهتزّ ، يعنى إلى الطّعام ، وفي الحديث :«إنّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحيّة إلى جُحْرها» . أى يجتمع إليها وينضمّ بعضه إلى بعض فيها .

* * *

(١) اللسان « أرز » ، ونسبه إلى رؤبة .

(١) اللسان (أرز)

ومنها قوله : لئن رليتُ بنى أميّة لأنفُضَنّهم نفضَ القصّاب التِّراب[1] الوذِمة .

وقد تقدّم منّا شرحُ ذلك والـكلامُ فيه .

* * *

ومنها قوله فى ذى الثُّدَيّة المقتول بالنَّهْرَوان : إنه مُودن اليد أو مُثْدن اليد أو مخدَج اليد .

قال أبو عبيدة : قال الـكسائىّ وغيره : المودن اليَدِ : القصيرُ اليَدِ ؛ ويقال : أودنتُ الشيء أى قصّرته ، وفيه لُغةٌ أخرى ، ودَنْته فهو مَوْدون ؛ قال حسّان يذمّ رجلا :

وأمُّك ســوداء مَوْدونةٌ كأنّ أناملَها الحُنظُبُ

وأمّا مُثْدن اليد ، بالثاء فإنّ بعضَ النـاس قال : نراه أخذه من الثُّنْدُوَة ، وهى أصل الثّدْى ، فشبّه يدَه فى قِصَرها واجتماعها بذلك ، فإنْ كان من هــذا فالقياس أن يقال : مُثْنِد لأنّ النون قبل الدال فى الثُّنْدُوَة ، إلّا أن يكون من المقلوب ، فذلك كثيرٌ فى كلامهم .

وأمّا مُخدَج اليَد فإنّه القصيرُ اليد أيضاً ، أُخِذ من إخداجِ الناقةِ وَلَدها ، وهو أن تَضَعه لغير تَمامٍ فى خَلْقه ، قال : وقال الفرّاء : إنّما قيل ذو الثُّدَيّة ؛ فأُدخِلت الهاء فيها ، وإنّما هى تصغير «ثَدْى» ، والثّدْى مذكّر ، لأنّها كأنّها بقيّة ثَدْى قد ذَهب أكثرُه فقلّلها كما تقول لُحَيمة وشُحَيمة ، فأنّث على هذا التأويل ؛ قال : وبعضُهم يقول ذو اليُدَيّة ، قال أبو عُبيد : ولا أرى الأصْلِ كان إلّا هـذا ، ولـكنّ الأحاديث كلّها تتابعتْ بالثاء ذو الثُّدَيّة .

* * *

ومنها قوله عليه السلام لقومٍ وهو يعاتبهم : ما لَـكُم لا تُنظِّفون عَذِراتكم !

قال : العَذِرة فِناء الدار ، وإنما سُمّيت تلك الحاجة عَذِرة لأنّها بالأَفْنِية كانت تُلقَى ،

---

(١) قال الأصمعى : سألنى شعبة عن هذا الحرف ، فقلت : ليس هو هكذا ، إنما هو نفض القصاب الوذام التربة . والتربة : التى سقطت فى التراب فتتربت ، والقصاب ينفضها .

فكَنَى عنها بالعَذِرة كما كَنَى عنها بالغائط ، وإنّما الغائطُ الأرضُ المطمئنة ؛ وقال الحُطيئة يهجو قوماً :

لعَمْرِى لقد جرّبتُكمْ فوجدتُكمْ   قِباحَ الوُجوه سَيِّئِى العَذِراتِ

***

ومنها قولُه عليه السلام : لا جُمُعة ولا تَشْريق إلّا فى مصرٍ جامع .

قال أبو عبيد : التّشريق ها هنا صلاةُ العيد ؛ وسُمّيت تشريقاً لإضاءة وقتِها ؛ فإنّ وقتَها إشراقُ الشّمس وصَفاؤها وإضاءتُها ؛ وفى الحديث المرفوع : « من ذبحَ قبلَ التّشريق فَلْيُعِدْ » ، أى قبلَ صلاة العيد .

قال : وكان أبو حنيفة يقول : التّشريق ها هنا هو التّكبير فى دُبُر الصلاة ، يقول : لا تكبيرَ إلا على أهل الأمْصار تلك الأيّام ، لا على المسافرين أو مَن هو فى غير مِصر .

قال أبو عبيد : وهذا كلامٌ لم نجد أحداً يَعرِفه ، إنّ التّكبير يقال له التّشريق ، وليس يأخذ به أحدٌ من أصحابه لا أبو يوسفَ ولا محمّد ، كلّهم يَرَى التّكبيرَ على المسلمين جميعاً حيث كانوا فى السّفر والحضَر وفى الأمصار وغيرِها .

***

ومنها قوله عليه السلام : « استكثِروا من الطّواف بهذا البيت قبل أن يُحَال بينكم وبَينه ، فكأنّى برجلٍ من الحبشة أصعَلَ أصمعَ حَمش السّاقين قاعداً عليها وهى تُهْدَم » .

قال أبو عُبَيد : هكذا يُروَى « أصعَل » وكلامُ العَرَب المعروف « صَعْل » وهو الصغيرُ الرأس ، وكذا رُءوس الحبشة ، ولهذا قيل للظّليم : صَعْل ؛ وقال عَنترةُ يصف ظَليماً :

صَعْلٌ يلوذُ بذى العشيرةِ بَيْضه   كالعَبْد ذِى الفَرْوِ الطّويلِ الأصْلمِ

قالَ : وقد أجازَ بعضُهم أصعَل في الصّعل ، وذُكر أنّها لغة لا أدرى عمّن هى !

والأصمعُ : الصغيرُ الأذُن ، وامرأة صَمْعاء .

وفى حديث ابن عبّاس: إنّه كان لا يَرَى بأساً أن يُضَحِّىَ بالصّمعاء . وحَمْش الساقين بالتّسكين : دقيقها .

***

ومنها : أنّ قوماً أتَوْه برجل فقالوا : إنّ هذا يؤمُّنا ونحن له كارهون ، فقال له : إنك لخَرُوط ، أتؤمّ قوماً هم لكَ كارهون !

قال أبو عبيد : الخَرُوط : المتهوِّر فى الأمور ، الراكبُ برأسِه جَهْلا ؛ ومنه قيل : انخَرَطَ علينا فلان ، أى اندرأ بالقَوْل السّيىء والفعْل . قال : وفقهُ هذا الحديث أنّه ما أفتَى عليه السلام بفسادِ صلاتهِ لأنه لم يأمُرْه بالإعادة ، ولكنّه كَرِه له أن يؤمّ قوماً هم له كارهون .

***

ومنها : أنّ رجلا أتاه وعليه ثوبٌ من قِهز ، فقال : إنّ بنى فلان ضَرَبوا بنى فلانة بالكناسة ، فقال عليه السلام : صَدَقنى سِنّ بَكْرِه .

قال أبو عبيد : هذا مَثل تَضرِبه العرَب للرجل يأتى بالخبر على وَجْهه ويصدق فيه . ويقال : إنّ أصله أنّ الرجل ربّما باع بَعيره فيسأل المشترِى عن سِنّه فيكذبه ، فعرَض رجلٌ بَكْرا له فصدَق فى سِنّه ، فقال الآخر : صدَقنى سنّ بَكْره، فصار مَثلا .

والقِهزْ بكسر القاف: ثياب بيض يُخالطها حَرير ، ولا أراها عربيّة ، وقد استعملها العربُ قال ذو الرمّة يصف البُزاةِ البِيض :

من الوُرْق أو صُقع كأنّ رءوسها   من النِهْز والقوهِيّ بيضُ المقانع

***

ومنها : ذكر عليه السلام آخر الزمان والفِتن ، فقال : خير أهل ذلك الزمان كلّ نُوَمَة ، أولئك مصابيح الهدى ، ليسوا بالمسابيح ولا المذاييع البُذُر .

وقد تقدّم شرح ذلك .

***

ومنها : أنّ رجلا سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا ، فاتّهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شُرَيح ، فسألهم البيّنة على قتله ، فارتفعوا إلى عليّ عليه السلام ، فأخبروه بقول شُرَيح ، فقال :

أوردَها سعدٌ وسعدٌ مشتمِلْ   ياسعد لا تروى بهذاك الإبلْ

ثمّ قال : إنّ أهوَن السَّقْي التّشريع ، ثمّ فرّق بينهم وسألهم ، فاختلفوا ، ثم أقرّوا بقتله ، فقتلهم به .

قال أبو عُبيد : هذا مثل ، أصلُه أنّ رجلا أورَد إبله ماء لا تصلُ إليه الإبل إلّا بالاستقاء ، ثم اشتمل ونامَ وتركها لم يستسق لها ؛ والكلمة الثانية مثل أيضا ، يقول : إنّ أيسَر ما كان ينبغى أن يفعل بالإبل أن يُمكّنها من الشريعة ويَعرِض عليها الماء . يقول : أقلّ ما كان يجب على شُرَيح أن يستقصى فى المسألة والبحث عن خبر الرّجل ولا يقتصر على طلب البيّنة .

***

ومنها : قوله : « وقد خرج على النـاس وهم ينتظرونه للصـلاة قياما : مالى أراكُمْ سامِدِين !

قال أبو عبيدة : أى قائمين ، وكلُّ رافِع رأسَه فهو سامد ، وكانوا يـكرَهون أن ينتظروا الإمامَ قِياما ولـكنْ قُعودا ، والسامد فى غير هـذا الموضع : اللاّهى اللاّعب ، ومنه قوله تعـالى : ﴿ وأنتم سامِدون ﴾[1] ، وقيل : السُّمُود الغِناء بِلُغة حِمْـيَر .

***

ومنها : أنه خرج فرأى قوماً يصلّون قد سَدَلوا ثيابهم ، فقال : كأنهم اليهود خرجوا من فُهْرِهم .

قال أبو عبيد : فُهْرُهم بضم الفاء : موضـع مِدْراسِهم الذى يجتمعون فيه كالعيد يصلّون فيـه ويَسدِلون ثيابهم ، وهى كلمةٌ نبطيّة أو عِبْرانية أصلهـا بُهْر بالباء فعرّبت بالفاء .

والسَّدل : إسبال الرّجل ثوبه من غير أن يضمّ جانبيه بين يديه ، فإن ضمّه فليس بسَدْل ، وقد رويتْ فيه الـكراهة عن النبيّ صلى الله عليه وآله .

***

ومنها : أن رجلا أتاه فى فريضة وعنده شُرَيح ، فقال : أتقول أنت فيهـا أيّها العبد الأبْظَر !

قال أبو عبيد : هو الذى فى شَفَته العُلْيا طُول ونتوء فى وسطها محاذِى الأنْف . قال : وإنّما نراه قال لشُرَيح : « أيّها العبد » ، لأنه كان قد وقع عليه سَبْىٌ فى الجاهليّة .

---

(١) سورة النجم ٦١

ومنها : أنّ الأشعث قال له وهو على المنبر : غلبتْنا عليك هـذه الحمراء ؛ فقال عليه السلام: مَن يعذِرنى من هؤلاء الضّياطرة، يتخلف أحدُهم يتقلّب على فراشِه وَحشاياه كالعَير ويهجر هؤلاء للذكر ! أأطرُدهم ؟ إنى إنْ طرَدْتهم لمن الظالمين . والله لقد سمعته يقول : والله ليضربنّكم على الدّين عوْداً كما ضرَبْتموهم عليه بدْءاً .

قال أبو عبيد : الحمراء : العجَم والمَوالى ، سمّوا بذلك لأنّ الغالب على ألوان العرب السُّمْرة ، والغالب على ألوان العجم البياض والحُمْرة . والضّياطرة : الضِّخام الذين لا نَفْع عندهم ولا غَناء ، واحدُهم ضَيْطار .

* * *

ومنها : قوله عليه السلام : اقتلوا الجانّ ذا الطُّفْيَتيْن ،والكلب الأسود ذا الغُرّتَيْن .

قال أبو عُبيد : الجانّ حية بيضاء ، والطُّفْية فى الأصل: خُوصة المُقْل ، وجمعُها طفىّ ، ثم شُبهت الخطّتان على ظَهْر الحية بِطُفْيَتيْن . والغُرّة : البياض فى الوجه .

* * *

[نبذ من غريب كلام الإمام علىّ وشرحه لابن قتيبة]

وقد ذكر ابنُ قُتيبة فى غريب الحديث له عليه السلام كلمات أخرى .

فمنها قوله : من أراد البقاء ــ ولا بقاء ــ فليُباكِر الغداء ، وليُخفّف الرّداء ، وليُقِلّ غِشْيان النّساء . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما خِفّة الرّداء فى البقاء ؟ فقال : الدّين .

قال ابن قتيبة : قوله «الرِّداء الدَّين» مَذهب فى اللّغة حَسَنٌ جيّد ، ووجهٌ صحيح ، لأنّ الدَّيْنَ أمانةٌ ، وأنت تقول : هو لك علىّ وفى عنـق حتى أؤدّيه إليك ، فـكأنّ الدَّين لازِم للعنق ، والرِّداء موضِعه صَفْحتا العنق ، فسمّى الدَّين رداء وكَنَى عنه به ، وقال الشاعر :

إن لى حاجةً إليك فقالت   بين أُذْنى وعاتق ما تريد

يريد بقوله : « بين أُذنى وعاتق ما تريد » فى عنق ، والمعنى أنى قد ضمنته فهو علىّ ، وإنما قيـل للسيف رداء لأنّ حمالته تقع موقع الرداء ، وهو فى غير هذا الموضع العطاء ، يقال : فلانٌ غمر الرداء أى واسعُ العطاء ؛ قال : وقد يجوز أن يـكون كَنَى بالرّداء عن الظَّهر ، لأنه يقع عليه ؛ يقول : فليخفِّف ظهره ولا يثقله بالدَّين ، كما قال الآخر : «خماص الأُزُر» ، يريد خماص البطون .

قال : وبلغنى نحو هذا الـكلام عن أبى عبيد ، قال : قال فقيه العرب : من سَرّه النساءُ ولا نساءَ فليُبكّرِ العشاء ، وليُباكِر الغداء ، وليخفّف الرِّداء ، وليُقِلّ غِشيان النساء قال : فالنسء التأخيرُ ، ومنه : ﴿ إنّما النَّسىء زيادةٌ فى الـكفر[1] ﴾ .

وقوله : فليُبكّر العشاء : أى فليؤخّره ، قال الشاعر :

* فأكريتُ العشاء إلى سُهيل *

ويجوز أن يريد فلينقص العَشاء ، قال الشاعر :

* والطلّ لم ينضـــل ولم يكر *

* * *

(١) سورة التوبة ٢٧

ومنها: أنه أُتِيَ عليه السلام بالمال فكوّم كومةً من ذهب وكومة من فضة، فقال: يا حمراء ويا بيضاء احمرّي وابيضّي وغرّي غيري.

هذا جَناي وخيارُه فيه وكلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيه

قال ابن قُتيبة: هذا مَثَل ضَرَبه، وكان الأصمعيّ يقوله: «وهِجانه فيه»، أي خالصُه، وأصل المثل لعمرو بن عَديّ ابن أُخت جَذيمة الأبرش، كان يجني الكمأة مع أتراب له، فكان أترابه يأكلون ما يجدون، وكان عمرو يأتي به خاله ويقول هذا القول[1].

* * *

ومنها حديث أبي جناب قال: جاء عمّي من البَصْرة يذهب بي وكنت عند أمي، فقالت: لا أتركك تذهب به، ثم أتت عليًّا عليه السلام فذكرت ذلك له، فجاء عمّي من البصرة، فقال: نعم والله لأذهبَنّ به وإن رغم أنفُك، فقال عليّ عليه السلام: كذبت والله، وولَقْت، ثم ضرب بين يدَيه بالدِّرة، قال: ولَقْت مثل كَذبتَ وكذلك وَلَعت بالعين، وكانت عائشة تقرأ: ﴿ إذ تَلِقُونه بألسِنَتِكُمْ ﴾[2] وقال الشاعر:

* وهنّ من الأخلاف والوَلَعان[3] *

يعني النساء أي من أهل الأخلاف.

* * *

ومنها قوله عليه السلام: إن من ورائكم أموراً متماحلة رُدُحا وبلاء مكلِّحا مبلِّحا.

---

(١) ا: «الكلام». (٢) سورة النور ١٥

(٣) اللسان (ولع)، وصدره:

* خلابةِ العينين كذابة المنى *

قال ابن قتيبة : المتماحلة الطِّوال ، يعنى فتنا يَطُول أمرُها ويعظم ؛ ويقال : رجل مُماحل وسَبَنْسَب مُماحل ، والرُّدح جمع رِداح ، وهى العظيمة ؛ يقال للكتيبة إذا عَظُمَتْ رَدَاح ، ويقال للمرأة العظيمة العَجيزة رَداح .

قال : ومنه حديثُ أبى موسى، وقيل له زمن علىّ ومعاوية : أهىَ أهىَ ؟ فقال : إنما هــذه الفِتْنة حَيْضة مِن حيضات الفتن ، وبقيت الرُّداح المُظلمة التى من أشرَف أشرَفت له .

ومــكلحاأى يــكلح الناسُ بشدتها ، يقال كَلَح الرجل وأكلحه، الـكلحة المرّ . والمبلّح، من قولهم : بلّح الرجُل إذا انقطع من الإعياء، فلم يقدِر على أن يتحرّك ، وأبلحه السيرُ ؛ وقال الأعشى .

* واشتكى الأوصالَ منه وبَلَحْ *

***

ومنها قولُه عليه السلام يوم خَيْبَرَ :

أنا الذى سمّتنِى أمّى حَيْــدَرَهْ   كليثِ غاباتٍ كريهِ المَنظَرَهْ

* أوفِيهم بالصّاع كَيْلَ السَّنْدَرَهْ *

قال ابن قتيبة : كانت أمّ علىّ عليه السلام سمّتْه وأبو طالبٍ غائبٌ حين ولدته أسداً باسم أبيها أسَدِ بنِ هاشم بنِ عبد مَناف ، فلمّا قَدم أبو طالب غيّر اسمَه وسماه عليّا ، وحَيْدرة : اسمٌ من أسماء الأسَد ، والسَّنْدَرة : شجرةٌ يُعمَل منها القِسِىّ والنَّبْل ؛ قال :

* حَنوتُ لهم بالسَّنْدَرِىِّ المؤتَّر *

فالسندرة فى الرَّجز يُحتمل أن تكون مِكْيالا يُتخذ من هذه الشّجرة ، سمّى باسمها كما يسمّى القوْس نَبْعة . قال : وأحسب إن كان الأمرُ كذلك أنّ الكَيل بها قد كان

جُزافًا فيه إفراط ؛ قال : ويَحتمل أن تكون السَّنْدَرة هاهنا امرأةً كانت تكيل كَيْلا وافيًا أو رَجُلا .

***

ومنها قولُه عليه السلام : من يَطُلْ أَيْرُ أبيه يَتمنطَقْ به .

قال ابن قتيبة : هذا مَثَل ضَرَبَه ، يريد من كَثُرت إخوتُه عَزَّ واشتدَّ ظهرُه ، وضَرَب المِنطَقة إذا كانت تشدّ الظّهر مَثَلا لذلك ، قال الشاعر :

فلو شاء ربِّى كان أيْرُ أبيكُمُ طويلاً كأيْر الحارثِ بن سَدُوسِ[1]

قيل كان للحارث بن سَدُوس أحدٌ وعشرون ذَكَرا ، وكان ضِرارُ بنُ عمْرو الضبيّ يقول : ألا إنّ شَرّ حائلٍ أمّ ، فزوّجوا الأمّهات ، وذلك أنّه صُرِع ، فأخذته الرِّماح ، فاشتبك عليه إخوتُه لأمّه حتّى خلّصوه .

قال : فأمّا المَثَل الآخَر وهو قولهم : من يَطُلْ ذَيْلُه يتمنطَقْ به ، فليس من المَثَل الأوّل فى شىء ، وإنّما معناه من وَجَد سعةً وضَعَها فى غير موضِعها وأنفق فى غير ما يَلزَمه الإنفاق فيه .

***

ومنها قولُه : خيرُ بئرٍ فى الأرض زَمْزم ، وشرُّ بئرٍ فى الأرض بَرَهوت .

قال ابن قتيبة : هى بئرٌ بحضرَمَوْت يُرْوَى أن فيها أرواحَ الكُفّار .

قال : وقد ذَكَر أبو حاتم عن الأصمعىّ عن رجل من أهل حَضْرَموْت قال : نجد فيها الرائحة المنتِنة الفظيعة جدّا ، ثمّ نمكث حينا فيأتينا الخبرُ بأنّ عظيما من عُظَماء الكفّار قد مات ، فترَى أنّ تلك الرائحة منه ، قال : وربّما سُمِع منها مثل أصوات الحاجّ ، فلا يستطيع أحدٌ أن يَمشِىَ بها .

***

---

(١) اللسان (نطق) ، من غير نسبة .

ومنها قولُه عليه السلام : أيّما رجلٍ تزوّج امرأةً مجنونةً ، أو جَذْماء ، أو بَرْصاء ، أو بها قَرْن ؛ فهى امرأتُه ، إن شاء أمسَك ، وإن شاء طَلّق .

قال ابن قُتَيبة : القَرْن بالتّسكين : العَفلة الصغيرة ؛ ومنه حديثُ شُريحٍ أنّه اختُصم إليه فى قَرْن بجارِيَةٍ ، فقال : أقعِدُوها فإن أصاب الأرضَ فهو عَيْب ، وإن لم يُصِب الأرض فليس بعيب .

***

ومنها قوله عليه السلام : لوَدَّ معاويةُ أنّه ما بقِىَ من بنى هاشم نافِخُ ضِرْمة إلّا طَعَن فى نِيطه .

قال ابن قتيبة : الضِّرْمة النار ؛ وما بالدار نافخُ ضِرْمة ، أى ما بها أحد .

قال : وقال أبو حاتم عن أبى زيد : طُعِنَ فلانٌ فى نِيطه أى فى جِنازته ، ومن ابتدأ فى شىء أو دَخَل فيه فقد طَعَن فيه ، قال : ويقال : النِّيط : الموْت ، رماه الله بالنِّيط ؛ قال : وقد روى «إلّا طُعِن» بضم الطاء ، وهذا الرّاوى يَذهَب إلى أن النّيط نِياط القَلْب ، وهى عَلاقَتُه التى يَتعلّق بها ، فإذا طُعِن إنسانٌ فى ذلك المكان مات .

***

ومنها قولُه عليه السلام : إنّ الله أوحَى إلى إبراهيمَ عليه السلام أنِ ابْنِ لى بيتاً فى الأرض ، فضاقَ بذلك ذَرْعا ، فأرسَل اللهُ إليه السّكِينة ، وهى رِيحٌ خَجُوج ، فتطوّقت[1] حولَ البَيْتِ كالحَجَفة .

وقال ابن قتيبة : الخَجُوج من الرّياح : السريعةُ المرور ؛ ويقال أيضا : خَجَوْجاء ، قال ابن أحمر :

(١) كذا فى ب ، وفى ا ، د : « تطوت » .

هَوْجاء رَعْبَلة الرَّواح خَجَوْ جاةُ الغُدُوّ رَواحُها شَهْرُ (١)

* * *

قال : وهذا مثلُ حديث عليٍّ عليه السلام الآخَر ، وهو أنّه قال : السَّكينة لها وجهٌ كوَجْه الإنسان ، وهي بعدُ ريحٌ هَفّافة ، أي خفيفةٌ سريعةٌ ، والحَجَفة : التُّرْس .

* * *

ومنها أنّ مُكاتبا لبعض بني أسَد، قال : جئتُ بنَقَدٍ أجلِبُه إلى الكوفة ، فانتهيْتُ به إلى الجِسْر ، فإنّي لأُسَرِّبُه عليه إذ أقبَل مولًى لبكْر بن وائل يتخلّل الغَنَم ليقطَعها ، فنفرَتْ نَقَدة ، فقطَّرت الرَّجُل في الفُرات ، فغرِق ، فأُخذت . فارتفعْنا إلى عليٍّ عليه السلام فقَصَصْنا عليه القِصّة ، فقال : انطلقوا فإن عرَفتم النَّقَدَة بعَيْنها فادفَعوها إليهم . وإن اختَلَطت عليكم فادفَعوا شَرْواها من الغَنَم إليهم .

قال ابن قُتيبة : النَّقَد : غَنَم صِغار ، الواحدةُ نَقَدة ؛ ومنه قولُهم في المَثَل : « أذلّ من النَّقَد » .

وقوله : « أُسَرِّبه » أي أُرْسِله قطعةً قطعةً . وشَرْواها: مثلها .

* * *

ومنها قولُه عليه السلام في ذِكر المَهْديّ من وَلَد الحسَين عليه السلام ، فقال : إنّه رجلٌ أجْلَى الجبين ، أقنَى الأنْف، ضَخْم البطْن ، أزْيَل الفَخِذين ، أفلَج الثّنايا ، بفَخِذه اليُمنَى شامة .

قال ابن قتيبة : الأجْلَى والأجْلَح شيء واحد ، والقَنا في الأنْف: طولُه ودِقّة أرْنَبته

---

(١) اللسان ٣ : ٧١ ، قال : « يصف الريح » .

وحَدَبٌ فى وَسَطِه . والأَزْبَل الفَخِذَين : المتباعدُ ما بينهما ، وهو كالأفْحَج؛ تَزَبّل الشىء ؛ أى انفرج ، والقَلَج : صُفرةٌ فى الأسْنان .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : إنّ بنى أُمَيّة لا يزالون يَطعُنون فى مَسجَل ضَلالة ، ولهم فى الأرض أَجَل حتى يُهَرِيقوا الدّم الحرامَ فى الشّهر الحَرَام ، واللهِ لكأنّى أنظرُ إلى غِرْنَوْق من قُرَيْش يتخبّط فى دَمِه ، فإذا فعلوا ذلك لم يَبقَ لهم فى الأرض عاذِر ، ولم يَبقَ لهم مُلك ، على وجهِ الأرض .

قال ابنُ قتيبة : هو من قولك : ركبَ فلانٌ مَسجَله ، إذا جَدّ فى أمرٍ هو فيه كلاماً كانَ أو غيرَه ، وهو من السّجْل وهو الصّبّ . والغِرْنوق : الشابّ .

قلت : والغِرْنوق القرَشىّ الذى قتلوه ، ثمّ انقضى أمرُهم عقيبَ قتلِه إبراهيم الإمام ، وقد اختلفت الرّواية فى كيفيّة قتله ، فقيل : قُتِل بالسّيف ؛ وقيل : خُنِق فى جِراب فيه نُورَة ، وحديث أميرِ المؤمنين عليه السلام يُسنِدُ الرّوايةَ الأولى .

* * *

ومنها ما رُوى أنّه اشترى قميصا بثلاثة دَرَاهم ثم قال: الحمدُ لله الذى هذا مِن رياشه .

قال ابنُ قتيبة :الرِّيش والرِّياش واحد ، وهو الكِسْوة ، قال عزّ وجل : ﴿ قَدْ أَنزَلْنا عليكم لِباساً يُوارِى سَوْآتِكم ورِيشا ﴾ ، وقُرِىء ﴿ ورِياشا ﴾ .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : لا قَوَد إلاّ بالأَسَل .

قال ابن قتيبة : هو ما أُرهِف وأُرِقّ من الحديد ، كالسِّنان والسيف والسكين ؛ ومنه قيل : أَسَلة الذِّراع لِما استدَقّ منه ، قال : وأكثرُ الناس على هذا المذهب

وقومٌ من الناس يقولون : قد يجوز أن القَوَد بغير الحديد كالحجر والعصا إن كان المقتول قُتل بغير ذلك .

* * *

ومنها أنه عليه السلام رأى رجلا فى الشمس، فقال : قُمْ عنها فإنها مَبْخَرة مَجْفَرة، تُتْفِل الرِّيح ، وتُبلى الثّوب ، وتُظهِر الدّاء الدّفِين .

قال ابنُ قتيبة : مَبخَرة: تُورِث البَخَر في الفَم . ومَجْفَرة: تقطع عن النّكاح وتُذهبُ شَهوة الجماع ، يقال جفر الفَحْل من الإبل، إذا أكثر الضِّراب حتى يملّ وينقطع ، ومثله قَذَرَ ، وتقذَّر ، قذوراً ، ومِثلُه أَقْطَعَ فهو مقطع .

وجاء فى الحديث أن عثمان بن مظعون قال : يا رسول الله ، إنى رجل تَشُقُّ علىّ العُزْبة فى المغازِى ، أفتأذن لى فى الخِصاء ؟ قال : لا ، ولكن عليك بالصَّوم فإنّه مُجْفِر .

قال : وقد رَوى عبدُ الرحمن عن الأصمعيّ عمّه، قال : تكلّم أعرابىّ فقال : لا تنكحنّ واحدة فتحيض إذا حاضت، وتمرض إذا مرضت، ولا تنكحنّ اثنتين فتكون بين ضَرّتين ولا تنكحن ثلاثاً فتكون بين أثافٍ ، ولا تنكِحَنّ أربعاً فيفلِسنك ويهرِمنك ويُنْحِلنك ويُجفِرنك فقيل له : لقد حرّمْتَ ما أحلّ الله ، فقال : سبحان الله ! كُوزان، وقُرصان، وطِمْران وعِبادة الرّحمن ، وقوله «تُتْفِل الريح» ، أى تُنْتِنُها ، والاسم التُّفْل ، ومنه الحديث «وليخرجنّ تفلات» . والداء الدّفين : المستتر الذى قد قهرَتْه الطّبيعة ، فالشمسُ تُعينهُ على الطّبيعة وتُظْهِره .

* * *

ومنها قوله عليه السلام وهو يذكر مسجد الكوفة فى زاويته : فارَ التنور ، وفيه هَلَكَ يَغُوث ويَعُوق ، وهو الفاروق ، ومنه يَستيِر جبلُ الأهواز، ووَسَطه على رَوْضةٍ من

رياضِ الجنّة ، وفيه ثلاثُ أعينٍ أنبتتْ بالضِّغثِ ، تذهبُ الرِّجس ، وتُطهِّرُ المؤمنين : عَيْن من لَبَن ، وعَيْن من دُهْن ، وعينٌ من ماء ، جانبهُ الأيمن ذِكْر ، وفي جانبه الأيسر مَكْر ، ولو يعلمُ الناسُ ما فيه من الفَضْل لأتَوْه ولو حَبْواً .

قال ابن قتيبة : قوله : « أنبتتْ بالضِّغث » أحسبهُ الضِّغثَ الذي ضرب أيّوب أهله . والعَين التي ظهرت لما رَكَض الماء برجله . قال : والباء في « بالضِّغث » زائدة ، تقديرُه : أنبتَت الضِّغْث ، كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدُّهن[1] ﴾ ، وكقوله : ﴿ يشرَبُ بها عباد الله[2] ﴾ .

وأما قوله : « في جانبه الأيمن ذِكْر » ، فإنّه يعني الصلاة . و« في جانبه الأيسر مَكْر » أراه أراد به المَكْرَ به حتى قُتِل عليه السلام في مسجد الكوفة .

***

ومنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا رافع مولاه يتلقى جعفرَ بنَ أبي طالب لمّا قدِم من الحبَشة ، فأعطاه عليٌّ عليه السلام حَتِيًّا وعُكّة سَمْن ، وقال له : أنا أعلم بجعفر أنّه إنْ علم ثَرّاه مرّة واحدة ثم أطعمَه ، فادفع هذا السَّمْن إلى أسماء بنتِ عُمَيس تَدْهنُ به بني أخي مِنْ صَمَر البَحْر ، وتُطعِمهم من الحَتِيّ .

قال ابن قتيبة : الحَتِيّ : سَوِيق يُتّخَذ من المُقْل ، قال الهذَليّ يذكُر أضيافه :

لا دَرَّ دَرِّيَ إنْ أطعَمْتُ نازِلَكُمْ قِرْفَ الحَتِيِّ وعِندِي البُرُّ مَكْنوزُ[3]

---

(١) سورة المؤمنين : ٢٠

(٢) سورة الدهر : ٦

وقوله : « ثرّاه مرّة » أى بلّه دفعة واحدة وأطعمه الناسَ ، والثرا : النّدَا . وصمر البحرِ نَتْنه وغمقُهُ ، ومنه قيل للدُّبُر الصُّمَارَى .

* * *

ومنها قوله عليه السلام يوم الشُّورَى لمـا تـكلّم : الحمد لله الذى اتّخذ محمدا منّا نبيا ، وابتَعثه إلينا رسولا ، فنحن أهلُ بيت النبوّة ، ومَعدن الحِـكْمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونَجاةٌ لمن طَلَب ، إنّ لنا حقّا إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نُمنَعه نركب أعجازَ الإبل ، وإن طالَ السُّرَى ، لو عَهد إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله عهداً لجالَدْنا عليه حتى نموت ، أو قال لنا قولا لأنفذنا قوله على رَغْمِنا . لن يُسرِع أحدٌ قبلى إلى صِلَةِ رَحِمٍ ودعوة حَقّ ، والأمرُ إليك يابن عوف على صِدْق النّية ، وجُهْد النُّصْح ؛ وأستغفرُ الله لى ولـكم .

قال ابنُ قتيبة : أى أن مَعْناه رَكِبنا مركب الضّيْم والذّل ، لأنّ راكب عجزُ البعير يجد مَشَقّة ، لا سيا إذا تطاول به الركوب على تلك الحال ، ويجوز أن يكون أراد : نصبر على أن نـكون أتْباعا لغَيْرِنا ، لأنّ راكب عجزُ البعير يكون رِدْفا لغيره .

* * *

ومنها قوله عليه السلام لمـا قَتَل ابنُ آدم أخاه: غمَصَ الله الخلْق ونقص الأشياء .

قال ابن قتيبة : يقال غمَصْتُ فلانا أغمِصه واغتمصتُه إذا استصغَرْته واحتقَرْته ، قال : ومعنى الحديث أنّ الله تعالى نقص الخلْق من عظم الأبْدان وطُولها من القوّة والبَطْش وطول العُمْر ونحو ذلك .

* * *

ومنها أنّ سلامة الـكندىّ قال : كان علىٌّ عليه السـلام يعلّمنا الصلاة على

رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيقول : اللهم داحيَ المدحُوّات ، وبارئ المَسْمُوكات ، وجبّارَ القلوب على فطراتها ، شقيّها وسعيدها ، اجعــــلْ شرائف صلواتِك ، ونوامىَ بركاتِك ، ورأفة تحيّاتك ، على محمد عبدِك ورسولك ، الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والمُعْلِنِ الحقّ بالحقّ ، والدامغ جيشات الأباطيـل ، كما حَمَّلْته فاضطَلَع بأمْرِك لطاعتِك ، مستوفزاً فى مَرْضاتك، لغير نُكُلٍ فى قِدَم ، ولا وَهَن فى عَزْم، داعيا لوحْيك ، حافظا لِعَهْدِك ، ماضيا على نفاذِ أمرك ، حتى أورَى قَبَسا لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه به ، هديت القلوب بعد خَوْضات الفتن والإثم ، موضحات الأعلام ، ونائرات الأحكام ، ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازِنُ عِلْمك المخزون ، وشهيدُك يوم الدِّين ، وبعيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم أفسح له مفسحاً فى عَدْلك ، واجْزه مضاعَفاتِ الخير من فضلك ، مهنّآتٍ غير مكدَّرات ، من فَوْزِ ثوابك المحلول ، وجَزْل عطائك المَعلول ، اللهم أعلِ على بناء البانين بناءه ، وأكرِم مثواهُ لديك ونُزُله وأتمم له نورَه ، واجزِه من ابتعاثِك له مقبول الشهادة ، مَرْضيَّ المقالة ، ذا منطق عَدْل ، وخُطّة فصل ، وبرهان عظيم .

قال ابن قتيبة : داحى المدحوّات ، أى باسط الأرَضين ، وكان الله تعالى خلقها رَبْوة ثم بَسطها ، قال سبحانه ﴿ والأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها ﴾(١) ؛ وكلّ شيء بسطته فقد دَحَوْته ومنه قيل لموضع بَيْض النَّعامة أُدْحِيّ ، لأنها تَدْحُوه للبيض أى تُوسِّعه ، ووَزْنُه أفعول .

وبارئ المسْمُوكات: خالق السموات . وكلّ شيء رفعته وأعليته فقد سَمَكْته ، وسَمْك البيت والحائط ارتفاعُه ، قال الفرزْدَق :

إنّ الذى سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا ... بيتــاً دعائمُه أعزُّ وأطوَلُ

---

(١) سورة النازعات ٣٠

وقوله : جبّار القــلوب على فِطرَاتها . من قولك جَبَرْت العَظْم فجُبِر إذا كان مَـكْسورا فلأَمْتَه وأقمْتَه ، كأنّه أقامَ القلوب وأثبتها على مافَطَرها عليه من معرفته والإقرار به ، شقيّها وسعيدها ، قال : ولم أجعلْ جبّارا هاهنا ، من أجبرتُ فلاناً على الأمر إذا أدخلتَه فيه كرْها ، وقسَرْته ، لأنّه لا يقال من أفعل فعّال ، لا أعلم ذلك إلا أنّ بعض القرّاء قرأ ﴿ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَّاد ﴾ (١) بتشديد الشين ، وقال: الرشّاد الله ، فهذا فعال من أفعل ، وهى قراءة شاذّة ، غيرُ مستعمَلة ، فأمّا قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّار ﴾ (٢) فإنه أراد وما أنتَ عليهم بمسلّط تسليط الملوك . والجبابِرة: الملوك ، واعتبار ذلك قولُه : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر ﴾ (٣) أى بمُتسلّط تسلُّط الملوك ، فإن كان يجوز أن يقال من أجبرتُ فلانا على الأمر أنا جبّارٌ له ، وكان هــذا محفوظا ، فقد يجوز أن يُجعل قولُ عليٍّ عليـه السلام : جبّار القلوب من ذلك ، وهو أحسَنُ فى المعنى .

وقوله : « الدامغ جَيْشات الأباطيل» ، أى مُهلِك ما نَجَم وارتفع من الأباطيل ، وأصل الدّمْغ من الدّماغ ، كأنّه الذى يَضرِب وَسَط الرأسِ فيَدْمَغُهُ أى يصيب الدّماغَ منه . ومنــه قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُه ﴾ (٤) أى يُبطِله والدّماغ مَقتَل ، فإذا أصيبَ هَلَكَ صاحبُه .

وجَيْشــات: مأخوذٌ من جاشَ الشىء أى ارتفَع ، وجاش الماء إذا طَمى ، وجاشَت النفسُ .

وقولُه : « كما حمل فاضطَلَع » افتعَل مِن الضّلاعة وهى القوّة .

---

(١) سورة المؤمنين : ٣٨
(٢) سورة ق : ٤٥ .
(٣) سورة الغاشية : ٢٢
(٤) الأنبياء : ١٨

وقوله : « لغيرِ نُكُلٍ فى قِدَم » ، النُّكْل: مَصدَر وهو النُّكول ، يقال : نَكَل فلانٌ عن الأمر يَنكُل نُكولًا ، فهذا المشهورُ ونَكِل بالكسر يَنكل نُكْلا قليلة .

والقِدَم : التقدّم، قال أبو زيد :رجلٌ مِقْدام إذا كان شجاعا ، فالقدم يجوزُ أن يكون بمعنى التقدّم ، وبمعني المتقدِّم .

قوله : « ولا وَهْن فى عَزْم » ، أى ولا ضَعف فى رأى .

وقوله : «حتّى أورى قَبساً لقابِس » ، أى أظهر نورا من الحقّ ، يقال : أوْرَيْتُ النارَ إذا قدَحْتَ ماظهر بها ، قال سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (١) .

وقوله : « آلاء الله تصلُ بأهلِه أسبابه » ، يريد نِعَم الله تَصِل بأهلِ ذلك القَبَس ، وهو الإسلام والحقّ سبحانه أسبابه وأهله ، المؤمنون به .

قلتُ : تقديرُ الكلام حتّى أورى قبساً لِقابس : تَصِل أسبابُ ذلك القَبَس آلاء الله ونِعَمُه بأهلِ المؤمنين به . وأعلم أنّ اللام فى « لغير نُكْل» متعلّقةٌ بقوله :«مستوفزا » ، أى هو مُستوفِزٌ لغير نُكول ، بل للخوف منك ، والخضوع لك .

قال ابنُ قُتَيبة : قولُه عليه السلام : « به هُدِيَت القلوب بعدَ الكفر ، والفِتَن مُوضحات الأعلام » ، أى هديته لمُوضِحات الأعلام؛ يقال هَدَيتَ الطريقَ وللطّريق وإلى الطريق .

وقوله : «نائرات الأحكام ، ومُنِيرات الإسلام ، يريد الواضحات البيّنات ، يقال : نار الشيء وأنارَ ، إذا وَضَح .

وقوله : « شَهيدك يومَ الدّين » ، أى الشاهد على النّاس يومَ القيامة . وبَعِيثُك رَحْمة ، أى مَبعُوثُك ، فَعِيل فى معنى مَفْعول .

---

(١) سورة الواقعة : ٧١

وقوله : « افسَح له مَفسَحا » ؛ أي أوسِع له سَعةً ؛ ورُوِي « مُفْتسحا » بالتاء .

قوله : « فى عَدْلِك » أى فى دارعدلك ، يَعْنى يومَ القيامة ، ومن رواه « عَدْنِك » بالنون ، أراد جَنّةَ عَدْن .

وقوله : « من جَزْل عَطائك المَعْلول » ، من العَلَل ، وهو الشُّرْب بعد الشُّرْب ، فالشُّرْب الأوّل نَهَل ، والثانى عَلَل ، يريد أنّ عَطاءه عزّ وجلّ مُضاعَف ، كأنّه يَعُلّ عِبادَه ، أى يُعطِيهم عَطاء بعد عَطاء .

وقوله : « أعْلِ على بناء البانين بِناه » ، أى ارْفَعْ فوقَ أعمالِ العاملين عَمَلَه . وأكْرِم مَثْواه ، أى مَنزِلتَه ، من قولِك : ثوَيْت بالمكان أى نزَلته وأقمْت به ، ونُزُله : رزقه .

ونحن قد ذكَرْنا بعضَ هذه الكلمات فيما تقدّم على رواية الرّضيّ رحمه الله وهى مخالِفةٌ لهذه الرواية ، وشرحنا ما رَواه الرّضيّ ، وذَكَرْنا الآن ما رواه ابنُ قُتَيْبة وشرَحَه لأنّه لا يخلو من فائدة جديدة .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « خُذِ الحِكمةَ أنَّى أتتْك » ، فإنّ الكلمةَ من الحكمة تكونُ فى صدر المنافق فتَلَجْلَجُ فى صَدْرِه حتّى تَسكُن إلى صاحبِها .

قال ابن قتيبة : يريدُ الكلمةَ قد يَعلَمها المنافقُ فلا تزال تتحرّك فى صَدْرِه ولا تَسكُن حتّى يَسمَعَها منه المؤمنُ أو العالِم فيَعِيها ويَثْقَفُها ويَفْقهها منه ، فتَسكُن فى صَدْره إلى أخواتها من كَلِم الحِكْمة .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : البيتُ المَعمور نِتاقُ الكَعْبة من فوقِها .

قال ابنُ قُتَيبة : نِتاقُ الكَعْبة ، أى مُظِلّ عليها من فوقِها ، من قولِ الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾(١) ، أى زُعزِع فأظلّ عليهم .

***

ومنها قوله عليه السلام : «أنا قَسيم النار» ، قال ابن قُتَيبة : أراد أنّ الناسَ فريقان ! فريقٌ معى فهم على هُدًى ، وفريقٌ علىّ فهمْ على ضَلالة ، كالخوارِج ، ولم يَجسُر ابن قُتيبة أن يقول : « وكأهل الشام» يتورّع بزعم ، ثمّ إن الله أنطَقَه بما تورّع عن ذِكْرِه، فقال متمّما للكلام بقوله : فأنا قَسِيم النّار ، نصفٌ فى الجنّة معى ، ونصفٌ فى النار ؛ قال : وقَسِيم فى معنى مُقاسِم ، مثل جَلِيس وأكِيل وشَرِيب .

قلت : قد ذكر أبو عُبَيد الهَرَوىّ هذه الكلمة فى الجمع بين الغَرِيبَيْن ؛ قال : وقال قوم : إنّه لم يُرِد ما ذكره ، وإنّما أراد : هو قَسِيم النّار والجنّة يوم القيامة حقيقة، يقسم الأمّة ، فيقولُ : هذا للجنّة ، وهذا للنار .

***

(١) سورة الأعراف : ١٧١

[خطبة منسوبة للإمام علىّ خالية من حرف الألف]

وأنا الآن أذكُرُ من كلامِهِ الغريب مالم يُورِدْه أبو عُبيد وابنُ قُتَيبة فى كلامهما وأشرَحُه أيضا ، وهى خُطْبَةٌ رَواها كثيرٌ من الناس له عليه السلام خاليَةٌ من حَرْف الألف ؛ قالوا : تذاكر (1) قوم من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله : أىُّ حروف الهجاء أدخَل فى الـكلامِ ؟ فأجمعوا على الألف ، فقال علىٌّ عليه السلام :

حَمِدْتُ مَنْ عظُمت مِنّته ، وسَبَقَت نعمتُه ، وسبقَت غضبَه رحمتُه ، وتمّت كلمتُه ، ونفذَتْ مشيئتُه ، وبلغت قضيتُه ؛ حَمِدْته حَمْد مُقِرّ بِرُبوبيته ، متخضّعٍ لعبوديّته ، متنصّلٍ مِنْ خطيئتِهِ ، متفرّدٍ بتوحيدِهِ ، مؤمّلٍ منه مغفرةً تُنْجيهِ ، يومَ يُشْغَلُ عن فصيلتِهِ وبنيهِ .

ونستعينُهُ ونسترشدُهُ ونستهديه ، ونُؤمِنُ بِهِ ونتوكّلُ عليه ، وشهدْتُ له شهودَ مُخْلِصٍ موقِنٍ ، وفرّدْتُهُ تفريدَ مُؤْمِنٍ مُتيقّنٍ ، ووحّدْتُهُ توحيدَ عبدٍ مذعِنٍ ، ليس له شريكٌ فى مُلْـكِهِ ، ولم يكن له ولِيٌّ فى صنعِهِ ، جَلّ عن مشيرٍ ووزيرٍ ، وعن عونٍ مُعينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ .

عَلِمَ فستر ، وبَطَن فخَبَرَ ، وملكَ فقهرَ ، وعُصىَ فغفر ، وحَـكَمَ فعدلَ ، لم يزلْ ولن يزولَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ (2) ، وهو بعد كلّ شىء ربٌّ متعزّزٌ بعزّتِهِ ، متمكّنٌ بقُوّتِهِ ، متقدّسٌ بعلوّه ، متـكبّرٌ بسموّهِ ، ليس يدركُهُ بصرٌ ، ولم يُحِطْ به نظرٌ ، قوىٌّ منيعٌ ، بصيرٌ سميعٌ ، رءوفٌ رحيمٌ .

عَجَزَ عن وصفِهِ من يصفُهُ ، وضلّ عن نعته من يعرفه .

---

(1) فى الأصل : « يذاكر » ؛ تصحيف .

(2) سورة الشورى : ١١

قَرُبَ فبعُدَ ، وبعُد فقرُب ، يُجيبُ دعوةَ من يدعوه ، ويرزقُهُ ويحبوه ، ذو لطف خَفِيٍّ ، وبطشٍ قويٍّ ، ورحمةٍ مُوسَعةٍ ، وعقوبةٍ موجِعةٍ ، رحْمَتُهُ جنة عريضة مونقةٌ ، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ .

وشهِدْتُ ببعث محمدٍ رسولِهِ ، وعبدِهِ وصفيِّهِ ، ونبيِّهِ ونجيِّه ، وحبيبِهِ وخليلِهِ ، بعثه في خيرِ عصرٍ ، وحين فترةٍ وكفرٍ ، رحمةً لعبيدِهِ ، ومِنَّةً لمزيدِهِ ، ختم به نبوّته ، وشيَّدَ به حجّته ، فوعظ ونصح ، وبلغ وكدح ، رءوفٌ بكلِّ مُؤْمنٍ ، رحيمٌ سخيٌّ ، رضيٌّ وليٌّ زكيٌّ ، عليه رحْمةٌ وتسليمٌ ، وبركةٌ وتكريمٌ ، مِنْ ربٍّ غفورٍ رحيمٍ ، قريبٍ مُجيب .

وَصيّتكُمْ معشرَ منْ حضرَنِي بوصيّةِ ربِّكُمْ ، وذكّرتكُمْ بسنّةِ نبيِّكُمْ ، فعليكم برَهْبَةٍ تَسْكُنُ قلوبَكم ، وخشيةٍ تذْرِي دُمُوعكم ، وتقيَّةٍ تنجيكُمْ قَبْل يومٍ تُبليكم وتذهِلكم ، يوْم يفوزُ فِيهِ منْ ثقلَ وزنُ حسنتهِ ، وخفَّ وزنُ سيئته ، ولتكُنْ مسألتكم وتملّقُكُمْ مسألة ذلٍّ وخضوعٍ ، وشكرٍ وخشوعٍ ، بتوْبةٍ وتورُّع ، وندمٍ ورجُوعٍ ، وليغتنمْ كلُّ مُغتنِمٍ منكُمْ صحّتَهُ قبل سقمه ، وشبيبتِه قبل هرَمِهِ ، وسعتَهُ قبلَ فقْرِهِ ، وفرْغتَهُ قبل شُغله ، وحضَرَه قبل سفره . قبلَ تكبُّرٍ وتهرُّمٍ وتسقُّمٍ ، يملُّهُ طبيبُهُ ، ويعرِضُ عنْهُ حبيبُهُ ويتقطعُ عُمُدُهُ ، ويتغيّرُ عقلُهُ ، ثم قِيلَ : هُوَ موعُوكٌ ، وجسمُهُ منهُوكٌ ، ثمّ جُدَّ في نزْعٍ شديدٍ ، وحضرَهُ كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، فشخصَ بصرُهُ ، وطمِحَ نظرُهُ ، ورشَحَ جبينُهُ ، وعطفَ عرينُهُ ، وسكَنَ حَنينُهُ ، وحزَنتْهُ نفسهُ ، وبكتْهُ عِرْسُهُ ، وحُفِرَ رَمْسُهُ ، ويتِّمَ منْهُ ولَدُهُ ، وتفرّقَ منْهُ عددُهُ ، وقُسِمَ جَمْعُهُ ، وذهبَ بصرُهُ وسَمْعُهُ ، ومُدِّدَ وجُرِّدَ ، وعُرِّيَ وغُسِّلَ ، ونُشِّفَ وسُجِّيَ ، وبُسِطَ لهُ وهُيِّئَ ، ونُشِرَ عليهِ كفنُهُ ، وشُدَّ منهُ ذقنُهُ ، وقُمِّصَ وعُمِّمَ ، ووُدِّعَ وسلِّمَ ، وحُمِلَ فوْقَ سريرٍ ، وصُلِّيَ عليهِ بتكْبيرٍ ، ونُقِلَ مِنْ دُورٍ مُزخرفةٍ ، وقُصُورٍ مُشيَّدةٍ ، وحُجَرٍ مُنجَّدةٍ ، وجُعِلَ في ضريحٍ ملْحُودٍ

وضيقِ مرصُودٍ ، بلَبِنٍ منضُودٍ ، مُسقّفٍ بجُلمُودٍ ، وهيلَ عليهِ حفرُهُ ، وحُثِيَ عليهِ مدَرُهُ ، وتحققَ حِذْرُهُ ، ونُسِيَ خبرُهُ ، ورَجَعَ عنهُ وليُّهُ وصفيّه ، ونديمُهُ ونَسيبه ، وتبدَّل بهِ قرينه وحبيبُهُ ، فهو حشو قبرٍ ، ورهينُ قفرٍ ، يسعى بجسمه دُود قبرِهِ ، ويسيل صديدهُ مِنْ مَنْخِرِهِ ، يسحقُ تُرْبُهُ لحمَهُ ، وينشفُ دَمَهُ ، ويَرُمّ عظمَهُ حتَّى يوْم حشرِهِ ، فنشرَ مِنْ قَبْرِهِ حِينَ ينفخُ فى صُورٍ ، ويُدْعَى بحشْرٍ ونشُورٍ .

فثمَّ بعثرتْ قبُور ، وحُصِّلَتْ سريرَةُ صُدُورٍ ، وَجِيءَ بكلِّ نبيٍّ وصدّيقٍ وشهيدٍ ، وتوحَّد لِلفَصْلِ قديرٌ بعبدِهِ خبيرٌ بصير ، فكَمْ مِنْ زَفْرَة تُضْنيهِ ، وحسرةٍ تنضيهِ ، فى مَوْقفٍ مَهُولٍ ، ومشْهدٍ جَليلٍ ، بَيْنَ يَدَىْ ملكٍ عظيمٍ ، وبكلِّ صغيرٍ وكبيرٍ عَليمٍ ، فحينئذٍ يُلجِمُهُ عرَقُهُ ، ويُحصِرُهُ قلقهُ ، عبْرتُهُ غير مرحومةٍ ، وصرْختُه غيرُ مسموعة ، وحجتُهُ غيرُ مقبولة ، زالتْ جريدته ، ونشرَتْ صحيفتهُ ؛ نظرَ فى سوءِ عملِهِ ، وشهدتْ عليهِ عينه بنظره ، ويدهُ ببطشِهِ ، ورجلُهُ بخطْوِه ، وفرْجهُ بلمسِهِ ، وجلدُه بمسِّهِ ، فسلسِلَ جيدُه ، وغُلَّتْ يده ، وسيقَ فسحب وحْدَه ، فورَد جهنّمَ بكرْبٍ وشدَّةٍ ، فظلَّ يعذَّبُ فى جحيمٍ ، ويُسْقى شَرْبَةً مِنْ حَميمٍ ، تَشْوى وجهَهُ ، وتسلخُ جلْدَهُ ، وتضربهُ زبنِيَةٌ بمقمعٍ مِنْ حَدِيدٍ ، ويعودُ جلده بعْدَ نُضْجه كجلْدٍ جديدٍ ، يستغيثُ فتعرض عنهُ خزنةُ جهنَّمَ ، ويستصْرِخُ فيلبث حقبةً يندَمُ .

نعوذُ بربٍّ قديرٍ ، منْ شرِّ كلِّ مصيرٍ ، ونسْأله عفو مَنْ رَضيَ عنهُ ، ومغفرة مَنْ قبله ، فهوَ وليُّ مسألتى ، ومُنجحُ طلبتى ، فمنْ زُحْزِحَ عنْ تعذيب رَبِّهِ جُعِلَ فى جنّتهِ بقُرْبِهِ ، وخلد فى قصورٍ مُشيَّدة ، ومُلِّكَ بحورٍ عينٍ وحفدةٍ ، وطِيفَ عليهِ بكئوسٍ ، أُسْكِنَ فى حظيرَةَ قدُوس ، وتقلَّبَ فى نعيمٍ ، وسُقِيَ مِنْ تسنيمٍ ، وشرب مِنْ عيْنٍ سَلْسَبيلٍ ، ومُزِجَ له بزنجبيلٍ ، مُختَّمٍ بمسكٍ ، وعبيرٍ مُستديمٍ لِلملكِ ، مُستشعرٍ لِلسُّرُرِ ، يشربُ مِنْ خمُورٍ ، فى روْضٍ مُغدقٍ ، لَيْسَ يُصدَّعُ مَنْ شَرِبَهُ ، ولَيْسَ يُنزَفُ .

هَـذِهِ منزلةُ مَنْ خشيَ ربَّهُ، وحذّر نفسَهُ معصيته، وتلكَ عقوبةُ مَنْ جحَد مشيئتهُ، وسوَّلتْ له نفسهُ معصيتهُ، فهو قولٌ فصلٌ، وحُكم عـدلٌ، وخبرٌ قصص قصٌّ، ووَعْظ نَصٌّ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] نَزَلَ بهِ رُوحُ قُدُسٍ مُبين، عَلَى قَلْبِ نبيٍّ مُهتدٍ رَشيدٍ، صلّتْ عليهِ رُسُلٌ سفرَةٌ، مُكرَّمُونَ بررَةٌ، عُذتُ بربٍّ عليمٍ، رحيمٍ كريمٍ، مِنْ شَرِّ كلِّ عدوٍّ لَعينٍ رَجيمٍ، فليتضرّعْ مُتضرّعكم، وليبتهلْ مُبتهلُكمْ، وليستغفرْ كلُّ مرْبوبٍ منكُمْ لي ولـكم، وحسبي ربِّي وحدَهُ.

***

الشَّرح :

فصيلةُ الرجل : رهطُه الادْنَوْن . وكَدح : سعى سعياً فيه تعب، وفرْغتهُ : الواحدةُ من الفَراغ، تقول : فرَغْت فرْغةً، كقولك : ضربتُ ضربةً . وسجّى الميّتَ : بسط عليه رداء . ونَشَر الميّت من قبرِه بفتح النون والشين، وأنشرَه اللهُ تعالى .

و بُعثِرت قبور : انتثرتْ و نُبِشَتْ .

قوله : « وسيق بسحب وحدَه » ، لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسّي بغيره، فكان أخفَّ لألمه وعذابه، و إذا كان وحده كان أشدَّ ألماً وأهوَل، و[illegible] «فسيق [illegible] سحب وحدَه» ، وهذا أقرب إلى تناسُب الفقْرتين، وذاك أفخم معنًى.

وزِبْنية على وَزْن « عِفْرِية » واحد الزَّبانية، وهم عند العرب الشرط، وسُمّيَ بذا[illegible] بعض الملائكة لدَفْعهم أهل النار إليها كما يَفعل الشّرط في الدُّنيا، ومن أهل اللّغة من يجعل واحد الزَّبانية زبانيّ . وقال بعضهم: زَابن، ومنهم من قال : هو جمع لا واحدَ له، نحو أبابيل وعبادِيد، وأصل الزّبْن في اللّغة الدَّفْع، ومنه ناقةٌ زَبُون : تضرب حالبها وتدفعه .

(١) سورة فصلت : ٤٢

وتقول : مَلَكَ زيدٌ بفلانةَ بغير ، ألف والباء هاهنا زائدة كما زيدت فى « كَفَى بالله حسيبا » ، وإنما حَكمنا بزيادتها لأنّ العَرَب تقول: ملكتُ أنا فلانةَ أى تزوّجتها وأملكْتُ فلانةَ بزيدٍ أى زوّجتُها به ، فلمّا جاءت الباء هاهنا ولم يكن بُدٌّ من إثبات الألف لأجلِ مجيئها جعلناها زائدة ، وصار تقديرُه : ومَلَكَ حُوراً عينا .

وقال المفسِّرون فى تَسْنيم : إنه اسمُ ماء فى الجنة ، سُمّى بذلك لأنّه يجرى من فوق الغُرَف والقُصور .

وقالوا فى سلسبيل : إنه اسمُ عَيْنٍ فى الجنة ليس يُنزِف ولا يُخَمِّرُ كما يُخَمِر شارب الخمْر فى الدنيا .

***

انقضَى هذا الفصلُ ، ثُم رَجعنا إلى سَنَن الغرَضِ الأوّلِ .

(٢٦٧)

الأصْلُ :

وقالَ عليه السلامُ ، لَمّا بَلغهُ إغارَةُ أصْحابِ معاوِيةَ على الأنْبار ، فخرجَ بنفْسِهِ ماشِياً حتى أتَى النُّخَيلَةَ ، وأدْرَكَهُ النَّاسُ وقالُوا : يا أمير المُؤمنين ، نحن نَكْفِيكَهم ْ فَقال عليه السَّلام :

وَاللهِ مَا تَكْفُونَنِي أنفُسَكُمْ ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ ! إنْ كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا ، فَإنِّي ٱلْيَوْمَ لأشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي ، كَأنَّنِي ٱلْمَقُودُ وَهُمُ ٱلْقَادَةُ ، أوِ ٱلْمَوْزُوعُ وَهُمُ ٱلْوَزَعَةُ .

قال : فلمّا قال هذا القول فى كلام طويل قد ذكرْنا مُختارَهُ فى جملةِ الْخطَب ، تقدَّم إلَيْهِ رَجُلانِ من أصحابه ؛ فقال أحدهما : ﴿ إنِّى لَا أمْلِكُ إلَّا نَفْسِي وَأخِي ﴾[1] ، فَمُرْنَا بِأمْرِكَ يَا أمِيرَ ٱلْمُؤمِنِينَ نُنَفِّذْ[2] ، فقال : وَأيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ !

***

الشَّرْحُ :

السَّنن : الطريقة ، يقال : تَنحَّ عن السَّنَن ، أى عن وَجْه الطّريق . والنُّخَيلة : بظاهر الكُوفة ، ورُوِى « ماتَكْفُونى » بحذف النون .

والحَيْف : الظلم .

والوَزَعة : جمع وازِع ، وهو الدافع الكافّ .

ومعنى قوله : « ماتكفُونني أنفسَكم » ، أى أفعالُكم رديئة قبيحة تحتاجُ إلى جند غيركم

(١) سورة المائدة : ٢٥ (٢) فى الأصل : « نَنْفُذ » ، تصحيف .

أستعين بهمْ على تثقيفِكم وتهذيبكم ، فَمَنْ هذه حاله كيف أثقّفُ به غيرَه ، وأهذّبُ به سواه !

وإن كانت الرعايا : إنْ هاهنا مخففّة من الثقيلة ، ولذلك دَخَلت اللام فى جوابها.

وقد تقدّم ذكرُنا هذين الرّجلين ، وإن أحدَهما قال : ياأمير المؤمنين ؛ أقول لكَ ماقاله العبْد الصالح : (ربِّ إنّى لاأملِكُ إلاّ نفسى وأخِى)[1]. فشكر لهما وقال : وأين تقعان ممّا أريد !

(١) سورة المائدة ٢٥ .

الأصل :

وَقِيلَ : إِنَّ الْحَارِثَ بنَ حَوْطٍ أَتَى عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُ : أَتُرَانِي أَظُنُّ أَنَّ أَصْحَابَ الْجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

يَاحَارِ ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ ، فَحِرْتَ ؛ إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ ؛ وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ .

فَقَالَ الْحَارِثُ :

فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

إِنَّ سَعْداً وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ ، وَلَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ .

***

الشرح :

اللفظة التي وردتْ قبلُ أحسنُ من هذه اللفظة، وهي أولئك قومٌ خذلوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل ، وتلك كانت حالُهم ، فإنّهم خذلوا عليًا ولم ينصُروا مُعاويةَ ولا أصحابَ الجَمَل .

فأمّا هذه اللفظة ففيها إشكالٌ ؛ لأنّ سعدا وعبد الله لَعَمْرِي إنهما لم ينصُرا الحقَّ ، وهو جانبُ عليٍّ عليه السلام ، لكنّهما خذَلا الباطلَ ، وهو جانبُ معاويةَ وأصحاب الجَمَل ، فإنّهم لم ينصُروهم في حَرْب قطّ ، لا بأنفسهم ولا بأموالهم ولا بأولادهم ، فينبغي

أن نتأوّل كلامَه فنقول : إنّه ليس يَعنِي بالخِذْلان عـدمَ المُساعَدة فى الحرب ، بل يَعنِي بالخِذْلان هاهنا كلَّ ما أثّر فى مَحق الباطلِ وإزالتِه ، قال الشاعر يصف فَرَسا :

وهو كالدَّلوِ بـكفِّ المُستَقِي　　خذلتْ عنـــه العَراقِ فانجذَمْ

أى بايَنَتْه العَراقِ ، فلمّا كان كلُّ مؤثِّر فى إزالة شىء مُبايناً له نقل اللّفظ بالاشتراك فى الأمر العامّ إليه ، ولمّا كان سعدٌ وعبدُ الله لم يَقُوما خَطيبَين فى النّاس يُعلِّمانهم باطلَ معاويةَ وأصحاب الجمل ، ولم يَـكشِفا اللَّبس والشُّبْهة الداخلَة على الناس فى حَرْب هذين الفَريقين ، ولم يُوضّحا وجوبَ طاعة علىٍّ عليه السلام فيردَّ النـاسَ عن اتّباع صاحبِ الجَمَل وأهل الشام صدق عليهما أنّهما لم يَخذُلا الباطلَ . ويُمكن أن يتأوّل على وجهٍ آخَر ، وذلك أنّه قد جاء خذلت الوحشيّة إذا قامَتْ على ولدِها ، فيـكون معنَى قوله : «ولم يَخذُلا الباطل» ، أى لم يَقِيا عليه ويَنصُراه ، فترجـع هذه اللّفظة إلى اللّفظة الأولى ، وهى قوله : « أولئك قوم خذلوا الحقّ ولم يَنصُروا الباطلَ » .

والحارث بن حَوط بالحاء المهملة . ويقال : إنّ الموجود فى خَطّ الرضىّ « ابن خَوط » بالخاء المعجمة المضمومة .

الأصل :

صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ .

***

الشرح :

قد جاء في صُحْبة السّلطان أمثال حِكَميّة مستحسنة تُناسِب هذا المعنى ، أو تجري مَجْراه في شَرْح حالِ السلطان ، نحو قولِهم : صاحب السُّلطان كراكبِ الأسَد يهابُه الناس ، وهو لمرْكُوبه أهْيَب .

وكان يقال : إذا صَحِبْتَ السلطانَ فلتكنْ مُدَارَاتُك له مُداراةَ المرأةِ القبيحةِ لبَعْلِها المُبغِض لها ، فإنّها لا تدَعِ التصنُّع له على حالٍ .

قيل للعَتّابيّ : لِمَ لا تقصِد الأميرَ ؟ قال : لأنّي أراه يُعطِي واحداً لغيرِ حَسَنة ولا يَدٍ ، ويَقتُل آخرَ بلا سَيّئةٍ ولا ذَنْب ، ولستُ أدرِي أيَّ الرّجُلين أكون ! ولا أرجو منه مقدارَ ماأُخاطِر به .

وكان يقال : العاقل مَن طَلَب السلامةَ مِن عَمَل السلطان ، لأنّه إن عَفّ جَنَى عليه العَفاف عداوةَ الخاصّة ، وإن بَسَط يدَه جَنَى عليه البَسْط ألسِنَة الرّعيّة .

وكان سعيدُ بنُ حُمَيد يقول : عمل السّلطان كالحمّام ، الخارجُ يُؤْثِر الدُّخول ، والدّاخل يُؤْثِر الخرُوج .

ابن المقفّع : إقبالُ السّلطان على أصحابِه تَعَب ، وإعراضُه عنهم مَذَلّة .

وقال آخر : السلطان إنْ أرضَيْتَه أتعبَك ، وإنْ أغضبته أعطَبَك .

وكان يقال : إذا كنتَ مع السلطان فكُنْ حَذِرا منه عند تقريبه ، كاتمًا لِسرّه إذا استَسَرّك ، وأمينا على ما ائتَمنك، تشكُر له ولا تكلِّفه الشُّكر لك ، وتعلّمه وكأنك تتعلّم منه ، وتؤدِّبه وكأنّه يؤدِّبُك ، بصيراً بهواه ، مؤثرا لمَنفعته ، ذليلاً إنْ ضامَك ، راضياً إن أعطاكَ ، قانعا إنْ حرَمك ، وإلّا فأبعدْ منه كلّ البُعْد .

وقيل لبعضِ مَن يَخدُم السلطانَ : لا تَصحَبْهم ، فإنّ مَثَلهم مَثَل قِدْر التنُّور ، كلّما مسّه الإنسانُ اسودّ منه ،فقال : إن كان خارجِ تلك القِدْر أسوَد فداخِلُها أبيَض .

وكان يقال : أفضَل ماعُوشِر به المُلوك قِلّة الخِلاف ، وتخفيف المئونة .

وكان يقال : لا يَقدِر على صُحْبة السّلطان إلا من يستقلّ بما حَمّلوه ، ولا يُلحِف إذا سألَهم ، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه ، ولا يتغيّر لهم إذا سَخِطوا عليه ، ولا يَطغَى إذا سَلّطوه ، ولا يَبطَر إذا أكرَموه .

وكان يقال : إذا جعلكَ السلطانُ أخاً فاجعله ربّا ، وإن زادكَ فزِدْه .

وقال أبو حازم : للسُّلطان كُحْل يَكحَل به مَنْ يُولّيه، فلا يُبصِر حتّى يُعزَل .

وكان يقال : لا يَنبغِي لصاحب السّلطان أن يبتدئَه بالمسألة عن حاله ، فإنّ ذلك من كلام النّوْكَى (١) وإذا أردت أن تقولَ : كيف أصبحَ الأمير ؟ فقل : صَبّح اللهُ الأميرَ بالكرامة ، وإن أردتَ أن تقول : كيف يَجِد الأميرُ نفسه ، فقل : وَهَب اللهُ الأمير العافية ؛ ونحو هذا ، فإنّ المسألة تُوجِب الجواب ، فإن لم يُجِبْك اشتدّ عليك ، وإن أجابك اشتدّ عليه .

وكان يقال : صُحبةُ المُلوكِ بغير أدب كركوب الفلاةِ بغيرِ ماء .

---

(١) النوكى : الحمق

وكان يقال : ينبغى لمن صَحِب السلطانَ أن يستعدَّ للعُذْرِ عن ذَنْبٍ لم يَجْنِه، وأن يكون آنسَ ما يكونُ به ، أوحشَ ما يكونُ منه .

وكان يقال : شِدّة الأنقباضِ من السّلطان تُورِث التّهمة ، وسُهولة الأنبساط إليه تُورِث المَلالة .

وكان يقال : اصحَب السلطانَ بإعمالِ الحَذَر ، ورَفْض الدّالّة ، والاجتهاد فى النّصيحة ، وليَكُن رأس مالِكَ عندَه ثلاث: الرّضا ، والصبر ، والصّدْق .

واعلمْ أنّ لكل شىء حدّا ، فما جاوزَه كان سَرَفا ، وما قَصّر عنه كان عَجْزا ، فلا تَبلُغ بك نصيحةُ السّلطان أن تُعادِىَ حاشيتَه خاصّتَه وأهلَه، فإنّ ذلك ليس من حقه عليك ، وليكُن أقضى لحقّه عنك ، وأدعَى لاستمرارِ السّلامة لك ؛ أن تَستصلح أولئك جُهدَك ، فإنّك إذا فعلتَ ذلك شكرتَ نعمتَه ، وأمِنتَ سطوتَه ، وقلّلت عدوّك عندَه ، وإذا جاريتَ عند السلطان كُفؤا من أكفائك فلتكنْ مُجاراتُك ومُباراتُك إيّاه بالحجّة ، وإن عَضهك [1] ، وبالرّفق وإن خَرِف بك . واحذر أن يستلحّك فتحمَى ، فإنّ الغَضَب يُعمِي عن الفرصة ، ويَقطَع عن الحجّة ، ويُظهِر عليكَ الخصْم ، ولاتتورّدَنّ على السّلطان بالدّالّة وإن كان أخاكَ ، ولا بالحجّة وإن وثِقتَ أنّها لك ، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونَك ، فإنّ السلطان يَعرِض له ثلاثٌ دونَ ثلاث : القدرة دونَ الكَرَم ، والحَمِيّة دون النَّصَفة ؛ واللَّجاج دونَ الحظّ .

---

(١) عضهك : كذبك .

(٢٧٠)

الأصْلُ :

أحْسِنُوا فى عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فى عَقِبِكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

أكثر ما فى هذه الدنيا يقع على سبيل القَرْض والمكافأة ، فقد رأينا عِياناً مَن ظَلم الناس فظُلِم عقبُه ووَلدُه ، ورأينا من قَتَلَ الناس قُتِل عَقِبه وولدُهُ ، ورأينا من أخْرَب دُوراً فأُخرِبتْ دارُه ، ورأينا من أحسَن إلى أعقاب أهل النعم فأحسَنَ الله إلى عَقِبه وولدِه .

وقرأتُ فى تاريخ أحمد بن طاهر[1] أنّ الرشيد أرسَل إلى يحيى بن خالد وهو فى محبسه يقرّعه بذنوبه ، ويقول له : كيف رأيت ! ألَمْ أخرّبْ دارك ؟ ألم أقتل ولدك جعفرا ؟ ألم أنْهَبْ مالك ؟ فقال يحيى للرسول : قُلْ له : أما إخرابُك دارى فستُخرَّب دارُك ، وأما قتلك ولدِى جعفرا فسيُقْتل ولدُك محمد ، وأما نهبُك مالى فسيُنْهَب مالُك وخزائنُك . فلما عاد الرسولُ إليه بالجواب وَجَمَ طويلاً وحزن ، وقال : والله ليكونَنّ ما قال ، فإنه لم يَقل لى شيئاً قطّ إلا ، وكان كما قال ؛ فأُخرِبتْ[2] دارُه ــ وهى الخلد ــ فى حِصار بَغْداد ، وقُتِل ولدُه محمد ، ونُهِب مالُه ، وخزائنهُ نهبها طاهرُ بنُ الحسين .

---

(١) هو أحمد بن طاهر صاحب تاريخ بغداد

(٢) ا : « خربت »

(٢٧١)

الأصلُ :

إنَّ كلام الحكماء إذا كانَ صَوَاباً كانَ دَوَاء ، وإذا كان خَطَأً كانَ دَاء .

* * *

الشرحُ :

كلّ كلام يقلّد المتكلّم به لحسن عقيدةِ الناس فيه نحو كلام الحكماء وكلام الفُضلاء والعُلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواء وإذا كان خطأً كان داء ، لأنّ الناس يَحذُون حَذْوَ المتكلّم به ، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الاداب والأوامر والنّواهي ، فإذا كان حقّاً أفلحوا ، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ ، وكانوا كالدّواء المُبرِئ للسّقَم ، وإذا كان ذلك الكلامُ خطأً واتّبعوه خسِروا[1] ولم يُفلِحوا ، فكان بمنزلة الداء والمَرَض .

---

(١) ا : « خسروا ذلك » .

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ حِينَ سألهُ رَجلٌ أنْ يُعرِّفَهُ ما الإيمانُ ، فقال :

إذَا كانَ غدٌ فَأْتِنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ على أسماعِ النَّاس ، فإنْ نَسِيت مقَالَتِي حفِظَهَا عَلَيْكَ غَيْرُكَ ، فإنَّ الكَلامَ كالشَّارِدَةِ يَثقَفُهَا هَذَا ويُخْطِئُهَا هَذَا .

قال : وقد ذكرنا ما أجابَه به عليهِ السلامُ فيما تَقدَّم من هذا الباب ، وهو قوله : « الإيمانُ على أربع شعب »

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : إذا كان غَدٌ فأْتِنِي فتكون « كان » ها هنا تامّة ، أي إذا حَدَث ووُجِد ، وتقول : إذا كان غداً فأتني فيكون النصب باعتبارٍ آخر ، أي إذا كان الزمان غداً ، أي موصوفاً بأنه من الغَدِ ؛ ومن النحويين من يقدِّره : إذا كان الكونُ غَداً ؛ لأنّ الفِعل يدلّ على المَصدَر ، والكَوْن هو التجدّد والحدوث .

وقائل هذا القول يُرجِّحه على القول الآخَر ، لأنّ الفاعل عندهم لا يُحذَف إلّا إذا كان في الكلام دليلٌ عليه .

ويثقفها : يَجدها ؛ ثَقِفتُ كذا بالكسر ، أي وجدته وصادفته .

والشاردة : الضّالّة .

(٢٧٣)

الأصلُ :

يابْنَ آدَمَ ، لا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتاكَ ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ مِنْ عُمُرِكَ يَأْتِ اللهُ فِيهِ بِرِزْقِكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم هـذا الفصلُ بتمامه . واعلمْ أنَّ كلَّ ما ادَّخرته مِمّا هو فاضل عن قُوتك فإنما أنت فيه خازنٌ لغَيْرك .

وخلاصةُ هذا الفصل النهْيُ عن الحِرْص على الدّنيا والاهتمام لها ، وإعلامُ الناس أن الله تعالى قد قَسم الرّزْقَ لكل حَيٍّ مِن خلقِهِ ، فلولم يتكلَّفِ الإنسانُ فيه لأتاه رِزْقه من حيث لا يَحتسِب .

وفي المَثَل : يارزّاقَ البُغاث[1] في عُشّه .

وإذا نظر الإنسانُ إلى الدّودة المسجونة داخلَ الصخرة كيف تُرْزَق عَلِمَ أنّ صانع العالم قد تكفَّل لكلّ ذي حياةٍ بمادّةٍ تقيم حياته إلى انقضاء عُمُره .

---

(١) البغاث : صغار الطير .

الأصْـلُ :

أحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً ما ،عَسَى أنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً ما ، عَسَى أنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

الهوْن بالفتح : التأنّى ، والبَغيض . المبغض .

وخلاصةُ هذه الكلمة . النّهْىُ عن الإسراف فى المودّة والبِغْضة ؛ فربّما انقلب من تودّ فصار عدوّا ، وربّما انقلب منْ تعاديه فصار صديقا .

وقد تقدّم القولُ فى ذلك على أتمّ مايكون .

وقال بعضُ الحكماء : توَقَّ الإفراطَ فى المحبّة ، فإن الإفراطَ فيها داعٍ إلى التّقصير منها ، ولأنْ تكونَ الحالُ بينكَ وبيَن حبيبك نامية أوْلَى من أنْ تكون مُتناهِية .

ومن كلام عمر : لا يكن حبُّك كلَفاً ، ولا بغضُك تلفاً .

وقال الشاعر :

وأحبِبْ إذا أحببْتَ حبًّا مقارِباً   فإنّك لا تدْرِى متى أنت نازِعُ !
وأبغضْ إذا أبغضْتَ غيرَ مُبايِنٍ(١)   فإنّك لا تدْرِى متى أنتَ راجعُ !

وقال عَدِىُّ بنُ زيْد :

ولا تأمَنَنْ من مُبغِضٍ قربَ داره   ولا مِنْ محِبٍّ أن يَملَّ فيبعدا

---

(١) مباين : مفارق .

الأصل :

النَّاسُ فِي الدُّنيَا عامِلَان :

عَامِلٌ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا ، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يُخَلِّفُ الْفَقْرَ ، وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ .

وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدنيا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، فَأَحْرَزَ الحَظَّيْنِ مَعاً ، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً ، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ ؛ لَا يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعَهُ .

***

الشرح :

معنى قوله : « و يأمنه على نفسه » ، أى ولا يبالى أن يكون هو فقيرا ، لأنه يعيش عَيشَ الفقراء وإن كان ذا مالٍ ، لكنّه يدّخر المال لولده فيُفنى عمره فى منفعة غيره .

و يجوز أن يكون معناه إنّه لكثرةِ مالِهِ قد أمِن الفقر على نفسه مادام حيّا ؛ ولكنّه لا يأمَن الفقرَ على وَلده لأنّه لا يَثِق من وَلَده بحُسْن الاكتساب كما وَثِق من نفسِه ، فلا يزال فى الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولدِه الّذى يخاف عليه الفقرَ بعد موْته .

فأما العاملُ فى الدّنيا لما بعدَها فهمْ أصحابُ العبادة ، يأتيهم رزقُهم بغير اكتساب ولا كدّ ، وقد حصلتْ لهم الآخرةُ ، فقد حصَل لهم الحظّان جميعاً .

الأصل :

وَرُوِيَ أنهُ ذُكِرَ عِندَ عمر بن الخطابِ فى أيامِهِ حَلْيُ الكَعبةِ وكثرتُهُ ، فقالَ قومٌ : لوْ أخذتَهُ فَجَهَّزْتَ بهِ جيوشَ المسلمينَ ، كانَ أعظمَ للأجرِ ، وما تصنعُ الكعبةُ بالحلى ! فهمَّ عُمرُ بذلكَ ، وسألَ عنهُ أميرَ المؤمنين عليه السلامُ ، فقال : إنَّ هَـذَا القُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وآلهِ ، وَالأَموَالُ أَرْبَعَةٌ ، أَمْوَالُ المُسلِمِينَ ، فَقَسَّمها بَيْنَ الوَرَثَةِ فى الفَرَائِضِ ، وَالفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ ، وَالخُمسُ فَوَضَعَهُ اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ ، والصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلَهَا ، وكَانَ حَلْيُ الكَعْبَةِ فِيها يَوْمَئِذٍ ، فتَرَكَهُ اللهُ عَلى حَالِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسيانًا ، وَلَمْ يَخْفَ عنه مَكَانًا ، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، فَقالَ لَهُ عُمرُ : لَوْلَاكَ لَافْتَضَحْنَا ، وَتَرَكَ الحَلْيَ بِحَالِهِ .

* * *

الشرح :

هذا استدلال صحيح ، ويمكن أن يورد على وجهين :

أحدهما أن يقال : أصلُ الأشياء الحظر والتحريم كما هو مذهب كثير من أصحابنا البغداديّين ؛ فلا يجوز التصرّف فى شيء من الأموال والمنافع إلّا بإذن شرعىّ ؛ ولم يوجد إذن شرعى فى حَلْى الكعبة ، فبقينا فيه على حُكْم الأصل .

والوجه الثانى أن يقال : حَلْى الكعبة مال مختصّ بالكعبة ؛ هو جارٍ مجرى ستور الكعبة ، ومجرى باب الكعبة ، فكما لا يجوز التصرّف فى ستور الكعبة وبابها

إلاّ بنصّ فكذلك حلي الكعبة ، والجامع بينهما الاختصاص الجاعلُ كلَّ واحد من ذلك كالجزء من الكعبة ، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يكون الاستدلالُ .

ويجب أن يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام عليه ، وألاّ يُحمل على ظاهره لأنّ لمعترضٍ أن يعترض استدلاله إذا حمل على ظاهرِه ، بأن يقول : الأموالُ الأربعة التي عدّدها إنما قسمها اللهُ تعالى حيث قسمها لأنّها أموالٌ متكرّرة بتكرّر الأوقات على مرّ الزمان ، يذهب الموجودُ منها ويخلفه غيرُه ، فكان الاعتناء بها أكثر ، والاهتمامُ بوجوهِ متصرّفها أشدّ ، لأنّ حاجات الفقراء والمساكين وأمثالهم من ذوي الاستحقاق كثيرة ومتجدّدة بتجدّد الأوقات ، وليس كذلك حلي الكعبة ، لأنّه مال واحدٌ باقٍ غير متكرّر ، وأيضا فهو شيء قليلٌ يسير ، ليس مثله مما يقال : ينبغي أن يكون الشارعُ قد تعرّض لوجوهِ مصرفه حيث تعرّض لوجوهِ مصرف الأموال ، فافترق الموضعان .

(٢٧٧)

الأصل :

رُوِىَ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَيْهِ رَجُلَانِ سَرَقَا مِنْ مالِ اللهِ ، أَحَدُهُما عَبْدٌ مِنْ مالِ اللهِ ، والآخَرُ مِنْ عُرُضِ النَّاسِ ، فَقالَ : أَمَّا هَذا فَهُوَ مِنْ مالِ اللهِ فلا حَدَّ عَلَيْهِ ، مالُ اللهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الحَدُّ الشَّدِيدُ ، فَقَطَعَ يَدَهُ .

***

الشرح :

هذا مَذهَب الشِّيعة أنّ عبد المَغنَم إذا سَرَق من المَغنَم لم يُقطع ، فأمّا العبدُ الغريبُ إذا سَرَق من المَغنَم فإنّه يُقطع إذا كان ما سَرَقه زائدا عمّا يَستحِقّه من الغنيمة بمقدار النِّصاب الّذى يجب فيه القَطْع ، وهو رُبْع دينار ، وكذلك الحرّ إذا سَرَق من المَغنَم حُكمه هذا الحكم بعَينه ، فوَجَب أن يُحمَل كلامُ أميرِ المؤمنين على أنّ العبدَ المقطوعَ قد كانَ سَرَق من المَغنَم ما هو أزيَدُ من حَقّه من الغنيمة بمقدارِ النِّصاب المذكور أو أكثر .

فأمّا الفقهاء فإنّهم لا يُوجِبون القَطْع على مَنْ سَرَق من مال الغنيمة قبل قِسْمَتها ، سواء كان ما سَرَقه أكثر من حَقّه أو لم يكن ، لأنّ مُخالَطةَ حقّه ومُمازَجته للمسروق شُبْهة فى الجملة تَمنَع من وجوب القَطْع ، هذا إن كان له حَقٌّ فى الغنيمة بأن يكونَ شَهِدَ القتالَ بإذنِ سيِّده ، فإن لم يكن ذلك وكان لسيّده فيها حقّ لم يُقطَع أيضاً لأنّ حِصّةَ سيّده المُشاعةَ شُبهة تَمنعُ من قَطعه ، فإن لم يَشهَد القتالَ[1] ولا شَهِدَه سيِّدُه وسَرَق من الغنيمة قبل القِسْمة ما يجب فى مِثلِه القَطْع وَجَب عليه القَطْع .

---

(١) ا : « ولم يشهد سيده »

الأصلُ :

لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَماىَ مِنْ هَذِهِ المَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أشْياء

***

الشرحُ :

لسنا نَشُكّ أنّه كان يَذهب فى الأحكام الشرعيّة والقضايا إلى أشياء يُخالِف فيها أقوالَ الصّحابة ، نحو قطعه السارق من رءوس الأصابع ، وبيعِه أمّهات الأولاد ، وغير ذلك ، وإنّما كان يَمنَعه من تغيُّر أحكامِ مَن تَقدّمه اشتغاله بحرب البُغاة والخوارج ، وإلى ذلك يشيرُ بالمَداحض الّتى كان يؤمِّل استواء قدميّه منها ، ولهذا قال لقُضاتِه : « اقضُوا كما كنتم تقضون حتّى يكونَ للنّاس جماعةٌ » ، فَلَفظة « حتّى » هاهنا مؤذِنَةٌ بأنّه فَسَح لهم فى اتّباع عادَتِهم فى القضايا والأحكام الّتى يَعهَدونها إلى أن يصيرَ للنّاس جماعة ، وما بعد « إلى » و « حتّى » ينبغى أن يكون مخالفاً لما قبلهما .

فأمّا أصحابُنا فيقولون : إنّه كان فيما يُحاوِل أن يَحكُم بين النـاس مجتهِدا ، ويجوز لغيرِه من المجتهدين مخالَفَتُه .

والإماميّة تقول : ما كان يَحكُم إلّا عن نَصّ وتوقيف ، ولا يجوز لأحد من الناسِ مخالَفته .

والقول فى صحّة ذلك وفسادِه فَرْعٌ من فروع مسألة الإمامة[1] .

---

(١) د : « الإمامية » .

(٢٧٩)

الأصل :

اعلَمُوا عِلماً يقيناً أنّ اللهَ لمْ يجعَلْ لِلعَبْدِ وَإنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ ، أكثَرَ مِمّا سُمّيَ لَهُ فِي الذّكْرِ الحَكِيمِ ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقِلّةِ حِيلَتِهِ وَبَيْنَ أنْ يَبْلُغَ ما سُمّيَ لَهُ فِي الذّكْرِ الحَكِيمِ . وَالْعَارِفُ لِهذا ، الْعَامِلُ بِهِ ؛ أعْظَمُ النّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ ؛ وَالتّارِكُ لَهُ ، الشّاكُّ فِيهِ ، أعْظَمُ النّاسِ شُغْلاً فِي مَضَرّةٍ .

ورُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَى ، وربَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَى . فَزِدْ أيُّها المُسْتَمِعُ في شُكْرِكَ ، وقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ، وقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القول فى الحِرْص والجشع وذمّهما وذمّ الكادِح فى طَلَب الرّزق، ومدح القَناعة والاقتصار ،ونذكر هُنا طَرَفا آخر من ذلك . قال بعضُ الحكماء : وجدتُ أطولَ الناس غمّا الحسود ، وأهنأهم عيْشا القَنُوع ، وأصبرَهم على الأذى الحريص ، وأخفضهم عَيْشا أرفضُهم للدنيا ، وأعظمَهم ندامةً العالمُ المفرّط .

وقال عمر : الطّمع فَقْر ، واليأس غِنًى ، ومن يئس ممّا عند الناس استغنى عنهم .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغِنَى؟ قال : قلّةُ تمنّيك ، ورِضاكَ بما يكفيك . ولذلك قيل : العيشُ ساعات تمرّ ، وخُطوب تكرّ .

وقال الشاعر :

اقنعْ بعَيْشك ترْضَـــهُ ... واتركْ هواكَ وأنت حُرُّ
فلرُبَّ حَتْفٍ فـــوقَهُ ... ذَهَبٌ وياقوتٌ ودرُّ

وقال آخر :

إلى متَى أنا فى حِلٍّ وترْحال ... من طول سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ
ونازِح الدارِ لا أنفَكُّ مغترباً ... عن الأحبّةِ لا يدْرون ما حالى
بمَشرق الأرضِ طوْراً ثم مَغربها ... لا يخطرُ الموتُ مِن حِرصٍ على بالى
ولو قَنِعتُ أتانى الرزقُ فى دَعَةٍ ... إنّ القنوعَ الغِنى لا كثرةُ المالِ

وجاء فى الخبر المرفوع : « أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتِب له ، ولن يخرُجَ عبدٌ من الدّنيا حتى يأتيَه ما كُتِب له فى الدنيا وهى راغمة » .

الأصْلُ :

لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً ، وَيَقِينَكُمْ شَكّاً ؛ إذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا ، وإذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا[1] نهيٌ للعلماء عن تَرْكِ العمل ؛ يقول : لا تجعلوا عِلْمَكم كالجهل ، فإنّ الجاهل قد يقول : جَهِلتُ فلم أعمَل ، وأنتم فلا عُذْرَ لكم ، لأنّكم قد عَلِمتم وانكشفَ لكم سِرُّ الأمر ، فوَجَب عليكم أن تَعملوا ، ولا تجعلوا عِلْمَكم جَهْلا ، فإنّ مَنْ[2] عَلِمَ المنفعة في أمرٍ ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأتِه كان سفيها .

---

(١) ا : « فى »   (٢) ا : « الذى »

الأصْـلُ :

الطَّمَعُ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ ، وضامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ ، ورُبَّما شَرِقَ شارِبُ الماءِ قَبْلَ رِيِّهِ ، وكُلَّما عَظُمَ قَدْرُ الشيء المُتَنافَسِ فيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ ، والأماني تُعْمِي أعْيُنَ البَصائِرِ ، والحظّ يأتي مَنْ لا يأتيهِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدم القول فى هذه المعانى كلِّها .

وقد ضرب الحكماء مِثالاً لفرط الطّمع ، فقالوا : إنّ رجلا صادَ قُبَّرَةً فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلُك ؛ قالت : والله ما أشفى مِنْ قَرَم ، ولا أُشبِع من جُوعٍ ، ولكنّى أعلّمك ثلاث خِصالٍ هُنّ خيرٌ لك من أكلى ؛ أمّا واحدة فأعلّمك إيّاها وأنا فى يدِك ، وأمّا الثانية فإذا صِرْتُ على الشّجرة ، وأمّا الثالثة فإذا صرتُ على الجبل . فقال : هاتِ الأولى ؛ قالت : لا تَلَهَّفَنّ على ما فات ، فخلاّها ، فلما صارت على الشّجرة قال : هاتِ الثانية ، قالت : لا تُصَدِّقَنّ بما لا يكون أنه يكون ، ثمّ طارت ، فصارت على الجبل ؛ فقالت : يا شقِيّ لو ذَبحتَنى لأخرَجْتَ من حَوْصَلَتى دُرَّتَين وزنُ كلٍّ واحدةٍ ثلاثون مِثقالاً ، فعضّ على يدَيه وتلهّف تلهُّفا شديدا ؛ وقال : هاتِ الثالثة ؛ فقالت : أنت قد أنسِيتَ الاثنتَين ، فما تَصنع بالثالثة ، ألم أقل لك: لا تَلَهَّفَنّ على ما فاتَ

وقد تَلَهَّفْتَ ، وألم أقل لك لا تصدّقن بما لا يكون أنه يكون . وأنا وَلَحمى ودَمِى ورِيشى لا يكون عشرين مثقالا ، فكيف صدّقت أنّ فى حَوْصَلتى درّتين كلّ واحدة منهما ثلاثون مثقالا ! ثم طارت وذهبتْ .

وقوله : « وربّما شَرِق شاربُ الماء قبلَ ريّه » ، كلامٌ فصيح ، وهو مَثَلٌ لمن يُختَرم⁽¹⁾ بَغتةً أو تَطرُقه الحوادثُ والخُطوب وهو فى تلهِيَةٍ مِنْ عيشه .

ومثل الكلمة الأخرى قولهم : على قدْر العطِيّة تكون الرزِيّة .

والقولُ فى الأمانى قد أوسَعْنا القول فيه مِن قبل ، وكذلك فى الحظوظ .

(١) يخترم بغتة ، أى يأتيه الموت بغتة .

الأصْـلُ :

اللّهُمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ أنْ تُحَسّنَ في لامِعَةِ العُيُونِ عَلانِيَتِي ، وتُقَبّحَ فيما أبْطِنُ لكَ سَرِيرَتِي ، مُحافِظاً على رِياءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بجَميعِ ما أنتَ مُطّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي ، فأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظاهِرِي ، وأُفْضِيَ إلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إلى عِبادِكَ وتَباعُداً مِنْ مَرْضاتِكَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ في الرّياء ، وأن يُظهِر الإنسانُ من العبادة والفِعل الجميل ما يُبطن غيره ، ويقصد بذلك السُّمعة والصِّيت لا وجه الله تعالى .

وقد جاء في الخبر المرفوع : « أخوَفُ ما أخافُ على أُمّتي الرِّياء والشّهوة الخفيّة » .

قال المفسِّرون : والرِّياء من الشّهوة الخفيّة ، لأنه شَهوة الصِّيت والجاه بين الناس بأنه مَتِين الدّين ، مُواظِب على نوافِل العِبادات ، وهذه هي الشّهوة الخفيّة ، أي ليست كشهوة الطعام والنّكاح وغيرِهما من المَلاذّ الحسيّة .

وفي الخبر المرفوع أيضا : أنّ اليَسير من الرِّياء شِرْكٌ[1] ، وأن الله يُحبّ الأتقياء الأخفياء الذّين هم في بُيوتهم إذا غابوا لم يُفتقدوا ، وإذا حضَروا لم يُعرَفوا ، قلوبهم مَصابيحُ الهدى ، ينجون من كلّ غَبراء مُظلِمة .

(١) كلمة غامضة في الأصول

(٢٨٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليه السلام :

لَا وَٱلَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْـهُ فِي غُبَّرِ لَيْـلَةٍ دَهْمَاء ، تَـكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا .

***

الشَّرْحُ :

قد رُوِي : «تفترّ عن يوم أغرّ» .

والغُبّر : البقايا (١) ، وكذلك الإغبار . وكشَر أى بَسَم ، وأصلُه الكَشْف .

وهذا الكلام إما أن يكون قالَه على جهة التفاؤل ، أو أن يكون إخباراً بغَيب ؛ والأوّل أوجَه (٢) .

---

(١) ومنه قول أبي كبير الهذلى :

ومبرّأٍ من كل غبّر حَيْضةٍ ... وفسادِ مرضعةٍ وداء مُغْيِلِ

قال في اللسان : « وغبر الحيض : بقاياه » .

(٢) ا : « والوجه الأول » .

(٢٨٤)

الأصل :

قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ ، أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ .

***

الشرح :

لا ريبَ أنّ من أراد حِفْظَ كتاب من الكُتُب العلميّة فحَفِظ منه قليلا قليلا ، ودام على ذلك ، فإنّ ذلك أنفعُ له وأرجَى لِفَلاحه من أن يَحفَظ كثيرا ، ولا يَدُوم عليه لمَلالِه إيّاه وضَجَره منه ، والتجربة تَشهَد بذلك .

والقول فى غير الحفظ كالقول فى الحفظ ، نحو الزّيارة القليلة للصّديق ، ونحو العطاء اليسير الدائم (١) الّذى هو خيرٌ من الكثير المنقطِع ، ونحو ذلك .

(١) بعدها فى ا : « غير المنقطع » .

(٢٨٥)

الأصل:

إِذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا.

***

الشرح:

قد تقدّم القولُ في النافلة: هل تصحّ ممّن عليه فريضة لم يؤدّها، وذكرْنا مذاهبَ الفُقَهاء في ذلك.

ولا ريبَ أنّ مَن استغرقَ الوقتَ بالنوافل حتّى آنَ أوقاتِ الفرائض لم يفعل الفرائضَ فيها، وشغلها بالعبادة النّفليّة، فقد أخطأ؛ والواجب أنْ يرفُض النافلةَ حيث يتضيّق وقتُ الفريضة، لا خلافَ بين المسلمين في ذلك، ويَصلُح أن يكون هذا مَثلا ظاهرُه ماذكرْنا، وباطنُه أمرٌ آخَر.

الأصـل :

مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ استَعَدَّ .

***

الشرح :

هـذا مِثل قولهم فى المَثَل : « الليلُ طويل ، وأنتَ مُقمِر » (١) ؛ وقال أيضا : شَنْ ولا تَغترّ (٢) .

وقال أصحابُ المعانى : مَثَل الدنيا كركْبٍ فى فلاة وَرَدوا ماء طيبا ، فمنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْبا يسيرا ، ثمّ أفكر فى بُعد المسافة التى يَقصِدونها ، وأنّهُ ليس بعد ذلك الماء ماء آخَر ، فتزوّد منه ماء أوصلَه إلى مَقصِده ، ومنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْبا عظيما ولَها عن التزوّد والاستعداد ، وظَنّ أنّ ماشَرِب كافٍ له ومُغنٍ عن ادّخار شىء آخَر ، فقطع به ، وأخْلَفَه ظَنُّه ، فعَطِش فى تلك الفَلاة وسات .

وقد رُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال لأصحابه : « إنّما مَثَلى ومَثلكم ومَثَل الدّنيا كقوم سَلَكوا مَفازةً غَبْراء حتّى إذا لم يَدْرُوا ماسَلَكوا منهـا أكثَرُ أمْ ما بَقِى! أنفَدوا الزّاد وحَسَروا الظّهر ، وبقُوا بين ظَهرَانَى المَفازة لا زاد ولا حَمولة ، فأيقنوا بالهَلَكة ، فبينما هم كذلك خرج عليهم رجل فى حُلّة يَقطُر رأسُه ماء ، فقالوا : هـذا قريب عهدٍ بريف ، وما جاءكم هذا إلّا من قريب ؛ فلمّا انتهى إليهم وشاهد حالَهم قال : أرأيتم إن هدَيتُكم إلى ماء رَواء ، ورِياض خُضْرٍ ماتعملون ؟ قالوا : لا نَعصِيك شيئا ؛

(١) الميدانى . . .
(٢) الميدانى . . .

قال : عُهودَكم ومواثيقَكم بالله ، فأعطوه ذلك ، فأوردَهم ماءً رَواءً ورِياضاً خُضْراً ، ومَكث بينهم ماشاء الله ، ثم قال : إنّي مُفارِقكم ، قالوا إلى أين؟ قال : إلى ماءٍ ليس كمائِكم، ورِياضٍ ليست كرِياضِكم ؛ فقال الأكثرون منهم : والله ماوَجَدْنا مانحن فيه حتّى ظنّنا أنا لا نجده ، وما نَصنَع بمنزلٍ خير من هذا ! وقال الأقلّون منهم : ألم تُعطُوا هذا الرجلَ مَواثيقَكم وعهودَكم بالله لا تَعصُونه شيئاً ، وقد صدقكم في أوّل حديثِه ، والله ليصدُقَنّكم في آخِره؟ فراحَ فيمَن تبِعه منهم ، وتخلّف الباقون ، فدَهَمهم عدوٌّ شديد البأس عظيم الجَيش ، فأصبحوا مابين أسيرٍ وقَتيل » .

(٢٨٧)

الأصْلُ :

لَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ مَعَ الإبْصَارِ ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا ، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

أي ليس العَمَى عَمَى العين ، بل عَمَى القَلْب .

كذلك قولُ أمير المؤمنين عليه السلام ، ليست الرؤية مع العُيون ، وإنما الرؤية الحقيقيّة مع العُقول .

وقد ذهبَ أكابرُ الحكماء إلى أن اليقينيّات هي المَعقولات لا المَحْسوسات ؛ قالوا : لأنّ حُكمَ الحسِّ في مَظِنة الغَلَط ، وطالَ ما كَذَبَ الحسّ ، واعتقدنا بطريقِه أعتقاداتٍ باطلة ، كما نرى الكبيرَ صغيرا ، والصغيرَ كبيرا ، والمتحرِّك ساكنا ، والساكنَ متحرِّكا ، فأمّا العقل فإذا كان المعقول به بَدِيهيّاً أو مُستنِدا إلى مقدّمات بَديهيّة فإنّه لا يَقع فيه غَلط أصْلا .

---

(١) سورة الحج ٤٦

(٢٨٨)

الأصْلُ :

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ .

***

الشرح :

قد تقدّم ذِكرُ الدّنيا وغُرورها ، وأنّها بشَهَواتها ولذّاتها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعظة ، لأنّ الإنسانَ يَغترّ بالعاجِلة ، ويتوهّم دَوامَ ماهو فيه ، وإذا خَطَر بباله الموتُ والفَناء وَعَد نفسَه رحمةَ الله تعالى وعفوَه ، هذا إن كان ممّن يَعترف بالمَعادِ ، فإنّ كثيرا ممّن يُظهِر القول بالمَعاد هو فى الحقيقة غيرُ مستيقنٍ له ، والإخلاد إلى عفوِ الله تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية ، غرورٌ لا محالةَ ، والحازمُ من عَمِل لما بعدَ الموت ، ولم يُمَنّ نفسَه الأمانىّ التى لا حَقيقةَ لها .

(٢٨٩)

الأصْـلُ :

جَاهِلـكُمْ مُزْدَادٌ ، وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا قريب مما سلف : يقول : إنّ الجاهل من الناس مُزداد من جهله ، مُصرٌّ على خطيئته ، مسوِّف من توهّماته وعقيدته الباطلة بالعفو عن ذنبه ، وليس الأمر كما توهمه . ﴿ ليسَ بأمانيّكُمْ ولا أمانيِّ أهلِ الكتابِ مَن يَعمَلْ سوءاً يُجْزَ به ولا يَجِدْ له من دُون الله وليًا ولا نصيرا ﴾ .

(٢٩٠)

الأصل :

قَطَعَ الْعِلْمُ عذرَ الْمُتَعَلِّلِينَ .

***

الشرح :

هـذا أيضاً قريبٌ ممّا تقدم ، يقول : قَطَعَ العِلْم عُذرَ الَّذِين يُعلِّلون أنفسهم بالباطل ، و يقولون : إنّ الربّ كريم رحيم ، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفسنا بالعبادة ، كما قال الشاعر :

قَدِمتُ على الكريم بغير زادٍ من الأعمال ذاذنبٍ عظيمِ
وسُوء الظنِّ أن تَعتَدّ زاداً إذا كانَ القدومُ على الكريم

وهـذا هو التعليل بالباطل ، فإن الله تعالى و إن كان كريما رحيما عفوًّا غفورا ، إلاّ أنه صادقُ القول ، وقد توعّد العُصاةَ وقال : ﴿ و إنّ الفُجّار لفي جحيم * يصلَونَها يومَ الدِّين * وماهمْ عنها بغائبينَ ﴾[1] وقال : ﴿ لا تختصِموا لدَيَّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيدِ ما يُبدَّلُ القولُ لديّ وما أنا بظلّام للعبيدِ ﴾[2] ، و يكفي في رحمته وعفوِه وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابُهُ أكثرُ مما يستحقّه من العِقاب ، فالقول بالوعيد معلوم بأدِلّة السّمع المتظاهِرة المتناصِرة الّتي قد أطنب أصحابُنا في تَعْدادها و إيضاحِها ، و إذا كان الشيء معلوما فقد قَطَع العلمُ به عذرَ أصحاب التعلّل والتمنّي ، وَوجَب العملُ بالمعلوم ورفض مايُخالِفه .

(١) سورة الأنفطار ٦٤ ـ ٦٦ (٢) سورة ق ٢٨ ، ٢٩

(٢٩١)

الأصل :

كُلُّ مُعاجَلٍ يَسْأَلُ الْإنظَارَ ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ .

***

الشرح :

قال الله سبحانه : ﴿ حتّى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربّ ارجعون لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ كلّا إنّها كلمةٌ هو قائلُها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون[1] ﴾ .

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عُوجِل ، فأمّا من أُجّل فإنّه يعلّل نفسه بالتسويف ، ويقول : سوفَ أتوبُ ، سَوْف أُقلِع عمّا أنا عليه ، فأكثرُهم يُختَرم[2] من غير أن يَبلُغ هذا الأمل ، وتأتيه المنيّة وهو على أقبح حال وأسوئها ، ومنهم من تشمله السّعادة فيتوب قبل الموت ، وأولئك الذين خُتِمت أعمالُهم بخاتِمة الخير ، وهم فى العالَم كالشّعرة البيضاء فى الثّور الأسوَد .

---

(١) سورة المؤمنين ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) يقال : اخترمته المنية ؛ أى أخذته من بينهم .

الأصْلُ :

ما قالَ النَّاسُ لِشَيْء : طُوبَى لهُ ! إلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوء

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى ، وذكَرْنا فيه نُكتاً جيّدة حميدة .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكمية في تقلبات الدهر وتصرّفاته]

كان محمّد بنُ عبد الله بنِ طاهر أميرَ بغداد في قَصْره على دِجْلة يوماً ، وإذا بحشيشٍ على وَجْه الماء ، في وَسَطه قَصَبة عليها رُقْعة ، فأمر بأَخْذِها ، فإذا فيها :

تاهَ الأُعَيْرِج واستولَى به البَطَرُ   فقل له : خيرُ ما استعملتَه الحَذَرُ
أحسنتَ ظَنَّك بالأيّام إذ حَسُنَتْ   ولم تَخَفْ سوء ما يأتى به القَدَرُ
وسالَمَتْك اللّيالى فاغْتَرَرْتَ بها   وعند صفوِ اللّيالى يَحدُثُ الكَدَرُ

فما انتفَع بنفسه مدّة .

وفى المَثَل : الدّهر إذا أتى بسَحْوَاء سَحْسَح[1] ، يُعقِبها بنَكْباء زَعْزَع ، وكذاك شربُ العَيْش فيه تلوُّن، بَيْناه عَذْبا إذْ تحوّل آجِناً .

---

(١) أى سحابة تصب مطراً شديداً .

يحيى بنُ خالد : أعطانا الدهر فأسرَف، ثمّ مال علينا فأجْحَف .

وقال الشاعر :

فيا لَنعيمٍ ساعدَتْنـــا رِقابُه   وخاسَتْ بنا أكفاله والرّوادِفْ

إسحٰق بنُ إبراهيمَ المَوْصِلِيّ :

هيَ المقـادِيرُ تجري فى أعِنّتِها   فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حالِ

يوماً ترِيشُ خَسيسَ الحالِ ترفعه   إلى السّماء ويوماً تخفِض العالِي

إذا أدبرَ الأمر أتَى الشرُّ من حيث كان يأتى الخير .

هانئ بنُ مسعود :

إنَّ كِسرَى أبَى على المَلِكِ النُّعْـ   ـمانِ حتّى سقاهُ أمّ الرّقوبِ

كلُّ مُلْكٍ وإن تصَعّدَ يوما   بأُناسٍ يَعـودُ للتصويبِ

أُحَيْحَة بنُ الجُلاح :

وما يَدرِى الفقيرُ متَى غِناهُ   وما يَدرِى الغنيُّ متى يَعِيلُ

وما تَدْرى إذا أضرَبْتَ شَوْلًا   أتُلقِح بعد ذلك أم تحِيلُ[1]

وما تَدرِى إذا أزمَعْت سَيْرًا   بأيِّ الأرض يُدرِكُك المَقِيلُ

آخَر :

فما درّن الدنيـا بباقٍ لأهلِه   ولا شِرّة الدنيا بضَربةِ لازمِ

آخَر :

رُبّ قومٍ غَبَرُوا من عيشِهمْ   فى سرورٍ ونعيمٍ وغَـدَقْ

---

(١) الشول : الناقة التى نقصت ألبانها .

سَكَتَ الدهرُ زماناً عنهمُ　　ثم أبكاهمْ دماً حين نَطَقْ

ومن الشعر المنسوب إلى محمّد الأمين بن زُبَيْدة :

يانَفْس قد حقّ الحذَرْ　　أين الفِرارُ من القَدَرْ

كلّ امرىء مما يخا　　ف ويرتجيه على خَطَرْ

من يرتَشِفْ صفوَ الزّما　　ن يَغَصّ يوماً بالكَدَرْ

الأصل :

وقالَ عليهِ السّلامُ وقد سُئِلَ عنِ القَدَرِ : طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلَا تَسْلُكوه ثم سئلَ ثانياً فقال : بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلَا تَلِجُوهُ ؛ ثم سئل ثالثاً فقالَ : سِرُّ اللهِ فلا تَتَكَلَّفُوهُ .

الشرح :

قد جاء فى الخبر المرفوع : القَدَرُ سِرُّ الله فى الأرض ، ورُوِى : سر الله فى عباده ، والمرادُ نهىُ المستضعفين عن الخوْض فى إرادة الكائنات ، وفى خلق أعمال العباد ، فإنه ربّما أفضى بهم القول بالجبر ، لما فى ذلك من الغموض ، وذلك أنّ العامىّ إذا سمع قولَ القائل : كيف يجوز أن يقع فى عالَمِه مايكرهه ، وكيف يجوز أن تَغلِب إرادة المخلوق إرادةَ الخالق ؟

ويقول أيضاً : إذا عَلِم فى القدم أنّ زيداً يكفر ، فكيف لزيدٍ أن لا يكفُرُ وهل يُمكن أن يقع خلافُ ماعَلِمه الله تعالى فى القِدَم ، اشتبه عليه الأمر ، وصار شُبهةً فى نفسه ، وقوِىَ فى ظنّه مذهبُ المجبِّرة ، فنهى عليه السلام هؤلاء عن الخوْض فى هذا النّحو من البَحْث ، ولم يَنْه غيرَهم من ذوى العقول الكاملة ، والرياضة القويّة ، والملَكة التامّة ، ومن له قدرةٌ على حَلِّ الشُّبَه ، والتقصّى عن المشكلاتِ .

فإن قلت : فإنّكم : تقولون : إنّ العامىّ والمستضعَف يجب عليهما النظرُ .

قلت : نعمْ إلا أنه لا بد لهما من موقف بعد إعمالها مايَنتهى إليه جُهْدُهما من النظر ، بحيث يُرْشِدها إلى الصّواب ، والنّهى إنّما هو لمن يَستبدّ من ضعفاء العامّة بنفسه فى النّظر ، ولا يَبحث مع غيرِه ليُرشِدَه .

الأصـل :

إذا أرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ .

***

الشـرح :

أرْذَلَه : جعله رَذْلا ، وكان يقال : مِنْ علامة بُغض اللهِ تعالى للعبد أن يُبغِّض إليه العِلْمَ .

وقال الشاعر :

شكوتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِى ... فأرشدنى إلى تركِ المعاصِى
وقال لأنَّ حِفْظَ العِلْمِ فَضْلٌ ... وفضلُ اللهِ لا يُؤتيه عاصِى

وقال رجل لحكيم : ماخيرُ الأشياء لى ؟ قال : أن تكون عالما ، قال : فإن لم أكن ؟ قال : أن تكون مُثريا ؛ قال : فإن لم أكن : قال : أن تكون شاريا ؛ قال : فإن لم أكن ؟ قال : فأن تكونَ ميتا .

أخذ هذا المعنى بعضُ المحدثين فقال :

إذا فاتَكَ العلمُ جُدْ بالوَرَى ... وإن فاتَكَ المالُ سُدْ بالقراعِ
فإن فاتَ هذا وهذا وذاكَ ... فمتْ لخياتك شرُّ المتاعِ

وقال أيضا فى المعنى بعينه :

ولولا الحجا والقِرا والقراع ... لَمَا فَضَل الآخرَ الأوّلا
ثلاثٌ متى يَخْلُ منها الفتى ... يكن كالبهيمة أو أرْذلا

الأصل :

وقال عليه السلام :

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ ، وَكَانَ يُعَظِّمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَانَ خارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بطْنِهِ ، فَلا يَتَشَهَّى مَالَا يَجِدُ ، وَلاَ يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً ، فَإِنْ قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً ، فَإِنْ جاءَ الجِدُّ فَهُوَ لَيْثٌ عادٍ ، وَصِلٌّ وَادٍ ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً ، كَانَ لَا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَايَقُولُ ، وَلَا يَقُولُ مَالَا يَفْعَلُ ، وَكَانَ إِنْ غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ ، وَكَانَ عَلَى أَنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى فَخَالَفَهُ ، فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْخَلَائِقِ فَالْزَمُوهَا ، وَتَنَافَسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ .

* * *

الشرح :

قد اختلف الناسُ فى المعنيِّ بهذا الكلام ، ومَن هو هذا الأخُ المشار إليه ؟ فقال قوم : هو رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، واستبعَده قومٌ لقوله : « وكان ضعيفا مستضعفا » ، فإن النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يقال فى صفاته مثل هذه الكلمة ،

وإن أمكن تأويلُها على لين كلامه وسماحةِ أخلاقه ، إلّا أنّها غيرُ لائقة به عليه السلام .

وقال قومٌ : هو أبو ذَرٍّ الغِفاريّ واستبعَدَه قومٌ لقوله : فإن جاء الجدّ فهو لَيث عادٍ ، وصِلٌ واد ، فإن أبا ذَرٍّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة ، والمعروفين بالبَسالة

وقال قومٌ : هو المقدادُ بن عَمْرو المعروفُ بالمقداد بن الأسوَد ، وكان من شِيعة عليٍّ عليه السلام المخلِصين ، وكان شُجاعاً مُجاهِداً حسنَ الطريقة ، وقد ورد فى فضلِه حديث صحيحٌ مرفوع .

وقال قومٌ : إنه ليس بإشارةٍ إلى أخ مُعيّن ، ولكنه كلامٌ خارجٌ مخرج المثل ، وعادةُ العرب جارية بمثل ذلك ، مثل قولهم فى الشّعر : فقلت لصاحبي ، و ياصاحبي ، وهذا عندى أقوَى الوجوه .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكمية فى حمد القناعة وقلّة الأكل]

وقد مضى القولُ فى صِغر الدنيا فى عَيْن أهل التّحقيق ، فأمّا سلطان البَطْن وَمَدْح الإنسان بأنه لا يكثِر من الأكل إذا وَجَد أكلا ، ولا يَشتهى من الأكل مالا يجده ، فقد قال الناسُ فيه فأكثروا .

قال أعشى باهلة يرثى المنتشرَ بنَ وَهْب :

طاوِى المَصيرِ على العَزّاءِ مُنصلِتٌ ... بالقوم ليلَةَ لا ماءٌ ولا شَجَرُ [(١)]
تَكفيه فلذةُ لَحْمٍ إنْ ألَمّ بها ... من الشِّواء ويُرْوِى شربَه الغمرُ
ولا يُبارِى لِما فى القِدْرِ يَرْقُبُهُ ... ولا تَرَاه أمامَ القوم يفتقِرُ

(١) الكامل للمبرد ٤ : ٦٥ . المصير : واحد المصران . والعزاء : الأمر الشديد .

لا يَغمِزُ الساقَ مِن أينٍ ولا وَصَبٍ ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وقال الشَّنْفَرَى :

وأطْوِى على الخُمص الحوايا كما انطَوَتْ خيوطة ماريّ تُغار وتُفتَلُ [1]

وإن مدّت الأيدِى إلى الزاد لم أكن بأعجلِهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ

وما ذاكَ إلّا بَسْطة عن تفضّلٍ عليهمْ وكان الأفضلُ المتفضِّلُ

وقال بعضهم لابنه : يا بُنَيّ عوِّد نفسك الأثَرَة ، ومجاهَدةَ الهوى والشهوة ، ولا تَنهَش نَهْشَ السِّباع ، ولا تَقضِم قَضْمَ البَراذين ، ولا تُدْمِن الأكلَ إدمانَ النَّعاج ، ولا تلقمْ لَقْمَ الجمال ، إنّ الله جعلك إنسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سَبُعا ، واحذَرْ سُرعة الكِظّة ، وداء البِطْنة ، فقد قال الحكيم : إذا كنت بَطِناً فعُدَّ نفسك من الزَّمْنى [2]

وقال الأعشى :

* والبِطْنَةُ يوما تُسفِّه الأحلاما *

واعلم أن الشِّبَع داعيةُ البَشَم ، والبَشَمَ داعيةُ السَّقَم ، والسَّقَم داعيةُ الموت ، ومن ماتَ هذه الميتةَ فقد مات موتةً لئيمة ، وهو مع هذا قاتلٌ نفسه ، وقاتلُ نفسِه ألْوَم من قاتلِ غيره ، يا بُنَيّ ، والله ما أدّى حقَّ السجود والرّكوع ذو كِظّة ، ولا خَشَع لله ذو بِطْنة ، والصومُ مصحّة ، ولربّما طالت أعمارُ الهِند ، وصحّت أبدانُ العرَب ، ولله درُّ الحارثِ بن كَلَدة حيث زَعَم أن الدّواء هو الأزْم ، وأنّ الداء إدخالُ الطعام في أثَر الطعام ، يا بُنَيّ لِمَ صَفَتْ أذهانُ الأعرابِ ، وصَحّت أذهان الرُّهبان مع طُول الإقامة في الصوامع ، حتّى لم تَعرِف وجعَ المفاصل ، ولا الأورام ، إلّا لقلّة الرُّزْء ، ووَقاحة الأكْل ، وكيف لا ترغب في تدبيرٍ يَجمَع لك بين صحّة البدن وذَكاء الذِّهن وصلاحِ المَعاد

---

(١) لامية العرب ٢٧ (٢) الزمني : المرضى عن كبر وهرم .

والقرب وعَيْش الملائكة . يا بُنَيّ لم صار الضَّبّ أطولَ شيء ذَماء ، إلّا لأنه يتبلّغ بالنّسيم ، ولِمَ زعَمَ الرسولُ صلّى الله عليه وآله أنّ الصومَ وِجاء ، إلّا ليجعله حجابا دون الشّهوات ! فافهمْ تأديبَ الله ورسولِه ، فإنهما لا يَقْصدان إلّا مِثلَك ، يا بُنَيّ ، إنى قد بلغتُ تسعين عاما ما نَقَص لى سِنّ ، ولا انتشَر لى عَصَب ، ولا عرفتُ دنِينَ أنف ، ولا سَيَلان عَيْن ، ولا تقطير بَوْل ، ما لذلك علة إلّا التّخفيف من الزاد ، فإن كنتَ تحب الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة ، وإن كنتَ تريدُ الموت فلا يُبعِد الله إلا من ظَلَم .

وكان يقال : البِطْنة تذهِب الفِطْنة .

وقال عمرو بنُ العاص لأصحابه يومَ حكم الحَكَمان : أكثِروا لأبى موسى من الطّعام الطّيب فوالله ما بَطِنَ قومٌ قطّ إلّا فقدوا عقولَهم أو بعضَها ، وما مضى عزمُ رجلٍ باتَ بَطِينا .

وكان يقال : أقلِل طعاما تَحمَد مناما .

ودعا عبدُ الملك بنُ مروانَ رجلا إلى الغَدَاء فقال : مافىّ فضْل ؛ فقال : إنى أحبّ الرجلَ يأكل حتّى لا يكون فيه فضل ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، عندى مُسْتَزاد ، ولكنّى أكرَه أن أصير إلى الحال التى استقبَحَها أميرُ المؤمنين .

وكان يقال : مسكينٌ ابن آدم ، أسيرُ الجوع ، صَرِيع الشِّبَع .

وسأل عبْد الملك أبا الزُّعَيْزعة ؛ فقال : هل أُتخِمتَ قَطّ ؟ قال : لا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنّا إذا طَبَخْنا أنضَجْنا ، وإذا مضَغْنا دقّقنا ، ولا نُكِظّ المَعدة ولا نُخْليها .

وكان يقال : من المرُوءة أن يَترُك الإنسانُ الطعامَ وهو بعدُ يشتهيه .

وقال الشاعر :

فإنّ قِرابَ البَطْنِ يكفيك مَلْؤهُ ... ويكفيكَ سَوْآتِ الأمور اجتنابُها

وقال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعيّ : كان عمّى يقول لى : لا تخرُج يا بُنَيّ من منزِلِك

حتّى تأخذَ حِلْمَكَ ، يعني تتغذّى ، فإذا أخذتَ حِلْمَكَ فلا تزددْ إليه حِلْماً ، فإنّ الكثرة تئول إلى قِلّة ؛ وفى الحديث المرفوع : ماملأَ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بَطْن ، بحَسْب الرّجُل من طَعمه ما أقامَ صُلْبه ، وأمّا إذا أبَيْتَ فثُلُث طعام ، وثلثُ شَراب ، وثلث نَفَس .

ورَوَى حُذَيفة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله : من قَلّ طعمُه ، صَحّ بطنُه ، وصفا قلبُه ، ومَن كَثُر طعمُه ، سَقُم بَطْنه وقسا قلبُه ؛ وعنه صلّى الله عليه وآله : لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطّعام والشّراب ، فإنّ القلبَ يموت بهما ، كالزّرع يموت إذا أكثر عليه الماء . وروَى عَوْن بنُ أبى جُحَيفة عن أبيه قال : أكلتُ يوماً ثَريداً ولحماً سميناً ، ثمّ أتيتُ رسولَ الله وأنا أتجشّأ ، فقال : احبِسْ جُشاءَكَ أبا جُحَيفة ، إن أكثرَكم شِبَعاً فى الدّنيا أكثرُكم جُوعاً فى الآخرة ، قال : فما أكل أبو جُحَيفة بعدها مِلْءَ بطنِه إلى أن قبَضه الله ، وأكل علىٌّ عليه السلام قليلا من تَمْر دَقَل (١) وشَرِب عليه ماء ، وأمَرّ يدَه على بطنه وقال : من أدخلَه بطنُه النارَ فأبعده اللهُ ، ثم تمثّل :

فإنّك مَهما تُعطِ بطنَكَ سُؤْلَهُ وفَرْجَكَ نالا مُنتهَى الذمِّ أجمعا

وكان عليه السلام يُفطِر فى رمضانَ الّذى قُتِل فيه عند الحسَنِ ليلةً ، وعند الحُسَين ليلةً ، وعند عبد الله بنِ جعفر ليلة ، لا يَزيد على اللُّقْمتين أو الثلاث ، فيقال له : فيقول : إنّما هى ليالٍ قلائل ، حتى يأتىَ أمرُ الله وأنا خَميصُ البَطْن ، فضَرَبه ابنُ مُلجَم لعنه الله تلك الليلة .

وقال الحسن : لقد أدركتُ أقواماً ما يأكل أحدُهم إلّا فى ناحيةِ بطنِه ، ماشَبِع رجلٌ منهم طعاماً حتّى فارَقَ الدنيا ، كان يأكل ، فإذا قارَبَ الشّبَع أمسَك وأنشد المبرّد :

فإنّ امتـــلاء البطْن فى حسَب الفتى ... قليـلُ الغناء وهو فى الجسم صالحُ

وقال عيسى عليه السلامُ : يابنى إسرائيل ، لا تُكثِروا الأكل ، فإنّه من أكثر من الأكل أكثر من النّوم ، ومن أكثَر النوم أقلّ الصّلاة ، ومن أقلّ الصلاة كُتِب من الغافلين ؛ وقيل ليوسفَ عليه السلام : مالَكَ لا تَشبَع وفى يَديْك خزائنُ مِصرَ ؟ قال إنّى إذا شبِعتُ نسيتُ الجائعين .

وقال الشاعر :

وأكلةٍ أوقعتْ فى الهُلكِ صاحِبها ... كحبّة القمح دقّت عُنقَ عُصفورِ

لَـكِسْرةٌ بجَريش الملح آكُلها ... ألذُّ مِن تمرةٍ تُحشَى بزُنبور

ووُصِف لسابورَ ذى الأكتافِ رجلٌ من اصْطَخْرَ لِلقضاء ، فأستقدَمه ، فدعاه إلى الطّعام فأخذ المَلِك دَجاجةً من بين يديه فنصّفَها ، وجعل نِصفَها بين يدىْ ذلك الرجل فأتى عليه قبل أن يَفرُغ المَلِك من أكل النّصف الآخَر ، فصَرَفه إلى بلده ، وقال : إنّ سَلفَنا كانوا يقولون : مَنْ شَرِه إلى طعام المَلِك كان إلى أموال الرّعيّة أشْرَه .

قيل لسُمَيْرة بن حبيب : إنّ ابنَك أكل طعاما فأتخم ، وكاد يموت ، فقال : واللهِ لو مات منه ماصلّيت عليه . أنس يرفَعه : إنّ من السَّرَف أن تأكل كلّ ما اشتهيْت .

دخل عمرُ على عاصم ابنِه وهو يأكل لَحْما ، فقال : ماهذا ؟ قال : قَرِمْنا إليه ؟ قال أوَكُلّما قَرِمْت إلى اللّحْم أكلْته ، كَفَى بالمرء شَرَها أن يأكلَ كلَّ مايَشتهِى .

أبو سعيد يَرفَعه : استعيذُوا بالله من الرُّغب ؛ قالوا : هو الشَّرَه ، ويقال : الرُّغب شُؤم . أنس يرفَعه : أصلُ كلّ داء البردة ، قالوا هى التُّخَمَة ؛ وقال أبو دُرَيد : العرَب تعيِّر بكثْرة الأكل ، وأنشد :

لستُ بأكّال كأكْل العَبْـدِ ... ولا بِنوّام كنَوْم الفَهْـدِ

وقال الشاعر :

إذا لم أَزُرْ إلا لآكُلَ أَكْلَةً فَـلا رَفعتْ كَفِّى إلىَّ طعامِى

فمـا أَكلةٌ إن نِلتُها بغنيمةٍ ولا جَوْعة إن جُعْتُهـا بغَرامِ

ابنُ عباس ، كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يبيت طاوياً ليالى ماله ولأهله عَشاء ، وكان عامّةَ طعامِه الشَّعيرُ ؛ وقالت عائشة : والذى بَعثَ محمدا بالحق ما كان لنا مُنخُل ، ولا أكل رسولُ الله صلى الله عليه وآله خُبْزا مَنْخُولا منذ بعثه الله إلى أن قُبِض : قالوا : فكيف كنتم تأكلون دقيقَ الشعير ؟ قالت : كنّا نقول : أُفٍّ أُفٍّ .

أنس ، ما أكل رسولُ الله صلى الله عليه وآله رغيفاً محوَّرا إلى أن لَقِى ربَّه عزّ وجلّ .

أبو هريرة : ما شَبِع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأهله ثلاثةَ أيام مُتوالية من خُبْز حِنْطة حتى فارَق الدنيا .

وروَى مَسْروق قال : دخلتُ على عائشة وهى تبكى ؛ فقلتُ : ما يبكيك ؟ قالت : ما أشاء أن أبكى إلاّ بَكَيتُ ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله ولم يَشْبَع من خُبز البُرّ فى يوم مرّتين ، ثمّ انهارَتْ علينا الدنيا .

حاتم الطائىّ :

وإنّى لأستحيى صِحابىَ أن يَرَوْا مكانَ يَدِى من جانِب الزاد أقرَعا[1]

أقصّر كَفِّى أن تَنال أكفَّهمْ إذا نحنُ أهوَيْنـا وحاجاتُنَا معَا

أبيتُ خَميصَ البطنِ مضطمِرَ الحشَا حياء أخافُ الضَّيمَ أن أتَضلّما

(١) ديوانه ١١٥

فإنك إن أعطيتَ نفسك سُؤلها   وفرجك نالا مُنتهى الذمّ أجمعا

فأما قوله عليه السلام : « كان لا يَتَشهّى، ما لا يَجد » فإنّه قد نهى أن يتشهى الإنسانُ ما لا يَجِد ؛ وقالوا : إنّه دليلٌ على سُقوط المرُوءة .

وقال الأحنف : جنّبوا مَجالسنا ذِكرَ تشهّي الأطعِمة وحديث النكاح .

وقال الجاحظ : جلَسْنا فى دارٍ فجعَلْنا نتشهّى الأطعمة ؛ فقال واحد : وأنا أشتهى سِكْبَاجاً(١) كثيرة الزعفران .

وقال آخَر : أنا أشتهى طَبَاهجة ناشفة ، وقال آخر : أنا أشتهى هَرِيسة كثيرة الدّارصيني وإلى جانبنا امرأةٌ بيننا وبينها بئر الدار ، فضربَتِ الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطُونى مِلءَ هـذه الغضَارة من طبيخكم ، فقال ثمامة : جارتُنا تَشمُّ رائحة الأمانىّ .

الأصلُ :

لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ سُبْحَانَهُ على مَعْصِيَتِهِ، لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ.

***

الشَّرحُ :

قالت المعتزلة : إنّا لو قدّرنا أنّ الوعيد السّمعيّ لم يرد لما أخلّ ذلك بكون الواجب واجباً في العقل ، نحو العدل والصّدق ، والعلم ، وردّ الوديعة ، هـذا في جانب الإثبات ، وأما في جانب السّلب فيجب في العقل أن لا يظلم ، وألّا يكذب ، وألّا يجهل ، وألّا يخون الأمانة ، ثمّ اختلفوا فيما بينهم ، فقالت معتزلة بغداد : ليس الثوابُ واجباً على الله تعالى بالعقل ، لأنّ الواجبات إنّما تجب على المكلَّف ، لأنّ أداءها كالشُّكر لله تعالى ، وشكر المنعِم واجب ، لأنّه شكر منعِم ، فلم يبقَ وجهٌ يقتضي وجوبَ الثّواب على الله سبحانه ؛ وهذا قريبٌ من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام .

وقال البصريّون : بل الثواب واجبٌ على الله تعالى عقْلا ، كما يجب عليه العِوَض عن إيلامِ الحيّ ؛ لأنّ التكليف إلزامٌ بما فيه مضرّة ، كما أنّ الإيلامَ إنزالُ مضرّة ، والإلزام كالإنْزال .

الأصل :

وقالَ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزاه عن ابن له :

يا أشْعَثُ ، إنْ تَحْزَنْ على ابنِكَ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ مِنكَ الرَّحِمُ ، وإنْ تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ .

يا أشْعَثُ إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأنْتَ مَأْجُورٌ ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأنْتَ مَأْزُورٌ .

يا أشْعَثُ ، ابنُكَ سَرَّكَ ، وَهُوَ بَلَاءٌ وفِتْنَةٌ ، وحَزَنَكَ ، وهُوَ ثَوَابٌ ورَحْمَةٌ .

***

الشرح :

قد رُوِي هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوهٍ مختلِفة ورواياتٍ متنوِّعة ، هذا الوجهُ أحدُها ، وأخَذَ أبو العتاهية ألفاظَه عليه السلام فقال لمن يعزِّيه عن وَلَد :

ولا بدَّ مِن جَرَيانِ القَضاءِ   إمّا مُثابًا وإما أَثِيماً

ومن كلامهم فى التعازى : إذا أستأثَرَ اللهُ بشىء فاْلهَ عنه ، وتُنسَب هذه الكلمة إلى عُمَرَ بن عبد العزيز .

وذكر أبو العبّاس فى الكامل أنّ عُقْبة بنَ عِياض بن تميم أحد بنى عامر بن لؤىّ أُستُشْهِد ، فعزّى أباه مُعزٍّ فقال : اِحتَسِبْه ولا تَجزَع عليه فقد ماتَ شهيداً ؛ فقال عِياض : أترانى كنتُ أُسَرُّ به وهو مِن زينةِ الحياة الدنيا ، وأُساء به وهو من الباقياتِ الصالحات؟

وهذا الكلام مأخوذٌ من كلامِ أميرِ المؤمنين عليه السلام .

ومن التّعازِى الجيِّدةِ قولُ القائل :

ومن لم يَزَلْ غَرَضًا للمنو ... نِ يَتْرُكه كلّ يومٍ عَميدًا[1]

فإنْ هُنّ أخطأنَه مرّةً ... فيوشِك مُخطِئها أن يَعودا

فبينا يَحيد وأخطأنَهُ ... قصدنَ فأعجلْنه أن يَحيدا

وقال آخر :

هو الدّهر قد جرّبتُه وعرفتُه ... فصبرًا على مكروهه وتجلّدا

وما الناسُ إلّا سابقٌ ثم لاحقٌ ... وفائتُ موتٍ سوف يَلحقُه غدا

وقال آخر :

أيُّنا قدّمتْ صُرُوفُ الليالى ... فالذى أخّرتْ سريعُ اللّحاقِ

غَدَراتُ الأيّام منتزِعاتٌ ... عُنقَينا من أنسِ هذا العِناقِ[2]

ابنُ نُباتةَ السّعدىّ :

نُعلّل بالدّواء إذا مَرِضْنا ... وهل يَشفى من الموتِ الدّواء !

ونَختارُ الطبيبَ وهل طبيبٌ ... يؤخّر ما يقدِّمه القضاء !

وما أنفاسُنا إلاّ حسابٌ ... وما حرَكاتُنا إلّا فَناء

البُحتُرِىّ :

إنّ الرزيّةَ فى الفقيد فإن هَفَا ... جزعٌ بلبِّك فالرّزيّة فِيكَا[3]

وَمَتى وجدتَ النّاس إلا تاركًا ... لحميه فى التُّرْب أو متروكا

لو ينجلى لك ذخرها من نكبةٍ ... جللٍ لأضحكَك الذى يُبكيكا

---

(١) رجل عميد : هده العشق .

(٢) حاشية ب : قوله : « عنقينا » التثنية باعتبار التقدم والتأخر .

(٣) ديوانه ٢ : ١٥٣ ، من رثائه لمحمد بن وهب .

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنُه : كيف شُكرُكَ لله تعالى على ما أخَذ من وديعته ، وعوّض من مثُوبته .

وعزّى عمر بنُ الخطاب أبا بكرٍ عن طفلٍ ، فقال: عوّضك اللهُ منه ما عوّضه منك ؛ فإنّ الطفل يعوّض من أبوَيْه الجنّة .

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ عزّى مصابا كان له مِثل أجْرِه » .

وقال عليه السلام : من كُنوز السِّرّ كِتمانُ للمصائب ، وكِتمانُ الأمراض وكتمانُ الصّدقة .

وقال شاعرٌ فى رِثاء ولدِه :

وسمَّيْتُه يَحْيَى ليَحْيَا ولم يكُنْ ... إلى رَدّ أمرِ اللهِ فيه سَبيلُ
تخيّرتُ فيه الفألَ حين رُزِقْتُه ... ولم أدْرِ أنّ الفألَ فيه يَفِيلُ

وقال آخر :

وهوّنَ وَجْدى بعد فقدِكَ أنّنى ... إذا شئتُ لاقيتُ امرأً مات صاحِبُهْ

آخر :

وقد كنتُ أرجو لو تملّيت عِيشةً ... عليكَ اللّيالى مَرّها وانتقالَها
فأمّا وقد أصبحتَ فى قَبْضة الرّدَى ... فقُلْ للّيالى فلتصِبْ مَن بدا لها

أخَذه المتنبي فقال :

قد كنتُ أشفِق من دَمْعى على بَصَرِى ... فاليوم كلُّ عزيز بعدكم هانا[1]

ومِثلُه لغيره :

فراقُك كنتُ أخشى فافترقْنا ... فمن فارقتُ بعدَك لا أبالِى

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٢

(٢٩٨)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلام عِنْدَ وقوفِهِ على قَبْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ ساعةَ دُفِنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليهِ وآله :

إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إلاَّ عَنْكَ ، وإنَّ الجَزَعَ لَقَبِيحٌ إلاَّ عَلَيْكَ ، وإنَّ المُصابَ بك لَجَلِيلٌ ، وإنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ .

***

الشرح :

قد أخذَتْ هذا المعنى الشُّعراء ؛ فقال بعضهم :

أمسَتْ بجَفْنى للدُّموع كُلُومُ   حَزَناً عليكَ وفى الخُدودِ رُسومُ[(١)]
والصبرُ يُحمَد فى المَواطِنِ كلِّها   إلّا عليــــكَ فإنّه مذمومُ

وقال أبو تمّام :

وقد كان يُدْعى لابسُ الصَّبرِ حازماً   فقد صارَ يُدْعَى حازِماً حين يَجزَعُ[(٢)]

وقال أبو الطيّب :

أجِدُ الجفاءَ على سِواكَ مُروءةً   والصَّبرَ إلاّ فى نَواكَ جميلاَ[(٣)]

وقال أبو تمّام أيضاً :

الصبرُ أجمَلُ غـــيرَ أنّ تلذُّذاً   فى الحبِّ أولَى أن يكونَ جميلا[(٤)]

---

(١) الكامل : ٢ : ٤١ ، ونسبهما إلى محمد بن عبد الله العتبي
(٢) ديوانه ٣٣٣ (بشرح الخياط) ، التبيان ١ : ٢٤٦
(٣) ديوانه ٣ : ٢٣٣   (٤) ديوانه ٢٤٢ (بشرح الخياط) .

وقالت خنساء أخت عمرو بن الشَّريد :

ألا يا صَخْرُ إنْ أبكَيتَ عَيْنى ... لقد أضحكتَنِي دهراً طويلاَ

بكيتُكَ في نساء مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقَّ من أبْدَى العَويلاَ

دفعتُ بكَ الجليلَ وأنتَ حَيٌّ ... فمن ذا يَدْفَعِ الخطْبَ الجليلا !

إذا قبُح البكاء على قتيلٍ ... رأيتُ بكاءكَ الحسَنَ الجميلا[1]

ومثلُ قوله عليه السلام : « وإنه بعدك لقليل » ، يعني المصاب ، أي لا مُبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك ، قولُ بعضهم :

قد قلتُ للموتِ حين نازَلَهُ ... والموتُ مِقدامةٌ على البُهَمِ

اذهَبْ بمن شئتَ إذْ ظفرتَ به ... ما بعد يحيى للموتِ من ألمِ

وقال الشَّمَرْدَل اليَرْبُوعيّ يرثى أخاه :

إذا ما أتى يومٌ من الدّهر بيننا ... فحيّاكَ عنّا شرْقُهُ وأصائلُهْ[2]

أبَى الصّبرَ أنّ العين بعدكَ لم تزَلْ ... يُحالِفُ جَفْنَيْها قذًى ما تُزايِلُهْ

وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلكَ مَن بكَى ... فأنتَ على من ماتَ بعدكَ شاغِلُهْ

أعينيَّ إذْ أبكاكما الدهرُ فابْكِيا ... لمن نَصْرُه قد بانَ عنّا ونائِلُهْ

وكنتُ به أغشَى القِتال فعزّنِي ... عليه من المِقْدارِ مَنْ لا أقاتِلُهْ

لعمْرُكَ إنّ الموتَ مِنّا لمُولَعٌ ... بمن كان يُرجَى نفعُهُ وفواضِلُهْ

قوله :

* فأنتَ على من ماتَ بعدكَ شاغلُهْ *

هو المعنى الذى نحن فيه ، وذكرنا سائرَ الأبيات لأنّها فائقة بعيدةُ النظير .

---

(١) ديوانها ٢٢٥ (٢) أمالي اليزيدي ٣٢ ، ٣٣ .

وقال آخر يرثي رجلا اسمه جارية :

أجاريَ ما أزدادُ إلاّ صبابةً عليكَ وما تزدادُ إلاّ تنائيا
أجاريَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميّتٍ فديتُكَ مسْرورا بنفسي وماليا
وقد كنتُ أرجو أن أراكَ حقيقةً فحــال قضاء الله دون قضائيا
ألا فليمُتْ من شاء بعدَكَ إنما عليكَ من الأقدار كان حِذاريا

ومن الشِّعر المنسوب إلى عليٍّ عليه السلام — ويقال : إنه قاله يومَ ماتَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله :

كنتَ السّوادَ لناظِري فبَكى عليك النّاظِرُ
من شاء بعدَكَ فليمُتْ فعليكَ كنتُ أحــاذِرُ

ومن شِعر الحماسة :

سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعي فإن تَغِضْ فحسْبُكَ مني ما تُجِنُّ الجوانحُ
كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولم تَقُمْ على أحــدٍ إلاّ عليكَ النّوائحُ
لئن حَسُنَتْ فيكَ المراثي بوَصفِها لقد حَسُنَتْ مِن قبلُ فيك المدائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازِعٌ ولا بسرُورٍ بعد مَوْتِك فارِحُ

الأصل :

لَا تَصْحَبِ المَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ .

***

الشرح :

المائق : الشديدُ الحمْق ، والموق : شدّة الحُمْق ، و إنما يزين لك فعله لأنّه يعتقد فعلَه صوابا بحُمْقه فيزيِّنه لك كما يزيّن العاقلُ لصاحبه فِعلَه لاعتقاد كونه صوابا ، ولكن هذا صوابٌ فى نَفْس الأمر ، وذلك صوابٌ فى اعتقاد المائق ، لا فى نفس الأمر ؛ وأمّا كونه يودّ أن تكون مِثله فليس معناه أنّه يَوَدّ أن تكون أحْمَق مثله ، وكيف وهو لا يَعلَمُ من نفسِه أنّه أحمق ، ولو عَلِم أنه أحمق لما كان أحمق ، و إنما معناه أنّه لحبّه لك ، وصُحْبته إيّاك ، يودّ أن تكون مِثله ، لأنّ كل أحدٍ يودّ أن يكون صديقُه مِثل نفسِه فى أخلاقه وأفعالِه ، إذ كل أحد يَعتقِد صوابَ أفعاله ، وطهارَة أخلاقه ، ولا يَشعر بعيبِ نفسِه لأنه يهوَى نفسَه ، فعَيبُ نفسه مطويٌّ مستور عن نفسِه ، كما تخفَى عن العاشق عُيوبُ المعشوق .

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ وقَدْ سُئِلَ عَنْ مَسافَةِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، فقَالَ : مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ.

***

الشَّرْحُ :

هكذا تقول العَرَب « بينهما مَسيرة يوم » بالهاء ، ولا يقولون « مسيرُ يوم » لأنّ المسيرَ المَصْدَر ، والمَسِيرة الاسم.

وهذا الجوابُ تسمّيه الحكماء جواباً إقناعيّاً ، لأن السائل أراد أن يذكر له كميّة المسافة مُفصّلة ، نحو أن يقول : بينهما ألفُ فرسخ أو أكثر أو أقلّ ، فعدَل عليه السلام عن ذلك وأجابه بغيره ، وهو جواب صحيح لا رَيبَ فيه ، لكنّه غير شافٍ لغليلِ السائل ، وتحته غرَضٌ صحيح ، وذلك لأنه سأله بحضور العامّة تحتَ المِنبر ، فلو قال له : بينهما ألفُ فرسخ مثَلا ، لكان للسائِل أن يُطالبَه بالدّلالة على ذلك ، والدّلالة على ذلكَ يشقّ حصولُها على البَديهة ، ولو حصلتْ لَشقّ عليه أن يُوصلها إلى فهمْ السائل ، ولو فهمها السائلُ لما فهمتْها العامّة الحاضرون ، ولصارَ فيها قولٌ وخِلاف ، وكانت تكون فِتنة أو شبيها بالفتْنة ، فعَدَل إلى جواب صحيح إجماليّ أسكت السائل به ، وقَنع به السامعون أيضا وَاستحسنَوه ، وهذا من نتائج حِكمتِه عليه السلام .

(٣٠١)

الأصلُ :

أَصْدِقاؤُكَ ثَلاثةٌ ، وَأَعْداؤُكَ ثَلاثَةٌ ؛ فَأَصْدِقاؤُكَ : صَدِيقُكَ ، وَصَدِيقُ صَدِيقِك ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ . وَأَعْداؤُكَ : عَدُوُّكَ ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذا المعنى .

والأصل فى هذا أنّ صديقك جارٍ مجرَى نفسك ، فاحكم عليه بما تحكُم به على نفسك ، وعدوك ضدّك ، فاحكُمْ عليه بما تحكُم به على الضدّ ، فكما أنّ من عاداك عدوّ لك ، وكذلك مَنْ عادى صديقَك عدُوّ لك ، وكذلك من صَادَق صديقَك فكأنّما صادَق نفسَك ، فكان صديقا لك أيضا ، وأما عدوُّ عدوِّك فضدّ ضدّك ؛ وضِدُّ ضِدّك ملائمٌ لك ، لأنّك أنتَ ضِدٌّ لذلك الضدّ ، فقد اشتركتُما فى ضِدّية ذلك الشخص ، فكنتما متناسِبَين ، وأمّا مَنْ صادقَ عدوّك فقد ماثلَ ضِدّك ، فكان ضِداً لك أيضا ، ومثلُ ذلك بَياضٌ مخصوص يُعادِى سَواداً مخصوصاً و يضادّه .

وهناك بياض ثانٍ هُوَ مِثلُ البياضِ الأوّل وصديقُه ، وهناك بياضٌ ثالثٌ مِثلُ البياض الثانى ، فيكون أيضا مِثل البياض الأوّل وصديقه ، وهناك بَياضٌ

رابعٌ تأخذه بالاعتبار ضدّاً للسواد المخصوص المفروض ، فإنه يكون مماثِلا وصَديقا للبياض الأوّل ، لأنه عدو عدوّه ؛ ثم نَفرِض(١) سوادا ثانيا مضادًّا للبياض الثانى ، فهو عدوٌّ للبياض الأوّل ، لأنه عدوٌّ صديقه ، ثمّ نفرِض سوادا ثالثا هو مُماثِلُ السّوادِ المخصوص المفروض ، فإنه يكون ضدًّا للبياض المفروض المخصوص ، لأنّه مِثل ضدّه ؛ و إن مثّلت ذلك بالحروف كان أظهرَ وأ كشف .

---

(١) ب : « نقضى » تحريف

(٣٠٢)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لِرَجُلٍ رَآهُ يَسْعَى على عَدُوٍّ لَهُ بِمَا فيه إضْرَارٌ بِنَفْسِه : إنَّما أَنْتَ كالطَّاعن نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ .

***

الشرح :

هذا يختلف باختلاف حالِ السّاعي ، فإنه إن كان يضرّ نفسَه أولاً ثمّ يضرّ عدوَّه تَبَعاً لإضرارِه بنفسِه ، كان ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ كالطاعنِ نفسَه لِيقتلَ رِدْفه ؛ والرِّدْفُ : الرجلُ الذى تَرتدِفه خلفَك على فرَس أو ناقةٍ أو غيرهما ، وفاعل ذلك يكون أسْفه الخلق وأقلّهم عقلا ، لأنه يبدأ بقتل نفسه و إن كان يضرّ عدوّه أولا ، يحصل فى ضمن إضراره بعدوّه إضراره بنفسه ، فليس يكون مثالُ أمير المؤمنين عليه السلام منطبقا على ذلك ، ولكن يكون كقولى فى غزلٍ من قصيدةٍ لى :

إن تَرْمِ قلبى تُصْمِ نفسَك إنّه ... لكَ موطنٌ تأوِى إليه ومَنزلُ[1]

---

(١) تصمى أى تصيب .

(٣٠٣)

الأصْلُ :

ما أكْثَرَ العِبَرَ وَأقَلَّ الاعْتِبَارَ !

***

الشَّرحُ :

ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها ! ولا ريب أنْ العبَر كثيرة جدًّا، بل كلّ شيء في الوجود ففيه عِبْرة، ولا ريب أن المعتبرين بها قليلون ، وأنّ الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى ، وأرداهم حبُّ الدنيا ، وأسكرهم خمرُها؛ وإنّ اليقين في الأصل ضعيف عندهم ، ولولا ضعفه لكانتْ أحوالهم غيرَ هذه الأحوال .

(٣٠٤)

الأصلُ :

مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظَلَمَ ، ولا يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَن خاصَمَ .

الشَّرحُ :

هذا مثل قوله عليه السلام فى موضع آخر : الغالب بالشرّ مغلوب .

وكان يقال : ما تسابّ اثنان إلا غلبَ ألأمُهما .

وقد نهى العلماء عن الجدل والخصومة فى الكلام والفقه ؛ وقالوا : إنهما مظنّة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة ، والمجادل يكره أن يقهرَه خصمُه ؛ فلا يستطيع أن يتّقى الله .

وهذا هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه .

وأما الخصومة فى غير العلم كمنازعة النّاس بعضِهم بعضاً فى أمورهم الدنياوية ، فقد جاء فى ذمّها والنّهى عنها شىء كثير ، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم قولا كافيا ؛ على أنّ منهم مَنْ مدح الجهل والشرّ فى موضعهما .

وقال الأحنف : ماقلّ سفهاء قوم إلّا ذلّوا .

وقال بعض الحكماء : لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حُجْزَتِهِ قيراطين من جَهْل ؛ فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل . وقالوا : الجاهل من لا جاهل له .

وقال الشاعر :

إذا كنت بين الجهلِ والحلم قاعــداً ... وخُيِّرْتَ أنَّى شئت فالعلم أفضـلُ
ولكن إذا أنصفتَ مَنْ ليس منصفاً ... ولم يرضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثَلُ
إذا جاءنى مَنْ يطلب الجهلَ عامداً ... فإنى سأعطيه الّذى هو سـائلُ

الأصل :

مَا أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ اللهَ العَافِيَةَ .

***

الشرح :

هذا فتحٌ لباب التوبة وتطريق إلى طريقها ، وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بها ، ومعنى الكلام أنّ الذّنب الذى لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغى للإنسان ألّا يهتم به ، أى لاينقطع رجاؤه عن العفو وتأميله الغفران، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلاً ، ويستغفر الله ، ويندم ويعزم على ترك المعاودة ، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصى ، والعون على الطاعة ، فإنه إذا فعل ذلك بنيّة صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقابُ ذلك الذنب .

وفى هذا الكلام تحذيرٌ عظيم من مواقعة الذنوب ، لأنه إذا كان هذا هو محصول الكلام ، فكأنّه قد قال : الحذَرَ الحذَرَ من الموت المفاجئ قبل التوبة، ولا ريب أنّ الإنسان ليس على ثقة من الموت المفاجئ قبل التوبة ، إنه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتةً ، فالإنسان إذا كان عاقلاً بصيرا يتوقّى الذنوب والمعاصىَ غاية التوقّى .

الأصْلُ :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ يُحَاسِبُ اللهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ؟ فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ .

فَقِيلَ : كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ ؟ فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا جواب صحيح ، لأنه تعالى لا يرزقهم على الترتيب،أعنى واحداً بعد واحد ، وإنما يرزقهم جميعَهم دفعةً واحدة ، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة .

والجواب الثانى صحيح أيضا ؛ لأنه إذا صحّ أن يرزقنا ولا نرى الرّازق ، صحّ أن يحاسبنا ولا نرى المحاسب .

فإن قلت : فقد ورد أنهم يمكثون فى الحساب ألف سنة ؛ وقيل أكثر من ذلك ، فكيف يجمع بين ماورد فى الخبر وبين قولكم : « إن حسابهم يكون ضربة واحدة » ! ولا ريب أنّ الأخبار تدلّ على أن الحساب يكون لواحدٍ بعد واحد .

قلت : إن أخبار الآحاد لا يُعمل عليها ؛ لا سيّما الأخبار الواردة فى حديث الحساب والنار والجنّة ،فإن المحدّثين طعنوا فى أكثرها ، وقالوا : إنها موضوعة ، وجملة الأمر أنه ليس هناك تكليف ، فيقال إن ترتيب المحاسبة فى زمانٍ طويل جدًّا يتضمّن لطفا فى التكليف فيفعله البارى تعالى لذلك ، وإنّما الغرض من المحاسبة صدْق الوعد وما سبق من القول ؛ والكتاب العزيز لم ينطق إلا بالمحاسبة مجملةً ، فوجب القول بالمتيقَّن المعلوم فيها ورفض مالم يثبت .

(۳۰۷)

الأصل :

رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ .

***

الشرح :

قالوا فى المَثَل : الرسول على قدر المرسِل .

وقيل أيضا : رسولُك أنتَ ، إلا أنه إنسانٌ آخَر .

وقال الشاعر :

تخيَّرْ إذا ما كنتَ فى الأمر مرسِلاً ... فمبلغُ آراء الرجال رسولُها
وروِّ وفكِّرْ فى الكتاب فإنما ... بأطراف أقلامِ الرجال عقولُها

(٣٠٨)

الأصل :

مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ ، بِأَحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ الْمُعَافَى الَّذِي لَا يَأْمَنُ الْبَلَاءَ .

***

الشرح :

هذا ترغيب فى الدعاء، والذى قاله عليه السلام حق ، لأن المعافى فى الصورة مبتلى فى المعنى ، ومادام الإنسان فى قيد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة ، ثم لا يأمن البلاء الحسّى ، فوجب أن يتضرع إلى الله تعالى أنه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوى، ومن بلائها الحسى فى كل حال .

ولا ريب أن الأدعية مؤثرة ، وأن لها أوقات إجابة ، ولم يختلف المليون [1] والحكماء فى ذلك .

---

(١) فى ا : « أصحاب الملل »

(٣٠٩)

الأصْلُ :

النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا ، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ .

***

الشرح :

قد قال عليه السلام في موضع آخر : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

وقال الشاعر :

ونحنُ بَنِي الدُّنيا غُذِينَا بِدَرِّها وما كنتَ منه فهو شيء محبَّبُ[1]

(١) الدر : اللبن ، والكلام على الاستعارة .

(٣١٠)

الأصْـلُ :

إنَّ المِسْـكِينَ رَسُولُ اللهِ ، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللهَ ، وَمَنْ أعْطَاهُ فَقَدْ أعْطَى اللهَ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا حضٌّ على الصدقة ، وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع فيها .

وفى الحديث المرفوع : « اتّقوا النّار ولو بشِقِّ تَمْرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « لو صَدَق السّائل لما أفلح مَنْ ردّه » .

وقال أيضا : « مَنْ ردّ سائلا خائبا لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » .

وكان صلى الله عليه وآله لا يَكِلُ خَصْلتيْن إلى غيره : كان يصنع طَهُوره [1] بالّليل ويخمُره ، وكان يناول المسكين بيده .

وقال بعض الصالحين : مَنْ لم تكن نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته ، وضرب بها وجهه .

وقال بعضهم : الصلاة تبلّغك نصفَ الطريق ، والصّوْم يبلّغك باب المَلِك ، والصدقة تُدخِلك عليه .

---

(١) الطهور : الماء الذى يتطهر به . ويخمره : يستره .

(٣١١)

الأصل:

مازَنَى غَيورٌ قطُّ.

***

الشرح:

قد جاء في الأثر: مَنْ زنى زُنِيَ به ولو في عَقِبِ عقِبه.

وهذا قد جُرِّب فوجد حقاً، وقلَّ مَنْ ترى مِقداماً على الزِّنا إلا والقول في حَرَمه وأهلِه وذوي محارمه كثير فاشٍ.

والكلمة التي قالها عليه السلام حقّ، لأنَّ مَنْ اعتاد الزنا حتى صار دُرْبته وعادته وألِفَته نفسه، لابدّ أن يهون عليه حتى يظنّه مباحاً، أو كالمباح، لأنَّ مَنْ تدرّب بشيء ومَرَنَ عليه زال قبحه من نفسه، وإذا زال قبحُ الزنا من نفسه لم يعظم عليه مايقال في أهله، وإذا لم يعظم عليه ما يقال في أهله، فقد سقطت غَيْرتُه.

(٣١٢)

الأصْلُ :

كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِساً !

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى هذا المعنى .

وكان عليه السلام يقول : إن عَلَيّ من الله جُنّة[1] حصينة ، فإذا جاء يَوْمِى أسلمتْنى ؛ فحينئذ لا يَطيش السّهم ، ولا يبرأ الكَلْم .

والقول فى الأجل وكونه حارسا شُعبة من شُعَب القول فى القضاء والقَدَر ، وله موضع هو أملكُ به[2] .

(١) الجنة بالضم : كل ما وقى.

(٢) ا : « أولى به » .

الأصْلُ :

يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الْحَرْبِ .

* * *

قَالَ السَّيِّدُ : وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى قَتْلِ الْأَوْلَادِ ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى سَلْبِ الْأَمْوَالِ .

* * *

الشرح :

كان يقال : المال عِدْل النفس .

وفي الأثر أنّ مَنْ قُتِل من دون ماله فهو شهيد .

وقال الشاعر :

لنا إبلٌ غُرٌّ يضيق فضاؤها ... ويغبرّ عنها أرضُها وسماؤها
فمن دونِها أن تستباحَ دماؤنا ... ومن دوننا أن تُستباح دماؤها
حِمًى وقِرًى فالموت دون مَرامِها ... وأيسر أمر يومَ حُقَّ فناؤها

(٣١٤)

الأصل :

مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاءِ ، وَالقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَى المَوَدَّةِ مِنَ المَوَدَّةِ إِلَى القَرَابَةِ .

* * *

الشرح :

كان يقال : الحبّ يتوارث ، والبُغض يَتوارث .

وقال الشاعر :

أبقَى الضَّغائِنَ آباءٌ لنا سلفُوا ... فلن تبيدَ وللآباء أبناء

ولا خير فى القرابة من دون مودّة .

وقد قال القائل لمّا قيل له : أيّما أحبُّ إليك ؟ أخوك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحبّ أخِي إذا كان صديقا .

فالقربى محتاجة إلى المودّة ، والمودة مستغنِية عن القُربَى[1] .

---

(١) ا : « القرابة » .

الأصل :

أَتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ .

***

الشرح :

كان يقال : ظَنُّ المؤمن كِهانة .

وهو أثرٌ جاء عن بعض السلف .

قال أوس بن حجر [١] :

الألمعىُّ الذى يَظُنُّ [٢] بك الظَّنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا [٣]

وقال أبو الطيّب [٤] :

ذَكىٌّ تَظَنّيه طليعةُ عينِه يَرَى قلبُه فى يومه ما يَرَى غدَا [٥]

---

(١) ديوانه ٥٣

(٢) الديوان : « لك » . (٣) الألمعى : الحديد اللسان والقلب ؛ قال فى الكامل : « وقد أبانه بقوله : « الذى يظن بك الظن » . (٤) ديوانه ١ : ٢٨٢

(٥) التظنى : هو التظنن ، قلبت النون الثانية ياء . والطليعة : الذى يطلع القوم على العدو فإذا جاءهم العدو أنذرهم .

(٣١٦)

الأصْلُ :

لَا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا كلام فى التوكّل ، وقد سبق القول فيه .

وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيّع أمرَ آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما كَتَب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى جود[1] العبد : الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال بعضهم : متى رضيتَ بالله وكيلا ، وجدت إلى كلّ خير سبيلا[2] .

(١) فى ب : « وجود » تحريف . (٢) زاد بعدها فى ا : « واضحاً » .

وقالَ عليه السلامُ لأنَسِ بْنِ مالكٍ ، وقد كان بَعَثَهُ إلى طلحةَ والزُّبير لمَّا جاء إلى البصرةِ يُذَكِّرُهُمَا شيئاً قد سمِعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وآلهِ فى معناهما، فَلَوَى عن ذلك فرجَعَ ، فقالَ : إِنِّى أُنْسِيتُ ذَلِكَ ٱلْأَمْرَ ، فقال عليه السلامُ :

إنْ كنتَ كاذباً فضربَكَ اللهُ بها بيضاءَ لامعةً لا تُواريها العِمامةُ .

***

قالَ : يعنى البرصَ ، فأصاب أنساً هـذا الدَّاء فيما بَعْدُ فى وجهِهِ، فـكانَ لا يُرَى إلا مُتَبَرْقِعاً .

***

الشَّــرْحُ :

المشهور أنّ عليا عليه السّلام ناشد الناس الله فى الرّحبة بالـكوفة ، فقال : أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لى وهو منصرف من حَجّة الوداع : « من كنتُ مولاه فعليّ مولاه ، اللهمّ وَالِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه » ! فقام رجال فشهدوا بذلك ، فقال عليه السلام لأنس بن مالك : لقد حضرتها ، فما بالُك ! فقال : يا أميرَ المؤمنين كبرتْ سنّى ، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره ؛ فقال له : إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العمامة ، فما مات حتى أصابه البرص .

فأما ماذكره الرضىّ من أنّه بعث أنسا إلى طلحة والزبير فغيرُ معروف ، ولو كان قد بعثه ليذكّرهما بكلام يختصّ بهما من رسول الله صلى الله عليه وآله لما أمكنه أن

يرجع ، فيقول : إنّى أنسيتهُ ، لأنّه مافارقه متوجّها نحوها إلا وقد أقرّ بمعرفته وذكره ، فكيف يرجع بعد ساعة أو يوم فيقول : إنى أنسيته ، فينكر بعد الإقرار ! هذا مما لا يقع .

وقد ذكر ابنُ قتيبة حديث البرص ، والدعوة التى دعا بها أمير المؤمنين عليه السلام على أنس بن مالك فى كتاب " المعارف " فى باب البُرْص[1] من أعيان الرجال، وابن قتيبة غير متّهم فى حقّ علىّ عليه السلام ، على المشهور من انحرافه عنه .

(١) المعارف ٥٨٠

(٣١٨)

الأصْلُ :

إنَّ لِلقُلُوبِ إقبالاً وَإدبارًا ، فَإذَا أقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ ، وَإذَا أدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الفَرَائِضِ .

***

الشَّرْحُ :

لا ريب أنَّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ؛ وتقْبل تارةً على العِلمِ وعلى العَمَل ، وتُدبِر تارةً عنهما .

قال عليّ عليه السلام : فإذا رأيتموها مقبلة أى قد نشِطتْ وارتاحت للعمل فاحملوها على النّوافل ؛ ليس يعنى اقتصروا بها على النافلة ، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك . وإذا رأيتموها قد ملّت العمل وسئمتْ فاقتصروا بها على الفرائض ، فإنه لا انتفاع بعمل لا يحضُر القلبُ فيه

(٣١٩)

الأصْلُ :

فى القُرْآنِ نَبأُ ما قَبْلَكُمْ ، وخَبَرُ ما بَعْدَكُمْ ، وحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

هذا حقٌّ ؛ لأن فيه أخبار القرون الماضية ، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلة ، وفيه أخبار كثيرة شرعيّة ؛ فالأقسام الثلاثة كلُّها موجودة فيه .

الأصل :

رُدُّوا الحجَرَ مِنْ حَيْثُ جاء ، فإنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إلاَّ الشَّر .

* * *

الشرح :

هذا مثل قولهم فى المثل : إن الحديد بالحديد يُفلَح وقال عمرو بن كُلثوم .

ألاَ لا يَجْهَلَنْ أحـدٌ علينا ... فنَجهلَ فوق جهل الجاهلينا[1]

وقال الفِنْد الزِّمّانىّ :

فلما صرّح الشّرّ ... فأمسى وهوَ عُريانُ[2]
ولم يبقَ سِوى العُدْوا ... نِ دِنّاهُمْ كما دانُوا
وبعض الحِلم عند الجهـ ... ـلِ للذّلّة إذعـان
وفى الشـرّ نجاة حيـ ... ـنَ لا ينجيك إحسانُ

وقال الأحنف :

وذِى ضِغْنٍ أمتّ القولَ عنـه ... بحِلمى فاستمرّ على المَقالِ
ومن يَحْـلُمْ وليس له سفيهٌ ... يُلاقِ المعضلاتِ من الرّجالِ

---

(١) من المعلقة ص ٣٢٣ ـ بشرح التبريزى (٢) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ ـ ٢٦ ـ بشرح التبريزى قالها فى حرب البسوس .

وقال الراجز :

لا بد للسودُد من أرْماحِ ومِنْ عَديدٍ يتّقى بالرّاحِ

* ومن سفيهٍ دائم النُّباحِ *

وقال آخر :

ولا يلبثُ الجهّال أن يتهضّمُوا أخا الحلم ما لم يستعِنْ بجَهُولِ

وقال آخر :

ولا أتمنّى الشرَّ والشرُّ تاركى ولكن متى أُحمَلْ على الشرّ أركبُ

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِـكاتِبِهِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أبي رَافِعٍ :

أَلِقْ دَوَاتَكَ ، وأَطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ ، وفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ ، وقَرْمِطْ بَيْنَ الحُرُوفِ فإنَّ ذَلِكَ أجْدَرُ بِصَباحَةِ الخَطِّ .

***

الشَّـرْحُ :

لاقَ الحِبرُ بالـكاغَد يليق ، أي التصق ، ولِقتُهُ أنا يتعدّى ولا يتعدّى ، وهذه دواة مليقة : أي قد أُصلح مدادُها ، وجاء ألق الدّواة إلاقةً فهي مُليقة ، وهي لغة قليلة وعليها وردت كلمة أميرِ المؤمنين عليه السلام.

ويقال للمرأة إذا لم تحـظ عند زوجها : ما عاقَتْ عند زوجها ولا لاقَتْ ، أي ما ألتصقت بقلبه .

وتقول : هي جِلفة القلم بالـكسر، وأصل الجلف القشر، جلفتُ الطين من رأس الدنّ ، والجِلفة هيئة فتحة القلم التي يستمدّ بها المداد ، كما تقول: هو حَسَن الرِّكبة والجِلسة ونحو ذلك من الهيئات .

وتقول : قد قرمط فلانٌ خطوَه إذا مشى مشياً فيه ضيق وتقارُب ؛ وكذلك القول في تضييق الحروف .

فأما التفريج بين السطور فيُكسِب الخطَّ بهاء ووضوحا .

الأصْلُ :

أنا يَعْسُوبُ المُؤْمنينَ ، والمَالُ يَعْسُوب الفُجّارِ .

***

وقالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أنَّ المُؤْمِنِينَ يَتْبَعُونَنِي ، والفُجّار يَتْبَعُونَ المَالَ ؛ كما تَتْبَعُ النَّحْلُ يَعْسُوبَهَا ، وهُوَ رَئِيسُهَا .

***

الشَّرْحُ :

هذه كلمةٌ قالها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بلفظين مختلفين ، تارةً : « أنت يعسوب الدِّين » وتارة : « أنت يعسوب المؤمنين » ، والكلّ راجع إلى معنًى واحد ، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيّدَهم ، أو جعل الدِّين يتبعه ، ويقفُو أثرَه ؛ حيث سلك كما يتبع النحلُ اليعسوبَ .

وهذا نحو قوله : « وأدِرِ الحقَّ معه كيف دارَ » .

الأصلُ :

وقالَ لبعضِ اليهودِ حينَ قالَ لهُ : ما دَفَنتُمْ نبيَّكُمْ حَتَّى اختَلَفتُمْ فيه !

فقالَ لهُ :

إنَّما اختَلَفنا عَنْهُ لا فيهِ ؛ وَلَكِنَّكُمْ ماجَفَّتْ أرجُلُكُمْ منَ البَحْرِ حَتَّى قُلتُمْ لِنَبِيِّكُمْ : ﴿ اجعَلْ لَنَا إلهاً كَمَا لَهُمْ آلهةٌ قالَ إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[1] .

***

الشرحُ :

ما أحسن قوله : « اختلفنا عنه لا فيه » ، وذلك لأنّ الاختلاف لم يكن فى التوحيد والنبوّة ؛ بل فى فرُوع خارجة عن ذلك ، نحو الإمامة والميراث ، والخلاف فى الزكاة هل هى واجبة أم لا ؛ واليهود لم يختلفوا كذلك ، بل فى التوحيد الذى هو الأصل .

قال المفسرون : مرُّوا على قوم يعبدون أصناما لهم على هيئة البقَر ؛ فسألوا موسى أن يجعلَ لهم إلهاً كواحد منها ، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام ، وخلاصِهم من رقّ العبوديّة ، وعبورهم البحر ، ومشاهدةِ غَرَق فرعون ؛ وهذه غاية الجهل .

وقد روى حديث اليهوديّ على وجه آخر ؛ قيل : قال يهوديٌّ لعليّ عليه السلام : اختلفتم بعد نبيِّكم ولم يجفّ ماؤه ـ يعنى غسله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال عليه السلام : وأنتم قلتم : اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم .

(١) سورة الأعراف : ١٣٨

الأصْلُ :

وقِيلَ لَهُ عليهِ السَّلامُ : بأيِّ شَيءٍ غَلَبْتَ الأقْرَانَ ؟ قالَ : ما لَقِيتُ أحَداً إلا أعانَني على نَفْسِهِ .

* * *

قالَ الرَّضيُّ رحمهُ اللهُ تعالى : يُومِئُ بِذَلِكَ إلَى تَمَكُّنِ هَيْبَتِهِ في القُلُوبِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قالت الحكماء : الوهم مؤثِّر ، وهذا حقّ ، لأن المريض إذا تقرّر فى وهمه أن مرضه قاتل له ربّما هلك بالوَهم ، وكذلك مَنْ تلسبُه الحيّة ؛ ويقع فى خياله أنها قاتلته ؛ فإنه لا يكاد يسلم منها ، وقد ضربو لذلك مثالاً ، الماشى على جِذْع معترض على مهواة ؛ فإن وهمه وتخيُّله السقوط يقتضى سقوطه ؛ وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهْواة كمشيه عليه وهو ملقًى على الأرض ؛ لا فرق بينهما إلاّ الوَهْم والخوف والإشفاق والحذَر ، فكذلك الذين بارزوا عليّاً عليه السلام من الأقران ؛ لما كان قد طار صيتُه ، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول ، غلب الوهم عليهم ، فقصرت أنفسهم عن مقاومته ، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته ؛ وكان هو فى الغاية القصوى من الشّجاعة والإقدام ، فيقتحم عليهم ويقتلهم .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لابنِهِ محمّدِ بنِ الحنفيَّةِ :

يا بُنيَّ إنِّي أخافُ عليكَ الفقرَ ؛ فاستعذْ باللهِ منهُ ، فإنَّ الفقرَ منقصةٌ للدِّينِ ، مدهشةٌ للعقلِ ، داعيةٌ للمقتِ .

***

الشرح :

[نبذ من الأقوال الحكيمة في الفقر والغنى]

هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيرا ، ففضّل قومٌ الغنى ، وفضّل قومٌ الفقر .

فقال أصحاب الغنى : قد وصف الله تعالى المال ، فسمّاه خيراً ، فقال : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾(1) .

وقال ممتنّاً على عباده ، واعدا لهم بالإنعام والإحسان : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ (2) ﴾ .

وقال : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾(3) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « المال الحسب ، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال » .

وقال عليه السلام : « نعم العون على تقوى الله المال » .

---

(1) سورة ص ٣٢ (2) سورة نوح ١٢

(3) سورة المدثر ١٢ .

قالوا : ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيّأ حصولها إلا بالمال؛ كالحج والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد.

وقد جاء في الخبر: « خير المال سِكّة مأبورة (١) أو مُهرة مأمورة ».

وقالت الحكماء : المال يرفعُ صاحبَه وإن كان وضيعَ النسب ، قليل الأدب ، وينصره وإن كان جباناً ، ويبسط لسانه وإن كان عَيّاً ، به تُوصَل الأرحام ، وتصانُ الأعراض ، وتظهر المروءة ، وتتمّ الرياسة ، ويعمر العالم ، وتُبلَغ الأغراض ، وتدرَك المطالب ، وتُنال المآرب ؛ يصلك إذا قطعك النّاس ، وينصرك إذا خذلوك ، ويستعبد لك الأحرار ، ولولا المال لما بان كرمُ الكريم ، ولا ظَهر لؤم اللّئيم ، ولا شُكِر جواد ، ولا ذُمّ بخيل ، ولا صِين حريم ، ولا أدرك نعيم .

وقال الشاعر :

المـــال أنفعُ للفتى من عِلْمِه ... والفقرُ أقتلُ للفَتى من جَهْلِه
ما ضرّ مَنْ رفع الدّرَاهم قدره ... جهلٌ يناط إلى دناءةِ أصلِه

وقال آخر :

دعــوتُ أخي فولّى مشمئزًّا ... ولبّى دِرهمي لمّـــا دعوتُ

وقال آخر :

ولم أر أوفَى ذِمّةً من دراهمي ... وأصدقَ عَهْدا في الأمور العظائمِ
فكم خانَني خلٌّ وثقتُ بعهدِه ... وكان صديقًا لي زمانَ الدّرَاهمِ

وقال آخر :

أبو الأصفر المنقوش أنفعُ للفتى ... من الأصل والعِلم الخطير المقدّمِ

---

(١) السكة : الطريقة . والمأبورة : الملقحة ، وانظر نهاية ابن الأثير ١ : ١٠

وما مدح العلمَ امرؤٌ ظفرتْ به يَداه ولكنْ كلُّ مُقْوٍ ومعدِمِ

وقال الشاعر :

ولم أر بعد الدّين خيراً من الغِنى ولم أرَ بعد الكفر شرّاً من الفقرِ

وقال العتّابيّ : الناس لصاحب المال ألزمُ من الشّعاع للشمس ؛ وهو عندهم أرفع من السماء ، وأعذب من الماء ، وأحلى من الشّهد ، وأزكى من الوَرْد ؛ خطؤه صواب ، وسيئته حسنة . وقوله مقبول ، يُغشَى مجلسه ، ولا يُمَلّ حديثُه ، والمفلس عندهم أكذب من لمعان السّراب ، ومن رؤيا الكظّة ، ومن مرآة اللّقوة ، ومن سحاب تَمُّوز ، لا يسأل عنه إن غاب ، ولا يسلَّم عليه إذا قدم ؛ إن غاب شتموه ، وإن حضر طردوه ؛ مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة ؛ أثقل من الأمانة ، وأبغض من السائل المبرِم .

وقال بعض الشعراء الظرفاء ، وأحسن كل الإحسان مع خلاعته :

أصونُ دراهمِي وأذُبّ عنهَا لِعلمِي أنهـا سَيْفِي وتُرْسِي
وأذخرُهـا وأجمعُها بجهدِي ويأخذ وارثِي منها وعُرْسِي
فيأكلهـا ويشربُهـا هنيئاً على النّغمات من نَقْرٍ وَجَسِّ
ويقعد فوق قبرِي بعـد موتِي ولا يتصـدقنْ عنّي بفَلْسِ
أحبّ إليّ من قصـدى عظيماً كبيراً أصـله من عبد شمسٍ
أمدّ إليـه كفِّي مستميحاً وأصْبحُ عَبْـدَ خدمته وأمسِي
ويتركني أجرّ الرّجـلَ مِنّي وقد صارت كنفس الكلْب نفسِي

***

وقال أصحاب الفقر : الغِنَى سبب الطُّغيان ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (٢) .

وكان يقال : الغنى يورث البَطَر ، وغنى النفس خيرٌ من غنى المال .

وقال محمود البقّال :

الفقر خيرٌ فاتّسِعْ واقتصد ... إنّ من العِصْمَةِ ألّا تجِدْ

كَمْ واجدٍ أطلقَ وجدانُهُ ... عنانَهَ في بعض ما يُرِد

ومُدْمِنٍ للخمر غادٍ على ... سماع عُــــودٍ وغناه غَرِدْ

لو لم يجِدْ خمراً ولا مُسمِعاً ... يردّ بالماء غليــــلَ الـكَبِدْ

كَمْ من يدٍ للفقر عند امرئٍ ... طأطأ منه الفقر حتّى اقتصدْ .

وكان يقال : الفقر شعار الصالحين ، والفقر لباس الأنبياء .

ولذلك قال البحتري :

فقرٌ كفقر الأنبيـــــاء وغربةٌ ... وصبابةٌ ليس البلاء بواحد (٣)

وكان يقال : الفقر مُخِفّ ، والغنى مُثقل .

وفي الخبر : نجا المخفّون .

وما أحسن قول أبي العتاهية :

ألَمْ تر أنّ الفقر يُرجَى له الغنى ... وأن الغني يُخشَى عليه من الفقرِ

وقد ذم الله تعالى المال ، فقال : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة العلق ٦ ، ٧

(٢) سورة الإسراء ٨٣

(٣) ديوانه ١ : ١٦٨

(٤) سورة الأنفال ٢٨

وكان يقال : المال ملول الـمـال ، ميّال المال غاد ورائح ، طبع المال كطبع الصبيّ ، لا يوقف على وقت رضاه ، ولا وقت سخطه . المال لا ينفعك حتى يفارقك .

وإلى هذا المعنى نظر القائل :

وصاحبِ صدقٍ ليس ينفع قربُهُ ولا ودّه حتّى تفارقَه عَمْـــداً

— يعني الدينار .

وَمَا أَحْسَنَ ماقاله الأوّل :

وقد يُهلِكُ الإنسانَ حسنُ رِياشِهِ كما يُذبَح الطّاوُس من أجل ريشِهِ

وقال آخر :

رُوَيْدَكَ إنّ المـــال يُهلِك ربَّهُ إذا جمّ واستعلى وسُــدَّ طريقُهُ

ومن جاوزَ المـــاء الغزير مَجيئُهُ وسدَّ طريقَ المـــاء فهو غريقُهُ

(٣٢٦)

الأصل :

وقال لسائل سأله عن مسألة :

سَلْ تَفَقُّهاً ، وَلَا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ الْمُتَعَنِّتَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ .

* * *

الشرح :

قد ورد نهي كثير عن السؤال على طريق الإعنات .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له : من حَقّ العالم ألّا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنته في الجواب، ولا تضع له غامضات المسائل ، ولا تلحّ عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تُفْشِ له سرًّا ، ولا تغتابنّ عنده أحداً ، ولا تنقلنّ إليه حديثا ، ولا تطلبنّ عثرته ، وإن زلّ قبلت معذرته ، وعليك أن توقّره وتُعظّمه لله مادام حافظاً أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته .

وقال ابن سيرين لسائل سأله : سلْ أخاك إبليس ، إنك لن تسأل وأنت طالب رشد .

وقالوا : اللهمّ إنا نعوذ بك أن تُعْنِت كما نعوذ بك أن نُعْنَت ، ونستكفيك أن تَفضَح، كما نستكفيك أن نُفضَح .

وقالوا : إذا آنس المعلّم من التلميذ سؤال التعنّت حَرُم عليه تعليمه .

(٣٢٧)

الأصْـلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ رَضِىَ ٱللهُ عَنْهُ وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِى شَىْءٍ لَمْ يُوَافِقْ رَأْيَهُ :

لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَىَّ وَأَرَى ، فَإِذَا عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِى .

***

الشَّـرْحُ :

الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيراً ، فالواجب على مَنْ يشير عليه بأمرٍ فلا يقبله أن يطيعَ ويسلّم ويعلم أن الإمام قد عرَف من المصلحة مالم يعرف .

ولقد أحسن الصابى فى قوله فى بعض رسائله : ولولا فضلُ الرّعاة على الرّعايا فى بُعْدِ مَطْرَح النظرة ، واستشفاف عيب العاقبة ، لتساوت الأقدام، وتقاربت الأفهام ، واستغنى المأموم عن الإمام .

(٣٢٨)

الأصْلُ :

وَرُوِىَ أنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرَدَ الْكُوفَةَ قَادِماً مِنْ صِفِّينَ مَرَّ بِالشَّامِيِّينَ ، فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ عَلَى قَتْلَى صِفِّينَ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ حَرْبُ بْنُ شُرَحْبِيل الشَّامِيُّ ؛ وَكَانَ مِنْ وُجُوهِ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَيَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ ! أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّنِينِ !

وَأَقْبَلَ حَرْبٌ يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاكِبٌ، فَقَالَ لَهُ : ارْجِعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرنا نسب الشاميّين فيما اقتصصناه من أخبار صِفّين فى أول الكتاب .

والرّنين : الصوت ، وإنّما جعله فتنة للوالى لما يتداخله من العُجْب بنفسه والزّهو ، ولا ريب أيضا فى أنّه مذلّة للمؤمن ، فإنّ الرّجل الماشى إلى ركاب الفارس أذلّ الناس .

الأصلُ :

وَقالَ عليه السلامُ وَقدْ مرَّ بقَتْلَى الخوارِجِ يومَ النّهروانِ :

بُؤْساً لَكُم ! لقَدْ ضرَّكُمْ مَنْ غرَّكُمْ .

فقيلَ لهُ : منْ غرّهم يا أميرَ المؤمنينَ ؟

فقالَ :

الشّيْطـانُ المُضِلُّ ، والنّفسُ الأمّارةُ بالسُّوء ؛ غرّتْهُمْ بِالأمانِيِّ ، وفَسَحَتْ لهُمْ في المَعاصِي ، ووَعَدَتْهُمْ الإظْهارَ ؛ فاقتَحمَتْ بِهِمْ النّارَ .

***

الشّرحُ :

يقالُ: بؤسَى لزيد وبؤساً «بالتنوين» لزيد ، فبؤسى نظيره نُعمى ، و بؤساً نظيره نعمة ، ينتصب على المصدر .

وهذا الكلام ردّ على المجبّرة ، وتصريح بأن النفس الأمّارة بالسوء هي الفاعله .

والإظهار : مصدر ، أظهرته على زيد ، أي جعلته ظاهرا عليه غالبا له ، أي وعدتهم الانتصار والظفر .

(٣٣٠)

الأصْلُ :

اتَّقُوا معاصِيَ اللهِ فِي الخَلَوَاتِ ، فإنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الحاكِمُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنى عمن يشهد عنده ؛ فالإنسان إذن جديرٌ أن يتق الله حقّ تُقَاته ، لأنه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه[1] .

(١) ا : « فيه » .

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لما بلغهُ قتلُ محمّدِ بنِ أبي بكرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ :

إنَّ حزْنَنا عَلَيْهِ على قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ ، إلّا أنّهُمْ نَقِصُوا بَغِيضاً ؛ وَنَقِصْنا حَبِيباً .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكر مقتل محمد بن أبي بكر رضى الله عنه .

وقال عليه السلام : إن حزننا به فى العِظَم على قدر فَرَحِهم به ؛ ولكنْ وَقع التفاوت بيننا و بينهم من وجه آخر ؛ وهو أنّا نقصنا حبيبا إلينا ، وأما هم فنقصوا بغيضا إليهم .

فإن قلت : كيف نقصوا ، ومعلوم أن أهل الشام مانقصوا بقتل محمّد شيئاً لأنه ليس فى عددهم !

قلت : لمّا كان أهل الشام يعدُّون فى كل وقت أعداءهم و بغضاءهم من أهل العراق ، وصار ذلك العدد معلوما عندهم محصور الكمّيّة ، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحدا ، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم ، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر ، و يتمنَّوْن لهم الخطوب والأحداث ، كأنّه يقول : استراحوا من واحدٍ من جملة جماعةٍ كانوا ينتظرون موتهم .

الأصل :

وقال عليهِ السلامُ : العُمرُ الَّذِي أعْذَرَ اللهُ فيهِ إلى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً .

***

الشرح :

أعذَرَ الله فيه ؛ أي سَوَّغ لابن آدم أن يعتذر ، يعني أنّ ماقبل السّتّين هي أيّام الصِّبا والشبيبة والكُهولة ، وقد يُمكن أن يُعذر الإنسانُ فيه على اتّباع هَوَى النفس لغَلَبَة الشّهوة ، وشَرَه الحداثة ، فإذا تجاوز السّتّين دخَل في سِنّ الشَّيْخُوخة ، وذهبتْ عنه غُلَواء شِرَّتِه ، فلا عُذرَ له في الجهل .

وقد قالت الشعراء نحو هذا المعنى في دُون هذه السِّنّ الّتي عيّنها عليه السلام .

قال بعضهم :

إذا ما المرء قَصَّر ثمّ مرّتْ عليه الأربعونَ عن الرّجالِ
ولم يَلحَق بصالِحهم فدَعْهُ فليسَ بلاحِقٍ أُخرى اللّيالِي

(٣٣٣)

الأصلُ :

ماظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإثمُ بهِ ، والغالبُ بالشرِّ مغلوبٌ .

***

الشرحُ :

قد قال عليه السلام نحوَ هذا ، وذكرْناه في هذا الكتابِ : مَنْ قصّرَ في الخصومة ظَلَمَ ، ومَنْ بالَغَ فيها أَثِم .

الأصل :

إنَّ اللهَ سُبحانَهُ فَرَضَ فى أمْوَالِ الأغنياء أقْوَاتَ الفُقَرَاء ، فما جاعَ فَقِيرٌ إلّا بِما مُتِّع بِهِ غَنِيٌّ ، واللهُ تعالى سائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى الصَّدَقة وفضلِها وما جاء فيها .

وقد ورد فى الأخبار الصحيحة أنّ أباذرّ قال : انتهيتُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو جالس فى ظلّ الكعبة ، فلمّا رآنى قال : هم الأخسرون وربِّ الكعبة ! فقلت : مَنْ هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا ، إلا مَن قال هكذا وهكذا من بين يديه ومِن خلفِه وعن يمينه وعن شماله ، وقليلٌ ماهُم ، مامِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدّى زكاتَها إلّا جاءت يوم القيامة أعظمَ ما كانت وأسمَنَه ، تَنطَحُه بقرونها ، وتطأه بأظلافها ، كلّما نَفِدَتْ أخراها عادَتْ عليه أولاها حتّى يقضىَ الله بين الناس ..

الأصْـلُ :

الاسْتِغْناءُ عَنِ الْعُذْرِ ، أَعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

رُوِيَ «خيرٌ مِن الصِّدق» ، والمعنى : لا تَفعل شيئاً تعتذِر عنه و إن كنت صادقا فى العُذْر ، فألّا تفعلْ خـيرٌ لك وأعزُّ لك من أن تفعَل ثمَّ تعتذر و إن كنتَ صادقا .

ومِن حِـكَم ابن المعتزّ : لا يقوم عزُّ الغضب بذلّ الاعتذار .

وكان يقال : إيّاك أن تقومَ فى مقامِ مَعْذِرة ، فربَّ عذرٍ أسجل بذنب صاحبه .

اعتذَر رجلٌ إلى يحيى بن خالد ، فقال له : ذَنْبك يستغيثُ مِن عُذْرك .

ومن كلامِهم : مارأيت عُذْراً أشبَه بذَنب مِن هذا .

ومن كلامهم : أضرِبُه عَلَى ذَنبـه مائةً ، وأضربُهُ على عُذْره مائتين .

قال شاعرهم :

إذا كان وجهُ العُذْر ليس بواضحٍ   فإنّ اطّراحَ العُذْر خيرٌ من العُذْرِ

كان النَّخَعيّ يكره أن يُعتـذَر إليه ويقول : اسكُت مَعْذورا ، فإنّ المعـاذيرَ يحضُرها الـكَذِب .

الأصْلُ :

أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلهِ سُبْحَانَهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ .

***

الشَّرْحُ :

لا شُبْهةَ أنّ من القبيح الفاحشِ أن يُنعِم المَلِك على بعضِ رَعِيّته بمالٍ وعبيدٍ وسلاحٍ، فيجعلَ ذلك المالَ مادّةً لعصيانه والخروج عليه ، ثمّ يُحاربه بأولئك العبيد ، وبذلك السلاح بعينه .

وما أحسنَ ماقال الصابي في رسالته إلى سُبُكتُكِين من عِزّ الدّولة بختيار :

ولَيْت شِعرى بأىّ قدمٍ تواقفنا وراياتُنا خافقة على رأسِك ، ومماليكُنا عن يمينِك وشمالِك ، وخيلُنا موسومةٌ بأسمائنا تحتَك ، وثيابُنا محُوكَة فى طِرازِنا على جسَدك ، وسلاحُنا المَشحوذُ لأعدائِنا فى يدِك !

(٣٣٧)

الأصْـلُ :

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ الأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ الْعَجَزَةِ .

* * *

الشَّرح :

الأكياس : العُقلاء أولو الألباب .

قال عليه السلام : جعلَ اللهُ طاعتَه غنيمةَ هؤلاء ، إذا فرّط فيها العَجَزة المَخْذولون من النّاس ، كصَيْدٍ استذفَّ (١) لرَجُلين : أحدُهما جَلْد والآخر عاجز ، فقعَد عنه العاجز لعَجْزه وحِرْمانه ، واقتنَصه الجَلْد لشَهامتِه وقوّة جدِّه (٢) .

---

(١) استذفّ : تهيأ .

(٢) ا : « وقوته » .

الأصل :

السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ .

***

الشرح :

الوازعُ عن الشيء : الكافُّ عنه ، والمانعُ منه ، والجمع وَزَعة، مِثل قاتِل وقَتَلة .

وقد قيل هذا المَعنى كثيراً ، قالوا : لابدّ للنّاس مِن وَزَعة .

وقيل : مايَزَع اللهُ عن الدّين بالسّلطان أكثرُ ممّا يَزَع عنه بالقرآن . وتُنسَب هذه اللّفظة إلى عُثمانَ بنِ عفّان .

قال الشاعر :

لَا يَصلُح الناسُ فَوضَى لا سَرارةَ لهمْ ولا سَراةَ إذا جُهّالُهمْ سادُوا [١]

وكان يقال : السّلطان القاهر وإن كان ظالماً خيرٌ للرّعيّة وللملك من السّلطان الضعيف وإن كان عادِلا .

وقال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [٢] .

قالوا في تفسيره : أراد السلطان .

---

(١) للأفوه الأودى ، ديوانه ١٠ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية) .
(٢) سورة البقرة ٢٥١

الأصْلُ :

وقال عليه السلام فى صفة المؤمن :

بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ . أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً ، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً . يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ . طَوِيلٌ غَمُّهُ ، بَعِيدٌ هَمُّهُ ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ ، مَشْغُولٌ وَقْتُهُ ، شَكُورٌ صَبُورٌ . مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ . سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ ؛ نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ ؛ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه صفاتُ العارفين ؛ وقد تقدّم كثيرٌ من القول فى ذلك .

وكان يقال : البِشْر عُنوان النّجاح ، والأمْر الذى يختصّ به العارفُ أن يكونَ بِشْرُه فى وَجْهه وهو حزِين وحُزْنُه فى قلبه ، وإلّا فالبِشْر قد يوجَد فى كثيرٍ من الناس .

ثمّ ذكر أنّه أوسَع الناس صَدْرا ، وأذلّهم نَفْسا ، وأنه يكرَه الرِّفعة والصّيت .

وجاء فى الخبَر فى وصفهم : « كلّ خامِلٍ نُوَمة » .

وطُولُ الغَمّ وبُعد الهمّ من صِفاتهم ، وكذلك كَثْرةُ الصّمت وشَغْل الوَقْت بالذّكر والعِبادة ، وكذلك الشّكر والصّبر والاستغراق فى الفِكر وتدبُّر آياتِ الله تعالى فى خَلْقه ، والضَّنّ بالخلّة وقلّة المخالطَة والتوفّر على العُزْلة وحُسْن الخُلُق ولِين الجانب ، وأن يكون قَوِىّ النفس جدّا ، مع ذُلّ لِلناس وتَواضُعٍ بينهم ؛ وهذه الأمور كلّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم .

(٣٤٠)

الأصْلُ :

اَلْغِنَى اَلْأَكْبَرُ اَلْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ .

***

الشَّرْحُ :

هـذه الكلمة قد رُويتْ مرفوعةً ، وقد تقـدّم القولُ فى الطّمع وذمّه ، واليأسِ ومَدْحِه .

وفى الحديث المرفوع : « ازْهَدْ فى النّاس يُحبّكَ الله ، وازْهَدْ فيما فى أيدِي الناسِ يُحبّكَ الناس » .

ومن كلامِ بعضِهم : ما أكلتُ طعامَ واحدٍ إلّا هُنتُ عليه .

وكان يقال : نَعوذُ بالله من طَمَعٍ يُدْنِي إلى طَبَع (١) .

وقال الشاعر :

أرَحْتُ رُوحى من عَذابِ المِلاحْ لليأسِ روحٌ مِثل روح النَّجاحْ

وقال بعضُ الأدباء : هذا المعنى الّذى قد أطنَبَ فيه الناسُ ليس كما يزعمونه ، لَعمْرى إنّ لليأس راحة ، ولـكن لا كَراحةِ النّجاح ، وما هوَ إلّا كقَولِ مَن قال : لا أدرِي نِصفُ العِلم ، فقيل له : ولـكنّه النّصف الّذى لا ينفَع !

وقال ابن الفضل :

لا أمدَحُ اليأسَ ولـكنّه أروَحُ للقَلْب مِن المَطمَعِ

---

(١) الطبع : الدنس .

أفلحَ من أبصرَ روضَ المُنَى   يُرْعَى فلمْ يرْعَ ولم يرْتعِ

ومما يُروَى لعبد الله بنِ المُبارَك الزاهد :

قد أرحْنا واسترحْنا   مِن غُــدُوٍّ ورواحِ
واتِّصالٍ بأمــيرٍ   ووزيرٍ ذي سماحِ
بعفــافٍ وكفافٍ   وقُنوعٍ وصَــلاحِ
وجعلنــا اليأسَ مِفتا   حاً لأبوابِ النجاحِ

(٣٤١)

الأصْـلُ :

المَسئُول حُرٌّ حَتّى يَعِد .

***

الشَّـرْحُ :

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الوعد والمطل]

قد سَبَق القولُ فى الوَعد والمَطْل . ونحن نذكر هاهنا نُكتاً أخرى :

فى الحديث المرفوع : « مَن وَعَد وَعْدا فكأنما عَهِد عَهْداً » .

وكان يقال : الوعدُ دَيْنُ الكِرام ، والمَطْل دَيْنُ اللئام .

وكان يقال : الوعد شَبَكة من شِباك الأحرار يتصيّدون بها المَحامِد .

وقال بعضُهم : الوعد مَرَض المعروف ، والإنجاز بُرْؤه .

وقال يحيى بنُ خالد : الوعد سَحاب ، والإنجاز مَطَرُه .

وفى الحديث المرفوع : « عِدَة المؤمن عطيّة » .

وعنه عليه السلام : « لا تُواعِد أخاك موعداً لتُخلِفَه » .

وقال يحيى بن خالد لبنيه : يا بَنِيّ ، كونوا أُسْداً فى الأقوال ، نُجّازاً فى الأفعال ، ولا تَعِدُوا إلاّ وتُنجزوا ، فإنّ الحُرّ يثق بوعْد الكَرِيم ، وربما ادّان عليه .

وكان جعفرُ بنُ يَحيى يَكْرَه الوَعْد ويقول : الوعدمن العاجز ، فأمّا القادر فالنَّقْد .

وفى الحديث المرفوع : « مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْم » .

وقال ابن الفضل :

أَثْرَوْا ولم يَقْضوا دُيونَ غَريمهمْ ... واللؤْمُ كلُّ اللؤْم مَطلُ المُوسِرِ

وقال الآخر :

إذا أتَت العطيّةَ بعــدَ مَطْلٍ ... فلا كانت وإن كانتْ سَنِيَّةْ

وكان يقال : المَطْل يَسُدّ على صاحبه بابَ العُذْر ، ويوجِب عليه الأحْسَن والأكثر ، والتعجيل يُحسِّن سيئته ، ويَبسُط عُذْرَه فى التقليل .

وقال يحيى بن خالد لبَنيه : يا بَنِيّ لا تَمطُلوا معروفَكم ، فإنّ كثير العَطاء بعدَ المَطْل قليل ، وعجِّلوا فإنّ عُذْرَكم مقبول مع التعجيل .

ومن كلام الحسن بن سهل : المَطْل يُذهِب رَوْنَق البِرّ ، ويكدِّر صَفْوَ المعروف ، ويُحبِط أجر الصَّدَقة ، ويَعقِل اللِّسان عن الشكر . وللتعجيل حلاوة وإن قلّت العارفة ، ولذّة وإن صَغُرت الصَّنيعة ، وربّما عَرَض ما يَمنَع الإنجازَ مِن تعذُّرِ الإمكان ، وتغيُّر الزمان ، فبادر المُكْنَة ، وعاجِل القُدْرة ، وانتهز الفُرْصة .

وقال الشاعر :

تُحيلُ على الفَراغ قَضاء شُغْلِي ... وأنتَ إذا فَرَغْتَ تَكونُ مِثلى

فلا أُدعى بخادِمِك المُرَجّى ... ولا تُدْعَى بسيّدِنا الأجَــلِّ

وقال آخر :

لو عَلم الماطلُ أنّ المِطالَ ... فَقَدْ به يذهب طَعْمُ النَّوالْ

وإنّ أعْلى الـــبِرِّ ما ناله ... طالبُه نَقْدا عَقيبَ السؤالْ

عَجِّــلَ للسائلِ معروفَه ... مهنّأ من طُولِ قيلٍ وقالْ

(٣٤٢)

الأصْلُ :

لَوْ رَأَى العَبْدُ الأَجَلَ ومَصِيرَهُ ، لأَبْغَضَ الأَمَلَ وغُرُورَهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم من الكلام في الأمل ما فيه كفاية .

وكان يقال : واعجبا لصاحِبِ الأَمَلِ الطّويل ! وربما يكون كَفَنُه في يدِ النّسّاج وهو لا يعلم .

(٣٤٣)

الأصْلُ :

لِكُلِّ امْرِئٍ فى مالِهِ شَرِيكانِ : الْوَارِثُ والحوَادِثُ .

***

الشَّرحُ :

أَخَذَه الرَّضِىُّ فقال :

خُذْ من تُراثِكَ ما استطعتَ فإنما شُرَكاؤكَ الأيامُ والوُرّاثُ[1]

لم يقضِ حقَّ المالِ إلا معشرٌ نظروا الزمانَ يعيثُ فيه ، فعاثُوا

وقد قال عليه السلام فى موضعٍ آخَر : بَشِّرْ مالَ البخيل بحادثٍ أو وارث .

ورأيتُ بخطِّ ابن الخشاب رحمه الله على ظهر كِتاب « لعبدِ الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثمّ لحادِثٍ أو وارث » ، كأنّه يَمُنّ ضَنّه به ، أى لا أُخرجه عن يَدِى اختيارا .

(١) ديوانه ١ : ١٧٨

الأصل :

الدَّاعِي بلا عَمل ، كالرَّامِي بلا وَتَرٍ .

***

الشرح :

مَنْ خَلا من العَمَل فقد أَخَلّ بالواجبات ، ومن أَخَلّ بالوجبات فقد فسَق ، والله تعالى لا يَقبل دُعَاء الفاسق .

وشَبّهه عليه السلام بالرَّامي بلا وَتر ، فإن سهمه لا يَنفذ [1] .

(١) ا : « فإن سهامه » .

الأصلُ :

الْعِلْمُ عِلْمَانِ : مُطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ ، إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ .

* * *

الشَّرحُ :

هذه قاعدةٌ كلّيّة مذكورةٌ فى الكتب الحكميّة ، إنّ العلومَ منها ماهو غريزىّ ، ومنها ماهو تكليفى ؛ ثمّ كلٌّ واحدٍ من القسمين يختلف بالأشدّ والأضعف ، أما الأوّل فقد يكون فى النّاس من لا يحتاج فى النّظر إلى ترتيب المقدّمات ، بل تنساق النتيجةُ النظريّة إليه سَوْقا من غير احتياج منه إلى التأمّل والتدبّر ، وقد يكون فيهم مَنْ هُو دونَ ذلك ، وقد يكونُ مَن هُو دُون الدُّون ، وأما الثانى فقد يكون فى النّاس من لا يُجدِى فيه التعليم ، بل يكونُ كالصّخرة الجامدةِ بلادةً وغباوةً ، ومنهم من يكون أقلّ تبلُّدا وجُنوحَ ذهْن من ذلك ، ومنهم مَنْ يكون الوَقْفة عندَه أقلّ ، فيكون ذا حالٍ متوسّطة ، و بالجملة فاستِقراء أحوالِ النّاس يَشهد بصحّة ذلك .

وقال عليه السلام : ليس يَنفَع المسموعُ ، إذا لم يكن المطبوع ، يقول : إذا لم يكن هناك أحوالُ استعدادٍ لم ينفَع الدَّرْس والتّكرار ، وقد شاهدْنا مِثلَ هذا فى حَقّ أشخاصٍ كثيرة اشتَغلوا بالعِلم الدّهرَ الأطولَ ؛ فلم ينجَعْ معهم العِلاج ، وفارَقوا الدّنيا وهم على الغَريزة الأولى فى الساذجيّة وعَدَم الفَهْم .

الأصْلُ :

صَوَابُ الرَّأْيِ بِالدُّوَلِ يُقْبِلُ بِإِقْبَالِهَا ، وَيُدْبِرُ بِإِدْبَارِهَا .

***

الشَّرْحُ :

قال الصُّولىُّ :

اجتمع بنو برْمَك عند يحيى بن خالد فى آخر دَوْلتهم وهم يومئذ عشرة ، فأداروا بينهم الرأىَ فى أمرٍ فلم يصلح لهم ، فقال يحيى : إنا لله ! ذهبتْ واللهِ دولتُنا ! كنّا فى إقبالنا يُبرِمُ الواحدُ منّا عَشْرة آراء مُشكلة فى وقت واحد ، واليومَ نحنُ عشرة فى أمرٍ غيرِ مُشــكل ، ولا يَصِحّ لنا فيه رَأْى ! اللهَ نسأل حُسنَ الخاتمة .

أرسَل المنصورُ لمّا(١) هاضَه أمرُ إبراهيمَ إلى عمّه عبدِ الله بن علىّ وهو فِى السّجن يَستشيرُه مايصنَع ! وكان إبراهيمُ قد ظهر بالبَصْرة ، فقال عبــد الله : أنا محبوس ، والمحبوس محبوس الرأى ، قال له: فعلَىَّ ذاك ؟ قال يُفرّق الأموال كلَّها على الرّجال وَ يلقاه ، فإن ظَفِر فَذاك ، و إلاّ يتوجّه إلى أبيه محمّد بجُرْجَان ، و يَتركه يَقدُم على بُيوتِ أموال فارغة ، فهو خيرٌ له من أن تــكون الدَّبْرَة عليه ، و يقدم عدوّه على بيوت أموال مملوءة .

قال سليمانُ بن عبدالملك ليزيد بن أبى مُسلِم صاحِب شُرْطة الحجّاج يوماً : لعن اللهُ رجلا أجرّك رَسَنَه ، وخرّب لك آخرته . قال : يا أمير المؤمنين ، رأيتَنى والأمرُ عنّى مُدبِر ولو رأيتَنى والأمر علىّ مُقبِل لاستكبرْتَ منّى ما استصْغرْتَ ، ولاستعْظمت منى ما استحقرْتَ .

---

(١) ا : « حين » .

الأصْلُ :

الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، والشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

***

الشَّرْحُ :

قد سَبَق القولُ في أنّ الأجمل بالفقير أن يكون عفيفا ، وألاّ يكون جَشِعا حَرِيصا ، ولا جادًّا في الطلب متهالِكا ، وأنّه ينبغي أنه إذا افتقر أن يتيه على الوقت وأبناء الوقت ، فإنّ التِّيه في مِثل ذلك المَقام لا بأسَ به ، ليَبعُد جدًّا عن مَظِنّة الحِرْص وَالطَّمع .

وقد سبق أيضا القولُ في الشّكر عند النعمة ووجوبه ، وأنّه سبب لاستدامَتِها ، وأن الإخلالَ به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالِها ، وذكَرْنا في هذا الباب أموراً مستحسنَة ، فلتراجَع ، وقال عبدُ الصّمد بنُ المعذّل في العفَاف :

سأقنى العَفافَ وأرضَى الكَفافَ وليس غِنَى النفس حوزُ الجزيلِ
ولا أتصدّى لشُكْرَ الجوادِ ولا أستعدّ لذمّ البَخيلِ
وأعْلَمُ أنّ بناتِ الرّجاء تُحِلّ العزيزَ محَلّ الذّليلِ
وأنْ ليسَ مستغنِياً بالكثير مَن ليسَ مستغنياً بالقليلِ

(٣٤٨)

الأصل:

يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ، أشدُّ مِنْ يَوْمِ الجَوْرِ على المَظْلُومِ.

***

الشرح:

شيئان مؤلمان: أحدهما يَنقضي سريعاً، والآخر يَدُوم أبداً؛ فلاجَرم، كان اليومُ المذكور على الظّالم، أشدَّ من يَوْم الجور على المظلوم!

الأصْلُ :

الأقاويلُ مَحْفُوظَةٌ ، والسَّرائِرُ مَبْلُوَّةٌ و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾. والنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، سائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ ، يَكَادُ أفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا والسُّخْطُ ، وَيَكَادُ أصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ .

***

الشَّرْحُ :

السرائر هاهنا : ما أُسِرَّ فى القلوب من النيّات والعقائد وغيرِها ، وما يخفَى من أعمال الجوارح أيضا . و بلاؤها : تعرُّفُها وتصفُّحُها ، والتميز بين ماطابَ منها وما خَبُثَ .

وقال عمر بنُ عبد العزيز للأحوص لمّا قال :

سَتَبْلَى لها فى مُضمَر القلبِ والحشا سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السَّرائرُ

إنّك يومئذٍ عنها لمشغول .

ذكَرَ عليه السلام الناسَ فقال : قد عمّهم النّقص إلّا المعصومين . ثم قال : سائلُهم يَسألُ تعنُّتا ، والسّؤال على هذا الوجه مَذْموم ، ومجيبُهم متكلِّفٌ للجواب ، وأفضلُهم رأيا يكاد رِضاهُ تارةً وسُخْطه أخرى يرُدُّهُ عن فضل رأيه ، أى يتبعون الهوى

ويكاد أصلبُهم عودا ، أى أشدّهم احتمالا .

تنكَؤه اللّحظة ، نكأْتُ القرْحَة إذا صدَمْتها بشىء فتقشِرَها .

قال : « وتَستحيله الكلمةُ الواحدة » ، أى تحيله وتغيِّره عن مُقتضى طبعِه ؛ يَصِفهم بسرعة التقلّب والتلّون ، وأنّهم مُطيعون دواعِىَ الشّهوةِ والغضَب . واستَفعَل بمعنى « فَعَل » قد جاء كثيرا استَغْلَظ العسل ، أى غلظُ .

الأصْلُ :

قالَ : مَعَاشِرَ النَّاسِ ، اتَّقُوا اللهَ ؛ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مالا يَبْلُغُهُ ، و بانٍ مالا يَسْكُنُهُ ، وجامِعٍ ماسَوْفَ يَتْرُكُهُ ، ولَعلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ ، ومِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ ؛ أصابَهُ حَرَاماً ، واحْتَمَلَ بِهِ آثاماً ، فَباءَ بِوِزْرِهِ ، وقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ ، آسِفاً لاهِفاً ، قَدْ ﴿خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم شرحُ هذه المعانى والكلامُ عليها ، أمّا الآمال التى لا تُبلَغ ، فأكثرمن أن تُحصَى ، بل لا نهايةَ لها .

وما أحسنَ قولَ القائل :

واحسرتَا ماتَ حظِّى من وصالِكمُ ... وللحظوظِ كما للنّاس آجالُ
إنْ متّ شوقا ولم أبلُغْ مَدَى أملِى ... كم تحتَ هذِى القبورِ الخُرْسِ آمالُ !

وأمّا بناء مالا يُسْكَن ، فنحو ذلك .

وقال الشاعر :

ألم ترحَوْشَبا بالأمسِ يَبْنِى ... بناءً نَفعُه لبنى نُفيلَهْ
يؤمّل أنْ يُعمَّر عمر نوحٍ ... وأمرُ الله يطرُق كلَّ ليلَهْ

وأمّا جامعُ ماسوفَ يتركه ، فأكثرُ الناس ، قال الشاعر :

وذِى إبلٍ يسعَى ويَحسَبها له ... أخو تعَبٍ فى رعْيها ودُءوبِ
غدَتْ وغدَا ربٌّ سِواه يسوقُها ... وبُدِّل أحجاراً وجالَ قليبِ

(٣٥١)

الأصل :

مِنْ العِصْمة تَعَذُّرُ المعَاصِى .

***

الشرح :

قد وردتْ هذه الكلمة على صِيغ مختلفة . من العِصْمة ألّا تقدر . وأيضا ، من العِصْمة ألّا تجد .

وقد رُوِيتْ مرفوعةً أيضاً .

وليس المرادُ بالعِصْمة هاهنا العِصْمة الّتى ذكرها المتكلّمون ، لأنّ العصمة عند المتكلمين من شرطها القُدْرة ، وحقيقتها راجعة إلى لُطْفٍ يمنَع القادِرَ على المَعْصية عنده من المعصية ، وإنّما المراد أنّ غيرَ القادِر فى اندفاع العقوبة عنه كالقادِر الذى لا يفعَل .

الأصل :

ماء وجهكَ جامدٌ يُقطِرُهُ السؤالُ ، فانظُرْ عِندَ مَنْ تُقطِرُهُ .

***

الشرح :

هذا حَسَن ، وقد أخذَه شاعرٌ فقال :

إذا أظمأتكَ أكُفُّ اللئامِ   كفتْكَ القَناعةُ شِبْعا وريّا
فكنْ رَجُلا رِجْلُه فى الثَّرى   وهامةُ همّته فى الثُّريّا
فإنَّ إراقةَ ماء الحياةِ   دونَ إراقةِ ماء المحيّا

وقال آخَرَ :

رددتَ لى ماء وجهى فى صفيحَته   ردَّ الصّقال بهاءَ الصّارم الجذِمِ
وما أُبالِى وخيرُ القول أصدقُه   حقَنتَ لى ماءَ وَجْهى أو حقَنْتَ دَمى

وقال مصعب بنُ الزّبير : إنّى لأستحيي من رجل وجّه إلىّ رغبتَه ، فباتَ ليلَته يَتململ و يتقلقَل على فِراشه ، يَنتظِر الصّبح ، قد جَعلنى أهْلًا لأن يقطر ماء وجهه لدىّ أن أردّه خائبا .

وقال آخَر :

ما ماءُ كفّيك إن أرسلت مُزْنتَه   من ماء وَجْهى إذا استقطرْته عِوَضُ

الأصْـلُ :

الثَّنـاء بِأَكْثَرَ مِنَ الاسْتِحْقاقِ مَلَقٌ ، والتَّقْصِيرُ عَنِ الإسْتِحْقـاقِ عِيٌّ أوْ حَسَدٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

كانوا يَكرَهون أن يُثنيَ الشاعرُ في شِعره على الممدوح الثَّناء المُفرط ؛ و يقولون : خيرُ المَدْح ما قارَبَ فيه الشاعر واقتَصَد ، وهذا هو المذهَب الصّحيح ، و إن كان قوم يقولون : إن خيرَ الشِّعر المنظومُ في المدْح ما كان أشدَّ مُغالاةً وأكثر تَبجِيلاً وتعظيما وَوصْفا و نَعْتا .

و ينبغي أن يكون قوله عليه السلام محمولاً على الثّناء في وجهِ الإنسان ؛ لأنّه هو الموصوف بالمَلق إذا أفرطَ ، فأمّا من يُثنِي بظَهْر الغَيْب فلا يُوصَف ثناؤه بالملَق ؛ سواء كان مقتصِدا أو مسرِفا .

وقوله عليه السلام : « والتقصير عن الاستحقاق عِيٌّ أو حَسَد » لا مزيدَ عليه في الحسنِ ؛ لأنه إذا قصّر به عن استِحقاقه كان المانع إمّا من جانب المُثنى فقط من غير تعلّق له بالمثنى عليه ، أو مع تعلّق به ؛ فالأوّل هو العِيّ والحَصَر ، والثاني هو الحسد والمنافسة .

(٣٥٤)

الأصل:

أشدُّ الذُّنوب ما استَهان بها صاحبُها.

***

الشرح:

قد ذكرْنا هذا فيما تقدَّم وذكرنا العِلَّة فيه، وهي أنّ فاعَل ذلك الذَّنب قد جَمع بين فعل الذّنب وفِعْل ذَنْب آخَرَ، وهو الاستهانة بما لا يُستهان به، لأنّ المَعاصِي لاهين فيها، والصغير منها كبير، والحقير منها عظيم، وذلك لجلالةِ شأن المَعْصِيّ سبحانَه.

فأمّا من يذنب ويَستعظِم ما أتاه، فحاله أخفّ من حالِ الأوّل، لأنه يكاد يكون نادما[1].

---

(١) بعدها في ا: «على ما فعل».

الأصْلُ :

مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَافَاتَهُ ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ ، وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ ، وَمَنِ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ .

وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ، ومن ماتَ قلبُه دَخَلَ النَّارَ .

وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيْرِهِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ .

وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ .

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ .

***

الشَّرْحُ :

كلُّ هذه الفصول قد تقدّم الكلامُ فيها ، وهى عَشَرة :

أوّلها : من نَظَرَ فى عَيْب نفسِه اشتَغل عن عيبِ غيرِه ؛ كان يقال : أصلِح نفسَك أوّلا ، ثم أصلِح غيرَك .

وثانيها : من رضىَ برزق الله لم يَحزَن على مافاته ؛ كان يقال : الحُزْن على المنافع الدنيويّة سُمٌّ ترياقُه الرِّضا بالقضاء .

وثالثها : من سَلَّ سيفَ البَغْيِ قُتِل به ؛ كان يقال : الباغى مَصْروع وإن كثُرَ جنودُه .

ورابعُها : مَن كابَدَ الأمورَ عَطِب ، ومن اقتَحَم اللُّجَجَ غَرِق ؛ مِثل هذا قولُ القائل :

مَن حارَبَ الأيّامَ أصبَحَ رُمْحُه قِصَداً وأصبحَ سيفُه مَفْلولَا

وخامسُها : من دخل مَداخِلَ السّوء اتُّهِم ؛ هذا مِثل قولِهم : من عَرّض نفسَه للشُّبُهات فلا يلومَنّ مَن أساء به الظَّنّ .

وسادسُها : مَن كَثُر كلامُه... إلى قوله : دَخَل النار ؛ قد تقدّم القولُ فى المَنطِق الزائد ومافيه من المحذور ؛ وكان يقال : قلّمَا سَلِم مِكْثار ، أو أَمِن مِن عِثار .

وسابعُها : مَن نَظَر فى عُيوب غيرِه فأنكَرَها ثمّ رضِيَها لنفسِه فذاك هو الأحمقُ بعَيْنه ؛ كان يقال : أجهلُ الناسِ من يرضَى لنفسِه بما يَسخَطُه مِن غيرِه .

وثامنها : القَناعة مالٌ لا ينفَد ؛ قد سَبَق القولُ فى هذا ، وسيأتى أيضا .

وتاسعُها : من ذَكَر الموتَ رضِىَ من الدّنيا باليسير ؛ كان يقال : إذا أحببتَ ألّا تحسُد أحَدا فأكْثِر ذِكْرَ الموت ، وأعلمْ أنك ومَن تحسُده عن قليل مِن عَديد الهَلْكَى .

وعاشِرُها : من عَلِم أنّ كلامَه مِن عَمَلِه قلّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه ؛ لا رَيْبَ أنّ الكلامَ عَملٌ من الأعمال ، وفِعلٌ من الأفعال ، فكما يُستهجَن من الإنسان ألّا يزال يُحرِّك يدَه وإن كان عابثا ، كذلك يُستهجَن ألّا يزال يُحرِّك لسانَه فيما هو عَبَث ، أو يَجرِى مَجرَى العَبَث .

وقال الشاعر :

يَخوضُ أناسٌ فى الكلام ليُوجِزوا وللصَّمتُ فى بعض الأحايينِ أوْجَزُ

إذا كنتَ عن أن تُحسِنَ الصَّمتَ عاجزا فأنت عن الإبلاغ فى القولِ أعجَزُ

(٣٥٦)

الأصل :

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ :
يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ .

***

الشرح :

يُمكِن أن يفسَّر هذا الكلامُ على وجهين .

أحدُها أنّ كلّ من وُجِدَت فيه إحدى هذه الثلاث فهوَ ظالم ، إما أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقَه فعصاه ، فهو بعصيانه ظالم له ، لأنّه قد وضعه فى غير موضعه ، والظُّلم فى أصل اللّغة ؛ هو هذا المعنى ، ولذلك سمّوا اللّبَن يُشرَب قبل أن يَبلُغ الرّوْب مظلوماً ، لأنّ الشّرب منه كان فى غيرِ موضعِه إذا لم يَرُب ولم يَخرج زُبْدُه ، فكذلك من عَصَى مَن فوقَه فقد زَحزَحه عن مَقامه إذا لم يُطِعه . وإمّا أن يكون قد قهر مَن دُونَه وغلبَه . وإما أن يكون قد ظاهَر الظَّلَمة .

والوجه الثانى أنّ كلّ ظالم فلابدّ من أجتماع هذه العلامات الثلاثِ فيه ؛ وهذا هو الأظهر .

الأصْلُ :

عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاء .

***

الشَّرْحُ :

كان يقال : إذا اشتدّ المَضيق ، اتّسعَتْ الطريق ، وكان يقال : توقّعوا الفرَج عند ارتتاجِ المَخرَج ، وقال الشاعر :

إذا بَلَغ الحوادثُ مُنتهاها ... فَرَجٌ بُعَيْدَها الفرجَ المُطِلاَّ
فكَمْ كربٍ تولّى إذ توالَى ... وكم خَطْبٍ تجلَّى حين جلَّى

وفى الأثر : تَضايَقِي تَنفَرِجِي ، سَيَجعل الله بعدَ العُسر يُسْرا .

والفَرْجة بفتح الفاء : التفصّي من الهمّ ، قال الشاعر :

ربّما تجزَع النفوسُ من الأمْـ ... ـرِ له فَرْجَةٌ كحل العِقال (١)

فأمّا الفُرْجة بالضمّ ، ففُرْجة الحائط وما أشبهَه .

---

(١) لأمية أبي الصلت ، وقبله :

لاتضيقَنَّ فى الأمورِ فقد يُكْـ ... ـشَفُ غماؤها بغيرِ احتيالِ

(٣٥٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِبَعْضِ أصْحابه : لا تَجْعَلَنَّ أكْثَرَ شُغْلِكَ بأهْلِكَ ووَلَدِكَ ، فإنْ يَكُنْ أهْلُكَ ووَلَدُكَ أوْلِياء اللهِ فإنَّ اللهَ لا يُضَيِّعُ أوْلياءهُ ، وإنْ يَكُونوا أعْدَاء اللهِ فما هَمُّكَ وشُغْلُكَ بأعْدَاء اللهِ !

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ نحوَ هذا المعنى ، وهو أمر بالتفْويض والتوكّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله ، فإن الله تعالى أعلم بالمصلحة ، وأرأف بالإنسان من أبيه وأمّه ؛ ثم إن كانَ الوَلَد في عِلم الله تعالى وليًّا من أولياءالله سبحانه ، فإنّ الله تعالى لا يضيِّعه ، قال سبحانه : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه ﴾[1] .

وكلُّ وليٍّ لله فهو متوكِّل عليه لا محالَة ، وإن كان عدوًّا لله لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره ، لأنّ أعداء الله تجب مُقاطعتهم ، ويَحرُم تولّيهم ، فعلى كلِّ حال لا ينبغى للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موتِه .

واعلم أن هذا كلامُ العارفين الصّدّيقين ، لا كلامُ أهل هذه الطبقات التى نَعرِفها ، فإن هذه الطبقات تقصُر أقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام .

ويعجبنى قولُ الشاعر :

أيا جامعَ المالِ وَفَّرْتَهُ ... لغيرك إذْ لم تكن خالدا
فإن قلتَ : أجمعُه للبَنين ... فقد يَسبِق الوَلَدُ الوالدا
وإن قلت أخشى صروف الزمان ... فكن مِن تَصاريفه واحدا

---

(١) سورة الطلاق ٣ .

(٣٥٩)

الأصل :

أكْبَرُ العَيْبِ أنْ تَعيبَ ما فيكَ مِثْلُهُ .

* * *

الشرح :

قد تقدَّم هذا المعنى مِراراً .

وقال الشاعر :

إذا أنت عِبْتَ الأمر ثم أتيتَه   فأنت ومَن تُزرِي عليه سَواء

الأصْلُ :

وهَنَّأَ بِحضْرَتِهِ رَجُلٌ رَجلاً آخر بِغُلام وُلِدَ لَهُ فقَالَ لَهُ : لِيَهْنِئْكَ الْفارِسُ ! فقالَ عليهِ السلامُ :

لا تقُلْ ذَلِكَ ، ولَـكِنْ قل : شَـكَرْتَ الْوَاهِبَ ، وبُورِكَ لَكَ فى المَوْهُوبِ ، وبَلَغَ أَشُدَّهُ ، ورُزِقْتَ بِرَّهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذه كلمة كانت من شِعار الجاهلية ، فنُهِيَ عنها كما نُهِيَ عن تحيّة الجاهلية : « أبيتَ اللّعن » ، وجُعِل عِوَضَها « سلامٌ عليكم » .

وقال رجلٌ للحَسَن البَصْرى وقد بَشّره بغلام : لِيَهْنِئك الفارسُ ! فقال : بل الراجل ، ثم قال : لا مرحبا بمن إنْ عاش كَدَّنى ، وإن مات هَدَّنى ، وإن كنتُ مُقِلاً أنصبَنى ، وإن كنتُ غَنِيّاً أذهَلَنى ، ثم لا أَرضَى بسَعْيِي له سَعْيا ، ولا بكَدِّى عليه فى الحياةِ كَدّا ، حتّى أُشفِق عليه بعد موتى من الفاقة ، وأنا فى حالٍ لا يصل إلىَّ من فرحِهِ سرورٌ ، ولا من هَمِّه حَزَن .

الأصلُ :

وبَنَى رَجُلٌ مِن عُمّالِهِ بناء فَخْماً فقالَ عليهِ السلامُ :
أطْلَعَتِ الوَرِقُ رُءوسها ؛ إنَّ البِناء يَصِفُ لكَ الغِنَى .

* * *

الشرحُ :

قد رُوِيتْ هذه الكلمةُ عن عمر ـ رضى الله عنه ـ ذَكر ذلك ابن قُتَيبة فى " عُيون الأخبار " .

ورُوِىَ عنه أيضا : لى على كلّ خائنٍ أمينان : الماء والطّين .

قال يحيى بنُ خالد لابنه جعفر حين اختطّ دارَه ببَغداد ليبنيَها : هى قميصُك ، فإن شئت فوسّعه ، وإن شئت فضيِّقه .

ورآه وهو يجصّص حيطان دارِه المبنيّة بالآجُرّ ، فقال له : إنك تَغطّى الذهبَ بالفِضّة ، فقال جعفر : ليس فى كلّ مكان يكون الذهب خيراً من الفضّة ، ولكن هل ترَى عيبا ؟ قال : نعم ، مخالَطَتُها دُورَ السُّوقة .

وقيل ليزيد بن المهلّب .

ألا يَبْنى الأمير داراً ؟ فقال : منزلى دارُ الإمارة أو الحبْس .

وكان يقال ، فى الدار : لتكُن أوّل ما يُبْتاع وآخرَ ما تُبَاع .

ومرّ رجلٌ من الخوارج بآخر من أصحابهم وهو يبنِى داراً فقال : من ذا الّذى يقيم كَفِيلا .

وقالوا : كلُّ ما يخرُج بخروجِك ، ويَرجع برُجوعك ، كالدّار والنّخل ونحوهما فهو كَفِيل .

الأصل

وقيلَ لهُ عليهِ السلامُ : لَوْسُدَّ على رَجُلٍ بابُ بَيْتٍ وتُرِكَ فِيهِ ، مِنْ أَيْنَ كانَ يأتيهِ رِزْقُهُ ؟ فقال عليهِ السلامُ :

مِنْ حَيْثُ يأتيهِ أجلُهُ .

* * *

الشرح :

ليس يعني عليه السلام أنّ كلّ من يُسَدُّ عليه بابُ بيت ؛ فإنه لا بدّ أن يرزقه الله تعالى ، لأنّ العيان والمُشاهَدة تقتضي خلاف ذلك ؛ وما رأينا من سُدّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش ، ولا ريب أنّ مَنْ شَقّ أسْطوانة وجُعِل فيها حيًّا ثم بنيت الأسْطوانة عليه فإنه يموت مختنقا ، ولا يأتيه رزقُه ولا حياتُه ؛ ولأنّ للحكماء أن يقولوا في الفَرْق بين الموضِعين : إنّ أجَله إنما يأتيه لأنّ الأجَل عدم الحياة ، والحياةُ تَعدَم لعدَم ما يوجبها ، والذى يُوجب استمراها الغِذاء ، فلما انقطع الغِذاء حَضَر الأجل ، فهذا هو الوجه الذى يأتيه منه أجَلُه ، ولا سبيل إلى ذكر مثله في حُضور الرِّزق لمن يُسَدّ عليه الباب .

فإذاً معنى كلامه عليه السلام أنّ الله تعالى إذا علم فيمن يجعل في دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنّ في بقاء حياتِه لُطفًا لبَعض المكلّفين فإنه يجب على الله تعالى أن يُديم حياته ، كما يشاء سبحانه ؛ إما بغذاء يقيم به مادة حياته ، أو

أو يديمُ حياتَه بغير سبب ، وهذا هو الوجه الذى منه يأتيه أجَلُه أيضا ، لأنّ إماتةَ الله المكلَّف أمرٌ تابعٌ للمصلحة ، لأنه لابدّ من انقطاع التكليف على كلّ حال للوجه الذى يذكره أصحابنا فى كُتُبهم ، فإذا كان الموتُ تابعاً للمصلحة ، وكان الإحياء تابعاً للمصلحة ، فقد أتى الإنسانَ رزقه — يعنى حياته — من حيثُ يأتيه أجَلُه.

وانتظمَ الكلام .

(٣٦٣)

الأصل :

وَعَزّى قوماً عن مَيّتٍ ماتَ لَهُمْ فقالَ عَلَيهِ السلامُ :

إنَّ هذا الأمْرَ لَيسَ لكُمْ بدأ ، ولا إليكُمْ انتهى ، وقَدْ كانَ صاحِبُكُمْ هذا يُسافِرُ ؟ فقالُوا : نعم ؛ قالَ : فعُدُّوهُ في بَعْضِ سَفَراتِهِ ، فإنْ قَدِمَ عَلَيكُمْ وإلّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ .

***

الشرح :

قد ألمّ إبراهيمُ بنُ المهديّ ببعض هذا في شعره الذي رثى به ولده فقال :

يئُوب إلى أوطانِهِ كلُّ غائبٍ ... وأحمدُ في الغيّاب ليسَ يئُوبُ (١)
تَبدَّلَ داراً غيرَ داري وجيرةً ... سوايَ وأحداثُ الزمانِ تنوبُ
أقامَ بها مستوطِناً غيرَ أنّه ... على طُولِ أيّام المُقامِ غَريبُ (٢)
وإنّي وإنْ قُدِّمْتَ قَبْلِي لعالِمٌ ... بأنّي وإنْ أبطأتُ عنكَ قريبُ
وإنّ صَباحاً نلتقي في مَسائه ... صباحٌ إلى قلبي الغَداةَ حَبيبُ

---

(١) من كلمة له في الكامل ٤ : ٢٣ ـ ٢٥

(٢) بعده :

كأنْ لم يكُنْ كالغصنِ في مَيْعَةِ الضُّحى ... سقاهُ النَّدى فاهتزَّ وهوَ رَطيبُ

(٣٦٤)

الأصل :

أيُّهَا النَّاسُ ، لِيَرَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ ، كما يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ . إنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً ، فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً ، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِبَاراً ، فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً .

* * *

الشرح :

قد تقدّم القول فى استدراج المترف الغنى ، واختبار الفقير الشقى ، وأنه يجب على الإنسان و إن كان مشمولا بالنعمة أن يكون وَجِلا(١) ، كما يجب عليه إذا كان فقيرا أن يكون شكورا صبورا .

(١) وجلا : خائفاً .

الأصْـلُ :

يا أَسْرَى الرَّغْبَةِ ، اقْصِرُوا ، فإنَّ المُعَرِّجَ على الدُّنيا لا يَرُوعُهُ مِنْها إلّا صَرِيفُ أنيابِ الحِدْثانِ .

أيُّها النّاسُ ؛ تَوَلَّوْا عَنْ أنْفُسِكُمْ تأْدِيبَها ، واعْدِلُوا بِها عَنْ ضَرَاوَةِ عاداتِها .

***

الشَّـرْحُ :

ضرَى يضرِى ضِرايةً مثل رمى يرمى رماية ، أىْ جرَى وسالَ ، ذكره ابنُ الأعرابىّ ، وعليه ينبغى أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ أى اعدِلُوا بها عن عاداتها الجارية ، مِن باب إضافة الصّفة إلى الموصوف ، وهذا خيرٌ مِن تفسير الرّاوَنْدِىّ ؛ وقوله : إنّه من ضَرِىَ الكلبُ بالصّيد ؛ لأنّ المصدر من ذلك الضَّرَاوة بالواو وفَتْح الضاد ، ولم يأت فيه ضراية .

وقوله : « يا أسرَى الرغبة » كلمةٌ فصيحةٌ .

وكذلك قوله : « لا يَرُوعُه منها إلّا صَرِيفُ أنياب الحِدْثان » ، وذلك لأنّ الفَهْد إذا وَثَب والذِّئبَ إذا حمَل يَصرِف نابُه ، ويقولون لكلّ خَطْب وداهية جاءت ! تصرِفُ نابُها . والصَّرِيف : صوتُ الأسنان إمّا عند رِعْدةٍ أو عند شِدّة الغضَب والحَنَق ، والحِرص على الانتقام ، أو نحو ذلك .

وقد تقدّم الكلامُ فى الدّنيا والرغبةِ فيها ، وغَدْرِها وحوادثِها ، ووجوب العُدُول عنها ، وكسر عادِية عاداتِ السّوء المكتسبة فيها .

(٣٦٦)

الأصْلُ :

لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أحَدٍ سُوءاً وأنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلاً[1] .

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمة يرويها كثيرٌ من الناس لِعمرَ بن الخطَّاب ، و يرويها بعضُهم لأمير المؤمنين عليه السلام . وكان ثُمامةُ يحدِّث بسؤددِ يحيى بن خالد وابنِه جعفر . و يقول : إنّ الرشيدَ نكَب عليَّ بنَ عيسى بن ماهان[2] وألزمه مائة ألف دينار أدّى منها خمسين ألفا ، وبلحّ بالباقي ، فأقسم الرشيدُ إنْ لم يؤدِّ المالَ في بقيّة هذا اليوم وإلّا قتله . وكان عليّ بنُ عيسى عدُوًّا للبرامكة مكاشفاً ، فلمّا علِم أنه مقتول سأل أن يمكَّن من السعي إلى الناس يستنجدهم ، ففُسِح له في ذلك ، فمَضى ومعه وكيلُ الرّشيد وأعوانُه إلى باب يحيى وجعفر ، فأشبلا عليه[3] وصحّحا من صُلْب أموالها خمسين ألف دينار في باقي نهارِ ذلك اليوم بديوان الرّشيد باسم عليّ بن عيسى ، واستخلصاه؛ فنقل بعض المتنصّحين لهما إليهما أنّ عليّ بن عيسى قال في آخِر نهار ذلك اليوم متمثِّلا :

فما بُقْيا عليَّ تركتُماني ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ[4]

---

(١) في د « محلا » ؛ وهو يستقيم أيضاً .

(٢) ب : « هامان » تصحيف .

(٣) أشبلا : عطفا .

(٤) اللسان (صرد) ، ونسبه إلى اللعين المنقري يخاطب جريراً والفرزدق . وصرد السهم : نفذ حده

فقال يحيى للناقل إليه ذلك : ياهذا إنّ المرعوب ليسبق لسانُه إلى مالم يَخطِر بقَلْبه .

وقال جعفر : ومن أين لنا أنّه تمثّل بذلك وعَنَانا ، ولعلّه أراد أمراً آخر فكان ثمامة يقول : مافى الأرض أسوَدُ من رَجلٍ يتأوّل كلاَم عدوّه فيه ويَحمِله على أحْسنِ مَحامِله .

وقال الشاعر :

إذا ما أتتْ من صاحِبٍ لك زَلّةٌ   فكنْ أنت مُحتالا لزَلّته عُذْرًا[1]

(١) لسالم بن وابصة ، من كلمة له فى أمالى القالى ٢ : ٢٢٤

الأصْلُ :

إذَا كَانَتْ لَكَ إلَى اللهِ سُبْحانَهُ حاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ثُمَّ سَلْ حاجَتَكَ ؛ فإنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حاجَتَيْنِ ، فَيَقْضِيَ إحْدَاهُما وَيَمْنَعَ الأُخْرَى .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام على حسَب الظاهر الذى يتعارفه الناس بينهم ، وهو عليه السلامُ يسلكُ هذا المسلكَ كثيرا ، ويخاطِب الناسَ على قَدْر عقولهم ، وأمّا باطنُ الأمر فإنّ الله تعالى لا يُصلِّى على النبىّ صلّى الله عليه وآلِه لأجل دُعائنا إيّاه أن يصلّىَ عليه ، لأنّ معنى قولنا : اللهمّ صلّ على محمد ، أى أكرِمْه ، وارفَعْ درجَتَه ، والله سبحانه قد قضَى له بالإكرام التامّ ورِفعَةِ الدّرجة من دُون دعائِنا ، وإنّما تَعبّدنا نحن بأن نُصلِّى عليه لأنّ لنا ثوابا فى ذلك ، لا لأنّ إكرامَ الله تعالى له أمرٌ يستعقبُه ويستتبِعه دعاؤنا .

وأيضا فأىُّ غَضاضةٍ على الكريم إذا سُئِل حاجَتَين فقَضَى إحداهما دونَ الأُخرى إنْ كان عليه فى ذلك غَضاضةٌ فعليه فى رَدّ الحاجة الواحدة غَضاضةٌ أيضا .

الأصلُ :

مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ الْمِرَاءَ .

***

الشرحُ :

قد تقدَّم من القولِ في المِراء مافيه كفاية ، وحدُّ المِراء الجدالُ المتّصِل لايُقصَد به الحقّ .

وقيل لمَيمون بن مِهران : مالَكَ لا تُفارِقُ أخاً لك عن قِلًى ؟ قال : لأنّى لا أشاريه ولا أماريه .

وكان يقال : ماضَلَّ قومٌ بعدَ إذ هداهم اللهُ [تعالى(1)] إلّا بالمراء والإصرارِ في الجِدال على نُصْرة الباطل .

وقال سُفيان الثَّوْرى : إذا رأيتم الرّجل لَجُوجا مُمارِيا معجبا بنفسه فقد تمّت خسارتُه .

---

(1) من د .

(٣٦٩)

الأصْلُ :

مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ ، وَالأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذين المَعْنيَيْن .

ومن كلامِ ابنِ المعتزّ : إهمالُ الفُرْصة حتى تفوتَ عجز ، والعَجَلة قبل التمكُّن خرْق .

وقد جَعَل أميرُ المؤمنين عليه السلام كِلْتا الحالتين خُرْقا ؛ وهو صَحِيح ، لأنّ الخُرْق الحمقُ ، وقلّة العقل ، وكلتا الحالتين دليلٌ على الحُمق والنَّقص .

(٣٧٠)

الأصل :

لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ ، فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغُلٌ .

***

الشرح :

من هذا الباب قولُ أبي الطَّيِّب في سَيْف الدولة [1] :

لِيسَ المدائحُ تَستوفي مَناقِبَهُ فَمَنْ كُلَيبٌ وأهلُ الأعصُرِ الأُوَلِ [2]

خُذْ ما تَرَاه ودَعْ شيئاً سمِعتَ بِه في طلعةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ [3]

---

(١) ديوانه ٣ : ٨١ .

(٢) كليب هو ابن ربيعة رئيس بنى تغلب وسيدهم فى الجاهلية .

(٣) بعده :

وقدْ وَجدْتَ مكانَ القولِ ذا سعةٍ فإن وجَدْتَ لساناً قائلاً فقُلِ

الأصل :

الفِكْرُ مِرْآةٌ صافِيَةٌ ، وَالاعْتِبارُ مُنْذِرٌ ناصِحٌ ، وَكَفَى أَدَبًا لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ ما كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ في نحو هذا . وفي المَثَل : كَفَى بالاعتبار منذراً ، وكفى بالشَّيب زاجرا ، وكفى بالموتِ واعِظا ، وقد سَبَق القولُ في وُجوب تجنُّب الإنسانِ ما يكرَهه من غيره .

وقال بعضُ الحكماء : إذا أحببتَ أخلاقَ امرئٍ فكُنْه ، وإن أبغضتَها فلا تكُنه . أخَذَه شاعرُهم فقال :

إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ فكُنْه يكنْ منكَ مايُعْجِبُكْ
فليسَ على المجدِ والمكرُمات إذا جئتَها حاجبٌ يَحْجُبُكْ

(٣٧٢)

الأصْلُ :

اَلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ ، فَإِنْ أَجَابَ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ .

***

الشَّرْحُ :

لا خيرَ فى علمٍ بلا عمَلٍ ، والعِلْمُ بغير العمَل حُجَّةٌ على صاحبه ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يُشعِر بأنّه لا عالِمَ إلّا وهو عامِل ، ومُرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان ؛ ولا رَيْبَ أن العارف لابدّ أن يكون عاملا .

ثمّ استأنف فقال : العِلمُ يهتف بالعَمَل أى يُناديه ، وهذه اللفظة استعارة .

قال : فإن أجابَه وإلّا ارتحل ، أى إن كان الإنسانُ عالما بالأمور الدّينيّة ثمّ لم يعمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه ، ولم يَمُتْ إلا وهو معدود فى زُمْرة الجاهلين ، ويُمكِن أن يفسّر على أنّه أراد بقوله : ارتحَل ارتحلَتْ ثمرتُه ونتيجتُه ، وهى الثّواب ، فإنّ الله تعالى لا يُثيب المكلَّف على عِلمِه بالشّرائع إذا لم يعمَل بها ، لأنّ إخلالَه بالعمَل يُحبِط ما يستحِقّه مِن ثواب العِلم لو قدّرنا أنّه استحَقّ على العِلم ثوابا ، وأتَى به على الشّرائط الّتى معها يستحقّ الثواب .

الأصْـلُ :

أيُّها النَّاسُ متاعُ الدُّنيا حُطامٌ مُوبِئٌ ، فَتَجنَّبُوا مَرْعاهُ قُلْعَتُها أحْظَى مِنْ طُمأنِينَتِها، وبُلْغَتُها أزْكَى مِنْ ثَرْوَتِها ، حُكِمَ على مُكْثِرِيها بالفاقَةِ ، وأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْها بالرَّاحَةِ ، مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُها أعقَبَتْ ناظِرَيْهِ كَمَهاً ، ومَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أشْجاناً ، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ ، وغَمٌّ يَحْزُنُهُ ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بالفَضاءِ ، مُنْقَطِعاً أبْهَرَاهُ ، هَيِّناً عَلَى اللهِ فَنَاؤُهُ ، وعَلَى الإخْوَانِ إلْقَاؤُهُ .

إنما يَنْظُرُ المُؤْمِنُ إلَى الدُّنيا بِعَيْنِ الاعْتِبارِ ، ويَقْتاتُ مِنْها بِبَطْنِ الاضْطِرارِ ، ويَسْمَعُ فِيها بِأُذُنِ المَقْتِ والإبْغاضِ ، إنْ قِيلَ أثْرَى قِيلَ أكْدَى ، وإنْ فُرِحَ له بالبَقاءِ حُزِنَ لَهُ بالفَناءِ ، هَذَا ولَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

* * *

الشَّرْحُ :

مَتاعُ الدنيا : أموالها وقُنْيَاتُها .

والحُطام : ما تكسّر من الحشيش واليَبَس ، وشَبّه متاع الدنيا بذلك لحقارته .

ومُوبِئٌ : مُحدث للوباء ، وهو المَرَض العامّ .

ومَرْعاة : بقعة تُرعى ، كقولك مَأسَدة فيها الأسد ، ومَحياة ، فيها الحيّات .

وقلعتها بسكون اللام . خيرٌ من طمأنينتها : أي كون الإنسان فيها منزعجا متهيّئا

للرّحيل عنها خيرٌ له من أن يكون ساكنا إليها، مطمئناً بالمُقام فيها .

والبُلغة : ما يتبلّغ به . والثّروة : اليسار والغِنَى ، وإنما حُكِم على مُكثِريها بالفاقة والفقْر لأنّهم لا ينتهون إلى حَدٍّ من الثروة والمال إلاّ وجدّوا واجتهدوا ، وحرَصوا فى طلب الزّيادة عليه ؛ فهمْ فى كلّ أحوالهم فقراء إلى تحصيل المال ، كما أنّ من لا مال له أصلا يَجدّ ويجتهد فى تحصيل المال ، بل ربما كان جِدُّهم وحِرْصُهم على ذلك أعظَم من كَدْح الفقير وحرصه ، ورُوِى:« وأعين من غَنِيَ عنها» ومن رواه« أُغْنَى» أى أغْنَى اللهُ ، من غَنِيَ عنها وزَهِد فيها بالراحة وخلوّ البال وعدم الهمّ والغمّ .

والزِّبْرِج : الزّينة ، وراقه : أعجبَه .

والكَمَه : العمى الشديد ، وقيل : هو أن يولد أعمى .

والأشْجان : الأحْزان .

والرّقَصُ بفتح القاف : الاضطراب [(١)] والغليَان والحرَكة .

والكظَم بفتح الظاء : مجرى النَّفَس .

والأبْهران : عِرْقان متّصلان بالقلب ؛ ويقال للميّت : قد انقطَع أبهرَاه .

قوله : «وإنما ينظرُ المؤمن» : إخْبارٌ فى الصورة، وأمْرٌ فى المعنى ، أى لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتِبار ، وليأكُل منها ببطن الاضطرار ، أى قَدْر الضرورة ، لا احتكار أو استكثار ؛ وليَسْمع حديثَها بأُذُن المَقْت والبُغْض ، أى ليتّخذها عدُوّا قد صاحبَه فى طريق ، فليأخذْ حِذْرَه منه جُهْده وطاقته ، وليَسْمَع كلامه وحديثه لا أسماع مُصْغٍ ومحِبٍّ وامِق ، بل استماع مُبغِض محترز مِن غائِلته .

***

---

(١) ب : « الاضطرار » تحريف .

ثم عاد إلى وصفِ الدنيـا وطالبها فقال : إنْ قيل أَثْرَى قيل : أَكْدَى ، وفاعِلُ « أَثْرَى » هو الضّمير العائد إلى مَن استشعر الشَّغَف بها . يقول : بينا يقال : أثْرَى ، قيل : افتقر ، لأن هذه صِفة الدنياق تقلبها بأهلها ، وإن فرح له بالحياة ودوامِها ، قيل : مات وعَدِم ، هذا ولم يأتهم يومَ القيامة يومٌ هم فيه مُبلِسون، أبلس الرجلُ يُبلِسُ إبلاسا أي قَنِط ويئس ، واللفظ من لفظات الكتاب العزيز[1] .

***

[نبذ من الأقوال الحكيمة في وصف حال الدنيا وصروفها]

وقد ذكرْنا من حالِ الدنيا وصُروفها وغَدْرِهـا بأهلها فيما تقدّم أبوابا كثيرة نافعة .

ونحن نذكر ها هنا زيادةً على ذلك .

فمن كلامِ بعض الحكماء : ويلٌ لصاحِب الدنيا، كيف يموت ويتركها، وتغرّه ويأمَنها وتَخذُله ويثق بها ! ويلٌ للمغترّين ، كيف أتاهم ما يكرهون ، وفاتَهم ما يُحِبّون ، وجاءهم ما يوعَدون ! ويل لمن الدنيا همّه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضح غداً بذنبه .

وروَى أنس قال : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله العَضْباء لا تُسبَق ، فجاء أعرابيٌ بناقةٍ له فسبَقها ، فشَقّ ذلك على المسلمين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حق على الله ألا يرفع في الدنيا شيئاً إلاّ وضعه » .

وقال بعضُ الحكماء : من ذا الذي يبني على موْج البحر داراً ! تلكُم الدنيا ، فلا تتخِذوها قرارا .

---

(١) وهو قوله تعالى في سورة الروم ١٢ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وقيل لحكيم : علّمنا عملا واحدا إذا عملناه أحبّنا الله عليه ، فقال : ابغضوا الدنيا يُحببكم الله .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولهانت عليكم الدنيا ، ولآثرتم الآخرة » .

ثم قال أبو الدّرداء من قِبَل نفسه : أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات تبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها ، ولا راجعَ إليها إلاّ ما لابدّ لكم منه ، ولكنْ غاب عن قلوبكم ذِكْرُ الآخرة ، وحضرَها الأمل ، فصارت الدنيا أملَكَ بأعمالكم ، وصِرتم كالذين لا يعلمون ، فبعضكم شرٌّ من البهائم التي لا تدَع هواها ، مالكم لا تحابُّون ولا تناصحون في أموركم ، وأنتم إخوانٌ على دينٍ واحد ، ما فرّق بين أهوائكم إلاّ خُبثُ سرائركم ، ولو اجتمعتم على البرّ لتحاببتم ، مالكم لا تناصحون في أموركم ، ما هذا إلاّ مِن قِلّة الإيمان في قلوبكم ، ولو كنتم توقنون بأمر الآخرة كما تُوقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة ، فإنْ قلتم حبّ العاجلة غالبٌ ، فإنّا نراكم تدَعون العاجل من الدنيا للآجل منها ، ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا ، وتحزنون على اليَسير منها يفوتكم ، حتى يتبيّن ذلك في وجوهكم ، ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتُقيمون فيها المآتم ، وعامّتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثمّ لا يتبين ذلك في وجوهِهم ، ولا تتغيّر حالٌ بهم ، يَلقى بعضهم بعضاً بالمسرّة ، ويكره كلّ منكم أن يستقبل صاحبه بما يكرَه مخافةَ أن يستقبله صاحبهُ بمثله ، فاصطحبتم على الغِلّ ، ونبتت مراعيكم على الدِّمن ، وتصافيتم على رفض الأجل ، أراحني الله منكم ، وألحقني بمن أحبُّ رؤيته .

وقال حكيم لأصحابه : ارضُوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدِّين ، كما رَضيَ أهلُ الدنيا بدنيء الدِّين مع سلامةِ الدُّنيا .

وقيل فى معناه :

أرَى رجالاً بأدنى الدِّين قد قَنِعوا ... ولا أراهمْ رَضُوا فى العَيْش بالدُّونِ

فاستغن بالدِّين عن دُنيا الملوكِ كما اسْ ... تغنَى الملوكُ بدُنياهمْ عن الدِّينِ

وفى الحديث المرفوع : « لتأتينّكم بَعْـدِى دُنيا تأكل إيمانَكم كما تأكل النارُ الحطَبَ » .

وقال الحسَن رحمه الله : أدركتُ أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعةً فأدَّوْها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم رَكضوا خِفافا .

وقال أيضا : من نافَسك فى دِينك فنافِسْه ، ومن نافَسَك فى دُنياك فألقِها فى نَحْره .

وقال الفُضيل : طالت فكْرتى فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾[1] .

ومن كلام بعض الحكماء: لن تصبح فى شىء من الدُّنيا إلاّ وقد كان له أهلٌ قبلك ، ويكون له أهلٌ من بعدك ، وليس لك من الدّنيا إلّا عَشاء ليلة ، وغداء يومٍ ، فلا تُهلِك نفسَك فى أكْلة ، وصُمْ عن الدُّنيا وأفطِرْ على الآخرة ، فإنّ رأسَ مالِ الدنيا الهوى ، ورِبحها النار .

وقيل لبعض الرّهْبان : كيف ترَى الدهر ؟ قال : يُخلِق الأبدان ، ويجدِّد الآمال ، ويقرّب المنيّة ، ويباعد الأُمْنيّة . قيل : فما حالُ أهلِه ؟ قال : مَنْ ظفِر به تَعِب ، ومن فاته اكتأب .

ومن هذا المعنى قولُ الشاعر :

ومَن يَحمَد الدنيـا لعيشٍ يَسُرّهُ ... فسوفَ لَعمرِى عن قليلٍ يلومُها

---

(١) سورة الكهف ٧ ، ٨

إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حَسرةً ... وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومُهـــا

وقال بعضُ الحكماء: كانت الدّنيا ولم أكُنْ فيها، وتذهَب الدنيا ولا أكون فيها، ولستُ أسْكُن إليها، فإنّ عَيشَها نَكَد، وصَفْوها كَدَر، وأهلَها منها على وجَل، إمّا بنعمةٍ زائلة، أو ببليّة نازِلة، أو ميتة قاضِيَة. وقال بعضهم: من عَيْب الدّنيا أنّها لا تُعطِي أحداً مايستحقّ إما أن تَزيد له، وإما أن تنقصُ.

وقال سُفيان الثَّوْرِيّ: أما تروْن النِّعم كأنّها مغضوبٌ عليها، قد وُضِعَتْ فى غير أهلها.

وقال يحيى بن مُعاذ: الدنيا حانوتُ الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فإنّه يجيء فى طَلَبك حتّى يأخُذَك.

وقال الفُضَيل: لو كانت الدّنيا من ذَهَب يَفنى والآخرةُ من خَزَفٍ يبْقى لكانَ يَنبغِى لنا أن نختار خَزَفاً يَبقَى على ذَهب يفْنى، فكيف وقد اخترْنا خَزَفاً يَفْنى على ذَهَبٍ يَبقى!

وقال بعضُهم: ما أصبح أحدٌ فى الدّنيا إلاّ وهوَ ضَيف، ولا شُبْهَةَ فى أنّ الضيف مُرتحِل، وما أصبَح ذو مال فيهـــا إلا ومالُه عاريّة عنده، ولا ريْب أنّ العارِيّة مردودة.

ومثل هذا قول الشاعر:

وما المالُ والأهْلُون إلّا وديعةٌ ... ولا بدّ يوما أن تُردَّ الودائعُ[1]

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فأنشدَ:

نُرَقِّعُ دُنْيانا بتمزِيق دِينِنـــا ... فلا دِينُنا يَبقَى ولا ما نُرَقِّعُ

---

(١) للبيد، ديوانه ٧٠.

وزارَ رابعةَ العَدَويّةَ أصحابُها ، فذَكَروا الدّنيا فأقبلوا على ذَمِّها ، فقالت : اسكُتُوا عن ذِكْرِها وكُفُّوا ، فلولا مَوقِعُها في قلوبِكم ما أكثرتم من ذِكْرِها ، إنّ من أَحَبَّ شيئاً أكثرَ من ذكره .

وقال مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّير : لا تنظروا إلى خَفْضِ عَيْشِ الملوك ، ولِينِ رِياشِهم ، ولكن انظُروا إلى سُرعةِ ظَعْنِهم ، وسوءِ منقلَبِهم قال الشاعر :

أرى طالبَ الدُّنيا وإن طالَ عمرُهُ ... ونال من الدّنيا سروراً وأنعُما
كَبانٍ بنى بُنيانَه فأقامَه ... فلمّا استوى ماقد بَناه تَهدَّما

وقال أبو العتاهية :

تعالَى اللهُ ياسَلْمَ بنَ عَمْرٍو ... أذَلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ (١)
هَبِ الدّنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً ... أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى الزوالِ !
وما دُنْياكَ إلاّ مثلُ فَيْءٍ ... أظلّكَ ثمّ آذنَ بانتقالِ

وقال بعضُهم : الدّنيا جِيفةٌ ، فمن أراد منها شيئاً فليَصبِر على مُعاشرة الكلاب .

وقال أبو أُمامةَ الباهليّ : لمّا بَعَثَ اللهُ محمّدا صلى الله عليه وسلّم أتتْ إبليسَ جنودُه وقالوا : قد بُعِثَ نبيّ ، وجدّدت مِلّة وأمّة ، فقال : كيف حالُهم ؟ أيحِبُّون الدنيا ؟ قالوا : نعَمْ . قال : إن كانوا يحبّونها فلا أبالى ألّا يَعبُدوا الأصنام ، فإنّما أغدُو عليهم وأرُوح بثلاث : أخْذِ المال من غيرِ حقِّه ، وإنفاقِه في غير حقِّه ، وإمساكِه عن حقّه ، والشرُّ كلّه لهذه الثلاث تَبَع .

وكان مالكُ بنُ دينار يقول : اتقوا السحّارة فإنّها تسحَرُ قلوبَ العلماء ، يعني الدُّنيا .

---

(١) ديوانه ٢٠٦

وقال أبو سليمانَ الرازيّ: إذا كانت الآخرة في القَلْبِ جاءت الدّنيا فزاحَمَتْها، وإذا كانت الدّنيا في القَلْبِ لم تُزاحِمْها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال مالكُ بن دينار: بقَدْرِ ماتَحْزَن للدّنيا يَخْرُج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدْرِ ماتحزن للآخرة يخرُج همّ الدنيا من قلبك. وهذا مُقتَبَس من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام: الدنيا والآخرةُ ضَرّتان: فبقدْرِ ماتُرْضِي إحداهما تُسخِط [1] الأخرى.

وقال الشاعر:

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نفسها ... تَنَحَّ عن خِطْبتِها تَسْلَم
إنّ التي تخطُب غَدّارةٌ ... قريبةُ العِرسِ من المأتَمِ

وقالوا: لو وصَفَت الدُّنيا نفسَها لما قالت أحسنَ من قول أبي نُواس فيها:

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ [2]

ومِن كلام الشافعيّ يعظُ أخًا له: ياأخي، إنّ الدّنيا دَحْض مَزَلّة [3]، ودارُ مَذَلّة؛ عُمرانُها إلى الخراب سائر، وساكنُها إلى القبور زائر؛ شملها على الفُرقة موقوف، وغِناها إلى الفقْر مصروف، الإكثارُ فيها إعْسار، والإعْسار فيها يَسار؛ فافزَعْ إلى الله، وارضَ برِزق الله، ولا تَستسلِف من دار بقائِك في دارِ فَنائك، فإنّ عيشك فيء زائل، وجِدارٌ مائل. أكثِرْ من عَمَلك، وأقصِرْ من أمَلِك.

وقال إبراهيمُ بنُ أدْهم لرجل: أدِرْهمٌ في المنام أحَبُّ إليك أم دينارٌ في اليَقَظة؟ فقال: دينارٌ في اليَقَظة. فقال: كَذَبْتَ، إنّ الذي تُحِبّه في الدّنيا فكأنك تُحِبّه في المنام، والذي تحبُّه في الآخرة فكأنك تحبّه في اليَقَظة.

وقال بعضُ الحُكَماء: من فَرِح قلبُه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحِكْمة، ومن

---

(١) ب: «تسقط» (٢) ديوانه ١٩٢
(٣) الدحض: المكان الزلق.

جَعَل شهوته تحتَ قدمَيه فَرَق الشيطانُ من ظِلِّه ، ومَن غَلَب عِلْمُه هَواهُ فهو الغالب .

وقال بعضُهم : الدنيا تُبغِّضُ إلينا نفسَها ونحن نحبُّها ، فكيف لو تحبَّبتْ إلينا !

وقال بعضهم : الدنيا دارُ خراب ، وأخرَبُ منها قلبُ من يعمُرُها ، والجنّة دارُ عُمْرَان ، وأعمَرُ منها قلْب من يَطْلبُها .

وقال يحيى بنُ مُعاذ : العُقَلاء ثلاثة : مَن تَرَكَ الدنيا قبل أن تَتْرُكَه ، وبَنَى قبرَه قبل أن يَدخُلَه ، وأرْضَى خالقَه قبل أن يَلقاه .

وقال بعضهم : مَنْ أرادَ أنْ يستغنِيَ عن الدّنيا بالدّنيا كان كمُطفِئ النارِ بالتِّبْنِ .

ومن كلامِ بعضِ فُصَحاء الزّهّاد : أيّها الناس اعمَلوا في مَهَل ، وكونوا من الله على وَجَل ، ولا تغترّوا بالأمَل ، ونِسيانِ الأجلِ ، ولا تركَنوا إلى الدنيا ؛ فإنّها غدّارة غرّارة خدّاعة قد تزخرفتْ لكم بغرُورِها ، وفتَنَتْكم بأمانيّها ، وتزيّنتْ لخطّابها ، فأضحت كالعَروس المتجلّية ، العيونُ إليها ناظرة ، والقلوبُ عليها عاكفة ، والنفوسُ لها عاشقة . فكم من عاشقٍ لها قتَلتْ ، ومطمئنٍّ إليها خذَلَتْ ! فانظروا إليها بعينِ الحقيقة ، فإنّها دارٌ كثرت بوائقُها ، وذمّها خالقُها ، جديدُها يَبلَى ، ومُلكُها يَفنَى ، وعزيزُها يَذِلّ وكثيرُها يَقِلّ ، وحيُّها يموتُ ، وخيرُها يفوت ؛ فاستيقِظوا من غفلتِكم ، وانتبهوا من رَقْدتِكم ، قبل أن يقال : فلان عليل ، ومدنَفٌ ثقيل ، فهل على الدّواء من دليل ، وهل إلى الطبيب مِن سبيل ؟ فتُدعَى لك الأطبّاء ، ولا يُرجَى لك الشفاء ، ثمّ يقال : فلانٌ أوصَى ، ومالَه أحصَى ، ثمّ يقال : قد ثَقُل لسانُه فما يكلِّم إخوانَه ، ولا يَعرِف جيرانَه ، وعَرِق عند ذلك جبينُك ، وتتابع أنينُك ، وثبت يقينُك ، وطَمَحتْ جفونُك ، وصدقَتْ ظُنونُك ، وتلجلجَ لسانُك ، وبكى إخوانُك ، وقيل لك : هذا ابنُك فلان ، وهذا أخوك

فلان ؛ مُنِعت من الكلام فلا تَنطِق ، وخُتِم على لسانك فلا ينطَبِق ، ثمّ حَلّ بك القضاء ، وانتُزِعت روحُك من الأعضاء ، ثم عُرِج بها إلى السّماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانُك ، وأُحضِرَت أكفانُك ، فغسّلوك وكفّنوك ، ثمّ حملوك فدفنوك ، فانقطع عُوّادُك ، واستراح حُسّادُك ، وانصرف أهلُك إلى مالِك ، وبقيتَ مرتهنًا بأعمالك .

وقال بعضُ الزّهاد لبعض الملوك : إنّ أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها ، وأُعطِي حاجتَه منها ، لأنه يتوقّع آفةً تغدُو على ماله فتجتاحه ، وعلى جمعِه فتفرّقه أو تأتى على سلطانه فتهدِمه من القواعد ، أو تدبّ إلى جسمه فتُسقِمه ، أو تفجعه بشيء هو ضَنين به من أحبابه ، فالدنيا الأحقّ بالذمّ ، وهى الآخذة ماتُعطِى ، الراجعة فيما تَهَب ؛ فبينا هى تُضحِك صاحبَها إذ أضحكتْ منه غيرَه ، وبينا هى تبكِي له إذ أبكتْ عليه وبينا هى تَبسط كفّه بالإعطاء إذ بسَطتْ كفَّها إليه بالاسترجاع والاسترداد ، تَعقِد التاج على رأس صاحبِها اليوم وتُعفّره فى التّراب غداً ، سواء عليها ذَهاب مَن ذهب وبقاء من بقِى ، تجد فى الباقى من الذاهب خلفا ، وترضَى بكلٍّ من كلٍّ بدَلا .

وكتب الحسنُ البصرىّ إلى عمر بن عبد العزيز : أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دارُ ظَعنٍ ليست بدار إقامة ، وإنما أُنزل إليها عقوبة فاحذرْها فإن الزّاد منها ركُها ، والغنى منها فقرُها ، لها فى كلّ حينٍ قتيل ، تُذِلّ مَنْ أعزّها ، وتُفقِر من جمعها ، هى كالسّمّ يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حَتفُه ، فكن فيها كالمُداوِى جراحه ، يحْمِى قليلا مخافة ما يكرهه طويلا ، ويصبر على شدّة الدواء ، مخافة طُول البلاء ، فاحذر هذه الدنيا الغدّارة المكّارة ، الختّالة الخدّاعة ، التى قد تزيّنت بخُدَعها ، وفتنَتْ بغرورها ، وتحلّت بآمالها ، وتشرّفتْ لخطّابها ، فأصبحت بينهم كالعروس تُجلَى على بعلها ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوسُ لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلّهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضى معتبِر ، ولا الآخِر بالأوّل مزدجِر ، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مدّكِر ، فمن عاشقٍ لها قد

ظفر منها بحاجتــه ، فاغترّ وطغى ونسي المعاد ، وشُغل بها لُبّه حتى زلّت عنها قدمُه ، فعظُمتْ ندامتُه ، وكثرتْ حسرتُه ، واجتمعت عليه سكراتُ الموت بألمه ، وحسرات الفَوت بغصّته ، ومنْ راغب فيها لم يدرك منها ما طلب ، ولم يُرِح نفسَه من التّعب ، خرج منها بغير زاد ، وقدِم على غير مِهاد ؛ فاحذرْها ثمّ احذرْها وكنْ أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تـكون لها ، فإن صاحبها كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخصَته إلى مكروه ، والسارّ منها لأهلها غارّ ، والنافع منها فى غدٍ ضارّ ، قد وُصل الرّخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها للفَناء ؛ فسرورها مَشوب بالأحزان ، ونعيمُها مكدَّر بالأشجان ، لا يرجع ما ولّى منها وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينتظر ، أمانيّها كاذبة ، وآمالها باطـلة ، وصفوُها كَدَر ، وعيشها نَـكَد ، والإنسان فيهـا على خَطَر إنْ عَقَل ونَظَر ، وهو من النَّعماء على غَرَر ، ومن البلاء على حَذر ، فلو كان الخالقُ لها لم يخبر عنها خبرا ، ولم يَضرِب لها مَثَلا ، لـكانت هى نفسها قد أيقظتْ النائم ، ونبّهت الغافل ، فـكيف وقد جاء من الله عنها زاجر ، وبتصاريفها واعظ ، فما لها عند الله قدْر ، ولا نظر إليها منذ خَلقها ، ولقد عُرضتْ على نبيّك محمّد صلى الله عليه وسلّم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصــه ذلك عند الله جناحَ بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يخالف على الله أمره ، أو يحبّ ما أبغضَه خالقُه ، أو يرفع ما وضعه مليـكه ، زواها الربّ سبحانه عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظنّ المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أُكرِم بهــا ، وينسى ما صنع الله تعالى بمحمّد صلى الله عليـه وسلّم من شدّه الحَجَر على بطنِه ، وقد جاءت الرواية عنه عن ربّه سبحانه أنه قال لموسى : إذا رأيت الغنَى مقبلا فقل ذنبٌ عجلتْ عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين ؛ وإن شئت اقتديت بصاحب الرُّوح والـكلمة عيسى ؛ كان يقول : إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصُّوف ، وصِلائى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ووسادى الحَجَر ، ودابتى رِجْلاى ،

وفاكهتى وطعامى ما أنبتت الأرضُ ، أبيتُ وليس لى شىء ، وليس على الأرض أحدٌ أغنى منّى .

وفى بعض الكتب القديمة : إن الله تعالى لمّا بعث موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يروعنّكما لباسُه الذى لبس من الدنيا ، فإنّ ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفّس إلاّ بإذنى ، ولا يُعجبكما ما مُتّع به منها ، فإن ذلك زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين ، ولو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا وُهبتما لفعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، إنى لأذودهُم عن نعيمها كما يذود الرّاعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة ، وإنّى لأجنّبهم حُبّ المُقام فيها كما يجنب الراعى الشفيق إبلَه عن مَبارِك العرّة ، وما ذلك لهوانهم علىّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفوراً ، إنما يتزين لى أوليائى بالذلّ والخضوع والخوف ، وإن التقوى لتثبت فى قلوبهم ، فتظهر على وجوههم ، فهى ثيابُهم التى يلبسونها ، ودِثارُهم الذى يظهرون ، وضميرُهم الذى يستشعرون ، ونجاتُهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إيّاه يأملون ، ومجدُهم الذى به يفتخرون ، وسيماهم التى بها يُعرفون ، فإذا لقيتهم أحدكما فليخفض لهم جناحَه ، وليذلّل لهم قلبه ولسانه ، وليعلم أنه مَنْ أخاف لى وليّاً فقد بارزنى بالمحاربة ، ثمّ أنا الثائر به يوم القيامة .

ومن كلام بعض الحكماء : الأيّام سِهام ، والناس أغراض ، والدهر يرميك كلّ يوم بسهامه ، ويتخرّمك بلياليه وأيّامِه ؛ حتّى يستغرق جميع أجزائك ، ويُصمى جميع أبعاضِك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالى فى بدنك ! ولو كُشف لك عمّا أحدثت الأيّام فيك من النقص لا ستوحشتَ من كلّ يوم يأتى عليك ، واستثقلت ممرّ الساعاتِ بك ، ولكنّ تدبير الله تعالى فوق النظر والاعتبار .

وقال بعض الحكماء ـ وقد استوصف الدنيا وقدْر بقائها ـ : الدنيا وقتك الذى يرجع إليه طرفك ، لأنّ ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأتِ فلا عِلم لك به ؛ والدهر يومٌ مقبل تنعاه ليلتهُ ، وتطويه ساعاتهُ ، وأحداثه تتوالى على الإنسان ، بالتغيير والنقصان ، والدهر موكّل بتشتيت الجماعات ، وانخرام الشّمل ، وتنقُّل الدُّوَل ، والأمل طويل ، والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور .

وقال بعض الفضلاء : الدنيا سريعة الفَناء ، قريبة الانقضاء ، تَعِد بالبقاء ، وتُخلِف فى الوفاء ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرّة ، وهى سائرة سَيْرا عنيفا ، ومرتحلة ارتحالا سريعا ، ولكنّ الناظر إليها قد لا يُحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها ، وإنما يحسّ بذلك بعد انقضائها؛ ومِثالها الظِّلّ ، فإنه متحرّك ساكنٌ ؛ متحرّك فى الحقيقة ، وساكنٌ فى الظاهر ، لا تدرَك حركتهُ بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة .

(٣٧٤)

الأصل :

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وضَعَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ ، والْعِقابَ على مَعْصِيَتِهِ ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ ، وحِياشَةً لَهُمْ إلى جَنَّتِهِ .

* * *

الشرح :

ذِيادة ، أى دَفعا ذُدْتُه عن كذا ، أى دَفعته ورددته . وحياشةً مصدر حُشْتُ الصّيد بضم الحاء ، أحوشُه ، إذا جئته من حواليَه لتصرِفه إلى الحِبالة ، وكذلك أحشْتُ الصيد وأحْوَشْتُه ، وقد احتوش القومُ الصيد إذا نفّره بعضهم إلى بعض .

وهذا هو مذهب أصحابنا ، إن الله تعالى لما كلّف العباد التكاليف الشاقّة ، وقد كان يمكنه أن يجعلها غير شاقّة عليهم بأن يزيد فى قُدَرهم ، وجب أن يكون فى مقابلة تلك التكاليف ثواب ، لأنّ إلزام المشاق كإنزال المَشاقّ ، فكما يتضمن ذلك عوضا ، وجب أن يتضمّن هذا ثوابا ، ولا بدّ أن يكون فى مقابلة فعل القبيح عِقاب ، وإلا كان سبحانه ممكّنا الإنسان من القبيح ، مغريا له[1] بفعله ، إذ الطبع البشرى يهوى العاجل ، ولا يَحفِل بالذمّ ، ولا يكون القبيح قبيحا حينئذ فى العقل ، فلا بدّ من العقاب ليقع الانزجار .

---

(١) ب ا : « به »

الأصل :

يأتي على النّاسِ زمانٌ لا يبقى فيهم من القرآن إلاّ رسمُه ، ومن الإسلام إلا اسمُه ، ومساجدُهم يومئذٍ عامرةٌ من البناء، خرابٌ من الهدى، سكّانُها وعُمّارُها شرُّ أهلِ الأرضِ ، منهم تخرجُ الفتنةُ ، وإليهم تأوي الخطيئةُ ، يردّون من شذَّ عنها فيها ، ويسوقون من تأخّرَ عنها إليها ،يقولُ اللهُ سبحانه : فبي حلفتُ، لأبعثنَّ على أولئك فتنةً أتركُ الحليمَ فيها حيرانَ ، وقد فعلَ ، ونحنُ نستقيلُ اللهَ عثرةَ الغفلةِ .

***

الشرح :

هذه صفةُ حالِ أهلِ الضّلال والفسق والرّياء من هذه الأمّة ، ألا تراه يقول : سكّانها وعُمّارها ، يعني سكّانَ المساجد،وعمّار المساجد شرّ أهل الأرض ؛ لأنهم أهل ضلالة كمن يسكن المساجد الآن ممّن يعتقد التجسم والتشبيه والصّورة والنّزول والصعود والأعضاء والجوارح ، ومن يقول بالقدر يضيف فعل الكفر والجهل والقبيح إلى الله تعالى ، فكل هؤلاء أهل فتنة ، يردّون من خرج منها إليها ، ويسوقون من لم يدخل فيهـا إليها أيضاً .

ثم قال حاكيا عن الله تعالى: إنه حلف بنفسه ليبعثنّ على أولئك فتنةً ، يعني استئصالا وسيفا حاصدا يترك الحليمَ أي العاقل اللّبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجهُ خلاصه .

ثم قال عليه السلام : وقد فعل .

وينبغي أن يكون قد قال هذا الكلام في أيام خلافته ، لأنّها كانت أيام السيف المسلط على أهل الضلال من المسلمين ، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بني أميّة وأتباعهم من سيوف بني هاشم بعد انتقاله عليه السلام .

الأصْلُ :

ورُوِي أنّهُ عليهِ السلامُ قلّمَا اعْتَدَلَ بهِ المِنْبَرُ إلّا قالَ أمامَ خُطْبَتِهِ : أيُّهَا النّاسُ ، اتّقُوا اللهَ فَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُو ، وَلَا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُو ، وَمَا دُنْيَاهُ الّتِي تَحَسّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الّتِي قَبّحَهَا سُوءُ النّظَرِ عِنْدَهُ ، وَمَا المَغْرُورُ الّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمّتِهِ كالآخَرِ الّذِي ظَفِرَ مِنَ الآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ .

***

الشّرحُ :

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(١) .

ومن الكلمات النبويّة : إنّ المرء لم يُترَك سُدًى ، ولم يُخلق عبثًا .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّ مَن ظَفِر من الدنيا بأعلى وأعظم أمنيّة ليس كآخَرَ ظَفِر من الآخرة بأدوَن درجات أهلِ الثواب ، لا مناسبة ولا قياسَ بين نعيم الدنيا والآخرة .

وفي قوله عليه السلام : « التي قبحها سوء النظَر عنـدَه » تصريحٌ بمذهب أصحابنا أهلِ العدل رحمهم الله ، وهو أنّ الإنسان هو الذي أضلّ نفسَه لسوء نظره ، ولو كان الله تعالى هو الذي أضلّه لما قال : قبحها سوء النظر عندهَ .

---

(١) سورة المؤمنين ١١٥

الأصْلُ :

لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى ، وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ ، وَلَاشَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ ، وَلَامَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ .

وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ . وَالدَّعَةِ مِفْتَاحُ النَّصَبِ ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ ، وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ ، وَالشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ .

***

الشَّرْحُ :

كلّ هذه المعانى قد سبق القولُ فيها مرارا شتّى ؛ نأتى كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم ، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين ، كما يكرّر اللهُ سبحانه فى القرآن المواعظَ والزواجر ، لذلك كان أبو ذرّ – رضى الله عنه – جالسا بين الناس فأتته امرأتُه فقالت : أنت جالس بين هؤلاء ، ولا والله ماعندنا فى البيت هِفّة ولا سُفّة[1] ؛ فقال : ياهذه ، إنّ بين أيدينا عَقَبَةً كَؤُودا ، لا ينجو منها إلاّ كلّ مخفّ . فرجعت وهى راضية .

---

(١) نهـاية ابن الأثير ٢ : ١٦٧ ، ٤ : ٢٥٠ . الهفة : السحاب لا ماء فيه ؛ والسفة : ما ينسج من الخوص كالزبيل ؛ أى لا مشروب فى بيتك ولا مأكول .

وقيل لبعضَ الحكماء : ما مالُك ؟ قال : التجمّل فى الظاهر ، والقَصْد فى الباطن ، والغِنَى عمّا فى أيدى الناس :

وقال أبو سليمان الدّارانىّ : تنفُّس فقيرٍ دُون شهوةٍ لا يَقدر عليها أفضلُ من عِبادةِ غَنىٍّ ألف عام .

وقال رجلٌ لبشر بن الحارث : ادعُ لى فقد أضرّ الفقرُ بى وبعيالى ؛ فقال : إذا قال لك عيالَك : ليس عندنا دقيق ولا خبز فادعُ لبشر بن الحارث فى ذلك الوقت ، فإنّ دعاءك أفضلُ من دعائه .

ومن دعاء بعض الصالحين : اللهمّ إنى أسألك ذُلّ نفسى ، والزّهدَ فيما جاوزَ الكَفاف .

الأصْـلُ :

وَقالَ عليهِ السلام : لجابر بن عبد الله الأنصاريّ :

ياجابِرُ ، قِوَامُ الدِّينِ والدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ : عَالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ ، وَجَاهِلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعلَّمَ ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ ، فَإِذَا ضَيَّعَ العَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ، وَإِذَا بَخِلَ الغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ .

ياجابِرُ ، مَنْ كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ لِلهِ فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَةَ اللهِ لِدَوَامِهَا ، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يَجِبُ لِلهِ فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَتَهُ لِزَوَالِهَا .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذه المعانى. والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهما بالأخرى، وكذلك جعل فى الاثنتين الآخرتين ، فقال : إنّ قوام الدِّين والدنيا بأربعة : عالمٍ يستعمل علمَه ، يعنى يعمَل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يَعمَل ، وجاهل لا يستنكِف أن يتعلّم ، وأضرُّ ماعلى الجهلاء الاستنكاف من التعلّم ؛ فإنهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت ، والثالث جَواد لا يبخل بالمعروف ، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه ، أى لا يَسرق ، ولا يَقطع الطّريق ، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله ، كالقِمار ، والمواخير ، والمزاجر ، والمـآصر ، ونحوها .

ثم قال : فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمَه استنكف الجاهلُ من التعلم ، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأى العالم يعصى و يجاهِر الله بالفسق زهِد فى التعلّم ؛ وقال : لماذا تعلُّم العلم إذا كانتْ ثمرته الفسق والمعصية .

ثم قال : والرابعة مرتبطة بالثالثة ، إذا بخل الغَنىّ بمعروفه ، باع الفقيرُ آخرته بدنياه ، وذلك لأنّه إذا عدم الفقير المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول فى الحرام ، والاكتساب من حيث لا يحسُن ، و يَنبغى أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنىّ ليطابق أوّل الكلام آخره ، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ ، وجواد لا يبخل بمعروفه ، وفى ضمير اللفظ كون ذلك الجواد غنيًا لأنه قد جعل له معروفا والمعروف لا يكون إلا عن ظهر غِنى ؛ و باقى الفصل قد سبق شرحُ أمثاله .

الأصْلُ :

وَرَوى ابْنُ جريرٍ الطَّبَرِىُّ فِى تَارِيخِهِ ، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أبى ليلى الْفَقِيهِ ، وَكَان مِمَّنْ خَرَجَ لِقِتَالِ الْحَجَّاجِ مع ابْنِ الْأَشْعَثِ ، أنَّهُ قال فِيما كَانَ يَحُضُّ به النَّاسَ على الْجِهَادِ : إنِّى سَمِعْتُ عَلِيًّا رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَـهُ فى الصَّالِحِين ، وأثابَهُ ثَوَابَ الشُّهداء وَالصِّدِّيقِينَ ، يقُول يوْمَ لَقِينَا أهْلَ الشَّامِ :

أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، إنَّهُ مَنْ رَأى عُدْوَانًا يُعْمَلُ بِهِ ، وَمُنْـكَراً يُدْعَى إليْهِ ، فَأنْـكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَ بَرِئَ ، وَمَنْ أنْـكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَمَنْ أنْـكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَـكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى ، فَذَلِكَ الَّذِى أصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى ، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَنَوَّرَ فِى قَلْبِهِ الْيَقِينُ .

***

الشّـرْحُ :

قد تقدّم الـكلام فى النّهىِ عن المنـكر ، وكيفيّة ترتيبه ، وكلام أمير المؤمنين فى هذا الفصل مطابق[1] لما يقوله المتـكلّمون ــ رحمهم الله .

وقد ذكرْنا فيما تقدّم ، وسنذكر فيما بعدُ من هذا المعنى مايجب . وكان النهىُ عن المنـكَر معروفا فى العرب فى جاهليّتها ؛ كان فى قريش حِلْف الفُضول ، تحالفتْ قبائلُ منها على أن يَردَعوا الظالم ، ويَنصُروا المظلوم ، ويردّوا عليه حقّه مابلّ بحرٌ صوفة ، وقد ذكرنا فيما تقدّم .

(١) د : « يطابق » .

(٣٨٠)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ في كلامٍ لهُ غيرِ هذا يجري هذا المجرى :

فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ ، فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ ، فَذَاكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ ، فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ ؛ وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ .

***

الشرح :

قد سبق قولُنا في الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر ، وهو أحد الأصول الخمسة عند أصحابنا . ولجّة الماء : أعظَمُه ، وبحرٌ لُجّيّ : ذو ماء عظيم . والنّفثة : الفعلة الواحدة ، من نَفَثْت الماء من فمي، أي قذفته بقوّة .

قال عليه السلام: لا يعتقدنّ أحدٌ أنّه إن أمر ظالما بمعروف ، أو نهى ظالما عن منكر ، أنّ ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم للآمور أو المنهىّ إياه ، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته ، فإنّ الله تعالى قدّر الأجل ، وقضى الرّزق ، ولا سبيلَ لأحد أن يَقطَع على أحد عمرَه أو رزقَه .

وهذا الكلام ينبغى أن يُحمَل على أنّه حثّ وحضّ وتحريض على النّهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، ولا يُحمَل على ظاهره ، لأنّ الإنسان لا يجوز أن يُلْقِىَ بنفسِه إلى التّهلُكة ، معتمِداً على أنّ الأجل مقدّر ، وأن الرّزق مقسوم ، وأنّ الإنسان متى غلب على ظنّه أنّ الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر ، ويضيف إليه منكراً آخر لم يَجُزْ له الإنكار.

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما رُوِىَ أنّ زيدَ بنَ أرقم رأى عبيد الله بن زياد — ويقال : بل يزيد بن معاوية — يَضرِب بقضيبٍ فى يده ثنايا الحسين عليه السلام حين حمِل إليه رأسُه ، فقال له : إيهاً ! ارْفَعْ يدَك ؛ فطالَما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقبّلها !

***

[فصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر]

ونحن نذكر خلاصةَ ما يقوله أصحابُنا فى النهى عن المنكَر ، ونَتْرُك الاستِقصاء فيه للكُتُب الكلاميّة التى هى أوْلى ببَسط القول فيها من هذا الكتاب .

قال أصحابنا : الكلام فى ذلك يقع من وجوه : منها وجوبُه ، ومنها طريق وجوبِه ، ومنها كيفيّة وجوبِه ، ومنها شروط حُسْنه ، ومنها شروط وجوبِه ، ومنها كيفيّة إيقاعه ، ومنها الكلامُ فى النّاهى عن المنكر ، ومنها الكلام فى النّهى عن المنكر .

أمّا وجوبه ؛ فلا ريبَ فيه ؛ لأنّ المنكَر قبيح كلّه ، والقبيح يجب تركه ، فيجب النّهى عنه .

وأمّا طريق وجوبه فقد قال الشيخ أبو هاشم رحمه الله : إنّه لا طريقَ إلى وجوبِه إلّا السمع ، وقد أجمع المسلمون على ذلك ، وَوَرَد بِه نصّ القرآن فى غير موضع .

قال الشيخ أبو عليّ ـ رحمه الله : العقل يدلّ على وجوبه ، وإلى هذا القول مالَ شيخُنا أبو الحسين رحمه الله .

وأمّا كيفيّة وجوبه فإنّه واجب على الكفاية دون الأعيان ، لأنّ الغرض ألّا يقع المنكر ، فإذا وقع لأجل إنكار طائفة لم يَبق وجهٌ لوجوب الإنكار على مَن سواها .

وأما شروط حُسنه فوجوه :

منها أن يكون ماينكره قبيحا ، لأنّ إنكار الحسَن وتحريمه قبيح ، والقبيح على ضروب : فمنه ما يَقبُح من كلّ مكلَّف ، وعلى كلّ حال ، كالظلم . ومنه مايقبح من كلّ مكلّف على وجهٍ دون وجه ، كالرمى بالسهام ، وتصريف الحمام ، والعلاج بالسلاح ، لأنّ تعاطىَ ذلك لمعرفة الحرب والتقوّى على العدوّ ، وتعرّف أحوالِ البلاد بالحمام حسَنٌ لا يجوز إنكاره ، وإن قصد بالاجتماع على ذلك الاجتماع على السّخف واللهو ومعاشرة ذوى الرِّيَب والمعاصى فهو قبيحٌ يجب إنكاره .

ومنه ما يَقبحُ من مكلّف ويَحسنُ من آخَر على بعض الوجوه ، كشُرب النَّبيذ ، والتشاغل بالشِّطْرنج ، فأما مَنْ يرى حظرَهما ، أو يختار تقليد من يُفتى بحظْرهما فحرامٌ عليه تعاطيهما على كلّ حال ، ومتى فعلهما حسُن الإنكار عليه ، وأما من يرى إباحتهما أو مَنْ يختار تقليد مَن يُفْتى بإباحتهما ، فإنّه يجوز له تعاطيهما على وجهٍ دون وجه ؛ وذلك أنّه يَحسُن شرب النبيذ من غيرسُكر ولا مُعاقَرة والاشتغال بالشِّطْرَنج للفرجة وتخريج الرأى والعقل ، ويَقبُح ذلك إذا قُصِد به السخف ، وقُصِد بالشرب المعاقَرة والسُّكْر ، فالثانى يحسن إنكاره ويجب ، والأوّل لا يَحسُن إنكاره لأنّه حَسنٌ مِن فاعِله .

ومنها أن يعلم المنكِر أنّ ما يُنكِره قبيح ، لأنه إذا جوّز حسنَه كان بإنكاره له وتحريمه إيّاه محرِّما لما لا يأمن أن يكون حَسنا ، فلا يأمن أن يكون ما فعلَه من النهى

نَهْيا عن حَسَن ، وكلُّ فعل لا يأمن فاعلُه أن يكون مختصا بوجه قبيح فهو قبيح ، ألا ترى أنه يقبحُ من الإنسان أن يخبر على القطعِ بأن زيدا فى الدار إذا لم يأمن ألّا يكون فيها ؛ لأنه لا يأمن أن يكون خبره كَذِبا !

ومنها أن يكون ما ينهى عنه واقعا ، لأنّ غير الواقع لا يحسنُ النهى عنه ، وإنما يحسنُ الذمّ عليه ، والنهىُ عن أمثاله .

ومنها ألاّ يغلب على ظنّ المنكِر أنه إن أنكر المنكَر، فعله المنكَر عليه ، وضمّ إليه منكَرا آخر، ولو لم ينكَر عليه لم يفعل المنكر الآخر ، فمتى غَلَب على ظنّه ذلك قَبُح إنكاره ، لأنه يصير مَفسدة ، نحو أن يغلب على ظننا أنّا إن أنكرْنا على شارب الخمر شُرْبَها شربها وقرن إلى شربها القتل ، وإن لم ننكر عليه شربها لم يقتل أحدا .

ومنها ألاّ يغلب على ظنّ الناهى عن المنكَر أنّ نهيه لا يؤثر ، فإن غلب على ظنه ذلك قَبُح نهيه عند من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر لا يحسن ، إلا أن يكون فيه لطف لغير ذلك المكلَّف . وأما من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر حسن وإن لم يكن فيه لطف لغير المكلَّف ، فإنه لا يصحّ منه القول بقبح هذا الإنكار .

فأما شرائط وجوب النهى عن المنكر فأمور :

منها أن يغلب على الظنّ وقوع المعصية نحو أن يَضيق وقتُ صلاة الظهر ، ويرى الإنسان لا يتهيّأ للصلاة ، أو يراه تهيّأ لشرب الخمر بإعدادِ آلتِه ، ومتَى لم يكن كذلك حَسُنَ منّا أن ندعوَه إلى الصلاة ، وأن لم يجب علينا دعاؤه .

ومنها ألاّ يغلب على ظنّ الناهى عن المنكَر أنه إن أنكر المنكِر لحقتْه فى نفسه وأعضائه مضرّة عظيمة ، فإن غلب ذلك على ظنّه وأنه لا يمتنع من ينكر عليه من فعل

ما يُنْكِره عليه أيضا ، فإنه لا يجب عليه الإنكار ، بل ولا يحسن منه لأنه مفسدة ، وإن غلب على ظنّه أنه لا يفعل ما أنكره عليه ولكنّه يضرّ به ؛ نُظرفإن كان إضراره به أعظم قُبْحا مما يتركه إذا أنكر عليه ، فإنه لا يحسن الإنكار عليه ، لأن الإنكار عليه قد صار والحالة هذه مفسدة ؛ نحو أن يُنْكر الإنسانُ على غيره شُربَ الخمر ، فيترك شربها ويقتله . وإن كان ما يتركه إذا أنكر عليه أعظم قبحا مما ينزل به من المضرّة ، نحو أن يَهُمّ بالكفر ،فإذا أنكرعليه تركه وجَرح المنكرعليه أو قتله فإنه لا يجبعليه الإنكار ، ويحسن منه الإنكار ؛ أما قولنا : لا يجب عليه الإنكار ؛ فلأنّ الله تعالى قد أباحنا التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، فبأنْ يبيحنا ترك غيرنا أن يتلفّظ بذلك عند الخوف على النفس أوْلى ؛ وأمّا قولُنا : إنه يحسن الإنكار ، فلأنّ فى الإنكار مع الظّنّ لما ينزل بالنفس من المضرّة إعزازا للدّين ، كما أنّ فى الامتناع من إظهار كلمة الكفر مع الصبر على قتل النفس إعزازا للدّين ، لا فضل بينهما .

فأما كيفية إنكار المنكر فهو أن يبتدئ بالسهل ، فإن نفع وإلاّ ترق إلى الصّعب ؛ لأن الغرض ألاّ يقع المنكر ، فإذا أمكن ألاّ يقع بالسهل فلا معنى لتكلّف الصّعب ، ولأنه تعالى أمرَ بالإصلاح قبل القتال فى قوله : ﴿ فأصلحوا بينهما فإن بغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى ﴾(١) .

فأما الناهى عن المنكر مَنْ هو؟ فهو كلّ مسلم تمكّن منه واختصّ بشرائطه ، لأنّ الله تعالى، قال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(٢) ، ولإجماع المسلمين على أنّ كلّ مَن شاهد غيره تاركا للصّلاة غير محافظ عليها فله أن يأمرَه بها ، بل يجب عليه ، إلا أنّ الإمام وخلفاءه أوْلَى بالإنكار بالقتال ، لأنه أعرَف بسياسة الحرب وأشدّ استعدادا لآلاتها .

---

(١) سورة الحجرات ٩ (٢) سورة آل عمران ١٠٤

فأمّا المنهيّ مَن هو؟ فهو كلّ مكلّف اختصّ بما ذكرناه من الشروط، وغير المكلّف إذا همّ بالإضرار لغيره يمنَع منه، ويمنَع الصّبيان وينهَون عن شُرْب الخمر حتّى لا يتعوّدوه، كما يؤاخذون بالصّلاة حتّى يمرنوا عليها، وهذا ماذكره أصحابُنا.

فأمّا قوله عليه السلام: «ومنهم المنكِر بلسانِه وقلبِه، والتاركُ بيَدِه، فذلكَ متمسِّك بخَصْلتين من خصال الخير، ومضيِّع خَصْلة»، فإنّه يعني به من يَعجِز عن الإنكار باليد لمانع، لأنّه لم يُخرِج هذا الكلامَ مخرج الذمّ، ولو كان لم يَعنِ العاجز لَوَجبَ أن يخرج الكلام مَخرَج الذمّ، لأنّه ليس بمعذور فى أن يُنكِر بقلبه ولسانه إذا أخلّ بالإنكار باليد مع القدرة على ذلك، وارتفاع الموانع.

وأمّا قوله: «ضيّع أشرف الخصلتين» فاللام زائدة، وأصلُه «ضيّع أشرفَ خَصْلتين من الثّلاث»، لأنّه لا وجهَ لتعريفِ المعهود هاهنا فى الخصْلتين، بل تعريف الثّلاث باللاّم أَولَى؛ ويجوز حذفُها من الثّلاث، ولكنَّ إثباتَها أحسَن، كما تقول: قتلتُ أشرفَ رجلين من الرّجال الثلاثة.

وأمّا قوله: «فذلك ميّت الأحياء»، فهو نهاية ما يكون من الذمّ.

واعلمْ أنّ النهيَ عن المنكَر، والأمرَ بالمعروف عند أصحابنا أصل عظيم من أصول الدِّين، وإليه تَذهَب الخوارجُ الّذين خرجوا على السّلطان، متمسّكين بالدِّين وشِعار الإسلام، مجتهدِين فى العبادة، لأنّهم إنّما خرجوا لِما غلب على ظنونهم، أو عَلِموا جَوْر الوُلاة وظلمَهم، وأنّ أحكام الشريعة قد غُيِّرت، وحُكِم بما لم يَحكُم به الله، وعلى هذا الأصل تَبنِي الإسماعيليّةُ من الشِّيعة قَتلَ وُلاةِ الجوْر غِيلةً، وعليه بناء أصحاب الزُّهد فى الدّنيا الإنكار على الأمراء والخلفاء، ومواجهتهم بالكلام الغليظ لمّا عجزوا عن الإنكار باليَدِ؛ وبالجملة فهو أصلٌ شريف أشرَفُ من جميعِ أبوابِ البرّ والعبادة، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام.

(٣٨١)

الأصْلُ

وروى أبو جُحَيْفَةَ قال : سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ :

إِنَّ أَوَّلَ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ ، الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً ، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ .

* * *

الشرح :

إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقَلْب آخِرُ المراتب ؛ وهو الّذى لابدّ منه على كلّ حال ، فأمّا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ ، وعنهما عُذْر ، فمن ترك النهىَ عن المنكر بقلبه ، والأمرَ بالمعروف بقلبه ، فقد سَخِط اللهُ عليه لعصيانه ، فصار كالممسوخ الّذى يَجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله ، وأسفَله أعلاه تشويهاً لخلقته ، ومن يقول بالأنفس الجسمانيّة ، وإنّها بعد المفارقة يَصعَد بعضُها إلى العالم العُلْوىّ ، وهى نفوس الأبرار ، وبعضها يَنزِل إلى المركز ، وهى نفوس الأشرار ، يتأوّل هذا الكلام على مذهبه ، فيقول : إنّ مَنْ لا يعرف بقلبه معروفا ، أى لا يَعرِف من نفسه باعثاً عليه ولا متقاضياً بفعله ، ولا يُنكِر بقلبه منكرا ، أى لا يأنَف منه ولا يستقبحه ، وينتهض من فعله يقلب نفسه الّتى قد كان سبيلُها أن تَصعَد إلى عالَمها فتُجعَل هاويةً فى حَضيض الأرض ، وذلك عندَهم هو العذاب والعقاب .

الأصل :

إنّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ .

***

الشرح :

تقول: مرُؤَ الطّعام بالضّم، يَمرُؤُ مَراءة فهو مَرِيءٌ على «فَعِيل» مثل خفيف وثقيل ، وقد جاء مَرِئَ الطّعام بالكسر، كما قالوا فَقِهَ الرجُل وفقُه . ووَبِئَ البلد بالكسر يوْبَأ وباءة فهو وَبِيءٌ على « فعيل » أيضا ، ويجوز فهو وَبِئٌ على « فَعِل » مثل حَذِر وأشِر .

يقول عليه السلام : الحقّ وإن كان ثقيلا إلّا أن عاقبته محمودة ، ومَغَبّته صالحة ، والباطلُ وإن كان خفيفا إلّا أنّ عاقبتِه مذمومة ، ومَغَبّته غير صالحة ، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل على فعله ، فلا خَير في لذّة قليلة عاجلة ، يتعقّبها مضارّ عظيمة آجلة ، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك ، كما يَحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجَد لذّة العافية .

(٣٨٣)

الأصل :

لَا تأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ عَذَابَ ٱللهِ ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾(١) وَلَا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ تَعَالَى ، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾(٢) .

***

الشَّرْحُ :

هذا كلامٌ ينبغى أن يُحمَل على أنّه أراد عليه السلام النّهىَ عن القطع على مغيب أحدٍ من النّاس ، وأنّه لا يجوز لأحد أن يقول : فلان قد نجا ، ووجبتْ له الجنّة ، ولا فلان قد هلَك ووجبتْ له النار ، وهذا القول حقّ ، لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكَم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة ، وكذلك الأعمال السيّئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها ؛ فأمّا الاحتجاج بالآية الأولى فلقائل أن يقول : إنّها لا تدلّ على ماأفتى عليه السلام به ، وذلك لأنّ معناها أنّه لا يجوز للعاصى أن يأمن مكرَ الله على نفسه ، وهو مقيمٌ على عِصْيانه ، ألا ترى أنّ أوّلها : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾(٣) ، وليست دالّة عَلَى مانحن

---

(١) سورة الأعراف ٩٩ (٢) سورة يوسف ٨٧

(٣) سورة الأعراف ٩٧ ــ ٩٩

فيه ، لأنّ الذى نحن فيه : هل يجوز لأحدٍ أن يأمَن على الصّالحين من هـذه الأمّة عذابَ الله .

فأمّا الآية الثانية فالاحتجاج بها جيّد لا شُبهَة فيه ، لأنّه يجوز أن يتوب العاصى والتّوبة من رَوْح الله .

فإن قلتَ : وكذاك يجوز أن يَـكفُر المسلِم المطيع .

قلت : صدقتَ ، ولـكنّ كفرَه ليس من مكرِ الله ، فدَلّ على أنّ المراد بالآية أنّه لا ينبغى للعاصى أن يأمَن من عقوبة الله مادام عاصياً ، وهذا غيرُ مسألتِنا .

(٣٨٤)

الأصلُ :

الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم القول فى البخل والشحّ . ونحن نذكر هاهنا زيادات أخرى .

***

[أقوال مأثورة فى الجود والبخل]

قال بعض الحكماء : السّخاء هيئة للإنسان ، داعيةٌ إلى بَذْل المقتنيات ، حصل معه البَذْل لها أو لم يَحصُل ، وذلك خُلقٌ ، و يقابله الشحّ ؛ وأمّا الجود ، فهو بذلُ المُقتنَى ؛ و يقابله البُخْل ؛ هذا هو الأصل ، وإن كان كلّ واحد منهما قد يُستعمَل فى موضع الآخر ، والّذى يدلّ على صحّة هذا الفَرْق أنهم جعلوا اسم الفاعل من السّخاء والشحّ على بناء الأفعال الغريزيّة ، فقالوا : شحيح وسخىّ ، فبنَوْه على « فَعيل » كما قالوا : حليم وسميع وعَفيف ، وقالوا : جائد و باخل ، فبنَوْهما على « فاعل » كضارِب وقاتِل ؛ فأما قولُهم : بخيل ، فمصروف عن لفظ « فاعل » للمبالغة ، كقولهم فى راحم رَحيم ، و يدلّ أيضا على أنّ السّخاء غريزة وخُلُق أنهم لم يَصِفوا البارئ سبحانه ، به فيقولوا سَخِىّ ، فأمّا الشحّ فقد عظّم أمره وخوّف منه ، ولهذا قال عليه السلام : « ثلاثٌ مُهلِكات : شحّ مُطاع ، وهَوًى متّبعٌ ، و إعجابُ المرء بنفسه » ، نخصّ المطاع تنبيها على أنّ وجودَ الشحّ

في النفس فقط ليس مما يستحق به ذم لأنه ليس من فعله ، وإنما يذم بالانقياد له ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نفسِه ﴾(١) ، وقال : ﴿ وأُحْضِرَتِ الأنفسُ الشُّحَّ ﴾(٢) .

وقال عليه السلام: لا يجتمع شحّ وإيمانٌ في قلب أبدا .

فأمّا الجود فإنّه محمود على جميع ألسنة العالم ، ولهذا قيل : كفى بالجود مدحا أنّ اسمه مطلقا لا يقع إلّا في حَمْد ، وكفى بالبخل ذمّا أن اسمه مطلقاً لا يقع في ذم .

وقيل الحكيم : أيّ أفعال البَشَر أشبَه بأفعال البارى سبحانه ؟ فقال : الجود .

وقال النّبي صلى الله عليه وآله : « الجود شجرةٌ من أشجار الجنّة ، مَن أخَذَ بغُصْن مِن أغصانها أدّاه إلى الجنة ، والبخلُ شجرةٌ من أشجار النّار من أخذ بغُصْن من أغصانِها أدّاه إلى النّار » .

ومن شَرَف الجود أن الله سبحانه قَرَن ذكره بالإيمان ، وَوَصَف أهله بالفلاح ، والفَلاح اسمٌ جامع لسعادة الدّارَين ؛ قال سبحانه : ﴿ الذينَ يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاةَ ومِمّا رَزَقْناهُم ينفقون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلِحون ﴾(٣) . وقال : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(٤) .

وحقّ للجود بأن يُقرَن بالإيمان ، فلا شيء أخصّ به وأشدّ مجانَسَة له منه ، فإن من صفة المؤمن انشراح الصّدر ، كما قال تعالى : ﴿ فمن يُرِد اللهُ أن يهديَهُ يشرحْ صدرَهُ للإسْلامِ وَمَنْ يُرِد أن يُضِلّه يَجعَلْ صدرَه ضيّقا حَرَجاً كأنّما يَصّعّدُ في السّماء ﴾(٥)؛ وهذا من صفات الجواد والبخيل ، لأنّ الجواد واسعُ الصدر ، منشرح مستبشر ، للإنفاق والبَذْل ، والبخيل قَنُوط ضيّق الصدر ، حَرِج القَلْب مُمسِك .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : «وأيّ داء أدْوَأ من البُخْل» .

والبُخْل على ثلاثة أضرُب : بخلُ الإنسان بماله على نفسه ، وبخلُه بماله على غيره ، وبخلُه

---

(١) سورة التغابن ١٦
(٢) سورة النساء ١٢٨
(٣) سورة البقرة ٣ ـ ٥
(٤) سورة الحشر ٩

بمال جبيره على نفسه أو على غيره وأفحشها بُخْلُه بمالِ غيره على نفسه، وأهونُها وإن كان لا هيِّنَ فيها، بُخْلُه بماله على غيره.

وقال عليه السلام: «اللّهم اجعلْ لمنفق خَلَفًا؛ ولممسك تَلفا».

وقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يُنزِل المعونة على قدْر المؤُونة».

وقال أيضا: «مَن وسّع وُسِّع عليه».

وقالت الفلاسفةُ: الجود على أقسام: فمنها الجودُ الأعظم، وهو الجود الإلهيّ، وهو الفَيْض العامّ المطلَق، وإنما يختلف لاختلاف الموادّ واستعداداتِها، وإلّا فالفيض فى فى نفسه عامٌّ غيرُ خاصّ، وبعدَه جُودُ الملوك، وهو الجود بجُزْء من المال على من تدعُوهم الدّواعى والأغراض إلى الجود عليه، ويَتلوه جودُ السّوقة، وهو بَذْل المال للعُفاة أو النّدامى والشّرب والمعاشرين والإحسان إلى الأقارب.

قالوا: واسم الجودِ مجاز إلّا الجود(١) الإلهى العامّ؛ فإنه عارٍ عن الغرَض والدّاعى. وأما من يُعطِى لغرضٍ وداعٍ نحو أن يحبّ الثناء والحمْدة، فإنه مستعيض وتاجر يُعطِى شيئًا ليأخذَ شيئًا، قالوا قولَ أبى نُواس.

فتًى يشترِى حُسنَ الثناء بمالِه ... ويَعلمُ أنّ الدائراتِ تدورُ

ليس بغاية فى الوَصْف بالجود التامّ، بل هو وصف بتجارة محمودة، وأحسَن منه قولُ ابن الرّومى:

وتاجر البِرِّ لا يزالُ له ... رِبْحان فى كل مَتْجر تَجَرَهْ

أجرٌ وحمدٌ وإنما طاب الأجـ ... ـرُ ولكنْ كلاهُما اعتورَهْ

وأحسن منهما قولُ بشّار:

ليسَ يُعطيك للرجاء ولا الخو ... فِ ولكن يَلذُّ طَعمَ العطاء(٢)

ونحن قد ذكرْنا مافى هذا الموضع من البَحْث العقلى فى كُتُبنا العقليّه.

---

(١) ب: «على الجود».

الأصْـلُ :

يابْنَ آدَمَ ، الرِّزْقُ رِزْقانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، ورِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فإنْ لَمْ تَأْتِهِ أتاكَ ، فَلاَ تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ ؛ كَفاكَ كُلُّ يَوْمٍ ما فِيهِ ، فإنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فإنَّ اللهَ تعالى سَيُؤْتِيكَ فى كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ ما قُسِمَ لَكَ ، وإنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ ، فَمَا تَصْنَعُ بالْهَمِّ فِيما لَيْسَ لكَ ، ولَنْ يَسْبِقَكَ إلى رِزْقِكَ طالِبٌ ، ولَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غالِبٌ ، ولن يُبْطِئَ عَنْكَ ما قَدْ قُدِّرَ لَكَ .

***

قالَ : وقدْ مضى هذَا الكلامُ فيما تقدَّمَ مِنْ هذَا البابِ ، إلاَّ أنهُ ها هنا أوضحُ وأشرحُ ، فلذلكَ كرَّرْناهُ على القاعدَةِ المقررةِ فى أوَّلِ هذَا الكتاب .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى معانى هذا الفصل ؛ ورُوِى أنّ جماعةً دخلوا على الُجنيد ، فاستأذنوه فى طلب الرزق ، فقال : إن علمتم أىّ موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك ؛ قال : إن علمتم أنه ينسا كم فذكّروه ، قالوا : فندخل البيت ونتوكّل وننتظر ما يكون ؛ فقال : التوكّل على التجربة شكٌّ ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

ورُوِى أنّ رجلا لازم باب عمرَ فضَجِر منه ، فقال له : يا هذا ، هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر ! اذهب فتعلّم القرآن ؛ فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل

وغاب مدّة حتى افتقده عمرُ ، فإذا هو معتزل مشتغل بالعبادة ، فأتاه عمرُ فقال له : إنى اشتقْت إليك ، فما الذى شَغلك عنّا ! قال : إنى قرأتُ القرآن فأغنانى عن عمر وآل عمر ، فقال : رحمك الله ! فما وجدتَ فيه ؟ قال : وجدتُ فيه : ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُم وما توعدون[1] ﴾ ؛ فقلت: رِزْق فى السماء ، وأنا أطلبه فى الأرض ، إنى لبئس الرّجل ، فبكى عمرُ وقال : صدقت ، وكان بعد ذلك ينتابه ويجلسُ إليه .

(١) سورة الذاريات ٢٢

الأصْـلُ :

رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يوماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ ، ومَغْبُوطٍ في أوَّلِ لَيْـلَةٍ قامَتْ بَوَاكِيهِ في آخِرِهِ(١) .

***

الشَّـرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

يا راقدَ الليل مسروراً بأوّله إنَّ الحوادث قد يَطرُقن أسحارا

ومِثلُه :

لا يَغُرَّنكَ عِشـــاء ساكنٌ قد يُوافي بالمَنِيَّات السَّحَرْ

(١) في « د » ومغبوط في أول ليل قامت بواكيه في آخره » .

(٣٨٧)

الأصل :

الكلامُ فى وَثاقِكَ ما لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ ، فإذا تكلَّمت به صِرْتَ فى وَثاقِهِ ؛ فاخْزُنْ لِسانَكَ كما تَخْزُنُ ذَهَبَكَ ووَرِقَكَ ؛ فَرُبَّ كلِمةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً .

***

الشرح :

قد تقدم القولُ فى مدح الصَّمت وذمِّ الكلام الكثير .

وكان يقال : لا خيرَ فى الحياة إلا لصَمُوت واعٍ ، أو ناطق مُحسِن .

وقيل لحذيفة : قد أطلتَ سجنَ لسانِك ! فقال : لأنه غيرُ مأمون [إذا أُطلِق][1] .

ومن أمثال العرب : رُبَّ كلمةٍ تقول : دَعْنى .

وقالوا : أصلها أنّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله ، فنزل يوما وهو يتصيَّد على تَلْعة ، ونزل أصحابُه حوله فأفاضوا فى حديث كثير ، فقال ذلك الإنسان : أترى لو أنّ رجلا ذُبِحَ على رأس هذه التَّلعة هل كان يسيلُ دمُه إلى أوَّل الغائط ؟ فقال المَلِك : هَلُمّوا فاذبحوه لننظر ، فذبحوه ، فقال المَلِكُ : ربَّ كلمةٍ تقولُ : دَعْنى .

وقال أَكْثمُ بن صَيْفيّ : من إكرام الرَّجل نفسَه ألّا يتكلّم بكلّ ما يعلم .

وتذاكر قومٌ من العرب وفيهم رجلٌ باهليٌّ ساكت ، فقيل له : بحقٍّ ما سُمّيتم خُرْسَ العرَب[2] ، فقال : أما علمتم أنّ لسان المرء لغيره ، وسمعَه لنفسِه !

---

(١) من ا ، د .

(٢) كذا فى ا ، وبعدها فى ب : فقالوا له : لم لا تتكلم ؟ فقال : أما علمتم ... » .

الأصل :

لَا تَقُلْ مَالَا تَعْلَمُ ؛ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَاتَعْلَمُ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

***

الشرح :

هذا نهيٌ عن الكذب ، وأن تقول مالا تأمَن من كونه كذِبا ، فإنّ الأمرين كليهما قبيحان عقلا عند أصحابنا .

فإن قلتَ كيف يقول أصحابكم : إنّ الخبر الذى لا يأمن كونه كذِبا قبيح ، والناس يستحسنون الأخبارَ عن المظنون[1] .

قلت : إذا قال الإنسان: زيدٌ فى الدار وهو يظنّه فى الدار ولا يقطع عليه ، فإنّ الحسن منه أن يُخبر عن ظنّه كأن يقول : أُخبِرُ عن أنى أظنّ أنّ زيداً فى الدار ، و إذا كان هذا هو تقديره فالخبر إذنْ خبرٌ عن معلوم لا عن مظنونٍ ، لأنّه قاطع على أنّه ظانّ أنّ زيداً فى الدار .

فأما إذا فرض الخبر لا على هذا الوجه بل على القطع بأن زيداً فى الدار وهو لا يقطع على أنّ زيدا فى الدّار ، فقد أخبر بخبرٍ ليسَ على ما أخبر به عنه ، لأنّه أخبر عن أنّه قاطع ، وليس بقاطعٍ ، فكان قبيحاً .

---

(١) كذا فى ا ، ب وفى د : « المظنونات » .

(٣٨٩)

الأصْلُ :

احْذَرْ أنْ يَرَاكَ اللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ ، فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ؛ وَإذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَإذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ .

***

الشّرْحُ :

مَن علم يقينا أنّ الله تعالى يراه عندمعصيته ، كان أجدَرَ الناس أن يجتنبها ؛ كما إذاعلمْنا يقينا أنّ الملك يرى الواحد منّا وهو يراود جاريتَه عن نفسها ، أو يحادث ولده ليفجُر به ، ولكنّ اليقين فى البَشَرِ ضعيفٌ جدّا ، أو أنّهم أحمقُ الحيوان وأجهلُه ،وبحقّ أقول : إنّهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لا يخالطه الشكّ ، ثم واقعوا المعصية ، وعندهم عقيدة أخرى ثابتة أنّ العقاب لاحقٌ بمن عصى ، فإن الإبلَ والبقرَ أقربُ إلى الرّشاد منهم .

وأقول : إنّ الذى جرّأ الناسَ على المعصية الطمعُ فى المغفرة ، والعفو العامّ . وقولهم : الحلم والكرم والصّفح من أخلاق ذوى النّباهة والفَضْل من الناسِ ، فكيف لا يكون من البارى سبحانه عفوٌ عن الذّنوب !

وما أحسَن قولَ شيخِنا أبى علىّ رحمه الله : لولا القولُ بالإرْجاء ، لما عُصِىَ اللهُ فى الأرض .

الأصْلُ

الرُّكُونُ إلَى الدُّنيَا مَعَ مَاتُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ العَمَلِ إذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاخْتِبَارِ لَهُ عَجْزٌ .

***

الشّرحُ :

قد تقدّم الكلام فى الدّنيا وحُمق من يركن إليها مع معاينة غدرِها ، وقلّة وفائها ونقضِها عهودَها ، وقتلِها عُشّاقها .

ولا ريبَ أنّ الغَبْن وأعظمُ الغَبْن هو التّقصير فى الطاعة مع يقين الثواب عليها ، وأمّا الطمأنينة إلى مَنْ لم يعرف ولم يختبرْ فإنها عجز - كما قال عليه السلام - يعنى عجزاً فى العقل والرأى ، فإن الوثوق مع التجربة فيه مافيه ، فكيف قبل التجربة !

وقال الشاعر :

وكنتُ أرى أنّ التجاربَ عُدّةٌ فخانت ثقاتُ النّاس حين التّجارِبِ

الأصْلُ :

مِنْ هَوَانِ الدُّنيَا عَلَى اللهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنَالُ مَاعِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام نسبه الغزاليّ فى كتاب " إحياء علوم الدين " إلى أبى الدَّرداء ، والصحيح أنّه من كلام علىّ عليه السلام ، ذكره شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ فى غير موضع من كُتُبه ، وهو أعرَف بكلام الرجال .

***

[نبذ مما قيل فى حال الدنيا وهوانها واغترار الناس بها]

وقد تقدّم من كلامنا فى حال الدنيا وهَوانِها على الله واغترارِ الناس بها وغدْرِها بهم (١)، وذمِّ العقلاء لها ، وتحذيرهم منها مافيه كفاية .

ونحن نذكر هاهنا زيادةً على ذلك .

يقال : إنّ فى بعض كتب الله القديمة : الدّنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجهّال ، لم يعرِفوها حتّى خرجوا منها ، فسألوا الرّجعة فلم يرجِعوا .

وقال بعض العارفين : مَن سأل الله [تعالى](٣) الدّنيا فإنّما سأله طولَ الوقوف بين يديه .

---

(١) ا : « وغدرهم بها » . (٣) من د .

وقال الحسن : لا تخرُج نفسُ ابنِ آدمَ من الدّنيا إلّا بحسَرات ثلاث : أنه لم يَشبَع مما جَمَع ، ولم يُدرِك ما أمّل ، ولم يُحسِنِ الزّاد لِما يُقدِم[1] عليه .

ومن كلامه : أهِينوا الدّنيا ، فوالله ماهيَ لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها .

وقال محمدبن المنكدر[2] : أرأيتَ لو أنّ رجلا صام الدهرَ لا يُفطِر ، وقام الليلَ لا يَفتُر ، وتصدّق بماله ، وجاهد فى سبيل الله ، واجتَنبَ محارمَ الله تعالى ، غيرأنّه يؤتَى به يومَ القيامة فيقال : إنّ هذا مع ماقد عمل كان يَعظُم فى عينه ماصغّر الله ، ويصغُر فى عينه ماعظّم الله ، كيف ترى يكون حالُه ! فمَن منّا ليس هكذا ؛ الدّنيا عظيمة عنـدَه مع ما اقترَفْنا من الذنوب والخطايا .

وقد ضرَبَت الحكماء مَثَلا للدّنيا نحن نذكره هاهنا ، قالوا : مَثَل الدّنيا وأهلِها كقوم رَكِبوا سفينةً فانتهتْ بهم إلى جزيرة ، فأمرَهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة وحَذّرهم المُقام ، وخوّفهم مرورَ السّفينة؛ واستعجالها ، فتفرّقوا فى نواحى الجزيرة ، فقضَى بعضُهم حاجَته وبادر إلى السفينة ؛ فصادف المكانَ خاليا ، فأخذ أوسعَ المواضعِ وألينَها وأوفقَها لمراده . وبعضهم توقّف فى الجزيرة يَنظُر إلى أزهارهاوأنوارِها العجيبة ، وغِياضِها الملتفّة ، ونَغمات طيورِها الطّيّبة ، وألحانِها الموزونة الغريبة ، ولحظ فى تربتها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفة الألوان ذواتِ الأشكال الحسَنة المنظَر ، العجيبة النّقش ، السالبة أعينَ الناظرين بحُسن زِبْرِجها ، وعجائبِ صُوَرِها ، ثمّ تنبّه لخطر فَوات السفينة ، فرجع إليها فلم يصادِف إلا مكانا ضيّقا حرَجا ، فاستقرّ فيه . وبعضهم أكبّ فيها على تلك الأصداف والأحجار ، وقد أعجبَه حُسنُها ، ولم تَسمَح نفسُه بإهمالها وتركِها ، فاستصحَب منها جملةً ، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلّا مكانًا ضيّقا ، وزاده ماحمله ضِيقًا ، وصار ثِقْلا عليه وَوَبالًا ، فندم على أخذِه ، ولم تُطِعه نفسُه على رميِه ، ولم يجد موضعا له ، فحمَلَه على عنقه

(١) ا : « قدم عليه » .

(٢) كذا فى ا ، وهو الصواب ، وفى ب ، د : « المنذر » .

ورأسِه ، وجلس فى المكان الضيّق فى السفينة ؛ وهو متأسّف على أخذِه ونادِم ، وليس ينفعه ذلك . وبعضُهم تولّج بتلك الأنوار والغِياض ، ونسيَ السّفينة وأبعَد فى متفرَّجِه ومتنزَّهه ، حتّى إنّ نداء الملاّح لم يَبلُغه لاشتغاله بأكل تلك الثّمار ، واشتمامِه تلك الأنوار ، والتفرّج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائفٌ على نفسه من السِّباع ، والسَّقَطات والنَّكَبات ، ونَهْشِ الحيّات ، وليس ينفكّ عن شَوْكٍ يتشبّث بثيابه ، وغصن يَجرح جسمَه ، ومَرْوةٍ تُدمي رِجلَه ، وصوتٍ هائل يَفزَع منه ، وعَوْسَج يملأ طريقَه ، ويَمنعه عن الانصراف لو أراده ، وكان فى جماعة ممّن كان معه فى السّفينة بالهم حالُه ، فلمّا بلغهم نداء السّفينة راحَ بعضُهم مثقلا بما معه فلم يجدْ فى السفينة موضعا واسعا ولاضيّقا ، فبقيَ على الشّطّ حتّى مات جوعا . وبعضهم بلَغه النّداء فلم يُعرِّج عليه ، واستغرقَته اللّذّة ، وسارت السفينة ؛ فمنهم من افترسَتْه السِّباع ، ومنهم من تاهَ وهامَ على وجهه حتّى هلكَ ، ومنهم من ارتَطَم فى الأوحال ، ومنهم من نهشَتْه الحيّات ، فتفرّقوا هَلْكَى كالجيَف المنتِنة . فأمّا من وصل إلى السفينة مُثقَلا بمـا أخذَه من الأزهار والفاكهة اللّذيذة ، والأحجار المعجِبة ، فإنهـا استرقّته وشغَلَه الحزن بحفظِها والخوفِ من ذَهابها عن جميع أموره ؛ وضاقَ عليه بطريقها مكانُه ، فلم تلبَثْ أن ذبلتْ تلك الأزهار ، وفسَدت تلك الفاكهة الغضّة ، وكَمَدتْ ألوانُ الأحجار وحالت ، فظهر له نَتْنُ رائحتها ، فصارت مع كونهامضيّقة عليهمؤذِيَةً له بنَتْنِها ووَحْشَتِها،فلم يجد حيلةً إلاّأن ألقاها فى البحرهَرَبًامنها وقد أثّر فى مِزاجه ماأكله منها ، فلم ينتهِ إلى بلده إلاّ بعد أنْ ظهرتْ عليه الأسقام بما أكل وماشمّ من تلك الروائح ، فبلغ سقيما وَقيذاً مدبرا ، وأمّا من كان رجع عن قريب ومافاته إلاّ سَعَة المَحَلّ ؛ فإنّه تأذّى بضيق المكان مدّة ، ولكن لمّا وصل إلى الوطن استراح ، وأمّا من رجع أوّلا فإنّه وَجَـد المكان الأوسَع ، ووَصَل إلى الوطن سالمـا طيّبَ القلب مسرورا .

فهذا مِثال أهلِ الدنيا فى اشتغالهم بحظوظِهم العاجلة، ونِسيانهم موردَهم ومصدرَهم، وغفلتَهم عن عاقبة أمرهم، وما أقبح حال من يَزعُم أنّه بصير عاقل وتغرّه حجارة الأرض، وهى الذّهب والفضّة، وهَشيم النّبت وهو زينة الدنيا، وهو يَعلَم يقينا أنّ شيئاً من ذلك لا يَصحَبه عند الموت، بل يصير كلُّه وبالاً عليه، وهو فى الحال الحاضرة شاغلٌ له بالخوف عليه، والحزن والهمّ لحفظه، وهذه حالُ الخَلق كلّهم إلّا من عصمَه الله.

وقد ضُرِب أيضا لها مِثالٌ آخَر فى عبور الإنسان عليها؛ قالوا: الأحوال ثلاثة: حالٌ لم يكن الإنسان فيها شيئاً، وهى ماقبل وجودِه إلى الأزَل، وحالٌ لا يكون فيها موجودا مُشاهداً للدّنيا، وهى بعد موته إلى الأبد، وحالة متوسّطةٌ بين الأزَل والأبَد، وهى أيّام حياته فى الدنيا، فلينظر العاقلُ إلى الطّرفين الطويلين، ولينظرْ إلى الحالة المتوسّطة، هل يجد لها نسبةً إليها[1]، وإذا رأى العاقل الدّنيا بهذه العين لم يرَكَن إليها، ولم يُبالِ كيف تقضّت أيّامُه فيها؛ فى ضُرّ وضِيق، أو فى سَعةٍ ورَفاهة، بل لا يَبني لَبِنةً على لَبِنة؛ توفّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وما وَضَع لَبِنة على لَبِنة، لا قَصَبة على قَصَبة. ورأى بعضَ الصّحابة بَنَى بيتا من جِصّ فقال: أرى الأمرَ أعجَل من هذا، وأنكرذلك، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله: مالى وللدنيا؛ إنما مثلى ومَثَلُها كراكبٍ سار فى يوم صائف، فرُفِعتْ له شجرةٌ فقام تحت ظِلّها ساعةً ثمّ راح وتركها؛ وإلى هذا أشار عيسى بنُ مريمَ حيث قال: الدنيا قنطرة، فاْعبرُوها ولا تَعمُروها، وهو مَثلٌ صحيح، فإنّ الحياة الدنيا قَنطرةٌ إلى الآخرة، والمَهْد هو أحد جانِبَي القَنطرة، واللّحد الجانب الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن النّاس من قطع نصفَ القَنطَرة، ومنهم من قطع ثُلثَيها، ومنهم من لم يبق له إلّا خُطوةٌ واحدة وهو غافل عنها؛ وكيفما كان فلابدّ من العبور والانتهاء، ولا ريبَ أنّ عمارة هذه القنطرة، وتزيينها بأصناف الزّينة لمن

---

(١) كذا فى ا، وفى ب، د: «إليهما».

هو محمول قَسْرا وقَهْرا على عُبورها ، يسوقه سائقٌ عنيف ، غاية الجهل والخذلان .

وفى الحديث المرفوعُ : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله مَرّ على شاةٍ مَيّتةٍ ، فقال : أتروْن أنّ هـذه الشاة هَيّنةٌ على أهلها : قالوا : نعم ، ومِنْ هوانها ألقَوْها، فقال : والذى نفسى بيده لَلدّنيا أهوَن على الله من هذه الشّاة على أهلِها ، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جَناحَ بعَوضة لما سَقَى كافراً منها شربةَ ماء » .

وقال صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجنُ المؤمن ، وجنّة الـكافر » .

وقال أيضا : « الدّنيا ملعونة ، ملعونٌ مافيها ، إلّا ما كان لله منها » .

وقال أيضا : « مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحبّ آخرتهَ أضرّ بدنياه ، فآثِروا ما يبقَى على ما يَفنى » .

وقال أيضا : « حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة » :

وروى زيدُ بنُ أرقَم قال : كنّا مع أبى بكر ، فدعا بشراب ، فأُتِى بماء وعَسَل ، فلما أدناه مِنْ فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، فسكتوا وما سكَت ، ثم عاد ليشرَب ، فبكَى حتّى ظنُّوا أنّهم لا يقدِرون على مسألته ، ثمّ مسح عينيه ، فقالوا : ياخليفةَ رسول الله ، ماأبكاك ؟ قال : كنتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فرأيتهُ يدفَع بيَدِه عن نفسه شيئاً ، ولم أر معه أحدا ، فقلت : يارسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال : هذه الدّنيا مُثّلت لى ، فقلتُ لها : إليك عنى ، فرجعتْ وقالت : إنّك إن أفلتَ منّى لم يفلتْ منّى مَن بَعدَك . وقال صلّى الله عليه وآله : « ياعَجَبا كلّ العَجَب للمصدّق بدار الخلود وهو يَسْعى لدار الغرور ! » .

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام : لا تتّخذوا الدّنيا ربّاً فتتخذكم الدّنيا عَبيدا ؛ فا كنزوا كَنزَكم عندَ من لا يضيّعه ؛ فإن صاحب كَنْز الدنيا يخَافُ عليه الآفة ، وصاحب كَنز الآخرة لا يخاف عليه .

الأصْلُ :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ .

وفى رِوَايةٍ أُخْرَى : مَنْ فَاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ ، لَمْ يَنْفَعْهُ حَسَبُ آبَائِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم مِثلُ هذا ، وقد ذكرنا ما عندنا فيه ، وقال الشاعر :

لئن فخرتَ بآباءٍ ذوِي حَسَبٍ لقد صدقتَ ولكن بئس ما وَلَدُوا

وكان يقال : أجهَل الناس من افتخر بالعظام البالية ، وتبجّح بالقرون الماضية ، واتّكل على الأيام الخالية .

وكان يقال : من طريف الأمور حَيٌّ يتّكل على ميّت . وكان يقال : ضَعة الدنىّ فى نفسه والرفيع فى أصله ، أقبح من ضعة الوضيع فى نفسه وأصله ؛ لأن هذا تشبّه بآبائه وسلفه ، وذاك قصّر عن أصله وسلَفه ، فهو إلى الملامة أقرب ، وعن العذر أبعد .

افتخر شريفٌ بأبيه ، فقال خَصمه : لو وفقتَ ، لما ذكرت أباك ، لأنه حجّةٌ عليك تُنادى بنقْصك ، وتقرّ بتخلّفك .

كان جعفر بنُ يحيى يقول : ليس من الكِرام من افتخَر بالعظام .

وقال الفضل بن الرّبيع : كفى بالمرء عاراً أن يفتخِر بغيره .

وقال الرشيد : من افتخر بآبائه فقد نادى على نفسه بالعجز ، وأقرّ على همّته بالدناءة .

وقال ابنُ الرّومىّ :

وما الحسبُ الموروثُ لا درَّ درُّه　　بمحتسب إلا بآخرَ مُكْتَسَبْ
إذا العُود لم يُثمر وإن كان شُعبةً　　من الثّمرات اعتدَّه النّاسُ فى الحَطَبْ

وقال عبدُ الله بن جعفر :

لسنا وإن أحسابُنا كرُمتْ　　يوما على الآباء نتّكِلُ
نَبنِى كما كانت أوائلُنــــــا　　تَبنِى ، ونفعــــلُ مِثلَ ما فعلوا

وقال آخَر :

وما فخرِى بمجدٍ قام غــيرى　　إليه إذا رقدتُ الليـــل عنهُ
إلى حَسَب الفتى فى نفسِه أنظرْ　　ولا تنظرْ هُديتَ إلى ابن مَن هُو

وقال آخر :

إذا فخرتُ بآبائى وأجــدادى　　فقد حكمتُ على نفسى لأضدادى
هل نافعى إن سَعَى جَدِّى لمكرمةٍ　　ونمت عن أختها فى جانب الوادى!

وقال آخر :

أيُقنِعُنِى كونى بمَنْ كونِيَ ابنهُ　　أبا لىَ أن أرضى لفخرى بمجدِهِ
إذا المرء لم يحو العلاءَ بنفسه　　فليس بحاوٍ للعَــــــلاء بجدِّه
وهل يَقطع السَّيف الحسام بأصلِه　　إذا هو لم يقطع بصارم حَدِّهِ !

وقيل لرجل يُدِلّ بشرفِ آبائه : لعَمرى لك أوّل ، ولكن ليس لأوّلك آخر .

ومثلُه ، أنّ شريفا بآبائه فاخر شريفا بنَفْسه ، فقال الشريف بنفسه : انتهى إليك شَرَفُ أهلك ، ومنّي ابتدأ شرَفُ أهلي ، وشتّان بين الابتداء والانتهاء !

وقيل لشريف ناقص الأدب : إنّ شرفك بأبيك لغيرِك ، وشرفك بنفسِك لك ، فافرُقْ بين ما لكَ وما لغيرِك ، ولا تفرَح بشرف النسب ، فإنه دون شَرف الأدب .

(٣٩٣)

الأصلُ :

مَنْ طَلَبَ شيئاً نالَهُ أوْ بعضَهُ .

***

الشرح :

هذا مِثلُ قولهم : مَنْ طلبَ وَجَدَ وجَد .

وقال بعضُ الحكماء : ما لازمَ أحدٌ بابَ المَلِكِ فاحتمل الذلّ وكَظَمَ الغيظ ورَفَقَ بالبوّاب وخالط الحاشية إلاّ وصَلَ إلى حاجته من المَلِكِ .

الأصْـلُ :

ما خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ ، وما شَرٌّ بشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ ؛ وكُلُّ نَعيمٍ دُونَ الجَنَّةِ مَحْقُورٌ ، وكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عافِيَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

موضع «بعده النار» رَفْعٌ لأنّه صفة «خير» الذى بعد «ما» ، وخير يرفع لأنه اسمُ ما ، وموضع الجار والمجرور نَصْب لأنه خبر ما ، والباء زائدةٌ ، مثلها فى قولك : ما أنت بزيد ، كما تزاد فى خبر ليس ، والتقدير ما خيرٌ تتعقبه النار بخير ، كما تقول : ما لذّة تتلوها نغصة بلذّة ، ولا ينقدح فى ما : الوجهان اللّذان ذكرهما أربابُ الصّناعة النحوية فى «لا» فى قولهم : لا خير بخير بعدَه النار ، أحدهما ما ذكرناه فى ما ، والآخر أن يكون موضع «بعده النار» جرًّا لأنه صفة خير المجرور ، ويكون معنى الباء معنى فى كقولك : زيدٌ بالدار وفى الدار ، ويصير تقديرُ الكلام : لا خير فى خيرٍ تعقُبه النار ، وذلك أن ما تستدعى خبرًا موجودا فى الكلام ، بخلاف لا ، فإن خبرها محذوف فى مِثل قولك : لا إلٰه إلاّ الله ، ونحوه ، أى فى الوجود أولنا أو ما أشبه ذلك ، وإذا جعلت بعده صفة خير المجرور لم يبق معك ما تجعله خبر ما .

وأيضا فإنّ معنى الكلام يفسد فى ما بخلاف لا ، لأنّ لا لنفى الجنس ، فكأنه

نَفَى جنسَ الخير عن خير تتعقّبه النار ؛ وهذا معنى صحيح ، وكلامٌ منتظم ، وما ها هنا إن كانت نافيةً احتاجَتْ إلى خبر ينتظم به الكلام ، وإن كانت استفهاما فسَد المعنى ، لأنّ «ما» لفظ يُطلب به معنى الاسم ، كقوله : ما العَنقاء ؟ أو يُطلَب به حقيقةُ الذات ، كقولك : ما المَلَك ؟ ولست تطيق أن تدّعى أنّ ما للاستفهام ها هنا عن أحد القِسْمين مَدْخلا لأنك تكون كأنّك قد قلت : أىّ شىء هو خيرٌ فى خير تتعقبه النار ؟ وهذا كلامٌ لا معنى له .

الأصْلُ :

أَلَا وَإِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفَاقَةَ ، وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ ؛ أَلَا وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةَ الْمَالِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ صِحَّةَ الْبَدَنِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ .

***

الشّرحُ :

قد تقدّم الكلام فى الفاقة والغِنى ، فأما المرض والعافية ففى الحديث المرفوع : « إليك انتهت الأمانِىّ ياصاحبَ العافية » . فأمّا مرَض القَلْب وصحّته فالمراد به التقوى وضدّها ، وقد سبق القول فى ذلك .

وقال أحمدُ بن يوسفَ الكاتب :

المالُ للمرء فى معيشتِه خيرٌ من الوالدَين والولدِ
و إن تَدُمْ نعمةٌ عليك تَجِدْ خيراً من المال صحّةَ الجسدِ
وما بمن نَال فضلَ عافيةٍ وقوتَ يومٍ فَقرٌ إلى أحدِ

(٣٩٦)

الأصْلُ :

الْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ ساعاتٍ : فساعةٌ يُنَاجِي فِيها رَبَّهُ ، وساعةٌ يَرُمُّ فيها مَعاشَهُ ، وساعةٌ يُخَلِّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِها فِيما يَحِلُّ وَيَجْمُلُ ؛ وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شاخصاً إلَّا فى ثَلاثٍ : مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ ، أَوْ خُطْوَةٍ فى مَعادٍ ، أَوْ لَذَّةٍ فى غَيْرِ مُحَرَّمٍ .

***

الشَّرْحُ :

تقدير الكلام : ينبغى أن يكون زمانُ العاقل مقسوما ثلاثةَ أقسام .

ويرُمّ معاشَه : يُصلِحه . وشاخصا : راحلا . وخطوة فى معاد ، يعنى فى عمل المَعاد ، وهو العبادة والطّاعة .

وكان شيخُنا أبو علىّ رحمه الله يَقسِم زمانَه على ما أصف لك : كان يُصلّى الصبحَ والكواكبُ طالعة ، ويَجلس فى محرابه للذِّكر والتّسبيح إلى بعد طُلوع الشمس بقليل ، ثمّ يتكلّم مع التلامذة وطلبةِ العلم إلى ارتفاع النّهار ، ثمّ يقوم فيصلّى الضُّحى ، ثمّ يجلس فيتمّ البحثَ مع التلامذة إلى أن يؤذّن للظّهر ، فيصلّيها بنوافلها ، ثمّ يدخل إلى أهله فيُصلِح شأنَه ، ويقضى حوائجه ، ثمّ يخرج للعصر فيصلّيها بنوافلها ، ويجلس مع التلامذة إلى المغرب فيصلّيها ، ويصلّى العِشاء ، ثم يشتغِل بالقرآن إلى ثُلثِ الليل ، ثم ينامُ الثلث الأوسَط ، ثمّ يَقعُد فيصلّى الثُّلثَ الأخير كلَّه إلى الصّبح .

الأصْـلُ :

ازْهَدْ فى الدُّنْيا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوْرَاتِهَا ، وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

أمرَه بالزُّهد فى الدنيا ، وجعل جزاء الشَّرط تبصيرَ الله تعالى له عَوْراتِ الدُّنيا ، وهذا حقّ ، لأنّ الرّاغب فى الدُّنيا عاشقٌ لها ، والعاشق لا يَرَى عيبَ معشوقِه ، كما قال القائل :

وعينُ الرِّضا عن كلّ عيبٍ كَليلةٌ ولكنّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِى المساوِيا[1]

فإذا زَهِد فيها فقد سَخِطها ، وإذا سخطها أبصَر عيوبَها مُشاهدةً لا رواية .

ثمّ نهاه عن الغفلة ، وقال له : إنّك غيرُ مغفول عنك ، فلا تغفَل أنتَ عن نفسك ، فإنّ أحقّ الناس وأولام ألّا يَغفل عن نفسه من ليس بمغفولٍ عنه ؛ ومن عليه رقيب شَهيدٌ يناقِشه على الفَتِيل والنَّقِير[2] .

---

(١) هو عبد الله بن معاوية ، الأغانى ١٢ : ٢١٤ (طبعة دار الكتب) .

(٢) الفتيل : ما يكون فى شق النواة ، والنقير : النقرة التى فى ظاهر النواة .

(٣٩٨)

الأصْلُ :

تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا ، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه إحدى كلماته عليه السلام التي لا قيمةَ لها ، ولا يقدر قَدْرُها ؛ والمعنى قد تداوله الناسُ قال :

وكائنْ تَرى مِن صامتٍ لك معجبٍ ... زيادتُه أو نقصُه في التَّكلّمِ [(١)]

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللّحمِ والدّمِ

وكان يحيى بنُ خالد يقول : ما جلسَ إليّ أحدٌ قطّ إلّا هِبتُه حتّى يتكلّم ، فإذا تكلّم إمّا أن تزداد تلك الهَيبة أو تنقُص .

(١) ينسبان لزهير ، من معلقته بشرح الزوزني ٩٤ ، وينسبان أيضا للأحنف بن قيس ، وانظر سرح العيون ١١٢ .

(٣٩٩)

الأصل:

نِعمَ الطِّيبُ المِسْكُ، خَفِيفٌ مَحْمِلُهُ، عَطِرٌ رِيحُهُ.

* * *

[فصل فيما ورد في الطّيب من الآثار]

الشرح:

كان النبيّ صلّى الله عليه وآله كثيرَ التطيّب بالمسك وبغيره من أصناف الطّيب. وجاء في الخبر الصّحيح عنه: «حُبِّبَ إليّ من دنياكم ثلاث: الطّيب، والنّساء، وقُرّة عيني في الصّلاة».

وقد رُويت لفظةُ أمير المؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة. ونحوها: «لا تردّوا الطّيب فإنّه طيّب الريح، خفيفُ المَحمل».

سَرقَ أعرابيٌّ نافجة مسْك، فقيل له: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[1]، قال: إذَنْ أحمِلها طيّبةَ الرّيح، خفيفةَ المَحمل.

وفي الحديث المرفوع أنّه عليه السلام بايع قوماً كان بيدِ رجلٍ منهم رَدْعُ[2] خَلوق، فبايعه بأطراف أصابعه، وقال: «خيرُ طيبِ الرجال ما ظهرَ ريحُه وخفيَ لونُه، وخيرُ طيبِ النّساء ما ظهرَ لونُه وخفيَ رِيحُه».

وعنه عليه السلام في صفة أهل الجنّة: «ومَجامِرُهم الألوّة[3]»، وهي العُودُ المندىّ.

---

(١) سورة آل عمران ١٦١ (٢) ردع الزعفران: لطخه. (٣) نهاية ابن الأثير ٤ : ٧٠

ورَوَى سهلُ بنُ سعد عنه عليه السلام : « إنّ فى الجنة لَمراغاً من مِسْك مِثل مَراغ دوابّكم هذه » .

ورُوِى عنه عليه السلام أيضا فى صفة الكوثر : « جالُه المِسك ـ أى جانبُه ـ ورَضْراضه التُّوم ، وحَصباؤه اللؤلؤ (١) » .

وقالت عائشة : كأنّى أنظُر إلى وَبِيص المِسْك فى مَفارِق رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وهو مُحرِم (٢) .

وكان ابنُ عمر يَستجمِر بعُود غير مُطَرَّى ويَجعَل معه الكافور ، ويقول : هكذا رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يَصنَع .

ورَوَى أنسُ بنُ مالك قال : دخَل علينا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فقال عندَنا والوقتُ صَيف ، فعرِق ، فجاءت أمّى بقارُورة فجعَلتْ تَسلُت عرَقه ، فاستيقَظ وقال : ياأمّ سُلَيم ، ماتصنعين ؟ قالت : هذا عرَقك نجعَله فى طيبنا ، فإنّه من أطيَب الطِّيب ، ونَرجُو به برَكةَ صِبْياننا ؛ فقال : أصَبْت .

ومن كلامِ عمَر : لو كنتُ تاجراً ما اخترتُ غيرَ العِطْر ، إن فاتَنى رِبحُه لم يَفُتني رِيحُه .

ناوَل المتوكّل أحمدَ بن أبى فَنَن فأرة مِسك ، فأنشدَه :

لئن كان هذا طِيبنا وهو طَيِّبٌ ... لقد طيّبَتْه من يدَيك الأناملُ

قالوا : سُمّيَت الغالية غاليةً ، لأنّ عبدَ الله بنَ جعفر أهدَى لمعاويةَ قارورةً منها ، فسأله ، كم أنفقَ عليها ، فذكَر مالاً ، فقال : هذه غاليةٌ ، فسُمّيتْ غالية .

شمّ مالكُ بنُ أسماء بن خارجة الفَزارِىّ من أخته هند بنت أسماء رِيحَ غالية ، وكانت تحتَ الحجّاج ، فقال : علّمينى طِيبك ؛ قالت : لا أفعل ، أتريد أن تعلّمه

(١) التوم : الدر . وهى من « د » .

(٢) الوبيص : البريق :

جَوارِيكَ ! هُوَ لك عنـدى ما أردتَه ، ثم ضحكتْ وقالت : واللهِ ما تعلّمتُه إلّا من شِعرِكَ حيث قلتَ :

أطيَبُ الطِّيبِ طيبُ أمِّ أبَانِ　　فأر مسكٍ بعنـــبرٍ مَسحوقِ
خَلَطَتْـــه بعُودِها وبِبانٍ　　فهو أحوَى على اليَدَيْن شريقِ

ورَوَى أبو قِلابة قال : كان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عَرَف مَن فى الطريق أنه قد مرّ من طِيب ريحِه .

ورَوَى الحسنُ بنُ زَيد عن أبيه ، قال : رأيتُ ابنَ عبّاس حين أحرَم والغاليةُ على صَلْعته كأنّها الرُّبّ .

أوْلَمَ المتوكّل فى طُهر بَنيه ، فلمّا كثُر اللّعب قال ليحيى بن أكثم : انصرف أيّها القاضى ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأنّهم يريدون أن يَخلِطــوا ؛ قال : أحوَج مايكونون إلى قاضٍ إذا خَلطوا ، فاستَطرَفه وأمرَ أن تُغلَّف لحيتُه ؛ ففُعل ؛ فقــال يحيى : إنا لله ! ضاعتِ الغالية ، كانت هذه تكفينى دَهْرا لو دُفِعتْ إلىّ ، فأمر له بزَوْرَق لطيفٍ من ذَهب مملوء من غالية ودُرْج بَخُور ، فأخذَهما وانصرف .

ورَوَى عِكرمةُ أنّ ابنَ عبّاس كان يَطلِى جسدَه بالمسك ، فإذا مرّ بالطريق قال الناس : أمرّ ابنُ عبّاس أمِ المِسك ؟

وقال أبو الضُّحى : رأيتُ على رأس ابنِ الزّبير من المِسك مالو كان لى لكان رأس مالى .

لمّا بَنَى عمرُ بنُ عبد العزيز على فاطمةَ بنتَ عبد الملك أسرَج فى مَسارِجه تلك الليلة الغالية إلى أن طَلَعت الشمس .

كانت لابن عمر بُندُقة من مسك يَبُوكُها بين راحتيه فتفوح رائحتُها[1] .

كان عمرُ بنُ عبد العزيز فى إمارته المدينة يجعَل المِسكَ بين قَدَميه ونعلِه ، فقال فيه الشاعر يمدحه :

له نَعلٌ لا تَطَّبِى الكلبَ ريحُها[2]　　وإن وُضِعت فى مجلسِ القومِ شُمَّت

(١) يبوكها بين راحتيه : أى يقلبها . (٢) يطبى : يستميل . والبيت لكثير، انظر خزانة الأدب ٤ : ١٤٧

سَمِـع عمرُ قولَ سُحَيم عبدِ بنى الحسْحاس :

وهبّت شَمالٌ آخر اللّيـلِ قرّةٌ ولا ثوبَ إلّا دِرعها ورِدائيا (١)

فــا زال بُردى طيّبا من ثِيابها مَدى الحوْل حتّى أنهَج البُردياليا

فقال له : وَيحَك ! إنك مقتول ، فلم تمضِ عليه أيام حتّى قُتِل .

قال الشّعبي : الرائحة الطيّبة تزيد فى العقل .

كانَ عبدُ الله بنُ زيد يتخلّق بالخلوق ، ثمّ يجلس فى المجلس .

وكانوا يستحِبّون إذا قاموا من اللّيل أن يَمسَحوا مَقادِيمَ لِحاهم بالطّيب .

واشترى تَميم الدّارىّ حُلّة بثمانمائة دِرهم ، وهيّأ طِيبا ، فكان إذا قام من اللّيل تطيّب ولبِس حُلّتَه ، وقام فى المحراب .

وقال أنَس : ياجميلة ، هيّئى لنا طِيبا أمسحْ به يدى ، فإنّ ابنَ أمّ ثابت إذا جاء قبّل يدِى – يعنى ثابتا البُنانىّ .

وقال سَلم بنُ قُتيبة : لقد شممتُ من فلانٍ رائحةً أطيَب من مَشْطة العَروس الحسْناء فى أنف العاشق الشّبِق .

ومن كلامِ بعضِ الصّالحين : الفاسق رِجْس ولو تَضمّخَ بالغالية .

عرَضتْ مدنيّة لكُثيّر فقالت له : أنت القائل :

فــا روْضةٌ بالحزْن طيّبة الثّرى يَمُجّ النّدَى جَثْجاثُهـــا وعَرارُها

بأطيَبَ مِن أردانِ عَــــزّةَ مَوْهِناً وقد أوقدتْ بالمَندَل الرّطب نارُها

لو كانت هـذه الصّفة لزَنجيّة تجتـلى الحلّة لطابت ، هلاّ قلت كما قال سيّدك (٢) أمرؤ القيس :

---

(١) ديوانه ٢٠ .

(٢) ف د « سيدالشعراء » .

ألمْ ترَيانى كلَّما جئتُ طارقا وجدتُ بهـا طِيباً وإن لم تَطيَّبِ (١)

وقال الزَّمخشرىّ : إنّ النوى المُنقَع بالمدينة ينتاب أشرافُها المواضعَ التى يكون فيها ألتماسا لطِيب رِيحه ، وإذا وَجَدوا ريحَه بالعِراق هَرَبوا منها لخُبثها ؛ قال : ومن اختلف فى طُرُقات المدينة وَجَد رائحةً طيّبة وبنّةً (٢) عجيبة ؛ ولذلك سُمّيت طَيْبة ، والزَّنجيّة بها تجعَل فى رأسها شيئاً من بلحٍ ومالا قيمة له ، فتجد له خَمرةً لا يعدلهـا بيتُ عَروس من ذَوات الأقدار .

قال : ولو دخلت كلّ غالية وعطر قصبةَ الأهواز وقصبةَ أنطاكية لوجدتها قدتغيّرتْ وفسدتْ فى مدّة يسيرة .

أراد الرشيد المُقام فى أنطاكية ، فقال له شيخ منها : إنّها ليست من بلادِك ، فإنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيّر فيها حتّى لا يُنتَفع منه بشىء ، والسّلاح يَصدأ فيها .

سِيراف : من بلادِ فارسَ ، لهـا فَغمة طيّبة .

فأرة المِسْك دُوَيْبة شبيهة بالخِشْف (٣) تـكون فى ناحية تُبَّت تُصاد لأجل سُرّتها ، فإذا صادها الصائد عَصَب سُرّتها بِعصاب شديد وهى مدلاة ، فيجتمع فيها دَمُها ، ثمّ يذبحها ، وما أكثرَ من يأكلها ، ثمّ يأخـذ السرّة فيدفِنهـا فى الشَّعر حتى يستحيلَ الدمُ المحتقِن فيها مسكا ذكيّا بعـد أن كان لا يرام نَتْنا ، وقد يوجـد فى البيوت جِرْذان سُودٌ يقال لها : فأر المِسك ليس عندها إلّا رائحة لازمة لها .

وذكر شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ قال : سألتُ بعضَ أصحابنا المعتزِلة عن شأن المِسْك ، فقال : لولا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله تطيّب بالمسك لماتطيّبتُ به ، لأنّه دم ؛ فأمّا

(١) ديوانه ٤١
(٢) البنة : الرائحة مطلقا .
(٣) الخشف : ولد الظبي .

الزّباد فليس ممّا يقرُب ثيابى ، فقلتُ له : قد يرتضع الجَدْى من لبن خِنزيرة فلا يَحرُم لَحمُه ، لأنّ ذلك اللّبن استحال لَحما ، وخرج من تلك الطّبيعة ، وعن تلك الصورة ، وعن ذلك الاسم ، وكذا لحم الجلالة ، فالمِسك غيرُ الدّم ، والخلّ غيرُ الخمر ، والجوهر لا يَحرم لذاته وعينِه ، وإنّما يَحرُم للأعراض والعِلل فلا تقزز[1] منه عند ذِكرك الدّم ، فليس به بأس .

قال الزّمخشريّ : والزّبادة هِرّة . ويقال للزّيلَع ، وهم الّذين يجتلبون الزّباد يازَيلَع ، الزّبادة ماتت ، فيَغضَب .

وقال ابن جَزْلة الطَّبيب فى المنهاج[2] : الزّباد طيبٌ يؤخذ من حيوان كالسِّنّور يقال : إنّه وَسَخ فى رَحِمِها .

وقال الزّمخشرى : العنبر يأتى طُفاوةً على الماء لا يدرى أحدٌ معدنه ، يقذفه البحر إلى البرّ فلا يأكل منه شىء إلاّ مات ، ولا ينقرُه طائرٌ إلاّ بقى منقارُه فيه ، ولا يقع عليه إلاّ نصلَتْ أظفارُه ، والبحريّون والعطّارون ربّما وجدوا فيه المنقار والظّفر .

قال : والبال ، وهو سَمَكة طولها خمسون ذراعا ، يؤكل منه اليسير فيموت .

قال : وسمِعتُ ناسا من أهل مكّة يقولون : هو ضفع[3] ثور فى بحر الهند ، وقيل : هو من زبد بحر سَرَنديب ، وأجوَدهُ الأشهب ، ثمّ الأزرق ، وأدوَنهُ الأسوَد .

وفى حديث ابن عبّاس : ليس فى العنبر زكاة ، إنما هو شىء يَدسُرُه البحر ، أى يدفعه .

---

(١) تقزز منه : تباعد .

(٢) كتاب المنهاج لابن جزلة الطبيب ؛ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٧ ـ طب .

(٣) ضفع الثور : نجوه

فأما صاحب المنهاج فى الطبّ فقال : العنبر من عين فى البحر ، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال ، والأسود أردأ أصنافه ، وكثيرا ما يوجد فى أجوافِ السمك التى تأكله وتموت ، وتوجد فيه سُهُوكة .

وقال فى المِسك : إنه سُرّة دابّة كالظّبى ، له نابان أبيضان معقّفان إلى الجانب الإنسى كقَرْنين . جاء فى الحديث المرفوع : « لا تمنعوا إماءالله مساجدَ الله ، وليخرجن إذا خرجن تَفِلاتٍ » ، أى غير متطيّبات[1] .

وفى الحديث أيضا : « إذا شهِدَتْ إحداكُن العشاء فلا تمسّ طِيبا » ؛ والمراد من ذلك ألّا تهيج عليهنّ شهوةُ الرّجال .

قال الشاعر :

والمِسكَ بينا تراه ممتهنًا　　بفهرِ عطّارِه وساحقِـــهِ
حتى تراه فى عارِضَىْ مَلِكٍ　　أو موضَع التّاج من مَفارِقِهِ

الصَّنَوْبَرىّ فى استهداء المِسْك :

المِســـك أشبَه شىء بالشباب فهَبْ　　بعضَ الشباب لبعضِ العُصْبة الشُّيبِ

يقال : إنّ رجـــلا وَجَد قِرطاسا فيه اسم الله تعالى ، فرفَعه ، وكان عنده دينار ، فاشترى به مِسْكا ، فطيّبه ، فرأى فى المنام قائلا يقول له : كما طيبّت اسمى لأطيبنّ ذِكرك .

قال خالدُ بنُ صَفْوان ليزيد بن المهلّب : ما رأيت صدأ المِغفر ، ولا عبَق العَنْبر بأحد أليقَ منه بك ، فقال : حاجتك ؛ قال : ابنُ أخ لى فى حَبْسك ، فقال : يسبقك إلى المنزل .

(١) المنهاج . الورقة : ١٧٤

شاعر :

كأنّ دُخانَ النَّدِّ ما بين جَمْرِه ... بقايا ضَبابٍ فى رياضِ شقيقِ

قالوا : خيرُ العُود المَنْدَلِىّ ، وهو منسوبٌ إلى مَندل قريةٌ من قُرَى الهند ، وأجوَدُه أصلَبه ، وامتحان رَطْبه أن ينطَبِع فيه نَقْش الخاتَم ، واليابس تُفْصِح عنه النار ، ومن خاصية المَندَلىّ أنّ رائحته تثبت فى الثوب أسبوعا ، وأنه لا يقمل ما دامت فيه .

قال صاحبُ المِنهاج[1] : العُود عروقُ أشجارٍ تُقلع وتُدْفن فى الأرض حتى تتعفّن ، منها الخشبيّة والقشريّة ، ويبقى العود الخالص ، وأجوَدُه المندلِىّ ، ويُجلب من وَسَط بلاد الهند ، ثم العود الهندىّ ، وهو يفضل على المَنْدَلِىّ بأنه لا يولّد القَمْل ، وهوأعبق بالثّياب .

قال : وأفضل العُود أرسَبُه فى الماء ، والطافى ردىء .

قال أبو العبّاس الأعمى :

ليت شَعرِى من أينَ رائحةُ المِسْـ ... ـكِ وما إن أخالُ بالخيف أُنْسِى

حين غابتْ بنو أميّةَ عنه ... والبَهاليلُ من بنى عبدِ شَمْس

خُطباءُ على المنابر فُرْسا ... نٌ على الخَيْل قالةٌ غيرُ خُرْس

بحُلوم مِثْلِ الجبال رِزانٍ ... ووجوهٍ مِثْلِ الدّنانير مُلْسِ

المسيّب بن عَلَس[2] :

تبيت الملوكُ على عَتْبها ... وشَيْبان إن غضبتْ تُعْتَبُ[1]

وكالشّهد بالراح ألفاظُهم ... وأخلاقُهمْ منهما أعذَبُ

(١) المنهاج الورقة ١٧٤ (٢) ديوان الأعشين ٣٥٠

وكالمِسك تُربُ مَقاماتِهم وتُربُ قُبـــورِهمُ أطيبُ

أخذه العبّاس بن الأحنف فقال :

وأنتَ إذا ما وطئت التُّرابَ كأنّ ترابك للنـاسِ طِيبا

وهجا بعضُ الشعراء العمّال فى أيّام عمر ، ووقع عليهم ، فقال فى بعض شعره :

نئوبُ إذا آبوا ونَغزُوا إذا غزَوْا فأنّى لهمْ وَفْرٌ ولسنا ذَوِى وفرِ

إذا التاجرُ الدّارىُّ جاء بفأرةٍ من المِسك راحتْ فى مَفارقهمْ تجرِى

فقبض عمرُ على العمال وصادَرَهم .

قالوا فى الـكافور : إنه ماء فى شجر مكفور فيه يَغرزونه بالحديد ، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضرَبه الهواء فانعقـد كالصَّموغ الجامدة على الأشجار .

وقال صاحبُ المنهاج[١] : هو أصناف : منها الفَنصورى[٢] ، والرّياحى[٣] ، والأزاد ، والإسْفَرك[٤] الأزرق ، وهو المختلط بخشبه ، وقيل إن شجرته عظيمة تُظِلّ أكثر من مائة فارس ، وهى بحرية ، وخشب الـكافور أبيض إلى الحمرة خفيف ، والرّياحى يوجد فى بدن شجرته قِطَع كالثلج ، فإذا شققتَ الشجرةَ تناثر منها الـكافورُ .

النَّدّ : هو الغالية ، وهو العود المطرّى بالمسك والعَنْبر ودُهن البان ، ومن الناس من لا يضيفُ إليه دهنَ البان ، ويجعل عوضه الـكافور ، ومنهم لا يضيف إليه الـكافورَ أيضا ، ومن الناس من يركّب الغالية من المسك والعنبر والـكافور ودُهْن النَّيلوفر .

قال الأصمعى : قلتُ لأبى المهديّة الأعرابىّ : كيف تقول: ليس الطّيب إلّا المِسك ؟ فلم يحفل الإعرابىّ ، وذهب إلى مذهب آخر ، فقال : فأين أنت عن العنبر ؟ فقلت : كيف تقول: ليس الطِّيب إلا المسك والعنبر ؟ قال : فأين أنتَ عن البان ، قلت : فـكيف

(١) المنهاج : ورقة ١٧٧ .

(٢) فنصور : جزيرة سرنديب . انظر المفردات لابن البيطار ج ٤ : ٤٢ طبع بولاق .

(٣) نسبة إلى ملك اسمه رباح انظر نهاية الأرب ج ١١ : ٢٩٤ .

(٤) كذا فى قانون ابن سينا وشرح الأدوية المفردة للكازرونى ونهاية الأرب ج ١١ : ٢٩٤ .

تقول : ليس الطِّيب إلّا المِسك والعنبر والبان ؟ قال : فأين أنت عن ادّهان بحجر – يعنى اليمامة ، قلت : فكيف تقول ليس الطِّيب إلاّ المسك والعنبر والبان وادّهان بحَجَر ؟ قال : فأين أنت عن فارة الإبل صادرةً ؟ فرأيت أنى قد أكثرتُ عليه ، فتركتُه قال : وفارة الإبل رِيحها حين تصدرُ عن الماء . وقد أكلت العُشْب الطيب .

وفى فارة الإبل يقول الشاعر :

كأنّ فارةَ مسكٍ فى مباءتها ... إذا بدا من ضِياء الصبح تنتشرُ

كان لأبى أيوب المُرْزُبانىّ وزيرالمنصور دُهن طيّبٌ يدّهن به إذا ركب إلى المنصور ، فلمّا رأى الناسُ غلبتَه على المنصور وطاعتَه له فيما يريده ، حتّى إنه ربما كان يستحضره ليوقع به ، فإذا رآه تبسّم إليه وطابت نفسه قالوا : دهن أبى أيّوب من عمل السحرة ، وضربوا به المثَل ، فقالوا لمن يَغلب على الإنسان : معه دُهْنُ أبى أيوب .

أعرابىّ : فيها مَدَرّ كفٍّ ومَشَمّ أنف .

وقال عيينة بن أسماء بن خارجة الفزارىّ :

لو كنتُ أحمل خمراً حين زُرْتكُمُ ... لم ينكر الكلبُ أنّى صاحبُ الدّار

لكنْ أتيتُ وريح المسك يقدُمنى ... والعنبر الورْد مَشْبوبا على النّارَ

فأنكر الكلبُ ريحى حين خالطنى ... وكان يألف ريح الزِّقّ والقارِ

قال الأصمعى : ذكر لأبى أيوب هؤلاء الذين يتقشّفون ، فقال : ماعلمتُ أن القَذَر والدّفر من الدّين .

ريحُ الكَلْب مَثَلٌ فى النّتن ، قال الشاعر :

ريحُها ريحُ كلابٍ ... هارشتْ فى يومِ طَلٍّ

وقال آخر :

يزدادُ لؤما على المديح كما ... يزدادُ نَتْن الكلاب فى المطرِ

وقالت امرأةُ امرئ القيس له وكان مُفَرَّكاً عند النساء : إذا عرقتَ عرقتَ بريح كلْب . قال : صدقتِ ، إنّ أهلي أرضعوني مرّةً بلبن كلبة .

قال سَلَمة بنُ عيّاش ، يقول لجعفر بن سليمان :

فما شمّ أنفي ريحُ كفٍّ رأيتها من النّاس إلّا ريح كفّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال من المسك ومائة مثقال من العنبر .

وجّـه عمرُ إلى مَلِك الرّوم بريدا فاشترتْ أمُّ كلثوم امرأة عمر طيباً بدنانير وجعلته في قارورتين وأهدتْهما إلى امرأة ملك الرّوم ، فرجع البريد إليها ومعه ملء القارُورتين جواهر ، فدخل عليها عمر ، وقد صبّت الجواهر في حجرْها ، فقال : مِن أين لك هـذا ؟ فأخبرته ، فقبض عليه ، وقال : هذا للمسلمين ؟ قالت : كيف وهو عِوَض هديّتي ! قال : بيني و بينك أبوك ، فقال عليّ عليه السلام : لك منه بقيمة دينارك ، والباقي للمسلمين جملة لأن بريد المسلمين حمَلَه :

قيل لخديجة بنت الرشيد : رُسُل العبّاس بن محمد على الباب ، معهم زِنْبيل يحمله رجلان . فقالت : تراه بعث إليّ باقلاء؟ فكشف الزنبيل عن جرّة مملوءة غالية فيها مسحاة من ذَهب ، وإذا برُقعة : هذه جرّة أُصيبتْ هي وأختها في خزائن بني أميّة ، فأمّا أختُها فغَلَب عليها الخلفاء ، وأمّا هذه فلم أرَ أحدا أحقّ بها منك .

الأصْلُ :

ضَعْ فَخْرَكَ ، وَاحطُطْ كِبْرَكَ ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى العجبْ والكبر والفخر .

***

[نبذ ممّا قيل فى التِّيه والفخر]

فى الحديث المرفوع : « إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهليّة وفخرها بالآباء ، الناسُ لآدم ، وآدمُ من تراب ، مؤمن تقىّ ، وفاجرٌ شقىّ ، لينتهين أقوام يتفاخرون برجال إنّما هم فحم من فحم جهنّم أو ليكونن أهوَنَ على الله من جُعَلات[1] تدفع النّتنْ بأنفها » .

ومن وصيّته صلى الله عليه وآله إلى علىّ عليه السلام : « لا فقر أشدّ من الجهل ، ولا وحشة أوحش من العُجْب » .

أتى وائلُ بن حُجْر النبىّ صلى الله عليه وآله فأقطعه أرضا ، وأمر معاوية أن يمضى معه فيريَه الأرض ويعرضها عليه ، ويكتبها له ، فخرج مع وائل فى هاجِرة

---

(١) الجعلات : جمع جعل ؛ بضم ففتح : دويبة معروفة تمشى الأمكنة القذرة .

شاوية ، ومشى خلف ناقته فأحرقته الرّمضاء ، فقال : أردفنى : قال : لستَ من أرداف الملوك ، قال : فادفع إلىّ نعليك ، قال : مابخل يمنعنى يابن أبى سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال[1] اليمن أنك لبستَ نعلى ، ولكن امش فى ظلّ ناقتى فحسبُك بذاك شرفا ، و يقال : إنّه عاش حتى أدرك زمَن معاوية فأجلسه معه على سريره .

قيل لحكيم : ما الشىء الذى لا يَحسُن أن يقال و إن كان حقا؟ فقال : الفخر .

حبس هشامُ بنُ عبد الملك الفرزدقَ فى سجن خالد بن عبد الله القَسْرىّ ، فوفد جرير إلى خالد ليشفَع فيه ، فقال له خالد : ألا يسرّك أنّ الله قد أخزى الفرزدقَ ؟ فقال : أيها الأمير ، والله ما أحبّ أن يخزيَه الله إلّا بشعرى ، و إنّما قدمتُ لأشفعَ فيه . قال : فاشفع فيه فى ملأ ليكون أخزَى له[2] ، فشفع فيه ، فدعا به فقال : إنى مُطلِقك بشفاعةِ جرير ، فقال : أسيرُ قَسْرىّ ، وطليقُ كلبىّ ، فبأىّ وجه أفاخر العربَ بعدَها ! ردّنى إلى السّجن .

ذكر أعرابىّ قوما فقال : مانالوا بأناملهم شيئاً إلّا وقد وطئناه بأخامِص أقدامِنا ، و إن أقصى مُناهم لأدنى فعالنا .

نظر رجل إلى بعض ولد أبى موسى يختال فى مشْيته، فقال : ألا ترون مشيته ؟ كأنّ أباه خدَع عمرو بن العاص !

وسمع الفرزدق أبا بُردة يقول : كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحكَمين ، فقال : أحدهما مائق ، والآخر فاسق ، فكن ابن أيّهما شئت .

نظر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أبى دُجانة وهو يتبختر بين الصفّين ، فقال : « إنّ هذه مشية يبغضها الله إلّا فى هذا الموطن » .

---

(١) الأقيال : جمع قيل ؛ وهو الملك . (٢) فى د : « أذل له » ؛ وهو مستقيم أيضاً .

لما بلغ الحسن بن علىّ عليه السلام قول معاوية : إذا لم يكن الهاشمىّ جوادا والأموىّ حليما والعوّامىّ شجاعا والمخزومىّ تيّاها لم يشبهوا آباءهم ؛ قال : إنه والله ماأراد بها النّصيحة ، ولكن أراد أن يُفنىَ بنو هاشم مافى أيديهم فيحتاجوا إليه ، وأن يشجعوا بنى العوّام فيقتلوا ، وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتوا ، وأن يحلم بنو أمية فيُحبّهم الناس .

كان قاضى القضاة محمّد بن أبى الشوارب الأموىّ تائها ، فهجاه عبدُ الأعلى البصرىّ فقال :

إنّى رأيتُ محمّدا متشاوســـاً ... مستصغراً لجميع هذى الناسِ[1]
ويقول لمّا أن تنفّس خاليـا ... نَفَسـا له يعلو على الأنفـاسِ
وَيحَ الخلافَة فى جوانب لحيتى ... تستنّ دون لِحَى بنى العبّاسِ !

لبعض الأمويّة :

إذا تائهٌ من عبدِ شمسٍ رأيتَــهُ ... يتيهُ فرشّحه لــكلِّ عظيمِ
وإن تاهَ تيّاهٌ سواه فإنه ... يتيـهُ لحقٍ أو يتيــه لِلُومِ

لبعض الأمويّة أيضاً :

ألسنا بنى مرْوان كيف تبدّلتْ ... بنا الحالُ أودارتْعلينا الدوائرُ !
إذا وُلد المولود منّا تهلّلتْ ... له الأرض واهتزّت إليه المنابرُ

لبعض التيّاهين :

أتيهُ على إنسِ البلاد وجِنّهـا ... ولو لم أجد خَلْقا أتيهُ على نَفْسى
أتيه فلا أدرى من التّيه من أنا ... سوى مَن يقول الناسُ فىّ وفى جنْسى
فإنْ زعموا أنّى من الإنس مثلهم ... فمالىَ عيبٌ غير أنّى من الإنس

---

(١) المتشاوس : المختال عجباً وكبراً .

بعض العلوية .

لقد نازعتنا من قريش عصابةٌ ... بمطِّ خدودٍ وامتدادِ أصابعِ
فلمّا تنازَعْنا الفخارَ قضَى لنا ... عليهمْ بما نَهوى نداءُ الصوامعِ
ترانا سُكوتاً والشهيدُ بفضلِنا ... عليهمْ أذانُ الناسِ فى كلّ جامعِ
بأن رسولَ الله لا شكّ جدُّنا ... وأنّ بَنِيه كالنجومِ الطوالعِ

كان عُمارةُ بن حمزة بن ميمون مولى بنى العباس مَثَلا فى التِّيه ؛ حتى قيل : أتيَهُ من عُمارة . وكان يتولّى دواوينَ السفّاح والمنصور ، وكان إذا أخطأ مضى على خطئه تكبّرا عن الرجوع ، ويقول : نَقْض و إبرام فى حالة واحدة ، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك .

وافتخرت أمّ سلمة المخزوميّة امرأة السفّاح ذاتَ ليلة بقومها على السفّاح ، وبنو مخزوم يُضرَب بهم المَثَل فى الكِبْر والتِّيه ، فقال : أنا أُحضرُكِ الساعةَ على غير أُهْبة مولًى من مواليّ ليس فى أهلك مِثله ، فأرسل إلى عُمارة ، وأمر الرسول أن يُعجِله عن تغييرِ زِيّه ، فجاء على الحال التى وجده عليها الرّسول فى ثياب ممسّكة مزرّرة بالذّهب ، وقد غلّف لحيته بالغالية حتّى قامت ، فرمى إليه السفّاح بِمُدْهن ذهب مملوء غالية ، فلم يلتفت إليه ، وقال : هل ترى لها فى لحيته موضعا ؟ فأخرجتْ أمّ سَلَمة عِقْداً لها ثمينا ، وأمَرَت خادما أن يضعه بين يديه ، فقام وتركه ، فأمرت الخادمَ أن يتْبعه به ، ويقول : إنها تسألك قبولَه ، فقال للخادم : هو لك ، فانصرف بالعِقْد إليها ، فأعطت الخادمَ فكاكَه عشرةَ آلافِ دينار ، واسترجعتْه ، وعجبتْ من نفس عُمارة ، وكان عمارة لا يذلّ للخُلَفاء وهم مواليه وَ يتِيه عليهم .

نظر رجل إلى المهدىّ ويدُه فى يد عُمارة ، وهما يَمشِيان ، فقال : ياأميرَ المؤمنين

مَن هذا ؟ قال : هذا أخى ، وابنُ عمّى عُمارة بن حمْزة ، فلمّا ولّى الرجل ذكر المهدىّ الكلمةَ كالمازح لعُمارة ، فقال عُمارة : واللهِ لقد انتظرت أن تقول : مولاى فأنفض يدى من يدِكَ ، فتبسّم المهدىّ .

وكان أبو الرّبيع الغَنَوىّ أعرابيًّا جافياً تيّاها شديدَ الكِبْر ، قال أبو العبّاس المبرّد فى الكامل : فذكر الجاحظ أنّه أتاه ومعه رجل هاشمىّ ، قال: فناديتُ : أبو الرّبيع هنا ؟ فخرج إلىّ وهو يقول : خرجَ إليك رجلٌ أكرَم الناسِ ، فلمّا رأى الهاشمىّ استحيا وقال: أكرمُ الناسِ رديفا ، وأشرَفهم حليفا(١) ـ أراد بذلك أبا مَرْثد الغَنَوىّ ، لأنه كان رديفَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وحليفَ أبى بكر ـ قال : حدّثنا ساعة ثمّ نهض الهاشمىّ فقلت له : مَنْ خير الخلق ؟ قال : الناس والله ، قلت : مَن خيرُ الناس ؟ قال : العرَب والله ؛ قلت : فمَن خيرُ العرب ؟ قال : مُضَر والله ؛ قلتُ : فمن خيرُ مُضَر ؟ قال : قيس والله ؛ قلت : فمن خير قَيْس ؟ قال: يَعصُر والله ، قلت : فمن خير يَعصُر ، قال: غَنِىّ والله ، قلت : فمن خيرُ غَنِىّ ؟ قال : المخاطِبُ لك والله ؛ قلتُ: أفأنتَ خيرُ الناس ؟ قال : إى والله ؛ قلت : أيسرّك أن تكون تحتك أَمَة يزيدَ بن المهلّب ؟ قال : لا والله ؛ قلتُ: ولك ألف دينار ؛ قال : لا والله ؛ قلت : فألفا دينار ؛ قال : لا والله ؛ قلت : ولك الجنّة ، قال : فأطرَق ثم قال : على ألّا تلدَ منّى ، ثمّ أنشَدَ :

تأبَى ليَعصُرَ أعراقٌ(٢) مهذَّبةٌ   من أن تُناسب قوماً غيرَ أكفاء
فإن يكن ذاك حتْما لا مَرَدّ له   فاذكر حذيفَ فإنّى غيرُ أبّاء(٣)

---

(١) قال أبو العباس : قوله : « وأشرفهم حليفاً » ؛ كان أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

(٢) فى د : « أخلاق » والمعنى عليه يستقيم أيضاً .

(٣) قال أبو العباس : « قوله : « فاذكر حذيف » ؛ أراد حذيفة بن بدر الفزارى ؛ وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أقربهم إليه نسباً ؛ وذاك يعصر بن سعد بن قيس ، وهؤلاء بنو ريث بن غطفان بن سعد بن قيس

(٤٠٣)

الأصل :

كلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كافٍ .

***

الشرح :

هذا من باب القناعة ، وإنّ من اقتصر على شيء وقنعتْ به نفسه فقد كفاه ، وقام مقام الفضول التي يرغَب فيها المُتْرَفون ؛ وقد تقدّم القولُ في ذلك .

(٤٠٤)

الأصل :

أَلْمَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّةُ ، والتَّقَلُّلُ ولاَ التَّوَسُّلُ .

***

الشرح :

قد تقدّم من كلامنا فى هذا الباب شىءٌ كثير ، وقال الشاعر :

أُقسِمُ باللهِ لَمَصُّ النَّوَى ... وشُربُ ماءِ القُلُبِ المالحهْ (١)
أحسنُ بالإنسان من ذُلّه ... ومن سؤال الأوجه الكالحهْ
فاستغن بالله تكن ذا غنًى ... مغتبطا بالصّفقة الرابحهْ
فالزّهد عزٌّ والتّقى سُودُدٌ ... وذلّة النفس لهـــا فاضحهْ
كم سالمٍ صِيح به بَغْتَــةً ... وقائلٍ عهدى به البارحهْ
أمسى وأمسَتْ عنده قَيْنَةٌ ... وأصبحتْ تَندُبه نائحــهْ
طوبَى لمن كانت موازينُه ... يومَ يلاق ربَّه راجحهْ

وقال أيضا :

لَمصُّ الثِّماد وخَرْطُ القَتادِ ... وشربُ الأُجاج أوانَ الظَّمى
على المرء أهوَن من أن يُرَى ... ذليلاً لخلقٍ إذا أعدَما
وخيرٌ لعينيك من مَنظَرٍ ... إلى ما بأيدى اللّئام العَمَى

قلتُ : لحاه الله ، هلاّ قال : بأيدى الرّجال !

---

(١) القلب بضمتين : جمع قليب ؛ وهى البئر .

الأصْـلُ :

مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِداً ، لَمْ يُعْطَ قائِماً .

***

الشَّـرْحُ :

مرادُه أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى ، فمن لم يرزقه قاعدا لم يجب عليــه القيام والحركة .

وقد جاء في الحديث : إنه صلّى الله عليـه وآله ناول أعرابيّاً تَمْرة ، وقال له : « خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك » .

وقال الشاعر :

جرى قلم القضاء بما يكونُ فسيّان التحرّكُ والسكونُ
جنونٌ منك أن تَسعى لرزقٍ ويُرزَق في غِشاوته الجَنِينُ

الأصْـلُ :

الدَّهْرُ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، فَإذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ ، وَإذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ .

***

الشَّـرْحُ :

قديما قيل هذا المعنى : الدّهر يومان : يوم بَلاء ، و يوم رَخاء . والدهر : ضَرْبان : حَبْرة وعَبْرة . والدهر وقتان : وقت سرور ، ووقت ثبور[1] .

وقال أبو سُفيان يوم أُحُد : يومٌ بيوم بَدْر ، والدّنيا دُوَل .

قال عليه السلام : فإذا كان لك فلا تَبطر ، و إذا كان عليك فاصبر .

قد تقدّم القولُ فى ذمّ البَطر ومدح الصّبر ، و يُحمَل ذمّ البَطَر هاهنا على محملين . أحدهما البَطَر بمعنى الأشَر ، وشدّة المرح ، بِطر الرجُل بالكسر يَبطَر ، وقد أبطَره المال ، وقالوا : بطر فلانٌ معيشتَه، كما قالوا : رَشِدَ فلانٌ أمرَه . والثانى البَطَر بمعنى الحيرة والدّهش ، أى إذا كانَ الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكرِ الله ومكافأةِ النّعمة بالطاعة والعبادة . والمحمَل الأوّل أوضَح .

---

(١) الثبور : الهلاك .

أراد حذيفةَ بنَ بدرٍ الفزاريَّ ، وكان سيّدَ قيس فى زمانه [1] .

رأى عمرُ رجلا يمشى مُرْخِيا يديه ، طارحا رِجْليه ، يتبختر ، فقال له : دع هذه المِشية ، فقال : ما أطيق ، فجلده ثمّ خلّاه ، فترك التبختر ، فقال عمر : إذا لم أجلد فى هذا ففيمَ أجلد ؛ فجاءه الرجل بعد ذلك فقال : جزاك الله ياأميرَ المؤمنين خيرا ، إن كان إلّا شيطانا سُلِّط علىّ فأذهبه الله بك .

(١) الكامل ٢ : ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٤٠١)

الأصْـلُ :

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَاأَتَاكَ ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ .

***

الشَّـرْحُ :

كان يقال : اجعل الدّنيا كغَرِيم السّوء حَصِّل منه مايَرْضَخ لك به ، ولا تأس على مادَفَعك عنه ؛ ثمّ قال عليه السلام : فإن لم تفعل فأجمِلْ فى الطّلب ، وهى من الألفاظ النبويّة : « لن تموتَ نفسٌ حتّى تَستكمِل رِزقَها ، فأجمِلوا فى الطّلب »

قيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ فقال : قلّة تمنّيك ، ورضاك بما يكفيك .

الأصل :

رُبَّ قَوْلٍ ، أنفذُ مِنْ صَوْلٍ .

***

الشرح :

قد قيل هذا المعنى كثيرا ، فنه قولُهم :

* والقولُ يَنفذُ مالا تنفذُ الإبَرُ *

ومن ذلك : القولُ لا تملكه إذا نما ، كالسهم لا تملكه إذا رمى ، وقال الشاعر :

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السنا ... نِ تبقى ويَذهبُ مَن قالَها

تخيّرتُها ثم أرسلتُها ... ولم يُطِق الناسُ إرسالَها

وقال محمود الورّاق :

أتانى منك ماليسَ ... على مكروهه صبرُ

فأغضيتُ على عَمْدٍ ... وكم يُغضِى الفتَى الحرُّ

وأدّبتُك بالهجْرِ ... فما أدّبك الهجْرُ

ولا ردّكَ عمّا كا ... ن منك الصّفحُ والبِرُّ

فلمّا اضطرّنى المكرو ... هُ واشتدّ بىَ الأمرُ

تناولتُك مِن شِعرى ... بما ليس له قَدْرُ

تحرّكْتَ جَناحَ الضُّرِّ لمّا مَسّكَ الضرّ

إذا لم يُصلح الخيرُ امْ ... رأً أصلَحه الشرّ

وقال الرّضيّ رحمه الله :

سأمضغُ بالأقوال أعراض قومِكم ... وللقول أنيابٌ لدىّ حِدادُ[1]
يُرَى للقوافي والسماء جليّة ... عليكم برُوقٌ جَمّةٌ ورِعادُ

وقال أيضا :

كَمَمْتُ لسانى أن يقول وإن يَقُل ... فقل فى الجُراز العَضْب إن فارق الغِمْدا[2]
وإنّ برُوداً للمخازى معدّةً ... فمن شاء من ذا الحيّ أسحبته بُردا
قلائد فى الأعناق بالعار لا تَبِى ... على مرّ أيّام الزمان ولا تَصْدَا
إذا صَلْصَلتْ بين القنا قضّت القنا ... وإن زَفَرتْ فى السَّرد قطّعت السَّرْدا[3]

---

(١) ديوانه : ٣١٢

(٢) ديوانه ١ : ٣٠٩ كممت : شددت . والجراز العضب : السيف القاطع .

(٣) صلصلت : صوّتت . والسرد : الدروع

الأصل :

إنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الوَالِدِ حقًّا ، وَإنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حقًّا ، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَحَقُّ الولد عَلَى الوَالِدِ أَنْ يُحسِنَ اسْمَهُ ، وَيُحسِنَ أَدَبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ .

***

الشرح :

أمّا صدرُ الكلام فمن قول الله سبحانه : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ (١) .

***

[طرائف حول الأسماء والكنى]

وأما تعليم الوالد الولدَ القرآن والأدبَ فأمور به ، وكذلك القول فى تسميته باسم حسن ؛ وقد جاء فى الحديث: « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبدُ الرحمن . وأصدَقها حارث وهمّام . وأقبحها حَرْب ومُرّة » .

وروى أبو الدّرداء عن النّبي صلّى الله عليه وآله: « إنكم تُدْعَوْن يومَ القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » .

---

(١) سورة لقمان ١٤، ١٥ .

وقال عليه السلام : « إذا سَمّيتم فعبِّدوا» أى سَمّوا بنيكم عبدَ الله ونحوه من أسماء الإضافة إليه عزّ اسمُه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يغيِّر بعض الأسماء ، سمّى أبا بكر عبدَ الله ، وكان اسمُه فى الجاهلية عبدَ الكعبة ، وسمّى ابن عوف عبد الرحمن ، وكان اسمُه عبد الحارث ، وسمّى شِعْب الضّلالة شِعْبَ الهدى ، وسمّى يثرب طَيْبة ، وسمّى بنى الرّيبة بنى الرّشْدة ، وبنى معاوية بنى مُرشِدة .

كان سعيدُ بنُ المسيَّب بن حَزْن المخزومىّ أحد الفقهاء المشهورين ، أتى جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : ما اسمك ؟ قال : حزْن ؛ قال : لا ، بل أنت سَهْل ، فقال : لا ، بل أنا حَزْن ، عاوده فيها ثلاثا ، ثمّ قال : لا أحِبّ هذا الاسمَ السَّهْل يوطَأ ويُمْتهَن ، فقال : فأنت حَزْن ، فكان سعيد يقول : فما زلتُ أعرِف تلك الحزونةَ فينا .

وروى جابر عنه عليه السلام :« ما من بيت فيه أحدٌ اسمُه محمد إلا وسّع الله عليه الرزق فإذا سمّيتموهم به فلا تَضرِبوهم ولا تشتموهم ، ومن وُلِد له ثلاثة ذُكور ولم يسمّ أحدَهم أحمدَ أو محمّدا فقد جفانى » .

أبو هريرة عنه عليه السلام ، أنه نَهَى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد .

وروى أنه أذن لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام فى ذلك ، فسمّى ابنه محمد بن الحنفيّة محمدا ، وكناه أبا القاسم .

وقد رُوِى أنّ جماعةً من أبناء الصّحابة جُمِع لهم بين الاسم والكُنية .

وقال الزّمخشرىّ : قد قدّم الخلفاء وغيرُهم من الملوك رجالا بحُسْنِ أسمائهم ، وأقصَوْا قوما لشناعة أسمائهم ، وتعلّق المدح والذّمّ بذلك فى كثير من الأمور .

وفي رسالة الجاحظ إلى أبي الفَرَج نجاح بن سلمة : قد أظهر الله في أسمائكم وأسماء آبائكم وكُناكم وكُنَى أجدادكم من بُرهان الفأل الحسَن ، ونفي طيرة السوء ، ما جمع لكم صنوف الأمل ، وصرف إليكم وجوه المآب ، فأسماؤكم وكناكم بين فرَج ونجاح ، وسلامة وفضل ، ووجوهكم وأخلاقكم ، وَفْق أعراقِكم وأفعالكم ، فلم يضرِب التفاوتُ فيكم بنصيب .

أراد عمرُ الاستعانة برجل ! فسأله عن اسمه واسم أبيه ، فقال : سَرّاق بنُ ظالم ، فقال : تَسْرِق أنت ويظلم أبوك ! فلم يَستعنْ به .

سأل رجلٌ رجلاً : ما اسمك ؟ فقال : بحر ؛ قال : أبو مَنْ ؟ قال . أبو الفَيْض ؛ قال: ابنُ من ؟ قال : ابن الفُرات ، قال : ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلاّ في زَوْرق .

وكان بعضُ الأعراب اسمُه وَثّاب ، وله كلب اسمُه عمرو ، فهجاه أعرابيّ آخر فقال :

ولو هَيّا له الله من التّوفيق أسبابا
لَسمّى نفسه عَمراً وسَمّى الكلبَ وَثّابا

قالوا : وكلّما كان الاسم غريبا كان أشهرَ لصاحبه ، أمنَع من تعلّق النَّبْز (١) به ، قال رؤبة :

قد رَفَع العَجّاج ذكري فادعُني باسمي إذا الأسماء طالت تكفِني

ومن ها هنا أخذ المعرّيّ قوله يمدح الرضيّ والمرتضى رحمهما الله :

أنتم ذَوو النّسب القصير فطولُكم بادٍ على الكُبراء والأشرافِ (٢)
والرّاح إن قيل ابنةُ العِنَب اكتفتْ بأبٍ عن الأسماء والأوصافِ

---

(١) النبز : أن يلقب الإنسان بما يكره (٢) سقط الزند ٢ · ١٣٠

وسأل النّسابة البكرىّ رؤبة عن نسبه ولم يكن يعرفه ، قال : أنا ابن العجّاج ؛ قال : قصرت وعرّفت .

صاح أعرابىّ بعبد الله بن جعفر : يا أبا الفضل ! قيل : ليست كنيته ، قال : وإن لم تكن كنيته فإنها صفته . نظر عمرُ إلى جارية له سوداء تبكى فقال : ما شأنك ؟ قالت : ضربنى ابنك أبو عيسى ، قال : أوقد تكنّى بأبى عيسى ! علىّ به ، فأحضروه ، فقال : ويحك ! أكان لعيسى أب فتكنّى به ! أتدرى ما كُنَى العرب ! أبو سلمة ، أبو عُرْفطة ، أبو طلحة ، أبو حنظلة ، ثمّ أدّبه .

لما أقبل قحطبة بنُ شبيب نحو ابن هُبيرة أراد ابنُ هبيرة أن يكتب إلى مروان يخبره ، وكره أن يسمّيه ، فقال : اقلبوا اسمه ، فوجدوه هبط حقّ ، فقال : دعُوه على هيئته .

قال برصوما الزامر لأمّه : ويحك ! أما وجدتِ لى اسماً تسمّينى به غير هذا ! قالت : لو علمتُ أنك تجالس الخلفاء والملوك سمّيتك يزيد بن مزْيَد .

قيل لبعض صِبيان الأعراب : ما اسمك ؟ قال : قراد ، قيل : لقد ضيّق أبوك عليك الاسم ، قال : إن ضيّق الاسمَ لقد أوسع الكُنْية ، قال : ما كُنيتك ؟ قال : أبو الصحارى .

نظر المأمونُ إلى غلامٍ حسَن الوجْه فى الموكب ، فقال له : يا غلام ، ما اسمك؟ قال : لا أدرى ، قال : أو يكون أحد لا يَعرِف اسمَه ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اسمى الذى أعرف به « لا أدرى » ؛ فقال المأمون :

وسُمِّيتَ لا أدرِى لأنّك لا تدرِى ... بما فَعل الحبُّ المبرِّح فى صدرى

ولد لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ولدٌ ذَكر ، فبُشِّر به وهو عند معاوية

ابن أبي سُفيان ، فقال له معاوية : سمّه باسمي ولك خمسمائة ألف درهم ؛ فسمّاه معاوية ، فدفعها إليه ، وقال اشترِ بها لسميّي ضيعة .

ومن حديثِ عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله : «إذا سمّيتم الولدَ محمّداً فأكرموه ، وأوسعوا له في المجلس ، ولا تقبّحوا له وجهاً» .

وعنه صلّى الله عليه وآله : «مامن قوم كانت لهم مَشُورة فحضَر معهم عليها مَن اسمه محمّد أو أحمَد فأدخلوه في مَشُورتهم إلّا خِيَرَ لهم ؛ وما من مائدةٍ وُضِعتْ فحضر عليها من اسمُه محمّد أو أحمد إلّا قُدِّس ذلك المنزلُ في كلّ يوم مرّتين» .

من أبيات المعاني :

وحَلَلْتَ من مضرٍ بأمنعِ ذِرْوَةٍ   منعتْ بجدّ الشّوكِ والأحجارِ

قالوا : يريد بالشوك أخواله ، وهم قتادة وطلحة وعوسجة ، وبالأحجار أعمامه ، وهم صَفْوان وفِهْر وجَنْدَل وصَخْر وجَرْوَل .

سمّى عبدُ الملك ابناً له الحجّاج لحبّه الحجّاج بنَ يوسفَ وقال فيه :

سمّيتُه الحجّاجَ بالحجّاجِ   الناصحِ المكاشفِ المُداجي

استأذن الجاحظ والشكّاك — وهو من المتكلمين — على رئيس ، فقال الخادم لمولاه : الجاحد والشكّاك ، فقال : هذان من الزّنادقة لا محالة ! فصاح الجاحظ : ويحك ! ارجع قل : الحدقيّ بالباب — وبه كان يُعرَف — فقال الخادم : الحلقيّ بالباب ، فصاح الجاحظ ويلك ! ارجع إلى الجاحد .

جمع ابنُ دُرَيد ثمانية أسماء في بيتٍ واحد فقال :

فنعم أخو الجُلّى ومستنبط النّدى   وملجأ مكروبٍ ومفزع لاهثٍ (١)

[illegible]

قال محمد بنُ صدقة المقرى لميوتَ بن المزرّع: صدقَ الله فيك اسمك ! فقال له: أحوجَك الله إلى اسم أبيك .

سأل رجُلٌ أبا عبيدة عن اسم رجلٍ من العرب ، فلم يَعرِفه ، فقال : كَيْسانُ غلامُه : أنا أعرَفُ الناس به ، هو خِراش أو خِداش أو رياش[1] أو شىءٌ آخر ، فقال أبو عبيدةَ : ما أحسنَ ماعرفته ياكَيْسان ! قال : إى والله ، وهو قرشىٌّ ايضا ، قال : وما يدُرِيك به ؟ قال : أما ترى كيف احتوشَتْه الشّينات من كلّ جانب ! قال الفرزدق :

وقد تَلتَقِى الأسماء فى النّاس والكُنَى كثيرا ولكنْ مُيِّزوا فى الخلائق[2]

رأى الإسكندرُ فى عسكره رجلا لا يزال يَنهزِم فى الحرب ، فسأله عن اسمه ؟ فقال : اسمِى الإسكندر ، فقال : ياهذا ، إمّا أن تغيّر اسمك ، وأما أن تغيّر فعلك .

قال شيخُنا أبو عثمان: لولا أنّ القدماء من الشعراء سمّت الملوكَ وكنَتْها فى أشعارِها ، وأجازتْ واصطلحت عليه ما كان جزاه مَن فعل ذلك إلا العقوبة ؛ على أنّ ملوكَ بنى سَامَان لم يُكَنِّها أحد من رعاياها قطّ ، ولا سمّاها فى شعر ولا خُطْبة ، وإنما حدَث هذا فى مُلوك الحيرة . وكانت الجفاةُ من العرَب لسوء أدبها وغِلَظ تركيبها إذا أتوا النبىّ صلّى الله عليه وسلم خاطَبوه باسمه وكنيته ، فأما أصحابه فكانت مخاطبتُهم له : يارسولَ الله ؛ وهكذا يجب أن يقال للملك فى المخاطبة : ياخليفة الله ، و ياأمير المؤمنين .

و ينبغى للدّاخل على المِلك أن يتلطّف فى مراعاة الأدب ، كما حَكَى سعيدُ بن مُرّة الكِنْدىّ ، دخل على معاوية فقال : أنت سعيد ؟ فقال: أميرالمؤمنينَ السعيد ، وأنا ابن مُرّة .

وقال المأمون للسيّد بن أنس الأزْدىّ : أنت السيّد ؟ فقال : أنت السيّد ياأمير المؤمنين ، وأنا ابن أنَس .

---

(١) ب : « دباس » . (٢) ديوانه ٥٧٨ ، وروايته : « ولكن لا تلاق الخلائق » .

شاعر :

لعمرُك ما الأسماء إلّا علامةٌ مَنارٌ ومِن خير المنار ارتفاعُها

كان قومٌ من الصّحابة يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله: « يانبيء الله» بالهمزة ، فأنكر ذلك وقال : « لست بنَبيء الله ، ولكنّي نبيُّ الله » .

وكان البحتريّ إذا ذكر الخثعميّ الشاعر يقول : ذاك الغثّ العمي .

وكان صاحب ربيع يتشيّع ، فارتفع إليه خَصمان : اسم أحدهما عليّ ، والآخر معاوية ، فانحَى على معاوية فضرَبه مائة سوط من غير أن اتجهت عليه حجّة ، ففطِن من أين أُتِيَ ! فقال : أصلحك الله ! سَلْ خَصمي عن كنيتِه ، فإذا هو أبو عبد الرحمن — وكانت كنيةُ معاوية بن أبي سُفيان — فبطَحَه وضربَه مائة سوط ، فقال لصاحبه : ما أخذتَه منّي بالاسم استرجعتُه منكَ بالكُنية .

الأصل :

العَيْنُ حَقٌّ ، وَالرُّقَى حَقٌّ ، والسِّحْرُ حَقٌّ ، وَالفَأْلُ حَقٌّ . وَالطِّيَرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ ، والعَدْوَى لَيْسَتْ بِحَقٍّ . والطِّيبُ نُشْرَةٌ ، وَالْعَسَلُ نُشْرَةٌ ، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ[1] ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ .

***

الشرح :

و يروى : «والغسل نُشرة» بالغين المعجمة ، أى التّطهير بالماء .

***

[أقوال فى العين والسّحر والفأل والعدوى والطيَرة]

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « العَينُ حقّ ، ولو كان شىء يَسبِق القَدَر لسبقته العين ، و إذا استُغسِلْتم فاغسِلوا » ؛ قالوا فى تفسيره : إنّهم كانوا يَطلُبون من العائن أن يتوضّأ بماء ثم يسقى منه المَعِين[2] و يَغتسِل بسائره .

وفى حديث عائشة : « العين حق كما أنّ محمد حقّ » .

وللحكماء فى تعليل ذلك قولٌ لا بأس به ، فالوا : هذا عائدٌ إلى نفس العائن ، وذلك لأنّ الهيُولى مُطِيعة للأنْفس ، متأثّرة بها ؛ ألا ترى أنّ نفوسَ الأفلاك تؤثّر فيها بتعاقب الصوَر عليها ! والنفوس البشَرية من جَوْهر نفوس الأفلاك ، وشديدة الشَّبَه بها ؛ إلا أنّ نسبتها إليها نسبة السراج إلى الشّمس ، فليست عامّة التأثير ، بل تأثيرها فى أغلب الأمر فى بدَنها خاصّة ، ولهذا يَحْمَى مِزاجُ الإنسان عند الغضب ،

---

(١) النشرة : كالعوذة والرقية . (٢) المعين : المعيون ، أى المصاب بالعين .

يستعدّ للجماع عند تصوُّر النفس صورةَ المعشوق ، فإذَنْ قد صار تصوُّر النفس مؤثِّراً فيما هو خارجٌ عنها ؛ لأنّها ليست حالّةً في البدن ، فلا يُستبعد وجُود نفس لها جوهر مخصوص مخالِفٌ لغيره من جواهر النفوس تؤثّر في غير بدنها ، ولهذا يقال : إنّ قوماً من الهند يُقتلَون بالوَهْم ؛ والإصابة بالعَيْن من هذا الباب ، وهو أن تستحسِن النفسُ صورةً مخصوصة وتتعجّب منها ، وتكون تلك النفس خبيثة جداً ؛ فينفعل جسمُ تلك الصّورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفَعِل البدَن للنّسم .

وفي حديث أمّ سَلَمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى في وجه جاريةٍ لها سَعْفَة[1] ، فقال : « إنّ بها نَظْرةً فاسترقُوا لها » .

وقال عوفُ بنُ مالك الأشجعيّ : كنّا نرقى في الجاهليّة ، فقلت : يارسولَ الله ، ماترَى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا عليّ رُقاكم فلا بأس بالرُّقى مالم يكن فيها شِرْك » .

كان ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله في سفرٍ ، فمرّوا بحيّ من أحياء العرَب ؛ فاستضافوهم فلم يُضيفوهم وقالوا لهم : هل فيكم من راقٍ ، فإنّ سيّد الحيّ لَديغ ؟ فقال رجل منهم : نعم ، فأتاه فرَقاه بفاتحة الكتاب فبرئ ، فأُعطِيَ قطيعاً من الغنم ، فأبى أن يَقبَلها حتّى يأتيَ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، فذكر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقال : وعَيْشك مارقيتُه إلّا بفاتحة الكتاب ، فقال : « ما أدراكم إنّها رُقْية ! خذُوا منهم ، واضربوا لي معكم بسَهْم » .

ورَوَى بُرَيْدة ، قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وقد ذُكرتْ عنده الطِّيَرة : «مَنْ عَرض له من هذه الطِّيَرة شيء فليَقل : اللّهم لا طَيْر إلا طَيْرُك ، ولا خيرَ إلّا خيرُك ، ولا إله غيرُك ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله » .

وعنه عليه السلام : « ليس منّا من تَطيّر أو تُطيِّرله ، أو تَكهّن أو تُكُهِّن له » .

---

(١) السعفة : قروح تخرج على رأس الصبي . واسترقوا ، أي اطلبوا من يرقيها .

أنس بنُ مالك يرفعه : « لا عَدْوَى ولا طِيَرَة ، ويُعجبني الفأل الصّالح » ؛ قالوا : فما الفأل الصالح ؟ قال : الكلمة الطيّبة .

وعنه عليه السلام : « تفاءلوا ولا تطيّروا » .

وروَى عبدُ الله بنُ بُرَيدة ،عن أبيه، أنّ رسولَ اللهُ صلّى الله عليه وآله كان لا يتطيّر من شيء ، وكان إذا بعَث عاملا سأل عن اسمِه ، فإذا أعجبه سُرَّ به ، ورُئي بِشْرُ ذلك في وَجْهه ، وإن كَره اسمَه رُئيتِ الكراهةُ على وَجْهه ، وإذا دخل قريةً سأل عن اسمِها فإنْ أعجبَه ظهرَ على وجْهه :

بَنَى عُبيدُ الله بن زياد بالبصرة داراً عظيمة ، فمرّ بها بعضُ الأعراب ، فرأى في دِهْليزِها صورةَ أسَد وكَلْب وكَبْش ، فقال : أسدٌ كالح ، وكبشٌ ناطح ، وكَلْب نابح ، والله لا يُمتّع بها ؛ فلم يَلبثْ عبيد الله فيها إلا أياماً يسيرة .

أبو هريرة يرفَعه : «إذا ظننتم فلا تُحقّقوا ، وإذا تطيّرتم فامْضوا ، وعلى الله فتوكّلوا» .

وقال عليه السلام : « أحسنُها الفألُ ، ولا يَرُدّ قدَرا ، ولكن إذا رأى أحدُكم مايَكرَه فليَقُل : اللّهم لا يأتي بالحسَنات إلّا أنت ، ولا يَدفع السّيئات إلّا أنت ، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بك » .

وقال بعضُ الشّعراء :

لا يَعلَمَ المرء لَيْلاً ما يُصبّحه   إلّا كواذب مايَجري به الفالُ

والفألُ والزّجر والكُهّان كلّهمُ   مضلّلون ودونَ الغيب أقْفالُ

وعن النّبيّ صلّى الله عليه وآله : « القِيافَة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت» .

ابن عباس يرفَعُه : « من اقتبس عِلْماً من النجوم اقتَبَس شُعْبة من السِّحْر » .

أبو هريرة يرفَعه : « من أتَى كاهناً فصدّقَه فيما يقول فقد بَرِئَ مما أنزل اللهُ على أبي القاسم » .

شاعر :

لَعمرُكَ ماتَدرِي الطَّوارقُ بِالحصى ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانعُ(١)

وقال آخر :

لا يقعــــدنّكَ عن بغا ءِ الخير تعقادُ العزائمْ(٢)

فلقــد غدَوتُ وكنتُ لا أغــدو على راقٍ وحائمْ

فإذا الأشــائمُ كالأيا مِنِ والأيامِنُ كالأشــائمْ

وكذاكَ لا خــيرٌ ولا شرٌّ على أحــدٍ بدائمْ

تفاءل هشامُ بنُ عبد الملك بنصر بن سيّار فقلّده خُراسان ، فبقي فيها عشرَ سنين .

وتفاءل عامرُ بنُ إسمعيل قاتل مَرْوان بنِ محمّد باسم رجل لقيَه ، فسأله عن اسمه ، فقال : منصور بن سعد ، قال : من أيّ العرب ؟ قال : من سعد العشيرة ، فاستصحبه وطَلب مروان فظفِر به وقتله .

وتفاءل المأمونُ بمنصور بن بسّام فكان سببَ مكانته عندَه .

قالوا : إنما أصل اليد اليُسرَى العُسْرَى؛ إلا أنهم أبدلوا اليُسْرَى من اليُسْر تفاؤلا .

مُزرِّدُ بنُ ضِرار :

وإنّي امرؤٌ لا تقشعــر ذُؤابتي من الذئبِ يَعوِي والغرابِ المحجَّلِ

الكُمَيت :

ولا أنا ممّن يَزْجر الطــــير هَمّه أصاحَ غُرابٌ أم تعرّض ثعلبُ(٣)

وقال بعض العرب : خرجتُ في طلب ناقةٍ ضلّت لي ، فسمعتُ قائلاً يقول :

ولئن بعثت لها بُغا ةً فما البغاةُ بواجدينا(٤)

---

(١) لبيد ، ديوانه ١٧٢ (٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٥ ، ونسبها إلى المرقش .
(٣) الهاشميات ٣٦ . (٤) لبيد ، ديوانه ٣٢٣ .

فلم أتطيّر ومضيتُ لوجهى ، فلقيَنى رجلٌ قبيح الوجه به ماشئت من عاهة ؛ فلم أتطيّر وتقدّمت فلاحَت لى أَكَمة [١] فسَمِعْت منها صائحا :

* والشرّ يلقى مَطالِعَ الأَكَمِ *

فلم أكترثْ ولا انثنيْت وعلوتُها ، فوجدتُ ناقتى قد تفاجّت [٢] للولادَة فنتجتُها [٣] ، وعدتُ إلى منزلى بها ومعها ولدُها .

وقيل لعلىّ عليه السلام : لا تحاربهم اليَوم فإن القمر فى العَقْرب ، فقال : قَمرُنا أم قَمرُهُم !

ورُوِى عنه عليه السّلام أنه كان يَكرَه أن يُسافر أو يتزوّج فى مُحاق [٤] الشهر ، وإذا كان القمر فى العَقْرب .

ورُوِى أنّ ابن عبّاس قال على مِنبر البَصرة : إنّ الكلاب من الجنّ وإن الحُنّ من ضُعفاء الجنّ ؛ فإذا غشيَكم منهم شىء فألقوا إليه شيئًا أو اطردوه ، فإنّ لها أنفُس سَوء .

وقال أبو عثمان الجاحظ : كان علماء الفُرْس والهند وأطبّاء اليونانيّين ودُهاة العرب وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين يَكرَهون الأكل بين يدى السّباع يخافون عيونَها لِلّذى فيها من النّهَم والشّرَه ، ولما ينحلّ عند ذلك من أجوافها من البُخار الرّدىء ، وينفصل من عيونها ممّا إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسَدَه . وكانوا يكرهون قيامَ الخدَم بالمَذاب والأشربة على رءوسهم خَوْفا من أعينُهم وشدّة ملاحظتهم إيّاهم ؛ وكانوا يأمرون بإشباعهم قبل أن يأكلوا ، وكانوا يقولون فى الكَلْب والسّنّور إمّا أن يُطرَد أو يُشغَل بما يُطرَح له .

---

(١) الأكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، وانظر عيون الأخبار ١ : ١٤٥ .

(٢) تفاجت : وسعت ما بين رجليها . (٣) نتجتها أى أولدتها .

(٤) المحاق مثلثة : آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره ، أو أن يستتر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية ، سمى محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته .

وقالت الحكماء : نفوسُ السِّباع أردأ النفوس وأخبثها لفرْطِ شرَهها وشرّها ، قالوا : وقد وجدْنا الرجل يضرِب الحيّة بعصا فيموت الضارب والحيّة ، لأن سمّ الحيّة فَصِل منها حتى خالط أحشاء الضارب وقَلْبَه ، ونفذ فى مَسامِّ جسدِه .

وقد يُدِيم الإنسانُ النظر إلى العين المحمرّة فتعترى عينه حُمرة ، والتثاؤب يُعدِى إعداء ظاهراً ، ويكره دنوُّ الطامِث من اللّبن لتسوطه ، لأن لها رائحةً وبُخارا يُفسِد اللبن المسُوط[1] .

وقال الأصمعىّ : رأيت رجلا عَيونا[2] كان يذْكُر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشىء وَجدَ حرارَة تخرُج من عينه .

وقال أيضاً : كان عندنا عَيونان فمرّ أحدُهما بحوض من حجارة ؛ فقال : تالله مارأيتُ كاليوم حوْضا ! فانصَدع فِلقَتَيْن ، فمرّ عليه الثانى ، فقال : وأبيك لقلّما ضررت أهلك فيك! فتطاير أربع فِلَق .

وسمع آخرصوت بوْل من وراء جِدار حائط ، فقال : إنك كثيرُ الشَّخْب ، فقالوا : هُوَ ابْنُك ؛ فقال : أوه انقطَع ظَهرُه ! فقيل : لا بأس عليه إنْ شاء الله ، فقال : والله لا يبُول بَعْدها أبدا ، فما بال حتى مات .

وسمع آخرُ صوت شَخْب ناقةٍ بقُوّة فأعجَبه ، فقال : أيتهنّ هذه ، فورّوا بأخرى عنها ، فهلَكتا جميعا ، المورّى بها والمورّى عنها .

قال رجل من خاصّة المنصور له قبــــل أن يقتُل أبا مسلم بيوْم واحد : إنّى رأيتُ اليوم لأبى مسلم ثلاثاً تطيّرت له منها . قال : ما هى ؟ قال : ركب فوقعتْ قَلَنْسُوَته

(١) الطامث : الحائض . والمسوط : المخلوط .

(٢) العيون : الشديد الإصابة بالعين .

عن رأسه ، فقال المنصور : الله أكبرُ ! تَبِعها والله رأسُه ، فقال : وكَبا به فرسه ، فقال : الله أكبر ! كَبا والله جَدُّه ، وأصلَدَ زَنْدُهُ ، فما الثالثة ؟ قال : أنه قال لأصحابه : أنا مقتول ، وإنما أخادِع نفسى ، وإذا رجلٌ يُنادِى آخر من الصحراء : اليوم آخِر الأجل يا فلان . فقال : الله أكبر ! انقضى أجلُه إن شاء الله ؛ وانقطع من الدنيا أثرُه . فقتِل فى غدِ ذلك اليوم .

تجهّز النابغةُ الذبيانيّ للغزو ـ واسمُه زياد بن عمرو ـ مع زبّان بن سيّار الفزاريّ ـ فلما أراد الرحيل سقطت عليه جَرادةٌ فتطيّر ، وقال : ذات لونين تجرد ، غُرَى من خرج ، فأقام ولم يلتفتْ زبّان إلى طِيَرته ، فذهب ورَجَع غانماً ، فقال :

تطيّر طِيرةً يوماً زيادٌ ... لتخبره وما فيها خَبيرُ(١)

أقامَ كأنّ لقمانَ بن عادٍ ... أشارَ له بحكمته مُشيرُ

تعلمْ أنه لا طيرَ إلّا ... على متطيّر وهو الثبورُ

بلى شيءٌ يوافِق بعض شيءٍ ... أحايينًا وباطُله كثيرُ

حضر عمرَ بنَ الخطاب الموسمُ ، فصاح به صائح : يا خليفة رسول الله ، فقال رجل من بنى لِهْب ؛ وهم أهلُ عِيافة وزَجْر : دعاه باسم ميّت : مات والله أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فلما وقف الناس للجمار إذا حصاةٌ صكّت صَلْعةَ عُمَر ، فأُدمِى منها ، فقال ذلك القائل : أشعر والله أمير المؤمنين ، لا والله ما يقف هذا الموقف أبداً ، فقُتِل عمر قبل أن يَحُول الحَوْل ، وقال كثيّر بن عبد الرحمن :

تيمّمت لِهْباً أبتغى العِلْم عندَها ... وقد صار عِلْم العائفين إلى لِهْب(٢)

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٤٧ .
(٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٩ .

كان للعرب كاهنان اسمُ أحدهما شِقّ ، وكان نصف إنسان ، واسم الآخر سَطِيح ، وكان يُطوَى طَيَّ الحصير ، ويتكلّمان بكل أعجوبة فى الكهانة ، فقال ابنُ الرُّومىّ .

لكَ رأيٌ كأنهُ رأي شِقٍّ وسَطِيحٍ قَرِيعَيِ الكُهّانِ
يستشفُ الغُيوبَ عما توارى بعيون جليّة الإنسان

وقال أبو عثمان الجاحظ : كان مُسيلمة قبل أن يتنبّأ يدور فى الأسواق التى كانت بين دُور العرب والعجَم كسُوق الأُبُلّة وسوق بَقّة وسوق الأنبار وسوق الحِيرة يلتمس تعلُّم الحيل والنَّيرنْجيّات واحتيالات أصحاب الرُّقَى والعزائم والنّجوم ، وقد كان أحكم علم الحزاة وأصحاب الزجر والخطّ ، فعمَد إلى بَيْضة فصبَّ إليها خَلاًّ حاذقا قاطعا ، فلانَتْ ، حتى إذا مَدّها الإنسان استطالتْ ودقّت كالعلك ؛ ثم أدخلها قارورةً ضيقة الرأس وتركها حتى انضمّت واستدارتْ وجمدتْ ، فعادت كهيئتها الأولى ، فأخرجها إلى قوم وهم أعرابٌ واستغواهم بها ، وفيه قيل :

ببيضـــةِ قارور ورايةِ شادنٍ وتوصيل مَقْطوع من الطير حاذِقِ

قالوا : أراد براية الشّادن التى يعملها الصبىّ من القِرطاس الرّقيق ، ويجعَل لها ذَنبا وجناحين ويُرسلها يوم الرِّيح بخيط طويل .

كان مُسَيْلمة يَعمل راياتٍ من هذا الجنس ، ويعلّق فيها الجلاجِل ، ويُرسلها ليْلا فى شدّة الريح ، ويقول : هذه الملائكة تنزل علىّ ، وهذه خَشخَشة الملائكة وزجَلُها ، وكان يصل جَناح الطير المقصوص بريشٍ معه فيطير ويَستغوِى به الأعراب .

شاعرٌ فى الطِّيَرة :

وأمنع الياسمين الغضَّ مِن حذرِى   عليكِ إذ قيل لى نصفُ اسمِهِ ياسُ

وقال آخر :

أهدَتْ إليه سفَرْجلاً فتطيَّرا   منه وظلّ مفكّرًا مستعبرا(١)

خوف الفِراق لأن شطر هِجائه   سفَرٌ وحُقَّ له بأنْ يتطيّرا

وقال آخر :

يا ذا الذى أهدَى لنا سَوْسَناً   ما كنت فى إهدائه محسنا

نِصفُ اسمه سوٌّ فقد ساءنى   ياليت أنّى لم أرَ السَّوْسَنا

ومِثلُه :

لا ترانى طَوال دهْـ   ـرِىَ أهوى الشّقائقا

إنْ يكن يشبه الخدو   دَ فنصف اسمه شقَا

وكانوا يتفاءلون بالآسِ لدوامه ، ويتطيّرون من النّرجس لسرعة انقضائه ، ويسمّونه الغَدّار .

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

إنّ الذى سمّاكِ يا منيَتى   بالنّرجِس الغدّار ما أنصفا

لو أنه سمّاك بالآسَةِ   وفيتِ إنّ الآسَ أهلُ الوَفا

خرج كثيِّرٌ يريد عزّةَ ومعه صاحبٌ له من نَهْد ، فرأى غرابا ساقطاً فوق بانةٍ ينتف ريشَه ، فقال له النّهْدىّ : إن صدَق الطّيْر فقد ماتت عزّة ، فوافَى أهلَها وقد أخرجوا جنازتها ، فقال :

وما أعيَفَ النهدىَّ لا درّ درّهُ   وأزجرَه للطّير لا عزَّ ناصِرُه(٢)

رأيتُ غراباً ساقطاً فوقَ بانةٍ   ينتّفُ أعلَى ريشِه ويُطايرُه

---

(١) يستعبراً : أى سالت عبرته ، أى دموعه .   (٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٨

فقال غرابٌ لِاغترابٍ ، وبانَةٌ لِبَيْن ، وهُدْهُدٌ من حبيبٍ تُعاشِرُهْ

وقال الشاعر :

وسمَّيته يحيَى ليحيَا ولم يكن إلى رَدِّ حُكم الله فيــه سبيلُ
تيمَّمتُ فيه الفألَ حين رُزِقتُهُ ولم أدرِ أنّ الفألَ فيــه يفيلُ

* * *

فأمّا القول فى السِّحر فإنّ الفقهاء يُثبِتونه ويقولون : فيــه القَوَد ، وقد جاء فى الخبر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سحَره لَبِيد بن أعصَم اليهوديّ حتّى كان يُخيَّل إليه أنّه عَمِل الشيء ولم يَعمَله .

ورُوِى أنّ امرأةً من يهود سحرته بشَعْر وقُصاص ظُفُر وجعلت السِّحرَ فى بئر ، وأنّ الله تعالى دَلّه على ذلك ، فبعث عليّاً عليه السلام فاستخرجه وقتل المرأة .

وقومٌ من المتكلّمين يَنفون هذا عنه عليه السلام ، ويقولون : إنه معصوم مِن مِثله .

والفلاسفة تَزْعم أنّ السِّحرَ من آثار النّفسِ الناطقة ، وأنه لا يَبعُد أن يكون فى النفوس نفس تؤثّر فى غير بَدنها المرض والحبّ والبُغض ، ونحو ذلك ، وأصحاب الكواكب يجعلون للكواكب فى ذلك تأثيراً ، وأصحابُ خَواصّ الأحجار والنّبات وغيرها يُسنِدون ذلك إلى الخواصّ ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام دالٌّ على تصحيح ما يُدعى من السِّحْر .

وأمّا العَدْوَى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا عدوى فى الإسلام » . وقال لمن قال: أعدَى بعضُها بعضاً ــ يعنى الإبل :« فمن أعدَى الأول ؟» وقال :« لا عَدوَى ولا هامَة ولا صَفَر » ، فالعَدْوَى معروفة ، والهامَة : ما كانت العرب تزْعمه فى المقتول

لا يؤخذ بثأره ، والصَّفَر : ما كانت العرب تزعُمه مِن الحيّةِ فِى البطْن تعض عند الجوع .

***

[نكت فى مذاهب العرب وتخيلاتها]

وسنذكر ها هنا نُكتاً مُمتعةً من مَذاهب العَرَب وتخيُّلاتِها ، لأنّ الموضع قد ساقَنا إليه ، أنشَد هشامُ بنُ الكلبيّ لأميّة بن أبى الصَّلْت :

سَنَةٌ أَزْمَةٌ تُبرِّح بالنا ... سِ ترَى للعِضاهِ فيها صَرِيرا(١)
لا عَلَى كوكبٍ تَنُوءُ ولا رِيـ ... ـحِ جنوبٍ ولا ترى طُخْرورا(٢)
ويُسقّوْن باقرَ السهل للطَّوْ ... دِ مهازِيلَ خشيةً أن تَبورا
عاقدِينَ النيرانَ فى ثُكَنِ الأذْ ... نابِ منها لكى تهيجَ البحُورا
سَلَعٌ ما ومِثْلُه عُشَرٌ ما ... عائِلٌ ما وَعالتِ البَيْقُورا

يُروَى أنّ عيسى بن عمر قال : ما أدرى معنَى هذا البيت ! ويقال : إنّ الأصمعىّ صحّف فيه ، فقال : « وغالَت البَيْقُورا » بالغَين المعجمة ، وفسّره غيرُه فقال : عالَت بمعنى أثقلت البقرَ بما حمّلتها من السَّلع والعُشَر ، والبَيْقور : البقر . وعائل : غالب ، أومُثقِل .

وكانت العرب إذا أجدَبَتْ وأمسكتْ السماء عنهم وأرادوا أن يُستمطَروا عمَدوا إلى السَّلع والعُشَر فحزَموهما وعقَدوهما فى أذنابِ البقر ، وأضرموا فيها النِّيران، وأصعَدوها فى جبل وَعِر ، واتّبعوها يَدْعون الله ويَستَسقونه ؛ وإنّما يَضرِمون النِّيران فى أذناب البقر تفاؤلا للبرْق بالنار ، وكانوا يَسُوقونها نحو المغرب من دون الجهات .وقال أعرابىّ :

شفعْنا بِبَيقور إلى هاطل الحيا ... فلم يُغنِ عنّا ذاكَ بل زادَنا جدْبا
فعُدْنا إلى ربِّ الحيا فأجارَنا ... وصيّرجدْبَ الأرض من عندِه خِصْبا

---

(١) شعراء النصرانية ٢٣٥ ، فى وصف سنة ومجاعة . (٢) الطخرور : القطع من السحاب .

وقال آخر :

قُلْ لبني نَهْشَلَ أصحابِ الخَوَرْ : أتطلبُونَ الغيثَ جَهْلاً بالبَقَرْ !
وسَلَعٍ من بعـد ذاكَ وعُشَرْ ليس بذا يُجَلِّلُ الأرضَ المَطَرْ

ويمكن أن يُحمَل تفسيرُ الأصمعيّ على محمل صحيح ، فيقال : غالت بمعنى أهلكتْ ، يقال : غالَه كذا واغتالَه أي أهلَكه ، وغالتهم غُولٌ ؛ يعني المنيّة ، ومنه الغضب غُول الحلم

وقال آخر :

لمّا كَسَوْنا الأرضَ أذنابَ البَقَرْ بالسَّلَعِ المعقود فيها والعُشَرْ

وقال آخَر :

يا كُحْلُ قد أُثقلتَ أذنابَ البَقَرْ بسَلَعٍ يعقد فيها وعُشَرْ

* فهل تجُودِين ببَرْقٍ ومَطَرْ *

وقال آخر يعيب العربَ بفعلهم هذا :

لا دَرَّ دَرّ رجالٍ خابَ سعيُهُمُ يَستمطِرونَ لدى الإعسار بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعة ذريعةً لك بين الله والمَطَرِ

وقال بعضُ الأذكياء : كلّ أمّة قد تحذو في مذاهبها مذاهبَ مِلّة أخرى ، وقد كانت الهند تزعُم أنّ البقر ملائكة ، سَخط الله عليها فجعلَها في الأرض ، وأنّ لها عنده حرمة ، وكانوا يلطّخون الأبدانَ بأخثائها[1] ، ويَغسِلون الوجوهَ ببَوْلها ويَجعلونَها مُهورَ نسائهم ، ويتبرّكون بها في جميع أحوالهم ، فلعلَّ أوائلَ العربِ حَذَوْا هذا الحذْوَ، وانتهجوا هذا المَسلك .

---

(١) الأخثاء : جمع خثة ؛ وهي البعرة اللينة .

وللعرَب فى البقر خيالٌ آخر ، وذلك أنّهم إذا أوْرَدوها فلم تَرِد ضَرَبوا الثّور ليقتحمَ الماء ، فتقتحم البقر بعدَه، و يقولون : إنّ الجنّ تَصُدّ البقر عن الماء ، و إن الشّيطان يركَب قَرنَىْ الثّور ، وقال قائلهُم :

إنِّى وقتلِى سُلَيكاً حين أعْقِلُه ... كالثور يُضرَب لمّا عافَت البَقَرُ[1]

وقال نَهشَل بن حرىّ :

كذاكَ الثورُ يُضرَب بالهَراوَى ... إذا ما عافتِ البَقرُ الظِّمـــاءُ

وقال آخر :

كالثَّوْر يُضرَب لـلورُو ... دِ إذا تَمنّعتِ البَقَــرْ

فإنْ كان ليس إلّا هذا فليس ذاكَ بعَجيب من البقر ولا بمَذهَب من مذاهب العرب : لأنّه قد يجوز أن تمتنِع البقرُ من الورُود حتى يرِدَ الثّور كما تمتنِع الغنمُ من سلوك الطُّرُق أو دخول الدُّور والأخْبِية حتى يتقدّمها الكبش أو التَّيس، وكالنحل تتبع اليَعْسوب ، والكَرا كىّ تتبع أميرَها ، ولكن الّذى تدلّ عليه أشعارها أنّ الثّورَ يرِدُ و يَشرَب ولا يمتنع ، ولكنّ البقر تمتنع وتَعافُ الماء وقد رأت الثورَ يَشرَب، فحينئذ يُضرَب الثور مع إجابته إلى الورود فتَشرَب البقر عند شُرْبه ، وهذا هو العجَب ، قال الشاعر :

فإنّى إذَنْ كالثَّوْر يُضرَب جَنْبُهُ ... إذالم يَعفْ شربا وعافَتْ صَواحِبُهْ

وقال آخر :

فلا تجعلونى كالبقير وفحلهـــا ... يكسَّر ضَرْباً وهو للورْد طائِعُ

وما ذَنْبـــه إن لم يرد بقَراته ... وقد فاجأتْها عنــد ذاك الشّرائعُ

---

(١) للسليك بن السلكة ، والبيت من شواهد ابن عقيل ٢ : ٢٨٢ .

وقال الأعشى :

لكالثور والجنيّ يُضرَب وجهُه وما ذَنْبُه إن عافَت الماء مَشرَبا ! (١)

وما ذنبُه إن عافت الماء باقِرٌ وما أن يَعافُ الماء إلّا ليُضرَبا

قالوا فى تفسيره : لمّا كان امتناعُها يتعقبه الضرب ، حَسُن أن يقال : عافت الماء لتُضرَب ، وهذه اللامُ هى لام العاقبة ، كقوله : «لِدُوا للموت» ، وعلى هذا فسّر أصحابُنا قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ (٢) .

***

ومن مذاهب العرب أيضا تعليق الحَلْى والجلاجِل على اللَّدِيغ يرَوْن أنه يُفيق بذلك ، ويقال : إنه إنّما يعلّق عليه لأنّهم يرَوْن [أنه] إنْ نام يَسرِى السمّ فيه فيَهلِك ، فشَغَلوه بالحَلْى والجلاجِل وأصواتها عن النّوم ، وهذا قولُ النَّضْر بن شُمَيل ، وبعضهم يقول : إنّه إذا عُلّقَ عليه حلى الذهب برَأ ، وإن علّق الرَّصاص أوْ حَلْى الرصاص مات .

وقيل لبعض الأعراب : أتريدون شُهْرةً ؟ فقال : إنّ الحَلْى لا تُشهِر ، ولكنها سُنّة ورِثْناها .

وقال النابغة :

فبتّ كأنّى ساورتْنى ضَئِيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابِها السّمُّ ناقِعُ (٣)

يُسهَّدُ من ليلِ التّمام سَلِيمُها لِحَلْىِ النساء فى يديْه قَعاقِعُ

وقال بعض بنى عُذْرَة :

كأنّى سَلِيمٌ نالَه كَلْمُ حَيّةٍ ترى حولَه حَلْى النساء موضَّعا

---

(١) ديوانه ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٩

(٣) ديوانه ٥١

وقال آخر :

وقــد عُلّوا بالنُّبطُل فى كلّ موضعٍ   وغُرِّزوا كما غرّ السليمَ الجلاجــلُ

وقال جميل وظَرُفَ فى قوله ، ولو قاله العبّاس بن الأحنف لكان ظريفا !

إذا ما لَدِيغٌ أبرأ الحَـلْىُ داءه   فحَلْيكِ أمسَى يا بُثَيْنة دائيا [1]

وقال عُوَيمر النَّبهانىّ وهو يؤكِّد قولَ النضر بن شُمَيل :

فبتّ مُعَــنًّى بالهموم كأنّنى   سليمٌ نَفَى عنه الرُّقادَ الجلاجلُ

ومِثله قولُ الآخر :

كأنى سليمٌ سَهَّدَ الحَــلْىُ عينَه   فراقب من ليــل التَّمام الكواكبا

ويشبه مذهبَهم فى ضَرْب الثور مذهبُهم فى العَرّ يصيبُ الإبلَ فيُكوَى الصّحيح ليَبْرأ السّقيم . وقال النابغة :

وكلّفتَنِى ذنبَ أمرئٍ وتركتَه   كذى العَرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتعُ [2]

وقال بعضُ الأعراب :

كمن يُكوِى الصّحاحَ يرومُ بُرْءاً   به من كلّ جَرْباء الإهابِ

وهذا البيت يُبطِل رواية مَن روَى بيت النابغة « كذِى العُرِّ » بضم العين ، لأنّ العُرّ بالضم قَرْح فى مَشافِر الإبل غيرُ الجرَب ، والعَرُّ بالفتح الجرَب نفسه ، فإذا دلّ الشعر على أنه يُكوَى الصّحيح ليبرأ الأجْرَب فالواجبُ أن يكون بيتُ النابغة « كذِى العَرّ » بالفتح .

ومِثلُ هذا البيت قولُ الآخر :

فألزمتَنى ذَنْبــا وغيرِىَ جَرَّه   حنانَيْكَ لا يُكوى الصحيحُ بأجْربا

إلاّ أن يكون إطلاق لفظِ الجَرَب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له .

---

(١) ديوانه ٢١٨   (٢) ديوانه ٥٤

ومن تخيّلاتِ العَرَب ومذاهِبها أنّهم كانوا يَفقئون عينَ الفحْلِ من الإبل إذا بلغت ألفًا ، كأنّهم يدْفعون العينَ عنها ، قال الشاعر :

فَقأْنا عيونًا من فُحول بَهازِرٍ ... وأنتمْ برَعْي البُهْم أَولَى وأَجْدرُ

وقال آخَر :

وهَبْتَها وكنتَ ذا امتِنانِ ... تفقأُ فِيها أعيُنَ البُعْرانِ

وقال الآخر :

أعطيتَها ألفًا ولم تَبخَلْ بها ... فَفقأتَ عينَ فُحَيلِها مُعْتافا

وقد ظَنّ قومٌ أنّ بيتَ الفرزْدق وهو :

غَلَبْتُكَ بالمفقّىءِ والمُعَنّي ... وبيتِ المحتبي والخافِقاتِ(١)

من هذا الباب ، وليس الأمر على ذلك ، وإنّما أراد بالفقء قوله لجرير :

ولستَ ولو فقأْتُ عينيكَ واجدا ... أخًا كلَقيطٍ أو أبًا مِثلَ دارِمِ(٢)

وأرادَ بالمعنّي قوله لجرير أيضا :

وإنّك إذ تَسعَى لتُدرِكَ دارِمًا ... لأَنْتَ المعنّى ياجَرير المكلَّفُ(٣)

وأراد بقوله : « بيت المحتبي » قوله :

بيتٌ زرارةُ محتبٍ بفِنائهِ ... ومُجاشع وأبو الفَوارِس نَهْشَلُ(٤)

وبيت الخافِقات ، قوله :

ومعصَّبٍ بالتّاج يخفِق فوقَه ... خِرَقُ الملوكِ له خَميسٌ جَحْفَلُ(٥)

---

(١) ديوانه ١٣١ . والخافقات : الرايات .

(٢) فى شرح ديوانه : « أو أبا مثل نهشل » .

(٣) ديوانه ٤٣٦

(٤) ٧١٤

(٥) ديوانه ٧١٥ ؛ وفى شرح الديوان . والخافقات يريد قوله :

وأينَ تقَضّى المالكانِ أمورَها ... بحقٍّ وأينَ الخافقاتُ اللوامعُ

قال أبو الهيثم : « نخر الفرزدق فى هذا البيت على جرير ؛ لأن العرب كانت إذا بلغ لأحدهم ألف بعير فقأ عين بعير منها ؛ فإذا تمت ألفان أعماه ؛ فافتخرعليه بكثرة ماله » .

فأما مذهبهم فى البليّة ، وهى ناقةٌ تُعقَلُ عند القبر حتى تموت ، فمذهبٌ مشهور ، والبَلية أنهم إذا مات منهم كريمٌ بلَوا ناقته أو بعيره ، فعكسوا عنقها ، وأداروا رأسها إلى مؤخَّرها ، وتركوها فى حَفيرة لا تَطعَم ولا تُسقى حتى تموت ، وربما أُحرِقتْ بعد موتها ، وربّما سُلِخَت وملىء جلدُها ثُماما . وكانوا يزعُمون أنّ من مات ولم يُبْلَ عليه حُشِر ماشيا ، ومَن كانت له بليّة حُشِر راكبا على بليّته ، قال جُرَيبة(١) بن الأشيم الفَقْعَسيّ لابنه :

يا سَعْدُ إما أهلِكَنّ فإنّنى ... أوصيكَ إنّ أخا الوَصاة الأقربُ
لا أعرِفَنّ أباكَ يحشر خلفكمْ ... تعبا يجُرُّ على اليَدَين ويَنكَبُ
واحملْ أباكَ على بعيرٍ صالحٍ ... وتقِ الخطيئةَ إنّه هوأصوبُ
ولعلّ لى ممّا جمعتُ مطيّةً ... فى الحشرِ أركبُها إذا قيل اركبوا

وقال جُريبة أيضا :

إذا مِتُّ فادفنّى بجدّاء مابها ... سِوَى الأصرخين أويفوّزراكبُ
فإنْ أنتَ لم تعقِر علىّ مطيّتى ... فلا قامَ فى مالٍ لكَ الدهر حالِبُ
ولا تدفنَنّى(١) فى صُوًى واذفِننّى ... بدَيمومةٍ تنزو عليها الجنادِبُ

وقد ذكرتُ فى مجموعى المسمّى « بالعَبقرىّ الحسان » أنّ أبا عبد الله الحسين بن محمّد ابن جعفر الخالع رحمه الله ذكر فى كتابه فى آراء العرب وأديانها هذه الأبيات، واستشهد بها على ما كانوا يَعتقِدون فى البَليّة ، وقلتُ : إنه وَهِمَ فى ذلك ، و إنه ليس فى هذه الأبيات دَلالةٌ على هذا المعنى ، ولا لها به تعلّق ، وإنما هى وصيّة لولده أن يَعقِر مطيّته بعد موتِه ؛ إمّا لِكَيلا يركبها غيرُه بعده ، أو على هيئة القُربان كالهَدْى المعقور

---

(١) ديوانه ٣٤٦ .

بمكّة ، أو كما كانوا يَنحرون عند القبور . ومَذْهبهم فى العَقر على القبور ، كقول زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلّب :

إنّ السّماحــــة والمروءة ضُمِّنا قـبراً بمَرْوَ على الطّريق الواضِح[1]
فإذا مَررتَ بقـــبرِه فاعقِرْ به كُومَ الهِجانِ وكلّ طِرْفٍ سابِح[2]

وقال الآخَر :

نفرتْ قَلوصى عن حِجارة حَرّةٍ بُنيتْ على طَلْق اليدين وَهوبِ[3]
لا تنفِرى ياناقُ منـــه فإنّه شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسعَرٌ لحرُوبِ
لولا السِّفار وبُعدُ خَرْقٍ مَهْمهٍ لتركتُهـا تحبُو على العرْقوب

ومَذهبُهم فى العَقْر على القبور مشهور ، وليس فى هذا الشِّعر مايدلّ على مذهبهم فى البَليّة ، فإنْ ظَنّ ظانٌّ أنّ قوله : « أو يَفوزَ راكب » ، فيه إيماء إلى ذلك ، فليس الأمرُ كما ظنّه ، ومعنى البيت ادفنىّ بفلاةٍ جَدّاء مقطوعة عن الإنس ، ليس بها إلّا الذئب والغُراب ، أو أن يعتسف راكبها المَفازة وهى المَهلَكة ، سمّوها مَفازةً على طريق الفأل ، وقيل : إنّها تسمّى مَفازةً من فوّز أى هلَك ، فليس فى هذا البيت ذِكرُ البليّة ، ولكنّ الخالع أخطأ فى إيرادِه فى هذا الباب ، كما أخطأ فى هذا الباب أيضا فى إيراده قول مالك ابن الرّيب :

وعَطِّلْ قَلوصى فى الرِّكاب فإنّهـا ستُبرِد أكباداً وتُبكى بوَاكِيا[4]

فظنّ أنّ ذلك من هــذا الباب الّذى نحن فيه ، ولم يُرِد الشاعر ذلك ، وإنما أراد

(١) الشعر والشعراء ٣٩٧ (٢) بعده فى الشعر والشعراء :

وانْضَحْ جوانبَ قبرِه بدمائها فلقد يكونُ أخا دمٍ وذبائحِ

(٣) من أبيات فى رثاء ربيعة بن مكدم ، تنسب إلى ضرار بن الخطاب ، وتنسب لحسان أيضاً ؛ وانظر الأغانى ١٦ : ٥٨ ، ٥٩ (طبعة دار الكتب) . (٤) أمالى القالى ٣ : ١٣٨

لَا تَرْكَبُوا راحلتى بعدِى ، وعطِّلوها بحيثُ لا يشاهدها أعادِىَّ وأصادِق ذاهبةً جائيةً تحتَ راكبها، فيَشمَتَ العدوّ ويُساء الصديق ، وقدأخطأ الخالع فى مواضعَ عدّة من هذا الكتاب ، وأورد أشعاراً فى غير موضِعها ، وظنّها مناسبةً لما هو فيه ، فمنها ماذكرْناه ، ومنها أنّه ذكرَ مذهَب العرب فى الحلْى ووضْعِه على اللَّدِيغ ، واستشهَدَ عليه بقول الشاعر :

يُلاقِى من تذكُّرِ آلِ لَيْلَى ... كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدادِ[1]

ولا وجه لإيراد هذا البيت فى هذا الموضع ، فالعِداد مُعاوَدَة السّمّ الملسوعَ فى كلّ سنة فى الوقت الّذى لُدغ فيه ، وليس هذا من باب الحلْى بسبيل .

ومن ذلك إيرادُه قولَ الفرزدق « غلبتك بالمفقّى[2] » فى باب فقْء عُيون الفُحول ، إذا بلغَت الإبلُ ألفا ، وقد تقدّم شرحُنا لموضع الوَهْم فى ذلك . وسنذكر هاهنا كثيراً من المواضع الّتى وَهِم فيها إنْ شاء الله .

* * *

ومِمّا وَرَد عن العرب فى البليّة قولُ بعضهم :

أبُنَىَّ زَوِّدْنى إذا فارقْتَنِى ... فى القَبْرِ راحلةً برَحْلٍ فاترِ
لِلبَعْث أركَبُها إذا قيل اركَبوا ... مستوثِقين معاً لحشر الحاشرِ

وقال عُوَيم النَّبهانىّ :

أبُنَىَّ لا تنسَى البليّةَ إنّها ... لأبيكَ يومَ نُشورِه مَرْكوبُ

* * *

---

(١) اللسان ٤ : ٢٧٤ .

(٢) وهو قوله :

غَلَبْتُكَ بالمفقِّئِ والمعنّى ... وبيتِ المحتبِى والخافقاتِ

ومن تخيلات العرب ومذاهبها ماحكاه ابنُ الأعرابيّ قال : كانت العرب إذا نفرَت الناقةُ فسُمِّيتْ لها أمُّها سكنَتْ من النِّفار ، قال الراجز :

أقولُ والوَجْناء بي تَقحَّمُ وَيلكِ قُولْ ما اسمُ أمِّها ياعَلْكَمُ

عَلْكَم : اسمُ عبدٍ له ، وإنّما سأل عبدَه ترفُّعا أن يَعرِف اسمَ أمِّها ، لأنّ العبيد بالإبل أعرَف ، وهُم رُعاتُها .

وأنشد السكّريّ .

فقلتُ له ما اسمُ أمّهاتِ فادْعُها تُجِبْكَ ويَسْكُنْ روعُها ونِفارُها

* * *

وممّا كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة ، وذلك أنّهم كانوا يقولون : ليس من ميّت يموت ولا قتيلٍ يقْتَل ، إلاّ ويخرج من رأسه هامة ، فإنْ كان قتِل ولم يُؤْخذ بثأره نادت الهامةُ على قبْره : اسْقُوني ، فإنّي صَدِيَة ؛ وعن هذا قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « لا هَامَة » .

وحُكي أنّ أبا زيد كان يقول : الهامّة مشدّدة الميم إحدى هَوَامّ الأرض ، وأنها هي المتلوّنة المذكورة .

وقيل : إنّ أبا عُبيد قال : ما أرَى أبا زيد حَفِظ هذا ، وقد يُسمّونها الصَّدى والجمع أصْداء ، قال :

* وكيف حَياةُ أصداء وهامِ *

وقال أبو دُواد الإياديّ :

سُلِّط الموتُ والمَنونُ عليهمْ فلهمْ في صَدا المقابِرِ هام[1]

---

(١) ديوانه ٣٣٩

وقال بعضُهم لابنِه :

ولا تَزْقُوَنْ لى هامَةٌ فوقَ مَرْقَبٍ فإنّ زُقاءَ الهامِ للمرءِ عائِبُ
تُنادِي ألا اسْقونِي وكلّ صَدًى به وتلك التى تبيضّ منها الذّوائبُ

يقول له: لا تترك ثأرى إن قتلت ، فإنّك إن تركتَه صاحتْ هامَتى : اسقونى ، فإن كل صدًى ـ وهو ها هنا العطش ـ بأبيك ، وتلك التى تبيضّ منها الذوائب ، لصُعوبتها وشِدّتها ، كما يقال : أمرٌ يُشِيب رأسَ الوليد . يحتمل أن يريد به صعوبة الأمر عليه وهو مقبور إذا لم يثأرْ به ، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر على ابنه ، يعنِي أن ذلك عارٌ عليك ، وقال ذو الإصْبَع :

يا عَمْرو إلاّ تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصتى أضرِبْكَ حيثُ تقولُ الهامَةُ اسْقُونى[1]

وقال آخر :

فيارَبِّ إنْ أهلك ولم تَرْوِ هامَتِي بِلَيلى أمُتْ لا قبرَ أعطَشُ من قبرى[2]

ويحتمل هذا البيت أنْ يكون خارجاً عن هذا المعنى الذى نحن فيه ، وأن يكون رِيٌّ هامته الذى طلبه من ربّهِ هو وصالُ لَيْلَى وهما فى الدنيا . وهم يَكْنُون عما يَشْفِيهم بأنه يُروِى هامَتَهم .

وقال مغلّس الفَقْعسىّ :

وإنّ أخاكم قد علمت مكانَه بسَفْحِ قُبًا تَسفِى عليه الأعاصرُ
له هامةٌ تدعُو إذا الليل جَنّها بَنِى عامرٍ هل للهلالىِّ ثائرُ

وقال تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر :

ولو أنّ لَيلى الأخيلِيّةَ سلّمتْ علىّ ودُونِي جَنْدَلٌ وصَفائحُ

(١) المفضلية ٣١ (٢) للمجنون ، ديوانه ١٦٥

لسلّمتُ تسليمَ البَشاشةِ أو زقا ... إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ[1]

وقال قيسُ بن المُلوَّح، وهو المجنون:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتِنا ... ومِن دونِ رَمْسَيْنا من الأرضِ أنْكَبُ[2]

لظَلَّ صَدَى رَمْسِي وإن كنتُ رِمَّةً ... لِصوتِ صَدَى لَيلَى يَهَشُّ ويطرَبُ

وقال حُمَيد بنُ ثور:

ألاَ هلْ صَدَى أمِّ الوليد مكلِّمٌ ... صَدايَ إذا ما كنتُ رَمْساً وأعظُما[3]

***

ومما أبطله الإسلام قولُ العَرَب بالصَّفَر، زعموا أنّ في البطن حَيَّةً إذا جاع الإنسان عَضّت على شُرْسُوفه وكَبِده، وقيل: هو الجوع بعَيْنه، ليس أنها تعَضّ بعد حصول الجوع، فأما لفظ الحديث: «لا عدوَى ولا هامَةَ ولا صَفَر، ولا غُول»، فإن أبا عُبيدة مَعمَر بن المثنّى قال: هو صَفَر الشّهر الذي بَعد المحرّم، قال: نهى عليه السلام عن تأخيرهم المحرّم إلى صَفَر يَعني ما كانوا يفعلونه من النَّسيء، ولم يوافِق أحدٌ من العلماء أبا عُبيدة على هذا التفسير، وقال الشاعر:

لا يَتأرَّى لِما في القِدْرِ يرْقُبه ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ[4]

وقال بعضُ شعراء بني عَبْس يذكر قَيس بنَ زُهير[؟] هَجَر الناس وسَكَن الفياف

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزي ٣ : ٢٦٧.

(٢) ديوانه ٤٦، وروايته: * ومن دون رمسينا من الأرض سبسب *.

(٣) ديوانه ٣٠

(٤) لأعشى باهلة؛ الكامل للمبرد (٤ : ٦٥)، والرواية فيه:

لا يتأرَّى لما في القِدْرِ يرقُبُهُ ... ولا تراهُ أمامَ القِدْرِ يقتفِرُ

لا يغمِزُ السّاقَ من أينٍ ولا وَصَبٍ ... وَلا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وأَنِسَ بالوَحْش ، ثمّ رأى ليلةً نارا فمشا إليها ، فشمّ عندَها قُتَار اللّحم ، فنازعتهُ شهوته ، فغلبها وقهرها ، ومال إلى شجرة سلَم فلم يزَل يكْدِمُها ويأكل مِن خَبَطها[1] إلى أن مات :

إنّ قيساً كانَ ميتَته كرمٌ والحيّ منطلقُ
شامَ ناراً بالهوى فهوَى وشُجاع البَطْن يختفقُ
فى دَرِيسٍ ليس يَسْتُره رُبَّ حُرٍّ ثوبُه خَلَقُ

وقوله : « بالهوى » اسمُ موضعٍ بعَينه .

وقال أبو النّجم العِجْلىّ :

إنك ياخَيرَ فتًى نَستعدِى على زمانٍ مسنتٍ بجهْدِ
* عضًّا كعَضِّ صَفَرٍ بِكَبْدِ *

وقال آخَر :

أردُّ شُجاعَ البطْن قد تَعلمينه وأُوثِر غيرِى من عِيالِك بالطعْمِ

* * *

ومن خُرافات العرب أن الرّجل منهم كانَ إذا أراد دخول قريةٍ فخاف وباءها أو جنَّها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنَهَقَ نهيق الحمار ، ثم علّق عليه كعب أرْنب ، كأنّ ذلك عُوذة له ورُقْية من الوَباء والجنّ ، ويسمُّون هذا النّهيق التّعشير ، قال شاعرُهم :

ولا ينفع التّعْشير أن حُمّ واقِعٌ ولا زَعزَعٌ يُغنى ولا كَعْب أرْنبِ

وقال الهيثم بن عَدِىّ : خرج عُروة بن الوَرْد إلى خيبر فى رُفْقة ليمتارُوا ، فلمّا قربوا منها عشّروا ، وعاف عُرْوة أن يفعل فعلَهم ، وقال :

(١) الخبط هنا : الورق .

لَعمرى لئن عَشّرتُ من خِيفةِ الرَّدَى ... نُهاقَ حَمــــيرٍ إننى لجزُوعُ[1]

فلا وأَلَتْ تلك النفوسُ ولا أَتَتْ ... قُفُولا إلى الأوطان وهى جميعُ

وقالوا ألا أنهَقْ لا تضرك خَيبَرٌ ... وذلك من فعـلِ اليهود وُلوعُ

الوُلوع بالضمّ : الـكَذِب ، ولع الرجُل إذا كَذَب ، فيقال إن رُفقته مرضوا ومات بعضُهم ، ونجا عروة من الموت والمرض .

وقال آخر :

لا يُنْجِيَنَّكَ من حِمامٍ واقـعٍ ... كَعبٌ تعلّقُه ولا تَعشــــيرُ

* * *

ويُشابه هــذا أن الرجل منهم كان إذا ضلّ فى فَلاةٍ قلب قميصَه وصفّق بيدَيه كأنه يومئ بهما إلى إنسان ، فيهتدِى ، قال أعرابى :

قلبتُ ثِيابى والظُّنونُ تجول بى ... وتَرْمِى برحلى نحو كلّ سبيلِ

فَلأْياً بلأْىٍ ما عرفت جَلِيّتى ... وأبصرْتُ قَصْداً لم يصب بدَليل

وقال أبو العملّس الطائىّ :

فلو أبصرْتنى بلوَى بطانٍ ... أُصفِّق بالبَنانِ على البَنانِ

فأقلبُ تارةً خــوفاً ردائى ... وأصرُخُ تارةً بأبى فُــلانِ

لقلتُ أبو العَملّس قــد دَهاهُ ... من الجِنّان خالعــةُ العِنانِ

والأصل فى قَلْب الثِّياب التفاؤل بقَلْب الحال ، وقد جاء فى الشّريعة الإسلاميّة نحوَ ذلك فى الاستسقاء .

* * *

(١) ديوانه ٩٥ .

ومن مذاهب العرَب أنّ الرجل منهم كان إذا سافَرَ عَمدَ إلى خَيْط فعَقَده فى غُصْن شجرة أو فى ساقها ، فإذا عادَ نظرَ إلى ذلك الخيط فإنْ وجَدَه بحالِه عَلِم أنّ زوجتَه لم تَخُنْه ، وإن لم يَجِدْه أو وجده محلولا قال : قد خانَتْنى ، وذلك العَقْد يُسمَّى الرَّتَم ، ويقال : بل كانوا يعقِدون طَرَفا من غُصْن الشّجرة بطَرَفِ غصنٍ آخَر ، وقال الراجز :

هل ينفعنْكَ اليومَ إنْ همت بهمْ ... كثرةُ ماتُوصِى وتعقادُ الرَّتَمْ (١)

وقال آخَر :

خانَتْه لمّا رأت شَيْبـاً بمفرِقِه ... وغَرّه حلفُها وعقدُ الرَّتَمِ

وقال آخر :

لا تحسَبنّ رَتائمًا عقدتَهـا ... تُنْبيكَ عنها باليقين الصادق

وقال آخَر :

يُعَلِّل عمرٌو بالرّتائم قَلْبَـه ... وفى الحىّ ظَبْىٌ قد أُحلّتْ محارمُهْ

فما نفعتْ تلك الوَصايا ولا جَنَتْ ... عليـه سِوَى مالا يحبّ رتائمُهْ

وقال آخَر :

ماذا الّذى تنفعُكَ الرّتائمُ ... إذ أصبحتْ وعِشقُهـا مُلازِمُ

وهى على لَذّاتهـا تُداومُ ... يَزُورها طَبُّ الفـؤاد عارِمُ

* بكلّ أدواء النّساء عالِمُ *

وقد كانوا يعقِدون الرّتم للحُمّى ويرَون أنّ من حَلّها انتقلتْ الحمّى إليـه ، وقال الشاعر :

حللتُ رتيمةً فمكثتُ شهرا ... أُكابِدُ كلّ مكروهِ الدّواء

***

(١) اللسان (رتم) من غير نسبة .

وقال ابنُ السكّيت : إنّ العرب كانت تقول : إنّ المرأة المِقلات وهى التى لا يعيشُ لها ولد ، إذا وطِئت القتيل الشريفَ عاشَ ولدُها ، قال بِشرُ بنُ أبى خازم :

تَظَـــلّ مقاليتُ النّساء تطأنَه ... يَقُلْنَ ألا يُلقَى على المرء مِئزَرُ[1]

وقال أبو عُبيدة : تتخطّاه المِقلات سبعَ مرّات ، فذلك وَطؤها له .

وقال ابنُ الأعرابىّ : يمرّون به ويطئون حولَه وقيـل : إنّما كانوا يفعلون ذلك بالشّريف يُقتَل غَدْرا أو قَوَدا .

وقال الكُمَيْت :

وتُطيـــلُ المرزّآتُ المقاليـ ... ـتُ إليه القُعودَ بعـــد القِيامِ

وقال الآخَر :

تركنـا الشّمْشَمَين برَمْلِ خَبْتٍ ... تزورهمـــا مقاليتُ النّساء

وقال الآخَر :

بنَفسى التى تَمشِى المَقاليتُ حَوْلَه ... يُطافُ له كَشحا هَضِيماً مُهشَّما

وقال آخَر :

تَباشَرت المَقالِتُ حِينَ قالُوا ... ثَوَى عَمرُو بنُ مُرّة بالحَفـــيرِ

* * *

ومن تخيُّلات العَرَب وخُرافاتِها أنّ الغلام مِنهم كان إذا سقطتْ له سِنّ أخذَها بين السّبّابة والإبهام واستقبَل الشّمس إذا طلعتْ وقذَفَ بها ، وقال : ياشمسُ أبدِلينى بسِنّ أحسَنَ منها ، وليَجرِ فى ظَلْمها إيانك ، أو تقول : « إياؤك » ، وهما جميعا شُعاع الشمس قال طَرَفة :

---

[1] ديوانه ٨٨

* سَقته إياةُ الشّمس [1] *

وإلى هذا الخيالِ أشارَ شاعرُهم بقوله :

شادِنٌ يَجْلو إذا ما ابتَسَمتْ ... عن أقاحٍ كأقاحِ الرّمْلِ غرّْ
بذَلَتْه الشمسُ من مَنبِته ... بَرَداً أبيضَ مَصقولَ الأشَرْ

وقال آخَر :

وأشنَبُ واضحُ عَذْبُ الثّنايا ... كأنّ رُضابَهُ صافي المُدامِ
كَسَتْه الشمسُ لوْناً من سَناها ... فلاحَ كأنّه بَرْقُ الغمامِ

وقال آخَر :

بذى أُشُرٍ عَذْبِ المَذاقِ تفرّدتْ ... به الشمس حتّى عاد أبيضَ ناصِعاً

والناسُ اليوم في صِبْيانِهم على هذا المذهب .

وكانت العربُ تَعتَقد أنّ دَم الرئيس يَشْفِي مِن عضّة الكَلْب الكَلِب ؛
قال الشاعر :

بُناةُ مكارِمٍ وأُساةُ جُرحٍ ... دِماؤهُمُ من الكَلَبِ الشِّفاءُ

وقال عبدُ الله بن الزّبير الأسَدىّ :

من خيرِ بيتٍ عَلِمْناه وأكرَمه ... كانت دماؤهُمُ تَشفِي مِنَ الكَلَبِ

وقال الكُميت :

أحلامكمْ لسَقامِ الجهلِ شافيةٌ ... كما دِماؤكُمُ تَشفِي مِن الكَلَبِ

***

ومِن تخيّلات العرب أنّهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنُونَ وتعرّضَ الأرواح

---

(١) البيت بتمامه :

سَقَتْهُ إياةُ الشمسِ إلاّ لثاتِهِ ... أُسِفَّ ولم تَكْدِمْ عليهِ بإثْمِدِ

الخبيثة له بجسوه بتعليق الأقذار عليه ، كخرقة الحيض وعظام الموتى ، قالوا : وأنفع من ذلك أن تعلّق عليــه طامثٌ عِظام موتى ، ثمّ لا يراها يومه ذلك ، وأنشدوا للممزّق العبديّ :

فلو أنّ عنـــدى جارَتَين وراقياً ... وعَلّقَ أنجـــاسا علىّ المعلِّقُ

قالوا : والتّنجيس يَشفِي إلاّ مِن العِشْق ، قال أعرابىّ :

يقولون علِّق يالك الخــير رِمّةً ... وهل ينفع التّنجيس مَن كان عاشقا !

وقالت امرأة ــ و نجّستْ ولدَها فلم يَنفَعْه ومات !

نجّسْتُـــه لو يَنفَع التّنجيسُ ... والمـــوتُ لا تَفوتُه النفوس

وكان أبو مهديّة يعلّق فى عُنقه العِظامَ والصّوفَ حَذَر الموت ، وأنشدوا :

أتوْنى بأنجـاسٍ لهمْ ومنجّسٍ ... فقُلتُ لهمْ ماقدّر اللهُ كائنُ

***

ومن مَذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا خَــدِرت رِجلُه ذَكَر من يُحِبّ أو دَعاه فيذهب خَدَرُها .

ورُوِى أنّ عبد الله بن عمر خَدِرتْ رِجلُه ، فقيل له ادعُ أحبّ النّاس إليك ، فقال : يارسول الله .

وقال الشاعر :

على أنّ رِجْلى لا يَزالُ امْذِلالُها ... مُقيماً بهــا حتّى أجِيلك فى فِكرى

وقال كُثيّر :

إذا مَذِلَتْ رِجـلى ذكرتُكِ أشتَفِى ... بدَعواكِ من مَذْلٍ بهـــا فيَهونُ (١)

وقال جَميل :

وأنتِ لعَيْـــــنى قرّةٌ حينَ نلتقى ... وذِكرُكِ يَشفِينى إذا خدِرتْ رِجْلِى (٢)

---

(١) اللسان (مذل) من غير نسبة ... (٢) ديوانه ١٧٢

وقالت امرأة :

إذا خَدِرَتْ رجلي دعوتُ ابنَ مصعَبٍ　　فإنْ قلتُ عبدَ الله أجلَى فتورُها

وقال آخَر :

صَبٌّ محبٌّ إذا مارِجْلُه خَدِرَتْ　　نادى كُبَيْشَةَ حتّى يذهبَ الخدَرُ

وقال المؤمّل :

واللهِ ماخَدِرَتْ رِجلي ولا عَثَرَتْ　　إلّا ذكَرْتُكِ حتّى يذهبَ الخدَرُ

وقال الوليد بن يزيد :

أثيبي هائماً كَلِفاً مُعَنًّى　　إذا خَدِرَتْ لهُ رِجلٌ دعاكِ

ونظير هذا الوَهم أنّ الرجل منهم كان إذا اختلجَتْ عينهُ قال : أرَى مَن أُحِبّه ، فإن كان غائبا توَقّع قدومَه ، وإن كان بعيدا توقّع قُرْبَه .

وقال بشر :

إذا اختلجتْ عيني أقولُ لعلّها　　فتاةُ بني عَمْرو بها العَينُ تَلمَعُ(١)

وقال آخَر :

إذا اختلجَتْ عيني تيقّنتُ أنّني　　أراكِ وإن كان المزارُ بعيدا

وقال آخَر :

إذا اختلجَتْ عيني أقولُ لعلّها　　لرؤيتها تَهتاجُ عيني وتطرِفُ

وهذا الوَهْم باقٍ في الناس اليوم .

* * *

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا عَشِق ولم يَسْلُ وأفرَط عليه العِشق حمَله

---

(٣) ديوانه ١١٨

رجلٌ على ظَهرِهِ كما يحمل الصبيّ ، وقام آخر فأحمى حديدةً أو مِيلاً ، وكوى به بين أليَتَيْهِ فيذهب عِشقُه فيما يزعمون .

وقال أعرابيّ :

كويتمْ بين رانفتيّ جَــهْلاً   ونارُ القَلْبِ يُضرِمُها الغَرامُ

وقال آخَر :

شكوتُ إلى رفيقيّ اشتياقِي   فجاءاني وقد جَمَعا دَوَاءْ

وجاءا بالطبيب ليَكْوِيَانِي   ولا أبغي ـ عَدِمْتُهما ـ اكتِوَاءْ

ولو أتيا بسَلْمي حين جاءا   لعاضانِي من السَّقَمِ الشِّفَاءْ

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كثيِّر :

أغاضِرَ لو شَهدْتِ غداةَ بِنْتُمْ   حُنُوَّ العائداتِ على وِسادِي

أَوَيْتِ لعاشقٍ لم ترحَمِيهِ   بواقِدةٍ تلذَّعُ بالزِّنادِ

هذا البيت ليس بصريح في هذا الباب ، ويحتمل أن يكون مُرادُهُ فيه المعنى المشهور المطروقَ بين الشعراء من ذِكر حرارة الوَجْد ولَذْعِه ، وتشبيهِهِ بالنار ، إلّا أنّه قد روَى في كتابه خبرا يؤكِّد القصدَ الّذي عزاه وادّعاه ، وهو عن محمّد بن سليمانَ ابن فُلَيح ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنتُ عندَ عبدِ الله بنِ جعفر ، فدخل عليه كُثيّر وعليه أثر عِلّة ، فقال عبدُ الله : ماهذا بك ؟ قال : هذا مافعلتْ بي أمُّ الحُوَيْرث ، ثم كشفَ عن ثوبه وهو مَكويّ ، وأنشد :

عفا الله عن أمِّ الحُويرثِ ذنبَها   علامَ تُعنِّيني وتَكمِي دَوائيا !

ولو آذنوني قبل أن يرقُموا بها   لقلت لهم : أمُّ الحويرث دائيا

***

ومن أوهامهم وتخيُّلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أن الرّجل إذا أحَبّ امرأةً وأحبّته فشقّ بُرْقُعها ، وشقّت رِداءه ، صَلَح حبّهُما ودام ، فإن لم يَفعَلا ذلك فسدَ حبُّهما ؛ قال سُحَيمْ عبدُ بني الحسْحاس :

وكم قد شققْنا من رداء محبَّرٍ ومن بُرقعٍ عن طَفْلةٍ غير عابسِ (١)
إذا شُقّ بُرْدٌ شُقّ بالبرد بُرقعٌ دَواليك حتى كلُّنا غير لابسِ
نرومُ بهذا الفعلِ بُقياعلى الهوى وإلفُ الهوى يغرِى بهذى الوساوِس

وقال آخر :

شققت ردائى يومَ بُرقةِ عالجٍ وأمكنَنى من شقّ برقعها السّحقا
فما بالُ هذا الوُدِّ يفسدُ بيننا ويمحَقُ حبلُ الوصلِ ما بيننا مَحْقا

***

ومن مذاهبهم أنّهم كانوا يرَون أنّ أكل لحوم السِّباع تزيد فى الشجاعة والقوّة ، وهذا مذهبٌ طِبِّىٌّ ، والأطبّاء يعتقدونه ، قال بعضهم :

أبا المعاركِ لا تُتعِب بأكلك ما تظنّ أنك تُلقَى منـــه كرّارا
فلو أكلتَ سِباعَ الأرضِ قاطبةً ما كنتَ إلّا جبانَ القلب خوّارا

وقال بعضُ الأعراب ـ وأكل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً ـ فعدَا عليه نمر فجرَحه :

أكلتُ من الليثِ المصور فؤادَهُ لأصبِح أجرَى منه قلبا وأقدَما
فأدرَكَ منّى ثأرَه بابن أختِـه فيالكَ ثأرا ما أشدَّ وأعظَما !

وقال آخَر :

إذا لم يكن قلبُ الفتى غُدْوةَ الوغَى أصمّ فقلبُ اللّيث ليس بنافِع

---

(١) ديوانه ١٦ ، ولم يذكر البيت الثالث

وما نَفْعُ قلبِ الليثِ فى حَوْمة الوَغَى   إذا كان سيف المرء ليس بقاطِع !

***

ومن مَذاهبهم أنّ صاحَب الفرَس المَهْقوع إذا ركبَه فعرِق تحته اغتلمتْ امرأتُه وطمحتْ إلى غيره ، والهَقْعة : دائرة تكون بالفرَس ، وربّما كانت على الكَتِف فى الأكثر ، وهى مستقبَحةٌ عندَهم ، قال بعضُهم لصاحبه :

إذا عَرِق المَهْقُوع بالمرء أنْعظتْ   حَليلتُه وازدادَ حَرُّ عجانِها

فأجابه صاحبُه :

قد يركب المهقوعَ من ليس مثله   وقد يركب المهقوعَ زوج حَصَانِ[1]

***

ومن مذاهبهم أنهم كانوا يوُقدون النّار خَلْف المسافر الذى لا يحبّون رجوعَه ، يقولون فى دعائهم : أبعدَه الله وأسحقه ، وأوقدَ ناراً أثرَه ! قال بعضهم :

صحوتَ وَأوقدتَ للجهل نارًا   وردَّ عليك الصِّبا ما استعارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقَدوا نارا بينهم وبين المنزِل الّذى يريدونه ، ولم يُوقدوها بينهم وبين المنزل الّذى خرجوا منه ؛ تفاؤلا بالرجوع إليه .

***

ومن مذاهبهم المشهورة تعليقُ كَعْب الأرْنَب ، قال ابنُ الأعرابىّ : قلتُ لزيد بن كَثْوَة : أتقولون: إنّ من عُلّق عليه كعبُ أرنبٍ لم تقربْه جِنّان الدار ، ولا عُمّار الحىّ ؟ قال : إى واللهِ ، ولا شَيطانُ الحماطة ولا جار العُشَيرة ، ولا غُول القَفْر . وقال امرؤُ القَيْس :

---

(١) اللسان (هقع) دون نسبة .

أياهنـــدُ لا تَنـكِحِى بُوهةً عليـــــه عقيقتُه أحسَبَا (١)
مرسّعـــــةً بين أدْباقِهِ به عسَمٌ يَبتغى أرنَبـــــا
ليَجعَل فى رِجـلِهِ كَعْبَهـــا حِــــذارَ المَنيّة أن يعطَبا

والخماطة : شجرة ، والمُشَيرة : تصغير المَشْرة ، وهى شجرة أيضا .

وقال أبو محلِّم : كانت العرب تعلِّق على الصّبىّ سِنَّ ثعلب وسِنَّ هِرّة خوفا من الخطْفة والنّظرة ، ويقولون : إنّ جنّيّة أرادتْ صبيَّ قوم فلم تقدِر عليه ، فلامَها قومُها من الجنّ فى ذلك ؛ فقالت تعتذِر إليهم :

كأنّ عليـــــه نُفَرَةْ ثعالبٌ وهِـــــرَرَهْ

* والحَيْض حيضُ السَّمُرَهْ *

والسَّمُرة شىء يسيل من السَّمُر كدم الغزال ؛ وكانت العربُ إذا وَلدت المرأةُ أخذوا من دَمِ السَّمُر ـ وهو صَمْغه الّذى يسيل منه ـ ينقّطونه بين عَيْنَى النُّفَساء ؛ وخَطُّوا على وجه الصبىّ خَطًّا ، ويسمّى هذا الصمغ السائل من السَّمُر الدَّوْدَم ؛ ويقال بالذال المعجَمة أيضا ، وتسمَّى هذه الأشياء الّتى تُعلّق على الصّبى : النّفرات .

قال عبد الرحمن بنُ أخى الأصمعىّ : إنّ بعض العرَب قال لأبى : إذا وُلِد لك وَلَد فنفِّر عنــه ، فقال له : أبى ، وما التنفير ؟ قال : غرّب اسمَه ؛ فوُلِد له ولدٌ فسمّاه قُنفُذا ، وكَناه أبا العدّاء ؛ قال : وأنشد أبى :

كالخمْر مَزْجُ دَوائهـا مِنهـــا بها تَشفِى الصُّداعَ وتُبرِئُ المَنجُودَا (٢)

قال : يريد أنّ القُنفُذ من مَراكِب الجنّ ؛ فداوى منهم ولده بمَراكبهم .

* * *

---

(١) ديوانه ١٢٨

(٢) المنجود : المكروب .

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا ركب مَفازةً وخاف على نفسِه من طَوارِق اللّيل عَمَد إلى وادى شجر فأناخَ راحلتَه فى قرارته ، وعَقَلها وخَطّ عليها خَطّا ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادى ، وربّما قال : بعظيم هذا الوادى ، وعن هذا قال الله سبحانه فى القرآن : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (١) .

واستعاذ رجلٌ منهم ومعه ولدٌ فأكَلَه الأسد ، فقال :

قد اُستعذْنا بعظيمِ الوادِى   من شرِّ مافيه من الأعادِى

* فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادِى *

وقال آخَر :

أعوذُ من شَرّ البلاد البِيدِ   بسَيّدٍ معظّمٍ مَجيدِ

أصبحَ يأوِى بلِوَى زَرُودِ   ذِى عِزّةٍ وكاهِلٍ شَديدِ

وقال آخَر :

ياجنّ أجراع اللّوى من عالجٍ   عاذَ بِكُمْ سارِى الظّلام الداجِ

* لا تُرهِقوه بغَوِيٍّ هائجٍ *

وقال آخَر :

قد بتّ ضيفا لعظيم الوادى   المانِعِى مِنْ سَطْوة الأعادى

* راحِلتى فى جارِه وزادِى *

وقال آخَر :

هَيا صاحبَ الشَّجْراء هل أنتَ مانعى   فإنّى ضَيْفٌ نازِلٌ بفِنائكا

---

(١) سورة الجن ٦

وإنكَ للجِنّان فى الأرضِ سَــيِّدٌ ... ومِثلُكَ آوَى فى الظّلام الصَّعالِـكا

***

ومن مذاهبهم أنّ المسافر إذا خرج من بلده إلى آخَرَ فلا ينبغى له أن يَلتفِت ، فإنه إذا ألتفت عاد ، فلذلك لا يلتفت إلّا العاشق الّذى يُرِيدُ العَوْد ؛ قال بعضهم :

دَعِ التلفّت يامَسْعودُ وأرمِ بهــا ... وجهَ الهَواجِرِ تأمَنْ رَجعــةَ البَلَدِ

وقال آخَر ؛ أنشدَه الخالع :

عِيــلَ صبرِى بالثَّعلبيّة لمّا ... طال ليــلِى ومَلَّنِى قُرَنائى

كلّما سارَت المَطَايا بنـــــا مِيـلاً تنفّسْتُ والتفتُّ وَرائى

هذان البيتان ذكَرهما الخالعُ فى هذا الباب ، وعندى أنّه لا دَلالة فيهما على ما أراد ، لأنّ التلفّت فى أشعارهم كثير ، ومُرادُهم به الإبانةُ والإعرابُ عن كثرة الشّوق،والتأسّف على المفارقة ، وكون الراحل عن المنزل حيث لم يُمكِنْه المُقام فيه بجُثمانه يُتبِعه بَصرَه ، ويتزوّد من رؤيته ؛ كقول الرضىّ رحمه الله :

ولقــــد مررتُ على طُلولهمُ ... ورُسُومهمْ بِيَدِ البِلَى نَهْبُ (١)

فوقفتُ حتّى ضَجّ من لَغَبٍ ... نِضْوِى ولَجّ بعَذْلىَ الرَّكْبُ

وتلفّتتْ عيني فمُــــذ خَفِيتْ ... عنّى الطُّــــلول تلفّتَ القَلْبُ

وليس يُقصَد بالتلفّت هاهنا التفاؤل بالرّجوع إليها ، لأن رُسُومَها قد صارت نَهْبا لِيَد البلى ، فأىّ فائدةٍ فى الرّجوع إليها ! وإنّما يريد ماقدّمنا ذكره من الحنين والتذكّر لِما مضى من أيّامه فيها ، وكذلك قول الأوّل :

(١) ديوانه ١ : ١٤٥

تلفتَّ نحو الحىّ حتى وَجدْتُنى وَجِعتُ من الإصْغاء لِيتاً وأخدَعا[1]

ومِثل ذلك كثير ، وقال بعضُهم فى المذهَب الأوّل :

تلفّتّ أرجو رجعةً بعد نِيّةٍ فكان التفاتى زائداً فى بلائيا

أأرجو رُجوعا بعد ما حال بيننا وبينكم حَزْن الفَلا والفيافيا !

وقال آخر ، وقد طلّق امرأته فتلفّتتْ إليه :

تَلفَّتُ تَرْجو رجعةً بعد فُرقةٍ وهيهات مما تَرتجِى أمُّ مازِنِ !

ألم تعلمى أنى جَموحٌ عِنانُه إذا كان من أهواهُ غيرَ ملاين !

***

ومن مذاهبهم، إذا بُثِرتْ شفَةَ الصبىّ حمل مُنخُلا على رأسه، ونادى بين بيوت الحىّ: الحلا الحَلا ، الطّعام الطعام ، فتلقى له النساء كِسَرَ الخبز وأقطاعَ التمر واللّحم فى المُنخُل ، ثمّ يلقى ذلك للكلاب فتأكُله فيبرأ من المرض ، فإن أكلَ صبىّ من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للكلاب تمرةً أو لقمةً أو لحمةً أصبح وقد بثِرتْ شفتُه . وأنشِد لامرأة :

ألا حَلَا فى شَفَةٍ مشقوقهْ فقد قَضَى مُنخُلُنا حُقوقَهْ

***

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا طَرِفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المَطروف سبع مرّات ؛ يقول : فى الأولى : بإحدى جاءت من المدينة ، وفى الثانية : باثنتين جاءتا من المدينة ، وفى الثالثة بثلاثٍ جئن من المدينة ، إلى أن يقول فى السابعة : بسبعٍ جئن من المدينة ، فتبرأُ عينُ المطروف .

---

(١) للصمة بن عبد الله ؛ ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ١٩٩

وفيهم من يقول : بإحدى من سَبْع جِنٌ من المدينة ، باثنتين من سبع ، إلى أن يقول بسَبْع من سَبْع .

* * *

ومن مذاهبهم أنّ المرأة منهم كان إذا عَسُر عليها خاطبُ النّكاح نشرَتْ جانباً من شَعْرها، وكحلت إحدى عينيْها مخالفةً للشّعر المنشور ، وحَجَلتْ على إحدى رِجْليها ويكون ذلك ليْلا ، وتقول : يالَكاح ، أبغى النّكاح ، قَبْل الصباح ؛ فيَسهل أمرُها وتتزوّج عن قُرْب ، قال رجل لصديقه وقد رأى امرأةً تفعلُ ذلك :

أما تَرَى أمّكَ تبغي بَعْلاَ قد نَشرتْ من شَعرها الأقلاّ
ولم تُوَفّ مقلتَيْها كُحْلا ترفَع رِجْلا وتَحُطّ رِجْلا
هذا وقد شابَ بَنُوها أصْلا وأصبحَ الأصغرُ منهمْ كَهْلا
خذ القَطيع ثمّ سِمْها الذُّلاّ ضَرْبا به تَتْرك هذا الفِعْلا

وقال آخر :

قد كَحلتْ عيناً وأغفَتْ عَيْنَا وحجَلتْ ونَشَرتْ قُرَيْنــا
* تَظُنّ زَيْنـــا ما تراه شَيْنا *

وقال آخر :

تَصنّعِي ما شئت أنْ تَصنّعي وكَحّلي عينَيْك أو لا فدَعِي
ثم احجِلي في البيت أو في المجمعِ مالكِ في بعْلٍ أرَى من مَطْمعِ

* * *

ومن مذاهبهم كانوا إذا رَحَل الضيف أو غـــيره عنهم وأحبّوا ألاّ يعود كسروا

شيئا من الأوانى وراءه ، وهذا مما تعمله الناسُ اليوم أيضا ، قال بعضهم :

كسرْنا القِدْر بعد أبى سواحٍ   فعادَ وقِدْرُنا ذهبتْ ضَياعا

وقال آخر :

ولا نَكسر الكِيزانَ فى إثر ضَيفنا   ولكننا نقفيه زاداً ليَرْجِعا

وقال آخَر :

أما واللهِ أنّ بَنِى نُفَيلٍ   لحلّالون بالشَّرَف اليَفاعِ
أُناسٌ ليس تَكْسِر خلفَ ضَيفٍ   أوانيَهم ولا شعب القِصاعِ

***

ومن مذاهبهم قولهم : إنّ من ولد فى القَمْراء تقلّصت غُرْلته[1] ، فكان كالمَخْتون . ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواصّ القمر ، كما أنّ من خواصّه إبلاء الكَتّان ، وإنتان اللحم ، وقد رُوِى عن أميرِ المؤمنين عليه السلام : إذا رأيتَ الغلام طويل الغُرْلة فأقرِبْ به من السُّؤدد ، وإذا رأيته قصير الغُرْلة كأنما ختَنَه القمر فأبعِدْ به .

وقال امرؤُ القيس لقَيصر ، وقد دخل معه الحمّام فرآه أقْلَف :

إنّى حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ   لأنت أغلفُ إلاّ ما جَنَى القمرُ[2]

ومن مذاهبهم التّشاؤم بالعُطاس ، قال امرؤُ القيس :

* وقد اغتَدِى قبل العُطاسِ[3] بهيكَلٍ *

وقال آخَر :

---

(١) الغرلة : القلفة ، وهى الجلدة فى رأس الإحليل قبل الختان .

(٢) ديوانه ٢٨٠

(٣) البيت بتمامه :

وقَدْ أغتدى قبلَ العُطاسِ بهيكَلٍ   شديدٍ منيعِ الجنبِ فَعْمِ المنطَّقِ

ديوانه ١٧٣

وخرقٍ إذا وجّهت فيه لغزوةٍ ... مضيت ولم يحبسْك عنه العَواطِسُ

* * *

ومن مذاهبهم قولهم فى الدعاء : لا عشتَ إلاّ عيش القراد ! يضربونه مثلا فى الشدّة والصبر على المَشقّة ، ويزْعمون أنّ القراد يعيش ببَطْنه عاما وبظهره عاما ، ويقولون : إنه يُترَكُ فى طينةٍ ويُرمى بها الحائط فيبقى سنةً على بَطْنه ، وسنةً على ظَهْره ولا يموت ، قال بعضهم :

فلا عشتَ إلا كعَيْش القُرا ... دِ عاماً ببطْنٍ وعاماً بظَهْرِ

ومن مذاهبهم كانت النساء إذا غاب عنهنّ من يُحِبْبنه أخذن تُرابا من موضع رجله ، كانت العربُ تزعُم أنّ ذلك أسْرَع لرجوعه .

وقالت امرأةٌ من العرب ـ واقتبضتْ من أثره :

يارِبٌّ أنت جارُهُ فى سَـــفَرِهْ ... وجار خُصْيَيْه وجارُ ذَكَرِهْ

وقالت امرأةٌ :

أخذتُ تُرابا من مواطىء رجله ... غداةَ غدا كيما يؤوبَ مُسلَّمَا

* * *

ومن مذاهبهم ، أنّهم كانوا يسمّون العَشا فى العين الهُدَبد ، وأصلُ الهدبد ، اللّبن الخاثر ، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سَنام فقطَع منه قطعةً ومن الكِبد قطعة ، وقلاَهما ، وقال عند كلّ لقمة يأكلها بعد أن يمسَح جفنَه الأعلى بسبّابته :

فيا سَنَاما وكَبِدْ ... ألا أذهبا بالهُدَبِدْ[(١)]

ليس شفاء الهُدَبِدْ ... إلا السّنام والكَبِدْ

---

(١) انظر اللسان ٤ : ٤٤٦ .

قال : فيذهب العشا بذلك .

***

ومن مذاهبهم اعتقادُهم أنّ الوَرَل والقُنفذ والأرنب والظّبي واليَرْبوع والنّعام مراكبُ الجنّ يمتطونها ، ولهم فى ذلك أشعارٌ مشهورة ، ويزعمون أنّهم يرَوْن الجنّ ويظاهرونهم ويخاطبونهم، ويشاهدون الغُول ، وربما جامَعوها وتزوّجوها ، وقالوا : إن عمرو بن يَرْبوع تزوج الغولَ وأولدها بنين ، ومكثَتْ عنده دهراً ؛ فكانت تقول له : إذا لاح البَرْق من جهة بلادى — وهى جهة كذا — فاستره عنى ، فإنى إنْ لم تَستُره عنى تركتُ ولدَكَ عليك ، وطِرْتُ إلى بلاد قومى ؛ فكان عمرو بن يَرْبوع كلّما برق البرقُ غطّى وجهها بردائه فلا تُبصره ؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو العَلاء المعرّى فى قوله يذكر الإبل وحنينها إلى البرْق :

طَرِبْنَ لضَوْء البارِق المُتعالى ... ببغدادَ وَهْناً ما لهنّ ومالِى[1]

سَمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنها ... بنارَيْهِ من هنا وثَمّ صَوالِى

إذا طال عنها سَرّها لَوْ رءوسها ... تمدُّ إليه فى صُدورٍ عَوالِى

تمنّت قويقاً والصّراة أمامَها ... ترابٌ لها من أينُق وجمالِ

إذا لاحَ إيماضٌ سترتُ وجوهها ... كأنّى عمرو والمطىّ سَعالِى

وكم همّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مع الصَّبا ... إلى الشام لولا حَبْسُه بِعقالِ

قالوا : فغفَلَ عمرو بن يَرْبوع عنها ليلة وقد لمع البرقفلم يَستُر وجهها ، فطارت وقالت له وهى تطير :

أمسِكْ بنيك عَمْرُو إنّى آبقْ ... بَرْقٌ على أرض السَّعالى آلِقْ[2]

---

(١) سقط الزند ١١٦٢

(٢) شروح سقط الزند ١٦٨ :

ومنهم من يقول: ركبتْ بعيراً وطارت عليه ـ أي أسرعَتْ ـ فلم يُدرِكْها. وعن هذا قال الشاعر:

رأى برقاً فأوضعَ فوقَ بكْرٍ فلا بِكَ ما أسالَ ولا أغاما (١)

قال: فبنو عمرو بن يَرْبوع إلى اليوم يُدْعَوْن بنى السِّعْلاة، ولذلك قال الشاعر يهجُوهم:

يا قبَّح اللهُ بنى السِّعـلاةِ عمرو بن يربوع شِرَار النّاتِ (١)

* ليسوا بأبطالٍ ولا أكْياتِ *

فأبدلَ السِّين تاء، وهى لغةُ قوم من العرب.

* * *

ومن مذاهبهم فى الغول قولهم: إنها إذا ضُربتْ ضربةً واحدةً بالسَّيف هلكتْ، فإن ضُرِبت ثانيةً عاشت، وإلى هذا المعنى أشارَ الشاعرُ بقوله:

فقالت: ثَنِّ، قلتُ: لها رُوَيْداً مكانَكِ، إننى ثَبْتُ الجَنانِ

* * *

وكانت العرَب تسمِّى أصواتَ الجِنّ العَزيفَ وتقول: إن الرجل إذا قَتَل قُنفُذا أو وَرَلا لم يأمَن الجنّ على فَحْل إبله، وإذا أصاب إبلَه خَطْب أو بلاء حَمَله على ذلك، ويزعمون أنهم يَسمَعون الهـاتفَ بذلك، ويقولون مثله فى الجانّ من الحيّات، وقتله عندهم عظيم.

ورأى رجلٌ منهم جانا فى قعر بئرٍ لا يستطيع الخروجَ منها، فنزل وأخرَجَـه منها على خَطَر عظيم، وغمّض عينَيْه لئلا يرى أين يدخل، كأنه يريد بذلك التقرّب إلى الجنّ.

(١) شروح سقط الزند ١١٦٨ . نوادر أبى زيد ١٤٦ ، وروايته: «دما أسال وما أغاما».

وقال أبو عثمانَ الجاحظ : وكانوا يُسمُّون من يُجاوِره منهم النّاس عامراً ، والجمع عُمّار ، فإن تعرّض للصبيان فهو رُوح ، فإن خَبُث وتعرّم فهو شيطان ، فإن زاد على ذلك فهو مارِد ، فإن زاد على ذلك فى القوّة فهو عِفريت ، فإن طَهُر ولطف وصار خيراً كلّه فهو مَلَك ؛ و يفاضِلون بينهم ، و يعتقدون مع كلّ شاعر شَيْطانا ، و يسمّونهم بأسماء مختلفة ؛ قال أبو عثمان : وفى النّهار ساعاتٌ يُرى فيها الصغيرُ كبيرا ويُوجد لأوساط القَيافِي والرِّمالِ والحِرار مِثل الدَّوِىّ ، وهو طبع ذلك الوقت ، قال ذو الرّمة :

إذا قال حادِينــا لتَرْنيم نَبْأةٍ　　صَهٍ لم يكنْ إلا دَوِىَّ المَسامِـعِ(١)

وقال أبو عثمان أيضا فى الّذين يذكرون عزيفَ الجِنّ وتَغوّل الغِيلان : إنّ أمر هذا الأمر وابتداء هذا الخيال أنّ القوم لمّا نزلوا بلاد الوَحْش عملتْ فيهم الوَحْشة(٢) ، ومن انفرد وطال مقامُه فى البلاد الخلاء استوحَشَ ، ولا سيّما مع قلّة الأشغال وفَقْد المُذاكرين ؛ والوَحْدة لا تقطع أيّامها إلاّ بالتمنّى والأفكار ، وذلك أحد أسباب الوَسْواس(٣) .

* * *

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها اعتقادُهم فى الدّيك والغُراب والحَمامة وساقِ حُرّ — وهو الهديل — والحيّة ، فمنهم من يَعتقِد أن للجنّ بهذه الحيوانات تعلّقات ، ومنهم من يَزعم أنّها نوعٌ من الجنّ ، و يعتقدون أنّ سُهَيلا والزُّهَرة والضَّبّ والذئب والضَّبع مُسوخ ، ومن أشعارهم فى مَراكِب الجنّ قولُ بعضهم فى قُنفُذٍ رآه ليلا :

فما يُعجِب الجِنّانَ منك عَدِمْتَهمْ　　وفى الأُسْد أفراسٌ لهمْ ونجائبُ(٤)

أيُسْرَجُ يَرْبوعٌ ويُلجَم قنفـذٌ　　لقد أعوزَتْكم ماعلمت النجائبُ !

(١) ديوانه ٦٣٠ .
(٢) كذا فى ا والحيوان ، وفى ب : « الوحشية » .
(٣) الحيوان ٦ : ٢٤٩ .
(٤) الحيوان ٦ : ٢٤٠ .

فإن كانت الجِنّانُ جُنّتْ فبالحرَى ... ولا ذَنْبَ للأقوامِ واللهُ غالبُ[1]

ومن الشّعر المنسوب إلى الجنّ :

وكلّ المطايا قد ركِبْنا فلم نجِد ... ألذّ وأشهى من رُكوب الأرانِب

ومن عَضْرَفُوطٍ عَنّ لي فركِبْتُه ... أبادِرُ سِرْباً من عطَاءٍ قَوارِبِ[2]

وقال أعرابيّ يكذّب بذلك :

أيستَمِع الأسرارَ راكبُ قُنفُذٍ ... لقد ضاعَ سِرُّ الله يا أمَّ مَعبَدِ!

***

ومن أشعارِهم وأحادِيثهم في رواية الجنّ وخِطابِهم وهتافِهم مارواه أبو عثمانَ الجاحظ لسمير بن الحرث الضّبي :

ونارٍ قد حَضأْتُ بُعَيدَ وَهْنٍ ... بدارٍ لا أُريدُ بهــا مُقاماً[3]

سِوَى تحليـل راحلةٍ وعَيْنٍ[4] ... أُكالئهــا مخافةَ أن تَناماَ

أتَوْا ناري فقلتُ : مَنُونَ أنتم؟ ... فقالوا : الجنّ قلتُ : عِمُوا ظَلاماَ

ويزعمون أنّ عُمَير بنَ ضبيعة رأى غلمانا ثلاثةً يلعبون نهارا ، فوثَب غلامٌ منهم فقام على عاتِقَيْ صاحِبه ، ووَثَب الآخَر ، فقام على عاتقَيْ الأعلى منهما ، فلمّا رآهم كذلك حَمَل عليهم فصَدَمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يَضحَـكون ، فقال عمير بن ضُبَيعة : فما مررتُ يومئذ بشَجَرة إلّا وسَمِعتُ من تحتها ضَحِـكا ؛ فلمّا رجع إلى منزله مَرِض أربعَةَ أشهر .

---

(١) الحيوان : « ولا ذنب للأقدار » .

(٢) العضر فوط : دويبة بيضاء ناعمة ؛ وهى ضرب من العظاء .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٨١ ، ٦ : ١٩٦ ، ونوادر أبي زيد ؛ وفيه : « شمير بن الحارث الضبى» وانظر الخزانة ٣ : ٣ ، والمخصص ١ : ٩٤ ، والميداني ١ : ٣٢ . حضأت : أشعلت .

(٤) قوله : « سوى تحليل راحلة » ، أراد سوى راحلة أقت بها فيها بعد تحلة اليمين » .

وحكى الأصمعيّ عن بعضهم أنّه خرج هو وصاحبٌ له يسيران ، فإذا غلامٌ على الطريق ، فقالا له : مَن أنتَ ؟ قال : أنا مسكين قد قُطِع بى ، فقال أحدهما لصاحبه : أرْدِفه خَلْفَك ، فأرْدَفَه ، فالتفتَ الآخَر إليه فرأى فَمَه يتأجّج نارا ، فشدّ عليه بالسّيف فذهبت النارُ فرَجَع عنه ، ثمّ التفت فرأى فَمه يتأجّج نارا فشدّ عليه فذهبت النار ، ففَعَل ذلك مرارا ، فقال ذلك الغلام : قاتَلَكما الله ! ما أجْلَدَكما ! والله مافعلتُها بآدميّ إلا وانخلَع فؤادُه ، ثم غابَ عنهما فلم يَعلَما خبرَه .

وقال أبو البلاد الطُّهَوِيّ ـ ويُروَى لتأبّط شرّا :

لَهَانَ عَلَى جُهَينَـــةَ ما أُلاقِي ... مِنَ الرَّوْعاتِ يومَ رَحَا بِطانِ[(1)]

لقِيتُ الغولَ تَسرِي فى ظَلامٍ ... بسَهْبٍ كالعَباءةِ صَحْصَحانِ[(2)]

فقلتُ لها : كلانا نِقْضُ أرضٍ ... أخو سَفَرٍ فخلِّى لى مكانى[(3)]

فشَـدّتْ شَدّةً نحوِى فأهوَى ... لَهَا كَفِّى بمَصقولٍ يَمــانِى

فقالتْ : زِدْ فقلتُ : رُوَيْدَ إنّى ... على أمثالِهـــا ثَبْتُ الجَنانِ

والذين يَرْوُون هذا الشِّعر لتأبّط شرّا يروُون أوّله :

ألا مَن مُبلِغٌ فَتَياتِ جَهْمٍ ... بما لاقيتُ عنـدَ رَحَا بِطانِ

بأنّى قـد لقيتُ الغُولَ تَهْوِى ... بمَرْتٍ كالصحيفة صحصحانِ

فصدّتْ فانتحَيْتُ لهـا بعَضْبٍ ... حُسامٍ غيرِ مؤتشِبٍ يَمــانِى

فقدّ سَراتَهـا والبَرْكَ منهـا ... فخرّت لليدَيْن وللجِرانِ[(4)]

فقالتْ : ثنِّ قلت لها : رُوَيدًا ... مكانَكِ إنّنى ثَبْتُ الجَنـانِ

---

(1) الحيوان ٦ : ٢٣٤ ، وانظر الأغانى ١٨ : ٢١ ، ٢١٢ ، ومعجم البلدان ٨ : ٢٣١ . ورحا بطان : موضع فى بلاد هذيل . (2) الصحصحان : ما استوى من الأرض .
(3) النقض : المهزول قد نقضه السفر . (4) السراة ، بالفتح ، الظهر . والبرك : الصدر .

ولم أنفكّ مضطجعًا لديْها ... لأ نظُرَ مصبحا ماذا دهانى
إذا عَيْنان فى رأسٍ دقيق ... كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مخدَجٍ ولسان كَلْبٍ ... وثوب من عَباء أو شِنانِ

وقال البهزانىّ :

وتزوّجتُ فى الشّبيبة غُولاً ... بغزالٍ وصَدُقتى زِقّ خَمْرِ [1]

وقال الجاحظ : أصدَقها الخمر لطيب ريحها ، والغزال لأنّه من مراكب الجنّ .

وقال أبو عبيد بن أيوبَ العنبرىّ أحد لصوص العرب :

تقول ـ وقد ألممْتُ بالإنس لَمّةً ... مخضّبةُ الأطراف خُرس الخلاخِلِ [2]
أهذا خَدِينُ الغُول والذئب والذى ... يَهيمُ بربّات الحجال الهراكِلِ ! [3]
رأتْ خَلَقَ الدِّرسَيْنِ أسودَ شاحبًا ... من القوم بسّاما كريمَ الشّمائلِ [4]
تَعَوّدَ من آبائه فَتَكاتِهِمْ ... وإطعامَهم فى كلّ غبراء شامِلِ [5]
إذا صادَ صَيْدا لَفّهُ بضرامهِ ... وَشيكا ولم يَنظُرْ لغَلْى المَراجلِ [6]
ونهسًا كنهْس الصَّقْر ثُمَّ مِراسه ... بكفّيه رأس الشّيخة المتمائلِ [7]

ومن هذه الأبيات .

إذا ما أرادَ اللهُ ذُلَّ قبيلةٍ ... رَماها بتَشتيتِ الهوى والتّخاذُلِ
وأوّل عَجْزِ القوم عمّا ينوبُهمْ ... تقاعُدُهم عنه وطولُ التّواكُلِ
وأوّل خُبْثِ الماء خُبْثُ تُرابه ... وأوّل لُؤمِ القوم لُؤمُ الحلائلِ

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٢٥

(٢) الحيوان ٦ : ١٦٧ . وخرس الخلاخل : كناية عن امتلاء الساق .

(٣) الهراكل : جمع هركلة ؛ وهى الحسنة الجسم التامة والخلق .

(٤) الدرس : البالى من الثياب . وفى الحيوان : « خلق الأدراس » .

(٥) الغبراء : السنة الجدبة .

(٦) الحيوان : « لنصب المراجل »

(٧) المراس : المسح والدلك ، والشيخة : نبتة .

وهذا الشعر من جيّد شعر العرب ، وإنما كان غرضنا منه متعلقاً بأوّله ، وذكرنا سائره لما فيه من الأدب .

وقال عُبيد بن أيّوبَ أيضا فى المعنى الّذى نحن بصدده :

وصارَ خليل الغُولِ بعد عداوةٍ صَفيًّا وربّته القِفارُ البَسابسُ[1]

وقال أيضا

فلله درُّ الغُولِ أىّ رفيقةٍ لصاحب قَفرٍ فى المَهامِهِ يُذعَرُ[2]

أرنّت بلحْنٍ بعد لحْنٍ وأوْقَدَتْ حوالىَّ نِيرانًا تلوح وتَزْهرُ

وقال أيضاً :

وغُولاً قَفرةٍ ذكرٍ وأنثى كأنّ عليهما قِطَعَ البِجادِ[3]

وقال أيضاً :

فقد لاقت الغِزلانُ منّى بَليّةً وقد لاقت الغِيلانُ منّى الدّواهيا[4] .

وقال البَهْرانىّ فى قتل الغُول :

ضَربتُ ضربةً فصارتْ هَباءً فى مُحاقِ القَمْراء آخِرَ شهرِ[5]

وقال أيضا ، يزعم أنه لما ثنى عليها الضرب عاشت :

فثنّيت والمِقدارُ يحرُس أهلَه فليتَ يَمينى يومَ ذلك شَلّتِ !

وقال تأبّط شرّا يَصِف الغُولَ ويذكر أنّه راوَدَها عن نفسها فامتنعتْ عليه فقتلَها :

فأصبحتُ والغُـولُ لى جارةٌ فياجارةً أنتِ ما أغوَلا

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٣٥
(٢) الحيوان ٦ : ١٦٥
(٣) الحيوان ٦ : ١٥٩
(٤) الحيوان ٦ : ١٦٦
(٥) الحيوان ٦ : ٢٣٣

وطالبتُهـــا بُضْعَها فالتوَتْ ... فكان من الرأيِ أن تُقتَــلا
فجلّلتُهـــا مُرهَفًا صارمًا ... أبَان المَرافِق والمِفْصَـــلا
فطارَ بقحف ابنـــة الجنّ ذا ... شقاشقَ قـــد أخلقَ المحملا
فمن يكُ يسأل عن جارَتى ... فإنّ لهـــا باللِّوى منزِلا
عَطَاءة أرضٍ لهـــا خُلّتان ... مِن وَرَق الطَّلح لم تُغزَلا
وكنتُ إذا ماهَممتُ اتّهلتُ ... وأخرى إذا قلتُ أن أفعَــلا

***

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا إذا طالت عِلّة الواحد منهم وظنّوا أنّ به مسًّا من الجنّ ، لأنه قتل حيّةً أو يرْبوعا أو قُنفذا ، عمِلوا جِمالا من طين، وجعلوا عليها جُوالِق، وملئوها حِنطةً وشَعِيرا وتمرا ، وجعلوا تلك الجِمال فى باب جُحْر إلى جهة المَغرب وقت غروب الشمس ، وباتوا ليلتَهم تلك ، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطّين ، فإنْ رأوا أنّها بحالها قالوا : لم تقبل الدِّيَة ، فزادوا فيها ، وإن رأوْها قد تساقطتْ وتبدّد ماعليهامن المِيرة قالوا : قد قُبِلت الدِّيَة ، واستدلّوا على شِفاء المَريض وضربوا بالدُّفّ، قال بعضهم :

قالوا وقـــد طالَ عَنائِى والسَّقَمْ ... اِحمِـل إلى الجنّ جِمالاتٍ وضَمّ
فقـــد فعلتُ[(١)] والسَّقامُ لم يَرِمْ ... فبـــالّذى يَملِك بُرْئى أعتَصِمْ

وقال آخَر :

فياليت أنّ الجنّ جازُوا جِمالتى ... وزُحزِح عـــنّى ماعَنانِى من السَّقَمْ
وياليتهم قالوا أُنطِنَا كلّ ماحَـــوَتْ ... يمينُك فى حَـــرْبِ عماسٍ وفى سَلَمْ
أعلِّل قلـــبى بالّذى يزْعُمونه ... فياليتَنى عُوفيتُ فى ذلك الزّعَمْ

---

(١) فى د : « نكلت » .

وقال آخر :

أرى أنّ جِنّانَ النُّوَيرة أصبحوا ... وهمْ بين غَضْبانٍ علىَّ وآسِفِ

حلتُ ولم أَقبَلْ إليهم حمالةً ... تسكّنُ عن قلبٍ من السُّقمِ تالِفِ

ولو أنصفُوا لم يَطْلُبوا غيرَ حقّهِمْ ... ومن لىَ من أمثالهمْ بالتّناصُفِ !

تَغطّوْا بثوْب الأرض عنّى ولو بَدَوا ... لأصبحتُ منهمْ آمِناً غيرَ خائِفِ

***

وكانوا إذا غُمَّ عليهم أمرُ الغائبِ ولم يَعرفوا له خبراً جاءوا إلى بئرٍ عاديّةٍ[1] أو حفرٍ قديم ونادَوا فيه : يافلان ، أو يا أبافلانٍ ثلاثَ مرّاتٍ ، ويزْعمون أنّه إن كان ميّتا لم يَسمَعوا صَوْتا ،وإن كان حيّاً سَمِعوا صَوْتا رُبّما توهَّموه وَهْما ، أو سَمِعوه من الصَّدى، فبنَوا عليه عقيدتَهم ، قال بعضُهم :

دعوتُ أبا المِغْوارِ فى الحَفْرِ دَعْوةً ... فما آضَ صَوْتى بالّذى كنتُ داعياً

أظنّ أبا المِغْوارِ فى قَعْرِ مُظلمٍ ... تجرّ عليه الذّارياتُ السّوافِيَا

وقال :

وكم ناديتُه واللّيلُ ساجٍ ... بِعادِىِّ البِئارِ فما أجابَا

وقال آخَر :

غابَ فلمْ أرجُوه له إيابَا ... والحُفْر لا يَرجِع لى جَوابَا

وما قرأتُ مُذْ نأى كتابَا ... حتّى مَتَى أستنشِدُ الرّكابا

* عنه وكلٌّ يَمنَع الخِطابَا *

---

(١) عادية : قديمة .

وقال آخر :

أَلَم تَعلَمِى أَنّى دعوتُ مُجاشِماً ... من الجفر والظلماء بادٍ كُسورُها

فجاوبَنى حـــتّى ظننتُ بأنّه ... سيَطلع من جَوفاءِ صعبٍ خدورُها

لقد سكنتْ نفسِى وأيقنتُ أنّه ... سيُقدِم والدنيا عجابٌ أُمورُها

وقال آخر :

دعوناهُ مِنْ عادِيَةٍ نَضْبَ ماؤُها ... وهَدّم جالَيْها اختلافُ عُصورِ

فرَدّ جوابا ماشككتُ بأنّه ... قريب إلينـــا بالإياب يَصيرُ

أقوى فى البيت الثانى ، وسكّن «نَضَب» ضرورةً كما قال :

* لو عُصْرَ منه البانُ والمِسْكُ انعصرْ *

***

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا فى الحرب ربّما أخرجوا النّساء فيَبُلْن بين الصفّين يَرَوْن أنّ ذلك يُطفِىء نارَ الحرب ويقودُهم إلى السِّلْم .

قال بعضهم :

لقـــونا بأبوالِ النّساء جَهالةً ... ونحن نُلاقيهم بِبِيضٍ قَواضِبِ

وقال آخر :

بالَتْ نساء بنى خُراشَةَ خِيفةً ... مِنّا وأدبَرَت الرجالُ شِـــلالا

وقال آخر :

بالتْ نساؤُهُمُ والبيضُ قد أخذتْ ... منهمْ مآخِذَ يَستشفى بها الكَلِبُ

وهذان البيتان يُمكِن أن يراد بهما أنّ النساء يَبُلْن خيفةً وذُعْرا ، لا على المعنى الذى نحن فى ذكره ، فإذَنْ لا يكون فيهما دَلالة على المراد .

وقال الآخر :

هيهات ردّ الخيـــــل بالأبوالِ إذا غَـدَتْ فى صُوَرِ السَّعالِى

وقال آخر :

جَعلوا السُّيوف المَشْرَفِيّةَ منهمُ بَوْلَ النساء وقَلَّ ذاكَ غَناَء

* * *

فأما ذِكْرُهم عَزيفَ الجنّ فى المفاوز والسَّباسِب فكثير مشهور ، كقول بعضهم :

وخَرْقٍ تحــدّث غيطانه حديثَ العَذارى بأسْرارها

وقال آخر :

ودَوّيّةٍ سَبْسَب سَمْلَقٍ من البيد تَعزِف جِنّانُها(١)

وقال الأعشى :

وبَهْماء تَعزفُ جِنّانهـــــا مناهلها آجِناتٍ سُدُمْ (٢)

وقال :

وَبلدةٍ مِثل ظَهْرِ التُّرْسِ مُوحِشةٍ للجنّ بالليل فى حافاتها زَجَلُ(٣)

وقال آخر :

* بِبَيْداء فى أرجائِها الجنّ تعزِفُ *

وقال الشرقىّ بن القطامىّ : كان رجل من كَلْب ـ يقال له عبيد بن الحُمارِس ـ شجاعا ، وكان نازلا بالسَّماوة أيّامَ الرّبيع ، فلما حَسَرَ الرّبيع وقلّ ماؤه وأقلعتْ أنواؤه ، تحمّل إلى وادي تُبَـل ، فرأى رَوْضةً وغديراً ، فقال : روضةٌ وغدير ، وخطْبٌ يَسير ؛ وأنا لما

(١) السملق : القاع الصفصف . (٢) ديوانه ٢٩

(٣) ديوانه ٤٤ .

حَويتُ مجير ، فنزل هناك ، وله امرأتان : اسمُ احداها الرَّباب ، والأخرى خَوْلة ، فقالت له خَوْلة :

أرَى بلدةً قَفْرا قليــلا أنيسُها ... وإنا لنَخْشَى إنْ دَجا الليلُ أهْلَها

وقالت له الرَّباب :

أرتْك بِرَأْيِى فاستمِعْ عنك قولها ... ولاتأمَنَنْ جنَّ العَزيفِ وجَهْلها

فقال مجيبا لهما :

ألستُ كَمِيّــا فى الحروب مُجرَّبا ... شُجاعا إذا شبَّت له الحرب مِحْرَبا

سريعاً إلى الهيْجا إذا حَمِسَ الوَغا ... فأقسِم لا أعْدو الغَدير منكّبا

ثمّ صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة — وهى الأنثى من القَنافذ — فرماها فأقصَمها[1] ومعها ولدُها ، فارتبطه ، فلما كان الليل هتف به هاتفٌ من الجنّ :

يابن الحارِس قد أسأتَ جوارَنا ... وركبت صاحبنا بأمرٍ مُفظِعِ

وعقرتَ لَقْحَته وقُدْت فَصِيلَها ... قَوْداً عَنِيفا فى المنيع الأرْفــعِ

ونَزلتَ مَرْعًى شائِناً وظَلَمْتَنا ... والظُّلم فاعِـلُه وخِيمُ المَرْتَـعِ

فلَنطرُقَنَّك بالذى أوْ لَيَتْنــا ... شرٌّ يَجُنُّك وما لَه مِنْ مَدْفَعِ

فأجابَه ابنُ الحارِس :

يامدّعى ظُلمِى ولستُ بظــالمٍ ... اِسْمَع لدَيْك مَقــالتى وتَسمَّعِ

إن كنتمُ جِنًّا ظلمتمْ فنفَذا ... عُقِرتْ فشرَّ عَقيرةٍ فى مَصْرَعِ

لا تَطمَعوا فيما لدىّ فما لَكُمْ ... فيما حويتُ وحُزْته من مَطمَعِ

فأجابَه الجِنىّ :

ياضارِبَ اللَّقْحة بالعَضْب الأفَلّْ ... قد جاءك الموتُ وأوْفاكَ الأجَلْ

---

(١) أقصمها : قتلها فى مكانها .

وساقَك الحَيْن إلى جنٍّ تبَلْ   فاليومَ أقويْتَ وأعيتْكَ الحِيَلْ(١)

فأجابه ابن الحارِس :

ياصاحبَ اللَّقحة هل أنت بَجَلْ   مستمِعٌ مِنّي فقد قلتَ الخطَلْ

وكثرة المَنطِق فى الحربِ فَشَلْ   هَيَّجت قمقاما من القوم بَطَلْ(٢)

ليثَ ليُوثٍ وإذا هَمَّ فعَلْ   لا يرهَبُ الجنَّ ولا الإنسَ أجَلْ

* من كان بِالعقوة من جن تُبَلْ(٣) *

قال : فسَمِعَهما شيخٌ من الجنّ ، فقال . لا واللهِ لا نرى قتل إنسانٍ مِثْل هذا ثابت القَلْب ماضِى العزيمة ، فقام ذلك الشّيخ وحَمِد اللهَ تعالى ثمّ أنشد :

يابنَ الحارِس قد نَزلتَ بلادَنا   فأصبتَ منها مشرَبا ومنَاما

فبدأتَنا ظُلما بعقْرِ لقوحِنا   وأسأتَ لمّا أن نطقتَ كلاما

فاعمَد لأمرِ الرُّشدِ واجتَنِب الرَّدى   إنا نَرَى لك حُرْمة وذِماما

واغرمْ لِصاحبنا لَقوحاً متبعا   فلقد أصبْتَ بما فعلتَ أثاما

فأجابه ابنُ الحارس :

اللهُ يَعلَمُ حيث يُرفَع عَرشُه   أنّى لأكرهُ أن أصيبَ أثاما

أمّا ادّعاؤك ما ادّعيتَ فإنّني   جئتُ البِلادَ ولا أريدُ مقاما

فأسمتُ فيها مالَنا ونزلتُها   لأُريحَ فيها ظَهْرنا أيّاما

فليَغدُ صاحبكُم علينا نُعطِه   ماقد سألت ولا نَراه غَراما

ثم غرم للجِنّ لَقوحا مُتْبِعاً للقُنْفذ وولَدها .

وهذه الحكاية وإن كانت كَذِبا إلاّ أنها تتضمّن أدباً ، وهى من طَرائف

(١) الحين : الهلاك .   (٢) القمقام : السيد .

(٣) العقوة : المحلة .

أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وأمتاعها ؛ ويقال : إنّ الشرقيّ بن القطامىّ كان يصنع أشعاراً وينحلها غيره .

***

فأما مذهب العرب فى أنّ لكلّ شاعر شيطانا يلقى إليه الشّعر فمذهب مشهور ، والشّعراء كافّة عليه ، قال بعضهم :

إنّى وإن كنتُ صغيرَ السّنّ وكان فى العين نبوٌّ عنّى
فإنّ شيطانى أميرُ الجنّ يذهب بى فى الشعر كلّ فنّ

وقال حسّان بنُ ثابت :

إذا ماترعرع فينا الغلام فما إنْ يقال له : مَن هُوَهْ ؟
إذا لم يسُدْ قبل شدّ الإزار فذلك فينا الّذى لا هُوَهْ
ولى صاحبٌ من بنى الشّيْصبانِ فطورا أقولُ وطورا هُوَهْ

وكانوا يزعمون أنّ اسمَ شيطان الأعشى مِسحَل ، واسم شيطان المخبّل عمرو ، وقال الأعشى :

دعوتُ خليلى مِسحَلا ودعَوا له جهنّام جدْعا للهجين المذمّمِ (١)

وقال آخر :

لقد كان جنّىّ الفرزدقِ قُدوةً وما كان فينا مِثل فحْل المخبّل
ولا فى القوافى مِثل عمرٍو وشيخِه ولا بعد عمرٍو شاعرٌ مِثل مِسحَلِ

وقال الفرزدق يصفُ قصيدته :

كأنّها الذهب العِقيانُ حبّرها لسانُ أشعرِ خلقِ الله شيطانا

---

(١) وجهنام تابعة الأعشى .

وقال أبو النَّجْم :

أَنّى وكلُّ شاعرٍ من البَشَرْ شيطانه أنثى وشيطـانِى ذَكَرْ

وأنشد الخالعُ فيما نحن فيه لبعض الرُّجّاز :

إن الشياطين أتَوْنى أربَعَـهْ فى غَلَس الليلِ وفيهمْ زَوْبعَهْ

وهـذا لا يدلّ على مانحن بصدده من أمر الشعر وإلقائه إلى الإنسان ؛ فلا وَجْه لإدخاله فى هذا الموضع .

***

ومِن مذاهبهم أنّهم كانوا إذا قتلوا الثُّعْبانَ خافوا من الجنّ أن يأخـذوا بثأره ، فيأخذون رَوْثَة ويُفتّونها على رأسها ، ويقولون : روْثة راثَ ثائرك .

وقالَ بعضهم :

طرحْنا عليه الرَّوْثَ والزّجْرُ صادقٌ فراثَ علينـا ثأرُه والطّوائلُ

وقد يُذرُّ على الحيّة المقتولة يسيرُ رماد ، ويقال لها: قتلكَ العيْن فلا ثأرَ لكِ ؛ وفى أمثالهم لِمَنْ ذهب دمُه هَدَرا : وهو قتيلُ العيْن ، قال الشاعر :

ولا أكنْ كقَتيلِ العيْن وَسْطَكُمُ ولا ذَبيحة تَشْريق وتَنْحـار

***

فأما مَذهَبُهم فى الخرَزات والأحجار والرُّقَى والعَزائم فمشهور ، فمنها السُّلْوانة ـ ويقال السُّلْوة ـ وهى خرَزة يُسقَى العاشقُ منهـا فيَسْلُو فى زَعْمهم ، وهى بيضاء شفّافة ، قال الراجز :

لوأشرَبُ السُّلْوانَ ما سَلِيتُ مابى غِنًى عنكمْ وإنْ غَنِيتُ

السُّلْوان : جمعُ سُلْوانة .

وقال اللّحيانىّ : السُّلوانة تُرابٌ من قبرٍ يُسقَى منه العاشق فيَسلُو ، وقال عُروةُ ابن حزام :

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمه وعرّاف نجدٍ إنْ هما شَفَيانِي
فقالا نعم : نَشفي من الدّاء كُلّه وقاما مع العُوّاد يَبْتَـدِرَانِ
فما تركا من رُقْيَـةٍ يَعرِفانها ولا سَلوةٍ إلّا وقـد سَقيانى

وقال آخر :

سقَوْنى سَلْوَةً فسلوتُ عنهـا سقَى اللهُ المنيّـةَ مَن سَقانِي

أى سلوتُ عن السَّلْوة واشتدّ بى العِشق ودام . وقال الشّمردل :

ولقـد سُقِيتُ بسَلْوةٍ فكأنّما قال المُداوِى للخَيالِ بها ازْدَدِ

***

ومن خرزاتهم الهِنّمة تُجتلَب بها الرجالُ وتُعطَف بها قلوبُهم، ورُقيتُها : أخذتُه بالهِنَّمه ؛ باللّيل زَوْج وبالنّهار أَمَة .

ومنها القَطْبة والقَبْلة والدَّرْدَبِيس ؛ كلّها لاجتلاب قلوب الرّجال ، قال الشاعر :

جمّعن من قبـل لهنّ وفَطْسَةٍ والدَّرْدَبيس تمائمًا فى منظمِ
فأُنقاد كلّ مشذّب مَرِسِ القُوَى لحِبالهنّ وكل جَـلْدٍ شَيْظَمِ (١)

وقيل : الدَّرْدَبيس خرَزة سوداء يتحبّب بهـا النّساء إلى بعُولتهن ، توجـد فى القُبور العادِيّة ، ورُقيتُهـا : أخذته بالدَّرْدَبِيس ، تُدِرّ العَرَق اليبيس ، وتذر الجديد كالدَّرِيس ، وأنشد :

قطعتُ القيـدَ والخرَزات عنّى فمن لى من عِلاج الدَّرْدَبِيسِ !

---

(١) الشيظم : الطويل الجسم .

وأصل الدَّرْدَبِيس الداهية ، ونُقِل إلى هذه لقوّة تأثيرها .

* * *

ومِن خَرَزاتهم القِرْزَحلة ، أنشد ابنُ الأعرابيّ :

لا تنفَع القِرْزَحْـلةُ العجائزَا إذا قطعنا دونَهـــــا المَفاوِزَا

وهي من خَرَز الضَّرائر ، إذا لبستْها المرأةُ مالَ إليها بعلُها دونَ ضَرّتها .

ومنهـا خَرَزة العُقرة تشُدّها المرأة على حَقْوَيْها فتُمنَع الحَبل ، ذكَر ذلك ابنُ السِّكّيت في إصلاح المنطق .

ومنهـا الينْجَلِب ، ورُقْيتهـا : أخَذتُه بالينْجَلِب ، فلا يرِمْ ولا يَغِبْ ، ولا يزَلْ عند الطُّنُب .

ومنها كَرارِ، مبنيَّةٌ على الكسر ، ورُقْيتُها : يا كَرارِ كُرِّيه ، إنْ أقبل فسُرِّيه ، وإن أدبرَ فضُرِّيه ، مِنْ فَرْجِه إلى فيه .

ومنها الهَمْرَة ورُقْيتها: ياهَمْرةَ أهمِريه ، من أستِه إلى فيه ، ومالِه وبَنيه .

ومنها الخَصْمَة خرزة للدّخول على السّلطان والخصومة ، تُجعَل تحتَ فصّ الخاتَم أو في زرّ القَميص أو في حَمائِل السّيف ، قال بعضهم :

يُعلِّق غيري خصمة في لِقائهمْ ومالي عليكمْ خصمةٌ غيرُ منطقي

ومنها الوَجيهة ، وهي كالخَصْمة حمراء كالعقيق .

ومنها العَطْفة، خَرَزة العطف ، والكَحْلة، خَرَزةسوداء تُجعَل على الصِّبيان لدَفع العين عنهم ، والقبَلة خَرَزة بيضاء تُجعَل في عُنُق الفرَس من العين ، والفَطْسة خَرَزة يمرَض بها العدوّ ويُقتَل ، ورُقيتها : أخذته بالفَطْسة ، بالثُّوباء والعطسة ، فلا يَزال في تَعْسَة ، من أمرِه ونَكْسَة ، حتى يَزورَ رَمْسَه .

ومن رُقام للحُبّ : هَوابَه هوابَه ، البرقُ والسّحابه ، أخذتُه بمركَن ، لحبه تمكّن . أخذته بإبرة ، فلا يزل فى عَبْره. خليته يأشَق[١] ، فقلبُه لا يهدا. خلّيته بمبرَد ، فقلبه لا يبرُد.

وترقِى الفاركُ زوجَها إذا سافرعنها فتقول : بأفُول القمر، وظلّ الشّجر، شِمال تَشمَله ، ودَبور تدبره ، ونَكباء تنكُبه ، شِيكَ فلا انتعَش ؛ ثم ترمى فى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة، وتقول : حصاة حصّت أثره ، نواة انأت داره ، روثة راثَ خبرُه لقمته ببعرة .

وقالت فاركٌ فى زوجها :

أتبعتُه إذْ رَحَل العيسَ ضُحَى ... بعد النّواة رَوْثَةً حيثُ انتوى

* الرّوثُ للرّيْث وللنّأْى النّوَى *

وقال آخر :

رَمَتْ خلفَه لمّا رأت وشْكَ بينِه ... نواةً تلتْهـــا رَوْثة وحَصاةُ

وقالت: نأتْ منكَ الدّيارُ فلادَنَتْ ... وراثَتْ بِك الأخبارُ والرّجَعاتُ

وحصّت لك الآثار بعد ظُهورِها ... ولا فارَق التّرحال منك شَتاتُ

وقال آخر يُخاطِب امرأته :

لا تَقذِفى خَلْفى إذا الرّكبُ اغتَدَى ... روثة عَــيْرٍ وحَصاةٍ ونَوَى

لن يَدفع المقدارَ أسبابُ الرُّقَى ... ولا التّهاويلُ على جِنّ الفَــلا

هذا الرّجز أورَدَه الخالع فى هذا المَعرض ، وهو بأن يدلّ على عكس هذا المعنى أولى، لأنّ قوله : «لن يَدفَع المقدارَ بالرُّقَى، ولا بالتّهاويل على الجن» كلام يُشعِر بأنّ قَذْف الحصاة والنّواة خَلْفَه كالعُوذة له ، لا كما تفعله الفارِكُ التى تتمنّى الفِراق .

* * *

---

(١) الإشق : الإسكاف .

فأمّا مَذهبُهم فى القِيافة والزّجْر والكهانة واختلافُهم فى السّانح والبارح ، وتشاؤمهم باللفظة والكلِمة وتأويلُهم لها وتيمّنُهم بكلمة أخرى ، وما كانوا يفعلونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى فكلّه مشهورٌ معروف لاحاجةَ لنا إلى ذكره هاهنا .

فأمّا لفظ أمير المؤمنين عليه السلام فى قوله: « نَشْرة » ، فإنّ النّشرة فى اللغة كالعُوذَة والرُّقْية ، قالوا : نَشَرْت فلانا تَنْشيرا ، أى رَقَيْتُه وعوّذته . وقال الكلابىّ : إذا نشر المَسْفوع فكأنّما أُنشِط من عِقال ، أى يذهب عنه مابه سَرِيعاً .

وفى الحديث أنّه قال : « فلعلّ طبًّا أصابه » ، يعنى سِحْرا ، ثم عَوّذه بـ « قُلْ أعوذُ بربّ الناس » ، أى رَقاه ، وكذلك إذا كُتب له النُّشرة .

وقد عدّ أميرُ المؤمنين عليه السلام أموراً أربعةً ذكر منها النشرة ، ولم يكن عليه السلام ليقول ذلك إلّا عن توقيف من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم .

تم الجزء التاسع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء العشرون

فهرس الموضوعات

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء العشرون

١٩٦٤

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

---

(٤٠٩)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

إلى هذا نَظَرَ المتنبّي في قوله :

وخَلّةٍ في جليسٍ أتّقيه بهــا كَيْما يرى أننا مِثْلان في الوَهَن (١)

وكِلْمَةٍ في طريق خِفْتُ أُعْرِبُها فيُهتدَى لي فلم أقْـدِرْ على اللَّحَنِ

وقال الشاعر :

وما أنا إلّا كالزّمانِ إذا صحا صحوتُ وإن ماقَ الزمانُ أَمُوقُ (٢)

وكان يقال : إذا نزلتَ على قوم فتشبّه بأخلاقهم ، فإنّ الإنسان من حيث يوجَد ، لا من حيث يُولَد. وفي الأمثال القديمة : من دَخَل ظَفارِ حمّر.

شاعر :

أُحامِقُــه حتّى يُقال سجيّة ولو كان ذا عَقْل لكنتُ أُعاقِلُه

---

(١) ديوانه ٤ : ٢١٢

(٢) لبشار ، الأغاني ٣ : ٢٢٥

(٤١٠)

الأصْـلُ :

وَقَالَ عليـه السَّلاَمُ لِبَعْضِ مُخَاطِبِيهِ وَقَدْ تَـكَلَّمَ بِـكَلِمَةٍ يُسْتَصْغَرُ مِثْلُهُ عَنْ قَوْلِ مِثْلِهَا :

لَقَدْ طِرْتَ شَـكِيراً ، وَهَدَرْتَ سَقْباً .

***

قَالَ : الشَّـكِيرُ هاهنا: أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ مِنْ رِيشِ الطَّائِرِ قَبْلَ أَنْ يَقْوَى وَيَسْتَحْصِفَ. وَالسَّقْبُ : الصَّغِيرُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلَا يَهْدِرُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَفْحِلَ .

***

الشَّـرحُ :

هذا مِثلُ قولهم : قد زَبَّبَ قبل أن يُحصرم .

ومن أمثال العامّة : يقرأ بالشّواذّ ، وما حفِظ بعدُ جزء المفصَّل .

(٤١١)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام :

مَنْ أَوْمَأَ إِلَى مُتَفاوِتٍ خَذَلَتْهُ الْحِيَلُ .

***

الشَّـرْحُ :

قيل فى تفسيره : من استدلّ بالمتشابه من القرآن فى التّوحيد والعَدْل انكشفتْ حيلتُه ، فإنّ علماء التّوحيد قد أوضحوا تأويلَ ذلك .

وقيل : مَن بَنَى عقيدةً له مخصوصةً على أمرين مختلفين : حقٍّ وباطل، كان مُبطلا .

وقيل : من أومأ بطمَعه وأمَله إلى فائتٍ قد مَضى وانقضى لن تَنفعَه حِيلة ، أى لا يُتبِعنَّ أحدُكم أمَله ماقد فاتَه ؛ وهذا ضعيف لأنّ المتفاوت فى اللّغة غيرُ الفائت .

(٤١٢)

الأصْلُ :

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ :
إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئاً ، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنَا ، فَمَتَى مَلَّكَنَا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنَا ، وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا .

***

الشَّرْحُ :

مَعنَى هذا الكلام أنّه عليه السلام جعل الحولَ عبارةً عن المِلْكيّة والتصرّف ، وجعل القوّة عبارةً عن التكليف ، كأنّه يقول : لا تملُّك ولا تصرّف إلّا بالله ، ولا تكليف لأمرٍ من الأمور إلّا بالله ؛ فنحن لا نملك مع الله شيئاً ، أى لا نستقلّ بأن نملك شيئاً ؛ لأنّه لولا إقدارُه إيّانا وخلقته لنا أحياء لم نكن مالِكين ولا متصرّفين ، فإذا ملّكنا شيئاً هو أملك به — أى أقدرُ عليه منّا — صرْنا مالكين له كالمال مثلا حقيقة ، وكالعقل والجوارح والأعضاء مجازاً ، وحينئذ يكون مكلّفًا لنا أمراً يتعلّق بما ملّكنا إيّاه ، نحو أن يكلّفنا الزّكاة عند تمليكنا المال ، ويكلّفنا النَّظَر عند تمليكنا العقل ، ويكلّفنا الجهادَ والصّلاة والحجّ وغيرَ ذلك عند تمليكنا الأعضاء والجوارح ، ومتى أخذ منّا المالَ وَضَع عنا تكليفَ الزّكاة ، ومتى أَخذَ العقل سَقط تكليفُ النّظَر ، ومتى أخذَ الأعضاء والجوارح سَقط تكليف الجهاد وما يجرى مجراه .

هذا هو تفسيرُ قوله عليه السلام ؛ فأمّا غيرُه فقد فسّره بشىء آخر ، قال

أبو عبد الله جعفرُ بنُ محمد عليه السلام : فلا حَوْلَ على الطاعة ولا قوّةَ على ترْكِ المعاصى إلّا بالله ؛ وقال قوم ـ وهم المجبرة : لا فعل من الأفعال إلّا وهو صادرٌ مِن الله ، وليس فى اللّفظ مايدلّ على ما ادّعَوْا ، وإنّما فيه أنّه لا اقتدار إلّا بالله ، وليس يَلزَم من نَفْى الاُقتدار إلا بالله صِدْق قولنا: لا فعل من الأفعال إلّا وهو صادرٌ عن الله ؛ والأَوْلى فى تفسير هذه اللفظة أن تُحمَل على ظاهرِها ، وذلك أنّ الحوْل هو القوّة ، والقوّة هى الحوْل كلاهما مُترادِفان ؛ ولا ريبَ أنّ القدرة من الله تعالى ، فهو الّذى أقدَر المؤمنَ على الإيمان ، والكافرَ على الكفر ، ولا يلزم من ذلك مخالفةُ القول بالعدْل ؛ لأنّ القدرة ليست موجِبة .

فإن قلتَ : فأىّ فائدةٍ فى ذِكر ذلك وقد علِم كلّ أحد أنّ الله تعالى خَلَق القُدْرة فى جميع الحيوانات ؟

قلت : المرادُ بذلك الردّ على من أثبَت صانعاً غيرَ الله ، كالمجوسِ والثّنَويّة ، فإنّهم قالوا بإلهَين : أحدهما يَخلُق قدرةَ الخيْر ، والآخَر يَخلُق قدرةَ الشّرّ .

(٤١٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِعمّارِ بْنِ ياسِرٍ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى وقَدْ سَمِعَهُ يُراجِعُ الْمُغِيرَةَ ابْنَ شُعْبَةَ كَلاماً :

دَعْهُ يا عَمّارُ ، فإنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إلاَّ ما قارَبَهُ مِنَ الدُّنيا ، وعَلَى عَمْدٍ لَبَّسَ على نَفْسِهِ ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهاتِ عاذِراً لِسَقَطاتِهِ .

***

الشَّرْحُ :

[المغيرة بن شعبة]

أصحابُنا غيرُ متّفقين على السكوت على المغيرة ، بل أكثر البغداديّين يفسّقونه ، ويقولون فيه ما يقال فى الفاسق ؛ ولما جاء عروة بن مسعود الثّقفىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله عامَ الحُدَيْبِيَة نظر إليه قائماً على رأس رسول الله مقلَّداً سيفا ، فقيل : من هذا ؟ قيل : ابنُ أخيك المغيرة ، قال : وأنت ها هنا يا غُدَر ! والله إنّى إلى الآن ما غسلتُ سوءتك .

وكان إسلامُ المغيرة من غير اعتقاد صحيح ، ولا إنابة ونيّة جميلة ، كان قد صَحِب قوما فى بعض الطُّرق ، فاستغفلهم وهم نيام ، فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفا أن يُلحَق فيُقتل ، أو يؤخذ ما فاز به من أموالهم ؛ فقَدِم المدينة فأظهر الإسلام ، وكان رسول الله صلى الله

عليه وآله لا يردّ على أحدٍ إسلامَه ؛ أسلمَ عن علّة أو عن إخلاص ، فامتنع بالإسلام ، واعتصم ، وحَمِي جانبه .

ذَكر حديثه أبو الفرج عليّ بنُ الحسين الأصفهانيّ في كتاب " الأغاني " [1] ، قال : كان المغيرة يحدّث حديث إسلامه ، قال : خرجتُ مع قوم من بني مالك ونحن على دِين الجاهليّة إلى المُقَوْقس مَلِك مصر ، فدخلنا إلى الإسكندرية ، وأهدَيْنا للملِك هدايا كانت معنا ، فكنتُ أهوَنَ أصحابي عليه ، وقبَضَ هدايا القوم ، وأمر لهم بجوائز ، وفضّل بعضهم على بعض ، وقصّر بي فأعطاني شيئاً قليلا لا ذِكر له ، وخرجْنا ، فأقبلت بنو مالك يشترون هَدايا لأهلهم وهم مسرورون ، ولم يَعرِض أحدٌ منهم عليّ مواساةً ، فلما خرجوا حَملوا معهم خمرا ، فكانوا يَشربون منها ، فأشرب معهم ، ونفسي تأبى أن تدَعَني معهم ، وقلتُ : ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا ، وما حَباهم به الملك ، ويخبرون قومي بتقصيره بي وازدرائه إياي ! فأجمعتُ على قتلِهم ، فقلت : إنّي أجد صُداعا ، فوضعوا شرابَهم ودعَوْني ، فقلت رأسي يُصدّع ، ولكن اجلسوا فأسقيكم ، فلم يُنكِروا من أمري شيئاً ، فجلست أسقيهم وأشرَب القدَح بعد القدَح ، فلمّا دبّت الكأس فيهم اشتهَوُا الشراب ، فجعلتُ أصرِّف لهم وأترِع الكأس ، [فيشربون ولا يدرون [2]] ، فأهمدتهم الخمرُ حتى ناموا ، ما يعقلون ، فوثبتُ إليهم فقتلتهم جميعا ، وأخذت جميع ما كان معهم .

وقَدِمتُ المدينة فوجدتُ النبيّ صلى الله عليه وآله بالمسجد وعنده أبو بكر — وكان بي عارفا — فلما رآني قال : ابن أخي عُرْوة ؟ قلت : نعم ، قد جئتُ أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمدا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الحمد لله : فقال أبو بكر مِن مصرَ أقبلتَ ؟ قلت : نعم ؟ قال : فما فعل المالكيّون الذين كانوا معك ؟ قلت : كان

---

(١) الأغاني ١٦ : ٨٠ — ٨٢ (طبعة دار الكتب) مع اختلاف الرواية .
(٢) من الأغاني

بيني وبينهم بعض ما يكون بين العرَب ، ونحن على دين الشرك ، فقتلتهم ، وأخذت أسلابهم، وجئتُ بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليُخَمِّسَها [ويرى فيها رأيه][(١)] ؛ فإنها غنيمة من المشركين ، فقال رسولُ الله : أمّا إسلامُك فقد قبلتُه ، ولا نأخذ من أموالهم شيئاً ولا نخمسها ، لأنّ هذا غَدْر ، والغَدْر لا خير فيه ، فأخَذَني ما قَرُب وما بَعُد ، فقلتُ : يا رسول الله ، إنما قتلتهم وأنا على دِين قومي ، ثمّ أسلمتُ حين دخلتُ إليك الساعة ، فقال عليه السلام : الإسلام يَجُبّ ما قبله . قال : وكان قَتَل منهم ثلاثة عشر إنسانا ، واحتوى على ما معهم ؛ فبلغ ذلك ثقيفا بالطائف ، فتداعَوْا للقتال ، ثم اصطَلَحوا على أن حمل عميّ عُروة بن مسعود ثلاث عشرة دِيَة .

قال : فذلك معنى قولِ عُروة يوم الحُدَيْبية : « ياغُدَر ، أنا إلى الأمس أغسل سوءتَك ، فلا أستطيع أن أغسلها » ، فلهذا قال أصحابنا البغداديون : مَنْ كان إسلامُه على هذا الوجه ، وكانت خاتمته ما قد تواتر الخبر به ؛ من لعن عليّ عليه السلام على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل ، وكان المتوسط من عمره الفِسْق والفُجور وإعطاء البَطْن والفَرْج سؤالهما ، وممالأة الفاسِقِين ، وصرْف الوقت إلى غير طاعة الله ، كيف نتولاّه ! وأيّ عُذْر لنا في الإمساك عنه ، وألّا نكشف للناس فِسْقَه !

***

[إيراد كلام لأبي المعالي الجويني في أمر الصحابة والرّد عليه]

وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العَلويّ البَصْريّ في سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد ، وعنده جماعة، وأحدُهم يقرأ في الأغاني لأبي الفرج ، فمرّ ذكر المغيرة بن شعبة وخاض القوم ، فذمّه بعضهم ، وأثنى عليه بعضهم ، وأمسك عنه آخرون ؛ فقال

---

(١) من الأغاني .

بعض فقهاء الشيعة ممن كان يشتغل بطرفٍ من علم الكلام على رأى الأشعرىّ : الواجب الكفّ والإمساك عن الصّحابة ، وعمّا شجر بينهم ، فقد قال أبو المعالى الجوينىّ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن ذلك ، وقال : « إيّاكم وما شجر بين صحابتى » ، وقال : « دَعُوا لى أصحابى، فلو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبا لما بلَغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه » ؛ وقال : « أصحابى كالنّجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم » ، وقال : « خيرُكم القَرْن الذى أنا فيه ثمّ الذى يليه ، ثمّ الذى يليه ، ثم الذى يليه » ، وقد ورد فى القرآن الثّناء على الصحابة وعلى التابعين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « وما يُدْريك لعلّ الله اطّلع على أهل بَدْر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم » ؛ وقد رُوِى عن الحسن البَصْرِى أنه ذكر عنده الجمل وصِفّين ، فقال : تلك دماء طهّر اللهُ منها أسيافنا ، فلا نلطّخ بها ألسنتَنا .

ثم إنّ تلك الأحوال قد غابت عنّا وبَعُدت أخبارُها على حقائقها ؛ فلا يليق بنا أن نخوضَ فيها ؛ ولو كان واحدٌ من هؤلاء قد أخطأ لَوَجب [أن يُحفَظ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فيه ، ومن المروءة][1] أن يُحفَظ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى عائشةَ زوجته ، وفى الزبير ابن عمّته ، وفى طلحة الّذى وَقاه بيده . ثمّ ما الذى ألزَمنا وأوْجَب علينا أن نَلعَن أحداً من المسلمين أو نبرأ منه ! وأىّ ثواب فى اللّعنة والبراءة! إنّ الله تعالى لا يقول يومَ القيامة للمكلّف: لِمَ لَم تَلعَن ؟ بل قد يقول له : لِم لعنتَ ؟ ولو أنّ إنسانا عاش عُمرَه كلّه لم يَلعَن إبليسَ لم يكن عاصيا ولا آثما ، وإذا جعَل الإنسانُ عِوَض اللعنة أستغفر الله كان خيراً له . ثمّ كيف يجوز للعامّة أن تَدخِل أنفسَها فى أمور الخاصّة ، وأولئك قوم كانوا أمراء هذه الأمّة وقادتَها ، ونحن اليوم فى طبقة سافلةٍ جدا عنهم ؛ فكيف يَحسُن بنا التعرّض لذِكرهم ! أليس يَقبُح من الرعيّة أن تخوضَ فى دقائق أمورِ الملكِ وأحواله وشئونه الّتى تجرى بينه وبين أهله وبَنِى عمّه ونسائه وسَراريّه ! وقد كان رسولُ الله صلى

(١) تكملة من ا .

الله عليه وآله صِهراً لمعاويةَ . وأخته أمّ حبيبة تحته ، فالأدب أن تُحفَظ أمُّ حبيبَة وهي أمّ المؤمنين في أخيها .

وكيف يجوز أن يُلعَن مَن جعل الله تعالى بينه وبين رسوله مَودّة ! أليس المفسّرون كلّهم قالوا : هذه الآية أنزلت في أبي سُفْيان وآله ، وهي قولُه تعالى : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾[1] ! فكان ذلك مُصاهَرة رسول الله صلّى الله عليه وآله أبا سُفْيان وتزويجه ابنته . على أنّ جميع ماتنقُله الشّيعة من الاختلاف بينهم والمشاجَرة لم يَثبُت ، وما كان القومُ إلّا كبَنِي أمٍّ واحدة ولم يتكدّر باطنُ أحدٍ منهم على صاحبه قطّ ولا وقع بينهم اختلاف ولا نزاع .

فقال أبو جعفر رحمه الله : قد كنتُ منذ أيّام عَلّقتُ بخطّي كلاما وجدتُه لبعض الزّيدية في هذا المعنى نَقْضا وردّا على أبي المعالي الجُوَيْنيّ فيما اختاره لنفسه من هذا الرأي ، وأنا أخرِجه إليكم لأستغني بتأمّله عن الحديث على ماقاله هذا الفقيه ، فإنّي أجدُ ألما يَمنَعني من الإطالة في الحديث ؛ لا سيّما إذا خرج مَخرَج الجدَل ومُقاومة الخصوم . ثمّ أخرَج من بين كتبه كُرّاسا قرأناه في ذلك المجلس واستحسَنَه الحاضرون ، وأنا أذكر هاهنا خلاصَتَه .

قال : لولا أنّ الله تعالى أوجَب معاداةَ أعدائه ، كما أوجَب مُوالاةَ أوليائه ، وضَيَّق على المسلمين تركَها إذا دلّ العقل عليها ، أو صحّ الخبرُ عنها بقوله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[2] ، وبقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[3] ، وبقوله سبحانه : ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا

---

(١) سورة الممتحنة ٧ — (٢) سورة المجادلة ٢٢

(٣) سورة المائدة ٨١

غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾[١] ؛ ولإجماع المسلمين على أنّ الله تعالى فَرضَ عداوة أعدائه ، وولاية أوليائه ، وعلى أنّ : البغض فى الله واجب ، والحبّ فى الله واجب ـ لما تعرّضْنا لمعاداة أحـدٍ من الناس فى الدّين ، ولا البراءة منه ، ولـكانت عداوتُنا للقوم تـكلفا . ولو ظَنَنّا أنّ الله عزّ وجلّ يَعذِرنا إذا قلنا : يارَبّ غاب أمرُهم عنّا ، فلم يكن لخوْضنا فى أمرٍ قد غاب عنّا معنًى ، لأعتمدنا على هذا العُذْر ، ووالَيْنام ، ولـكنّا نخاف أن يقول سبحانه لنا : إن كان أمرُهم قد غاب عن أبصاركم ، فلم يَغِب عن قلوبكم وأسماعِكم ؛ قد أتتْـكم به الأخبارُ الصحيحة الّتى بمثلِها ألزَمْتم أنفسَـكم الإقرار بالنبىّ صلّى الله عليه وآله ومُوالاةَ مَن صَدّقه ، ومعاداةَ مَن عَصاه وجَحَدَه ، وأُمِرْتم بتدبّر القرآن وما جاء به الرسولُ ، فهلاّ حذِرتم من أن تـكونوا من أهل هـذه الآية غداً : ﴿ رَبّنَا إنّا أطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَرَاءنا فَأَضَلّونا السبيلا ﴾[٢] !

فأمّا لفظة اللّعن فقـد أمر الله تعالى بها ، وأوجبَها ، ألا ترَى إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُون ﴾[٣] ، فهو إخبارٌ معناهُ الأمر ، كقوله : ﴿ وَالْمُطَلّقَاتُ يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء[٤] ﴾ ؛ وقد لعن الله تعالى العاصين بقوله : ﴿ لُعِنَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بنى إسْرَائيل على لسان داود[٥] ﴾ ، وقوله : ﴿ إنّ الّذِينَ يُؤْذُون اللهَ ورَسولَه لَعنهُمُ اللهُ فى الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا مُهينا[٦] ﴾ ، وقوله : ﴿ مَلْعُونين أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتّلوا تقتيلا[٧] ﴾ ، وقال الله تعالى لإبليس : ﴿ وإنّ عَلَيْكَ لَعنتى إلى يوم الدين[٨] ﴾ وقال : ﴿إن الله لَعَنَ الـكافرين وأعدّ لهم سعيرا[٩] ﴾ .

---

(١) سورة الممتحنة ١٣
(٢) سورة الأحزاب ٦٧
(٣) سورة البقرة ١٥٩
(٤) سورة البقرة ٢٢٨
(٥) سورة المائدة ٧٨ .
(٦) سورة الأحزاب ٥٧
(٧) سورة الأحزاب ٦١
(٨) سورة ص ٧٨
(٩) سورة الأحزاب ٦٤

فأما قولُ من يقول : « أيُّ ثواب فى اللّعن ! وإن الله تعالى لا يقول للمكلّف لم لم تلعن ؟ بل قد يقول له : لم لَعَنْت ؟ وأنه لو جعل مكان لَعَن الله فلانا ، اللّهم اغفر لى لكان خيراً له ، ولو أنّ إنسانا عاش عمره كلّه لم يَلعن إبليس لم يُؤا خذ بذلك » ؛ فكلامُ جاهلٍ لا يدرى ما يقول ؛ اللّعن طاعة ، ويُستحقّ عليها الثوابُ إذا فُعلتْ على وجهها ، وهو أن يُلْعَن مستحقُّ اللّعن لله وفى الله ، لا فى العصبيّة والهوى ، ألا تَرَى أن الشّرع قد وَرَد بها فى نَفْى الولد ، ونطق بها القرآن ، وهو أن يقول الزوج فى الخامسة : ﴿ أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين[1] ﴾ فلو لم يكن الله تعالى يريد أن يتلفّظ عبادُه بهذه اللفظة وأنه قد تعبّدهم بها ، لما جعلها من معالم الشّرع ، ولما كرّرها فى كثير من كتابه العزيز ، ولما قال فى حقّ القاتل : ﴿ وغَضِب اللهُ عليه ولعنه[2] ﴾ ، وليس المراد من قوله : « ولعنه » إلاّ الأمر لنا بأن نلعنه ، ولو لم يكن المرادُ بها ذلك لكان لنا أن نلعنه ، لأنّ الله تعالى قد لعنه ، أفيلعن الله تعالى إنسانا ولا يكون لنا أن نلعنه ! هذا ما لا يَسُوغ فى العقل ؛ كما لا يجوز أن يمدح اللهُ إنسانا إلاّ ولنا أن نمدحَه ، ولا يذمّه إلاّ ولنا أن نذمّه ؛ وقال تعالى : ﴿ هَلْ أنبئكم بشَرٍّ من ذلك مَثوبةً عند الله مَن لعنه الله[3] ﴾ ، وقال : ﴿ ربّنا آتِهم ضِعْفَين من العذاب والعَنْهم لَعْناً كبيراً[4] ﴾ ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وقالت اليَهود يدُ الله مَغلولة غُلّت أيديهم ولعنُوا بما قالوا[5] ﴾ . وكيف يقول القائل : إنّ الله تعالى لا يقول للمكلّف : لِمَ لم تعلن ؟ ألا يعلم هذا القائل أنّ الله تعالى أمر بولاية أوليائه ، وأمر بعداوة أعدائه ، فكما يَسأل عن التولّى يَسأل عن التبرّى ! ألا تَرَى أن اليهودىّ إذا أسلَم يُطالَب بأن يقال له : تلفّظْ بكلمة الشهادتين ، ثمّ قلْ : برئتُ

---

(١) سورة النور ٧
(٢) سورة النساء ٩٣
(٣) سورة المائدة ٦٠
(٤) سورة الأحزاب ٦٨
(٥) سورة المائدة ٦٤

من كلّ دين يُخالِف دين الإسلام ، فلا بدّ من البَراءة ، لأنّ بها يتمّ العمل ! ألم يسمع هذا القائلُ قول الشاعر :

تَوَدُّ عَـــدُوِّى ثم تزعُمُ أنني صديقُك، إنّ الرأىَ عنكَ لعازِبُ

فودّة العدوّ خروجٌ عن ولاية الولىّ ، وإذا بطلت المودّة لم يبق إلّا البراءة ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الإنسانُ فى درجة متوسطة مع أعداء الله تعالى وعُصاتِه بألّا يودّهم ولا يبرأ منهم بإجماع المسلمين على نَفْى هذه الواسطة .

وأما قولُه : « لو جَعَل عِوضَ اللّعنة أستغفِر الله لكان خيراً له » ، فإنه لو استغفر من غير أن يَلعَن أو يَعتقِد وجوب اللّعن لمـا نفَعه استغفارُه ولا قُبل منه ، لأنه يكون عاصيا لله تعالى ، مخالفا أمره فى إمساكه عمّن أوجَب الله تعالى عليه البراءة منه ، وإظهار البراءة ، والمُصِرّ على بعض المعاصى لا تُقبَل توبته واستغفاره عن البعض الآخر ، وأمّا من يعيش عمره ولا يَلعن إبليسَ ، فإن كان لا يعتقد وجوبَ لَعنِه فهو كافر ، وإن كان يعتقد وجوبَ لَعنِه ولا يَلعَنه فهو مخطىء ؛ على أنّ الفرق بينه وبين تَرْكِ لَعنِه رءوس الضلال فى هذه الأمة كمعاوية والمغيرة وأمثالهما ، أن أحدا من المسلمين لا يُورِث عنده الإمساكُ عن لعن إبليس شبهة فى أمر إبليس ، والإمساكُ عن لَعْن هؤلاء وأضرابهم يثير شبهةً عند كثيرٍ من المسلمين فى أمرهم ، وتجنُّب ما يُورِث الشبهة فى الدين واجب ، فلهذا لم يكن الإمساكُ عن لَعْن إبليس نظيرا للإمساك عن أمر هؤلاء .

***

قال : ثمّ يقال للمخالفين : أرأيتم لو قال قائلٌ : قد غاب عنّا أمر يزيد بنَ معاوية والحجّاج بن يوسف ، فليس ينبغى أن نخوض فى قصّتهما ، ولا أن نلعنهما ونعادِيهما ونبرأ منهما ؛ هل كان هـــذا إلاّ كقولكم : قد غاب عنا أمرُ معاوية والمغيرة بن

شُعبة وأضرابهما ، فليس لخوضنا فى قصتهم معنًى !

وبعد ، فكيف أدخلتم أيها العامّة والحشويّة وأهل الحديث أنفسكم فى أمر عثمان وخُضتم فيه ، وقد غاب عنكم ! وبرئتم مِن قَتَلتِه ، ولعنتموهم ! وكيف لم تحفظوا أبا بكر الصّديق فى محمد ابنِه فإنّكم لعنتموه وفسّقتموه ، ولا حفِظتم عائشة أمّ المؤمنين فى أخيها محمد المذكور ، ومنعتمونا أن نخوض وندخل أنفسنا فى أمر علىّ والحسن والحسين ومعاوية الظالم له ولهما ، المتغلِّب على حَقِّه وحقوقهما ! وكيف صار لعنُ ظالم عثمان من السّنّة عندكم ، ولعن ظالم علىٍّ والحسن والحسين تكلّفا ! وكيف أدخلت العامّة أنفسها فى أمر عائشة وبرئتْ ممّن نظر إليها ، ومن القائل لها : ياحُمَيْراء ، أو إنما هى حُمَيراء ، ولعَنته بكشفه سترَها ، ومنعتْنا نحن عن الحديث فى أمر فاطمةَ وما جرى لها بعد وَفاةِ أبيها .

فإن قلتم : إنّ بيت فاطمة إنما دُخِل ، وسترها إنما كُشِف ، حِفظا لنظام الإسلام ، وكَيْلا يَنتشر الأمرُ ويَخرج قومٌ من المسلمين أعناقهم من رِبقة[1] الطاعة ولزوم الجماعة .

قيل لكم : وكذلك ستر عائشة إنما كُشِف ، وهَوْدجها إنما هُتِك ، لأنها نشرت[2] حبل الطاعة ، وشقّت عصا المسلمين ، وأراقت دماء المسلمين من قبل وصول علىٍّ بن أبى طالب عليه السلام إلى البَصرة ، وجرى لها مع عثمان بن حُنيف وحَكيم بن جَبَلة ومَنْ كان معهما من المسلمين الصالحين من القَتل وسَفْك الدماء ما تَنطق به كُتبُ التواريخ والسِّيَر ؛ فإذا جاز دُخولُ بيت فاطمة لأمر لم يقع بعدُ جاز كَشْف سِتر عائشة على ما قد وقع وتحقق ، فكيف صار هَتْك ستر عائشة من الكبائر التى يجب معها التّخليد فى النار ،

---

(١) ربقة الطاعة : عرقها .

(٢) نشرت حبل الطاعة : أى قطعته .

والبراءة من فاعله ، ومن أوكد عرا الإيمان ، وصار كشف بيت فاطمة والدخول عليها منزلها وجمع حطب ببابها ، وتهددها بالتحريق من أوكد عرا الدين ، وأثبت دعائم الإسلام ؛ ومما أعز الله به المسلمين وأطفأ به نار الفتنة ؛ والحرمتان واحدة ، والستران واحد . وما نحب أن نقول لكم : إن حرمة فاطمة أعظم ، ومكانها أرفع ، وصيانتها لأجل رسول الله صلى الله عليه وآله أولى ، فإنها بضعة منه ، وجزء من لحمه ودمه ، وليست كالزوجة الأجنبية التي لا نسب بينها وبين الزوج ، وإنما هي وصلة مستعارة ، وعقد يجري مجرى إجارة المنفعة ، وكما يملك رق الأمة بالبيع والشراء ، ولهذا قال الفرضيون : أسباب التوارث ثلاثة : سبب ، ونسب ، وولاء ؛ فالنسب القرابة ، والسبب النكاح ، والولاء : ولاء العتق ؛ فجعلوا النكاح خارجا عن النسب ؛ ولو كانت الزوجة ذات نسب لجعلوا الأقسام الثلاثة قسمين .

وكيف تكون عائشة أو غيرها في منزلة فاطمة ، وقد أجمع المسلمون كلهم من يحبها ومن لا يحبها منهم أنها سيدة نساء العالمين !

قال : وكيف يلزمنا اليوم حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله في زوجته ، وحفظ أم حبيبة في أخيها ، ولم تلزم الصحابة أنفسها حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، ولا ألزمت الصحابة أنفسها حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله في صهره وابن عمه عثمان بن عفان ، وقد قتلوهم ولعنوهم ؛ ولقد كان كثير من الصحابة يلعن عثمان وهو خليفة ؛ منهم عائشة كانت تقول : اقتلوا نعثلا ، لعن الله نعثلا ؛ ومنهم عبد الله بن مسعود ؛ وقد لعن معاوية علي بن أبي طالب وابنيه حسنا وحسينا وهم أحياء يرزقون بالعراق ، وهو يلعنهم بالشام على المنابر ، ويقنت عليهم في الصلوات ، وقد لعن أبو بكر وعمر سعد بن عبادة وهو حي ، وبرئا منه ، وأخرجاه من المدينة إلى الشام ، ولعن عمر

خالد بنَ الوليد لما قتَل مالك بنَ نُوَيرة ، وما زال اللّعن فاشيا فى المسلمين إذا عرَفوا من الإنسان معصيةً تقتضى اللّعنَ والبراءة .

قال : ولو كان هذا أمراً معتبرا وهو أن يُحْفَظ زيدٌ لأجل عمرو فلا يُلْعَن ، لوجب أن تُحفَظ الصحابةُ فى أولادهم ، فلا يُلعنوا لأجل آبائهم ، فكان يجب أن يُحفَظ سعدُ بنُ أبى وقّاص فلا يُلعن ابنُهعمر بن سعد قاتل الحسين ، وأن يحفظ معاوية فلا يلعن يزيد صاحب وَقْعة الحَرّة وقاتل الحسين ، ومخيف المسجد الحرام بمكّة ، وأن يُحفَظ عمر بن الخطّاب فى عبيد الله ابنه قاتل الهُرْمُزان ، والمحارب عليّا عليه السلام فى صِفّين .

***

قال : عَلَى أنّه لو كان الإمساك عن عداوةِ من عادى الله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله فى أصحابه ورعاية عهدِه وعقدِه لم نُعادِهم ولو ضُرِبتْ رِقابُنا بالسيوف ، ولكن محبّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ليست كمحبّة الجهّال الذين يضع أحدُهم محبّته لصاحبه موضع العصبيّة ، وإنما أوجَب رسولُ الله صلى الله عليه وآله محبّة أصحابه لطاعتِهم لله ، فإذا عصَوا الله وتركوا ما أوجب محبّتَهم ؛ فليس عند رسول الله صلى الله عليه وآله محاباة فى تَرْك لزوم ما كان عليه من محبّتهم ، ولا تغطرسٌ فى العُدولِ عن التمسك بموالاتهم ، فلقد كان صلى الله عليه وآله يحبّ أن يُعادِيَ أعداء الله ولو كانوا عِترتَه ، كما يحبّ أن يواليَ أولياء الله ولو كانوا أبعدَ الخلقِ نَسَباً منه ؛ والشاهد على ذلك إجماع الأمّة على أنّ الله تعالى قد أوجب عداوة من ارتدّ بعدَ الإسلام ، وعداوة من نافق وإن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذى أمرَ بذلك ودعا إليه

وذلك أنه صلى الله عليه وآله قد أوجب قطع السارق وضرب القاذف ، وجَلْد البِكْر إذا زَنَى ، وإن كان من المهاجرين أو الأنصار ؛ ألا تَرَى أنه قال : لو سَرَقَتْ فاطمةُ لقطعتُها ؛ فهذه ابنته ، الجارية مَجْرى نفسه ، لم يُحابِها في دين الله ، ولا راقبها في حُدود الله ، وقد جلد أصحاب الإفك ، ومنهم مِسطح بن أثاثة ، وكان من أهلِ بَدْر .

قال : وبعد ، فلو كان محلّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله محلّ من لا يعادَى إذا عَصى الله سبحانه ولا يُذْكر بالقبيح ، بل يجب أن يُراقَب لأجل اسم الصُّحبة ، ويغضَى عن عُيوبه وذُنوبه ، لكان كذلك صاحبُ موسى المسطور ثناؤه في القرآن لمّا اتّبع هواه ، فانسلخ ممّا أوتي من الآيات وغَوَى ، قال سبحانه : ﴿ واتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي آتيناه آياتِنا فانسَلخ منها فأَتْبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ﴾[1] ، ولكان ينبغي أن يكون محلّ عَبَدة العِجْل من أصحاب موسى هذا المحلّ ، لأنّ هؤلاء كلّهم قد صحبوا رسولاً جليلا من رُسُل الله سبحانه .

قال : ولو كانت الصّحابة عند أنفسِها بهذه المنزلة ؛ لعلمتَ ذلك من حالِ أنفسِها ، لأنّهم أعرَف بمحلّهم من عوامّ أهل دهرنا ، وإذا قدّرتَ أفعالَ بعضِهم ببعض دلّتْكَ على أنّ القِصّة كانت على خلاف ماقد سبق إلى قلوبِ النّاس اليوم ؛ هذا عليّ وعمّار ، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وخزيمة بن ثابت ، وجميعُ من كان مع عليّ عليه السلام من المهاجِرين والأنصار ، لم يرَوْا أن يتغافلوا عن طَلْحة والزّبير حتّى فعلوا بهما وبمن معهما ما يُفعَل بالشُّراة في عصرنا ، وهذا طلحة والزّبير وعائشة ومَنْ كان معهم وفي جانبهم لم يرَوا أن يُمسكوا عن عليّ ؛ حتّى قصَدوا له كما يُقصَد للمتغلّبين في زماننا ، وهذا معاوية وعَمْرو لم يرَيا

---

(١) سورة الأعراف ١٧٥

عليًا بالعين التى يرى بها العامّى صديقه أو جاره، ولم يُقصّرا دون ضرب وجهه بالسّيف ولعنه ولعن أولاده وكلّ من كان حيًا من أهله، وقتل أصحابه، وقد لعنهما هو أيضا فى الصّلوات المفروضات، ولعن معهما أبا الأعور السُّلَمِىّ، وأبا موسى الأشعرىّ، وكلاهما من الصّحابة، وهذا سعدُ بن أبى وقّاص، ومحمّد بن مَسلمة، وأسامة بن زيد، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وعبد الله بن عمر، وحسّان بن ثابت، وأنس بن مالك، لم يروا أن يقلّدوا عليًّا فى حرب طلحة، ولا طلحة فى حرب علىّ، وطلحة والزّبير بإجماع المسلمين أفضل من هؤلاء المعدودين، لأنهم زعموا أنهم قد خافوا أن يكون علىٌّ قد غلط وزلّ فى حربهما، وخافوا أن يكونا قد غلطا وزلّا فى حرب علىّ؛ وهذا عثمانُ قد نفى أبا ذرّ إلى الرَّبَذة كما يُفعل بأهل الخنا والرِّيَب، وهذا عمّار وابنُ مسعود تلقّيا عثمانَ بما تلقّياه به لمّا ظهرلهما ـ بزعمهما ـ منه ماوعظاه لأجله، ثم فعل بهما عثمانُ ماتناهى إليكم، ثم فعل القومُ بعثمانَ ماقد علمتم وعلم النّاس كلّهم، وهذا عمر يقول فى قصّة الزّبير بن العوّام لمّا استأذنه فى الغزو: ها إنّى ممسكٌ بباب هذا الشِّعب أن يتفرّق أصحابُ محمّد فى النّاس فيضلّوهم، وزعم أنه وأبو بكر كانا يقولان: إنّ عليًا والعبّاس فى قصّة الميراث زعماهما كاذِبَين ظالمَين فاجرَين؛ وما رأينا عليًّا والعبّاس اعتذرا ولا تنصّلا، ولا نقل أحدٌ من أصحاب الحديث ذلك، ولا رأينا أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وآله أنكروا عليهما ماحكاه عمرُ عنهما، ونسبه إليهما، ولا أنكروا أيضا على عمرَ قوله فى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّهم يريدون إضلالَ النّاس ويهمّون به، ولا أنكروا على عثمانَ دَوْسَ بطن عمّار، ولا كسْر ضِلَع ابنِ مسعود، ولا على عمّار وابن مسعود ماتلقّيا به عثمان، كإنكار العامّة اليومَ الخوضَ فى حديث الصحابة، ولا اعتقدت الصحابة فى أنفسها مايعتقده العامّة فيها؛ اللهمّ إلا أن يزعموا أنهم أعرفُ بحقّ القوم منهم. وهذا علىٌّ

وفاطمة والعبّاس مازالوا على كلمةٍ واحدة يكذّبون الرواية : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث » ، ويقولون : إنها مختلَقة .

قالوا : وكيف كان النبي صلّى الله عليه وآله يُعرِّف هذا الحكم غيرَنا ويكتمُه عنّا ونحن الورَثة ؛ ونحن أولَى الناسِ بأن يُؤدِّى هذا الحكم إليه ، وهذا عمرُ بنُ الخطّاب يَشهَد لأهل الشورى أنهم النَّفَر الذين توفِّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وهو عنهم راضٍ ، ثمّ يأمر بضَرْب أعناقهم إن أخّروا فصلَ حالِ الإمامة ، هذا بعد أن ثَلَبهم ، وقال فى حقّهم ما لو سمِعَتْه العامّة اليومَ من قائلٍ لوضعتْ ثوبَه فى عنقِه سَحْبا إلى السلطان ، ثمّ شهِدتْ عليه بالرَّفْض واستحلّت دمَه ، فإن كان الطعن على بعض الصّحابة رفضا فعُمر بن الخطّاب أرفضُ الناس وإمامُ الروافض كلّهم . ثمّ ماشاع واشتهر من قول عمر : كانت بيعةُ أبى بكر فَلْتة ، وَقَى اللهُ شرّها ؛ فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ؛ وهذا طعنٌ فى العَقْد ، وقَدْح فى البَيْعة الأصليّة .

ثم مانقل عنه مِن ذِكر أبى بكر فى صَلاته ، وقولهعن عبد الرحمن ابنه : دُوَيْبة سوء ولهوَ خيرٌ من أبيه . ثم عمر القائل فى سعد بن عُبادة ، وهو رئيس الأنصار وسيّدُها : اقتلوا سعدا ، قتَل الله سَعْدا ، اقتُلوه فإنهمنافق . وقد شتَم أبا هريرة وطَعَن فى روايته ، وشتَم خالدَ بنَ الوليد وطعَن فى دِينه ، وحكَم بفِسْقه وبُوجوب قتله ، وخوّن عمرو بن العاص ومعاويةَ بنَ أبى سُفْيان ونسبهما إلى سَرقةِ مال الفَىْء واقتطاعه ، وكان سريعا إلى المَساءة ، كثيرَ الجَبْه والشَّتْم والسّبّ لكلّ أحد ، وقلّ أن يكون فى الصّحابةِ من سَلِم من بمعرّة لسانِ أو يدِه ، ولذلك أبغضوه وملّوا أيّامه مع كثرة الفُتوح فيها ، فهلاّ احترم عمرُ الصّحابة كما تحترمهم العامّة ! إمّا أن يكون عمر مخطئا ، وإمّا أن تكون العامّة على الخطأ !

فإن قالوا : عمرُ ماشَتَم ولا ضَرَب، ولا أساء إلّا إلى عاصٍ مستحقٍ لذلك ، قيل لهم : فكأنّا نحن نقول : إنّا نريد أن نبرأ ونعادىَ من لا يستحقّ البراءة والمعاداة ، كلاّ ما قلنا هذا ولا يقول هذا مسلم ولا عاقل .

وإنّما غرضنا الّذى إليه نجرى بكلامنا هذا أن نوضّح أنّ الصّحابة قومٌ من النّاس لهم مالِلناس ، وعليهم ماعليهم ، مَن أساء منهم ذممْناه ، ومن أحسَنَ منهم حَمِدناه ، وليس لهم على غيرِهم من المسلمين كبيرُ فَضْل إلّا بمشاهدة الرسول ومعاصرتِه لا غير ، بل ربّما كانت ذنوبُهم أفحَش من ذنوب غيرهم ، لأنهم شاهَدوا الأعلامَ والمعجِزات ، فقرُبت اعتقاداتُهم من الضرورة ، ونحن لم نشاهدْ ذلك،فكانت عقائدُنا مَحْض النّظر والفكر، وبعرضيَّة الشُّبَه والشّكوك ، فمعاصِينا أخفّ لأنّا أعذَر .

***

ثم نعود إلى ما كنّا فيه فنقول : وهذه عائشة أمّ المؤمنين؛ خرجت بقميص رسول الله صلّى الله عليه وآله فقالت للناس : هذا قميصُ رسول الله لم يَبْلَ ، وعثمانُ قد أبلَى سنّته ؛ ثم تقول : اقتلوا نعثلًا ، قتَل الله نعثلًا ، ثم لم ترض بذلك حتّى قالت : أشهَد أنّ عثمانَ جيفةٌ على الصّراط غداً . فمن الناس من يقول : روَتْ فى ذلك خبراً ، ومن النّاس من يقول : هو موقوفٌ عليها؛ وبدون هذا لو قاله إنسان اليوم يكون عند العامّة زنديقا. ثمّ قد حصر عثمان؛حصرتْه أعيانُ الصحابة، فما كان أحدٌ يُنكِر ذلك، ولا يُعظمه ولا يَسعَى فى إزالته ، وإنما أنكَروا على من أنكر على المحاصِرين له ، وهو رجلٌ كما علمتم من وجوهِ أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ثمّ من أشرافهم ، ثم هو أقرب إليه من أبى بكر وعمر ؛ وهو مع ذلك إمامُ المسلمين ، والمختارُ منهم للخلافة ، وللإمام حقّ على رعيّته عظيم ، فإن كان القومُ قد أصابوا فإذَنْ ليست الصحابةُ فى الموضع الّذى وضعْتها به العامّة ، وإن كانوا ما أصابوا فهذا هو الّذى نقول؛ من أنّ الخطأ جائزٌ على

آحاد الصّحابة ؛ كما يجوز على آحادِنا اليوم . ولَسْنا نَقدَح فى الإجماع ، ولا ندّعي إجماعاً حقيقيّا على قَتْل عثمان ، و إنما نقول : إنّ كثيرا من المسلمين فعلوا ذلك والخصم يسلّم أنّ ذلك كان خطأ ومعصيةً ، فقد سلَّم أنّ الصحابىّ يجوز أن يُخطئ ويَعصِى ، وهو المطلوب .

وهذا المُغيرةُ بن شُعْبة وهو من الصحابة ، ادُّعِي عليه الزنا ، وشهد عليه قومٌ بذلك ، فلم يُنكَر ذلك عمر ، ولا قال : هذا محال و باطل لأنّ هذا صحابىٌّ من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يجوز عليه الزنا . وهلّا أنكر عمرُ على الشهود وقال لهم : ويحكم هلّا تغافلتم عنه لمّا رأيتموه يَفعَل ذلك ، فإنّ الله تعالى قد أوجَب الإمساكَ عنْ مساوى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وأوْجَب السترَ عليهم ! وهلا تركتموه لرسول الله صلى الله عليه وآله فى قوله : « دَعُوا لى أصحابى » ، ما رأينا عُمر إلّا قد انتصب لسماع الدّعوى ، و إقامة الشّهادة ، وأقبَل يقول للمغيرة : يامغيرة ، ذهب رُبعك ، يامغيرة ، ذَهَب نصفُك ، يامغيرة ، ذَهَب ثلاثة أرباعك ، حتّى اضطرب الرابع ، فجُلِد الثلاثة . وهلّا قال المغيرة لعمر : كيف تسمع فىّ قول هؤلاء ، وليْسوا من الصّحابة ، وأنا من الصحابة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد قال : « أصحابى كالنّجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم » ! ما رأيناه قال ذلك ، بل استسلَم لحكم الله تعالى . وهاهنا مَن هو أمثَل من المغيرة وأفضَل ، قدامة بن مَظعون ، لمّا شَرب الخمر فى أيّام عُمَر ، فأقام عليه الحدّ ، وهو رجلٌ من عِلْية الصّحابة ومِن أهلِ بَدْر ، والمشهود لهم بالجنّة ، فلم يردَّ عمرُ الشّهادة ، ولا درأ عنه الحدّ لعلة أنه بَدْرِىّ ، ولا قال : قد نَهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن ذِكر مَساوِئ الصّحابة .

وقد ضرب عمرُ أيضا ابنَه حدّا فمات ، وكان ممّن عاصَر رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ولم تمنعه معاصَرته له من إقامة الحدّ عليه .

وهذا علىٌّ عليه السلام يقول : ما حدّثنى أحدٌ بحديثٍ عن رسول الله صلّى الله عليه

وآله إلّا استحلفتُه عليه ؛ أليس هذا اتهاماً لهم بالكذب ! وما استثنى أحداً من المسلمين إلا أبا بكر على ماوَرَد فى الخبر ، وقد صرّح غيرَ مرّة بتكذيب أبى هريرة ، وقال : لا أحد أكذَبَ من هذا الدَّوْسى على رسول الله صلّى الله عليه وآله . وقال أبو بكر فى مرضِه الّذى مات فيه : وَدِدْتُ أنّى لم أكشِفْ بيتَ فاطمة ولو كان أُغلِق على حرب فندم ، والنّدم لا يكون إلّا عن ذَنْب .

ثم ينبغى للعاقل أن يفكّر فى تأخّر علىّ عليه السلام عن بَيْعة أبى بكر ستّة أشهر إلى أن ماتت فاطمةُ ، فإن كان مصيبا فأبو بكر على الخطأ فى انتصابه فى الخلافة ، وإن كان أبو بكر مصيباً فعلىّ على الخطأ فى تأخّره عن البَيْعة وحضور المسجد ؛ ثم قال أبو بكر فى مرض موته أيضا للصّحابة : فلمّا استخلفتُ عليكم خيرَكم فى نفسى – يعنى عُمَر – فكلّكم وَرِمَ لذلك أنفُه ، يريد أن يكون الأمر له ، لمّا رأيتم الدنيا قد جاءت ، أما والله لتتخذُنّ ستائرَ الدّيباج ونَضائد الحرير[1] ؛ أليس هذا طَعْنا فى الصحابة ، وتصريحا بأنه قد نسبَهم إلى الحسد لعمَر ، لما نصّ عليه بالعهد ! ولقد قال له طلحة لمّا ذكر عمر للأمر : ماذا تقول لربّك إذا سألك عن عباده ، وقد ولّيتَ عليهم فظّا غليظا ! فقال أبو بكر : أجلسونى أجلسونى ، بالله تخوّفنى ! إذا سألنى قلتُ : ولّيت عليهم خيرَ أهلك ؛ ثم شتمه بكلام كثير منقول ؛ فهل قول طلحة إلاّ طعنٌ فى عمرَ ، وهل قولُ أبى بكر ألاّ طعنٌ فى طلحة !

ثم الذى كان بين أُبَىّ بن كعب وعبدِ الله بن مسعود من السِّباب حتى نفى كلّ واحد منهما الآخر عن أبيه ، وكلمةُ أُبىّ بن كعب مشهورة منقولة : ما زالت هذه الأمّة مكبُوبةً على وجهها منذ فقدوا نبيّهم ، وقوله : ألا هلك أهلُ العقيدة ، والله ما آسَى عليهم إنما آسَى على من يضلّون من الناس .

(١) الكامل للمبرد ١ : ٧

ثم قولُ عبد الرحمن بن عوف : ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لى عثمان : يا منافق ؛ وقوله : لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ما ولّيت عثمان شِسْع نعلى[١] ؛ وقوله : اللّهم إن عثمان قد أبَى أن يقيم كتابك فافعلْ به وافعل .

وقال عثمانُ لعلىّ عليه السلام فى كلامٍ دارَ بينهما : أبو بكر وعمرُ خيرٌ منك ؛ فقال علىّ : كذبت ، أنا خيرٌ منك ومنهما ، عبدتُ الله قبلهما ، وعبدْته بعدَهما .

وروى سُفيانُ بن عُيينة عن عمرو بن دينار ، قال : كنت عند عروةَ بن الزبير ، فتذاكرْنا كم أقام النبىُّ بمكّة بعد الوَحْى ؟ فقال عروة : أقام عشرا ، فقلت : كان ابنُ عبّاس يقول : ثلاث عشرة ، فقال : كذب ابنُ عبّاس . وقال ابنُ عبّاس : المُتْعة[٢] حَلال ؛ فقال له جُبَير بنُ مُطعِم : كان عمرُ ينهى عنها ، فقال يا عُدَىَّ نفسِه ، مِنْ ها هنا ضللتم ، أحدِّثكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتحدّثنى عن عمر !

وجاء فى الخبر عن علىٍّ عليه السلام ، لولا ما فعَل عمرُ بنُ الخطّاب فى المُتْعة ما زَنَى إلاّ شقىّ ؛ وقيل : ما زَنَى إلا شفًا ، أى قليلا .

فأمّا سبّ بعضهم بعضا وقَدْح بعضهم فى بعض فى المسائل الفقهيّة فأكثرُ مِن أن يُحصَى ، مِثلُ قول ابن عبّاس وهو يردّ على زيد مذهبه القوْل فى الفرائض : إن شاء ــ أو قال : من شاء ــ باهَلْته[٣] إن الذى أحصى رَمْل عالج[٤] عَدَداً أعدَل من أن يجْعل فى مال نِصْفا ونصفا وثلثا ، هذان النِّصفان قد ذَهبا بالمـال ، فأين موضعُ الثلث !

---

(١) الشسع : قبال النعل .
(٢) نكاح المتعة : هو أن يتزوج الرجل المرأة يستمتع بها أياماً ثم يتركها .
(٣) باهل القوم بعضهم بعضاً وابتهلوا : تلاعنوا .
(٤) عالج : موضع به رمل ، معروف .

ومِثل قول أُبَىّ بن كعب فى القرآن : لقد قرأتُ القرآن وزَيْدٌ هذا غلام ذو ذُؤابتين يلعب بين صبيان اليهود فى المكتب .

وقال علىٌّ عليه السلام فى أمّهات الأولاد وهو على المِنبر: كان رأيى ورأى عمرَ ألاّ يُبَعْنَ ، وأنا أرى الآن بيعهنّ ، فقام إليه عبيدة السّلمانى ، فقال : رأيك فى الجماعة[1] أحبُّ إلينا من رأيك فى الفُرْقة .

وكان أبو بكر يرَى التّسوية فى قَسْم الغنائم ، وخالفه عمر وأنكر فعله .

وأنكرتْ عائشة على أبى سلمة بن عبد الرحمن خلافه على ابن عباس فى عِدّة المتوفَّى عنها زوجُها وهى حامل ؛ وقالت : فَرّوجٌ يصقع[2] مع الدِّيَكة .

وأنكرت الصحابة على ابن عباس قوله فى الصّرف ، وسفّهوا رأيه حتى قيل : إنه تابَ من ذلك عند موته .

واختلفوا فى حدّ شارب الخمر حتى خطّأ بعضهم بعضا .

وروَى بعض الصّحابة عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : الشؤم فى ثلاثة : المرأة والدّار ، والفرَس ، فأنكرتْ عائشة ذلك ، وكذّبت الراوى وقالت : إنه إنما قال عليه السلام ذلك حكايةً عن غيره

وروَى بعض الصّحابة عنه عليه السلام أنه قال : التاجرُ فاجرٌ ، فأنكرتْ عائشةُ ذلك ، وكذّبت الراوىَ وقالت : إنما قاله عليه السلام فى تاجر دلّس .

وأنكَر قومٌ من الأنصار روايةَ أبى بَكر : «الأئمة من قريش» ، ونَسَبوه إلى افتعال هذه الكلمة .

---

(١) ب : « لجماعة » .   (٢) صقع الديك صقعاً : صاح .

وكان أبو بكر يقضي بالقضاء فينقضه عليه أصاغرُ الصّحابة كبلال وصُهَيب ونحوهما . قد رُوِيَ ذلك في عِدّة قضايا .

وقيل لابن عبّاس : إنّ عبدَ الله بن الزبير يزعم أنّ موسى صاحبَ الخِضر ليس مُوسَى بني إسرائيل ؛ فقال : كذَب عدوُّ الله ! أخبرَني أبيّ بنُ كعب، قال : خطبنا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وذَكَرَ كذا ؛ بكلامٍ يدلّ على أنّ موسى صاحبَ الخِضر هو موسى بني إسرائيل .

وباع معاويةُ أوانيَ ذَهَب وفِضّة بأكثرَ من وزنها ، فقال له أبو الدّرداء : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يَنهَى عن ذلك ، فقال معاوية : أمّا أنا فلا أرَى به بأسا ؛ فقال أبو الدّرداء : مَن عَذِيري من معاوية ! أخبِره عن الرّسول صلى الله عليه وسلّم ، وهو يُخبِرني عن رأيِه ! والله لا أساكنُك بأرضٍ أبدا .

وطَعَن ابنُ عبّاس في أبي هريرة ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إذا استيقظ أحدُكم من نَوْمه فلا يُدخِلنّ يدَه في الإناء حتّى يتوضّأ » ، وقال : فما نَصنَع بالمِهْراس [1] !

وقال عليّ عليه السلام لعُمَر وقد أفتاه الصحابة في مسألة وأجمعوا عليها : إن كانوا راقَبوك فقد غشّوك ، وإن كان هذا جهدُ رأيهم فقد أخطئوا .

وقال ابن عبّاس : ألا يتّقي الله زيدُ بنُ ثابت ، يجعل ابن الابن ابناً ، ولا يجعل أب الأب أباً !

وقالت عائشة : أخبِروا زيدَ بنَ أرقَم أنه قد أحبَط جهادَه مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) المهراس : إناء مستطيل منقور يتوضأ فيه .

وأنكرت الصحابة على أبي موسى قوله : إنّ النوم لا يَنقُض الوضوء ، ونسبته إلى الغفلة وقلّة التحصيل ، وكذلك أنكرت على أبي طلحة الأنصاريّ قوله : إن أكلَ البَرَد لا يُفطِّر الصائم ، وهَزِئت به ونَسَبته إلى الجهل :

وسمع عمرُ عبدَ الله بنَ مسعود وأُبَيّ بن كعب يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد ، فصَعِد المنبر وقال: إذا اختلف اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فعن أيّ فُتياكم يصدر المسلمون ! لا أسمع رجلين يختلفان بعد مُقامي هذا إلاّ فعلتُ وصنعتُ .

وقال جرير بنُ كُلَيب : رأيتُ عمرَ ينهى عن المُتعة ، وعليّ عليه السلام يأمرُ بها ، فقلت : إنّ بينكما لشرّا ، فقال عليّ عليه السلام : ليس بيننا إلاّ الخير ، ولكن خيرُنا أتبعُنا لهذا الدّين .

قال هذا المتكلّم : وكيف يصحّ أن يقول رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « أصحابي كالنّجوم بأيِّهم اقتدَيتم اهتَدَيتم » ؛ لا شبهةَ أنّ هذا يُوجب أن يكون أهلُ الشام في صفّين على هُدًى ، وأن يكون أهلُ العراق أيضا على هُدًى ؛ وأن يكون قاتل عمّار بن ياسر مهتديا ؛ وقد صحّ الخبرُ الصحيحُ أنه قال له : « تقتُلك الفئة الباغية » ، وقال في القرآن : ﴿ فقاتِلوا الّتي تَبغِي حتّى تفيء إلى أمرِ الله ﴾ ؛ فدلّ على أنها ما دامت موصوفة بالمُقام على البَغي ، مُفارِقة لأمر الله ، ومَن يفارق أمر الله لا يكون مهتديا .

وكان يجب أن يكون بُسرُ بن أبي أرطاة الّذي ذَبح وَلَدَيْ عُبيد الله بن عبّاس الصغيرين مُهتديا ، لأنّ بُسراً من الصحابة أيضا ، وكان يجب أن يكون عمرو بنُ العاص ومعاوية اللّذان كانا يلعَنان عليّا أدبارَ الصلاة وولديه مهتديين ؛ وقد كان في الصحابة من يزني ومن يشرب الخمرَ كأبي مِحْجَن الثّقفي ، ومن يرتدّ عن الإسلام كطليحة ابن خُوَيلد ، فيجب أن يكون كلّ مَن اقتدى بهؤلاء في أفعالهم مُهتديا .

قال : وإنّما هـذا من موضاعاتِ متعصِّبةِ الأمويّة ، فإن لهم مَن يَنصرهم بلسانه ، وبوَضْعِه الأحاديث إذا عَجز عن نصرهم بالسيف .

وكذا القولُ فى الحديث الآخر ، وهو قوله : « القرْن الذى أنا فيه » ، وممّا يدلّ على بَطلانِه أنّ القرْن الذى جاء بعده بخمسين سنةً شرُّ قرون الدّنيا ، وهو أحد القُرُون التى ذَكَرها فى النّص ، وكان ذلك القرْن هو القرْن الّذى قُتِل فيه الُحسين ، وأُوقع بالمدينة ، وحُوصرتْ مَـكّة ، ونُقِضت الـكَعْبة ، وشَرِبت خلفاؤه والقائمُون مقَامه والمنتصِبون فى مَنصِب النّبوّة الخمُور ، وارتَـكَبوا الفُجُور ، كما جرى ليزيدَ بن معاوية وليزيد بن عاتـكة وللوَليد بن يزيد ، وأُريقت الدّماء الحرام ، وقُتِل المسلمون ، وسُبِيَ الحريم ، واستُعبد أبناء المهاجرين والأنصار ، ونُقِش على أيديهم كما يُنقَش على أيدى الرُّوم ، وذلك فى خلافةِ عبدِ الملك وإمرةِ الحجّاج . وإذا تأمّلتَ كتبَ التواريخ وجدت الخمسين الثانيةَ شرّاً كلّها لا خيرَ فيها ، ولا فى رؤسائها وأمرائها ، والناسُ برؤسائهم وأمرائهم ، والقرن خَمْسون سنةً ، فـكيف يصحّ هذا الخبر .

قال : فأمّا ماورد فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ لقد رضيَ الله عن المؤمنين ﴾(١) . وقوله : ﴿ محمّدٌ رسولُ الله والّذين معه ﴾(٢) .

وقول النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّ الله اطّلع على أهلِ بَدْر ؛ إن كان الخبرُ صحيحا فـكلّه مشروط بسلامةِ العاقبة ، ولا يجوز أن يخبر الحـكيم مكلّفا غير معصوم بأنّه لاعقاب عليه ، فليفعل ماشاء .

قال هذا المتـكلّم : ومَن أنصف وتأمّل أحوالَ الصّحابة وجَدَهم مِثلنا ، يجوز عليهم مايجوز علينا ، ولا فرق بيننا وبينهم إلّا بالصّحبة لا غير ، فإنّ لها منزلةً وشرَفا ،

---

(١) سورة الفتح ١٨ (٢) سورة الفتح ٢٩

ولكن لا إلى حدٍّ يمتنع على كلّ من رأى الرسولَ أو صحِبَه يوماً أو شهراً أو أكثرَ من ذلك أن يخطئ ويَزِلّ ، ولو كان هذا صحيحا ما احتاجت عائشةُ إلى نزول براءتها من السّماء ، بل كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من أوّل يومٍ يعلم كَذِبَ أهل الإفك ، لأنّها زوجتُه ، وصُحبتُها له آكَدُ من صُحبة غيرِها . وصَفوان بن المعطّل أيضا كان من الصّحابة ، فكان ينبغى ألّا يَضيق صدرُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ولا يَحمِل ذلك الهمّ والغمّ الشديدَين اللّذَين حملهما ويقول : صَفْوان من الصّحابة ، وعائشة من الصّحابة ، والمعصيةُ عليهما ممتنعة .

وأمثالُ هذا كثير، وأكثرُ من الكثير، لمن أراد أن يَستقرئَ أحوالَ القوم، وقد كان التابعونَ يَسلُكون بالصحابة هذا المَسلك ، ويقولون فى العُصاة منهم مِثلَ هذا القول ، وإنما اتخذهم العامّة أربابا بعد ذلك .

قال : ومَن الّذى يجترئ على القول بأنّ أصحابَ محمد لا تجوز البراءةُ من أحدٍ منهم وإن أساء وَعصى بعدَ قول الله تعالى للذى شرّفوا برؤيته : ﴿ لَئِنْ أشركتَ ليحبَطَنَّ عملُك ولتكونَنّ من الخاسرين ﴾ (١) بعد قوله : ﴿ قل انّى أخاف إن عَصيتُ ربّى عذابَ يوم عظيم ﴾ (١) وبعد قوله : ﴿ فاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بالحقّ ولا تتّبع الهوَى فيضلّك عَنْ سبيل الله إنّ الّذين يَضِلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ (٢) ، إلا من لا فَهمَ له ولا نظرَ معه ، ولا تمييزَ عنده .

***

قال : ومَنْ أحَبّ أن ينظر إلى اختلاف الصحابة ، وطعن بعضهم فى بعض وردّ بعضهم على بعض ، وما ردّ به التابعون عليهم واعترضوا به أقوالهم ، واختلاف التابعين أيضا فيما بينهم ، وقدح بعضهم فى بعض ، فلينظرْ فى كتاب النَّظّام ، قال الجاحظ : كان النظّام

(١) سورة الزمر ٦٥

(٢) سورة ص ٢٦

أشدَّ الناس إنكارا على الرافضة ، لطعنهم على الصحابة ، حتى إذا ذَكَر الفُتْيا وتنقُّل الصحابةِ فيها ، وقضاياهم بالأمور المختلفة ، وقول من استعمل الرأى فى دين الله ، انتظم مطاعن الرافضة وغيرها ، وزاد عليها ؛ وقال فى الصحابة أضعاف قولها .

قال : وقال بعض رؤساء المعتزلة : غَلطُ أبى حنيفة فى الأحكام عظيم ، لأنه أضل خلقاً وغلطُ حمّاد [1] أعظمُ من غلط أبى حنيفة ، لأنّ حمادا أصلُ أبى حنيفة الذى منه تفرّع ، وغَلط إبراهيم أغلظ وأعظَم من غَلط حمّاد ، لأنه أصلُ حمّاد وغلَط علقمة [2] والأسود [3] أعظم من غلط إبراهيم لأنهما أصله الذى عليه اعتمد ، وغلط ابن مسعود أعظمُ مِن غلط هؤلاء جميعا ، لأنه أول من بَدَر إلى وَضْع الأديان برأيه ، وهو الذى قال : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى .

قال : واستأذن أصحابُ الحديث على ثمامة [4] بخراسان حيث كان مع الرّشيدِ بنِ المهدىّ ، فسألوه كتابه الذى صنّفه على أبى حنيفة فى اجتهادِ الرأى ، فقال : لستُ على أبى حنيفة كتبتُ ذلك الكتاب ، وإنما كتبته على علقمة والأسود وعبد الله بن مسعود لأنهم الذين قالوا بالرأى قبل أبى حنيفة .

قال : وكان بعض المعتزلة أيضا إذا ذكر ابن عباس استصغره وقال: صاحبُ الذؤابة يقول فى دين الله برأيه .

وذكر الجاحظ فى كتابه المعروف « بكتاب التوحيد » أنّ أبا هريرة ليس بثقة فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ قال : ولم يكن علىّ عليه السلام بوثقه فى الرّواية ، بل يتهمه ، ويقدح فيه ، وكذلك عمر وعائشة .

---

(١) حماد هو حماد بن أبى سليمان .
(٢) علقمة بن قيس
(٣) الأسود بن يزيد
(٤) ثمامة بن أشرس

وكان الجاحظ يفسّق عمرَ بن عبد العزيز ويستهزئ به ويكفّره ، وعمر بن العزيز وإن لم يكن من الصحابة فأكثرُ العامة يَرَى له من الفضْل ما يراه لواحدٍ من الصّحابة .

وكيف يجوز أن نحكم حُكما جزْما أنّ كل واحد من الصحابة عدْل ، ومن جملة الصحابة الحكم بنُ أبي العاص ! وكفاك به عدوّا مُبغضا لرسول الله صلى الله عليه وآله ! ومن الصحابة الوليدُ بنُ عُقْبة الفاسقُ بنص الكتاب ، ومنهم حبيب بن مسلَمة الذى فعَل ما فعل بالمسلمين فى دَوْلة معاوية ، وبُسْر بن أبي أرطاة عدوّ الله وعدوّ رسوله ، وفى الصحابة كثيرٌ من المنافقين لا يَعرِفهم الناس . وقال كثيرٌ من المسلمين : مات رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يُعرّفه الله سبحانه كلّ المنافقين بأعيانهم ، وإنما كان يعرف قوما منهم ، ولم يُعلِم بهم أحداً إلا حذيفة فيما زعموا ، فكيف يجوز أن نحكم حُكما جزْما أن كلّ واحد ممّن صَحِب رسول الله أو رآه أو عاصَرَه عدْل مأمون ، لا يقع منه خطأ ولا معصية ، ومن الذى يمكنه أن يتحجّر واسعا كهذا التحجّر ، أو يحكم هذا الحكم !

قال والعجب من الحشويّة وأصحاب الحديث إذ يجادلون على معاصي الأنبياء ، ويثبتون أنهم عصَوا الله تعالى ، وينكرون على من ينكر ذلك ، ويطعنون فيه ، ويقولون : قَدَريّ معتزليّ ، وربما قالوا : مُلحِد مخالِف لنصّ الكتاب ؛ وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يُجادِل فى هذا الباب ، فتارةً يقولون : إنّ يوسف قعد من امرأة العزيز مَقْعد الرّجل من المرأة ، وتارةً يقولون : إن داود قتل أوريا لينكح امرأته ، وتارةً يقولون : إنّ رسول الله كان كافراً ضالاً قبل النّبوة ، وربما ذكروا زينب بنت جَحش وقصّة الفِداء يوم بدر .

فأما قدحُهم فى آدم عليه السلام ، وإثباتُهم معصيته ومناظرتهم مَن يذكر ذلك

فهو دأبُهم ودَيْدَنُهم ، فإذا تكلّمَ واحد فى عمرو بنِ العاص أو فى معاويةَ وأمثالِهما ونسبَهم إلى المعصية وفِعْل القبيح ، احمرّت وجوهُهم ، وطالَتْ أعناقُهم ، وتخازرتْ أعينُهم ، وقالوا : مبتدِع رافضىّ ، يسبّ الصّحابة ، ويَشْتمُ السَّلَفَ ، فإن قالوا : إنّما اتّبعْنا فى ذِكر معاصى الأنبياء نصوصَ الكتاب ؛ قيل لهم : فاتّبعوا فى البراءة من جميع العُصاة نصوصَ الكتاب ، فإنّه تعالى قال : ﴿ لا تجِدُ قوماً يُؤمِنون باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ ﴾ [1] ، وقال : ﴿ فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تَبغِى حتّى تَفِيءَ إلى أمرِ اللهِ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ أطيعوا اللهَ وأطيعُوا الرسول وأُولِى الأمرِ منكم ﴾ [3] .

ثمّ يسألون عن بيعة علىّ عليه السلام ، هل هىَ صحيحة لازمة لكلّ الناس ؟ فلابدّ مِن « بَلَى » ، فيقال لهم : فإذا خَرَج على الإمام الحقّ خارجٌ أليسَ يجب على المسلمين قتالُه حتّى يعودَ إلى الطاعة ؟ فهل يكون هذا القتال إلّا البراءة التى نذكرها لأنه لا فرق بين الأمرين ، وإنّما برئْنا منهم لأنّا لسنا فى زَمانهم ، فيُمكننا أن نقاتلَ بأيدينا ، فقُصارَى أمرِنا الآنَ أن نبرأ منهم ونَلعَنَهم ، وليكون ذلك عوضاً عن القتال الّذى لا سبيلَ لنا إليه .

قال هذا المتكلّم : على أنّ النّظّام وأصحابَه ذَهَبوا إلى أنّه لا حُجّة فى الإجماع ، وأنّه يجوز أن تجتمع الأمّة على الخطأ والمعصية ، وعلى الفِسْق ، بل على الرِّدّة ، وله كتابٌ موضوع فى الإجماع يطعَن فيه فى أدلّة الفقهاء ، ويقول : إنّها ألفاظ غيرُ صريحة فى كون الإجماع حجّة ، نحو قوله : ﴿ جعلْناكم أمّة وَسَطا ﴾ [4] وقوله : ﴿ كنتمْ خيرَ أمّة ﴾ [5] وقوله : ﴿ ويتّبعْ غيرَ سبيلَ المؤمنينَ ﴾ [6] .

---

(١) سورة المجادلة ٥
(٢) سورة الحجرات ٩
(٣) سورة النساء ٥٩ .
(٤) سورة البقرة ١٤٣
(٥) سوة آل عمران ١١٠ .
(٦) سورة النساء ١١٥

وأما الخبر الذى صورته : « لا تجتمع أمّتى على الخطأ » نخبرٌ واحد ، وأمثَلُ دليل الفقهاء قولهم : إنّ الهِم المختلفة ، والآراء المتباينة ، إذا كان أربابُها كثيرة عظيمة ، فإنه يستحيل أجتماعُهم على الخطأ ، وهذا باطل باليهودِ والنّصارى وغيرِهم من فِرَق الضلال .

هذه خلاصةُ ما كان النّقيب أبو جعفر عَلّقه بخطّه من الجزء الّذى أقرأناه .

***

ونحن نقول : أمّا إجماع المسلمين فحجّة ، ولسنا نرتضى ماذَكَره عنّا من أنه أمثَل دليل لنا أنّ الهِمَم المختلفة ، والآراء المتباينة ، يستحيل أن تتفق على غير الصّواب ؛ ومن نَظَر فى كُتُبنا الأصوليّة علم وثاقة أدلّتنا على صحّة الإجماع وكونه صوابا ، وحجّة تحريم مخالفته ، وقد تكلّمتُ فى اعتبار الذّريعة للمُرتَضى على ماطَعَن به المُرتضَى فى أدلّة الإجماع .

وأما ماذَكَره من الهجوم على دارِ فاطمة وجَمع الحَطَب لتحريقها فهو خبرُ واحدٍ غير موثوق به ، ولا معوّل عليه فى حقّ الصّحابة ، بل ولا فى حقّ أحد من المسلمين ممّن ظهرت عدالتُه .

وأما عائشة والزّبير وطلحة فمذهبُنا أنّهم أخطئوا ثمّ تابوا ، وأنّهم من أهل الجنّة ، وأن عليّاً عليه السلام شهدَ لهم بالجنّة بعد حَرْب الجَمَل .

وأما طعن الصّحابة بعضهم فى بعض ، فإنّ الخلاف الذى كان بينهم فى مسائل الأجتهاد لا يوجب إثماً ، لأنّ كلّ مجتهد مُصيب ، وهذا أمرٌ مذكور فى كُتُب أصول الفِقه وما كان من الخلاف خارجاً عن ذلك فالكثيرُ من الأخبار الواردة فيه غيرُ موثوقٍ بها وماجاء من جهة صحيحةٍ نظر فيه ورجّح جانب أحد الصحابيّين على قَدْر منزلته فى الإسلام كما يُروَى عن عُمَر وأبى هريرة .

فأمّا علىّ عليه السلام فإنّه عندنا بمنزلة الرّسول صلّى الله عليه وآله فى تصويب قولِه، والاحتجاج بفعله، ووجوب طاعتِه؛ ومتى صحّ عنه أنّه قد برئ من أحد من النّاس برئنا منه كائناً مَن كان، ولكنّ الشأن فى تصحيح مايُروَى عنه عليه السلام فقد أكثر الكذب عليه، وولّدت العصبيّة أحاديثَ لا أصل لها.

فأمّا براءته عليه السلام من المغيرة وعَمرو بن العاص ومعاوية، فهو عندنا معلوم جارٍ مَجرَى الأخبار المتواترة، فلذلك لا يتولاّهم أصحابُنا، ولا يُثنُون عليهم، وهم عند المعتزلة فى مَقامٍ غيرِ محمود، وحاشَ لله أن يكون عليه السلام ذَكَرَ مَن سَلَف من شيوخ المهاجرين إلّا بالجميل والذِّكر الحسَن بمُوجب ماتقتضيه رِياسته فى الدِّين، وإخلاصه فى طاعةِ ربّ العالمين، ومَنْ أحبّ تتبُّع مارُوِى عنه ممّا يُوهم فى الظّاهر خلافَ ذلك فليراجع هذا الكتاب، أعنى شرح نهج البلاغة، فإنا لم نترك موضعاً يُوهم خلافَ مذهبنا إلّا وأوضحْناه وفسّرناه على وجهٍ يُوافِق الحقّ، وبالله التوفيق.

***

[عمّار بن ياسر وطرف من أخباره]

فأما عمّار بنُ ياسر رحمه الله، فنحنُ نذكر نسبه وطَرَفاً من حالِه ممّا ذكَرَه ابنُ عبد البرّ فى كتاب الأستيعاب (١)، قال أبو عمر بنُ عبدِ البرّ رحمه الله.

هو عمّار بنُ ياسر بنِ عامرِ بنِ مالك بن كنانةَ بن قيس بن حصين بن لَوْذ بن ثَعلبة بن عَوف بن حارثةَ بن عامر بن نام بن عنس – بالنون – بنِ مالك بن أُدد العَنْسى المَذحِجىّ، يكنَى أبا اليَقظان، حليفٌ لبنى مخزوم، كذا قال ابن شهاب وغيره.

---

(١) الاستيعاب ٤٣٤ وما بعدها (طبعة الهند).

وقال موسى بن عقبة : وممّن شهد بدرا عمّار بن ياسر حليفٌ لبنى مخزوم بن يقظة .

وقال الواقدىّ وطائفةٌ من أهل العلم : إنّ ياسراً والد عمّار بن ياسر عربىّ قحطانىّ من عَنس ، من مَذحج ، إلّا أن ابنه عمّارا مولًى لبنى مخزوم ، لأنّ أباه ياسرا تزوّج أمَةً لبعض بنى مخزوم فأولدَها عمّارا ، وذلك أنّ ياسرا قدِم مكّة مع أخوَين له يقال لهما : الحارث ومالك فى طَلَب أخٍ لهم رابع ، فرجع الحارث ومالكٌ إلى اليَمَن ، وأقامَ ياسرٌ بمكّة ، فحالَفَ أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فزوّجه أبو حذيفة أمةً له يقال لها سُميّة بنت خياط ، فولدتْ له عمّارا فأعتقَه أبو حذيفة ، فصار ولاؤه لبنى مخزوم،وللحِلْف والوَلَاء الّذى بين بنى مخزوم وعمّار بن ياسر كان أجتماع بنى مخزوم إلى عثمان حين نال من عمّار غِلمانُ عثمانَ ما نالوا من الضّرب ، حتّى انفتَق له فَتْق فى بطْنه وكَسَروا ضِلَعا من أضلاعه ، فاجتمعتْ بنو مخزوم ؛ وقالوا : واللهِ لئن مات لا قتَلْنا به أحداً غيرَ عثمان .

قال أبو عمَر : وأسلمَ عمّار وعبدالله أخوه وياسر أبوهما وسُميّة أمُّهما ، وكان إسلامُهم قديما فى أوّل الإسلام فعُذِّبوا فى الله عذابا عظيما ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يَمرُّ بهم وهمْ يعذَّبون فيقول : « صبراً يا آلَ ياسِر ، فإن مَوعِدَكم الجنّة » ، ويقول لهم أيضا : « صَبْرا يا آلَ ياسر ، اللّهم اغفرْ لآل ياسر ، وقد فعلت » (٢) .

قال أبو عمر : ولم يزل عمّار مع أبى حُذَيفة بن المغيرة حتّى مات وجاء اللهُ بالإسلام .

فأمّا سُميّة فقتَلها أبو جهل ، طعنهـا بحَرْبة فى قُبُلهـا فماتت ، وكانت من الخَيّرات

الفاضلات وهى أوّل شهيدةٍ فى الإسلام، وقد كانت قريشٌ أخذت ياسراً وسُميّة وابنيهما وبلالا وخبّابا وصُهيبا فألبسوهم أدراعَ الحديد، وصهروهم فى الشمس حتّى بلغ الجهدُ منهم كلَّ مبلغ، فأعطوهم ماسألوا من الكفر، وسبِّ النبيِّ صلّى الله عليه وآله، ثم جاء إلى كلِّ واحد منهم قومُه بأنطاع الأدَم فيها الماء فألقوهم فيها، ثمّ حملوا بجوانبها، فلمّا كان العشىُّ جاء أبو جهل فجعل يشتُم سُميّة ويرفث، ثمّ وجأها بحَرْبة فى قُبُلها فقتلها؛ فهىَ أوّلُ من استُشهد فى الإسلام، فقال عمّار للنبىّ صلّى الله عليه وآله: يارسولَ الله بلغ العذاب من أمّى كلَّ مبلغ، فقال: « صبراً ياأبا اليقظان، اللّهمّ لا تُعذِّب أحداً من آل ياسر بالنّار»، قال أبو عمر: وفيهم أُنزل: ﴿ إلّا مَنْ أُكرِه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان ﴾ (١).

قال: وهاجَر عمّار إلى أرض الحبَشة وصلّى القِبلتَين، وشَهِد بدرا والمَشاهدَ كلَّها وأبلَى بلاءً حسنا، ثم شَهِد اليمامة، فأبلى فيها أيضا، ويومئذ قُطِعتْ أذنه.

قال: وذَكَر الواقدىّ عن عبدالله بنِ نافع، عن أبيه، عن عبد الله بنِ عمر، قال: رأيتُ عمّارَ بن ياسر يومَ اليَمامة على صَخرة وقد أشرَف يصيح: يامعشرَ المسلمين، أمِن الجنّة تفرّون؟ أنا عمّار بنُ ياسر، هلمّوا إلىّ، وأنا أنظر إلى أذُنه قد قطعتْ، فهى تذَبذَب وهو يقاتِل أشدَّ القتال.

قال أبو عمر: وكان عمّار طويلا أشهَل، بعيدَ مابين المَنكبين، قال: وقد قيل فى صفته: كان آدمَ طُوالاً مضطرباً، أشهَل العينين، بعيد مابين المَنكبين، رجلا لا يغيّر شيبَه.

---

(١) سورة النحل ١٠٦

قال : وكان عمّار يقول : أنا تِرْبُ[1] رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، لم يكن أحدٌ أقرب إليه سِنًّا منِّى .

قال : وقُتِل عمّار وهو ابنُ ثلاثٍ وتسعين سنةً ، والخبرُ المرفوعُ مشهور فى حقّه : « تقتلُكَ الفئةُ الباغية » ، وهو من دلائل نبوّة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، لأنّه إخبارٌ عن غَيْب .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى عمّار : « مُلِىءَ إيمانا إلى مُشاشِه[2] » ، ويُرْوَى : « إلى أخمص قَدَمَيه » .

وفضائلُ عمّار كثيرة ، وقد تقدم القولُ فى ذِكر عمّار وأخبارِه ، وما ورد فى حقّه .

---

(١) ترب الإنسان : من ولد معه فى العام الذى ولد فيه

(٢) المشاشة : الأصل .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

ما أحسَنَ تَوَاضُعَ الأغنِياءِ لِلفُقَرَاء طَلَبَاً لِما عِندَ اللهِ ، وَأَحسَنُ مِنهُ تِيهُ الفُقَرَاء على الأغنِيَاء اتّكالاً عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ .

الشرح :

قد تقدّم شرح مِثل هذه الكلمة مراراً .

***

وقال الشاعر :

قنعتُ فأعتقتُ نفسِي ولنْ ... أملكَ ذا ثَرْوةٍ رِقَّهـا
ونَزّهتُها عن سُـؤالِ الرِّجا ... لِ ومِنَّةِ من لا يَرى حَقَّهـا
وإنّ القَنـاعةَ كَنزُ اللبيب ... إذا ارتَتقتْ فتقتْ رتقَهـا
سيَبعثُ رِزقُ الشِّفاهِ الغِراثِ ... وخَمْصِ البطونِ الّذِي شَقَّهـا[1]
فما فارقَتْ مُهجةٌ جِسمَهـا ... لَعَمرُكَ أو وُفِّيتْ رزقَهـا
مواعيدُ ربِّكَ مصدوقةٌ ... إذا غيرُها فَقَدتْ صِدقَهـا

(١) الغراث : الجياع .

(٤١٢)

الأصلُ :

قال عليهِ السلامُ :
ما اسْتَوْدَعَ اللهُ امْرأً عَقْلاً إلّا لِيَسْتَنْقِذَهُ بِهِ يَوْماً مَا .

* * *

الشَّرحُ :

لا بدّ أن يكون للبارى تعالى فى إيداع العَقل قلبَ زيد مَثلا غَرَض ، ولا غَرَض إلّا أن يستدلّ به على مافيه نجاتُه وخلاصُه ، وذلك هو التكليف ، فإنْ قصّر فى النظر وجَهِل وأخطأ الصّواب فلا بدّ أن يُنقذه عقلُه مِن وَرْطة مِن وَرَطات الدنيا ، وليس يخلو أحدٌ عن ذلك أصلا ، لأنّ كلّ عاقل لا بدّ أن يتخلّص من مَضرّةٍ سبيلُها أن تُنَال بإعمال فِكرِته وعقله فى الخلاص منها ؛ فالحاصل أنّ العقل إمّا أن ينقذ الإنقاذ الدّينى ، وهو الفلاح والنّجاح على الحقيقة ، أو يُنقذ من بعضِ مَهالِك الدّنيا وآفاتها ، وعلى كلّ حال فقد صَحّ قولُ أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رُويتْ هذه الكلمة مرفوعةً ، ورُويتْ : « إلّا استنقذَه به يوماً مّا » .

وعنه صلّى الله عليه وآله : « العقل نورٌ فى القلب يُفرّق به بين الحقّ والباطل » .

وعن أنسٍ قال : سئِل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عن الرّجل يكون حَسَنَ العقل كثيرَ الذنوب ، فقال : مامِن بشَر إلّا وله ذنوب وخطايا يَقترِفها ، فمن كانت سجيّتهُ العَقل ، وغريزَته اليقين ، لم تضرّه ذنوبُه ؛ قيل : كيف ذلك يارسولَ الله ؟ قال :

كلّما أخطأ لم يَلبثْ أن يتدارَكَ ذلك بتوبةٍ وندامةٍ على مافرط منه ، فيمحو ذُنوبه ، ويَبقى له فضل يدخُل به الجنّة .

***

[نُكَت فى مدح العقل وما قيل فيه]

وقد تقدّم من قولنا فى العقل وما ذُكر فيه مافيه كفاية . ونحن نذكر هاهنا شيئاً آخر :

كان يقال: العاقل يُروِّى ثم يَرْوِى ويَخبُر ثم يُخبِر .

وقال عبدُ اللهُ بن المعتز : ما أبيَنَ وجوهَ الخير والشرّ فى مِرآة العقل !

لقمان : يابنيّ ، شاوِرْ مَن جرّب الأمور فإنّه يعطيكَ من رأيه ماقام عليه بالغلاء، وتأخذه أنتَ بالمجّان .

أردشير بن بابك : أربعة تحتاج إلى أربعة : الحسَب إلى الأدب ، والسرورُ إلى الأمن ، والقَرابة إلى المودّة ، والعقل إلى التجربة .

الإسكندر : لا تحتقر الرأيَ الجزيلَ من الحقير ، فإنّ الدُّرّة لا يُستهان بها لهوان غائصها .

مَسلَمة بن عبد الملك : ماابتدأتُ أمراً قطُّ بحزم فرجعتُ على نفسى بلائمة ، وإن كانت العاقبة علىّ ، ولا أضعتُ الحزم فسُررْت وإن كانت العاقبة لى .

وَصَفَ رجلٌ عضدَ الدّولة بن بُوَيه ، فقال : لو رأيتَه لرأيتَ رجلا له وجهٌ فيه ألفُ عَيْن ، وفمٌ فيه ألفُ لسان ، وصدرٌ فيه ألفُ قَلْب .

أثنَى قومٌ من الصّحابة على رجل عند رسول الله صلّى الله عليه وآله بالصّلاة والعبادة وخصال الخير حتى بالغوا ، فقال صلّى الله عليه وآله : كيف عقلُه ؟ قالوا : يارسولَ الله

تخبرك باجتهاده فى العبادة وضروب الخير، وتسألُ عن عقله ! فقال : إنّ الأحمق ليصيبُ بحُمْقه أعظم مما يصيبُه الفاجر بفجوره ، وإنما ترتفع العِباد غداً فى درجاتهم ، ويَنالُون من الزُّلْفى من ربّهم على قدْر عقولهم .

الرّيحانى : العقْل مَلِك ، والخصال رعيّته ، فإذا ضَعُف عن القيام عليها ، وصَل الخَلَل إليها . وسَمِع هذا الكلامَ أعرابىّ فقال : هذا كلامٌ يقطُر عسَلُه .

قال مَعنُ بنُ زائدة : مارأيتُ قفَا رجل إلّا عرفتُ عقله ؛ قيل : فإن رأيتَ وجهَه ؟ قال : ذا كِتابٌ يُقرأ .

بعض الفلاسفة : عقلُ الغريزة مُسلِمٌ إلى عقْلِ التجربة .

بعضُهم : كلّ شىء إذا كثُر رخُص إلّا العقل ، فإنّه إذا كثُر غلا .

قالوا فى قوله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ [1] ، أى من كان عاقلا .

ومن كلامهم : العاقل بخشونة العَيش مع العقلاء آنَس منه بلين العيش مع السُّفهاء .

أعرابىّ : لو صُوِّر العقلُ أظلمَتْ معه الشّمس ، ولو صُوِّر الحمق لأضاء معه اللّيل .

قيل لحكيم : متَى عقَلْتَ ؟ قال : حين وُلِدتُ ، فأنكرُوا ذلك ، فقال : أمّا أنا فقد بكَيت حين جُعت ، وطلبتُ الثّدْىَ حين احتجْتُ ، وسكَتُّ حين أُعطيت ؛ يريد أنّ من عرَف مقاديرَ حاجته فهو عاقل .

المأمون : إذا أنكرتَ مِن عقلِك شيئاً فاقدَحْه بعاقل .

بُزُرجُمهر : العاقل الحازم إذا أشكَل عليه الرأىُ بمنزلة من أضلّ لؤلؤةً فجمع ماحولَ مسقطها من التُّراب ، ثم التمَسَها حتّى وَجَدها ، وكذلك العاقلُ يَجمع وجوهَ

---

(١) سورة يس ٧٠

الرّأى فى الأمر المُشكِل، ثم يَضرِب بعضها فى بعض حتى يَستخلِص الرأى الأصوَب.

كان يقال : هجينٌ عاقلٌ خيرٌ من هِجان جاهِل .

كان بعضهم إذا استُشير قال لمشاوِرِه : أنظرنى حتى أصقُلَ عقلى بنَوْمة .

إذا نزلت المقادير ، نزلت التدابير. من نظَر فى المَغَابّ ، ظَفر بالمحابّ . من استدّت عزائمِه اشتدّت دَعائمه . الرأىُ السّديد ، أجْدى من الأيْد الشّديد .

بعضُهم :

وما ألف مَطْرُور السِّنان مشدّد ... يُعارِض يوم الرّوع رأياً مسدّدا

أبو الطَّيِّب :

الرأىُ قبل شَجاعةِ الشّجعان ... هو أوّلٌ وهى المحلّ الثانى[1]

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ ... بَلغتْ مِن العَلياء كلّ مكانِ

ولربّما طَعَن الفــتَى أقرانَه ... بالرأى قبـــل تطاعُن الأقرانِ

لولا العقولُ لـكان أدْنَى ضَيْغَمٍ ... أدنى إلى شرَفٍ من الإنسانِ

ولَمَا تفاضَلَت النفوسُ ودَبَّرتْ ... أيدى الـكُماة عَوالىَ المُرّانِ

ذَكر المأمونُ وَلدَ علىٍّ عليه السلام فقال : خُصّوا بتدبير الآخرة ، وحُرِموا تدبيرَ الدنيا .

كان يقال : إذا كان الهوى مقهورا تحت يَدِ العقل ، والعَقل مسلّط عليه ، صُرِفتْ مَساوِئُ صاحبه إلى المحاسن ، فعُدّت بلادتُه حلما ، وحِدّته ذَكاء ، وحَذَره بلاغة ، وعِيُّه صمْتا ، وجُبْنه حَذَرا ، وإسرافُه جُودا .

---

(١) ديوانه ٤ : ٣٨٦

وذكر هذا الكلام عند بعضهم فقال : هذه خِصِّيصة الحظّ نقلها مرتّب هذا الكلام إلى العقل .

سمعَ محمد بنُ يَزْداد كاتبُ المأمون قولَ الشاعر :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإنّ فسادَ الرأى أن تتردّدا

فأضاف إليه :

وإن كنت ذا عزمٍ فأنفِذه عاجلاً ... فإنّ فساد العَزْم أن يتفنّدا

(٤١٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنْ صارَعَ الحَقَّ صَرَعَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قوله فى موضعٍ آخر : مَنْ أبدى صفحته للحقّ هلكَ ، ونحو هـذا قولُ الطائىّ :

ومَن قامَر الأيّام عن ثَمَراتِها فأحْجِ بها أن تنجلى وَلها القمرُ

وقالَ عليهِ السلامُ :

القَلْبُ مُصْحَفُ البَصَرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِ الشاعر :

تخبرُنى العينان ما القلبُ كاتمٌ وماجنَّ بالبَغْضاء والنَّظَرِ الشَّزْرِ (١)

يقول عليه السلام : كما أنّ الإنسان إذا نظر فى المصحَف قرأ ما فيه ، كذلك إذا أبصر الإنسانُ صاحبَه فإنه يرى قلبه بوساطة رؤية وجهه ، ثم يعلم ما فى قلبه من حُبٍّ وبُغْض وغيرهما ، كما يعلم برؤية الخطّ الذى فى المُصحف ما يدلّ الخطّ عليه .

وقال الشاعر :

إنّ العيونَ لَتُبدِى فى تقلُّبها مافى الضَّمائر من وُدٍّ ومِن حَنَقِ (٢)

---

(١) يقال : نظر إليه شزراً : إذا نظر بمؤخر عينيه . (٢) الحنق : البغض .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

التُقَى رَئيسُ الأخْلاقِ .

* * *

الشرح :

يعنى رئيس الأخلاق الدينيّة ، لأنّ الأخلاق الجيدة كالجود والشجاعة والحلم والعفّة وغير ذلك ، لو قدّرنا انتفاء التكاليف العقلية والشرعيّة ، لم يكن التُقى رئيساً لها ، وإنما رئاسة التُقى لها مع ثبوت التكليف ، لا سيما الشرعى . والتقى فى الشرع هو الوَرَع والخوفُ من الله ، وإذا حصل حصَلت الطاعات كلّها ، وانتفت القبائح كلّها ؛ فصار الإنسان معصوما ، وتلك طبقة عالية ، وهى أشرف من جميع الطّبقات التى يُمدح بها الإنسان ، نحو قولنا : جَوادٌ أو شُجاع أو نحوهما ، لأنّهـا طبقة ينتقل الإنسانُ منها إلى الجنّة ودار الثواب الدائم ، وهذه مزيّة عظيمةٌ يَفضُل بها على سائر طبقات الأخلاق .

(٤١٦)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ ، وَبَلَاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ .

***

الشَّرْحُ :

يقول : لا شُبهةَ أنّ الله تعالى هو الّذى أنطقك ، وسدّد لفظَك ، وعلّمك البيانِ كما قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [1] فقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ ذَرَب لسانِهِ وفصاحةَ منطِقه على من أنطقَه وأقدرَه على العبادة ، وقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ بلاغة قوله على من سدّد قولَه ، وجعلَه بليغا حسَنَ التعبير عن المعانى الّتى فى نفسه ، وهذا كمن يُنعِم على إنسانٍ بسيفٍ فإنّه يَقبُح منه أن يَقتُله بذلك السّيف ظُلماً قبحا زائدا على مالَوْ قتَله بغير ذلك السّيف ، وما أحسَنَ قول المتنبّى فى سَيف الدولة :

ولمّا كَسا كعباً ثيابا طغَوْا بها ... رَمَى كلّ ثوب من سِنان بخارقِ [2]

وما يُوجِع الحِرْمانُ من كَفّ حازِم ... كما يُوجِع الحرمانُ من كفّ رازقِ

---

(١) سورة الرحمن ٣ ، ٤

(٢) ديوانه ٢ : ٣٢٢

الأصل :

وقال عليه السلام :

كَفَاكَ أَدَبًا لِنَفْسِكَ اجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ .

* * *

الشرح :

قد قال عليه السلام هذا اللفظ أو نحوه مرارا ، وقد تكلمنا نحن عليه ، وذكرنا نظائر له كثيرة نثرا ونظما .

وكتب بعض الكتاب إلى بعض الملوك في حالٍ اقتضت ذلك :

ماعَلَى ذا افترقنا بِشَبْذَانَ(١) إذ كنا ولا هكذا عهدنا الإخاء

تضرب الناسَ بالمهنَّدة البِيضِ على غدرِهم وتنسَى الوفاء (٢)

---

(١) كذا في د ؛ وهو الصواب والذي في ا شبذر ، وهو تصحيف .

(٢) المهندة : السيوف .

(٤١٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ يعزِّى قوْما :

منْ صبرَ صَبْرَ الأحْرارِ ، وإلَّا سلَا سُلُوَّ الأغْمارِ .

وفى خَبَرٍ آخَرَ أنَّهُ عليهِ السلامُ قالَ لِلأشْعَثِ بْنِ قيسٍ مُعَزِّياً عن ابْنٍ لَهُ :

إن صَبَرْتَ صَبْرَ الأكارِمِ ، وإلَّا سلَوْتَ سُلُوَّ الْبَهائِمِ .

***

الشَّرْحُ :

أخذ هذا المعنى أبو تمّام بل حكاه فقال :

وقال علىٌّ فى التعازى لأشعثٍ وخافَ عليه بعضَ تلك المآثم[1]

أتصبرُ للبَلوى عَزاءً وحِسْبةً فتؤجرَ أم تسلو سُلُوَّ البهـــائم !

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩

الأصـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ في صِفةِ الدُّنيا :

الدُّنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ ؛ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَرْضَها ثَواباً لأَوْليائِهِ ،ولا عِقاباً لأعدائِهِ .

الشَّـرحُ :

قد تقدّم لنا كلام طويل في ذمّ الدنيا .

ومن الكلام المستحسَن قولُه : « تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ » ، والكلمة الثانية أحسنُ وأجمل .

وقرأتُ في بعض الآثار أن عيسى عليه السلام مرّ بقرية وإذا أهلها موتَى في الطرُق والأفنية ، فقال للتلامذة: إنّ هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : ياسيّدَنا ، ودِدْنا أنا عَلِمنا خبرَهم ، فسأل اللهَ تعالى ، فقال له : إذا كان الليلُ فنـادِهم يجيبوك ؛ فلمّا كان الليلُ أشرَف على نَشَزٍ ثمّ ناداهم ، فأجابه مجيب ، فقال : ماحالُـكم ، وما قصّتُـكم ؟ فقال : بِتْنا في عافية ، وأصبَحْنا في الهاوية ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لحبّنا الدنيا ، قال: كيف كان حبّـكم لها ؟ قال : حبّ الصبيّ لأمه ، إذا أقبلتْ فَرِحَ بها ، و إذا أدبرتْ حَزِن عليها وبَـكَى ، قال : فـما بالُ أصحابك لم يجيبونى ؟ قال : لأنّهم ملجَمون بلُجُم من نارٍ بأيدى ملائـكةٍ غِلاظٍ شِداد ؛ قال : فـكيف أجبتَنى أنتَ مِن بينهم ؟ قال : لأنى كنتُ فيهم ، ولم أكن منهم ، فلمّا نزل بهم العـذابُ أصابنى معهم ، فأنا معلّق على شَفِير جهنّم لا أدرِى أنجو منها أم أُكَبْـكَب فيها؟ فقال المسيح لتلامذته : لأَكْل خُبز الشَّعِير بالملح الجريشِ ولبْس المُسُوح والنّوم على المزابل وسِباخ الأرض في حرّ الصيف ، كثيرٌ مع العافية مِن عذاب الآخرة .

الأصْلُ :

وَإنَّ أهْلَ الدُّنيا كَرَكْبٍ ، بَيْناهُمْ حَلُّوا إذْ صاحَ بِهِمْ سائِقُهُمْ فارْتَحَلُوا .

***

الشَّرْحُ :

رُوِي: «بينَاهُم حُلُول»، وبينا هي بَيْن نفسُها ، ووزنها «فَعْلى» ، أُشبِعت فتحةُ النون فصارت ألفا ؛ ثمّ قالوا: «بينما» فزادوا «ما» ، والمعنى واحد ، تقول : بينا نحن نفعل كذا جاء زيد ، أي بين أوقاتِ فعلِنا كذا جاء زيدٌ ، والجملُ قد يضافُ إليها أسماء الزمان نحو قولهم : «أتيتك زَمَنَ الحجّاج أمير » ، ثمّ حذفوا المضافَ الّذى هو أوقات، وَولى الظّرف الذى هو بين الجملة التى أقيمتْ مَقام المحذوف .

وكان الأصمعيّ يخفِض بعدَ « بينا » إذا صَلَح فى موضعه بَين ، ويُنشِد قول أبي ذُؤيب بالكسر :

بَيْنا تَعنُّقِه الكُماة ورَوْغِه يوما أُتِيحَ له جَرِئٌ سَلْفَعُ

وغيرُه يرفَع مابعد « بَينا» و «بينما» على الابتداء والخبر، فأمّا إذ وإذا فإنّ أكثر أهل العربية يمنعون من مجيئهما بعد بَينا و بينما ، ومنهم من يُجيزه ، وعليه جاء كلامُ أميرِ المؤمنين ، وأنشدوا :

بينما النـاسُ على عَلْيائِها إذ هوَوْا فى هُوّةٍ منها فغارُوا

وقالت الحُرَقة بنتُ النُّعمان بن المنذر :

وَبَيْنَا نسوسُ النّاسَ والأمرُ أمرُنا إِذَا نحنُ فيهمْ سُوقةٌ نتنصّفُ[1]

وقال الشاعر :

اِستقدرِ اللهَ خيراً وارضَيَنّ به فبينما العُسْر إذا دارتْ مَيَاسيرُ
وَبَينما المرءُ فى الأحياء مُغْتبِطٌ إذ صارَ فى اللّحْدِ تَعفوه الأعاصيرُ

وممّا جاء فى وصف الدّنيا ممّا يناسب كلامَ أمير المؤمنِين قولُ أبى العَتاهية :

إنّ داراً نحن فيها لدارُ ليس فيهـا لمقيم قرارُ
كم وكمْ قد حلّها من أناسٍ ذَهبَ اللّيلُ بهم والنّهـارُ
فهمُ الرّكْب أصابوا مُناخاً فاستراحوا ساعةً ثم سـاروا
وكذا الدّنيا على ما رأينـا يذهبُ الناسُ وتخلو الدّيارُ

---

(١) فى الأصل « نتصف » وهو غير مستقيم ، والصواب ما أثبتنا .

(٤٢١)

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لابنهِ الحسن عليهِ السلامُ :

يا بُنيَّ ؛ لا تُخلِّفَنَّ وراءكَ شيئاً مِنَ الدُّنيا فإنَّكَ تُخلِّفهُ لأحدِ رجُلَيْنِ : إمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فيـــهِ بطاعَةِ اللهِ فَسعِدَ بما شَقِيتَ بهِ ، وإمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فيهِ بمَعْصِيَةِ اللهِ فشقِيَ بما جَمَعْتَ لَهُ ؛ فَكُنْتَ عَوْناً لهُ على مَعْصِيَتِهِ ؛ وليْسَ أحدُ هذَيْنِ حقيقـاً أنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ .

ويُرْوَى هذا الـكلامُ على وجهٍ آخرَ ، وهو :

أمَّا بَعْدُ ؛ فإنَّ الَّذِي فِي يَدَيْكَ مِنَ الدُّنيا قدْ كان لهُ أهلٌ قَبلَكَ ، وهُوَ صائِرٌ إلَى أهْلٍ بَعْدَكَ ، وإنَّما أنْتَ جامِعٌ لأحَدِ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ عَمِلَ فيما جَمَعْتَهُ بطاعةِ اللهِ فَسعِدَ بما شقيتَ بهِ ، أوْ رَجُلٌ عَمِلَ فِيما جَمَعْتَهُ بمَعْصيةِ اللهِ فَشقِيَ بمـا جَمَعْتَ لَهُ ؛ وَلَيْسَ أحدُ هذَيْنِ أهْلاً أنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ ، أو تَحْـمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ ؛ فارْجُ لِمَنْ مَضَى رَحْمَةَ اللهِ ، ولِمَنْ بَقِيَ رِزْقَ اللهِ تعالى .

* * *

الشَّـرْحُ :

رُوِي : «فإنَّكَ لا تُخلِّفه إلّا لأحدِ رجلين» ، وهذا الفصل نَهيٌ عن الادّخار ، وقد سَبَق لنا فيه كلامٌ مُقنع .

وخلاصةُ هذا الفَصْلِ أنّك إنْ خلّفتَ مالا ؛ فإمّا أن تخلّفه لمن يَعمل فيه بطاعــة الله ، أو لِمَن يَعمل فيه بمعصيته ، فالأوّل يَسعَد بما شَقيتَ به أنتَ ، والثاني يكون مُعانًا

منك على المَعصية بما تركتَه له من المال ، وكلا الأمرين مذموم ، وإنّما قال له : «فارْجُ لمن مضى رحمةَ الله ، ولمن بَقِيَ رزقَ الله» ، لأنّه قال فى أوّل الكلام : «قد كان لهذا المال أهلٌ قَبْلَكَ ، وهو صائرٌ إلى أهلٍ بعدكَ ».

والكلامُ فى ذَمّ الادّخار والجمعِ كثيرٌ ، وللشّعراء فيه مذاهبُ واسعة ومَعانٍ حَسَنة .

وقال بعضهم :

يا جامعاً مانعاً والدّهرُ يَرمُقُه مدبِّرا أيّ باب عنه يُغلِقُهُ

وناسياً كيف تأتيه مَنِيَّتُه أغادِيًا أم بها يَسري فتَطرقُه

جمعتَ مالاً فقل لى هل جَمعتَ له يا جامعَ المالِ أيّاما تُفرّقُهُ

المالُ عندكَ مخزونٌ لوارثه ما المالُ مالُكَ إلّا يومَ تُنفقُهُ

أرْفِه ببالِ فتًى يَغدو على ثقة إنّ الذى قَسم الأرزاقَ يرزُقُهُ

فالعِرْضُ منه مَصُونٌ لا يُدنّسُه والوجهُ منه جديدٌ ليس يُخلِقُه

إنّ القناعةَ من يَحلُلْ بساحتِها لم يَلْقَ فى ظِلّها همًّا يؤرّقُه

(٤٢٢)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لقائلٍ قالَ بحضرتهِ أستغفرُ اللهَ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! أتدري ما الاستِغفارُ ؟ إنَّ للاستِغفارِ درجةَ العِلِّيِّينَ ، وهُوَ اسمٌ واقعٌ على ستَّةِ معانٍ : أوَّلُها النَّدَمُ على ما مضَى ، والثَّاني العَزْمُ على تَرْكِ العَوْدِ إليْهِ أبداً ، والثَّالِثُ أنْ تُؤَدِّيَ إلى المَخلُوقينَ حُقُوقَهُمْ حتَّى تَلقَى اللهَ عزَّ وجلَّ أملَسَ ليْسَ عليْكَ تَبِعَةٌ ، والرَّابِعُ أنْ تَعمِدَ إلى كُلِّ فريضةٍ عليْكَ ضيَّعتَها فتُؤدِّيَ حقَّها ، والخامِسُ أنْ تَعمِدَ إلى اللَّحْمِ الذي نَبَتَ على السُّحْتِ فتُذِيبَهُ بالأحزانِ حتَّى تُلصِقَ الجِلْدَ بالعَظْمِ ، ويَنشأَ بيْنَهُما لَحمٌ جديدٌ ، السَّادِسُ أنْ تُذيقَ الجِسْمَ ألَمَ الطَّاعةِ كما أذقْتَهُ حلاوةَ المَعصيةِ ، فعِنْدَ ذلِكَ تقولُ : أستَغفِرُ اللهَ .

***

الشَّرحُ :

قد رُوِي : « إنَّ الاستغفارَ درجةُ العِلِّيينَ » ، فيكون على تقدير حذف مضاف ، أي أنَّ درَجة الاستغفار درجة العِلِّيّين ، وعلى الرواية الأولى يكون على تقدير حذف مضاف أى أن لصاحب الاستغفار درَجة العلّيين. وهو ها هنا جمعٌ على «فِعِّيل» كضِلِّيل وخِمِّير ، تقول: هذا رجلٌ عِلِّيٌّ ؛ أى كثيرُ العلُوِّ ، ومنه العلِّية للغُرْفة على إحدى اللّفتين ، ولا يجوز ن يفسَّر بما فسَّر به الراوندىّ من قوله : إنه اسمُ السماء السابعة ، ونحو قوله: « هو سِدْرة المنتهى » ، ونحو قوله : « هو موضعٌ تحت قائمةِ العَرْش اليمنى » ؛ لأنه لو كان كذلك لـكان

عَلَمًا ، فلم تدخُله اللّام . كما لا يقال : « الجُهَنّم » ، وكذلك أيضا لا يجوز تفسيرُه بما فسّره الراوندىّ أيضا ؛ قال : العلّيين : جمع علىّ : الأمكنة فى السماء ، لأنه لو كان كذلك لم يُجمع بالنون لأنها تختصّ بمن يَعقل ، وتصلح أن تكون الوجوه الأولى تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفى عِلّيّين ﴾ .

قوله : « نَبَت على السُّحْت » ، أى على الحرام ؛ يقال : سُحْت بالتسكين ، وسُحُت بالضّم ، وأسحَت الرجُل فى تجارتِه ؛ أى اكتَسَب السُّحْت .

***

[فصل فى الاستغفار والتوبة]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضوع كلاماً مختصرا مما يقوله أصحابُنا فى التوبة ؛ فإنّ كلام أميرِ المؤمنين هو الأصل الذى أَخَذَ منه أصحابُنا مَقالَتَهم ، والذى يقولونه فى التوبة ، فقد أتى على جوامِعه عليه السلام فى هذا الفصل على اختصاره .

قال أصحابنا : الكلام فى التوبة يقع من وجوه : منها الكلامُ فى ماهيّة التوبة والكلام فى إسقاطِها الذّمّ والعقاب ، والكلام فى أنه يجب علينا فِعلُها ، والكلام فى شُرُوطها .

أما ماهيّة التوبة فهى النّدم والعَزْم ، لأنّ التوبة هى الإنابة والرّجوع ، وليس يمكن أن يرجع الإنسانُ عمّا فعله إلا بالنّدم عليه ، والعزم على تَرْك معاودته ، وما يتوب الإنسان منه ؛ إمّا أن يكون فعلا قبيحاً ، وإما أن يكون إخلالاً بواجب ، فالتوبة من الفعل القبيح هى أن يَندَم عليه ، ويَعزِم ألا يعود إلى مِثله ، وعَزْمُه على ذلك هو كراهيته لِفعله ، والتوبةُ من الإخلال بالواجب هى أن يَندَم على إخلاله بالواجب

ويَعزم على أداء الواجب فيما بعد .

فأما القول فى أن التوبة تُسقِط العذاب فعندنا أن العقل يقتضى قُبْحَ العقاب بعدالتوبة، وخالف أكثرُ المُرجئة فى ذلك من الإمامية وغيرهم ؛ واحتجّ أصحابُنا بقُبح عقوبةالمسىء إلينا بعد ندمِه واعتذارِه وتنصُّله ، والعلمِ بصِدْقه والعلم بأنّه عازمٌ على ألاّ يعود .

فأما القول فى وجوب التوبة على العُصاة ؛ فلا ريب أنّ الشرع يوجب ذلك ، فأمّا العقل فالقول فيه أنه لا يخلو المكلّف إما أن يَعلم أن معصيته كبيرة ، أو يعلم أنها صغيرة ، أو يجوز فيها كلا الأمرين ؛ فإن علم كونها كبيرة وَجب عليه فى العقول التوبة منها ، لأن التوبة مُزِيلة لضَرَر الكبيرة ، وإزالة المضارّ واجبة فى العقول ، وإن جوّز كونها كبيرة وجوّز كونها صغيرة ، لزمه أيضا فى العقل التوبة منها ، لأنه يأمن بالتوبة من مَضَرّة مخوفة ، وفعل ما يؤمن من المضارّ المخوفة واجب ، وإن علم أنّ معصيته صغيرة ؛ وذلك كمعاصى الأنبياء ، وكمن عصى ثمّ علم بإخبار نبىّ أنّ معصيته صغيرة محبطة ، فقد قال الشيخ أبو علىّ : إنّ التوبة منها واجبة فى العقول ، لأنه إن لم يتب كان مُصِرًّا والإصرار قبيح .

وقال الشيخ أبو هاشم : لا تجب التوبة منها فى العقل بالشرع ، لأنّ فيها مصلحة يعلمها الله تعالى ؛ قال : إنه يجوز أن يخلو الإنسان من التوبة عن الذنب ، ومن الإصرار عليه ، لأنّ الإصرار عليه هو العزم على مُعاوَدة مِثله ، والتوبة منه أن يكره معاودة مِثله مع الندم على ما مضى ؛ ويجوز أن يخلوَ الإنسانُ من العَزْم على الشىء ، ومن كراهته .

ومال شيخنا أبوالحسين رحمه الله إلى وجوب التوبة ها هنا عقلا ، لدليلٍ غيرِ دليل أبى علىّ رحمه الله .

فأما القولُ فى صفات التَّوبة وشروطها فإنها على ضربين :

أحدُهما يعمّ(١) كلّ توبة ، والآخر يختلف بحَسَب اختلاف ما يتاب منه ، فالأول هو النّدم والعَزْم على ترك المعاوَدة .

وأما الضرب الثانى ؛ فهو أنّ ما يَتُوب منه المكلَّف إما أن يكون فِعْلا أو إخلالا بواجب ؛ فإن كان فعلا قبيحا وَجَب عند الشيخ أبى هاشم رحمه الله أن يندمَ عليه ، لأنه فعل قبيح ، وأن يكره مُعاوَدة مثله لأنه قبيح ، وإن كان إخلالا بواجب وَجَبَ عليه عنده أن يَندمَ عليه ، لأنه إخلالٌ بواجب ، وأن يعزم على فعل مِثلِ ما أخَلّ به لأنه واجب ؛ فإن نَدِم خوف النار فقط ، أو شوقا إلى الجنة فقط ، أو لأنّ القبيح الذى فعله يضرّ ببدنه كانت توبته صحيحة(٢) ، وإن ندم على القبيح لقُبْحِهِ ولخوف النار ، وكان لو انفرد قبحه ندِم عليه ، فإنّ توبته تكون صحيحةً ، وإن كان لو انفرد القبحُ لم يَندَم عليه ؛ فإنه لا تكون تَوبتُه صحيحةً عنده ، والخلاف فيه مع الشيخ أبى علىٍّ وغيره من الشيوخ رحمهم الله ؛ وإنما اختار أبو هاشمٍ هذا القول لأنّ التوبة تَجرِى مَجرَى الاعتذار بيننا ؛ ومعلوم أن الواحد منّا لو أساء إلى غيره ثمّ نَدِم على إساءته إليه واعتذر منها خوفا من معاقبته له عليها ، أوْ من معاقبة السلطان حتى لو أمن العقوبة ، لما اعتذر ولا نَدِم ، بل كان يُواصِل الإساءة ، فإنه لا يسقط ذمُّه ، فكذلك التّوبة خوف النار لا لقُبح الفعل .

وقد نقل قاضى القُضاة هذا المذهب عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسن البَصْرىّ وعلىّ بن موسى الرِّضا والقاسم بن إبراهيم الزَّينبىّ .

قال أصحابُنا : وللتوبة شروط أُخَرُ تختلِف بحَسَب اختلاف المعاصى ، وذلك أنّ

(١) د : « يعمر » . (٢) فى ب : « توبة كانت صحيحة » . وصوابه من د ، ا

ما يتوب منه المكلّف ؛ إما أن يكون فيه لآدمىّ حقٌّ أو لا حقّ فيه لآدمىّ ، فما ليس للآدمىّ فيه حقّ فنحو ترْكِ الصّلاة ، فإنّه لا يجب فيه إلّا النّدم والعَزْم على ماقدّمنا وما لآدمىّ فيه حقٌّ على ضربين: أحدُهما أن يكون جنايةً عليه فى نفسِه أو أعضائِه أو مالِه أو دِينِه ، والآخَر ألّا يكون جِنايةً عليه فى شىء من ذلك ، فما كان جنايةً عليه فى نفسِه أو أعضائِه أو مالِه، فالواجبُ فيه النّدَم والعَزْم ، وأن يَشرَع فى تَسليم بدل ما أتْلَف ، فإن لم يتمكّن من ذلك لِفقرٍ أو غيره عَزَم على ذلك إذا تمكّن منه ، فإنْ مات قبلَ التمكّن لم يكن من أهل العِقاب ، وإن جَنَى عليه فى دينه بأن يكون قد أضلَّه بشُبْهة أستَزلّه بها ؛ فالواجبُ عليه مع النّدم العَزْم والأجتهاد فى حَلّ شبهتِه من نفسِه ، فإن لم يتمكّن من الاجتماع به عزم على ذلك إذا تمكّن، فإنْ ماتَ قبلَ التمكّن ، أو تمكّن منه وأجتهَد فى حلّ الشبهة فلم تنحلّ من نفس ذلك الضالّ ، فلا عقابَ عليه ؛ لأنّه قد أستفْرَغ جهدَه ؛ فإن كانت المعصية غيرَ جناية نحو أن يَغتابه أو يَسمَع غيبتَه فإنّه يَلزَمه النّدم والعَزْم ، ولا يلزَمه أن يستحلّه أو يعتذرَ إليه ، لأنّه ليس يلزمه أرْشٌ[1] لمن أغتابه فيستحلّه ، ليَسقُط عنه الأرْشُ ، ولا غمّ فيزيل غمّه بالأعتذار ، وفى ذكر الغِيبَة له ليستحِلّه فيزيل غمّه منها إدخالُ غمّ عليه، فلم يَجُزْ ذلك ، فإن كان قد أسمَع المغتابَ غيبَته فذلك جِنايةٌ عليه ، لأنّه قد أوصَل إليه مَضرّة الغمّ ، فيَلزَمه إزالة ذلك بالأعتذار .

---

(٢) الأرش : دية الجراحات ؛ وقيل هو الجراحات نفسها تكون على قدر معلوم .

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ : الحِلْمُ عَشِيرَةٌ .

***

الشَّـرْحُ :

كان يقال : الحلم جنودٌ مجنَّدة لا أرزاقَ لها .

وقال عليه السلام : وجدتُ الأحتمالَ أنصرَ لى من الرجال .

وقال الشاعر :

وللكفُّ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّماً أضرُّ له من شَتْمه حينَ يشتم

وكان يقال : مَن غَرَس شجرة الحِلْم، اجتنَى ثمرةَ[1] السِّلْم .

وقد تقدّم من القول فى الحِلْم مافيه كفاية .

---

(٢) فى ب « شجرة » وهو تصحيف .

(٤٢٤)

الأصل :

وقال عليه السلام :

مِسْكِينُ ابْنُ آدَمَ ! مَكْتُومُ الْأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ .

***

الشرح :

قد تقدّم هاهنا خبر المبتدأ عليه ، والتقدير: «ابنُ آدم مسكين» ، ثمّ بيّن مَسْكَنَتَه من أين هي ؟ فقال : إنّها من ستّة أوجه : أجله مكتوم لا يَدرِي مَتَى يُخترَم ، وعِلَلُه باطنة لايَدرِي بها حتّى تَهيجَ عليه ، وعَمَلُه محفوظ ؛ ﴿ مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [(١)] ، وقَرْص البَقّة يؤلمه ، والشَّرْقة بالماء تَقتُله ، وإذا عَرِق أنتنته العَرْقة الواحدة وغيّرتْ رِيحَه ؛ فمن هو على هذه الصّفات فهو مسكين لا محالة ، لا ينبغي أن يأمَن ولا أن يَفْخَر .

---

(١) سورة الكهف ٤٩ .

الأصْلُ :

وَيُرْوَى أنَّهُ عليهِ السلامُ كانَ جالساً فى أصحابهِ إذ مرّتْ بهمْ امرأةٌ جميلةٌ فرمقَها القومُ بأبصارِهم ، فقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أبصارَ هذهِ الفُحُولِ طَوامحُ ، وَإنَّ ذلِكَ سَبَبُ هِبابِهَا ؛ فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إلَى امْرَأةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلامِسْ أَهْلَهُ ، فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأةٌ كَامْرَأتِهِ .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوارِجِ : قَاتَلَهُ اللهُ كَافِراً ، مَاأَفْقَهَهُ !

قَالَ : فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ ؛ فقالَ عليهِ السلامُ :

رُوَيْداً ، إنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ .

***

الشَّرْحُ :

تقول : هَبَّ الفحْل والتَّيْسَ يهِبّ بالكسر هَبيبا أو هبابا ؛ إذا هاجَ للضِّراب أو للسِّفاد ، والهباب أيضا : صَوتٌ ، والتَّيْسُ إذا هبّ فهو مِهْباب ؛ وقد هَبْهبته ، أى دعوته لِيَنْزُوَ (١) فتهبهب ؛ أى تزغزع .

وسألنى صديقُنا علىُّ بن البِطْريق عن هـذه القِصّة فقال : ماباله عَفَا عن الخارجىّ وقد طَعَن فيه بالكفر ، وأنكر على الأشعث قوله : « هـذه عليكَ لا لكَ » ، فقال :

---

(١) نزا : وثب .

مايُدْريك عليكَ لعنةُ الله ماعليّ مما لى ! حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر ! وماوَاجَهَه به الخارجىّ أفظع ممّا واجَهَه الأشعث ! فقلتُ : لا أدرى .

قال : لأنّ كلّ صاحب فضيلة يعظُم عليه أن يُطعَن فى فضيلته تلك ، ويُدَّعَى عليه أنه فيها ناقص ، وكان علىٌّ عليـه السلام بيت بالعلم ، فلمّا طعن فيه الأشعث طعن بأنّك لاتَدْرى ماعليك ممّا لك ، فشَقّ ذلك عليـــه ، وأمتَعَض منـه ، وَجَبَهه ولعَنَه ؛ وأمّا الخارجى فلم يَطعَن فى عِلمه ، بل أثبتَه له ، واعتَرَف به ، وتعجّب منـه ، فقال : « قاتَلَه الله كافراً ما أفقهَه ! » ، فاغتَفَر له لفظةَ « كافر » بما أعترف له به من علوّ طَبَقته فى الفِقْه ، ولم يَخْشُن عليه خُشونته على الأشعث ، وكان قد مَرَنَ على سَماع قول الخوارج : أنت كافر ، وقد كفرتَ ، يعنُون التحكيم ، فلم يَحفِل بتلك اللّفظة ونَهى أصحابَه عن قتلِه محافظة ورعايةً له على مامَدَحه به .

(٤٢٦)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ ، مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ .

***

الشرحُ :

يقول عليه السلام : كَفَى الإنسان من عقله مايفرقُ به بين الغيّ والرّشاد ، وبين الحقّ من العقائد والباطل ، فإنّه بذلك يتمّ تكليفُه ، ولا حاجةَ فى التّكليف ، والفرْق بين الغَيّ والرُّشْد إلى زيادة على ذلك نحو التّجارب التى تُفيده الحزْم التامّ ، ومعرفة أحوالِ الدّنيا وأهلِها ، وأيضا لاحاجةَ له إلى أن يكون عندَه من الفِطْنة الثّاقبة والذّكاء التّام مايَستنبِط به دقائقَ الكلام فى الحِكْمة والهَنْدسة والعلوم الغامِضَة ، فإنّ ذلك كلّه فَضْل مستغنًى عنه ، فإنْ حُصّل للإنسان فقد كَمُل ، وإن لم يُحصّل للإنسان فقد كفَاه فى تكليفه ونجاتِه من مَعاطِب العِصْيان مايفرِق به بين الغَيّ والرّشاد ، وهو حصول العلوم البديهيّة فى القَلْب ، وماجَرَى مَجراها من علوم العادات ، ومايذكره أصحابُنا فى باب التكليف .

(٤٢٧)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

افْعَلُوا الْخَيْرَ ، وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي ، فَيَكُونَ وَاللهِ كَذَلِكَ .

***

الشرح :

القليلُ من الخير خيرٌ من عَدَم الخير أصلا .

قال عليه السلام : لا يقولَنّ أحدُكم إنّ فلاناً أولَى بفعل الخير منّي ؛ فيكون والله كذلك ، مثاله قوم مُوسِرون في محلّة واحدة ، قصَد واحدا منهم سائلٌ فردّه ، وقال له : اذهبْ إلى فلان ، فهو أولَى بأن يتصدّق عليك منّي ، فإنّ هذه الكلمة تقال دائما . نَهَى عليه السلام عن قولِها وقال : فيكونَ والله كذلك ، أي أنّ الله تعالى يوفّق ذلك الشخصَ الّذي أُحيلَ ذلكَ السائلُ عليه ، ويُيسّر الصّدَقة عليه ، ويُقوّي دواعيَه إليها ، فيَفعَلها فتكون كلمة ذلك الإنسان الأوّل قد صادفتْ قدَرا وقضاء ، ووَقَع الأمر بمُوجَبِها .

(٤٢٨)

الأصْلُ :

إنَّ لِلخَيْرِ وَلِلشَّرِّ أَهْلاً ، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ .

***

الشَّرْحُ :

يقول عليه السلام : إنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الخير وتركته، فسوف يكفيكه بعضُ الناس ممّن جعله الله تعالى أهلاً للخير وإسداء المعروفِ إلى الناس ، وإنْ عنّ لك بابٌ من أبواب الشّر فتركْته، فسوفَ يكفيكه بعضُ الناس ممّن جعلتْهم أنفسُهم وسوء اختيارِهم أهلا للشرّ وأذى الناس ؛ فاُخترْ لنفسك أيّما أحبّ إليك ، أن تحظَى بالمحمَدة والثواب ، وتفعل ما إن تركته فعلَه غيرُك وحظِيَ بحَمْده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيّما أحبّ إليك ، أن تَشقَى بالذّم عاجلاً ، والعقابِ آجلاً ، وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرُك ، وبلغتَ غرضك منه على يدِ غيرِك ، أو أن تفعله ، ولا ريبَ أنّ العاقلَ يختارُ فعلَ الخير وترك الشّر إذا أفكَر حقّ الفِكْر فيما قد أوضحْناه [1] .

---

(١) ا : « وضح » .

(٤٢٩)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ ، أَصْلَحَ اللهُ عَلانِيَتَهُ ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ ، كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ، أَحْسَنَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس .

***

الشرح :

لا ريبَ أنّ الأعمال الظاهرة تبعٌ للأعمال الباطنة ، فمن صَلَح باطنُه صَلَح ظاهرُه وبالعكس ، وذلك لأنّ القلبَ أميرٌ مسلَّطٌ على الجوارح ، والرعيّة تَتْبَع أميرَها ولا ريبَ أنّ من عَمِل لدينهِ كفاهُ الله أمرَ دُنْياه ، وقد شَهِد بذلك الكتابُ العَزيزُ في قولهسبحانه: ﴿ ومَن يتّقِ اللهَ يَجعلْ له مَخرَجاً ويَرْزُقْه من حيث لا يحتَسِب ﴾ [1] .

ولهذا أيضا عِلّة ظاهرة ؛ وذاك أنّ من عَمِل لله سبحانه وللدّين فإنه لا يخفى حالُه في أكثر الأمر عن الناس ، ولا شبهة أنّ الناس إذا حَسُنَتْ عقيدتُهم في إنسان وعَلِموا مَتانَة دينه بوّبوا له إلى الدّنيا أبواباً لا يحتاجُ أن يتكلّفها ، ولا يَتعَب فيها ، فيأتيه رزقُه من غيرِ كُلفة ولا كَدٍّ ؛ ولا ريبَ أنّ من أحسَن فيما بينَه وبين الله أحسَنَ الله مابينَه وبين الناس ، وذلك لأنّ القلوبَ بالضّرورة تَميلُ إليه وتحبّه ، وذلك لأنّه إذا كان مُحسِنا بينَه وبين الناس عَفّ عن أموالِ الناس ودِمائِهم وأعراضِهم ، وتَرَكَ الدخولَ فيما لا يَعنِيه ، ولا شبهةَ أنّ من كان بهذه الصّفة فإنّه يحسن مابَينَه وبين الناس .

---

(١) سورة الطلاق آية (٢ ، ٣)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ ، والعَقْلُ حُسَامٌ قاطِعٌ ، فاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ .

***

الشرح :

لما جعل الله الحِلْمَ غِطاء ، والعقل حُساماً أمره أن يستر خَلَل خُلُقه بذلك الغِطاء وأن يُقاتِل هَواهُ بذلك الحسام ، وقد سبق القولُ في الحلم والعقْل .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ للهِ عِباداً يَخْتَصُّهُمْ بالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ العِبادِ ، فَيُقِرُّها في أيْدِيهِمْ ما بَذَلُوها فإذَا مَنَعُوها نَزَعَها مِنْهُمْ ، ثُمَّ حَوَّلَها إلى غَيْرِهِمْ .

***

الشرح :

قد ذكرْنا هذا المعنى فيما تقدّم ، وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا ، وقريبٌ من ذلك قولُ الشاعر :

وبالنّاس عاشَ الناسُ قِدْماً ولم يَزَلْ   من الناسِ مَرْغوبٌ إليـه وراغِبُ

وأشدّ تصريحاً بالمعنى قول الشاعر :

لم يعطِك اللهُ ما أعطـاكَ من نِعمٍ   إلّا لتوسِـع من يرْجوكَ إحسانَا

فإنْ منَعت فأخلِقْ أن تُصادِفهـا   تطير عنكَ زرافاتٍ ووِحْـدانَا

الأصل :

وَقالَ عليه السلامُ :

لَا يَنْبَغِى لِلْعَبْدِ أنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْن : العافِيَةِ والْغِنَى ، بَيْنَا تَرَاهُ مُعافًى إذْ سقِمَ وبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إذ افْتَقَرَ .

* * *

الشرح :

قد تقدَّم القولُ فى هذا المعنى .

وقال الشاعر :

وبينما المرء فى الأحياءِ مُغْتَبِطٌ   إذ صارَ فى اللَّحْدِ تَسْفِيهِ الاعاصيرُ

وقال آخَرُ :

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكِنٌ   قد يُوافِي بالْمَنِيَّاتِ السَّحَرْ

وقال عُبيدُ الله بنُ طاهر :

وإذا ما أعارَكَ الدهرُ شيئاً   فهوَ لا بدَّ آخِــذٌ ما أعارَا

آخَر :

يَغُرُّ الفَتَى مَرُّ الليالى سَليمةً   وهُنَّ به عمّا قليلٍ عَـوائِرُ

وقال آخَر :

ورُبَّ غَنِيٍّ عظيمِ الثَّراء   أمسَى مُقِلًّا عَديمًا فَقِيرَا

وكم باتَ مِنْ مُتْرَفٍ فى القُصور   فعُوِّضَ فى الصبح عنها القُبورَا

(٤٣٣)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ :

مَنْ شَكا الحاجَةَ إلَى مُؤْمِنٍ فَكأَنّما شَكاهَا إلى اللهِ ، وَمَنْ شَكاها إلى كافرٍ فَكأنّما شَكا اللهَ .

* * *

الشَّرحُ :

قد تقدّم القولُ فى شَكوَى الحالِ وكراهيتها ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام يدلُّ على أنه لا يَكرَه شَكوَى الحالِ إلى المؤمن ، ويَكرَهها إلى غير المؤمن ، وهذا مذهبٌ دِينىٌّ غيرُ المذهب العُرْفىّ .

وأكثر مذاهبِه ومقاصده عليه السلام فى كلامه يَنحو فيها نحوَ الدِّين والوَرَع والإسلام وكأنه يجعَل الشكوى إلى المؤمن كالشكوى إلى الخالق سبحانه ، لأنه لا يشكو إلى المؤمن إلّا وقد خَلَتْ شكْواه من التسخُّط والتأفّف ، ولا يشكُو إلى الكافر إلّا وقد شابَ شَكْواه بالاستزادة والتّضجُّر ، فافترقَت الحالُ فى الموضعين .

فأمّا المذهب المشهورُ فى العُرْف والعادة فاستهجانُ الشّكوى على الإطلاق لأنّها دليلٌ على ضَعْف النّفس وخذلانها ، وقلّة الصّبر على حوادث الدّهر ، وذلك عندَهم غيرُ محمود .

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى بعضِ الأعيادِ :

وإنّما هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللهُ صِيامَهُ ، وشَكَرَ قِيَامَهُ ، وكُلُّ يَوْمٍ لَا تَعْصِي اللهَ فيهِ فَهُوَ يَوْمُ عِيدٍ .

***

الشَّرْحُ :

المعنَى ظاهرٌ ، وقد نَقَله بعضُ المُحدَثين إلى الغزَل فقال :

قالوا أتَى العِيدُ قلتُ أهلاً   إنْ جاءَ بالوَصْلِ فهوَ عِيدُ
منْ ظَفِرتْ بالمُنَى يداهُ   فكُلّ أيامِهِ سُعودُ

ورأيتُ بعض الصُّوفيّة وقد سَمِع هٰذين البيتين من مُغَنٍّ حاذقٍ ، فطَرِب وصَفّق، وأخذَهما لمعنًى عنده .

وقد قال بعضُ المُحدَثين فى هذ المعنى أيضا .

قالوا أتَى العِيدُ والأيامُ مشرقةٌ   وأنتَ بلٍ وكلُّ امرئٍ مسرورُ
فقلتُ إنْ واصَلَ الأحبابُ كان لنا   عيداً وإلّا فهذا اليومُ عاشُورُ

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أعْظَمَ الحسَرَاتِ يوْمَ القِيامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مالاً في غَـيْرِ طاعَةِ اللهِ فوَرَّثَهُ رَجُـلاً فأنفَقَهُ في طاعَةِ اللهِ سُبْحانَهُ فَدَخَلَ بِهِ الجَنَّةَ ، ودَخَلَ الأوَّلُ بِهِ النّـارَ .

***

الشَّـرْحُ :

كان يقال لعمر بنِ عبد العزيز بن مروان : السعيد ابن الشقيّ ، وذلك أنّ عبدَ العزيز ابن مروان مَلَكَ ضياعاً كثيرة بمصر والشام والعراق والمدينة من غير طاعة الله ، بل بسلطان أخيه عبد الملك ، وبولاية عبد العزيز نفسه مصر وغيرها ، ثمّ تركها لابنه عمر ، فكان يُنْفِقُها في طاعة الله سبحانه وفي وجوه البِرّ والقُرُبات ، إلى أن أفضَت الخلافةُ إليه ، فلما أفضت إليه أخرَجَ سِجلاّت عبد الملك بها لعبد العزيز فمزّقها بمحضَر من الناس ، وقال : هذه كُتِبتْ من غير أصل شرعيّ ، وقد أعدْتُها إلى بيت المـال .

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أخسَرَ النَّاس صَفْقَةً ، وأخيَبَهُمْ سَعْياً ، رَجُلٌ أخلَقَ بَدَنَهُ في طَلَبِ مالِهِ[1] ، ولَمْ تُساعِدْهُ المَقادِيرُ على إرادَتِهِ ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنيا بِحَسْرَتِهِ ، وقَدِمَ عَلَى الآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ .

***

الشرح :

هذه صورةُ أكثر الناس ، وذلك لأنّ أكثرَهم يَكُدُّ بدنَه ونفسَه في بلوغ الآمال الدّنيوية ، والقليل منهم من تساعِده المقاديرُ على إرادته ، وإن ساعدَتْه على شيء منها بقِيَ في نفسه ما لا يَبلُغه ، كما قيل :

نَروحُ ونَغـدُو لحاجاتنا   وحاجةُ من عاش لا تَنقضي
تَموتُ مـع المرء حاجاتُه   وتَبقَى له حاجَةٌ ما بَقِي

فأكثرُهم إذَنْ يَخرُج من الدنيا بحَسْرته ، ويَقْدِم على الآخرة بتَبِعته ، لأنّ تلك الآمال التي كانت الحركةُ والسعيُ فيها ليستْ متعلّقةً بأمور الدّين والآخرة ، لا جرَم أنها تبِعات وعُقوبات ، ونسأل الله عَفوَه .

---

(١) في د « آماله » ، وهو مستقيم أيضاً

(٤٣٧)

الأصلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

الرِّزْقُ رِزْقانِ : طالِبٌ ومَطْلُوبٌ ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيا طَلَبَهُ المَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْها ، ومَنْ طلبَ الآخِرةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْها رِزْقَهُ[1] .

***

الشَّرحُ :

هذا تحريضٌ على طلب الآخرة ، ووَعْدٌ لمن طَلَبها بأنه سيُكفى طلب الدنيا ، وإنَّ الدنيا ستَطلبُه حتى يستوفيَ رزقَه منها .

وقد قيل : مَثَل الدّنيا مَثَل ظِلِّك ، كلّما طلبتَه بَعُدَ عنك ، فإن أدبرْتَ عنه تَبِعَكَ .

(١) د « رزقه منها »

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أوْليـاءَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إلى باطِنِ الدُّنيا إذا نَظَرَ النَّاسُ إلى ظاهِرِها واشْتَغَلُوا بآجِلِها إذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعاجِلِها ، فأماتُوا مِنْهـا ما أَحَسُّوا أنْ يُمِيتَهُمْ وتَرَكُوا مِنْها ما عَلِمُوا أنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ ، ورَأَوْا اسْتِكْثارَ غَيْرِهِمْ مِنْها اسْتِقْلالاً ، ودَرَكَهُمْ لَهَا فَوَاتاً ، أعداءٌ لِمـا سالَمَ النَّاسُ ، وسِلْمٌ لِمَنْ عادَى النَّاسُ ، بِهِمْ عُلِمَ الْكِتابُ ، وبِهِ عُلِمُوا ، وبِهِمْ قامَ كِتابُ اللهِ تعالى ، وبِهِ قامُوا ، لا يَرَوْنَ مَرْجُوًّا فَوْقَ ما يَرْجُونَ ، ولا مَخُوفاً فَوْقَ ما يَخافُونَ .

***

الشَّرْحُ :

هذا يَصلُح أن تجعله الإماميّة شرح حال الأئمّة المعصومين على مذهبهم ، لقولِه: فوقَ ما يرْجون، بهم عُلِم الكتاب ، وبه عُلموا ؛ وأمّا نحن فنجعله شرح حالِ العلماء العارفين وهم أولياء الله الذين ذكرهم عليه السلام لما نظر الناسُ إلى ظاهر الدنيا وزُخْرُفها من المناكح والملابس والشّهوات الحِسّية ، نظروا همْ إلى باطن الدنيا ، فاشتغلوا بالعلوم والمعارف والعبادة والزهد فى المَلاذّ الجُسْمانيّة ، فأماتُوا من شَهَواتِهم وقُواهم المذمومة كقوّة الغَضب وقوّة الحسد ما خافوا أن يُميتَهم ، وترَكُوا من الدنيا اقتناء الأموال لعلمهم أنها ستترُكهم ، وأنه لا يمكن دوامُ الصُّحْبة معها ، فكان استِكثارُ الناس من تلك الصفات استقلالا عندهم ، وبلوغ الناس لها فوْتا أيضا عندهم ، فهم خَصْم لِما سالَمَه الناسُ

مِن الشهوات ، وسَلِمَ لِما عاداه الناس من العُلوم والعبادات ، وبهم عُلم الكتاب ، لأنه لولاهم لما عُرِف تأويل الآيات المتشابهات ، ولأخَذَها الناسُ على ظواهرها فضلّوا وبالكتاب عُلموا ، لأنّ الكتابَ دلّ عليهم ، ونبّه الناس على مواضعهم ، نحو قوله : ﴿ إنما يَخشَى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ ﴾[1] .

وقوله : ﴿هل يستَوى الذين يعلمون والذين لا يَعلمون ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ومَن يُؤتَ الحكمَةَ فقد أُوتِىَ خيراً كثيراً ﴾[3] .

ونحو ذلك من الآيات التى تنادى عليهم ، وتَخطُب بفَضْلهم ، وبهم قام الكتاب لأنهم قرّروا البَراهين على صِدْقه وصحة وروده من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ولولاهم لم يَقُم على ذلك دَلالة للعوامّ ، وبالكتاب قاموا ، أى باتباع أوامر الكتاب وآدابه قاموا ، لأنه لولا تأدّبهم بآداب القرآن ، وامتثالهم أوامره ؛ لما أغنى عنهم عِلمُهم شيئاً ، بل كان وَبالُه عليهم ، ثم قال : إنّهم لا يَرَوْن مَرْجُوّاً فوق ما يَرْجون ، ولا مَخُوفا فوق ما يخافون ، وكيف لا يكونون كذلك ومَرْجُوُّهم مجاوَرة الله تعالى فى حظائر قُدْسه ، وهل فوق هذا مَرْجُوّ لراجٍ ، ومخوفهم سخط الله عليهم وإبعادُهم عن جنَابه ، وهل فوق هذا مَخوفٌ لخائف .

---

(١) سورة فاطر ٢٨
(٢) سورة الزمر ٩
(٣) سورة البقرة ٢٦٩

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

اُذْكُروا انقِطَاعَ اللّذّاتِ ، وبَقاءَ التَّبِعاتِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ في نحو هذا مرارا ؛ وقال الشاعر :

تفنى اللّذاذةُ ممن نال بُغْيَتَهُ من الحرام ، ويَبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقب سُوءٍ في مَغبّتها لا خير في لذّة من بعدها النّارُ

وراوَدَ رجل امرأة عن نفسها ، فقالت له : إن امرأً يبيع جنّةً عرضُها السموات والأرض بمقدار إصبَعين لجاهلٌ بالمساحة ؛ فاستحيا ورجَع .

(٤٤٠)

الأصْلُ :

وقالَ عليه السلامُ : أُخْبُرْ تَقْلَهْ .

وقالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى : ومنَ النَّاسِ مَنْ يرْوِى هذا لرسُولِ اللهِ صلّى الله عليهِ وآلهِ ، ومِمّا يُقَوِّى أنَّهُ مِنْ كلامِ أميرِ المؤمنينَ عليهِ السلامُ ماحَكاهُ ثعلب قالَ : حدَّثنا ابنُ الأعرابيّ قالَ : قال المأمون : لولَا أنّ عليًّا عليه السلامُ قالَ : أُخْبُرْ تَقْلَهْ لقلتُ أنا اِقْلَهْ تَخْبُرْ .

***

الشرحُ :

المعنى اختَبِرِ الناسَ وَجرِّبهم تُبغِضهم ، فإن التجربةَ تكشف لك عن مَساوِيهم وسوءِ أخلاقهم ، فَضربَ مَثلاً لمن يُظَنّ به الخيرُ وليس هناك ، فأمّا قول المأمون : لولا أنّ عليًّا قاله لقُلتُ : اِقْلَهْ تَخْبُرْ ، فليسَ المراد حقيقة القِلَى ، وهو البُغض بل المراد الهجْر والقطيعة ، يقول : قاطِعْ أخاك مجرّبًا له هل يَبقَى على عَهدِك أم يَنقُضه ويحوّله عنك .

ومن كلام عُتبةَ بن أبي سُفْيان . طيّروا الدّم في وجوه الشّباب ، فإن حَلُموا وأحسَنوا الجواب فهم هم ، وإلا فلا تَطمَعوا فيهم ، يقول : أغضِبوهم لأن الغضبان يَحمرّ وجهه ، فإن ثبَتوا لذلك الكلام المُغضِب وحَلُموا وأجابوا جوابَ الحليم العاقل ، فهم ممّن يُعقَد عليه الخِنصِر ويُرْجَى فلاحُه ، وإن سَفِهُوا وشتَموا ولم يَثبتُوا لذلك الكلام فلا رجاء لفلاحِهم . ومن المعنى الأوّل قولُ أبي العَلاء :

جرّبتُ دهري وأهليه فما تَرَكتْ ... لىَ التجاربُ فى وُدِّ امرئٍ غَرَضَا[1]

وقال آخر :

وكنتُ أرى أنّ التجارِبَ عُدَّةٌ ... فخانَتْ ثِقاتُ الناسِ حتى التجارِبُ

وقال عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

رأيتُ فُضَيْلاً كان شيئاً ملفَّفاً ... فأبرزَه التمحيصُ حتى بدا لِيَا[2]

آخَر :

عَتَبتُ على سَلْمٍ فلمّا فقدْتُه ... وجرّبتُ أقواماً رجعتُ إلى سَلْمِ

مِثلُه :

ذَمَمتُك أوّلاً حتّى إذا ما ... بلوتُ سواكَ عادَ الذمّ حَمْدا

ولم أَحمَدْكَ من خَيرٍ ولكن ... وَجدتُ سِواكَ شرًّا منك جِدّا

فعُذْتَ إليكَ مُضطرًا ذَليلاً ... لأنّى لم أجدْ مِن ذاكَ بُدّا

كمجهودٍ تحامَى أكلَ مَيْتٍ ... فلمّا اضطرّ عادَ إليه شَدّا

الّذى يتعلق به غَرَضُنا من الأبيات هو البَيْتُ الأوّل ، وذكرنا سائرَها لحُسْنِها .

---

(١) سقط الزند ٦٥٦

(٢) الأغانى ١٢ : ٢١٤ ، وروايته « رأيت قصيا » .

(٤٤١)

الأصل:

وقالَ عليهِ السلامُ:

ما كانَ اللهُ عزّ وجل لِيفتحَ على عبدٍ بابَ الشكرِ ويُغلِقَ عنهُ بابَ الزيادةِ، ولا لِيفتحَ على عبدٍ باب الدعاء، ويُغلِقَ عنهُ بابَ الإجابةِ، ولا لِيفتحَ عليهِ بابَ التوبةِ، ويُغلِقَ عنهُ بابَ المغفرةِ.

***

الشرح:

قد تقدّم القولُ في الشكر واقتضائِه الزيادة [و](١) اقتضاء الدعاء الإجابةَ؛ والتوبة: المغفرة؛ على وجهِ الاستقصاء في الجميع.

الأصلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

أوْلَى النّاسِ بالكَرَمِ مَن عرَّقَتْ فِيهِ الكِرَامُ .

الشَّرحُ :

أعرَقت وعَرَّقت فى هـذا المَوْضع بمعنًى ، أى ضربتْ عروقُهُ فى الكَرَم ، أى له سَلَف وآباء كرامٌ . وقال المبّرد : أنشدنى أبو محلِّم السَّعدىّ :

إنّا سأَلنا قومَنا فخيارُهم … من كان أفضلُهم أبوه الأفضلُ[1]

أعطَى الّذى أعطَى أبوه قبلَه … وتبخّلتْ أبناءُ من يتبخّلُ

قال : وأنشدَنى أيضا فى المعنى :

لَطَلْحةُ بن خُنَيْمٍ حين تسألُه … أندَى وأكرمُ من فِندِ بنِ هَطّالِ[2]

وبيتُ طلحة فى عزٍّ ومَكرُمةٍ … وبيت فِندٍ إلى رِبْقٍ وأحمالِ[3]

ألَا فتى من بنى ذُبْيان يَحمِلنى … وليس يَحمِلنى إلا ابنُ حَمّالِ[4]

فقلتُ طلحة أولَى من عَمَدتُ له … وجئتُ أمشى إليه مَشْىَ مُختالِ

مُستيقِناً أن حَبْلِي سوف يُعلِقهُ … فى رأس ذَيّالة أو رأسِ ذَيّالِ[5]

---

(١) الكامل ١ : ٣٦٣ ، وروايته : « أبوه الأول » .

(٢) الكامل ١ : ٣٦٣ ، وروايته : « لطلحة بن حبيب »

(٣) ربق : حبل فيه عدة عرا ، تشد به البهم . وأحمال : جمع حمل ، بالتحريك ؛ وهو الخروف .

(٤) قال أبو العباس : « يعنى ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر »

(٥) قوله : « فى رأس ذيالة » ، يعنى فرسا أنثى أو حصانا . والذيال : الطويل الذنب

وقال آخر :

عندَ المُلوكِ مَضرّةٌ وَمنـافِعُ   وأرَى البَرامِكَ لا تَضُرُّ وتَنفَعُ
إنّ العُروقَ إذا استَسَرَّ بهاالثّرى   أثْرَى النّباتُ بها وطابَ المَزرَعُ
وإذ جهلتَ من امرىءٍ أعراقَه   وقـديمَه فانظر إلى مايَصْنَعُ

وقال آخر :

إنّ السّريّ إذا سرَى فبِنَفْسِه   وابنُ السّرِيّ إذا سَرَى أسرَاهُما

وقال البُحتريّ :

وأرى النّجابةَ لا يكونُ تَمامُها   لنَجيبِ قومٍ ليسَ بابنِ نجيبِ [1]

---

(١) ديوانه ١ : ٥٧

الأصل

وَسُئِلَ عليهِ السَّلامُ : أيُّما أفضَلُ ؟ العَدْلُ أوِ الجودُ ؟ فقالَ :

العَدْلُ يَضَعُ الأمُورَ مَوَاضِعَها ، والجُودُ يُخْرِجُها مِنْ جِهَتِهَا ، والعَدْلُ سائِسٌ عامٌّ ؛ والجُودُ عارِضٌ خاصٌّ ، فالعَدْلُ أشْرَفُهُما وأفْضَلُهُما .

***

الشرح :

هذا كلامٌ شريفٌ جليلُ القَدْرِ ؛ فضَّل عليه السلام العَدْلَ بأمرين :

أحدُهما أنّ العدل وضعُ الأمُور مواضعَها ، وهكذا العَدالة فى الاصطلاح الحكمى ، لأنها المَرْتَبة المتوسطة بين طرَفى الإفراط والتّفريط ، والجود يُخرِج الأمر عن موضعِه ، والمراد بالجود هاهنا هو الجود العُرْفيّ ، وهو بَذْل المُقتَنَيات للغير ، لا الجود الحقيقيّ ، لأنّ الجود الحقيقيّ ليس يُخرِج الأمر عن جهتِه ، نحو جود البارِى تعالى .

والوجه الثانى : أنّ العدل سائسٌ عامّ فى جميع الأمور الدّينيّة والدنيويّة ، وبه نظام العالَم وقِوام الوجود ؛ وأمّا الجود فأمرٌ عارضٌ خاصّ ، ليس عموم نفعه كعموم نفع العَدْل .

(٤٤٤)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

النّاسُ أعْداءُ ما جهلُوا .

* * *

الشرح :

هذه من ألفاظه الشريفة التى لا نظيرَ لها ، وقد تقدّم ذكرُها وذكرُ ما يُناسبها .

وكان يقال : مَن جَهِل شيئا عادَاه .

وقال الشاعر :

جهلتَ أمراً فأبديْتَ النّكيرَ له	والجاهلُون لأهْـلِ العلم أعداءُ

وقيل لأفلاطون : لِمَ يُبغض الجاهلُ العالِمَ ، ولا يُبْغِضُ العالمُ الجاهلَ؟ فقال : لأنّ الجاهلَ يَستشعِر النّقص فى نفسِه ، ويظنّ أنّ العالم يَحتقِره ، ويَزْدرِيه فيُبغِضه ، والعالِم لا نَقْصَ عنده ولا يَظنّ أنّ الجاهلَ يَحتقِره ، فليس عندَه سببٌ لبُغض الجاهِل .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الزُّهدُ كلُّهُ بينَ كلمتينِ منَ القرآنِ ؛ قالَ اللهُ سُبحانَهُ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [١] ، ومَنْ لمْ يأسَ على الماضِي ولمْ يفرحْ بالآتِي فقدْ أخذَ الزُّهدَ بطرفيْهِ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ في هذين المعنيين بما فيه كفاية .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٤٤٦)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

ٱلوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجالِ .

***

الشرح :

أى تُعرَف الرجالُ بها كما تُعرَف الخيل بالمضمار ، وهو المَوضع أو المُدّة التى تُضمَّر فيها الخيل ، فمِن الوُلاة مَن يَظهر منه أخلاقٌ حميدة ، ومنهم من يظهر منه أخلاقٌ ذميمة .

وقال الشاعر :

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِيَ المر ... ءُ بهـــا صارَ عُرضةً للزّمانِ
سَكْرةُ المَالِ والحـداثة والعِشْ ... قِ وسكرُ الشّراب والسّلطانِ

وقال آخر :

يابنَ وَهْبٍ والمرء فى دَوْلة السلـ ... ـطانِ أعمَى مادامَ يُدعَى أمِيرا
فإذا زَالتِ الولايةُ عَنـــهُ ... واستوَى بالرِّجال عادَ بَصيرا

وقال البُحترىّ :

وتاه سَعيدٌ أن أُعِيــرَ رئاسَةً ... وقُلِّد أمراً كان دونَ رِجالِهِ
وضاقَ على حَقّى بعَقْب اتّساعِهِ ... فأوسَعْتُه عـــذراً لِضِيق احتمالِه
فأدبرَ عنّى عنـــد إقبال حَظّه ... وغيّر حالِى عنـــدَه حُسنُ حالِه
فليتَ أبا عثمانَ أمسَكَ تِيهَه ... كإمساكِه عنـــد الحقوق بماله

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ !

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمةُ قد سبقتْ ، وتكلّمنا عليها ، وما أحسنَ قولَ المعرّى :

ماقضَى الحاجاتِ إلّا شِمِّلٌ … نومُهُ فوقَ فِراشٍ من نِمالْ [1]

وقال الرّضىّ رحمه الله :

عليها أخامِصُ مِثلُ الصّقورِ … طُوالُ الرجاءِ جِسامُ الأرَبْ

وكلّ فتًى حَظُّ أجفانِهِ … من النوم مَضمَضةٌ يُستلبْ [2]

فبينا يقال كَرَى جَفْنِه … بِقِطْعٍ من اللّيل إذ قيل هَبْ

---

(١) الشمل : السريع

(٢) يقال : مضمض النعاس فى عينه ، إذا دبّ .

(٤٤٨)

الأصـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

لَيْسَ بَلَدٌ بأحقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ ؛ خَيْرُ البِلادِ ما حَمَلَكَ .

***

الشَّـرحُ :

هذا المعنى قد قيل كثيرا ، ومن ذلك قولُ الشاعر :

لا يَصْدِفَنَّكَ عن أمرٍ تحاوِلُهُ ... فِراقُ أهلٍ وأحبابٍ وجيرانِ[1]

تلقَى بكلِّ ديارٍ ما حللتَ بها[2] ... أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطانِ

وقال شيخي أبو جعفر يحيى بن أبي زَيْد نقيبُ البَصْرة :

أنسَيْتني بلدِي وأرضَ عشيرتي ... ونزلتُ مِنْ نُعماكَ أكرمَ منزِلِ

وأخذتُ فيك مدائحي فكأنها ... في آل شَمّاسٍ مدائحُ جَرْوَلِ

أبو عُبادة البُحتُرِيّ :

في نعمـةٍ أوطنتُها وأقمتُ في ... أكنافِها فكأنني في مَنْبِجِ[3]

ومَنْبِج ، هي مدينة البحتريّ .

أبو تمّـام :

كلُّ شِعبٍ كنتم به آلَ وَهْبٍ ... فهو شِعْبي وشِعْبُ كلِّ أديبِ[4]

---

(١) في د « فراق ربع » والمعنى عليه يستقيم أيضاً . (٢) في د « بلاد » وهو مستقيم أيضاً .

(٣) ديوانه ١ : ١٠٣ (٤) ديوانه ١ : ١٣١

إنّ قلبي لكمْ لكالكبدِ الحرّى وقلبي لغيركمْ كالقلوبِ

وقد ذهب كثيرٌ من الناس إلى غير هذا المذهب ، فجعلوا بعض البلاد أحقّ بالإنسان من بعض ، وهو الوطن الأوّل ومَسقِط الرأس ، قال الشاعر :

أَحَبُّ بلاد الله ما بين مَنعجٍ إليّ وسَلمى أن يَصُوب سَحابُها[1]

بلادٌ بها نِيطتْ عليَّ تمائمي وأوّلُ أرضٍ مَسّ جِلدِي تُرابُها

وكان يقال : مَيلُك إلى مولدِك مِن كَرَم مَحتِدك .

وقال ابنُ عبّاس : لو قَنِع الناسُ بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ، لما اشتكى أحدٌ الرزق .

وكان يقال : كما أنّ لحاضِنَتِك حقّ لبَنِها فلأرضك حُرمة وطَنِها .

وكانت العربُ تقول : حِماكَ أحمَى لك ، وأهلك أحفَى بك .

وقال الشاعر :

وكُنّا ألِفْناها ولم تكُ مألفاً وقد يُؤلَف الشيءُ الذي ليس بالحَسَنْ

كما تُؤلَف الأرضُ التي لم يَطِبْ بها هواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وَطَنْ

أعرابيّ :

رَمْلةٌ حضَنَتْني أحشاؤها ، وأرضعَتْني أحساؤها .

كانت العرب إذا سافرتْ حملتْ معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحَه ، وتَطرحُه في الماء إذا شربَته ، وكذلك كانت فلاسِفةُ يونانَ تفعل .

وقال الشاعر في هذا المعنى :

نسيرُ على علمٍ بكُنْه مَسيرنا بعُفْة[2] زادٍ في بطون المَزاوِدِ

---

(١) معجم البلدان ٨ : ١٨٠ في ثلاثة أبيات نسبها إلى بعض الأعراب .

(٢) العفة : بقية اللبن في الضرع بعد أن يحلب أكثر ما فيه .

ولا بدّ فى أسفارِنا من قبيصةٍ　　من الترب نَسقاها لحبّ الموالدِ

وقالت الهند : حُرمة بلدِك عليك كحرمة أبويك ، كان غِذاؤك منهما وأنت جنين وكان غذاؤهما منك .

ومن الكلام القديم : لولا الوطنُ وحبّه لَخرُب بلد السَّوْء .

ابن الرُّومىّ :

وحبّبَ أوطانَ الرّجال إليهمُ　　مآربُ قضّاها الشبابُ هُنالكَا

إذا ذَكَروا أوطانَهمْ ذَكّرتهمُ　　عُهود الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقَدْ جاءهُ نَعْيُ الأشترِ رحمهُ اللهُ :
مالِكٌ ، وما مالِكٌ ؟ واللهِ لَوْ كانَ جَبَلاً لَكانَ فِنْداً ، أوْ كانَ حَجَراً لكانَ صَلْداً لا يَرْتَقِيهِ الحافِرُ ، ولا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ .

وقالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالى .

والفِنْدُ : المُنْفَرِدُ مِنَ الجِبالِ .

***

الشرحُ :

يقال : إنّ الرّضيّ ختم كتاب نهج البلاغة بهذا الفصل ، وكُتبتْ به نُسَخٌ متعدّدة ثمّ زاد عليه إلى أن وَفى الزّيادات التى نذكرها فيما بعد .

وقد تقدّم ذكرُ الأشتر ، وإنما قال : لو كان جبلا لكان فِنْدا ، لأنّ الفند قطعةُ الجبل طُولا ، وليس الفِنْد القِطعةَ من الجبل كيفما كانت ، ولذلك قال : لا يرتقيه الحافر ، لأنّ القطعة المأخوذة من الجبَل طُولا فى دِقّة لا سبيل للحافر إلى صعودِها ، ولو أُخِذت عَرْضا لأمكنَ صُعُودها .

ثم وَصَف تلك القطعَة بالعلوّ العظيم ، فقال : ولا يوفى عليه الطائر ، أى لا يصعد عليه ، يقال : أوفى فلانٌ على الجبَل : أشرَف .

الأصْـلُ

وقالَ عليهِ السلامُ:

قَليلٌ مَدُومٌ عَليهِ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا كلامٌ يُخاطِب به أهل العبادات والصلاة ، قال: قليلٌ من النوافل يدومُ المرء عليه خيرٌ له من كثير منها يَمَلّه ويترُكه .

والجيّد النادر فى هذا قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ هذا الدّين متين ، فأَوْغِلْ فيه برِفْق ، فإنّ المنبَتّ لا أرضاً قَطَع ولا ظَهْرا أبقَى .

وكان يقال : كلّ كثير مملول .

وقالوا : كلّ كثير عدوٌّ للطبيعة .

وقال الشاعر :

إنّى كَثُرتُ عليـــه فى زيارتِه فمَلّ والشىء مملولٌ إذا كَثُرا
ورابَنى منه أنّى لا أزالُ أرَى فى طَرْفه قِصَرا عنى إذا نَظَرا

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إذا كَانَ فى رَجُلٍ خَلّةٌ رَائِعَةٌ ، فانتَظِرُوا مِنهُ أخَوَاتِهَا .

***

الشّـرْحُ :

مثال ذلك إنسان مَستور الحـال عنا رأيناه وقد صدرتْ عنه حركةٌ تروعُك وتُعجبك ؛ إما لحُسنها أو لقُبحها ، مثل أن يتصدّق بشيء له وَقْع ومقدار مِن مالِه ، أو ينكر منكرا عجز غيرُه عن إنكاره ، أو يَسرِق أو يزنى ؛ فينبغى أن يُنتظر ويُترقّب منه أخَوات ماوَقَـع منه ؛ وذلك لأنّ العقل والطبيعة التى فيه المحرِّكة له إلى فعل تلك الحركة ، لابدّ أن تحرّكه إلى فِعل ما يُناسبها ، لأنّها مادعتهْ إلى فِعل تلك الحركة لخصوصيّة تلك الحركة ، بل لما فيها من المعنى المقتضِى وقوعَها ، وهذا يتعدّى إلى غيرها ممّا يجانسها ، ولذلك لا ترَى أحداً قد اطّلعتَ من حالِه يوما على أنّه قد شَرِب الخمر إلّا وسوف تَطّلع فيما بعدُ منه على أنه يشرَبُها ، وبالعكس فى الأمور الحسنة لا ترَى أحدا قد صَدَر عنه فِعلٌ من أفعال الخير والمروءة إلّا وستَرَاه فيما بعدُ فاعلا نظيره أو مايقاربُه

وشتمَ بعضُ سفهاء البَصرة الأحنفَ شتْما قبيحا فحَلُم عنه ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : دعُوه فإنى قد قتلتهُ بالحلم عنه ، وسيقتل نفسه بجراءته ؛ فلمّا كان بعدَ أيّام جاء ذلك السفيهُ فشتَم زياداً ؛ وهو أميرُ البَصرة حينئذ ، وظنّ أنه كالأحنف ، فأمر بهفقُطِع لسانهويدُه .

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِغَالِبِ بْنِ صَعْصَعَةَ أبي الفَرَزْدَق في كلامٍ دارَ بينهما : مافَعَلَتْ إبِلُكَ الكَثِيرَةُ ؟ قالَ : ذَعْذَعَتْها الحُقوقُ ياأميرَ المؤمنينَ . فقالَ عليهِ السلامُ : ذَلِكَ أحْمَدُ سُبُلِها .

* * *

الشَّـرْحُ :

ذعذَعَتْها بالذال المعجمة مكرّرة فرّقتها، ذَعْذَعْتُه فتذعذَع ، وذَعْذَعةُ السرّ : إذاعتُه . والذَّعاذِع : الفِرَق المتفرّقة ، الواحدة ذعذعة ، وربما قالوا : تفرّقوا ذَعاذِع .

* * *

دخل غالبُ بنُ صعصعةَ بن ناجية بن عقال المُجاشِعيّ على أمير المؤمنين عليه السلام أيّام خلافته ، وغالبٌ شيخٌ كبير ، ومعه ابنُه همّام الفَرَزْدق وهو غلام يومئذ ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : مَن الشيخ ؟ قال : أنا غالبُ بنُ صعصعة ؛ قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : مافعلتْ إبلُك ؟ قال : ذعذعتْها الحقُوق ،وأذهبتْها الحمالات والنوائب ؛ قال : ذاك أحمد سُبُلِها ؛ مَن هـذا الغلامُ معَك ؟ قال : هـذا أبني ، قال : ما أسمُهُ ؟ قال همّام ؛ وقد روّيتُهُ الشّعرَ ياأميرَ المؤمنين وكلامَ العَرَب ، ويوشِك أن يكون شاعراً مُجيدا ؛ فقال : لو أقرأتَه[1] القرآنَ فهو خيرٌ له ؛ فـكان الفرزدقُ بعدُ يَروى هـذا الحديثَ ويقول : مازالتْ كلمُته في نفسي حتّى قيّد نفسَه بقَيْد ، وآلى ألا يَفُكّه حتّى يحفَظ القرآنَ ، فما فَكّه حتى حفِظه .

---

(١) في د « اقرئه » والمعنى عليه يستقيم أيضاً .

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنِ اتَّجَرَ بغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ فى الرِّبا .

***

الشَّرْحُ :

يقول : تَجَرَا فلانٌ واتّجر فهو تاجر ، والجمع تَجْر ، مِثل صاحِب وصَحْب ، والتِّجارة والتَّجْر بمعنًى واحد ؛ إذا أخذْتَهما مصدرَيْن لـ « تجَر » ، وأرض مَتْجَرةٌ يُتّجر فيها .

وارْتَطم فلانٌ فى الوَحْل والأمر إذا ارْتبَك فيه ولم يَقدِر على الخروج منه ، وإنّما قال عليه السلام ذلك لأنّ مسائلَ الرِّبا مُشتَبِهة بمسائل البَيْع ، ولا يَفرِّق بينهما إلّا الفقيه حتّى إنّ العُظماء من الفقهاء قد اشتَبَه عليهم الأمرُ فيها فاختلفوا فيها أشدَّ اختلاف ؛ كبَيْع لحم البقر بالغنم متفاضلا ، هل يجوز أم لا ؟ وكذلك لَبَن البقر بلَبَن الغَنَم ، وجلود البَقَر بجلود الغَنَم ، فقال أبو حنيفة : اللحوم والألبان والجلودُ أجناسٌ مختلفة ، فيجوز بيعُ بعضها ببعض متفاضِلا ، نظرا إلى أنّ أصولها أجناسٌ مختلفة ، والشافعيّ لا يُجيزُ ذلك ويقول : هو ربًا ، وكذلك القول فى مُدَّىْ عَجْوة ودرْهم بمُدّ عجوة . وكذلك بَيْع الرُّطَب بالتمْر متساوِياً كَيْلا ، كلّ ذلك يقول الشافعى : إنّه رِبًا ، وأبو حنيفة يُخرِجه عن كونه رِبًا ، ومسائلُ هذا الباب كثيرة .

الأصل :

وقالَ عليه السلامُ .

مَنْ عظّمَ صِغارَ المصائبِ ؛ ابتلاهُ اللهُ بِكِبارِها .

***

الشرح :

إنما كان كذلك لأنه يشكو الله ويتسخّط قضاءه ، ويجحد النعمة في التخفيف عنه ، ويدّعي فيما ليس بمُجحِف به من حوادث الدهر أنه مُجحِف ، ويتألّم بين الناس ؛ لذلك أكثر مما تقتضيه نكبتُه ، ومَن فعلَ ذلك استوجب السُّخْطَ من الله تعالى ، وابتُلِيَ بالكثير من النكبة ، وإنما الواجب على من وقع في أمر يَشُق عليه ، ويتألّم منه ويَنال من نفسه ، أو من مالِه نَيلًا ما ، أن يَحمَد الله تعالى على ذلك ، ويقول : لعلّه قد دَفَع بهذا عنّي ماهو أعظَم منه ، ولئن كان قد ذهب من مالي جزء فلقد بقيَ أجزاء كثيرة .

وقال عروةُ بنُ الزّبير لمّا وقعت الأكَلة في رِجْله فقطعها وماتَ ابنُه : اللّهمّ إنّك أخذتَ عُضوا وتركْت أعضاء ، وأخذتَ ابنا وتركْت أبناء ، فليَهْنِك ؛ لئن كنتَ أخذْتَ لقد أبقيت ، ولئن كنتَ ابتَلَيْت لقد عافَيْت .

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلَامُ :

مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، هانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم مِثْلُ هذا المعنى مِراراً ، ومن الكلام المشهور بين العامّة : قبّح الله أمرأً تَغلِب شَهْوَتُه على نَخْوَته .

والجيّد النادر في هذا قولُ الشاعر :

فإنّك إنْ أعطيْتَ بطنَــك سُؤْلَه وفَرْجَك نالَا مُنتهَى الذّمِّ أجمعا[1]

(١) لحاتم الطائي ، ديوانه ١١٤

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ .

ما مَزَحَ امرُؤٌ مَزْحَةً ، إلاّ مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً .

* * *

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى المزاح .

وكان يقال : خيرُ المزاحِ لا يُنالُ ، وشرُّه لا يُستقالُ .

وقيل : إنّما سُمّى المِزاحُ مزاحاً لأنه أُزيحَ عن الحقّ .

الأصل :

وقال عليه السلام :

زُهْدُكَ فى رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ ، ورَغْبَتكَ فى زاهِدٍ فِيك ذُلُّ نَفْسٍ .

***

الشرح :

أى نقصانُ حظٍّ لك ، وذلك لأنّه ليس مِن حقّ مَن رَغِب فيك أن تزهَد فيه لأنّ الإحسان لا يُكافَأ بالإساءة ، وللقصد حُرْمة ، وللآمل ذِمام ، ومن طَلَب مودّتك فقد قَصَدك ، وأمّلك ، فلا يجوزُ رفضُه واطّراحُهُ والزّهدُ فيه وإذا زَهدت فيه فذلك لنُقصانِ حَظّك لا لنقُصان حَظّه ، فأمّا رَغْبَتُك فى زاهدٍ فيك فذلّة ، لأنّك تطرح نفسَك لمن لا يعبأ بك ، وهذا ذُلٌّ وصَغار .

وقال العباسُ بنُ الأحنف فى نسيبه ، وكان جيّدَ النَّسيب :

مازلتُ أزهَد فى مودّة راغِبٍ ... حتّى ابتُليتُ برَغْبةٍ فى زَاهِدِ

هٰذا هو الدّاء الّذى ضَاقت به ... حِيَلُ الطّبيب وطَال يأسُ العائِدِ

أى مازلتُ عزيزا حتّى أذلّنى الحبّ :

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مازَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً منّا أهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى نشأ ابنُهُ الْمَشْئُومُ عَبْدُ الله .

* * *

الشَّرْحُ :

ذكرَ هذا الكلامَ أبو عُمَرَ بنُ عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " عن أميرِ المؤمنين عليه السلام فى عبدِ الله بن الزبير، إلا أنه لم يذكر لفظة المشئوم .

* * *

[عبد الله بن الزبير وذكر طرف من أخباره]

ونحن نَذكُرُ ماذكره ابن عبد البرّ فى ترجمة عبد الله بن الزبير ، فإنّ هذا المُصنِّف يَذكُرُ مُجمَلَ أحوالِ الرّجال دون تفاصيلها ، ثمّ نذكر تفصيل أحواله من مواضعَ أخرى .

قال أبو عمرَ رحمه الله : يُكنى(١) عبدُ الله بن الزبير أبا بكر ، وقال بعضُهم: أبا بكير، ذكر ذلك أبو أحمد الحاكم الحافظ فى كتابه فى الكُنَى . والجمهور من أهل السِّيَر وأهلِ الأثر على أنّ كُنيته أبو بكر ، وله كنيةٌ أخرى أبو خُبَيب بابنه خُبَيب

---

(١) الاستيعاب ٩٠٤ وما بعدها ، طبعة نهضة مصر

وكان أسَنَّ ولدِه ، وخُبَيب هو صاحبُ عمر بنِ عبدِ العزيز الّذى مات من ضَرْبه إذ كان والياً على المدينة للوليد ، وكان الوليدُ أمَره بضَرْبه فمات من أذيّة ذلك فوَداه عمرُ بعدُ .

قال أبو عمر : (١ وسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله باسم جدّه ، وكَنّاه بكُنْية جدّه عبدِ الله أبى بكر١) ، وهاجرتْ أمّه أسماء من مكّة إلى المدينة وهى حاملٌ به ، فوَلَدته فى سنة اثنتَين من الهجرة لِعشرين شَهْرا مِن التاريخ ، وقيل : وُلد فى السّنة الأولى ، وهو أوّل مولود ولد فى الإسلام من المهاجرين بعد الهجْرة .

ورَوَى هشامُ بنُ عروة عن أسماء قالت : حملتُ بعبدِ الله بمكّة ، فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ(٢) فأتيتُ المدينة فنزلتُ بقباء ، فولدته بقباء ، ثم أتيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فوضعته فى حِجره ، فدعا بتَمرةٍ فمضَغها ثم تَفَل فى فيه ، فكان أوّل شئ دَخَل جوفَه رِيقُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ثم حنَّكه بالتمرة ، ثم دعا له وبارك عليه وهو أوّل مولود وُلِد فى الإسلام للمهاجِرين بالمدينة ، قال : ففَرحوا به فرحا شديداً ، وذلك أنّهم قد كان قيل لهم : إنّ اليهود قد سحَرَتْكم فلا يُولد لكم .

قال أبو عمر : وشَهِد عبدُ الله الجَمَل مع أبيه وخالتِه ، وكان شَهْما ذَكراً ذا أَنفَة ، وكان له لَسَنٌ وفَصاحة ، وكان أطلسَ لا لِحيةَ له ولا شَعرَ فى وجهه ، وكان كثيرَ الصّلاة ، كثيرَ الصّيام ، شديدَ البأس ، كريمَ الجدّات والأمّهات والخالات ، إلّا أنه كان فيه خلال لا يَصلُح معها للخلافة ، فإنّه كان بخيلا ضَيّقَ العَطَن سيّىء الخُلق حَسُودا ، كثيرَ الخلاف ، أخرَج محمّدَ بنَ الحنفيّة من مكّة والمدينة ، ونَفَى عبدَ الله ابنَ عبّاس إلى الطائف .

(١ـ١) عبارة الاستيعاب : « كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم جده أبى أمه أبى بكر الصديق ، وسماه باسمه » .

(٢) المتم : التى أكملت مدة حملها .

وقال عليٌّ عليه السلام في أمره : مازال الزبيرُ يُعَدُّ منا أهلَ البيت حتّى نشأ ابنُه عبدُ الله . قال أبو عمر : وبُويع له بالخلافة سنةَ أربع وستّين في قول أبي مَعشر .

وقال المدائنيّ : بُويع له بالخلافة سنةَ خمسٍ وستّين .

وكان قبلَ ذلك لا يدّعَى باسم الخلافة ، وكانت بَيعته بعد موتِ معاوية بن يزيدَ ابن معاوية ، على طاعتِه أهل الحِجاز واليمن والعراق وخُراسانَ ، وحجّ بالناس ثمانيَ حِجَج ، وقُتل في أيام عبدِ الملك بن مَرْوَان يوم الثلاثاء لثلاثٍ عشرة بقين من جُمادى الأولى ؛ وقيل : من جُمادَى الآخرة سنة ثلاثٍ وسبعين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنةً ؛ وصُلب بمكّة بعد قتله ، وكان الحجّاج قد ابتدأ بحصاره من أوّل ليلة من ذى الحِجّة سنَة اثنتين وسبعين ، وحجّ الحجّاج بالناسِ في ذلك العام ، ووَقَف بعرَفة وعليهِ درْع ومِغْفَر ، ولم يَطُوفوا بالبيتِ في تلك السنة ، فحاصَره ستّة أشهر وسبعةَ عشرَ يوما إلى أن قتَله .

قال أبو عمر : فروَى هشامُ بنُ عروة عن أبيه ، قال : لمّا كان قبلَ قتل عبد الله بعشرةِ أيّام دخل على أمّه أسماء بنت أبي بكر وهي شاكية ، فقال : كيف تجدِينَك يا أمّه ؟ قالت : ما أجِدُني إلّا شاكية ، فقال لها : إنّ في الموت لراحة ؛ فقالت : لعلّك تمنّيتَه لي ، وما أحِبُّ أن أموتَ حتّى يأتيَ عليّ إحدَى حالتَيْك ، إمّا قُتِلتَ فأحتَسِبَك ، وإما ظَفِرتَ بعدوّك فقرّت عَيْني .

قال عروة : فالتفتَ عبدُ الله إليّ وضَحِك ، فلمّا كان اليوم الّذى قُتِل فيه دَخَل عليها في المسجد ، فقالت : يا بُنيّ لا تقبل منهم خُطّة تخاف فيها على نفسك الذُّلّ [مخافة القتل][1] ؛ فوالله لَضَرْبةُ سيفٍ في عِزٍّ خيرٌ من ضربةِ سَوْطٍ في مَذَلّة ، قال : فخرج

(١) من د

عبدُ الله وقد نُصِب له مِصراعٌ عند الكعبة ، فكان يكون تحتهُ ، فأتاه رجلٌ من قريش فقال له : ألا نفتح لك بابَ الكعبة فتدخلها ؟ فقال : والله لو وَجَدوكم تحتَ أستارِ الكعبة لقتلوكم عن آخرِكم ، وهل حُرمةُ البيتِ إلّا كحرمة الحرَم ، ثم أنشد :

ولستُ بمُبتاعِ الحياةِ بِسُبّةٍ ولا مُرتقٍ مِن خَشْيةِ الموتِ سُلّمَا

ثمّ شدّ عليه أصحابُ الحجاج ، فسأل عنهم ، فقيل: هؤلاء أهلُ مِصر ، فقال لأصحابه : اكسروا أغمادَ سيوفِكم ، واحملوا معي ، فإنني في الرّعيل الأول ، ففعلوا ، ثمّ حَمل عليهم وحَملوا عليه ، فكان يضرب بسيفين ، فلَحق رجلا فضرَبه فقطع يدَه ، وانهزموا وجعل يضربُهم حتى أخرجهم من باب المسجد ، وجعل رجلٌ منهم أسودَ يسبّه ، فقال له : اصبر يا بن حام ، ثم حمل عليه فصرَعه ، ثم دخل عليه أهلُ حِمص من باب بني شَيْبة فسأل عنهم ، فقيل : هؤلاء أهلُ حِمص ، فشدّ عليهم وجَعل يضربهم بسيفه حتى أخرَجهم من المسجد ، ثم انصرَف وهو يقول :

لو كان قِرْني واحداً أرْدَيتُه أورَدْتُه الموتَ وقد ذَكّيْتُه

ثمّ دخل عليه أهلُ الأُرْدُنّ من باب آخر ، فقال : مَن هؤلاء ؟ قيل : أهلُ الأرْدُنّ ، فجعل يضربهم بِسَيفه حتى أخرجَهم من المسجد ، ثمّ انصرَف وهو يقول :

لا عهد لي بغارةٍ مِثل السَّيْلْ لا يَنجلي قَتامُها حتّى اللَّيلْ

فأقبَل عليه حَجَر من ناحية الصَّفَا فأصابه بين عيْنَيه ، فنكّس رأسَه وهو يقول :

ولَسْنا على الأعقاب تَدمَى كُلومُنا ولكنْ على أقْدامِنا تقطرُ الدِّما[1]

---

(١) للحصين بن الحمام المري من المفضلية ١٢

أنشدَه متمثّلا ، وحَمَاه مَوْلَيان له ، فكان أحدهما يرتجز فيقول :

* العبـــدُ يَحمِى ربَّه ويَحْتَمِى *

قال : ثمّ اجتمعوا عليه ، فلم يزالوا يضربونه ويضربُهم حتى قتلوه ومولييْه جميعا ، فلمّا قُتِل كبّر أهلُ الشام ، فقال عبد الله بن عمر : المكبِّرون يومَ وُلد خَـيرٌ من المكبِّرين يوم قُتل .

قال أبو عمر : وقال يعلى بنُ حَرْملة : دخلتُ مكّة بعد ما قُتِـل عبدُ الله بنُ الزّبير بثلاثةِ أيام ، فإذا هو مصلوب ، فجاءت أمّه أسماء ، وكانت امرأةً عجوزاً طويلة مكفوفة البَصَر تقاد ، فقالت للحجّاج : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ فقال لها : المنافق ؟! قالت : والله ما كان مُنافقا ، ولـكنه كان صوّاما قوّاما برّا ؛ قال : انصرفى فإنك عجـوز قد خَرِفْتِ . قالت : لا والله ما خَرِفْتُ ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « يَخرجُ من ثقيف كذّاب ومبير[1] » ، أمّا الكذّاب فقد رأيناه ـ تعنى المختار ـ وأما المُبير فأنت .

قال أبو عمر : ورَوَى سعيد بنُ عامر الخرّاز عن ابن أبى مُليكة ، قال : كنت الآذن لمن بشّر أسماء بنزول ابنها عبد الله من الخشبة ، فدعتْ بمِرْكن[2] وشبٍّ يمانٍ ، فأمرتْنى بغسْله ، فكنا لا نتناول منه عُضْوا إلاّ جاء معنا ، فكنا نغسل العضو وندعه فى أكفانه ونتناول العضو الذى يليه فنغسله ، ثم نضعه فى أكفانه ، حتى فرغْنا منه ، ثمّ قامت فصلّت عليه ، وقد كانت تقول : اللّهم لا تمتْنى حتى تقِرّ عينى بجثّته ، فلما دفنته لم يأت عليها جمعة حتى ماتت .

قال أبو عمر : وقد كان عُروة بنُ الزبير رَحَلَ إلى عبد الملك ، فرَغِب إليه فى إنزال عبد الله من الخشبة ، فأسعَفه بذلك ، فأنزل .

---

(١) المبير : المهلك

(٢) المركن : الإناء

قال أبو عمر : وقال عليّ بن مجاهد : قُتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلا ، إنّ منهم لَمَنْ سالَ دمُهُ فى جوف الكعبة .

قال أبو عمر : وروَى عيسى عن أبى القاسم ، عن مالك بن أنس ، قال : كان ابن الزبير أفضل من مرْوان وأولَى بالأمر منه ومن أبيه ، قال وقد روَى علىّ بنُ المدائنىّ ، عن سُفيان بن عُيينة ، أن عامر بن عبد الله بن الزبير مكث بعد قتل أبيه حوْلا لا يسأل الله لنفسه شيئاً إلا الدعاء لأبيه .

قال أبو عمر : وروَى إسماعيل بن علّية ، عن أبى سُفْيان بن العَلاء ، عن ابن أبى عَتِيق ، قال : قالت عائشةُ : إذا مرّ ابنُ عمرَ فأرُونيه ، فلما مرّ قالوا : هذا ابنُ عمر فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما مَنَعك أن تَنْهانى عن مَسيرى ؟ قال : رأيتُ رجلا قد غَلَب عليكِ ، ورأيتُكِ لا تُخالفينه ـ يعنى عبد الله بن الزبير ـ فقالت : أما إنك لو نَهَيْتنى ما خرجتُ .

* * *

فأما الزّبير بنُ بكار فإنه ذكر فى كتابِ " أنساب قريش " من أخبار عبد الله وأحواله جملة طويلة نحن نختصرها ، ونذكر اللُّباب منها ، مع أنه قد أطنب فى ذكر فضائله والثناء عليه ، وهو معذورٌ فى ذلك ، فإنه لا يلامُ الرجلُ على حُبّ قومه ، والزّبير بن بكار أحدُ أولاد عبد الله بن الزبير ، فهو أحقّ بتقريظه وتأبينه .

قال الزبير بنُ بكار : أمّه أسماء ذاتُ النِّطاقين ابنةُ أبى بكر الصِّديق ، وإنما سُمّيتْ ذاتَ النِّطاقين لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما تجهز مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر ، لم يكن لسفرتهما شِناق(١) ؛ فشقّت أسماء نِطاقها فشنّقتْها به ، فقال لها رسول الله

---

(١) الشناق : الحبل .

صلى الله عليه وآله : قد أبدلكِ اللهُ تعالى بنطاقِك هذا نطاقَيْن في الجنة ، فسُمِّيتْ ذاتَ النِّطاقين . قال : وقد روَى محمد بنُ الضحاك : عن أبيه أن أهل الشام كانوا وهم يقاتلون عبد الله بمكة يَصيحون : يابن ذات النِّطاقين ، يظنونه عَيْبا ، فيقول ابنها : والاله ، ثمَّ يقول : إني وإياكم لكما قال بو ذؤيب :

وعــــيَّرني الواشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وتلكَ شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها [(١)]

فإنْ اعتَذِرْ عنهــــا فإنِّي مكذَّبٌ ... وإنْ تَعتذِر يُرْدَدْ عليك اعتِـذارُها

ثمّ يُقبِل على ابن أبي عتيق — وهو عبدُ الله بن محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر — فيقول : ألا تسمعُ يابنَ أبي عتيق !

قال الزبير : وزعموا أنَّ عبـدَ الله بنَ الزبير لما وُلِد أُتِيَ به رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، فنظَر في وجهِه وقال : « أهوهو ؟ ليمنعَنَّ البيتَ أو ليَموتَنَّ دونه » .

وقال العُقَيليّ في ذلك :

بَرٌّ تبـــيَّنَ ماقال الرسولُ له ... وذو صَلاةٍ بضَاحِي وجهه عَـــلَمَ [(٢)]

حَمامة من حَمامِ البيتِ قَاطِنَــــة ... لا تَتْبَع الناسَ إن جارُوا وإن ظَلَموا

قال : وقد روَى نافعُ بن ثابت ، عن محمّد بن كَعْب القُرَظيّ ، أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله دخل على أسماء حينَ وُلِد عبدُ الله فقال : أهوهو فتركتْ أسماء رَضاعَه ، فقيل لرسول الله صلّى الله عليــه وآله : إنّ أسماء تركتْ رَضاعَ عَبدِ الله لمّا سمعتْ كَلِمتك ، فقال لها : « أرْضِعيه ولو بماء عَيْنَيْك ، كَبْش بين ذِئابٍ عليها ثِيابٌ ، ليَمنعنّ الحَرَم أو ليَموتَنّ دونه » .

قال : وحدّثني عَمّي مُصعَب بنُ عبد الله ، قال : كان عبدُ الله بنُ الزبير يقول : هاجرتْ بي أمّي في بَطْنها ، فما أصابها شيء من نَصَب أو مَخمصة [(٣)] إلّا وقد أصابني .

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢١ ، قال : ظاهر عنك ، أي لايعلق بك ، أي يظهر عنك وينبو

(٢) روايه « د » : يزينني ذكر ما قال الرسول له   (٣) المخمصة : الجوع .

قال: وقالت عائشةُ : يارسول الله ، ألا تَكْنِينى ؟ فقال : تَكَنَّىْ بِاسمِ ابنِ أختِك عبد الله ، فكانت تُكنَى أمّ عبدِ الله .

قال : وروى هِندُ بن القاسم ، عن عامر بنِ عبد الله بنِ الزّبير ، عن أبيه ، قال : احتجَمَ رسولُ الله صَلّى الله عليه وآله ، ثمّ دَفَع إلىّ دمه ، فقال : اذهب به فوارِه حيث لا يَراه أحد ، فذهبتُ به فشرِبْتُه ، فلمّا رجعتُ قال : ماصنعت ؟ قلتُ : جعلتُه فى مكان أظنّ أنه أخفَى مكانٍ عن الناس ، فقال : فلعلك شربته ؟ فقلتُ : نعم .

قال : وقال وَهْب بنُ كَيْسان : أوّلُ من صَفّ رِجْليه فى الصّلاة عبدُ الله بن الزبير فاقتدَى به كثيرٌ من العباد ، وكان مجتهدا .

قال : وخَطَب الحجّاج بعد قتله زجلة[1] بنت مَنظور بن زَبّان بن سَيّار الفَزاريّة ، وهى أمّ هاشم بنِ عبدِ الله بنِ الزّبير ، فقلعت ثَنِيّتها وردّته ، وقالت : ماذا يريدُ إلى ذَلْفاء ثَكْلَى حرَّى ! وقالت :

أبعـــد عائذِ بيتِ الله تخطُبُنى ... جَهلاً جَهلتَ وَغِبّ الجهل مَذْمومُ

فاذهبْ إليك فإنّى غـــيرُ ناكحةٍ ... بعـــدَ ابن أسماء ما استَنّ الدّياميمُ

مَن يَجعـــلُ العَيْر مُصفَرًّا جَحافلُه ... مِثل الجوادِ وفَضـــلُ الله مَقْسومُ !

قال : وحدّثنى عبدُ الملك بنُ عبد العزيز ، عن خاله يوسف بنِ الماجِشون ، قال : قسمَ عبدُ الله بنُ الزّبير الدهرَ على ثلاث ليال : فليلةً هو قائم حتّى الصباح ، وليلة هو راكع حتّى الصباح ، وليلة هو ساجد حتّى الصباح .

قال : وحدّثنا سليمان بنُ حَرْب بإسنادٍ ذَكَره ورَفَعه إلى مُسلِم المكّى ، قال: رَكَع عبدُ الله بنُ الزبير يوما ركعةً ، فقرأتُ البقرة وآلَ عمران والنّساء والمائدة ، ومارَفَع رأسَه .

---

(١) ضبط فى ط « زجلة » .

قال : وقد حدّث من لا أحصيه كثرةً من أصحابنا: أنّ عبدَ الله كان يواصِل الصّوم سَبْعا ، يصومُ يومَ الجمعة فلا يُفطِر إلّا يومَ الجمعة الآخر ، ويَصُوم بالمدينة فلا يُفطِر إلا بمكّة ، ويصوم بمكّة فلا يُفطِر إلّا بالمدينة .

قال : وقال عبد الملك بنُ عبد العزيز : وكان أوّل ما يُفطِر عليه إذا أفطرَ لبَن لَقْحة بسَمْن بقَر ، قال الزبير : وزادَ غيرُه : وَصبِر .

قال : وحدّثني يعقوب ابنُ محمّد بن عيسى بإسنادٍ رَفَعه إلى عُرْوَة بن الزّبير ، قال : لم يكن أحــدٌ أحبَّ إلى عائشةَ بعد رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وبعد أبي بكر من عبدِ الله بن الزّبير .

قال : وحدّثني يعقوبُ بنُ محمّد بإسنادٍ يرفعه إلى عبدِ الرحمن بنِ القاسم ، عن أبيه قال : ما كان أحدٌ أعلم بالمناسك من ابن الزبير .

قال : وحــدّثني مُصعب بنُ عثمان ، قال : أوصتْ عائشةُ إلى عبدِ الله بن الزبير وأوصَى إليه حكيمُ بنُ حِزام وعبدُ الله بنُ عامر بن كُرَيز والأسوَدُ بن أبي البَختَريّ وشَيبة بنُ عثمان والأسوَد بنُ عوف .

قال الزبير : وحدّث عمرُ بنُ قيس ، عن أمّه قالت : دخلتُ على عبد الله بنِ الزّبير بيتَه ، فإذا هو قائمٌ يصلّي، فسقطتْ حيّة من البيت على ابنـه هاشم بنِ عبـد الله فتطوقت[1] على بطنِه وهو نائمٌ ، فصاحَ أهلُ البيت : الحيّة الحيّة ، ولم يَزالُوا بها حتّى قَتلوها وعبدُ الله قائمٌ يصلّي ماالتَفَت ولا عَجِل ، ثمّ فَرَغ من صلاته بعد ماقُتِلت الحيّة فقــال : مابالـكم ؟ فقالت أمّ هاشم : إي رَحِمَك الله ، أرأيتَ إنْ كُنّا هُنّا عليك أيهُونُ عليك ابنُك ! قال : وَيْحكِ ! وما كانت التِفاتةٌ لو الْتَفتُّها مُبْقيةً من صَلاتي .

---

(١) في د هـ « فتطوت » والمعنى عليه يستقيم .

قال الزبير : وعبدُ الله أوّلُ من كسا الكعبةَ الدّيباج ، وإن كان ليُطَيِّبها حتى يَجِد ريحَها مَن دَخَل الحرَم . قال : ولم تكن كِسْوة الكعبة من قبله إلّا المُسُوح (١) والأنطاع ، فلمّا جرّد المهديّ بنُ المنصور الكعبة ، كان فيما نزَع عنها كِسْوة مِن ديباج مكتوب عليها : لعبد الله أبي بكر أمير المؤمنين . قال : وحدّثني يحيي بنُ مَعين بإسناد رَفَعه إلى هشام بن عروة، أنّ عبدَ الله بنَ الزبير أُخِذ من بين القتلى يومَ الجمل وبه بِضْعٌ وأربعون طَعْنةً وضَرْبة . قال الزبير : واعتلّت عائشةُ مرّة ، فدخل عليها بنو أُختِها أسماء: عبدُ الله وعروةُ والمنذر ، قال عروة : فسألناها عن حالها ، فشكَتْ إلينا نَهْكَة من عِلّتها فعزّاها عبدُ الله عن ذلك ، فأجابته بنحو قولها ، فعادَ لها بالكلام ، فعادت له بالجواب ، فصمتَ وبكَى ، قال عروة : فما رأينا متحاورَين من خَلْق الله أبلغَ منهما قال : ثم رفعت رأسَها تنظر إلى وجهه ، فأبهِتتْ لبكائه ، فبكَت ثم قالت : ماأحقّني منك يا بنيّ ، ما أرى . فما أعلم بعدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وبعد أبويّ أحداً أنزل عندى مَنزلتَك ، قال عروة : وماسمعتُ عائشةَ وأمّى أسماء تدْعُوان لأحدٍ من الخلق دعاءهما لعبدِ الله ، قال : وقال موسى بن عقبة : أقرأني عامرُ بنُ عبد الله بن الزبير وصيّةَ عبدِ الله بنِ مسعود إلى الزّبير بن العوّام وإلى عبد الله بنِ الزّبير مِن بعده ، وإنّهما في وصيّتي في حِلٍّ وبِلٍّ (٢) .

قال : وروَى أبو الحسن المدائنيّ ، عن أبي إسحق التميميّ ، أنّ معاويةَ سمع رجلا يُنشِد :

ابنُ رَقاشٍ ماجِدٌ سَمَيْدَعُ يأبَى فيُعطِي عن يدٍ أوْ يَمنَعُ

---

(١) المِسْح : الكساء من الشعر ، وجمعه مسوح

(٢) في د « وبل » تصحيف . والبل : المباح ، قالوا : هو لك حل وبل .

فقال : ذلك عبدُ الله بنُ الزبير : وكان عبدُ الله من جُملة النفر الّذين [1] أمرَهم عثمان بنُ عفّان أن يَنسخوا القرآنَ فى المصاحِف .

قال : وحدّثنا محمّد بنُ حسن ، عن نَوْفل بن عُمارة ، قال سُئل سعيدُ بن المسيِّب عن خُطباءِ قُرَيش فى الجاهليّة ، فقال : الأسود بن المطّلب بن أسد ، وسُهَيل بن عمرو . وسُئِل عن خُطبائهم فى الإسلام ، فقال: معاوية وابنُه ، وسعيدَ بن العاص وابنُه ، وعبدالله ابن الزبير .

قال : وحدّثنا إبراهيمُ بنُ المنذر ، عن عثمانَ بن طَلحة ، قال : كان عبدُ الله بنُ الزبير لا يُنازَع فى ثلاثٍ : شجاعة ، وعِبادة ، وبلاغة .

قال الزبير : وقال هشام بنُ عُرْوة : رأيتُ عبدَ الله أيّامَ حِصاره والحجَرَ مِن المَنجَنيق يَهوِى حتّى أقولَ : كاد يأخذ بلحيَتِه ، فقال له أبى : أيا ابن أمّ ، والله إنْ كادَ ليأخذُ بلحيَتِك ، فقال عبدُ الله : دَعْنى يا ابنَ أم ، فوالله ماهى إلا هَنةٌ حتّى كأنّ الإنسانَ لم يكن ، فيقول أبى وهو يُقبِل علينا بوجهه : والله ما أخشى عليك إلّا من تلك الهَنَة .

قال الزبير : فذكَر هشامٌ ، قال : والله لقد رأيتُه يُرْمَى بالمنجَنيق فلا يَلتفِت ولا يُرعَد صَوتُهُ ؛ ورُبّما مرّت الشَّظيّة منه قريباً من نحْره .

وقال الزّبير : وحدّثنا ابنُ الماجِشون ، عن ابن أبى مُليكة عن أبيه قال : كنتُ أطوفُ بالبَيْت مع عُمَر بنِ عبد العزيز ، فلمّا بلغتُ المُلتزم تخلّفتُ عندَه أدعو ثم لحِقتُ عمر ، فقال لى : ماخلّفك ؟ قال : كنتُ أدعو فى مَوْضع رأيتُ عبدَ الله بنَ الزبير فيه يَدْعو ، فقال : ماتترك تحنُّنا تك على ابنِ الزبير أبدًا ! فقلتُ : والله مارأيتُ

---

(١) ب : « الذى » .

أحداً أشدّ جِلْدا على لَحم، ولَحما على عَظْم من ابن الزبير؛ ولا رأيتُ أحداً أثبتَ قائماً، ولا أحسنَ مصلّيا من ابنِ الزبير، ولقد رأيتُ حَجَرا من المَنجَنيق جاءه فأصاب شُرْفةً من المَسجد، فمرّت قُذاذَةٌ مِنْها بين لِحْيتِه[1] وحلقه، فلم يزُل من مُقامه، ولا عرفْنا ذلك فى صَوْته، فقال عمر: لا إله إلّا الله، لجاد ماوصَفْت!

قال الزبير: وسمعتُ إسماعيلَ بنَ يعقوبَ التَّيميّ يحدِّث، قال: قال عمر بنُ عبد العزيز لابن أبى مُلَيـكَةَ: صِفْ لنا عبدَ الله بنَ الزّبير، فإنّه ترَمْرَم على أصحابِنا فتَغَشْمَروا عليه، فقال: عن أىِّ حاليه تَسأل؟ أعن دِينه، أم عن دُنْياه؟ فقال: عن كُلٍّ، قال: والله مارأيتُ جِلْدا قطّ رُكِّبَ على لَحم ولا لَحماً على عَصَب، ولا عَصَباً على عَظْم، مِثْل جِلْدِه على لحِمِه ولامثل لحمه على عَصَبِه، ولا مثلِ عصبه على عَظْمِه؛ ولا رأيتُ نَفْسا ركبت بين جَنْبينِ مثلَ نفسٍ له ركبتْ بين جَنبين، ولقدقام يوما إلى الصّلاة، فمرّ به حَجرٌ من حجارة المَنجنِيق؛ بَلِبنَة مطبوخة من شُرُفات المسجدِ، فمرّت بين لَحْيَيْه وصدرِه، فوالله ماخَشع لها بصرُه، ولا قطَع لها قراءتَه، ولا رَكع دونَ الركوع الّذى كان يركع، ولقد كان إذا دَخَل فى الصلاةخَرَج من كلّ شىء إليها؛ ولقد كانَ يرْكعُ فى الصلاة فيَقَع الرَّخَم على ظهرِه ويَسجُد فكأنّه مطروح.

قال الزّبير: وحدّثَ هشامُ بنُ عُروَة، قال: سمعتُ عمّى، يقول: ما أبالى إذا وجدتُ ثلثمائة يَصبِرون صَبْرى، لو أجلَب علىّ أهلُ الأرض.

قال الزبير: وقَسَم عبدَ الله بن الزبير ثُلُث مالِه وهو حَىّ؛ وكان أبوه الزّبير قد أوصَى أيضا بثُلُث مالِه. قال: وابنُ الزبير أحد الرّهْط الخمسة الّذين وقَع اتفاق أبى موسى الأشعرىّ وعمرو بن العاص على إحضارِهم، والاستشارة بهم فى يوم التّحكيم

(١) فى د «لحيه».

وهم : عبدُالله بن الزبير ، وعبدُ الله بن عمرو ، وأبو الجَهْم بن حُذيفة ، وجُبَير بن مُطْعِم ، وعبدالرحمن ابن الحارث بن هشام .

قال الزبير : وعبدُ الله هو الذى صَلّى بالناس بالبَصرة لمّا ظَهَر طَلْحة والزّبير على عثمانَ بن حَنيف بأمرٍ منهما له . قال : وأعطَت عائشةُ من بَشّرَها بأنّ عبد الله لم يُقتَل يومَ الجَمَل عشرةَ آلافِ درهم .

قلتُ : الذى يَغلِب على ظَنّى أنّ ذلك كان يوم إفريقيَة ، لأنّها يومَ الجمل كانت فى شُغل بنفسِها عن عَبدِ الله وغيره .

قال الزبير : وحدّثنى علىُّ بنُ صالح مرفوعاً أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله كلّم فى صِبْية ترَعْرَعوا ، منهم عبدُ الله بنُ جعفر ، وعبدُ الله بن الزبير ، وعُمَر بن أبى سَلَمَة ، فقيل : يارَسُولَ الله ، لو بايعتَهم فتصيبَهم برَكَتُك ، ويكونَ لهم ذِكْر ! فأُتِىَ بهم فكأنّهم تكَعْكعوا حين جىء بهم إليه ، واقتحم ابنُ الزبير ، فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وقال : إنه ابنُ أبيه ؛ وبايَعَهم .

قال : وسُئِل رأسُ الجالوتِ : ماعندكم من الفَراسة فى الصّبيان ؟ فقال : ماعندنا فيهم شىء ، لأنهم يُخلَقون خَلقاًمِنْ بعدخَلْق ؛ غيرأنّا نرمُقُهم ، فإنْ سَمِعنا منهم من يقول فى لَعِبه : من يكون معى ؟ رأيناها همّة وخَبْء صدق فيه ، وإن سمِعْناه يقول : معَ مَنْ أكون ؟ كرِهْناها منه . قال : فكان أوّل شىء سُمِع من عبدِ الله بنِ الزبير أنّه كان ذاتَ يومٍ يَلْعَب مع الصّبيان ، فمرّ رجلٌ ، فصاح عليهم ، ففرّوا منه ، ومَشَى ابنُ الزبير القَهْقَرى ، ثم قال : ياصِبْيان ؛ اجعَلونى أميرَكم ، وشُدّوا بنا عليه . قال : ومرّ به عمرُ بنُ الخطّاب وهو مع الصّبيان ، ففرّوا ووَقَف ، فقال لِمَ[1] لَمْ تفرّ مع أصحابك ؟ فقال : لم أُجرِمْ فأخافَك ، ولم تكن الطّريق ضَيّقةً فأُوسّع عليك !

ورَوَى الزّبير بنُ بكّار ، أنّ عبدَ الله بن سَعْد بن أبى سَرْح غزا إفريقيَة فى خلافة

---

(١) فى د « مالك لا تفر » ؛ وهو مستقيم أيضا .

عثمان ، فقَتَل عبدُ الله بنُ الزبير جرجيرَ أميرَ جَيْش الرُّوم ، فقال ابنُ أبي سَرْح : إنّي موجِّه بشيراً إلى أمير المؤمنين بمـا فتح علينا ، وأنتَ أوْلى مَن هاهنا ، فانطَلِقْ إلى أمير المؤمنين فأَخْبِره الخبَرَ ، قال عبدُ الله : فلمّا قدمتُ على عثمان أخبرته بفَتْح الله وصُنْعه ونصرِه ، ووصَفْتُ له أمرَنا كيف كان ، فلمّا فرَغت من كلامى قال : هل تستطيعُ أن تؤدِّيَ هـذا إلى الناس ؟ قلت : وما يَمنَعنى من ذلك ! قال : فاخرج إلى النّاس فأخبِرْهم قال عبد الله : فخرجتُ حتّى جئتُ المنبر فاستقبلْتُ الناسَ ، فتلقّانى وجهُ أبى ، فدخَلَتْنى له هَيْبة عَرَفها أبى فى وَجْهى ، فقَبَض قبضةً من حَصْباء وجَمعَ وجهَه فى وجهى وهمّ أن يحصِبَنى فأحْزَمْتُ ، فتكلّمتُ .

فزعموا أنّ الزبير لما فرَغ عبدُ الله من كلامه قال : والله لـكأنّى أسمع كلامَ أبى بكر الصّدّيق : من أراد أن يتزوّج امرأةً فلينظرْ إلى أبيها وأخيها فإنّها تأتيه بأحدِهما .

قال الزّبير : ويُلقّب عبدُ الله بعائذِ البيت ، لاستعاذته به .

قال : وحدّثنى عمّى مُصعب بنُ عبد الله ، قال : إنّ الذى دعا عبدَ الله إلى التعوّذ بالبَيْت شىءٌ سَمِعه من أبيه حين سار من مكّة إلى البَصْرة ؛ فإنّ الزبير التفتَ إلى الـكعبة بعد أنْ وَدّع ووجّه يريدُ الرّكوب، فأقبَلَ على ابنِه عبدِ الله، وقال : تاللهِ ما رأيتُ مِثْلَها لطالب رَغْبةٍ أو خائف رَهْبة .

وروَى الزّبير بنُ بـكّار ، قال : كان سبب تعوّذ ابن الزّبير بالـكعبة أنه كان يمشى بعد عَتَمةٍ فى بَعْض شَوارع المدينة؛ إذ لقِىَ عبد الله بنَ سَعْد بن أبى سَرْح متلثّماً لا يَبدُو منه إلّا عَيْناه . قال : فأخذتُ بيدِه وقلتُ : ابنُ أبى سَرْح ! كيف كنتَ بَعدى ؟ وكيفَ تركتَ أميرَ المؤمنين ؟ يعنى معاويةَ ـ وقد كان ابنُ أبى سَرْح عندَه بالشام ـ فلم يكلِّمنى ، فقلت : مالك ؟ أمات أميرُ المؤمنين ؟ فلم يـكلمنى ، فتركته وقد أثبتّ معرفته ، ثم خرجتُ حتّى لقيتُ الحسينَ بنَ علىّ رضى الله عنه ، فأخبرتهُ خَبره ، وقلتُ : ستأتيك رُسُل الوَليـد ، وكان الأميرُ عَلَى المدينة الوليـد بن عُتْبة بن

بى سُفْيان ؛ فانظر ما أنتَ صانع ! وأعلم أنّ رَواحِلى فى الدّار مُعَدّة، والمَوْعِد بينى وبَيْنك
أن تغفل عنّا عيونهم ، ثمّ فارقته فلم ألبث أن أتانِى رسولُ الوَليد ، فجئته فوجدتُ
الحسينَ عنـدَه ، ووجدتُ عنده مَروان بنَ الحكَم ، فنَعَى إلىّ معاوية ؛
فاسترجعت فأقبل علىّ، وقال : هلمّ إلى بَيْعة يزيدَ ، فقد كتب إلينا يأمُرُنا أن نأخذَها
عليك ! فقلت : إنّى قد علمتُ أنّ فى نفسه علىّ شيئاً لترْكى بَيعتَه فى حياة أبيه ، وإن
بايعتُ له على هـذه الحال توهّمَ أنّى مُكرَه على البَيْعة ، فلم يقَعْ منه ذلك بحيث أريد
ولـكن أصبِح ويَجتمع الناس ، ويكون ذلك علانية إن شاء الله ؛ فنظَر الوليد إلى مَرْوان
فقال مَرْوان: هو الّذى قلتُ لك؛ إنْ يخرج لم ترَه ، فأحببتُ أنْ ألقِى بينى وبينَ مَرْوان
شرّا نتشاغَل به ، فقلتُ له : وما أنتَ وذاكَ يابنَ الزّرقاء ! فقال لى ، وقلتُ له ، حتّى
تواثبْنا ، فتناصيْتُ أنا وهو ، وقام الوليدُ يحجز بيننـا ، فقال مروان : أتحجُز بيننا
بنفسك ، وتَدع أن تأمر أعوانَك ! فقال : قد أرَى ماتريد ، ولـكن لا أتولّى ذلك
منه والله أبداً، اذهب يابنَ الزّبير حيثُ شئتَ ؛ قال : فأخذتُ بيدِ الحسين،وخرجنا من
الباب حتّى صِرْنا إلى المَسْجِد وأنا أقول :

ولا تحسبنّى يامُسافِر شَحْمـةً　　　تعجّلها من جانب القِدْرِ جائعُ

فلما دخل المسجدَ افترَق هو والحسين ، وعَمَد كلّ واحـد منهما إلى مُصلاّه يُصلّى
فيـه ، وجعلَت الرسلُ تختلِف إليهما ، يَسمَع وَقْع أقدامِهم فى الحَصْباء حتّى هَدأ عنهما
الحسّ ، ثمّ انصرَفا إلى منازِلهما، فأتى ابن الزبيرَ رواحله ، فقعَد عليها ، وخرج من أدبارِ
دارِه ، ووافاه الحسينُ بن علىّ ، فخرَجا جميعاً من ليْلتهم ، وسلَكوا طريقَ الفُرْع
حتّى مرّوا بالجَنْجانة وبها جعفر بنُ الزبير قد ازدرَعها ، وغمزَ عليهم بعيرٌ من إبلهم
فانتهَوْا إلى جعفر ، فلما رآهم قال : مات معاوية ؟ فقال عبدُ الله : نعَم ، انطلِق

معنا وأعطنا أحدَ جَمَلَيْك — وكانَ ينضَح على جملين له — فقال جعفر متمثّلا :

إخوتي لا تبعدوا أبداً وبَلَى والله قد بعُدُوا

فقال عبدُ الله — وتطيّر منها: بفيك الترّاب ! فخرجوا جميعا حتى قدموا مكّة ، قال الزبير : فأمّا الحسين عليه السلام فإنّه خرج من مكّة يومَ التَّرْوية يطلُب الكوفة والعراق ، وقد كان قال لعبد الله بنِ الزبير : قد أتتْني بيْعةُ أربعين ألفاً يحلِفون لى بالطلاق والعِتاق من أهل العراق ، فقال : أتخرُج إلى قومٍ قتلوا أباك وخذلوا أخاك !

قال : وبعضُ الناس يزْعم أن (١) عبدَ الله بنَ عباس هو الّذى قال للحُسين ذلك.

قال الزّبير : وقال هشام بنُ عُروة : كان أوّل ما أفصح به عمّى عبد الله وهو صغير : السّيف ، فكان لا يضَعُه مِن فيه ، وكان أبوه الزبير إذا سمع منه ذلك يقول : أما والله ليكوننّ لكَ منه يومٌ ويومٌ وأيّام !

***

فأما خبرُ مقتَل عبد الله بن الزّبير فنحن نوردُه من تاريخ أبي جعفر محمد بن جَرير الطبريّ رحمه الله . قال أبو جعفر: حصَر (٢) الحجّاجُ عبدَ الله بنَ الزبير ثمانيةَ أشهر، فروَى إسحاق بنُ يحيى عن يوسفَ بن ماهك، قال : رأيتُ منجنيق أهل الشام يُرمَى به فرَعَدتِ السماء وبرَقتْ ، وعلا صوتُ الرّعد على صوْت المنجنيق ، فأعظَمَ أهلُ الشام ماسَمِعوه ، فأمسكوا أيديهم، فرفَع الحجّاج بِرْكة (٣) قبائه، فغرَزها في منطقته ، ورفَع حجَرَ المَنجنيق فوضَعه فيه ، ثم قال : ارموا ، ورَمى معهم ؛ قال : ثمّ أصبحوا فجاءت

(١) كذا فى د ، وفى ب : « ابن » تصحيف
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٨٤٤، وما بعدها (طبعة أوربا) ، مع تصرف واختصار
(٣) بركة قبائه : مقدمه .

صاعقةٌ يتبعها أخرى ، فقتلتْ من أصحاب الحجّاج أثنيْ عشرَ رجلا ؛ فأنكر أهلُ الشام فقال الحجّاج : ياأهلَ الشام ، لا تُنكروا هذا ، فإنّى ابنُ تِهامة ، هذه صَواعقُ تِهامةَ ، هذا الفتحُ قد حَضَر فأبشِروا ، فإنّ القوم يُصيبُهم مِثل ما أصابَكم ، فصعقت من الغد فأصيبَ من أصحاب ابن الزبير عدّة ما أصاب الحجّاج ، فقال الحجّاج : ألا ترون أنهم يُصابُون وأنتم على الطّاعة ، وهم على خلاف الطاعة ! فلم تزلْ الحربُ بين ابنِ الزّبير والحجّاج حتّى تفرّق عامّة أصحاب ابن الزبير عنه ، وخرج عامّة أهلِ مَكّة إلى الحجّاج فى الأمان .

قال : ورَوَى إسحاق بنُ عبيدالله ، عن المُنذِر بن الجهم الأسلَمِيّ ، قال : رأيتُ ابنَ الزّبير، وقد خَذَلَه من معه خِذلانا شديداً ؛ وجعلوا يخرجون إلى الحجّاج، خرج إليه منهم نحو عشرة آلاف ، وذكر أنّه كان ممّن فارقه ، وخرج إلى الحجاج أبناه : خُبَيب وحمزة ، فأخذا من الحجاج لأنفسهما أمانا .

قال أبو جعفر : فروى محمد بن عمر ، عن ابن أبى الزّناد ، عن مَخْرمة بن سلْمَان الوالبيّ ، قال : دخل عبدُ الله بن الزبير على أمّه حين رَأى من النّاس ما رأى من خِذْلانه ، فقال : ياأمّه ، خَذَلنى النّاس حتى وَلدِى وأهلى ، ولم يبقَ معى إلّا اليسير ممّن ليس عندَه من الدّفع أكثر من صَبْر ساعة ، والقوم يُعطوننى ما أردتُ من الدّنيا ، فما رأيكِ؟ فقالت : أنت يابنىّ أعلَمُ بنفسك ، إن كنتَ تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له ، فقد قُتِل عليه أصحابُك ، ولا تُمكِّن من رقبتك يتلعّبْ بك غِلمانُ بنى أميّة ، وإن كنتَ إنّما أردتَ الدّنيا فبئس العبدُ أنتَ ! أهلكتَ نفسَك وأهلكتَ من قُتِل معك ، وإن قلتَ : قد كنتُ على حقّ فلما وَهَن أصحابى وَهَنْتُ وضعفت ، فليس هذا فعلَ الأحرار ولا أهلُ

الدَّين ، وكم خُلودك فى الدنيا ! القتل أحسن ؛ فدنا ابنُ الزبير فقبّل رأسها ؛ وقال : هذا والله رأيى الذى قمتُ به داعياً إلى يومى هذا ، وما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياةَ فيها ؛ ولم يَدْعُنى إلى الخروج إلّا الغضب لله أن تُستَحلّ محارمُه (١) ، ولكنّى أحببتُ أن أعلم رأيكِ، فزدْتنى بصيرةً مع بصيرتى . فانظرى ياأمّه ، فإنّى مقتول من يومى هذا فلا يَشتد حُزْنك ، وسلّمى لأمر الله ، فإنّ ابنك لم يتعمّد إتيان مُنكَر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حُكْم ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمّد ظُلْمَ مُسلِم ولا مُعاهِد، ولم يَبلُغنى ظلمٌ عن عُمّالى فرضيتُ به بل أنكرته ، ولم يكن شىء آثرَ عندى من رضا ربّى . اللهمّ إنى لا أقول هذا تزكيةً منّى لنفسى ، أنتَ أعلمُ بى ، ولكنّى أقوله تعزيةً لأمّى لتسلوَ عنّى . فقالت أمّه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حَسَناً إنْ تقدّمْتنى ، فلا أخرُج من الدنيا حتى أنظرَ إلى مايصيرُ أمرُك . فقال : جزاكِ الله ياأمّه خيراً! فلا تَدَعى الدُّعاء لِى قبلُ وبعد ؛ قالت : لا أدعُه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قتلتَ على حقّ . ثمّ قالت : اللهمّ ارحمْ طول ذلكَ القيامِ فى الليل الطويل ، وذلك النّحيب والظّمأ فى هَواجِر المدينة ومكّة ، وبرّه بأبيه وبى ! اللهم إنّى قد سلّمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيتَ، فأثِبْنى فى عبدِ الله ثوابَ الصّابرين الشاكرين .

قال أبو جعفر : وروَى محمّد بن عمر ، عن موسى بن يعقوب بن عبد الله ، عن عمّه ، قال : دخل ابنُ الزّبير على أمّه وعليه الدّرع والمِغفَر ، فوقَف فسلّم ، ثمّ دنا فتناول يدَها فقبّلها ، فقالت : هذا وَداع فلا تَبعُد ، فقال : نَعَم ، إنّى جئت مُودّعا ، إنّى لأرَى أنّ هذا اليومَ آخرُ يوم من الدّنيا يمرّ بى ؛ واعلمى يا أمّه أنّى إنْ قُتلتُ فإنّما أنا لحمٌ لا يَضرُّه ماصُنِع به ، فقالت : صدقتَ يا بُنىّ ، أتمّ على بَصيرتك ، ولا تُمكّن ابنَ

---

(١) الطبرى : « أن يستحل حرمه »

أبى عَقِيل منك ، وادنُ منى أودِّعك ؛ فدنا منها فقبّلها وعانقها ، فقالت حيث مسّت الدِّرع : ماهذا صَنيعُ مَن يريدُ ماتريد ! فقال : مالبستُها إلّا لأشدّ منكِ ، فقالت : إنّها لا تشُدّ منى ؛ فنزَعها ، ثم أخرَج(١) كمّيه وشدّ أسفل قيصه ، وعمَد إلى جبّةِ خزّ تحت القميص ؛ فأدخَل أسفلَها فى المِنطقة ، فقالت أمه : شمّرْ ثيابَك ، فشمّرها ، ثم انصرف وهو يقول :

إنّى إذا أعرِف يومى أصبِرْ إذ بعضُهم يَعرِف ثم يُنكِرْ

فسمعت العجوز قوله، فقالت : تصبر والله ، ولِمَ لاتصبروأبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب !

قال : وَرَوَى محمّد بن عمر عن ثَوْر بن يزيد عن رجل من أهل حمص قال : شهدته والله ذلك اليوم ونحن خمسمائة من أهلِ حِمْص ، فدَخَل من باب المسجد لا يدْخُل منه غيرنا ، وهو يَشُدّ علينا ونحن مُنهزمون وهو يرتجز :

إنّى إذا أعرِف يومى أصبِرْ وإنّما يَعرِف يوْمَيه الحرْ

* وبَعضُهم يعرِف ثمّ يُنكِرُ *

فأقول : أنت واللهِ الحرّ الشريف ؛ فلقد رأيتُه يقف بالأبطَح لا يدنو منه أحدٌ حتى ظننّا إنّهُ لايقتل .

قال : وَرَوَى مُصعَب بنُ ثابت ، عن نافع مولَى بنى أسَد ، قال : رأيتُ الأبوابَ قد شُحِنتْ بأهل(٢) الشام ، وجَعلوا على كلّ باب قائدا ورجالا وأهل بلد ، فكان لأهل حِمصَ الباب الّذى يواجه بابَ الكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بنى شَيْبة ، ولأهل الأرْدُنّ بابُ الصّفا ، ولأهل فِلَسطين باب بنى جُمَح ، ولأهلِ قِنّسْرِينَ بابُ بنى سَهْم ، وكان الحجاج وطارِقُ بن عمرو فى ناحية الأبطح إلى المَرْوَة ، فمرة يحمِل ابنُ الزُّبير

(١) الطبرى : « أدرج » (٢) الطبرى : « من أهل الشام » .

فى هذه الناحية ، ولـكأنه أسد فى أجمة ما يُقدِم عليه الرّجال ، فيعدُو فى أثر الرجال وهم على الباب حتى يُخرجهم ، ثم يصيح إلى عبد الله بن صفوان ، ياأبا صفوان ، وَيْلُ أُمِّه فتحا لو كان له رجال ! ثم يقول :

* لو كان قِرْنى واحدا كُفيتُه[1] *

فيقول عبدُ الله بن صفْوان : إى والله وألفا .

قال أبو جعفر : فلمّا كان يوم الثلاثاء ، صبيحة سبع عشرةَ من جُمادى الأولى سنَةَ ثلاث وسَبْعين ، وقد أخذ الحجّاج على ابن الزّبير بالأبواب ، باتَ ابنُ الزّبير تلك الليلة يصلّى عامّة الليل ، ثم احتبَى بحمائل سيفه ، فأغفَى ثم انتبَه بالفَجْر ، فقال : أذِّنْ ياسعد ؛ فأذّن عنـد المَقام ، وتوضأ ابنُ الزبير ورَكَع ركعتَى الفَجْر ، ثم تقدّم وأقام المؤذّن ، فصلّى ابنُ الزبير بأصحابه فقرأ « ن والقلَم » حرْفاحرفا ثم سلّم ، ثمّ قام ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : اكشفوا وجوهَـكم حتى أنظرَ ، وعليها المَغافِر والعَمائم ، فـكَشَفوا وجوهَهم ، فقال : ياآل الزّبير ، لو طِبْتم لى نَفْسـا عن أنفسكم كنّا أهلَ بيت مِن العرب اصطُلِمنا ، لم تُصبنا مَذَلّة ، ولم نقرّ على ضَيْم . أمّا بعد ياآل الزبير ، فلاَ يُرعْـكم وَقعُ السّيوف ، فإنى لم أحضر مَوْطنا قطّ ارتُثِثْتُ فيـه بين القَتلَى ، وما أجدُ من دواء جراحها أشدَّ ممّا أجِد من ألم وَقْعها . صونوا سيوفَـكم كما تصونون وجوهَـكم . لا أعلمَ امرأً كَسَر سيفَه واستَبقَى نفسَه . فإنّ الرّجل إذا ذهبَ سلاحُه فهو كالمرأة أعزَل . غضّوا أبصاركم عن البـارِقَة ، وليَشغَل كلُّ امرىء قِرْنه ، ولا يُلهِيَنّـكم السّؤالُ عنّى ، ولا تقولُنّ : أين عبدُ الله بن الزّبير ؟ ألا من كان سائلا عنّى فإنّى فى الرّعيل الأوّل ، ثمّ قال :

---

(١) من أبيات لدويد بن زيد بن نهد ، طبقات الشعراء ٢٧ ، ٢٨

أَبَى لابنِ سَلْمَى أنه غيرُ خالدٍ   يُلاقِي المَنايا أيَّ وجهٍ تَيَمَّمَا(١)
فلستُ بمُبْتاعِ الحياةِ بسُبَّةٍ   ولا مُرْتَقٍ من خَشْيةِ الموت سُلَّمَا

ثمّ قال : احملوا على بركة الله ، ثمّ حَمَل حتّى بلغ بهم إلى الحَجُون ، فرُمِى بحَجَر ، فأصاب وجهَه ، فأرعِش ودَمِيَ وجهُه ، فلمّا وجد سُخونة الدّم تسيلُ على وجهه ولحيته قال :

ولَسْنَا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومُنا   ولكنْ على أقدامِنا تَقطرُ الدِّمَا(٢)

قال : وتَعَاوَوا عليه ، وصاحتْ مولاةٌ له مجنونة : وا أميرَ المُؤمنيناه ! وقد كان هوَى ، ورأتْه حين هوَى فأشارتْ لهم إليه ، فقُتِل وإنّ عليه لثيابُ خَزٍّ ، وجاء الخبرُ إلى الحجّاج ، فسَجَد وسار هو وطارقُ بنُ عمرو ، فوقفا عليه ، فقال طارق : ما وَلَدتِ النّساء أذكَرَ مِن هذا ، فقال الحجاج : أتمدحُ من يخالِف طاعة أمير المؤمنين ! فقال طارق : هو أعذَرُ لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عُذْرٌ ، إنّا مُحاصِروه وهو فى غير خَنْدق ولا حِصْن ولا مَنَعة منذُ ثمانيةِ أشهُر يَنتصِف منّا ، بل يَفضُل علينا فى كلّ ما التقينا نحن وهو ؛ قال : فبلغ كلامُهما عبد الملك ، فصوّب طارقا .

قال : وبَعَث الحجّاجُ برأس ابن الزبير ورأس عبد بن صَفْوان ورأس عمارة بن عمرو ابن حَزم إلى المدينة ، فنصبت الثلاثة بها ، ثمّ حملتْ إلى عبد الملك .

* * *

ونحن الآن نذكرُ بقية أخبارِ عبد الله بن الزبير ملتقطةً من مواضع متفرقة :

رُئِيَ عبدُ الله بنُ الزبير فى أيام معاوية واقفاً بباب ميّةَ مولاة معاوية ، فقيل له :

---

(١) للحصين بن الحمام المرى ، الأغانى ١٤ : ٨
(٢) للحصين بن الحمام المرى ، ديوان الحماسة ١ : ١٩٢ — بشرح التبريزى .

يا أبا بكر ، مثلك يقف بباب هذه ! فقال : إذا أعيتكم الأمورُ من رؤوسها تخذوها من أذنابها .

ذكر معاويةُ لعبد الله بن الزبير يزيد ابنه ، وأراد منه البيعة له ، فقال ابنُ الزّبير : أنا أناديك ولا أناجيك ، إنّ أخاك مَنْ صدَقك ، فانظر قبل أن تقدم ، وتفكّر قبل أن تندَم ؛ فإنّ النظر قبل التقدّم ، والتفكّر قبل التندّم ؛ فضحك معاويةُ وقال : تعلمتَ يا أبا بكرٍ الشّجاعة عند الكِبَر .

***

كان عبدُ الله بنُ الزبير شديدَ البُخل ، كان يُطعِم جندَه تمرا ، ويأمُرهم بالحرْب ، فإذا فرّوا مِن وَقع السّيوف لامَهم وقال لهم : أكلتم تمْرى ، وعَصَيتم أمرى فقال بعضهم :

ألم تَر عبدَ الله والله غالبٌ   على أمره يبغى الخلافةَ بالتمْرِ

وكسرَ بعضُ جنده خمسة أرماح فى صُدور أصحاب الحجّاج ، وكلّما كسَرَ رُمحا أعطاه رُمحا ، فشَقّ عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماح ! لا يَحتمِل بيتُ مال المسلمين هذا !

قال : وجاءه أعرابىّ سائلٌ فردّه ، فقال له : لقد أحرَقَت الرّمْضاء قدَمىّ فقال : بُلْ عليهما يبردان .

***

جَمع عبد الله بنُ الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس فى سبعة عشر رجلا من بنى هاشم ، منهم الحسن بنُ الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وحصرَهم فى شِعْب بمكة يُعرَف بشعب عارِم ، وقال : لا تمضى الجمعةُ حتى تُبايعوا إلىّ أو أضرب أعناقكم ، أو أحرّقكم بالنار ، ثم نهض إليهم قبل الجمعة يريد إحراقهم بالنّار ؛ فالتزمه

ابنُ مِسْوَر بن مخرمة الزهري، وناشده الله أن يؤخّرهم إلى يوم الجمعة، فلمّا كان يوم الجمعه دعا محمد بن الحنفيّة بغَسول وثياب بيض، فاغتسل وتلبّس وتحنّط؛ لا يَشُكُّ فى القتل، وقد بعث المختار بن أبى عُبيد من الكوفة أبا عبدِ الله الجَدَلىّ فى أربعة آلاف، فلما نزلوا ذات عِرْق؛ تعجّل منهم سبعون على رواحلهم حتى وافَوْا مكّة صبيحة الجمعة يُنادُون : يا محمّد، يا محمّد! وقد شَهَروا السّلاح حتى وافَوْا شِعْبَ عارِم، فاستخلصوا محمّد بن الحنفيّة ومن كان معه، وبعث محمّد بنُ الحنفيّة الحسن بنَ الحسن يُنادِي : من كان يرَى أن لله عليه حقّا فليشِمْ سَيْفَه، فلا حاجة لى بأمر الناس، إنْ أُعطِيتُها عفوا قَبِلْتُها، وإن كَرِهوا لم تَبْتَزَّهم[1] أمرَهم.

وفى شِعب عارم وحصار ابن الحنفيّة فيه يقول كُثيِّرُ بنُ عبدِ الرحمن :

ومن يَرَ هذا الشيخ بالخَيْف مِن مِنًى مِنَ النّاس يَعلم أنّه غيرُ ظالِمِ
سَمِيّ النبيّ المصطفى وابنُ عمِّه وحَمّالُ أثقالٍ وفَكّاك غارِمِ
تخبّرُ من لاقيتَ أنّك عائذٌ بل العائذُ المحبوسُ فى سِجْن عارِمِ

وَرَوَى المَدائنىّ، قال : لما أخرَجَ ابنُ الزبير عبدَ الله بن عباس من مكّة إلى الطائف مرّ بنَعمان، فنزل فصلّى ركعتين، ثم رفع يَدَيْه يدعو، فقال : اللّهمّ أنك تعلم أنّه لم يكنْ بلدٌ أحبَّ إلىّ من أن أعبُدَك فيه من البلد الحرام، وأننى لا أحبّ أن تقبض رُوحى إلاّ فيه، وأنّ ابن الزبير أخرَجنى منه، ليكون الأقوى فى سلطانه. اللّهمّ فأوْهِن كيدَه، واجعل دائرة السَّوْء عليه. فلمّا دنا من الطّائف تلقاه أهلها، فقالوا : مرحباً بابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله! أنتَ والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا ممّن أخرجك؛ هذه منازِلُنا تخيّرها، فانزلْ منها حيث أحببت! فنزل منزلا، فكان

---

(١) لم تبتزّهم أمرهم : لم تسلبه منهم عفوا.

يجلس إليه أهلُ الطَّائف بعد الفجر وبعد العصر؛ فيتكلَّم بينهم ، كان يحمد الله ويذكر النبيَّ صلى الله عليه وآله والخلفاء بعده ، ويقول : ذهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم ولا أشباههم ولا مَن يُدَانيهم ؛ ولكنْ بقي أقوامٌ يطلبُون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبَسون جلود الضأن؛ تحتها قلوبُ الذِّئاب والنمور ، لِيظُنَّ الناسُ أنهم من الزاهدين فى الدنيا، يُراءون النَّاس بأعمالهم ، ويُسْخِطون الله بسرائرهم ؛ فادعوا الله أن يقضي لهذه الأمة بالخير والإحسان ، فيولِّي أمرها خيارَها وأبرارَها ، ويُهلك فُجّارها وأشرارها ، ارفعوا أيديكم إلى ربِّكم وسلُوه ذلك. فيفعلون .

فبلغ ذلك ابن الزبير ، فكتب إليه :

أما بعد ، فقد بلغنى أنك تجلس بالطَّائف العصرَين فتفتيهم بالجهل ، تَعيب أهلَ العَقل والعِلم ؛ وإنّ حِلمى عليك ، واستدامتى فَيْئك جرَّأك علىَّ ، فاكففْ لا أبا لغيرك مِن غَرْبك ، واربَعْ على ظَلْعِك[1] ، واعقل إن كان لك مَعقول ، وأكرم نفسك فإنك إن تهِنْها تجدها على الناس أعظم هَوَانا ، ألم تسمع قول الشاعر :

فنفسَك أكرِمْها فإنك إن تَهُنْ ... عليكَ فلن تلقى لها الدهرَ مُكرِما

وإنّى أُقسم بالله لئن لم تنته عمّا بلغنى عنك لتجدَنَّ جانبي خَشِنا ، ولتجدنّى إلى ما يرْدَعُك عنى عجلا ، فرَ رأيك ، فإن أشقى بك شقاؤك على الرّدى فلا تلُم إلا نفسك .

فكتب إليه ابنُ عباس :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابُك ؛ قلت : إنى أفتى الناس بالجهل ، وإنما يُفتى بالجهل مَن لم يعرف مِن العلم شيئاً ، وقد آتانى اللهُ مِن العلم ما لم يؤتِك . وذكرت أنّ حِلمك عنى ، واستدامتَك فَيْئى جرّأنى عليك ، ثمّ قلت : اكففْ مِن غَرْبك ، واربَعْ على

(١) يقال : اربع على ظلعك ؛ أى افعل بقدر ما تطيق ، ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق

ظَلْعك ؛ وضربت لىَ الأمثال ، أحاديث الضّبع ، متى رَأيتنى لعُرامِك(١) هائبا ، ومن حَدّك ناكِلا ! وقلت : لئن لم تـكفف لتجدنّ جانبى خَشِناً ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا أرعى عليك إن أرْعَيت ! فو الله لا أنتهى عن قول الحق ، وصفة أهل العدل والفضل ، وذمّ الأخسَرِين أعمالا ، الذين ضَلّ سعيُهم فى الحياة الدنيا وهُم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعا ؛ والسَّلام .

***

قَدِم معاوية المدينة راجعا من حَجّة حَجّها ، فـكثُر الناسُ عليه فى حوائجهم ، فقال لصاحِب إبله : قَدِّم إبلك لَيْلا حتى أرتحل ؛ ففعل ذلك ، وسار ولم يعلم بأمره إلاّ عبدالله بنُ الزبير ؛ فإنه ركب فَرسه وقَفَا أثره ، ومعاوية نائم فى هَوْدجه فجعل يسيرُ إلى جانبه ، فانتبه معاويةُ ، وقد سمع وَقْع حافرِ الفَرَس ، فقال : من صاحب الفرس ؟ قال : أنا أبو خُبَيْب ، لو قد قتلتك منذ الليلة ! يُمازحه ، فقال معاوية : كلاّ لستَ من قَتلة الملوك ، إنما يصيد كلُّ طائر قَدْرَه . فقال ابنُ الزبير : إلىّ تقول هذا ، وقد وقفتُ فى الصّفّ بإزاء علىّ بن أبى طالب ؛ وهو مَن تعلم ! فقال معاوية : لا جَرم ! إنه قَتَلك وأباك بيسرى يدَيْه ، وبقيتْ يدُه اليمنى فارغة يطلب مَنْ يقتله بها . فقال ابن الزبير : أما والله ما كان ذاك إلاّ فى نَصْر عثمان فلم نُجْزَ به ، فقال معاوية : خَلِّ هذا عنك ، فو الله لولا شدّة بُغْضِك ابن أبى طالب لجرَرْت برِجْل عثمان مع الضَّبُع . فقال ابن الزبير : أفَعَلْتَها يامعاوية ! أما إنّا قد أعطيْناك عَهْدا ، ونحنُ وافون لك به ما دمتَ حيّا ، ولـكن ليعلمنّ مَنْ بعدك ، فقال معاوية : أما واللهِ ما أخافك إلاّ على نفسك ، ولـكأنى بك وأنت مشـدودٌ مَرْبوط فى الأنشوطة(٢) ، وأنت تقول : ليت أبا عبد الرحمن كان حيًّا ، وليتنى كنتُ حيا يومئذ ، فأحلُّك حلاًّ رفيقا ، ولبئس المُطلق والمعتق والمَنْنون عليه أنت يومئذ !

---

(١) العرام : الشراسة والشدة

دَخل عبدُ الله بنُ الزبير على معاوية وعندَه عمرو بنُ العاص، فتكلم عمرو ــ وأشار إلى ابن الزبير ــ فقال : هــذا واللهِ ياأميرَ المؤمنين الذى غرّته أناتُك، وأبطَره حلمك، فهو يَنْزُو فى نَشْطته نَزْوَ العير فى حبالته، كلّما قمصته الفَلْواه والشِّرّة سكنت الأنشوطةُ منه النَّفرة، وأَحْرِ به أن يئول إلى القِلّة أو الذِّلّة، فقال ابنُ الزبير : أما واللهِ يابنَ العاص، لولا أنّ الإيمان أَلزمنا بالوَفاء، والطاعةِ للخُلفاء، فنحن لا نريد بذلك بَدَلا، ولا عنه حِوَلا؛ لـكان لنـا وله ولك شأن، ولو وَكَّله القضاء إلى رأيك، ومَشُورة نُظَرائك لَدافَعناه بمَنكِب لا تئوده المُزاحمة، ولقاذَفناه بحَجَر لا تنـكُؤه المُراجمـة؛ فقال معاوية : أما والله يابنَ الزّبير لولا إيثارِى الأناةَ على العَجَل، والصَّفْحَ على العقوبة، وأنّى كما قال الأوّل :

أُجامِل أقواماً حيـاءً وقد أَرَى ... قلوبَهم تَغْلى علىَّ مِراضُهـا

إذاً لقرَنتُك إلى ساريةٍ من سَوارِى الحرَم تُسكِّن بها غُلَوَاءك، وينقطع عندَها طَمَعُك، وتنقص من أَمَلك، ما لعلّك قد لَوَيته فشزرته، وفتلته فأبرَمته. وايمُ اللهِ إنك من ذلك لَعلى شَرف جُرُف بَعيدِ المَهْوَة؛ فـكن على نفسِك ولها، فاتُوبِق ولا تنقذ غيرَها، فشأنك وإيّاها.

***

قطع عبدُ الله بن الزّبير فى الُخطبة ذِكْرَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله جُمعاً كثيرة، فاستعظَم الناسُ ذلك، فقال : إنى لا أرغب عن ذِكره، ولـكنّ له أُهَيْـل سوء إذا ذُكرتُه أتلَعوا أعناقهم، فأنا أحِبّ أن أكْبِتَهم.

***

لـمّـا كاشف عبدُ الله بنُ الزبير بنى هاشم وأظهَر بُغضَهم وعابهم، وهمّ بما همّ به فى

أمرِهم ، ولَم يذكُر رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى خُطبةٍ ، لا يومَ الجمعة ولا غيرها ، عاتبه على ذلك قومٌ من خاصّته، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته، فقال : واللهِ ماتركتُ ذلك عَلانيةً إلّا وأنا أقوله سِرّا وأكثر منه ؛ لكنّى رأيتُ بنى هاشم إذاسمعوا ذِكرَه اشرأبّوا واحمرّت ألوانهم ، وطالتْ رقابُهم ، والله ما كنتُ لآتى لهم سُروراً وأنا أقدِرُ عليه ، واللهِ لقد هممتُ أن أحظر لهم حظيرةً ثم أضرمها عليهم نارا ، فإنى لا أقتلُ منهم إلّا آثماً كفّارا سحّارا ، لا أنماهم[1] الله ولا بارَك عليهم ، بيت سَوء لا أوّل لهم ولا آخِر ، والله ماترك نبيّ الله فيهم خيرا ، استفرَغ نبيّ الله صدْقهم فهمْ أكذَب الناس .

فقام إليه محمّد بنُ سعد بن أبى وقّاص فقال : وفّقك الله ياأمير المؤمنين ! أنا أوّل مَن أعانك فى أمرهم ، فقام عبدُ الله بن صَفوان بن أميّة الجمحيّ ، فقال : والله ماقلتَ صوابا ، ولا هممتَ برُشْد ، أرَهطَ رسول الله صلّى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتُل، والعرب حَوْلك ! واللهِ لو قتلتَ عِدّتهم أهل بيت من التّرك مُسلمين ما سوّغه الله لك ، واللهِ لو لم[2] يَنصُرْهم النّاس منك لنَصرهم اللهُ بنَصْره . فقال : اجْلس أباصَفوان فلستَ بناموس[3] .

فبلَغ الخبرُ عبدَ الله بن العبّاس ، فخرج مُغضَبا ومعه ابنُه حتّى أتى المسجد ، فقصَد قَصْدَ المنبَر فحمد اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلّى الله عليه وآلهِ ثمّ قال : أيّها الناس ، إنّ ابن الزّبير يزعُم أن لا أوّل لرسول الله صلّى الله عليه وآله ولا آخر ، فيا عَجَبا كلّ العَجَبِ لافترائه ولكَذِبه ! والله إن أوّل منأخَذَ الإيلافَ وحَمى عِيرات[4]

---

(١) لاأنماهم : لاأكثر عددهم . (٢) فى د « لولا » . (٣) الناموس : الحاذق .

(٤) العير ـ بالكسر : الإبل تحمل الميرة ؛ بلا واحد من لفظها ، وجمعه عيرات .

قريش لهاشم ، وإن أول من سقى بمكة عذبا(١) ، وجعل باب الكعبة ذهبا لعبد المطلب ، والله لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش وإن كنا لقالتهم(٢) إذا قالوا ، وخطباءهم إذا خطبوا ؛ وما عُدّ مجد كمجد أولنا ، ولا كان في قريش مجد لغيرنا ؛ لأنها في كفر ماحق ، ودين فاسق ، وضلة وضلالة ، في عشواء(٣) عمياء ، حتى اختار الله تعالى لها نورا ، وبعث لها سراجا ، فانتجبه(٤) طيبا من طيبين ، لا يسبه بمسبة ، ولا يبغي عليه غائلة ، فكان أحدنا وولدنا ، وعمنا وابن عمنا(٥) ثم إن أسبق السابقين إليه منا وابن عمنا ، ثم تلاه في السبق ، أهلنا ولحمتنا(٦) واحدا بعد واحد .

ثم إنا لخير الناس بعده وأكرمهم أدبا ، وأشرفهم حسبا ، وأقربهم منه رحما .

واعجبا كل العجب لابن الزبير ! يعيب بني هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجده بمصاهرتهم ؛ أما والله إنه لمسلوب قريش ، ومتى كان العوام بن خويلد يطمع في صفية بنت عبد المطلب ! قيل للبغل : من أبوك يابغل ؟ فقال : خالي الفرس . ثم نزل .

* * *

خطب ابن الزبير بمكة على المنبر ؛ وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : إن هاهنا رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، يزعم أن متعة النساء حلال من الله ورسوله ، ويفتي في القملة والنملة ؛ وقد احتمل بيت مال البصرة بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضخون(٧) النوى ؛ وكيف ألومه في ذلك ، وقد قاتل أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن وقاه بيده !

(١) في الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفونا » .

(٢) القالة : جمع قائل .

(٣) فتنة عشواء ، من العشي ؛ وهو سوء البصر بالليل والنهار .

(٤) انتجبه : انتخبه .

(٥) ابن عمنا ، أي علي بن أبي طالب

(٦) اللحمة : القرابة .

(٧) يرتضحون النوى : يكسرونه .

فقال ابنُ عباس لقائده سعد بن جُبير بن هشام مولَى بنى أسَد بن خُزيمة : استقبِل بى وجهَ ابنِ الزبير ، وارفعْ من صَدْرى ؛ وكان ابنُ عباس قد كُفَّ بَصرُه فاستقبل به قائدُه وجهَ ابنِ الزبير ، وأقام قامَته فحسَرَ عن ذِرَاعَيْه ، ثم قال يابنَ الزّبير :

قد أنصفَ القارةَ مَن رامَاها (١)　　إنّا إذا ما فِئــــةٌ نلقَاها

نردّ أولاهـــا على أخراها　　حتى تَصيرَ حَرَضاً دَعْواها (٢)

يابنَ الزّبير ؛ أما العَمَى فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ فإنّهـا لا تَعمَى الأبصارُ ولـكنْ تَعمَى القلوبُ التى فى الصدور ﴾ (٣) ؛ وأمّا فُتيايَ فى القَمْلة والنّملة ؛ فإنّ فيها حُكمين لا تعلَمها أنتَ ولا أصحابك . وأما حَمْلى المال فإنه كان مالًا جَبَيْناه فأعطَينا كلّ ذى حقٍّ حقَّه ، وبقيتْ بقيّةٌ هى دونَ حقِّنا فى كتاب الله فأخذناها بحقّنا . وأما المُتعة فسَلْ أمَّك أسماء إذا نزلت عن بُرْدَىْ عَوسَجة . وأما قتالُنا أمّ المؤمنين فبنا سُمِّيتْ أمّ المؤمنين لا بك ولا بأبيك ؛ فانطلَق أبوك وخالك إلى حِجاب مدّه الله عليها ، فهتَكاه عنها ، ثم اتخذاها فتنة يقاتِلان دُونَها ، وصانا حلائلهما فى بُيوتهما ، فما أنصفا اللهَ ولا محمّدا من أنفسِهما أن أبرَزَا زوجةَ نبيِّه وصانا حلائلهما . وأما قتالنا إيّاكم فإنّا لقِينا كم زَحْفا ، فإن كنّا كُفّارا فقد كفَرتم بفِرارِكم منّا ، وإنْ كنّا مؤمنين فقد كفَرتم بقتالِكم إيّانا ، وأيمُ اللهِ لولا مكانُ صَفِيّة فيكم ، ومكانُ خديجة فينا ، لما تركت لبنى أسد بن عبدِ العُزّى عَظما إلّا كسَرْته .

فلما عادَ ابنُ الزبير إلى أمّه سألَها عن بُرْدَىْ عَوسجة ، فقالت : ألم أنهَك عن ابن عباس وعن بنى هاشم ! فإنّهم كُعُمٌ (٤) الجوابِ إذا بُدِهوا ، فقال : بلى ، وعصيتُكِ .

---

(١) فى اللسان : القارة : قوم رماة من العرب ، وفى المثل : « قد أنصف القارة من راماها » .

(٢) الحرض : الفساد فى الذهن والعقل والبدن .

(٣) سورة الحج آية ٤٦

(٤) كعم البعير : شدفاه لئلا يعض أو يأكل ، والكعام ، ككتاب : مايجعل على فه ، والجمع كعم ، والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخرسة تلجم أفواه مناظريهم .

فقالت : يا بُنَيّ ، احذرْ هذا الأعمى الذي ما أطاقته الإنس والجنّ ، واعلمْ أنّ عندَه فضائحَ قريش ومخازيَها بأسرِها ، فإيّاك وإيّاه آخر الدهر ، فقال : أيمنُ بنُ خريم بنِ فاتِك الأسديّ :

يابن الزّبيرِ لقد لاقيتَ بائقةً ... مِن البوائقِ فالطُفْ لُطفَ مُحتالِ
لاقيتَه هاشميّا طابَ مَنبتُه ... في مَغرِسَيْه كريمُ العمّ والخالِ
مازال يقرَع عنكَ العَظْمَ مقتدرا ... على الجواب بصَوتٍ مُسمعٍ عالِ
حتّى رأيتكَ مِثلَ الكَلْب مُنجَحِراً ... خلفَ الغَبيط وكنتَ الباذخَ العالي
إنّ ابنَ عباسٍ المعروف حِكمتُه ... خيرُ الأنام له حالٌ مِن الحالِ
عيّرته المُتعة المَتبوع سُنّتها ... وبالقتال وقد عيّرت بالمالِ
لمّا رَماكَ على رِسْلٍ بأسهُمِه ... جرَتْ عليك بسَيفِ الحالِ والبالِ
فاحتزّ مِقْوَلكَ الأعلى بشَفرَتِه ... حزّاً وَحِيّاً بلا قِيلٍ ولا قالِ (١)
واعلمْ بأنك إن عاودْتَ غَيبَتَه ... عادتْ عليكَ مَخازٍ ذاتُ أذيالِ

***

ورَوَى عثمانُ بنُ طلحةَ العَبْدَرِيّ ، قال : شهدتُ مِن ابنِ عباس رحمه الله مَشهداً ماسمِعتُه من رجلٍ من قريش ، كان يُوضَع إلى جانب سَريرِ مَرْوان بن الحكَم وهو يومئذ أميرُ المدينة سريرٌ آخرُ أصغر من سريره ؛ فيجلس عليه عبدُ الله بنُ عباس إذا دخل ، وتُوضَع الوَسائد فيما سِوَى ذلك ، فأذِن مروانُ يوماً للناس ، وإذا سريرٌ آخر قد أُحدِث تجاهَ سَريرِ مَرْوان ، فأقبل ابنُ عباس فجلس على سريره ، وجاء عبدُ الله بنُ الزّبير فجلس على السّرير المُحدَث ، وسكَت مروانُ والقوم ، فإذا يَدُ ابنِ الزبير تتحرك

---

(١) وحيا : سريعا .

فعلم أنه يريدُ أن يَنطِق ، ثمّ نَطَق فقال : إنّ ناسا يزعمون أنّ بَيْعَةَ أبى بكر كانت غَلَطا وفَلْتة ومغالَبة؛ ألا إن شأن أبى بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، ويزعمون أنه لولا ما وَقَع لكانَ الأمرُ لهم وفيهم ، واللهِ ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أحدٌ أثبتَ إيمانا ، ولا أعظمَ سابقةً من أبى بكر ، فمَنْ قال غيرَ ذلك فعليه لعنة الله ! فأين هم حين عَقَد أبو بكر لعمَر ، فلم يَكُن إلّا ماقال ، ثمّ ألقى عمرُ حظَّهم فى حُظوظ ، وجدَّهم فى جُدُود ، فقسّمت تلك الحظوظ ، فأخّر الله سَهْمَهم ، وأدحض جدَّهم ، وولِى الأمرَ عليهم من كان أحقّ به منهم ، فخرجوا عليه خروجَ اللّصوص على التّاجر خارجا من القرية ، فأصابوا منه غِرّة فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قِتلة ، وصاروا مطرُودين تحتَ بُطون الكواكب .

فقال ابنُ عبّاس : على رِسْلِك[1] أيها القائل فى أبى بكر وعُمَر والخلافة ، أما واللهِ ما نالا ولا نالَ أحدٌ منهما شيئاً إلّا وصاحبنا خيرٌ ممّن نالا ، وما أنكرْنا تقدّم من تقدّم لعَيب عِبْناه عليه ؛ ولو تقدّم صاحبُنا لكانَ أهلا وفوقَ الأهل ، ولولا أنّك إنّما تذكر حَظّ غيرك وشرَفَ امرئٍ سواكَ لكلمتك ، ولكن ماأنتَ وما لاحظّ لك فيه ! اقتصِر على حَظّك ، ودَعْ تَيماً لِتَيْم ، وعَدِيّا لعَدِيّ ، وأميّة لأميّة ، ولو كلّمنى تيمىٌّ أو عَدَوِىّ أو أموِىٌّ لكلّمته وأخبرتُه خبرَ حاضرٍ عن حاضر ، لاخبرَ غائبٍ عن غائب ، ولكن ما أنت ، وما ليس عليك ! فإن يكن فى أسدِ بنِ عبدِ العُزّى شىء فهو لك ، أما واللهِ لنحنُ أقرَب بك عَهْدا ، وأبيَض عندك يَداً ، وأوفر عندك نِعْمة ممّن أمسَيت؛ تَظُنّ أنك تصول به علينا ، وما أخلَق ثوبُ صفيّة بعد ! واللهُ المستعانُ على ما تَصِفون .

* * *

(١) الرسل : الرفق والتؤدة .

أوصى معاويةُ يزيدَ ابنه لما عَقد له الخلافة بعدَه؛ فقال : إنى لا أخاف عليك إلا من أُوصيك بحفظ قرابته ورعاية حقّ رَحمه ، مَن القلوبُ إليه مائلة ، والأهواء نحوَه جانحة ، والأعينُ إليه طامحة ، وهو الحُسين بنُ علىّ ، فاقسِمْ له نصيبا من حِلْمك ، وأخصُصه بقِسْط وافرٍ من مالِك ؛ ومتِّعه بروح الحياةِ ، وأبلغ له كلّ ما أحبّ فى أيامك ، فأما مَن عداه فثلاثة : وهم عبدُ الله بنُ عمر رجلٌ قد وقذته العِبادة ؛ فليس يريدُ الدنيا إلا أن تجيئه طائعة ، لا تراقُ فيها محجمةُ دَم ، وعبدُ الرحمن بنُ أبى بكر ، رجل هِقْلٌ (١) لا يحمل ثِقلا ، ولا يستطيع نهوضا ؛ وليس بذى هِمّة ولا شَرَف ولا أعوان ، وعبدُ الله ابنُ الزبير وهو الذئب الماكر ، والثعلب الخاتِر ؛ فوجِّه إليه جِدّك وعزْمك ونكيرك ومكرك ؛ وأصرِفْ إليه سَطوتك ، ولا تثِقْ إليه فى حال ، فإنه كالثعلب ، راغَ بالختل عند الإرهاق ، والليث صالَ بالجراءة عند الإطلاق ؛ وأما مابعدَ هؤلاء فإنى قد وطّأتُ لك الأمم ، وذللت لك أعناقَ المنابِر ، وكفيتُك مَن قرُب منك ، ومَن بَعُد عنك فكن للناس كما كان أبوك لهم يكونوا لك كما كانوا لأبيك .

***

خَطَب عبدُ الله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية فقال فى خطبته : يزيد القُرود ، يزيد الفُهود ، يزيد الخمور ، يزيد الفُجور ! أما والله لقد بلغنى أنّه لا يزال مخموراً يخطُب النّاس وهوطافِحٌ فى سُكره . فبلَغ ذلك يزيدَ بنَ معاوية، فما أمسى ليلتَه حتى جهّز جيش الحرّة ، وهو عشرون ألفا ، وجلس والشُّموعُ بين يديه ، وعليه ثيابٌ مُعصفَرة ، والجنود تُعرَض عليه ليلا ، فلما أصبح خرج فأبصر الجيش ، ورأى تعبيَته فقال :

أبلغْ أبا بكرٍ إذا الجيشُ انبرى وأخذَ القومُ على وادى القُرى

---

(١) الهقل : الفتى من النعام .

عِشرِين ألفاً بين كَهْـلٍ وفتى　　أجَمْع سَكْرانُ مِنَ القوم ترَى

* أم جَمْع ليثٍ دونه ليثُ الشَّرَى *

* * *

لمّا خرج الحسينُ عليه السلام من مكّة إلى العراق ضرَب عبدُ الله بنُ عباس بيدِه على منكِب ابنِ الزّبير، وقال :

يالَكِ من قُبَّرةٍ بمَعمَرِ　　خلاَ لَكِ الجوُّ فبيضى واصفِرِى (١)

ونَقِّرِى ماشِئْتِ أن تُنَقِّرِى　　هذا الحسينُ سائرٌ فأبشِرِى

خلا الجوُّ والله لك يابن الزبير ! وسار الحسين إلى العراق ، فقال ابنُ الزبير : يابن عباس ، والله ما ترَوْن هذا الأمر إلاّ لكم ، ولا ترون إلاّ أنكم أحق به من جميع الناس ، فقال ابنُ عباس : إنما يرى مَن كان فى شكّ ، ونحن من ذلك على يَقِين ولكن أخبِرْنى عن نفسك ، بماذا ترُوم هذا الأمر ؟ قال : بِشرَفى ، قال : وبماذا شرُفْتَ إن كان لك شرَف ؟ فإنما هو بنا ، فنحن أشرَف منك ، لأنّ شرفَكَ مِنّا . وعلَتْ صواتُهما ، فقال غلام من آل الزبير : دَعْنا منك يابن عباس؛ فو الله لا تُحِبُّوننا يابنى هاشم ولا نُحِبّكم أبدا ؛ فلَطَمه عبدُ الله بن الزبير بيده وقال : أتتكلّم وأنا حاضر ! فقال ابنُ عبّاس : لِمَ ضربت الغلامَ ، واللهِ أحقُّ بالضرب منهُ مَن مَزَق ومَرَق ، قال : ومَن هو ؟ قال : أنت .

قال : واعترض بينهما رجالٌ من قُرَيش فأسكتوهما .

* * *

(١) تنسب الأبيات إلى طرفة ، العقد الثمين ١٨٥ .

دخل عبدُ الله بنُ الزبير على معاوية ، فقال : اسمع أبياتاً قلتها عاتبتُك فيها ، قال : هاتِ ، فأنشده :

لَعمرِيَ ما أدرِى وإنّى لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَعدو المنيـة أوّلُ
وإنى أخوكَ الدّائمُ العَهْدِ لم أزَلْ ... إن أعياكَ خَصْمٌ أو نبا بكَ مَنزِلُ
أحارِبُ من حارَبْتَ مِن ذى عداوةٍ ... وأحبس يوماً إن حُبِسْتَ فأعقِلُ
وإن سؤتنى يوماً صَفَحتُ إلى غدٍ ... ليعقب يومٌ منك آخر مُقبلُ
ستقطَع فى الدّنيا إذا ما قطعْتنى ... يمينك ، فانظر أىَّ كَفٍّ تبدّلُ !
إذا أنت لم تُنصِفْ أخاكَ وجدْتَه ... على طرَف الهجْران إن كان يعقِلُ
ويركَب حدَّ السيفِ مِن أن تضيمَه ... إذا لم يكن عن شفرة السَّيف مَعدِلُ
وكنتُ إذا ما صاحِبٌ مَلَّ صحبتى ... وبدّل شراً بالذى كنتُ أفعلُ
قلبتُ له ظَهرَ المِجَنّ ولم أقِمْ ... على الضّيْم إلاّ ريثما أتحوّلُ
وفى الناس إن رَثّتْ حِبالُكَ واصِلٌ ... وفى الأرض عن دارِ القِلى متحوَّلُ
إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تَكَدْ ... إليه بوَجْهٍ آخر الدهرُ تقبلُ

فقال معاوية : لقد شعَرتَ بعدى يا أبا خُبَيب ! وبينما هما فى ذلك دخل معنُ بن أوس المُزَنىّ ، فقال له معاوية : إيهٍ ! هَلْ أحدثْتَ بعدنا شيئا ؟ قال : نعم ، قال : قل ؛ فأنشد هذه الأبيات ، فعجب معاويةُ وقال لابن الزبير : ألم تنشدْها لنفْسك آنفا ! فقال : أنا سوّيت المعانى ، وهو ألّف الألفاظ ونظَمها ، وهو بعدُ ظِئْرى(١) ، فما قال من شىء فهو لى — وكان ابن الزّبير مسترضَعا فى مُزَيْنة — فقال معاوية : وكَذِبا يا أبا خبيب ! فقام عبدُ الله فخرج .

(١) يقال : هى ظئره وهو ظئره ، وهم وهن أظـآره ، أى أخواته من الرضاعة .

وقال الشعبيّ : فقد رأيت عجبا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وعبدُ الملك بنُ مروان ومصعب بن الزبير ، فقام القوم بعد ما فرغوا من حديثهم ، فقالوا : ليَقُمْ كلُّ واحد منكم؛ فليأخذْ بالرُّكْن اليمانيّ ، ثم يَسأل الله تعالى حاجته ، فقام عبد الله بن الزبير فالتزَم الرُّكْن وقال : اللهم إنك عظيمٌ تُرجَى لكلِّ عظيم ، أسألك بحُرمة وجهك وحُرمة عرْشك وحرمة بيتك هذا ، ألاّ تخرجني من الدنيا حتى ألِيَ الحجاز ، ويُسلَّمَ عليّ بالخلافة ، وجاء فجلس .

فقام أخوه مصعب فالتزَم الرّكن وقال اللهمّ ربّ كلّ شيء ، وإليك مصيرُ كلّ شيء ، أسألك بقُدرتك على كل شيء ، ألاّ تُميتَني حتى ألِيَ العراق ، وأتزوّج سُكينة بنت الحسين بن عليّ عليه السلام ثمّ جاء فجلس .

فقام عبد الملك فالتزَم الركن وقال : اللهمّ ربّ السموات السّبْع ، والأرض ذات النبت والقفْر ، أسألك بما سألك به المطيعون لأمرك ، وأسألك بحق وجهك ، وبحقّك على جميع خلقك ، ألاّ تُميتَني حتى ألِي شرق الأرض وغربها ، لا يُنازِعني أحد إلاّ ظهرتُ عليه ، ثم جاء فجلس .

فقام عبد الله بنُ عمرَ فأخذ بالرّكن وقال : يا رحمن يا رحيم ، أسألك برحمتك الّتي سبقتْ غضبك ، وبقدرتِك على جميع خلقِك ، أن لا تُميتني حتى توجِب لي الرّحمة .

قال الشّعبي : فو الله ما خرجتُ من الدّنيا حتى بلغ كلّ من الثلاثة ما سأل ، وأُخلِقَ بعبدِ الله بن عمر أن تجاب دعوتُه ، وأن يكون من أهل الرّحمة .

* * *

قال الحجّاج فى خطبته يوم دخل الكوفة : هذا أدبُ ابن نهية ، أما والله لأؤدّبنّكم غيرَ هذا الأدب .

قال ابن ماكولا فى كتاب الإكمال : « يعنى مُصعب بن الزبير وعبد الله أخاه ، وهى نهية بنتُ سعيد بن سهم بن هُصَيْصٍ ، وهى أمّ ولد أسد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ » ، وهذا من المواضع الغامضة .

* * *

وَروى الزبير بنُ بكّار فى كتاب أنساب قريش قال : قَدِم وفدٌ من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأتوه فى المسجد الحرام ، فسلموا عليه ، فسألهم عن مصعب أخيه وعن سيرته فيهم ، فأَثْنَوْا عليه ، وقالوا : خيراً ، وذلك فى يوم جمعةٍ ، فصلّى عبد الله بالناس الجمعة ، ثمّ صَعِد المنبر ، فحمِد اللهَ ثم تمثّل :

قد جرَّبونى ثمّ جرَّبونى من غَلْوَتَيْنِ ومِن المئين (١)
حتى إذا شابُوا وشيَّبونى خلُّوا عِنانى ثمّ سيَّبونى (٢)

أيّها النـاس ، إنى قد سألتُ هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحبّ ، ألا إن مصعبا أَطْبَى (٣) القلوب حتى لا تعدل به ، والأهواء حتى لا تحُول عنه ، واستمال الألسُن بثنائها ، والقلوب بنصائحها ، والأنفس بمحبّتها وهو المحبوب فى خاصّته ، المأمونُ فى عامّته ، بما أطلق اللهُ به لسانه من الخير وبَسَط به يديه من البذل ، ثم نزل .

وروى الزّبير قال : لمـا جاء عبـد الله بنَ الزّبير نعى المصعب صَعِد المنبرَ فقـال :

(١) الغلوة : الغاية (٢) سيبونى : تركونى .
(٣) اطبى القلوب : استمالها .

الحمدُ لله الّذى له الخلق والأمر ، يؤتى المُلكَ من يشاء ، ويَنزع المُلك ممّن يشاء ، ويُعزّ من يشاء ، ويُذلّ من يشاء ، ألا وإنّه لم يُذلِل اللهُ من كان الحقّ معه ولو كان فَرْدا ، ولم يُعزّز اللهُ وليّ الشيطان وحزبه وإن كان الأنام كلُّهم معه ، ألا وإنّه قد أتانا من العراق خبرٌ أحزَننا وأفرَحنا ، أتانا قتلُ المصعب رحمه الله ، فأمّا الذى أحزَننا فإنّ لفِراق الحميم لَذْعة يَجِدها حميمُه عند المصيبة ، ثم يَرْعَوى بعدَها ذو الرأى إلى جميل الصبر وكريم العزَاء ، وأما الذى أفرَحنا فإنّ قتله كان عن شهادة ، وأنّ الله تعالى جعل ذلكَ لنَا ولَه ذخيرة ، ألا إنّ أهلَ العراق ، أهلُ الغَدْر والنّفاق ، أسلَموه وباعوه بأقلّ الثمن فإن يُقتَل المصعب فإنا للهِ وإنّا إليه راجعون ما نموت حَبَجا كما يموت بنو العاص ، ما نموتُ إلّا قتلا ، قعصاً[١] بالرّماح ، وموتاً تحتَ ظِلال السُّيوف ، إلا إنّما الدنيا عاريّة من المَلِكِ الأعلى الّذى لا يزول سلطانُه ولا يبيد ، فإنْ تُقبِل الدّنيا علىّ لا آخُذْها أخْذَ الأشِر البطر[٢] ، وان تُدبِر عنّى لا أبكى عليها بكاء الخرِفِ المهتر ، وإن يَهلِكِ المصعب فإنّ فى آل الزبير خلفا ، ثم نزل .

***

وروى الزّبير بن بكّار قال : خَطب عبدُ الله بنُ الزّبير بعد أن جاءه مَقتَل المُصعب ، فَحمِد اللهَ وأثنى عليه ثمّ قال : لئن أُصِبتُ بمصعب فلقد أصبت بإمامى عثمان فعظمت مصيبته ، ثم أحسن الله وأجَل ، ولئن أُصِبت بمُصعَب فلقد أصبت بأبى الزّبير ، فعظمت مُصيبتُه ، فظننتُ أنّى لا أُجيزها ، ثم أحسن الله وسَلّم واستمرّت مريرتى ، وهلْ كان مُصعَب إلا فتًى من فِتْيانى ، ثم غلبه البكاء فسالتْ دموعُه وقال : كان والله مَريئًا مَريئًا ثم قال :

---

(١) القعص : الموت السريع .
(٢) الأشر والبطر كلاهما بمعنى واحد .

هُمُ دَفعوا الدّنيا على حين أعرَضَتْ كراماً وسَنّوا للكِرام التأسّيــا

***

ورَوَى أبو العبّاس فى الكامل أنّ عروة لمّا صُلِبَ عبدُ الله جاء إلى عبدِ الملك فوَقَفَ ببابه، وقال للحاجب: أعلِمْ أميرَ المؤمنين أنّ أبا عبدِ الله بالباب، فدخل الحاجب فقال: رجلٌ يقول قولا عظيما. قال: وما هو؟ فتهيَّب، فقال: قل. قال: رجلٌ يقول: قلْ لأميرِ المؤمنين: أبو عبد الله بالباب، فقال عبد الملك: قلْ لعروةَ يدخُل، فدَخَل فقال: تأمرُ بإنزال جِيفةِ أبى بكر فإنّ النساء يَجزَعْن، فأمر بإنزاله فقال: وقد كان كَتَب الحجّاجُ إلى عبدِ الملك يقول: إنّ خزائن عبدِ الله عند عُرْوة، فمُرْه فليُسلّمها؛ فدَفَع عبدُ الملك الكتابَ إلى عروة، وظنّ أنّه يتغيّر، فلم يَحفِل بذلك كأنّه ماقرأه، فكَتَب عبدُ الملك إلى الحجّاجِ أن لا يَعرِض لعُروة.

***

ومن الكلام المشهور فى بُخل عبدِ الله بن الزّبير الكلامَ الذى يُحكَى أنّ أعرابيّا[١] أتاه يَستحمِله، فقال: قد نقَبَ خُفّ راحلتى فاحمِلنى[٢] إنّى قطعتُ المواجِر إليك عليها فقال له ارْقَعْها بِسِبْت، وأخصفها بهلب، وأنجِدْ بها، وسِرْ بها البردين[٣]، فقال: إنّما أتيتُك مستحمِلا، لم آتك مستوصِفا، لعن الله ناقةً حملتنى إليك، قال: إنّ وراكبها[٤].

(١) الخبر فى الأغانى ١ : ١٥ ، ١٦

(٢) الأغانى: «نقدت نفقتى، ونقبت راحلتى». ونقب البعير؛ إذا رقت أخفافه.

(٣) السبت: جلود البقر المدبوغة بالقرظ تحذى منها النعال السبتية. والخصف: أن يظاهر الجلدين بعضهما إلى بعض ويخرزهما. والهلب: شعر الخنزير الذى يخرز به، الواحد هلبة، وأنجد، إذا دخل بلاد نجد، وهو موصوف بالبرد: والبردان: الغداة والعشى.

(٤) فى الأغانى عن اليزيدى: «إنّ» هاهنا بمعنى نعم، كأنه إقرار بما قال، ومثله قول ابن قيس الرقيات:

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَا كَ وقَدْ كَبِرْتَ، فقلتُ إنّهْ

وهذا الأعرابيّ هو فَضالة بن شَرِيك، فهجاه فقال :

أرَى الحاجاتِ عند أبي خُبَيْبٍ ... نَكِدْنَ ولا أُمَيّةَ بالبِلادِ (١)

من الأعياصِ أو مِن آلِ حَرْب ... أغرّ كغُرّةِ الفَرَس الجَوادِ

***

دخل عبدُ الله بنُ الزّبير على معاويةَ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تدعَنّ مروانَ يرمي جماهيرَ قُرَيش بمَشاقِصه (٢) ، و يَضرب صَفاتَهم بمعوَله ، أما والله . إنه لولا مكانُك لكان أخفّ على رِقابنا من فَراشَة ، وأقلّ في أنفسنا من خُشاشة (٣) وايمُ الله لئن مَلَكَ أعِنّةَ خَيْل تَنقادُ له لتركبنّ منه طَبَقاً (٤) تخافه .

فقال : معاوية : إنْ يطلبْ مرْوان هذا الأمر فقد طَمِع فيه مَن هُوَ دونه ، وإنْ يَترُكه يتركْه لمن فوقَه ، وما أراكم بمنتهين حتى يَبعثَ الله عليكم من لا يَعطِف عليكم بقَرابة ، ولا يَذْكُركم عند مُلِمّة ، يَسومكم خَسْفا ، ويَسُوقكم عَسْفا .

فقال ابن الزبير : إذنْ والله يطلق عقَال الحرْبِ بكتائب تَمُور (٥) كرِجْل الجراد ، تتبع غِطْريفاً (٦) من قُرَيش لم تكن أمُّه راعيةَ ثَلّة (٧) .

فقال معاوية :أنا ابن هِنْد، أطلقتُ عقال الحرْب ، فأكلتُ ذِرْوة السَّنام ، وشرِبتُ عُنفُوان المكرَع (٨) وليس للآكل بعدي إلا الفِلْذة (٩) ، ولا للشارب إلا الرنق (١٠) .

(١) من ستة أبيات في الأغاني . وأبو خبيب كنية ابن الزبير ؛ وخبيب ولده الأكبر . ويقال : نكده حاجته ؛ إذا منعه إياها .

(٢) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

(٣) الخشاشة : واحدة الخشاش ؛ وهي حشرات الأرض والعصافير ونحوها .

(٤) الطبق : الحال ؛ وفي قوله تعالى :﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ﴾.

(٥) تمور : تضطرب .

(٦) الغطريف : السيد الشريف .

(٧) الثلة : جماعة الغنم ؛ أو الكثيرة منها .

(٨) عنفوان الشيء : أوله ، أو أول بهجته . والمكرع : المورد ، مفعل من كرع في الماء أو الإناء .

(٩) الفلذة : القطعة من اللحم

(١٠) ، ماء رنق : كدر .

فسكت ابنُ الزبير .

***

قَدِم عبد الله بنُ الزّبير على معاوية وافدا ، فرحّب به وأدناه حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجَتَك أبا خُبَيْب ، فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ غيرَ ماسألتَ ؛ قال : نعم . المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فيئهم ، وتحفَظ وصيّةَ نبيّ الله فيهم ، تقبَل من مُحسِنهم ، وتتجاوَز عن مُسيئِهم .

فقال معــاوية : هَيْهــاتَ هَيْهات ، لا والله ما تأمَن النعجةُ الذّئب وقد أكَل أَلْيَتها(١) .

فقال ابنُ الزّبير . مَهْـلا يامعاوية ، فإنّ الشاةَ لتدرّ للحالب وإنّ المُدْية في يده وإنّ الرجل الأديبَ ليُصانع ولدَه الّذى خرجَ من صُلْبه ، وما تدور الرحَى إلّا بقُطْبها ، ولا تَصلُح القوسُ إلّا بمَعْجِسها(٢) .

فقال : ياأبا خُبَيب ، لقد أجررتَ الطرُوقة قبل هِباب الفَحْل(٣) هيهات ، وهى لا تصطكّ لحبائها اصطــكاكَ القروم السوامى(٤) .

فقال ابنُ الزبير: العطَن بعد العَلّ والعلّ بعد النَّهَل ، ولا بدّ للرحاء من الثّفال(٥)

ثمّ نهض ابنُ الزبير .

فلما كان العِشاء أخذتْ قُرَيش مجالسَها ، وخرج معاويةُ على بنى أميّة فوجَد عمرو

---

(١) الألية : ماركب فى العظم من شحم ولحم .   (٢) المعجس : المقبض

(٣) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل . وأجره رسنه : جعله يجره . وهب الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهبيبا ، أراد السفاد

(٤) تصطك : تضطرب . والقروم : جمع قرم ؛ وهو الفحل والسوامى : جمع سام ، وصف من سما الفحل سماوة : تطاول إلى الناقة التى تشول بذنبها رغبة الالقاح .

(٥) العطن : مبرك الإبل حول الحوض . والعل والعلل : الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول . والثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرحى ليقع عليه الطحين .

ابنَ العاص فيهم ، فقال : ويحكم يابنى أميّة ! أفيكم من يكفينى ابنَ الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أكفيكه ياأميرَ المؤمنين ؛ قال ما أظنُّك تفعل ؟ قال : بلى والله لأربدنَ وجهَه(١) ولأخرسَنّ لسانه ، ولأردّنّه ألينَ من خِيلة(٢) .

فقال : دونك ، فاعرِض له إذا دخَل ، فدخل ابنُ الزبير ، وكان قد بَلغه كلامُ معاوية وعمرو ، فجلس نصب عَيْنى عمرو ، فتحدّثوا ساعةً ثمّ قال عمرو :

وإنى لنارٌ ما يطاقُ اصطِلاؤها ... لدَىَّ كلامٌ مُعضِلٌ مُتفاقِم(٣)

فأطرَق ابنُ الزبير ساعةً ينكُتُ فى الأرض ، ثمّ رفع رأسه وقال :

وإنّى لبحْرٌ ما يُسامَى عُبابُه ... مَتى يَلْقَ بَحرِى حرٌّ نارِك يَخمُدُ

فقال عمرو : واللهِ يابن الزّبير إنك ماعلمت لَمتجلببٌ اجلابيبَ الفتنةمتأزر بوصائل(٤) التّيه ، تَتعاطَى الذُّرَا الشاهقة ، والمعالىَ الباسقة . وما أنت من قريش فى لباب جوهرها ولامؤنق حَسبها(٥) .

فقال ابن الزبير : أما ماذكرتَ من تعاطىّ الذرا فإنّه طالَ بى إليها وسما ، ما لايطُول بك مِثلُه أنفٌ حِمىٌّ ، وقَلبٌ ذَكِىٌّ ، وصارمٌ مَشرَفىٌّ ، فى تَليدٍ فارع(٦) ، وطريفٍ مانِع ، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرِك(٧) ، ووَجِيب قَلبِك(٨) . وأمّا ماذكرت من أنى لستُ من قريش فى لُباب جَوْهرِها ، ومؤنِق حَسَبها ، فقد حضرتَنى وإياك الأكفاء العالِمون بى وبك ، فاجعلْهم بينى وبينَك .

---

(١) أى لأصيرنه أربد ، والربدة : لون إلى الغبرة .
(٢) الخيلة : القطيفة .
(٣) الوصائل : جمع وصيلة ؛ وهى ثوب مخطط يمان
(٤) تفاقم الأمر ، إذا عظم .
(٥) آنقنى الشيء إيناقا ؛ أعجبنى فهو مؤنق .
(٦) فارع : عال .
(٧) السحر : الرئة ؛ ويقال : انتفخ سحره ، أى عدا طوره .
(٨) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

فقال القوم : قد أنصفك ياعمرو ، قال : قد فعلتُ .

فقال ابن الزبير : أما إذ أمكنني اللهُ منك فلأربدنّ وجهك ، ولأخرسنّ لسانك ولترجمنّ فى هذه الليلة ، وكأن الذى بين منكبيك مشدود إلى عروقِ أخدعيك ؛ ثمّ قال : أقسمتُ عليكم يامعاشرَ قريش ، أنا أفضلُ فى دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهمّ أنت ، قال : فأبى أفضلُ أم أبوه ؟ قالوا : أبوكَ حوارىّ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وابنُ عمّته ؛ قال : فأمى أفضلُ أمْ أمّه ؛ قالوا : أمّك أسماء بنتُ أبى بكر الصّدّيق، وذاتُ النّطاقين؛قال : فعمّتى أفضلُ أم عمّتُه؟ قالوا : عمّتُك صفيّة ابنة العوّام صاحبةُ رسول الله صلى الله عليه وآله أفضلُ من عمّته ، قال : فخالتى أفضلُ أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشةُ أمّ المؤمنين ، قال : فجدتى أفضلُ أم جدّته ؟ فقال : جدّتك صفيّة بنتُ عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فجدى أفضلُ أم جدّه ؟ قالوا : جدُّك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَضَت الغطارفُ من قُرَيْش بيننا   فاصبر لفصلِ خِصامِها وقضائِها(١)

وإذا جَرَيْتَ فلا تجارِ مبرّزا   بذّ الجياد على احتفال جِرائها(٢)

أما والله يابن العاص لو أن الذى أمرك بهذا واجهنى بمثله لقصّرت إليه من سامى بصره ولتركته يتلجلج لسانه ، وتضطرم النار فى جوفه ، ولقد استعان منك بغير وانٍ ولجأ إلى غيرِ كافٍ ، ثمّ قام فخرج .

* * *

وذكر المسعودىّ فى كتاب مُرُوج الذهب أنّ الحجّاج لما حاصر ابن الزبير لم يزل يزحف حتى ملَك الجبل المعروف بأبى قُبَيْس ، وقد كان بيدِ ابن الزبير ، فكتب

---

(١) الغطارف : جمع غطريف ؛ وهو السيد .

(٢) برز تبريزا : فاق أصحابه ، وبذ : فاق وغلب . واحتفل القوم : اجتمعوا . والجراء والمجاراة ، مصدر «جارى» .

بذلك إلى عبد الملك ، فلما قرأ كتابه كبّر وكبّر من كان فى داره حتى اتّصل التكبير بأهل السّوق ، فكبّروا ، وسأل الناسُ ما الخبر؟ فقيل لهم : إن الحجاج حاصرَ ابنَ الزبير بمكة ، وظفر بأبى قُبَيْس ، فقال الناس : لا نرضى حتى يُحمل أبو خُبَيْب إلينا مكبلاً على رأسِه بُرْنُس ، راكبُ جملٍ ، يُطاف به فى الأسواق تراه العيون .

***

وذكر المسعوديُّ أنّ عمة عبدِ الملك كانت تحت عروة بن الزّبير ، وأنّ عبد الملك كتب إلى الحجّاج يأمُره بالكفّ عن عُرْوة ، وذلك قبل أن يقتل عبدُ الله وألاّ يسوءه إذا ظَفِر بأخيه فى ماله ولا فى نفسِه ؛ قال : فلما اشتدّ الحصار على عبد الله خرج عُرْوة إلى الحجّاج فأخذ لعبد الله أماناً ورجع إليه ، فقال : هذا عمرو بنُ عثمان ، وخالدُ بنُ عبدِ الله بن خالد بن أسيد ، وهما فتيا بنى أميّة يُعطيانك أمان عبدِ الملك ابن عمّهما على ما أحدثْتَ أنتَ ومن معك ، وأن تنزل أىّ البلادِ شئت ، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقُه ، فأبَى عبدُ الله قبول ذلك ، ونهتْه أمّه وقالت : لا تموتَنّ إلاّ كريماً فقال لها : إنى أخاف إنْ قُتِلتُ أن أُصابَ أو يمثل بى ، فقالتْ : إنّ الشاة بعد الذّبح لاتُحِسّ بالسّلْخ .

***

وروى المسعوديُّ أنّ عبد الله بن الزّبير بعد موت يزيد بن معاوية طَلَب مَن يؤمّره على الكوفة ، وقد كان أهلها أحبّوا أن يليَهم غير بنى أمية ، فقال له المختار بنُ أبى عُبَيد : اطلُبْ رجلا له رِفْق وعلم بما يأتى وتدبر قوله إياها يستخرجْ لك منها جندا تغلب به أهل الشام، فقال: أنت لها، فبعثه إلى الكوفة فأتاها وأخرج ابن مطيع منها ، وابتنى لنفسه داراً وأنفق عليها مالاً جليلا ، وسأل عبد الله بن الزّبير أن يحتسب له به من مال العِراق ، فلم يفعل ، فخلعه وجحَد بيعته ، ودعا إلى الطالبيين .

قال المسعودىّ : وأظهرَ عبدُ الله بنُ الزّبير الزّهدَ فى الدّنيا ، وملازمةَ العبادة مع الحِرْص على الخلافة وشَبْرِ بَطْنه ، فقال : إنّما بَطْنى شبْر ، فما عَسَى أن يسَع ذلك الشِّبْر ! وظَهرَ عنه شُحٌّ عظيم على سائرِ الناس ، ففى ذلك يقول أبو حمزة مولى آلِ الزّبير :

إن الموالىَ أمستْ وهى عاتِبةٌ ... على الخليفةِ تَشكُو الجوعَ والحَرَبا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا ... أىّ الملوكِ على ماحولنا غلبا !

وقال فيه أيضا :

لو كان بطنُك شبْراً قد شَبعتَ وقد ... أفضَلْتَ فضلا كثيراً للمساكين
مازلتَ فى سُورةِ الأعراف تَدرُسها ... حتّى فؤادىَ مِثلُ الخزّ فى اللّين

وقال فيه شاعرٌ أيضا ، لمّا كانت الحرب بينه وبين الحصَين بن نُمير قبل أن يموتَ يزيدُ بنُ معاويةَ :

فيا راكباً إمّا عرَضْتَ فبلّغاً ... كبير بَنى العَوّام إنْ قيلَ مَن تَعْنِى
تُخبّر مَنْ لاقيتَ أنّك عائذٌ ... وتُكثِرُ قتلَى بين زَمزمَ والرُّكنِ

وقال الضّحّاكُ بن فَيْروز الدّيْلمىّ :

تخبِّرنا أنْ سوفَ تَكفِيكَ قَبضةٌ ... وبَطنُكَ شِبرٌ أو أقلُّ من الشِّبْر
وأنتَ إذا مانِلتَ شيئا قضمْتَه ... كما قَضمَتْ نارُ الغضا حَطَبَ السِّدرِ
فلو كنتَ تجزِى أو تُثيبُ بِنعمةٍ ... قريبا لرَدّتك العُطوفُ على عَمرو

قال : هو عَمرو بنُ الزّبير أخوه ، ضَرَبه عبدُ الله حتّى مات وكان مبايِنا له (١) .

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٨٤ ، ٨٥

كان يزيدُ بنُ معاويةَ قد وَلّى الوليدَ بنَ عُتْبةَ بن أبى سُفْيان المدينةَ ، فسَرّح الوليدُ منها جَيْشاً إلى مكّة لحرب عبدِ الله بنِ الزّبير ، عليه عمرو بنُ الزبير ، فلمّا تصافّ القومُ انهزَمَ رجالُ عمرٍو وأسلموه ، فظفِرَ به عبدُ الله ، فأقامه للنّاس بباب المسجد مجرّداً ، ولم يَزَل يَضْرِبه بالسِّياطِ حتّى ماتَ (١) .

وقد رأيتُ فى غيرِ كتابِ المسعودىّ أنّ عبدَ الله وجَد عَمْراً عنـد بعض زَوْجاته، وله فى ذلك خبرٌ لا أحِبُّ أن أذكُره .

***

قال المسعودىّ : ثمّ إنّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ حبَس الحسنَ بن محمّد بن الحنفيّة فى حَبْس مظلم (٢) ، وأراد قتله ، فأعمَلَ الحيلةَ حتّى تخلّص من السّجن ، وتعسّف الطريقَ على الجبال ، حتّى أتى مِنًى ، وبها أبوه محمّد بنُ الحنفيّة (٣) .

ثمّ إنّ عبد الله جمعَ بنى هاشم كلّهم فى سجنِ عارِمٍ ، وأراد أن يُحرقهم بالنار ، وجعل فى فم الشِّعب حَطَباً كثيرا ، فأرسل المختارُ أبا عبد الله الجَدَلىَّ فى أربعةِ آلافٍ ، فقال أبو عبدِ الله لأصحابه : وَيْحكم ! إنْ بلغ ابنَ الزبير الخبرُ عَجّل على بنى هاشم فأتى عليهم ، فانتَدب هو نفسُه فى ثمانمائةِ فارس جريدةً ، فما شعَر بهم ابن الزبير إلّا والرايات تخفُق بمكّة ، فقصد قَصْدَ الشِّعب ، فأخرجَ الهاشميّين منه ، ونادَى بشِعارِ محمّد بن الحنفيّة ، وسمّاه المهدىّ ، وهرَب ابنُ الزّبير ، فلاذَ بأستار الكَعْبة ، فنهاهم محمّدُ بنُ الحنفيّة عن طلبه

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٨٥ .

(٢) مروج الذهب : « سجن عارم » .

(٣) فى مروج الذهب : « فنى ذلك يقول كثير :

تُخَبِّرُ مَنْ لاقيتَ أنّكَ عائذٌ ... بلِ العائذُ المظلومُ فى سِجْنِ عارِمِ

ومَنْ يرَ هذا الشيخَ بالخيفِ من مِنًى ... من الناسِ يعلمْ أنّه غيرُ ظالِمِ

سَمِىُّ نبىِّ اللهِ وابنُ وصيِّهِ ... وفَكّاكُ أغلالٍ وقاضى مغارِمِ

وعن الحرْب ، وقال : لا أريد الخلافة إلا إن طلبني النـاس كلُّهم واتفقوا علىّ كلهم، ولا حاجة لى فى الحرب [١] .

***

قال المسعوديّ : وكان عروة بن الزبير يعـذر أخاه عبدَ الله فى حَصْر بنى هاشم فى الشِّعب ، وجمعِه الحطَب ليُحرِقهم ويقول : إنّما أراد بذلك ألّا تَنتشِر الـكلمة ، ولا يختلفَ المسلمون ، وأن يدخلوا فى الطّاعة ، فتـكونَ الـكلمةُ واحدة ، كما فعَلَ عمرُ بنُ الخطّاب ببنى هاشم لمّا تأخّروا عن بيعة أبى بـكر ، فإنه أحضَر الحطَب ليحرّق عليهم الدار [٢] .

***

قال المسعوديّ : وخطب ابنُ الزّبير يومَ قدِم أبو عبدِ الله الجَدَلىّ قبـل قدومه بساعتين ، فقال : إنّ هذا الغلامَ محمّد بنَ الحنفيّة قد أبَى بيْعتى ، والمَوْعِد بينى وبينه أن تَغرُب الشّمس ثمّ أضرِمَ عليه مكانَه ناراً ، فجاء إنسانٌ إلى محمّد فأخبَره بذلك ؛ فقال : سيَمْنَعه منّى حجابٌ قوىّ ، فجعل ذلك الرجلُ يَنظُر إلى الشّمس ، ويرقُب غَيْبُوبتَهاليَنظرَ ما يصنع ابنُ الزّبير ، فلمّا كادت تَغرُب حاسَت [٣] خيل أبى عبد الله الجَدَلىّ دِيارَ مكّة وجعلتْ تَمعَج [٤] بين الصّفا والمَرْوَة ، وجاء أبو عبد الله الجَدَلىّ بنفْسه فوَقَف على فَمِ الشِّعب ، واستَخرَج محمّدا ، ونادَى بِشعاره ، واستأذَنه فى قَتْل ابن الزبير ، فـكَرِه ذلك ولم يأذَنْ فيه ، وخرج من مكّة فأقام بشعب رضْوَى حتّى مات [٥] .

***

(١) مروج الذهب ٣ : ٨٥ (٢) مروج الذهب ٣ : ٨٦

(٣) حاست الخيل : أحاطت بها من كل جانب .

(٤) تمعج : تشتد فى عدوها يمينا وشمالا .

(٥) مروج الذهب ٣ : ٨٦ ، ٨٧

ورَوى المسعوديُّ عن سَعيد بنِ جُبير ، أنّ ابنَ عبّاس دخل على ابن الزبير فقال له ابنُ الزبير : إلامَ[1] تؤنّبني وتعنّفني ! قال ابنُ عبّاس : إنّي سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآلِه يقول : « بئس المرء المُسلِم يَشبَع ويجوعُ جارُه! » ، وأنتَ ذلك الرّجل ، فقال ابنُ الزّبير : واللهِ إنّي لأكتُمُ بُغضَكم أهلَ هذا البيت منذُ أربعين سنةً . وتَشاجَرا ، فخرَجَ ابنُ عبّاسٍ من مكّة ، [خوفا على نفسه] فأقام بالطّائف حتّى مات[2] .

***

ورَوى أبو الفرَج الأصفهانيّ[3] قال : أتى فضَالَة بن شَريك الوالبيّ ثمّ الأسديّ من بني أسَد بن خُزَيمة عبدَ الله بنَ الزّبير فقال : نَفِدتْ نَفَقتي ، ونَقِبَتْ ناقتي ، فقال : أحضرْنيها، فأحضرَها ، فقال: أقبِلْ بها، أدبِرْ بها ، ففعَل، فقال: ارقَعْها بسِبْت،واخصِفْها بهلْب ، وأنجِد بها يَبرُدْ خفّها ، وسِرِ البَردَين تَصحّ . فقال فضالة : إنّي أتيتُك مستحمِلا ، ولم آتِكَ مستوصِفاً ، فلَعَن اللهُ ناقةً حمَلَتني إليكَ ! فقال : إنّ وراكبَها ؛ فقال فضالة :

أقول لِغلمةٍ شُدُّوا رِكابي ... أُجاوزْ بطنَ مكّةَ في سَوادِ
فمالي حينَ أقطعُ ذاتَ عِرْقٍ ... إلى ابنِ الكاهِليّة من مَعادِ[4]
سيُبعِد بيننا نَصُّ المطَايا ... وتَعليقُ الإداوَى والمَزادِ[5]
وكلّ معبّدٍ قد أعلَمَته ... مَناسِمُهُنّ طِلاعَ النِّجادِ[6]

---

(١) ق د : « علام » .
(٢) مروج الذهب ٣ : ٨٩ والزيادة منه .
(٣) الأغاني ١ : ١٥ ، ١٦ .
(٤) ذات عرق : مهل أهل العراق ؛ وهو الحد بين نجد وتهامه .
(٥) نص المطايا : استخراج أقصى ماعندها من السير ، والأداوى : جمع إداوة ؛ وهي وعاء الماء . والمزاد : جمع مزادة ؛ وهي الراوية يحمل فيها الماء .
(٦) المعبد : الطريق المذلل . وأعلمته مناسمهن : أثرت فيه بأخفافها . والنجاد : جمع نجد ؛ وهو ماغلظ من الأرض .

أرَى الحاجاتِ عند أبى خُبَيْبٍ نُكِدْنَ ولا أُميَّـــةَ بالبِلادِ
من الأعياصِ أو مِن آلِ حَرْبٍ أغرّ كغُرّة الفرَس الجــوادِ

ـ قال : ابنُ الكاهليّة هو عبدُ الله بن الزّبير ، والكاهليّة هذه هى أمُّ خُوَيلد بن أسَد بن عبدِ العُزّى ، واسمُها زُهْرة بنت عَمرو بن خَنْثَر بن رُوَيْبة بن هِلال ، من بنى كاهِل بن أسَد بن خزيمة ـ قال : فقال عبدُ الله بنُ الزّبير لمّا بلغه الشّعر : عَلِم أنّها شرُّ أمّهاتى فعيّرنى بها ، وهى خيرُ عمّاته .

* * *

وروَى أبو الفرَج قال : كانت صفيّة بنتُ أبى عبيد بن مَسْعود الثّقفىّ تحتَ عبدِ الله ابن عُمَر بن الخطّاب فمشَى ابن الزّبير إليها ، فذكَر لها أنّ خروجَه كان غَضباً لله عزّ وجلّ ولِرَسوله صلّى الله عليه وآله وللمهاجرين والأنصار من أثَرَة مُعاوية وابنه بالفَىْء ، وسألَها مسألة زَوْجها عبد الله بن عمر أن يبايعه ، فلمّا قدّمت له عَشاءه ذكرتْ له أمرَ ابن الزبير وعِبادتَه واجتهادَه ، وأثنَتْ عليه ، وقالت : إنه لَيَدْعو[1] إلى طاعة الله عزّ وجلّ ، وأكثرتْ القولَ فى ذلك ، فقال لها : وَيْحكِ ! أما رأيتِ البَغَلات الشُّهْب التى كان يَحُجّ معاوية عليها ، وتقدم إلينا من الشّام ؟ قالت : بلى ؛ قال : والله ما يريدُ ابنُ الزّبير بعبادَته غيرَهنّ[2] !

---

(١) د : « إنه لا يدعو إلى طاعة الله » (٢) الأغانى ١ : ٢٢ ، ٢٣ .

الأصـلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

مالابْنِ آدمَ والفخْرُ ! أوّلُهُ نُطفَةٌ ، وآخِرهُ جِيفَةٌ . لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ ، ولا يَدْفعُ حَتْفَهُ .

* * *

الشَّـرحُ :

قد تقدّم كلامُنا فى الفخر ، وذكرْنا الشّعرَ الّذى أُخِذَ من هـذا الكلام ، وهو قولُ القائل :

مابالُ مَن أوّلُه نُطفـــــةٌ وجيفةٌ آخِــرُه يفخَرُ

يُصبِح مايَملِكُ تقديمَ ما يَرجُو ولا تأخيرَ مايَحذَرُ !

* * *

[فصل فى الفخر وما قيل فى النهى عنه]

وقال بعضُ الحكماء : الفخر هو المُباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان ، وذلك نهايةُ الحمق لمن نَظَر بعَيْن عقلِه ، وانحسَر عنه قِناع جهله ، فأعراض الدّنيا عاريةٌ مستَرَدّة ، لا يؤمَن فى كلّ ساعة أن تُرتجَع ، والمُباهِى بها مُباهٍ بما فى غير ذاتِه .

وقد قال لبعض مَن فخرَ بثروته ووَفره : إن افتخرتَ بفرَسِك فالحسْن والفراهة له دونَك ، وإن افتخرتَ بثيابك وآلاتِك فالجمال لهما دُونَك ، وإن افتخرتَ بآبائِك

وسلفك فالفضلُ فيهم لا فيك ، ولو تكلّمتْ هذه الأشياء لقالتْ لك : هذه محاسنُنا فما محاسِنُك !

وأيضا فإن الأعراض الدنيويّة كما قيل : سحابةُ صَيْف عن قليلٍ تقشّع ، وظلٌّ زائل عن قريبٍ يَضمَحِلّ ، كما قال الشاعر :

إنّما الدّنيا كرُؤيا فرّحتْ ... مَن رآها ساعةً ثمّ انقضتْ

بل كما قال تعالى : ﴿ إنّما مَثَل الحياة الدّنيا كماء أنزلْناه من السماء فاختَلَط به نباتُ الأرض ممّا يأكُل النّاس والأنعامُ حتّى إذا أخذَتِ الأرضُ زخرُفَها وازّيّنتْ وظنّ أهلُها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حَصِيدا كأنْ لم تَغنَ بالأمسِ ﴾ (١) .

وإذا كان لا بدّ من الفَخْر فليفخَر الإنسانُ بعلمه وبشَريف خلْقه ، وإذا أعجبَك من الدّنيا شيءٌ فاذكرْ فناءك وبقاءه ، أو بقاءك وفناءه ، أو فناءكما جميعا ، وإذا راقك ما هُوَ لكَ فانظرْ إلى قُرْب خرُوجه من يَدِك ، وبُعد رجوعِه إليك ، وطُول حِسابكَ عليه ، وقد ذمّ الله الفَخُور فقال : ﴿ والله لا يُحِبّ كلّ مختالٍ فخورٍ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة يونس ٢٤ (٢) سورة الحديد ٢٣

(٤٦٠)

الأصل :

الغِنَى والفَقْرُ بَعْدَ العَرْضِ عَلَى اللهِ تعالى .

***

الشرح

أى لا يُعَدّ الغَنِىّ غنياً فى الحقيقة إلا من حَصَل له ثوابُ الآخرة الّذى لا يَنقطع أبدا ولا يعدّ الفقير فقيراً إلّا مَنْ لم يَحصُل له ذلك ، فإنه لا يزال شقيًا معذّبا ، وذاك هو الفَقْر بالحقيقة .

فأمّا غِنَى الدنيا وفقرُها فأمران عَرَضيّان ، زوالهما سريع ، وانقضاؤهما وَشيك .

وإطلاق هاتَيْن اللّفظتين على مُسَمّاهما الدّنيوىّ على سبيلِ المجاز عند أربابِ الطريقة ، أعنِى العارِفين .

الأصل :

وسُئِلَ عَنْ أشعرِ الشُّعراء ، فقال عَلَيْهِ السلامُ :

إنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا ، فإنْ كَانَ ولا بُدَّ فالمَلِكُ الضِّلِّيلُ .

قال : يُرِيدُ امْرَأَ القَيْسِ .

***

[في مجلس علي بن أبي طالب]

الشرح :

قرأتُ في أمالِي ابن دُرَيد ، قال : أخبرنا الجرمُوزيّ ، عن ابنِ المهلّبيّ ، عن ابن الكلبيّ ، عن شدّاد بن إبراهيم ، عن عبيدِ الله بن الحسَن العَنْبريّ ، عن ابن عرادة ، قال : كان عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام يُعشّي الناسَ في شَهْر رَمضان باللّحم ولا يتعشّى معهم ، فإذا فرَغوا خطَبهم ووعَظَهم ، فأفاضوا ليلةً في الشُّعراء وهم على عَشائِهم ، فلمّا فرَغوا خطَبهم عليه السلام وقال في خُطبته : اعلموا أنّ مِلاكَ أمرِكم الدِّين ، وعِصْمتكم التّقوى ، وزينَتكم الأدب ، وحُصون أعراضكم الحِلْم ؛ ثم قال : قل ياأبا الأسوَد : فِيمَ[1] كُنتم تفيضون فيه؟ أيّ الشّعراء أشعَر ؟ فقال : ياأميرَ المؤمنين الّذي يقول :

ولقد أغتدي يُدافِـــعُ رُكْني أعوجيٌّ ذو ميْعةٍ إضريجُ[2]

(١) في د « ما كنتم » ؛ وهو وجه أيضاً (٢) ديوان أبي دواد ٢٩٩ .

مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ مِعَنٌّ مِفَنٌّ   منفح مِطْرَحٌ سَبُوحٌ خَرُوجُ

يعنى أبا دُواد الإيادىّ ، فقال عليه السلام : ليس به ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لو رُفعتْ للقوم غايةٌ فجرَوْا إليها معاً علمْنا مَن السابقُ منهم ، ولـكنْ إنْ يكن فالذى لم يقُل عن رَغبة ولا رَهْبة . قيل : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو المَلِكُ الضِّلِّيل ذو القُروح ، قيل : امرُؤ القيس يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو . قيل : فأخبِرْنا عن ليلة القَدْر ؟ قال : ما أخلو من أن أكون أعلمها فأستُر علمها ، ولستُ أشُكّ أنّ الله إنما يَستُرها عنكم نظراً لـكم ، لأنه لو أعلمـكموها عمِلتم فيها وتركتم غـيرها ، وأرجو أن لا تُخطِئـكم إن شاء الله ، انهضوا رَحِمَـكم الله .

وقال ابن دُرَيد لما فرَغ من الخبر : إضريج : ينبثق فى عَدْوِه ، وقيل واسعُ الصَّدْر ومنفح : يُخرِج الصَّيد من مَواضِعه ، ومِطرَح : يطرح ببَصَره . وخَرُوج : سابقٌ . والغاية بالغين المعجمة : الرّاية ، قال الشاعر :

وإذا غايةُ مجـدٍ رُفِعتْ   نَهَضَ الصّلتُ إليها فحَواها

ويُروى قولُ الشّماخ :

إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجـدٍ   تلقّاها عَرابةُ باليَمينِ(١)

بالغَيْن ، والرّاء أكثر . فأما البيتُ الأوّل فبالغين لا غير ، أنشده الخليل فى عَرُوضه ، وفى حديثٍ طويلٍ فى الصحيح : « فيأتونَـكم تحت ثمانين غايةً ، تحت كلّ غاية اثنا عشر ألفا » . والمَيْعة : أوّل جَرْى الفرَس ؛ وقيل : الجَرْى بعدَ الجَرْى .

* * *

(١) ديوانه ٩٧

[اختلاف العلماء فى تفضيل بعض الشعراء على بعض]

وأنا أذكُرُ فى هذا المَوضعْ ما اختلف فيه العلماء من تفْضيل بعض الشعراء على بعض ، وأبتدئْ فى ذلك بما ذَكَره أبو الفرج علىُّ بن الحسين الأصفهانى فى كتاب الأغانى .

قال أبو الفرَج : الثلاثة المقدَّمون على الشّعراء : امرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة ، لا اختلاف فى أنّهم مقدَّمون على الشعراء كلِّهم ، وإنما اختُلِف فى تقديم بعض الثلاثة على بعض [1] .

قال : فأخبرنى أبو خليفة ، عن محمّد بن سلاّم ، عن أبى قبيس ، عن عكرمة بن جَرير ، عن أبيه ، قال : شاعرُ أهل الجاهليّة زهير .

قال : وأخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ ، قال : حدثنى عمرُ بنُ شبّة ، عن هارون بن عمر ، عن أيوب بن سُوَيد ، عن يحيى بن زِياد ، عن عمر بن عبد الله اللّيثىّ ، قال : قال عمرُ بنُ الخطاب ليلةً فى مسيره إلى الجابية : أين عبدُ الله بنُ عباس ؟ فأُتى به ، فشَكا إليه تخلُّف علىّ بن أبى طالب عليه السلام عنه . قال ابن عباس : فقلتُ له : أو لم يعتذِر إليك ؟ قال : بلى ، قلت : فهو ما اعتذر به . قال : ثم أنشأ يحدّثنى فقال : إن أوّل من راثكم عن هذا الأمر أبو بكر ؛ إن قومَكم كَرِهوا أن يَجمعوا لكم الخلافة والنبوّة. قال أبو الفرَج : ثمّ ذكر قصّةً طويلةً ليستْ من هذا الباب [2] ، فكرهتُ ذكرها ثمّ قال : يابن عبّاس، هل تروى لشاعر الشّعراء ؟ قلت : ومَن هو ؟ قال : وَيْحَك ! شاعرُ الشّعراء ، الذى يقول :

فلو أنّ حَمْدا يُخلِدُ النّاس خُلِّدوا ... ولكنّ حَمْد النّاس ليس بمُخلِدِ

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٨

(٢) ذكرت هذه القصة مفصلة فى الطبرى ٤ : ٢٢٢ — ٢٢٤ (طبع المعارف) .

فقلتُ : ذاك زُهَير ، فقال : ذاك شاعرُ الشّعراء ؛ قلتُ : وبم كان شاعرَ الشّعراء ؟ قال : إنه كان لا يُعاظِل الـكلام ، ويتجنّب وحشيّه ، ولا يمدَح أحداً إلاّ بما فيه .

قال أبو الفرج : وأخبرني أبو خليفة قال : قال ابن سلاّم : وأخبرني عمرُ بنُ موسى الجمحيّ ، عن أخيه قدامة بن موسى ـ وكان من أهلِ العِلم ـ أنه كان يقدِّم زُهَيرا ، قال : فقلتُ له : أيُّ شعره كان أعجب إليه ؟ فقال : الذى يقول فيه :

قد جَعَل المُبتَغُون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طرقاً[1]

قال ابن سلاّم : وأخبَرنى أبو قيس العَنْبرىّ ـ ولم أرَ بَدَوِيّاً يفى به ـ عن عكرمة ابن جرير ، قال : قلت لأبى : ياأبت ، مَن أشعر الناس ؟ قال : أعَن أهل الجاهلية تسألنى ، أم عن أهل الإسلام ؟ قال : قلتُ : ما أردت إلا الإسلام ، فإذ كنتَ قد ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلِها ؛ فقال : زُهير أشعرُ أهلِها ، قلت : فالإسلام ؟ قال : الفرزدق نَبْعة الشّعر ؛ قلت : فالأخطل ؟ قال : يُجيد مدح الملوك ، ويصيب وصف الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : إنى نَحرْتُ الشِّعر نَحْراً[2] .

قال : وأخبَرَنى الحسن بن علىّ قال : أخبرنا الحارثُ بن محمد عن المدائنىّ ، عن عيسى بن يزيد ، قال : سأل معـاويةُ الأحنف ء أشعرَ الشعراء ؟ فقال : زُهَير ؛ قال : وكيف ذاك ؟ قال : ألقى على المادِحين فضول الـكلام ، وأخذ خالصَه وصفوته ، قال : مِثل ماذا ؟ قال : مثل قوله :

ومايك من خير أتوْه فإنمـــا توارَثه آباء آبائِهـــمْ قَبْلُ
وهل يُنبتُ الخطِّىَّ إلاّ وَشِيجُهُ وتُغرَس إلاّ فى مَنابتِها النّخلُ![3]

قال : وأخبرنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، قال : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدثنا

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٨ ، ٢٨٩

(٢) الأغانى ١٠ : ٢٨٩ ، ٢٩٠ وفى د « نجرت الشعر نجرا » .

(٣) الأغانى ١٠ : ٢٩٠

عبد الله بن عمرو القيسي قال : حدثنا خارجة بنُ عبد الله بن أبي سفيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : خرجتُ مع عمر في أول غزاة غزاها ، فقال لي ليلة : يابن عباس ، أنشدْني لشاعر الشعراء ؛ قلتُ : مَن هو ؟ قال : ابن أبي سلمى . قلتُ : ولِمَ صار كذلك ؟ قال : لأنه لا يَتْبَع حُوشيّ الكلام ، ولا يُعاظِل في مَنطِقه ، ولا يقول إلا ما يعرِف ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ، أليس هو الذي يقول :

إذا ابتدَرَتْ قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً ... إلى المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ
سَبَقت إليهــا كلَّ طَلْقٍ مبرِّزٍ ... سَبُوقٍ إلى الغايات غير مُزَنَّدِ

قال : أي لا يحتاج إلى أن يجلد الفرس بالسَّوْط .

كفعل جَواد يسبق الخيل عَفْوُه السِّــراعَ وإن يَجهَد ويَجْهَدْنَ يَبْعُدِ
فلوكان حمداً يُخلد الناسَ لم تَمُتْ[(١)] ... ولــكنَّ حمد النّاس ليس بمُخلِدِ

أنشدْني له ، فأنشدْته حتى بَرَق الفَجْر ، فقال : حسبُك الآن ، اقرأ القرآن . قلت : ما أقرأ ؟ قال : الواقعة ، فقرأتها ، ونَزَل فأذَّن وصَلَّى[(٢)] .

وقال محمد بن سلاّم في كتاب " طبقات الشعراء " : دَخل الحطيئة على سعيد بن العاص متنــكِّرا ، فلما قام الناسُ وبقي الخواصّ أراد الحاجبُ أن يقيمَه ، فأبى أن يقوم ، فقال سعيد : دعْه ؛ وتذاكروا أيام العرب وأشعارها ، فلما أسهبوا قال الحطيئة : ما صنعتم شيئاً ؛ فقال سعيد : فهل عندك علمٌ من ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فمن أشعرُ العرَب ؟ قال : الذي يقول :

قد جَعَل المُبْتَغون الخير في هَرِمٍ ... والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

قال : ثمّ من ؟ قال : الذي يقول :

---

(١) ق د « خلدوا » .

(٢) الأغاني ١٠ : ٢٩٠ ، ٢٩١

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ   إذا طلَعت لم يَبدُ منهن كوكبُ

يعنى زُهَيرا ، ثمّ النابغة ؛ ثمّ قال : وحسْبك بى إذا وضعتُ إحدى رجلىّ على الأخرى ثم عويْت فى إثر القوافى كما يعوى الفَصِيل فى أثرِ أمه ! قال : فمن أنت ؟ قال : أنا الحطيئة ، فرحّب به سعيد ، وأمر له بألف دينار .

قال : وقال من احتج لزهير : كان أحْسَنَهم شعرا ، وأبعَدَهم من سُخْف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليلٍ من المنطق ، وأشدّهم مبالغة فى المدح ، وأبعدهم تكلّفا ومجرفية وأكثرهم حكمة ومَثَلا سائرا فى شِعْره .

وقد روى ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضلُ شُعَرائكم القائل ومَن ومَن » ، يعنى زهيرا ، وذلك فى قصيدته التى أوّلها : «أمِنْ أمّ أوْفى» يقول فيها :

ومَن يكُ ذا فَضْلٍ فيَبْخلْ بفضله   على قومِه يُستغن عنه ويُذْمَمِ
ومن لم يَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه   يُهدَّمْ ، ومن لا يَظلِمِ الناس يُظلَمِ
ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَه   ولو نال أسباب السّماء بسُلَّمِ
ومَن يجعل المعروف من دُون عِرْضِه   يَفِرْهُ ومن لا يَتّقِ الشّتْم يُشتَمِ

* * *

فأما القول فى النّابغة الذّبيانىّ فإن أبا الفَرَج الأصفهانى قال فى كتاب الأغانى : كُنْيَة النابغة أبو أمامة ، واسمُه زِياد بن معاوية ، ولُقِّب بالنابغة لقوله (١) :

* فقد نَبغَتْ لهم مِنّا شئون *

وهو أحدُ الأشراف الّذين غَضّ الشّعر منهم ، وهو من الطبقة الأولى المقدّمين على سائر الشعراء .

---

(١) الأغانى ١١ : ٣

أخبرنى أحمد بنُ عبد العزيز الجوهرىّ وحبيب بن نَصْر قالا : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثنى أبو نعيم ، قال : شريكٌ عن مُجالد ، عن الشَّعْبى ، عن رِبْعىّ ابن حِراش ، قال : قال لنا عمر . يامعشرَ غَطَفان ، مَن الّذى يقول :

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابى   على خوفٍ تُظَنُّ بِىَ الظنونُ

قلنا : النابغة ، قال : ذاك أشعرُ شُعرائكم (١) .

قلتُ : قولُه : «أشعَر شُعرائكم» ، لا يدلّ على أنّه أشعَرَ العرب ، لأنّه جعلَه أشعر شعراء غَطَفان ، فليس كقوله فى زُهير شاعرُ الشّعراء ، ولكنّ أبا الفرج قد روَى بعدَ هذا خبراً آخرَ صريحا فى أنّ النابغة عند عمر أشعرُ العرَب . قال : حدّثنى أحمدُ وحبيب ، عن عمرَ بنِ شَبّة ، قال : حدّثنا عبيد بن جنّاد ، قال : حدّثنا مَعْن بنُ عبدالرحمن عن عيسى بن عبد الرحمن السُّلَمىّ ، عن جدّه ، عن الشّعبىّ قال : قال عمر يوما : مَن أشعَر الشعراء ؟ فقيل له : أنتَ أعلم ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : من الذى يقول :

إلّا سُليمانَ إذ قال المليكُ له   قُمْ فى البرّية فاحدُدْها عن الفَنَدِ (٢)

وخيِّس الجنّ إنّى قد أذنتُ لهم (٣)   يَبْنون تدْمُرَ بالصُّفّاح والعَمَدِ (٤)

قالوا : النابغة ؛ قال : فمن الّذى يقول :

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابى   على خَوْف تُظَنّ بِىَ الظُّنونُ

قالوا : النابغة ؛ قال : فمن الّذى يقول :

حَلَفتُ فلم أترُكْ لنفسِك رِيبةً   وليس وراء الله للمرءِ مَذْهَبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّى خِيانةً   لَمُبلِغُك الواشى أغشُّ وأكذَبُ (٥)

---

(١) الأغانى ١١ : ٣ ، ٤   (٢) فاحددها : فامنعها . والفند : الخطأ .

(٣) خيس الجن ، أى ذللهم ؛ وفى الأغانى : « وخبر الجن » .

(٤) تدمر : مدينة مشهورة قديمة كانت ببرية الشام . والصفاح : حجارة دقاق عراض واحدها صفاحة . والعمد : جمع عمود .   (٥) بعده فى الأغانى :

وَلَسْتَ بِمستَبْقٍ أخاً لا تلمُّهُ   على شَعَثٍ ؛ أىّ الرجال المهذّبُ !

قالوا : النّابغة ، قال : فهو أشعَر العرب (١) .

قال : وأخبرَنى أحمدُ ، قال : حدّثنا عمر ، قال : حدّثنى علىُّ بنُ محمّد المَدائنىّ قال : قام رجل إلى ابن عبّاس ، فقال له : أىُّ النّاس أشْعَر ؟ قال : أخبرْه ياأبا الأسْوَد ، فقال أبو الأسود : الّذى يقول :

فإنّك كاللّيلِ الّذى هو مُدْرِكى ... وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

يعنى النابغة (٢) .

قال أبو الفرج : وأخبرنى أحمدُ وحبيب ، عن عمرَ عن أبى بكر العُلَيْمىّ ، عن الأصمعىّ ؛ قال : كان يُضرَب للنّابغة قبّة أدَم بسُوقِ عُكاظ فتأتيه الشّعراء فتَعرِض عليه أشعارَها ، فأنشده مرّة الأعشى ، ثم حسّان بنُ ثابت ، ثمّ قوم من الشعراء ، ثم جاءت الخنساء فأنشدَته :

وإنّ صَخْراً لتأتمّ الهُداة به ... كأنّه عَلَمٌ فى رأسِه نارُ

فقال : لولا أنّ أبا بَصير ـ يعنِى الأعْشى ـ أنشدَنى آنفا لقلتُ : إنّك أشعرُ الإنس والجنّ . فقام حسّان بنُ ثابت فقال : أنا والله أشعَر منها ومنك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يابنَ أخى ، أنت لا تُحسِن أن تقول :

فإنّك كاللّيــــل الّذى هو مُدرِكى ... وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

خَطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ مَتينــــةٍ ... تَمُدُّ بهـــا أيدٍ إليكَ نَوازِعُ (٣)

قال : فخَنَس حسّان لقوله (٤) .

قال : وأخبرَنى أحمد وحبيب ، عن عمرَ ، عن الأصمعىّ ، عن أبى عمرو بنِ العلاء

---

(١) الأغانى ١١ : ٤ ، ٥ (٢) الأغانى ١١ : ٥

(٣) الخطاطيف : جمع خطاف ، وخطاف البئر حديدة حجناء تستخرج بهـا الدلاء وغيرها . وحجن : معوجة ، واحدها أحجن ، والأنثى حجناء . ونوازع : جواذب .

(٤) خنس : انقبض ، والخبر فى الأغانى ١١ : ٦

قال : حدّثنى رجل سمّاه أبو عمرو وأنسِيتُه ، قال . بينما نحن نسيرُ بينَ أنقاء[1] من الأرض ، فتذاكرْنا الشّعر ، فإذا رَاكِبٌ أُطَيْلِس يقول : أشعَر الناس زيادُ بنُ معاوية، ثمّ تمَلّس فلم نرَه .

قال : وأخبرَنى أحمدُ بنُ عبدالعزيز ، عن عمر بنِ شَبّة ، عن الأصمعىّ ، قال : سمعتُ أبا عمرو بنَ العَلاء يقول : ما ينبغى لزُهير إلّا أن يكون أجيرا للنابغة . قال أبو الفرج : وأخبرَنا أحمدُ عن عمر ، قال قال عمرو بن المنتشِر المُرادىّ : وفَدْنا على عبدِ الملك بنِ مَرْوان ، فدخَلْنا عليه ، فقام رجل فاعتَذَر من أمرٍ وحَلَف عليه ، فقال له عبدُ الملك : ما كنتَ حَرِيًّا أن تفعل ولا تَعتذِر ، ثم أقبَل على أهل الشام فقال : أيّكم يروِى اعتذارَ النابغة إلى النُّعمان فى قوله :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسكَ رِيبةً ... وليس وراء اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

فلم يجدْ فيهم من يَرْويه ، فأقبل علىّ وقال : أترويه ؟ قلتُ : نعم ، فأنشدتُه القصيدةَ كلَّها ، فقال : هذا أشعَر العرب .

قال : وأخبرَنى أحمدُ وحبيب عن عُمَر ، عن مُعاويةَ بن بكر الباهلىّ ، قال : قلتُ لحمّاد الراوية : لم قدّمت النابغة ؟ قال : لا كتفائك بالبيْت الواحد مِن شِعره ، لا بل بنِصف البيت ، لا بل برُبْع البيت ، مِثل قوله :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وراء اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

ولستَ بمُستَبْقٍ أخا لا تَلُمّه ... على شَعَثٍ ، أىّ الرجالِ المهذَّبُ

رُبْع البَيْت يُغنيك عن غيرِه ، فلو تمثّلْتَ به لم تحتجْ إلى غيره .

قال : وأخبرَنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن عمَر بنِ شَبّة ، عن هارون بنِ عبدِ الله

---

(١) الأنقاء : جمع نقا وهو القطعة من الرمل . وأطيلس ، تصغير أطلس ؛ وهو ماق لونه غبرة إلى السواد. وتملس : تملص وأفلت .

الزُّبيرىّ[1] ، قال : حدَّثنى شيخٌ يُكنَى أبا داود ، عن الشعبىّ ، قال : دخلتُ على عبدِ الملك وعندَه الأخطَل وأنا لا أعرِفه ، وذلك أوّل يومٍ وَفَدتُ فيه من العراق على عبدِ الملك ، فقلتُ حينَ دخلتُ : عامر بن شَراحيل الشَّعبىّ يا أميرَ المؤمنين ، فقال : على علمٍ ماأَذِنّا لك ، فقلتُ : هذه واحدة على وافد أهلِ العراق ـ يعنى أنّه أخطأ ـ قال : ثمّ إنّ عبد الملك سألَ الأخطلَ : مَن أشعَر الناس ؟ فقال : أنا ، فعجلتُ وقُلتُ لعبد الملك : مَن هذا يا أمير المؤمنين ؟ فتبسّم ، وقال : الأخطل ؛ فقلتُ فى نفسى : اثنتان على وافدِ أهلِ العراق ، فقلتُ له : أشعَر منكَ الّذى يقول :

هـــــذا غلامٌ حَسَنٌ وجهُه مُستقبل الخـيرِ سريعُ التّمامْ
للحارثِ الأكبرِ والحارثِ الـأصغرِ فالأعرج خــيرُ الأنامْ
ثم لعمرو ولعمرو وقــد أسرَع فى الخيرات منه أمامْ[2]

قال : هى أُمامةُ أمّ عمرو الأصغر بن المنذر بن امرئ القَيس بن النعمان ابن الشقيقة :

خمســـةُ آباه هُمُ ماهُمُ أفضلُ مَن يَشرَب صَوْبَ الغَمامْ

والشِّعر للنابغة ، فالتفتَ إلىّ الأخطل فقال : إنّ أمير المؤمنين إنّما سألَنى عن أشعَر أهلِ زمانه ، ولو سألَنى عن أشعَر أهــل الجاهليّــة كنتُ حريًا أن أقول كما قلتَ أو شبيهاً به ؛ فقلتُ فى نفسى : ثلاثٌ على وافِد أهلِ العراق .

قال أبو الفرَج : وقد وجدتُ هذا الخبرَ أتمّ مِن هــذه الرّواية ، ذكَرَه أحمدُ بنُ الحارث الخرّاز فى كتابه ، عن المدائنىّ ، عن عبدِ الملك بن مُسلِم ، قال : كتَب عبدُ الملك ابنُ مَرْوانَ إلى الحجّاج : إنّه ليس شىءٌ من لذّة الدنيا إلّا وقد أصبتُ منه ، ولم يَبقَ

(١) ب : « الزهرى » ، وصوابه فى ا ، د والأغانى

(٢) فى الأغانى : « ثم لهند ولهند فقد » .

عندى شىء ألذّ من مُناقَلة الإخوان الحديثَ ، وقِبَلَكَ عامرٌ الشّعبىّ فابعثْ به إلىّ ، فدعا الحجّاج الشّعبىّ ، فجهزه وبعَثَ به إليه ، وقرّظه وأطراه فى كتابه ، فخرج الشعبىّ حتّى إذا كان بباب عبدِالملك قال للحاجب : استأذِن لى ، قال : مَن أنت ؟ قال : أنا عامرٌ الشّعبىّ قال : يرحَمُك[1] الله ؛ قال : ثمّ نهض فأجلسَنى على كرسيّه ، فلم يلبَثْ أن خرج إلىّ فقال : ادخُل يرحَمك الله ؛ فدخلتُ ، فإذا عبد الملك جالسٌ على كرسىّ ، وبين يديه رجلٌ أبيضُ الرأس واللحية، جالسٌ على كرسىّ ، فسلّمتُ ، فردّ علىّ السلام ، فأومأ إلىّ بقَضِيبه ، فجلستُ عن يساره، ثمّ أقبل على ذلك الإنسان الّذى بين يديه فقال له : مَن أشعَر الناس ؟ فقال : أنا ياأميرَ المؤمنين ؛ قال الشّعبىّ : فأظلَمَ مابينى وبينَ عبدِ الملك ، فلم أصبرْ أن قلتُ : ومَن هذا الذى يزْعم أنّه أشعَر الناس ياأميرَ المؤمنين ! فعجِب عبدُ الملك من عَجَلتى قبل أن يسألَنى عن حالى ، فقال : هذا الأخطل ؛ فقلتُ : ياأخطَل ، أشعَرُ واللهِ منكَ الّذى يقول :

هــذا غلامٌ حَسَنٌ وَجْهُهُ ... مستقبِل الخيْرِ سريعُ التّمامْ

الأبيات .

قال : فاستحسَنَها عبدُ الملك ، ثمّ ردّدتها عليه حتّى حفِظَها ، فقال الأخطل : مَن هذا ياأميرَالمؤمنين ؟ قال : هذا الشّعبىّ ؛ فقال: والجيلونِ ما استعذت بالله من شرّ إلا من هذا — أى والإنجيل — صَدَق واللهِ ياأميرَ المؤمنين ، النابغةُ أشعَر منّى ، قال الشّعبىّ : فأقبَل عبدُ الملك حينئذ علىّ فقال : كيف أنتَ ياشَعبىّ ؟ قلتُ : بخير ياأمير المؤمنين، فلا زلتُ به ثمّ ذهبتُ لأصنَع معاذيرَ لما كان من خلافى مع ابن الأشعث على الحجّاج : فقال : مَهْ إنّا لا نحتاج إلى هذا المَنطِق ، ولا تراه منّا فى قولٍ ولا فِعل حتّى تفارقَنا ؛ ثمّ أقبل علىّ فقال : ماتقول فى النّابغة ؟ قلتُ : ياأمير المؤمنين ، قد فضّله عمرُ بنُ الخطّاب فى غيرِ

---

(١) رواية د « حياك الله »

مَوْطنٍ على جميع الشعراء ، ثمّ أنشدْتُه الشِّعرَ الّذى كان عمرُ يُعجَب به من شِعْره ، وقد تقدّم ذكرُه . قال : فأقبل عبدُ الملك على الأخطل فقال له : أتُحِبّ أنّ لك قياضاً بشعرك شِعْرَ أحدٍ من العرب ، أم تحبّ أنك قلتَه ؟ قال : لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين إلّا أنّى وَدِدْتُ أنّى كنتُ قلتُ أبياتاً قالها رجلٌ منّا ، ثمّ أنشدَه قولَ القطامىّ :

إنّا مُحيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإنْ بليتَ وإن طالَتْ بكَ الطِّيَلُ[(١)]
ليس الجديد به تَبقَى بشاشتُه[(٢)] ... إلّا قليلا ولاذو خُلّةٍ يَصِلُ
والعَيْشُ لا عيشَ إلّا ما تقرُّ به ... عَيْن ولا حالَ إلّا سوفَ تنتقِلُ
إنْ ترجِعى من أبى عثمانَ مُنجِحةً ... فقد يَهُون على المستنجِح العَمَلُ[(٣)]
والناسُ مَن يَلْقَ خيراً قائلون له ... ما يشتهِى ولأُمّ المُخطِىء الهَبَلُ
قد يُدرِكُ المتأنِّى بعضَ حاجتِه ... وقد يكون مع المستعجِل الزَّلَلُ

قال الشّعبىّ : فقلتُ : قد قال القطامىّ أفضلَ من هذا ؛ قال : وماقال ؟ قلتُ : قال :

طَرقتْ جَنوبُ رحالَنا من مَطْرَقِ ... ماكنتُ أحسَبها قريبَ المُعنَقِ[(٤)]

إلى آخرها[(٥)] ، فقال عبدُ الملك : ثكِلَت القطامىّ أمُّه ! هذا واللهِ الشِّعرُ، قال : فالتفت إلىّ الأخطلُ فقال : ياشعبِىّ ، إنّ لك فنُونا فى الأحاديث ، وإنّما لى فنٌّ واحد فإن رأيتَ ألّا تحمِلني على أكتافِ قومك فأدَعُهم حَرَضا[(٦)] ، فقلتُ : لا أعرض لك فى شىء من الشّعر أبدا ، فأقِلْنى هذه المرّة ، فقال : مَن يتكفّل بك ؟ قلتُ :

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . والطيل : جمع طيلة ، وهى الدهر .
(٢) الضمير فى « به » يعود على الدهر (٣) منجحة : ظافرة . والمستنجح : طالب النجاح .
(٤) المعنق : المكان الذى أعنقت منه ، والعنق (بالتحريك) : ضرب من السير السريع .
(٥) أوردها صاحب الأغانى (٦) الحرض : الردىء من الناس ، أى اجعلهم بهجائى من أراذل الناس .

أميرُ المؤمنين ، فقال عبد الملك : هو عَلَيَّ أنه لا يَعرِض لك أبدا ؛ ثم قال عبدُ المَلِك : ياشَعْبِيّ ، أيّ نساء الجاهليّة أشعَر ؟ قلتُ : الخَنْساء ؟ قال : ولم فَضّلتَها على غيرِها ؟ قلتُ : لقولها :

وقائلةٍ والنَّعْش قد فاتَ خَطْوَها لِتُدرِكه : يالَهفَ نَفسى على صَخْرِ !
ألَا هبلتْ أمُّ الّذين غَدَوْا به إلى القَبْر ، ماذا يَحملون إلى القَبْرِ !

فقال عبدُ المَلِك : أشعَر منها واللهِ الّتى تقول (١) :

مُهَفْهَفٌ أهضَم الكَشْحَين منخرِقٌ (٢) عنه القميصُ بسَيْرِ الليلِ مُحتقِرُ
لا يأمَن الدّهرَ مُمساهُ ومصبحه من كلّ أَوْبٍ وإن لم يَغْزُ يُنتظَرُ

قال : ثمّ تبسّم عبدُ الملك وقال : لا يشقّنَّ عليك ياشعبيّ ، فإنّما أعلمتُك هذا لأنه بلَغنى أنّ أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام ، ويقولون : إن كانوا غَلَبونا على الدّولة فلم يَغلِبونا على العِلم والرِّواية ، وأهل الشام أعلَم بعِلْم أهلِ العراق من أهلِ العراق ، ثم ردّد علىّ أبيات لَيْلى حتّى حفِظتُها ، ثمّ لم أزل عنده أوّلَ داخل وآخِر خارج ، فكنتُ كذلك سنينَ ، وجعَلنى فى ألفين من العَطاء ، وجعَلَ عشرين رجلا من ولدى وأهل بَيْتى فى ألف ألفٍ ، ثمّ بعثَنى إلى أخيه عبدِ العزيز بمصرَ ، وكتب إليه : ياأخى ، قد بعثتُ إليك بالشّعْبىّ ، فانظرْ هل رأيتَ قطّ مِثلَه (٣) !

قال أبو الفرَج الأصبهانىّ فى ترجمة أوْس بنِ حَجَر : إنّ أبا عبيدة قال : كان أوسُ شاعرَ مُضَر حتّى أسقَطَه النابغة ؛ قال : وقد ذَكَر الأصمعىّ أنّه سمعَ أبا عمرو بن العلاء يقول : كان أوسُ بنُ حَجَر فحلَ العرب ، فلما نشأ النابغةُ طأطأ منه (٤) .

وقال محمّد بنُ سَلّام فى كتاب طَبقات الشّعراء : وقال من احتجّ للنابغة : كان أحسَنهم

(١) هى ليلى أخت المنتشر بن وهب الباهلى . (٢) مهفهف الكشح : ضامره .
(٣) الأغانى ١١ : ٢١ — ٢٦

ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا ؛ كان شعره كلام ليس بتكلف ، والمَنطِق على المتكلم أوسع منه على الشاعر ، لأنّ الشاعر يحتاج إلى البناء والعَروض والقَوافي ، والمتكلم مطلَق ، يتخيّر الكلامَ كيف شاء ، قالوا : والنابغة نبغ بالشّعر بعد أن احتَنَك، وهلَكَ قبل أن يهتِر .

قلتُ : وكان أبو جعفر يحيى بن محمّد بن أبي زيد العَلَويّ البَصْريّ يُفضّل النابغة ، واستقرأني يوما وبيَدِي ديوانُ النّابغة قصيدتَه التي يَمدَح بها النّعمان بنَ المُنذِر، ويَذكُر مرضَه ، ويَعتذر إليه ممّا كان اتّهم به ، وقذَفَه به أعداؤه ، وأوّلها :

كَتَمتُكَ لَيلاً بالجَومين ساهراً ... وهمّين : همّاً مستكنّاً وظاهرا[1]

أحاديث نفسٍ تَشتكِي مايَرِيبُها ... ووِرْدَ هموم لو يَجِدْنَ مَصادِرا

تُكلّفني أن يُفعِلَ الدهرُ همَّها ... وهل وجدتْ قبلي على الدّهر ناصرا!

يقول : هذه النفس تكلّفني ألاّ يحدث لها الدهر همّا ولا حزنا ، وذلك ممّا لم يستطعه أحدٌ قبلي .

ألم ترَ خيرَ النّاس أصبحَ نعشُه ... على فِتيةٍ قد جاوَزَ الحيَّ سائرا!

كان الملِكُ منهم إذا مَرِض حُمِل على نعش وطِيف به على أكتاف الرجال بين الحِيرَة والخَوَرْنَق والنَّجَف ، يتنزّهونه .

ونحن لديْه نسألُ اللهَ خُلْدَه ... يُردّ لنا ملكا وللأرضِ عامرا[2]

ونحن نُرجِّي الخيرَ إنْ فاز قِدْحنا ... ونَرْهَبُ قِدْحَ الدّهر إن جاء قامرا

لك الخيرُ إن وارتْ بك الأرض واحداً ... وأصبحَ جدُّ الناس بعدك عاثرا

ورُدّت مَطايا الراغبين وعُرّيتْ ... جِيادُك لا يُحفِي لها الدّهرَ حافرا

---

(١) ديوانه ٣٩–٤٢ . والجومان : موضع .

(٢) الخلد : البقاء .

رأيتكَ نزْعاني بعين بصـــيرةٍ وتَبعثُ حُرّاســـا عليَّ وناظِرَا
وذلك مِنْ قول أتاكَ أقـــوله ومِنْ دَسِّ أعـداءٍ إليكَ المآبِرَا(١)
فآليتُ لا آتيكَ إنْ كنتُ مُجرِماً ولا أبتغِي جاراً سِواكَ مُجـــاوِرَا

أي لا آتيك حتى يَثبتَ عندكَ أنّي غيرُ مُجرم .

فأهلِي فِـــداءٌ لامرِئٍ إنْ أتيتُه تَقبَّلَ معروفِي وسَدَّ المفَـــاقِرَا(٢)
سأَربطُ كَلْبِي أنْ يريبَكَ نَبحُـــه وإنْ كنتُ أرعَى مُسْحُلانَ وحامِرَا(٣)

أي سأُمسِكُ لســـانى عن هجائك وإن كنتَ بالشام فى هـذين الواديَيْن البعيدَين عنك .

وحلّت بيُوتِي فى يَفاعٍ مُمنَّعٍ تَخَالُ به راعِي الحَمولةِ طائِرَا(٤)
تَزِلُّ الوعُولُ العُصْمُ عن قُذُفاتِه ويُضحِي ذُراه بالسَّحاب كَوافِرَا
حِـذاراً على ألّا تنال مَقادَتِي ولا نِسوتِي حتّى يَمُتْنَ حَرائِرَا

يقول : أنا لا أهجرك وإن كنتُ من المَنعة والعِصْمة على هذه الصفة . .

أقولُ وقد شطّت بِيَ الدّارُ عنكُمُ إذا مالقيت من مَعَدٍّ مُسافِرا
ألا أبلغِ النّعمانَ حيثُ لقيتَـــه فأهدَى له اللهُ الغُيوثَ البواكِرا
وأصبحه فَلجاً ولا زال كَعْبُـه على كلِّ مَن عادَى مِن الناس ظاهِرا
ورَبَّ عليهِ اللهُ أحسَنَ صُنْعِـه وكان على كُلِّ المُعادِين ناصِرَا(٥)

فجعل أبوجعفر رحمه الله يهتزّ ويَطرَب ، ثم قال : واللهِ لو مُزِجتْ هذه القصيدة بشِعرِ البحتريّ لـكادت تمتزج لسهولَتِها وسلامةِ ألفاظِها ، وما عليها من الدِّيباجة والرَّونق ؛ من يقول : إنّ امرأ القيس وزهيراً أشعَرُ من هذا ! هَلُمُّوا فليُحاكُونى .

---

(١) المآبر : النمائم . (٢) تقبل ، بمعنى قبل . والمفاقر : جمع فقر .
(٣) الديوان « سأكعم كلبي » ، أي سأمسك . ومسحلان وعامر : موضعان .
(٤) اليفاع : المشرف من الأرض . والحمولة : الإبل التى أطاقت الحمل . (٥) ربه : أتمه .

فأمّا امرُؤ القيس بنُ حُجْر ، فقال محمّد بن سلاّم الجمحيُّ فى كتاب " طبقات الشعراء " : أخبرَنى يونسُ بن حَبيب أنّ علماء البَصرة كانوا يقدّمونه على الشعراء كلِّهم ، وأنّ أهل الكوفة كانوا يقدّمون الأعشى ، وأنّ أهل الحجاز والبادية يقدّمون زُهَيرا والنّابغة(١) .

قال ابنُ سلاّم : فالطبقة الأولَى إذَنْ أربعة . قال : وأخبرَنى شُعيب بن صَخْر ، عن هارون بن إبراهيم ، قال : سمعتُ قائلا يقول للفرزدق : مَن أشعَر الناس يا أبا فراس ؟ فقال : ذو القرُوح ، يعنى امرأ القَيْس ، قال : حين يقول : ماذا ؟ قال حين يقول :

وَقاهمْ جَدُّهم ببنى أبيهم ... وبالأشقَيْن ما كان العِقابُ

قال : وأخبرَنى أبان بن عثمان البَجَليّ ، قال : مرّ لبيد بالكوفة فى بنى نَهْد ، فأتبعوه رسولا يسأله : من أشعَر الناس ؟ فقال : الملِكُ الضِّلّيل . فأعادوه إليه ، فقال : ثمّ مَن ؟ فقال : الغلامُ القتيل ـ يعنى طَرَفة بنَ العَبْد ـ وقال غيرُ أبان : قال : ثمّ ابن العشرين ، قال : ثمّ مَن ؟ قال : الشيخُ أبو عُقَيل يعنى نفسَه(٢) .

قال ابنُ سلاّم : واحتجّ لامرئ القيس من يقدّمه فقال : إنّه ليس(٣) قال مالم يقولوه ، ولكنّه سبَق العَربَ إلى أشياء ابتدَعها استحسَنَتْها العرب ، فاتّبعه فيها الشعراء ، منها استيقاف صَحْبه ، والبُكاء فى الدّيار ، ورقّةُ النّسيب ، وقربُ المأخذ ، وتشبيهُ النّساء بالظِّباء وبالبَيْض ، وتشبيهُ الخيل بالعِقْبان والعِصيّ ، وقَيْد الأوابِد ، وأجاد فى النّسيب ، وفصَل بين النّسيب وبين المعنَى ، وكان أحسنَ الطّبقة تشبيهاً(٤) .

قال : وحدّثنى معلّم لبنى داودَ بن ، علىّ قال : بينا أنا أسيرُ فى البادية إذا أنا برجلٍ على ظَليم قد زَمّه وخطَمه وهو يقول :

(١) طبقات الشعراء ٤٤
(٢) طبقات الشعراء ٤٤
(٣) طبقات الشعراء : « ما قال ما لم يقولوا »
(٤) طبقات الشعراء ٤٦

هل يَبلُغَنِّيهِمْ إلى الصَّباحِ   هَقْلٌ كأنَّ رأسَه جماحُ

قال : فما زال يَذْهب به ظَليمهُ وَيَجيء حتى أنست به وعَلِمتُ أنه ليس بإنسيّ فقلت : ياهذا ، من أشعَرَ العرب ؟ فقال : الذى يقول :

أغرَّكِ منّى أنَّ حُبَّكِ قاتِلى   وأنكِ مهما تأمرى القلب يَفعَلِ

يعني امرأ القَيْس ، قلتُ : ثمَّ مَن ؟ قال : الّذى يقول :

ويَبرُدُ بَرْد رِداء العَرُو   سِ بالصيف رقرقْتَ فيه العبيرا

ويَسخُن ليلةَ لا يَستطيعُ   نُباحاً بها الكَلْب إلاّ هَرِيرا

ثمّ ذَهب به ظَليمه فلم أره (١) .

* * *

قال : وحدّث عَوانةُ ، عن الحسن أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لحسّان بن ثابت : من أشعَر العَرَب ؟ قال : الزُّرقُ العيون من بنى قَيْس ، قال : لستُ أسألك عن القبيلة ، إنما أسألك عن رَجُل واحدٍ ، فقال حسّان : يا رسول الله ؛ إنّ مَثَل الشّعراء والشّعرِ كمَثَل ناقةٍ نُحِرتْ ، فجاء امرؤ القَيْس بنُ حُجْر فأخَذَ سَنامَها وأطايبها ، ثمّ جاء المتجاوِران من الأوْس والخَزْرج فأخذا ما والَى ذلك منها ، ثم جَعلت العربُ تمزّعها حتى إذا بقي الفَرْث والدّمُ جاء عمرو بنُ تميم والنمِر بنُ قاسط فأخذاه ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « ذاك رجلٌ مذكورٌ فى الدنيا شريفٌ فيها خاملٌ يوم القيامة ، معه لواء الشّعراء إلى النار » (٢) .

* * *

فأمّا الأعشى فقد احتجّ أصحابه لتفضيله بأنه كان أكثرهم عَرُوضا ، وأذهَبَهم فى فُنون الشعر ، وأكثَرَهم قصيدة طويلةً جيّدة ، وأكثرهم مَدْحا وهِجاء ، وكان أوّل من سأل

بشِعْره ، وإن لم يكن له بَيْتٌ نادِر على أفواه الناس كأبياتِ أصحابِه الثلاثة .

وقد سُئِل خلَفُ الأحمرُ : من أشعر الناس ؟ فقال : ما ينتهى إلى واحدٍ يُجمَع عليه كما لا يُنتَهى إلى واحدٍ هو أشجع الناس ، ولا أخطب الناس ، ولا أجمل الناس ، فقيل له : يا أبا مُحرِز ، فأيّهم أعجب إليك ؟ فقال : الأعشى كان أجمعَهم .

قال ابنُ سلاّم : وكان أبو الخطاب الأخفش مستهتراً به يقدِّمه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : مَثَله مَثَل البازى يضرب كبير الطير وصغيره . ويقول : نظيره فى الإسلام جَرير ، ونظيرُ النابغة الأخطل ، ونظير زُهير الفرزدق (١) .

***

فأما قولُ أمير المؤمنين عليه السلام « المَلِكُ الضِّلِّيل » فإنما سُمّى امرُؤ القيس ضِلِّيلا لما يُعلن به فى شِعره من الفسْق ، والضِّلِّيل : الكثيرُ الضلال ، كالشِّرِّيب ، والخِمِّير والسِّكير ، والفِسِّيق ، للكثير الشُرْب وإدمان الخمر والسُكر والفِسْق ، فمن ذلك قولُه :

فمِثلكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعاً ... فألهيتُها عن ذى تمائمَ مُحْوِلِ (٢)

إذا ما بكَى من خلفِها انصرفَتْ له ... بِشِقٍ وتحتى شِقُّها لم يُحَوَّلِ

وقوله :

سَمَوتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها ... سموَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ (٣)

فقالتْ لحاكَ اللهُ إنك فاضِحى ... ألستَ ترَى السُّمارَ والناسَ أحْوالى

فقلتُ لها تاللهِ أبرَحُ قاعداً ... ولو قطَعوا رأسِى لدَيْكِ وأوْصالى

---

(١) طبقات الشعراء

(٢) ديوانه ١٢

(٣) ديوانه ٣١ ـ ٣٢

فلما تنازعْنا الحديث وأسْمَحَتْ هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذى شماريخ مَيَّالِ
فصِرْنا إلى الحُسْنى ورَقَّ كلامُنا ورُضْتُ فذَلَّتْ صَعبةً أيَّ إذلالِ
حلفتُ لها باللهِ حَلْفةَ فاجـرٍ لناموا فما إن من حديثٍ ولا صَالى
فأصبحتُ مَعْشوقا وأصبح بَعلها عليه القَتامُ كاسِفَ الوجهِ والبَالِ

وقولُه فى اللاَّمية الأُولى :

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تَمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجِلِ (١)
تخطَّيْتُ أبواباً إليها ومَعشَراً علىَّ حِراصاً لو يُسِرُّون مَقتلى
فجئتُ وقد نَضَّت لنَوْمٍ ثيابَها لدى السِّتْرِ إلاَّ لِبْسةَ المتفضِّلِ
فقالتْ يَمِينَ اللهِ مالكَ حِيـلةٌ وما إن أرَى عنكَ الغَوايةَ تَنجَلى
فقمتُ بها أمشى تَجرُّ وراءنا على إثْرنا أذْيالَ مِرْطٍ مُرَجَّلِ
فلما أجَزْنا ساحةَ الحىِّ وانتحَى بنا بطنُ خَبْتٍ ذى حِقافٍ عَقَنْقَلِ
هَصَرْتُ بفَوْدَىْ رأسِها فتمايلتْ علىَّ هضيمَ الكَشْحِ ريَّا المُخلخَلِ

وقوله :

فبتُّ أكابِدُ لَيلَ التمام والقلبُ مِن خَشْيَةٍ مقشعِرْ
فلمَّا دنوتُ تَسَدَّيْتُها فثوْباً نَسيتُ وثوباً أجُرْ
ولم يَرَنا كالىءٌ كاشحٌ ولم يَبْدُ منّا لدى البيت سِرْ
وقد رابنى قولها : ياهَنا ةُ وَيْحكَ ألحقتَ شَرّاً بشَرْ!

---

(١) ديوانه ١٣ ــ ١٥

وقوله :

تقولُ وقد جرّدتُها من ثيابها ... كما رُعْتُ مكحول المدامع أتلما [1]

لعَمْرُكَ لو شيءٌ أتانا رسولُه ... سِواكَ ولكنْ لم نجِدْ لكَ مَدْفَما

فبتْنا نَصُدُّ الوحش عنّا كأنّنا ... قتيلان لم يعلم لنا الناسُ مَصْرَعا

تُجافَى عن المأثور بيني وبينها ... وتُدْنى عليَّ السابريَّ المُضلَّعا

وفي شعر امرىء القيس مِن هذا الفنّ كثير ، فمن أرادَه فليَطْلُبه من مجموع شِعرِه .

---

١) ديوانه ١ : ٢

(٤٦٢)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

ألا حُرٌّ يَدَعُ هَذِهِ اللُّماظَةَ لأهْلِها ! إنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إلاَّ الْجَنَّةَ ، فَلا تَبِيعُوها إلاَّ بِها .

* * *

الشَّرْحُ :

اللُّماظة بفتح اللام : ما تبقّى فى الفم من الطّعام ؛ قال يصفُ الدنيا :

* لُماظةُ أيامٍ كأحلامِ نائمِ *

ولَمَظ الرجل يَلمُظ بالضمّ لَمْظا ، إذا تتبع بلسانه بقيّة الطعام فى فمه وأخرَج لسانه فمسَح به شفتيه ، وكذلك التّلمُّظ ، يقال : تلمّظَت الحيّة إذا أخرجتْ لِسانَها كما يتلمّظ الآكل .

وقال : « ألا حُرٌّ » ، مبتدأ ، وخبرُه محذوف أى فى الوجود . وألا حرفٌ ، قال :

ألا رجلٌ جَزاه الله خيراً يَدُلّ على مُحصّلةٍ تبيتُ

ثم قال : إنه ليس لأنفسِكم ثمنٌ إلاّ الجنة ، فلا تبيعوها إلا بها ، من الناس من يبيعُ نفسه بالدراهم والدّنانير ، ومن الناس من يبيع نفسه بأحقر الأشياء وأهونِها ، ويتبع هواهُ فيَهلك ، وهؤلاء فى الحقيقة أحمقُ الناس، إلا أنه قدْ رِينَ على القُلوب، فغطّتها الذنوب، وأظلمت الأنفسُ بالجهل وسوء العادة ، وطال الأمد أيضا على القلوب فقَسَتْ ، ولو أفكر الإنسانُ حَقّ الفِكْر لما باع نفسه إلاّ بالجنّة لا غير .

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنْهُومان لا يَشْبَعانِ : طالِبُ عِلْمٍ وطالِبُ دُنْيا .

***

الشَّــرْحُ :

تقول : نَهِم فلانٌ بكذا فهو مَنْهوم ، أى مُولَع به ، وهذه الـكلمة مَرْوِيّة عن النّبى صلّى اللهعليهوآله : « مَنْهومانِ لا يَشْبعان : منهومٌ بالمال،ومنهومٌ بالعلم». والنَّهَم بالفتح : إفراطُ الشَّهْوة فى الطّعام ، تقول منه : نَهِمتُ إلى الطعام بكسرِ الهاء أَنْهَمَ فأنا نَهِم ، وكان فى القرآن آيةٌ أُنزلت ثمّ رفِعَت : « لو كان لابن آدَم واديَانِ من ذَهبٍ لابتغى لهما ثالثا ، ولا يَملأُ عينَ ابنِ آدم إلّا التراب ، ويتوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تاب » .

فأمّا طالبُ العِلْمِ العاشِقُ له ، فإنّه لا يَشبَع منه أبداً ، وكلّما استـكثَر منه زادَ عِشقُه له ، وتهالُـكه عليه . مات أبو عثمانَ الجاحظُ والـكتابُ على صَدْرِه .

وكان شيخُنا أبو علىّ رحمه الله فى النَّزْع وهو يُمِلى على ابنِه أبى هاشم مسائلَ فى عِلْمِ الـكلام . وكان القاضى أحمدُ بنُ أبى دُواد يأخذُ الـكتابَ فى خُفّه وهو راكب ، فإذا جلَسَ فى دارِ الخليفة اشتغَل بالنّظر فيه إلى أن يَجلِس الخليفة ، ويَدْخُل إليه . وقيل : مافارقَ ابنُ أبى دُواد الـكتابَ قطّ إلّا فى الخلاء . وأعرف أنا فى زَماننا مَن مكَثَ نحو خمسِ سنينَ لا يَنامُ إلّا وقتَ السَّحَر صَيْفا وشتاء مُـكِبّا على كتابٍ صنّفه ، وكانت وسادتُه التى يَنامُ عليها الـكتاب .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

علامَةُ الإيمان أنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ ، عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنفَعُكَ ، وألّا يَكُونَ فى حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عِلْمِكَ ، وأنْ تَتَّقِيَ اللهَ فى حَدِيثِ غَيْرِكَ .

***

الشرح :

قد أخَذ المعنَى الأوّل القائلُ :

عليكَ بالصِّدْقِ ولَو أنّه أحْرَقَكَ الصِّدْقُ بنارِ الوَعِيدْ

ويَنبغِي أن يكونَ هذا الحُكْم مقيّدا لا مطلقا ، لأنّه إذا أضَرّ الصِّدْقُ ضَرَرا عظيما يؤدِّى إلى تَلَف النَّفس أوْ إلى قَطْع بعضِ الأعضاء لم يَجُزْ فِعلُه صَرِيحا ، ووجبَتْ المعارِيضُ حينئذ .

فإن قلتَ : فالمعارِيض صِدْق أيضا ، فالكَلامُ على إطلاقه ! قلتُ : هى صِدْق فى ذاتها ، ولكنّ مُستعمِلَها لم يَصدُق فيما سُئل عنه ، ولا كَذَب أيضا ، لأنّه لم يُخبِر عنه ، وإنّما أخبرَ عَنْ شىء آخَرَ وهى المعارِيض ؛ والتّارك للخَبَر لا يكون صادقا ولا كاذبا ، فوَجَب أن يقيّد إطلاقُ الخبَر بما إذا كان الضَّرَر غيرَ عظيم ، وكانت نتيجةُ الصِّدْق أعظَمَ نفْعا من تلك المَضَرّة .

قال عليه السلام : «وأن لا يكونَ فى حديثِك فَضْل عن علمِك» ، مَتَى زاد مَنطِق الرجل على عِلْمِه فقد لغَا وظهَر نقصُه ، والفاضلُ مَن كان عِلْمُه أكثرَ من مَنطقه . قوله : «وأن تَتقى الله فى حديثِ غيرِك» ، أى فى نَقْله وروايته فترْوِيه كما سَمِعْتَه من غير تحريف

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

يَغْلِبُ المِقْدَارُ على التَّقْدِيرِ ، حَتّى تَكُونَ الآفَةُ فى التَّدْبِيرِ .

قال : وقد مضى هذا المَعْنَى فيما تقدّم بروايةٍ تُخالف بعض هذه الألفاظ .

***

الشرح :

قد تقدّم هذا المعنى ، وهو كثيرٌ جدا ، ومن جيّده قول الشاعر :

لعمرُكَ مالامَ ابنُ أخطبَ نفسَه ... ولكنه من يَخْذُلِ اللهُ يخذلِ
لجاهدَ حتى تبلُغَ النفسُ عُذْرَها ... وقَلْقَلَ يبغى العزَّ كلَّ مُقَلْقَلِ

وقال أبو تمّام :

ورَكْبٍ كأطرافِ الأسنّة عرّسُوا ... على مِثلِها والليلُ تَسطو غَياهِبُه[(1)]
لأمرٍ عليهمْ أنْ تَتِمَّ صُدورُه ... وليس عليهمْ أن تتمَّ عَواقِبُه

وقال آخر :

فإنْ يَبن حيطانًا عليه فإنّما ... أولئك عُقّالاتُه لا مَعاقِلُه

---

(١) ديوانه ١ : ٢٢٩

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الحِلْمُ والأناةُ توءمانِ ، يُنتِجُهُما عُلوُّ الهِمَّة .

***

الشَّـرحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وشرحه مرارا .

وقال ابن هانئ :

وكلّ أناة في المواطِن سؤدُدٌ ولا كأناةٍ مِنْ تدبُّر مُحكَمِ [١]

ومَن يتبيَّن أنّ للسَّيفِ مَوضِعاً مِنَ الصَّفْحِ يَصْفَحْ عن كثيرٍ ويحلِمِ

وقال أربابُ المعاني : علّمنا الله تعالى فضيلةَ الأناة بما حكاه عن سليمانَ ، ﴿ سَنَنظُرُ أصدَقْتَ أم كُنتَ مِنَ الكاذبينَ ﴾[٢] .

وكان يقال : الأناة حِصنُ السلامة ، والعَجلة مفتاحُ الندامة .

وكان يقال : التأنّي مع الخيبة ، خيرٌ من التهوُّر مع النّجاح .

وقال الشاعر :

الرِّفقُ يُمنٌ والأناةُ سَعادةٌ فتأنَّ في أمرٍ تلاقِ نجاحا

---

(١) ديوانه ١٢٣ وفى د « من قدير محكم » (٢) سورة النمل ٢٧ .

وقال مَن كره الأناةَ وذَمّها : لو كانت الأناة محمودةً والعَجَلة مذمومةً ، لما قال موسى لربّه : ﴿ وعَجِلْتُ إليكَ رَبِّ لِترْضَى ﴾ [١] .

وأنشدوا :

عَيبُ الأناةِ وإنْ سَرّتْ عواقِبُها ... أن لا خُلودَ وأن ليسَ الفتى حجَرا

وقال آخَر :

كم من مضيّعِ فرصةٍ قد أمكَنَتْ ... لغدٍ وليسَ له غـدٌ بمُواتِي

حتى إذا فاتتْ وفات طِلابُها ... ذهبتْ عليها نفسُه حسَراتِ

(١) سورة طه ٨٤

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الغِيبةُ جُهْدُ العاجزِ .

***

الشرح :

قد تقدّم كلامُنا في الغِيبة مُستقصًى .

وقيل للأحنف : مَنْ أشرَفُ الناس ؟ قال: مَنْ إذا حَضَر هابُوه،وإذا غاب اغتابوه .

وقال الشاعر :

وَيَغتابُني مَن لو كَفاني اغتيابُهُ ... لكنتُ له العينَ البصيرةَ والأُذْنَا

وعندي من الأشياء مالَو ذكرتُها ... إذا قَرَعَ المُغتابَ من نَدَمٍ سِنّا

وقد نظمتُ أنا كلمةَ الأحنف فقلتُ :

أكلُ عِرْضي إنْ غِبتُ ذَمًّا فإن أُبْـ ... ـتُ فَمدحٌ ورَهْبةٌ وسُجودُ

هكذا يَفعلُ الجبانُ ، شُجاعٌ ... حين يَخلو، وفي الوَغا رِعْديدُ

لكَ مِنّي حالانِ في عَيْنِكَ الجَنّـ ... ـةُ حُسْنًا وفي الفؤادِ وَقودُ

الأصل :

وقالَ عليه السلامُ :

رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ القَوْلِ فِيهِ .

***

الشرح :

طالمَا فُتِنَ الناسُ بثناءِ النّاس عليهم ، فيقصِّر العالِمُ فى اكتساب العِلم اتّكالا على ثَناء النّاس عليه ، ويقصِّر العابدُ فى العِبادة اتّكالا على ثَناء الناسِ عليه ، ويقول كلّ واحد منهما : إنّما أردتُ ما اشتهرتُ به للصِّيت ، وقد حصَل ، فلماذا أتكلّف الزّيادة ، وأعانى التّعب ! وأيضا فإنّ ثناءَ النّاسِ على الإنسان يَقتضى اعتراء العُجْب له ، وإعجاب المرء بنفْسه مُهلِك .

واعلمْ أنّ الرّضىّ رحمهالله قطَع كتابَ نَهْج البلاغة على هذا الفَصْل ،وهكذا وجدتُ النُّسخة بخَطّه وقال : « هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قَطْع المُنتزَع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : حامِدِين لله سبحانَه على ما مَنّ به من توفيقِنا لضمِّ ما انتشَرَ من أطرافه وتقريبِ ما بَعُد من أقطاره ، مقرِّرِين العزْم كما شرطْنا أوّلا على تفضيل أوراقٍ من البياض فى آخِرِ كلّ باب من الأبواب ، لتكون لاقتناص الشارِد ، واستِلْحاقِ الوارد ، وماعَساه أن يَظهرَ لنا بعد الغمُوض ، ويقع إلينا بعد الشّذوذ ، وما توفيقُنا إلا بالله ، عليه توكّلْنا ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل ، نعمَ المولَى ونعمَ النّصير » .

ثم وجَدْنا نسخاً كثيرةً فيها زيادات بعد هذا الكلام ؛ قيل : إنها وُجِدَتْ فى نسخةٍ كُتبتْ فى حَياةِ الرّضىّ رحمه الله وقُرِئت عليه فأمضاها ، وأذِن فى إلحاقِها بالكِتاب ونحن نذكرها .

(٤٦٩)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الدُّنيا خُلِقَتْ لِغَيْرِها ، ولَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِها .

* * *

الشرح :

قال أبو العلاء المعرّيّ - مع ما كان يُرمَى به - في هذا المعنى ما يطابق إرادة أمير المؤمنين عليه السلام بلفظه هذا :

خُلِقَ النّاسُ للبَقاءِ فضلَّتْ ... أمّةٌ يحسبونَهم للنَّفادِ[1]

إنّما يُنقَلون من دارِ أعمـا ... لٍ إلى دارِ شِقْوةٍ أو رَشادِ

---

(١) سقط الزند ٩٧٨ ، ٩٧٩.

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيما بَيْنَهُمْ ثُمَّ لو كَادَتْهُمُ الضِّباعُ لَغَلَبَتْهُمْ .

* * *

قَالَ الرضيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى : وَهَذا مِنْ أَفْصَحِ الكلامِ وَأَغْرَبِهِ ، وَالمِرْوَدُ هاهنا مِفْعَلٌ مِنَ الإِرْوادِ ، وَهُوَ الإِمهالُ وَالإِنْظارُ ، فَكأَنَّهُ عليهِ السلامُ شَبَّهَ المُهْلَةَ الَّتِي هُم فيها بِالمِضْمارِ الَّذي يَجْرُونَ فيهِ إلى الغايَةِ ، فإذا بلغوا مُنْقَطَعَها انْتَقَضَ نِظامُهُمْ بعدَها .

* * *

الشرح :

هذا إخبارٌ عن غَيب صريح ، لأن بني أميّة لم يزل مُلكهم منتظماً لمّا لم يكن بينهم اختلاف ، وإنّما كانت حروبُهم مع غيرهم كحَرْب معاوية في صِفِّين ، وحرب يزيدَ أهلَ المدينة ، وابنَ الزبير بمكّة ، وحرب مروانَ الضحّاك ، وحَرْب عبدالملك ابنَ الأشعث وابنَ الزبير ، وحرب يزيد ابنه بني المهلّب ، وحرب هشام زيدَ بن عليّ ، فلمّا ولي الوليد ابن يزيد وخرج عليه ابنُ عمّه يزيد بن الوليد وقتَلَه ، اختلفتْ بنو أميّة فيما بينهما ، وجاء الوعدُ ــ وصَدَق من وعد به ــ فإنّه منذ قتل الوليد دَعَت دعاةُ بني العبّاس بخُراسان ، وأقبَل

مروانُ بنُ محمّد من الجزيرة يَطلُب الخلافة ، فخلع إبراهيم بن الوليد ، وقَتَل قوما من بنى أميّة ، واُضطرَب أمرُ الملك وانتشَر ، وأقبلَت الدولةُ الهاشميّة ونَمَتْ ، وزال مُلْك بنى أميّة ، وكان زَوال مُلْكهم على يد أبى مُسلِم ، وكان فى بدايته أضعفَ خَلْق الله وأعظمَهم فقْرا ومَسكَنة ، وفى ذلك تَصديقُ قوله عليه السلام : « ثمّ لو كادَتْهم الضِّباع لغَلَبَتْهم » .

(٤٧١)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ في مدْحِ الأنصارِ :

هُمْ وَاللهِ رَبَّوُا الإِسْلامَ كَمَا يُرَبَّى الْفِلْوُ مَعَ غَنَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ السِّبَاطِ ، وألسنتهم السِّلاطِ .

***

الشرحُ :

الفِلْوُ : المُهر .

ويُروَى : « بأيديهم البِساط » ، أي الباسِطة ، والأولى جمع سَبْط يعني السَّماح ، وقد يقال للحاذق بالطعن : إنه لسَبْط اليدَين ، يريدُ الثقافة . وألسنتهم السِّلاط ، يعني الفصيحة .

وقد تقدّم القولُ في مَدْح الأنصار ، ولو لم يكن إلا قولُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فيهم : « إنّكم لتَكثُرون عند الفزَع ، وتَقِلّون عند الطَّمَع » ، ولو لم يكنْ إلّا ماقاله لعامر ابن الطُّفَيل فيهم لمّا قال له : «لأغزُوَنّك في كذا وكذا من الخيْل» يتوعّده،فقال عليه السلام: « يكفي الله ذلك وأبناء قيْلة » ، [لكان فخرا لهم] وهذا عظيمٌ جدّا وفوق العظيم ، ولا ريبَ أنّهم الذين أيّد اللهُ بهم الدِّين ، وأظهرَ بهم الإسلام بعد خفائه ، ولولاهم لعجز المهاجرون عن حرْب قريش والعرب ، وعن حمايةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه ولولا مدينتهم لم يكن للإسلام ظَهر يَلْجَئون عليه ، ويكفيهم فخرا يوم حَمْراء الأسد ،

يوم خرجَ بهم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إلى قريش بعد انكسار أصحابِه ، وقتلِ مَن قُتل منهم ، وخرجوا نحوَ القوم والجراحُ فيهم فاشية ، ودماؤهم تَسيل ، وإنّهم مع ذلك كالأُسْد الغِراث تتواثَب على فَرائِسها ، وكم لهم من يومٍ أغرّ محجَّل ! وقالت الأنصار : لولا عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام فى المهاجِرين لأبَيْنا لأنفُسنا أن يُذكَر المهاجرون مَعَنا ، أو أن يُقرَنوا بنا ، ولكنْ رُبَّ واحدٍ كألف ؛ بل كألوف .

وقد تقدّم ذكرُ الشّعر المَنسوب إلى الوزير المغربيّ وما طعن به القادر بالله الخليفة العبّاسيّ فى دِينه بطريقه ، وكان الوزيرُ المغربيّ يتبرّأ منه ويَجحَده ، وقيل : إنه وُجد مسوّدَة بخطّه فى رفعتْ إلى القادر بالله .

وممّا وُجِد بخطّه أيضا ـ وكان شديدَ العَصَبيّة للأنصار ولقَحْطانَ قاطِبةً ، على عَدنانَ ، وكان يَنتمِي إلى الأزْد ، أزْد شَنُوءة ـ قوله :

إنّ الّذى أرسَى دعائمَ أحمَدٍ ... وعَلا بدَعْوتِه على كِيوانِ
أبناءُ قَيْلَةَ وارثو شَرَف العُلاَ ... وعَراعِرُ الأقيالِ مِن قَحْطانِ
بسُيوفهم يومَ الوَغَى وأكفِّهمْ ... ضَرَبتْ مَصاعبُ مُلْكِهِ بجِرانِ [(١)]
لولا مَصارِعُهم وصِدْقُ قِراعِهم ... خَرّت عُروشُ الدّين للأذْقانِ
فليَشكرَنّ محمّدٌ أسيافَ مَن ... لولاه كانَ كخالِدِ بنِ سِنانِ

وهذا إفراطٌ قبيح ، ولفظٌ شنيع ؛ والواجب أن يصانَ قدرُ النّبوّة عنه ، وخصوصا البَيْت الأخير ، فإنّه قد أساء فيه الأدَب ، وقال مالا يجوز قولُه ، وخالدُ بنُ سِنان كان من بَنِى عَبْس بن بَغِيض ، من قَيْس عَيْلان ، ادّعى النبوّة ، وقيل : إنّه كانت تَظْهر عليه آياتٌ ومُعجِزات ، ثمّ مات وانقرَض دِينُه ودثرتْ دَعْوته ، ولم يَبقَ إلّا اسمُه ، وليس يَعرفه كلّ الناس ، بل البعض منهم .

---

(١) يقال : ضرب البعير بجرانه : إذا برك .

(٤٧٢)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ :

العَيْنُ وِكاءُ السَّهِ .

***

قالَ الرَّضيُّ رحمهُ اللهُ تعالى : وهذهِ مِنَ الاستعاراتِ العَجيبةِ ، كأنَّهُ شبَّهَ السَّهَ بالوعاءِ، والعَيْنَ بالوِكاءِ ، فإذا أُطْلِقَ الوكاءُ لم يَنْضَبِط الوعاءُ . وهذا القَوْلُ في الأشهرِ الأظهرِ مِنْ كلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآله ، وقدْ رَواهُ قَوْمٌ لأميرِ المُؤمنين عَليْهِ السلامُ ؛ وذَكرَ ذلكَ المبرِّدُ في الكتابِ المُقْتَضَبِ في بابِ اللَّفْظِ المعرُوفِ .

قالَ الرَّضيّ : وقدْ تكلَّمْنا على هَــذِهِ الاستعارَةِ في كِتابِنا المَوْسُومِ بمجازاتِ الآثارِ النبويَّةِ .

***

الشَّرْحُ :

المعروف أنّ هذا من كلامِ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ذكَرَه المحدِّثون في كُتبهم وأصحابُ غريب الحديث في تصانيفهم ، وأهلُ الأدب في تفسير هذه اللّفظة في مجموعاتهم اللّغوية ، ولعل المبرِّد اشتبَه عليه فنَسَبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، والرواية بلفظ التثنية : « العينان وِكاءُ السَّهِ » ، والسَّهُ : الاستُ .

وقد جاء فى تمام الخبر فى بعض الرّوايات : « فإذا نامت العَيْنان استَطلَق الوِكاء » ، والوِكاء : رِباطُ القِرْبة ، فجعل العيْنين وِكاءً ـ والمُرَادُ اليَقظة ـ للسَّتِه كالوِكاء للقِرْبة ، ومنه الحديث فى اللُّقَطة : « احفَظ عِفاصَها ووِكاءها ، وعرِّفها سنةً ، فإن جاء صاحبُها وإلا فشأنك بها » ، والعِفاص : السِّداد ، والوكاء : السِّداد ، وهذه من الكِنايات اللطيفة .

***

[فصل فى ألفاظ الكنايات وذكر الشواهد عليها]

وقد كنّا قدّمنا قطعةً صالحةً من الكنايات المستحسَنة ، ووعدْنا أن نعاوِدَ ذكر طرف منها ، وهذا الموضعُ موضعه ، فمن الكناية عن الحدث الخارج ـ وهو الذى كَنَى عنه أميرُ المؤمنين عليه السلام ، أو رسول الله صلى الله عليه ـ الكناية التى ذكرها يحيى ابن زِياد فى شِعره ، قيل : إنّ يحيى بن زياد ومطيعَ بن إياس وحمّادا الرّاوية جلسوا على شِرْب لهم ، ومعهم رجلٌ منهم ، فانحلّ وكاؤه ، فاستحيا وخَرَج ، ولم يَعُدْ إليهم ، فكَتَب إليه يحيى بنُ زياد :

أمِنْ قَلوصٍ غَدَتْ لم يُؤْذِها أحَدٌ ... إلاّ تذكُّرُها بالرَّمْل أوْطانَا

خانَ العِقالُ لها فانبَتَّ إذْ نفَرَتْ ... وإنما الذنبُ فيها للّذى خانا

مَنحتَنا مِنْكَ هِجراناً ومَقْلِيَةً ... ولم تزُرْنا كما قدْ كنت تغْشانا

خفِّضْ عليك فما فى الناس ذُو إبِلٍ ... إلاّ وأيْنُقه يَشرُدن أحيانا

وليس هذا الكتابُ أهلاً أن يضمَّن حكاية سخيفةً أو نادرة خليعة ، فنذكر فيه ما جاء فى هذ المعنى ، وإنما جرَأْنا على ذكر هذه الحكاية خاصّة كناية أمير المؤمنين عليه السلام أو رسول الله صلى الله عليه وآله عنها ، ولكنا نذكر كنايات كثيرة فى غير هذا المعنى مستحسَنة ، ينتفع القارئ بالوقوف عليها .

يقال : فلانٌ من قوم موسى ، إذا كان مَلُولا ، إشارةً إلى قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾[١] .

قال الشاعر :

فيا مَنْ ليس يَكفِيه صَديقٌ ... ولا ألفا صَديقٍ كلَّ عامِ
أظنّك مِنْ بقايا قوم مُوسى ... فهمْ لا يَصبِرونَ على طعامِ

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

كتبتْ تَلومُ وتستريثُ زيارتى ... وتقولُ : لست لنا كعَهْدِ العاهِدِ
فأجبْتُها ودُموعُ عَيْنِى سُجَّمٌ ... تَجْرِى على الخدَّين غيرَ جَوامِدِ
يافَوْزُ لم أَهْجُرْكُمُ لمَلامــةٍ ... عرَضَتْ ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ
لكنّنى جرَّبْتُكم فوجَدْتُكمْ ... لا تَصبِرون على طعامٍ واحدِ

ويقولون للجارية الحسْناء : قد أبقَتْ من رِضْوان ، قال الشاعر :

جَسّت العُودَ بالبَنانِ الحِسانِ ... وتثنّت كأنّها غُصْنُ بانِ
فسجَدْنا لهــا جميعاً وقلنا ... إذ شجَتْنا بالحسن والإحْسانِ
حاشَ للهِ أن تكونى من الإنـ ... ـسِ ولكنْ أبِقْتِ مِنْ رِضوان

ويقولون للمكشوف الأمر الواضح الحال : ابن جَلاَ ، وهو كِنايةٌ عن الصُّبْح ومنه ما تمثل به الحجّاج :

أنا ابنُ جَــلاَ وطَلاّع الثّنايا ... مَتَى أضَعِ العمامةَ تَعرفونى[٢]

ومنه قولُ القلاخ بن حَزْن :

---

(١) سورة البقرة ٦١ .
(٢) الكامل ١ : ٢٢٤ ، ونسبه إلى سحيم بن وثيل الرياحى .

* أنا القُلاخُ بنُ القُلاخ ابن جَلاَ *

ومنه قولُهم : فلان قائدُ الجَمَل لأنّه لا يَخفَى لعظم الجَمَل وكِبَر جثّته ، وفى المَثَل : ما استَتَر مَن قاد جَمَلا . وقالوا : كَفَى بِرُغائها نِداء ، ومِثلُ هذا قولُهم: مايومُ حَليمة بسِرّ يقال : ذلك فى الأمر المَشْهور الّذى لا يُستَر ، ويومُ حَليمة يوم ألتقى المنذرُ الأكبرُ والحارثُ الغَسّانىّ الأكبر ، وهو أشهر أيّام العرَب ، يقال : إنه ارتفَع من العَجاج ماظَهرتْ معه الكواكبُ نهاراً ، وحليمة : اسمُ أمرأةٍ أضيفَ اليومُ إليها ، لأنّها أخرَجَتْ إلى المعركة مَراكنَ الطِّيب ، فكانتْ تُطيِّب بها الدّاخلين إلى القِتال ، فقاتلوا حتّى تفانَوْا .

ويقولون فى الكِنايةِ عن الشّيخ الضعيف : قائدُ الحِمار، إشارةً إلى ما أنشدَه الأصمعىّ :

آتى النَّدِىَّ فلا يُقرِّب مَجلِسى ... وأقودُ للشَّرَفِ الرَّفيعِ حِمارِى

أى أقُوده من الكِبَر إلى مَوْضع مرتفع لأركَبه لضَعْفى . ومثلُ ذلك كِنايتُهم عن الشّيخ الضعيف بالعاجِن ، لأنّه إذا قام عجَن فى الأرض بكفّيه ، قال الشاعر :

فأصبحتَ كُنْتِيًّا وأصبحْتَ عاجناً ... وشَرُّ خِصالِ المرء كنتُ وعاجِنُ

قالوا : الكُنْتِىُّ الذى يقول كنتُ أفعَل كذا ، وكنتُ أركَب الخيل ، يتذكّر مامَضَى من زمانِه ، ولا يكونُ ذلك إلّا عند الهرَم أو الفَقْر والعَجْز .

ومِثلُه قولُهم للشّيخ : راكع ، قال لَبيد :

أخبِّرُ أخبارَ القُرونِ الّتى مَضَتْ ... أدبُّ كأنّى كلّما قمتُ راكِعُ (١)

والرّكوع : هو التّطأطُؤ والانحناء بعد الاعتدال والاستواء ، ويقال للإنسان إذا انتَقَل من الثّروة إلى الفَقْر : قد ركَع ، قال :

لا تُهينَ الفقيرَ عَلَّكَ أنْ تَرْ ... كَعَ يوماً والدّهرُ قد رفَعَه (٢)

(١) ديوانه ١٧١

(٢) للأضبط بن قريع السعدى ، أمالى القالى ١ : ١٠٨

وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ارفعْ ضعيفَكَ لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُه   يوماً فتدرِكه الحوادثُ قد نَمَا[1]؟
يَجزِيك أو يُثنِي عليكَ وإنّ مَنْ   يُثنِي عليكَ بما فعلْتَ فقد جزَى

ومِثلُه أيضا :

وأكْرِمْ كريمًا إنْ أتاكَ لحاجةٍ   لعاقبةٍ إنّ العِضاهَ تروّحُ

تروّح الشّجر : إذا انفطر بالنّبت ، يقول : إن كان فقيرا فقد يَستغنى ، كما أنّ الشّجر الّذى لا وَرَق عليه سيكْتَسى وَرَقا ، ويقال : رَكَم الرجل ، أى سَقَط .

وقال الشاعر :

خرقٌ إذا رَكَمَ المَطِىُّ من الوَجَا   لم يطو دونَ رفيقِه ذا المِزْوَدِ
حتّى يؤوب به قليلاً فضْلُه   يَحْمَد الرّفيقُ نَداكَ أو لمْ يَحْمَد

وكما يشبّهون الشيخ بالرّاكم فيكْنُون به عنه ، كذلك يقولون : يَحْجِل فى قَيْدِه لتقارُب خَطْوِه ، قال أبو الطّمحان القَيْنِىّ :

حَنَتْنِى حانياتُ الدّهْرِ حتّى   كأنّى خاتِلٌ أدنُو لصَيْدِ
قريبَ الخطْوِ يَحْسَب مَن رآنِى   ولستُ مُقيَّدا أنّى بقَيْدِ

ونحو هذا قولهم للكبير : بَدَتْ له الأرنب ، وذلك أنّ من يَختِل الأرنبَ ليَصيدَها يَتمايَل فى مِشيَته ، وأنشد ابن الأعرابىّ فى النّوادر :

وطالتْ بِىَ الأيامُ حتّى كأنّنى   من الكِبَرِ العالِى بَدَت لِىَ أرْنَبُ

ونحوه يقولون للكبير : قِيدَ بفلانٍ البَعير ، أى لا قوّة ليدِه على أن يُصرِّف البعيرَ تحتَه على حَسَب إرادته ، فيَقودُه قائدٌ يَحمِله حيثُ يريد .

---

(١) للسموءل بن عادياء ، ملحق ديوانه ٥٣

ومن أمثالهم : لقد كنتُ وما يقادُ بِيَ البعير : يضرَب لمن كان ذا قوّة وعزم ، ثم عجز وفتر .

ومن الكنايات عن شَيْب المَنْفَقَة قولهم : قد عضّ على صُوفه .

ويَكْنُون عن المرأة التى كَبِر سنّها فيقولون : امرأةٌ قد جَمعت الثّياب ، أى تلبَس القِناعَ والخمار والإزار ، وليست كالفتاة التى تلبَس ثوبا واحدا .

ويقولون لمن يَخضِب : يسوّد وجه النّذِير ، وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ وجاءكم النّذير ﴾(١) : إنه الشّيْب . وقال الشاعر :

وقائلةٍ لىَ اخضِبْ فالغَوانِى ... تَطيَّرُ مِنْ مُلاحَظة القَتِيرِ
فقلت لها المَشيبُ نَذيرُ موْتى ... ولستُ مسوّدًا وجهَ النَّذِيرِ

وزاحَم شابٌّ شيخًا فى طريق فقال الشابّ : كم ثمن القَوْس ؟ يعيّره بانحناء الظَّهْر ، فقال الشيخ : يابنَ أخى : إن طال بكَ عمرٌ فسوفَ تشتَريها بلا ثمن .

وأنشد لابن خلف :

تعيّرنى وخطَ المَشيبِ بعارِضى ... ولولا الحجُولُ البُلْق لم تُعرَف الدُّهْمُ
حنَا الشّيبُ ظَهْرِى فاستمرّت مَريرتى ... ولولا انحناء القوسِ لم يَنفذ السّهْمُ

ويقولون لمن رشا القاضى أو غيره : صَبَّ فى قِنديله زَيْتا ، وأنشد :

وعند قُضاتنا خُبثٌ ومَكْرٌ ... وزَرْعٌ حين تَسْقيه يُسنبِلْ
إذا ماصُبَّ فى القِنديل زَيْتٌ ... تحوّلت القضيّة للمُقَنْدِلْ

وكان أبو صالح كاتبُ الرّشيدِ يُنسب إلى أخْذ الرّشا ، وكان كاتب أمّ جعفر .

---

(١) سورة فاطر ٣٧

وهو سعدانُ بنُ يحيى كذلك ، فقال لها الرّشيدُ يوما : أما سمعتِ ماقيل فى كاتبك ؟ قالت : ماهو ؟ فأنشدَها :

صَبّ فى قِنديل سَعْـدَا نَ مع التَّسْلِيم زَيْتـــا
وقنـــاديل بَنيه قبل أن تَخفَى الكُمَيتا

قالت : فما قيل فى كاتبك أشنَع ، وأنشدَته :

قِنديلُ سَعْدَانَ علا ضوءهُ فَرْخٌ لِقنديلِ أبى صـالِحِ
تَراهُ فى مجلِسِه أحوَصـا مِنْ لحمِهِ للدِّرهم الـلائحِ

ويقولون : لمن طَلّق ثلاثا : قد نَحَرَها بمثلثه .

ويقولون أيضا : أعطاها نصف السَّنة .

ويقولون لمن يفخَر بآبائه : هو عِظامىّ ، ولمن يفخر بنفسِه هو عِصامىّ ، إشارةٌ إلى قول النّابغة فى عِصامِ بن سَهْل حاجب النّعمان :

نفسُ عِصامٍ سَوّدتْ عِصاماً وَعلّمتـه الكَرَّ والإقداما[1]

* وجَعلَته مَلِكاً هُماماً *

وأشار بالعِظامىّ إلى فَخْره بالأموات من آبائِهِ ورَهْطه ، وقال الشاعر :

إذا ما الحَىُّ عاشَ بِعظْمِ ميْتٍ فـذاكَ العَظْم حىٌّ وهو ميْتُ

ونحو هذا أنّ عبد الله بنَ زياد بنِ ظَبْيان التّميمىَّ دَخل على أبيه وهو يَجُود بنَفْسه فقال : ألا أوصى بك الأميرَ ؟ فقال : إذا لم يكن للحىِّ إلّا وصيّة الميّت فالحىّ هو الميّت ، ويقال : إنّ عطاء بن أبى سُفيان قال ليزيدَ بن معاوية : أغنِنى عن غَيْرك ، قال :

---

(١) العقد الثمين ، ملحق ديوانه ١٧٥

حَسْبُكَ ما أغناكَ به معاوية ؛ قال : فهو إذَنْ الحىُّ وأنتَ الميت ، ومثلُ قولهم : عِظامىّ ، قولهم : خارجىّ ، أى يفخر بغير أوليّة كانت له ، قال كثيّر لعبد العزيز :

أبا مَرْوانَ لستَ بخارجىٍّ وليس قديمُ مَجْدِكَ بانتحالِ

ويكنُون عن العزيز وعن الذليل أيضا فيقولون : بَيْضة البَلَد ، فن يقولها للمَدْح يذهب إلى أنّ البَيْضة هى الحَوْزة والحِمَى ، يقولون : فلانٌ يَحمِى بَيْضَته ، أى يَحمِي حَوْزَته وجماعته ، ومن يقولها للذّم يعنى أنّ الواحدةَ من بَيْض النعام إذا فسدتْ تَرَكها أبواها فى البَلد وذهبا عنها ، قال الشاعر فى المدح :

لكنّ قائلَه من لا كِفاء له مَن كان يُدعَى أبوه بَيْضَة البَلَدِ (١)

وقال الآخر فى الذمّ :

تأبَى قُضاعةُ لم تَعرِفْ لكمْ نَسَباً وابنا نزارٍ فأنتم بَيْضةُ البَلَدِ (٢)

ويقولون للشىء الذى يكون فى الدهر مرّة واحدة : هو بَيْضة الدِّيك ، قال بشّار :

يا أطيبَ الناس ريقاً غير مختبَرٍ إلّا شهادة أطرافِ المَساويكِ (٣)

قد زُرْتِنا زَوْرَةً فى الدهر واحدةً ثَنِّى ولا تجعليها بَيْضَةَ الدِّيكِ

ويكنُون عن الثقيل بالقَذَى فى الشراب ، قال الأخطل يَذكُر الخمرَ والاجتماع عليها :

وليسَ قَذاها بالذى قد يَضيرُها ولا بذُبابٍ نَزْعُه أيسَرُ الأمرِ (٤)

ولكنْ قَذاها كلّ جِلْفٍ مكلَّفٍ أتتنا به الأيّامُ من حيثُ لا نَدرِى

---

(١) من أبيات لامرأة من بنى عامر بن لؤى، ترثى عمرو بن ود ، اللسان (بيض)

(٢) اللسان (بيض) ونسبه إلى ابن الرقاع (٣) أمالى القالى ١ : ٢٢٨

(٤) كنايات الجرجانى ١١١

فَذاكَ القَذَى وابنُ القَذَى وأخو القَذَى فإنّ له من زائرٍ آخر الدّهـــــر

ويَكنُون أيضا عنه بقدح اللَّبلاب ، قال الشاعر :

ياثقيلاً زادَ فى الثِّقْــل على كلِّ ثقيلِ (١)

أنتَ عندى قَدَح اللَّبْـلابِ فى كَفِّ العَليلِ

ويَكنُون عنه أيضا بالقَدَح الأوّل ، لأنّ القَدَح الأوّل من الخمْر تَكرَهه الطّبيعة وما بعدَه فدُونه لاعتياده ، قال الشاعر :

وأثقَل من حصيٍ بادِياً وأبغَض من قَدَحٍ أوّلٍ

ويَكنُون عنه بالكانُون ، قال الحُطيئة يهجو أمّه :

تَنَحَّىْ فاقعُــدِى عَنّى بعيداً أراحَ اللهُ مِنكِ العــالَمِينا (٢)

أغِرْبالًا إذا استُودِعْتِ سِرًّا وكانونًا على المتحــدِّثينا !

قالوا : وأصلُه مِنْ كَنَنْت أى سَتَرْت ، فكأنّه إذا دَخَل على قوم وهم فى حديث سَتَروه عنه ، وقيل : بل المُراد شِدّة بَرْده .

ويَكنُون عن الثّقيل أيضا بِرَحا البزْر ، قال الشاعر :

وأثقَل من رَحا بَزْرٍ علَينا كأنّكَ مِن بقايا قومِ عادٍ (٣)

ويقولون لمن يَحمَدون جِوارَه : جارُه جارُ أبى دُوادٍ، وهو كعب بنُ مامةَ الإيادىّ ، كان إذا جاوَرَه رجلٌ فمات وَدَاه ، وإن هَلَكَ عليه شاة أو بعيرٌ أخلَف عليه ، فجاوَرَه أبو دواد الإيادىّ ، فأحسَن إليه ، فضُرِب به المَثَل .

ومثلُه قولُهم : هو جليسُ قَعْقاعِ بنِ شَوْر ، وكان قد قَدِم إلى معاوية فدَخَل عليه ، والمجلس غاصٌّ بأهلِهِ ليس فيه مَقعَد ، فقام له رجل من القوم وأجلَسه مكانَه ، فلم

---

(١) كنايات الجرجانى ١١١ (٢) ديوانه ٦١ . (٣) كنايات الجرجانى ١١١

يَبرَح القعقاعُ من ذلك الموضع يكلّم معاويةَ ومعاويةُ يُخاطِبه حتى أَمَر له بمائة ألفِ درهم، فأحضِرَت إليه، فجُعلتْ إلى جانبه، فلمّا قام قال للرجل القائمُ له مِن مكانه : ضُمَّها إليك، فهى لكَ بقيامِك لنا عن مجلِسك، فقيل فيه :

وكنتُ جليسَ قَعْقاعِ بن شَوْرٍ ولا يَشقَى بِقعقاعٍ جَليسُ[1]
ضَحُوكُ السِّنَّ إنْ نَطَقوا بخَيْرٍ وعند الشَّرّ مِطْراقٌ عَبُوسُ

أَخَذ قَولَه : « ولا يَشقَى بقَعْقاعٍ جليسُ » من قول النبىّ صلّى الله عليه وآله : « هم القومُ لا يَشقَى بهم جَليسُهم » .

ويَكنُون عن السَّمين من الرِّجال بقولهم : هو جار الأمير، وضيفُ الأمير، وأصلُه أنّ الغَضْبان بنَ القبعثَرى كان محبوساً فى سِجْن الحجّاج، فدعا به يوما فكلّمه، فقال له فى جملة خطابه : إنّك لسَمين ياغَضْبان ! فقال : القيد والرَّتعة، والخَفْض والدَّعَة، ومَن يكنْ ضيفَ الأمير يَسمَن .

ويَكنِى الفلاسفةُ عن السَّمين بأنّه يُعرِّض سور حَبسه، وذلك أنّ أفلاطونَ رأى رجلاً سَميناً، فقال : ياهذا، ما أكثرَ عِنايَتَك بتَعريض سور حَبْسِك !

ونظر أعرابىٌّ إلى رجل جيّد السِكَدْنة[2]، فقال : أَرَى عليك قَطيفةً مُحكَمَةً . قال : نعم، ذاكَ عنوانُ نعمة الله عِندى .

ويقولون للكذّاب : هو قَموصُ الحَنْجَرة، وأيضا هو زَلُوقِ الكَبِد، وأيضا لا يُوثَق بسَيْل بلقمِهِ . وأيضا أسيرُ الهِنْد لأنه يدّعى أنّه ابنُ المَلِك، وإن كان من أولادِ السَّفَلة .

ويُكنَى عنه أيضا بالشّيخ الغريب، لأنّه يُحِبّ أن يتزوّج فى الغُرْبة فيدّعى أنه ابنُ خمسين سنةً، وهو ابنُ خمسٍ وسَبعين .

---

(١) كنايات الجرجانى ١١١ (٢) السكدنة : كثرة الشحم واللحم .

ويقولون : هو فاختةُ البلَد ، من قول الشاعر :

أكذبُ من فاختةٍ تَصيحُ فوقَ الكَرَبِ[1]
والطَّلْعُ لم يَبْدُ لَها : هــذا أوانُ الرُّطَبِ

وقال آخَر في المعنى :

حــــديثُ أبي حازِمٍ كلّه كقَوْلِ الفَواختِ : جاءَ الرُّطَبْ[1]
وهُنّ وإن كُنّ يُشْبِهْنَه فلسْنَ يُدانينَــه في الكَذِبْ

ويَكْنُون عن النمّام بالزّجاج ، لأنّه يَشِفّ على ماتحتَه ، قال الشاعر :

أنَمُّ بمـــا أستودَعْتُه من زُجاجةٍ يُرَى الشيءُ فيها ظاهراً وهو باطِنُ

ويَكْنُون عنه بالنَّسيم ، من قولِ الآخر :

وإنّك كلّما استُودِعْتَ سِرّاً أنمُّ من النَّسيمِ على الرِّياضِ

ويقولون : إنّه لصُبْح ، وإنّه لطِيب ، كلّه في النّمام . ويقولون : مازال يَفتِل له في الذِّرْوة والغارِب حتّى أسمحَتْ قَرُونَته ، وهي النفسُ ، والذِّرْوة : أعلى السَّنام ، والغارب : مقدّمه .

ويقولون في الكِنايَة عن الجاهل : مايَدرِي أيّ طرَفيــه أطوَل ، قالوا : ذكَرُه ولِسانُه .

وقالوا : هل نَسَبُ أبيه أفضلُ أمْ نَسَبُ أمّه ؟

ومِثلُه لا يَعرِف قطانه من لطانه ، أي لا يعرف جَبْهته ممّا بين وَرِكَيه .

وقالوا : الحِدّة كُنية الجَهْــل ، والأقتصاد كنية البُخْل ، والأستقصاء كُنية الظُّلْم .

---

(١) الكنايات للجرجاني ١١٢ .

وقالوا للجائع : عَضَّه الصَّفَر ، وعَضَّه شُجاع البطْن .

وقال الهُذَلىّ :

أَرُدُّ شُجاعَ البطْنِ قــد تعلمينَه وأُوثِرُ غَرْثَى مِن عِيالِكِ بالطُّعْمِ (١)
مَخافة أن أحْيــا بِرَغْمٍ وذِلَّةٍ وللمَوْتُ خيرٌ من حَياةٍ على رَغْمِ

ويقولون : زوَّدَه زادَ الضَّبّ ، أى لم يزوِّدْه شيئاً لأنّ الضَّبّ لا يَشرَب الماء ، وإنما يتغذّى بالرِّيح والنَّسيم ، ويأ كُل القليل من عُشْب الأرض .

وقال ابن المعتزّ :

يقول أكلْنــا لحمَ جَدْىٍ وبطّة وعَشْرَ دَجاجاتٍ شِواء بألبانِ (٢)
وقــد كَذَبَ المَلْعونُ ما كان زادُه سِوَى زادِ ضَبٍّ يَبلع الرِّيحَ عطْشان

وقال أبو الطَّيِّب :

لقــد لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بها وَبِى وزَوَّدنى فى السَّيْر مازَوَّد الضَّبّا (٣)

ويقولون للمختلِفين من النّاس : هم كنَعَم الصَّدَقة ، وهم كبَعْر الكَبْش ، قال عمرو بن لجأ :

وشِعْرٍ كبَعْرِ الكَبْش ألّفَ بَيْنَه لسانُ دَعِىٍّ فى القَرِيض دَخيلُ (٤)

وذلك لأنّ بعرَ الكبش يقعُ متفرِّقا .

وقال بعضُ الشعراء لشاعر آخر : أنا أشعر منك لأنى أقولُ البيت وأخاه ، وتقول البيت وابن عمّه . فأما قولُ جرير فى ذى الرمّة : إنّ شعره بعرظِباء ونقط عروس ، فقد فسره الأصمعىّ فقال : يريد أنّ شعره حُلْوٌ أول ما تَسمعه ، فإذا كُرِّر إنشادُه ضَعُف ، لأنّ أبعارَ الظِّباء أول ما تشمّ توجد لها رائحةُ ما أكلتْ من الجَثجاث والشِّيح

(١) لأبى خراش الهذلى ، ديوان الهذليين ٢ : ١٢٨
(٢) كنايات الجرجانى ١١٥
(٣) ديوانه : ٦٠
(٤) كنايات الجرجانى ١١٧

والقَيْصوم ، فإذا أُدِمْتَ شمها عُدِمَتْ تلك الرائحة ، ونقط العَروس إذا غسلتها ذهبتْ .

ويقولون أيضا للمختلفين : أخْياف ، والخَيَف: سَوادُ إحدى العَيْنين وزرق الأخرى .

ويقولون فيهم أيضا : أولادُ عَلاّت كالإخْوَة لأمهاتٍ شتّى ، والعَلّة : الضَّرّة .

ويقولون فيهم : خبزُ كُتّاب ، لأنه يكون مختلفا ، قال شاعرٌ يهجو الحجّاجَ ابنَ يوسف :

أينسى كليبٌ زَمانَ الهُزالِ ... وتعليمه سُورة الكوْثر[1]

رغيفٌ له فَلْكة ما تُرَى ... وآخر كالقَمَر الأزهرِ

ومثله :

أما رأيت بني سَلْم وجُوهَهم ... كأنّها خبزُ كُتّابٍ وبقّالِ[2]

ويقال للمتساوين في الرداءة : كأسْنان الحِمار ، قال الشاعر :

سواءٌ كأسْنان الحِمارِ فلا ترَى ... لذي شَيْبةٍ منهمْ على ناشىءٍ فَضْلاَ[2]

وقال آخر :

شبابُهُم وشِيبُهم ســواءٌ ... فهمْ في اللؤم أسنانُ الحِمارِ[2]

وأنشد المبرّد في الكامل لأعرابي يصف قوما من طيّئْ بالتساوي في الرّداءة :

ولما أن رأيتُ بَني جُوَيْنٍ ... جُلوساً ليس بينهُم جَلِيسُ[3]

يَئِسْت من الذي أقبلْت أبغي ... لديهمْ ، إنني رجــلٌ يئُوسُ

إذا ما قلتُ أيهــمُ لأيٍّ ... تَشابَهت المناكِب والرّءوسُ

قال : فقوله : « ليسَ بينهُم جَليسٌ » هِجاء قبيح ، يقول : لا ينتجع الناس معروفهم ،

---

(١) سرح العيون ١٧٠ وكنايات الجرجاني ١١٨ (٢) كنايات الجرجاني ١٢١

(٣) الكامل ١ : ١٧٢ ، ونسبه إلى أعرابي من طيء .

فليس بينهم غيرهم . ويقولون فى المتساويَين فى الرَّداءة أيضا : هما كحمارَى العبادىّ ، قيل له : أىُّ حماريْك شرٌّ ؟ قال : هذا ثمّ هذا . ويقال فى التّساوِى فى الشّرّ والخير : هم كأسْنان المُشْط ، ويقال : وَقعا كركبتىِ البعير ، وكرِجْلى النّعامة .

وقال ابنُ الأعرابىّ : كلّ طائر إذا كُسِرَتْ إحدى رِجْليه تحامَل على الأخرى إلا النعام فإنه متى كُسرتْ إحدى رِجْليه جَثَم ، فلذلك قال الشاعر يذكُر أخاه :

وإنّى وإياه كرِجْلىْ نَعامةٍ على ما بِنا من ذى غِنًى وفقيرِ (١)

وقال أبو سُفْيانَ بنُ حَرْب لعامر بن الطّفيل وعَلقمة بن عُلاثة وقد تنافرا إليه : أنتما كرُكْبتَىِ البعير ؛ فلم ينفّر واحدا منهما ، فقالا : فأيّنا اليُمنى ؟ فقال : كلٌّ منكما يُمنى .

وسأل الحجّاج رَجُلا عن أولاد المهلّب : أيُّهم أفضل ؟ فقال : هم كالحلْقة الواحدة .

وسُئِل ابنُ دُرَيد عن المبرّد وثعلب ، فأثنى عليهما ، فقيل : فابنُ قُتَيبة ؟ قال: رَبْوة بين جَبَلين ، أى خَمَلَ ذِكْرُه بنباهتهما .

ويُكنى عن الموت بالقطع عند المنجّمين ، وعن السّعاية بالنصيحة عند العمال ، وعن الجماع بالوَطْء عند الفُقهاء ؛ وعن السُّكْر بطِيب النَّفْس عند النُّدَماء ، وعن السؤّال بالزوّار عند الأجْواد ؛ وعن الصَّدقة بما أفَاء الله عند الصُّوفية .

ويقال للمتكلّف بمصالح الناس : إنه وصىّ آدم على وَلدِه ، وقد قال شاعرٌ فى هذا الباب :

فكأنّ آدمَ عند قرب وفاتِه أوصاكَ وهو يجودُ بالحوْباء
ببنيه أنْ ترعاهمُ فرعَيْتَهمْ وكَفَيْتَ آدم عَيْلةَ الأبْناء

ويقولون : فلانٌ خليفةُ الخضِر إذا كان كثيرَ السَّفَر ، قال أبو تمام :

(٤) كنايات الجرجانى ١١٩

خليفة الخضر مَنْ يَرْبَع على وَطَنٍ | أو بَلدةٍ فظهُور العِيس أوْطانى [1]
بَغدادُ أَهلى وبالشام الهوَى فأنا | بالرَّقتَين وبالفُسْطاط إخوانى
وما أظنُّ النَّوى ترضى بما صَنَعتْ | حتى تُبلِّغ بى أقصى خُراسانِ

ويقولون للشيء المختار المنتخَب : هو تمرة الغُراب ، لأنه ينتقى خيرَ التمر .

ويقولون : سَمْنُ فلانٍ فى أديمه ؛ كناية عمّن لا يُنتفع به ، أى ما خَرج منه يرجع إليه ، وأصله أنّ مِحْيَاً [2] من السَّمْن انشقّ فى ظَرْف من الدَّقيق ، فقيل ذلك ، قال الشاعر :

تَرحَّلْ فما بغدادُ دارَ إقامةٍ | ولا عندمَن أضحى ببغدادَ طائلُ [3]
محلّ مُلوكٍ سَمْنُهمْ فى أديمِهمْ | وكلُّهم مِن حِليَةِ المجدِ عاطِلُ
فلا غروَ أن شَالتْ يدُ المجدِ والعُلى | وقلَّ سماحٌ مِن رجالٍ ونائلُ
إذا غَضْغَض البحرُ الغُطامِطُ ماءه | فليس عجيبا أن تَغيض الجداوِلُ [3]

ويقولون لمن لا يَفِى بالعهد : فلان لا يحفظ أول المائدة ، لأن أولها : ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفُوا بالعقود ﴾ [4] .

ويقولون لمن كان حَسَن اللِّباس ولا طائلَ عنده : هو مِشْجَب ، والمِشْجَب : خَشبة القصّار التى يَطرَح الثياب عليها ، قال ابن الحجّاج :

لِى سادةٌ طائرُ السرورِ بهمْ | يَطْرُده اليأسُ بالمقَالِيعِ [5]
مَشاجِبٌ للثيابِ كلّهمُ | وهـــذه عادةُ المَشافيعِ
جائزتى عندهمْ إذا سَمِعوا | شِعْرِى:هذا كلامٌ مَطْبوعِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٠٨ ، ٣١٠

(٢) كنايات الجرجانى ١٢٠ ، ونسبها إلى أبى العالية .

(٣) بحر غطامط : كثير الأمواج .

(٤) سورة المائدة ١

(٥) كنايات الجرجانى ١٢١

وأنهم يَضحَكون إنْ ضَحكوا مِنّى وأبكى أنا مِن الجوع

وقال آخر :

إذا لبسوا دُكْنَ الخزوز وخُضْرَها وراحوا فقد راحتْ عليك المَشاجِب [1]

ورُوِى أنّ كَيْسانَ غلامُ أبى عُبَيدة وَفَد على بعض البَرامكة فلم يُعطِه شيئاً ، فلما وافى البَصْرة قيل له : كيف وجدته ؟ قال : وجدتُه مِشجَبا من حيث ما أتيته وَجدْتُه .

ويكنون عن الطُّفَيْلىّ فيقولون : هو ذبابٌ ، لأنه يقع فى القُدور ، قال الشاعر :

أتيتُك زائراً لِقضاءِ حَقٍّ فحال السّترُ دُونَك والحجابُ [2]

ولستُ بواقعٍ فى قِدْرِ قومٍ وإن كَرِهوا كما يقَع الذُّبابُ

وقال آخر :

وأنتَ أخو السَّلام وكيف أنتمْ ولست أخا الملمّاتِ الشِّدادِ [3]

وأطفل حين يُجْفَى مِن ذُبابٍ وألزم حين يُدْعَى مِن قُرادِ

ويكنون عن الجَرَب بحَبّ الشَّباب ، قال الوزير المهلبىّ :

يا صُروف الدهرِ حَسْبى أىّ ذنب كان ذَنْبى ! [3]

عِـــلة خَصّتْ وعَمّتْ فى حبيبٍ ومُحبّ

دبّ فى كفّيه يا مَن حُبُّـــــــهُ دَبّ بقَلْبى

فهو يشكو حرّ حَبّ واشتكاى حَرّ حُبّ

ويكنون عن القصير القامة بأبى زبيبة ، وعن الطويل بخيط باطل . وكانت كُنْية مروان بن الحكم لأنه كان طويلا مضطربا ، قال فيه الشاعر :

لحا الله قوماً أمّرُوا خَيْطَ باطلٍ على الناس يُعْطى من يَشاء ويمنَع [3]

وفى خيط باطلٍ قولان : أحدهما أنه الهباء الذى يدخل من ضَوْء الشمس فى الكُوّة

---

(١) لدعبل ، ديوانه ٢٢

(٢) كنايات الجرجانى ١٢٢ ، ونسبه لابن أبى عيينة .

(٣) كنايات الجرجانى ١٢٢

من البيت ، وتسمّيه العامّة غَزْلَ الشّمْس ، والثانى أنه الخيْط الذى يَخرُج من فَمِ العَنْكَبوت ، وتسمِّيه العامّة مُخاط الشّيطان .

وتقول العرب للملْقُوّ[(١)] : لَطِيمُ الشيطان .

وكان لقبُ عَمْرو بن سعيد الأشدق ، لأنه كان مَلْقُوًّا .

وقالَ بعضهم لآخَر : ما حَدَث ؟ قال : قَتَل عبد الملك عمْرا ، فقال : قتل أبو الذبّان لَطِيمَ الشّيطان ، ﴿ وكَذَلِكَ نُوَلّى بعضَ الظّالمين بعضاً بما كانوا يَكسِبون ﴾ .

ويقولون للحزين المهموم : يَعُدّ الحصَى ، ويَخُطّ فى الأرض ، ويَفُتّ اليَرْمَع ؛ قال المجنون :

عشيّةَ مالى حِيلةٌ غيرَ أنّنى ... بلَقْطِ الحَصَى والخطِّ فى الدار مُولَعُ[(٢)]
أخُطّ وأمحو كلَّ ما قد خطَطْتُه ... بدَمْعِى والغِرْبان حَوْلِىَ وُقّعُ

وهذا كالنّادم يَقْرَع السِّنّ ، والبخيل يَنكُت الأرض ببَنانه ، أو بعُودٍ عند الردّ ، قال الشاعر :

عَبيدُ إخوانِهِمْ حتى إذا رَكِبوا ... يوم الكَريهةِ فالآسادُ فى الأجَمِ[(٣)]
يُرضُون فى العُسْر والإيسارِ سائِلَهمْ ... لا يَقرَعون على الأسْنانِ مِن نَدَمِ

وقال آخَر فى نَكْت الأرض بالعِيدان :

قومٌ إذا نَزل الغريب بدارِهمْ ... تَرَكوه رَبَّ صَواهِلٍ وقِيانِ
لا يَنكُتون الأرض عند سؤالِهمْ ... لتطلّب العِلّاتِ بالعِيدانِ

ويقولون للفارغ : فؤادُ أمّ موسى .

---

(١) الملقو : المصاب باللقوة ، وهو مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه .

(٢) ديوانه ١٨٨

(٣) كنايات الجرجانى ، ونسبه إلى عمر بن أمية بن أبى الصلت .

ويقول للمُثْرِي من المـال : مُنْقَرِس ، وذلك أنَّ عِلَّةَ النِّقْرِس أكثر ما تَعترِي أهل الثَّروة والتنعّم .

حَكى المبرِّد ، قال : كان الجرْمازِيّ في ناحية عمرو بن مَسْعدة ، وكان يُجرِي عليه ، فخرج عمرُو بن مسعدة إلى الشام ؛ وتخلَّف الجِرْمازيّ ببغـدادَ ، فأصابه النِّقْرس ، فقال :

أقامَ بأرضِ الشّام فاختـلّ جانبي ... وَمطلَبه بالشام غـــير قريبِ (١)

ولا سيما من مُفْلِسٍ حِلْف نِقرسٍ ... أما نِقرسٌ في مُفلِسٍ بعَجيبِ !

وقال بعضهم يهجو ابن زَيدان الـكاتب :

تَواضَعَ النِّقرسُ حتى لقـــد ... صار إلى رِجْـــلِ زَيْدانِ

عِـــلّةُ إنسانٍ ولـكنها ... قد وُجِدَتْ في غير إنسانِ

ويقولون للمترَف : رقيقُ النَّعْـل ، وأصله قولُ النابغة :

رِقاقُ النِّعـــالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهمْ ... يُحيَّوْن بالرَّيحان يومَ السَّباسِبِ (٢)

يعني أنهم ملوكٌ ، والملِك لا يخصِف نعله وإنما يخصف نعله من يمشي . وقوله : «طيّب حُجُزاتِهم » ، أي هم أعِفّاء الفروج ، أي يشدّون حُجُزاتِهم على عِفّة . وكذلك قولهم : فلانٌ مُسمَّط النِّعال ، أي نعله طبقة واحدة غير مخصوف ، قال : المرّار بن سَعيد الفقْعسيّ :

وجدْتُ بني خفاجةَ في عَقيـــلٍ ... كِرامَ الناسِ مُسمَّطة النِّعـالِ (٣)

وقريبٌ من هـذا قولُ النّجاشيّ :

ولا يأكلُ الـكلبُ السَّروقُ نِعالنا ... ولا ينتقِي المُخَّ الذي في الجماجِمِ (٣)

---

(١) كنايات الجرجاني ١٢٥ (٢) ديوانه ٣

(٣) كنايات الجرجاني ١٢٥

يريد أنّ نعالهم سِبْت ، والسِّبْت : جلودُ البقر المدبوغة بالقَرَظ ، ولا تقربها الكلاب ، وإنما تأكل الكلابُ غيرَ المدبوغ ؛ لأنه إذا أصابه المطرَ دسَّمه فصار زَهِماً .

ويقولون للسيّد : لا يَطأ على قَدَم ، أى هو يتقدّم الناسَ ولا يتبع أحدا فيطأ على قدَمه .

ويقولون : قد اخضرّت نِعالهم ، أى صاروا فى خِصْب وسَعة ، قال الشاعر :

يَتَأَيَهون إذا اخضرّتْ نِعالهُمُ وفى الحفيظةِ أبْرامٌ مَضاجِيرُ

وإذا دَعَوا على إنسان بالزَّمانة قالوا : خَلَع الله نعليْه ، لأنّ المُقعد لا يَحتاجُ إلى نَعْل .

ويقولون : أطفأ اللهُ نورَه ، كنايةً عن العَمَى وعن المَوْت أيضًا ، لأنّ من يموت فقد طَفِئَتْ نارُه .

ويقولون : سقاهُ اللهُ دمَ جَوْفه ؛ دُعاء عليه بأن يَقتُل ولدَه ، ويُضطَرُّ إلى أخذ دِيته إبلا فيَشرَب ألبانَها .

ويقولون : رماه الله بليلةٍ لا أختَ لها ؛ أى ليلة موته ، لأنّ ليلةَ المَوْت لا أختَ لها .

ويقولون : وَقَعوا فى سَلاَ جَمَل ، أى فى داهية لا يُرى مِثلُها ، لأنّ الجمل لا سَلاَ له ، وإنما السَّلا للناقة ، وهى الجُلَيْدة التى تكون ملفوفةً على وَلَدها .

ويقولون : صارُوا فى حُوَلاء ناقة ، إذا صارُوا فى خِصْب .

وكانوا إذا وَصَفوا الأرض بالخصب قالوا : كأنَّها حُوَلاء ناقة .

ويقولون لأبناء الملوك والرؤساء ومن يجرى مجراهم : جُفاة المَحَزّ ، قال الشاعر :

جُفاةُ المَحَزِّ لا يُصيبون مِفصَلاً ولا يأكُلون اللحمَ إلا تَخَذُّما

يقول : هم ملوكٌ ، وأشباهُ الملوك لا حِذْقَ لهم بنحْر الإبل والغَنَم ولا يعرِفون التجليد والسَّلْخ ، ولهم من يتولَّى ذلك عنهم ، وإذا لم يَحضُرهم من يجزُر الجزور تكلفوا هم ذلك بأنفسِهم ، فلم يُحسِنوا حزَّ المِفصَل كما يفعله الجزَّار ، وقوله :

* ولا يأكُلون اللحمَ إلا تَخذُّما *

أى ليس بهم شَرَه فإذا أكلوا اللحمَ تخذَّموا قليلا قليلا ، والخَذْم : القطع ، وأنشد الجاحظ فى مِثْلِه :

وصُلْع الرءوس عِظامُ البطونِ جُفاةُ المَحَزِّ غِلاظُ القصَرْ

لأنَّ ذلك كله أمارات للملوك ؛ وقريبٌ من ذلك قوله :

ليس براعِى إبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزَّارٍ على ظهرِ وَضَمْ[١]

ويقولون : فلانٌ أملَس ، يكنُون عمّن لا خير فيه ولا شرّ ، أى لا يَثبُت فيه حمدٌ ولا ذمّ .

ويقولون: مِلحُه على رُكبتِه ، أى هو سيّء الخلُق ، يُغضبه أدْنَى شىء ، قال :

لا تَلُمْها إنّهــا من عُصْبةٍ مِلحُها موضوعةٌ فوقَ الرُّكَب[٢]

ويقولون كنايةً عن مجوسىّ : هو ممن يخطّ على النَّمل ، والنّمل جمع نَمْلة ، وهى قَرْحة بالإنسان ، كانت العربُ تزعم أنّ المجوسىّ إذا كان من أُختِه وخطّ عليها برَأت ، قال الشاعر :

ولا عيبَ فينا غيرَ عِرْقٍ لِمَعشرٍ كرامٍ وأنّا لا نخُطُّ على النَّمل[٣]

---

(١) الكامل ٢١٨ (طبع أوربا) . (٢) الجرجانى ١٢٧ ، ونسبه إلى مسكين .
(٣) اللسان (نمل)

ويقولون للصبيّ : قد قُطِفَتْ ثمرته ، أى خُتِن . وقال عُمارة بنُ عقيل بنِ بلالِ ابن جرير :

مازال عِصيانُنا لله يرذِلُنـــا حتى دُفِعنـــا إلى يحيَى ودِينارِ (١)
إلى عُلَيْجَيْن لم تُقطَف ثِمارُهما قد طالَمَا سَجَدَا للشّمس والنار

ويقولون : قِدْر حليمة ، أى لا غَلَيانَ فيها .

ويقولون لمن يصلّى صلاةً مختصَرة : هو راجزُ الصّلاة .

وقال أعرابيٌّ لرجل رآه يصلِّى صلاةً خفيفة : صلاتُك هذه رَجَز .

ويقولون : فلانٌ عفيفُ الشَّفة ، أى قليـــلُ السّؤال ، وفلانٌ خفيفُ الشّفة ، كثيرُ السؤال .

وتَــكْنى العرَب عن المتيقّظ بالقُطاميّ ، وهو الصّقر .

ويَــكْنُون عن الشّدّة والمَشَقّة بعرَق القِرْبة ، يقولون : لقيتُ من فلانٍ عرَق القِرْبَة ، أى العرَق الّذى يحدُث بك من حَمْلها وثِقلها ؛ وذلك لأنّ أشدَّ العمل كان عندهم السَّقْى وما ناسَبه من معالجة الإبل .

وتَــكْنِى العرَب عن الحَشَرات وهَوامّ الأرض بجُنودِ سَعْد ؛ يعنُون سعدَ الأخْبية، وذلك لأنّه إذا طَلَع انتشرتْ فى ظاهِر الأرض ، وخرج منها ما كان مستتِرا فى باطنها ، قال الشاعر :

قد جاء سعدٌ مُنذِراً بحرِّهِ مُوعِـــدَةً جُنودُه بشَرِّهِ (١)

ويَــكْني قومٌ عن السائلين على الأبواب بحُفّاظ سورة يوسفَ عليه السلام ، لأنهم يعتنون بحِفْظها دونَ غيرِها ، وقال عُمارة يهجُو محمّد بنَ وُهَيب :

تَشَبّهتَ بالأعراب أهلِ التّعجْرُفِ فدَلّ على ماقاتَ قُبْحُ التــكلُّفِ (١)

---

(١) كنايات الجرجانى ١٢٩ ، ١٣٠

لسانٌ عِراقيٌّ إذا ماصَرَفْتَــــــه إلى لغــــةِ الأعْراب لم يتصرَّفِ
ولم تَنْسَ ماقــد كان بالأمس حاكَه أبوكَ وعُـــودُ الجفَّ لم يتقصَّفِ
لئن كنتَ للأشعـار والنحوِ حافظاً لقــد كان من حُفّاظ سورة يوسفِ

ويَكنُون عن اللَّقيط بتربيةِ القاضي ، وعن الرّقيب بثاني الحبيب ، لأنّه يُرَى معه أبدا ، قال أبنُ الرّومى :

مَوْقِفُ الرّقيب لا أنْســـاهُ لستُ أختـــارُه ولا آباهُ
مرحباً بالرّقيب من غير وَعْدٍ جاء يَجْلو علىَّ مَن أهْـــواهُ
لا أحِبُّ الرقيبَ إلّا لأنّى لا أرَى من أحِبّ حتّى أراهُ

ويَكنُون عن الوَجْه المَليح بحُجّة المُذنِب ، إشارة إلى قول الشاعر :

قد وجدْنا غفلةً من رَقيبٍ فسَرَقْنا نظرةً من حَبيبِ
ورأينـــا ثَمّ وَجْها مَليحاً فوَجَـدْنا حُجّةً للذّنوبِ

ويَكنُون عن الجاهل ذى النِّعمة بحُجّة الزّنادقة ، قال ابنُ الرومىّ :

مَهْلاً أبا الصَّقر فـكم طائرٍ خَرّ صريعاً بعــد تحليقِ
لا قُدِّستْ نُعمَى تَسربَلْتَها كم حُجّةٍ فيهـا لزِنْديقِ !

وقال أبنُ بَسّام فى أبى الصَّقْر أيضا :

ياحُجّةَ الله فى الأرزاقِ والقِسَمِ وعبرةً لأولى الألبـابِ والفهمِ
تراكَ أصبحتَ فى نَعماء سابغةٍ إلّا ورَبُّك غَضْبانٌ على النِّعَمِ

فهذا ضِدّ ذلك المقصد ، لأنّ ذاكَ جعلَه حُجّةً على الزّنْدَقةِ ، وهذا جعلَه حجّة على قُدْرة البارى سبحانَه على عجائب الأمور وغرائبها ، وأن النِّعم لا قَدْر لها عندَه سبحانه ، حيث جعَلَها عند أبى الصَّقر مع دناءة منزلته . وقال ابن الرّومىّ :

وقَينـــةٍ أبردُ من ثلجةٍ تَبيتُ منهـا النفسُ في ضَجّةْ
في ضَنْكةٍ كأنّها مِن نَتْنِها تخمةٌ لكنّهـا في اللون أُتْرُجّةْ
تفاوتتْ خِلقتُهـا فاغتـدَتْ لـكلِّ مَنْ عُطِّلَ مُحتجّـهْ

وقد يُشابِه ذلك قولَ أبي عليّ البَصير في ابن سعدان :

يابنَ سَعدانَ أَجْلَحَ الرِّزْقُ في أَمْـ رِكَ واستحسن القبيـــح بمَرّهْ
نلتَ مالم تـكن تَمنّى إذا ما أسرفت في غاية الأمانيِّ عِشْرهْ
ليس فيما أظنّ إلاّ لـكَيْلا يُنكِرِ المُنكِرون لِلّهِ قُدْرَهْ

وللمفجّع في قريب منه :

إنْ كنتُ خُنتُكم المودّةَ غادِراً أو حُلْتُ عن سَنَنِ المحبّ الوامِقِ
فَمُسِخْتُ في قُبح ابنِ طَلْحةَ إنّه ما دلّ قطّ على كمال الخـــالِق

ويقولون : عَرَض فلانٌ على الحاجة عَرْضا سابِريًّا ، أي خفيفاً من غير استقصاء ، تشبيهاً له بالثّوب السّابِريّ ، والدِّرْع السابريّة ، وهي الخفيفة .

ويُحكَى أن مرتدّا مَرّ على قوم يأكلون وهو راكبٌ حِماراً ، فقالوا : انزل إلينا ، فقال : هذا عَرْضٌ سابِريّ ، فقالوا : انزل يابن الفاعِلة . وهذا ظَرْفٌ ولباقة .

ويقولون في ذلك : وعـدٌ سابِريّ ، أي لا يُقرَن به وفاء ، وأصلُ السابِريّ ، اللّطيف الرّقيق .

وقال المبرّد : سألتُ الجاحِظَ : من أشعَر المولّدين ؟ فقال : القائل :

كأنّ ثِيابَه أَطْلَعْـــن من أزراره قمرا
يَزيدُكَ وجهُه حُسْناً إذا مازِدْتَه نَظَرا
بعينٍ خالَطَ التفتيرُ في أجفانِها الحَوَرا

ووجهٍ سابِرِيٍّ لو   تَصوَّبَ ماؤُه قطَرا

يعني العبّاسَ بنَ الأحنف[1] .

وتقول العرب في معنى قولِ المحدَثين : عَرض عليه كذا عَرْضا سابِرِيًّا ، عَرَض عليه عَرْضَ عالّة ، أي عَرْض الماء على النَّعم العالّة التي قد شَرِبتْ شُرْبا بعدَ شُرْب ، وهو العَلَل ؛ لأنّها تُعرَض على الماء عَرْضا خفيفاً لا تبالغ فيه .

ومن الكنايات الحسنة قولُ أعرابيّة قالت لقيسِ بنِ سعد بن عُبادة : أشكو إليك قِلّة الجِرْذان في بيتي ؛ فاستحسَن منها ذلك ، وقال لأُكَثِّرنّها ؛ املئوا لها بيتَها خُبْزا وتَمْرا وسَمْنا وأقِطاً ودَقيقا .

وشبيهٌ بذلك ماروى أنّ بعض الرؤساء سايَرَه صاحبٌ له على بِرْذَون مَهزول ، فقال له : ما أشدَّ هُزالَ دابّتك ! فقال : يدُها مع أيْدِينا ، ففطِن لذلك ووَصَله .

وقريبٌ منه ما حُكِيَ أنّ المنصور قال لإنسان : ما مالُك ؟ قال ماأصونُ به وَجْهي ، ولا أعودُ به على صَدِيقي ؛ فقال : لقد تلطّفتَ في المسألة ، وأمَر له بصِلَة .

وجاء أعرابيٌّ إلى أبي العبّاس ثَعْلب وعنده أصحابُه ، فقال له : ما أراد القائلُ بقوله :

الحمدُ لله الوَهُوب المَنّانْ   صارَ الثَّرِيدُ في رءوس القُضْبانْ

فأقبَل ثَعلَب على أهل المجلس فقال : أجيبوه ، فلم يكن عندَهم جواب ، وقال له نِفْطَوَيْه : الجواب منكَ ياسيّدي أحسَن ، فقال : على أنّكم لا تعلَمونه ! قالوا : لا نَعلَمه ، فقال الأعرابيّ : قد سمعتُ ماقال القوم ، فقال : ولا أنتَ أعزّكَ الله تَعلَمه ، فقال ثعلب : أرادَ أن السُّنْبل قد أفرَك ، قال : صدقتَ فأينَ حقَّ الفائدة ؟ فأشار إليهم ثَعلَب ،

(١) ديوانه ١٢٩

فبرَّوه ، فقام قائلاً : بوركتَ من ثعلب ، ما أعظمَ بركتك !

ويكنُون عن الشَّيب بغُبار العَسكر ، وبرُغوَة الشَّباب ، قال الشاعر :

قالت أرَى شَيْبا برأسِك ، قلتُ لا هـذا غبارٌ من غُبار العَسْكر

وقال آخر ـ وسمّاه غُبارَ وقائِع الدّهر :

غَضِبتْ ظَلُوم وأزمعتْ هَجرِي وصَبَتْ ضمائرُها إلى الغَـدْرِ
قالت أرَى شَيْبا فقلتُ لهـا هـذا غُبارُ وقائِع الدّهرِ

ويقولون للسَّحاب : فَحْل الأرض .

وقالوا : القلم أحدُ اللِّسانَين ورَداءة الخطِّ أحدُ الزَّمانَتين .

قال : وقال الجاحظ : رأيت رجلاً أعمَى يقول فى الشّوارع وهو يَسأل : ارحموا ذَا الزَّمانتَين ، قلتُ : وما هما ؟ قال : أنا أعمى وصَوْتى قَبيح . وقد أشارَ شاعرٌ إلى هذا فقال :

اثنانِ إذا عُـدّا حقيقٌ بهما المَوْتُ
فقيرٌ ماله زُهْـدٌ وأعمَى ماله صَوْتُ

وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « إيّاكم وخَضْراء الدِّمَن » ، فلما سُئل عنها قال : « المرأةُ الحسْناء فى المَنبِت السّوء » .

وقال عليه السلام فى صُلْحِ قومٍ من العرب : « إنّ بيننا وبينهم عَيْبة مكفوفة » ، أى لا نكشف مابيننا وبينهم من ضِغْن وحِقْد ودَم .

وقال عليه السّلام : « الأنصارُ كَرِشى وعَيْبتى » ، أى موضع سِرّى . وكَرِشى : جماعَتِي .

ويقال : جاء فلانٌ رَبِذَ (١) العِنان ، أي مُنهزِما .

وجاء ينفض مِذْرَوَيه (٢) ، أي يتوعّد من غيرِ حقيقة .

وجاء يَنظُر عن شِماله ، أي مُنهزِما .

وتقول : فلانٌ عندي بالشِّمال ، أي منزلَتُهُ خَسيسة . وفلانٌ عندي باليَمين ، أي بالمنزلة العُليا ، قال أبو نُوَاس :

أقولُ لناقتي إذ بَلّغَتْني ... لقد أصبحتِ عندي باليَمينِ (٣)

فلم أجْعَلْكِ للغِرْبانِ نَهْبًا ... ولم أقُلْ شرِّقي بدَمِ الوَتِينِ

حَرُمتِ على الأزِمّة والوَلايا ... وأعلاقِ الرِّحالة والوَضِينِ

وقال ابن مَيّادة :

أبِيني أفي يُمْنَى يَدَيكِ جَعَلْتِني ... فأفْرَحَ أم صيّرتني في شِمالِكِ !

وتقول العرب : التَقَى الثَّرَيان في الأمْرَين يأتلِفان ويتفقان ، أو الرَّجلين ؛ قال أبو عبيدة : والثَّرَى التّراب النَّدىّ في بطن الوادى ، فإذا جاء المطر وشَحّ في بَطْن الوادى حتّى يلتقى نَداه والنّدى الذى في بطن الوادى يقال : التَقى الثَّرَيان .

ويقولون : هم في خيرٍ لا يُطَيِّرُ غُرابُه ، يريدون أنّهم في خيرٍ كثيرٍ وخِصْب عَظيم فيَقَع الغراب فلا يُنفَّر لكثرة الخِصْب .

وكذلك أمرٌ لا يُنادَى وليدُه ، أي أمرٌ عظيم يُنادَى فيه الكبارُ دونَ الصِّغار .

وقيل : المرادُ أنّ المرأة تَشتغِل عن وليدِها فلا تُناديه لِعظَم الخطْب ، ومن هذا قولُ الشاعر يَصِف حرْبا عظيمة :

---

(١) في اللسان : « ربذ العنان ، أي منفرداً منهزماً » .

(٢) المذروان : الجانبان من كل شيء ؛ وقد يطلقان على المنكبين .

(٣) ديوانه ٦٥

إذا خَرِسَ الفَحْلُ وَسْطَ الحجُورِ وصاحَ الكِلابُ وعَقَّ الوَلَدْ

يريد أنَّ الفحل إذا عاين الجيشَ والبارقةَ لم يلتفتْ لَفْتَ الحجور ولم يَصهل ،وتنبح الكلابُ أربابَها ، لأنّها لا تَعرفهم للبسهم الحديد ، وتَذهَل المرأةُ عن ولَدِها رعبا ، فجعل ذلك عُقوقا .

ويقولون : أصبحَ فلانٌ على قَرْن أعفر ؛ وهو الظَّبي إذا أرادوا أصْبَح على خطَر ، وذلك لأنَّ قَرْن الظَّبي ليس يَصلُح مكانًا ، فمن كان عليه فهو على خطَر ، قال امرؤ القَيْس :

ولا مِثلَ يومٍ بالعطالَى قطعتُه كأنّى وأصحابى على قَرْنِ أعفَرا [1]

وقال أبو العَلاء المعرّى :

* كأنّى فوقَ رَوْقِ الظَّبي من حَذَرِ [2] *

وأنشدَ ابنُ دريد فى هذا المعنى :

وما خيرُ عَيْشٍ لا يزال كأنّه محلّةَ يَعسوبٍ برأسِ سِنانِ

يَعنى من القلق وأنّه غيرُ مطمئنّ .

ويقولون : به داءُ الظَّبي ، أى لا داء به ، لأنَّ الظَّبي صحيحٌ لا يزال ، والمرَض قلّ أن يَعتريَه . ويقولون للمتلوّن المختلف الأحوال : ظلَّ الذّئب ، لأنّه لا يزل مرّةً هكذا ومرّةً هكذا .

ويقولون : به داءُ الذّئب ، أى الجوع .

---

(١) ديوانه ٧٠ وروايته :

وَلَا مِثْلَ يَوْمٍ فى قَذَارَانَ ظَلْتُهُ كأنّى وَأصْحابى على قَرْنِ أعْفَرا

(٢) سقط الزند ١٣٠١ ، وصدره : * فى بلدة مثل ظهر الظبى بت لها *

وعهدُ فلانٍ عهدُ الغُراب ، يعنُون أنّه غادر ، قالوا : لأنّ كلّ طائر يألفُ أنثاه إلّا الغراب ، فإنّه إذا باضَتْ الأنثى تركَها وصار إلى غيرِها .

ويقولون : ذهب سَمْعَ الأرض وبصَرَها ، أي حيثُ لا يُدرَى أين هو !

وتقول : ألقَى عصاه ؛ إذا أقامَ واستقرّ ، قال الشاعر :

فألقتْ عَصَاها واستقرّ بهـا النّوَى كما قرّ عَيْنـا بالإيابِ المُسافِرُ (١)

ووَقَع القضيبُ من يَدِ الحجّاج وهو يَخطُب ، فتطيّر بذلك حتّى بانَ في وَجْهه ، فقام إليه رجلٌ فقال : إنّه ليس ماسَبَق وهْم الأميرِ إليه ، ولكنّه قولُ القائل ، وأنشَدَه البيت ، فسُرِّيَ عنه .

ويقال للمختلِفين : طارت عَصاهمْ شِقَقا .

ويقال : فلانٌ منقطِع القِبَال (٢) ، أي لا رأيَ له .

وفلان عريضُ البِطان ، أي كثيرُ الثّرْوة .

وفلانٌ رخيُّ اللَّبَب ، أي في سَعَة .

وفلانٌ واقعُ الطائر ، أي ساكنٌ .

وفلانٌ شديدُ الكاهل ، أي مَنِيع الجانبِ .

وفلانٌ يَنظُر في أعقابِ نَجْمٍ مُغرّب ، أي هو نادِم آيِس ، قال الشاعر :

فأصبحتُ من ليلَى الغَـداة كناظرٍ مع الصّبحِ في أعقابِ نجمٍ مغرّبِ (٣)

وسُقِط في يَدِه ، أي أيقَن بالهَلَكة .

وقد رَدَدْتُ يدَه إلى فيه ، أي منعته من الكلام .

وبنو فلان يدٌ على بني فلان ، أي مجتمِعون .

---

(١) اللسان (عصا) .

(٢) القبال : زمام النعل

(٣) المجنون ، ديوانه ٧٩ .

وأعطاه كذا عن ظَهْر يد ، أى ابتداء لا عن مُكافأة .

ويقولون : جاء فلانٌ ناشراً أُذُنَيه ، أى جاء طامعا .

ويقال : هـــذه فرسٌ غيرُ محلِفة ، أى لا تحوج صاحبها إلى أن يَحلِف أنها كريمة ، قال :

كميتٌ غير محلِفةٍ ولـكنْ كلَوْن الصّرف عُلَّ به الأديمُ

وتقول : حَلَبَ فلانٌ الدهر أشطُرَه ، أى مرّت عليه ضُروبه خيرُه وشرُّه .

وقَرَع فلانٌ لأمرٍ ظُنْبوبَه ، أى جدّ فيه واجتهد .

وتقول : أبدَى الشرّ نواجذَه ، أى ظهر .

وقد كشفت الحربُ عن ساقِها ، وكشرتْ عن نابها .

وتقول : استَنْوَق الجَمَلُ ؛ يقال ذلك للرّجل يكون فى حديث ينتقل إلى غيره يَخلِطه به .

وتقول لمن يهون بعد عِزّ : استَأْتَن العَيْر .

وتقول للضّعيف يقوَى : استَنْسر البُغاث .

ويقولون : شرابٌ بأنقُع ، أى مُعاود للأمور ؛ وقال الحجاج : يا أهل العِراق ، إنكم شرّابون بأنقُع ، أى معتادون الخير والشرّ . والأنقُع : جمع نَقْع ، وهو ما استُنْقِع من الغُدْران ، وأصلُه فى الطائر الحذِر يَرِدُ المناقِع فى الفلوات حيث لا يبلُغه قانِص ، ولا ينصب له شَرَك .

* * *

[حديث عن امرئ القيس]

ونختم هذا الفصل فى الكنايات بحكاية رواها أبو الفرج علىّ بنُ الحسين الأصبهانى ؛ قال أبو الفرج : أخبرَنى[1] محمد بنُ القاسمِ الأنبارىّ ، قال : حدثنى ابنُ عمّى ، قال : حدثنا أحمد بن عبد الله ، عن الهيْثَم بن عَدِىّ . قال : وحدثنى عمّى ، قال : حدثنا محمد بن سعد الكرانىّ ؛ قال : حدّثنا العُمَرىّ ، عن الهيْثَم بنِ عَدِىّ ، عن مجالِد بن سعيد ، عن عبد الملك بن عمير ، قال : قَدِم علينا عمرُ بن هُبَيْرة الكوفة أميراً على العِراق ، فأرسَلَ إلى عشرةٍ من وجوهِ أهل الكوفة أنا أحدُهم ، فَسِرْنا عنده ، فقال : ليُحدّثنى كلّ رجل منكم أحدوثةً وابدأ أنت يا أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير ! أحديث حقّ أم حديث باطل ؟ قال : بل حديث حقّ ؛ فقلتُ : إنّ امرأ القيسِ كان آلَى أَلِيّةً[2] ألاّ يتزوج امرأةً حتى يسألها عن ثمانيةٍ وأربعةٍ واثنتين ، فجعل يَخْطُب النّساء ، فإذا سألهنّ عن هذا قلن : أربعة عشر ، فبينا هو يسيرُ فى جوف الليل إذا هو برجل يَحمِل ابنةً صغيرةً له كأنها البَدْر لتمّه ، فأعجبتْه ، فقال لها : يا جارية ، ما ثمانية ، وأربعة ، واثنتان ؟ فقالت : أمّا ثمانية فأطْباء الكلبة ، وأما أربعة : فأخلافُ الناقة ، وأمّا اثنتان فثَدْيا المرأة ؛ فخطبها إلى أبيها ، فزوّجه إياها وشَرَطتْ عليه أن تسأله ليلة بِنائها عن ثلاث خصال ، فجعل لها ذاك ، وعلى أن يَسُوق إليها مائةً من الإبل ، وعشرة أعبد ، وعَشْرَ وصائف ، وثلاثة أفراس ، ففعل ذلك ، ثم بعث عبداً إلى المرأة ، وأهدى إليها معه نِحْياً[3] من سَمْن ونِحْيا من عَسَل وحُلّة من عَصْب ، فنزل العَبْد على بعض المِياه ، ونَشَر الحلّة فلبسها . فتعلقتْ بِسَمُرة فانشقّت ، وفتح النِّحْيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا ، ثم قَدِم على المرأة وأهلُها خُلُوف[4] فسألها عن أبيها وأمّها وأخيها ، ودفع

---

(١) الأغانى ٩ : ١٠١ — ١٠٣

(٢) الأغانى : « بألية » .

(٣) النحى : الزق .

(٤) خلوف : غيب .

إليها هديتَها ، فقالت : أَعْلِمْ مولاك أنّ أبي ذهب يقرِّب بعيداً ، ويبعِّد قريباً ، وأن أمّي ذهبت تشُقّ النفس نفْسَين ، وأنّ أخي ذَهَب يُراعي الشمس ، وأنّ سماءكم انشقّت ، وأن وعاءَيْكم نضبا .

فقدِم الغلام على مولاه ، فأخبَرَه فقال : أما قولها : إنّ أبي ذهب يُقرِّب بعيدا ، ويبعِّد قريبا ، فإنّ أباها ذهب يُحالف قوماً على قومه ، وأمّا قولها : إنّ أمي ذهبتْ تَشُقّ النفس نفْسين ، فإن أمّها ذهبتْ تَقْبَل [1] امرأةً نُفَساء . وأمّا قولها : إنّ أخي ذَهَب يُراعي الشمس ، فإن أخاها في سَرْحٍ له يَرْعاه ، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروحَ به ؛ وأما قولها : إن سماءكم انشقّتْ ، فإن البُرْد الذي بعثت به انشقّ ؛ وأما قولها إنّ وعاءَيْكم نَضَبا فإن النِّحْيين اللذين بعثت بهما نَقَصا ، فاصْدُقْني . فقال : يا مولاي ، إني نزلتُ بماء مِن مياهِ العرَب ، فسألوني عن نَسَبي فأخبرتهم أني ابن عمّك ، ونشرتُ الحُلّة ولبستُها وتجملت بها ، فتعلقتْ بسَمُرة فانشقّت ، وفتحتُ النِّحْيين فأطعمتُ منهما أهلَ الماء ، فقال : أَوْلَى لك ! ثمّ ساق مائةً من الإبل ، وخرج نحوها ومعه العَبْد يسق الإبل ، فعجَز ، فأعانه امرؤُ القيس ، فرمى به العبد في البئر ، وخرج حتى أَتَى إلى أهل الجارية بالإبل ، فأخبرَهم أنه زَوْجُها ، فقيل لها : قد جاء زوجُكِ ، فقالت : والله ما أدْرِي أزَوْجي هو أم لا ! ولكن انحرُوا له جَزُورا وأطعِمُوه من كَرِشِها وذَنَبها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لَبَنا حازِراً ـ وهو الحامضُ ـ فسَقَوْه فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفَرْث [2] والدم ، ففرَشوا له ، فنام فلما أصبحت أرسلت إليه : إني أريدُ أن أسألَكَ ، فقال لها : سَلِي عمّا بدَا لكِ ، فقالت : ممّ تختلج شفتاكَ ؟ قال : مِن تقبيلي إيّاكِ ، فقالت : مِمّ يختلج كَشْحاك ، قال : لالتزامي إيّاكِ ، قالت : فمِمّ يختلج فَخِذاك ؟

---

(١) يقال : قبلت القابلة المرأة ؛ إذا تلقت ولدها عند ولادته .

(٢) الفرث : السرجين ما دام في الكرش .

قال : لتورّكى إيّاك ، فقالت : عليكم العبد فَشُدُّوا أيديَكم به ، ففعلوا .

قال : ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ، فرَجَع إلى حَيِّه وساق مائةً من الإبل ، وأقبل إلى امرأته فقيل لها : قد جاء زَوْجك ، فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ! ولكن انحروا له جَزُورا ، وأطعِمُوه من كَرِشها وذَنبها ؛ ففعلوا ، فلما أتوْه بذلك قال : وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء[1] ، وأبى أن يأكل ، فقالت اسقوه لبَنا حازِراً ، فأُتى به ، فأبى أن يشربه ، وقال : فأين الضَّرِيب[2] والرَّثيئة ؟ فقالت : افرشوا له عند الفَرْث والدم ، ففرشوا له ، فأبى أن ينام ، وقال : افرشوا لى عند التلعة الحمراء ، واضربوا لى عليها خِباء ، ثم أرسلت إليه : هلمّ شَرِيطَتى عليك فى المسائل الثلاث ، فأرسل إليها أنْ سَلِى عمّا شِئْتِ ، فقالت : ممّ تختلج شفَتاك ؟ فقال : لِشُرْبى المُشَعْشعات ، قالت : فمِمَّ يختلج كَشْحاك ؟ قال : للبسى الحِبَرات . قالت : فممّ تختلج فخذاك ؟ قال : لرَكْضى المُطَهّمات[3] ، فقالت : هذا زَوْجى لعمرى ، فعليكم به . فأهديَتْ إليه الجارية .

فقال ابن هُبيرة : حَسبكم ، فلا خير فى الحديث سائر الليلة بعد حديث أبى عمرو ، ولن يأتيَنا أحدٌ منكم بأعجب . منه فانصرَفْنا وأمرَ لى بجائزة .

---

(١) الملحاء : لحم فى الصلب من الكاهل إلى العجز من البعير . (٢) والضريب : هو اللبن يحلب من عدة لقاح ؛ وفى الأغانى : « الصريف » . وهو الحلب الحار ساعة يصرف من الضرع ، والرثيئة : اللبن الحليب يصب عليه اللبن الحامض ، فيروب من ساعته .

(٣) المطهمات : الخيل التامة الحسن .

(٤٧٣)

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ في كلامٍ لهَ :

ووَلِيَهُمْ والٍ فأقامَ واسْتقامَ ، حتّى ضَرَبَ الدِّين بِجِرانِه .

***

الشَّـرْحُ :

الجِران : مقدَّم العنُق ، وهذا الوالى هو عمرُ بنُ الخطاب .

وهذا الـكلامُ من خُطبةٍ خطبها في أيّام خلافته طويلةٍ ؛ يذكر فيها قُرْبه من النبي صلى الله عليه وآله واختصاصه له ، وإفضاءه بأسراره إليه ، حتى قال فيها :

فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم ، فقاربَ وسَدَّدَ حَسَبَ استطاعته على ضَعْفٍ وَحدٍّ كانا فيه ، وليهم بعده وَالٍ ، فأقامَ واستقامَ حتى ضَرَبَ الدِّين بجِرانه ، على عَسْفٍ وعَجْرَفيّة كانا فيـه ، ثمَّ اختلفوا ثالثا لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً ، غَلَبَ عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخْطوم ، فلم يزل الأمرُ بينه وبين الناس يَبْعُد تارة ويقرُب أخرى حتى نَزَوْا عليه فقتلوه ، ثم جاءوا بي مَدَبَّ الدَّبا يريدون بَيْعَتى .

وتمام الخطبة معروف ، فليطلب من الـكُتب الموضوعة لهذا الفنّ .

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

يأتِي على النَّاس زَمانٌ عَضُوضٌ ، يَعَضُّ المُوسِرُ فيهِ على مافِى يَدَيْهِ ، ولَمْ يُؤْمَرْ بِذَلِكَ ، قال اللهُ سُبْحانَهُ : ﴿ ولا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُم ﴾ ؛ يَنْهَدُ فِيهِ الأشْرارُ ، ويُسْتَذَلُّ الأخْيارُ ، ويُبايِعُ المُضْطَرُّونَ ، وقَدْ نَهى رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآله عَنْ بَيْعِ المُضْطَرِّينَ .

***

الشَّرحُ :

زمانٌ عَضُوض ؛ أى كَلِب على النّاس ، كأنه يَعَضّهم ، وفعُول للمبالَغة ، كالنُّفور والعَقوق ، ويجوز أن يكون من قولهم : بئرٌ عَضُوض ، أى بعيدةُ القَعْر ضَيِّقة ، وما كانت البئر عَضُوضا ، فأعضّت ، كقولهم : ما كانت جَرُورا فأجرّت ، وهى كالمَعضوض .

وعَضّ فلانٌ على ما فى يده ، أى بَخِل وأمسك .

وينهد فيه الأشرار ، ينهضون إلى الولايات والرِّياسات ، وترتفع أقدارُهم فى الدنيا . ويُستَذَلّ فيه أهلُ الخيْر والدِّين ، ويكون فيه بَيْعٌ على وجه الاضطرار والإلجاء ؛ كمن بيعتْ[1] ضَيعَتُه ؛ وهو ذليل ضعيف ، من ربِّ ضَيعةٍ مجاورة لها ذى ثَرْوة وعِزّ وجاه فيلجئه بِمَنْعِه الماء واستذلاله الأكرةَ والوكيل إلى أن يبيعها عليه ؛ وذلك منهىٌّ عنه ، لأنه حرامٌ مَحْض .

---

(١) ب : « بيع »

(٤٧٥)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلام :

يَهلِكُ فِيَّ رَجُلانِ : مُحِبٌّ مُفْرِطٌ ، وباهِتٌ مُفْتَرٍ .

***

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وهذا مِثلُ قوْلِه عليهِ السلامُ : هَلَكَ فِيَّ اثْنانِ : مُحِبٌّ غالٍ ، ومُبْغِضٌ قالٍ .

***

الشرح :

قد تقدّم شرحُ مِثلِ هذا الكلام ؛ وخلاصةُ هذا القول : أنّ الهالكَ فيه المُفْرِط والمفرِّط ، أما المُفرِط فالغُلاة ، ومن قال بتكفير أعيان الصّحابة ونِفاقِهم أوفِسْقِهم ، وأما المُفرِّط فمن استنقص به عليه السلام أو أبغَضَه أوحارَبَه أو أَضمَر له غِلاًّ ؛ ولهذا كان أصحابُنا أصحابَ النّجاة والخلاص والفَوْز في هذه المسألة ، لأنّهم سَلَكوا طريقةً مقتصدة ، قالوا : هو أفضل الخلْق في الآخرة ، وأعلاهُم منزلةً في الجنّة ، وأفضل الخلق في الدّنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكلّ من عاداه أو حاربه أو أبغَضَه فإنه عدوٌّ لله سبحانه وخالدٌ في النّار مع الكفّار والمنافقين ، إلاّ أن يكون ممن قد ثبتَتْ توبتُه ، ومات على تولّيه وحُبّه .

فأما الأفاضلُ مِن المهاجرين والأنصار الذين وَلُوا الإمامَة قبله فلو أنّه أنكر إمامتهم

وغضب عليهم ، وسخط فعلهم ، فضلاً عن أن يُشهِر عليهم السيف ، أو يدعو إلى نفسه ، لقُلْنا: إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبَت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « حربُك حرْبي ، وسَلْمك سَلْمي » ، وأنه قال : « اللهم والِ مَن ولاه ، وعاد من عاداه » ، وقال له : « لا يُحبُّك إلاّ مُؤمن ، وَلا يبغضك إلاّ مُنافِق » ، ولكنا رأيناه رضىَ إمامتَهم وبايعهم وصلى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدَّى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ؛ ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئْنا منه ، ولمّا لعَنه لعنّاه ، ولمّا حَكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصّحابة كعَمْرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضا بضلالهم !

والحاصل أنا لم نجعَل بينه وبين النبي صلّى الله عليه وآله إلاّ رتبة النبوّة ، وأعطيناه كلّ ما عدا ذلك من الفضْل المشترك بينه وبينهم[1] ، ولم نَطعَن فى أكابر الصحابة الذين لم يصحّ عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملْناهم بما عاملَهم عليه السلام به .

* * *

[فصل فيما قيل فى التفضيل بين الصحابة]

والقول بالتفضيل قولٌ قديم ، قد قال به كثيرٌ من الصحابة والتابعين ، فمن الصحابة عمّار ، والمِقْداد ، وأبو ذرّ ، وسلمان ، وجابر بن عبد الله ، وأُبَيّ بن كَعْب ، وحذيفة ، وبُرَيْدَة ، وأبو أيّوب ، وسهل بن حُنَيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهَيْثم بن التّيهانّ ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطُّفَيل عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب وبنوه ، وبنو هاشم كافةً ، وبنو المطلب كافةً .

(١) ب : « بينه » تحريف .

وكان الزبيرُ من القائلين به فى بدء الأمر؛ ثم رجع ، وكان من بنى أميّة قومٌ يقولون بذلك ، منهم خالدُ بنُ سعيد بن العاص ، ومنهم عمرُ بنُ عبد العزيز .

***

وأنا أذكر ها هنا الخبرَ المرويّ المشهور عن عُمَر ، وهو من رِواية ابن الكلبيّ ، قال : بينا عمر بن عبد العزيز جالسا فى مجلسه ، دخل حاجبُه ومعه امرأةٌ أدْماء طويلة حَسَنَة الجسم والقامة ، ورجُلان متعلِّقان بها ، ومعهم كتابٌ من مَيْمونَ بن مِهران إلى عمر ، فدفعوا إليه الكتاب ، ففضّه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى أمير المؤمنين عمر بنِ عبد العزيز ، من ميمون بنِ مِهْرَان ، سلامٌ عليكَ ورحمةُ الله وبركاته ، أمّا بعد ، فإنه وَرَدَ علينا أمرٌ ضاقَتْ به الصّدور ، وعجزتْ عنه الأوْساعُ[١] ، وهربْنا بأنفسِنا عنه ، ووَكَلْناه إلى عالِمِه ، لقولِ الله عزّ وجلّ : ﴿ ولو رَدُّوه إلى الرّسول وإلَى أُولِى الأَمْرِ منهمْ لعَلِمَه الّذين يَستنبطونه منهم ﴾[٢] ، وهذه المرأة والرّجلان أحدهما زَوْجها والآخر أبوها ، وإنّ أباها يا أميرَ المؤمنين زَعَم أنّ زوجَها حَلَف بطلاقِها أنّ عليّ بنَ أبى طالب عليه السلام خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه ، وأنّه يزعُم أن ابنته طلقتْ منه ، وأنه لا يجوز له فى دِينِه أن يتّخذه صِهْرا ، وهو يَعلَم أنّها حرامٌ عليه كأمّه . وإنّ الزّوْج يقول له : كذبتَ وأثِمْتَ ، لقد برّ قَسَمى ، وصدقَتْ مَقالَتِى ، وإنها امرأتى على رَغْم أنفِك ، وغَيْظِ قلبِك ؛ فاجتمعوا إلىّ يختصِمون فى ذلك ، فسألتُ الرجلَ عن يَمينِه ، فقال : نعم ، قد كان ذلك ، وقد حلفتُ بطلاقِها أنّ عليا خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، عرَفه من عرَفه ، وأنكرَه من أنكرَه ؛ فليَغضَب من

---

(١) الأوساع : جمع وُسع ؛ وهو الطاقة .

(٢) سورة النساء ٨٣ .

غَضِب ، وليَرْضَ من رَضِي ، وتَسامعَ الناسُ بذلك ، فاجتمعوا له ، وإن كانت الألسنُ مجتمِعةً فالقلوب شَتَّى ، وقد علمتَ ياأميرَ المؤمنين اختلافَ النّاس فى أهوائهم، وتسرُّعهم إلى مافيه الفِتْنة ، فأحجَمْنا عن الحُكْم لتحكم بما أراك الله . وإنهما تعلّقا بها ، وأقسم أبوها ألا يَدَعَها معه ، وأقسم زَوْجُها ألّا يفارقَها ولو ضُرِبَتْ عُنقُه إلّا أن يحكُم عليه بذلك حاكم لا يَستطيع مُخالَفَته والامتناعَ منه ، فرفعناهم إليك يا أميرَ المؤمنين ، أحسنَ الله توفيقَك وأرْشَدَك !

وكَتَب فى أسفلِ الكتاب :

إذا ما المُشكِلاتُ وَرَدْن يوماً فحارَتْ فى تأمُّلِها العُيونُ
وضاقَ القومُ ذَرْعاً عن نباها فأنتَ لها أبا حفصٍ أمينُ
لأنّك قد حوَيْتَ العِلمَ طُرّاً وأحكَمكَ التجارِبُ والشُّئونُ
وخلّفكَ الإلهُ على الرّعايا فحظّك فيهمُ الحظُّ الثّمينُ

قال : فجمعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز بنى هاشم وبنى أميّة وأفخاذ قُرَيش ، ثم قال لأبى المرأة : ما تقول أيّها الشيخ ؟ قال : ياأميرَ المؤمنين ؛ هذا الرجلُ زوّجتُه ابنتى ، وجهزتُها إليه بأحسن ما يجهّز به مِثلُها ، حتى إذا أمّلتُ خيرَه ، ورجوتُ صلاحَه، حَلف بطلاقها كاذِباً ، ثم أرادَ الإقامةَ معها ، فقال له عمر : ياشيخ ، لعلّه لم يُطلّق امرأته ، فكيفَ حلَف ؟ قال الشيخ : سبحانَ الله ! الذى حلفَ عليه لأبْيَنُ حِنثاً وأوضَح كذِباً من أن يختلِج فى صدرى منه شكٌ ، مع سِنِّى وعِلْمى ، لأنّه زعم أنّ عليّاً خيرُ هذه الأمّة وإلّا فامرأتُه طالق ثلاثاً . فقال للزّوج : ما تقول ؟ أهكذا حلَفْتَ ؟ قال : نعم ، فقيل : إنّه لمّا قال : نعم ، كادَ المجلسُ يَرْتَجُّ بأهلِه ، وبنو أميّةَ ينظُرُون إليه شَزْراً ، إلّا أنّهم لم ينطِقوا بشىء ، كلٌّ ينظرُ إلى وجهِ عمر .

فأكبّ عمر مَلِيّاً يَنكُتُ الأرضَ بيدِهِ والقومُ صامتون ينظرُونَ ما يقولُه ، ثمّ رفع رأسَه وقال :

إذا وَلِيَ الحكومةَ بينَ قومٍ أصابَ الحقَّ والتمسَ السَّدادا
وما خيرُ الإمامِ إذا تعدَّى خلافَ الحقِّ واجْتنَبَ الرَّشادا

ثم قال للقوم : ما تقولونَ في يَمينِ هذا الرجل ؟ فسكتُوا ، فقال : سبحان الله ! قولُوا . فقال رجلٌ من بنى أمية : هذا حُكمٌ في فرْج ، ولسْنا نجترئُ على القوْلِ فيه ، وأنتَ عالمٌ بالقولِ ، مؤتمنٌ لهم وعليهم ، قُلْ ما عندك ، فإنّ القول ما لم يكن يُحِقّ باطلا ويُبطِلُ حقّاً جائزٌ عليَّ في مجلسى .

قال : لا أقولُ شيئاً ؛ فالتفتَ إلى رجلٍ من بنى هاشمٍ من وَلد عَقيل بن أبي طالب ، فقال له : ما تقول فيما حلَفَ به هذا الرجل ياعَقيلىّ ؟ فاغتنمها ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن جعلتَ قَوْلِي حُكماً ، أو حُكْمي جائزاً قلتُ ؛ وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسَعُ لى ، وأبقَى للمودّة ؛ قال : قل وقولُك حُكم ، وحُكمُك ماض .

فلما سَمِع ذلك بنو أمية قالوا : ما أنصفتَنا ياأميرَ المؤمنين إذ جعلتَ الحكمَ إلى غيرنا ، ونحن من لُحمَتِك وأولى رَحِمك ! فقال عمر : اسكتُوا أعجزا ولُؤْما ! عرضتُ ذلك عليكم آنِفاً فما انتدبتم له . قالوا : لأنك لم تُعطِنا ما أعطيتَ العقيليّ ، ولا حكّمتنا كما حكّمتَه ، فقال عمر : إن كانَ أصابَ وأخطأتم ، وحَزَم وعجَزْتم ، وأبصر وعَميتم ، فما ذَنب عمرَ ، لا أبا لكم ! أتدرون ما مَثَلُكم ؟ قالوا : لا ندْرِي ، قال : لكن العقيليُّ يَدْرِي ، ثم قال : ماتقول يارجل ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، كما قال الأوّل :

دُعِيتم إلى أمرٍ فلما عجَزْتمُ تناوَله من لا يُداخِلُه عجْزُ
فلمّا رأيتمْ ذاكَ أبدتْ نفوسُكمْ ندَاماً وهل يُغنى من الحذَرِ الحرْزُ !

فقال عمر : أحسنت وأصبتَ ، فقل ما سألتُكَ عنه . قال : ياأمير المؤمنين ،

بِرَّ قَسَمِهِ، ولم تَطلُق امرأتُه، قال: وأنّى علمتَ ذاك؟ قال: نشدتُكَ اللهَ يا أمير المؤمنين، ألم تعلمْ أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام وهوَ عندَها في بيتِها عائدٌ لها: يا بُنَيَّة، ماعِلّتُك؟ قالت: الوَعَك يا أَبَتاه ـ وكان عليٌّ غائبا في بعض حوائج النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ فقال لها: أتشتهين شيئاً؟ قالت: نعم أشتهي عِنَبا، وأنا أعلَمُ أنّه عزيز، وليس وَقْت عِنَب، فقال صلّى الله عليه وآله: إن الله قادرٌ على أن يجيئنا به، ثمّ قال: اللهمّ ائتنا به مع أفضل أمّتي عندَك منزلةً؛ فطَرَق عليٌّ الباب، ودَخَل ومعه مِكْتَل قد ألقى عليه طرف ردائه، فقال له النبيّ صلّى الله عليه وآله: ماهذا ياعليُّ؟ قال: عِنَبٌ التمستُه لفاطمةَ عليها السلام، فقال: الله أكبر الله أكبر، اللهمّ كما سررْتني بأن خَصصتَ عليّا بدَعْوتي فاجعلْ فيه شفاء بُنَيّتي، ثم قال: كُلي على اسم الله يا بُنَيَّة، فأكلَت، وما خَرَج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى استقلّت وبَرَأَتْ، فقال عمر: صدقتَ وبَرَرْتَ، أشهَدُ لقد سمعتُه ووعيتُه، يارجل، خذ بيَد امرأتك فإن عرَض لك أبُوها فاهشِمْ أنفَه. ثم قال: يا بَني عبدِ مناف، والله ما نجهل ما يَعلم غيرُنا، ولا بنا عمًى في دينِنا، ولكنّا كما قال الأوّل:

تَصَيَّدتِ الدنيا رجالاً بفَخِّها ... فلم يدرِكوا خيراً بل استقبحوا الشّرّا
وأعماهُمُ حُبُّ الغِنَى وأصمَّهُمْ ... فلم يُدرِكوا إلّا الخسارةَ والوِزْرا

قيل: فكأنّما ألقَم بني أميّة حجَرا، ومضى الرجلُ بامرأتِه.

وكتب عُمر إلى ميمونَ بن مِهرانَ:

عليك سلامٌ، فإنّي أحمَد إليك الله الّذي لا إله إلّا هو، أمّا بعد، فإنّي قد فهمتُ كتابَك، ووَرَدَ الرّجلان والمرأة، وقد صَدَق الله يَمينَ الزّوج، وأَبرّ قسمَه، وأثبته على نِكاحه، فاستيقِنْ ذلك، واعمَلْ عليه، والسّلام عليكَ ورحمةُ الله وبركاته.

فأما مَن قال بتفضيله على النّاس كافّةً من التابعين فَخَلْقٌ كثير كأُوَيْس القَرَنِيّ وزَيْد بن صُوحان، وصَعْصعة أخيه، وجُندُب[1] الخير، وعبيدة السّلمانيّ وغيرهم ممّن لا يُحصَى كثرةً، ولم تكن لفظةُ الشّيعة تُعرف فى ذلك العصر إلا لمن قال بتفضيله، ولم تكن مقالةُ الإماميّة ومَنْ نحا نحوَها من الطّاعنين فى إمامةِ السّلف مشهورة حينئذ على هذا النحو من الاشتهار، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمَّوْن الشّيعة، وجميعُ ماوَرَدَ من الآثار والأخبار فى فضل الشّيعة وأنهم مَوْعودُون بالجنّة، فهؤلاء هم المعنيّون به دون غيرِهم، ولذلك قال أصحابُنا المعتزلة فى كُتُبِهم وتصانيفِهم: نحن الشيعةَ حقّاً. فهذا القولُ هو أقرَبُ إلى السّلامة وأشبَهُ بالحقّ من القَوْلين المقتَسِمَيْنِ طرفَي الإفراط والتفْريط إن شاء الله.

(١) فى د « وجبيب ».

الأصْـلُ :

وسُئلَ عن التوْحيدِ والعَدْلِ ، فقالَ :

التَّوْحيدُ ألاّ تَتوَهَّمَهُ ، والعَدْلُ ألاّ تَتَّهِمَهُ .

***

الشَّـرْح :

هـذانِ الرُّكْنان هما رُكْنا علم الكلام ، وهما شِعارُ أصحابنا المعتزلة ، لنَفْيهم المعانيَ القديمـة التي يُثبِتهـا الأشعريّ وأصحابُه ، ولتنزيههم البـارى سبحانَه عن فِعل القَبيح .

ومعنى قوله « ألاّ تتوهّمه » أى ألاّ تتوهّمهُ جسْما أو صورةً أو فى جهةٍ مخصوصة ، أو مالئاً لـكلِّ الجهات كما ذَهبَ إليه قومٌ ، أو نُورا من الأنوار ، أو قوّة ساريةً فى جميع العالَم ، كما قالَه قومٌ ، أو مِنْ جنس الأعْراض التى تحُـلّ المَحالّ أو تحُل المَحلّ ، وليس بعرَض كما قاله النّصارى وغُلاة الشِّيعة ، أو تحلّه المعانى والأعراض ، فمتى تُوُهِّم على شىء مِنْ هذا فقد خُولف التوحيد ، وذلك لأنّ كل جِسْم أو عرَض أو حالٍّ فى محَلّ أو محلّ الحالّ ، أو مختص بجهة ، لا بدّ أن يكون منقسما فى ذاتِه ، لا سيّما على قول مَنْ نَفَى الجزاء مطلقا ، وكلّ منقسم فليسَ بواحد ، وقد ثبتَ أنه واحد . وأضاف أصحابُنا إلى التّوحيد نفىَ المعَانى القديمة ، ونفىَ ثانٍ فى الإلهية ، ونفى الرؤية ، ونفى كونه مشتهيا أو نافِرا أو ملتذّا[1] أو آلِما أو عالِما بِعلم مُحْدَث ، أو قادراً بقُدْرة محدَثة ، أو حَيًّا بحياةٍ محدَثة ، أو نفى كونه عالمـاً بالمستقبلات أبداً ، أو نفى كونِه عالمـاً بكلّ معلوم ، أو قادراً على

(١) فى د « متلذذاً » .

كل الأجناس وغير ذلك من مسائل عِلم الكلام التى يُدخِلها أصحابنا فى الركن الأول ، وهو التوحيد .

وأما الركن الثانى فهو ألاّ تتهمه ، أى لا تتّهمه فى أنه أجبَرك على القبيح ، ويعاقبك عليه ، حاشاه من ذلك ! ولا تتّهمه فى أنّه مَكّن الكذّابين من المعجزات ، فأضلّ بهم الناس ، ولا تتهمه فى أنه كلفك مالا تُطيقه ، وغير ذلك مِن مسائل العَدْل التى يَذكرها أصحابنا مفصّلة فى كُتبهم كالعوض عن الألم ، فإنه لا بدّ منه ، والثواب على فِعل الواجبِ فإنه لا بدّ منه ، وصدق وعدِه ووعيدِه ، فإنّه لا بدّ منه .

وجملة الأمر أنّ مذهبَ أصحابِنا فى العَدْل والتوحيد مأخوذٌ عن أمير المؤمنين . وهذا الموضعُ من المواضِع التى قد صرّح فيها بمذهبِ أصحابِنا بعَينه ، وفى فَرْش كلامِه من هذا النّمط مالا يُحصَى .

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ : فى دُعاء استَسْقَى بِهِ :

اللّهمّ اسْقِنا ذُلُلَ السَّحائبِ دُونَ صِعابِها .

***

قالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالى :

وهذا مِنَ الكَلامِ العَجيبِ الفصاحةِ ، وذلكَ أنهُ عليهِ السلامُ شبّهَ السُّحُبَ ذَوَاتِ الرُّعُودِ والبَوَارِقِ ، والرِّياحِ والصَّواعِقِ ، بالإبلِ الصِّعابِ الّتِي تَقْمُصُ بِرِحالِها[1] ، وتَتَوقّصُ بِرُكبانِها ، وشبّهَ السَّحائبَ الخالِيَةَ مِنْ تِلكَ الرَّوائعِ بالإبلِ الذُّلُلِ الّتِي تُحْتَلَبُ طَيِّعةً ، وتُقْتَعَدُ مُسْمِحةً .

***

الشرحُ :

قد كَفانا الرضيُّ - رحمهُ الله - بشرحه هذه الكلمة مَئُونةَ الخوضِ فى تفسيرها .

---

(١) فى د « بصاحبها » .

الأصْـلُ :

وقيلَ لَهُ عليهِ السلامُ : لَوْ غيَّرْتَ شَيْبَكَ يا أميرَ المُؤمنينَ ! فقال : الخِضَابُ زِينَةٌ ، ونَحْنُ قَوْمٌ فى مُصِيبَةٍ برَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ .

***

[مختارات مما قيل من الشعر فى الشيب والخضاب]

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم لنا فى الخضاب قولٌ كافٍ ، وأنا أستملح قولَ الصّابى فيه :

خضابٌ تقاسَمْناه بينى وبينَهـا ولكنّ شأنى فيه خالفَ شأنَها
فياقُبْحَه إذْ حَـلَّ مِنّى بمَفرِقى ويا حُسْنَه إذ حَلَّ منهـا بَنانَها
وسُحْقاً له عن لِمّتى حينَ شانَها وأهلاً به فى كَفِّها حيثُ زانَها

وقال أبو تمّام :

لَعِبَ الشَّيبُ بالمَفارِقِ بل جَـدَّ فأبكَى تُمـاضِراً ولَعُوبَا (١)
خَضَبَتْ خَـدَّها إلى لؤلُؤِ العِقْـدِ دماً أنْ رأتْ شَوَاتِى خَضِيبَا (٢)
كلّ داءٍ يُرجَى الدّواءُ له إلّا الفَظِيعَين : مِيتَـةً ومَشِيبَا
يانسيبَ الثَّغـامِ ذَنْبُك أبقَى حَسَناتى عند الحِسان ذُنوبَا (٣)

---

(١) ديوانه ١ : ١٦٦ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .

(٢) الشواة : جلدة الرأس . (٣) الثغام : نبت أبيض يشبه به الشيب .

ولئن عِبْنَ ما رأينَ لقد أنكَرْنَ مستنكَرا وعِبْنَ مَعيبا
لو رأى اللهُ أنّ فى الشَّيب فضْلا جاورته الأبرارُ فى الخُلْد شيبا

وقال :

فإن يكن المشيبُ طَغَى علينا وأوْدَى بالبَشاشةِ والشَّبابِ
فإنّى لستُ أدفعُه بشَىْء يكون عليه أثقلَ من خِضابِ
أردتُ بأنْ ذاك وذا عذابٌ فسلّطت العذابَ على العَذابِ

ابنُ الرُّومىّ :

لم أخضِب الشَّيبَ للغَوانِي أبغي به عندَهم وِدادَا
لكنْ خضابى على شَبابٍ لبستُ مِن بَعده حِدادَا

***

ومن مختارِ ماجاء من الشِّعر فى الشَّيب وإن لم يكن فيه ذِكر الخضاب قولُ أبى تمام :

نَسجَ المَشيبُ له لفاعاً مُغدِقاً يَقَقاً فقنّع مِذرَوَيه ونَصَّفَا
نَظَر الزمانُ إليه قطع دونَه نَظَر الشَّقيق تحسُّرا وتلهُّفا
ما اسوَدّ حتّى أبيضّ كالكرم الّذى لم يَبْدُ حتّى جىء كيْما يقطفَا
لمّا تفوّفَت الخُطوبُ سَوادَها بِبَياضِها عَبِثَت به فتفوّفا
ما كان يَخطر قبلَ ذا فى فِكرِه للبَدْر قبلَ تمامِه أن يُكسَفا

وقال أيضا :

غدَا الهمُّ مختطًّا بفَوْدَىَّ خِطّةً طريقُ الرّدَى منها إلى الموت مَهيَعُ (١)

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٤

هو الزَّور يُجفَى ، والمُعاشِرُ يُجتَوَى ... وذُو الإلفِ يُقلَى ، والجديدُ يُرَقَّعُ
له مَنظَرٌ فى العَيْن أبيضُ ناصعٌ ... ولكنه فى القلب أسودُ أسفَعُ
ونحن نُرَجِّيه على الكُرْه والرِّضا ... وأنفُ الفتى من وجهِه وهو أجدَعُ

وقال أيضا :

شُعلةٌ فى المَفارِق استَودَعتنى ... فى صَميم الأحشاء ثُكلاً صَميما (١)
تَستثيرُ الهمومَ ما أكتَنَّ منها ... صُعُداً وهى تَستثيرُ الهُموما
غُرّةٌ مُرّةٌ ألا إنَّما كنـ ... ـتُ أغرًّا أيّامَ كنتُ بَهِيما
دِقّةٌ فى الحياةِ تُدعَى جَلالاً ... مِثلَ ما سُمّى اللّديغُ سَليما
حلّمتنى زعَمتُمُ وأرانى ... قبلَ هذا التحليم كنتُ حَليما

وقال الصّابى وذَكَر الخِضاب :

خضبتُ مَشيبى للتعلّق بالصِّبا ... وأوهمتُ مَن أهواهُ أنّىَ لم أشِبْ
فلمّا ادّعى منّى العِذارُ شَبيبةً ... إذا صَليِى قد صاحَ من فَوقه كَذَبْ
فكَم طُرّةٍ طارَتْ ودانَتْ ذوائبٌ ... وكم وَجْنةٍ حالَتْ وماءُ بهـا نَضَبْ
شَواهدُ بالتزويرِ يَحوِينَ رَبّها ... فهِجرانُه عند الأحِبّة قد وَجَبْ

البحترىّ :

بانَ الشّبابُ فلا عَينٌ ولا أثَرٌ ... إلّا بقيّةَ بُرْدٍ منه أسمالِ
قد كِدْتُ أخرجه عن مُنتهَى عَدَدِى ... يأساً وأسقِطُه إذْ فاتَ مِن بالِى
سُوءُ العَواقِبِ يأسٌ قبلَه أمَلٌ ... وأعضَلُ الداءِ نُكسٌ بعد إبلالِ
والمرءُ طاعةُ أيّامٍ تُنقِّلُهُ ... تَنقُّلَ الظلِّ من حالٍ إلى حالِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٣

الأصْـلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

ما المُجاهِدُ الشَّهِيدُ في سَبيلِ اللهِ بِأعْظَمَ أجْراً مِمَّنْ قَدَرَ فعَفَّ ، لَكادَ العَفِيفُ أنْ يكُونَ مَلَكاً مِنَ الملائِكَةِ .

***

[نبذ وحكايات حول العفة]

الشَّرحُ :

قد تقدّم القولُ في العِفّة ، وهي ضُرُوب : عِفّة اليد ، وعِفّة اللسان ، وعِفّة الفَرْج ، وهي العُظْمَى ، وقد جاء في الحديث المرفوع : « مَن عَشِق فكَتَم وعَفّ وصَبَر فماتَ ماتَ شهيداً ودخَل الجنّة » .

وفي حكمة سليمانَ بن داود : إنّ الغالبَ لِهوَاه أشدّ من الذي يفتح المدينة وحدَه .

نزل خارجيٌّ على بعض إخوانه منهمْ مستترا من الحجّاج ، فشَخَص المنزولُ عليه لبعضِ حاجاته وقال لزوجته : ياظَمياء ، أُوصيكِ بضَيْفِي هـذا خيراً ، وكانتْ من أحسنَ الناس ـ فلمّا عاد بعدَ شهر قال لها : كيف كان ضيفُكِ ؟ قالت : ماأشغَلَه بالعَمَى عن كلّ شيء ؛ وكان الضّيف أطبقَ جَفْنَيه فلم ينظرُ إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجُها .

وقال الشاعر :

إن أكنْ طامحَ اللّحاظِ فإنّي ... والذى يَملكُ القلوبَ عَفيفُ

خرجت امرأةٌ من صالحاتِ نساء قريش إلى بابها لتغلقه ، ورأسُها مكشوف ، فرآها رجلٌ أجنبيّ ، فرجعتْ وحلقتْ شعرَها ، وكانت من أحسَن النّساء شَعْرا ، فقيل لها فى ذلك ، قالت : ما كنتُ لأَدَعَ على رأسِى شَعْرا رآه من ليسَ لى بمَحرَم .

كان ابنُ سيرينَ يقول : ماغَشِيتُ امرأةً قطّ فى يَقَظةٍ ولا نَوْم غيرَ أمّ عبدِ الله وإنّى لأرَى المرأةَ فى المَنام وأعلم أنّها لا تَحِلّ لى فأصرف بَصَرى عنها .

وقال بعضهم :

وإنّى لعفّ عن فُكاهة جارَتِى ... وإنّى لَمشنوءٌ إلىّ اغتيابُها

إذا غابَ عَنْها بعلُها لم أكُنْ لها ... صَدِيقاً ولم تَأنَسْ إلىّ كِلابُها

ولم أكُ طَلاّبا أحاديثَ سِرّها ... ولا عالِماً من أىّ حَوْكٍ ثيابُها

دخلتْ بُثينةُ على عبدِ الملك بن مَرْوانَ ، فقال : ما أرَى فيك يا بُثَيْنة شيئا ممّا كان يَلْهَج به جَميل ! فقالت : إنّه كان يَرْنُو إلىّ بعَيْنين ليستَا فى رأسِك ياأميرَ المؤمنين ، قال : فكيف صادفتِه فى عِفّته ؟ قالت : كما وَصَفَ نفسَه إذ قال :

لا والّذى تَسجُدُ الجِباهُ له ... مالى بما ضَمّ ثوبُها خَبَرُ (١)

ولا بِفيها ولا هَمَمْتُ به ... ما كانَ إلّا الحديثُ والنّظَرُ

وقال أبو سَهْل الساعدىّ : دخلتُ على جَميل فى مرضِ مَوْته ، فقال : يا أبا سَهْل ، رجلٌ يَلْقَى الله ولم يَسفِكْ دَماً حراما ، ولم يَشرَبْ خمرا ، ولم يأتِ فاحشةً ، أترجو له الجنّة؟ قلتُ : إى والله فمن هوَ ؟ قال : إنى لأرجُو أن أكون أنا ذلك ، فذكرتُ له بُثينَة ،

---

(١) ديوانه ٨٩ ، ٩٠ .

فقال : إنّي لفي آخر يومٍ من أيّام الدنيا ، وأوّل يومٍ من أيّام الآخرة ، لا نالتني شفاعة محمّد إنْ كنتُ حدّثتُ نفسي بريبةٍ معها أو مع غيرِها قطّ .

قال الشاعر :

قالتْ وقلتُ ترَفَّقي فصِلي حَبْلَ امرئٍ بوِصالكمْ صَبِّ
صادِقْ إذاً بَعْلي فقلتُ لها الغدرُ شيءٌ ليسَ مِن شَعْبي
ثِنْتانِ لا أصْبو لوَصْلِهما عِرْسُ الصدّيق وجارَة الجَنْبِ
أمّا الصديقُ فلستُ خائِنَهُ والجارُ أوْصاني به رَبّي

يقال : إنّ امرأةً ذات جمالٍ دَعتْ عبد الله بنَ عبد المطّلب إلى نفسها لما كانت ترَى على وجهه من النُّور ، فأبى وقال :

أمّا الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ والحِلّ لاحِلّ فأستبينَهُ
فكيفَ بالأمرِ الذى تبْغينهُ يَحمِي الكريمُ عِرْضَه ودِينَهُ

راوَدَ توبةُ بنُ الحُمَيّر ليلى الأخيليّة مرّةً عن نفسها ، فاشمأزّت منه وقالت :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حَيِيتَ سبيلُ[1]
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخَليلُ

ابنُ ميّادة :

موانِعُ لا يُعطين حَبّةَ خَرْدلٍ وهنّ زَوانٍ فى الحديث أوانسُ
ويَكرَهن أن يَسمعن فى اللهوِ رِيبةً كما كرِهتْ صوتَ اللِّجامِ الشّوامِسُ

آخر :

بيضٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ كظِباء مكّةَ صيدُهنّ حَرامُ

---

(١) أمالى القالى ١ : ٨٨

يُحسّنّ من لين الكلام زَوانياً ... ويصدُّهنّ عن الخنا الإسلامُ

فى الحديث المرفوع : « لا تكونَنّ حديدَ النظر إلى ما ليس لك ، فإنه لا يَزْنى فرْجُك ما حَفِظْتَ عَيْنَيك ، وإن استطعت ألاّ تنظرُ إلى ثوب المرأة التى لا تَحلّ لك فافعل ولن تستطيع ذلك إلاّ بإذن الله » .

كان ابن المولى الشاعر المدنىّ موصوفاً بالعفّة وطيب الإزار ، فأنشد عبد الملك شعراً له من جُملته :

وأبكى فلا لَيْلَى بكتْ من صَبابةٍ ... لباكٍ ولا لَيلى لذى البَذل تبذُلُ

وأخنع بالعُتبى إذا كنتُ مُذنِباً ... وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصّلُ

فقال عبدُ الملك : مَن ليلى هذه ؟ إن كانت حرّة لأزَوّجنكها ، وإن كانت أمَةً لاشترينّها لك بالغة ما بلغتْ ، فقال : كلاّ يا أمير المؤمنين ، ما كنت لأصَعِّر وجه حُرّ أبدا فى حُرّته ولا فى أمَتِه ، وما ليلى التى أنِست بها إلاّ قَوْسى هــذه سمّيتها ليلى لأنّ الشاعر لا بدّ له من النّسيب .

ابن الملوّح المجنون :

كأن على أنيابها الخمــــر مجّهُ ... بماء النّدَى من آخر الليل غابِقُ(١)

وما ذُقتُه إلاّ بعَيْنى تفرّساً ... كما شِيم من أعلى السّحابة بارِقُ

هذ مثل بيت الحماسة :

بأعذبَ مِنْ فيها وما ذُقْتُ طَعْمَهُ ... ولكننى فيما تَرَى العينُ فارِسُ(٢)

شاعر :

ما إن دعــانى الهوَى لفاحِشَةٍ ... إلاّ نهانى الحيــاء والكَرَمُ

---

(١) ديوانه ٢٠٣

(٢) لأبى صفيرة البولانى ، ديوان الحماسة ٣ : ١٢٨١ ـ بشرح المرزوق .

ولا إلى مَحْرَمٍ مددتُ يَدِي ولا مشَت بى لرِيبةٍ قدَمُ

العباس بنُ الأحنف :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتِكُمْ فعندكم شهَواتُ السَّمعِ والبَصَرِ (١)

لا يُضمِرُ السُّوءَ إن طال الجلوس به عفُّ الضمير ولكنْ فاسقُ النَّظَرِ

قال بعضهم : رأيتُ امرأةً مستقبلة البيت فى المَوْسم ، وهى فى غاية الضُرِّ والنَّحافة ، رافعةً يديها تدعو ، فقلتُ لها : هل لكِ من حاجة ؟ قالت : حاجتى أن تُنادِيَ فى الموقف بقولى :

تزوَّدَ كلُّ الناس زاداً يُقيمُهُمْ ومالِيَ زادٌ والسّلام على نَفْسى

ففعلت ، وإذا أنا بفَتى مَنْهوك ، فقال : أنا الزاد ، فمضيتُ به إليها ، فما زادوا على النظَر والبكاء ، ثمّ قالت له : انصرف مُصاحَباً ، فقلت : ما علمت أن التقاءكما يُقتصر فيه على هذا ، فقالت : امسِكْ يافتى ، أما علمت أن ركوب العار ودُخول النار شديد .

قال بعضهم :

كم قد ظَفِرتُ بمن أهوَى فيمنَعُنى منهُ الحياءُ وخوفُ اللهِ والحَذَرُ

وكم خلَوْتُ بمن أهوَى فيُقْنعُنى منه الفُكاهةُ والتحديثُ والنَّظَرُ

أهوىَ المِلاحَ وأهوى أن أجالِسَهمْ وليس لى فى حَرامٍ منهمُ وَطَرُ

كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ لا خيرَ فى لذّةٍ من بعدِها سَقَرُ

قال محمّد بن عبدِ الله بنِ طاهر لبنيه : اعشقُوا تظرُفوا ، وعِفُّوا تَشرُفوا .

وَصَفَ أعرابيٌّ امرأةً طرقَها ، فقال : مازالَ القمرُ يُرينِيها فلمّا غاب أرتْنيه ، فقيل : فما كان بينكما ؟ قال : ما أقربَ ما أحلَّ اللهُ ممّا حرّم ، إشارة فى غير باس ، ودنوٌّ من غير مساس ، ولا وَجَع أشدَّ من الذنوب .

---

(١) ديوانه ١٤٧

كثيِّر عزّة :

وإنّي لأرضَى منكِ ياعزّ بالّذي لو أبصرَه الواشي لقرّت بلابلُهْ

بِلَا وبألاّ أستطيــعَ وبالْمنى وبالوَعْد حتّى يسأمَ الوعدَ آملُهْ

وبالنّظرةِ المعجْلَى وبالحوْل ينقضِي أواخِره لا نَلتقِي وأوائِــلُهْ

وقال بعضُ الظُّرَفاء : كان أربابُ الهوَى يسرّون فيما مضى ، ويقنعون بأن يمضغ أحدُهم لباناً قد مَضغَتْه محبوبتهُ ، أو يَستاك بسواكِها ، ويرَوْن ذاك عظيما ، واليومَ يطلُب أحدهم الخلوة وإرخاء السُّتور ، كأنّه قد أشهَد على نكاحِها أبا سعيدٍ وأبا هُريرة .

وقالى أحمد بنُ أبي عثمان الكاتب :

وإنّي ليرُضِيني المرورُ ببابِهـا وأقنعُ منها بالوعِيد وبالزّجْـرِ

قال يوسف بن الماجِشون : أنشَدْتُ محمّد بن المنكدِر قول وَضّاح اليَمن :

إذا قلتُ هاتِي نَوّلِيني تبسّمتْ وقالت معاذَ اللهِ مِنْ فِعْلِ ماحَرُمْ

فما نَوّلتْ حتّى تضرّعْتُ حَوْلها وعرّفتُها مارخّص اللهُ في اللَّمَمْ

فَضحِك وقال : إنْ كان وَضّاحٌ لَفَقِيها في نفسِه .

قال آخر :

فقالتْ بحقِّ اللهِ إلاّ أتيتَنــا إذا كان لونُ اللّيلِ لونَ الطّيالِسِ

فجئتُ وما في القومِ يقظانُ غيرُها وقد نامَ عنها كلُّ والٍ وحارِسِ

فبتْنا مَبيتاً طيّبا نستـــلذّه جميعاً ولم أمدُدْ لها كَفّ لامِسِ

مرّت امرأة حَسْناء بقَوْم من بني نُمَير مجتمعين في نادِيهم ، فرمَقوها بأبصارهم ، وقال قائل منهم : ما أكمَلَهـا لولا أنّهـا رَسْحاء[1] ! فالتفَتْت إليهم ، وقالت : والله

(١) الرسحاء : القبيحة .

يا بني نمير، ما أطعتم الله ولا الشاعر، قال الله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾(١).

وقال الشاعر:

فغضّ الطرفَ إنك من نُمَيْرٍ　　فلا كعباً بلغتَ ولا كِلاَبا(٢)

فأخجلَتْهم.

وقال أبو صَخْر الهُذَليُّ من شِعْر الحماسة:

ولَلَيلة منها تَعود لنـــا　　من غير مارَفَثٍ ولا إثمِ
أشهى إلى نفسي ولو برحتْ　　ممّا ملكتُ ومِنْ بني سَهْم

آخَر:

وما نلتُ منها محرَماً غير أنني　　أقبّل بسّاما من الثغر أفلجـا
وألثمُ فاها آخِذاً بقرُونِهـــا　　وأترُك حاجاتِ النُفوس تحرُّجا

وأعفُّ من هذا الشعر قولُ عبدِ بني الحسْحاس على فِسْقه:

لعمرُ أبيها ماصَبَوْتُ ولا صَبَتْ　　إليَّ وإنِّي مِن صِباً لحليمُ
سِوى قُبلةٍ أستغفر الله ذَنْبهـا　　سأطعِم مسكينا لهـــاوأصُومُ

وقال آخَر:

ومجدُولةٍ جَدْلَ العَناقِ كأنّمـا　　سَنَا البرْق في داجِي الظلام ابتسامُها
ضَربتُ لها الميعادَ ليستْ بكَنّةٍ　　ولا جارةٍ يُخشَى عليَّ ذِمامُهـــا
فلمّا التقيْنا قالت الحكْم فاحتكمْ　　سوى خلّةٍ هيهاتَ منكَ مرامُها
فقلتُ مَعاذَ الله أن أركبَ التي　　تَبيدُ ويَبْقَى في المَعادِ أثامُهـــا

---

(١) سورة النور ٣٠

(٢) لجرير، ديوانه.

قوله : « ليست بكَنّة * ولا جارةٍ يُخشى علىّ ذِمامُها » ، مأخوذٌ من قول قيس ابن الخطيم :

ومثلكِ قد أحببْتُ ليستْ بكَنّةٍ ولا جارةٍ ولا حَليلة صاحبِ (١)

وهذا الشاعر قد زاد عليه بقوله : « ولا حليلة صاحب » .

وأنشد ابن مَنْدُوَيه لبعضهم :

أنا زانِي اللّسانِ والطَّرْفِ إلّا أنّ قلبي يَعـافُ ذاكَ ويأبَى

لا يَرانى الإلهُ أشربُ إلّا كلَّ ماحَلَّ شُربُهُ لى وطابا

آخر :

نَلهُو بهنّ كذا من غيرِ فاحشةٍ لهوَ الصِّيامِ بتُفّاحِ البَساتينِ

بشّار بنُ بُرْد :

قالوا حرامٌ تَلاقِينا فقلتُ لهمْ مافي التزامِ ولا في قُبلةٍ حَرَجُ (٢)

مَنْ راقبَ الناسَ لم يَظفرْ بحاجتِه وفازَ بالطيّباتِ الفاتكُ اللَّهِجُ

البيت الآخر مِثلُ قولِ القائل :

مَن راقبَ النـاسَ ماتَ غمًّا وفازَ باللّــــذّةِ الجَسُورُ

أبو الطيّب المتنبّي :

وتَرَى الفتـوّةَ والمروّةَ والأبُوّةَ فىّ كُلُّ مليحـةٍ ضَرّاتِها (٣)

هنّ الثلاثُ المـانِعاتِي لَذّتي فى خَلْوَتى لا الخوفُ مِنْ تَبِعاتِها

إنّى على شَغَفى بما فى خُمْرِهـا لأعفُّ عمّا فى سَراويلاتِها

* * *

(١) ديوانه ٣٦ (٢) ديوانه ٢ : ٧٥ ، ٧٦

(٣) ديوانه ١ : ٢٢٧

كان الصاحبُ رحمه الله يَستهجن قولَه : « عمّا فى سَراوِيلاتِها » ، ويقول : إن كثيرا من العُهْرِ أحسَن من هذه العِفّة ، ومعنى البيت الأول أنّ هذه الخِلالَ الثلاثَ تَراهُنّ المِلاحُ ضَرائرَ لهنّ لأنهن يمنعنه عن الخلْوَة بالمِلاح والتمتع بهنّ . ثم قال : إنّ هـذه الخلالَ هى التى تَمنعه لا الخوفُ من تَبِعاتها ، وقال قوم : هذا تَهـاونٌ بالدِّين ، ونوعٌ من الإلحاد . وعندى أنّ هذا مَذهبُ للشعراء معروف ، لا يُريدون به التّهاوُنَ بالدِّين ، بل المبالغةَ فى وَصْف سجَاياهُم وأخلاقِهم بالطّهارة ، وأنهم يَتركون القَبيح لأنّه قبيح ، لا لِوُرُود الشَّرْع به ، وخوف العِقاب منه . ويمكن أيضا أن يريدَ بِتَبعاتها تبعات الدّنيا ، أى لا أخاف من قوم هـذه المحبوبة التى أنِسْتُ بها ، ولا أشفق من حَرْبِهم وكيدِهِم ، فأمّا عفّة اليد وعفّة اللّسان فهما بابٌ آخَر ، وقد ذكرنا طَرَفا صالحا من ذلك فى الأجزاء المتقدِّمة عند ذِكرِنا الوَرَع .

وفى الحديث المرفوع : « لا يَبلُغ العبدُ أن يكون من المتّقين حتّى يترَك مالا بأسَ به حذارَ ما به البأس » .

وقال أبو بكر فى مرض موتِه : إنا منذُ وَلِينا أمرَ المسلمين لم نأخذْ لهم دِرْهما ولا دينارا ، وأكلْنا من جَرِيش الطّعام ، ولبسنْا من خَشِنِ الثِّياب ، وليس عندَنا من فَىْء المسلمين إلّا هـذا الناضح ، وهذا العبد الحبَشىّ ، وهذه القطيفة ، فإذا قُبِضْتُ فادفعوا ذلك إلى عُمرَ ليجعَلَه فى بيتِ مالِ المسلمين . فلما ماتَ حُمِل ذلك إلى عمَر ، فبَكَى كثيرا ثم قال : رحِم الله أبا بكر ، لقد أتعبَ مَن بَعدَه !

قال سليمانُ بنُ داود : يابنى إسرائيل ، أوصيكم بأمرَيْن أفلح مَن فعَلَهما : لا تُدخِلوا أجوافَكم إلّا الطّيِّب ، ولا تُخرِجوا مِن أفواهِكم إلّا الطّيِّب .

وقال بعضُ الحكماء : إذا شئتَ أن تَعرف ربَّك معرفةً يقينيّة فاجعلْ بينكَ وبين المحارم حائطاً من حديد ، فسوفَ يَفتح عليك أبواب مَعرفته .

ومما يُحكى من وَرَع حسّان بن أبي سِنان أنّ غلاما له كتب إليه من الأهواز : إنّ قَصَبَ السكّر أصابتْه السّنة آفة فابتعْ ماقدَرْتَ عليه من السّكّر ، فإنّك تجد له رِبْحًا كثيرا فيما بعد ، فابتاع ، وطُلِبَ منه ما ابتاعَه بعد قليلٍ بربح ثلاثينَ ألف درهم ، فاستقالَ البَيْع من صاحبه ، وقال : إنه لَم يَعلَمْ ما كنتُ أعلم حين اشتريتُه منه ، فقال البائع : قد علمتُ الآن مقدارَ الرّبح ، وقد طيّبتُه لك وأحللتُك ، فلم يطمئنّ قلبُه ، وما زال حتّى ردّه عليه .

يقال : إنّ غَنَم الغارة اختلطَتْ بغَنَم أهلِ الكوفة ، فتورّع أبو حنيفة أن يأكُلَ اللحمَ ، وسَأل كم تعيشُ الشاة ؟ قالوا : سبعَ سنين ، فترك أكْلَ لَحمِ الغَنَمِ سبعَ سِنين .

ويقال : إنّ المنصورَ حمل إليهِ بَدْرةً فرَمَى بها إلى زاوية البيت ، فلمّا مات جاء بها ابنهُ حمّاد بن أبي حنيفة إلى أبي الحسن بن أبي قحطبة ، وقال : إنّ أبي أوصاني أن أردَّ هذه عليك ، وقال : إنّها كانت عندي كالوَديعة ، فاصرِفها فيما أمَركَ الله به ، فقال أبو الحَسَن : رَحِم الله أبا حَنيفة ! لقد شحّ بدينه إذ سَخَتْ به نفوسُ أقْوام .

وقال سُفْيانُ الثّوريّ : انظر دِرْهمك من أيْنَ هُوَ ، وَصَلّ في الصّفّ الأخير .

جابر ، سمعتُ النّبيّ صلّى الله عليه وآله يقول لكَعْب بن عُجْرة : « لا يَدخُل الجنّة لحمٌ نبتَ من السُّحْت ، النّار أوْلَى به »

الحَسَن : لو وجدتُ رَغيفاً من حَلالٍ لأحْرَقْتُه ثم سحقْتُه ثم جعلْتُه ذَرُورا ، ثم دَاوَيْتُ به المَرْضَى .

عائشة ، قالت : يارسول الله ، مَن المؤمن ؟ قال : من إذا أصبح نظر إلى رغيفيه كيف يكتسبهما ، قالت : يارسول الله ، أما إنهم لو كُلِّفوا ذلك لتكلّفوه ، فقال لها : إنهم قد كُلِّفوه ، ولكنهم يَعسِفون الدّنيا عَسْفا .

حُذَيفة بن اليمان يرفعه : إنّ قوما يجيئون يومَ القيامة ولهم من الحسنات كأمثال الجبال ، فيجعلها الله هباء منثورا ، ثمّ يُؤمَر بهم إلى النّار ؛ فقيل : حَلِّهم لنا يارسول الله ، قال : إنهم كانوا يُصلّون ويَصُومون ويأخذون أُهْبَةً من اللّيل ، ولكنهم كانوا إذا عَرِض عليهم الحرامُ وَثبوا عليه .

(٤٨٠)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ : الْقَنَاعَةُ مالٌ لا يَنْفَدُ .

قال : وقدْ رَوَى بَعْضُهم هَذَا الكلاَمَ عَنْ رَسُولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وآله .

***

الشَّرحُ :

قد تقدَّم القولُ في هذا المعنى ، وقد تكرّرتْ هذه اللفظة بذاتِها في كلامِه عليه السلام .

ومن جيّد القولِ في القناعة قولُ الغزّيّ :

أنا كالثُّعْبانِ جِلْدِي ملْبَسِي ... لستُ محتاجاً إلى ثوبِ الجَمَالِ

فالخمولُ العِزّ واليأسُ الغِنَى ... والقُنوعُ المُلْك ، هذا ما بَدا لي

وقال أيضا :

لا تعجبَنّ لمن يهوَى ويَصعَد في ... دُنياه فالخلْق في أُرجوحةِ القَدَرِ

واقنعْ بما قَلّ فالأوْشالُ صافيةٌ ... ولُجة البَحْرِ لا تخلو من الكَدَرِ

الأصْـلُ :

وقال عليهِ السلامُ لزيادِ بْنِ أبيهِ وقد استخلفهُ لعبدِ اللهِ بنِ العبّاسِ على فارِسَ وأعمالِها ، فى كلامٍ طويلٍ كانَ بَيْنَهما نَهاهُ فيهِ عنْ تَقْديمِ الخَراجِ :

اِسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ ، واحْذَرِ الْعَسْفَ والْحَيْفَ ؛ فإنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بالْجَلاءِ ، والحيفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ .

الشَّـرْحُ :

قد سَبَقَ الكلامُ فى العَدْلِ والجَوْرِ .

وكانت عادةُ أهلِ فارس فى أيّامِ عثمانَ أن يَطْلُبَ الوالى منهم خَرَاجَ أملاكِهِم قبل بَيْعِ الثِّمارِ على وَجْهِ الاسْتِسْلافِ ، أو لأنّهم كانوا يظنّون أن أوّل السّنة القَمَرِيّة هو مُبتدأُ وجُوبِ الخَرَاجِ حَمْلاً للخَرَاجِ التابعِ لِسَنَةِ الشّمس على الحُقوق الهلاليّة التابعة لِسَنَةِ القَمَرِ ، كأُجْرَةِ العَقارِ ، وجَوالِي أهلِ الذِّمّــة ، فـكان ذلك يُجْحِفُ بالنّاسِ ويدعو إلى عَسْفِهِم وحَيْفِهِم .

وقد غلط فى هذا المعنى جماعةٌ من الملوك فى كثير من الأعصار ، ولم يَعلَموا فَرْقَ مابين السَّنَتين ، ثم تنبّه له قومٌ من أذكياء الناسِ فـكَبَسوا وجعلوا السنينَ واحدةً ، ثم أهملَ الناسُ الـكَبْسَ ، وانفرَجَ مابين السَّنَةِ القمريّة والسَّنة الخراجيّة الّتى هى سَنَةُ الشمسِ انفراجاً كثيراً .

واستقصاءُ القولِ فى ذلك لا يليقُ بهـذا الموضعِ ، لأنّه خارجٌ عن فنِّ الأدب الّذى هو موضوعُ كتابِنا هذا .

(٤٨٢)

الأصلُ :

وقالَ عليه السلام :

أشدُّ الذُّنُوبِ ما اسْتَخَفَّ بها صاحِبها .

***

الشَّرحُ :

عُظمُ المصيبةِ على حَسَب نِعمة العاصى ، ولهذا كان لَطْم الولد وجهَ الوَالدِ كبيراً ليس كلَطْمة وجه غيرِ الوَالد .

ولما كان البارى تعالى أعظَمَ المُنعِمين ، بل لا نِعمةَ إلّا وهى فى الحقيقةِ مِن نِعَمه ، ومنسوبة إليه ، كانت مخالَفَته ومعصِيَته عظيمة جدّا ، فلا ينبغى لأحدٍ أن يعصِيَه فى أمرٍ وإن كان قليلا فى ظَنّه ، ثم يستقلّه ويستهين به ، ويُظهِر الاستخفافَ وقلّة الاحتفال بمواقَعته ، فإنّه يكون قد جَمَع إلى المعصية معصيةً أخرى ، وهى الاستخفاف بقَدْر تلك المعصية التى لو أمعَن النَّظَر لَعلِم أنّها عظيمة ، ينبغى له لو كان رشيدا أن يَبكِيَ عليها الدَّمَ فَضْلا عن الدَّمْع ، فلهذا قال عليه السلام : « أشدّ الذنوب ما استَخَفّ بها صاحِبها » .

الأصل :

وقالَ عليهِ السلام :

ما أخَذَ اللهُ عَلَى أهْلِ الجَهْلِ أنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أخَذَ عَلَى أهْلِ العِلْمِ أنْ يُعَلِّمُوا .

***

الشرح :

تعليمُ العِلْمِ فرضُ كفايةٍ ، وفى الخبرِ المرفوع « من عَلِمَ عِلْماً وكَتَمه ألجمه اللهُ يومَ القيامة بِلجامٍ من نار » .

ورَوَى مُعاذُ بنُ جَبَل عن النبيّ صلّى الله عليـه وآله قال : « تعلّموا العِلْمَ فإنّ تعلّمه خشية الله ، ودِراستَه تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلَبه عبادة ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قُرْبة ، لأنّه مَعالِمُ الحلال والحرام ، وبيانُ سبيلِ الجنّة ، والمؤنسُ فى الوحشة ، والمحدّث فى الخلوة ، والجليس فى الوحدة ، والصاحب فى الغربة ، والدليل على السرّاء ، والمُعين على الضرّاء ، والزّين عند الإخلاء ، والسلاح على الأعداء » .

ورُئيَ واصل بن عطاء يكتب من صبيّ حديثا ، فقيل له : مثلك يـكتب من هذا ! فقال : أما إنى أحفَظُ له منه ، ولـكنى أردت أن أذيقه كأس الرياسة ، ليدعوَه ذلك إلى الازدياد من العلم .

وقال الخليل : العلوم أقفال ، والسؤالات مفاتيحها .

وقال بعضهم : كان أهل العلم يضنّون بعلمهم عن أهل الدنيا فيرغبون فيه ويبذلون لهم دنياهم ، واليوم قد بذل أهل العلم علمهم لأهل الدنيا فزهدوا فيه وضنّوا عنهم بدنياهم .

وقال بعضهم : ابذل علمك لمن يطلبه ، وادع إليه من لا يطلبه ، وإلا كان مَثَلك كمن أهديتْ له فاكهة فلم يَطعَمها ولم يُطعِمْها حتى فسدتْ .

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

شَرُّ الإخْوانِ مَنْ تَكَلَّفُ لهُ .

***

الشَّرحُ :

إنما كان كذلك لأنّ الإخاء الصادق بينهما يوجب الانبساط ، وترك التكلف ، فإذا احتيج إلى التكلف له فقد دلّ ذلك على أن ليس هناك إخاء صادق ، ومن ليس بأخ صادق فهو من شرّ الإخوان .

وروى ابن ناقيا فى كتاب « ملح الممالحة » ، قال : دخل الحسن بن سهل على المأمون ، فقال له : كيف علمك بالمروءة ؟ قال : ما أعلم مايريد أمير المؤمنين فأجيبه ؟ قال : عليك بعمرو بن مسعدة ، قال : فوافيتُ عمراً وفى داره صنّاع ، وهو جالس على آجُرّة ينظر إليهم ، فقلت : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلّمنى المروءة ، فدعا بآجرّة فأجلسنى عليها ، وتحدّثنا مليا ، وقد امتلأتُ غيظا من تقصيره بى ، ثم قال : ياغلام عندك شىء يؤكل ؟ فقال : نَعَم ، فقدّم طَبَقاً لطيفا ، عليه رغيفان وثلاث سكرّجات ، فى إحداهنّ خَلّ ، وفى الأخرى مُرِىّ ، وفى الأخرى مِلح ، فأكلنا ، وجاء الفرّاش فوضّأنا ، ثم قال : إذا شئت ! فنهضت متحفظا ، ولم أودّعه ، فقال لى : إن رأيتَ أن تعود إلىّ فى يوم مثله ! فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى ، فلما كان فى اليوم الذى وعدنى فيه لُقياه

سرت إليه فاستؤذن لى عليه ، فتلقّانى على باب الدار ، فعانقنى ، وقبّل بين عينىّ ، وقدّمنى أمامه ، ومشى خلفى حتى أقعدنى فى الدّست ، وجلس بين يدىّ ، وقد فرشت الدار ، وزُيِّنَت بأنواع الزينة ، وأقبل يحدّثنى ويتنادر معى إلى أن حضر وقت الطعام ، فأمر فقدّمت أطباق الفاكهة ، فأصبنا منها ، ونصبت الموائد ، فقدّم عليها أنواع الأطعمة من حارّها وباردِها ، وحلوها وحامضها ، ثم قال : أىّ الشراب أعجب إليك ؟ فاقترحت عليه ، وحضر الوصائف للخدمة ، فلما أردت الانصراف حَمَل معى جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفُرش وكِسوة ، وقدم إلى البساط فرس بمركب ثقيل ، فركبته وأمر من بحضرته من الغلمان الرّوم والوصائف حتى سعوا بين يدىّ ، وقال : عليك بهم فهم لك . ثم قال : إذا زارك أخوك فلا تتكلّف له ، واقتصر على مايحضرك ، وإذا دعوته فاحتفل به واحتشد ، ولا تدعَنّ ممكنا ، كفعلنا إيّاك عند زيارتك إيّانا ، وفعلنا يوم دعوناك .

(٤٨٥)

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى كلامٍ له :

إذَا احْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أخاهُ فقَدْ فَارَقَهُ .

***

الشَّـرْحُ :

ليس يعنى أن الاحتشام علة الفرقة بل هو دلالة وأمارة على الفرقة ، لأنه لو لم يَحْدُث عنه ما يقتضى الاحتشام لا نبسط على عادته الأولى ، فالانقبـاض أمارة المباينة .

***

هذا آخر ما دَوّنه الرّضىّ أبو الحسن رحمه الله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى « نهج البلاغةِ » ، قد أتينا على شرحِه بمعونةِ اللهِ تعالى .

ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضىّ مما نسبه قوم إليه ، فبعضهُ مشهور عنه ، وبعضه ليس بذلك المشهور ؛ لكنه قد روى عنه ، وعُزِىَ إليه ، وبعضه من كلام غيره من الحكماء ؛ ولكنه كالنظير لكلامه ، والمضارع لحكمته ؛ ولما كان ذلك متضمنا فنونا من الحكمة نافعة ؛ رأينا ألاّ نُخْلِىَ هذا الكتاب عنهُ ؛ لأنّه كالتكملة والتتمّة لكتاب « نهج البلاغة » .

وربما وقع فى بعضه تكرار يسير شذّ عن أذهاننا التنبّه له ، لطول الكتاب وتباعد أطرافه ، وقد عددنا ذلك كلمة كلمة، فوجدناه ألف كلمة .

فإن اعترضنا معترض وقال : فإذا كنتم قد أقررتم بأنّ بعضها ليس بكلام له ؛ فلما ذا ذكرتموه ، وهل ذلك إلا نوع من التطويل !

أجبناه وقلنا : لو كان هذا الاعتراضُ لازماً لوجب ألاّ نذكر شيئاً من الأشباه والنظائر لكلامه ، فالعذر ها هنا هو العذر هناك ، وهو أنّ الغرض بالكتاب الأدب والحكمة ؛ فإذا وجدنا ما يناسب كلامه عليه السلام ، وينصبّ فى قالَبه ويحتذى حذوَه ، ويتقبّل منهاجَه ، ذكرناه على قاعدتنا فى ذكر النظير عند الخوض فى شرح نظيره .

وهذا حينُ الشروع فيها خاليةً عن الشرح لجلائها ووضوحها ، وإنّ أكثرها قد سبقت نظائره وأمثاله ، وبالله التوفيق .

الحكم المنسوبة

الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب

١ — كان كثيراً ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل : أشهد أن السموات والأرض وما بينهما آيات تدلّ عليك ، وشواهد تشهد بما إليه دعوتَ . كلّ ما يؤدّى عنك الحجّة ، ويشهد لك بالرّبوبيّة موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك . علوتَ بها عن خلقك ، فأوصلتَ إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ، وكفاها رجْم الاحتجاج؛ فهى مع معرفتها بك ، وولهها إليك ؛ شاهدة بأنّك لا تأخذك الأوهام ، ولا تدركك العقول ولا الأبصار . أعوذ بك أنْ أشير بقلبٍ أو لسان أو يدٍ إلى غيرك ؛ لا إله إلا أنتَ، واحداً أحداً ، فرداً صَمَداً ، ونحن لك مسلمُون .

٢ — إلهى ، كفانى فخراً أن تكون لى ربًّا ، وكفانى عزًّا أن أكون لك عبداً ؛ أنت كما أريد ، فاجعلنى كما تريد .

٣ — ماخاف امرؤ عَدَل فى حكمِه ، وأطعم من قُوتِه ، وذَخَر من دنياه لآخرته .

٤ — أفضِلْ على مَنْ شِئْتَ تكنْ أميرَه ، واستَغْنِ عمَّن شئتَ تكنْ نظيرَه ، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكن أسيرَه .

٥ — لولا ضعفُ اليقين ما كان لنا أن نشكوَ محنةً يسيرةً نرجو فى العاجل سرعةَ زوالِها ، وفى الآجل عظيمَ ثوابها ، بين أضعاف نِعَمٍ لو اجتمع أهلُ السموات والأرضِ على إحصائها ماوفوْا بها فضلا عن القيام بشكرها .

٦ — من علاماتِ المأمونِ على دينِ الله بعدَ الإقرار والعمل ، الحزمُ فى أمره ، والصّدق فى قوله ، والعدل فى حكمِه ، والشفقة على رعيّته ، لا تخرجه القدْرة إلى خُرْق[1] ، ولا اللّين إلى ضَعف ، ولا تمنعه العزّة من كرم عفو ، ولا يدعوه العفو

---

(١) الخرق : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .

إلى إضاعة حقّ ، ولا يدخله الإعطاء فى سَرَف ، ولا يتخطّى به القصْد[1] إلى بُخْل ، ولا تأخذه نِعَمُ الله ببطرٍ .

٧ — الفِسْق نجاسةٌ فى الهمّة ، وكَلَبٌ فى الطَّبيعة[2] .

٨ — قلوب الجهال تستفزّها[3] الأطماع ، وترتهن بالأمانى ، وتتعلق بالخدائع . وكثرة الصمت زمام اللسان ، وحسْم[4] الفطنة ، وإماطة الخاطر[5] ، وعذاب الحسّ .

٩ — عَداوة الضّعفاء للأقوياء ، والسفهاء للحلماء ، والأشرار للأخيارِ ، طبع لا يُستطاع تغييرُه .

١٠ — العقل فى القلب ، والرّحمة فى الكبد ، والتنفُّس فى الرِّئةِ .

١١ — إذا أراد الله بعبدٍ خيراً حال بينه وبين شهوته ، وحجز بينه وبين قلبه ، و إذا أراد به شرّاً وكَلَه إلى نفسه .

١٢ — الصّبر مطيّة لا تكبُو ، والقناعة سيف لا ينبو .

١٣ — رحم اللهُ عبداً اتقى رَبَّهُ ، وناصح نفسه ، وقدّم توبته ، وغلب شهوته ؛ فإنّ أجلَه مستورٌ عنه ، وأمَلَهُ خادع له ، والشيطان مُوَكَّلٌ بهِ .

١٤ — مرّ بمقبرة فقال : السلام عليكم يا أهل الديار الموحِشَةِ ، والمحالّ المقفرةِ[6] ؛ من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، أنتم لنا فَرَط[7] ، ونحن لكم تَبَع[8] نزوركم عمّا قليل ، ونلحق بكم بعد زمان قصير . اللهُمّ اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنّا وعنهم .

---

(١) القصد : أمر بين الإفراط والتفريط . (٢) الطبع والطبيعة : السجية .

(٣) استفزه واستخفه : أخرجه عن دارة الحزم وضبط الامر والأخذ فيه بالثقة .

(٤) الحسم : القطع ، والفطنة : الذكاء وحدة الفهم .

(٥) إماطة الخاطر ، الإماطة : الإبعاد والإزالة ، والخاطر : ما يخطر بالبال من التعقلات .

(٦) أقفر المكان : خلا .

(٧) فرط القوم يفرطهم ، تقدمهم إلى الورد ، والفرط بالتحريك : المتقدم إلى الماء .

(٨) التبع : التابع .

الحمد لله الذى جعل الأرض كِفاتا ، أحياء وأمواتاً[١] . والحمد لله الذي منها خلقَنَا ، وعليها ممشانا ، وفيها معاشنا ، وإليها يُعيدنا . طوبَى لمن ذكر المعاد ، وقنع بالكفاف ، وأعدّ للحساب !

١٥ — إنكم مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتساراً[٢] ، ومضمَّنُون أجداثا[٣] ، وكائنون رُفاتا[٤] ، ومبعوثون أفرادا ، ومدينون حسابا . فرحِم الله امرأً اقترف فاعترف ، ووجِل فعقل ، وحاذر[٥] فبادر ، وعُمِّر فاعتبر ، وحُذِّر فازدجر ؛ وأجاب فأناب ، وراجع فتاب واقتدى فاحتذى[٦] ، وتأهّب للمعاد ، واستظهر بالزّاد ؛ ليوم رحيله ، ووجه سبيله ولحال حاجته ، وموطن فاقته ، فقدّم أمامه لدار مقامه ؛ فمهّدوا لأنفسكم على سلامة الأبدان وفسحة الأعمار . فهل ينتظر أهلُ غضارة[٧] الشباب إلاّ حوانيَ الهرم ، وأهلُ بضاضة الصّحة إلاّ نوازل السّقم ، وأهل مدة البقاء إلا مفاجأة الفناء واقتراب الفوت ، ومشارفة الانتقال ، وإشفاء الزوال ؛ وحَفْز الأنين[٨] ورشْح الجبين ، وامتداد العِرْنين[٩] ، وعَلَز القلق[١٠] ، وفَيْظ الرّمَق[١١] وشدّة المَضَض ، وغصص الجرَض[١٢] .

١٦ — ثلاث منجيات : خشية الله فى السرّ والعَلانية ، والقَصْد فى الفقر والغنى ، والعَدْل فى الغضب والرضا .

---

(١) قوله : « كفاتا أحياء وأمواتاً » ؛ أى جعل الأرض مجمعاً لنا فى حياتنا ومماتنا ، الكفاة بالكسر : الموضع يكفت فيه الشيء ، أى يضم ويجمع ، والأرض كفات لنا .

(٢) قسره : قهره . (٣) الحفز : الحث والإعجال .

(٤) رفاتا ، رفته : كسره ودقه ، والرفات : الحطام . (٥) الحذر : الاحتراز .

(٦) د : « اهتدى » .

(٧) الغضارة : النعمة والسعة والخصب (٨) الحفز : الحث والإعجال .

(٩) العرنين : الأنف ، فإنه يمتد عند الموت (١٠) العلز : القلق والخفة .

(١١) الفيظ بالفاء : شدة الحر ، وبالفاء : الموت . والرمق : بقية الحياة .

(١٢) الغصة : ما اعترض فى الحلق ، والجرض : الريق .

١٧ — إياكم والفُحْش ؛ فإنّ الله لا يحبّ الفُحش ، وإيّاكم والشّحّ فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم ؛ هو الذى سفك دماء الرّجال ، وهو الذى قطّع أرحامها ، فاجتنبوه .

١٨ — إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، وعلمٍ كان علّمه الناس فانتفعوا به ، وولدٍ صالح يدعو له .

١٩ — إذا فعلتَ كلّ شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً .

٢٠ — سأله رجل ، فقال: بماذا أسوء عدوّى ؟ فقال : بأن تكون على غاية الفضائل ، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فارهٌ ، أو كلب صَيُود ؛ فهو لأَن تُذكَرَ بالجميل وينسب إليك أشدّ مساءةً .

٢١ — إذا قُذِفت بشيء فلا تتهاونْ به وإن كان كذبا ، بل تحرّزْ من طرقِ القذف جُهدكَ ؛ فإنّ القول وإن لم يثبت يوجب ريبةً وشكاً .

٢٢ — عدم الأدبِ سببُ كلّ شرّ .

٢٣ — الجهل بالفضائل عِدْل الموتِ .

٢٤ — ما أصعب على من استعبدتْه الشّهوات أن يكون فاضلاً !

٢٥ — مَنْ لم يقهر حَسَدَهُ كان جَسَدُهُ قبراً لِنَفْسِهِ .

٢٦ — احمَد من يغلظ عليك ويعظك ، لا من يزكّيك ويتملّقك .

٢٧ — اختر أن تكون مغلوبا وأنت منصِف ، ولا تختر أن تكونَ غالبا وأنت ظالم .

٢٨ — لا تهضمنّ محاسنك بالفخر والتكبّر .

٢٩ — لا تنفكّ المدنية من شرّ ؛ حتى يجتمع مع قوّة السلطان قوّة دينه وقوة حِكمته .

٣٠ — إذا أردتَ أنْ تُحْمَدَ فلا يظهر منك حرصٌ على الحمْدِ .

٣١ — مَن كَثُرَ هَمُّـهُ سقم بدنه ، ومَنْ ساء خُلُقه عَذَّب نفسه ، ومن لاحَى الرِّجال سقطت مروءته ، وذهبت كرامته ؛ وأفضل إيمانِ العبْدِ أن يعلم أنَّ الله معه حيث كان .

٣٢ — كُنْ ورِعاً تكن من أعبدِ الناس ، وارْضَ بما قَسَم الله لك تكن من أغنى الناس ، وأحسنْ جوارَ مَنْ جاورك تكن مسلما ، ولا تكثرنَّ الضِحك؛ فإنَّ كثرته تميت القلب ، وأَخْرِس لسانك ، واجلس فى بيتك ، وابكِ على خطيئتك .

٣٣ — إنَّ الرَّجُل لَيُحَرم الرِّزق بالذنب يصيبُه ، ولا يردّ القدر إلا الدعاء ؛ ولا يزيد فى العمر إلا البرّ ، ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم انفقه ، وعَمّا عمل فيم علم !

٣٤ — فى التجارب علم مستأنف ، والاعتبار يفيدك الرشاد ، وكفاك أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك ، وعليك لأخيك مثل الذى عليه لك .

٣٥ — الغضب يثير كامن الحِقْد ، ومَنْ عرف الأيام لم يُغفل الاستعداد ، ومَنْ أمسك عن الفضول عدلت رأيَه العقول .

٣٦ — اسكت واستر تسلم . وما أحسن العلم يزينه العمل ، وما أحسن العمل يزينه الرِّفق !

٣٧ — أكبرُ الفخر ألاّ تفخر .

٣٨ — ما أصعب اكتساب الفضائل وأيسر إتلافها !

٣٩ — لا تنازع جاهلاً ، ولا تشايع مائقاً[1] ، ولا تعاد مسلَّطاً .

٤٠ — الموت راحة للشيخ الفانى من العمل ، وللشابّ السقيم من السَّقَم ، وللغلام[2]

---

(١) المؤق : الحمق . (٢) د : « الفلام » .

الناشيء من استقبال الكدّ والجمع لغيره، ولمن ركبه[1] الدَّيْن لغرمائه، والمطلوب بالوَتْر، وهو فى جملة الأمر أمنيّة كلّ ملهوف مجهود.

٤١ — ما كنتَ كاتمه عدوّك من سرّ، فلا تطلعنّ عليه صديقك. واعرف قدرك يَستعلِ أمرك، وكفى ما مضى مخبرا عمّا بقى!

٤٢ — لا تَعِدَنّ عِدَةً تحقرها قِلّةُ الثقة بنفسك، ولا يغرنّك المرتقَى السَّهل إذا كان المنحدَر وَعْراً.

٤٣ — اتّق العواقب عالما بأنّ للأعمال جزاء وأجرا، واحذر تبعات الأمور بتقديم الحزم فيها.

٤٤ — مَن استَرْشَدَ غير العقل أخطأ منهاج الرّأى، ومَن أخطأته وجوه المطالب خذلته الحِيَل، ومن أخلّ بالصبر أخلّ به حسنُ العاقبة؛ فإنّ الصبر قوّة من قوى العقل؛ وبقدر موادّ العقل وقوّتها يَقوَى الصبر.

٤٥ — الخطأ فى إعطاء من لا يبتغى، ومنع من يبتغى واحد.

٤٦ — العِشْقُ مَرَضٌ ليس فيه أجْرٌ ولا عِوَض

٤٧ — أعظم الخطايا عند الله اللّسان الكذوب، وقائل كلمة الزّور ومن يمدّ بحبلها فى الإثم سواء.

٤٨ — الخصومة تمحق الدّين.

٤٩ — الجهاد ثلاثة: جهاد باليد، وجهاد باللسان، وجهاد بالقلب؛ فأوّل ما يغلب عليه من الجهاد يدك ثم لسانك، ثم يصير إلى القلب، فإن كان لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا نُكِس فجعل أعلاه أسفله.

---

(١) أى علاه.

٥٠ — ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكرها بقلبه إلاّ استوجب المزيد عليها قبل ظهورها على لسانه .

٥١ — الحاجةُ مسألة ، والدُّعاء زيادَة ، والحمدُ شكرٌ ، والنَّدم توبة .

٥٢ — لِن واحلُم تنبُل[1] ، ولا تكُنْ معجِبا فتمقت وتُمتهن .

٥٣ — مالى أرى النّاس إذا قُرِّب إليهم الطعام ليلاً تكلّفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يدخِلون بطونهم ، ولا يهتمون بغذاء النّفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعِلْمِ ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب فى اعتقاداتهم وأعمالهم .

٥٤ — الفقر هو أصْل حسنِ سياسة النّاس ؛ وذلك أنه إذا كان من حُسن السياسة أن يكون بعض الناس يسوس ، وبعضهم يُساس ، وكان مَنْ يُساس لا يستقيم أن يُساس من غير أن يكون فقيرا محتاجاً ؛ فقد تبيّن أنّ الفقر هو السبب الذى به يقوم حسن السياسة .

٥٥ — لا تتكلّم بين يدى أحدٍ من النّاس دون أن تسمع كلامه[2] ، وتقيس ما فى نفسك من العلم إلى ما فى نفسه ، فإن وجدت مافى نفسه أكثر ؛ فحينئذ ينبغى لك أن ترُوم زيادة الشىء الذى به يفضل على ما عندك .

٥٦ — إذا كان اللّسان آلة لترجمة ما يخطِر فى النفس ؛ فليس ينبغى أن تستعمله فيما لم يخطر فيها .

٥٧ — إذا كانَ الآباء هم السبب فى الحياة ، فمعلّمو الحكمة والدين هم السبب فى جودتها .

٥٨ — وشكا إليه رجلٌ تعذُّرَ الرّزق ، فقال : مه ، لا تجاهد الرّزق جهاد المغالب ، ولا تتّكِلْ على القدَر اتّكال المستسلم ؛ فإنّ ابتغاء الفضل من السّنّة ، والإجمال فى

---

(١) النبل : الشرف والفضيلة (٢) د : « قوله » .

الطّلب من العفّة ، وليست العِفة دافعةً رزقاً ، ولا الحرصُ جالباً فضلا ؛ لأن الرّزق مقسوم ، وفى شدّة الحرص اكتساب المآثم .

٥٩ — إذا استغنيت عن شىء فدعه ، وخذ ما أنت محتاج إليه

٦٠ — العمر أقصر من أن تعلّم كلّ ما يحسُن بك علمه ؛ فتعلّم الأهمّ فالأهمّ .

٦١ — مَنْ رَضِيَ بما قُسِم له استراح قلبُه وبدنه[1] .

٦٢ — أبعد ما يكون العبدُ من الله إذا كان همّه بطنُه وفرْجه .

٦٣ — ليس فى الحواسّ الظاهرة شىء أشرفُ من العَيْن فلا تُعطوها سؤلها[2] ، فيشغلكم عن ذكر الله .

٦٤ — ارحموا ضعفاءكم فالرّحمة لهم سببُ رحمة الله لكم .

٦٥ — إزالة الجبال أسهلُ من إزالة دولة قد أقبلتْ ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء .

٦٦ — قال له عثمان فى كلام تلاحَيا فيه حتى جرى ذكر أبى بكر وعمر : أبو بكر وعمر خيرٌ منك ؛ فقال : أنا خيرٌ منك ومنهما ، عبدتُ الله قبلهما، وعبدته بعدهما .

٦٧ — أوثق سُلّم يُتَسلّق[3] عليه إلى الله تعالى أن يكون خيراً .

٦٨ — ليس المُوسِر مَنْ كان يساره باقياً عنده زمانا يسيراً ، وكان يمكن أن يغتصبه[4] غيره منه ، ولا يبقى بعد موته له ؛ لكن اليَسار على الحقيقة هو الباقى دائما عند مالكه ، ولا يمكن أن يؤخذ منه ، ويبقى له بعد موته ، وذلك هو الحكمة .

٦٩ — الشّرف اعتقاد المِنَن فى أعناق الرّجال[5] .

---

(١) د : « نفسه » .
(٢) ا : « سؤالها » .
(٣) تسلق الشىء : علاه .
(٤) د : « يقضه » .
(٥) المنن : اصطناع المعروف فى أعناق الناس .

٧٠ — يضرّ الناس أنفسهم فى ثلاثة أشياء: الإفراط فى الأكل اتّكالا على الصحّة، وتكلّف حمل ما لا يطاق اتّكالا على القوة، والتفريط فى العمل اتّكالا على القَدَر .

٧١ — أحزمُ النّاس مَنْ ملكَ جِدُّه هزلَه ، وقهر رأيه هواهُ ، وأعرب عن ضميره فعلُه ، ولم يخدعْه رضاه عن حظّه ، ولا غضبه عن كيده .

٧٢ — مَنْ لم يُصْلِح خلائقَه ، لم ينفع النّاسَ تأديبُه .

٧٣ — مَن اتّبع هواه ضلّ، ومن حاد ساد، وخمود الذكر أجمل من ذميم الذِكْر(١) .

٧٤ — لهب الشّوق أخفّ محملاً من مقاساة الملالة .

٧٥ — بالرّفق تُنال الحاجة ، وبِحُسْنِ التأنّى تسهل المطالب .

٧٦ — بعزيمة الصبّر تطفأ نارُ الهوَى ، وبنفى العجب يؤمن كيد الحسّاد .

٧٧ — ماشىء أحقُّ بطولِ سِجْنٍ من لسان .

٧٨ — لا نَذْرَ فى معصيةٍ ، ولا يمينَ فى قطيعةٍ .

٧٩ — لكلِّ شىء ثمرة ، وثمرة المعروف تعجيل السَّراح(٢) .

٨٠ — إيّاكم والكسل ؛ فإنّه من كسل لم يؤدِّ لله حقّاً .

٨١ — احسبوا كلامكم من أعمالكم ، وأقلّوه إلاّ فى الخير .

٨٢ — أحسِنُوا صحبةَ النِّعَم فإنّها تزول ، وتشهد على صاحبها بما عمل فيها .

٨٣ — أكثِروا ذكرَ الموتِ ، ويوم خروجكم من قبوركم ، ويوم وقوفكم بين يدى اللهِ عزّ وجلّ ، يهُن عليكم المصاب(٣) .

---

(١) د : « الفكر » .
(٢) أى تعجيل سراح طالب المعروف ، وهو قضاء حاجته ، وورد فى الأثر : خير البر عاجله .
(٣) د : « تهن عليكم المصائب » .

٨٤ — بحسب مجاهدة النّفوس وردّها عن شهواتها ومنعها عن مصالحة [١] لذّاتها ومنع ما أدّت إليه العيون الطامحة من لحظاتها تكون المثوبات والعقوبات ؛ والحازم مَنْ ملك هواه ؛ فكان بملكه له قاهراً ؛ ولما قدحت الأفكار من سوء الظّنون زاجراً ؛ فمتى لم تُرَدّ النّفس عن ذلك هجم عليها الفكر بمطالبة ماشُغفت [٢] به ، فعند ذلك تأنس بالآراء الفاسدة ، والأطماع الكاذبة ، والأماني المتلاشية ؛ وكما أنّ البصر إذا اعتلّ [٣] رأى أشباحاً وخيالات لا حقيقة لها ؛ كذلك النّفس إذا اعتلّت بحبّ الشهوات وانطوت على قبيح الإرادات، رأت الآراء الكاذبة ؛ فإلى الله سبحانه نرغب في إصلاح مافسد من قلوبنا ، وبه نستعين على إرشاد نفوسنا ؛ فإن القلوب بيده يُصرّفها كيف شاء [٤] .

٨٥ — لا تؤاخينّ الفاجر ؛ فإنه يُزيّن لك فعله ، ويودّ لو أنّك مثله ؛ ويحسّن لك أقبح خصاله ، ومدخلُه ومخرجُه من عندك شينٌ وعار ونقص ؛ ولا الأحمق فإنّه يجهد لك نفسه ولا ينفعك ؛ وربما أراد أن ينفعك فضرّك ؛ سكوتُه خيرٌ لك من نطقه ، وبعده خير لك من قربه ، وموته خير لك من حياته ؛ ولا الكذّاب فإنّه لا ينفعك معه شيء ؛ ينقل حديثك ، وينقل الحديث إليك ؛ حتى إنه ليحدّث بالصّدق فلا يصدّق .

٨٦ — ما استقصى كريم قطّ ، قال تعالى في وصف نبيه : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ [٥] .

٨٧ — ربّ كلمة يخترعها حليم مخافة ماهو شرٌّ منها ، وكفى بالحلم ناصرا .

٨٨ — مَنْ جمع ستّ خصال لم يَدَع للجنّة مطلبا ، ولا عن النار مهربا : مَنْ عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحقّ فاتبعه ، وعرف الباطل فاتّقاه ، وعرف الدّنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها .

---

(١) ب : «مسالحة » .
(٢) شغفت : رغبت وأغرمت .
(٣) اعتل : أصابته العلة .
(٤) ب : « كيفما شاء » .
(٥) سورة التحريم : ٣

٨٩ — مَن استحيا مِنَ النّاس ولم يستحيِ مِن نفسه فليس لنفسِه عند نفسه قَدْر .

٩٠ — غايةُ الأدب أنْ يستحِيَ الإنسان من نفسِه .

٩١ — البلاغة النَّصر بالحجّة ، والمعرفة بمواضع الفُرْصة ، ومن البَصر [١] بالحجّة أن تَدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقة ، وكانت الكناية أبلغ فى الدّرك وأحقّ بالظفر .

٩٢ — إيّاكَ والشّهوات ؛ وليكن مما تستعين به على كَفِّها علمك بأنها ملهية لعقلك ، مهجِّنة [٢] لرأيك ، شائنة لعرضك ، شاغلة لك عن معاظِم أمورك ، مشتدّةٌ بها التّبعه عليك فى آخرتك . إنّما الشّهوات لعب ؛ فإذا حضر اللّعبُ غاب الجدّ ، ولن يقام الدّين وتصلحَ الدّنيا إلا بالجدّ ؛ فإذا [٣] نازعتْك نفسك إلى اللّهو واللذات ، فاعلم أنّها قد نزعتْ بك إلى شرّ منزَع ، وأرادت بك أفضح الفضوح ؛ فغالِبْها مغالبة ذلك ، وامتنع منها امتناع ذلك ؛ وليكن مرجعُك منها إلى الحقّ ؛ فإنك مهما تتركْ من الحق لا تتركْه إلّا إلى الباطل ، ومهما تدَعْ من الصواب لا تدَعْه إلا إلى الخطأ ؛ فلا تداهننّ هواك فى اليسير فيطمع منك فى الكثير .

وليس شىء ممّا أوتيت فاضلا عمّا يصلحك ؛ وليس لِعُمْرك وإن طال فضل عمّا ينوبك من الحقّ اللازم لك ، ولا بمالك وإن كثر فضل عمّا يجب عليك فيه ، ولا بقوّتك وإن تمّتْ فضلٌ عن أداء حقّ الله عليك ، ولا برأيك وإن حَزُمَ فضل عما لا تُعْذَرُ بالخطأ فيه ؛ فليمنعنّك علمُك بذلك مِنْ أن تطيل لك عمراً فى غير نفع ، أو تضيّعَ لك مالًا فى غير حقّ ، أو أن تصرف لك قوة فى غير عِبادة ، أو تعدّل لك رأيا فى غير رشد .

---

(١) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « النصر » تحريف .

(٢) مهجنة : مقبحة .

(٣) د : « وإن » :

فالحفظَ الحفظَ لما أوتيتَ ، فإنّ بك إلى صغيرِ ما أوتيتَ الكثيرَ منه أشدُّ الحاجة .

وعليك بما أضعته منه أشدُّ الرزيّة ؛ ولا سيما العمر الذى كل مَنْفَذٍ سواه مستخلَف . وكلّ ذاهب بعده مرتجع .

فإن كنت شاغلا نفسك بلذّة فلتكن لذتك فى محادثة العلماء ودرس كتبهم ، فإنّه ليس سرورك بالشّهَوات بالغاً منك مبلغا إلا وإكبابك على ذلك ، ونظرُك فيه بالغه منك ، غير أنّ ذلك يجمعُ إلى عاجل السُّرور تمامَ السّعادة ، وخلافُ ذلك يجمع إلى عاجل الغَىّ وخامةَ العاقبة ؛ وقديما قيل : أسعدُ النّاس أدركُهم لهواه إذا كان هواه فى رشده ؛ فإذا كان هواه فى غير رشده . فقد شقِىَ بما أدرك منه . وقديما قيل : عوّدْ نفسَك الجميلَ ؛ فباعتيادك إيّاه يعود لذيذاً .

٩٣ — وُكِّلَ ثلاثٌ بثلاث : الرزق بالحق ، والحرمان بالعقل ، والبلاء بالمنطق . ليعلمَ ابنُ آدم أنْ ليسَ له مِنَ الأمر شىء .

٩٤ — ثلاثةٌ إن لم تَظْلمهم ظلمُوكَ : عبدُكَ ، وزوجتُك ، وابنك .

وقد روينا هذه الكلمة لعُمر فيما تقدم (١) .

٩٥ — للمنافقين علاماتٌ يعرفون بها : تحيّتهم لعنة ، وطعامهم نُهْبَة ، وغنيمتهم غلول ، لا يعرفون المساجد إلّا هَجْرا ، ولا يأتون الصلاة إلا دَبْرا (٢) ؛ مستكبرون لا يألفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ بالليل ، صُخُب (٣) بالنهار .

---

(١) ا : « قدمناه » . (٢) دبرا ، أى فى آخر وقتها .

(٣) فى اللسان : وفى الحديث فى ذكر المنافقين « خشب بالليل ، صخب بالنهار » ؛ أراد أنهم ينامون كأنهم خشب مطرحة » .

٩٦ — الحَسَدَ حُزْنٌ لازمٌ ، وعَقْلٌ هائم ، ونَفَسٌ دائم ؛ والنّعمة على المحسودِ نعمة ، وهي على الحاسد نِقْمَة .

٩٧ — ياحَمَلَة العلم ، أتحملونه ! فإنّما العِلْمُ لمن عَلِمَ ثم عَمِل ؛ ووافَق عملُه علمَه ، وسيكون أقوامٌ يحملون العِلْمَ ، لا يجاوز تراقيَهم ، تخالف سريرتُهم علانيتَهم ، ويخالف عملُهم عِلْمَهم ، يقعدون حَلَقا ، فيباهي بعضُهم بعضا ؛ حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ؛ أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله سبحانه .

٩٨ — تعلّموا العلم صِغَاراً تسودُوا به كِباراً ؛ تعلموا العلم ولو لغير الله ؛ فإنه سيصير لله . العلم ذَكَرٌ لا يحبّه إلا ذَكَرٌ من الرجال .

٩٩ — ليس شيء أحسن من عَقْل زانه علم ، ومِنْ عِلْمٍ زانه حِلْم ، ومن حِلْمٍ زانه صِدْق ، ومن صدق زانه رفق ، ومن رفق زانه تقوى . إنّ مِلاك العقل ومكارم الأخلاق صونُ العِرْض ، والجزاء بالفرض ، والأخذ بالفضل ، والوفاء بالعَهْد ، والإنجاز للوعد . ومَنْ حاول أمراً بالمعصية كان أقربَ إلى مايخاف ، وأبعد مما يرجو .

١٠٠ — إذا جَرت المقاديرُ بالمكارِه سبقت الآفة إلى العَقْل فحيّرته ، وأطلقت الألسن بما فيه تلف الأنفس .

١٠١ — لا تصحبوا الأشرار فإنّهم يمنّون عليكم بالسّلامة مِنْهم .

١٠٢ — لا تقسِروا أولادكم على آدابكم ، فإنّهم مخلوقُون لزمانٍ غير زمانكم .

١٠٣ — لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويدَه ؛ فإنّ النّاس لا يسألون فى كمْ فَرَغ من العمل ، إنما يَسْأَلون عن جودةِ صنعته .

١٠٤ — ليس كلُّ ذى عين يُبْصِر ، ولا كلّ ذى أذُنٍ يَسْمَع ، فتصدّقُوا على أولى العقول الزّمِنة[1] ، والألباب الحائرة؛ بالعلوم التى هى أفضل صدقاتِكم ، ثم تلا: ﴿ إنّ الّذِينَ

---

(١) الزمانة : العاهة .

يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ (١) .

١٠٥ — مَنْ أَتَتْ عليه الأربعون من السِّنين قيل له : خذْ حذرَكَ من حلول المقدور فإنَّكَ غير معذورٍ ؛ وليس أبناء الأربعين بأحقَّ بالحذر من أبناء العشرين ؛ فإنَّ طالبَهما واحدٌ ، وليس عن الطلب براقدٍ ؛ وهو الموت ؛ فاعمل لما أمامَك من الهَوْل ، ودع عنك زخرفَ القول .

١٠٦ — سُئِل عن القَدَر فقال : أُقصر أم أُطيل ؟ قيل : بل تُقْصِر ، فقال : جلّ الله أن يُرِيدَ الفحشاء ، وعَزّ عن أن يكون له في المُلْك إلا مايشاء .

١٠٧ — مَنْ عِلِم أنه يفارق الأحباب ، ويسكُن التُّراب ، ويواجِهُ الحساب ، ويستغنى عمّا ترك ، ويفتقر إلى ماقدّم ، كان حريًّا بقِصَر الأمل ، وطول العمل .

١٠٨ — المؤمن لا تخيله كَثْرة المصائِب ، وتَواتُرُ النَّوائِب عن التَّسليم لربِّه والرِّضَا بقضائه ، كالحمامة التي تؤخذ فراخها من وكْرها ثم تعود إليه .

١٠٩ — ماماتَ مَنْ أحيا عِلْماً ، ولا افتقر مَنْ مَلَك فَهْماً .

١١٠ — العِلْم صِبْغ النفس ، وليس يفوق صِبْغ الشيء حتى يَنْظُف من كل دنَس .

١١١ — اعلم أنّ الذي مدحَك بما ليس فيك ، إنما هو مخاطِب غيرَك ، وثوابهُ وجزاؤهُ قد سقطا عنك .

١١٢ — إحسانك إلى الحرّ يُحرِّكُهُ على المكافأةِ ، وإحسانُك إلى النّذْلِ يَبْعثُهُ على مُعاوَدَةِ المَسْأَلَةِ .

(١) سورة البقرة ١٥٩

١١٣ — الأشرار يتتبّعون مساوئ الناس، ويتركون محاسنهم؛ كما يتتبّع الذُّباب المواضعَ الفاسدة.

١١٤ — موت الرؤساء أسهل من رياسة السَّفلة.

١١٥ — ينبغى لمن وَلِىَ أمرَ قومٍ أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع فى تقويم رعيَّته؛ وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظِلِّ العُود قبل أن يستقيم ذَلِكَ العُود.

١١٦ — إذا قوى الوالى فى عمله حرَّكتْهُ ولايته على حسب ماهو مركوز فى طبْعه من الخير والشرّ.

١١٧ — ينبغى للوالى أن يعمل بخصال ثلاث: تأخيرِ العقوبة منهُ فى سلطان الغضب، والأناةِ فيما يرتئيه[1] من رأى، وتعجيلِ مكافأةِ المحسن بالإحسانِ؛ فإنّ فى تأْخير العقوبة إمكانَ العفوِ، وفى تعجيل المكافأةِ بالإحسان طاعةَ الرعيّة، وفى الأناة إنفساحَ الرأى وحَمْدَ العاقبة ووضُوحَ الصواب.

١١٨ — من حقّ العالم على المتعلّم ألاّ يُكثرَ عليه السؤالَ، ولا يُعنّتَهُ فى الجواب، ولا يُلِحّ عليه إذا كسل، ولا يُفْشِىَ له سرًّا، ولا يغتابَ عنده أحداً، ولا يطلبَ عثْرتَهُ، فإذا زلّ تأنّيْتَ أوْبتَهُ، وقبِلْتَ معذرته، وأنْ تعظِّمَهُ وتُوَقِّرَهُ ماحفِظَ أمْرَ اللهِ وعظّمه، وألا تجلس أمامَه، وإن كانت له حاجةٌ سبقتَ غيرَكَ إلى خدمته فيها. ولا تضجرنّ من صحبته؛ فإنما هُو بمنزلةِ النّخْلة يُنتظَرُ متى يسقط عليك منها منفعةٌ. وخصّه بالتّحية، واحفظ شاهده وغائبه؛ وليكن ذلك كلّه لله عزّ وجلّ، فإنّ العالِمَ أفضلُ من الصائم القائم المجاهد فى سبيل الله. وإذا مات العالم ثُلِمَ فى الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها إلّا خَلَفٌ منه. وطالبُ العلمِ تُشيِّعهُ الملائكة حتى يرجع.

---

(١) يرتئيه، افتعال من الرأى، أى فيما يفكر فيه، وفى د: «يريبه».

١١٩ — وَصُولٌ مُعْدِمٌ خيرٌ من جافٍ[١] مُكْثِرٍ ، ومن أرادَ أنْ ينظر ماله عند الله فلينظر ماللهِ عنده .

١٢٠ — لقد سبق إلى جنّات عدن أقوامٌ ما كانوا أكْثَرَ الناسِ صلاةً ولا صياما ولا حجًّا ولا اعتماراً ؛ ولـكن عَقَلُوا عن الله أمرَه فحسنت طاعتهم ، وصحّ ورعهم وكَمُلَ يقينُهُم ؛ ففاقوا غيرهم بالحُظْوَةِ وَرَفيعِ المنزلة .

١٢١ — مامن عَبْـدٍ إلّا ومعه ملَك يقيه مالم يُقَدَّرْ له ، فإذا جاء القدرَ خَلّاهُ وإيّاهُ .

١٢٢ — إنّ الله سبحانه أدّبَ نَبيَّهُ صلّى الله عليه وآله بقوله : ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ ﴾[٢] ، فلما علم أنه قد تَأَدَّبَ ، قال له : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣]، فلما استحكم له من رسوله ما أحبّ قالَ : ﴿ وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ﴾[٤] .

١٢٣ — كنت أنا والعبّاس وعمر نتذاكر المعروفَ ، فقلت أنا : خير المعروفِ سَتْرُهُ ، وقال العباسُ : خيرُهُ تصغيرُهُ ، وقال عمر : خيرُهُ تعجيلهُ ، فخرج علينا رسول الله ، فقال : فيم أنتم ؟ فذَكرنا له ، فقال : خيرُهُ أن يكونَ هٰذا كلُّه فيه .

١٢٤ — العفوُ يفسد من اللئيم بقَدْرِ مايصلح من الكريم .

١٢٥ — إذا خَبُثَ الزّمانُ كَسَدَتِ الفضائلُ وضَرّتْ ، ونَفَقَتِ الرّذائلُ ونفعتْ ، وكانَ خوفُ الموسرِ أشدَّ من خوف المعسرِ .

١٢٦ — انظرْ إلى المُتَنَصّحِ[٥] إليك ، فإن دخل من حَيْثُ يُضارُّ الناسَ فلا تقبل

---

(١) الوصول ، فعول ؛ من الصلة ، وهى العطية ، والجافى ضد الوصول .

(٢) سورة البقرة ٦٧ (٣) سورة القلم ٤٠

(٤) سورة الأعراف ١٩٩ (٥) المتنصح : المتشبه بالنصحاء .

نصيحته وتحرّزْ منه ، وَإن دَخل من حيث العَدْلُ والصلاح فاقبلها منه .

١٢٧ — أعداء الرّجل قد يكونُون أنفعَ منْ إخوَانه ، لأنهمْ يهدونَ إليه عيوبه فيتجنّبها ويخاف شماتتهمْ به فيضبط نعمته ويتحرّزُ من زوالها بغاية طوقه .

١٢٨ — المِرآةُ التى ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هى النّاس ، لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ، ومساويه من أعدائه فيهم .

١٢٩ — انظرْ وجهكَ كلّ وقت فى المِرآةِ ؛ فإن كان حسناً فاستقبح أن تضيف إليه فعلا قبيحاً وتشينه به ، وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تجمع بين قُبحيْن .

١٣٠ — موقع الصواب من الجُهّال مثل موقع الخطأ من العلماء .

١٣١ — ذَكِّ قَلبك بالأدَب كما تُذَكّى النار بالحطب .

١٣٢ — كفر النعمة لؤمٌ ، وصحبة الجاهل شؤمٌ .

١٣٣ — عاديت من مارَيت .

١٣٤ — لاَ تصرمْ (١) أخاك على ارتياب ، ولا تقطعه دون استعتاب .

١٣٥ — خير المقال ماصدّقه الفعال .

١٣٦ — إذا لم تُرزَقْ غِنًى فلا تُحرَمَنّ تقوى .

١٣٧ — مَنْ عرَفَ الدنيا لم يحزن للبلوى

١٣٨ — دَعِ الـكذِبَ تَـكَرُّماً إن لمْ تَدَعْهُ تأثُّماً .

١٣٩ — الدُّنيا طوّاحة طرّاحةٌ فضّاحَةٌ ، آسِيَةٌ جرّاحَةٌ .

١٤٠ — الدنيا جَمّةُ المصائب ، مُرّةُ المشارب ، لا تُمتّع صاحباً بصاحب .

١٤١ — المعتذر من غير ذنب،يوجب على نفسه الذنب .

(١) لا تصرم : لا تقطع ، أى لا تهجره لمجرد التهمة ، غير متيقن تقصيره .

١٤٢ — من كسل لم يُؤدِّ حقًا .

١٤٣ — كثرة الجدال تورثُ الشكَّ .

١٤٤ — خير القلوب أوعاها .

١٤٥ — الحياء لباس سابغٌ ، وحجابٌ مانعٌ ، وسِترٌ من المساوى وَاقٍ ، وحليفٌ للدِّين ، وموجبٌ للمحبّة ، وعَيْنٌ كالئة تذُودُ عن الفسادِ ، وتنهى عن الفحشاء . والعجلة فى الأمور مَكْسَبَةٌ للمذلّةِ ، وزِمامٌ للنّدَامَةِ ، وسَلْبٌ للمُرُوءة ، وشَيْنٌ لِلْحِجَى ؛ ودَليلٌ على ضَعْف العقيدَةِ .

١٤٦ — إذا بلغ المرْء من الدُّنيا فوق قدْره تنَكّرتْ للناس أخلاقهُ .

١٤٧ — لا تصحب الشرّيرَ فإنّ طبعك يَسْرِق من طبعه شرًّا وأنت لا تعلم .

١٤٨ — موتُ الصالح راحة لنفسه ، وموت الطالح راحة للناس .

١٤٩ — ينبغى للعاقل أنْ يتذكّر عند حلاوة الغذاء مرارة الدواء .

١٥٠ — إن حَسَدكَ أخٌ من إخوانك على فضيلة ظهرَت منك فسعى فى مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به ، فتعذِر نفسه فى الإساءة إليك ، وَتشرع له طريقا إلى ما يُحِبُّهُ فيك ؛ لكن اجتَهِدْ فى التّزَيُّدِ من تلك الفضيلة التى حَسَدك عليها ؛ فإنك تسوءهُ من غير أن تُوجدَهُ حجةً عليك .

١٥١ — إذا أردت أن تعرف طبع الرَّجل فاستَشِرْهُ ، فإنك تقف من مشورته على عدله وجَوْرِهِ ، وخَيْرِه وشَرِّهِ .

١٥٢ — يجِبُ عَلَيْكَ أن تُشْفِقَ على وَلدكَ أكثرمن إشفاقه عليك .

١٥٣ — زمان الجائر من السلاطين والولاة أقصرُ من زمان العادلِ ، لأنّ الجائر مفسِد ، والعادلَ مصلح ، وإفساد الشيء أسرع من إصلاحه .

١٥٤ — إذا خدمتَ رئيسا فلا تَلْبَسْ مثلَ ثوبه، ولا تركبْ مثل مَرْكوبه، ولا تستخدم كخدمه، فعساك تسلم منه.

١٥٥ — لا تُحدِّثْ بالعلم السفهاء فيُكذِّبوك، ولا الجهال فيَسْتَثْقِلُوكَ، ولكن حَدِّثْ بهِ مَنْ يَتَلَقَّاهُ من أهله بقبولٍ وفَهمٍ يفهم عنكَ ماتقول، ويكتم عليك مايسمع؛ فإنَّ لعلمك عليك حَقًّا؛ كما أنَّ عليكَ في مالكَ حَقًّا: بَذْلُهُ لمستحقه، ومنعُهُ عَنْ غيرِ مستحقِّه.

١٥٦ — اليقين فوق الإيمان، والصبر فوق اليقين؛ ومن أفرط رَجاؤه غابت الأماني على قلبه واستعبدَتهُ.

١٥٧ — إيَّاكَ وصاحب السوء؛ فإنه كالسيف المسلول يروق منظَرهُ، ويقبح أثَرُهُ.

١٥٨ — يابن آدم، احْذرِ الموْت في هذه الدَّارِ قبل أن تصيرَ إلى دَارٍ تتمنّى الموتَ فيها فلا تجدُهُ.

١٥٩ — مَنْ أخْطأه سهم المنيَّةِ قَيَّدهُ الهرَمُ.

١٦٠ — مَنْ سَمِعَ بفاحشةٍ فأبْدَاها كان كَمَنْ أتاها.

١٦١ — العاقل من اتَّهمَ رَأْيَهُ ولمْ يثقْ بِما سوَّلَتْهُ له نفسُهُ.

١٦٢ — مَنْ سامح نفسه فيما يحبّ أتعبها فيما لا يحبّ.

١٦٣ — كفى مامضى مُخْبِراً عَمَّا بقي، وكفى عِبراً لِذَوي الألباب ماجرَّبُوا.

١٦٤ — أمرٌ لا تَدْرِي متى يغْشاكَ؛ مايمنعك أن تستعدَّ له قبل أن يفجأك!

١٦٥ — ليس فى البرق الخاطف مُستَمتَع(١) لمن يخوض فى الظلمة .

١٦٦ — إذا أعجَبَكَ مايتَواصَفُهُ النَّاسُ مِنْ مَحاسِنِكَ ، فانْظُرْ فيما بطن من مَساوِيكَ ؛ ولتَكُنْ معرِفَتُك بنفسِكَ أوثَقَ عِنْدَكَ مِنْ مَدْحِ المادِحِينَ لك .

١٦٧ — مَنْ مدحك بما ليس فِيكَ من الجميل وهُو رَاضٍ عنك ذَمَّك بما ليْسَ فِيكَ مِنَ القَبِيح وَهوَ ساخِطٌ عليْكَ .

١٦٨ — إذا تَشَبَّه صاحِبُ الرِّياء بالمُخْاصِين فى الهيْئَة كانَ مثْلَ الوَارِمِ الذِي يوهمُ النَّاسَ أنهُ سَمِينٌ ؛ فيَظُنُّ النَّاسُ ذلكَ فِيهِ وَهُو يستر مايَلْقى مِنَ الأَلَمِ التَّابِع للوَرَمِ .

١٦٩ — إذا قويَتْ نَفْسُ الإنْسَانِ انْقَطَعَ إلى الرَّأى ، وَإذ ضعفتْ انقطعَ إلى البَخْتِ .

١٧٠ — الرغبة إلى الكريم تُحَرِّكُهُ على البَذلِ ، وإلى الخسيسِ(٢) تُغْرِيهِ بالمَنْعِ .

١٧١ — خِيارُ النَّاسِ يَترَفَّعُونَ عنْ ذِكْرِ مَعايِبِ النَّاسِ ، ويَتهمُونَ المُخْبرَ بِهــا ، ويأْثِرُونَ(٣) الفَضَـائل ، ويتَعَصَّبُونَ لِأهْلِها ، وَيستعرضُونَ مآثِرَ الرُّؤساء ، وإفضالهمْ عليهم ، ويُطالبُون أنفسهمْ بالمكافأةِ عليها وَحُسْنِ الرِّعايةِ لَها .

١٧٢ — لِكلِّ شىْء قُوتٌ ، وأنتمْ قوتُ الهوامِّ ؛ ومَنْ مشى على ظهر الأرضِ فإنّ مصيرَهُ إلى بطنها .

١٧٣ — مِنْ كرمِ المرْء بكاؤُهُ على مامَضى مِنْ زَمانِهِ ، وحنينهُ إلى أوْطانه ، وحفظهُ قديمَ إخوانهِ .

---

(١) مستمتع : موضع متعة .
(٢) الخسيس : اللئيم البعيد عن مكارم الأخلاق .
(٣) يأثرون الفضائل : يستأثرون بها .

١٧٤ — وَمِنْ دُعائِهِ : اللّهمّ إنْ كُنَّا قد قصّرْنا عنْ بلُوغِ طاعتِك فقدْ ؛ تمسكْنا مِنَ طاعتكَ بأحبّها إليْكَ، لا إلهَ إلّا أنْت جاءتْ بالحقّ مِنْ عِنْدِكَ .

١٧٥ — أصابَتِ الدُّنيَا منْ أمِنَها وأصابَ الدُّنيَا منْ حَذِرَها .

١٧٦ — وَوَقَفَ على قوْمٍ أُصِيبُوا بمصيبةٍ ، فقال : إنْ تجزَعُوا فحَقّ الرّحِمِ بلغتمْ ، وإنْ تَصْبِرُوا فحَقّ اللهِ أدّيتمْ .

١٧٧ — مَكارمُ الأَخْلاقِ عَشْرُ خِصالٍ : السّخاء، والحياء ، والصّدْقُ ، وأداء الأَمانةِ ، والتّوَاضعُ ، والغَيْرةُ ، والشجاعَةُ ، والحِلْمُ ،والصّبْرُ ، والشكرُ .

١٧٨ — منْ أداءِ الأمانةِ المكافأةُ على الصّنِيعةِ لأنّها كالوَدِيعةِ عِنْدَكَ .

١٧٩ — الخيِّرُ النّفْسِ تَكُونُ الحرَكَةُ فى الخيْرِ عليْهِ سَهلةً مُتيسرةً ، والحرَكَةُ فى الإضْرَارِ عَسرةً بَطيئةً ، والشرّيرُ بالضدّ منْ ذلكَ .

١٨٠ — البُخَلاء مِنَ النَّاسِ يكُونُ تغافلهمْ عنْ عظيمِ الجرْمِ أسْهلَ عليهمْ منَ المكافأةِ على يَسِيرِ الإحْسانِ .

١٨١ — مثلُ الإنسانِ الحصيفِ[1] مثلُ الجسمِ الصلْبِ الكثيفِ ، يَسْخُنُ بطيئًا ، وتبرُدُ تلكَ السُّخونةُ بأطْوَلَ مِنْ ذلكَ الزّمانِ .

١٨٢ — ثلاثةٌ يرْحمُونَ : عاقِلٌ يجرى عليْه حُكمُ جاهلٍ ، وضعيفٌ فى يدِ ظالِمٍ قوىّ ، وكريمُ قوْمٍ احْتاجَ إلى لئيم .

١٨٣ — منْ صحبَ السلطانَ وجبَ أنْ يكُونَ معهُ كراكبِ البحرِ ، إنْ سَلِمَ بجسْمه منَ الغرَقِ لمْ يسلم بقلبه منَ الفرَقِ[2] .

---

(١) الحصيف : المتمكن من نفسه ، المستحكم عقله .

(٢) الفرق : الخوف .

١٨٤ — لا تقبلنَّ في استعمالِ عمّالكَ وأمرائكَ شفاعةً إلّا شفاعةَ الكفايةِ والأمانةِ .

١٨٥ — إذا استشاركَ عدوُّكَ فجرِّدْ له النصيحةَ ؛ لأنه باستشارتك قد خرجَ من عدواتك ودخل في مودّتكَ .

١٨٦ — العدلُ صورةٌ واحدةٌ ، والجورُ صورٌ كثيرةٌ ؛ ولهذا سهلَ ارتكابُ الجورِ وصعبَ تحرّي العدلِ ؛ وهما يشبهانِ الإصابةَ في الرّمايةِ والخطأَ فيها ؛ وإنّ الأصابةَ تحتاجُ إلى ارتياضٍ (١) وتعهّدٍ ، والخطأُ لا يحتاجُ إلى شيءٍ من ذلكَ .

١٨٧ — لا يُخطئُ المخلصُ في الدعاءِ إحدى ثلاث : ذنبٌ يغفرُ ، أو خيرٌ يعجّلُ ، أو شرٌّ يؤجّلُ .

١٨٨ — لا ينتصفُ ثلاثةٌ من ثلاثةٍ : برٌّ من فاجرٍ ، وعاقلٌ من جاهلٍ ، وكريمٌ من لئيمٍ .

١٨٩ — أشرفُ الملوكِ منْ لم يخالطهُ البطرُ ، ولمْ يحلْ عن الحقِّ ، وأغنى الأغنياءِ من لمْ يكنْ للحرصِ أسيراً ؛ وخيرُ الأصدقاءِ منْ لم يكنْ على إخوانهِ مستصعباً ، وخيرُ الأخلاقِ أعونها على التُّقى والورَعِ .

١٩٠ — أربعٌ القليلُ منهنَّ كثيرٌ : النارُ ، والعداوةُ ، والمرضُ ، والفقرُ .

١٩١ — أربعة من الشقاء : جارُ السوءِ ، وولد السوءِ ، وامرأةُ السوءِ ، والمنزلُ الضيِّقُ .

١٩٢ — أربعة تدعو إلى الجنةِ : كتمانُ المصيبةِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وبرُّ الوالدينِ والإكثار من قول لا إله إلاّ الله .

---

(١) ارتياض : مران .

١٩٣ — لا تصحبِ الجاهلَ؛ فإنّ فيه خصالاً، فاعرفوه بها: يغضب من غير غضب، ويتكلّم في غير نفعٍ، ويُعطي في غير موضعِ الإعطاء، ولا يعرف صديقه من عدوّه، ويفشي سرّه إلى كلّ أحدٍ.

١٩٤ — إيّاكَ ومواقفَ الاعتذارِ؛ فَرُبَّ عذرٍ أثبت الحجّة على صاحبه وإن كان بريئاً.

١٩٥ — الصراطُ ميدانٌ يكثُرُ فيه العثارُ؛ فالسالمُ ناجٍ، والعاثرُ هالكٌ..

١٩٦ — لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا أُولو الفضل.

١٩٧ — إنّ لله عباداً في الأرض كأنما رأوا أهلَ الجنةِ في جنّتهم وأهلَ النار في نارهم، اليقين وأنواره لامعةٌ على وجوههم، قلوبهم محزونة، وشرورُهم مأمونةٌ، وأنفسهم عفيفةٌ، وحوائجهم خفيفةٌ؛ صبروا أياماً قليلةً لراحةٍ طويلة، أما الليل فصافّون أقدامهم[1] تجرى دموعهم على خدودهم، يجأرون[2] إلى الله سبحانه بأدعيتهم؛ قد حلا في أفواههم وحلا في قلوبهم طعم مناجاته ولذيذ الخلوة به: قد أقسم الله على نفسه بجلال عزته ليورثنّهم المقام الأعلى في مقعد صدق عنده؛ وأما نهارهم فحلماء علماء، بررة أتقياء، كالقِداح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى؛ وما بالقوم من مرضٍ، أوْ يقول: قد خُولطوا؛ ولعمري لقد خالطهم أمر عظيم جليل.

١٩٨ — عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت، فقال: مالك لا تقولُ! قال: إن قلت لم أقل إلا ماتكره، وليس لك عندي إلا ماتحبّ.

١٩٩ — بُليتُ في حربِ الجمل بأشدّ الخلقِ شجاعةً، وأكثرِ الخلقِ ثروةً وبذلاً، وأعظم الخلق في الخلق طاعةً، وأوفى الخلق كيداً وتكثّراً[3]؛ بُليتُ بالزبير، لم يردّ وجهه قطّ،

---

(١) صافون أقدامهم، كناية عن كونهم مصلين. (٢) جأر الرجل إلى الله: تضرع.
(٣) ا: « وتكبراً ».

ويعلى بن منيّة يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطي كلّ رجل ثلاثين دينارا وفرساً على أنْ يقاتلني ، وبعائشةَ ماقالت قطّ بيدها هكذا إلا واتّبعها الناس ، وبطلحة لا يدركُ غوره [1] ، ولا يُطال مكره .

٢٠٠ — بعث عثمان بن حُنيف إلى طلحة والزبير ، فعاد فقال : يا أميرَ المؤمنين ، جئتك بالخيبة ، فقال : كلّا ! أصبت خيراً وأجرت ، ثم قال : إن من العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ ؛ أما والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون واحدٍ منهما ، اللهم عليك بهما .

٢٠١ — الرّزق مقسومٌ ، والأيامُ دوَلٌ ، والناسُ سرَعٌ [2] سواء ؛ آدم أبوهم ، وحوّاء أمهم .

٢٠٢ — قوتُ الأجسام الغذاء ، وقوت العقول الحكمة ، فمتى فقدَ واحد منهما قوته بار واضمحلّ .

٢٠٣ — الصبر على مشقة العبادة [3] يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر .

٢٠٤ — الرّوحُ حياة البدن والعقل حياة الروح .

٢٠٥ — حقيق بالإنسان [4] أن يخشى الله بالغيب ، ويحرس نفسه من العيب ، ويزداد خيراً مع الشّيب .

٢٠٦ — أفضلُ الوُلاة من بقى بالعدل ذكره ، واستمده من يأتي بعده .

٢٠٧ — قدّم العدل على البطش تظفر بالمحبّة ، ولا تستعمل الفعل حيث ينجعُ [5] القول .

---

(١) يقال : بئر لا يدرك غوره ؛ إذا كانت عميقة جداً ، والمراد هنا أنه لا يعرف ما في أطواء نفسه .

(٢) شرع ، أي متساوين . (٣) د : « العبادة » .

(٤) ب : « الأحسان » : تحريف . (٥) ينجع : ينفع .

٢٠٨ — البخيلُ يسخو من عِرضه بمقدار مايبخل به من ماله ، والسخيُّ يبخل من عِرضه بمقدار مايسخو به من ماله .

٢٠٩ — فُضِّلَ العقلُ على الهوى ، لأنّ العقل يُملِّكُكَ الزمان ، والهوى يستعبدك للزّمان .

٢١٠ — كلما حملت عليه الحرّ احتمله ورآه زيادة فى شرفه ، إلا ماحطه جزءًا (١) من حريته ، فإنه يأباه ولا يجيب إليه .

٢١١ — إذا منعكَ اللئيمُ البِرّ مع إعظامه حقك، كان أحسن من بذل السخيِّ لك إياه مع الاستخفاف بك .

٢١٢ — الملكُ كالنهر العظيم، تستمدُّ منه الجداول ؛ فإنْ كان عذباً عذبتْ ، وإنْ كان ملحاً مَلحتْ .

٢١٣ — الفرق بين السخاء والتبذيرِ ، أنّ السخيّ يسمح بما يعرف مقداره ومقدار الرغبة فيه إليه ، ويضعه بحيث يحسن وضعه ، وتزكو عارفته ، والمُبذِّر يسمح بما لا يوازنُ به رغبة الراغب ، ولا حقّ القاصد ؛ ولا مقدار ما أولى ، ويستفزُّه (٢) لذلك خطرةٌ من خطراته ، والتصدّى لإطراء مُطْرٍ له بينهما بونٌ بعيد .

٢١٤ — لا تُلاجِّ الغضبان ؛ فإنكَ تقلقه (٣) باللّجاج ، ولا تردّه إلى الصواب .

٢١٥ — لا تفرح بسقطة غيرك ، فإنك لا تدرى ماتتصرّف الأيام بك .

٢١٦ — قليل العلم إذا وقر فى القلب كالطَّلِّ يصيب الأرض المطمئنّة فتعشب .

٢١٧ — مثلُ المؤمنِ الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجّةِ ريحها طيب ، وطعمها

---

(١) ب : « جزاء » ؟ (٢) استفزه : أخرجه .

(٣) تقلقله : تحركه .

طيّب ؛ ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيّب وطعمها مُرٌّ ، ومثل الفاجرِ الذى لا يقرأ القرآن مثلُ الحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها .

٢١٨ — المؤمن إذا نظر اعتبر ، وإذا سكتَ تفكّرَ ، وإذا تكلم ذكَرَ ، وإذا استغنى شكر ، وإذا أصابته شدّة صبر ، فهو قريب الرّضا ، بعيد السخط ؛ يرضيه عن الله اليسير ، ولا يسخطه البلاء الكثير ؛ قوّته لا تبلغ به ، ونيّته تبلغ ، مغموسة فى الخير يدهُ ، ينوى كثيراً منَ الخيرِ ، ويعملُ بطائفةٍ منهُ ، ويتلهفُ على ما فاته منَ الخيرِ كيف لم يعمل بِهِ !

والمنافقُ إذا نظرَ لها ، وإذا سكتَ سهاَ ، وإذا تكلّمَ لغا ، وإذا أصابهُ شِدّةٌ شكا ؛ فهوَ قريبُ السخطِ بعيدُ الرّضا ، يُسْخطه على اللهِ اليسيرُ ، ولا يُرْضيهِ الكثيرُ ، قُوّتُهُ تبلغُ ، ونيّتُهُ لا تبلغُ ، مغموسةٌ فى الشرِّ يدهُ ، ينوى كثيراً منَ الشّرِّ ، ويعملُ بطائفةٍ منه فيتلهفُ على ما فاتَهُ منَ الشّرِّ كيفَ لم يأمُرْ بِهِ ، وكيفَ لم يعملْ به !

على لِسانِ المؤمنِ نورٌ يسطعُ ، وعلى لِسانِ المنافقِ شيطانٌ ينطِقُ .

٢١٩ — سوء الظنِّ يَدوِى (١) القلوبَ ، ويَتّهِمُ المأمونَ ، ويوحِشُ المستأنسَ ، وَيُغَيّرُ مودّةَ الإخوانِ .

٢٢٠ — إذا لم يكن فى الدُّنيا إلا محتاجٌ فأغنى الناسِ أقنعُهمْ بما رُزِق .

٢٢١ — قيل لهُ : إنّ دِرْعَكَ صدرٌ لا ظَهْرَ لها ، إنّا نخاف أنْ تُؤْتَى منْ قِبَلِ ظَهْرِكَ ، فقالَ : إذا وَلّيْتُ فلا وَاءلْتُ (٢) .

٢٢٢ — أشدُّ الأشياءِ الإنسانُ ، لأنّ أشدّها — فيما يُرَى — الجبَلُ ، والحديد

---

(١) يدوى : يصيبه بالداء . والدوى : المرض ، وأدويته : أمرضته .

(٢) واءل : خلص ونجا .

ينحتُ الجبل ، والنّار تأكل الحديدَ ، والماء يُطْفِى النّارَ ، والسحاب يَحْمِل الماء ، والرِّيحُ يُفرِّقُ السحابَ ، والإنسانُ يَتَّقِى من الرِّيحِ .

٢٢٣ — إنّما الناسُ فى نفَسٍ معدودٍ ، وأمَلٍ ممدودٍ ، وأجَلٍ محدودٍ ، فلابدَّ للأجلِ أنْ يتناهى ، وللنفَسِ أنْ يُحْصَى ، وللأمَلِ أنْ يَنقضِىَ ، ثم قرأ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (١) .

٢٢٤ — اللّهمَّ لا تجعل الدُّنيا لى سِجناً ، ولا فراقَها علَىَّ حزْناً ؛ أعوذُ بِكَ منْ دُنْيا تحرِمُنى الآخرةَ ، ومِنْ أمَلٍ يحرِمُنِى العملَ ، ومِنْ حياةٍ تحرِمُنى خيرَ المماتِ .

٢٢٥ — تعطّرُوا بالاستغفارِ لا تفضحكُمْ رائحةُ الذنوبِ .

٢٢٦ — للنَّكباتِ غاياتٌ تنتهى إليها ، ودواؤها الصبرُ عليها وتركُ الحيلةِ فى إزالتها ؛ فإنَّ الحيلةَ فى إزالتها قبْلَ انقضاء مدّتها سببٌ لزيادتها .

٢٢٧ — لا يَرْضى عنك الحاسدُ حتى يموت أحدكما .

٢٢٨ — لا يكُون الرَّجلُ سيِّدَ قومِهِ حتى لا يُبالى أى ثوْبَيْهِ لَبِس !

٢٢٩ — كتب إلى عاملٍ له : اعمل بالحق ليومٍ لا يُقضى فيه إلا بالحقِّ .

٢٣٠ — نظر إلى رجلٍ يغتابُ آخرَ عِند ابنه الحسن ، فقال : يابنىَّ نزِّهْ سمعك عنه ؛ فإنه نظر إلى أخبث ما فى وعائهِ فأفرغهُ فى وعائك .

٢٣١ — احذروا الكلامَ فى مجالس الخوف ، فإنَّ الخوفَ يُذْهِلُ العقل الذى منه تستمد وتشغلهُ بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذى تروم نُصرتَهُ . واحذر الغضب ممن يحمِلكَ عليه ؛ فإنه مميتٌ للخواطرِ (٢) ، مانعٌ مِن التثبُّت . واحذر مَن تبغضُهُ فإن بغضك له يدعوك إلى الضجرِ به ؛ وقليلُ الغضَبِ كثير فى أذى النفس والعقل ، والضجرُ مضيِّقٌ

---

(١) سورة الانفطار ١٠ ، ١١

(٢) الخواطر جمع خاطر ؛ وهو ما يخطر ببالك

لِلصَّدر ، مُضعِفٌ لِقُوَى العقل ؛ واحذرِ المحافل التى لا إنصاف لأهلها فى التسوية بينك وبين خصمك فى الإقبال والاستماع ، ولا أدب لهمْ يمنعهم من جوْرِ الحُكم لك وعليك واحذر حين تظهرُ العصبية لخصمك بالاعتراض عَليك وتشييد قَوْله[1] وحجته ، فإنّ ذَلك يهيجُ العصبيّة والاعتراض على هذا الوجهِ يخلِق الكلام ، ويذْهِبُ بهجة المعانى . واحذر كلام من لا يفهمُ عنك فإنه يُضْجِرك ؛ واحذر استصغار الخصم فإنه يمنع من التحفُّظِ ؛ ورُبَّ صغير غلب كبيراً !

٢٣٢ — لا تقبلِ الرياسةَ على أهلِ مدينتكَ ؛ فإنهم لا يستقيمونَ لكَ إلا بما تخرج به من شرطِ الرئيس الفاضل .

٢٣٣ — لا تهزأ بخطأ غيرك ؛ فإن المنطق لا يملكهُ ، وأقْلِلْ من الخطأ الّذِى أنت فيه بقدرِ الصبرِ واجعل العقل والحقّ إمامَيك تنَل البغية بِهما .

٢٣٤ — الرّأى يُريك غاية الأمر مَبدَاهُ .

٢٣٥ — الخيِّرُ من الناس مَن قدر على أن يَصْرِف نفسه كما يشاء ويدفعها عن الشُّرُورِ، والشرّيرِ من لم يكن كذلك .

٢٣٦ — السُّلْطان الفاضل هو الذى يَحْرس الفَضائل ويجود بها لمن دونه ويرعاها من خاصّته وعامته ؛ حتى تكثر فى أيّامه ، ويتحسن بها من لم تكن فيه .

٢٣٧ — لِلكَريم رباطان أحَدُهما الرعاية لصديقه وذوى الحرمَة به ، والآخر الوفاء لمن ألزمه الفضل ما يجب له عليه .

٢٣٨ — إذا تحرّكتْ صورة الشرّ ؛ ولم تظهر ولّدت الفَزَع ؛ فإذا ظهرت وَلّدت الألم ؛ وإذا تحرّكت صورة الخير ولم تظهر وَلدت الفرج ، فإذا ظهرت وَلّدَت اللّذة .

---

(١) قوله : « وتشييد قوله » أى تحصينها وصونها عن تطرق الخلل إليها ، وأصل التشييد طلاء الحائط بالجص والطين لئلا يبق به ثقب .

٢٣٩ — الفرقُ بين الاقتصادِ والبُخْل أن الاقتصادَ تمسُّك الإنسان بما في يدِه خوفاً على حريَّتِهِ وجاهه من المسألة ؛ فهو يضع الشيء موضعه ، ويصبر عمّا لا تدعو ضرورةٌ إليه ، ويصل صغير برِّه بعظيم بِشْره ؛ ولا يستكثِر من المودات خوفاً من فرط الإجْحاف به ، والبخيل لا يكافئ على ما يسدى إليه ، ويمنع أيضاً اليَسِير من استحَقّ الكثير ، ويصبر لصغير ما يجرى عليه على كثيرٍ من الذِّلة .

٢٤٠ — لا تحتقِرنَّ صغيراً يمكن أن يكبر ، ولا قليلا يمكن أنْ يكثر .

٢٤١ — ما زلتُ مظلوماً مُنذ قَبض الله نبيهُ حتى يوم الناس هــذا ؛ ولقد كنت أظلم قبل ظهور الإســلام ؛ ولقد كان أخي عقيلٌ ، يذنبُ أخى جعفر فيضْرِبُني .

٢٤٢ — لو كسرت لى الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبينَ أهلِ الإنجيل بإنجيلهم ؛ وبين أهلِ الفرقان بفرقانهم ؛ حتى تَزْهِر(١) تِلْكَ القضايا إلى اللهِ عَزّ وَجَلّ وتقول: يارب؛ إن علياً قضى بين خلقك بقضائك .

٢٤٣ — مرّ بدارٍ بالكوفة فى مُرادٍ تبنى فوقعت مِنها شَظِيَّةٌ(٢) على صَامتِه فادمتها ، فقال : مايومى من مُرادٍ بواحِدٍ ! اللّهمّ لا ترفعها ، قالوا : فو اللهِ لقدْ رأينا تلك الدار بين الدور كالشاة الجمّاء(٣) بين الغنم ذوات القرُون .

٢٤٤ — أقتلُ الأشياء لعدوك ألاّ تعرِّفَهُ أنك اتخذته عدوًّا .

٢٤٥ — الخِيرَةُ فى تَرْكِ الطِّيَرَة .

٢٤٦ — قيل له فى بعض الحروب : إن جالت الخيلُ أين نطلُبُك ؟ قال : حَيْثُ تركتموني .

٢٤٧ — شَفيعُ المُذْنب إقراره ، وتوبتهُ اعتِذاره .

---

(١) تزهر : تضيء وتتلألأ .

(٢) الشظيه : الفلقة من العصا .

(٣) شاة جماء : لا قرون لها .

٢٤٨ — قصمَ ظهري رجلان : جاهل متنسّكٌ(١) وعالمٌ متهتّكٌ .

٢٤٩ — ألا أخبركم بذات نفسي ! أما الحسن ففتًى من الفتيان ، وصاحبُ جفنةٍ وخوان ؛ ولَوْ التقت حلقتا البِطان(٢) لم يغن عنكم في الحرب غناء عُصْفورٍ ، وأمّا عبدُ اللهِ بن جعفر فصاحبُ لهوٍ وظلٍّ باطل ، وأمّا أنا والحسينُ فنحن منكم وأنتم منا .

٢٥٠ — قال في المنبَرِيّةِ : صار ثُمُنُها تُسْعاً على البَدِيهة(٣) وهذا من العجائب .

٢٥١ — جاء الأشعثُ إليه وهو على المنبرِ ، فجعل يتخطّى رِقاب النّاس حتى قَرُبَ مِنه ثمّ قال : يا أميرَ المُؤمنين ، غلبتنا هذه الحمراء على قُرْبِكَ — يعني العجم — فركض المنبر برِجله ، حتى قال صَعْصَعةُ بنُ صُوحان : مالنا ولِلأشعث ! ليقولَنّ أميرُ المُؤمنين عليه السلام اليوم في العربِ قولاً لا يزالُ يُذْكَرُ ؛ فقال عليه السلامُ : مَنْ يعذرُني من هؤلاء الضياطرة ! يتمرّغُ أحدهم على فِراشه تمرُّغ الحمار ، (٤) ويَهْجُر قوماً للذكر ؛ أفتأمرُونني أن أطردهم ! ما كنت لِأطردهم فأكون مِن الجاهلين ! أما والذي فلق الحبّة ، وبرأ النّسمة ، ليضربنّكُمْ على الدين عَوْداً كما ضربتمُوهم عليه بَدْءاً .

٢٥٢ — كان إذا رأى ابنَ مُلْجَمٍ ، يقول : أُرِيدُ حياتَهُ(٥) ... البيت؛ فيقالُ لَهُ : فاقْتُله ، فيقولُ : كيف أقتلُ قاتلي !

٢٥٣ — إلهي ما قدر ذُنُوبٍ أقابلُ بها كرمَك ، وما قَدْرُ عِبادةٍ أقابل بها نِعمك ! وإني لأرجو أن تَسْتغرق ذُنوبي في كرمِك ، كما استغرقتَ أعمالي في نِعَمك .

---

(١) المتنسك : متكلف النسك والتقوى .

(٢) التقت حلقتا البطان : مثل ؛ والبطان : الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير ، فإذا التقت حلقتاه دل على اضطراب العقد وانحلالها .

(٣) المنبرية : إشارة إلى مسألة من مسائل الميراث .

(٤) الضيطر : الرجل الضخم الذي لا غناء عنده ، وجمعه ضياطرة .

(٥) يشير إلى قول عمرو بن معديكرب :

أُرِيدُ حياتَهُ ويُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ من خليلكَ من مراد

٢٥٤ — إذا غضب الكريمُ فألِنْ له الكلام ، وإذا غضب اللئيمُ فخذ له العصا .

٢٥٥ — غضب العاقل فى فعلِهِ ، وغضب الجاهل فى قولِهِ .

٢٥٦ — رأى رَجلاً يُحدِّث مُنكر الحديث ، فقال : يا هذا ، أنصف أذُنيك مِن فك ؛ فإنما جعل الأذنان اثنتين ، والفم واحداً ، ليسمع أكثر مما يقول .

٢٥٧ — إيَّاك وكثرة الاعتذار ؛ فإن الكذب كثيراً مايُخالِطُ المعاذير .

٢٥٨ — اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على مَنْ شكرك .

٢٥٩ — سلْ مسْألةَ الحمقى [1] واحفظ حفظ الأكياس .

٢٦٠ — مرُوا الأحداثَ بالمراء والجدال ، والكهُولَ بالفكر ، والشيوخَ بالصمْتِ .

٢٦١ — عوِّدْ نفسكَ الصبرَ على جليس السوء ؛ فإنه يكادُ يخطئك .

٢٦٢ — يابنيَّ إنّ الشَّرَّ تاركُكَ إنْ تركْتَهُ .

٢٦٣ — لا تطلبوا الحاجة إلى ثلاثة : إلى الكذُوبِ ، فإنهُ يقرِّبُها وإن كانت بعيدةً ، ولا إلى أحمقَ ؛ فإنه يريدُ أن ينفعك فيضرَّك ، ولا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجةٌ ؛ فإنهُ يجعلُ حاجتكَ وقايةً لحاجتِهِ .

٢٦٤ — إياكَ وصدرَ المجلسِ فإنهُ مَجلسُ قُلْعةٍ [2] .

٢٦٥ - احذرُوا صوْلةَ الكريمِ إذا جاع وصوْلةَ اللئيمِ إذا شبعَ .

٢٦٦ — سِرُّكَ دمكَ فلا تُجرِينَّه إلّا فى أوْداجِك .

٢٦٧ — وسُئل عنِ الفرق بين الغمِّ والخوْفِ ، فقال : الخوفُ مجاهدةُ الأمرِ المخوفِ قبل وُقوعِهِ ، والغمُّ مايلحقُ الإنسانُ من وقوعِهِ .

---

(١) الحمق : ضعف العقل .

(٢) مجلس قلعة ؛ إذا كان صاحبه يحتاج إلى القيام .

٣٦٨ — المعروف كنز فانظر عند من تودعه .

٣٦٩ — إذا أرسلت لبعز فلا تأت بتمر فيؤ كلُ تمرُك وتعنف على خلافك[1] .

٢٧٠ — إذا وقع فى يدك يومُ السُّرُورِ فلا تخلّه فإنك إذا وقعت فى يدِ يومِ الغمِّ لمْ يُخلّكَ .

٢٧١ — إذا أردت أن تصادقَ رجلا فانظر : منْ عدوُّه ؟

٢٧٢ — الانقباضُ من النَّاس مكْسبةٌ للعداوةِ ، والانبساطُ مجلبةٌ لقرين السوء ؛ فكن بينَ المنقبض والمسترسل ، فإن خيرَ الأمورِ أوساطها .

٢٧٣ — أنا عبد اللهِ ، وأخو رسولِ الله ؛ لا يقولها بعدِى إلاَّ كذَّابٌ .

٢٧٤ — أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وآلهِ بيدِى فهزّها ، وقالَ : ماأوَّلُ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بها عليك ؟ قلتُ : أنْ خلقنى حيًّا ، وأقدرنى ، وأكمل حواسِّى ومشاعرى وقوَاى ، قال : ثم ماذا ؟ قلتُ : أن جعلنى ذَكراً ، ولم يجعلنى أنثى ، قالَ والثَّالثةُ : قلت : أن هدانى للإسلام ، قال : والرابعة ؟ قلت : ﴿وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحْصُوها﴾[2] .

٢٧٥ — اللهم إنى أسألكَ إخباتَ المخبتين ، وإخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبرار ، والعزيمةَ فى كلِّ برٍّ والسلامة منْ كلِّ إثم ، والفوْز بالجنَّةِ ، والنجاة من النارِ .

٢٧٦ — لما ضربه ابن ملجم وأوْصى ابنيه بما أوصاهما قالَ لابن الحنفيّة : هل فهمت ما أوصيتُ به أخويك ؟ قال : نعمْ ، قال : فإنى أوصيكَ بمثله وبتوقيرِ أخويك ، واتباع أمرهما ، وألاَّ تبرم أمراً دونهما . ثم قال لهما : أوصيكما بهِ فإنهُ شقيقكما ، وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّهُ فأحِبَّاهُ .

٢٧٧ — أمّا هذا الأعور — يعنى الأشعث — فإنَّ اللهَ لم يرفعْ شرَفًا إلّا حسده ، ولا أظهر فضلاً إلّا عابهُ ، وهوَ يُمنِّى نفسَهُ ويخدعها ، يخافُ ويرجو ، فهُوَ بينهما لا يثقُ

(١) هذه الحكمة ساقطة من ب ، وأثبتها من ا ، د (٢) سورة النحل ١٨

بواحدٍ منهما ، وقد منَّ اللهُ عليــه بأن جعلَهُ جباناً ، ولو كانَ شجاعاً لقتلهُ الحقُّ ، وأمّا هذا الأكثفُ عندَ الجاهليّةِ - يعنى جَرِيرَ بن عبد الله البَجَلِيَّ - فهو يرى كلَّ أحدٍ دونَهُ ، ويستصغرُ كلَّ أحدٍ ويحتقرُهُ، قد مُلِئَ ناراً ، وهُوَ معَ ذلكَ يطلبُ رئاسَةً ، ويَرُومُ إمارَةً ، وهــذا الأعورُ يُغْويه ويُطْغيه ، إن حدَّثَهُ كَذَبَهُ ، وإن قامَ دُونَهُ نَــكَصَ عنهُ ، فهما كالشيطانِ إذ قالَ للإنسانِ : اكفرْ فلمّا كفرَ قالَ إنّي بَرِيءٌ منكَ إنّي أخافُ اللهَ رَبَّ العالمينَ .

٢٧٨ — بُلوغُ أعْلَى المنازلِ بغيرِ استحقاقٍ من أكبرِ أسبابِ الهَلَكَةِ .

٢٧٩ — الكلمةُ إذا خرجتْ منَ القلبِ وقعتْ في القلبِ ، وإذا خَرَجتْ منَ اللسانِ لم تجاوزِ الآذانَ .

٢٨٠ — الكرمُ حسنُ الفِطنةِ ، واللؤمُ سوءُ التغافلِ .

٢٨١ — أسوأُ النّاسِ حالاً من اتّسعتْ معرفتــه ، وبَعُــدَتْ هِمّتُــهُ ، وضاقَتْ قُدْرَتُهُ (١) .

٢٨٢ — أمران لا ينفكّان مِن الكَذِب : كثرَةُ المواعيدِ ، وشدَّةُ الاعتذارِ .

٢٨٣ — عادَةُ النَّوْكَى (٢) الجلوسُ فوق القدْر ، والمجيء في غيرِ الوقتِ .

٢٨٤ — العافيةُ المُلْكُ الخفيُّ .

٢٨٥ — سوء حَمْلِ الغِنَى يورثُ مقتاً ، وسوء حمل الفاقَةِ يضع شرفاً .

٢٨٦ — لا ينبغى لأحدٍ أن يدَعَ الحزمَ لظفرٍ ناله عاجزٌ ، ولا يسامح نفسه فى التفريطِ لنكبةٍ دخلتْ على حازمٍ .

٢٨٧ — ليس مِن حسنِ التوكل أنْ يقالَ عثرَةً ، ثم يركبها ثانيةً .

---

(١) هذه الحكمة ساقطة من ب ، وأثبتها من ا ، د (٢) النوك : الحمق .

٢٨٨ — سوء القالةِ فى الإنسان إذا كان كذباً نظيرُ الموتِ لفسادِ دنياه ؛ فإن كان صدقاً فأشدُّ مِنَ الموتِ لفسادِ آخرتِه .

٢٨٩ — ترضى الكرامُ بالكلامِ ، وتُصادُ اللئامُ بالمالِ ، وتُستصلحُ السِّفلةُ بالهوانِ .

٢٩٠ — لا يزالُ المرء مستمرًّا مالم يعثرْ ، فإذا عثرَ مرّةً لَجَّ بِهِ العِثار ولو كان فى جَدَدٍ .

٢٩١ — المتواضع كالوهْدَةِ يجتمعُ فيها قَطْرُها وقَطْرُ غيرها ، والمتكبِّرُ كالرَّبْوةِ لا يقرُّ عليها قطرُها ، ولا قطرُ غيرِها .

٢٩٢ — لا يصبرُ على الحربِ ويَصْدُقُ فى اللقاء إلا ثلاثةٌ : مستبصرٌ فى دينٍ ، أو غيْرانُ على حُرْمَةٍ ، أو ممتعِضٌ من ذُلٍّ .

٢٩٣ — مجاوزتك مايكفيك فقرٌ لا منتهى له .

٢٩٤ — قيل له : أىّ الأمورِ أعْجَلُ عقوبةً ، وأسرع لصاحِبها صرْعةً ؟ فقال : ظلم مَنْ لا ناصِرَ له إلّا اللهُ ، ومجازاةُ النِّعَمِ بالتقْصيرِ ، واستطالةُ الغَنِىّ على الفقيرِ .

٢٩٥ — الجِماعُ للمِحَنِ جَمّاعٌ ، وللخيراتِ منّاعٌ ؛ حياء يرتفعُ ، وعوراتٌ تجتمعُ ؛ أشبه شىء بالجنونِ ؛ ولذلك حُجِبَ عن العيونِ ، نتيجتُهُ ولَدٌ فتونٌ ، إن عاشَ كَدَّ ، وإن ماتَ هَدَّ .

٢٩٦ — ماشىء أهْونَ مِنْ ورعٍ ؛ إذا رابكَ أمرٌ فدَعْهُ .

٢٩٧ — إذا أتى عَلَىّ يومٌ لا أزدادُ فيه عملاً يقرِّبُنى إلى اللهِ ، فلا بورِكَ لى فى طلوعِ شمسِ ذلك اليومِ .

٢٩٨ — أشرفُ الأشياء العلمُ ؛ واللهُ تعالى عالِمٌ يحِبُّ كل عالِمٍ .

٢٩٩ — ليتَ شعري أيَّ شيء أدركَ مَنْ فاتَهُ العلمُ ! بل أيَّ شيء فات من أدْركَ العلمْ !

٣٠٠ — لا يسودُ الرجل حتّى لا يُبالى فى أىّ ثوبيه ظهرَ .

٣٠١ — سمع رجلاً يدعُو لصاحبه ، فقال : لا أراكَ اللهُ مكرُوهاً ، فقال : إنما دعوْتَ لهُ بالموْت ، لأنّ منْ عاشَ فى الدُّنْيا لا بُدَّ أن يرَى المكْروهَ .

٣٠٢ — من صفةِ العاقل ألاّ يَتَحَدّث بما يُسْتطاعُ تـكْذيبهُ فيه .

٣٠٣ — السعيدُ منْ وعظَ بغيرِهِ ، والشقىّ منْ اتّعظ به غيرُهُ .

٣٠٤ — ذو الهمّة وإنْ حطّ نفسَه يأبى إلّا علوّاً ، كالشعلة منَ النّار يخفيها صاحبُها ، وتأبى إلّا إرتفاعاً .

٣٠٥ — الدَّينُ غلّ الله فى أرْضِه ، إذا أرادَ أنْ يذِلّ عبداً جعلهُ فى عنقهِ .

٣٠٦ — العاقل إذا تـكلم بكلمة أتبعها حكْمةً ومثلا ، والأحمقُ إذا تـكلم بكلمةٍ أتبعها حلِفاً .

٣٠٧ — الحركةُ لقاح الجدِّ العظيمِ (١) .

٣٠٨ — ثلاثةٌ لا يُستحى من الختم عليها : المالُ لنفى التهْمةِ ، والجوهرُ لنفاسته ، والدواء للاحتياطِ من العدوّ .

٣٠٩ — إذا أيسرت فـكلُّ الرجال رجالك ، وإذا أعسرتَ أنـكرك أهلك .

٣١٠ — من الحكمة جعل المـال فى أيدِى الجهال فإنّهُ لو خُصّ به العقلاء لمـات

---

(١) هذه الحـكمة ساقطة من ا

الجهالُ جُوعاً ، ولكنهُ جُعلَ في أيدي الجهالِ ، ثم استنزلهمْ عنه العقلاء بلطفهم وفطنتهم .

٣١١ — ماردَّ أحدٌ أحداً عن حاجة الّاوتبيّنَ العزُّ في قفاه ، وَالذلُّ في وجههِ .

٣١٢ — ابتداء الصنيعة نافلةٌ ، وربّها[1] فريضةٌ .

٣١٣ — الحاسدُ المبطنُ للحسدِ كالنحلِ يمجُّ الدَّوَاء ، ويبطنُ الداء .

٣١٤ — الحاسدُ يرى زَوَال نعمتِكَ نعمةً عليْهِ .

٣١٥ — التَّواضع إحدى مصايد الشرف .

٣١٦ — تواضعُ الرَّجُل في مرتبته ذَبٌّ للشماتةِ عنهُ عِندَ سقْطتهِ .

٣١٧ — رُبَّ صلَفٍ أدّى إلى تلف .

٣١٨ — سوء الخلقِ يُعدِي ؛ وذاكَ أنهُ يدْعُو صاحبك إلى أن يقابلكَ بمثلِهِ .

٣١٩ — المروءة التَّامة مُباينَةُ العامةِ .

٣٢٠ — أسوأ مافي الكريم أنْ يمنعك نداهُ ، وأحسنُ مافي اللَّئيم أنْ يكفَّ عنْك أذاهُ .

٣٢١ — السفلةُ إذا تعلمُوا تَكبَّرُوا ، وإذا تموَّلُوا استطالُوا ، والعِليةُ إذا تعلمُوا تواضعوا ، وإذا افتقروا صالُوا .

٣٢٢ — ثلاثٌ لا يُسْتصلَحُ فسادُهُنَّ بحيلةٍ أصْلاً : العداوةُ بيْنَ الأقاربِ ، وتحاسدُ الأكْفاء ، وركاكةُ المُلوكِ .

٣٢٣ — السخيُّ شُجاعُ القلب ، والبخيلُ شُجاعُ الوجهِ .

---

(١) ربها ، أي جمها .

٣٢٤ — العزلة توفر العرضَ وتستر الفاقةَ ، وترفع ثقل المكافأة .

٣٢٥ — ما احتنكك أحدٌ قطُّ إلا أحبَّ الخلوةَ والعزْلة .

٣٢٦ — خيرُ الناس من لمْ تجرِّبهُ .

٣٢٧ — الكريم لا يلينُ على قسرٍ ، ولا يَقْسُو على يسرٍ .

٣٢٨ — المرأةُ إذا أحبتك آذتك وإذا أبغضتك خانتك وربما قتلتكَ ؛ فَحُبُّها أذى، وبغضها داءٌ بلا دَوَاء .

٣٢٩ — المرأةُ تكتمُ الحبَّ أربعينَ سنةً ، ولا تكتمُ البغض ساعةً واحدةً .

٣٣٠ — المُمتحنُ كالمختنق ؛ كلَّما ازداد اضطراباً ازداد اختناقاً .

٣٣١ — كلُّ مالا ينتقلُ بانتقالكِ مِنْ مالكَ فهو كفيل بك .

٣٣٢ — أجلُّ ما يَنزلُ مِنَ السماءِ التوفيقُ ، وأجلُّ ما يصعدُ مِنَ الأرضِ الإخلاصُ .

٣٣٣ — اثنان يهونُ عليهما كلُّ شيء : عالمٌ عرَفَ العواقب ، وجاهل يجهلُ ماهوُ فيه .

٣٣٤ — شرٌّ من الموْتِ ما إذا نزلَ تمنيتَ بنزولهِ الموتَ ، وخيْرٌ من الحياةِ ما إذا فقدته أبغضتَ لفقْدهِ الحياةَ .

٣٣٥ — ماوَضعَ أحدٌ يدَهُ في طعامِ أحدٍ إلاّ ذلَّ له .

٣٣٦ — المرأةُ كالنعل يلبسها الرجلُ إذا شاء، لا إذا شاءتْ .

٣٣٧ — أبصرُ الناس لعوَار النَّاس المعورُ .

٣٣٨ — العجبُ ممنْ يخافُ عقوبة السلطان وهي منقطعةٌ ، ولا يخافُ عقوبة الدَّيان وهي دائمة .

٣٣٩ — من عرف نفسَهُ فقد عرف ربّه .

٣٤٠ — من عجز عن معرفةِ نفسهِ فهو عن معرفة خالقهِ أعجزُ .

٣٤١ — لو تكاشفتُم لما تدافنتُم .

٣٤٢ — شيطان كلّ إنسانٍ نفسهُ .

٣٤٣ — إنْ لمْ تعلمْ منْ أينَ جئت ، لمْ تَعلَمْ إلى أينَ تذهبُ !

٣٤٤ — غايةُ كلّ مُتعمقٍ فى معرفةِ الخالقِ سبحانهُ الاعترافُ بالقصورِ عن إدراكها .

٣٤٥ — الكمالُ فى خمس : ألاّ يعيبَ الرجلُ أحداً بعيبٍ فيهِ مثلهُ حتّى يصلحَ ذلكَ العيبَ مِنْ نفسهِ ؛ فإنهُ لا يفرغُ منْ إصلاحِ عيبٍ من عيُوبهِ حتّى يهجم على آخرَ فتشغله عيُوبهُ عن عيُوبِ الناس ، وألاّ يطلقَ لسانه ويدهُ حتّى يعلم أفى طاعةٍ ذلك أمْ فى معصيةٍ ، وألاّ يلتمسَ مِن النّاسِ إلّا ما يعطيهمْ منْ نفسهِ مثلَهُ ، وأنْ يَسلمَ منَ النّاسِ باستشعارِ مُداراتهمْ وتوفيتهمْ حُقوقهمْ ، وأن يُنفقَ الفضلَ منْ ماله ، ويمسكَ الفضل منْ قولهِ .

٣٤٦ — صَدِيق البخيل مَن لم يُجرِّبْهُ .

٣٤٧ — من الخيط الضعيف يُفتَل الحبل الحصيف ، ومن مقدحةٍ[1] صغيرةٍ تحترق مدينةٌ كبيرةٌ ، ومن لَبِنةٍ لَبِنةٍ[2] تُبْنَى قريَةٌ حصينةٌ .

٣٤٨ — مُحِبُّ الدراهِمِ مَعذورٌ وإنْ أذنَتهُ من الدُّنيا ؛ لأنها صانتهُ عن أبناء الدُّنيا .

---

(١) المقدحة : ما يقدح بها النار .

(٢) اللبنة : التى يبنى بها .

٣٤٩ — عجباً لمن قيل فيه الخيرُ وليس فيه كيف يفرح ! وعجباً لمن قيل فيه الشرُّ وليسَ فيه كيف يغضبُ !

٣٥٠ — ثلاث مُوبقاتٌ : الكِبْرُ فإنه حطَّ إبليس عن مَرْتبته ، والحِرْصُ فإنه أخرج آدم من الجنةِ ، والحسدُ فإنهُ دعا ابن آدم إلى قتلِ أخيهِ .

٣٥١ — الفِطامُ عن الحُطام شَدِيدٌ(١).

٣٥٢ — إذا أقبلَتِ الدُّنيا أقبلت على حِمارٍ قَطوفٍ ، وإذا أدْبرَتْ أدبرَتْ على البُراقِ .

٣٥٣ — أصاب مُتأمِّلٌ أو كاد ، وأخطأ مستعجِلٌ أو كاد .

٣٥٤ — سِتَّةٌ لا تُخطئهُمُ الكآبةُ : فقيرٌ حديث عهدٍ بغِنًى ، ومُكثِرٌ يخاف على ماله ، وطالِبُ مرتبةٍ فوْق قدرهِ ، والحسودُ ، والحقودُ ، ومخالِطُ أهل الأدب وليس بأديبٍ .

٣٥٥ — طَلَبْتُ الراحة لنفسي فلم أجد شيئاً أروح من ترْكِ مالا يعنيني ، وتوحَّشْتُ في القفرِ البَلْقعِ فلم أرَ وَحْشةً أشد من قرين السوء ، وشهدت الزُّحوف(٢) ولقيتُ الأقران فلم أر قِرناً أغلب من المرأةِ ، ونظرت إلى كلِّ ما يُذِلُّ العزيز ويكسِرُهُ ، فلم أرَ شيئاً أذَلَّ لهُ ولا أكسر من الفاقة .

٣٥٦ — أوّل رأى العاقل آخِرُ رأى الجاهل .

٣٥٧ — المُسْترشِد مُوَفَّقٌ ، والمُحترِسُ مُلقًّى .

٣٥٨ — الحُرُّ عبدٌ ما طَمِعَ ، والعبدُ حرٌّ ما قَنِعَ .

---

(١) ب : « شد » .

(٢) زحف إليه : خف ومشى ، والزحف : الجيش يمشي إلى العدو .

٣٥٩ — ما أحْسَنَ حُسْنَ الظَّنِّ إلا أنّ فيهِ العَجزَ ، وما أقبحَ سوءَ الظَّنِّ إلاّ أنّ فيه الحزْمَ !

٣٦٠ — ما الحيـــلةُ فيما أعْيى(١) إلا الـكفُّ عنه ، ولا الرّأى فيما يُنال إلا اليأسُ منه .

٣٦١ — الأحمقُ إذا حُدِّث ذَهـل ، وإذا حَدّث عُجِل ، وإذا حُمِـل على القبيح فعل .

٣٦٢ — إثبات الحُجّةِ على الجاهل سهلٌ ؛ ولـكن إقرارُهُ بها صعبٌ

٣٦٣ — كما تُعْرفُ أوانى الفَخّار بامْتِحانِها بأصواتِها فيعلَمُ الصَّحيح مِنها من المكْسورِ ، كذلك يُمتحنُ الإنسان بمنطقهِ فيعرفُ ما عِندَهُ .

٣٦٤ — احتمال الفقرِ أحْسَنُ من احتمالِ الذُّلِّ ، لأنّ الصبر على الفقر قناعةٌ ، والصبر على الذل ضراعةٌ(٢) .

٣٦٥ — الدنيا حمقاء لا تميلُ إلا إلى أشباهها .

٣٦٦ — السفرُ ميزانُ الأخلاق .

٣٦٧ — العقل مَلِكٌ والخصالُ رعيّتُهُ ، فإذا ضعف عن القيـــام عليها وَصل الخللُ إليهـا .

٣٦٨ — الـكذّابُ يُخيف نفسه وهو آمِنٌ .

٣٦٩ — لولا ثلاث لم يُسْلل سَيفٌ: سِلكٌ أدقُّ من سِلكٍ ، ووَجهٌ أصْبَحُ من وجهٍ ، ولُقْمَةٌ أسْوَغُ من لُقمةٍ .

٣٧٠ — قد يَحْسُن الامتنانُ بالنعمةِ وذلك عند كُفْرانِها ، ولولا أن بنى إسْرائيل

(١) ا : « أعيا » .

(٢) ضرع إليه ضراعة : ذل وخضع .

كفرُوا النِّعمة لما قال اللهُ لهم : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عليكم ﴾(١) .

٣٧١ — إذا تناهى الغمُّ انقطَعَ الدمْعُ .

٣٧٢ — إذا وُلِّيَ صديقُك ولايةً فأصبْتَه على العُشْرِ مِن صداقتِه فليس بصاحبِ سُوء .

٣٧٣ — أعْجَبُ الأشياء بديهةُ أمْنٍ وَرَدَتْ في مقامِ خَوْفٍ .

٣٧٤ — الحرصُ محْرَمَةٌ(٢) والجبنُ مقتلةٌ ، وإلا فانظر فيمن رأيت وسمعت : أمَنْ قُتِلَ في الحربِ مُقبلاً أكثرُ ، أم مَن قُتِل مُدْبِراً ! وانظر : أمَن يطلُبُ بالإجمال والتكرُّم أحقُّ أن تسخو نفسُكَ لهُ أمْ مَن يطلُبُ بالشرَهِ والحرْصِ !

٣٧٥ — إذا كان العقل تسعة أجزاء احتاج إلى جزء من جهل ليُقْدِم به صاحبه على الأمور ، فإنّ العاقل أبداً متوانٍ مترقِّب متخوِّف .

٣٧٦ — عملُ الرَّجلِ بما يعلمُ أنه خطأٌ هوًى ، والهوَى آفةُ العفافِ ، وتركُ العملِ بما يعلمُ أنه صوابٌ تهاوُنٌ ، والتهاوُنُ آفةُ الدينِ ، وإقدامُه على مالا يدري أصوابٌ هو أم خطأٌ لجاجٌ ، واللجاجُ آفةُ العقل .

٣٧٧ — ضعفُ العقل أمانٌ منَ الغمّ .

٣٧٨ — لا ينبغي للعاقلِ أنْ يمدحَ امرأةً حتى تموتَ ، ولا طعاماً حتى يستمرئه ، ولا صديقاً حتى يستقرضهُ ؛ وليس مِنْ حُسْنِ الجِوَارِ تركُ الأذى ، ولكن حُسْنُ الجِوارِ الصبرُ على الأذى .

٣٧٩ — لا يتأدبُ العبدُ بالكلامِ إذا وثِقَ بأنه لا يُضرَبُ

٣٨٠ — الفرْقُ بين المؤمنِ والكافرِ الصلاةُ ، فمن تركها وادّعى الإيمان كذّبه فعلُهُ ، وكان عليه شاهدٌ مِنْ نفسِه .

---

(١) سورة البقرة ١٢٢ (٢) أي سبب الحرمان .

٣٨١ — مَنْ خاف اللهَ خافه كل شيء .

٣٨٢ — مِنَ النقصِ أن يكونَ شفيعُكَ شيئاً خارجاً عن ذاتِكَ وصفاتِكَ .

٣٨٣ — ويلي على العبدِ اللئيم ، عبد بني ربيعةَ ! نزع به(١) عِرقُ الشِّرْكِ العبشمي(٢) إلى مساءتي ، وتذكُّرُ دَمِ الوليدِ وعتبةَ وشيبةَ أَوْلَى له ؛ واللهِ ليَرينِّي في موقفٍ يسوءهُ ثم لا يجدُ هناكَ فلاناً وفلاناً — يعني سالماً مَوْلَى حُذَيْفَةَ .

٣٨٤ — أنا قاتِلُ الأقرانِ ، ومُجَدِّلُ الشجعانِ ، أنا الذي فَقَأْتُ عينَ الشِّرْكِ ، وثَلَلْتُ عرشَهُ ؛ غيرَ مُمْتَنٍّ على اللهِ بجهادي ، ولا مُدِلٍّ إليه بطاعتي ؛ ولكن أُحَدِّثُ بنعمةِ ربِّي .

٣٨٥ — الصَّوْمُ عبادةٌ بين العبدِ وخالقِهِ ، لا يَطَّلِعُ عليها غيرُه ، وكذلك لا يجازي عنها غيرُه .

٣٨٦ — طوبى لمن شغله عَيْبُهُ عن عيوب الناسِ ! طوبى لِمَنْ لا يعرفُ الناسَ ولا يعرِفُهُ الناسُ ! طوبى لمن كان حياً كميّتٍ، وموجوداً كمعدومٍ ؛ قد كفى جاره خيرَهُ وشرَّهُ ، لا يسألُ عنِ الناس ، ولا يسألُ الناسُ عنه .

٣٨٧ — ما السيفُ الصارمُ في كفِّ الشجاعِ بأعزَّ له من الصِّدْقِ .

٣٨٨ — لا يكن فقرُكَ كُفراً ، وغناك طغياناً .

٣٨٩ — ثمرةُ القناعةِ الرَّاحةُ ، وثمرةُ التَّواضُعِ المحبّةُ .

٣٩٠ — الكريمُ يلينُ إذا استُعطِفَ ، واللئيمُ يقسو إذا لُوطِفَ .

٣٩١ — أَنكَى لِعَدُوِّكَ ألا تُرِيَهُ أنك اتَّخذته عدوًّا .

٣٩٢ — عذابانِ لا يأبَهُ الناسُ لهما : السفرُ البعيدُ ، والبناءُ الكثير .

---

(١) نزع به عرق الشر : جذبه إليه .

(٢) عبشمي ، نسبة إلى عبد شمس .

٣٩٣ — ثلاثة يُؤْثِرون المالَ على أنفسهم : تاجر البحرِ ، وصاحب السلطان ، والمُرْتَشِي في الحكمِ .

٣٩٤ — أعْجَزُ النـاسِ مَنْ قَصَّرَ في طلب الصّديق ، وأعْجَزُ منـه من وَجَدَهُ فَضَيَّعَهُ[1] .

٣٩٥ — أشدُّ المشاقّ وعدُ كذّابٍ لِحَرِيصٍ .

٣٩٦ — العـادات قاهِرَاتٌ ، فمن اعتـاد شيئاً في سرّه وخلوته فضحه في جَهْرِهِ وعلانيته .

٣٩٧ — الأخ البارّ مغيضُ الأسرار .

٣٩٨ — عدمُ المعرفة بالكتابة زمانةٌ خَفِيّةٌ .

٣٩٩ — قديمُ الحُرْمَةِ وحديثُ التَّوْبَةِ يمحقانِ مابينهما من الإساءةِ .

٤٠٠ — رُكوبُ الخيلِ عِزٌّ ، ورُكوبُ البراذينِ لَذّةٌ ، ورُكوبُ البغالِ مَهْرَمَةٌ ، ورُكوبُ الحميرِ مَذَلّةٌ .

٤٠١ — العقلُ يظهرُ بالمعاملة ، وشِيَمُ الرِّجالِ تُعْرَفُ بالولايةِ .

٤٠٢ — قال له قائلٌ : علِّمْنِي الحلم ، فقـال : هوَ الذُّلُّ ، فاصطبِرْ عليـه إنِ استطعتَ .

٤٠٣ — قالتم : إنّ فلاناً أفادَ مالاً عظيماً ؛ فهلْ أفادَ أيّاماً يُنفِقُهُ فيها !

٤٠٤ — عيادةُ النَّوْكَى أشدُّ على المريضِ منْ وَجَعِهِ .

٤٠٥ — المريضُ يعادُ ، والصحيحُ يزَارُ .

٤٠٦ — الشيءُ الذي لا يحسُنُ أنْ يقالَ وإن كان حقّاً، مدحُ الإنسانِ نفسَهُ .

---

(١) هذه الحكمة ساقطة من ا .

٤٠٧ — الشيء الذي لا يُستغنَى عنه بحالٍ من الأحوالِ التوفيقُ .

٤٠٨ — أوسعُ مايكونُ الكريمُ مغفرةً ، إذا ضاقتْ بالذنبِ المعذِرَةُ .

٤٠٩ — سترُ ماعاينتَ أحسنُ منْ إشاعَةِ ماظننْتَ .

٤١٠ — التكَبُّرُ على المتكبِّرينَ هوَ التواضُعُ بعينه .

٤١١ — إذا رفعتَ أحداً فوق قدرِهِ فتوقعْ منهُ أنْ يحطَّ منكَ بقدرِ مارفعتَ منه .

٤١٢ — إساءَةُ المحسنِ أنْ يمنعكَ جدواهُ ، وإحسانُ المسيء أن يكفَّ عنكَ أذاهُ .

٤١٣ — اللهمَّ إني أستعديكَ على قريشٍ ؛ فإنهمْ أضمَرُوا لِرَسُولِكَ صلى الله عليه وآله ضروباً منَ الشَّرِّ والغدرِ ، فعجزوا عنها ؛ وحُلْتَ بينهمْ وبينها ؛ فكانَتِ الوَجْبَةُ بي ، والدَّائرةُ عليَّ . اللهمَّ احفَظْ حسناً وحسيناً ، ولا تمكِّن فجرةَ قريشٍ منهما مادمتُ حيًّا ، فإذا توفَّيتَني فأنتَ الرَّقيبُ عليهمْ ، وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ .

٤١٤ — قال له قائلٌ : ياأميرَ المؤمنينَ ، أرأيت لو كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله تركَ ولداً ذكراً قد بلغَ الحلمَ ، وآنسَ منه الرشدَ ، أكانَتِ العربُ تسلِّمُ إليه أمرها ؟ قال : لا ، بل كانتْ تقتلُه إن لم يفعلْ مافعلْتُ ، إنَّ العربَ كرِهَتْ أمرَ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وحسدتهُ على ما آتاهُ اللهُ منْ فضلهِ ، واستطالَت أيَّامَهُ حتى قذفَتْ زوجتَهُ ، ونفَّرَتْ به ناقتَهُ ، مع عظيم إحسانه إليها ، وجسيمِ مِنَنِهِ عندها ، وأجمعتْ مُذْ كان حيًّا على صَرفِ الأمرِ عن أهلِ بيتِهِ بعد موتِهِ ؛ ولولا أنَّ قريشاً جعلَتِ اسمه ذريعةً إلى الرِّياسةِ ، وسُلَّماً إلى العزِّ والإمرةِ ، لما عبدت اللهَ بعدَ موتِهِ يوماً واحداً ،

ولا ارْتَدَّتْ فى حافرتها ، وعادَ قارِحُها جَذَعاً ، وبازلُها (١) بَـكراً ، ثم فتحَ اللهُ عليها الفُتوحَ ، فأثرتْ بعد الفاقةِ ، وتموّلتْ بعدَ الجَهْدِ والمخمصةِ (٢) ؛ فحسُنَ فى عيونها منَ الإسلامِ ما كان سَمِجاً ، وثبت فى قلوب كثير منها من الدِّين ما كان مضطربا ، وقالتْ : لولا أنهُ حقٌّ لما كان كذا ؛ ثم نسبتْ تلكَ الفتوحَ إلى آراءِ وُلاتها ، وحُسْنِ تدبيرِ الأمراء القائمينَ بها ، فتأكّدَ عندَ الناسِ نباهةُ قومٍ وخمولُ آخرين ؛ فكُنّا نحنُ ممّنْ خَمل ذِكرُهُ ، وخبتْ نارهُ ، وانقطعَ صوتُهُ وصيتُهُ ، حتى أكلَ الدّهرُ علينا وشربَ ، ومضتِ السُّنونَ والأحقابُ بما فيها ، وماتَ كثير ممن يُعرَف ، ونشأ كثيرٌ ممنْ لا يُعْرَفُ ؛ وما عسى أنْ يكونَ الولدُ لو كان ! إنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله لم يُقرِّبْني ماتعلمونهُ من القُرْبِ للنسبِ واللُّحْمَةِ ؛ بل للجهادِ والنصيحةِ ؛ أفتراهُ لو كان لهُ ولدٌ هل كان يفعلُ مافعلتُ ! وكذاكَ لم يكنْ يقرُبُ ماقرُبت ، ثم لم يكن عندَ قريشٍ والعربِ سبباً للحُظْوَةِ والمنزلةِ ، بل للحرمانِ والجفوةِ . اللهمّ إنّكَ تعلمُ أنّى لم أُرِدِ الإمرةَ ، ولا علوَّ الملكِ والرياسة ؛ وإنّما أردتُ القيامَ بحدودكَ ، والأداءَ لشرعكَ ، ووضعَ الأمورِ فى مواضعها ، وتوفيرَ الحُقوقِ على أهلها ؛ والمُضىَّ على منهاجِ نبيِّكَ ، وإرشادَ الضَّالِّ إلى أنوارِ هدايتكَ .

٤١٥ — البِرُّ ماسكنَتْ إليهِ نفسُكَ ، واطمأنَّ إليه قلبُكَ ؛ والإثمُ ماجالَ فى نفسكَ وتردَّدَ فى صدرِكَ .

٤١٦ — الزكاةُ نقصٌ فى الصورةِ ، وزيادةٌ فى المعنى .

٤١٧ — ليس الصومُ الإمساكَ عن المأكلِ والمشربِ ؛ الصومُ الإمساكُ عنْ كلِّ ما يكرهُهُ اللهُ سبحانَهُ .

---

(٢) البازل : الذى فطر نابه .　　(٣) المخمصة : الجوع .

٤١٨ — إذا كان الرّاعي ذِئباً ، فالشّاةُ مَنْ يحفظُها !

٤١٩ — كلّ شيء يعصيكَ إذا أغضبتَهُ إلّا الدُّنيا ، فإنها تُطيعكَ إذا أغضبتَها .

٤٢٠ — رُبَّ مغبوطٍ بنعمةٍ هيَ داؤُهُ ، ومَرْحومٍ من سقم هو شفاؤُهُ .

٤٢١ — إذا أرادَ اللهُ أنْ يساطَ على عبدٍ عدوًّا لا يرحمه ساط عليه حاسداً .

٤٢٢ — شربُ الدَّواءِ للجسدِ كالصابونِ للثّوب ؛ يُنقّيهِ ولـكن يُخلِقه .

٤٢٣ — الحسد خلقٌ دنيءٌ ؛ ومنْ دناءتِهِ أنه موكّلٌ بالأقربِ فالأقرب.

٤٢٤ — لو كانَ أحدٌ مكتفياً منَ العلمِ لاكتفى نبيُّ اللهُ موسى ؛ وقد سمعتم قوله: ﴿ هَلْ أتّبِعُكَ على أنْ تُعلّمنِ مِمّا عُلّمْتَ رشداً ﴾ (١) .

٤٢٥ — أستغفرُ اللهَ ممّا أملكُ ، واستصلحه فيما لا أملكُ .

٤٢٦ — إذا قعدتَ وأنتَ صغيرٌ حيث تحبُّ، قعدْتَ وأنتَ كبيرٌ حيثُ تكرَه .

٤٢٧ — الولد العاقُّ كالإصبعِ الزائدةِ ؛ إنْ تُركتْ شانت ، وإنْ قطعتْ آلمَتْ .

٤٢٨ — خرجَ العزّ والغِنَى يجولانِ ، فلقيا القناعةَ فاستقرّا .

٤٢٩ — الصديق نسيبُ الرُّوح ؛ والأخُ نسيبُ الجسم .

٤٣٠ — جزيةُ المؤمن كِرَاء منزله ، وعذابُهُ سوء خُلُق زوجته .

٤٣١ — الوَعدُ وجهٌ والإنجازُ محاسنهُ .

٤٣٢ — أنعمُ النّاس عيشاً منْ عاشَ في عيشهِ غيرُهُ .

٤٣٣ — لا تشاتمنّ أحداً ، ولا تَرُدّنّ سائِلاً ؛ إنّما هو كريمٌ تَسُدُّ خلّته ، أو لئيمٌ تشتري عِرضك منه .

---

(١) سورة الكهف ٦٦

٤٣٤ — النَّمّام سهم قاتِلٌ .

٤٣٥ — ثلاثةُ أشياء لا دوام لها : المال فى يَدِ المُبذِّر ، وسحابة الصيف ، وغضب العاشق .

٤٣٦ — الزّاهد فى الدِّينار والدِّرهم أعزُّ منَ الدينار والدرهم .

٤٣٧ — ربَّ حرب أُحيِيَت بلفظةٍ ، وربَّ وُدٍّ غُرِس بلحظة .

٤٣٨ — إذا تزوَّج الرَّجل فقد ركب البحر ، فإن ولِدَ له فقد كُسِرَ به .

٤٣٩ — صلاحُ كلِّ ذى نعمةٍ فى خلاف ما فسد عليه .

٤٤٠ — أنعم الناس عيشةً مَن تحلّى بالعفاف ، ورضىَ بالكفافِ(١) ، وتجاوَزَ ما يُخاف إلى ما لا يخافُ .

٤٤١ — التّواضع نعمةٌ لا يفطنُ لها الحاسد .

٤٤٢ — ينبغى للعاقل أن يمنع معروفه الجاهل واللئيم والسفيه ؛ أما الجاهلُ فلا يعرف المعروف ولا يشكر عليه ، وأما اللئيم فأرضٌ سبخة لا تنبتُ ، وأما السفيهُ فيقولُ : إنما أعطانى فَرَقاً من لسانى .

٤٤٣ — خير العيش ما لا يُطغيك ، ولا يلهيك .

٤٤٤ — ما ضرب اللهُ العباد بسوط أوْجعَ من الفقر .

٤٤٥ — إذا أراد الله أن يزيل عَنْ عبدٍ نعمة كان أول ما يغيِّرُ منه عَقْلَهُ .

٤٤٦ — خيرُ الدُّنيا والآخرةِ فى خَصْلتين : الغِنى والتُّقى ، وشَرُّ الدُّنيا والآخرة فى خصلتين : الفقرِ والفُجُورِ .

٤٤٧ — ثمانية إذا أُهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الآتى طعاماً لم يُدْعَ إليــه ،

---

(١) الكفاف : القليل .

والمُتأمّرُ على ربِّ البيت فى بيته ، وطالب المعروف من غير أهله ، والداخل بين اثنين لم يدخلاه ، والمستخِفُّ بالسلطان ، والجالس مجلساً ليس له بأهلٍ ، والمقبلُ بحديثه على مَن لا يسمعهُ ، ومن جرّب المجرّب .

٤٤٨ — أنفسُ الأعلاق[1] عقلٌ قُرن إليه حَظٌّ .

٤٤٩ — اللطافَةُ فى الحاجة أجدى من الوسيلة .

٤٥٠ — احتمال نَخْوَةِ الشرف أشدُّ من احتمال بطرِ الغنى ، وذلّةُ الفقرِ مانعةٌ من الصبرِ ، كما أن عزّ الغنى مانعٌ من كرم الإنصاف ، إلا لمن كانَ فى غريزته فَضْلُ قوَّةٍ ، وأعراقٌ تنازعه إلى بُعد الهمة .

٤٥١ — أبعد الناس سفراً مَن كان فى طلب صديقٍ يرْضاه .

٤٥٢ — استشارَةُ الأعداءِ من باب الخِذْلان .

٤٥٣ — الجاهلُ يُعْرَفُ بِستِّ خِصال : الغضب من غيرِ شيء ، والكلامِ فى غير نفعٍ ، والعطيّةِ فى غير موضعها ، وألاّ يعرف صديقهُ من عدوّهِ ، وإفشاء السِّرّ ، والثقةِ بكلّ أحدٍ .

٤٥٤ — سوء العادَةِ كمينٌ لا يؤْمَنُ

٤٥٥ — العادةُ طَبيعةٌ ثانيةٌ غالبةٌ

٤٥٦ — التجنّى وافِدُ القطيعةِ

٤٥٧ — صديقُكَ مَن نَهاكَ ، وعدوّكَ من أغراكَ

٤٥٨ — يا عجَبا من غفلةِ الحسادِ عن سلامَةِ الأجْساد .

٤٥٩ — من سعادةِ المرْءِ أن يَطُول عمرهُ ويرى فى أعدائه ما يسرهُ .

٤٦٠ — الضّغائن تورَثُ كما تورث الأموالُ

---

(١) الأعلاق : الأشياف النفيسة القيمة .

٤٦١ — رُبَّ عزيزٍ أذلّهُ خُرْقُهُ ، وذليلٍ أعزَّهُ خُلُقُهُ .

٤٦٢ — لا يصلحُ اللئيمُ لأحدٍ ، ولا يستقيمُ إلا من فرَقٍ أو حاجةٍ ؛ فإذا استغنى أو ذهب خوفُهُ عاد إليه جوهرُهُ

٤٦٣ — ثلاثةٌ في المجلس وليسوا فيه : الحاقنُ ، والضَّيِّقُ الخفِّ ، والسيِّىء الظنِّ بأهلِهِ .

٤٦٤ — وسُئِلَ : ما أبقى الأشياء في نفوس الناس ؟ فقال : أما في أنفس العُلماء فالنَّدامةُ على الذنوب ، وأما في نفوس السفهاء فالحقدُ .

٤٦٥ — إذا انقضى مُلكُ قوم خُيِّبُوا في آرائهم .

٤٦٦ — الضعيفُ المحترس من العدوِّ القوى أقربُ إلى السلامةِ مِن القوى المُغترِّ بالعَدُوِّ الضعيفِ .

٤٦٧ — الحزْنُ سوء استكانةٍ ، والغَضَبُ لُؤمُ قُدْرَةٍ .

٤٦٨ — كلُّ ما يؤكلُ يُنْتِنُ ، وكلُّ ما يوهَبُ يأْرَجُ

٤٦٩ — الطَّرَشُ في الكرامِ ، والهوَجُ في الطِّوال ، والكيْسُ في القصار ، والنُّبْلُ في الرَّبْعةِ ، وحسن الخلُق في الحول ، والكِبْر في العُور ، والبَهت في العميان ، والذكاء في الُخرس .

٤٧٠ — ألأَمُ النَّاس مَن سعى بإنسان ضعيف إلى سلْطان جائر .

٤٧١ — أعسر الحِيَل تَصْوير الباطل في صورة الحقِّ عند العاقل المُميِّز .

٤٧٢ — الغَدْر ذلٌّ حاضِر ، والغِيبَةُ لُؤم باطن .

٤٧٣ — القلب الفارغ يبحث عن السوء واليد الفارغة تنازع إلى الإثم .

٤٧٤ — لا كثير مع إسْرافٍ ، ولا قليل مع احتراف ، ولا ذنب مع اعتراف .

٤٧٥ — المُتعبِّدُ على غير فِقهٍ كحمارِ الرحا يدور ولا يبرح .

٤٧٦ — المحرومُ منْ طالَ نصبهُ ، وكان لغيرِهِ مكسبهُ .

٤٧٧ — في الاعتبارِ غنًى عنِ الاختبار .

٤٧٨ — غيظ البخيلِ على الجوادِ أعجبُ من بخلهِ .

٤٧٩ — أذلُّ الناس مُعتذرٌ إلى اللئيم .

٤٨٠ — أشجعُ الناس أثبتهمْ عقلاً في بداهةِ الخوْف .

٤٨١ — المعتذرُ منتصرٌ ، والمعاتبُ مُغاضبٌ .

٤٨٢ — المرُوءةُ بلا مالٍ كالأسدِ الذى يُهابُ ولم يفترسْ ، وكالسيْف الذى يخافُ وهوَ مغمدٌ ؛ والمالُ بلا مُرُوءةٍ كالكلبِ الذى يجتنبُ عقراً ولم يعقرْ .

٤٨٣ — عليكم بالأدب ، فإن كُنتمْ مُلوكاً برزتمْ ، وان كُنتمْ وَسطاً فقتمْ ، وإن أعوزتكم المعيشةُ عشتم بأدبكم .

٤٨٤ — الملوكُ حُكامٌ على الناس ، والعلماء حُكامٌ على الملوكِ .

٤٨٥ — لا ينبغي للعاقِل أن يكون إلاّ في إحْدى منزلتيْن : إمّا في الغاية القصوى مِنْ مطالبِ الدُّنيا ، وإمّا في النهايةِ القصوى من التركِ لها .

٤٨٦ — من أفضل أعمال البرِّ الجودُ في العسْرِ ، والصدقُ في الغضبِ ، والعفوُ عند القدْرَةِ .

٤٨٧ — إنّ الله أنعم على العبادِ بقدْرِ قدْرتهِ ، وكلفهمْ من الشكرِ بقدْرِ قدْرتهمْ .

٤٨٨ — العيشُ في ثلاث : صديقٌ لا يعدُّ عليكَ في أيام صداقتكَ مايرضى به أيامَ عَداوتكَ ، وَزوْجةٌ تسرُّكَ إذا دخلتَ عليها وتحفظ غيبكَ إذا غبتَ عنها ، وغلامٌ يأتي على مافي نفسك كأنهُ قد علمَ ماتريد .

٤٨٩ — تحتاجُ القرابةُ إلى مودّةٍ ولا تحتاج المودة إلى قرابة .

٤٩٠ — الصابرُ على مخالطةِ الأشرارِ وصحبتِهم ، كراكبِ البحرِ إنْ سلمَ ببدَنِهِ منَ التلفِ ، لم يسلم بقلبه من الحذَر .

٤٩١ — لأخيك عليكَ إذا حزبه أمرٌ أن تشير عليهِ بالرأى ماأطاعكَ ، وتبذلَ لهُ النصرَ إذا عصاكَ .

٤٩٢ — الغِيبةُ ربيعُ اللئام .

٤٩٣ — أطولُ الناس نَصَباً الحريصُ إذا طمع ، والحقودُ إذا مُنع .

٤٩٤ — الشريف دُونَ حقِّهِ يُقتَل ويعطِى نافلةً فوقَ الحقِّ عليه .

٤٩٥ — اجعل عمرَكَ كنفقةٍ دُفعتْ إليكَ ؛ فكما لا تحبُّ أنْ يذهبَ ماتنفقُ ضياعاً فلا تذهب عمركَ ضياعاً .

٤٩٦ — منْ أظهر شكْركَ فيما لم تأتِ إليه ، فاحذرْ أنْ يكفركَ فيما أسديتَ إليه .

٤٩٧ — لا تستعنْ فى حاجتكَ بمن هوُ المطلوبِ إليه أنصحُ منهُ لك .

٤٩٨ — لا يؤمنك منْ شرِّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ ، فإنّ أخوفَ ماتكونُ لحريق النارِ أقربُ ماتكونُ إليها .

٤٩٩ — كنْ فى الحرص على تفقدِ عيوبِك كعدوِّكَ .

٥٠٠ — عليك بسوء الظنّ ، فإنْ أصاب فالحزم وإلا فالسلامةُ .

٥٠١ — رضا الناسِ غايةٌ لا تدركُ ، فتحرَّ الخيرَ بجهدِكَ ، ولا تبال بسخط من يرضيه الباطلُ .

٥٠٢ — لا تماكِسْ فى البيع والشراء ؛ فما يضيعُ من عرضِك أكثرُ مما تنالُ من عَرَضِكَ .

٥٠٣ — الدَّيْنُ رِقٌّ فلا تبذلْ رِقَّكَ لِمَنْ لا يعرفُ حقَّك .

٥٠٤ — احذرْ كلَّ الحذرِ أن يخدعَك الشَّيطان فيمثِّل لكَ التوانى فى صُورَةِ التَّوَكُّل ، ويورثك الهوينَى بالإحالة على القَدَرِ ؛ فإن اللهَ أمر بالتوكّلِ عِند انقطاع الحِيَل ، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار ، فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُم[1] ﴾ ، ﴿ ولا تُلقُوا بأيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ[2] ﴾ ، وقال النبىُّ صلى الله عليه وآله : «اعقِلْها وتوكل» .

٥٠٥ — لا تصحبْ فى السفرِ غَنِيًّا ؛ فإنكَ إنْ ساوَيْتَهُ فى الإنفاق أضرَّ بِكَ ، وإنْ تفضَّلَ عَلَيكَ استذَلَّكَ .

٥٠٦ — إذا سألت كريماً حاجةً فدعْهُ يفكرُ ، فإنه لا يفكر إلا فى خيرٍ ؛ وإذا سألتَ لئيما حاجةً فغافِصْهُ[3] فإنه إذا[4] فكّر عادَ إلى طَبْعِهِ .

٥٠٧ — ما أقبح بالصَّبيح الوجْهِ أنْ يكون جاهِلاً ! كدَارٍ حسنةِ البناء وساكنها شرٌّ ، وكجنة يعمرها بُومٌ ، أو صِرْمَةٍ يحرسها ذِئْبٌ .

٥٠٨ — قبيح بذى العقل أنْ يكون بهيمةً وقد أمكنه أن يكون إنساناً ، وأن يكون إنساناً وقد أمكنهُ أن يكون ملَكاً ، وأن يرضى لنفسه بقُنْيَةٍ مُعارةٍ وحياةٍ مُسْتَرَدَّةٍ ؛ وله أن يتخذ قُنْيةً مُخَلَّدةً وحياة مُؤَبَّدةً .

٥٠٩ — الذى يَستحِقُّ اسْمَ السَّعادة على الحقيقة سعادة الآخرة ، وهى أربعة أنواع : بقاءٌ بلا فناء ؛ وعلمٌ بلا جهلٍ ، وقُدْرة بلا عجزٍ ، وغِنًى بلا فقرٍ .

---

(١) سورة النساء ٧١

(٢) سورة البقرة ٩٥ .

(٣) غافصه : أى أخذه على غرة .

(٤) ب : « إن أفكر » .

٥١٠ — ما خاب مَن استخارَ

٥١١ — الدَّيِّنُ قد كُشف عن غِطاء قلبه ، يرَى مطلوبَه قد طبق الخافقين فلا يقعُ بصَرُهُ على شيء إلاَّ رَآهُ فيه .

٥١٢ — من غَرَسَ النّخل أَكلَ الرُّطب ، ومَن غرس الصَّفصاف والعُلّيق عدِم ثمرتَه ، وذَهبَتْ ضياعاً خدمته .

٥١٣ — إذا أردْت العلم والخير فانفض عن يدك أداة الجهل والشرّ ، فإنّ الصائغ لا يتهيّأُ له الصِّياغَةُ إلاَّ إذا ألقى أداةَ الفلاحَة عَن يده .

٥١٤ — الصبر مِفتاحُ الفَرَج .

٥١٥ — غاية كلِّ مُتعمِّقٍ فى علمنا أن يجهل .

٥١٦ — ستعرف الحال على حقيقتها ؛ ولكن حيثُ لا تستطيع أن تذاكر أحداً بها .

٥١٧ — السعادة التامّة بالعلم ، والسعادة الناقصة بالزهد ، والعبادةُ من غير علمٍ ولا زهادة تعب الجسد .

٥١٨ — الآمال مطايا ؛ وربما حَسِرتْ ، ونَقِبَت أخفافُها .

٥١٩ — حبُّ الرياسةِ شاغلٌ عن حبّ الله سبحانه

٥٢٠ — يا أبا عبيدة ، طال عليك العهدُ فنسيت أم نافَسْت فأُنسيت ! لقد سمعتَها ووعيتَها فهلاَّ رعيتَها !

٥٢١ — قال لمَّا سمعتُ خطبةعمرَ بالمدينة التىشرح فيها قصة السقيفة : معذِرةً وربِّ الكعبة ؛ ولكن بعد ماذا ! هيهات علقت مَعالِقها ، وصرَّ الجُنْدُب .

٥٢٢ — أوّلُ مَن جرّأَ الناسَ علينا سعدُ بنُ عبادة ؛ فتح باباً وَلَجَهُ

غيرُهُ ، وأضرمَ ناراً كان لَهَبُها عليه ، وضوءها لأعدائه .

٥٢٣ — مالنا ولِقُرَيشٍ ! يَخْضِمون الدنيا باسمنا ويَطَئُون على رِقابنا؛ فيا لله ولِلعجب! من اسمٍ جليلٍ لِمُسَمًّى ذليلٍ .

٥٢٤ — الخيرُ كُلُّهُ في السيفِ ، وما قام هذا الدِّينُ إلاّ بالسيف ؛ أتعلمون ما معنى قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وأنزَلْنا الحَديد فيه بأسٌ شديدٌ ﴾ ؟ هذا هو السيفُ .

٥٢٥ — لم يفُتْ مَن لم يَمُتْ .

٥٢٦ — مَن فسدت بِطانَتُهُ كان كَمَن غَصَّ بالماء ، فإنه لو غَصَّ بِغَيْرِهِ لأَساغ الماءُ غُصَّتَهُ .

٥٢٧ — مَن ضَنَّ بِعِرْضِه فَلْيَدَعِ المِرَاءَ .

٥٢٨ — مَن أيقظ فِتْنَةً فهو آكِلُها .

٥٢٩ — مَن أثرى كَرُمَ على أهله، وَمَن أَمْلَق هان على وَلَدِهِ .

٥٣٠ — مَن أَمَلَ أحداً هابَهُ ، ومَن جهل شيئاً عابَهُ .

٥٣١ — أسْوأُ الناس حالا مَن لا يثقُ بأحد لِسُوءِ ظنّه ، ولا يثقُ بِهِ أحدٌ لِسُوءِ أثَرِهِ .

٥٣٢ — أحَبُّ النَّاس إليك مَن كَثُرَتْ أيادِيه عندك ، فإن لم تكن فمن كثرت أياديك عِندهُ .

٥٣٣ — من طال صَمْتُهُ اجْتَلَب من الهيبةِ ما ينفعهُ، ومن الوَحشةِ ما لا يَضُرُّهُ .

٥٣٤ — مَن زادَ عقلُه نقص حظُّهُ ، وما جعل اللهُ لأحدٍ عقلا وافراً إلاّ احْتَسَبَ بِهِ عليه من رِزْقِهِ .

٥٣٥ — مَن عمل بالعَدْل فيمَنْ دُونه ؛ رُزِق العدلَ مِمَّنْ فوقه .

٥٣٦ — مَن طَلَب عِزًّا بِظُلْمٍ وباطلٍ أورَثَهُ اللهُ ذلاًّ بإنصافٍ وحقٍّ .

٥٣٧ — من وَطِئَتهُ الأعينُ ، وطِئَتهُ الأرجُل .

٥٣٨ — ينادِي مُنادٍ يوْم القِيامَةِ : مَن كان لهُ أجرٌ على اللهِ فليقمْ ؛ فيَقُوم العافون عن الناس ، ثم تلا : ﴿ فمَنْ عفا وأصْلَح فأجْرُهُ على اللهِ ﴾ .

٥٣٩ — اصْحَبِ الناس بأيِّ خُلُقٍ شِئْتَ يَصْحَبُوكَ بمثلِهِ .

٥٤٠ — كأنك بالدُّنيا لم تكُنْ ، وكأنك بالآخرةِ لم تزَل .

٥٤١ — قال لِمَريضٍ أبَلَّ مِن مَرَضِهِ : إن الله ذكرك فاذكُرْهُ ، وأقالَكَ فاشكُرْهُ !

٥٤٢ — الدَّار دار مَن لا دار لهُ ، وبها يفرحُ مَن لا عقل لهُ ، فأنزِلوها منزِلتها .

٥٤٣ — لا تَستَصْغِرَنَّ أمْر عدُوِّكَ إذا حارَبْتَهُ ؛ فإنك إن ظفرت به لم تُحْمَدْ ، وإن ظفر بك لم تُعذَرْ ؛ والضَّعيفُ المحتَرِس من العدوِّ القَوِي أقرَبُ إلى السلامَةِ مِن القوى المُغترِّ بالضعيف .

٥٤٤ — لا تَصْحب مَن تحتاج إلى أن تَكتمهُ ما يعرف اللهُ مِنك .

٥٤٥ — لا تسأل غير الله ؛ فإنه إن أعطاكَ أغناكَ .

٥٤٦ — الصَّاحبُ كالرُّقْعَةِ فى الثَّوْبِ ، فاتخِذْهُ مُشاكلاً .

٥٤٧ — إياكَ وَكثْرَةَ الإخوان ؛ فإنه لا يُؤْذِيك إلا مَن يعرِفُكَ .

٥٤٨ — دَعِ اليمين لله إجلالاً ، وللِنَّاس جمالاً .

٥٤٩ — العادَات قاهِراتٌ ، فمَنِ اعْتادَ شيْئاً فى سِرِّهِ فَضَحَهُ فى علانيَتِهِ .

٥٥٠ — إذا كان لك صَديقٌ ولم تحمد إخاءهُ ومودَّتَهُ فلا تُظْهِرْ ذلِكَ للناس ؛ فإنما هو بِمنزِلةِ السَّيف الكليلِ فى منْزِل الرَّجُلِ ؛ يُرْهِبُ بِهِ عَدُوَّهُ ، ولا يعْلَمُ العدُوُّ أصارِمٌ هو أم كليلٌ !

٥٥١ ـــ دَعِ الذنوب قبل أن تَدَعَك

٥٥٢ ـــ إذا نَزل بِكَ مَكروهٌ فانظرْ ؛ فإن كان لك حيلةٌ فلا تَعجزْ ، وإن لم يكُن فيه حيلة فلا تجزع .

٥٥٣ ـــ تعلّموا العِلمَ ، فإنهُ زَيْنٌ للغنيِّ وعونٌ للفقير ، ولستُ أقولُ إنّهُ يطلَبُ بهِ ، ولكن يدعوهُ إلى القناعةِ .

٥٥٤ ـــ لا تَرْضَيَنَّ قَوْلَ أحدٍ حتّى تَرْضى فعلَهُ ، ولا تَرْضَ فِعْلَه حتى ترضى عقله ، ولا تَرْض عقله حتى تَرْضى حياءهُ ؛ فإن الإنسان مَطبوعٌ على كرمٍ ولُؤمٍ ؛ فإن قَوِيَ الحياء عندهُ قويَ الكرمُ ، وإن ضَعُفَ الحياء قَوِيَ اللُّؤمُ .

٥٥٥ ـــ تعلّمُوا العِلمَ وإن لَمْ تنالوا به حظًّا ؛ فَلأَنْ يُذمّ الزّمان لكم أحسَن من أن يُذَمّ بِكُمْ .

٥٥٦ ـــ اجعل سِرّك إلى واحد ، ومشورَتَكَ إلى ألف .

٥٥٧ ـــ إن الله خلق النّساء من عِيٍّ وعَوْرَةٍ ، فَدَاوُوا عِيَّهُنّ بالسكوت ، واسْتُرُوا العَوْرَةَ بالبُيُوتِ .

٥٥٨ ـــ لا تَعِدَنّ عِدَةً لا تثق من نَفْسِك بإنجازها ، ولا يَغُرَّنكَ المُرْتَقَى السهلُ إذا كان المُنْحَدَرُ وَعْراً . واعلم أن لِلأَعمال جَزاء فاتّقِ العواقِب ، وأن لِلأُمُور بَغَتاتٍ فكُنْ على حَذَرٍ .

٥٥٩ ـــ لا تجاهِدِ الطّلَبَ جهاد المُغالب ، ولا تتّكِلْ على القَدَر اتّكال المُستَسْلِمِ ؛ فإنّ ابتغاء الفضلِ مِن السُّنّةِ ، والإجمال فى الطلب من العِفّةِ : وليست العِفّةُ برافعة رِزْقاً ، ولا الحرص بجالبٍ فضلاً .

٥٦٠ ـــ مَن لَمْ تستقم لهُ نفسُهُ ، فلا يَلُومَنّ من لَمْ يَستَقِمْ له .

٥٦١ — من رُجِي الرِّزْقُ لديه صُرِفت أعْناقُ الرِّجال إليه .

٥٦٢ — من انتجعكَ مُؤَمِّلاً فقد أسْلَفَكَ حُسْن الظنِّ .

٥٦٣ — إذا شئت أنْ تُطاعَ فاسْأَلْ ما يُسْتَطاعُ .

٥٦٤ — من أعذر كمن أنجح .

٥٦٥ — مَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ كثُرَ فى القيامة غمُّه .

٥٦٦ — من أجمل فى الطَّلَب أتاهُ رِزْقُهُ من حَيْثُ لا يحتَسِبُ .

٥٦٧ — مَن رَكِب العجَلة لم يأمن الكبْوَة .

٥٦٨ — مَن لم يثقْ لم يُوثَقْ بهِ .

٥٦٩ — مَن أفاده الدهرُ أفادَ منه (١) .

٥٧٠ — مَنْ أكْثَرَ ذِكْرَ الضَّغائِن اكْتَسَبَ العَدَاوة .

٥٧١ — منْ لمْ يَحْمدْ صاحِبَهُ على حسنِ النيَّةِ لمْ يحمدْهُ على حسنِ الصنيعةِ .

٥٧٢ — تأمَّلْ ماتتحدَّث بهِ ، فإنما تُملى على كاتبيكَ صَحِيفةً يُوصِلانها إلى ربك ؛ فانظرْ على منْ تملى ، وإلى منْ تكْتُبُ .

٥٧٣ — أقم الرَّغبة إليكَ مقَام الحرْمةِ بك ، وعظِّمْ نفسكَ عنَ التعظُّمِ ، وتطوَّل ولا تتطاولْ .

٥٧٤ — عامِلوا الأحْرارَ بالكرامةِ المحضَة ، والأوساط بالرغبة والرَّهْبة ، والسَّفلَة بالهوانِ .

٥٧٥ — كنْ للعدُوِّ المكاتِمِ أشدَّ حذراً مِنْكَ للعدُوِّ المبارزِ .

٥٧٦ — احْفظْ شَيْئكَ ممَّنْ تَسْتَحْيِ أنْ تسألهُ عنْ مثلِ ذلك الشيء إذا ضاعَ لك .

---

(١) أفاد : أى استفاد .

٥٧٧ — إذا كُنتَ فى مجلسٍ ولم تكن المحدِّث ولا المحدَّث فقمْ .

٥٧٨ — لا تَسْتصغِرَنَّ حدَثاً[1] من قريش ، ولا صَغيراً من الكُتَّاب ؛ ولا صعلوكاً من الفرسانِ ؛ ولا تصادقَنَّ ذمِّياً ولا خَصِيّاً ولا مؤنَّثاً ، فلا ثبات لمودَّاتهمْ

٥٧٩ — لا تُدْخِلْ فى مشورتكَ بخيلاً فيقصِّرَ بفعلِك ، ولا جباناً فيخوِّفَكَ مالا تخافُ ، ولا حريصاً فيعدكَ مالا يُرْجَى ؛ فإنَّ الجبنَ والبُخلَ والحرص طبيعة واحدةٌ ؛ يجمعها سُوء الظنِّ بالله تعالى .

٥٨٠ — لا تكنْ ممَّنْ تغلبهُ نفسهُ على مايظنُّ ، ولا يغلبها على ما يستيقِنُ .

٥٨١ — اعصِ هواكَ والنساءَ وافعلْ مابدا لكَ .

٥٨٢ — ما كُنتَ كاتمهُ من عدوكَ فلا تظهرْ عليهِ صديقَكَ .

٥٨٣ — كلْ من الطعام ماتشتهى ، والبسْ من الثِّياب ما يشتهى الناسُ .

٥٨٤ — ولتكن داركَ أوَّلَ ما يُبتاعُ وآخرَ مايُباعُ .

٥٨٥ — منْ كانَ فى يدهِ شيءٌ منْ رزقِ اللهِ سبحانهُ فليصلِحْهُ ؛ فإنَّكُمْ فى زمانٍ إذا احتاجَ المرءُ فيهِ إلى النَّاسِ كانَ أوَّلَ مايبذلهُ لهمْ دينهُ .

٥٨٦ — ابذلْ لصديقكَ مالكَ ، ولمعرفتكَ رفدَكَ ومحضرَكَ ؛ وللعامَّةِ بِشركَ وتحنُّنكَ ، ولعدوِّكَ عدلَكَ وإنصافَكَ ، واضْنَنْ بدينكَ وعرضِك عن كلِّ أحد .

٥٨٧ — جالس العقلاء أعداء كانوا أوْ أصدقاء ؛ فإن العقل يقع على العقل .

٥٨٨ — كُنْ فى الحرب بحيلَتكَ أوثقَ منك بشدَّتك ، وبحذرِكَ أفرَحَ منك بنجدَتك ؛ فإن الحرْبَ حرْبُ المتهوِّرِ وغنيمةُ المتحذِّرِ .

٥٨٩ — النِّعمُ وحشيَّةٌ فقيِّدُوها بالمعرُوفِ .

---

(١) حدثاً : أي صغير السن .

٥٩٠ — إذا أخطأتكَ الصنيعةُ إلى منْ يتقي الله فاصنعها إلى من يتقي العارَ .

٥٩١ — لا تشتغلْ بالرزق المضمونِ عن العملِ المفروضِ .

٥٩٢ — إذا أكرمكَ الناسُ لمالٍ أو سُلطانٍ فلا يُعجبنَّكَ ذاكَ ، فإنّ زوال الكرامةِ بزوالهما ؛ ولكنْ ليُعجبك إنْ أكرمكَ الناسُ لدينٍ أو أدبٍ .

٥٩٣ — ينبغي لمنْ لم يكْرِمْ وجهه عنْ مسألتكَ أنْ تُكرمَ وجهكَ عنَ ردّهِ .

٥٩٤ — إيّاكَ ومشاورةَ النّساء ؛ فإنّ رأيهنّ إلى أفنٍ ، وعزْمهنّ إلى وهنٍ ، واكْففْ منْ أبصارهنّ بحجابكَ إيّاهُنّ ، فإنّ شدّةَ الحجابِ خيرٌ لك منَ الارتياب ، وليسَ خُروجهُن بأشدّ عليك منْ دخولِ منْ لا يَثِقُ به عليهنّ ؛ وإن استطعْتَ ألاّ يعرفْن غيركَ فافعلْ ؛ ولا تمكّن امْرأةً منَ الأمْرِ ما جاوز نفسها ؛ فإنّ ذلكَ أنعمُ لبالِها ، وأرخى لحالِها ؛ وإنما المرْأةُ رَيْحانةٌ وليستْ بقهْرمانةٍ ؛ فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تُعطها أن تشفعَ لغيْرِها ؛ ولا تُطلِ الخلْوةَ معهُنّ فيملّنكَ ، وتملّهُنّ ، واستبْقِ من نفسكَ بقيّةً ؛ فإنّ إمْساكَكَ عنهنّ وهُنّ يُرِدْنكَ ذلكَ باقتدارٍ خيْرٌ منْ أن يهجُمْنَ منكَ على انكسارٍ . وإيّاكَ والتّغايُرَ في غيْرِ موْضعِ الغيْرةِ ، فإنّ ذلكَ يدعو الصّحيحةَ منهُنّ إلى السُّقمِ .

٥٩٥ — إذا أردتَ أن تختمَ على كتاب ؛ فأعِدِ النّظرَ فيهِ ؛ فإنّما تختمُ على عقلكَ .

٥٩٦ — إنّ يوْماً أسْكرَ الكِبارَ وشيّبَ الصّغارَ لشديدٌ .

٥٩٧ — كمْ منْ مُبرّدٍ لهُ الماءُ والحميمُ يُغلَى لهُ .

٥٩٨ — الصلاةُ صابونُ الخطايا .

٥٩٩ — إنّ امرأً عرفَ حقيقةَ الأمْرِ ، وزهِدَ فيهِ لأحمقُ ، وإنّ امرأً جهلَ حقيقةَ الأمْرِ معَ وُضُوحِهِ لجاهِلٌ .

٦٠٠ — إذا قالَ أحدكم : واللهِ ، فلينظرْ مايضيفُ إليها .

٦٠١ — رَأيُكَ لا يتَّسِعُ لِكلِّ شيء ؛ فَفَرِّغْهُ للمهمّ من أمُورِكَ ، ومالُكَ لا يُغْنِي النَّاسَ كلَّهُمْ فاخصُصْ به أهْلَ الحقّ ، وكرامتكَ لا تطيقُ بذْلها فى العامَّةِ ، فَتَوَخَّ بهـا أهلَ الفضلِ ؛ وليلُكَ ونهارُكَ لا يستوْعِبانِ حَوائجكَ فأَحْسنِ القِسْمةَ بيْنَ عملِكَ ودَعَتِك .

٦٠٢ — أحْيِ المعْروفَ بإماتتِهِ .

٦٠٣ — اصحبُوا منْ يذكُرُ إحْسانكُمْ إليهِ ، وَينسى أياديَهُ عندكُم .

٦٠٤ — جاهِدُوا أهواءكُم كما تجاهِدُونَ أعداءكُم .

٦٠٥ — إذا رغبْتَ فى المكارِمِ فاجتنبِ المحارمَ .

٦٠٦ — لا تثقنَّ كلَّ الثقةِ بأخيكَ ، فإنَّ سُرْعةَ الاسْتِرْسالِ لا تقالُ .

٦٠٧ — انتقِم من الحرص بالقناعةِ ، كما تنتقم من العدوِّ بالقِصاصِ .

٦٠٨ — إذا قصُرتْ يدُكَ عن المكافأةِ ، فليطلْ لسانُكَ بالشكرِ .

٦٠٩ — منْ لمْ ينشطْ لحديثكَ فارْفعْ عنهُ مُؤْنةَ الاستماع منك .

٦١٠ — الزمانُ ذُو ألوانٍ ، ومنْ يصحَبِ الزَّمانَ يرَ الهوانَ .

٦١١ — لا تزْهَدنَّ فى معرُوف ، فإنَّ الدَّهْرَ ذو صُرُوف ؛ كم من راغبٍ أصْبحَ مرْغوباً إليهِ ، ومتبوعٍ أمسى تابعاً .

٦١٢ — إن غُلبتَ يوْماً على المالِ فلا تُغلبنَّ على الحيلةِ على كلِّ حالٍ .

٦١٣ — كُنْ أحسنَ ماتكونُ فى الظاهرِ حالاً أقلَّ ماتكون فى الباطنِ مالًا .

٦١٤ — لا تكونَنَّ المحدِّثَ منْ لا يُسمعُ منهُ ، والدَّاخلَ فى سِرِّ اثنين لم يُدْخلاهُ

فيه ، ولا الآتى وليمةً لم يُدْعَ إليها ، ولا الجالسَ فى مجلسٍ لا يستحقهُ ، ولا طالبَ الفضلِ من أيدى اللئامِ ، ولا المتحمّقَ فى الدالّةِ ، ولا المتعرّضَ للخيرِ من عندِ العدوِّ .

٦١٥ — اطبع الطّينَ مادامَ رطْباً ، واغرسِ العودَ مادامَ لَدْناً .

٦١٦ — خَفِ اللهَ حتى كأنّكَ لمْ تُطِعْهُ ، وارْجُ اللهَ حتى كأنّكَ لم تعصِه .

٦١٧ — لا تبلغْ فى سلامِكَ على الإخوانِ حدَّ النِّفاقِ ، ولا تقصُرْهُمْ عنْ درجةِ الاستحقاقِ .

٦١٨ — انْصَحْ لكلِّ مستَشِيرٍ ، ولا تستَشِرْ إلّا النّاصِحَ اللّبيبَ .

٦١٩ — ما أقبحَ بكَ أن ينادَى غداً يا أهلَ خطيئةِ كذا ؛ فتقومَ معهم ، ثمّ ينادى ثانياً : يا أهلَ خطيئةِ كذا ، فتقومَ معهمْ ، ما أراكَ يامسكينُ إلّا تقومُ معَ أهلِ كُلِّ خطيئةٍ !

٦٢٠ — ما أصابَ أحدٌ ذنباً ليلاً إلّا أصبحَ وعليهِ مَذلّتُهُ .

٦٢١ — الاستغفارُ يحُتُّ الذنوبَ حتَّ الورقِ ؛ ثمّ تلا قولهُ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١) .

٦٢٢ — أيُّها المُستكثِرُ منَ الذُّنوبِ ، إنَّ أباكَ أُخْرِجَ منَ الجنّةِ بذنْبٍ واحدٍ .

٦٢٣ — إذا عصَى الرّبَّ منْ يعرفُهُ سلّطَ عليه منْ لا يعرفُهْ .

٦٢٤ — لقاء أهلِ الخيرِ عمارةُ القلوبِ .

٦٢٥ — أنا منْ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وآله كالعَضُدِ منَ المَنكِبِ ، وكالذِّراعِ

---

(١) سورة النساء : ١١٠

منَ العَضُدِ ، وكالـكَفِّ منَ الذراعِ ؛ رَبَّاني صغيراً ، وآخاني كبيراً ؛ ولقدْ علِمْتُمْ أنِّي كانَ لي منهُ مجلِسُ سِرٍّ لا يَطَّلِـعُ عليه غيري ؛ وأنَّهُ أوْصَى إليَّ دونَ أصحابِهِ وأهلِ بيتِهِ ؛ ولأقولَنَّ مالمْ أقُلْهُ لِأحدٍ قبلَ هـذا اليومِ ، سألتُهُ مرَّةً أن يدعُوَ لي بالمغفرةِ فقال : أفعلُ ، ثمَّ قامَ فصلَّى ؛ فلمَّا رفعَ يدهُ لِلدُّعاءِ استمعتُ عليه ، فإذا هوَ قائلٌ : اللّهمَّ بحقِّ عليٍّ عندكَ اغفرْ لعليٍّ ؛ فقلتُ : يارسولَ اللهِ ، ماهذا ؟ فقال : أوَاحِدٌ أكرمُ منكَ عليهِ فأسْتَشْفِـعَ بِهِ إليه !

٦٢٦ — واللهِ ماقلعتُ بابَ خَيْـبَرَ ، ودَكْدَكْتُ[1] حِصْنَ يهودٍ بقُوَّةٍ جِسْمانيَّةٍ بل بقُوَّةٍ إلٰهيَّةٍ .

٦٢٧ — يابنَ عَوْفٍ ؛ كيفَ رأيتَ صنيعَكَ مع عُثمانَ ! رُبَّ واثِقٍ خَجِلَ ، ومَنْ لمْ يتوخَّ بعملِهِ وجْهَ اللهِ عادَ مادِحُهُ منَ النّاسِ له ذامًّا .

٦٢٨ — لو رأيْتَ مافي ميزانِكَ لختمْتَ على لسانِكَ .

٦٢٩ — ليس الحلمُ ما كانَ حالَ الرِّضا ، بل الحلمُ ما كانَ حالَ الغضبِ .

٦٣٠ — ليس شيءٌ أقطعَ لظهْرِ إبليس منْ قولِ : لا إلٰهَ إلّا اللهُ ، كلمةُ التَّقوى .

٦٣١ — لا تحملوا ذنوبَكُمْ وخَطاياكُمْ على اللهِ ، وتَذَرُوا أنفسَـكُمْ والشَّيطانَ .

٦٣٢ — إنَّ أخْوفَ على هـذهِ الأُمَّةِ منَ الدَّجّالِ ، أئِمَّةٌ مُضلُّونَ وهُمْ رؤساءُ أهلِ البِدَعِ .

٦٣٣ — إذا زَلَلْتَ فارجعْ ، وإذا ندمتَ فأقلعْ ، وإذا أسأتَ فاندمْ ؛ وإذا مننتَ فاكتُمْ ، وإذا منعتَ فأجمِلْ ، ومنْ يُسْلِفِ المعروفَ يكنْ ربحُهُ الحمدَ .

---

(١) دكدك الحصن : هدمه .

٦٣٤ — استشرْ عدوّكَ تجربةً لتعلمَ مقدارَ عداوتِهِ .

٦٣٥ — لا تطلُبَنَّ منْ نفسكَ العامَ ماوعدتْكَ عاماً أوّلَ .

٦٣٦ — أطولُ الناس عُمُراً منْ كثُرَ علمُهُ ، فتأدّبَ به مَنْ بعدهُ ، أو كثُرَ معروفهُ فشرُفَ به عقِبُهُ .

٦٣٧ — استهينوا بالموت فإنّ مرارتهُ في خوفهِ .

٦٣٨ — لادينَ لمنْ لا نيةَ لهُ ، ولا مالَ لمنْ لا تدبيرَ لهُ ، ولا عيشَ لِمَنْ لا رِفقَ لهُ .

٦٣٩ — مَنِ اشتغلَ بتفقّدِ اللفظةِ ، وطلبِ السّجْعةِ (١)، نسيَ الحجّةَ .

٦٤٠ — الدُّنيا مطيّةُ المؤمنِ ، عليها يرتحلُ إلى رَبّهِ ، فأصلحوا مطاياكُمْ تُبلّغكُمْ إلى رَبّكُمْ .

٦٤١ — من رأى أنهُ مسيءٌ فهو محسنٌ ، ومن رأى أنهُ محسنٌ فهو مسيءٌ .

٦٤٢ — سيّئةٌ تسوءكَ خيرٌ منْ حسنةٍ تعجبُكَ .

٦٤٣ — اطلبوا الحاجاتِ بعزّةِ الأنفسِ ؛ فإنّ بيدِ الله قضاءها .

٦٤٤ — عَذِّبْ حُسّادكَ بالإحسان إليهمْ .

٦٤٥ — إظهارُ الفاقةِ من خمولِ الهمّةِ .

٦٤٦ — ياعالِمُ ، قد قامَ عليكَ حُجّةُ العِلْمِ ، فاستيقِظْ من رقدتِكَ .

٦٤٧ — الرِّفقُ يفُلُّ حدَّ المخالفةِ .

٦٤٨ — أرْجحُ الناسِ عقلاً ، وأكملهمْ فضلاً منْ صحبَ أيّامَهُ بالموادعةِ ، وإخوانه بالمسالمةِ ، وقَبِلَ من الزّمانِ عفوَهُ .

---

(١) أي من طلب تزيين الكلام .

٦٤٩ — الوُجُوهُ إذا كثُرَ تقابُلُها ، اعتصرَ بعضُها ماءَ بَعض .

٦٥٠ — أداءُ الأمانةِ مِفْتاحُ الرِّزْق .

٦٥١ — حَصّن عِلْمَكَ منَ العُجْب ، ووقارَكَ منَ الكِبْر ، وعطاءَكَ منَ السَّرَفِ ، وصرامتكَ منَ العجلةِ ، وعقوبتكَ منَ الإفراطِ ، وعَفْوكَ منْ تعطيلِ الحدودِ ، وصَمْتَكَ مَن العِيِّ ، واستماعَكَ مِنْ سُوءِ الفَهم ، واستئناسَكَ من البَذاء ، وخَلَوَاتِكَ مِنَ الإضاعةِ ، وغَرماتِك منَ اللّجاجة ، وَروغانَكَ منَ الاستسلامِ ، وحَذَراتِكَ منَ الجُبْن .

٦٥٢ — لا تجدُ الموتورِ المحقودَ أماناً مِنْ أذاهُ أوْثقَ مِن البعدِ عنه ، والاحتراسِ .

٦٥٣ — احذرْ من أصحابِك ومخالطيكَ الكثيرَ المسألة ، الخشنَ البَحْثِ ، اللّطيفَ الاستدراجِ ، الذي يحفظُ أوّلَ كلامكَ على آخرِهِ ، ويَعتبرُ ما أخرْتَ بما قدّمْتَ ، ولا تُظْهِرنَ له المخافة فيرى أنك قد تحرّزْتَ وتحفّظْتَ . واعلمْ أنّ منْ يقظةِ الفِطنةِ إظهارَ الغفلةِ معَ شدّةِ الحذَرِ ، فخالطْ هذا مخالطةَ الآمِنِ ، وتحفّظْ منهُ تحفُّظَ الخائفِ ؛ فإنّ البَحْثَ يُظْهِرُ الخفيّ ، ويُبْدي المستورَ الكامنَ .

٦٥٤ — من سَرّهُ الغِنى بلا سلطان ، والكثْرةُ بلا عشيرةٍ ، فليخرجْ منْ ذُلِّ معصيةِ اللهِ إلى عزِّ طاعته ؛ فإنّهُ واجِدٌ ذلكَ كله .

٦٥٥ — الشَّيْبُ إعذارُ الموتِ .

٦٥٦ — منْ ساسَ نفسهُ بالصبرِ على جهْلِ النَّاسِ صَلَحَ أنْ يكونَ سائساً .

٦٥٧ — للهِ تعالى كلَّ لحظةٍ ثلاثةُ عساكرَ : فعسكرٌ ينزِلُ منَ الأصلابِ إلى الأرحامِ ، وعسكرٌ ينزِلُ منَ الأرحامِ إلى الأرضِ ، وعسكرٌ يرتحلُ من الدُّنيا إلى الآخرةِ .

٦٥٨ — اللهُمَّ ارحمنى رحمةَ الغفرانِ ، إنْ لمْ ترحمنى رحمةَ الرضا .

٦٥٩ — إلهى كيفَ لا يحسنُ منّى الظنُّ ؛ وقد حسُنَ منكَ المنُّ ! إلهى إنْ عاملتنا بعدْلِكَ لمْ يبقَ لنا حسنةٌ ، وإنْ أنلتنـا فضلكَ لمْ يبقَ لنا سيِّئةٌ .

٦٦٠ — العلمُ سُلطانٌ ، منْ وجدهُ صالَ به ، ومنْ لم يجدْهُ صيلَ عليه .

٦٦١ — يابنَ آدمَ إنَّما أنتَ أيّامٌ مجموعةٌ ؛ فإذا مضى يومٌ مضى بعضُكَ .

٦٦٢ — حيثُ تـكونُ الحـكمةُ تـكونُ خشيةُ اللهِ ، وحيثُ تـكونُ خشيتُهُ تـكونُ رحمته .

٦٦٣ — اللهُمَّ إنى أرَى لَدَيَّ منْ فضلكَ مالمْ أسألكَ ، فعلمت أنَّ لديكَ من الرحمة مالا أعلم ، فصغرتْ قيمةُ مطالبي فيما عاينت ، وقصرتْ غايةُ أملى عندَما رجوت ، فإنْ ألحفت فى سُؤالى فَلِفاقتى إلى ماعنـدك ، وإن قصَّرْتُ فى دعائى فبما عوَّدْتَ من ابتدائكَ .

٦٦٤ — منْ كانَ همّتهُ ما يدْخُلُ جوْفهُ كانت قيمتهُ مايخرج منهُ .

٦٦٥ — يقولُ اللهُ تعالى : يابْنَ آدمَ ، لمْ أخلقكَ لأرْبحَ عليكَ ، إنما خَلقْتُكَ لِترْبحَ عليَّ ، فاتّخذْنى بدلاً منْ كلِّ شيء فإنى ناصر لك من كل شيء .

٦٦٦ — الرَّجاء للخالقِ سُبحانهُ أقوى منَ الخوْفِ ، لأنك تخافهُ لذنبك ، وترجوه لجودِهِ ، فالخوف لك والرَّجاء لهُ .

٦٦٧ — أسألُكَ بعزَّةِ الوحْدانيةِ ، وكرَمِ الإلهيَّة ، ألّا تقطعَ عنّى بِرَّكَ بعْدَ مماتى ، كما لمْ ترَلْ توالى أيّامَ حياتى ، أنتَ الّذى تجيبُ مَنْ دعاكَ ، ولا تخيبُ منْ رَجاكَ ، ضاعَ منْ يدعُو إلا إيّاكَ ، فإنك لا تحْتجبُ من أتاكَ ، وتفْضلُ على منْ

عصاكَ ، وَلا يفوتُك من ناوَاكَ ، ولا يُعْجِزُكَ منْ عادَاكَ ؛ كلٌّ في قُدْرتك ، وكلٌّ يأكلُ رِزقكَ .

٦٦٨ — لا تطلبنّ إلى أحدٍ حاجةً ليلاً ؛ فإنّ الحياء في العينين .

٦٦٩ — من ازْدَاد علماً فليحذرْ منْ توكيدِ الحجّةِ عليهِ .

٦٧٠ — العاقلُ يُنافسُ الصالحينَ ليلحقَ بهمْ ، ويحبُّهُمْ ليشارِكَهُمْ بمحبّتهِ ؛ وإن قَصّر عنْ مِثلِ عملهمْ ، والجاهلُ يذمُّ الدُّنيا ولا يَسْخو بإخراج أقلّها ، يمدحُ الجودَ ، ويبخلُ بالبَذل ، يتمنّى التوْبةَ بطولِ الأمَلِ ، ولا يُعجّلُها لخوْفِ حُلُولِ الأجلِ ، يرْجُو ثوابَ عملٍ لم يعملْ به ، ويفرُّ من الناسِ ليطلبَ ، ويخفى شخصهُ ليشتَهِرِ ، ويذمُّ نفسهُ ليمدَحَ ، وينهى عن مدْحهِ وهو يحبُّ ألاّ ينتهى من الثناء عليه .

٦٧١ — الأنسُ بالعلمِ من نُبلِ الهمّةِ .

٦٧٢ — اللهمّ كما صُنت وَجهى عن السُّجودِ لغيرك ، فصُنْ وجهى عن مسألة غيرك .

٦٧٣ — من الناسِ منْ ينقصكَ إذا زِدتهُ ، ويهُونُ عليكَ إذا خاصَمتهُ ، ليسَ لرضاهُ موْضعٌ تعرفهُ ، ولا لسخطهِ مكانٌ تحذَرُهُ ، فإذا لقيت أولئكَ فابذلْ لهم موْضعَ الموَدةِ العامّةِ ، واحْرِمهمْ موْضعَ الخاصّةِ ؛ ليكُونَ مابذلْت لهمْ منْ ذلك حائلاً دونَ شرّهمْ ، وما حرَمْتهمْ منْ هذا قاطعاً لحرْمتهم .

٦٧٤ — مَن شَبِعَ عُوقب فى الحالِ ثلاث عُقُوباتٍ : يُلقى الغطاء على قلبِهِ ، والنُّعاس على عينهِ ، والكسلُ على بدَنهِ .

٦٧٥ — ذَمُّ العُقلاءِ أشدُّ من عُقُوبة السلطانِ .

٦٧٦ — يقطعُ البليغَ عن المسألة أمْرانِ : ذُلُّ الطّلب ، وخوْفُ الرّدِّ .

٦٧٧ — المؤمِن محدَّثٌ .

٦٧٨ — قلّ أن ينطق لِسانُ الدَّعوى إلا ويُخْرِسه كِمامُ الامتحان .

٦٧٩ — انظر ما عندك فلا تَضَعْهُ إلا فى حَقّه ؛ وما عند غيرك فلا تأخُـــذْهُ إلاّ بحقِـهِ .

٦٨٠ — إذا صافاك عَدُوُّك رِياءً مِنه فتَلَقَّ ذلك بأوْكد مَودَّةٍ ؛ فإنه إن أَلِف ذلك واعتادَهُ خَلَصَت لك مَودَّتهُ .

٦٨١ — لا تألَفْ المسألة فيألَفك المَنعُ .

٦٨٢ — لاتسأَل الحوائجَ غيْرَ أهْلها ، ولا تسْألْها فى غيْرِ حينِها ، ولا تسألْ مالسْتَ لهُ مُستحقاً فتكونَ للحرْمانِ مُستوجِباً .

٦٨٣ — إذا غَشّكَ صديقكَ فاجْعَلْهُ معَ عدوِّكَ .

٦٨٤ — لا تعدَّنَّ منْ إخْوانكَ منْ آخاكَ فى أيّامِ مقْدرتكَ للمقْدُرةِ ، واعلم أنه ينتقلُ عنكَ فى أحْوالٍ ثلاثٍ : يَكُونُ صديقاً يوْمَ حاجته إليْك ، ومُعرِضاً يوْم غناهُ عنكَ ، وعدُوًّا يوْمَ حاجتكَ إليْهِ .

٦٨٥ — لا تُسَرَّنَّ بِكثْرةِ الإخوَان مالمْ يَكُونُوا أخْياراً ؛ فإنّ الإخوانَ بمنزلةِ النَّار التى قليلها متاعٌ وكثيرُها بوَارٌ .

٦٨٦ — كفاكَ خيانةً أنْ تكُونَ أميناً للخَونةِ .

٦٨٧ — لا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر ؛ فإنك إذا رأيته سرّكَ مكانه ؛ ولا تحقرنّ شيئاً من الشرّ وإن صغرُ فإنك إذا رأيته ساءكَ مكانه .

٦٨٨ — يابن آدم؛ ليْسَ بِك غَناءٌ عنْ نصيبكَ مِن الدُّنيا ، وأنْتَ إلى نصيبكَ منَ الآخرةِ أفقرُ .

٦٨٩ — معصيةُ العالم إذا خفِيَتْ لمْ تضرّ إلّا صاحبها ، وَإذا ظهرتْ ضرّتْهُ صاحبها والعامّةَ .

٦٩٠ — يجبُ على العاقل أنْ يكُونَ بما أحيا عقلَهُ منَ الحِكْمةِ أكلَفَ منهُ بما أحيا جسمَهُ مِنَ الغِذاء .

٦٩١ — أعسرُ العيُوبِ صلاحاً العُجْبُ واللّجاجة .

٦٩٢ — لِكلِّ نعمةٍ مِفتاحٌ ومغلاقٌ ، فمفتاحُها الصبرُ ، ومغلاقُها الكسلُ .

٦٩٣ — الحزْنُ والغضبُ أميرانِ تابعانِ لوقوع الأمْرِ بخلافِ ماتُحِب، إلاّ أن المكرُوهَ إذا أتاك ممّنْ فوقكَ نتجَ عليكَ حزْناً ، وإن أتاكَ ممّنْ دونك نتجَ عليكَ غضباً .

٦٩٤ — أولُ المعروفِ مُستخفٌّ ، وآخرهُ مُستثقلٌ ؛ تكادُ أوائله تكونُ لِلهوَى دُونَ الرّأى ، وَأواخرُهُ للرّأى دُونَ الهوَى ؛ ولذلكَ قيلَ : ربُّ الصنيعةِ أشدُّ من الابْتداء بها .

٦٩٥ — لا تدعُ اللهَ أنْ يُغنيكَ عنِ النّاسِ فإن حاجات الناسِ بعضهمْ إلى بعْض مُتصلةٌ كاتصالِ الأعْضاء فمَتى يستغنى المرْء عنْ يدِهِ أوْ رِجْله ! ولكن ادْعُ اللهَ أنْ يُغنيَكَ عنْ شِرارِهمْ .

٦٩٦ — احترسْ مِنْ ذِكرِ العلمِ عِند منْ لا يرْغبُ فيهِ ؛ ومِنْ ذِكر قديمِ الشّرَفِ عِند منْ لا قديم لهُ ، فإنّ ذلكَ ممّا يحقدُها عليكَ .

٦٩٧ — ينبغى لِذوى القرَابات أن يتزاورُوا ولا يتجاورُوا .

٦٩٨ — لا تواخِ شاعِراً فإنهُ يمْدحُكَ بثمن ، ويهْجُوكَ مجّاناً .

٦٩٩ — لا تنزِلنّ حوائجكَ بجيِّدِ اللّسانِ ، ولا بمتسرِّعٍ إلى الضمانِ .

٧٠٠ — كلُّ شيء طلبتَهُ في وقتهِ فقدْ فات وقتهُ .

٧٠١ — إذا شككتَ في مودة إنسان فاسألْ قلبكَ عنه .

٧٠٢ — العقلُ لم يجنِ على صاحبهِ قطُّ ؛ والعلمُ مِنْ غيرِ عقلٍ يجني على صاحبهِ .

٧٠٣ — يابن آدمَ ؛ هلْ تنتظرُ إلاّ هرَماً حائلاً(١) ، أوْ مرضاً شاغِلاً ، أوْ موْتاً نازِلاً !

٧٠٤ — ابنك يأكلُكَ صَغيراً ويرِثُك كبيراً ، وابنتكَ تأكلُ مِنْ وِعائكَ ، وترثُ مِنْ أعْدائكَ ، وابن عمك عدوُّكَ وعدوُّ عدوِّكَ ، وزوجتك إذا قلتَ لها قُومي قامتْ .

٧٠٥ — إذا ظفرْتُمْ فأكرِمُوا الغلَبةَ ، وعليكمْ بالتغافُلِ فإنهُ فعلُ الكرَام ، وإيَّاكُم والمنَّ فإنهُ مَهْدمةٌ للصنيعةِ ، مَنبهةٌ للضغينة .

٧٠٦ — منْ لمْ يرْجُ إلاَّ مايستوْجِبهُ أدْركَ حاجتَهُ .

٧٠٧ — بلغَ منْ خدَعِ النَّاسِ ؛ أن جعلُوا شكرَ الموْتى تجارةً عِندَ الأحْياءِ ، والثناء على الغائبِ استمالة للشاهدِ .

٧٠٨ — من احتاج إليكَ ثقُلَ عليكَ ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الخيرُ أصْلحَهُ الشرُّ ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الطالى أصلحهُ الكاوى .

٧٠٩ — منْ أكثَرَ منْ شيء عُرِف بهِ ، ومَنْ زَنى زُنى بهِ ، ومنْ طَلَب عظاما خاطَرَ بعظمَتهِ ، ومنْ أحبَّ أنْ يصرِمَ أخاهُ فليُقرِضْهُ ثم ليتَقاضهُ ؛ ومنْ أحبَّك لشيء ملكَ عندَ انقضائهِ ، ومن عُرِفَ بالحكْمةِ لاحظتهُ العيُونُ بالوقارِ .

---

(١) حائلا : أى مانعاً يمنعه من أداء أعماله .

٧١٠ — مَنْ بلغَ السَّبعينَ اشتكى مِنْ غيْرِ علَّةٍ .

٧١١ — في المالِ ثلاثُ خِصالٍ مَذْمُومةٌ : إمَّا أنْ يُكْتَسَبَ مِنْ غيْرِ حِلِّهِ ، أوْ يمْنَعَ إنفاقهُ في حقِّهِ ، أوْ يُشتغلَ بإصلاحِهِ عنْ عِبادَةِ اللهِ تعالى .

٧١٢ — يُباعدكَ مِنْ غضبِ اللهِ ألاّ تغضبَ .

٧١٣ — لا تستبدِلَنَّ بأخٍ لكَ قديمٍ أخاً مُستفاداً مااستقامَ لكَ ؛ فإنكَ إنْ فعلْتَ فقدْ غيَّرتَ ، وإن غيَّرتَ تغيَّرتْ نعمُ اللهِ عليْكَ .

٧١٤ — أشدُّ مِنَ البلاءِ شماتةُ الأعْداءِ .

٧١٥ — لَيْسَ يَزْنى فَرْجُكَ إنْ غَضَضْتَ طرْفكَ .

٧١٦ — كما تركَ لكُمُ المُلوكُ الحِكْمَةَ والعِلْمَ فاتركُوا لهمُ الدُّنيا .

٧١٧ — الهديَّةُ تفقأُ عينَ الحكيمِ .

٧١٨ — ليكُنْ أصْدِقاؤكَ كثيراً ، واجْعلْ سرَّكَ منهمْ إلى واحدٍ .

٧١٩ — ياعَبيدَ الدُّنيا ؛ كيْفَ تخالِفُ فرُوعُكُمْ أصولَكم ، وعقولُكُمْ أهواءَكُمْ ، قولُكُمْ شفاءٌ يُبْرِئُ الدَّاءَ ، وعملُكم داءٌ لا يقبلُ الدَّواءَ ؛ ولسْتُمْ كالكَرْمةِ الّتي حسنُ ورقُها ، وطابَ ثمرُها ، وسهُلَ مُرْتقاها ؛ ولكِنَّكُمْ كالشجرةِ الّتي قلَّ ورقُها ، وكثُرَ شوْكُها ، وخبُثَ ثمرُها ، وصعُبَ مرْتقاها . جعلْتُمْ العلم تحت أقدامِكُمْ ، والدُّنيا فوْقَ رءوسِكُمْ ؛ فالعلمُ عندكُمْ مُذالٌ ممتهنٌ ، والدُّنيا لا يُستطاعُ تناولها ؛ فقدْ منَعْتُمْ كلَّ أحدٍ منَ الوُصُول إليها ؛ فلا أحْرارٌ كرامٌ أنتُمْ ، ولا عبيدٌ أتقياء . ويحكُم يا أُجَراءَ السُّوءِ ! أمّا الأجْرَ فتأخُذُونَ ، وأمّا العملَ فلا تعملُون ؛ إن عملتمْ فللعمل تفسدُون ، وسوْفَ تلقوْنَ ماتفعلُون ، يُوشكُ ربُّ العملِ أنْ ينظرَ في عملِهِ الّذي أفسدْتُمْ ، وفي أجْرهِ الّذي أخذْتُم . ياغرماءَ السُّوءِ ، تبدءُون بالهديَّةِ قبلَ قضاءِ

الدَّين ، تتطوَّعُون بالنوَافلِ ولا تُؤَدُّون الفرائضَ ، إن رَبَّ الدَّيْنِ لا يرْضى بالهديّةِ حتّى يُقضى دَينهُ .

٧٢٠ — الدُّنيا مزْرَعةُ إبليس ، وأهلُها أكَرةٌ حرّاثون لهُ فيها .

٧٢١ — واعجباً ممَّنْ يعملُ للدُّنيا وَهوَ يرزَقُ فيها بغيْرِ عمل ، ولا يعملُ للآخرَةِ وهوَ لا يرْزقُ فيها إلّا بالْعملِ !

٧٢٢ — لا تُجالسُوا إلاّ من يذكّرُكُمُ اللهَ رؤيتهُ ، ويزيدُ في عملكُمْ منطقهُ ، ويرغّبكُمْ في الآخرةِ عملهُ .

٧٢٣ — كثرةُ الطعامِ تميتُ القلبَ كما تميتُ كثرةُ الماءِ الزّرْعَ .

٧٢٤ — ضربُ الوَالدِ الولَدَ كالسّمادِ للزرعِ .

٧٢٥ — إذا أردْتَ أن تصادِق رجلاً فأغضبْهُ ، فإن أنصفك في غضبِهِ وإلاّ فدعهُ .

٧٢٦ — إذا أتيْتَ مجلِسَ قومٍ فارمهمْ بِسَهْمِ الإسلامِ ، ثمّ اجلِسْ - يعني السّلامَ - فإنْ أفاضوا في ذكرِ اللهِ فأجِلْ سهمَكَ معَ سِهامهم ، وإنْ أفاضوا في غيرهِ فخلّهمْ وانهضْ .

٧٢٧ — الأوْطار تكسِبُ الأوزارَ ، فارفُضْ وطَرَكَ ، واغْضُضْ بصرَكَ .

٧٢٨ — إذا قعدْتَ عندَ سُلطانٍ فليكنْ بينَكَ وبينهُ مقعدُ رجلٍ ؛ فلعلّهُ أنْ يأتيَهُ منْ هو آثرُ عنده منك ؛ فيريدُ أنْ تتنحّى عن مجلِسكَ ، فيكونُ ذلكَ نقصاً عليك وشَيْناً .

٧٢٩ — ارحمِ الفقراء لقلّةِ صبرهم ، والأغنياء لقلّةِ شُكْرِهم ؛ وارحمِ الجميع لِطُول غفلتِهِمْ .

٧٣٠ — العالِمُ مصباحُ اللهِ في الأرضِ ، فمَنْ أرادَ اللهُ به خيراً اقتبسَ منه .

٧٣١ — لا يهونَنَّ عليك مَنْ قبُحَ منظرُهُ ورثَّ لباسُهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ينظرُ إلى القلوبِ ويُجازي بالأعمالِ .

٧٣٢ — منْ كَذَبَ ذهبَ بماءِ وجهِهِ ، ومنْ ساءَ خُلُقُهُ كثُرَ غَمُّهُ ، ونقلُ الصخورِ مِنْ مواضعها أهْوَنُ مِنْ تفهيمِ مَنْ لا يفهمُ .

٧٣٣ — كنتُ في أيّامِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله كجزءٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله ، ينظرُ إليَّ الناسُ كما يُنظَرُ إلى الكواكبِ في أُفقِ السماءِ ، ثم غضَّ الدّهرُ منّي ، فقَرَنَ بي فلانٌ وفلانٌ ، ثم قُرِنْتُ بخمسةٍ أمثلُهُمْ عثمانُ ، فقلتُ : واذَفَراهُ [١] ! ثم لم يَرْضَ الدهرُ لي بذلكَ ؛ حتى أرذلني ، فجعلني نظيراً لابنِ هِنْدٍ وابْنِ النابِغَةِ ! لقد استنَّتِ الفصالُ حتى القرعى .

٧٣٤ — أما والّذي فلقَ الحَبّةَ ، وبرأَ النَّسَمَةَ ، إنّه لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ إليَّ أنَّ الأُمّةَ ستغدِرُ بكَ مِنْ بعدي .

٧٣٥ — لامَتْهُ فاطمةُ على قُعُودِهِ وأطالتْ تعنيفهُ ؛ وهو ساكتٌ حتى أذّنَ المُؤذِّنُ ، فلما بلغَ إلى قوله : « أشهدُ أنَّ محمّداً رسُولُ اللهِ » ، قالَ لها : أتُحبّينَ أنْ تزولَ هذهِ الدعوةُ مِنَ الدُّنيا ؟ قالت : لا ، قالَ فهُوَ ما أقولُ لكِ .

٧٣٦ — قالَ لي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله : إنِ اجتمعوا عليكَ فاصنعْ ما أمرتُكَ ؛ وإلّا فألصِقْ كَلْكَلَكَ بالأرضِ ؛ فلما تفرّقوا عنّي جررْتُ على المكروهِ ذيلي ، وأغضيْتُ على القَذَى جفني ، وألصقْتُ بالأرضِ كَلْكَلي .

٧٣٧ — الدُّنيا حُلْمٌ والآخرةُ يقظةٌ ؛ ونحنُ بينهما أضغاثُ أحلامٍ .

---

(١) الذفر : الرائحة الخبيثة .

٧٣٨ — لَمَّا عرَف أهلُ النقص حالَهَمْ عندَ أهلِ الكمالِ ، استعانوا بالكِبْرِ لِيُعَظِّمَ صغيراً ، ويرفعَ حقيراً ، وليسَ بفاعلٍ .

٧٣٩ — لو تميزَتِ الأشياء كانَ الكَذِبُ مع الجُبْنِ ، والصِّدقُ مع الشجاعَةِ ، والرَّاحةُ مع اليأسِ ، والتَّعَبُ مع الطمعِ ، والحرمانُ مع الحرصِ ، والذُّلُّ مع الدَّيْنِ .

٧٤٠ — المعروفُ غُلٌّ لا يَفُكُّه إلّا شكرٌ أو مكافاةٌ .

٧٤١ — كثرةُ مالِ الميِّتِ تسلِّي ورثتَهُ عنه .

٧٤٢ — منْ كَرُمتْ عليهِ نفسُهُ هانَ عليه مالُهُ .

٧٤٣ — من كَثُرَ مُزَاحُهُ لم يسلَمْ منَ استخفافٍ به ، أوْ حقدٍ عليه .

٧٤٤ — كثرةُ الدَّيْنِ تضطرُّ الصادقَ إلى الكذبِ والواعدَ إلى الإخلافِ .

٧٤٥ — عارُ النَّصيحةِ يكدِّرُ لذَّتها .

٧٤٦ — أوَّلُ الغضبِ جنونٌ ، وآخرُهُ ندمٌ .

٧٤٧ — انفردْ بسرِّكَ ولا تودعهُ حازِماً فيزِلّ ، ولا جاهِلاً فيخونَ .

٧٤٨ — لا تقطعْ أخاكَ إلّا بعدَ عجزِ الحيلَةِ عن استصلاحِهِ ، ولا تُتبعه بعدَ القطيعةِ وقيعةً فيه ؛ فتَسُدَّ طريقَهُ عنِ الرُّجوعِ إليك ، ولعلَّ التجارِبَ أنْ تردَّهُ عليك وتُصْلحَهُ لكَ .

٧٤٩ — منْ أحسَّ بضعفِ حيلتِهِ عن الاكتسابِ بخِلَ .

٧٥٠ — الجاهلُ صغيرٌ وإنْ كانَ شيخاً ، والعالِمُ كبيرٌ وإنْ كان حدَثاً .

٧٥١ — الميِّتُ يقِلُّ الحسدُ له ، ويكثُرُ الكذبُ عليهِ .

٧٥٢ — إذا نزلَتْ بكَ النعمةُ فاجعلْ قِراها الشكرَ .

٧٥٣ — الحِرصُ ينقصُ من قدرِ الإنسانِ ولا يزيدُ في حظِّه .

٧٥٤ — الفرصةُ سريعةُ الفوتِ بطيئةُ العوْدِ .

٧٥٥ — أبخلُ الناسِ بمالِهِ أجودهم بعرْضه .

٧٥٦ — لا تتبعِ الذنبَ العقوبة واجعلْ بينهما وقتاً للاعتذارِ .

٧٥٧ — اذكرْ عندَ الظلمِ عدلَ اللهِ فيكَ ، وعندَ القدرةِ قدرةَ الله عليك

٧٥٨ — لا يحملنَّكَ الحنَقُ على اقترافِ الإثمِ فتَشفي غيظك وتسقم دينك .

٧٥٩ — المُلكُ بالدِّينِ يبقى والدِّينُ بالملكِ يقوَى .

٧٦٠ — كأنَّ الحاسدَ إنَّما خلقَ ليغتاظَ .

٧٦١ — عقلُ الكاتبِ في قلمِه .

٧٦٢ — اقتصِرْ من شهوةٍ خالفت عقلكَ بالخلافِ عليها .

٧٦٣ — اللهمَّ صُنْ وجهي باليسارِ ، ولا تبذلْ جاهي بالإقتارِ ؛ فأسترزقَ طالبي رزقِكَ ، وأستعطفَ شِرارَ خلقِكَ ، وأبتَلِي بحمدِ منْ أعطاني ، وأفتتِنَ بذمِّ من منعني ؛ وأنتَ منْ وراءِ ذلكَ وليُّ الإعطاءِ والمنعِ ، إنّكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ .

٧٦٤ — كلُّ حقدٍ حقدتهُ قريشٌ على رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآلِهِ أظهرتهُ فيَّ وستُظهِرُهُ في ولدي من بعدي ، ماليَ ولقريشٍ ! إنما وترتُهُم(١) بأمرِ اللهِ وأمرِ رسُولِهِ ؛ أفهذا جزاءُ منْ أطاعَ اللهَ ورسُولَهُ إن كانوا مسلمينَ !

٧٦٥ — عجباً لسعدٍ وابنِ عمر ! يزعمانِ أني أحاربُ على الدُّنيا ، أفكانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يحاربُ على الدنيا ! فإنْ زعما أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله حاربَ لتكسيرِ الأصنامِ ، وعبادةِ الرَّحْمنِ ؛ فإنما حاربْتُ لدفعِ الضلالِ والنَّهْيِ عنِ

---

(١) وترتهم : أحدثت عندهم وتراً .

الفحشاء والفساد ؛ أفمثلي يُزَنُّ بحبِّ الدُّنيا ! واللهِ لو تمثّلَتْ لِي بَشَراً سويّاً لضربتُها بالسيفِ .

٧٦٦ — اللهمَّ أنتَ خلقتني كما شئْتَ ، فارحمني كيف شِئْتَ ، ووفِّقْني لطاعتكَ ، حتى تكونَ ثقتي كلّها بكَ ، وخَوْفي كله منكَ .

٧٦٧ — لا تَسُبَّنَّ إبليسَ في العلانيةِ وأنت صديقهُ في السِّرِّ .

٧٦٨ — منْ لم يأخذْ أُهْبَةَ الصلاةِ قبلَ وقتها فما وقّرَها .

٧٦٩ — لا تطمعْ في كلِّ ماتسمعُ .

٧٧٠ — منْ عاتَبَ ووبّخَ فقد استوفَى حقَّهُ .

٧٧١ — الجودُ الذي يستطاعُ أن يُتناولَ به كلُّ أحدٍ ، هوَ أن ينوِيَ الخيرْ لكلِّ أحدٍ .

٧٧٢ — منْ صحبَ السلطانَ بالصحّةِ والنصيحةِ كان أكثرَ عدوًّا ممَّنْ صحبَهُ بالغشِّ والخيانةِ .

٧٧٣ — منْ عابَ سَفِلةً فقد رفعهُ ، ومن عابَ كريماً فقد وضعَ نفسهُ .

٧٧٤ — الموالي ينتصرونَ ؛ وبنو العمِّ يحسدونَ .

٧٧٥ — الصدقُ عزٌّ ، والكَذِبُ مذلّةٌ ، ومنْ عرفَ بالصدقِ جازَ كذبُهُ ، ومَن عرفَ بالكذبِ لم يجز صدقهُ .

٧٧٦ — إذا سمعْتَ الكلمةَ تؤذيكَ فطأطِئْ لها فإنّها تتخطّاكَ .

٧٧٧ — نحنُ نريدُ ألّا نموتَ حتى نتوبَ ، ونحنُ لا نتوبُ حتى نموتَ .

٧٧٨ — أنزِلِ الصديقَ منزلةَ العدُوِّ في رفعِ المؤنةِ عنهُ ، وأنزِلِ العدُوَّ منزلةَ الصديقِ في تحمُّلِ المؤنة لهُ .

٧٧٩ — أوّلُ عقوبةِ الكاذبِ أنّ صدقَهُ يُرَدُّ عليه .

٧٨٠ — الأدبُ عندَ الأحمقِ كالماءِ العذبِ فى أصولِ الحنظلِ ، كلما ازداد رِيًّا ازداد مرارةً .

٧٨١ — إيّاكم وحميّةَ الأوغادِ ؛ فإنّهُمْ يرونَ العفوَ ضيماً .

٧٨٢ — الكريمُ لا يستقصى فى مُحاقّةِ المعتذرِ ، خوفاً أن يجزىَ من لا يجدُ مخرجاً من ذنبِهِ .

٧٨٣ — العفوُ عن المقرِّ لا عن المُصِرِّ .

٧٨٤ — ما استغنى أحدٌ باللهِ إلا افتقرَ الناسُ إليه .

٧٨٥ — منْ جادَ بمالهِ فقد جادَ بنفسهِ ، فإن لم يكنْ جادَ بها بعينها فقد جادَ بقِوامِها .

٧٨٦ — الدَّينُ ميسمُ الكرامِ ، وطالما وُقِّرَ الكرامُ بالدَّين !

٧٨٧ — الماضى قبلكَ هوَ الباقى بعدَكَ ، والتّهنئةُ بآجلِ الثوابِ أولَى منَ التّعزيةِ بعاجلِ المُصابِ .

٧٨٨ — مِمّا تكتسبُ به المحبّةُ أن تكونَ عالماً كجاهلٍ ، وواعظاً كموعوظٍ .

٧٨٩ — لا تحمدنَّ الصبيَّ إذا كان سخيًّا ، فإنّهُ لا يعرفُ فضيلةَ السخاءِ ؛ وإنّما يعطى مافى يده ضعفاً .

٧٩٠ — خيرُ الإخوانِ من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ فى المودّةِ ، وإن احتجتَ إليه لم ينقصْكَ منها .

٨٩١ — عَجَباً للسلطانِ ، كيفَ يُحسِنُ ، وهو إذا أساء وجدَ من يزكّيهِ ويمدحُهُ !

٧٩٢ — إذا صادقتَ إنساناً وجبَ عليكَ أن تكونَ صديقَ صديقِهِ ، وليسَ يجبُ عليكَ أن تكونَ عدوَّ عدوِّهِ ؛ لأنّ هذا إنما يجبُ على خادِمِهِ وليسَ يجبُ على مُماثِلٍ له .

٧٩٣ — ليس يكملُ فضيلة الرَّجُلِ حتَّى يكونَ صديقاً لمتعادِيَيْنِ .

٧٩٤ — منْ سَعَادَةِ الحدثِ ألاّ يتمَّ لهُ فضيلةٌ في رَزيلةٍ .

٧٩٥ — إذا مُنِعتَ منْ شيءٍ قدِ التمَسْتَهُ ، فليكنْ غيظُك منهُ على نفسِك في المسألةِ أكثرَ منْ غيظكَ على منْ منعكَ .

٧٩٦ — الأسْخياء يشمتونَ بالبُخلاء عند الموتِ ، والبخلاء يَشمتونَ بالأسْخياء عند الفقرِ .

٧٩٧ — ليْسَ يَضبطُ العدَدَ الكثيرِ منْ لا يضبطُ نفسهُ الواحدَةَ .

٧٩٨ — إذا أحسنَ أحدٌ منْ أصْحابك فلا تخرُجْ إليهِ بغايةِ برِّكَ ؛ ولكن اتركْ منهُ شيئاً تزيدُهُ إيَّاهُ عندَ تبيينكَ منهُ الزِّيادةَ في نصيحتِهِ .

٧٩٩ — الوُقوعُ في المكرُوهِ أسهلُ منْ توَقُّعِ المكرُوهِ .

٨٠٠ — الحسُودُ ظالِمٌ ، ضعفتْ يدُهُ عن انتزاعِ ماحسدكَ عليه ؛ فلمَّا قصُرَ عليك بعثَ إليكَ تأسُّفهُ .

٨٠١ — أعمُّ الأشْياء نَفْعاً موتُ الأشرارِ .

٨٠٢ — الشيءُ المعزّي للناسِ عنْ مَصائبِهمْ عِلْمُ العُلماء إنّها نفعاء اضطراريةٌ وتأسِّي العامّةِ بعضها ببعضٍ .

٨٠٣ — العقلُ الإصابةُ بالظنِّ ومعرفةُ مالم يكنْ بما كانَ .

٨٠٤ — ياعَجَباً للناسِ قد مكّنَهم اللهُ من الاقتداء به ، فيدَعُونَ ذلكَ إلى الاقتداء بالبهائم .

٨٠٥ — سلُوا القلوبَ عنِ المودات ؛ فإنها شُهودٌ لا تقبلُ الرِّشا .

٨٠٦ — إنما يحزَنُ الحسدةُ أبداً لأنهمْ لا يحزنون لِما ينزلُ بهمْ منَ الشرِّ فقط ؛ بلْ ولِما ينالُ الناس منَ الخيْرِ .

٨٠٧ — المشقُ جهدٌ عارضٌ صادفَ قلباً فارغاً .

٨٠٨ — تُعرَفُ خساسةُ المرءِ بكثرةِ كلامِهِ فيما لا يَعنيهِ ، وإخبارِهِ عمّا لا يُسْأَلُ عنهُ .

٨٠٩ — لا تؤخِّرْ إنالةَ المحتاجِ إلى غدٍ ، فإنّك لا تعرفُ ما يعرِض فى غدٍ .

٨١٠ — إنْ تتعبْ فى البرِّ ؛ فإنّ التعبَ يزُولُ والبرُّ يبْقى .

٨١١ — أجْهلُ الجهالِ منْ عثرَ بحجرٍ مرتيْنِ .

٨١٢ — كفاكَ مُوبِّخاً على الكذبِ عِلمُكَ بأنّكَ كاذِبٌ ، وكفاكَ ناهِياً عنهُ خوْفُكَ مِنْ تكذيبك حالَ إخبارِكَ .

٨١٣ — العالمُ يَعرفُ الجاهِلَ لأنهُ كان جاهلاً ، والجاهلُ لا يَعرفُ العالمَ لأنهُ لم يكن عالماً .

٨١٤ — لا تتّكلوا على البَختِ فرُبما لم يكنْ وربما كان وزالَ ، ولا على الحسَبِ فطالما كان بلاءً على أهْله ، يقالُ للناقِص : هذا ابن فلانٍ الفاضلِ ؛ فيتضاعف غمهُ وعارُهُ ؛ ولكنْ عليكم بالعلْم والأدبِ ؛ فإنّ العالم يُكرَمُ وإنْ لمْ ينتسبْ ، ويكرم وإن كان فقيراً ، ويكرمُ وإن كان حدِثاً .

٨١٥ — خيرُ ماعُوشرَ به الملكُ قلةُ الخلافِ وتخفيفُ المؤنة ، وأصعبُ الأشياء على الإنسان أنْ يعرفَ نفسه ، وأن يكتم سرّهُ .

٨١٦ — العدلُ أفضلُ منَ الشجاعةِ ، لأنّ الناسَ لو استعملوا العدلَ عموماً فى جميعهم لاستغنوا عن الشجاعةِ .

٨١٧ — أولى الأشياء أن يتعلّمها الأحداثُ الأشياء التى إذا صاروا رجالا احتاجوا إليها .

٨١٨ — لا ترغبْ فى اقتناء الأموالِ ؛ وكيفَ ترغبُ فيما ينالُ بالبخت لا بالاستحقاقِ ، ويأمر البخلُ والشرَهُ بحفظه والجود والزهدُ بإخراجِه !

٨١٩ — إذا عاتبت الحدث فاترك لهُ موضعاً من ذنبه ، لئلاّ يحملهُ الإحراجُ على المكابرةِ .

٨٢٠ — ماانتقم الإنسانُ منْ عدوّهِ بأعظم من أن يزداد من الفضائلِ .

٨٢١ — إنما لم يجتمع الحكمةُ والمالُ ، لعزّةِ وجُود الكمالِ .

٨٢٢ — يَمنعُ الجاهلَ أن يجدَ ألمَ الحمق المستقرّ فى قلبهِ مايمنع السكرانَ أنْ يجد مسَّ الشوكة فى يدِه .

٨٢٣ — القُنية مخدومةٌ ، ومن خدمَ غير نفسهِ فليس بحرّ .

٨٢٤ — لا تطلبِ الحياةَ لتأكلَ ؛ بل اطلُبِ الأكل لتحيا .

٨٢٥ — إذا رأتِ العامةُ منازلَ الخاصّةِ من السلطانِ حسدتْها عليْها ، وتمنّتْ أمثالها . فإذا رأتْ مصارعها بدا لها .

٨٢٦ — الشىء الذى لا يستغنى عنهُ أحدٌ هوَ التوفيق .

٨٢٧ — ليسَ ينبغي أن يقعَ التصديقُ إلا بما يصحُّ ، ولا العملُ إلا بما يحلُّ ، ولا الابتداء إلا بما تحسنُ فيهِ العاقبةُ .

٨٢٨ — الوحدةُ خيرٌ مِن رفيقِ السوء .

٨٢٩ — لكل شيء صناعةٌ ، وحسنُ الاختيارِ صناعةُ العقلِ .

٨٣٠ — من حَسدَكَ لم يشكرْكَ على إحسانك إليهِ .

٨٣١ — البغيُ آخرُ مدّةِ الملوكِ .

٨٣٢ — لأنْ يكون الحرُّ عبداً لعبيده خيرٌ من أن يكون عبداً لشهواتهِ .

٨٣٣ — من أمضى يومه في غيرِ حقٍّ قضاهُ ، أو فرضٍ أدّاهُ ، أو مجدٍ بناهُ ، أو حَمْدٍ حصّلَهُ ، أو خيرٍ أسّسهُ ، أو علمٍ اقتبسهُ ، فقد عقَّ يومَه .

٨٣٤ — أرسلَ إليهِ عمرو بن العاص يعيبُه بأشياء ، منها أنّهُ يسمّي حسَناً وحُسَيناً ولدَيْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله فقالَ لِرَسُولِهِ : قل للشّانئ ابن الشّانئ ؛ لو لم يكونا ولدَيْهِ لكانَ أبترَ ؛ كما زعمه أبوك !

٨٣٥ — قالَ معاويةُ لما قُتِلَ عمارٌ واضطربَ أهلُ الشام لرواية عمرو بن العاص كانت لهم : « تقتُلُه الفئةُ الباغيةُ » : إنّما قتلهُ منْ أخرجهُ إلى الحرب وعرّضهُ للقتل ؛ فقال أميرُ المؤمنين عليه السلام : فرسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله إذَنْ قاتِلُ حمزةَ !

٨٣٦ — هـذا يدي ـ يعني محمدَ بن الحنفيّة ـ وهذان عينايَ ـ يعني حسَناً وحُسَيناً ـ وما زالَ الإنسانُ يَذُبُّ بيَدِهِ عنْ عينيْهِ ؛ قالها لمنْ قال له : إنّكَ تُعرّضُ محمّداً للقتل ، وتقذِفُ به في نحور الأعداء دونَ أخوَيه .

٨٣٧ — شكَرْتَ الواهبَ ، وبُورِكَ لكَ في الموهوب ، ورُزِقْتَ خيرهُ وبِرّهُ ، خُذْ إليكَ أبا الأملاك ؛ قالها لعبد الله بن العباس لما وُلِدَ ابنُهُ عليُّ بن عبد الله .

٨٣٨ — مايسُرُّنى أنى كُفِيتُ أمرَ الدُّنيا كلَّه ، لأنى أكرهُ عادةَ العجزِ .

٨٣٩ — اجتماعُ المالِ عندَ الأسخياء أحدُ الخِصْبَيْنِ ، واجتماعُ المالِ عندَ البخلاءِ أحدُ الجدْبَيْنِ .

٨٤٠ — منْ عَمِلَ عَمَلَ أبيه كُفِيَ نصفَ التَّعَبِ .

٨٤١ — المُصطنِعُ إلى اللئيمِ كمنْ طوَّقَ الخنزيرَ تِبراً ، وقرَّطَ الكلبَ دُرًّا ، وألبسَ الحمارَ وَشْياً ، وألقمَ الأفعى شهداً .

٨٤٢ — الحازمِ إذا أشكلَ عليهِ (١) الرَّأي بمنزلة منْ أضلَّ لؤلؤةً ، فجمعَ ماحولَ مسقطها مِنَ التراب ثم التمسها حتى وجدها ، ولذلك الحازمُ يجمعُ وُجوهَ الرَّأي فى الأمر المشكل ، ثم يضربُ بعضه ببعض حتى يخلُصَ إليهِ الصَّوابُ .

٨٤٣ — الأشرافُ يعاقَبُون بالهِجْرانِ لا بالحرمان

٨٤٤ — الشُّحُّ أضَرُّ على الإنسانِ مِن الفقرِ ، لأن الفقير إذا وجد اتَّسع ، والشحيح لا يتَّسعُ وإن وَجَد .

٨٤٥ — أحبُّ الناس إلى العاقل أن يكون عاقلاً عدوُّهُ ، لأنه إذا كان عاقلاً كان منهُ فى عافيةٍ .

٨٤٦ — عليكَ بمُجالَسةِ أصحابِ التَّجارب فإنها تقوِّمُ عليهم بأغلى الغلاء ، وتأخذها منهم بأرخص الرُّخص .

٨٤٧ مَن لم يحمدْكَ على حُسْنِ النيَّةِ لم يشكُرْكَ على جَميلِ العطيَّةِ .

٨٤٨ — لا تنكحوا النساءَ لحُسنهنَّ ، فعسى حُسْنُهنَّ أن يُرْدِيَهنَّ ، ولا لأموالِهنَّ

---

(١) أشكل عليه الرأى : استبهم .

فعسى أموالهنّ أن تُطغيَهُنّ ، وانكِحُوهُنّ على الدِّين ؛ ولَأمةٌ سَوْداء خَرْماء ذاتُ دِين أفضَلُ .

٨٤٩ — أفضَلُ العبادَةِ الإمْساكُ عَن المعصيةِ ، والوقُوفُ عِندَ الشُّبْهَةِ .

٨٥٠ — ذَمُّ الرَّجل نفسه فى العلانية مَدْحٌ لها فى السِّرِّ .

٨٥١ — مَن عَدِم فَضِيلة الصدق فى منطقِه فَقَدْ فُجِعَ بأكْرَم أخْلاقِه .

٨٥٢ — ليس يضُرُّكَ أنْ تَرَى صديقك عِنْدَ عدُوِّك ؛ فإنهُ إن لم يَنْفعك لم يَضُرَّكَ .

٨٥٣ — قَلَّ أن تَرَى أحداً تَكبَّرَ على مَن دُونه إلا وبذلك المِقدارِ يجودُ بالذُّلِّ لِمَنْ فَوْقَهُ .

٨٥٤ — مَن عظُمَتْ عَلَيْهِ مُصيبةٌ فليذْكُرِ المَوْتَ ؛ فإنها تَهُونُ عَلَيْهِ ، ومَنْ ضاق بِهِ أمْرٌ فليَذْكُرِ القبر فإنه يتَّسعُ .

٨٥٥ — خَيْرُ الشِّعْرِ ما كان مَثَلاً ، وخَيْرُ الأمْثالِ مالم يَكن شِعْراً .

٨٥٦ — الق الناس عِند حاجتهم إليك بالبشر والتواضُعِ ، فإن نابَتْكَ نائبةٌ ، وحالَتْ بك حالٌ ، لَقِيتَهُمْ وقدْ أمِنت ذِلَّةَ التنَصُّل إليهم والتواضع .

٨٥٧ — إن الله يحبُّ أن يُعفَى عن زَلَّةِ السَّرِيِّ .

٨٥٨ — من طال لِسانُهُ وحَسُن بيانُهُ ، فليترك التَّحدث بغرائِبِ ما سمع ، فإنّ الحسد لُحسن ما يظهرُ مِنهُ يحمِلُ أكْثَرَ الناس على تكذِيبه ، ومَن عرَفَ أسرارَ الأمورِ الإلهيةِ فلْيَتْرُكِ الخوض فيها ، وإلاّ حملهم المنافسةُ على تكفيرِهِ .

٨٥٩ — لَيْسَ كلُّ مَكتومٍ يَسُوغ إظهارُهُ لك ، ولا كلُّ مَعلومٍ يجوزُ أن تُعلِّمهُ غيرك .

٨٦٠ — ليسَ يفهَمُ كلامَكَ منْ كانَ كلامُهُ لكَ أحبَّ إليهِ مِنَ الاستماعِ منك ، ولا يعلَمُ نصيحتَكَ مَنْ غابَ هواهُ على رأيِكَ ، ولا يسلِّمُ لكَ منِ اعتقدَ أنَّهُ أتمُّ معرفةً بما أشرتَ عليهِ به منْكَ .

٨٦١ — خَفِ الضعيفَ إذا كانَ تحتَ رايةِ الإنصافِ أكثرَ منْ خوفِكَ القويَّ تحت رايةِ الجورِ ، فإنّ النصرَ يأتيهِ من حيثُ لا يشعر ، وجُرحُه لا يندملُ .

٨٦٢ — إخافةُ العبيدِ والتضييقُ عليهمْ يزيد في عبوديّتهم وصيانتهمْ ، وإظهارُ الثقةِ بهم يكسبُهُمْ أنفةً وجبريّةً .

٨٦٣ — أضرُّ الأشياءِ عليكَ أن تُعلِمَ رئيسَكَ أنّكَ أعرفُ بالرّياسةِ منه .

٨٦٤ — عداوةُ العاقلينَ أشدُّ العداواتِ وأنكاها ، فإنها لا تقع إلّا بعد الإعذارِ والإنذارِ ، وبعدَ أن يئس صلاح مابينهما .

٨٦٥ — لا تخدِمَنّ رئيساً كنتَ تعرفهُ بالخمولِ ، وسمتْ به الحالُ ، ويعرفُ منكَ أنّكَ تعرفُ قديمهُ ، فإنّهُ وإنْ سُرَّ بمكانتِكَ مِنْ خدمتهِ ، إلّا أنه يعلَمُ العينَ التي تراه بها ، فينقبِضُ عنك بحسبِ ذلكَ .

٨٦٦ — إذا احتجتَ إلى المشورةِ في أمرٍ قد طرأَ عليك فاستَبْدِهِ ببدايةِ الشُّبّانِ ، فإنهم أحدّ أذهاناً ، وأسرَعُ حدْساً ، ثم رُدّهُ بعدَ ذلكَ إلى رأي الكُهولِ والشيوخِ ليستعقِبُوهُ ، ويُحسِنُوا الاختيارَ له ؛ فإنّ تجربتهم أكثرُ .

٨٦٧ — الإنسانُ في سعيه وتصرفاته كالعائمِ في اللُّجّةِ ، فهو يكافِحُ الجرية في إدبارِه ، ويجري معها في إقبالِهِ .

٨٦٨ — ينبغي للعاقلِ أنْ يستعملَ فيما يلتمِسهُ الرفقَ ، ومجانبةَ الهذَرِ ،

فإن العَلَقةَ (١) تأخذ بهدوئها مِنَ الدَّمِ مالا تأخذهُ البَعوضةُ باضطرابها وفرطِ صياحِها .

٨٦٩ — أقوى ما يكونُ التصنُّعُ فى أوائِلِهِ ، وأقوى ما يكونُ التطبُّعُ فى أواخرِهِ .

٨٧٠ — غاية المُروءة أنْ يستحيي الإنسانُ من نفسهِ ، وذلكَ أنّهُ ليسَ العِلّةُ فى الحياءِ مِنَ الشيخ كِبَرَ سِنِّهِ ولا بياضَ لِحْيَتِهِ ، وإنما عِلّةُ الحياء منهُ عقلُه ، فينبغى إن كان هذا الجوهر فينا أنْ نستحيي منهُ ولا نحضره قبيحاً .

٨٧١ — منْ ساس رعيةً حرُمَ عليه السُّكرُ عقْلاً ، لأنّهُ قبيحٌ أنْ يحتاجَ الحارسُ إلى منْ يحرسُهُ .

٨٧٢ — لا تبتاعنَّ مملوكاً قويَّ الشهوةِ ، فإنَّ له مولًى غيركَ ، ولا غضوباً فإنّهُ يُؤذِيكَ فى اسْتخْدامِكَ له ، ولا قويَّ الرأى فإنّهُ يستعمِلُ الحيلَةَ عليك ، لكن اطلُبْ مِنَ العبيدِ مَنْ كانَ قويَّ الجسمِ ، حَسَنَ الطّاعَةِ ، شديدَ الحياء .

٨٧٣ — لا تُعادوا الدُّولَ المُقبلةَ ، وتُشرِبوا قلوبَكمْ بُغْضَها ، فتُدبِرُوا بإقبالها .

٨٧٤ — الغَريبُ كالفرسِ الذى زايل شِرْبَهُ ، وفارقَ أرضَهُ ، فهو ذاوٍ لا يتقِدُ وذابِلٌ لا يُشمِرُ .

٨٧٥ — السفرُ قطعةٌ منَ العذابِ ، والرَّفيقُ السوء قطعةٌ منَ النَّارِ .

٨٧٦ — كلُّ خُلُقٍ منَ الأخلاقِ فإنّهُ يكسُدُ عندَ قومٍ منَ الناسِ إلّا الأمانةَ فإنّها نافقةٌ عندَ أصنافِ الناسِ ، يُفَضَّل بها من كانت فيه ، حتى إن الآنيَةَ إذا لم تُنَشَّفْ

---

(١) العلقة : دويبة فى الماء تمص الدم .

وبَقِيَ ما يودَع فيها على حاله لم ينقُصْ ، كانت أكثرَ ثناء مِنْ غيرها مِمّا يرشَحُ أو يُنشَّفُ .

٨٧٧ — اصبِرْ على سلطانِكَ فى حاجاتِكَ ، فلستَ أكبرَ شغلِه ، ولا بك قِوامُ أمرِهِ .

٨٧٨ — قوّةُ الاستشعارِ منْ ضعفِ اليقينِ .

٨٧٩ — إذا أحسستَ منْ رأيكَ بإكداد ، ومِنْ تصوُّرِكَ بفساد ، فاتّهِمْ نفسكَ بمجالستِكَ لعامّىِّ الطبع ، أو لِسَيِّئِ الفكْرِ ، وتدارَكْ إصلاحَ مزاجِ تخيُّلِكَ بمكاثرةِ أهلِ الحكمةِ ، ومجالسةِ ذوِى السدَاد ، فإن مفاوضتَهُمْ تريحُ الرّأىَ المكدودَ ، وتردُّ ضالّةَ الصوابِ المفقودِ .

٨٨٠ — منْ جلسَ فى ظلِّ الملقِ ، لم يستقرَّ به موضعُهُ ، لكثرةِ تنقُّلِهِ وتصرُّفِهِ مع الطِّباعِ ، وعرفَهُ النّاسُ بالخديعةِ .

٨٨١ — كثيرٌ منَ الحاجاتِ تُقضَى بَرَماً لا كَرَماً .

٨٨٢ — أصحابُ السلطانِ فى المَثَلِ كقومٍ رقوا جبلاً ثم سقطوا منهُ ، فأقربُهُمْ إلى الهلَكَةِ والتّلَفِ أبعدُهمْ كان فى المرتقَى .

٨٨٣ — لا تضعْ سِرّكَ عندَ منْ لا سِرّ له عندكَ .

٨٨٤ — سَعَةُ الأخلاقِ كيمياء الأرزاق .

٨٨٥ — العلمُ أفضلُ الكُنوزِ وأجملُها ، خفيفُ المَحْمَلِ ، عظيمُ الجدوى ، فى الملإ جمالٌ ، وفى الوحدةِ أُنْسٌ .

٨٨٦ — السِّبابُ مُزاحُ النَّوْكَى ، ولا بأسَ بالمفاكهةِ يُرَوِّحُ بها الإنسانُ عنْ نفسِهِ ، ويخْرُجُ عنْ حدِّ العُبُوسِ .

٨٨٧ — ثلاثةُ أشياء تدلُّ على عقولِ أربابِها : الهَدِيَّةُ ، والرَّسُولُ ، والكتابُ .

٨٨٨ — التعزيةُ بعدَ ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبةِ ، والتهنئةُ بعدَ ثلاثٍ استخفافٌ بالمودَّةِ .

٨٨٩ — أنتَ مخيَّرٌ في الإحسانِ إلى منْ تحسنُ إليهِ ، ومرتَهَنٌ بدوامِ الإحسانِ إلى منْ أحسنْتَ إليهِ ، لأنَّكَ إنْ قطعتهُ فقدْ أهدرتهُ ، وإنْ أهدرته فلِمَ فعلْتَهُ .

٨٩٠ — الناس مِنْ خوف الذُّلِّ في ذُلٍّ .

٨٩١ — إذا كانَ الإيجازُ كافياً كانَ الإكثارُ عِيًّا ، وإذا كان الإيجازُ مقصِّراً كان الإكثارُ واجباً .

٨٩٢ — بئسَ الزَّادُ إلى المَعادِ ، العدوانُ على العبادِ .

٨٩٣ — الخلقُ عِيالُ اللهِ ، وأحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ أشفقهم على عيالِهِ .

٨٩٤ — تحريكُ الساكنِ أسهلُ منْ تسكينِ المتحرِّك .

٨٩٥ — العاقلُ بخشونةِ العيشِ معَ العُقلاءِ ، آنَسُ منه بلينِ العيشِ معَ السُّفهاء .

٨٩٦ — الانقباضُ بينَ المنبسطين ثِقلٌ ، والانبساطُ بينَ المنقبضين سخفٌ [١] .

٨٩٧ — السخاء والجودُ بالطعامِ لا بالمالِ ، ومنْ وهبَ ألفاً وشحَّ بصحفةِ طعامٍ فليسَ بجوادٍ .

٨٩٨ — إنْ بقيتَ لمْ يبقَ الهمُّ .

٨٩٩ — لا يقومُ عزُّ الغضبِ بذلَّةِ الاعتذارِ .

٩٠٠ — الشفيعُ جناحُ الطالبِ .

٩٠١ — الأملُ رفيقٌ مُؤنِسٌ ، إنْ لمْ يبلِّغْكَ فقدِ استمتعْتَ به .

٩٠٢ — إعادةُ الاعتذار تذكيرٌ بالذنبِ .

---

(١) السخف : ضعف العقل ورقته .

٩٠٣ — الصبرُ فى العواقِبِ شافٍ أو مريحٌ .

٩٠٤ — منْ طالَ عمرُهُ ، رأى فى أعدائهِ مايسرُّهُ .

٩٠٥ — لا نعمةَ فى الدُّنيا أعظمُ منْ طولِ العمرِ ، وصحةِ الجسدِ .

٩٠٦ — الناسُ رجلانِ : إمّا مُؤجّلٌ بفقدِ أحبابهِ ، أو معجّلٌ بفقدِ نفسهِ .

٩٠٧ — العقلُ غريزةٌ تربّيها التّجاربُ .

٩٠٨ — النُّصْحُ بينَ الملأ تقريعٌ .

٩٠٩ — لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّكَ .

٩١٠ — منْ زادَ أدبُهُ على عقلِهِ كانَ كالرّاعى الضعيفِ معَ الغنمِ الكثيرِ .

٩١١ — الدّارُ الضّيّقةُ العمى الأصغرُ .

٩١٢ — النّمامُ جسرُ الشرِّ .

٩١٣ — لا تَشِنْ وجهَ العفوِ بالتقريعِ .

٩١٤ — كثرة النصح تهجم بك على كثرة الظِّنّةِ .

٩١٥ — لكلٍّ ساقطة لاقطة .

٩١٦ — ستساق إلى ما أنت لاقٍ .

٩١٧ — عاداك من لاحاك .

٩١٨ — جَدّك لا كدّك .

٩١٩ — تذكر قبل الوِرْدِ الصدرَ ، والحذر لا يغنى من القدر ، والصبرُ من أسباب الظفر .

٩٢٠ — عارُ النساء باقٍ يلحق الأبناء بعد الآباء .

٩٢١ — أعجل العقوبةِ عقوبةُ البغىِ والغدرِ واليمينِ الكاذبة ، ومنْ إذا تُضُرِّعَ إليهِ وسُئِلَ العفو لم يغفر .

٩٢٢ — لا تردّ بأس العدوّ القوىّ وغضبه بمثل الخضوع والذُّلّ ، كسلامة الحشيش منَ الريح العاصف بانثنائه معها كيفما مالت .

٩٢٣ — قاربْ عدوّك بعض المقاربةِ تنلْ حاجتك ، ولا تُفْرط فى مقاربته فتذلّ نفسك وناصرك ، وتأمّل حال الخشبة المنصوبة فى الشمس التى إنْ أملتها زاد ظلها ، وإنْ أفرطت فى الإمالة نقص الظل .

٩٢٤ — إذا زال المحسود عَلَيْهِ علمت أنّ الحاسد كان يَحْسُدُ على غير شىء .

٩٢٥ — العجز نائم ، والحزم يقظان .

٩٢٦ — من تجرّأ لكَ تجرّأ عليك .

٩٢٧ — ما عفا عن الذنب مَن قرّع به .

٩٢٨ — عبد الشهوة أذلّ من عبد الرّقّ .

٩٢٩ — لَيْسَ ينبغى للعاقل أنْ يطلب طاعة غيره ، وطاعةُ نفسه عَلَيْهِ مُمْتَنِعَة .

٩٣٠ — الناسُ رَجلان : واجدٌ لا يكتفى ، وطالب لا يجد .

٩٣١ — كُلّما كثر خُزّان الأسرار ، زادت ضياعاً .

٩٣٢ — كثرة الآراء مفسدة ، كالقِدْرِ لا تطيب إذ كثر طَبّاخوها .

٩٣٣ — مَن اشتاق خَدَمَ ، ومَن خدم اتّصَل ، ومَن اتّصل وصل ، ومَن وصَل عرَف .

٩٣٤ — عَجَباً لِمَنْ يخرُج إلى البساتين للفُرْجَةِ على القُدْرَة ، وَهَلاَّ شَغَلَتْهُ رُؤْيةُ القادرِ عَن رُؤْيَةِ القُدْرَةِ .

٩٣٥ — كلُّ الناسِ أُمِروا بأنْ يَقُولُوا : لا إله إلا اللهُ ، إلا رسولَ الله ، فإنهُ رُفِعَ قَدْرُهُ عَن ذَلك ، وقيل لَهُ : فاعْلَمْ أنّهُ لا إله إلاّ الله ، فأُمِرَ بالعلْمِ لا بالقَوْلِ .

٩٣٦ — كُلُّ مُصطنع عارفة فإنّمـا يصنع إلى نفسه ، فلاتلتمس من غيرك شكر ما أتيته إلى نفسك وتممت به لَذّتكَ ، ووقيتَ به عِرْضَكَ .

٩٣٧ — وَالدُك رَيحانتُك سَبعاً ، وخادِمُك سَبعاً ، ثمّ هُوَ عَدوّك أو صديقك .

٩٣٨ — مَن قَبِـل معرُوفَكَ فَقَدْ باعَكَ مُرُوءَتَهُ .

٩٣٩ — إلى اللهِ أشكو بلادةَ الأمين ويقظة الخائنِ .

٩٤٠ — مَن أكثر المشورة لم يعدَم عند الصواب مادحاً ، وعند الخطأ عاذِراً .

٩٤١ — من كثر حقده قَلَّ عتابُهُ .

٩٤٢ — الحازمُ مَن لم يَشْغَلْهُ البَطرُ بالنعمةِ عَن العمل للعاقِبَةِ ، والهمّ بالحادثةِ عن الحيلةِ لدفعها .

٩٤٣ — كلّما حَسُنتْ نِعمَةُ الجاهِلِ ازدادَ قُبحاً فيها .

٩٤٤ — مَن قَبِـلَ عَطاءك فقدْ أعانك على الـكرمِ ، ولولا مَن يَقْبلُ الجودَ لم يكُنْ مَن يَجُودُ .

٩٤٥ — إخوانُ السوء كشجرةِ النار ، يُحْرق بعضها بعضاً .

٩٤٦ — زلّة العالِم كانكسار السفينة ، تغرق ويَغرَقُ معها خلق .

٩٤٧ — أهوَنُ الأعدَاء كيْداً أظهرهم لِعَدَاوَتِه .

٩٤٨ — أبْقِ لِرِضاكَ مِنْ غضَبِك ، وإذا طِرْتَ فَقَعْ قَرِيباً .

٩٤٩ — لا تَلْتَبِسْ بالسُّلطانِ في وقتِ اضطِرابِ الأمُـورِ عليهِ ، فإنّ البَحْرَ لا يَكادُ يسلمُ صاحِبُهُ في حالِ سُـكُونِهِ ، فـكيف يسلم مَع اختلاف رياحِهِ واضطِرابِ أمْواجِهِ !

٩٥٠ — إذا خُلّي عِنان العقل ، ولم يحبس على هوى نفسٍ ، أو عادةِ دينٍ أو عصبيّةٍ لسلف ، ورد بصاحبه على النجاة .

٩٥١ — إذا زادك الملك تأنيساً فزده إجلالا

٩٥٢ — مَن تكلّف مالا يعنيه فاته ما يعنيه

٩٥٣ — قليلٌ يُترَقّى منه إلى كثيرٍ خيرٌ من كثيرٍ ينحطُّ عنهُ إلى قليل

٩٥٤ — جنّبُوا موتاكم فى مدافنهم جار السُّوء ، فإنّ الجارَ الصالح ينفعُ فى الآخرةِ كما ينفعُ فى الدُّنيا .

٩٥٥ — زُرِ القبورَ تذكر بها الآخرة ، وغسِّل الموتى يتحرّك قلبك ، فإنّ الجسدَ الخاوى عظةٌ بليغةٌ وصلّ على الجنائز لعلّهُ يُحزِنك ، فإنّ الحزينَ قريبٌ مِنَ اللهِ .

٩٥٦ — الموتُ خيرٌ للمؤمِنِ والكافرِ ؛ أمّا المؤمنُ فيتعجّل لهُ النعيم ، وأمّا الكافرُ فيقلُّ عذابهُ ، وآيةُ ذلك من كتاب الله تعالى : ﴿ وما عندَ اللهِ خيرٌ لِلأبْرار[1] * ولا يحسبَنَّ الّذينَ كفرُوا أنّما نُملِي لَهُمْ خيرٌ لِأنفسِهِمْ إنّما نُملِي لَهُمْ لِيزْدادُوا إثماً[2] ﴾ .

٩٥٧ — جزعُك فى مُصيبةِ صديقك أحسنُ مِنْ صبْرِك ، وصبْرُك فى مُصيبتِك أحسنُ من جزَعِك .

٩٥٨ — مَنْ خافَ إساءتك اعتقد مَساءتَكَ ، ومَن رهِبَ صولَتَكَ ناصبَ دولَتك .

٩٥٩ — من فعَلَ ما شاء لَقِيَ ما شاء

٩٦٠ — يَسُرُّنى مِن القرآنِ كلمةٌ أرجُوها لمَنْ أسْرفَ على نفْسِهِ ﴿ قالَ عذابى أُصيبُ بِهِ مَنْ أشاء ورحْمتى وسِعتْ كلَّ شىْء[3] ﴾ فجعَلَ الرَّحْمةَ عُموماً والعذابَ خُصُوصاً .

---

(١) سورة آل عمران ١٩٨ (٢) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٣) سورة الأعراف ١٥٦ .

٩٦١ — الاسْتِئْثارُ يُوجِبُ الحسد ، والحَسَدُ يوجب البِغْضَةَ ، والبغضةُ تُوجِبُ الاخْتِلاَفَ ، والاختلافُ يوجب الفرقَةَ ، والفرقةُ توجب الضَّعْفَ ، والضَّعفُ يوجب الذُّلَّ ، والذُّلّ يوجب زَوال الدَّولةِ ، وذهاب النِّعْمَةِ .

٩٦٢ — لا يكاد يَصحّ رُؤْيا الكذّابِ ، لأنه يخبرُ فى اليقظة بما لم يكُن ، فأَحْرِ بِهِ أن يرى فى المنام ما لا يكون .

٩٦٣ — لا يُفسِدك الظَّنُّ على صَدِيقٍ قَدْ أصلحك اليقين له .

٩٦٤ — لا تكادُ الظُّنون تزدحم على أمرٍ مستورٍ إلا كشفته .

٩٦٥ — المشورة رَاحةٌ لَكَ وتعبٌ على غَيْرِكَ .

٩٦٦ — حقُّ كلّ سرٍّ أن يصان ، وأحقُّ الأسرار بالصيانة سرُّك مع مولاك ، وسِرُّهُ مَعَك ؛ واعلم أنَّ مَن فَضَح فُضِح ، ومَن باح قَلِدَمِهِ أباح .

٩٦٧ — يا مَنْ أَلمَّ بجناب الجلال ، احفظ ما عرفت ، واكتم ما استودعت ؛ واعلم أنك قَدْ رشحْت لأمْرٍ فافطن له ، ولا ترض لِنَفْسِك أن تكون خائناً ؛ فمن لم يُؤدِّ الأمانة فيما استودِع ، أَخلَقُ الناس بِسِمِةِ الخيانةِ ، وأجدرُ الناسِ بالإبعادِ والإهانة .

٩٦٨ — لا تعامل العامّةَ فيما أنعم به عليك من العلم ، كما تعامل الخاصةَ ؛ واعلم أن لله سبحانه رجالاً أَوْدَعَهمْ أسراراً خفيةً ، وَمَنَعَهُمْ عن إشاعتها ؛ واذكرْ قَوْلَ العَبْدِ الصالح لموسى وقد قال لهَ : هل أتَبِعُك على أن تعلمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً . قال إنك لن تستطيع معى صبراً وكيف تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ به خبراً » .

٩٦٩ — لكلِّ دارٍ بابٌ ، وباب دار الآخرة الموت .

٩٧٠ — إن لك فِيمن مضى من آبائك وإخوانك لعبرةً ، وإن ملك الموت دخل

على داودَ النبي ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : مَن لا يهابُ الملوك ، ولا تمنعُ منه القصور ، ولا يقبَلُ الرّشا ، قالَ : فإذَنْ أنت ملك الموت جئت ؛ ولم أستعِدَّ بعد ، فقال : فأين فلانٌ جارُك ؛ أين فلان نسيبك ؟ قال : ماتُوا ، قال : ألم يكن لك في هؤلاء عبرة لتستعدّ !

٩٧١ — ما أخسر صفقة الملوك إلاّ مَن عصم الله ، باعوا الآخرة بِنَوْمَة .

٩٧٢ — إن هــذا الموت قد أفسد على الناس نعيم الدنيا ؛ فما لكم لا تلتمسون نعيماً لا موت بعده !

٩٧٣ — انظر العمل الذي يسرك أنْ يأتيك الموت وأنت عليه فافعله الآن ، فلستَ تأمَنُ أن تموت الآن .

٩٧٤ — لا تَستَبْطِئ القيامَة فتسكن إلى طول المدّة الآتية عليك بعد المَوْت ، فإنك لا تُفرّق بعد عودِك بين ألفِ سنةٍ وبين ساعةٍ واحدةٍ ، ثمّ قرأ : « ويوم يَحشُرُهم كأن لم يلبثُوا إلاّ ساعةً من النّهارِ »[1] الآية .

٩٧٥ — لا بدّ لك من رَفيقٍ في قبرك ، فاجعله حَسَن الوجه طيب الريح . وهو العمل الصالح .

٩٧٦ — رُبَّ مُرتاحٍ إلى بلد وهو لا يدرى أن حمامه في ذلك البلد .

٩٧٧ — الموت قانص يُصمى ولا يشوى .

٩٧٨ — ما من يوْمٍ إلا يتصفح ملك الموت فيــه وجوه الخلائق ، فمن رآه على معصيةٍ أو لهوٍ ، أو رآهُ ضاحكاً فرحاً ، قال لهُ يا مسكين : ما أغفلك عمّا يُرادُ بك ! اعمل ما شِئت ؛ فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتينك[2] .

---

(١) سورة يونس ٤٥ .

(٢) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .

٩٧٩ — إذا وُضع الميّتُ في قَبْره اعتورَتْه نيرانٌ أربعٌ ، فتجيء الصلاة فتطفىء واحدَةً ، ويجيء الصومُ فيطفئ وحداةً ، وتجيء الصدقَةُ فتطفيء واحدةً ، ويجيء العِلم فيطفِيء الرّابعـةَ ، ويقول . لو أدركتهنّ لأطفأتهنّ كلّهنّ ، فقرّ عيناً فأنا معك ، ولن ترى بُؤساً .

٩٨٠ — استجيروا بالله تعالى . واستخيروه في أموركم ، فإنه لا يُسلِم مستجيراً ولا يُحرم مُستخيراً .

٩٨١ — ألاّ أدُلّكم على ثمرة الجنة ! لا إله إلا الله بشرط الإخلاص .

٩٨٢ — مِنْ شرَف هذه الكلمة وهي الحمدُ لله . أنّ الله تعالى جعلها فاتحةَ كتابه، وجعلها خاتمةَ دَعْوى أهل جنته ، فقال : وآخرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

٩٨٣ — ذاكِرُ اللهِ في الغافلين كالشجرةِ الخضراء في وَسط الهشيم ، وكالدّارِ العامرةِ بين الرُّبوع الخربةِ .

٩٨٤ — أفضلُ الأعمال أن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ بذكْرِ اللهِ سبحانهُ .

٩٨٥ — الذّكر ذِكرانِ : أحدُهما ذكر اللهِ وتحميدهُ ، فما أحسنَه وأعظم أجرهُ ، والثانِي ذكر اللهِ عند ماحرّم الله وهو أفضلُ من الأوّل !

٩٨٦ — ماأضيقَ الطريق على من لم يكُن الحقُّ تعالى دَليله ، وما أوحشها على منْ لم يكن أنيسَهُ ! ومن اعتز بغير عزّ اللهِ ذَلّ، ومن تكثر بغير اللهِ قلّ .

٩٨٧ — اللهمّ إن فههتُ عن مسألتي ، أو عمهتُ عن طلبتي ، فدُلّني على مصالحي وخذْ بناصيتي إلى مراشدِي . اللهمّ احملني على عفوك ، ولا تحملني على عدْلكَ .

٩٨٨ — مُخ الإيمان التقْوى والورعُ ، وهما من أفعال القلوبِ ، وأحسنُ أفعال الجوارح ألاّ تزال مالِئاً فاكَ بذكرِ الله سبحانه .

٩٨٩ — اللهمّ فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفّلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك.

٩٩٠ — سُبحان من ندعوهُ لحظّنا فيسرعُ! ويدعونا لحظّنا فنبطئُ! خيرُه إلينا نازلٌ، وشرُّنا إليه صاعدٌ؛ وهو مالكٌ قادرٌ:

٩٩١ — اللهمّ إنا نعوذُ بك من بياتِ غفلة وصباحِ ندامةٍ.

٩٩٢ — اللهمّ إني أستغفرُك لما تبت منهُ إليك ثمّ عدتُ فيه، وأستغفركَ لما وعدتُك من نفسي ثمّ أخلفتك، وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها عليّ فتقويتُ بها على معصيتكَ..

٩٩٣ — اللهم إني أعوذُ بكَ أنْ أقولَ حقًّا ليس فيه رضاكَ ألتمسُ به أحداً سواكَ، وأعوذُ بك أن أتزين للناسِ بشيء يشينني عندكَ، وأعوذُ بكَ أنْ أكون عبرةً لأحدٍ منْ خلقك، وأعوذُ بك أن يكون أحدٌ منْ خلقك أسعد بما علّمتني مِنّي.

٩٩٤ — يامن ليسَ إلا هوَ، يامن لا يعلمُ ماهو إلاّ هو، اعفُ عنّي.

٩٩٥ — اللهمّ إن الآمال منوطةٌ بكرمك، فلا تقطعْ علائقها بسخطك. اللهم إني أبرأ من الحوْل والقوّة إلاّ بك، وأدْرأ بنفسي عن التوكل على غيركَ.

٩٩٦ — اللهم صلّ على محمّدٍ وآل محمّدٍ؛ كلما ذكرهُ الذاكرونَ، وصلّ على محمّدٍ وآلِ محمّدٍ كلّما غفَل عن ذِكرهِ الغافلون. اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمّدٍ عددَ كلماتكَ، وعددَ معلوماتك، صلاةً لا نهايةَ لها، ولا غايةَ لأمدِها.

٩٩٧ — سبحانَ الواحِد الذي ليس غيرُه، سبحانَ الدائم الذي لا نفاد لهُ، سبحانَ القديم الذي لا ابتداء لهُ، سبحانَ الغنيّ عن كلّ شيء ولا شيء من الأشياء يغني عنه.

٩٩٨ — يا أللهُ يارحمنُ يارحيمُ ياحَيُّ ياقيُّومُ يابديعَ السموات والأرض ياذا الجلالِ والإكرامِ اعفُ عَنّي [١] .

***

وهذا حِينُ انتهاء قولنا في شرح نهج البلاغة ، ولم ندركْ ما أدركناهُ منهُ بقوّتنا وحولنا ، فإنّا عاجزون عمّا هو دُونهُ ، ولقد شرعنا فيه وإنّهُ لفي نفسنا كالطَّوْدِ الأَمْلَسِ تَزِلُّ الوُعولُ العُصْمُ [٢] عن قَذَفاتِه [٣] ، بل كالفلكِ الأطلسِ [٤] لا تبلغُ الأوهامُ والعقولُ إلى حدودِ غاياته ، فما زالتْ معونةُ اللهِ سبحانهُ وتعالى تُسَهِّلُ لنا حَزْنَه ، وتذلِّلُ لنا صعبهُ ، حتّى أصحبَ أبيُّهُ ، وأطاعَ عَصيُّهُ ، وفُتِحتْ علينا بحُسْنِ النّيّة ، وإخلاصِ الطّويّةِ ، في تصنيفِهِ أبوابُ البركات ، وتيسّرتْ علينا مطالب الخيراتِ ؛ حتّى لقد كان الكلامُ ينثالُ علينا انثيالاً ، وبُوادِيَنا بديهةً وارتجالاً ، فتمّ تصنيفُهُ في مدّةٍ قدرها أربعُ سنينَ وثمانيةُ أشهرٍ ، وأوّلُها غرّةُ شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستّمائة . وآخرُها سَلْخ صفر من سنة تسعٍ وأربعين وستّمائة ، وهو مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ، وما كان في الظنِّ والتقدير أنّ الفراغَ منهُ يقعُ في أقلَّ من عشرِ سنينَ ؛ إلاّ أنّ الألطاف الإلهيّة والعنايةَ السماوية ، شملتنا بارتفاع العوائقِ ، وانتفاء الصَّوارفِ ، وشحذَتْ بصيرتنا فيه ، وأرهفتْ همّتنا في تشييدِ مبانيهِ ، وتنضيدِ ألفاظه ومعانيه .

وكان لسعادة المجلس المولَويِّ المُؤَيّدِيِّ الوزيريِّ أجرى اللهُ بالخير أقلامهُ ، وأمضى

---

(١) كذا كان عدد هذه الحكم على حسب المخطوطات التي وقعت لدينا . وقد أشار المؤلف إلى أن عددها ألف ، ولعل هنا سقطاً ؛ أو أن حكمتين قد امتزجتا بفعل النساخ ؛ ونرجو حين تقع إلينا نسخ أخرى في الطبعة الثانية أن نصل إلى العدد الصحيح .

(٢) الوعل : تيس الجبل ، والأعصم منه ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٣) القذفات : جمع قذفة ؛ وهو ما أشرف من رءوس الجبال .

(٤) هو مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمي وزير المعتصم بالله . وانظر ترجمته في حواشي الجزء الأول ١ : ٤

فى طُلَى الأعداء حُسامهُ فى المعونة عليه أوفرُ قِسطٍ ، وأوفى نصيب وحظٍ ؛ إذ كان مصنوعاً لخزانته ، وموسوماً بسِمَته ؛ ولأنّ همته أعلاها الله ما زالت تتقاضى عندهُ بإتمامه وتحثّهُ على إنجازه وابرامه ، وناهيك بها من همة راضت الصَّعب الجامح ، وخففت العبء الفادح ، ويسَّرت الأمر العسير ، وقطعت المدى الطَّويل فى الزَّمن القصير .

وقد استعملتُ فى كثيرٍ من فصوله فيما يتعلّقُ بكلام المتكلمين . والحكماء خاصةً ألفاظ القوم ، مع علمى بأنّ العربية لا تُجيزُها ، نحو قولهم : المحسوساتُ ، وقولهم : الكلُّ والبعضُ ، وقولهم : الصفاتُ الذاتيَّةُ ، وقولهم : الجُسمانياتُ ، وقولهم أمّا أوّلاً فالحال كذا ؛ ونحو ذلك ممّا لا يخفى عمّن له أدنى أنسٍ بالأدبِ ؛ ولكنّا استهجنّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم ، فمن كلّم قوماً كلّمهم باصطلاحهم ، ومَن دخل ظَفارِ حَمَّر[1] .

والنسخةُ التى بُنِيَ هـذا الشرحُ على فصها أتمُّ نسخةٍ وجدتُها بنهج البلاغةِ فإنها مشتملةٌ على زياداتٍ تخلو عنها أكثرُ النسخ .

وأنا أستغفرُ الله العظيم من كلّ ذنب يُبْعِدُ من رحمتِهِ ، ومن كل خاطرٍ يدعُو إلى الخروج عن طاعتهِ ؛ وأستشفعُ إليه بمن أنصبْتُ جسدِى ، وأسهرْتُ عينى ، وأعملت فكرى ، واستغرَقْتُ طائفةً من عمرى ، فى شرح كلامِهِ ، والتقرّبِ إلى الله بتعظيم منزلته ومقامه ، أن يعتق رقبتى من النَّارِ ، وألاّ يبتلينى فى الدُّنيا ببلاء تعجَزُ عنه قوَّتى ، وتضعفُ عنه طاقتِى ، وأن يصون وجهى عن المخلوقين ، ويكُفَّ عنّى عاديَةَ الظالمين ، إنه سَميعٌ مُجيبٌ ، وحَسْبُنا اللهُ وحدهُ وصلواتُهُ على سيدنا محمّدٍ النبيِّ وآلهِ وسلامُه !

(آخر الجزء العشرين وبه تمّ الكتاب)

(ولله الحمد كما هو أهله حمداً دائماً لا انقضاء له ولا نفاد له آمين)

---

(١) ظفار : قرية باليمن . وحمر : تكلم بالحميرية ؛ وهو مثل يضرب للرجل يدخل فى القوم فيأخذ بزيهم (الميدانى ٢ : ٣٠٦) .

فهرس الموضوعات

***

تنبيـــــه

وقع خطأ في أرقام الحكم القصيرة مابين صفحتي ٣٩ و ٢٥١ والصواب أن يكون الرقم في ص ٣٩ هو ٤١٤ ثم تصاح بقيـــة الأرقام لتصـل إلى ٤٨٨ في ص ٢٥٥ بدلا من ٤٨٥ .

مراجع التحقيق فى جميع الأجزاء

إتحاف فضلاء البشر للدمياطى : (حنفى ١٣٥٩)

إحياء علوم الدين للغزالى : (نشرة المكتبة التجارية)

أخبار أبى تمام للصولى : (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٦)

الأخبار الطوال لابن قتيبة : (عيسى الحلبى ١٩٦٠ م) .

أدب الكاتب لابن قتيبة : (السلفية ١٣٤١) .

أسباب النزول للواحدي : (مطبعة هندية ١٣١٥) .

الاستيعاب لابن عبد البر : (حيدر آباد ١٣٣٦ ، نهضة مصر ١٣٨٠) .

أسد الغابة فى أسماء الصحابة ، لابن الأثير : (المطبعة الوهبية ١٢٨٦)

الأشباه والنظائر للسيوطى : (حيدر آباد ١٣١٦)

الاشتقاق لابن دريد : (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ م)

الإصابة فى أسماء الصحابة لابن حجر : (نشرة المكتبة التجارية ١٩٣٩ م)

الأصمعيات : (دار المعارف ١٣٧٠)

إعجاز القرآن للباقلانى : (دار المعارف ١٩٥٤ م)

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى : (مطبعة التقدم ١٣٢٣ م ، ومطبعة دار الكتب المصرية)

الاقتضاب لابن السيد البطليوسى : (بيروت ١٩٠١ م)

الألفاظ المعربة لأدى شير : (بيروت ١٩٠٨ م) .

أمالى ابن الشجرى : (حيدر آباد ١٣٤٩)

أمالى القالى : (دار الكتب ١٣٤٤)

أمالى المرتضى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤ م)

أمالى اليزيدى : (حيدر آباد ١٣٦٩) .

الإمامة والسياسة لابن قتيبة : (مطبعة النيل ١٣٢٢) .

إنباه الرواه على أنباه النحاة للقفطى : (مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ م)

أنساب الأشراف للبلاذرى : (دار المعارف ١٩٥٩ م)

إيمان أبى طالب : (النجف ١٩٥٦ م ـ ضمن مجموعة نفائس المخطوطات)

البداية والنهاية لابن كثير : (السعادة ١٣٢٨) .

بغداد ، لأحمد بن طاهر المعروف بابن طيفور : (عزت العطار ١٣٦٨) .

البيان والتبيين للجاحظ : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ م) .

تاج العروس للمرتضى الزبيدى : (القاهرة ١٣٠٦) .

تاريخ الطبرى : (الحسينية ، ١٣٢٦ دار المعارف) .

تاريخ ابن الأثير = الكامل

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى : (مطبعة السعادة ١٣٤٩)

تاريخ المسعودى = مروج الذهب

تاريخ ابن الوردى : (المطبعة الوهبية ١٢٨٥) .

التبيان فى شرح الديوان للعكبرى : (مصطفى الحلبى ١٣٥٥) .

تبيين كذب المفترى لابن عساكر : (دمشق ١٣٤٧) .

تفسير ابن كثير : (عيسى الحلبى) .

تقديم أبى بكر لابن حجة الحموى : (المطبعة الخيرية ١٣٠٤) .

تكملة الغرر والدر للشريف المرتضى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤ م) .

تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى : (مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .

تنزيه الأنبياء ، للشريف المرتضى : (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٥٢ هـ) .

تنقيح المقال فى أحوال الرجال لعبد الله المامقانى : (طبع العجم ١٣٤٩) .

تهذيب التهذيب لابن حجر : (طبع الهند ١٣٢٥).

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى : (مطبعة الظاهر ١٣٢٦) .

الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى : (طبع دار الكتب).

الجامع الصحيح للترمذى : (بولاق ١٢٩٢).

الجامع الصحيح للبخارى : (مطبعة عيسى الحلبى).

الجامع الصغير للسيوطى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٥ م).

جمهرة أشعار العرب : (بولاق ١٣٠٨) .

جمهرة الأمثال للعسكرى ـ على هامش مجمع الأمثال : (المطبعة الخيرية ١٣١٠ هـ).

حاشية البقرى على متن الرحبية ، فى الفرائض : (طبع مصر سنة ١٣١٠).

حلية الأولياء لأبى نعيم : (مطبعة السعادة ١٩٣٣ م).

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة : (طبعة المكتبة العربية ببغداد).

الحيوان للجاحظ : (مصطفى الحلبى ١٣٥٧) .

خزانة الأدب للبغدادى : (بولاق ١٢٩٩).

درة الأسلاك فى دول الأتراك لابن حبيب الحلبى (مصورة دار الكتب رقم ٦١٧٠ ح)

درة الغواص للحريرى : (الجوائب ١٣٥٠) .

ديوان الأخطل : (بيروت ١٨٩١ م).

ديوان أبى الأسود الدؤلى – ضمن مجموعة نفائس المخطوطات : (بغداد ١٩٥٤ م).

ديوان الأعشى : (فينا ١٩٢٧ م):

ديوان امرئ القيس : (دار المعارف ١٩٥٨ م).

ديوان أوس بن حجر : (دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٠ م).

ديوان البحترى : (هندية ١٩١١ م) .

ديوان بشار بن برد : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م).

ديوان بشر بن أبي خازم : (دمشق ١٩٦٠).

ديوان أبي تمام : (دار المعارف بمصر ١٩٥١ م ، بيروت ١٣٢٣ هـ) .

ديوان تميم بن المعز : (طبعة دار الكتب).

ديوان جرير : (مطبعة الصاوى ١٣٥٣).

ديوان جميل : (دار مصر للطباعة).

ديوان حاتم الطائي ـ ضمن مجموعة خمسة دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩١ هـ).

ديوان حسان بن ثابت : (الرحمانية ١٩٣٩ م) .

ديوان الحطيئة : (التقدم بالقاهرة).

ديوان الحماسة : (بشرح التبريزى : مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٣٨ م ، بشرح المرزوقى : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١م)

ديوان حميد بن ثور : (مطبعة دار الكتب).

ديوان ابن حيوس : (المجمع العلمى بدمشق).

ديوان الخنساء : (المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م).

ديوان دعبل الخزاعى : (النجف ١٩٦٢ م).

ديوان أبي دواد الإيادى : (بيروت ١٩٥٩ م).

ديوان ذى الرمـــة : (كمبرج ١٩١٩ م) .

ديوان ابن الرومى : (مخطوطة دار الكتب رقم ١٣٩ ـ أدب).

ديوان زهير بن أبي سلمى : (طبع دار الكتب ١٣٦٣ هـ).

ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس : (مطبعة دار الكتب).

ديوان السرى الرفاء : (القدس ١٣٥٥).

ديوان السموءل : (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٥ م).
ديوان الشريف الرضى : (مصورة دار الكتب رقم ٢٦٣٢ ا ز ، مطبعة نخبة الأخبار بالهند ١٣٠٦ ، المطبعة الأدبية ببيروت ١٩٠٧ م)
ديوان الشنفرى ـ ضمن مجموعة الطرائف الأدبية، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م)
ديوان الشماخ : (السعادة ١٣٢٧)
ديوان أبى طالب = غاية المطالب
ديوان طرفة بن العبد : (قازان ١٩٠٩، الأنجلو ١٩٥٨ م)
ديوان الطرماح : (ليون ١٩٢٧ م)
ديوان العباس بن الأحنف : (مطبعة دار الكتب ١٩٥٤م)
ديوان عبيد بن الأبرص : (مصطفى الحلبى ١٩٥٧ م)
ديون أبى العتاهية : (بيروت ١٩١٤ م)
ديوان العجاج : (ليبسك ١٩٠٢ م)
ديوان العرجى : (بغداد سنة ١٩٥٦ م)
ديوان عروة بن الورد ـ ضمن مجموعة خمسة دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣ ﻫ)
ديوان على بن الجهم : (الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م)
ديوان عمر بن أبى ربيعة : (مطبعة السعادة ١٩٦٠م)
ديوان عنترة بن شداد من مجموعة العقد الثمين : (ليدن ١٨٧٠ م)
ديوان أبى فراس الحمدانى : (بيروت ١٩٤٥ م)
ديوان الفرزدق : (الصاوى ١٣٥٤)
ديوان قيس بن الخطيم : (مطبعة مدنى ١٩٦٢ م)
ديوان كعب بن زهير : (طبع دار الكتب المصرية)

ديوان لبيد : (الكويت ١٩٦٢ م)
ديوان المتنبي ـ بشرح العكبري : (مصطفى الحلبي ١٩٣٦ م)
ديوان مجنون ليلى : (دار مصر للطباعة)
ديوان المعاني للعسكري : (القاهرة ١٣٥٢)
ديوان معن بن أوس المزني : (مطبعة النهضة ١٩٢٧ م)
ديوان النابغة الذبياني ـ ضمن مجموعة خمسة دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣)
ديوان أبي نواس : (العمومية ١٨٩٨ م)
ديوان مهيار الديلمي : (طبع دار الكتب المصرية)
ديوان ابن هانئ الأندلسي : (دار المعارف ١٣٥٢ ، المطبعة الأميرية ١٢٧٤ هـ)
ديوان الهذليين : (طبع دار الكتب المصرية)
الذريعة إلى تصانيف الشيعة لمحمد محسن : (مطبعة النجف ١٩٣٦ م)
الرجال للنجاشي : (طبع العجم ١٣١٧)
رسائل أبي حيان التوحيدي : (دمشق ١٩٥١)
الرسالة القشيرية : (الميمنية ١٣٣٠)
رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفي : (مطبعة النهضة ١٣٤٦)
الروض الأنف للسهيلي : (الجمالية ١٣٣٢)
روضات الجنات لمحمد باقر الخوانساري : (طبع العجم سنة ١٣٠٤)
الرياض النضرة للمحب الطبري : (المطبعة الحسينية ١٣٢٧)
زهر الآداب للحصري : (عيسى الحلبي سنة ١٩٥٣ م)
سر الفصاحة للخفاجي : (الرحمانية ١٩٣٢ م)

سرح العيون فى شرح قصيدة ابن زيدون لابن نباتة : (مطبعة الموسوعات ١٣٢١ مدنى ١٩٦٣ م)

سقط الزند : (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م)

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع : (تونس ١٢٧٩)

سنن أبي داود : (مطبعة السعادة ١٩٥٠ م)

السهيلي = الروض الأنف

سير أعلام النبلاء للذهبي : (مصورة دار الكتب رقم ١٢١٩٥ ح) .

سيرة ابن هشام : (مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٦ ﻫ)

الشافى فى الإمامة للشريف المرتضى : (طبع العجم ١٣٠١)

الشاهنامة للفردوسى : (مطبعة دار الكتب المصرية)

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى : (مكتبة القدسى سنة ١٣٥٠)

شرح شواهد العينى ـ على هامش خزانة الأدب : (بولاق ١٢٩٩)

شرح شواهد المغنى للسيوطى : (المطبعة البهية ١٣٢٢)

شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : (مطبعة السعادة ١٩٤٧ م)

شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى : (طبع العجم ١٢٧٦)

شروح سقط الزند للتبريزى والبطليوسى والخوارزمى : (مطبعةدارالكتب١٩٤٥ م)

الشعر والشعراء لابن قتيبة : (عيسى الحلبى ١٣٦٤)

شعراء النصرانية : (بيروت ١٩٢٦ م)

شفاء الغليل للشهاب الخفاجى : (المطبعة المنيرية ١٩٥٢ م)

صبح الأعشى للقلقشندى : (طبع دار الكتب)

صحاح الجوهرى : (دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٦ م)

صحيح مسلم : (مطبعة عيسى الحلبي ١٩٥٥ م)
صفة الصفوة لابن الجوزى : (حيدر آباد ١٣٥٦)
صفين لنصر بن مزاحم : (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦٥)
طبقات الشافعية للسبكى : (المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ)
طبقات الشعراء لابن سلام : (دار المعارف ١٩٥٢ م)
طبقات الشعراء لابن المعتز : (دار المعارف ١٩٥٦)
طبقات الصوفية للسلمى : (دار الكتاب العربى ١٩٥٣ م)
طبقات فقهاء اليمن للجعدى : (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٧ م)
طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : (مطبعة السعادة ١٩٥٤ م)
الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمنى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م)
العثمانية للجاحظ : (دار الكتاب العربى ١٩٥٥ م)
العقد لابن عبد ربه : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ هـ)
العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين : (ليدن ١٨٧٠ م)
عقد الجمان للعينى : (مخطوطة دار الكتب ١٥٨٤ تاريخ)
العلويات السبع لابن أبى الحديد : (العجم ١٣١٧)
العمدة لابن رشيق : (مطبعة السعادة ١٩٥٥ م)
عوارف المعارف للسهروردى — على هامش الإحياء : (نشرة المكتبة التجارية)
عيون الأخبار لابن قتيبة : (مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣)
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى : (مخطوطة دار الكتب ١٤٩٧ تاريخ)
غاية المطالب من ديوان أبى طالب : (طنطا ١٩٥١ م).

غرر الخصائص الواضحة للوطواط : (بولاق ١٢٨٤ هـ)
الفاخر للمفضل بن سلمة : (عيسى الحلبي ١٩٦٠ م)
الفاضل للمبرد : (مطبعة دار الكتب ١٩٥٦)
الفائق فى غريب الحديث والأثر : (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦٤ هـ)
الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : (مطبعة الموسوعات ١٣٤٧)
الفرق بين الفرق للبغدادى : (المعارف ١٣٢٨)
الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد : (طبع الهند سنة ١٣٠٩) .
فهرست ابن النديم : (ليبسك ١٨٧١ م)
فوات الوفيات لابن شاكر : (مطبعة السعادة ١٩٥١ م)
القاموس المحيط للفيروز آبادى : (المطبعة الحسينية ١٣٣٠ هـ)
اللآلى لأبى عبيد البكرى : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ)
لزوم مالا يلزم : (مطبعة الجمالية ١٩١٥ م)
لسان العرب لابن منظور : (المطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ)
لسان الميزان لابن حجر : (طبع الهند ١٣٢٩ هـ)
الكامل لابن الأثير — فى التاريخ : (إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ)
الكامل للمبرد : (ليبسك ١٨٦٤ م ، نهضة مصر ١٩٥٦ م)
الكتاب لسيبويه : (بولاق ١٣١٦ هـ)
الكشاف للزمخشرى : (مطبعة الاستقامة ١٩٥٣ م)
كشف الظنون لحاجى خليفة : (طبع إستانبول سنة ١٩٤٣ م)
الكناية والتعريض للثعالبي : (مطبعة السعادة ١٩٠٨ م)
ما هو نهج البلاغة ، للسيد هبة الله الشهرستانى : (مطبعة العرفان بصيدا)

مجمع الآداب لابن الفوطى : (ترجمة ابن أبى الحديد فى ذيل الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة طبعة الحلبى سنة ١٣٢٩ هـ)

المثل السائر لابن الأثير : (مصطفى الحلبى ١٣٥٨ هـ)

مجمع الأمثال للميدانى : (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ م)

مجموعة خمسة داووين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣)

مجموعة المعانى : (الجوائب ١٣٠١)

المحاسن والمساوى للبيهقى : (نهضة مصر ١٩٦١ م)

محاضرة الأبرار لابن عربى : (مطبعة السعادة ١٩٠٦ م)

محاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى : (الشرقية ١٣٢٦ هـ)

المختار من شعر بشار للخالديين : (الاعتماد ١٣٥٣ هـ)

مختارات ابن الشجرى : (الاعتماد ١٩٢٥ م)

مرآة الجنان لليافعى : (طبع الهند ١٣٣٤ هـ)

مراصد الاطلاع لعبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤ م)

مروج الذهب للمسعودى : (مطبعة السعادة ١٩٤٨ م)

المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٢ م)

المعارف لابن قتيبة : (المطبعة الإسلامية ١٣٥٣ هـ ، مطبعة دار الكتب ١٩٦٠ م)

معانى الشعر لابن قتيبة : (طبع الهند سنة ١٩٤٩ م)

معاهد التنصيص للعباسى : (مطبعة السعادة ١٩٤٧ م)

المعتمد لابن رسولا الغسانى : (المطبعة الميمنية ١٣٢٧ هـ)

معجم الأدباء لياقوت : (نشرة دار المأمون ١٩٣٦ م)

معجم البلدان لياقوت : (مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ)

معجم الشعراء للمرزبانى : (عيسى الحلبى ١٩٦٠ م)

معجم ما استعجم للبكرى : (لجنة التأليف ١٣٦٤ ه)

المعلقات ـ بشرح التبريزى : (مطبعة مدنى ١٩٦٢ م)

مغازى الواقدى : (برلين ١٨٨٢ م)

مغنى اللبيب لابن هشام : (نشرة المكتبة التجارية)

المفردات لابن البيطار : (طبع بولاق)

المفضليات : (دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م)

مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦٨ ه)

مقاييس اللغة لابن فارس : (عيسى الحلبى ١٣٦٨ ه)

مقصورة ابن دريد : (مصر ١٣١٩ ه)

الملل والنحل للشهرستانى : (مطبعة مخيمر ١٩٥٦ م)

المنتخب من كنايات الأدباء للجرجانى : (مطبعة السعادة ١٩٠٨ م)

المنتظم لابن الجوزى : (طبع الهند ١٣٥٧ ه)

المنهاج لابن جزلة الطبيب : (مخطوطة دار الكتب برقم ١٠٧ ـ طب)

المؤتلف والمختلف للآمدى : (عيسى الحلبى ١٩٦١ م)

الموشح للمرزبانى : (السلفية ١٣٤٣)

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : (مطبعة دار الكتب ١٣٤٨)

نسب قريش لمصعب بن عبد الله الزبيرى : (دار المعارف ١٩٥٣ م)

نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر ، ليوسف بن يحى الصنعانى : (مصورة دار الكتب رقم ١٣٨٤٩ ح)

نقائض جرير والفرزدق : (ليدن ١٩٠٥ م)

النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمنى : (باريس ١٨٩٧م)

نهاية الأرب للنويرى : (طبع دار الكتب)

النهاية فى غريب الحديث والأثر لأبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير (المطبعة العثمانية ١٣١١)

نوادر أبى زيد : (بيروت ١٣٤٤)

الهاشميات للكميت : (شركة التمدن ١٣٣٠)

وفيات الأعيان لابن خلكان : (المطبعة الميمنية ١٣١٠)